

الكامل في التلخيص

تلخيص ابن الأثير

الإمام العلامة المحدث الشافعية عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجوزي الشيباني

الشهير بابن الأثير

(555 - 630 هـ)

نسخة نادرة، عتيقة، نصها قد ابدى، وفقدت
ورقت، ثم عثر عليها، زعيمنا وترقيمها، نسخة، وفقدت، وفقدت، وفقدت،
مستحق، صنفها، موضوعها.

عتيق

أبو صيب الكرمي

بَيْتُ الْإِسْلَامِ كِتَابُ الْإِسْلَامِ

الكامل في التلخيص تلخيص ابن الأثير

الإمام العلامة المحدث الشهابية عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجوزي الشيباني

الشهير بابن الأثير

(555 - 630 هـ)

نسخة تامة، اعتنى بنصرها فقه الداركان، وفقرت
ورقمت، بترقيمها: زرقينا وترقيم النسخة القديمة، وفهرس لواضعها،
وروست كل صفحة منها بموضوعها.

اعتنى به
أبو صيب الكرمي

بیت کتب و کتابخانه



حقوق الطبع والترجمة والتشتر محفوظة
All Copyrights © Reserved

الأردن

هاتف +962 6 566 0201

فاكس +962 6 566 0209

ص.ب 927435 عمان 11190 الأردن

السعودية

هاتف +966 1 404 2555

فاكس +966 1 403 4238

ص.ب 220705 الرياض 11311 السعودية

الموتمن للتوزيع

هاتف +966 1 464 6688 / +966 1 404 2555

فاكس +966 1 464 2919 / +966 1 403 4238

ص.ب 69786 الرياض 11557 السعودية

19416414	نداء
2435423 / 2435421	مستودع
02 5742532	مكة المكرمة
04 8344355	المدينة المنورة
06 3260350	القصيم
02 6873547	جدة
03 8264282	الدمام
07 2296615	أبها

www.afkar.ws

e-mail:ideashome@afkar.ws

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة

إِن الْحَمْدُ لِلّٰهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللّٰهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

أما بعد:

فإنَّ التاريخ الإسلامي يُعَدُّ أوثقَ ما كُتِبَ في التدوين التاريخي، فلم تحظْ أمةٌ من الأمم السابقة ما حظي به المسلمون من كتابة التاريخ، على ما فيه من ملاحظات وأخطاء، لا سيَّما في التدوين عن السابقين، وعن المرحلة الأولى من التاريخ الإسلامي.

وبدأ المسلمون تدوين كتاباتهم التاريخية منذ القرن الثاني الهجري، ولم يكن التدوين شاملاً إلى أن جاء أبو جعفر الطبري فألَّف كتابه المشهور بتاريخ الأمم والملوك، فكان قاعدةً للتاريخ لأغلب مَنْ جاء بعده، واستقَّوا منه الكثير.

وكتابه هذا يُعَدُّ أوثقَ ما كُتِبَ في التاريخ بهذا الشمول، لأنَّه أتى بكلِّ شيء من مصادره الأصيلة روايةً،

ونقلَ من موارد مختلفة، وعزا كُلَّ مقولَةٍ لصاحبها، لذا امتازَ بالدقَّة، مع ما في الروايات المنقولة أحياناً من التناقضات والاستحالة، لأنَّه لم يلتزم إن يذكر ما صحَّ فحسب، بل المؤرِّخ قد يلزمه أن ينقلَ أكثرَ الذي حوِّله من حقائق وأغاليط، لأنَّ أسانيد المؤرِّخين قد لا تُسَعِّفُ أحياناً في النقل الصحيح ذاته، إذ أكثرُ ما فيها منقولٌ عن شخصياتٍ مُتَّهَمَةٍ، كسيف بن عمر التميمي، والواقدي، وأبي مخنف، وغيرهم، هذا فضلاً عن كثرة المجاهيل في تلك الأسانيد، والانتقاعات والبلاغات.

وقد نبَّه ابن جرير الطبري في مقدمة كتابه أنَّه لا عهدَ له بصحة الأخبار، أو أنها لم تؤتْ من قبله إذا كانَ فيها ما يُشعرُ بكذبٍ وغلطٍ، وإنما العهدةُ منها على ما أوردَ من الأسانيد، فأصحابها هم المحمودون وهم المذمومون، وما أبو جعفر الطبري إلَّا ناقلٌ عنهم ومُرتَّبٌ وجامعٌ، وقد يكونُ له اجتهدٌ في أحايين بترجيح أو إنكار أو قبول.

يقول ابن جرير الطبري ٨/١: «فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستكره قارئه أو يستشغفه سامعه، من أجل أنَّه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنَّه لم يؤتْ في ذلك من قِبَلنا، وإنما أتى من قِبَل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدَّينا ذلك على نحو ما أدَّى إلينا».

فهو لم يزعم أنَّ ما أوردَ في كتابه هذا على وجه الصحة إلَّا ما نبَّه عليه في أثناء كتابه، لذا لا يمكن إعطاء الثقة له في كتابه إلَّا من باب أنَّه وثق أقواله وأخباره إلى قائلها، لا أنَّه متبنٍّ لها، متأكِّدٌ من صحتها، وقد علمنا أنَّه يأتي أحياناً بالروايات المختلفة المتناقضة، فلا يتكلَّم فيها.

واشتهر كتابُ الطبري شهتاراً كبيراً، وصارَ المَعوَّلُ عليه عند مَنْ بعده، كابن الأثير مصنِّف هذا الكتاب، فقد اعتمدَ الطبري اعتماداً كبيراً، ونقلَ كلامه دونَ نسبةٍ لما

نَقَلَ إِلَّا شَذَرَاتٍ قَلِيلَةً، إِذْ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنَهِجِهِ أَنْ يَذْكُرَ

بعضها ببعض. وقد أجادَ في هذا الفن.

الأقوال، بل كَانَ مَنْصِباً أَنْ يَجْمَعَ التَّارِيخَ فِي كِتَابِهِ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ دُونَ انْقِطَاعٍ، فَيَأْتِي بِأَتَمِّ الرِّوَايَاتِ، وَيُوصِلُ الرِّوَايَاتِ الْمُقْطَعَةَ فَيَجْمَعُهَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ لِيَتَسَقَّ الْمَعْنَى فِي عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ حَرِيصاً أَنْ يَنْتَقِيَ أَصَحَّ الْأُمُورِ وَأَقْرَبَهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مِيزَانِ الصَّحَةِ بِقَدْرِ مَا كَانَ تَرْجِيحاً فِي مَعَانِي الرِّوَايَاتِ الْمَذْكُورَةِ عِنْدَ الطَّبْرِيِّ وَغَيْرِهِ. وَعَقَّبَ بَعْدَ كُلِّ حَدَثٍ مَا يُشْكَلُ مِنَ الْأَعْلَامِ وَالْأَمَاكِنِ، لِيَكُونَ عَمَلُهُ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ وَالرِّوَايَةِ مُتَقَنّاً.

وقد ادَّعى المؤلِّفُ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ أَنَّهُ لَمْ يَنْقُلْ إِلَّا مِنَ التَّوَارِيخِ الْمَذْكُورَةِ وَالْكَتَبِ الْمَشْهُورَةِ مِمَّنْ يُعْلَمُ بِصَدَقِهِمْ فِيمَا نَقَلُوهُ، وَصَحَّةَ مَا دَوَّنُوهُ، وَلَمْ أَكُنْ كَالْخَابِطِ فِي ظُلْمَاءِ اللَّيَالِي، وَلَا كَمَنْ يَجْمَعُ الْحِصْبَاءَ وَاللَّالِي...
ولا أظنه أرادَ بالصدقِ هُنَا صَدَقَ الرِّوَايَاتِ نَفْسَهَا، لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَخْضَعُ لِقَوَائِنِ الصَّحَةِ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ لِنَبْعِدِ التَّهْمَةَ - صَدَقَ الْمُصَنِّفُ بِنَقْلِ ذَلِكَ، لَا أَنَّ الْمُنْقُولَ صَحِيحٌ بِذَاتِهِ، وَهَذَا يَجِبُ أَنْ لَا يَجْهَلَهُ مَنْ هُوَ فِي أَقْلٍ دَرَجَاتِ عِلْمِ التَّارِيخِ.

وبالمقارنة بين الكتابين: كتاب الطبري وكتاب ابن الأثير نجدُ وضوحاً تاماً في نقل ابن الأثير من سابقه، مع الاختصار بحذف الأسانيد، والروايات المتعددة للحادثة الواحدة، والإشارة إلى الأحداث المستصغرة دون التطويل بذكرها كما فعل سابقه، واهتم بالأمور الظاهرة والأحداث الكبيرة، مفصلاً في بيانها، سارداً لقصصها دون أن تشعرَ بمَلَمَلٍ مِنْ كَثْرَةِ قِرَاءَتِكَ فِيهِ. وزادَ على سابقه أشياء لم يذكرها نقلها من كتبٍ أخرى في هذا العلم، ثم زادَ على الطريقة نفسها من السنة التي توقَّفَ فيها الطبري إلى سنة (٦٢٨)، وهي ما قبل وفاة ابن الأثير بستين.

وإذ ذكرنا الحديثَ عن المؤرخين: الطبري وابن الأثير، فأرى أن أذهبَ في الحديثِ عن مؤرخين آخرين اشتهر ذكرهما كالسابقين في هذا الباب، هما ابن كثير الدمشقي، وابن خلدون.

أما الأولُ فصنَّفَ كتابه «البداية والنهاية» وقد قام على النقلِ فيه من الكتب السابقة كابن اسحاق والواقدي والطبري في آخرين، ناسباً المقولات لأسانيدها، مُكثِراً من ذكرِ الإسرائيليات في ما يتعلق بالأمم السابقة، شأنه في هذا شأن الآخرين السابقين. ومكثراً من الشواهد الحديثة في العصر الأول، وذاكراً لأهم التراجم الذين قَضَوْا في تلك السنة التي يدوّن فيها. ثُمَّ مُتَمِّماً لِسُنِيِّ التَّارِيخِ إِلَى قُبَيْلِ وفاته أي بعد منتصف القرن الثامن.

وهو يَرَى النَقْلَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فِيمَا فِيهِ تَفْصِيلٌ أَوْ زِيَادَةٌ عَلَى أَنْ لَا يَكُونَ هُنَاكَ مَخَالَفَةٌ، وَاشْتَرَطَ فِي الْأَحَادِيثِ أَنْ يَبَيِّنَ صَحَّتَهَا، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَلْتَزِمِ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ وَكُتِبَ الْأُخْرَى كَالْتَفْسِيرِ.

فقال ٥/١: «ولسنا نذكرُ من الإسرائيلياتِ إِلَّا مَا أَذِنَ الشَّارِعُ فِي نَقْلِهِ مِمَّا لَا يَخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ، وَسَنَةَ رَسُولِهِ

ويجدرُ بالذكرُ أَنَّهُ أَيْضاً لَمْ يُهْمَلِ الْوَفَايَاتُ، فَذَكَرَ فِي نَهَايَةِ كُلِّ سَنَةٍ مَنْ تَوَفَّى فِيهَا مِنَ الْأَعْلَامِ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْأَحْدَاثِ الْمُهِّمَةِ وَالصَّغِيرَةِ، وَكِتَابُهُ شَأْنُ الْكَتَبِ الْمُصَنَّفَةِ فِي هَذَا الْبَابِ، مَرْتَبَةً عَلَى السَّنَوَاتِ، فِي كُلِّ سَنَةٍ يَذْكُرُ مَا جَرَى فِيهَا مِنَ الْأَحْدَاثِ مُفْصَلاً فِي الْأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْدَوْلَةِ وَالْخِلَافَةِ، وَمُجْمَلاً فِي ذِكْرِ الْوَفَايَاتِ وَمَا أَشْبَهَ، لِأَنَّ كِتَابَ التَّارِيخِ لَا يُمْكِنُ فِيهَا الْإِحَاطَةُ بِالتَّرَاجِمِ، فَتَلَكَّ لَهَا كُتُبُهَا وَاخْتِصَاصَاتُهَا فِي كِتَابٍ خَاصَّةٍ أَوْ عَامَّةٍ، فَلَا يَرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ التَّارِيخِ لِيَشْتَتِ الْقَارِئُ بِذِكْرِهَا، وَإِنَّمَا يَرِيدُ مِنْ كِتَابِهِ هَذَا التَّابِعَ وَالسَّرْدَ، لِرِبْطِ الْأَحْدَاثِ

صلى الله عليه وسلم، وهو القسم الذي لا يُصدَّق ولا يُكذَّب، ممَّا فيه بسْطٌ لمختصرِ عندنا، أو تسمية لمبهم وردَّ به شرعنا ممَّا لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه. وإنَّما الاعتمادُ الاستادُّ على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صَحَّ نقله أو حَسُنَ، وما كان فيه ضَعْفٌ نبيُّه... فأما الحديثُ الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» فهو محمولٌ على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا، فليس عندنا ما يُصدِّقها ولا ما يكذبها، فيجوزُ روايتها للاعتبار، وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا، فأما ما شهد له شرعنا بالصدق، فلا حاجة إليه استغناء بما عندنا، وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردودٌ لا يجوزُ حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال».

فهذا الذي ذكر ابنُ كثير كتبه ابتداءً، وقلمًا يلتزمُ بمقدمة الكتاب إذا كُتِبَ أولاً قبلَ الكتاب، وهذا مجربٌ كثيراً في مقدمات الأولين. وكذا ابنُ كثير فإنه التزمَ كما هنا ببيان ما ضَعَفَ من الأحاديث ولم نجد له أثراً في كتابه هذا وكتاب التفسير إلا في أحاديثٍ دونَ أخرى. وقد أكثر من الاستناد إلى الإسرائيليات، حتى إنَّ القارئ لها يشتمُّ منها أنها عندَه في مقام الاحتجاج والاحتياج.

وأما ابنُ خلدون فقد سلَّم زمامَ الأمور إلى مثل ابنِ اسحاق، والطبري وابنِ الكلبي، ومحمد بن عمر الواقدي، وسيف بن عمر الأسدي، والمسعودي... ولم تكن له لَفَتَاتُ إلا الشيء بعد الشيء وظهرت أحواله السياسية في كتابه هذا تحليلاً ومقايسةً عند اللزوم.

فهذه هي التواريخ الأربعة المشهورة في التواريخ العامة، لا تجدُ فيها إلا النقلَ والرواية، بصفات من الاختصار والترتيب والتهذيب، والتطويل في جانب دون جانب، والزيادة في أشياء دونَ أخرى، وليسَ فيها عمقٌ النقد، والدراسة، ثم يأتي المتأخِّرُ فيعتمد المصنِّف الناقل الرواي، لشهرته وثقة المصنِّف نفسه، على أنه لم يميز الروايات، ولم يُصنِّف الصحيح منها والضعيف، فليسَ فيه نُقْلٌ عنه واعتمد.

ونُهي حديثنا المختصر في هذه المقدمة بأنَّ يمكن أن نصنِّف التاريخ على أقسام، كلُّ قسم منها يُعاملُ بطريقة:

الأول: الحديث عن بداية الخليفة، منذ أن خَلَقَ السماوات والأرض، إلى عهد الرسالة، فالحديث عن هذا ضَرَبٌ من التخمين ممَّا لا دليلَ عليه إلا ما كان من القرآن والحديث الصحيح، وهذا الجانبُ ممَّا يُعبرُان عنه قليلٌ جدًّا. وسائر ما بقي مرويٌّ عن التابعين بأخبار لا يُدرى أصلها إلا أشياء منها ذُكرت من التوراة وما كتب أهل الكتاب، وهو ما يُعبرُ عنه بالإسرائيليات.

الثاني: الحديث من بدء الرسالة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، وهذه المرحلة مرحلة اعتمدَ فيها على المروي بالأسانيد، وعدُّ ما ذُكر فيها بالإسناد هو الموثق عندهم.

والناظر في هذه المرحلة يجدُ أنَّ أغلبَ الأسانيد إنما وردت عن طريق الكذابين والوضاعين، فقلَّ أن يوجد إسنادٌ في هذه الفترة عند الطبري يُقبَلُ، لكثرة ما في الإسناد الواحد من العلل: وضع، وجهالة، وانقطاع، وكثير من الأسانيد يجتمع فيها الثلاث.

كما أنَّ لا يمكن أن نُهمَلِ التاريخ بهذه النظرة، وإلا لسطَّ أكثره، لا سيما أنَّنا نجدُ صلحة بعضهم بالقرائن

الاستئناس ولا يكون دليلاً قاطعاً، بل موضع نظر قد يُردُّ بقرائن، وقد يتوقف فيه عند عدم الخلاف والاستحالة... إلى غير ذلك مما يجب فيه التفصيل في هذا الباب، إذ مثل هذه الأمور لا يكفيها مجلّد من البيان. ولكن في مقدمة لمثل هذا العمل لا بد من التنبيه ولو في سطور قليلة:

وبعد: فهذا الكتاب بين يدي القارئ، نمتعه به بعد أن قرّناه في مجلّد واحد سهل التناول، مع العناية بالنصّ قدر الإمكان، وأبقينا في هذا العمل أرقام الصفحات للطبعة المتداولة منه المطبوعة في بيروت، دار صادر. لأنّه قد يُحال في الكتب إليها، فأبقينا ترقيمهم إلى جانب ترقيمنا، وجعلنا في رأس كل صفحة من الكتاب الموضوع الخاص بها، وذيلنا الكتاب بفهرس لشتى مواضيعه.

وآخرُ دعوانا إن الحمدُ لله ربّ العالمين

أبو صهيب

واختلاف المخرج، وبعضه قريب من أسانيد اللغة التي رويت عن كذايين ومجاهيل. ومع هذا نجد لها أصولاً عند غيرهم. لكن مع الحذر في التعامل مع كليهما يجب فيها نقد المتن، بعرض الروايات، وإبعاد المحالات، ومقايسة الحداثات، وأكثر ذلك يُردُّ للإسناد، فهو مؤشر قوي إذا كان فيه كذابون وتفسردوا بأشياء لم تذكر عند سواهم.

وكذلك الحديث عن التراجم من تلك المرحلة نفسها، فإنّه قد دخل فيها التزيّد في الفضائل وكثير من الأحداث المرتبطة بهم، وكذب لهم وعليهم، وهذا وجدناه كثيراً في تراجم المشاهير والأئمة، إذ قد نجد في بعض الأحيان خبراً من ثلاثة أخبار يصحّ عنهم، وبالكاد نجد في بعضهم شيئاً صحيحاً يُسند إليهم، فهذا باب يجب الحذر من التعامل معه، ويجب التقيّب فيه قدر الإمكان.

الثالث: الحديث عن مرحلة ما بعد ذلك، وكان قد ألف التأليف في عصر مختلف في هذا الفن إما تراجم مفردة أو تاريخاً خاصاً أو عاماً، وأكثر ذلك خلّو من الأسانيد إلا أشياء قرئت من القرن الرابع، فهذا الباب أقوى ما فيه ما كان المؤلف معاصراً للحديث، أو تلميذاً أو مشاهداً للمترجم، أو كتاباً لصاحب الحدث أو الترجمة. فإذا أردنا أمراً مثلاً يخصّ العلامة ابن قيم الجوزية، فإننا نتناول ذلك من خلال ما كتب هو نفسه، ثم ما كتب عنه تلامذته ومعاصروه، مع المقارنة خشية التوهم، ثم ما كتب المتأخرون فإذا أحالوا إلى غيرهم رُجع إلى الإحالة وقيمتها، فإن لم يكن مثل هذا المصدر موجوداً، اعتمد عليه أو ردّ بناءً على الثقة في الناقل، قلن جرب بالنقل الصحيح قبل وإلا توقّف فيه. وإذا كتب المتأخرون دون إحالة ولا بيان، فالمعهدة عليهم على

ترجمة المؤلف

والمجدد بن أبي جرادة، والشرف بن عساكر، وسُنقر
القضائي. ذكره السُّبكي والذهبي.

وكتب بإجازة للمحافظ عبد العظيم المنذري.

والتقى به ابنُ خَلِّكان، فقال: ولما وصلتُ إلى حلب
في أواخر سنة ستٍ وعشرين وستٍ مئة، كانَ عزُّ الدين
المذكورُ مقيماً بها في صورة الضيف عند الطواشي
شهاب الدين طُغريل الخادم أتابك الملك العزيز ابن
الملك الظاهر صاحب حلب، وكان الطواشي كثير الإقبال
عليه، حسن الاعتقاد فيه، مكرماً له، فاجتمعت به فوجدته
رجلاً مكملاً في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع،
فلازمتُ التردادَ إليه، وكانَ بينه وبينَ الوالدِ رحمه الله
تعالى مؤانسة أكيدة، فكانَ بسببها يُبالغُ في الرعاية
والإكرام، ثمَّ إنَّه سافرَ إلى دِمَشق في أثناء سنة سبعٍ
وعشرين، ثمَّ عادَ إلى حلب في أثناء سنة ثمانٍ وعشرين،
فجريتُ معه على عادة التردادِ والملازمة، وأقامَ قليلاً، ثمَّ
توجَّهَ إلى الموصل.

٧- صَفَّ كتاباً كبيراً في التاريخ سمَّاه «الكامل»،
ابتداه من أول الزمانِ إلى آخر سنة ثمانٍ وعشرين وستٍ
مئة، وصفه ابنُ خَلِّكان بأنَّه من خيار التواريخ، وقال ابنُ
كثير: هو من أحسنها حوادث.

واختصر كتابَ «الأنساب» لأبي سعد عبد الكريم بن
السمعاني، واستدركَ عليه فيه مواضع وثبة على أغلاط،
وزادَ أشياءً أهملتها، وهو كتابٌ مفيدٌ جداً، قال ابنُ
خَلِّكان: وأكثر ما يوجدُ اليومَ بأيدي الناس هذا المختصر،
وهو في ثلاث مجلدات، والأصلُ في ثمان، وهو عزيزُ
الوجود، ولم أره سوى مرة واحدة بمدينة حلب، ولم
يصل إلى الديار المصرية سوى المختصر المذكور.

وله أيضاً كتابُ «أسد الغابة في أسماء الصحابة» جَمَعَ

١- هو الشيخُ العلامةُ المُحدِّثُ المؤرِّخُ عزُّ الدين
أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الجَزَري الشَّيباني، المعروف بابن الأثير أبي
الكرم.

أخو اللغوي مجد الدين صاحب «النهاية» و«جامع
الأصول»، والوزير ضياء الدين صاحب «المثل السائر».

٢- وُلِدَ بالجزيرة العمريَّة (جزيرة ابن عُمر) في رابع
جُمادى الأولى سنة خمسٍ وخمسين وخمس مئة، ونشأ
بها، ثم سارَ إلى الموصلِ معَ والدِه وأخوهِ، وسكَنَ
الموصل.

٣- سَمِعَ بالموصلِ من الخطيب أبي الفضل عبد الله
بن أحمد الطوسي ومَن في طبقته، وقَدِمَ بغدادَ مراراً
حاجاً ورسولاً من صاحب الموصل، وسمِعَ بها من أبي
القاسم يعيش بن صدقة الفقيه الشافعي، وعبد الوهاب بن
سُكينة، وعبد المنعم بن كُلَيْب، ثم رَحَلَ إلى الشامِ
والقُدس، وسمِعَ هناكَ من جماعة، فسمعَ بدمشق من أبي
القاسم بن صَصْرَى، وزين الأُمْناء، ثمَّ عادَ إلى الموصلِ
ولَزِمَ بيته منقطعاً إلى التوفُّرِ على النظر في العلم
والتصنيف.

٤- حَدَّثَ بالموصلِ وحلب ودمشق، وكانَ منزله
بالموصلِ مجمعَ الفضلاءِ وأصحابِ الحديث، وكتبَ عنه
غيرُ واحدٍ من الحُفَظِ.

٥- كانَ إماماً، أخبارياً، أدبياً، مُتَقَنّاً، رئيساً، محتشماً،
كانَ منزله مأوى طلبة العلم، ولقد أَقْبَلَ في آخرِ عمرِه
على الحديث إقبالاً تاماً، وسمِعَ العالي والنازل.

٦- رَوَى عنه ابنُ الدُّبَيْشي، والشَّهابُ القُوصي،

فيه بينَ كتاب ابنِ منده، وكتاب أبي نعيم، وكتاب ابن عبد «معجم البلدان» لياقوت الحموي ١٣٨/٢، وكتب البر، وكتاب أبي موسى وزاد وأفاد. أخرى كثيرة.

وشرَعَ في تاريخ الموصل ولم يُتِمّه.

٨- والجزيرةُ التي نُسِبَ إليها المؤلف، هي جزيرة ابن عمر نسبةً إلى بانيها عبد العزيز بن عمر البرقعدي، وقيل: جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس التغلبي، وقيل: منسوبة إلى يوسف بن عُمر الثقفي أمير العراق. ذكر ذلك ابنُ خَلْكان.

وقال ياقوت الحموي: جزيرة ابن عمر: بلدةٌ فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، وأحسب أنَّ أوَّلَ من عمَّرها الحسنُ بن عمر بن خطَّاب التغلبي، وكانت له امرأةٌ بالجزيرة.. وهذه الجزيرة تحيطُ بها دجلةٌ إلا من ناحيةٍ واحدةٍ شبه الهلال، ثم عمل هناك خندقٌ أُجري فيه الماءُ ونُصبت عليه رحىٌ فأحاط بها الماءُ من جميع جوانبها بهذا الخندق.

٩- قالَ الذهبي: رأيتُ تصحيحه على طبعةٍ تاريخها في نصفِ شعبان سنة ثلاثين (وست مئة)، ثم رأيتُ وفاته في رمضان من السنة بخط أبي العباس أحمد بن الجوهري. وأمَّا المنذري وابن خَلْكان وابنُ الساعي وأبو المُظَفَّر الجوزي وشيخنا ابنُ الظاهري فقالوا: تُوفي في شعبان ولم يُعينوا اليومَ. وأمَّا القاضي سعدُ الدين الحارثي فقال: تُوفي في الخامس والعشرين من شعبان.

١٠- تُرجمَ له في «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٣٤٨/٣-٣٥٠، «التكملة» للمنذري ٣٤٧/٣-٣٤٩، «سير أعلام النبلاء» ٣٥٣/٢٢-٣٥٦، «تاريخ الإسلام» سنة (٦٣٠) صفحة ٣٩٥-٣٩٨، «طبقات الشافعية» للسُّبكي ٢٩٩/٨-٣٠٠، «الوافي بالوفيات» للصفدي ١٣٦-١٣٧، «البداية والنهاية» ١٤٩/١٣-١٥٠،

مقدمة المؤلف

الحمد لله القديم فلا أول لوجوده، الدائم الكريم فلا آخر لبقائه ولا نهاية لوجوده، الملك حقاً فلا تدرك العقول حقيقة كنهه، القادر فكل ما في العالم من أثر قُدْرَتِهِ، المقدّس فلا تقرب الحوادث حمائه، المنزه عن التغيير فلا ينجو منه سواء، مُصَرِّفُ الخلائق بين رَفْعٍ وخَفْضٍ، وَسَطُ وقَبْضٍ وإِبْرَامٍ ونَقْضٍ، وإِمَانَةٍ وإِحْيَاءٍ، وإِبْجَادٍ وإِفْئَاءٍ، وإِسْعَادٍ وإِضْلالٍ، وإِعْزَازٍ وإِذْلالٍ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعْزِزُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، مبيد القرون السالفة، والأُمم الخالفة، لم يمنعه من ما اتخذوه معقلاً وجزأً فـ ﴿هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٌ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾، [مريم: ٩٨] بتقديره النفع والضّر، ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] (٢/١)

أحمدُه على ما أولى من نعمه، وأجزل للناس من قسمه، وأصلّي على رسوله محمد سيد العرب والعجم، المبعوث إلى جميع الأُمم، وعلى آله وأصحابه أعلام الهدى ومصابيح الظلم.

أما بعد، فإنّي لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثراً للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيتها، مثلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاوعها، فلما تأملتُ رأيته متباعدة في تحصيل الغرض، يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل إلى الغرض؛ فمن بين مطول قد استقصى الطرق والروايات، ومختصر قد أحلّ بكثير مما هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحادثات، والمشهور من الكائنات، وسوّد كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور التي الإعراض عنها أولى، وترك تسطيرها أخرى، كقولهم خلع فلان الذي صاحب العيار، وزاد رطلًا في الأسعار، وأكرم فلان، وأهين فلان، وقد أرخ كل منهم إلى زمانه وجاء بعده من ذيل عليه، وأضاف المتجدّات بعد تاريخه إليه. والشرقيّ منهم قد أحلّ بذكر أخبار الغرب، والغربيّ قد أهمل أحوال الشرق؛ فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخاً متصلاً إلى وقته يحتاج إلى مجلدات كثيرة وكسب متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملاط.

فلما رأيت الأمر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، ليكون تذكّره لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان، متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا.

ولا أقول إني آتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ، فإنّ من هو (٣/١) بالموصل لا بد أن يشذ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكن أقول إني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحّة ذلك.

فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبري إذ هو الكتاب المعولّ عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، لم أخجل بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عديّة، كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقلّ منها، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدت أتمّ الروايات فقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها، وأودعت كل شيء مكانه، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراه.

فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه، ووضعت كل شيء منها موضعه، إلّا ما يتعلّق بما جرى بين أصحاب رسول الله، ﷺ، فإنّي لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئاً، إلّا ما فيه زيادة بيان، أو اسم إنسان، أو ما لا يطن على أحد منهم في نقله، وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقاً، الجامع علماً وصحة اعتقاد وصدقاً.

على أني لم أنقل إلّا من التواريخ المذكورة، والكتب المشهورة، ممن يُعلم بصدقهم فيما نقلوه، وصحة ما دونوه، ولم أكن كالخابط في ظلام (٤/١) الليالي، ولا كمن يجمع الحصباء واللاكي.

ورأيتهم أيضاً يذكرون الحادثة الواحدة في سنين، ويذكرون منها في كلّ شهر أشياء، فتأتي الحادثة مقطّعة لا يُحصل منها على غرض، ولا تفهم إلّا بعد إمعان النظر. فجمعت أنا الحادثة في موضع واحد وذكر كلّ شيء منها في أيّ شهر أو سنة كانت، فأتت متناسقة متتابعة، قد أخذ بعضها برقاب بعض.

وذكرت في كلّ سنة لكلّ حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصّها. فأما الحوادث الصغار التي لا يحتمل منها كلّ شيء ترجمة فإنّي أفردت لجميعها ترجمة واحدة في آخر كلّ سنة، فاقول: ذكر عدة حوادث. وإذا ذكرت بعض من تبع وملك قطراً من البلاد ولم تطل أيامه فإنّي أذكر جميع حاله من أوّل إلى آخره، عند ابتداء أمره، لأنّه إذا تفرّق خبره لم يُعرف للجهل به.

وذكرت في آخر كلّ سنة من توفي فيها من مشهوري العلماء والأعيان والفضلاء. وضبطت الأسماء المشبهة المؤتلفة في الخط المختلفة في اللّفظ الواردة فيه بالحروف ضبطاً يزيل الإشكال، ويُغني عن الأقطار والأشكال.

فلما جمعت أكثره أعرضت عنه مدّة طويلة لحوادث تجددت، وقواطع تواتت وتعدّدت، ولأن معرفتي بهذا النوع كملت وتمت.

ثم إن قرأ من إخواني، وذوي المعارف والفضائل من خلّاني، ممن أرى محادثتهم نهاية أوطاري، وأعدّهم من أمثال مُجالسي

الماضين وحوادث المتقدمين؟ فيإذا طالعتها فكأنه عاصرهم، وإذا علمها فكأنه حاضرهم.

ومنها: أن الملوك ومن الإهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان وراوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس، فيروها خلف عن سلف، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر، وقبيح الأحداث، وخراب البلاد. وهلاك العباد، وذهاب الأموال، وفساد الأحوال استبحوها، وأعرضوا عنها وأطرحوها. وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن بلادهم وممالكهم عمرت، وأموالها ذرت، استحسنا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء، وخلصوا بها من المهالك، واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك. ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخراً.

ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تنصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلاً، ويصبح لأن يقتدى به أهلاً. ولقد أحسن القائل حيث يقول شعراً:

رأيت العقل عليل عليل ففطـبـوع ومـفـطـوع
فلا ينفـع مـفـوع إذا لم يكـ فـطـوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين منـوع
يعني بالمطبوع العقل الغريزي الذي خلقه الله تعالى للإنسان، وبالمسموع (٨/١) ما يزداد به العقل الغريزي من التجربة، وجعله عقلاً ثانياً توسعاً وتعظيماً له، وإلا فهو زيادة في عقله الأول.

ومنها ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها، ونقل طريقة من طرائفها، فترى الأسماع مصغية إليه، والوجوه مقبلة عليه، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره، مستحسنة ما يذكره.

وأما الفوائد الأخروية فمنها أن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها، ورأى تقلب الدنيا بأهلها، وتنازع نكباتها إلى أعيان قاطنيها، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم، فلم تبق على جليل ولا حقير، ولم يسلم من نكدها غني ولا فقير، زهد فيها وأعرض عنها، وأقبل على التزود للآخرة منها، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص، وسلم أهلها من هذه النقائص، ولعل قائل يقول: ما نرى ناظرًا فيها زهد في الدنيا، وأقبل على الآخرة ورغب في درجاتها العليا، فيا ليت شعري! كم رأى هذا القائل قارئاً للقرآن العزيز، وهو سيد المواعظ وأفصح الكلام، يطلب به السير من هذا الحطام؟ فإن القلوب مولعة بحب العاجل.

ومنها التخلق بالصبر والتأسي وهما من محاسن الأخلاق. فإن

وسمّاري، رغبوا (٥/١) إليّ في أن يسمعه مني، ليرؤوه عني؛ فاعتذرت بالإعراض عنه وعدم الفراغ منه، فإنني لم أعاود مطالعة مسودته ولم أصلح ما أصلح فيها من غلط وسهو، ولا أسقطت منها ما يحتاج إلى إسقاط ومحو. وطالت المراجعة مدة وهم للطلب ملازمون، وعن الإعراض معرضون، وشرعوا في سماعه قبل إتمامه وإصلاحه، وإثبات ما تمنى الحاجة إليه وحذف ما لا بد من أطراحه، والعزم على إتمامه فاتر، والعجز ظاهر، للاشتغال بما لا بد منه، لعدم المعين والمُظَاهِر؛ ولهموم توالى، ونوائب تسابعت، فأنا ملازم الإهمال والتواني، فلا أقول: إني لأسير إليه سير الشواني.

فبينما الأمر كذلك إذ برز أمر من طاعته فرض واجب، وأتباع أمره حكم لازب، من أعلق الفضل بإقباله عليها نافقة، وأرواح الجهل بإعراضه عنها نافقة؛ من أحيا المكارم وكانت أمواتاً، وأعادها خلقاً جديداً بعد أن كانت رفاتاً؛ من عمّ رعيته عدله ونواله، وشملهم إحسانه وإفضاله؛ مولانا مالك الملك الرحيم، العالم المؤيد، المنصور، المظفر بدر الدين، ركن الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، خلّد الله دولته.

فحينئذ أقيت عني جلاب المهل، وأبطلت رداء الكسل، وألقيت الدواة (٦/١) وأصلحت القلم، وقلت: هذا أو أن الشد فاشتدي زيم، وجعلت الفراغ أهم مطلب، وإذا أراد الله أمراً هياً له السبب، وشرعت في إتمامه مسابقاً، ومن العجب أن السكيت يروم أن يجيء سابقاً، ونصبت نفسي غرضاً للسهام، وجعلتها مظنة لأقوال اللوام، لأن المآخذ إذا كانت تتطرق إلى التصنيف المهدب، والاستدراكات تتعلق بالمجموع المرتب، الذي تكررّت مطالعته وتنقيحه، وأجيد تأليفه وتصحيحه، ففهي بغيره أولى، وبه أخرى، على أنني مقرّ بالتقصير، فلا أقول إن الغلط سهو جرى به القلم، بل اعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم.

وقد سمّيته اسماً يناسب معناه، وهو: الكامل في التاريخ.

ولقد رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة والدراية، ويظن بنفسه التبحر في العلم والرواية، يحقر التواريخ ويزدريها، ويعرض عنها ويلغنها، ظناً منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره، وأصبح مخشلاً جوهره، ومن رزقه الله طبعاً سليماً، وهذه صراطاً مستقيماً، علم أن فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمّة غزيرة، وما نحن نذكر شيئاً مما ظهر لنا فيها، ونكل إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها.

فأما فوائدها الدنيوية فمنها: أن الإنسان لا يخفى أنه يحب البقاء، ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء، فيا ليت شعري! أي فرق بين ما رآه أمس أو (٧/١) سمعه، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار

العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم، ولا ملك معظم، بل ولا أحد من البشر، علم أنه يصيبه ما أصابهم، وينوبه ما نابهم. شعراً:

وهل لنا إلا من غربة إن غوت غوبت وإن ترشبت غربة أرشدت

(٩/١) ولهذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [آق: ٣٧] فإن ظن هذا القائل أن الله سبحانه أراد بذكرها الحكايات والأسما قد تمسك من أقوال الزيف بمحكم سببها حيث قالوا: هذه أساطير الأولين اكتسبها.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا قلباً عقولاً ولساناً صادقاً، ويوفقنا للسداد في القول والعمل، وهو حسناً ونعم الوكيل. (١٠/١)

ذكر الوقت الذي ابتدىء فيه

بعمل التاريخ في الإسلام

قال: لما قدم رسول الله ﷺ، المدينة أمر بعمل التاريخ.

والصحيح المشهور أن عمر بن الخطاب أمر بوضع التاريخ.

وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر: إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ. فجمع عمر الناس للمشورة، فقال بعضهم: أرخ لمبعث النبي ﷺ. وقال بعضهم: لمهاجرة رسول الله ﷺ. فقال عمر: بل نؤرخ لمهاجرة رسول الله ﷺ، فإن مهاجرته فارق بين الحق والباطل، قاله الشعبي.

وقال ميمون بن مهران: رُفِعَ إلى عمر صكُّ محلِّه شعبان فقال: أي شعبان؟ شعبان الذي هو أترام شعبان الذي نحن فيه؟ ثم قال لأصحاب رسول الله ﷺ: ضعوا للناس شيئاً يعرفونه. فقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الروم فإنهم يؤرخون من عهد ذي القرنين. فقال: هذا بطول.

فقال: اكتبوا على تاريخ الفرس. فقبل: إن الفرس كلما قام ملك طرح تاريخ من كان قبله. فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة، فوجدوه عشر سنين، فكتبوا التاريخ من هجرة رسول الله ﷺ (١١/١).

وقال محمد بن سيرين: قام رجل إلى عمر فقال: أرخوا فقال عمر: ما أرخوا؟ فقال: شيء يتعمله الأعاجم في شهر كذا من سنة كذا. فقال عمر: حسن، فأرخوا. فاستفقوا على الهجرة ثم قالوا: من أي الشهور؟ فقالوا: من رمضان، ثم قالوا: فالمحرم هو منصرف الناس من حجته وهو شهر حرام. فأجمعوا عليه.

وقال سعيد بن المسيب: جمع عمر الناس فقال: من أي يوم

تكتب التاريخ؟ فقال علي: من مهاجرة رسول الله ﷺ، وفراقه أرض الشوك. ففعله عمر.

وقال عمرو بن دينار: أول من أرخ يعلى بن أمية وهو باليمن.

وأما قبل الإسلام فقد كان بنو إبراهيم يؤرخون من نار إبراهيم إلى بنيان البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ثم أرخ بنو إسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقوا، فكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بمخرجهم، ومن بقي بتهامة من بني إسماعيل يؤرخون من خروج سعد ونهد وجنينة بني زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤي وأرخوا من موته إلى القيل، ثم كان التاريخ من القيل حتى أرخ عمر بن الخطاب من الهجرة، وذلك سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة.

وقد كان كل طائفة من العرب تؤرخ بالحدائق المشهورة فيها، ولم يكن (١٢/١) لهم تاريخ يجمعهم، فمن ذلك قول بعضهم:

هانا ذا أسل الخلوة وقنذ أنزك عقلي مولدي حجراً
وقال الجعدي:

فمن يك سائلاً عني فإني من الشبان إمام الخنار
وقال آخر:

وما هي إلا فني لزار وعلقة بنار ابن ممام على حي خنما
وكل واحد أرخ بحدائق مشهور عندهم، فلو كان لهم تاريخ يجمعهم لم يختلفوا في التاريخ. والله أعلم. (١٣/١)

القول في الزمان

الزمان عبارة عن ساعات الليل والنهار، وقد يقال ذاك للطويل والقصير منهما. والعرب تقول: أتيتك زمان الصرام، وزمان الصرام يعني به وقت الصرام. وكذلك: أتيتك زمان الحجاج أمير. ويجمعون الزمان يريدون بذلك أن كل وقت من أوقات إثارته زمن من الأزمنة.

القول في جميع الزمان من أوله إلى آخره

اختلف الناس في ذلك فقال ابن عباس من رواية سعيد بن جبير عنه: سبعة آلاف سنة.

وقال وهب بن منبه: ستة آلاف سنة. قال أبو جعفر: والصحيح من ذلك ما دلَّ على صحته الخبر الذي رواه ابن عمر عن النبي ﷺ، أنه قال: أجلكم في أجل من قبلكم، من صلاة العصر إلى مغرب الشمس.

وروي نحو هذا المعنى أنس وأبو سعيد إلا أنهما قالاً إنه قال: إلى غروب الشمس، وبذل صلاة العصر: بعد العصر.

وروي أبو هريرة عن النبي ﷺ (١٤/١)، أنه قال: بُعثت أنا

والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى.

عبّاس.

وروى نحوه جابر بن سمرة، وأنس، ومسهل بن سعد، وبُزَيْدَة، والمستورد بن شداد، وأشياخ من الأنصار كلهم عن النبي ﷺ. وهذه أخبار صحيحة.

قال: وقد زعم اليهود أن جميع ما ثبت عندهم على ما في التوراة من لدن خلق آدم إلى الهجرة أربعة آلاف سنة وست مئة وأثنان وأربعون سنة.

وقالت اليونانية من النصارى: إن من خلق آدم إلى الهجرة خمسة آلاف سنة وتسع مئة وأثنان وتسعين سنة وشهراً.

وزعم قائل أن اليهود إنما نقصوا من السنين دفعاً منهم لنبوة عيسى، إذ كانت صفته ومبعثه في التوراة، وقالوا: لم يأت الوقت الذي في التوراة أن عيسى يكون فيه، فهم يتتطرون بزعمهم خروجه ووقته.

قال: وأحسب أن الذي يتتطرونه ويدعون أن صفته في التوراة مثبتة هو الدجال.

وقالت المجوس: إن قدر مدة الزمان من لدن ملك جِيَوْمَرْت إلى وقت الهجرة ثلاثة آلاف ومائة وتسع وثلاثون سنة، وهم لا يذكرون مع ذلك شيئاً (١٥/١) يُعرف فوق جِيَوْمَرْت ويزعمون أنه هو آدم.

وأهل الأخبار مختلفون فيه، فمن قائل مثل قول المجوس، ومن قائل: إنه يسمى بآدم بعد أن ملك الأقاليم السبعة وأنه حام بن يافث بن نوح. وكان باراً بنوح، فدعا له ولزريته بطول العمر، والتمكين في البلاد، واتصال الملك، فاستجيب له. فملك جِيَوْمَرْت وولده الفرس. ولم يزل الملك فيهم إلى أن دخل المسلمون المداين وغلّبهم على ملكهم. ومن قائل غير ذلك؛ كذا قال أبو جعفر.

قلت: ثم ذكر أبو جعفر بعد هذا فصلاً تتضمن الدلالة على حدوث الأزمان والأوقات، وهل خلق الله قبل خلق الزمان شيئاً أم لا؟ وعلى فناء العالم وأن لا يبقى إلا الله تعالى، وأنه أحدث كل شيء، واستدل على ذلك بأشياء يطول ذكرها ولا يليق ذلك بالتواريخ لا سيما المختصرات منه، فإنه يعلم الأصول أولى. وقد فرغ المتكلمون منه في كتبهم فأرأينا تركه أولى.

(بُزَيْدَة: بضم الباء الموحدة وسكون الياء تحتها نقطتان وآخره هاء.) (١٦/١)

القول في ابتداء الخلق وما كان أوله

صح في الخبر عن رسول الله ﷺ، فيما رواه عنه عبادة بن الصامت أنه سمعه يقول: إن أول ما خلق الله تعالى القلم، وقال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن. وروى نحو ذلك عن ابن

وقال محمد بن إسحاق: أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة فجعل الظلمة ليلاً أسود، وجعل النور نهراً أبيض مضيئاً. والأول أصح للحديث، وابن إسحاق لم يسند قوله إلى أحد.

واعترض أبو جعفر على نفسه بما روى سفيان عن أبي هاشم، عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن الله تعالى كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً، فكان أول ما خلق الله القلم، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة.

وأجاب بأن هذا الحديث إن كان صحيحاً فقد رواه شُعْبَة أيضاً عن أبي هاشم ولم يقل فيه: إن الله كان على عرشه، بل روى أنه قال: أول ما خلق الله القلم.

القول فيما خُلِقَ بعد القلم

ثم إن الله خلق، بعد القلم وبعد أن أمره فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، سبحانه رقيقاً، وهو الغمام الذي قال فيه النبي ﷺ، (١٧/١) وقد سأل أبو رزّين العقيلي: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: في غمام ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء. وهو الغمام الذي ذكره الله في قوله ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾. [البقرة: ٢١٠]

قلت: هذا فيه نظر، لأنه قد تقدّم أن أول ما خلق الله تعالى القلم وقال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة. ثم ذكر في أول هذا الفصل أن الله خلق بعد القلم وبعد أن جرى بما هو كائن سبحانه، ومن المعلوم أن الكتابة لا بد فيها من آلة يكتب بها، وهو القلم، ومن شيء يكتب فيه، وهو الذي يُعَمَّر عنه ههنا باللوح المحفوظ. وكان ينبغي أن يذكر اللوح المحفوظ ثانياً للقلم، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون ترك ذكره لأنه معلوم من مفهوم اللفظ بطريق الملازمة.

ثم اختلف العلماء فيمن خلق الله بعد الغمام، فروى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس: أول ما خلق الله العرش، فاستوى عليه. وقال آخرون: خلق الله الماء قبل العرش، وخلق العرش فوضعه على الماء؛ وهو قول أبي صالح عن ابن عباس، وقول ابن مسعود، ووهب بن مُثَنِّه.

وقد قيل: إن الذي خلق الله تعالى بعد القلم الكرسي، ثم العرش، ثم الهواء، ثم الظلمات، ثم الماء فوضع العرش عليه.

قال: وقول من قال: إن الماء خُلِقَ قبل العرش، أولى بالصواب لحديث أبي رزّين عن النبي ﷺ، وقد قيل: إن الماء كان على متن الرياح حين خلق العرش؛ قاله سعيد بن جبير عن ابن عباس، فإن كان

وغيرهم: كل يوم من هذه الأيام الستة التي خلق الله (٢٠/١) فيها السماء والأرض كآلف سنة.

قلت: أما ما ورد في هذه الأخبار من أن الله تعالى خلق الأرض في يوم كذا والسماء في يوم كذا، فإنما هو مجاز، وإلا فلم يكن ذلك الوقت أيام وليال، لأن الأيام عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها، والليالي عبارة عما بين غروبها وطلوعها، ولم يكن ذلك الوقت سماء ولا شمس. وإنما المراد به أنه خلق كل شيء بمقدار يوم، كقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مریم: ٦٢] وليس في الجنة بكرة وعشي.

(سلام: والد عبد الله، بتخفيف اللام).

القول في الليل والنهار أيهما خلق قبل صاحبه

قد ذكرنا ما خلق الله تعالى من الأشياء قبل خلق الأوقات، وأن الأزمنة والأوقات إنما هي ساعات الليل والنهار، وأن ذلك إنما هو قطع الشمس والقمر درجات الفلك.

فلنذكر الآن بأي ذلك كان الابتداء، أبالليل أم بالنهار؟ فإن العلماء اختلفوا في ذلك، فإن بعضهم يقول: إن الليل خلق قبل النهار؛ ويستدل على ذلك بأن النهار من نور الشمس فإذا غابت الشمس جاء الليل فبان بذلك أن النهار، وهو النور، وارد على الظلمة التي هي الليل. وإذا لم يرد نور الشمس كان الليل ثابتاً. فذلك على أن الليل هو الأول؛ وهذا قول ابن عباس (٢١/١).

وقال آخرون: كان النهار قبل الليل. واستدلوا بأن الله تعالى كان ولا شيء معه، ولا ليل ولا نهار، وأن نوره كان يضيء به كل شيء خلقه حتى خلق الليل.

قال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار. نور السموات من نور وجهه.

قال أبو جعفر: والأول أولى بالصواب للعللة المذكورة أولاً، ولقوله تعالى ﴿الَّتِي أَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩] يبدأ بالليل قبل النهار.

قال عبيد بن عمير الحارثي: كنت عند علي فسأله ابن الكواء عن السواد الذي في القمر فقال: ذلك آية محبت، وقال ابن عباس مثله، وكذلك قال مجاهد وقتادة وغيرهما، لذلك خلقهما الله تعالى الشمس أنور من القمر.

قلت: وروى أبو جعفر ههنا حديثاً طويلاً عدة أوراق عن ابن عباس عن النبي ﷺ، في خلق الشمس والقمر وسيرهما، فإنهما على عجلتين، لكل عجلة ثلاث مئة وستون غزوة، يجرها بعددها من

كذلك (١٨/١) فقد خلقاً قبل العرش.

وقال غيره: إن الله خلق القلم قبل أن يخلق شيئاً بالعام.

واختلفوا أيضاً في اليوم الذي ابتداء الله تعالى فيه خلق السموات والأرض، فقال عبد الله بن سلام، وكعب، والضحاك، ومجاهد: ابتداء الخلق يوم الأحد.

وقال محمد بن إسحاق: ابتداء الخلق يوم السبت. وكذلك قال أبو هريرة.

واختلفوا أيضاً فيما خلق كل يوم، فقال عبد الله بن سلام: إن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات يوم الخميس والجمعة، ففرغ آخر ساعة من الجمعة فخلق فيها آدم، عليه السلام، فتلک الساعة التي تقوم فيها الساعة.

ومثله قال ابن مسعود وابن عباس من رواية أبي صالح عنه، إلا أنهما لم يذكر أن خلق آدم ولا الساعة.

وقال ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة عنه: إن الله تعالى خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، فذلك قوله تعالى ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دُحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] وهذا القول عندي هو الصواب.

وقال ابن عباس أيضاً من رواية عكرمة عنه: إن الله تعالى وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بالفي عام، ثم دحيت الأرض من (١٩/١) تحت البيت. ومثله قال ابن عمر.

وروى السدي عن أبي صالح، وعن أبي مالك عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، قال: إن الله عز وجل كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دحاناً، فارتفع فوق الماء، فسماء عليه، فسماء سماء، ثم ابس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم تقفها فجعلها سبع أرضين في يومين: يوم الأحد ويوم الاثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت التون الذي ذكره الله تعالى في القرآن في قوله ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾، [القلم: ١] والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لبقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الأرض، فأرسي عليها الجبال فقررت، والجبال تفخر على الأرض، فذلك قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] قال ابن عباس والضحاك ومجاهد وكعب

ذكر الأخبار بما كان لإبليس، لعنه الله، من الملك وذكر الأحداث في ملكه

وروي عن ابن عباس وابن مسعود أن إبليس كان له ملك سماه الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن. وإنما سُموا الجن لأنهم خزان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازناً، قال ابن عباس: لئن عصى الله تعالى فمسخه شيطاناً رجيماً.

وروي عن قتادة في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ [الأنبياء: ٢٩] إنما كانت هذه الآية في إبليس خاصة لما قال ما قال لعنه الله تعالى وجعله شيطاناً رجيماً، وقال: ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وروي عن ابن جريج مثله.

وأما الأحداث التي كانت في ملكه وسلطانه فمنها ما روي عن الضحاك عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان خازناً من خزان الجنة، قال: وخلققت الملائكة من نور، وخلققت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا انتهت. وخلق الإنسان من طين، فأول من سكن في الأرض الجن، فاقتلوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله تعالى إليهم إبليس في جنود من الملائكة، وهم هذا الحي الذي يقال لهم الجن، فقاتلهم إبليس ومن معه حتى أحرقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. فلما فعل ذلك اغتر في نفسه وقال: قد صنعت ما لم (٢٥/١) يصنعه أحد. فاطلع الله تعالى على ذلك من قبله، ولم يطلع عليه أحد من الملائكة الذين معه.

وروي عن أنس نحوه.

وروي أبو صالح عن ابن عباس، ومرة الهمداني عن ابن مسعود أنهم قالوا: لما فرغ الله تعالى من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك سماه الدنيا، وكان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سُموا الجن لأنهم من خزنة الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع في نفسه كبر وقال: ما أعطاني الله تعالى هذا الأمر إلا لمزية لي على الملائكة. فاطلع الله على ذلك منه فقال: إِنِّي جاعل في الأرض خليفة. قال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فدعاه ذلك إلى الكبر. وهذا قول ثالث في سبب كبره.

وروي عكرمة عن ابن عباس أن الله تعالى خلق خلقاً، فقال: اسجدوا لآدم، فقالوا: لا نفعل. فبعث عليهم ناراً فأحرقتهم؛ ثم خلق خلقاً آخر، فقال: إِنِّي خالق بشر من طين، فاسجدوا لآدم. فأبوا، فبعث الله تعالى عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق هؤلاء الملائكة فقال:

الملائكة، وإنيما يسقطان عن العجلتين فيغوضان في بحر بين السماء والأرض، فذلك كسوفهما، ثم إن الملائكة يخرجونهما فذلك تجليتهما من الكسوف. وذكر الكواكب وسيرها، وطلوع الشمس من مغربها. ثم ذكر مدينة بالمغرب تسمى جابرس وأخرى بالمشرق تسمى جابلق ولكل واحدة منهما عشرة (٢٢/١) آلاف باب يحرس كل باب منها عشرة آلاف رجل، لا تعود الحراسة إليهم إلى يوم القيامة.

وذكر يأجوج ومأجوج ومنسك وثلريس، إلى أشياء أخر لا حاجة إلى ذكرها، فأعرضت عنها لمنافاتها العقول. ولو صح إسنادها لذكرناها وقلنا به، ولكن الحديث غير صحيح، ومثل هذا الأمر العظيم لا يجوز أن يسطر في الكتب بمثل هذا الإسناد الضعيف.

وإذ كنا قد بينا مقدار مدة ما بين أول ابتداء الله، عز وجل، في إنشاء ما أراد إنشاءه من خلقه إلى حين فراقه من إنشاء جميعه من سني الدنيا ومدة أزمانها، وكان الغرض في كتابنا هذا ذكر ما قد بينا أننا ذكروه من تاريخ الملوك الجبابرة، والعاصية ربه والمطعية ربه، وأزمان الرسل والأنبياء، وكنا قد أتينا على ذكر ما تصح به التاريخات وتعرف به الأوقات وهو الشمس والقمر.

فلنذكر الآن أول من أعطاه الله تعالى ملكاً وأنعم عليه فكفر نعمته وجحد ربوبيته واستكبر، فسلبه الله نعمته وأخزاه وأذلّه، ثم تبعه ذكر من استن واقضى أثره وأحلّ الله به نعمته، ونذكر من كان يائزاه أو بعده من الملوك المطعية ربه المحموده آثارها ومن الرسل والأنبياء، إن شاء الله تعالى. (٢٣/١)

قصة إبليس، لعنه الله، وابتداء أمره

وإطعائه آدم، عليه السلام

فأولهم وإمامهم ورئيسهم إبليس. وكان الله تعالى قد حسن خلقه وشرّفه وملكه على سماه الدنيا والأرض فيما ذكر، وجعله مع ذلك خازناً من خزان الجنة، فاستكبر على ربه، وادّعى الربوبية، ودعا من كان تحت يده إلى عبادته، فمسخه الله تعالى شيطاناً رجيماً، وشوه خلقه، وسلبه ما كان خوله، ولعنه وطرده عن سمواته في العاجل، ثم جعل مسكنه ومسكن أتباعه في الآخرة نار جهنم، نعوذ بالله تعالى من نار جهنم ونعوذ بالله تعالى من غضبه ومن الحور بعد الكور.

ونبدأ بذكر الأخبار عن السلف بما كان الله أعطاه من الكرامة وبإدعائه ما لم يكن له، ونتبع ذلك بذكر أحداث في سلطانه وملكه إلى حين زوال ذلك عنه والسبب الذي به زال عنه، إن شاء الله تعالى.

استجدوا لآدم. قالوا: نعم. وكان إيليس من أولئك الذين لم يسجدوا.

وقال شهر بن حوشب: إن إيليس كان من الجن الذين سكنوا الأرض وطردتهم الملائكة، وأمره بغض الملائكة فذهب به إلى السماء. وروي عن (٢٦/١) سعيد بن مسعود نحو ذلك.

وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كما قال الله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] وجائز أن يكون فسوقه من إعجابه بنفسه لكثرة عبادته واجتهاده، وجائز أن يكون لكونه من الجن.

(ومرّة الهمداني، بسكون الميم، والدال المهملة، نسبة إلى همدان: قبيلة كبيرة من اليمن). (٢٦/١)

ذكر خلق آدم، عليه السلام

ومن الأحاديث في سلطانه خلق آينا آدم، عليه السلام، وذلك لما أراد الله تعالى أن يُطلع ملائكته على ما علم من انطواء إيليس على الكبر ولم يعلمه الملائكة حتى دنا أمره من البوار وملكه من الزوال، فقال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فروي عن ابن عباس أن الملائكة قالت ذلك للذي كانوا عهدوا من أمره وأمر الجن الذين كانوا سُكَّانَ الأرض قبل ذلك، فقالوا لربهم تعالى: أتجعل فيها من يكون مثل الجن الذين كانوا يسفكون الدماء فيها ويُفسدون ويعصونك ونحن نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟ فقال الله لهم: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، يعني من انطواء إيليس على الكبر والعزم على خلاف أمري واغتراره، وأنا مُبْدٍ ذلك لكم منه لتروه عياناً. فلما أراد الله أن يخلق آدم أمر جبرائيل أن يأتيه بطين من الأرض، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني وتشينني. فرجع ولم يأخذ منها شيئاً وقال: يا رب إنها عاذت بك فاعذتها. فبعث ميكائيل، فاستعادت منه فأعادها، فرجع وقال مثل جبرائيل، فبعث إليها ملك الموت فعاذت منه، فقال: أنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أَفْعَدْ أَمْرَ رَبِّي، (٢٨/١) فأخذ من وجه الأرض فخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء وطيناً لازباً، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين.

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ، أنه قال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَلْبِ الْأَرْضِ، مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ، وَالْخَيْثُ وَالطَّيْبُ، ثُمَّ بَلَّتْ طَبِئَتُهُ حَتَّى صَارَتْ طِينًا لَازِبًا ثُمَّ تَرَكَتْ حَتَّى صَارَتْ حُمًا مَسْنُونًا ثُمَّ تَرَكَتْ حَتَّى صَارَتْ صَلْصَالًا، كَمَا قَالَ رَبَّنَا، تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

واللازب: الطين الملتبب ببعضه ببعض. ثُمَّ تَرَكَ حَتَّى تَغْيَرَ وَاتَّسَنَ وَصَارَ حُمًا مَسْنُونًا، يعني متسناً، ثُمَّ صَارَ صَلْصَالًا، وهو الذي له صوت.

وَأَمَّا سُمِّيَ آدَمَ لِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ. قال ابن عباس: أمر الله بترية آدم فزُفِعَتْ، فخلق آدم من طين لازب من حمَلٍ مَسْنُونٍ، وَأَمَّا كَانَ حُمًا مَسْنُونًا بَعْدَ التَّرَابِ فَخُلِقَ مِنْهُ آدَمُ بِنَدَةِ ثَلَاثِ يَتَكَبَّرُ، إِبْلِيسُ عَنِ السَّجْدَةِ لَهُ. قال: فمكث أربعين ليلة، وقيل: أربعين سنة، جسداً ملقى، فكان إيليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل، أي يصوت، قال: فهو قول الله تعالى ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الحجر: ٢٦] يقول: متن كالمنفوخ الذي ليس بمصمت، ثُمَّ يَدْخُلُ مِنْ فِيهِ فَيُخْرِجُ مِنْ دُبُرِهِ وَيَدْخُلُ مِنْ دُبُرِهِ وَيُخْرِجُ مِنْ فِيهِ، ثُمَّ يَقُولُ: لَسْتُ شَيْئًا، وَلَشَيْءٌ مَا خَلَقْتُ، وَلَنْ سُلِّطْتُ عَلَيْكَ لِأَهْلِكَ نِكَ، وَلَنْ سُلِّطْتُ عَلَيَّ لِأَعَصِيكَ. فكانت الملائكة تَمَرُّ بِهِ فَتَخَافُهُ، وَكَانَ إِبْلِيسُ أَشْلَمَهُمْ مِنْهُ خَوْفًا.

(٢٩/١)

فَلَمَّا بَلَغَ الْجِنَّ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَفْخَ فِيهِ الرُّوحَ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، فَلَمَّا نَفَخَ الرُّوحَ فِيهِ دَخَلَتْ مِنْ قَبْلِ زَأْسِهِ، وَكَانَ لَا يَجْرِي شَيْءٌ مِنَ الرُّوحِ فِي جِسَدِهِ إِلَّا صَارَ لِحْمًا، فَلَمَّا دَخَلَتْ الرُّوحُ رَأْسَهُ عَطَسَ، فَقَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ. وقيل: بِلِ الْهَيْمَةِ اللَّهُ التَّحْمِيدُ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فقال الله له: رَحِمَكَ رَبُّكَ يَا آدَمَ، فَلَمَّا دَخَلَتْ الرُّوحُ عَيْنَيْهِ نَظَرَ إِلَى ثَمَارِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا يَلَقَتْ جَوْفَهُ اشْتَهَى الطَّعَامَ فَوَثَبَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الرُّوحَ رَجْلَيْهِ عَجَلَانِ إِلَى ثَمَارِ الْجَنَّةِ، فَلَنَظَرَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] فسجد له الملائكة كُلُّهُمُ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. فقال الله له: يَا إِبْلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ لِمَ أَكُنَ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ، فَلَمْ يَسْجُدْ كِبَارًا وَبَغْيًا وَحَسَدًا. فقال الله له: ﴿يَا إِبْلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾، إِيْسَى قَوْلُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَحَّكَ مِنْهُمْ أُجَمَعُونَ﴾ [ص: ٧٥]، فَلَمَّا فَرِغَ مِنْ إِبْلِيسَ وَمَعَاتِيهِ وَأَبَى إِلَّا الْمَعْصِيَةَ أَوْقَعَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةَ وَأَيَّاسَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَهُ شَيْطَانًا رَجِيمًا وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ.

قال الشعبي: أنزل إيليس مشتمل الصماء عليه عمامة أعور في إحدى رجليه نعل.

وقال حُمَيْدُ بْنُ هِلَالٍ: نَزَلَ إِبْلِيسُ مُخْتَصِرًا فَلَنَظَرَ كَرِهَ الْاِخْتِصَارَ فِي (٣٠/١) الصَّلَاةِ، وَلَمَّا أُنْزِلَ قَالَ: يَا رَبِّ أَخْرِجْنِي مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ أَجْلِ آدَمَ وَإِنِّي لَا أَقْوَى عَلَيْهِ إِلَّا بِسُلْطَانِكَ. قال: فَانْتَ مَسْلُطٌ. قال: زِدْنِي. قال: لَا يُولَدُ لَهُ وَلَدٌ إِلَّا وَلَدٌ لَكَ مِثْلُهُ. قال: زِدْنِي. قال: صُدُورُهُمْ مَسَاكِنُ لَكَ وَتَجْرِي مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِ. قال: زِدْنِي. قال: أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِيْنَهُم.

ذكر إسكان آدم الجنة وإخراجه منها

فلما ظهر للملائكة من معصية إبليس وطغيانه ما كان مستترا عنهم وعاتبه الله على معصيته بتركه السجود لآدم فأصر على معصيته وأقام على غيه لعنه الله وأخرجه من الجنة وطرده منها وسلبه ما كان إليه من ملك سماء الدنيا والأرض وخزن الجنة، فقال الله له: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ (يعني من الجنة) فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿[الحجر: ٣٤، ٣٥]؛ وأسكن آدم الجنة.

قال ابن عباس وابن مسعود: فلما أسكن آدم الجنة كان يمشي فيها فرداً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة واستيقظ فإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها فقال: من أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ. قالت له الملائكة لينظروا مبلغ علمه: ما اسمها؟ قال: حواء. قالوا: ولم سُميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي. وقال الله له: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال ابن إسحاق فيما بلغه عن أهل الكتاب وغيرهم، منهم عبدالله بن عباس (٣٣/١) قال: ألقى الله تعالى على آدم النوم وأخذ ضلعاً من أضلاعه من شق الأيسر ولأم مكانه لحماً وخلق منه حواء، وآدم نائم، فلما استيقظ رآها إلى جنبه فقال: لحمي ودمي وروحي، فسكن إليها، فلما رآه الله تعالى وجعل له سكناً من نفسه، قال له: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ... وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. وعن مجاهد وقادة مثله.

فلما أسكن الله آدم وزوجته الجنة أطلق لهما أن يأكلا كل ما أَرَادَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ غَيْرَ ثَمَرِ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، ابتلاءً منه لهما وليمضي قضاءه فيهما وفي ذريتهما. فوسوس لهما الشيطان، وكان سبب وصوله إليهما أنه أراد دخول الجنة فمنعته الخزنة، فأتى كل دابة من دواب الأرض وعرض نفسه عليهما أنها تحمله حتى يدخل الجنة ليكلّم آدم وزوجته. فكل الدواب أتت عليه حتى أتت الحية وقال لها: أمنك من ابن آدم فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني، فجعلته بين نابين من أنيابها ثم دخلت به، وكانت كاسية على أربع قوائم من أحسن دابة خلقها الله كأنها بخية، فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها.

قال ابن عباس: اقتلوا حيث وجدتموها واخفروا دمة عدو الله فيها.

فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فيها ففاح عليهما نياحة أحزنتهما حين سماعها، فقالا له: ما يبكيك؟ قال: أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة. فوقع ذلك في أنفسهما، ثم أتاهما فوسوس لهما وقال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومملك لا يبلى؟ ﴿وَقَالَ: مَا (٣٤/١) نَهَاكَ رَبُّكَ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مِنَ الْمَكِينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي

قال آدم: يا رب قد أنظرته وسلطته عليّ وإنني لا أمتنع منه إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يا رب زدني. قال: الحسنه بعشر أمثالها وأزبداء، والسيئة بواحدة وأمحوها. قال: يا رب زدني. قال: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. قال: يا رب زدني. قال: التوبة لا أمتنعها من ولدك ما كانت فيهم الروح. قال: يا رب زدني. قال: أغفر ولا أبالي. قال: حسبي. ثم قال الله لآدم: إيت أولئك النفر من الملائكة فقل السلام عليكم. فاتاهم فسلم عليهم، فقالوا له: وعليك السلام ورحمة الله. ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم.

فلما امتنع إبليس من السجود وظهر للملائكة ما كان مستترا عنهم علم الله آدم الأسماء كلها.

الأسماء التي علمها الله آدم

اختلف العلماء في الأسماء فقال الضحّاك عن ابن عباس: علمه الأسماء كلها التي تتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وجبل وفرس وحمار (٣١/١) وأشباه ذلك، حتى الفسوة والفسية. وقال مجاهد وسعيد بن جبّير مثله.

وقال ابن زيد: علّم أسماء ذريته. وقال الربيع: علّم أسماء الملائكة خاصة. فلما علّمها عرض الله أهل الأسماء على الملائكة فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] إني إن جعلت الخليفة منكم أعطيتوني وقدستموني ولم تعصوني، وإن جعلته من غيركم أفسد فيها وسفك الدماء، فإنكم إن لم تعلموا أسماء هؤلاء وأنتم تشاهدونهم فبأن لا تعلموا ما يكون منكم ومن غيركم وهو مغيب عنكم أولى وأحرى. وهذا قول ابن مسعود ورواية أبي صالح عن ابن عباس.

وروي عن الحسن وقادة أنهما قالوا: لما أعلم الله الملائكة بخلق آدم واستخلافه و﴿قَالُوا: أَنْجَبْتَ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟﴾ [البقرة: ٣٠] و﴿قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. قالوا فيما بينهم: ليلخلق ربنا ما يشاء فلن يخلق خلقاً إلا كنا أكرم على الله منه وأعلم منه. فلما خلقه وأمرهم بالسجود له علموا أنه خير منهم وأكرم على الله منهم، فقالوا: إن بك خيراً منا وأكرم على الله منا فنحن أعلم منه. فلما أعجبوا بعلمهم ابتلوا بأن علمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، إني لا أخلق أكرم منكم ولا أعلم (٣٢/١) منكم. ففزعوا إلى التوبة، وإليها يفزع كل مؤمن، ف﴿قَالُوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]. قالوا: وعلمه اسم كل شيء من هذه: الخيل والبغال والابل والجن والوحش وكل شيء.

منه.

فإن كان قائل هذا القول أراد أنه سكن الفردوس لساعتين مضاً من (٣٦/١) يوم الجمعة من أيام الدنيا التي هي على ما هي به اليوم، فلم يبعد قوله من الصواب لأن الأخبار كذا كانت واردة عن السلف من أهل العلم بأن آدم خلق آخر ساعة من اليوم السادس التي مقدار اليوم منها ألف سنة من سنينا، فمعلوم أن الساعة الواحدة من ذلك اليوم ثلاثة وثمانون عاماً من أعوامنا، وقد ذكرنا أن آدم بعد أن حُسر ربنا طيبته بقي قبل أن تنفخ فيه الروح أربعين عاماً، وذلك لا شك أنه عني به أعوامنا، ثم بعد أن نفخ فيه الروح إلى أن تنهى أمره وأُسكن الجنة وأُهبط إلى الأرض غير مستشكر أن يكون مقدار ذلك من سنينا قدر خمس وثلاثين سنة، وإن كان أراد أنه سكن الجنة لساعتين مضاً من نهار يوم الجمعة من الأيام التي مقدار اليوم منها ألف سنة من سنينا فقد قال غير الحق، لأن كل من له قول في ذلك من أهل العلم يقول إنه نفخ فيه الروح آخر نهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس.

وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أن مكث آدم كان في الجنة نصف يوم كان مقداره خمسمائة عام، وهذا أيضاً خلاف ما وردت به الأخبار عن النبي، ﷺ، وعن العلماء.

ذكر الموضع الذي أهبط فيه آدم وحواء من الأرض

قيل: ثم إن الله تعالى أهبط آدم قبل غروب الشمس من اليوم الذي خلقه فيه، وهو يوم الجمعة، مع زوجته حواء من السماء. فقال عليّ وابن عباس وقادة وأبو العالية: إنه أهبط بالهند على جبل يقال له نود من أرض (٣٧/١) سَرْذِيْب، وحواء بجدة. قال ابن عباس: فجاء في طلبها فكان كلما وضع قدمه بموضع صار قرية، وما بين خطوئيه مفاوز، فسار حتى أتى جمعاً فإزدلفت إليه حواء، فلذلك سُميت المَرْذَلَّة، وتعارفا بقرافات فلذلك سُميت عَرَفَات، واجتماعاً بجمع فلذلك سُميت جمعاً. وأهبطت الحية بأصفهان، وإبليس بميسان. وقيل: أهبط آدم بالبرية، وإبليس بالأبلة.

قال أبو جعفر: وهذا ما لا يوصل إلى معرفة صحته إلا بخبر يجيء مجيء الحجة، ولا نعلم خبراً في ذلك غير ما ورد في هبوط آدم بالهند، فإن ذلك مما لا يدفع صحته علماء الإسلام.

قال ابن عباس: فلما أهبط آدم على جبل نود كانت رجلاه تمسّان الأرض ورأسه بالسماء يسمع تسبيح الملائكة، فكانت تهابه، فسألت الله أن ينقص من طوله فنقص طوله إلى ستين ذراعاً، فحزن آدم لما فاته من الأنس بأصوات الملائكة وتسبيحهم، فقال: يا رب كنت جارك في دارك ليس لي رب غيرك أدخلتني جنتك أكل منها حيث شئت وأسكن حيث شئت فأهبطتني إلى الجبل المقدس فكنت أسمع أصوات الملائكة وأجد ريح الجنة فحططتني إلى ستين ذراعاً، فقد

لَكُمَا لَيْسَ النَّاصِحِينَ [الأعراف: ٢٠، ٢١]، أن تكونا ملكين، أو تخلدان إن لم تكونا ملكين في نعمة الجنة. يقول الله تعالى: ﴿فَذَلَا هُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وكان انفعال حواء لوسوسته اعظم، فدعاهما آدم لحاجته. فقالت: لا إلا أن تأتي هاهنا. فلما أتى قالت: لا إلا أن تأكل من هذه الشجرة، وهي الحنطة. قال: فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما، وكان لباسهما الظفر، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قيل: كان ورق التين، وكانت الشجرة من أكل منها أحدث. وذهب آدم هارباً في الجنة، فناداه ربه: أن يا آدم مني نفر؟ قال: لا يا رب ولكن حياء منك. فقال: يا آدم من أين أتيت؟ قال: من قبل حواء يا رب. فقال الله: فإن لها عليّ أن آدميها في كل شهر وأن أجعلها سفية، وقد كنت خلقتها حليلة، وأن أجعلها تحمل كرهاً وتضع كرهاً وتشرف على الموت مراراً، قد كنت جعلتها تحمل يسراً وتضع يسراً، ولولا بلية لكان النساء لا يحضن، ولكن حليمات ولكن يحملن يسراً ويضعن يسراً. وقال الله تعالى له: لألعنن الأرض التي خلقت منها لئنة يتحوّل بها ثمارها شوكاً. ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجرة أفضل من الطلح والسدر.

وقال للحية: دخل الملعون في جوفك حتى غر عبيدي، ملعونة أنت لئنة يتحوّل بها قوامك في بطنك ولا يكون لك رزق إلا التراب. أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت واحداً منهم أخذت بعقبه وحيث لقيك (٣٥/١) شدخ رأسك، أهبطوا بعضكم لبعض عدو آدم وإبليس والحية. فأهبطهم إلى الأرض، وسلب الله آدم وحواء كل ما كانا فيه من النعمة والكرامة.

قيل: كان سعيد بن المسيّب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن سقته حواء الخمر حتى سكر فلما سكر قادته إليها فاكل.

قلت: والعجب من سعيد كيف يقول هذا والله يقول في صفة خمر الجنة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]

ذكر اليوم الذي أسكن آدم فيه الجنة واليوم الذي

أخرج فيه منها واليوم الذي تاب فيه

روى أبو هريرة عن النبي، ﷺ، قال: خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أسكن الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تاب الله عليه، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة يقللها لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه. قال عبد الله بن سلام: قد علمت أي ساعة هي، هي آخر ساعة من النهار.

وقال أبو العالية: أخرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة منه، وأهبط إلى الأرض لتسع ساعات مضين من ذلك اليوم، وكان مكثه في الجنة خمس ساعات منه، وقيل: كان مكثه ثلاث ساعات

انقطع عني الصوت والنظر وذهبت عني ريح الجنة! فاجابه الله تعالى: بمعصيتك يا آدم فعلت بك ذلك.

فلما رأى الله تعالى عري آدم وحواء أمره أن ينبع كبشاً من الضأن من (٣٨/١) الثمانية الأزواج التي أنزل الله من الجنة، فأخذ كبشاً فذبحه وأخذ صوفه، فغزلته حواء ونسجه آدم فعمل لنفسه جبة ولبحواء درعاً وخماراً فلبسا ذلك.

وقيل: أرسل إليهما ملكاً يعلمهما ما يلبسانه من جلود الضأن والأنعام.

وقيل: كان ذلك لباس أولاده، وأما هو وحواء فكان لباسهما ما كان خصفاً من ورق الجنة، فأوحى الله إلى آدم: إن لسي خرمًا حيال عرشي فانطلق وابن لي بيتاً فيه ثم خف به كما رأيت ملائكتي يحضون بعرشي، فهناك أستجيب لك ولولئك من كان منهم في طاعتي. فقال آدم: يا رب وكيف لي بذلك! لست أقوى عليه ولا أهتدي إليه. فقبض الله ملكاً فانطلق به نحو مكة، وكان آدم إذا مرّ بروضة قال للملك: انزل بنا هاهنا. فيقول الملك: مكانك، حتى قدم مكة، فكان كل مكان نزله آدم عمراناً وما عداه مفاوز. فبنى البيت من خمسة أجبل: من طور سينا، وطور زيتون، ولبنان، والجودي، وبنى قواعده من حجارة؛ فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عَرَقات فأراه المناسك التي يفعلها الناس اليوم، ثم قدم به مكة فطاف بالبيت أسبوعاً، ثم رجع إلى الهند فمات على نود.

فعلی هذا القول أبطح حواء وآدم جميعاً، وإن آدم بنى البيت، وهذا خلاف الذي نذكره إن شاء الله تعالى منه: أن البيت أنزل من السماء.

وقيل: حج آدم من الهند أربعين حجة ماشياً. ولما نزل إلى الهند كان على رأسه إكليل من شجر الجنة، فلما وصل إلى الأرض يسر فتساقط ورقه فنبئت منه أنواع الطيب بالهند. وقيل: بل الطيب من الورق الذي خصفه آدم وحواء عليهما.

وقيل: لما أمر بالخروج من الجنة جعل لا يمر بشجرة منها إلا أخذ منها غصناً فبطط وتلك الأغصان معه فكان أصل الطيب بالهند منها، وزوده الله من (٣٩/١) ثمار الجنة، فثمارنا هذه منها، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير، وعلمه صنعة كل شيء، ونزل معه من طيب الجنة، والحجر الأسود، وكان أشدّ بياضاً من الثلج، وكان من ياقوت الجنة، ونزل معه عصا موسى، وهي من آس الجنة ومن لبان، وأنزل بعد ذلك العلاء والمطرقة والكلبان.

وكان حسن الصورة لا يشبهه من ولده غير يوسف. وأنزل عليه جبرائيل بصرة فيها حنطة، فقال آدم: ما هذا؟ قال: هذا الذي أخرجك من الجنة. فقال: ما أصنع به؟ فقال: انثره في الأرض. ففعل، فأنبتته

الله من ساعته، ثم حصده وجمعه وفركه وذراه وطحنه وعجنه وخيزه، كل ذلك بتعليم جبرائيل، وجمع له جبرائيل الحجر والحديد فقلده فخرجت منه النار، وعلمه جبرائيل صنعة الحديد والحراثة، وأنزل إليه ثوراً، فكان يحرث عليه، قيل هو الشقاء الذي ذكره الله تعالى بقوله ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾. [طه: ١١٧]

ثم إن الله أنزل آدم من الجبل وملكه الأرض وجميع ما عليها من الجن والدواب والطيور وغير ذلك، فشكا إلى الله تعالى وقال: يا رب أما في هذه الأرض من يسبحك غيري؟ فقال الله تعالى: سأخرج من صلبك من يسبحني ويحمدني، وسأجعل فيها بيتاً ترفع لذكري، وأجعل فيها بيتاً اختصه بكرامي وأسميه بيتي وأجعله خرمًا آمنًا، فمن حرّمه بخرمتي فقد استوجب كرامتي، ومن أخاف أهله فيه فقد خفر ذمتي وأباح حرمتي، أول بيت وضع للناس فمن اعتمده لا يرد غيره فقد وفد إلي وزارني وضافني، ويحق على الكريم أن (٤٠/١) يكرم وفده وأضيافه وإن يسعف كلًا بحاجته؛ تعمّر أنت يا آدم ما كنت حيًّا، ثم تعمّر الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة. ثم أمر آدم أن يأتي البيت الحرام، وكان قد أبطط من الجنة باقوته واحدة، وقيل: ذرة واحدة، وبقي كذلك حتى أغرق الله قوم نوح، عليه السلام، فرفع وبقي أساسه، فبوا لله لإبراهيم، عليه السلام، فبناه على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وسار آدم إلى البيت ليحجّه ويتوب عنده، وكان قد بكى هو وحواء على خطيئتهما وما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم ياكلا ولم يشربا أربعين يوماً، ثم أكلا وشربا بعدها، ومكث آدم لم يقرب حواء مائة عام، ففتح البيت وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، وهو قوله تعالى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [الأعراف: ٢٣]

(نود بضم النون، وسكون الواو، وآخره دال مهملة).

ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أخذ الله الميثاق على ذرية آدم بنعمان من عرقه فأخرج من ظهره كل ذرية ذراها إلى أن تقوم الساعة فشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبيلاً وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة ﴿إلى قوله: ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾﴾. [الأعراف: ١٧٢]

(نعمان بفتح النون الأولى). (٤١/١)

وقيل عن ابن عباس أيضاً: إنه أخذ عليهم الميثاق بدحنا، موضع. وقال السُّلَبي: أخرج الله آدم من الجنة ولم يُهبطه إلى الأرض من السماء ثم مسح صفحة ظهره اليميني فأخرج ذرية كهيشة الدثر بيضاء مثل اللؤلؤ، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره

يُقبِلُ القربان إذا قبله الله، فلَمَّا قبل الله قربان هابيل، وكان في ذلك القضاء له بأخت قابيل، غضب قابيل وغلب عليه الكبر واستحوذ عليه الشيطان وقال: لأقتلك حتى لا تنكح אחتي. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لئن سَطَطْتُ إِلَيَّ يَدُكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، فاتبعه وهو في ماشيته فقتله، فهما اللذان قصَّ الله خبرهما في القرآن فقال: ﴿وَاتَّخَذَ عَلَيْهِمُ نَبَأَ إِبْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾، [المائدة: ٣٢] إلى آخر القصة.

قال: فلَمَّا قُتِلَ سقط في يده ولم يدر كيف يواريه، وذلك أنه كان فيما يزعمون أول قاتل من بني آدم، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْآتِهِ أَخِيهِ، قَالَ: يَا وَيْلَتِي أَصْغَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْآتِهِ أَخِي، فَاصْبِرْ مِنَ النَّادِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَتَسْرِقُونَ﴾. [المائدة: ٣٢] فلَمَّا قُتِلَ أخاه قال الله تعالى: يا قابيل إِنْ أَخَوَكَ هَابِيلُ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، مَا كُنْتُ عَلَيْهِ رَقِيبًا فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ صَوْتَ دَمِ أَخِيكَ يَنَادِيَنِي مِنَ الْأَرْضِ الْآنَ، أَنْتَ مَلْعُونٌ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي فَتَحْتَ فَاهَا فَلَعَلْتَ دَمَ أَخِيكَ، فَإِذَا أَنْتَ عَمَلْتَ فِي الْأَرْضِ فَهَنَاهَا لَا تَعُودُ تَعطيك حَرْثَهَا حَتَّى تَكُونَ فَرْعًا تَأْتَاهَا فِي الْأَرْضِ. فقال قابيل: عظمت خطيئتي إِنْ لَمْ تَغْفِرْهَا. [٤٤/١].

قيل: كَانَ قُتِلَ عِنْدَ عَقِبة حِوَاءَ. ثُمَّ نَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ آخِذًا بِيَدِ أُخْتِهِ فَهَرَبَ بِهَا إِلَى عَدَنَ مِنَ الْيَمَنِ.

قال ابن عباس: لما قُتِلَ أخاه أَخَذَ بِيَدِ أُخْتِهِ ثُمَّ هَبَطَ بِهَا مِنْ جَبَلٍ نَوْدٍ إِلَى الْحَضِيضِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: اذْهَبِي فَلَا تَزُولِ مَرْعُوبًا لَا تَأْمَنِي مِنْ تَرَاهِ. فَكَانَ لَا يَمُرُّ بِهِ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ إِلَّا رَمَاهُ، فَاقْبَلُ ابْنَ لِقَابِيلِ أَعْمَى وَمَعَهُ ابْنُ لَهُ، فَقَالَ لِلأَعْمَى ابْنِهِ: هَذَا أَبُوكَ قَابِيلُ فَارْمِهِ، فَرَمَى الْأَعْمَى أَبَاهُ قَابِيلَ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ ابْنُ الْأَعْمَى لِأَيِّهِ: قَتَلْتَ أَبَاكَ! فَرَفَعَ الْأَعْمَى يَدَهُ فَلَطَمَ ابْنَهُ فَمَاتَ. فقال: يا وَيْلَتِي قَتَلْتُ أَبِي بِرِمِيَّتِي وَابْنِي بِلَطْمَتِي.

ولما قُتِلَ هَابِيلُ كَانَ عَمْرُهُ عَشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ لِقَابِيلُ يَوْمَ قَتْلِهِ خَمْسَ وَعَشْرُونَ سَنَةً.

وقال الحسن: كَانَ الْوَجِلَانُ اللَّذَانِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ يَقُولُهُ: ﴿وَاتَّخَذَ عَلَيْهِمُ نَبَأَ إِبْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي آدَمَ لَصْلُبُهُ، وَكَانَ آدَمُ أَوَّلُ مَنْ مَاتَ.

وقال أبو جعفر: الصحيح عندنا أَنَّهُمَا ابْنَا آدَمَ لَصْلُبُهُ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كَيْفَلٌ مِنْهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ. فَبِإِنْ هَذَا أَنَّهُمَا لَصْلُبُ آدَمَ، فَإِنَّ الْقَتْلَ مَا زَالَ بَيْنَ بَنِي آدَمَ قَبْلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ مَاتَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ قَبْلَهُ مَا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾

اليسرى فأخرج منها كهية الذر سوداء، فقال: ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك حين يقول: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ثم أخذ منهم الميثاق فقال: السبَّ بريكُم؟ قالوا: بلى، فأعطوه الميثاق، طائفة طائعين وطائفة على وجه التقيّة.

ذكر الأحداث التي كانت في عهد آدم في الدنيا

وَكَانَ أَوَّلُ ذَلِكَ قَتْلُ قَابِيلَ بْنِ آدَمَ أَخَاهُ هَابِيلَ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ مُخْتَلِفُونَ فِي اسْمِ قَابِيلَ، فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: قَيْنَ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: قَاسِينَ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: قَاينَ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: قَابِيلَ.

وَاخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي سَبَبِ قَتْلِهِ، فَقِيلَ: كَانَ سَبَبُهُ أَنَّ آدَمَ كَانَ يَغْشَى حَوَاءَ فِي الْجَنَّةِ قَبْلَ أَنْ يَصِيبَ الْخَطِيئَةَ فَحَمَلَتْ لَهُ فِيهَا بِقَابِيلَ بْنِ آدَمَ وَتَوَامَتِهِ فَلَمْ تَجِدْ عَلَيْهِمَا وَحْمًا وَلَا وَصَبًا وَلَمْ تَجِدْ عَلَيْهِمَا طَلْفًا حِينَ وَلَدَتْهُمَا وَلَمْ تَرَ مَعَهُمَا دَمًا لَطِيفَ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ وَهَبَا إِلَى الْأَرْضِ فَاطْمَأَنَّا بِمَا تَغَشَّاهَا فَحَمَلَتْ بِهِمَا قَابِيلُ وَتَوَامَتُهُ فَوَجَدَتْ الْوَحْمَ وَالْوَصَبَ وَالطَّلْفَ حِينَ وَلَدَتْهُمَا وَرَأَتْ مَعَهُمَا (٤٢/١) الدَّمِ، وَكَانَتْ حَوَاءَ فِيمَا يَذْكُرُونَ لَا تَحْمِلُ إِلَّا تَوَامًا ذَكَرًا وَأُنْثَى، فَوَلَدَتْ حَوَاءَ لآدَمَ أَرْبَعِينَ وَلَدًا لَصْلُبُهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى فِي عَشْرِينَ بَطْنًا، وَكَانَ الْوَلَدُ مِنْهُمْ أَيْ أَخَوَاتِهِ شَاءَ تَزَوُّجُ إِلَّا تَوَامَتَهُ الَّتِي تَوَلَدَ مَعَهُ، فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ نِسَاءً إِلَّا أَخَوَاتُهُمْ وَأُمَّهُمُ حَوَاءَ، فَامْرَأَةُ آدَمَ ابْنَةُ قَابِيلَ أَنْ يَنْكَحَ تَوَامَةَ هَابِيلَ، وَأَمْرُ هَابِيلَ أَنْ يَنْكَحَ تَوَامَةَ أَخِيهِ قَابِيلَ.

وقيل: بَلْ كَانَ آدَمُ غَائِبًا، وَكَانَ لَمَّا أَرَادَ السَّيْرَ قَالَ لِلسَّمَاءِ: احْفَظِي وَلَدِي بِالْأَمَانَةِ، فَأَبَتْ، وَقَالَ لِلْأَرْضِ فَأَبَتْ، وَلِلْجِبَالِ فَأَبَتْ، وَقَالَ لِقَابِيلَ: نَعَمْ تَذْهَبُ وَتَرْجِعُ وَتَسْتَجِدُّ كَمَا يَسُرُّكَ. فَانْطَلَقَ آدَمُ فَكَانَ مَا نَذَرَهُ، وَفِيهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُلًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فَلَمَّا قَالَ آدَمُ لِقَابِيلَ وَهَابِيلَ فِي مَعْنَى نِكَاحِ أُخْتَيْهِمَا مَا قَالَ لِهَما سَلِّمَ هَابِيلُ لِلذَّكَرِ وَرَضِيَ بِهِ، وَأَبَى ذَلِكَ قَابِيلُ وَكَرِهَهُ تَكَرُّهًا عَنْ أُخْتِ هَابِيلَ وَرَغِبَ بِأَخْتِهِ عَنْ هَابِيلَ وَقَالَ: نَحْنُ مِنْ وَلَادَةِ الْجَنَّةِ وَهَما وَلَادَةُ الْأَرْضِ فَأَنَا أَحَقُّ بِأَخْتِي.

وقال بعض أهل العلم: إِنْ أُخْتُ قَابِيلَ كَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ فَضْلًا بِهَا عَلَى أَخِيهِ وَأَرَادَهَا لِنَفْسِهِ، وَإِنَّهُمَا لَمْ يَكُنَا مِنْ وَلَادَةِ الْجَنَّةِ إِنَّمَا كَانَا مِنْ وَلَادَةِ الْأَرْضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ آدَمُ: يَا بَنِيَّ إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَكَ، فَأَبَى (٤٣/١) أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْ أَبِيهِ. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: يَا بَنِيَّ فَقَرِّبْ قُرْبَانًا وَيَقْرَبْ أَخَوَكَ هَابِيلَ قُرْبَانًا فَايْكَمَا قَبِلَ اللَّهُ قُرْبَانَهُ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا. وَكَانَ قَابِيلُ عَلَى بَذْرِ الْأَرْضِ وَهَابِيلُ عَلَى رِعَايَةِ الْمَاشِيَةِ، فَقَرَّبَ قَابِيلُ قَمَحًا وَقَرَّبَ هَابِيلُ أَبْكَارًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ. وَقِيلَ: قَرَّبَ بَقْرَةً فَارْسَلَ اللَّهُ نَارًا بَيضاءَ فَأَكَلَتْ قُرْبَانَ هَابِيلَ وَتَرَكْتَ قُرْبَانَ قَابِيلَ، وَبِذَلِكَ كَانَ

[الأعراف: ١٨٩]

آخرهم عن أولئك وغابهم عن سالفهم سواهم.

وأنا ذاك ما انتهى إلينا من القول في عمر آدم وأعمار من بعده من ولده (٤٧/١) من الملوك والأنبياء وجيومرث أبي الفرس فأذكر ما اختلفوا فيه من أمرهم إلى الحال التي اجتمعوا عليها واتفقوا على ملك منهم في زمان بعينه أنه هو الملك في ذلك الزمان إن شاء الله. وكان آدم مع ما أعطاه الله تعالى من ملك الأرض نبياً رسولاً إلى ولده، وأنزل الله عليه إحدى وعشرين صحيفة كتبها آدم بيده علمه أيها جبرائيل.

روى أبو ذر عن النبي ﷺ، أنه قال: الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قال: قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً، يعني كثيراً طيباً. قال: قلت: من أولئك؟ قال: آدم. قال: قلت: يا رسول الله وهو نبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً، وكان ممن أنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة.

ذكر ولادة شيث

ومن الأحداث في أيامه ولادة شيث، وكانت ولادته بعد مضي مائة وعشرين سنة لآدم، وبعد قتل هابيل بخمس سنين، وقيل: ولّد فرداً بغير توأم. وتفسير شيث هبة الله، ومعناه أنه خلف من هابيل، وهو وصي آدم. وقال ابن عباس: كان معه توأم. ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعبادة الخلوة في كل ساعة منها وأعلمه بالطوفان، وصارت الرئاسة بعد آدم إليه، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة، وإليه أنساب (٤٨/١) بني آدم كلهم اليوم.

وأما الفرس الذين قالوا إن جيومرث هو آدم، فإنهم قالوا: ولّد لجيومرث ابنة ميثان أخت ميثى، وتزوج ميثى أخته ميثان فولدت له سيامك وسيامي، فولّد لسيامك بن جيومرث افروال ودقس وبواسب واجرب واوراش، وأهمهم جميعاً سيامي ابنة ميثى، وهي أخت أيهم. وذكروا أن الأرض كلها سبعة أقاليم، فأرض بابل وما يوصل إليه مما يأتيه الناس براً وبحراً فهو من إقليم واحد وسكانه ولد افروال بن سيامك وأعقابهم، فولّد لافروال ابن سيامك من افرى ابنة سيامك أوشهنيج بيشداد الملك، وهو الذي خلف جدّه جيومرث في الملك، وهو أول من جمع ملك الأقاليم السبعة، وسنذكر أخباره.

وكان بعضهم يزعم أن اوشهنيج هذا هو ابن آدم لصلبه من حواء.

وأما ابن الكلبي فإنه زعم أن أول من ملك الأرض اوشهني بن عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قال: والفرس تزعم أنه كان بعد آدم بمائتي سنة، وإنما كان بعد نوح بمائتي سنة، ولم تعرف

عن ابن عباس وابن جبير والسدي وغيرهم قالوا: كانت حواء تلد لآدم فتعبدهم، أي تسميهم عبد الله وعبد الرحمن ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فاتاهما إيليس فقال: لو سميتم بغير هذه الأسماء لعاش ولدكم. فولدت ولداً فسمته عبد الحارث، وهو اسم إيليس، فنزلت: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] الآيات. وقد روي هذا المعنى مرفوعاً.

قلت: إنما كان الله تعالى يبيت أولادهم أولاً، وأحيا هذا المسمى بعبد الحارث امتحاناً واختياراً وإن كان الله تعالى يعلم الأشياء بغير امتحان، لكن علماً لا يتعلق به الثواب والعقاب. ومن الدليل على أن القاتل والمقتول ابنا آدم لصلبه ما رواه العلماء عن علي بن أبي طالب أن آدم قال لما قُتل هابيل:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهَا فَوْجَةُ الْأَرْضِ مَغِيرٌ قَبِيحٌ تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي طَنَمٍ وَلُؤُونٍ وَقُلْتُ بِشَانَةِ زَوْجِهِ الْمَلِيحِ فِي آيَاتٍ غَيْرِهَا.

وقد زعم أكثر علماء الفرس أن جيومرث هو آدم، وزعم بعضهم أنه ابن آدم لصلبه من حواء، وقالوا فيه أقوالاً كثيرة يطول بذكرها الكتاب إذ كان قصدنا ذكر الملوك وآيامهم، ولم يكن ذكر الاختلاف في نسب ملك من (٤٦/١) جنس ما أنشأنا له الكتاب، فإن ذكرنا من ذلك شيئاً فلتعريف من ذكرنا ليعرفه من لم يكن عارفاً به. وقد خالف علماء الفرس فيما قالوا من ذلك آخرون من غيرهم ممن زعم أنه آدم، ووافق علماء الفرس على اسمه، وخالفهم في عينه وصفته، فزعم أن جيومرث الذي زعمت الفرس أنه آدم إنما هو حام ابن يافث بن نوح، وأنه كان معمرّاً سيّداً نزل جبل دُنبأوند من جبال طبرستان من أرض المشرق وتملك بها وبفارس وعظم أمره وأمر ولده حتى ملكوا بابل وملكوا في بعض الأوقات الأقاليم كلها، وابتنى جيومرث المدن والحصون وأعد السلاح واتخذ الخيل وتجبر في آخر أمره وتسمى بآدم، وقال: من سماني بغيره قتله، وتزوج ثلاثين امرأة، فكثر منهن نسله، وإن ماري ابنه وماريانه أخته ممن كانا ولداً في آخر عمره، فأعجب بهما وقدمهما، فصار الملوك من نسلهما.

قال أبو جعفر: وإنما ذكرت من أمر جيومرث في هذا الموضع ما ذكرت لأنه لا تدافع بين علماء الأمم أنه أبو الفرس من العجم، وإنما اختلفوا فيه هل هو آدم أبو البشر أم غيره على ما ذكرنا، ومع ذلك فلائذ ملكه وملك أولاده لم يزل منتظماً على سياق متصل بارض المشرق وجبالها إلى أن قُتل يزدجرد بن شهريار بمرو أيام عثمان بن عفان، والتاريخ على أسماء ملوكهم أسهل بياناً وأقرب إلى التحقيق منه على أعمار ملوك غيرهم من الأمم، إذ لا يعلم أمة من الأمم الذين يتسبون إلى آدم دامت لهم المملكة واتصل الملك لملوكهم يأخذ

الفرس ما كان قبل نوح. (٤٩/١)

﴿٥١/١﴾: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَعَدَ آدَمَ ثَلَاثَ مَرَارٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَهُ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ ذَارٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَجَعَلَ يَعْزُهُمْ عَلَى آدَمَ فَرَأَى مِنْهُمْ رَجُلًا يَزْهَرُ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ أَبِي بَنِي هَذَا؟ قَالَ: ابْنُكَ دَاوُدَ. قَالَ: كَمْ عُمُرُهُ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً. قَالَ: وَزَدَهُ مِنَ الْعُمُرِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا، إِلَّا أَنْ تَزِيدَهُ أُنْتُ. وَكَانَ عُمُرُ آدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَوَهَبَ لَهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَكُتِبَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، فَلَمَّا احْتَضَرَ آدَمَ أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ لَتَقْبِضَ رُوحَهُ فَقَالَ: قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً. قَالُوا: إِنَّكَ قَدْ وَهَبْتَهَا لِابْنِكَ دَاوُدَ. قَالَ: مَا فَعَلْتُ وَلَا وَهَبْتُ لَهُ شَيْئًا. فَانْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَأَقَامَ الْمَلَائِكَةُ شَهَادًا، فَاكْمَلُوا لآدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ وَاكْمَلُوا لِدَاوُدَ مِائَةَ سَنَةٍ.

وروي مثل هذا عن جماعة، منهم سعيد بن جبيرة، وقال ابن عباس: كان عمر آدم تسعمائة سنة وستة وثلاثين سنة، وأهل التوراة يزعمون أن عمر آدم تسعمائة سنة وثلاثون سنة، والأخبار عن رسول الله والعلماء ما ذكرنا، ورسول الله، ﷺ، أعلم الخلق.

وعلى رواية أبي هريرة التي فيها أن آدم وهب داود من عمره ستين سنة لم يكن كثير اختلاف بين الحديثين وما في التوراة من أن عمره كان تسعمائة وثلاثين سنة، فلعل الله ذكر عمره في التوراة سوى ما وهبه لداود.

قال ابن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه قال: بلغني أن آدم حين مات بعث الله بكفيه وخنوطه من الجنة ثم وليت الملائكة قبره ودفنه حتى غيَّبه. (٥٢/١)

وروي أبي بن كعب عن النبي، ﷺ، أن آدم حين حضرته الوفاة بعث الله إليه بخنوطه وكفنه من الجنة، فلما رأت حواء الملائكة ذهبت لتدخل دونهم، فقال: خلني عني وعن رسل ربي، فما لقيت ما لقيت إلا منك، ولا أصابني ما أصابني إلا فينك، فلما قبض غسلوه بالسدر والماء وترأ وكفَّوه في وتر من الثياب ثم لحدوا له ودفنوه، ثم قالوا: هذه سنة ولد آدم من بعده.

قال ابن عباس: لما مات آدم قال شيث لجبرائيل: صل عليه. فقال: تقدَّم أنت فصل على أيبك. فكبر عليه ثلاثين تكبيرة، فأما خمس فهي الصلاة، وأما خمس وعشرون فتفصيلاً لآدم.

وقيل: دُفن في غار في جبل أبي قيس يقال له غار الكنز. وقال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة دفن آدم ببيت المقدس.

وكانت وفاته يوم الجمعة، كما تقدَّم، وذكر أن حواء عاشت بعده سنة ثم ماتت فدفنت مع زوجها في الغار الذي ذكرت إلى وقت الطوفان، واستخرجهما نوح وجعلهما في تابوت ثم حملهما معه في السفينة، فلما غاضت الأرض الماء ردهما إلى مكانهما الذي كانا فيه قبل الطوفان، قال: وكانت حواء فيما ذكر قد غزلت ونسجت وعجنت

والذي ذكره هشام بن الكلبي لا وجه له، لأن أوشهنيج مشهور عند الفرس، وكل قوم أعلم بأنسابهم وآيامهم من غيرهم. قال: وقد زعم بعض نسابة الفرس أن أوشهنيج هذا هو مهلائيل، وأن أباه افروال هو قينان، وأن سيامك هو أنوش أبو قينان، وأن ميشي هو شيث أبو أنوش، وأن جيورث هو آدم. فإن كان الأمر كما زعم فلا شك أن أوشهنيج كان في زمن آدم رجلاً، وذلك لأن مهلائيل فيما ذكر في الكتب الأولى كانت ولادة أمه دينة ابنة براكيل بن محوئيل بن خنوخ بن قين بن آدم وأثاء بعدما مضى من عمر آدم ثلاثمائة سنة وخمسة وتسعون سنة، وقد كان له حين وفاة أبيه آدم ستمائة سنة وخمسة وستون سنة، على حساب أن عمر آدم كان ألف سنة، وقد زعمت الفرس أن ملك أوشهنيج كان أربعين سنة، فإن كان الأمر على ما ذكره النسابة الذي ذكرت عنه ما ذكرت فما يبعد من قال: إن ملكه كان بعد وفاة آدم بمائتي سنة.

ذكر وفاة آدم، عليه السلام

ذكر أن آدم مرض أحد عشر يوماً وأوصى إلى ابنه شيث وأمره أن يخفي علمه عن قابيل وولده لأنه قتل هابيل حسداً منه له حين خصه آدم بالعلم، فاختفى شيث وولده ما عندهم من العلم، ولم يكن عند قابيل وولده (٥٠/١) علم يتفقهون به.

وقد روى أبو هريرة عن النبي، ﷺ، أنه قال: قال الله تعالى لآدم حين خلقه: ائتِ أولئك الفر من الملائكة قل السلام عليكم، فأتاهم فسلم عليهم، وقالوا له: عليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه فقال له: هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم. ثم قبض له يديه فقال له: خذ واختر. فقال: أحببت يمين ربي وكلتا يدي يمين، ففتحها له فإذا فيها صورة آدم وذريته كلهم، وإذا كل رجل منهم مكتوب عنده أجله، وإذا آدم قد كتب له عمر ألف سنة، وإذا قوم عليهم النور، فقال: يا رب من هؤلاء الذين عليهم النور؟ فقال: هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أرسلهم إلى عبادي، وإذا فيهم رجل هو من أضوئهم نوراً ولم يكتب له من العمر إلا أربعون سنة. فقال آدم: يا رب هذا من أضوئهم نوراً ولم يكتب له إلا أربعين سنة، بعد أن أعلمه أنه داود، عليه السلام، فقال: ذلك ما كتبت له. فقال: يا رب انقص له من عمري ستين سنة. فقال رسول الله، ﷺ، فلما أبط إلى الأرض كان بعد أيامه، فلما أناه ملك الموت لقبضه قال له آدم: عجبت يا ملك الموت! قد بقي من عمري ستون سنة. فقال له ملك الموت: ما بقي شيء، سألت ربك أن يكتب لابنك داود. فقال: ما فعلت فقال النبي، ﷺ، فسي آدم فتسببت ذريته وجحد فجحدت ذريته فحيثن وضع الله الكتاب وأمر بالشهود.

وروي عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله،

ذكر الأحداث التي كانت من لدن مُلك شيث إلى

أن ملك يَرُد

ذُكر أنَّ قابيل لما قتل هابيل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن أتاه إيليس فقال له: إنَّ هابيل إنما قُبل قربانه وأكلته النارُ لأنَّه كان يخدم النار ويعبثُها، فانصبَّ أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك. فبنى بيت نار، فهو أوَّل من نصب النار وعبدها.

وقال ابن اسحاق: إنَّ قيناً، وهو قابيل، نكح أخته أشوت بنت آدم فولدت له رجلاً وامراًة: حنوخ بن قين وعذب بنت قين، فنكح حنوخ أخته عذب فولدت ثلاثة بنين وامراًة: غيرد ومحويل وأنوشيل وموليث ابنة حنوخ، فنكح أنوشيل بن حنوخ أخته موليث وولدت له رجلاً اسمه لامك، فنكح لامك امرأتين اسم إحداهما عدى والأخرى صلي، فولدت عدى بولس بن لامك، فكان أوَّل من سكن القباب واقتنى المال، وتولين فكان أوَّل من ضرب بالنوَّج والصنَّج، وولدت رجلاً اسمه توبلقين، وكان أوَّل من عمل النحاس والحديد، وكان أولادهم فراعنة وجابرة، وكانوا قد أعطوا سِطَّةً في الخلق. قال: ثمَّ انقرض ولد قين ولم يتركوا عقباً إلَّا قليلاً، وذرية آدم كلها جهلت أنسابهم وانقطع نسلهم إلَّا ما كان من شيث، فمنه كان النسل، وأنساب النَّاس اليوم كلُّهم إليه دون أبيه آدم، ولم يذكر ابن (٥٧/١) إسحاق من أمر قابيل وولده إلَّا ما حكيتُ.

وقال غيره من أهل التوراة: إنَّ أوَّل من اتخذ الملاهي من ولد قابيل رجل يقال له ثوبال بن قابيل، اتخذها في زمان مهلائيل بن قينان، اتخذ المزامير والطناوير والطبول والعيدان والمعازف، فأنهمك ولد قابيل في اللهو. وتناهى خبرُهم إلى من بالجبل من ولد شيث، فهم منهم مائة رجل بالنزول إليهم وبمخالفة ما أوصاهم به آبائهم، وبلغ ذلك يارد فوعظهم ونهاهم فلم يقبلوا، ونزلوا إلى ولد قابيل فأعجبوا بما رأوا منهم، فلما أرادوا الرجوع حيل بينهم وبين ذلك لدعوة سبقت من آبائهم، فلما إبطأوا ظنَّ من بالجبل ممَّن كان في نفسه زيغ أنهم أقاموا اغتباطاً، فتسلَّلوا ينزلون من الجبل ورأوا اللهو فأعجبهم ووافقوا نساء من ولد قابيل مشرعات إليهم وصرن معهم وأنهمكوا في الطغيان وفشت الفحشاء وشرب الخمر فيهم. وهذا القول غير بعيد من الحقِّ، وذلك أنَّه قد رُوي عن جماعة من سلف علمائنا المسلمين نحو منه، وإن لم يكونوا يبنوا زمان من حدث ذلك في ملكه، إلَّا أنهم ذكروا أنَّ ذلك كان فيما بين آدم ونوح؛ منهم ابن عباس أو مثله. ومثله روى الحكم بن عتيبة عن أبيه مع اختلاف قريب من القولين، والله أعلم.

وأما نسابو الفرس فقد ذكرتُ ما قالوا في مهلائيل بن قينان وأنَّه هو أوشهنج الذي ملك الأقاليم السبعة، ويُنْت قول من خالفهم. وقال هشام ابن الكلبي: إنَّه أوَّل من بنى البناء واستخرج المعادن وأمر أهل زمانه باتخاذ المساجد، وينسب مدينتين كانتا أوَّل ما بني على ظهر

وخيزت وعملت أعمال النساء كلها.

وإذ قد فرغنا من ذكر آدم وعدوه إيليس وذكر أخبارهما وما صنع الله (٥٣/١) بعدوه إيليس حين تجبَّر وتكبَّر من تعجيل العقوبة وطمع في بغى من الطرد والإبعاد والنظرة إلى يوم الدين، وما صنع بآدم إذ أخطأ ونسي من تعجيل العقوبة له ثمَّ تغلَّبه إياه بالرحمة إذ تاب من زلته، فأرجع إلى ذكر قابيل وشيث ابني آدم وأولادهما، إن شاء الله. (٥٤/١)

ذكر شيث بن آدم، عليه السلام

قد ذكرنا بعض أمره وأنَّه كان وصي آدم في مخلفيه بعد مضيه لسبيله، وما أنزل الله عليه من الصحف، وقيل: إنَّه لم يزل مقيماً بمكة يحجُّ ويعتمر إلى أن مات، وإنَّه كان جمع ما أنزل عليه وعلى أبيه آدم من الصحف وعمل بما فيها، وإنَّه بنى الكعبة بالحجارة والطين.

وأما السلف من علمائنا فإنَّهم قالوا: لم تزل القبة التي جعل الله لأدم مكان البيت إلى أيام الطوفان فرفعها الله حين أرسل الطوفان. وقيل: إنَّ شيثاً لما مرض أوصى إلى ابنه أنوش ومات فدُفن مع أبويِّه بغار أبي قيس؛ وكان مولده لمضي مائتي سنة وخمس وثلاثين سنة من عمر آدم، وقيل غير ذلك.

وقد تقدَّم، وكانت وفاته وقد أتت عليه تسعمائة سنة واثنتا عشرة سنة. وقام أنوش بن شيث بعد موت أبيه بسياسة الملك وتدبير من تحت يديه من رعيته مقام أبيه لا يوقف منه على تغيير ولا تبديل، فكان جميع عمر أنوش سبعمائة وخمس سنين، وكان مولده بعد أن مضى من عمر أبيه شيث ستمائة سنة وخمس سنين، وهذا قول أهل التوراة.

وقال ابن عباس: وُلد لشيث أنوش وولَّد معه نفر كثير، وإليه أوصى شيث، ثمَّ ولد لأنوش بن شيث ابنه قينان من أخته نعمة بنت شيث بعد مضي تسعين سنة من عمر أنوش وولد معه نفر كثير، وإليه الوصية، وولد قينان مهلائيل ونفراً كثيراً معه، وإليه الوصية، وولد مهلائيل يَرْد، وهو اليارد. (٥٥/١) ونفراً معه، وإليه الوصية، فولد يَرْد حنوخ، وهو إدريس النبي، ونفراً معه، وإليه الوصية، وولد حنوخ متوشلخ ونفراً معه، وإليه الوصية.

وأما التوراة ففيها أنَّ مهلائيل وُلد بعد أن مضى من عمر آدم، عليه السلام، ثلاثمائة وخمس وتسعون سنة، ومن عمر قينان سبعون، وولَّد يَرْد لمهلائيل بعدما مضى من عمر آدم أربعمائة سنة وستون سنة، فكان على منهاج أبيه، غير أنَّ الأحداث بدأت في زمانه.

وستين سنة من عمره، وبعد أن مضى من عمر أبيه خمسة مائة سنة وسبع وعشرون سنة، فعاش أبوه بعد ارتفاعه أربع مائة وخمسة وثلاثين سنة تمام تسعمائة واثنين وستين سنة.

قال النبي ﷺ: يا أبا ذرٍّ من الرسل أربعة سريانيون: آدم ونيث [نوح] وحنوخ، وهو أول من خط بالقلم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة. وقيل: إن الله أرسله إلى جميع أهل الأرض في زمانه، وجمع له علم الماضين وزاده ثلاثين صحيفة. وقال بعضهم: ملك بيوراسب في عهد إدريس، وكان قد وقع عليه من كلام آدم، فاتخذة سحراً، وكان بيوراسب يعمل به.

(يارد بيا معجزة باثنين من تحتها، وراء مهلة، وذال معجزة. وحنوخ بحاء مهلة مفتوحة، ونون بعدها وار، وخاء معجزة، وقيل: بخاين معجمتين). (٦١/١)

ذكر ملك طهمورث

زعمت الفرس أنه ملك بعد موت أوشهنيج طهمورث بن ويونجهان، يعني خير أهل الأرض، ابن حابلداهن أوشهنيج، وقيل في نسبه غير ذلك، وزعم الفرس أيضاً أنه ملك الأقاليم السبعة وعقد على رأسه تاجاً، وكان محموداً في ملكه مشفقاً على رعيته، وأنه ابني سابور من فارس ونزله وتقل في البلدان، وأنه وثب بإبليس حتى ركب فطاف عليه في أداني الأرض وأقاصيها، وأفرجه ومردته حتى تفرقوا، وكان أول من اتخذ الصوف والشعر للبس والفرش، وأول من اتخذ زينة الملوك من الخيل والبغال والحمير، وأمر باتخاذ الكلاب لحفظ المواشي وغيرها، وأخذ الجوارح للصيد، وكسب بالفارسية، وأن بيوراسب ظهر في أول سنة من ملكه ودعا إلى ملة الصابئين.

كنا قل أبو جعفر وغيره من العلماء: إنه ركب إبليس وطاف عليه، والمعجزة عليهم، وإنما نحن نقلناها قالوه.

قال ابن الكلبي: أول ملوك الأرض من بابل طهمورث، وكان لله مطيعاً، وكان ملكه أربعين سنة، وهو أول من كتب بالفارسية، وفي أيامه عُبدت الأصنام، وأول ما عُرف الصوم في ملكه. ونسبه أن قوماً فقراء تعذب عليهم القوت فامسكوا بهاء وأكلوا ليلاً يسك رمقهم، ثم اعتقدوه تقرباً إلى الله وجاءت الشرايع به. (٦٢/١)

ذكر حنوخ وهو إدريس، عليه السلام

ثم نكح حنوخ بن يرد هدانة، وقال أذنة، بابة بابل بن محويل بن حنوخ بن قين بن آدم، وهو ابن خمسين وستين سنة، فولدت له متوشلح بن حنوخ، فعاش بعدهما ولد متوشلح ثلاثمائة سنة، ثم رفع واستخلفه حنوخ على أمر ولده وأمر الله وأوصله وأهل بيته قبل أن

الأرض من المدائن، وهما مدينة بابل، وهي بالعراق، ومدينة السوس بخوزستان، وكان ملكه أربعين سنة. (٥٨/١)

وقال غيره: هو أول من استبتط الحديد وعمل منه الأدوات للصناعات وقدر المياه في مواضع المنافع وحضر الناس على الزراعة واعتماد الأعمال، وأمر بقتل السباع الضارية واتخاذ الملابس من جلودها والمفارش، وبذبح البقر والغنم والوحش وأكل لحومها، وأنه بنى مدينة الري، قالوا: وهي أول مدينة بُنيت بعد مدينة جيوثرث التي كان يسكنها بدنبأوند، وقالوا: إنه أول من وضع الأحكام والحدود. وكان ملقباً بذلك يدعى بيشداد، ومعناه بالفارسية أول من حكم بالعدل، وذلك أن بيش معناه أول، وداد معناه عدل وقضى. وهو أول من استخدم الجواري وأول من قطع الشجر وجعله في البناء، وذكروا أنه نزل الهند وتقل في البلاد وعقد على رأسه تاجاً، وذكروا أنه قهر إبليس وجنوده ومنعهم الاختلاط بالناس وتوعدهم على ذلك وقتل مرذلتهم، فهربوا من خوفه إلى المفاوز والجبال، فلما مات عادوا.

وقيل: إنه سعى شرار الناس شياطين واستخدمهم، وملك الأقاليم كلها. وأنه كان بين مولد أوشهنيج وموت جيوثرث مائتا سنة وثلاث وعشرون سنة.

(عنية بالعين، وبعدها تاء فوقها نقطتان، وياء تحتها نقطتان، وياء موحدة). (٥٩/١)

ذكر يرد

وقيل يارد بن مهلائيل أمه خالته سمعن ابنة براكيل بن محويل بن حنوخ ابن قين بن آدم، ولد بعدما مضى من عمر آدم أربع مائة سنة وستون سنة، وفي أيامه عُمِلت الأصنام وعاد من عاد عن الإسلام. ثم نكح يرد، في قول ابن إسحاق، وهو ابن مائة واثنين وستين سنة، بركتا ابنة الدرمسيل بن محويل بن حنوخ بن قين بن آدم، فولدت له حنوخ، وهو إدريس النبي، فكان أول بني آدم أعطي النبوة وخط بالقلم، وأول من نظر في علوم النجوم والحساب. وحكام اليونانيين يسمونه هيريس الحكيم، وهو عظيم عندهم فعاش يرد بعد مولد إدريس ثمان مائة سنة، وولد له بنون وبنات، فكان عمره تسعمائة سنة واثنين وستين سنة. وقيل: أنزل على إدريس ثلاثون صحيفة، وهو أول من جاهد في سبيل الله وقطع الثياب وخاطها، وأول من سعى من ولد قابيل بن آدم فاسترق منهم، وكان وصي والده يرد فيما كان أباه وصوا به إليه وفيما أوصى بعضهم بعضاً، وتوفي آدم بعد أن مضى من عمر إدريس ثلاثمائة وثمانين سنة، ودعا إدريس قومه ووعظهم وأمرهم بطاعة الله تعالى ومعصية الشيطان وأن لا يلبسوا ولد قابيل، فلم يقبلوا منه. (٦٠/١)

قال: وفي التوراة أن الله رفع إدريس بعد ثلاثمائة سنة وخمسين

ذكر ملك جمشيد

وأما علماء الفرس فأنهم قالوا: ملك بعد طهمورث جم شديد، والشيد عندهم الشعاع، وجم القمر، لقبوه بذلك لجماله، وهو جم بن ويونجهان، وهو أخو طهمورث، وقيل: إنه ملك الأقالييم السبعة وسخر له ما فيها من الجن والإنس، وعقد التاج على رأسه، وأمر لسنة مضت من ملكه إلى خمسين سنة بعمل السيوف والدروع وسائر الأسلحة وآلة الصنّاع من الحديد، ومن سنة خمسين من ملكه إلى سنة مائة بعمل الإبريسم وغزله والقطن والكتان وكل ما يستطيع غزله وحياكة ذلك وصيغه ألواناً وليسه، ومن سنة مائة إلى سنة خمسين ومائة صنف الناس أربع طبقات: طبقة مقاتلة، وطبقة فقهاء، وطبقة كتاب وصنّاع، وطبقة حراثين، واتخذ منهم خدماً، ووضع لكل أمر خاتماً مخصوصاً به، فكتب على خاتم الحرب: الرفق والمداراة، وعلى خاتم الخراج: العمارة والعدل وعلى خاتم البريد والرسول: الصدق والأمانة، وعلى خاتم المظالم: السياسة والانتصاف، وبقيت رسوم تلك الخواتيم حتى محابها الإسلام.

ومن سنة مائة وخمسين إلى سنة خمسين ومائتين حارب الشياطين وأذلهم وقهرهم وسخرُوا له، ومن سنة خمسين ومائتين إلى سنة ست عشرة وثلاثمائة وكل الشياطين بقطع الأحجار والصخور من الجبال وعمل الرخام والجص والكلس والبناء بذلك الحمامات والنقل من البحار والجبال والمعادن والذهب (٦٥/١) والفضة وسائر ما يذاب من الجواهر وأنواع الطيب والأدوية، فنقدوا في ذلك بأمره، ثم أمر فصنعت له عجلة من الزجاج، فاصفد فيها الشياطين وركبها وأقبل عليها في الهواء من ذنباوند إلى بابل في يوم واحد، وهو يوم هرمزوز وافروز دين ماه، فاتخذ الناس ذلك اليوم عيداً وخمسة أيام بعده. وكتب إلى الناس في اليوم السادس يخبرهم أنه قد سار فيهم بسيرة ارتضاها الله، فكان من جزائه إتياء عليها أنه قد جنبهم الحر والبرد والأسقام والهرم والحسد، فمكث الناس ثلاثمائة سنة بعد الثلاثمائة والست عشرة سنة لا يصيهم شيء مما ذكر.

ثم بنى قنطرة على دجلة فبقيت دهرأ طويلاً حتى خربها الإسكندر، وأراد الملوك عمل مثلها فعجزوا فعدلوا إلى عمل الجسور من الخشب. ثم إن جمّاً بطر نعمة الله عليه وجمع الإنس والجن والشياطين وأخبرهم أنه ولهم ومسانعهم بقوة من الأسقام والهرم والموت، وتمادي في غيّه، فلم يحر أحد منهم جواباً، وفقد مكانه بهاء وعزّه وتخلّت عنه الملائكة الذين كان الله أمرهم بسياسة أمره. فاحسّ بذلك بيوراسب الذي تسمّى الضحّاك فابتدر إلى جم ليتنسه، فهرب منه، ثم ظفّر به بعد ذلك بيوراسب فاستطرد أمعاءه وأشره بمنشار.

وقيل: إنه ادّعى الربوبية فوثب عليه أخوه ليقتله، واسمه اسفغور،

يُرْفَع وأعلمهم أن الله سوف يعذب ولد قابيل ومن خالطهم، ونهاهم عن مخالطتهم، وإنه كان أول من ركب الخيل لأنه سلك رسم أبيه حنوخ في الجهاد، ثم نكح متوشلخ عريا ابنة عزازيل بن أنوشيل بن حنوخ بن قين، وهو ابن مائة سنة وسبع وثلاثين سنة، فولدت له لَمَك بن متوشلخ، فعاش بعدما وُلد له لَمَك سبع مائة سنة، ووُلد له بنون وبنات، فكان كل ما عاش متوشلخ تسعمائة سنة وسبعاً وعشرين سنة ثم مات وأوصى إلى ابنه لَمَك، فكان لَمَك يحفظ قومه وينهاهم عن مخالطة ولد قابيل، فلم يقبلوا حتى نزل إليهم جميع من كان معهم في الجبل.

وقيل: كان لمتوشلخ ابن آخر غير لَمَك يقال له صابي، وبه سُمّي الصابئون.

(قلت: محوّل بحاء مهملة، وياء معجمة باثنتين من تحت. وقين بقاء، وياء معجمة باثنتين من تحت. ومتوشلخ بفتح الميم، وبالثاء المعجمة باثنتين من فوق، وبالشين المعجمة، وبحاء مهملة، وقيل خاء معجمة). (٦٣/١)

ونكح لَمَك بن متوشلخ قينوش ابنة براكيل بن محوّل بن حنوخ بن قين، وهو ابن مائة سنة وسبع وثمانين سنة، فولدت له نوح بن لَمَك، وهو النبي، فعاش لَمَك بعد مولد نوح خمسمائة سنة وخمسة وتسعين سنة ووُلد له بنون وبنات ثم مات. ونكح نوح بن لَمَك عذرة بنت براكيل بن محوّل بن حنوخ بن قين، وهوابن خمسمائة سنة، فولدت له ولده ساماً وحاماً ويافت بني نوح، وكان مولد نوح بعد موت آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة ولما أدرك قال له أبوه لَمَك: قد علمت أنه لم يبق في هذا الجبل غيرنا فلا تستوحش ولا تتبع الأمة الخاطئة. وكان نوح يدعو قومه ويعظهم فيستخفون به.

وقيل: كان نوح في عهد بيوراسب وكانوا قومه فدعاهم إلى الله تسعمائة وخمسين سنة كلياً مضى قرن اتبعهم قرن على ملّة واحدة من الكفر حتى أنزل الله عليهم العذاب.

وقال ابن عباس فيما رواه ابن الكلبي عن أبي صالح عنه: فولد لَمَك نوحاً، وكان له يوم وُلد نوح اثنتان وثمانون سنة، ولم يكن في ذلك الزمان أحد ينهى عن مُنكر، فبعث الله إليهم نوحاً وهو ابن أربع مائة وثمانين سنة فدعاهم مائة وعشرين سنة ثم أمره الله بصنعة الفلك فصنعها وركبها وهو ابن ستّمائة سنة وغرق من غرق ثم مكث من بعد السفينة ثلاثمائة سنة وخمسين سنة.

وروي عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلّهم على ملّة الحق، وأن الكفر بالله حدث في القرن الذي بعث فيه إليهم نوح، فأرسله الله، وهو أول نبيّ بعث بالإنذار والدّعاء إلى التوحيد؛ وهو قول ابن عباس وقادة. (٦٤/١)

والعمل بما أمر الله تعالى، وأرسل نوح، وهو ابن خمسين سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

فتورى عنه مائة سنة، فخرج عليه في توراهه بيوراسب فغلبه على ملكه. (٦٦/١)

وقال عون بن أبي شاذان: إن الله تعالى أرسل نوحاً وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم عاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل غير ذلك، وقد تقدم.

وقيل: كان ملكه سبعمائة سنة وست عشرة سنة وأربعة أشهر. قلت: وهذا الفصل من حديث جم قد أثبتنا به تماماً بعد أن كنا عازمين على تركه لما فيه من الاشياء التي تجمعها الأسماع وتابها العقول والطباع، فإنها من خرافات الفرس مع أشياء آخر قد تقدمت قبلها، وإنما ذكرناها ليعلم جهل الفرس، فإنهم كثيراً ما يشنعون على العرب بجهلهم وما بلغوا هذا، ولأننا لو كنا تركنا هذا الفصل لخلا من شيء نذكره من أخبارهم. (٦٧/١)

ذكر الأحداث التي كانت في زمن نوح عليه السلام

قد اختلف العلماء في ديانة القوم الذين أرسل إليهم نوح، فمنهم من قال إنهم كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله تعالى من ركوب الفواحش والكفر وشرب الخمر والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله. ومنهم من قال: إنهم كانوا أهل طاعة. وبيوراسب أول من أظهر القول بمذهب الصابئين وتبعه على ذلك الذين أرسل إليهم نوح، وسنذكر أخبار بيوراسب فيما بعد.

وأما كتاب الله، قال: فينطق بأنهم أهل أوثان؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾. [نوح: ٢٣، ٢٤]

قلت: لا تناقض بين هذه الأقاويل الثلاثة، فإن القول الحق الذي لا يُشك فيه هو أنهم كانوا أهل أوثان يعبدونها، كما نطق به القرآن، وهو مذهب طائفة من الصابئين، فإن أصل مذهب الصابئين عبادة الروحانيين، وهم الملائكة لتقربهم إلى الله تعالى زلفى، فإنهم اعترفوا بصانع العالم وأنه حكيم قادر مقدس، إلا أنهم قالوا الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى معرفة جلاله وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة لديه، وهم الروحانيون، (٦٨/١) وحيث لم يعاينوا الروحانيين تقربوا إليهم بالهياكل، وهي الكواكب السبعة السيارة لأنها مدبرة لهذا العالم عندهم، ثم ذهبت طائفة منهم، وهم أصحاب الأشخاص، حيث رأوا أن الهياكل تطلع وتغرب وترى ليلاً ولا ترى نهاراً، إلى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها إلى الهياكل، والهياكل إلى الروحانيين، والروحانيون إلى صانع العالم؛ فهذا كان أصل وضع الأصنام أولاً، وقد كان أخيراً في العرب من هو على هذا الاعتقاد، وقال تعالى: ﴿مَّا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. [الزمر: ٣] فقد حصل من عبادة الأصنام مذهب الصابئين والكفر والفواحش وغير ذلك من المعاصي.

فلما تمادى قوم نوح على كفرهم وعصيانهم بعث الله إليهم نوحاً يحذرهم بأسه ونقمته ويدعوهم إلى التوبة والرجوع إلى الحق

قال ابن إسحاق وغيره: إن قوم نوح كانوا يبطشون به فيخفونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لي ولقومي فإنهم لا يعلمون! حتى (٦٩/١) إذا تمادوا في معصيتهم وعظمت منهم الخطيئة وتناول عليه وعليهم الشان اشتد عليه البلاء وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي كان قبله حتى إن كان الآخر ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً، وكان يضرب ويلف ويلقى في بيته، يرون أنه قد مات، فإذا أفاق اغتسل وخرج إليهم يدعوهم إلى الله، فلما طال ذلك عليه ورأى الأولاد شرّاً من الآباء قال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن تك لي فيهم حاجة فاهديهم، وإن يك غير ذلك فصيرني إلى أن تحكم فيهم. فأوحى إليه: إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلما ينس من إيمانهم دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾، [نوح: ٢٦] إلى آخر القصة. فلما شكى إلى الله واستصره عليهم، أوحى الله إليه أن: ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخَافِ زَيْفِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ﴾. [هود: ٣٧] فأقبل نوح على عمل الفلك ولها عن دعاء قومه وجعل يهوى عتاد الفلك من الخشب والحديد والقر وغيرهما مما لا يصلحه سواه، وجعل قومه يمسرون به وهو في عمله فيسخرون منه، فيقول: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. [هود: ٢٨] قال: ويقولون: يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوة! وأعظم الله أرحام النساء فلا يولد لهم، وصنع الفلك من خشب الساج وأمره أن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً.

وقال (٧٠/١) قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً.

وقال الحسن: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، والله أعلم.

وأمر نوحاً أن يجعله ثلاث طبقات: سفلى ووسطى وعليا، ففعل نوح كما أمره الله تعالى، حتى إذا فرغ منه وقد عهد الله إليه ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وقد جعل التنور آية فيما بينه وبينه. فلما فار التنور، وكان فيما قبل من حجارة كان لحواً. وقال ابن عباس: كان ذلك تنوراً من أرض الهند.

وقال مجاهد والشعبي: كان التنور بأرض الكوفة، وأخبرته زوجته

وبنات، فلم يبق إلا نوح ومن معه وإلا عوج بن عتي، فيما زعم أهل التوراة، وكان بين إرسال الماء وبين أن غاض ستة أشهر وعشر ليال.

قال ابن عباس: أرسل الله المطر أربعين يوماً، فأقبلت الوحش حين أصابها المطر والطين إلى نوح وسُخِرَتْ له، فحمل منها كما أمره الله، فركبوا فيها عشر ليال مضين من رجب وكان ذلك لثلاث عشرة خلت من آب، وخرجوا منها يوم عاشوراء من المحرم، فلذلك

صام من صام يوم عاشوراء. وكان الماء نصفين: نصف من السماء ونصف من الأرض، وطافت السفينة بالأرض كلها لا تستقر حتى أتت الحرم فلم تدخله، ودارت بالحرم أسبوعاً ثم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودي، وهو جبل يقرى بأرض الموصل، فاستقرت عليه، فقبل عند ذلك: ﴿بَعْدَ لَقُومِ الظَّالِمِينَ﴾

، [هود: ٤٤] (٧٣/١) ولما استقرت قيل: ﴿يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَآلِكِ وَيَا سَمَاءُ اقْلُغِي، وَغِيضَ الْمَاءِ﴾، [هود: ٤٤] نشفته الأرض، وأقام نوح في الفلك إلى أن غاض الماء، فلما خرج منها اتخذ بناحية من قُرْدَى من أرض الجزيرة موضعاً وابتنى قرية سموها ثمانين، وهي الآن تسمى بسوق الثمانين لأن كل واحد ممن معه بنى لنفسه بيتاً، وكانوا ثمانين رجلاً.

قال بعض أهل التوراة: لم يولد لنوح إلا بعد الطوفان، وقيل: إن ساماً وُلِدَ قبل الطوفان ثمان وتسعين سنة، وقيل: إن اسم ولده الذي أغرق كان كنعان وهو يام.

وأما المجوس فإنهم لا يعرفون الطوفان ويقولون لم يزل الملك فينا من عهد جيومرت، وهو آدم، قالوا: ولو كان كذلك لكان نسب القوم قد انقطع وملكهم قد اضمحل، وكان بعضهم يقر بالطوفان ويزعم أنه كان في إقليم بابل وما قرب منه، وأن مساكن ولد جيومرت كانت بالمشرق فلم يصل ذلك إليهم، وقول الله تعالى أصدق في أن ذرية نوح هم الباقون فلم يعقب أحد ممن كان معه في السفينة غير ولده سام وحام ويافث.

ولما حضرت نوحاً الوفاة قيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. وأوصى إلى ابنه سام وكان أكبر ولده. (٧٤/١)

ذكر يوراسب وهو الازدهاق

الذي يسميه العرب الضحّاك

وأهل اليمن يدعون أن الضحّاك منهم، وأنه أول الفراعنة، وكان ملك مصر لما قدمها إبراهيم الخليل، والفرس تذكر أنه منهم وتنسبه إليهم وأنه يوراسب بن أروانداسب بن رينكار بن ونذرشتك بن يارين بن فروال بن سيامك بن ميثي بن جيومرت، ومنهم من ينسبه غير هذه النسبة، وزعم أهل الأخبار أنه ملك الأقاليم السبعة، وأنه كان

بفوران الماء من التور، وأمر الله جبرائيل فرفع الكعبة إلى السماء الرابعة، وكانت من ياقوت الجنة، كما ذكرناه، وخبأ الحجر الأسود بجبل أبي قيس، فبقى فيه إلى أن بنى إبراهيم البيت فأخذه فجعله موضعه. ولما فار التور حمل نوح من أمر الله بحمله، وكانوا أولاده الثلاثة: سام وحام ويافث ونسأهم وستة أناسي، فكانوا مع نوح [ثلاثة] عشر.

وقال ابن عباس: كان في السفينة ثمانون رجلاً، أحدهم جرهم، كلهم بنو شيث.

وقال قتادة: كانوا ثمانية أنفس: نوح وامراته وثلاثة بنوه ونسأولهم.

وقال الأعمش: كانوا سبعة، ولم يذكر فيهم زوج نوح. وحمل معه جسد آدم ثم أدخل ما أمر الله به من الدواب، وتخلف عنه ابنه يام، وكان كافراً، (٧١/١) وكان آخر من دخل السفينة الحمار، فلما دخل صدره تعلق إبليس بذنبه فلم ترتفع رجلاه، فجعل نوح يأمره بالدخول فلا يستطيع حتى قال: ادخل وإن كان الشيطان معك. فقال كلمة زلت على لسانه، فلما قالها دخل الشيطان معه، فقال له نوح: ما أدخلك يا عدو الله؟ فقال: ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك؟ فتركه. ولما أمر نوح بإدخال الحيوان السفينة قال: أي رب كيف أصنع بالأسد والبقرة؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب والطير والهر؟ قال: الذي ألقى بينها العداوة هو يولّف بينها. فآلقى الحصى على الأسد وشغله بنفسه، ولذلك قيل:

وَمَا الْكَلْبُ مَحْمُومًا وَإِنْ طَالَ عَمْرُهُ وَلَكِنَّمَا حُمِيَ عَلَى الْأَسَدِ الرَّوْدُ وجعل نوح الطير في الطبق الأسفل من السفينة، وجعل الوحش في الطبق الأوسط، وركب هو ومن معه من بني آدم في الطبق الأعلى. فلما إطمأن نوح في الفلك وأدخل فيه كل من أمر به، وكان ذلك بعد ستمائة سنة من عمره في قول بعضهم، وفي قول بعضهم ما ذكرناه، وحمل معه من حمل، جاء الماء كما قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾. [القمر: ١١، ١٢] فكان بين أن أرسل الماء وبين أن احتمل الماء الفلك أربعين يوماً وأربعون ليلة، وكثر واشتد وارتفع وطمي، وغطى نوح عليه وعلى من معه طبق السفينة، وجعلت الفلك تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه الذي هلك، (٧٢/١) وكان في معزل: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] وكان كافراً؛ ﴿قَالَ: سَأَوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَفْعِلُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، [هود: ٤٣] وكان عهد الجبال وهي حرز وملجأ. فقال نوح: ﴿لَا غَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعَ، وَخَالَ يَنْهَمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾. [هود: ٤٣] وعلا الماء على رؤوس الجبال، فكان على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً، فهلك ما على وجه الأرض من حيوان

ساحراً فاجراً.

يقول: إنه لقي سليمان بن داود، وحجسه سليمان في جبل ديباوند، وكان ذلك الزمان بالشام، فما برح بيوراسب بحجسه يجره حتى حمله إلى خراسان. فلما عرف سليمان ذلك أمر الجن فأتوه حتى لا يزول وعملوا عليه طلسماً كرجلين يدقان باب الغار الذي حبس فيه أبداً لتلا يخرج، فإنه عندهم لا يموت.

وهذا أيضاً من أكاذيب الفرس الباردة، ولهم فيه أكاذيب أعجب من هذا تركنا ذكرها.

وبعض الفرس يزعم أن أفريدون قتل يوم النيروز، فقال العجم عند قتله: إفرور نوروز، أي استقبلنا الدهر بيوم جديد، فاتخذوه عيداً. وكان أسره يوم المهرجان، فقال العجم: أمذ مهرجان لقتل من كان يذبح. وزعموا أنهم لم يسمعوا في أمور الضحاك بشيء يستحسن غير شيء واحد، وهو أن يلته لما اشتدت ودام جوره وتراسل الوجوه في أمره فاجمعوا على النصير إلى بابه فوافاه الوجوه، فاتفقوا على أن يدخل عليه كابي الأصهباني، فدخل عليه ولم يسلم، فقال: أيها الملك أي السلام أسلم عليك؟ سلام من يملك الأقاليم كلها أم سلام من يملك الأرض. فقال كابي: إذ كنت تملك الأقاليم كلها فلم خصصنا بالثقال وأسبابك من بينهم ولم لا تقسم الأمور بيننا وبينهم؟ وعذد عليه أشياء كثيرة، فصدقه، فعمل كلامه في الضحاك، فأقر بالإساءة وتآلف القوم ووعدهم بما يحبون وأمرهم بالانصراف ليعودوا ويقضي حوائجهم ثم ينصرفوا إلى بلادهم.

وكانت أمة حاضرة تسمع معاتبتهم، وكانت شرأ منه، فلما خرج القوم دخلت مغتاضة من احتماله وحلمه عنهم فوبخته وقالت له: ألا اهلكهم وقطعت أيديهم؟ فلما أكثر عليه قال لها: يا هذه لا تفكري في شيء إلا وقد سبقك إليه، إلا أن القوم بذهوني بالحق وقرعوني به فكلما هممت بهم تخيل لي الحق بمنزلة الجبل بيني وبينهم فما أمكنتي فيهم شيء. ثم جلس لأهل النواحي فوفى لهم بما وعدهم وقضى أكثر حوائجهم.

وقال بعضهم: كان ملكه ستمائة سنة، وكان عمره ألف سنة، وأنه كان في باقي عمره شيئاً بالملك لقدرته ونفوذه أمره، وقيل: كان ملكه ألف سنة ومائة سنة.

وإنما ذكرنا خبر بيوراسب هاهنا لأن بعضهم يزعم أن نوحاً كان في زمانه، وإنما أرسل إليه وإلى أهل مملكته. وقيل: إنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة صور ومدينة دمشق. (٧٨/١)

ذكر ذرية نوح، عليه السلام

قال النبي، ﷺ، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] إنهم سام وحام وياث. وقال وهب بن منبه: إن سام

قال هشام بن الكلبي: ملك الضحاك بعد جم فيما يزعمون، والله أعلم، ألف سنة، ونزل السواد في قرية يقال لها بؤرس في ناحية طريق الكوفة، وملك الأرض كلها، وسار بالجور والعسف، ووسط يده في القتل، وكان أول من سن الصلب والقطع، وأول من وضع العشور وضرب الدراهم، وأول من غنى وغنى له.

قال: وبلغنا أن الضحاك هو نمروذ، وأن إبراهيم، عليه السلام، ولد في زمانه، وأنه صاحبه الذي أراد إحقاقه. وتزعم الفرس أن الملك لم يكن إلا للطن الذي منه أوشتهنج وخم وطهمورث، وأن الضحاك كان غاضباً، وأن غضب أهل الأرض بسحره وخبثه وهول عليهم بالحيثين اللتين كانتا على منكبيه. (٧٥/١)

وقال كثير من أهل الكتب: إن الذي كان على منكبيه كان لحمتين طويلتين كل واحدة منهما كراس الثعبان، وكان يسترهما بالثياب، ويذكر على طريق التهويل أنهما حيتان تقتضيان الطعام، وكانتا تتحركان تحت ثوبه إذا جاعتا، ولقي الناس منه جهداً شديداً، وذبح الصبيان لأن اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه كانتا تضطريان فإذا طلاههما بدماع إنسان سكنتا، فكان يذبح كل يوم رجلين، فلم يزل الناس كذلك حتى إذا أراد الله هلاكه وثب رجل من العامة من أهل أصبهان يقال له كابي بسبب ابنتين له أخذهما أصحاب بيوراسب بسبب اللحمتين اللتين على منكبيه، وأخذ كابي عصاً كانت بيده فعلق بطرفها جراباً كان معه ثم نصب ذلك كالعلم ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب ومحاربتة. فأسرع إلى إجابته خلق كثير لما كانوا فيه من البلاء وفنون الجور. فلما غلب كابي تفاءل الناس بذلك العلم فعظموه وزادوا فيه حتى صار عند ملوك العجم علمهم الأكبر الذي يتركون به وسوءه ذرفش كايان، فكأنوا لا يسرونه إلا في الأمور الكبار العظام، ولا يرفع إلا لأولاد الملوك إذا وجها في الأمور الكبار.

وكان من خبر كابي أنه من أهل أصبهان، فثار بمن اتبعه، فالتفت الخلائق إليه. فلما أشرف على الضحاك ذفف في قلب الضحاك منه الرعب فهرب عن منزله وخلق مكانه. فاجتمع الأعصاب إلى كابي، فأعلمهم أنه لا يتعرض للملك لأنه ليس من أهلهم، وأمرهم أن يملكو بعض ولد جم لأنه ابن الملك أوشتهنج الأكبر بن فتروال الذي رسم الملك وسبق في القيام به. وكان أفريدون (٧٦/١) ابن أثنيان مستخفياً من الضحاك، فوافي كابي ومن معه، فاستبشروا بموافاته فملكوه، وصار كابي والوجه لأفريدون أعواناً على أمره. فلما ملك وأحكم ما احتاج إليه من أمر الملك احتوى على منازل الضحاك وسار في أثره فأسره بديباوند في جبالها.

وبعض المجوس تزعم أنه وكل به قوماً من الجن، وبعضهم

قال هشام بن الكلبي: السند والهند بنو توفير بن يقطن بن غابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح، وجُرْهُم من ولد يقطن بن غابر. وحضرموت ابن يقطن، ويقطن هو قحطان في قول مَنْ نسبته إلى غير إسماعيل. والبربر من ولد ثميل بن مارب بن فاران بن عمرو بن عمليق بن لاد بن سام بن نوح ما خلا صنهاجة وكنانة، فإنهما بنو فريقت بن صيفي بن سبأ.

وأما يافث فمن ولده جامر وموع ومورك ويوان وفوسا وماشج وتيرش، فمن ولد جامر ملوك فارس في قول، ومن ولد تيرش الترك والخزر، ومن ولد ماشج الاشبان، ومن ولد موع أجوج وماجوج، ومن ولد يوان الصقالبة وبرجان. والاشبان كانوا في القديم بأرض الروم قبل أن يقع بها من وقع من ولد العيص بن اسحاق وغيرهم. وقصد كل فريق من هؤلاء الثلاثة سام وحام وسافث أرضاً فسكنوها ودفعوا غيرهم عنها. ومن (٨١/١) ولد يافث الروم، وهم بنو لنطي بن يونان بن يافث بن نوح.

وأما حام فولد له كوش ومصريم وقوط وكنعان، فمن ولد كوش نمرود ابن كوش، وقيل: هو من ولد سمام، وصارت بقية ولد حام بالسواحل من النوبة والحبيشة والزنج، ويقال: إن مصريم ولد القبط والبربر.

وأما قوط فقبل إنه سار إلى الهند والسند فنزلها وأهلها من ولده.

وأما الكنعانيون فلحق بعضهم بالشام ثم جاءت بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوه عنها وصار الشام لبني إسرائيل. ثم وثبت الروم على بني إسرائيل فأجلوهم عن الشام إلى العراق إلا قليلاً منهم. ثم جاءت العرب فغلبوا على الشام. وكان يقال لعاد عاد إرم، فلما هلكوا قيل لثمود ثمود إرم. قال:

وزعم أهل التوراة أن أرفخشذ ولد لسام بعد أن مضى من عمر سام مائة سنة وستان، وكان جميع عمر سام ستمائة سنة.

ثم ولد لأرفخشذ قينان بعد أن مضى من عمر أرفخشذ خمس وثلاثون سنة، وكان عمره أربعمئة وثمانياً وثلاثين سنة. ثم ولد لقينان شالخ بعد أن مضى من عمره تسع وثلاثون سنة، ولم تذكر مدة عمر قينان في الكتب لما ذكرنا من سحره. ثم ولد لشالخ غابر بعدما مضى من عمره ثلاثون سنة، وكان عمره كله أربعمئة وثلاثاً وثلاثين سنة. ثم ولد لغابر فالغ وأخوه قحطان، وكان مولد فالغ بعد الطوفان بمائة وأربعين سنة، وكان عمره أربعمئة وأربعاً وسبعين سنة. ثم ولد لفسالغ أرغو بعد ثلاثين سنة من عمر فالغ، وكان عمره (٨٢/١) مائتين وتسعاً وثلاثين سنة. وولد لأرغو ساروغ بعدما مضى من عمره اثنتان وثلاثون سنة، وكان عمره مائتين وتسعاً وثلاثين سنة. وولد لساروغ ناخور بعد ثلاثين سنة من عمره، وكان عمره كله مائتين وثلاثين سنة. ثم ولد لناخور تارخ أبو إبراهيم بعدما مضى من عمره سبع وعشرون

بن نوح أبو العرب وفارس والروم، وإن حاماً أبو السودان، وإن يافث أبو الترك وأجوج وماجوج. وقيل: إن القبط من ولد قوط بن حام، وإنما كان السواد في نسل حام لأن نوحاً نام فأنكشت سواته فرأها حام فلم يغطها ورأها سام ويافث فآلفيا عليه ثوباً، فلما استيقظ علم ما صنع حام وإخوته فدعا عليهم.

قال ابن إسحاق: فكانت امرأة سام بن نوح صلب ابنة بتاول بن محويل ابن حانوخ بن قين بن آدم فولدت له نغراً: أرفخشذ واسود ولاود وإرم. قال: ولا أدري أرم لأم أرفخشذ وإخوته أم لا. فمن ولد لاود بن سام فارس وجرجان وطسم وعمليق، وهو أبو العماليق، ومنهم كانت الجبارة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون، والفراعنة بمصر، وكان أهل البحرين وعمان منهم ويسمون جاشم. وكان منهم بنو أميم بن لاود أهل وبار بأرض الرمل، وهي بين اليمامة والشحر، وكانوا قد كثروا فأصابهم نقمة من الله من معصية أصابوها فهلكوا وبقيت منهم بقية، وهم الذين يقال لهم النسناس، وكان طسم ساكني اليمامة إلى البحرين، فكانت طسم والعماليق وأميم وجاشم قوماً عرباً لسانهم عربي، ولحقت عيل يثرب قبل أن تبنى. ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن (٧٩/١) تسمى صنعاء. وانحدر بعضهم إلى يثرب فاخرجوا منها عيلاً فنزلوا موضع الجحفة، فأقبل سبل فاجتفهم، أي أهلكهم، فسُميت الجحفة.

قال: وولد إرم بن سام عوضاً وغائراً وحويلاً، فولد عوض غائراً وعاداً وعيلاً، وولد غائر بن إرم ثمود وجديساً، وكانوا عرباً يتكلمون بهذا اللسان المصري. وكانت العرب تقول لهذه الأمم ولجُرْهُم العرب العاربة. ويقولون لبني إسماعيل العرب المتعربة لأنهم إنما تكلموا بلسان هذه الأمم حين سكنوا بين أظهرهم. فكانت عاد بهذا الرمل إلى حضرموت. وكانت ثمود بالججر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. ولحقت جديس بطسم وكانوا معهم باليمامة إلى البحرين، واسم اليمامة إذ ذاك جؤ. وسكنت جاشم عمان. والنبط من ولد نبط بن ماش بن إرم بن سام. والفرس بنو فارس بن تيرش بن ماسور بن سام.

قال: وولد لأرفخشذ بن سام ابنه قينان، كان ساحراً، وولد لقينان شالخ بن أرفخشذ من غير ذكر قينان لما ذكر من سحره. وولد لشالخ غابر، ولغابر فالغ، ومعناه القاسم، لأن الأرض قُسمت والألسن تلبلت في إيامه، وقحطان بن غابر، فولد لقحطان يعرب ويقظان، فنزلا اليمن، وكان أول من سكن اليمن وأول من سلم عليه بأبيت اللعن. وولد لفالغ بن غابر (٨٠/١) أرغو، وولد لأرغو ساروغ، وولد لساروغ ناخور، وولد لناخور تارخ، واسمه بالعربية آزر. وولد لآزر إبراهيم، عليه السلام. وولد لأرفخشذ أيضاً نمرود، وقيل هو نمرود بن كوش بن حام بن نوح.

سنة، وكان عمره كله مائتين وثمانياً وأربعين سنة. ووُلد لتارخ، وهو آزر، إبراهيم، عليه السلام. وكان بين الطوفان ومولد إبراهيم ألف سنة ومائتا سنة وثلاث وستون سنة، وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة. ووُلد لقحطان بن غابر يُعْرَب، فولد لعرب يُشَجِب، فولد يشجب سبأ، فولد سبأ جُمَيْر وكَهْلان وعَمْرَأ والأشعر وأنمار ومَرَأ، فولد عمرو بن سبأ عدياً، وولد عدي لَحْمَأ وجُدَامَأ. (٨٣/١)

ذكر ملك أفريدون

وهو أفريدون بن اثنيان، وهو من ولد جَم شيد. وقد زعم بعض نسابة الفرس أنَّ نوحاً هو أفريدون الذي قهر الضحَّاك وسلبه ملكه، وزعم بعضهم أنَّ أفريدون هو ذو القرنين صاحب إبراهيم الذي ذكره الله في كلامه العزيز، وإنَّما ذكرته في هذا الموضع لأنَّ قصته في أولاده الثلاثة شبيهة بقصة نوح على ما سيأتي ولحسن سيرته وهلاك الضحَّاك على يديه ولأنه قيل إنَّ هلاك الضحَّاك كان على يد نوح.

وأما باقي نسابة الفرس فليسبون أفريدون إلى جم شيد الملك، وكان بينهما عشرة آباء كلُّهم يسمَّى اثنيان خوفاً من الضحَّاك، وإنَّما كانوا يتميِّزون باللقاب لِقَبوها، فكان يقال لأحدهم اثنيان صاحب البقر الحمر واثنيان صاحب البقر البلق وأنشبه ذلك، وكان أفريدون أول من ذلَّ الفيلة وامتطأها ونسج الغلال واتخذ الإوز والحمام وعمل الترياق وردَّ المظالم وأمر النَّاس بعبادة الله والإنصاف والإحسان، وردَّ على النَّاس ما كان الضحَّاك غصبه من الأرض وغيرها إلَّا ما لم يجد له صاحباً فإنه وقفه على المساكين.

وقيل: إنه أول من سَمَّى الصوفي، وهو أول من نظر في علم الطب. وكان له ثلاثة بنين، اسم الأكبر شرم، والثاني طُوج، والثالث إيرج، فخاف أن يختلوا بعده فقسم ملكه بينهم أثلاثاً وجعل ذلك في سهام كتب (٨٤/١) أسماءهم عليها وأمر كلَّ واحد منهم فأخذ سهماً، فصارت الروم وناحية العرب لشرم، وصارت الترك والصين لطوج، وصارت العراق والسند والهند والحجاز وغيرها لإيرج، وهو الثالث، وكان يحبه، وأعطاه التاج والسرير، ومات أفريدون ونشبت العداوة بين أولاده وأولادهم من بعدهم، ولم يزل التحاسد ينمو بينهم إلى أن وثب طوج وشرم على أخيهما إيرج فقتلاه وقتلا ابنين كانا لإيرج وملكا الأرض بينهما ثلاثمائة سنة. ولم يزل أفريدون يتبع من بقي بالسواد من آل نمرود والنبط وغيرهم حتى أتى على وجوههم ومحا أعلامهم، وكان ملكه خمسمائة سنة. (٨٥/١)

ذكر الأحداث التي كانت بين نوح وإبراهيم

قد ذكرنا ما كان من أمر نوح وأمر ولده واقتسامهم الأرض بعده

فأما عاد فهو عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، وهو عاد الأولي، وكانت مساكنهم ما بين الشَّحْر وعُصَان وحضرموت بالأحقاف، فكانوا جبارين طوال القامة لم يكن مثلهم، يقول الله تعالى: ﴿وَرَأَوْهُمُ كُفَّاءً إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] فأرسل الله إليهم هود بن عبدالله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوض، ومن النَّاس من يزعم أنه هود وهو غابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وكانوا أهل أوثان ثلاثة يقال لأحدها ضرا وللآخر ضمور وللثالث الهبا، فدعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة دون غيره وترك ظلم النَّاس، فكذبوه وقالوا: مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً! ولم يؤمن يهود منهم إلَّا قليل، وكان من أمرهم ما ذكره ابن إسحاق قال: إنَّ عاداً أصابهم قحط فتابع عليهم بتكذيبهم هوداً، فلما أصابهم قالوا: جهزوا منكم وفدًا إلى مكة يستسقون لكم، فبعثوا قَيْلَ بن عير (٨٦/١) ولَقَيْنَ بن هَزَال ومَرْثَدَ بن سعد، وكان مسلماً يكم إسلامه، وجُلُهمَة بن الخيرِي، خال معاوية بن بكر، ولقمان بن عاد بن فلان بن عاد الأكبر في سبعين رجلاً من قومهم، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر بظاهر مكة خارجاً عن الحرم، فأكرمهم، وكانوا أخواله وصهره لأنَّ لقيم بن هزال كان تزوج هزيلة بنت بكر أخت معاوية فأولدها أولاداً كانوا عند خالهم معاوية بمكة، وهم: عبيد وعمرو وعامر وعمير بنو لقيم، وهم عاد الآخرة التي بقيت بعد عاد الأولى، فلما نزلوا على معاوية أقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان، قيتان لمعاوية، فلما رأى معاوية طول مقامهم وتركهم ما أرسلوا له شقَّ عليه ذاك وقال: هلك أخوالي، واستحيا أن يأمر الوفد بالخروج إلى ما بُعثوا له، فذكر ذلك للجرادتين فقالتا: قلْ شعرا تغنيهم به لا يدرون من قائله لعلهم يتحركون، فقال معاوية:

الايما قيل ويحك فم فقيم لعل الله يصيخا غمنا
فبقي أرض عاد إن عاداً قد امسوا لا يبيرون الكلاما
في آيات ذكرها. والهيمنة: الكلام الخفي. فلما غتتهم الجرادتان ذلك الشعر وسمعه القوم قال بعضهم لبعض: يا قوم بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم فأبطلتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم. فقال مرثد بن سعد: إنهم والله لا يسقون بدعائكم ولكن أطيعوا نبيكم فاتم تسقون، وأظهر إسلامه عند ذلك. فقال جُلُهمَة بن الخيرِي، خال معاوية، لمعاوية بن بكر: أحبس عنا مرثد بن سعد. وخرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد، فدعوا الله تعالى لقومهم واستسقوا، فأنشأ الله سحاب ثلاثاً بيضاء وجمراً (٨٧/١) وسوداء ونادى مناد منها: يا قَيْل اختر لنفسك وقومك. فقال: قد اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر ماء، فدناه مناد: اخترت رساداً

ومما نوحدهم فهم ولد نوح بن جابر بن إرم بن سام، وكانت مساكن نوح بالحجر بين الحجاز والشام، وكانوا بعد عاد قد كثروا وكفروا وعتوا، فبعث الله إليهم صالح بن عبيد بن أيف بن ماشج بن عبيد بن جابر بن نوح، وقيل أسف بن كماشج بن أروم بن نوح يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ﴿فَقَالُوا: يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] وكان الله قد أطال أعمارهم حتى إن كان أحدهم يني البيت من المندر فينهدم وهو حي، فلما راوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا فارحين ففتحوها، وكانوا في سعة من معاشهم، ولم يزل صالح يدعوهم فلم يعبه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم بالدعاء والتحذير والتخويف سألوه فقالوا: يا صالح اخرج معنا إلى عيذاب، وكان لهم عبيد يخرجون إليه بأصنامهم، فأرانا آية فتدعو إلهك وتدعو ألهتنا فإن استجب لك اتبعناك وإن استجب لنا اتبعنا. فقال: نعم، فخرجوا بأصنامهم وصالح معهم، فدعوا أصنامهم أن لا يستجاب لصلح ما يدعو به، وقال له سيد قومه: يا صالح اخرج لنا من هذه الصخرة - لصخرة مفردة - ناقة جوفاء عشراء، فإن فعلت ذلك صدقناك. (٩٠/١)

فأخذ عليهم الموائيق بذلك وأتى الصخرة وصلى ودعا ربّه عز وجل فإذا هي تتمخض كما تتمخض الحامل ثم انفجرت وخرجت من وسطها الناقة كما طلبوا وهم ينظرون ثم نتجت سقبا مثلها في العظم، فأمن به سيد قومه، واسمه جندع بن عمرو، ورهط من قومه، فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ومتى عقرتموها أهلككم الله. فكان شربها يوما وشربهم يوما معلوما، فإذا كان يوم شربها خلوا بينها وبين الماء وحلبوها لبنها وملؤوا كل وعاء وإناء، وإذا كان يوم شربهم صرفوها عن الماء فلم تشرب منه شيئا وتزودوا من الماء للغد.

فأوحى الله إلى صالح أن قومك سيعفرون الناقة، فقال لهم ذلك، فقالوا: ما كنا لنفعل. قال: إلا تعفروها أنتم يوشك أن يولد فيكم مولود يعقروها. قالوا: وما علامته؟ فوالله لا نجده إلا قتلناه! قال: فإنه غلام أشقر أزرق أصهب أحمر. قال: فكان في المدينة شيخان عزيزان متبعان لأحدهما ابن رغب له عن المناكح وللآخر ابنة لا ينجد لها كفواً فزوج أحدهما ابنة بانية الآخر فولد بينهما المولود، فلما قال لهم صالح إنما يعقروها مولود فيكم اختاروا قوايل من القرية وجعلوا معهم شرطا يطوفون في القرية فإذا وجدوا امرأة تلد نظروا ولدها ما هو، فلما وجدوا ذلك المولود صرخ النسوة وقلن: هذا الذي يريد نبي الله صالح، فأراد الشرط أن يأخذوه فحال جداه بينهم وبينه وقالوا: لو أراد صالح هذا لقتلناه. فكان شر مولود وكان يشب في اليوم (٩١/١) شباب غيره في الجمعة، فاجتمع تسعة رهط منهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، كانوا قتلوا أبناهم حين ولدوا خوفاً أن يكون عاقر الناقة منهم، ثم تلمعوا فأقسموا ليقتلن صالحاً وأهله وقالوا:

رَمَدًا، لَا يُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا، لَا وَلَدًا تَرَكَ وَلَا وَالِدًا إِلَّا جَعَلْتَهُ هَيْدًا، إِلَّا بَنِي اللَّوْذِيَةِ الْمُهْدَى. وبنو اللوذية: بنو لقيم بن هزال، كانوا بمكة عند خالهم معاوية ابن بكر. وساق الله السحابة السوداء بما فيها من العذاب إلى عاد، فخرجت عليهم من واد يقال له المغيث، فلما راوها استبشروا بها وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرٌ﴾ يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥، ٢٤] أي كل شيء أمرت به. وكان أول من رأى ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها فهدد، فلما رأت ما فيها صاحت وصعقت، فلما أفادت قالوا: ماذا رايت؟ قالت: رايت ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها، فلما خرجت الريح من الوادي قال سبعة رهط منهم، أحدهم الخلجان: تعالوا حتى نقوم على شفير الوادي فنردها. فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم فتحمله فتدق عنقه، وبقي الخلجان فعال إلى الجبل وقال:

لَمْ يَنْقُ إِلَّا الْخَلْجَانُ نَفْسَهُ يَا لَكَ مِنْ يَوْمٍ دَعَانِي أَمْسُهُ بَشَلَتِ السَّوْطُ شَيْدِي وَطُطُ لَوْلَمْ يَجْشِي جَبُّهُ أَجْبُهُ فَقَالَ لَهُ هُودٌ: أَسْلَمْتَ تَسْلَمُ. فقال: وما لي؟ قال: الجنة. فقال: فما (٨٨/١) هؤلاء الذين في السحاب كلهم اليخت؟ قال: الملائكة. قال: أيعني ربك منهم إن أسلمت؟ قال: هل رايت ملكا يعيد من جنده؟ قال: لو فعل ما رزيت.

ثم جاءت الريح والحقته بأصحابه و﴿سَخَّرَهَا-اللَّهُ- عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، [الحاقة: ٧] كما قال تعالى. والحسوم: الدائمة. فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك، واعتزل هود والمؤمنون في حظيرة لم يصبه ومن معه [منها] إلا تلبين الجلود، وإنها لتمر من عاد بالظن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. وعاد وفد عاد إلى معاوية بن بكر فزولوا عليها، فأتاهم رجل على ناقة فأخبرهم بمصاب عاد وسلامة هود.

قال: وكان قد قيل للقمان بن عاد: اختر لنفسك إلا أنه لا سبيل إلى الخلود. فقال: يا رب أعطني عمرا. فقيل له: اختر. فاختر عمر سبعة أسر. فعمر فيما يزعمون عمر سبعة أسر، فكان يأخذ الفرخ الذكر حين يخرج من بيضته حتى إذا مات أخذ غيره، وكان يعيش كل سر ثمانين سنة، فلما مات السابح مات لقمان معه، وكان السابح يُسمى لبدا. قال: وكان عمر هود مائة وخمسين سنة، وقبره بحضرموت، وقيل بالحجر من مكة، فلما هلكوا أرسل الله طيرا سودا فقتلهم إلى البحر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ﴾. [الأحقاف: ٢٥] ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عنت (٨٩/١) على الخزنة، فذلك قوله: ﴿أَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. [الحاقة: ٦] وكانت الريح تقلع الشجرة العظيمة بعزوفها وتهدم البيت على من فيه.

فلمَّا أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم حمرة، فلمَّا أصبحوا في اليوم (٩٣/١) الثالث إذا وجوههم مسوفة كأنما طليت بالقار، فتكفَّوا وتحنطوا، وكان حنوطهم الصَّبر والمَرَم، وكانت أكفانهم الأنطاع، ثمَّ ألقوا أنفسهم إلى الأرض فجعلوا يقبِّلون أبصارهم إلى السماء والأرض لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلمَّا أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كالصاعقة، فتقطعت قلوبهم في صدورهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي بَيَّارِهِمْ جَائِعِينَ﴾، [هود: ٦٧] وأهلك الله من كان بين المشرق والغرب منهم إلا رجلاً كان في الحرم فمَنعه الحرم. قيل: ومن هو؟ قيل: هو أبو رغال، وهو أبو ثقيف في قول.

ولما سار النبي، ﷺ، إلى تبوك أتى على قرية ثمود فقال لأصحابه: لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها، وأراهم مرتقى الفصيل في الجبل وأراهم الفجَّ الذي كانت الناقة ترد منه الماء.

وأما صالح، عليه السلام، فإنه سار إلى الشام فنزل فلسطين ثمَّ انتقل إلى مكة فأقام بها يعبد الله حتى مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وكان قد أقام في قومه يدعوهم عشرين سنة.

وأما أهل التوراة فإنهم يزعمون أنه لا ذكر لعاد وهود وثمود وصالح في التوراة، قال: وأمرهم عند العرب في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم الخليل، عليه السلام.

قلت: وليس إنكارهم ذلك بأعجب من إنكارهم نبوة إبراهيم الخليل ورسالته، وكذلك إنكارهم حال المسيح، عليه السلام. (٩٤/١)

ذكر إبراهيم الخليل، عليه السلام

ومن كان في عصره من ملوك العجم

وهو إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروخ بن ارغو بن فالغ بن غابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام، واختلف في الموضع الذي كان فيه والموضع الذي وُلد فيه، فقيل: وُلد بالسوس من أرض الأهواز، وقيل: وُلد ببابل، وقيل: بكنوش، وقيل: بحرّان ولكن أباه تله. قال عامة أهل العلم: كان مولده في عهد نمrod بن كوش. ويقول عامة أهل الأخبار: إن نمrod كان عاملاً للآزدهاق الذي زعم بعض من زعم أن نوحاً أرسل إليه. وأما جماعة من سلف من العلماء فإنهم يقولون: كان ملكاً برأسه.

قال ابن إسحاق: وكان ملكه قد أحاط بمشارك الأرض ومغاريها، وكان ببابل. قال: ويقال: لم يجتمع ملك الأرض إلا لثلاثة ملوك: نمrod وذو القرنين وسليمان بن داود، وأضاف غيره إليهم

فخرج قترى الناس أننا نريد السفر فتأتي الغار الذي على طريق صالح فنكون فيه، فإذا جاء الليل وخرج صالح إلى مسجده قتلناه ثمَّ رجعنا إلى الغار ثمَّ انصرفنا إلى رحلتنا وقلنا ما شهدنا قتله فيصدقنا قومه. وكان صالح لا يبيت معهم، كان يخرج إلى مسجد له يُعرَف بمسجد صالح فبيت فيه، فلمَّا دخلوا الغار سقطت عليهم صخرة فقتلهم، فانطلق رجال ممن عرف الحال إلى الغار فأروهم هلكت، فعادوا يصيحون: إنَّ صالحاً أمرهم بقتل أولادهم ثمَّ قتلهم.

وقيل: إنما كان تقاسم التسعة على قتل صالح بعد عقر الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب، وذلك أنَّ التسعة الذين عقروا الناقة قالوا: تعالوا فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً عجلنا قتله، وإن كان كاذباً ألحقناه بالناقة، فأتوه ليلاً في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فهلكوا، فأتى أصحابهم فأروهم هلكت فقالوا لصالح: أنت قتلهم، وأرادوا قتله، فمَنعهم عشيرته وقالوا: إنه قد أنذركم العذاب، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ريبكم غضباً وإن كان كاذباً فنحن نسلمه إليكم، فعادوا عنه، فعلى القول الأوَّل يكون التسعة الذين تقاسموا غير الذين عقروا الناقة، والثاني أصح، والله أعلم.

وأما سبب قتل الناقة فقيل: إن قدار بن سالف جلس مع نفر يشربون الخمر فلم يقدروا على ماء يمزجون به خمرهم لأنَّه كان يوم شرب الناقة، فحرَّض بعضهم بعضاً على قتلها، وقيل: إنَّ ثموداً كان فيهم امرأتان يقال لإحدهما قطام وللأخرى قبال، وكان قدار يهوى قطام ومصدق يهوى قبال (٩٢/١) ويجتمعان بهما، ففي بعض الليالي قالتا لقدار ومصدق: لا سبيل لكما إلينا حتى تقتلا الناقة، فقالا: نعم، وخرجا وجمعا أصحابهما وقصدا الناقة وهي على حوضها، فقال الشقي لأحدهم: اذهب فاعقرها، فاتاهما فتعاطمه ذلك، فأضرب عنه، وبعث آخر فأعظم ذلك وجعل لا يبيح أحداً إلَّا تعاطمه قتلها حتى مشى هو إليها فتطاول فضرب عرقوبها فوقعت تركض، وكان قتلها يوم الأربعاء، واسمه بلغتهم جبار، وكان هلاكهم يوم الأحد، وهو عندهم أوَّل، فلمَّا قُتلت أتى رجل منهم صالحاً فقال: أدرك الناقة فقد عقرها، فأقبل وخرجوا يتلقونه يعتذرون إليه: يا نبي الله إنما عقرها فلان إنه لا ذنب لنا! قال: انظروا هل تتركون فصيلها؟ فإن أدركتموه فعسى الله أن يرفع عنكم العذاب. فخرجوا يطلبونه، ولما رأى الفصيل أمه تضطرب قصد جبلاً يقال له القارة قصيراً فصعده، وذهبوا يطلبونه، فأوحى الله إلى الجبل فظال في السماء حتى ما يناله الطير، ودخل صالح القرية، فلمَّا رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثمَّ استقبل صالحاً فرغاً ثلاثاً، فقال صالح: لكل رغبة أجل يوم ﴿تَمَتَّعُوا فِي ذَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ذَلِكَ وَغَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾، [هود: ٦٥] وآية العذاب أنَّ وجوهكم تصبح في اليوم الأوَّل مصفرة وتصبح في اليوم الثاني حمرة وتصبح في اليوم الثالث مسوفة. فلمَّا أصبحوا إذا وجوههم كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم،

بخت نصر، وسنذكر بطلان هذا القول.

فلما أراد الله أن يبعث إبراهيم حجة على خلقه ورسولاً إلى عباده ولم يكن فيما بينه وبين نوح نبي إلا هود وصالح، فلما تقارب زمان إبراهيم أتى أصحاب النجوم نمروذ فقالوا له: إنا نجد غلاماً يولد في قريتكم هذه يقال له إبراهيم يفارق دينكم ويكسر أصنامكم في شهر كذا من سنة كذا. فلما دخلت السنة التي ذكروا حبس نمروذ الجبالي عنده إلا أم إبراهيم فإنه لم يعلم بجبلها لأنه لم يظهر عليها أثره، فذبح كل غلام ولد في ذلك الوقت. (٩٥/١) فلما وجدت أم إبراهيم المطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت إبراهيم وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة ثم سعت إلى بيتها رابعة، ثم كانت تطالعه لتتظر ما فعل، فكان يشب في اليوم ما يشب غيره في الشهر، وكانت تجده حياً يمص إبهامه جعل الله رزقه فيها.

وكان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها فقالت: ولدت غلاماً فمات، فصدفها، وقيل: بل علم آزر بولادة إبراهيم وكنمه حتى نسي الملك ذكر ذلك، فقال آزر: إن لي ابناً قد خبأته أفتخافون عليه الملك إن أنا جئت به؟ فقالوا: لا. فانطلق فأخرجه من السرب، فلما نظر إلى الدواب وإلى الخلق، ولم يكن رأى قبل ذلك غير أبيه وأمه، جعل يسأل أباه عما يراه، فيقول أبوه: هذا بعير أو بقرة أو غير ذلك. فقال: ما لهؤلاء الخلق بد من أن يكون لهم رباً؟ وكان خروجه بعد غروب الشمس، فرفع رأسه إلى السماء فإذا هو بالكوكب وهو المشتري، فقال: هذا ربي. فلم يلبث أن غاب فقال: لا أحب الأفليين. وكان خروجه في آخر الشهر فلهذا رأى الكوكب قبل القمر.

وقيل: كان تفكر وعمره خمسة عشر شهراً، قال لأمه وهو في المغارة: أخرجيني انظر، فأخرجته عشاء فنظر فرأى الكوكب وتفكر في خلق السموات والأرض وقال في الكوكب ما تقدم، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ تَازَعَا قَالَا: هَذَا رَبِّي. فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لَئِنْ لَمْ يَهْتَدِ رَجُلِي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] فلما جاء النهار وطلعت الشمس رأى نوراً أعظم من كل ما رأى فقال: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ. فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَا: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨] ثم رجع إبراهيم إلى أبيه وقد عرف ربه وبرئ من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك، فأخبرته أمه بما كانت صنعت من كتمان حاله، فسره ذلك.

وكان آزر يصنع الأصنام التي يعبدونها ويعطيها لإبراهيم ليعبدها، فكان إبراهيم يقول: من يشري ما لا يضره ولا ينفعه؟ فلا يشتريها منه أحد، وكان يأخذها وينطلق بها إلى نهر فيصوب رؤوسها فيه ويقول: اشربوا! استهزاء بقومه، حتى فشا ذلك عنه في قومه، غير أنه لم يبلغ خبره نمروذ. فلما بدا لإبراهيم أن يدعو قومه إلى ترك ما هم عليه ويأمروهم بعبادة الله تعالى دعا أباه إلى التوحيد فلم يجبه، ودعا قومه

فقالوا: من تعبد أنت؟ قال: رب العالمين. قالوا: نمروذ؟ قال: بل أعبد الذي خلقتني. فظهر أمره. وبلغ نمروذ أن إبراهيم أراد أن يري قومه ضعف الأصنام التي يعبدونها ليلزمهم الحجة، فجعل يتوقع فرصة ينتهي بها ليفعل بأصنامهم ذلك، فنظر نظرة في النجوم فقال: إني سقيم، أي طعين، ليهربوا منه إذا سمعوا به، وإنما يريد إبراهيم ليخرجوا عنه ليلبع من أصنامهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه جميعهم. فلما خرجوا قال هذه المقالة فلم يخرج معهم إلى العيد وخالف إلى أصنامهم وهو يقول: ﴿قَالَهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧] فسمعه ضعفى الناس ومن هو في آخرهم، ورجع إلى الأصنام وهي في بهو عظيم بعضها إلى جنب (٩٧/١) بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهر وإذا هم قد جعلوا طعاماً بين يدي ألهتهم وقالوا: نترك الألهة إلى حين نرجع فتأكله. فلما نظر إبراهيم إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ فلما لم يجبه أحد قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ؟ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾، [الصفوات: ٩١، ٩٢، ٩٣] فكسرها بفأس في يده حتى إذا بقي أعظم صنم منها ربط الفأس بيده ثم تركه.

فلما رجع قومه وراوا ما فعل بأصنامهم راعهم ذلك وأعظموه وقالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قالوا: سَمِعْنَا قَتْلَ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِزْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٠] يعنون يسبها ويعيبها، ولم تسمع ذلك من غيره وهو الذي نظنه صنع بها هذا. وبلغ ذلك نمروذ وأشراف قومه، فقالوا: ﴿فَاتَّأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] ما نفعل به، وقيل: يشهدون عليه، كرهوا أن يأخذوه بغير بيته، فلما أتى به واجتمع له قومه عند ملكهم نمروذ وقالوا: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِزْرَاهِيمُ؟ قَالَ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، [الأنبياء: ٦٢، ٦٣] غضب من أن يعبدوا هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرها، فأرعوا ورجعوا عنه فيما ادعوا عليه من كسرها إلى أنفسهم فيما بينهم فقالوا: لقد ظلمناه وما نراه إلا كما قال. ثم قالوا، وعرفوا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبطش: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، (٩٨/١) أي لا يتكلمون، فتخبرنا من صنع هذا بها وما تبطش بالأيدي فتصدقك. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكْسِوْهُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ في الحجة عليهم لإبراهيم. فقال لهم إبراهيم عند قولهم ما هؤلاء ينطقون: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ! أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ أَفْلاً تَعْلَمُونَ؟﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]

ثم إن نمروذ قال لإبراهيم: أرايت إلهك الذي تعبد وتدعو إلى عبادته ما هو؟ قال: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. [البقرة: ٢٥٨] قال نمروذ: أنا أحيي وأميت. قال إبراهيم: وكيف ذلك؟ قال: آخذ رجلين قد استوجبا القتل فاقتل أحدهما فأكون قد أمته وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييته. فقال إبراهيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ

إبراهيم أم يعقوب، ولابان أبو ليا وراحيل زوجتي يعقوب. وأمّنت به سارة، وهي ابنة عمّه، وهي سارة ابنة هاران الأكبر عم إبراهيم، وقيل: كانت ابنة ملك حرّان فأمّنت بالله تعالى مع إبراهيم.

ذكر هجرة إبراهيم، عليه السلام، ومن آمن معه

ثم إن إبراهيم والذين اتبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم، فخرج مهاجراً حتى قدم مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى كان اسمه سنان بن (١٠١/١) علوان بن عبيد بن عولج بن عملاق بن لاوذه بن سام بن نوح، وقيل: كان أخا الضحّاك استعمله على مصر، وكانت سارة من أحسن النساء وجهاً، وكانت لا تعصي إبراهيم شيئاً، فلما وصفت لفرعون أرسل إلى إبراهيم فقال: مَنْ هذه التي معك؟ قال: اختي، يعني في الإسلام، وتخوف إن قال هي امرأتي أن يقتله. فقال له: زَيْنُهَا وأرسلها إليّ. فأمر بذلك إبراهيم، فترزّنت، وأرسلها إليه، فلما دخلت عليه أهوى بيده إليها، وكان إبراهيم حين أرسلها قام يصلي، فلما أهوى إليها أخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله ولا أضرك. فدعت له، فأرسل، فأهوى إليها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله ولا أضرك. فدعت له، فأرسل، ثم فعل ذلك الثالثة، فذكر مثل المرتين، فدعا أدنى حجّابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان وإنك أتيتني بشيطان! أخرجها وأعطها هاجر، ففعل، فأقبلت بهاجر، فلما أحسن إبراهيم بها افتتل من صلاته فقال: مهيم! فقالت: كفى الله كيد الكافرين وأخدم هاجر.

وكان أبو هريرة يقول: تلك أمكم يا بني ماء السماء. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث مرّات، اثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلِّغْ نَعْلَهُ كَبِيرَهُمْ هَذَا﴾، وقوله في سارة: هي اختي. (١٠٢/١)

ذكر ولادة إسماعيل، عليه السلام

وحمله إلى مكة

قيل: كانت هاجر جارية ذات هيئة فوهبتها سارة لإبراهيم وقالت: خذها لعل الله يرزقك منها ولداً، وكانت سارة قد بُعِثت الولد حتى استنت، فوقع إبراهيم على هاجر فولدت إسماعيل، ولهذا قال النبي ﷺ: إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً، فإنّ لهم ذمّةً ورجماً، يعني ولادة هاجر.

فكان إبراهيم قد خرج بها إلى الشام من مصر خوفاً من فرعون، فنزل السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط بالمؤتفة، وهي من السبع مسيرة يوم وليلة، فبعثه الله نبياً، وكان إبراهيم قد اتخذ بالسبع بئراً ومسجداً، وكان ماء البئر معيماً طاهراً، فأذاه أهل السبع فانتقل عنهم، فنضب الماء فاتبعوه يسألونه العود إليهم، فلم يفعل وأعطاهم سبعة

فأتى بها من المغرب. فبهت ﴿البقرة: ٢٥٨﴾ عند ذلك نمروود ولم يرجع إليه شيئاً. ثم إنه وأصحابه أجمعوا على [قتل] إبراهيم فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِبَتَكُمْ﴾. [الأنبياء: ٦٨]

قال عبد الله بن عمر: أشار بتحريقه رجل من أعراب فارس، قيل له: وللفرس أعراب؟ قال: نعم، الأكراد هم أعرابهم. قيل: كان اسمه هيزن فخسف به فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

فأمر نمروود بجمع الحطب من أصناف الخشب حتى إن كانت المرأة لتند (٩٩/١) به: إن بلغت ما تطلب أن تحتطب لنار إبراهيم، حتى إذا أرادوا أن يلقوه فيها قدموه وأشعلوا النار حتى إن كانت الطير لتمر بها فتحترق من شدتها وحرّها، فلما أجمعوا لقتله فيها صاحت السماء والأرض وما فيها [من الخلق] إلا التقليل إلى الله صيحة واحدة: أي ربنا إبراهيم ليس في أرضك من يعبدك غيره يحرق بالنار فيك فأذن لنا في نصره! قال الله تعالى: إن استغاث بشيء منكم فلينصره وإن لم يدع غيري فانا له. فلما رفعوه على رأس البنيان رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم أنت الواحد في السماء وأنت الواحد في الأرض، حسبي الله ونعم الوكيل. وعرض له جبرائيل وهو يوثق فقال: ألك حاجة يا إبراهيم؟ قال: أما إليك فلا. فقفذوه في النار فناداهما فقال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾. [الأنبياء: ٦٩] وقيل: ناداهما جبرائيل، فلو لم يتبع بردهما سلام لمات إبراهيم من شدة بردهما، فلم يبق يوثق ناراً إلا طفت ظنّت أنها هي. وبعث الله ملكاً الظلّ في صورة إبراهيم فقعدها فيها إلى جنبه يؤنسه.

فمكث نمروود أياماً لا يشك أن النار قد أكلت إبراهيم، فرأى كأنه نظر فيها وهي تحرق بعضها بعضاً وإبراهيم جالس إلى جنبه رجل مثله. فقال لقومه: لقد رأيْتُ كأن إبراهيم حيّ ولقد شبه عليّ، ابنا لي صرحاً يشرف بي على النار، فبنوا له وأشرف منه فرأى إبراهيم جالساً وإلى جانبه رجل في صورته، فناداه نمروود: يا إبراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته وعزّته أن حال بينك وبين ما أرى، هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم. (١٠٠/١) قال: أتخشى إن أقمت فيها [أن تضرك؟] قال: لا. فقام إبراهيم فخرج منها، فلما خرج قال له: يا إبراهيم من الرجل الذي رأيْتُ معك مثل صورتك؟ قال: ذلك ملك الظلّ أرسله إليّ ربّي ليؤنّسني. قال نمروود: أيّ مقرب إلى إلهك قريباً لما رأيْتُ من قدرته وعزّته وما صنع بك حين آبيت إلا عبادته.

فقال إبراهيم: إذا لا يقبل الله منك ما كنت على شيء من دينك. قال: يا إبراهيم لا استطع ترك ملكي. وقرب أربعة آلاف بقرة وكفّ عن إبراهيم ومنعه الله منه. وآمن مع إبراهيم رجال من قومه حين راوا ما صنع الله به على خوف من نمروود وملئهم، وآمن له لوط بن هاران، وهو ابن أخي إبراهيم، وكان لهم أخ ثالث يقال له ناختور بن تارخ، وهو أبو بتويل، وبتويل أبو لابان وأبو ريقا امرأة إسحاق بن

فأقرئيه السلام وقولي له فليغير عتبة بابه.

وعاد إبراهيم، وجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل عندك أحد؟ قالت: جاني شيخ كذا وكذا، كالاستخفة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال: أقرئي زوجك السلام وقولي له فليغير عتبة بابه. فطلّقها وتزوّج أخرى.

اعزّ وقال: إذا أوردتموها الماء ظهر حتى يكون معيناً طاهراً فأشربوا منه ولا تغتفر منه امرأة حائض. فخرجوا بالأعزّ، فلمّا وقفت على الماء ظهر إليها، وكانوا يشربون منه، إلى أن غرفت منه امرأة طامث فعاد الماء إلى الذي هو عليه اليوم. وأقام إبراهيم بين الرملة وإيليا بيلد يقال له قَطْ أو قِطْ.

قال: فلمّا وُلِدَ إسماعيل حزنت سارة حزناً شديداً، فوهبها الله إسحاق وعمرها سبعون سنة، فعمّر إبراهيم مائة وعشرون سنة، فلمّا كبر إسماعيل (١٠٣/١) وإسحاق اختصما، فغضبت سارة على هاجر فأخرجتها ثمّ أعادتها، ففارت منها فأخرجتها وحلفت لتقطعن منها بضعة فتركت أنفها وأذنها لثلاً تشينها ثمّ خفضتها، فممن ثمّ خفض النساء، وقيل: كان إسماعيل صغيراً، وإنّما أخرجتها سارة غيرةً منها، وهو الصحيح. وقالت سارة: لا تساكنتي في بلد. فأوحى الله إلى إبراهيم أن يأتي مكة وليس بها يومئذ نبت، فجاء إبراهيم بإسماعيل وأمه هاجر فوضعهما بمكة بموضع زُمَزَم، فلمّا مضى نادته هاجر: يا إبراهيم من أملك أن تتركنا بأرض ليس فيها زرع ولا ضرع ولا ماء ولا زاد ولا أنيس؟ قال: ربّي أمرني. قالت: فإنه لن يضيعنا. فلمّا ولّى قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾. [إبراهيم: ٣٧]

فلمّا ظمئ إسماعيل جعل يدحض الأرض برجله، فانطلقت هاجر حتى صعدت الصفا لتنظر هل ترى شيئاً، فلم تر شيئاً، فانحدرت إلى الوادي فسعت حتى أتت العروة فاستشرفت هل ترى شيئاً فلم تر شيئاً، ففعلت ذلك سبع مرّات، فذلك أصل السعي، ثمّ جاءت إلى إسماعيل وهو يدحض الأرض بقدميه وقد نبعت العين، وهي زُمَزَم، ففعلت تمحّص الأرض بيدها عن الماء، وكلّما اجتمع أخذته وجعلته في سقاها. قال: فقال النبي، ﷺ: يرحمها الله لو تركتها لكانت عيناً سائحة.

وكانت جرّهم بواي قريب من مكة ولزمت الطير الوادي حين رأت الماء، فلمّا رأت جرّهم الطير لزمت الوادي، قالوا: ما لزمته إلا وفيه ماء، فجاؤوا إلى هاجر فقالوا: لو شئت لكتنا معك فأنتناك والماء ماؤك. قالت: (١٠٤/١) نعم. فكانوا معها حتى شبّ إسماعيل وماتت هاجر، فتزوّج إسماعيل امرأة من جرّهم فتعلّم العربية منهم هو وأولاده، فهم العرب المتعريّة.

واستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر، فأذنت له وشرطت عليه ألا ينزل، فقدم وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ليس ههنا، ذهب يتصيد. وكان إسماعيل يخرج من الحرم يتصيد ثمّ يرجع. قال إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندي ضيافة وما عندي أحد. فقال إبراهيم: إذا جاء زوجك

فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ثمّ استأذن سارة أن يزور إسماعيل، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل. فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب ليصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله تعالى، فانزل برحمتك الله. فقال لها: فعندك ضيافة؟ قالت: نعم. قال: فهل عندك خبز أو بُرّ أو شعير أو تمر؟ قال: فجاءت باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة، ولو جاءت يومئذ بخبز أو تمر أو بُرّ أو شعير لكانت أكثر أرض الله من ذلك، فقالت: انزل حتى أغسل رأسك. فلم ينزل. فجاءته بالمقام بالإناء فوضعت عند شقّه الأيمن، فوضع قدمه عليه فبقي أثر قدمه فيه، فغسلت شقّ رأسه الأيمن ثمّ حوكت المقام إلى شقّه الأيسر ففعلت به كذلك. فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه عني السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك. (١٠٥/١)

فلمّا جاء إسماعيل وجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً فقال لي كذا وكذا، وقلّت له كذا وكذا، وغسلت رأسه، وهذا موضع قدمه، وهو يُقرئك السلام ويقول: قد استقامت عتبة بابك. قال: ذلك إبراهيم.

وقيل: إنّ الذي أنبع الماء جبرائيل، فإنه نزل إلى هاجر وهي تسعى في الوادي فسمعت حسّه فقالت: قد أسمعني فأعشي فقد هلكت أنا ومن معي. فجاء بها إلى موضع زُمَزَم فضرب قدمه ففارت عيناً، فتعجلت، فجعلت تُفرغ في شئها. فقال لها: لا تخافي الظما. (١٠٦/١)

ذكر عمارة البيت الحرام بمكة

قيل: ثمّ أمر الله إبراهيم ببناء البيت الحرام، فضايق بذلك ذرعاً فأرسل الله السكينة، وهي ريش خجوج، وهي اللينة الهبوب، لها راسان، فسار معها إبراهيم حتى انتهت إلى موضع البيت فتطورت عليه كطوي الحففة، فأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة، فبنى إبراهيم.

وقيل: أرسل الله مثل الغمامة له رأس فكلمه وقال: يا إبراهيم ابن علي ظلي أو على قدري لا تزد ولا تنقص، فبنى. وهذا القولان يُقلا عن علي.

وقال السدي: الذي دلّه على موضع البيت جبرائيل.

من قوله لم يرفعه.

وأما الحديث الآخر في أن الذبيح إسماعيل فقد روى الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح فقال: على الخير سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله عُدَّ عليّ ممّا أفاء الله عليك يا ابن النّبيّين، فضحك، ﷺ، فقيل لمعاوية: وما الذبيحان؟ فقال: إنّ عبد المطلب نذر إن سهل الله حفر زمزم أن يذبح أحد أولاده، فخرج السهم على عبد الله أبي النبيّ، ﷺ، ففداه بمائة بعير، وسنذكره إن شاء الله، والذبيح الثاني إسماعيل. (١٠٩/١)

ذكر من قال إنه إسحاق

ذهب عمر بن الخطاب وعليّ والعبّاس بن عبد المطلب وابنه عبد الله، رضي الله عنهم، فيما رواه عنه بكره وعبد الله بن مسعود وكعب وابن سابط وابن أبي الهذيل ومسروق إلى أنّ الذبيح إسحاق، عليه السلام.

حدّث عمرو بن أبي سفيان بن أبي أسيد بن أبي جارية التقيّ أنّ كعباً قال لأبي هريرة: ألا أخبرك عن إسحاق بن إبراهيم؟ قال: بلى. قال كعب: لما رأى إبراهيم ذبح إسحاق قال الشيطان: واللّه لئن لم أقتن عند هذا آكل إبراهيم لم أقتن أحداً منهم بعد ذلك أبداً، فتأمّل رجلاً يعرفونه فأقبل حتى إذا خرج إبراهيم بإسحاق ليذبحه دخل على سارة امرأة إبراهيم فقال لها: أين أصبح إبراهيم غادياً بإسحاق؟ قالت: لبعض حاجته. قال: لا والله إنّما غدا به ليذبحه! قالت سارة: لم يكن ليذبح ولده. قال الشيطان: بلى والله لأنّه زعم أنّ الله قد أمره بذلك. قالت سارة: فهذا أحسن أن يطيع ربّه. ثمّ خرج الشيطان فأدرك إسحاق وهو مع أبيه فقال له: إنّ إبراهيم يريد أن يذبحك. قال إسحاق: ما كان ليفعل. قال: بلى والله إنّّه زعم أنّ ربّه أمره بذلك. قال إسحاق: فوالله لئن أمره ربّه بذلك ليطيعه! فتركه ولحق إبراهيم فقال: أين أصبحت غادياً بابنك؟ قال: لبعض حاجتي. قال: لا والله إنّما تريد ذبحه! قال: ولم؟ قال: لأنك زعمت أنّ الله (١١٠/١) أمرك بذلك. قال إبراهيم: فوالله إن كان الله أمرني بذلك لأفعلن.

فلما أخذ إبراهيم إسحاق ليذبحه أعفاه الله من ذلك وفداه بذبح عظيم، وأوحى الله إلى إسحاق: إني معطيك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم فأيمأ عبد لتيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة.

وقال عبيد بن عمير: قال موسى: يا ربّ يقولون يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبمّ نالوا ذلك؟ قال: إنّ إبراهيم لم يعدل بي شيئاً قطّ إلاّ اختارني، وإنّ إسحاق جادلني بالذبيح وهو بغير ذلك أجود، وإنّ يعقوب كلّما زدته بلاءً زادني حسن ظنّ بي.

فسار إبراهيم إلى مكّة، فلما وصلها وجد إسماعيل يصلح نبلاً له وراء زمزم، فقال له: يا إسماعيل إنّ الله قد أمرني أن أبني له بيتاً. قال إسماعيل: فأطع ربك. فقال إبراهيم: قد أمرك أن تعبني على بناءه. قال: إذن أفعل. فقام معه فجعل إبراهيم بينه وإسماعيل يناوله الحجارة. ثمّ قال إبراهيم لإسماعيل: إيتني بحجر حسن أضعه على الركن فيكون للناس علماً. فناداه أبو قيس: إنّ لك عندي وديعة، وقيل: بل جبرائيل أخبره بالحجر الأسود، فأخذه ووضع موضعه، وكاناً كلّما بنا دعوا الله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فلما ارتفع النبيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر، وهو (١٠٧/١) مقام إبراهيم، فجعل يناوله، فلما فرغ من بناء البيت أمره الله أن يؤدّن في الناس بالحجّ، فقال إبراهيم: يا ربّ وما يبلغ صوتي؟ قال: أدنّ وعليّ البلاغ. فننادى: أيّها الناس إنّ الله قد كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق! فسمعه ما بين السماء والأرض وما في أصلاّب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن ممّن سبق في علم الله أن يحجّ إلى يوم القيامة، فأجيب: ليبيك ليبيك! ثمّ خرج بإسماعيل معه إلى التروية فنزل به منى ومن معه من المسلمين فصلّى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثمّ بات حتى أصبح فصلّى بهم الفجر، ثمّ سار إلى عرفة فأقام بهم هناك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ثمّ راح بهم إلى الموقف من عرفة الذي يقف عليه الإمام، فوقف به على الأراك، فلما غربت الشمس دفع به ومن معه حتى أتى المزدلفة فجمع بها الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة، ثمّ بات بها ومن معه حتى إذا طلع الفجر صلى الغداة ثمّ وقف على قُزَح حتى إذا أسفر دفع به وبمن معه يريه ويعلمه كيف يصنع حتى رمى الجمرة وأراه المنحصر ثمّ نحر وحلّق وأراه كيف يطوف ثمّ عاد به إلى منى ليريه كيف رمي الجمار حتى فرغ من الحجّ.

وروي عن النبيّ ﷺ، أنّ جبرائيل هو الذي أرى إبراهيم كيف يحجّ، ورواه عنه ابن عمر. ولم يزل البيت على ما بناه إبراهيم، عليه السلام، إلى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد النبيّ ﷺ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى. (١٠٨/١)

ذكر قصة الذبيح

واختلف السلف من المسلمين في الذبيح، فقال بعضهم: هو إسماعيل. وقال بعضهم: هو إسحاق. وقد روي عن النبيّ ﷺ، كلا القولين، ولو كان فيهما صحيح لم نعدّه إلى غيره؛ فأما الحديث في أنّ الذبيح إسحاق فقد روى الأحنف عن العبّاس بن عبد المطلب عن رسول الله ﷺ، في حديث ذكر فيه: ﴿وَقَدْ بَيَّنَّاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] هو إسحاق، وقد روي هذا الحديث عن العبّاس

(أسيد بفتح الهمزة، وكسر السين. وجارية بالجمع) .

ذكر ما قال إن الذبيح إسماعيل، عليه السلام

روى سعيد بن جبيرة ويوسف بن بهران والشعبي ومجاهد وعطاء بن أبي رباح كلهم عن ابن عباس أنه قال: إن الذبيح إسماعيل، وقال: زعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود.

وقال أبو الطفيل والشعبي: رأيت قرني الكباش في الكعبة.

قال محمد بن كعب: إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل، وإننا لنجد ذلك في كتاب الله في قصة الخبر عن إبراهيم وما أمر به من ذبحه ابنه أنه إسماعيل، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] ويقول: وبشرناه بإسحاق نبياً، ومن وراء إسحاق يعقوب بابن وإبن ابن، فلم يكن يأمره بذبح إسحاق، وله فيه من الله عز وجل ما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل؛ فذكر ذلك محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة، فقال: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت.

ذكر السبب الذي من أجله أمر إبراهيم بالذبيح وصفة الذبيح

قال: أمر الله إبراهيم، عليه السلام، بذبح ابنه فيما ذكر أنه دعا الله أن يهب له ولداً ذكراً صالحاً، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فلما بشرته الملائكة بسلام حليم قال: إذن هو لله ذبيح. فلما ولد الغلام وبلغ معه السعي قيل له: أوفو نذرك الذي نذرت. وهذا على قول من زعم أن الذبيح إسحاق، وقائل هذا يزعم أن ذلك كان بالشام على ميلين من إيليا. وأما من زعم أنه إسماعيل فيقول: إن ذلك كان بمكة.

قال محمد بن إسحاق: إن إبراهيم قال لابنه حين أمر بذبحه: يا بُنَيَّ خذِ الحَبْلَ وَالْمُدْيَةَ ثُمَّ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى هَذَا الشَّعْبِ لَنَحْتَبِطَ لَأَهْلِكَ. فَلَمَّا تَوَجَّهَ اعْتَرَضَهُ إِبْلِيسُ لِيَصْدهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِي يَا عَدُوَّ اللَّهِ! فَوَاللَّهِ لَا مَضِيئَ لَأَمْرِ اللَّهِ! فَاعْتَرَضَ إِسْمَاعِيلُ فَاعْلَمَهُ مَا يَرِيدُ إِبْرَاهِيمُ بِصْنَعِ بِهِ، (١١٢/١) فَقَالَ: سَمِعَا لِأَمْرِ رَبِّي وَطَاعَةً. فَذَهَبَ إِلَى هَاجِرَ فَاعْلَمَهَا، فَقَالَتْ: إِنْ كَانَ رَبِّي أَمْرَهُ بِذَلِكَ فَتَسْلِمًا لِأَمْرِ اللَّهِ. فَجَرَعَ بَغِيظَهُ لَمْ يَصْبِ مِنْهُمْ شَيْئًا.

فلما خلا إبراهيم بالشعب، وهو شعب ثبير، قال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى. قَالَ: يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. [الصافات: ١٠٢] ثم قال له: يا أبت إن أردت ذبحي فاشدد رباطي لا يصبك من دمي شيء فينقص أجري، فإن الموت شديد، واشدذ شفرتك حتى تريحني، فإذا أضجعتني فكثني على وجهي فإني أخشى إن نظرت في وجهي أنك تترك رحمة فتحول بينك وبين أمر الله، وإن رأيت أن ترد قميصي

إلى هاجر أمي فعسى أن يكون أسلى لها عني، فافعل. فقال إبراهيم: نعم المعين أنت، أي بني، على أمر الله!

فربطه كما أمره ثم حذ شفرته: ﴿وَتَلَّهِ لِلْحَبِيبِينَ﴾، ثم أدخل الشفرة لحلقه، فقلبا الله لقلباها ثم اجتذبا إليه ليفرغ منه، فنودي: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، [الصافات: ١٠٤] هذه ذبيحتك فداء لابنتك فاذبحها.

وقيل: جعل الله على حلقه صحيفة نحاس. قال ابن عباس: خرج عليه كبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفاً، وقيل: هو الكبش الذي قرّبه هابيل، وقال علي، عليه السلام: كان كبشاً أقرون أعين أبيض. وقال الحسن: (١١٣/١) ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثبير فذبحه، قيل: بالمقام، وقيل: بمعنى في المنحر.

ذكر ما امتحن الله به إبراهيم، عليه السلام

بعد ابتلاء الله تعالى إبراهيم بما كان من نمرود وذبح ولده بعد أن رجا نفعه ابتلاءه الله بالكلمات التي أخبر أنه ابتلاه بهن فقال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] واختلف السلف من العلماء الأئمة في هذه الكلمات، فقال ابن عباس من رواية عكرمة عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] لم يتل أحد بهذا الدّين فأقامه إلا إبراهيم. وقال الله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٢٧] قال: والكلمات عشر في براءة، وهي: ﴿الْعَالَمُونَ الْحَامِدُونَ﴾ الآية، وعشر في الأحزاب، وهي: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية، وعشر في المؤمنين من أولها إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. وقال آخرون: هي عشر خصال.

قال ابن عباس من رواية طاووس وغيره عنه: الكلمات عشر، وهي خمس في الرأس: قصّ الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق (١١٤/١) الرأس، وخمس في الجسد، وهي: تقليم الأظفار وحلق العانة والختان وتنف الإبط وغسل أثر الغائط.

وقال آخرون: هي مناسك الحج. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وهو قول أبي صالح ومجاهد.

وقال آخرون: هي ست، وهي: الكواكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان.

وذبح ابنه، وهو قول الحسن، قال: ابتلاه بذلك فعرف أن ربه دائم لا يزول فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض وهاجر من وطنه وأراد ذبح ابنه وختن نفسه. وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه في التاريخ المختصر، وإنما ذكرنا هذا القدر لئلا يخلو من فصول الكتاب. (١١٥/١)

ذكر عدو الله نمرود وهلاكه

ونرجع الآن إلى خبر عدو الله نمرود وما آل إليه أمره في دنياه وتمردّه على الله تعالى وإملاء الله له، وكان أول جبار في الأرض، وكان إحراقه إبراهيم ما قدمناه ذكره، فأخرج إبراهيم، عليه السلام، من مدينته وحلف أنه يطلب إليه إبراهيم، فأخذ أربعة أفرخ نسور فربّاهن باللحم والخمر حتى كبرن وغلظن، فقرنهن بتابوت وقعد في ذلك التابوت فأخذ معه رجلاً ومعه لحم لهن، فطرن به حتى إذا ذهبن أشرف ينظر إلى الأرض فرأى الجبال تدب كالنمل، ثم رفع لهنّ اللحم ونظر إلى الأرض فرأها يحيط بها بحر كأنها فلك في ماء، ثم رفع طويلاً فوقع في ظلمة فلم ير ما فوقه وما تحته، فقزع والقى اللحم، فاتّبعته النسور متقضّات، فلما نظرت الجبال إليهنّ وقد أقبلن متقضّات وسمعنّ حفيفهنّ فزعت الجبال وكادت تزول ولم يفعلن، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]. وكانت طيورورنهن من بيت المقدس، ووقعهنّ في جبل الدخان.

فلما رأى أنه لا يطيق شيئاً أخذ في بنبان الصرح فبناه حتى علا وارفق فوقه ينظر إلى إله إبراهيم بزعمه وأحدث، ولم يكن يحدث، وأخذ الله بنيانهم من القواعد من أساس الصرح فسقط وتبلّبت الألسن يومئذ من الفزع، فكلّموا بثلاثة وسبعين لساناً، وكان لسان الناس قبل ذلك سريانياً.

هكذا روي أنه لم يحدث، وهذا ليس بشيء، فإن الطبع البشري لم (١١٦/١) يخلّ منه إنسان حتى الأنبياء، صلوات الله عليهم، وهم أكثر اتصالاً بالعالم العلوي وأشرف أنفسهم، ومع هذا فياكلون ويشربون ويبولون ويتغوطون، فلو نجا منه أحد لكان الأنبياء أولى لشرفهم وقربهم من الله تعالى، وإن كان لكثرة ملكه فالصحيح أنه لم يملك مستقلاً، ولو ملك مستقلاً لكان الإسكندر أكثر ملكاً منه ومع هذا فلم يُقل فيه شيء من هذا.

قال زيد بن أسلم: إن الله تعالى بعث إلى نمرود بعد إبراهيم ملكاً يدعو إلى الله أربع مرات فأبى وقال: أرب غيري؟ فقال له الملك: اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام، فجمع جموعه، ففتح الله عليه باباً من البعوض، فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم فاكلتهم ولم يبق منهم إلا العظام والملك كما هو لم يصبه شيء، فأرسل الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث يضرب رأسه بالمطارق فأرحم الناس به من يجمع يديه ويضرب بهما رأسه، وكان ملكه ذلك أربعمئة سنة، وأماته الله تعالى، وهو الذي بنى الصرح.

وقال جماعة: إن نمرود بن كنعان ملك مشرق الأرض ومغربها، وهذا قول يدفعه أهل العلم بالسيرة وأخبار الملوك، وذلك أنهم لا

ينكرون أن مولد إبراهيم كان أيام الضحّاك الذي ذكرنا بعض أخباره فيما مضى، وأنه كان ملك شرق الأرض وغربها. وقول القائل إن الضحّاك الذي ملك الأرض هو نمرود ليس بصحيح، لأن أهل العلم المتقدمين يذكرون أن نسب نمرود في النبط معروف، ونسب الضحّاك في الفرس مشهور، وإنما الضحّاك استعمل نمرود على السواد وما اتصل به يمتة ويسرة وجعله وولده عمالاً على (١١٧/١) ذلك، وكان هو يتنقل في البلاد، وكان وطنه ووطن أجداده دُبّاوند من جبال طبرستان، وهناك رمى به أفريدون حين ظفر به، وكذلك بخت نصر.

ذكر بعضهم أنه ملك الأرض جميعها، وليس كذلك، وإنما كان اصهبذ ما بين الأهواز إلى أرض الروم من غربي دجلة من قبل لهراسب، لأن لهراسب كان مشتغلاً بقتال الترك مقيماً بإزائهم ببلخ، وهو بناها لما تطاول مقامه هناك لحرب الترك، ولم يملك أحد من النبط شيئاً من الأرض مستقلاً برأسه، فكيف الأرض جميعها! وإنما تطاولت مدة نمرود بالسواد أربعمئة سنة ثم دخل من نسله بعد هلاكه جبل يقال له نبط بن قعود ملك بعده مائة سنة، ثم كداوص بن نبط ثمانين سنة، ثم بالش بن كداوص مائة وعشرين سنة، ثم نمرود بن بالش سنة وشهراً، فذلك سبع مائة سنة وسنة، وشهد أيام الضحّاك، وظن الناس في نمرود ما ذكرناه، فلما ملك أفريدون وقهر لازدهاق قتل نمرود بن بالش وشرد النبط وقتل فيهم مقتلة عظيمة. (١١٨/١)

ذكر قصة لوط وقومه

قد ذكرنا مهاجر لوط مع إبراهيم، عليه السلام، إلى مصر وعودهم إلى الشام ومقام لوط بسدوم.

فلما أقام بها أرسله الله إلى أهلها، وكانوا أهل كفر بالله تعالى وركوب فاحشة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، أَتُنْكُم لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩]. فكان قطعهم السبيل أنهم كانوا يأخذون المسافرين إذا مرّ بهم ويعملون به ذلك العمل الخبيث، وهو اللواط، وأما إتيانهم المنكر في ناديهم فقبل كانوا يحذفون من مرّ بهم ويسخرون منهم، وقيل: كانوا يتضارطون في مجالسهم، وقيل: كان يأتي بعضهم بعضاً في مجالسهم.

وكان لوط يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عن الأمور التي يكرهها الله منهم من قطع السبيل وركوب الفواحش وإتيان الذكور في الأدبار ويتوعدهم على إضرارهم وترك التوبة بالعذاب الأليم فلا يزجرهم ذلك ولا يزيدهم وعظه إلا تمادياً واستعجالاً لعقاب الله إنكاراً منهم لوعيده ويقولون له: اتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين. حتى سال لوط ربّه النصرة عليهم لما تطاول عليه أمرهم

﴿قَالُوا: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾
وتماذيهم في غيهم.

فبعث الله، لما أراد هلاكهم ونصر رسوله، جبرائيل وملاكين آخرين (١١٩/١) معه أحدهما ميكائيل والآخر إسرئيل، فأقبلوا فيما ذكر مشاة في صورة رجال وأمرهم أن يبدؤوا بإبراهيم وسارة ويبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

فلما نزلوا على إبراهيم، وكان الضيف قد أبطأ عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه، وكان يضيف من نزل به، وقد وسع الله عليه الرزق، فرح بهم ورأى ضيفاً لم ير مثلهم حسناً وجمالاً، فقال: لا يخدم هؤلاء القوم أحد إلا أنا بيدي. فخرج إلى أهله فجاء بعجل سمين قد حنّده، أي أنضجه، فقرّبه إليهم، فأمسكوا أيديهم عنه، ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ، وَامْرَأَتُهُ (سارة) قَائِمَةٌ فَضَجَّكَتْ (لَمَّا عرفت من أمر الله ولما تعلم من قوم لوط) فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فقالت، وصكت وجهها: ﴿اللَّهُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾، إلى قوله: ﴿حَمِيدٌ مُجِيدٌ﴾ [هود: ٧٠] وكانت ابنة تسعين سنة وإبراهيم ابن عشرين ومائة.

فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري ذهب يجادل جبرائيل في قوم لوط، فقال له: أرايت إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا: وإن كان فيهم خمسون من المسلمين لم يعدّ بهم؟ قال: وأربعون. قالوا: وأربعون؟ قال: وثلاثون، حتى بلغ عشرة. قالوا: وإن كان فيهم عشرة؟ قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير! ثم قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا. قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرُّوحُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى ذَهَبَ يَجَادِلُ جِبْرَائِيلَ فِي قَوْمِ لُوطٍ، فَقَالَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِيهِمْ خَمْسُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ خَمْسُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَدْعُبْهُمْ؟ قَالَ: وَأَرْبَعُونَ. قَالُوا: وَأَرْبَعُونَ؟ قَالَ: وَثَلَاثُونَ، حَتَّى بَلَغَ عَشْرَةً. قَالُوا: وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ عَشْرَةٌ؟ قَالَ: مَا قَوْمٌ لَا يَكُونُ فِيهِمْ عَشْرَةٌ فِيهِمْ خَيْرٌ! ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا. قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

(١٢٠/١) كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

ثم مضت الملائكة نحو سدوم قرية لوط، فلما انتهوا إليها لقوا لوطاً في أرض له يعمل فيها، وقد قال الله تعالى لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فأنثوه فقالوا: إنا متضيفوك الليلة، فانطلق بهم، فلما مضى ساعة التفت إليهم فقال لهم: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض إنساناً أخبث منهم، حتى قال ذلك أربع مرات.

وقيل: بل لقوا ابنته فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ قالت: نعم، مكانكم لا تدخلوا حتى أتاكم. خافت عليهم من قومها، فأتت أباهما فقالت: يا ابتاه أدرك فتينا على بابا المدينة ما رايت أصبح وجوهاً منهم لئلا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وكان قومه قد نهوه أن يضيف رجلاً، فجاء بهم فلم يعلم إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت لهم: قد نزل بنا قوم ما رايت أحسن وجوهاً منهم ولا أطيب رائحة. فجاءه قومه يهرعون إليه. فقال: يا قوم ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]. فنهاهم ورغبهم وقال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ مما تريدون.

ذكر وفاة سارة زوج إبراهيم، عليه السلام

وذكر أولاده وأزواجه

لا يدفع أحد من أهل العلم أن سارة توفيت بالشام ولها مائة وسبع وعشرون سنة، وقيل: إنها كانت بقرية الجبابة من أرض كنعان، وقيل: عاشت هاجر بعد سارة مدة، والصحيح أن هاجر توفيت قبل سارة، كما ذكرنا في مسير إبراهيم إلى مكة، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

فلما ماتت سارة تزوج بعدها قطورا ابنة يقطن امرأة من الكنعانيين فولدت له ستة نفر: نفشان ومران ومديان ومدن ونشق وسرح، وكان جميع أولاد إبراهيم مع إسماعيل وإسحاق ثمانية نفر، وكان إسماعيل بكراً؛ وقيل في عدد أولاده غير ذلك. فالبربر من ولد نفشان، وأهل مدين قوم شُعَيْب من ولد مديان.

وقيل: تزوج بعد قطورا امرأة أخرى اسمها حجون ابنة اهبر.

ذكر وفاة إبراهيم وعدد ما أنزل عليه

قيل: لما أراد الله قبض روح إبراهيم أرسل إليه ملك الموت في صورة شيخ هرم، فرأه إبراهيم وهو يطعم الناس وهو شيخ كبير في الحر، فبعث إليه بحمار فركبه حتى أتاه، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه (١٢٤/١) فيدخلها في عينه وأذنه ثم يدخلها فاه، فإذا دخلت جوفه خرجت من دبره، وكان إبراهيم سأل ربه أن لا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت، فقال: يا شيخ ما لك تصنع هذا؟ قال: يا إبراهيم الكبير. قال: ابن كم أنت؟ فزاد على عمر إبراهيم ستين. فقال إبراهيم: إنما بيني وبين أن أصير هكذا سستان، اللهم أقبضني إليك! فقام الشيخ وقبض روحه ومات وهو ابن مائتي سنة.

وقيل مائة وخمسة وسبعين سنة، وهذا عندي فيه نظر لأن إبراهيم لا يخلو أن يكون قد رأى من هو أكبر منه بستين أو أكثر من ذلك، فإن من عاش مائتي سنة كيف لا يرى من هو أكبر منه بهذا القدر القريب؟ ولكن هكذا روي، ثم إنه قد بلغه عمر نوح ولم يصبه شيء مما رأى بذلك الرجل.

وروي أبو ذر عن النبي ﷺ، أنه قال: وأنزل الله على إبراهيم عشر صحائف، قال: قلت: يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالا كلها: أيها الملك المسلط المبتلى المعزور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردّها ولو كانت من كافر.

وكان فيها أمثال، منها: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يفكر فيها في صنع الله، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال في المطعم والمشرب.

وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزود لمعاده ومرمته لمعاشه ولذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله قل [كلامه] إلا فيما يعنيه.

وهو أول من اختن، وأول من أضاف الضيف، وأول من اتخذ السراويل، إلى غير ذلك من الأقاويل. (١٢٥/١)

ذكر خبر ولد إسماعيل بن إبراهيم

قد ذكرنا فيما مضى سبب إسكان إسماعيل الحرم وتزوجه امرأة من جرهم وفراقه إياها بامر إبراهيم ثم تزوج أخرى، وهي السيدة بنت مضاض الجرهمي، وهي التي قال لها: قولني لزوجك: قد رضيت [لك] عتبة بابك، فولدت لإسماعيل اثني عشر رجلاً: نابت وقيدار

واذيل وميشا ومسمع ورما وماش وآذر وقطورا وقافس وطميسا وقيدمان. وكان عمر إسماعيل فيما يزعمون سبعاً وثلاثين ومائة سنة. ومن نابت وقيدار ابني إسماعيل نشر الله العرب، وأرسله الله تعالى إلى العماليق وقبائل اليمن. وقد ينطق أولاد إسماعيل بغير الألفاظ التي ذكرت. ولما حضرت إسماعيل الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق، وزوج ابنته من العيص بن إسحاق، ودفن عند قبر أمه هاجر بالحجر. (١٢٦/١)

ذكر إسحاق بن إبراهيم وأولاده

قيل: ونكح إسحاق رفقا بنت بتويل فولدت له عيصاً ويعقوب توأمين، وإن عيصاً كان أكبرهما، وكان عمر إسحاق لما ولد له ستين سنة، ثم نكح عيص بن إسحاق نسمة بنت عمه إسماعيل فولدت له الروم بن عيص وكل بني الأصفر من ولده، وزعم بعض الناس أن اشبان من ولده.

ونكح يعقوب بن إسحاق، وهو إسرائيل، ابنة خاله ليا بنت لبيان بن بتويل فولدت له روييل، وكان أكبر ولده، وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ولشحر، وقيل ويشحر، ثم توفيت ليا فتزوج أخيها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، وهو بالعربية شذاد، وولد له من سريتين أربعة نفر: دان ونفتالي وجاد وياشر، وكان ليعقوب اثنا عشر رجلاً.

قال السدي: تزوج إسحاق بجارية فحملت بغلامين، فلما أرادت أن تضع أراد يعقوب أن يخرج قبل عيص فقال عيص: والله لئن خرجت قبلي لأعترضن في بطن أمي ولأقتلنها. فتأخر يعقوب وخرج عيص وأخذ يعقوب بعقب عيص، فسعى يعقوب وسعى أخوه عيصاً لعصيانته. وكان عيص أحبهما إلى أبيه ويعقوب أحبهما إلى أمه. وكان عيص صاحب صيد، فقال له إسحاق لما كبر وعمي: يا بني أطعمني لحم صيد واقترب مني أدع لك بدعاء دعا لي به أبي. وكان عيص رجلاً أشعر، وكان يعقوب أجرد، وسمعت أمهما ذلك وقالت ليعقوب: يا بني اذبح شاة واشوها والبس جلدوها وقربها (١٢٧/١) إلى أبيك وقل له: أنا ابنك عيص، ففعل ذلك يعقوب، فلما جاء قال: يا ابتاه كل. قال: من أنت؟ قال: أنا ابنك عيص. فمسحه إسحاق فقال: المسمّ من عيص والريح ريح يعقوب. فقالت أمه: إنه عيص فكل. فاكل ودعا له أن يجعل الله في ذريته الأنبياء والملوك.

وقام يعقوب وجاء عيص، وكان في الصيد، فقال لأبيه: قد جئتك بالصيد الذي طلبت. فقال: يا بني قد سبقك أخوك. فحلف عيص ليعقوب يعقوب. فقال: يا بني قد بقيت لك دعوة، فدعا له أن يكون ذريته عدد التراب وأن لا يملكهم غيرهم.

وهرب يعقوب خوفاً من أخيه إلى خاله، وكان يسري بالليل ويكمن بالنهار، فلذلك سمي إسرائيل. ثم إن يعقوب تزوج ابنتي خاله

فجاءه وهو ساجد فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده وصار أمره إلى أن انثر لحمه وامتلأ جسده دوداً، فإن كانت الدودة لتسقط من جسده فيردّها إليه ويقول: كُلِّي من رزق الله، وأصابه الجُذام، وكان أشدّ من ذلك عليه أنه كان يخرج في جسده مثل ثدي المرأة ثم يتفقأ، وتأتّن حتى لم يطق أحد يشم ريحه، فأخرجه أهل القرية منها إلى الكناسة خارج القرية لا يقربه أحد، إلا زوجته، وكانت تختلف إليه بما يصلحه، فبقي مطروحاً على الكناسة سبع سنين ما يسأل الله أن يكشف ما به، وما على وجه الأرض أكرم على الله منه.

وقيل: كان سبب بلائه أن أرض الشام أجذبت فأرسل فرعون إلى أيوب أن هلمّ إلينا فإن لك عندنا سعة، فأقبل بأهله وخيله وماشيته، فأقطعهم فرعون القطائع. ثم إن شُعيباً النبي دخل إلى فرعون فقال: يا فرعون أما تخاف أن يغضب الله غصبة فيغضب لغضبه أهل السماء وأهل الأرض والبحار والجبال؟ وأيوب ساكت لا يتكلم، فلمّا خرجا أوحى الله إلى أيوب: يا أيوب سكت عن فرعون لذهابك إلى أرضه، استعد للبلاء. فقال أيوب: أما كنت أكفل اليتيم واؤوي الغريب وأُشيع الجائع وأكف الأرملة؟ فمَرّت سحابة (١٣٠/١) يُسمع فيها عشرة آلاف صوت من الصواعق يقولون: من فعل ذلك يا أيوب؟ فأخذ ترواباً فوضعه على رأسه وقال: أنت يا رب، فأوحى الله إليه: استعد للبلاء. قال: فديني؟ قال: أسلمه لك. قال: فما أبالي.

وقيل: كان السبب غير ذلك، وهو نحو مما ذكرنا.

فلما ابتلاه الله واشتد عليه البلاء قالت له امرأته: إنك رجل مجاب الدعوة فادعُ الله أن يشفيك. فقال: كنّا في النعمة سبعين سنة فلنصبر في البلاء سبعين سنة، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة. وقيل: إنّما أقسم ليجلدها لأن إبليس ظهر لها وقال: بسم أصابكم ما أصابكم؟ قالت: بقدر الله. قال: وهذا أيضاً بقدر الله فاتبعيني، فاتبعته، فأراها جميع ما ذهب منهم في وادٍ وقال: اسجد لي وأردّه عليكم. فقالت: إن لي زوجاً استأمره. فلمّا أخبرت أيوب قال: ألم تعلمي أن ذلك الشيطان؟ لئن شُفيت لأجلدنك مائة جلدة، وأبعدها وقال لها: طعامك وشربك عليّ حرام لا أدوق ممّا تأتيني به شيئاً فأبعدي عني فلا أراك. فذهبت عنه، فلمّا رأى أيوب أن امرأته قد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خَرّ ساجداً وقال: رَبِّ ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] كرّر ذلك فقيل له: ارفع رأسك فقد استجيب لك، ﴿وَارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، وردّ الله إليه جسده وصورته. (١٣١/١)

وأما امرأته فقالت: كيف أتركه، وليس عنده أحد، يموت جوعاً وتأكله السباع؟ فرجعت إليه فمَرّت أيوب وقد عوفي، فلم تعرفه، فعجبت حيث لم تره على حاله، فقالت له: يا عبد الله هل رأيت ذلك الرجل المبتلى الذي كان ههنا؟ قال: وهل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت:

جمع بينهما، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. ووُلد له منهما، فماتت راحيل في نفاسها بنيامين، وأراد يعقوب الرجوع إلى بيت المقدس فأعطاه خاله قطيع غنم، فلمّا ارتحلوا لم يكن لهم نفقة، فقالت زوجة يعقوب ليوסף: اسرق صنماً من أصنام أبي نستفق منه. فسرق صنماً من أصنام أبيها.

وأحبّ يعقوب يوسف وأخاه بنيامين حباً شديداً لئتمهما، وقال يعقوب لأربع من الرعاة: إذا أناكم أحد يسألکم من أنتم فقولوا: نحن ليعقوب عبد عيص. فلفيهم عيص فسألهم فأجابهم الراعي بذلك الجواب، فكفّ عيص عن يعقوب ونزل يعقوب الشام، ومات إسحاق بالشام وعمره مائة وستون سنة ودُفن عند أبيه إبراهيم، عليه السلام. (١٢٨/١)

قصة أيوب، عليه السلام

وهو رجل من الروم من ولد عيص، وهو أيوب بن موص بن رازج ابن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وقيل: موص بن روعيل بن عيص. وكانت زوجته التي أمر أن يضربها بالضغث ليا ابنة يعقوب بن إسحاق، وقيل: هي رحمة ابنة إفراهيم بن يوسف، وكانت أمّه من ولد لوط، وكان دينه التوحيد والإصلاح بين الناس، وإذا أراد حاجة سجد ثم طلبها.

وكان من حديثه وسبب بلائه أن إبليس سمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب حين ذكره الله فحسده وسأل الله أن يسلبه عليه ليفتنه عن دينه، فسلبه على ماله حسب، فجمع إبليس عظماء أصحابه من العفاريث، وكان لأَيُوب البَيِّتَةُ جميعها من أعمال دمشق بما فيها، وكان له فيها ألف شاة برعاتها وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكلّ عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة الفدان اثنان ولكلّ اثنان ولد واثنان وما فوق ذلك، فلمّا جمعهم إبليس قال: ما عندكم من القوة والمعرفة فإنّي قد تسلّطت على مال أيوب. فقال كلّ منهم قولاً، فأرسلهم فاهلكوا ماله كلّهم وأَيُوب يحمّد الله ولا يرجع عن الجدّ في عبادته والشكر له على ما أعطاه والصبر على ما ابتلاه.

فلما رأى ذلك إبليس من أمره سأل الله أن يسلبه على ولده، فسلبه [عليهم] ولم يجعل له سلطاناً على جسده ولا عقله وقلبه، فاهلك ولده كلّهم، (١٢٩/١) ثم جاء إليه متمتلاً بمعلمهم الذي كان يعلمهم الحكمة جريحاً مشدوخاً يرققه حتى رقّ أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه، فسرّ بذلك إبليس.

ثم إن أيوب ندم لذلك وجدّ واستغفر، فصعد حفظته من الملائكة بتوبته إلى الله قبل إبليس، فلمّا لم يرجع أيوب عن عبادة ربه والصبر على ما ابتلاه به سأل الله تعالى أن يسلبه على جسده، فسلبه عليه خلا لسانه وقلبه وعقله فإنه لم يجعل له على ذلك سلطاناً.

نعم. قال: هو أنا. فعرفته.

وقيل: إنما قال: مسني الضر لما وصل الدود إلى لسانه وقلبه خاف أن يبطل عن ذكر الله تعالى والفكر. ورد الله إليه أهله ومثلهم معهم، قيل هم بأعيانهم، وقيل: رد الله إليه امرأته ورد إليها شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكراً، وأنزل الله إليه ملكاً فقال: يا أيوب إن الله يقرئك السلام لصبرك على البلاء. أخرج إلى أندرك. فخرج إليه، فبعث الله سبحانه فألقت عليه جراداً من ذهب، وكانت الجرادة تنهب فيتبعها حتى يردّها في أندره، فقال الملك: أما تشع من الداخل حتى تتبع الخارج؟ فقال: إن هذه البركة من بركات ربي لست أشبع منها.

وعاش أيوب بعد أن رفع عنه البلاء سبعين سنة، ولما عوفي أمره الله أن يأخذ عرجونا من النخل فيه مائة شمر أخضر يضرب به زوجته ليبر من يمينه، ففعل ذلك.

وقول أيوب: ربّ إني مسني الضرّ، دعاء ليس بشكوى، ودليله قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وكان من دعاء أيوب: أعوذ بالله من جبار عينه تراني إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة ذكرها. وقيل: كان سبب دعائه أنه كان قد اتبعه (١٣٢/١) ثلاثة نفر على دينه اسم أحدهم يلدد والآخر اليفر والثالث صافر، فانطلقوا إليه وهو في البلاء فيكّوه أشدّ تبيك وقالوا له: لقد أذنبت ذنباً ما أذنبه أحد، فلماذا لم يكشف العذاب عنك. وطال الجدل بينهم وبينه، فقال فتى كان معهم لهم كلاماً يردّ عليهم، فقال: قد تركتم من القول أحسنه، ومن الرأي أصوبه، ومن الأمر أجمله، وقد كان لأيوب عليكم من الحقّ والذمام أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون حقّ من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذي عبت؟ ألم تعلموا أنّ أيوب نبي الله وخيرته من خلقه يومكم هذا؟ ثم لم تعلموا ولم يعلمكم الله أنه سخط شيئاً من أمره ولا أنه نزع شيئاً من الكرامة التي كرم الله بها عباده ولا أنّ أيوب فعل غير الحق في طول ما صحبتموه، فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في نفوسكم، فقد علمتم أنّ الله يتلي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لأولئك دليلاً على سخطه عليهم ولا على هوانهم عليه ولكنها كرامة وخيرة لهم. وأطال في هذا النحو من الكلام.

ثم قال لهم: وقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يكلّ الستكم ويكسر قلوبكم ويقطع حجّكم، ألم تعلموا أن الله عبداً أسكتهم خشيته عن الكلام من غير عي ولا بكس؟ وإنهم لهم النصحاء الألباء العالمون بالله وآياته ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم وطاشت أحلامهم وعقولهم فزعاً من الله وهيبة له، فإذا أفاقوا استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدّون أنفسهم مع الظالمين وإنهم لأبرار، (١٣٣/١) ومع المقصرين وإنهم

لأكياس أتقياء، ولكنهم لا يستكثرون لله عزّ وجلّ الكثير ولا يرضون له القليل ولا يدلون عليه بالأعمال فهم أيما لقيتهم خائفون مهيمون وجلون.

فلما سمع أيوب كلامه قال: إنّ الله يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى كانت في القلب ظهرت على اللسان ولا تكون الحكمة من قبل السنّ والشيبة ولا طول التجربة، وإذا جعل الله تعالى عبداً حكيماً عند الصبا لم تسقط منزلته عند الحكام. ثم أقبل على الثلاثة فقال: رهبت قبل أن تسترهبوا، ويكنتم قبل أن تضربوا، كيف بكم لو قلت لكم تصدّقوا عني بأموالكم لعلّ الله أن يخلصني، أو قربوا قرباناً لعلّ الله أن يتقبّل ويرضى عني؟ وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم فظننتم أنكم عوفيتم بإحسانكم فبغيتم وتعزّزتم، لو صدقتم ونظرتم بينكم وبين ربكم لوجدتم لكم عيوباً سترها الله بالعافية، وقد كنتُ فيما خلا والرجال يوقرونني وأنا مسموع كلامي، معروف من حقّي، مستتصف من خصمي، فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم، فأنتم أشدّ عليّ من مصيبي.

ثم أعرض عنهم وأقبل على ربه مستغيثاً به متضرعاً إليه فقال: ربّ لأيّ شيء خلقتني! ليتني إن كرهتني لم تخلقني، يا ليتني كنتُ حضةً ملفاةً، ويا ليتني عرفتُ الذنب الذي أذنبتُ فصرفتُ وجهك الكريم عني! لو كنتُ أمتني فالموت أجمل بي! ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم ولياً (١٣٤/١) وللأرملة قيماً؟ إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنتُ فالمنّ لك، وإن أسأتُ فيبيدك عقوبتي! جعلتني للبلاء عرضاً فقد وقع عليّ البلاء لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي! ذهب المال فصرّت أسأل بكفّي فيطعمني من كنتُ أعوله اللقمة الواحدة فيمنها عليّ ويميزني! هلك أولادي، ولو بقي أحدهم أعانني. قد ملّني أهلي وعقني أرحامي فتكرّرت معارفي، ورغب عني صديقي، وجحدت حقوقي، ونسيت صناعي. أصرخ فلا يصرخونني، وأعتذر فلا يعذرونني. دعوتُ غلامي فلم يجبني، وتضرّعتُ إلى أمتي فلم ترحمني، وإنّ قضاءك هو الذي أذاني وأقمانني، وإنّ سلطانك هو الذي أسقمني. فلو أنّ ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلّم ملء فمي ثمّ كان ينبغي للعبد أن يحاجّ مولاه عن نفسه، لرجوت أن تعافيني عند ذلك، ولكنه ألقاني وعلا عني فهو يراني ولا أراه، ويسمعني ولا أسمع، لا نظر إليّ فرحمني، ولا دنا مني فأتكلّم ببراءتي وأخاصم عن نفسي.

فلما قال أيوب ذلك أظلمهم غمامة ونودي منها: يا أيوب إنّ الله يقول قد دنوت منك ولم أزل منك قريباً فقم فاذل بحجّتك وتكلّم ببراءتك وقم مقام جبار فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلّا جبار. تجعل الزيار في فم الأسد واللجام في فم التين وتكيل مكيالاً من النور وتزّن مثقالاً من الريح وتصرّ صرة من الشمس وتردّ أمس. لقد متك نفسك أمراً لا تبلغه بمثل قوتك. أردت أن تكابرني بضعفك أم

تخاصمني بعينك أم تحاسبني بخطئك! أين أنت مني يوم خلقت الأرض؟ هل علمت بأي مقدار قدرتها؟ أين كنت معي يوم (١٣٥/١) رفعت السماء سقفاً في الهواء لا بعلاق ولا بدعائم تحملها؟ هل تبلغ حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليها ونهارها؟ وذكر أشياء من مصنوعات الله.

فقال أيوب: قصرت عن هذا الأمر! ليت الأرض انشقت لي فذهبت فيها ولم أتكلّم بشيء يسخطك! إلهي اجتمع عليّ البلاء وأنا أعلم أن كل الذي ذكرت صنع يديك وتدير حكمتك لا يعجزك شيء ولا تخفي عليك خافية، تعلم ما تخفي القلوب، وقد علمت في بلائي ما لم أكن أعلمه. كنت أسمع بسطوتك سمعاً فأمّا الآن فهو نظر العين. إنما تكلمت بما تكلمت به لتعذرنني، وسكت لترحمني، وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني والصقت بالتراب خدي فدنست فيه وجهي فلا أعود لشيء تكرهه. ودعا.

فقال الله: يا أيوب نفذ فيك حكمي وسبقت رحمتي غضبي، قد غفرت لك ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلقت آية وعبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين، فـ ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فيه شفاء، وقرب عن أصحابك قرباناً واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك. فركض برجله فانفجرت له عين ماء، فاغتسل فيها، ورفع الله عنه البلاء، ثم خرج فجلس وأقبلت امرأته فسألته عنه فقال: هل تعرفينه؟ قالت: نعم، ما لي لا أعرفه! فتبسّم، فعرفته بضحكها، فاعتقته فلم تفارقه من عناقه حتى مرّ بهما كل مال لهما وولد.

وإنما ذكرته قبل يوسف وقصته لما ذكر بعضهم من أمره وأنه كان نبياً في عهد يعقوب. (١٣٦/١)

وذكر أنّ عمر أيوب كان ثلاثاً وتسعين سنة، وأنه أوصى عند موته إلى ابنه حومل، وأنّ الله بعث بعده ابنه بشر بن أيوب نبياً وسمّاه ذا الكِفْل، وكان مقيماً بالشام حتى مات، وكان عمره خمسا وسبعين سنة، فأوصى إلى ابنه عيدان، وأنّ الله بعث بعده شُعَيْب بن ضيعون بن عفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم، عليه السلام. (١٣٧/١)

ذكر قصة يوسف، عليه السلام

ذكروا أنّ إسحاق توفي وعمره سِتْرُون ومائة سنة، وقبره عند أبيه إبراهيم، قبره ابنه يعقوب ويعيص في مزرعة خَبْرُون، وكان عمر يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة، وكان ابنه يوسف قد قسم له ولأمّه شطر الحسن، وكان يعقوب قد دفعه إلى أخته ابنة إسحاق تحضنه، فاحتبه حباً شديداً وأحبه يعقوب أيضاً حباً شديداً، فقال لأخته: يا أختي! سلّمي إليّ يوسف فوالله ما أقدر أن يغيب عني ساعة. فقالت: والله ما أنا بباركته ساعة. فأصرّ يعقوب على أخذه منها، فقالت: اتركه

عندي أياماً لعلّ ذلك يسليني، ثمّ عمدت إلى منطقة إسحاق، وكانت عندها، لأنّها كانت أكبر ولده، فحزمتها على وسط يوسف ثمّ قالت: قد قُذبت المنطقة فانظروا من أخذها. فالتمست، فقالت: اكشفوا أهل البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسف، وكان من مذهبهم أن صاحب السرقة يأخذ السارق له لا يعارضه فيه أحد، فأخذت يوسف فأمسكته عندها حتى ماتت وأخذه يعقوب بعد موتها. فهذا الذي تأوّل إخوة يوسف: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، وقيل في سرقة غير هذا، وقد تقدّم.

فلما رأى إخوة يوسف محبة أبيهم له وإقباله عليه حسدوه وعظم عندهم. (١٣٨/١)

ثمّ إنّ يوسف رأى في منامه كأنّ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر تسجد له، فقصّها على أبيه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة. فقال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٦٥]. ثمّ عبر له رؤياه. فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَّبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦٥].

وسمعت امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه فقال لها يعقوب: اكلمي ما قال يوسف ولا تخبري أولادك. قالت: نعم. فلما أقبل أولاد يعقوب من الرعي أخبرتهم بالرؤيا، فازدادوا حسداً وكرهاً له وقالوا: ما عنى بالشمس غير أبتنا، ولا بالقمر غيرك، ولا بالكواكب غيرنا، إنّ ابن راحيل يريد أن يملك علينا ويقول أنا سيّدكم. وتآمروا بينهم أن يفرقوا بينه وبين أبيه وقالوا: ﴿لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ - في خطي بين في إثارهما علينا - اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجهه أبيكم وتكونوا من بغيه قوماً صالحين [يوسف: ٩٨، أي ثائنين.

فقال قاتل منهم، وهو يهودا، وكان أفضلهم وأعقلهم: لا تقتلوا يوسف فإنّ القتل عظيم، وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيّارة، وأخذ عليهم اليهود أنهم لا يقتلونه، فاجتمعوا عند ذلك أن يدخلوا على يعقوب ويكلّموه في إرسال يوسف معهم إلى البرية، وأقبلوا إليه ووقفوا بين يديه، وكذلك (١٣٩/١) كانوا يفعلون إذا أرادوا منه حاجة، فلما رآهم قال: ما حاجتكم؟ فقالوا: يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لنأصحبون- نحفظه حتى نرده- أرسله معنا- إلى الصحراء- غداً يرتع ويلعب وإنّا له لنحافظون [يوسف: ١٢، ١١]. فقال لهم يعقوب: ﴿إِنِّي أَخِزْنُ فِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣] لا تشعرون، وإنما قال لهم ذلك لأنّه كان رأى في منامه كأنّ يوسف على رأس جبل وكان عشرة من الذئاب قد شذّوا عليه ليقتلوه، وإذا ذئب منها يحمي عنه، وكان الأرض انشقت فذهب فيها فلم يخرج منها إلّا بعد ثلاثة أيام، فلذلك

خاف عليه الذئب.

قيل: إن هذا الملك لم يمِتْ حتى آمن بيوسف ومات ويوسف حي، وملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف فلم يؤمن.

فلما اشترى يوسف وأتى به إلى منزله قال لامرأته، واسمها راعيل: ﴿اُكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [فيكفينا] إذا [هو بلغ و] فهم الأمور بعض ما نحن بسبيله ﴿وَأَوْ تَحْجِزَهُ وَلدًا﴾ [يوسف: ٢١]، وكان لا يأتي النساء، وكانت امرأته حسناء ناعمة في ملك ودنيا.

فلما خلا من عمر يوسف ثلاث وثلاثون سنة أتاه الله العلم والحكمة قبل النبوة، وراودته راعيل عن نفسه وأغلقت الأبواب عليه وعليها ودعته إلى نفسها، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي - يعني أن زوجك سيدي - أَحْسَنُ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، يعني أن خيائته ظلم، وجعلت (١٤٢/١) تذكر محاسنه وتشوقه إلى نفسها، فقالت له: يا يوسف ما أحسن شعرك قال: هو أول ما يتشر من جسدي. قالت: يا يوسف ما أحسن عينيكَ قال: هما أول ما يسيل من جسدي. قالت: ما أحسن وجهك قال: هو للتراب. فلم تزل به حتى هَمَّتْ وهم بها وذهب ليحل سراويله، فلإذا هو بصورة يعقوب قد عضَّ على إصبعه يقول: يا يوسف لا تواقعها إنما مثلك ما لم نواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق، ومثلك إذا واقعها مثله إذا مات وسقط إلى الأرض.

وقيل: جلس بين رجلها فرأى في الحائط: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاجِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فقام حين رأى برهان ربه هارباً يريد الباب، فأدركته قبل خروجه من الباب فجذبت قميصه من قبل ظهره فقذته، ﴿وَأَلْفَاظَ سَبْعًا لَدَى الْبَابِ - وابن عمها معه، فسالته له: - مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَاجَنَ﴾ [يوسف: ٢٥، ٢٦]. قال يوسف: بل ﴿هِيَ زَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٥، ٢٦] فهربت منها فأدركتني فقذت قميصي. قال لها ابن عمها: تبيان هذا في القميص فإن كان قد من قبْل فصدقت، وإن كان قد من دُبْر فكذبت. فأُتِيَ بالقميص فوجده قد من دبر فقال: (١٤٣/١) ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْلُوكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وقيل: كان الشاهد صبيّاً في المهد. قال ابن عباس: تكلم أربعة في المهد وهم صفار، ابن ماشطة امرأة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم.

وقال زوجها ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي ذكر ما كان منها فلا تذكره لأحد، ثم قال لزوجته: ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

وتحدّث النساء بأمر يوسف وامرأة العزيز. وبلغ ذلك امرأة العزيز، فأرسلت إليهن وأعدت لهن مَكًا يَكُنَّ عليه [من] وسائد، وحضرن، وقَدِّمَتْ لهنَّ أترنجاً وأعطت كل واحدة منهن سَكِينًا لقطع الأترنج، وقد أجلس يوسف في غير المجلس الذي هن فيه وقالت

فقال له بنوه: ﴿إِنَّ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَامِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤]. فاطمان إليهم، فقال يوسف: يا أبت أرسلني معهم. قال: أوتحب ذلك؟ قال: نعم. فاذن له، فليس ثيابه وخرج معهم وهم يكرمونهم، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وجعل بعض إخوته يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رجماً، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، وجعل يصيح: يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الإمام.

فلما كادوا يقتلونه قال لهم يهودا: أليس قد أعطينوني موثقاً ألا تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى الجب فأوثقوه كفافاً ونزعوا قميصه والقوه فيه، فقال: يا إخوتاه ردّوا علي قميصي أتأري به في الجب فقالوا: ادعُ الشمس والقمر والأحد (١٤٠/١) عشر كوكبا تؤنسك. قال: إنسي لم أر شيئاً، فدلّوه في الجب، فلما بلغ نصفه القوه وأرادوا أن يموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فأقام عليها، ثم نادوه فظنّ أنهم قد رحموه فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بالحجارة فمنعهم يهودا.

ثم أوحى الله إليه: ﴿لَتَبْتَئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] بالوحي، وقيل لا يشعرون أنه يوسف.

والجب بأرض بيت المقدس معروف.

ثم عادوا إلى أبيهم عشاءً يكون فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]. فقال لهم أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبِّرْ جَبِيلَ﴾ [يوسف: ١٨]. ثم قال لهم: أروني قميصه. فأروه. فقال: تالله ما رأيت ذنباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يشق قميصه! ثم صاح وخر مغشياً عليه ساعة، فلما أفاق بكى بكاء طويلاً فأخذ القميص بقبْله ويشمه.

وأقام يوسف في الجب ثلاثة أيام، وأرسل الله ملكاً فحلّ كفافه، ثم ﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ، وهو الذي يتقدّم إلى الماء، ﴿فَادْلُوا لُذُومَ﴾ إلى البئر، فتعلّق به يوسف فأخرجه من الجب، و ﴿قَالَ: يَا بَشْرِي هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً﴾ [يوسف: ١٩] يعني الوارد وأصحابه خافوا (١٤١/١) أن يقولوا اشتريته فيقول الرقعة اشركونا فيه فقالوا: إن أهل الماء استبضعونا هذا الغلام.

وجاء يهودا بطعام ليوسف فلم يره في الجب فنظر فرآه عند مالك في المنزل فأخبر إخوته بذلك، فأثوا مالكا وقالوا: هذا عبد آبق منا. وخافهم يوسف فلم يذكر حاله، واشتروه من إخوته بثمن بخس؛ قبل عشرون درهماً، وقبل أربعون درهماً، وذهبوا به إلى مصر، فكساه مالك وعرضه للبيع، فاشتراه قبطير، وقيل اطفير، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، والملك يومئذ الريّان بن الوليد رجل من العمالققة،

له: ﴿اُخْرِجْ عَلَيْهِمْ - فخرج - فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ - وَأَعْظَمْتُهُ - وَقَطَعْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالسكاكين ولا يشعرون، وقلن: معاذ الله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

فلَمَّا حَلَّ بِهِنَّ مَا حَلَّ مِنْ قَطْعِهِنَّ أَيْدِيَهُنَّ وَذَهَابِ عَقُولِهِنَّ وَعَرَفْنَ خَطَاهُنَّ فِيمَا قُلْنَ أَفْرَتَ عَلَى نَفْسِهَا وَقَالَتْ: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ لَكُنْتُنَّ وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. فاختار يوسف السجن (١٤٤/١) على معصية الله، فقال: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدُهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤]. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤]. ثُمَّ بَدَأَ لِلْعَزِيزِ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَى الْآيَاتِ مِنَ الْقَمِيصِ وَخَمَشِ الْوَجْهَ وَشَهَادَةِ الطِّفْلِ وَتَقَطُّعِ النَّسْوَةِ أَيْدِيَهُنَّ فِي تَرْكِ يَوْسُفَ مُطْلَقًا.

وقيل: إنَّهَا شَكَتْ إِلَى زَوْجِهَا وَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ قَدْ فَضَحَنِي فِي النَّاسِ يَخْبِرُهُمْ أَنِّي رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَسَجَنَهُ سَبْعَ سِنِينَ. فَلَمَّا حُبِسَ يَوْسُفُ أُدْخِلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَيَّانَ مِنْ أَصْحَابِ فِرْعَوْنَ مِصْرَ، أَحَدُهُمَا صَاحِبُ طَعَامِهِ، وَالْآخَرُ صَاحِبُ شَرَابِهِ، لِأَنَّهُمَا نُقِلَ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا يَرِيدَانِ أَنْ يَسْمَاَ الْمَلِكَ، فَلَمَّا دَخَلَ يَوْسُفُ السَّجْنَ قَالَ: إِنِّي أَعْبَرُ الْأَحْلَامَ. فَقَالَ أَحَدُ الْفَتَيْنِ لِلْآخَرِ: هَلُمَّ فَلْنَجْزِهِ. قَالَ الْخَبَّازُ: إِنِّي أَزَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ. وَقَالَ الْآخَرُ: إِنِّي أَزَانِي أَغْصِرُ خَمْرًا. [يوسف: ٣٦]. فَقَالَ لِهَمَا يَوْسُفُ: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا بِنَائِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]. كَرِهَ أَنْ يَبْعَرَ لِهَمَا مَا سَالَاهُ عَنْهُ، وَأَخَذَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ وَقَالَ: ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ الْرَبَّابُ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟﴾ [يوسف: ٣٩] وَكَانَ اسْمُ الْخَبَّازِ مَخْلَتَ، وَاسْمُ الْآخَرِ نُبُو، فَلَمَّ يَدْعَاهُ حَتَّى أَخْبَرَهُمَا بِتَأْوِيلِ مَا سَالَاهُ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿أَنَا أَخَذَكُمَا، وَهَوَّ الَّذِي رَأَى (١٤٥/١) إِنَّهُ يَعْصِرُ الْخَمْرَ، فَيَسْقِي رُبَّهُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١].

يَعْنِي سَيِّدَهُ الْمَلِكَ، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف: ٤١]. فَلَمَّا عَبَّرَ لِهَمَا قَالَا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا أَقَالَ: ﴿فَقَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]. ثُمَّ قَالَ لِنُبُو، وَهُوَ الَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا: ﴿إِذْ كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ﴾ [يوسف: ٤٢] الْمَلِكُ وَأَخْبَرَهُ أَنِّي مَجْبُوسٌ ظَلَمًا. ﴿فَأَنسَأَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]، غَفَلَةً عَرَضَتْ لِيُوسُفَ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا يَوْسُفُ اتَّخَذْتَ مِنْ دُونِي وَكِيلًا لِأَطْلِيلَ حَبْسِكَ. فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ سَبْعَ سِنِينَ.

ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ، وَهُوَ الرِّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْهَرَوَانَ بْنِ أَرَاشَةَ بْنِ فَارَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَمَلَقَ بْنِ لَادُودَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحَ، رَأَى رُؤْيَا هَائِلَةً، رَأَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَرَأَى سَبْعَ سِنِبِلَاتٍ خَضِرٍ وَأُخْرٍ يَابَسَاتٍ، فَجَمَعَ السَّحْرَةَ وَالْكَهَنَةَ وَالْحَاذَةَ وَالْعَافَةَ فَقَضَّاهَا عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: ﴿اضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ. وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ - أَيِ حِينٍ - أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾

ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ الرِّيَّانَ زَوَّجَ يَوْسُفَ رَاعِيَةَ امْرَأَتِهِ سَيِّدَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ بِهَا قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِمَّا كُنْتُ تَرِيدِينَ؟ فَقَالَتْ: أَيُّهَا الصَّدِيقُ لَا تَلْمَنِي فَإِنِّي كُنْتُ امْرَأَةً حَسَنَاءَ جَمِيلَةٍ فِي مَلِكٍ وَدُنْيَا وَكَانَ صَاحِبِي لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، وَكُنْتُ كَمَا جَعَلَكَ اللَّهُ فِي حَسَنِكَ فَغَلَبَنِي نَفْسِي. وَوَجَدَهَا بِكَرًّا، فَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدَيْنِ إِفْرَائِيمَ وَمَنْشَا.

فَلَمَّا وَلِيَ يَوْسُفُ خَزَائِنَ أَرْضِهِ وَمَضَتْ السَّنُونَ السَّبْعَ

بنيامين حزنه على يوسف، فقال له: أتحب أن أكون أخاك عوض أخيك الذاهب؟ فقال بنيامين: ومن يجد أخاً مثلك! ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فيكي يوسف وقام إليه فعانقه وقال له: إني أنا أخوك يوسف فلا تبتس بما فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا، ولا تعلمهم بما علمتكم. (١٥٠/١)

وقيل: لما دخلوا على يوسف نقر الصواع وقال: إنه يخبرني أنكم كتتم اثنتي عشر رجلاً وأنكم بعتم أخاكم. فلما سمعه بنيامين سجد له وقال: سل صواعك هذا عن أخي أحي هو؟ ففتره ثم قال: هو حي وستراه. قال: فاصنع بي ما شئت فإنه إن علم بي فسوف يستقذني؛ قال: فدخل يوسف فيكي ثم توضأ وخرج إليهم، قال: فلما حمل يوسف إيل إخوته من الميرة جعل الإناء الذي يكيل به الطعام، وهو الصواع، وكان من فضة، في رحل أخيه. وقيل: كان إناء يشرب فيه. ولم يشعر أخوه بذلك.

وقيل: إن بنيامين لما علم أن يوسف أخوه قال: لا أشاركك. قال يوسف: أخاف غم أبوتنا ولا يمكثني حيسك إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع. قال: افعل. قال: فلاني أجعل الصواع في رحلك ثم أتادي عليك بالسرقة لأخذك منهم. قال: افعل. فلما ارتحلوا «أذن مؤذن: أيتهما الغير إنكم لسارقون» [يوسف: ٧٣]. «قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسي في الأرض وما كنا سارقين» [يوسف: ٧٣] لأننا ردنا ثمن الطعام إلى يوسف. فلما قالوا ذلك «قالوا: فما جزاؤه إن كتتم كاذبين؟ قالوا: جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه» [يوسف: ٧٤، ٧٥] تأخذونه لكم. فبدأ بأربعينم ففتشها قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه. فقالوا: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» [يوسف: ٧٧]، يعنون يوسف، وكانت سرقة حين سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره فغيروه بذلك، وقيل ما تقدم ذكره في المنطقة. (١٥١/١)

فلما استخرجت السرقة من رحل الغلام قال إخوته: يا بني راحيل لا يزال لنا منك بلاء! فقال بنيامين: بل بنو راحيل ما يزال لهم منك بلاء! وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم.

فأخذ يوسف أخاه بحكم إخوته، فلما رأوا أنهم لا سبيل لهم عليه سألوه أن يتركه لهم و«قالوا: يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه» [يوسف: ٧٨]. فقال: «معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعاً عنده» [يوسف: ٧٩]. فلما أيسوا من خلاصه خلصوا نجيلاً لا يختلط بهم غيرهم، فقال كبيرهم، وهو شمعون: «ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم مؤثماً من الله» [يوسف: ٨٠] أن نأتيه بأخيها إلا أن يحاط بنا، ومن قبل هذه المرة «ما فرطتم في يوسف، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي» [يوسف: ٨٠] بالخروج، وقيل: بالحرب، فارجعوا إلى أبيكم فقصوا عليه خبركم.

المخصبات وجمع فيها الطعام في سنبله ودخلت السنون المجلبة وقطع الناس وأصابهم الجوع وأصاب بلاد يعقوب التي هو بها بعث بنه إلى مصر وأمسك بنيامين أخا يوسف (١٤٨/١) لأنه، فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون، وإنما أنكروا بعد عهدهم منه ولتغير لبسته، فإنه لبس ثياب الملوك، فلما نظر إليهم قال: أخبروني ما شأنكم. قالوا: نحن من الشام جئنا نتمسار الطعام. قال: كذبتهم، أنتم عيون، فأخبروني خبركم. قالوا: نحن عشرة أولاد رجل واحد صديق، كنا اثني عشر، وإنه كان لنا أخ فخرج معنا إلى البرية فهلك، وكان أحبنا إلى أبينا. قال: فإلى من سكن أبوكم بعده؟ قالوا: إلى أخ لنا أصغر منه. قال: فاتوني به أنظر إليه «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عيني ولا تقربون، قالوا: سزاؤد عنه أباه» [يوسف: ٦١، ٦٠]. قال: فاجعلوا بعضكم عندي رهينة حتى ترجعوا. فوضعوا شمعون، أصابته الفرعة، وجهزهم يوسف بجهازهم وقال لقيتانه: اجعلوا بضاعتهم يعني ثمن الطعام، في رحالهم لعلهم يرجعون، لما علم أن أماتهم وديانتهم تحملهم على رد البضاعة فيرجعون إليه لأجلها.

وقيل: رد مالهم لأنه خشي أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى، فإذا راوا معهم بضاعة عادوا. وكان يوف حين رأى ما بالناس من الجهد قد أسى بينهم، وكان لا يحمل للرجل إلا بعيراً.

فلما رجعوا إلى أبيهم بأحمالهم قالوا: يا أبانا إن عزيز مصر قد أكرمنا كرامة لو أنه بعض أولاد يعقوب ما زاد على كرامته، وإنه ارتهن شمعون وقال: اتوني بأخيكم الذي عطف عليه أبوكم بعد أخيكم، «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عيني ولا تقربون» [يوسف: ٦١، ٦٠]. قال: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل! ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، قالوا: يا أبانا ما هذا؟ بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير» [يوسف: ٦٥، ٦٤]. قال يعقوب: «ذلك كيل يسير» [يوسف: ٦٥، ٦٤]، فقال يعقوب: «لن أرسله معكم حتى تأتوني مؤثماً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم. فلما أتوه مؤثقتهم قال: الله على ما نقول وكيل» [يوسف: ٦٦]. ثم أوصاهم أبوه بعد أن أذن لأخيه في الرحيل معهم «وقال: يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة» [يوسف: ٦٧]، خاف عليهم العين، وكانوا ذوي صورة حسنة، ففعلوا كما أمرهم أبوه، ولما دخلوا على يوسف آوى إليهم أحاه» [يوسف: ٦٩] وعرفه وأزلهم منزلاً وأجرى عليهم الوظائف وقدم لهم الطعام وأجلس كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين وحده، فيكي وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلستني معه! فقال يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيداً، فأجلسه معه وقعد بواكله. فلما كان الليل جاءهم بالفرش وقال: لينم كل أخوين منكم على فراش، وبقي بنيامين وحده، فقال: هذا ينام معي، فبات معه على فراشه، فبقي يشمه ويضمه إليه حتى أصبح، وذكر له

فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على حلقه ليذبح ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية فعادوا ومعهم قميصه ملطخاً بدم وقالوا: أكله الذئب، وكان لي ابن آخر أخوه لأنه فكتت أنسلي به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وإنك حسبه، وأنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابح من ولدك.

فلما قرأ الكتاب لم يتمالك أن بكى وأظهر لهم فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ؟﴾ قالوا: أَيْنَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ! قَالَ: أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴿يوسف: ٨٩، ٩٠﴾ بأن جمع بيننا، فاعتدروا و ﴿قَالُوا: تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ (١٥٤/١) عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ. قَالَ: لَا تَحْزِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ﴿يوسف: ٩٢، ٩١﴾، أي لا أذكر لكم ذنبكم، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ﴿يوسف: ٩٢، ٩١﴾، ثم سألهم عن أبيه، فقالوا: لما فاته بنيامين عمي من الحزن، فقال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿يوسف: ٩٣﴾. فقال يهودا: أنا ذهبت به لأنني ذهبت إليه بالقميص ملطخاً بالدم وأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فانا أخبره أنه حي فأفرجه كما أحزنه. وكان هو البشير.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ ﴿يوسف: ٩٤﴾ عن مصر حملت الريح

إلى يعقوب ريح يوسف، وبينهما ثمانون فرسخاً، يوسف بمصر ويعقوب بأرض كنعان. فقال يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَقْتَدُونَ﴾ ﴿يوسف: ٩٤﴾؟ فقال له من حضره من أولاده: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ﴾ ﴿يوسف: ٩٦، ٩٥﴾ من ذكر يوسف ﴿لَنُفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ ﴿يوسف: ٩٦، ٩٥﴾ بقميص يوسف ﴿الْقَاءُ﴾ ﴿يوسف: ٩٦، ٩٥﴾ على وجه يعقوب فعاد بصيراً و ﴿قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يوسف: ٩٦، ٩٥﴾ يعني تصديق الله تأويل رؤيا يوسف: و ﴿لَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ ﴿يوسف: ٩٦، ٩٥﴾ قال له يعقوب: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر. قال: ما أصنع بالملك! على أي دين تركته؟ قال: على الإسلام.

قال: الآن تمت النعمة. فلما رأى من عنده من أولاده قميص يوسف وخبره قالوا له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا. قَالَ: سَوْفَ (١٥٥/١) اسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ ﴿يوسف: ٩٨، ٩٧﴾ آخر الدعاء إلى السحر من ليلة الجمعة.

ثم ارتحل يعقوب وولده، فلما دنا من مصر خرج يوسف يتلقاه ومعه أهل مصر، وكانوا يعظمونه، فلما دنا أحدهما من صاحبه نظر يعقوب إلى الناس والخيول، وكان يعقوب يمشي ويتوكأ على ابنه يهودا، فقال له: يا بني هذا فرعون مصر. قال: لا، هذا ابنك يوسف. فلما قرب منه أراد يوسف أن يبدئه بالسلام، فمنع من ذلك، فقال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان، لأنه لم يفارقه الحزن

فلما رجعوا إلى أبيهم فأخبروه بخبر بنيامين وتخلف شمعون ﴿قَالَ: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا، فَصَبِّرْ جَبِيلَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ ﴿سورة: ٨٣﴾ بيوسف وأخيه شمعون، ثم اعرض عنهم وقال: واحزناء على يوسف! ﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿يوسف: ٨٤﴾ مملوء من الحزن والغضب، فقال له بنوه: ﴿تَاللَّهِ تَقْتَأُ تَذْكُرُ (١٥٢/١) يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا- أَيْ دَفْنًا- أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ﴿يوسف: ٨٥، ٨٦﴾، فأجابهم يعقوب فقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يوسف: ٨٥، ٨٦﴾ من صديق رؤيا يوسف.

وقيل: بلغ من وجد يعقوب وجد سبعين مبتلى، وأعطى على ذلك أجر مائة شهيد.

قيل: دخل على يعقوب جائر له فقال: يا يعقوب قد انهشمت وفيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك! فقال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف. فأوحى الله إليه: أتشكونني إلى خلقي؟ قال: يا رب خطيئة فاغفرها. قال: قد غفرتها لك. فكان يعقوب إذا سئل بعد ذلك قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿يوسف: ٨٥، ٨٦﴾، فأوحى الله إليه: لو كانا ميتين لأحييتهما لك، إنما ابتليتك لأنك قد شويت وقترت على جارك ولم تطعمه.

وقيل: كان سبب ابتلائه أنه كان له بقرة لها عجل فذبح عجولها بين يديها وهو تخور فلم يرحمها يعقوب، فابتلي بفقد أعز ولده عنده.

وقيل: ذبح شاة، فقام ببابه مسكين فلم يطعمه منها، فأوحى الله إليه في ذلك وأعلمه أنه سبب ابتلائه، فصنع طعاماً ونادى: من كان صائماً فليطفر عند يعقوب.

ثم إن يعقوب أمر بنيه الذين قدموا عليه من مصر بالرجوع إليها وتجسس الأخبار عن يوسف وأخيه، فرجعوا إلى مصر فدخلوا على يوسف وقالوا: ﴿يَا أَبَاهُ الْعَزِيزُ مَسْنَا وَاهَلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ (١٥٣/١)﴾ -يعني قليلة- فَأَرْزُقْنَا لَنَا الْكُلَّ﴾ ﴿يوسف: ٨٨﴾، قيل: كانت بضاعتهم دراهم زبواً، وقيل: كانت سمناً وصوفاً، وقيل غير ذلك، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ ﴿يوسف: ٨٨﴾ بفضل ما بين الجيد والردى، وقيل: برء أخينا علينا. فلما سمع كلامهم غلبته نفسه فارفض مدعاه باكياً ثم باح لهم بالذي كان يكتم.

وقيل: إنما أظهر لهم ذلك لأن أباه كتب إليه، حين قيل له إنه أخذ ابنه لأنه سرق، كتاباً:

من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر المظهر العدل

أما بعد فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدتي فشددت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي

والبكاء مدة غيبة يوسف عنه.

قال: فلما دخلوا مصر رفع أبوتيه، يعني أمه وأباه، وقيل: كانت خالته، وكانت أمه قد ماتت، وخرّ له يعقوب وأمه وإخوته ساجداً، وكان السجود تحية الناس للملوك، ولم يرد بالسجود وضع الجبهة على الأرض، فإن ذلك لا يجوز إلا لله تعالى، وإنما أراد الخضوع والتواضع والانحناء عند السلام، كما يفعل الآن بالملوك. والعرش: السرير. وقال: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وكان بين رؤيا يوسف ومجيء يعقوب أربعين سنة، وقيل: ثمانون سنة، فإنه ألقى في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، ولقيه وهو ابن سبع وتسعين سنة، وعاش بعد جمع شمله ثلاثاً وعشرين سنة، وتوفي وله مائة وعشرون سنة، وأوصى إلى أخيه يهودا. وقيل: كانت غيبة يوسف عن يعقوب ثمانين سنة. وقيل: إن يوسف دخل مصر وله سبع عشرة سنة، واستوزره فرعون بعد ثلاث عشرة سنة من قدومه مصر، وكانت مدة غيبته عن يعقوب اثنتين وعشرين سنة، وكان مقام يعقوب بمصر وأهله معه سبع عشرة سنة، (١٥٦/١)

وقيل غير ذلك، والله أعلم.

ولما مات يعقوب أوصى إلى يوسف أن يدفنه مع أبيه [إسحاق، ففعل يوسف، فسار به إلى الشام فدفنه عند أبيه، ثم عاد إلى مصر وأوصى يوسف أن يُحْمَلَ من مصر ويُدفن عند آبائه، فحمّله موسى لما خرج بني إسرائيل.

وولد يوسف أفرائيم ومنشى، فولد لأفرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى، وولد لمنشى موسى، قيل موسى بن عمران، وزعم أهل التوراة أنه موسى الخضر، وولد له رحمة امرأة أيوب في قول. (١٥٧/١)

قصة شعيب، عليه السلام

قيل: إن اسم شعيب يثرون بن ضيعون بن عفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم، وقيل: هو شعيب بن ميكل من ولد مدين، وقيل: لم يكن شعيب من ولد إبراهيم، وإنما هو من ولد بعض من آبائهم وهاجر معه إلى الشام، ولكنه ابن بنت لوط، فجعل شعيب ابنة لوط، وكان ضرير البصر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا نَزَّلْنَا ضُفَيْفًا﴾ [هود: ٩١]؛ أي ضرير البصر.

وكان النبي، ﷺ، إذا ذكره قال: ذاك خطيب الأنبياء؛ بحسن مراجعته قومه؛ وإن الله أرسله إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة، والأيكة: شجر ملتف، وكانوا أهل كفر بالله، وبخس للناس في المكاييل والموازين وإفساد أموالهم، وكان الله وسع عليهم في الرزق

وسبط لهم في العيش استدراجاً لهم منه مع كفرهم بالله، فقال لهم شعيب: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَقْسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٩١].

فلما طال تماديهم في غيهم وضلالهم ولم يزدهم تذكير شعيب إليهم وتحذير عذاب الله إليهم إلا تمادياً، ولما أراد إهلاكهم سلط عليهم عذاب (١٥٨/١) يوم الظلة، وهو ما ذكره ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]. فقال: بعث الله عليهم وقدة وحرّاً شديداً فأخذ بأنفسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فاطلّتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة فنادى بعضهم بعضاً حتى اجتمعوا تحتها، فأرسل الله عليهم ناراً. قال عبد الله بن عباس: فذلك ﴿عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وقال قتادة: بعث الله شعبياً إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة، وكانت الأيكة من شجر ملتف، فلما أراد أن يعذبهم بعث عليهم حرّاً شديداً ورفع لهم العذاب كأنه سحابة، فلما دنت منهم خرجوا إليها رجاء بردها، فلما كانوا تحتها أمطرت عليهم ناراً، قال: فذلك قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وأما أهل مدين فمنهم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل، فعذبهم الله بالرجفة، وهي الزلزلة، فأهلكوا.

قال بعض العلماء: كان قوم شعب عطلوا حدّاً، فوسّع الله عليهم في الرزق، ثم عطلوا حدّاً فوسّع الله عليهم في الرزق، فجعلوا كلما عطلوا حدّاً وسّع الله عليهم في الرزق، حتى إذا أراد إهلاكهم سلط عليهم حرّاً لا يستطيعون أن يتقاروا ولا ينفعهم ظل ولا ماء حتى ذهب ذاهب منهم فاستظلّ تحت ظلة فوجد زوجاً فنادى أصحابه: هلموا إلى الزوج، فذهبوا إليه سراعاً حتى إذا اجتمعوا إليها ألهمها الله عليهم ناراً، فذلك عذاب يوم الظلة.

وقد روى عامر بن عباس أنه قال له: من حدّك ما عذاب يوم (١٥٩/١) الظلة فكذبته. وقال مجاهد: عذاب يوم الظلة هو إغلال العذاب على قوم شعيب. وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يُعَذِّبُ آبَاؤَنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧]؛ قال: ممّا كان ينهاهم عنه قطع الدراهم. (١٦٠/١)

قصة الخضر وخيره مع موسى

قال أهل الكتاب: إن موسى صاحب الخضر هو موسى بن منشى بن يوسف بن يعقوب، والحديث الصحيح عن النبي، ﷺ، أن موسى

عنه جرية الماء فصار مثل الطاق، فصار للحوت سرباً، وكان لهما عجيباً، ثم انطلقا، فلما كان حين الغداء قال موسى لفتاه: آتينا غداً هنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً. قال: ولم يجد موسى النصب حتى تجاوز حيث أمره الله، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾ (١٦٢/١) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ، فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً. [الكهف: ٦٣، ٦٤]. قال: بقصصاً آثارهما حتى أتيا الصخرة، فإذا رجل نائم مسحى بثره، فسلم موسى عليه، فقال: وأنى بأرضنا السلام! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه. قال: فإني أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً. ﴿قَالَ: فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ثم ركباً سفينة، فجاء عصفور فقعد على حرف السفينة فنقر في الماء، فقال الخضر لموسى: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر هذا العصفور من البحر.

قال: فبينما هم في السفينة لم يُفجأ موسى إلا وهو يوتد وتبدأ أو ينزع تختاً منها. فقال له موسى: حملنا بغير نول فتخرفها ﴿لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا﴾ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ: لَا تَوَاضِعْني بِمَا نَسِيتُ ﴿[الكهف: ٧١-٧٣]. قال: وكانت الأولى من موسى نسياناً. قال: فخرجنا فانطلقا يمشيان فابصرا غلاماً يلعب مع الغلمان، فاخذ برأسه فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا رَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نَكِرًا﴾ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ (١٦٣/١) لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ: إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا تَصَاحَبْني، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضْفِئُوهُمَا ﴿[الكهف: ٧٤-٨٢] فلم يجدا أحداً يطعمهما ولا يسقيهما، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَتْقَضَّ فَاقَامَا﴾ [الكهف: ٧٤-٨٢]، فقال له موسى: لم يضيئونا ولم يزلونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأَتَّبِعُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا، أَمَا السَّيِّئَةُ كُنَّا نَمْسَاكِينَ يُعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا، وَكَانَ زَوَّاجُهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً- وفي قراءة أبي: سفينة صالحة- وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين، فخشي أن يُزْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، فَأَرَادَ أَنْ يُبَذِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا، وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴿[الكهف: ٧٤-٨٢] إلى ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فكان ابن عباس يقول: ما كان الكنز إلا علماً، قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى يذكر؟ فقال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذه العالم فطابق به سفينته ثم أرسلها في البحر، فإنها لتتوَجَّ به إلى يوم

صاحب الخضر هو موسى بن عمران على ما نذكره. وكان الخضر ممن كان في أيام أفريدون الملك ابن اثنيان في قول علماء [أهل] الكتب الأول قبل موسى بن عمران.

وقيل: إنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان في أيام إبراهيم الخليل، وإنه بلغ مع ذي القرنين نهر الحياة فشرب من مائه ولا يعلم ذو القرنين ومن معه، فخلد وهو حي عندهم إلى الآن.

وزعم بعضهم: أنه كان من ولد من آمن مع إبراهيم وهاجر معه، واسمه يليا بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وكان أبوه ملكاً عظيماً.

وقال آخرون: ذو القرنين الذي كان على عهد إبراهيم أفريدون بن اثنيان، وعلى مقدمة كان الخضر.

قال عبد الله بن شاذب: الخضر من ولد فارس، والياس بن بني إسرائيل يلتقيان كل عام بالموسم.

وقال ابن إسحاق: استخلف الله على بني إسرائيل رجلاً منهم يقال له ناشية بن أموص، فبعث الله لهم الخضر معه نبياً.

قال: واسم الخضر فيما يقول بنو إسرائيل إرميا بن حلقيا، وكان من سبط هارون بن عمران، وبين هذا الملك وبين أفريدون أكثر من ألف عام.

وقول من قال إن الخضر كان في أيام أفريدون وذو القرنين الأكبر (١٦١/١) قبل موسى بن عمران أشبه للحديث الصحيح أن موسى بن عمران أمره الله بطلب الخضر، ورسول الله، ﷺ، كان أعلم الخلق بالكانن من الأمور، فيحتمل أن يكون الخضر على مقدمة ذي القرنين قبل موسى، وأنه شرب من ماء الحياة فطال عمره، ولم يرسل في أيام إبراهيم، وبعث في أيام ناشية بن أموص، وكان ناشية هذا في أيام بشتاسب بن لهراسب، والحديث ما رواه أبي بن كعب عن النبي، ﷺ.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: إن نوحاً يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى بن عمران. قال: كذب عدو الله حدثني أبي بن كعب عن النبي، ﷺ، قال: إن موسى قام في بني إسرائيل خطيباً فقبل له: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فقال: يا رب هل هناك أعلم مني؟ قال: بلى، عبد لي يجمع البحر. قال: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله في مكمل فحيث تفقده فهو هناك. فاخذ حوتاً فجعله في مكمل ثم قال لفتاه: إذا فقدت هذا الحوت فأخبرني. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر حتى أتيا الصخرة وذلك الماء، وهو ماء الحياة، فمن شرب منه خلد ولا يقارب شيء ميت إلا حيي، فمن الحوت منه فحيي، وكان موسى راقداً، واضطرب الحوت في المكمل فخرج في البحر، فأمسك الله

القيامة.

وقال غير هشام: إنه لما ملك سار نحو بلاد الترك طالباً بدم جدّه إيرج بن أفريدون، فقتل طوج بن أفريدون وأخاه سلماً، ثم إن أفراسياب بن فشنج بن رستم بن ترك، الذي يُنسب إليه الأتراك من ولد طوج بن أفريدون، (١٦٦/١) حارب منوجهر بعد قتله طوج بستين سنة وحاصره بطبرستان، ثم اصططحها أن يجعلها حدّاً ما بين ملكيهما [متهى] رمية سهم رجل من أصحاب منوجهر اسمه إيرشى، وكان رامياً شديد التزع، فرمى سهماً من طبرستان فوقع بنهر بلخ، وصار النهار حدّاً ما بين الترك ولد طوج وعمل منوجهر.

قلت: وهذا من أعجب ما يتداوله الفرس في أكاذيبهم، أن رمية سهم تبلغ هذا كلّه.

وقد ذكر أن منوجهر اشتق من الفرات ودجلة ونهر بلخ أنهاراً عظماً وأمر بعمارة الأرض. وقيل: إن الترك تناولت من أطراف رعيته بعد خمس وثلاثين سنة من ملكه، فوَجَّع قومه وقال لهم: أيها الناس إنكم لم تلدوا الناس كلّهم وإنما الناس ناس ما عقلوا من أنفسهم ودفعوا العدو عنهم، وقد نالت الترك من أطرافكم وليس ذلك إلا بترككم جهاد عدوكم، وإن الله أعطانا هذا الملك ليلبونا أنشكر أم نكفر فيعاقبنا، فإذا كان غد فاحضروا.

فحضر الناس والأشراف، فقام على قدميه، فقام له الناس، فقال: اقلعوا، إنما قمّت لأسمعكم. فجلسوا. فقال: أيها الناس إنما الخلق للخالق والشكر للمنعم والتسليم للقادِر، ولا بدّ ممّا هو كائن، وإنه لا أضعف من مخلوق طالباً كان أو مطلوباً، ولا أقوى من خالق ولا أقدر ممّن طلبته في يده ولا أعجز ممّن هو في يد طالبه، وإن التفكير نور والغفلة ظلمة، فالضلالة جهالة، وقد ورد الأول ولا بدّ للآخر من اللحاق بالأوّل. إن الله أعطانا هذا الملك فله الحمد نسأله إلهام الرُشد والصدق واليقين، وإنه لا بدّ أن يكون للملك على أهل مملكته حقّ ولأهل مملكته عليه حقّ، فحقّ الملك عليهم أن يطيعوه ويناصحوه ويقاتلوا عدوّه، وحقّهم على الملك أن يعطيهم (١٦٧/١) أرزاقهم في أوقاتها إذ لا معول لهم إلا عليها، وإنه خازنهم، وحقّ الرعيّة على الملك أن ينظر إليهم ويرفق بهم ولا يحملهم على ما لا يطيقون، وإن أصابتهم مصيبة تنقص من ثمارهم أن يسقط عنهم خراج ما نقص، وإن اجتاحتهم مصيبة أن يعوّضهم ما يقرّوهم على عمارتهم، ثم يأخذ منهم بعد ذلك قدر ما لا يحجف بهم في سنة أو سنتين. ألا وإنّ الملك ينبغي أن يكون فيه ثلاث خصال: أن يكون صدوقاً لا يكذب، وأن يكون سخيّاً لا يبخل، وأن يملك نفسه عند الغضب فإنّه مسلّط ويده مبسوطة، والخراج يأتيه، فلا يستأثر عن جنده ورعيته بما هم أهل له، وأن يكثر العفو فإنّه لا ملك أقوى ولا أبهى من ملك فيه العفو، فإنّ الملك إن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة.

الحديث يدلّ على أنّ الخضر كان قبل موسى وفي أيامه، ويدلّ على خطأ من قال إنه إرميا، لأنّ إرميا كان أيام بخت نصر، وبين أيام موسى وبخت نصر من المدة ما لا يشكل على عالم بآيام الناس، فإن موسى إنما نبى في أيام منوجهر، وكان ملكه بعد جدّه أفريدون. (١٦٤/١)

ذكر الخبر عن منوجهر والحوادث في أيامه

ثمّ ملك بعد أفريدون بن اثغيان بن كاو منوجهر، وهو من ولد إيرج ابن أفريدون، وكان مولده بدبّاوند، وقيل بالري، فلمّا ولد منوجهر أخفى أمره خوفاً من طوج وسلّم عليه، ولما كبر منوجهر سار إلى جدّه أفريدون فتوسّم فيه الخير وجعل له ما كان جعله لجدّه إيرج من المملكة وتوجّه بتاجه.

وقد زعم بعضهم أنّ منوجهر بن شجر بن أفريش بن إسحاق بن إبراهيم انتقل إليه الملك، واستشهد بقول جرير بن عطية:

وإنّما إسحاق اليُوسُثُ إذا ارتسوا حمائلُ مَوْتٍ لابسين السُورَا
إذا انتسوا علوا الصَّهْبُذُ منهم وكسرى وعنوا الهُرْمُزَانُ وقصراً
وكان كِبابَ فيهم وبُيُوءَ وكانوا بِإِصْطَخَرِ المُلوِكِ وتُسْتَرَا
فَجَمَعْنَا والفُرسُ أبناءَ فارسي أب لا بُيالي بَنَتْهُ مَنْ تَأَخَّرَا
أبونا خَلِيلُ اللَّهِ وَاللَّهُ رِيثَا رَضِينَا بما أعطى الإلهَ وَقَدَّرَا

(١٦٥/١) وأما الفرس فتذكر هذا النسب ولا تعرف لها ملكاً إلا في أولاد أفريدون ولا تقرّ بالملك لغيرهم.

قلت: والحق ما قاله الفرس، فإن أسماء ملوكهم قبل الإسكندر [معروفة] وبعد أيامه ملوك الطوائف، وإذا كان منوجهر أيام موسى وكلّ ما بين موسى وإسحاق خمسة آباء معروفون ولم يزلوا بمصر ففي أيّ زمان كثروا وانتشروا وملكو بلاد فارس؟ ومن أين لجرير هذا العلم حتى يكون قوله حجّة لا سيّما وقد جعل الجميع أبناء إسحاق!

قال هشام بن الكلبي: ملك طوج وسلّم الأرض بعد أخيهما إيرج ثلاثمائة سنة، ثمّ ملك منوجهر مائة وعشرين سنة، ثمّ وثب به ابن طوج التركي على رأس ثمانين سنة ففناه عن بلاد العراق اثنتي عشرة سنة، ثمّ أدبيل منه منوجهر ففناه عن بلاده وعاد إلى ملكه، [وملك] بعد ذلك ثمانياً وعشرين سنة.

وكان منوجهر يوصف بالعدل والإحسان وهو أوّل من خندق الخنادق وجمع آلة الحرب، وأوّل من وضع الدهقنة فجعل لكلّ قرية دهقاناً وأمر أهلها بطاعته.

ويقال: إنّ موسى ظهر في سنة ستين من ملكه.

وكان فرعون مصر في أيامه قابوس بن مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني، وكانت امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد بن فرعون يوسف الأول، وقيل: كانت من بني إسرائيل، فلما نودي موسى أعلم أن قابوس فرعون مصر مات وقام أخوه الوليد بن مصعب مكانه، وكان عمره طويلاً، وكان أعنى من قابوس وأفجر، وأمر بأن يأتيه هو وهارون بالرسالة. ويقال: إن الوليد تزوج آسية بعد أخيه، ثم سار موسى إلى فرعون رسولاً مع هارون، فكان من مولد موسى إلى أن أخرج بني إسرائيل من مصر ثمانون سنة. ثم سار إلى التيه بعد أن مضى وعبر البحر، وكان مقامهم هنالك إلى أن خرجوا مع يوشع بن نون أربعين سنة، فكان ما بين مولد موسى إلى وفاته مائة وعشرين سنة.

قال ابن عباس وغيره، دخل حديث بعضهم في بعض: إن الله تعالى (١٧٠/١) لما قبض يوسف وهلك الملك الذي كان معه وتوارثت الفراعنة ملك مصر ونشر الله بني إسرائيل لم يزل بنو إسرائيل تحت يد الفراعنة وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام حتى كان فرعون موسى، وكان أعتاهم على الله وأعظمهم قولاً وأطولهم عمراً، واسمه فيما ذكر الوليد بن مصعب، وكان سيء الملكة على بني إسرائيل يعذبهم ويجعلهم خولاً ويسومهم سوء العذاب.

فلما أراد الله أن يستقذهم بلغ موسى الأشد وأعطي الرسالة، وكان شأن فرعون قبل ولادة موسى أنه رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرق القبط وترك بني إسرائيل وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والحزاة والكهنة فسألهم عن رؤياه، فقالوا: يخرج من هذا البلد، يعنون بيت المقدس، الذي جاء بنو إسرائيل منه، رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر أن لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح ويترك الجوّاري.

وقيل: إنه لما تقارب زمان موسى أتى منجمو فرعون وحزاته إليه فقالوا: اعلم أننا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك ويبدل دينك. فأمر بقتل كل مولود يولد في بني إسرائيل.

وقيل: بل تذاكر فرعون وجلساؤه معاً ما وعد الله عز وجل إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ليتظنوا ذلك، وقد كانوا يظنونهم يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا وعد الله إبراهيم. فقال فرعون: كيف ترون؟ فاجمعوا على أن يبعث رجلاً (١٧١/١) يقتلون كل مولود في بني إسرائيل، وقال للقبط: انظروا ممالككم الذين يعملون خارجاً فادخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلون ذلك، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي

الْأَوَّلَ إِنَّ التُّرْكَ قَدْ طَمَعَتْ فِيكُمْ فَافْكُونَا فَإِنَّمَا تَكْفُونُ أَنْفُسَكُمْ، وَقَدْ أَمَرْتُ لَكُمْ بِالسَّلَاحِ وَالْعُدَّةِ وَأَنَا شَرِيكُكُمْ فِي الرَّأْيِ، وَإِنَّمَا لِي مِنْ هَذَا الْمَلِكِ اسْمُهُ مَعَ الطَّاعَةِ مِنْكُمْ. أَلَا وَإِنَّمَا الْمَلِكُ مَلِكٌ إِذَا أَطِيعَ، فَإِنْ خَوْلَفَ فَهُوَ مَمْلُوكٌ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ. أَلَا وَإِنْ أَكْمَلَ الْأَدَاةَ عِنْدَ الْمُصِيبَاتِ الْأَخْذَ بِالصَّبْرِ وَالرَّاحَةِ إِلَى الْيَقِينِ، فَمَنْ قُتِلَ فِي مُجَاهَدَةِ الْعَدُوِّ رَجَوْتُ لَهُ نَفْوَ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا سَفَرٌ لِأَهْلِهَا لَا يَحِلُّونَ عَقْدَ الرِّحَالِ إِلَّا فِي غَيْرِهَا. وَهِيَ خُطْبَةٌ طَوِيلَةٌ.

ثم أمر بالطعام فأكلوا وشربوا وخرجوا وهم له شاكرون مطيعون.

وكان ملكه مائة وعشرين سنة.

وزعم ابن الكلبي أن الرايش، واسمه الحرث بن قيس بن صيفي بن سبا بن يعزب بن قحطان، وكان قد ملك اليمن بعد يعرب بن قحطان، (١٦٨/١) كان ملكه باليمن أيام ملك منوجهر، وإنما سمي الرايش لغنيمة غنمها فادخلها اليمن فسمي الرايش، ثم غزا الهند فقتل بها وأسر وغنم ورجع إلى اليمن، ثم سار على جبلي طيء، ثم على الأنبار، ثم على الموصل ووجه منها خيله وعليها رجل من أصحابه يقال له شمر بن العطف، فدخل على الترك بأرض أذربيجان فقتل المقاتلة وسبى الذرية وكتب ما كان من مسيره على حجرين، وهما معروفان بأذربيجان.

ثم ملك بعده ابنه أبرهة، ولقبه ذو المنار، وإنما لقب بذلك لأنه غزا بلاد المغرب وأوغل فيها براً وبحراً، وخاف على جيشه الضلال عند قوله فبني المنار ليهتدوا [بها]، وقد زعم أهل اليمن أنه وجه ابنه القبط بن أبرهة في غزواته إلى ناحية من أقاصي المغرب فغنم وقدم بسبي له وحشة منكرة، فذعر الناس منهم، فسمي ذو الأذعار؛ فأبرهة أحد ملوكهم الذين توغلوا في البلاد.

وإنما ذكرت من ذكرت من ملوك اليمن هاهنا لقول من زعم أن الرايش كان أيام منوجهر وأن ملوك اليمن كانوا عمالاً لملوك فارس. (١٦٩/١)

قصة موسى، عليه السلام، ونسبه

وما كان في أيامه من الأحداث

قيل: هو موسى بن عمران بن يصر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وولد لاوي ليعقوب وهو ابن تسع وثمانين سنة، وولد قاهت للاوي وهو ابن ست وأربعين سنة، وولد لقاهت يصر، وولد عمران ليصر وله ستون سنة، وكان عمره جميعه مائة وثلاثين سنة. وأم موسى يوخابد. واسم امرأته صفورا بنت شعيب النبي.

وَأَمَّا سُمِّيَ مُوسَى لِأَنَّهُ وُجِدَ فِي مَاءٍ وَشَجَرٍ، وَالْمَاءُ بِالْقِطْيَةِ مَر، وَالشَّجَرُ سَا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وكان غيبته عنها ثلاثة أيام، وأخذته معها إلى بيتها، واتخذته فرعون ولداً فدعى ابن فرعون، فلما تحرّك الغلام حملته أمه إلى آسية، فأخذته ترقصه وتلعب به وناولته فرعون، فلما أخذه إليه أخذ الغلام بلحيته فتفحصها. قال فرعون: عليّ بالذيّاحين يذبحونه، هو هذا! قالت آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، إنّما هو صبي لا يعقل وإنما فعل هذا من جهل، وقد علمت أنّه ليس في مصر امرأة أكثر حلياً مني، أنا اضع له حلياً من ياقوت وجمراً فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها ووضعت له طشتاً من جمر فجاء جبرائيل فوضع يده في جمره فأخذها فطرحها موسى في فمه، فأحرقت لسانه، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ لَكَ مَوْسَى مِيثَاقَهُ وَفَضَّلَ لَكَ مَوْسَى مِثْلَ ثَمَنِ الْبَنَاتِ وَخَافَ مَوْسَى أَنْ يَأْتِيَهُ الْيَمُّ بِغَمٍّ فَبَدَّاهُ الْعَيْنَ وَخَفَّى كَتَمَهُ الْأُنثَى وَوَضَعْنَا يَدَافِئَهُ فِي يَتَرَيْنِ﴾ [طه: ٢٧]. فدرأت عن موسى بتلك القتل.

وكبر موسى، وكان يركب مركب فرعون ويلبس ما يلبس، وإنما يُدعى موسى بن فرعون، وامتنع به بنو إسرائيل ولم يبق قبطي يظلم إسرائيلياً خوفاً منه. (١٧٤/١)

ثم إن فرعون ركب مركباً وليس عنده موسى، فلما جاء موسى قيل له: فرعون قد ركب، فركب موسى في أثره فأدركه المقبل بأرض يقال لها منف، وهذه منف (بفتح الميم وسكون النون) مصر القديمة التي هي مصر يوسف الصديق، وهي الآن قرية كبيرة، فدخل نصف النهار، وقد أغلقت أسواقها، ﴿عَلَى حِينٍ غَفَلُوا مِنْ أَهْلِيهَا، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ أَبِي هَارُونَ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٦، ١٥] يقول هذا إسرائيلي قبل أنه السامري ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٦، ١٥] يقول من القبط ﴿فَاسْتَنَافَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٦، ١٥]، فغضب موسى لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم، وكان قد حماهم من القبط، وكان الناس لا يعلمون أنه منهم بل كانوا يظنون أن ذلك بسبب الرضاع. فلما اشتد غضبه وكرهه قَضَى عَلَيْهِ، قَالَ: إِنَّ ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ قَالَ رَبِّي إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦، ١٥]؛ أوحى الله تعالى إلى موسى: وعزّي لو أن النَّفْسَ التي قتلت أقرت لي ساعة واحدة أنّي خالق رازق لأذقتك العذاب. ﴿قَالَ: رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٥-١٧]. فأصبح في المدينة خائفاً يترقب أن يؤخذ، ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يقول يستعينه. قَالَ لَهُ مُوسَى: إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]. ثم أقبل لينصره، فلما نظر إلى موسى وقد أقبل نحوه ليطلب بالرجل الذي يقاتل الإسرائيلي خاف أن يقتله من أجل أنه

الْأَرْضَ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص: ١٧]؛ فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، وكان يأمر بتعذيب الجبالي حتى يضعن، فكان يشقّق القصب ويوقف المرأة عليه فيقطع أقدامهن، وكانت المرأة تضع قنصتي بولدها القصب، وقذف الله الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوس القبط على فرعون وكلموه وقالوا: إنّ هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت فيوشك أن يقع العمل على غلماننا، تذبح الصغار وتقني الكبار، فلو أنك كتبت تبقي من أولادهم، فأمرهم أن يذبحوا سنة، ويتركوا سنة، فلما كان في تلك السنة التي تركوا فيها ولد هارون، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها، وهي السنة المقبلة. فلما أرادت أمه وضعه حزنت من شأنه، فأوحى الله إليها، أَيُّ الهمها: ﴿أَنْ أَرْضِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ - وهو النيل - وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ١٧].

فلما وضعت أرضته ثم دعت نجاراً فجعل له تابوتاً وجعل مفتاح التابوت من داخل وجعله فيه وألقته في اليم، فلما توارى عنها أتاها إبليس، فقالت في نفسها: ما الذي صنعت بنفسي! لو ذُبح عندي فواريته وكفّته كان أحب إليّ من أن ألقيه بيدي إلى حيطان البحر ودوابه. فلما ألقته ﴿قَالَتْ لِأَخِي: واسمها مريم - قُصِيْهِ - يعني قصي أثره - قُصِرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبِ وَهْمٍ (١٧٢/١) لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّها أخته، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجار عند دور فرعون، فخرج جوارى آسية امرأة فرعون بغتسلن فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية، وظنن أن فيه مالا، فلما فتح ونظرت إليه آسية وقعت عليها رحمته وأحبته، فلما أخبرت به فرعون وأتته به قالت: ﴿قَرَّةٌ عَيْنٍ لِي وَكَأَنَّكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص: ١١]. فقال فرعون: يكون لك، وأما أنا فلا حاجة لي فيه.

قال النبي ﷺ: والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرت لهداه الله كما هداه.

واراد أن يذبحه فلم تزل آسية تكلّمه حتى تركه لها وقال: إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل وأن يكون هذا على يدي هلاكاً، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَالْقَظْفَةُ أَلْ فَرْعُونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٢١]. وأرادوا له المرضعات فلم يأخذ من أحدهن النساء، فذلك قوله: ﴿وَحَزَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ - أخته مريم - : هَلْ أَتَاكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكُمْ يُكْفِلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ؟﴾. فأخذوها وقالوا: ما يدريك ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك. فقالت: نصحهم له شفقتهم عليه ورغبتهم في قضاء حاجة الملك ورجاء منفعة، فانطلقت إلى أمه فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما أعطته ثديها (١٧٣/١) أخذه منها، فكادت تقول: هذا ابني، فعصمها الله.

أعظم له في الكلام قال: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ؟﴾ (١٧٥/١) إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين. [القصص: ١٩]. فترك القبطي، فذهب فافشى عليه أن موسى هو الذي قتل الرجل، فطلبه فرعون وقال: خذوه فإنه صاحبنا. فجاء رجل فآخبره وقال له: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِيهِمْ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ فَاخْرُجْ﴾ [القصص: ٢٠].

قيل: كان خريسل مؤمن آل فرعون، كان على بقية من دين إبراهيم، عليه السلام، وكان أول من آمن بموسى. فلما أخبره خرج من بينهم ﴿حَافِظًا يَتَرَقَّبُ﴾، قال: رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. [القصص: ٢١]. وأخذ في ثياب الطريق، فجاءه ملك على فرس وفي يده عزة، وهي الحرية الصغيرة، فلما رآه موسى سجد له من الفرق. فقال له: لا تسجد لي ولكن اتبعني، فهده نحو مدين. وقال موسى وهو متوجه إليها: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]. فانطلق به الملك حتى انتهى به إلى مدين، فكان قد سار وليس معه طعام، وكان يأكل ورق الشجر، ولم يكن له قوة على المشي، فما بلغ مدين حتى سقط خفاً قدمه. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ - قَصِدَ الْمَاءِ - وَجَدَ عَلَيْهِ أَمَةً مِنَ النَّاسِ يَسْفُونَ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣]. أي تحبسان غنهما، وهما ابنتا شعيب النبي، وقيل: ابنتا يهرون، وهو ابن أخي شعيب، فلما رآهما موسى سالهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ (١٧٦/١) قالتا: لا نسقي حتى يصليز الرعاء وأبونا شيخ كبير. [القصص: ٢٣]. فرحمهما موسى فأتى البئر فاقتلع صخرة عليها كان النفر من أهل مدين يجتمعون عليها حتى يرفعوها فسقى لهما غنهما، فرجعنا سريعاً، وكانا إنما تسقيان من فضول الحياض. وقصد موسى شجرة هناك ليستظل بها فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

قال ابن عباس: لقد قال موسى [ذلك] ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع لفعل وما سأل إلا أكلة. فلما رجع الجاريتان إلى أبيهما سريعاً سالهما فأخبرتهما، فأعاد أحدهما إلى موسى تستدعيه، فأتته وقالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]. فقام معها، فمشت بين يديه، فضربت الريح ثوبها فعكس عجزتها، فقال لها: امشي خلفي ودليني على الطريق فإنما أهل بيت لا ننظر في أعقاب النساء. فلما أتاه ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ قَالَ: لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. [القصص: ٢٥]. قالت إحداهما، وهي التي أحضرته: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. قال لها أبوها: القوة قد رأيتهما فيما يدريك بآماتهما؟ فذكرت له ما أمرها به من المشي خلفه. فقال له أبوها: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَنُؤَيِّنَ بِكَ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَنْجُوَنِي - نَفْسُكَ - ثَمَانِي جِجَاجٍ، فَإِنْ أُنْمَمْتَ كُنَّا مِنْ جِلْدِ حَمَارٍ مِيتٍ، وَقِيلَ: لَيْتَالَا قَدِمَهُ الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ، ثُمَّ قَالَ

وأقام موسى عند شعيب يرعى له غنمه عشر سنين، وسار بأهله في زمن شتاء وبرد، فلما كانت الليلة التي أراد الله عز وجل لموسى كرامته وابتدأه فيها بنبوته وكلامه أخطأ فيها الطريق حتى لا يدري أين يتوجه وكانت امرأته حاملاً، فأخذها الطلق في ليلة شتائية ذات مطر ووعد ويرق، فأخرج زنده ليقدر ناراً لأهله ليصطلوا ويبتئوا حتى يصبح ويعلم وجه طريقه، فاصلداً (١٧٨/١) زنده فقدح حتى أعيا، فرفعت له نار، فلما رآها ظن أنها نار، وكانت من نور الله، ف ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩]، فإن لم أجد خبراً آتيتكم بشهابٍ قُبِسَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ [النمل: ٧]، فحين قصدها رآها نوراً ممتداً من السماء إلى شجرة عظيمة من العوسج، وقيل: من العناب، فتحير موسى وخاف حين رأى ناراً عظيمة بغير دخان وهي تلتهم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا عظماً ولا تزداد الشجرة إلا خضرة، فلما دنا منها استأخرت عنه، ففرع ورجع، فأنودي منها، فلما سمع الصوت استأنس فعاد، ﴿فَلَمَّا أَنَاثَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]: أن بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا يَا موسى، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، فلما سمع النداء ورأى تلك الهيئة علم أنه ربه تعالى، فحفظ قلبه وكل لسانه وضعفت قوته وصار حياً كميث إلا أن الروح بتدّ فيه، فأرسل الله إليه ملكاً يشد قلبه، فلما ثاب إليه عقله نودي: ﴿اخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ [طه: ١٢]؛ وإنما أمر بخلع نعليه لأنهما كانتا من جلد حمار ميت، وقيل: ليتال قدومه الأرض المباركة، ثم قال

وأوحى الله تعالى إلى موسى وهارون أن ﴿قُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَمَهُ﴾ (١٨٢/١) يَنْذَرُكَ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤)، فقال له موسى: هل لك في أن أعطيك شبابك فلا تهرم، ومملك فلا يُنزع، وأرد إليك لذّة المناكح والمشارب والركوب، فإذا مُتْ دخلت الجنة وتؤمن بي؟ فقال: لا حتى يأتي هامان، فلما حضر هامان عرض عليه قول موسى، فعجزه وقال له: نصير تعبد بعد أن كنت تُعبد! ثم قال له: أنا أرد عليك شبابك، فعمل له الوسمه فخضبه بها، فهو أول من خضب بالسواد، فلما رآه موسى هاله ذلك، فأوحى الله إليه: لا يهولنك ما ترى فلن يلبث إلا قليلاً. فلما سمع فرعون ذلك خرج إلى قومه فقال: إن هذا لساحر عليم. وأراد قتله. فقال مؤمن آل فرعون، واسمه خربيل: ﴿أَقْتُلُوا رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟﴾ (غافر: ٢٨) وقال الملأ من قوم فرعون: ﴿أَزِجْهُ وَاحِدَةً وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَالِمٍ﴾ (الشعراء: ٣٧، ٣٦). ففعل وجمع السمرة، فكانوا سبعين ساحراً، وقيل: اثنين وسبعين، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: ثلاثين ألفاً، فوعدهم فرعون وأقعدوا يوم عيد كان

لفرعون، ففصفهم فرعونُ وجمع الناس، وجاء موسى ومعه أخوه هارون وبيده عصاه حتى أتى الجمعَ وفرعون في مجلسه مع أشرف قومه، فقال موسى للسحرة حين جاءهم: ﴿وَتِلْكَ لَافْتَرَاؤُا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُسْحَرُونَ﴾ [طه: ٦١]. فقال السحرة بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر! ثم قالوا: (١٨٣/١) لئلا تبتك بسحر لم تر مثله، ﴿وَقَالُوا: بَعِزَّةُ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]. فقال له السحرة: يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]. قال: بل ألقوا. ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤] فإذا هي في رأي العين حيات أمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً، فأوجس موسى خوفاً، فأوحى الله إليه: أَنْ ﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ [طه: ٦٩]، فلقى عصاه من يده فصارت ثعباناً عظيماً فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهي كالحيات في أعين الناس، فجعلت تلقفها وتبتلعها حتى لم تبق منها شيئاً، ثم أخذ موسى عصاه فإذا هي في يده كما كانت.

وكان رئيس السحرة أعمى، فقال له أصحابه: إن عصا موسى صارت ثعباناً عظيماً وتلقف حبالنا وعصيانا. فقال لهم: ولم يبق لها أثر ولا عادت إلى حالها الأول؟ فقالوا: لا. فقال: هذا ليس بسحر. فخر ساجداً وتبعه السحرة أجمعون و ﴿قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]. قال فرعون: ﴿أَمْتُمْ لَهُ قَبْلُ أَنْ آذَنَ لَكُمْ! إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِهِ وَلَأَسْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. ففقطعهم وقتلهم وهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّضْنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، فكانوا أول النهار كفاراً وآخر النهار شهداء.

وكان خربيل مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه، قيل: كان من بني إسرائيل، وقيل: كان من القبط، وقيل: هو النجار الذي صنع التابوت الذي جعل فيه موسى وألقي في النيل، فلما رأى غلبة موسى السحرة أظهر إيمانه، وقيل: أظهر إيمانه قبل قتل وصلب مع السحرة، وكان له امرأة مؤمنة تكتم إيمانها أيضاً، وكانت ماشطة ابنة فرعون، فبينما هي تمشطها إذ وقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا بل ربي وربك ورب آبيك. فآخبرت أباهما بذلك، فدعا بها وبولدها وقال لها: مَنْ رَبُّكَ؟ قالت: ربي وربك الله. فأمر بتنور نحاس فأحمر ليعذبها وأولادها. فقالت: لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدنها. قال: ذلك لك، فأمر بأولادها فألقوا في التنور واحداً واحداً، وكان آخر أولادها صبيّاً صغيراً، فقال: اصبري يا أمّاه فإنك على الحق، فألقيت في التنور مع ولدها.

وكانت آسية امرأة فرعون من بني إسرائيل، وقيل: كانت من غيرهم، وكانت مؤمنة تكتم إيمانها، فلما قتلت الماشطة رأت آسية

الملائكة تعرج بروحها، كشف الله عن بصيرتها، وكسنت تنظر إليها وهي تعذب، فلما رأت الملائكة قوتي إيمانها وازدادت يقيناً وتصديقاً لموسى، فبينما هي كذلك إذ دخل عليها فرعون فأخبرها خبر الماشطة. قالت له آسية: الويل لك! ما أجراك على الله! فقال لها: لعلك اعتراك الجنون الذي اعترى الماشطة؟ فقالت: ما بي جنون ولكني آمنْتُ بالله تعالى ربي وربك ورب العالمين. (١٨٥/١)

فدعا فرعون أمها وقال لها: إن ابنتك قد أصابها ما أصاب الماشطة فأقسم لتدوّن الموت أو لتكفرن بإله موسى. فخلت بها أمها وأرادتها على موافقة فرعون، فأبت [وقالت]: أمّا أن أكفر بالله فلا والله! فأمر فرعون حتى مدت بين يديه أربعة أوتاد وغذبت حتى ماتت، فلما عاينت الموت قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١]. فكشف الله عن بصيرتها فرأت الملائكة وما أعد لها من الكرامة، فضحكت، فقال فرعون: انظروا إلى الجنون الذي بها! تضحك وهي في العذاب! ثم ماتت.

ولما رأى فرعون قومه قد دخلهم الرعب من موسى خاف أن يؤمنوا به ويتركوا عبادته فاحتال لنفسه وقال لوزيره: يا هامان ابن لي صرحاً لعليّ ﴿أُطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٧]. فأمر هامان بعمل الآجر، وهو أول من عمله، وجمع الصنّاع وعمله في سبع سنين، وارتفع البنيان ارتفاعاً لم يبلغه بنيان آخر، فشق ذلك على موسى واستعظمه، فأوحى الله إليه: أَنْ دَعِهِ وَمَا يَرِيدُ فَإِنِّي مُسْتَدْرِجُهُ وَمَبْطِلُ مَا عَمِلَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. فلما تم بناءه أمر الله جبرائيل فخربه وأهلك كل من عمل فيه من صانع ومستعمل. فلما رأى فرعون ذلك من صنع الله أمر أصحابه بالشدة على بني إسرائيل وعلى موسى، ففعلوا ذلك، وصاروا يكفون بني إسرائيل من العمل ما لا يطيقونه، وكان الرجال والنساء في شدة، وكانوا قبل ذلك يطعمون بني إسرائيل إذا استعملوهم، فصاروا لا يطعمونهم شيئاً، فيعودون بأسوا حال يريدون يكسبون ما يقوتهم، فشكوا ذلك إلى موسى، فقال لهم: استعينوا بالله واصبروا، إن العاقبة للمتقين، (١٨٦/١) ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فلما أبى فرعون وقومه إلا الثبات على الكفر، تابع الله عليه الآيات، فأرسل عليهم الطوفان، وهو المطر المتتابع، فغرق كل شيء لهم. فقالوا: يا موسى ادع ربك يكشف عنا هذا ونحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فكشفه الله عنهم ونبت زروعهم، فقالوا: ما يسرنا أنا لم نمطر. فبعث الله عليهم الجراد فاكل زروعهم، فسألوا موسى أن يكشف ما بهم ويؤمنوا به، فدعا الله فكشفه، فلم يؤمنوا وقالوا: قد بقي من زروعنا بقية. فأرسل الله عليهم الذباب، وهو القمل، فأهلك الزرع والنبات أجمع، وكان يهلك أطعمتهم، ولم يقدرُوا أن

وكان رئيس السحرة أعمى، فقال له أصحابه: إن عصا موسى صارت ثعباناً عظيماً وتلقف حبالنا وعصيانا. فقال لهم: ولم يبق لها أثر ولا عادت إلى حالها الأول؟ فقالوا: لا. فقال: هذا ليس بسحر. فخر ساجداً وتبعه السحرة أجمعون و ﴿قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]. قال فرعون: ﴿أَمْتُمْ لَهُ قَبْلُ أَنْ آذَنَ لَكُمْ! إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِهِ وَلَأَسْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. ففقطعهم وقتلهم وهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّضْنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، فكانوا أول النهار كفاراً وآخر النهار شهداء.

وكان خربيل مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه، قيل: كان من بني إسرائيل، وقيل: كان من القبط، وقيل: هو النجار الذي صنع التابوت الذي جعل فيه موسى وألقي في النيل، فلما رأى غلبة موسى السحرة أظهر إيمانه، وقيل: أظهر إيمانه قبل قتل وصلب مع السحرة، وكان له امرأة مؤمنة تكتم إيمانها أيضاً، وكانت ماشطة ابنة فرعون، فبينما هي تمشطها إذ وقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا بل ربي وربك ورب آبيك. فآخبرت أباهما بذلك، فدعا بها وبولدها وقال لها: مَنْ رَبُّكَ؟ قالت: ربي وربك الله. فأمر بتنور نحاس فأحمر ليعذبها وأولادها. فقالت: لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدنها. قال: ذلك لك، فأمر بأولادها فألقوا في التنور واحداً واحداً، وكان آخر أولادها صبيّاً صغيراً، فقال: اصبري يا أمّاه فإنك على الحق، فألقيت في التنور مع ولدها.

وكانت آسية امرأة فرعون من بني إسرائيل، وقيل: كانت من غيرهم، وكانت مؤمنة تكتم إيمانها، فلما قتلت الماشطة رأت آسية

بحترزوا منه، فسألوا موسى أن يكشفه عنهم، ففعل، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، وكانت تسقط في قدورهم وأطعمتهم وملأت البيوت عليهم، فسألوا موسى أن يكشفه عنهم ليؤمنوا به، ففعل، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الدَّم، فصارت مياه الفرعونيّين دماً، وكان الفرعونيّ والإسرائيليّ يستقيان من ماء واحد، فيأخذ الإسرائيليّ ماء (ويأخذ) الفرعونيّ دماً، وكان الإسرائيليّ يأخذ الماء في فمه فيمجه في فم الفرعونيّ فيصير دماً، وبقي ذلك سبعة أيام، فسألوا موسى أن يكشفه عنهم ليؤمنوا، ففعل، فلم يؤمنوا.

فلَمَّا يَس من إيمانهم ومن إيمان فرعون دعا موسى وأَمَن هارون فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لَيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. فاستجاب (١٨٧/١) الله لهما، فمسح الله أموالهم، ما عدا خيلهم وجواهرهم وزينتهم، حجارة، والنخل والأطعمة والدقيق وغير ذلك، فكانت إحدى الآيات التي جاء بها موسى.

فلَمَّا طَالَ الأمر على موسى أوحى الله إليه يأمره بالمسير ببني إسرائيل وأن يحمل معه تابوت يوسف بن يعقوب ويدفنه بالأرض المقدسة، فسأل موسى عنه فلم يعرفه إلا امرأة عجوز فأرته مكانه في النيل، فاستخرجه موسى، وهو في صندوق مرم، فأخذه معه فسار، وأمر بني إسرائيل أن يستعبروا من حلي القبط ما أمكنهم، ففعلوا ذلك وأخذوا شيئاً كثيراً، وخرج موسى ببني إسرائيل ليلاً والقبط لا يعلمون، وكان موسى على ساقه بني إسرائيل، وهارون على مقدمتهم، وكان بنو إسرائيل لما ساروا من مصر ستمائة ألف وعشرين ألفاً، وتبهم فرعون وعلى مقدمته هامان، ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى: إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦٢] يا موسى! أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، أما الأول فكانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، وأما الآن فيدركننا فرعون فيقتلنا. قال موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

وبلغ بنو إسرائيل إلى البحر وبقي بين أيديهم وفرعون من ورائهم، فأيقنوا بالهلاك، فتقدم موسى فضرب البحر بعصاه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، وصار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق، فقال كل سبط: قد هلك أصحابنا. فأمر الله الماء فصار كالشباك، فكان كل سبط يرى مَنْ عن يمينه وعن شماله حتى خرجوا، ودنا فرعون وأصحابه من البحر فرأى الماء على هيئة والطرق فيه، فقال لأصحابه: ألا ترون البحر قد فرق (١٨٨/١) مني وانفتح لي حتى أدرك أعدائي؟ فلَمَّا وقف فرعون على أفواه الطرق لم تقتحمه خيله، فنزل جبرائيل على فرس أثى وديق، فشمت الحُصن ربحها فاقتمحت في أثرها حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم أمر البحر أن يأخذهم فانطم عليهم فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون

إليهم. وانفرد جبرائيل بفرعون يأخذ من حمأة البحر فيجعلها في فيه، وقال حين أدركه الغرق: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَغَرِقَ، فَبِعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِيكَائِيلَ بَعِيرَهُ، فقال له: ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]. وقال جبرائيل للنبي، ﷺ: لو رأيتني وأنا آدم من حمأة البحر في فم فرعون مخافة أن يقول كلمة يرحمه الله بها.

فلَمَّا نجا بنو إسرائيل قالوا: إن فرعون لم يغرق. فدعا موسى فأخرج الله فرعون غريقاً، فأخذه بنو إسرائيل يتمثلون به، ثم ساروا فاتوا على قوم يعبدون الأصنام فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. قَالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. فتركوا ذلك. ثم بعث موسى جنتين عظيمين كل جند اثنا عشر ألفاً إلى مدائن فرعون، وهي يوشع بن نون وأهلها قد أهلك الله عظماءهم ورؤساءهم ولم يبق غير النساء والصبيان والزمنى والمرضى والمشايخ والعاجزين، فدخلوا البلاد وغنموا الأموال وحملوا ما أطاقوا وباعوا ما عجزوا عن حمله من غيرهم، وكان على الجندين يوشع بن نون وكالب بن يوفنا.

وكان موسى قد وعده الله وهو بمصر أَنَّهُ إذا خرج مع بني إسرائيل منها (١٨٩/١) وأهلك الله عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون، فلَمَّا أهلك الله فرعون وأنجى بني إسرائيل قالوا: يا موسى اتنا بالكتاب الذي وعدتنا. فسأل موسى رَبَّهُ ذلك، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً ويتطهر ويظهر ثيابه ويأتي إلى الجبل جبل طور سينا ليكلّمه ويعطيه الكتاب، فصام ثلاثين يوماً أولها أول ذي القعدة، وسار إلى الجبل واستخلف أخاه هارون على بني إسرائيل، فلَمَّا قصد الجبل أنكر ريح فمه فتسوك بعدد خرنوب، وقيل: تسوك بلحاء شجرة، فأوحى الله إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك؟ وأمره أن يصوم عشرة أيام أخرى، فصامها، وهي عشر ذي الحجة، ﴿فَتَمَّ يَبْقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ففي تلك الليالي العشر افتن بنو إسرائيل لأن الثلاثين انقضت ولم يرجع إليهم موسى، وكان السامريّ من أهل باجرمى، وقيل: من بني إسرائيل، فقال هارون: يا بني إسرائيل إن الغنم لا تحل لكم والحلي الذي استعتموه من القبط غنيمة فاحضروا حفيرة وألقوه فيها حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه، ففعلوا ذلك، وجاء السامري بقبضة من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبرائيل فآلقه فيه، فصار الحلي عجلاً جسداً له خوار، وقيل: إن الحلي ألقي في النار فذاب فآلقت السامري ذلك التراب فصار الحلي عجلاً جسداً له خوار، وقيل: كان يخور ويمشي، وقيل: ما خسار إلا مرة واحدة ولم يعد، وقيل: إن السامري صاغ العجل من ذلك الحلي في ثلاثة أيام ثم قذف فيه التراب فقام له خوار. (١٩٠/١)

فلما راوه قال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى، فَتَسْبِي﴾ [طه: ٨٨] موسى وتركه ههنا وذهب يطلبه، فعكفوا عليه يعبدونه فقال لهم هارون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]، فأطاعه بعضهم وعصاه بعضهم، فأقام بمن معه ولم يقاتلهم. ولما ناجى الله تعالى موسى قال له: ﴿وَمَا أَغْضَبَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى؟ قَالَ: هُمْ أُولَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى. قَالَ: فَإِنَّا فَدَقْنَا قَوْمَكَ مِنَ بَعْدِكَ. يَا مُوسَى - وَأَصْلَحْهُمْ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣-٨٥]. فقال موسى: يا ربّي هذا السامري قد أمرهم أن يتخذوا العجل، من نفخ فيه الروح؟ قال: أنا. قال: فانت إذا أصلحتهم.

ثم إن موسى لما كلمه الله تعالى أحب أن ينظر إليه قال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ. قَالَ: لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي. فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وأعطاه الألواح فيها الحلال والحرام والمواظع، وعاد موسى ولا يقدر أحد أن ينظر إليه، وكان يجعل عليه حريرة نحو أربعين يوماً، ثم يكشفها لما تغشاه من النور، فلما وصل إلى قومه ورأى عبادتهم العجل ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه، ﴿قَالَ: يَا ابْنِ أُمِّ لَا (١٩١/١) تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْتُبْ لَوْثِي﴾ [طه: ٩٤، ٩٧]. فترك هارون وأقبل على السامري وقال: ﴿مَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ؟ قَالَ: بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ: فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٤، ٩٧]. ثم أخذ العجل وورده بالمبارد وأحرقه وأمر السامري ببال عليه وذراه في البحر.

فلما ألقى موسى الألواح ذهب سنة أسباعها وبقي سبع، وطلب بنو إسرائيل التوبة فأبى الله أن يقبل توبتهم وقال لهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فاقتل الذين عبدوه والذين لم يعبدوه، فكان من قتل من الفريقين شهيداً، فقتل منهم سبعون ألفاً، وقام موسى وهارون يدعوان الله، فعفا عنهم وأمرهم بالكف عن القتال وتاب عليهم، وأراد موسى قتل السامري فأمره الله بتركه وقال: إنه سخّي، فلعله موسى.

ثم إن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً من أختارهم وقال لهم: انطلقوا معي إلى الله فتوبوا مما صنعتم وصوموا وتطهروا. وخرج بهم إلى طور سينا للميقات الذي وقته الله له. فقالوا: اطلب أن نسمع كلام ربنا. فقال: أعمل. فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل (١٩٢/١) كله ودخل فيه موسى وقال للقوم: ادنوا، فدنوا حتى دخلوا في الغمام، فوقفوا ساجداً، فسمعوه

ولما رجع موسى إلى بني إسرائيل ومعه التوراة أبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها للأثقال والشدة التي جاء بها، وأمر الله جبرائيل فقلع جبلاً من فلسطين على قدر عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ، ورفع فوق رؤوسهم مقدار قامة الرجل مثل الظلة وبعث نارا من قبل وجوههم وأتاهم البحر من خلفهم، فقال لهم موسى: خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا فإن قبلموه وفعلتم ما أمرتم به وإلا رخصتم بهذا الجبل وغرقتم في هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار. فلما (١٩٣/١) رأوا أن لا مهرب لهم قبلوا ذلك وسجدوا على شق وجوههم وجعلوا يلاحظون الجبل وهم ساجدون، فصار سنة في اليهود يسجدون على جانب وجوههم وقالوا: سمعنا وأطعنا.

ولما رجع موسى من المناجاة بقي أربعين يوماً لا يراه أحد إلا مات، وقيل: ما رآه إلا عمي، فجعل على وجهه وراسه برنسا لئلا يرى وجهه.

ثم إن رجلاً من بني إسرائيل قتل ابن عم له ولم يكن له وارث غيره ليرث ماله وحمله وألقاه بموضع آخر، ثم أصبح يطلب دمه عند موسى من بعض بني إسرائيل، فجحدوا، فسأل موسى ربّه، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، فقالوا: ﴿أَتَذْبَحُنا هَؤُلَاءِ؟﴾ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ [البقرة: ٦٧] المستهزئين. فقالوا له: ما هي؟ ولو ذبحوا بقرة ما لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشده الله عليهم، وإنما كان تشديدهم لأن رجلاً منهم كان برّاً بأمه وكان له بقرة على النعت المذكور فنفعه برّه بأمه، فلم يجعلوا على الصفة المذكورة إلا بقرته، فباعها منهم بملء جلد لها ذهباً، فلما سألوا موسى عنها قال: ﴿إِنهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ﴾ [البقرة: ٦٨]. يقول: لا كبيرة ولا صغيرة نصف بين السنين. ﴿قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا. قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوثُهَا تَسُرُّ النَّاسَ طَرِينَ. قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا... قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا (١٩٤/١) ذُلُوفٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئْنٌ فِيهَا - يعني لا عيب فيها، وقيل لا يبيض فيها - قَالُوا: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾

يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تَبَيَّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَزَيْتُونِهَا (١٩٧/١) وَفُؤِمَهَا بِأَمِّهِ، فَاشْتَرَوْهَا، فَعَالَى بِهَا حَتَّى أَخَذَ مِלءَ جِلْدِهَا ذَهَبًا، فَذَبَحُوهَا وَضَرَبُوا الْقَتِيلَ بِلِسَانِهَا، وَقِيلَ: بِغَيْرِهِ، فَحْيِي وَقَامَ وَقَالَ: قَتَلَنِي فُلَانٌ. ثُمَّ مَاتَ. (١٩٥/١)

البقرة: ٦٩-٧١. وطلبوها فلم يجدوا إلا بقرة ذلك الرجل البار بأمه، فاشتروها، فعالَى بها حتى أخذ مِلاءَ جلدِها ذهباً، فذبحوها وضربوا القَتيلَ بلسانِها، وقيل: بغيره، فحيي وقام وقال: قتلني فلان. ثم مات. (١٩٥/١)

ذكر أمر بني إسرائيل في التيه

وفاة هارون، عليه السلام

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْ يَسِيرَ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى أَرِيحَا بِلَدِ الْجَبَّارِينَ، وَهِيَ أَرْضُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَسَارُوا حَتَّى كَانُوا قَرِيبًا مِنْهُمْ، فَبِعَثَ مُوسَى اثْنَيْ عَشَرَ نَفِيقًا مِنْ مَائِثِ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسَارُوا لِيَأْتُوا بِخَبَرِ الْجَبَّارِينَ، فَلَقِيَهُمْ رَجُلٌ مِنَ الْجَبَّارِينَ يَقَالُ لَهُ عُوجُ بْنُ عَنَاقٍ فَآخِذْ الْإِثْنَيْ عَشَرَ فَحْمَلَهُمْ وَانْطَلَقَ بِهِمْ إِلَى أَمْرَاتِهِ فَقَالَ: انْظُرِي إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَقَاتِلُونَا، وَأَرَادَ أَنْ يَطْلُعَ بِرَجْلِهِ، فَمَنْعَتْهُ أَمْرَاتُهُ وَقَالَتْ: أَطْلُقْهُمْ لِيَرْجِعُوا وَيُخْبِرُوا قَوْمَهُمْ بِمَا رَأَوْا، فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّكَ إِنْ أَخْبَرْتُمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِخَبَرِ هَؤُلَاءِ لَا يَقْدُمُوا عَلَيْهِمْ، فَاسْكُمُوا الْأَمْرَ عَنْهُمْ؛ وَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ وَرَجِعُوا، فَكَثُرَتْ عَشْرَةٌ مِنْهُمْ الْعَهْدَ وَأَخْبَرُوا بِمَا رَأَوْا، وَكُتِبَ رَجُلَانِ مِنْهُمْ، وَهُمَا: يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ وَكَالِبُ بْنُ يُونَنَ خَتَنُ مُوسَى، وَلَمْ يَخْبِرُوا إِلَّا مُوسَى وَهَارُونَ، فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْخَبَرَ عَنِ الْجَبَّارِينَ امْتَمَعُوا عَنِ الْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿يَا قَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ. قَالُوا: يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلَانِ- وَهُمَا يَوْشَعَ وَكَالِبُ- مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا: ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا (١٩٦/١) دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣، ٢١]. ﴿قَالُوا: يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَزَبَّكَ فَتَاتِلَا، إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

فغضب موسى فدعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي، فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦، ٢٥]، وكانت عجلة من موسى. فقال الله تعالى: ﴿فَإِنهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦، ٢٥]. فندم موسى حيثُ. فقالوا له: فكيف لنا بالطعام؟ فانزل الله المَنَ والسَّلوى، فأما المَنَ فقليل هو كالصمغ وطعمه كالشهد يقع على الأشجار، وقيل: هو الترنجيب، وقيل: هو الخبز الرقاق، وقيل: هو عسل كان ينزل لكل إنسان صاع، وأما السَّلوى فهو طائر يشبه السُّماني. فقالوا: أين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [المائدة: ٦٠] لكل سبط عين. فقالوا: أين الظل؟ فظلل عليهم الغمام. فقالوا: أين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم ولا يتمزق لهم ثوب. ثُمَّ قَالُوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعْ لَنَا رَبَّكَ

ثُمَّ إِنَّ مُوسَى التَقَى هُوَ وَعُوجُ بْنُ عَنَاقٍ، فَوَثَبَ مُوسَى عَشْرَةَ أَذْرَعٍ، وَكَانَتْ عَصَاهُ عَشْرَةَ أَذْرَعٍ، وَكَانَ طَوْلُهُ عَشْرَةَ أَذْرَعٍ، فَأَصَابَ كَعْبَ عُوجٍ فَقَتَلَهُ. وَقِيلَ: عَاشَ عُوجُ ثَلَاثَةَ آلَافِ سَنَةٍ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى: إِنِّي مَتَوِّفٌ هَؤُلَاءِ فَاتَّوْبَ بِهِ جَبَلٌ كَذَا وَكَذَا. فَانْطَلَقَا نَحْوَهُ فَإِذَا هُم فِيهِ بِشْجَرَةٍ لَمْ يَرَوْا مِثْلَهَا وَفِيهِ بَيْتٌ مَبْنِي وَسِرِيرٌ عَلَيْهِ فَرْشٌ وَرِيحٌ طَيِّبَةٌ، فَلَمَّا رَأَى هَارُونَ أَعْجَبَهُ، قَالَ: يَا مُوسَى إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتِمَّ عَلَى هَذَا السِّرِيرِ. فَقَالَ لَهُ مُوسَى: نَمْ. قَالَ: إِنِّي أَخَافُ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ أَنْ يَأْتِيَنِي فَيَغْضِبَ عَلَيَّ. قَالَ مُوسَى: لَا تَخَفْ أَنَا أَكْفِيكَ. قَالَ: فَتَمَّ مَعِيَ. فَلَمَّا نَامَا أَخَذَ هَارُونَ الْمَوْتَ، فَلَمَّا وَجَدَ حَسَّهُ قَالَ: يَا مُوسَى خُذْ عَنِّي! فَتَوَفَّي وَرُفِعَ عَلَى السِّرِيرِ إِلَى السَّمَاءِ. وَرَجَعَ مُوسَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنَّكَ قَتَلْتَ هَارُونََ لِحُبِّنَا إِلَيْهِ. فَقَالَ: وَيَحْكُمُ أَفْتَرُونَ أَنِّي أَقْتُلُ أَخِي! فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ صَلَّى وَدَعَا اللَّهَ، فَنَزَلَ بِالسِّرِيرِ حَتَّى نَفَرُوا إِلَيْهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَخَبِرَهُمْ أَنَّهُ مَاتَ وَأَنَّ مُوسَى لَمْ يَقْتُلْهُ، فَصَدَّقُوهُ، وَكَانَ مَوْتُهُ فِي التِّيهِ. (١٩٨/١)

ذكر وفاة موسى، عليه السلام

قِيلَ: بَيْنَمَا مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَمْشِي وَمَعَهُ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ فَتَاهَ إِذْ أَقْبَلَتْ رِيحٌ سَوْدَاءٌ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا يَوْشَعَ ظَنَّ أَنَّهَا السَّاعَةُ، فَاتْلَزَمَ مُوسَى وَقَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ وَأَنَا مِلْتَزِمٌ نَبِيِّ اللَّهِ. فَاسْتَلَّ مُوسَى مِنْ تَحْتِ الْقَمِيصِ وَبَقِيَ الْقَمِيصُ فِي يَدَيْ يَوْشَعَ. فَلَمَّا جَاءَ يَوْشَعَ بِالْقَمِيصِ أَخَذَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَقَالُوا: قَتَلْتَ نَبِيَّ اللَّهِ! فَقَالَ: مَا قَتَلْتُهُ وَلَكِنِّي اسْتَلْتُ مِنْهُ. فَلَمْ يَصْدُقُوهُ. قَالَ: فَإِذَا لَمْ تَصْدُقُونِي فَأَخْرُونِي ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَوَكَّلُوا بِهِ مَنْ يَحْفَظُهُ، فَدَعَا اللَّهَ، فَأَتَيْنِي كُلُّ رَجُلٍ كَانَ يَحْرُسُهُ فِي الْمَنَامِ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ يَوْشَعَ لَمْ يَقْتُلْ مُوسَى، وَأَنَا [قد] رَفَعْنَاهُ إِلَيْنَا، فَتَرَكُوهُ.

وقيل: إِنَّ مُوسَى كَرِهَ الْمَوْتَ فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَحْبِبَ إِلَيْهِ الْمَوْتَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ، وَكَانَ يَغْدُو عَلَيْهِ وَيُرْوِحُ، وَيَقُولُ لَهُ مُوسَى: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا أَحْدَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ لَهُ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَلَمْ أَصْحَبْكَ كَذَا وَكَذَا سَنَةً فَهَلْ كُنْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا أَحْدَثَ اللَّهُ لَكَ؟ وَلَا يَذْكُرُ لَهُ شَيْئًا. فَلَمَّا رَأَى مُوسَى ذَلِكَ كَرِهَ الْحَيَاةَ وَأَحْبَبَ الْمَوْتَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مَرَّ مُتَفَرِّدًا بِرَهْطٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَرُونَ قَبْرًا، فَعَرَفَهُمْ فَوَقَّفَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَزِ أَحْسَنَ مِنْهُ وَلَمْ يَزِ مِثْلَ مَا فِيهِ مِنَ الْخُضْرَةِ وَالْبَهْجَةِ. فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَلَائِكَةُ اللَّهِ لِمَنْ تَحْفَرُونَ هَذَا الْقَبْرَ؟ فَقَالُوا: نَحْفَرُهُ لِعَبْدِ كَرِيمٍ عَلَى رَبِّهِ. فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ لَهُ مَسْزَلٌ كَرِيمٌ

وهو من ولد لوط، فقالوا له: إِنَّ موسى قد جاء ليقبضنا ويُخرجنا من ديارنا فادْعُ الله عليهم. وكان يعلم اسم الله الأعظم، فقال لهم: كيف أدعو على نبي الله والمؤمنين ومعهم الملائكة! فراجعهم في ذلك وهو يمتنع عليهم، فأثروا امرأته وأهدوا لها هدية، فقبلتها، وطلبوا إليها أن تحسن لزوجها أن يدعو على بني (٢٠١/١) إسرائيل، فقالت له في ذلك، فامتنع، فلم تزل به حتى قال: أستخير الله. فاستخار الله تعالى، ففهاه في المنام، فأخبرها بذلك، فقالت: راجع ربك. فعاد الاستخارة فلم يرد إليه جواب. فقالت: لو أراد ربك لهلك، ولم تزل تخدعه حتى أجابهم، فركب حماراً له متوجّهاً إلى جبل مشرف على بني إسرائيل ليقف عليه ويدعو عليهم، فما سار عليه إلا قليلاً حتى ربح الحمار، فنزل عنه وضربه حتى قام فركبه فسار به قليلاً فبرك، ففعل ذلك ثلاث مرّات، فلما اشتدّ ضربه في الثالثة أنطقه الله فقال له: ويحك يا يعلم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة تردّني؟ فلم يرجع، فاطلق الله الحمار حينئذٍ، فسار عليه حتى أشرف على بني إسرائيل، فكان كلما أراد أن يدعو عليه ينصرف لسانه إلى الدعاء لهم، وإذا أراد أن يدعو لقومه انقلب دعاؤه عليهم، فقالوا له في ذلك، فقال: هذا شيء غلبنا الله عليه، واندلج لسانه فوقع على صدره، فقال: الآن قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق غير المكر والحيلة. وأمرهم أن يزيّنوا نسائهم ويعطوهنّ السلع للبيع ويرسلوهنّ إلى العسكر ولا تمتنع امرأة نفسها ممن يريدّها. وقال: إن زنى منهم رجل واحد فكُفّيتهم. ففعلوا ذلك، ودخل النساء عسكر بني إسرائيل، فأخذ زمرى بن شلوم، وهو رأس سبط شمعون بن يعقوب، امرأة وآتى بها موسى فقال له: أظنك تقول هذا حرام فوالله لا نطيعك ثم أدخلها خيمته فوقع عليها، فأنزل الله عليهم الطاعون، وكان فحاص بن العزار بن هارون صاحب أمر عمّه موسى غائباً، فلما جاء رأى الطاعون قد استقرّ في بني إسرائيل، وأخبر الخبر، وكان ذا قوة (٢٠٢/١) وبطش، فقصد زمرى فرأه وهو مضاجع المرأة، فطعنهما بحربة في يده فانتظهما، ورُفِع الطاعون، وقد هلك في تلك الساعة عشرون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، فأنزل الله في يعلم: ﴿وَإِذْ نُنَّا الَّذِي آتَيْنَا آيَاتِنَا فَاسْلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

ثم إن موسى قدّم يوشع إلى أريحا في بني إسرائيل فدخلها وقتل بها الجبارين، وبقيت منهم بقية، وقد قاربت الشمس الغروب، فخشي أن يدركهم الليل فيعجزوه، فدعا الله تعالى أن يحبس عليهم الشمس، ففعل وحبسها حتى استأصلهم، ودخلها موسى فأقام بها ما شاء الله أن يقيم، وقبضه الله إليه لا يعلم بقبضه أحد من الخلق.

وأما من زعم أن موسى كان قد توفّي قبل ذلك: إن الله أمر يوشع بالمسير إلى مدينة الجبارين، فسار ببني إسرائيل، ففارق رجله يقال له يعلم بن باعور، وكان يعرف الاسم الأعظم، وساق من حديثه

ما رأيته مضجعاً ولا مدخلأ مثله. فقالوا: أتحب أن يكون لك؟ قال: وددت. قالوا: فأنزل واضطجع فيه وتوجّه إلى ربك وتنفس أسهل تنفس تنفسه. فنزل فيه وتوجّه إلى ربّه ثم تنفس، فقبض الله روحه ثم سوّت الملائكة عليه التراب. (١٩٩/١)

وكان، ﷺ، زاهداً في الدنيا رغباً فيما عند الله، إمّا كان يستظلّ في عريش ويأكل ويشرب من نعيم من حجر تواضعاً إلى الله تعالى.

وقال النبي، ﷺ: إن الله أرسل ملك الموت ليقبض روحه فلطمه فقفا عينه، فعاد وقال: يا رب أرسلتني إلى عبد لا يحب الموت. قال الله: ارجع له وقلّ له يضع يده على ظهر ثور وله بكلّ شعرة تحت يده سنة، وخيره بين ذلك وبين أن يموت الآن. فأتاه ملك الموت وخيره، فقال له: فما بعد ذلك؟ قال: الموت. قال: فالآن إذن. فقبض روحه. وهذا القول صحيح قد صحّ النقل به عن النبي، ﷺ، فكان موته في التيه أيضاً.

وقيل: بل هو الذي فتح مدينة الجبارين على ما نذكره.

وكان جميع عمر موسى مائة وعشرين سنة، من ذلك في ملك أفريدون عشرون، وفي ملك منوجهر مائة سنة، وكان ابتداء أمره منذ بعثه الله إلى أن قبضه في ملك منوجهر.

ثم نبّأ بعده يوشع بن نون فكان في زمن منوجهر عشرين سنة، وفي زمن أفراسياب سبع سنين. (٢٠٠/١)

ذكر يوشع بن نون، عليه السلام

ولفتح مدينة الجبارين

لما توفّي موسى بعث الله يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، عليه السلام، نبياً إلى بني إسرائيل وأمره بالمسير إلى أريحا مدينة الجبارين، واختلف العلماء في فتحها على يد من كان. فقال ابن عباس: إن موسى وهارون توفّيّا في التيه وتوفّي في كلّ من دخله، وقد جاوز العشرين سنة، غير يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، فلما انقضى أربعون سنة أوحى الله إلى يوشع بن نون فأمره بالمسير إليها وفتحها، ففتحها؛ ومثله قال قتادة والسديّ وعكرمة.

وقال آخرون: إن موسى عاش حتى خرج من التيه وسار إلى مدينة الجبارين وعلى مقدّمته يوشع بن نون ففتحها؛ وهو قول ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: سار موسى بن عمران إلى أرض كنعان لقتال الجبارين، فقدم يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، وهو صهره على أخته مريم بنت عمران، فلما بلغوها اجتمع الجبارون إلى يعلم بن باعور،

نحو ما تقدّم. فلمّا ظفر يوشع بالجبارين أدركه المساء ليلة السبت فدعا الله فردّ الشمس عليه وزاد في النهار ساعة فهزم الجبارين ودخل مدينتهم وجمع غنائمهم لياخذها القربان، فلم تأت النار، فقال يوشع: فيكم غلول فبايعوني، فبايعوه، فلصقت يده في يد من غلّ، فأثاه برأس ثور من ذهب مكلّل بالياقوت فجعله في القربان وجعل الرجل معه، فجاءت النار فاكنتهما.

وقيل: بل حصرها سنة أشهر، فلمّا كان السابع تقدّموا إلى المدينة وصاحوا صيحة واحدة فسقط السور، فدخلوها وهزموا الجبارين وقتلوا فيهم فأكثروا. ثمّ اجتمع جماعة من ملوك الشام وقصدوا يوشع فقاتلهم وهزمهم (٢٠٣/١) وهرب الملوك إلى غار، فأمر بهم يوشع بن نون فقتلوا وصلبوا. ثمّ ملك الشام جميعه فصار لبني إسرائيل وفرّق عمّاله فيه. ثمّ توفاه الله فاستخلف على بني إسرائيل كالب بن يوفنا، وكان عمر يوشع مائة وستاً وعشرين سنة، وكان قيامه بالأمر بعد موسى سبعاً وعشرين سنة.

وأما من بقي من الجبارين فإن إفريش بن قيس بن صيفي بن سبا بن كعب بن زيد بن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان مرّ بهم متوجّهاً إلى إفريقية فاحتلمهم من سواحل الشام فقدم بهم إفريقية فافتتحها وقتل ملكها جرجير وأسكنهم إياها، فهم البرابرة، وأقام من حمير في البربر صنهاجة وكتامة، فهم فيهم إلى اليوم. (٢٠٤/١)

ذكر أمر قارون

وكان قارون بن بصهر بن قاهث، وهو ابن عمّ موسى بن عمران بن قاهث، وقيل: كان عمّ موسى؛ والأول أصحّ. وكان عظيم المال كثير الكنوز، قيل: إنّ مقتايح خزائنه كانت تحمّل على أربعين بغلاً، فبغى على قومه بكثرة ماله، فوعظوه ونهوه وقالوا له ما قصّ الله تعالى في كتابه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧]، فأجابهم جواب مغترّ لحلم الله عنه فقال: إنّما أوتيته، يعني المال والخزائن، على علم عندي، قيل على خير ومعرفة مني، وقيل: لولا رضى الله عني ومعرفته بقضلي ما أعطاني هذا. فلم يرجع عن غيّه ولكنه تمادى في طغيانه حتى ﴿خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩]، وهي أنّه ركب برذونا أبيض بمرائب الأرجوان المذهبة وعليه الثياب المعصفرة وقد حمل معه ثلاثمائة جارية على مثل برذونه وأربعة آلاف من أصحابه، وبني داره وضرب عليها صفائح الذهب وعمل لها باباً من ذهب، فتمنى أهل القفلة والجهل مثل ماله، (٢٠٥/١) فنهاهم أهل العلم بالله.

وأمره الله تعالى بالزكاة، فجاء إلى موسى من كلّ ألف دينار لهما هلك منوَجهر ملك فارس سار أفراسياب بن فشنج بن رستم ملك الترك إلى مملكة الفرس واستولى عليها وسار إلى أرض بابل وأكثر المقام بها وبمهرجانتقدّق وأكثر الفساد في مملكة فارس، وعظم ظلمه، وأخرب ما كان عامراً، ودفن الأنهار والفتى، وقطع الناس سنة خمس من ملكه، إلى أن خرج عن مملكة فارس، ولم يزل الناس منه في أعظم البليّة إلى أن ملك زو ابن طهماسب، وكان منوَجهر قد سخط على ولده طهماسب ونفاه عن بلاده، فأقام في بلاد الترك عند ملك لهم يقال له وامن وتزوَج ابنته، فولدت له زو ابن طهماسب، وكان المنجّمون قد قالوا لأبيها: إنّ ابنته تلد ولداً يقتله، فسجنها، فلمّا تزوّجها طهماسب وولدت منه كمت أمرها وولدها، ثمّ إنّ منوَجهر

دينار، وعلى هذا من كلّ ألف شيء شيء، فلمّا عاد إلى بيته وجده كثيراً، فجمع نفرأ يتق بهم من بني إسرائيل فقال: إنّ موسى أمركم بكلّ شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أخذ أموالكم. فقالوا: أنت كبيرنا وسيّدنا فمرنا بما شئت. فقال: آمركم أن تحضروا فلانة البغي فتجعلوا لها جعلاً فتقدّفه بنفسها، ففعلوا ذلك، فأجابتهم إليه.

ثمّ أتى موسى فقال: إنّ قومك قد اجتمعوا لك لتأمرهم وتنهائهم. فخرج إليهم فقال: من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت. فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ فقال: نعم. قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنّك فجرت بفلانة. فقال: ادعوها فإن قالت فهو كما قالت.

فلمّا جاءت قال لها موسى: أقسمت عليك بالذي أنزل التوراة الا صدقت: أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ قالت: لا، كذبوا، ولكن جعلوا لي جعلاً على أن أقذفك. فسجد ودعا عليهم، فأوحى الله إليه: مَرِ الْأَرْضَ بِمَا شِئْتَ تَطْعَمُ. فقال: يا أرض خذيه.

وقيل: إنّ هذا الأمر بلغ موسى، فدعا الله تعالى عليه، فأوحى الله إليه: مَرِ الْأَرْضَ بِمَا شِئْتَ تَطْعَمُ. فجاء موسى إلى قارون، فلمّا دخل عليه عرف الشرّ في وجهه فقال له: يا موسى ارحمني. فقال موسى: يا أرض خذيه. فاضطربت داره وساخت بقارون وأصحابه إلى الكعّين، وجعل يقول: يا موسى ارحمني. قال: يا أرض خذيه. فأخذتهم إلى ركبهم. فلم يزل يستعطفه وهو يقول: يا أرض خذيه، حتى خسف بهم، فأوحى (٢٠٦/١) الله إلى موسى: مَا أَفْطَكَا أَمَا وَعِزَّتِي لَوْ إِنِّي نَادَيْتُ لَأَجَبْتَهُ، وَلَا أَعِيدُ الْأَرْضَ طُيْعَ أَحَدًا أَبَدًا بِعِدِكَ، فَهُوَ يَخْصِفُ بِهِ كُلَّ يَوْمٍ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ نَفْثَهُ حَمْدَ الْمُؤْمِنُونَ اللَّهَ، وَعَرَفَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ خُطَا أَنْفُسَهُمْ وَاسْتَغْفَرُوا وَتَابُوا. (٢٠٧/١)

ذكر من ملك من الفرس بعد منوَجهر

لما هلك منوَجهر ملك فارس سار أفراسياب بن فشنج بن رستم ملك الترك إلى مملكة الفرس واستولى عليها وسار إلى أرض بابل وأكثر المقام بها وبمهرجانتقدّق وأكثر الفساد في مملكة فارس، وعظم ظلمه، وأخرب ما كان عامراً، ودفن الأنهار والفتى، وقطع الناس سنة خمس من ملكه، إلى أن خرج عن مملكة فارس، ولم يزل الناس منه في أعظم البليّة إلى أن ملك زو ابن طهماسب، وكان منوَجهر قد سخط على ولده طهماسب ونفاه عن بلاده، فأقام في بلاد الترك عند ملك لهم يقال له وامن وتزوَج ابنته، فولدت له زو ابن طهماسب، وكان المنجّمون قد قالوا لأبيها: إنّ ابنته تلد ولداً يقتله، فسجنها، فلمّا تزوّجها طهماسب وولدت منه كمت أمرها وولدها، ثمّ إنّ منوَجهر

رضي عن طهماسب وأحضره إليه، فاحتال في إخراج زوجته وابنه زو من مجبهما، فوصلت إليه، ثم إن زواً فيما ذكر قتل جدّه وأمن بعض الحروب [الترك] وطرده أفراسياب التركي عن مملكة فارس حتى رده إلى الترك بعد حروب جرت بينهما، فكانت غلبة أفراسياب على أقاليم بابل ومملكة الفرس اثنتي عشرة سنة من لدن توفّي منوچهر إلى أن أخرجه عنها زو، وكان إخراجها عنها في روزابان من شهر ابان ماه، فاتخذ لهم هذا اليوم عيداً وجعلوا الثالث لعيديهم النوروز والمهرجان.

وكان زو محموداً في ملكه محسناً إلى رعيتيه فأمر بإصلاح ما كان أفراسياب أفسده من مملكته، وبعماره الحصون، وإخراج المياه التي غور طرقها، حتى عادت البلاد إلى أحسن ما كانت، ووضع عن الناس الخراج سبع (٢٠٨/١) سنين، فعمرت البلاد في ملكه وكثرت المعاش، واستخرج بالسواد نهراً وسماه الزاب، وبنى عليه مدينة، وهي التي تسمى العتيقة، وجعل لها طسوج الزاب الأعلى وطسوج الزاب الأوسط وطسوج الزاب الأسفل، وكان أول من اتخذ ألوان الطيخ وأمر بها وبأصناف الأطعمة، وأعطى جنوده ما غنم من الترك وغيرهم.

وكان جميع ملكه إلى أن انقضت مدته ثلاث سنين، وكان كرشاسب ابن أنوط وزيره في ملكه ومعينه فيه، وقيل: كان شريكه في الملك، والأول أصح، وكان عظيم الشأن في فارس إلا أنه لم يملك. (٢٠٩/١)

ذكر ملك كيباذ

ثم ملك بعد زو كيباذ بن راع بن ميسرة بن نودر بن منوچهر وقدر مياه الأنهار والعيون لشرب الأرض، وسمى البلاد بأسمائها وحدها بحدودها، وكور الكور وبين حيز كل كورة، وأخذ العُشر من غلاتها لأرزاق الجند، وكان - فيما ذكر - كيباذ حريصاً على عمارة البلاد، ومنعها من العدو، كثير الكنوز؛ وقيل: إن الملوك الكيانية وأبناءهم من نسله. وجرت بينه وبين الترك حروب كثيرة، فكان مقيماً بالقرب من نهر بلخ، وهو جيحون، لمنع الترك من تطرّق شيء من بلاده. وكان ملكه مائة سنة. (٢١٠/١)

ذكر الأحداث في بني إسرائيل في عهد

زو وكيباذ ونبوة حزقيل

لما توفّي يوشع بن نون قام بأمر بني إسرائيل بعده كالب بن يوفنا، ثم حزقيل بن نوري، وهو الذي يقال له ابن العجوز، وإتما قيل له ذلك لأن أمه سألت الله الولد وقد كبرت، فوهبه الله لها، وهو الذي دعا للقوم الموتى فأحياهم الله.

وكان سبب ذلك: أن قرية يقال لها راوردارة وقع بها الطاعون، فهرب عامة أهلها ونزلوا ناحية، فهلك أكثر من بقي بالقرية ومسلم الآخرون، فلما ارتفع الطاعون رجعوا. فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا ولو صنعنا كما صنعوا يقينا. فوقع الطاعون من قابل، فهرب عامة أهلها، وهم بضعة وثلاثون ألفاً، وقيل: ثلاثة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، وقيل غير ذلك، حتى نزلوا ذلك المكان، فصاح بهم ملك فماتوا ونخرت عظامهم، فمر بهم حزقيل فلما رآهم جعل يتفكر في بعثهم، فأوحى الله إليه: أتريد أن أريك كيف أحييهم؟ قال: نعم. فقيل: ناد، فنادى: يا أيها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي، فجعلت العظام تطير بعضها إلى بعض حتى صارت أجساداً من عظام. ثم نادى: يا أيها العظام إن الله أمرك أن تكسبي [فألبست] لحماً ودماً وثيابها التي ماتت فيها. ثم نادى: يا أيها الأرواح إن الله يأمرك أن تعودي إلى أجسادك. فعدت وقامت الأجساد أحياء، وقالوا (٢١١/١) حين أحيوا: سبحانك ربنا ويحمدك لا إله إلا أنت! فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى، سُخِّت الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوباً إلا عاد كفناً دسماً، ثم ماتوا ثم مات حزقيل؛ ولم تذكر مدته في بني إسرائيل. وقيل: كانوا قوم حزقيل، فلما أن ماتوا بكى حزقيل وقال: يا رب كنت في قوم يعبدونك ويذكرونك فبقيت وحيداً فقال الله: اتحب أن أحييهم؟ قال: نعم. قال: فإني قد جعلت حياتهم إليك. فقال حزقيل: أحيوا بإذن الله تعالى، فعاثوا. (٢١٢/١)

ذكر إلياس، عليه السلام

لما توفّي حزقيل كثرت الأحداث في بني إسرائيل وتركوا عهد الله وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العزار بن هارون بن عمران نبياً، وكان الأنبياء في بني إسرائيل بعد موسى بن عمران يُبعثون بتجديد ما نسوا من التوراة، وكان إلياس مع ملك من ملوكهم يقال له أخاب، وكان يسمع منه ويصدق، وكان إلياس يقيم له أمره، وكان بنو إسرائيل قد اتخذوا صنماً يعبدونه يقال له بعل، فجعل إلياس يدعوهم إلى الله وهم لا يسمعون إلا من ذلك الملك، وكان ملوك بني إسرائيل متفرقة كل ملك قد تغلب على ناحية يأكلها، فقال ذلك الملك الذي كان إلياس معه: واللّه ما أرى الذي تدعو إليه إلا باطلاً لأنّي أرى فلاناً وفلاناً - بعد ملوك بني إسرائيل - قد عبدوا الأوثان فلم يضّرهم ذلك شيئاً، يأكلون ويشربون ويتمتعون ما ينقص ذلك من دنياهم وما نرى لنا عليهم من فضل.

ففارقه إلياس وهو يسترجع، فبعد ذلك الملك الأوثان أيضاً، وكان للملك جار صالح مؤمن يكتّم إيمانه وله بستان إلى جانب دار الملك والمملك يحسن جواره، وللملك زوجة عظيمة الشر والكفر، فقالت له ليأخذ بستان الرجل، فلم يفعل، فكانت تخلف زوجها إذا

سار عن بلده وتظهر للناس، فغاب مرة فوضعت امرأته على صاحب البستان من شهد عليه أنه سب الملك، فقتلته وأخذت بستانه، فلما عاد الملك غضب من ذلك واستعظمه وانكره فقالت: (٢١٣/١) فات امره. فأوحى الله إلى إلياس يأمره أن يقول للملك وامرأته أن يردا البستان على ورثة صاحبه، فإن لم يفعلا غضب عليهما وأهلكهما في البستان ولم يتمنعه به إلا قليلاً.

فأخبرهما إلياس بذلك فلم يراجعا الحق. فلما رأى إلياس أن بني إسرائيل قد أبوا إلا الكفر والظلم دعا عليهم، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، فهلكت الماشية والطيور والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً، واستخفى إلياس خوفاً من بني إسرائيل، فكان يأتيه رزقه، ثم إنه أوى ليلة إلى امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له اليسع بن أخطوب به ضر شديد، فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به واتبع إلياس، وكان معه وصتيه وصدقه، وكان إلياس قد كبر، فأوحى الله إليه: إنك قد أهلك كثيراً من الخلق من البهائم والدواب والطيور وغيرها ولم يعص سوى بني إسرائيل. فقال إلياس: أي ربي دعني أكن أنا الذي أدعوا لهم وأبتهج بالفرج لعلهم يرجعون. فجاء إلياس إليهم وقال لهم: إنكم قد هلكتم وهلكت الدواب بخطاياكم فإن أحببتم أن تعلموا أن الله ساخط عليكم بفعلكم وأن الذي أدعوكم إليه هو الحق فاخرجوا بأصنامكم وادعوها فإن استجابت لكم فذلك الحق كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فترعتم ودعوت الله ففرج عنكم.

وكانت مدة ما بين وفاة يوشع، الذي كان يلي أمر بني إسرائيل بعضها القضاة وبعضها الملوك المتغلبون إلى أن نبت الملك فيهم ورجعت (٢١٥/١) النبوة إلى اشمويل، أربعمئة سنة وستين سنة.

فكان أول من سُلط عليهم رجل من نسل لوط يقال له كوشان فقهرهم وأذلهم ثماني سنين، ثم انتقمهم من يده أخ لكالب الأصغر يقال له عتيل، فقام بأمرهم أربعين سنة.

ثم سُلط عليهم ملك يقال له عجولون فملكهم ثماني عشرة سنة، ثم استقمهم منه رجل من سبط بنيامين يقال له أهوذ، وقام بأمرهم ثمانين سنة.

ثم سُلط عليهم ملك من الكنعانيين يقال له يابين، فملكهم عشرين سنة، واستقمهم منه امرأة من بني أنبيانهم يقال له دبور، ودبر الأمر رجل من قبلها يقال له باراق أربعين سنة.

ثم سُلط عليهم قوم من نسل لوط فملكوهم سبع سنين، واستقمهم رجل يقال له جدعون بن يواش من ولد نفتالي بن يعقوب، فدبر أمرهم أربعين سنة وتوفي، ودبر أمرهم بعده ابنه ايمالخ ثلاث سنين، ثم دبرهم بعده فولع بن قوا ابن خال ايمالخ، ويقال إنه ابن عمه، ثلاثاً وعشرين سنة، ثم دبر أمرهم بعده رجل يقال له يائير اثنين وعشرين سنة.

ثم ملكهم قوم من أهل فلسطين بني عمون ثماني عشرة سنة، ثم قام بأمرهم رجل منهم يقال له يفتح ست سنين. ثم دبرهم بعده يبحسون سبع سنين. ثم بعده أكون عشر سنين. ثم بعده لترون، ويسميه بعضهم عكرون، (١١٦/١) ثماني سنين. ثم قهرهم أهل فلسطين وملكهم أربعين سنة. ثم وليهم شمسون عشرين سنة. ثم بقوا بعده عشر سنين بغير مدبر ولا رئيس. ثم قام بأمرهم بعد ذلك عالي الكاهن. وفي أيامه غلب أهل فلسطين على التابوت في قول، فلما مضى من وقت قيامه أربعون سنة بُعث اشمويل نبياً فدبرهم عشر سنين. ثم سألوا اشمويل أن يعيثر لهم ملكاً يقاتل بهم أعداءهم.

(٢١٧/١)

فلما أنقطع إلياس عن بني إسرائيل بعث الله اليسع، فكان فيهم ما شاء الله، ثم قبضه الله وعظمت فيهم الأحداث وعندهم التابوت يتوارثونه فيه السكنة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، فكانوا لا يلقاهم عدو فيقدمون التابوت إلا هزم الله العدو، وكانت السكنة شبه رأس هر، فإذا صرخت في التابوت بصراخ هر

فأخبرهما إلياس بذلك فلم يراجعا الحق. فلما رأى إلياس أن بني إسرائيل قد أبوا إلا الكفر والظلم دعا عليهم، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، فهلكت الماشية والطيور والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً، واستخفى إلياس خوفاً من بني إسرائيل، فكان يأتيه رزقه، ثم إنه أوى ليلة إلى امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له اليسع بن أخطوب به ضر شديد، فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به واتبع إلياس، وكان معه وصتيه وصدقه، وكان إلياس قد كبر، فأوحى الله إليه: إنك قد أهلك كثيراً من الخلق من البهائم والدواب والطيور وغيرها ولم يعص سوى بني إسرائيل. فقال إلياس: أي ربي دعني أكن أنا الذي أدعوا لهم وأبتهج بالفرج لعلهم يرجعون. فجاء إلياس إليهم وقال لهم: إنكم قد هلكتم وهلكت الدواب بخطاياكم فإن أحببتم أن تعلموا أن الله ساخط عليكم بفعلكم وأن الذي أدعوكم إليه هو الحق فاخرجوا بأصنامكم وادعوها فإن استجابت لكم فذلك الحق كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فترعتم ودعوت الله ففرج عنكم.

قالوا: أنصفت. فخرجوا بأصنامهم فدعوها فلم يستجب لهم ولم يفرج عنهم. فقالوا لإلياس: إنا قد هلكنا فادع الله لنا. فدعا لهم بالفرج وأن يسقوا، فخرجت سحابة مثل الترس وعظمت وهم ينظرون، ثم أرسل الله منها المطر، فحييت بلادهم وفرج الله عنهم ما كانوا فيه من البلاء، فلم ينزعوا ولم يراجعوا الحق، فلما رأى ذلك إلياس سأل الله أن يقبضه فريجه منهم، (٢١٤/١) فكساه الله الریش والبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، فصار ملكياً إنسياً سماوياً أرضياً، وسلط الله على الملك وقومه عدواً فظفر بهم وقتل الملك وزوجته بذلك البستان وألقاهما فيه حتى بليت لحومهما.

ذكر نبوة اليسع، عليه السلام

وأخذ التابوت من بني إسرائيل

فلما أنقطع إلياس عن بني إسرائيل بعث الله اليسع، فكان فيهم ما شاء الله، ثم قبضه الله وعظمت فيهم الأحداث وعندهم التابوت يتوارثونه فيه السكنة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، فكانوا لا يلقاهم عدو فيقدمون التابوت إلا هزم الله العدو، وكانت السكنة شبه رأس هر، فإذا صرخت في التابوت بصراخ هر

(فتبعه. ٢١٩/١)

ذكر حال اشمويل وطالوت

كان من خبر اشمويل بن بالي أن بني إسرائيل لما طال عليهم البلاء، وطعم فيهم الأعداء، وأخذ التابوت منهم، فصاروا بعده لا يلقون ملكاً إلا خافين، فقصدهم جالوت ملك الكنعانيين، وكان ملكه ما بين مصر وفلسطين، فظفر بهم، فضرب عليهم الجزية، وأخذ منهم التوراة، فدعوا الله أن يعث لهم نبياً يقاتلون معه، وكان سبط النوبة هلكوا، فلم يبق منهم غير امرأة حبلى، فحبسوها في بيت خيفة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها، فولدت غلاماً سمّته اشمويل، ومعناه: سمع الله دعائي.

وسبب هذه التسمية أنها كانت عاقراً، وكان لزوجها امرأة أخرى قد ولدت له عشرة أولاد فبغت عليها بكثرة الأولاد، فانكسرت العجوز ودعت الله أن يرزقها ولداً، فرحم الله انكسارها وحاضنت لوقتها وقرب منها زوجها، فحملت، فلما انقضت مدة الحمل ولدت غلاماً فسّمته اشمويل، فلما كبر أسلمته في بيت المقدس يتعلم التوراة، وكفله شيخ من علمائهم وتبناه.

فلما بلغ أن يعثه الله نبياً أتاه جبرائيل وهو يصلي فناداه بصوت يشبه صوت الشيخ، فجاء إليه، فقال: ما تريد؟ فكره أن يقول لم أدعك فيفزع، فقال: ارجع فتم. فرجع، فعاد جبرائيل لمثلها، فجاء إلى الشيخ، فقال له: (٢١٨/١) يا بني عذ فإذا دعوتك فلا تجبني. فلما كانت الثالثة ظهر له جبرائيل وأمره بإندار قومه وأعلمه أن الله بعثه رسولاً، فدعاهم، فكذبوه، ثم أطاعوه، وأقام يدبر أمرهم عشر سنين، وقيل: أربعين سنة.

وكان العمالة مع ملكهم جالوت قد عظمت نكايتهم في بني إسرائيل حتى كادوا يهلكونهم، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا: ﴿إِنَّمَا لَنَا مَلِكٌ نَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قَالَ: هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟ قَالُوا: وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]

فدعا الله فأرسل إليه عصاً وقرناً فيه دهن، وقيل له: إن صاحبكم يكون طوله طول هذه العصا، وإذا دخل عليك رجل فنشّ الدهن الذي في القرن فهو ملك بني إسرائيل فادهن رأسه به وملكه عليهم، فقاوسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مثلها، وكان طالوت دبّاعاً. وقيل: كان سقاء يسقي الماء ويبيع، فضّل حمارة فانتقل يطلبه، فلما اجتاز بالمكان الذي فيه اشمويل دخل يسأله أن يدعو له ليردّ الله حمارة، فلما دخل نشّ الدهن، فقاوسوه بالعصا فكان مثلها، فـ ﴿قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وهو بالسريانية شاول بن قيس بن اتمار بن ضرار بن يحرف ابن يفع بن ايش بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق. فقالوا له: ما كنت قط أكذب منك الساعة ونحن من سبط المملكة ولم يؤت طالوت سعة من المال

فقال اشمويل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. فقالوا: إن كنت صادقاً فأت بآية. فقال: ﴿إِنَّ آيَةَ مَلِكِي أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. والسكينة رأس هر، وقيل طشت من ذهب يغسل فيها قلوب الأنبياء، وقيل غير ذلك، وفيه الألواح وهي من درّ وياقوت وزبرجد، وأما البقية فهي عصا موسى ورضاضة الألواح، فحملته الملائكة وأتت به إلى طالوت نهاراً بين السماء والأرض والناس ينظرون، فأخرجهم طالوت إليهم، فأقروا بملكه ساخطين وخرجوا معه كارهين، وهم ثمانون ألفاً. فلما خرجوا قال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بَنَهَرٍ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وهو نهر فلسطين، وقيل: الأردن، فشربوا منه إلا قليلاً، وهم أربعة آلاف، فمن شرب منه عطش ومن لم يشرب منه إلا غرفة روي، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَتَعَا﴾ [البقرة: ٢٤٩]. لقيهم جالوت، وكان ذا بأس شديد، فلما رآوه رجع أكثرهم و ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولم يبق معه غير ثلاثمائة وبضعة عشر عدد أهل بدر، فلما رجع من رجع قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٌ عَلَبْتَ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وكان فيهم إيشي أبو داود ومعه من أولاده ثلاثة عشر ابناً، وكان داود أصغر بنه، وقد خلفه يرعى لهم ويحمل لهم الطعام، وكان قد قال لأبيه ذات (٢٢٠/١) يوم: يا أبتاه ما أرمي بقذافتي شيئاً إلا صرعت. ثم قال له: لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضاً فركبت عليه وأخذت بأذنيه فلم أخفه، ثم أتاه يوماً آخر فقال: إني لأمشي بين الجبال فأسبح فلا يبقى جبل إلا سبّح معي. قال له: أبشرك فإن هذا خير أعطاكه الله.

فأرسل الله إلى النبي الذي مع طالوت قرناً فيه دهن وتئور من حديد، فبعث به إلى طالوت وقال له: إن صاحبكم الذي يقتل جالوت يوضع هذا الدهن على رأسه فيغلي حتى يسيل من القرن، ولا يجاوز رأسه إلى وجهه ويبقى على رأسه كهيشة الإكليل، ويدخل في هذا التئور فيملاؤه. فدعا طالوت بني إسرائيل فجزّهم، فلم يوافقه منهم أحد، فأحضر داود من رعيته، فمرّ في طريقه بثلاثة أحجار، فكلمته وقلن: خذنا يا داود تقتل بنا جالوت، فأخذهن فجعلهن في مخلاته، وكان طالوت قد قال: مَنْ قَتَلَ جَالُوتَ زَوْجَتَهُ ابْتِغَاءَ خَاتَمِهِ فِي مَمْلَكَتِي.

فلما جاء داود وضعوا القرن على رأسه، فغلى حتى أذهن منه وليس التئور فملاؤه، وكان داود مسقماً أزرق مصفراً، فلما دخل في التئور تضايق عليه حتى ملأه، وفرح اشمويل وطالوت وبنو إسرائيل

وكانت مدة ملك طالوت إلى أن قُتل أربعين سنة. (٢٢٣/١)

ذكر ملك داود

هو داود بن إيشي بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمي نودب بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، وكان قصيراً أزرق قليل الشعر، فلمّا قُتل طالوت أتى بنو إسرائيل داود فأعطوه خزانة طالوت وملكوه عليهم، وقيل: إن داود ملك قبل أن يُقتل جالوت؛ وسبب ملكه حينئذ أن الله أوصى إلى أشمويل ليأمر طالوت بغزو مدين وقُتل من بها، فسار إليها وقتل قسراً بها إلا ملكهم، فإنه أخذه أسيراً، فأوحى الله إلى أشمويل: قلّ لطالوت أمرك بامر فتركته! لأنزعن الملك منك ومن بنيك ثم لا يعود فيكم إلى يوم القيامة. وأمر أشمويل بتمليك داود، فملكه وسار إلى جالوت فقتله، والله أعلم.

فلما ملك بني إسرائيل جعله الله نبياً وملكاً وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع، وهو أوّل من عملها، والآن له الحديد، وأمر الجبال والطير يسبحون معه إذا سبّح، ولم يعط الله أحداً مثل صوته، كان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يأخذ بأعناقها وإنها لمصيبة تسمع صوته.

وكان شديد الاجتهاد كثير العبادة والبكاء، وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر، وكان يحرسه كلّ يوم وليلة أربعة آلاف، وكان يأكل من كسب يده.

وفي ملكه مُسَخّ أهل أيلة قردة؛ وسبب ذلك أنهم كانوا تأتيهم يوم السبت (٢٢٤/١) حيتان البحر كثيراً، فإذا كان غير يوم السبت لا يجيء إليهم منها شيء، فعملوا على جانب البحر حياضاً كبيرة وأجروا إليها الماء، فإذا كان آخر نهار يوم الجمعة فتحوا الماء إلى الحياض فتدخلها الحيتان ولا تقدر على الخروج عنها، فيأخذونها يوم الأحد، فنهاهم بعض أهلها فلم يتنهوا، فمسخهم الله قردة وبقوا ثلاثة أيام وهلكوا.

ذكر فتنته بزوجة أوريا

ثم إن الله ابتلاه بزوجة أوريا.

وكان سبب ذلك أنه قد قسم زمانه ثلاثة أيام، يوماً يقضي فيه بين الناس، ويوماً يخلو فيه للعبادة، ويوماً يخلو فيه مع نسائه، وكان له سبع وتسعون امرأة، وكان يحسد فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: أي ربي أرى الخير قد ذهب به آبائي فأعطني مثل ما أعطيتهم! فأوحى الله إليه: إن آباءك ابتلوا ببلاء قصبروا، ابتلي إبراهيم بذبح ابنه، وابتلي إسحاق بذهاب بصره، وابتلي يعقوب بحزنه على يوسف. فقال: رب ابتلي بمثل ما ابتليتهم وأعطني مثل ما أعطيتهم. فأوحى

بذلك وتقدموا إلى جالوت وتصافوا للقتال، وخرج داود نحو جالوت وأخذ الأحجار ووضعها في قذافته ورمى بها جالوت، فوقع الحجر بين عينيه فنبق رأسه فقتله، ولم يزل الحجر يقتل كلّ من أصابه ينفذ منه إلى غيره، فانهزم عسكر جالوت بإذن الله ورجع طالوت فانكح ابنته داود وأجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس (٢٢١/١) إلى داود وأحبّوه.

فحسده طالوت وأراد قتله غيلة، فعلم ذلك داود ففارقه وجعل في مضجعه زقّ خمر وسجّاة، ودخل طالوت إلى منام داود، وقد هرب داود، فضرب الزقّ ضربة خرقه، فوقعت قطرة من الخمر في فيه، فقال: يرحم الله داود ما كان أكثر شربه الخمر! فلمّا أصبح طالوت علم أنه لم يصنع شيئاً، فخاف داود أن يقتله فشدد حجابه وحرّاسه.

ثم إن داود أتاه من المقابلة في بيته وهو نائم فوضع سهمين عند رأسه وعند رجله، فلمّا استيقظ طالوت بصّر بالسهم فقال: يرحم الله داود! هو خير مني، ظفرت به وأردت قتله وظفر بي فكفّ عني. وأذكى عليه الميون فلم يظفروا به.

وركب طالوت يوماً فرأى داود فركض في أثره، فهرب داود منه واختفى في غار في الجبل، فعسى الله أثره على طالوت. ثم إن طالوت قتل العلماء حتى لم يبق أحد إلا امرأة كانت تعرف اسم الله الأعظم فسلمها إلى رجل يقتلها، فرحمها وتركها وأخفى أمرها.

ثم إن طالوت ندم وأراد التوبة وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، فكان كلّ ليلة يخرج إلى القبور فيبكي ويقول: أنشد الله عبداً علم لي توبة إلا أخبرني بها. فلمّا أكثر ناده مناو من القبور: يا طالوت أما رضىت قتلتنا أحياء حتى تؤذينا أمواتاً فازداد بكاء وحزناً، فرحمه الرجل الذي أمره بقتل تلك المرأة فقال له: إن دللتك على عالم لعلك تقتله! قال: لا. فأخذ عليه العهد والمواثيق ثم أخبره بتلك المرأة فقال: سلها هل لي من توبة؟ فحضر عندها وسألها هل له من توبة؟ فقالت: ما أعلم له من توبة، ولكن (٢٢٢/١) هل تعلمون قبر نبي؟ قالوا: نعم، قبر يوشع بن نون. فانطلقت وهم معها فدعت، فخرج يوشع، فلمّا رآهم قال: ما لكم؟ قالوا: جئنا نسألك هل لطالوت من توبة؟ قال: ما أعلم له توبة إلا أن يتخلّى من ملكه ويخرج هو وولده فيقاتلوا في سبيل الله حتى تقتل أولاده ثم يقاتل هو حتى يُقتل، فعسى أن يكون له توبة، ثم سقط ميتاً. ورجع طالوت أحزن ممّا كان يخاف أن لا يتابعه ولده، فبكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه، فسأله بنوه عن حاله، فأخبرهم، فتجهّزوا للغزو فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا، ثم قاتل هو بعدهم حتى قُتل.

وقيل: إن النبي بُعث لطالوت حتى أخبره بتوبته اليسع، وقيل: أشمويل، والله أعلم.

اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّكَ مَبْتَلَى فَاحْتَرَس.

عرشك يقول: يا ربَّ سلِّ هذا فيمَ قتلني. فأوحى الله إليه: إذا كان ذلك دعوته وأستوهبك منه فيهلك لي فأهبه بذلك الجنة. قال: يا ربَّ الآنَ علمتُ أنك قد غفرت لي. (٢٢٧/١)

قال: فما استطاع داود بعد ما أن يملأ عينه من السماء حياء من ربِّه حتى قبض. ونقش خطيئته في يده، فكان إذا رآها اضطربت يده، وكان يؤتى بالشراب في الإناء ليشربه فكان يشرب نصفه أو ثلثيه فيذكر خطيئته فينتحب حتى تكاد مفاصله يزول بعضها من بعض ثم يملأ الإناء من دموعه. وكان يقال: إن دموع داود تعدل دموع الخلائق، وهو يجيء يوم القيامة وخطيئته مكتوبة بكفه فيقول: يا ربَّ ذنبي ذنبي قدمني، فيُقدَّم، فلا يأمن فيقول: يا ربَّ آخرنِي، فلا يأمن.

وأزالت الخطيئة عن داود عن بني إسرائيل واستخفوا بأمره، ووثب عليه ابن له يقال له إيشي وأمه ابنة طالوت فدعا إلى نفسه، فكثر أتباعه من أهل الزبغ من بني إسرائيل، فلما تابَّ الله على داود اجتمع إليه طائفة من الناس فحارب ابنه حتى هزمه ووجه إليه بعض قواده وأمره بالرفق به والتلطّف لعلّه يأسره ولا يقتله، وطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فقتله، فحزن عليه داود حزناً شديداً وتكرّر لذلك القائد.

ذكر بناء بيت المقدس ووفاة داود، عليه السلام

قيل: أصاب الناس في زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس، وكان يرى الملائكة تعرج منه إلى السماء، فلهذا قصده ليدعو فيه، فلما وقف موضع الصخرة دعا الله تعالى في كشف الطاعون عنهم، فاستجاب له ورفع الطاعون، فاتخذوا ذلك الموضع مسجداً، وكان الشروع في بنائه لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يستتم بناءه، وأوصى إلى سليمان بإتمامه وقتل القائد الذي قتل أخاه إيشي بن داود. (٢٢٨/١)

فلما توفي داود ودفنه سليمان تقدّم بإفناذ أمره فقتل القائد واستتم بناء المسجد، بناه بالرخام وزخرفه بالذهب ورصعه بالجواهر، وقوي على ذلك جميعه بالجنّ والشياطين، فلما فرغ اتخذ ذلك اليوم عيداً عظيماً وقرب قرباناً، فتقبّله الله منه، وكان ابتداءه أولاً ببناء المدينة، فلما فرغ منها ابتداء بعمارة المسجد، وقد أكثر الناس في صفة البناء ممّا يستبعد ولا حاجة إلى ذكره.

وقيل: إن سليمان هو الذي ابتداء بعمارة المسجد، وكان داود أراد أن يبنيه فأوحى الله إليه: إن هذا بيت مقدّس وإنك قد صبغت يدك في الدماء فلست بباين، ولكن ابنك سليمان يبنيه لسلامته من الدماء. فلما ملك سليمان بناه.

ثم إن داود توفي وكان له جارية تغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح فيقوم إلى عبادته، فأغلقتها ليلة فرأت في الدار رجلاً قالت:

وقيل: كان سبب البلية أنه حدّث نفسه أنه يطيق أن يقطع يوماً بغير (٢٢٥/١) مفارقة سوء، فلما كان اليوم الذي يخلو فيه للعبادة عزم على أن يقطع ذلك اليوم بغير سوء وأغلق بابه وأقبل على العبادة، فإذا هو بحمامة من ذهب فيها كل لون حسن قد وقعت بين يديه، فأهوى ليأخذها، فطارت غير بعيد من غير أن يماس من أخذها، فما زال يتبعها وهي تفرّ منه حتى أشرف على امرأة تغتسل فأعجبه حسنهما، فلما رأت ظله في الأرض جلّلت نفسها بشعرها فاستترت به، فزاده ذلك رغبة، فسأل عنها فأخبر أن زوجها بغير كذا، فبعث إلى صاحب الثغر بأن يقدّم أوريا بين يدي التابوت في الحرب، وكان كل من يتقدّم بين يدي التابوت لا يهنّ، إمّا أن يظفر أو يقتل، ففعل ذلك به فقتل.

وقيل: إن داود لما نظر إلى المرأة فأعجبته سأل عن زوجها، فقيل: إنه في جيش كذا، فكتب إلى صاحب الجيش أن يبعثه في سرية إلى عدو كذا، ففعل ذلك، ففتح الله عليه، فكتب إلى داود فأمر [داود] أن يرسل أيضاً إلى عدو كذا أشد منه، ففعل، فظفر، فأمر داود أن يرسل إلى عدو ثالث، ففعل، فقتل أوريا في المرة الثالثة، فلما قتل تزوّج داود امرأته، وهي أم سليمان في قول قتادة.

وقيل: إن خطيئة داود كانت أنه لما بلغه حسن امرأة أوريا تمنى أن تكون له حلالاً، فاتفق أن أوريا سار إلى الجهاد فقتل فلم يجد له من الهم ما وجده لغيره، فبينما داود في المحراب يوم عبادته وقد أغلق الباب إذ دخل عليه ملكان أرسلهما الله إليه من غير الباب، فراحه ذلك فقالا: ﴿لَا تَخَفْ، خَصَمَانِ بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، إِنَّ هَذَا (٢٢٦/١) أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْةً وَلِي نَجْةٌ وَاحِدَةٌ، فَقَالَ: أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٢، ٢٣]، أي قهرني، وأخذ نجمتي، فقال للآخر: ما تقول؟ قال: صدق، إني أردت أن أكمل نعاجي مائة فأخذتُ نعتجه. فقال داود: إذا لا ندعك وذاك، فقال الملك: ما أنت بقادر عليه. قال داود: فإن لم تردّ عليه ماله ضربنا منك هذا وهذا، وأومأ إلى أنفه وجبهته. قال: يا داود أنت أحق أن يُضرب منك هذا وهذا حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة فلم تزل به حتى قُتل وتزوَّجت امرأته. ثم غابا عنه.

فعرف ما ابتلي به وما وقع فيه، فخرّ ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بدّ منها، وأدام البكاء حتى نبت من دموعه عشب غطي رأسه، ثم نادى: يا ربَّ قرح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع إليه في خطيئته بشيء. فنودي: أجناع قطعتم أم مريض فتشفي أم مظلوم فتتصر؟ قال: فنجب نجة هاج ما كان نيت، فعند ذلك قبل الله توبته وأوحى إليه: ارفع رأسك فقد غفرت لك. قال: يا ربَّ كيف أعلم أنك قد غفرت لي؟ وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء إذا جاء أوريا يوم القيامة أخذاً رأسه بيمينه تشخب أوداجه دماً قيل

ذكر ما جرى له مع بلقيس

نذكر أولاً ما قيل في نسبها وملكها، ثم ما جرى له معها، فنقول: قد اختلف العلماء في اسم آبائها، فقيل: إنها هي بلقمة ابنة ليشرح بن الحارث ابن قيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقيل: هي بلقمة ابنة هادد واسمه ليشرح بن تبع ذي الأذعار بن تبع ذي المنار بن تبع الرايش، (٢٣١/١) وقيل في نسبها غير ذلك لا حاجة إلى ذكره.

وقد اختلف الناس في التبعية وتقديم بعضهم على بعض وزيادة في عددهم ونقصان، اختلافاً لا يحصل الناظر فيه على طائل، وكذا أيضاً اختلفوا في نسبها اختلافاً كثيراً، وقال كثير من الرواة: إن أمها جنية ابنة ملك الجن واسمها رواحة بنت السكر، وقيل: اسم أمها بلقمة بنت عمرو بن عمير الجني، وإنما نكح أبوها إلى الجن لأنه قال: ليس في الإنس لي كفوة، فخطب إلى الجن فزوجه.

واختلفوا في سبب وصوله إلى الجن حتى خطب إليهم فقيل: إنه كان لهجاً بالصيد، فربما اصطاد الجن على صور الظباء فيخلي عنهم، فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذته صديقاً، فخطب ابنته فأنكحه على أن يعطيه ساحل البحر ما بين يثرب إلى عدن؛ وقيل: إن أباه خرج يوماً متصيداً فرأى حيتين تقتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فأمر بقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها ماء، فأفاقت، فأطلقها وعاد إلى داره وجلس منفرداً، وإذا معه شاب جميل، فذعر منه، فقال له: لا تخف أنا الحية التي أنجيتني، والأسود الذي قتلته غلاماً لنا تمرّد علينا وقتل عدّة من أهل بيتي؛ وعرض عليه المال وعلم الطب فقال: أما المال فلا حاجة لي به، وأما الطب فهو قبيح بالملك، ولكن إن كان لك بنت فزوجنيها، فزوجته على شرط أن لا يغيّر عليها شيئاً تعمله ومتى غيّر عليها (٢٣٢/١) فارقته، فأجابه إلى ذلك، فحملت منه فولدت له غلاماً فألقته في النار، فجنز لذلك وسكت للشرط، ثم حملت منه فولدت له جارية فألقتهما إلى كلية فأخذتهما، فعظم ذلك عليه وصبر للشرط، ثم إنه عصى عليه بعض أصحابه فجمع عسكره فسار إليه ليقاتله وهي معه، فانتهى إلى مفازة، فلما توسّطها رأى جميع ما معهم من الزاد يخلط بالتراب، وإذا الماء يصب من القرب والمزود، فأيقنوا بالهلاك وعلموا أنه من فعال الجن عن أمر زوجته، فضاق ذرعاً عن حمل ذلك، فأتاها وجلس وأومأ إلى الأرض وقال: يا أرض صيرت لك على إحراق ابني وإطعام الكلبة ابنتي ثم أنت الآن قد فجعتنا بالزاد والماء وقد أشرفنا على الهلاك!

فقال المرأة: لو صيرت لكان خيراً لك، وسأخبرك: إن عدوك خدع وزيرك فجعل السم في الأزواد والمياه ليقتلك وأصحابك، فمرّ وزيرك ليشرب ما بقي من الماء ويأكل من الزاد، فأمره فامتنع، فقتله،

من أدخلك الدار؟ فقال: أنا الذي أدخل على الملوك بغير إذن. فسمع داود قوله فقال: أنت ملك الموت؟ قال: نعم. قال: فهلاً أرسلت إليّ لاستعد للموت؟ قال: قد أرسلت إليك كثيراً. قال: من كان رسولك؟ قال: أين أبوك وأخوك وجارك ومعارفك؟ قال: ماتوا. قال: فهم كانوا رسلي إليك لأنك تموت كما ماتوا! ثم قبضه. فلما مات ورث سليمان ملكه وعلمه ونبوته.

وكان له تسعة عشر ولداً، فورثه سليمان دونهم. وكان عمر داود لما توفي مائة سنة، صحّ ذلك عن النبي، ﷺ، وكانت مدة ملكه أربعين سنة. (٢٢٩/١)

ذكر ملك سليمان بن داود، عليه السلام

لما توفي داود ملك بعده ابنه سليمان على بني إسرائيل، وكان ابن ثلاث عشرة سنة، وآتاه [الله] مع الملك النبوة، وسأل الله أن يؤتبه ملكاً لا يبغي لأحد من بعده، فاستجاب له وسخر له الإنس والشياطين والطير والريح فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الإنس والجن حتى يجلس.

وقيل: إنما سخر له الريح والجن والشياطين والطير وغير ذلك بعد أن زال ملكه وأعاده الله سبحانه إليه على ما نذكره.

وكان أبيض جسيماً كثير الشعر يلبس البياض، وكان أبوه يستشير في حياته ويرجع إلى قوله، فمن ذلك ما قصّه الله في كتابه في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]؛ الآية. وكان خبره: أن غنماً دخلت كرمًا فأكلت عناقيده، وأفسدته، ففضى داود بالغنم لصاحب الكرم. فقال سليمان: أؤخير ذلك، أن تسلّم الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها إلى أن يعود كرمه إلى حاله ثم يأخذ كرمه ويدفع الغنم إلى صاحبها. فأمضى داود (٢٣٠/١) قوله. وقال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قال بعض العلماء: في هذا الدليل على أن كل مجتهد في الأحكام الغروية مصيب، فإن داود أخطأ الحكم الصحيح عند الله تعالى وأصابه سليمان، فقال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]

وكان سليمان يأكل من كسب يده، وكان كثير الغزو، وكان إذا أراد الغزو أمر بعمل بساط من خشب يسع عسكره ويركبون عليه هم ودوابهم وما يحتاجون إليه، ثم أمر الريح فحملته فسارت في غدوته مسيرة شهر وفي روحته كذلك، وكان له ثلاثمائة زوجة وسبعمئة سُرّة، وأعطاه الله أجراً أنه لا يتكلم أحد بشيء إلا حملته الريح إليه، فيعلم ما يقول.

ودلتهم على الماء والميرة من قريب وقالت: أما ابنك فدفعته إلى حاضنة تربيته وقد مات، وأما ابنتك فهي باقية، وإذا بجورية قد خرجت من الأرض، وهي بلقيس، وفارقت امرأته وسار إلى عدوه فظفر به.

وأما سبب مجيئها إلى سليمان وإسلامها فإنه طلب الهدد فلم يره، وإنما طلبه لأن الهدد يرى الماء من تحت الأرض فيعلم هل في تلك الأرض ماء أم لا، وهل هو قريب أم بعيد، فبينما سليمان في بعض مغازيه احتاج إلى الماء فلم يعلم أحد ممن معه وبعده، فطلب الهدد ليساله عن ذلك فلم يره. وقيل: بل نزلت الشمس إلى سليمان، فنظر ليرى من أين نزلت لأن الطير كانت تظله، فرأى موضع الهدد فارغاً، فقال: ﴿لَأَعْبَثَنَّ عَذَاباً شديداً أو لَأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] (٢٣٥/١)

وكان الهدد قد مر على قصر بلقيس فرأى يستأن لها خلف قصرها، فمال إلى الخصرة، فرأى فيه هدهد فقال له: أين أنت عن سليمان وما تصنع هاهنا؟ فقال له: ومن سليمان؟ فذكر له حاله وما سخر له من الطير وغيره، فعجب من ذلك. فقال له هدهد سليمان: وأعجب من ذلك أن كثرة هؤلاء القوم تملكهم امرأة ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وجعلوا الشكر لله أن سجدوا للشمس من دونه، وكان عرشها سريراً من ذهب مكلل بالجواهر النفيسة من اليواقيت والزبرجد واللؤلؤ.

ثم إن الهدد عاد إلى سليمان فأخبره بغيره في تأخير، فقال له: اذهب بكتابي هذا فآلقه إليها، فوافاهما وهي في قصرها فآلقه في حجرها، فأخذته وقرأته وأحضرت قومها وقالت: ﴿إِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَيْكِ كِتَابَ كَرِيمٍ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩-٣٣] ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ... مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمراً حَتَّى تَشْهَدُون﴾ [النمل: ٢٩-٣٣].

﴿قَالُوا: نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَاللَّوْ بِأَسْ شَدِيدٍ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٢٩-٣٣]. قَالَتْ: ﴿إِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥] فإن قبلها فهو من ملوك الدنيا فتحن أعز منه وأقوى، وإن لم يقبلها فهو نبي من الله. (٢٣٦/١)

فلما جاءت الهدية إلى سليمان قال للرسول: ﴿أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ- إلى قوله:- وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧]؛ فلما رجع الرسول إليها سارت إليه وأخذت معها الأقيال من قومها، وهم القواد، وقدمت عليه، فلما قاربت وصارت منه على نحو فرسخ قال لأصحابه: ﴿إِيَّكُمْ يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ؟ قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجَنِّ: أَنَا أَيْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩]، يعني قبل أن تقوم في الوقت الذي قصد فيه بيتك للغداء. قال سليمان: أريد أسرع من ذلك. ف ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ- وهو آصف بن برخيا، وكان يعرف اسم الله الأعظم:- أَنَا أَيْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال له: انظر إلى

وَدَلْتَهُمْ عَلَى الْمَاءِ وَالْمِيرَةِ مِنْ قَرِيبٍ وَقَالَتْ: أَمَّا ابْنُكَ فَدَفَعْتُهُ إِلَى حَاضِنَةٍ تَرْبِيهِ وَقَدْ مَاتَ، وَأَمَّا ابْنَتُكَ فَهِيَ بَاقِيَةٌ، وَإِذَا بِجُورِيَّةٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ الْأَرْضِ، وَهِيَ بَلْقِيسُ، وَفَارَقَتْهُ امْرَأَتُهُ وَسَارَ إِلَى عَدُوِّهِ فَظَفَرَ بِهِ.

وقيل في سبب نكاحه إليهم غير ذلك، والجميع حديث خرافة لا أصل له ولا حقيقة.

وأما ملكها اليمن فقيل: إن أباها فوَّض إليها الملك فملكته بعده، وقيل: بل مات عن غير وصية بالملك لأحد فأقام الناس ابن أخ له، وكان (٢٣٣/١) فاحشاً خبيثاً فاسقاً لا يبلغه عن بنت قَيل ولا ملك ذات جمال إلا أحضرها وفضحها، حتى انتهى إلى بلقيس بنت عمه، فأراد ذلك منها فوعده أن يحضر عندها إلى قصرها وأعدت له رجلين من أقاربها وأمرتهما بقتله إذا دخل إليها وانفرد بها، فلما دخل إليها وثبا عليه فقتلاه. فلما قُتل أحضرت وزرائه فقرعتهم فقالت: أما كان فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته! ثم أرثهم إياه قتيلاً وقالت: اختاروا رجلاً تملكونه. فقالوا: لا نرضى بغيرك؛ فملكوها.

وقيل: إن أباه لم يكن ملكاً وإنما كان وزير الملك، وكان الملك خبيثاً، فبيع السيرة يأخذ بنات الأقيال والأعيان والأشراف، وإنما قتلته، فملكها الناس عليهم.

وكذلك أيضاً عظموا ملكها وكثرة جندها قليل: كان تحت يدها أربعمئة ملك، كل ملك منهم على كورة، مع كل ملك منهم أربعة آلاف مقاتل، وكان لها ثلاثمئة وزير يدبِّرون ملكها، وكان لها اثنا عشر قائداً يقود كل قائد منهم اثني عشر ألف مقاتل.

وبالغ آخرون مبالغة تدل على سخف عقولهم وجهلهم، قالوا: كان لها اثنا عشر ألف قَيل، تحت يد كل قَيل مائة ألف مقاتل، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش، في كل جيش سبعون ألف مبارز، ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرين سنة. وما أظن الساعة راوي هذا الكذب الفاحش عرف الحساب حتى يعلم مقدار جهله، ولو عرف مبلغ العدد لأقصر عن (٢٣٤/١) إقدامه على هذا القول السخيف، فإن أهل الأرض لا يبلغون جميعهم شبابه وشيوخهم وصبيانهم ونسأولهم هذا العدد، فكيف أن يكونوا أبناء خمس وعشرين سنة! فيا ليت شعري كم يكون غيرهم ممن ليس من أسنانهم، وكم تكون الرعية وأرباب الحرف والفلاحة وغير ذلك، وإنما الجند بعض أهل البلاد، وإن كان الحاصل من اليمن قد قل في زماننا فإن رقعة أرضه لم تصغر، وهي لا تسع هذا العدد قياماً كل واحد إلى جانب الآخر.

ثم إنهم قالوا: أنفقت على كوة يبيتها التي تدخل الشمس منها فتسجد لها ثلاثمئة ألف أوقية من الذهب، وقالوا غير ذلك، وذكروا من أمر عرشها ما يناسب كثرة جيشها، فلا نطول بذكره. وقد تواطؤوا على الكذب والتلاعب بعقول الجهال واستهانوا بما يلحقهم من

السماء وأدم النظر فلا ترد طرفك حتى أحضره عندك. وسجد ودعا، فرأى سليمان العرش قد نبع من تحت سريره، فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَالشَّاكِرُ﴾ [النمل: ٤٠] إذ أناني به قبل أن يرتد إلي طرفي ﴿أَمْ أَكْفَرُ﴾ [النمل: ٤٠] إذ جعل تحت يدي من هو أقدر مني على إحضاره.

فلما جاءت قيل: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ؟﴾ قَالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ. [النمل: ٤٢] ولقد تركته في حصون وعنده جنود تحفظه فكيف جاء إلى هاهنا؟ (٢٣٧/١)

فقال سليمان للشياطين: ابنوا لي صرحاً تدخل علي فيه بلقيس. فقال بعضهم: إن سليمان قد سحر له ما سحر وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد غلاماً فلا تنفك من العبودية أبداً، وكانت امرأة شغراء الساقين، فقال للشياطين: ابنوا له بنياناً يرى ذلك منها فلا يتزوجها، فبنوا له صرحاً من قوارير خضر وجعلوا له طوابيق من قوارير بيض، فبقي كأنه الماء، وجعلوا تحت الطوابيق صور دواب البحر من السمك وغيره، وقعد سليمان على كرسي ثم أمر فأدخلت بلقيس عليه، فلما أرادت أن تدخله ورات صور السمك ودواب الماء حسبته لجة ماء فكشفت عن ساقها لتدخل، فلما رآها سليمان صرف نظره عنها و ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرَحٌ مُّزْدَى مِنْ قَوَارِيرَ، قَالَتْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ إِلَهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

فاستشار سليمان في شيء يزيل الشعر ولا يضر الجسد، فعمل له الشياطين الثورة، فهي أول ما عملت الثورة، ونكحها سليمان وأحبها حباً شديداً وردّها إلى ملكها باليمن، فكان يزورها كل شهر مرة يقيم عندها ثلاثة أيام.

وقيل: إنه أمرها أن تنكح رجلاً من قومها فامتنعت وأنفت من ذلك، فقال: لا يكون في الإسلام إلا ذلك. فقالت: إن كان لا بد من ذلك فزوجني ذا تبع ملك همدان، فزوجها إيها ثم ردّها إلى اليمن، وسلط زوجها ذا (٢٣٨/١) تبع على الملك، وأمر الجن من أهل اليمن بطاعته، فاستعملهم ذو تبع، فعملوا له عدة حصون باليمن، منها سلحين ومراوح وفليون وهنيدة وغيرها، فلما مات سليمان لم يطيعوا ذا تبع وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان.

وقيل: إن بلقيس ماتت قبل سليمان بالشام وإنه دفنها بتدمر وأخفى قبرها.

ذكر غزوته أبا زوجته جرادة ونكاحها وعبادة الصنم

في داره وأخذ خاتمه وعوده إليه

قيل: سمع سليمان بملك في جزيرة من جزائر البحر وشدة ملكه وعظم شأنه، ولم يكن للناس إليه سبيل، فخرج سليمان إلى تلك

الجزيرة وحملته الريح حتى نزل بجنوده بها فقتل ملكها وغنم ما فيها وغنم بنتاً للملك لم ير الناس مثلاً حسناً وجمالاً فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت على قلة رغبة فيه، وأحبها حباً شديداً، وكانت لا يذهب حزنها ولا تزال تبكي، فقال لها: ويحك ما هذا الحزن والدمع الذي لا يرقأ؟ قالت: إني أذكر أبي وملكه وما أصابه فيحزنني ذلك. قال: فقد أبدلك الله ملكاً خيراً من ملكه (٢٣٩/١) وهداك إلى الإسلام. قالت: إنه كذلك ولكنني إذا ذكرته أصابني ما ترى، فلو أمرت الشياطين فصوروا صورته في داري أراها بكرة وعشيت لرجوت أن يذهب ذلك حزني.

فأمر الشياطين فعملوا لها مثل صورته لا ينكر منها شيئاً، وألبستها ثياباً مثل ثياب أبيها، وكانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو عليه في جوارها فتسجد له ويسجدن معها، وتروح عشية ويرحن، فتضلع مثل ذلك، ولا يعلم سليمان بشيء من أمرها أربعين صباحاً.

وبلغ الخبر آصف بن برخيا، وكان صديقاً، وكان لا يؤد من منازل سليمان أي وقت أراد من ليل أو نهار سواء كان سليمان حاضراً أو غائباً، فاتاه فقال: يا نبي الله قد كبر سني ودق عظمي وقد حان مني ذهاب عمري وقد أحبيت أن أقوم مقاماً أذكر فيه أنبياء الله وأئني عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس بعض ما يجهلون. قال: افعل. فجمع له سليمان الناس، فقام آصف خطيباً فيهم فذكر من مضى من الأنبياء وأئني عليهم حتى انتهى إلى سليمان فقال: ما كان أحلمك في صفرك، وأبعدك من كل ما يكره في صفرك. ثم انصرف.

فملئ سليمان غضباً، فأرسل إليه وقال له: يا آصف لما ذكرتني جعلت تنني علي في صفري وسكت عما سوى ذلك، فما الذي أحدثت في آخر أمري؟ قال: إن غير الله ليعبد في دارك أربعين يوماً في هوى امرأة. قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، لقد علمت أنك ما قلت إلا عن (٢٤٠/١) شيء بلغك، ودخل داره وكسر الصنم وعاقب تلك المرأة وجوارها. ثم أمر بثياب الطهارة فأثى بها، وهي ثياب تغزلها الأبيكار اللاتي لم يحضن ولم تمسها امرأة ذات دم، فلبسها وخرج إلى الصحراء وفرش الرماد ثم أقبل ثانياً إلى الله وتمتع في الرماد بثيابه تذللًا لله تعالى وتضرعاً، وبكى واستغفر يومه ذلك ثم عاد إلى داره.

وكانت أم ولد له لا يثق إلا بها يسلم خاتمه إليها، وكان لا ينزعه إلا عند دخول الخلاء، وإذا أراد يصيب امرأة فيسلمه إليها حتى يتطهر، وكان ملكه في خاتمه، فدخل في بعض تلك الأيام الخلاء وسلم خاتمه إليها، فاتاها شيطان اسمه صخر الجنّي في صورة سليمان فأخذ الخاتم وخرج إلى كرسي سليمان، وهو في صورة سليمان، فجلس عليه، وعكفت عليه الإنس والجن والطير. وخرج سليمان وقد تغيرت حاله وهيبته، فقال: خاتمي! فقالت: ومن أنت؟

فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ الشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ [ص: ٣٨٣٥].
وقيل في سبب زوال ملكه غير ذلك، والله أعلم.

ذكر وفاة سليمان

لما رَدَّ اللَّهُ إِلَى سُلَيْمَانَ الْمَلِكِ لَيْثٌ فِيهِ مَطَاعٌ وَالْجَنُّ تَعْمَلُ لَهُ ﴿مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣] وغير ذلك ويعذب من الشياطين من شاء ويطلب من شاء، حتى إذا دنا أجله وكان عادته إذا صَلَّى كُلُّ يَوْمٍ رَأَى شَجَرَةً نَابِتَةً بَيْنَ يَدَيْهِ، فيقول: ما اسمك؟ تقول: كذا. فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غُرِست وإن كانت لدواء كُتبت، فينمنا هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ فقالت: الخرنوبة. فقال لها: لأي شيء أنت؟ قال: لخراب هذا البيت، يعني بيت المقدس. فقال سليمان: ما كان الله ليخرجه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب البيت! وقلعها، (٢٤٣/١) ثم قال: اللهم عم على الجن موتي حتى يعلم الناس أن الجن لا يعلمون الغيب.

وكان سليمان يتجرد للعبادة في بيت المقدس السنة والستين والشهر والشهرين وأقل وأكثر، يدخل معه طعامه وشرابه، فادخله في المرة التي توفي فيها، فينمنا هو قائم يصلي متوكئاً على عصاه أدركه أجله فمات ولا تعلم به الشياطين ولا الجن، وهم في ذلك يعملون خوفاً منه، فأكلت الأرض عصاه فانكسرت فسقط، فعلموا أنه قد مات، وعلم الناس أن الجن لا يعلمون الغيب ولو علموا ﴿الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] ومقاساة الأعمال الشاقة.

ولما سقط أراد بنو إسرائيل أن يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرض على العصا يوماً وليلة فأكلت منها، فحسبوا بنسبته فكان أكل تلك العصا في سنة، ثم إن الشياطين قالوا للأرض: لو كنت تاكلين الطعام لأتيناك باطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب لأتيناك باطيب الشراب، ولكننا منتقل لك المساء والطين، فهم ينقلون إليها [ذلك] حيث كانت. ألم تر إلى الطين يكون في وسط الخشبة؟ فهو ما ينقلونه لها.

قيل: إن الجن والشياطين شكوا ما يلحقهم من التعب والنصب إلى بعض أولي التجربة منهم، وقيل: كان إبليس، فقال لهم: أستم تصرفون بأحمال وتعودون بغير أحمال؟ قالوا: بلى. قال: فلكم في كل ذلك راحة، فحملت الريح الكلام فآلقت في أذن سليمان، فأمر الموكلين بهم أنهم إذا جاؤوا بالأحمال والآلات التي يبني بها إلى موضع البناء والعمل يحملهم من هناك في عودهم (٢٤٤/١) ما يُلقون من المواضع التي فيها الأعمال ليكون أشق عليهم وأسرع في العمل، فاجتازوا بذلك الذي شكوا إليه حالهم فأعلموه حالهم، فقال

قال: أنا سليمان. قالت: كذبت لست بسليمان! قد جاء سليمان وأخذ خاتمه مني وهو جالس على سريره! فعرف سليمان خطيئته فخرج وجعل يقول لبني إسرائيل: أنا سليمان، فيحثون عليه التراب، فلما رأى ذلك قصد البحر وجعل ينقل سمك الصيادين ويعطونه كل يوم سمكتين يبيع إحداهما بخبز ويأكل الأخرى، بقي كذلك أربعين يوماً.

ثم إن أصف وعظما بني إسرائيل أنكروا حكم الشيطان المنتسبه بسليمان، فقال أصف: يا بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم سليمان ما رأيتم؟ قالوا: نعم. قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه وأسألهن هل أنكرن ما أنكرنا منه. فدخل عليهن وسألهن، فذكرن أشد مما عنده، فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُهِينُ﴾ [الصفافات: ١٠٦] (٢٤١/١)

ثم خرج إلى بني إسرائيل فأخبرهم، فلما رأى الشيطان أنهم قد علموا به طار من مجلسه فمر بالبحر فألقى الخاتم فيه، فبلغته سمكة واصطادها صياد وحمل له سليمان يومه ذلك فأعطاه سمكتين. تلك السمكة إحداها، فأخذها فشققها ليصلحها ويأكلها فرأى خاتمه في جوفها، فأخذه وجعله في إصبعه وخرلله ساجداً، وعكفت عليه الإنس والجن والطير وأقبل عليه الناس ورجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه وبث الشياطين في إحضار صخر الذي أخذ الخاتم، فأحضره، فنقب له صخرة وجعله فيها وسد النقيب بالحديد والرصاص وألقاه في البحر.

وكان مقامه في الملك أربعين يوماً، بمقدار عبادة الصنم في دار سليمان.

وقيل: كان السبب في ذهاب ملكه أن امرأة له كانت أبر نسائه تسمى جرادة ولا يأتين على خاتمه سواها، فقالت له: إن أخي بينه وبين فلان حكومة وأنا أحب أن تقضي له. فقال: أفعّل، ولم يفعل، فابثلي وأعطاها خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته فأخذه، وخرج سليمان بعده فطلب الخاتم فقالت: ألم تأخذه؟ قال: لا، وخرج من مكانه تائهاً وبقي الشيطان أربعين يوماً يحكم بين الناس، ففطنوا له وأحذقوا به ونشروا التوراة فقرؤوها، فطار من بين أيديهم وألقى الخاتم في البحر، فابتلعه حوت، ثم إن سليمان قصد صياداً وهو جائع فاستطعمه وقال: أنا سليمان، فكذبه وضربه فشجّه، فجعل يغسل الدّم، فلام الصيادون صاحبهم وأعطوه سمكتين إحداها التي ابتلعت الخاتم، فشق بطنها وأخذ الخاتم، فردّ الله إليه ملكه، فاعتذروا إليه، فقال: لا أحمدكم على عذرکم ولا ألومکم على ما کان منکم.

وسخر الله له الجن والشياطين والريح، ولم يكن سخرها له قبل ذلك، وهو أشبه بظاهر القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْبِرْ لِي وَهَبْ﴾ (٢٤١/١) لي ملأ لا يتغي لأخبر من بعدي إنك أنت الوهاب،

ثم إن كيكاووس لما علم بقتل ابنه سير الجيوش مع رستم الشديد وطوس أضيهد أصحابان لمحاربة أفراسياب، فدخلوا بلاد الترك فقتلوا وأسروا وأتخنا فيها، وجرى لهما مع أفراسياب حروب شديدة قُتل فيها ابنا أفراسياب وأخوه الذين أشاروا بقتل سیاوخش.

لهم: انتظروا الفرج فإن الأمور إذا تناهت تغيرت، فلم تطل مدة سليمان بعد ذلك حتى مات؛ وكان مدة عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وملكه أربعين سنة. (٢٤٥/١)

ذكر من ملك من الفرس بعد كيقباز

لما توفي كيقباز ملك بعده ابنه كيكاووس بن كينية بن كيقباز، فلما ملك حمى بلاده وقتل جماعة من عظماء البلاد المجاورة له، وكان يسكن بنواحي بلخ، وولد له ولد سمّاه سیاوخش وضمّه إلى رستم الشديد بن داستان بن نريمان بن جودنك بن كرشاسب، وكان أضيهد سنجستان وما يليها، وجعله عنده ليربيه، فأحسن تربيته وعلمه العلوم والفروسيّة والأدب وما يحتاج الملوك إليه، فلما كمل ما أراد حمله إلى أبيه، فلما رآه سر به صورة ومعنى.

وكان أبوه كيكاووس قد تزوج ابنة أفراسياب ملك الترك، وقيل: إنها ابنة ملك اليمن، فهويت سیاوخش ودعته إلى نفسها، فامتنع، فسعت به إلى أبيه حتى أفسدته عليه، فسأل سیاوخش رستم الشديد ليتوصل مع أبيه لينفذه إلى محاربة أفراسياب بسبب منعه بعض ما كان قد استقر بينهما، وأراد البعد عن أبيه ليأمن كيد امرأته، ففعل ذلك رستم، فسيره أبوه وضمّ إليه جيشاً كثيراً، فسار إلى بلاد الترك للقاء أفراسياب، فلما سار إلى تلك الناحية جرى بينهما صلح، فكتب سیاوخش إلى أبيه يعرفه ما جرى بينه وبين أفراسياب من الصلح، فكتب إليه والده يأمره بمناهضة أفراسياب ومحاربه وفسخ الصلح، فاستقبح سیاوخش الغدر وأنف منه، فلم ينفذ ما أمره به، ورأى أنّ ذلك من فعل زوجة والده ليقبح فعله، فراسل أفراسياب في الأمان لنفسه ليتقل إليه، فأجابه أفراسياب إلى ذلك، وكان السفير في ذلك قيران بن ويسعان، (٢٤٦/١) ودخل سیاوخش إلى بلاد الترك، فأكرمه أفراسياب وأنزله وأجرى عليه وزوجه بنتاً له يقال لها وسافريد، وهي أمّ كيخسرو، فظهر له من أدب سیاوخش ومعرفته بالملك وشجاعته ما خاف على ملكه منه، وزاد الفساد بينهما بسعي ابني أفراسياب وأخيه كيدر حسداً منهم لسيوخش، فأمرهم أفراسياب بقتله، فقتلوه ومثلوا به، وكانت زوجته ابنة أفراسياب حاملة منه بابنه كيخسرو، فطلبوا الحيلة في إسقاط ما في بطنها، فلم يسقط، فأنكر قيران الذي كان أمان سیاوخش على يده قتله وحذر عاقبته والأخذ بثأره من والده كيكاووس ومن رستم، وأخذ زوجة سیاوخش إليه لتضع ما في بطنها ويقتله، فلما وضعت رقّ قيران لها وللمولود ولم يقتله وستر أمره حتى بلغ، فسير كيكاووس إلى بلاد الترك من كشف أمره وأخذه إليه.

وحين بلغ خبر قتله إلى فارس لبس شادوس بن جودرز السواد حزناً، وهو أول من لبسه، ودخل على كيكاووس فقال له: ما هذا؟ فقال: إن هذا اليوم يوم ظلام وسواد.

وزعمت الفرس أنّ الشياطين كانت مسخرة له، وأنها بنت له مدينة طولها في زعمهم ثلاثمائة فرسخ وبنوا عليها سوراً من صُفر وسوراً من شَبَب (٢٤٧/١) وسوراً من فضة، وكانت الشياطين تنقلها بين السماء والأرض وما بينهما، وأن كيكاووس لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث. ثم إن الله أرسل إلى المدينة من يخرّبها فعمّزت الشياطين عن المنع عنها، فقتل كيكاووس جماعة من رؤسائهم.

وقال بعض العلماء بأخبار المتقدمين: إنّما سخر له فعل الشياطين بأمر سليمان بن داود، وكان مظفراً لا يناوئه أحد من الملوك إلّا ظهر عليه، فلم يزل كذلك حتى حدثته نفسه بالصعود إلى السماء، فسار من خراسان إلى بابل، وأعطاه الله تعالى قوة ارتفع بها هو ومن معه حتى بلغوا السحاب، ثم سلبهم الله تلك القوة، فسقطوا وهلكوا وأفلت بنفسه وأحدث يومئذ.

وهذا جميعه من أكاذيب الفرس الباردة.

ثم إن كيكاووس بعد هذه الحادثة تمزّق ملكه وكثرت الخوارج عليه وصاروا يغزونه، فيظفر مرة ويظفرون أخرى. ثم غزا بلاد اليمن وملكها يومئذ ذو الأذعار بن أبرهة ذي المنار بن الرايش، فلما ورد اليمن خرج إليه ذو الأذعار، وكان قد أصابه الفالج فلم يكن يغزو، فلما وطىء كيكاووس بلاده خرج إليه بنفسه وعساكره وظفر بكيكاووس فأسرّه واستباح عسكره وحبسه في بئر وأطبق عليه. فسار رستم من سجستان إلى اليمن وأخرج كيكاووس وأخذه، وأراد ذو الأذعار منعه فجمع العساكر وأراد القتال ثمّ خاف البوار فاصطلحا على أخذ كيكاووس والعود إلى بلاد الفرس، فأخذه وأعادته إلى ملكه، فأقطع كيكاووس ميحستان وزابلستان، وهي [من] أعمال غزنة، وأزال عنه اسم العبوديّة؛ ثمّ توفي كيكاووس، وكان ملكه مائة وخمسين سنة. (٢٤٨/١)

ذكر ملك كيخسرو بن سیاوخش بن كيكاووس

لما مات كيكاووس ملك بعده ابنه كيخسرو بن سیاوخش بن كيكاووس، وأمّه وسافريد ابنة أفراسياب ملك الترك، فلما ملك كتب إلى الأصبهانيين جميعهم أن يأتوا بعساكرهم جميعها، فلما اجتمعوا جهّز ثلاثين ألفاً مع طوس وأمره بدخول بلاد الترك، وأن لا يمرّ بقرية ولا مدينة لهم إلّا قتل كلّ من فيها إلّا مدينة من مدنهم كان بها أخ له اسمه فيروز بن سیاوخش، كان أبوه قد تزوج أمّه في بعض مدائن الترك، فاجتاز طوس بها فجرى بينه وبين فيروز حرب قتل فيها

فيروزه، فبلغ خبره كيخسرو فعظم عليه وكتب إلى عمّ له كان مع

طوس يأمره بالقبض على طوس وإرساله مقيداً والقيام بأمر الجيش،

ذكر أمر بني إسرائيل بعد سليمان

ففعل ذلك وسار بالعسكر نحو أفراسياب، فسير أفراسياب العساكر إليه، فاقتلوا قتالاً شديداً كثرت فيه القتلَى وانحازت الفرس إلى رؤوس الجبال وعادوا إلى كيخسرو، فوئخ عمّه ولامه واهتمّ بغزو الترك، فأمر بجمع العساكر جميعها وأن لا يتخلّف أحدٌ، فلمّا اجتمعوا أعلمهم أنه يريد قصد بلاد الترك من أربعة وجوه، فسير جودرز في أعظم العساكر وأمره بالدخول إلى بلاد الترك ممّا يلي بلخ وأعطاه درفش كايان، وهو العلم الأكبر الذي لهم، وكانوا لا يرسلونه إلّا مع بعض أولاد الملوك لأمر عظيم، وسير عسكرياً آخر من ناحية الصين، وسير عسكرياً آخر ممّا يلي الخزر، وعسكرياً آخر بين هذين العسكريين، فدخلت العساكر بلاد الترك من كلّ جهاتها وأخربتها، لا سيّما جودرز، فإنّه قتل وأخرب وسبي، وتبعه كيخسرو بنفسه في طريقه، (٢٤٩/١) فوصل إليه وقد قتل جماعة كثيرة من أهل أفراسياب وأنخن فيهم، ورآه قد قتل خمسمائة ألف وثيقاً وستين ألفاً وأسر ثلاثين ألفاً وغنم ما لا يحصى ولا يحصى، وعرض عليه من قتل من أهل أفراسياب وطراخته، فعظم جودرز عنده وشكره وأقطعه أصبهان وجرجان، ووردت عليه الكتب من عساكره الداخلة من تلك الوجوه إلى الترك بما قتلوا وغنموا وأخربوا وأنهم هزموا لأفراسياب عسكرياً بعد عسكري، فكتب إليهم أن يجدّوا في محاربتهم ويوافوه بموضع سمّاه لهم.

ذكر محاربة أسا بن أبيا ورزح الهندي

قيل: كان أسا بن أبيا رجلاً صالحاً، وكان أبوه قد عبد الأصنام ودعا النّاس إلى عبادتها، فلمّا ملك ابنه أسا أمر منادياً فنادى: ألا إنّ الكفر قد مات وأهله وعاش الإيمان وأهله، فليس كافراً في بني إسرائيل يطلع رأسه. (٢٥٢/١) بكفر إلّا قتلته، فإنّ الطوفان لم يفرق الدنيا وأهلها ولم يخسف بالقرى ولم تمطر الحجارة والنّار من السماء إلى الأرض إلّا بترك طاعة الله والعمل بمعصيته! وشدّد في ذلك.

فأتى بعضهم ممّن كان يعبد الأصنام ويعمل بالمعاصي إلى أمّ أسا الملك، وكانت تعبد الأصنام، فشكوا إليها، فجاءت إليه ونهته عمّا كان يفعله وبالغت في زجره، فلم يصغ إلى قولها بل تهدّدها على عبادة الأصنام وأظهر البراءة منها، فحينئذٍ آيس النّاس منه وانسرح ممّن كان يخافه وساروا إلى الهند.

وكان بالهند ملك يقال له رزح، وكان جباراً عاتياً عظيم السلطان قد أطاعه أكثر البلاد، وكان يدعو النّاس إلى عبادته، فوصل إليه أولئك النّفَر من بني إسرائيل وشكوا إليه ملكهم ووصفوا له البلاد وكثرتها وقلة عساكرها وضعف ملكها وأطمعوه فيها.

فارسل الجواسيس فأثروه بأخبارها، فلمّا تيقّن الخبر جمع العساكر وسار إلى الشام في البحر، وقال له بنو إسرائيل: إنّ لأساً صديقاً ينصره ويعينه، قال: فأين أسا وصديقه من كثرة عساكري وجنودي!

وبلغ خبره إلى أسا، فتضرّع إلى الله تعالى وأظهر الضعف والعجز عن الهندي وسأل الله النّصرة عليه، فاستجاب الله له وأراه في المنام: إني سأظهر من قدرتي في رزح الهندي وعساكره ما أكفيك

فلما بلغ أفراسياب قتل من قُتل من طراخته وأهله وعساكره عظم ذلك عليه فسقط في يديه ولم يكن بقي عنده من أولاده غير ولده شيدة، فوجه في جيش نحو كيخسرو، فسار إليه واقتلوا قتالاً شديداً أربعة أيام، ثمّ انهزمت الترك وتبعهم الفرس يقتلونهم ويأسرون، وأدركوا ابن أفراسياب فقتلوه، وسمع أفراسياب بالحادثة وقتل ابنه فأقبل فيمن عنده من العساكر فلقى كيخسرو فاقتلوا قتالاً شديداً لم يُسمع بمثله، واشتدّ الأمر، فانهمز أفراسياب وكثر القتل في الترك فقتل منهم مائة ألف، وجدّ كيخسرو في طلب أفراسياب، ولم يزل يهرب من بلد إلى بلد حتى بلغ أذربيجان فاستتر، وظفر به وأُتي به إلى كيخسرو، فلمّا حضر عنده سأله عن غدره بأبيه، فلم يكن له حجة ولا عذر، فأمر بقتله، فذبح كما ذُبَح سياوخش، ثمّ انصرف من أذربيجان مظفراً منصوراً فرحاً.

فلما قُتل أفراسياب ملك الترك بعده أخوه كي سواسف، فلمّا توفّي (٢٥٠/١) ملك بعده ابنه جرزاسف، وكان جباراً عاتياً.

فلما فرغ كيخسرو من الأخذ بثأر أبيه واستقرّ في ملكه زهد في الدنيا وترك الملك وتنسك، واجتهد أهله وأصحابه به ليلازم الملك فلم يفعل، فقالوا له: فاعهذ إلى من يقوم بالملك بعدك. فعهد إلى لهراسب، وفارقهم كيخسرو وغاب عنهم، فلا يُدرى ما كان منه ولا

فلما فرغ كيخسرو من الأخذ بثأر أبيه واستقرّ في ملكه زهد في الدنيا وترك الملك وتنسك، واجتهد أهله وأصحابه به ليلازم الملك فلم يفعل، فقالوا له: فاعهذ إلى من يقوم بالملك بعدك. فعهد إلى لهراسب، وفارقهم كيخسرو وغاب عنهم، فلا يُدرى ما كان منه ولا

إسرائيل ولم يبقَ منهم إلا يواش بن أخزيا، وهو ابن ابنها، فإنه ستر عنها، ثم قتلها يواش وأصحابه، وكان ملكها سبع سنين؛ ثم ملك يواش أربعين سنة، ثم قتله أصحابه، وهو الذي قتل جدته؛ ثم ملك عوزيا بن امصيا بن يواش، ويقال له غوزيا، إلى أن توفي اثنتين وخمسين سنة؛ ثم ملك يوثام بن عوزيا إلى أن توفي ست عشرة سنة؛ ثم ملك حزقيا بن أحاز إلى أن توفي. فيقال: إنه صاحب شعيا الذي أعلمه شعيا انقضاء عمره، فتضرع إلى ربه فزاده، وأمر شعيا بإعلامه ذلك. وقيل: إن صاحب شعيا في هذه القصة اسمه صديقاً، على ما يرد ذكره. (٢٥٥/١)

ذكر شعيا والملك الذي معه من بني إسرائيل ومسير سنحاريب إلى بني إسرائيل

قيل: كان الله تعالى قد أوحى إلى موسى ما ذكر في القرآن: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَقْوَالٍ وَيَتَنٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا. إِنَّ أَحْسَنَ مَا أَحْسَنَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَلَئِنْ أَنَا لَمَّا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلِمُوا تَبِيرًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُنَدَنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٨].

فكثر في بني إسرائيل الأحداث والذنوب، وكان الله يتجاوز عنهم متعطفاً عليهم، وكان من أول ما أنزل الله عليهم عقوبة لذنوبهم أن ملكاً منهم يقال له صديق، وكانت عادتهم إذا ملك عليهم رجل بعث الله إليه نبياً يرشده ويوحى إليه ما يريد، ولم يكن لهم غير شريعة التوراة، فلما ملك صديق بعث الله تعالى إليه شعيا، وهو الذي بشر بعيسى وبمحمد، عليهما السلام، فلما قارب أن ينقضي ملكه عظمت الأحداث في بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم سنحاريب ملك بابل في عساكر يفرض بها القضاء، فسار حتى نزل بيت المقدس وأحاط به وملك بني إسرائيل مريض في ساقه قرحة، فأتاه النبي شعيا وقال له: إن الله يأمرك أن توصي وتعهد فإنك ميت، فاقبل الملك على (٢٥٦/١) الدعاء والتضرع، فاستجاب الله له، فأوحى الله إلى شعيا أنه قد زاد في عمر الملك صديقة خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب، فلما قال له ذلك زال عنه الألم وجاءته الصحة.

ثم إن الله أرسل على عساكر سنحاريب ملكاً صاح بهم فماتوا غير ستة نفر، منهم: سنحاريب وخمسة من كتابه، أحدهم بخت نصر في قول بعضهم. فخرج صديق وبنو إسرائيل إلى معسكرهم فغنموا ما فيه والتمسوا سنحاريب فلم يجدوه، فأرسل الطلب في أثره فوجدوه ومعه أصحابه، فأخذوهم وقيدوهم وحملوهم إليه، فقال

شهم وأغنمكم أموالهم حتى يعلم أعداؤك أن صديقك لا يطاق وليه ولا ينهزم جنده.

ثم سار رزح حتى أرسى بالساحل، وسار إلى بيت المقدس، فلما صار (٢٥٣/١) على مرحلتين منه فرق عساكره، فامتلات منهم تلك الأرض ومثلت قلوب بني إسرائيل رعباً، وبعث أسا العيون فعادوا وأخبروه من كثرتهم بما لم يسمع بمثله، وسمع الخبر بنو إسرائيل فصاحوا وبكوا وودع بعضهم بعضاً وعزموا على أن يخرجوا إلى رزح ويستسلموا إليه وينقادوا له. فقال لهم ملكهم: إن ربي قد وعدني بالظفر ولا خلف لوعده، فعادوا الدعاء والتضرع. ففعلوا ودعوا جميعهم وتضرعوا، فزعموا أن الله أوحى إليه: يا أسا إن الحبيب لا يسلم حبيبه، وأنا الذي أكفيك عدوك فإنه لا يهون من توكل علي، ولا يضعف من تقوى بي، وقد كنت تذكرني في الرخاء فلا أسلمك في الشدة، وسأرسل بعض الزبانية يقتلون أعدائي. فاستبشر وأخبر بني إسرائيل. فاما المؤمنون فاستبشروا واما المنافقون فكذبوه.

وأمره الله بالخروج إلى رزح في عساكره، فخرج في نفر يسير، فوقفوا على رابية من الأرض ينظرون إلى عساكره، فلما رآهم رزح احتقرهم واستصغروهم وقال: إنما خرجت من بلادي وجمعت عساكري وأنفقت أموالي لهذه الطائفة! ودعا النفر من بني إسرائيل الذين قصدوه والجواسيس الذين أرسلهم ليختبروا له وقال: كذبتموني وأخبرتوني بكثرة بني إسرائيل حتى جمعت العساكر وفرقت أموالي! ثم أمر بهم فقتلوا، وأرسل إلى أسا يقول له: أين صديقك الذي ينصرك ويخلصك من سطوتي؟ فأجابه أسا: يا شقي إنك لا تعلم ما تقول! أتريد أن تغالب الله بقوتك أم تكاثره بقوتك؟ وهو معي في موقعي هذا، ولن يغلب أحد كان الله معه، وستعلم ما يحل بك!

فغضب رزح من قوله وصف عساكره وخرج إلى قتال أسا وأمر الرماة (٢٥٤/١) فرمهم بالسهام، وبعث الله من الملائكة مدداً لبني إسرائيل، فأخذوا السهام ورموا بها الهنود، فقتلت كل منهم نشابته، فقتل جميع الرماة، فضج بنو إسرائيل بالنسيج والدعاء، وتراعت الملائكة للهنود، فلما رآهم رزح التقى الله الرعب في قلبه وسقط في يده ونادى في عساكره يأمهم بالحملة عليهم، ففعلوا، فقتلهم الملائكة ولم يبقَ منهم غير رزح وعبيده ونسائه، فلما رأى ذلك ولسى هارباً وهو يقول: قلني صديق أسا.

فلما رآه أسا مدبراً قال: اللهم إنك إن لم تهلكه استغفر علينا نائبه.

وبلغ رزح ومن معه إلى البحر فركبوا السفن، فلما سارت بهم أرسل الله عليهم الرياح فغرقهم أجمعين.

ثم ملك بعد أسا ابنه سافاط إلى أن هلك خمساً وعشرين سنة، ثم ملكت عزليا بنت عمرم أخت أخزيا، وكانت قتلت أولاد ملوك بني

ذكر ملك لهراسب وابنه بشتاسب

وظهور زرادشت

قد ذكرنا أنَّ كيخسرو لما حضرته الوفاة عهد إلى ابن عمه لهراسب بن كيروخي بن كيكاووس، فهو ابن ابن كيكاووس، فلما ملك اتخذ سريراً من ذهب وكلله بأنواع الجواهر وبُنيت له بارض خراسان مدينة بلخ وسماها الحسناء، ودون الدواوين، وقوى ملكه بانتخابه الجنود، وعمر الأرض، وجبى الخراج لأرزاق الجند.

واشتدَّت شوكة الترك في زمانه فنزل مدينة بلخ لقتالهم، وكان محموداً عند أهل مملكته شديد القمع لأعدائه المجاورين له، شديد التفقُّد لأصحابه، بعيد الهمة، عظيم البنيان، وشقَّ عدَّة أنهار، وعمر البلاد، وحمل إليه ملوك الهند والروم والمغرب الخراج، وكتابوه بالتمليك هبة له وحذراً منه.

ثم إنَّه تنسَّك وفارق الملك واشتغل بالعبادة واستخلف ابنه بشتاسب في الملك، وكان ملكه مائة وعشرين سنة، وملك بعده ابنه بشتاسب، وفي أيامه ظهر زرادشت بن سقيماني الذي ادَّعى النبوة وتبعه المجوس، وكان زرادشت فيما يزعم أهل الكتاب من أهل فلسطين يخدم لبعض تلامذة إرميا النبيّ خاصّاً به، فخانه وكذب عليه، فدعا الله عليه فبرص ولحق ببلاد أذربيجان وشرع بها دين المجوس.

وقيل: إنَّه من العجم. وصنَّف كتاباً وطاف به الأرض، فما عرف (٢٥٩/١) أحد معناه، وزعم أنها لغة سماوية خوطب بها، وسماها: اشتا، فسار من أذربيجان إلى فارس، فلم يعرفوا ما فيه ولم يقبلوه، فسار إلى الهند وعرضه على ملوكها، ثم أتى الصين والترك فلم يقبله أحد وأخرجوه من بلادهم، وقصد فرغانة، فأراد ملكها أن يقتله فهرب منها وقصد بشتاسب بن لهراسب، فأمر بحبسه، فحبس مدة. وشرح زرادشت كتابه وسماها: زند، ومعناه: التفسير، ثم شرح الزند بكتاب سماها: بازند، يعني: تفسير التفسير. وفيه علوم مختلفة كالرياضات وأحكام النجوم والطب وغير ذلك من أخبار القرون الماضية وكتب الأنبياء. وفي كتابه: تمسكوا بما جتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر، يعني محمداً ﷺ، وذلك على رأس ألف سنة. وست مائة سنة. وبسبب ذلك وقعت البغضاء بين المجوس والعرب. ثم يذكر عند أخبار سابور ذي الأكاف أنَّ من جملة الأسباب الموجبة لغزوة العرب هذا القول؛ والله أعلم.

ثم إنَّ بشتاسب أحضر زرادشت، وهو ببلخ، فلما قدم عليه شرع له دينه، فأعجبه وأتبعه وقهر الناس على أتباعه وقتل منهم خلقاً كثيراً حتى قبلوه ودانوا به.

وأما المجوس فيزعمون أنَّ أصله من أذربيجان، وأنه نزل على الملك من سقف إيوانه ويده كبة من نار يلعب بها ولا تحرقه، وكلَّ

لسنحارب: كيف رأيت صنع ربنا بك؟ فقال: قد أتانني خبر ربكم ونصره إياكم فلم أسمع ذلك، فطاف بهم حول بيت المقدس ثم سجنهم.

فأوحى الله إلى شعيا يأمر الملك بإطلاق سنحارب ومن معه، فأطلقهم، فعادوا إلى بابل وأخبروا قومهم بما فعل الله بهم وبمعسكرهم، وبقي بعد ذلك سبع سنين ثم مات.

وقد زعم بعض أهل الكتاب أنَّ بني إسرائيل سار إليهم قبل سنحارب ملك من ملوك بابل يقال له كفرو، وكان بخت نصر ابن عمه وكتابه، وأنَّ الله أرسل عليهم ريحاً فاهلكت جيشه وأفلت هو وكتابه، وأنَّ هذا البابلي قتل ابن له، وأنَّ بخت نصر غضب لصاحبه فقتل ابنه الذي قتله، وأنَّ سنحارب سار بعد ذلك وكان ملكه بينسوى وغزا مع ملك أذربيجان يومئذ بني إسرائيل فأوقع بهم، ثم اختلف سنحارب وملك أذربيجان وتحاربا حتى تفتأ عسكرهما، فخرج بنو إسرائيل وغنموا ما معهم.

وقيل: كان ملك سنحارب إلى أن توفي تسعاً وعشرين سنة، وكان (٢٥٧/١) ملك بني إسرائيل الذي حصره سنحارب حزقيا، فلما توفي حزقيا ملك بعده ابنه منشى خمساً وخمسين سنة، ثم ملك بعده آمون إلى أن قتله أصحابه اثنتي عشرة سنة، ثم ملك ابنه يوشيا إلى أن قتله فرعون مصر الأجدع إحدى وثلاثين سنة، ثم ملك بعده ابنه ياهو أحاز بن يوشيا، فعزله فرعون الأجدع واستعمل بعده يواقيم بن ياهو أحاز ووظف عليه خراجاً يحمله إليه، وكان ملكه اثنتي عشرة سنة، ثم ملك بعده ابنه يواحيم، فغزاه بخت نصر وأشخصه إلى بابل بعد ثلاثة أشهر من ملكه، وملك بعده يقونيا ابن عمه، وسماه صدقية، وخالفه فغزاه وظفر به وحمله إلى بابل وذبح ولده بين يديه وسمل عينيه وخرَّب بيت المقدس والهيكل وسبى بني إسرائيل وحملهم إلى بابل، فمكثوا إلى أن عادوا إليه، على ما نذكره إن شاء الله؛ وكان جميع ملك صدقية إحدى عشرة سنة.

وقيل: إنَّ شعيا أوحى الله إليه ليقيم في بني إسرائيل يذكرهم بما يوحى الله على لسانه لما كثرت فيهم الأحداث، ففعل، فعهدوا عليه ليقتلوه، فهرب منهم، فلقيته شجرة فانفلقت له، فدخلها، وأخذ الشيطان بهذب ثوبه وأراه بني إسرائيل، فوضعوا المنشار على الشجرة فنشروها حتى قطعوه في وسطها.

وقيل في أسماء ملوكهم غير ذلك، تركناه كراهة التطويل ولعدم الثقة بصحة النقل به. (٢٥٨/١)

جريدة، واستشار فيمن يكون عليهم، فأشاروا ببعض أصحابه، فقال: لا بل بخت نصر، فجعله عليهم. فساروا فغنموا وأوقعوا ببعض البلاد وعادوا سالمين.

ثم إن لهراسب استعمله أصهبذ على ما بين الأهواز إلى أرض الروم من غربي دجلة، وكان السبب في مسيره إلى بني إسرائيل أنه لما استعمله لهراسب كما ذكرنا سار إلى الشام فصالحه أهل دمشق وبيت المقدس، فعاد عنهم وأخذ رهائهم، فلما عاد من القدس إلى طبرية وثب بنو إسرائيل على ملكهم الذي صالح بخت نصر فقتلوه وقالوا: داهنت أهل بابل وخذلتنا، فلما سمع بخت نصر [بذلك] قتل الرهائن الذين معه وعاد إلى القدس فأخربه.

وقيل: إن الذي استعمله إنما كان الملك بهمن بن بشتاسب بن لهراسب، وكان بخت نصر قد خدم جدّه وأباه وخدمه وعمر عمرًا طويلًا. فأرسل بهمن رسلاً إلى ملك بني إسرائيل بيت المقدس فقتلهم الإسرائيلي، فغضب (٢٦٣/١) بهمن من ذلك واستعمل بخت نصر على أقاليم بابل وسيّره في الجنود الكثيرة، فعمل بهم ما ذكره.

هذه الأسباب الظاهرة وإنما السبب الكلي الذي أحدث هذه الأسباب الموجبة للانتقام من بني إسرائيل هو معصية الله تعالى ومخالفة أوامره، وكانت سنة الله تعالى في بني إسرائيل أنه إذا ملك عليهم ملكاً أرسل معه نبياً يرشده ويهديه إلى أحكام التوراة. فلما كان قبل مسير بخت نصر إليهم كثرت فيهم الأحداث والمعاصي، وكان الملك فيهم يقربون بن يويقيم، فبعث الله إليه إرميا، قيل: هو الخضر، عليه السلام، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله وينهاهم عن المعاصي ويذكر لهم نعمة الله عليهم بإهلاك سنحاريب، فلم يراعوا، فأمره الله أن يحذرهم عقوبته وأنه إن لم يراجعوا الطاعة سلط عليهم من يقتلهم ويسبي ذرائعهم ويخرب مدينتهم ويستعبدهم ويأتيهم بجنود ينزع من قلوبهم الرأفة والرحمة، فلم يراجعوها فأرسل الله إليه: لأقبضن لهم فتنة تذر الحليم حيران ويضل فيها رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم، ولأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة، يتبعه عددٌ مثل سواد الليل، وعساكر مثل قطع السحاب، يهلك بني إسرائيل ويتقم منهم ويخرب بيت المقدس.

فلما سمع إرميا ذلك صاح وبكى وشق ثيابه. وجعل الرماة على رأسه وتضرع إلى الله في رفع ذلك عنهم في أيامه.

فأوحى الله إليه: وعزتي لا أهلك بيت المقدس وبني إسرائيل حتى (٢٦٤/١) يكون الأمر من قبلك في ذلك. ففرح إرميا، وقال: لا والذي بعث موسى وأنبياءه بالحق لا أمر بهلاك بني إسرائيل أبداً.

وأتى ملك بني إسرائيل فاعلمه بما أوحى إليه، فاستبشر وفرح، ثم لبثوا بعد هذا الوحي ثلاث سنين ولم يزدادوا إلا معصية وتمادياً في الشر، وذلك حين اقترب هلاكهم، فقلّ الوحي حيث لم يكونوا

من أخذها من يده لم تحرقه، وأنه أتبعه الملك ودان بدنيته وبني بيوت النيران في البلاد وأشعل من تلك النار في بيوت النيران، فيزعمون أن النيران التي في بيوت عباداتهم من تلك إلى الآن.

وكذبوا فإن النار التي للمجوس طفت في جميع البيوت لما بعث الله (٢٦٠/١) محمداً، صلى الله عليه وسلم، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

وكان ظهور زرادشت بعد مضي ثلاثين سنة من ملك بشتاسب، وأتاه بكتاب زعم أنه وحي من الله تعالى، وكُتب في جلد اثني عشر ألف بقرة حفرًا ونقشًا بالذهب، فجعله بشتاسب في موضع بلاصطخر ومنع من تعليمه العامة.

وكان بشتاسب وآباؤه قبله يدينون بدين الصابئة. وسيرد باقي أخباره. (٢٦١/١)

ذكر مسير بخت نصر إلى بني إسرائيل

قد اختلف العلماء في الوقت الذي أرسل فيه بخت نصر على بني إسرائيل، فقيل: كان في عهد إرميا النبي ودانيال وحنانيا وعزاريّا وميشائيل. وقيل: إنما أرسله الله على بني إسرائيل لما قتلوا يحيى بن زكريّا. والأوّل أكثر.

وكان ابتداء أمر بخت نصر ما ذكره سعيد بن جبير قال: كان رجل من بني إسرائيل يقرأ الكتب، فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥٠]. قال: أي ربّ أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل على يده، فأري في المنام مسكيناً يقال له بخت نصر ببابل، فسار على سبيل التجارة إلى بابل وجعل يدعو المساكين ويسأل عنهم حتى دلّوه على بخت نصر، فأرسل من يحضره، فراه صعلوكاً مريضاً، فقام عليه في مرضه يعالجه حتى برأ، فلما برأ أعطاه نفقة وعزم على السفر، فقال له بخت نصر وهو يبكي: فعلت معي ما فعلت ولا أقدر على مجازاتك! قال الإسرائيلي: بلى تقدر عليه، تكتب لي كتاباً إن ملكت أطلقني. فقال: أنتستهيء بي؟ فقال: إنما هذا أمر لا محالة كائن.

ثم إن ملك الفرس أحب أن يطلع على أحوال الشام، فأرسل إنساناً يتق (٢٦٢/١) به ليتعرف له أخباره وحال من فيه، فسار إليه ومعه بخت نصر فقير لم يخرج إلا للخدمة. فلما قدم الشام رأى أكبر بلاد الله خيلاً ورجالاً وسلاحاً، ففت ذلك في ذمعه، فلم يسأل عن شيء، وجعل بخت نصر يجلس مجالس أهل الشام فيقول لهم: ما يمنعكم أن تغزوا بابل، فلو غزوتموها ما دون بيت مالها شيء! فكلمهم يقول له: لا نحسن القتال ولا نراه. فلما عادوا أخبر الطليعة بما رأوا من الرجال والسلاح والخيال، وأرسل بخت نصر إلى الملك يطلب إليه أن يحضره ليعرفه جلّية الحال، فأحضره، فأخبره بما كان جميعه، ثم إن الملك أراد أن يبعث عسكرياً إلى الشام أربعة آلاف راكب

بيت المقدس، فوطىء الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفسدهم، وخرَّب بيت المقدس وأمر جنوده، فحملوا التراب والقوهر فيه حتى ملؤوه، ثم انصرف راجعاً إلى بابل وأخذ معه سبائاً بني إسرائيل، وأمرهم، فجمعوا من كان في بيت المقدس كلَّهم، فاجتمعوا واختار منهم مائة ألف صبيّ قسمهم على الملوك والقواد الذين كانوا معه، وكان من أولئك الغلمان دانيال النبيّ وحنانيا وعزاريّا وميشائيل، وقسّم بني (٢٦٦/١) إسرائيل ثلاث فرق، فقتل ثلثاً، وأقر بالشام ثلثاً، وسبى ثلثاً، ثم عمر الله بعد ذلك إرميا، فهو الذي رُئي بفلولات الأرض والبلدان.

ثم إنَّ بخت نصر عاد إلى بابل وأقام في سلطانه ما شاء الله أن يقيم. ثم رأى رؤيا، فبينما هو قد أعجبه ما رأى إذ رأى شيئاً أنساه ما رأى، فدعا دانيال وحنانيا وعزاريّا وميشائيل وقال: أخبروني عن رؤيا رأيتهما فأنسيتهما، ولئن لم تخبروني بها وبأويلها لأنزعن أكثافكم! فخرجوا من عنده ودعوا الله وتضرّعوا إليه وسألوه أن يُعلمهم إياها، فاعلمهم الذي سألهم [عنه]، فجاؤوا إلى بخت نصر فقالوا: رأيت تمثالاً. قال: صدقتم. قالوا: قدماء وساقاه من فخرّار وركبناه وفخذاه من نحاس ويطنه من فضة وصدرة من ذهب ورأسه وعنقه من حديد، فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبك أرسل الله عليه صخرة من السماء فدقته، وهي التي استنك الرويا! قال: صدقتم، فما تأويلها؟ قالوا: أُرِيت ثلث الملوك، وبعضهم كان ألين ملكاً من بعض، وبعضهم كان أحسن ملكاً من بعض، وبعضهم أشدّ، وكان أول الملك الفخار، وهو أضعفه واليئه، ثم كان فوقه النحاس، وهو أفضل منه وأشدّ، ثم كان فوق النحاس النفضة، وهي أفضل من ذلك وأحسن، ثم كان فوقها الذهب، وهو أحسن من النفضة وأفضل، ثم كان الحديد، وهو ملكك، فهو أشدّ الملوك وأعزّ، وكانت الصخرة التي رأيت قد أرسل الله من السماء فدقّت ذلك جميعه نبياً يبعثه الله من السماء ويصير الأمر إليه.

فلما عبّر دانيال ومن معه رؤيا بخت نصر قرَّبهم وأدناهم واستشارهم (٢٦٧/١) في أمره، فحسداهم أصحابه وسعوا بهم إليه وقالوا عنهم ما أوحشه منهم، فأمر، فحُفّر لهم أخدود وألقاهم فيه، وهم ستة رجال، وألقى معهم سبعاً ضارباً ليأكلهم، ثم قال أصحاب بخت نصر: انظفروا فلتأكل ولتشرب، فذهبوا فأكلوا وشربوا، ثم راحوا فوجدوهم جلوساً والسبع مفترش ذراعيه بينهم لم يחדش منهم أحداً، ووجدوا معهم رجلاً سابعاً، فخرج إليهم السابع، وكان ملكاً من الملائكة، فلطم بخت نصر لطمه فمسخه وصار في الوحش في صورة أسد، وهو مع ذلك يعقل ما يعقله الإنسان، ثم رده الله إلى صورة الإنس وأعاد عليه ملكه، فلما عاد إلى ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه، فعاد الفرس وسعوا بهم إلى بخت نصر وقالوا له في سعادتهم: إن دانيال إذا شرب الخمر لا يملك نفسه من كره البول، وكان ذلك عندهم عاراً؛ فصنع لهم بخت نصر طعاماً وأحضره عنده وقال للبوّاب: انظر أول من يخرج لبيول فاقتله، وإن

هم يتذكرون. فقال لهم ملكهم: يا بني إسرائيل انتهوا عما أنتم عليه قبل أن يأتيكم عذاب الله! فلم يتنهوا، فالتقى الله في قلب بخت نصر أن يسير إلى بني إسرائيل ببيت المقدس، فسار في العساكر الكثيرة التي تملأ الفضاء.

وبلغ ملك بني إسرائيل الخبر، فاستدعى إرميا النبيّ، فلما حضر عنده قال له: يا إرميا أين ما زعمت أن ربك أوحى إليك أن لا يهلك بيت المقدس حتى يكون الأمر منك؟ فقال إرميا: إن ربّي لا يخلف الميعاد وأنا به واثق.

فلما قرب الأجل ودنا انقطاع ملكهم وأراد الله إهلاكهم أرسل الله ملكاً في صورة آدمي إلى إرميا وقال له: استفته، فأتاه وقال له: يا إرميا أنا رجل من بني إسرائيل استفتيك في ذوي رحمي، وصلت أرحامهم بما أمرني الله به وأثبت إليهم حسناً وكرامة فلا تزيدهم كرامتي إياهم إلا سخطاً لي وسوء سيرة معي فأفتني فيهم. فقال له: أحسن فيما بينك وبين الله وصل ما أمرك الله به أن تصله. فانصرف عنه الملك ثم عاد إليه بعد أيام في تلك الصورة، فقال له إرميا: أما طهرت أخلاقهم وما رأيت منهم ما تريد؟ فقال: والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى ذوي رحمة إلا وقد أثبتوا إليهم وأفضل من ذلك فلم يزدادوا إلا سوء سيرة. (٢٦٥/١) فقال: ارجع إلى أهلك وأحسن إليهم. فقام الملك من عنده فليث أياماً، ونزل بخت نصر على بيت المقدس بأكثر من الجراد، ففرغ منهم بنو إسرائيل وقال ملكهم لإرميا: أين ما وعدك ربك؟ فقال: إني برّيت واثق.

ثم إنَّ الملك الذي أرسله الله يستفتي إرميا عاد إليه وهو قاعد على جدار بيت المقدس فقال مثل قوله الأوّل وشكا أهله وجورهم وقال له: يا نبي الله كل شيء كنت أصبر عليه قبل اليوم لأنّ ذلك كان فيه سخطي، وقد رأيتهم اليوم على عمل عظيم من سخط الله تعالى، فلو كانوا على ما كانوا عليه اليوم لم يشتدّ عليهم غضبي، وإنما غضبت اليوم لله وأثبتك لأخبرك خبرهم، وإنّي أسألك بالله الذي بعثك بالحق إلا ما دعوت الله عليهم أن يهلكوا. فقال إرميا: يا ملك السموات والأرض إن كانوا على حقّ وصواب فابقهم، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم. فلما خرجت الكلمة من فيه أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس والتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابها.

فلما رأى ذلك إرميا صاح وشقّ ثيابه ونبذ الرمد على رأسه وقال: يا ملك السموات والأرض، يا أرحم الراحمين! أين ميعادك، أيّا ربّ، الذي وعدتني به؟ فأوحى الله إليه أنه لم يصيبهم ما أصابهم إلا بفتياك التي أفتيت رسولنا؛ فاستيقن أنها فتياه وأنّ السائل كان من عند الله، وخرج إرميا حتى خالط الوحش، ودخل بخت نصر وجنوده

قال لك: أنا بخت نصر، فقل له: كذبت، بخت نصر أمرني بقتلك [واقته].

فحبس الله عن دانيال البؤة، وكان أول من قام من الجمع بخت نصر فقام مدلاً أنه الملك، وكان ذلك ليلاً، فلما رآه البواب شد عليه ليقتله، فقال له: أنا بخت نصر فقال: كذبت، بخت نصر أمرني بقتلك، وقتله. (٢٦٨/١)

وقيل في سبب قتله: إن الله أرسل عليه بعوضة فدخلت في منخره وصعدت إلى رأسه، فكان لا يقر ولا يسكن حتى يندق رأسه، فلما حضره الموت قال لأهله: شقوا رأسي فانظروا ما هذا الذي قتلتني. فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة بأمر رأسه، ليُرى الله العبادة قدرته وسلطانه وضغف بخت نصر، لما تجبر قتله بأضعف مخلوقاته، تبارك الذي بيده ملكوت كل شيء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وأما دانيال فإنه أقام بأرض بابل وانتقل عنها ومات ودُفن بالسوس من أعمال خوزستان.

ولما أراد الله تعالى أن يرد بني إسرائيل إلى بيت المقدس كان بخت نصر قد مات، فإنه عاش بعد تخريب بيت المقدس أربعين سنة، في قول بعض أهل العلم، وملك بعده ابن له يقال [له] أولمردج، فملك الناحية ثلاثاً وعشرين سنة، ثم هلك وملك ابن له بلناصر سنة، فلما ملك تخط في أمره، فعزله ملك الفرس حيثنؤ؛ وهو مختلف فيه على ما ذكرناه؛ واستعمل بعده داريوش على بابل والشام، وبقي ثلاثين سنة، ثم عزله واستعمل مكانه أخشويرش، فبقي أربع عشرة سنة، ثم ملك ابنه كيرش العلمي، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان قد تعلم التوراة ودان باليهودية، وفهم عن دانيال ومن معه مثل حنايا وعزاريا وغيرهما، فسأله أن يأذن لهم في الخروج إلى بيت المقدس، فقال: لو كان بقي منكم ألف نبي ما فارقتكم، وولّى دانيال القضاء وجعل إليه جميع أمره، وأمره أن يقسم ما غنمه بخت نصر من بني إسرائيل (٢٦٩/١) عليهم، وأمره بعمارة بيت المقدس، فعمّر في أيامه، وعاد إليه بنو إسرائيل.

وهذه المدة لهؤلاء الملوك معدودة من خراب بيت المقدس منسوبة إلى بخت نصر، وكان ملك كيرش اثنتين وعشرين سنة.

وقيل: إن الذي أمر بعود بني إسرائيل إلى الشام بشتاسب بن لهراسب، وكان قد بلغه خراب بلاد الشام، وأنها لم يبق بها من بني إسرائيل أحد، فنأدى في أرض بابل: من شاء من بني إسرائيل أن يرجع إلى الشام فليرجع. وملك عليهم رجلاً من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس، فرجعوا وعمره.

وكان إرميا بن خلتيا من سبط هارون بن عمران، فلما وطىء

بخت نصر الشام وخرّب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل وسباهم، فارق البلاد واختلط بالوحش، فلما عاد بخت نصر إلى بابل أقبل إرميا على حمار له معه عصير عنب وفي يده سلّة تين فرأى بيت المقدس خراباً فقال: ﴿أَتُنْجِي هَٰذَا إِلَهُ بَعْدَ مَوْتِهَا! فَأَمَاتَهُ إِلَهُ يَأْتِ غَافٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. ثم أمات حماره وأعمى عنه العيون، فلما انتمر بيت المقدس أحيا الله من إرميا عينيه، ثم أحيا جسده، وهو ينظر إليه، وقيل له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ؟ قَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. قيل: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ- وَيَتَغَيَّرْ- وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فنظر إلى عظام حماره وهي تجتمع بعضها إلى بعض، ثم كسي لحماً، ثم (٢٧٠/١) قام حياً بإذن الله، ونظر إلى المدينة وهي تبنى، وقد كثر فيها بنو إسرائيل وترجعوا إليها من البلاد، وكان عهدها خراباً، وأهلها ما بين قتييل وأسير، فلما رآها عامرة ﴿قَالَ: أَغْلَمَ أَنَّ إِلَهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقيل: إن الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه كان عزيزاً، فلما عاش قصد منزله من بيت المقدس على وهم منه فرأى عنده عجوزاً عمية زمنة كانت جارية له، ولها من العمر مائة وعشرون سنة، فقال لها، هذا منزل عزيز؟ قالت: نعم، وبكت وقالت: ما أرى أحداً يذكر عزيزاً غيرك! فقال: أنا عزيز. فقالت: إن عزيزاً كان مجاب الدعوة، فادع الله لي بالعافية، فدعا لها فعاد بصرها وقامت ومشيت، فلما رآته عرفته. وكان لعزير ولد وله من العمر مائة وثلاث عشرة سنة، وله أولاد شيوخ، فذهبت إليهم الجارية وأخبرتهم به، فجاؤوا، فلما رأوه عرفه ابنه بشامة كانت في ظهره.

وقيل: إن عزيزاً كان مع بني إسرائيل بالعراق، فعاد إلى بيت المقدس فجده لبني إسرائيل التوراة لأنهم عادوا إلى بيت المقدس، ولم يكن معهم التوراة لأنها كانت قد أخذت فيما أخذ وأحرقت وهدمت، وكان عزيز قد أخذ مع السبي، فلما عاد عزيز إلى بيت المقدس مع بني إسرائيل جعل يبكي ليلاً ونهاراً وانفرد عن الناس، فبينما هو كذلك في حزنه إذ أقبل إليه رجل، وهو جالس، فقال: يا عزيز ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن (٢٧١/١) كتاب الله وعهده كان بين أظهرنا فقدم. قال: فتريد أن يرده الله عليك؟ قال: نعم. قال: فارجع وصم وتطهر والميعاد بيتنا غداً هذا المكان. ففعل عزيز ذلك وأتى المكان فانتظره، وأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء، وكان ملكاً بعشه الله في صورة رجل، فسقاه من ذلك الإناء، فتمثلت التوراة في صدره، فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة يعرفونها بحلالها وحرامها وحدودها، فأحبوه حباً شديداً لم يحبوا شيئاً قط مثله، وأصلح أمرهم، وأقام عزيز بينهم، ثم قبضه الله إليه على ذلك، وحدثت فيهم الأحداث، حتى قال بعضهم: عزيز ابن الله. ولم يزل بنو إسرائيل ببيت المقدس، وعادوا وكثروا حتى غلبت عليهم الروم زمن ملوك

الترك، وقال: أنا أعين لك طالماً تسير فيه إلى الحرب فتظفر؛ وهذا أول وقت وضعت [فيه] الاختيارات للملوك بالنجوم؛ وكان زرادشت عالماً بالنجوم جيد المعرفة بها، فأجابه بشتاسب إلى ذلك، فأرسل إلى الدابة التي يباب ملك الترك وإلى الموكل بها فصرفهما، فغضب ملك الترك وأرسل إليه يتهدده وينكر عليه ذلك ويأمره بإنفاذ زرادشت إليه وإن لم يفعل غزاه وقتله وأهل بيته.

فكتب إليه بشتاسب كتاباً غليظاً يؤذنه فيه بالحرب، وسار كل واحد منهما إلى صاحبه والتقى واقتلا قتلاً شديداً، فكانت الهزيمة على الترك، وقتلوا قتلاً ذريعاً، ومروا منهزمين، وعاد بشتاسب إلى بلخ، وعظم أمر (٢٧٤/١) زرادشت عند الفرس، وعظم شأنه حيث كان هذا الظفر بقوله.

وكان أعظم الناس غناء في هذه الحرب إسفنديار بن بشتاسب، فلما انجلت الحرب سعى الناس بين بشتاسب وابنه إسفنديار وقالوا: يريد الملك لنفسه، فندبه لحرب بعد حرب، ثم أخذه وحبسه مقيداً.

ثم إن بشتاسب سار إلى ناحية كرمان وسجستان وسار إلى جبل يقال له طمبير لدراسة دينه والتسك هناك، وخلف أباه لهراسب ببلخ شيخاً قد أبطله الكثير، وترك بها خزانته وأولاده ونساءه، فبلغت الأخبار إلى ملك الترك خرزاسف، فلما تحققها جمع عساكره وحشد وسار إلى بلخ وانتهاز الفرصة بغية بشتاسب عن مملكته، ولما بلغ بلخ ملكها وقتل لهراسب ولولدين لبشتاسب والهرباذة وأحرق الدواوين وهدم بيوت النيران وأرسل السرايا إلى البلاد، فقتلوا وسبوا وأخربوا، وسبى ابنتين لبشتاسب إحداهما خُماني، وأخذ علمهم الأكبر المعروف بدرفش كايان، وسار متبعاً لبشتاسب، وهرب بشتاسب من بين يديه فتحصن بتلك الجبال ممّا يلي فارس، وضاق ذرعاً بما نزل به.

فلما اشتد عليه الأمر أرسل إلى ابنه إسفنديار مع عالمهم جاماسب، فأخرجته من محبسه واعتذر إليه وعده أن يعهد إليه بالملك من بعده، فلما سمع إسفنديار كلامه سجد له ونهض من عنده وجمع من عنده من الجند ويات ليلته مشغولاً بالتجهز وسار من الغند نحو عسكر الترك وملكهم، والتقوا (٢٧٥/١) واقتلوا والتحمت الحرب وحمي الوطيس، وحمل إسفنديار على جانب من العسكر فأثر فيه ووهته، وتابع الحملات، وفشا في الترك أن إسفنديار هو المتولي لحربهم، فانهزموا لا يلوون على شيء، وانصرف إسفنديار وقد ارتجع درفش كايان.

فلما دخل على أبيه استشر به وأمره باتباع الترك ووصاه بقتل ملكهم ومن قدر عليه من أهله ويقتل من الترك من أمكنه قتله وأن يستقذ السبايا والغنائم التي أخذت من بلادهم، فسار إسفنديار ودخل بلاد الترك وقتل وسبى وأخرب وبلغ مدينتهم العظمى ودخلها عنوة

الطوائف، فلم يكن لهم بعد ذلك جماعة.

وقد اختلف العلماء في أمر بخت نصر وعمارّة بيت المقدس اختلافاً كثيراً تركنا ذكره اختصاراً.

ذكر غزو بخت نصر العرب

قال: أوحى الله إلى برخيا بن حنبا يأمره أن يقول لبخت نصر ليغزو العرب فيقتل مقاتلتهم ويسبي ذرائعهم ويستبيح أموالهم عقوبة لهم على كفرهم. فقال برخيا لبخت نصر ما أمر به، فابتدأ بمن في بلاده من تجار العرب فأخذهم وبنى لهم خيراً بالنجف وحبسهم فيه ووكل بهم، وانتشر الخبر في العرب، فخرجت إليه طوائف منهم مستامين، فقبلهم وعفا عنهم فأنزلهم السواد، (٢٧٢/١) فابتنوا الأنبار، وخلقى عن أهل الحيرة فاتخذوها منزلاً حياة بخت نصر.

فلما مات انضموا إلى أهل الأنبار، وهذا أول سكنى العرب السواد بالحيرة والأنبار. وسار إلى العرب بنجد والحجاز =، فأوحى الله إلى برخيا وإرميا بأمرهما أن يسيرا إلى معد بن عدنان فيأخذهما ويحملاه إلى حران، وأعلمهما أنه يخرج من نسله محمد، الذي يختم به الأنبياء؛ فسارا تطوى لهما المنازل والأرض حتى سبقا بخت نصر إلى معد، فحملاه إلى حران في ساعتها، ولمعد حينئذ اثنا عشرة سنة، وسار بخت نصر فلقي جموع العرب فقاتلهم فهزمهم وأكثر القتل فيهم، وسار إلى الحجاز فجمع عدنان العرب والتقى هو وبخت نصر بذات عرق فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عدنان وتبعه بخت نصر إلى حصون هناك، واجتمع عليه العرب وخندق كل واحد من الفريقين على نفسه وأصحابه، فكمن بخت نصر كميناً، وهو أول كمين عمل، وأخذتهم السيوف، فنادوا بالويل، ونهى عدنان عن بخت نصر، وبخت نصر عن عدنان، فافترقا، فلما رجع بخت نصر خرج معد بن عدنان مع الأنبياء حتى أتى مكة فأقام أعلامها وحج وحج معه الأنبياء، وخرج معد حتى أتى ريسوت وسأل عمن بقي من ولد الحرث ابن مضاظ الجرهمي، فقيل له: بقي جوشم بن جلهمة، فتزوج معد ابنته معانة، فولدت له نزار بن معد. (٢٧٣/١)

ذكر بشتاسب والحوادث في ملكه

وقتل أبيه لهراسب

لما ملك بشتاسب بن لهراسب ضبط الملك وقرّر قوانينه وابتنى بفارس مدينة فساً وربّ سبعة من عظماء أهل مملكته مراتب وملك كل واحد منهم مملكة على قدر مرتبته، ثم إنّه أرسل إلى ملك الترك واسمه خرزاسف، وهو أخو أفراسياب، وصالحه، واستقرّ الصلح على أن يكون لبشتاسب دابة واقفة على باب ملك الترك لا تزال على عاداتها على أبواب الملوك، فلما جاء زرادشت إلى بشتاسب واتبعه على ما ذكرناه أشار زرادشت على بشتاسب بتقض الصلح مع ملك

ثم ملك بعده تبع، وهو بُيَّان، وهو أسعد، وهو أبو كرب بن ملكي كرب تبع بن زيد بن عمرو بن تبع، وهو ذو الأذعار بن أبرهة تبع ذي المنار بن الرايش بن قيس بن صيفي بن سبأ، وكان يقال له الزايد، وكان (٢٧٧/١) تبع هذا في أيام بشتاسب وأردشير بهمن بن إسفنديار بن بشتاسب، وإنه شخص متوجهاً من اليمن في الطريق الذي سلكه الرايش حتى خرج على جبل طيء، ثم سار يريد الأنبار، فلما انتهى إلى موضع الحيرة تحير، وكان ليلاً، فأقام بمكانه، فسمي ذلك المكان بالحيرة، وخلف به قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقُضاة، فبنوا وأقاموا به. ثم انتقل إليهم بعد ذلك ناس من طيء وكلب والسكران وبلحوت بن كعب وإياد، ثم توجه إلى الموصل، ثم إلى أذربيجان، فلقى الترك فهزهم، فقتل المقاتلة وسبى الذرية، ثم عاد إلى اليمن، فهابته الملوك وأهدوا إليه. وقدمت عليه هدية ملك الهند، وفيها تحف كثيرة من الحرير والمسك والعود وسائر طرف الهند، فرأى ما لم ير مثله، فقال للرسول: كل هذا في بلدكم؟ فقال: أكثره من بلد الصين، ووصف له بلد الصين، فحفل ليغزونها، فسار بجمير حتى أتى إلى الركانك وأصحاب القلائس السود، ووجه رجلاً من أصحابه يقال له ثابت نحو الصين في جمع عظيم، فأصيب، فسار تبع حتى دخل الصين، فقتل مقاتلتها واكتسح ما وجد فيها، وكان مسيره ومقامه ورجعته في سبع سنين.

ثم إنه خلف بالثبث اثني عشر ألف فارس من جمير، فهم أهل الثبث، ويزعمون أنهم عرب، والوأنهم ألوان العرب وخلقهم.

هكذا ذكر، وقد خالف هذه الرواية كثير من أصحاب السير والتواريخ، وكل واحد منهم خالف الآخر، وقدّم بعضهم من آخره الآخر، فلم يحصل منهم كثير فائدة، ولكن نقل ما وجدنا مختصراً. (٢٧٨/١)

ذكر خبر أردشير بهمن وابنته خماني

ثم ملك بعد بشتاسب ابن ابنه أردشير بهمن بن إسفنديار، وكان مظفراً في مغازيه، وملك أكثر من أبيه، وقيل: إنه ابنتي بالسواد مدينة وسمّاها إياوان أردشير، وهي القرية المعروفة بهمّينا بالزباب الأعلى، وابنتي بكور دجلة الأكلة، وسار إلى سجستان طالباً بشار أبيه، فقتل رستم وأباه دستان وابنه فرامرز.

وبهمن هو أبو دارا الأكبر، وأبو ساسان أبي ملوك الفرس الأحرار أردشير ابن بابك وولده، وأم دارا خماني ابنة بهمن، فهي أخته وأمه.

وغزا بهمن رومية الداخلة في ألف ألف مقاتل، وكان ملوك الأرض يحملون إليه الإتاوة، وكان أعظم ملوك الفرس شأناً وأفضلهم تدبيراً.

وكانت أم بهمن من نسل بنيامين بن يعقوب، وأم ابنه ساسان من

وقتل الملك وإخوته ومقاتلته واستباح أمواله وسبى نساءه واستنقذ أخيه ودوخ البلاد وانتهى إلى آخر حدود بلاد الترك وإلى الثبث، وأقطع بلاد الترك، وجعل كل ناحية إلى رجل من وجه الترك بعد أن أمتهم ووظف عليهم خراجاً يحملونه كل سنة إلى أبيه بشتاسب. ثم عاد إلى بلخ.

فحسده أبوه بما ظهر منه من حفظ الملك والظفر بالترك، وأسر ذلك في نفسه، وأمره بالتجهز والمسير إلى قتال رستم الشديد بسجستان، وقال له: هذا رستم متوسط بلادنا ولا يعطينا الطاعة لأن الملك كيكاووس أعنفه فأقطعه إياها، وقد ذكرنا ذلك في ملك كيكاووس؛ وكان غرض بشتاسب أن يقتله رستم أو يقتل هو رستم، فإنه كان أيضاً شديد الكراهة لرستم، فجمع العساكر وسار إلى رستم لينزع سجستان منه، فخرج إليه رستم وقتلته، فقتل إسفنديار، قتله رستم.

ومات بشتاسب، وكان ملكه مائة سنة واثنى عشرة سنة، وقيل: مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة وخمسين سنة.

وقيل: إنه جاءه رجل من بني إسرائيل زعم أنه نبي أرسل إليه واجتمع به بلخ، فكان يتكلم بالعبري وزادشت نبي المجوس يعبر عنه، وجاماسب العالم هو حاضر معهم يترجم أيضاً عن الإسرائيلي. وكان بشتاسب ومن قبله من آبائه وسائر الفرس يدنون بدين الصابئة قبل زرادشت. (٢٧٦/١)

ذكر الخبر عن ملوك بلاد اليمن

من أيام كيكاووس إلى أيام بهمن بن إسفنديار

قد مضى ذكر الخبر عمن زعم أن كيكاووس كان في عهد سليمان ابن داود، وقد ذكرنا من كان في عهد سليمان من ملوك اليمن والخبر عن بلقيس بنت ايلشرح، وصار الملك بعد بلقيس إلى ياسر بن عمرو بن يعفر الذي يقال له أنعم الانعام. قال أهل اليمن: إنه سار غازياً نحو المغرب حتى بلغ وادياً يقال له وادي الرمل. ولم يبلغه أحد قبله، فلما انتهى إليه لم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل، فبينما هو مقيم عليه إذ انكشف الرمل فأمر رجلاً يقال له عمرو أن يعبر هو وأصحابه، فعبروا، فلم يرجعوا، فلما رأى ذلك أمر بنصب صنم نحاس، فصنع ثم نصب على صخرة على شفير الوادي وكتب على صدره بالمسند: هذا الصنم لياسر أنعم الحميري، ليس وراءه مذهب فلا يتكلم أحد ذلك فيعطب.

وقيل: إن وراء ذلك الرمل قوماً من أمة موسى، وهم الذين عنى الله بقوله: ﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]؛ والله أعلم.

ذكر خير دارا الأكبر وابنه دارا الأصغر

وكيف كان هلاكه مع خير ذي القرنين

وملك دارا بن بهمن بن إسفنديار، وكان يلقب جهرزاد، يعني كريم الطبع، فنزل ببابل، وكان ضابطاً لملكة قاهراً لمن حوله من الملوك، يؤذون إليه الخراج، وبني بفارس مدينة سمّاها دارابجرد، وحذف دوابّ البرد وربّتها وكان معجباً بابنه دارا ومن حبّه له سمّاها باسم نفسه وصيّره له الملك بعده.

وكان ملكه اثنتين وعشرين سنة.

ثمّ ملك بعده ابنه دارا وبني بأرض الجزيرة بالقرب من نصيبين مدينة دارا، وهي مشهورة إلى الآن، واستوزر إنساناً لا يصلح لها، فأفسد قلبه على أصحابه، فقتل رؤساء عسكره واستوحش منه الخاصة والعامة، وكان شاباً غيّراً جميلاً حقوداً جباراً سيئ السيرة في رعيته.

وكان ملكه أربع عشرة سنة. (٢٨٢/١)

ذكر الإسكندر ذي القرنين

كان فيلفوس أبو الإسكندر اليوناني من أهل بلدة يقال لها مقدونية، كان ملكاً عليها وعلى بلاد أخرى، فصالح دارا على خراج يحمله إليه في كلّ سنة. فلما هلك فيلفوس ملك بعده ابنه الإسكندر واستولى على بلاد الروم أجمع، فقوي على دارا فلم يحمل إليه من الخراج شيئاً، وكان الخراج الذي يحمله ييضاً من ذهب، فسخط عليه دارا وكتب إليه يؤنبه بسوء صنيعه في ترك حمل الخراج، وبعث إليه بصولجان وكرة وقفيز من سمسم، وكتب إليه: إنه صبي، وإنه ينبغي له أن يلعب بالصولجان والكرة ويترك الملك، وإن لم يفعل ذلك واستعصى عليه بعث إليه من يأتيه به في وثاق، وإن عدّه جنوده كعدّة حبّ السمسم الذي بعث به إليه.

فكتب إليه الإسكندر: إنه قد فهم ما كتب به، وقد نظر إلى ما ذكر في كتابه إليه من إرساله الصولجان والكرة وتيمّن به لإلقاء الملقى الكرة إلى الصولجان واحترازه إياها، وشبه الأرض بالكرة، وأنه يجزّ ملك دارا إلى ملكه، وتيمّن بالسمسم الذي بعث كتيّمته بالصولجان والكرة لدسمه ويعدّه (٢٨٣/١) من الممرارة والحرافة، وبعث إليه بصورة فيها خردل، وأعلمه في ذلك أنّ ما بعث به إليه قليل ولكنه مرّ حريف، وأنّ جنوده مثله. فلما وصل كتابه إلى دارا تأهّب لمحاربته.

وقد زعم بعض العلماء بأخبار الأوّلين أنّ الإسكندر الذي حارب دارا ابن دارا هو أخو دارا الأصغر الذي حاربه، وأنّ أباه دارا الأكبر كان تزوّج أمّ الإسكندر، وهي ابنة ملك الروم، فلما حُملت إليه وجد تن ربحها وسهّكها، فأمر أن يحتال لذلك منها؛ فاجتمع رأي أهل

نسل سليمان بن داود. وكان ملك بهمن مائة وعشرين سنة، وقيل ثمانين سنة، وكان متواضعاً مرضياً فيهم، وكانت كتبه تخرج: من عبد الله خادم الله السائس لأمواركم.

ثمّ ملكت بعده ابنته خُماني، ملكوها حبّاً لأبيها ولعقلها وفروسيّتها، وكانت تلقّب بشهرزاد، وقيل: إنّما ملكت لأنّها حين حملت منه دارا الأكبر سألت أن يعقد التاج له في بطنها ويؤثره بالملك، ففعل بهمن وعقد التاج عليه حملاً في بطنها، وسامان بن بهمن رجل يتصنّع للملك، فلما رأى فعل أبيه (٢٧٩/١) لحق بإصطخر وتزهد ولحق برؤوس الجبال واتخذ غنماً، وكان يتولّأها بنفسه، فاستبشعت العامة ذلك منه.

وهلك بهمن وابنه دارا في بطن أمّه، فملكوها، ووضعت به بعد أشهر من ملكها، فأنفت من إظهار ذلك وجعلته في تابوت وجعلت معه جواهر وأجرته في نهر الكرّ من إصطخر، وقيل: بنهر بلخ، وسار التابوت إلى طحّان من أهل إصطخر، ففرح لما فيه من الجواهر، فحضته امرأته، ثمّ ظهر أمره حين شبّ، فأقوت خُماني بإساءتها، فلما تكامل امتحن فوجد على غايه ما يكون أبناء الملوك، فحوّلت التاج إليه وسارت إلى فارس وبنت مدينة إصطخر، وكانت قد أوتيت ظفراً وأغزت الروم وشغلت الأعداء عن تطرّق بلادها، وخفّفت عن رعيّتها الخراج؛ وكان ملكها ثلاثين سنة.

وقيل: إنّ خُماني أمّ دارا حضته حتى كبر فسلمت الملك إليه وعزلت نفسها، فضبط الملك بشجاعة وحزم.

ونرجع إلى ذكر بني إسرائيل ومقابلة تاريخ أيامهم إلى حين تصرّفها ومدة من كان في أيامهم من ملوك الفرس.

قد ذكرنا فيما مضى سبب انصراف من انصرف إلى بيت المقدس من سبائ بني إسرائيل الذين كان بخت نصر سباهم، وكان ذلك في أيام كيرش ابن اخشويرش، وملكه ببابل من قبل بهمن وأربع سنين بعد وفاته في ملك ابنته خُماني، وكانت مدة خراب بيت المقدس من لدن خربّه بخت نصر مائة سنة، كلّ ذلك في أيام بهمن بعضه وفي أيام ابنته خُماني بعضه، وقيل غير ذلك، وقد تقدّم ذكر الاختلاف. (٢٨٠/١)

وقد زعم بعضهم أنّ كيرش هو بشتاسب، وأنكر عليه قوله ولم يملك كيرش منفرداً قط.

ولما عمر بيت المقدس رجع إليه أهله كان فيهم عزّير، وكان الملك عليهم بعد ذلك من قبل الفرس إمّ رجل منهم وإمّ رجل من بني إسرائيل، إلى أن صار الملك بناحيّتهم لليونانية والروم لسبب غلبة الإسكندر على الناحية حين قتل دارا بن دارا. وكان جملة مدة ذلك فيما قبل ثمانياً وثمانين سنة. (٢٨١/١)

رجل، ومن جند دارا ستمائة ألف رجل، وتقدم بهدم حصون فارس وبيوت التيران وقتل الهرايدة، وأحرق كتيهم، واستعمل على مملكة فارس رجالاً، وسار قداماً إلى أرض الهند فقتل ملكها وفتح مدنها وخرب بيوت الأصنام وأحرق كتب علومهم، ثم سار منها إلى الصين، فلما وصل إليها اتاه حاجبه في الليل وقال: هذا رسول ملك الصين، فأحضره فسلم وطلب الخلو، ففتشوه فلم يروا معه شيئاً، فخرج من كان عند الإسكندر فقال: أنا ملك الصين جئت أسألك عن الذي تريده، فإن كان ممّا يمكن عمله عملته وتركته الحرب. فقال له الإسكندر: ما الذي أمانك مني؟ قال: علمت أنك عاقل حكيم ولم يكن بيني وبينك عداوة ولا دخل، وأنت تعلم أنك إن قتلتنني لم يكن قتلي سبباً لتسليم أهل الصين لملكي إليك، ثم إنك تنسب إلى الغدر.

فعلم أنه عاقل فقال له: أريد منك ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلاً ونصف الارتفاع لكل سنة، قال: قد أجيتك ولكن اسألني كيف حالي، قال: قل كيف حالك؟ قال: أكون أول قتيل لمحارب وأول أكلة لمفترس. قال: [فإن] قنعتُ منك بارتفاع ستين؟ قال: يكون حالي أصح قليلاً. قال: [فإن] قنعتُ منك بارتفاع سنة؟ قال: يبقى ملكي وتذهب لذاتي. قال: وأنا أترك لك ما مضى وأخذ الثلث لكل سنة فكيف يكون حالك؟ قال: يكون السدس للفقراء والمساكين ومصالح البلاد، والسدس لي، والثلث للعسكر، والثلث (٢٨٦/١) لك. قال: قد قنعتُ منك بذلك. فشكره وعاد، وسمع العسكر بذلك ففرحوا بالصلح.

فلما كان الغد خرج ملك الصين بعسكر عظيم أحاط بعسكر الإسكندر، فركب الإسكندر والناس، فظهر ملك الصين على الفيل وعلى رأسه التاج، فقال له الإسكندر: أغدرت؟ قال: لا ولكنني أردت أن تعلم أنني لم أطعك من ضعف ولكنني لما رأيت العالم العلوي مقبلاً عليك أردت طاعته بطاعتك والقرب منه بالقرب منك. فقال له الإسكندر: لا يسام مثلك الجزية، فما رأيت بيني وبينك مَن يستحق الفضل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرف عنك. فقال له ملك الصين: فلست تخسر، وبعث إليه بضعف ما كان قرره معه، وسار الإسكندر عنه من يومه ودانت له عامة الأرضين في الشرق والغرب وملك التبت وغيرها.

فلما فرغ من بلاد المغرب والمشرق وما بينهما قصد بلاد الشمال، وملك تلك البلاد ودان له من بها من الأمم المختلفة إلى أن اتصل بديار ياجوج ومأجوج، وقد اختلفت الأقوال فيهم والصحيح أنهم نوع من الترك لهم شوكة وفيهم شر، وهم كثيرون، وكانوا يفسدون فيما يجاورهم من الأرض ويخربون ما قدروا عليه من البلاد ويؤذون من يقرب منهم. فلما رأى أهل تلك البلاد الإسكندر شكوا إليه من شرهم، كما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذَا

المعرفة في مداواتها على شجرة يقال لها بالفارسية سندر، ففسلت بمائها فأذهب ذلك كثيراً من تنها ولم يذهب كله، وانتهت نفسه عنها، فردّها إلى أهلها، وقد علقت منه فولدت في أهلها غلاماً قسمته باسم الشجرة التي غسلت بمائها مضافاً إلى اسمها. وقد هلك أبوها وملك الإسكندر بعده، فمنع الخراج الذي كان يؤديه جده إلى دارا، فأرسل يطلبه، وكان ييضاً من ذهب، فأجابه: إني قد ذبحت الدجاجة التي كانت تبيض ذلك البيض وأكلت لحمها، فإن أحببت وادعناك، وإن أحببت ناجزناك.

ثم خاف الإسكندر من الحرب بطلب الصلح، فاستشار دارا أصحابه، فأشاروا عليه بالحرب لفساد قلوبهم عليه، فعند ذلك ناجزه دارا القتال، فكتب الإسكندر إلى حاجبي دارا وحكماهما على الفتك بدارا، فاحتكما شيئاً، ولم يشترطاً أنفسهما. فلما التقيا للحرب طعن دارا حاجباه في الوقعة، وكانت الحرب بينهما سنة، فانهزم أصحاب دارا ولحقه الإسكندر وهو بآخر رمق.

وقيل: بل فتك به رجلان من حرسه من أهل همدان حباً للراحة من ظلمه، وكان فتكهما به لما رآيا عسكره قد انهزم عنه، ولم يكن ذلك بامر (٢٨٤/١) الإسكندر، وكان قد أمر الإسكندر منادياً ينادي عند هزيمة عسكر دارا أن يؤسر دارا ولا يقتل، فأخبر بقتله، فنزل إليه ومسح التراب عن وجهه وجعل رأسه في حجره وقال له: إنما قتلتك أصحابك وإني لم أهتم بقتلك قط، ولقد كنت أربب بك يا شريف الأشراف ويا ملك الملوك وحرّ الأحرار عن هذا المصراع، فأوص بما أحببت. فأوصاه دارا أن يتزوج ابنته وروشنك ويرعى حقها ويعظم قدرها ويستبقي أحرار فارس ويأخذ له بشاره ممّن قتله. ففعل الإسكندر ذلك أجمع وقتل حاجبي دارا، وقال لهما: إنكما لم تشترطاً نفوسكما، فقتلتهما بعد أن وفّى لهما بما ضمن لهما، وقال: ليس ينبغي أن يستبقى قاتل الملوك إلا بذمة لا تخسر. وكان التقاؤهما بناحية خراسان ممّا يلي الخزر، وقيل: ببلاد الجزيرة عند دارا.

وكان ملك الروم قبل الإسكندر متفرقاً فاجتمع، وملك فارس مجتمعاً فتفرق. وحمل الإسكندر كتباً وعلوماً لأهل فارس من علوم ونجوم وحكمة ونقله إلى الرومية.

وقد ذكرنا قول من قال إن الإسكندر أخو دارا لأبيه، وأما الروم وكثير من أهل الأنساب فيزعمون أنه الإسكندر بن فيلقوس، وقيل فيلبوس بن مطريوس، وقيل: ابن مصري بن هرمس بن هردس بن منطون بن رومي ابن ليطي بن يونا بن يافت بن ثوبة بن سرحون بن رومي بن زبط بن توقيق بن رومي بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم. (٢٨٥/١) فجمع بعد هلك دارا ملك دارا فملك العراق والشام والروم ومصر والجزيرة، وعرض جنده فوجدتهم على ما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف رجل، منهم من جنده ثمانمائة ألف

بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا؛ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ (٢٨٧/١) فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا؟ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿[الكهف: ٩٢-٩٦]. يقول: ما مكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ مِنْ خَرَجِكُمْ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِالْقُوَّةِ، وَالْقُوَّةُ الْفَعْلَةُ وَالصَّنَاعُ وَالْآلَةُ الَّتِي يُبْنَى بِهَا، فَقَالَ: ﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٢-٩٦]، أَيْ قَطْعَ الْحَدِيدِ، فَأَتَوْهُ بِهَا، فَخُضِرَ الْأَسَاسُ حَتَّى بَلَغَ الْمَاءَ، ثُمَّ جَعَلَ الْحَدِيدَ وَالْحَطَبَ صَفُوفًا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٢-٩٦]، وَهُمَا جِبَلَانِ، أَشْعَلَ النَّارَ فِي الْحَطَبِ فَحُمِيَ الْحَدِيدُ وَافْتَرِغَ عَلَيْهِ الْقِطْرُ، وَهُوَ النَّحَاسُ الْمَذَابُ، فَصَارَ مَوْضِعَ الْحَطَبِ وَبَيْنَ قِطْعِ الْحَدِيدِ، فَبَقِيَ كَأَنَّهُ بُرْدٌ مُحْبَرٌ مِنْ حِمْرَةِ النَّحَاسِ وَسَوَادِ الْحَدِيدِ، وَجَعَلَ أَعْلَاهُ شُرْفًا مِنَ الْحَدِيدِ، فَامْتَنَعَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى الْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ لَهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

فَلَمَّا فَرِغَ مِنْ أَمْرِ السَّدِّ دَخَلَ الظُّلُمَاتُ مِمَّا يَلِي الْقُطْبَ الشَّمَالِيَّ، وَالشَّمْسُ جَنُوبِيَّةً، فَلِهَذَا كَانَتْ ظُلُمَةً، وَالْأَفْلَاسُ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ الْإِلَّا تَطْلُعُ الشَّمْسُ عَلَيْهِ أَبَدًا. فَلَمَّا دَخَلَ الظُّلُمَاتُ أَخَذَ مَعَهُ أَرْبَعُمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَطْلُبُ عَيْنَ الْخُلْدِ، فَسَارَ فِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشْرِ يَوْمًا، ثُمَّ خَرَجَ وَلَسَمَ يَظْفَرُ بِهَا، وَكَانَ الْخَضِرُ عَلَى مَقْدَمَتِهِ، فَظَفَرَ بِهَا وَسَجَّحَ فِيهَا وَشَرَبَ مِنْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَجَعَ إِلَى الْعِرَاقِ فَمَاتَ فِي طَرِيقِهِ بِشَهْرٍ زُورَ بَعْلَةَ الْخَوَانِيقِ، وَكَانَ عَمْرُهُ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً فِي قَوْلٍ، وَذُفِّنَ فِي تَابُوتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَرْصُوعٍ بِالْجَوْهَرِ وَطَلِي بِالصَّبْرِ لثَلَاثِينَ يَوْمًا وَحُمِلَ إِلَى أُمِّهِ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ. (٢٨٨/١)

وَكَانَ مَلِكُهُ أَرْبَعَ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَقَتْلَ دَارًا فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ مَلِكِهِ. وَبَنَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَدِينَةً، مِنْهَا: أَصْبَهَانَ، وَهِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا جَنِّيٌّ، وَمَدِينَةُ هَرَاةَ، وَمَرُوءَ، وَسَمَرْقَنْدَ، وَبَنَى بِالسَّوَادِ مَدِينَةً لِرَوْشَنَ ابْنَةِ دَارَا، وَبِأَرْضِ الْيُونَانَ مَدِينَةً، وَبِمِصْرَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ.

فَلَمَّا مَاتَ الْإِسْكَانْدَرُ أَطَافَ بِهِ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْحُكَمَاءِ الْيُونَانِيِّينَ وَالْفَرَسِ وَالْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ، فَكَانَ يَجْمَعُهُمْ وَيُسْتَرِجِعُ إِلَى كَلَامِهِمْ، فَوَقَفُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ كَبِيرُهُمْ: لِيَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِكَلَامٍ يَكُونُ لِلْخَاصَّةِ مَعْرِيًّا وَلِلْعَامَّةِ عَاطِظًا، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى التَّابُوتِ وَقَالَ: أَصْبَحَ أَسْرَ الْإِسْرَاءِ أَسِيرًا.

وَقَالَ آخَرُ: هَذَا الْمَلِكُ كَانَ يَخْبِئُ الذَّهَبَ فَقَدْ صَارَ الذَّهَبُ يَخْبِئُهُ.

وَقَالَ آخَرُ: مَا أَزْهَدَ النَّاسُ فِي هَذَا الْجَسَدِ وَمَا أَرْغَبُهُمْ فِي التَّابُوتِ.

وَقَالَ آخَرُ: مَنْ أَعْجَبَ الْعَجَبِ أَنَّ الْقُسْوِيَّ قَدْ غَلَبَ وَالضَّعْفَاءُ لَاهُونَ مَغْتَرُونَ.

وَقَالَ آخَرُ: هَذَا الَّذِي جَعَلَ أَجْلَهُ ضَمَارًا وَجَعَلَ أَمْلَهُ عِيَانًا، هَلَا بَاعَدَتْ مِنْ أَجْلِكَ لِتَبْلُغَ بَعْضَ أَمْلِكَ، بَلْ هَلَا حَقَّقَتْ مِنْ أَمْلِكَ بِالْإِمْتِنَاعِ مِنْ وَفُورِ أَجْلِكَ.

وَقَالَ آخَرُ: أَيُّهَا السَّاعِي الْمَتَّصِبُ جَمَعْتَ مَا خَذَلَكَ عِنْدَ الْإِحْتِيَاجِ إِلَيْهِ فَنُودِرْتَ عَلَيْكَ أَوْزَارَهُ وَقَارَفْتَ آثَامَهُ فَجَمَعْتَ لَغِيرِكَ وَإِثْمَهُ عَلَيْكَ. وَقَالَ آخَرُ: قَدْ كُنْتُ لَنَا وَاعِظًا فَمَا وَعِظْتَنَا مَوْعِظَةً أَبْلَغَ مِنْ وَفَاتِكَ، فَمَنْ كَانَ لَهُ مَعْقُولٌ فَلْيَعْقِلْ، وَمَنْ كَانَ مَعْتَبَرًا فَلْيَعْتَبِرْ.

وَقَالَ آخَرُ: رَبُّ هَاطِبٍ لَكَ يَخَافُكَ مِنْ وَرَائِكَ وَهُوَ الْيَوْمَ بِحَضْرَتِكَ وَلَا يَخَافُكَ.

وَقَالَ آخَرُ: رَبُّ حَرِيصٍ عَلَى سَكْرَتِكَ إِذْ لَا تَسْكُتُ، وَهُوَ الْيَوْمَ حَرِيصٌ عَلَى كَلَامِكَ إِذْ لَا تَتَكَلَّمُ.

وَقَالَ آخَرُ: كَمْ أَمَاتَتْ هَذِهِ النَّفْسُ لثَلَاثًا تَمُوتُ وَقَدْ مَاتَتْ.

وَقَالَ آخَرُ، وَكَانَ صَاحِبَ كُتُبِ الْحِكْمَةِ: قَدْ كُنْتُ تَأْمُرُنِي أَنْ لَا أَبْعِدَ عَنْكَ فَالْيَوْمَ لَا أَقْدِرُ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْكَ. وَقَالَ آخَرُ: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ أَقْبَلَ مِنْ شَرِّهِ مَا كَانَ مَدِيرًا، وَأَدْبَرَ مِنْ خَيْرِهِ مَا كَانَ مَقْبَلًا، فَمَنْ كَانَ (٢٨٩/١) بِكَأَيِّ عَلَى مَنْ زَالَ مَكْلَهُ فَلْيَكُفْ.

وَقَالَ آخَرُ: يَا عَظِيمَ السُّلْطَانِ اضْمَحِلْ سُلْطَانَكَ كَمَا اضْمَحِلَّ ظِلَّ السَّحَابِ، وَغَفَتْ آثَارُ مَمْلَكَتِكَ كَمَا غَفَتْ آثَارُ الذُّنَابِ.

وَقَالَ آخَرُ: يَا مَنْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ طَوْلًا وَعَرْضًا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالُكَ بِمَا احْتَرَى عَلَيْكَ مِنْهَا!

وَقَالَ آخَرُ: اعْجَبُوا مَعَنَ كَانَ هَذَا سَبِيلَهُ كَيْفَ شَهِرَ نَفْسَهُ بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ الْحَطَامِ الْبَائِدِ وَالْهَشِيمِ النَّافِذِ.

وَقَالَ آخَرُ: أَيُّهَا الْجَمْعُ الْحَافِلُ وَالْمَلَقَى الْفَاضِلُ لَا تَرْغَبُوا فِيمَا لَا يَدُومُ سُرُورُهُ وَتَنْقَطِعُ لَذَّتُهُ، فَقَدْ بَانَ لَكُمْ الصَّلَاحُ وَالرِّشَادُ مِنَ الْغَيِّ وَالْفَسَادِ.

وَقَالَ آخَرُ: يَا مَنْ كَانَ غَضْبُهُ الْمَوْتَ هَلَا غَضِبْتَ عَلَى الْمَوْتِ!

وَقَالَ آخَرُ: قَدْ رَأَيْتُمْ هَذَا الْمَلِكَ الْمَاضِي فَلْيَتَعِظْ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ الْبَاقِي.

وَقَالَ آخَرُ: إِنْ الَّذِي كَانَتْ الْأَذَانُ تَنْصِتُ لَهُ قَدْ سَكَتَ فَلْيَتَكَلَّمْ الْآنَ كُلَّ سَاكِتٍ.

وَقَالَ آخَرُ: سَيَلْحَقُ بِكَ مَنْ سَرَّهُ مَوْتُكَ كَمَا لَحِقَتْ بِمَنْ سَرَّكَ مَوْتُهُ.

وَقَالَ آخَرُ: مَا لَكَ [لَا] تُقِلُّ عَضْوًا مِنْ أَعْضَائِكَ وَقَدْ كُنْتَ تَسْتَقِلُّ بِمَلِكِ الْأَرْضِ! بَلْ مَا لَكَ لَا تَرْغَبُ عَنْ ضَيْقِ الْمَكَانِ الَّذِي

تمت الشجاعة وتحبب السلامة، وإياك والقتل فإنه زلة لا تستقل وذنب لا يُغفر، وعاقب بدون القتل تكن قادراً على العفو، فما أحسن العفو من القادر، وليحسن خلقك تخلص لك الثبات بالمحبة، ولا تؤثر نفسك على أصحابك، فليس مع الاستئثار محبة، ولا مع المؤاساة بغضة.

وكتب إلى أرسطاطاليس أيضاً لما ملك بلاد فارس يذكر له أنه رأى بيزران شهر رجالاً ذوي رأي وصرامة وشجاعة وجمال وأنساب رفيعة، وأنه إنما ملكهم بالحق والإنفاق، وأنه لا يأمن، إن سافر عنهم فأفرغهم وتروبهم، وأنه لا يكفي شرهم إلا ببوارهم. فكتب إليه: قد فهمت كتابك في رجال فارس، فأما قتلهم فهو من الفساد والبغي الذي لا يؤمن عاقبته، ولو قتلهم لأنبت أهل البلد أمثالهم وصار جميع أهل البلد أعداءك بالطبع وأعداء عقبك لأنك تكون قد وترتهم في غير حرب، وأما إخراجك إياهم من عسكري فمخاطرة بنفسك وأصحابك، ولكني أشير عليك برأي هو أبلغ من القتل، وهو أن تستدعي منهم أولاد الملوك ومن يصلح للملك فقتلهم البلدان وتجعل كل واحد منهم ملكاً برأسه فتفرق كلمتهم ويقع بأسهم بينهم ويجمعون على الطاعة والمحبة لك ويرون أنفسهم صنيعتك. ففعل الإسكندر ذلك. فهم ملوك الطوائف، وقيل في ملوك الطوائف غير هذا السبب، ونحن نذكره إن شاء الله. (٢٩٢/١)

ذكر من ملك قومه بعد الإسكندر

لما مات الإسكندر عرض الملك على ابنه الإسكندرون، فأبى واختار العبادة، فملك اليونان فيما قيل بطلميوس بن لاغوس، وكان ملكه ثمانياً وثلاثين سنة، ثم ملك بعده بطلميوس فيلودفوس، وكان ملكه أربعين سنة، ثم ملك بعده بطلميوس أوراغاطس أربعاً وعشرين سنة، ثم ملك بعده بطلميوس فيلاطر إحدى وعشرين سنة، ثم ملك بعده بطلميوس أفيانس اثنتين وعشرين سنة، ثم ملك بعده بطلميوس أوراغاطس تسعاً وعشرين سنة، ثم ملك بعده بطلميوس ساطر سبع عشرة سنة، ثم ملك بعده بطلميوس الاخشندر إحدى عشرة سنة، ثم ملك بعده بطلميوس الذي اختفى عن ملكه ثمانين سنة، ثم ملك بعده قلوبطري سبع عشرة سنة، وكانت من الحكماء؛ وهؤلاء كلهم من اليونان، وكل من كان بعد الإسكندر كان يدعى بطلميوس كما كانت تدعى ملوك الفرس أكاسرة وملوك الروم قياصرة.

وقد ذكر بعض العلماء أن بطلميوس صاحب المجسطي وغيره من الكتب لم يكن من هؤلاء الملوك، وإنما كان أيام ملوك الروم على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثم ملك الشام فيما بعد قلوبطري ملوك الروم، فكان أول من ملك منهم جايوس يولوس خمس سنين، ثم ملك بعده أغسطوس ستاً وخمسين سنة، فلما مضى من ملكه اثنتان وأربعون سنة ولد

أنت فيه وقد كنت ترغب من رُحْب البلاد! وقال آخر: إن دنيا يكون هذا في آخرها فالزهد أولى أن يكون في أولها.

وقال صاحب مائده: قد فرشت النمارق ونضدت التضائد ولا أرى عميد القوم. وقال صاحب بيت ماله: قد كنت تأمرني بالأدخار فإلى من أدفع ذخائرك؟

وقال آخر: هذه الدنيا الطويلة العريضة قد طويت منها في سبعة أشبار (٢٩٠/١) ولو كنت بذلك موقناً لم تحمل على نفسك في الطلب.

وقالت زوجته روشنك: ما كنت أحسب أن غالب دارا يغلب، فإن الكلام الذي سمعت منكم فيه شمانة، فقد خلف الكأس الذي شرب به ليشربه الجماعة. وقالت أمه حين بلغها موته: لئن فقدت من ابني امرأة لم يفقد من قلبي ذكره.

فهذا كلام الحكماء فيه مواظ وحكم حسنة فلماذا أنبتها.

ومن خيل الإسكندر في حروبه أنه لما حارب دارا خرج إلى يمين الصفيين وأمر منادياً فنادى: يا معشر الفرس قد علمتم ما كتبتم إلينا وما كتبنا إليكم من الأمان، فمن كان منكم على الوفاء فليعتزل فإنه يرى منا الوفاء. فأتهم الفرس بعضها بعضاً واضطربوا.

ومن حيله أنه تلقاه ملك الهند بالفيلة، فنفرت خيل أصحابه عنها، فعاد عنه وأمر باتخاذ فيلة من نحاس والبسها السلاح وجعلها مع الخيل حتى ألقتها، ثم عاد إلى الهند، فخرج إليهم ملك الهند، فأمر الإسكندر بتلك الفيلة فملئت بطونها من النفط والكبريت وجرت على العجل إلى وسط المعركة ومعها جمع من أصحابه، فلما نشبت الحرب أمر بإشعال النار في تلك الفيلة، فلما حimit انكشف أصحابه عنها وغشيتها فيلة الهند، فضربتها بخراطيمها فاحتقرت وولت هاربة راجعة على الهند، فانهزموا بين يديها.

ومن حيله أنه نزل على مدينة حصينة وكان بها كثير من الأقوات وبها عيون ماء، فعاد عنها فأرسل إليها قوماً على هيئة التجار ومعهم أمتعة يبيعونها وأمرهم بمشترى الطعام والمغلاة في ثمنها، فإذا صار عندهم أحرقوه وهربوا، ففعلوا ذلك وهربوا إليه فأنفذ السرايا إلى سواد تلك المدينة وأمرهم بالغارة مرة بعد أخرى، فهربوا ودخلوا البلد ليحتموا به، فسار الإسكندر إليهم، فلم يمتنعوا عليه. (٢٩١/١)

وكتب إلى أرسطاطاليس يذكر له أن من خاصة الروم جماعة لهم هم بعيدة ونفوس كبيرة وشجاعة، وأنه يخافهم على نفسه ويكره قتلهم بالظنة. فكتب إليه أرسطاطاليس: فهمت كتابك، فإن ما ذكرت من بُعد همهم فإن الوفاء من بُعد الهمة وكبير النفس، والغدر من دناءة النفس وخسئها، وأما شجاعتهم ونقص عقولهم فمن كانت هذه حاله فرفهه في معيشته واخصمه بحسان النساء، فإن رفاهية العيش

ملوك الطوائف لسنه وشرقه وقعله، ويدؤوا به كتبهم، وسموه ملكاً من غير أن يعزل أحداً منهم، ثم ملك بعده ابنه سابور بن أشك. (٢٩٥/١)

ذكر ملك جودرز

ثم ملك بعد سابور جودرز بن أشكان، وهو الذي غزا بني إسرائيل في المرة الثانية.

وسبب تسليط الله إياه عليهم قتلهم يحيى بن زكرياء، فأكثر القتل فيهم، فلم يعد لهم جماعة كجماعتهم الأولى، ورفع الله منهم النبوة ونزل بهم الذل. وقيل: إن الذي غزا بني إسرائيل طيطوس بن اسفيانوس ملك الروم، فقتلهم وسباهم وخرّب بيت المقدس، وقد كانت الروم غزت بلاد فارس يطلون نار أنطيوخس، وملك بابل حينئذ بلاش أبو اردوان الذي قتله اردشير بن بابك، فكتب بلاش إلى ملوك الطوائف يعلمهم ما أجمعت عليه الروم من غزو بلادهم وما حشدوا وجمعوا وأنه إن عجز عنهم ظفروا بهم جميعاً.

فوجه كل ملك من ملوك الطوائف إلى بلاش من الرجال والصلاح والمال بقدر قوته، فاجتمع عنده أربعمائة ألف رجل، فولى عليهم صاحب الحضرة، وكان له ما بين السواد والجزيرة، فلقى الروم وقتل ملكهم واستباح عسكرهم، وذلك الذي هيّج الروم على بناء القسطنطينية ونقل الملك من رومية إليها، وكان الذي أنشأها قسطنطين الملك، وهو أول من تنصّر من ملوك الروم وأجلى من بقي من بني إسرائيل عن فلسطين والشام لقتلهم عيسى بزعيمهم، وأخذ الخشية التي يزعمون أنهم صلبوا المسيح عليها، فعظمها الروم وأدخلوها خزائنتهم وهي عندهم إلى اليوم، ولم يزل ملك فارس متفرقاً حتى ملك اردشير ابن بابك. ولم يبين هشام مدة ملكهم.

وقال غيره من أهل العلم بأخبار فارس: ملك بلادهم بعد الإسكندر (٢٩٦/١) ملوك من غير الفرس كانوا يطيعون كل من ملك بلاد الجبل، وهم الأشغانيون الذين يدعون ملوك الطوائف، وكان ملكهم مائتي سنة، وقيل: كان ملكهم ثلاثمائة وأربعين سنة، ملك من هذا السنين أشك بن أشكان عشرين سنة، ثم ابنه سابور ستين سنة، وفي إحدى وأربعين سنة من ملكه ظهر المسيح عيسى بن مريم، عليه السلام، وإن طيطوس بن اسفيانوس ملك رومية غزا بيت المقدس بعد ارتفاع المسيح بنحو من أربعين سنة فملك المدينة وقتل وسبى وأخرب المدينة، ثم ملك جودرز بن أشغانان الأكبر عشر سنين، ثم ملك بيرن الأشغاني إحدى وعشرين سنة، ثم ملك جودرز الأشغاني تسعاً وثمانين سنة، ثم ملك نرسي الأشغاني أربعين سنة، ثم ملك هرمن الأشغاني سبع عشرة سنة، ثم ملك اردوان الأشغاني اثنتين وعشرين سنة، ثم ملك كسرى الأشغاني أربعين سنة، ثم ملك بلاش الأشغاني أربعاً وعشرين سنة، ثم ملك اردوان الأصغر ثلاث عشرة

عيسى بن مريم، عليه السلام، وقيل: كان بين مولده وقيام الإسكندر ثلاثمائة وثلاث سنين. (٢٩٣/١)

ذكر أخبار ملوك الفرس

بعد الإسكندر وهم ملوك الطوائف

لما مات الإسكندر ملك بلاد الفرس بعده ملوك الطوائف، وقد تقدّم ذكر السبب في تملكهم. وقيل: كان السبب في ذلك أن الإسكندر لما ملك بلاد الفرس ووصل إلى ما أراد كتب إلى أرسطاطاليس الحكيم: إني قد وترت جميع من في بلاد المشرق وقد خشيت أن يتفقوا بعدي على قصد بلادنا وإيذاء قومنا، وقد هممت أن أقتل أولاد من قتل من الملوك وألحقهم بآبائهم، فما ترى؟

فكتب إليه: إنك إن قتل أبناء الملوك أفضى الملك إلى السفل والأنزال، والسفل إذا ملكوا قنروا وإذا قدروا طغوا ويغوا وظلموا، وما يخشى من معرفتهم أكثر، والرأي أن تجمع أبناء الملوك فتملك كل واحد منهم بلداً واحداً وكورة واحدة، فإن كل واحد منهم يقوم في وجه الآخر يمنعه عن بلوغ غرضه خوفاً على ما بيده فتولد العداوة بينهم فيشتغل بعضهم ببعض فلا يتفرغون إلى من بعد عنهم.

فعتها قسم الإسكندر بلاد المشرق على ملوك الطوائف ونقل عن بلدانهم النجوم والحكمة، وكان من حالهم بعد الإسكندر ما ذكره أرسطاطاليس، واشتغلوا عن قصد اليونان.

وكان أرسطاطاليس من أفضل الحكماء وأعلمهم، وكان الإسكندر يصدر (٢٩٤/١) عن رأيه، وأخذ الحكمة عن أفلاطون تلميذ سقراط، وسقراط تلميذ أوسيلانوس في الطبيعيات دون غيرها، ومعناه رأس السباع، وكان أوسيلانوس تلميذ انكساغورس، إلا أن أرسطاطاليس خالف أستاذه في عدة مسائل، فلما قيل له في ذلك قال: أفلاطون صديق والحق صديق، إلا أن الحق أولى بالصدقة منه.

وقد اختلف العلماء في الملك الذي كان بسواد العراق بعد الإسكندر وعدد ملوك الطوائف الذين ملكوا إقليم بابل، فقال هشام بن الكلبي وغيره: ملك بعد الإسكندر بلاقس سلبقس، ثم أنطيوخس، وهو الذي بنى مدينة أنطاكية، وكان في أيدي هؤلاء الملوك سواد الكوفة أربعاً وخمسين سنة، وكانوا يتطرقون الجبال وناحية الأهواز وفارس.

ذكر ملك أشك بن أشكان

ثم خرج رجل يقال له أشك، وهو من ولد دارا الأكبر، وكان مولده ومنشأه بالري، فجمع جمعاً كبيراً وسار يريد أنطيوخس، وزحف إليه أنطيوخس والتقى ببلاد الموصل، فقتل أنطيوخس وملك أشك السواد وصار بيده من الموصل إلى الري وأصبهان، وعظّمته سائر

أن تجعله من سدة بيت المقدس وخدمه، فحرّرت ما في بطنها، ولم تعلم ما هو، وكان النذر المحرّر عندهم أن يجعل للكنيسة يقوم بخدمتها ولا يريح منها حتى يبلغ الحلم، فإذا بلغ خير، فإن أحب أن يقيم فيها أقام، وإن أحب أن يذهب ذهب حيث شاء. ولم يكن يحزر إلا الغلمان، لأن الإناث لا يصلحن لذلك لما يصيبهن من الحيض والأذى.

ثم هلك عمران وحنة حامل مريم، فلما وضعتها إذا هي أنثى فقالت عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أَنْثَى، وَاللَّهِ أَغْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ، وَلَيْسَ (٢٩٩/١) الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ في خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها، ﴿وَأَنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وهي بلغت العباد، ثم لفّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم يلون من بيت المقدس ما يلي بنو شيبه من الكعبة. فقالت: دونكم هذه المنذورة. فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم. فقال زكرياء: أنا أحقّ بها لأن خالتي عندي. فقالوا: لكننا نقتري عليها. فالتقوا أقلامهم في نهر جار، قيل هو نهر الأردن، فالتقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة، فارتفع قلم زكرياء فوق الماء ورسبت أقلامهم، فأخذها وكفلها وضّمّها إلى خالتيها أم يحيى واسترضع لها حتى كبرت، فبنى لها غرفة في المسجد لا يرقى إليها إلا بسلم ولا يصعد إليها غيره، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فيقول: أتى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله. فلما رأى زكرياء ذلك منها دعا الله تعالى ورجا الولد حيث رأى فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، فقال: إن الذي فعل هذا بمریم قادر على أن يصلح زوجتي حتى تلد. فـ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فبينما هو يصلي في المذبح الذي لهم إذا هو برجل شاب، هو جبرائيل، ففرغ زكرياء منه، فقال له: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِحَيْثُ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، يعني عيسى بن مريم، عليه السلام، ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقه، وذلك أن أمه كانت حاملاً به فاستقبلت مريم وهي حامل (٣٠٠/١) بعيسى فقالت لها: يا مريم أحامل أنت؟ فقالت: لماذا تسأليني؟ قالت: إني أرى ما في بطني يسجد لهما في بطنك، فذلك تصديقه.

وقيل: صدق المسيح، عليه السلام، وله ثلاث سنين، وسماه الله تعالى [يحيى] ولم يكن قبله من تسمى هذا الاسم، قال الله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَيِّئًا﴾ [مريم: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [آل عمران: ١٥]. قيل: أوحش ما يكون ابن آدم في هذه الأيام الثلاثة، فسلمه الله تعالى من وحشتها، وإنما وُلد يحيى قبل المسيح بثلاث سنين، وقيل بستة أشهر، وكان لا يأتي النساء، ولا يلعب مع الصبيان.

سنة، ثم ملك أردشير بن بابك.

وقال بعضهم: ملك بلاد الفرس بعد الإسكندر ملوك الطوائف الذين فرق الإسكندر المملكة بينهم، وتفرّد بكل ناحية من ملك عليها من حين ملكه عليها ما خلا السواد، فإنه كان أربعاً وخمسين سنة بعد هلاك الإسكندر في يد الروم، وكان في ملوك الطوائف رجل من نسل الملوك قد ملك الجبال وأصبهان، ثم غلب ولده بعد ذلك على السواد، وكانوا ملوكاً عليها، وعلى الماهات والجبال، وأصبهان كالرئيس على سائر ملوك الطوائف، لأن العادة جرت بتقديمه وتقديم ولده، ولذلك قصد لذكرهم في كتب سيرة الملوك، فاقصرونا على ذكرهم دون غيرهم، فكانت مدة ملوك الطوائف مائتي سنة وستين سنة، وقيل: ثلاثمائة وأربعاً وأربعين سنة، وقيل: خمسمائة وثلاثاً وعشرين سنة، والله أعلم. (٢٩٧/١)

فمن الملوك الذين ملكوا الجبال ثم تهّأت بعد أولادهم الغلبة على السواد أشك بن جره، وهو من ولد إسفنديار بن بشتاسب في قول، وبعض الفرس زعم أن أشك بن دارا، قال بعضهم: أشك بن أشكان الكبير، هو من ولد كيكاووس، وكان ملكه عشرين سنة، ثم ملك بعده أشك ابنه إحدى وعشرين سنة، ثم ملك ابنه سابور ثلاثين سنة، ثم ملك ابنه جودرز عشر سنين، ثم ملك ابنه بيزن إحدى وعشرين سنة، ثم ملك ابنه جودرز الأصغر تسع عشرة سنة، ثم ابنه نرسي أربعين سنة، ثم هرمز بن بلاش بن أشكان سبع عشرة سنة، ثم أردوان الأكبر بن أشكان اثنتي عشرة سنة، ثم كسرى ابن أشكان أربعين سنة، ثم أردوان الأصغر بن بلاش ثلاث عشرة سنة، وكان أعظم ملوك الأشكانية وأظهرهم وأعزهم قهرًا للملوك، ثم ملك أردشير ابن بابك وجمع مملكة الفرس على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وقد عدّ بعضهم في أسماء الملوك غير ما ذكرنا لا حاجة إلى الإطالة بذكره، وقد ذكرنا بعض ما قيل عند ملك أردشير بن بابك. (٢٩٨/١)

ذكر الأحداث أيام ملوك الطوائف، فمن ذلك ذكر

المسيح عيسى بن مريم ويحيى بن زكرياء، عليهم السلام

إنما جمعنا هذين الأمرين العظيمين في هذه الترجمة لتعلق أحدهما بالآخر، فتقول: كان عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داود، وكان آل ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم، وكان متزوجاً بحنة بنت فاقور، وكان زكرياء بن يرخيا متزوجاً بأختها إيشاع، وقيل: كانت إيشاع أخت مريم بنت عمران، وكانت حنة قد كبرت وعجزت ولم تلد ولداً، فبينما هي في ظل شجرة أبصرت طائراً يزق فرخاً له فاشتته الولد فدعت الله أن يهب لها ولداً، ونذرت إن يرزقها ولداً

﴿قَالَ: رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]؟ وكان عمره اثنتين وتسعين سنة، وقيل: مائة وعشرين سنة، وكانت امرأته ابنة ثمان وتسعين سنة. فقيل له: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وإنما قال ذلك استخباراً هل يُرزق الولد من امرأته العاقرة أم غيرها، لا إنكاراً لقدرة الله تعالى. ﴿قَالَ: رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً، قَالَ: آيَتُكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤٢]. قال: أمسك الله لسانه عقوبة لسؤاله الآية، والرمز والإشارة.

وقال السُّدِّيُّ نحو هذا، غير أنه قال: أراد الملك أن يتزوج بنت امرأة له، فنهاه يحيى عن ذلك، فطلبت المرأة من الملك قتل يحيى، فأرسل إليه فقتله وأحضر رأسه في طست وهو يقول له: لا تحلّ لك، فبقي دمه يغلي، فطُرح عليه تراب حتى بلغ سور المدينة، فلم يسكن الدم. فسلط الله عليهم بخت نصر في جمع عظيم فحصرهم فلم يظفر بهم، فأراد الرجوع فأته امرأة من بني إسرائيل فقالت: بلغني أنك تريد العود! قال: نعم، قد طال المقام وجاع الناس وقلّت الميرة بهم وضاق عليهم. فقالت: إن فتح لك المدينة أقتل من أمرك بقتله وتكفّ إذا أمرتك؟ قال: نعم. قالت: اقسم جندك أربعة أقسام على نواحي المدينة، ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء وقولوا: اللهم إنا نستفتحك على دم يحيى بن زكريّا، ففعلوا، فخرّب سور المدينة، فدخلوها، (٣٠٣/١) فأمرتهم العجوز أن يقتلوا على دم يحيى بن زكريّا حتى يسكن، فلم يزل يقتل حتى قتل سبعين ألفاً وسكن الدم، فأمرته بالكفّ، وكفّ.

وخرب بيت المقدس، وأمر أن تلقى فيه الجيف، وعادَ ومعه دانيال وغيره من وجوه بني إسرائيل، منهم عزريا وميشائيل ورأس الجالوت. فكان دانيال أكرم الناس عليه، فحسدهم المجوس وسعوا بهم إلى بخت نصر، وذكر نحو ما تقدّم من إلحاقهم إلى السبع ونزول الملك عليهم ومنسج بخت نصر ومقامه في الوحش سبع سنين.

وهذا القول وما لم نذكره من الروايات من أن بخت نصر هو الذي خرب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريّا باطل عند أهل السُّنن والتاريخ وأهل العلم بأمر الماضين، وذلك أنهم أجمعين مجمعون على أن بخت نصر غزا بني إسرائيل عند قتلهم نبيهم شعيّا في عهد إرميا بن حلقيا، وبين عهد إرميا وقتل يحيى أربعمئة سنة وإحدى وستون سنة عند اليهود والنصارى، ويذكرون أن ذلك في كتبهم وأسفارهم مبين، وتوافقهم المجوس في مدة غزو بخت نصر بني إسرائيل إلى موت الإسكندر، وتخالفهم في مدة ما بين موت الإسكندر ومولد يحيى، فيزعمون أن مدة ذلك كانت إحدى وخمسين سنة.

وأما ابن إسحاق فإنه قال: الحق أن بني إسرائيل عمروا بيت المقدس بعد مرجعهم من بابل وكثروا ثم عادوا يُخدشون الأحداث ويعود الله سبحانه عليهم ويبعث فيهم الرسل، ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون، حتى كان آخر من بعث الله فيهم زكريّا وابنه يحيى وعيسى بن مريم، عليهم السلام، فقتلوا (٣٠٤/١) يحيى وزكريّا، فابتعث الله

فلما ولد رآه أبوه حسن الصورة، قليل الشعر، قصير الأصابع، مفروق الحاجبين، دقيق الصوت، قوياً في طاعة الله مذ كان صبياً، قال الله تعالى: (٣٠١/١) ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. قيل: إنه قال له يوماً الصبيان أمثاله: يا يحيى اذهب بنا نلعب. فقال لهم: ما للعب خلقتُ. وكان يأكل العشب وأوراق الشجر، وقيل: كان يأكل خبز الشعير، ومَرَّ به إبليس ومعه رغيث شعير فقال: أنت تزعم أنك زاهد وقد أذخرت رغيث شعير؟ فقال يحيى: يا ملعون هو القوت. فقال إبليس: إن الأقل من القوت يكفي لمن يموت. فأوحى الله إليه: اعقل ما يقول لك.

ونبي صغيراً فكان يدعو الناس إلى عبادة الله، وليس الشعر، فلم يكن له دينار ولا درهم ولا مسكن يسكن إليه، أينما جئته الليل أقام، ولم يكن له عبد ولا أمة، واجتهد في العبادة، فنظر يوماً إلى بدنه وقد نحل فبكى، فأوحى الله إليه: يا يحيى أتبكي لما نحل من جسمك؟ وعزتي وجلالي لو أطلعت في النار اطلاعة لتدرعت الحديد عوض الشعر فبكى حتى أكلت الدموع لحم خديّ وبدت أضراسه للناظرين. فبلغ ذلك أمه فدخلت عليه وأقبل زكريّا ومعه الأجار فقال: يا بني ما يدعوك إلى هذا؟ قال: أنت أمرتي بذلك حيث قلت: إن بين الجنة والنار عقبة لا يجوزها إلا الباكون من خشية الله. فقال: فابكوا واجتهدوا. إذن. فصنعت له أمه قطعتي لبد على خديّ تواريان أضراسه، فكان يبكي حتى يبلهما، وكان زكريّا إذا أراد أن يعظ الناس نظر فإن كان يحيى حاضراً لم يذكر جنة ولا ناراً.

وبعث الله عيسى رسلاً نسخ بعض أحكام التوراة، فكان ممّا نسخ أنه حرّم نكاح بنت الأخ، وكان لملكهم، واسمه هيرودس، بنت أخ تمجيه (٣٠٢/١) يريد أن يتزوجها، فنهاه يحيى عنها، وكان لها كلّ يوم حاجة يقضيها لها. فلما بلغ ذلك أمها قالت لها: إذا سالك الملك ما حاجتك فقولي أن تذيب يحيى ابن زكريّا، فلما دخلت عليه وسأله ما حاجتك قالت: أريد أن تذيب يحيى ابن زكريّا. فقال: أسألي غير هذا. ما أسألك غيره. فلما أبت دعا يحيى ودعا بطست فذبحه، فلما رأت الرأس قالت: اليوم قرّرت عيني! فصعدت إلى سطح قصرها فسقطت منه إلى الأرض ولها كلاب ضارية تحته، فوثبت الكلاب عليها فأكلتها وهي تنظر، وكان آخر ما أكل منها عيناها لتعتبر.

«عسى» [وعداً] من الله حق.

وكانت الواقعة الأولى بخت نصر وجنوده، ثم ردّ الله سبحانه لهم الكرامة (٣٠٦/١) ثم كانت الواقعة الأخيرة جودرس وجنوده، وكانت أعظم الوقعتين، فيها كانت خراب بلادهم وقتل رجالهم وسبي ذرائعهم ونسائهم، يقول الله تعالى: ﴿وَلْيُبَيِّنُوا مَا كَلَّمُوا تَيْبِيرًا﴾.

وزعم بعض أهل العلم أنّ قتل يحيى كان أيام أردشير بن بابلك، وقيل: كان قتله قبل رفع المسيح، عليه السلام، بسنة ونصف، والله أعلم.

ذكر قتل زكريا

لما قُتل يحيى وسمع أبوه بقتله فرّ هارباً فدخل بستاناً عند بيت المقدس فيه أشجار، فأرسل الملك في طلبه، فمرّ زكريا بالشجرة، فنادته: هلم إليّ يا نبيّ الله! فلما أتاها انشقت فدخلها، فانطبقت عليه وبقي في وسطها، فأتى عدو الله إبليس فأخذ دهب رداه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه إذا أخبرهم، ثم لقي الطلب فأخبرهم، فقال لهم: ما تريدون؟ فقالوا: نلتس زكرياً. فقال: إنه سحر هذه الشجرة فانشقت له فدخلها. قالوا: لا نصدقك! قال: فإن لي علامة تصدقوني بها؛ فأراه من طرف رداه، فأخذوا الفؤوس وقطعوا الشجرة باثنتين وشقوها بالمنشار، فمات زكرياً فيها، فسلط الله عليهم أخبث أهل الأرض فانقم به منهم.

وقيل: إنّ السبب في قتله أنّ إبليس جاء إلى مجالس بني إسرائيل فقتل زكرياً بمرمٍ وقال لهم: ما أحبلها غيره، وهو الذي كان يدخل عليها، فطلبوه فهرب، وذكر من دخوله الشجرة نحو ما تقدّم. (٣٠٧/١)

ذكر ولادة المسيح، عليه السلام

ونبوته إلى آخر أمره

كانت ولادة المسيح أيام ملوك الطوائف. قالت المجوس: كان ذلك بعد خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، وبعد إحدى وخمسين سنة مضت من ملك الأشكانيين. وقالت النصارى: إنّ ولادته كانت لمضي ثلاثمائة وثلاث وستين سنة من وقت غلبة الإسكندر على أرض بابل، وزعموا أنّ مولد يحيى كان قبل مولد المسيح بستة أشهر، وأنّ مريم، عليها السلام، حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، وقيل: عشرون، وأنّ عيسى عاش إلى أن رفع اثنين وثلاثين سنة وآياماً، وأنّ مريم عاشت بعده ست سنين، فكان جميع عمرها إحدى وخمسين سنة، وأنّ يحيى قُتل قبل أن يُرفع المسيح، وأتت المسيح النبوة والرسالة وعمره ثلاثون سنة.

عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له جودرس، فسار إليهم حتى دخل عليهم الشام، فلما دخل عليهم بيت المقدس قال لقائد عظيم من عسكره اسمه نبوزاذان، وهو صاحب الفيل: إني كنتُ حلفتُ لئن أنا ظفرتُ ببني إسرائيل لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري إلى أن لا أجد من أقتله؛ وأمره أن يدخل المدينة ويقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل نبوزاذان المدينة فأقام في المدينة التي يقيمون فيها قربانهم، فوجد فيها دماً يغلي، فقال: يا بني إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي؟ فقالوا: هذا دم قربان لنا لم يقبل فلذلك هو يغلي. فقال: ما صدقتموني الخير! فقالوا: إنه انقطع منا الملك والنبوة فلذلك لم يقبل منا. فذبح منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلاً من رؤوسهم، فلم يهدأ، فأمر بسبعمائة من علمائهم فذبحوا على الدم، فلم يهدأ. فلما رأى الدّم لا يبرد قال لهم: يا بني إسرائيل اصدقوني واصبروا على أمر ربكم، فقد طال ما ملككم في الأرض تفعلون ما شئتم، قبل أن لا أدع منكم نافع نار أنثى ولا ذكراً إلا قتلته.

فلما راوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر وقالوا: هذا [دم] نبي كان يهاننا عن كثير مما يسخط الله ويخربنا بخبركم، فلم نصدقهم وقتلناه فهذا دمه. فقال: ما كان اسمه؟ قالوا: يحيى بن زكرياء. قال: الآن صدقتموني لمثل هذا انتقم ربكم منكم، وخرّ ساجداً وقال لمن حوله: أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من هاهنا من جيش جودرس. ففعلوا، وخلا في بني إسرائيل (٣٠٥/١) ثم قال للدم: يا يحيى قد علم ربّي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قُتل منهم، فاهدأ بإذن الله قبل أن لا يبقى من قومك أحد. فسكن الدم، ورفع نبوزاذان القتل، وقال: آمنتُ بما آمنت به بنو إسرائيل وصدقته به وأيقنت أنه لا ربّ غيره. ثم قال لبني إسرائيل: إنّ جودرس أمرني أن أقتل فيكم حتى تسيل دماؤكم في عسكره، ولستُ أستطيع أن أعصيه. قالوا: افعل. فأمرهم أن يحفروا حفيرة، وأمر بالخيول والبغال والحمير والبقر والغنم والإبل فذبحها حتى كثر الدّم وأجرى عليه ماء، فسال الدّم في العسكر، فأمر بالقتلى الذين كان قتلهم، فألقوا فوق المواشي، فلما نظر جودرس إلى الدم قد بلغ عسكره أرسل إلى نبوزاذان: أن ارفع القتل عنهم فقد انتقم منهم بما فعلوا.

وهي الواقعة الأخيرة التي أنزل الله ببني إسرائيل، يقول الله تعالى لنبيه محمّد، ﷺ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَاسٍ شَدِيدِ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا، إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْمْ وَلَئِنْ نَفْسَيْكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم، وَإِنْ عُذْتُمْ عُنَانًا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٨]؛ و:

مريم: وأنا أيضاً جلي. قالت امرأة زكرياء: فلأنّي وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك.

وولدت امرأة زكرياء يحيى. وقد اختلف في مدة حملها، فقيل: تسعة أشهر، وهو قول النصارى، وقيل: ثمانية أشهر، فكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود لثمانية أشهر غيره، وقيل: ستة أشهر، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل: ساعة واحدة، وهو أشبه بظاهر القرآن العزيز لقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَاتَّبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢]؛ عقبه بالفاء.

فلما أحست مريم خرجت إلى جانب المحراب الشرقي فأتت أقصاه (٣١٠/١) ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ قَالَتْ- وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس- يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مُنْسِيًّا [مريم: ٢٣]، يعني نسي ذكري وأثري فلا يرى لي أثر ولا عين. قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وحدثته، فإذا كان عندنا إنسان سمعتُ تسبيحه في بطني. ﴿فَتَذَاهَبَا﴾ [مريم: ٢٤] جبرائيل ﴿مِنْ تَحْتِهَا- أَي من أسفل الجبل- أَلَا تَخْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سِرًّا﴾ [مريم: ٢٤]، وهو النهر الصغير، أجراه تحتها، فمن قرأ: مِنْ تَحْتِهَا، بكسر الميم، جعل المنادي جبرائيل، ومن فتحها قال إنه عيسى، أنطقه الله، ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، كان جذعاً مقطوعاً فهزته فإذا هو نخلة، وقيل: كان مقطوعاً فلما أجدها الطلق احتضته فاستقام وأخضر وأرطب، فقيل لها: ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] فهزته فتساقط الرطب فقال لها: ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَفَرِّي عَيْنًا، فَإِمَّا تَرَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، وكان مَنْ صام في ذلك الزمان لا يتكلم حتى يمسي.

فلما ولدته ذهب إليس فأخبر بني إسرائيل أنه مريم قد ولدت، فأقبلوا يشتنون بدعوتها، ﴿فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [مريم: ٢٧].

وقيل: إن يوسف النجار تركها في مغارة أربعين يوماً ثم جاء بها إلى (٣١١/١) أهلها، فلما راوها قالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أَخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيِّيًّا﴾ [مريم: ٢٨، ٢٧]، فما بالكَ أنت؟ وكانت من نسل هارون أخي موسى، كذا قيل.

قلت: إنها ليست من نسل هارون إنما هي من سبط يهوذا بن يعقوب من نسل سليمان بن داود، وإنما كانوا يُدعون بالصالحين، وهارون من ولد لاوي بن يعقوب.

قالت لهم ما أمرها الله به، فلما أرادوها بعد ذلك على الكلام ﴿أَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩] ففضضوا وقالوا: لَسُرَّيْهَا بِنَا أَشَدَّ عَلَيْنَا مِنْ زَنَاهَا. ﴿قَالُوا: كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهَلِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، فتكلم عيسى فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي

وقد ذكرنا حال مريم في خدمة الكنيسة، وكانت هي وابن عمها يوسف بن يعقوب بن ماثان النجار يليان خدعة الكنيسة، وكان يوسف حكيماً نجاراً يعمل يديه ويتصدق بذلك. وقالت النصارى: إن مريم كان قد تزوجها يوسف ابن عمها إلا أنه لم يقربها إلا بعد رفع المسيح، والله أعلم.

وكانت مريم إذا نفذ ماؤها وماء يوسف ابن عمها أخذ كل واحد منهما قلته وانطلق إلى المغارة التي فيها الماء يستعذبان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة، (٣٠٨/١) فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبرائيل نفذ ماؤها فقالت ليوسف ليذهب معها إلى الماء، فقال: عندي من الماء ما يكفيني إلى غد، فأخذت قلته وانطلقت وحدها حتى دخلت المغارة، فوجدت جبرائيل قد مثله الله ﴿لَهَا بَشْرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، فقال لها: يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكَ ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]. ﴿قَالَتْ: إِنِّي أَعُودُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَبِيًّا﴾ [مريم: ١٨] أي مطيعاً لله، وقيل: هو اسم رجل بعينه، وتحسبه رجلاً، ﴿قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَيِّيًّا- أَي زانية- قَالَ: كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ﴾، إلى قوله: ﴿أَمْرًا مُقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٩-٢١].

فلما قال ذلك استسلمت لقضاء الله، فنفيخ في جيب درعها ثم انصرف عنها وقد حملت بالمسيح، وملأت قلته وعاتد، وكان لا يعلم في أهل زمانها أعبد منها ومن ابن عمها يوسف النجار، وكان معها، وهو أول من أنكر حملها، فلم رأى الذي بها استظمه ولم يدر على ماذا يضع ذلك منها، فإذا أراد أن يهتمها ذكر صلاحها وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد يربتها رأى الذي بها، فلما اشتد ذلك عليه كلمها فكان أول كلامه لها أن قال لها: إنه قد وقع من أمرك شيء قد حرصتُ على أن أميته واكتمه فقليني، فقالت: قل قولاً جميلاً. فقال: حدثيني هل ينبت زرع بغير بذر؟ قالت: نعم. قال: فهل ينبت شجر بغير غيث يصيبه؟ قالت: نعم. قال: فهل يكون (٣٠٩/١) ولد بغير ذكر؟ قالت له: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه بغير بذر؟ ألم تعلم أن الله خلق الشجر من غير مطر؟ وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر بعدما خلق كل واحد منهما وحده؟ أو تقول لن يقدر الله على أن ينبت حتى يستعين بالبذر والمطر؟ قال يوسف: لا أقول هكذا ولكني أقول إن الله يقدر على ما يشاء، إنما يقول لذلك كن فيكون. قالت له: ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء من غير ذكر ولا أنثى؟ قال: بلى، فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله لا يسعه أن يسأله عنه لما رأى من كتمانها له.

وقيل: إنها خرجت إلى جانب الحجرات لحيض أصابها فاتخذت من دونهم حجاباً من الجدران، فلما طهرت إذا برجل معها، وذكر الآيات، فلما حملت أنها خلتها امرأة زكرياء ليلة تزورها، فلما فتحت لها الباب، التزمتها، فقالت امرأة زكرياء: إني جلي. فقالت لها

قال: إنه أخذه الأعمى والمقعّد، واشتركا فيه، حمل الأعمى المقعد فأخذه، فقبل للأعمى ليحمل المقعد، فأظهر العجز، فقال له المسيح: كيف قويّت على حمله البارحة لما أخذتما المال؟ فاعترفا وأعاداه.

ونزل بالدهقان أضياف ولم يكن عندهم شراب، فاهتمّ لذلك، فلمّا رآه عيسى دخل بيتاً للدهقان فيه صفّان من جرار فأمر عيسى يده على أفواهها وهو يمشي، فامتلاّت شراباً، وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة.

وكان في الكتاب يحدث الصبيان بما يصنع أهلوههم وبما كانوا يأكلون.

قال وهب: بينما عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام على صبيّ فضربه برجله فقتله فألقاه بين رجلي المسيح متلطحاً بالدم، فانطلقوا به إلى الحاكم في ذلك البلد فقالوا: قتل صبيّاً، فسأله الحاكم، فقال: ما قتله. فأرادوا أن يبطشوا به، فقال: إيتوني بالصبيّ حتى أسأله من قتله، فتعجّبوا من قوله وأحضروا عنده القتيل، فدعا الله فأحياه، فقال: من قتلك؟ فقال: قتلني فلان، يعني الذي قتله. فقال بنو إسرائيل للقتيل: من هذا؟ قال: (٣١٤/١) هذا عيسى بن مريم، ثمّ مات الغلام من ساعتها.

وقال عطاء: سلّمت مريم عيسى إلى صباغ يتعلّم عنده، فاجتمع عند الصباغ ثياب وعرض له حاجة، فقال للمسيح: هذه ثياب مختلفة الألوان وقد جعلت في كلّ ثوب منها خيطاً على اللون الذي يصيغ به فاصبغها حتى أعود من حاجتي هذه. فأخذها المسيح وألقاها في حُبّ واحد، فلمّا عاد الصباغ سأله عن الثياب فقال: صبغتُها. فقال: أين هي؟ قال: في هذا الحُبّ، قال: كلّها؟ قال: نعم. قال: لقد أفسدتُها على أصحابها! وتغيّظ عليه. فقال له المسيح: لا تعجل وانظر إليها، وقام وأخرجها كلّ ثوب منها على اللون الذي أراد صاحبه، فتعجّب الصباغ منه وعلم أنّ ذلك من الله تعالى.

ولمّا عاد عيسى وأمه إلى الشام نزلا بقرية يقال لها ناصرة، وبها سمّيت النصارى، فأقام إلى أن بلغ ثلاثين سنة، فأوحى الله إليه أن يبرز للنّاس ويدعوهم إلى الله تعالى ويداوي المرضى والزمنى والأكمة والأبرص وغيرهم من المرضى، ففعل ما أمّر به، وأحبّه النّاس، وكثر أتباعه، وعلا ذكروه.

وحضر يوماً طعام بعض الملوك كان دعا النّاس إليه، فقعّد على قصعة يأكل منها ولا تنقص، فقال الملك: من أنت؟ قال: أنا عيسى بن مريم. فنزل الملك عن ملكه وأتبعه في نفر من أصحابه فكانوا الحوارئين.

وقيل: إنّ الحوارئين هم الصباغ الذي تقدّم ذكره وأصحاب له، وقيل: كانوا صيادين، وقيل: قصّارين، وقيل: ملاّحين، والله أعلم.

مُبَارَكًا أَيَّمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا [مريم: ٣١، ٣٠]. فكان أوّل ما تكلم به العبوديّة ليكون أبلغ في الحجّة على من يعتقد أنّه إله.

وكان قومها قد أخذوا الحجارة ليرجموها، فلمّا تكلم ابنها تركوها. ثمّ لم يتكلّم بعدها حتى بمنزلة غيره من الصبيان، وقال بنو إسرائيل: ما أحبلها غير زكريّا فإنه هو الذي كان يدخل عليها ويخرج من عندها، فطلبوه ليقتلوه، ففرّ منهم، ثمّ أدركوه فقتلوه.

وقيل في سبب قتله غير ذلك، وقد تقدّم ذكره.

وقيل: إنّهُ لما دنا نفاسها أوحى الله إليها: أن اخرجي من أرض قومك: (٣١٢/١) فإنهم إن ظفروا بك عيروك وقتلوك وولسذك. فاحتملها يوسف النّجار وسار بها إلى أرض مصر، فلمّا وصلا إلى تخوم مصر أدركها المخاض، فلمّا وضعت وهي محزونة قيل لها: ﴿لَا تَحْزَنِي﴾، الآية إلى إنسياء، فكان الرطب يساقط عليها، وذلك في الشتاء، وأصبحت الأصنام منكوسة على رؤوسها، وفزعت الشياطين فجاؤا إلى إبليس، فلمّا رأى جماعتهم سألهم فأخبروه، فقال: قد حدث في الأرض حادث، فطار عند ذلك وغاب عنهم فمرّ بالمكان الذي وُلد فيه عيسى فرأى الملائكة محدقين به، فعلم أنّ الحدث فيه، ولم تمكنه الملائكة من الدنو من عيسى، فعاد إلى أصحابه وأعلمهم بذلك وقال لهم: ما ولدت امرأة إلّا وأنا حاضر، وإني لأرجو أن أضلّ به أكثر ممّن يهتدي.

واحتملته مريم إلى أرض مصر فمكثت اثنتي عشرة سنة تكتمه من النّاس، فكانت تلتقط السبيل والمهد في منكبها.

قلت: والقول الأوّل في ولادته بأرض قومها للقرآن أصحّ لقول الله تعالى: ﴿فَأَنثَتْ بِهِ قُوَّتَهَا تَحْمِيْلُهُ﴾ [مريم: ٢٧]، وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْلَمُ مِنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

وقيل: إنّ مريم حملت المسيح إلى مصر بعد ولادته ومعها يوسف النّجار، وهي الرّبوة التي ذكرها الله تعالى، وقيل: الرّبوة دمشق، وقيل: بيت المقدس، وقيل غير ذلك، فكان سبب ذلك الخوف من ملك بني إسرائيل، وكان من الروم، واسمه هيرودس، فإنّ اليهود أغروه بقتله، فساروا إلى مصر وأقاموا بها اثنتي عشرة سنة إلى أن مات ذلك الملك، وعادوا إلى الشام، وقيل: إنّ هيرودس لم يرد قتله ولم يسمح به إلّا بعد رفعه، وإنّما خافوا اليهود عليه، والله أعلم. (٣١٣/١)

ذكر نبوة المسيح وبعض معجزاته

لما كانت مريم بمصر نزلت على دهقان، وكانت داره يأوي إليها الفقراء والمساكين، فسرق له مال، فلم يتهم المساكين، فحزنت مريم، فلمّا رأى عيسى حزن أمّه قال: أتريدن أن أدله على ماله؟ قالت: نعم.

عقوبة! واليهود ينظرون (٣١٧/١) إلى شيء لم يروا مثله ولم يجدوا ريحاً طيباً من ريحها. فقال شمعون: يا روح الله آمن طعام الدنيا أم من طعام الجنة؟ فقال المسيح: لا من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، إنما هو شيء خلقه الله بقدرته. فقال لهم: كلوا مما سألتكم. فقالوا له: كُلْ أَنْتَ يَا رُوحَ اللَّهِ. فقال: معاذ الله أن أكل منها! فلم يأكل ولم يأكلوا منها، فدعا المرضى والزمنى والفقراء، فآكلوا منها، وهم ألف وثلاثمائة، فشبعوا، وهي بحالها لم تنقص، فصَحَّ المرضى والزمنى، واستغنى الفقراء، ثُمَّ صعدت وهم ينظرون إليها حتى توارت، وندم الحواريون حيث لم يأكلوا منها.

وقيل: إنَّها نزلت أربعين يوماً، كانت تنزل يوماً وتنقطع يوماً، وأمر الله عيسى أن يدعو إليها الفقراء دون الأغنياء، ففعل ذلك، فاشتدَّ على الأغنياء وجحدوا نزولها وشكَّوا في ذلك وشكَّوا غيرهم فيها، فأوحى الله إلى عيسى: إنَّي شرطتُ أن أعدبَ المكذِّبين عذاباً لا أعدبُ به أحداً من العالمين، فمسَخَّ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين رجلاً فأصبحوا خنازير. فلَمَّا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ فَرَعُوا إِلَى عِيسَى وَبَكَوا وَيَكِي عِيسَى عَلَى الْمَسْخُوحِينَ. فَلَمَّا أَبْصَرَتِ الْخَنَازِيرُ عِيسَى بَكَوا وَطَافُوا بِهِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَيَشِيرُونَ بِرُؤُوسِهِمْ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ، فَعَاشُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ هَلَكُوا.

ذكر رفع المسيح إلى السماء ونزوله إلى أمته وعوده إلى السماء

قيل: إنَّ عيسى استقبله ناسٌ من اليهود، فلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: قد جاء الساحر ابن الساحرة الفاعل ابن الفاعلة! وقذفوه وأمه، فسمع ذلك ودعا عليهم، (٣١٨/١) فاستجاب الله دعاءهم ومسَّخهم خنازير، فلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَأْسُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَعَ وَخَافَ وَجَمَعَ كَلِمَةَ الْيَهُودِ عَلَى قَتْلِهِ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، فَسَالُوهُ، فَقَالَ: يا معشر اليهود إنَّ الله يبخسكم، فغضبوا من مقالته وثأروا إليه ليقتلوه، فبعث إليه جبرائيل فأدخله في خوخة إلى بيت فيها روزنة في سقفها فرفعه إلى السماء من تلك الروزنة، فأمر رأس اليهود رجلاً من أصحابه اسمه قطيانوس أن يدخل إليه فيقتله، فدخل فلم يرَ أحداً، وألقى الله عليه شبه المسيح، فخرج إليهم فظنَّوه عيسى، فقتلوه وصلبوه.

وقيل: إنَّ عيسى قال لأصحابه: أيكم يحب أن يلتقى عليه شبهي وهو مقتول؟ فقال رجل منهم: أنا يا روح الله. فألقى عليه شبهه، فقتل وصلب.

وقيل: إنَّ الذي شُبَّه بعيسى وصلب رجل إسرائيلي اسمه يوشع أيضاً.

وقيل: لما أعلم الله المسيح أنه خارج من الدنيا جزع من الموت فدعا الحواريين فصنع لهم طعاماً فقال: احضروني الليلة فإنَّ لي إليكم

(٣١٥/١) وكانت عدَّتْهم اثني عشر رجلاً، وكانوا إذا جاعوا أو عطشوا قالوا: يا روح الله قد جُفِّنا وعطشنا، فيضرب يده إلى الأرض فيُخرج لكل إنسان منهم رغيفين وما يشربون. فقالوا: مَنْ أَفْضَلُ مَنَّا، إِذَا شَبَّنا أَطْعَمْتَنَا وَسَقَيْتَنَا؟ فقال: أَفْضَلُ مَنكُمْ مَنْ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ، فَصَارُوا يَغْسِلُونَ الثِّيَابَ بِالْأَجْرَةِ.

ولما أرسله الله أظهر من المعجزات أنه صوّر من الطين صورة طائر ثم نفخ فيه فيصير طائراً يأذن الله، قيل هو الخفَّاش.

وكان غالباً على زمانه الطب فأتاهم بما أبرأ الأكْمَه والأَبْرَص وأحيا الموتى تعجيزاً لهم، فممن أحياه عازر، وكان صديقاً لعيسى، فمرض، فأرسلت أخته إلى عيسى أن عازر يموت، فسار إليه وبينهما ثلاثة أيام، فوصل إليه وقد مات منذ ثلاثة أيام، فأتى قبره فدعا له فعاش، وبقي حتى وُلد له. وأحيا امرأة وعاشت وولدت لها. وأحيا سام بن نوح، كان يوماً مع الحواريين يذكر نوحاً والغرق والسفينة فقالوا: لو بعثت لنا مَنْ شَهِدَ ذَلِكَ فَأَتَى تَلًا وَقَالَ: هَذَا قَبْرُ سَامِ بْنِ نُوحٍ، ثُمَّ دَعَا اللَّهَ فَعَاشَ، وَقَالَ: قَدْ قَامَتِ الْقِيَامَةُ؟ فَقَالَ الْمَسِيحُ: لَا وَلَكِنْ دَعَوْتُ اللَّهَ فَأَحْيَاكَ، فَسَالُوهُ فَأَخْبَرَهُمْ، ثُمَّ عَادَ مَيِّتاً. وَأَحْيَا عَزِيرًا النَّبِيَّ، قَالَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ: أَحْيِ لَنَا عَزِيرًا وَإِلَّا أَحْرَقْنَاكَ. فدعا الله فعاش، فقالوا: ما تشهد لهذا الرجل؟ قال: أشهد أنه عبد الله ورسوله. وأحيا يحيى بن زكريا. وكان يمشي على الماء. (٣١٦/١)

ذكر نزول المائدة

وكان من المعجزات العظيمة نزول المائدة.

وسبب ذلك: أنَّ الحواريين قالوا له: يا عيسى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ؟﴾ [المائدة: ١١٢] فدعا عيسى فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤]، فأنزل الله المائدة عليها خبز ولحم يأكلون منها ولا تنفد. فقال لهم: إنَّها مقيمة ما لم تدخروا منها. فما مضى يومهم حتى ادخروا. وقيل: أقبلت الملائكة تحمِلُ المائدة عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم؛ وقيل: كان عليها من ثمار الجنة، وقيل: كانت تمدُّ بكلِّ طعام إلا اللحم، وقيل: كانت سمكة فيها طعم كلِّ شيء، فلَمَّا أَكَلُوا منها، وهم خمسة آلاف، وزادت حتى بلغ الطعام ركبهم، قالوا: نشهد أنك رسول الله، ثم تفرقوا فتحدَّثوا بذلك. فكذب به مَنْ لَمْ يَشْهده، وقالوا: سحر أعينكم، فافتتن بعضهم وكفر، فمسَّخوا خنازير ليس فيهم امرأة ولا صبي، فبقوا ثلاثة أيام، ثُمَّ هَلَكُوا وَلَمْ يَتَوَالِدُوا.

وقيل: كانت المائدة سفرة حمراء تحتها غمامة وفوقها غمامة وهم ينظرون إليها تنزل حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين! اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثله ولا

ففرّق الحواريّون حيث أمرهم، فلكّ الليلة التي أبطه الله فيها هي التي تدخن فيها النصارى.

وتعدّى اليهود على بقيّة الحواريّين يعذّبونهم ويشتمونهم، فسمع بذلك ملك الروم، واسمه هيرودس، وكانوا تحت يده، وكان صاحب وثن، فقيل له: إنّ رجلاً كان في بني إسرائيل وكان يفعل الآيات من إحياء الموتى وخلق الطير من الطين والإخبار عن الغيوب فعدوا عليه فقتلوه، وكان يخبرهم أنه رسول الله، فقال الملك: ويحكم ما منعكم أن تذكروا هذا من أمره، فوالله لو علمت ما خليت بينهم وبينه! ثمّ بعث إلى الحواريّين فانتزعهم من أيدي اليهود وسألهم عن دين عيسى، فأخبروه، وتابعهم على دينهم واستنزل (٣٢١/١) المصلوب الذي شبّه لهم فغيّه، وأخذ الخشبة التي صُلب عليها فأكرمها وصانها، وعدا على بني إسرائيل فقتل منهم قتلى كثيرة، فمن هناك كان أصل النصرانيّة في الروم.

وقيل: كان هذا الملك هيرودس ينوب عن ملك الروم الأعظم الملقّب قيصر، واسمه طياريوس، وكان هذا أيضاً يسمّى ملكاً. وكان مُلك طياريوس ثلاثاً وعشرين سنة، منها إلى ارتفاع المسيح ثماني عشرة سنة وآيام. (٣٢٢/١)

ذكر من ملك من الروم بعد رفع المسيح

إلى عهد نيّنا محمد، ﷺ

زعموا أنّ مُلك الشام جميعه صار بعد طياريوس إلى ولده جايوس، وكان ملكه أربع سنين.

ثمّ ملك بعده ابنٌ له آخر اسمه فلودبوس أربع عشرة سنة.

ثمّ ملك بعده نيرون الذي قتل بطرس وبولس فصلبهما منكرين أربع عشرة سنة.

ثمّ ملك بعده بوطلايس أربعة أشهر.

ثمّ ملك اسفسيانوس، وهذا الذي وجّه ابنه طيطوس إلى البيت المقدس فهدمه وقتل من بني إسرائيل غضباً للمسيح، ثمّ ملك ابنه طيطوس.

ثمّ ملك أخوه رومطيانوس ست عشرة سنة.

ثمّ ملك بعده نارواس ست سنين.

ثمّ ملك من بعده طرايانوس تسع عشرة سنة.

ثمّ ملك بعده هديانوس إحدى وعشرين سنة، ثمّ ملك من بعده أنطونينوس بن بطيانوس اثنتين وعشرين سنة.

ثمّ ملك مرقوس وأولاده تسع عشرة سنة. ثمّ ملك بعده

حاجة، فلمّا اجتمعوا عشاءهم وقام يخدمهم. فلمّا فرغوا أخذ يغسل أيديهم بيده ويمسحها بياحه، فتعاضلوا ذلك وكرهوه. فقال: من يردّ عليّ اللّيلة شيئاً ممّا أصنع فليس مني، فأقروه حتى فرغ من ذلك، ثمّ قال: أمّا ما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة فلا يتعاضم بعضكم على بعض، وأمّا حاجتي التي أستغيثكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخّر أجلي. فلمّا نصبوا أنفسهم للدعاء أخذهم النوم حتى ما يستطيعون الدعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله ما تصبرون لي ليلة! قالوا: (٣١٩/١) والله ما ندرى ما لنا، لقد كنّا نسمّر فنكثر السمر وما نقدر عليه اللّيلة، وكلّما أردنا الدعاء حيل بيننا وبينه. فقال: يذهب بالراعي ويتفرّق الغنم؛ وجعل ينعى نفسه، ثمّ قال: ليكرّفنّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرّات، وليبني أحدكم بدرهم يسيرة ولياكلنّ ثمنى.

فخرجوا وتفرّقوا، وكانت اليهود تطلبه، فأخذوا شمعون، أحد الحواريّين، وقالوا: هذا صاحبه.

واختلف العلماء في موته قبل رفعه إلى السماء، فقيل: رُفع ولم يمت، وقيل: توفاه الله ثلاث ساعات، وقيل سبع ساعات ثمّ أحياه ورفع، ولما رُفع إلى السماء قال الله له: انزل، فلمّا قالوا للشمعون عن المسيح جحد وقال: ما أنا صاحبه! فتركوه. فعلموا ذلك ثلاثاً، فلمّا سمع صياح الديك بكى وأحزنه ذلك. وأتى أحد الحواريّين إلى اليهود فدلّهم على المسيح وأعطوه ثلاثين درهماً فأثى معهم إلى البيت الذي فيه المسيح، فدخله، فرفع الله المسيح وألقى شبهه على الذي دلّهم عليه، فأخذوه وأوثقوه وقادوه وهم يقولون له: أنت كنت تحيي الموتى وتفعل كذا وكذا فهلاًّ تجني نفسك؟ وهو يقول: أنا الذي دلّكم عليه، فلم يصغوا إلى قوله ووصلوا به إلى الخشبة وصلبوه عليها.

وقيل: إنّ اليهود لما دلّهم عليه الحواريّ اتبعوه وأخذوه من البيت الذي كان فيه ليصلبوه، فأظلمت الأرض، وأرسل الله ملائكة فحالوا بينهم وبينه، وألقى شبه المسيح على الذي دلّهم عليه، فأخذوه ليصلبوه، فقال: أنا الذي (٣٢٠/١) دلّكم عليه، فلم يلتفتوا إليه فقتلوه وصلبوه عليها، ورفع الله المسيح إليه بعد أن توفاه ثلاث ساعات، وقيل: سبع ساعات، ثمّ أحياه ورفع، ثمّ قال له: انزل إلى مريم، فإنّه لم ييك عليك أحد بكاءها ولم يحزن أحد حزنها، فنزل عليها بعد سبعة أيام، فاشتعل الجبل حين هبط نوراً، وهي عند المصلوب تبكي ومعها امرأة كان أبرأها من الجنون، فقال: ما شأنكما تبكيان؟ قالتا: عليك! قال: إني رفعتي الله إليه ولم يصيني إلّا خير، وإنّ هذا شيء شبّه لهم، وأمرها فجمعت له الحواريّين، فبثهم في الأرض رسلاً عن الله وأمرهم أن يبلغوا عنه ما أمره الله به، ثمّ رفعه الله إليه وكساه الريش واللبسه النور وقطع عنه لذّة الطعام والمشرب، وطار مع الملائكة، فهو معهم، فصار إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً.

قومودوس ثلاث عشرة سنة.

ثم ملك من بعده فرطيناجوس ستة أشهر.

ثم ملك بعده سيواروش أربع عشرة سنة.

ثم ملك بعده انطينانوس سبع سنين، ثم ملك من بعده مرقيانوس ست سنين.

ثم ملك من بعده انطينانوس سبع سنين.

ثم ملك من بعده مرقيانوس ست سنين.

ثم ملك من بعده انطينانوس أربع سنين، وفي ملكه مات جالينوس الطبيب.

ثم ملك الخسندروس ثلاث عشرة سنة.

ثم ملك مكسيمانوس ثلاث سنين.

ثم ملك جورديانوس ست سنين.

ثم فيلقوس سبع سنين.

ثم ملك داقبوس ست سنين.

ثم ملك قالوس ست سنين.

ثم ملك والريانوس وقالينوس خمس عشرة سنة.

ثم ملك قلوديوس سنة.

ثم ملك قريطاليوس شهرين.

ثم ملك أورليانوس (٢٢٣/١) خمس سنين.

ثم ملك طيقطوس ستة أشهر.

ثم ملك فولورنوس خمسة وعشرين يوماً.

ثم ملك فرويوس ست سنين.

ثم ملك دقلطيانوس ست سنين.

ثم ملك محسيميانوس عشرين سنة.

ثم قسطنطين ثلاثين سنة.

ثم ملك يليانوس ستين.

ثم ملك يوانوس سنة.

ثم ملك والنطينانوس وخرطيانوس عشر سنين.

ثم ملك خرطيانوس ووالنطينانوس الصغير سنة.

ثم ملك تيداسيس الأكبر سبع عشرة سنة.

ثم ارقاديوس وانوريوس عشرين سنة.

ثم ملك تيداسيس الأصغر والنطينانوس ست عشرة سنة.

ثم ملك مرقيانوس سبع سنين.

ثم لاو ست عشرة سنة.

ثم ملك زانون ثمانى عشرة سنة.

ثم ملك أنسطاس سبعة وعشرين سنة.

ثم ملك يوسطينانوس تسع سنين.

ثم ملك يوسطينانوس الشيخ عشرين سنة.

ثم ملك يوسطيس اثنتي عشرة سنة.

ثم ملك طياريوس ست سنين.

ثم مريشس وتاداسيس ابنه عشرين سنة.

ثم ملك فوقا الذي قُتل سبع سنين وستة أشهر.

ثم هرقل الذي كتب إليه النبي ﷺ، ثلاث سنين.

فمن لدن عَورَ البيت المقدس بعد أن خربه بخت نصر إلى الهجرة، على قولهم، ألف سنة ونيف، ومن مُلك الإسكندر إليها تسعمائة ونيف وعشرون سنة، فمن ذلك من وقت ظهوره إلى مولد عيسى، عليه السلام، ثلاثمائة سنة وثلاث سنين، ومن مولده إلى ارتفاعه اثنتان وثلاثون سنة، ومن وقت ارتفاعه إلى الهجرة خمسمائة وخمس وثمانون سنة وأشهر.

هذا الذي ذكره أبو جعفر من عدد ملوك الروم، وقد أخلى ذكرهم عن شيء من الحوادث التي كانت في أيامهم، وقد سطرها غيره من العلماء بالتاريخ وخالفه في كثير منها ووافقه في الباقي مع مخالفة الاسم وأضاف إلى أسمائهم ذكر شيء من الحوادث في أيامهم، وأنا أذكره مختصراً إن شاء الله. (٣٢٤/١)

ذكر ملوك الروم، وهم ثلاث طبقات

فالطبقة الأولى الصابئون

ذكر غير واحد من علماء التاريخ أنَّ الروم غلبت اليونان، وهم ولد صوفير، والإسرائيليون يدعون أنَّ صوفير هو الأصغر بن نسر بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وكانوا ينزلون رومية قبل غلبتهم على اليونان، وكانوا يدينون قبل النصرانية بمذهب الصابئين، ولهم أصنام

يعبدونها على عادة الصابنين. فكان أول ملوكهم برومية غالبيوس،

وكان ملكه ثماني عشرة سنة، وقيل: كان ملك قبله روملس وارمانوس، وهما بنيها، وإليهما نُسبت، وأضيف الروم إليها، وأتما غلبوس أول من يُعد في التاريخ لشهرته، ثم ملك بعده يوليوس أربع سنين وأربعة أشهر، ثم ملك أوغسطس، ومعناه الصياء، وهو أول من سُمي قيصر. وتفسير ذلك أنه شق عنه بطن أمه لأنها ماتت وهي حامل به، فأخرج من بطنها، ثم صار ذلك لقباً لملوكهم، وكان ملكه ستاً وخمسين سنة وخمسة أشهر، وأكثر المؤرخين يبتدون باسمه لأنه أول من خرج من رومية وسير الجشود براً وبحراً، وغزا اليونانيين، واستولى على ملكهم، وقتل قلوبطرة آخر ملوكهم، واستولى على الإسكندرية ونقل ما فيها إلى رومية، وملك الشام، واضمحل ملك اليونانيين، ودخلوا في الروم، واستخلف على البيت المقدس هيرودس بن أنطيقوس، ولأثنين وأربعين سنة من ملكه كانت ولادة المسيح، وهو الذي بنى قيصرية.

ثم ملك بعده طيباريوس ثلاثاً وعشرين سنة، وهو الذي بنى مدينة طبرية، فأضيفت إليه، وعُربها العرب؛ وفي ملكه رُفِع المسيح عليه السلام، (٣٢٥/١) وملك بعد رفعه ثلاث سنين.

ثم ملك بعده غايوس أربع سنين، وهو الذي قتل اصطفنوس رئيس الشمامسة عند النصارى ويعقوب أخا يوحنا بن زبدي، وهما من الحواريين، وقتل خلقاً من النصارى، وهو أول الملوك من عبادة الأصنام قتل النصارى.

ثم ملك قلوديوس بن طيباريوس أربع عشرة سنة، وفي ملكه حُبِس شمعون الصفا، ثم خُلص شمعون من الحبس وسار إلى أنطاكية، فدعا إلى النصرانية، ثم سار إلى رومية فدعا أهلها أيضاً، فأجابته زوجة الملك وسارت إلى البيت المقدس وأخرجت الخشبة التي تزعم النصارى أن المسيح صُلب عليها، وكانت في أيدي اليهود، فأخذتها وردتها إلى النصارى.

ثم ملك نيرون ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر، وفي آخر ملكه قتل بطرس وبولس بمدينة رومية وصلبهما منكسين، وفي أيامه ظفرت اليهود بـيعقوب بن يوسف، وهو أول الأساقفة بالبيت المقدس، فقتلوه وأخذوا خشبة الصليب فدفنوها، وفي أيامه كان ماريونوس الحكيم صاحب كتاب الجغرافيا في صورة الأرض.

ثم ملك بعده غلباس سبعة أشهر.

ثم ملك أوثون ثلاثة أشهر.

ثم ملك بيطاليس أحد عشر شهراً، ثم ملك اسباسيانوس سبع سنين وسبعة أشهر، وفي أيامه خالف أهل البيت المقدس قيصر فحصرهم وافتتح المدينة عنوة وقتل كثيراً من أهلها من اليهود

والنصارى وعَهِم الأذى في أيامه.

ثم ملك ابنه طيطوس ستين وثلاثة أشهر، وفي أيامه أظهر مرقيون مقاتله بالاثنين، وهما: الخير والشر، وبعد ثالث بينهما، وإليه تُنسب المرقونية؛ وهو من أهل حران.

ثم ملك ذومطانش بن اسباسيانوس خمس عشرة سنة وعشرة أشهر، (٣٢٦/١) ولتسع سنين من ملكه نفى يوحنا الحواري كاتب الإنجيل إلى جزيرة في البحر ثم رده.

ثم ملك نرواس سنة وخمسة أشهر.

ثم ملك طرايانوس تسع عشرة سنة، وفي السادسة من ملكه توفي يوحنا كاتب الإنجيل بمدينة أفسيس.

ثم ملك إيليا اندريانوس عشرين سنة، وقتل من اليهود والنصارى خلقاً كثيراً لخلاف كان منهم عليه، وأخرب البيت المقدس، وهو آخر خراجه، فلما مضى من ملكه ثماني سنين عمره أيضاً وسماه إيليا، بقي الاسم عليه، فكان قبل ذلك يسمى أورشلم، وأسكن المدينة جماعة من الروم واليونان، وبنى هيكلاً عظيماً للزهرة، وكان عالي البنيان، فهدم من أعلاه كثير، وهو باق [إلى] يومنا هذا، وهو سنة ثلاث وستمائة، وقد رأيته، وهو محكم البناء، ولا أدري كيف نُسب إلى داود وقد بُني بعده بدهر طويل، على أنني سمعتُ بالبيت المقدس من جماعة يذكرون أن داود بناء وكان يتفرغ فيه لعبادته.

وفي أيام هذا الملك كان ساقيدس الفيلسوف الصامت.

ثم ملك أنطينيس بيوس اثنتين وعشرين سنة، وفي أيامه كان بطلميوس صاحب المجسطي والجغرافيا وغيرهما؛ وقيل: إنه من ولد قلوديوس، ولهذا قيل له القلودي نسبة إليه، وهو السادس من ملوك الروم. ودليل كونه في هذا الزمان وليس من ملوك اليونان أنه ذكر في كتاب المجسطي أنه رصد الشمس بالإسكندرية سنة ثمانمائة وثمانين ليخت نصراً، وكان من ملك بخت نصراً إلى قتل دارا أربعمائة وتسع وعشرون سنة وثلاثمائة وستة عشر يوماً، ومن قتل دارا إلى زوال ملك قلوبطرة الملكة آخر ملوك اليونان على يد أوغسطس مائتا سنة وست وثمانون سنة، ومذ غلبه أوغسطس إلى أنطينوس مائة ومسيح (٣٢٧/١) وستون سنة، فمذ ملك بخت نصراً إلى أدريانوس ثمانمائة وثلاث وثمانون سنة تقريباً، وهذا موافق لما حكاه بطلميوس.

قال: ومن زعم أن ابن قلوبطرة آخر ملوك اليونانيين فقد أبطل ذكر هذا بعض العلماء بالتاريخ وعد ملوك اليونان وذكر مدة ملكهم على ما قال.

وأما أبو جعفر الطبري فإنه ذكر مدة ملكهم مائتي سنة وسبعاً

وعشرين سنة، على ما تقدّم ذكره.

للقرآن، ولولا نصّ القرآن لكان استقام له ما يريد.

ثمّ ملك بعده غالوريوس ستّين، وكان شريكه في الملك يوليانيوس، ملك خمس عشرة سنة.

ثمّ ملك قلوديوس.

ثمّ ملك ابنه اورليانوس ستّ سنين.

ثمّ ملك طافسطوس وأخوه فورس تسعة أشهر.

ثمّ برويس تسع سنين.

ثمّ ملك فاروس ستّين وخمسة أشهر.

ثمّ ملك دقلطيانوس سبع عشرة سنة.

ثمّ ملك مقسيمانوس وشاركه مقسنيوس، ثمّ اقتلا فاقنسما الملك، فملك (٣٢٩/١) الأبّ على الشام وبلاد الجزيرة وبعض الروم، وملك الابن رومية وما اتصل بها من أرض الفرنج، وملكا تسع سنين، وتملّك معهما قسطنس أبو قسطنطين بلاد بونطيا وما يليها، وهي نواحي القسطنطينية، ولم تكن بنيت حينئذ، ثمّ مات قسطنس وملك بعده ابنه قسطنطين المعروف بأبّه هيلاني، وهو الذي تنصّر.

قال: ومن أوّل ملوك الروم إلى هاهنا كانوا شبيهاً بملوك الطوائف لا ينضبط عددهم، وقد اختلف النّاس فيهم كاختلافهم في ملوك الطوائف، وإنّما الذي يعوّل عليه من قسطنطين إلى هرقل الذي بُعث محمّد، ﷺ، في أيامه، ولقد صدق قائل هذا فإنّ فيه من الاختلاف والتناقض ما ذكرنا بعضه عند ذكر دقيوس وأصحاب الكهف، ولهذه العلّة لم يذكر الطبري أصحاب الكهف في زمان أيّ الملوك كانوا، وإنّما ذكرنا نحن لما في أيام الملوك من الحوادث.

الطبقة الثانية من ملوك الروم المنتصرة

ثمّ ملك قسطنطين المعروف بأبّه هيلاني في جميع بلاد الروم، وجرى بينه وبين مقسيمانوس وابنه حروب كثيرة، فلمّا ماتا استولى على الملك وتفرّد به، وكان ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وهو الذي تنصّر من ملوك الروم وقاتل عليها حتى قبلها النّاس ودانوا بها إلى هذا الوقت.

وقد اختلفوا في سبب تنصّره، قيل: إنّ كان به برص وأرادوا نزعه (٣٣٠/١) فأشار عليه بعض وزرائه ممّن كان يكتّم النصرانية بإحداث دين يقاتل عليه ثمّ حسن له النصرانية ليساعده من دان به، ففعل ذلك. فتبعه النصارى من الروم مع أصحابه وخاصته، فتوي بهم وقهر ممّن خالفه، وقيل: إنّ سيرة عساكر على أسماء أصنامهم، فانهزمت العساكر. وكان لهم سبعة أصنام على أسماء الكواكب السبعة، على عادة الصابئين، فقال له وزير له يكتّم النصرانية في هذا

ثمّ ملك بعده مرقس، ويسمّى أورليوس، تسع عشرة سنة، وفي ملكه أظهر ابن ديسان مقالته، وكان أسقفاً بالرّهاء، وهو من القائلين بالاثنتين، ونُسب إلى نهر على باب الرّهاء يسمّى ديسان وجد عليه منبؤذاً، وبني على هذا النهر كنيسة.

ثمّ ملك قومودوس اثنتي عشرة سنة، وفي أيامه كان جالينوس قد أدرك بطلميوس القلودي، وكان دين النصرانية قد ظهر في أيامه وذكرهم في كتابه في: جوامع كتاب أفلاطون في السياسة.

ثمّ ملك برطينقش ثلاثة أشهر.

ثمّ ملك يوليانيوس شهرين.

ثمّ ملك سيوارس سبع عشرة سنة، وشمل اليهود والنصارى في أيامه القتل والتشريد، وبني بالإسكندرية هيكلًا عظيمًا سمّاه هيكل الآلهة.

ثمّ ملك أنطونيوس ستّ سنين.

ثمّ ملك مقرونيوس سنة وشهرين.

ثمّ ملك أنطونيوس الثاني أربع سنين.

ثمّ ملك الاكسندروس، ويلقب مامياس، ثلاث عشرة سنة.

ثمّ ملك مقسيمانوس ثلاث سنين.

ثمّ ملك مقسموس ثلاثة أشهر.

ثمّ ملك غرديانوس ستّ سنين.

ثمّ ملك فيلبوس ستّ سنين، (٣٢٨/١) وتنصّر وترك دين الصابئين وتبعه كثير من أهل مملكته واختلفوا لذلك، وكان فيمن خالفه بطريق يقال له داقبوس، قتل فيلبوس واستولى على الملك، ثمّ ملك بعد فيلبوس داقبوس ستّين وتبع النصارى، فهرب منه أصحاب الكهف إلى غار في جبل شرقي مدينة أفسيس، وقد خربت المدينة، وكان لبيهم فيه مائة وخمسين سنة.

وهذا باطل لأنّه على هذا السياق من حين رفع المسيح إلى الآن نحو مائتي سنة وخمسة عشرة سنة، وكان لبي أصحاب الكهف على ما نطق به القرآن المجيد ﴿ثَلَاثِمِائَةٍ سِتِّينَ وَارْتَدَّادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] فذلك خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة، فعلى هذا يكون ظهورهم قبل الإسلام بنحو ستّين سنة، وقد ذكرنا من لدن ظهورهم إلى الهجرة زيادة على مائتي سنة، فهذه الجملة أكثر من الفترة بين المسيح والنبي، عليهما الصلاة والسلام، إلّا أنّ هذا الناقل قد ذكر أنّ غيبتهم كانت مائة وخمسين سنة على ما نراه مذكوراً، وفيه مخالفة

ملكه كان السنهودس الثاني بمدينة القسطنطينية، اجتمع فيه مائة وخمسون أسقفًا لعنوا مقدونس وأشياعه، وكان فيه بطرق الإسكندرية ويطرق أنطاكية ويطرق البيت المقدس، والمدن التي يكون فيها كراسي البطرق أربع: إحداهما رومية، وهي لبطرس الحواري، والثانية الإسكندرية، وهي لمقرس أحد أصحاب الأنجيل الأربعة، والثالثة (٣٣٢/١) القسطنطينية، والرابعة أنطاكية، وهي لبطرس أيضاً. ولثماني سنين من ملكه ظهر أصحاب الكهف.

ثم ملك بعده أرقاديوس بن تدوس ثلاث عشرة سنة.

ثم ملك تدوس الصغير بن تدوس الكبير اثنتين وأربعين سنة، وإحدى وعشرين سنة من ملكه كان السنهودس الثالث بمدينة أفسس، وحضر هذا المجمع ماتا أسقف، وكان سببه ما ظهر من نسطورس بطرق القسطنطينية، وهو رأس النسطورية من النصارى، من مخالفة مذهبهم، فلعنوه ونفوه، فسار إلى صعيد مصر فأقام ببلاد إخميم ومات بقرية يقال لها سيصلح، وكثر أتباعه، وصار بسبب ذلك بينهم وبين مخالفيهم حرب وقتال، ثم ثرت مقاتله إلى أن أحيها برصوما مطران نصيبين قديماً.

ومن العجائب أن الشهرستاني مصنف كتاب: نهاية الاقدام في الأصول، ومصنف كتاب: الملل والنحل، في ذكر المذاهب والآراء القديمة والجديدة، ذكر فيه أن نسطور كان أيام المأمون، وهذا تفرد به، ولا أعلم له في ذلك موافقاً.

ثم ملك بعده مرقيان ست سنين، وفي أول سنة ملكه كان السنهودس الرابع على تسقرس بطرق القسطنطينية، اجتمع فيه ثلاثمائة وثلاثون أسقفًا، وفي هذا المجمع خالفت يعقوبية سائر النصارى.

ثم ملك ليون الكبير ست عشرة سنة.

ثم ملك ليون الصغير سنة، وكان يعقوبي المذهب.

ثم ملك زنون مسيح سنين، وكان يعقوبياً، فزهد في الملك فاستخلف ابناً له، فهلك، فعاد إلى الملك.

ثم ملك نسطاس سبعاً وعشرين سنة، وكان يعقوبي المذهب، وهو الذي بنى عمورية، فلما حفر أساسها (٣٣٣/١) أصاب فيه مالا وفي بالنفقة على بنائها وفضل منه شيء بنى به بيتاً وأديرة.

ثم ملك يوسطين سبع سنين، وأكثر القتل في يعقوبية.

ثم ملك يوسطانوس تسعاً وعشرين سنة، وبنى بالرها كنيسة عجبية، وفي أيامه كان السنهودس الخامس بالقسطنطينية، فحرموا أدرحيا أسقف منيع لقلوه بتناسخ الأرواح في أجساد الحيوان، وإن الله يفعل ذلك جزاء لما ارتكبه. وفي أيامه كان بين البعاقبة والملكية

وأزرى بالأصنام وأشار عليه بالنصيرية، فأجابته، فظفر، ودام ملكه؛ وقبل غير ذلك.

وهو الذي بنى مدينة القسطنطينية ثلاث سنين خلست من ملكه بمكانها الآن، اختاره لحصانه، وهي على الخليج الآخذ من البحر الأسود إلى بحر الروم، والمدينة على البر المتصل برومية وبلاد الفرنج والأندلس؛ والروم تسميها استنبول، يعني مدينة الملك.

ولعشرين سنة مضت من ملكه مكان السنهودس الأول بمدينة نيقية من بلاد الروم، ومعناه الاجتماع، فيه ألفان وثمانية وأربعون أسقفًا، فاختر منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا متفقين غير مختلفين، فحرموا أريوس الإسكندراني الذي يضاف إليه الأريوسية من النصارى، ووضع شرائع النصيرية بعد أن لم تكن، وكان رئيس هذا المجمع بطرق الإسكندرية.

وفي السنة السابعة من ملكه سارت أمه هيلاني الرهاوية، كان أبوه سبأها من الرها، فأولدها هذا الملك، فسارت إلى البيت المقدس وأخرجت الخشية التي تزعم النصارى أن المسيح صلب عليها، وجعلت ذلك اليوم عيداً، فهو عيد الصليب، وبنت الكنيسة المعروفة بقمامة، وتسمى القيامة، وهي إلى وقتنا هذا يحجها أنواع النصارى، وقيل: كان مسيرها بعد ذلك لأن ابنها (٣٣١/١) دان بالنصيرية في قول بعضهم بعد عشرين سنة من ملكه. وفي السنة الحادية والعشرين من ملكه طبق جميع ممالكه بالبيع هو وأمه، منها: كنيسة حمص، وكنيسة الرها، وهي من العجائب.

ثم ملك بعده قسطنطين أنطاكية أربعاً وعشرين سنة بعهد من أبيه إليه وسلم إليه القسطنطينية، وإلى أخيه قسطنس أنطاكية والشام ومصر والجزيرة، وإلى أخيه قسطنس رومية وما يليها من بلاد الفرنج والصقالة، وأخذ عليهما المواثيق بالانقياد لأخيهما قسطنطين.

ثم ملك بعده يوليانوس ابن أخيه ستين، وكان يدين بمذهب الصابئين ويخفي ذلك. فلما ملك أظهرها وخرّب البيع وقتل النصارى، وهو الذي سار إلى العراق أيام سابور بن أردشير فقتل بسهم غرب؛ وقد ذكر أبو جعفر خبر هذا الملك مع سابور ذي الأكتاف وهو بعد سابور بن أردشير.

ثم ملك بعده يوليانوس سنة فأظهر دين النصيرية ودان بها وعاد عن العراق.

ثم ملك بعده ولطيوش اثني عشرة سنة وخمسة أشهر.

ثم ملك والنس ثلاث سنين وثلاثة أشهر.

ثم ملك والنطيانوس ثلاث سنين.

ثم ملك تدوس الكبير، ومعناه عطية الله، تسع عشرة سنة، وفي

ثم ملك هرقل الأصغر بن قسطنطين أربع سنين وثلاثة أشهر، ثم ملك قسطنطين بن قسطنطين ثلاث عشرة سنة بعض أيام معاوية وآيام يزيد وابنه معاوية ومروان بن الحكم وصدرًا من أيام عبد الملك.

ثم ملك أسطينان، المعروف بالآخرم، تسع سنين أيام عبد الملك، ثم خلعه الروم وخرموا أنفه وحمل إلى بعض الجزائر، فهرب ولحق بملك الخزر واستنجد فلم ينجده، فانتقل إلى ملك برجان.

ثم ملك بعده لونطش ثلاث سنين أيام عبد الملك، ثم ترك الملك وترهب.

ثم ملك ابسمير، المعروف بالطرسوسي، سبع سنين، فقصد أسطينان معه برجان وجرى بينهما حروب كثيرة وظفر به أسطينان وخلعه وعاد إلى ملكه، فكان ذلك أيام الوليد بن عبد الملك. واستقر أسطينان، وكان قد شرط لملك برجان أن يحمل إليه خراجاً كل سنة، فعسف الروم وقتل بها خلقاً كثيراً، فاجتمعوا عليه وقتلوه، فكان ملكه الثاني ستين ونصفاً، وكان قتله أول دولة سليمان بن عبد الملك؛ ثم ملك نسطاس بن فيلفوس، وكان في أيامه اختلاف بين الروم فخلعوه ونفوه.

ثم ملك تيدوس المعروف بالأرميني في أيام سليمان بن عبد الملك أيضاً، وهو الذي حصره مسلمة بن عبد الملك.

ثم ملك بعده اليون بن قسطنطين لضعفه عن الملك، وضمن اليون للروم رد المسلمين عن القسطنطينية، فملكوه، فكان ملكه ستاً وعشرين سنة، ومات في السنة التي بوع فيها الوليد بن يزيد ابن عبد الملك.

ثم ملك بعده ابنه قسطنطين إحدى وعشرين سنة، وفي أيامه انقرضت (٣٣٦/١) الدولة الأموية، وتوفي لعشر سنين مضت من أيام المنصور.

ثم ملك بعده ابنه اليون تسع عشرة سنة وأربعة أشهر بقية أيام المنصور، وتوفي في خلافة المهدي.

ثم ملك بعده ريني امرأة اليون بن قسطنطين، ومعها ابنها قسطنطين ابن اليون، وهي تدبر الأمر بقية أيام المهدي والهادي وصدرًا من خلافة الرشيد. فلما كبر ابنها أفسد ما بينه وبين الرشيد، وكانت أمه مهاندة له، فقصد الرشيد وجرى له معه وقعة، فانهزم وكاد يؤخذ، فكحلته أمه وانفردت بالملك بعده خمس سنين وهادنت الرشيد.

ثم ملك بعدها نقفور، أخذ الملك منها، وكان ملكه سبع سنين وثلاثة أشهر، وهو نقفور أبو استبراق، وكنت قد رأيته مضبوطاً بكثير من الكتب بسكون القاف، حتى رأيت رجلاً زعم أن اسمه نقفور،

ببلاد مصر قن؛ وفي أيامه تار اليهود بالمقدس وجبل الخليل على النصراني فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وبنى الملك من البيع والأديرة شيئاً كثيراً.

ثم ملك يوسطينوس ثلاث عشرة سنة، وفي أيامه كان كسرى انوشروان.

ثم ملك طباريوس ثلاث سنين وثمانية أشهر، وكان بينه وبين انوشيروان مراسلات ومهاداة، وكان مفرى بالبناء وتحسينه وتزيينه.

ثم ملك موزيق عشرين سنة وأربعة أشهر، وفي أيامه ظهر رجل من أهل مدينة حماة يعرف بمارون إليه تنسب المارونية من النصراني، وأحدث رأياً يخالف من تقدمه، وتبعه خلق كثير بالشام، ثم إنهم انقرضوا ولم يعرف الآن منهم أحد.

وهذا موزيق هو الذي قصده كسرى أبريز حين انهزم من بهرام جوبين فزوجه ابنته وأمدّه بمساركه وأعادته إلى ملكه، على ما نذكره إن شاء الله.

ثم ملك بعده فوقاس، وكان من بطارقة موزيق، فوثب به فاغتاله فقتله (٣٣٤/١) وملك الروم بعده، وكان ملكه ثماني سنين وأربعة أشهر، ولما ملك تتبع ولد موزيق وحاشيته بالقتل. فلما بلغ ذلك أبريز غضب وسير الجنود إلى الشام ومصر فاحتوى عليهما وقتلوا من النصراني خلقاً كثيراً، وسير ذلك عند ذكر أبريز.

ثم ملك هرقل، وكان سبب ملكه أن عساكر الفرس لما فتكت في الروم ساروا حتى نزلوا على خليج القسطنطينية وحصروها، وكان هرقل يحمل الميرة في البحر إلى أهلها، فحسن موقع ذلك من الروم وبانت شهامته وشجاعته وأحبّه الروم فحملهم على الفتك بفوقاس وذكرهم سوء آثاره، ففعلوا ذلك وقتلوه وملكوا عليهم هرقل.

ذكر الطبقة الثالثة من ملوك الروم بعد الهجرة

فأولهم هرقل، قد ذكر سبب ملكه، وكان مدة ملكه خمساً وعشرين سنة، وقيل: إحدى وثلاثين سنة، وفي أيامه كان النبي ﷺ، ومنه ملك المسلمون الشام.

ثم ملك بعده ابنه قسطنطين، وقيل: هو ابن أخيه قسطنطين، وكان ملكه تسع سنين وستة أشهر، وسير خبره عند ذكر غزاة الصواري، إن شاء الله.

وفي أيامه كان السنهدوس السادس على لعن رجل يقال له قورس الإسكندري (٣٣٥/١) خالف الملكية ووافق المارونية.

ثم ملك بعده ابنه قسطنطين خمس عشرة سنة في خلافة علي، عليه السلام، ومعاوية.

بفتح القاف.

ثم ملك بعده قسطنطين بن اليون، وهو ضيبي، وتولى الأمر له بطريق البحر، واسمه ارمانوس، وشرط على نفسه شروطاً، منها أنه لا يطلب الملك ولا يلبس التاج لا هو ولا أحد من أولاده، فلم يمض غير ستين حتى خوطب هو وأولاده بالملوك وجلس مع قسطنطين على السرير، (٣٣٨/١) وكان له ثلاثة من الولد، فخصى أحدهم وجعله بطرقاً ليأمن من المنازعة، فإنَّ البطرق يحكم على الملك، فبقي على حاله إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، فاتفق ابنائه مع قسطنطين الملك على إزالة أبيهما، فدخلوا عليه وقبضاه وسيروه إلى دير له في جزيرة بالقرب من القسطنطينية، وأقام ولده مع قسطنطين نحو أربعين يوماً وأرادا الفتك به، فسيقهما إلى ذلك وقبض عليهما وأخذاهن أهل تلك الجزيرة فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى قسطنطين الملك، فحجز لقتله.

وأما ارمانوس فإنه مات بعد أربع سنين من ترهبه. ودام ملك قسطنطين بقية أيام المقتدر والقاهر والراضي والمستكفي وبعض أيام المطيع، ثم خرج على قسطنطين هذا قسطنطين بن أندرونقس، وكان أبوه قد توجه إلى المكثي سنة أربع وتسعين ومائتين وأسلم على يده وتوفي. فهرب ابنه هذا على طريق أرمينية وأذربيجان إلى بلاد الروم، فاجتمع عليه خلق كثير وكثر أتباعه، فسار إلى القسطنطينية ونازع الملك قسطنطين في ملكه، وذلك سنة إحدى وثلاثمائة، فظفر به الملك فقتله.

وخرج عن طاعته أيضاً صاحب رومية، وهي كرسي ملك الإفرنج، وتسمى بالملك، ولبس ثياب الملوك. وكانوا قبل ذلك يطعمون ملوك الروم أصحاب القسطنطينية ويصدرون عن أمرهم، فلما كان سنة أربعين وثلاثمائة قوي ملك رومية، فخرج عن طاعته، فأرسل إليه قسطنطين العساكر يقاتلونه ومن معه من الفرنج، فالتقوا وقاتلوا، فانهزمت الروم وعادت إلى القسطنطينية منكوبة، فكف حينئذ قسطنطين عن معارضته ورضي بالمسالمة وجري بينهما مصاهرة، فزوج قسطنطين ابنه ارمانوس بابنة ملك رومية. ولم يزل أمر (٣٣٩/١) الإفرنج بعد هذا يقوى ويزداد ويتسع ملكهم كالاستيلاء على بعض بلاد الأندلس، على ما نذكره، وكأخدمهم جزيرة صقلية وبلاد ساحل الشام والبيت المقدس، على ما نذكره، وفي آخر الأمر ملكوا القسطنطينية سنة إحدى وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله.

ومما ينبغي أن يلحق بهذا أن الطوائف من الترك اجتمعت، منهم: البجناك والبخي وغيرهما، وقصدوا مدينة للروم قديمة تسمى وليدر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وحاصروها، فبلغ خبرهم إلى ارمانوس، فسير إليهم عسكراً كثيراً فيهم من المتحصنة اثنا عشر ألفاً، فاقتلوا قتلاً شديداً، فانهزم الروم، واستولى الترك على المدينة وخربوها بعد أن اكثروا القتل فيها والسبي والنهب، ثم ساروا إلى القسطنطينية

وعهد نفقور إلى ابنه استبراق بالملك بعده، وهو أول من فعل ذلك في الروم، ولم يكن يعرف قبله، وكانت ملوك الروم قبل نفقور تحلق لحاها، وكذلك ملوك الفرس، فلم يفعله نفقور. وكانت ملوك الروم قبله تكتب: من فرن ملك النصرانية، فكتب نفقور: من فلان ملك الروم، وقال: لست ملك النصرانية كلها. وكانت الروم تسمي العرب مسارقوس، يعني: عبيد سارة، بسبب هاجر أم إسماعيل، فنهاهم عن ذلك وجري بين نفقور وبين برجان حرب سنة ثلاث وتسعين ومائة فقتل فيها.

ثم ملك بعد ابنه استبراق بعهد من أبيه إليه، وكان ملكه شهرين. ثم ملك بعده ميخائيل بن جرجس، وهو ابن عم نفقور، وقيل: ابن استبراق، وكان ملكه ستين في أيام الأمين، وقيل أكثر من ذلك، فوثب به اليون المعروف بالطريق وغلب على الأمر وحجسه، ثم ملك بعده اليون البطريق سبع سنين وثلاثة أشهر، فوثب به أصحاب ميخائيل في خلاص صاحبهم وقتل (٢٣٧/١) اليون ثم فتح لهم ذلك وعاد ميخائيل إلى الملك، وقيل: إنه كان قد ترهب أيام اليون، وكان ملكه هذه الدفعة الثانية تسع سنين، وقيل أكثر من ذلك.

ثم ملك بعده ابنه توفيل بن ميخائيل أربع عشرة سنة، وهو الذي فتح زبطرة، وسار المعتصم بسبب ذلك وفتح عمورية، وكان موته أيام الواثق.

ثم ملك بعده ابنه ميخائيل ثمانية وعشرين سنة، وكانت أمه تدبر الملك معه، وأراد قتلها فترهبت وخرج عليه رجل من أهل عمورية من أبناء الملوك السالفة يعرف بابن بقراط، فلقبه ميخائيل فيمن عنده من أسارى المسلمين، فظفر به ميخائيل فمحل به، ثم خرج عليه بسيل الصقلي فاستولى على الملك وقتل ميخائيل سنة ثلاث وخمسين ومائتين.

ثم ملك بعده بسيل الصقلي عشرين سنة أيام المعتر والمهتدي وصدرًا من أيام المعتمد، وكانت أمه صقلية فنسب إليها.

وقد غلط حمزة الأصفهاني فيه فقال عند ذكر ميخائيل: ثم انتقل الملك عن الروم وصار في الصقل فقتله بسيل الصقلي ظناً منه أن أباه كان صقلياً.

ثم ملك بعده ابنه اليون بن بسيل ستاً وعشرين سنة أيام المعتمد والمعتضد والمكثي وصدرًا من أيام المقتدر، وقيل: إن وفاته كانت سنة سبع وتسعين ومائتين.

ثم ملك أخوه الأسكندروس سنة وشهرين ومات بالدبيلة، وقيل: إنه اغتيل لسوء سيرته.

وحصروها أربعين يوماً وأغاروا على بلاد الروم واتصلت غاراتهم إلى بلاد الإفرنج، ثم عادوا راجعين. (٣٤٠/١)

الأخية لا يسكنون بيوت المدر، وكان أول من ملك منهم مالك بن فهم، وكان منزله ممّا يلي الأنبار.

ثم مات مالك فملك بعده أخوه عمرو بن فهم بن (٣٤٢/١) غانم بن دوس الأزدي.

ذكر وصول قبائل العرب إلى العراق

ونزولهم بالحيرة

ثم مات فملك بعده جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم، وقيل: إن جذيمة من العادبة الأولى من بني دمار بن أميم بن لؤذ بن سام بن نوح، عليه السلام؛ والله أعلم.

ذكر جذيمة الأبرش

قال: وكان جذيمة من أفضل ملوك العرب رأياً، وأبعدهم مُغاراً، وأشدهم نكابة، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق، وضم إليه العرب، وغزا بالجيوش، وكان به برص فكتت العرب عنه، فقيل: الرضاح، والأبرش، إعظاماً له. وكانت منزلته ما بين الحيرة والأنبار وبقّة وهيئة وعين الثمر وأطراف البر إلى الغمير وخفّة، وتجنّس إليه الأموال، وتقد إليه الوفود. وكان غزاً طسماً وجديساً في منازلهم من اليمامة، فأصاب حسّان بن تبع أسعد أبي كرب قد أغار عليهم فعاد بمن معه، وأصاب حسّان سرية لجذيمة فاجتاحها وكان له صمنان يقال لهما الضيزنان، وكانت إياد يعين أباع، فذكر لجذيمة غلام من لخم في أخواله من إياد يقال له عدي بن نصر بن ربيعة له جمال وظرف، فغزاهم جذيمة، فبعث إياد من سرق صنميه وحملهما إلى إياد، فأرسلت إليه: إن صنميك أصبحا فينا زاهداً فيك [ورغبة فينا]، فإن أوتقت لنا أن لا (٣٤٣/١) تغزونا دفعناهما إليك. قال: وتدفعون معهما عدي بن نصر، فأجابوه إلى ذلك وأرسلوه مع الصنمين، فضمه إلى نفسه وولاه شرا به.

فأبصرته رقاش أخت جذيمة فعشقته ورأسلته ليخطبها إلى جذيمة، فقال: لا أجتريه على ذلك ولا أطمع فيه، قال: إذا جلس على شرا به فاسقه صرفاً واسق القوم ممزوجاً، فإذا أخذت الخمر فيه فاخطبني إليه فلن يردك، فإذا زوجك فأشهد القوم.

ففعل عدي ما أمرته، فأجابته جذيمة وأملكه إياها. فانصرف إليها فأعرس بها من ليلته وأصبح بالخلوق، فقال له جذيمة، وأنكر ما رأيت: ما هذه الآثار يا عدي؟ قال: آثار العرس. قال: أي عرس؟ قال: عرس رقاش. قال: من زوجكها ويحك قال: الملك. فندم جذيمة وأكب على الأرض متفكراً، وهرب عدي، فلم ير له أثر ولم يُسمع له بذكر، فأرسل إليها جذيمة:

خبريني وأنت لا تكفيني
أبحر زيت أم بهجين
أم تبدي فانت أهل لعب
أم يكون فانت أهل لئون
فقلت: لا بل أنت زوجتي امرأ عريباً حسيباً ولم تستأمني في نفسي. فكف عنها وعذرهما. ورجع عدي إلى إياد فكان فيهم. فخرج

قال ابن الكلبي: لما مات بخت نصر انضم الذي أسكنهم الحيرة من العرب إلى أهل الأنبار وبقيت الحيرة خراباً دهرأ طويلاً وأهلها بالأنبار لا يطلع عليهم قادم من العرب، فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب ومزقتهم الحروب وخرجوا يطلبون الريف فيما يليهم من اليمن ومشارف الشام، وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا بالبحرين وبها جماعة من الأزد، وكان الذين أقبلوا من تهامة مالك وعمرو ابنا فهم بن تيم بن اسد بن وبرة بن قضاة، ومالك بن زهير بن عمرو بن فهم في جماعة من قومهم، والحيقاد بن الحنق ابن عُمير بن قبيص بن معد بن عدنان في قبص كلها، ولحق بهم غطفان ابن عمرو بن الطمّثان بن عوذ مناة بن يقدّم بن أفضى بن دُعمي بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان وغيره من إياد، فاجتمع بالبحرين قبائل من العرب وتحالفوا على التتوخ، وهو المقام، وتعاهدوا على التناصر والتساعد، فصاروا يداً واحدة وضمهم اسم تتوخ، وتَنَخ عليهم بطون من نُمارة بن لخم، ودعا مالك بن زهير جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي إلى التتوخ معه وزوجه أخته لميس، فتنخ جذيمة، وكان اجتماعهم أيام ملوك (٣٤١/١) الطوائف، وإنما سُموا ملوك الطوائف لأن كل ملك منهم كان ملكه على طائفة قليلة من الأرض.

قال: ثم تطلّعت أنفُس من كان بالبحرين إلى ريف العراق فطمعوا في غلبة الأعاجم على ما يلي بلاد العرب [منه] أو مشاركتهم فيه لاختلاف بين ملوك الطوائف، فأجمعوا على المسير إلى العراق، فكان أول من يطلع منهم الحيقاد ابن الحنق في جماعة من قومه وأخلاق من الناس، فوجدوا الأرمانيين، وهم الذين ملكوا أرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل، يقاتلون الأروانيين، وهم ملوك الطوائف، وهو ما بين نهر، وهي فريه من سواد العراق إلى الألبّة، فدفعوهم عن بلادهم، والآتيون من بقايا إرم فلهذا سُموا الأرمانيين، وهم نبط السواد.

ثم طلع مالك وعمرو ابنا فهم بن تيم الله وغيرهما من تتوخ إلى الأنبار على ملك الأرمانيين، وطلع نُمارة ومن معه إلى نهر على ملك الأروانيين، وكانوا لا يدينون للأعاجم حتى قدمها تبع، وهو أسعد أبو كرب بن ملكيكرب في جيوشه، فخلف بها من لم يكن فيه قوة من عسكره، وسار تبع ثم رجع إليهم فآقرهم على حالهم، ورجع إلى اليمن وفيهم من كل القبائل، ونزلت تتوخ من الأنبار إلى الحيرة في

وبمأ مع فتية متصدين، فرمى به فتى منهم في ما بين جبلين، فتنكس فمات.
فحملت رقاش فولدت غلاماً قسمته عمراً، فلمّا ترعرع وشبّ البسته (٣٤٤/١) وعطرتّه وأزارته خاله، فلمّا رآه أحبه وجعله مع ولده، وخرج جليمة متبدياً بأهله وولده في سنة خصيبة، فأقام في روضة ذات زهر وغدّر، فخرج ولده وعمرو معهم يجتنون الكماء، فكانوا إذا أصابوا كماء جيّدة أكلوها، وإذا أصابها عمرو خبأها، فانصرفوا إلى جليمة يتعادون، وعمرو يقول:

هَذَا جَنَائِي وَخِيَارُهُ فِيهِ إِذْ كُلَّ جَانٍ يَدُهُ فِيهِ
فَضَّمَهُ جَليمة إِلَيْهِ وَالتَزَمَهُ وَسُرَّ بِقَوْلِهِ [وفعله]، وأمر فجعل له حلى من فضة وطوق، فكان أول عربي ألبس طوقاً.

فبينما هو على أحسن حاله إذ استطارته الجنّ، فطلبه جليمة في الأفاق زماناً فلم يقدر عليه، ثمّ أقبل رجلان من بلقين قضاة يقال لهما مالك وعقيل ابنا فارج بن مالك من الشام يريدان جليمة، وأهديا له طرفاً، فنزلا منزلاً ومعهما قينة لهما تسمى أم عمرو، فقدّمت طعاماً. فبينما هما ياكلان إذ أقبل فتى عريان قد تلبّد شعره وطالت أظفاره وسامت حاله فجلس ناحية عنهما ومدّ يده يطلب الطعام، فناولته القينة كراعاً فأكلها، ثمّ مدّ يده ثانية، فقال: لا تعط العبد كراعاً فيقطع في الذراع! فذهبت مثلاً، ثمّ سقتهما من شراب معها وأوكت زفّها، فقال عمرو بن عدي:

صَدَدْتُ الْكَاسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وَكَانَ الْكَاسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا
وَمَاشَرَ الثَّلَاثَةَ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبِحُنَا
(٣٤٥/١) فسألاه عن نفسه، فقال:

إِنْ تُتَكِرَانِي أَوْ تُتَكِرَا نَسْبِي، فَإِنِّي أَنَا عَمْرُو بْنُ عَدِي بْنِ تُوخَيْةَ، اللَّخْمِي، وَغَدَا مَا تَرِيَانِي فِي نَمَارَةٍ غَيْرِ مَعْصِي.

فنهضا وغسلا رأسه وأصلحا حاله والبساه ثياباً وقالوا: ما كنا لنهدي لجليمة أنفس من ابن أخته! فخرجوا به إلى جليمة، فسُرّ به سرورا شديداً وقال: لقد رأيته يوم ذهب وعليه طوق، فما ذهب من عيني وقلبي إلى الساعة، وأعادوا عليه الطوق، فنظر إليه وقال: شبّ عمرو عن الطوق، وأرسلها مثلاً، وقال لمالك وعقيل: حكمكما. قال: حكمنا منادمتك ما بقينا وبقيت؛ فهما ندمانا جليمة اللذان يضربان مثلاً.

وكان ملك العرب بأرض الجزيرة ومشارف الشام عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة العمليقي من عاملة العمالقة، فتحارب هو وجليمة، فقتل عمرو وانهزمت عساكره، وعاد جليمة سالماً، وملك بعد عمرو وابنته الزباء، واسمها نافلة، وكان جنود الزباء بقايا العماليق وغيرهم، وكان لها من الفرات إلى تدمر. فلمّا استجمع لها أمرها

فلمّا انتهى كتاب الزباء إليه استخفّ ما دعتة إليه وجمع إليه ثقاته، وهو بيقّة من شاطيء الفرات، فعرض عليهم ما دعتة إليه واستشارهم؛ فأجمع رأيهم على أن يسير إليها ويستولي على ملكها.

وكان فيهم رجل يقال له قصير بن سعد من لخم، وكان سعد تزوّج أمه لجليمة فولدت له قصيراً، وكان أديباً حازماً ناصحاً لجليمة قريباً منه، فخالقهم فيما أشاروا به عليه وقال: رأي فاتر، وغدر حاضر؛ فذهبت مثلاً، وقال لجليمة: اكتب إليها فإن كانت صادقة فلنقبل إليك ولاّ لم تمكّنها من نفسك وقد وترتها وقتلت أباه.

فلم يوافق جليمة ما أشار به قصير وقال له: لا ولكنك امرؤ رأيك في الكين لا في الضحّ؛ فذهبت مثلاً.

ودعا جليمة ابن أخته عمرو بن عدي فاستشاره، فشجّعه على المسير وقال: إن نمارة قومي مع الزباء فلو راوك صاروا معك، فأطاعه.

فقال قصير: لا يطاع لقصير أمر. وقالت العرب: بيقّة أبرم الأمر؛ فذهبت مثلاً.

واستخلف جليمة عمرو بن عدي على ملكه، وعمرو بن عبد الجنّ على (٣٤٧/١) خيوله معه، وسار في وجوه أصحابه، فلمّا نزل الفرضة قال لقصير: ما الرأي؟ قال: بيقّة تركت الرأي؛ فذهبت مثلاً.

واستقبله رسل الزباء بالهدايا والأطراف، فقال: يا قصير كيف ترى؟ قال: خطرٌ يسير، وخطب كبير؛ فذهبت مثلاً؛ وستلقاتك الخيول، فإن سارت أمامك فإن المرأة صادقة، وإن أخذت جنبيك وأحاطت بك فإن القوم غادرون، فاركب العصا، وكانت فرساً لجليمة لا تجارى، فإني راكبها ومسايرك عليها.

فلقيته الكتائب فحالت بينه وبين العصا، فركبها قصير، ونظر إليه جليمة مولياً على متنها، فقال: ويل أمه حزماً على متن العصا! فذهبت مثلاً.

وقال: ما ضلّ من تجري به العصا؛ فذهبت مثلاً؛ وجرت به إلى غروب الشمس، ثمّ نفقت وقد قطعت أرضاً بعيدة، فبنى عليها برجاً يقال له برج العصا، وقالت العرب: خير ما جاءت به العصا؛ مثل تضربه.

بالعراق أموالاً كثيرة، ولي بها طرائف وعطر، فابغينني لأحمل مالي وأحمل إليك من طرائفها وصنوف ما يكون بها من التجارات فتصيين أرباحاً وبعض ما لا غناء للملوك عنه. فسرحته ودفعت إليه أموالاً وجهزت معه عيراً، فسار حتى قدم العراق وأتى عمرو بن عدي متخفياً وأخبره الخبر وقال: جهزني بالزئب والطرف وغير ذلك لعل الله يمكن من الزئب فتصيب ثارك وتقتل عدوك. فأعطاه حاجته، فرجع بذلك كله إلى الزئب فعرضه عليها، فأعجبها وسرها وازدادت به ثقة، ثم جهزته بعد ذلك بأكثر مما جهزته به في المرة الأولى. فسار حتى قدم العراق وحمل من عند عمرو حاجته ولم يدع طرفة ولا متاعاً قدر عليه، ثم عاد الثالثة فأخبر عمراً الخبر وقال: اجمع لي ثقات أصحابك وجندك وهيء لهم الغرائر، وهو أول من عملها، واحمل كل رجلين (٣٥٠/١) على بعير في غرارين واجعل معقد رؤوسهما من باطنهما. وقال له: إذا دخلت مدينة الزئب أقمك على باب نفقها وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة، فمن قاتلهم قاتلوه، وإن أقبلت الزئب تريد نفقها قتلتها.

ففعل عمرو ذلك وساروا، فلما كانوا قريباً من الزئب تقدم قصير إليها فبشرها وأعلمها كثرة ما حمل من الثياب والطرائف وسألها أن تخرج وتنتظر إلى الإبل وما عليها، وكان قصير يكمن النهار ويسير الليل، وهو أول من فعل ذلك، فخرجت الزئب فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ في الأرض، فقالت: يا قصير،

ما للجمال تشبهاً وثيلاً اجندلاً يحملن أم خبيلاً
أم صرقاتاً بارداً شليلاً أم الرجال جثماً قسواً
ودخلت الإبل المدينة، فلما توسطتها أبيضت وخرج الرجال من الغرائر ودل قصيراً عمراً على باب النفق وصاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح وقام عمرو على باب النفق. وأقبلت الزئب تريد الخروج من النفق، فلما أبصرت عمراً قائماً على باب النفق عرفته بالصورة التي عملها المصور، فقصت سماً كان في خاتمها، فقالت: يبدي لا يبد عمرو! فذهبت مثلاً. وتلقاها عمرو بالسيف فقتلها وأصاب ما أصاب من المدينة ثم عاد إلى العراق. وصار الملك بعد جذيمة لابن أخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سعد بن مالك بن عمرو بن ثمارة بن لخم، وهو أول من اتخذ الحيرة (٣٥١/١) منزلاً من ملوك العرب، فلم يزل ملكاً حتى مات، وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة وثمانين سنة، منها أيام ملوك الطوائف خمس وتسعون سنة، وأيام أردشير بن بابك أربع عشرة سنة وأشهر، وأيام ابنه سابور بن أردشير ثمانين سنة وشهران، وكان منفرداً بملكه يغزو المغازي ولا يدين لملوك الطوائف إلى أن ملك أردشير بن بابك أهل فارس. ولم يزل الملك في ولده إلى أن كان آخرهم النعمان بن المنذر، إلى أيام ملوك كندة، على ما نذكره إن شاء الله.

وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيول حتى دخل على الزئب، فلما رآته تكشفت، فإذا هي مضفورة الأسب، والاسب بالباء الموحدة هو شعر الاست، وقالت له: يا جذيمة أدا ب عروس ترى؟ فذهبت مثلاً. فقال: بلغ المدى، وجف الثرى وأمر غدر أرى؛ فذهبت مثلاً. فقالت له: أما وإلهي ما بنا من عدم مواس، ولا قلة أواس، ولكنها شيمة من أناس؛ فذهبت مثلاً. وقالت له: أنبت أن دماء الملوك شفاء من الكلب. ثم أجلسه (٣٤٨/١) على نطع وأمرت بطست من ذهب، فأعد له، وسقته الخمر حتى أخذت منه ما أخذها ثم أمرت براهشيه فقطعا، وقدمت إليه الطست، وقد قيل لها: إن قطر من دمه شيء في غير الطست طلب بدمه. وكانت الملوك لا تقتل بضرب الرقبة إلا في قتال تكرمه للملك. فلما ضعفت يده سقطت، فقطر من دمه في غير الطست، فقالت: لا تضيئوا دم الملك! فقال جذيمة: دعوا دماً ضيعة أهله! فذهبت مثلاً.

فهلك جذيمة وخرج قصير من الحي الذين هلكت العصا بين أظهرهم حتى قدم على عمرو بن عدي، وهو بالحيرة، فوجده قد اختلف هو وعمرو بن عبد الجن فاصلح بينهما، وأطاع الناس عمرو بن عدي، وقال له قصير: نهياً واستعد ولا تطل دم خالك. فقال: كيف لي بها وهي أمتع من عقاب الجوز؟ فذهبت مثلاً.

وكانت الزئب سألت كهنة عن أمرها وهلاكها، فقالوا لها: نرى هلاكك بسبب عمرو بن عدي، ولكن تحنك بيدك، فحذرت عمراً واتخذت نفقاً من مجلسها إلى حصن لها داخل مدينتها، ثم قالت: إن فجاني أمر دخلت النفق إلى حصني، ودعت رجلاً مصوراً حاذقاً فأرسلته إلى عمرو بن عدي متكرراً وقالت له: صوره جالساً وقائماً ومتفضلاً ومتكراً ومتسلحاً بهيته ولبسه ولونه ثم أقبل إلي. ففعل المصور ما أوصته الزئب وعاد إليها، وأرادت أن تعرف عمرو بن عدي فلا تراه على حال إلا عرفته وحذرت.

وقال قصير لعمرو: اجدع أنفي واضرب ظهري ودعني وإياها. فقال (٣٤٩/١) عمرو: ما أنا بفاعل. فقال قصير: خل عني إذا وخلصك ذم؛ فذهبت مثلاً. فقال عمرو: فأنت أبصر؛ فجدع قصير أنفه ودق بظهره وخرج كأنه هارب وأظهر أن عمراً فعل ذلك به، وسار حتى قدم على الزئب، فقيل لها: إن قصيراً بالباب؛ فأمرت به فأدخل عليها، فإذا أنفه قد جدع وظهره قد ضرب، فقالت: لأمر ما جدع قصير أنفه؛ فذهبت مثلاً. قالت: ما الذي أرى بك يا قصير؟ قال: زعم عمرو أنني غدرت خاله وزينت له المسير إليك ومالأك عليه ففعل بي ما تريد فأقبلت إليك وعرفت أنني لا أكون مع أحد وهو أثقل عليه منك. فأكرمته، وأصابته عنده بعض ما أرادت من الحزم والرأي والتجربة والمعرفة بأمر الملك.

فلما عرف أنها قد استرسلت إليه ووثقت به، قال لها: إن لي

وقيل في سبب مسير ولد نصر بن ربيعة إلى العراق غير ما تقدم، وهو رؤيا رآها ربيعة، وسيرد ذكرها عند أمر الحبشة، إن شاء الله تعالى.

ذكر طسم وجديس وكانوا أيام ملوك الطوائف

كان طسم بن لؤز بن أزر بن سام بن نوح، وجديس بن عامر بن أزر بن سام ابني عم، وكانت مساكنهم موضع اليمامة، وكان اسمها حينئذ جوأ، وكانت من أخصب البلاد وأكثرها خيراً، وكان ملكهم أيام ملوك الطوائف عمليق، وكان ظالماً قد تمادى في الظلم والغشم والسيرة الكثيرة القبيح، وإن امرأة من جديس يقال لها هزيلة طلقها زوجها وأراد أخذ ولدها (٣٥٢/١) منها، فخاصمته إلى عمليق وقالت: أيها الملك حملته تسعاً، ووضعته دفعا، وأرضعته شفعا؛ حتى إذا تمت أوصاله، ودنا فصاله، أراد أن يأخذه مني كرها، ويتركني بعده ورها. فقال زوجها: أيها الملك إنها أعطيت مهرها كاملاً، ولم أصب منها طائلاً، إلا ولداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً. فأمر الملك بالغلام فصار في غلمانه وإن تباع المرأة وزوجها فيعطى زوجها خمس ثمنها وتعطى المرأة عشر ثمن زوجها، فقالت هزيلة:

أَيُّهَا إِخَا طَسْمَ لِحَكْمَ نَيْسَا فَأَنْذَ حَكْمًا فِي هَزِيلَةَ ظَالِمَا
لَعَمْرِي لَقَدْ حَكَمْتَ لَا مَنُورَ عَا وَلَا كُنْتُ فِيمَنْ يُرْمَى الْحُكْمَ عَالِمَا
نَدِمْتُ وَلَمْ أَسْتَمْ وَأَنْسَى بَعِثْتَنِي وَأَصْبَحْتُ بَغْلِي فِي الْحُكْمَةِ نَائِمَا
فَلَمَّا سَمِعَ عَمَلِيقُ قَوْلَهَا أَمْرَ أَنْ لَا تَزُوجَ بَكْرَ مِنْ جَدِيسَ وَتَهْدِي
إِلَى زَوْجِهَا حَتَّى يَفْتَرِعَهَا، فَلَقُوا مِنْ ذَلِكَ بَلَاءَ وَجْهًا وَذَلًّا، وَلَمْ يَزَلْ
يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى رُوجَتْ الشُّمُوسُ، وَهِيَ عَفِيرَةٌ بَنَتْ عِبَادَ أُخْتِ
الْأَسْوَدَ، فَلَمَّا أَرَادُوا حَمْلَهَا إِلَى زَوْجِهَا انْطَلَقُوا بِهَا إِلَى عَمَلِيقَ لِيُنَالَهَا
قَبْلَهُ، وَمَعَهَا الْفَتَيَانِ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ اقْتَرَعَا وَخَلَى سَبِيلَهَا، فَخَرَجَتْ
إِلَى قَوْمِهَا فِي دِمَائِهَا وَقَدْ شَقَّتْ دَرْعَهَا مِنْ قُبُلٍ وَذُبُرٍ وَالدَّمُ بَيِّنٌ وَهِيَ
فِي أَقْبَحِ مَنَظَرٍ تَقُولُ:

لَا أَخَذَ أَذَلَّ مِنْ جَدِيسَ أَهَكُنَا يُفْعَلُ بِالْعُرُوسِ
يَرْضَى بِنَا يَا قَوْمُ بَعْلُ خَسْرٍ أَهْلَى وَقَدْ أُعْطِيَ وَسَقَى الْمَهْرَ
وَقَالَتْ أَيْضًا لَتَحْرُسَ قَوْمَهَا: (٣٥٣/١)

أَيُّجُمْلُ مَا يُؤْتَى إِلَى فِتْيَاكُمْ؛ وَأَنْتُمْ رِجَالٌ فَيَكُمُ عِنْدَ النَّسْلِ
وَتُصْنَعُ تَمْشِي فِي الدَّمَاءِ غَفِيرَةً جِهَارًا وَرُؤْفَتٌ فِي النِّسَاءِ إِلَى بَعْلِ
وَلَوْ أَنَّكُمْ رِجَالًا وَكُنْتُمْ نِسَاءً لَكُنَّا لَا تَقْرُبُنَا الْفِعْلُ
فَمُوتُوا كَرَامًا أَوْ أَمِتُوا عَدُوْكُمْ وَيَبُوا لِنَارِ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزَلِ
وَلَا فَخْلًا بَطْنَهَا وَتَحَمَّلُوا إِلَى بَلَدٍ قَرِيٍّ وَمُوتُوا مِنَ الْهَزَلِ
فَلْيَنْ خَيْرٌ مِنْ مَقَامٍ عَلَى الْأَنْثَى وَلَمْ يَمُتْ خَيْرٌ مِنْ مَقَامٍ عَلَى السَّنَدِ
وَأِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَنْصَبُوا بَعْدَ هَلِيْوِ فَكُونُوا نِسَاءً لَا تُعَابُ مِنَ الْكَحْلِ
وَدُونَكُمْ طَيْبُ النِّسَاءِ فَإِنَّمَا خَلَقْتُمْ لِكُتُوبِ الْعُرُوسِ وَلِلنَّسْلِ
فَبَعْدًا وَسُحْقًا لِلَّذِي لَيْسَ دَافِعًا وَيَخْتَالُ يَمْشِي يَنْتَاشِيَةً الْفَحْلِ

فَلَمَّا سَمِعَ أَخُوها الْأَسْوَدُ قَوْلَهَا، وَكَانَ سَيِّدًا مَطَاعًا، قَالَ لِقَوْمِهِ: يَا
مَعِشَرُ جَدِيسَ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَيْسُوا بِأَعَزَّ مِنْكُمْ فِي دَارِكُمْ إِلَّا بِمَلِكٍ
صَاحِبِهِمْ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ، وَلَوْ لَا عَجَزْنَا لَمَا كَانَ لَهُ فَضْلٌ عَلَيْنَا، وَلَوْ
امْتَنَعْنَا لَانْتَصَفْنَا مِنْهُ، فَاطِيعُونِي فِيمَا أَمَرَكُمُ فَإِنَّهُ عَزَّ الدَّهْرُ.

وَقَدْ حَمَى جَدِيسَ لَمَّا سَمِعُوا مِنْ قَوْلِهَا فَقَالُوا: نَطِيعُكَ وَلَكِنْ
الْقَوْمُ أَكْثَرُ مَنَّا! قَالَ: فَإِنِّي أَصْنَعُ لِلْمَلِكِ طَعَامًا وَأَدْعُوهُ وَأَهْلُهُ إِلَيَّ، فِإِذَا
جَاءُوا يَرْفُلُونَ فِي الْحُلَلِ أَخَذْنَا سِيوفَنَا وَقَتَلْنَاهُمْ. فَقَالُوا: افْعَلْ. فَصَنَعَ
طَعَامًا فَآكَرُ وَجَعَلَهُ بَظَاهِرِ الْبَلَدِ وَدَفَنَ هُوَ وَقَوْمُهُ سِيوفَهُمْ فِي الرَّمْلِ
وَدَعَا الْمَلِكَ وَقَوْمَهُ، فَجَاءُوا (٣٥٤/١) يَرْفُلُونَ فِي حُلْلِهِمْ، فَلَمَّا
أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ وَمَدُّوا أَيْدِيَهُمْ يَأْكُلُونَ، أَخَذَتْ جَدِيسَ سِيوفَهُمْ مِنْ
الرَّمْلِ وَقَتَلُوهُمْ وَقَتَلُوا مَلِكَهُمْ وَقَتَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ السُّفْلَةَ.

ثُمَّ إِنَّ بَقِيَّةَ طَسْمَ قَصَدُوا حَسَّانَ بْنِ تَبَعٍ مَلِكَ الْيَمَنِ فَاسْتَنْصَرُوهُ،
فَسَارَ إِلَى الْيَمَامَةِ. فَلَمَّا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ ثَلَاثَ قَالٍ لَهُ بَعْضُهُمْ: إِنَّ
لِي اخْتًا مَتَزُوجَةً فِي جَدِيسَ يُقَالُ لَهَا الْيَمَامَةُ تَبْصُرُ الرَّاکِبَ مِنْ مَسِيرَةِ
ثَلَاثَ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْتَرِ الْقَوْمَ بِكَ، فَمَرَّ أَصْحَابُكَ فَلْيَقْطَعْ كُلَّ
رَجُلٍ مِنْهُمْ شَجَرَةً فليجعلها أمامه.

فَأَمَرَهُمْ حَسَّانَ بِذَلِكَ، فَظَنَرَتِ الْيَمَامَةُ فَأَبْصَرَتْهُمْ فَقَالَتْ لَجَدِيسَ:
لَقَدْ سَارَتْ إِلَيْكُمْ جَمِيرٌ. قَالُوا: وَمَا تَرِينَ؟ قَالَتْ: أَرَى رَجُلًا فِي شَجَرَةٍ
مَعَهُ كَتِفٌ يَتَرَفَّقُهَا أَوْ نَعْلٌ يَخْصِفُهَا؛ وَكَانَ كَذَلِكَ، فَكَذَّبُوهَا، فَصَبَّحَهُمْ
حَسَّانُ فَأَبَادَهُمْ، وَأَتَى حَسَّانَ بِالْيَمَامَةِ فَقَفَا عَيْنَهَا، فِإِذَا فِيهَا عُرُوقٌ سَوْدُ،
فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَتْ: حَجَرٌ أَسْوَدُ كُنْتُ أَكْتَحِلُ بِهِ يُقَالُ لَهُ الْإِثْمَدُ،
وَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ أَكْتَحَلَ بِهِ. وَبِهَذِهِ الْيَمَامَةُ سُمِّيَتْ الْيَمَامَةُ، وَقَدْ أَكْثَرَ
الشُّعْرَاءُ ذِكْرَهَا فِي أَشْعَارِهِمْ.

وَلَمَّا هَلَكْتَ جَدِيسَ هَرَبَ الْأَسْوَدُ قَاتِلَ عَمَلِيقَ إِلَى جَبَلِي طَبِئٍ
فَأَقَامَ بِهِمَا، ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَهُمَا طَبِئٌ، وَكَانَتْ طَبِئٌ تَنْزِلُ الْجُرْفَ مِنْ
الْيَمَنِ، وَهُوَ الْآنَ لَمْرَادٍ وَهْمَدَانٍ. وَكَانَ يَأْتِي إِلَى طَبِئٍ بِعِيرِ أَزْمَانٍ
الْخَرِيفِ عَظِيمِ السَّمَنِ وَيَعُودُ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا مِنْ أَيْنَ يَأْتِي، ثُمَّ إِنَّهُمْ
اتَّبَعُوهُ يَسِيرُونَ بِسِيرِهِ حَتَّى هَبَطَ بِهِمْ عَلَى أَجَا وَسَلَمَى جَبَلِي طَبِئٍ،
وَهُمَا بِقَرْبِ فَيْدٍ، فَرَأَوْا فِيهِمَا النَّخْلَ وَالْمَرَاعِي الْكَثِيرَةَ وَرَأَوْا الْأَسْوَدَ
بَيْنَ عِفَارٍ، فَقَتَلُوهُ، وَأَقَامَتْ طَبِئٌ بِالْجَبَلَيْنِ بَعْدَهُ، فَهَمَّ هُنَاكَ إِلَى الْآنَ،
وَهَذَا أَوَّلُ مَخْرَجِهِمُ إِلَيْهَا. (٣٥٥/١)

ذكر أصحاب الكهف، وكانوا أيام ملوك الطوائف

كَانَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ أَيَّامَ مَلِكٍ اسْمُهُ دَقِيوسُ، وَيُقَالُ دَقِيَانُوسُ،
وَكَانُوا بِمَدِينَةِ اللُّرُومِ اسْمُهَا أَفْسُوسُ، وَمَلِكُهُمْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَكَانُوا
قِتِيَّةً آمَنُوا بِرَبِّهِمْ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ حَسِبْتُ أَنَّ أَصْحَابَ
الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الْكَهْفُ: ٩]؛ وَالرَّقِيمُ
خَبْرُهُمْ كُتِبَ فِي لَوْحٍ وَجُعِلَ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ الَّذِي أَوَّاءَ إِلَيْهِ، وَقِيلَ:

ملكاً صالحاً، فسأله عنها، فأعاد عليه حالهم. فقال الملك: وأين أصحابك؟ قال: انطلقوا معي. فانطلقوا معه حتى أتوا باب الكهف، فقال: دعوني أدخل إلى أصحابي قبلكم لئلا يسمعوا أصواتكم فيخافوا ظناً منهم أن دقيانوس قد علم بهم. فدخل عليهم وأخبرهم الخبر، فسجدوا شكراً لله وسأله أن يتوفاهم، فاستجاب لهم. فضرب على أذنه وأذاتهم، وأراد الملك الدخول عليهم فكانوا كلما دخل عليهم رجل أرب، فلم يقدروا أن يدخلوا عليهم، فعاد عنهم، فبنوا عليهم كنيسة يصلون فيها.

قال عكرمة: لما بعثهم الله كان الملك حينئذ مؤمناً، وكان قد اختلف أهل مملكته في الروح والجسد وبعثهما، فقال قائل: يبعث الله الروح دون الجسد. وقال قائل: يُبعثان جميعاً، فسُئِلَ ذلك على الملك فلبس المسوح وسأل الله أن يبين له الحق، فبعث الله أصحاب الكهف بكرة، فلما بزغت الشمس قال بعضهم لبعض: قد غفلنا هذه الليلة عن العبادة، فقاموا إلى الماء، وكان عند الكهف عين وشجرة، فإذا العين قد غارت والأشجار قد يست، فقال بعضهم لبعض: إن أمرنا لعجب! هذه العين غارت وهذه الأشجار يست في ليلة واحدة! وألقى الله عليهم الجوع، فقالوا: أيكم يذهب إلى المدينة فليَنظُرَ إليها أَرَكِي طعاماً فليَأْتِيَكُم بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلِيَتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا. [الكهف: ١٩].

فدخل أحدهم يشتري الطعام، فلما رأى السوق عرف طرقها وانكر الوجوه ورأى الإيمان ظاهراً بها، فأتى رجلاً يشتري منه، فأنكر الدرهم، (٣٥٨/١) فرفعه إلى الملك، فقال الفتى: أليس ملككم فلان؟ فقال الرجل: لا بل فلان! فعجب لذلك. فلما أضر عند الملك أخبره بخبر أصحابه، فجمع الملك الناس وقال لهم: إنكم قد اختلفتم في الروح والجسد، وإن الله قد بعث لكم آية هذا الرجل من قوم فلان، يعني الملك الذي مضى. فقال الفتى: انطلقوا بي إلى أصحابي، فركب الملك والناس معه، فلما انتهى إلى الكهف قال الفتى للملك: فزوني أسبقكم إلى أصحابي أعرفهم خبركم لئلا يخافوا إذا سمعوا وقع حوافر دوابكم وأصواتكم فيظنونكم دقيانوس. فقال: افعل. فسبقهم إلى أصحابه ودخل على أصحابه فأخبرهم الخبر، فعلموا حينئذ مقدار ليثهم في الكهف وبكوا فرحاً ودعوا الله أن يميتهم ولا يراهم أحد ممن جاءهم، فماتوا لساعتهم، فضرب الله على أذنه وأذاتهم معه. فلما استبطؤوه دخلوا إلى الفتية فإذا أجسادهم لا يتكرونها شيئاً غير أنها لا أرواح فيها، فقال الملك: هذه آية لكم. ورأى الملك تابوتاً من نحاس مخنوماً بخاتم، ففتحه، فرأى فيه لوحاً من رصاص مكتوباً فيه أسماء الفتية وأنهم هربوا من دقيانوس الملك مخافة على نفوسهم ودينهم فدخلوا هذا الكهف. فلما علم دقيانوس بمكانهم بالكهف سده عليهم. فليعلم من يقرأ كتابنا هذا شأنهم.

كتبه بعض أهل زمانهم وجعله [في البناء] وفيه أسماءهم وفي أيام من كانوا وسبب وصولهم إلى الكهف.

وكانت عدتهم، فيما ذكر ابن عباس، سبعة وثامنهم كلبهم، وقال: إننا من القليل الذين تعلمونهم.

وقال ابن إسحاق: كانوا ثمانية، فعلى قوله يكون تسعهم كلبهم.

وكانوا من الروم، وكانوا يعبدون الأوثان، فهداهم الله، وكانت شريعته شريعة عيسى، عليه السلام.

وزعم بعضهم أنهم كانوا قبل المسيح، وأن المسيح أعلم قومه بهم، وأن الله بعثهم من رقدتهم بعد رفع المسيح، والأول أصح.

وكان سبب إيمانهم أنه جاء حوارى من أصحاب عيسى إلى مدينتهم فأراد أن يدخلها، فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد حتى يسجد له، فلم يدخلها وأتى حماماً قريباً من المدينة، فكان يعمل فيه، فرأى صاحب (٣٥٦/١) الحمام البركة وعلقه الفتية، فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه. فكان على ذلك حتى جاء ابن الملك بأمراء فدخل بها الحمام، فعبره الحوارى، فاستحيا، ثم رجع مرة أخرى فعبره فسبه وانتهره ودخل الحمام ومعه المرأة، فماتا في الحمام، فقيل للملك، إن الذي بالحمام قتلهما، فطلب فلم يوجد، فقيل: من كان يصحب؟ فذكر الفتية، فطلبوا فهربوا فمروا بصاحب لهم على حالهم في زرع له فذكروا له أمرهم. فسار معهم وتبعهم الكلب الذي له حتى أواسم الليل إلى الكهف، فقالوا: نبئت ههنا حتى نصبح ثم نرى رأينا، فدخلوه فأروا عنده عين ماء وثماراً، فأكلوا من الثمار وشربوا من الماء، فلما جنهم الليل ضرب الله على أذانهم ووكل بهم ملائكة يقلبونهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تاكل الأرض أجسادهم، وكانت الشمس تطلع عليهم.

وسمع الملك دقيانوس خبرهم فخرج في أصحابه يتبعون أثرهم حتى وجدهم قد دخلوا الكهف، وأمر أصحابه بالدخول إليهم وإخراجهم. فكلمهم أراد رجل أن يدخل أربع فعاد، فقال بعضهم: اليس لو كنت ظفرت بهم قتلهم؟ قال: بلى. قال: فباين عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعاً وعطشاً. ففعل، فبقوا زماناً بعد زمان.

ثم إن راعياً أدركه المطر فقال: لو فتحت باب هذا الكهف فادخلت غنمي فيه، ففتحه، فرد الله إليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا، فبعثوا أحدهم بورق ليشتري لهم طعاماً، واسمه تلميخا، فلما أتى باب المدينة رأى ما أنكره حتى دخل على رجل فقال: بعني بهذه الدرهم طعاماً. فقال: فمن أين لك هذه الدرهم؟ قال: خرجت أنا وأصحاب لي أمس ثم أصبحوا (٣٥٧/١) فأرسلوني. فقال: هذه الدرهم كانت على عهد الملك الفلاني. فرفعه إلى الملك، وكان

فلَمَّا قرؤوه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذي أراهم هذه الآية بنائه فيردّه إلى صاحبه. لبلعت ورفعوا أصواتهم بالتحميد والتسبيح.

وقيل: إن الملك ومن معه دخلوا على الفتية فأروهم أحياء مشرقة وجوههم والوانهم لم تبل ثيابهم، وأخبرهم الفتية بما لقوا من ملكهم دقيانوس، واعتقهم (٣٥٩/١) الملك، وقعدوا معه يسبحون الله ويذكرونه، ثم قالوا له: نستودعك الله، ورجعوا إلى مضاجعهم كما كانوا، فعمل الملك لكل رجل منهم تابوتاً من الذهب. فلَمَّا نام رآهم في منامه وقالوا: إننا لم نخلق من الذهب إنما خلقنا من التراب وإليه نصير، فعمل لهم حيتض توابيت من خشب، فحجبههم الله بالرب، وبنى الملك على باب الكهف مسجداً وجعل لهم عبداً عظيماً.

وأسماء الفتية: مكسلمينيا ويمليخا ومرطوس ونيرويس وكسطرمس ودينموس وريطوفس وقالوس ومخسلمينيا، وهذه تسعة أسماء وهي أتم الروايات، والله أعلم، وكلهم قطمير. (٣٦٠/١)

ذكر يونس بن متى

وكان أمره من الأحداث أيام ملوك الطوائف.

قيل: لم يُنسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى بن مريم ويونس بن متى، وهي أمه، وكان من قرية من قرى الموصل يقال لها زينوى، وكان قومه يعبدون الأصنام، فبعثه الله إليهم بالنهي عن عبادتها والأمر بالتوحيد، فأقام فيهم ثلاثاً وثلاثين سنة يدعوهم، فلم يؤمن غير رجلين، فلَمَّا أيس من إيمانهم دعا عليهم، فقيل له: ما أسرع ما دعوت على عبادي! أرجع إليهم فادعهم أربعين يوماً، فدعاهم سبعة وثلاثين يوماً، فلم يجيبوه، فقال لهم: إن العذاب يأتيكم إلى ثلاثة أيام، وآية ذلك أن ألوانكم تتغير، فلَمَّا أصبحوا تغيرت ألوانهم، فقالوا: قد نزل بكم ما قال يونس ولم نجرب عليه كذباً فانظروا فإن بات فيكم فأمنوا من العذاب، وإن لم يمت فاعلموا أن العذاب يصحبكم.

فلَمَّا كانت ليلة الأربعين أيقن يونس بنزول العذاب، فخرج من بين أظهرهم. فلَمَّا كان الغد تغشاهم العذاب فوق رؤوسهم، خرج عليهم غيم أسود هائل يدخن دخاناً شديداً، ثم نزل إلى المدينة فاسودت منه سطوحهم، فلَمَّا رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس فلم يجدوه، فآلمهم الله التوبة، (٣٦١/١) فأخلصوا التوبة في ذلك وقصدوا شيوخاً وقالوا له: قد نزل بنا ما ترى فما نفعل؟ فقال: آمنوا بالله وتوبوا وقولوا: يا حيّ يا قيوم، يا حيّ حين لا حيّ، يا حيّ محيي الموتى، يا حيّ لا إله إلا أنت. فخرجوا من القرية إلى مكان رفيع في براز من الأرض وفرقوا بين كل دابة وولدها ثم عجبوا إلى الله واستقالوه وردوا المظالم جميعاً حتى إن كان أحدهم ليقلع الحجر من

فكشف الله عنهم العذاب، وكان [يوم عشوراء] يوم الأربعاء، وقيل: للنصف من شوال يوم الأربعاء، وانتظر يونس الخبر عن القرية، وأهلها حتى مر به مار فقال: ما فعل أهل القرية؟ فقال: تابوا إلى الله فقبل منهم وآخر عنهم العذاب. فغضب يونس عند ذلك فقال: والله لا أرجع كذاباً! ولم تكن قرية ردّ الله عنهم العذاب بعدما غشيهم إلا قوم يونس، ومضى مغاضباً لربه. وكان فيه حدة وعجلة وقلة صبر، ولذلك نهى النبي ﷺ، أن يكون مثله، فقال تعالى ﴿وَلَا تُكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [الصافات: ١٤١].

ولما مضى ظن أن الله لا يقدر عليه، أي يقضي عليه العقوبة، وقيل: يضيق عليه الحبس، فسار حتى ركب في سفينة فأصاب أهلها عاصف من الريح، وقيل: بل وقت فلم تسر، فقال من فيها: هذه بخبطة أحذكم! فقال يونس: هذه بخبطتي فالقوني في البحر، فأبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾، فلم يلقوه، وفعلوا ذلك ثلاثاً ولم يلقوه، فالتقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل، فالتقته الحوت، فأوحى الله (٣٦٢/١) إلى الحوت أن يأخذه ولا يחדش له لحماً ولا يكسر له عظماً، فأخذه وعاد إلى مسكنه من البحر، فلَمَّا انتهى إليه سمع يونس حساً فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: ربنا نسمع صوتاً ضعيفاً بارض غريبة، فقال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد له كل يوم عمل صالح؟ فشفعوا له عند ذلك، ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ- ظِلْمَةُ الْبَحْرِ وَظِلْمَةُ بطنِ الْحُوتِ وَظِلْمَةُ اللَّيْلِ-: أَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وكان قد سبق له من العمل الصالح، فانزل الله فيه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]، وذلك أن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، ﴿فَبَنَيْنَاهُ بِالْقَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]؛ ألقي على ساح البحر وهو كالمصيّ المنفوس، ومكث في بطن الحوت أربعين يوماً، وقيل: عشرين يوماً، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، والله أعلم.

وانبت [الله] عليه شجرة من يقطين، وهو القرع، يتقطر إليه منه اللبن، وقيل: هيّا الله له أروية وحشية، فكانت ترضعه بكرة وعشبة حتى رجعت إليه قوته وصار يمشي، فرجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدتها قد يست، فحزن وبكى عليها، فعاتبه الله، وقيل له: أتبكي وتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف وزيادة أردت أن تهلكهم!

ثم إن الله أمره أن يأتي قومه فيخبرهم أن الله قد تاب عليهم،

منهما مائة جلدة، فلما كُذِّبَا وضربا بعث المسيحُ شمعون رأس الحواريين لينصرهما، فدخل البلد متكرراً وعاشر حاشية الملك، فرفعوا خبره إلى الملك، فأحضره ورضي عشرته وأنس به وأكرمه، فقال له يوماً: أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتكما حين دعواك إلى دينهما فهل كلمتهما وسمعت قولهما؟ فقال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك قال: فإن رأى الملك أن يحضرهما حتى نسمع كلامهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: (٣٦٥/١) مَنْ أَرْسَلَكُمَا؟ قالَا: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا شَرِيكَ لَهُ قال: فصفاه وأوجزا. قالَا: إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ. قال شمعون: فما آيتكما؟ قالَا: ما تمنّاه.

فأمر الملك، فجيء بغلام مطموس العينين موضعهما كاللحمة، فما زالَا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر، وأخذَا بندقتين من الطين فوضعهما في حديقته فصارنا مقلتين يبصر بهما. فعجب الملكُ لذلك فقال: إن قدر إليكما الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنّا به وبكما قالَا: إِنَّ إِلَهَنَا قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فقال الملك: إِنَّ هَاهُنَا مَيْتٌ مِنْذُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ فَلَمْ نَدْفِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ أَبُوهُ وَهُوَ غَائِبٌ، فَأَحْضَرُ الْمَيْتَ وَقَدْ تَغَيَّرَ رِيحُهُ، فَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى عِلَاطِيَّةً وَشَمْعُونُ يَدْعُو سِرّاً، فَقَامَ الْمَيْتُ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: إِنِّي مَتٌ مُشْرَكٌ وَأَدْخَلْتُ فِي أَوْدِيَةِ مِنَ النَّارِ وَأَنَا أَحْذَرُكُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: فَتُحَتُّ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَتَنْظَرُ فَرَأَيْتُ شَابِئًا حَسَنَ الْوَجْهِ يَشْفَعُ لِهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ. فقال الملك: وَمَنْ هُمْ؟ فقال: هَذَا، وَأُوْمَا إِلَى شَمْعُونِ، وَهَذَانِ، وَأَشَارَ إِلَيْهِمَا، فَعَجِبَ الْمَلِكُ، فَحَبِثَتْ دَعَا شَمْعُونِ الْمَلِكَ إِلَى دِينِهِ، فَأَمَنَ قَوْمُهُ، وَكَانَ الْمَلِكُ فِيمَنْ آمَنَ وَكَفَرَ آخَرُونَ. وقيل: بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل، فبلغ ذلك حبياً النجّار، وهو على باب المدينة، فجاء يسعى إليهم فيذكرهم ويدعوهم إلى طاعة الله وطاعة المرسلين، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، وهو شمعون، فأضاف الله تعالى الإرسال إلى نفسه، وإنما أرسلهم المسيح لأنه أرسلهم بإذن الله تعالى.

فلما كَذَّبَهُمُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، حَبَسَ اللَّهَ عَنْهُمْ الْمَطَرُ، فَقَالَ أَهْلُهَا لِلرَّسُولِ: (٣٦٦/١) ﴿إِنَّا نَعْتَزُّ بِكُمْ لَيْسَ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ- بِالْحِجَارَةِ، وَقِيلَ: لِنَقْتُلَنَّكُمْ- وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَ عَذَابِ إِلَهِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، فلما حضر حبيب، وكان مؤمناً بكم إيمانه، وكان يجمع كسبه كل يوم ويتفق على عياله نصفه ويتصدق بنصفه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]. فقال قومه: وأنت مخالف لرَبَّنَا وَمُؤْمِنٌ بِاللَّهِ هَؤُلَاءِ؟ فقال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟﴾ [يس: ٢٢]، فلما قَالَ ذَلِكَ قَتَلُوهُ، فَأَوْجِبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٧]؛ وأرسل الله عليهم صيحةً فماتوا.

فَعَمِدَ إِلَيْهِمْ، (٣٦٣/١) فَلَقِيَ رَاعِيًا، فَسَأَلَهُ عَنْ قَوْمِ يُونُسَ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ عَلَى رَجَاءٍ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ رَسُولُهُمْ، قَالَ: فَأَخْبِرُهُمْ أَنَّكَ قَدْ لَقِيتَ يُونُسَ. قَالَ: لَا اسْتَطِيعُ إِلَّا بِشَاهِدٍ، فَسَمَى لَهُ عِزْرًا مِنْ غَنَمِهِ وَالبَقَعَةَ الَّتِي كَانَا فِيهَا وَشَجَرَةً هُنَاكَ وَقَالَ: كُلُّ هَذِهِ تَشْهَدُ لَكَ. فَجَرَعَ الرَّاعِي إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَأَى يُونُسَ، فَهَمُّوا بِهِ، فَقَالَ: لَا تَعْجَلُوا حَتَّى أَصْبَحَ. فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا بِهِمْ إِلَى الْبَقَعَةِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا يُونُسَ فَاسْتَطَقَهَا، فَشَهِدَتْ لَهُ، وَكَذَلِكَ الشَّاةُ وَالشَّجَرَةُ، وَكَانَ يُونُسَ قَدْ اخْتَفَى هُنَاكَ. فَلَمَّا شَهِدَتِ الشَّاةُ قَالَتْ لَهُمْ: إِنْ أَرَدْتُمْ نَبِيَّ اللَّهِ فَهُوَ بِمَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، فَأَتَوْهُ، فَلَمَّا رَآهُ قَبِلُوا يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ وَأَدْخَلُوهُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ امْتِنَاعٍ فَكَشَتْ مَعَ أَهْلِهِ وَوَلَدَهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَخَرَجَ سَائِحًا، وَخَرَجَ الْمَلِكُ مَعَهُ يَصْحَبُهُ وَسَلَّمُ الْمَلِكِ إِلَى الرَّاعِي، فَأَقَامَ يَدْبُرُ أَمْرَهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ يُونُسَ أَتَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: كَانَتْ رِسَالَةُ يُونُسَ بَعْدَمَا نَبَذَهُ الْحَوْتَ، وَقَالَا: كَذَلِكَ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿فَنَذَرْنَاهُ الْبَرْءَ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٧]. وقال شهر: إِنَّ جِبْرَائِيلَ أَتَى يُونُسَ فَقَالَ لَهُ: انْطَلِقْ إِلَى أَهْلِ نِينَوَى فَانذِرْهُمْ الْعَذَابَ فَإِنَّهُ قَدْ حَضَرَهُمْ. قَالَ: أَلْتَمَسَ دَابَّةً. قَالَ: الْأَمْرُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: أَلْتَمَسَ حِذَاءً. قَالَ: الْأَمْرُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: فَغَضِبَ وَانْطَلَقَ إِلَى السَّفِينَةِ فَرَكِبَ، فَلَمَّا رَكِبَ احْتَبَسَتْ، قَالَ: فَسَاهَمُوا، فَسَهْمٌ، فَجَاءَتِ الْحَوْتُ، فَتَوَدَّى الْحَوْتُ: إِنَّا لَمْ نَجْعَلْ يُونُسَ مِنْ رِزْقِكَ إِنَّمَا جَعَلْنَاكَ لَهُ حَرْزًا، فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَانْطَلَقَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ حَتَّى مَرَّ بِهِ عَلَى الْأُكْبَةِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ عَلَى دَجَلَةٍ حَتَّى لَقِيَ بَنِي نَوَى. (٣٦٤/١)

ومما كان من الأحداث أيام ملوك الطوائف

أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى الرِّسْلَ الثَّلَاثَةَ إِلَى مَدِينَةِ أَنْطَاكِيَّةَ، وَكَانُوا مِنْ الْحَوَارِيِّينَ أَصْحَابَ الْمَسِيحِ، أَرْسَلَ أَوَّلًا اثْنَيْنِ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي أَسْمَائِهِمَا، فَقَدَمَا أَنْطَاكِيَّةَ فَرَأَا فِي عِنْدَهَا شَيْخًا يَرعى غَنَمًا، وَهُوَ حَبِيبُ النِّجَّارِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمَا؟ قَالََا: رَسُولَا عِيسَى نَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ: مَعَكُمْ آيَةٌ؟ قَالََا: نَعَمْ، نَحْنُ نَشْفِي الْمَرْضَى وَنَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ. قَالَ حَبِيبٌ: إِنَّ لِي ابْنًا مَرِيضًا مِذَّ سَنِينَ، وَأَتَى بِهِمَا مَنْزِلَهُ، فَسَخَّ ابْنَهُ، فَقَامَ فِي الْوَقْتِ صَاحِبًا، فَفَشَا الْخَبَرُ فِي الْمَدِينَةِ، وَشَفَى اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمَا كَثِيرًا مِنَ الْمَرْضَى، وَكَانَ لَهُمْ مَلِكٌ اسْمُهُ أَنْطِيخُسُ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَبَلَغَ إِلَيْهِ خَبَرُهُمَا، فَدَعَاهُمَا، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمَا؟ قَالََا: رَسُلُ عِيسَى نَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ: فَمَا آيَتُكُمَا؟ قَالََا: نَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَنَشْفِي الْمَرْضَى بِإِذْنِ اللَّهِ. فَقَالَ: قَوْمًا حَتَّى نَنْظُرَ فِي أَمْرِكُمَا، فَقَامَا، فَضَرَبَهُمَا الْعَامَّةَ.

وقيل: إنهما قدما المدينة فبقيا مدة لا يصلان إلى الملك، فخرج الملك يوماً، فكبرا وذكرَا اللَّهَ، فغضب وجسهما وجلد كل واحد

ومما كان من الأحداث شمسون

وكان من قرية من قرى الروم قد آمن، وكانوا يعبدون الأصنام، وكان على أميال من المدينة، وكان يغزوهم وحده ويقاثلهم بلحي جمل. فكان إذا عطش انفجر له من الحجر الذي فيه ماء عذب فيشرب منه، وكان قد أعطي قوة لا يوقته حديد ولا غيره، وكان على ذلك يجاهدكم ويصيب منهم ولا (٣٦٧/١) يقدرهم منه على شيء، فجعلوا لامرأته جعلاً لتوثقه لهم، فاجابتهم إلى ذلك، فاعطوها حبلاً وثيقاً، فتركته حتى نام وشدت يديه، فاستيقظ وجذبه، فسقط الجبل من يديه، فأرسلت إليهم فاعلمتهم، فأرسلوا إليها بجامعة من حديد، فتركها في يديه وعنقه وهو نائم، فاستيقظ وجذبه فسقطت من عنقه ويديه، فقال لها في المرتين: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: أريد أن أجرب قوتك وما رأيت مثلك في الدنيا فهل في الأرض شيء يغلبك؟ قال: نعم شيء واحد، فلم تزل تسأله عنه حتى قال لها: ويحك لا يضبطني إلا شعري! فلما نام أوقت يديه بشعر رأسه، وكان كثيراً، فأرسلت إليهم، فجاءوا فأخذوه فجدعوا أنفه وأذنيه وفقروا عينيه وأقاموه للناس. وجاء الملك لينظر إليه، وكانت المدينة على أساطين، فدعا الله شمسون (أن يسلمه) عليهم، فأمر أن يأخذ بعمودين من عمد المدينة فيجذبهما، ورد إليه بصره وما أصابوه من جسده، وجذب العمودين فوقعت المدينة بالملك والناس وهلك من فيها هداماً. وكان شمسون أيام ملوك الطوائف.

ومما كان من الأحداث جرجيس أيضاً

قيل: كان بالموصل ملك يقال له دازانه، وكان جباراً عاتياً، وكان جرجيس رجلاً صالحاً من أهل فلسطين يكرم إيمانه مع أصحاب له صالحين وكانوا قد أدركوا بقايا من الحواريين فأخذوا عنهم، وكان جرجيس كثير (٣٦٨/١) التجارة عظيم الصدقة، وربما نفد ماله في الصدقة ثم يعود يكتسب مثله، ولولا الصدقة لكان الفقر أحب إليه من الغنى، وكان يخاف بالشام أن يفتن عن دينه، فقصد الموصل ومعه هدية لملكها لتلا يجعل لأحد عليه سيلاً، فجاءه حين جاءه وقد أحضر عظماء قومه وأوقد ناراً وأعد أصنافاً من العذاب وأمر بضمه له يقال له افلون فنصب، فمن لم يسجد له عذبه وألقي في النار.

فلما رأى جرجيس ما يصنع استعظمه وحذث نفسه بجهاده، فعمد إلى المال الذي معه قسمه في أهل ملته وأقبل عليه وهو شديد الغضب فقال له: أعلم أنك عبد مملوك لا تملك لنفسك شيئاً ولا لغيرك شيئاً، وأن فوقك رباً هو الذي خلقك ورزقك، فأخذ في ذكر عظمة الله تعالى وعيب صنمه، فأجابه الملك بأن سألته من هو ومن أين هو. فقال جرجيس: أنا عبد الله وابن أمته من التراب خلقت وإليه أعود. فدعاه الملك إلى عبادة صنمه وقال له: لو كان ربك ملك الملوك لرؤي عليك أثره كما ترى على من حولي من ملوك قومي.

فأجابه جرجيس بتعظيم أمر الله وتمجيده وقال له: تعبد افلون الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني من رب العالمين، أم تعبد الذي قامت بأمره السموات والأرض، أم تعبد طرفينا عظيم قومك من الناس، عليه السلام، فإنه كان آدمياً يأكل ويشرب فأكرمه الله بأن جعله إنسياً ملكياً، (٣٦٩/١) أم تعبد عظيم قومك مخليطيس أيضاً وما نال بولايتك [أمن] عيسى، عليه السلام! وذكر من معجزاته وما خصه الله به من الكرامة.

فقال له الملك: إنك أتيتنا بأشياء لا نعلمها! ثم خيره بين العذاب والسجود للصنم. فقال جرجيس: إن كان صنمك هو الذي رفع السماء، وعدد أشياء من قدرة الله، عز وجل، فقد أصبت ونصحت، وإلا فأخسأ أيها الملعون.

فلما سمع الملك أمر بجسده ومشط جسده بأمشاط الحديد حتى تقطع لحمه وعروقه، ويُنضح بالخل والخردل، فلم يمت، فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بستة مسامير من حديد فأحميت حتى صارت ناراً ثم سمر بها رأسه، فسال دماغه، فحفظه الله تعالى، فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بحوض من نحاس فأوقد عليه حتى جعله ناراً ثم أدخله فيه وأطبق عليه حتى برد. فلما رأى ذلك لم يقتله دعاه وقال له: ألم تجد ألم هذا العذاب؟ قال: إن إلهي حمل عني عذابك وصبرني ليحتج عليك.

فايقن الملك بالشر وخافه على نفسه وملكه فأجمع رأيه على أن يخلده في السجن، فقال الملاء من قومه: إنك إن تركته في السجن طليقاً يكلم الناس ويميل بهم عليك، ولكن يعذب بعذاب يمنعه من الكلام، فأمر به فبطح في السجن على وجهه ثم أودت في يديه ورجليه أوتاداً من حديد، ثم أمر بأسطوان من رخام حمله ثمانية عشر رجلاً فوضع على ظهره، فظل يومه ذلك تحت الحجر، فلما أدركه الليل أرسل الله إليه ملكاً، وذلك أول ما أيد بالملائكة، فأول ما جاءه الوحي قلع عنه الحجر ونزع الأوتاد وأطعمه وسقاه وبشّره (٣٧٠/١) وعزّاه، فلما أصبح أخرجه من السجن فقال له: الحق بعدوك فجأه، فإني قد ابتليتك به سبع سنين يعذبك ويقتلك فيهن أربع مرات في كل ذلك أرد إليك روحك، فإذا كانت القتلة الرابعة تقبلت روحك وأوفيتك أجرك.

فلم يشعر الملك إلا وقد وقف جرجيس على رأسه يدعوه إلى الله، فقال له: أجزجيس؟ قال: نعم. قال: من أخرجك من السجن؟ قال: أخرجني من سلطانه فوق سلطاناتك!

فملع غيظاً ودعا بأصناف العذاب ومدّوه بين خشبتين ووضعوا على رأسه سيفاً ثم وشروه حتى سقط بين رجله وصار جزلتين، ثم قطعوهما قطعاً، وكان له سبعة أسد ضارية في جب فأنفقوا جسده إليها، فلما رآه خضعت برؤوسها وقامت على برائتها لا تالو أن تقيه

وتشعبت ونبت ورقها وزهرها حتى عرفوا كلَّ عود باسمه.

فقال الذي سأله هذا: أنا أتولَّى عذابه. فعمد إلى نحاس فصنع منه صورة ثور مجوف ثم حشاها نطقاً ورصاصاً وكبريتاً وزرنيخاً وأدخل جرجيس في وسطها ثم أوقد تحت الصورة النار حتى التهت وذاب كلُّ شيء فيها واختلط ومات جرجيس في جوفها. فلما مات أرسل الله ريحاً عاصفاً ورعداً وبرقاً وسحاباً مظلماً وأظلم ما بين السماء والأرض ويقوا أياماً متحيرين، فأرسل الله ميكائيل، فاحتمل تلك الصورة، فلما ألقاها ضرب بها الأرض، ففزع من روعتها كلُّ من سمعها وانكسرت وخرج منها جرجيس حياً، فلما وقف وكلّمهم انكشفت الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض. (٣٧٣/١)

قال له عظيم من عظمائهم: ادعُ الله بأن يحيي موتانا من هذه القبور. فأمر جرجيس بالقبور فنبشت وهي عظام رفات، ثم دعا فلم يبرحوا حتى نظروا إلى سبعة عشر إنساناً، تسعة رجال وخمس نسوة وثلاثة صبية وفيهم شيخ كبير. فقال له جرجيس: متى مت؟ فقال: في زمان كذا وكذا، فإذا هو أربع مائة عام.

فلما رأى ذلك الملك قال: لم يسقَ من عذابكم شيء إلا وقد عذبتموه وأصحابه به إلا الجوع والعطش، فعذبوه به. فعمدوا إلى بيت عجوز فقيرة، وكان لها ابن أعمى أبكم مقعد، فحصره فيه، فلا يصل إليه طعام ولا شراب. فلما جاع قال للعجوز: هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: لا والذي يُحلف به مالنا عهد بالطعام من كذا وكذا وسأخرج فالتمس لك شيئاً. فقال لها: هل تعبدان الله؟ قالت: لا. فدعاها فأمنت، وانطلقت تطلب له شيئاً، وفي بيتها دعاماة [من] خشبة يابسة تحمل خشب البيت، فدعا الله فاخضرت تلك الدعاماة وأنبت كلَّ فاكهة تؤكل وتُعرف، فظهر للدعاماة فروع من فوق البيت تظله وما حوله، وعادت العجوز وهو يأكل رغداً، فلما رأت الذي [حدث] في بيتها قالت: آمنتُ بالذي أطعمكم في بيت الجوع، فادعُ هذا الرب العظيم أن يشفي ابني. قال: أدنيه مني، فأدنته، فبصق في عينيه فأبصر، فنفت في أذنيه فسمع. قالت له: أطلق لسانه ورجليه. قال لها: أخبره فإن له يوماً عظيماً. (٣٧٤/١) ورأى الملك الشجرة فقال: أرى شجرة ما كنتُ أعهدا! قالوا: تلك الشجرة نبتت لذلك الساحر الذي أردت أن تعذبَ بالجوع وقد شبع منها وأشبعبت العجوز، وشفى لها ابنها.

فأمر بالبيت فهدم، وبالشجرة أن تُقطع، فلما هموا بقطعها أيسسها الله وتركوها. وأمر بجرجيس فُطح على وجهه، وأمر بعجل فأوقر أسطواناً وجعل في أسفل العجل خناجر وشفاراً ثم دعا باريعين ثوراً فنهضت بالعجل نهضة واحدة وجرجيس تحتها، فانقطع ثلاث قطع، ثم أمر بقطعها فأحرقت حتى صارت رماداً، وبعث بالرماد مع رجال فذروه في البحر، فلم يبرحوا حتى سمعوا صوتاً من السماء: يا بحر إنَّ الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيب فإني أريد أن

الأذى الذي تحتها، فظلَّ يومه تحتها ميتاً، فكانت أول ميتة ذاقها، فلما أدركه الليل جمع الله جسده وسواه وردَّ فيه روحه وأخرجه من قعر الجب، فلما أصبحوا أقبل جرجيس، وهم في عيد لهم صنعوه فرحاً بموت جرجيس، فلما نظروا إليه مقبلاً قالوا: ما أشبه هذا بجرجيس! قال الملك: هو هو! قال جرجيس: أنا هو حقاً، بشس القوم أنتم! قتلتم ومثلتم فردَّ الله روحي إلي! هلموا إلى هذا الرب العظيم الذي أراكم قدرته. فقالوا: ساحر سحر أعينكم وأيديكم عنه، (٣٧١/١) فجمعوا من بليلهم من السحرة، فلما جاؤوا قال الملك لكبيرهم: اعرض عليَّ من سحرِكَ ما يُسرِّي به عني. فدعا بثور فتفخ في أذنيه فإذا هو ثوران ودعا ببذر فحرث وزرع وحصد ودقَّ وذرى وطحن وخبز وأكل في ساعته. فقال له الملك: هل تقدر أن تمسخه كلياً؟ قال: ادعُ لي بقلح من ماء، فأتني به، فنفت فيه الساحر ثم قال [الملك] لجرجيس: اشربه، فشربه جرجيس حتى أتى على آخره. فقال له الساحر: ماذا تجد؟ قال: ما أجد إلا خيراً! كنتُ عطشاناً فلطف الله بي فسقاني. وأقبل الساحر على الملك وقال: لو كنت تقاسي جباراً مثلك لغلبت إنَّما تقاسي جبار السماء والأرض.

وكانت أمت جرجيس امرأة من الشام، وهو في أشدَّ العذاب، فقالت له: إنَّه لم يكن لي مال إلا ثوراً أعيش به من حرثه فمات، وجئتكَ لترحمني وتسال الله أن يحيي ثوري. فأعطاها عصاً وقال: اذهبي إلى ثوركِ فاضريه بهذه العصا وقولي له: احيي بلذن الله. فأخذت العصا وأتت مصرع الثور فزأت رَوْقِيه وشعر ذنبه فجمعتهما ثم قرعتها بالعصا وقالت ما أمرها به جرجيس، فعاش ثورُها، وجاء الخبر بذلك.

فلما قال الساحر ما قال، قال رجل من أصحاب الملك، وكان أعظمهم بعد الملك: اسمعوا مني. قالوا: نعم، قال: إنكم قد وضعتُم أمره على السحر، وإنَّه لم يُعذب ولم يُقتل، فهل رأيتمُ ساحراً قط قدر أن يدفع عن (٣٧٢/١) نفسه الموت أو أحيي ميتاً؟ وذكر الثور وإحياءه. فقالوا له: إنَّ كلامك كلام رجل قد أصغى إليه. فقال: قد آمنتُ به وأشهد الله أني بريء مما تعبدون! فقام إليه الملك وأصحابه بالخناجر فقطعوا لسانه بالخناجر، فلم يلبث أن مات وقيل: أصابه الطاعون فأعجله قبل أن يتكلَّم، وكمسوا شأنه، فكشفه جرجيس للناس، فاتبعه أربعة آلاف وهو ميت، فقتلهم الملك بأنواع العذاب حتى أفتانهم، وقال له رجل من عظماء أصحاب الملك: يا جرجيس إنَّك زعمتُ أن إلهك يبدأ الخلق ثم يعيده، وإني سأنتك أمراً إن فعله إلهك آمنتُ به وصدقتك وكفيتك قومي. هذا تحتنا أربعة عشر منبراً ومائنة وأقداح وصحاف من خشب يابس وهو من أشجار شتى فادعُ ربَّك أن يعيدها خضراً كما بداها يُعرف كلَّ عود بلونه وورقه وزهره وثمره. قال جرجيس: قد سألتُ أمراً عزيزاً عليَّ وعليك، وإنَّه على الله يسير، ودعا الله فما برحوا حتى اخضرت وساخت عروقها

وكان جميع من آمن به وقتل معه أربعة وثلاثين ألفاً وامرأة الملك. (٣٧٦/١)

ذكر خالد بن مينا العبيسي

وممن كان في الفترة خالد بن مينا العبيسي، قيل: كان نبياً، وكان من معجزاته أن ناراً ظهرت بارض العرب فافتتوا بها وكسادوا يتميمسون، فأخذ خالد عصاه ودخلها حتى توسطها ففرقها، وهو يقول: بدأ بدأ، كل هدى مؤدى، لأدخلها وهي تلظى ولأخرج منها وثيابي تندى. ثم إنها طفتت وهو في وسطها.

فلما حضرته الوفاة قال لأهله: إذا دفنت فإنه ستجيء عانة من حمير يقدمها غير أبتر فيضرب قبري بحافره، فإذا رأيتم ذلك فانكبوا عني فأني سأخبركم بجميع ما هو كائن، فلما مات ودفنوه رأوا ما قال: فأرادوا نبشه، ففكره ذلك بعضهم قالوا: نخاف إن نبشناه أن تسبنا العرب بأننا نبشناه ميتاً لنا. فتركوه.

فقبل إن النبي ﷺ قال فيه: ذلك نبي ضيعه قومه، وأنت ابنته النبي، ﷺ، فأمنت به.

وكذا قيل إنه آخر الحوادث أيام ملوك الطوائف، ولا وجه له، فإن من أدركت ابنته النبي، ﷺ، يكون بعد اجتماع الملك لأردشير بن بابك بدهر طويل.

ونرجع إلى أخبار ملوك الفرس لسياق التاريخ، ونقدم قبل ذكرهم عدد الملوك الأشغانية من ملوك الطوائف وطبقات ملوك الفرس، إن شاء الله تعالى. (٣٧٧/١)

ذكر طبقات ملوك الفرس

الطبقة الأولى الفيشداذية

ملوك الأرض بعد جيومرت أوشنهج؛ [وملك] فيشداذ أربعين سنة، ومعنى فيشداذ أول حاكم.

ملك بعده طهمورث بن يوجهان ثلاثين سنة.

ثم ملك أخوه جمشيد سبع مئة وست عشرة سنة.

ثم ملك بيوراسف بن أرونداسف ألف سنة.

ثم ملك أفريدون بن أنغيان خمسمائة سنة.

ثم ملك منوهر مئة وعشرين سنة.

ثم ملك أفراسياب التركي اثني عشرة سنة.

ثم ملك زو بن تهماسب ثلاث سنين.

ثم ملك كرشاسب تسع سنين.

أعيده. فأرسل الرياح فجمعه كما كان قبل أن يذروه، والذين ذروه قيام لم يبرحوا، وخرج جرجيس حياً مغبراً، فرجعوا ورجع معهم وأخبروا الملك خبر الصوت والرياح. فقال له الملك: هل لك فيما هو خير لي ولك؟ ولولا أن يقال إنك غلبتني لأمنت بك، ولكن اسجد لصنمي سجدة واحدة أو اذبح له شاة واحدة وأنا أفعل ما يسرك. فطمع جرجيس في إهلاك الصنم حين يراه وإيمان الملك عند ذلك، فقال له: أفعل - خديعة منه - وأدخلني على صنمك أسجد له واذبح.

ففرح الملك بذلك وقبّل يديه ورجليه وطلب منه أن يكون يومه وليته عنده، ففعل، فأخلى له الملك بيتاً ودخله جرجيس.

فلما جاء الليل قام يصلي ويقرأ الزبور، وكان حسن الصوت، فلما سمعته امرأة الملك استجابت له وآمنت به وكنمت إيمانها، فلما أصبح غدا به إلى بيت الأصنام ليسجد لها.

وقيل للعجوز: إن جرجيس قد افتتن وطمع في الملك بعد الملك. فخرجت تحمل ابنها على عاتقها في أعراضهم توّخ جرجيس، فلما دخل بيت الأصنام (٣٧٥/١) نظر فإذا العجوز وابنها أقرب الناس إليه، فدعا ابنها، فأجابه وما تكلم قبل ذلك قط، ثم نزل عن عاتق أمه يمشي على قدميه سويّتين وما وطئ الأرض قط، فلما وقف بين يدي جرجيس قال له: ادع لي هذه الأصنام، وهي على منابر من ذهب واحد وسبعون صنماً، وهم يعبدون الشمس والقمر معها، فدعاهما، فأقبلت تتدحرج إليه. فلما انتهت إليه ركض برجله الأرض فخسف بها ويمنابرها، فقال له الملك: يا جرجيس خدعتني وأهلكتي أصنامي! فقال له: فعلت ذلك عمداً لتعتبر وتعلم أنها لو كانت آلهة لا تمتعت مني. فلما قال هذا قالت امرأة الملك وأظهرت إسلامها وعدت عليهم أفعال جرجيس وقالت: ما تنتظرون من هذا الرجل إلا دعوة فتهلكون كما هلكت أصنامكم فقال الملك: ما أسرع ما أضلكت هذا الساحر! ثم أمر بها فعلقّت على خشبة، ثم مشط لحمها بمشاط الحديد، فلما أكلها العذاب قالت لجرجيس: ادع الله أن يخفف عني الألم. فقال: انظري فوقك. فنظرت فضحكت. فقال لها الملك: ما يضحكك؟ قالت: أرى على رأسي ملكين معهما تاج من حلي الجنة ينتظرون خروج روحي ليزيناني به ويصعدا بها إلى الجنة. فلما ماتت أتبل جرجيس على الدعاء وقال: اللهم أكرم متي بهذا البلاء لتعطيني أفضل منازل الشهداء، وهذا آخر أيامي فأسألك أن تنزل بهؤلاء المنكرين من سطواتك وعقوبتك ما لا يقبل لهم به، فأمطر الله عليهم النار فأحرقتهم. فلما احترقوا بحرّها عمدوا إليه فضربوه بالسيف فقتلوه، وهي القتلة الرابعة. فلما احترقت المدينة بجميع ما فيها رفعت من الأرض وجعل عاليها سافلها، فلبث زماناً يخرج من تحتها دخان متن.

وملك أفراسياب التركي لأنهم زال الملك عنهم ولم يمكن ضبطه.

الطبقة الرابعة الساسانية

فأولهم أردشير بن بابك. (٣٨٠/١)

ذكر أخبار أردشير بن بابك وملوك الفرس

قيل: لما مضى من لدن مَلِك الإسكندر أرضَ بابل، في قول النصارى وأهل الكتب الأول، خمسمائة سنة وثلاث وعشرون سنة، وفي قول المجوس: مائتان وست وستون، وثب أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر بن بابك بن ساسان بن بابك بن مهرمس بن ساسان بن بهمن الملك ابن إسفنديار بن پشاسب وقيل في نسبه غير ذلك، يريد الأخذ بنار الملك دارا بن دارا وردَّ الملك إلى أهله وإلى مالم يزل عليه أيام سلفه الذين مضوا قبل ملوك الطوائف وجمعه لرئيس واحد.

وذكر أن مولده كان بقرية من قرى إصطخر يقال لها طيزوده من رستاق إصطخر، وكان جدّه ساسان شجاعاً مغرّياً بالصيد، وتزوَّج امرأة من نسل ملوك فارس يُعرفون بالبادرنجيين، وكان قِيماً على بيت نار بإصطخر يقال له بيت نارheid، فولدت له بابك، فلما كبر قام بأمر الناس بعد أبيه، ثم ولد له ابنه أردشير، وكان مَلِك إصطخر يومئذ رجل من البادرنجيين يقال له جُوزهر، وكان له خصي اسمه تيري قد صيّر أرحباً بدارابجورد. فلما (٣٨١/١) أتى لأردشير سبع سني قدّمه أبوه إلى جوزهر وسأله أن يضمّه إلى تيري ليكون ربيباً له وأرحباً بعده في موضعه، فأجابته وأرسله إلى تيري، فقبله وتبناه. فلما هلك تيري تقلد أردشير الأمر وحسن قيامه به، وأعلمه قوم من المنتجعين صلاح مولده وأنه يملك [البلاد]، فازداد في الخير، ورأى في منامه ملكاً جلس عند رأسه فقال له: إن الله يملكك البلاد؛ فقويت نفسه قوّة لم يعلها؛ وكان أوّل ما فعل أنه سار إلى موضع من دارابجورد يسمّى خوبابان فقتل ملكها، واسمه فاسمين، ثم سار إلى موضع يقال له كوسن فقتل ملكها واسمه منوجهر، ثم إلى موضع يقال له لزويز فقتل ملكها، واسمه دارا، وجعل في هذه المواضع قوماً من قبله، وكتب إلى أبيه بما كان منه، وأمره بالوثوب بجوزهر، وهو بالبليضاء، ففعل ذلك وقتل جوزهر وأخذ تاجه، وكتب إلى أردوان ملك الجبال وما يتصل بها يتضرّع إليه ويسأله في تنويع ابنه سابور بتاج جوزهر، فممنعه من ذلك وهذّه، فلم يحفل بابك بذلك وهلك في ثلاثة أيام، فتوَّج سابور بن بابك بالتاج وملك مكان أبيه، وكتب إلى أردشير يستدعيه، فامتنع، فغضب سابور وجمع جمعاً وسار بهم نحوه ليحاربه، وخرج من إصطخر وبها عدّة من أصحابه وإخوانه وأقاربه وفهم من هو أكبر سنّاً منه، فأخذوا التاج والسريّر وسلّمواهما إلى أردشير، فتوَّج (٣٨٢/١) وافتتح أمره بجِد وقوّة وجعل له وزيراً

الطبقة الثانية الكيانية

ثم ملك كيقباز مائة وستاً وعشرين سنة.

ثم ملك كيكاورس مائة وخمسين سنة.

ثم ملك كيخسرو ثمانين سنة.

ثم ملك كي لهراسب مائة وعشرين سنة.

ثم ملك كي پشاسب مائة وعشرين سنة.

ثم ملك كي بهمن مائة واثنين عشرة سنة.

ثم ملك خُماني جهرزاد ثلاثين سنة.

ثم ملك أخوها دارا بن بهمن (٣٧٨/١) اثني عشرة سنة.

ثم ملك ابنه دارا بن دارا أربع عشرة سنة، وهو الذي أخذ الإسكندر المَلِك منه، وكان مَلِك الإسكندر بعده أربع عشرة سنة.

الطبقة الثالثة الأشغانية

وهم الذين استولوا على العراق والجبال، وكان سائر ملوك الطوائف يعظّمونهم.

فأول ملوك الأشغانيين أيام ملوك الطوائف أشك، ملك اثنتين وخمسين سنة.

ثم ملك ابنه شابور بن أشك أربعاً وعشرين سنة.

ثم ملك ابنه جودرز بن شابور، وهو الذي غزا بني إسرائيل بعد قتل يحيى بن زكريّا خمسين سنة.

ثم ملك ابن أخيه ويحن بن بلاش إحدى وعشرين سنة.

ثم ملك جودرز بن ويحن تسع عشرة سنة.

ثم ملك أخوه نرسي ثلاثين سنة.

ثم ملك عمّه هرمزان بن بلاش بن شابور تسع عشرة سنة.

ثم ملك ابنه فيروز بن هرمزان اثني عشرة سنة.

ثم ملك ابنه خسرو أربعين سنة.

ثم ملك أخوه بلاش بن فيروز أربعاً وعشرين سنة.

ثم ملك ابنه أردوان بن بلاش خمساً وخمسين سنة. وقد ذكر بعضهم أنه ملك بعد هرمزان بسن بلاش أردوان الأكبر اثني عشرة سنة. (٣٧٩/١)

وقيل في عدد ملوك الطوائف غير ذلك، والفرس تعترف باضطراب التاريخ عليهم في أيام ملوك الطوائف وملك يوراسف

ورتب مؤيدان مؤيد، وأحس من إخوته وقوم كانوا معه بالفتك به، فقتل جماعة كثيرة منهم، وعصى عليه أهل دارابجرد فعاد إليهم فافتتحها وقتل جماعة من أهلها، ثم سار إلى كَرْمَان وبها ملك يقال له بلاش فافتلتا قتالاً شديداً، وقتل أردشير بنفسه وأسر بلاش، فاستولى على المدينة وجعل فيها ابناً له اسمه أردشير أيضاً.

وكان في سواحل بحر فارس ملك اسمه اسيرن يعظم فصار إليه أردشير فقتله وقتل من معه واستخرج له أموالاً عظيمة.

وكتب إلى جماعة من الملوك، منهم: مهرك صاحب ابرساس من أردشير خُره، يدعوهم إلى الطاعة، فلم يفعلوا، فزار إليهم فقتل مهرك ثم سار إلى جور فأَسَسَهَا وبني الجوسق المعروف بالطربال وبنت ناز هناك.

فبينما هو كذلك إذ ورد عليه رسول اردوان بكتاب، فجمع الناس فقرأه عليهم، فإذا فيه: إنك عدوت قدرك واجتلبت حُكْمَ آيها الكردي! مَنْ أَذْنُ لَكَ فِي التَّاجِ وَالْبِلَادِ؟ وَمَنْ أَمْرُكَ بِنَاءِ الْمَدِينَةِ؟ وَأَعْلَمُهُ أَنَّهُ قَدْ وَجَّهَ إِلَيْهِ مَلِكُ الْأَهْوَازِ لِيَأْتِيَهُ فِي وَثَاقٍ.

فكتب إليه: إِنَّ اللَّهَ جَبَانِي بِالتَّاجِ وَمَلَكْنِي الْبِلَادِ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَمَكَّنَنِي مِنْكَ فَأَبْعَثْ بِرَأْسِكَ إِلَى بَيْتِ النَّارِ الَّذِي أَسْتَعْتُهُ.

وسار أردشير نحو إصطخر وخلف وزيره أبرسام بأردشير خُره، فلم (٣٨٣/١) يلبث إلا قليلاً حتى ورد عليه كتاب أبرسام بموافقة ملك الأهواز وعوده منكوباً، ثم سار إلى أصبهان فملكها وقتل ملكها، وعاد إلى فارس وتوجه إلى محاربة نيروفر صاحب الأهواز، وسار إلى أَرْجَان وإلى ميسان وطاسار، ثم إلى سُرق، فوقف على شاطئ دجيل فظفر بالمدينة وابتنى مدينة سوق الأهواز وعاد إلى فارس بالغنائم، ثم عاد من فارس إلى الأهواز على طريق خُره وكازرون، وقتل ملك ميسان وبني هناك كرخ ميسان وعاد إلى فارس.

فأرسل إلى اردوان يؤذنه بالحرب ويقول له ليعين موضعاً للقتال. فكتب إليه اردوان: إِنِّي أُوَفِّيكُ فِي صَحْرَاءِ هُرْمُزْجَان لَاتَسْلَاخٍ مِهْرَمَاهُ، فَوَافَاهُ أَرْدَشِيرُ قَبْلَ الْوَقْتِ وَخَذَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَاحْتَوَى عَلَى الْمَاءِ، وَوَفَاهُ أَرْدَوَانَ وَمَلِكُ الْأَرْمَانِيِّينَ، وَكَانَا يَتَحَارِبَانِ عَلَى الْمُلْكِ فَاصْطَلَحَا عَلَى أَرْدَشِيرٍ وَحَارِبَاهُ، وَهُمَا مُتَسَانِدَانِ يَقَاتِلُهُ هَذَا يَوْمًا وَهَذَا يَوْمًا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ بَابَا مَلِكِ الْأَرْمَانِيِّينَ لَمْ يَقُمْ لَهُ أَرْدَشِيرُ، وَإِذَا كَانَ يَوْمَ أَرْدَوَانَ لَمْ يَقُمْ لَأَرْدَشِيرَ، فَصَالَحَ أَرْدَشِيرُ بَابَا مَلِكِ الْأَرْمَانِيِّينَ عَلَى أَنْ يَكْفَ عَنْهُ وَيُفَرِّغَ أَرْدَشِيرَ، لِأَرْدَوَانَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَتَلَهُ وَاسْتَوْلَى عَلَى مَا كَانَ لَهُ، وَأَطَاعَهُ بَابَا وَسَمِيَ أَرْدَشِيرَ: شَاهَنْشَاهُ.

ثم سار إلى همدان فافتتحها، وإلى الجبل وأذربيجان وأرمينية والموصل ففتحها عتوةً، وسار إلى السواد من الموصل فملكه وبني على شاطئ دجلة قبالة طيسفون، وهي المدينة التي في شرق المدائن

ثم سار من جور إلى البحرين، فاضطر ملكها إلى أن رمى نفسه من حصنه فهلك. وعاد إلى المدائن فتزوج ابنة سابور بتاجه في حياته وبني ثمانى مدن، منها: مدينة الخط بالبحرين، ومدينة بهرسيبر مقابل المدائن. وكان اسمه به أردشير فغريت به سير، وأردشير خُره، هي مدينة فيروزاباذ، سمّاها عضد الدولة بن بُوتَه كذلك، وبني بكرمان مدينة أردشير أيضاً فغريت بردشير، وبني بهمن أردشير على دجلة عند البصرة، والبصريون يسمونها بهمن شير، وفرات ميسان أيضاً، وبني رامهرمز بخوزستان، وبني سوق الأهواز، وبالموصل بودر أردشير، وهي حُرّة.

ولم يزل محمود السيرة مظفراً منصوراً لا تُردّ له راية، ومدن المدن وكُور الكور، ورتب المراتب وعمر البلاد.

وكان ملكه من قتل اردوان إلى أن هلك أربع عشرة سنة، وقيل: أربع عشرة سنة وعشرة أشهر، ولما استولى أردشير على العراق كره كثير من تنوخ المقام في مملكته فخرج من كان منهم من قضاة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار، وقد كانت الحيرة والأنبار بنينا زمن بخت نصر، فخربت الحيرة لتحول أهلها إلى الأنبار، وعُمرت الأنبار خمسمائة سنة وخمسين سنة إلى أن عُمرت الحيرة زمن عمرو بن عدي، فعمرت خمسمائة وبضعاً وثلاثين سنة إلى أن وضعت الكوفة ونزلها أهل الإسلام. (٣٨٥/١)

ذكر ملك سابور بن أردشير بن بابك

ولما هلك أردشير بن بابك قام بالملك بعده ابنه سابور، وكان أردشير قد أسرف في قتل الأشكانية حتى أفتاهم بسبب آية آلاها جده ساسان بن أردشير بن بهمن، فإنه أقسم أنه إن ملك يوماً من الدهر لم يستبق من نسل أشك بن جزه أحدًا، وأوجب ذلك على عقبه، فكان أول من ملك من عقبه أردشير، فقتلهم جميعاً نساءهم ورجالهم، غير أن جارية وجدها في دار المملكة فأعجبته، وكانت ابنة للملك المقتول، فسألها عن نفسها، فذكرت أنها خادمة لبعض نساء الملك، فسألها أبكر أم تيب، فأخبرته أنها بكر، فأتخذها لنفسه وواقعها، فعلقته منه، فلما أمنت منه بحبلها أخبرته أنها من ولد أشك فنفر منها ودعا هرجد بن اسام، وكان شيخاً مسنّاً، فأخبره الخبر، وقال له ليقتلها ليبر قسم جده، فأخذها الشيخ ليقتلها، فأخبرته أنها حبلى، فأتى بالقربل فشهدن بحبلها، فأودعها سرياً في الأرض ثم قطع مذاكيره ووضعها في حق وختم عليه، وحضر عند الملك فقال: ما فعلت؟ فقال: استودعتها بطن الأرض، ودفع الحق إليه، وسأله أن يخيتمه

بخاتمه ويودعه بعض خزائنه، ففعل.

ثم وضعت الجارية غلاماً، فكره الشيخ أن يسمي ابن الملك دونه، وخاف يعلمه به وهو صغير، فأخذ له الطالع وسمّاه شابور، ومعناه: ابن الملك، فيكون اسماً وصفة، وهو أول من سمّي بهذا الاسم. (٣٨٦/١)

وبقي أردشير لا يولد له، فدخل عليه الشيخ الذي عنده الصبي يوماً فوجده محزوناً، فقال له: ما يحزن الملك؟ فقال: ضربت بسيفي ما بين المشرق والمغرب حتى ظفرتُ وصفاً لي ملك أبائي ثم أهلك وليس لي عقب فيه. فقال له الشيخ: سرّك الله أيها الملك وعمرك! لك عندي ولد طيب نفيس، فادع لي بالحق الذي استودعتك أرك برهان ذلك. فدعا أردشير بالحق وفتحته، فوجد فيه مذكرات الشيخ وكتاباً فيه: لما أخبرتني ابنة أشك التي علقت من ملك الملوك حين أمر بقتلها لم أستحلّ إتيان زرع الملك الطيب فأودعتها بطن الأرض كما أمر وتبرأنا إليه من أنفسنا لئلا يجد عاضية [إلى غضبها] سيلاً.

فأمره أردشير أن يجعل مع شابور مائة غلام، وقيل: ألف غلام من أشباهه في الهيئة والقامة، ثم يدخلهم عليه جميعاً لا يفرق بينهم زي، ففعل الشيخ. فلما نظر إليهم أردشير قبلت نفسه ابنة من بينهم، ثم أعطوا صوالجة وكرة، فلعبوا بالكرة وهو في الإيوان، فدخلت الكرة الإيوان، فهاب الغلمان أن يدخلوه، وأقدم شابور من بينهم ودخل، فاستدل بإقدامه مع ما كان من قبوله له حين رآه أنه ابنه، فقال له أردشير: ما اسمك؟ قال: شاه بور.

فلما ثبت عنده أنه ابنه شهر أمره وعقد له التاج من بعده، وكان عاقلاً بليغاً فاضلاً، فلما ملك ووضع التاج على رأسه فرّق الأموال على الناس من قُربٍ ومن بُعد، وأحسن إليهم، فبأن فضل سيرته وفاق جميع الملوك، وبنى مدينة نيسابور، ومدينة سابور بفارس، وبنى فيروز سابور، وهي الأنبار، وبنى جنديسابور.

وقيل: إنه حاصر الروم بنصيبين وفيها جمع من الروم مئة ثم أتاه من (٣٨٧/١) ناحية خراسان ما احتاج إلى مشاهدته، فسار إليها وأحكم أمرها، ثم عاد إلى نصيبين، فزعموا أن سورها تصدّع وانفجرت منه فرجة دخل منها وقتل وسبى وغنم وتجاوزها إلى بلاد الشام فاتتحت من مدائنها مدناً كثيرة، منها فالوقية وقديقية، وحاصر ملكاً للروم بأنطاكية فأسره وحمله وجماعته كثيرة معه فأسكنهم مدينة جنديسابور.

ذكر خبر مدينة الحضر

كانت بجبال تكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضر، وكان بها ملك يقال له الساطرون، وكان من الجرماقة، والعرب تسميه الضيزن، وهو من قضاة، وكان قد ملك الجزيرة وكثر جنده، وإنه

تطرق بعض السواد إذ كان سابور بخراسان، فلما عاد سابور أخبر بما كان منه، فسار إليه وحاصره أربع سنين، وقيل: ستين، لا يقدر على هدم حصنه ولا الوصول إليه.

وكان للضيزن بنت تسمى النُضيرة، فحاضت، فأخرجت إلى ريض المدينة، وكذلك كان يفعل بالنساء، وكانت من أجمل النساء، وكان سابور من أجمل الناس، فرأى كل واحد منهما صاحبة فتعاشقا، فأرسلت إليه: ما تجعل لي إن ذلك على ما تهدم به سور المدينة؟ فقال: أحكمك وأرفعك على نسائي. فقالت: عليك بحمامة ورقاء مطوقة فاكتب على رجلها بحض جارية بكر زرقاء ثم أرسلها فإنها تقع على سور المدينة فيخرب، وكان ذلك طلسم ذلك البلد. ففعل وتداعت المدينة، فدخلها غنوة وقتل الضيزن وأصحابه، (٣٨٨/١) فلم يبق منهم أحد يعرف اليوم، وأحرب المدينة واحتمل النُضيرة فأعرس بها بعين التمر، فلم تزل ليلتها تتصور، فالتمس ما يؤذيها فإذا ورقة آس ملتزقة بعنكة من عكن بطنها، فقال لها: ما كان يغذوك به أبوك؟ قالت: بالزبد والمخ وشهد الأبكار من النحل وصفو الخمر. فقال: وأبيك لأنا أحدث عهداً [بك] وأثر لك من أبيك! فأمر رجلاً فركب فرساً جموحاً ثم عصب غداثها بذنبه ثم استركضها فقطّعها قطعاً، وقد أكثر الشعراء ذكر الضيزن في أشعارهم.

وفي أيام سابور ظهر ماني الزنديق وادّعى النبوة، وتبعه خلق كثير، وهم الذين يسمون المانوية.

وكان ملكه ثلاثين سنة وخمسة عشر يوماً، وقيل: إحدى وثلاثين سنة وستة أشهر وتسعة أيام.

ذكر ملك ابنه هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك

وكان يشبه في خلقه بأردشير غير لاحق به في تدبيره، وكان من البطش والجرأة على أمر عظيم، وكانت أمه من بنات مهران الملك الذي قتله أردشير وتبع نسله فقتلهم، لأنّ المنجمين أخبروه أنه يكون من نسله من يملك، (٣٨٩/١) فهربت أمه إلى البادية وأقامت عند بعض الرعاء، وخرج سابور متصيلاً فاستد به العطش وارتفعت له الأخبية التي فيها أم هرمز، فقصدها وطلب الماء، فناولته المرأة، فرأى منها جمالاً فائقاً، فلم يلبث أن حضر الرعاء فسألهم سابور عنها، فقال بعضهم: إنها ابنته، فتزوجها وسار بها إلى منزله، وكسيت ونظفت، فأرادها فامتنت عليه مئة، فلما طال عليه سألها عن سبب ذلك فأخبرته أنها ابنة مهران وأنها تفعل ذلك إبقاء عليه من أردشير، فعاهدها على ستر أمرها، ووطنها فولدت له هرمز، فستر أمره حتى صار له سنون.

فركب أردشير يوماً إلى منزل ابنه سابور لشيء أراد ذكره له، فدخل منزله مفاجأة، فلما استقرّ خرج هرمز ويده صولجان وهو

ذكر ملك نرسي بن بهرام

وهو أخو بهرام الثالث، فلما عقد التاج على رأسه دخل عليه الأشراف والعظماء فدعوا له، فودعهم خيراً ومار فيهم بأعدل السيرة، وقال: لن نضيع شكر ما أنعم الله به علينا، وكان ملكه تسع سنين.

ذكر ملك هرمز بن نرسي بن بهرام بن بهرام بن

هرمز

وكان الناس قد وجلوا منه لفظاته، فأعلمهم أنه قد علم بما كانوا يخافون من شدة ولايته، وإن الله قد أبدل ما كان فيه من الفظاظة رقة وراقة، وسامهم أرفق سياسة، وكان حريصاً على انتعاش الضعفاء وعمارة البلاد والعدل، ثم هلك ولا ولد له، فشق ذلك على الناس، فسألوا عن نساته، فذكر لهم أن (٣٩٢/١) بعضهن حبلى، وقيل: إن هرمز كان أوصى بالملك لذلك الحمل، وولدت المرأة سابور ذا الأكتاف.

وكان ملك هرمز ست سنين وخمسة أشهر، وقيل سبع سنين وخمسة أشهر.

وأسماء الملوك من سابور بن أردشير إلى هنا لم يحذف منها شيء.

ذكر ملك ابنه سابور ذي الأكتاف

وهو سابور بن هرمز بن نرسي بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك، قيل: ملك بوصية أبيه له، فاستبشر الناس بولادته ويثوا خبره في الآفاق، وتقلد الوزراء والكتاب ما كانوا يعملونه في ملك أبيه.

وسمع الملوك أن ملك الفرس صغير في المهد، فطمعت في مملكتهم الترك والعرب والروم، وكانت العرب أقرب إلى بلاد فارس، فسار جمع عظيم منهم في البحر من عبد القيس والبحرين إلى بلاد فارس وسواحل أردشير خزه وغلبوا أهلها على مواشيهم ومعاشيهم وأكثروا الفساد، وغلبت إبياد على سواد العراق وأكثروا الفساد فيهم، فمكثوا حيناً لا يغزوهم أحد من الفرس لصغر ملكهم.

فلما ترعرع سابور وكبر كان أول ما عرف من حسن فهمه أنه سمع في البحر ضوضاء وأصواتاً فسأل عن ذلك فقيل: إن الناس يزدهمون في الجسر (٣٩٣/١) الذي على دجلة مقبلين ومدبرين، فامر بعمل جسر آخر يكون أحدهما للمقبلين والآخر للمدبرين، فاستبشر الناس بذلك. فلما بلغ ست عشرة سنة وقوي على حمل السلاح جمع رؤساء أصحابه فذكر لهم ما اختل من أمرهم وأنه يريد الذب عنهم ويشخص إلى بعض الأعداء. فدعا له الناس وسألوه أن

يصيح في أثر الكرة، فلما رآه أردشير أنكره ووقف على المشابه التي فيه من حسن الوجه وعبالة الخلق وأمور غيرها، فاستدناه أردشير وسأل عنه سابور، فخرج مفكراً على سبيل الإقرار بالخطأ، وأخبر أبيه أردشير الخبر، فسراً، وأخبره أنه قد تحقق الذي ذكره المنجمون في ولد مهر، وإن ذلك قد سلى ما كان في نفسه وأذهبه.

فلما ملك سابور ولّى هرمز خراسان وسيّره إليها، فقهر الأعداء واستقل بالأمر، فزوشي به الوشاة إلى سابور أنه على عزم أن يأخذ الملك منه، وسمع هرمز بذلك فقبل أنه قطع يده وأرسلها إلى أبيه، فكتب إليه بما بلغه وأنه فعل ذلك إزالة للثمة لأن رسمهم أنهم كانوا لا يملكون ذا عاهة، فلما وصلت يده إلى سابور تقطع أسفاً وأرسل إلى هرمز يعلمه ما ناله لذلك وعقد له على الملك وملكه، ولما ملك عدل في رعيته، وكان صادقاً، وسلك سبيل أبائه وكور كورة رامهرمز. وكان ملكه سنة وعشرة أيام. (٣٩٠/١)

ذكر ملك ابنه بهرام بن هرمز بن سابور

وكان حليماً مثابياً حسن السيرة، وقتل ماني الزنديق وسلحه وحشا جلده تبناً وعلق على باب من أبواب جند يسابور يسمى باب ماني.

وكان ملكه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام. وكان عامل سابور بن أردشير وابنه هرمز وبهرام بن هرمز - بعد مهلك عمرو بن عدي على ربيعة ومضر وسائر من يبادية العراق والحجاز والجزيرة يومئذ - ابن لعمر بن عدي، يقال له امرؤ القيس البذء، وهو أول من تنصر من آل نصر بن ربيعة وغتال الفرس، وعاش مملكاً في عمله مائة سنة وأربع عشرة سنة، منها في زمن سابور بن أردشير ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً، وفي زمن هرمز بن سابور سنة وعشرة أيام، وفي زمن بهرام ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، وفي زمن بهرام بن بهرام بن هرمز ثمانين سنة.

ذكر ملك ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن

أردشير

وكان ملكه حسناً، وكان عالماً بالأمور، فلما عقد له التاج وعدهم بحسن السيرة، واختلف في سني ملكه، فقيل ثمانين سنة، وقيل سبع عشرة سنة، والله أعلم. (٣٩١/١)

ذكر ملك ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن

سابور

فلما عقد التاج على رأسه دعا له العظماء فأحسن الرد، وكان قبل أن يفضي إليه الأمر مملكاً على سجستان. وكان ملكه أربع سنين.

فبينما اليانوس جالس أصابه سهم لا يُعرف راميه فقتله، فسقط في أيدي الروم، ويشسوا من الخلاص من بلاد الفرس، فطلبوا من يوسانوس أن يملك عليهم، فلم يفعل وأبى إلا أن يعودوا إلى النصرانية، فأخبروه أنهم على ملته، وإنما كتموا ذلك خوفاً من اليانوس. فملك عليهم، وأرسل سابور إلى الروم يتهذدهم ويطلب الذي ملك عليهم ليجتمع به. فصار إليه يوسانوس في ثمانين رجلاً، فلقاه سابور وتساخدا وطعما، وقوى سابور أمر يوسانوس بجهد وقال للروم: إنكم أحررت بلادنا وأنسدمت فيها فإما أن تعطونا قيمة ما أهلككم وأما تعرّضونا نصيبين، وكانت قديماً للفرس، فغلبت الروم عليها، فدفعوها إليهم، وتحول أهلها عنها، فحول إليها سابور اثني عشر ألف بيت من أهل إصطخر وأصبهان وغيرهما وعادات الروم إلى بلادهم، وهلك ملكهم بعد ذلك ببسر.

وقيل: إن سابور سار إلى حد الروم وأعلم أصحابه أنه على قصد الروم مخفياً لمعرفة أحوالهم وأخبار مدنها، وسار إليهم، فجال فيهم حيناً، وبلغه أن يقصر أولئك وجمع الناس فحضر برّي سائل لينظر إلى يقصر على الطعام، ففطن به وأخذ وأدرج في جلد ثور، وسار يقصر بجنوده إلى أرض فارس ومعه سابور على تلك الحال، فقتل وأخرب حتى بلغ جُنْدِسَابُور، فتحصّن أهلها وحاصرها، فبينما هو يحاصرها إذ غفل الموكلون بحراسة سابور، وكان بقره قوم من سبي الأهواز، فأمرهم أن يلقوا على القذ الذي عليه زيتاً كان بقرهم، ففعلوا، ولان الجلد وانسل منه وسار إلى المدينة وأخبر حراسها فأدخلوه، فارتفعت أصوات أهلها، فاستيقظ الروم، وجمع سابور من بها وعباهم وخرج إلى الروم سحر تلك الليلة فقتلهم وأسر يقصر وغنم أمواله (٣٩٦/١) ونساءه وأثقله بالحديد وأمره بعمارة ما أخرب والأزمه بنقل التراب من بلد الروم ليني به ما هدم المنجتيق من جُنْدِسَابُور وأن يفرس الزيتون مكان النخل، ثم قطع عقبه وبعث به إلى الروم على حمار وقال: هذا جزاؤك ببغيك علينا فأقام مدة ثم غزا فقتل وسبى سبائاً أسكنهم مدينة بناها بناحية السورس سماها إيران شهر سابور، وبنى مدينة نيسابور بخراسان في قول، وبالعراق بَرْزَج سابور.

وكان ملكه اثنتين وسبعين سنة. وهلك في أيامه امرؤ القيس بن عمرو بن عدي عامله على العرب، فاستعمل ابنه عمرو بن امرئ القيس، فبقي في عمله بقية ملك سابور وجميع أيام أخيه أردشير بن هرمز وبعض أيام سابور بن سابور.

وكانت ولايته ثلاثين سنة.

سبب تنصّر قسطنطين

وأما سبب تنصّر قسطنطين فإنه كان قد كبر سنّه وساء خلقه وظهر به وضّح كبير، فأرادت الروم خلعه وترك ماله عليه، فشاور نصحاءه، فقالوا له: لا طاقة لك بهم فقد أجمعوا على خلعتك وإنما

يقيم بموضعه ويوجّه القوّاد والجنود ليكفوه ما يريد، فأبى واختار من عسكره ألف رجل، فسأله الأزدباد، فلم يفعل، وسار بهم ونهاهم عن الإبقاء على أحد من العرب، وقصد بلاد فارس فأوقع بالعرب وهم غارون فقتل وأسر وأكثر. ثم قطع البحر إلى الخط فقتل من بالبحرين لم يلتفت إلى غنيمته، وسار إلى حَجَر وبها ناس من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس، فقتل منهم حتى سالت دماؤهم على الأرض، وأباد عبد القيس، وقصد اليمامة وأكثر في أهلها القتل، وغرّ مياة العرب، وقصد بكرًا وتغلب فيما بين منازر الشام والعراق فقتل وسبى وغرّ مياهم وسار إلى قرب المدينة ففعل كذلك، وكان يتزع أكثاف رؤسائهم ويقتلهم إلى أن هلك فسمّوه سابور ذا الأكثاف لهذا، وانتقلت إياد حينئذ إلى الجزيرة وصارت تغير على السواد، فجهز سابور إليهم الجيوش، وكان لقيط الإياديّ معهم، فكتب إلى إياد:

سَلَامٌ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقِيْطٍ إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادَ بِأَنَّ الْيَتَّ كَسَرَى قَدْ أَتَاكُمْ فَلَا يَشْفَلُكُمْ سُوءُ الْقَوَادِ أَتَاكُمْ مِنْهُمْ سَجْعُونَ أَلْفًا يَزْجُونَ الْكُتَّابَ كَالْجَزَادِ (٣٩٤/١) فلم يقبلوا منه وداموا على الغارة، فكتب إليهم أيضاً:

أَبْلِيْغٌ إِيَادًا وَطَوَّلٌ فِي سِرَاتِهِمْ أَنِّي أَرَى الرَّأْيَ إِنْ لَمْ أَعْصَ قَدْ نَصَعَا وَهِيَ قَبِيْذَةٌ مَشْهُورَةٌ مِنْ أَجُودَ مَا قِيلَ فِي صِفَةِ الْحَرْبِ. فَلَمْ يَحْذَرُوا وَأَوْقَعَ بِهِمْ سَابُورَ وَأَبَادَهُمْ قَتْلًا إِلَّا مَنْ لَحِقَ بِأَرْضِ الرُّومِ. فَهَذَا فَعَلَهُ بِالْعَرَبِ.

وأما الروم فإن سابور كان هادن ملكهم، وهو قسطنطين، وهو أول من تنصّر من ملوك الروم، ونحن نذكر سبب تنصّره عند الفراغ من ذكر سابور إن شاء الله. ومات قسطنطين وفرّق ملكه بين ثلاثة بنين كانوا له، فملكوا، وملك الروم عليهم رجلاً من أهل بيت قسطنطين يقال له اليانوس، وكان على ملة الروم الأولى ويكنى ذلك، فلما ملك أظهر دينه وأعاد ملة الروم وأخرب البيع وقتل الأساقفة ثم جمع جمعاً من الروم والخزر وسار نحو سابور. واجتمعت العرب للانتقام من سابور، فاجتمع في عسكر اليانوس منهم خلق كثير. وعادت عيون سابور إليه فاختلفوا في الأخبار، فصار سابور بنفسه مع جماعة من ثقاته نحو الروم، فلما قرب من يوسانوس، وهو على مقدمة اليانوس، اختفى وأرسل بعض من معه إلى الروم، فأخذوا، وأقر بعضهم على سابور، فأرسل يوسانوس إليه سرّاً ينذره فارتحل سابور إلى عسكره وتحارب هو والعرب والروم، فانهزم عسكره وقُتل منهم مقتلة عظيمة، وملك الروم مدينة طيسفون، وهي المدائن الشرقية، وملكوا أيضاً أموال سابور وخزائنه. (٣٩٥/١)

وكتب سابور إلى جنوده وقوّاده يعلمهم ما لقي من الروم والعرب ويستحثهم على المسير إليه، فاجتمعوا إليه، وعاد واستنقذ مدينة طيسفون، ونزل اليانوس مدينة بهر سير، واختلف الرسل بينهم،

على شيء، ولم يكن يكافئ أحداً على حسن البلاء وإن هو أولى الخسيس من العُرف استعظمه، وإذا بلغه أن أحداً من أصحابه صافى أحداً من أهل صناعته نجاه عن خدمته. وكان فيه مع ذلك ذكاء ذهن وحسن أدب، وقد مهر في صنوف من العلم، واستوزر نرسي حكيم زمانه، وكان فاضلاً قد كمل أدبه ولقبه هزار بيده، فأمل الناس أن يصلح نرسي منه، فكان ما أملوه بعيداً.

فلما استوى له الملك واشتدّت شوكته هابته الأشراف والعظماء، وحمل على الضعفاء فأكثر من سفك الدماء.

فلما ابتليت الرعيّة به شكوا ما نزل بهم منه إلى الله تعالى وسألوه تعجيل إنقاذهم منه، فزعموا أنه كان بجرجان فرأى ذات يوم في قصره فرساً عاتراً لم ير مثله، فأخبر به، فأمر أن يُسرج ويُلجم ويُدخل عليه، فلم يقدر أحد على ذلك، فأعلم بذلك، فخرج إليه بنفسه وألجمه بيده وأسرجه، فلما رفع ذنبه ليُفترسه رمحه على فؤاده رمحة هلك منها مكانه وملا الفرس فروجه جرياً ولم يعلم له خبر، وكان ذلك من صنع الله ورافقه بهم. (٤٠٠/١)

وكان ملكه اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر وستة عشر يوماً.

وأما العرب فقيل إنه لما هلك عمرو بن امرئ القيس البذء بن عمرو ابن عدي في عهد سابور استخلف سابور على عمله أوس بن قلام، وهو من العماليق، فملك خمس سنين وقُتل في عهد بهرام بن سابور، فاستخلف بعده في عمله امرؤ القيس بن عمرو بن امرئ القيس البذء، فبقي خمساً وعشرين سنة، وهلك أيام يزيدجرد الأثيم، فاستخلف بعده في عمله ابنه النعمان وأمه شقيقة ابنة أبي ربيعة بن ذُهل بن شيان، وهو صاحب الخورنق. وسبب بئانه له أن يزيدجرد الأثيم كان لا يبقى له ولد، فسأل عن منزل مريء صحيح، فذُلّ على ظاهر الحيرة، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان هذا وأمره ببناء الخورنق مسكناً له وأمره بإخراجه إلى بوادي العرب، وكان الذي بنى الخورنق رجلاً اسمه سينمار. فلما فرغ من بئانه تعجبوا منه، فقال: لو علمت أنكم توفونني أجري لعملته يدور مع الشمس. فقال: وإنك لتقدر على ما هو أفضل منه! ثم أمر به فألقي من رأس الخورنق فهلك، فضربت العرب بجزائه المثل، وهو مذكور في أشعارها.

وغزا النعمان هذا الشام مراراً وأكثر المصائب في أهلها وسبى وغنم وجعل معه ملكاً فارس كينيتين يقال لإحدهما دوس وهي لشوخ، وللأخرى الشهباء وهي لفارس، فكان يغزو بهما الشام ومن لم يطعه من العرب.

ثم إنه جلس يوماً في مجلسه من الخورنق فأشرف منه على النُجف وما (٤٠١/١) يليه من البساتين والأنهار في يوم من أيام الربيع، فأعجبه ذلك، فقال لوزيره: هل رأيت مثل هذا المنظر قط؟ قال: لا لو كان يدوم. قال: فما الذي يدوم؟ قال: ما عند الله في

تحتال عليهم بالدين. وكانت النصرانية قد ظهرت، وهي خفية، وقالوا له: استمهلهم حتى تزور البيت المقدس، فإذا زرتَه دخلت في دين النصرانية وحملت الناس عليه، فإنهم (٣٩٧/١) يعترفون، فتقاتل من عصاك بمن أطاعك، وما قاتل قوم على دين إلا تُصروا ففعل ذلك، فأطاعه عالم عظيم وخالفه خلق كثير وأقاموا على دين اليونانية، فقاتلهم وظفر بهم، فقتلهم فأحرق كتبهم وحكمتهم وبنى القسطنطينية ونقل الناس إليها، وكانت رومية دار ملكهم، وبقي ملكه عليه، وغلب على الشام، وكان الأكاسرة قبل سابور ذي الأكتاف يتزلون طيسفون، وهي المدينة الغربية من المدائن، فلما نشأ سابور بنى الإيوان بالمدائن الشرقية وانتقل إليه وصار هو دار الملك، وهو باقٍ إلى الآن، ونحن في سنة خمس وعشرين وستمائة.

ذكر ملك أردشير بن هرمز بن نرسي بن بهرام بن

سابور بن أردشير بن بابك أخي سابور

فلما ملك واستقر له الملك عطف على العظماء وذوي الرئاسة فقتل منهم خلقاً كثيراً، فخلعه الناس بعد أربع سنين من ملكه.

ذكر ملك سابور بن سابور ذي الأكتاف

فلما ملك بعد خلع عمّه استبشر الناس بعود ملك أبيه إليه، وكتب إلى العمال بالعدل والرفق بالرعيّة وأمر بذلك وزراءه وحاشيته، وأطاعه عمّه (٣٩٨/١) المخلوع وأحبته رعيته، ثم إن العظماء وأهل الشرف قطعوا أطناب خيمة كان فيها فسقطت عليه فقتلته.

وكان ملكه خمس سنين.

ذكر ملك أخيه بهرام بن سابور ذي الأكتاف

وكان يلقب كَرَمَان شاه، لأن أباه ملكه كَرَمَان في حياته، فكتب إلى القواد كتاباً يحثهم على الطاعة، وكان محموداً في أموره، وبنى بكرمان مدينة. وثار به ناس من الفُتاك فقتله أحدهم بنشابة.

وكان ملكه إحدى عشرة سنة.

ذكر ملك يَزْدَجَرْد الأثيم بن بهرام ابن سابور ذي

الأكتاف

ومن أهل العلم من يقول إن يَزْدَجَرْد هذا هو أخو بهرام كرممان شاه بن سابور لا ابنه، وكان قطاً غليظاً ذا عيوب كثيرة يضع الشيء في غير موضعه، كثير الرؤية في الصفائر، واستعمال كل ما عنده في المواربة والدهاء (٣٩٩/١) والمخالطة مع فطنة بجهات الشرّ وعُجُوب به، وكان غلقاً سيئ الخلق لا يغفر الصغيرة من الزلات ولا يقبل شفاعة أحد من الناس وإن كان قريباً منه، كثير التهمة، ولا يأتمن أحداً

ملكه الله بعد أبيه. فلما سمع حوايي مقالة المنذر وتذكر ما رأى من بهرام علم أن جميع من تشاور في صرف الملك عن بهرام (٤٠٣/١) محجوج، فقال للمنذر: سر إلى مدينة الملوك فيجتمع إليك الأشراف والعظماء وتشاوروا في ذلك فلن يخالفوا ما تشير به.

وسار المنذر بعد عود حوايي من عنده بيوم في ثلاثين ألفاً من فرسان العرب إلى مدينتي الملك بهرام، فجمع الناس، وصعد بهرام على منبر من ذهب مكلل بالجواهر وتكلم عظماء الفرس وذكروا فظاظة يزجرد أبي بهرام وسوء سيرته وكثرة قتله وإخراص البلاد وأنهم لهذا السبب صرفوا الملك عن ولده.

فقال بهرام: لست أكذبكم وما زلت زارياً عليه ذلك ولم أزل أسأل الله أن يملكني لأصلح ما أفسد مع هذا فإذا أتى على ملكي سنة ولم أف بما أعدت من الملك طائعاً وأنا راض بأن تجعلوا التاج وزينة الملك بين أسدين ضارين فمن تناولهما كان الملك له، فأجابوه إلى ذلك ووضعوا التاج والزينة بين أسدين، وحضر مؤيدان مؤيد، فقال بهرام لكسرى: دونك التاج والزينة. فقال كسرى: أنت أولى لأنك تطلب الملك بوراة وأنا فيه مفتصب. فحمل بهرام جُرْزاً وتوجه نحو التاج، فبدر إليه أحد الأسدين فوثب بهرام فعلا ظهره وعصر جنبي الأسد بفخذه وجعل يضرب رأسه بالجُرْز الذي معه، ثم وثب الأسد الآخر عليه، فقبض أذنيه بيده ولم يزل يضرب رأسه برأس الأسد الآخر الذي تحته حتى دمغهما ثم قتلها بالجُرْز الذي معه وتناول بعد ذلك التاج والزينة. فكان أول من أطاعه كسرى، وقال جميع من حضر: قد أذعننا لك ورضينا بك ملكاً، وإن العظماء والوزراء والأشراف سألوا المنذر ليحكم بهرام في العفو عنهم. فسأل المنذر الملك بهرام ذلك فأجابته. (٤٠٤/١)

وملك بهرام وهو ابن عشرين سنة وأمر أن يلزم رعيته راحة ودعة، وجلس للناس يعدهم بالخير ويأمرهم بتقوى الله، ولم يزل مدة ملكه يؤثر اللهو على ما سواه حتى طمع فيه من حوله من الملوك في بلاده، وكان أول من سبق إلى قصده خاقان ملك الترك، فإنه غزاه في مائتي ألف وخمسين ألفاً من الترك، فعظم ذلك على الفرس، ودخل العظماء على بهرام وحذروه، فتمادى في لهوه ثم تجهز وسار إلى أذربيجان ليتسك في بيت نارها، ويتصيد بأرمينية في سبعة رهط من العظماء وثلاثمائة من ذوي البأس والنجدة، واستخلف أخاه نرسي، فما شك الناس في أنه هرب من عدوه، فاتفق رأي جمهورهم على الانتقاد إلى خاقان، وبذل الخراج له خوفاً على نفوسهم وبلادهم.

فبلغ ذلك خاقان فأمّن ناحيتهم وسار بهرام من أذربيجان إلى خاقان في تلك العدة، فثبت للقتال وقتل خاقان بيده وقتل جنده وانهمز من سلم من القتل وأمعن بهرام في طلبهم يقتل ويأسر ويغنم

الآخرة. قال: فيم يُنال ذلك؟ قال: بترك الدنيا وعبادة الله. فترك ملكه من ليلته وليس المسوح وخرج هارباً لا يعلم به، فأصبح الناس فلم يروه.

وكان ملكه إلى أن تركه وساح تسعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر، من ذلك في أيام يزجرد خمس عشرة سنة، وفي زمن بهرام جور بن يزجرد أربع عشرة سنة.

وأما علماء الفرس فإنهم يقولون غير هذا، وسيرد ذكره.

ذكر ملك بهرام بن يزجرد الأثيم

لما ولد يزجرد بهرام جور اختار لحضاته العرب، فدعا بالمنذر بن النعمان واستحضنه بهرام وشرّفه وكرّمه وملكه على العرب، فسار به المنذر واختار لرضاعه ثلاث نسوة ذوات أجسام صحيحة وأذهان ذكية وآداب حسنة من بنات الأشراف، منهنّ عريّتان وعجميّة، فأرضعنه ثلاث سنين، فلما بلغ خمس سنين أحضر له مؤدبين فعلموه الكتابة والرمي والفقه بطلب من بهرام بذلك، وأحضر حكيماً من حكماء الفرس فعلمه ووعى كل ما علمه بأدنى تعليم. فلما بلغ اثنتي عشرة سنة تعلم كل ما أفيد وفاق معلميه، فأمرهم المنذر بالانصراف، وأحضر معلميّ الفروسية فأخذ عنهم كل ما ينبغي له، ثم صرفهم، ثم أمر فأحضرت خيل العرب للسباق فسبقها فرس أشقر للمنذر، وأقبل باقي الخيل بّداً بّداً، فقرب المنذر الفرس بيده إليه، فقبله وركبه. (٤٠٢/١) يوماً للصيد، فبصر بعانة حمر وحش، فرمى عليها وقصدها وإذا هو بأسد قد أخذ عيراً منها فتناول ظهره بفيه، فرماه بهرام بسهم فنفذ في الأسد والعير، ووصل إلى الأرض فساخ السهم إلى ثلثه، فرآه من معه فعجبوا منه، ثم أقبل على الصيد واللهو والتلذذ.

فمات أبوه وهو عند المنذر، فتعاهد العظماء وأهل الشرف على أن لا يملكوا أحداً من ذرية يزجرد لسوء سيرته، فاجتمعت الكلمة على صرف الملك عن بهرام لنشوته في العرب وتخلّقه بأخلاقهم ولأنه من ولد يزجرد، وملكوا رجلاً من عقب أردشير بن بابك يقال له كسرى. فأنهت هلاك يزجرد وتملك كسرى إلى بهرام، فدعا بالمنذر وابنه النعمان وناس من أشراف العرب وعرفهم إحصان والده إليهم وشدته على الفرس، وأخبرهم الخبر. فقال المنذر: لا يهولنك ذلك حتى أطف الحيلة فيه، وجهّز عشرة آلاف فارس ووجههم مع ابنه النعمان إلى طيسفون ويهرسير مدينتي الملك، وأمره أن يعسكر قريباً منهما ويرسل طلائعه إليهما وأن يقاتل من قاتله ويغير على البلاد، ففعل ذلك، وأرسل عظماء فارس حوايي صاحب رسائل يزجرد إلى المنذر يعلمه أمر النعمان، فلما ورد حوايي قال له: إنّ الملك بهرام. فدخل عليه، فراعاه ما رأى منه، فأغفل السجود دهشاً، فعرف بهرام ذلك فكلمه ووعده أحسن الوعد وردّه إلى المنذر وقال له: أجبته. فقال له: إنّ الملك بهرام أرسل النعمان إلى ناحيتكم حيث

ويسبي، وعاد وجنده سالمين وظفر بتاج خاقان وإكليبه وغلب على طرف من بلاده واستعمل عليها مرزباناً، وأتاه رسل الترك خاضعين مطيعين وجعلوا بينهم حدّاً لا يعدونه، وأرسل إلى ما وراء النهر قائداً من قوّاده فقتل وسبى وغنم، وعاد بهرام إلى العراق، وولي أخاه نرسي خراسان وأمره أن ينزل مدينة بلخ.

ثمّ إنّه في آخر ملكه خرج إلى الصيد فشذّ على عتر فامعن في طلبه، فارتطم في جبّ فغرق، فبلغ والدته ذلك، فسارت إلى ذلك الموضع وأمرت بإخراجه، فنقلوا من الجبّ طيناً كثيراً حتى صار إكاماً عظيماً ولم يقدروا عليه.

وكان ملكه ثمانين سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً، وقيل ثلاثاً وعشرين سنة.

هكذا ذكر أبو جعفر في اسم بهرام جور أنّ أباه أسلمه إلى المنذر بن النعمان كما تقدّم، وذكر عند يزددجرد الأئيم أنّه سلّم ابنه بهرام إلى النعمان بن امرئ القيس، ولا شك أنّ بعض العلماء قال هذا وبعضهم قال ذلك، إلّا أنّه لم ينسب كلّ قول إلى قائله. (٤٠٧/١)

ذكر ملك ابنه يزددجرد بن بهرام جور

لما لبس التاج جلس للنّاس ووعدهم وذكر أباه ومناقبه وأعلمهم أنّهم إن فقدوا منه طول جلوسه لهم فإنّ خلوته في مصالحتهم وكيد أعدائهم، وأنّه قد استوزر نرسي صاحب أبيه. وعدل في رعيته وقمع أعداءه وأحسن إلى جنده، وكان له ابنان يقال لأحدهما هرمز وللآخر فيروز، وكان لهرمز سجستان، فغلب على الملك بعد هلاك أبيه يزددجرد، فهرب فيروز ولحق ببلاد الهياطلة واستنجد ملكهم، فأمدّه بعد أن دفع إليه الطالقان، فأقبل بهم فقتل أخاه بالرّي، وكانا من أمّ واحدة، وقيل لم يقتله وإنما أسره وأخذ الملك منه.

وكان الروم منعوا الخراج عن يزددجرد، فوجّه إليهم نرسي في العدة التي أنفذه أبوه فيها فبلغ إرادته.

وكان ملك يزددجرد ثمانين سنة وأربعة أشهر، وقيل: تسع عشرة سنة.

ذكر ملك فيروز بن يزددجرد بن بهرام بعد أن قتل

أخاه هرمز وثلاثة من أهل بيته

ولما ظفر فيروز بأخيه وملك أظهر العدل وأحسن السيرة، وكان يتدين، إلّا أنّه كان محدوداً مشوّماً على رعيته، وقحطت البلاد في زمانه سبع سنين (٤٠٨/١) متواليّة، وغارت الأنهار والقنى، وقيل ماء دجلة، ومحلت الأشجار، وهاجت عامّة الزروع في السهل والجبل من بلاده، وماتت الطيور والحوش، وعمّ أهل البلاد الجوع والجهْد الشديد، فكتب إلى جميع رعيته [يعلمهم] أنّه لا خراج عليهم ولا

واتّصل به أنّ بعض رؤساء الدّيلم جمع جمعاً كثيراً وأغار على الرّي وأعمالها فغنم وسبى وخرب البلاد وقد عجز أصحابه في الثغر عن دفعه، وقد قرّروا عليهم إتاوة يدفعونها إليه، فعظم ذلك عليه وسير مرزباناً إلى الرّي في عسكر كثيف وأمره أن يضع على الديلميّ من يطعمه في البلاد ويغريه بقصدها، (٤٠٥/١) فععل ذلك، فجمع الديلميّ جموعه وسار إلى الرّي، فأرسل المرزبان إلى بهرام جور يعلمه خبره، فكتب إليه يأمره بالمسير نحو الديلميّ والمقام بموضع سمّاه له، ثمّ سار جريدة في نفر من خواصّه فادركه عسكره بذلك المكان والديلميّ لا يعلم بوصوله، وهو قد قوي طمعه لذلك، فعبى بهرام أصحابه وسار نحو الديلم، فلقاهم وباشر القتال بنفسه، فأخذ رئيسهم أسيراً، وإنهزم عسكره، فأمر بهرام بالبناء فيهم بالأمان لمن عاد إليه، فعاد الديلم جميعهم، فأمنهم ولم يقتل منهم أحداً وأحسن إليهم وعادوا إلى أحسن طاعة، وأبقى على رئيسهم وصار من خواصّه.

وقيل: كان هذه الحادثة قبل حرب الترك، والله أعلم.

ولما ظفر بالديلم أمر ببناء مدينة سمّاهها فيروز بهرام، فبُنيّت له هي ورستاقها. واستوزر نرسي، فأعلمه أنّه ماض إلى الهند متخيّفاً، فسار إلى الهند وهو لا يعرفه أحد، غير أنّ الهند يرون شجاعته وقلته السباع. ثمّ إنّ فيلاً ظهر وقطع السبيل وقتل خلقاً كثيراً، فاستدلّ عليه، فسمع الملك خبره فأرسل معه من يأتيه بخبره. فأتته بهرام والهنديّ معه إلى الأجمة، فصعد الهنديّ شجرة ومضى بهرام فاستخرج الفيل وخرج وله صوت شديد، فلمّا قرب منه رماه بسهم بين عينيه كاد يغيب، ووقذه بالنشاب وأخذ مشفره، ولم يزل يطعنه حتى أمكن من نفسه حاجزاً رأسه وأخرجه.

وأعلم الهنديّ ملكهم بما رأى، فأكرمه وأحسن إليه وسأله عن حاله، فذكر أنّ ملك فارس سخط عليه فهرب إلى جواره، وكان لهذا الملك عدوّ فقصدّه، فاستسلم الملك وأراد أن يطيع ويذلّ الخراج، فنهاه بهرام وأشار بمحاربتّه، فلمّا التقوا قال لأساوره الهنديّ: احفظوا لي ظهري، ثمّ حمل (٤٠٦/١) عليهم فجعل يضرب في أعراضهم ويرميهم بالنشاب حتى انهزموا، وغنم أصحاب بهرام ما كان في عسكر عدوّه، فأعطى بهرام الدّيبيل ومكران وأتكمه ابنته، فأمر بتلك البلاد فضمّت إلى مملكة الفرس.

وعاد بهرام مسروراً وأغزى نرسي بلاد الروم في أربعين ألفاً

خراسان واستعاد منه كل ما أخذ من عسكر فيروز ممّا هو في عسكره من السبي وغيره وعاد إلى بلاده، فعظّمته الفرس إلى غاية لم يكن فوقه إلا الملك، وكانت مملكة الهياطلة طخارستان، فكان فيروز قد أعطى ملكهم لما ساعده على حرب أخيه الطالقان.

وكان ملك فيروز ستاً وعشرين سنة، وقبل: إحدى وعشرين سنة.

(٤١٠/١)

ذكر الأحداث في العرب أيام يزدرود وفيروز

كان يخدم ملوك جيمير أبناء الأشراف من جيمير وغيرهم، وكان ممن يخدم حسّان بن تبع عمرو بن حُجر الكندي سيّد كنده، فلمّا قتل عمرو بن تبع أخاه حسّان بن تبع اصطنع عمرو بن حُجر وزوجه ابنة أخيه حسّان، ولم يطمع في التزوّج إلى ذلك البيت أحد من العرب، فولدت الحارث بن عمرو. وملك بعد عمرو بن تبع عبد كُلال بن مُثوّب، وإنّما ملكوه لأنّ أولاد عمرو كانوا صغاراً، وكان الجنّ قبل ذلك قد استهاتم تبع بن حسّان، وكان عبد كُلال على دين النصرانية الأولى ويكنم ذلك. ورجع تبع بن حسّان من استهاتمه وهو أعلم النّاس بما كان قبله، فملك اليمن، وهابته جُمير، فبعث ابن أخته الحارث بن عمرو بن حُجر في جيش إلى الحيرة، فسار إلى النعمان بن امرئ القيس، وهو ابن الشقيقة، فقاتله فقتل النعمان وعدّة من أهل بيته، وأفلت المنذر بن النعمان الأكبر وأمه ماء السماء امرأة من النّير بن قاسط، فذهب مُلك آل النعمان ومُلْك الحارث بن عمرو الكندي ما كانوا يملكون؛ قاله بعضهم.

وقال ابن الكلبي: ملك بعد النعمان المنذر بن النعمان بن المنذر بن النعمان أربعاً وأربعين سنة، من ذلك في زمن بهرام جور ثمانين سنة، وفي زمن يزدرود بن بهرام ثمانين سنة، وفي زمن فيروز بن يزدرود سبع عشرة سنة، ثمّ ملك بعده الأسود بن المنذر عشرين سنة، منها في زمن فيروز بن يزدرود عشر سنين، وفي زمن بلاش بن فيروز أربع سنين، وفي زمن قُبّاد بن فيروز ستّ سنين. (٤١١/١)

وهكذا ذكر أبو جعفر هاهنا أنّ الحارث بن عمرو قتل النعمان بن امرئ القيس وأخذ بلاده وانقرض مُلك أهل بيته، وذكر فيما تقدّم أنّ المنذر بن النعمان أو النعمان، على الاختلاف المذكور، هو الذي جمع العساكر ومُلْك بهرام جور على الفرس، ثمّ ساق فيما بعد ملوك الحيرة من أولاد النعمان هذا إلى آخرهم ولم يقطع ملكهم بالحارث بن عمرو، وسبب هذا أنّ أخبار العرب لم تكن مضبوطة على الحقيقة، فقال كل واحد ما نقل إليه من غير تحقيق.

وقيل غير ذلك، وسنذكره في مقتل حُجر بن عمرو والد امرئ القيس في أيام العرب إن شاء الله.

والصحيح أنّ ملوك كنده عمرو والحارث كانوا بنجد على

جزية ولا مؤونة، وتقدّم إليهم بأنّ كلّ من عنده طعام مذخور يواسي به النّاس وأن يكون حال الغنيّ والفقر واحدًا، وأخبرهم أنّه إن بلغه أنّ إنساناً مات جوعاً بمدينة أو قرية عاقبهم ونكّل بهم، وساسن النّاس سياسة لم يعطب أحد جوعاً ما خلا رجلاً واحداً من رستاق أردشير خُره، وابتهل فيروز إلى الله بالدعاء فأزال ذلك القحط وعادت بلاده إلى ما كانت عليه.

فلمّا حيي النّاس والبلاد وأئخن في أعدائه سار مريداً حرب الهياطلة، فلمّا سمع إخشنوار ملكهم خافه، فقال له بعض أصحابه: اقطع يدي ورجلي وألّقي على الطريق وأحسن إلى عيالي لأحتال على فيروز ففعل ذلك، واجتاز به فيروز فسأله عن حاله فقال له: إنّي قلت لإخشنوار لا طاقة لك بفيزوز ففعل بي هذا، وإنّي أدلك على طريق لم يسلكها ملك وهي أقرب. فاغترّ فيروز بذلك وتبعه، فسار به ويجنده حتى قطع بهم مفازة بعد مفازة حتى إذا علم أنّهم لا يقدرّون على الخلاص أعلمهم حاله، فقال أصحاب فيروز لفيزوز: حذرنّاك فلم تحذر، فليس إلاّ التقدّم على كل حال، فتقدّموا أمامهم فوصلوا إلى عدوهم وهم هلكى عطشى وقتل العطش منهم كثيراً، فلمّا أشرفوا على تلك الحال صالحو إخشنوار على أن يخلّي سبيلهم إلى بلادهم على أن يحلف له فيروز أنّه لا يغزو بلاده، فاصطلحا، وكتب فيروز كتاباً بالصلح وعاد.

فلمّا استقرّ في مملكته حملته الأنفة على معاودة إخشنوار، فنهاه وزراؤه (٤٠٩/١) عن نقض العهد، فلم يقبل وسار نحوه، فلمّا تقاربا أمر إخشنوار فحفر خلف عسكره خندقاً عرضه عشرة أذرع وعمقه عشرون ذراعاً وغطّاه بخشب ضعيف وتراب، ثمّ عاد وراءه، فلمّا سمع فيروز بذلك اعتقده هزيمة فتبعه ولا يعلم عسكر فيروز بالخندق فسقط هو وأصحابه فيه فهلكوا، وعاد إخشنوار إلى عسكر فيروز وأخذ كلّ ما فيه وأسر نساءه وموبدان موبد ثمّ استخرج جيّة فيروز [وجيّة كلّ] من سقط معه فجعلها في النواويس.

وقيل: إنّ فيروز لما انتهى إلى الخندق الذي حفره إخشنوار ولم يكن مغطى عقد عليه قناطر وجعل عليها أعلاماً له ولأصحابه يقصدونها في عودهم وجاز إلى القوم. فلمّا التقى العسكران احتجّ عليه إخشنوار باليهود التي بينهما وحذّره عاقبة الغدر، فلم يرجع، فنهاه أصحابه فلم يتن، فضغفت نيّاتهم في القتال. فلمّا أبى إلاّ القتال رفع إخشنوار نسخة العهد على رمح وقال: اللهمّ خذ بما في هذا الكتاب وقلّده بغية. فقاتله فانهمز فيروز وعسكره فضلّوا عن مواضع القناطر فسقطوا في الخندق، فهلك فيروز وأكثر عسكره، وغنم إخشنوار أموالهم ودوابهم وجميع ما معهم، وغلب إخشنوار على عامّة خراسان. فسار إليهم رجل من أهل فارس يقال له سوخرا، وكان فيهم عظيماً، وخرج كالمحتسب، وقيل: بل كان فيروز استخلفه على ملكه لما سار، وكان له سجنستان، فلقي صاحب الهياطلة فأخرجه من

في الأموال والعبيد والإماء وغيرها من الضياع والعقار، فاستولى وعظم شأنه وتبعه الملك قباد. فقال يوماً لقباذ: اليوم نوبتي من أمرائك أم أنوشروان. فأجابته إلى ذلك، فقام أنوشروان إليه ونزع خفيته بيده وقبّل رجله وشفّع إليه حتى لا يتعرّض لأمّه وله حكمه في سائر ملكه، فتركها.

وحرم ذباجة الحيوان وقال: يكفي في طعام الإنسان ما تنبت الأرض وما يتولّد من الحيوان كالبيض واللبن والسمن والجبن، فعظمت البليّة به على الناس فصار الرجل لا يعرف ولده والولد لا يعرف أباه.

فلما مضى عشر سنين من ملك قباد اجتمع موبّذان موبّذ والعظماء وخلعوه وملّكوا عليهم أخاه جامسب وقالوا له: إنك قد أثمت باتباعك مزدك وما عمل أصحابه بالناس وليس ينجيك إلا إباحة نفسك ونسائك، وأرادوه على أن يسلم نفسه إليهم ليدبحوه ويقربوه إلى النار، فامتنع من ذلك، فحبسوه (٤١٤/١) وتركوه لا يصل إليه أحد. فخرج زرمهر بن سوخرا فقتل من المزدكيّة خلقاً، وأعاد قباد إلى ملكه وأزال أخاه جامسب. ثم إن قباد قتل بعد ذلك زرمهر.

وقيل: لما حبس قباد وتولّى أخوه دخلت أخت قباد عليه كأنها تزوره ثم لفته في بساط وحمله غلام، فلما خرج من السجن سأل السجان عمّا معه، فقالت: هو مرحل كنت أحض فيه، فلم يمسّ البساط، فمضى الغلام بقباد، وهرب قباد فلقق بملك الهياطلة يستجيشه. فلما صار بإيران شهر، وهي نيسابور، نزل برجل من أهلها له ابنة بكر حسنة جميلة فنكحها، وهي أم كسرى أنوشروان، فكان نكاحه إياها في هذه السفرة لا في تلك، في قول بعضهم، وعاد معه أنوشروان، فغلب أخاه جامسب على الملّك؛ وكان ملّك جامست ستّ سنين. وغزا قباد بعد ذلك الروم ففتح مدينة آمد وبنى مدينة أُرْجان ومدينة حُلوان ومات، فملك ابنه كسرى أنوشروان بعده، فكان ملّك قباد مع سني أخيه جامسب ثلاثاً وأربعين سنة، فتولّى أنوشروان ما كان أبوه أمر له به.

وفي أيامه خرجت الخزر فأغارت على بلاده فبلغت الدّينور، فوجّه قباد قائداً من عظماء قوّاده في اثني عشر ألفاً، فوطىء ببلاد أَران وفتح ما بين النهر المعروف بالرّس إلى شروان، ثم إن قباد لحق به فبنى بازْآن مدينة البيلقان ومدينة برذعة، وهي مدينة الثغر كلّها، وغيرهما، وبقي الخزر، ثم بنى سدّاً للأن فيما بين أرض شروان وباب اللان، وبنى على السدّ مدناً كثيرة خربت بعد بناء البساب والأبواب (٤١٥/١).

العرب، وأمّا اللّخميون ملوك الحيرة المناذرة فلم يزالوا عليها إلى أن ملك قباد الفرس وأزالهم واستعمل الحارث بن عمرو الكندي على الحيرة. ثم أعاد أنوشروان الحيرة إلى اللّخمين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك بلاش بن فيروز بن يزدجرد

ثم ملك بعد فيروز ابنه بلاش وجرى بينه وبين أخيه قباد منازعة استظهر فيها قباد وملك، فلما ملك بلاش أكرم سوخرا وأحسن إليه لما كان منه، ولم يزل حسن السيرة حريصاً على العمارة، وكان لا يبلغه أن يبتأ خرب وجلا أهله إلا عاقب صاحب تلك القرية على تركه سدّ فاقتهم حتى لا يضطّروا إلى مفارقة أوطانهم، وبنى المدينة ساباط بقرب المدائن، وكان ملكه أربع سنين (٤١٢/١).

ذكر ملك قباد بن فيروز بن يزدجرد

وكان قباد قبل أن يصير الملّك إليه قد سار إلى خاقان مستنصراً به على أخيه بلاش، فمرّ في طريقه بحدود نيسابور ومعه جماعة من أصحابه متكرّرين وفيهم زرمهر بن سوخرا، فتأقت نفسه إلى النكاح، فشكا ذلك إلى زرمهر وطلب منه امرأة، فسار إلى امرأة صاحب المنزل، وكان من الأساورة، وكان لها بنت حسناء، فخطبها منها وأطعمها وزوجها، فزوجا إقباد بها، فدخل بها من ليلته، فحملت بأنوشروان، وأمر لها بجائزة سنّة وودّها، وسألها أمّها عن قباد وحاله. فذكرت أنها لا تعرف من حاله شيئاً غير أن سراويله منسوجة بالذهب، فعلمت أنه من أبناء الملوك، ومضى قباد إلى خاقان واستنصره على أخيه، فأقام عنده أربع سنين وهو يعده، ثم أرسل معه جيشاً، فلما صار بالقرب من الناحية التي بها زوجته سأل عنها فأحضرت ومعها أنوشروان وأعلمته أنه ابنه. وورد الخبر إليه بذلك المكان أن أخاه بلاش قد هلك، فتبنّى بالمولود وحمله وأمّه على مراكب نساء الملوك واستوثق له الملك وخصّ سوخرا وشكر لولده خدمته. وتولّى سوخرا الأمر، فمال الناس إليه وتهاونوا بقباد، فلم يحتمل ذلك، فكتب إلى سابور الرازي، وهو أصهبذ ديار الجبل، ويقال للبيت الذي هو منه مهران، فاستقدمه معه جنده، فتقدّم إليه فأعلمه عزمه على قتل سوخرا وأمره بكتمان ذلك، فأثاه يوماً سابور وسوخرا عند (٤١٣/١) قباد فألقى في عتقه وهماً وأخذته وجبسه ثم خنقه قباد وأرسله إلى أهله وقدم عوضه سابور الرازي.

وفي أيامه ظهر مزدك وابتدع ووافق زرادشت في بعض ما جاء به وزاد ونقص، وزعم أنه يدعو إلى شريعة إبراهيم الخليل حسب ما دعا إليه زرادشت، واستحلّ المحارم والمنكرات، وسوى بين الناس في الأموال والأملك والنساء والعبيد والإماء حتى لا يكون لأحد على أحد فضل في شيء البتّة، فكثر أتباعه من السّفلة والأغنام فصاروا عشرات ألوف، فكان مزدك يأخذ امرأة هذا فيسلّمها إلى الآخر، وكذا

ذكر حوادث العرب أيام قباذ

لما ملك الحارث بن عمرو بن حُجر الكندي العرب وقتل النعمان بن المنذر بن امرئ القيس، كما ذكرناه، بعث إليه قباذ: إنه قد كان بيتنا وبين الملك الذي كان قبلك عهد، وأحب لقاءك. وكان قباذ زنديقاً يُظهر الخير ويكره الدماء ويداري أعداءه. فخرج إليه الحارث والتقى واصطالحا على أن لا يجوز الفرات وأحدهما من العرب، فطمع الحارث الكندي فأمر أصحابه أن يقطعوا الفرات ويغيروا على السواد، فسمع قباذ فعلم أنه من تحت يد الحارث، فاستدعاه، فحضر، فقال له: إن لصوصاً من العرب صنعت كذا وكذا. فقال: ما علمت ولا أستطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود. وطلب منه شيئاً من السواد، فأعطاه ستة طلساسيج، وأرسل الحارث بن عمرو إلى بُع، وهو باليمن، يُطمعه في بلاد العجم، فسار بُع حتى نزل الحيرة، وأرسل ابن أخيه شُمرًا ذا الجناح إلى قباذ، فحاربه فهزمه شُمرٌ حتى لحق بالري، ثم أدركه بها فقتله، ثم وجه بُع شُمرًا إلى خراسان، ووجه ابنه حسان إلى السُغد، وقال: إيكما سبق إلى الصين فهو عليها، وكان كل واحد منهما في جيش عظيم، يقال: كان في ستمائة ألف وأربعين ألفاً؛ وأرسل ابن أخيه يعفر إلى الروم، فتزل على القسطنطينية، فأعطوه الطاعة والإتاوة، (٤١٦/١) ومضى إلى رومية فحاصرها فأصاب من معه طاعون، فوثب الروم عليهم فقتلوه ولم يفلت منهم أحد.

وسار شُمر ذو الجناح إلى سمرقند فحاصرها، فلم يظفر بها، وسمع أن ملكها أحمق وإن له ابنة، وهي التي تقضي الأمور، فأرسل إليها هدية عظيمة، وقال لها: إني إنما قدمت لأتزوج بك ومعى أربعة آلاف تابوت مملوء ذهباً وفضة أنا أدفعها إليك وأمضي إلى الصين، فإن ملكك كتب امرأتي وإن هلك كان المال لك.

فلما بلغت الرسالة قالت: قد أجبته فليبعث المال؛ فأرسل أربعة آلاف تابوت في كل تابوت رجلان. ولسمرقند أربعة أبواب، ولكل باب ألف رجل، وجعل العلامة بينهم أن يضرب بالجرس. فلما دخلوا البلد صاح شُمر في الناس وضرب بالجرس، فخرجوا وملكوا الأبواب ودخل المدينة فقتل أهلها وحوى ما فيها وسار إلى الصين فهزم الترك ودخل بلادهم ولقي حسان بن بُع قد سبقه إليها بثلاث سنين، فأقاما بها حتى ماتا؛ وكانا مقامهما فيما قيل إحدى وعشرين سنة، وقيل: عادا في طريقهما حتى قدما على بُع بالفنائم والسي والجواهر، ثم انصرفوا [جميعاً] إلى بلادهم، ومات بُع باليمن فلم يخرج أحد من اليمن غازياً بعده.

وكان ملكه مائة وإحدى وعشرين سنة؛ وقيل تهود.

قال ابن إسحاق: كان بُع الآخر وهو بُنان أسعد أبو كرب حين أقبل من المشرق بعد أن ملك البلاد جعل طريقه على المدينة، وكان حين مر بها في بدايته لم يهيج أهلها وخلف عندهم ابناً له فقتل غيلة

فقدما عازماً على تخريبها واستئصال أهلها، فجمع له الانتصار حين سمعوا ذلك ورئيسهم عمرو بن الطلة أحد بني عمرو بن مبدول من بني النجار وخرجوا لقتاله، وكانوا (٤١٧/١) يقاتلونه نهراً ويقرونه ليلاً. فبينما هو على ذلك إذ جاءه حبران من بني قريظة عالمان، فقالا له: قد سمعنا ما تريد أن تفعل، وإنك إن أبيت إلا ذلك حبل بينك وبينه ولم تأمن عليك عاجل العقوبة. فقال: ولستم ذلك؟ فقالا: إنها مهاجر نبي من قريش تكون داره. فانتهى عما كان يريد وأعجبه ما سمع منهما فاتبعهما على دينهما، واسمهما كعب وأسد، وكان بُع وقومه أصحاب أوثان. وسار من المدينة إلى مكة، وهي طريقه، فكسا الكعبة الوصائل والملاء، وكان أول من كساها، وجعل لها باباً ومفتاحاً، وخرج متوجهاً إلى اليمن فدعا قومه إلى اليهودية فأبوا عليه حتى حاكموه إلى النار، وكانت لهم نار تحكم بينهم فيما يزمعون تاكل الظالم ولا تضر المظلوم. فقال لقومه: أنصفتهم. فخرج قومه بأوثانهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى قدما عند مخرج النار، فخرجت النار فغشيتهما وأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران تعرق جباههما لم تضرهما، فأصفت حمير على دينه.

وكان قدم على بُع قبل ذلك شافع بن كليب الصُدفي، وكان كاهناً، فقال له بُع: هل تجد لقوم ملكاً يوازي ملكي؟ قال: لا إلا لملك غسان. قال: فهل تجد ملكاً يزيد عليه؟ قال: أجده لبار مبرور، أي بالقهفور، ووُصف في الزبور، وقُضلت أمته في السُفور، يفرج الظلم بالنور، أحمد النبي، طوبى لأمته حين يجي، أحد بني لؤي، ثم أحد بني قصي فظفر بُع في الزبور فإذا هو يجد صفة النبي، (٤١٨/١)

ثم ملك بعد بُع هذا، وهو بُنان أسعد أبو كرب بن ملكيكر، ربيعة بن نصر اللخمي، فلما هلك ربيعة رجع الملك باليمن إلى حسان بن بُنان أسعد.

فلما ملك ربيعة رأى رؤيا حالته فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عافاً إلا أحضره وقال لهم: رأيت رؤيا هالتي فأخبروني بتأويلها. فقالوا: اقضئنا علينا. فقال: إن أخبركم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها، فلما قال ذلك قال له رجل منهم: إن كان الملك يريد ذلك فليبعث إلى سطيج وثيق فهما يخبرانك عما سألت. واسم سطيج ربيع بن ربيعة، وكان يقال له الذئبي نسبة إلى ذئب بن عدي، وثيق بن مصعب بن يشكر بن أنمار.

فبعث إليهما، فقدم عليه سطيج قبل ثيق، فلما قدم عليه سطيج سأله عن رؤياه وتأويلها. فقال: رأيت جمجمة، خرجت من ظلمة، فوقعت بارض بهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة؟ قال له الملك: ما أخطأت منها شيئاً، فما عندك في تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين

صحيفة فكتب فيها.

الآنَ يُسْتَرَى سَهْرًا نَوْمٌ؟ سَعِيدٌ مَنْ بَيْتٌ قَرِيرٌ عَيْنٍ
فَلَمَّا جَمِعَ غَلَزَتْ وَغَلَّتْ فَعَمَزَةُ الْإِسْلَامُ لِنِي رُغَيْنِ
ثُمَّ خَتَمَهَا وَاتَى بِهَا عَمْرًا فَقَالَ: ضَعْ هَذِهِ عِنْدَكَ، فَعَمَلٌ بَلَغَ
حَسَانَ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَخُوهُ وَقَبَائِلُ الْيَمَنِ قَالَ لِعَمْرُو:

يَا عَمْرُو لَا تُعْجِلْ عَلَيَّ مَيْتِي فَالْمَلِكُ تَسَاخُذُهُ بِغَيْرِ حُشُودٍ
(٤٢١/١) فَأَبَى إِلَّا قَتْلَهُ، فَقَتَلَهُ بِمَوْضِعٍ رَحْبَةٍ مَالِكٍ، فَكَانَتْ
تَسْمَى فُرْصَةً تُعَمُّ فِيمَا قِيلَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْيَمَنِ فَمُنِعَ النَّوْمُ مِنْهُ، فَسَالَ
الْأَطْيَاءَ وَغَيْرَهُمْ عَمَّا بِهِ وَشُكَا إِلَيْهِمُ السُّهْرِ، فَقَالَ لَهُ قَاتِلُ مَنَّهُمْ: مَا قَتَلَ
أَحَدٌ أَخَاهُ أَوْ ذَا رَحِمٍ بَغْيًا إِلَّا مُنِعَ مِنْهُ النَّوْمُ. فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ قَتَلَ كُلَّ
مَنْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِقَتْلِ أَخِيهِ حَتَّى خَلَصَ إِلَى ذِي رُغَيْنِ، فَلَمَّا أَرَادَ قَتْلَهُ
قَالَ: إِنَّ لِي عِنْدَكَ بَرَاءة. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: أَخْرَجَ الْكِتَابَ الَّذِي
اسْتَوْدَعْتُكَ، فَأَخْرَجَهُ فَلِذَا فِيهِ الْبَيْتَانِ، فَكَفَّ عَنْ قَتْلِهِ، وَلَمْ يَلْبَثْ عَمْرُو
أَنْ هَلَكَ، فَتَفَرَّقَتْ جَمِيرٌ عِنْدَ ذَلِكَ.

قُلْتُ: هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو جَعْفَرٍ مِنْ قَتْلِ قَبَاذَ بِالرِّيِّ وَمَلِكِ بُتَيْعٍ
الْبِلَادِ مِنْ بَعْدِ قَتْلِهِ مِنَ النُّقْلِ الْقَبِيحِ وَالْغُلُطِ الْفَاحِشِ، وَفَسَادِهِ أَشْهُرٍ مِنْ
أَنْ يُذَكَّرَ، فَلَوْلَا أَنَّنَا شَرَطْنَا أَنْ لَا نَتْرَكَ تَرْجُمَةً مِنْ تَارِيخِهِ إِلَّا وَأَنَاثِي
بِمَعْنَاهَا مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِشَيْءٍ لَكَانَ الْإِعْرَاضُ عَنْهُ أَوَّلَى. وَوَجْهُ الْغُلُطِ
فِيهِ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ قَبَاذَ قَتَلَ بِالرِّيِّ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ النُّقْلِ مِنَ الْفَرَسِ
وغيرِهِمْ أَنَّ قَبَاذَ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ فِي زَمَانٍ مَعْلُومٍ، وَكَانَ مَلِكُهُ مَدَّةً
مَعْلُومَةً، كَمَا ذَكَرْنَا قَبْلَ، وَلَمْ يُنْقَلْ أَحَدٌ أَنَّهُ قُتِلَ إِلَّا فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ.
وَلَمَّا مَاتَ مَلِكُ ابْنِهِ كَسَرَى أَنْوَشَرُونَ بَعْدَهُ، وَهَذَا أَشْهُرٌ مِنْ: قِفَا نَبْلِكَ،
وَلَوْ كَانَ مَلِكُ الْفَرَسِ انْتَقَلَ بَعْدَ قَبَاذَ إِلَى جَمِيرٍ، كَيْفَ كَانَ مَلِكُ ابْنِهِ
بَعْدَهُ وَتَمَكَّنَ فِي الْمَلِكِ حَتَّى اطَاعَهُ مَلُوكُ الْأُمَمِ وَحَمَلَتْ الرُّومُ إِلَيْهِ
الْخُرَاجَ!

ثُمَّ ذَكَرَ أَيْضًا أَنَّ بُتَيْعًا وَجَّهَ ابْنَهُ حَسَانَ إِلَى الصِّينِ وَشَجَّرَا إِلَى
سَمَرْقَنْدٍ وَابْنَ أَخِيهِ إِلَى الرُّومِ وَأَنَّهُ مَلِكُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَسَارَ إِلَى رُومِيَّةٍ
فَحَاصَرَهَا، فَمَا لَبِثَ شَعْرِي مَا هُوَ الْيَمَنِ وَحَضَرَمُوتُ حَتَّى يَكُونَ بَيْنَهُمَا
مِنْ الْجُنُودِ مَا يَكُونُ (٤٢٢/١) بَعْضُهُمْ فِي بِلَادِهِمْ لِحَفْظِهَا، وَجَيْشٌ
مَعَ بُتَيْعٍ، وَجَيْشٌ مَعَ حَسَانَ يَسِيرُ بِهِمْ إِلَى مِثْلِ الصِّينِ فِي كُرَّةِ عَسَاكِرِهِ
وَمَقَاتِلَتِهِ، وَجَيْشٌ مَعَ ابْنِ أَخِيهِ بُتَيْعٍ يَلْقَى بِهِ مِثْلَ كَسَرَى وَيَهْزِمُهُ وَيَمْلِكُ
بِلَادَهُ وَيَحَاصِرُ بِهِ مِثْلَ سَمَرْقَنْدٍ فِي كِبَرِهَا وَعَظَمِهَا وَكَثَرَةِ أَهْلِهَا،
وَجَيْشٌ مَعَ يَعْغَرٍ يَسِيرُ بِهِمْ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ وَيَمْلِكُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ!
وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ كَثَرَةِ مَمَالِكِهِمْ وَأَتْسَاعِهَا وَكَثَرَةِ عَدَدِهِمْ قَدْ اجْتَهَدُوا
لِيَأْخُذُوا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ أَوْ مَا يَجَاوِرُهَا وَالْيَمَنِ مِنْ أَقَلِّ بِلَادِهِمْ عَدَدًا
وَجُنُودًا فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ بَعْضُ عَسَاكِرِ الْيَمَنِ
مَعَ بُتَيْعٍ؟ هَذَا مِمَّا تَابَاهُ الْعُقُولُ، وَتَمَجَّهَ الْأَسْمَاعُ.

ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ: إِنَّ مَلِكًا بُتَيْعَ بِلَادِ الْفَرَسِ وَالرُّومِ وَالصِّينِ وَغَيْرِهَا

الْحَرَّتَيْنِ مِنْ خَشَشٍ لِيَهْبِطَنَّ أَرْضَكُمْ الْحَبَشَ فَلْيَمْلِكَنَّ مَا بَيْنَ أَيْسَنَ إِلَى
جَرْشَ. قَالَ الْمَلِكُ: وَأَيْبِكُ يَا سَطِيطُ إِنَّ هَذَا لَغَاظٌ مَوْجِعٌ، فَمَتَى يَكُونُ
أَفِي زَمَانِي أَمْ بَعْدَهُ؟ قَالَ: بَلْ بَعْدَهُ بَحِينَ سِتِّينَ سَنَةً أَوْ سَبْعِينَ يَمْضِينَ
مِنَ السَّنِينَ. قَالَ: هَلْ يَدُومُ ذَلِكَ مِنْ مَلِكِهِمْ أَوْ يَنْقَطِعُ؟ قَالَ: بَلْ يَنْقَطِعُ
لِبَضْعِ وَسَبْعِينَ يَمْضِينَ مِنَ السَّنِينَ، ثُمَّ (٤١٩/١) يَقْتُلُونَ بِهَا أَجْمَعُونَ
وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا هَارِبِينَ. قَالَ الْمَلِكُ: وَمَنْ الَّذِي يَلِي ذَلِكَ؟ قَالَ: بَلِيهِ
إِرْمُ ذِي يَزْنَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدَنَ، فَلَا يَتْرَكَ أَحَدًا مِنْهُمْ بِالْيَمَنِ.
قَالَ: فَيَدُومُ ذَلِكَ مِنْ سُلْطَانِهِ أَوْ يَنْقَطِعُ؟ قَالَ: بَلْ يَنْقَطِعُ، يَقْطَعُهُ نَبِيٌّ
زَكِيٌّ، يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ الْعَلِيِّ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ
مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ، يَكُونُ الْمَلِكُ فِي قَوْمِهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ. قَالَ: وَهَلْ
لِلدَّهْرِ مَا آخِرُ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَوْمَ يَجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَيَسْعَدُ
فِيهِ الْمُحْسِنُونَ، وَيَشْقَى فِيهِ الْمُسِيئُونَ. قَالَ: أَحَقُّ مَا تَخْبِرُنَا يَا سَطِيطُ
قَالَ: نَعَمْ وَالشَّقَقُ وَالْفَقَقُ إِذَا اتَّسَقَ، إِنَّ مَا أَنْبَأْتُكَ بِهِ لِحَقٌّ.

ثُمَّ قَدِمَ عَلَيْهِ شَيْقُ فَقَالَ: يَا شَيْقُ إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالَتْنِي فَأَخْبِرْنِي
عَنْهَا وَعَنْ تَأْوِيلِهَا! وَكُتِمَ مَا قَالَ سَطِيطُ لِيَنْظُرَ هَلْ يَتَّفَقَانِ أَمْ يَخْتَلِفَانِ.
قَالَ: نَعَمْ، رَأَيْتُ جَمْعِمَةً خَرَجَتْ مِنْ ظِلْمَةٍ، فَوَقَعَتْ بَيْنَ رُوضَةٍ
وَأَكْمَةٍ، فَأَكَلَتْ مِنْهَا كُلُّ ذَاتِ نَسْمَةٍ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ قَالَ: مَا أَخْطَأْتُ شَيْئًا، فَمَا تَأْوِيلُهَا؟ قَالَ:
أَحْلَفَ بِنَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مِنْ إِنْسَانٍ، لِيَنْزِلَنَّ أَرْضَكُمْ السُّودَانَ، وَلْيَمْلِكَنَّ
مَا بَيْنَ أَيْسَنَ إِلَى نَجْرَانَ. قَالَ الْمَلِكُ: وَأَيْبِكُ يَا شَيْقُ إِنَّ هَذَا لَغَاظٌ،
فَمَتَى هُوَ كَائِنْ؟ قَالَ: بَعْدَكَ بِزَمَانٍ، ثُمَّ يَسْتَقْذِمُكُمْ مِنْهُمْ عَظِيمٌ ذُو شَانٍ،
وَيَذِيقُهُمْ أَشَدَّ الْهَوَانِ، وَهُوَ غِلَامٌ لَيْسَ بِدَنِيٍّ وَلَا مُرَوَّنَةً، يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِ
ذِي يَزْنَ، قَالَ: (٤٢٠/١) فَهَلْ يَدُومُ سُلْطَانُهُ أَمْ يَنْقَطِعُ؟ قَالَ: بَلْ يَنْقَطِعُ
بِرَسُولٍ مَرْسَلٍ، يَأْتِي بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، بَيْنَ أَهْلِ الدِّينِ وَالْفَضْلِ، يَكُونُ
الْمَلِكُ فِي قَوْمِهِ إِلَى يَوْمِ الْفَصْلِ. قَالَ: وَمَا يَوْمُ الْفَصْلِ؟ قَالَ: يَوْمَ
تُجْزَى فِيهِ الْوَلَاةُ، وَيَدْعَى مِنَ السَّمَاءِ بِدَعَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ مِنْهَا الْأَحْيَاءُ
وَالْأَمْوَاتُ، وَيَجْتَمِعُ فِيهِ النَّاسُ لِلْمِيقَاتِ.

فَلَمَّا فَرِغَ مِنْ مَسْأَلَتِهِمَا جَهَّزَ بَنِيَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ بِمَا
يَصْلَحُهُمْ، فَمِنْ بَقِيَّةِ رِبْعِيَّةٍ بَنَ نَصْرَ كَانَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذَرِ مَلِكُ
الْحِيرَةِ، وَهُوَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذَرِ بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ بْنِ عَمْرُو بْنِ
أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ عَمْرُو بْنِ عَدِيٍّ بْنِ رِبْعِيَّةٍ بَنَ نَصْرَ ذَلِكَ الْمَلِكِ.

فَلَمَّا هَلَكَ رِبْعِيَّةُ بَنَ نَصْرَ وَاجْتَمَعَ مَلِكُ الْيَمَنِ إِلَى حَسَانَ بْنِ بُيَّانَ
بَنِ أَبِي كَرْبَ بْنِ مَلِكِيكَرْبَ بْنِ زَيْدَ بْنِ عَمْرُو ذِي الْأَذْعَارِ، كَانَ مِمَّا
هَبَّجَ أَمْرَ الْحَبَشَةِ وَتَحَوَّلَ الْمَلِكُ عَنْ جَمِيرٍ أَنَّ حَسَانَ سَارَ بِأَهْلِ الْيَمَنِ
يُرِيدُ أَنْ يَطَّأَ بِهِمْ أَرْضَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، كَمَا كَانَتْ التَّابِعَةُ تَفْعَلُ، فَلَمَّا
كَانَ بِالْعِرَاقِ كَرِهَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ مِنَ الْيَمَنِ الْمَسِيرَ مَعَهُ فَكَلَّمُوا إِخَاهُ
عَمْرًا فِي قَتْلِ حَسَانَ وَتَمْلِيكِهِ، فَأُجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذِي
رُغَيْنِ الْحَمِيرِيِّ، فَإِنَّهُ نَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ، فَعَمِدَ ذُو رُغَيْنِ إِلَى

وكان بعد قتل قبّاد، يعني أيّام ابنه أنوشروان، ولا خلاف أنّ مولد النبي، ﷺ، كان في زمن أنوشروان، وكان ملكه سبعمائة وأربعين سنة. ولا خلاف أيضاً أنّ الحبشة لما ملكت اليمن انقضت ملك حمير منه، وكان آخر ملوكهم ذا نواس. وكان ملك حمير قد اختلّ قبل ذي نواس، وانقطع نظامهم حتى طمعت الحبشة فيه وملكته، وكان ملكهم اليمن أيّام قبّاد، وكيف يمكن أن يكون ملك الحبشة الذي هو مقطوع به أيّام قبّاد ويكون تبع هو الذي ملك اليمن قد قتل قبّاد وملك بلاده قبل أن تملك الحبشة اليمن؟ هذا مردود محال وقوعه، وكان ملك الحبشة اليمن سبعين سنة، وقيل أكثر من ذلك، وكان انقراض ملكهم في آخر ملك أنوشروان، والخير في ذلك مشهور، وحديث سيف ذي يزن في ذلك ظاهر، ولم يزل اليمن بعد الحبشة في يد الفرس إلى أن ملكه المسلمون، فكيف يستقيم أن ينقضي ملك تبع الذي هو ملك بلاد فارس ومن بعده من ملوك حمير وملك الحبشة وهو سبعون سنة في ملك أنوشروان وكان ملكه نيّفاً وأربعين سنة؟ وهذا أعجب أنّ مدة بعضها سبعون (٤٢٣/١) سنة تنقضي قبل مضي نيّف وأربعين سنة، ولو فكر أبو جعفر في ذلك لاستحيا من نقله.

وأعجب من هذا أنّه قال: ثمّ ملك بعد تبع هذا ربيعة بن نصر اللخمي، وهذا ربيعة هو جدّ عمرو بن عديّ ابن أخت جذيمة، وكان ملك عمرو الحيرة بعد خاله جذيمة أيّام ملوك الطوائف قبل ملك أردشير بن بابك بخمس وتسعين سنة، وبين أردشير وقبّاد ما يقارب عشرين ملكاً، وكيف يكون جدّ عمرو وقد ملك بعد قبّاد وهو قبله بهذا الدهر الطويل؟ ولو لم يترجم أبو جعفر على هذه الحادثة بقوله: ذكر الحوادث أيّام قبّاد، لكان يحتمل تأويلاً فيه، ثمّ ما قنع بذلك حتى قال، بعد أن قصّ مسير تبع: وقتل قبّاد وملك البلاد.

وأما ابن إسحاق فإنّه قال: إنّ الذي سار إلى المشرق من التابعة هو تبع الأخير، ويعني بقوله تبع الأخير أنّه آخر من سار إلى المشرق وملك البلاد، فإنّ ابن إسحاق وغيره يقولون إنّ الذي ملك البلاد المشرقية لما توفي ملك بعده عدّة تابعة ثمّ اختلّ أمرهم زماناً طويلاً حتى طمعت الحبشة فيهم وخرجت إلى اليمن. فليت شعري إذا كان هذا تبع في أيّام قبّاد فلا شك أنّ تبعاً الأخير الذي أخذ منه اليمن يكون في زمن بني أميّة ويكون ملك الحبشة اليمن بعد مدّة من ملك بني العبّاس، ويكون أوّل الإسلام من ثلاثمائة سنة من ملكهم أيضاً ممّا بعدها حتى يستقيم هذا القول.

ثمّ إنّ قال: إنّ عمرو بن طلّة الأنصاري خرج إلى تبع، وعمرو هذا (٤٢٤/١) قيل إنّ أدرك النبي، ﷺ، شيخاً كبيراً ومات عند مرجعه من غزوة بدر. ومن الدليل على بطلانه أيضاً أنّ المسلمين لما قصدوا بلاد الفرس ما زالت الفرس تقول لهم عند مراسلاتهم ومحاوراتهم في حروبهم: كنتم أقلّ الأمم وأذلّها واحقرها والعرب تقرّ لهم بذلك، فلو كان ملك تبع قريب العهد لقالت العرب: إنّنا بالأمس قتلنا ملككم

ذكر ملك لختيعة

فلما هلك عمرو وتفرقت حمير وثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له لختيعة تنوف ذو شنانر فملكهم، في قول ابن إسحاق، (٤٢٥/١) قتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم، وكان امرأة فاسقاً يزعمون أنّه كان يعمل عمل قوم لوط، فكان إذا سمع بقلام من أبناء الملوك أنّه قد بلغ أرسل إليه فوقع عليه في مشربة لثلاً يملك بعد ذلك، ثمّ يطلع إلى حرسه وجنده قد أخذ سواكاً في فيه يعلمهم أنّه قد فرغ منه، ثمّ يخلي سبيله فيفضحه.

ذكر ملك ذي نواس وقصة أصحاب الأخدود

كان من أبناء الملوك رزعة ذو نواس بن ثبّان أسعد بن كرب، وكان صغيراً حين أصيب أخوه حسّان، فشبّ غلاماً جميلاً ذا هيئة، فبعث إليه لختيعة ليفعل به ما كان يفعل بغيره، فأخذ سكّيناً لطيفاً فجعله بين نعله وقدمه، ثمّ انطلق إليه مع رسوله، فلما خلا به في المشربة قتله ذو نواس بالسكّين ثمّ احتزّ رأسه فجعله في كوة مشربة التي يطلع منها، ثمّ أخذ سواكه فجعله في فيه، ثمّ خرج، فقالوا له: ذو نواس أرطب أم يباس؟ فقال: سلّ نخماس، استرطبان ذو نواس لا بأس.

فذهبوا ينظرون حين قال لهم ما قال، فإذا رأس لختيعة مقطوع، فخرجت (٤٢٦/١) حمير والحرس في أثر ذي نواس حتى أدركوه فملكوه حيث أراحهم من لختيعة، واجتمعوا عليه، وكان يهودياً، وينجران بقايا من أهل دين عيسى ابن مريم على استقامة لهم رئيس يقال له عبد الله بن الثامر، وكان أصل النصرانيّة بنجران.

قال وهب بن منبه: إنّ رجلاً من بقايا أهل دين عيسى يقال له فيميون، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً في الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحاً لا يُعرف بقرية إلاّ خرج منها إلى غيرها، وكان لا يأكل إلاّ من كسب يده، وكان يعمل الطين ويعظم الأحاد لا يعمل فيه شيئاً ويخرج إلى الصحراء يصليّ جميع نهاره، فنزل قرية من قرى الشام

وعبدته، وجعل يسأله عن الاسم الأعظم [وكان يعلمه] فكتمه إياه وقال: لن تحتمله، والشامر يعتقد أن ابنه يختلف إلى الساحر مع الغلمان. فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضنَّ عليه بالاسم الأعظم عمد إلى قداح فكتب عليها أسماء الله جميعها ثم ألقيها في النار واحداً واحداً حتى إذا ألقى القدر الذي عليه الاسم الأعظم وثب منها فلم تضربه شيئاً، فأخذه وعاد إلى صاحبه فأخبره الخبر، فقال له: امسك على نفسك، وما أظن أن تفعل، فكان عبد الله لا يلقى أحداً إذا أتى نجران به ضُرَّ إلا قال: يا عبد الله أئذ دخل في ديني حتى أدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم، فيوحد الله ويسلم، ويدعو له عبد الله فيشفي، حتى لم يبق أحد من أهل نجران ممن به ضُرَّ إلا أنه أتاه واتبعه ودعا له فعوفي.

فُرع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل قريتي وخالفني ديني، لأمثلن بك! فقال: لا تقدر على ذلك فجعل يرسله إلى الجبل الطول فيُلقي من رأسه فيقع على الأرض ليس به بأس، فأرسله إلى مياه نجران، وهي بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك، فيُلقي فيها فيخرج ليس به بأس. فلما غلبه قال عبد الله بن الثامر: إنك لا تقدر على قتلي حتى توحد الله وتؤمن كما آمنت، فإنك إذا فعلت قتلتي. فوحد الله الملك (٤٢٧/١) ثم ضربه بعضاً بيده فشجّه شجّة غير كبيرة فقتله، فهلك الملك مكانه، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر.

قال: فسار إليهم ذو نواس بجنوده فجمعهم ثم دعاهم إلى اليهودية وخيرهم بينها وبين القتل، فاخشاروا القتل، فخذ لهم الأخدود، فحرق بالنار وقتل بالسيف حتى قتل قريباً من عشرين ألفاً.

وقال ابن عباس: كان بنجران ملك من ملوك جُمُير يقال له ذو نواس واسمه يوسف بن شرحبيل، وكان قبل مولد النبي ﷺ، بسبعين سنة، وكان له ساحر حاذق. فلما كبر قال للملك: إنني كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً اسمه عبد الله بن الشامر ليعلمه، فجعل يختلف إلى الساحر، وكان في طريقه راهب حسن القراءة، فقدم إليه الغلام، فأعجبه أمره، فكان إذا جاء إلى المعلم يدخل إلى الراهب فيقعد عنده، فإذا جاء من عنده إلى المعلم ضربه وقال له: ما الذي حبسك؟ وإذا انقلب إلى أبيه دخل إلى الراهب فيضربه أبوه ويقول: ما الذي أبطأ بك؟ فشكا الغلام ذلك إلى الراهب، فقال له: إذا أتيت المعلم فقل حبسني أبي، وإذا أتيت أباك فقل حبسني المعلم. وكان في ذلك البلد حية عظيمة قطعت طريق الناس، فمر بها الغلام فرماها بحجر فقتلها، وأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: إن لك لشأناً، وإنك ستبلى فإن ابتليت فلا تدلن عليّ. وصار الغلام يبرى الأكمة والأبرص ويشفي الناس. وكان للملك ابن عم أعمى، فسمع بالغلام وقتل الحية فقال: ادع الله أن يرده عليّ بصري. فقال الغلام: إن ردَّ الله عليك بصرك تؤمن به؟ قال:

يعمل عمله ذلك مستخفياً، فقطن به رجل اسمه صالح فأجبه حياً شديداً، وكان يتبعه حيث ذهب لا يفتن به فيميون، حتى خرج مرة يوم الأحد إلى الصحراء واتبعه صالح وفيميون لا يعلم. فجلس صالح منه منظر العين مستخفياً، وقام فيميون يصلي، فينما هو يصلي إذ أقبل نحوه تنين، فلما رآه فيميون دعا عليه فمات، ورآه صالح ولم يدرك ما أصابه فخاف على فيميون، فصاح: يا فيميون التنين قد أقبل نحوك! فلم يلتفت إليه وأقبل على صلاته حتى أسمى، وعرف أن صالحاً عرفه، فكلّمه صالح وقال له: يعلم الله أنني ما أحببت شيئاً حبك قط وقد أردت صحبتك حيثما كنت. قال: افعل. فلزمه صالح، وكان إذا ما جاءه العبد به ضُرَّ شفي إذا دعا له، وإذا دُعي إلى أحد به ضُرَّ لم يأت. وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير فجعل ابنه في حجرة ألقى عليه ثوباً ثم قال لفيميون: قد أردت أن تعمل في بيتي عملاً، فانطلق إليه لأشارتك عليه؛ فانطلق معه، فلما دخل الحجرة ألقى الرجل الثوب عن ابنه وطلب إليه أن يدعو له، فدعا له فأبصر. (٤٢٧/١)

وعرف فيميون أنه قد عُرف بالقرية فخرج هو وصالح ومرو بشجرة عظيمة بالشام. فناداه رجل وقال: ما زلت أنتظر، لا تبرح حتى تقوم عليّ فإني ميت، قال: فمات، فواراه فيميون وانصرف ومعه صالح حتى وطنا بعض أرض العرب، وأخذهما بعض العرب فباعوهما بنجران، وأهل نجران على دين العرب تبعد نخلة طويلة بين أظهرهم، لها عيد كل سنة؛ [إذا كان ذلك العيد علّقوا] عليها كل ثوب حسن وحلي جميل، فعكفوا عليهم يوماً، فابتاع رجل من أشرفهم فيميون، وابتاع رجل [آخر] صالحاً، فكان فيميون إذا قام من الليل يصلي في بيته استسرح له البيت حتى يصبح من غير مصباح. فلما رأى سيده ذلك أعجبه، فسأله عن دينه فأخبره، وعاب دين سيده. وقال له: لو دعوت إلهي الذي أعبد لأهلك النخلة. فقال: افعل فإنك إن فعلت دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه. فصلّى فيميون ودعا الله تعالى، فأرسل الله عليها ريحاً فجففتها وألقها، فأتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه، فحملهم على شريعة من دين عيسى ودخل عليهم بعد ذلك الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض. فمن هنالك كان أصل النصرانية بنجران.

وقال محمد بن كعب القرظي: كان أهل نجران يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قرأها ساحر كان أهل نجران يرسلون أولادهم إليه يعلمهم السحر. فلما نزلها فيميون [وهو رجل] كان يعبد الله [على دين عيسى بن مريم، عليه السلام]، فإذا عُرف في قرية خرج منها إلى غيرها، وكان مجاب (٤٢٨/١) الدعوة يبرى المرضى، وله كرامات، فوصل نجران فسكن خيمة بين نجران وبين الساحر، فأرسل الثامر ابنه عبد الله مع الغلمان إلى الساحر، فاجتاز بفيميون فرأى ما أعجبه من صلاته، فجعل يجلس إليه ويستمع منه، فأسلم معه ووحد الله تعالى

(٤٣٢/١) اقتحم البحر بفروسه ففرق، ووطىء أرباط اليمـن فقتل ثلث رجالهم، وبعث إلى النجاشي بثـلث سبـايهم، ثم أقام بها وأذل أهلها.

وقيل: إنَّ الحبشة لما خرجوا إلى المندب من أرض اليمـن كتب ذو نواس إلى أقيال اليمـن يدعوهم إلى الاجتماع على عدوهم، فلم يجيبوه وقالوا: يقتل كلُّ رجل عن بلاده. فصنع مفاتيح وحملها على عدو من الإبل ولقي الحبشة وقال: هذه مفاتيح خزان الأموال باليمـن، فهي لكم ولا تقتلوا الرجال والنزرة، فأجابوه إلى ذلك وساروا معه إلى صنعاء، فقال لكبيرهم: وجبة أصحابك لقيض الخزائن. فتفرق أصحابه ودفع إليهم المفاتيح، وكتب إلى الأقيال بقتل كلِّ نور أسود، فقتلت الحبشة ولم ينج منهم إلا الشريد.

فلما سمع النجاشي جهز إليهم سبعين ألفاً مع أرباط والأشـرم، فملك البلاد وأقام بها سنين، ونازعه أبرهة الأشـرم، وكان في جنده، فمال إليه طائفة منهم، وبقي أرباط في طائفة، وسار أحدهما إلى الآخر، وأرسل أبرهة: إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها على بعض شيئاً، فيهلكوا، ولكن ابرز إليّ فأينا قهر صاحبه استولى على جنده.

فتبارزا، فرفع أرباط الحربة فضرب أبرهة، فوقعت على رأسه فشرمت أنفه وعينه، فسَمي الأشـرم، وحمل غلام لأبرهة يقال له عتودة، كان قد تركه كميناً من خلف أرباط، على أرباط فقتله، واستولى أبرهة على الجند والبلاد وقال لعتودة: احتكم فقال: لا تدخل عروس على زوجها من اليمـن حتى (٤٣٣/١) أصيبتها قبله، فأجابته إلى ذلك، فبقي يفعل بهم هذا الفعل حيناً، ثم عدا عليه إنسان من اليمـن فقتله، فسُر أبرهة بقتله، وقال: لو علمتُ أنه يحتكم هكذا لم أحكمه.

ولما بلغ النجاشي قتل أرباط غضب غضباً شديداً وحلف ألا يدع أبرهة حتى يطأ أرضه ويجز ناصيته، فبلغ ذلك أبرهة، فأرسل إلى النجاشي من تراب اليمـن وجز ناصيته وأرسلها أيضاً، وكتب إليه بالطاعة وإرسال شعره وترابه ليبر قسمه بوضع التراب تحت قدميه، فرفض عنه وأقره على عمله.

فلما استقر باليمـن بعث إلى أبي مرة ذي يزن، فأخذ زوجته ريحانة بنت ذي جَدَن ونكحها، فولدت له مسروفاً، وكانت قد ولدت لذي يزن ولداً اسمه معدى كرب، وهو سيف، فخرج ذو يزن من اليمـن فقدم الحيرة على عمرو بن هند وسأله أن يكتب له إلى كسرى كتاباً يعلمه محلّه وشرفه وحاجته، فقال: إني أفد إلى الملك كل سنة وهذا وقتها، فأقام عنده حتى وفد معه ودخل إلى كسرى معه، فأكرمه وعظمه وذكر حاجته وشكا ما يلقون من الحبشة، واستنصره عليهم، وأطمعه في اليمـن وكثرة مالها، فقال له كسرى أنوشروان: إني لأحب أن أسعفك بحاجتك ولكن المسالك إليها صعبة وسأُنظر، وأمر

نعم. قال: اللهم إن كان (٤٣٠/١) صادقاً فاردّد عليه بصره، فعاد بصره، ثم دخل على الملك، فلما رآه تعجّب منه وسأله، فلم يخبره، والحق عليه فذلّه على الغلام، فجيء به، فقال له: لقد بلغ من سحرِكَ ما أرى. فقال: أنا لا أشفي أحداً إنما يشفي الله مَنْ يشاء، فلم يزل يعذّبه حتى دلّه على الراهب، فجيء به، فقال له: ارجع عن دينك، فأبى، فأمر به فوضع المشار على رأسه فشقّ بنصفين، ثم جيء بابن عمّ الملك، فقال: ارجع عن دينك، فأبى، فشقه قطعتين، ثم قال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فأرسله إلى جبل فقال: اللهم أكفينهم! فرجف بهم الجبل وهلكوا، ورجع الغلام إلى الملك، فسأله عن أصحابه، فقال: كفانيهم الله. فغاضه ذلك وأرسله في سفينة إلى البحر ليلقوه فيه، فذهبوا به، فقال: اللهم أكفينهم! ففرقوا ونجا، وجاء إلى الملك فقال: اقتلوه بالسيف، فضربوه فبنا عنه. وفشا خبره في اليمـن، فأعظمه الناس وعلموا أنه على الحق، فقال الغلام للملك: إنك لن تقدر على قتلي إلا أن تجمع أهل مملكتك وترميني بهم وتقول: بسم الله ربّ الغلام ففعل ذلك فقتله. فقال الناس: آمناً ربّ الغلام! فقبل للملك: قد نزل بك ما تحذر. فأغلق أبواب المدينة وخدأ أخدوداً وملاء ناراً وعرض الناس، فمن رجع عن دينه تركه، ومن لم يرجع ألقيه في الأخدود فأحرقه.

وكانت امرأة مؤمنة، وكان لها ثلاثة بنين، أحدهم رضيع، فقال لها الملك: ارجعي وإلا قتلتك أنت وأولادك، فأبّت، فألقى ابنها الكبيرين، (٤٣١/١) فأبّت، ثم أخذ الصغير ليلقيه فهَمّت بالرجوع. قال لها الصغير: يا أمّاه لا ترجعي عن دينك، لا بأس عليك! فألقاه وألقاه في أثره، وهذا الطفل أحد من تكلم صغيراً.

قيل: حفر رجل خربة بنجران في زمن عمر بن الخطّاب، فرأى عبد الله ابن الثامر واضعاً يده على ضربة في رأسه، فإذا رُفعت عنها يده جرت دماً، وإذا أرسلت يده ردّها إليها وهو قاعد، فكتب فيه إلى عمر، فأمر بتركه على حاله.

ذكر ملك الحبشة اليمـن

قيل: لما قتل ذو نواس من قتل من أهل اليمـن في الأخدود لأجل العود عن النصرانية أفلت منهم رجل يقال له دوس ذو ثعلبان حتى أعجز القوم، فقدم على قيصر فاستصره على ذي نواس وجنوده وأخبره بما فعل بهم. فقال له قيصر: بعدت بلادك عتاً، ولكن سأكتب إلى النجاشي ملك الحبشة وهو على هذا الدين وقريب منكم. فكتب قيصر إلى ملك الحبشة يأمره بصره، فأرسل معه ملك الحبشة سبعين ألفاً وأمر عليهم رجلاً يقال له أرباط، وفي جنوده أبرهة الأشـرم، فساروا في البحر حتى نزلوا بساحل اليمـن، وجمع ذو نواس جنوده فاجتمعوا، ولم يكن [له] حرب غير أنه ناوش شيئاً من قتال ثم انهزموا، ودخلها أرباط. فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه

بأنزاله، فأقام عنده حتى هلك.

فَأَيُّوَا بِالْهَبَابِ وَالسَّابِلَا وَأَيُّوَا بِالسُّلُوكِ مُصْغِفِيَا
وفيهام يقول امرؤ القيس:

مُلُوكٌ مِنْ بَنِي حُجْرٍ بِنِ عَمْرُو يُسَاقُونَ الْقَشِيَّةَ يَقْتَلُونََا
فَلَوْ فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ أَصِيُوا وَلَكِنْ فِي دِيَارِ بَنِي مَرْيَا
وَلَمْ تُنْصَلْ جَمَاعَتُهُمْ بِغُيْنَلٍ وَلَكِنْ فِي النَّعَاءِ مَرْثِيَا
نَظَلُّ الطَّيْرَ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ وَتَتَرَعَّى الْحَوَاجِبَ وَالْثِيَوَا

ولما قتل أنوشروان مزدك وأصحابه أمر بقتل جماعة ممن دخل
على الناس (٤٣٦/١) في أموالهم وردّ الأموال إلى أهلها، وأمر بكلّ
مولود اختلّفوا فيه أن يلحق بمن هو منهم إذا لم يُعرف أبوه وأن يعطى
نصيّاً من ملك الرجل الذي يُسند إليه إذا قبله الرجل، وبكلّ امرأة
غُلبت على نفسها أن يؤخذ مهرها من الغالب، ثمّ تُخَيَّر المرأة بين
الإقامة عنده وبين فراقه إلا أن يكون لها زوج فتردّ إليه.

وأمر بعيال ذوي الأَحْسَاب الذين مات قِيَمُهُمْ فَأَنْكَحَ بَنَاتَهُم
الْأَكْفَاءَ، وَجَهَّزَهُنَّ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَأَنْكَحَ نِسَاءَهُمْ مِنَ الْأَشْرَافِ،
وَاسْتَعَانَ بِأَبْنَائِهِمْ فِي أَعْمَالِهِ، وَعَمَرَ الْجُسُورَ وَالْقَنَاطِرَ، وَأَصْلَحَ
الْخِرَابَ، وَتَقَفَّدَ الْأَسَاوِرَ وَأَعْطَاهُمْ، وَبَنَى فِي الطَّرِيقِ الْقُصُورَ
وَالْحُصُونِ، وَتَخَيَّرَ الْوَلَاةَ وَالْعَمَالَ وَالْحُكَّامَ، وَاقْتَدَى بِسِيرَةِ أَرْدَشِيرَ،
وَارْتَجَعَ بِلَاداً كَانَتْ مَمْلَكَةً الْفَرَسِ، مِنْهَا: السَّنْدُ وَسِنْدُوسْتُ وَالرُّخَجُ
وَزَايِلِسْتَانُ وَطَخَارِسْتَانُ، وَأَعْظَمَ الْقَتْلَ فِي النَّازُورِ وَأَجْلَى بِقِيَتِهِمْ عَنْ
بِلَادِهِ.

وَاجْتَمَعَ أَبْخَزُ وَبَنْجَرُ وَاللَّانُ عَلَى قَصْدِ بِلَادِهِ، فَقَصَدُوا أَرْمِينِيَةَ
لِلْغَارَةِ عَلَى أَهْلِهَا، وَكَانَ الطَّرِيقُ سَهْلاً، فَأَمَهِلَهُمْ كَسْرَى حَتَّى تَوَغَّلُوا
فِي الْبِلَادِ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ جُنُوداً، فَقَاتَلُوهُمْ فَأَهْلَكُوهُمْ مَا خِلا عَشْرَةَ
آلَافٍ رَجُلٍ أَسْرَوْا فَأَسْكَنُوا أَذْرِيَجَانَ.

وَكَانَ لِكَسْرَى أَنْوَشْرَوَانَ وَلَدٌ هُوَ أَكْبَرُ أَوْلَادِهِ اسْمُهُ أَنْوَشَزَادُ،
فَبَلَغَهُ عَنْهُ أَنَّهُ زَنْدِيقٌ، فَسَيَّرَهُ إِلَى جُنْدِ يَسَابُورَ وَجَعَلَ مَعَهُ جَمَاعَةً يَشُقُّ
بَدِينَهُمْ لِيَصْلَحُوا دِينَهُ وَأَدَبَهُ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَنْده إِذْ بَلَغَهُ خَبَرُ مَرَضِ وَالِدِهِ
لَمَّا دَخَلَ بِلَادَ الرُّومِ، فَوَثَبَ بَيْنَ عَنْده فَقَتَلَهُمْ وَأَخْرَجَ أَهْلَ السَّجُونِ
فَاسْتَعَانَ بِهِمْ وَجَمَعَ عَنْده جَمُوعاً مِنَ الْأَشْرَارِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ نَائِبَ أَبِيهِ
بِالْمَدَائِنِ عَسْكَراً، فَحَصَرُوهُ بِجَنْدِ يَسَابُورَ، وَأَرْسَلَ الْخَبَرَ إِلَى كَسْرَى،
فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَامِرَهُ بِالْجِدِّ فِي أَمْرِهِ وَأَخَذَهُ أَسِيراً، (٤٣٧/١) فَاشْتَدَّ
الْحَصَارُ حَيْثُنْزُو عَلَيْهِ وَدَخَلَ الْعَسَاكِرُ الْمَدِينَةَ عَنُوةً فَقَتَلُوا بِهَا خَلْقاً كَثِيراً
وَأَسْرَوْا أَنْوَشَزَادَ، فَبَلَغَهُ خَبَرُ جَدِّهِ لَأَمَةِ الدَّائِرِ الرَّازِي، فَوَثَبَ بِعَامِلِ
سَجِسْتَانَ وَقَاتَلَهُ، فَهَزَمَهُ الْعَامِلُ، فَالْتَجَأَ إِلَى مَدِينَةِ الرُّخَجِ وَامْتَنَعَ بِهَا،
ثُمَّ كَتَبَ إِلَى كَسْرَى يَعْتَرِذُ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَنْقِذَ إِلَيْهِ مَنْ يَسْلَمُ لَهُ الْبَلَدَ، فَعَمِلَ
وَأَمَنَهُ.

وَكَانَ الْمَلِكُ فِيرُوزُ قَدْ بَنَى بِنَاحِيَةَ وَصُولِ وَاللَّانِ بِنَاءً يَحْصُنُ بِهِ
بِلَادَهُ، وَبَنَى عَلَيْهِ ابْنَهُ قُبَادَ زِيَادَةً، فَلَمَّا مَلَكَ كَسْرَى أَنْوَشْرَوَانَ بَنَى فِي

وَنَشَأَ ابْنَهُ مَعْدِي كَرْبَ بْنَ ذِي يَزْنَ فِي حِجْرَةِ أَبْرَهَةَ، وَهُوَ يَحْسِبُ
أَنَّهُ أَبُوه، فَسَبَّ ابْنَ الْأَبْرَهَةَ وَسَبَّ إِيَّاهُ، فَسَأَلَ أُمَّهَ عَنْ أَبِيهِ، فَصَدَّقَتْهُ،
وَأَقَامَ حَتَّى مَاتَ أَبْرَهَةُ وَابْنَهُ يَكْسُومَ وَسَارَ عَنِ الْيَمَنِ، فَعَمِلَ مَا نَذَرَهُ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ. (٤٣٤/١)

ذكر ملك كسرى أنوشروان بن قباد بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور بن يزدجرد الأثيم

لَمَّا لَبِسَ التَّاجَ خَطَبَ النَّاسَ فَحَمَدَ اللَّهُ وَاثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَرَ مَا ابْتَلَا
بِهِ مِنْ فُسَادِ أُمُورِهِمْ وَدِينِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يُصْلَحُ ذَلِكَ، ثُمَّ
أَمَرَ بِرُؤُوسِ الْمَزْدَكِيَّةِ قُتِلُوا وَقُسِمَتِ أَمْوَالُهُمْ فِي أَهْلِ الْحَاجَةِ.

وَكَانَ سَبَبُ قَتْلِهِمْ أَنَّ قُبَادَ كَانَ، كَمَا ذَكَرْنَا، قَدْ اتَّبَعَ مَزْدَكَ عَلَى
دِينِهِ وَمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ وَأَطَاعَهُ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ مِنَ الزَّنَدَقَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا
ذَكَرْنَا أَيَّامَ قُبَادَ، وَكَانَ الْمَنْدَرُ بْنُ مَاهِ السَّمَاءِ يَوْمَنْزُ عَامِلاً عَلَى الْحِيرَةِ
وَنَوَاحِيهَا، فَدَعَاهُ قُبَادَ إِلَى ذَلِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا الْحَارِثَ بْنَ عَمْرُو
الْكَنْدِيِّ، فَاجَابَهُ، فَسَدَّدَ لَهُ مَلِكُهُ وَطَرِدَ الْمَنْدَرَ عَنْ مَمْلَكَتِهِ، وَكَانَتْ أُمُّ
أَنْوَشْرَوَانَ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ يَدَيْ قُبَادَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ مَزْدَكَ، فَلَمَّا رَأَى أُمَّ
أَنْوَشْرَوَانَ قَالَ لِقُبَادَ: ادْفَعْنِي إِلَيَّ لِأَقْضِيَ حَاجَتِي مِنْهَا فَقَالَ: دُونَكِهَا.
فَوَثَبَ إِلَيْهِ أَنْوَشْرَوَانَ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُهُ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ أَنْ يَهَبَ لَهُ أُمَّهُ حَتَّى
قَبِلَ رَجْلَهُ، فَتَرَكَهَا، فَحَاكَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ.

فَهَلَكَ قُبَادَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ وَمَلَكَ أَنْوَشْرَوَانَ، فَجَلَسَ لِلْمَلِكِ،
وَلَمَّا بَلَغَ الْمَنْدَرَ هَلَاكَ قُبَادَ أَقْبَلَ إِلَى أَنْوَشْرَوَانَ، وَقَدْ عَلِمَ خِلَافَهُ عَلَى
أَبِيهِ فِي مَذْهَبِهِ وَاتِّبَاعِ مَزْدَكَ، فَإِنَّ أَنْوَشْرَوَانَ كَانَ مُنْكَرًا لِهَذَا الْمَذْهَبِ
كَارَهَا لَهُ، ثُمَّ إِنَّ أَنْوَشْرَوَانَ أَذِنَ لِلنَّاسِ إِذَا عَامَّاءَ وَدَخَلَ عَلَيْهِ مَزْدَكَ، ثُمَّ
دَخَلَ عَلَيْهِ الْمَنْدَرُ، فَقَالَ (٤٣٥/١) أَنْوَشْرَوَانَ: إِنِّي كُنْتُ تَمَنَيْتُ
أَمْنِيَّتَيْنِ، أَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَمَعَهُمَا إِلَيَّ. فَقَالَ مَزْدَكَ:
وَمَا هُمَا أَيُّهَا الْمَلِكُ؟ قَالَ: تَمَنَيْتُ أَنْ أَمْلِكَ وَأَسْتَعْمَلَ هَذَا الرَّجُلَ
الشَّرِيفَ، يَعْنِي الْمَنْدَرَ، وَأَنْ أَقْتُلَ هَذِهِ الزَّنَادِقَةَ. فَقَالَ مَزْدَكَ: أَوْتَسْطِيعُ
أَنْ تَقْتُلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ؟ فَقَالَ: وَإِنَّكَ هَاهُنَا يَا ابْنَ الزَّانِيَةِ! وَاللَّهِ مَا خُذِبَ
تَنْ رِيحَ جَوْرِيكَ مِنْ أَنْفِي مِنْذُ قَبِلْتُ رَجْلَكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا. وَأَمْرُ بِهِ
فَقَتْلُ وَصْلَبُ. وَقَتْلَ مِنْهُمْ مَا بَيْنَ جَازَرَ إِلَى النَّهْرَوَانِ وَإِلَى الْمَدَائِنِ فِي
صُحُوةٍ وَاحِدَةٍ مَائَةِ أَلْفِ زَنْدِيقٍ وَصَلِيهِمْ، وَسَمِّيَ يَوْمَنْزُ أَنْوَشْرَوَانَ.

وَطَلَبَ أَنْوَشْرَوَانَ الْحَارِثَ بْنَ عَمْرُو، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ وَهُوَ بِالْأَنْبَارِ،
فَخَرَجَ هَارِباً فِي صَحَابَتِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، فَمَرَّ بِالْثَوْبَةِ، فَتَبِعَهُ الْمَنْدَرُ
بِالْخَيْلِ مِنْ تَغْلِبَ وَإِيَادَ وَبِهْرَاءَ، فَلَحِقَ بِأَرْضِ كَلْبَ وَنَجَا وَاتَّهَبُوا مَالَهُ
وَهَجَاتْنَهُ، وَأَخَذَتْ بَنُو تَغْلِبَ ثَمَانِيَةَ وَأَرْبَعِينَ نَفْساً مِنْ بَنِي أَكَلِ الْمَرَارِ
فَقَدَمُوا بِهِمْ عَلَى الْمَنْدَرَ، فَضْرَبَ رِقَابَهُمْ بِحُفْرِ الْأَمِيَالِ فِي دِيَارِ بَنِي
مَرِينَ الْعَبَادِيْنَ بَيْنَ دِيرِ بَنِي هَنْدَ وَالْكُوفَةِ، فَذَلِكَ قَوْلُ عَمْرُو بْنِ كَلْثُومَ:

وراء النهر وأتزل جنوده فرغاة، ثم عاد إلى المدائن، وغزا البرجان ثم رجع وأرسل جنده إلى اليمن، فقتلوا الحبشة وملكوا البلاد.

وكان ملكه ثمانياً وأربعين سنة، وقيل: سبعاً وأربعين سنة.

وكان مولد رسول الله ﷺ، في آخر ملكه، وقيل: ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ، لأربع وعشرين سنة مضت من ملك أنوشيروان، وولد رسول الله ﷺ، سنة اثنتين وأربعين من ملكه.

قال هشام بن الكلبي: ملك العرب من قبل ملوك الفرس بعد الأسود بن المنذر أخوه المنذر بن النضر بن النعمان سبع سنين، ثم ملك بعده النعمان بن الأسود أربع سنين، ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة بن مالك بن عديّ اللخمي ثلاث سنين، ثم ملك المنذر بن امرئ القيس البَذَء ولقب ذو القرنين لفسيفسيتين كانتا له، وأمه ماء السماء، وهي ماوية ابنة عمرو بن جُشم ابن النُير بن قاسط، تسعاً وأربعين سنة، ثم ملك ابنه عمرو بن المنذر ست عشرة سنة. قال: ولثمانين سنين وثمانية أشهر من ولايته ولد النبي ﷺ، وذلك أيام أنوشيروان عام الفيل (٤٤٠/١).

فلما دانت لكسرى بلاد اليمن وجه إلى سَرَنْدِيب من بلاد الهند، وهي أرض الجوهري، قائلاً من قواده في جند كثيف، فقاتل ملكها، فقتله واستولى عليها، وحمل إلى كسرى منها أموالاً عظيمة وجواهر كثيرة، ولم يكن ببلاد الفرس نبات أوى، فجاءت إليها من بلاد الترك في ملك كسرى أنوشيروان، فشق عليه ذلك وأحضر موبدان موبذ وقال له: قد بلغنا تساقط هذه السباع إلى بلادنا وقد تعاطفنا ذلك، فأخبرنا برأيك فيها. فقال: سمعتُ فقهاءنا يقولون: متى لم يغلب العدلُ الجورُ في البلاد بل [جار] أهلها غزاهم أعداؤهم وأتاهم ما يكرهون. فلم يلبث كسرى أن أتاه أن فيئاناً من الترك قد غزوا أقصى بلاده، فأمر وزرائه وعلماءه أن لا يتعدوا فيما هم بسبيله العدل ولا يعلموا في شيء منها إلا به، ففعلوا ما أمرهم، فصرف الله ذلك العدو عنهم من غير حرب.

ذكر ما فعله أنوشيروان بأرمينية وأذربيجان

كانت أرمينية وأذربيجان بعضهما للروم وبعضها للخزر، فبنى قبأذ سوراً ممّا يلي بعض تلك الناحية، فلما توفي وملك ابنه أنوشيروان وقوي أمره وغزا فرغاة والبُرْجان وعاد بنى مدينة الشَّابَران ومدينة مَسْقَط ومدينة الباب والأبواب، وإنما سميت أبواباً لأنها بُنيت على طريق في الجبل، وأسكن المدن قوماً سَمَّاهم السَّياسَجين، وبنى غير هذه المدن، وبنى لكل باب قصرًا من (٤٤١/١) حجارة، وبنى بأرض جُزْران مدينة سَغْدِيل وأزلهما السُّعد وأبناء فارس، وبنى باب اللان، وفتح جميع ما كان بأيدي الروم من أرمينية، وعمر مدينة أَرْدَبِيل وعدة حصون، وكتب إلى ملك الترك يسأله الموادة والاتفاق ويخطب إليه

ناحية صُول وجُرجان بناء كثيراً وحصوناً حصّن بها بلاده جميعها.

وإن سيجيور خاقان قصد بلاده، وكان أعظم الترك، واستمال الخزر وأنجز ويلنجر، فأطاعوه، فأقبل في عدد كثير وكتب إلى كسرى يطلب منه الإتاوة ويتهدده إن لم يفعل، فلم يجبه كسرى إلى شيء ممّا طلب لتحسينه بلاده، وإن ثغر أرمينية قد حصّته، فصار يكتفي بالعدد اليسير، فقصد خاقان فلم يقدر على شيء منه، وعاد خائباً، وهذا خاقان هو الذي قتل ورد ملك الهياطلة وأخذ كثيراً من بلادهم.

ذكر ملك كسرى بلاد الروم

كان بين كسرى أنوشيروان وبين غطيانوس ملك الروم هدنة، فوقع بين رجل من العرب، كان ملكه غطيانوس على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة (٤٣٨/١) وبين رجل من لخم كان ملكه كسرى على عُمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وسائر الحجاز يقال له المنذر بن النعمان، فتنة، فأغار خالد على ابن النعمان فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وغنم أمواله، فكتب كسرى إلى غطيانوس يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالده، وسأله أن يأمر خالد برّد ما غنم إلى المنذر ويدفع له دية من قتل من أصحابه ويُتصفه من خالد، وإنه إن لم يفعل ينقض الصلح. ووالى الكتب إلى غطيانوس في إحصاف المنذر، فلم يحفل به.

فاستعد كسرى وغزا بلاد غطيانوس في بضعة وسبعين ألفاً، وكان طريقه على الجزيرة، فأخذ مدينة دارا ومدينة الرُّهَاء وعبر إلى الشام فملك منبج وحلب وأنطاكية، وكانت أفضل مدائن الشام، وفامية وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدائن عنوة واحتوى على ما فيها من الأموال والعروض، وسبى أهل مدينة أنطاكية ونقلهم إلى أرض السواد، وأمر فُبُيت لهم مدينة إلى جانب مدينة طيسفون على بناء مدينة أنطاكية وأسكنهم ليأها، وهي التي تسمى الرومية، وكثّر لها خمسة طساسيج: طسُوج النهروان الأعلى، وطسُوج النهروان الأوسط، وطسُوج النهروان الأسفل، وطسُوج بادرايا، وطسُوج باكساياء، وأجرى على السبي الذين نقلهم إليها من أنطاكية الأرزاق، وولّى القيام بأمرهم رجلاً من نصارى الأهواز ليستأنسوا به لموافقته في الدين؛ وأما سائر مدن الشام ومضر فإن غطيانوس ابتاعها من كسرى بأموال عظيمة حملها إليه وضمن له فدية يحملها إليه كلّ سنة على أن لا يغزو بلاده، فكانوا يحملونها كلّ عام.

وسار أنوشيروان من الروم إلى الخزر فقتل منهم وغنم وأخذ منهم بثأراً (٤٣٩/١) رعيته. ثم قصد اليمن فقتل فيها وغنم وعاد إلى المدائن وقد ملك ما دون هرقة وما بينه وبين البحرين وعُمان. وملك النعمان بن المنذر على الحيرة وأكرمه، وسار نحو الهياطلة ليأخذ بثأر جده فيروز، وكان أنوشيروان قد صاهر خاقان قبل ذلك، ودخل كسرى بلادهم فقتل ملكهم، واستأصل أهل بيته، وتجاوز بلغ وما

ابنته، ورغب في صهره، وتزوج كل واحد بابنة الآخر.

فأما كسرى فإنه أرسل إلى خاقان ملك الترك بتاً كانت قد تبنتها بعض نسائه وذكر أنها ابنته، وأرسل ملك الترك ابنته، واجتمعوا، فأمر أنوشروان جماعة من ثقافته أن يكبسوا طرفاً من عسكر الترك ويحرقوا فيه، ففعلوا، فلما أصبحوا شكوا ملك الترك ذلك، فأنكر أن يكون له علم به، ثم أمر بمثل ذلك بعد ليال، فضج التركي، ففرق به أنوشروان، فاعتذر إليه، ثم أمر أنوشروان أن تلقى النار في ناحية من عسكره فيها أكواخ من حشيش، فلما أصبح شكوا إلى التركي، قال: كافئاني بالتهمة! فحلف التركي أنه لم يعلم بشيء من ذلك، فقال أنوشروان له: إن جندنا قد كرهوا صلحنا لانقطاع العطاء والغارات، ولا آمن أن يحدثوا حدثاً يُفسد قلوبنا فنعود إلى العداوة والرأي أن نأذن لي في بناء سور يكون بيني وبينك نجعل عليه أبواباً فلا يدخل إليك إلا من نريده ولا يدخل إلينا إلا من نريده. فأجابه إلى ذلك.

وبنى أنوشروان السور من البحر والحقه برؤوس الجبال، عمل عليه أبواب الحديد ووكل به من يحرسه، فقبل لملك الترك: إنه خدعك وزوجك غير ابنته وتحصن منك فلم تقدر له على حيلة.

وملك أنوشروان ملوكاً رتبهم على النواحي، فمنهم صاحب السريز وفيلان شاه واللكز ومسقط وغيرها، ولم تزل أرمينية بأيدي الفرس حتى ظهر (٤٤٢/١) الإسلام، فرفض كثير من السياسيين حصونهم ومدائنهم حتى خربت واستولى عليها الخزر والروم، وجاء الإسلام وهي كذلك.

ذكر أمر الفيل

لما دام ملك أبرهة باليمن وتمكن به بنى القليس بصنعاء، وهي كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك كنيسة لم ير مثلها ولست بمشتو حتى أصرف إليها حاج العرب.

فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النساء من بني فقيم، فخرج حتى اتأها فقعدها فيها وتغوط، ثم لحق بأهلها، فأخبر بذلك أبرهة، وقيل له: إنه فعل رجل من أهل البيت الذي تحججه العرب بمكة غضب لما سمع أنك تريد صرف الحجاج عنه ففعل هذا.

فغضب أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه، وأمر الحيشة فتجهزت، وخرج معه بالفيل واسمه محمود، وقيل: كان معه ثلاثة عشر فيلاً وهي تتبع محموداً، وإنما وحّد الله سبحانه الفيل لأنه عنى [به] كبيرها محموداً، وقيل في عددهم غير ذلك. (٤٤٣/١)

فلما سار سمعت العرب به فأعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج عليه رجل من أشراف اليمن يقال له ذو نفر وقاتله، فهزم ذو نفر وأخذ أسيراً، فأراد قتله ثم تركه مجسوراً عنده، ثم مضى على

وجهه، فخرج عليه نفيل بن حبيب الخثعمي فقاتله، فانهزم نفيل وأخذ أسيراً، فضمن لأبرهة أن يدلّه على الطريق، فتركه وسار حتى إذا مرّ على الطائف بعثت معه ثقيف أباً رغال يدلّه على الطريق حتى أنزله بالمغمس، فلما نزل مات أبو رغال، فرجعت العرب قبزه، فهو القبر الذي يرجم.

وبعث أبرهة الأسود بن مقصود إلى مكة، فساق أموال أهلها وأصاب فيها ماتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، ثم أرسل أبرهة حنطة الحميري إلى مكة فقال: سل عن سيد قريش وقل له إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تمنعوا عنه فلا حاجة لي بقتالكم.

فلما بلغ عبد المطلب ما أمره قال له: واللّه ما نريد حربه، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه فهو يمنع بيته وحرمة وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا من دفع، فقال له: انطلق معي إلى الملك. فانطلق معه عبد المطلب حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر، وكان له صديقاً، فدلّ عليه، وهو في محبسه، فقال له: هل عندك غناء فيما نزل بنا؟ فقال: وما غناء رجل أسير بيدي ملك يتظر أن يقتله؟ ولكن أئیس سائس الفيل صديق لي فأوصيه بك وأعظم حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما تريد ويشفع لك عنده إن قدر. قال: حسبي، فبعث ذو نفر إلى أئیس، فحضره وأوصاه بعبد المطلب وأعلمه أنه سيد قريش. فكلم أئیس أبرهة وقال: هذا سيد قريش يستأذن، فأذن له. (٤٤٤/١)

وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً جليلاً وسيماً، فلما رآه أبرهة أجلّه وأكرمه ونزل عن سريره إليه وجلس معه على بساط وأجلسه إلى جنبه وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له الترجمان ذلك، فقال عبد المطلب: حاجتي أن يرّد عليّ ماتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني، فإني أترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه؟ قال عبد المطلب: أنا رب الإبل وللييت رب يمنعه. قال: ما كان ليمنع مني. وأمر برّد إله، فلما أخذها قلدها وجعلها هدياً وثبها في الحرم لكي يصاب منها شيء، فيغضب الله. وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج معه من مكة والتحرز في رؤوس الجبال خوفاً من معرفة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة، فقال عبد المطلب، وهو أخذ [بحلقة] باب الكعبة:

يَا رَبِّ لَا لِرَجْوِ لَهُمْ سِوَاكَ يَا رَبِّ فَمَنْعَ مِنْهُمْ جَمَاكَ
إِنْ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَ أَمْنَهُمْ إِنْ خَرُّوا فَنَاكَ
وقال أيضاً

حمير واليمن له، ونكحت الحبشة نساءهم وقتلوا رجالهم واتخذوا أبناءهم تراجمة بينهم وبين العرب.

ولما أهلك الله الحبشة وعاد ملكهم ومعه من سلم منهم ونزل عبد المطلب من الغد إليهم لينظر ما يصنعون ومعه أبو مسعود الثقفي لم يسمعا حساً، فدخلوا معسكرهم فرأيا القوم هلكى، فاحتر عبد المطلب حفرتين ملاهما (٤٤٧/١) ذهباً وجوهرات له ولأبي مسعود ونادى في الناس، فراجعوا، فأصابوا من فضلها شيئاً كثيراً، فبقي عبد المطلب في غنى من ذلك المال حتى مات.

وبعث الله السيل فالتقى الحبشة في البحر. ولما رد الله الحبشة عن الكعبة وأصابهم ما أصابهم عظمت العرب قريشاً وقالوا: أهل الله قاتل عنهم، ثم مات يكسوم وملك بعده أخوه مسروق.

ذكر عود اليمن إلى حمير وإخراج الحبشة عنه

لما هلك يكسوم ملك اليمن أخوه مسروق بن أبرهة، وهو الذي قتله وهرز، فلما اشتد البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن، وكنيته أبو مرة، وقيل: كنية ذي يزن أبو مرة، حتى قدم على قيصر، وتكبد كسرى لإبطانه عن نصر أبيه، فإنه كان قصد كسرى أنوشروان لما أخذت زوجته يستنصره على الحبشة، فوعده، فأقام ذو يزن عنده، فمات على يابه. وكان ابنه سيف مع أمه في حجر أبرهة، وهو يحسب أنه ابنه، فسبه ولد لأبرهة وسب أباه، فسأل أمه عن أبيه فأعلمته خبره بعد مراجعة بينهما، فأقام حتى مات أبرهة وابنه يكسوم، ثم سار إلى الروم فلم يجد عند ملكهم ما يحب لموافقته الحبشة في الدين، فعاد إلى كسرى، فاعترضه يوماً وقد ركب فقال له: إن لي عندك (٤٤٨/١) ميراثاً، فدعا به كسرى لما نزل فقال له: من أنت وما ميراثك؟ قال: أنا ابن الشيخ اليماني الذي وعدته النصره فمات ببابك، فذلك العدة حق لي وميراث. فرق كسرى له وقال له: بعدت بلادك عنا وقل خيرها والمسلك إليها وعز ولست أغرر بجيشي. وأمر له بمال، فخرج وجعل يثر الدراهم، فانتبهها الناس، فسمع كسرى فسأله ما حمله على ذلك، فقال: لم آتكم للمال وإنما جئتكم للرجال ولتمنعني من الذل والهوان، وإن جبال بلادنا ذهب وفضة.

فأعجب كسرى بقوله وقال: يظن المسكين أنه أعرف ببلاده مني؛ واستشار وزراءه في توجيه الجند معه، فقال له موبذان موبذ: أيها الملك إن لهذا الغلام حقاً بنزوعه إليك وموت أبيه ببابك وما تقدم من عذته بالنصرة، وفي سجونك رجال ذوو نجدة وبأس فلو أن الملك وجَّههم معه فإن أصابوا ظفراً كان للملك، وإن هلكوا فقد استراح وأراح أهل مملكته منهم.

فقال كسرى: هذا الرأي. فأمر بمن في السجون، فأحضروا، فكانوا ثمانمائة، فقود عليهم قائداً من أساورته يقال له وهرز، وقيل:

لأهم إن القبيذ ينف — نَح رَحْلَهُ فَمَنْعَ جَلَالِكَ
لا يغلبَنَّ صِلَهُم — ومِحَالُهُمْ غَلْدَرًا يَحَالِكَ
(٤٤٥/١)

وَأَنْتَ السَّيِّئُ إِنْ جَاءَ بِأ — أَمْرُ تَيْمٍ بِهِ فَعَالِكَ
وَأَكْلُوا وَلَمْ يَخْسُوا مِوَى — عَزَّيْ وَتَهْلِكُهُمْ هِنَالِكَ
لَمْ أَسْمَعْ يَوْمًا بَلَّز — جَسَ مِنْهُمْ يُغَاوَاكَ
جَرُوا جُمُوعَ بِلَادِهِمْ — وَالْقِيَلُ كَيْ تَسْبُوا عِيَالِكَ
عَمِلُوا حِمَالًا بِكَيْدِهِمْ — جَهْلًا وَمَا رَقِبُوا جَلَالِكَ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شتف الجبال فتحزروا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكة إذا دخل.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله، وكان اسمه محموداً وأبرهة مجمع لهدم البيت والعود إلى اليمن، فلما وجهوا الفيل أقبل نقيل بن حبيب الخثعمي فسلك بأذنه وقال: ارجع محمود، ارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام! ثم أرسل أذنه، فالتقى الفيل نفسه إلى الأرض واشتد نقيل فصعد الجبل، ففرضوا الفيل، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل كذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فسقط إلى الأرض. وأرسل الله عليهم طيراً أبابيل من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أحجار تحملها، حجر في منقاره وحجران في رجليه، فقفزتهم بها وهي مثل الحمص والعندس لا تصيب أحداً منهم إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وأرسل الله سَيْلاً القاهم في البحر وخرج من سلم مع أبرهة هارباً يتبدرون الطريق الذي جاؤوا منه ويسألون عن نقيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نقيل حين (٤٤٦/١) رأى ما أنزل الله بهم من نعمته:

إِبْنُ الْمَفْرَ وَالْإِنُّ الطَّالِبُ — وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْغَالِبِ
وقال أيضاً:

الْأَحْيَاءُ عَنَّا يَا رُؤَيْنَا — نَعْمَانَاكَم مَعَ الْإِبْرَاحِ غَيَا
أَتَانَا قَابَسٌ يَنْكُمُ عِشَاءَ — فَلَمْ يُقَسِّرْ لِقَابِسَكُمْ لَتَيْنَا
رُؤَيْنَا لَوْ زَالَيْتَ وَلَمْ تَرْتَسِ — لَدَى جَنَبِ الْمُحَضَّرِ مَا زَالَيْتَا
إِنَّا لَنَعَزُّنْسِي وَخِمِدَتْ رَأْيِي — وَلَمْ تَأْسِي لِمَا قَدْ فَاتَ تَيْنَا
حَمَدُ اللَّهِ إِذْ عَانَيْتَ طَيْرًا — وَخِفْتُ حَجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
وَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نَقِيلٍ — كَانَ عَلَيَّ لِلْجُشَانِ تَيْنَا

وأصيب أبرهة في جسده فسقطت أعضاؤه عضواً عضواً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل الفرخ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه.

فلما هلك ملك ابنه يكسوم بن أبرهة، وبه كان يكنى، وذلت

والأول أصح.

فلما ملك وهرز اليمن أرسل إلى كسرى يعلمه بذلك وبعث إليه بأموال، وكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذي يزن، وبعضهم يقول معدلي كرب بن سيف [بن ذي يزن] على اليمن وأرضها، فرض عليه كسرى جزية وخراجاً معلوماً في كل عام، فملكه وهرز وانصرف إلى كسرى وأقام سيف على اليمن ملكاً يقتل الحبشة ويقر بطون الجبال عن الحمل، ولم يترك منهم إلا القليل جعلهم خولاً فاتخذ منهم جمارين يسعون بين يديه بالحرب، فمكث غير كثير، ثم إنه خرج يوماً والحبشة يسعون بين يديه بحرابهم فضربوه بالحراب حتى قتلوه، فكان ملكه خمس عشرة سنة، ووثب بهم رجل من الحبشة فقتل باليمن وأفسد، فلما بلغ ذلك كسرى بعث إليهم وهرز في أربعة آلاف فارس وأمره أن لا يترك باليمن أسود ولا ولد عربيّة من أسود [إلا قتلته، صغيراً أو كبيراً، ولا يدع رجلاً جعداً قططاً] قد شارك فيه السودان إلا قتلته، وأقبل حتى دخل اليمن ففعل ما أمره، وكتب إلى كسرى يخبره، فأقره (٤٤٩/١) على ملك اليمن، فكان يجيئها لكسرى حتى هلك، وأمر بعده كسرى ابنه المرزبان بن وهرز حتى هلك، ثم أمر بعده كسرى التينجان بن المرزبان، ثم أمر بعده خُز خسره بن التينجان بن المرزبان.

بل كان من أهل السجون سخط عليه كسرى لحدث أحدثه فحبسه، وكان يعدله بألف أسوار، وأمر يحملهم في ثماني سفن، فركبوا البحر، ففرق سفيتان وخرجوا بساحل حضرموت، ولحق بابين ذي يزن بشر كثير، وسار إليهم مسروق في مائة ألف من الحبشة وجنود الأعراب، وجعل وهرز البحر وراء ظهره وأحرق السفن لئلا يطعم أصحابه في النجاة، وأحرق كل ما معهم من زاد وكسوة إلا (٤٤٩/١) ما أكلوا وما على أبدانهم، وقال لأصحابه: إنما أحرقت ذلك لئلا يأخذ الحبشة إن ظفروا بكم، وإن نحن ظفروا بهم فستأخذ أضعافه، فإن كنتم تقتاتلون معي وتصبرون أعلمتموني ذلك، وإن كنتم لا تفعلون اعتمدت على سيفي حتى يخرج من ظهري، فانظروا ما حالكم إذا فعل رئيسكم هذا بنفسه. قالوا: بل نقاتل معك حتى نموت أو نظفر. وقال لسيف بن ذي يزن: ما عندك؟ قال ما شئت من رجل عربي وسيف عربي، ثم اجعل رجلي مع رجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً. قال: أنصفت.

فجمع إليه سيف من استطاع من قومه، فكان أول من لحقه السكاسك من كتلة. وسمع بهم مسروق بن أبرهة فجمع إليه جنده، فعبأ وهرز أصحابه وأمرهم أن يوتروا قسيهم، وقال: إذا أمرتكم بالرمي فارموا رشقاً.

وأقبل مسروق في جمع لا يرى طرفاه، وهو على فيل وعلى رأسه تاج وبين عينيه ياقوتة حمراء مثل البيضة لا يرى دون الظفر شيئاً. وكان وهرز كل بصره، فقال: أروني عظيمهم. فقالوا: هذا صاحب الفيل، ثم ركب فرساً، فقالوا: ركب فرساً، ثم انتقل إلى بغلة، فقالوا: ركب بغلة. فقال وهرز: ذلّ وذلّ ملكه! وقال وهرز: ارفعوا لي حاجبي، وكانا قد سقطا على عينيه من الكبر، فرفعوهما له بعصاية، ثم جعل نشابة في كبد قوسه وقال: أشيروا إلى مسروق، فأشاروا إليه، فقال لهم: سارميه فإن رأيتم أصحابه وقوفاً لم يتحركوا فائتوا حتى أؤذنكم، فإنني قد أخطأت الرجل، وإن رأيتموهم قد استداروا ولاثوا به فقد أصيبته فاحملوا عليهم. ثم رماه فأصاب السهم بين عينيه، ورمى أصحابه، فقتل مسروق وجماعة من أصحابه، فاستدارت الحبشة بمسروق وقد سقط عن دابته، وحملت الفرس عليهم فلم يكن دون الهزيمة شيء، وغنم الفرس من عسكرهم مالا يُحصى ولا يحصى. (٤٥٠/١)

وقال وهرز: كفوا عن العرب واقتلوا السودان ولا تبقوا منهم أحداً. وهرب رجل من الأعراب يوماً وليلة ثم التفت فرأى في جعبته نشابة فقال: لأملك الولي! أبعد أم طول مسيراً! وسار وهرز حتى دخل صنعاء وغلب على بلاد اليمن وأرسل عماله في المخاليف.

وكان مدة ملك الحبشة اليمن اثنتين وسبعين سنة، توارث ذلك منهم أربعة ملوك: أرباط ثم أبرهة ثم ابنه يكسوم ثم مسروق بن أبرهة، وقيل: كان ملكهم نحواً من مائتي سنة، وقيل غير ذلك،

ثم إن كسرى أبريز غضب عليه فأحضره من اليمن، فلما قدم تلقاه رجل من عظماء الفرس فألقى عليه سيفاً كان لأبي كسرى، فأجاره كسرى بذلك من القتل وعزله عن اليمن، وبعث بأذان إلى اليمن، فلم يزل عليها حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ.

وقيل: إن أنوشروان استعمل بعد وهرز زرين، وكان مسرفاً إذا أراد أن يركب قتل قتيلاً ثم سار بين أوصاله، فمات أنوشروان وهو على اليمن، فعزله ابنه هرمز.

وقد اختلفوا في ولاية اليمن للاكاسرة اختلافاً كثيراً لم أر لذكره فائدة.

ذكر ما أحدثه قريش بعد الفيل

لما كان من أمر أصحاب الفيل ما ذكرناه عظمت قريش عند العرب فقالوا لهم أهل الله وقطعت يحامي عنهم، فاجتمعت قريش بينها وقالوا: نحن بنو إبراهيم، عليه السلام، وأهل الحرم وولاية البيت وقاطنو مكة، فليس لأحد من العرب (٤٥٢/١) مثل منزلتنا، ولا يعرف العرب لأحد مثل ما يعرف لنا، فهلّموا فلتتق على ائتلاف أننا لا نعظم شيئاً من الحل كما يعظم الحرم، فإننا إذا فعلنا ذلك استخفت العرب بنا ويحرمنا وقالوا: قد عظمت قريش من الحل مثل ما عظمت من الحرم، فتركوا الوقوف بقرعة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحجّ ودين إبراهيم، ويروى سائر العرب أن ينفقوا

أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تميم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر بن مالك ابن النضر مع بني عبد مناف، واجتمع بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جهم، وبنو عدي بن كعب مع بني عبد الدار، وخرجت عامر بن لؤي ومُحارب بن فهر من ذلك، فلم يكونوا مع أحد الفريقين، وعقد كل طائفة بينهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يُسلم بعضهم بعضاً ما بلّ بحر صوفة، فأخرجت بنو عبد مناف بن قصي جفنه مملوءة طيباً، قيل: إن بعض نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم، فوضعوها في المسجد وغسوا أيديهم فيها وتعاهدوا وتعاقدوا ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسُموا بذلك المُطيبين.

وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم من القبائل عند الكعبة على أن لا يتخاذلوا ولا يُسلم بعضهم بعضاً فسُموا الأحلاف، ثم تصافوا للقتال وأجمعوا على الحرب، فبينما هم على ذلك إذ تداعوا للصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار، فاصطالحوا ورضي كل واحد من الفريقين بذلك وتحاجزوا عن الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوا حتى جاء الإسلام وهم على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزد إلا شدة ولا حلف في الإسلام.

فولي السقاية والرفادة هاشم بن عبد مناف لأن عبد شمس كان كثير الأسفار قليل المال كثير العيال، وكان هاشم موسراً جواداً. وكان ينبغي أن تذكر هذا قبل الفيل وما أحدثه قريش، وإنما أخرناه للزوم تلك الحوادث بعضها ببعض. (٤٥٥/١)

ذكر ما فعله كسرى في أمر الخراج والجنود

كان ملوك الفرس يأخذون من غلات كورهم قبل ملك كسرى أنوشروان في خراجها من بعضها الثلث ومن بعضها الربع، وكذلك الخمس والسدس على قدر شربها وعمارتها، ومن الجزية شيئاً معلوماً، فأمر الملك قياد بمسح الأرضين ليصح الخراج عليها، فمات قبل الفراغ من ذلك، فلما ملك أنوشروان أمر باستتمام ذلك ووضع الخراج على الحنطة والشعير والكرم والرطب والنخل والزيتون والأرز على كل نوع من هذه الأنواع شيئاً معلوماً، ويؤخذ في السنة في ثلاثة أتعج، وهي الأوضاع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب، وكتب كسرى إلى القضاة في البلاد نسخة بالخراج ليمتنع العمال من الزيادة عليه، وأمر أن يوضع عن أصابت غلته جائحة بقدر جائحته، وألزموا الناس الجزية ما خلا العظماء وأهل البيوتات والجنود والهرباء والكتاب ومن في خدمة الملك كل إنسان على قدره من اثني عشر درهماً وثمانية دراهم وستة دراهم وأربعة دراهم؛ وأسقطها [عمر] عن لم يبلغ عشرين سنة أو جاوز خمسين سنة.

عليها وأن يفوضوا منها، وقالوا: نحن أهل الحرم فلا نعظم غيره، ونحن الحُمس، وأصل الحماسة الشدة أنهم تشددوا في دينهم وجعلوا لمن ولد واحدة من نسائهم من العرب ساكني الحل مثل ما لهم بولادتهم، ودخل معهم في ذلك كنانة وخزاعة وعامر لولادة لهم، ثم ابتدعوا فقالوا: لا ينبغي للحمس أن يعملوا الأقط ولا يسلّوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرمًا. وقالوا: ولا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحل في الحرم إذا جاؤوا حجاجاً أو عماراً. ولا يطوفون بالبيت طوافهم إذا قدموا إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت غرة، فإن أنف أحد من عظمائهم أن يطوف عرياناً إذا لم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه ألقاها إذا فرغ من الطواف ولا يمسها هو، ولا أحد غيره، وكانوا يسمونها اللقى.

فدانت العرب لهم بذلك، فكانوا يطوفون كما شرعوا لهم ويترون أزوادهم التي جاؤوا بها من الحل ويشترون من طعام الحرم ويأكلونه.

هذا في الرجال، وأما النساء فكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعها مفرجاً ثم تطوف فيه وتقول:

[اليوم يئس بعضه لو كلفه وما بدا منه فلا أجله]

(٤٥٣/١) فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ، فنسخه، فأفاض من عرفات، وطاف الحجاج بالثياب التي معهم من الحل، وأكلوا من طعام الحل، في الحرم أيام الحج، وأنزل الله تعالى في ذلك: «ثُمَّ أَيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [البقرة: ١٩٩]؛ أراد بالناس العرب، أمر قريشاً أن يفوضوا من عرفات، وأنزل الله تعالى في اللباس والطعام الذي من الحل وتركهم إياه في الحرم: «يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا - إِلَى قَوْلِهِ -: لَقَدْ يَمْلِكُونَ» [الأعراف: ٣١-٣٢].

ذكر حلف المطيبين والأحلاف

قد ذكرنا ما كان قصي أعطى ولده عبد الدار من الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، ثم إن هاشماً وعبد شمس والمطلب ونوفلاً بني عبد مناف ابن قصي رأوا أنهم أحق بذلك من بني عبد الدار لشرفهم عليهم ولفضلهم في قومهم، وأرادوا أخذ ذلك منهم، ففترقت عند ذلك قريش، كانت طائفة مع بني عبد مناف، وطائفة مع بني عبد الدار يرون أنه لا يجوز أن يؤخذ منهم ما كان قصي جعله لهم إذ كان أمر قصي فيهم شرعاً متبعاً معرفة منهم لفضله تيمناً بأمره، وكان صاحب أمر بني عبد مناف بن قصي عبد شمس لأنه كان أكبرهم، وكان صاحب بني عبد الدار الذي قام في المنع عنهم عامر بن هاشم (٤٥٤/١) بن عبد مناف بن عبد الدار، فاجتمع بنو

ثم إن كسرى ولى رجلاً من الكتاب من الكفاة والنبلاء اسمه بابك عرض جيشه، فطلب من كسرى التمكن من شغله إلى ذلك، فتقدم ببناء مصطبة موضع عرض الجيش وفرشها، ثم نادى أن يحضر الجند بسلاحهم وكراعهم للعرض، فحضرُوا، فحيث لم يرَ معهم كسرى أمرهم بالانصراف فعل ذلك يوتين، ثم أمر فتودي في اليوم الثالث أن لا يتخلف أحد ولا من أكرم بتاج، فسمع كسرى فحضر وقد لبس التاج والسلاح، ثم أتى بابك ليعرض عليه، فرأى سلاحه تاماً ما عدا وترين للفرس كان عاداتهم أن يستظهروا (٤٥٦/١) بهما، فلم يرهما بابك معه فلم يجزْ على اسمه وقال له: هلمَّ كلَّ ما يملزمك فذكر كسرى الوترين فتعلقهما، ثم نادى منادي بابك وقال: للكميَّ السَّيد، سيِّد الكماة، أربعة آلاف درهم، وأجاز على اسمه. فلما قام عن مجلسه حضر عند كسرى يعتذر إليه من غلظته عليه، وذكر له أنَّ أمره لا يتمَّ إلَّا بما فعل. فقال كسرى: ما غلظ علينا أمرٌ نريد به إصلاح دولتنا.

فانظر إلى هذا الكلام الذي يدلُّ على زيادة العلم وتوفُّر العقل والقدرة على منع النفس، ومنَّ كان هذا حاله استحقَّ أن يُضرب به المثل في العدل إلى أن تقوم الساعة.

وكان لكسرى أولاد متآبُونَ، فجعل المُلْك من بعده لابنه هرمز. وكان مولد رسول الله، ﷺ، عام الفيل، وذلك لمضيَّ اثنتين وأربعين سنة من ملكه، وفي هذا العام كان يوم ذي جيلة، وهو يوم من أيام العرب المذكورة. (٤٥٨/١)

ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال قيس بن مخزومة وثقات بن أشيم وابن عباس وابن إسحاق: إنَّ رسول الله، ﷺ، وُلد عام الفيل. قال ابن الكلبي: وُلد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله، ﷺ، لأربع وعشرين مضت من سلطان كسرى أنوشروان، وُلد رسول الله، ﷺ، سنة اثنتين وأربعين من سلطانه، وأرسله الله تعالى لمضيَّ اثنتين وعشرين من ملك كسرى أبرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنوشروان، فهاجر لاثنتين وثلاثين سنة مضت من ملك أبرويز.

قال ابن إسحاق: وُلد رسول الله، ﷺ، يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وكان مولده بالدار التي يُعرف بدار ابن يوسف. قيل: إنَّ رسول الله، ﷺ، وهبها عقيل بن أبي طالب، فلم تزل في يده حتى توفي، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج، فبنى داره التي يقال لها دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجه الخيزران فجعلته مسجداً يصلى فيه. وقيل: وُلد لعشر خلون منه، وقيل: لليلتين خلتا منه.

قال ابن إسحاق: إنَّ أمنة ابنة وهب أم رسول الله، ﷺ، كانت تحدِّث أنها أتيت في منامها لما حملت برسول الله، ﷺ، (٤٥٩/١)، فقيل لها: إنَّك حملت بسيِّد هذه الأمة فإذا وقع بالأرض قولِي أعينه بالواحد، من شرِّ كلِّ حاسد، ثم سمَّيه محمداً، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نورٌ رأت به قصور بصرى من أرض الشام، فلما وضعته أرسلت إلى جدِّه عبد المطلب: إنَّه قد وُلد لك غلام فأته فانظر إليه؛ فنظر إليه، وحدَّثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسمَّيه.

وقال عثمان بن أبي العاص، حدَّثني أمي أنها شهدت ولادة أمنة ابنة وهب رسول الله، ﷺ، فما شيء أن انظر إليه من البيت إلا نَوَّرَ وإني لأنظر [إلى] النجوم تدنو حتى إني لأقول لتقعن عليَّ.

وأوَّل من أَرْضع رسول الله، ﷺ، ثوية مولاة أبي لهب بلبن ابن

ومن كلام كسرى: الشكر والنعمة كَفَتَانِ كَفَتَنِي الميزان أيهما رجح بصاحبه احتاج الأخف إلى أن يزداد فيه حتى يعادل صاحبه، فإذا كانت النعم كثيرة والشكر قليلاً انقطع الحمد، فكثير النعم يحتاج إلى كثير من الشكر، وكلِّما زيد في الشكر ازدادت النعم وجاوزته، ونظرت في الشكر فوجدتُ بعضه بالقول وبعضه بالفعل، ونظرتُ أحبَّ الأعمال إلى الله فوجدته الشيء الذي أقام به السموات والأرض وأرسي به الجبال وأجرى به الأنهار وبرأ به البرية، وهو الحقُّ والعدل، فلزمته، ورأيتُ ثمرة الحق والعدل عمارة البلدان التي بها قوام الحياة للناس والدواب والطيور وجميع الحيوانات. ولما نظرتُ في ذلك وجدتُ المقاتلة أجراً لأهل العمارة، وأهل العمارة أجراً للمقاتلة، فأما المقاتلة فإنَّهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكَّان البلدان لمدافعتهم عنهم ومجاهدتهم مِن ورائهم، فحقُّ على أهل العمارة أن يوفوهم أجورهم، فإنَّ العمارة والأمن والسلام في النفس والمال لا يتمُّ إلَّا بهم، ورأيتُ أنَّ المقاتلة لا يتمُّ لهم المقام والأكل والشرب وتشمير الأموال والأولاد (٤٥٧/١) إلَّا بأهل الخراج والعمارة، فأخذتُ للمقاتلة من أهل الخراج ما يقرم بأودهم وتركزت على أهل الخراج من مستغلاتهم ما يقوم بمؤنتهم وعمارتهن ولم أجحف بواحد من الجانبين، ورأيتُ المقاتلة وأهل الخراج كالعَيْنَيْنِ المبصرتين واليدين المتساعدتين والرَّجْلَيْنِ على أيهما دخل الضرر تعدى إلى الأخرى.

ونظرنا في سيرة آبائنا فلم نترك منها شيئاً يقترب بالثواب من الله والذكر الجميل بين الناس والمصلحة الشاملة للجند والرعية إلَّا اعتمدناه، ولا فساداً إلَّا أعرضنا عنه، ولم يدعنا إلى حبِّ مالا خير فيه حبُّ الآباء.

ونظرتُ في سيرة أهل الهند والروم وأخذنا محمودها، ولم تنازعنا

قدعنا منازلنا من بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدعنا شباعاً لئلاّ فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة ولا يجدها في ضرع، حتى إن كان الحاضر من قومنا ليقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب! فتروح أغنامهم جيعاً ما تبضّ بقطرة من لبن، وتروح غنمي شباعاً لئلاّ.

فلم نزل نتعرف البركة من الله والزيادة في الخير حتى مضت ستان وفصلته، وكان يشبّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ ستيه حتى كان غلاماً جفراً، قدعنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكته عندنا لما كنا نرى من بركه، فكلّمنا أمه في تركه عندنا، فأجابته. قالت: فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر [مرّاً] مع أخيه في بهم لنا خلف بيوتنا إذا أتانا أخوه يشتدّ فقال لي ولأبيه: ذلك أخي القرشيّ قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا وشقّا بطنه وهما يسوطانه! قالت: فخرجنا نشدّ فوجدناه قائماً متقعاً وجهه. قالت: فالتزمته أنا وأبوه وقلنا له: ما لك يا بُنيّ؟ قال: جاءني رجلان فأضجعاني فشقّا بطني فالتمسا به شيئاً لا أدري ما هو. قالت: (٤٦٢/١) فرجعنا إلى خباتنا، وقال لي أبوه: والله لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب فالحق به بأهله قبل أن يظهر ذلك.

قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه. فقالت: ما أقدمك يا ظئر به وقد كنت حريصة على مكته عندك؟ قالت: قلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي عليّ وتخوّفتُ عليه الأحداث فأذيتك إليك كما تحيّن. قالت: ما هذا بشأنك فاصدقني! ولم تدعني حتى أخبرتها. قالت: فتخوّفتُ عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت: كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإن لا يني لشأننا، أفلا أخبرك؟ قلت: بلى. قالت: رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من الشام، ثمّ حملتُ به فوالله ما رأيتُ من حمل قطّ كان أخفّ منه ولا أيسر، ثمّ وقع حين وضعته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلق راشداً.

وكانت مدّة رضاع رسول الله، ﷺ، ستين، وردّته حليلة إلى أمه وجدّه عبد المطلب وهو ابن خمس سنين في قول.

وقال شدّاد بن أوس: بينما نحن عند رسول الله، ﷺ، إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو ملك قومه وسيدهم شيخ كبير متوكّفاً على عصا فمئل قائماً وقال: يا ابن عبد المطلب إنّي أنبئتُ أنّك تزعم أنّك رسول الله، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، ألا وإنّك فُهِتَ بعظيم، ألا وقد كانت الأنبياء من بني إسرائيل وأنت ممّن يعبد هذه الحجارة والأوثان وما لك وللنبوة، وإنّ لكلّ قول حقيقة، فما حقيقة قولك وبدء شأنك؟

فأعجب النبي، ﷺ، بمساءلته ثمّ قال: يا أخا بني عامر اجلس.

له يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فكانت ثوبية تأتي رسول الله، ﷺ، بمكّة قبل أن يهاجر فيكرمها وتكرمها خديجة، فأرسلت إلى أبي لهب أن يبيعها لئلاّ تلتحقها، فأبى، فلمّا هاجر رسول الله، ﷺ، إلى المدينة اعتقها أبو لهب، فكان رسول الله، ﷺ، يبعث إليها بالصلة إلى أن بلغه خبر وفاتها منصرفة من خير، فسأل عن ابنها مسروح، فقيل: توفي قبلها، فسأل: هل لها من قرابة؟ فقيل: لم يبق لها أحد.

ثمّ أرضعت رسول الله، ﷺ، بعد ثوبية حليلة بنت أبي ذؤيب، واسمها عبد الله بن الحارث بن شجنة من بني سعد بن بكر بن (٤٦٠/١) هوازن، واسم زوجها الذي أرضعته بلبنه الحارث بن عبد العزى، واسم إخوته من الرضاعة عبد الله وأنيصة وجذامة، وهي الشيماء، عُرفت بذلك، وكانت الشيماء تحضنه مع أمها حليلة.

وقدمت حليلة على رسول الله، ﷺ، بعد أن تزوّج خديجة، فآكرمها ووصلها، وتوفيت قبل فتح رسول الله، ﷺ، مكّة، [فلمّا فتح مكّة] قدمت عليه أخت لها فسألتها عنها، فأخبرته بموتها، فذرفت عيناه، فسألتها عن خلف، فأخبرته، فسألته نحلة وحاجة فوصلها.

وقال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: كانت حليلة السعدية تحدّث أنها خرجت من بلدنا مع نسوة يلمسن الرضعاء، وذلك في سنة شهباء لم يبق شيئاً. قالت: فخرجت على أتان لنا قمرء معنا شارف لنا والله ما تبضّ بقطرة وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معي من بكائه من الجوع، وما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذوه، ولكننا نرجو الغيث والفرج، فلقد أذمتُ أثنائي بالركب حتى شقّ عليهم ضعفاً وعجزاً، حتى قدعنا مكّة فما منا امرأة إلاّ وقد عُرض عليها رسول الله، ﷺ، فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنّما نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم فما عسى أن تصنع أمه وجدّه! فما بقيت امرأة معي إلاّ أخذت رضيعاً غيبي، فلمّا أجمعنا الانطلاق قلتُ لصاحبي، وكان معي: إنسي لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً، والله لأنزعبن إلى ذلك اليتيم فلاخذنه! قال: افعلني فعسى أنّ الله يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت فأخذته، (٤٦١/١) فلمّا أخذته ووضعته في حجره أقبل عليه ثدياي ممّا شاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثمّ ناما، وما كان ابني ينام قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها حافل، فحلب منها ثمّ شرب حتى روي، ثمّ سقاني فشربتُ حتى شبعنا. قالت: يقول لي صاحبي: تعلمين والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة! قلت: والله لأرجو ذلك. قالت: ثمّ خرجنا، فركبتُ أثنائي وحملتُ عليها فلم يلحقني شيء من حمهم حتى إنّ صواحي ليقلسن لي: يا ابنة أبي ذؤيب اربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فاقول: بلى والله لهي هي، فيقلسن: إنّ لها شأنًا، ثمّ

الجنّ، انطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه. فقلت: ما هذا! ليس بي شيء مما يذكر، إن إرادتي سليمة، وفؤادي صحيح ليس فيّ قَلْبَةٌ. فقال أبي من الرضاع: ألا ترون كلامه صحيحاً؟ إنني لأرجو أن لا يكون بابني باس. فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن، فذهبوا بي إليه. فلَمَّا قَصَّوا عليه قصتي قال: استكوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم. فقصصتُ عليه (٤٦٥/١) أمري من أوله إلى آخره، فلَمَّا سمع قلبي وثب إليّ وضمتني إلى صدره، ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه! فوالللات والعزى لنن تركموه فادرك لَيْدُكُنْ دَيْكُم وليخالفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط.

فانتزعني ظفري منه وقالت: لَأَنْتِ أَجْنٌ وَأَخْتُهُ مِنْ ابْنِي هَذَا، فاطلب لنفسك من يقتلك، فإنّا غير قاتليه!

ثم ردوني إلى أهلي فأصبحت مُفْرَعًا مَمَّا فَعَلَ بِي وَأَثَرَ الشَّقِّ مَمَّا بَيْنَ صَدْرِي إِلَى عَاتِي كَأَنَّهُ الشَّرَاكُ، فَذَلِكَ حَقِيقَةُ قَوْلِي وَبَدَأَ شَأْنِي يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ.

فقال العامري: أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أن أمرك حق، فأتيتني بأشياء أسألك عنها. قال: سل. قال: أخبرني ما يزيد في العلم؟ قال: التعلّم. قال: فما يدلّ على العلم؟ قال النبي، ﷺ: السؤال. قال: فأخبرني ماذا يزيد في الشيء؟ قال: التماذي. قال: فأخبرني هل ينفع البرّ مع الفجور؟ قال: نعم، التوبة تغسل الحوبة، والحسنات يذهب السيئات، وإذا ذكر العبد الله عند الرّخاء أعانته عند البلاء. فقال العامري: فكيف ذلك؟ قال: ذلك بأن الله، عزّ وجلّ، يقول: وعزّتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمينين ولا أجمع له خوفين، إن خافني في الدنيا أمته يوم أجمع عبادي في حظيرة القدس فيدوم له أمنه ولا أمحقه فيمن أمحق، وإن هو أمّنت في الدنيا خافني يوم أجمع عبادي لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه.

قال: يا ابن عبد المطلب أخبرني لإمّ تدعو؟ قال: أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن تخلع الأنداد وتكفر باللات والعزى وتقرّ بما جاء من عند الله من كتاب ورسول، وتصلّي الصلوات الخمس بحقائقهنّ، وتصوم (٤٦٦/١) شهراً من السنة، وتؤدّي زكاة مالك يظهر لك الله تعالى بها ويطيّب لك مالك، وتحجّ البيت إذا وجدت إليه سبيلاً، وتغتسل من الجنابة، وتؤمن بالموت والبعث بعد الموت، وبالجنة والنار. قال: يا ابن عبد المطلب فإذا فعلت ذلك فما لي؟ فقال النبي، ﷺ: «جَنَّتْ عَدَنُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى» [طه: ٧٦].

فقال: هل مع هذا من الدنيا شيء؟ فإنه يعجبني الوطأة من العيش. قال النبي، ﷺ: نعم النصر والتمكين في البلاد. فأجاب وأتاب.

فجلس، فقال له النبي، ﷺ: إِنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِي وَبَدَأَ شَأْنِي أَنِّي دَعَوْتُ إِبْرَاهِيمَ وَيَشْرَى أَخِي عِيسَى، وَكُنْتُ بِكَر (٤٦٣/١) أُمِّي، وَحَمَلْتَنِي كَأَتَمُّ مَا تَحْمِلُ النِّسَاءُ، ثُمَّ رَأَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّ الَّذِي فِي بَطْنِهَا نُورٌ [قالت]: فجعلتُ أُنَبِّئُ بِصُرَى النُّورِ وَهُوَ يَسْبِقُ بِصُرَى حَتَّى أَضَاءَتْ لِي مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا؛ ثُمَّ إِنَّمَا وَلِدْتَنِي فَنَشَأْتُ، فَلَمَّا نَشَأْتُ بُغِضْتُ إِلَيَّ الْأَوْتَانُ وَالشَّعْرُ، فَكُنْتُ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ، فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ مُتَبَذِّعٌ مِنْ أَهْلِي مَعَ أَتْرَابٍ مِنَ الصَّبِيَّانِ إِذْ أَتَانَا ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مَعَهُمْ طُسْتُ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٍ ثَلَجًا فَأَخَذُونِي مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي، فَخَرَجَ أَصْحَابِي هَرَابًا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى شَفِيرِ الْوَادِي ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى الرَّهْطِ فَقَالُوا: مَا أَرَيْكُمْ إِلَى هَذَا الْغُلَامِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَبٌ وَمَا يَرُدُّ عَلَيْكُمْ قَتْلَهُ؟ فَلَمَّا رَأَى الصَّبِيَّانِ الرَّهْطَ لَا يَرُدُّونَ جَوَابًا انْطَلَقُوا مُسْرِعِينَ إِلَى الْحَيِّ يُؤْذِنُونَهُمْ بِي وَيَسْتَصْرِخُونَهُمْ عَلَى الْقَوْمِ، فَعَمِدَ أَحَدُهُمْ فَاضْجَعَنِي عَلَى الْأَرْضِ اضْجَاعًا لَطِيفًا، ثُمَّ شَقَّ مَا بَيْنَ مَفْرَقِ صَدْرِي إِلَى مَتْنِي عَاتِي، فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ لَمْ أَجِدْ لَذَلِكَ مَسًّا، ثُمَّ أَخْرَجَ أَحْشَاءَ بَطْنِي فَغَسَلَهَا بِالْثَلَجِ فَانْعَمَ غَسْلُهَا، ثُمَّ أَخْرَجَ قَلْبِي فَصَدَعَهُ ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُ مَضْغَةً سُودَاءَ فَرَمَى بِهَا، قَالَ يَبْدُو يَمَنَةً مِنْهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَإِذَا [أَنَا] بِخَاتَمٍ فِي يَدِهِ مِنْ نُورٍ يَحَارُ النَّازِرُونَ دُونَهُ، فَخْتَمَ بِهِ قَلْبِي، فَامْتَلَأَ نُورًا، وَذَلِكَ نُورُ النُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ، ثُمَّ أعاده مكانه، فوجدتُ برد ذلك الخاتم في قلبي دهرًا، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثُ لِصَاحِبِهِ: تَنَحَّ، فَتَنَحَّيْتُ عَنِّي، فَأَمَرَ يَدَهُ مَا بَيْنَ مَفْرَقِ صَدْرِي إِلَى مَتْنِي عَاتِي فَالْتَمَأَ ذَلِكَ الشَّقُّ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ أَخَذَ يَبْدِي فَأَنْهَضَنِي إِنِّهَاضًا لَطِيفًا ثُمَّ قَالَ لِسَلَوَّلِ الَّذِي شَقَّ بَطْنِي: زَنَهُ بِعَشْرَةِ مِنْ أَمْتِهِ. فَوَزَنُونِي بِهِمْ فَرَجَحْتَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: زَنَهُ بِمِائَةِ مِنْ أَمْتِهِ. فَوَزَنُونِي بِهِمْ فَرَجَحْتَهُمْ. ثُمَّ قَالَ: زَنَهُ بِأَلْفٍ مِنْ أَمْتِهِ. فَوَزَنُونِي بِهِمْ فَرَجَحْتَهُمْ. فَقَالَ: دَعُوهُ فَلَوْ وَزَنْتُهُ بِأَمْتِهِ كُلِّهِمْ لَرَجَحَ بِهِمْ. (٤٦٤/١) ثُمَّ ضَمُونِي إِلَى صَدْرِهِمْ وَقَبِلُوا رَأْسِي وَمَا بَيْنَ عَيْنَيَّ ثُمَّ قَالُوا: يَا حَبِيبَ، لَمْ تَزَعْجْ إِنَّكَ لَوْ تَدْرِي مَا يَرَادُ بِكَ مِنَ الْخَيْرِ لَقَرَّتْ عَيْنُكَ.

قال: فبينما نحن كذلك إذ أنا بالحيّ قد جاؤوا بحذافيرهم، إذ ظفري أمام الحيّ تهتف بأعلى صوتها وهي تقول: يا ضعیفاه! قال: فانكبوا عليّ وقبلوا رأسي وما بين عيني وقالوا: حبذا أنت من ضعیف! ثم قالت ظفري: يا وحيداه! فانكبوا عليّ فضموني إلى صدورهم وقبلوا ما بين عيني وقالوا: حبذا أنت من وحيد وما أنت بوحيد! إن الله معك! ثم قالت ظفري: يا يتيماه استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك! فانكبوا عليّ وضموني إلى صدورهم وقبلوا ما بين عيني وقالوا: حبذا أنت من يتيّم! ما أكرمك على الله! لو تعلم ما يراود بك من الخير! قال: فوصلوا بي إلى شفير الوادي فلَمَّا بصرت بي ظفري قالت: يا بني ألا أراك حيّاً بعد! فجاءت حتى انكبت عليّ وضمتني إلى صدرها، فوالذي نفسي بيده إنني لفي حجرها وقد ضمتني إليها، وإن يدي في يد بعضهم، فجعلت ألتفت إليهم، وظننت أن القوم يبصرونهم، يقول بعض القوم: إن هذا الغلام أصابه لَمَمٌ أو طائف من

بذلك لأنه كان يقطع الأيدي والأرجل، فأمره بقتل بني تميم، ففعل، ووجه إليه رسولا، ودعا هودة وجذد له كرامة وصلة وأمره بالمسير مع رسوله، فأقبلا إلى المكعب أيام اللقاط، وكانت تميم تصير إلى هَجَرَ للميرة واللقاط، فأمر المكعب منادياً ينادي: ليحضر من كان هاهنا من بني تميم فإن الملك قد أمر لهم بميرة وطعام. فحضرُوا ودخلوا المُشَقَّرَ، وهو حصن، فلما دخلوا (٤٦٧/١) قتل المكعب رجالهم واستبقي غلمانهم، وقتل يومئذ قنعب الرياحي، وكان فارس يربوع، وجعل الغلمان في السفن وعبر بهم إلى فارس.

قال هيرة بن حُنَيْرِ العدوي: رجع إلينا بعدما فُتحت إصطخر عدة منهم، وشذ رجل من بني تميم يقال له عبيد بن وهب على سلسلة الباب فقطعها وخرج، واستوهب هودة من المكعب مائة أسير منهم فأطلقهم.

(حُنَيْرِ يَضُمُ الحاء المهملة، وفتح الدال).

ذكر ملك ابنه هرمز بن أنوشروان

وكانت أمه ابنة خاقان الأكبر، وكان هرمز بن كسرى أديباً ذا نيّة في الإحسان إلى الضعفاء والحمل على الأشراف، فعادوه وأبغضوه، وكان في نفسه مثل ذلك، وكان عادلاً بلغ من عدله أنه ركب ذات يوم إلى ساباط المدائن فاجتاز بكروم، فأطلع أسوار من أساورته في كرم وأخذ منه عناقيد حصرم، فلزمه حافظ الكروم وصرخ، فبلغ من خوف الأسوار من عقوبة كسرى هرمز أن دفع إلى حافظ الكرم منطقة محلّة بنهب عوضاً من الحصرم فتركه.

وقيل: كان مظفراً منصوراً لا يمدّ يده إلى شيء إلا ناله، وكان داهياً رديّ النيّة قد نزع إلى أخواله الترك، وإنه قتل من العلماء وأهل البيوتات والشرف ثلاثة عشر ألف رجل وستمئة رجل، ولم يكن له رأي إلا في تآلف (٤٧٠/١) السفلة، وحبس كثيراً من العظماء وأسقطهم وخطّ مراتبهم وحرّم الجنود، ففسد عليه كثير ممن كان حوله، وخرج عليه شايه ملك الترك في ثلاثمائة ألف مقاتل في سنة ست عشرة من ملكه، فوصل هراة وباذغيس، وأرسل إلى هرمز والفرس يأمرهم بإصلاح الطرق ليجوز إلى بلاد الروم، ووصل ملك الروم في ثمانين ألفاً إلى الضواحي قاصداً له، ووصل ملك الخزر إلى الباب والأبواب في جمع عظيم، فإنّ جمعاً من العرب شتوا الغارة على السواد. فأرسل هرمز بهرام خشنش، ويُعرف بجوبين، في اثني عشر ألفاً من المقاتلة اختارهم من عسكره، فسار مجدداً وواقع شايه ملك الترك فقتله برمية رماها واستباح عسكره، ثم وافاه برموده بن شايه فهزمه أيضاً وحصره في بعض الحصون حتى استسلم، فأرسله إلى هرمز أسيراً وغنم ما في الحصن، فكان عظيماً.

ثمّ خاف بهرام ومنّ معه هرمز فخلعوه وساروا نحو المدائن

قال ابن إسحاق: هلك عبد الله بن عبد المطلّب أبو رسول الله، وأمّ رسول الله، آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة حامل به.

قال هشام بن محمد: توفي عبد الله أبو رسول الله بعدما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون يوماً.

وقال الواقدي: الثبّت عندنا أنّ عبد الله بن عبد المطلّب أقبل من الشام في غير لقريش ونزل بالمدينة وهو مريض فأقام [بها] حتى توفي ودُفن بدار النابتة، [الدار] الصُّغرى.

قال ابن إسحاق: وتوفيت أمه آمنة وله ست سنين بالأبواء بين مكّة (٤٦٧/١) والمدينة، كانت قدمت به المدينة على أخواله من بني النجار تزيره ليأهم فماتت وهي راجعة، وقيل: إنها أتت المدينة تزور قبر زوجها عبد الله ومعها رسول الله وأمّ أيمن حاضنة رسول الله، فلما عادت ماتت بالأبواء. وقيل: إنّ عبد المطلّب زار أخواله من بني النجار وحمل معه آمنة ورسول الله، فلما رجع توفيت بمكّة ودُفنت في شِعْبِ أَبِي ذَرٍّ والأوّل أصح.

ولما سارت قريش إلى أُحُد همّوا باستخراجها من قبرها، فقال بعضهم: إنّ النساء عورة وربما أصاب محمد من نسائكم، فكفّهم الله بهذا القول إكراماً لأمّ النبي، ﷺ.

قال ابن إسحاق: وتوفي عبد المطلّب ورسول الله، ﷺ، ابن ثمانين سنين، وقيل: ابن عشر سنين، ولما مات عبد المطلّب صار رسول الله، ﷺ، في حجر عمّه أبي طالب بوصيّة من عبد المطلّب إليه بذلك لما كان يرى من برّه به وشفته وخوّه عليه، فيصبح ولد أبي طالب غصاً رمصاً، ويصبح رسول الله صقيلاً دهيناً. (٤٦٨/١)

ذكر قتل تميم بالمشقر

قال هشام: أرسل وَهْرَزَ بأموال وطُرف من اليمن إلى كسرى، فلما كانت بيلاد تميم دعا صعصعة بن ناجية المجاشعي، جدّ الغزدق الشاعر، بني تميم إلى الوثوب عليها، فأبوا، فقال: كأني ببني بكر بن وائل وقد انتهبوا فاستعانوا بها على حريكم، فلما سمعوا ذلك وثبوا عليها وأخذوها، وأخذ رجل من بني سُلَيْطٍ يقال له النُظف خرجاً فيه جره، فكان يقال: أصاب [فلان] كثر النطف، فصار مثلاً، وصار أصحاب العير إلى هودة بن عليّ الحنفيّ باليمامة، فكساهم وحملهم وسار معهم حتى دخل على كسرى، فأعجب به كسرى ودعا بعقد من دُرّ فعقد على رأسه، فمن ثمّ سُمّي هودة ذا التاج، وسأله كسرى عن تميم هل من قومه أو بينه وبينهم سلم، فقال: لا بيننا إلا الموت. قال: قد أدركت نارك، وأراد إرسال الجنود إلى تميم، ف قيل له: إنّ ماءهم قليل وبلادهم بلاد سوء، وأشير عليه أن يرسل إلى عامله بالبحرين، وهو ازاد فيروز بن جُشَيْش الذي سمّته العرب المكعب، وإنّما سُمّي

حتى لا يزول اسمي عنها، وهذا غاية الظلم أن يكون غيري يأخذ دخلها وأنا أؤتي خراجها.

فسأل هرمز وزيره فصده وقال: خفتُ أعلمك فيؤذني المرزبان. فأمر هرمز أن يؤخذ من المرزبان ضعف ما أخذ وأن يستخذه صاحب القرية في أي شغل شاء ستين، وعزل وزيره، وقال في نفسه: إذا كان الوزير يراقب الظالم فالأحرى أن غيره يراقبه، فأمر باتخاذ صندوق، وكان يقفله ويختمه بخاتم ويترك على باب داره وفيه خرق يلقى فيه رقائق المتظلمين، وكان يفتحه كل أسبوع ويكشف المظالم، فافكر وقال: أريد أعرظ ظلم الرعية ساعة فساعة، فاتخذ سلسلة طرفها في مجلسه في السقف والطرف الآخر خارج الدار في روزنة وفيها جرس، وكان المتظلم يحرك السلسلة فيحرك الجرس فيحضره ويكشف ظلامته.

ذكر ملك كسرى أبرويز بن هرمز

وكان من أشد ملوكهم بطشاً وأنفذهم رأياً، وبلغ من البأس والنجدة وجمع الأموال ومساعدة الأقدار ما لم يبلغه ملك قبله، ولذلك لُقّب أبرويز، ومعناه (٤٧٣/١) المظفر، وكان في حياة أبيه قد سعى به بهرام جوبين إلى أبيه أنه يريد الملك لنفسه، فلما علم ذلك سار إلى أذربيجان سرّاً، وقيل غير ذلك، وقد تقدّم فلماً وصلها بايعه من كان [بها] من العظماء واجتمع من بالمداين على خلع أبيه، فلما سمع أبرويز بادر الوصول إلى المدائن قبل بهرام جوبين فدخلها قبله وليس التاج وجلس على السرير، ثم دخل على أبيه، وكان قد سُمّل، فأعلمه أنه بريء مما فعل به، وإنما كان هربه للخوف منه، فصده وسأله أن يرسل إليه كل يوم من يؤنسّه وأن يتقمّ من خلعه وسمل عينيه، فاعتذر بقرب بهرام منه في العساكر وأنه لا يقدر على أن يتقمّ من فعل به ذلك إلا بعد الظفر بهرام.

وسار بهرام إلى النهروان وسار أبرويز إليه، فالتقيا هناك، ورأى أبرويز من أصحابه فتوراً في القتال فانهزم ودخل على أبيه وعرفه الحال فاستشاره، فأشار عليه بقصد موريق ملك الروم، وجَهز ثانياً وسار في علة يسيرة فيهم خاله بندويه وبسطام وكردى أخو بهرام، فلما خرجوا من المدائن خاف من معه أن بهرام يرده هرمز إلى الملك ويرسل إلى ملك الروم في ردّهم فيرتدّهم إليه، فاستأذنا أبرويز في قتل أبيه هرمز فلم يحز جواباً، فانصرف بندويه وبسطام وبعض من معهم إلى هرمز فقتلوه خفّاً، ثم رجعوا إلى أبرويز وساروا مجذّين إلى أن جاوزوا الفرات ودخلوا ديراً يستريحون فيه، فلما دخلوا غشيتهم خيل بهرام جوبين ومقدمها رجل اسمه بهرام بن سياوش، فقال بندويه لأبرويز: احل لنفسك. قال: ما عندي حيلة! قال بندويه: أنا أبذل نفسي دونك، وطلب منه بزّه فلبسها، وخرج أبرويز ومن معه من الدير وتواروا بالجبل، ووافى بهرام الدير فرأى بندويه فوق الدبر

وأظهروا أن ابنه أبرويز أصلح للملك منه، وساعدتهم على ذلك بعض من كان بحضرة هرمز، وكان غرض بهرام أن يستوحش هرمز من ابنه أبرويز ويستوحش ابنه منه فيختلفا، فإن ظفر أبرويز بأبيه كان أمره على بهرام سهلاً، وإن ظفر أبوه [به] نجا بهرام والكلمة مختلفة فينال من هرمز غرضه، وكان يحدث نفسه بالاستقلال بالملك، فلما علم أبرويز ذلك خاف أباه فهرب إلى أذربيجان، فاجتمع عليه عدة من المرازبة والأصبهنيين، ووثب العظماء بالمداين، وفيهم بندويه (٤٧١/١) وبسطام خالا أبرويز، فخلعوا هرمز وسملوا عينيه وتركوه ترحّجاً من قتله، وبلغ أبرويز الخبر فأتبل من أذربيجان إلى دار الملك.

وكان ملك هرمز إحدى عشرة سنة وتسعة أشهر، وقيل: اثنتي عشرة سنة، ولم يسلم من ملوك الفرس غيره لا قبله ولا بعده.

ومن محاسن السّير ما حكى عنه أنه لما فرغ من بناء داره التي تُشرف على دجلة مقابل المدائن عمل وليمة عظيمة وأحضر الناس من الأطراف، فأكلوا ثم قال لهم: هل رأيتم في هذه الدار عيباً؟ فكلهم قال: لا عيب فيها. فقام رجل وقال: فيها ثلاثة عيوب فاحشة، أحدها أن الناس يجعلون دورهم في الدنيا وأنست جعلت الدنيا في دارك، فقد أفرطت في توسيع صحنها وبيوتها فتمكّن الشمس في الصيف والسّموم فيؤذي ذلك أهلها ويكثر فيها في الشتاء البرد، والثاني أن الملوك يتوصلون في البناء على الأنهار لتزول همومهم وأفكارهم بالنظر إلى المياه وترطب الهواء وتضيء أبصارهم، وأنست قد تركت دجلة وبنيتها في القفر، والثالث أنك جعلت حجرة النساء ممّا يلي الشمال من مساكن الرجال، وهو آدم هبوباً، فلا يزال الهواء يجيء بأصوات النساء وريح طيهن، وهذا ما تمنعه الغيرة والحمية.

فقال هرمز: أمّا سعة الصحن والمجالس فخير المساكن ما سافر فيه البصر، وشدة الحرّ والبرد يُدفعان بالخيش والملابس والنيّان، وأمّا مجاورة الماء فكانت عند أبي وهو يشرف على دجلة ففرقت سفينة تحته فاستغاث من بها إليه وأبي يناسف عليهم ويصبح بالسفن التي تحت داره ليلحقهم، فإلى أن (٤٧٢/١) لحقهم غرق جميعهم، فجعلت في نفسي أنني لا أجاور سلطاناً هو أقوى مني، وأمّا عمل حجرة النساء في جهة الشمال فقصدنا به أن الشمال أرقّ هواء وأقلّ وخامة، والنساء يلازمن البيوت، فعلم لذلك، وأمّا الغيرة فإن الرجال لا يخلون بالنساء، وكلّ من يدخل هذه الدار إنّما هو مملوك وعبد لقيم، وأمّا أنت فما أخرج هذا منك إلا بغض لي، فأخبرني عن سببه.

فقال الرجل: لي قرية ملك كنتُ أنفق حاصلها على عيالي فغلبني المرزبان فأخذها مني فقصدتُ أنظّم منذ ستين فلم أصل إليك، فقصدتُ وزيرك وتظلمتُ إليه فلم يصفني، وأنا أؤتي خراج القرية

عليه بزة أبرويز، (٤٧٤/١) فاعتقده هو وسأله أن يُنظره إلى غد ليصير إليه مسلماً، ففعل، ثم ظهر من الغد على حيلته فحمله إلى بهرام جوبين فحبسه. ودخل بهرام جوبين دار الملك وقعد على السرير وليس التاج، فانصرفت الوجوه عنه، لكن الناس أطاعوه خوفاً وواطأ بهرام بن سياوش بندويه على الفتك بهرام جوبين، فعلم بهرام جوبين بذلك فقتل بهرام وأفلت بندويه فلاحق بأذربيجان. وسار أبرويز إلى أنطاكية وأرسل أصحابه إلى الملك، فوعده النصرة وتزوج أبرويز ابنة الملك موزريق، واسمها مريم، وجَهَّز معه العساكر الكثيرة، فبلغت عدتهم سبعين ألفاً فيهم رجل يُعدُّ بألف مقاتل، فرتبهم أبرويز وسار بهم إلى أذربيجان، فوافاه بندويه وغيره من المقتدسين والأساورة في أربعين ألف فارس من أصحابان وفارس وخراسان، وسار إلى المدائن، وخرج بهرام جوبين نحوه، فجري بينهما حرب شديدة، فقتل فيها الفارس الرومي الذي يُعدُّ بألف فارس، ثم انهزم بهرام جوبين وسار إلى الترك، وسار أبرويز من المعركة ودخل المدائن وفرق الأموال في الروم، فبلغت جملتها عشرين ألف فأعادهم إلى بلادهم.

وأقام بهرام جوبين عند الترك مكراً، فأرسل أبرويز إلى زوجة الملك وأجزل لها الهدية من الجواهر وغيرها، وطلب منها قتل بهرام، فوضعت عليه من قتله، فاشتدَّ قتله على ملك الترك، ثم علم أنَّ زوجته قتله فطلقها. ثم إنَّ أبرويز قتل بندويه، وأراد قتل بسطام فهرب منه إلى طبرستان لحصانتها، فوضع أبرويز عليه فقتله.

وأما الروم فإنهم خلعوا ملكهم موزيق بعد أربع عشرة سنة من ملك أبرويز وقتلوه وملَّكوا عليهم بطريقاً اسمه فوقاس، فأباد ذرية موزيق سوى ابن له هرب إلى كسرى أبرويز، فأرسل معه العساكر وتوجَّهَ وملَّكه على الروم وجعل على عساكره ثلاثة نفر من قواده وأساورته، أما أحدهم فكان (٤٧٥/١) يقال له بوران، وجَّهه في جيش منها إلى الشام، فدخلها حتى انتهى إلى البيت المقدس فأخذ خشبة الصليب التي تزعم النصارى أنَّ المسيح، عليه السلام، صُلب عليها فأرسلها إلى كسرى أبرويز، وأما القائد الثاني فكان يقال له شاهين، فسيره في جيش آخر إلى مصر، فافتتحها وأرسل مفاتيح الإسكندرية إلى أبرويز، وأما القائد الثالث، وهو أعظمهم، فكان يقال له فرخان، وتدعى مرتبته شهريراز، وجعل مرجع القائدين الأولين إليه، وكانت والدته منجبة لا تلد إلا أنجباً، فأحضرها أبرويز وقال لها: إنِّي أريد أن أوجَّه جيشاً إلى الروم استعمل عليه بعض بنيك فأشيرني عليَّ أيهم استعمل. فقالت: أما فلان فأرؤف من ثعلب وأحذر من صقر، وأما فرخان فهو أشد من سنان، وأما شهريراز فهو أحلم من كذا. فقال: قد استعملت الحليم، فولَّاه أمر الجيش، فسار إلى الروم فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع أشجارهم وسار في بلادهم إلى القسطنطينية حتى نزل على خليجها القريب منها ينهب ويخرب، فلم يخضع لابن موزيق أحد ولا أطاعه، غير أنَّ الروم قتلوا فوقاس

لفساده وملَّكوا عليهم بعده هرقل، وهو الذي أخذ المسلمون الشام منه. فلما رأى هرقل ما أهمَّ الروم من النهب والقتل والبلاء تضرَّع إلى الله تعالى ودعاه، فرأى في منامه رجلاً كَثَّ اللَّحْيَةَ رفيع المجلس عليه بزة حسنة، فدخل عليهما داخل فألقى ذلك الرجل عن مجلسه وقال لهرقل: إنِّي قد أسلمته (٤٧٦/١) في يدك؛ فاستيقظ، فلم يقصَّ رؤياه، فرأى في الليلة الثانية ذلك الرجل جالساً في مجلسه وقد دخل الرجل الثالث وبيده سلسلة، فألقاها في عنق ذلك الرجل وسلَّمه إلى هرقل وقال: قد دفعت إليك كسرى برمته فاغزه فإنك مدالٌ عليه وبالغ أمنيته في أعدائك، فقصَّ حيثنَّ هذه الرؤيا على عظماء الروم، فأشاروا عليه أن يغزوه، فاستعدَّ هرقل واستخلف ابناً له على القسطنطينية وسلك غير الطريق الذي عليه شهريراز وسار حتى أوغل في بلاد أرمينية وقصد الجزيرة فنزل نصيبين، فأرسل إليه كسرى جنداً وأمرهم بالمقام بالموصل، وأرسل إلى شهريراز يستحثه على القدوم ليتضافرا على قتال هرقل.

وقبل في مسيره غير هذا، وهو أن شهريراز سار إلى بلاد الروم فوطئ الشام حتى وصل إلى أذرعات ولقي جيوش الروم بها فهزها وظفر بها وسبى وغنم وعظم شأنه.

ثم إنَّ فرخان أخا شهريراز شرب الخمر يوماً وقال: لقد رأيتُ في المنام كائني جالس على سرير كسرى، فبلغ الخبر كسرى فكتب إلى أخيه شهريراز يأمره بقتله، فعاوده وأعلمه شجاعته ونكايته في العدو، فعاد كسرى وكتب إليه بقتله، فراجع، فكتب إليه الثالثة، فلم يفعل، فكتب كسرى بعزل شهريراز وولاية فرخان العسكر، فأطاع شهريراز [فلما جلس على سرير الإمارة ألقى إليه القاصد بولايته كتاباً صغيراً من كسرى يأمره بقتل شهريراز] فعزم على قتله، فقال له شهريراز: أمهلني حتى أكتب وصيتي، فأمهله فأحضر درجاً وأخرج منه كتب كسرى الثلاثة وأطلعه عليها وقال: أنا راجعت (٤٧٧/١) فيك ثلاث مرَّات ولم أقتلك، وأنت تقتلني في مرة واحدة، فاعتذر أخوه إليه وأعادته إلى الإمارة واتفقا على موافقة ملك الروم على كسرى، فأرسل شهريراز إلى هرقل: إنَّ لي إليك حاجة لا يبلغها البريد ولا تسعها الصحف، فالتفتي في خمسين رومياً، فإني ألقاك في خمسين فارسياً. فأقبل قيصر في جيوشه جميعها ووضع عيونه تأتبه بخبر شهريراز، وخاف أن يكون مكيدة، فأتته عيونه فأخبروه أنه في خمسين فارسياً، فحضر عنده في مثلهما واجتمعا وبينهما ترجمان فقال له: أنا وأخي خربنا بلادك وفعلنا ما علمت وقد حسدنا كسرى وأراد قتلنا وقد خلعنا ونحن نقاتل معك. ففرح هرقل بذلك واتفقا عليه وقتلا الترجمان ثلاثاً يقشي سرهما، وسار هرقل في جيشه إلى نصيبين.

وبلغ كسرى أبرويز الخبر وأرسل لمحاربة هرقل قائداً من قواده

اسمه راهزار في اثني عشر ألفاً، وأمره أن يقيم بيننوى من أرض الموصل على دجلة يمنع هرقل من أن يجوزها، وأقام هو بدسكرة الملك، فأرسل راهزار العيون، فأخبروه أن هرقل في سبعين ألف مقاتل، فأرسل إلى كسرى يُعرفه ذلك وأنه يعجز عن قتال هذا الجمع الكثير، فلم يعذر وأمره بقتاله، فاطاع وعيى جنده، وسار هرقل نحو جنود كسرى وقطع دجلة من غير الموضع الذي فيه راهزار، فقصدته راهزار ولقيه، فاقتلوا، فقتل راهزار وستة آلاف من أصحابه وانهزم الباقون.

وبلغ الخبر أبريز وهو بدسكرة الملك، فهذه ذلك وعاد إلى المدائن وتحصن بها لعجزه عن محاربة هرقل، وكتب إلى قواد الجنود الذين انهزموا يتهددهم (٤٧٨/١) بالعقوبة فأحوجهم إلى الخلاف عليه، على ما نذكره إن شاء الله. وسار هرقل حتى قارب المدائن ثم عاد إلى بلاده.

وكان سبب عودته أن كسرى لما عجز عن هرقل أعمل الحيلة فكتب كتاباً إلى شهربراز يشكره ويشي عليه ويقول له: أحسنت في فعل ما أمرتك به من مواصلة ملك الروم وتمكينه من البلاد، والآن فقد أوغل وأمكن من نفسه فتجيء أنت من خلفه وأنا من بين يديه ويكون اجتماعنا عليه يوم كذا فلا يقلت منهم أحد. ثم جعل الكتاب في عكاك ابنوس وأحضر راهباً [كان] في دير عند المدائن وقال له: لي إليك حاجة. فقال الراهب: الملك أكبر من أن يكون له إليّ حاجة ولكنني عبده. قال: إن الروم قد نزلوا قريباً منا وقد حفظوا الطرق عنا، ولي إلى أصحابي الذين بالشام حاجة وأنت نصراني إذا جُزت على الروم لا ينكرنك، وقد كتبت كتاباً وهو في هذه العكاكة فتوصله إلى شهربراز، وأعطاه مائتي دينار. فأتى الكتاب وفتحته وقراه ثم أعاده وسار، فلما صار بالعسكر ورأى الروم والرهبان والنواقيس رق قلبه وقال: أنا شر الناس إن أهلكتم النصرانية! فأقبل إلى سُرَاق الملك وأنهى حاله وأوصل الكتاب إليه، فقرأه ثم أحضر أصحابه رجلاً قد أخذوه من طريق الشام قد واطأه كسرى ومعه كتاب قد اقتله على لسان شهربراز إلى كسرى يقول: إني ما زلت أخادع ملك الروم حتى اطمأن إليّ وجاز إلى البلاد كما أمرتني فيعرفني الملك في أي يوم يكون لقاءه حتى أجهم أنا عليه من ورائه والملك من بين يديه فلا يسلم هو ولا أصحابه وأمره أن يتعمد طريقاً يؤخذ فيها.

فلما قرأ ملك الروم الكتاب الثاني تحقق الخبر فعاد شبه المنهزم مبادراً إلى (٤٧٩/١) بلاده، ووصل خبر عودة ملك الروم إلى شهربراز فأراد أن يستدرك ما فرط منه فعارض الروم فقتل منهم قتلاً ذريعاً وكتب إلى كسرى: إني عملت الحيلة على الروم حتى صاروا في العراق، وأنفذ من رؤوسهم شيئاً كثيراً. وفي هذه الحادثة أنزل الله تعالى ﴿الْمَغْلَبَتِ الرُّومُ فِي آخِرِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَوْدُونَ﴾ [الروم: ١-٣]؛ يعني بأننى الأرض أذرعاً، وهي أدنى

ذكر ما رأى كسرى من الآيات بسبب رسول الله

صلى الله عليه وسلم

فمن ذلك أن كسرى أبريز سكر دجلة الغزاة وأنفق عليها من الأموال ما لا يحصى كثرة، وكان طاق مجلسه قد بُني بنياناً لم ير مثله، وكان عنده ثلاثمائة وستون رجلاً من الحزاة من بين كاهن وساحر ومنجم، وكان فيهم رجل من العرب اسمه السائب، بعث به ياذان من اليمن، وكان كسرى إذا حزبه أمر جمعهم فقال: انظروا في هذا الأمر ما هو.

فلما بعث الله محمداً ﷺ، أصبح كسرى وقد انقصر طاق ملكه من غير ثقل، وانخرقت عليه دجلة العوراء، [فلما رأى ذلك حزنه فقال: انقصر طاق ملكي من غير ثقل، وانخرقت دجلة العوراء] شاء يشككت، يقول: الملك انكسر. ثم دعا كهانه وسُحَّارَه ومنجميه، وفيهم السائب، فقال لهم: انظروا في هذا الأمر. فنظروا في أمره فأخذت عليهم أقطار السماء وأظلمت الأرض، فلم يمض لهم ما راموه، ويات السائب في ليلة ظلماء على ربوة من الأرض ينظر، فرأى برقاً من قبل الحجاز استطار فبلغ المشرق، فلما أصبح رأى تحت قدميه روضة خضراء، فقال فيما يعتاف: إن صدق ما أرى ليخرجن من الحجاز سلطان يبلغ المشرق تخصب عليه الأرض كأفضل ما اخضبت على ملك.

فلما خلاص الكهَّان والمنجمون والسُحَّار بعضهم إلى بعض وراوا ما أصابهم، ورأى السائب ما رأى، قال بعضهم لبعض: والله ما حيل بينكم وبين علمكم إلا لأمر جاء من السماء، وإنه لنبي بعث أو هو مبعوث يسلب (٤٨١/١) هذا الملك ويكسره، ولئن نعيت لكسرى ملكه ليقْتُلْكُم، فاتفقوا على أن يكتموه الأمر وقالوا له: قد نظرنا فوجدنا أن وضع دجلة العوراء وطاق الملك قد وضع على النحوس، فلما اختلف الليل والنهار وقعت النحوس مواقعها فزال كل ما وضع عليها، وإننا نحسب لك حساباً تضع عليه بنيانك فلا يزول، فحسبوا وأمروه بالبناء، فبنى دجلة العوراء في ثمانية أشهر فاتفق عليها أموالاً جليلة حتى إذا فرغ منها قال لهم: أجلس على سورها؟ قالوا: نعم، فجلس في أساورته، فبينما هو هنالك انتسفت دجلة البنيان من تحته فلم يخرج إلا بآخر رمق. فلما أخرجه جمع كهانه وسُحَّارَه ومنجميه

فقتل منهم قريباً من مائة وقال: قرّبتكم وأجريت عليكم الأرزاق ثم أنتم تلعبون بي ! فقالوا: أيها الملك أخطأنا كما أخطأ من قبلنا. ثم حسبوا له وبناه وفرغ منه وأمره بالجلوس عليه، فخاف فركب فرساً وسار على البناء، فبينما هو يسير انتسفته دجلة فلم يُدرِك إلا بآخر رمق، فدعاهم وقال: لأقتلنكم أجمعين أو لتصدقوني. فصدقوه الأمر، فقال: وبحكم هلاً يبتسم لي فأرى فيه رأيي؟ قالوا: منعنا الخوف. فتركهم ولها عن دجلة حين غلبته، وكان ذلك سبب البطائح، ولم تكن قبل ذلك، وكانت الأرض كلها عامرة.

فلما كانت سنة ست من الهجرة أرسل رسول الله ﷺ، عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، فزادت الفرات والدجلة زيادة عظيمة لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلاً، فانبثقت البشوق وانتسفت ما كان بناء كسرى، واجتهد أن يسكرها فغلبه الماء، كما بينا، ومال إلى موضع البطائح فلطم الماء على الزروع وغرق عدّة طساصيح، ثم دخلت العرب أرض الفرس وشغلّتهم عن عملها بالحروب واتسع الخرق. فلما كان زمن الحجاج تفجّرت بشوق (٤٨٢/١) أخر فلم يسدّها مضارة للهاقين لأنّه اتهمهم بممالة ابن الأشعث، فعظم الخطب فيها وعجز الناس عن عملها، فبقيت على ذلك إلى الآن.

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: بعث الله إلى كسرى ملكاً وهو في بيت إيوانه الذي لا يُدخل عليه فيه فلم يره إلا به قائماً على رأسه في يده عصاً بالهجرة في ساعته التي يقتل فيها، فقال: يا كسرى أنسلم أو أكسر هذه العصا؟ فقال: بهل بهل ! وانصرف عنه، فدعا بحراسه وحجّابه فتغيّظ عليهم وقال: من أدخل هذا الرجل ؟ فقالوا: ما دخل علينا أحد ولا رأيناه! حتى إذا كان العام المقبل أتاه في تلك الساعة وقال له: أنسلم أو أكسر العصا ؟ فقال: بهل بهل ! وتغيّظ على حجّابه وحراسه. فلما كان العام الثالث أتاه فقال: أنسلم أو أكسر العصا ؟ فقال: بهل بهل ! فكسر العصا ثم خرج. فلم يكن إلا تهوّر ملكه وانبعاث ابنه والفارس حتى قتلوه.

وقال الحسن البصري: قال أصحاب رسول الله ﷺ، [له]: يا رسول الله ما حجّة الله على كسرى فيك ؟ قال: بعث إليه ملكاً فأخرج يده إليه من جدار بيته تلاً نوراً، فلما رآها فزع فقال له: لا تُرْعَ يا كسرى! إنّ الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً فاتّبعه تسلم دينك وآخرتك. قال: سأنظر.

ذكر وقعة ذي قار وسببه

ذكروا عن النبي ﷺ، أنّه قال لما بلغه ما كان من ظفر ربيعة بجيش كسرى، هذا أول يوم انتصف العرب [فيه] من العجم (٤٨٣/١) وبني نصرأوا. فحفظ ذلك منه، وكان يوم الوقعة.

قال هشام بن محمد: كان عديّ بن زيد التميمي وأخوه عمّار،

وهو أبي عمرو، وهو سمي، يكونون مع الأكاسرة ولهم اليهم انقطاع، وكان المنذر ابن المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان في حجر عديّ بن زيد، وكان له غير النعمان أحد عشر ولدًا، وكانوا يستمّون الأشاهب لجمالهم. فلما مات المنذر بن المنذر وخلف أولاده أراد كسرى بن هرمز أن يملك على العرب من يختاره، فأحضر عديّ بن زيد وسأله عن أولاد المنذر، فقال: هم رجال، فأمره بإحضارهم. فكتب عديّ فأحضرهم وأنزلهم، وكان يفضل إخوة النعمان عليه ويريهم أنّه لا يرجو النعمان ويخلو واحد واحد ويقول له: إذا سألك الملك أتكونني العرب ؟ فقولوا: نكفيكهم إلا النعمان. وقال للنعمان: إذا سألك الملك عن إخوانك قتل له: إذا عجزت عن إخواني فأنا عن غيرهم أعجز.

وكان من بني مرينا رجل يقال له عديّ بن أوس بن مرينا، وكان داهياً شاعراً، وكان يقول للأسود بن المنذر: قد عرفت أنّي أرجوك وعيني إليك، وإنّي أريد أن تخالف عديّ بن زيد، فإنّه والله لا ينصح لك أبداً، فلم يلتفت إلى قوله.

فلما أمر كسرى عديّ بن زيد أن يحضرهم، أحضرهم رجلاً رجلاً وسألهم كسرى: أتكونني العرب ؟ فقالوا: نعم إلا النعمان. فلما دخل عليه النعمان رأى رجلاً دميماً أحمر أبرش قصيراً فقال له: أتكفيني إخوانك والعرب ؟ قال: نعم، وإن عجزت عن إخواني فأنا عن غيرهم أعجز. فملكه وكساه والبسه تاجاً قيمته ستون ألف درهم، فقال عديّ [بن] مرينا للأسود: دونك فقد خالفت الرأي.

ثم صنع عديّ بن زيد طعاماً ودعا عديّ [بن] مرينا إليه وقال: إنّي عرفت (٤٨٤/١) أن صاحبك الأسود كان أحب إليك أن يملك من صاحبي النعمان، فلا تلمني على شيء كنت على مثله، وإنّي أحب أن لا تحقد عليّ وإن نصيبني من هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك، وحلف لابن مرينا أن لا يهجوّه ولا يبغيه غائلة أبداً، فقام ابن مرينا وحلف أنّه لا يزال يهجوّه ويبغيه الغوائل. وسار النعمان حتى نزل الحيرة، وقال ابن مرينا للأسود: إذا فأتاك الملك فلا تعجز أن تطلب بئارك من عديّ فإنّ معداً لينايم مكرها، وأمرتكم بمعصيته فخالفتني، وأريد أن لا يأتيك من مالك شيء إلا عرضته عليّ. ففعل.

وكان ابن مرينا كثير المال، وكان لا يخلي النعمان يوماً من هديّة وطرفة، فصار من أكرم الناس عليه، وكان إذا ذكر عديّ بن زيد وصفه وقال: إلا أنّه فيه مكر وخديعة، واستمال أصحاب النعمان، فمالوا إليه، وواضعهم على أن قالوا للنعمان: إن عديّ بن زيد يقول إنك عامله، ولم يزلوا بالنعمان حتى أضغفوه عليه، فأرسل إلى عديّ يستزيه، فاستأذن عديّ كسرى في ذلك، فأذن له، فلما أتاه لم ينظر إليه حتى حبسه ومنع من الدخول عليه، فجعل عديّ يقول الشعر وهو في السجن، وبلغ النعمان قوله فقدم على حبسه إنّاه وخاف منه إذا

أطلقه.

الرؤادف، ضخمة المنكبين، عظيمة الركبة، مُثَمَّعة الساق، مشبعة الخللخال، لطيفة الكعب والقدم، قطوف المشي، مكسال الضحى، بضعة المتجرّد، سموع للسيد، ليست بحلساء ولا سغفاء، ذليلة الأنف، عزيزة النفر، لم تغذ في بؤس، حيّة، رزينة، زكية، كريمة الخال، تقتصر بنسب أبيها دون فضيلتها، وبفضيلتها دون جماع قبيلتها، قد أحكمتها الأمور في الأدب، فرأبها رأي أهل الشرف، وعملها عمل أهل الحاجة، صنّاع الكفين، قطعة اللسان، رهوة الصوت، تزين البيت وتشين العدو، إن أردتها اشتنت، وإن تركتها انتهت، تحمّل عيناها، ويحمرّ خدّاه، وتذبذب شفّتها، وتبادرك الوبّة، [ولا تجلس إلاّ بامرّك إذا جلست].

فقبلها كسرى وأمر بإثبات هذه الصفة، فبقيت إلى أيام كسرى بن هرمز. فقرأ زيد هذه الصفة، فشقّ ذلك عليه وقال لزيد، والرسول (٤٨٧/١) يسمع: أما في عين السواد وفارس أما تبلغون حاجتكم! قال الرسول لزيد: ما العين؟ قال: البقر.

وأنزلهما يومين وكتب إلى كسرى: إن الذي طلب الملك ليس عندي. وقال لزيد: اعذرني عنده.

فلما عاد إلى كسرى قال لزيد: أين ما كنت أخبرتي [به]؟ قال: قد قلت للملك وعرفته بخلهم بنسائهم على غيرهم وأن ذلك لشقائهم وسوء اختيارهم، وسلّ هذا الرسول عن الذي قال، فإني أكرم الملك على ذلك. فسأل الرسول، فقال: إنه قال: أما في بقر السواد [وفارس] ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا؟ فعرف الغضب في وجهه ووقع في قلبه وقال: ربّ عبد قد أراد ما هو أشدّ من هذا فصار أمره إلى التّباب.

وبلغ هذا الكلام النعمان، وسكت كسرى على ذلك أشهراً والنعمان يستعدّ، حتى أتاه كتاب كسرى يستدعيه. فحين وصل الكتاب أخذ سلاحه وما قوي عليه ثمّ لحق بجلبليّ طيء، وكان متزوّجاً إليهم، وطلب منهم أن يمنعه. فأبوا عليه خوفاً من كسرى، فأقبل وليس أحد من العرب يقبله حتى نزل في ذي قار في بني شيبان سرّاً، فلقي هانيء بن مسعود بن عامر بن عمرو الشيباني وكان سيّداً منيعاً، والبيت من ربيعة في آل ذي الجذنين لقيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجذنين، وكان كسرى قد أطعمه الأكلة، فكوه النعمان أن يدفع إليه أهله لذلك، وعلم أنّ هاتناً [يمنعه ممّا] يمنع منه [أهله، فأودعه] أهله وماله، وفيه أربعمئة درع، وقيل ثمانمئة درع.

وتوجّه النعمان إلى كسرى فلقي زيد بن عديّ على قطرة ساباط، (٤٨٨/١) فقال: انجّ نعيم. فقال: أنت يا زيد فعلت هذا! أما والله لئن انفلت لأفعلن بك ما فعلت بأبيك. فقال [له] زيد: امض نعيم فقد والله وضعت لك [عنده] أخية لا يقطعها المهر الأرّن.

فلما بلغ كسرى أنّه بالباب بعث إليه فقيده وبعث به إلى خانيقين

فكتب عديّ إلى أخيه أبيّ إياتاً يعلمه بحاله، فلما قرأ إياتيه وكتابه كلّم كسرى فيه، فكتب إلى النعمان وأرسل رجلاً في إطلاق عديّ، وتقدّم أخو عديّ إلى الرسول بالدخول إلى عديّ قبل النعمان، ففعل ودخل على عديّ وأعلمه أنّه أرسل لإطلاقه، فقال له عديّ: لا تخرج من عندي وأعطني الكتاب حتى أرسله، فإنّك إن خرجت من عندي قتلني، فلم يفعل، ودخل أعداء عديّ على النعمان فأعلموه الحال وخوفوه من إطلاقه، فأرسلهم إليه فمخّطوه ثمّ دفنوه. (٤٨٥/١)

وجاء الرسول فدخل على النعمان بالكتاب فقال: نعم وكرامة، وبعث إليه بأربعة آلاف مثقال وجارية وقال: إذا أصبحت ادخل إليّ فخذ. فلما أصبح الرسول غدا إلى السجن فلم يرّ عديّاً، وقال له الحرّس: إنّ مات منذ أيام. فرجع إلى النعمان وأخبره أنّه رآه بالأسس ولم يره اليوم، فقال: كذبت! وزاده رشوة واستوثق منه أن لا يخبر كسرى، إلّا أنّه مات قبل وصوله إلى النعمان. قال: وندم النعمان على قتله، واجترأ أعداء عديّ على النعمان وهابهم هيبة شديدة. فخرج النعمان في بعض صيده، فرأى ابناً لعديّ يقال له زيد فكلّمه وفرح به فرحاً شديداً واعتذر إليه من أمر أبيه وسبّيره إلى كسرى ووصفه له وطلب إليه أن يجعله مكان أبيه، ففعل كسرى، وكان يلي ما يكتب إلى العرب خاصّة، وسأله كسرى عن النعمان فأحسن الثناء عليه وأقام عند الملك سنوات بمنزلة أبيه، وكان يكثر الدخول على كسرى.

وكان لملوك الأعاجم صفة للنساء مكتوبة عندهم، وكانوا يبعثون في طلب من يكون على هذه الصفة من النساء ولا يقصدون العرب، فقال له زيد بن عديّ: إني أعرف عند عبدك النعمان من بناته وبنات عمّه أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة. قال: فتكتب فيهنّ. قال: أيها الملك إنّ شرّ شيء في العرب وفي النعمان أنّهم يتكرومون بأنفسهم عن العجم، فانا أكره أن تعتّهنّ، وإنّ قدمت أنا عليه لم يقدر على ذلك، فابعثني وابعث معي رجلاً يفقه العربيّة، فبعث معه رجلاً جليداً، فخرجا حتى بلغا الحيرة ودخلا على النعمان. قال له زيد: إنّ الملك احتاج إلى نساء لأهله ولولده وأراد كرامتك فبعث إليك قال: وما هؤلاء النسوة؟ قال: هذه صفتهنّ قد جئت بها.

وكانت الصفة أنّ المنذر اهْدَى [إلى] أنوشروان جارية أصابها عند الغارة على الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاسيّ، وكتب يصفها أنّها معتدلة الخلق، نقيّة اللّون والثغر، بيضاء، وطفاء، قمراء، دعباء، حوراء، عيناء، (٤٨٦/١) قنواء، شماء، شمراء، زجباء، أسيلة الخد، شهية القد، جثيلة الشعر، بعيدة مهوى القسط، عيطاء، عريضة الصدر، كاعب الثدي، ضخمة مُشاشة المنكب والعضد، حسنة المعصم، لطيفة الكفّ، سبطة البنان، لطيفة طي البطن، خميصه الخصر، غرثى الوشاح، رذاح القبل، رابية الكفل، لقاء الفخذين، ربّما

حتى وقع الطاعون فمات فيه، قال: والناس يظنون أنه مات بسباباط بيت الأعشى وهو يقول:

فذاك وما أنجى من الموت ربُّه بسباباط حتى مات وهو مُحَرَّرٌ
وكان موته قبل الإسلام.

فلما مات استعمل كسرى إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة وما كان عليه النعمان، وكان كسرى اجتاز به لما سار إلى ملك الروم فأهدى له هدية، فشكر ذلك له وأرسل إليه، فبعث كسرى بأن يجمع ما خلفه النعمان ويرسله إليه، فبعث إياس إلى هانيء بن مسعود الشيباني يأمره بإرسال ما استودعه النعمان، فأبى هانيء أن يسلم ما عنده. فلما أبى هانيء غضب كسرى، وعنده النعمان بن زُرعة التغلبي، وهو يحب هلاك بكر بن وائل، فقال لكسرى: أمهلهم حتى يقيظوا ويتساقطوا على ذي قار تساقط الفرائس في النار فتأخذهم كيف شئت. فصر كسرى حتى جاؤوا جنو ذي قار، فأرسل إليهم كسرى النعمان بن زُرعة يخبرهم واحدة من ثلاث: إما أن يعطوا بأيديهم، وإما أن يتركوا ديارهم، وإما أن يحاربوا. فولوا أمرهم حنظلة بن ثعلبة العجلي، فأشار بالحرب، فأذنوا الملك بالحرب، فأرسل كسرى إياس بن قبيصة الطائي (٤٨٩/١) أمير الجيش ومعه مرازية الفرس والهامرز النسوي وغيره من العرب تغلب وإياد وقيس بن مسعود بن قيس بن ذي الجدين، وكان على طف سَفْوان، فأرسل الفيول، وكان قد بعث النبي، ﷺ، فقسم هانيء بن مسعود دروع النعمان وسلاحه.

فلما دنت الفرس من بني شيبان قال هانيء بن مسعود: يا معشر بكر، إنه لا طاقة لكم في قتال كسرى فأرسلنا إلى الفلاة. فسارع الناس إلى ذلك، فوثب حنظلة بن ثعلبة العجلي وقال: يا هانيء أردت نجاتنا فالحقينا في الهلكة، ورد الناس وقطع وضن الهوداج، وهي الحزم للرحال، فسَمِيَ مقطع الوضن، وضرب على نفسه قبة، وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة، فرجع الناس واستقوا ماء لتصف شهر، فأتتهم المعجم فقاتلتهم بالحنو، فانهزمت المعجم خوفاً من العطش إلى الجبابات، فتبعهم بكر وعجل وأبلت يومئذ بلاء حسناً، واضططت عليهم جنود المعجم، فقال الناس: هلكت عجل، ثم حملت بكر فوجدت عجلاً تقاتل وامرأة منهم تقول:

إِنْ يَظْفَرُوا يُحَرِّرُوا فِينَا الْغُرْلُ إِيهًا فِدَاءً لَكُمْ بَنِي عَجَلٍ
فقاتلهم ذلك اليوم، ومالت المعجم إلى بطحاء ذي قار خوفاً من العطش، فأرسلت إياد إلى بكر، وكانوا مع الفرس، وقالوا لهم: إن شتم هربنا الليلة وإن شتم أقمنا ونفر حين تلاقون الناس. فقالوا: بل تقيمون وتنهزمون إذا التقينا. وقال زيد بن حسان السكوني، وكان حليفاً لبني شيبان: أطيعوني (٤٩٠/١) واكمنا لهم، ففعلوا ثم قاتلوا وحرّض بعضهم بعضاً، وقالت ابنة القرن الشيبانية:

ويها بني شيبان صفاً بعد صفٍ
إِنْ تَهَزَّسُوا يَتَبَخَّسُوا فِينَا الْقُلْفُفُ

ذكر ملوك الحيرة بعد عمرو بن هند

قد ذكرنا من ملك من آل نصر بن ربيعة إلى هلاك عمرو بن هند. فلما هلك عمرو ملك موضعه أخوه قابوس بن المنذر أربع سنين، من ذلك أيام أنوشروان ثمانية أشهر، وفي أيام هرمز ثلاث سنين وأربعة أشهر، ثم ولي بعد قابوس السهرب، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان أربع سنين، ثم ولي بعده النعمان بن المنذر أبو قابوس اثنتين وعشرين سنة، من ذلك في زمان هرمز سبع سنين وثمانية أشهر، وفي زمان ابنه أبرويز أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، ثم ولي إياس بن قبيصة الطائي ومعه النخیرخان في زمان كسرى بن هرمز أربع عشرة سنة، ولثمانية أشهر من ولاية إياس بُعث النبي، ﷺ، ثم ولي أزاذه بن مابيان الهمداني سبع عشرة سنة، من ذلك في زمان كسرى بن هرمز أربع عشرة سنة وثمانية أشهر، وفي زمان شيرويه بن كسرى ثمانية أشهر، وفي زمن أردشير بن شيرويه سنة وسبعة أشهر، وفي زمن بوران دخت ابنة كسرى شهراً.

ثم ولي المنذر بن النعمان بن المنذر، وهو الذي يسميه العرب المغرور الذي قُتل بالبحرين يوم جُواناء. وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد الحيرة ثمانية أشهر، وكان آخر من بقي من آل نصر وانقرض ملكهم مع انقراض ملك فارس؛ فجميع ملوك آل نصر فيما زعم هشام عشرون ملكاً، ملكوا خمسمائة سنة واثنين وعشرين سنة وثمانية أشهر. (٤٩٢/١)

ذكر المروزان وولايته اليمن من قبل هرمز

قال هشام: استعمل كسرى هرمز المروزان بعد عزل زرين عن اليمن، وأقام باليمن حتى ولد له فيها، ثم إن أهل جبل يقال له المضايح منعه الخروج، فقصدهم فرأى جبلهم لا يقدر عليه لحصانته وله طريق واحد يحميه رجل واحد، وكان يحاذي ذلك الجبل جبل آخر، وقد قارب هذا الجبل، فأجرى فرسه فعب به ذلك المضيق، فلما رآه جَمِير قالوا: هذا شيطان! وملك حصنهم وأدوا الخراج، وأرسل إلى كسرى يعلمه، فاستدعاه إليه فاستخلف ابنه خَرُخْسرَه على اليمن وسار إليه فمات في الطريق، وعزل كسرى خَرُخْسرَه عن اليمن وولّى باذان، وهو آخر من قدم اليمن من ولادة

العجم.

ذكر ملك كسرى شيرويه بن أبرويز ابن هرمز بن

أنوشيروان

لما ملك شيرويه بن أبرويز وأمّه مريم ابنة موزريق ملك الروم واسمه قباد، دخل عليه العظماء والأشراف فقالوا: لا يستقيم أن يكون لنا ملكان، فلما أن تقتل كسرى ونحن عبيدك، وإمّا أن نخلعك ونطيعه.

فانكسر شيرويه ونقل أباه من دار الملك إلى موضع آخر حبسه فيه، ثم جمع العظماء وقال: قد رأينا الإرسال إلى كسرى بما كان من إساءته وتوقفه على أشياء منها. فأرسل إليه رجلاً يقال له أستاذ خشنش كان يلي تدبير المملكة، وقال له: قل لأبينا الملك عن رسالتنا: إن سوء أعمالك فعل بك ما ترى، منها جرأتك على أبيك وسمك عينيه وقتلك إياه، ومنها سوء صنيعك إلينا معشر أبنائك في منعنا من مجالسة الناس وكل ما لنا فيه دعة، ومنها إساءتك إلى من خلّدت في السجون، ومنها إساءتك إلى النساء تأخذهن لنفسك وتركك العطف عليهن ومنعهن من عيادتهن ويُرزقن منه الولد، ومنها ما أتيت إلى رعيتك عامة من العنف والغلبة والفظاظة، ومنها جمع الأموال في شدة وعنف من أربابها، ومنها تجميرك الجنود في غفور الروم وغيرها وتفريقك بينهم وبين أهليهم، ومنها غدرك بموزريق ملك الروم مع إحسانه إليك وحسن بلائه عندك وتزويجه إياك بابتسه، ومنعك إياه خشيبة الصليب التي لم يكن بك ولا بأهل بلادك إليها حاجة، فإن كان لك حجة تذكرها فافعل، وإن لم يكن (٤٩٥/١) لك حجة قُبّ إلى الله تعالى حتى يأمر فيك بأمره.

قال: فجاء الرسول إلى كسرى أبرويز فأدّى إليه الرسالة، فقال أبرويز: قلّ عني لشيرويه القصير العمر لا ينبغي لأحد أن يتوب من أجل الصغير من الذنب إلا بعد أن يتيقنه فضلاً عن عظيمه ما ذكرت وكثرت منّا، ولو كنّا كما تقول لم يكن لك أيها الجاهل أن تنشر عنا مثل هذا العظيم الذي يوجب علينا القتل لما يلزمك في ذلك من العيوب، فإن قضاة أهل ملكك يتفون ولد المستوجب للقتل من أبيه ويفنون من مضامة أهل الأخبار ومجالستهم فضلاً عن أن يملك مع أنّه قد بلغ منّا بحمد الله من إصلاحنا أنفسنا وأبنائنا ورعيتنا ما ليس في شيء منه تقصير، ونحن نشرح الحال فيما ألزما من الذنوب لتزداد علماً بجهلك. فمن جوابنا: أنّ الأشرار أغروا كسرى هرمز والدنا بنا حتى اتهمنا فرأينا من سوء رأيه فيما ما يخوفنا منه فاعتزلنا بابه إلى أذربيجان، وقد استفاض ذلك، فلما انتَهك منه ما انتَهك شخصنا إلى بابه فهجم المناقق بهرام علينا فأجلانا عن المملكة، فسرنا إلى الروم وغُتْنَا إلى ملكنا واستحكم أمرنا فبدنا بأخذ الشار ممّن قتل أبانا أو شرك في دمه.

وأما ما ذكرت من أمر أبنائنا فإنّا وكلنا بكم من يكفكم عن الانتشار فيما لا يعينكم فتأدّي بكم الرعية والبلاد، وكنا أقمنا لكم

ذكر قتل كسرى أبرويز

كان كسرى قد طغى لكثرة ماله وما فتحه من بلاد العدو ومساعدة الأقدار وشرّه على أموال الناس، ففسدت قلوبهم، وقيل: كانت له اثنا عشر ألف امرأة، وقيل ثلاثة آلاف امرأة، بطوهرن، والوف جوار، وكان له خمسون ألف دابة، وكان أرغب الناس في الجوهر والأواني وغير ذلك، وقيل: إنّه أمر أن يحصى ما جُبي من خراج بلاده في سنة ثمانين عشرة من ملكه، فكان من الورق مائة ألف ألف مثقال وعشرون ألف ألف مثقال، وإنّه احتقر (٤٩٣/١) الناس وأمر رجلاً اسمه زاذان بقتل كلّ مفيد في سجنونه، فبلغوا سنة وثلاثين ألفاً، فلم يقدم زاذان على قتلهم، فصاروا أعداء له، وكان أمر بقتل المنهزمين من الروم فصاروا أيضاً أعداء له، واستعمل رجلاً على استخلاص بواقي الخراج، فعسف الناس وظلمهم، ففسدت نيّاتهم، ومضى ناس من العظماء إلى بابل، فأحضروا ولده شيرويه بن أبرويز، فإن كسرى كان قد ترك أولاده بها ومنعهم من التصرف وجعل عندهم من يؤدّ بهم، فوصل إلى بهرسيّر فدخلها ليلاً فأخرج من كان في سجنونها، واجتمع إليه أيضاً الذين كان كسرى أمر بقتلهم، فنادوا قباد شاهنشاه وساروا حين أصبحوا إلى رحبة كسرى، فهرب حرسه، وخرج كسرى إلى بستان قريب من قصره هارباً فأخذ أسيراً، وملكوا ابنه، فأرسل إلى أبيه يقرّعه بما كان منه، ثم قتلته الفرس وساعدهم ابنه، وكان ملكه ثمانياً وثلاثين سنة.

ولمضي اثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة.

قيل: وكان لكسرى أبرويز ثمانية عشر ولداً، وكان أكبرهم شهريار، وكانت شيرين قد تبنته، فقال المنجمون لكسرى: إنّه سيولد لبعض ولدك غلام يكون خراب هذا المجلس وذهاب الملك على يديه، وعلامته نقص في بعض بدنه، فمنع ولده عن النساء لذلك حتى شكا شهريار إلى شيرين الشبق، فأرسلت إليه جارية كانت تحجمها، وكانت تظنّ أنها لا تلد، فلمّا وطئها علفت بيزدجرد فكمته خمس سنين، ثم إنّها رأت من كسرى رقّة للصبيان حين كبر فقالت أيسرك أن ترى لبض بنيك ولداً؟ قال: نعم، فأنته بيزدجرد، فأحبّه وقرّبه، فينما هو يلعب ذات يوم ذكر ما قيل، فأمر به، فجُرد من ثيابه، فرأى النقص في أحد وركبتيه فأراد قتله، فمئنته شيرين وقالت: إن كان الأمر في الملك قد حضر فلا مردّ له، فأمرت به فحُمِل إلى (٤٩٤/١) سجستان، وقيل: بل تركته في السواد في قرية يقال لها خمانيّة. ولما قُتل كسرى أبرويز بن هرمز ملك ابنه شيرويه.

النفاق الواسعة وجميع ما تحتاجون إليه، وأما أنت خاصة فإنَّ المنجمين قضا في مولدك أنَّك مثرب علينا، وأن يكون ذلك بسبك، وإنَّ ملك الهند كتب إليك (٤٩٦/١) كتاباً وأهدى لك هدية، فقرأنا الكتاب فإذا هو يشرك بالملك بعد ثمان وثلاثين سنة من ملكنا، وقد ختمنا على الكتاب وعلى مولدك وهما عند شيرين، فإن أحببت أن تقرأهما فافعل، فلم يمننا ذلك عن برك والإحسان إليك فضلاً عن قتلك.

ذكر ملك أردشير

وكان عمره سبع سنين.

فلما توفيَّ شيرويه ملك الفرس عليهم ابنه أردشير وحضنه رجل يقال له بهادر جنسن، مرتبه رئاسة أصحاب المائدة، فأحسن سياسة الملك، فبلغ من إحكامه ذلك ما لم يحسن معه بحدائه سنَّ أردشير. وكان شهربراز بنجر الروم في جند ضمهم إليه كسرى أبرويز، وكان قد صلح له بعده ما فعل بالروم مما ذكرناه، وكان ينفذ له الخلع والهدايا، وكان أبرويز وشيرويه يكتابانه ويستشيرانه، فلما لم يشاوره عظماء الفرس في تملك أردشير اتخذ ذلك ذريعة إلى التعتن وبسط يده في القتل وجعله سبباً للطمع في الملك احتقاراً لأردشير لصغر سنه، فأقبل يجنده نحو المدائن، فتحول أردشير وبهادر جنسن ومن بقي من نسل الملك إلى مدينة طيسفون، فحاصروهم شهربراز ونصب عليهم المجانيق فلم يظفر بشيء، فأتاها من قبل المكيدة، فلم يزل يخذل رئيس الحرس وأصيهذ نيمروز حتى فتحا له باب المدينة فدخلها وقتل جماعة من الرؤساء وأخذ أموالهم وقتل بعض أصحابه أردشير في إيوان خسرو شاه قباضاً بامر شهربراز.

وكان ملكه سنة وستة أشهر. (٤٩٩/١)

ذكر ملك شهربراز

ولم يكن من بيت الملك.

لم قُتل أردشير جلس شهربراز، واسمه فرخان، على تخت المملكة، فحين جلس عليه ضرب عليه بطنه فاشتد ذلك. ثم عوفي.

وتعاهد ثلاثة إخوة من أهل إصطخر على قتله غضباً لقتل أردشير، وكانوا في حرسه، وكان الحرس يقفون سماطين إذا ركب الملك عليهم السلاح ويأديهم السيوف والرماح، فإذا حاذى الملك بعضهم وضع جبهته على ترسه فوق الترس كهيئة السجود. فركب شهربراز يوماً فوق الإخوة الثلاثة بعضهم قريب من بعض، فلما حاذاهم طعنوه فسقط ميتاً، فشدوا في رجله حبلاً وجروه، وساعدهم بعض العظماء وتساعدوا على قتل جماعة قتلوا أردشير، وكان جميع ملكة أربعين يوماً.

وأما ما ذكرت عنَّ خلدناه في السجون، فجوابنا: إننا لم نجس إلا من وجب عليه القتل أو قطع بعض الأطراف، وقد كان الموكلون بهم والوزراء يأمرونا بقتل من وجب قتله قبل أن يحتالوا لأنفسهم، فكنا بحينا الاستيقا وكراهتنا لسفك الدماء نتأى بهم ونكل أمرهم إلى الله تعالى، فإن أخرجتهم من محبسهم عصيت ربك، ولتجدنَّ غب ذلك.

وأما قولك: إننا جمعنا الأموال، وأنواع الجواهر والأمتعة بأعنف جمع وأشد الحاح، فاعلم أيها الجاهل أنه إنما يقيم الملك بعد الله تعالى الأموال والجنود، وخاصة ملك فارس الذي قد اكتنفه الأعداء ولا يُقدر على كفهم وردعهم عما يريدونه إلا بالجنود والأسلحة والعدد، ولا سبل إلى ذلك إلا بالمال، وقد كان أسلافنا جمعوا الأموال والسلاح وغير ذلك فأغار المنافق بهرام ومن معه على ذلك إلا السير، فلما ارتجعنا ملكنا وأذن لنا الرعية بالطاعة أرسلنا إلى نواحي بلادنا أصبهذين وقامروساين فكفروا الأعداء وأغاروا على بلادهم، ووصل إلينا غنائم بلادهم من أصناف الأموال والأمتعة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد بلغنا أنك هممت بتفريق هذه الأموال على رأي الأشرار المستوجبين للقتل، ونحن نعلمك أنَّ هذه الأموال لم تجتمع إلا بعد الكد والتعب والمخاطرة بالنفوس، فلا تفعل ذلك فإنها كهف ملكك وبلادك وقوة على عدوك. (٤٩٧/١)

فلما انصرف أستاذ خشنش إلى شيرويه قصَّ عليه جواب أبيه، ثم إنَّ عظماء الفرس عادوا إلى شيرويه فقالوا: إما أن تأمر بقتل أبيك وإما أن نطيعه ونخلعك، فأمر بقتله على كره منه وانتدب لقتله رجالاً ممن وترهم كسرى أبرويز، وكان الذي باشر قتله شاب يقال له مهرمرز بن مردانشاه من ناحية نيجرود.

فلما قُتل شقَّ شيرويه ثيابه ويكى ولطم وحملت جنازته وتبعها العظماء وأشراف الناس، فلما دفن أمر شيرويه بقتل مهرمرز قاتل أبيه. وكان ملكه ثمانية وثلاثين سنة.

ثم إنَّ شيرويه قتل إخوته، فهلك منهم سبعة عشر أخاً ذوو شجاعة وأدب، بمشورة وزيره فيروز.

وابتلي شيرويه بالأمراض، ولم يلتد بشيء من الدنيا، وكان هلاكه بدسكرة الملك، وجزع بعد قتل إخوته جزعا شديداً، ويقال: إنه لما

ذكر ملك بوران ابنة أبرويز بن هرمز بن أنوشروان

لما قُتل شهريار ملك الفرس بوران لأنهم لم يجدوا من بيت المملكة رجلاً يملكونه. فلما ملكت أحسنت السيرة في رعيتها وعدلت فيهم فأصلحت القناطر ووضعت ما بقي من الخراج وردت خشبة الصليب على ملك الروم، وكان مملكتها سنة وأربعة أشهر، ثم ملك بعدها رجل يقال له خشنشبنده من بني عم أبرويز الأبعدين، وكان ملكه أقل من شهر، وقتله الجند لأنهم أنكروا سيرته. (٥٠٠/١)

ذكر ملك آرميدخت ابنة أبرويز

لما قُتل خشنشبنده ملك الفرس آرميدخت ابنة أبرويز، وكانت من أجمل النساء، وكان عظيم الفرس يومئذ فرخهرمز أصبهذ خراسان، فأرسل إليها يخطبها، فقالت: إن التزوج للملكة غير جائز وغرضك قضاء حاجتك مني فصر إلي وقت كذا. ففعل وسار إليها تلك الليلة، فتقدمت إلى صاحب حرسها أن يقتله، فقتله وطرح في رجة دار المملكة، فلما أصبحوا راوه قتيلاً فغيبوه. وكان ابنه رستم، وهو الذي قاتل المسلمين بالقادسية، خليفة أبيه بخراسان، فسار في عسكر حتى نزل بالمدائن وسمل عيني آرميدخت وقتلها، وقيل: بل سُمّت. وكان ملكها سنة أشهر. قيل: ثم أتى رجل يقال له كسرى بن مهرجنس من عقب أردشير بن بابك كان يتزل الأهواز، فملكه العظماء ولبس التاج وقتل بعد أيام، وقيل: إن الذي ملكه بعد آرميدخت خرداد خسرو من ولد أبرويز وأمه كردية أخت بسطام، قيل: وجد بحصن الحجارة بقرق نصيبين، فمكث أياماً يسير ثم خلعه وقتلوه.

وكان ملكه سنة أشهر.

وقال الذين قالوا ملك كسرى بن مهرجنس: إنه لما قُتل طلب عظماء الفرس من له نسب بيت المملكة ولو من النساء، فأتوا برجل كان يسكن ميسان يقال له فيروز بن مهران جنس، ويسمى أيضاً جسننده، أمه صهار بخت ابنة يزدان بن أنوشروان فملكوه، وكان ضخم الرأس. فلما توج قال: ما أضيح هذا التاج! فطيروا من كلامه فقتلوه في الحال، وقيل: كان قتله بعد أيام. (٥٠١/١)

ذكر ملك يزدرجد بن شهريار بن أبرويز

ثم إن الفرس اضطرب أمرهم ودخل المسلمون بلادهم فطلبوا أحداً من بيت المملكة ليملكوه ويقاتلوا بين يديه ويحفظوا بلادهم، فظفروا يزدرجد ابن شهريار بن أبرويز بإصطخر، فأخذوه وساروا به إلى المدائن فملكوه واستقر في الملك، غير أن ملكه كان كالخيال عند ملك أهل بيته. وكان الوزراء والعظماء يديرون ملكه لحداته سنة وضعف أمر مملكة فارس، واجترأ عليهم الأعداء وتطرقوا بلادهم،

وغزت العرب بلاده بعد أن مضى من ملكه ستان. وكان عمره كلّه إلى أن قُتل ثمانياً وعشرين سنة، وبقي من أخباره ما نذكره إن شاء الله في موضعه من فتوح المسلمين.

هذا آخر ملوك الفرس وتذكر بعده التواريخ الإسلامية على سبقة سني الهجرة، وتقدم قبل ذلك الأيام المشهورة للعرب في الجاهلية، ثم تأتي بعدها بالحوادث الإسلامية إن شاء الله تعالى. (٥٠٢/١)

ذكر أيام العرب في الجاهلية

لم يذكر أبو جعفر من أيامها غير يوم ذي قار وجذيمة الأبرش والزباء وطسم وجديس، وما ذكر ذلك إلا حيث أنهم ملوك، فأغفل ما سوى ذلك. ونحن نذكر الأيام المشهورة والوقائع المذكورة التي اشتملت على جمع كثير وقاتل شديد، ولم أعرج على ذكر غارات تشمل على النفر اليسير لأنه يكثر ويخرج عن الحصر، فنقول: وبالله التوفيق:

ذكر حرب زهير بن جناب الكلبي مع غطفان وبكر

وتغلب وبني القين

كان زهير بن جناب بن هُبَل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف ابن عذرة الكلبي أحد من اجتمعت عليه قضاة، وكان يُدعى الكاهن لصحة رأيه، وعاش مائتين وخمسين سنة، أوقع فيها مائتي وقعة؛ وقيل: (٥٠٣/١) عاش أربعمئة وخمسين سنة، وكان شجاعاً مظفراً يمينون النقية.

وكان سبب غزاته غطفان أن بني بغيض بن ريث بن غطفان حين خرجوا من تهامة ساروا بأجمعهم، فتعرضت لهم صداء، وهي قبيلة من مذحج، فقاتلوه، وبنو بغيض ساثرون بأهلهم وأموالهم، فقاتلوه من حريمهم فظفروا على صداء وقتلوا فيها، فعزت بغيض بذلك واثرت وكثرت أموالها. فلما راوا ذلك قالوا: والله لتتخذن حرماً مثل مكة لا يقتل صيده ولا يُهاج عائدته، فبنوا حرماً ووليه بنو مرة بن عوف، فلما بلغ فعلهم وما أجمعوا عليه زهير بن جناب قال: والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حي، ولا أخلي غطفان تتخذن حرماً أبداً. فتأدى في قومه فاجتمعوا إليه، فقام فيهم فذكر حال غطفان وما بلغه عنهم وقال: إن أعظم مائره يذخرها هو وقومه أن يمنعوه من ذلك، فأجابوه، فغزا بهم غطفان وقاتلهم أبرح قتالاً أشده، وظفر بهم زهير وأصاب حاجته منهم وأخذ فارساً منهم في حريمهم فقتله وعطل ذلك الحرم. ثم من على غطفان ورد النساء وأخذ الأموال؛ وقال زهير في ذلك:

فلم تصبر لنا غطفان لما تلاقينا وأخزرت النساء
فلولا الفضل منا ما رجعت إلى عذرة شيمتها الحياء

فَلَوْ كُنْتُمْ تُبْشِرُونَ فَاظْلِمُوا هَاجِرًا حَيْثُ لَا يَنْفَعُ عَنْكُمْ إِفْعَالُكُمْ فَقَدْ أَضْحَىٰ لِحَيِّ بْنِ خَنْبَابٍ وَأَوْتَرَارًا وَدُونَكُمْ الْقَاءَ لِيُوثَ حِينَ يَحْضُرُ الْمَوَاءَ فَضَاءَ الْأَرْضَ وَالْمَاءَ الرِّوَاءَ (٥٠٤/١)

فَقَبِيحًا نَخْوَ الْأَعْدَاءَ عَنَّا وَلَوْلَا صَبْرُنَا يَوْمَ الْقَيْنَا لَقِينَا مِثْلَ مَا لَقِيتَ صُدَاءَ غَدَاةٍ نَضْرَعُوا لِبَنِي بَغِيضٍ

وَأَمَّا حَرْبُهُ مَعَ بَكْرِ وَتَغْلِبِ ابْنَيْ وَائِلٍ فَكَانَ سَبَبُهَا أَنَّ أَبْرَهَةَ حِينَ طَلَعَ إِلَى نَجْدِ أَثَاهُ زَهِيرٍ، فَافْكُرْهُ وَفَضَّلَهُ عَلَى مَنْ أَتَاهُ مِنَ الْعَرَبِ، ثُمَّ أَمَرَهُ عَلَى بَكْرِ وَتَغْلِبِ ابْنَيْ وَائِلٍ، فَوَلِيَهُمْ حَتَّى أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ مَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ مِنَ الْخُرَاجِ، فَأَقَامَ بِهِمْ زَهِيرٌ فِي الْحَرْبِ وَمَنْعَهُمْ مِنَ النَّجْعَةِ حَتَّى يُوْذُوا مَا عَلَيْهِمْ، فَكَادَتْ مُوَاشِيَهُمْ تَهْلِكُ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ ابْنُ زَيْبَةَ أَخَذَ بَنِي تَيْمِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، وَكَانَ فَاتِكًا، أَتَى زَهِيرًا وَهُوَ نَائِمٌ، فَاعْتَمَدَ التَّيْمِيَّ بِالسَّيْفِ عَلَى بَطْنِ زَهِيرٍ فَمَرَّ فِيهَا حَتَّى خَرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ مَارِقًا بَيْنَ الصَّفَاقِ، وَسَلِمَتْ أَمْعَاؤُهُ وَمَا فِي بَطْنِهِ، وَظَنَّ التَّيْمِيُّ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ، وَعَلِمَ زَهِيرٌ أَنَّهُ قَدْ سَلِمَ فَلَمْ يَتَحَرَّكَ لَثَلَا يُجْهِزَ عَلَيْهِ، فَاسْكَتْ. فَانْصَرَفَ التَّيْمِيُّ إِلَى قَوْمِهِ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ قَتَلَ زَهِيرًا، فَسَرَّهْمُ ذَلِكَ.

وَلَمْ يَكُنْ مَعَ زَهِيرٍ إِلَّا نَفَرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ وَأَنْ يَسْتَأْذِنُوا بِكَرٍّ وَتَغْلِبٍ فِي دَفْنِهِ فَإِذَا أَذْنُوا دَفَنُوا ثِيَابًا مَلْفُوفَةً وَسَارُوا بِهِ مَجْدِينَ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ. فَادْنَتْ لَهُمْ بَكْرٌ وَتَغْلِبٌ فِي دَفْنِهِ، فَحَفَرُوا وَعَمَّقُوا وَدَفَنُوا ثِيَابًا مَلْفُوفَةً لَمْ يَشْكُ مَنْ رَأَاهَا أَنَّ فِيهَا مَيِّتًا، ثُمَّ سَارُوا مَجْدِينَ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَجَمَعَ لَهُمْ زَهِيرُ الْجَمُوعِ، وَبَلَغَهُمُ الْخَبَرُ، فَقَالَ ابْنُ زَيْبَةَ:

طَعْنَةً مَا طَعْنَتْ فِي غَلَسِ اللَّيْلِ لَزَهِيرًا وَقَدْ تَوَافَى الْخَصْمُومُ حِينَ يَحْمِي لَهُ الْمَوَاسِمَ بِكَرٍّ ابْنُ بَكْرٍ وَابْنُ مِثْلِ الْخُلُومِ (٥٠٥/١)

خَاتِنِي السَّيْفُ إِذْ طَعْنَتْ زَهِيرًا وَفَزَّ سَيْفٌ مَضْلَلٌ مَشْؤُومٌ وَجَمَعَ زَهِيرٌ مِنْ قَدَرٍ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَغَزَا بِكَرٍّ وَتَغْلِبٍ، وَكَانُوا عُلَمَاءُ بِهِ، فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا أَنْهَزَمَتْ [بِهِ] بَكْرٌ، وَقَاتَلَتْ تَغْلِبَ بَعْدَهَا فَانْهَزَمَتْ أَيْضًا، وَأَسْرَ كُلَّيْهِمَا وَهَلَّلَ ابْنَا رِبْعَةَ وَأَخَذَتْ الْأَمْوَالَ وَكَثُرَتِ الْقَتْلَى فِي بَنِي تَغْلِبٍ وَأَسْرَ جَمَاعَةً مِنْ فَرَسَانِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، فَقَالَ زَهِيرٌ فِي ذَلِكَ مِنْ قَصِيدَةٍ:

ابْنُ ابْنِ الْفَرَارِ مِنْ حَزْرٍ الْمَوِ إِذَا يَتَقَوْنَ بِالْأَسْلَابِ إِذَا اسْتَرْنَا مُهْلَهْلًا وَأَخَاهُ وَابْنُ عَمْرٍو فِي الْقَيْدِ وَابْنُ شَهَابٍ وَسَيِّئًا مَنْ تَغْلِبَ كُلُّ يَضَا «رَقُودُ الضَّحَى بِرُودِ الرُّضَابِ» حِينَ تَدْعُو مُهْلَهْلًا بِأَلْ بَكْرِ هَا أَهْذِي حَيْظَةَ الْأَحْسَابِ وَيَحْكُمُ وَيَحْكُمُ أَيُّحَ جِمَاكُمُ يَا بَنِي تَغْلِبِ أَنْتَا ابْنُ رُضَابِ وَهُمْ هَارِبُونَ فِي كُلِّ فَجٍّ كَشْرِيدِ النَّعَامِ فَوْقَ الرُّوَابِي

فَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّ زِيَادَ بْنَ الْهَثُولَةَ مَلِكَ الشَّامِ، وَكَانَ مِنْ سَلِيحِ بْنِ خُلُوثَانَ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ الْحَافِ بْنِ قُضَاعَةَ. فَأَغَارَ عَلَى حُجْرٍ بَنِ عَمْرٍو بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ الْحَارِثِ الْكِنْدِيِّ مَلِكِ عَرَبِ بَنِي جَنْدٍ وَنَوَاحِي الْعِرَاقِ وَهُوَ يَلْقُبُ أَكْلَ الْمُرَارِ، وَكَانَ حُجْرٌ قَدْ أَغَارَ فِي كِنْدَةَ وَرَبِيعَةَ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، فَبَلَغَ زِيَادٌ خَبْرَهُمْ فَسَارَ إِلَى أَهْلِ حُجْرٍ وَرَبِيعَةَ وَأَمَوَاهُمُ وَهُمْ خُلُوفٌ وَرَجَالُهُمْ فِي غَزَاتِهِمُ الْمَذْكُورَةَ، فَاتَّخَذَ الْحَرِيمَ وَالْأَمْوَالَ وَسَيَّ فِيهِمْ هِنْدًا بِنْتُ ظَالِمِ بْنِ وَهَبِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَعَاوِيَةَ. (٥٠٧/١)

وَسَمِعَ حُجْرٌ وَكِنْدَةَ وَرَبِيعَةَ بَغَارَةَ زِيَادٍ فَعَادُوا عَنْ غَزْوِهِمْ فِي طَلَبِ ابْنِ الْهَثُولَةَ، وَمَعَ حُجْرٌ أَشْرَافَ رَبِيعَةَ عَوْفِ بْنِ مُحَلَمٍ بَنِ ذَهْلٍ بَنِ شِيَّانٍ. وَعَمْرٍو بْنُ أَبِي رِبْعَةَ بَنِ ذَهْلٍ بَنِ شِيَّانٍ وَغَيْرُهُمَا، فَادْرَكَوا عَمْرًا بِالْبَرْدَانِ دُونَ عَيْنِ أَبَاغٍ وَقَدْ آمَنَ الطَّلَبُ، فَتَنَزَّلَ حُجْرٌ فِي سَفْحِ جَبَلٍ، وَنَزَلَتْ بَكْرٌ وَتَغْلِبٌ وَكِنْدَةُ مَعَ حُجْرٍ دُونَ الْجَبَلِ بِالصُّخْرِيَّاتِ عَلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ حَفِيرٌ. فَتَعَجَّلَ عَوْفُ بْنُ مُحَلَمٍ وَعَمْرٍو بْنُ أَبِي رِبْعَةَ بَنِ ذَهْلٍ بَنِ شِيَّانٍ وَقَالَا لِحُجْرٍ: إِنَّا مَتَعَجِّلَانِ إِلَى زِيَادٍ لَعَلَّنَا نَأْخُذَ مِنْهُ بَعْضُ مَا أَصَابَ مِنْهُ. فَسَارَا إِلَيْهِ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَوْفٍ إِخَاءٌ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: يَا خَيْرَ الْفَتَيَانِ ارْجِعْ عَلَيَّ أَمْرًا نِيَّامَةً. فَرَدَّهَا عَلَيْهِ وَهِيَ حَامِلٌ، فَوَلَدَتْ لَهُ بَتْنًا أَرَادَ عَوْفُ أَنْ يَتْلَاهَا فَاسْتَوْهَبَهَا مِنْهُ عَمْرٍو بْنُ أَبِي رِبْعَةَ وَقَالَ: لَعَلَّهَا تَلَدُ أَنْسَاءَ، فَسُمِّيَتْ أُمُّ أَنْسَاءَ، فَتَزَوَّجَهَا الْحَارِثُ بْنُ

عمرو بن حُجر أكل المَرَار، فولدت عَمراً، ويُعرف بابن أُم أناس. من حديثه وجد حُجر المَرار فُسِمَ يومئذ أكل المَرار، والمَرار نبت شديد المَرارة لا تاكله دابةٌ إلا قتلها.

ثم إن عمرو بن أبي ربيعة قال لزياد: يا خير الفتيان اردد علي ما اخذت من إبلي. فردها عليه وفيها فحلها، فنازعه الفحل إلى الإبل، فصرعه عمرو. فقال له زياد: يا عمرو لو صرعت يا بني شيان الرجال كما تصرعون الإبل لكتمت أتم أتم! فقال له عمرو: لقد أعطيت قليلاً، وسَمِيتُ جليلاً، وجررت على نفسك وِلاً طويلاً! ولتجدن منه، ولا والله لا تبرح حتى أروي سناني من دمك! ثم ركض فرسه حتى صار إلى حُجر، فلم يوضح له الخبر، فأرسل سدوس بن شَيَّان بن ذُهَل وصُلَيْع بن عبد غُثَم يتجسَّسان له الخبر ويعلمان علم العسكر، فخرجا حتى هجما على عسكره (٥٠٨/١) ليلاً وقد قسم الغنيمة وجيء بالشمع فأطعم الناس تمرًا وسمنًا، فلما أكل الناس نادى: من جاء بحزمة حطب فله قِذرة تمر. فجاء سدوس وصُلَيْع بحطب وأخذوا قدرَين من تمر وجلسا قريباً من قُبته. ثم انصرف صُلَيْع إلى حُجر فأخبره بعسكر زياد وأراه التمر.

إِنَّ مَنْ غَرَّ النِّسَاءَ بِشَيْءٍ بعدَ جِدِّ لَجَاهِلٍ مَغْرُورٍ حُلُوةَ العَيْنِ والحَلِيتِ ومُرٌّ كُلُّ شَيْءٍ أَجَنُّ مِنْهَا الضَّمِيرُ كُلُّ أَتَى وَإِنْ بَدَأَ لَكَ مِنْهَا آيَةُ الْحَبِّ حُبُّهَا خَيْرٌ مِمَّا يَكُونُ (٥١٠/١) ثم عاد إلى الحيرة.

قلت: هكذا قال بعض العلماء إن زياد بن هُبولة السليحي ملك الشام غزا حُجرًا، وهذا غير صحيح لأن ملوك سليح كانوا بأطراف الشام ممّا يلي البر من فلسطين إلى قُسَيرين والبلاد للروم، ومنهم أخذت غسان هذه البلاد، وكلّهم كانوا عمالاً لملوك الروم كما كان ملوك الحيرة عمالاً لملوك الفرس على البر والعرب، ولم يكن سليح ولا غسان مستقلّين بملك الشام ولا بشبر واحد على سبيل التفرّد والاستقلال.

وقولهم: ملك الشام، غير صحيح، وزياد بن هُبولة السليحي ملك مشارف الشام أقدم من حجر أكل المَرار بزمان طويل، لأنّ حَجراً هو جدُّ الحارث ابن عمرو بن حجر الذي ملك الحيرة والعرب بالعراق أيامَ قُبَاذ أبي أنوشروان. وبين ملك قبْذَا والهجرة نحو مائة وثلاثين سنة، وقد ملكت غسان أطراف الشام بعد سليح ستمائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة، وأقل ما سمعت فيه ثلاثمائة سنة وست عشرة سنة، وكانوا بعد سليح، ولم يكن زياد آخر ملوك سبيح، فتريد المدة زيادة أخرى، وهذا تفاوتٌ كثير فكيف يستقيم أن يكون ابن هُبولة الملك أيامَ حُجر حتى يُغيّر عليه! وحيث أُطبقت رواية العرب على هذه الغزاة فلا بد من توجيهها، وأصلح ما قيل فيه: إن زياد بن هُبولة المعاصر لحجر كان رئيساً على قوم أو متغلباً على بعض أطراف الشام حتى يستقيم هذا القول، والله أعلم.

وقولهم أيضاً: إن حُجرًا عاد إلى الحيرة، لا يستقيم أيضاً لأن ملوك الحيرة من ولد عدي بن نصر اللخمي لم يقطع ملكهم لها إلا أيامَ قُبَاذ، فإنه استعمل الحارث بن عمرو بن حجر أكل المَرار كما ذكرناه قبل. فلما ولي (٥١١/١) أنوشروان عزل الحارث وأعاد اللخمين، ويُشبه أن يكون بعض الكنديين قد ذكرنا هذا تعصباً، والله

وأما سدوس فقال: لا أبرح حتى آتية بأمر جلي، وجلس مع القوم يتسمع ما يقولون، وهند امرأة حُجر خلف زياد، فقالت لزياد: إن هذا التمر أهدي إلى حُجر من حَجَر، والسمن من دومة الجندل. ثم تفرّق أصحاب زياد عنه، فضرب سدوس يده إلى جليس له وقال له: من أنت؟ مخافة أن يستكره الرجل فقال: أنا فلان بن فلان ودنا سدوس من قُبّة زياد بحيث يسمع كلامه، ودنا زياد من امرأة حُجر فقبلها وداعبها وقال لها: ما ظنك الآن بحُجر؟ فقالت: ما هو ظنّ ولكنّه يقين، إنه والله لن يذع طلبك حتى تعانين القصور الحمر، يعني قصور الشام، وكأني به في فوارس من بني شيان يذمرهم ويذمرونه وهو شديد الكَلْب تزد شفتاه كأنه يعير أكل مَراراً، فالتجاء التجاء! فإن وراءك طالباً حثيثاً، وجمعاً كثيفاً، وكيداً متيناً، ورأيّاً صلياً. فرفع يده فطمعها ثم قال لها: ما قلت هذا إلا من عجبك به وحبك له! فقالت: والله ما أبغضت أحداً بغضي له ولا رأيت رجلاً أحزمت منه نائماً ومستيقظاً، إن كان لتنام عيناه فبعض أعضائه مستيقظ! وكان إذا أراد النوم أمرني أن أجعل عنده عُسّاً من لبن، فبينما هو ذات ليلة نائم وأنا قريب منه أنظر إليه، إذ أقبل أسود سالخ إلى رأسه فنحى رأسه، فمال إلى يده فقبضها، فمال إلى رجله فقبضها، فمال إلى العنق فشربه ثم مَجّه. فقلت: يستيقظ فيشربه فيموت فاستريح منه. فانتبه من نومه فقال: عليّ بالإناء، فناولته شَمَةً ثم القاه فهرق. فقال: أين ذهب الأسود؟ فقلت: ما رأيته. فقال: كذبت والله! (٥٠٩/١) وذلك كلّه يسمعه سدوس، فسار حتى أتى حُجرًا، فلما دخل عليه قال:

اتاك المَرْجفون بأمر غيبٍ على دهمش وجشك باليقين فمن يك قد أتاك بأمر ليس قد أدتني بأمر مستين ثم قص عليه ما سمع، فجعل حُجر يعبت بالمرار ويأكل منه غضباً وأسفاً، ولا يشعر أنه يأكله من شدة الغضب، فلما فرغ سدوس

أعلم.

فأبوا بالنَّهَاب وبالسَّابَا وَأَبَا بِالسُّلُوكِ مَصْفِينَا
وفهم يقول امرؤ القيس:

ملوكٌ من بني حُجْر بن عمرو يساقون العثية يَقتُلُونَا
فلو في يوم معركة أصبوا ولكن في ديار بني مرينا
ولم تُغسل جِماجمهم بـُغْلٍ ولكن في السماء مرثينا
تظلل الطير عاكفة عليهم وتسترع الحواجب والغونسا
واقام الحارثُ بديار كلب، فتزعم كلب أنهم قتلوه، وعلماء كِنْدَةَ
تزعُم أنه خرج يصيّد فتبع تيساً من الطيِّاء فأعجزه فأقسم أن لا يأكل
شيئاً إلا من كِبْدِهِ، فطلبت الخيلُ، فأُتِيَ به بعد ثلاثة، وقد كاد يهلك
جوعاً، فشوي له بطنه فأكل فلذّة من كبده حارة فمات.

ولمّا كان الحارث بالحيرة أثناء إشراف عدّة قبائل من زُزار فقالوا:
إنّا في طاعتك وقد وقع بيننا من الشرّ بالقتل ما تعلم ونخاف الفناء
فوجهٌ معنا بينك ينزلون فينا فيكفون بعضنا عن بعض، ففرّق أولاده في
قبائل العرب، فلملك ابنه حُجْرٌ على بني أسد بن خزيمة وغطفان،
وملك ابنه شُرْحَيْيل، وهو الذي قُتل يوم الكلاب، على بكر بن وائل
بأسرها وعلى غيرها، وملك ابنه معدي كرب، وهو غلفاء، وإنما قيل
له غلفاء لأنّه كان يغلف رأسه بالطيب، على قيس غيثان وطوائف
غيرهم، وملك ابنه سلمة على تغلب (١٥٤/١) والنّير بن قاسيط وبني
سعد بن زيد مناة من تميم.

فبقي حُجْر في بني أسد وله عليهم جائزة وإتاوة كلّ سنة لما
يحتاج إليه، فبقي كذلك دهرًا، ثمّ بعث إليهم من يجبي ذلك منهم،
وكانوا بتهامة، وطرّدوا رسله وضربوهم، فبلغ ذلك حُجْرًا، فسار إليهم
بجند من ربيعة وجند من جند أخيه من قيس وكنانة، فاتّاهم فأخذ
سرواتهم وخيارهم وجعل يقتلهم بالعصا وأباح الأموال وسيرهم إلى
تهامة وحبس منهم جماعة من أشرافهم، منهم عبيد بن الأبرص
الشاعر، فقال شعراً يستعطفه لهم، فرق لهم وأرسل من يردهم، فلمّا
صاروا على يوم منه تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة ابن عامر
الأسديّ، فقال لهم: من الملك الصلّهب، الغلاب غير المغلّب، في
الإبل كأنّها الربوب، هذا دمه يتشعب، وهو غداً أوّل من يُسَلَّب؟ قالوا:
ومن هو؟ قال: لولا تجيش نفسي خاشيه لأخبرتكم أنّه حجر ضاحية،
فركبوا كلّ صعب ودلول حتّى بلغوا إلى عسكر حُجْر فهجموا عليه
في قُبْته، فقتلوه، طعنه عليّاب بن الحارث الكاهليّ فقتله، وكان حُجْر
قتل أباه، فلمّا قُتل قالت بنو أسد: يا معشر كنانة وقيس أنتم إخواننا
وبنو عمّا والرجل بعيد النسب منا ومنكم وقد رايتم سيرته وما كان
يصنع بكم هو وقومه فاتهبوهم. فشدّوا على هجائته فاتهبوها ولقّوه
في رِطْطه بيضاء والقوه على الطريق، فلمّا رآته قيس وكنانة انتهبوا
أسلابه وأجار عمرو بن مسعود عياله.

وقيل: إنّ حُجْرًا لمّا رأى اجتماع بني أسد عليه خافهم فاستجار

إنّ أبا عبيدة ذكر هذا اليوم ولم يذكر أنّ ابن هبولة من سَلِيح بل
قال: هو غالب بن هبولة ملك من ملوك غَسَّان، ولم يذكر عوده إلى
الحيرة، فزال هذا الروم.

(وسَلِيح بفتح السين المهملة، وكسر اللام، وآخره حاء مهملة)

ذكر مقتل حُجْر أبي امرئ القيس والحروب الحادثة بمقتله إلى أن مات امرؤ القيس

نذكر أولاً سبب ملكهم العرب بنجد ونسوق الحادثة إلى قتله
وما يتصل به فنقول:

كان سفهاء بكر قد غلبوا على عقلائها وغلبوهم على الأمر وأكل
القويّ الضعيف، فنظر العقلاء في أمرهم فرأوا أن يملّكوا عليهم ملكاً
يأخذ للضعيف من القويّ. فنهاهم العرب وعلموا أنّ هذا لا يستقيم
بأن يكون الملك منهم لأنّه يطيعه قوم ويخالفه آخرون، فساروا إلى
بعض تبابعة اليمن، وكانوا للعرب (١٥٢/١) بمنزلة الخلفاء
للمسلمين، وطلبوا منه أن يملّك عليهم ملكاً، فلملك عليهم حُجْر بن
عمرو أكل المرار، فقدم عليهم ونزل بطن عاقل وأغار ببكر فانتزع
عامّة ما كان بأيدي اللّخميين من أرض بكر وبقي كذلك إلى أن مات
فدفن بطن عاقل.

فلمّا مات صار عمرو بن حُجْر أكل المرار، وهو المقصور، ملكاً
بعد أبيه، وإنما قيل له المقصور لأنّه قُصر على ملك أبيه، وكان أخوه
معاوية، وهو الجون، على اليمامة، فلمّا مات عمرو ملك بعده ابنه
الحارث، وكان شديد الملك بعيد الصوت، فلمّا ملك قُبَاذ بن فيروز
الفرس خرج في أيامه مُزْدَك فدعا الناس إلى الزندقة، كما ذكرناه،
فأجابه قُبَاذ إلى ذلك، وكان المنذر بن ماء السماء عاملاً للأكاسرة
على الحيرة ونواحيها، فدعاه قُبَاذ إلى الدخول معه، فامتنع، فدعا
الحارث بن عمرو إلى ذلك فأجابه، فاستعمله على الحيرة وطرّد
المنذر عن مملكته.

وقيل في تملكه غير ذلك، وقد ذكرناه أيام قباد.

فبقوا كذلك إلى أن ملك كسرى أنوشروان بن قباد بعد أبيه فقتل
مزدك وأصحابه وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى ولاية الحيرة وطلب
الحارث بن عمرو، وكان بالأنبار، وبها منزله، فهرب بأولاده وماله
وهجائته، وتبعه المنذر بالخيال من تغلب وإياد وبهراء فلاحق بأرض
كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجائته، وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفساً
من بني أكل المرار، فهم عمرو (١٥٣/١) ومالك ابن الحارث،
فقدموا بهم على المنذر، فقتلهم في ديار بني مرينا، وفهم يقول عمرو
بن كُثُوم:

عُومِر ابن شَيْخْنَة أحد بني عَطارد بن كعب بن زيد مائة بن تميم لبتة
هند بنت حُجر (٥١٥/١) وعياله، وقال لبني أسد: إن كان هذا شأنكم
فإني مرتحل عنكم ومُخْلِكُكم وشأنكم. فودعوه على ذلك وسار
عنهم وأقام في قومه مئةً ثم جمع لهم جمعاً عظيماً وأقبل إليهم مُدلاً
بمن معه، فتأمرت بنو أسد وقالوا: والله لئن قهركم ليحكمسن عليكم
حُكْم الصبي فما خير العيش حينئذ فموتوا كراماً. فاجتمعوا وساروا
إلى حجر فلقوه فاقتلوا قتالاً شديداً، وكان صاحب أمرهم علباء ابن
الحارث، فحمل على حجر فظعنه فقتله، وانهزمت كئيدة ومن معهم،
وأسر بنو أسد من أهل بيت حجر وغنموا حتى ملؤوا أيديهم من
الغنائم، وأخذوا جواريه ونساء وما معهم فاقسموه بينهم.

وقيل: إن حُجراً أخذ أسيراً في المعركة وجعل في قُبّة، فوثب
عليه ابنُ أخت علباء فضربه بحديدة كانت معه لأن حُجراً كان قتل
أباه. فلما جرحه لم يقض عليه، فأوصى حجر ودفع كتابه إلى رجل
وقال له: انطلق إلى ابني نافع، وكان أكبر أولاده، فإن بكى وجزع
فاتركه واستقرهم واحداً واحداً حتى تأتي امرأ القيس، وكان
أصغرهم، فإيهم لم يجزع فادفع إليه خيلي وسلاحي ووصيتي، وقد
كان بين في وصيته من قتله وكيف كان خبره.

فانطلق الرجلُ بوصيته إلى ابنه نافع فوضع التراب على رأسه ثم
أتاهاهم كلهم، ففعلوا مثله حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له
يشرب الخمر ويلعب معه بالترد، فقال: قُتل حجر، فلم يلتفت إلى
قوله، وأمسك نديمه، فقال له امرؤ القيس: اضرب؛ فضرب حتى إذا
فرغ قال: ما كنت لأفسد دستك، ثم سال الرسول عن أمر أبيه كله،
فأخبروه، فقال له: الخمر والنساء عليّ حرام حتى أقتل من بني أسد
مائة وأطلق مائة.

وكان حُجر قد طرد امرأ القيس لقوله الشعر، وكان يائف منه،
وكانت (٥١٦/١) أم امرئ القيس فاطمة بنت ربيعة بنت الحارث أخت
كُليب بن وائل، وكان يسير في أحياء العرب يشرب الخمر على
الغدران ويتصيد، فأتاه خبر قتل أبيه وهو بدؤون من أرض اليمن، فلما
سمع الخبر قال:

تَطَاوَلُ اللَّيْلُ عَلَيْنَا نَقْصُونَ دُحُونَنَا مَغْشَرٌ يَمَاتُونَ
وَأَنْتَنَا لَقَرْتُنَا مَجْبُونُونَ

ثم قال: ضيّعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا
سُكْر غداً، اليومُ خمرٌ وغداً أمرٌ. فذهبت مثلاً. ثم ارتحل حتى نزل
بيكر وتغلب فسألهم النصر على بني أسد، فاجابوه. فبعث العيون إلى
بني أسد، فنذروا به، فلجؤوا إلى بني كنانة، وعيون امرئ القيس
معهم، فقال لهم علباء بن الحارث: اعلموا أن عيون امرئ القيس قد
عادوا إليهم بخبركم وأنكم عند بني كنانة، فارحلوا بليل ولا تُعلموا بني
كنانة. فارتحلوا. وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب وغيرهم

ثم رحل عنهم ونزل بعامر بن جُوَيْن، فأراد أن يغلب امرأ القيس
على ماله وأهله، فعلم امرؤ القيس بذلك فانتقل إلى رجل من بني
نُعْلٍ يقال له حارثة بن مَرَفَستجاره، فأجاره. فوقعت بين عامر بن
جوين والثعلبي حرب، وكانت أمور كبيرة، فلما رأى امرؤ القيس أن

الآيات

يوم خَزَاز

وكان من حديثه أَنَّ ملكاً من ملوك اليمن كان في يديه أسارى من مُصَرَّ ربيعة وقُضاعة، فوفد عليه وقد من وجوه بني معد، منهم: سدوس بن شيان بن ذُهل بن ثعلبة، وعُوف بن مُخَلِّم بن ذُهل بن شيان، وعُوف ابن عمرو بن جُشم بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضمَّيَّان، وجُشم بن ذُهل بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضمَّيَّان، فلقبهم رجل من بهراء يقال له عُبيد بن قُراد، وكان في الأسارى، وكان شاعراً، فسألهم أن يدخلوه في عدّة من يسألون فيه، فكلّموا الملك فيه وفي الأسارى، فوهبهم لهم، فقال عُبيد بن قُراد البهراوي:

نفسى الفلدة لعمروف الفعّال وعُوف ولا بن هلال جُشم
(٥٢١/١)
تلك ركنى بعد ما قد هوى — تُمسكاً بقراقي الزُؤم
ولولا سدوس وقد شُمرت — بي الحرب زلت بتغلي القدم
ونابت بهراء كني يسمعون — وليس بأذانهم من صمم
ومن قبلها عصمت فاسط — معلناً إذا ما عزيزاً زام

فاحتبس الملك عنده بعض الوفد رهينة وقال للباقيين: ايتوني برؤساء قومكم لأخذ عليهم الموائيق بالطاعة لي وإلا قتلْتُ أصحابكم. فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم الخبر، فبعث كُلَّيْب وائل إلى ربيعة فجمعهم، واجتمعت عليه معدّة، وهو أحد النفر الذين اجتمعت عليهم معدّة على ما ذكره في مقتل كليب. فلما اجتمعوا عليه سار بهم وجعل على مقدّمته السفّاح التغلبي، وهو سلّمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تيم بن أسامة بن مالك بن بكر ابن حُيَّيب بن تغلب، وأمرهم أن يوقدوا على خَزَاز ناراً ليتهدوا بها؛ وخزاز جبل بطيخة ما بين البصرة إلى مكة، وهو قريب من سالم، وهو جبل أيضاً؛ وقال له: إن غشيك العدو فاوقد نارين. فبلغ مَذْجِجاً اجتماع ربيعة ومسيرها فاقبلوا بجمعهم واستفروا من يليهم من قبائل اليمن وساروا إليهم، فلما سمع أهل تهامة بمسير مَذْجِج انضمّوا إلى ربيعة، ووصلت مَذْجِج إلى خزاز ليلاً، فرفع السفّاح نارين. فلما رأى كُلَّيْب النارين أقبل إليهم بالجمع فصبّحهم، فالتقوا بخزاز فاقتتلوا قتالاً شديداً أكثروا فيه القتل، فانهزمت مَذْجِج وانفضّت جموعها، فقال السفّاح في ذلك:

وليلة بئ أوقد في خَزَاز هذبت كتاباً منحيرات
ضللن من السهاد وكن لولا سهاد القوم أحسب هاديات

وقال الفرزدق يخاطب جريراً ويهجو: (٥٢٢/١)

لولا فوارس تغلب ابنة وائل دخل العدو عليك كل مكان
ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرفنا على النيران

الحرب قد وقعت بين طيء بسببه خرج من عندهم ققصد السماول بن عاديا اليهودي، فأكرمه وأزله، فأقام عنده امرؤ القيس ما شاء الله ثم طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شيمر الغساني ليوصله إلى قيصر، ففعل ذلك، وسار إلى الحارث وأودع أهله وأدراعه عند السماول، فلما وصل إلى قيصر أكرمه.

فبلغ ذلك بني أسد فأرسلوا رجلاً منهم يقال له الطمّاح، كان امرؤ القيس قتل أخاً له، فوصل الأسدي، وقد سير قيصر مع امرؤ القيس جيشاً كثيراً فيهم جماعة من أبناء الملوك. فلما سار امرؤ القيس، قال الطمّاح لقيصر: إن امرأ القيس غوي عاهر، وقد ذكر أنه كان يرسل ابنتك ويواصلها وقال فيها أشعاراً أشهرها بها في العرب، فبعث إليه قيصر بخلة وشي منسوجة بالذهب، مسمومة، وكتب إليه: إني أرسلت إليك بحتلي (٥١٩/١) التي كنت ألبسها تكزماً لك فالبسها واكتب إليّ بخبرك من منزل منزل. فلبسها امرؤ القيس وسرّ بذلك، فأسر في السم وسقط جلده، فلذلك سمي ذا القروح؛ فقال امرؤ القيس في ذلك:

لقد طمع الطمّاح من نحو أرضه لئيسني ممّا يلبس أيّوما
فلما وصل إلى موضع من بلاد الروم يقال له أنقرة احتضر بها، فقال: ربّ خطبة مُسَحْفَرَة، وطعنة مُتَعَجْرَة، وجفنة مُتَحَيَّرَة، حلّت بأرض أنقرة. ورأى قبر امرأة من بنات ملوك الروم وقد دُفنت بجانب عسيب، وهو جبل، فقال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب — وأتي مُقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنّا غريبان هاهنا — وكلّ غريب للغريب نسيب
ثم مات دُفِنَ إلى جنب المرأة، فقبره هناك.

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبي شيمر الغساني إلى السماول بن عاديا وطلابه بأدراع امرؤ القيس، وكانت مائة درع، وبما له عنده، فلم يُعطه، فأخذ الحارث ابناً للسماول، فقال: إمّا أن تُسلم الأدراع وإمّا قتلُ ابنك. فأبى السماول أن يُسلم إليه شيئاً، فقتل ابنه، فقال السماول في ذلك:

وفيت بأدراع الكندي إني — إذا ما دُمّ أقصوام وفيت
وأوصى عاديا يوماً بأن لا — تهلم يا سماول ما بنيت
بنى لي عاديا حصناً حصيناً — ومساءً كلّمنا شيت استحي

وقد ذكر الأشعي هذه الحادثة، فقال:

كن كالسماول إذ طاف الهمام به — في جَحَل كسواد الليل جرار
إذ ساهم خطتي خُسْفَ قال له: — قل ما نشاء فإني سامع حار
فقال: غنّز وتكّل انت بينهما — فاختر فما فيها حظ يُختار
فشك غير طويل ثم قال له: — اقل أسيرك إني مانع جاري

وهي أكثر من هذا.

وهي أول وقعة كانت بين تهامة واليمن؛ والثاني ربيعة بن الحارث بن مرة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن كلب، وكان قائد معد يوم السلان بين أهل البمامة واليمن؛ والثالث وائل بن ربيعة، وكان قائد معد يوم خزاز ففَضَّ جموع اليمن وهزمهم وجعلت له معد قسم الملك وتاجه وطاعته وبقي زماناً من الدهر، ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى حماءه، وكان يقول: وحش أرض كذا في جواربي، فلا يُصاد، ولا يورد أحد مع إله ولا يوقد ناراً مع ناره، ولا يمر أحد بين بيوته ولا يحتفي في مجلسه.

وكانت بنو جشم وبنو شيبان أخلاطاً في دار واحدة إرادة الجماعة ومخافة الفرقة، وتزوج كليب جلييلة بنت مرة بن شيبان بن ثعلبة، وهي أخت جساس بن مرة، وحمل كليب أرضاً من العالية في أول الربيع، وكان لا يقربها إلا مُحارب، ثم إن رجلاً يقال له سعد بن شمس بن طوق الجرهمي نزل بالبسوس بنت مُنْقِذ التميمية خالة جساس بن مرة. وكان للجرهمي ناقة اسمها سَراب ترعى مع نوق جساس، وهي التي ضربت العرب بها المثل فقالوا: أشام من سراب وأشام من البسوس.

فخرج كليب يوماً يتعمد الإبل ومراعيها فأتاها وتردد فيها، وكانت إبله وإبل جساس مختلطة، فنظر كليب إلى سراب فأنكرها، فقال له جساس، (٥٢٥/١) وهو معه: هذه ناقة جارنا الجرهمي. فقال: لا تُعدّ هذه الناقة إلى هذا الحمى. فقال جساس: لا ترعى إبلي مرعى إلا وهذه معها، فقال كليب: لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها. فقال جساس: لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان زمحي في لبتك! ثم تفرقا، وقال كليب لامراته: أتزين أن في العرب رجلاً مانعاً مني جازة؟ قالت: لا أعلمه إلا جساساً، فحدثها الحديث. وكان بعد ذلك إذا أراد الخروج إلى الحمى منعته وناشدته الله أن [لا] يقطع رحمه، وكانت تنهى أخاها جساساً أن يسرح إبله.

ثم إن كليلاً خرج إلى الحمى وجعل يتصفّح الإبل، فرأى ناقة الجرهمي فرمى ضرعها فانفذه، فولّت ولها عجيب حتى بركت بفناء صاحبها. فلما رأى ما بها صرخ بالذلّ، وسمعت البسوس صُراخ جارها، فخرجت إليه، فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها ثم صاحت: وإذاه! وجساس يراها ويسمع، فخرج إليها فقال لها: اسكني ولا تُراعي، وسكن الجرهمي، وقال لها: إني سأقتل جملأ أعظم من هذه الناقة، سأقتل غللاً، وكان غلال فحلّ إبل كليب لم ير في زمانه مثله، وإنما أراد جساس بمقاتله كليب. وكان لكليب عين يسمع ما يقولون، فأعاد الكلام على كليب، فقال: لقد اقتصر من يعينه على غلال. ولم يزل جساس يطلب غرة كليب، فخرج كليب يوماً آمناً فلما بعد عن البيوت ركب جساس فرسه وأخذ رحمه وأدرك كليلاً، فوقف كليب، فقال له جساس: يا كليب الرمح وراءك! فقال: إن كنت

وقيل: إنّه لم يعلم أحد من كان الرئيس يوم خزاز لأن عمرو بن كلثوم، وهو ابن ابنة كليب، يقول:

ونحن غداة أوقد في خزاز رَفَنّا فوق رِفْدِ الرافدينا
فلو كان جدّه الرئيس لذكره ولم يفتخر بأنّه رَفَد، ثم جعل من شهد خزازاً متساندين فقال:

فَكُنّا الأَتيينَ إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أئينا
فصالوا صولةً فيمن يليهم وصُلنا صولةً فيمن يلينا
فقالوا له: استأثرت على إخوانك، يعني مُضَرَ، ولما ذكر جدّه في القصيدة قال:

ومنا قبله الساعي كُلّيبُ فأيّ المجد إلا قد ولينا
فلم يدع له الرئاسة يوم خزاز، وهي أشرف ما كان يفتخر له به.

(حبيب بضمّ الحاء المهملة، وفتح الباء الموحدة، وسكون الياء تحتها نقطتان، وآخره باء أخرى موحدة). (٥٢٣/١)

ذكر مقتل كليب والأيام بين بكر وتغلب

وكان من حديث الحرب التي وقعت بين بكر وتغلب ابني وائل بن هنب ابن أفضى بن دُعَي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان بسبب قتل كليب، واسمه وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، وإنما لُقِبَ كليباً لأنه كان إذا سار أخذ معه جرو كلب، فإذا مرّ بروضة أو موضع يعجبه ضربه ثم ألّاه في ذلك المكان وهو يصيح ويعوي فلا يسمع عواه أحد إلا تجنّبه ولم يقربه، وكان يقال له كليب وائل، ثم اختصروا فقالوا لكليب، فغلب عليه. وكان لواء ربيعة بن نزار للأكبر فالأكبر من ولده، فكان اللواء في عَصْرَةِ بن أسد بن ربيعة، وكانت سَتَمُهم أنهم يصفرون لحاهم ويقصّون شواربهم، فلا يفعل ذلك من ربيعة إلا من يخالفهم ويريد حربهم، ثم تحوّل اللواء في عبد القيس بن أفضى بن دُعَي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وكانت سَتَمُهم إذا شتموا لطموا من سَتَمُهم، وإذا لطموا قتلوا من لطمهم. ثم تحوّل اللواء في النضر بن قاسط بن هنب، وكان لهم غير سنة من تقدّمهم. ثم تحوّل اللواء إلى بكر بن وائل فسأورا غيرهم في فريخ طائر، كانوا يوثقون الفريخ بقارعة الطريق، فإذا علم بمكانه لم يسلك أحد ذلك الطريق ويسلك من يريد الذهاب والعجيء عن يمينه ويساره، ثم تحوّل اللواء إلى تغلب، فوليه وائل بن ربيعة، وكانت سَتَمُهم ما ذكرناه من جرو الكلب.

ولم تجتمع معد إلا على ثلاثة نفر، وهم: عامر بن الظرب بن عمرو ابن بكر بن يشكر بن الحارث، وهو عدوان بن عمرو بن قيس غِلان، (٥٢٤/١) وهو الناس بن مُضَرَ، بالنون، وهو أخو إلياس بن مُضَرَ، وكان قائد معد حين تمذحجت مذحج وسارت إلى تهامة،

فانتِ أخت قاتلنا وشقيقة واترنا، فخرجتَ تجرّ عطفها، فلقها أبوها
مُرّة فقال لها: ما وراءك يا جليلة؟ فقالت: ثكل العمد، وحزن الأبد؛
وقد خليل، وقتل أخ عن قليل، وبين هذين غرس الأحقاد، وتفتّت
الأكباد. فقال لها: أوتكفّ ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟ فقالت:
أُمّيّة مخدوع وربّ الكعبة! أيّذنّ تدع لك تغلب دم ربّها!

ولمّا رحلت جليلة قالت أخت كليب: رحلة المعتدي وفراق
الشامت ويلّ غداً لآل مُرّة من الكرّة بعد الكرّة. فبلغ قولها جليلة،
فقالت: وكيف تشمتُ الحرّة بهنّك سترها وترقّب وترها! أسعد الله
أختي ألا قالت: نفرة (٥٢٨/١) الحياء وخوف الأعداء! ثم أنشأت
تقول:

يا ابنة الأقوام إن لُمتِ فلا تعجلي باللوم حتّى تسالي
فإذا انتِ تيشّت الذي يوجب اللوم، فلوّمي واعذلي
إن تكن أخت امرئ يُمِت على شفقٍ ينهّا غلبه فافعلي
جلّ عديّ فعل جَسّاسٍ فيا حسرتا عُمّا اتجلى أو ينجلي
فعل جَسّاسٍ على وجدي به قاطع ظهري ومُذنّ أجلي
لو يَمِنُ فُتّت عيّن سوي اختها فاتفقات لم أحفل
تحمل العين قنّى العين كما تحمل الأمّ أذى ما فتّلي
يا قتيلاً قوَضَ الدهرُ به سَقَفَ بيني جميعاً من غلي
قدم البيت الذي استحلّته وسخى في هدم يئسي الأول
ورماني قتلُ من كَسِب ربيّة المُضنّى به المستأيل
يا نسائي دونكنّ اليوم قد خصني الدهر برزّه مُفضّل
خصني قتل كليبٍ بلطسٍ من ورائي ولطسٍ مُستقبل
ليس من يَكسي ليوميه كمن إنما يَكسي ليوم مُقبل
يشغني المدرّك بالشار وفي دركسي ثاريّ تكلّ المتكبل
(٥٢٩/١)

لينة كان دعاً فاختلوا يذرأ منه دمي من أكلجلي
إنسي قاتلةً مقتولةً ولعلّ الله أن يرتاح لي
وأما مُهلّهل، واسمه عديّ، وقيل: امرؤ القيس، وهو خال امرئ
القيس بن حجر الكندي، وإنما لُقّب مهلهلاً لأنّه أوّل من لهلّل الشعر
وقصد القصائد، وأوّل من كذب في شعره، فإنه لما صحا لم يرّعه إلا
النساء بصرخن: ألا إنّ كليباً قتل، فقال، وهو أوّل شعر قيل في هذه
الحادثة:

كنا نغناؤ على العواتق أن تُرى بالأس خارجة عن الأوطان
فخرجن حين نوى كليب حُسرأ مستغفاتٍ بغله بهوان
فترى الكواعب كالطبّاء عواطلاً إذ حان مصرّعه من الأكفان
يخمنن من آثم الوجوه حواسراً من بعده وبعدن بالأزمان
تُسَلّاتٍ نكدهنّ وقد وري أجوافهنّ بحرقة ووراني
وقلنّ منّ للمستضيف إذا دعا أم منّ لحضّب عواليّ المُران
أم لا تُسار بالجزور إذا غدا ربح يقطع معقّد الأشطان

صادقاً فأقبل إليّ من أمامي، ولم يلتفت إليه، فطعنه فأرداه عن فرسه،
فقال: يا جَسّاس أغشي بشرة من ماء، فلم يأنه بشيء، وقضى كليب
نحبه. فأمر جَسّاس رجلاً كان معه اسمه عمرو بن الحارث بن ذهل
بن شيبان فجعل عليه أحجاراً لثلاً تاكله السباع. وفي ذلك يقول
مُهلّهل بن (٥٢٦/١) ربيعة، أخو كليب:

قتيل ما قيل المرء عمرو وجَسّاس بن مُرّة ذي صريم
أصاب فؤاده بأصمّ لذن فلم يعطف هناك على حميم
فإن غداً وبعد غدٍ لَرَفَن لأمر ما يقام له عظيم
جسيماً ما يكسّ به كليباً إذا ذُكر الفصال من الجسيم
سأشرب كأسها صرناً وأسقى بكاسٍ غير منقصة ما يميم
ولمّا قتل جَسّاس كليباً انصرف على فرسه يركضه وقد بدت
ركبته، فلمّا نظر أبوه مُرّة إلى ذلك قال: لقد أتاكم جَسّاس بداهية، ما
رأيتُه قطّ بادي الركبتين إلى اليوم! فلمّا وقف على أبيه قال: ما لك يا
جَسّاس؟ قال: طعنتُ طعنة يجتمع بنو وائل غداً لها رقصاً. قال: ومنّ
طعنت؟ لأمك الثكل! قال: قتلْتُ كليباً. قال: أفعلت؟ قال: نعم. قال:
بئس والله ما جثت به قومك! فقال جَسّاس:

تأفّب عنك أمة ذي امتاع فإنّ الأمر جلّ عن التلاحى
فإنّي قد جيتُ عليك حرباً تُفصّ الشخّ بالماء القراح
فلمّا سمع أبوه قوله خاف خذلان قومه لما كان من لائتمه لِيّاه،
فقال يجييه:

فإن تَكْ قد جيت عليّ حرباً تُفصّ الشخّ بالماء القراح
جمعت بها يتيك على كليب فلا وكلّ ولا زت السلاح
سألين نوبها وأودعني بها عاز المنة والفضاح
(٥٢٧/١) ثم إنّ مُرّة دعا قومه إلى نُصرته، فأجابوه وجلّوا الأمنة
وشحذوا السيوف وقوموا الرماح وتَهَيّزوا للرحلة إلى جماعة قومهم.

وكان هَمّام بن مُرّة أخو جَسّاس، ومُهلّهل أخو كليب في ذلك
الوقت يشربان، فبعث جَسّاس إلى هَمّام جارية لهم تُخبره الخبر،
فانتهت إليهما وأشارت إلى هَمّام، فقام إليها، فأخبرته، فقال له
مهلهل: ما قالت لك الجارية؟ وكان بينهما عهد أن لا يكتم أحدهما
صاحبه شيئاً، فذكر له ما قالت الجارية، وأحبّ أن يعلمه ذلك في
مداية وهزل، فقال له مهلهل: است أخيك أخيق من ذلك! فأقبل
على شربهما، فقال له مهلهل: اشرب، فاليوم خمّر وغداً أمرّ. فشرب
هَمّام وهو حذر خائف، فلمّا سكر مُهلّهل عاد هَمّام إلى أهله، فساروا
من ساعتهم إلى جماعة قومهم، وظهر أمر كليب، فذهبوا إليه فدفنوه،
فلمّا دفن شُقت الجيوب وخمشت الوجوه وخرج الأبكاء وذوات
الخُدود العواتق إليه وقمن للماثم، فقال النساء لأخت كليب: أخرجي
أخت جَسّاس عناً فإن قيامها فيه شمانة وعار علينا، وكانت امرأة
كليب، كما ذكرنا، فقالت لها أخت كليب: أخرجي جليلة عن مائمتنا

أَمِنَ لِإِنْشَاقِ الدِّيَارِ وَجَمْعِهَا
كَانَ الذَّخِيرَةُ لِلزَّمَانِ قَعْدُ أَتَى
بِأَلْهَفٍ نَفْسِي مِنْ زَمَانٍ فَاجِعٍ
وَلِفَادِحَاتِ نَوَائِبِ الْجِدْنَانِ
قَعْدَانُهُ وَأَخْلَلَ رُكْنَ مَكَانِي
أَلْقَى عَلَيَّ بِكُلِّ كَلْبٍ وَجِرَانِ
(٥٣٠/١)

تحت السقايف إذ يعلموك سافها
مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
ما كل الآليه يا قوم أخضيها
زَهَرُوا إِذَا الْخَيْلُ لَجَّتْ فِي تَعَادِيهَا
إِلَّا وَقَدْ خَضِبُوهَا مِنْ أَعَادِيهَا
صُمًّا أَنَابِيهَا زُرْقًا عَوَالِيهَا
وَانْتَقَتِ الْأَرْضُ فَانْجَابَتْ بَيْنَ فِيهَا
(٥٣٢/١)

ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها
فالتقوا أول قتال كان بينهم في قول يوم عُنَيْزَةٍ، وهي عند فلجة
وكانا على السواء، فقال مهلهل:

كَتَبَا غَنْدُوزَ وَنَسِي أَيْنَا
وَلَوْلَا الرِّيحُ أَسْمِعَ أَهْلَ حُجَيْرِ

ففتقروا ثم بقوا زماناً، ثم إنهم التقوا بماء يقال له النُّهْي، كانت بنو
شيبان نازلة عليه، ويروي أنها أول وقعة كانت بينهم، وكان رئيس
تغلب مهلهل، ورئيس شيبان الحارث بن مُرَّة، وكانت الدائرة لبني
تغلب، وكانت الشوكة في بني شيبان، واستحرق القتال فيهم إلا أنه لم
يُقتل ذلك اليوم أحد من بني مُرَّة.

ثم التقوا بالذناناب، وهي أعظم وقعة كانت لهم، فظفرت بنو
تغلب وقتلت بكراً مقتلة عظيمة، وقتل فيها شراحيل بن مُرَّة بن هَمَام
بن ذُهَل بن شيبان، وهو جد الحَوْفَرَانِ وَجَدَّ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ، وقتل
الحارث بن مُرَّة بن ذُهَل بن شيبان، وقتل من بني ذُهَل بن ثعلبة عمرو
بن سَدُوسِ بْنِ شِيْبَانَ بْنِ ذُهَلٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ رُؤَسَاءِ بَكْرِ.

ثم التقوا يوم واردات فاقتلوا قتالاً شديداً، فظفرت تغلب أيضاً،
وكثر القتل في بكر، فقتل هَمَامُ بْنُ مُرَّةَ بْنِ ذُهَلِ بْنِ شِيْبَانَ أَخُو جَسَّاسٍ
لَأَبِيهِ وَأُمُّهُ، فَمَرَّ مَهْلَهُلٌ، فَلَمَّا رَأَى قِتِيلًا قَالَ: وَاللَّهِ مَا قُتِلَ بَعْدَ كَلِيبٍ
أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ، وَتَالَلَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بَكْرٌ بَعْدَكُمَا عَلَى خَيْرٍ أَبَدًا. وقيل: إنما
قتل يوم القُصَيَّاتِ، قبل يوم قُضَّةَ، قتله ناشرة، وكان هَمَامُ قَدْ التَّقَطُّه
وَرَبَّاهُ وَسَمَّاهُ (٥٣٣/١) ناشرة، وكان عنده. فلما شب علم أنه تغلبي،
فلما كان هذا اليوم جعل هَمَامُ يُقَاتِلُ فَلِذَا عَطَشَ جَاءَ إِلَى قُرْبَةٍ لَهُ
يَشْرَبُ مِنْهَا فَتَغَفَّلَ نَاشِرَةٌ قَتَلَتْهُ وَلَحِقَ بِقَوْمِهِ تَغْلِبٌ، وَكَادَ جَسَّاسُ

يُؤْخَذُ فَسَلِمَ، فَقَالَ مَهْلَهُلُ:
لَوْ أَنَّ خَيْسِي أَدْرَكَكَ وَجَدْتُهُمْ

وَيَقُولُ فِيهَا:
وَلَا وَرَدَّ الْخَيْلَ بَطْنُ أَرَاكَةِ
وَلَا قَتَلَ جَحَاجِحًا مِنْ بَكْرِكُمْ
حَتَّى تَقْطُلَ الْحِمَالَاتُ مَخَافَةَ
وَلَا قُضِينَ بِنَعْلِ ذَاكَ دِيُونِسِي
وَلَا بَكِينَ بِهَا جَفُونِ غِيُونِ
مِنْ وَقَعْنَا بِقُفْلَسِنْ كُلِّ جَنِينِ

وقيل في ترتيب الأيام غير ما ذكرنا، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وَأَبْكِينَ سَيْدَ قَوْمِهِ وَانْدَبَنَهُ
وَأَبْكِينَ لِلْإِنْسَانِ لَمَّا اقْتَحَطُوا
وَأَبْكِينَ مِصْرَ جِبْدِهِ مُتَرَمِّلًا
فَلَا تُرْكُنْ بِهِ قِبَالَ تَغْلِبِ
قَتَلْنِي تَعَاوَرُهَا النُّوُورُ أَكْفَهَا
وَأَبْكِينَ عِزَّةَ الْقَوْمِ وَالنِّسْوَانِ
لِنُفُوزِ الْكُهُولِ مَعًا وَلِلشَّبَابِ
مُتَهَيِّمِ الْأَرْكَانِ وَالْيَسْبَابِ
شُدَّتْ عَلَيْهِ قِبَاطِي الْأَكْفَانِ
وَأَبْكِينَ عِنْدَ تَخَاذُلِ الْجِرَانِ
بِدَمَائِهِ فَلَنُذَكَّ مَا أَبْكَانِي
قَتَلْنِي بِكُلِّ قَرَارَةٍ وَمَكَانِ
يَنْهَشْنَهَا وَحَوَاجِلُ الْغُرَبَانِ

ثم انطلق إلى المكان الذي قُتل فيه كليب فرأى دمه، وأتى قبره
فوقف عليه ثم قال:

إِنَّ تَحْتَ السَّرَابِ حِزْمًا وَعِزْمًا
حَيَّةً فِي الْوَجَارِ أَرِيدُ لَا يَنْدُ
ثُمَّ جَزَّ شَعْرُهُ وَقَصَّرَ ثَوْبُهُ وَهَجَرَ النِّسَاءَ وَتَرَكَ الْغَزْلَ وَحَرَّمَ الْقِمَارَ
وَالشَّرَابَ وَجَمَعَ إِلَيْهِ قَوْمَهُ وَأَرْسَلَ رِجَالًا مِنْهُمْ إِلَى بَنِي شِيْبَانَ، فَأَتُوا
مُرَّةَ بْنَ ذُهَلِ بْنِ شِيْبَانَ وَهُوَ فِي نَادِي قَوْمِهِ فَقَالُوا لَهُ: إِنَّكُمْ أَنْتُمْ عَظِيمًا
بِقَتْلِكُمْ كَلِيبًا بِنَاقَةٍ وَقَطَعْتُمْ الرِّحْمَ، وَانْتَهَكْتُمْ الْحَرَمَةَ، وَإِنَّا نَعْرِضُ
عَلَيْكُمْ خِيَالًا أَرْبَعًا لَكُمْ فِيهَا مَخْرَجٌ وَلَنَا فِيهَا مَقْنَعٌ، إِمَّا أَنْ تَحْجِيَ لَنَا
كَلِيبًا أَوْ تَدْفَعُ إِلَيْنَا قَاتِلَهُ جَسَّاسًا فَتَقْتُلَهُ بِهِ، أَوْ هَمَامًا فَإِنَّهُ كَفُو لَهُ، أَوْ
تَمَكِّنَنَا مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ فِيكَ وَفَاءً لِدَيُّوِي. (٥٣١/١)

فقال لهم: إِمَّا إِحْيَانِي كَلِيبًا فَلَسْتُ قَادِرًا عَلَيْهِ، وَإِمَّا دَفْعِي جَسَّاسًا
إِلَيْكُمْ فَإِنَّهُ غَلَامٌ طَعَنَ طَعْنَةً عَلَى عَجَلٍ وَرَكِبَ فَرَسَهُ فَلَا أَدْرِي أَيِّ بِلَادٍ
قَصِدَ، وَإِمَّا هَمَامًا فَإِنَّهُ أَبُو عَشْرَةٍ وَأَخُو عَشْرَةٍ وَعَمَّ عَشْرَةَ كُلِّهِمْ فَرَسَانِ
قَوْمِهِمْ فَلَنْ يُسَلِّمُوهُ بِجَرِيرَةٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا أَنَا فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَجُولَ الْخَيْلَ
جَوْلَةً فَأَكُونُ أَوَّلَ قَتِيلٍ فَمَا أَنْعَجَلُ الْمَوْتَ، وَلَكِنْ لَكُمْ عِنْدِي
خَصْلَتَانِ: أَمَّا إِحْدَاهُمَا فَهُوَ لَأَبْنَائِي الْبَاقُونَ، فَخَذُوا إِلَيْهِمْ شَتْمَ فَاغْتَلَوْهُ
بِصَاحِبِكُمْ، وَأَمَّا الْآخَرَى فَلِإِنِّي أَدْفَعُ إِلَيْكُمْ أَلْفَ نَاقَةٍ سَوْدَ الْحَذَقِ حَمَرِ
الْوَبْرِ.

فغضب القوم وقالوا: قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللين من دم
كليب؟ ونشبت الحرب بينهم. ولحقت جليلة زوجة كُليب بابيها
وقومها، واعتزلت قبائل بكر الحرب وكرهوا مساعدة بني شيبان على
القتال وأعظموا قتل كليب، فتحولت لُجَيْمٌ وَشُكْرُو، وكَفَّ الْحَارِثُ بْنُ
عُبَادٍ عَنْ نَصْرِهِمْ وَمَعَهُ أَهْلُ بَيْتِهِ، وَقَالَ مَهْلَهُلٌ عِدَّةَ قِصَائِدٍ يَرْتِي كَلِيبًا
مِنْهَا:

كُتِبَ لَا خَيْرَ فِي النَّبِيَا وَمَنْ فِيهَا إِذْ أَنْتَ خَلَيْتَهَا فِيمَنْ يَخْلُهَا

ونرجع إلى سياقة الحديث.

فلَمَّا قُتِلَ جَسَّاسُ أُرْسِلَ أبوه مُرَّةً إلى مهلهل: إِنَّكَ قد أدركتَ
ثَارَكَ وَقَتْلْتَ جَسَّاساً، فَاكْتَفَى عن الحرب ودَعِ اللِّجَاجَ وَالْإِسْرَافَ
وَأَصْلَحْ ذَاتَ الْبَيْنِ فَهُوَ أَصْلَحُ لِلْحَيِّينَ وَأَنْكَأ لِعَدُوِّهِمْ، فلم يجب إلى
ذلك. وكان الحارث ابن عُباد قد اعتزل الحرب، فلم يشهدها، فلَمَّا
قُتِلَ جَسَّاسٌ وَهَمَّامُ ابْنِ مُرَّةٍ حَمَلَ ابْنَهُ بُجَيْرًا، وَهُوَ ابْنُ عَمْرِو بْنِ عُباد
أَخِي الْحَارِثِ بْنِ عُباد، فَلَمَّا حَمَلَهُ عَلَى النَّاقَةِ كَبَّ مَعَهُ إِلَى مَهْلَهْلِ:
إِنَّكَ قد أسرفتَ في القتل وأدركتَ ثَارَكَ سِوَى مَا قَتَلْتَ مِنْ بَكْرٍ، وَقَدْ
أُرْسَلْتُ ابْنِي إِلَيْكَ فَمَا قَتَلْتَهُ بِأَخِيكَ وَأَصْلَحْتَ بَيْنَ الْحَيِّينَ وَإِنَّمَا أَطْلَقْتُهُ
وَأَصْلَحْتَ ذَاتَ الْبَيْنِ، فَقَدْ مَضَى مِنَ الْحَيِّينَ فِي هَذِهِ الْحُرُوبِ مَنْ
كَانَ بِقَاوِهِ خَيْرًا لَنَا وَلِكُمْ. فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى كِتَابِهِ أَخَذَ بُجَيْرًا فَقَتَلَهُ وَقَالَ:
يُؤْ بَشْعُ نَعْلِ كَلِيبٍ. فَلَمَّا سَمِعَ أَبُوهُ بِقَتْلِهِ ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَ بِأَخِيهِ
لِيُصْلِحَ بَيْنَ الْحَيِّينَ، فَقَالَ: نَعَمْ الْقَتِيلُ قَتِيلًا أَصْلَحَ بَيْنَ ابْنَيْ وَائِلٍ!
فَقِيلَ: إِنَّهُ قَالَ: يُؤْ بَشْعُ نَعْلِ كَلِيبٍ، فَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَارِثُ بْنُ
عُباد وَقَالَ: (٥٣٦/١)

قَرَّبَا مَرِيطَ النِّعَامَةِ مَنِّي لَقِيتُ حَرْبَ وَائِلٍ عَنِ حَيْسَالٍ
قَرَّبَا مَرِيطَ النِّعَامَةِ مَنِّي شَابَ رَأْسِي وَانْكَرْتَنِي رَجَالِي
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا غَلِمَ اللَّهُ سَهْ وَائِي بِحَرْمِهَا الْيَوْمَ صَالِي
فَاتُوهُ بِفَرْسِ النِّعَامَةِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهَا مِثْلُهَا، فَرَكِبَهَا وَوَلَّى أَمْرَ
بَكْرٍ وَشَهِدَ حَرْبَهُمْ، وَكَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ شَهِدَهُ يَوْمَ قِصَّةٍ، وَهُوَ يَوْمُ تَحْلَاقِ
الْلَّمَمِ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ تَحْلَاقِ اللَّمَمِ لِأَنَّهُ بَكَرًا حَلَقُوا رُؤُوسَهُمْ لِيَعْرِفَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا جَحْثَرُ بْنُ ضُبَيْعَةَ بْنِ قَيْسِ أَبُو الْمَسَامَعَةِ فَقَالَ لَهُمْ:
أَنَا قَصِيرٌ فَلَا تَشِينُونِي، وَأَنَا اشْتَرَيْتُ لَمْتِي مِنْكُمْ بِأَوَّلِ فَارَسٍ يَطْلُعُ
عَلَيْكُمْ. فَطَلَعَ ابْنُ عَنَاقٍ فَشَدَّ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ يَرْتَجِزُ ذَلِكَ الْيَوْمَ
وَيَقُولُ:

رَدُّوا عَلَيَّ الْخَيْلَ إِنْ أَلَمْتُ: إِنْ لَمْ أَقَاتِلْهُمْ فَجُزِّرُوا لِمَوْتِي
وَقَاتِلْ يَوْمَئِذٍ الْحَارِثُ بْنُ عُباد قَاتِلًا شَدِيدًا، فَقَتَلَ فِي تَغْلِبٍ مَقْتَلَةً
عَظِيمَةً، وَفِيهِ يَقُولُ طَرَفَةٌ:

سَالُوا عَنَّا الْبَنِي يَعْرِفُونَا بِقُرُونِائِهِمْ تَحْلَاقِ اللَّمَمِ
يَوْمَ تَبْدِي الْيَضْءِ عَنْ أَسْرُقِهَا وَتَلَسَّفَ الْخَيْلُ أَسْرَاجَ النُّعْمِ
وَفِي هَذَا الْيَوْمِ أَسَرَ الْحَارِثُ بْنُ عُباد مَهْلَهْلًا، وَاسْمُهُ عَدِيٌّ، وَهُوَ
لَا يَعْرِفُهُ، فَقَالَ لَهُ: دَلَّنِي عَلَى عَدِيٍّ وَأَنَا أَخْلِي عَنْكَ. فَقَالَ لَهُ الْمَهْلَهْلُ:
عَلَيْكَ عَهْدُ اللَّهِ بِذَلِكَ إِنْ دَلَلْتُكَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَانَا عَدِيٌّ، فَجَزَّ
نَاصِيَتَهُ وَتَرَكَهُ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَعْرِ فَعَنِيَا إِذْ أَمَكْتُشِي الْبِدَانِ
(٥٣٧/١) وَكَانَتِ الْآيَامُ الَّتِي اشْتَدَّتْ فِيهَا الْحَرْبُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ
خَمْسَةَ أَيَّامٍ: يَوْمَ غَبَرَةٍ تَكَافَوْا فِيهِ وَتَنَاصَفُوا؛ ثُمَّ الْيَوْمُ الثَّانِي يَوْمَ
وَارِدَاتٍ، كَانَ لِتَغْلِبٍ عَلَى بَكْرٍ؛ ثُمَّ الْيَوْمُ الثَّالِثُ الْجَنُودُ، كَانَ لِبَكْرٍ عَلَى
تَغْلِبٍ؛ ثُمَّ الْيَوْمُ الرَّابِعُ يَوْمَ الْقَصَصِيَّاتِ، أَصِيبَ بَكْرٌ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَنْ

وَكَانَ أَبُو نُؤَيْرَةَ التَّغْلِبِيُّ وَغَيْرُهُ طَلَائِعَ قَوْمِهِ، وَكَانَ جَسَّاسٌ وَغَيْرُهُ
طَلَائِعَ قَوْمِهِمْ، وَالتَّقَى بَعْضُ اللَّيَالِي جَسَّاسٌ وَأَبُو نُؤَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو
نُؤَيْرَةَ: اخْتَرْ إِنَّمَا الصِّرَاعُ أَوْ الطَّعَانُ أَوْ الْمَسَافِقَةُ. فَاخْتَارَ جَسَّاسٌ
الصِّرَاعَ، فَاصْطَرَعَا وَأَبْطَأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى أَصْحَابِ حَيِّهِ،
وَطَلَبُوهُمَا فَأَصَابُوهُمَا وَهَمَّا يَصْطَرَعَانِ، وَقَدْ كَادَ جَسَّاسٌ يَصْرَعُهُ،
فَفَرَقُوا بَيْنَهُمَا.

وَجَعَلَتْ تَغْلِبُ تَطْلُبُ جَسَّاسًا أَشَدَّ الطَّلَبِ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ مُرَّةٌ:
الْحَقُّ بِأَخْوَالِكَ بِالشَّامِ، فَاْمْتَنِعْ، فَالْحَاحَ عَلَيْهِ أَبُوهُ فَنَفَرَهُ سِرًّا فِي خَمْسَةِ
نَفَرٍ: وَبَلَغَ الْخَبَرَ إِلَى مَهْلَهْلِ، فَدَبَّ أَبَا نُؤَيْرَةَ وَمَعَهُ ثَلَاثُونَ رَجُلًا مِنْ
شُجْعَانِ أَصْحَابِهِ فَسَارُوا مُجَدِّينَ، فَادْرَكُوا جَسَّاسًا، فَقَاتَلْتَهُمْ فَقَتَلَ أَبُو
نُؤَيْرَةَ وَأَصْحَابُهُ وَلَمْ يَبْقَ (٥٣٤/١) مِنْهُمْ غَيْرُ رَجُلَيْنِ، وَجُرِحَ جَسَّاسٌ
جِرْحًا شَدِيدًا مَاتَ مِنْهُ، وَقُتِلَ أَصْحَابُهُ فَلَمْ يَسْلَمْ غَيْرُ رَجُلَيْنِ أَيْضًا،
فَعَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ السَّالِمِينَ إِلَى أَصْحَابِهِ. فَلَمَّا سَمِعَ مُرَّةٌ قَتْلَ ابْنِهِ
جَسَّاسٍ قَالَ: إِنَّمَا يُحْزِنُنِي أَنْ كَانَ لَمْ يَقْتُلْ مِنْهُمْ أَحَدًا. فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ
قَتَلَ يَدَهُ أَبَا نُؤَيْرَةَ رَئِيسَ الْقَوْمِ وَقَتَلَ مَعَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا مَا شَرَكَهُ
مِنَّا أَحَدٌ فِي قَتْلِهِمْ وَقَتَلْنَا نَحْنُ الْبَاقِينَ، فَقَالَ: ذَلِكَ مِمَّا يَسْكُنُ قَلْبِي عَنْ
جَسَّاسٍ.

وَقِيلَ: إِنَّ جَسَّاسًا آخَرَ مَن قُتِلَ فِي حَرْبِ بَكْرٍ وَتَغْلِبٍ، وَكَانَ
سَبَبَ قَتْلِهِ أَنَّ أخته جَلِيلَةَ كَانَتْ تَحْتَ كَلِيبٍ وَائِلٍ. فَلَمَّا قُتِلَ كَلِيبُ
عَادَتْ إِلَى أَبِيهَا وَهِيَ حَامِلٌ وَوَقَعَتِ الْحَرْبُ، وَكَانَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَا
كَانَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْمَوَادِعَةِ بَعْدَمَا كَادَتِ الْفَتَنَانِ تَفْتَانِيَانِ، فَوَلَدَتْ
أَخْتُ جَسَّاسٍ غَلَامًا فَسَمَّتهُ هَجْرَسًا، وَرَبَّاهُ جَسَّاسٌ، وَكَانَ لَا يَعْرِفُ أَبَا
غَيْرِهِ، فَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ، فَوَقَعَ بَيْنَ هَجْرَسَ وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ بَكْرٍ كَلَامًا، فَقَالَ
لَهُ الْبَكْرِيُّ: مَا أَنْتَ بِمُسْتَهٍ حَتَّى نُلْحَقَكَ بِأَبِيكَ. فَامْسَكَ عَنْهُ وَدَخَلَ إِلَى
أُمِّهِ كَتِيبًا حَزِينًا فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ. فَلَمَّا نَامَ إِلَى جَنْبِ امْرَأَتِهِ رَأَتْ مِنْ هَمِّهِ
وَفِكْرِهِ مَا أَنْكَرَتْهُ، فَقَصَصَتْ عَلَى أَبِيهَا جَسَّاسَ قِصَّتَهُ، فَقَالَ: ثَائِرُ وَرَبِّ
الْكَعْبَةِ! وَبَاتَ عَلَى مِثْلِ الرُّضْفِ حَتَّى أَصْبَحَ، فَاحْضَرِ الْهَجْرَسَ فَقَالَ
لَهُ: إِنَّمَا أَنْتَ وَلَدِي وَأَنْتَ مَنِّي بِالْمَكَانِ الَّذِي تَعْلَمُ، وَزَوْجُكَ ابْنَتِي،
وَقَدْ كَانَتِ الْحَرْبُ فِي أَيْبِكَ زَمَانًا طَوِيلًا، وَقَدْ أَصْطَلَحْنَا وَتَحَاجَزْنَا،
وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ تَدْخُلَ فِي مَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الصِّلَحِ وَأَنْ تَنْطَلِقَ
مَعِي حَتَّى نَأْخُذَ عَلَيْكَ مِثْلَ مَا أَخَذَ عَلَيْنَا. فَقَالَ الْهَجْرَسُ: أَنَا فَاعِلٌ.
فَحَمَلَهُ جَسَّاسٌ عَلَى فَرَسٍ فَرَكِبَهُ وَلَبَسَ لَأَمَتَهُ وَقَالَ: مِثْلِي لَا يَأْتِي
(٥٣٥/١) أَهْلُهُ بِغَيْرِ سِلَاحِهِ، فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا جَمَاعَةً مِنْ قَوْمِهِمَا،
فَقَصَصَ عَلَيْهِمْ جَسَّاسُ الْقِصَّةَ وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الْهَجْرَسَ يَدْخُلُ فِي الَّذِي
دَخَلَ فِيهِ جَمَاعَتُهُمْ وَقَدْ حَضَرَ لِيَعْقِدَ مَا عَقَدْتُمْ. فَلَمَّا قَرَّبُوا الدَّمَ وَقَامُوا
إِلَى الْعَقْدِ أَخَذَ الْهَجْرَسُ بَوْسَطَ رَمَحِهِ ثُمَّ قَالَ: وَفَرَسِي وَأَذْنِيهِ،
وَرَمَحِي وَنَصْلِيهِ، وَسِيفِي وَغِرَازِيهِ لَا يَتْرَكَ الرَّجُلُ قَاتِلَ أَبِيهِ وَهُوَ يَنْظُرُ
إِلَيْهِ، ثُمَّ طَعَنَ جَسَّاسًا فَقَتَلَهُ وَلَحِقَ بِقَوْمِهِ، وَكَانَ آخِرَ قَتِيلٍ فِي بَكْرٍ.
وَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ.

وهي آيات ذواتُ عدد، فُقل شعره إلى عمرو بن مالك، فحلف عمرو أن لا يسقيه الماء حتى يرد زبيب، فسأله الناس أن يورد زبيباً قبل وروده، ففعل وأورده وسقاه حتى يتحلل من يمينه، ثم إنه سقى مهلهلاً من ماء هناك هو أَوْخَمُ المياه، فمات مهلهل.

(عُباد بَضْمُ العَيْن، وفتح الباء الموحدة وتخفيفها).

ذكر الحرب بين الحارث الأعرج وبني تغلب

قال أبو عبيدة: إن بكرًا وتغلب ابني وائل اجتمعوا للمنذر بن ماء السماء، وذلك بعد حربهم، وكان الذي أصْلَحَ بينهم قيس بن شراحيل ابن مرة بن هَمَام، فغزا بهم المنذر بني أكل المرار، وجعل على بني بكر وتغلب ابنه عمرو بن هند، وقال: أغزِ أخوالك. فغزاهم، فاقتلوا، فانهزم بنو أكل المرار وأسروا، وجاؤوا بهم إلى المنذر فقتلهم.

ثم انتقضت تغلب على المنذر ولحقت بالشام، ونحن نذكر سبب ذلك في أخبار شيان إن شاء الله، وعادت الحرب بينهم وبين بكر، فخرج ملك غسان بالشام، وهو الحارث بن أبي شيمر الغساني، فمر بأفريق من تغلب، فلم يستقبلوه. وركب عمرو بن كلثوم التغلبي فلقبه، فقال له: ما (٥٤٠/١) منع قومك أن يتلقوني؟ فقال: لم يعلموا بمرورك، فقال: لئن رجعت لأغزوهم غزوة تركهم أيقاظاً لقُدومي، فقال عمرو: ما استيقظ قومٌ قط إلا نبل رأيهم وعزّت جماعتهم، فلا توقظن نائمهم. فقال: كأنك تتوعدني بهم، أما والله لتعلمن إذا أجال غطاريف غسان الخيل في دياركم أن أيقاظ قومك سينامون نومة لا حُلم فيها، تُجثت أصولهم ويُقنى فلهم إلى اليباس الجدد والنارح لا تُمِد، ثم رجع عمرو بن كلثوم عنه وجمع قومه وقال:

الافاعلم أيت اللعن أنا أيت اللعن نأى ما ترى
تملن أن محمداً قاتل وأن دياراً يكتا شليد
وأليس حي من معد يقاومنا إذا لبس الحديد
فلما عاد الحارث الأعرج غزا بني تغلب، فاقتلوا واشتد القتال بينهم، ثم انهزم الحارث وبنو غسان وقتل أخو الحارث في عدد كثير، فقال عمرو بن كلثوم:

هلا عطفست على أخيك إذا دعا بالئكل ويل أيبك يا ابن أبي شير
فدنى الذي جثت نفسك واصترف فيها أخاك وعامر بن أبي حُجر

يوم عين أباغ

وهو بين المنذر بن ماء السماء وبين الحارث الأعرج بن أبي شير جبلة، وقيل: أبو شير عمرو بن جبلة بن الحارث بن حُجر بن النعمان بن الحارث (٥٤١/١) الأيهم بن الحارث بن مارية الغساني، وقيل في نسبه غير هذا، وقيل: هو أزدي تغلب على غسان، والأول أكثر وأصح، وهو الذي طلب أدراع امرئ القيس من السموال بن عدياء وقتل ابنه، وقيل غيره، والله أعلم.

يستقبلوا؛ ثم اليوم الخامس يوم قضة، وهو يوم التحالف، وشهده الحارث بن عُباد؛ ثم كان بعد ذلك أيام دون هذه، منها: يوم النقيصة، ويوم الفصيل لبكر على تغلب، ثم لم يكن بينهما مزاحفة إنما كان مغاورات، ودامت الحرب بينهما أربعين سنة.

ثم إن مهلهلاً قال لقومه: قد رأيت أن تُبقوا على قومكم فإنهم يحبون صلاحكم، وقد أتت على حربكم أربعون سنة وما لمتكم على ما كان من طلبكم بوتركم، فلو مرت هذه السنون في رفاة عيش لكانت تمَل من طولها، فكيف وقد فني الحيان وتكلت الأمهات وتُم الأولاد ونانحة لا تزال تصرخ في النواحي، ودموع لا ترتفأ، وأجساد لا تدفن، وسيوف مشهورة، ورماح مشرعة، وإن القوم سيرجعون إليكم غداً بمودتهم ومواصلتهم وتتطفأ الأرحام حتى تتواسوا في قبال النعل، فكان كما قال.

ثم قال مهلهل: أما أنا فما تطيب نفسي أن أقيم فيكم ولا أستطيع أن أنظر إلى قاتل كليب وأخاف أن أحملكم على الاستئصال وأنا سائر إلى اليمن، وفارقهم وسار إلى اليمن ونزل في جنب، وهي حي من مذحج، فخطبوا إليه ابنته، فمنعهم، فأجبروه على تزويجها وساقوا إليه صداقها جلوداً من آدم، فقال في ذلك: (٥٣٨/١)

اغزى على تغلب بما لقيت اخت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقلها الأراقم في جنب وكان الجاه من آدم
لوبياتين جاء يخطبها ضرج ما أنف خاطب بدم
الأراقم بطن من جشم بن تغلب، يعني حيث فقدت الأراقم، وهم عشيرتها، تزوجها رجل من جنب بآدم.

ثم إن مهلهلاً عاد إلى ديار قومه، فأخذه عمرو بن مالك بن ضبيعة البكري أسيراً بنواحي هجر فأحسن إسهاره، فمر عليه تاجر يبيع الخمر قدم بها من هَجَر، وكان صديقاً لمهلهل، فأهدى إليه وهو أسير زقاً من خمر، فاجتمع إليه بنو مالك فتحروا عنده بكراً وشربوا عند مهلهل في بيته الذي أفرد له عمرو. فلما أخذ فيهم الشراب تغنى مهلهل بما كان يقوله من الشعر ويتوح به على أخيه كليب، فسمع منه عمرو ذلك فقال: إنه لربان، والله لا يشرب عندي ماء حتى يرد زبيب، وهو فعل كان له لا يرد إلا خمساً في حَمارة القيظ، فطلب بنو مالك زبيباً وهم جراسن على أن لا يهلك مهلهل فلم يقدروا عليه حتى مات مهلهل عطشاً.

وقيل: إن ابنة خال المهلهل، وهي ابنة المجلّل التغلبي، كانت امرأة عمرو، وأرادت أن تأتي مهلهلاً وهو أسير، فقال يذكرها:

طفلة ما ابنة المجلّل يضا ء لُوب لنيضة في العناق
(٥٣٩/١)

فأذهي ما إليك غير بعيد لا يؤاتي العناق من في الوثاق
ضربت نحرها إلي وقالت: يا عدي لقد وقتك الأواقي

لك المُرْد على الجُرْد. فسار المنذرُ حتَّى نزل بمرج حلِمة، فتركه مَنْ به من غَسَّان للأسود، وإنَّما سُمِّيَ مرج حلِمةً بحلِمة ابنة الحارث الغَسَّاني، وستذكر خبرها عند الفراغ من هذا اليوم.

ثم إنَّ الحارث سار فنزل بالمرج أيضاً، فأمر أهل القرى التي في المرج أن يصنعوا الطعام لعسكره، ففعلوا ذلك وحملوه في الجفان وتركوه في العسكر، فكان الرجل يقاتل فإذا أراد الطعام جاء إلى تلك الجفان فأكل منها. فأقامت الحرب بين الأسود والحارث أياماً [لم] يتتصف بعضهم من بعض. فلما رأى الحارث ذلك قعد في قصره ودعا ابنته هنداً وأمرها فاتخذت طيباً كثيراً في الجفان وطيبت به أصحابه، ثم نادى: يا فتیان غَسَّان مَنْ قتل ملك الحيرة زَوْجَهُ ابنتي هنداً، فقال لبيد بن عمرو الغَسَّاني لأبيه: يا أبت أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه لا محالة، ولست أرضى فرسي فأعطني فرسك الزيتية. فأعطاه فرسه. فلما زحف الناس واقتلوا ساعة شذَّ لبيد على الأسود فضربه ضربة فألقاه عن فرسه وانهمز أصحابه في كل وجه، ونزل فاحتز رأسه وأقبل به إلى الحارث وهو على قصره ينظر إليهم، فالتقى الرأس بين يديه. فقال له الحارث: شأنك بابنة عمك فقد زوجتكها. فقال: بل أنصرف فأواسي أصحابي بنفسي فإذا انصرف الناس انصرفت. فرجع فصادف أخاه الأسود قد رجع إليه الناس وهو يقاتل وقد اشتدت نكايته، فتقدَّم لبيد فقاتل فقتل، ولم يُقتل في هذه الحرب بعد تلك الهزيمة غيره، وانهمزت لخم هزيمة ثانية وقتلوا في كل وجه، وانصرفت غَسَّان بأحسن ظفر.

وذكر أنَّ الغبار في هذا اليوم اشتدَّ وكثر حتَّى ستر الشمس وحتَّى ظهرت الكواكب المتباعدة عن مطالع الشمس لكثرة العساكر، لأنَّ الأسود سار بعرب العراق أجمع، وسار الحارث بعرب الشام أجمع، وهذا اليوم من (٥٤٤/١) أشهر أيام العرب، وقد فخر به بعض شعراء غَسَّان فقال:

يَوْمَ وادي خَلِمْةٍ وَاذْلفنا بالعجاج والرماح الظمَاء
إِذْ شَحْنَا أَكْشَا مِنْ رِقَاقٍ رَقَّ مِنْ وَقْعِهَا سَنَا الشُّخَاءِ
وَأَمْتُ هُنْدُ بِالْخُلُقِ إِلَى مَنْ كَانَ ذَا نَجْدَةٍ وَفَضْلُ غَنَاءِ
وَقَصَبَا الْجِفَانِ فِي سَاحَةِ الْمَرْجِ فَعَلْنَا إِلَى جِفَانِ بِلَاءِ
وقيل في قتله غير ما تقدَّم، ونحن نذكره.

قال بعض العلماء: وكان سبه أنَّ الحارث بن أبي شيمر جبلة بن الحارث الأعرج الغَسَّاني خطب إلى المنذر بن المنذر اللخمي ابنته وقصد انقطاع الحرب بين لخم وغَسَّان، فزوجه المنذر ابنته هنداً، وكانت لا تريد الرجال، فصنعت بجلدها شبيهاً بالبرص وقالت لأبيها: أنا على هذه الحالة وتهديني لملك غَسَّان؟ فندم على تزويجها فأمسكها. ثم إنَّ الحارث أرسل يطلبها فمنعها أبوها واعتلَّ عليه.

ثم إنَّ المنذر خرج غازياً، فبعث الحارث بن أبي شمر جيشاً إلى الحيرة فاتهبها وأحرقها. فانصرف المنذر من غزاته لما بلغه من

وسبب ذلك أنَّ المنذر بن ماء السماء ملك العرب سار من الحيرة في معدَّ كلَّها حتَّى نزل بعين أباغ بذات الخيار وأرسل إلى الحارث الأعرج بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جَعْفَنَة بن عمرو مُزَيِّقِيَاء بن عامر الغَسَّاني ملك العرب بالشام: إمَّا أن تعطيني الغدية فأنصرف عنك بجنودي، وإمَّا أن تأذن بحرب.

فأرسل إليه الحارث: أَنْظِرْنَا نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا. فجمع عساكره وسار نحو المنذر وأرسل إليه يقول له: إمَّا شيخان فلا تهلك جنودي وجنودك ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك فَمَنْ قُتِلَ خرج عوضه آخر، وإذا فني أولادنا خرجت أنا إليك فَمَنْ قُتِلَ صاحبه ذهب بالملك فتعاهدا على ذلك، فعمد المنذر إلى رجل من شجعان أصحابه فأمره أن يخرج فيقف بين الصَفَيْنِ ويظهر أنه ابن المنذر، فلما خرج أخرج إليه الحارث ابنه أبا كرب، فلما رآه رجع إلى أبيه وقال: إنَّ هذا ليس بابن المنذر إمَّا هو عبده أو بعض شجعان أصحابه، فقال: يا بني أجزعت من الموت؟ ما كان الشيخ ليغدر. فعاد إليه وقاتله فقتله الفارس وألقى رأسه بين يدي المنذر، وعاد فأمر الحارث ابنه أن يخرج بقتاله والطلب بثأر أخيه، فخرج إليه، فلما واقفه رجع إلى أبيه وقال: يا أبت هذا والله عبد المنذر. فقال: يا بني ما كان الشيخ ليغدر. فعاد إليه فشذَّ عليه فقتله.

فلما رأى ذلك شيمر بن عمرو الحنفي، وكانت أمه غَسَّانية، وهو (٥٤٢/١) مع المنذر، قال: أيها الملك إنَّ الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام، وقد غدرت بآبن عمك دفعَتَيْن. فغضب المنذر وأمر بإخراجه، فلحق بعسكر الحارث فأخبره، فقال له: سل حاجتك. فقال له: جلَّتْكَ وخَلَّتْكَ. فلما كان الغد عيى الحارث أصحابه وحرَّضهم، وكان في أربعين ألفاً، واصطفوا للقتال، فاقتلوا قتالاً شديداً، فقتل المنذر وهُزمت جيوشه، فأمر الحارث بآبنه القتيلين فحملًا على بعير بمنزلة العذَّائين، وجعل المنذر فوقهما قوداً وقال: يا لجلالَةِ دون العذَّائين! فذهبت مثلاً؛ وسار إلى الحيرة فانهبها وأحرقها ودفن آبنه بها وبني الغرَّيْنِ عليهما في قول بعضهم، وفي ذلك اليوم يقول ابن أبي الرِّعْلَاء الضَّبِّيَّاني:

كَمْ تَرَكْنَا بِالْعَيْنِ عَيْنَ أَبَاغٍ مِنْ مَلُوكٍ وَمُرُوقَةٍ أَكْشَاءِ
أَمِطْنَهُمْ سَحَابُ الْمَوْتِ نَسْرَى إِنَّ فِي الْمَوْتِ رَاحَةَ الْأَشْفَاءِ
لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بَعِثَ إِمَّا الْيَمْتُ مَيِّتَ الْأَحْيَاءِ

يوم مرج حِلْمَة وقُتل المُنذر بن المنذر بن ماء

السماء

لَمَّا قُتِلَ المنذر بن ماء السماء، على ما تقدَّم، ملك بعده ابنه المنذر وتلقب الأسود، فلما استقرَّ وثبت قدمه جمع عساكره وسار إلى الحارث الأعرج طالباً بثأر أبيه عنده، وبعث إليه: إنَّني قد أعددت لك الكَهُولَ، على الفحول. (٥٤٣/١) فأجابته الحارث: قد أعددت

ملك غَسَّان يذلل الصلح والإتاوة وقال: إِنِّي باعث رؤوس القبائل لتقرير الحال، وندب أصحابه، فانتدب له مائة غلام، وقيل: ثمانون غلاماً، فألبسهم السلاح وأمر ابنته خليمة أن تطيبهم وتلبسهم، ففعلت. فلما مر بها ليبد بن عمرو فارس الزيتية قبلها، فأنت أباه باكية، فقال: هو أسد القوم ولئن سلم لأنكحته إياك، وأمره على القوم وساروا، فلما قاربوا العسكر العراقي جمع الملك رؤوس أصحابه، وجاء الغسانيون وعليهم السلاح قد لبسوا فوقها الثياب والبرانس، فلما تآمروا عند الملك أبدوا السلاح فقتلوا مَنْ وجدوا، وقتل ليبد بن عمرو ملك العراقيين وأحيط بالغسانيين فقتلوا إلا ليبد بن عمرو، فإن فرسه لم تبرح، فاستوى (٥٤٧/١) عليها، وعاد فأخبر الملك، فقال له: قد أنكحتك ابنتي خليمة. فقال: لا يتحدث الناس أنني فلّ مائة، ثم عاد إلى القوم فقاتل فقتل، وتقدّم أهل العراق أشرافهم وإذا بهم قد قتلوا فضعفت نفوسهم لذلك وزحفت إليهم غَسَّان فانهزموا.

الخبر، فسار يريد غَسَّان، وبلغ الخبر الحارث فجمع أصحابه وقومه فسار بهم فتوافقوا بعين أباغ فاصطفوا للقتال فافتتلوا واشتد الأمر بين الطائفتين، فحملت ميمنة المنذر على ميسرة الحارث، وفيها ابنه فقتلوه، وانهزمت الميسرة، وحملت ميمنة الحارث على ميسرة المنذر فانهزم مَنْ بها وقُتل مقدمها قُرّة بن مسعود بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيان، وحملت غَسَّان من القلب على المنذر فقتلوه وانهزم أصحابه في كل وجه، فقتل منهم بشر كثير وأسر (٥٤٥/١) خلق كثير، منهم من بني تميم ثم من بني حنظلة مائة أسير، منهم شاس بن عبدة، فوفد أخوه علقمة بن عبدة الشاعر على الحارث يطلب إليه أن يطلق أخاه، ومدحه بقصيدته المشهورة التي أولها:

طَحَا بك قلب في الحسان طَرُوبُ
بَعِيدَ الشَّبابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ
نَكَلْنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ أَهْلُهَا
وعَادَتْ عَوَادِيَّتَنَا وَخَطُوبُ
يقول فيها:

فإن تسألوني بالنساء فإنني
بصير بأدواء النساء طيبُ
إذا شاب رأس المرأة أو قلّ ماله
فليس له في وُدِّهن نصيبُ
يُردن ثروة المال حيث وجدته
وشرخُ الشباب عندهن عجيبُ
وقاتل من غَسَّان أهل جفاهها
وهبّ وقاس جالذت وشيبُ
تُخَشِّشُ أَهْلَانَا الحديد عليهم
كما خشخشَت يَسَّ الحِصَا جَنُوبُ
فلم تنج إلا شطيةً بليجها
والأطمير كالفناسة نجيبُ
والأكمي ذو جفاهظ كأنه
بما ابتل من حدّ الظلمات خضيبُ
وفي كلّ شيء قد خُطِطت بنعمي
فحقّق لشاس من نَدَاك قُتُوبُ
فلا تُخَرِّمَنِي ناسلاً عن جَنَابِي
فإنني امرؤ ونسَطُ القِيَابِ غريبُ
(٥٤٦/١)

فلما بلغ إلى قوله: فحقّق لشاس من نَدَاك ذنوب، قال الملك: أي والله وأذنية، ثم أطلق شاساً وقال له: إن شئت الجاء وإن شئت أسراء قومك؟ وقال لجلسائه: إن اختار الجاء على قومه فلا خير فيه. فقال: أيها الملك ما كنت لأختار على قومي شيئاً. فأطلق له الأسرى من تميم وكساه وجباه، وفعل ذلك بالأسرى جميعهم وزوّدهم زاداً كثيراً. فلما بلغوا بلادهم أعطوا جميع ذلك لشاس وقالوا: أنت كنت السبب في إطلاقتنا فاستعِنْ بهذا على دهرك، فحصل له مال كثير من إبل وكسوة وغير ذلك.

(عبدة بفتح العين والياء الموحدة).

وقيل في قتله: إنه جمع عسكراً ضخماً وسار حتّى نزل الشام، وسار ملك الشام، وهو عند الأكثر الحارث بن أبي شمر، فنزل مرج حليمة، وهو يُنسب إلى خليمة بنت الملك، ونزل الملك اللخمي في مرج الصفر، فسير الحارث فارسين طليعة، أحدهما فارس خصاف، وكانت فرسه تجري على ثلاث فلا تَلَحُّق، فسارا حتّى خالطا القوم وقربا من الملك وأمامه شعبة فقتلا حاملها. ففزع القوم فاضطربوا بأسيا فهم فقتل بعضهم بعضاً حتّى أصبحوا، وأتاهم رسل الحارث

قلت: قد اختلف النسابون وأهل السير في مدة الأيام وتقدير بعضها على بعض، واختلفوا أيضاً في المقتول فيها، فمنهم مَنْ يقول: إن يوم خليمة هو اليوم الذي قُتل فيه المنذر بن ماء السماء، ويوم أباغ هو اليوم الذي قُتل فيه المنذر بن المنذر، ومنهم مَنْ يقول بضد ذلك، ومنهم مَنْ يجعل اليومين واحداً فيقول: لم يُقتل إلا المنذر بن ماء السماء، وأمّا ابنه المنذر فمات بالحيرة، وقيل: إن المقتول من ملوك الحيرة غيرهما، فالصحيح أن المقتول هو المنذر بن ماء السماء لا شك فيه، وأمّا ابنه ففيه خلاف كثير، والأصح أنه لم يُقتل، ومَنْ أثبت قتله اختلفوا في سببه، على ما ذكرناه.

وإنما ذكرت اختلافهم والحادثة واحدة لأن كلّ سبب منها قد ذكره بعض العلماء، فمتى تركنا أحدهما ظنّ من ليس له معرفة أن كل سبب منها حادث مستقل. وقد أهماكنا، فأتينا بهما جميعاً لذلك ونبها عليه.

ذكر قتل مُضَرَّط الحجارة

وهو عمرو بن المنذر بن ماء السماء اللخمي صاحب الحيرة، وكان يُلقب مُضَرَّط الحجارة لشدة ملكه وقوة سياسته، وأمّه هند بنت الحارث بن عمرو (٥٤٨/١) المقصور بن أكل المرار، وهي عمّة امرئ القيس بن حُجر بن الحارث.

وكان سبب قتله أنه قال يوماً لجلسائه: هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي يأتي أن تخدم أمّه أمّي؟ قالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فإن أمّه ليلى بنت مُهَلَّب بن ربيعة، وعمّها كليب وائل، وزوجها كلثوم، وابنها عمرو. فسكت مُضَرَّط الحجارة على ما في نفسه وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ويسأله أن تزور أمّه ليلى أمّ نفسه هنداً بنت الحارث. فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان من بني تغلب ومعه أمّه ليلى، فنزل على شاطئ الفرات،

ماء بين البصرة والكوفة. وأقبل سلمة فيمن معه وفي الصنائع أيضاً، وهم قوم كانوا مع الملوك من شذاذ العرب، فأقبلوا إلى الكلاب وعلى تغلب السفاح بن خالد بن كعب ابن زهير، فاقتلوا قتلاً شديداً، وثبت بعضهم لبعض. فلما كان آخر النهار من ذلك اليوم خذلت بنو حنظلة وعمرو بن تميم والرباب بكر بن وائل وانهزموا، وثبت بكر وانصرفت بنو سعد ومن معها عن تغلب وصبرت تغلب، ونادى منادي شرحبيل: مَنْ أتاني برأس سلمة فله مائة من الإبل، ونادى منادي سلمة: مَنْ أتاني برأس شرحبيل فله مائة من الإبل. فاشتد القتال حينئذ كل يطلب أن يظفر لعله يصل إلى قتل أحد الرجلين لياخذ مائة من الإبل. فكانت الغلبة آخر النهار لتغلب وسلمة، ومضى شرحبيل منهزماً، فتيهه ذو السنيّة التغلبي، فالتفت إليه شرحبيل فضره على ركبته فأطن رجله، وكان ذو السنيّة أبا أبي حنّس لأمّهم، فقال لأخيه: قتلني الرجل! وهلك ذو السنيّة! فقال أبو حنّس لشرحبيل: قتلني الله إن لم أقتلك! وحمل عليه فادركه، فقال: يا أبا حنّس اللبّين! يعني الدية. فقال: قد هزقت لينا كثيراً! فقال: يا أبا حنّس أملكاً بسوقه؟ فقال: إن أخي ملكي. فطعنه فالتقاء عن فرسه ونزل إليه فأخذ رأسه وبعث به إلى سلمة مع ابن عم له، فاتاه به وألقاه بين يديه، فقال سلمة: لو كنت ألقيت أرفق من هذا! وعُرفت الندامة في وجه سلمة والجزع عليه. فهرب أبو حنّس (٥٥١/١) منه، فقال سلمة:

ألا أبلغ أبا حنّس رسولاً فما لك لا تجيء إلى الشواب
لتعلم أنّ خير الناس طُوراً قيل بين أحجار الكلاب
تداعت حوله جُثم بن بكر وأسلمه جفاسيس الرباب
فأجابه أبو حنّس فقال:

أحاذر أن أجيبك ثم تجبو حياة إيبك يوم ضيّعات
وكانت غيرة شناعة تهفو قلدها أبوك إلى الممات
وكان سبب يوم ضيّعات أن ابناً للحارث كان مسترضعاً في تميم وبكر ولدغته حياة فمات، فأخذ خمسين رجلاً من تميم وخمسين رجلاً من بكر فقتلهم به. ولما قُتل شرحبيل قام بنو زيد مناة بن تميم دون أهله وعياله فمنعوهم وحالوا بين الناس وبينهم حتى الحقوهم بقومهم ومأمنهم؛ ولما بلغ خبر قتله أخاه معدي كرب، وهو غلفاء، قال يرثيه:

إن جنبي عن الفراش لئلا ي كجافي الأسر فوق الظراب
من حليث نمت إلي فما تـر فأعيني ولا أبيع شرابي
مرة كالضعاف أكرمها النا من على خرّ ملة كالشهاب
(٥٥٢/١)

من شرحبيل إذ تقاوره الأـر ماخ من بغد لندة وشباب
يا ابن أمي ولو شهادتك إذ تد عو تميماً وأنت غير مُعاب
ثم طاعت من ورائك حتى يلبغ الرحب أو تبرز نسابي
أصنت وائل وعادتها الإحـد سان بالجنو يوم ضرب الرقاب

وبلغ عمرو بن هند قدومه فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فضع لهم طعاماً ثم دعا الناس إليه فقرأ إليهم الطعام على باب السراق، وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه في السراق، ولأمّهم هند قبة في جانب السراق، وليلي أم عمرو بن كلثوم معها في القبة، وقد قال مضطرب الحجارة لأمّهم: إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فتحني خدمك عنك، فإذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها فلتناولك الشيء بعد الشيء.

فعلت هند ما أمرها به ابنها، فلما استدعي الطرف قالت هند لليلي: ناوليني ذلك الطبق. فقالت: ليتّمت صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فالتحت عليها. فقالت ليلى: واذلاء يا آل تغلب! فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم فثار الدّم في وجهه والقوم يشربون، فعرف عمرو بن هند الشر في وجهه، وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق في السراق، وليس هناك سيف غيره، فأخذه ثم ضرب به رأس مضطرب الحجار فقتله، وخرج فنادى: يا آل تغلب! فاتهبوا ماله وخيله وسبوا النساء وساروا فلاحقوا بالحيرة، فقال أفتون التغلبي:

لعمرك ما عمرو بن هند قد دعا لتخدم ليلى أمّك بعوق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مُصلّفاً وأمسك من نعماته بالمختر

يوم الكلاب الأول

قال ابن الكلبي: أول من اشتد ملكه من كينة حُجر أكل المزارع بن عمرو بن معاوية بن الحارث الكندي، فلما هلك ملك بعده ابنه عمرو مثل ملك أبيه فسُمي المقصور لأنّه قُصر على ملك أبيه، فتزوَّج عمرو أم أناس بنت عوف بن مُحلم الشيباني، فولدت له الحارث، فملك بعد أبيه أربعين سنة، وقيل: ستين سنة، فخرج يتصيد فرأى عانة وهي حمر الوحش، فشد عليها، فانفرد منها حمار، فتيهه وأقسم أن لا يأكل شيئاً قبل كبده، وهو بمسحلان، فطلبته الخيل ثلاثة أيام حتى أدركته، فأثي به وقد كاد يموت من الجوع، فشوي على النار وأطعم من كبده وهي حارة، فمات، وكان الحارث فرق بينه في قبائل معد، فجعل حُجراً في بني أسد وكنانة، وهو أكبر ولده؛ وجعل شرحبيل في بكر بن وائل وبني حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم وبني أسيد بن عمرو بن تميم، والرباب؛ وجعل سلمة، وهو أصغرهم، في بني تغلب والنُزير بن قاسط وبني سعد بن زيد مناة بن تميم؛ وجعل ابنه معدي كرب، ويُعرف بغلفاء، في قيس عيلان، وقد تقدّم هذا في قتل حُجر أبي امرئ القيس، وإنّما أعدناه هاهنا للحاجة إليه. (٥٥٠/١)

فلما هلك الحارث تشتت أمر أولاده وتفرقت كلمتهم ومشى بينهم الرجال، وكانت المغاورة بين الأحياء الذين معهم، وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع وزحف إليه بالجيوش. فسار شرحبيل فيمن معه من الجيوش فنزل الكلاب، وهو

عمرو، قال له عمرو بن ملقظ الطائي يَحْرُسُ عَمْرًا عَلَى زُرَّارَةَ:
مَنْ مَبْلَغُ عَمْرًا بَانَ الدَّ مَرَّةً لَمْ يُخْلَقْ صُبْرَةً
هَذَا إِنَّ عَجْزَةَ أَمْسُو بِالْمَفْعِ اسْفَلَ مِنْ أَوَارَةَ
فَنَاقِلُ زُرَّارَةَ لَا أَرَى فِي الْقَوْمِ أَوْفَى مِنْ زُرَّارَةَ

فقال عمرو: يا زرارة ما تقول؟ قال كُذِّبَتْ، قد علمتِ عداوتهم فيك. قال: صدقت. فلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ سَارَ زُرَّارَةَ مَجْدًا إِلَى قَوْمِهِ وَلَمْ يَلَيْكُ أَنْ مَرَضَ. فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا حَاجِبُ ضُمَّ إِلَيْكَ غُلْمَتِي فِي بَنِي نَهْشَلٍ. وَقَالَ لَابْنِ أَخِيهِ عَمْرُو بْنُ عَمْرُو: عَلَيْكَ بِعَمْرُو بْنِ مَلْقَظٍ فَإِنَّهُ حَرَّضَ عَلَيَّ الْمَلِكَ. فَقَالَ لَهُ: يَا عَمَاهُ لَقَدْ أَسْنَدْتَ إِلَيَّ أَبْعَثْهُمَا شَقَّةً وَاشْدَهُمَا شَوْكَةً.

فَلَمَّا مَاتَ زُرَّارَةَ تَهَيَّأَ عَمْرُو بْنُ عَمْرُو فِي جَمْعٍ وَغَزَا طَيِّئًا فَأَصَابَ الطَّرِيفَيْنِ: طَرِيفَ بْنِ مَالِكٍ، وَطَرِيفَ بْنِ عَمْرُو، وَقَتَلَ الْمَلَاقِطَ؛ فَقَالَ عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: ذَلِكَ:

وَنَحْنُ جَلْبَانُ مِنْ ضَرِيَّةِ خَيْلِنَا نَجَبْنَاهَا حَسَدَ الْإِكَامِ قَطَاقِطَا
أَصْبْنَا الطَّرِيفَ وَالطَّرِيفَ بَنَ مَالِكٍ وَكَانَ شِفَاؤُ الْوَاصِيْنَ الْمَلَاقِطَا
(٥٥٥/١) فَلَمَّا بَلَغَ عَمْرُو بْنُ الْمَنْذَرِ وَفَاةَ زُرَّارَةَ غَزَا بَنِي دَارِمَ، وَقَدْ كَانَ حَلَفَ لِقَتْلَانِ مِنْهُمْ مِائَةَ، فَسَارَ يَطْلُبُهُمْ حَتَّى بَلَغَ أَوَارَةَ، وَقَدْ تَفَرَّقُوا بِهِ فَتَفَرَّقُوا. فَأَقَامَ مَكَانَهُ وَبَثَّ سَرَايَاهُ فِيهِمْ، فَأَتَوْهُ بِتِسْعَةِ وَتَسْعِينَ رَجُلًا سِوَى مَنْ قَتَلُوهُ فِي غَارَاتِهِمْ فَقَتَلَهُمْ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْبَرَاكِمِ شَاعِرٌ لِمَدْحِهِ فَأَخَذَهُ لِيَقْتُلَهُ لَيْتَمَ مِائَةَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الشَّقِيَّ وَافِدُ الْبَرَاكِمِ! فَذَهَبَتْ مِثْلًا.

وقيل: إِنَّهُ نَذَرَ أَنْ يَحْرِقَهُمْ فَلِلَّذَلِكَ سُمِّيَ مُحْرَقًا، فَأَحْرَقَ مِنْهُمْ تِسْعَةً وَتَسْعِينَ رَجُلًا وَاجْتَنَزَ رَجُلٌ مِنَ الْبَرَاكِمِ فَشَمَّ قَسَارَ اللَّحْمِ فَظَنَّ أَنَّ الْمَلِكَ يَتَّخِذُ طَعَامًا فَقَصَدَهُ. فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَبَيْتُ اللَّعْنَ أَنَا وَافِدُ الْبَرَاكِمِ؛ فَقَالَ: إِنَّ الشَّقِيَّ وَافِدُ الْبَرَاكِمِ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَقُدِّفَ فِي النَّارِ، فَقَالَ جَوْرِىٌّ لِلْفَرَزْدَقِ:

أَيُّنَ الَّذِينَ يَسَارُ عَمْرُو أَخْرَقُوا أَمْ أَيْسَرُ أَسْعَدَ فَيَكُمُ الْمُسْتَرْضَعُ
وَصَارَتْ تَمِيمٌ بَعْدَ ذَلِكَ يَعْبُرُونَ بِحُبِّ الْأَكْلِ لَطْمَعِ الْبَرَجَمِيِّ فِي الْأَكْلِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

إِذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِئْتُ بِزَادٍ
بُخْنِي أَوْ بِلَحْمٍ أَوْ بِتَمِيمٍ أَوْ الشَّيْءِ الْمَلْفُوفِ فِي الْبِجَادِ
تَرَاهُ يُقَبِّبُ الطَّحَاةَ حَوْلًا لِيَأْكَلَ رَأْسَ لَقْمَانِ بْنِ عَادٍ

قيل: دخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية: ما الشيء المَلْفُوفُ فِي الْبِجَادِ يَا أَبَا بَحْرٍ؟ قَالَ: السَّخِينَةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. وَالسَّخِينَةُ طَعَامٌ تُعَبِّرُ بِهِ قَرِيشٌ كَمَا كَانَتْ تُعَبِّرُ تَمِيمٌ بِالْمَلْفُوفِ فِي الْبِجَادِ. قَالَ: فَلَمْ يَرُ شَمَازِحَانَ أَوْفَرَ مِنْهُمَا. (٥٥٦/١)

يَوْمَ فَرَّتْ بَنُو تَمِيمٍ وَوَلَّتْ خِيْلَهُمْ يَكْتَسِفُونَ بِالْأَنْتَابِ وَهِيَ طَوِيلَةٌ؛ ثُمَّ إِنَّ تَغْلِبَ أَخْرَجُوا سَلَمَةَ مِنْ بَيْنِهِمْ فَلَجَأَ إِلَى بَكْرِ بْنِ وائِلٍ وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ، وَلَحِقَتْ تَغْلِبَ بِالْمَنْذَرِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ اللَّخْمِيِّ.

(الْكَلَابُ بِضَمِّ الْكَافِ. أَسْتَدَّ بْنُ عَمْرُو بِضَمِّ الْهَمْزَةِ، وَفَتَحَ السَّيْنَ الْمَهْمَلَةَ، وَتَشْدِيدُ الْبَاءِ الْمَشْنَأَةُ مِنْ تَحْتِ. وَذُو السَّيْنَةِ بِضَمِّ السَّيْنَ الْمَهْمَلَةِ، تَصْغِيرُ سَنَ. وَالرَّيَابُ بِكَسْرِ الرَّاءِ، وَتَخْفِيفُ الْبَاءِ الْأَوَّلَى الْمَوْحَدَةُ).

يوم أواره الأول

وهو يوم كان بين المنذر بن امرئ القيس وبين بكر بن وائل.

وكان سببه أَنَّ تَغْلِبَ لَمَّا أَخْرَجَتْ سَلَمَةَ بْنَ الْحَارِثِ عَنْهَا التَّجَا إِلَى بَكْرِ ابْنِ وائِلٍ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنَفًا، فَلَمَّا صَارَ عِنْدَ بَكْرِ أَذْعَنَتْ لَهُ وَحَشَدَتْ عَلَيْهِ وَقَالُوا: لَا يَمْلِكُنَا غَيْرُكَ، فَبِعَتْ إِلَيْهِمُ الْمَنْذَرُ يَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ، فَأَبَوْا ذَلِكَ، فَحَلَفَ الْمَنْذَرُ لَيْسِيرَ إِلَى بَكْرِ فَبَانِ ظَفَرُ بِهِمْ فَلْيَذْبَحْتَهُمْ عَلَى قَلْعَةِ جَبَلِ أَوَارَةَ حَتَّى يَبْلُغَ الدَّمُ الْحَضِيضَ. (٥٥٣/١)

وسار إليهم في جموعه، فالتقوا بأوارَةَ فاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا وَأَجَلَّتِ الْوَاقِعَةُ عَنْ هَزِيمَةِ بَكْرِ وَأَسْرَ يَزِيدُ بْنُ شَرْحُبِيلِ الْكَنْدِيِّ، فَأَمَرَ الْمَنْذَرُ بِقَتْلِهِ، فَقُتِلَ، وَقُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ بَشَرٌ كَثِيرٌ، وَأَسْرَ الْمَنْذَرُ مِنْ بَكْرِ أَسْرَى كَثِيرَةً فَأَمَرَ بِهِمْ فَذَبَحُوا عَلَى جَبَلِ أَوَارَةَ، فَجَعَلَ الدَّمُ يَجْمَدُ. فَقِيلَ لَهُ: أَبَيْتُ اللَّعْنَ لَوْ ذَبَحْتَ كُلَّ بَكْرِيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَمْ تَبْلُغْ دِمَاؤُهُمُ الْحَضِيضَ! وَلَكِنْ لَوْ صَبَبْتَ عَلَيْهِ الْمَاءَ! ففعل فسال الدم إلى الحضيض، وأمر بالنساء أَنْ يُحْرِقْنَ بِالنَّارِ.

وكان رجل من قيس بن ثعلبة منقطعاً إلى المنذر، فكَلَّمَهُ فِي سَبِي بَكْرِ ابْنِ وائِلٍ، فَأَطْلَقَهُنَّ الْمَنْذَرُ، فَقَالَ الْأَعْشَى يَفْتَخِرُ بِشَفَاعَةِ الْقَيْسِيِّ إِلَى الْمَنْذَرِ فِي بَكْرِ:

وَمِنَّا الَّذِي أَعْطَاهُ بِالْجَمْعِ رَهْ عَلَى قَائِدٍ وَلِلْمَلُوكِ هَيْأَتُهَا
سَيَايَا بَنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أَوَارَةَ عَلَى النَّارِ إِذْ تَجَلَّى لَهُ فَيَأْتِيهَا

يوم أواره الثاني

كان عمرو بن المنذر اللَّخْمِيُّ قَدْ تَرَكَ ابْنًا لَهُ اسْمُهُ أَسْعَدُ عِنْدَ زُرَّارَةَ بْنِ عُدُسِ التَّمِيمِيِّ؛ فَلَمَّا تَرَعِيَ مَرَّتَ بِهِ نَاقَةٌ سَمِينَةٌ فَعَبَتْ بِهَا فَرَمَى ضَرْعَهَا، فَشَدَّ عَلَيْهِ رِيْهَا سَوْيْدٌ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَارِمِ التَّمِيمِيِّ فَقَتَلَهُ. وَهَرَبَ (٥٥٤/١) فَحَلَقَ بِمَكَّةَ فَحَالَفَ قَرِيشًا. وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْمَنْذَرِ غَزَا قَبْلَ ذَلِكَ وَمَعَهُ زُرَّارَةُ فَأَخْضَقَ، فَلَمَّا كَانَ حِيَالَ جَلْبِي طَيٍّ قَالَ لَهُ زُرَّارَةُ: أَيُّ مَلِكٍ إِذَا غَزَا لَمْ يَرْجِعْ وَلَمْ يُصِيبْ، فَمِثْلٌ عَلَى طَيٍّ فَإِنَّكَ بِحِيَالِهَا، فَمَالَ إِلَيْهِمْ فَاسَرَّ وَقَتَلَ وَغَنِمَ، فَكَانَتْ فِي صُدُورِ طَيٍّ عَلَى زُرَّارَةَ، فَلَمَّا قَتَلَ سَوْيْدَ أَسْعَدَ، وَزُرَّارَةَ يَوْمَئِذٍ عِنْدَ

ذكر قتل زُهَيْر بن جَذِيمة وخالد بن جعفر بن كلاب

والحارث بن ظالم المرِّي وذكر يوم الرِّخْرَاحِ

كان زُهَيْر بن جَذِيمة بن رَوَاحَة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قُطَيْبة بن عيس العيسِيّ، وهو والد قيس بن زهير صاحب حرب داحس والغبراء، سيّد قيس عَيْلان، فتزوَّج إليه ملك الحيرة، وهو النعمان بن امرئ القيس جدّ النعمان بن المنذر لشرفه وسودده، فأرسل النعمان إلى زهير يستزيّره بعض أولاده، فأرسل ابنه شامساً فكان أصغر ولده، فأكرمه وحباه، فلمّا انصرف إلى أبيه كساه حُللاً وأعطاه مالاً طيباً. فخرج شامس يريد قومه فبلغ ماءً من مياه غنيّ بن أعصر فقتله رِيّاح بن الأشمل الغنويّ وأخذ ما كان معه وهو لا يعرفه، وقيل لزُهَيْر: إنّ شامساً أقبل من عند الملك وكان آخر العهد به بماء من مياه غنيّ. فسار زهير إلى ديار غنيّ، وهم حلفاء في بني عامر ابن صَعَصعة، فاجتمعوا عنده، فسألهم عن ابنه، فحلفوا أنّهم لم يعلموا خبره، قال: لكنّي أعلمه، فقال له أبو عامر: فلما الذي يُرضيك منّا؟ قال: واحدة من ثلاث: إمّا تُعيّن ولدي، وإمّا تسلمون إليّ غنيّاً حتى أقتلهم بولدي، وإمّا الحرب بيننا وبينكم ما بقينا وبقيتم. فقالوا: ما جعلت لنا في هذه مخرجاً، أمّا إحياء ولدك فلا يقدر عليه إلّا الله، وأمّا تسليم غنيّ إليك فهم يمتنعون ممّا يمتنع منه الأحرار، وأمّا الحرب بيننا فوالله إنّنا لنحبّ رضاك ونكره سُخطك، ولكن إن شئت الدِّيّة، وإن شئت تطلب قاتل ابنك فنسلمه إليك أو تهب دمه فإنّه لا يضيع في القرابة والجوار.

فقال: ما أفعل إلّا ما ذكرتُ. فلمّا رأى خالد بن جعفر بن كلاب تعدّي (٥٥٧/١) زهير على أخواله من غنيّ قال: والله ما رأينا كاليوم تعدّي رجل على قومه، فقال له زهير: فهل لك أن تكون طلبتي عندك وأترك غنيّاً؟ قال: نعم؛ فانصرف زهير وهو يقول:

فلولا كلاب قد أخذتُ فريّتي برّة غنيّ أعبداً ومواليا
ولكن حنّهم عصبة عامريّة يهزّون في الأرض القصار المواليا
مساغير في الهيجا مصاليّ في الوغى أخوهم عزيز لا يخاف الأعاديا
يقيمون في دار الحفاظ تكرماً إذا ما فنيّ القوم أضحت خواليا

ثمّ إنّه أرسل امرأة وأمرها أن تكتن نسبها وأعطاهما لحم جزور سمينة وسيّرها إلى غنيّ لتبيع اللحم بطيب وتسال عن حال ولده. فانطلقت المرأة إلى غنيّ وفعلت ما أمرها، فأنتهت إلى امرأة رياح بن الأشمل وقالت لها: قد زوجتُ بتاً لي وأبغني الطيب بهذا اللحم، فأعطتها طيباً وحذّتها بقتل زوجها شامساً. فعادت المرأة إلى زهير وأخبرته، فجمع خيله وجعل يغير على غنيّ حتى قتل منهم مقتلة عظيمة، ووقعت الحرب بين بني عيس وبني عامر وعظم الشرّ.

ثمّ إنّ زهيراً خرج في أهل بيته فسي الشهر الحرام إلى عكاظ، فالتقى هو وخالد بن جعفر بن كلاب. فقال له خالد: لقد طال شرّاًنا

منك يا زهير! فقال زهير: أما والله ما دامت لي قوّة أدرك بها ثأراً فلا انصرام له. وكانت هوازن تؤتّي زهير بن جَذِيمة الإتاوة كلّ سنة بعكاظ، وهو يسومها الخسف، وفي أنفسها منه غيظ وحقّد، ثمّ عاد خالد وزهير إلى قومهما، فسبق خالد إلى بلاد هوازن فجمع إليه قومه ونديهم إلى قتال زهير، فأجابوه وتاهبوا (٥٥٨/١) للحرب وخرجوا يريدون زهيراً وهم على طريقه، وسار زهير حتّى نزل على أطراف بلاد هوازن، فقال له ابنه قيس: انج بنا من هذه الأرض فإنّا قريب من عدونا. فقال له: يا عاجز وما الذي تخوّفتني به من هوازن وتفتّي شرّاً؟ فأنّا أعلم الناس بها، فقال ابنه: دع عنك اللجاج وأطعني وسيّر بنا فإنّي خائف عاديّتهم.

وكانت مُضامر بنت الشريد بن رياح بن بَقَطَة بن عُصَيّة السُلَيميّة أمّ ولد زهير وقد أصاب بعض إخوتها دماً فلحقّ ببني عامر، وكان فيهم، فأرسله خالد عينا ليأتيه بخير زهير، فخرج حتى أتاهم في منزلهم، فعلم قيس ابن زهير حاله وأراد هو وأبوه أن يوثقوه ويأخذوه معهم إلى أن يخرجوا من أرض هوازن، فمنعت أخته، فأخذوا عليه اليهودي ألاّ يخبر بهم وأطلقوه فسار إلى خالد ووقف إلى شجرة يخبرها الخير، فركب خالد ومنّ معه إلى زهير، وهو غير بعيد منهم، فاقبلوا قتالاً شديداً، والتقى خالد وزهير فاقبلا طويلاً ثمّ تعانقا فسقطا على الأرض، وشدّ ورفاء بن زهير على خالد وضربه بسيفه فلم يصنع شيئاً لأنّه قد ظاهر بين درعَيْن، وحمل جُنْدُح ابن البكاء، وهو ابن امرأة خالد، على زهير فقتله، وهو وخالد يعتركان، فثار خالد عنه وعادت هوازن إلى منازلها، وحمل بنو زهير أباهم إلى بلادهم، فقال ورفاء بن زهير في ذلك:

رايتُ زهيراً تحت كلّ كَلْبٍ خالد فاقبلتُ أسمي كالنَجول إبادير
إلى بطليّن يغيّران كِلاهما يريد رياش السيف والسيف نادير
فشلتُ يميني يوم أضرب خالداً ويمنعه منّي الحديّد المظاهير

(٥٥٩/١)

فيا ليت أني قبل أيام خالد وقبل زهير لسم تلنّسي مُضامير
لعمري لقد بُشّرتُ بي إذ ولّنتني فماذا الذي ردّت عليك البشائر؟
فلا يذغني قومي صريحاً بحرّة لئن كنتُ مقتولاً وسلم عساير
فطير خالد إن كنتُ تستطيع طيرة ولا تَقْنن إلّا وقلبك حاذير
أشكّ المايا إن بقيت بضربة تفارق منها العيش والموت حاضير

وقال خالد يميني على هوازن بقتله زهيراً:

أبلغ هوازن كيف تكفّر بعدما أعتقهم فوالدوا أحرارا
وقلتُ ربهّم زهيراً بقدمنا جديع الأسوف وأكثر الأوتارا
وجعلتُ مهر نسائهم ودياتهم عقل الملوكة هجاناً وبكارا

وكان زهير سيّد غطفان، فعلم خالد أنّ غطفان ستطلبه بسيّدتها، فسار إلى النعمان بن امرئ القيس بالحيرة فاستجاره، فأجاره. فضرب له قبة، وجمع بنو زهير لهوازن، فقال الحارث بن ظالم المرِّي: اكفوني حرب هوازن فأنّا أكفيكم خالد بن جعفر.

لي. قالت: رأيت رجلاً قد سقط حاجباه فهو يرفعهما بخرقه، صغير العينين، وعن أمره يصدرون. قال: ذاك الأحوص وهو سيد القوم. قالت: ورأيت رجلاً قليل المنطق إذا تكلم اجتمع القوم كما تجتمع الإبل لفحلها، أحسن الناس وجهاً، ومعه ابنان له يلازمانه. قال: ذلك مالك بن جعفر وابناه عامر وطُفَيْلُ قال: ورأيت رجلاً جسيماً كأن لحيته محمرة مُعَصْفَرَةٌ قال: ذاك عوف بن الأحوص. قالت: ورأيت رجلاً هلقاماً جسيماً قال: ذاك ربيعة بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب قال: ورأيت رجلاً أسود أخنس قصيراً. قال: ذاك ربيعة بن قُرْط بن عبد الله بن أبي بكر قال: ورأيت رجلاً أقرن الحاسجيين، كثير شعر السيلة، يسيل لعابه على لحيته إذا تكلم قال: ذاك جُنْدُح بن البكاء. قالت: ورأيت رجلاً صغير العينين ضيق الجبهة يقود فرساً له معه جفَيْر لا يفارق يده قال: ذاك ربيعة بن عُقَيْل بن كعب. قالت: ورأيت رجلاً معه ابنان أصهبان إذا أقبلا رامهما الناس بأبصارهم، فإذا أدبرا كانا كذلك قال: ذاك الصعق بن عمرو بن خُوَيْلِد بن نُفَيْل وابناه يزيد وزُرْعَة قال: ورأيت رجلاً لا يقول كلمة إلا وهي أحد من شفرة قال: ذاك عبد الله بن جَعْلَة بن كعب.

وأمرها زُرارة فدخلت بيتها وأرسل زُرارة إلى الرعاء يأمرهم بإحضار (٥٦٢/١) الإبل، ففعلوا. وأمرهم فحملوا الأهل والأثقال وساروا نحو بلاد بغيض، وفرق الرسل في بني مالك بن حنظلة فأتوه، فأخبرهم الخبر وأمرهم، فوجهوا أبقالهم إلى بلاد بغيض، ففعلوا وياتوا معدّين.

وأصبح بنو عامر وأخبرهم الغنوي حال الظعينة وهرتها فسقط في أيديهم واجتمعوا يديرون الرأي، فقال بعضهم: كآني بالظعينة قد أتت قومها فأخبرتهم الخبر، فحذروا وأرسلوا أهلهم وأموالهم إلى بلاد بغيض وياتوا معدّين لكم في السلاح فاركبوا بنا في طلب نعمهم وأموالهم فإنهم لا يشعرون حتى نصيب حاجتنا ونصرف. فركبوا يطلبون طعن بني دارم، فلما أبطأ القوم عن زُرارة قال لقومه: إن القوم قد توجهوا إلى طعنكم وأموالكم فسيروا إليهم. فساروا مجذّين فلحقوهم قبل أن يصلوا إلى الطعن والنعم، فاقتلوا قتالاً شديداً، فقتلت بنو مالك بن حنظلة ابن الخمس التغلبي رئيس جيش النعمان، وأسرت بنو عامر مَعْد بن زُرارة، وصبر بنو دارم حتى انتصف النهار، وأقبل قيس بن زهير فيمن معه من ناحية أخرى، فسانهزمت بنو عامر وجيش النعمان وعادوا إلى بلادهم ومعد أسير مع بني عامر، فبقي معهم حتى مات.

وفي تلك الأيام أيضاً مات زُرارة بن عُدَس.

وقيل في استجارة الحارث بيني تميم غير ذلك، وهو أن النعمان طلب شيئاً يغيظ به الحارث بعد قتل خالد وهربه، فقيل له: كان قصد الحيرة ونزل على عياض بن ذَهَب التميمي وهو صديق له، فبعث إليه

وسار الحارث حتى قدم على النعمان فدخل عليه وعنده خالد، وهما يأكلان تمرأ، فأقبل النعمان يسأله، فحسده خالد، فقال للنعمان: أبيت اللعن! هذا رجل لي عنده يد عظيمة، قتلت زهيراً وهو سيد غطفان فصار هو سيدها. فقال الحارث: سأجزيك على يدك عندي، وجعل الحارث يتناول التمر ليأكله فيقع من يسن أصابعه من الغضب، فقال عُرْوَة لأخيه خالد: ما أردت بكلامه وقد عرفته فتاكاً؟ فقال خالد: وما يخوفني منه؟ فوالله لو رأيته نائماً ما أبقيته.

ثم خرج خالد وأخوه إلى قُبَيْتِهما فشرّجاها عليهما، ونام خالد وعروة عند رأسه يحرسه، فلما أظلم الليل انطلق الحارث إلى خالد فقطع شرج (٥٦٠/١) القبة ودخلها وقال لعروة: لئن تكلمت قتلتك! ثم أبى خالد، فلما استبقي قال: أتعرفني؟ قال: أنت الحارث. قال: خذ جزء يدك عندي! وضربه بسيفه المغلوب فقتله، ثم خرج من القبة وركب راحلته وسار.

وخرج عروة من القبة يستغيث وأتى بساب النعمان فدخل عليه وأخبره الخبر، فبث الرجال في طلب الحارث.

قال الحارث: فلما سرت قليلاً خفت أن أكون لم أقتله فعُدْتُ متتكرراً واختلطت بالناس ودخلت عليه فضربته بالسيف حتى تيقت أنه مقتول وعُدْتُ فلحقته بقومي؛ فقال عبد الله بن جَعْلَة الكلابي:

يا حار لو بُهْتَه لوجنته لا طائشاً زعشاً ولا مغزّالاً
شقت عليه الجعفرية جبهها جزعاً وما تكي هناك غلّالاً
فانعوا إيا بحر بكل مجرّب حران يُحسب في القنّة هلالاً
فلْيُقتلن بخالد سوراكنم وليقتلن لظالم تمثالاً
فأجابه الحارث:

تالّله قد بُهْتَه فوجنته رخنو اليدين موكلاً عسقالاً
فعلوته بالسيف أضرب رأسه حتى أضلّ بسلجيه السريالاً

فجعل النعمان يطلبه ليقبله بجاره، وهوازن يطلبه ليقبله بسيدها خالد، فلحق بتميم فاستجار بضمرة بن ضمرة بن جابر بن قُطْن بن نُهْشَل بن دارم، فأجاره على النعمان وهوازن، فلما علم النعمان ذلك جهز جيشاً إلى بني دارم عليهم ابن الخمس التغلبي، وكان يطلب الحارث بدم أبيه لأنه كان قتله. (٥٦١/١)

ثم إن الأحوص بن جعفر أخا خالد جمع بني عامر وسار بهم، فاجتمعوا هم وعسكر النعمان على بني دارم وساروا، فلما صاروا بأدنى مياه بني دارم رأوا امرأة تجني الكمأة ومعها جمل لها، فأخذها رجل من غني وتركها عنده.

فلما كان الليل نام فقامت إلى جملها فركبته وسارت حتى صبحت بني دارم وقصدت سيدهم زُرارة بن عُدَس فأخبرته الخبر وقالت: أخذني أمس قوم لا يريدون غيرك ولا أعرفهم قال: فصفيهم

النعمان فأخذ يلبأ له، فركب الحارث وأتى الحيرة متخفياً واستنقذ ماله من الرعاء وردّه عليه وطلب شيئاً يغيظ به النعمان، فرأى ابنه غضبان ف ضرب رأسه بالسيف (٥٦٣/١) قتلته، وبلغ النعمان الخبر فبعث في طلبه فلم يدرُك، فقال الحارث في ذلك:

أَتُصَيِّ حِمَارِيَّاتٍ يَكْدُمُ نَجْمَةً أَتَوَكَّلُ جَارَاتِي وَجَارُكَ سَلَامٌ
فَإِنَّ نَكْأَ أَوْفَادٍ أَصْبَتْ وَنَسُوهُ هَذَا ابْنُ سَلْمَى رَأْسُهُ مَقَامٌ
عَلَوْتُ بِذِي الْحَيَاتِ مَفْرُقَ رَأْسِهِ وَلَا يَرْكَبُ الْمَكْرُوهَ إِلَّا الْأَكْرَامُ
فَنَكْتُ بِهِ كَمَا فَتَكْتُ بِخَالِدٍ وَكَانَ سِلَاحِي تَخْوِيهِ الْجَمَاعِمُ
بَدَأْتُ بِتِلْكَ وَأَتَيْتُ بِهِنَّ وَثَلَاثَةُ تَبِيضٍ مِنْهَا الْمَقَادِمُ
حَسْبُ أَيْ قَابُوسِ أَنْكَ مُخْغَرِي وَلَمَّا تَنَقَّ تَكَلَّأْتُ وَأَتَفُكُ رَاغِمُ

قال: فودّمة الإطابة لا آخذها! فانصرف الحارث وهو يقول أبياتاً، منها:

بَلِّغْنَا مَقَالَةَ الْمَرْءِ عَمْرُو فَالْتَفِينَا وَكَانَ ذَاكَ بَلِيًّا
فَهَمُّنَا بَقْلُهُ إِذْ بَرَزْنَا وَوَجَدْنَاهُ ذَا سِلَاحٍ كَيْيَا
غَيْرَ مَا نَأْتِي بِرُوحٍ بِالْفَتْحِ لَكُ وَلَكِنْ مَقْلُدًا مُشْرِفِيَا
فَتَيَّا عَلَيْهِ بَعْدَ عُلُوِّ بَوْغَاءٍ وَكُنْتُ قِنَمًا وَفِيَا

ثم إن الحارث لما علم أن النعمان قد جدّ في طلبه وهو أوازن لا تقعد عن الطلب بثار خالد خرج متكرراً إلى الشام واستجار بيزيد بن عمرو، فأكرمه وأجاره. وكان ليزيد ناقة مُحَمَّاة في عنقها مَدْيَةٌ وزناد وملح لِيَمْتَحِنَ بذلك رعيته، فوَحَمَتْ زوجة الحارث واشتدت شحماً ولحمها، فأخذ الحارث الناقة فأدخلها شِعْباً فذبحها وحمل إلى امرأته من شحمها ولحمها ورفع منه. وفقدت الناقة فطلبت فوجدت عقيرة بالوادي، فأرسل الملك إلى كاهن فسأله عنها، فذكر له أن الحارث نحرها، فأرسل امرأةً طيب تَشْتَرِي من لحمها من امرأة الحارث، فأدركها الحارث وقد اشترت اللحم فقتلها ودفنها في البيت. فسأل الملك الكاهن عن المرأة، فقال: قتلها من نحر الناقة، وإذا كرهت أن تفتش بيته فتأمر الرجل بالرحيل، فإذا رحل فتش بيته. ففعل ذلك، فلما رحل الحارث فتش الكاهن بيته فوجد المرأة وأحسن الحارث بالشّرّ فعاد إلى الكاهن فقتله، فأخذ الحارث وأحضر عند الملك، فأمر بقتله، فقال: إنك قد أجزّرتني فلا تغدّ بي. فقال: إن غدرت بك مرة واحدة فقد غدرت بي مراراً. فقتله. (٥٦٦/١)

أيام داحس والغبراء، وهي بين عيس وذبيان

وكان سبب ذلك أن قيس بن زهير بن جذيمة العبيسي سار إلى المدينة ليتجهز لقتال عامر والأخذ بثأر أبيه، فأتى أختيعة بن الجلاح يشتري منه درعاً موصوفاً. فقال له: لا أبيعها ولولا أن تَدْمَنِي بنو عامر لو هبته منك ولكن اشتريها بدين لبون. ففعل ذلك وأخذ الدرع، وتسمى ذات الحواشي، وهبه أختيعة أيضاً أدرعاً، وعاد إلى قومه وقد فرغ من جهازه. فاجتاز بالربيع بن زياد العبيسي فدعاه إلى مساعدته على الأخذ بثأره فأجابه إلى ذلك. فلما أراد فراقه نظر الربيع إلى عيّته فقال: ما في حقيقتك؟ قال: متاع عجيب لو أبصرته لراعتك، وأناخ راحلته، فأخرج الدرع من الحقيية، فأبصرها الربيع فأعجبته ولبسها، فكانت في طوله. فمَنَعَهَا من قيس ولم يعطه إياها، وتردّدت

ففرّ الأسود بني ذبيان وبني أسد بشطّ أَرْبَكٍ قَتَلْت فِيهِمْ قَتْلًا ذَرِيعًا وَسَبِيً وَاسْتَأْصَلَ الْأَمْوَالَ وَأَقْسَمَ لِيَقْتُلَنَّ الْحَارِثَ، فَسَارَ الْحَارِثُ مُتَخَفِيًا إِلَى الْحِيرَةِ لِيَفْتَكُ بِالْأَسْوَدِ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي مَزْلِهِ إِذْ سَمِعَ صَارِخَةً تَقُولُ: أَنَا فِي جَوَارِ الْحَارِثِ بْنِ ظَالِمٍ، وَعَرَفَ حَالَهَا، وَكَانَ الْأَسْوَدُ قَدْ أَخَذَ لَهَا صَرْمَةً مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالَ لَهَا: انْطَلِقِي غَدًا إِلَى مَكَانٍ كَذَا، وَأَتَاهَا الْحَارِثُ. فَلَمَّا وَرَدَتْ أَبْلُ النِّعْمَانِ أَخَذَ مَالَهَا فَسَلَّمَهَا إِلَيْهَا وَفِيهَا نَاقَةٌ تَسْمَى اللَّقَاعُ، فَقَالَ الْحَارِثُ فِي ذَلِكَ: (٥٦٤/١)

إِذَا سَمِعْتِ حَنَّةَ اللَّقَاعِ فَذَاعِي أَيْ لَيْلَى فَيَنْصَمُ الدَّاعِي
يَمْشِي بِغَضَبٍ صَارِمٍ قَطَاعٍ يَفْرِي بِهِ مَجَامِعُ الصُّلَاعِ
ثُمَّ أَقْبَلَ يَطْلُبُ مُجِيرًا فَلَمْ يَجِرْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَقَالُوا: مَنْ يُجِيرُكَ عَلَى هَوَازِنِ وَالنِّعْمَانِ وَقَدْ قَتَلْتَ وَلَدَهُ؟ فَأَتَى زُرَّارَةَ بْنَ عَدَسٍ وَضَمَرَةً مِنْ ضَمَرَةٍ فَأَجَارَاهُ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ.

ثم إن عمرو بن الإطابة الخزرجي لما بلغه قتل خالد بن جعفر، وكان صديقاً له، قال: والله لو وجده يقظان ما أقدم عليه، ولوددت أني لقيته. وبلغ الحارث قوله وقال: والله لأتّيه في رحلة ولا ألقاه إلا ومعه سلاحه، فبلغ ذلك ابن الإطابة فقال أبياتاً، منها:

أَبْلَغُ الْحَارِثِ بْنِ ظَالِمٍ الْمَوْرَ عِدَّةً وَالنَّافِذَ النَّفْزَ عَلَيَّا
إِنَّمَا تَقْتُلُ النَّيَّامَ وَلَا تَقْ تَلْ يَقْظَانَ ذَا سِلَاحٍ كَيْيَا
فَبَلَغَ الْحَارِثَ شَعْرُهُ فَسَارَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَسَالَ عَنْ مَنَزَلِ ابْنِ الْإِطَابَةِ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ نَادَى: يَا ابْنَ الْإِطَابَةِ أَغَشَيْتَنِي! فَأَتَاهُ عَمْرُو فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ بَنِي فَلَانٍ خَرَجْتُ أُرِيدُ بَنِي فَلَانٍ فَعَرَضَ لِي

الرسُل بينهما في ذلك، ولجّ قيس في طلبها، ولجّ الربيع في منعها، فلما طالت الأيام على ذلك سبّر قيس أهله إلى مكة وأقام ينتظر غرة الربيع.

وقيل: إن قيساً أنزى داحساً على فرس له فجاءت بمهرة فسمّاها الغبراء. ثم إن قيساً أقام بمكة فكان أهلها يفاخرونه، وكان فخوراً، فقال لهم: نَحْوَا كَعْبَتَكُمْ عَنَّا وَحَرِّمُكُمْ وَهَاتُوا مَا شِئْتُمْ. فقال له عبد الله بن جَدْعَان: إذا لم نفاخرك بالبيت المعمور وبالحرم الآمن فبِمَ نفاخرك؟ فمَلَّ قيس مفاخرتهم وعزم على الرحلة عنهم، وسرّ ذلك قريشاً لأنهم قد كانوا كرهوا مفاخرته، فقال لإخوته: ارحلوا بنا من عندهم أولاً ولا نفاقم الشرّ بيننا وبينهم، والحقوا ببني بدر فإنهم أكفأونا في الحسب، وبنو عَمْنَا في النسب، وأشرف قومنا في الكرم، ومن لا يستطيع الربيع أن يتناولنا معهم، فلحق قيس وإخوته ببني بدر، وقال في مسيره إليهم:

أسير إلى بني بدر بأمرهم هم فيه علينا بالخيار
فإن قتلوا الجوار فخير قوم وإن كرهوا الجوار فخير عار
أتينا الحارث الخير بن كعب بنجران وأبي لجأ بجار
فجاورنا الذين إذا أمانهم غريب حلّ في سعة القرار
فيا لمن فيهم ويكون منهم بمنزلة الشعار من الذنار (٥٦٩/١)

وإن تُسرّذ بحربو بني أيننا بلا جار فإنّ الله جاري
ثم نزل ببني بدر فنزل بحذيفة، فأجاره هو وأخوه حَمَل بن بدر، وأقام فيهم، وكان معه أفراس له وإخوته لم يكن في العرب مثلها، وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله فيحسده عليها ويكنم ذلك في نفسه، وأقام قيس فيهم زماناً يكرمونه وإخوته، فغضب الربيع ونقم ذلك عليهم ويحث إليهم بهذه الآيات:

ألا أبلغ بني بدر رسولاً على ما كان من شذا ووتر
بأني لم أزل لكم صديقاً ادافع عن فزارة كل أمر
أسألكم وأرؤى عنكم فوارس أهل نجران وخجر
وكان أبي ابن عكرم زباد صفى أيكم بدر بن عمرو
فأجائتم أخوا الفدرات قيساً فقد أفعمتهم إيفار صديري
فحسي من حذيفة ضم قيس وكان البدء من حَمَل بن بدر
فأنا ترجعوا أرجع إليكم وإن تأبوا فقد أوسعت عندي

فلم يتغيروا عن جوار قيس. فغضب الربيع وغضبت عيس لغضبه، ثم إن حذيفة كره قيساً وأراد إخراجهم عنهم فلم يجد حجة، وعزم قيس على العمرة فقال لأصحابه: إني قد عزمْتُ على العمرة فإياكم أن تلبسوا حذيفة بشيء، واحتملوا كل ما يكون منه حتّى أرجع فإنني قد عرفت الشرّ في وجهه وليس يقدر على حاجته منكم إلا [أنا] تراهنه على الخيل، وكان ذا رأي لا يخطيء في ما يريد، وسار إلى مكة. ثم إن قيساً من عيس يقال له زَرْد ابن مالك أتى حذيفة فجلس إليه، فقال له ورد: لو اتّخذت من خيل قيس فحلاً يكون أصلاً لخيلك. فقال حذيفة: خيلي خير من خيل قيس، ولجّاً في

ثم إن الربيع سبّر إبله وأمواله إلى مرعى كثير الكلأ وأمر أهله فظعنوا وركب فرسه وسار إلى المنزل، فبلغ الخير قيساً فسار في أهله وإخوته فعارض طعان الربيع وأخذ زمام أمه فاطمة بنت الخرشب وزمام زوجته. فقالت فاطمة أم الربيع: ما تريد يا قيس؟ قال: أذهب بكنّ إلى مكة فأبيعكن بها بسبب درعي. قالت: وهي في ضماني وخلّ عنا، ففعل. فلما جاءت إلى ابنها قالت له في معنى الدرع، فحلف أنه لا يردّ الدرع، فأرسلت إلى قيس (٥٦٧/١) أعلمته بما قال الربيع، فأغار على نَعَم الربيع فاستاق منها أربعمائة بعير وسار بها إلى مكة فباعها واشترى بها خيلاً، وتبعه الربيع فلم يلحقه، فكان فيما اشترى من الخيل داحس والغبراء.

وقيل: إن داحساً كان من خيل بني يربوع، وإن أباه كان [أخذ] فرساً لرجل من بني ضَبّة يقال له أَيْف بن جَبَلَة، وكان الفرس يسمّى السبط، وكانت أم داحس لليربوعي، فطلب اليربوعي من الضبّي أن يُنزّي فرسه على حجره فلم يفعل. فلما كان الليل عمد اليربوعي إلى فرس الضبّي فأخذه فأنزاه على فرسه، فاستيقظ الضبّي فلم ير فرسه فنادى في قومه، فأجابوه، وقد تعلّق باليربوعي، فأخبرهم الخير، فغضب ضَبّة من ذلك، فقال لهم: لا تعجلوا، دونكم نطفة فرسكم فخذوها. فقال القوم: قد أنصف. فسطا عليها رجل من القوم فدنس يده في رحمها فأخذ ما فيها، فلم تردّ الفرس إلا لقاحاً فتجست مهراً فسمّي داحساً بهذا السبب.

فكان عند اليربوعي إبنان له، وأغار قيس بن زُهَيْر على بني يربوع فنهب وسبى، ورأى الغلامين أحدهما على داحس والآخر على الغبراء فطلبهما فلم يلحقهما، فرجع وفي السبي أم الغلامين واختان لهما وقد وقع داحس والغبراء في قلبه، وكان ذلك قبل أن يقع بينه وبين الربيع ما وقع، ثم جاء وفد بني يربوع في فداء الأسرى والسبي، فاطلق الجميع إلا أم الغلامين وأختيهما وقال: إن أنثى الغلامان بالمهر والفرس الغبراء وإلا فلا. فامتنع الغلامان من ذلك، فقال شيخ من بني يربوع كان أسيراً عند قيس، ويحث بها إلى الغلامين، وهي:

إنّ مهراً قدى الرساب وجفلاً وسعداً لخير مهراً ناس (٥٦٨/١)

اندفعوا داحساً بهنّ سراعاً إنها من فعالها الأكياس
دونها والذي يحجّ له النسا من سببها يُعمن بالأفراس
إنّ قيساً يرى الجواد من الخير ل حيلة في تلف الأفراس
يشترى الطرّف بالجرّاجة الجـ لـ يعطي عفواً بنير مكاس
فلما انتهت الآيات إلى بني يربوع قادوا الفرسين إلى قيس

ذلك إلى أن تراهنا على فرستين من خيل قيس وفرسين من خيل حذيفة، (٥٧٠/١) والرهن عشرة أذواد.

وسار ورد فقدم على قيس بمكة فأعلمه الحال، فقال له: أراك قد أوقعتني في بني بدر ووقعت معي وحذيفة ظلموم لا تطيب نفسه بحق ونحن لا نقر له بضميم. ورجع قيس من الغمرة، فجمع قومه وركب إلى حذيفة وسأله أن يفك الرهن، فلم يفعل. فسأله جماعة فزارة وعبس فلم يجب إلى ذلك، وقال: إن أقر قيس أن السبق لي وإلا فلا، فقال أبو جعدة الفزاري:

أَبْ بَدْرَ دَعَا الرَّهْمَانُ فَلَمَّا قَدَّمْنَا اللَّجَاجَ عِنْدَ الرَّهْمَانِ
وَدَعَا الْمَرْءَ فِي فِزَارَةٍ جَلَاءُ إِنَّ مَا غَابَ عَنْكُمْ كَالْعِيَانِ
لَيْتَ شِعْرِي عَنْ هَاشِمٍ وَخُصَيْنٍ وَابْنِ عَوْفٍ وَحِصَارِثَ وَسَنَانِ
حِينَ يَأْتِيهِمْ لِحَاجَتُكَ قَيْسًا رَأَيْتُ صَاحِبَ آيَاتٍ أَمْ تَنْوَانِ
وَسَأَلَ حَذِيفَةَ إِخْوَتَهُ وَسَادَاتِ أَصْحَابِهِ فِي تَرْكِ الرَّهْمَانِ وَلَجَّ فِيهِ،
وَقَالَ قَيْسٌ: عَلَامُ تَرَاهَنِي؟ قَالَ: عَلَى فَرَسِيكَ دَاحِصَ وَالْغَبْرَاءِ وَفَرَسِي
الْخَطَارِ وَالْحَنْفَاءِ، وَقِيلَ: كَانَ الرَّهْنُ عَلَى فَرَسِي دَاحِصَ وَالْغَبْرَاءِ. قَالَ
قَيْسٌ: دَاحِصٌ أَسْرِعُ. وَقَالَ حَذِيفَةُ: الْغَبْرَاءُ أَسْرَعُ، وَقَالَ لَقَيْسٌ: أَرِيدُ
أَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّ بَصْرِي بِالْخَيْلِ أَثْقَبُ مِنْ بَصْرِكَ؛ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ. فَقَالَ
لَهُ قَيْسٌ: نَفْسٌ فِي الْغَايَةِ وَارْفَعُ فِي السَّبْقِ. فَقَالَ حَذِيفَةُ: الْغَايَةُ مِنْ أَيْلَى
إِلَى ذَاتِ الْإِصْبَادِ، وَهُوَ قَدْرُ مِائَةِ وَعِشْرِينَ غُلُوقًا، وَالسَّبْقُ مِائَةُ بَعِيرٍ،
وَضَمُّوهُمُ الْخَيْلَ. فَلَمَّا فَرَعُوا قَادُوا الْخَيْلَ إِلَى الْغَايَةِ وَحَشَدُوا وَلَبِسُوا
السَّلَاحَ وَتَرَكُوا السَّبْقَ عَلَى يَدِ عِقَالِ ابْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ الْقَيْسِيِّ
وَأَعَدُّوا الْأَمْنَاءَ عَلَى إِرْسَالِ الْخَيْلِ. (٥٧١/١)

وأقام حذيفة رجلاً من بني أسد في الطريق وأمره أن يلقى داحساً في وادي ذات الإصَادِ إن مرَّ به سابقاً فيرمي به إلى أسفل الوادي.

فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقاً بيناً والناس ينظرون إليه وقيس وحذيفة على رأس الغاية في جميع قومه. فلما هبط داحس في الوادي عارضه الأسدي فلطم وجهه فألقاه في الماء، فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل. وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد إلى الطريق واجتمع مع فرسي حذيفة، ثم سقطت الحنفاء وبقي الغبراء والخطار، فكانا إذا أخرنا سبق الخطار وإذا أسهلا سبقت الغبراء. فلما قريبا من الناس وهما في وعت من الأرض تقدم الخطار، فقال حذيفة: سبقك يا قيس. فقال: رويدك يعلون الجد؛ فذهبت مثلاً. فلما استوت بهما الأرض قال حذيفة: خدع والله صاحبتا. فقال قيس: ترك الخداع من أجري من مائة وعشرين؛ فذهبت مثلاً.

ثم إن الغبراء جاءت سابقة وتبعها الخطار فرس حذيفة، ثم الحنفاء له أيضاً، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله، فأخبر الغلام قيساً بما صنع بفروسه، فأنكر حذيفة ذلك وأدعى السبق

ظالماً، وقال: جاء فرساي متتابعين، ومضى قيس وأصحابه حتى نظروا إلى القوم الذين حبسوا داحساً واختلفوا.

وبلغ الربيع بن زياد خيرهم فسرّه ذلك وقال لأصحابه: هلك والله قيس، وكأنني به إن لم يقتله حذيفة وقد أتاكم يطلب منكم الجوار، أما والله لئن فعل ما لنا من ضمه من بد.

ثم إن الأسدي ندم على حبس داحس فجاء إلى قيس واعترف بما (٥٧٢/١) صنع، فسبه حذيفة.

ثم إن بني بدر قصروا بقيس وإخوته وآذوهم بالكلام، فعاتبهم قيس، فلم يزدادوا إلا بغياً عليه وإيذاء له.

ثم إن قيساً وحذيفة تناكرا في السبق حتى هما بالمواخذه، فمنعهما الناس، وظهر لهم بغى حذيفة وظلمه، ولجَّ في طلب السبق، فأرسل ابنه نذبة إلى قيس يطلبه به، فلما أبلغه الرسالة طعنه فقتله، وعادت فرسه إلى أبيه ونادى قيس: يا بني عيس الرحيل! فرحلوا كلهم، ولما أتت الفرس حذيفة علم أن ولده قتل، فصاح في الناس وركب في من معه وأتى منازل بني عيس فوأها خالية ورأى ابنه قتيلاً، فنزل إليه وقبل بين عينيه ودفنوه.

وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجاً في فزارة وهو نازل فيهم، فأرسل إليه قيس: أتني قد قتلت نذبة بن حذيفة ورحلت فالحق بنا وإلا قُلت فقال: إنما ذنب قيس عليه، ولم يرحل، فأرسل قيس إلى الربيع بن زياد يطلب منه العود إليه والمقام معه إذ هم عشيرة وأهل، فلم يجبه ولم يمتعه، وكان مفكراً في ذلك.

ثم إن بني بدر قتلوا مالك بن زهير أخا قيس، وكان نازلاً فيهم، فبلغ مقتل بني عيس والربيع بن زياد، فاشتد ذلك عليهم، وأرسل الربيع إلى قيس عينا يأتيه بخبره، فسمعه يقول:

أَيْجُو بَنُو بَدْرٍ بِمَقْتَلِ مَالِكِ وَيَخَذُلُنَا فِي النَّاتِيَاتِ رَيْبُ
وَكُنْ زِيَادٌ قَلْبُهُ يَتَقَى بِهِ مِنْ الدَّهْرِ إِنَّ يَوْمَ الْمِ ظُيْعُ
قُتِلَ لَرِيْعٍ بِحَنْتِي فَعَلَّ شَيْخَهُ وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَافِظٌ وَمُضِيْعُ
وَالْأَفْمَالُ فِي الْبِلَادِ إِمَامَةٌ وَأَمْرٌ بَنِي بَدْرٍ عَلَيَّ جَمِيْعُ
فرجع الرجل إلى الربيع فأخبره، فبكى الربيع على مالك وقال:

مَنْعَ الرِّقَادِ فَمَا أَغْمُضُ سَاعَةً جَزَعًا مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ السَّارِي
أَبْعَدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زَهَيْرٍ يَرْجُو النِّسَاءَ عَوَاقِبُ الْأَطْهَارِ
مَنْ كَانَ مَرْوَرًا بِمَقْتَلِ مَالِكِ فُلْيَاتُ نِسْوَتَنَا بَوَاجُ نَهَارِ
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْبُئُهُ وَيَقْمَعْنَ قَبْلَ تَلْجِ الْأَسْحَارِ
يُضْرِبْنَ حُرَّ وَجُوهُنَّ عَلَى قَتَى ضَخَمِ الدَّمِيعَةِ غَيْرَ مَا خَوَارِ
قَدْ كُنَّ يُكَيِّنُ الْوَجُوهَ تَسْرَةً فَالْيَوْمَ حِينَ بَرَزْنَا لِلنَّظَارِ

وهي طويلة

فسمعها قيس فركب هو وأهله وقصدوا الربيع بن زياد وهو يصلح سلاحه، فنزل إليه قيس وقام الربيع فاعتقا ويكيا وأظهرا الجزع لمصاب مالك، ولقي القوم بعضهم بعضاً فنزلوا. فقال قيس للربيع: إنه لم يهرب منك من لجأ إليك، ولم يستغن عنك من استعان بك، وقد كان لك شر يومئ فليكن لي خير يوميك، وإنما أنا بقومي وقومي بك وقد أصاب القوم مالكا، ولست أهم بسوء لأنني إن حاربت بني بدر نصرتهم بنو ذبيان، وإن حاربتني خذلني بنو عيس إلا أن تجمعهم علي، وأنا والقوم في الدماء سواء، قتلت أبنيهم وقتلوا أخي، فإن نصرتني طمعت فيهم، وإن خذلنتي طمعوا في. فقال الربيع: يا قيس إنه لا ينفعني أن أرى لك من الفضل ما لا أراه لي، (٥٧٤/١) ولا ينفعك أن ترى لي ما لا أراه لك، وقد مال علي قتل مالك وأنت ظالم ومظلم، ظلموك في جوادك وظلمتهم في دمائهم، وقتلوا أخاك بابنيهم، فإن يتو الدم بالدم فعسى أن تلقح الحرب أقم معك، وأحب الأقرنين إلي مسالمتهم ونخلو بحرب هوازن. ويعث قيس إلى أهله وأصحابه. فجاؤوا ونزلوا مع الربيع، وأنشدتهم عترة بن شداد مرثيته في مالك:

فله غيا من رأى مثل مالك
فليتها لم يطعم الدهر بعدا
وليتها ماتا جميعاً يلبدا
وانطامها قيس فلا يؤيان
لقد جلبا جلباً لمصرع مالك
وكان كريماً ماجداً لهجان
وكان إذا ما كان يوم كرهية
فقد علموا أنني وهو قيان
وكتا لذي الهجاء نحمي نساءنا
ونضرب عند الكرب كل إنسان
فسوف ترى إن كنت بعدي باقياً
وأكتسي دهري وطول زماني
فأقسم حقاً لو بقيت نظرة
لقرت بها عينك حين تراني
وبلغ حذيفة أن الربيع وقيساً اتفقا، فسق ذلك عليه واستعد للبلاد. وقيل: إن بلاد عيس كانت قد أجلبت فانتجع أهلها بلاد فزاره، وأخذ الربيع جواراً من حذيفة وأقام عندهم. فلما بلغه مقتل مالك قال لحذيفة: لي ذمتي ثلاثة أيام. فقال حذيفة: ذلك لك. فانتقل الربيع من بني فزاره. (٥٧٥/١) فبلغ ذلك حمّل بن بدر فقال لحذيفة أخيه: بش الرأي رأيت! قتلت مالكا وخليت سبيل الربيع! والله ليضربتها عليك نارا! فركبا في طلب الربيع، ففانتهما، فعلمتا أنه قد أضمر الشر.

واتفق الربيع وقيس، وجمع حذيفة قومه وتعاقدوا على عيس، وجمع الربيع وقيس قومهما واستعدوا للحرب، فأغارت فزاره على بني عيس فأصابوا نهما ورجالاً، فحميت عيس واجتمعت للغارة، فنيزت بهم فزاره. فخرجوا إليهم فالتقوا على ماء يقال له العذق، وهي أول وقعة كانت بينهم، فاقتلوا قتلاً شديداً، وقتل عوف بن يزيد، قتله جندب بن خلف العبسي. وانتهزت فزاره وقتلوا قتلاً ذريعاً، وأسر الربيع بن زياد حذيفة ابن بدر، وكان حُر بن الحارث العبسي قد نذر إن قدر على حذيفة أن يضربه بالسيف، وله سيف

فاجتمعت غطفان وسعوا في الصلح، فاصطلحوا على أن يهدروا دم بدر بن حذيفة بدم مالك بن زهير، ويعقلوا عوف بن بدر، ويخطوا حذيفة عن ضرته التي ضربه حُر مائتين من الإبل، وأن يجعلوها عشراً كلها، وأربعة أعبد، وأهدر حذيفة دماء من قُتل من فزاره في الوقعة وأطلق من الأسر.

فلما رجع إلى قومه ندم على ذلك وساءت مقالته في بني عيس، وركب قيس بن زهير وعمارة بن زياد مضيضاً إلى حذيفة وتحذناً معه. فاجابهما إلى الاتفاق وأن يرّد عليهما الإبل التي أخذ منهما، وكانت توالدت عنده. فبينا (٥٧٦/١) هم في ذلك إذ جاءهم سينان بن أبي حارثة الحرّي فقبّح رأي حذيفة في الصلح وقال: إن كنت لا بد فاعلا فاعطيهم إبلاً عجافاً مكان إبلهم وأحبس أولادها. فوافق ذلك رأي حذيفة، فأبى قيس وعمارة ذلك.

وقيل: إن الإبل التي طلبوها منه هي إبل كان قد أخذها سيقاً من قيس. وقيل أيضاً: إن مالك بن زهير قُتل بعد هذه الوقعة المذكورة؛ قال حميد بن بدر في ذلك:

قتلنا بعوف مالكا وفسو ثارنا
ومن يتدخ شيئاً سوى الحق يظلم
وجعل سنان يحث حذيفة على الحرب، فتيسروا لها.

ثم إن الأنصار بلغهم ما عزموا عليه، فاتفق جماعة من رؤسائهم، وهم: عمرو بن الإطابة، ومالك بن عجلان، وأخينة بن الجلاح، وقيس ابن الخطيم، وغيرهم، وساروا ليصلحوا بينهم، فوصلوا إليهم وترددوا في الاتفاق، فلم يجب حذيفة إلى ذلك وظهر لهم بغيه، فحذروه عاقبته وعادوا عنه.

وأغار حذيفة على عيس، وأغارت عيس على فزاره، وتفاقم الشر، وأرسل حذيفة أخاه حملاً فأغار وأسر ريان بن الأسلع بن سفيان وشده وثاقاً وحمله إلى حذيفة فأطلقه ليرثه ابنه جبير ابن أخيه عمرو بن الأسلع، ففعل ريان ذلك، ثم سار قيس إلى فزاره فلقي منهم جمعاً فيهم مالك بن بدر، فقتله قيس وانتهزت فزاره، فأخذ حيثن حذيفة ولذي ريان فقتلها وهما يستغيثان: يا ابتاه! حتى ماتا، وأما ابن أخيه فمئنه أخواله. (٥٧٧/١)

ولما قتل مالك والغلامان اشتدت الحرب بين الفريقين وأكثرها في فزاره ومن معها. ففي بعض الأيام التقوا واقتلوا قتلاً شديداً ودامت الحرب بينهم إلى آخر النهار، وأبصر ريان بن الأسلع زيد بن حذيفة فحمل عليه فقتله، وانتهزت فزاره وذبيان، وأدرك الحارث بن

في الهرب. وبلغ خبره بني عيس، فتبعه قيس بن زهير والربيع بن زياد وقرواش بن عمرو بن الأسلع وريان بن الأسلع الذي قتل حذيفة أبيه، وتبعوا أثرهم في الليل، وقال قيس: كأي بالقوم وقد وردوا جُفَر الهبأة ونزلوا فيه، فساروا ليلتهم كلها حتى (٥٧٩/١) أدركوهم مع طلوع الشمس في جُفَر الهبأة في الماء، وقد أرسلوا خيولهم فأخذوا بجمعهم، فحال قيس وأصحابه بينهم وبينها، وكان مع حذيفة في الجفر أخوه حنبل بن بدر وابنه حصن بن حذيفة وغيرهم. فهجم عليهم قيس والربيع ومن معهما وهم ينادون: ليبيكم ليبيكم! يعني أنهم يجيئون يذء الصبيان لما قتلوا ينادون: يا ابتاء! فقال لهم قيس: يا بني بكر كيف رأيتم عاقبة البغي؟ فناشدوهم الله والرحم، فلم يقبلوا منهم. ودار قرواش ابن عمرو حتى وقف خلف ظهر حذيفة فضربه فدنق صلبه، وكان قرواش قد رآه حذيفة حتى كبر عنده في بيته، وقتلوا حَمَلًا أخاه وقطعوا رأسيهما واستبقوا حصن بن حذيفة لصباه. وكان عدد من قُتل في هذه الواقعة من فزارة وأسد وغطفان ما يزيد على أربعمئة قتيل، وقُتل من عيس ما يزيد على عشرين قتيلًا، وكانت فزارة تسمي هذه الواقعة البوار؛ وقال قيس بن زهير:

أقام على الهبأة خير تيسر واکرمه حذيفة لا يريهم
لقد فُجئت به قيس جميعاً موالى القوم والقوم الصميم
وعُثم به لمقتله بعيد وعُص به لمقتله خبيم
وهي طويلة؛ وقال أيضاً:

الم تر أن خير الناس أئسي على جُفَر الهبأة لا يريهم
فلولا ظلمته ما زلت أبكي عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حنبل بن بدر بغي والبغي مرتبة وخيم
واكثروا القول في يوم الهبأة. (٥٨٠/١)

ثم إن عيساً ندمت على ما فعلت يوم الهبأة، ولام بعضهم بعضاً، فاجتمعت فزارة إلى مينا بن أبي حارثة المزي وشكوا إليه ما نزل بهم، فأعظمه وذم عيساً وعزم على أن يجمع العرب ويأخذ بشأ بني بدر وفزارة، ويثّر رسله. فاجتمع من العرب خلق كثير لا يُحصون، ونهى أصحابه عن التعرض إلى الأموال والغنيمة وأمرهم بالصبر، وساروا إلى بني عيس. فلما بلغهم سيرهم إليهم قال قيس: الرأي أننا لا نلقاهم، فإننا قد وترناهم فهم يطالبوننا بالذحول والطواف، وقد رأوا ما نالهم بالأمس باشتغالهم بالذهب والمال فهم لا يتعرضون إليه الآن، والذي ينبغي أن نفعله أننا نرسل الطعان والاموال إلى بني عامر، فإن الدم لنا قبلهم فهم [لا] يتعرضون لكم ويبقى أولو القوة والجلد على ظهور الخيل ونماتلهم القتال، فإن أبوا إلا القتال كنا قد أحرزنا أهلينا وأموالنا وقتلناهم وصبرنا لهم، فإن ظفروا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد أحرزنا ولحقنا بأموالنا ونحن على حامية.

بدر فقتل، ورجعت عيس سالمة لم يصب منها أحد. فلما قُتل زيد والحارث جمع حذيفة جميع بني ذبيان ويعث إلى أشجع وأسد بن خزيمة فجمعهم، فبلغ ذلك بني عيس فضموا أطرافهم، وأشار قيس بن زهير بالسبق إلى ماء العقيقة، ففعلوا ذلك، وسار حذيفة في جموعه إلى عيس، ومشى السفراء بينهم، فحلف حذيفة: أنه لا يصلح حتى يشرب من ماء العقيقة. فأرسل إليه قيس منه في ميسقاء وقال: لا أترك حذيفة يخذعني. واصطلحوا على أن تعطي بنو عيس حذيفة ديات من قُتل له، ووضعوا الرهائن عنده إلى أن يجمعوا الديات، وهي عشر، وكانت الرهائن ابناً لقيس بن زهير، وابتاً للربيع بن زياد، فوضعوا أحدهما عند قُطبة بن سنان والآخر عند رجل من بكر بن وائل أعمى. فغير بعض الناس حذيفة بقبول الدية، فحضر هو وأخوه حنبل عند قُطبة بن سنان والبكري وقالوا: ادفعوا إلينا الغلامين لنكسوهما ونسرحهما إلى أهلهم. فأما قُطبة فدفع إليهما الغلام الذي عنده، وهو ابن قيس، وأما البكري فامتنع من تسليم من عنده، فلما أخذ ابن قيس عاداً فلقيا في الطريق ابناً لعمارة بن زياد العبسي وابن عم له، فأخذاهما وقتلها مع ابن قيس.

فلما بلغ ذلك بني عيس أخذوا ما كانوا جمعوا من الديات، فحملوا عليه الرجال واشتروا السلاح. ثم خرج قيس في جماعة فلقوا ابناً لحذيفة ومعه (٥٧٨/١) فوارس من ذبيان فقتلوه. فجمع حذيفة وسار إلى عيس، وهم على ماء يقال له عُراعر، فاقتلوا، فكان الظفر لفزارة ورجعت سالمة. وجد حذيفة في الحرب وكبرها أخوه حنبل وندم على ما كان، وقال لأخيه في الصلح فلم يجب إلى ذلك، وجمع الجموع من أسد وذبيان وسائر بطون غطفان وسار نحو بني عيس، فاجتمعت عيس وتشاوروا في أمرهم، فقال لهم قيس بن زهير: إنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به وليس لني بدر إلا دماؤكم والزيادة عليكم، وأما من ميوهم فلا يريدون غير الأموال والغنيمة، والرأي أننا نترك الأموال بمكانها ونترك معها فارسين على داحس وعلى فرس آخر جواد ونرحل نحن ونكون على مرحلة من المال، فإذا جاء القوم إلى الأموال سار إلينا الفارسان فأعلمنا وصولهم، فإن القوم يشتغلون بالذهب وحياسة الأموال، وإن نهام ذؤ الرأي عن ذلك فإن العامة تخالفهم وتتقص تعيبتهم ويشتغل كل إنسان بحفظ ما غنم ويعلقون أسلحتهم على ظهور الإبل ويأمنون. فنعود نحن إليهم عند وصول الفارسين فندركهم وهم على حال تفرق وتشتت فلا يكون لأحدهم همة إلا نفسه.

ففعلوا ذلك وجاء حذيفة ومن معه فاشتغلوا بالذهب، فنهام حذيفة وغيره فلم يقبلوا منه، وكانوا على الحال التي وصف قيس. وعادت بنو عيس وقد تفرقت أسد وغيرهم، وبقي بنو فزارة في آخر الناس، فحملوا عليهم من جوانبهم فقتل مالك بن سبيع التغلبي سيد غطفان، وانهزمت فزارة وحذيفة معهم وانفرد في خمسة فوارس وجد

عظيمة. ورحلت عيس وقد ملأوا الحرب وقلست الرجال والأموال وهلك المواشي، فقال لهم قيس: ما ترون؟ قالوا: نرجع إلى إخواننا من ذبيان فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم. فساروا حتى قدموا على الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وقيل: على هريم بن سينان بن أبي حارثة ليلاً، وكان عند حصن بن حذيفة بن بدر، فلما عاد ورأهم رحب بهم وقال: من القوم؟ قالوا: إخوانك بنو عيس، وذكروا حاجتهم. فقال: نعم وكرامة أعلم حصن ابن حذيفة. فعاد إليه وقال: طرقت في حاجة، قال: أعطيتها قال بنو عيس: وجدت وفودهم في منزلي. قال حصن: صالحوا قومكم، أما أنا فلا أدي أتدي، قد قتل آبائي وعمومي عشرين من عيس؛ فعاد إلى عيس وأخبرهم بقول حصن وأخذهم إليه، فلما رأهم قال قيس والربيع بن زياد: نحن رُكبان الموت قال: بل رُكبان السلم، إن تكونوا اختلستم إلى قومكم فقد اختل قومكم إليكم ثم خرج معهم حتى أتوا سيناناً فقال له: قم بأمر عشيرتك وأصلح بينهم فإني سأعينك. ففعل ذلك وتم الصلح بينهم وعادت عيس.

وقيل: إن قيس بن زهير لم يبر مع عيس إلى ذبيان وقال: لا تراني غطفانية أبداً وقد قلت أخاها أو زوجها أو ولدها أو ابن عمها، ولكني سأتوب إلى ربي، فتصبر وساح في الأرض حتى انتهى إلى عُمان فترهب (٥٨٣/١) بها زماناً، فلقبه حوج بن مالك العبدى عرفه فقتله وقال: لا رحمني الله إن رحمتك.

وقيل: إن قيساً تزوج في الثمير بن قاسط لما عادت عيس إلى ذبيان، وولد له ولد اسمه فضالة، فقدم على النبي ﷺ، وعقد له على من معه من قومه، وكانوا تسعة وهو عاشرهم. انتضى حرب داحس والغبراء، والحمد لله.

يوم شِغَب جَبَلَة

كان لقيط بن زُرارة قد عزم على غزو بني عامر بن صعصعة للأخذ بشار أخيه مغبد بن زُرارة، وقد ذكرنا موته عندهم أسيراً، فبينما هو يتجهز أتاه الخبر يحلف بني عيس وبني عامر، فلم يطمع في القوم وأرسل إلى كل من كان بينه وبين عيس دُخْل يسأله الحلف والتظافر على غزو عيس وعامر. فاجتمعت إليه أسد وغطفان وعمرو بن الجؤن ومعاوية بن الجؤن واستوثقوا واستكثروا وساروا، فعقد معاوية بن الجؤن الألوية، فكان بنو أسد وبنو فزارة بلواء مع معاوية بن الجؤن، وعقد عمرو بن تميم مع حاجب بن زُرارة، وعقد للرباب مع حسان بن همام، وعقد لجماعة من بطون تميم مع عمرو ابن عُدْس، وعقد لحظلة بأسرها مع لقيط بن زُرارة، وكان مع لقيط ابنته دَحْتَس، وكان يغزو بها معه ويرجع إلى رايها. (٥٨٤/١)

وساروا في جمع عظيم لا يشكون في قتل عيس وعامر وإدراك

ففعلا ذلك، وسارت ذبيان ومن معها فلحقوا بني عيس على ذات الجراجر فاقتلوا قتلاً شديداً يومهم ذلك واقتروا، فلما كان الغد عادوا إلى اللقاء فاقتلوا أشد من اليوم الأول، وظهرت في هذه الأيام شجاعة عترة ابن شداد. فلما رأى الناس شدة القتال وكثرة القتلى لاموا سينان بن أبي حارثة على منعه حذيفة عن الصلح وتطيروا منه وأشاروا عليه بحقن الدماء ومراجعة السلم، فلم يفعل وأراد مراجعة الحرب في اليوم الثالث. فلما رأى فتور أصحابه وركونهم إلى السلم رحل عائداً. فلما عاد عنهم رحل قيس وبنو عيس إلى بني شيبان بن بكر وجاوروهم وبقا معهم مدة، فرأى قيس من غلمان شيبان ما يكرهه من التعرض لأخذ أموالهم فرحلوا عنهم، فتبعهم جمع من شيبان، فلقيتهم بنو عيس واقتلوا، فانهزمت شيبان وسارت عيس (٥٨١/١) إلى هجر ليحالفوا ملكهم، وهو معاوية بن الحارث الكندي، فعزم معاوية على الغارة عليهم ليلاً، فبلغهم الخبر فساروا عنه مجذبين، وسار معاوية مجذداً في أثرهم، فناه بهم الدليل على غمدهم لئلا يدركوا عيساً إلا وهم قد لحقهم ودوابهم النصب، فأدركوهم بالفروق فاقتلوا قتلاً شديداً، فانهزم معاوية وأهل هجر وتبعهم عيس فأخذت من أموالهم وقتلوا منهم ما أرادوا ورجعوا سائرين فنزلوا بماء يقال له عُراعر عليه حي من كلب، فركبوا ليقاتلوا بني عيس، فبرز الربيع وطلب رئيسهم، فبرز إليه، واسمه مسعود بن مصاد. فاقتلا حتى سقطا إلى الأرض، وأراد مسعود قتل الربيع، فانهحرت البيضة عن رقبته، فرماه رجل من بني عيس بسهم فقتله، فثار بهم الربيع فقطع رأسه، وحملت عيس على كلب والراس على رمح فانهزمت كلب وغنمت عيس أموالهم وذرايعهم، فساروا إلى اليمامة فحالفوا أهلها من بني حنيفة وأقاموا ثلاث سنين، فلم يحسنوا جوارهم وضيئوا عليهم فساروا عنهم، وقد تفرق كثير منهم وقُتل منهم وهلك دوابهم ووترهم العرب فراسلتهم بنو ضبة وعرضوا عليهم المقام عندهم ليستعينوا بهم على حرب تميم، ففعلوا وجاوروهم.

فلما انتضى الأمر بين ضبة وتميم تغيرت ضبة لعيس وأرادوا اقتطاعهم، فحاربتهم عيس فظفرت وغنمت من أموال ضبة وسارت إلى بني عامر وحالفوا الأخرص بن جعفر بن كلاب، فسروا بهم ليقوى بهم على حرب بني تميم لأنه كان بلغه أن لقيط بن زُرارة يريد غزو بني عامر والأخذ بشار أخيه مغبد، فأقامت عيس عند بني عامر، فقصدهم تميم، وكانت وقعة شِغَب جَبَلَة، وسنذكره إن شاء الله. (٥٨٢/١)

ثم إن ذبيان غزوا بني عامر بن صعصعة وفيهم بنو عيس فاقتلوا، فهزمت عامر وأسر قرواش بن هني العبيسي ولم يعرف. فلما قدموا به الحي عرفته امرأة منهم، فلما عرفوه سلموه إلى حصن بن حذيفة فقتله. ثم رحلت عيس عن عامر ونزلت بئيم الرباب، فبغت تيم عليهم، فاقتلوا قتلاً شديداً وتكاثر عليهم تيم فقتلوا من عيس مقتلة

أَتَخَلَّقَ الْقُرُونُ أَمْ تَمِيسُ لَا بَسْلَ تَمِيسُ إِنَّهَا عُرُوسُ
ثُمَّ مَاتَ وَتَمَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى تَمِيمٍ وَغُطْفَانٍ، ثُمَّ فَدَوْا حَاجِبًا
بِخَمْسَمِائَةِ مِنَ الْإِبِلِ، وَفَدَوْا عُمَرُو بْنَ عَمْرٍو بِمِائَتَيْنِ مِنَ الْإِبِلِ، وَعَادَ
مِنْ سَلَمٍ إِلَى أَهْلِهِ.

وَقَالَتْ دَخْتَنُوسُ تَرْتِي أَبَاهَا قَصَانْدَ، مِنْهَا:

عِشْرَ الْأَعْرُبِ بِخَيْرِ خِيَارٍ بَدَفَ كَهْلُهَا وَشَبَابُهَا
(٥٨٦/١)

وَأَضْرَمَ الْعَدُوُّهَا وَافْتَكَّرَ لِرَقَابَتِهَا
وَقَرِيبُهَا وَنَجِيبُهَا فِي الْمُنْطَبِقَاتِ وَنَابِهَا
وَرِثِيهَا عِنْدَ الْمَلِكِ لَكَ وَزَيْنِ يَوْمِ خَطَابِهَا
وَأَتَمُّهَا نَسَبًا إِذَا رَجَعْتَ إِلَى أَنْسَابِهَا
فَرَعَى عَمْرَدًا لِلْعَشِيرَةِ رَدَّ رَافِعًا لِنَصَابِهَا
وَعَرَلُهَا وَيَحْوَطُهَا وَيَذَبُ عَنْ أَحْبَابِهَا
وَيَطَا مَوَاطِنَ لِلْعَدُوِّ وَفَكَانَ لَا يُمَشُّى بِهَا
فَقُلَّ الْمُدِيلُ مِنَ الْأَسْرِ دَلَحَتْهَا وَتَبَاهِهَا
كَالْكَوَاكِبِ السُّرْرَى فِي سَمَاءٍ لَا يَخْفَى بِهَا
عِثَ الْأَعْرُبُ بِهِ وَكَدَّ لُ مَيْتَةً لِكِتَابِهَا
فَرَّتْ بِسُرْسُودٍ فَرَا رَ الطَّيْرِ عَنْ أَرِيَابِهَا
وَقَسُوزَانِ أَصْحَابِهَا كَالْفَارِ فِي أَذْنَابِهَا

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي يَوْمِ جَبَلَةَ غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا، قَالَ: كَانَ
سِبْهَ أَنْ بَنِي خِنْذَفَ كَانَ لَهُمْ عَلَى قَيْسٍ أَكْلٌ نَاكِلُهُ الْقَعْدُودُ مِنْ خِنْذَفٍ،
فَكَانَ يَتَقَلُّ فِيهِمْ حَتَّى انْتَهَى إِلَى تَمِيمٍ، ثُمَّ مِنْ تَمِيمٍ إِلَى بَنِي عَمْرٍو بْنِ
تَمِيمٍ، وَهُمْ أَقَلُّ بَطْنٍ مِنْهُمْ وَأَذَلَّةٌ، فَابْتَ قَيْسُ أَنْ تَعْطِي الْأَكْلَ
وَامْتَنَعَتْ مِنْهُ، فَجَمَعَتْ تَمِيمٍ وَحَالَفَتْ غَيْرَهَا مِنَ الْعَرَبِ وَسَارُوا
إِلَى قَيْسٍ، فَذَكَرَ الْقِصَّةَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ وَخَالَفَ فِي الْبَعْضِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى
ذِكْرِهِ. (٥٨٧/١)

وَفِي هَذَا الْيَوْمِ وَلِدَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ الْعَامِرِيُّ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِنَّ الْمَجُوسِيَّةَ كَانَ يَدِينُ بِهَا بَعْضُ الْعَرَبِ
بِالْبَحْرَيْنِ، وَكَانَ زُرَّارَةُ بْنُ عُذْسٍ وَابْنَاهُ حَاجِبٌ وَلَقِيطُ وَالْأَفْرَعُ بْنُ
حَابِسٍ وَغَيْرُهُمْ مَجُوسًا، وَإِنَّ لَقِيطًا زَوْجَ ابْنَتِهِ دَخْتَنُوسَ وَسَمَّاهَا بِهَذَا
الْأَسْمِ الْفَارْسِيِّ، وَإِنَّهُ قُتِلَ وَهِيَ تَحْتَهُ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ:

يَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْكَ دَخْتَنُوسُ

الْأَيَّاتِ وَالْأَوَّلِ أَصَحُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

يوم ذات نيكيف

كَانَ بَنُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بَيْنَ كَنَانَةَ مَبْغُضِينَ لِقُرَيْشٍ مُضْطَفِّينَ
عَلَيْهِمْ مَا كَانَ مِنْ قُصَايَ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ مَكَّةَ مَعَ مَنْ أَخْرَجَ مِنْ
خَزَاعَةَ حِينَ قَسَمَهَا رِبَاعًا وَخَطَطًا بَيْنَ قُرَيْشٍ. فَلَمَّا كَانُوا عَلَى عَهْدِ عَبْدِ

ثَارِهِمْ، فَلَقْنِي لَقِيطُ فِي طَرِيقِهِ كَرَبَ بْنَ صَفْوَانَ بْنِ الْحُبَابِ السَّعْدِيِّ،
وَكَانَ شَرِيفًا، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسِيرَ مَعَنَا فِي غَزَاتِنَا؟ قَالَ: أَنَا مُشْغُولٌ
فِي طَلَبِ إِبِلٍ لِي. قَالَ: لَا بَلَّ تَرِيدُ أَنْ تَنْذِرَ بَنِي الْقَوْمِ، وَلَا أَتُرِكَكَ حَتَّى
تَحْلِفَ أَنْتَ لَا تَخْبِرُهُمْ، فَحَلَفَ لَهُ، ثُمَّ سَارَ عَنْهُ وَهُوَ مُغْضَبٌ، فَلَمَّا
دَنَا مِنْ عَامِرٍ أَخَذَ خِرْقَةً فَصَرَفَ فِيهَا حَنْظَلَةً وَشَوْكًا وَتُرَابًا وَخَرَقَتَيْنِ
يَمَانِيَتَيْنِ وَخِرْقَةَ حِمْرَاءَ وَعَشْرَةَ أَحْجَارٍ سَوْدَ ثُمَّ رَمَى بِهَا حَيْثُ يَسْقُونَ
وَلَمْ يَتَكَلَّمْ. فَأَخَذَهَا مَعَاوِيَةُ بْنُ قُثَيْبٍ، فَأَتَى بِهَا الْأَحْوَصَ بْنَ جَعْفَرٍ
وَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَجُلًا لَقَاَهَا وَهُمْ يَسْقُونَ، فَقَالَ الْأَحْوَصُ لَقَيْسُ بْنُ زُهَيْرِ
الْعَبْسِيِّ: مَا تَرَى فِي هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: هَذَا مِنْ صَنْعِ اللَّهِ لَنَا، هَذَا رَجُلٌ
قَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ عَهْدٌ عَلَى أَنْ لَا يَكَلِّمَكُمْ فَأَخْبِرَكُمْ أَنَّ أَعْدَاءَكُمْ قَدْ
غَزَوْكُمْ عَدَّةَ التُّرَابِ، وَأَنْ شَوْكَهُمْ شَدِيدَةٌ، وَأَمَّا الْحَنْظَلَةُ فَهِيَ رُؤْسَاءُ
الْقَوْمِ، وَأَمَّا الْخَرَقَتَانِ الْيَمَانِيَتَانِ فَهُمَا حَيَّانُ مِنَ الْيَمَنِ مَعَهُمْ، وَأَمَّا
الْخِرْقَةُ الْحِمْرَاءُ فَهِيَ حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَأَمَّا الْأَحْجَارُ فَفِي عَشْرِ لِيَالٍ
يَأْتِيَكُمُ الْقَوْمُ إِلَيْهَا، قَدْ أَنْذَرْتُكُمْ فَكُونُوا أَحْرَارًا فَاصْبِرُوا كَمَا يَصْبِرُ
الْأَحْرَارُ الْكِرَامُ.

قَالَ الْأَحْوَصُ: فَإِنَّا فَاعِلُونَ وَأَخَذُونَ بِرَأْيِكَ، فَإِنَّهُ لَمْ تَنْزِلْ بِكَ
شِدَّةٌ إِلَّا رَأَيْتَ الْمَخْرَجَ مِنْهَا. قَالَ: فَإِذَا قَدْ رَجَعْتُمْ إِلَى رَأْيِي فَادْخُلُوا
نَعْمَكُمْ شَيْعَ جَبَلَةَ ثُمَّ أَظْمُؤُوهَا هَذِهِ الْأَيَّامَ وَلَا تَرُدُّوْهَا الْمَاءَ، فَإِذَا
جَاءَ الْقَوْمُ أَخْرَجُوا عَلَيْهِمُ الْإِبِلَ وَأَنْخَسُوهَا بِالسِّيُوفِ وَالرِّمَاحِ فَتَخْرُجُ
مِذَاغِيرُ عَطَاشًا فَتَشْغَلُهُمْ وَتَسْرِقُ جَمْعَهُمْ وَأَخْرَجُوا أَنْتُمْ فِي آثَارِهَا
وَاشْفُوا نَفُوسَكُمْ. فَفَعَلُوا مَا أَشَارَ بِهِ.

وَعَادَ كَرَبَ بْنَ صَفْوَانَ فَلَقْنِي لَقِيطًا فَقَالَ لَهُ: أَنْذَرْتُ الْقَوْمَ؟
فَأَعَادَ الْحَلْفَ (٥٨٥/١) لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، فَخَلَّى عَنْهُ فَقَالَتْ
دَخْتَنُوسُ ابْنَتُهُ لَقِيطُ لَأَبِيهَا: رَدَّنِي إِلَى أَهْلِي وَلَا تَعْرِضْنِي لِعَبْسٍ وَعِصَامٍ
فَقَدْ أَنْذَرَهُمْ لَا مَحَالَةَ. فَاسْتَحَقَّهَا وَسَاءَ كَلَامُهَا وَرَدَّهَا. وَسَارَ حَتَّى
نَزَلَ عَلَى فِمْ الشَّعْبِ بِعَسَاكِرِ جَزَارَةَ كَثِيرَةِ الصَّوَاهِلِ وَلَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا
الْمَاءُ، فَقَصَدُوهُ. فَقَالَ لَهُمْ قَيْسُ: أَخْرَجُوا عَلَيْهِمُ الْآنَ الْإِبِلَ: فَفَعَلُوا
ذَلِكَ، فَخَرَجَتْ الْإِبِلُ مِذَاغِيرَ عَطَاشًا وَهُمْ فِي أَغْرَاضِهَا وَأَدْبَارِهَا،
فَخَبِطَتْ تَمِيمًا وَمَنْ مَعَهَا وَقَطَعَتْهُمْ، وَكَانُوا فِي الشَّعْبِ، وَأَبْرَزَتْهُمْ إِلَى
الصَّحْرَاءِ عَلَى غَيْرِ تَعْيَةٍ. وَشَغَلُوا عَنِ الْاجْتِمَاعِ إِلَى الْوَيْتِهِمْ، وَحَمَلَتْ
عَلَيْهِمْ عَيْسُ وَعَامِرُ فَأَقَاتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا وَكَثُرَتْ الْقَتْلَى فِي تَمِيمٍ، وَكَانَ
أَوَّلُ مَنْ قُتِلَ مِنْ رُؤْسَانِهِمْ عُمَرُو بْنُ الْجَوْنِ، وَأُسْرُ مَعَاوِيَةَ بْنِ الْجَوْنِ
وَعُمَرُو بْنُ عَمْرٍو بْنِ عُذْسٍ زَوْجُ دَخْتَنُوسَ بِنْتِ لَقِيطِ، وَأُسْرُ حَاجِبِ
بْنِ زُرَّارَةَ، وَانْحَازَ لَقِيطُ بْنُ زُرَّارَةَ، فَدَعَا قَوْمَهُ وَقَدْ تَفَرَّقُوا عَنْهُ، فَاجْتَمَعَ
إِلَيْهِ نَفَرٌ يَسِيرُ، فَتَحَرَّزَ بِرَأْيِهِ فَوْقَ جُرْفٍ ثُمَّ حَمَلَ فَقَتَلَ فِيهِمْ وَرَجَعَ
وَصَاحَ: أَنَا لَقِيطُ، وَحَمَلُ ثَانِيَةٌ قَتَلْتُ وَجَرَحْتُ وَعَادَ، فَكَثُرَ جَمْعُهُ، فَانْحَطَّ
الْجُرْفُ بِفَرَسِهِ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ عَتْرَةً فَطَعَنَهُ طَعْنَةً قَصَمَ بِهَا صُلْبَهُ، وَضْرَبَهُ
قَيْسُ بِالسَّيْفِ فَأَلْقَاهُ مَتَشَخَّطًا فِي دَمِهِ، فَذَكَرَ ابْنَتَهُ دَخْتَنُوسَ فَقَالَ:
يَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْكَ دَخْتَنُوسُ إِذَا أَتَاهَا الْخَبِيرُ الْعَرْمُوسُ

وَمَنْ يَكُونُوا قَوْمَهُ يَغْطَرُفُ كَأَنَّهُ لَجَبَةٌ بِحَرِّ مُنْسَرَفٍ
أَنَا وَاللَّهِ أَغْرَ الْعَرَبُ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ أَغْرَ مَنْيَ فليضربها بالسيف،
فقام رجل من قيس يقال له أحمر بن مازن فضربها بالسيف فخرشها
خرشاً غير كثير، فاخصم الناسُ ثم اصطلحوها. (بنو نصر بالنون).

وأما الفجار الثاني، وكان بعد الفيل بعشرين سنة، وبعد موت عبد
المطلب باثنتي عشرة سنة، ولم يكن في أيام العرب أشهر منه ولا
أعظم، (٥٩٠/١) فإنما سُمِّيَ الفجار لما استحلَّ الحَيَّانَ كنانة وقيس
فيه من المحارم، وكان قبله يوم جَبَلَة، وهو مذكور من أيام العرب،
والفجار أعظم منه.

وكان سببه أن البراء بن قيس بن رافع الكناني ثم الضمري كان
رجلاً فائقاً خليعاً قد خلعه قومه لكثرة شره، وكان يضرب المثل
بفكته فيقال:

أَفْتَكُ مِنَ الْبِرَاضِ. قال بعضهم:

وَالْقَتَى مَنْ تَرَفَّقَهُ اللَّيَالِي فَهُوَ فِيهَا كَالْحَيَّةِ التَّنَاضِي
كُلَّ يَوْمٍ لَهْ بِصَرْفِ اللَّيَالِي فَتَكَّةٌ مِثْلُ فَتَكَةِ السَّرَاضِ
فخرج حتى قدم على النعمان بن المنذر، وكان النعمان يبعث كلَّ
عام بطيعة للتجارة إلى عكاظ تباع له هناك، وكان عكاظ وذو المجاز
ومجنة أسواقاً تجتمع بها العرب كلَّ عام إذا حضر الموسم فيأمن
بعضهم بعضاً حتى تنقضي أيامها، وكانت مجنة بالظهران، وكانت
عكاظ بين نخلة والطائف، وكان ذو المجاز بالجانب الأيسر إذا وقفت
على الموقف، فقال النعمان، وعنده البراء وعروة بن عتبة بن جعفر
بن كلاب المعروف بالرحال، وإنما قيل له ذلك لكثرة رحلته إلى
الملوك: مَنْ يُجِيزُ لِي لَظِمَتِي هَذِهِ حَتَّى يُلَافِغَهَا عَكَازُ؟ فقال البراء:
أَنَا أُجِيزُهَا، أَيْتُ اللَّعْنِ، عَلَى كِنَانَةٍ. فقال النعمان: إِنَّمَا أُرِيدُ مَنْ
يُجِيزُهَا عَلَى كِنَانَةٍ وَقيس! فقال عروة: أَكَلْبُ خَلِيعٌ يُجِيزُهَا لَكَ، أَيْتُ
اللَّعْنِ! أَنَا أُجِيزُهَا عَلَى أَهْلِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ مِنْ أَهْلِ تَهَامَةٍ وَأَهْلٍ
نَجْدٍ فَقَالَ الْبِرَاضُ، وَغَضِبَ: وَعَلَى كِنَانَةٍ تُجِيزُهَا يَا عُرْوَةُ؟ قَالَ عُرْوَةُ:
وَعَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ.

فدفع النعمان اللطيمة إلى عروة الرحال وأمره بالمسير بها،
وخرج البراءُ يتبع أثره، وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه، حتى إذا
كان [عروة] بين ظهري (٥٩١/١) قومه بوادٍ يقال له تَيْمَنُ بِنَاحِي
فَكَ أَدْرَكَ الْبِرَاضُ بَنِي قَيْسٍ فَأَخْرَجَ قَدَاحَهُ يَسْتَقْسِمُ بِهَا فِي قَتْلِ عُرْوَةَ،
فَمَرَّ بِهِ عُرْوَةُ فَقَالَ: مَا تَصْنَعُ يَا بِرَاضُ؟ فَقَالَ: اسْتَقْسِمُ فِي قَتْلِكَ أَيُّذُنُ
لِي أَمْ لَا. فَقَالَ عُرْوَةُ: اسْكُ أَضِيقُ مِنْ ذَلِكَ! فَوَثَبَ إِلَيْهِ الْبِرَاضُ
بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ. فَلَمَّا رَأَى الَّذِينَ يَقُومُونَ عَلَى الْعِيرِ وَالْأَحْمَالِ قِتْلًا
انْهَزَمُوا، فَاسْتَأَقَ الْبِرَاضُ الْعِيرَ وَسَارَ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى خَيْبَرِ، وَتَبِعَهُ
رَجُلَانِ مِنْ قَيْسٍ لِيَأْخُذَاهُ، أَحَدُهُمَا غَنَوِيٌّ وَالْآخَرُ غُظَفَانِيٌّ، اسْمُ
الْغَنَوِيِّ أَسَدُ بْنُ جَوْيْنٍ، وَاسْمُ الْغُظَفَانِيِّ مُسَاوَرُ بْنُ مَالِكٍ، فَلَقِيَهُمَا

الْمَطْلَبُ هَمًّا بِإِخْرَاجِ قَرِيشٍ مِنَ الْحَرَمِ وَأَنْ يَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَغْلِبُوهُمْ
عَلَيْهِ، وَعَدَّتْ بَنُو بَكْرِ عَلَى نَعَمٍ لِبَنِي الْهُوَيْنِ بَنِ خَزِيمَةَ فَاطْرُدُوهَا، ثُمَّ
جَمَعُوا جَمُوعَهُمْ وَجَمَعَتْ قَرِيشُ جَمُوعَهُمْ وَاسْتَعَدَّتْ، وَعَقَدَ عَبْدِ
الْمَطْلَبِ الْحَلْفَ بَيْنَ قَرِيشٍ وَالْأَحَابِيشِ، وَهُمْ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ
وَبَنُو الْهُوَيْنِ بَنِ خَزِيمَةَ بَنِ مُدْرِكَةَ وَبَنُو الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُرَاعَةَ، فَلَقُوا بَنِي
بَكْرِ وَمِنْ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى النَّاسِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَاقْتَلَوْا بِذَاتِ
نَكِيفٍ، فَانْهَزَمَ بَنُو بَكْرِ وَقُتِلُوا قِتْلًا ذَرْبًا، فَلَمْ يَعُودُوا لِحَرْبِ قَرِيشٍ،
قَالَ ابْنُ شَلَةَ الْفَهْرِيُّ: (٥٨٨/١)

فَلَلَهُ عَيْنًا مَنْ رَأَى مِنْ عَصَابَةِ غَوَتْ غَيَّ بَكْرِ يَوْمَ ذَاتِ نَكِيفٍ
أَنَاخُوا إِلَى آيَاتِنَا وَنَسَانَا فَكَانُوا لَنَا ضَيْفًا بِشَرِّ مُضِيفٍ
فَقَتَلَ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ بَنِ السَّفَاحِ الْقَارِيَّ مِنَ الْقَارَةِ قَتَادَةَ بَنِ قَيْسِ أَخَا
بُلْعَاءِ بْنِ قَيْسٍ، وَاسْمُ بُلْعَاءِ مُسَاحِقٌ. وَيَوْمَئِذٍ قِيلَ: قَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةُ مِنْ
رَامَاهَا، وَالْقَارَةُ مِنْ وَلَدِ الْهُوَيْنِ بَنِ خَزِيمَةَ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ عَضَلِ بْنِ
الدَّيْشِ؛ قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ:

دَعُونَا قَارَةَ لَا تَغْرُونَا فَجُفِلَ مِثْلُ إِنْجَالِ الظِّلِّيمِ
وَقِيلَ: بِهَذَا الْبَيْتِ سُمِّيَ قَارَةُ، وَكَانَ يُقَالُ لِلْقَارَةِ رُمَاةُ الْحَذَقِ.

ذكر الفجار الأول والثاني

أما الفجار الأول فلم يكن فيه كثير أمر ليذكر، وإنما ذكرناه لئلاَّ
يُرى ذكر الفجار الثاني وما كان [فيه] من الأمور العظيمة فيُظنَّ أنَّ
الأول مثله وقد أهملناه، فلهذا ذكرناه.

قال ابن إسحاق: كان الفجار الأول بين قريش ومن معها من
كنانة كلها وبين قيس عيلان. وسببه أن رجلاً من كنانة كان عليه دين
لرجل من بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، فأعدم الكناني،
فوافى النصرى سوق عكاظ بفرد وقال: من يبيعي مثل هذا بما لي
على فلان الكناني؟ فعل ذلك تعبيراً (٥٨٩/١) للكناني وقومه، فمرَّ به
رجلٌ من كنانة فضرب القرد بالسيف فقتله أنفةً ممَّا قال النصرى،
فصرخ النصرى في قيس، وصرخ الكناني في كنانة، فاجتمع الناسُ
وتحاوروا حتى كاد يكون بينهم القتال ثم اصطلحوها.

وقيل: كان سببه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر
وهي وضينة عليها برقع، فقالوا لها: اسفري لننظر إلى وجهك، فلم
تفعل. فقام غلام منهم فشكَّ ذيلَ درعها إلى ظهرها ولم تشعر، فلما
قامت انكشفت دبرها، فضحكوا وقالوا: منغتنا النظر إلى وجهك فقد
نظرنا إلى دبرك. فصاحت المرأة: يا بني عامر فُصِّحَتْ! فأثأها الناس
واشتجروا حتى كاد يكون قتال، ثم رأوا أنَّ الأمرَ يسير فاصطلحوها
وقيل: بل قعد رجل من بني غفار يقال له أبو معشر بن مكرز، وكان
عازماً متعباً في نفسه، وكان يسوق عكاظ، فمدَّ رجله ثم قال:

نَحْنُ بَنُو مُدْرِكَةَ بَنِ خَيْلَفٍ مَنْ يَطْعُنُونَا فِي عَيْنِهِ لَا يَطْرَفُ

البرّاض بخير أوّل الناس فقال لهما: مَن الرجلان؟ قالوا: من قيس قدما لنقتل البرّاض. فأنزلهما وعقل راحلتيهما، ثم قال: أيكما أجرا عليه وأجود سيفا؟ قال الغطفاني: أنا. فأخذه ومشى معه ليدّله بزعمه على البرّاض، فقال للغنوي: احفظ راحلتيكما، ففعل، وانطلق البرّاض بالغطفاني حتّى أخرجه إلى خربة في جانب خيبر خارجاً من البيوت، فقال للغطفاني: هو في هذه الخربة إليها ياوي فأمهلي حتّى أنظر أهو فيها. فوقف ودخل البرّاض ثم خرج فقال: هو فيها وهو نائم، فأرني سيفك حتّى أنظر إليه أضراب هو أم لا، فأعطاه سيفه، فضربه به حتّى قتله ثم أخفى السيف وعاد إلى الغنوي فقال له: لم أر رجلاً أجبن من صاحبك، تركته في البيت الذي فيه البرّاض وهو نائم فلم يقدم عليه. فقال: انظر لي مَن يحفظ الراحلتين حتّى أمضي إليه فاقتله. فقال: دعهما وهما عليّ، ثم انطلقا إلى الخربة، فقتله وسار بالعرير إلى مكة، فلقي رجلاً من بني أسد بن خزيمّة، فقال له البرّاض: هل لك إلى أن أجعل لك جعلاً على أن تنطلق إلى حرب بن أميّة وقومي فإنهم قومي وقومك، لأن أسد بن خزيمّة من خندف أيضاً، فتخبرهم أنّ البرّاض بن قيس قتل عروة الرّحّال، فليحذروا قيساً وجعل له عشرين من الإبل. فخرج الأسديّ (٥٩٢/١) حتّى أتى عكاظ، وبها جماعة [من] الناس، فأتى حرب بن أميّة فأخبره الخبر، فبعث إلى عبد الله بن جُدعان التيمي وإلى هشام بن المغيرة المخزومي، وهو والد أبي جهل، وهما من أشراف قريش وذوي السنّ منهم، وإلى كلّ قبيلة من قريش أحضر منها رجلاً، وإلى الحُلَيْس بن يزيد الحارثي، وهو سيّد الأحابيش، فأخبرهم أيضاً. فتشاوروا وقالوا: نخشى من قيس أن يطلبوا ثار صاحبهم ممّا فإنهم لا يرضون أن يقتلوا به خليعاً من بني ضَمْرَة. فانفق رأيهم على أن يأتوا أبا براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب مُلاعب الأسنة، وهو يومئذ سيّد قيس وشريفها، فيقولوا له: إنّه قد كان حدث بين نجد وتهامة وإنّه لم يأتنا علمه فأجزّ بين الناس حتّى نعلم ونُعلم.

فأتوه وقالوا له ذلك، فأجاز بين الناس وأعلم قومه ما قيل له، ثمّ قام نفر من قريش فقالوا: يا أهل عكاظ إنّه قد حدث في قومنا بمكة حدثٌ أتاناً خبره ونخشى إن تخلفنا عنهم أن يتفاقم الشرّ فلا يروعنكم تحمّلنا. ثمّ ركبوا على الصعب والذلول إلى مكة. فلما كان آخر اليوم أتى عامر بن مالك مُلاعب الأسنة الخير فقال: غدرت قريش وخدعني حرب بن أميّة، والله لا تنزل كثانة عكاظ أبداً. ثمّ ركبوا في طلبهم حتّى أدركوهم بنخلة، فاقتل القوم، فاشتعلت قيس، فكادت قريش تنهزم إلّا أنّها على حمايتها تبادر دخول الحرم ليامنوا به. فلم يزالوا كذلك حتّى دخلوا الحرم مع الليل، وكان رسول الله، ﷺ، معهم، وعمره عشرين سنة.

وقال الزُّهري: لم يكن معهم، ولو كان معهم لم ينهزموا، وهذه العلة (٥٩٣/١) ليست بشيء لأنّه قد كان بعد الوحي والرسالة ينهزم

وخرجت قريش للموعد على كلّ بطن منها رئيس، فكان على بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه رسول الله، ﷺ، وإخوته أبو طالب وحزمة والعبّاس بنو عبد المطلب، وعلى بني أميّة وأحلافها حرب ابن أميّة، وعلى بني عبد الدار عكرمة بن هاشم بن مناف بن عبد الدار، وعلى بني أسد بن عبد العزّي خُوَيْلِد بن أسد، وعلى بني معزوم هشام بن المغيرة أبو أبي جهل، وعلى بني تيم عبد الله بن جُدعان، وعلى بني جُمح مُعمر بن حبيب بن وهب، وعلى بني سُهْم العاص بن وائل، وعلى بني عديّ زيد ابن عمرو بن نُفَيْل والد سعيد بن زيد، وعلى بني عامر بن لؤي عمرو بن عبد شمس والد سُهَيْل بن عمرو، وعلى بني فُهر عبد الله بن الجراح والد أبي عُبَيْدة، وعلى الأحابيش الحُلَيْس بن يزيد وسفيان بن عُوفٍ هما قائداهم، والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة كثانة وعَصَل والقارة والدُش من بني الهون بن خزيمّة والمُصطلق بن خزاعة، سُمُوا بذلك لحلفهم بني (٥٩٤/١) الحارث، والتجشّس التجمّع، وعلى بني بكر بلعاء بن قيس، وعلى بني فِرّاس بن غنم من كثانة عُمَيْر بن قيس جذل الطعان، وعلى بني أسد بن خزيمّة بشر بن أبي حازم، وكان على جماعة الناس حرب بن أميّة لمكانه من عبد مناف سنّاً ومنزلةً.

وكانت قيس قد تقدّمت إلى عكاظ قبل قريش، فعلى بني عامر مُلاعب الأسنة أبو براء، وعلى بني نصر وسعد وثيف سبيع بن ربيع بن معاوية، وعلى بني جُشم الصمّة والد فُرَيْد، وعلى غطفان عوف بن أبي حارثة المزيّ، وعلى بني سُليم عُبّاس بن زعل بن هني بن أنس، وعلى فُهم وعدوان كِدَام بن عمرو.

وسارت قريش حتّى نزلت عكاظ وبها قيس. وكان مع حرب بن أميّة إخوته سفيان وأبو سفيان والعاص وأبو العاص بنو أميّة، ففعل حرب نفسه وقيد سفيان وأبو العاص نفسيهما وقالوا: لن يبرح رجل ممّا مكانه حتّى نموت أو نظفر، فيومئذ سُمُوا العنابس، والعنيس الأسد. واقتل الناس قتلاً شديداً، فكان الظفر أوّل النهار لقيس، وانهزم كثير من بني كثانة وقريش، فانهزم بنو زُهرة وبنو عديّ، وقُتل مُعمر بن حبيب الجُمحيّ، وانهزمت طائفة من بني فِرّاس، وثبت حرب بن أميّة وبنو عبد مناف وسائر قبائل قريش، ولم يزل الظفر لقيس على قريش وكثانة إلى أن انتصف النهار، ثمّ عاد الظفر لقريش

وكانة فقتلوا من قيس فأكثروا، وحمي القتال واشتد الأمرُ فقتل يومئذ تحت راية بني الحارث بن عبد مائة بن كنانة مائة رجل وهم صابرون، فانهزمت قيس، وقتل من أشرافهم عباس ابن زغل السلمي وغيره. فلما رأى أبو السيد عم مالك بن عوف النصري ما تصنع كنانة من القتل نادى: يا معشر بني كنانة أسرفتم في القتل. فقال ابن (٥٩٥/١) جُدعان: إنا معشر يسرف.

يوم نَعْف قُشاوة

وهو يوم لثبيان على تميم.

قال أبو عبيدة: أغار بسطام بن قيس على بني يربوع من تميم وهم (٥٩٧/١) بنَعْف قُشاوة، فأتاهم ضحى، وهو يوم ريح ومطر، فوافق النعم حين سرح، فأخذه كله ثم كر راجعاً، وتداعت عليه بنو يربوع فلقوه وفيهم عمارة بن عثية بن الحارث بن شهاب، فكرر عليه بسطام فقتله، ولحقهم مالك بن حطان اليربوعي فقتله، وأتاهم أيضاً بُجَيْر بن أبي مُلَيْل فقتله بسطام، وقتلوا من يربوع جمعاً وأسروا آخرين، منهم: مُلَيْل بن أبي مُلَيْل، وسلموا وعادوا غانمين. فقال بعض الأسرى لبسطام: أيسرك أن أبا مُلَيْل مكاني؟ قال: نعم قال: فإن ذلك عليه أطلقتني الآن؟ قال: نعم قال: فإن ابنه بُجَيْراً كان أحب خلق الله إليه وستجده الآن مُكَيّاً عليه يقبله فخذهُ أسيراً فعاد بسطام فرآه كما قال، فأخذه أسيراً وأطلق اليربوعي فقال له أبو مُلَيْل: قتلت بجيراً وأسرتني وابني مُلَيْلاً والله لا أطعم الطعام أبداً وأنسا موتى. فخشي بسطام أن يموت فأطلقه بغير فداء على أن يفاذي مُلَيْلاً وعلى أن لا يتبعه بدم ابنه بُجَيْر ولا يبيغيه غائلة ولا يدلّ له على عورة ولا يغير عليه ولا على قومه أبداً، وعاهده على ذلك، فأطلقه وجزّ ناصيته، فرجع إلى قومه وأراد الغدر بسطام والنكت به، فأرسل بعض بني يربوع إلى بسطام يخبره، فحذره، وقال مُتَمِّم بن نُؤيرة:

أبلغ شهاب بني بكر وسيدهما عني بذلك أبا الصهباء بسطاماً
أزوي الأسة من قومي فأنهلها فاصبحوا في بقع الأرض نواصيا
لا يطبقون إذا هبّ النيام ولا في مرقدٍ يخلعون الدهر أحلاما (٥٩٨/١)

أشجى تميم بن مُر لا مكايذة حتى استعادوا له أسرى وأنعاما
ملاً أسيراً فنتك الفس نطعمه ممّا أراد وقدماً كنت مطعاما
وهي آيات عذة.

يوم الغَيْط

وهو يوم كانت الحرب فيه بين بني شيبان و تميم، أسر فيه بسطام بن قيس الشيباني.

وسبب ذلك أن بسطام بن قيس والحَوَفران بن شريك ومُفروق بن عمرو ساروا في جمع من بني شيبان إلى بلاد تميم فأغاروا على ثعلبة بن يربوع وثعلبة بن سعد بن ضبة وثعلبة بن عدي بن فزارة وثعلبة بن سعد بن دُبَيان، وكانوا متجاورين بصحراء فلجج، فاقتلوا، فانهزمت الثعلابة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغنم بنو شيبان أموالهم، ومروا على بني مالك بن حنظلة من تميم، وهم بين صحراء فلجج وغبيط المذرة فاستاقوا إبلهم، فركبت إبلهم بنو مالك يقدّمهم عثية بن

ولما رأى سُبيح بن ربيع بن معاوية هزيمة قبائل قيس عقل نفسه واضطجع وقال: يا معشر بني نصر قاتلوا عني أو ذروا. فعطفت عليه بنو نصر وجُشَم وسعد بن بكر وفهم وعدوان وانهزم باقي قبائل قيس، فقاتل هؤلاء أشد قتال رآه الناس. ثم إنهم تداعوا إلى الصلح فاصطلحوا على أن يعدّوا القتلى فأَي الفريقين فضل له قتلَى أخذ ديتهم من الفريق الآخر، فتعدّوا القتلى فوجدوا قريشاً وبني كنانة قد أفضلوا على قيس عشرين رجلاً، فزعم حرب بن أمية يومئذ ابنه أبا سفيان في ديات القوم حتى يؤدّيهما، ورهن غيره من الرؤساء، وانصرف الناس بعضهم عن بعض ووضعوا الحرب وهدموا ما بينهم من العداوة والشّر وتعاهدوا على أن لا يؤذي بعضهم بعضاً فيما كان من أمر البرّاض وعُروّة.

يوم ذي نَجَب

وكان من حديث يوم ذي نَجَب أن بني عامر لما أصابوا من تميم ما أصابوا يوم جيلة رجوا أن يستأصلوهم، فكتبوا حسان بن كيشة الكندي، وكان ملكاً من ملوك كندة، وهو حسان بن معاوية بن حُجر، فدعوه إلى أن يغزو معهم بني حنظلة من تميم، فآخبروه أنهم قد قتلوا فرسانهم ورؤساءهم، فأقبل معهم بصانعه ومن كان معه. فلما أتى بني حنظلة خبر مسيرهم قال لهم عمرو بن عمرو: يا بني مالك إنّه لا طاقة لكم بهذا الملك (٥٩٦/١) وما معه من العدد فانتقلوا من مكانكم، وكانوا في أعالي الوادي ممّا يلي مجيء القوم، وكانت بنو يربوع بأسفله، فتحولت بنو مالك حتى نزلت خلف بني يربوع، وصارت بنو يربوع تلي الملك.

فلما رأوا ما صنع بنو مالك استعدّوا وتقدّموا إلى طريق الملك. فلما كان وجه الصبح وصل ابن كيشة فيمن معه وقد استعدّ القوم فاقتلوا فلما رآهم بنو مالك وصبرهم في القتال ساروا إليهم وشهدوا معهم القتال فاقتلوا مليّاً، ففُضِر حُشَيْش بن يَمْران الرياحي ابن كيشة الملك على رأسه فصرعه، فمات، وقتل عبيدة بن مالك بن جعفر، وانهزم طُفَيْل بن مالك على فرسه فرُزِل، وقتل عمرو بن الأحوص بن جعفر، وكان رئيس عامر، وانهزمت بنو عامر وصنائع ابن كيشة. قال جرير في الإسلام يذكر اليوم بذئ نجب:

بذئ نَجَب دُنْنا وواكَلْ مالِك أخا لم يكن عند الطعان بواكِل
وكانوا يوم ذي نجب بعد يوم جيلة بسنة، وبقي الأحوص بعد ابنه

يوم لثييان على بني تميم

قال أبو عبيدة: خرج الأقرع بن حابس وأخوه فراس التميميان، وهما الأقرعان، في بني مُجَاشَع من تميم وهما يريدان الغارة على بكر بن وائل ومعهما البروك أبو جعل، فلقبهم بسطام بن قيس الشيباني وعمران (٦٠١/١) ابن مُرَّة في بني بكر بن وائل بزيالة فاقتلوا قتالاً شديداً ظفرت فيه بكر وانهزمت تميم وأسر الأقرعان وأبو جعل وناس كثير، وافتدى الأقرعان نفسيهما من سطام وعاهداه على إرسال الفداء، فأطلقهما، فبُعثا ولم يرسلوا شيئاً. وكان في الأمرى إنسان من يربوع فسمعه بسطام بن قيس في الليل يقول:

فبلى بالسدة علسي شفيقةً فكأنها حُرسٌ على الأسقام
لو أنها علمت فيسكن جاشها أني سقطت على الفتى المنعام
إن السذي ترجين ثم ليابه سقط العشاء به على سطام
سقط العشاء به على متعم سَمِعَ البليثين معاود الإقسام
فلما سمع بسطام ذلك منه قال له: وأبيك لا يخبر أمك عنك غيرك! وأطلقه، وقال ابن رميض العنزي:

جاءت هديا من الرحمان مُرسطةً حتى أبخت لذي أبيات بسطام
جيش الهنيل وجيش الأقرعين معاً وكبَّ الخيل والأنواد في عام
سوم خيليه نكَلُو مقابله على النوائب من أولاد همام
وقال أوس بن حَجَر:

وصبنا عار طويسل بناؤه نُسبَ به ما لاح في الأفق كوكب
فلم أريوماً كان أكثر باكياً وجهاً تُرى فيه الكابة تجنب
أصابوا البروك وابن حابس عنوةً فظل لهم بالقاع يوم غصب
وإن أبا الصهباء في خومة الوغى إذا أزورت الأبطال ليث مجرب
(٦٠٢/١)

وأبو الصهباء هو بسطام بن قيس. وأكثر الشعراء في هذا اليوم في مدح بسطام بن قيس، تركنا ذكره اختصاراً.

(حَجَر بفتح الحاء والجيم).

يوم مبائن

وهو لثييان على بني تميم.

قال أبو عبيدة: حجَّ طريف بن تميم العنبري التميمي، وكان رجلاً جسيماً يلقب مُجَدَّعاً، وهو فارس قومه، ولقيه حمصيصة بن جندل الشيباني من بني أبي ربيعة، وهو شاب قوي شجاع، وهو يطوف بالبيت، فأطال النظر إليه، فقال له طريف: لِمَ تشد نظرك إليّ؟ قال حمصيصة: أريد أن أثبتك لعلّي أن ألقاك في جيش فاقتلك فقال طريف: اللهم لا تحول الحول حتى ألقاه! ودعا حمصيصة مثله، فقال طريف:

الحارث بن شهاب اليربوعي وفرسان بني يربوع، وساروا في أثر بني شيبان ومعه من رؤساء تميم الأحيمر بن عبد الله وأسيد بن جبة وحُر بن سعد ومالك بن نُؤيرة فأدركوهم بغيط المَدَرَة فقاتلوهم. وصبر الفريقان، ثم انهزمت شيبان واستعادت تميم ما كانوا غنموه من أموالهم، وقتل بنو شيبان أبا مرحب ربيعة بن حصية، وألح عتيبة بن الحارث على بسطام بن قيس فأدركه فقال له: استأمر أبا (٥٩٩/١) الصهباء فأنا خير لك من الفلاة والعطش. فاستأمر له بسطام بن قيس. فقال بنو ثعلبة لعتيبة: إن أبا مرحب قد قُتل وقد أسرت بسطاماً وهو قاتل مُلَيْل وُبَجَيْر ابني أبي مُلَيْل ومالك بن حِطَّان وغيرهم فاقتله. قال: إني مُعيل وأنا أحب اللبن. قالوا: إنك تُفاديه فيعود فيحرقنا مالنا، فأبى عليهم وسار به إلى بني عامر بن صعصعة لئلا يؤخذ فيقتل، وإنما قصد عامراً لأن عمته خولة بنت شهاب كانت ناكحة فيهم؛ فقال مالك بن نُؤيرة في ذلك:

لله عتاب بن مية إذ رأى إلى ثارنا في كف يتلند
أنحي اسماً أزدى بُكيراً مالكاً وأنوى خُرثاً بعدما كان يقصد
ونحن ثارنا قبل ذاك ابن أمه غداة الكلايين والجمع يشهد

فلما توسط عتية بيوت بني عامر صاح بسطام: واشيباناه! ولا شيبان لي اليوم! فبعث إليه عامر بن الطفيل: إن استطعت أن تلجأ إلى قتي فافعل فإني سامعك، وإن لم تستطع فاقد نفسك في الرمي. فأتى عتية تابعه من الجن فأخبره بذلك، فأمر بيته فقوض. فركب فرسه وأخذ سلاحه ثم أتى مجلس بني جعفر، وفيه عامر بن الطفيل الغنوي، فحيّاهم وقال: يا عامر قد بلغني الذي أرسلت به إلى بسطام فأنا مخيرك فيه خصالاً ثلاثاً فقال عامر: وما هي؟ قال: إن شئت فأعطني خلعتك وخلعة أهل بيتك حتى أطلقك لك، فليست خلعتك وخلعة أهل بيتك بشر من خلعتك وخلعة أهل بيته. فقال (٦٠٠/١) عامر: هذا لا سبيل إليه. قال عتية: ضع رجلك مكان رجله فلست عندي بشر منه. فقال: ما كنت لأفعل قال عتية: تتبعني إذا جاوزت هذه الراية فتقارعني عنه على الموت فقال عامر: هذه أبغضهن إليّ فأنصرف به عتية إلى بني عبيد بن ثعلبة فرأى بسطام مركب أم عتية رثاً فقال: يا عتية هذا رجل أمك؟ قال: نعم. قال: ما رأيت رجل أم سيد قط مثل هذا فقال عتية: واللوات والعزى لا أطلقك حتى تأتيني أمك بحذجها، وكان كبيراً ذا ثمن كثير، وهذا الذي أراد بسطام ليرغب فيه فلا يقتله. فأسر بسطام فأحضر جذج أمه وفادى نفسه بأربعمائة بعير، وقيل: بألف بعير، وثلاثين فرساً وهودج أمه وحذجها وخلص من الأسر. فلما خلاص من الأسر أذكى العيون على عتية وإبله، فعادت إليه عيونه فأخبروه أنها على أرباب، فأغار عليها وأخذ الإبل كلها وما لهم معها.

(عتبة بالناء فوقها نقطتان، والياء تحتها نقطتان ساكنة، وفي آخرها باء موحدة).

يوم الزوئرين

قال أبو عبيدة: كانت بكر بن وائل قد أجلبت بلادهم فانتجعوا بلاد تميم بين اليمامة وهجر: فلما تدانوا جعلوا لا يلقي بكري تميمياً إلا قتله، ولا يلقي تميمي بكرياً إلا قتله، إذا أصاب أحدهما مال الآخر أخذه، حتى تغاقم الشر وعظم. فخرج الحوفزان بن شريك والواذك بن الحارث الشيبانيان ليغيرا على بني دارم، فاتفق أن تميمياً في تلك الحال اجتمعت في جمع كبير من عمرو بن حنظلة والرياب وسعد وغيرها وصارت إلى بكر بن وائل، وعلى تميم أبو الرئيس الحنظلي، فبلغ خبرهم بكر بن وائل فتقدموا وعليهم الأصم (٦٠٥/١) عمرو بن قيس بن مسعود أبو مفروق وحنظلة بن سيار العجلي وحمران ابن عبد عمرو العبسي، فلما التقوا جعلت تميم والرياب بعيزين وجللوهما وجعلوا عندهما من يحفظهما وتركوهما بين الصفيين معقولين وسموهما زوئرين، يعني: الهين، وقالوا: لا نفر حتى يفر هذان البعيران. فلما رأى أبو مفروق البعيزين سأل عنهما فأعلم حالهما، فقال: أنا زويركم، وبرك بين الصفيين وقال: قاتلوا عني ولا تفروا حتى أفر. فاقتل الناس قتالاً شديداً، فوصلت شيبان إلى البعيزين فأخذوهما فذبحوهما. واشتد القتال عليهما، فانهزمت تميم وقتل أبو الرئيس مقدمهم ومعه بشر كثير، واجترفت بكر أموالهم ونساءهم وأسروا أسرى كثيرة، ووصل الحوفزان إلى النساء والأموال، وقد سار الرجال عنها للقتال، فأخذ جميع ما خلفوه من النساء والأموال وعاد إلى أصحابه سالماً؛ وقال الأعشى في ذلك اليوم:

يا سلم لا تسالي عنا فلا كثيفت عند اللقاء ولا سود مَسَارِف
نحن الذين هزمننا يوم صَبَحنا يوم الزوئرين في جمع الأحاليِف
ظَلُّوا وظَلَّت تَكَرَّ الخيلُ وسطَهُم بالثَّيب منا وبالْمُرْد الفطاريِف
نَسْتَأْس الشرف الأعلى باعِيَهَا لَمَح الصقور علت فوق الأظاريِف
اتسل عنها بسيل الصيْف فانجردت تحت البُود متسوّ كالأحاليِف
وقد أكثر الشعراء في هذا اليوم، لا سيما الأغلب العجلي، فمن ذلك أرجوزته التي أولها:

إن سرَّكَ المرُّ فنجحْ بحشْم (٦٠٦/١)

يقول فيها:

جاءوا بزُؤريتهم وجنبا بالأصم شيخ لنا كاللث من باقي إرم
شيخ لنا معاود ضربَ البَهم يضرب بالسيف إذا الرمح انقصم
هل غير غارٍ صك غلراً فانهمز

الغاران: بكر وتميم. وله الأرجوزة التي أولها:

يا ربَّ حربٍ ثرة الأخلاف

يذكر فيها هذا اليوم.

أركلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلي عريفهم يتوسم
لا تذكروني إني أنا ذاكُم شامي السلاح وفي الحوادث مُعَلَّم
حولي فوارس من أسيد جمعة ومن الهجيم وحول يني خَصَم
نخني الأغر وفوق جلدي نثرة رَغَف ترده السيف وهو مثَلَم
في أبيات. (٦٠٣/١)

ثم إن بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان وبني مرة بن ذهل بن شيبان كان بينهم شر وخصام فاقتلوا شيئا من قتال، ولم يكن بينهم دم. فقال هانيء بن مسعود، رئيس بني أبي ربيعة، لقومه: إني أكره أن يتغاقم الشر بيننا، فارتحل بهم فنزل على ماء يقال له مُبائض، وهو قريب من مياه بني تميم، فأقاموا عليه أشهراً، وبلغ خبرهم بني تميم، فأرسل بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا حي مفرد وإن اضطلتموهم أوهتم بكر بن وائل واجتمعوا وساروا على ثلاثة رؤساء: أبو الجداء الطهوي على بني حنظلة، وابن فدكي المُنقري على بني سعد، وطريف بن تميم على بني عمرو بن تميم. فلما قاربوا بني أبي ربيعة بلغهم الخبر فاستعدوا للقتال، فخطبهم هانيء بن مسعود وحثهم على القتال، فقال: إذا أتوكم فقاتلوهم شيئا من قتال ثم انحازوا عنهم، فإذا اشتغلوا بالنهب فعودوا إليهم فإنكم تصيرون منهم حاجتكم.

وصبَّحهم بنو تميم والقوم حذرون فاقتلوا قتالاً شديداً وفعلت بنو شيبان ما أمرهم هانيء. فاشتغلت تميم بالغنيمة، ومَرَّ رجل منهم بابن لهانيء بن مسعود صبياً فأخذه وقال: حسبي هذا من الغنيمة، وسار به وبقيت تميم مع الغنيمة والسبي. فعادت شيبان عليهم فهزموهم وقتلوهم وأسروهم كيف شاؤوا، ولم تصب تميم بمثلها؛ لم يفلت منهم إلا القليل، ولم يَلُ أحد على أحد، وانهزم طريف فاتبعه خصيصه فقتله. واستردت شيبان الأهل والمال وأخذوا مع ذلك ما كان معهم، وفادى هانيء بن مسعود ابنه بمائة بعير، وقال بعض شيبان في هذا اليوم:

ولقد دعوت طريفاً دعوة جاهل غرّ واثت بمنظر لا تُقَلَّم
وأتيت حياً في الحروب محلهم والجيش باسم أبيهم يستهزَم
(٦٠٤/١)

فوجدتهم يرعون حول ديارهم بُسلاً إذا حمام الفوارس أقبلوا
وإذا اعتزلاً بالي ربيعة أقبلوا بكية مثل النجوم تلملم
ساموك درعك والأغر كَلَيْهما ونو أسيد أسلموك وخَصَم
وقال عمرو بن سواد يرثي طريفاً:

لا تَبْعُدْ يا خير عمرو بن جندب لعمري لمن زار القبور لَتَبْعِدَا
عظيم رمد النار لا متبياً ولا مؤسباً منها إذا هو أوقدا
وما كان وقفاً إذا الخيل أحجمت وما كان مبطناً إذا ما تجردا

ذكر أسر حاتم طيء

قال أبو عبيدة: أغار حاتم طيء بجيش من قومه على بكر بن وائل فقاتلوه، وانهزمت طيء وقُتل منهم وأسر جماعة كثيرة، وكان في الأسرى حاتم ابن عبد الله الطائي، فبقي موقفاً عند رجل من غُثَيَّة، فأتته امرأة منهم اسمها عالية بناقة فقالت له: افصد هذه، فنحرها، فلما رأتها منحورة صرخت، فقال حاتم:

عالي لا تلتد من عاليه إن الذي اهلكك من ماليه
(٦٠٧/١)

إن ابن أسماء لكم ضامن حتى يؤذي آتس ناوية
لا افصد الناقة في انقها لكنني أوجرها العاليه
إنني عن الفصد لفي مفخر يكره مني الفصد الآليه
والخيل إن شئخص فرسانها تذكر عند الموت أماليه
وقال رُمَيْض العززي يفتخر:

ونحن أسرنا حاتمًا وابن ظالم فكل ثوى في قبلنا وهو يخشع
وكعب إساد قد أسرنا ويعلد أسرنا أبا حنّان والخيل تطمع
وربنا غادرنا برّج كانه وانشاع فيها صريم مصرع

وقال يحيى بن منصور الذُهَلِي قصيدة يفتخر بأيام قومه، وهي طويلة، وفيها آداب حسنة، تركناها كراهية التلويل، وأولها:

أبرن عرفان منزلة ودار تعاونها البوارح والسياري

وقال أبو عبيدة: جاء الإسلام وليس في العرب أحد أعز داراً ولا أمتع جاراً ولا أكثر حليفاً من شيان. كانت عينة من لحم في الأخلاف، وكانت درمكة بن كندة في بني هند، وكانت عكرمة من طيء، وخوتكة من عذرة، ويانة كل هؤلاء في بني الحارث بن همام، وكانت عائنة من قريش، وضبة وحواس من كندة، هؤلاء في بني أبي ربيعة، وكانت سليمة من بني عبد القيس في بني أسعد بن همام، وكانت وثيلة من ثعلبة، (٦٠٨/١) وبنو خيرى من طيء في بني تميم بن شيان، وكانت عوف بن حارث من كندة في بني مخلم. كل هذه قبائل وبطون جاورت شيان فعزت بها وكثرت.

يوم مُسْخَلان

قال أبو عبيدة: غزا ربيعة بن زياد الكلبي في جيش من قومه فلقى جيشاً لبني شيان عامتهم بنو أبي ربيعة، فاقتلوا قتالاً شديداً، فظفرت بهم بنو شيان وهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وذلك يوم مُسْخَلان، وأسروا ناساً كثيراً، وأخذوا ما كان معهم. وكان رئيس شيان يومئذ حيان بن عبد الله بن قيس المُحَلَمي، وقيل: كان رئيسهم زياد بن مرثد من بني أبي ربيعة فقال شاعرهم:

سائل ربيعة حيث حل بجيشه مع الحي كلب حيث لبث فوارسه
عشية ولسى جمعهم فتابعوا فصار إلينا نهيه وعواسه

ثم إن الربيع بن زياد الكلبي نافر قومه وحاربهم فهزموه. فاعتزلهم وسار حتى حل ببني شيان، فاستجار برجل اسمه زياد من بني أبي ربيعة، فقتله بنو أسعد بن همام، ثم إن شيان حملوا دينه إلى كلب ماتي بعير فزوا. (٦٠٩/١)

حرب سُليَم وشييان

قال أبو عبيدة: خرج جيش لبني سُليَم عليهم النصيب السلمي وهم يريدون الغارة على بكر بن وائل. فلقبهم رجل من بني شيان اسمه صليح ابن عبد غنم وهو مُحَرَّم على فرس له يسمى البحراء، فقال لهم: أين تذهبون؟ قالوا: نريد الغارة على بني شيان. فقال لهم: مهلاً فإنني لكم ناصح، إياكم وبني شيان، فإنني أقسم بالله لتأتينكم على ثلاثمائة فرس خصي سوى الفحول والإناث. فأبوا إلا الغارة عليهم، فدفع صليح فرسه ركضاً حتى أتى قومه فأنذروهم. فركبت شيان واستعدوا، فأتاهم بنو سُليَم وهم مُعِدُّون فاقتلوا قتالاً شديداً، فظفرت شيان وانهزمت سُليَم وقتل منهم مقتلة كثيرة وأسر منهم ناس كثير، ولم ينج إلا القليل، وأسر النصيب رئيسهم، أسره عمران بن مرة الشيباني فضرب رقبته، فقال صليح:

نهت بني زغل غداة لقتهم وجيش نصيب والظنون تطاع
وقلت لهم: إن الحريب وراكباً به تسم ترعى المراز رناع
ولكن فيه الموت يرتع سريره وحق لهم أن يقبلوا ويطاعوا
متى تأبوا تلقى على الماء حارثاً وجيشاً له يوفي بكل بقاع
(٦١٠/١)

يوم جَدُود

وهو يوم بين بكر بن وائل وبني منقر من تميم.

وكان من حديثه أن الحَوْفزان، واسمه الحارث بن شريك الشيباني، كانت بينه وبين بني سليط بن يربوع مودعة، فهم بالغدر بهم وجمع بني شيان وذُهلَّ واللاهزام، وعليهم حُمران بن عبد عمرو بن بشر بن عمرو. ثم غزا وهو يرجو أن يصيب غرة من بني يربوع. فلما انتهى إلى بني يربوع نأز به غُثَيَّة بن الحارث بن شهاب فنادى في قومه، فقالوا بين الحَوْفزان وبين الماء، وقال لغُثَيَّة: إني لا أرى معك إلا رهطك وأنا في طوائف من بني بكر، فلئن ظفرت بكم قل عدوكم وطمع فيكم عدوكم، ولئن ظفرتم بي ما تقتلون إلا أقاصي عشيرتي، وما إياكم أردت، فهل لكم أن تسالمونا وتأخذوا ما معنا من التمر، وإلا لا نروع يربوعاً أبداً. فأخذ ما معهم من التمر وخلقى سيبلهم. فسارت بكر حتى أغاروا على بني ربيع بن الحارث، وهو مقاعس، بجَدُود، وإنما سمي مقاعساً لأنه تقاعس عن جلف بني سعد فأغار عليهم وهم خلوف فأصاب سبياً ونعماً، فبعث بنو ربيع صريخهم إلى بني كليب، فلم يجيئوهم، فأتى الصريخ بني منقر بن عبيد فركبوا في

الطلب فالحقوا بكر بن وائل وهم مقاتلون، فما شَعَرَ الحَوْفزان وهو في ظل شجرة إلا بالأهَم بن سُمَي بن سِنان المَنْقَرِي واقفاً على رأسه، فركب فرسه، فنَادَى الأَهَم: يا آل سعد! ونَادَى الحَوْفزان: يا آل وائل! ولحق بنو مَنقَر فقاتلوا قتالاً شديداً، فَهَزَمَتْ بكر وغلّوا السبي والأموال، وتبعهم منقر، فمن قَتِل وأسير، وأسر الأَهَم حُمُرَان بن عبد عمرو، ولم يكن لقيس بن عاصم المَنْقَرِي هَمّة إلا الحَوْفزان، فتيّعه على مهر، (٦١١/١) والحَوْفزان على فرس فارح فلم يلحقه وقد قاربته. فلَمَّا خاف أن يفوته حفره بالرمح في ظهره فاحتفر بالطننة ونجا، فَسُمِيَ يومئذ الحَوْفزان، وقيل غير هذا. وقال الأَهَم في أسره حُمُرَان:

نِطَلْتُ بِحُمُرَانِ المِنيّةِ بَعْدَمَا حَشَاهُ سِنَانٌ مِنْ شُرَاعَةِ أَرْوئِ
دَعَا يَالَ قَيْسٍ وَاعْتَرَيْتُ لِيَنْقَرِ وَكَتَنُ إِذَا لَاقَيْتُ فِي الْخَيْلِ أَصْلَقِ
وقال سُوَار بن حَيَّان المَنْقَرِي يفتخر على رجل من بكر:

ونحن حفرنا الحَوْفزان بطننة كَسَتْ نَجِيعاً مِنْ دَمِ الْبَطْنِ أَشْكَلا
وحُمُرَان قَسراً أَتْرَلَتْهُ رِمَاحُنَا فَمَالِحٌ غُلّاً فِي ذِرَاعَيْهِ مُنْجِلا
فيا لك من أيام صَدَقَتْ نَعْتُنَا كَيَوْمِ جَوَاتِنَا وَالتَّبَاحِ وَبَنَلا
قضى الله أَنَا يَوْمَ نَقُتْسَمُ الْعُلَى أَحَقُّ بِهَا مِنْكُمْ فَأَغْطِي فَأَجْزِلا
فَلَسْتُ بِمُسْطِيعِ السَّمَاءِ وَلَمْ تَجِدْ لِعِزِّ بَنَاهُ اللَّهَ فَوْقَكَ مُنْجِلا
(يُنْقَرُ بِكسر الميم، وسكون النون، وفتح القاف؛ وَرَبَّيعُ بضمّ
الراء، وفتح الباء الموحدة). (٦١٢/١)

يوم الإياد، وهو يوم أعشاش ويوم العُظالي

وَأَمَّا سُمَي يوم العُظالي لَأَنَّ بسطام بن قيس وهاني بن قبيصة ومفروق ابن عمرو تعاضلوا على الرياسة، وكانت بكر تحت يد كسرى وفارس، وكانوا يقرنونهم ويجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر في ثلاثمائة متساندين وهم يتوقّعون انحذار بني يربوع في الحزن، فاجتمع بنو عُنَيّة وبنو عُبَيْد وبنو زَيْد في الحزن، فحَلَّتْ بنو زَيْد الحديقة، وحَلَّتْ بنو عُنَيّة وبنو عبيد روضة الثمد، فأقبل جيش بكر حتّى نزلوا حضبة الحصى، فرأى بسطام السواد بالحديقة، ونَسَمَ غلامٌ عرفه بسطام، وكان قد عرف غلمان بني ثعلبة حين أسره عُنَيّة، فسأله بسطام عن السواد الذي بالحديقة، فقال: هم بنو زَيْد. قال: كم هم من بيت؟ قال: خمسون بيتاً. قال: فأين بنو عُنَيّة وبنو عبيد؟ قال: هم بروضة الثمد وسائر الناس بُخْفاف، وهو موضع. فقال بسطام: أنطيعوني يا بني بكر؟ قالوا: نعم. قال: أرى لكم أن تغموا هذا الحي المتفرّد بني زَيْد وتعودوا سالمين. قالوا: وما يُغْنِي بنو زَيْد عنا؟ قال: إنَّ في السلامة إحدى الغنميتين. قالوا: إنَّ عُنَيّة بن الحارث قد مات. وقال مفروق: قد انتفع سَخْرُك يا أبا الصهباء! وقال هاني: أخساً! فقال: إنَّ أُسَيْد بن جبلة لا يفارق فرسه الشقراء ليلاً ونهاراً، فإذا أحسّ بكم ركبها حتّى يشرف على مليحة فينادي: يا آل ثعلبة، فيلَقاكم طعناً

يُنْسِيكم الغنمة ولم يبصر أحد منكم مصرع صاحبه، وقد عصيتموني وأنا تابعكم ومستعلمون.

فأغاروا على بني زَيْد وأقبلوا نحو بني عُنَيّة وبني عبيد، فأحسّت الشقراء فرس أُسَيْد بوقع الحوافر فتخست بحافرها، فركبها أُسَيْد وتوجّه نحو بني يربوع بمليحة ونادى: يا سوء صباحاه! يا آل ثعلبة بن يربوع! فما ارتفع (٦١٣/١) الضحى حتّى تلاحقوا فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت شيبان بعد أن قتلت من تميم جماعة من فرسانهم، وقُتِل من شيبان أيضاً وأسر جماعة، منهم هاني بن قبيصة، ففقدى نفسه ونجا، فقال مُتَمَّم بن نُزَيْرَة في هذا اليوم:

لعمري لَيَغْمَ الحَيَّ أَسْمَعُ غَدَوَةً أَسِيدٌ وَقَدْ جَدَّ الصَّرَاحُ المَصْلَقُ
وَأَسْمَعُ قِيَاناً كَجَنَّةِ عَبَقَسٍ لَهُمْ رِيْقٌ عِنْدَ الطَّعْمَانِ وَنُصْلَقُ
أَحْذَنُ بِهِمْ جَبِيّ أَفَاقٍ وَبَطْنَهَا فَمَا رَجَعُوا حَتَّى أَرَقُوا وَاعْتَقُوا
وقال العَوَام في هذا اليوم:

قَبِحَ الإِلَهُ عَصَابَةٌ مِنْ وَائِلِ يَوْمَ الْأَفَاقَةِ اسْلَمُوا بِسُنْطَامَا
وَرَأَى لِبَاسَ الصَّهْبَاءِ دُونَ سِرَامِهِمْ طَفَنًا يُسَلِّي نَفْسَهُ وَزَحَامَا
كَتَمَ أَسْوَدًا فِي الرُّغَى فَوُجِدَتْهُمْ يَوْمَ الْأَفَاقَةِ فِي الْغَيْطِ نَعَامَا
وأكثر العوام الشعر في هذا اليوم. فلَمَّا لَحَ فِيهِ أَخَذَ بِسُنْطَامِ إِلَهَ، فقالت أمه:

أَرَى كَلَّ ذِي شُغْرِ أَصَابَ بِشِغْرِهِ خَلَا أَنْ عَوَامًا يَمَّا قَالَ عَيْلَا
فَلَا يَنْطَفِنُ شَعْرًا يَكُونُ جَوْلَاهُ كَمَا شَعِرَ عَوَامُ أَعَامَ وَأَزْجَلَا

يوم الشقيقة وقتل بسطام بن قيس

هذا يوم بين بني شيبان وضبة بن أد، قُتِلَ فِيهِ بسطام بن قيس سَيِّد شيبان. (٦١٤/١)

وكان سبيه أَنَّ بسطام بن قيس بن مسعود بن خالد بن عبد الله ذي الجذنين غزا بني ضَبّة ومعه أخوه السليل بن قيس ومعه رجل يزجر الطير من بني أسد ابن خُزَيْمَة يسمّى تقيداً. فلَمَّا كَانَ بسطام في بعض الطريق رأى في منامه كأنّ آتياً أتاه، فقال له: الدلو تأتي الغَرْبَ المَرْبَة؛ فقصّ رؤياه على تقيده، فتطير وقال: ألا قلت: ثمّ تعود بادياً مُبْتَلَةً؛ فتفرط عنك النحوس. ومضى بسطام على وجهه، فلَمَّا دَنَا مِنْ نَقَا يُقَالُ لَهُ الْحَسَنُ فِي بِلَادِ ضَبّة صعدته ليرى، فإذا هو بَنَعَمٍ قَدْ مَلَأَ الْأَرْضَ فِيهِ أَلْفَ نَاقَةٍ لِمَالِكِ بْنِ الْمُتَّقِيقِ الضَّبِّيِّ مِنْ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبّة قَدْ قَفَا عَيْنَ فَعْلُهَا، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية إذا بلغت إبلُ أحدهم أَلْفَ بَعِيرٍ فَقَفَوْا عَيْنَ فَعْلُهَا لَتَرَدَّ عَنْهَا الْعَيْنُ وَهِيَ إِبِلُ مُرْتَبَعَةٍ، ومالك بن المتفق فيها على فرس له جواد.

فلَمَّا أَشْرَفَ بسطام على النقا تخوّف أن يروه فيندروا به فاضطجع وتلّهدى حتّى بلغ الأرض وقال: يا بني شيبان لم أراكم قط في الغزاة وكثرة النعم. ونظر تقيده إلى لحية بسطام معقّرة بالتراب لما

تهدى فطير له أيضاً وقال: إن صدقت الطير فهو أول من يقتل. واؤخرناه اسمر ذا كُسوب يشبه طولك مسداً مغارا وعزم الأسد على فراقه، فأخذته رعدة تهياً لفراقه والانصراف عنه وقال له: ارجع يا أبا الصبياء، فإني أخوف عليك أن تقتل، فعصاه ففارقه نقيداً.

وركب بسطام وأصحابه وأغاروا على الإبل وأطردوها، وفيها فحل لمالك يقال له أبو شاعر، وكان أعور، فنجأ مالك على فرسه إلى قومه من ضبة حتى إذا أشرف على يتشّار نادى: يا صباحاه! وعاد راجعاً. وأدرك الفوارس القوم وهم يطردون النعم، فجعل فحله أبو شاعر يشد من النعم (٦١٥/١) ليرجع وتبعه الإبل، فكلما تبعته ناقة عقرها بسطام. فلما رأى مالك ما يصنع بسطام وأصحابه قال: ما ذا السفه يا بسطام؟ لا تعقرها فلما لنا وإمّا لك. فأبى بسطام، وكان في أخريات الناس على فرس أدهم يقال له الزعفران يحمي أصحابه، فلما لحقت خيل ضبة قال لهم مالك: ارموا روايا القوم. فجعلوا يرمونها فيشقونها. فلحقت بنو ثعلبة وفي أوائلهم عاصم بن خليفة الصباحي، وكان ضعيف العقل، وكان قبل ذلك يعقب قناة له فيقال له: ما تصنع بها يا عاصم؟ فيقول: أقتل عليها بسطاماً، فيهازون منه. فلما جاء الصريخ ركب فرس أبيه بغير أمره ولحق الخيل، فقال لرجل من ضبة: أيهم الرئيس؟ قال: صاحب الفرس الأدهم. فعارضه عاصم حتى حاذاه، ثم حمل عليه فطعنه بالرمح في صمّاح أذنه أنفذ الطعنة إلى الجانب الآخر، وخر بسطام على شجرة يقال لها الألاء. فلما رأت ذلك شيان خلوا سبيل النعم وولوا الأديار، فمسن قتل وأسير.

وأسر بنو ثعلبة نجاد بن قيس أبا بسطام في سبعين من بني شيان، وكان عبد الله بن عتبة الضبي مجاوراً في شيان، فخاف أن يقتل فقال يرثي بسطاماً:

لأَمِ الأرضَ وبل ما اجنّت غداة أفرّ بالحسن السيل
يَسْمُ ماله فينا وندعو أبا الصبياء إذ جنح الأصيل
اجنثو لسن تزيه ولكن نراه تحسب به غداً فرة فمؤك
حقية بطنها بلد وسرج تعرضها مزبقة ذؤول
إلى ميعاد أرغن مكتهر فتمر في جوانبه الخيول
لك الرماح منها والصميا وحكمك والنشيطه والفؤول

(٦١٦/١)

لقد صمت بنو زيد بن عمرو ولا يوفى بسطام قتيلاً
فخر على الألاء لم يؤثد كان جينة سيف صليل
فلان يجزع عليه بنو أبيه فقد فجعوا وفاتهم جليل
بسطام إذا الأشوال راحت إلى الحجرات ليس لها فصيل

فلم يبق في بكر بن وائل بيت إلا وألقي لقلته لعلو محله؛ وقال شمعلة بن الأخضر بن هبيرة الضبي يذكره:

فيوم شقيقة الحسنين لاقت بنو شيان آجالاً قصارا
شككتا بالرماح، وهن ذؤو، صمّاحي كبشهم حتى استلرا

ليك ابن ذي الجنين بكر بن وائل
إذا ما غدا فيهم غنوا وكأنهم
قله عينا من رأى مثله قسى
عزيز المكر لا يهد جناحه
وحمال أقبال وعائد محجر
سيبك عان لم يجد من يفكه
وتبيك أسرى طالما قد فككهم
مفرج حومات الخطوب ومدرك الد

تتشى بها حيناً كذلك فنجعت تميم به أرمأها ونبأها
فقد ظفرت منا تميم بعثرة وتلك لعمري عثرة لا تقأها
أصيت به شيان والحي يشكر وطير يري إرسالها وحبالها
(٦١٧/١)

يوم النّسار

النّسار: أجبل متجاورة، وعندما كانت الوقعة، وهو موضع معروف عندهم.

وكان سبب ذلك اليوم أن بني تميم بن مر بن أد كانوا يأكلون عمومهم ضبة بن أد وبني عبد مناة بن أد، فأصاب ضبة رهطاً من تميم. فطلبهم تميم فانزاحت جماعة الرّباب، وهم تيم وعددي وثور أطلح وعكل بنو عبد مناة بن أد وضبة بن أد، وإنما سموا الرّباب لأنهم غمسا أيديهم في الرب حين تحالفوا، فلحقت ببني أسد، وهم يومئذ حلفاء لبني ذبيان بن بغيض. فنادى صارخ بني ضبة: يا آل خندف! فأصرختهم بنو أسد، وهو أول يوم تخندفت فيه ضبة واستمدوا حليفهم طياً وغطفان، فكان رئيس أسد يوم النّسار عوف بن عبد الله بن عامر بن جذيمة بن نصر بن قعين، وقيل: خالد بن نضلة، وكان رئيس الرّباب الأسود بن المنذر أخو النعمان، وليس بصحيح، وكان على الجماعة كلهم حصن بن خديفة بن بدر؛ وفيه (٦١٨/١) يقول زهير بن أبي سلمى:

ومن مثل حصن في الحروب ومثله لإتداد ضيم أو لأمير يحاوله
إذا حل أحياء الأحاليف حوله بني نجب لجأته وصواهلته
فلما بلغ بني تميم ذلك استمدوا بني عامر بن صعصعة، فأمدهم. وكان حاجب بن زرارة على بني تميم، وكان عامر بن صعصعة جوّاباً، وهو لقب مالك بن كعب من بني أبي بكر بن كلاب، لأن بني جعفر كان جوّاب قد أخرجهم إلى بني الحارث بن كعب

الناس منك أرحاماً؟ فقال: إذا فرغت منهم فرغت من الناس ولم يبق أحد.

يوم الصَّفقة والكُلاب الثاني

أما يوم الصَّفقة وسببه فإنَّ باذان، نائب كسرى أبريز بن هُرْمَز باليمن، أرسل إليه حملاً من اليمن. فلما بلغ الحمل إلى نطاع من أرض نجد أغارت تميم عليه واتهموه وسلبوا رسل كسرى وأساووته. فقدموا على هُوذة بن عليّ الحنفيّ صاحب اليمامة مسلوبين، فأحسن إليهم وكساهم. وقد كان قبل (٦٢١/١) هذا إذا أرسل كسرى لطيمة تباع باليمن يجهّز رسله ويخفرهم ويحسن جوارهم وكان كسرى يشتهي أن يراه ليجازيه على فعله. فلما أحسن أخيراً إلى هؤلاء الرسل الذين أخذتهم تميم قالوا له: إنّ الملك لا يزال يذكرك ويؤثر أن تقدم عليه، فسار معهم إليه. فلما قدم عليه أكرمه وأحسن إليه وجعل يحادثه لينظر عقله، فرأى ما سرّه، فأمر له بمال كثير، وتوجّه بتاج من تيجانه وأقطعهم أموالاً بهجراً.

وكان هُوذة نصرانياً، وأمره كسرى أن يغزو هو والمكعبر مع عساكر كسرى بني تميم، فساروا إلى هَجْر ونزلوا بالمُشَقَّر. وخاف المكعبر وهوذة أن يدخلوا بلاد تميم لأنّها لا تحتملها العجم وأهلها بها معتنون، فبعثا رجالاً من بني تميم يدعونهم إلى الميرة، وكانت شديدة، فأقبلوا على كلّ صعب وذلول، فجعل المكعبر يُدخلهم الحصن خمسة خمسة وعشرة عشرة وأقلّ وأكثر، يُدخلهم من باب على أنّه يُخرجهم من آخر، فكلّ من دخل ضرب عنقه. فلما طال ذلك عليهم ورأوا أنّ الناس يدخلون ولا يخرجون بعثوا رجالاً يستعلمون الخبر، فشَدَّ رجل من عبس فضرب السلسلة فقطعها وخرج من كان بالباب. فأمر المكعبر بغلاق الباب وقتل كلّ من كان بالمدينة، وكان يوم الفصح، فاستوهب هُوذة منه مائة رجل فكساهم وأطلقهم يوم الفصح فقال الأعشى من قصيدة يمدح هُوذة:

بهم يُقَرَّب يوم الفصح ضاحيةً يرجو الإله بما أسئسئ وما صنعا
فصار يوم المُشَقَّر مثلاً، وهو يوم الصَّفقة لإصفاق الباب، وهو إغلاقه وكان يوم الصَّفقة وقد بُعث النبي، ﷺ، وهو بمكة بعد لم يهاجر. (٦٢٢/١)

وأما يوم الكُلاب الثاني فإنَّ رجلاً من بني قيس بن ثعلبة قدم أرض نجران على بني الحارث بن كعب، وهم أحواله، فسأله عن الناس خلفه فحدثهم أنّه أضفّق على بني تميم باب المُشَقَّر وقتلت المقاتلة وبيعت أموالهم وذرايرهم في مساكنهم لا مانع لها. فاجتمعت بنو الحارث من مَذْحِج، وأحلافها من نَهْد وجُزَم بن رَبَّان، فاجتمعوا في عسكر عظيم بلغوا ثمانية آلاف، ولا يُعلم في الجاهلية جيش أكثر منه ومن جيش كسرى بندي قار ومن يوم جبّلة، وساروا يريدون بني تميم، فحدثهم كاهن كان مع بني الحارث واسمه سلّمة بن المُغفّل

فحالفوهم، وقيل: كان رئيس عامر شُرَيْح بن مالك القُشَيْرِيّ. وسار الجمعان فالتقوا بالنّسار واقتلوا، فصبرت عامر واستحزّ بهم القتل، وانفضّت تميم فنجّت ولم يُصب منهم كثير، وقُتل شريح القُشَيْرِيّ رأس بني عامر، وقُتل عبيد بن معاوية بن عبد الله بن كلاب وغيرها، وأخذ عدّة من أشرف نساء بني عامر، منهنّ سلمى بنت المُخَلّف، والعنقاء بنت هَمَام وغيرها، فقالت: سلمى تعبّر جواباً والطّفل:

لحسّ الإكسُ أبا ليلى بفرّكهِ يوم النّسار وقنّب العير جواباً
كيف الفخار وقد كانت بمعركِ يوم النّسار بنو ذبيان أرباباً
لم تمنعوا القومَ إنْ أشلّوا سوانكُم ولا النساء وكان القوم أحراباً
وقال رجل تعبّر جواباً والطّفل بفراره عن امرأته:

وفرّ عن ضربك وجه خالتي ومالك فرّقنّب العير جواباً
(٦١٩/١)

القنّب: غلاف الذّكر، وجواب لقب لأنّه كان يجوب الأنثى، واسمه مالك، وقال بشر بن أبي خازم في هزيمة حاجب:

وافلت حاجب جُوب العوالي على شقّاء تلمع في السراب
ولو أدركنّ رأس بني تميم عفرنّ الوجه منه بالسّراب
وكان يوم النّسار بعد يوم جبّلة وقتل لقيط بن زُرارة.

(جواب بفتح الجيم، وتشديد الواو، وآخره باء موحّدة؛ وخازم بالخاء المعجمة، والزاي).

يوم الجفار

لما كان على رأس الحول من يوم النّسار اجتمع من العرب من كان شهد النّسار، وكان رؤسأهم بالجفار الرؤساء الذين كانوا يوم النّسار، إلّا أنّ بني عامر قتل كان رئيسهم بالجفار عبد الله بن جَعْدَة بن كعب بن ربيعة، فالتقوا بالجفار واقتلوا، وصبرت تميم، فعظم فيها القتل وخاصة في بني عمرو بن تميم، وكان يوم الجفار يسمّى الصّيلم لكثرة من قُتل به، وقال بشر ابن أبي خازم في عصبة تميم لبني عامر:

عصبت تميم أن يقتل عامر يوم النّسار فأعربوا بالصّيلم
كنا إذا نكروا الحرب نكرةً نفي صناعهم برأس ميليم
(٦٢٠/١)

نَعْلُو القوارس بالسيف ونَعْرِي والخيّل مشعلة النّحور من الدّم
يخرجن من خلل الغبار عوايساً: حَبَب السباع بكلّ لث ضيفم
وهي عدّة أبيات، وقال أيضاً:

يوم الجفار ويوم النّسار كانا عذاباً وكتاباً غراماً
فلما تميم تميم بن مُرّ فالفاهم القوم دويى نياماً
وأما بنو عامر بالجفار ويوم النّسار فكانوا نعاماً
فلما أكثر بشر على بني تميم، قيل له: ما لك ولتميم وهم أقرب

وقال: إنكم تسرون أعياناً، وتغزون أحياناً، سعداً ورباناً، وتردون مياها جباناً، تفلتون عليها ضراباً، وتكون غنيمتكم تراباً، فاطيعوا أمري ولا تغزوا تميماً. فعصوه وساروا إلى عُرْوَة فبلغ الخبر تميماً فاجتمع ذؤ الرأى منهم إلى أكثر من صتفي، وله يومئذ مائة وتسعون سنة، فقالوا له: يا أبا جيدة حقق هذا الأمر فإننا قد رضيناك رئيساً. فقال لهم:

وإن امرأاً قد عاش تسعين حجةً إلى مائة لم يسلم العيش جاهلاً مضت مائتان غير عشرٍ وفلاها وذلك من عدد الليالي فلائسل ثم قال لهم: لا حاجة لي في الرياسة ولكني أشير عليكم لينزل حنظلة ابن مالك بالدهناء، ولينزل سعد بن زيد مائة والرَّباب وهم ضبة بن أذ وثور وعكل وعدي بنو عبد مائة بن أذ الكلاب، فأي الطريقين أخذ القوم كفى أحدهما صاحبه، ثم قال لهم: احفظوا وصيتي لا تخبروا النساء (٦٢٣/١) الصفوف فإن نجاة اللثيم في نفسه ترك الحريم، وأقلوا الخلاف على أمرانكم وذعوا كثرة الصباح في الحرب فإنه من الفشل، والمرة يعجز لا محالة، فإن أحقق الحقق الفجور، وأكيس الكيس التقى، كونا جميعاً في الرأي، فإن الجميع معزز للجميع، وإياكم والخلاف فإنه لا جماعة لمن اختلف، ولا تلبشوا ولا تسرعوا فإن أحمز الفريقين الركين، ورب عجلة تهب رئيساً، وإذا عزز أخوك فهن البسوا جلود النمر وابرزوا للحرب، وأدعوا الليل واتخذوه جملاً، فإن الليل أخفى للويل، والثبات أفضل من القوة وأهنا الظفر كثرة الأسرى، وخير الغنيمة المال، ولا تهربوا الموت عند الحرب، فإن الموت من ورائكم، وحب الحياة لذى الحرب زلل، ومن خير أمرانكم النعمان بن مالك بن حارث بن جساس، وهو من بني تميم بن عبد مائة بن أذ، فقبلوا مشورته، ونزلت عمرو بن حنظلة الدهناء، ونزلت سعد والرَّباب الكلاب، وأقبلت مذحج ومن معها من قضاة فقصدوا الكلاب، وبلغ سعداً والرَّباب الخبر، فلمّا دنت مذحج نذرهم شيمت بن زباع السريوي فركب جملة وقصد سعداً ونادى: يا آل تميم يا صباحاه فثار الناس، وانتهت مذحج إلى النعم فانتهبها الناس، وراجزهم يقول:

في كل عام نسم نتائبه على الكلاب غيت أصحابه
يسقط في آثاره غلابه (٦٢٤/١)

فلحق قيس بن عاصم الموقري والنعمان بن جساس ومالك بن المتقي في سرعان الناس، فاجابه قيس يقول:

عما قليل تلحق أربابه مثل النجوم حُسرًا سحابه
ليمنعن النعم اغتصابه سعد وفرسان الوغى أربابه

ثم حمل عليهم قيس وهو يقول:

في كل عام نسم نخونته يلقضه قوم وتنجونه
أربابه نوكى فلا يحمونته ولا يلاقون طعاتاً دونته

اتسم الأبناء تحسبونه هيات هيات لما ترجونه
فاقتل القوم قتلاً شديداً يومهم أجمع. فحمل يزيد بن شداد بن قنان الحارثي على النعمان بن مالك بن جساس فرماه بسهم فقتله، وصارت الرياسة لقيس بن عاصم، واقتلوا حتى حجز بينهم الليل، وياتوا يتحارسون. فلمّا أصبحوا غدوا على القتال، وركب قيس بن عاصم وركب مذحج واقتلوا أشد من القتال الأول، فكان أول من انتهزم من مذحج مذرج الرياح، وهو عامر بن المجنون بن عبد الله الجرهمي، وكان صاحب لوائهم، فلقى اللواء وهرب، فلحقه رجل من بني سعد فعقره به دابته، فنزل يهرب ماشياً ونادى قيس بن عاصم: يا آل تميم عليكم الفرسان وذعوا الرجال فإنها لكم، وجعل يلتقط الأسارى، وأسر عبد يغوث بن الحارث بن وقاص الحارثي (٦٢٥/١) رئيس مذحج فقتل بالنعمان بن مالك بن جساس، وكان عبد يغوث شاعراً، فشدوا لسانه قبل قتله لئلا يهجوهم، فأشار إليهم ليحلوا لسانه ولا يهجوهم فحلوه، فقال شعراً:

الا لا تلمني، كفى اللوم ما يبى
فما لكما في اللوم نفع ولا يبا
الم تعلمنا أن الملامسة نفعها
قليل وما لومى أحداً من شماليا
فيا راجباً إنا عرضت فبلغن
ندماي من نجران الأتلاقيا
إيا كرب والأهيمين كليهما
وقيساً بأعلى خضرّت اليمانيا
أقول وقد شئنا لساني ينعم:
معاشر تيم أطلقوا من لساني
كأنني لم أركب جواداً ولم أقل
لخيلي كزى كزاً من ورائيا
ولم أسب الزق الروي ولم أقل
لأيار صدق عظموا ضوء ناريا
وقد علمت عرسي ملكة أنسي
أنا الليث تغلوا عليه وعاديا
لحى الله قوماً بالكلاب شهدتهم
صميتهم والشابعين المواليا
ولو شئت نجيت من القوم شطبة
نرى خلفها الكنت العتاق تواليا
وكنّت إذا ما الخيل شحصها القنا
ليقاً بصريف القناة بتانيا
فيا عاص فك القيذ عني فإني
صبر على مر الحوادث ناكيا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيداً
وإن تطلقوني تخبروني ماليا
أبو كرب بشر بن علقمة بن الحارث، والأهيمان الأسود بن علقمة بن الحارث، والعاقب وهو عبد المسيح بن الأبيض، وقيس بن معدي كرب، (٦٢٦/١) فزعوا أن قيساً قال: لو جعلني أول القوم لاقتديته بكل ما أملك. ثم قتل ولم يقبل له فدية.

(ريان بالراء والباء الموحدة).

يوم ظهر الدهناء

وهو يوم بين طي وأسد بن خزيمة.

وسبب ذلك أن أوس بن حارثة بن لأم الطائي كان سيداً مطاعاً في قومه وجواداً مقداماً، فوفد هو وحاتم الطائي على عمرو بن هند، فدعا عمرو أوساً فقال له: أنت أفضل أم حاتم؟ فقال: أئيت اللعن! إن

يوم الوقيط

وكان من حديثه أَنَّ اللَّهَازِمَ تَجَمَّعَتْ، وهي قيس وتيم اللات ابنا ثعلبة ابن عُكَّابة بن صعْب بن علي بن بكر بن وائل ومعها عَجْل بن لُجَيْم وعَتْرَة بن أسد بن ربيعة بن نزار لِتَغْيِرَ على بني تميم وهم غَارُونَ. فرأى ذلك الأعور وهو ناشب بن بشامة العنبري، وكان أسيراً في قيس بن ثعلبة، فقال لهم: أعطوني رجلاً أرسله إلى أهلي أوصيهم ببعض حاجتي. فقالوا له: ترسله ونحن حضور؟ قال: نعم. فأتوه بغلام مولد، فقال: أتيتموني بأحمق! فقال الغلام: واللَّه ما أنا بأحمق! فقال: إني أراك مجنوناً! قال: واللَّه ما بي جنون! قال: اتعقل؟ قال: نعم إني لعاقِل. قال: فالنيران أكثر أم الكواكب؟ قال: الكواكب، وكلُّ كثيرة، فملا كَفَه رملًا وقال: كم في كَفَي؟ قال: لا أدري فإنه لكثير. فأوما إلى الشمس بيده وقال: مانلك؟ قال: الشمس. قال: ما أراك إلا عاقلاً، اذهب إلى قومي فأبلغهم السلام وقلَّ لهم ليُخْسِنُوا (٦٢٧/١) إلى أسيرهم فأني عند قوم يحسنون إلي ويكرموني، وقلَّ لهم فليَعْرِوْا جملي الأحمر ويركبوا ناقتي العِيسَاءَ وليرعوها حاجتي في بني مالك، وأخبرهم أَنَّ العوسج قد أورق، وأنَّ النساء قد اشتكت، وليعصوا هَمَامَ بن بشامة فإنه مشووم مَجْدُودٌ، وليطيخوا هُذَيْلَ بن الأخنس، فإنه حازم ميمون، واسألوا الحارث عن خبري.

وسار الرسول فأني قومه فأبلغهم، فلم يدروا ما أراد، فأحضروا الحارث وقصَّوا عليه خبر الرسول. فقال للرسول: اقصص عليَّ أول قصَّتِكَ. فقصَّ عليه أوَّل ما كلَّمه حتَّى أتى على آخره. فقال: أبلغه التحيَّة والسلام وأخبره أَنَّا نَسْوَصِي به، فعاد الرسول؛ ثُمَّ قال لبني العنبر: إِنَّ صاحبكم قد بيَّن لكم، أمَّا الرمل الذي جعل في كَفَه فإنه يخبركم أَنَّهُ قد أُنْاكَم عدداً لا يحصى، وأمَّا الشمس التي أوما إليها فإنه يقول ذلك أوضح من الشمس، وأمَّا جملة الأحمر فالصُّمَّان فإنه يأمركم أن تعرَّوه، يعني ترتحلوا عنه، وأمَّا ناقته العِيسَاءَ فإنه يأمركم أن تحترزوا في الدهناء، وأمَّا بنو مالك فإنه يأمركم أن تندرهم معكم، وأمَّا إيراك العوسج فإنَّ القوم قد لبسوا السلاح، وأمَّا اشتكاء النساء فإنه يريد أنَّ النساء قد خرزن الشكاء، وهي أسقية الماء للغزو.

فحذر بنو العنبر وركبوا الدهناء وأنذروا بني مالك، فلم يقبلوا منهم.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَازِمَ وعِزَّة أتوا بني حنظلة فوجدوا عَمراً قد أَجَلَّتْ، فأوقعوا ببني دارم بالوقيط فاقتلوا قتالاً شديداً وعظمت الحرب بينهم فأسرت ربيعة جماعة من رؤساء بني تميم، منهم ضرار بن القَعْقَاع بن مَعْد بن زُرَّارة فجَزَّوا ناصيته وأطلقوه، وأسروا عَجْل بن المأمون بن زُرَّارة، وجُوْثِرَة بن بدر بن عبد اللّٰه بن دارم، ولم يزل في الوثاق حتَّى رآهم يوماً (٦٣٠/١) يشربون، فأنشأ يتغنَّى بِسَمْعِهِم ما يقول:

حاتماً أوحدها وأنا أحدها، ولو ملكني حاتم وولدي وَلَحَمْتِي لَوَهَبْتَا
في غداة واحدة. ثُمَّ دعا عمرو حاتماً فقال له: أنت أفضل أم أوس؟
فقال: أبيت اللعن! إِنَّمَا ذكرت أوساً ولأحد ولده أفضل مني.
فاستحسن ذلك منهما وجابهما وأكرمهما.

ثُمَّ إِنَّ وفود العرب من كلِّ حيٍّ اجتمعت عند النعمان بن المنذر وفيهم أوس، فدعا بحلَّة من حلل الملوك وقال للوفود: احضروا في غد فأني مُلِيس هذه الحلَّة أكرمكم. فلمَّا كان الغد حضر القوم جميعاً إلا أوساً، فقيل له: لِمَ تَخْلَف؟ قال: إن كان المراد غيري فأجمل الأشياء بي ألا أكون (٦٢٧/١) حاضراً، وإن كنت المراد فسأطلب. فلمَّا جلس النعمان ولم ير أوساً قال: اذهبوا إلى أوس فقولوا له: احضروا آمناً ممَّا خفت. فحضر فأليس الحلَّة، فحسده قوم من أهله، فقالوا للخطيئة: اهْجُوْا ولك ثلاثمائة ناقة. فقال كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي أثاثاً ولا مالاً إلا منه! ثُمَّ قال:

كيف الهجاء وما تنفك صالحاً من أهل لأم يظهر الغيب تأتيني
فقال لهم بشر بن أبي خازم: أنا أهجوكم لكم، فأعطوه النوق، وهجاء فافحش في هجائه وذكر أمه سَعْدَى. فلمَّا عرف أوس ذلك أغار على النوق فاكتسحها، وطلبه فهرب منه والتجأ إلى بني أسد عشيرته، فمنعوه منه ورأوا تسليمه إليه عاراً. فجمع أوس جديلة طيء وسار بهم إلى أسد، فالتقوا بظهر الدهناء يلقاء تيماء فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت بنو أسد وقُتلوا قتلاً ذريعاً، وهرب بشر فجعل لا يأتي حياً يطلب جوارهم إلا امتنع من إجارته على أوس. ثُمَّ نزل على جندب بن حصن الكلابي بأعلى الصُّمَّان، فأرسل إليه أوس يطلب منه بشراً، فأرسله إليه. فلمَّا قَدِمَ به على أوس أشار عليه قومه بقتله، فدخل على أمه سَعْدَى فاستشارها، فأشارت أن يرده عليه ماله ويعفو عنه ويحبوه فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه. فقيل ما أشارت به وخرج إليه وقال: يا بشر ما ترى أَنِّي أصنع بك؟ فقال:

إِنِّي لأرجو منك يا أوس نعمةً وإني لأخزي منك يا أوس راهبٌ
وإني لأحور بالذي أنا صادق به كلُّ ما قد قلتُ إِذْ أَنَا كاذِبٌ
فهبل يتغنَّى اليوم عندك أَنسِي سأسكر إن نعمت والشكر واجبٌ
فدئ لا بن سَعْدَى اليوم كلَّ عشيرتي بني أسد أقصاهم والأقارب
تداركني أوس بن سَعْدَى بنعمة وقد أمكثتُ من يدي العواقبُ

فمنَّ عليه أوس وحمله على فرس جواد وردَّ عليه ما كان أخذ منه وأعطاه (٦٢٨/١) من ماله مائة من الإبل، فقال بشر: لا جَرَمَ لا مدحتُ أحداً، حتَّى أموت، غيرك، ومدحه بقصيدته المشهورة التي أولها:

اتعرف من هَيْبَةٍ رَسَمَ دارٍ بحر جي فُرُوءَ فإلى لواها
ومنها منزل ببراق خَبَسَتْ عفت خُباً وغيَّرها بلاها
وهي طويلة.

خيلاً ليست معها رماح وكأنا عليها الصبيان. قال: هذه يربوع رماحها بين أذان خيلها، إياكم والموت الزَؤامُ، فاصبروا ولا أرى أن تنجوا.

فكان أول مَنْ لحق من بني يربوع الواقعة وهو نُعَيْم بن عَتَاب، وكان يُسَمَّى الواقعة لبنيته، فحمل على المُتَلَمِّم القُشَيْرِي فأسره، وحملت قُشَيْر على دُوْكَس بن واقد بن حوط قتلوه، وأسر نُعَيْم المصَفَّى القُشَيْرِي قتلته، وحمل كِدَام بن بَجِيلَةَ المازَنِي على بحير فعاثقه، ولم يكن لقنعب همّة إلا بحير، فنظر إليه وإلى كِدَام قد تعانقا فأقبل نحوهما، فقال كِدَام: يا قنعب أسيري. فقال قنعب: سَأَر رأسك والسيف، يُريد: يا مازني. فحُلَّى عنه كِدَام وشدّ عليه قنعب فضربه قتلته، وحمل قنعب أيضاً على صُهْبَان، وأمّ صُهْبَان مازَنِيّة، فأسره، فقالت بنو مازن: يا قنعب قتلْتَ أسيرنا فاعطينا ابن أخينا مكانه، فدفَع إليهم صُهْبَان في بحير، فرفضوا بذلك، واستنقذت بنو يربوع أموال بني العنبر وسيهم من بني عامر وعادوا.

(بحير بفتح الباء الموحدة، وكسر الحاء المهملة).

يوم فيف الرياح

وهو بين عامر بن صَعَصَعَة والحرث بن كعب، وكان خبره أن بني عامر كانت تطلب بني الحرث بن كعب بأوتار كثيرة، فجمع لهم الحُصَيْن (٦٣٣/١) ابن يزيد بن شَدَاد بن قَنَان الحرثي، وهو ذو الغُصّة، واستعان بجُفَعَيّ وزَيْد وقبائل سعد العشيرة ومُراد وصُدَاء ونَهْد وخُثَم وشُهْرَان ونَاهِس. ثمّ أقبلوا يريدون بني عامر وهم متجمعون مكاناً يقال له فيف الرياح، ومع مَذْجِج النساء والذراري حتى لا يفروا. فاجتمعت بنو عامر، فقال لهم عامر بن الطُفَيْل: أغيروا بنا على القوم فإني أرجو أن نأخذ غنائمهم ونسي نساءهم ولا تَدْعُوهم يدخلون عليكم. فاجابوه إلى ذلك وساروا إليهم. فلمّا دنوا من بني الحرث ومَذْجِج ومن معهم أخبرتهم غيرتهم وعادت إليهم مشايخهم، فحذروا فاقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيّام يغادونهم القتال بفَيْف الرياح، فالتقى الصُّمَيْل بن الأعور الكلابي وعمرو بن صَبِيح الهُدَيْ، فطعن عمرو، فاعتق الصُّمَيْل فرسه وعاد، فلقبه رجل من خُثَم قتلته وأخذ درعه وفرسه.

وشهدت بنو نُمَيْر يومئذ مع عامر بن الطُفَيْل فأبلوا بلاء حسناً وسَمُوا ذلك اليوم حَرْبِجَة الطَّعَان لأنهم اجتمعوا برماحهم فصاروا بمنزلة الحرّجَة، وهي شجر مجتمع.

وسبب اجتماعهم أنّ بني عامر جالوا جولة إلى موضع يقال له العرقوب والتفت عامر بن الطُفَيْل فسأل عن بني نمير فوجدهم قد تخلفوا في المعركة، فرجع وهو يصيح: يا صباحاه! يا نميراه! ولا نمير لي بعد اليوم! حتّى اقتحم فرسه وسط القوم، فقويت نفوسهم، وعادت بنو عامر وقد طعن عامر بن الطُفَيْل ما بين ثغرة نحره إلى

وقائله ما غاله أن يزورنا وقد أدركتني والحوادث جَمّة سراع إلى الجُلَى بطاءٍ عن الخُنا لعلهم أن يعطروني بنعمتي فقد بعث الله الفتى بعد ذلّتي فلمّا سمعوا الأبيات أطلقوه.

وأسر أيضاً نُعَيْم وعوف ابنا القعقاع بن مَعْبِد بن زُرارة وغيرهما من سادات بني تميم، وقُتل حكيم بن جذيمة بن الأصيلح التّهشلي، ولم يشهدا من نهشل غيره. وعادت بكر فَمَرَّت بطريقها بعد الوقعة بثلاثة نفر من بني العنبر لم يكونوا ارتحلوا مع قومهم، فلمّا رأوهم طردوا إليهم فأحزروها من بكر.

وأكثر الشعراء في هذا اليوم، فمن ذلك قول أبي مهوش القُحَيْسِيّ يعبر تيمماً بيوم الوقيط:

فما قاتلت يوم الوقيط نَهشل ولا أنكد الشؤمي قُيَم بن دارم ولا قضت عوف رجال مجاشع ولا قشر الأستاذ غير البراجم

وقال أبو الطُفَيْل عمرو بن خالد بن محمود بن عمرو بن مَرْثَد:

(٦٣١/١)

حَكَّت تميم بركها لما التقت ربابنا ككواسر العقبان ذهِموا الوقيط بجحش جسم الوغى ورمأها كنسوانع الأنطان

يوم المَرُوت

وهو يوم بين تميم وعامر بن صَعَصَعَة.

وكان سببه أنّه التقى قُنْعَب بن عَتَاب الرياحي وبحير بن عبد الله بن سلمة العامري بعكاظ، فقال بحير لقنعب: ما فعلت فرسك البيضاء؟ قال: هي عندي، وما سؤالك عنها؟ قال: لأنها نهجتك مني يوم كذا وكذا، فأنكر قنعب ذلك وتلاعنا وتداعيا أن يجعل الله ميتة الكاذب بيد الصادق، فمكنا ما شاء الله. وجمع بحير بني عامر وسار بهم فأغار على بني العنبر بن عمرو بن تميم بإرم الكلبة وهم خُلوْف، فاستاق السي والنعم ولم يلق قتالاً شديداً وأتى الصريخ بني العنبر بن عمرو بن تميم وبني مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وبني يربوع بن حنظلة، فركبوا في الطلب، فتقدّمت عمرو ابن تميم، فلمّا انتهى بحير إلى المَرُوت قال: يا بني عامر انظروا هل ترون شيئاً؟ قالوا نرى خيلاً عارضةً رماحها على كواهل خيلها. قال: هذه عمرو بن تميم وليست بشيء، فلحق بهم بنو عمرو فقاتلوهم شيئاً من قتال ثمّ صدروا عنهم، ومضى بحير، ثمّ قال: يا بني عامر انظروا هل ترون شيئاً؟ قالوا: نرى خيلاً ناصيةً رماحها. قال: هذه مالك بن حنظلة وليست بشيء، فلحقوا فقاتلوا شيئاً من قتال ثمّ صدروا عنهم، ومضى بحير وقال: (٦٣٢/١) يا بني عامر انظروا هل ترون شيئاً؟ قالوا: نرى

سرتَه عشرين طعنةً. وكان عامر في ذلك اليوم يتعهد الناس فيقول: يا فلان ما رأيته فعلت شيئاً، فمن أبلى قَلْبِي نبي سيفه (٦٣٤/١) أو رمحه، ومن لم يُبَلِّ شيئاً تقدّم فأبلى، فكان كلٌّ من أبلى بلاء حسناً أتاه فأراه الدم على سنان رمحه أو سيفه، فأتاه رجل من الحارثيين اسمه مسهر، فقال له: يا أبا عليّ انظر ما صنعتُ بالقوم! انظر إلى رمحي! فلمّا أقبل عليه عامر لينظر وجهه بالرمح في وجهه ففلقها وفقاً عينه وترك رمحه وعاد إلى قومه. وإنّا ندعاه إلى ذلك ما رآه يفعل بقومه، فقال: هذا والله مُبِير قومي! فقال عامر بن الطفيل:

أَتُونَا بِشَهْرَانِ الْعَرِيضَةِ كُلِّهَا وَأَكْلَبَ طُرّاً فِي جِيَادِ السَّنُورِ
لَعَنَرِي وَمَا عَمَرِي عَليَّ بِهِمْ لَقَدْ شَانَ حُرَّ الْوَجْهِ طَعْنَةُ مُسْهِرٍ
فَبَشِ الْفَتَى أَنْ كُنْتَ أَعْوَرَ عَاقِراً جَبَاناً وَمَا أَغْنَى لَدَى كُلِّ مُحَضَّرٍ
وَأَسْرَتْ بَنُو عَامِرٍ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَ مُرَادٍ جَرِيحاً، فَلَمَّا بَرَأَ مِنْ جِرَاحَتِهِ أَطْلُقَ.

وممن أبلى يومئذ أُرَيْدُ بن قيس بن حُرّ بن خالد بن جعفر، وعبيد بن شُرَيْج بن الأحوص بن جعفر، وقال لَيْيَدُ بن ربيعة، ويقال إنها لعامر بن الطفيل:

أَتُونَا بِشَهْرَانِ الْعَرِيضَةِ كُلِّهَا وَأَكْلَبَهَا فِي مِثْلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ
فَبَتْنَا وَمَنْ يَسْزِلُ بِهِ مِثْلُ ضَيْفَا يَبْتَ عَنْ قَرَى أَصْيَافِهِ غَيْرَ غَافِلٍ
أَعَاذَكَ لَوْ كَانَ الْبِدَاءُ لَقَبِلُوا وَلَكِنْ أَتَانَا كُلُّ جِسْنٍ وَخَابِلٍ
وَحُتِّمَ حَتَّى يُعْتَلُّونَ بِمَنْحَجٍ فَهَلْ نَحْنُ إِلَّا مِثْلُ إِحْدَى الْقَبَائِلِ
وَأَسْرَعَ الْقَتْلُ فِي الْغَرِيقَيْنِ جَمِيعاً، ثُمَّ أَتَهُمْ افْتَرَقُوا وَلَمْ يَشْتَغِلْ
بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بَغْنِيمَةً، وَكَانَ الصَّبْرُ فِيهَا وَالشَّرَفُ لِبَنِي عَامِرٍ. (٦٣٥/١)

يوم اليحاميوم ويُعرف أيضاً بقارات حُوق

وهو بين قبائل طيء بعضها في بعض.

وكان سبب ذلك أن الحارث بن جَبَلَةَ الْغَسَّانِيَّ كان قد أصلح بين طيء. فلمّا هلك عادت إلى حربها، فالتقت جَدِيلَةُ وَالْعَوْتُ بموضع يقال له غُرثان، فقتل قائد بني جَدِيلَةُ وهو أسبع بن عمرو بن لأم عمّ أوس ابن خالد بن حارثة بن لأم، وأخذ رجل من سَيْبِيسَ يقال له مُصْنَعِبُ أَذْيَهْ فخصف بهما نعليه، وفي ذلك يقول أبو سروة السَّيْبِيَّ:

نَخْصِفُ بِالْأَفَانِ مَكْمَكُمْ نَعَالَنَا وَنَشْرِبُ كَرَاهَا مَكْمَكُمْ فِي الْجِصَاجِمِ
وَتَنَاقِلُ الْحَيَانَ فِي ذَلِكَ أَشْعَاراً كَثِيرَةً، وَعَظَمَ مَا صَنَعَتِ الْعَوْتُ عَلَى أَوْسِ بْنِ خَالِدِ بْنِ لَأَمْ، وَعَزَمَ عَلَى لِقَاءِ الْحَرْبِ بِنَفْسِهِ، وَكَانَ لَمْ يَشْهَدِ الْحُرُوبَ الْمُتَقَدِّمَةَ هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ رُؤَسَاءِ طِيءٍ كَحَاتِمِ بْنِ عَيْدِ اللَّهِ وَزَيْدِ الْخَيْلِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّؤَسَاءِ، فَلَمَّا تَجَهَّزَ أَوْسٌ لِلْحَرْبِ وَأَخَذَ فِي جَمْعِ جَدِيلَةَ وَلَهَا قَالَ أَبُو جَابِرٍ:

أَتَيْمُوا عَلَيْنَا الْقَصْدَ يَا آلَ طِيءٍ وَالْأَفَانِ الْعِلْمَ عِنْدَ التَّحَاسِبِ

فَمَنْ مَثَلْنَا يَوْمًا إِذَا الْحَرْبُ شَعَرَتْ وَمَنْ مَثَلْنَا يَوْمًا إِذَا لَمْ نَحْصِبِ
فَإِنْ قَطَعْنِي أَوْ تَرِيدَنِي مَسَامَتِي قَدْ قَطَعَ الْخَوْفُ الْمَخَوْفَ رَكَائِي
وَبَلَغَ الْعَوْتُ جَمْعَ أَوْسٍ لَهَا وَأَوْقَدَتِ النَّارَ عَلَى مَنَاعٍ، وَهِيَ ذُرْوَةُ أَجَا (٦٣٦/١) وَذَلِكَ أَوَّلُ يَوْمٍ تَوَقَّعَ عَلَيْهِ النَّارَ. فَأَقْبَلَتْ قِبَاطِلُ الْعَوْتُ، كُلُّ قَبِيلَةٍ وَعَلَيْهَا رَئِيسُهَا، مِنْهُمْ زَيْدُ الْخَيْلِ وَحَاتِمُ، وَأَقْبَلَتْ جَدِيلَةُ مُجْتَمِعَةً عَلَى أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَأَمْ، وَحَلَفَ أَوْسُ أَنْ لَا يَرْجِعَ عَنْ طِيءٍ حَتَّى يَنْزِلَ مَعَهَا جَبِيلُهَا أَجَا وَسَلَمَى وَتَجِي لَهَا أَهْلُهَا، وَتَرَاحُضُوا وَالتَّقُوا بِقَارَاتِ حُوقٍ عَلَى رَايَاتِهِمْ فَاقْتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً، وَدَارَتِ الْحَرْبُ عَلَى بَنِي كِيَادِ بْنِ جَنْدَبٍ فَأَيَّرُوا. قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: إِنِّي لَوَاقِفٌ يَوْمَ الْيَحَامِيمِ وَالنَّاسِ يَقْتُلُونَ إِذْ نَظَرْتُ إِلَى زَيْدِ الْخَيْلِ قَدْ حَضَرَ ابْنُهُ مَكْنَفًا وَخُرَيْثًا فِي شَعْبٍ لَا مَفْذَ لَهُ وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّ ابْنِي أَبْقَا عَلَى قَوْمِكَمَا فَإِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ التَّفَانِي فَإِنْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ أَعْمَامًا فَهَؤُلَاءِ أَخْوَالُ. فَقُلْتُ: كَأَنَّكَ قَدْ كَرِهْتَ قِتَالَ أَخْوَالِكَ! قَالَ: فَاحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ غَضَبًا وَتَطَاوَلَ إِلَيَّ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى مَا تَحْتَهُ مِنْ سَرَجِهِ فَخَفَّتُهُ، فَضَرَبْتُ فَرْسِي وَتَنَحَّيْتُ عَنْهُ. وَاشْتَغَلَ بِنَظَرِهِ إِلَيَّ عَنْ ابْنِهِ، فَخَرَجَا كَالصَّغِيرَيْنِ، وَحَمَلَ قَيْسُ بْنُ عَازِبٍ عَلَى بَحِيرِ بْنِ زَيْدِ الْخَيْلِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَأَمْ فَضَرَبَهُ عَلَى رَأْسِهِ ضَرْبَةً عَنَقَ لَهَا بِحِيرٍ فَرْسَهُ وَوَلَّى، فَانْهَزَمَتْ جَدِيلَةُ عِنْدَ ذَلِكَ وَقُتِلَ فِيهَا قَتْلٌ ذَرِيعٌ، فَقَالَ زَيْدُ الْخَيْلِ:

تَجِيءُ بَنِي لَأَمْ جِيَادَ كَأَنَّهَُا عَصَابُ طَيْرٍ يَوْمَ طُلٍّ وَحَاصِبِ
فَإِنْ تَجَّجَ مِنْهَا لَا يَسْزِلُ بِكَ شَامَةً أَسَاءَ حَيًّا يَسْنُ الشُّجَا وَالسَّرَاتِبِ
وَفَرَّ ابْنُ لَأَمْ وَأَقَاتَنَا بَظْهُرِهِ يَرْفَعُهُ بِالرَّمْحِ قَيْسُ بْنُ عَازِبِ
وَجَاءَتْ بَنُو مَغْنَمٍ كَأَنَّهُمْ سَيُوفُهُمْ مَصَابِيحُ مِنْ سَقْفِ فَيْلَسٍ بِأَيْبِ
وَمَا فَرَ حَتَّى اسْلَمَ ابْنُ حُمَارِسٍ لَوْقَةُ مَضْجُولٍ مِنَ الْبَيْضِ قَاضِبِ
فَلَمْ تَبْقَ لَجَدِيلَةَ بَقِيَّةٌ لِلْحَرْبِ بَعْدَ يَوْمِ الْيَحَامِيمِ، فَدَخَلُوا بِلَادَ كَلْبٍ فَحَالَفُوهُمْ وَأَتَامُوا مَعَهُمْ. (٦٣٧/١)

يوم ذي طُلُوح

وهو يوم الصُّمُدِ، ويوم أود أيضاً، وهو بين بكر وتميم، وكان من حديثه أَنَّ عَمِيرَةَ بْنَ طَارِقٍ بِنَ أَرْثَمَ الْيَرْبُوعِيَّ التَّمِيمِيَّ تَزَوَّجَ مُرَيَّةَ بِنْتَ جَابِرِ الْمُجَلِّيَّ أختَ أَبَجَرَ وَسَارَ إِلَى عَجَلٍ لِيَتَنِي بِأَهْلِهِ. وَكَانَ لَهُ فِي بَنِي تَمِيمٍ امْرَأَةٌ أُخْرَى تُعْرَفُ بِابْنَةِ النُظْفِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَتَى أَبَجَرَ أخته يزورها وزوجها عندها. فقال لها أبجر: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَتِيكَ بِابْنَةِ النُظْفِ امْرَأَةً عَمِيرَةَ. فقال له: مَا أَرَاكَ تَبْقِي عَلَيَّ حَتَّى تُسَلِّبَنِي أَهْلِي. فَتَدُمُ أَبَجَرَ وَقَالَ لَهُ: مَا كُنْتُ لِأَغْزُو قَوْمَكَ وَلَكِنِّي مُسْتَأْمِرٌ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ تَمِيمٍ، وَجَمَعَ أَبَجَرَ وَالْحَوْفَزَانُ بْنُ شَرِيكِ الشَّيْبَانِيَّ، وَالْحَوْفَزَانُ عَلَى شِيَابٍ وَأَبَجَرَ عَلَى اللَّهَازِمِ، وَوَكَلَا بِعَمِيرَةَ مِنْ يَحْرَسَهُ لَثَلًا يَأْتِي قَوْمَهُ فَيَنْدَرُهُمْ. فَسَارَ الْجَيْشُ، فَاحْتَالَ عَمِيرَةَ عَلَى الْمُوَكَّلِ بِحِفْظِهِ وَهَرَبَ مِنْهُ وَجَدَّ السَّيْرَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى بَنِي يَرْبُوعٍ فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ غَزَاكُمُ الْجَيْشُ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، فَاعْلَمُوا بَنِي ثَعْلَبَةَ بِطَنًا مِنْهُمْ،

وَرَجَعَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى بِلَادِهِمْ فَأَقْصَدُوا بَنِي عَامِرٍ فَإِنَّهُمْ قَرِيبٌ بَنُو أَحْيِ السَّلَآنِ. فَخَرَجُوا وَكَتَمُوا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا: خَرَجْنَا لِسَلَاٍ يَعْرِضُ أَحَدٌ لِلطَّيْمَةِ الْمَلِكِ.

فَلَمَّا فَرَّغَ النَّاسُ مِنْ عُكَاظٍ عَلِمَتْ قَرِيشٌ بِحَالِهِمْ، فَأَرْسَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ (٦٤٠/١) جُدْعَانَ قَاصِدًا إِلَى بَنِي عَامِرٍ يُعَلِّمُهُمُ الْخَبَرَ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ خَبْرَهُمْ، فَحَذَرُوا وَتَهَيَّأُوا لِلْحَرْبِ وَتَحَرَّزُوا وَوَضَعُوا الْعِيُونَ، وَعَادَ عَامِرٌ عَلَيْهِمْ عَامِرُ ابْنِ مَالِكٍ مُلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ، وَأَقْبَلَ الْجَيْشَ فَالْتَقُوا السَّلَآنَ فَأَقْتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، فَبَيْنَا هُمْ يَقْتُلُونَ إِذْ نَظَرَ يَزِيدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ خُوَيْلِدٍ الصَّعَقَ إِلَى وَبَرَةٍ بْنِ رُومَانَسٍ أَخِي النُّعْمَانِ فَأَعْجَبَهُ هَيْئَتُهُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَأَسْرَهُ. فَلَمَّا صَارَ فِي أَيْدِيهِمْ هُمُ الْجَيْشُ بِالْهَزِيمَةِ، فَتَنَاهَاهُمْ ضِرَارُ بْنُ عَمْرٍو الضَّبِّيُّ وَقَامَ بِأَمْرِ النَّاسِ فَقَاتَلَ هُوَ وَبَنُوهُ قِتَالًا شَدِيدًا. فَلَمَّا رَأَى أَبُو بَرَاءُ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ وَمَا يَصْنَعُ بَنِي عَامِرٍ هُوَ وَبَنُوهُ حَمَلَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَرَاءَ رَجُلًا شَدِيدَ السَّاعِدِ. فَلَمَّا حَمَلَ عَلَى ضِرَارٍ اقْتَتَلَا، فَسَقَطَ ضِرَارٌ إِلَى الْأَرْضِ وَقَاتَلَ عَلَيْهِ بَنُوهُ حَتَّى خَلَّصُوهُ وَرَكِبَ، وَكَانَ شَيْخًا، فَلَمَّا رَكِبَ قَالَ: مَنْ سَرَّهُ بَنُوهُ سَاءَتْهُ نَفْسُهُ؛ فَذَهَبَتْ مِثْلًا. يَعْنِي مَنْ سَرَّهُ بَنُوهُ إِذَا صَارُوا رَجُلًا كَبِيرًا وَضَعْفَ فِسَاءِهِ ذَلِكَ.

وَجَعَلَ أَبُو بَرَاءَ يَلْحَقُ عَلَى ضِرَارٍ طَمَعًا فِي فِدَائِهِ، وَجَعَلَ بَنُوهُ يَحْمُونَهُ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَبُو بَرَاءَ قَالَ لَهُ: لَتَمُوتَنَّ أَوْ لَأَمُوتَنَّ دُونَكَ فَأَجْلَنِي عَلَى رَجُلٍ لَهُ فِدَاءٌ. فَأَوْفَا ضِرَارٌ إِلَى حَبِيشِ بْنِ دُلْفٍ، وَكَانَ سَيِّدًا، فَحَمَلَ عَلَيْهِ أَبُو بَرَاءَ فَأَسْرَهُ، وَكَانَ حَبِيشٌ أَسُودَ نَجِيفًا دَمِيمًا، فَلَمَّا رَأَى كَذَلِكَ ظَنَّهُ عَبْدًا وَأَنَّ ضِرَارًا خَدَعَهُ، فَقَالَ: أَنَا لِلَّهِ، أَعَزَّزَ سَائِرَ الْقَوْمِ، أَلَا فِي الشُّؤْمِ وَقَعْتَ! فَلَمَّا سَمِعَهَا حَبِيشٌ مِنْهُ خَافَ أَنْ يَقْتُلَهُ فَقَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنْ كُنْتُ تَرِيدُ اللَّبْنَ، يَعْنِي الْإِبِلَ؛ فَقَدْ أَصْبَتْهُ. فَافْتَدَى نَفْسَهُ بِأَرْبَعِمِائَةِ بَعِيرٍ وَهَزَمَ جَيْشَ النُّعْمَانِ. فَلَمَّا رَجَعَ الْقَلْبُ إِلَيْهِ أَخْبَرُوهُ بِأَسْرِ أَخِيهِ وَبَقِيَامِ ضِرَارٍ بِأَمْرِ النَّاسِ وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ أَبِي بَرَاءَ، وَافْتَدَى وَبَرَةُ بْنُ رُومَانَسٍ نَفْسَهُ بِأَلْفِ بَعِيرٍ وَفَرَسٍ مِنْ يَزِيدِ بْنِ الصَّعَقِ، فَاسْتَغْنَى يَزِيدٌ، وَكَانَ قَبْلَهُ خَفِيفَ الْحَالِ؛ وَقَالَ لَبِيدٌ يَذْكُرُ أَيَّامَ قَوْمِهِ:

إِنِّي أَمْرُؤُ مَمْنَعٌ أَرُومَةٌ عَامِرٍ ضَمِيٍّ وَقَدْ حَقَّقْتُ عَلَيَّ خَصْرُومُ (٦٤١/١)

يقول فيها:

وَعَدْلَةٌ قَاعِ الْقَرِيظَيْنِ أَمَامَهُمْ رَهْوَ يَلُوحُ خِلَالَهَا التَّسْوِيمُ
بِكُتَابِهِ رُجُحٌ تَكُونُ كِبْشُهَا تَطْلُعُ الْكَبَاشُ كَأَنَّهُنَّ نَجُومُ
قوله: قَاعِ الْقَرِيظَيْنِ، يَعْنِي يَوْمَ السَّلَآنِ.

(حَبِيشُ بْنُ دُلْفٍ بَضَمَ الْحَاءَ الْمَهْمَلَةَ، وَبِالْيَاءِ الْمُوَحَّدَةَ، وَبِالْيَاءِ الْمَثَنَةِ مِنْ تَحْتِهَا نَقَطَتَانِ، وَآخِرُهُ شَيْنٌ مَعْجَمَةٌ).

فَارْسَلُوا طَلِيمَةَ مِنْهُمْ فَبَقُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَوَصَلَتْ بَكْرٌ فَرَكِبَتْ يَرْبُوعَ وَالتَّقْوَا بَذِي طُلُوحَ. فَرَكِبَ عَمِيرَةُ وَلَقِيَ أَجْبَرَ فَعَرَفَهُ نَفْسَهُ، وَالتَّقَى الْقَوْمُ وَأَقْتَلُوا فَكَانَ الظَّفَرُ لِيَرْبُوعَ. وَانْهَزَمَتْ بَكْرٌ وَأَسْرَ الْحَوْفَزَانِ وَابْنَهُ شُرَيْكُ وَابْنَ عَمَّةِ الشَّاعِرِ، وَكَانَ مَعَ بَنِي شَيْبَانَ فَافْتَكَهُ مَتَمَّ بِنِ تَوْبَرَةٍ، وَأَسْرَ أَكْثَرَ الْجَيْشِ الْبَكْرِيِّ؛ وَقَالَ ابْنُ عَمَّةٍ يَشْكُرُ مَتَمًّا: (٦٣٨/١)

جَزَى اللَّهُ رَبَّ النَّاسِ عَنِّي مَتَمًّا بِخَيْرِ الْجِزَاءِ مَا أَعَفَ وَأَجْزَا
أَجْبَرْتُ بِهِ أَبْنَاءَنَا وَدِمَائِنَا وَشَارَكَ فِي إِطْلَاقِنَا وَتَقَرَّرْنَا
أَبَا نَهْشَلٍ إِنِّي لَكُمْ غَيْرُ كَافِرٍ وَلَا جَاعِلٍ مِنْ دُونِكَ الْمَالِ سَرْمَدًا

يوم أَقْرَن

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: غَزَا عَمْرُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ عُدُسَ التَّمِيمِيُّ بَنِي عَبَسَ فَأَخَذَ إِبِلَهُمْ وَاسْتَأَقَّ سَبِيحَهُمْ وَعَادَ حَتَّى إِذَا كَانَ أَسْفَلَ ثَنِيَّةِ أَقْرَنَ نَزَلَ وَابْتَنَى بِجَارِيَةٍ مِنَ السَّبِي، وَلَحَقَهُ الطَّلِبُ فَأَقْتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، فَقَتَلَ أَسُّ الْفَوَارِسِ ابْنَ زِيَادِ الْعَبْسِيِّ عَمْرًا وَابْنَهُ حَنْظَلَةَ وَاسْتَرَدَّوْا الْغَنِيمَةَ وَالسَّبِي، فَنَعَى جَرِيرٌ عَلَى بَنِي دَارِمٍ ذَلِكَ فَقَالَ:

اتَّسَنُوا عَمْرًا يَوْمَ بُرْثَةِ أَقْرَنَ وَحَنْظَلَةَ الْمَقْتُولِ إِذْ هُوَ يَفْعَا
وَكَانَ عَمْرُ أَسْلَعَ أَبْرَصَ، وَكَانَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ قَدْ أَخْطَرُوا ثَنِيَّةَ الطَّرِيقِ فِي عَوْدِهِمْ وَسَلَكُوا غَيْرَ الطَّرِيقِ، فَسَقَطُوا مِنَ الْجَبَلِ الَّذِي سَلَكَوهُ فَلَقُوا شِدَّةً فِي ذَلِكَ يَقُولُ عَثْرَةُ:

كَانَ السَّرَابَا يَوْمَ نَبَقٍ وَصَارَ عَصَائِبُ طَيْرٍ يَتَحَيَّنُ لِمَشْرِبِهِ
شَفَى النَّفْسَ مَنِيٍّ أَوْ كُنَّا لِيُفَانَهَا تَهَوَّرْهُمْ مِنْ حَالَتِي تَصَوَّبِ
وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَقُمْ مَرَاتِبُ عَمْرٍو وَسَطَ نَوْحٍ مُسَلِّبِ
وَكَانَتْ أُمُّ سَمَاعَةَ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَمْرٍو مِنَ عَبَسَ، فَزَارَهُ خَالَه فَقَتَلَهُ بَابِنَهُ، (٦٣٩/١) فَقَالَ فِي ذَلِكَ مَسْكِينُ الدَّارِمِيِّ:

وَقَاتَلَ خَالَه بِأَبِيهِ مَنَا سَمَاعَةَ لَمْ يَعْ نَسَبًا بِخَالٍ

يوم السَّلَآنِ

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: كَانَ بَنُو عَامِرِ بْنِ صَفْعَصَةَ حُمْسًا، وَالْحُمْسُ قَرِيشٌ وَمَنْ لَهُ فِيهِمْ وَلَادَةُ، وَالْحُمْسُ مَتَشَدَّدُونَ فِي دِينِهِمْ، وَكَانَتْ عَامِرٌ أَيْضًا لَقَاحًا لَا يَدِينُونَ لِلْمَلُوكِ. فَلَمَّا مَلَكَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذَرِ مَلِكُهُ كَسَرَى أَبْرُوزَ، وَكَانَ يَجْهَزُ كُلَّ عَامٍ لَطِيمَةً، وَهِيَ التَّجَارَةُ، لِتَبَاعٍ بِعُكَاظٍ، فَعَرَضَتْ بَنُو عَامِرٍ لِبَعْضٍ مَا جَهَّزَهُ فَأَخَذُوهُ. فَغَضِبَ لِذَلِكَ النُّعْمَانُ وَبَعَثَ إِلَى أَخِيهِ لِأَمَّةَ، وَهُوَ وَبَرَةُ بْنُ رُومَانَسٍ الْكَلْبِيِّ، وَبَعَثَ إِلَى صَنَانِعِهِ وَوَضَائِعِهِ، وَالصَّنَائِعُ مَنْ كَانَ يَصْطَلِعُهُ مِنَ الْعَرَبِ لِيُعْزِيَهُ، وَالْوَضَائِعُ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا شَبَهَ الْمَشَائِخِ وَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي ضَبَّةَ بْنِ أَدَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّبَابِ وَتَمِيمٍ فَجَمَعَهُمْ، فَأَجَابُوهُ. فَأَتَاهُ ضِرَارُ بْنُ عَمْرٍو الضَّبِّيُّ فِي تِسْعَةٍ مِنْ بَنِيهِ كُلَّهُمْ فَوَارَسَ وَمَعَهُ حَبِيشُ بْنُ دُلْفٍ، وَكَانَ فَارِسًا شَجَاعًا، فَاجْتَمَعُوا فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ، فَجَهَّزَ النُّعْمَانُ مَعَهُمْ عِيرًا وَأَمْرَهُمْ بِتَسْيِيرِهَا وَقَالَ لَهُمْ: إِذَا فَرَّغْتُمْ مِنْ عُكَاظٍ وَأَنْسَلَخْتِ الْحَرُمُ

يوم ذي علق

وهو يوم التقى فيه بنو عامر بن صعصعة وبنو أسد بلذي علق فاقْتتلوا قتالاً عظيماً. قُتل في المعركة ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري أبو ليلى الشاعر وانهزمت عامر، فتبعهم خالد بن فضلة الأسدي وابنه حبيب والحارث بن خالد بن المفضل وأمعنوا في الطلب، فلم يشعروا إلا وقد خرج عليهم أبو براء عامر بن مالك من وراء ظهورهم في نفر من أصحابه، فقال لخالد: يا أبا معقل إن شئت أجزئنا وأجزناك حتى نحمل جرحانا وندفن قتلتنا. قال: قد فعلت. فتواقفوا. فقال له أبو براء: هل علمت ما فعل ربيعة؟ قال: نعم، تركته قتلاً. قال: ومن قتله؟ قال: ضربته أنا وأجهز عليه صامت بن الأفقم. فلما سمع أبو براء بقتل ربيعة حمل على خالد هو ومن معه، فماتهم خالد وصاحبه وأخذوا سلاح حبيب بن خالد، ولحقهم بنو أسد فمنعوا (٦٤٢/١) أصحابهم وحموهم، فقال الجُمُح:

سائل معداً عن الفوارس لا أوفروا بجيرانهم ولا سلما
يسعى بهم فُرُزُلٌ يستمع الـ ناسُ إليهم وتُخَفُّنُ اللَّقْمُ
ركضاً وقد غادروا ربيعة في الأنصار لما تقارب التَّسْمُ
في صدره صعدةً ويخجلُ بالمرح حراناً بسلاً أفهم
[فُرُزُلٌ] فرس الطفيل والد عامر بن الطفيل. وقال ليلى من قصيدة يذكر أباه:

ولا من ربيع المُسْتَرِينَ رُزْتُه بني علقٍ فاقني حَيَاتُكَ واضْجِري

يوم الرِّقَم

قال أبو عبيدة: غزت عامر بن صعصعة غطفان، ومع بني عامر يومئذ عامر بن الطفيل شاباً لم يرثس بعد، فبلغوا وادي الرِّقَم، وبه بنو مرة بن عوف بن سعد ومعهم قوم من أشجع بن فُزَيْل بن غطفان وناس من فزارة ابن ذُبْيَان، فنبذوا بني عامر وهجمت عليهم بنو عامر بالرِّقَم، وهو وادٍ بقر تَضْرُع، فالتقوا فاقْتتلوا قتالاً شديداً، فأقبل عامر بن الطفيل فرأى (٦٤٣/١) امرأة من فزارة فسأله. فقالت: أنا أسماء بنت نوفل الفزاري. وقيل: كانت أسماء بنت حصن بن حذيفة. فبينما عامر يسأله خرج عليه المنهزمون من قومه وبنو مرة في أعقابهم. فلما رأى ذلك عامر ألقى درعه إلى أسماء وولى منهزماً، فأدّتها إليه بعد ذلك، وتبعته مرة وعليهم مينا بن حارثة بن أبي حارثة المري، وجعل الأشجعيون يذبحون كل من أسروه من بني عامر لوقعة كانت أوقعها بهم بنو عامر، فذلك البطن من بني أشجع يسمون بني مَذْحِج، فذبحوا سبعين رجلاً منهم، فقال عامر بن الطفيل يذكر غطفان ويعرّض بأسماء:

قد ساءلت أسماءَ وهي خُضَيْة ليضاحتها أطردت أم لم أطرد
فلأينكم القنسا وعوارضاً ولأبليس الخيل لآية ضرغيد
ولأبزرز بسمالك وبمالك وأخي المروزي الذي لم يستد

في أبيات علة. فلما بلغ شعره غطفان هجاه منهم جماعة، وكان نابغة بني ذُبْيَان حينئذ غائباً عند ملوك غسان قد هرب من النعمان، فلما آمنه النعمان وعاد سأل قومه عما هجوا به عامر بن الطفيل، فأشبهوه ما قالوا فيه وما قال فيه، فقال: لقد أفحشتم وليس مثل عامر يُهَجَى بمثل هذا، ثم قال يخطئ عامراً في ذكره امرأة من عقائلهم:

فإن يك عامر قد قال جهلاً فإن مطيعة الجهل الشباب
فإنك سوف تخلم أو تباهي إذا ما شئت أو شاب الغراب
فكن كايك أو كاي براء توافيك الحكمة والصواب
فلا تنهب بملك طاميات من الخلاء ليس لهن باب
إلى آخرها. فلما سمعها عامر قال: ما هُجيت قبلها. (٦٤٤/١)

يوم ساحوق

قال أبو عبيدة: غزت بنو ذُبْيَان بني عامر وهم بساحوق، وعلى ذُبْيَان سنان بن أبي حارثة المري، وقد جهّزهم وأعطاهم الخيل والإبل وزودهم، فأصابوا نعاماً كثيرة وعادوا، فلحقهم بنو عامر واقْتتلوا قتالاً شديداً. ثم انهزمت بنو عامر وأصيب منهم رجالاً وركبوا الفلاة، فهلك أكثرهم عطشاً، وكان الحرّ شديداً، وجعلت ذُبْيَان تدرّك الرجل منهم فيقولون له: قفْ ولك نفسك وضع سلاحك، فيفعل. وكان يوماً عظيماً على عامر، وانهزم عامر ابن الطفيل وأخوه الحكم، ثم إن الحكم ضَعُف وخاف أن يؤسر فجعل في عنقه حبلاً وصعد إلى شجرة وشده ودلّى نفسه فاختنق، وفعل مثله رجل من بني غني، فلما ألقى نفسه ندم فاضطرب، فأدركوه وخلصوه وعيروه بجزعه؛ وقال عُروة بن الورد العبيسي في ذلك:

ونحن صبحنا عامراً في ديارها غلالة أرماع وضرباً مذكراً
بكل رفاق الشفرين مهتدي ولئن من الخطي قد طرأسما
عجبت لهم إذ يخشون نفوسهم ومقتلهم تحت الوغى كان أجندرا
(٦٤٥/١)

يوم أغيار ويم النقيعة

كان المثلّم بن المشجر العائذي ثم الضبي مجاوراً لبني عبيس؛ فتقامر هو وعُمارة بن زياد، وهو أحد الكُمَّلة، فقمرة عُمارة حتى اجتمع عليه عشرة أبكر، فطلب منه المثلّم أن يخلّي عنه حتى يأتي أهله فيرسل إليه بالذي له، فأبى ذلك، فرهنه ابنه شُرْحاف بن المثلّم، وخرج المثلّم فأتى قومه فاخذ البكارة فأتى بها عُمارة وافتك ابنه.

فلما انطلق بابنه قال له في الطريق: يا ابنه من معضال؟ قال: ذلك رجل من بني عمك ذهب فلم يوجد إلى الساعة. قال شُرْحاف: فأني قد عرفت قتله. قال أبوه: ومن هو؟ قال: عُمارة بن زياد سمعته يقول للقوم يوماً وقد أخذ فيه الشراب إنه قتله ولم يلق له طالباً.

وليثوا بعد ذلك حيناً وشب شُرْحاف. ثم إن عُمارة جمع جمعاً

يوم الفرات

قال أبو عبيدة: أغار المُثَنَّى بن حارثة الشيباني، وهو ابن أخت عِمْران بن مُرَّة، على بني تغلب، وهم عند الفرات، وذلك قُبِيل الإسلام، فظفر بهم قتل من أخذ من مقاتلتهم وغرق منهم ناسٌ كبير في الفرات وأخذ أموالهم وقسمها بين أصحابه، فقال شاعرهم في ذلك: (٦٤٨/١)

ومنا الذي غَشَى الدليكة سَنِيَةً على حين أن أعيا الفرات كتابُهُ
ومنا الذي شَدَّ الرُكْبَى لِيَسْتَقِي وسَقَى مَحْضاً غير ضافٍ جِوَابُهُ
ومنا غريب الشام لم يُرْ مثْلُهُ أنكَ لِمَن قَد تَنَاضَى أَقَارُئُهُ
الدليكة: فرس المُثَنَّى بن حارثة والذي شَدَّ الرُكْبَى مُرَّة بن هَمَام وغريب الشام ابن القلوص بن النعمان بن ثعلبة.

يوم بارق

قال المُفَضَّل الضَّيِّي: إنَّ بني تغلب والنمر بن قاسط وناساً من تميم اقتتلوا حتَّى نزلوا ناحية بارق، وهي من أرض السواد، وأرسلوا وفداً منهم إلى بكر بن وائل يطلبون إليهم الصلح، فاجتمعت شيبان ومَن معهم وأرادوا قصد تغلب ومن معهم، فقال زيد بن شريك الشيباني: أتي قد أجرت أحوالي وهم النمر بن قاسط، فأمضوا جواره وساروا وأوقعوا ببني تغلب وتميم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم تُصَبَّ تغلب بمثلهما واقتسموا الأسرى والأموال، وكان من أعظم الأتيام عليهم، قُتل الرجال ونُهَب الأموال وسُبي الحرير، فقال أبو كلبَة الشيباني:

وليلة سعادى لم تَدْعُ سَنَدًا لتغلبى ولا أنفأ ولا حَسَبًا
والنمريون لولا سَرْمَنَ ولَسَدُوا من آل مُرَّة شِياغ الحيّ مَتَهَبًا
(٦٤٩/١)

يوم طخفة

وهو لبني يربوع على عساكر النعمان بن المنذر.

قال أبو عبيدة: وكان سبب هذه الحرب أنه الرَدَافَة، وهي بمنزلة الوزارة، وكان الدريد يجلس عن يمين الملك، كانت لبني يربوع من تميم يتوارثونها صغيراً عن كبير. فلَمَّا كان أيام النعمان، وقيل أيام ابنه المنذر، سألها حاجب بن زُرارة الدارمي التميمي النعمان أن يجعلها للحارث بن يَتِيَّة بن قُرْط بن سُفْيَان بن مُجاشع الدارمي التميمي، فقال النعمان لبني يربوع في هذا وطلب منهم أن يجيبوا إلى ذلك، فامتنعوا، وكان منزلهم أسفل طخفة، فحيث امتنعوا من ذلك بعث إليهم النعمان قابوس ابنه وحساناً أخاه ابني المنذر، قابوس على الناس، وحسان على المقدمة، وضم إليهما جيشاً كبيراً، منهم الصنائع والوضائع وناس من تميم وغيرهم، فساروا حتَّى أتوا طخفة فالتقوا هم ويربوع

عظيماً من عبس فأغار بهم على بني ضَبَّة فأخذوا إيلهم، وركبت بنو ضَبَّة فادرَكهم في المعرى. فلَمَّا نظر شِرْحاف إلى عمارة قال: يا عمارة أتعرِفيني؟ قال: مَنْ أنت؟ قال: أنا شرْحاف، أد إليّ ابن عَمِي معضلاً، لا مثله يومَ قتلته وحمل عليه فقتله، واقتلت ضَبَّة وعبس قتلاً شديداً واستقدت ضَبَّة الإبل، وقال شِرْحاف:

الا ابلُخْ سَراة بني بَضيض بما لاقت سَراة بني زياد
وما لاقت جَنيمَة إذ تحامي وما لاقي القوارس من بجاد
تركتنا بالقيصة آل عبس شامعاً يُقتلون بكلّ واد
ومما إن فاتنا إلا شريد يؤم القفر في تيه البلاد
(٦٤٦/١)

فلن عَنَّا عُمارة آل عبس وسَلَّ ورداً وما كلُّ بَذاذ
تركهم بسوادي البطن زُفناً لِيَبْدَأَ الفَرارة والجِلاذ

يوم النباة

قال أبو عبيد: خرجت بنو عامر تريد غطفان لتدرك بثأرها يوم الرِّقْم ويوم ساحوق، فصادفت بني عبس وليس معهم أحد من غطفان، وكانت عبس لم تشهد يوم الرِّقْم ولا يوم ساحوق مع غطفان ولم يعينوهم على بني عامر، وقيل: بل شهدا أشجع وفزارة وغيرهما من بني غطفان، على ما نذكره قال: وأغارَت بنو عامر على نَعَم بني عبس وذُبْيَان وأشجع فأخذوها وعادوا متوجهين إلى بلادهم فضلوا في الطريق فسلكوا وادي النباة فأمعنوا فيه ولا طريق لهم ولا مطلع حتَّى قاربوا آخره. وكاد الجبلان يلتقيان إذاهما بامرأة من بني عبس تُخَيِّط الشجر لهم في قَلَّة الجبل. فسألوها عن المطلع، فقالت لهم: الفوارس المطلع، وكانت قد رأت الخيل قد أُقْبِلت وهي على الجبل، ولم يَرها بنو عامر لأنهم في الوادي، فأرسلوا رجلاً إلى قَلَّة الجبل ينظر، فقال لهم: أرى قوماً كأنهم الصبيان على متون الخيل، أسنة رماحهم (٦٤٧/١) عن أذان خيلهم. قالوا: تلك فزارة. قال: وأرى قوماً بيضاً جعاداً كان عليهم ثياباً حمراً. قالوا: تلك أشجع. قال: وأرى قوماً نُسُوراً قد قلعوا خيرَ لهم بسوادهم كأنما يحملونها حملاً بأفخاذهم آخذين بعوامل رماحهم يجرونها. قالوا: تلك عبس، أتاكم الموت الزُّؤام! ولحقهم الطلب بالوادي، فكان عامر بن الطفيل أول من سبق على فرسه الورْد فقات القوم، وأعيا فرسه الورد، وهو المبروق أيضاً، فغره لثلاً فتحتله فزارة، واقتتل الناس، ودام القتال بينهم، وانهزمت عامر فقتل منهم مقتلة كبيرة، قُتل فيها من أشرفهم البراء بن عامر بن مالك، وبه يكنى أبوه، وقُتل نَهْشَل وأنس وهزار بنو مُرَّة بن أنس بن خالد بن جعفر، وقتلوا عبد الله بن الطفيل أخا عامر، قتله الربيع بن زياد العبسي، وغيرهم كثير، وتمت الهزيمة على بني عامر.

واقْتلوا، وصبرت يربوع وانهزم قابوس ومَنْ معه، وضرب طارق أبو عميرة فرس قابوس فقره وأسره، وأراد أن يجزّ ناصيته، فقال: إنّ الملوك لا تجزّ نواصياها، فأرسله. وأمّا حسان فأسره بشر بن عمرو بن جُوَيْن فمَنْ عليه وأرسله. فعاد المنهزمون إلى التعمان، وكان شهاب بن قيس بن كياس اليربوعيّ عند الملك، فقال له: يا شهاب أدرك ابني وأخي، فإن أدركتهما حين يربوع حكمهم وأردّ عليهم ردائهم وأترك لهم مَنْ قتلوا وما غنموا وأعطاهم ألفي بعير. فسار شهاب فوجدهما حين فاطلقهما، ووفى الملك لبني يربوع بما قال ولم يعرض لهم في ردائهم؛ وقال مالك ابن نويرة: (٦٥٠/١)

ونحن عقرنا مُهرَ قابوس بعدما رأى القومُ منه الموتَ والخيل تَلَحَّبُ عليه ولاصَّ ذات نسجٍ وسيفه جُرَّاءُ من الهنديّ أيضاً يفضُّبُ طلبنا بها، إنّا مداريك نيلها إذا طَلَبَ الشَّاءُ البعيدَ المغرَّبُ

يوم النجاة وثيل

قال أبو عبيدة: غزا قيس بن عاصم البقريّ ثمّ التيميّ بمُقَاعِس، وهم بطون من تميم، وهم صريم وربيّع وعبيد بنو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد، وغزا معه سلامة بن طرب الجُمانيّ في الأحارث، وهم بطون من تميم أيضاً، وهم جُمَان وربيعة ومالك والأعرج بنو كعب بن سعد، فغزوا بكر بن وائل، فوجدوا اللّهّازم، وهم بنو قيس وتيم اللات أبناء ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل، ومعهم بنو ذهل ابن ثعلبة وعجل بن لُجَيْم وعزّة بن أسد بن ربيعة بالنبأة وثيل، وبينهما رَوْحَة، فأغار قيس على النجاة، ومضى سلامة إلى ثيل ليغير على مَنْ بها. فلمّا بلغ قيس إلى النجاة سقى خيله ثمّ أراق ما معهم من الماء وقال لمن معه: قاتلوا فالموت بين أيديكم والفلاة من ورائكم، فأغار على مَنْ به من بكر صبيحاً فقاتلوه قاتلاً شديداً وانهزمت بكر وأصيب من غنائمهم ما لا يحصى (٦٥١/١) كثرة، فلمّا فرغ قيس من النهب عاد مسرعاً إلى سلامة ومن معه نحو ثيل فادركهم، ولم يغز سلامة على مَنْ به، فأغار عليهم قيس أيضاً، فقاتلوه وانهزموا، وأصاب من الغنائم نحو ما أصاب بالنجاة، وجاء سلامة فقال: أغرتم على من كان لي، فتنازعوا حتّى كاد الشَّر يقبض عليهم، ثمّ اتَّفَقوا على تسليم الغنائم إليه، ففي ذلك يقول ربيعة بن طريف:

فلا يَمنُك الله قيسَ بن عاصم فأنّت لنا عزّ عزيزٍ ومَعْقَلٍ وأنّت الذي خرّت بكر بن وائل وقد عَضَلْتَ منها النجاة وثيلٌ

وقال قُرة بن زيد بن عاصم:

أنا ابن الذي شقّ المرار وقد رأى بَيْتِلَ أحيلة اللّهّازم خَضُرَا فلم يجدوا إلاّ الأسنة مصدرا وكان إذا ما أورد الأمر أسدرا إذا الماء من أعطاهن تحسّرا

فلم يرها الرّوون إلاّ فجأة يُعْزَن عَجاجاً كاللواخن أكسدا وخُمران أقتنه إلينا رماخنا فنزاع غلاً في ذراعيه أسما (يُتَيْل بالثاء المثناة المفتوحة، والياء المسكنة المثناة من تحتها، والياء المثناة من فوقها). (٦٥٢/١)

يوم فلج

قال أبو عبيدة: هذا يوم لبكر بن وائل على تميم.

وسببه أنّ جمعاً من بكر ساروا إلى الصُّعَاب فشتوا بها، فلمّا انقضى الربيع انصرفوا فمروا بالذُّو فلقوا ناساً من بني تميم من بني عمرو وحظلة، فأغاروا على نَم كثير لهم ومَضُوا، وأتى بني عمرو وحظلة الصريخ فاستجاشوا قومهم فأقبوا في آثار بكر بن وائل فساروا يومين وليلتين حتّى جهلهم السير وانحدروا في بطن فلج، وكانوا قد خلفوا رجلين على فرستين سابقين ربيّة ليخبراهم بخبرهم إن ساروا إليهم. فلمّا وصلت تميم إلى الرجلين أجريا فرستيهما وسارا مجدين فأنذرا قومهما، فاتاهم الصريخ بمسير تميم عند وصولهم إلى فلج، ف ضرب حظلة بن يسار العجلّي قَيْتَهُ ونزل فنزل الناس معه وَهَيَّؤُوا للقتال معه، ولحقت بنو تميم فقاتلتهم بكر بن وائل قتالاً شديداً، وحمل عَرْفجة بن بَحر العجلّي على خالد بن مالك بن سلّمة التيميّ فطعنه وأخذه أسيراً وقُتل في المعركة رَيْعِي بن مالك بن سلّمة، فانهزمت تميم وبلغت بكر بن وائل منها ما أرادت، ثمّ إنّ عرفة أطلق خالد بن مالك وجزّ ناصيته، فقال خالد:

وجننا الرّفد رفد بني لُجَيْم إذا ما قُلّت الأرفدا ذنادا (٦٥٣/١)

هُمُ ضربوا القبابَ يطن فلج وهم مُنوا عليّ وأطلقوني وقد طاوعت في الجنب القيانا اليسو خير من ركب المطايا وأعظمهم إذا اجتمعوا رمانا اليس هُمُ عماد الحيّ بكرأ إذا نزلت مجلّلة شيدانا

وقال قيس بن عاصم يعير خالداً:

لو كنتَ خراً يا ابن سلمى بن جندل نهضت ولم تقصد لسلمى ابن جندل فما بال أسداه بفلج غريسة صوادي لا مولى عزيزٌ يجيها وغادرت رنيّاً بفلج ملجياً وتائل من خوف الرّدى لا وقية

يعيره حيث لم يأخذ بثأر أخيه رَيْعِي ومَنْ قُتل معه يوم فلج، ويقول: إنّ أسداهم تُنادي ولا يسقيها أحد، على مذهب الجاهليّة، ولولا التطويل لشرحناه آيين من هذا. (٦٥٤/١)

يوم الشَّيْطَانِ

عمرو بن عامر مزيقياء أن سبل العرم يخرب بلادهم ويفرق أكثر أهلها عقوبة لهم بتكذيبهم رسول الله تعالى إليهم. فلما علم ذلك عمرو باع ما له من مال وعقار وسار عن مأرب هو ومن (٦٥٦/١) تبعه، ثم تفرقوا في البلاد فسكن كل بطن ناحية اختاروها، فسكنت خزاعة الحجاز، وسكنت غسان الشام.

ولما سار ثعلبة بن عمرو بن عامر فيمن معه اجتازوا بالمدينة، وكانت تسمى يثرب، فتخلف بها الأوس والخزرج أبنا حارثة فيمن معهما، وكان فيها قرى وأسواق وبها قبائل من اليهود من بني إسرائيل وغيرهم، منهم قُرَيْضَةُ والنَّضِيرُ وبنو قَيْقَاعَ وبنو ماسلة وزعورا وغيرهم، وقد بنوا لهم حصونا يجتمعون بها إذا خافوا. فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون، إلا أن الغلبة والحكم لليهود إلى أن كان من الفُطَيُونِ ومالك بن العَجْلَانِ ما نذكره إن شاء الله تعالى، فعادت الغلبة للأوس والخزرج، ولم يزالوا على حال اتفاق واجتماع إلى أن حدث بينهم حرب سُمَيَّرَ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غلبة الأنصار على المدينة وضعف أمر اليهود

بها وقتل الفُطَيُونِ

قد ذكرنا أن الاستيلاء كان لليهود على المدينة لما نزلها الأنصار، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن ملك عليهم الفُطَيُونِ اليهودي، وهو من بني إسرائيل ثم من بني ثعلبة، وكان رجل سوء فاجراً، وكانت اليهود تدين له بأن لا تزوج (٦٥٧/١) امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زوجها، وقيل: إنه كان يفعل ذلك بالأوس والخزرج أيضاً. ثم إن اختاً لمالك بن العَجْلَانِ السالمية الخزرجية تزوجت فلما كان زفافها خرجت عن مجلس قومها وفيه أخوها مالك وقد كشفت عن ساقها. فقال لها مالك: لقد جئت بسوء. قالت: الذي يراد بي الليلة أشد من هذا، أدخل على غير زوجي! ثم عادت فدخل عليها أخوها فقال لها: هل عندك من خبر؟ قالت: نعم، فما عندك؟ قال: أدخل مع النساء فإذا خرجن ودخل عليك قتلت. قالت: افعل. فلما ذهب بها النساء إلى الفُطَيُونِ انطلق مالك معهن في زيارته ومعها سيفه، فلما خرج النساء من عندها ودخل عليها الفُطَيُونِ قتله مالك وخرج هارباً، فقال بعضهم في ذلك من آيات:

هل كان للفُطَيُونِ عُقْرُ نَسائكم حكم النصيب فبنس حكم الحاكم
حتى جاءه مالك بِرُشْدَةٍ حمراء تضحك عن نجيع قاتم
ثم خرج مالك بن العَجْلَانِ هارباً حتى دخل الشام فدخل على
ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة واسمه عُبَيْدُ بن سالم بن مالك
بن سالم، وهو أحد بني عُصْبِ بن جُثَمِ بن الخزرج، وكان قد ملكهم وشرف فيهم، وقيل: إنه لم يكن ملكاً وإنما كان عظيماً عند ملك غسان، وهو الصحيح، لأن ملوك غسان لم يعرف فيهم هذا،

قال أبو عبيدة: كان الشيطان بكر بن وائل، فلما ظهر الإسلام في نجد سارت بكر قبل السواد، وبقي مُقَايِسُ بن عمرو العائذي بن عائذة من قريش حليف بني شيبان بالشَّيْطَانِ. فلما أقامت بكر في السواد لحقهم الوباء والطاعون الذي كان أيام كسرى شبروته فعداوا هارين فنزلوا لعل، وهي مُجْدِيَّة، وقد أحصب الشيطان، فسارت تميم فنزلوا بها، وبلغت أخبار خصب الشيطان إلى بكر، فاجتمعوا وقالوا: نغير على تميم، فإن في دين ابن عبد المطلب، يعنون النبي، أن من قتل نفساً قتل بها، فنغير هذه الغارة ثم نسلم عليها، فارتحلوا من لعل بالذراري والأموال ورئيسهم بَشْرُ بن مسعود ابن قيس بن خالد فأتوا الشيطان في أربع ليال، والذي بينهما مسيرة ثمان ليال، فسبقوا كل خير حتى صبحوهم وهم لا يشعرون فقاتلوهم قتالاً شديداً وصبرت تميم ثم انهزمت، فقال رشيد بن رُمَيْضُ العبيري يغير بذلك:

وما كان بين الشَّيْطَانِ وَلَعْلَعٍ نسرتنا إلا مناقل أربع
فجئنا بجمع لم ير الناس مثله يكاذله ظهر الوديع يطلع
بازغن دهم تسلي اللئق وسطه له عارض فيه الميتة تلمع
صبحابه سعداً وغمرأ ومالكاً فظل لهم يوم من الشر أشنع
وذا حسب من آل ضبة غادروا بجري كما يجري الفصيل المنزغ
تقصع يربوع بسرة أرضنا وليس ليربع بها متقصع (٦٥٥/١)

ثم إن النبي ﷺ، كتب إلى بكر بن وائل على ما بأيديهم.

(الشَّيْطَانُ بالشين المعجمة، والياء المشددة المثناة من تحتها، وبالطاء المهملة، آخره نون).

أيام الأنصار، وهم الأوس والخزرج، التي جرت

بينهم

الأنصار لقب قبيلتي الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الفُطَيْرِيفِ بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن العوث بن تبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لقبهم به رسول الله ﷺ، لما هاجر إليهم ومنعوه ونصروه، وأم الأوس والخزرج قَيْلَةُ بنت كاهل بن عذرة بن سعد، ولذلك يقال لهم أبناء قَيْلَةَ. وإنما لقب ثعلبة العنقاء لطول عقه، ولقب عمرو مزيقياء لأنه كان يمزق عنه كل يوم حلة لثلاً يليسها أحد بعده، ولقب عامر ماء السماء لسماحته وبذله كأنه ناب مناب المطر، وقيل لشرفه، ولقب امرؤ القيس البطريق لأنه أول من استعان به بنو إسرائيل من العرب بعد بلقيس، فبطرقه رُحِبَتم ابن سليمان بن داود، عليه السلام، فقيل له البطريق، وكانت مساكن الأزد بمأرب من اليمن إلى أن أخبر الكهنة

وهو أيضاً من الخزرج على ما ذكر.

يطلب سُمَيْراً وهم يُكْرَهُونَ قَتْلَهُ، ثُمَّ عَرَضُوا عَلَيْهِ الدِّيَةَ فَقَبِلَهَا. وَكَانَتْ دِيَةُ الْحَلِيفِ فِيهِمْ نِصْفُ دِيَةِ النَّسِيبِ مِنْهُمْ. فَأَبَى مَالِكٌ إِلَّا أَخَذَ دِيَةَ كَامِلَةً، وَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالُوا: نَعْطِي دِيَةَ الْحَلِيفِ، وَهِيَ النِّصْفُ. وَلَجَّ الْأُمُورُ بَيْنَهُمْ حَتَّى آلَ إِلَى الْمُحَارَبَةِ، فَاجْتَمَعُوا وَالتَّقُوا وَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً وَافْتَرَقُوا. وَدَخَلَ فِيهَا سَائِرُ بَطُونِ الْأَنْصَارِ، ثُمَّ التَّقُوا مَرَّةً أُخْرَى وَاقْتَتَلُوا حَتَّى حَجَزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، وَكَانَ الظُّفَرُ يَوْمَنْدُ لِلْأَوْسِ.

فَلَمَّا افْتَرَقُوا أَرْسَلَتْ الْأَوْسُ إِلَى مَالِكٍ يَدْعُوْنَهُ إِلَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمُ الْمُنْذَرُ ابْنُ حَرَامِ النَّجَارِيِّ الْخَزْرَجِيُّ جَدُّ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتِ بْنِ الْمُنْذَرِ. فَاجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَاتُوا الْمُنْذَرَ، فَحَكَمَ بَيْنَهُمُ الْمُنْذَرُ بِأَنْ يَدُوا كَعْباً حَلِيفَ مَالِكِ دِيَةَ الصَّرِيحِ ثُمَّ يَدُوا إِلَى مَسْتَهْمِ الْقَدِيمَةِ، فَرَضُوا بِذَلِكَ وَحَمَلُوا الدِّيَةَ وَافْتَرَقُوا، وَقَدْ شَبَّتِ الْبُغْضَاءُ فِي نَفْسِهِمْ وَتَمَكَّنَتِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَهُمْ. (٦٦٠/١)

ذَكَرَ حَرْبَ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو الْمَازَنِيِّ

ثُمَّ إِنَّ بَنِي جَحْجَحَةَ مِنَ الْأَوْسِ وَبَنِي مَازَنَ مِنَ النَّجَارِ مِنَ الْخَزْرَجِ وَقَعَ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ كَانَ سَبَبُهَا أَنَّ كَعْبَ بْنَ عَمْرِو الْمَازَنِيِّ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَالِمٍ فَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهَا. فَأَمَرُ أُخَيْحَةَ بْنُ الْجُلَاحِ سَيِّدُ بَنِي جَحْجَحَةَ جَمَاعَةً فَرَصَدُوهُ حَتَّى ظَفَرُوا بِهِ فَقَتَلُوهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَخَاهُ عَاصِمَ بْنَ عَمْرِو، فَأَمَرُ قَوْمَهُ فَاسْتَعَدُّوا لِلْقِتَالِ، وَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي جَحْجَحَةَ يُؤَذِّنُهُمْ بِالْحَرْبِ. فَالتَّقُوا بِالرُّحَابَةِ فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً، فَانْهَزَمَتْ بَنُو جَحْجَحَةَ وَمَنْ مَعَهُمْ وَانْهَزَمَ مَعَهُمْ أُخَيْحَةُ، فَطَلَبَهُ عَاصِمُ بْنُ عَمْرِو فَأَدْرَكَهُ وَقَدْ دَخَلَ حَصْنَهُ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَقَعَ فِي بَابِ الْحَصَنِ، فَقَتَلَ عَاصِمٌ أَخَاهُ لِأُخَيْحَةَ، فَمَكَثُوا بَعْدَ ذَلِكَ لَيَالِي، فَبَلَغَ أُخَيْحَةُ أَنَّ عَاصِمًا يَطْلُبُهُ لِيَجِدَ لَهُ غِرَّةً فَيَقْتُلَهُ، فَقَالَ أُخَيْحَةُ:

يُبَيْتُ أَتْلُكَ جُنْتُ نَسْ — رِي يَمِينِ دَارِي وَالْقَابِلَةِ
فَلَقَدْ وَجَدْتُ بِجَانِبِ الْ — ضَحْخَانِ ثُبَانًا مُهَابِلَةِ
فَيَا حَرْبَ فِي الْحَلِيفِ — دِوْشَامِرِينَ كَأَسَدٍ غَابِلَةِ
هَمَّ نَكْبُوكَ عَنِ الطَّرِيقِ — قِي فَيْتَ تَرْكَبُ كُلَّ لَابِلَةِ
أَعْصِيكُمْ لَا تَجْزَعُ فَا — نَ الْحَرْبِ لَيْسَتْ بِالْغَابِلَةِ
فَأَنَا الَّذِي صَبَحْتُكُمْ — بِالْقَوْمِ إِذْ دَخَلُوا الرُّحَابِلَةَ
وَقَتَلْتُ كَعْبًا قَبْلَهَا — وَعَلَسْتُ بِالسَّيْفِ الذُّؤَابِلَةَ

فَاجَابَهُ عَاصِمُ: (٦٦١/١)

أَبْلُغْ أُخَيْحَةَ إِنْ عَرَضَ — تَ بِلْدَارِهِ عَنِّي جَوَابِلَةَ
وَأَنَا الَّذِي أَعْجَلْتُكَ — عَنْ مَقْعَدِ الْهَيْ كُلَابِلَةَ
وَرَمَيْتُهُ سَهْمًا فَأَخَذَ — طَاهٍ وَأَغْلَقَ ثُمَّ بَابِلَةَ

فِي آيَاتٍ. ثُمَّ إِنَّ أُخَيْحَةَ أَجْمَعَ أَنْ يَبَيْتَ بَنِي النَّجَارِ وَعِنْدَهُ سَلْمَى بِنْتُ عَمْرِو بْنِ زَيْدِ النَّجَارِيَّةِ، وَهِيَ أُمُّ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَدُّ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَا رَضِيَتْ، فَلَمَّا جَنَّهَا اللَّيْلُ وَقَدْ سَهَرَ مَعَهَا أُخَيْحَةُ فَنَامَ، فَلَمَّا نَامَ سَارَتْ إِلَى بَنِي النَّجَارِ فَاعْلَمَتَهُمْ ثُمَّ رَجَعَتْ، فَحَذَرُوا، وَغَدَا أُخَيْحَةُ بِقَوْمِهِ مَعَ

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ مَالِكٌ شَكَا إِلَيْهِ مَا كَانَ مِنَ الْفَطْيُونِ وَأَخْبَرَهُ بِقَتْلِهِ وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الرَّجُوعِ، فَعَاهَدَ اللَّهُ أَبُو جَبِيلَةَ الْأَيْمَسَّ طَيْبًا، وَلَا يَأْتِي النِّسَاءَ حَتَّى (٦٥٨/١) يَذِلَّ الْيَهُودُ وَيَكُونَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَعَزَّ أَهْلًا.

ثُمَّ سَارَ مِنَ الشَّامِ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يَرِيدُ الْيَمِينَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَنَزَلَ بِذِي خُرُصٍ، وَأَعْلَمَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى وَجْهِ الْيَهُودِ يَسْتَدْعِيهِمْ إِلَيْهِ وَأَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ، فَأَنَاءَ أَشْرَافَهُمْ فِي حَشَمِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا بِيَابِهِ أَمَرَ بِهِمْ فَأَذْخَلُوا رَجُلًا رَجُلًا وَقَتَلَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ. فَلَمَّا فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ صَارَتْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَعَزَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ، فَشَارَكُوا الْيَهُودَ فِي النَّخْلِ وَالْدُّورِ وَمَدَحِ الرُّمُقِ بْنِ زَيْدِ الْخَزْرَجِيِّ أَبَا جَبِيلَةَ بِقَصِيدَةٍ، مِنْهَا:

وَأَبُو جَبِيلَةَ خَيْرُ مَنْ — يَمْنِي وَأَوْفَاهُمْ بَيْنَنَا
وَأَبْرُهُمْ بِرًّا وَأَعَدَّ — حَلَّتْهُمْ بِهِذِي الصَّالِحِينَ
أَبَقْتُ لَنَا الْأَيَّامُ وَالْ — حَرْبُ الْمَهْمَةِ تَعْتَرِينَا
كَيْشًا لَهُ قَرْنٌ يَمُ — ضُ حُسَامُهُ الذِّكْرُ الشُّنِينَا

فَقَالَ أَبُو جَبِيلَةَ: عَسَلَ طَيْبٌ فِي وَعَاءٍ سُوءٍ، وَكَانَ الرُّمُقُ رَجُلًا ضَعِيلًا؛ فَقَالَ الرُّمُقُ: إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِهِ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ. وَرَجَعَ أَبُو جَبِيلَةَ إِلَى الشَّامِ.

(حُرُصُ بَضْمُ الْحَاءِ وَالرَّاءِ الْمَهْمَلَتَيْنِ، وَآخِرُهُ ضَادٌ مُعْجَمَةٌ).

حَرْبُ سُمَيْرٍ

وَلَمْ يَزَلِ الْأَنْصَارُ عَلَى حَالِ اتِّفَاقٍ وَاجْتِمَاعٍ، وَكَانَ أَوَّلُ اخْتِلَافٍ وَقَعَ بَيْنَهُمْ وَحَرْبٌ كَانَتْ لَهُمْ حَرْبُ سُمَيْرٍ.

وَكَانَ سَبَبُهَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِنْ سَعْدِ بْنِ ذِييَانَ يُقَالُ لَهُ كَعْبُ بْنُ (٦٥٩/١) [الْعَجْلَانُ نَزَلَ عَلَى مَالِكِ بْنِ] [الْعَجْلَانُ السَّالِمِيُّ] فَحَالَفَهُ وَأَقَامَ مَعَهُ. فَخَرَجَ كَعْبٌ يَوْمًا إِلَى سَوْقِ بَنِي قَيْقَاقَ فَرَأَى رَجُلًا مِنْ غَطَفَانَ مَعَ فَرَسٍ وَهُوَ يَقُولُ: لِيَأْخُذَ هَذَا الْفَرَسَ أَعَزُّ أَهْلِ يَثْرِبَ. [فَقَالَ رَجُلٌ: فَلَانٌ]. وَقَالَ رَجُلٌ آخَرُ: أُخَيْحَةُ بْنُ الْجُلَاحِ الْأَوْسِيُّ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: فَلَانُ ابْنُ فَلَانَ الْيَهُودِيُّ أَفْضَلُ أَهْلِهَا. فَدَفَعَ الْعُطْفَانِيُّ الْفَرَسَ إِلَى مَالِكِ بْنِ الْعَجْلَانِ. فَقَالَ كَعْبٌ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّ حَلِيفِي مَالِكًا أَفْضَلُكُمْ؟ فَغَضِبَ مِنْ ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْأَوْسِ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ يُقَالُ لَهُ سُمَيْرٌ وَشْتَمَهُ وَافْتَرَقَا، وَبَقِيَ كَعْبٌ مَا شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ قَصِدَ سَوْقًا لَهُمْ بَقِيًا فَقَصِدَهُ سُمَيْرٌ وَلَا زَمَهُ حَتَّى خَلَا السَّوْقَ فَقَتَلَهُ وَأَخْبَرَ مَالِكُ بْنُ الْعَجْلَانِ بِقَتْلِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ يَطْلُبُ قَاتِلَهُ، فَأَرْسَلُوا: إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ قَتَلَهُ. وَتَرَدَّدَتِ الرُّسُلُ بَيْنَهُمْ، وَهُوَ

الفجر، فلقبهم بنو النَجَّار في السلاح، فكان بينهم شيء من قتال، وانحاز أحبيحة، وبلغه أن سلمى أخبرتهم فصر بها حتى كسر يدها وأطلقها وقال آياتاً، منها:

لَعَنَرُ اِيكَ مَا يُغْنِي مَكَانِي
تُزَوِّمُ لَا تَقْلَصُ مِثْمَعَلًا
تَنْزَعُ لِلْجَلِيلَةِ حَيْثُ كَانَتْ
وَقَدْ أَعْدَدْتُ لِلْجِدْثَانِ حَصْنًا
جَلَاهُ الْفَيْسُ ثُمْتُ لَمْ تَخْنَهُ
فَهَلْ مِنْ كَاهِنٍ أَوْيَ إِلَيْهِ
يِرَاهُنِّي وَيِرَهْنُنِّي بَيْنَهُ
فَمَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ
وَمَا تَدْرِي وَإِنْ أَجْمَعْتَ أَمْرًا

وَمَا تَدْرِي وَإِنْ أَتَجَتَّ سَقْبًا
وَمَا إِنْ إِخْوَةَ كَبُرُوا وَطَابُوا
سَتَكُلُّ أَوْ يَفَارِقُهَا بَنُوهَا
لَغَيْرِكَ أَمْ يَكُونُ لَكَ الْفَصِيلُ
لِبَاقِيَةٍ، وَلَمْهُمُ قَبِيلُ
بِمَوْتٍ أَوْ يَجِيءَ لَهُمْ قَتْلُ

ذكر الحرب بين بني عمرو بن عوف وبني الحارث، وهو يوم السَّرَاةِ

ثم إن بني عمرو بن عوف من الأوس وبني الحارث من الخزرج كان بينهما حرب شديدة.

وكان سببها أن رجلاً من بني عمرو قتله رجل من بني الحارث، فعدا بنو عمرو علي القاتل فقتلوه غيلة، فاستكشف أهله فعلموا كيف قُتل فتهيأوا للقتال وأرسلوا إلى بني عمرو بن عوف يؤذنونهم بالحرب، فالتقوا بالسَّراةِ، وعلى الأوس حُضَيْرٌ بن ميمك والد أُسَيْدِ بن حُضَيْرٍ، وعلى الخزرج عبد الله بن سُلُولُ أبو الحُبَابِ الذي كان رأس المنافقين. فاقْتَلَوْا قتالاً شديداً صبر بعضهم لبعض أربعة أيام، ثم انصرفت الأوس إلى دُورِها، ففخرت الخزرجُ بذلك؛ وقال حَسَّانُ بن ثابت في ذلك:

فَدَيْ لِبَنِي النَّجَّارِ أَمْسِي وَخَالَتِي
وَصِرْمٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ عَمْرُو بْنُ مَالِكٍ
فَوَاللَّهِ لَا أُنْسِي حَيْثَانِي بِلَاهِمٍ
غِلْدَةً أَقْرَهُم بِالْمُتَّقَةِ السُّمْرِ
إِذَا مَا دَعَا كَانَتْ لَهُمْ دَعْوَةُ النَّصْرِ
غِلْدَةً رَمَوْا عَمْرًا بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ
(٦٦٣/١)

وقال حَسَّانُ أيضاً:

لَعَنَرُ اِيكَ الْخَيْرَ بِالْحَقِّ مَا نَبَا
لِسَانِي وَسِيْفِي صَارَ مَا نِ كَلَامَا
فَلَا الْجَهْدُ يُنْسِيَنِي حَيْثَانِي وَعُغْنِي
عَلِيَّ لِسَانِي فِي الْخَطُوبِ وَلَا يَدِي
وَيَلِغُ مَا لَا يَلِغُ السِّيفُ مِنْوَدِي
وَلَا وَقَعَاتُ الدَّهْرِ يَقْلَلْنَ مِيرَدِي

أَكْثَرُ أَهْلِي مِنْ عِيَالٍ سَوَاهُمْ
وَإِنِّي لَوَجَّاهُ الْمُطَيَّ عَلَى الْوَجَى
وَإِنِّي لَقَرَّانٌ لِنَدَى اللَّزْوِ مَرْجَبًا
وَإِنِّي لَيَدْعُونِي النَّدَى فَاجِيِسَهُ
فَلَا تَنْجَلْنَ يَا قَيْسَ وَارْبَعُ فَإِنَّمَا
حِصَامٌ وَارْمِاحُ بِيَايِدِي أَعْرَءَ
أَسْوَدَ لَنَدَى الْأَشْيَالِ يَحْمِي عَرَبَهَا

وهي أبيات كثيرة. فأجابه قيس بن الخطيم:

وَإِنِّي لَوَجَّاهُ الْمُطَيَّ عَلَى الْوَجَى
وَإِنِّي لَقَرَّانٌ لِنَدَى اللَّزْوِ مَرْجَبًا
وَإِنِّي لَيَدْعُونِي النَّدَى فَاجِيِسَهُ
فَلَا تَنْجَلْنَ يَا قَيْسَ وَارْبَعُ فَإِنَّمَا
حِصَامٌ وَارْمِاحُ بِيَايِدِي أَعْرَءَ
أَسْوَدَ لَنَدَى الْأَشْيَالِ يَحْمِي عَرَبَهَا

وتروح عن الحناء أم أنت مُغْتَدِي
تَرَامَتْ لَنَا يَوْمَ الرِّحْلِ بِمَقْلَتِي
وَجِدِّ كَجِدِّ الرِّيمِ حَالِ يَزِينَهُ
كَانَ الرِّيمَا فَوْقَ ثَغْرَةٍ نَحْرَهَا

وهي طويلة. وقال عُثَيْدُ بن نَاقِد:

لَمَنْ الدِّيارُ كَانَهُنَّ الْمَذْهَبُ
يَقُولُ فِيهَا فِي ذِكْرِ الْوَقْعَةِ:

لَكِنْ فِرَارُ إِبِي الْحُبَابِ بِنَفْسِهِ
وَلَسَى وَالْقَسَى يَوْمَ ذَلِكَ دِرْعُهُ
نَجَاكَ مِنَّا بَعْدَمَا قَدْ أَشْرَعَتْ
وَهِيَ طَوِيلَةٌ. وَأَبُو الْحُبَابِ هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بن سُلُولَ.

وهي طويلة. وقال عُثَيْدُ بن نَاقِد:

لَمَنْ الدِّيارُ كَانَهُنَّ الْمَذْهَبُ
يَقُولُ فِيهَا فِي ذِكْرِ الْوَقْعَةِ:

لَكِنْ فِرَارُ إِبِي الْحُبَابِ بِنَفْسِهِ
وَلَسَى وَالْقَسَى يَوْمَ ذَلِكَ دِرْعُهُ
نَجَاكَ مِنَّا بَعْدَمَا قَدْ أَشْرَعَتْ
وَهِيَ طَوِيلَةٌ. وَأَبُو الْحُبَابِ هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بن سُلُولَ.

حرب الحُصَيْنِ بن الْأَسْلَتِ

ثم كانت حرب بين بني وائل بن زيد الأوسيين وبين بني مازن بن النجَّار الخزرجيين.

وكان سببها أن الحُصَيْنَ بن الْأَسْلَتِ الأوسِيَّ الْوَائِلِيَّ نَازَعَ رجلاً من بني مازن، فقتله الْوَائِلِيُّ ثُمَّ انصرف إلى أهله، فبعه نفر من بني

ومنها:

متى ترنا الأوسُ في يعضنا نهز القنا نخشبُ نيرانها
وتقط القيادة على رَعْمِها وتُنزَلُ بلهَام عِقَابِها
فلا تخرون التمس ملجأ قد عَاوَدَ الأوس أديانها
(٦٦٨/١)

حرب فارغ بسبب الغلام القضاعي

ومن أيامهم يوم فارغ. وسببه أن رجلاً من بني النجَار أصاب غلاماً من قضاة ثَم من بلي، وكان عم الغلام جاراً لمُعَاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسيّ والد سعد بن مُعَاذ، فأتى الغلامُ عمه يزوره فقتله النجاري، فأرسل معاذ إلى بني النجَار: أن ادفعوا إليّ دية جاري أو ابثوا إليّ بقاتله أرى فيه رأيي. فأبوا أن يفعلوا. فقال رجل من بني عبد الأشهل: والله إن لم تفعلوا لا تقتل به إلا عامر بن الإطابة، وعامر من أشرف الخزرج؛ فبلغ ذلك عامراً فقال:

الا مَنْ مَبْلَغُ الأكفَاء عني وقد تهدي النصيحة للنصب
فإنكم وما ترجون شطري من القول العُزجى والصريح
سيندم بعضكم عجباً عليه وما أضر اللسان إلى الجروح
أبت لي عزتي وأبى بلائي وأخذني الحمد بالثمن الريح
وأعطاني على المكروه مالي وضربني هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت: مكانك تحمدي أو تستريحي
لأنفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح
بني شطب كلون الملح صافٍ ونفس لا تقهر على القبيح
فقال الربيع بن أبي الحقيق اليهودي في عراض قول عامر بن الإطابة:

الا مَنْ مَبْلَغُ الأكفَاء عني فلا ظلم لذي ولا افتراء
(٦٦٩/١)

فلست بفاظظ الأكفاء ظلماً وعندي للملمات اجترأ
فلم أر مثل من يندو يخنف له في الأرض سير وأسير
وما بعض الإقامة في ديار يهان بها الفتى إلا عثاء
وبعض القول ليس له عجاج كتمض الماء ليس له إناء
وبعض خلاص الأقوام داء كداء الشح ليس له دواء
وبعض الداء ملتئم شفاء وداء النورك ليس له شفاء
يحب المرء أن يلقي نعيماً ويلبى الله إلا ما يشاء
ومن يك عاقلاً لم يلق بؤساً يُسخ يوماً بساحته القضا
تعاوزه بنات الدهر حتى تُلغمه كما تُلغم الإناء
وكل شئلتك نزلت بحيي سيأتي بعد شدتها زخاء
فقل للمضي عرس الماييا: تروق فليس ينعفك أقاء
فما ينعى الحريض غنى بحرص وقد ينمي لدى الجود الثراء
وليس بنافع ذا البخيل مالٌ ولا مُزِر بصاحبه الجفاء

مازن فقتلوه. فبلغ ذلك أخاه أبا قيس بن الأسلت فجمع قومه وأرسل إلى بني مازن يُعلمهم أنه على حربهم. فتهيؤوا للقتال، ولم يتخلف من الأوس والخزرج أحد، فاقتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً، وقتل أبو قيس بن الأسلت الذين قتلوا أخاه ثم انهزمت الأوس، فلام وَخُوحُ بن الأسلت أخاه أبا قيس وقال: لا يزال مُنهزَم من الخزرج، فقال أبو قيس لأخيه، ويكنى أبا حصين:

أبلغ أبا حصين وتغ فض القول عندي فو كجاره
أن ابن أم المرء لـ س من الحديد ولا الحجارة
ماذا عليكم أن يكون ن لكم بهار خلاً عُمارة
(٦٦٧/١)

يحمي فماركم وتغ فض القوم لا يحمي ذمارة
يني لكم خيراً وتيسا ن الكريم له إثارة
في أبيات.

حرب ربيع الظفري

ثم كانت حرب بين بني ظَفَر من الأوس وبين بني مالك بن النجَار من الخزرج.

وكان سببها أن ربيعاً الظفري كان يمر في مال لرجل من بني النجَار إلى ملك له، فمنعه النجاري، فتنازعا، فقتله ربيع، فجمع قومه فاقتلوا قتالاً شديداً كان أشد قتال بينهم، فانهزمت بنو مالك بن النجَار؛ فقال قيس بن الخطيم الأوسي في ذلك:

اجد بغمرة غيانها فهجر أم شلتنا شاتنا
لأن نُس شطت بها دارها وباح لك اليوم هجرانها
فما روضة من رياض القطا كأن المصاييح خوذاتها
باحسن منها ولا تزهوة ولرج تكشف أديانها
وعمرة من سرورات النساء يفتح بالمسك أودانها
(٦٦٧/١)

ومنها:

ونحن الفوارس يوم الريد مع قد علموا كيف أبدانها
جئونا لحرب وراء الصريد سخ حتى قصصد مرانها
تراهن يخلصن خلع الدلا يادر بالترع اشطانها
وهي طويلة. فأجابه حسان بن ثابت الخزرجي بقصيدة أولها:

لقد هاج نفسك أشجانها وغادرها اليوم أديانها
ومنها:

ويشرب تعلم أنابها إذا التبس الحق ميزانها
ويشرب تعلم أنابها إذا أحمط القطر نوانها
ويشرب تعلم إذ حاربت بأنا لدى الحرب قربانها
ويشرب تعلم أن النبي ست عند الهزاهز دلائها

غني النفس ما استغنى بشيء وقهر النفس ما عمرت شقاء
يؤد المرأة ما تفقد الليالي كأن فناء من له فناء
فلما رأى معاذ بن النعمان امتناع بني النجار من الدية أو تسليم
القاتل (٦٧٠/١)

إليه تهماً للحرب وتجهز هو وقومه واقتلوا عند فارح، وهو أطم
حسان بن ثابت، واشتد القتال بينهم ولم تزل الحرب بينهم حتى حمل
ديته عامر بن الإطنابة. فلما فعل صلح الذي كان بينهم وعادوا إلى
أحسن ما كانوا عليه، فقال عامر بن الإطنابة في ذلك:

صرمت ظليمة خلتي ومراسلي وتباعدت ضناً بيزاد الراحلي
جهلاً وما تلدي ظليمة أنسي قد استقل بصرم غير الواصلي
ذل ركابي حيث شئت متي أنسي أروغ قطا المكان الغافلي
اظليم ما يذرك رة خللة حسن ترغمها كطبي الحائل
قد بت مالكتها وشارب قهوة درياقة روت منها وأغلي
بيضاء صافية يرى من دونها قهر الإساء يضي وجه الناهلي
وسراب هاجرة قطعت إذا جرى فوق الإكسام بذات لون باذل
أجد مراحلها كأن عفاهما سبطان من كفي ظليم جافلي
فلناكلن بناجر من مالنا ولتشرن بئس عالم قباللي
إني من القوم الذين إذا اتقوا بدؤوا ببر الله ثم النازل
المانعين من الخنا جيرانهم والحاشلين على طعام النازل
والخالطين غيهم بفقيرهم وبالذلين عطاءهم للسلال
والضارين الكش يبرق يفض ضرب المهند عن حياض الناهلي
والعاطفين على المصاف خير لهم والملاحقين رماحهم بالقاتل

(٦٧١/١)

يوم الربيع

ثم التقت الأنصار بعد يوم الجسر بالربيع، وهو حائط في ناحية
السفح، فاقتلوا قتالاً شديداً حتى كاد يئني بعضهم بعضاً، فانهزمت
الأوس وتبعها الخزرج حتى بلغوا دورهم، وكانوا قبل ذلك إذا
انهزمت إحدى الطائفتين (٦٧٣/١) فدخلت دورهم كفت الأخرى
عن اتباعهم. فلما تبع الخزرج الأوس إلى دورهم طلبت الأوس
الصلح، فامتعت بنو النجار من الخزرج عن إجابتهم. فحصنت
الأوس النساء والذاري في الآطام، وهي الحصون، ثم كفت عنهم
الخزرج؛ فقال صخر بن سلمان البياضي:

وهمط سويد بلغا وابن الأسلت والمدركين غدوهم بنحوهم
أبنا بلغنا عني سويد بن صامت والقائلين معاً خنوا أقرانكم
بأننا قتلنا بالربيع سرائكم خزر عيونهم إلى أعدائهم
فلولا حرق في العشرة إنها ليسوا بأنكاس ولا يبل إذا
لناهم منا كما كان نالهم لا يطعمون وهم على أحبابهم
فأجابه سويد بن الصامت والقائلين فلا يباب خطيهم

ثم كانت الوقعة المعروفة بحاطب. وهو حاطب بن قيس من بني
أمية ابن زيد بن مالك بن عوف الأوسى، وبينها وبين حرب سمي
نحو مائة سنة. وكان بينهما أيام ذكرنا المشهور منها وتركنا ما ليس
بمشهور. وحرب حاطب آخر وقعة كانت بينهم إلا يوم بعث حتى
جاء الله بالإسلام.

ثم كانت الوقعة المعروفة بحاطب. وهو حاطب بن قيس من بني
أمية ابن زيد بن مالك بن عوف الأوسى، وبينها وبين حرب سمي
نحو مائة سنة. وكان بينهما أيام ذكرنا المشهور منها وتركنا ما ليس
بمشهور. وحرب حاطب آخر وقعة كانت بينهم إلا يوم بعث حتى
جاء الله بالإسلام.

وكان سبب هذه الحرب أن حاطباً كان رجلاً شريفاً سيّداً، فاتاه

ومنها:

يوم البقيع

يوم الفجار الأول للأَنْصار

ثم التفت الأوس والخزرج ببيّع الغرَقْد فاقْتَلَوْا قتالاً شديداً، فكان الظفر يومئذ للأوس؛ فقال عُبَيْدُ بْنُ نَاقِدِ الْأَوْسِيِّ: (٦٧٤/١)

لَمَّا رَأَيْتُ بَنِي عَوْفٍ وَجَمْعَهُمْ
جاءوا وجمع بني النَجَارِ قد حَفَلُوا
دَعَوْتُ قَوْمِي وَسَهَلْتُ الطَّرِيقَ لَهُمْ
إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَصْحَابُهُ خَلَلُوا
جَادَتْ بَأَنفُسَهَا مِنْ مَالِكٍ عَصَبٌ
يَوْمَ اللَّقَاءِ فَمَا خَافُوا وَلَا فُتِلُوا
وَعَاوَزُوكُمْ كَوُوسَ الْمَوْتِ إِذْ بَسَرُوا
شَطْرَ النَّهَارِ وَحَتَّى أَكْبَرَ الْأُصْلُ
حَتَّى اسْتَقَامُوا وَقَدْ طَالَ الْمَرَأْسُ بِهِمْ
فَكَلَّهْمُ مِنْ دَمَاءِ الْقَوْمِ قَدْ نَهَلُوا
تَكَشَّفَ الْبَيْضُ عَنْ قَتْلَى أُولَى رَجِمٍ
لَوْلَا الْمَسَالِمُ وَالْأَرْحَامُ مَا قَتَلُوا
تَقُولُ كُلُّ نَسَائِدٍ غَابَ قَيْمُهَا:
أَكَلْنَا مَنْ خَلَفْنَا مِنْ قَوْمِنَا قَتَلُوا
لَقَدْ قَتَلْتُمْ كَرِيماً ذَا مَحَافِظَةٍ
قَدْ كَانَ حَالِفَهُ الْفَيْنَاتُ وَالْحَلَلُ
جَزَلْنَا نَوَافِلَهُ خَلَوْا شَمَائِلَهُ
رَبَّنَا وَاعْلَاهُ تَشَقَّى بِهِ الْإِبِلُ

الواغل: الذي يدخل على القوم وهم يشربون.

فأجابه عبد الله بن رَوَاحَةَ الْحَارِثِيُّ الْخَزْرَجِيُّ:

لَمَّا رَأَيْتُ بَنِي عَوْفٍ وَإِخْوَتَهُمْ
كَبَأُ وَجَمْعُ بَنِي النَّجَارِ قَدْ حَفَلُوا
قَدَّمَ أَبَا حُوٍّ جَمَاعَكُمْ بِالسَّيْفِ وَلَمْ
يَفْعَلْ بِكُمْ أَحَدٌ مِثْلَ الَّذِي فَعَلُوا
وَكَانَ رَئِيسُ الْأَوْسِ يَوْمَئِذٍ فِي حَرْبٍ حَاطِبُ أَبُو قَيْسِ بْنِ
الْأَسْلَتِ الْوَالِثِيُّ، فَقَامَ فِي حَرْبِهِمْ وَهَجَرَ الرَّاحَةَ، فَشَجِبَ وَتَغَيَّرَ. وَجَاءَ
يَوْمًا إِلَى امْرَأَتِهِ فَانْكُرَتْهُ حَتَّى عَرَفَتْهُ بِكَلَامِهِ، فَقَالَتْ لَهُ: لَقَدْ أَنْكَرْتُكَ
حَتَّى تَكَلَّمْتَ! فقال: (٦٧٥/١)

قَالَتْ وَلَمْ تَقْصِدِ لِقَائِي الْخَنَاءَ:
مَهْلًا فَقَدْ أَبْلَغْتَ أَسْمَاعِي
وَاسْتَنْكَرْتُ لَوْنًا لَهُ شَجَابًا
وَالْحَرْبُ غَوْلٌ ذَاتُ أَوْجَاعٍ
مَنْ يَنْتَقِ الْحَرْبَ يَجِدُ طَعْمَهَا
مُسْرًا وَتَرْكُهَا يَجْعَلُهَا
قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضُ رَأْسِي فَمَا
أَطَقْتُ نَوْمًا غَيْرَ تَهَجُّعٍ
أَسْعَى عَلَى جُلِّ بَنِي مَالِكٍ
كُلُّ امْرَأَةٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي
أَعْدَدْتُ لِلْأَعْدَاءِ مَوْضُونََةً
فَضْفَاضَةً كَالنَّهْيِ بِالْقَاعِ
أَخِزُّنَا عَنِّي بَنِي رَوْنَقٍ
مَهْلًا كَاللَّمْعِ قَطَاعٍ
صَلَبُ حُطَامٍ وَاقِفٌ حَلَّةٌ
وَمُتَّحِنٌ أَسْمَرُ قَرَارِعٍ

وهي طويلة ثم إنَّ أَبَا قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ جَمَعَ الْأَوْسَ وَقَالَ لَهُمْ:
مَا كُنْتُ رَئِيسَ قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا هَزَمُوا، فَرُسُوا عَلَيْكُمْ مَنْ أَحْبَبْتُمْ؛ فَرَأَسُوا
عَلَيْهِمْ حَضِيرَ الْكَتَّابِ بْنِ السَّمَاكِ الْأَشْهَلِيَّ، وَهُوَ وَالِدُ أَسِيدِ بْنِ
حَضِيرٍ. لَوْلَهُ صُحْبَةٌ، وَهُوَ بَدْرِي، فَصَارَ حَضِيرٌ يَلِي أُمُورَهُمْ فِي
حُرُوبِهِمْ. فَالتقى الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ الْغُرْسُ، فَكَانَ الظَّفَرُ
لِلأَوْسِ، ثُمَّ تَرَاوَعُوا فِي الصِّلَحِ فَاصْطَلَحُوا عَلَى أَنْ يَحْسِبُوا الْقَتْلَى
فَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ الْفَضْلُ أَعْطِيَ الدِّيَةَ، فَأَفْضَلُ الْأَوْسُ عَلَى الْخَزْرَجِ
ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَدَفَعَتْ الْخَزْرَجُ ثَلَاثَةَ غِلْمَةٍ مِنْهُمْ رَهْنًا بِالْدِّيَاتِ، فَغَدَرَتْ
الْأَوْسُ فَقَتَلَتْ الْغِلْمَانَ. (٦٧٦/١)

وليس بفجار كيانة وقيس. فلَمَّا قَتَلَتِ الْأَوْسُ الْغِلْمَانَ جَمَعَتْ
الْخَزْرَجُ وَحَشَدُوا وَالتَقُوا بِالْحَدَاقِ؛ وَعَلَى الْخَزْرَجِ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي
بَنِ سُلُولٍ، وَعَلَى الْأَوْسِ أَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ، فَاقْتَلَوْا قِتَالًا شَدِيدًا
حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يُقْتَلُ بَعْضًا. وَسَمِيَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ الْفِجَارِ لِغَدَرِهِمْ
بِالْغِلْمَانِ، وَهُوَ الْفِجَارُ الْأَوَّلُ، فَكَانَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ فِي حَاطِطٍ لَهُ
فَانْصَرَفَ فَوَاقِقَ قَوْمِهِ قَدْ بَرَزُوا لِلْقِتَالِ فَعَجَزَ عَنْ اخْتِذِ سِلَاحِهِ إِلَّا
السَّيْفَ ثُمَّ خَرَجَ مَعَهُمْ، فَعَظُمَ مَقَامُهُ يَوْمَئِذٍ وَأَبْلَى بِلَاءَ حَسَنًا وَجُرَحَ
جَرَاةً شَدِيدَةً، فَمَكَثَ حِينًا يَتَدَارَى مِنْهَا، وَأَبْرَأَ أَنْ يَحْتَمِيَ عَنِ الْمَاءِ،
فَلِذَلِكَ يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ:

رَمِينَاكُ أَيَّامَ الْفِجَارِ فَلَمْ تَنْزَلْ حَمِيًّا فَمَنْ يَشْرِبُ فَلَسْتُ بِشَارِبٍ

يوم مُعَيْسٍ وَمُضَرَّسٍ

ثُمَّ التَقُوا عِنْدَ مُعَيْسٍ وَمُضَرَّسٍ، وَهُمَا جِدَارَانِ، فَكَانَتِ الْخَزْرَجُ
وَرَاءَ مُضَرَّسٍ، وَكَانَتِ الْأَوْسُ وَرَاءَ مُعَيْسٍ، فَاقَامُوا أَيَّامًا يَقْتُلُونَ قِتَالًا
شَدِيدًا، ثُمَّ انْهَزَمَتِ الْأَوْسُ حَتَّى دَخَلَتِ الْبُيُوتَ وَالْأَطَامَ، وَكَانَتِ
هَزِيمَةً قَبِيحَةً لَمْ يَنْهَزُمُوا مِثْلَهَا، ثُمَّ إِنَّ بَنِي عَمْرٍو بْنَ عَوْفٍ وَبَنِي أَوْسٍ
مَنَاءَ مِنَ الْأَوْسِ وَادْعَا الْخَزْرَجُ، فَاثْنَعُ مِنَ الْمَوَادِعَةِ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ
وَبَنُو ظَفَرٍ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَوْسِ وَقَالُوا: لَا نَصَالِحَ حَتَّى نَذَرْنَا ثَارَنَا مِنْ
الْخَزْرَجِ. فَالَحَّتِ الْخَزْرَجُ عَلَيْهِمْ بِالْأَذَى وَالْغَارَةِ حِينَ وَادَعَهُمْ بَنُو
عَمْرٍو بْنَ عَوْفٍ وَأَوْسُ مَنَاءَ، فَعَزَمَتِ الْأَوْسُ إِلَّا مَنْ ذَكَرْنَا عَلَى
الْإِنْتِقَالِ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَأَغَارَتْ بَنُو سَلْمَةَ عَلَى مَالِ لَبْنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ
يُقَالُ لَهُ الرُّعْلُ، فَقَاتَلُوهُمْ عَلَيْهِ، فَجُرِحَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَشْهَلِيُّ جَرَاةً
شَدِيدَةً، وَاحْتَمَلَهُ بَنُو سَلْمَةَ إِلَى عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ الْخَزْرَجِيِّ، فَجَارَاهُ
وَأَجَارَ الرُّعْلُ مِنَ الْحَرِيقِ وَقَطَعَ الْأَشْجَارَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بُعَاثَ جَازَاهُ
سَعْدُ عَلَى مَا نَذَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ سَارَتِ الْأَوْسُ إِلَى مَكَّةَ لِتُحَالِفَ قَرِيشًا عَلَى الْخَزْرَجِ
وَأَظْهَرُوا أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ الْعُمُرَةَ. وَكَانَتِ عَادَتُهُمْ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ
الْعُمُرَةَ أَوْ الْحَجَّ لَمْ يَعْزِضْ إِلَيْهِ خَصْمَهُ وَيَعْلُقُ الْمُعْتَمِرَ عَلَى بَيْتِهِ
كَرَائِفَ النَّخْلِ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ وَسَارُوا إِلَى مَكَّةَ فَقَدِمُوهَا وَحَالَفُوا قَرِيشًا
وَأَبُو جَهْلٍ غَائِبٌ. فَلَمَّا قَدِمَ أَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ لِقَرِيشَ: أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ
الْأَوَّلِ: وَيْلٌ لِلْأَهْلِ مِنَ النَّازِلِ! إِنَّهُمْ لَأَهْلٌ عَدُوٌّ وَجَلَدٌ وَلَقَلَّ مَا نَزَلَ
قَوْمٌ عَلَى قَوْمٍ إِلَّا أَخْرَجُوهُمْ مِنْ بِلَدِهِمْ وَغَلِبُوهُمْ عَلَيْهِ. قَالُوا: فَمَا
الْمَخْرَجُ مِنْ حِلْفِهِمْ؟ قَالَ: أَنَا أَكْفِيكُمْوَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى جَاءَ الْأَوْسَ
فَقَالَ: إِنَّكُمْ خَالِفْتُمْ قَوْمِي وَأَنَا غَائِبٌ فَجِئْتُ لَأُحَالِفَكُمْ وَأَذْكَرَ لَكُمْ مِنْ
أَمْرِنَا مَا تَكُونُونَ بَعْدَهُ عَلَى رَأْسِ أَمْرِكُمْ. إِنَّا قَوْمٌ تَخْرُجُ إِمَاؤُنَا إِلَى
أَسْوَاقِنَا وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ مَنَا يَدْرِكُ الْأُمَّةَ فَيَضْرِبُ عَجِزَتَهَا، فَإِنْ طَابَتْ
أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَفْعَلَ نَسَاؤُكُمْ مِثْلَ مَا تَفْعَلُ نَسَاؤُنَا حَالِفَانَاكُمْ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ
ذَلِكَ فَرُدُّوْا إِلَيْنَا حِلْفَنَا. قَالُوا: لَا نَقْرَبُ بِهِذَا. وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ بِأَسْرَهَا

فيهم غيرة شديدة، فردّوا إليهم حلقهم وساروا إلى بلادهم؛ فقال حسان بن ثابت يفتخر بما أصاب قومه من الأوس:

إِذَا الْقَى لَهَا سَمْعَاتِيْنُ
(٦٧٨/١)

فَلَسْتُ لِحَاصِنِ إِنْ لَمْ تَرْزُكَمْ
يَدِينُ لَهَا الْعَزِيزُ إِذَا رَأَى
تَشَبُّهُ النَّاهِذِ الْمَرْءُ مِنْهَا
يَطُوفُ بِكُمْ مِنَ النَّجَارِ أُنْذُ
يَظَلُّ اللَّيْثُ فِيهَا مَسْكِنًا
كَأَنَّهُمْ مِنَ الْمَاضِي عَلَيْهِم
فَقَدْ لَأَمَّاكَ قَبْلَ بُعَاثٍ قَتَلَ
وهي طويلة أيضاً.

يوم الفجار الثاني للأَنْصار

كانت الأوس قد طلبت من قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ أَنْ يَحْلَقُوهُمْ عَلَى الْخَزْرَجِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْخَزْرَجُ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ يُؤْذِنُونَهُمْ بِالْحَرْبِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: إِنَّا لَا نَرِيدُ ذَلِكَ، فَأَخَذَتِ الْخَزْرَجُ رَهْنَهُمْ عَلَى الْوَفَاءِ، وَهُمْ أَرْبَعُونَ غُلَامًا مِنْ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ، ثُمَّ إِنَّ يَزِيدَ بْنَ قُسْحَمَ شَرِبَ يَوْمًا فَسَكَرَ فَتَغَنَّى بِشَعْرِ يَذْكُرُ فِيهِ ذَلِكَ:

هَلُمُّ إِلَى الْأَحْلَافِ إِذْ رَقَّ عَظْمُهُمْ
إِذَا مَا أَمَرُوا مِنْهُمْ أَسَاءَ عَمَلُهُ
فَأَمَّا الصَّرِيخُ مِنْهُمْ فَتَحْتَمَلُوا
أَخْلَنَّا مِنَ الْأَوَّلَى الْيَهُودَ عَصَابُهُ
لَغَدْرِهِمْ كَانُوا لِلدِّينِ وَدَائِعِهِ
فَنَلَّوْا رَهْنًا عِنْدَنَا فِي حِيَالِنَا
وَذَاكَ بَنَاتٍ جِئْنَ نَلْقَى عِلْوَنَا
نُصُولُ بِضَرْبِهِ يَتْرَكُ الْعَزَّ خَائِنُهُمَا

فَبَلَغَ قَوْلُهُ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ فَغَضَبُوا. وَقَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: نَحْنُ كَمَا قَالَ: إِنْ لَمْ نُبْغِزْ فَيُخَالِفُ الْأَوْسُ عَلَى الْخَزْرَجِ. فَلَمَّا سَمِعَتِ الْخَزْرَجُ بِذَلِكَ قَتَلُوا كُلَّ مَنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الرَّهْنِ مِنْ أَوْلَادِ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ، فَاطْلُقُوا نَفَرًا مِنْهُمْ: سُلَيْمُ بْنُ أَسَدٍ الْقُرَظِيُّ جَدُّ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ سُلَيْمٍ. وَاجْتَمَعَتِ الْأَوْسُ وَقُرَيْظَةُ والنَّضِيرُ عَلَى حَرْبِ الْخَزْرَجِ فَاقْتَتَلُوا قَتْلًا شَدِيدًا، وَسُمِّيَ ذَلِكَ الْفَجَارُ الثَّانِي لِقَتْلِ الْغُلَمَانِ مِنَ الْيَهُودِ.

وقد قيل في قتل الغلمان غير هذا، وهو: إِنَّ عَمْرُو بْنَ النُّعْمَانِ الْبِيضِيَّ الْخَزْرَجِيَّ قَالَ لِقَوْمِهِ بَنِي بِيضَةَ: إِنَّ أَبَاكُمْ أَنْزَلَكُمْ مَنْزِلَةَ سُوءٍ، وَاللَّهِ لَا يَمَسُّ رَأْسِي مَاءٌ حَتَّى أَنْزَلَكُمْ مَنَازِلَ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ أَوْ أَقْتَلَ رَهْنَهُمْ! وَكَانَتْ مَنَازِلُ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ خَيْرَ الْبَقَاعِ، فَأَرْسَلَ إِلَى قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ: إِنَّا أَنْ تَخَلَّوْا بَيْنَنَا (٦٨٠/١) وَبَيْنَ دِيَارِكُمْ، وَإِنَّا أَنْ نَقْتُلَ الرَّهْنَ. فَهَمُّوا بِأَنْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ الْقُرَظِيُّ: يَا قَوْمَ امْنَعُوا دِيَارَكُمْ وَخَلُّوهُ يَقْتُلُ الْغُلَمَانِ، مَا هِيَ إِلَّا لَيْلَةٌ

يَصِيبُ فِيهَا أَحَدُكُمْ امْرَأَةً حَتَّى يُولَدَ لَهُ مِثْلُ أَحَدِهِمْ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ: إِنَّا لَا نَنْتَقِلُ عَنْ دِيَارِنَا فَانْظُرُوا فِي رَهْنَتِنَا فَعَوَّا لَنَا. فَقَدَا عَمْرُو بْنُ النُّعْمَانِ عَلَى رَهْنِهِمْ فَقَتَلَهُمْ، وَخَالَفَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَيْنٍ سَلُولُ فَقَالَ: هَذَا بَغْيٌ وَإِثْمٌ، وَنَهَاهُ عَنْ قَتْلِهِمْ وَقَتَلَ قَوْمَهُ مِنَ الْأَوْسِ وَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي بِكَ وَقَدْ حُمِلَتْ قَتِيلًا فِي عِبَادَةٍ يَحْمِلُكَ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ فَلَمْ يَقْتُلْ هُوَ وَمَنْ أَطَاعَهُ أَحَدًا مِنَ الْغُلَمَانِ وَأَطْلَقُوهُمْ؟ وَمِنْهُمْ: سُلَيْمُ بْنُ أَسَدٍ جَدُّ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَحَالَفَتْ حَيْثُذَ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ الْأَوْسُ عَلَى الْخَزْرَجِ، وَجَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ سَمِيَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ الْفَجَارِ الثَّانِي. وَهَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهَ بِأَنْ يَسْمَى الْيَوْمُ فَجَارًا، وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَلَمَّا قَتَلُوا الرَّهْنَ جِزَاءً لِلْغَدْرِ مِنَ الْيَهُودِ فَلَيْسَ بِفَجَارٍ مِنَ الْخَزْرَجِ إِلَّا أَنْ يُسَمَّى فَجَارًا لِغَدْرِ الْيَهُودِ.

يوم بُعَاثٍ

ثُمَّ إِنَّ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرَ جَدَّدُوا الْعَهْدَ مَعَ الْأَوْسِ عَلَى الْمَوَازَرَةِ وَالتَّنَاصُرِ، وَاسْتَحْكَمَ أَمْرُهُمْ وَجَدُّوا فِي حَرْبِهِمْ، وَدَخَلَ مَعَهُمْ قِبَائِلُ مِنَ الْيَهُودِ غَيْرَ مَنْ ذَكَرْنَا. فَلَمَّا سَمِعَتِ ذَلِكَ الْخَزْرَجُ جَمَعَتِ وَحَشَدَتْ وَرَاسَلَتْ حُلَفَاءَهَا مِنْ أَشْجَعٍ وَجُثَيْنَةَ، وَرَاسَلَتْ الْأَوْسُ حُلَفَاءَهَا مِنْ مُزَيْنَةَ، وَمَكَّثُوا أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَتَجَهَّزُونَ لِلْحَرْبِ، وَالتَّقْوَا بُعَاثٍ، وَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ قُرَيْظَةَ، وَعَلَى الْأَوْسِ (٦٨١/١) حَضَرِيْرُ الْكَتَّابِ بْنِ سِمَاكِ وَالِدِ أُسَيْدِ بْنِ حَضَرِيْرٍ، وَعَلَى الْخَزْرَجِ عَمْرُو بْنُ النُّعْمَانِ الْبِيضِيَّ، وَتَخَلَّفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنٍ سَلُولُ فِيمَنْ تَبِعَهُ عَنْ الْخَزْرَجِ، وَتَخَلَّفَ بَنُو حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ الْأَوْسِ. فَلَمَّا التَّقْوَا اقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا وَصَبَرُوا جَمِيعًا.

ثُمَّ إِنَّ الْأَوْسَ وَجَدَتْ مَسَّ السِّلَاحِ فَوَلَّوْا مِنْهُمْ نَحْوَ الْقُرَيْظِصِ. فَلَمَّا رَأَى حَضَرِيْرُ هَزِيمَتَهُمْ بَرَكَ وَطَعَنَ قَدَمَهُ بِسَنَانٍ رَمَحَهُ وَصَاحَ: وَاعْفُرْهُ كَعْفَرُ الْجَمَلِ! وَاللَّهِ لَا أَعُودُ حَتَّى أَقْتُلَ، فَإِنْ شِئْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ أَنْ تَسْلُمُونِي فَأَفْعَلُوا. فَعَطَفُوا عَلَيْهِ وَقَاتَلَ عَنْهُ غُلَامَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يُقَالُ لَهُمَا مُحَمَّدٌ وَيَزِيدُ ابْنَا خَلِيفَةٍ حَتَّى قُتِلَا، وَأَقْبَلَ سَهْمٌ لَا يُدْرَى مَنْ رَمَى بِهِ فَاصَابَ عَمْرُو بْنَ النُّعْمَانِ الْبِيضِيَّ رَئِيسَ الْخَزْرَجِ فَقَتَلَهُ، فَبَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنٍ سَلُولُ يَتَرَدَّدُ رَاكِبًا قَرِيبًا مِنْ بُعَاثٍ يَتَجَسَّسُ الْأَخْبَارَ إِذْ طُلِعَ عَلَيْهِ بِعَمْرُو بْنَ النُّعْمَانِ قَتِيلًا فِي عِبَادَةٍ يَحْمِلُهُ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، كَمَا كَانَ قَالَ لَهُ فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: ذُقْ وَبِالْ بَغْيِي! وَانْهَزَمَتِ الْخَزْرَجُ، وَوَضَعَتْ فِيهِمُ الْأَوْسُ السِّلَاحَ، فَصَاحَ صَائِحٌ: يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ أَحْسِنُوا وَلَا تَهْلِكُوا إِخْوَانَكُمْ فَجَوَّارَهُمْ خَيْرٌ مِنْ جَوَّارِ الثَّعَالِبِ! فَانْتَهَرُوا عَنْهُمْ وَلَمْ يَسْلُبُوهُمْ. وَإِنَّمَا سَلَبَهُمْ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرَ، وَحُمِلَتِ الْأَوْسُ حَضَرِيْرًا مَجْرُوحًا فَمَاتَ. وَأَحْرَقَتِ الْأَوْسُ دُورَ الْخَزْرَجِ وَغَنِيْلَهُمْ، فَأَجَارَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَشْهَلِيَّ أَمْوَالَ بَنِي سَلَمَةَ وَغَنِيْلَهُمْ وَدَوْرَهُمْ جِزَاءً بِمَا فَعَلُوا لَهُ فِي الرَّعْلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ، وَنَجَّى يَوْمَئِذٍ الرَّزِيْرُ بْنُ إِيَّاسَ بْنِ بَاطِلَا ثَابِتَ بْنَ قَيْسَ بْنِ شَمَّاسٍ الْخَزْرَجِيَّ، أَخَذَهُ فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ وَأَطْلَقَهُ، وَهِيَ الْيَدُ الَّتِي جَازَاهُ بِهَا ثَابِتُ

في الإسلام يوم بني القريظة، وسنذكره.

وكان يوم بُعث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الإسلام واتفقت الكلمة واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله وكفى الله المؤمنين القتال. (٦٨٢/١)

وأكثر الأنصار الأشعار في يوم بُعث، فمن ذلك قول قيس بن الخطيم الظفري الأوسي:

أُتِمْرَ رَسْمًا كَالطَّرَازِ الْمُتَمَجِّبِ لِيَمْرُءٍ رَكْبًا غَيْرَ مَوْقِفٍ رَاكِبِ
دِيَارِ الَّتِي كَانَتْ وَنَحْنُ عَلَى بَنِي تَحَلَّى بِنَا لِسُولا رَجُلَا الرِّكَابِ
تَبَدَّلَتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنَّتْ بِحَاجِبِ
ومنها:

وَكُنْتُ أَمْرًا لَا أَبِيتُ الْحَرْبَ ظَالِمًا فَلَمَّا أَبَاوُا شَعْلُتْهَا كُلَّ جَانِبِ
أَفْنَتٌ بَدَفَعَ الْحَرْبَ حَتَّى رَأَيْتُهَا عَنِ الدَّفْعِ لَا تَزْدَادُ غَيْرَ تَقَارِبِ
فَلَمَّا رَأَيْتُ الْحَرْبَ خَرِبًا تَجَرَّدَتْ لَيْسَتْ مَعَ الْبَرِّفَيْنِ ثَوْبُ الْمُحَارِبِ
مَضْمُومَةٌ يَنْفُسُ الْأَسَاكِلَ رِيْقَهَا كَأَنَّ قَرِيْبَهَا عِيْرُ الْجَنَابِ
تَرَى قِصَّةَ الْمُرَّانِ تَلْقَى كَأَنَّهَا تَنْزِعُ خِرْصَانَ بِلَيْدِي الشَّوَابِ
وَسَامَحَنِي بِلُكَاهَنَيْنِ وَمَالِكِ وَغَلَبَةُ الْأَخْيَارِ رَهْطُ الْقَبَابِ
رَجُلًا مَتَى يَدْعُو إِلَى الْحَرْبِ يُسْرِعُوا كُنْثَى الْجَمَالِ الْمُتَعَلَّاتِ الْمُصَاعِبِ
إِذَا مَا فَرَزْنَا كَانَ أَسْوَأَ فَرَارِنَا صَدُودُ الْخُلُودِ وَازْدَوَّرَ الْمُنَاكِبِ
صَلُودُ الْخُلُودِ وَالْقَنَا مَشَاجِرَ وَلَا تَسْرُجُ الْأَقْدَامُ عِنْدَ التَّضَارِبِ
(٦٨٣/١)

ظَلَّزَاكُم بِالْيَيْضِ حَتَّى لَا تُشَمَّ أَذِلُّ مِنَ السُّقْبَانِ يَسِّنُ الْحَلَاكِبِ
يُجَرِّدُنَّ يَيْضًا كُلَّ يَوْمٍ كَرِيْهِةٍ وَيُوجِئْنَ حُمْرًا جَارِحَاتِ الْمُضَارِبِ
لِقَيْتِكُمْ يَوْمَ الْحَدَانِثِ حَاسِرًا كَانَ يَدِي بِالسَّيْفِ مَخْرَاقَ لَاعِبِ
وَيَوْمَ بُمَاتِ اسْلَمْتُنَا سَيُوفُنَا إِلَى حَسْبِي فِي جِدْمِ غَسَانِ شَاقِبِ
قَتَلْنَاكُمْ يَوْمَ الْفِجَارِ وَقَبْلَهُ وَيَوْمَ بُعِثَ كَانَ يَوْمَ التَّغَالِبِ
أَنْتَ عُصْبٌ لِّلْأَوْسِ تَخْطُرُ بِالْقَنَا كَمْثِي الْأَسُودُ فِي رَشَاشِ الْأَهَاضِبِ
فَأَجَابَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ:

أَشَاقَتْكَ لَيْلِي فِي الْخَلِيطِ الْمَجَانِبِ نَعَمْ، فَرَشَاشِ الدَّمْعِ فِي الصَّدْرِ غَالِبِ
بَكَى لَيْلٌ مِّنْ شَطَطِ نَوَاهٍ وَلَمْ يَقُمْ لِحَاجَةٍ مَحْزُونٍ شَكَا الْحُبِّ نَاصِبِ
لَدُنْ غَدْوَةٍ حَتَّى إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ أَرَاخَتْ لَهُ مِنْ لَبِّهِ كُلَّ عَازِبِ
نُحَامِي عَلَى أَحْبَابِنَا بِلَادِنَا لِمُنْقَرِ أَوْ سِلَاطِلِ الْحَقِّ وَاجِبِ
وَأَعْمَى هُنْتَهُ لِّلسَّيْلِ سَيُوفُنَا وَخَصِمَ أَقْمَنَا بَعْلَمَا نَجَّ شَاعِبِ
وَمَعْتَرَكُ زَنْكُ يُرَى الْمَوْتُ وَسَطَهُ مِثْلَانِ لَه مِنْ لَبِّهِ لَسُونِ الْكُوكَابِ
بِرَجُلٍ تَرَى الْمَاضِيَّ فَوْقَ جُلُودِهِ أَسْوَدًا مَتَى تَنْشَا الرِّمَاحَ تَضَارِبِ
مَعَالِفُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيْهِةٍ مَعَ الصَّدْقِ مَنُوبِ السُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ

(٦٨٤/١) وهي طويلة

وليلي التي شَبَّ بها ابْنُ رَوَاحَةَ هِيَ أُخْتُ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ، وَعَمْرَةُ الَّتِي شَبَّ بِهَا ابْنُ الْخَطِيمِ هِيَ أُخْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ، وَهِيَ أُمُّ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرِ الْأَنْصَارِيِّ.

(بُعِثَ بِضَمِّ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ، وَبِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ، وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ الْعَيْنِ وَحْدَهُ: وَهُوَ بِالْعَيْنِ الْمَعْجَمَةُ).

ذكر غلبة ثقيف على الطائف والحرب بين الأحلاف وبني مالك

كَانَتْ أَرْضُ الطَّائِفِ قَدِيمًا لِعُدْوَانِ بْنِ عَمْرِو بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ بْنِ مَضْرٍ. فَلَمَّا كَثُرَ بَنُو عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنصُورِ بْنِ عِكْرَمَةَ بْنِ خَصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ غَلَبُوهُمْ عَلَى الطَّائِفِ بَعْدَ قِتَالٍ شَدِيدٍ. وَكَانُوا بَنُو عَامِرٍ يَصِفُونَ بِالطَّائِفِ وَيَشْتُونَ بِأَرْضِهِمْ مِنْ نَجْدٍ، وَكَانَتْ مَسَاكِنُ ثَقِيفٍ حَوْلَ الطَّائِفِ، وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُمْ مِنْ إِيَادٍ فَقَالَ ثَقِيفٌ اسْمُهُ قَسِيٌّ بْنُ نَيْتِ بْنِ مَيْتَةَ بْنِ مَنصُورِ بْنِ يَدْمِ بْنِ أَفْسَى بْنِ دُعْمِيِّ بْنِ إِيَادٍ مِنْ مَعَدٍّ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُمْ مِنْ هَوَازِنٍ فَقَالَ: هُوَ قَيْسُ بْنُ مَيْتَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنصُورِ بْنِ عِكْرَمَةَ بْنِ خَصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ.

فَرَأَتْ ثَقِيفُ الْبِلَادِ فَأَعْجَبَهُمْ نَبَاتُهَا وَطِيبُ ثَمَرِهَا فَقَالُوا لِبَنِي عَامِرٍ: إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ لَا تَصْلُحُ لِلزَّرْعِ وَإِنَّمَا هِيَ أَرْضُ ضَرْعٍ وَنَرَاكُمُ عَلَى أَنْ أَتَرْتُمْ (٦٨٥/١) الْمَاشِيَةَ عَلَى الْفَرَسِ، وَنَحْنُ أَنْاسُ لَيْسَتْ لَنَا مَوَاشِيٌ فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تَجْمَعُوا الزَّرْعَ وَالضَّرْعَ بَغِيرِ مَوْئِنَةٍ؟ فَتَدْفَعُونَ إِلَيْنَا بِلَادَكُمْ هَذِهِ فَتُثِيرُهَا وَتَغْرِسُهَا وَتَحْفَرُ فِيهَا الْأَطْوَاءَ وَلَا تَكْلَفُكُمْ مَوْئِنَةً. نَحْنُ نَكْفِيكُمْ الْمَوْئِنَةَ وَالْعَمَلَ، فَإِذَا كَانَ وَقْتُ إِدْرَاكِ الثَّمَرِ كَانَ لَكُمْ النِّصْفُ كَامِلًا وَلَنَا النِّصْفُ بِمَا عَمَلْنَا.

فَرِغِبَ بَنُو عَامِرٍ فِي ذَلِكَ وَسَلَّمُوا إِلَيْهِمُ الْأَرْضَ، فَتَزَلَّتْ ثَقِيفُ الطَّائِفِ وَاقْتَسَمُوا الْبِلَادَ وَعَمَلُوا الْأَرْضَ وَزَرَعُوهَا مِنَ الْأَعْنَابِ وَالثَّمَارِ وَوَفَوْا بِمَا شَرَطُوا لِبَنِي عَامِرٍ حِينَئِذٍ مِنَ الدَّهْرِ، وَكَانَ بَنُو عَامِرٍ يَمْتَنِعُونَ ثَقِيفًا مِمَّنْ أَرَادَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ.

فَلَمَّا كَثُرَتْ ثَقِيفٌ وَشَرَفَتْ حَصَنَتْ بِلَادَهَا وَبَنُوا سُورًا عَلَى الطَّائِفِ وَحَصَّنُوهُ وَمَنَعُوا عَامِرًا مِمَّا كَانُوا يَحْمِلُونَهُ إِلَيْهِمْ عَنْ نِصْفِ الثَّمَارِ. وَأَرَادَ بَنُو عَامِرٍ أَخَذَهُ مِنْهُمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ فَقَاتَلُوهُمْ فَلَمْ يَفْزُقُوا، وَكَانَتْ ثَقِيفُ بَطْنَيْنِ: الْأَحْلَافُ وَبَنِي مَالِكٍ، وَكَانَ لِلأَحْلَافِ فِي هَذَا أَثَرٌ عَظِيمٌ، وَلَمْ تَزَلْ تَعْتَدُ بِذَلِكَ عَلَى بَنِي مَالِكٍ فَأَقَامُوا كَذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ الْأَحْلَافَ أَثَرُوا وَكَثُرَتْ خِيَلُهُمْ فَحَمَوْا لَهَا حِمَى مِنْ أَرْضِ بَنِي نَصْرِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنٍ يُقَالُ لَهُ جِلْدَانٌ، فَغَضِبَ مِنْ ذَلِكَ بَنُو نَصْرِ وَقَاتَلُوهُمْ عَلَيْهِ، وَلَجَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ رَأْسُ بَنِي نَصْرِ عُقَيْفُ بْنُ عَوْفٍ بْنِ عُيَادِ النَّصْرِيِّ ثُمَّ الْيَرْبُوعِيُّ، وَرَأْسُ الْأَحْلَافِ مَسْعُودُ بْنُ قَعْنَبٍ. فَلَمَّا لَجَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَ بَنِي نَصْرِ وَالْأَحْلَافِ اغْتَمَّ

نسب رسول الله، صلى الله عليه وسلم

وذكر بعض أخبار آبائه وأجداده

واسم رسول الله، ﷺ، محمد، وقد تقدم ذكر ولادته في ملك كسرى أنوشروان، وهو محمد بن عبد الله، ويكنى عبد الله أبا قثم، وقيل: أبا محمد، وقيل: أبا أحمد بن عبد المطلب.

وكان عبد الله أصغر ولد آبيه، فكان هو عبد الله وأبو طالب، واسمه عبد مناف، والزبير، وعبد الكعبة، وعاتكة، وأميمة، وبرة ولد عبد المطلب، أمهم جميعهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة.

وكان عبد المطلب نذر حين لقي من قريش العنت في حفر زمزم، كما نذكره، لئن وُلِدَ [له] عشرة نفر وبلغوا معه حتى يمنعه لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى. فلما بلغوا عشرة وعرف أنهم سيمنعونه أخبرهم بنذرهم فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: يأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه. ففعلوا وأتوه بالقدح فدخلوا على هبل في جوف الكعبة، وكان أعظم أصنامهم، وهو على بشر يُجمع فيه ما يهدى إلى الكعبة. (٦/٢)

وكان عند هبل سبعة أقداح، في كل قدح كتاب، فقدح فيه العقل، إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقدح السبعة وقدح فيه نعم للأمر إذا أرادوه يضرب به، فإن خرج نعم عملوا به، وقدح فيه لا، فإذا أرادوا أمراً ضربوا به، فإذا خرج لا لم يعملوا ذلك الأمر، وقدح فيه منكم، وقدح فيه ملصق، وقدح فيه من غيركم، وقدح فيه المياه. إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقدح وفيها ذلك القدح فحيث ما خرج عملوا به؛ وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا جارية أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحد منهم ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوه صاحب القدح الذي يضربها ثم قرّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ثم قالوا: يا إلهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيه، ثم يقولون لصاحب القدح: اضرب فيضرب، فإن خرج عليه منكم وسيطاً، وإن خرج عليه من غيركم كان حليفاً، وإن خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف، وإن خرج عليه شيء سوى هذا مما يعملون به، فإن خرج نعم عملوا به، وإن خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى، يتبهون في أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القدح.

وقال عبد المطلب لصاحب القدح: اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذر الذي نذر، وكان عبد الله أصغر بني آبيه وأحبهم إليه. فلما أخذ صاحب القدح يضرب قام عبد المطلب يدعو الله تعالى، ثم ضرب صاحب القدح، فخرج قدح على عبد الله. فأخذ عبد المطلب بيده ثم أقبل إلى إساف ونائلة، وهما الصنمان

ذلك بنو مالك ورئيسهم جذب بن عوف بن الحارث بن مالك بن حطيط بن جشم من ثقيف لضغائن كانت بينهم وبين الأحلاف، فحالفوا بني يربوع على الأحلاف.

فلما سمعت الأحلاف بذلك اجتمعوا. وكان أول قتال كان بين الأحلاف وبين بني مالك وحلفائهم من بني نصر يوم الطائف، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانتهصر الأحلاف وأخرجوهم منه إلى وادٍ من وراء الطائف يقال له الحب، (٦٨٦/١) وقُتل من بني مالك وبني يربوع مقتلة عظيمة في شيعب من شعاب ذلك الجبل يقال له الأبان. ثم اقتتلوا بعد ذلك أياماً مسميات، منهن يوم غمر ذي كندة، من نحو نخلة، ومنهن يوم كرونا من نحو حلوان، وصاح عقيف بن عوف البربوعي في ذلك اليوم صيحة يزعمون أن سبعين حبل منهنم ألفت ما في بطنها، فاقتتلوا أشد قتال ثم افترقوا. فسارت بنو مالك تبغي الحلف من دوس وخثعم وغيرهما على الأحلاف، وخرجت الأحلاف إلى المدينة تبغي الحلف من الأنصار على بني مالك، فقدم مسعود ابن معتب على أحيحة بن الجلاح أحد بني عمرو ابن عوف من الأوس، وكان أشرف الأنصار في زمانه، فطلب منه الحلف، فقال له أحيحة: والله ما خرج رجل من قومه إلى قوم قط يحلف أو غيره إلا أقر لأولئك القوم بشر مما أنف منه من قومه، فقال له مسعود: إني أخوك، وكان صديقاً له، فقال: أخوك الذي تركته وراءك فارجع إليه وصالحه ولو بجدة أنفك وأذنك فإن أحداً لن يبر لك في قومك إذ خالفته؛ فانصرف عنه وزوده بسلح وزاد وأعطاه غلاماً كان بيني الأطام، يعني الحصون، بالمدينة، فبني لمسعود بن معتب أطماً، فكان أول أطم بُني بالطائف، ثم بُنيت الأطام بعده بالطائف. ولم يكن بعد ذلك بينهم حرب تذكر.

وقالوا في حريم أشعاراً كثيرة، فمن ذلك قول محبّر، وهو ربيعة بن سفيان أحد بني عوف بن عقدة من الأحلاف:

وما كنت ممن أرت الشرب بينهم ولكن مسعوداً جناها وجنبها
قريبني ثقيف أنشأ الشر بينهم فلم يك عنها مترع حين أنشأ

(٦٨٧/١)

عناقاً ضروساً بين عوف ومالك
مضرمه شيباً أشباً وقودها
أصابته براء من طوائف مالك
كجئشورة جاؤا تخطوا ما بنا
وتدعو بني عوف بن عقدة في الوغى
حيياً وحياً من رباب كتابنا
وقوماً بمكرؤاء شئت معتب
فانسقط أجال النساء بصرتيه

(عقيف هذا بضم العين وفتح الفاء). (٥/٢)

الذنان ينحر الناس عندهما. فقامت قريش من أنديتها، فقالوا: ما تريد؟

قال: أذبحه، فقالت قريش وبنوه: والله لا نذبحه أبداً حتى تُعْزِرَ فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتي بابنه حتى يذبحه. فقال (٧/٢) له المُعْزِرَةُ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم: والله لا نذبحه حتى تُعْزِرَ فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فذَيْنَاهُ. وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق إلى كاهنة بالبحجر فسلها فإن أمرتك بذبحه ذبحته فإن أمرتك بما لك وله فيه فرجٌ قبلته.

فانطلقوا إليها، وهي بخيبر، فقصرَ عليها عبد المطلب خبره، فقالت: ارجعوا اليوم حتى يأتيني تابعي فأساله، فرجعوا عنها. ثم غدوا عليها فقالت: نعم، قد جاءني الخبر، فكَمْ الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل، وكانت كذلك. قالت: ارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشراً من الإبل، واضربوا عليها وعليه وكانت بالقُداح فإن خرج على صاحبكم فزيدوا عشراً حتى يرضى ريكهم. وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ريكهم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى أتوا مكة، فلما أجمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعو الله ثم قرَّبوا عبد الله وعشراً من الإبل، فخرجت القُداح على عبد الله، فزادوا عشراً، فخرجت القُداح على عبد الله. فما برحوا يزيدون عشراً وتخرج القُداح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة، ثم ضربوا فخرجت القُداح على الإبل. فقال مَنْ حضر: قد رضي ريك يا عبد المطلب. فقال عبد المطلب: لا والله حتى أضرب ثلاث مرات. فضربوا ثلاثاً، فخرجت القُداح على الإبل، فَنَحَرَتْ ثُمَّ تَزَكَّتْ لَا يُصَدُّ عنها إنسان ولا سبع.

وأما تزويج عبد الله بن عبد المطلب بأمنة ابنة وهب أم رسول الله ﷺ، فإنه لما فرغ عبد المطلب من الإبل انصرف بابنه عبد الله وهو أخذ بيده فمرَّ على أم قتال ابنة نوفل بن أسد أخت ورقة بن نوفل، (٨/٢) وهي عند البيت، فقالت له حين نظرت إليه وإلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ فقال: مع أبي قالت: لك عندي مثل الذي نحر عنك أبوك من الإبل وَقَعَ عليَّ الآن. قال: إنَّ معي أبي لا أستطيع خلفه ولا فراقه.

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زُهرَةَ، وهو سيِّد بني زُهرَةَ، فزوَّجه ابنته أمنة بنت وهب، وهي ليرة بنت عبد العزَّى بن عثمان بن عبد الدار بن قُصَيٍّ، وبيرة لأم حبيب بنت أسد بن عبد العزَّى بن قُصَيٍّ، وأم حبيب لبيرة بنت عوف بن عبيد بن عُوَيْج بن عَدِي بن كعب.

فدخل عبد الله عليها حين ملكها مكانها فوقع عليها فحملت بمحمَّد، ﷺ ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي عرضت عليه نفسها بالأمس فقال لها: ما لك لا تعرضين عليَّ اليوم ما كنتِ عرضتِ بالأمس؟ فقالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس

لي بك اليوم حاجة.

وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أنه كائن لهذه الأمة نبي من بني إسماعيل.

وقيل: إنَّ عبد المطلب خرج بابنه عبد الله ليزوجه فمرَّ به على كاهنة من خُثَعم يقال لها فاطمة بنت مَرِّ متهوِّدة من أهل تباله فترات في وجهه نوراً وقالت له: يا فتى هل لك أن تقع عليَّ الآن وأعطيك مائة من الإبل؟ فقال لها:

أما العرام فالعمات دوننَ والجِلُّ لا جِلَّ فاستينَ فكيف بالأمر الذي تبغينَ

ثم قال لها: أنا مع أبي ولا أقدر [أن] أفارقه. فمضى فزوَّجه أمنة بنت وهب (٩/٢) ابن عبد مناف بن زُهرَةَ، فأقام عندها ثلاثاً ثم انصرف، فمرَّ بالخنعمية فدعته نفسها إلى ما دعتَه إليه، فقال لها: هل لك فيما كنتِ أردتِ؟ فقالت: يا فتى ما أنا بصاحبة ربيِّه ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون لي فتأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد، فما صنعتُ بعدي؟ قال: زوَّجني أبي أمنة بنت وهب. قالت فاطمة بنت مَرِّ:

إني رأيتُ مخيلةً لعمتِ فلالأتُ بخناتيم القطر فلما تها نوراً يضسيه له ما حوَّله كإضاءة البدر فزجوتُه فخرأ أبوه بسو ما كلَّ قادح زندي يورِي لئو ما زهرتة سلبتِ ثوبك ما استلبت وما تدري وقالت أيضاً في ذلك:

بني هاشم قد غادرتُ من أخيكُم أمانة إذ للباؤ تَعَرَّكَ كان كما غافز المصباح عند خموده فثاقل قد بُلِّتَ له بدهبان فما كلَّ ما يحوي الفتى من تِلاده لعزم ولا ما فاتته لتوان فاجعل إنا طالب امرأ فأنه سيخفيك جَدان يعلجان سيخفيك إنا يمد مقفلة وإما يمد مسرطة بينان (١٠/٢)

ولما حوت منه أمانة ما حوت حوت منه فخرأ ما لذلك ثان وقيل: إن الذي اجتاز بها غير هذا، والله أعلم.

قال الزُّهري: أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات بالمدينة. وقيل: بل كان في الشام فأقبل في غير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها ودفن في دار النابتة الجعدي وله خمس وعشرون سنة، وقيل: ثمان وعشرون سنة، وتوفي قبل أن يولد رسول الله، ﷺ.

(عائذ بن عُمَران بالذال المعجمة، والياء تحتها نقطتان. وغبيد بفتح العين، وكسر الباء الموحدة. وعويج بفتح العين، وكسر الواو، وآخره جيم).

ابن عبد المطلب

واسمه شيبه، سُمِّيَ بذلك لأنه كان في رأسه لماً وُلد شيبه، وأمّه سلمى بنت عمرو بن زيد الخزرجية النجارية، ويكنى أبا الحارث، وإنما قيل له عبد المطلب لأن أباه هاشماً شخص في تجارة إلى الشام، فلما قدم المدينة نزل على عمرو بن ليث الخزرجي من بني النجّار، فرأى ابنته سلمى فأعجبته فتزوجها. وشرط أبوها أن لا تلد ولداً إلا في أهلها، ثم مضى هاشم لوجهه وعاد من الشام فبنى بها في أهلها ثم حملها إلى مكة فحملت. فلما أثقلت ردها إلى أهلها ومضى إلى الشام فمات بغزة. (١١/٢)

فولدت له سلمى عبد المطلب، فمكث بالمدينة سبع سنين. ثم إن رجلاً من بني الحارث بن عبدمناف مرَّ بالمدينة فإذا غلمان يتنقلون، فجعل شيبه إذا أصاب قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء. فقال له الحارثي: مَنْ أنت؟ قال: أنا ابن هاشم بن عبد مناف. فلما أتى الحارثي مكة قال للمطلب، وهو بالجعر: يا أبا الحارث تعلم أنني وجدت غلماناً يشرب وفيهم ابن أخيك ولا يحسن ترك مثله. فقال المطلب: لا أرجع إلى أهلي حتى آتي به. فأعطاه الحارثي ناقةً فركبها وقدم المدينة عشاء فرأى غلماناً يضربون كرة فعرف ابن أخيه، فسأل عنه فأخبر به فأخذه وأركبه على عجز الناقة وقيل: بل أخذه بإذن أمه وسار إلى مكة فقدمها ضحوة والناس في مجالسهم فجعلوا يقولون له: مَنْ هذا وراءك؟ فيقول: هذا عبدي. حتى أدخله منزله على امرأته خديجة بنت سعيد بن سهم. فقالت: مَنْ هذا [الذي] معك؟ قال: عبد لي. واشترى له حلةً فلبسها ثم خرج به العشي فجلس إلى مجلس بني عبد مناف فأعلمهم أنه ابن أخيه فكان بعد ذلك يطوف بمكة فيقال: هذا عبد المطلب، لقوله هذا عبدي.

ثم أوقفه المطلب على ملك أبيه فسلمه إليه. فعرض له نوفل بن عبد مناف، وهو عمّه الآخر، بعد موت المطلب، في رُكح له، وهو الفناء، فأخذه، فمضى عبد المطلب إلى رجالات قريش وسألهم النصرة على عمّه، فقالوا له: ما ندخل بينك وبين عمك. فكتب إلى أخواله من بني النجّار يصف لهم حاله، فخرج أبو أسعد بن عُتس النجاري في ثمانين راكباً حتى أتى الأبطح، فخرج عبد المطلب يتلقاه، فقال له: المنزل يا خال! قال: حتى ألقى نوفلاً. وأقبل حتى وقف على رأسه في الجعر مع مشايخ قريش، فسل سيفه ثم قال: وربّ هذه البنية لتردّن على ابن اختنا رُكحه أو لأملأن منك السيف! قال: فإني وربّ هذه البنية أردّ عليه رُكحه، فأشهد عليه من حضر ثم قال لعبد المطلب: (١٢/٢) المنزل يا ابن اختي. فأقام عنده ثلاثاً، فاعتمرُوا وانصرفوا.

فدعا ذلك عبد المطلب إلى الحلف، فدعا بشر بن عمرو وورقاء بن فلان ورجالاً من رجالات خزاعة فحالهم في الكعبة وكتبوا كتاباً.

وكان إلى عبد المطلب السقاية والرفادة، وشُرّف في قومه وعظم شأنه. ثم إنّه حفر زمزم، وهي بئر إسماعيل بن إبراهيم، عليه السلام، التي أسقاها الله تعالى منها، فدفنتها جرهم، وقد تقدّم ذكر ذلك.

سبب حفر بئر زمزم

وكان سبب حفره إيّاها أنّه قال: بينا أنا نائم بالجعر إذ أتاني آت فقال: احفر طيّبة. قال: قلت: وما طيّبة؟ قال: ثم ذهب، فرجعت الغد إلى مضجعي فتمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة. قال: قلت: وما برة؟ قال: ثم ذهب عني، قال: فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فتمت فيه فجاءني فقال: احفر المضنونة. [قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: فذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي [فتمت فيه فجاءني] فقال: احفر زمزم، إنك إن حفرتها لا تندم. فقلت: وما زمزم؟ قال: تراث من أبيك الأعظم، لا تزف أبداً ولا تُذم، تسقي الحبيح الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر لمنعم، يكون ميراثاً وعقداً محكم، ليس كبعض ما قد تعلم، وهي بين الفرت والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

فلما بين له شأنها ودلّ على موضعها وعرف أنّه قد صدق، غدا بعموله ومعه (١٣/٢) ابنه الحارث ليس له ولد غيره، فحفر بين إساف ونائلة في الموضع الذي تنحدر [فيه] قريش لأصنامها، وقد رأى الغراب ينقر هناك. فلما بدا له الطوي كبر، فعرفت قريش أنّه أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: إنّه بئر إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك. قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به دونكم. قالوا: فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم. قالوا: كاهنة بني سعد بن هُذيم، وكانت بمشارف الشام.

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبدمناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام في ماء عبد المطلب وأصحابه، فظموا حتى أيقنوا بالهلكة، فطلبوا الماء ممّن معهم من قريش فلم يسقوهم. فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ فقالوا: رأينا نبع لرايك فمرنا بما شئت. قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه حفرة، فكلما مات واحد واره أصحابه حتى يكون آخركم موتاً قد وارى الجميع، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب. قالوا نعم ما رأيت. ففعلوا ما أمرهم به.

ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن اللقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا تضرب في الأرض ويتغي لأنفسنا لعجز. فارتحلوا ومّن معه من قبائل قريش ينظرون إليهم، ثم ركب عبد المطلب، فلما انبعثت به راحلته انفجرت من تحت خفها عين عذبة من ماء، فكبر وكبر أصحابه وشربوا وملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله. فقال أصحابه: لانسقيهم لأنهم لم يسقونا. فلم يسمع منهم وقال: فنحن إذا مثلهم! فجاء أولئك

وارتجع ماله إلا شيئاً هلك فغرمه من ماله.

وهو أول من تحنّت بجراه، فكان إذا دخل شهر رمضان صعد جراه وأطعم المساكين جميع الشهر .

وتوفي وله مائة وعشرون سنة، وكان قد عمي. وقيل غير ذلك. (١٦/٢).

ابن هاشم

واسم هاشم عمرو، وكنيته أبو نضلة، وإنما قيل له هاشم لأنه أول من هشم الزيد لقومه بمكة وأطعمه.

قال ابن الكلبي: كان هاشم أكبر ولد عبدمناف، والمطلب أصغرهم، أمه عاتكة بنت مرة السلمية، ونوفل، وأمّه واقدة، وعبد شمس، فسادوا كلهم، وكان يقال لهم المجبرون. وهم أول من أخذ لقريش العصم، فانتشروا من الحرم؛ أخذ لهم حبلاً من الروم وغسان بالشام، وأخذ لهم عيدشمس [حبلاً] من النجاشي بالحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة بالعراق، وأخذ لهم المطلب حبلاً من جنيبر باليمن، فاختلفت قریش بهذا السبب إلى هذه النواحي، فجير الله بهم قریشاً.

وقيل: إن عيدشمس وهاشمًا توأمان، وإن أحدهما ولد قبل الآخر وأصبح له ملتصقة ببجته فنجحت، فسال الدم، فقيل يكون بينهما دم.

وليّ هاشم بعد أبيه عبد مناف ما كان إليه من السقاية والرفادة، فحسده (١٧/٢) أمية بن عبدشمس على رياسته وإطعامه، فتكلفت أن يصنع صنيع هاشم، فعجز عنه، فشمت به ناس من قریش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، فلم تدعه قریش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي أمية وجعل بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جدّ عمرو بن الحمق، ومنزله بفسفان، وكان مع أمية همهمة بن عبد العزى النهري، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجوّ من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المأثر، أول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر. قضى لهاشم بالغلبة، وأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين. فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية.

وكان يقال لهاشم والمطلب البدران لجمالهما.

ومات هاشم بغزة وله عشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة، وهو أول من مات من بني عبد مناف.

ثم مات عبد شمس بمكة فقبر بأجباد.

القرشيون فشيروا وملأوا أسقيتهم وقالوا: قد والله قضى الله لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه القلاة لهر الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً. (١٣/٢) فرجعوا إليه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبينها.

فلما فرغ من حفرها وجد الغزاليين اللذين دفتهما جرحهم فيها، وهما من ذهب، ووجد فيها أسيافاً قلعيةً وأدراعاً. قتالت له قریش: يا عبد المطلب لنا معك في هذا شركٌ وحق. قال: لا ولكن هلم إلى نصّفو بيني وبينكم، نضرب عليها بالقداح. فقالوا: فكيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين ولكم قدحين ولي قدحين، فمن خرج قداحه على شيء أخذه، ومن تخلف قداحه فلا شيء له. قالوا: أنصفت. ففعلوا ذلك وضربت القداح عند هبل فخرج قدحا الكعبة على الغزاليين، وخرج قدحا عبد المطلب على الأسياف والأدراع، ولم يخرج لقریش شيء من القداح. فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة وجعل فيه الغزاليين صفائح من ذهب، فكان أول ذهب حُلِيت به الكعبة. وقيل: بل بقيا في الكعبة وسرقا، على ما نذكره.

وأقبل الناس والحجاج علي بثر زمزم تبركاً بها ورغبة فيها، وأعرضوا عما سواها من الآبار. ولما رأى عبد المطلب تظاھر قریش عليه نذر لله تعالى: إن يرزقه عشرة من الولدان يبلغون أن يمنعوه ويدبوا عنه نحر أحدهم قرباناً لله تعالى.

وقد ذكر النذر في اسم عبد الله أبي النبي، ﷺ.

وعبد المطلب أول من خضب بالوسمة، وهو السواد، لأنّ الشيب أسرع إليه. (١٥/٢)

عبد المطلب وجاره اليهودي

وكان لعبد المطلب جار يهودي يقال له أذينة يتجر وله مال كثير، فغاظ ذلك حرب بن أمية، وكان نديم عبد المطلب، فأغرى به فتیاناً من قریش ليقتلوه ويأخذوا ماله، فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار وصخر بن عمرو بن كعب التيمي جدّ أبي بكر، رضي الله عنه، فلم يعرف عبد المطلب قاتليه، فلم يزل يبحث حتى عرفهما، وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية، فأتى حرباً ولأمه وطلبهما منه. فأتاهما، فتالفا في القول حتى تنافرا إلى النجاشي ملك الحبشة، فلم يدخل بينهما، فجعل بينهما ثقيّل بن عبد العزى العدوي جدّ عمر بن الخطاب. فقال لحرب: يا أبا عمرو أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأوسم وسامة، وأعظم منك هامة، وأقل منك ملامة؛ وأكثر منك ولداً، وأجل منك صفداً، وأطول منك مدداً؛ وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب؛ جلد المريقة لجبل العشير، ولكنك نافرت منفراً؛ فغضب حرب وقال: من انتكاس الزمان أن جعلت حكماً فترك عبد المطلب منادمة حرب ونادم عبد الله بن جدعان التيمي، وأخذ من حرب مائة ناقة فدفعها إلى ابن عم اليهودي

ثُمَّ مات نوفل بسلامان من طريق العراق.

ثُمَّ مات المطلب بزمان من أرض اليمن. وكانت الرقادة والسقاية بعد هاشم إلى أخيه المطلب لصغير ابنه عبد المطلب بن هاشم. (١٨/٢)

ابن عبد مناف

واسمه المغيرة، وكنيته أبو عبد شمس، وكان يقال له القمر لجماله، وكانت أمه حين ولدته دفعته إلى مناف، صنم بمكة، تلدناً بذلك، فغلب عليه عبد مناف.

وكان عبد مناف وعبد العزى وعبد الدار بنو قصي إخوة، أمهم حبيبة ابنة خليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن خزاعة، وهو الذي عقد الحلف بين قريش والأحباش بنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، وبنو الهون من خزيمة. وكان قصي يقول: «ولد لي أربعة بنين فسَميتُ إِبْنينِ بِإِلَهِيَّ، وهما عبد مناف وعبد العزى، وواحدٌ بداري، وهو عبد الدار، وواحدٌ بي، وهو عبد قصي».

(حُكِّلَ بضمّ الحاء المهملة، وفتح اللام الأولى. وحُبْشِيَّة بضم الحاء).

ابن قصي

واسمه زيد، وكنيته أبو المغيرة، وإنما قيل له قصي لأن ربيعة بن حرام ابن ضبة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد بن زيد تزوج أمه فاطمة ابنة سعد بن سيل، واسمه جبر، بن جمالة بن عوف، وهي أيضاً أم أخيه زهرة، ونقلها إلى بلاد عذرة من مشارف الشام وحملت معها قصياً لصغيره، وتخلّف زهرة في قومه لكبره، فولدت أمه فاطمة لربيعة بن حرام زواج بن ربيعة، (١٩/٢) فهو أخو قصي لأمه. وكان لربيعة ثلاثة نفر من امرأة أخرى، وهم حنّ بن ربيعة ومحمود وجُلْهُمة، وقيل: إنَّ حنّاً كان أخا قصي لأمه. فشبّ زيد في حجر ربيعة فسَميَ قصياً لبعده عن دار قومه، وكان قصي يتمي إلى ربيعة إلى أن كبر، وكان بينه وبين رجل من قضاة شيء، فغمّره القضاعي بالغرّة، فرجع قصي إلى أمه وسألها عمّا قال، فقالت له: يا بني أنت أكرم منه نفساً وأباً، أنت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام.

فصبر حتى دخل الشهر وخرج مع حاج قضاة حتى مكة وأقام مع أخيه زهرة، ثم خطب إلى خليل بن حبشية الخزاعي ابنته حبيبة، فزوّجه، وحُكِّلَ يومئذ يلي الكعبة. فولدت أولاده: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وكثر ماله وعظم شرفه.

وهلك خليل وأوصى بولاية البيت لابنته حبشي، فقالت: إني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه، فجعل الباب وإغلاقه إلى ابنه

المخترش، وهو أبو عُشّان. فاشتري قصي منه ولاية البيت بزق خمر ويعود، فضربت به العرب المثل فقالت: أخسر صفقة من أبي عُشّان.

فلما رأت ذلك خزاعة كثروا على قصي، فاستنصر أخاه زراحاً، فحضر هو وإخوته الثلاثة فيمن تبعه من قضاة إلى نصرته، ومع قصي قومه بنو النضر، ونهياً لحرب خزاعة وبنو بكر، وخرجت إليهم خزاعة فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكثرت القتلى في الفريقين والجراح، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يحكموا بينهم عمرو بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، فقضى بينهم بأن قصياً أولى بالبيت ومكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه من خزاعة. (٢٠/٢) وبنو بكر موضوع فيشدخه تحت قدميه، وأن كل دم أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبنو كنانة ففي ذلك الدية مؤداة. فسَميَ بعمرو الشداخ بما شدخ من الدماء وما وضع منها. فولي قصي البيت وأمر مكة.

وقيل: إنَّ خُليل بن حُبْشِيَّة أوصى قصياً بذلك وقال: أنت أحقّ بولاية البيت من خزاعة. فجمع قومه وأرسل إلى أخيه يستنصره، فحضر في قضاة في الموسم وخرجوا إلى عرفات وفرغوا من الحج ونزلوا منى وقصّي مجمع على حربهم، وإنما يتنظر فراغ الناس من حجّهم.

فلما نزلوا منى ولم يبق إلا الصدر، وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفات وتجيزهم إذا تفرّقوا من منى، إذا كان يوم النفر أتوا لرمي الجمار، ورجل من صوفة يرمي للناس لا يرمون حتى يرمي، فإذا فرغوا من منى أخذت صوفة بناحيتي العقبة وحبسوا الناس، فقالوا: أجزبي صوفة، فإذا نفرت صوفة ومضت خلّي سبيل الناس فانطلقوا بعدهم. فلما كان ذلك العام فعلت صوفة كما كانت تفعل، قد عرفت لها العرب ذلك، فهو دين في أنفسهم، فأتاهم قصي ومن معه من قومه ومن قضاة فمَنعهم وقال: نحن أولى بهذا منكم. فقاتلوه وقاتلهم قتالاً شديداً، فانهزمت صوفة وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفة. فلما انحازوا عنه باداهم فقاتلهم، فكثرت القتلى في الفريقين وأجلى خزاعة عن البيت، وجمع قصي قومه إلى مكة من الشعاب والأودية والجبال، فسَميَ مجمعاً، ونزل بني (٢١/٢) بغيض بن عامر بن لوي وبنو تيم الأدرم بن غالب بن فهر وبنو محارب بن فهر وبنو الحارث بن فهر، إلا بني هلال بن أهيّب رهط أبي عبيدة بن الجراح وإلّا رهط عياض بن غنم، بظواهر مكة، فسَمُوا قريش الظواهر، وسَمَى سائر بطون قريش قريش البطاح؛ وكانت قريش الظواهر تغير وتغزو، وتسمى قريش البطاح الضبّ للزومها الحرم.

فلما ترك قصي قريشاً بمكة وما حولها ملكوه عليهم. فكان أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاعه به قومه، وكان إليه الحجابة والسقاية والرقادة والندوة واللواء، فحاز شرف قريش كله، وقسم مكة

المطلب، ولم يكن له مال فأذن من أخيه العباس بن عبد المطلب بن عبد مناف مالا فأنفق، ثم عجز عن الأداء فأعطى العباس السقاية (٢٣/٢) والرفادة عوضاً عن ذئبه، فولها، ثم ابنه عبد الله ثم علي بن عبد الله، ثم محمد بن علي، ثم داود بن علي بن سليمان بن علي، ثم وليها المنصور وصار يليها الخلفاء.

وأما دار الندوة فلم تزل لعبد الدار، ثم لولده حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار من معاوية فجعلها دار الإمارة بمكة، وهي الآن في الحرم معروفة مشهورة.

ثم هلك قصي فأقام امره في قومه من بعده ولده، وكان قصي لا يخالف سيرته وأمره، ولما مات دفن بالبحون، فكانوا يزورون قبره ويعظمونه. وحفر بمكة بئراً سماها العجول، وهي أول بئر حفرتها قريش بمكة.

(سبل بفتح السين المهملة، والياء المشددة التحيّة. وخرام بفتح الحاء والراء المهملتين. ورزاح بكسر الراء. وفتح الزاي، ويعد الألف حاء مهملة. وحجى بضم الحاء المهملة، وتشديد الباء الموحدة. وملكان بكسر الميم، وسكون اللام. وأما ملكان بن حزم بن ريان، وملكان بن عباد بن عياض، فهما بفتح الميم واللام).

ابن كلاب

ويكنى أبا زهرة، وأمّ كلاب هند بنت سُرير بن ثعلبة بن الحارث ابن فهر بن مالك، وله أخوان لأبيه من غير أمه، وهما تيم ويقظة، أمهما أسماء بنت جارية البارقية، وقيل: يقظة لهند بنت سُرير أمّ كلاب.

(يقظة بالياء تحتها نقطتان، ويفتح القاف والطاء المعجمة). (٢٤/٢)

ابن مرة

ويكنى أبا يقظة، وأمّ مرة محشيّة ابنة شيبان بن محارب بن فهر، وأخوه لأبيه وأمّه هُصَيص وعديّ، وقيل أمّ عديّ رقاش بنت رُكبة بن نائلة بن كعب بن حرب بن تميم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان.

(هُصَيص بضم الهاء، وفتح الصاد المهملة بعدها ياء تحتها نقطتان، وصاد ثانية).

ابن كعب

ويكنى أبا هُصَيص، وأمّ كعب ماوية ابنة كعب بن القين بن جَسْر القُضَاعِيّة، وله أخوان لأبيه وأمّه، أحدهما عامر، والآخر سامة، ولهم من أبيهم أخ كان يقال له عَوْف، أمّه الباردة ابنة عوف بن غنم بن عبد الله بن غطفان، وانتمى ولده إلى غطفان، وكان خرج مع أمّه الباردة

أرباعاً بين قومه، فبنوا المساكن واستأذنوه في قطع الشجر، فمنعهم، فبنوا الشجر في منازلهم، ثم إنهم قطعوه بعد موته.

وتيمنت قريش بأمره فما تنكح امرأة ولا رجل إلا في داره، ولا يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواء للحرب إلا في داره، يعقده بعض ولده، وما تدريّ جارية إذا بلغت أن تدريّ إلا في داره، وكان امره في قومه كالدين المتبحر في حياته وبعد موته. فاتخذ دار الندوة وبابها في المسجد، وفيها كانت قريش تقضي أمورها.

فلما كبر قصي ورق، وكان ولده عبد الدار أكبر ولده، وكان ضعيفاً، وكان عبد مناف قد ساد في حياة أبيه وكذلك إخوته، قال قصي لعبد الدار: والله لألحقنك بهم! فأعطاه دار الندوة والحجابة، وهي حجابة الكعبة واللواء، وهو كان يعقد لقريش ألويتهم، والسقاية، كان يسقي الحاج، والرفادة، وهي خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع منه طعاماً للحاج يأكله الفقراء، وكان قصي قد قال لقومه: إنكم جيران الله وأهل بيته، وإن الحاج ضيف الله وزوّار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشرباً أيام الحج. ففعلوا فكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به (٢٢/٢) الطعام أيام منى، فجزى الأمر على ذلك في الجاهلية والإسلام إلى الآن، فهو الطعام الذي يصنعه الخلفاء كل عام بمنى.

فأما الحجابة فهي في ولده إلى الآن، وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ابن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار.

وأما اللواء فلم يزل في ولده إلى أن جاء الإسلام، فقال بنو عبد الدار: يا رسول الله اجعل اللواء فينا، فقال: الإسلام أوسع من ذلك. فبطل.

وأما الرفادة والسقاية فإن بني عبد مناف بن قصي: عبد شمس، وهاشم، والمطلب، ونوفل، أجمعوا أن يأخذوها من بني عبد الدار لشرفهم عليهم وفضلهم، ففترقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف، وطائفة مع بني عبد الدار لا يرون تغيير ما فعله قصي، وكان صاحب أمر بني عبد الدار عامر ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

فكان بنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر مع بني عبد مناف، وكان بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جُمَح وبنو عديّ مع بني عبد الدار، فتحالف كل قوم حلفاً مؤكداً، وأخرج بنو عبد مناف جفّة مملوءة طيباً فوضعوها عند الكعبة وتحالفوا وجعلوا أيديهم في الطيب، فسَمُوا المطيّين، وتعاهد بنو عبد الدار ومن معهم وتحالفوا فسَمُوا الأحلاف، وتعبوا للقتال، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، فرفضوا بذلك وتحاجز الناس عن الحرب واقتنعوا عليها، فصارت لهاشم بن مناف، ثم بعده للمطلب بن عبد مناف، ثم لأبي طالب بن عبد

ابن مُذْرِكَة

فلزهمهم، وقال: كيف أصدقكم وهذه صفة بعيري!

واسمه عمرو، ويكنى أبا هذيل، وقيل: أبا خزيمه، وأمّه خنيدف، وهي ليلي ابنة خلوان بن عمران، وأمها ضريّة ابنة ربيعة بن نزار، وبها سمّي حمى ضريّة.

وإخوة مُذْرِكَة لأبيه وأمّه: عامر، وهو طابخة، وعُمير، وهو قَمْعَة، يُقال: إنه أبو خزاعة.

قال هشام: خرج إلياس في نجعة له فنفت إله من أرنب فخرج إليها عمرو فأدركها فسَمّي مدركة، وأخذها عامر فطبخها فسَمّي طابخة، وانقمع عُمير في الخياء فسَمّي قَمْعَة، وخرجت أمهم ليلي تمشي فقال لها إلياس: أين تخذفين؟ فسَميت خنيدف، والخنيدفة: ضرب من المشي.

ابن إلياس

وكان يكنى أبا عمرو، وأمّه الرياب ابنة جندة بن مَعَدّ، وأخوه لأبيه وأمّه الناس، بالنون، وهو عيلان، وسَمّي عيلان لفرس له كان يُدعى عيلان، وقيل: لأنّه وُلد في أصل جبل يسمّى عيلان، وقيل غير ذلك.

ولما توفّي حزنت عليه خندف حزناً شديداً فلم تقم حيث مات ولم يظللها سقفٌ حتى هلكت، فضُرب بها المثل. وتوفّي يوم الخميس، فكانت تبكي كلّ خميس من غدوة إلى الليل.

ابن مَضْر

وأمّه سودة بنت عكّ، وأخوه لأبيه وأمّه إياد، ولهما أخوان من أبيهما: ربيعة وأنمار، أمهما جدالة ابنة وعلان من جُرهم. (٣٠/٢)

وذكر أن نزار بن مَعَدّ لما حضرته الوفاة أوصى بنية وقسم ماله بينهم فقال: يا بنيّ هذه القُبّة، وهي من آدم حمراء، وما أشبهها من مالي لمضر، فسَمّي مضر الحمراء، وهذا الخياء الأسود وما أشبهه من مالي لربيعة، وهذه الخادم وما أشبهها من مالي لإياد، وكانت شَمطاء، فأخذ البُلُق والنَقْد من غنمه، وهذه الجرّة والمجلس لأنمار يجلس عليه، فأخذ أنمار ما أصابه، فإن أشكل في ذلك عليكم شيء واختلفتم في القسمة فعليكم بالأفعى الجرهمي.

فاختلفوا فتوجّهوا إلى الأفعى الجرهمي، فبينما هم يسيرون في مسيرهم إذ رأى مضر كلاً قد رُعي فقال: إن البعير الذي قد رعى هذا الكلاً لأعور. وقال ربيعة: هو أزور. وقال إياد: هو أبتّر. وقال أنمار: هو شرود. فلم يسيروا إلّا قليلاً حتى لقيهم رجلٌ توضع به راحلته، فسألهم عن البعير، فقال مضر: هو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: هو أزور؟ قال: نعم. وقال إياد: هو أبتّر؟ قال: نعم. وقال أنمار: هو شرود؟ قال: نعم هذه صفة بعيري، دلوني عليه، فحلفوا له ما راوه،

فساروا جميعاً حتى قدموا نجران فنزلوا على الأفعى الجرهمي، فقصّ عليه صاحب البعير حديثه، فقال لهم الجرهمي: كيف وصفتموه ولم تروه؟ قال مضر: رأيته يرعى جانباً ويدع جانباً فعرفتُ أنّه أعور. وقال ربيعة: رأيته إحدى يديه ثابتة والأخرى فاسدة الأثر فعرفتُ أنّه أزور. وقال إياد: عرفتُ أنّه أبتّر باجتماع بعره ولو كان أذنب لمصع به. وقال أنمار: عرفتُ أنّه شرود (٣١/٢) لأنّه يرعى المكان الملتفّ نبتة ثمّ يجوزّه إلى مكان أرقّ منه نبتاً وأخبث. فقال الجرهمي: ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه.

ثمّ سألهم من هم، فأخبروه، فرحّب بهم وقال: أحتاجون أنتم إليّ وأنتم كما أرى؟ ودعا لهم بطعام فأكلوا وشربوا، فقال مضر: لم أر كالיום خمرأ أجود لولا أنّها نبئت على قبر. وقال ربيعة: لم أر كالיום لحمأ أطيب لولا أنّه ربّي بلبن كلبه. وقال إياد: لم أر كالיום رجلاً أسرى لولا أنّه لغير أبيه الذي يتمي إليه. وقال أنمار: لم أر كالיום كلاماً أنفع لحاجتنا.

وسمع الجرهمي الكلام فعجب، فأثى أمّه وسالها، فأخبرته أنّها كانت تحت ملك لا يولد له، فكرهت أن يذهب الملك فأمكنت رجلاً من نفسها فحملت به، وسأل القهرمان عن الخمر، فقال: من خبلة غرسها على قبر أبيك، وسأل الراعي عن اللحم فقال: شاة أرضعتها لبن كلبه.

فقيل لمضر: من أين عرفت الخمر؟ فقال: لأنّي أصابني عطش شديد. وقيل لربيعة فيما قال، فذكر كلاماً، وأتاهم الجرهمي وقال: صفوا لي صفتكم، فقصّوا عليه قصّتهم، فقصّى بالقُبّة الحمراء والنانير والإبل، وهي خمر، لمضر، وقصّى بالخياء الأسود والخيل الثّم لربيعة، وقصّى بالخادم، وكانت شَمطاء، والماشية البُلُق لإياد، وقصّى بالأرض والدراهم لأنمار.

ومضر أوّل من حدا، وكان سبب ذلك أنّه سقط من بعيره فانكسرت يده فجعل يقول: يا يداه يا يداه، فأثته الإبل من المرعى، فلمّا صلح وركب حدا، وكان من أحسن الناس صوتاً. وقيل: بل انكسرت يد مولى له فصاح، (٣٢/٢) فاجتمعت الإبل، فوضع مضر الحدا وزاد الناس فيه.

وهو أوّل من قال حيتن: بصبصن إذ حُدين [بالأذنباب]، فذهب مثلاً.

وروي أن النبي ﷺ قال: لا تسبوا مضر وربيعة فإنهما مسلمان.

ابن نزار

وقيل: كان يكنى أبا إياد، وقيل أبا ربيعة، أمّه مُعانة ابنة جَوْشم بن

فَأَمَّا الْقُرَشِيَّانِ فَأُمُّهُمُ بِنْتُ عَبْدِ الْعَزَى بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ، وَأُمُّ بَرَّةُ أُمُّ حَبِيبِ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى، وَأُمُّ أَسَدِ رَظَّةُ بِنْتُ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمٍ، وَأُمُّ أَمِيمةُ بِنْتُ عَامِرِ الْخَزَاعِيَّةِ وَأُمُّهَا عَاتِكَةُ بِنْتُ هِلَالِ بْنِ أَهْتَبِ بْنِ ضَبَّةِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ فُهْمٍ، وَأُمُّ هِلَالِ هِنْدُ بِنْتُ هِلَالِ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وَأُمُّ أَهْتَبِ بْنِ ضَبَّةِ عَاتِكَةُ بِنْتُ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ وَأُمُّهَا عَاتِكَةُ بِنْتُ يَحْزَلَدِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كَنَانَةَ.

وَأَمَّا السُّلَمِيَّاتُ فَأُمُّ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ عَاتِكَةُ بِنْتُ مُرَّةَ بْنِ هِلَالِ بْنِ فَالِحِ بْنِ ذُكْوَانَ بْنِ بُهْثَةَ بْنِ سُلَيْمِ بْنِ مَنصُورٍ، وَأُمُّ عَبْدِ مَنَافٍ عَاتِكَةُ بِنْتُ هِلَالِ بْنِ فَالِحِ، وَالثَّالِثَةُ أُمُّ جَدِّهِ لِأَنَّهُ وَهَبَ، وَهِيَ عَاتِكَةُ بِنْتُ الْأَوْقَصِ بْنِ مُرَّةَ ابْنِ هِلَالِ.

قُلْتُ: هَكَذَا ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَوَاتِكَ سُلَيْمٍ، وَجَعَلَ أُمَّ عَبْدِ مَنَافٍ عَاتِكَةَ بِنْتُ مُرَّةَ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، فَإِنَّ أُمَّ عَبْدِ مَنَافٍ حَبِيَّةُ بِنْتُ حُلَيْلِ الْخَزَاعِيَّةِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: أُمُّ هَاشِمِ عَاتِكَةُ بِنْتُ مُرَّةَ، وَأُمُّ مُرَّةَ ابْنِ هِلَالِ عَاتِكَةُ بِنْتُ جَابِرِ بْنِ قَفْزِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَوْفِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ بُهْثَةَ بْنِ سُلَيْمٍ، وَأُمُّ هِلَالِ ابْنِ فَالِحِ عَاتِكَةُ بِنْتُ عُصَيَّةَ بْنِ خُفَافِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ. (٣٥/٢)

وَأَمَّا الْعَدَوِيَّانِ فَمِنْ جِهَةِ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ، فَإِنَّ أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ فَاطِمَةَ بِنْتُ عَمْرٍو، وَأُمُّ فَاطِمَةَ تَحْزَنُ بِنْتُ عَبْدِ قُصَيٍّ، وَأُمُّهَا هِنْدُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ وَائِلَةَ بْنِ الظَّرْبِ، وَأُمُّهَا زَيْنُ بِنْتُ مَالِكِ بْنِ نَاصِرَةَ بْنِ كَعْبِ الْفَهْمِيَّةِ.

وَأَمَّا عَاتِكَةُ بِنْتُ عَامِرِ بْنِ الظَّرْبِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَبَّادِ بْنِ بَكْرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَهُوَ عَدَوَانُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ، وَأُمُّ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ عَاتِكَةُ، فِيهِ عَيْكِرِشَةُ، وَهِيَ الْحِصَانُ بِنْتُ عَدَوَانَ.

وَأَمَّا الْأَزْدِيَّةُ فَأُمُّ النَّضْرِ بْنِ كَنَانَةَ بِنْتُ مُرَّةَ بْنِ أَدَّ أَخْتِ تَمِيمٍ، وَأُمُّهَا مَاوِيَةُ مِنْ بَنِي ضُبَيْعَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ نَزَارٍ، وَأُمُّهَا عَاتِكَةُ بِنْتُ الْأَزْدِ بْنِ الْغُوْثِ، وَقَدْ وَلَدَتْهُ هَذِهِ الْأَزْدِيَّةُ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ قَبْلِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ، فَإِنَّ أُمَّ غَالِبِ لَيْلَى بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ تَمِيمِ بْنِ سَعْدِ بْنِ هُذَيْلٍ، وَأُمُّهَا سَلْمَى بِنْتُ طَابِخَةَ ابْنِ الْيَاسِ بْنِ مُضَرٍّ، وَأُمُّهَا عَاتِكَةُ بِنْتُ الْأَزْدِ هَذِهِ.

وَأَمَّا الْهُذَلِيَّةُ فَعَاتِكَةُ بِنْتُ سَعْدِ بْنِ سَيْلٍ، هِيَ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِزَامٍ جَدُّ عَمْرٍو بْنِ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ لِأَنَّهُ، وَعَمْرٍو جَدُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَبُو أُمِّهِ.

وَأَمَّا الْقُضَاعِيَّةُ فَأُمُّ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ مَاوِيَةُ بِنْتُ الْقَيْنِ بْنِ جَسْرٍ بْنِ شَيْعِ اللَّهِ بْنِ أَسَدِ بْنِ وَثْرَةَ، وَأُمُّهَا وَحْشِيَّةُ بِنْتُ رَبِيعَةَ بْنِ حَرَامِ بْنِ ضُبَيْعَةَ الْغُدْرِيَّةِ وَأُمُّهَا عَاتِكَةُ بِنْتُ رَشْدَانَ بْنِ قَيْسِ بْنِ جُهَيْنَةَ.

وَأَمَّا الْأَسَدِيَّةُ فَأُمُّ كَلَابِ بْنِ مُرَّةَ هِنْدُ بِنْتُ سُرَيْرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كَلَابِ، وَأُمُّهَا عَاتِكَةُ بِنْتُ دُودَانَ بْنِ أَسَدِ بْنِ خَزِيمَةَ.

جُلُومُهُمُ بَنُ عَمْرٍو بْنِ جَرَاهِمَ، وَإِخْوَتُهُ لِأَبِيهِ وَأُمُّهُ قَنْصٌ وَقَنْصَاةٌ وَسَالِمٌ وَجَنْدَةُ وَجُنَادٌ وَجَنَادَةُ وَالْقَحْمُ وَغَيْدُ الرِّبَاحِ وَالْغَرْفُ وَالْعَوْفُ وَشَكُّ وَقُضَاعَةُ، وَبِهِ كَانَ يَكْنَى مَعْدً، وَعَدَّةٌ دَرَجُوا.

ابن مَعْدَةَ

وَأُمُّهُ مَهْدَةُ ابْنَةُ اللَّهِمِ، وَيُقَالُ اللَّهُمُّ، وَيُقَالُ اللَّهُمُّ بِنْتُ جَلْحَبِ بْنِ جَدِيسٍ، وَقِيلَ بِنْتُ طَسْمٍ، وَإِخْوَتُهُ مِنْ أَبِيهِ الرِّيثُ، وَقِيلَ: الرِّيثُ [هَو] عَكَّةٌ، وَقِيلَ: عَكَّةُ بْنُ الرِّيثِ، وَعَدْنَانُ بْنُ عَدْنَانَ، قِيلَ: هُوَ صَاحِبُ عَدْنٍ وَأَبِينُ وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ أَبِينُ، وَدَرَجُ نَسْلُهُ وَنَسْلُ عَدْنٍ، وَأَدُّ وَأَبِيُّ بْنُ عَدْنَانَ، وَدَرَجٌ، وَالضُّحَّاكُ وَالْغَنِيُّ.

فَلَحِقَ وَلَدُ عَدْنَانَ بِالْيَمَنِ عِنْدَ حَرْبِ بَحْتِ نَصْرٍ، وَحَمَلُ إِرْمِيَا وَبِرْخِيَا مَعْدً إِلَى حِرَّانَ فَاسْكَنَهَا بِهَا. فَلَمَّا سَكَنَتِ الْحَرْبُ رَدَّاهُ إِلَى مَكَّةَ فَرَأَى إِخْوَتَهُ قَدْ لَحِقُوا بِالْيَمَنِ. (٣٣/٢)

ابن عَدْنَانَ

وَلِعَدْنَانَ أَخَوَانُ يُدْعَى أَحَدُهُمَا نَبْتًا وَالْأُخَرُ عَامِرًا، فَتَنَسَّبَ النَّبِيُّ ﷺ، لَا يَخْتَلِفُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى مَعْدَةَ بْنِ عَدْنَانَ، عَلَى مَا ذَكَرْتُ، وَيَخْتَلِفُونَ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ اخْتِلَافًا عَظِيمًا لَا يُحْصَلُ مِنْهُ عَلَى غَرَضٍ، فَتَارَةً يَجْعَلُ بَعْضُهُمْ بَيْنَ عَدْنَانَ وَبَيْنَ إِسْمَاعِيلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَرْبَعَةَ آبَاءَ، وَيَجْعَلُ آخَرُ بَيْنَهُمَا أَرْبَعِينَ أَبًا، وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضًا فِي الْأَسْمَاءِ أَشَدَّ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ فِي الْعَدَدِ، فَحَيْثُ رَأَيْتُ الْأَمْرَ كَذَلِكَ لَمْ أَعْرِجْ عَلَى ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَوِي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، فِي نَسَبِهِ حَدِيثًا يَصْلُهُ بِإِسْمَاعِيلَ، وَلَا يَصِحُّ فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ.

ذكر القواطم والعواتك

وَأَمَّا الْقَوَاطِمُ اللَّاتِيَّةُ وَلِدَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَخُمْسٌ: قُرَشِيَّةٌ وَقَيْسِيَّانٌ وَيَمَانِيَّانٌ.

أَمَّا الْقُرَشِيَّةُ فَأُمُّ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرٍو بْنِ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومِ الْمَخْزُومِيَّةِ.

وَأَمَّا الْقَيْسِيَّانِ فَأُمُّ عَمْرٍو بْنِ عَائِذِ بْنِ فَاطِمَةَ ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِزَاحِ بْنِ رَبِيعَةَ ابْنِ جَحْشُوشِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ، وَأُمُّهَا فَاطِمَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ بُهْثَةَ بْنِ سُلَيْمِ بْنِ مَنصُورٍ. (٣٤/٢)

وَأَمَّا الْيَمَانِيَّانِ فَأُمُّ قُصَيٍّ ابْنِ كَلَابِ فَاطِمَةُ بِنْتُ سَعْدِ سَيْلِ بْنِ أَرْدَ شَنْوَةَ، وَأُمُّ حَبِيَّةُ بِنْتُ حُلَيْلِ بْنِ حَبِشَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَلُولٍ، وَهِيَ أُمُّ وَلَدِ قُصَيٍّ فَاطِمَةُ بِنْتُ نَصْرِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ حَارِثَةَ الْخَزَاعِيَّةِ.

وَأَمَّا الْعَوَاتِكُ فَاثْنَتَا عَشْرَةَ: اثْنَتَانِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَوَاحِدَةٌ مِنْ بَنِي يَحْزَلَدِ بْنِ النَّضْرِ، وَثَلَاثُ مَنْ سُلَيْمٍ، وَعَدَوِيَّانِ، وَهُذَلِيَّةٌ، وَقُضَاعِيَّةٌ وَأَسَدِيَّةٌ.

حتى أكرمني برسالته؛ قلتُ ليلة لغيلام يرضعني معي بأعلى مكة: لو أبصرتُ لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب. فقال: أفعل. فخرجتُ حتى إذا كنتُ عند أول دار بمكة سمعتُ عزفاً، فقلتُ: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلستُ أسمع، فضرب الله على أذني فنمتُ، فما أيقظني إلا حرُّ الشمس، فعدتُ إلى صاحبي فسألني فأخبرته. ثم قلتُ له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلتُ مكة، فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممتُ بعده بسوء. (٣٩/٢)

ذكر نكاح النبي، صلى الله عليه وسلم، خديجة

ونكح رسول الله، ﷺ، خديجة بنت خويلد، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة.

وسبب ذلك أنَّ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله، ﷺ، صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره مع غلامها ميسرة. فأجابها وخرج معه ميسرة حتى قدم الشام، فنزل رسول الله، ﷺ، في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب، فاطلع الراهب رأسه إلى ميسرة فقال: مَنْ هذا؟ قال ميسرة: هذا رجل من قريش. فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.

ثم باع رسول الله، ﷺ، واشترى وعاده، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة يرى ملكين يظلاله من الشمس وهو على بعيره. فلما قدم مكة ربحت خديجة ربها كثيراً، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وما رأى من إظلال الملكين إياه.

وكانت خديجة امرأة حازمة عاقلة شريفة مع ما أَرادَه الله من كرامتها، فأرسلت إلى رسول الله، ﷺ، فعرضت عليه نفسها، وكانت (٤٠/٢) أوسط نساء قريش نسباً وأكثرهن مالاً وشرفاً، وكل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه. فلما أرسلت إلى النبي، ﷺ، قال لأعمامه، وخرج معه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب وغيرهما من عمومته حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها فولدت له أولاده كلهم، إلا إبراهيم: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم، وبه كان يكنى، وعبد الله والطاهر، والطيب. وقيل: إنَّ عبد الله وُلد في الإسلام هو والطاهر والطيب، فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه.

وقيل: إنَّ الذي زوجها عمها عمرو بن أسد، وإنَّ أباهما مات قبل الفجار. قال الواقدي: وهو الصحيح، لأنَّ أباهما توفي قبل الفجار.

وكان منزل خديجة يومئذ المنزل الذي يُعرف بها اليوم، فيقال: إنَّ

(وعائد بن عمران بالياء المشاة من تحتها، والذال المعجمة. وسعد بن مسيل يفتح السين المهملة، والياء المشاة من تحتها المفتوحة. وحَيَّ يَضُمُ الحاء (٣٦/٢) المهملة، والياء المشاة من تحتها، وتشديد الياء الممالة. وحَلِيل يَضُمُ الحاء المهملة، والياء المشاة من تحتها. وجَسَر يفتح الجيم، وتسكين السين المهملة. وحارثة بالحاء المهملة، والثاء المثناة، وواثلة بن الظرب بالياء المشاة من تحتها. وضَبَّة بن الحارث بالضاد المعجمة المفتوحة، والباء المشددة الموحدة. وشَنَعَ الله بالشين المعجمة المفتوحة، والياء المشاة من تحتها الساكنة. وَحَرَام يفتح الحاء المهملة، والراء المهملة. وضَبَةُ العُدري بكسر الضاد المعجمة، والنون المشددة. وعُصْبَةُ بالعين المهملة المضمومة، وفتح الصاد والياء المشاة من تحتها). (٣٧/٢)

عدنا إلى ذكر النبي

توفي عبد المطلب بعد الفيل بثمان سنين، وأوصى أبا طالب برسول الله، ﷺ. فكان أبو طالب هو الذي قام بأمر النبي، ﷺ، بعد جده، ثم إنَّ أبا طالب خرج إلى الشام، فلما أراد المسير لزمه رسول الله، ﷺ، فوَقَّ له وأخذه معه، ولرسول الله، ﷺ، تسع سنين. فلما نزل الركب بُعِثَ من أرض الشام، وبها راهب يُقال له بجيرا في صومعة له، وكان ذا علم في النصرانية، ولم يزل بتلك الصومعة راهب يصير إليه علمهم، وبها كتاب يتوارثونه. فلما رآهم بجيرا صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك لأنَّه رأى على رسول الله غمامة تظله من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا في ظل شجرة قريباً منه فنظر إلى الشجرة وقد هضرت أغصانها حتى استظل بها، فنزل إليهم من صومعته ودعاهم. فلما رأى بجيرا رسول الله، ﷺ، جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده كان يجدها من صفته.

فلما فرغ القوم من الطعام وتفرقوا، سأل النبي، ﷺ، عن أشياء من حاله في يقظته ونومه فوجدها بجيرا موافقة لما عنده من صفته، ثم نظر إلى خاتم النبوة بين كتفيه، ثم قال بجيرا لعمه أبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما ينبغي أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي مات أبوه وأمه حبلى به. قال: صدقت، أرجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود، فوالله لئن رآه وعرفوا منه ما عرفستُ ليغته شراً، فإنه كائن له شأن عظيم. (٣٨/٢) فخرج به عمه حتى أقدمه مكة.

وقيل: بينما هو يقول لعمه في إعادته إلى مكة وتخوفهم عليه من الروم إذ أقبل سبعة نفر من الروم، فقال لم بجيرا: ما جاء بكم؟ قالوا: جأنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بُعث إليها ناس، وإنَّا بُعثنا إلى طريقك. قال: أرايتم أمراً أَرادَه الله هل يستطيع أحد من الناس ردَّه؟ قالوا: لا. وتابعوا بجيرا وأقاموا عنده.

وقال رسول الله، ﷺ: ما هممتُ بشيء مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممتُ به

رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرًا من قريش وغيرهم سرقوا كنزها وفيه غزالان من ذهب، وكانا في بئر في جوف الكعبة.

وكان امرؤ الغزالي الكعبة أن الله لما أمر إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة ففعلوا ذلك، وقد تقدّم ذكره، وأقام إسماعيل بمكة وكان يلي البيت حياته، وبعده وليه ابنه نبئت. فلما مات نبئت ولم يكثر ولد إسماعيل غلبت جرهم على ولاية البيت، فكان أول من وليه منهم مضاض، ثم ولده من بعده حتى بغت جرهم واستحلوا حرمة البيت فظلموا من دخل مكة حتى قيل: إن إسافًا ونائلة زنيا (٤٣/٢) في البيت فمسخا حجرين.

وكانت خزاعة قد أقامت بتهامة بعد تفرق أولاد عمرو بن عامر من اليمن، فأرسل الله على جرهم الرعاف أبناهم، فاجتمعت خزاعة على إجلاله من بقي منهم، ورئيس خزاعة عمرو بن ربيعة بن حارثة، فاقبلوا. فلما أحسن عامر بن الحارث الجهمي بالهزيمة خرج بغزالي الكعبة والحجر الأسود يلتمس التوبة وهو يقول:

لأقسم إن جرهمًا عبأ ذلك الناس طُرفَ وهم يلاذلك
بهم قديمًا عسرت بلاذلك

فلم تقبل توبته، فدفن غزالي الكعبة ببئر زمزم وطهها وخرج بمن بقي من جرهم إلى أرض جهينة، فجاءهم سيل فذهب بهم أجمعين، وقال عمرو بن الحارث:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا
بلى نحن كنا أهلها فاباننا صروفُ اليالي والجودُ العوائسُ

وولي البيت بعد جرهم عمرو بن ربيعة، وقيل: وليه عمرو بن الحارث الغساني، ثم خزاعة بعده، غير أنه كان في قبائل مضر ثلاث خلال: الإجازة بالحج من عرفة، وكان ذلك إلى الغوث بن مر بن أد، وهو صوفة، والثاني الإفاضة من جمع إلى منى، وكانت إلى بني زيد بن عدوان، وآخر من ولي ذلك منهم أبو سياره غميلة بن الأعزل بن خالد، والثالثة النسيء للشهور الحرم، فكان ذلك إلى القلمس، وهو حذيفة بن ققيم بن (٤٤/٢) كنانة، ثم إلى بنية من بعده، ثم صار ذلك إلى أبي ثمامة، وهو جنادة بن عوف بن قلع بن حذيفة، وقام الإسلام وقد عادت الأشهر الحرم إلى أصلها فابطل الله، عز وجل، النسيء.

ثم وليت البيت بعد خزاعة قريش، وقد ذكرنا عند ذكر قصي بن كلاب. ثم حفر عبد المطلب زمزم فأخرج الغزالين، كما تقدّم.

وكان الذي وجد الغزالان عنده دوتيك، مولى لبني مليح بن خزاعة، فقطعت قريش يده، وكان فيمن أتهم في ذلك: عامر بن الحارث بن نوفل، وأبو هارب بن عزيز، وأبو لهب بن عبد المطلب.

وكان البحر قد ألقى سفينة إلى جدة لتاجر رومي فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها، فتهيًا لهم بعض ما يصلحها. وكانت

معاوية اشتراه وجعله مسجدًا يصلى فيه.

وكان الرسول بين خديجة وبين النبي، ﷺ نفيسة بنت منية أخت يعلی بن منية، وأسلمت يوم الفتح، فبَرَّها رسول الله، ﷺ، وأكرمها.

(منية بالنون الساكنة، والياء المثناة من تحتها). (٤١/٢)

ذكر حلف الفضول

قال ابن إسحاق: وكان نفر من جرهم وقطؤراء يقال لهم: الفضيل بن الحارث الجهمي، والفضيل بن وداعة القطوري، والمفضل بن فضالة الجهمي، اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقرؤا بطن مكة ظالمًا، وقالوا: لا ينبغي إلا ذلك لما عظم الله من حقها، فقال عمرو بن عوف الجهمي:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا
الأيقر بيطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواتقوا
فالجار والمعتز فيهم سالم
ثم درس ذلك فلم يبق إلا ذكره في قريش.

ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف فتحالفوا في دار عبد الله بن جُدعان لشرفه وسنّه، وكان بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وزُهرة بن كلاب وريم بن مرة، فتحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على ظلمه حتى تُردَّ عليه مظلمته، فسَمَت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وشهده رسول الله، ﷺ، فقال حين أرسله الله تعالى: لقد شهدت مع عمومتي حلفًا في دار عبد الله بن جُدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت.

قال: وقال محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: كان بين الحسين بن (٤٢/٢) علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان منازعة في مال كان بينهما، والوليد يومئذ أمير على المدينة لعمة معاوية، فتحامل الوليد لسلطانه. فقال له الحسين: أقسم بالله لتتصفيني أو لأخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله، ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول. فقال عبد الله بن الزبير، وكان حاضرًا: وأنا أحلف بالله لو دعا به لأجبت حتى ينصف من حقّه أو نموت. وبلغ العيسور بن مخرمة الزُهري فقال مثل ذلك، وبلغ عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله فقال مثل ذلك. فلما بلغ الوليد ذلك أنصف الحسين من نفسه حتى رضي.

ذكر هدم قريش الكعبة وبنائها

وفي سنة خمس وثلاثين من مولده، ﷺ، هدمت قريش الكعبة.

وكان سبب هدمهم إيّاها أنها كانت رضيعة فوق القامة، فأرادوا

أربعين سنة. وقال ابن عباس من رواية عكرمة أيضاً عنه وسعيد بن المسيب: أنه أنزل عليه، ﷺ، وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وكان نزول الوحي عليه يوم الإثنين بلا خلاف. واختلفوا في أيّ الاثنين كان ذلك، فقال أبو قلابة الخزّمي: أنزل الفرقان على النبي، ﷺ، لثمانية عشرة ليلة خلت من رمضان، وقال آخرون: كان ذلك لتسع عشرة مضت من رمضان.

وكان، ﷺ، قبل أن يظهر له جبرائيل يرى ويعاين آثاراً من آثار مَنْ يريد الله إكرامه بفضله. وكان من ذلك ما ذكرت من شقّ المَلَكَيْنِ بطنه واستخراجهما ما في قلبه من الغلّ والدنس، ومن ذلك أنه كان لا يمرّ بحجر ولا شجر إلّا سلّم عليه، فكان يلتفت يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً، وكانت الأمم تتحدّث بمبعثه وتخبر علماء كلّ أمة قومها بذلك.

قال عامر بن ربيعة: سمعتُ زيد بن عمرو بن نفيل يقول: إنّا لننتظر نبياً من ولد إسماعيل، ثمّ من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أومن (٤٧/٢) به وأصدقه وأشهد أنه نبيّ، فإن طالت بك حياة ورأيتَه فآقرته مني السلام وسأخبرك ما نعتُه حتى لا يخفى عليك. قلتُ: هلّمّ. قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، ولا تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثمّ يخرج قومه ويكرهون ما جاء به، ويهاجر إلى يثرب فيظهر بها أمره، فإياك أن تتخذ عنه، فإني طُفْتُ البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكلّ مَنْ أسأله من اليهود والنصارى والمجوس يقول: هذا الدين وراءك، ويعتونه مثل ما نعتُه لك، ويقولون: لم يبق نبيّ غيره.

قال عامر: فلمّا أسلمتُ أخبرتُ رسول الله، ﷺ، قول زيد وأقرأته السلام. فردّ عليه رسول الله، ﷺ، وترخّم عليه وقال: قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً.

وقال جُبَيْر بن مُطْعَم: كنّا جلوساً عند صنم بُوانة قبل أن يُبعث رسول الله، ﷺ، بشهر. نحرنا جزوراً، فإذا صائح يصيح من جوف الصنم: اسمعوا إلى العجب، ذهب استراق الوحي ونرمى بالشُّهب لنبيّ بمكة اسمه أحمد مهاجرة إلى يثرب. قال: فأمسكنا وعجبنا، وخرج رسول الله، ﷺ.

والأخبار عن دلائل نبوته كثيرة، وقد صَنَّف العلماء في ذلك كتباً كثيرة ذكروا فيها كلّ عجيبة، ليس هذا موضع ذكرها. (٤٨/٢)

ذكر ابتداء الوحي إلى النبي

صلى الله عليه وسلم

قالت عائشة، رضي الله عنها: كان أوّل ما ابتدئ به [به] رسول الله، ﷺ، من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلَق الصبح،

حيّة تخرج من بئر الكعبة التي يُطَرَح فيها ما يُهدى لها كلّ يوم فتشرف على جدار الكعبة، وكان لا يدنو منها أحد إلّا كشّت وفتحت فاهها، فكانوا يهابونها، فبينما هي يوماً على جدار الكعبة اختطفها طائر فذهب بها، فقالت قريش: إنّا لسرجو أن يكون الله، عزّ وجلّ، قد رضي ما أردناه.

وكان ذلك ورسول الله، ﷺ، ابن خمس وثلاثين سنة وبعد الفجر بخمس عشرة سنة.

فلما أرادوا هدمها قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم فتناول حجراً من الكعبة فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها إلّا طيئوا تدخلوا فيه مهر بنغي ولا [بيع] رباً ولا مظلمة أحد.

وقيل: إن الوليد بن المغيرة قال هذا. (٤٥/٢)

ثمّ إنّ الناس هابوا هدمها فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدأكم به، فأخذ المعول فهدم، فترى الناس به تلك الليلة وقالوا: نظرفان أصيب لم نهدم منها شيئاً، فأصبح الوليد سالماً وغداً إلى عمله فهدم والناس معه حتى انتهى الهدم إلى الأساس ثمّ أفضوا إلى حجارة خضر أخذ بعضها ببعض، فأدخل رجل من قريش عتلة بين حجرين منها ليقلع به أحدهما. فلمّا تحرّك الحجر انتقضت مكّة بأسرها، ثمّ جمعوا الحجارة لبنائها ثمّ بنوا حتى بلغ البنيان موضع الركن، فأرادت كلّ قبيلة رفعه إلى موضعه حتى تحالفوا وتواعدوا للقتال، فقررت بنو عبد الدار جفّة مملوءة دماً ثمّ تعاقدوا هم وبنو عديّ على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم فسَمُوا لَعَنَةَ الدم بذلك، فمكثوا على ذلك أربع ليالٍ ثمّ تشاوروا. فقال أبو أمية بن المغيرة، وكان أسنّ قريش: اجعلوا بينكم حكماً أوّل مَنْ يدخل من باب المسجد يقضي بينكم، فكان أوّل من دخل رسول الله، ﷺ. فلمّا رآه قالوا: هذا الأمين قد رضينا به، وأخبروه الخبر، فقال: هلّموا إليّ ثوباً، فأثني به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه ثمّ قال: لتأخذ كلّ قبيلة بناحية من الثوب ثمّ ارفعوه جميعاً، ففعلوا. فلمّا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثمّ بُني عليه. (٤٦/٢)

ذكر الوقت الذي أرسل فيه رسول الله

صلى الله عليه وسلم

بعث الله نبيّه محمداً، ﷺ، لعشرين سنة مضت من مُلك كسرى أرويز بن هرمز بن أنوشيروان، وكان على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي عاملاً للفرس على العرب.

قال ابن عباس من رواية حمزة وعكرمة عنه وأنس بن مالك وعروة ابن الزبير: إنّ النبي، ﷺ، بُعث وأنزل عليه الوحي وهو ابن

قال هشام بن الكلبي: أتى جبرائيل النبي، ﷺ، أول ما أتاه ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له برسالة الله يوم الاثنين فعلمه الوضوء والصلاة، وعلمه: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»، وكان لرسول الله، ﷺ، أربعون سنة.

قال الزُّهري: فتر الوحي عن رسول الله، ﷺ، فترة، فحزن حزناً شديداً وجعل إلى رؤوس الجبال ليتردى منها، فكلمها رقي ذروة جبل تبدي له جبرائيل فيقول: إنك رسول الله حقاً. فيسكن لذلك جائشه وترجع نفسه. فلما أمر الله نبيه، ﷺ، أن ينذر قومه عذاب الله على ما هم عليه من عبادة الأصنام دون الله الذي خلقهم ورزقهم وأن يحدث بنعمة ربّه عليه، وهي النبوة في قول ابن إسحاق، فكان يذكر ذلك سرّاً لمن يطمئن إليه من أهله، فكان أول من آمن به وصدقّه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد زوجته.

قال الواقدي: أجمع أصحابنا على أن أول أهل القبلة استجاب لرسول الله، ﷺ، خديجة.

ثم كان أول شيء فرض الله من شرائع الإسلام عليه بعد الإقرار بالتحديد والبراءة من الأوثان الصلاة، وأن الصلاة لما فرضت عليه، ﷺ، أناه جبرائيل وهو بأعلى مكة فهزم له بعقبة في ناحية الوادي، فانفجرت فيه عين، فتوضاً جبرائيل وهو ينظر إليه ليبره كيف الطهور للصلاة، ثم توضاً (٥١/٢) رسول الله، ﷺ، مثله، ثم قام جبرائيل فصلّى به وصلى النبي، ﷺ، بصلاته، ثم انصرف. وجاء رسول الله، ﷺ، إلى خديجة فعلمها الوضوء، ثم صلى بها فصلّت بصلاته.

ذكر المعراج برسول الله، صلى الله عليه وسلم

اختلف الناس في وقت المعراج، فقيل: كان قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: بسنة واحدة، واختلفوا في الموضع الذي أسري برسول الله، ﷺ، منه فقيل: كان نائماً بالمسجد في الجبّ فأسري به منه، وقيل: كان نائماً في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، وقائل هذا يقول الحرم كله مسجد.

وقد روى حديث المعراج جماعة من الصحابة بأسانيد صحيحة.

قالوا: قال رسول الله، ﷺ، أثنائي جبرائيل وميكائيل فقالا: بأيهم أمرنا؟ فقالا: أمرنا بسيديهم؛ ثم ذهبوا ثم جاءا من القابلة وهم ثلاثة فالفقوه وهو نائم فقلبه لظهوره وشقوا بطنه وجاؤوا بماء زمزم فغسلوا ما كان في بطنه من غلٍ وغيره، وجاؤوا بطست مملوءة إيماناً وحكمة فملأ قلبه وبطنه إيماناً وحكمة. قال: وأخرجني جبرائيل من المسجد وإذا أنا بدابة، وهي البراق، وهي فوق الحمار ودون البغل، يقود خطوه عند متبتي طرفه، فقال: اركب، فلماً وضعت يدي عليه تنامس واستصعب. فقال جبرائيل: يا براق ما ركبك نبي أكرم على الله من محمد، فانصب عرقاً وانخفض (٥٢/٢) لي حتى ركبته، وسار بي

ثم حُبب إليه الخلاء، فكان بغار جراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق فأناه جبرائيل فقال: يا محمد أنت رسول الله. قال رسول الله، ﷺ: فجشوت لركبتي ثم رجعت ترجف بوادري فدخلت على خديجة فقلت: زملوني زملوني! ثم ذهب عني الرزع، ثم أثناني فقال: يا محمد أنت رسول الله. قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حلق، فتبدى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبرائيل وأنت رسول الله، قال: اقرأ. قلت: وما اقرأ؟ قال: فاخذني فغطني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» [العلق: ١] فقرأت. فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشقت على نفسي، وأخبرتني خبري، فقلت: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوابي الحق. ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان (٤٩/٢) قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فقالت: اسمع من ابن أخيك. فسألني فأخبرته خبري، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني كنت حيناً حين يُخرجك قومك. قلت: أمخرجني هم؟ قال: نعم، إنه لم يجرى أحد بمثل ما جئت به إلا عُودِي، ولكن أدركني يومك لأنصرك نصراً مؤزراً.

ثم إن أول ما نزل عليه من القرآن بعد اقرأ: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] و﴿الضُّحَى﴾ [الضحى: ١].

وقالت خديجة لرسول الله، ﷺ، فيما تثبته فيما أكرمه الله به من نبوته: يا ابن عم أستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم. فجاءه جبرائيل، فاعلمها. فقالت: قم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام، ﷺ، فجلس عليها. فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحوّل فاقعد على فخذي اليمنى. فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. فتحوّلت فألفت خمراها، ورسول الله، ﷺ، في حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: يا ابن عم أثبت وأبشر، فوالله إنه ملك، وما هو بشيطان!

وقال يحيى بن أبي كثير: سألت أبا سلمة عن أول ما نزل من القرآن، قال: نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أول. قال: قلت: إنهم يقولون «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ». قال: سألت جابر بن عبد الله قال: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله، ﷺ، قال: جاورث بحراء فلما قضيت جواربي هبطت فسمعت صوتاً فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن يساري فلم أر شيئاً ونظرت خلفي وأمامي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فإذا هو، يعني (٥٠/٢) الملك، جالس على عرش بين السماء والأرض، فخشيت منه فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني، وصبروا عليّ ماء، ففعلوا، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، هذا حديث صحيح.

فضل الناس بالحسن. قلت: مَنْ هذا يا جبرائيل؟ قال: هذا أخوك يوسف.

ثمَّ صعد بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا أنا برجل، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس رفعه الله مكاناً عليّاً.

ثمَّ صعد بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. (٥٤/٢) قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا رجل جالس وحوله قوم يقصّ عليهم. قلت: من هذا؟ قال: هذا هارون والذين حوله بنو إسرائيل.

ثمَّ صعد بي إلى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا أنا برجل جالس فجاء وزنه، فيكي الرجل، فقلت: يا جبرائيل من هذا؟ قال: هذا موسى. قلت: فما باله يكي؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أنني أكرم على الله من آدم، وهذا الرجل من بني آدم قد خلّفني وراءه.

قال: ثمَّ صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا رجل أشمط جالس على كرسيٍّ على باب الجنة وحوله قوم بيض الوجوه أمثال القراطيس وقوم في ألوانهم شيء، فقام الذين في ألوانهم شيء فاغتسلوا في نهر وخرجوا وقد صارت وجوههم مثل وجوه أصحابهم. فقلت: من هذا؟ قال: أبوك إبراهيم، وهؤلاء البيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم، وإذا إبراهيم مستند إلى بيت، فقال: هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه.

قال: وأخذني جبرائيل فأتينها إلى مبدرة المُنْتَهَى وإذا بِنَظْمِها مثل قِلَالِ هَجَرٍ يخرج من أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فأما (٥٥/٢) الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، قال: وغشيتها من نور الله ما غشيتها، وغشيتها الملائكة كأنهم جراد من ذهب من خشية الله، وتحولت حتى ما يستطيع أحد أن ينعتها، وقام جبرائيل في وسطها، فقال جبرائيل: تقدّم يا محمد. فتقدّمتُ وجبرائيل معي إلى حجاب، فأخذ بي مَلَكٌ وتخلّف عني جبرائيل، فقلت: إلى أين؟ فقال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وهذا منتهى الخلائق.

فلم أزل كذلك حتى وصلتُ إلى العرش فَتَضَعُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ

جبرائيل نحو المسجد الأقصى، فَأَتَيْتُ بِنَاتَيْنِ أَحَدَهُمَا لِبْنُ وَالْآخَرُ خَمْرٌ، فَقِيلَ لِي: اخْتَرْتُ أَحَدَهُمَا، فَأَخَذْتُ اللَّبْنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ لِي: أَصَبْتَ الْفُطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ شَرِبْتَ الْخَمْرَ لَقُوتَ أَمْتَكَ بَعْدَكَ.

ثمَّ سرنا فقال لي: انزل فصل، فنزلتُ فصليتُ، فقال: هذه طَيِّبَةٌ وَإِلَيْهَا الْمُهَاجِرُ.

ثمَّ سرنا فقال لي: انزل فصل، فنزلتُ فصليتُ، فقال: هذا طور سيناء حيث كلم الله موسى. ثمَّ سرنا فقال: انزل فصل، فنزلتُ فصليتُ، فقال: هذا بيت لحم حيث وُلِدَ عيسى. ثمَّ سرنا حتى أتينا بيت المقدس، فلمّا انتهينا إلى باب المسجد أنزلني جبرائيل وربط الثُّرَاقَ بالحلقة التي كان يربط بها الأنبياء. فلمّا دخلتُ المسجد إذا أنا بالأنبياء حَوَالِيٍّ، وقيل: بأرواح الأنبياء الذين بعثهم الله قبلي، فسَلَّمُوا عَلَيَّ، فقلت: يا جبرائيل مَنْ هؤلاء؟ قال: إخوانك من الأنبياء، زعمتُ قَرِيشٌ أَنَّ لِلَّهِ شَرِيكَاً، وزعمتُ النصارى أَنَّ لِلَّهِ وَلِداً، ولِداً، سَلَّ هؤلاء النَّبِيِّينَ هَلْ كَانَ لِلَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، شَرِيكَ أَوْ وَلَدٌ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٧]، فأقروا بالوحدانية لله، عَزَّ وَجَلَّ، ثمَّ جمعهم جبرائيل وقد نسي فصليتُ بهم وكعيتن.

ثمَّ انطلق بي جبرائيل إلى الصخرة فصعد بي عليها، فإذا معراج إلى السماء لا ينظر الناظرون إلى شيء أحسن منه ومنه تعرج الملائكة، أصله في صخرة بيت المقدس ورأسه ملتصق بالسماء، فاحتلني جبرائيل ووضعني على جناحه وصعد (٥٣/٢) بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فَفُتِحَ، فدخلنا فإذا أنا برجل تام الخلق عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، فإذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك، وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى. فقلت: مَنْ هذا؟ وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم، والباب الذي عن يمينه باب الجنة، فإذا نظر إلى مَنْ يدخلها من ذرّيته ضحك، والباب الذي عن يساره باب جهنم، إذا نظر إلى مَنْ يدخلها من ذرّيته بكى وحزن.

ثمَّ صعد بي إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. قيل: حيّاه الله، مرحباً به ونعم المجيء جاء! فَفُتِحَ لَنَا. فدخلنا فإذا بشائين، فقلت: يا جبرائيل من هذان؟ فقال: هذان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريّا.

ثمَّ صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: [وقد بُعث إليه؟ قال: نعم]. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا أنا برجل قد

ومررتُ بعيركم بالتنعيم يقدمها جمل أورك عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم من طلوع الشمس. (٥٧/٢) فخرجوا إلى الثنية فجلسوا. ينظرون طلوع الشمس ليكذبوه إذ قال قاتل: هذه الشمس قد طلعت. فقال آخر: والله هذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورك كما قال. فلم يُقلحوا وقالوا: إن هذا سحر مبین.

ذكر الاختلاف في أول من أسلم

اختلف العلماء في أول من أسلم مع الاتفاق على أن خديجة أول خلق الله إسلاماً، فقال قومٌ: أول ذكر آمن عليّ. روي عن عليّ، عليه السلام، أنه قال: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كاذبٌ مفتري، صليتُ مع رسول الله، ﷺ، قبل الناس بسبع سنين.

وقال ابن عباس: أول من صلى عليّ.

وقال جابر بن عبد الله: بُعث النبي، ﷺ،، يوم الاثنين وصلى عليّ يوم الثلاثاء.

وقال زيد بن أرقم: أول من أسلم مع النبي، ﷺ، عليّ.

وقال عفيف الكندي: كنتُ امرأ تاجراً فقدمتُ مكة أيام الحج فأتيتُ العباس، فبينما نحن عنده إذ خرج رجلٌ فقام تجاه الكعبة يصلي، ثم خرجت امرأة تصلي معه، ثم خرج غلام فقام يصلي معه. فقلتُ: يا عباس ما هذا الدين؟ فقال: هذا محمد بن عبد الله ابن أخي، زعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقصر ستمتج عليه، وهذه امرأته خديجة أمنت به، وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به، وإيم الله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة! قال عفيف: ليتني كنتُ رابعاً.

وقال محمد بن المنذر وربيعة بن أبي عبد الرحمن وأبو حازم المدني والكلبي: (٥٨/٢) أول من أسلم عليّ. قال الكلبي: كان عمره تسع سنين، وقيل: إحدى عشرة سنة.

وقال ابن إسحاق: أول من أسلم عليّ وعمره إحدى عشرة سنة.

وكان من نعمة الله عليه أن قريشاً أصابهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال يوماً رسول الله، ﷺ، لعمة العباس: يا عم إن أبا طالب كثير العيال فانطلق بنا نخفف عن عيال أبي طالب، فانطلقا إليه وأعلماه ما أرادا، فقال أبو طالب: اتركا لي عقيلاً واصنع ما شئتما، فاخذ رسول الله، ﷺ، عليّاً، وأخذ العباس جعفرأ فلم يزل عليّ عند النبي، ﷺ،، حتى أرسله الله فاتبعه.

وكان النبي، ﷺ،، إذا أراد الصلاة انطلق هو وعليّ إلى بعض الشعاب بمكة فيصليان ويعودان. فعثر عليهما أبو طالب فقال: يا ابن أخي ما هذا الدين؟ قال: دين الله وملأته ورسله، ودين أبينا

العرش وكلّ لساني من هبة الرحمن، ثم أنطق الله لساني فقلت: التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله، وفرض الله عليّ وعلى أمتي في كل يوم ليلة خمسين صلاة. ورجعت إلى جبرائيل فأخذ بيدي وأدخلني الجنة فرأيتُ القصور من الدرّ والياقوت والزبرجد، ورأيتُ نهراً يخرج من أصله ماء أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يجري على ضرائض من الدرّ والياقوت والمسك، فقال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، ثم عرض عليّ النار، فنظرتُ إلى أغلالها وسلاسلها وحياتها وعقاربها وما فيها من العذاب.

ثم أخرجني، فأنحدرنا حتى أتينا موسى، فقال: ماذا فرض عليك وعلى أمتك؟ قلتُ: خمسين صلاة. قال: فإني قد بلوتُ بني إسرائيل قبلك وعالجتهم أشدّ المعالجة على أقلّ من هذا فلم يفعلوا، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فرجعتُ إلى ربّي وسألته، فخفف عني عشرأ. فرجعتُ إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع واسأله التخفيف. فرجعتُ فخفف عني عشرأ، فلم أزل بين ربّي وموسى حتى جعلها خمسينأ، فقال: ارجع فاسأله التخفيف، فقلتُ: (٥٦/٢) إني قد استحييتُ من ربّي وما أنا براجع، فنوديتُ: إني قد فرضتُ عليك وعلى أمتك خمسين صلاة والخمس بخمسين، وقد أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي.

ثم انحدرتُ أنا وجبرائيل إلى مضجعي، وكان كلّ ذلك في ليلة واحدة.

فلما رجع إلى مكة علم أن الناس لا يصدّقونه، فقعده المسجد مغموماً، فمرّ به أبو جهل، فقال له كالمستهزئ: هل استفتدت الليلة شيئاً؟ قال: نعم، أسري بي الليلة إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرائي؟ فقال: نعم. فخاف أن يخبر بذلك عنه فيجحدّه النبي، فقال: أتخبر قومك بذلك؟ فقال: نعم. فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا فاقبلوا. فحدّتهم النبي، ﷺ،، فمن بين مصدّق ومكذّب [ومصدق] وواضع يده على رأسه، وارتدّ الناس ممّن كان آمن به وصدّقه.

وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: إن صاحبك يزعم كذا وكذا! فقال: إن كان ذلك فقد صدق، إني لأصدق بهما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فسَمّي أبو بكر الصديق من يومئذ.

قالوا: فأنعت لنا المسجد الأقصى. قال: فذهبْتُ أنعت. حتى التيس عليّ، قال: فجيء بالمسجد وإني أنظر إليه، فجعلتُ أنعته. قالوا: فأخبرنا عن غيرنا. قال: قد مررتُ على عير بني فلان بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه، فأخذتُ قدحاً فيه ماء فشربته، فسلوهم عن ذلك، ومررتُ بعير بني فلان وفلان فرأيتُ راكباً وقعوداً بذئ مرفرف بكركهما مني فسقط فلان فانكسرت يده، فسلوهما. قال:

وقيل: إن الزبير أسلم رابعاً أو خامساً، وأسلم خالد بن سعيد بن العاص خامساً.

وقال ابن إسحاق: أسلم هو وزوجه هُمَيْنَةُ بنت خَلَف بن أسعد بن عامر بن بياضة من خزاعة بعد جماعة كثيرة.

ذكر أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، بإظهار دعوته

ثم إن الله تعالى أمر النبي ﷺ، بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما يؤمر، وكان قبل ذلك في السنين الثلاث مستتراً بدعوته لا يُظهرها إلا لمن يثق به، فكان أصحابه إذا أرادوا الصلاة ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا، فينما سعد بن أبي وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعيد بن زيد يصلون في شِعْبٍ اطلَّع عليهم نفر من المشركين، منهم: أبو سفيان بن حرب، والأخنس بن شريق، وغيرهما، فسبَّوهم وعابوهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلُحْيٍ جمل فشجَّه، فكان أول دم أريق في الإسلام في قول.

قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ، فصعد على الصفا فهتف: يا صباحاه! فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف! فاجتمعوا إليه. فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح الجبل أكتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً. قال: فلاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك! أما جمعتنا إلا ل هذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿نَبِّئْ يَدَا أَيْبَى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١].

وقال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم: لما أنزل الله على رسوله ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعاً، فجلس في بيته كالمريض، فأتته عمَّاتُه يعنَّه، فقال: ما اشتكتُ شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فقلن له: فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك فدعاهم ﷺ فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً، فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلم ودع الصُّبَّةَ، واعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبة طاقة، وإن أحق من أخذك فجسك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب بك يطون قريش وتمنَّهم العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أيبه بشر ممَّا جثم به. فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانية وقال: الحمد لله، أحمدُه واستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصَّةً وإلى الناس عامة، والله ليموتنَّ كما تمانون، ولتبعنَّ كما تستيقظون،

إبراهيم، بعثني الله تعالى به إلى العباد، وأنت أحق من دعوته إلى الهدى وأحق من أجابني. قال: لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي، ولكن والله لا تخلص قريش إليك بشيء تكرهه ما حييت.

فلم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه. قال: وقال أبو طالب لعلي: ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبا! أنت بالله وبرسوله وصليت معه. فقال: أما إنه لا يدعوننا إلا إلى الخير فالزمه.

وقيل: أول من أسلم أبو بكر، رضي الله عنه.

قال الشعبي: سألت ابن عباس عن أول من أسلم، فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت:

إِذَا تَذَكَّرْتُ شَجْراً مِنْ أَخِي تَقَى فَاذْكُرْ أَخِيَّ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَتَّلَا
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ اتَّقَاهَا وَأَعْتَلَّهَا بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَّلَا (٥٩/٢)

الثاني التالي المحمود مشهته وأوَّلُ النَّاسِ مِنْهُمْ صَلَاقُ الرَّسُلَا
وقال عمرو بن عبَّسة: أثبت رسول الله ﷺ، بعكاظ فقلت: يا رسول الله من تبعك على هذا الأمر؟ قال: تبعني عليه حرٌّ وعبد، أبو بكر وبلال. فأسلمت عند ذلك، فلقد رأيتني رُبَّعَ الإسلام.

وكان أبو ذرَّ يقول: لقد رأيتني رُبَّعَ الإسلام لم يُسلم قبلي إلا النبي وأبو بكر وبلال.

وقال إبراهيم النخعي: أبو بكر أول من أسلم.

وقيل: أول من أسلم زيد بن حارثة.

قال الزُّهري وسليمان بن يسار وعمران بن أبي أنس وعروة بن الزُّبير: أول من أسلم زيد بن حارثة وكان هو وعليّ يلزمان النبي ﷺ، وكان، يخرج إلى الكعبة أول النهار ويصلي صلاة الضحى، وكانت قريش لا تتكرها، وكان إذا صلى غيرها قعد عليّ وزيد بن حارثة يرسدانه.

وقال ابن إسحاق: أول ذكر أسلم بعد النبي عليّ وزيد بن حارثة، ثم أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه، وكان مانعاً لقومه محبياً فيهم، وكان أعلمهم بأسباب قريش وما كان فيها، وكان تاجراً يجتمع إليه قومه، فجعل يدعو من يثق به من قومه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزُّبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى النبي ﷺ، حين استجابوا له فأسلموا وصلوا. وكان هؤلاء نفرهم الذين سبقوا إلى الإسلام، ثم تابع الناس في الإسلام حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس. (٦٠/٢)

قال الواقدي: وأسلم أبو ذرَّ، قالوا رابعاً أو خامساً، وأسلم عمرو بن عبَّسة السُّلَمي رابعاً أو خامساً.

ولتَحْسِنَ بما تعملون، وإنَّها الجنة أبداً والنار أبداً.

فقال أبو طالب: ما أحبَّ إلينا معاونتك وأقبلنا لنصحتك وأشدَّ تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أنني أسرعهم إلى ما تحبُّ، فامضِ لما أمرتَ به فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أنَّ نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوءة! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم. فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا. (٦٢/٢)

وقال علي بن أبي طالب: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعاني النبي، ﷺ، فقال يا علي إنَّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضمتُ ذرعاً وعلمتُ أني متى أبادرهم بهذا الأمر أرَّ منهم ما أكره، فصمتُ عليه حتى جاءني جبرائيل فقال: يا محمدُ لا تفعل ما تؤمر به يعذبك ربُّك. فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن واجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلهم وأبلغهم ما أمرتُ به. ففعلتُ ما أمرني به، ثمَّ دعوتهم، وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فلما اجتمعوا إليَّ دعاني بالطعام الذي صنعته لهم. فلما وضعتُ تناول رسول الله، ﷺ، حِزَّة من اللحم ففتنها بأسنانه ثمَّ ألقاها في نواحي الصحفة، ثمَّ قال: خذوا باسم الله، فاكل القومُ حتى مالهم بشيء من حاجة، وما أرى إلا مواضع أيديهم، وإيم الله الذي نفس عليَّ بيده إن كان الرجل الواحد منهم لياكل ما قدَّمْتُ لجميعهم! ثمَّ قال: اسقِ القوم، فجتهم بذلك العُسُ فشربوا منه حتى رووا جميعاً، وإيم الله إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله! فلما أراد رسول الله، ﷺ، أن يكلمهم بده أبو لهب إلى الكلام فقال: لهؤلاء ما سحرهم به صاحبكم، ففرَّق القوم ولم يكلمهم، ﷺ، فقال: الغد يا علي! إنَّ هذا الرجل سبقني إلى ما سمعتُ من القول ففرَّقوا قبل أن أكلهم، فعُدُّ لنا من الطعام بمثل ما صنعتُ ثمَّ اجمعهم إليَّ.

ففعل مثل ما فعل بالأمس، فاكلوا، وسقيتهم ذلك العُسُ، فشربوا حتى رووا جميعاً وشبعوا، ثمَّ تكلم رسول الله، ﷺ، فقال: يا بني (٦٣/٢) عبد المطلب إنِّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممَّا قد جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكُم يؤازرنِي على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلتُ: وإنِّي لأحدثهم سنّاً وأرمضهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحشمهم ساقاً: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقيتي ثمَّ قال: إنَّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. قال: فقام القوم يضحكون فيقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

وأمر رسول الله، ﷺ، أن يصعد بما جاءه من عند الله وأن

يأدب الناس بأمره ويدعوهم إلى الله، فكان يدعو في أوَّل ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بالظهور للدعاء، ثمَّ صعد بأمر الله وبدأ قومه بالإسلام، فلم يبعدها منه ولم يردوا عليه إلا بعض الردِّ، حتى ذكر ألهتهم وعابها. فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه إلا من عصمه الله منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون. وخدب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله، ﷺ، على أمر الله مظهرًا لأمره لا يردُّه شيء.

فلما رأت قريش أنه، ﷺ، لا يُعتهم من شيء يكرهونه، وإنَّ أبا طالب قد قام دونه ولم يُسلمه لهم، مشى رجالٌ من أشrafهم إلى أبي طالب: عُبَّة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البخري بن هشام، والأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، وشيبة ومُتبه ابنا الحجاج، ومن مشى منهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنَّ ابن أخيك قد سبَّ ألهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّ آباءنا، فإسأ أن تكفَّ عنا وإمَّا أن تخلي بيتنا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه. فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردَّهم ردّاً رقيقاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله، ﷺ، صلى (٦٤/٢) الله عليه وسلم، لما هو عليه.

ثمَّ شرى الأمر بينه وبينهم حتى تبادل الرجال قضاغتنا وأكثرت قريش ذكر رسول الله، ﷺ، وتذامروا فيه، فمشوا إلى أبي طالب مرَّة أخرى فقالوا: يا أبا طالب إنَّ لك سنّاً وشرفاً، وإنَّا قد اشتبهناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل، وإنَّا والله لا نصبر على هذا من شتم ألهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفَّ عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا، ثم انصرفوا عنه.

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداتهم له ولم يطب نفسه بإسلام رسول الله، ﷺ، وخذلانه، وبعث إلى رسول الله، ﷺ، فاعلمه ما قالت قريش وقال له: أبقِ على نفسك وعليَّ ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظنَّ رسول الله، ﷺ، أنه قد بدا لعمه [بدوا] وأنه خذله وقد ضعف عن نصرته، فقال رسول الله، ﷺ،: يا عمَّاه لو وضعا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. ثمَّ بكى رسول الله، ﷺ، وقام. فلما ولَّى ناداه أبو طالب، فأقبل عليه وقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

فلما علمت قريش أنَّ أبا طالب لا يخذل رسول الله، ﷺ، وأنه يجمع لعداوتهم مشوا بعمارة بن الوليد فقالوا: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد فتى قريش وأشعرهم وأجملهم، فخذْه فلنك عقله ونصرته فاتخذْه ولداً، واسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفَّه أحلامنا وخالف دينك ودين (٦٥/٢) آبائك وفرَّق جماعة قومك نقتله، فإنما رجل برجل. فقال: والله لبس ما تسوموني، أتعطوني ابنكم أغذره لكم وأعطيتكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لا يكون أبداً! فقال المُطعم بن

يمر به وهو يعذب وهو يقول: أحد أحد. فيقول: أحد أحد والله يا بلال. ثم يقول لأمية: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً. فرأه أبو بكر يعذب فقال لأمية بن خلف الجمحي: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ فقال: أنت أفسدته فأبعدته. فقال: عندي غلام على دينك (٦٧/٢) أسود أجلد من هذا أعطيك به. قال: قبلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالاً فأعاقه، فهاجر وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، ﷺ.

ومنها: عمار بن ياسر أبو اليقظان العنسي، وهو بطن من مُراد وعَنَس هذا بالنون-، أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً ورسول الله، ﷺ، في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلاً، أسلم هو وصُهِبَ في يوم واحد، وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم، فكانوا يُخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حُميت الرمضاء يعذبونهم بحر الرمضاء، فمر بهم النبي، ﷺ، فقال: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة. فمات ياسر في العذاب وأغلظت امرأته سُميَةَ القول لأبي جهل، فطعنها في قُبُلها بحجرة في يديه فماتت، وهي أول شهيد في الإسلام، وشدّدوا العذاب على عمار بالحرّ تارة ويوضع الصخر على صدره أخرى وبالتغريق أخرى، فقالوا: لا تركك حتى تسب محمداً وتقول في اللات والعزى خيراً، ففعل، فتركوه، فأثنى النبي، ﷺ، يكي. فقال: ما وراءك؟ قال: شرّ يا رسول الله، كان الأمر كذا وكذا. قال: فكيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئناً بالإيمان. فقال: يا عمار إن عادوا فعد، فانزل الله تعالى: ﴿لَا مَنَ أَكْزَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ فشهد المشاهد كلها مع رسول الله وقُتل بصفيين مع عليّ وقد جاوز التسعين، قيل بثلاث، وقيل بأربع سنين.

ومنها: خُباب بن الأرت، كان أبوه سوادياً من كَسَكِر، فسياء قوم من ربيعة وحملوه إلى مكة فباعوه من مبياع بن عبد العزى الخزاعي حليف بني زُهرة، وسباع هو الذي بارزه حمزة يوم أحد، وخُباب تميمي، وكان (٦٨/٢) إسلامه قديماً، قيل سادس ستة قبل دخول رسول الله، ﷺ، دار الأرقم، فأخذه الكفار وعذبوه عذاباً شديداً، فكانوا يُعَرِّثونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف، وهي الحجارة المحماة بالنار، ولووا رأسه، فلم يجبههم إلى شيء مما أرادوا منه، وهاجر وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، ﷺ، ونزل الكوفة، ومات سنة ست وثلاثين.

ومنها: صُهَيْب بن سنان الرومي، ولم يكن رومياً، وإنما نسب إليهم لأنهم سيوه وباعوه، وقيل: لأنه كان أحمر اللون، وهو من النير بن قاسط، كتبه رسول الله، ﷺ، أبا يحيى قبل أن يولد له، وكان ممسكاً يُعَذَّب في الله فعُذِّب عذاباً شديداً. ولما أراد الهجرة منعته قريش. فافتدى نفسه منهم بماله أجمع، وجعله عمر بن الخطاب عند موته يصلّي بالناس إلى أن يستخلف بعض أهل الشورى، وتوفي بالمدينة في شوال من سنة ثمان وثلاثين وعمره سبعون سنة.

عدي بن نوفل بن عبد مناف: والله لقد أنصفتك قومك وما أراك تريد أن تقبل منهم! فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ فأصنع ما بدا لك.

فاشتد الأمر عند ذلك وتناذب القوم واشتدّت قريش على من في القبائل من الصحابة الذين أسلموا، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله بمعه أبي طالب، وقام أبو طالب في بني هاشم فدعاهم إلى منع رسول الله، ﷺ، فأجابوا إلى ذلك واجتمعوا إليه إلا ما كان من أبي لهب.

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه أقبل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله، ﷺ، فيهم. وقد مشّت قريش إلى أبي طالب عند موته وقالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمرّه فليكف عن شتم ألهتنا وندعه وإلهه. فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه قال له: هؤلاء سروات قومك يسألونك أن تكف عن شتم ألهتهم ويدعوك وإلهك. قال له رسول الله، ﷺ،: أي عمّ! أؤلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها يقولونها تدين لهم بها العرب ويملكون رقاب العجم؟ فقال أبو جهل: ما هي وأبيك لتعطينكها وعشر أمثالها؟ قال: تقولون لا إله إلا الله، فنفروا وتفرقوا وقالوا: سلّ غيرها. فقال: لو جتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها. قال: فغضبوا وقاموا من عنده غضابى وقالوا: والله لنشتمك وإلهك الذي يأمرك بهذا! ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَن امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦٧]، إلى قوله: ﴿إِلَّا اخْتَلَفُ﴾، وأقبل على عمّه فقال: (٦٦/٢) قلّ كلمة أشهد لك بها يوم القيامة. قال: لولا أن تعيكم بها العرب وتقول جزع من الموت لأعطينكها، ولكن على ملة الأشياخ، فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٦٥].

ذكر تعذيب المستضعفين من المسلمين

وهم الذين سبقوا إلى الإسلام ولا عاشر لهم تمنعهم ولا قوة لهم يمتنعون بها، فأما من كانت له عشيرة تمنعه فلم يصل الكفار إليه، فلما رأوا امتناع من له عشيرة وثبت كلّ قبيلة على من فيها من مستضعفي المسلمين فجمعوا يجسّونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم عن دينهم، ففهم من يفتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يتصلّب في دينه ويعصمه الله منهم.

فمنهم: بلال بن رباح الحبشي مولى أبي بكر وكان أبوه من سبي الحبشة، وأمه حمامة سبيّة أيضاً، وهو من مولدي السراة، وكنيته أبو عبد الله، فصار بلال لأمية بن خلف الجمحي، فكان إذا حُميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره، ويقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فكان ورّقه بن نوفل

أيك وهو خير منك! ويقبح رأيه وفعله ويسفّه حلمه ويضع شرفه، وإن كان تاجراً يقول: ستكسد تجارتك ويهلك مالك، وإن كان ضعيفاً أغرى به حتى يعذب.

ذكر المستهزئين ومن كان أشد الأذى للنبي، صلى

الله عليه وسلم

وهم جماعة من قريش، فمنهم: عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، كان شديداً عليه وعلى المسلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى، فكان يطرح العذرة والتن على باب النبي ﷺ، وكان جاره، فكان رسول الله ﷺ يقول: أي جوار هذا يا بني عبد المطلب!

فراه يوماً حمزة فآخذ العذرة وطرحها على رأس أبي لهب، فجعل ينفضها عن راسه ويقول: صاحبي أحمق وأقصر عما كان يفعله لكنه يضع من يفعل ذلك.

ومات أبو لهب بمكة عند وصول الخبر بانتهزام المشركين ببدر بعرض (٧١/٢) يُعرف بالقدسة.

ومنهم: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زُفَرة، وهو ابن خال النبي ﷺ، وكان من المستهزئين، وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى. وكان يقول للنبي ﷺ: أما كلمت اليوم من السماء يا محمد! وما أشبه ذلك. فخرج من أهله فاصابه السُومُ فأسود وجهه، فلما عاد إليهم لم يعرفوه وأغلَقُوا الباب دونه، فرجع متحيراً حتى مات عطشاً. وقيل: إن جبرائيل أوما إلى السماء فاصابته الأكلة فامتلاً قيحاً فمات.

ومنهم: الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم السهمي، كان أحد المستهزئين الذين يؤذون رسول الله ﷺ، وهو ابن الغَظَلَة، وهي أمه، وكان يأخذ حجراً يعبده، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني. وكان يقول: قد غر محمد أصحابه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر، وفيه نزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجن: ٢٣] وأكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب الماء حتى مات، وقيل: أخذته الذبحة، وقيل: امتلأ راسه قيحاً فمات.

ومنهم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، وكان الوليد يكتي أبا عبد شمس، وهو العدل، لأنه كان عدل قريش كلها، لأن قريشاً كانت تكسو البيت جميعها وكان الوليد يكسوه وحده، وهو الذي جمع قريشاً وقال: إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسالونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: ساحر، ويقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحداً مما يقولون، ولكن أصلح ما قيل فيه ساحر لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته. وقال أبو جهل: لنن سب محمد ألهتنا سبينا (٧٢/٢) إلهه،

وأما عامر بن فُهيرة فهو مولى الطفيل بن عبد الله الأزدي، وكان الطفيل أخا عائشة لأمها أم رومان، أسلم قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ، دار الأرقم، وكان من المستضعفين يعذب في الله، فلم يرجع عن دينه، واشتراه أبو بكر وأعتقه، فكان يرعى غنماً له، وكان يروح بغنم أبي بكر إلى النبي ﷺ، وإلى أبي بكر لما كان في الغار، وهاجر معهما إلى المدينة يخدمهما، وشهد بدرًا وأُحُدًا، واستشهد يوم بدر مؤمنة وله أربعون سنة. ولما طعن قال: فُزْتُ ورب الكعبة! ولم توجد جثته لتدفن مع القتلى، فقيل: إن الملائكة دفنته.

ومنهم: أبو فُكَيْهَة، واسمه أنلح، وقيل يسار، وكان عبداً لصفوان (٦٩/٢) ابن أمية بن خلف الجُمَحِي، أسلم مع بلال، فأخذه أمية بن خلف وربط في رجله حبلاً وأمر به فجز ثم ألقاه في الرمضاء، ومَرَّ به فجعل فقال له أمية: أليس هذا ربك؟ فقال: الله ربي وربك ورب هذا، فخفقه خفقا شديداً، ومعه أخوه أبي بن خلف يقول: زده عذاباً حتى يأتي محمداً فيخلصه بسحره، ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات، ثم أفاق، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه.

وقيل: إن بني عبد الدار كانوا يعذبونه، وإنما كان مولى لهم، وكانوا يضعون الصخرة على صدره حتى دلع لسانه فلم يرجع عن دينه، وهاجر ومات قبل بدر.

ومنهم: لبيبة جارية بني مؤمل بن حبيب بن عدي بن كعب، أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب، وكان عمر يعذبها بها حتى تقتن ثم يدعها، ويقول: إنني لم أدعك إلا سامة، فتقول: كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم، فاشترها أبو بكر فاعتقها.

ومنهم: زُبَيْرَة، وكانت لبني عدي، وكان عمر يعذبها، وقيل: كانت لبني مخزوم، وكان أبو جهل يعذبها حتى عمت، فقال لها: إن السلات والعزى فعلا بك. فقالت: وما يدري السلات والعزى من يعلبهما؟ ولكن هذا أمر من السماء وربِّي قادر على رد بصري، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا من سحر محمد، فاشترها أبو بكر فاعتقها.

(زُبَيْرَة بكسر الزاي، وتشديد النون، وتسكين الباء المشاة من تحتها، وفتح الراء).

ومنهم: الهُدَية. مولا لبني نهْد، فصارت لامرأة من بني عبد الدار (٧٠/٢) فأسلمت، وكانت تعذبها وتقول: والله لا أقلعت عنك أو يتاعك بعض أصحاب محمد، فابتاعها أبو بكر فاعتقها.

ومنهم: أم عُبَيْس، بالباء الموحدة. وقيل عُبَيْس، بالنون، وهي أم لبني زُهرة، فكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها، فابتاعها أبو بكر فاعتقها.

وكان أبو جهل يأتي الرجل الشريف ويقول له: أتترك دينك ودين

فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. ومات بعد الهجرة بعد ثلاثة أشهر وهو ابن خمس وتسعين سنة، ودُفن بالحجون، وكان مراً برجل من خزاعة يريش نبلاً له فوطيء على سهم منها فخدشه، ثم أوما جبرائيل إلى ذلك الخدش بيده فانتقض ومات منه، فأوصى إلى بنيه أن يأخذوا دينه من خزاعة، فأعطت خزاعة دينه.

ومنهم: أمية وأبي ابنا خلف، وكانا على شر ما عليه أحد من أذى رسول الله، ﷺ، وتكذيبه، جاء أبي إليه، ﷺ، بعظم فخذ ففتنه في يده وقال: زعمت أن ربك يحيي هذا العظم، فنزلت: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يسين: ١٧٨]. وصنع عقبة بن أبي معيط طعاماً ودعا إليه رسول الله، ﷺ، فقال: لا أحضره حتى تشهد أن لا إله إلا الله، ففعل، فقام معه، فقال له أمية بن خلف: أقلت كذا وكذا؟ فقال: إنما قلت ذلك لطعامنا، فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُ يَعْنِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧]. وقُتل أمية يوم بدر كافراً، قتله خبيب ويلا، وقيل: قتله رفاعه بن رافع الأنصاري. وأما أخوه أبي فقتله رسول الله، ﷺ، يوم أحد، رماه بحربة فقتله.

ومنهم: أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، وكان ممن يؤذي رسول الله، ﷺ، ويعين أبا جهل على أذاه، قتله حمزة يوم بدر.

ومنهم: العاص بن وائل السهمي، والد عمرو بن العاص، وكان من المستهزئين، وهو القائل لما مات القاسم ابن النبي، ﷺ، (٧٣/٢) إن محمداً أبتر لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل: ﴿إِنْ شِئْنَا نَكُنْ هَؤُلَاءِ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] فركب حماراً له فلما كان بشعب من شعاب مكة رضى به حماره فلُدغ في رجله فانتفخت حتى صارت كعنت البعير، فمات منها بعد هجرة النبي، ﷺ، ثاني شهر دخل المدينة وهو ابن خمس وثمانين سنة.

ومنهم: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلفة بن عبدمناف بن عبد الدار، يكنى أبا قائد، وكان أشد قريش في تكذيب النبي، ﷺ، والأذى له ولأصحابه، وكان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى، وسمع بذكر النبي، ﷺ، وقرب مبعثه، فقال: إن جانا نذير لنكونن أهدي من إحدى الأمم، فنزلت: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] الآية. وكان يقول: إنما يأتيكم محمدٌ بأساطير الأولين، فنزل فيه عدة آيات. أسره المقيّد يوم بدر وأمر رسول الله، ﷺ، بضرب عنقه، فقتله علي بن أبي طالب صبراً بالأكليل.

ومنهم: أبو جهل بن هشام المخزومي، وكان أشد الناس عدواة للنبي، ﷺ، وأكثرهم أذى له ولأصحابه، واسمه عمرو، وكنيته أبو الحكم، وأما أبو جهل فالمسلمون كتبه به، وهو الذي قتل سمية أم عمّار بن ياسر، وأفعاله مشهورة، وقُتل بيد، قتله ابنا عفراء، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود.

ومنهم ثنية وثنية ابنا الحجاج السهماني، وكانا على ما كان عليه أصحابهما من أذى رسول الله، ﷺ، والطعن عليه، وكانا يلقيانه فيقولان له: أما وجد من يبعث غيرك؟ إن هاهنا من هو أسن منك وأيسر. فقتل ثنية، قتله علي بن أبي طالب بيد، وقُتل أيضاً (٧٤/٢) العاص بن مته بن الحجاج، قتله أيضاً علي بيد، وهو صاحب ذي الفقار، وقيل مته بن الحجاج صاحبه، وقيل ثنية.

(ثنية بضم النون، وفتح الباء الموحدة)

ومنهم: زهير بن أبي أمية أخو أم سلمة لأبيها، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، وكان ممن يظهر تكذيب رسول الله، ﷺ، ويرد ما جاء به ويطعن عليه إلا أنه ممن أعان على تقصص الصحيفة. واختلف في موته فقيل: سار إلى بدر فمرض فمات، وقيل: أسر بيد فاطمه رسول الله، ﷺ، فلما عاد مات بمكة، وقيل: حضر وقعة أحد أصابه سهم فمات منه، وقيل: سار إلى اليمن بعد الفتح فمات هناك كافراً.

ومنهم: عقبة بن أبي معيط، واسم أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبدشمس، ويكنى أبا الوليد، وكان من أشد الناس أذى لرسول الله، ﷺ، وعدواة له وللمسلمين، عمد إلى مكمل فجعل فيه غذرة وجعله على باب رسول الله، ﷺ، فبصر به طليب بن عُمير بن وهب بن عبدمناف بن قصي، وأمه أروى بنت عبد المطلب، فآخذ المكمل منه وضرب به رأسه وأخذ بأذنيه، فشكاها عقبة إلى أمه فقال: قد صار ابنك ينصر محمداً. فقالت: ومن أولى به منا؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد. وأسر عقبة بيد فقتل صبراً، قتله عاصم بن ثابت الأنصاري، فلما أراد قتله قال: يا محمد من للصبي؟ قال: النار. قُتل بالصفراء، وقيل بعرق الظبية، وصلب، وهو أول مصلوب في الإسلام.

ومنهم: الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وكان من المستهزئين، ويكنى أبا زمعة، وكان وأصحابه يتغامزون بالنبي، صلى الله (٧٥/٢) عليه وسلم، وأصحابه ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر، ويصفرون به ويصفقون، فدعا عليه رسول الله، ﷺ، أن يعمي ويثكل ولده، فجلس في ظل شجرة فجعل جبرائيل يضرب وجهه وعينه بورقة من ورقها ويشوكها حتى عمي، وقيل: أوما إلى عينيه فعمي فشغله عن رسول الله، ﷺ، وقُتل ابنه معه بيد كافراً، قتله أبو دجاجة، وقُتل ابن ابنه عقيب، قتله حمزة وعلي اشتراكاً في قتله، وقُتل ابن ابنه الحارث بن زمعة بن الأسود، قتله علي، وقيل: هو الحارث بن الأسود، والأول أصح، وهو القائل:

أبكي أن يفضل لها بغيرٍ ومنعها من النجوم الشهود
ومات والناس يتجهزون إلى أحد وهو يحرض الكفار وهو مريض

ومَنَّمَا التَّالِيَةَ الْآخَرَى ﴿النجم: ١٩-٢٠﴾؛ ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه: تلك الغرائق العُلى، وإن شفاعتهن لَتُرْتَجى. فلما سمعت ذلك قريش سرهم والمسلمون مصدقون بذلك لرسول الله ﷺ، لا يَتَهَمُونَهُ ولا يَظُنُّونَ به سهواً ولا خطأً. فلَمَّا انتهى إلى سجدته سجد معه المسلمون والمشركون إلّا الوليد بن المغيرة، فإنه لم يُطِقِ السجود لكبره، فأخذ كفّاً من البطحاء فمسجد عليها. ثم تفرّق الناس. وبلغ الخبر مَنْ بالحبشة من المسلمين أنّ قريشاً أسلمت، فعاد منهم قوم وتخلف قوم، وأتى جبرائيل رسول الله ﷺ، فأخبره بما قرأ، فحزن رسول الله ﷺ، وخاف، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى شَيْطَانُ فِي أُمْنِيهِ﴾ [الحج: ٥٢]؛ فذهب عنه الحزن والخوف.

واشَدَّتْ قريش على المسلمين، فلَمَّا قرب المسلمون الذين كانوا بالحبشة من مكة بلغهم أنّ إسلام أهل مكة باطل، فلم يدخل أحد منهم إلّا بجوار أو مستخفياً، فدخل عثمان في جوار أبي أُحَيَّة سعيد بن العاص بن أمية، فأمن بذلك، ودخل أبو حذيفة بن عتبة بجوار أبيه، ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة، ثُمَّ قال: أكون في ذمة مشرك! جوار الله أعز، فردّ عليه جواره، وكان لبيد بن ربيعة ينشد قريشاً قوله: (٧٨/٢)

الأكْلُ شَيْءٌ مَا خلا الله باطلٌ

فقال عثمان بن مظعون: صدقت، فلَمَّا قال:

وكلُّ نعيمٍ لا مَحَالَةَ زائلٌ

قال: كذبت! نعيم الجنة لا يزول، فقال لبيد: يا معشر قريش ما كانت مجالسكم هكذا ولا كان السفه من شأنكم. فأخبروه خبره وخبر ذمته، فقام بعض بني المغيرة فلطم عين عثمان، فضحك الوليد شماتة به حيث ردّ جواره، وقال لعثمان: ما كان أغناك عن هذا! فقال: [إنّ] عيني الأخرى لمحتاجة إلى مثل ما نالت هذه. فقال له: هل لك أن تعود إلى جوارى؟ قال: لا أعود إلى جوار غير الله. فقام سعد بن أبي وقاص إلى الذي لطم عين عثمان فكسر أنفه، فكان أوّل دم أريق في الإسلام في قول.

وأقام المسلمون بمكة يؤفّون، فلَمَّا رأوا ذلك رجعوا مهاجرين إلى الحبشة ثانياً، فخرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون إلى الحبشة، فأكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلاً، والنبي ﷺ، مقيم بمكة يدعو إلى الله سرّاً وجهراً، فلَمَّا رأت قريش أنه لا سبيل لها إليه رموه بالسحر والكهانة والجنون وأنه شاعر، وجعلوا يصدّون عنه مَنْ خافوا أن يسمع قوله، وكان أشدّ ما بلغوا منه ما ذكره عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: حضرت قريش يوماً بالبحر فذكروا النبي ﷺ، وما نال منهم وصبرهم عليه، فينماهم كذلك إذ طلع النبي ﷺ، ومشى حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً، فغمزوه ببعض القول، فعرفت

ومَنهم: طُعَيْمَةُ بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف، يكنى أبا الرّيان، وكان مَن يُوذِي رسول الله ﷺ، ويشتمه ويسمّعه ويكذّبه، وأسر بدر، وقُتل كافراً صبراً، قتله حمزة.

ومَنهم: مالك بن الطلالَة بن عمرو بن غبشان من المستهزئين، وكان سفيهاً، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فأشار جبرائيل إلى رأسه فامتلاً قيحاً فمات.

ومَنهم: ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، كان شديد العدواة، لقي النبي ﷺ، فقال: يا ابن أخي بلغني عنك أمر ولست بكذاب، فإن صرعتني علمت أنّك صادق، ولم يكن يصصره أحد، فصصره (٧٦/٢) النبي ﷺ، ثلاث مرّات، ودعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقال: لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة فقال ﷺ: أقبلي، فأقبلت تخذ الأرض. فقال ركانة: ما رأيت سحراً أعظم من هذا، فمرّها فلترجع، فأمرها فعدت. فقال: هذا سحر عظيم.

هؤلاء أشدّ عدواة لرسول الله ﷺ، ومَن عداهم من رؤساء قريش كانوا أقلّ عدواة من هؤلاء، كعتبة وشيبة وغيرهما، وكان جماعة من قريش من أشدّ الناس عليه فأسلموا، تركنا ذكرهم لذلك. منهم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية المخزوميّ آخر أم سلمة لأبيها، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن حرب، والحكم بن أبي العاص، والد مروان وغيرهم، أسلموا يوم الفتح.

ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة

ولما رأى رسول الله ﷺ، ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانة من الله، عزّ وجلّ، وعمّه أبي طالب وآله لا يقدر على أن يمنعهم قال: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً ممّا أنتم فيه.

فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوّل هجرة في الإسلام، فخرج عثمان بن عفان وزوجته رُفَيَّة ابنة النبي ﷺ، معه، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام، وغيرهم تمام عشرة رجال، وقيل: (٧٧/٢) أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان مسيرهم في رجب سنة خمس من النبوة وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة، فأقاموا شعبان وشهر رمضان.

وقدموا في شوال سنة خمس من النبوة، وكان سبب قدومهم إلى النبي ﷺ، [أنه] لما رأى مباحدة قومه له شقّ عليه وتمنى أن يأتيه الله بشيء يباريهم به، وحدث نفسه بذلك، فأنزل الله: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]؛ فلَمَّا وصل إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَؤَزَّىٰ﴾

به وصدقناه وحرّمنا ما حرّم علينا وحلّلنا ما أحلّ لنا، فتعدّى علينا قوماً فعذبونا وقتلونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين (٨١/٢) ديننا خرجنا إلى بلادك واختركناك على من سواك ورجونا أن لا نُظلمَ عندك أيّها الملك.

فقال النجاشي: هل معك ممّا جاء به عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه سطرًا من كهيعص، فيكفي النجاشي وأسافقته، وقال النجاشي: إنّ هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبدًا!

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأتيته غداً بما يُبِيد خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي أمية، وكان أنفى الرجلين: لا تفعل فإن لهم أرحاماً.

فلما كان الغد قال للنجاشي: إنّ هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً. فأرسل النجاشي فسألهم عن قولهم في المسيح. فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فآخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: ما عدا عيسى ما قلت هذا العود فنخرت بطارقه، فقال: وإن نخرتم. وقال للمسلمين: اذهبوا فانتم آمنون ما أحبّ أن لي جيلاً من ذهب وأنني أذيت رجلاً منكم. وردّ هدية قريش وقال: ما أخذ الله الرشوة مني حتى آخذها منكم، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه. وأقام المسلمون بخير دار.

وظهر ملك من الحبشة فتازع النجاشي في ملكه، فعظم ذلك على المسلمين، ومار النجاشي إليه ليقاّله، وأرسل المسلمون الزبير بن العوام ليأتيهم بخبره، (٨٢/٢) وهم يدعون له، فاقبلوا، فظفر النجاشي فما سُرّ المسلمون بشيء سرورهم بظفره.

قيل: إنّ معنى قوله إنّ الله لم يأخذ الرشوة مني، أنّ أبا النجاشي لم يكن له ولد غيره، وكان له عمّ قد أولد اثني عشر ولداً، فقالت الحبشة: لو قتلنا أبا النجاشي وملكتنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وكان أخوه وأولاده يتوارثون الملك دهرًا. فقتلوا أباه وملكوا عمّه ومكثوا على ذلك حيناً، وبقي النجاشي عند عمّه، وكان عاقلاً، فغلب على أمر عمّه، فخافت الحبشة أن يقتلهم جزاء لقتل أبيه، فقالوا لعمّه: إما أن تقتل النجاشي وإما أن تُخرجه من بين أظهرنا فقد خضناه. فاجابهم إلى إخراجهم من بلادهم على كرو منه، فخرجوا إلى السوق فباعوه من تاجر بستمّة درهم. فسار به التاجر في سفينته. فلما جاء العشاء حاجت سحابة فأصاب عمّه بصاعقة، ففزع الحبشة إلى أولاده، فإذا هم لا خير فيهم، فهرج على الحبشة أمرهم، فقال بعضهم: والله لا يقيم أمركم إلّا النجاشي، فإن كان لكم بالحبشة رأي فأدركوه.

فخرجوا في طلبه حتى أدركوه وملكوه. وجاء التاجر وقال لهم:

ذلك في وجهه، (٧٩/٢) ثم مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه مثلها ثم الثالثة، فقال: أنسمعون يا معشر قريش؟ والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح. قال: فكأنما على رؤوسهم الطير واقع حتى إنّ أشدّهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد. وانصرف رسول الله، ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم حتى إذا أتاكم بما تكرهون تركموه؛ فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله، ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ فيقول: أنا الذي أقول ذلك، فأخذ عقبة ابن أبي معيط برأسته، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يكي: ويلكم! «اتَّقُوا رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ» [غافر: ٢٨] ثم انصرفوا عنه. هذا أشدّ ما بلغت عنه.

ذكر إرسال قريش إلى النجاشي في طلب المهاجرين

لما رأت قريش أنّ المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وأمنوا، وأنّ النجاشي قد أحسن صحبتهم، اتّمروا بينهم فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي أمية ومعهما هدية إليه وإلى أعيان أصحابه، فسارا حتى وصلا الحبشة، فحملا إلى النجاشي هديته وإلى أصحابه هداياهم وقالوا لهم: إنّ ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن (٨٠/٢) ولا أنتم، وقد أرسلنا أشراف قومهم إلى الملك ليردّهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يرسلهم معنا من غير أن يكلمهم، وخافا إن يسمع النجاشي كلام المسلمين أن لا يسلمهم. فوعدهما أصحاب النجاشي المساعدة على ما يريدان.

ثم إنهما حضرا عند النجاشي فأعلماه ما قد قالاه، فأشار أصحابه بتسليم المسلمين إليهما. فغضب من ذلك وقال: لا والله لا أسلم قوماً جاوروني ونزلوا بلادني واختاروني على من سواي حتى أدعوهوم وأسألهم عمّا يقول هذان، فإن كانا صادقين سلّمتهما إليهما، وإن كانوا على غير ما يذكر هذان منعتهم وأحسنت جوارهم.

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي، ﷺ، فدعاهم فحضرُوا، وقد أجمعوا على صدقه فيما ساءه ومسرّه، وكان المتكلّم عنهم جعفر بن أبي طالب. فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل؟ فقال جعفر: أيّها الملك كنّا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القويّ من الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا لتوحيد الله وإن لا نُشرك به شيئاً ونخلص ما كنّا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام. وعدّد عليه أمور الإسلام، قال: فأمنّا

ذكر إسلام عمر بن الخطاب

ثم أسلم عمر بعد تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين امرأة، وقيل: أسلم بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة، وقيل: أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة، وكان رجلاً جلدًا منيعاً، وأسلم بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة. وكان أصحاب النبي، ﷺ، لا يقدرون يصلون عن الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عندها وصلى معه أصحاب النبي، ﷺ.

وكان قد أسلم قبله حمزة بن عبد المطلب، فقوي المسلمون بهما، وعلما أنهما سيمتعا رسول الله، ﷺ، والمسلمين.

قالت أم عبد الله بنت أبي حثمة، وكانت زوج عامر بن ربيعة: إنا لنرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف عليّ، وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدة، فقال: انتظّلون يا أم عبد الله؟ قالت: قلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، فقد أذيتونا وقهرتونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً. قالت: فقال: صَحبكم الله، ورايت له رقةً وحزناً. قالت: فلما عاد عامر أخبرته وقلت له: لو رايت عَمَرَ ورقته وحزنه علينا! قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم. فقال: لا يُسَلَم حتى يسلم حمار الخطاب، لما كان يرى من غلظته وشدة على المسلمين، فهده الله تعالى (٨٥/٢) فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين.

وكان سبب إسلامه أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن زيد ابن عمرو العدوي، وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان نُعَيْم بن عبد الله النخام العدوي قد أسلم أيضاً وهو يخفي إسلامه فرقاً من قومه، وكان خِباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً ومعه سيفه يريد النبي، ﷺ، والمسلمين، وهم مجتمعون في دار الأرقم عند الصفا، وعنده من لم يهاجر من المسلمين في نحو أربعين رجلاً، فلقيه نُعَيْم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً الذي فَرَّقَ أمر قريش وعاب دينها فاقته. فقال نُعَيْم: والله لقد غرّك نفسك، أتري بني عبد مناف تاركيك تشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهلي؟ قال: خنتك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة، فقد والله أسلما.

فرجع عمر إليهما وعندهما خِباب بن الأرت يقرئهما القرآن. فلما سمعا حسَّ عمر تغيب خِباب وأخذت فاطمة الصحيفة فالتفتا تحت فخذيهما، وقد سمع عمر قراءة خِباب. فلما دخل قال: ما هذه الهزيمة؟ قالوا: ما سمعت شيئاً؟ قال: بلى، قد أخبرت أنكما تابعتما محمداً، ويطش بخته سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته لتكفّه، فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته: قد أسلمنا وأماناً بالله ورسوله، فاصنع ما شئت.

إمّا أن تعطوني مالي وإمّا أن أكلمه. فقالوا: كلمه. فقال: أيها الملك، ابتعت غلاماً بستمانه درهم ثم أخذوا الغلام والمال. فقال النجاشي: إمّا أن تعطوه دراهمه وإمّا أن يضع الغلام يده في يده فليذهبن به حيث شاء. فاعطوه دراهمه؛ فهذا معنى قوله. فكان ذلك أول ما علّم من عدله ودينه.

قال: ولما مات النجاشي كانوا لا يزالون يرون علس قبره نوراً. (٨٣/٢)

ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب

ثم إن أبا جهل مَرَّ رسول الله، ﷺ، وهو جالس عند الصفا، فأذاه وشتمه ونال منه وعاب دينه، ومولاة لعبد الله بن جُدعان في مسكن لها تسمع ذلك. ثم انصرف عنه فجلس في نادي قريش عند الكعبة، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل من قصصه متوشحاً قوسه، وكان إذا رجع لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان يقف على أندية قريش ويسلم عليهم ويتحدث معهم، وكان أعز قريش وأشدهم شكيمة. فلما مَرَّ بالموالاة، وقد قام رسول الله، ﷺ، ورجع إلى بيته، قالت له: يا أبا عُمارة لو رايت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام فإنه سبه وأذاه ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد. قال: فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج سريعاً لا يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالكعبة معذراً لأبي جهل إذا لقيه أن يَقَع به، حتى دخل المسجد، فرآه جالساً في القوم، فأقبل نحوه وضرب رأسه بالقوس فشجّه شجّة منكّرة، وقال: اتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فاردّد عليّ إن استطعت.

وقامت رجال بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة فإنني سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. وتم حمزة على إسلامه.

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله، ﷺ، قد عزّ، وأن حمزة سيمتعه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

واجتمع يوماً أصحابه فقالوا: ما سمعت قريش القرآن يُجهرُ لها به، فمن رجل يُسمعههم؟ فقال ابن مسعود: أنا. فقالوا: نخشى عليك إنما تريد من له عشيرة. يمنعه. قال: إن الله سيمعني. فغدا عليهم في الضحى حتى أتى المقام وقريش في أنديتها ثم رفع صوته وقرأ سورة الرحمن، فلما علمت (٨٤/٢) قريش أنه يقرأ القرآن قاموا إليه يضربونه وهو يقرأ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم اليوم، ولنن شتم لأغاديهم. قالوا: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وقال لها: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد. قالت: إنا نخشاك عليها، فحلف أنه يعيدها. قالت له، وقد طمعت في إسلامه: إنك نجس على شركك ولا يمسها إلا المطهرون، فقام فاغتسل. فاعطته الصحيفة وقراها، (٨٦/٢) وفيها: طه وكان كاتباً فلماً قرأ بعضها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلماً سمع حجاب خرج إليه وقال: يا عمر إني والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم آيد الإسلام بعمر ابن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام، فالله الله يا عمر! فقال عمر عند ذلك: فدلني يا حجاب على محمد حتى آتيه فأسلم. فدلّه حجاب، فأخذ سيفه وجاء إلى النبي ﷺ، وأصحابه فضرب عليهم الباب، فقام رجل منهم فنظر من [خلل] الباب، فراه متوشحاً سيفه، فأخبر النبي ﷺ، بذلك، فقال حمزة: إذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن أراد شراً قتلناه بسيفه.

فأذن له، فنهض إليه النبي ﷺ، حتى لقيه فأخذ بمجامع رداءه ثم جذبته جذبة شديدة وقال: ما جاء بك؟ ما أراك تنهي حتى ينزل الله عليك قارعة. فقال عمر: يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله، فكبر، تكبيرة عرف من في البيت أن عمر أسلم. فلما أسلم قال: أي قريش أنقل للحديث؟ قيل: جميل بن مَعمر الجُمَحِيّ، فجاءه فأخبره بإسلامه، فمشى إلى المسجد وعمر وراءه وصرخ: يا معشر قريش إلا إنا ابن الخطاب قد صبا. فيقول عمر من خلفه: كذب ولكني أسلمت، فقاموا، فلم يزل يقاتلهم ويقاثلونه حتى قامت الشمس وأعيان، فقعدهم على رأسه، فقال: افعلوا ما بدا لكم، فلو كنّا ثلاثمائة نفر تركناها لكم أو تركتموها لنا، يعني مكة.

فبينما هم كذلك إذ أقبل شيخ عليه حلة فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبا عمر. قال: فمة، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عديّ (٨٧/٢) يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلّوا عن الرجل. وكان الرجل العاص بن وائل السهمي.

قال عمر: لما أسلمت أثبت باب أبي جهل بن هشام ففرضت عليه بابه، فخرج إلي وقال: مرحباً بابن أخي! ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أنني قد أسلمت وأمنت بمحمد ﷺ، وصدقت ما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به! وقيل في إسلامه غير هذا.

ذكر أمر الصحيفة

ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد، وأن المسلمين قفوا بإسلام حمزة وعمر، وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي أمية من النجاشي بما يكرهون من منع المسلمين عنهم، وأمنهم عنده،

اتمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا يتركوا بني هاشم وبني المطلب ولا يتركوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يتاعوا منهم شيئاً. فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم، فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبني المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شغبه واجتمعوا.

وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش، فلقني هند بنت عتبة فقال: كيف رايت نصري اللات والعزى؟ قالت: لقد أحسنت. فاقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا لا يصل إلى أحد منهم شيء إلا سراً.

وذكروا أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه قمح يريد به (٨٨/٢) عمته خديجة، وهي عند رسول الله ﷺ، في الشعب، فتعلّق به وقال: والله لا تبرح حتى أفضحك. فجاء أبو البخري بن هشام فقال: ما لك وله؟ عنده طعام لعمته أقتنعه أن يحمله إليها؟ خلّ سيبله. فأبى أبو جهل، فنال منه. فضربه أبو البخري بلحي جمل فشجّه ووطئه وطأ شديداً، وحمزة ينظر إليهم، وهم يكرهون أن يبلغ النبي ﷺ، ذلك فيشمت بهم هو والمسلمون. ورسول الله ﷺ، يدعو الناس سراً وجهرًا، والوحي متابع إليه، فبقوا كذلك ثلاث سنين.

وقام في نقض الصحيفة نفر من قريش، وكان أحسنهم بلاء فيه هشام بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن لؤي، وهو ابن أخي نضلة بن هشام بن عبد مناف لأمّه، وكان يأتي بالبعير قد أوقره طعاماً ليلاً ويستقبل به الشعب ويخلع خطامه فيدخل الشعب. فلما رأى ما هم فيه وطول المدة عليهم مشى إلى زهير ابن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، أخي أم سلمة، وكان شديد الغيرة على النبي ﷺ، والمسلمين، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير أراضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتكح النساء وأخوالك حيث علمت؟ أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم، يعني أبا جهل، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبداً. فقال: فماذا أصنع؟ وإنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها. فقال: قد وجدت رجلاً. قال: ومن هو؟ قال: أنا. قال زهير: ابغنا ثالثاً، فنذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف فقال له: أراضيت أن يهلك بطنان من بني عديّ ابن عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق فيه؟ أما والله لئن أمكنتموه من هذه لتجذبنهم إليها منكم سراعاً. قال: ما أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانياً. قال: من هو؟ قال: أنا. قال: ابغنا ثالثاً. قال: قد فعلت (٨٩/٢) قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية. قال: ابغنا رابعاً. فذهب إلى أبي البخري بن هشام وقال له نحراً ممّا قال للمطعم، قال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: أنا وزهير والمطعم. قال: ابغنا

ذكر وفاة أبي طالب وخديجة وعرض رسول

الله صلى الله عليه وسلم، نفسه على العرب

توفي أبو طالب وخديجة قبل الهجرة بثلاث سنين وبعد خروجهم من الشعب، توفي أبو طالب في شوال أو في ذي القعدة وعمره بضع وثمانون سنة، وكانت خديجة ماتت قبله بخمسة وثلاثين يوماً، وقيل: كان بينهما خمسة وخمسون (٩١/٢) يوماً، وقيل: ثلاثة أيام، فعظمت المصيبة، فقال رسول الله ﷺ: ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب، وذلك أن قريشاً وصلوا من أذاه بعد موت أبي طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياته حتى ينثر بضعهم التراب على رأسه، وحتى إن بعضهم طرح عليه رحم الشاة وهو يصلي، وكان رسول الله ﷺ، يُخرج ذلك على العود ويقول: أي جوار هذا يا بني عبد مناف! ثم يليه بالطريق.

فلما اشتد عليه الأمر بعد موت أبي طالب خرج ومعه زيد بن حارثة إلى ثقيف يلتمس منهم النصر. فلما انتهى إليهم عمَد إلى ثلاثة نفر منهم، وهم يومئذ سادة ثقيف، وهم [إخوة] ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب بن عمرو بن عُتَيْر، فدعاهم إلى الله وكلمهم في نصرته على الإسلام والقيام معه على مَنْ خالفه، فقال أحدهم: ماردة يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال آخر: أما وجد الله مَنْ يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك.

فقال رسول الله ﷺ، وقد نيس من خير ثقيف، وقال لهم: إذا أبيتم فاكموا عليّ ذلك، وكره أن يبلغ قومه، فلم يفعلوا وأغروا به سفاهم. فاجتمعوا إليه والجؤوه إلى حائط لُتْبَة وشَيْبَة ابْنَيْ ربيعة، وهو البستان، وهما فيه، ورجع السفاها عنه، وجلس إلى ظِلِّ حَبْلَة وقال: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى مَنْ تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي! ولكن عافيتك (٩٢/٢) هي أوسع لي، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك.

فلما رأى ابنا ربيعة ما لحقه تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً اسمه عدّاس فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب واذهب به إلى ذلك الرجل، ففعل. فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، وضع يده فيه وقال: بسم الله، ثم أكل، فقال عدّاس: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة. فقال له النبي ﷺ: من أي بلاد أنت وما دينك؟ قال: أنا نصراني من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له: وما يُدريك ما يونس؟

خامساً: فذهب إلى زَمْعَة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرايبهم، قال: وهل على هذا الأمر معين؟ قال: نعم، وسمى له القوم، فاتعدوا خَطْمَ الحَجُون الذي بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة. فقال زهير: أنا أبداًكم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير قطاف باليت ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أناكل الطعام ونلبس الثياب وينو هاشم هلكني لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل: كذبت والله لا تُشَقَّ. قال زَمْعَة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا بها حين كتبت. قال أبو البخري: صدق زَمْعَة، لا نرضى ما كُتِبَ فيها. قال المُطْعَم بن عدي: صدقنا وكذب من قال غير ذلك. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. قال أبو جهل: هذا أمر قُضِيَ بليل وأبو طالب في ناحية المسجد.

فقام المُطْعَم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا ما كان: باسمك اللهم، كانت تفتح بها كتبها، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فشلت يده.

وقيل: كان سبب خروجهم من الشعب أن الصحيفة لما كُتبت وعُلِّقت بالكعبة اعتزل الناس بني هاشم وبني المطلب، وأقام رسول الله ﷺ، وأبو طالب ومن معهما بالشعب ثلاث سنين، فأرسل الله الأرضة (٩٠/٢) وأكلت ما فيها من ظلم وقطعية رحم وتركت ما فيها من أسماء الله تعالى، فجاء جبرائيل إلى النبي ﷺ، فأعلمه بذلك، فقال النبي ﷺ، لعمة أبي طالب، وكان أبو طالب لا يشك في قوله، فخرج من الشعب إلى الحرم، فاجتمع الملا من قريش، وقال: إن ابن أخي أخبرني أن الله أرسل على صحيفتكم الأرضة فأكلت ما فيها من قطعية رحم وظلم وتركت اسم الله تعالى، فأحضروها، فإن كان صادقاً علمتم أنكم ظالمون لنا قاطعون لأرحمنا، وإن كان كاذباً علمنا أنكم على حق وأنا على باطل.

فقاموا سراعاً وأحضروها، فوجدوا الأمر كما قال رسول الله ﷺ، وقويت نفس أبي طالب واشتد صوته وقال: قد تبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطعية. فنكسوا رؤوسهم ثم قالوا: إنما تأتوننا بالسحر والبهتان، وقام أولئك النفر في نقضها كما ذكرنا؛ وقال أبو طالب في أمر الصحيفة وأكل الأرضة ما فيها من ظلم وقطعية رحم أبياتاً منها:

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة متى ما يُختر غائب القوم يعجب
محا الله منهم كفرهم وعقوفهم وما تقموا من ناطق الحق مُعرب
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ومن يخلق ما ليس بالحق يكذب

قال رسول الله ﷺ: ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي، فأكتبَ غَدَّاسَ على يدي رسول الله ﷺ، ورجليته يقبلها فعاد.

فيقول ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء غَدَّاس قال له: ويحك ما لك تقبل يديته ورجليته؟ قال: ما في الأرض خير من هذا الرجل. قالوا: ويحك إن دينك خير من دينه!

ثم انصرف رسول الله ﷺ، راجعاً إلى مكّة حتى إذا كان في جوف الليل قام قائماً يصلي، فمرّ به نفر من الجن، وهم سبعة نفر من جن نصيبين، راثحين إلى اليمن فاستمعوا له، فلما فرغ من صلواته ولّوا إلى قومهم مندرين قد آمنوا وأجابوا.

وذكر بعضهم أن رسول الله ﷺ، لما عاد من ثقيف أرسل إلى المطعم بن عدي ليخبره حتى يبلغ رسالة ربه، فأجاره، وأصبح (٩٣/٢) المطعم قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد، فقال له أبو جهل: أمجير أم متابع؟ قال: بل مجير. قال: قد أجرتنا من أجرت. فدخل النبي ﷺ، مكّة وأقام بها. فلما رآه أبو جهل قال: هذا نبيكم يا عبد مناف. فقال عتبة بن ربيع: وما ينكر أن يكون منا نبي وملك؟ فأخبر رسول الله ﷺ، بذلك، فاتاهم فقال: أما أنت يا عتبة فما حمت لله وإمّا حمت لنفسك، وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً، وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون، فكان الأمر كذلك.

وكان رسول الله ﷺ، يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، فأتى كِنْدَةَ في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له مُلَيْح، فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم، فأبوا عليه. فأتى كلباً إلى بطن منهم يقال لهم [بنو] عبد الله فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم، فلم يقبلوا ما عرض عليهم. ثم إنه أتى بني حنيفة وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم. ثم أتى بني عامر فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم: أرايت إن نحن تابعناك فأظهرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. قال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

فلما رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم كبير فأخبروه خبر النبي ﷺ، ونسبه، وضع يده على رأسه ثم قال: يا بني عامر هل من تلاف؟ والذي نفسي بيده ما تقولها إسماعيلي قط وإنها لحق، وأين كان رأيكم عنه! (٩٤/٢) ولم يزل رسول الله ﷺ، يعرض نفسه على كل قادم له اسم وشرف ويدعوه إلى الله. وكان كلما أتى قبيلة يدعوههم إلى الإسلام تبعه عمّه أبو لهب، فإذا فرغ رسول الله ﷺ، من كلامه يقول لهم أبو لهب: يا بني فلان، إمّا يدعوكم هذا أن تسلكوا السلات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن إلى ما جاء به من الضلالة

ذِكْرُ أَوَّلِ عَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَفْسَهُ عَلَي الْأَنْصَارِ وَإِسْلَامِهِمْ

فقدم سُوَيْدُ بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف بطن من الأوس مكّة حاجاً ومعتمرأ، وكان يسمى الكامل لجلده وشعره ونسبه، وهو القائل:

الْأَرْبُ مَنْ تَدْعُو صَدِيقاً وَلَوْ تَسَرَّى مَقَالَتَهُ بِالْغَيْبِ سَاءَ مَا تَفَرَّى
مَقَالَتَهُ كَالشَّحْمِ مَا كَانَ شَاهِداً وَالْغَيْبِ مَا ثَوَّرَ عَلَى ثَغْرِ النَّحْرِ
يَسْرُكُ بِأَيْدِيهِ وَتَحْتَ أَهْيَمِهِ نَمِيَةً عِشْتُ تَبْرِي عَقَبَ الظُّهْرِ
تَبِيحُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا مَرَّ كَاتِمٌ وَمَا جِنُّ بِالْبَغْضَاءِ وَالنَّظَرِ الشُّزْرِ
فَرَضَنِي بَخِيرٍ طَالَمَا قَدْ بَرَيْتَنِي فَخَيْرُ الْمَوَالِي مَنْ يَرِيشُ وَلَا يَسْرِي

فتصدى له رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام، وقرأ (٩٥/٢) عليه القرآن، فلم يبعد منه وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف وقدم المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرج، قتل يوم بعاث، فكان قومه يقولون: قتل وهو مسلم.

(بعث بالباء الموحدة المضمومة، والعين المهملة، وهو الصحيح).

وقدم أبو الخير أنس بن رافع مكّة مع فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن مُعَاذٍ يلتبسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فاتاهم النبي ﷺ، وقال لهم: هل لكم فيما هو خير لكم ممّا جئتم له؟ ودعاهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، فقال إياس، وكان غلاماً حدثاً: هذا والله خير ممّا جئنا له. فضرب وجهه أبو الخير بخنفة من البطحاء وقال: دعنا منك فلقد جئنا لغير هذا. فسكت إياس، وقام رسول الله ﷺ، ولم يلبث إياس أن هلك، فسمعه قومه يهتل الله ويكره حتى مات فما يشكون أنه مات مسلماً.

ذِكْرُ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ الْأُولَى وَإِسْلَامِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ

فلما أراد الله إظهار دينه وإنجاز وعده خرج رسول الله ﷺ، في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على القبائل كما كان يفعله، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وقد كانت يهود معهم بيلادهم، وكان هؤلاء أهل أوثان، فكانوا إذا كان بينهم شر تقول اليهود: إن نبياً يبعث الآن تتبعه ونقلكم معه قتل عاد وثمود. فقال أولئك النفر بعضهم لبعض: هذا والله (٩٦/٢) النبي الذي توعدكم به اليهود، فاجابوا وصدقوه وقالوا له: إن بين قومتنا شراً، وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عنه، وكانوا سبعة نفر من الخزرج: أسعد بن زُرارة بن عُدَسَ أبو أمامه، وعوف بن

رضيت أمراً قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره! فجلس فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن فقال لهما: كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ فقالا له ما قالاً لأُسَيْدٍ، فأسلم وتطهر ثم عاد إلى نادي قومه ومعه أُسَيْدٌ بن حُضَيْرٍ، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا. قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا باللَّهِ ورسوله. قال: فواللَّهِ (٩٨/٢) ما أَمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

ورجع مُصْعَبُ إلى منزل أسعد ولم يزل يدعو إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من بني أُمَيَّةَ بن زيد ووائل وواقف، فإنَّهم أطاعوا أبا قيس بن الأسَلْتِ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر النبي، ﷺ، ومضت بدر وأُحُدُ والخندق. وعاد مُصْعَبُ إلى مكَّة.

(أُسَيْدُ بَضْمُ الهَمزة، وفتح السين. وحُضَيْرُ بَضْمُ الحاء المهملة، وفتح الضاد المعجمة، وتسكين الياء تحتها نقطتان، وفي آخره راء).

ذكر بيعة العقبة الثانية

لما فشا الإسلام في الأنصار اتَّفَقَ جماعةٌ منهم على المسير إلى النبي، ﷺ، مستخفين لا يشعر بهم أحد، فساروا إلى مكَّة في الموسم في ذي الحجة مع كُفَّار قومهم واجتمعوا به وواعده أوسط أيام التشريق بالعقبة.

فلما كان اللَّيْلُ خرجوا بعد مضي ثلثة مستخفين يتسلَّلون حتى اجتمعوا بالعقبة، وهم سبعون رجلاً، معهم امرأتان: نُسَيَّةُ بنت كعب أم عُمارة وأسماء أم عمرو بن عدي من بني سَلِمْة، وجاءهم رسول الله ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو كافر أحبَّ أن يتوفَّق لابن أخيه، فكان العباس أولَ مَنْ تكلَّم فقال: يا معشر الخزرج، وكانت العرب تسمي الخزرج والأوس به، إنَّ محمداً منَّا حيث قد علمتم في عزٍّ ومنعة، وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ومانعوه فأنتم وذلك، (٩٩/٢) وإن كنتم ترون أنكم سُلِّموا فمَن الآن فدعوه فإنه في عزٍّ ومنعة.

فقال الأنصار: قد سمعنا ما قلت، فتكلَّم يا رسول الله وخذْ لنفسك وربُّك ما أحببت.

فتكلَّم وتلا القرآن ورغَّب في الإسلام ثم قال: تمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

ثم أخذ البراء بن معرور يبدع ثم قال: والذي بعثك بالحق لنمنعك ممَّا نمنع منه أُرُزْنَا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب.

الحارث بن رفاعه، وهو ابن عفراء، كلاهما من بني النجَّار، ورافع بن مالك بن عَجَلان. وعامر بن عبد حارثة بن ثعلبة بن غنم، كلاهما من بني زُرَيْقٍ، وقُطَيْبَةُ بن عامر بن حديدة بن سواد من بني سَلِمْة -سلمة هذا بكسر اللام-، وعُقْبَةُ بن عامر بن نابتٍ من بني غنم، وجابر بن عبد رباب من بني عبيدة.

(رباب بكسر الراء والياء المعجمة والياء المعجمة باثنتين من تحت وبالياء الموحدة)

فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبي، ﷺ، ودعواهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقيه بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوه بيعة النساء، وهم: أسعد بن زُرارة، وعوف ومُعَاذُ ابنا الحارث، وهما ابنا عفراء، ورافع بن مالك بن عجلان، وذكوان بن عبد قيس من بني زُرَيْقٍ، وعُبَّادة بن الصامت من بني عوف بن الخزرج، ويزيد بن ثعلبة بن خزيمة أبو عبد الرحمن من بني حليف لهم، وعَبَّاسُ بن عُبادَةَ بن نَضْلَةَ من بني سالم، وعُقْبَةُ بن عامر بن نابتٍ، وقُطَيْبَةُ بن عامر بن حديدة، وهؤلاء من الخزرج، وشهداها من الأوس أبو الهيثم بن التَّيْهَانِ، حليف لبني عبد الأشهل، وعُثُومُ بن ساعدة حليف لهم.

فانصرفوا عنه، وبعث، ﷺ، معهم مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، (٩٧/٢) فنزل بالمدينة على أسعد بن زُرارة فجلس في دار بني ظَفَرٍ، واجتمع عليهم رجالٌ ممن أسلم. فسمع به سعد بن مُعَاذٍ وأُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ وهما سيِّدا بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشْرِكٌ، فقال سعد لأُسَيْدٍ: انطلق إلى هذين اللذين أتيا دارنا فانهما، فإنه لولا أسعد بن زُرارة، وهو ابن خالتي، كفيبتك ذلك. فآخذ أُسَيْدُ حريته ثم أقبل عليهما، فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاناً؟ اعتزلا عنا. فقال مُصْعَبُ: أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره فقال: أنصفت. ثم جلس إليهما، فكلَّمهُ مصعب بالإسلام، فقال: ما أحسن هذا وأجله! كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ قال: تغتسل وتطهر ثيابك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، ففعل ذلك وأسلم. ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلَّف عنكما أحد من قومه، وسارسله إليكما، سعد بن مُعَاذٍ.

ثم انصرف إلى سعد وقومه، فلما نظر إليه سعد قال: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم! فقال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، والله ما رأيتُ بهما بأساً، وقد خُذْتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه. فقام سعد مغضباً مبادراً لخوفه ممَّا ذكر له، ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف ما أراد أُسَيْدُ فوقف عليهما وقال لأسد بن زُرارة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتُ هذا مني. فقال له مُصْعَبُ: أوتقمعد فتسمع فإن

وقد كانت قريش لما بلغهم إسلام مَنْ أسلم من الأنصار اشتدوا على مَنْ بمكة من المسلمين وحرسوا على أن يفتنهم، فأصابهم جهدٌ شديد، وهي الفتنة الأخيرة؛ وأما الأولى فكانت قبل هجرة الحبشة.

وكانت البيعة في هذه العقبة على غير الشروط في العقبة الأولى، فإن الأولى كانت على بيعة النساء، وهذه البيعة كانت على حرب الأحمر والأسود.

ثم أمر النبي ﷺ، أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فكان أول مَنْ قدمها أبو سلمة بن عبد الأسد، وكانت هجرته قبل البيعة بسنة، ثم هاجر بعده عامر بن ربيعة حليف بني عدي مع امرأته ليلى ابنة أبي حنمة، ثم عبد الله بن جحش ومعه أخوه أبو أحمد وجميع أهله، فأغلقت دارهم وتتابع الصحابة، ثم هاجر عمر بن الخطاب وعيَّاش بن أبي ربيعة فنزلا في بني عمرو بن عوف، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عيَّاش ابن أبي ربيعة بالمدينة، وكان أخاهما لأُمهما، فقالا له: إنَّ أمك قد نذرت أنها لا تستظل ولا تمتشط. فرَّق وعاد وتتابع الصحابة بالهجرة إلى أن هاجر رسول الله ﷺ.

ذكر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

لما تابع أصحاب رسول الله ﷺ، بالهجرة أقام هو بمكة ينتظر ما يؤمر به من ذلك، وتخلَّف معه علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق. فلما رأت قريش ذلك حذروا خروج رسول الله ﷺ، فاجتمعوا في دار الندوة، وهي دار قُصَي بن كلاب، وتشاوروا فيها، فدخل معهم إلياس في صورة شيخ وقال: أنا من أهل نجد سمعتُ بخبركم فحضرتُ وعسى أن لا تعدوا مني رأياً.

وكانوا عُتْبَة وشيبة وأبا سفيان وطُيَيْمَة بن عدي وحبيب بن مُطْعِم والحارث بن عامر والنضر بن الحارث وأبا البختري بن هشام وربيع بن الأسود وحكيم بن حزام وأبا جهل وشَيْهَة ومُتَيْهَة ابني الحجاج وأمّية بن خلف وغيرهم.

فقال بعضهم لبعض: إنَّ هذا الرجل قد كان من أمره ما كان، وما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه، فاجتمعوا فيه رأياً، فقال بعضهم: احبسوه في الحديد وأغلِقُوا عليه باباً ثم تَرَبَّصُوا به ما أصاب الشعراء قبله. فقال النجدي: ما هذا لكم براء، لو حبستموه يخرج أمره من وراء الباب إلى أصحابه فلاؤشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم. فقال آخر: نُخْرِجْهُ ونغيه من بلدنا ولا نبالي أين وقع إذا غاب عنا. فقال النجدي: ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه؟ لو فعلتم ذلك لحلَّ على حيٍّ من أحياء العرب فيغلب عليهم بحلاوة منطقه ثم يسير بهم إليكم حتى يطاكم ويأخذ أرمكم من أيديكم. فقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى نسيّاً ونُعْطِي كل فتى منهم سيفاً ثم

فاعترض الكلام أبو الهيثم بن التَّيْهَان فقال: يا رسول الله إنَّ بيننا وبين الناس حيالاً، وإنَّا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيَتْ إن أظهركَ الله عزَّ وجلَّ أن ترجع قومك وتَدْعَنَا؟

فنبَّسَ رسول الله ﷺ، وقال: بل الدم الدم والمهدم المهدم، أنتم مني وأنا منكم، أسألكم من سألتم وأحارب من حاربتكم. وقال رسول الله ﷺ، أخرجوا إليَّ اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم، فأخرجوهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وقال لهم العباس بن عباد بن نَضْلَةَ الأنصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول (١٠٠/٢) الله؟ قال: الجنة. قالوا: أبسط يدك، فبايعوه.

وما قال العباس بن عباد ذلك إلا ليشدَّ العقد له عليهم. وقيل: بل قاله ليؤخر الأمر ليحضر عبد الله بن أبي بن سلول فيكون أقرى لأمر القوم.

فكان أول مَنْ بايعه أبو أمامه أسعد بن زُرارة، وقيل: أبو الهيثم بن التَّيْهَان، وقيل: البراء بن معرور. ثم تابع القوم فبايعوا، فلما بايعوه صرخ الشيطان من رأس العقبة: يا أهل الجباب، هل لكم في مُدْمَم والصُّبَة معه قد اجتمعوا على حريككم؟ فقال رسول الله ﷺ، أما والله لأفرغن لك أيَّ عدوٍّ لله! ثم قال: ارفضوا إلى رحاكم. فقال له العباس ابن عباد: والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافاً. فقال: لم تؤمر بذلك. فرجوا.

فلما أصبحوا جاءهم جلة قريش فقالوا: قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه وتبايعونه على حربنا، وإنَّه والله مامن حيٍّ من أحياء العرب أبغض إلينا أن تشب بيننا وبينهم الحرب منكم. فحلف من هناك من مشركي الأنصار ما كان من هذا شيء.

فلما سار الأنصار من مكة قال البراء بن معرور: يا معشر الخزرج! قد رأيتُ أن لا أستدبر الكعبة في صلاتي. فقالوا له: إنَّ رسول الله ﷺ، يستقبل الشام، فنحن لا نخالفه، فكان يصلي إلى الكعبة، فلما قدم مكة سأل رسول الله ﷺ، عن ذلك فقال: لقد كنتُ على قبلة لو صبرت عليها. فرجع إلى قبلة الله. فلما بايعوه ورجعوا إلى المدينة، كان قدومهم في ذي الحجة، فأقام رسول الله ﷺ، عليه (١٠١/٢) وسلم، بمكة بَقِيَّةَ ذي الحجة والمحرم وصفر، وهاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول، وقدمها لاثني عشرة ليلة خلت منه.

وجعلت قريش مائة ناقه لمن رده عليه.

وكان عبد الله بن أبي بكر إذا غدا من عندهما اتبع [عامر بن فهيرة] أثره بالغنم حتى يُعْقَى عليه. فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتاها دليلهما بغيرتهما، فأخذ رسول الله، ﷺ، أحدهما بالثمن فركبه، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما ونسيت أن تجعل لها عصاماً فحلت نطاقها فجعلته عصاماً وعلقت السفارة به، وكان يقال لأسماء ذان النطاقين لذلك.

ثم ركبوا وساروا، وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة يخدمهما في الطريق، فساروا ليلتهم ومن الغد إلى الظهر، ورأوا صحرة طويلة، فسوى أبو بكر عندها مكاناً ليقبل فيه رسول الله، ﷺ، وليستظِلَّ بظللها، فنام (١٠٥/٢) رسول الله، ﷺ، وحرسه أبو بكر حتى رحلوا بعدما زالت الشمس.

وكانت قريش قد جعلت لمن يأتي بالنبي، ﷺ، دية، فتبعهم سراقة بن مالك بن جُعشم المُدَلِجِي فلحقهم وهم في أرض صلبة، فقال أبو بكر: يا رسول الله أدركنا الطلب! فقال: ﴿لَا تُخَزَنَ إِنْ اللَّهَ مَعًا﴾ [التوبة: ٤٠] ودعا عليه رسول الله، ﷺ، فارتمت فرسه إلى بطنها وثار من تحتها مثل الدخان. فقال: ادع لي يا محمد ليخلصني الله ولك علي أن أرد عنك الطلب، فدعا له فتخلص، فعاد يتبعهم فدعا عليه الثانية فساخت قوائم فرسه في الأرض أشد من الأولى، فقال: يا محمد قد علمت أن هذا من دعائك علي، فادع لي ولك عهد الله أن أرد عنك الطلب. فدعا له فخلص وقرب من النبي، ﷺ، وقال له: يا رسول الله خذ سهماً من كنانتي وإن إبلي بمكان كذا فخذ منها ما أحببت. فقال: لا حاجة لي في إيلك.

فلما أراد أن يعود عنه قال له رسول الله، ﷺ: كيف بك يا سراقة إذا سورت بسوازي كسرى؟ قال: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم. فعاد سراقة فكان لا يلقاه أحد يريد الطلب إلا قال: كفيتم ما هاهنا، ولا يلقي أحداً إلا رده.

قالت أسماء بنت أبي بكر: لما هاجر رسول الله، ﷺ، أتاننا نفر من قريش فيهم أبو جهل فوقفوا على باب أبي بكر فقالوا: أين أبوك؟ (١٠٦/٢) قلت: لا أدري، فرجع أبو جهل يده فلطم خدي لطمة طرح قرطي، وكان فاحشاً خبيثاً. ومكثنا ملياً لا ندري أين توجه رسول الله، ﷺ، حتى أتى رجل من الجن من أسفل مكة والناس يتبعونه يسمعون صوته ولا يرون شخصه وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه رقيقين خلا خيمتي أم معبد هما نزلنا بالهذي واعتبنا به فافلق من أسمي رفيق محمد لهنى بني كعب مكان قاتهم ومقلعاً للمؤمنين بمرصد

قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا أن وجهه كان إلى المدينة.

يضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه، فإذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ورضوا منا بالعقل. فقال النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي؛ ففترقوا على ذلك. (١٠٣/٢) فأتى جبرائيل النبي، ﷺ، فقال: لا تبس الليلة على فراشك. فلما كان العتمة اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيشون عليه، فلما رآهم رسول الله، ﷺ، قال لعلي بن أبي طالب: نس على فراشي واتشح ببردي الأخضر، فنس فيه فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه، وأمره أن يؤدي ما عنده من ودعة وأمانة وغير ذلك. وخرج رسول الله، ﷺ، فأخذ حفنة من تراب فجعله على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من ﴿يس والقرآن الحكيم﴾، إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَصِيرُونَ﴾ [ياسين: ١-٩]. ثم انصرف فلم يره، فأتاهم أت فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً. قال: خيكم الله، خرج عليكم ولم يترك أحداً منكم إلا جعل على رأسه التراب وانطلق لحاجته! فوضعوا أيديهم على رؤوسهم فراوا التراب وجعلوا ينظرون فيرون علياً نائماً وعليه برد النبي، ﷺ، فيقولون أن محمداً نائم، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. فقام علي عن الفراش، فعرّفوه، وأئزل الله في ذلك: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية.

وسأل أولئك الرهط علياً عن النبي، ﷺ، فقال: لا أدري، أمرتموه بالخروج فخرج. فضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحسوه ساعة ثم تركوه، ونجى الله رسوله من مكروهم وأمره بالهجرة، وقام علي يؤدي أمانة النبي، ﷺ، ويفعل ما أمره.

وقالت عائشة: كان رسول الله، ﷺ، لا يخطئه أحد طرفي النهار أن يأتي بيت أبي بكر إما بكرة أو عشية، حتى كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله بالهجرة فاتانا بالهجرة، فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما دخل جلس على السرير وقال: أخرج من عندك. قال: يا رسول الله إنما هما ابتاي، وما ذاك؟ قال: إن الله قد أذن لي في الخروج. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله! قال: الصحبة، فيكي أبو بكر من الفرح، فاستأجرا عبد الله بن أرقد، من بني الدليل بن بكر، وكان مشركاً، يدلهما على الطريق، ولم يعلم بخروج رسول الله، ﷺ، غير أبي بكر وعلي وأل أبي بكر، فأما علي فأمره رسول الله، ﷺ، أن يتخلف عنه حتى يؤدي عن رسول الله، ﷺ، الودائع التي كانت عنده ثم يلحقه.

وخرجا من خوخة في بيت أبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار ثور فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلاً، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يأتيهما بها ليلاً، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بطعامهما مساء، فأقاما في الغار ثلاثاً.

عشرة، ولم يُنقل في مقام زيادة على عشر سنين إلا ثلاث عشرة وخمس عشرة.

وقد روي عن قتادة قول غريب جداً، وذلك أنه قال: نزل القرآن على النبي، ﷺ، بمكة ثمانين سنين، ولم يوافقه غيره. (١٠٩/٢)

ذكر ما كان من الأمور أول سنة من الهجرة

فمن ذلك تجميعه، ﷺ، بأصحابه الجمعة في اليوم الذي نزل فيه قباء في بني سالم في بطن وإد لهم، وهي أول جمعة جمعها رسول الله، ﷺ، في الإسلام وخطبهم، وهي أول خطبة.

وكان رحل من قباء يريد المدينة فركب ناقته وأرخصى زمامها، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا قالوا: هلم يا رسول الله إلى العدد والغدة والمنعة. فيقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم، فبركت على باب مسجده، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين في حجر معاذ بن عفراء، وهما سهل وسهيل ابنا عمرو من بني النجار، فلما بركت لم ينزل عنها، ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله، ﷺ، واضح لها زمامها ولا يشيها به، فالتفت خلفها ثم رجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ووضعت جرائها، فنزل عنها رسول الله، ﷺ، واحتمل أبو أيوب الأنصاري رحله، وسأل رسول الله، ﷺ، عن المربد فقال معاذ بن عفراء: هو لتيمنين لي وسأرضيهما من ثمنه، فأمر به رسول الله، ﷺ، أن يُبنى مسجداً، وأقام عند أبي أيوب حتى بُني مسجده ومسكنه. (١١٠/٢) وقيل: إن موضع المسجد كان لبني النجار فيه نخل وحرث وقبور المشركين، فقال رسول الله، ﷺ، ثامنوني به. فقالوا: لا ينبغي به إلا ما عند الله. فأمر به بُني مسجده، وكان قبله يصلي حيث أدركته الصلاة، وبناءه هو والمهاجرون والأنصار، وهو الصحيح.

وفيها بُني مسجد قباء.

وفيها أيضاً توفي كلثوم بن الهذم. وتوفي بعده أسعد بن زرار، وكان نقيب بني النجار، فاجتمع بنو النجار، وطلبوا من رسول الله، ﷺ، أن يقيم نقيباً، فقال لهم: أنتم إخواني وأنا نقييكم، فكان فضيلة لهم.

وفيها مات أبو أحيحة بالطائف، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي بمكة مشركين.

وفيها بنى النبي، ﷺ، بعائشة بعد مقدمه المدينة بثمانية أشهر، وقيل بسبعة أشهر في ذي القعدة، وقيل في شوال، وكان تزوجها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة خديجة وهي ابنة ست سنين، وقيل ابنة سبع سنين.

وفيها هاجرت سودة بنت زمعة زوج رسول الله، ﷺ، وبناته ما

وقدم بهما دليهما قباء فنزل على بني عمرو بن عوف لاثني عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين حين كادت الشمس تعتدل، فنزل رسول الله، ﷺ، على كلثوم بن الهذم، أخي بني عمرو بن عوف، وقيل: نزل على سعد بن خيصة، وكان غزياً، وكان ينزل عنده الغزاب من أصحاب النبي، ﷺ، وكان يقال لبيته بيت الغزاب، والله أعلم.

ونزل أبو بكر عن خبيب بن إساف بالسُّنح، وقيل: نزل على خارجة ابن زيد أخي بني الحارث بن الخزرج.

وأما علي فإنه لما فرغ من الذي أمره به رسول الله، ﷺ، هاجر إلى المدينة، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى قديم المدينة وقد تطمرت قدماء، فقال النبي، ﷺ، ادعوا لي علياً. قيل: لا يقدر أن يمشي. فأتاه النبي، ﷺ، واعتقه وبكى رحمة لما بقدومه من الورم ونفل في يديه وأمرهما على قدميه، فلم يشتكهما بعد حتى قُتل. ونزل بالمدينة على امرأة لا زوج لها، فرأى إنساناً يأتيها كل ليلة ويُعطيهما شيئاً، (١٠٧/٢) فاستراب بها، فسألها عنه فقالت: هو سهل بن حنيف، قد علم أنني امرأة لا زوج لي فهر يكسر أصنام قومه ويحملها إليّ ويقول: احتطبي بهذه. فكان علي يذكر ذلك عن سهل بن حنيف بعد موته.

وأقام رسول الله، ﷺ، بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة، وقيل: أقام عندهم أكثر من ذلك. والله أعلم. وأدركت رسول الله، ﷺ، الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاً في المسجد الذي ببطن الوادي، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة.

قال ابن عباس: وُلد النبي، ﷺ، يوم الاثنين، واستنّى يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين وهاجر يوم الاثنين، وقُبض يوم الاثنين.

واختلف العلماء في مقامه بمكة بعد أن أوحى إليه، فقال أنس وابن عباس، رضي الله عنهما، من رواية أبي سلمة عنه وعائشة: إنه أقام بمكة عشر سنين، ومثلهم قال من التابعين ابن المسيب والحسن وعمر بن دينار، وقيل: أقام ثلاث عشرة سنة، قاله ابن عباس من رواية أبي جرة وعكرمة أيضاً عنه، ولعل الذي قال أقام عشر سنين أراد بعد إظهار الدعوة، فإنه بقي سنين يسيرة ومما يقوي هذا القول قول صرمة بن أبي أنس الأنصاري، شعر:

نوى في قريش بضع عشرة حجةً يذكر لو يلقى صليقاً موافياً (١٠٨/٢)

فهذا يدل على مقامه ثلاث عشرة سنة لأنه قد زاد على عشر سنين، فلو كان خمس عشرة لصح الوزن، وكذلك ست عشرة وسبع عشرة، وحيث لم يستقم الوزن بأن يقول ثلاث عشرة قال بضع

عدا زينب، وهاجر أيضاً عيال أبي بكر ومعهم ابنه عبد الله وطلحة بن عبيد الله. وفيها زيد في صلاة العصر ركعتان بعد مقدمة المدينة بشهر.

وفيها وُلد عبد الله بن الزبير، وقيل في السنة الثانية في شوال، وكان أول مولود للمهاجرين بالمدينة، وكان النعمان بن بشير أول مولود للأَنْصار بعد الهجرة، (١١١/٢).

وقيل: إن المختار بن أبي عبيد وزيد ابن أبيه وُلدا فيها.

وفيها على رأس سبعة أشهر عقد رسول الله، ﷺ، لعمه حمزة لواء أبيض في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعرضوا غير قريش، فلقي أبا جهل في ثلاثمائة رجل فحجز بينهم منجدي بن عمرو الجهني، وكان يحمل اللواء أبو قُرْظ، وهو أول لواء عقدة.

وفيها أيضاً عقد لواء لعبيدة بن الحارث بن المطلب، وكان أبيض يحمله مسطح بن أثانة، فالتقى هو والمشركون، فكان بينهم الرمي دون المسابقة، وكان سعد بن أبي وقاص أول من رمى بسهم في سبيل الله، وكان المقداد بن عمرو وعُتْبَة بن غَزْوان مسلمين وهما بمكة، فخرجا مع المشركين يتوصلان بذلك، فلما لقيهم المسلمون انحازا إليهم. وقال بعضهم: كان لواء أبي عبيدة أول لواء عقده، وإنما اشتبه ذلك لقرب بعضها ببعض، وكان على المُشركين أبو سُفيان بن حرب، وقيل مَكْرُز بن حفص بن الأخيف، وقيل عكرمة بن أبي جهل.

(والأخيف بالخاء المعجمة والياء المثناة من تحتها).

وفيها عقد لواء لسعد بن أبي وقاص وسيّره إلى الأَبواء، وكان يحمل اللواء المقداد بن الأسود، وكان مسيره في ذي القعدة وجميع مَنْ معه من المهاجرين فلم يلق حرباً.

جعل الواقديّ هذه السرايا جميعها في السنة الأولى من الهجرة، وجعلها ابن إسحاق في السنة الثانية، فقال: على رأس اثني عشر شهراً من مقدم رسول الله، ﷺ، المدينة خرج غازياً واستخلف على المدينة سعد بن عُبادة فبلغ وَدَّان يريد قريشاً وبني ضَمْرَةَ من كنانة، وهي غزاة الأَبواء بينهم سِتَّة أميال، فوادعته فيها بنو ضمرة، ورئيسهم مَخْشِي بن عمرو، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا، وذكر ابن إسحاق بعد هذه الغزوة غزوة عُيَيْلَة بن (١١٢/٢) الحارث، ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب.

وفيها كان غزاة بَوَاط، خرج رسول الله، ﷺ، في مائتين من أصحابه في شهر ربيع الآخر، يعني سنة اثنتين، يريد قريشاً حتى بلغ بَوَاط من ناحية رَضْوَى، وكان في غير قريش أَمِيَّة بن خَلْف الجُمُحِيّ في مائة رجل ومعهم ألفان وخمسمائة بعير، فرجع ولم يلق كيدا، وكان يحمل لواء رسول الله، ﷺ، سعد بن أبي وقاص، واستخلف

على المدينة سعد بن معاذ.

(بواط بفتح الباء الموحدة وبالطاء المهملة).

وفيها غزا رسول الله، ﷺ، غزوة العُشَيْرَة من يَنْبَع في جمادى الأولى يريد قريشاً حين ساروا إلى الشام، فلما وصل العُشَيْرَة وادع بني مُذَلْج وحلفاءهم من ضَمْرَةَ ورجع ولم يلق كيدا، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وكان يحمل لواء حمزة.

وفي هذه الغزوة كَتَى النبي، ﷺ، علياً أبا تراب في قول بعضهم.

وفيها أغار كُرُز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج رسول الله، ﷺ، حتى بلغ وادياً يقال له سَفْوان من ناحية بدر، وفاته كُرُز، وكان لواءه مع علي، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة. وفيها بعث رسول الله، ﷺ، سعد بن أبي وقاص في سرية ثمانية رهط فرجع ولم يلق كيدا.

وفيها جاء أبو قيس بن الأسلت إلى رسول الله، ﷺ، فعرض عليه الإسلام، فقال: ما أحسن ما تدعو إليه! سائظر في أمري ثم أعود. فلقبه عبد الله بن أبي المنافق فقال: كرهت قتال الخزرج. فقال أبو قيس: لا أسلم إلى سنة، فمات في ذي القعدة. (١١٣/٢)

السنة الثانية من الهجرة

في هذه السنة غزا رسول الله، ﷺ، في قول بعض أهل السيرة، غزوة الأَبواء، ويقال وَدَّان، وبينهما سِتَّة أميال، واستخلف رسول الله، ﷺ، على المدينة سعد بن عُبادة، وكان لواءه أبيض مع حمزة بن عبد المطلب، وقد تقدّم ذكرها.

وفيها زَوَّج علي بن أبي طالب فاطمة في صفر.

ذكر سرية عبد الله بن جحش

أمر رسول الله أبا عُبَيْدَة بن الجراح أن يتجهز للغزو، فتجهّز، فلما أراد المسير بكى صباية إلى رسول الله، ﷺ، فبعث مكانه عبد الله بن جحش في جمادى الآخرة معه ثمانية رهط من المهاجرين، وقيل اثنا عشر رجلاً، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمر به ولا يُكرِه أحداً من أصحابه، ففعل ذلك، ثم قرأ الكتاب وفيه يأمره بتزول نخلة بين مكة والطائف فيرصد قريشاً ويعلم أخبارهم، (١١٤/٢) فأعلم أصحابه، فساروا معه، وأصل سعد بن أبي وقاص وعُتْبَة بن غزوان بعيراً لهما يعقبانه فتخلفا في طلبه، ومضى عبد الله ونزل بنخلة، فمرت غير لقريش تحمل زبيبا وغيره فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وقد حلق رأسه. فلما راوه قالوا: عُمَار لا بأس عليكم إنهم أو ذلك آخر يوم

من رجب، فرمى واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان والحكم، وهرب نوفل، وعَظِم المسلمون ما معهم، فقال عبد الله بن جَحْش: إِنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، خُمْسَ ما غَنِمْتُمْ، وذلك قبل أن يُفَرِّضَ الخمس، وكانت أوّل غنيمة غنمها المسلمون وأوّل خمس في الإسلام.

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعبير والأسرى إلى المدينة. فلما قدموا قال لهم رسول الله ﷺ: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العبير والأسيرين، فسقط فسي أيديهم، وعَفَفَهُم المسلمون، وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام. وقالت اليهود تغافل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد [ابن عبد الله: «عمرو»] عمريت الحرب، و«الحضرمي» حضرت الحرب، و«واقد»] وقدت الحرب. فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية. فلما نزل القرآن وفرج الله عن المسلمين قبض رسول الله ﷺ، العير، وكانت أوّل غنيمة أصابوها، وفدى رسول الله ﷺ، الأسيرين، فأما الحكم فأقام مع (١١٥/٢) رسول الله ﷺ، حتى قُتل يوم بئر معونة.

وقيل: كان قتلهم عمرو بن الحضرمي وأخذ العير آخر يوم جمادى وأوّل ليلة من رجب.

وفيها صُرفت القبلة من الشام إلى الكعبة، وكان أوّل ما فُرِضت القبلة إلى بيت المقدس والنبي ﷺ، بمكة، وكان يحب استقبال الكعبة، وكان يصلي بمكة ويجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس. فلما هاجر إلى المدينة لم يُمكنه ذلك، وكان يؤثر أن يصرف إلى الكعبة، فأمره الله أن يستقبل الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من قدومه المدينة، وقيل: على رأس ثمانية عشر شهراً من قدومه المدينة، وقيل: على رأس ستة عشر شهراً في صلاة الظهر.

وفيها أيضاً في شعبان فُرض صوم رمضان، وكان لما قدم المدينة رأى اليهود تصوم عاشوراء فصامه وأمر بصيامه، فلما فُرض رمضان لم يأمرهم بصوم عاشوراء ولم ينههم.

وفيها أمر الناس بإخراج زكاة الفطر بيوم أو يومين.

وفيها خرج رسول الله ﷺ، إلى المصلى فصلى بهم صلاة العيد، وكان ذلك أوّل خروجه خرجها، وحملت بين يديه العترة، وكانت للزبير وهبها له النجاشي، وهي اليوم للمؤذنين في المدينة. (١١٦/٢)

ذكر غزوة بدر الكبرى

وفي السنة الثانية كانت وقعة بدر الكبرى في شهر رمضان في السابع عشر، وقيل التاسع عشر، وكانت يوم الجمعة.

وكان سببها قتل عمرو بن الحضرمي وإقبال أبي سفيان بن حرب في غير لقريش عزيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً أو أربعون، وقيل: قريباً من سبعين رجلاً من قريش، منهم: مخزّمة بن نوفل الزُهري، وعمرو بن العاص، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، ندب المسلمين إليهم وقال: هذه غير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله أن يفلحكموها. فانتدب الناس، فحفّ بعضهم وتقل بعضهم، وذلك لأنهم لن يظنوا أن رسول الله ﷺ، يلقي حرباً.

وكان أبو سفيان قد سمع أن النبي ﷺ، يريد، فحذر واستأجر ضَمْصَم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة يستنفر قريشاً ويخبرهم الخبر، فخرج ضَمْصَم إلى مكة.

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبل قدوم ضَمْصَم مكة ثلاث ليالٍ رؤيا أفزعها فقصتها على أخيها العباس واستكتمته خبرها، قالت: رأيت ركباً على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: أن انفروا يا آل عُذْر لمصارعكم في ثلاث! قالت: فأرى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد، فمثل بعيره على الكعبة، ثم صرخ مثلها، ثم مثل بعيره على رأس أبي قُيس فصرخ مثلها، ثم أخذ صخرة عظيمة وأرسلها، فلما كانت بأسفل (١١٧/٢) الوادي ارفضت فما بقي بيت من مكة إلّا دخله فلقه منها.

فخرج العباس فلقى الوليد بن عُتبة بن ربيعة، وكان صديقه، فذكرها له واستكتمه ذلك، فذكرها الوليد لأبيه عُتبة، فقصا الخبر، فلقى أبو جهل العباس فقال له: يا أبا الفضل أقبل إلينا. قال: فلما فرغت من طوافي أقبلت إليه، فقال لي: متى حدثت فيكم هذه النبئة؟ وذكر رؤيا عاتكة، ثم قال: ما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم! فسترخص بكم هذه الثلاث فإن يكن حقاً ولّا كبتنا عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

قال العباس: فما كان مني إليه إلّا أنّي جمحت ذلك وأنكرته، فلما أمسيت أتاني نساء بني عبد المطلب وقلن لي: أقررتم لهذا الفاسق الخيث أن يقع في رجالكم وقد تناول نساؤكم ولم تُنكر عليه ذلك! قال قلت: والله كان ذلك، ولأتعرضن له، فإن عاد كفيتكموه. قال: فغدوت اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا مغضب أحب أن أدركه فرأيتُه في المسجد فمشيت نحوه أتعرض له ليعود فأوقع به، فخرج نحو باب المسجد يشتد، قال قلت: ما باله قاتله الله! أكل هذا فرقاً من أن أشاتم! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع، صوت ضَمْصَم بن عمرو وهو يصرخ بيطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدّعه وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض له محمد وأصحابه، لا أدري إن تدركوها، الغوث الغوث! فشغلني عنه وشغله عني.

قال: فتجهّز الناس سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم أحد إلّا أبا

لقريش، أخبراني أين قريش؟ قال: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال رسول الله، ﷺ: كم القوم؟ قال: كثير. قال: كم عدتكم؟ قال: لا ندري. قال: كم يتحرون؟ قال: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. قال: القوم بين تسعمائة إلى الألف.

ثم قال لهما: فمن فيهم من أشرف قريش؟ قال: عتبة ومثنية ابنا ربيعة، والوليد وأبو البخري بن هشام، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر، (١٢٠/٢) وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل، وأمّية بن خلف، وثيبة ومثية ابنا الحجاج، ومهليل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود.

فأقبل رسول الله، ﷺ، على أصحابه وقال: هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها. ثم استشار أصحابه، فقال أبو بكر فاحسن، ثم قال عمر فاحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لينا أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]؛ ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد، يعني مدينة الحبشة، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فدعا لهم بخير ثم قال رسول الله، ﷺ، أشيروا علي أيها الناس؛ وإنا يريد الأنصار لأنهم كانوا عدد الناس، وخاف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا بمن دهمه بالمدينة وليس عليهم أن يسير بهم. فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: أجل. قال: قد آمنا بك وصدقتك وأعطيناك عهدنا، فامض يا رسول الله لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضه معك وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً، إنا نصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسير بنا على بركة الله!

فسار رسول الله، ﷺ، فقال: أبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم. ثم انحط على بدر فزل قريباً منها. (١٢١/٢) وكان أبو سفيان قد ساحل وترك بدرأ يساراً ثم أسرع فنجاً، فلما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش، وهم بالبحفة: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا ترجع حتى نرذ بدرأ، وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام، ففيسم بها ثلاثاً فتنحرجر الجُرز ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابونا أبداً. فقال الأخنس بن شريق الثقفي، وكان حليفاً لبني زهرة وهم بالبحفة: يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم وصاحبكم فارجعوا. فرجعوا، فلم يشهدوا زهرى ولا عدوي، وشهدوا سائر بطون قريش.

ولما كانت قريش بالبحفة رأى جهنم بن الصلت بن مخزومة بن

لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وعزم أمية بن خلف الجمحي على القعود، فإنه كان شيخاً ثقيلاً بطيئاً، فأتاه عتبة بن أبي مغيث بمجمرة فيها نار وما يتخبر به وقال: يا أبا علي استجم، فإنما أنت من النساء. فقال: (١١٨/٢) قبحك الله وقبح ما جئت به! وتجهز وخرج معهم. وعزم عتبة بن ربيعة أيضاً على القعود فقال له أخوه شيبه: إن فارقتا قوماً كان ذلك سبباً علينا، فامض مع قومك، فمشى معهم.

فلما أجمعوا على المسير ذكروا ما بينهم وبين بكر بن عبد مناة بن كنانة بن الحارث فخافوا أن يؤتوا من خلفهم، فجاءهم إبليس في صورة سراقه بن جعشم المذلجي، وكان من أشرف كنانة، وقال: أنا جار لكم فاخرجوا سراعاً. وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً، وقيل: كانوا ألف رجل، وكانت خيلهم مائة فرس، فنج منها سبعون فرساً وغن المسلمون ثلاثين فرساً، وكان مع المشركين سبعمائة بعير.

وكان مسير رسول الله، ﷺ، ثلاث ليال خلون من شهر رمضان في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وقيل أربعة عشر، وقيل بضعة عشر رجلاً. وقيل ثمانية عشر، وقيل كانوا سبعة وسبعين من المهاجرين، وقيل ثلاثة وثمانون والباقيون من الأنصار، قليل: جميع من ضرب له رسول الله، ﷺ، بسهم من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلاً، ومن الأوس أحد وسبعون رجلاً، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً، ولم يكن فيهم غير فارسين، أحدهما المقداد بن عمرو الكندي، ولا خلاف فيه، والثاني قيل كان الزبير بن العوام، وقيل كان مرثد بن أبي مرثد، وقيل المقداد وحده، وكانت الإبل سبعين بعيراً، فكانوا يتعاقبون عليها البعير بين الرجلين والثلاثة والأربعة، فكان بين النبي، ﷺ، وعليّ وزيد بن حارثة بعير، وبين أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف بعير، وعلى مثل هذا. (١١٩/٢) وكان فرس المقداد اسمه سبحة، وفرس الزبير اسمه السيل، وكان لواؤه مع مضعب بن عمير بن عبد الدار، ورأبته مع عليّ بن أبي طالب، وعلى الساقه قيس بن أبي صغصعة الأنصاري.

فلما كان قريباً من الصفراء بعث بسيس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء الجهنمين يتجسسان الأخبار عن أبي سفيان، ثم ارتحل رسول الله، ﷺ، وترك الصفراء يساراً، وعاد إليه بسيس بن عمرو يخبره أن العير قد قاربت بدرأ، ولم يكن عند رسول الله، ﷺ، والمسلمين علم بمسير قريش لمنع عيرهم، وكان قد بعث علياً والزبير وسعداً يلتمسون له الخبر بيدر، فأصابوا راوية لقريش فيهم أسلم غلام بني الحجاج وأبو يسار غلام بني العاص. فاتوا بهما النبي، ﷺ، وهو قائم يصلي، فسألوهما فقالا: نحن سقاء قريش يعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما وضربوهما ليخبروهما عن أبي سفيان. فقالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما. وفرغ رسول الله، ﷺ، من الصلاة وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذبكم تركتموهما صدقاً، إنهما

المطلب بن عبد مناف رؤيا فقال: إِنِّي رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ رَجُلًا أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ وَمَعَهُ بَعِيرٌ لَهُ فَقَالَ: قُتِلَ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأَبُو جَهْلٍ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ قُتِلَ يَوْمَئِذٍ، وَرَأَيْتُهُ ضَرْبَ لَبَّةٍ بِعَبْرِهِ ثُمَّ أَرْسَلَهُ فِي الْعَسْكَرِ فَمَا بَقِيَ خَبَاءٌ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْ دَمِهِ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَهَذَا أَيْضًا نَبِيٌّ مِنْ بَنِي الْمَطْلَبِ، سَيَعْلَمُ غَدًا مِنَ الْمَقْتُولِ. وَكَانَ بَيْنَ طَالِبِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَهُوَ فِي الْقَوْمِ، وَبَيْنَ بَعْضِ قُرَيْشٍ مُحَاوَرَةً، فَقَالُوا: وَاللَّهِ قَدْ عَرَفْنَا أَنَّ هَؤُلَاءِ مَعَ مُحَمَّدٍ. فَرَجَعَ طَالِبٌ إِلَى مَكَّةَ فَيَمِّنُ رَجْعًا، وَقِيلَ: إِنَّمَا كَانَ خَرَجَ كَرَاهًا، فَلَمْ يَجِدْ فِي الْأَسْرَى وَلَا فِي الْقَتْلَى وَلَا فَيَمِّنُ رَجْعًا إِلَى مَكَّةَ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ:

يَا رَبِّ إِنَّا يَفْزُونَ طَالِبًا فِي يَمِينِهِ مِنَ هَذِهِ الْمَقَاتِلِ
فَلَيْكِنِ الْمَسْلُوبُ غَيْرَ السَّالِبِ وَلَيْكِنِ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ

ومضت قريش حتى نزلت بالغداة القصوى من السوادي، ويعث الله (١٢٢/٢) السماء، وكان الوادي قهصًا، فأصاب رسول الله، ﷺ، وأصحابه منه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشًا منه ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه. فخرج رسول الله، ﷺ، يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل، فقال الجباب بن المنذر بن الجُموح: يا رسول الله! أهذا منزل أتزله الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: يا رسول الله فإن هذا ليس لك بمنزل، انهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء سواه من القوم فننزله ثم نعوذ ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضًا ونملأه ماء فنشرب ماء ولا يشربون ثم نقاتلهم. ففعل رسول الله، ﷺ، ذلك.

فلما نزل جاءه سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله نبني لك عريشًا من جريد فتكون فيه وترك عنك ركاتك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا الله عليهم كان ذلك مما أحببناه، وإن كانت الأخرى جلست على ركاتك فلحقت بما وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويحاربون معك. فأتى عليه خيرا، ثم بنى لرسول الله، ﷺ، عريشًا، وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها، فلما رأها قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحاذك وتكذب رسولك اللهم فنصرك (١٢٣/٢) الذي وعدتني! اللهم أجنهم الغداة. ورأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: إن يكن عند أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطعموه يرشدوا.

وكان خُفَاف بن إيماء بن رَحَضَةَ الْغِفَارِيِّ أو أبوه إيماء بعث إلى قريش حين مروا به ابنا له بجزائر أهداها لهم وعرض عليهم الممدد بالرجال والسلاح، فقالت قريش: إن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف، وإن كنا نقاتل الله كما زعم محمد فما لأحد بالله طاقة. فلما نزلت قريش أقبل جماعة، منهم حكيم بن حزام، حتى وردوا حوض

ولما اطمانت قريش بعثوا عمرو بن وهب الجُمَحِيَّ ليحرر المسلمين، فجاء بغرسه حولهم ثم عاد فقال: هم ثلاثمائة يزيدون قليلا أو ينقصون، ولقد رأيت الولايا تحمل المنايا، نواضح يشرب تحمل الموت الناقع، ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله لا يقتل رجل منهم إلا رجلا منكم، فإذا أصابوا أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فزوا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في القوم فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها، هل لك أن لا تزال تذكر فيها بخير (١٢٤/٢) إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو ابن الحضرمي. قال: قد فعلت، علي دمه وما أصيب من ماله، فأتى ابن الحنظليَّة، يعني أبا جهل، فلا أخشى أن يفسد أمر الناس غيره. فقام عتبة في الناس فقال: إنكم ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتمهم لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته. قال حكيم بن حزام: فانطلقت إلى أبي جهل فوجدته قد نثر درعا وهو يهينها، فاعلمته ما قال عتبة، فقال: انتفخ والله سخره حين رأى محمداً وأصحابه، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعثة ما قال ولكن رأى ابنه أبا حذيفة فيهم وقد خافكم عليه.

ثم بعث إلى عامر [بن] الحضرمي فقال له: هذا حليفك يريد أن يرجع إلى مكة بالناس، وقد رأيت ثارك بعينك فانشد خفرتك ومقتل أخيك. فقام عامر وصرخ: واعمراه واعمراه! فحميت الحرب واستوسق الناس على الشر.

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل: انتفخ سخره، قال: سيعلم المصفر أسفه من انتفخ سخره أنا أم هو! ثم التمس بيضة يذخلها رأسه فما وجد من عظم هامته، فاعتجر بيده له.

وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان سبي الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم ولاهدمتهم أو لأموئن دونه. فخرج إليه حمزة فطأن قدمه بنصف ساقه فوقع على الأرض، ثم حبا إلى الحوض فاقتحم فيه ليبري يمينه، وتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض. (١٢٥/٢) ثم خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ودعوا إلى المبارزة، فخرج إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن ربيعة كلهم من الأنصار فقالوا: من أنتم قالو: من الأنصار. فقالوا: أكفأ كرام، وما لنا بكم من حاجة، ليخرج إلينا أكفأنا من

وقمة أوقعها الله بالمشركون كان الإثخان أحب إلي من استبقاء الرجال.

وكان أول من لقي أبا جهل مُعَاذ بن عمرو بن الجُمُوح وقريش محيطة به (١٢٧/٢) يقولون لا يُخَلِّص إلى أبي الحكم، قال مُعَاذ: فجعلته من شاني، فلما أمكنتني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة فطرح بيدي من عاتني، فتعلقت بجبلده من جثتي، فقاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما أدتني جعلت عليها رجلي ثم تمطيت حتى طرحتها.

وعاش مُعَاذ إلى زمان عثمان، رضي الله عنه.

ثم مرّ بأبي جهل مُعَاذ بن عفره فضربه حتى أثبتته وتركه وبه رمق، ثم مرّ به ابن مسعود، وقد أمر رسول الله، ﷺ، أن يلتبس في القتلى، فوجده بأخر رمق، قال: فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت: هل أخزأك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أغمد من رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله. فقال له أبو جهل: لقد ارتقيت يا رُوَيْعِي الغنم مرتقى صعباً قال: فقلت: إني قاتلك. قال: ما أنت بأول عبد قتل سيده، أما إن أشد شيء لقيته اليوم قتلك إياي والآ قلني رجل من المطيبين الأحلاف. فضربه عبد الله فوقع رأسه بين رجليه، فحملة إلى رسول الله، ﷺ، فسجد شكرًا لله.

وكان عبد الرحمن بن عوف قد غنم أدرعاء، فمرّ بأمية بن خلف وابنه علي، فقالا له: نحن خير لك من هذه الأدرع. فطرح الأدرع وأخذ بيده ويده وابنه ومشى بهما، فقال له أمية: من الرجل المُعْلَم بريشة نعامه في صدره؟ قال: حمزة بن عبد المطلب. قال أمية: هو الذي فعل بنا الأفاعيل.

ورأى بلال أمية وكان يعذبه بمكة فيخرج به إلى رمضاء مكة فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ويقول: لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحد أحد، فلما رآه بلال قال: أمية! (١٢٨/٢) رأس الكفر! لا نجوت إن نجا! ثم صرخ: يا أنصار الله رأس الكفر رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا فأحاط بهم المسلمون، وقتل أمية وابنه علي، وكان عبد الرحمن يقول: رحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي وفجعتني بأسيري. وقتل حفظة بن أبي سفيان بن حرب، قتله علي بن أبي طالب.

ولما اتهم المشركون أمر النبي، ﷺ، أن لا يقتل أبو البختري بن هشام لأنه كان أكف القوم عن رسول الله، ﷺ، وهو بمكة، وكان ممن اهتم في نقض الصحيفة، فلقبه المُجَنَّد بن زياد البلوي حليف الأنصار ومعه زميل له، فقال له: إن رسول الله قد نهى عن قتلك. فقال: وزميلي؟ فقال المجنَّد: لا والله. قال: إذا والله لأموتن أنا وهو ولا تتحدثنساء قريش أني تركت زميلي حرصاً على الحياة. فقتله، ثم أخير رسول الله، ﷺ، بخيره.

قوما. فقال النبي، ﷺ، قم يا حمزة، قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا علي، فقاموا ودنا بعضهم من بعض، فبارز عبيدة بن الحارث بن المطلب، وكان أمير القوم، عتبة، وبارز حمزة شيبه، وبارز علي الوليد، فأما حمزة فلم يمهل شيئا أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه، وكرز حمزة وعلي على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة إلى أصحابه، وقد قطعت رجله، فلما أتوا به النبي، ﷺ، قال: الست شهيداً يا رسول الله؟ [قال: بلى]. قال: لو رأي أبو طالب لعلم [أتنا] أحق منه بقوله:

وَنُسَلِّمُهُ حَتَّى نَصْرُعَ حَوْلَهُ وَنُدْعِلَ عَنْ ابْنَاتِنَا وَالْحَالِمْ
ثُمَّ مَاتَ، وَتَزَاحَفَ الْقَوْمُ وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَأَبُو جَهْلٍ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ وَأَتَانَا بِمَا لَمْ نَعْرِفْ فَأَجْنَحْنَا الْغَدَاةَ، فَكَانَ هُوَ الْمُسْتَفْتَحَ عَلَى نَفْسِهِ.

وكان رسول الله، ﷺ، قد أمر أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل. ونزل في العريش ومعه أبو بكر وهو يدعو ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، اللهم أنجز لي ما وعدتني. ولم يزل حتى سقط رداؤه فوضع عليه أبو بكر ثم قال له: كفأك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. وأغفى رسول الله، ﷺ، في العريش إغفاءة، واثبتته ثم قال: يا أبا بكر أنك نصر الله، هذا جبرائيل أخذ بعنان فرسه يقوده (١٢٦/٢) على ثيابه التمسع، وأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] الآية.

وخرج رسول الله، ﷺ، وهو يقول ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّوْا الدُّبُرَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وحرص المسلمون وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محسباً فقبلاً غير مُدْبِر إلا أدخله الله الجنة. فقال عُمَيْرُ بن الحُصَيْنِ بن الأنصاري ويده تمرات يأكلهن: بخ بخ! ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قتل. ورُمي بهجج مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل، فكان أول قتيل. ثم رُمي حارثة بن سُرَاقَةَ الأنصاري فقتل، وقاتل عوف بن عفره حتى قتل، واقتل الناس قتلاً شديداً. فأخذ رسول الله، ﷺ، حفنة من التراب ورمى بها قريشاً وقال: شأنت الوجوه. وقال لأصحابه: شدوا عليهم فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من المشركين وأسر من أسر منهم.

ولما كان رسول الله، ﷺ، في العريش وسعد بن مُعَاذ قائم على باب العريش متوشحاً بالسيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله، ﷺ، يخافون عليه كره العدو، فرأى رسول الله، ﷺ، في وجه سعد بن مُعَاذ الكراهية لما يوضع الناس من الأسر، فقال له رسول الله، ﷺ،: لكأنك تكره ذلك يا سعد؟ قال: أجل يا رسول الله، أول

الكفر أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ، بخير.

ثم إن رسول الله ﷺ، أمر فُجُوع ما في العسكر، فاختلف المسلمون، فقال مَنْ جمعه: هو لنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو: [والله] لولا نحن ما أصبتموه، نحن شغلنا القوم عنكم [حتى أصبتم ما أصبتم]. وقال الذين كانوا يحرسون الله ﷺ، وهو في العريش: والله ما اتم بأحق به منا، لقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن له مَنْ يمنعه ولكن خفنا كره العدو على رسول الله ﷺ، فقمنا دونه. فترزع الله الأنفال من أيديهم وجعلها إلى رسول الله ﷺ، فقسما بين المسلمين على سواء.

وبعث رسول الله ﷺ، عبد الله بن رُوَاحَة بشيراً إلى أهل العالية، وزيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة من المدينة، فوصل زيد وقد سووا التراب على رُفْيَة بنت رسول الله ﷺ، وكانت زوجة عثمان بن عفان، خلفه رسول الله ﷺ، عليها وقسم له.

فلما عاد رسول الله ﷺ، لقيه الناس يهتفون بما فتح الله عليه، فقال سلمة بن وقش الأنصاري: إن لقينا إلا عجائز صلغاً كاللبن المعقّل فحزنناها. فبسم رسول الله ﷺ، وقال: يا ابن أخي أولئك الملا من قريش.

وكان في الأسرى النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، فأمر علي بن أبي طالب بقتل النضر فقتله بالصفراء، وأمر عاصم بن ثابت بقتل عقبة بن (١٣١/٢) أبي معيط، فلما أرادوا قتله جزع من القتل وقال: ما لي أسوة بهؤلاء؟ يعني الأسرى، ثم قال: يا محمد من للصبيّة؟ قال: النار، فقتله بعرق الطيبة صبراً.

وكان في الأسرى سهيل بن عمرو أسره مالك بن النخشم الأنصاري، فلما أتى به النبي ﷺ، قال عمر بن الخطاب: [دعني] أنزع نثيّه يا رسول الله فلا يقوم عليك خطيئاً أبداً، وكان سهيل أعلم الشفة السفلى، فقال رسول الله ﷺ،: دعه يا عمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه، فكان مقامه ذلك عند موت النبي ﷺ، وسنذكره عند خبر الرّودة إن شاء الله. ولما قدم به المدينة قالت له سودة بنت زُعدة، زوج النبي ﷺ، اعطيتُم بأيديكم كما تفعل النساء الآمَم كراماً! فسمع رسول الله ﷺ، قولها فقال لها: يا سودة أغلّي الله وعلى رسوله [تحرّضين] فقالت: يا رسول الله ما ملكك نفسي حين رأيته أن قلت ما قلت.

وقال رسول الله ﷺ، استوصوا بالأسرى خيراً وكان أحدهم يؤثر أسيره بطعامه.

فكان أول مَنْ قدم مكة بمصاب قريش الحنيسمان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا: ما ورامك؟ قال: قُتل عُتْبَة وشيبة وأبو الحكم ونييه ومبته ابنا الحجاج، وعدد أشراف قريش. فقال صفوان بن أمية: والله

وجيء بالعبّاس، أسره أبو اليسر، وكان مجموعاً، وكان العباس جسيماً، قليل لأبي اليسر: كيف أسرته؟ قال: أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك، بهينة كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ،: لقد أعانك عليه ملكٌ كريم. ولما أمسى العباس مأسوراً بات رسول الله ﷺ، ساهراً أول ليلة، فقال له أصحابه: يا رسول الله ما لك لا تنام؟ فقال: سمعتُ تَصَوّر العباس في وثاقه فمتع مني النوم. فقاموا إليه فاطلقوه، فنام رسول الله ﷺ.

وقد كان رسول الله ﷺ، قال لأصحابه يومئذ: قد عرفتُ رجالاً من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كرهاً، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنه أخرج (١٢٩/٢) كرهاً. فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل أبناءنا وآباءنا وإخواننا وترك العباس؟ والله لن لقيته لألجمته بالسيف. فبلغ النبي ﷺ،، فقال لعمر: يا أبا حفص أما تسمع قول أبي حذيفة؟ يضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال أبو حذيفة: لا أزال خاضعاً من تلك الكلمة ولا يكفرها عني إلا الشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيداً. وقد كان رسول الله ﷺ، قال لأصحابه: قد رأيته جبرائيل وعلى ثناباه النقع.

فقال رجل من بني غفار: أقبلتُ أنا وابن عمّ لي فصعدنا جبلاً يشرف بنا على بدر ونحن مشركان، ننظر لمن تكون الدائرة فنتذهب، فدنّت منا سحابة فسمعتُ فيها حممة الخيل وسمعتُ قائلاً يقول: اقدم حيزوم، قال: فأما ابن عمي فمات مكانه، وأما أنا فكذتُ أهلك فتماسكتُ.

وقال أبو داود المازني: أتني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذا وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه، فعرفتُ أنه قتله غري. وقال سهل بن حنيف: كان أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. فلما هزم الله المشركين وقتل منهم من قتل وأسر من أسر أمر رسول الله ﷺ، أن تُطرح القتلى في القلب، فطرحوا فيه إلا أمية ابن خلف فإنه انتفع في درعه فملاها، فذهبوا به ليخرجوه فتنقطع، وطرحوا عليه من التراب والحجارة ما غيّه ولما ألّفوا في القلب وقف عليهم رسول الله ﷺ، وقال: يا أهل القلب، بش عشيّة النبي كتم لبيكم! كذبتموني وصدّقني الناس! ثم قال: يا عتبة، يا ثنينة، يا أمية ابن خلف، يا أبا جهل بن هشام، وعدد من كان في القلب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال له أصحابه: أنكلتم قوماً موتى؟ فقال: ما أتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيوني. ولما قال، ﷺ، لأهل القلب ما قال رأى في (١٣٠/٢) وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية وقد تغير، فقال، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟ قال: لا والله يا رسول الله ما شككتُ في أبي وفي مصرعه، ولكنه كان له عقل وحلم فكنتُ أرجو له الإسلام، فلما رأيته ما مات عليه من

رجال مكة مالا وأمانة وتجارة، وكانت أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة رسول الله ﷺ، فسألته أن يزوجه زينب، ففعل قبل أن يوحى إليه، فلما أوحى إليه أمنت به زينب، وكان رسول الله ﷺ مغلوباً بمكة لم يقدر أن يفرق بينهما، فلما خرجت قريش إلى بدر خرج معهم فأسر، فلما بعثت قريش في فداء الأسارى بعثت زينب في فداء أبي العاص زوجها بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها معها، فلما رآها رسول الله ﷺ، رق لها رقّة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا. فاطلقوا لها أسيرها وردّوا القلادة.

وأخذ رسول الله ﷺ، عليه أن يُرسل زينب إليه بالمدينة، وسار إلى مكة، وأرسل رسول الله ﷺ، زيد بن حارثة مولاة ورجلاً من الأنصار ليصحبها زينب من مكة، فلما قدم أبو العاص أمرها بالحق بالنبي ﷺ، فتجهّزت سرّاً، وأركبها كنانة بن الربيع، أخو أبي العاص، بعيداً وأخذ قوسه وخرج بها نهاراً، فسمعت بها قريش فخرجوا في طلبها فلحقوها بذي طوى، وكانت حاملاً فطرحت حملها لما رجعت لخوفها، ونثر كنانة أسهمه ثم قال: والله لا يدنو مني أحد إلا وضعت فيه سهماً! فاتاه أبو سفيان بن حرب وقال: خرجت بها علانية فيظنّ الناس أن ذلك عن ذلّ وضعف منا، ولعمري ما لنا في حبسها حاجة، فارجع بالمرأة ليتحدّث الناس أننا ردناها. ثم أخرجها ليلاً وسلّمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدمها بها على رسول الله ﷺ، فأقامت عنده.

فلما كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بأمواله وأموال رجال من قريش، فلما عاد لقيته سرّية لرسول الله ﷺ، (١٣٥/٢) فأخذوا ما معه وهرب منهم، فلما كان الليل أتى المدينة فدخل على زينب، فلما كان الصبح خرج رسول الله ﷺ، إلى الصلاة فكبر وكبر الناس، فنادت زينب من صفّة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده ما علمتُ بشي من ذلك، وإنّه ليجير على المسلمين أذنانهم. وقال لزينب: لا يخلص إليك فلا يحلّ لك. وقال للسرية الذين أصابوه: إن رأيتم أن تردّوا عليه الذي له فإنّا نحبّ ذلك، وإن أبيتم فهو في الله الذي أفاء عليكم وأنتم أحقّ به. قالوا: يا رسول الله بل تردّه عليه. فردّوا عليه ماله كلّه حتى الشظايا، ثم عاد إلى مكة فردّ على الناس مالههم وقال لهم: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، والله ما منعي من الإسلام عنده إلا تخوّف أن تظنّوا [أنّي] إنّما أردتُ أكل أموالكم. ثم خرج فقدم على النبي ﷺ، فردّ عليه أهله بالنكاح الأوّل، وقيل بنكاح جديد.

وجلس عُمر بن وهب الجُمحيّ مع صفوان بن أمية بعد بدر، وكان شيطاناً ممّن كان يؤذي النبي وأصحابه، وكان ابن وهب في الأسارى، فقال صفوان: لا خير في العيش بعد من أصيب ببدر. فقال

إن يعقل فاسألوه عني. فقالوا: ما فعل صفوان؟ قال: هو ذلك جالس في الحجر، (١٣٢/٢) وقد رأيتُ أباه وأخاه حين قتلا.

ومات أبو لهب بمكة بعد وصول خبر مقتل قريش بتسعة أيام وناحت قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فيشمت محمد وأصحابه، ولا تبعثوا في فداء أسراكم لا يشتطّ عليكم محمد. وكان الأسود بن عبد يغوث قد أصيب له ثلاثة من ولده: زَمعة وعقيل والحارث، وكان يحبّ أن يبكي على بنه. فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة فقال لغلامه، وقد ذهب بصره: انظر هل أحلّ البكاء لعلّي أبكي علي زَمعة فإنّ جوفي قد احترق. فرجع إليه وقال له: إنّما هي امرأة تبكي علي بعير لها أضلّته، فقال:

أَبْكِي أَنْ يَهْلَ لَهَا بَعِيرٌ وَيَمْنَعُهَا مِنَ النَّوْمِ الشُّهُودُ
وَلَا تَبْكِي عَلَى بَكْرٍ وَلَكِنْ عَلَى بَدْرٍ تَقَاصَرَتِ الْجُدُودُ
عَلَّ بَدْرٍ سَرَاةَ بَنِي مُضَيَّصٍ وَمَخْرُومٍ وَزِمَطَ أَبِي الْوَلِيدِ
وَبَكِّي إِنْ بَكَتِ عَلَى عَقِيلٍ وَبَكِّي حَارِثاً أَسَدَ الْأَسُودِ
وَبَكِّيهِمْ وَلَا تَسْمِي جَمِيعاً فَمَا لِأَبِي حَكِيمَةٍ مِنْ نَدِيدِ
إِلَّا قَدْ سَادَ بَعْدَهُمْ أَنْسَاسٌ وَلَسْوَ لَا يَوْمٌ بَدْرٌ لَمْ يَكُونُوا
يعني أبا سفيان.

ثم إن قريشاً أرسلت في فداء الأسارى، فأول من فدى أبو وداعة السهمي، فداء ابنه المطلب، وفدى العباس نفسه وعقيل بن أبي طالب (١٣٢/٢) ونوّفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفة عتبة بن عمرو بن جحّذم، أمره رسول الله ﷺ، بذلك فقال: لا مال لي. فقال له رسول الله ﷺ، أين المال الذي وضعته عند أم الفضل وقلت لها إن أصبّت فللفضل كذا ولعبد الله كذا ولعبيد الله كذا؟ قال: والذي بعثك بالحق ما علم به أحد غيري وغيرها، وإني لأعلم أنّك رسول الله! وفدى نفسه وابني أخوته وحليفة، وكان قد أخذ مع العباس عشرون أوقية من ذهب، فقال: أحبسها في فدائي. فقال النبي ﷺ: لا، ذاك شيء أعطاناه الله، عز وجلّ.

وكان في الأسارى عمرو بن أبي سفيان، أسره علي، فقيل لأبيه: أفدّ عمرأ. فقال: لا أجمع عليّ دمي ومالي، يقتل ابني حنظلة وأفندي عمرأ فتركه ولم يفكّه. ثم إن سعد بن النعمان الأنصاري خرج إلى مكة معتمراً، فأخذه أبو سفيان، وكانت قريش لا تعرض لحاج ولا معتمر. فحبسه أبو سفيان ليفدي به عمرأ ابنه، وقال:

أَرْفَطُ ابْنَ أَكَالٍ أَجَبُوا دُعَاءَهُمْ تَمَاقَتُمْ لَا تُسَلِّمُوا السَّيِّدَ الْكَهْلَا
فَلِإِنْ بَنِي عَمْرٍو لِنَامَ أَذِلَّةٌ لَنْ لَمْ يَفْكُوا عَنْ أَسِيرِهِمُ الْكِبَالَا
فمضى بنو عمرو بن عوف إلى النبي ﷺ، فطلبوا منه عمرو بن أبي سفيان ففادوا به سعداً.

وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس زوج (١٣٤/٢) زينب بنت رسول الله ﷺ، وكان من أكثر

(رحضة بفتح الراء المهملة، والحاء المهملة، والضاد المعجمة. والخُبَار بضمّ الحاء المهملة، والباء الموحدة. وأُسَيْد بن خُضَيْر بضمّ الهمزة، والضاد المعجمة. وخُدَيْج بفتح الخاء المعجمة، وكسر الدال المهملة).

ذكر غزوة بني قُيْنُقَاع

لما عاد رسول الله ﷺ، من بدر أظهرت يهود له الحسد بما فتح الله عليه ويغوا وتقضوا العهد، وكان قد وادعهم حين قدم المدينة مهاجراً. فلما بلغه حسدهم جمعهم بسوق بني قُيْنُقَاع فقال لهم: احذروا ما نزل بقريش وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل. فقالوا: يا محمد لا يفرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة.

فكانوا أول يهود تقضوا ما بينهم وبينه، فبينما هم على مجاهرتهم وكفرهم (١٣٨/٢) إذ جاءت امرأة مسلمة إلى سوق بني قُيْنُقَاع فجلست عند صائغ لأجل حلي لها، فجاء رجل منهم فخل درعها إلى ظهرها، وهي لا تشعر، فلما قامت بدت عورتها، فضحكوا منها، فقام إليه رجل من المسلمين فقتله، ونبذوا العهد إلى رسول الله ﷺ، وتحصنوا في حصونهم، فغزاهم رسول الله ﷺ، وحاصروهم خمس عشرة ليلة، فنزلوا على حكمه، فكفوا، وهو يريد قتلهم، وكانوا حلفاء الخزرج، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول فكلّمه فيهم، فلم يجبه، فادخل يده في جيب رسول الله ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ وقال: ويحك أرسلني. فقال: لا أرسلك حتى تحسن إلى موالي، أربعمائة حاصر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود [تحصدهم في غداة واحدة]، وإني والله لأخشى الدوائر. فقال النبي ﷺ: هم لك، خلّوهم لنعمهم الله ولعنه معهم.

وغنم رسول الله ﷺ، والمسلمون ما كان لهم من مال، ولم يكن لهم أرضون إنما كانوا صاغّة، وكان الذي أخرجهم عبادة بن الصامت الأنصاري، فبلغ بهم ذياب، ثم ساروا إلى أذرعات من أرض الشام، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى هلكوا.

وكان قد استخلف على المدينة أبا لُبابة، وكان لواء رسول الله ﷺ، مع حمزة، وقسم الغنيمة بين أصحابه وخمسها، وكان أول خمس أخذه رسول الله ﷺ، في قول. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وحضر الأضحى وخرج إلى المصلّى فصلّى بالمسلمين، وهي أول صلاة عيد صلاها، وضحّى فيه رسول الله ﷺ، بشاتين، وقيل بشاة، وكان أول أضحى رآه المسلمون، وضحّى (١٣٩/٢) معه ذوو اليسار. وكانت الغزاة في شوال بعد بدر، وقيل: كانت في صفر سنة ثلاث، وجعلها بعضهم بعد غزوة الكثر.

(ذياب بكسر الذال، وياثين موحّتين).

عمير: صدقت ولولا ذن عليّ وعيال أخشى ضيعتهم لركبت إلى محمد حتى أقتله. فقال صفوان: ذنك عليّ وعيالك مع عيالي أسوتهم. فسار إلى المدينة فقدمها، فأمر النبي ﷺ، عمر بن الخطاب بإدخاله عليه، فأخذ عمر بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، واحذروا هذا الخيث. فلما رآه رسول الله ﷺ، قال لعمر: اتركه، ثم قال: ادن يا عمير، ما جاء بك؟ قال: جئت لهذا الأسير. قال: اصدقني. قال: ما جئت إلا لذلك. قال: (١٣٦/٢) بل قد عدت أنت وصفوان وجري بينكما كذا وكذا. فقال عمير: أشهد أنك رسول الله ﷺ، هذا الأمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فالحمد لله الذي هداني للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: فقهاوا أحكام في دينه وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره، ففعلوا. فقال: يا رسول الله كنت شديد الأذى للمسلمين فأحب أن تأذن لي فأقدم مكة فادعوا إلى الله وأوذي الكفار في دينهم كما كنت أوذي أصحابك. فاذن له، فكان صفوان يقول: ابشروا الآن بوقعة تأتيكم تنسيكم وقعة بدر.

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الله، فأسلم معه ناس كثير، وكان يؤدي من خالفه.

وقدم يكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو، وكان رسول الله ﷺ، يشاور أبا بكر وعمر وعليّاً في الأسارى، فأشار أبو بكر بالفداء، وأشار عمر بالقتل، فقال رسول الله ﷺ، إلى القتل، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخَرَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ فِيهَا أُخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]؛ وكان الأسرى سبعين، فقتل من المسلمين عقوبة بالمفاداة يوم أحد سبعون، وكسرت ربيعة رسول الله ﷺ، ومُشِمت البيضاء على رأسه، وسال الدم على وجهه وانهمز أصحابه، فأنزل الله تعالى ﴿أَوَلَمْ أَعْصِئَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصِيبَكُمْ مِثْلُهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وكان جميع من قُتل من المسلمين ببدر أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار. ورد رسول الله ﷺ، جماعة استصغروهم، منهم: عبد الله بن عمر، ورافع بن خديج، والبراء (١٣٧/٢) ابن عازب، وزيد بن ثابت، وأُسَيْد بن خُضَيْر.

وضرب رسول الله ﷺ، لثمانية نفر بسهم في الأنفال لم يحضروا الوقعة، منهم: عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ، خلفه على زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، لمرضها وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، كان أرسلهما يتجسّسان خبر العير، وأبو لُبابة، خلفه على المدينة وعاصم بن عدي، خلفه على العالية، والحارث بن حاطب، ورده إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم، والحارث بن الصمة، كسر بالزّحاح، وخزّات بن جبير، كسر في بدر أسفل سيفه ذي الفقار، وكان لمُتَبِّه بن الحجاج، وقيل كان للعاصم بن مُتَبِّه، قتله عليّ صبراً وأخذ سيفه ذا الفقار، فكان للنبي ﷺ، فوهبه لعليّ.

فالأول باطل.

ذكر غزوة الكُندر

وفي هذه السنة كتب المعاقلة وقرية بسيفه.

(سلام بتشديد اللام. وميثكم بكسر الميم، وسكون الشين المعجمة، وفتح الكاف. والعريض بضم العين المهملة، وفتح الراء، وآخره ضاد معجمة: وإد بالمدينة). (١٤٢/٢)

السنة الثالثة من الهجرة

في المحرم سنة ثلاث سمع رسول الله ﷺ، أن جمعاً من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان وبني مُحارب بن حفص تجمعوا لبصيصوا من المسلمين، فصار إليهم في أربعمئة وخمسين رجلاً، فلما صار بذى القصة لقي رجلاً من ثعلبة فدعاه إلى الإسلام، فأسلم وأخبره أن المشركين اتهم خبره فهربوا إلى رؤوس الجبال، فعاد ولم يلق كيداً، وكان مقامه اثني عشرة ليلة.

وفيهما في جمادي الأولى، غزا بني سُليم ببحران، وسبب هذه الغزوة أن جمعاً من بني سُليم تجمعوا ببحران من ناحية الفُرع، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فصار إليهم في ثلاثمئة، فلما بلغ ببحران وجددهم قد تفرقوا فانصرف ولم يلق كيداً، وكانت غيبته عشر ليالٍ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

(القصة بفتح القاف، والصاد المهملة. وبخُران بالياء الموحدة، والحاء المهملة الساكنة) (١٤٣/٢)

ذكر قتل كعب بن الأشرف اليهودي

وفي هذه السنة قُتل كعب بن الأشرف، وهو أحد بني نُبهان من طيء، وكانت أمه من بني النضير، وكان قد كُبر عليه قُتل من قُتل بيدر من قريش، فصار إلى مكة وحرض على رسول الله ﷺ، وبكى أصحاب بدر، وكان يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فلما عاد إلى المدينة قال رسول الله ﷺ: من لي من ابن الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصاري: أنا لك به، أنا أقتله. قال: فافعل إن قدرت على ذلك. قال: يا رسول الله لا بد لنا ما نقول. قال: قولوا ما بدا لكم، فأتيت في حل من ذلك.

فاجتمع محمد بن مسلمة وسيلكان بن سلامة بن وقش، وهو أبو نائلة، والحارث بن أوس بن معاذ، وكان أخا كعب من الرضاعة، وعبد بن بشر، وأبو عيس بن جبر، ثم قدموا إلى ابن الأشرف أبا نائلة، فتحدثت معه ثم قال له: يا ابن الأشرف إني قد جئت لك لحاجة فاكتمها علي. قال: أفعل. قال: كان قدوم هذا الرجل شؤماً على العرب، قطع عنا السبل حتى ضاعت العيال وجهدت البهائم. فقال كعب: قد كنت أخبرتك بهذا. قال أبو نائلة: وأريد أن تبغينا طعاماً ونزهنك ونوثق لك وتُحسن في ذلك. قال: ترهونني أبناءكم؟ قال:

قال ابن إسحاق: كانت في شوال سنة اثنتين، وقال الواقدي: كانت في المحرم سنة ثلاث، وكان قد بلغ النبي ﷺ، اجتماع بني سُليم على ماء لهم يقال له الكُندر، فصار رسول الله ﷺ، إلى الكُندر فلم يلق كيداً، وكان لواؤه مع علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وعاد ومعه النعم والرعاء، وكان قدومه، في قول، لعشر ليالٍ مضي من شوال. وبعد قدومه أرسل غالب بن عبد الله الليثي في سرية إلى بني سُليم وغطفان، فقتلوا فيهم وغنموا النعم، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر وعادوا متصف شوال.

(الكُندر بضم الكاف، وسكون الدال المهملة).

ذكر غزوة السويق

كان أبو سفيان قد نذر بعد بدر أن لا يمس رأسه ماء من جنبه حتى يغزو محمداً، فخرج في ماتي راكب من قريش ليبري يمينه حتى جاء المدينة ليلاً واجتمع بسلام بن ميثم سيد النضير فعلم منه خبر الناس، ثم خرج في (١٤٠/٢) ليالته فبعث رجلاً من قريش إلى المدينة، فأتوا العريض فحرقوا في نخلها وقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له، واسم الأنصاري معبد بن عمرو، وعادوا، ورأى أن قد بر في يمينه، وجاء الصريخ، فركب رسول الله ﷺ، وأصحابه فاعجزهم، وكان أبو سفيان وأصحابه يلقون جُرب السويق يتخفون منها [للنجاة]، وكان ذلك عامه زادهم، فلذلك سميت غزوة السويق.

ولما رجع رسول الله ﷺ، والمسلمون قالوا: يا رسول الله أطمع أن تكون لنا غزوة؟ قال: نعم. وقال أبو سفيان بمكة، وهو يتجهز:

كُروا على يثرب وجمعهم
إن يك يوم القليب كان لهم
البيت لا أقرب النساء ولا
حتى تبورا قبائل الأوس وال
فاجابه كعب بن مالك بقوله:

يا لهف أم السَّحَاحِ عَلَى
إذ يطرَحون الرجال من سَنَم الطَّب
جاؤوا بجمع لزقيس مبركة
عار من النصر والبراء ومن
جيش ابن حنظل بالحرّة القُتل
مر ترقي لقتة الجبل
ما كان إلا كنف حصي الدُّل
أبطال أهل البطحاء والأمل
(١٤١/٢)

وفي ذي الحجة منها مات عثمان بن مظعون فدفن بالبقيع وجعل رسول الله ﷺ، على رأس القبر حجراً علامة لقبره.

وقيل: إن الحسن بن علي وُلد فيها. وقيل: إن علي بن أبي طالب بنى بفاطمة على رأس اثنتين وعشرين شهراً، فإن كان هذا صحيحاً

صفوان بن أمية وأبو سفيان. وكان عظيم تجارتهم الفضة، وكان دليلهم فرات بن حيان بن بكر بن وائل، فبعث رسول الله، ﷺ، زيدا، فلقيهم على ماء يقال له الفرقة، فأصاب العير وما فيها، وأجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله، ﷺ، وكان الخمس عشرين ألفاً، وقسم الأربعة الأخماس على السوية، وأتى فرات بن حيان أسيراً فأسلم، فأطلقه رسول الله، ﷺ.

(الفرقة: ماء بنجد، وقد اختلف العلماء في ضبطه، فقبيل فردة بالقاء المفتوحة والراء الساكنة، وبه مات زيد الخيل، ويرد ذكره، وضبطه ابن الفرات في غير موضع قرده بالقاف، وقال ابن إسحاق: وسير زيد بن حارثة إلى الفرقة، ماء من مياه نجد، ضبطه ابن الفرات أيضاً بفتح الفاء والراء، فإن كان مكانين وإلا فقد ضبط ابن الفرات أحدهما خطأ) (١٤٦/٢)

ذكر قتل أبي رافع

في هذه السنة في جمادى الآخرة قُتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي، وكان يظهر كعب بن الأشرف على رسول الله، ﷺ، فلما قُتل كعب بن الأشرف، وكان قُتِلَ من الأوس، قالت الخزرج: والله لا يذهبون بها علينا عند رسول الله، ﷺ، وكانا يتصاولان تصاول الفخّالين، فتذاكر الخزرج من يعادي رسول الله، ﷺ، كابن الأشرف، فذكروا ابن أبي الحقيق، وهو بخير، فاستأذنوا رسول الله، ﷺ، في قتله، فاذن لهم، فخرج إليه من الخزرج عبد الله ابن عتيك ومسعود بن سينان وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة وخزاعي بن الأسود حليف لهم وأمر عليهم عبد الله بن عتيك، فخرجوا حتى قدموا خير فاتوا دار أبي رافع ليلاً، فلم يدعوا باباً في الدار إلا أغلقوه على أهله، وكان في غلّة فاستأذنوا عليه، فخرجت امرأته فقالت: مَنْ أنتم؟ قالوا: نفر من العرب يلتمسون الميرة. قالت: ذاك صاحبكم فادخلوا عليه، فدخلوا، فلما دخلوا أغلقوا باب العلية ووجدوه على فراشه وابتدروا، فصاحت المرأة، فجعل الرجل منهم يريد قتلها، فيذكر نهي النبي، ﷺ، إياهم عن قتل النساء والصبيان، فيمسك عنها، وضربه بأسياقهم، وتحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى اتفذه، ثم خرجوا من عنده. وكان عبد الله بن عتيك سبيء البصر، فوقع من الدرجة فوثت رجله وثاً شديداً، فاحتملوه واختفوا، وطلبهم يهود في كل وجه فلم يروه، فرجعوا إلى (١٤٧/٢) صاحبهم، فقال المسلمون: كيف نعلم أنّ عدو الله قد مات؟ فعاد بعضهم ودخل في الناس فرأى الناس حوله وهو يقول: لقد عرفت صوت ابن عتيك ثم قلت: أين ابن عتيك؟ ثم صاحت امرأته وقالت: مات والله. قال: فما سمعت كلمة الذّ إلى نفسي منها. ثم عاد إلى أصحابه وأخبرهم الخبر وسمع صوت الناعي يقول: اتبعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز. وساروا حتى قدموا على النبي، ﷺ، واختلفوا في قتله. فقال رسول الله، ﷺ، هاتوا أسياقكم، فجاؤا بها، فنظر إليها

أردت أن تفضحنها، إنّ معي أصحابي على مثل رأيي تبعهم وتحسن ونجعل عندك رهناً من الحلقة ما فيه فناء، وأراد أبو نائلة بذكر الحلقة، وهي السلاح، أن لا يُنكر السلاح إذا جاء مع أصحابه. فقال: إنّ في الحلقة لوفاء.

فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم، فأخذوا السلاح وساروا إليه، (١٤٤/٢) وشيعهم النبي، ﷺ، إلى بقيع الغرقد ودعا لهم. فلما انتهوا إلى حصن كعب هتف به أبو نائلة، وكان كعب قريب عهد بعُرس، فوثب إليه، وتحدثوا ساعة، وسار معهم إلى شعب العجوز. ثم إنّ أبا نائلة أخذ برأس كعب وشتم يده وقال: ما رأيت كالأليلة طيباً أعرف قط ثم مشى ساعة وعاد لمثلها حتى أطمأن كعب، ثم مشى ساعة وأخذ بفرد رأسه ثم قال: اضربوا عدو الله! فاختلفت عليه أسياقهم فلم تغن شيئاً. قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولاً في سيفي فأخذته، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، قال: فوضعت في ثنودته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عاتقه ووقع عدو الله.

وقد أصيب الحارث بن أوس بن معاذ، أصابه بعض أسياقنا، قال: فخرجنا على بُعات وقد أبطأ علينا صاحبنا فوقفنا له ساعة وقد نزفه الدم، ثم أتانا فاحتملناه وجئنا به النبي، ﷺ، فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل على جرح صاحبنا وغدنا إلى أهلينا فأصبحنا وقد خافت يهود، ليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه.

قال: وقال رسول الله، ﷺ، مَنْ ظفرت به من رجال يهود فاقتلوه. فوثب بن محيصة بن مسعود على ابن سبيئة اليهودي وهو من تجار يهود، فقتله، وكان يبايعهم، فقال له أخوه حويصة، وهو مشرك: يا عدو الله قتلت! أما والله لرب شحم في بطنك من ماله! وضربه، فقال محيصة: لقد أمرني بقتله مَنْ لو أمرني بقتلك لقتلتك. قال: فوالله إن كان لأوّل إسلام حويصة. فقال: إن ديناً بلغ بك ما أرى لعجب. ثم أسلم.

(عُيس بن جبر يفتح العين المهملة، وسكون الباء الموحدة. وجبر (١٤٥/٢) بالجيم، والباء الموحدة. وسُنية تصغير سن)

وفي ربيع الأوّل منها تزوج عثمان بن عفّان أم كلثوم بنت النسي، ﷺ، وبنى بها في جمادى الآخرة. وفيها وُلد السائب بن زيد ابن أخت نُمير. وقال الواقدي: وفيها غزا رسول الله، ﷺ، غزوة أنمار يقال لها دوام، وقد ذكرنا قول ابن إسحاق قبل ذلك.

وفيها كان غزوة الفرقة، وكان أميرها زيد بن حارثة، وهي أوّل سرية خرج فيها زيد أميراً.

وكان من حديثها أنّ قريشاً خافت من طريقها التي كانت تسلك إلى الشام بعد بدر، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم جماعة فيهم

فقال لسيف عبد الله بن أنيس: هذا قتله، أرى فيه أثر العظام.

وقيل في قتله: إن رسول الله، ﷺ، بعث إلى أبي رافع اليهودي، وكان بأرض الحجاز، رجلاً من الأنصار وأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله، ﷺ، فلما دنوا منه غربت الشمس وراح بسرّجهم، فقال عبد الله بن عتيك لأصحابه: أقيموا مكانكم فإنّي أنطلق وأتلف للبوّاب لعلّي أدخل. فانطلق فأقبل حتى دنا من الباب فتفتّح بثوبه كأنه يقضي حاجته، ففتف به البوّاب: إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإنّي أريد أن أغلق الباب، فدخل وأغلق الباب وعلّق المفاتيح على وتد، قال: فقمْتُ فأخذتها ففتحتُ بها الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده في علالي له. فلما أراد النوم ذهب عنه السُّمّار، فصعدتُ إليه فجعلتُ كلماً فتحت باباً أغلقته عليّ من داخل، فقلت: إن علموا بي لم يخلصوا إليّ حتى أقتله. قال: فانتفيتُ إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو. فقلت: أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟ فأهويت نحو الصوت فضربه بالسيف وأنا دهش، فما أغنى عني شيئاً وصاح، فخرجتُ من البيت غير بعيد ثم دخلتُ عليه فقلت: ما هذا الصوت؟ قال: لأَمَك الولي! إن رجلاً في البيت (١٤٨/٢) ضربني بالسيف. قال: فضربته فأخخته فلم أقتله، ثم وضعت حدّ السيف في بطنه حتى أخرجه من ظهره، فعرفتُ أنّي قتلتُه فجعلتُ أفتح الأبواب وأخرج حتى انتهيتُ إلى درجة فوضعتُ رجلي وأنا اظنُّ أنّي انتهيتُ إلى الأرض فوقعتُ في ليلة مقمرة وانكسرت ساقي فعصبتها بعمامي وجلستُ عند الباب فقلت: والله لا أبرح حتى أعلم أقتلته أم لا. فلما صاح الديك قام الناعي فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقتُ إلى أصحابي فقلت: النجاة! قد قتل الله أبا رافع، فانتفيتُ إلى النبي، ﷺ، فحدّثته. فقال: أبسط رجلك. فبسطتها فمسحها فكأنّي لم أشتكها قطّ.

قيل: كان قتل أبي رافع في ذي الحجة سنة أربع من الهجرة، والله أعلم.

(سلام بتشديد اللام. وحُقِّق بضمّ الحاء المهملة، وفتح القاف الأولى، تصغير حُقّ).

وفيهما تزوج رسول الله، ﷺ، حفصة بنت عمر بن الخطاب في شعبان، وكانت قبله تحت خنيس (بضمّ الخاء المعجمة، وبالنون المفتوحة، ولباء المعجمة باثنتين من تحت، وبالسين المهملة) وهو ابن حذافة السهمي، فتوفي فيها.

ذكر غزوة أحد

وفيهما في شوال لسبع ليال خلون منه كانت وقعة أحد، وقيل للنصف منه، وكان الذي هاجها وقعة بدر، فإنه لما أصيب من المشركين مَنْ أصيب ببدر مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وغيرهم ممّن أصيب أبواهم وأبناؤهم

وإخوانهم بها، فكلموا أبا سفيان ومن كان له (١٤٩/٢) في تلك العير تجارة وسألوهم أن يعينوهم بذلك المال على حرب رسول الله، ﷺ، ليدركوا ثأرهم منهم، ففعلوا وتجهّز الناس وأرسلوا أربعة نفر، وهم: عمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، وابن الزبعرى، وأبو عزة الجمحي، فساروا في العرب ليستفروهم، فجمعوا جمعاً من ثقيف وكنانة وغيرهم، واجتمعت قريش بأحايشها ومَن أطاعها من قبائل كنانة وتهامة، ودعا جبير من مطعم غلامه وحشي بن حرب، وكان حبشياً يقذف بالحربة قلّ ما يُخطئ، فقال له: اخرج مع الناس فيان قلت عمّ محمّد بعمي طُعيمة بن عديّ فانت عتيق.

وخرجوا معهم بالظنّ لئلا يفروا، وكان أبو سفيان قائد الناس، فخرج بزوجه هند بنت عتبة، وغيره من رؤساء قريش خرجوا بنسائهم، خرج عكرمة بن أبي جهل بزوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وخرج الحارث بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد، وخرج صفوان بن أمية ببريرة، وقيل برزة بنت مسعود الثقفية أخت غزوة بن مسعود، وهي أم ابنه عبد الله بن صفوان، وخرج عمرو بن العاص بريلة بنت منبه بن الحجاج، وهي أم ولده عبيد الله بن عمرو، وخرج طلحة بن أبي طلحة بسلافة بنت سعد، وهي أم بنه مسافع والجلاس وكلاب وغيرهم. وكان مع النساء الدفوف يبكين على قتلى بدر يحرمّن بذلك المشركين.

وكان مع المشركين أبو عامر الراهب الأنصاري، وكان خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله، ﷺ، ومعه خمسون غلاماً من الأوس، وقيل كانوا خمسة عشر، وكان يعدّ قريشاً أنه لو لقي محمداً لم يتخلف عنه من الأوس رجلاً. فلما التقى الناس بأحد كان أبو عامر أوّل من لقي في (١٥٠/٢) الأحايش وعبدان أهل مكة، فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر. فقالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق! فقال: لقد أصاب قومي بعدي شرّ، ثم قاتلهم قتالاً شديداً حتى راضخهم بالحجارة. وكانت هند كلماً مرّت بوحشي أو مرّ بها قالت له: يا أبا دُسمّة اشفِ واستشفِ، وكان يكنى أبا دُسمّة، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل بطن السبخة من قناة على شفير الوادي ممّا يلي المدينة.

فلما سمع بهم رسول الله، ﷺ، والمسلمون قال: إنّي رأيتُ بقرأ فأولتها خيراً، ورأيتُ في ذباب سفي ثلماً، ورأيتُ أنّي أدخلتُ يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإِن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فإن أقاموا أقاموا بشرّ [مقام] وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها.

وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله، ﷺ، يكره الخروج، وأشار بالخروج جماعة ممّن استشهد يومئذ.

وأقامت قريش يوم الأربعاء والخميس والجمعة، وخرج رسول الله، ﷺ، حين صلى الجمعة فالتقوا يوم السبت نصف شوال. فلما لبس رسول الله، ﷺ، سلاحه وخرج ندم الذين كانوا أشاروا

بالخروج إلى قريش وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ، ونشير عليه، فالرحي يأتيه فيه، فاعتدوا إليه وقالوا: اصنع ما شئت. فقال: لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمنه فيضعها حتى يقاتل.

فخرج في ألف رجل، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، فلما كان بين المدينة وأحد عاد عبد الله بن أبي بلثث الناس، فقال: أطاعهم وعصاني، وكان من تبعه أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن حرام أخو بني سلمة يذكرهم الله أن لا يخذلوا نبيهم، فقالوا: لو نعمل أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، وانصرفوا. فقال: أبعدكم الله أعداء الله! فسيغني الله عنكم! وبقي رسول (١٥١/٢) الله ﷺ، في سبعمائة فسار في حرّة بني حارثة وبين أموالهم، فمرّ بمال رجل من المنافقين يقال له مريع بن قُظي، وكان ضير البصر، فلما سمع حسّ رسول الله ﷺ، ومَن معه قام يحيي التراب في وجوههم ويقول: إن كنت رسول الله فإني لا أحلّ لك أن تدخل حائطي، وأخذ حفنة من تراب في يده وقال: لو أعلم أنني لا أصيب غيرك لضربت به وجهك، فابتدروه ليقتلوه، فقال النبي ﷺ: لا تفعلوا فهذا الأعمى أعمى البصر والقلب. فضربه سعد بن زيد بقوس فشجّه.

وذبح فرس بذنبه فأصاب كلاب سيف صاحبه، فاستلّه، فقال له رسول الله ﷺ: سيوفكم فإني أرى السيوف تستلّ اليوم.

وسار رسول الله ﷺ، حتى نزل بعدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وكان المشركون ثلاثة آلاف، منهم سبعمائة دارع، والخيّل مائتي فرس والطعن خمس عشرة امرأة، وكان المسلمون مائة دارع ولم يكن من الخيل غير فرسين، فرس لرسول الله ﷺ، وفرس لأبي بُرْدة بن نيار، وعرض رسول الله ﷺ، المقاتلة فردّ زيد بن ثابت وابن عمر وأسيّد بن خضير والبراء بن عازب وعرابة ابن أوس وأبا سعيد الخدري وغيرهم، وأجاز جابر بن سمرة ورافع بن خديج.

وأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول: خلّوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم فلا حاجة بنا إلى قتالكم. فردّوا عليه بما يكره.

وتعبّ المشركون فجعلوا على ميمتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم (١٥٢/٢) عكرمة بن أبي جهل، وكان لواؤهم مع بني عبد الدار، فقال لهم أبو سفيان: إنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، فإمّا أن تكفونا وإمّا تخلوا بيننا وبين اللّواء، يحرضهم بذلك. فقالوا: ستعلم إذا التقينا كيف نصنع، وذلك أراد.

واستقبل رسول الله ﷺ، المدينة وترك أخذًا خلف ظهره وجعل وراءه الرّماة، وهم خمسون رجلاً، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، أخا خوات بن جبير، وقال له: انضج عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا وأثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا. وظهر رسول الله ﷺ، بين درعين وأعطى اللّواء مُصعب بن عمير، وأمر الزبير على الخيل ومعه العقّاد، وخرج حمزة بالجيش بين يديه.

وأقبل خالد وعكرمة فلقبهما الزبير والمقداد فهزما المشركين، وحمل النبي ﷺ، وأصحابه فهزموا أبا سفيان، وخرج طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين وقال: يا معشر أصحاب محمّد إنكم تزعمون أنّ الله يُعجلنا بسيوفكم. إلى النار ويُعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يُعجله سيفي إلى الجنة أو يُعجلني سيفه إلى النار؟ فبرز إليه علي بن أبي طالب، فضربه عليّ فقطع رجله، فسقط وانكشفت عورته، فناشده الله [والرّجيم] فتركه، فكبر رسول الله ﷺ، وقال لعليّ: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: إنّه ناشدني الله والرّجيم فاستحييت منه.

وكان بيد رسول الله ﷺ، سيف، فقال: من يأخذه بحقه؟ فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم حتى قام أبو دُجانة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: تضرب به العدو حتى تتخن. قال: أنا أخذه. فاعطاه إياه. وكان شجاعاً، وكان إذا أعلم بعصاة له حمراء علم الناس أنّه يقاتل، فعصّب رأسه بها وأخذ السيف وجعل يبتختر بين الصّفيّين. فقال رسول الله ﷺ: إنّها وشية يُغضها الله إلّا في هذا الموطن، فجعل لا يرتفع (١٥٣/٢) له شيء إلّا حطّمه حتى انتهى إلى نسوة في سفح الجبل [معهنّ دفوف لهنّ] فيهنّ امرأة تقول:

نَحْنُ بَنَاتُ طَلَارِقٍ نَمشي على النّـمَارِقِ
إِنْ تَقْبَلُوا نَعَانِقٍ وَتَقْرُشُ النّـمَارِقِ
أَوْ تَنْبِرُوا نَعَارِقِ فِرَاقٍ غَيْرِ وَاِمْنِ
وتقول أيضاً:

لِيَهَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ لِيَهَا حُمَاةُ اللَّيَازِ
ضَرْباً بِكُلِّ بَنَاتٍ

فرفع السيف لضربها، ثمّ أكرم سيف رسول الله ﷺ، أن يضرب به امرأة. وكانت المرأة هند، والنساء معها يضربن بالدفوف خلف الرجال يحرضن.

واقتل الناس قتالاً شديداً، وأمن في الناس حمزة وعليّ وأبو دُجانة في رجال من المسلمين، وأنزل الله نصره على المسلمين، وكانت الهزيمة على المشركين، وهرب النساء مصعدّات في الجبل، ودخل المسلمون عسكرهم يَنْهَبُونَ. فلما نظروا بعض الرّماة إلى العسكر حين انكشف الكفار عنه أقبلوا يريدون النهب، وثبتت طائفة وقالوا: نطيع رسول الله ونثبت مكاننا، فأنزل الله: ﴿مَنْكُم مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُم مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ يعني (١٥٤/٢) اتباع أمر رسول الله ﷺ.

قال ابن مسعود: وما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، يريد الدنيا حتى نزلت الآية.

فلما فارق بعض الرّماة مكانهم رأى خالد بن الوليد قلّة مَن بقي من الرّماة، فحمل عليهم فقتلهم، وحمل على أصحاب النبي ﷺ، من

خاتمة بمكة، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله، قال وحشي: إني والله لأنظر إلى حمزة وهو يهدئ الناس بسيفه [هكذا] ما يلقي شيئاً يمر به إلا قتله، وقتل سباع بن عبد العزى. قال: فهزئت حربتي ودفعتها عليه فوقعت في ثنتي حتى خرجت من بين رجله وأقبل نحوي فغلب فوقع، فأملهته حتى مات فأخذت حربتي ثم تنحيت إلى العسكر، فرضي الله عن حمزة وأرضاه.

وقتل عاصم بن ثابت مأسف بن طلحة وأخاه كلاب بن طلحة بسهمين، فحُملا إلى أمهما سلافة وأخيراها أن عاصماً قتلها، فذرت إن أمكنها الله من رأسه أن تشرب فيه الخمر.

وبرز عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان مع المشركين، وطلب المبارزة، فأراد أبو بكر أن يبرز إليه، فقال رسول الله، ﷺ: شيم سيفك وأمتنا بك.

وانتهى أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين قد ألغوا بأيديهم، فقال: ما يحبسكم؟ قالوا: قد قُتل النبي، ﷺ. قال: فما تصنعون بالحياة بعده! موتوا على ما مات عليه. ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل، فوجد به سبعون ضربة وطلعة، وما عرفه إلا أخته، عرفته بحسن بنائه.

وقيل: إن أنس بن النضر سمع نقرأ من المسلمين يقولون، لما سمعوا أن النبي، ﷺ، قُتل: ليت لنا من يأتي عبد الله بن أبيي بن سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا. فقال لهم أنس: يا قوم إن (١٥٧/٢) كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يُقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد. اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وإبرأ مما جاء به هؤلاء! ثم قاتل حتى قُتل.

وكان أول من عرف رسول الله، ﷺ، كعب بن مالك، قال: فتأديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين ابشروا! هذا رسول الله حي لم يُقتل، فأشار إليه: انصت. فلما عرفه المسلمون نهضوا نحو الشعب ومعه علي وأبو بكر وعمر وطلحة والزبير والحارث بن الصمة وغيرهم. فلما أسند إلى الشعب أدركه أبيي بن خلف وهو يقول: يا محمد لا نجوت إن نجوت! أعطف عليه رسول الله، ﷺ، فطعنه بالحربة في عنقه، وكان أبيي يقول بمكة لرسول الله، ﷺ: إن عندي العود أعلفه كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه. فيقول له النبي، ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله. فلما رجع إلى قريش وقد خدشه رسول الله، ﷺ، خدشاً غير كبير قال: قتلني محمد. قالوا: والله ما بك بأس. قال: إنه قد كان قال لي أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني! فمات عدو الله بسرف.

وقاتل رسول الله، ﷺ، يوم أحد قتالاً شديداً، فرمى بالنبل حتى فني نبله وانكسرت سيّة قوسه وانقطع وتره. ولما جرح رسول الله، ﷺ، جعل عليّ ينقل له الماء في دُرّقه من المِهْرَاس ويغسله،

خلههم. فلما رأى المشركون خيلهم تقاتل تبادروا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوه، وقد كان المسلمون قتلوا أصحاب اللواء، فبقي مطروحاً لا يدنو منه أحد، فأخذته عُمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته، فاجتمعت قريش حوله، وأخذته صُواب فقتل عليه، وكان الذي قتل أصحاب اللواء عليّ، قاله أبو رافع، قال: فلما قتلهم أبصر النبي، ﷺ، جماعة من المشركين، فقال لعليّ: احمل عليهم، ففرقهم وقتل فيهم، ثم أبصر جماعة أخرى فقال له: [احمل عليهم] فحمل عليهم وفرقهم وقتل فيهم، فقال جبرائيل: يا رسول الله هذه المؤاساة! فقال رسول الله، ﷺ: إنه مني وأنا منه. فقال جبرائيل: وأنا منكما. قال: فسمعوا صوتاً: لاسيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا عليّ.

وكُسر ربيعة رسول الله، ﷺ، السفلى وشقت شفته وكُلم في وجهه وجهته في أصول شعره، وعلاه ابن قميّة بالسيف، وكان هو الذي أصابه، وقيل: أصابه عتبة بن أبي وقاص، وقيل: عبد الله ابن شيهاب الزهري جد محمد بن مسلم.

وقيل: إن عتبة بن أبي وقاص، وابن قميّة الليثي الأدرمي، من بني تميم بن غالب، وكان أدرم ناقص الذقن، وأبيي بن خلف الجمحي، وعبد الله (١٥٥/٢) ابن حُميد الأسدي، أسد قريش، تعاقدوا على قتل رسول الله، ﷺ، فأما ابن شيهاب فأصاب وجهته وأما عتبة فرماه بأربعة أحجار فكسر ربياعته اليمنى وشق شفته وأما ابن قميّة فكلّم وجهته ودخل من جلق المغفر فيها وعلاه بالسيف فلم يطق أن يقطعه فسقط رسول الله، ﷺ، فحُشّت ركبته، وأما أبيي بن خلف فشدّ عليه بحربة، فأخذها رسول الله، ﷺ، منه وقتله بها، وقيل: بل كانت حربة الزبير أخذها منه، وقيل: أخذها من الحارث بن الصمة، وأما عبد الله بن حميد فقتله أبو دُجانة الأنصاري.

ولما جرح رسول الله، ﷺ، جعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ويقول: كيف يُفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله! وقاتل دونه نفر خمسة من الأنصار فقتلوا، وترس أبو دُجانة رسول الله، ﷺ، بنفسه، فكان يقع النبل في ظهره وهو مُنحَن عليه، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله، ﷺ، فكان رسول الله، ﷺ، يناوله السهم ويقول: ارم فذاك أبي وأمي.

وأصيبت يوشذ عيين قتادة بن النعمان، فردّها رسول الله، ﷺ، بيده، فكانت أحسن عيية. وقاتل مُصعب بن عمير ومعه لواء المسلمين فقتل، قتله ابن قميّة الليثي، وهو يظن أنه النبي، ﷺ، فرجع إلى قريش وقال: قتل محمد. فجعل الناس يقولون: قُتل محمد، قُتل محمد.

ولما قُتل مصعب أعطى رسول الله، ﷺ، اللواء عليّ (١٥٦/٢) ابن أبي طالب. وقاتل حمزة حتى مرّ به سباع بن عبد العزى الغُبشاني، فقال له حمزة: هلم إليّ يا ابن مقطعة البظور! وكانت أمّه أم أنمار

(١٥٨/٢) فلم ينقطع الدم، فأثت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكي، وأحرقت حصيراً وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم.

ورمى مالك بن زهير الحشمي النبي، ﷺ، فألقاه طلحة بيده فأصاب السهم خصره، وقيل: رماه حيّان بن العرق، فقال: حس، فقال رسول الله، ﷺ، لو قال: باسم الله، لدخل الجنة، والناس ينظرون إليه؛ وقيل: إن يده شلت إلا السبابة والوسطى؛ والأول أثبت.

وصعد أبو سفيان ومعه جماعة من المشركين في الجبل، فقال رسول الله، ﷺ، ليس لهم أن يعلونا، فقاتلهم عمر وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوهم، ونهض رسول الله، ﷺ، إلى الصخرة ليعلوها، وكان عليه درعان، فلم يستطع، فجلس تحته طلحة حتى صعد، فقال رسول الله، ﷺ، أوجب طلحة.

وانتهت الهزيمة بجماعة المسلمين، فيهم عثمان بن عفان وغيره، إلى الأغوص، فأقاموا به ثلاثاً ثم أتوا النبي، ﷺ، فقال لهم حين رآهم: لقد ذهبت فيها عريضة.

والتقى حنظلة بن أبي عامر، غسيل الملائكة، وأبو سفيان بن حرب، فلما استعلاه حنظلة رآه شذاد بن الأسود وهو ابن شعوب فدعاه أبو سفيان فأثاه فضرب حنظلة فقتله، فقال رسول الله، ﷺ، إنه لتفسله الملائكة. فسألو أهله فستلت صاحبه فقالت: خرج وهو جنب، سمع الهائعة، فقال رسول الله، ﷺ، لذلك غسلته الملائكة. وقال أبو سفيان يذكر صبره ومعاونة ابن شعوب إياه على قتل حنظلة.

(١٥٩/٢)

ولم شئت نجني كيت طيرة ولم أحمل الثغماء لابن شعوب فما زال مهري مزجر الكلب منهم لأسلألهم وأدعي بال غالب فبكي ولا ترعني مقالة عاذل إيساك وإخواننا لنا قد تهابوا وسلى الذي قد كان في النفس أنني ومن هائيم فرأنا نجياً ومعتباً ولو أنني لم أشفر منهم قروتي فأجابه حسان بقوله:

ذكرت الفروم الصيد من آل هائيم ولست لوزور قلته بمصيب عشاء وقد سكتة بنجب السم يقتلوا عسراً وغبة وابنة غداة دعا العصامي علياً فأراعه

ووقعت هند وصواحباتها على القتلى يمثلن بهم، واتخذت هند من أذان الرجال وآنافهم ختماً وقلاند، وأعطت خدمها وقلاندتها وخشياً، وبقرت عن كبد حمزة فلاكها فلم تستطع أن تسيفها فلفظتها. (١٦٠/٢) ثم أشرف أبو سفيان على المسلمين فقال: أفني القوم

محمداً؟ ثلاثاً، فقال رسول الله، ﷺ، لا تجيبوه. [ثم قال: أفني القوم ابن أبي حنافة؟ ثلاثاً. ثم قال: أفني القوم ابن الخطاب؟ ثلاثاً. ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا. فقال عمر: كذبت أي عدو الله قد أبقي الله لك ما يؤخرك. فقال: اغل هبل، اعل هبل. فقال رسول الله، ﷺ، قولوا الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: إنا لنا العزى ولا عزى لكم. فقال رسول الله، ﷺ، قولوا الله مولانا ولا مولى لكم. فقال أبو سفيان: أشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك. فقال: أنت أصدق من ابن قميّة! ثم قال: هذا يوم بدر، والحرب سيجال، أما إنكم ستجدون في قتلكم ثلأ، والله ما رضى ولا سخط ولا نهيت ولا أمرت.

واجتاز به الحليس بن زبآن سيد الأحابيش وهو يضرب في شذق حمزة بزج الرمح ويقول: ذق عقق! فقال الحليس: يا بني كنانة هذا سيد قریش يصنع بابن عمه كما ترون. فقال أبو سفيان: اكتمها [عني] فإنها زلة.

وكانت أم أيمن حاضنة رسول الله، ﷺ، ونساء من الأنصار يسقين الماء، فرماها حيّان بن العرق بسهم فأصاب ذيلها، فضحك، فدفع النبي، ﷺ، إلى سعد بن أبي وقاص سهماً وقال: ارمه. فرماه فأصابه، فضحك النبي، ﷺ، وقال: استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتك وسدد رميتك.

ثم انصرف أبو سفيان ومن معه وقال: إن موعدهم العام المقبل. ثم بعث رسول الله، ﷺ، علياً في أثرهم وقال: انظر فإن (١٦١/٢) جنبا الخيل وامطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبو الخيل فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجزنهم. قال علي: فخرجت في أثرهم، فامطوا الإبل وجنبا الخيل يريدون مكة، فأقبلت أصبح ما استطع أن اكتم، وكان رسول الله، ﷺ، أمره بالكتمان.

وأمر رسول الله، ﷺ، رجلاً أن ينظر في القتلى، فرأى سعد بن الربيع الأنصاري وبه رمق، فقال للذي رآه: أبلغ رسول الله، ﷺ، عني السلام وقل له جزاك الله خير ما جرى نبياً عن أمته، وأبلغ قومي السلام وقل لهم لا عذر لكم عند الله إن خلدن إلى رسول الله، ﷺ، أذى وفيكم عين تطرف. ثم مات.

ووجد حمزة بيطن الروادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به، فحين رآه رسول الله، ﷺ، قال: لولا أن تحزن صفة أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يكون في أجواف السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قریش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم. وقال المسلمون: لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَاقْبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] الآية، فعفا رسول الله، ﷺ، وصبر ونهى عن المثلة.

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب، فقال رسول الله، ﷺ، لابنها

سعد بن مُعاذ إلى دار بني عبد الأشهل فأمر نساءهم أن يذهبن فيكبين على حمزة.

ومرّ رسول الله ﷺ، بامرأة من الأنصار قد أُصيب أبوها وزوجها، فلما نعى لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: هو بحمد الله كما تُحيين. قالت: أروني، فلما نظرت إليه قالت: كل مصيبة بعدك جللٌ.

وكان رجوعه إلى المدينة يوم السبت يوم الوقعة. (١٦٤/٢)

(نيار بالنون المكسورة، والياء تحتها نقطتان، وآخره راء. وجُبير بضم الجيم، تصغير جبر. وخَوَات بالحاء المعجمة، والواو المشددة، وبعد الألف تاء فوقها نقطتان. وحَيَّان بكسر الحاء المهملة، وبالباء الموحدة، وآخره نون. والخُلَّيس بضم الحاء المهملة، تصغير حلس. وزَيَّان بالزاي، والباء الموحدة، وآخره نون)

ذكر غزوة خمراء الأسد

لما كان الغد من يوم الأحد أذن مؤذن رسول الله ﷺ، بالغزو وقال: لا يخرج معنا إلا مَنْ حضر بالأسد، فخرج ليظن الكفار به قوة، وخرج معه جماعة جرحى يحملون نفوسهم وساروا حتى بلغوا خمراء الأسد، وهي من المدينة على سبعة أميال، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ومرّ به مُعبد الخزاعي، وكانت خزاعة مسلمهم ومشرِكهم غثبة نُصح لرسول الله ﷺ، بتهامة، وكان مُعبد مشركاً، فقال: [يا محمداً] لقد عزّ علينا ما أصابك. ثم خرج من عند النبي ﷺ، فلقي أبا سفيان ومَنْ معه بالروحاء قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ، ليستأصلوا المسلمين بزعيمهم، فلما رأى أبو سفيان مُعبداً قال: ما وراءك؟ قال: محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله، قد جمع معه مَنْ تخلف عنه وندموا على ما صنعوا، وما ترحل حتى ترى نواصي الخيل. قال: فوالله قد أجمعنا الرجعة لنستأصل بقيتهم. قال: إني أنهاك عن هذا، فثنى [ذلك] أبو سفيان ومَنْ معه.

ومرّ بابي سفيان ركب من عبد القيس فقال لهم: بلغوا عني محمداً رسالة وأحمل لكم إليكم هذه زيباً بَعْكاظ. قالوا: نعم. قال: أخبروه أنا قد (١٦٥/٢) أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصلهم. فمروا بالنبي ﷺ، وهو بحمرأ الأسد فأخبروه فقال، ﷺ: حسبن الله ونعم الوكيل. ثم عاد إلى المدينة وظفر في طريقه بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وبأبي غرة عمرو بن عبيد الله الجُمحي، وكان قد تخلف عن المشركين بحمرأ الأسد، وساروا وتركوه نائماً، وكان أبو غرة قد أضر يوم بدر، فأطلقه رسول الله ﷺ، بغير فداء لأنه شكاً إليه فقرأ وكثرة عيال، فأخذ رسول الله ﷺ، عليه العهد أن لا يقاتله ولا يعين على قتاله، فخرج معهم يوم أحد وحرّض على المسلمين، فلما أتى به رسول الله ﷺ، قال له: يا محمداً امنن عليّ. قال: المؤمن لا

الزبير ليردّها لئلا ترى ما بأخيها حمزة، فلقيها الزبير فأعلمها بأمر النبي ﷺ، فقالت: إنه بلغني أنه مثل بأخي وذلك في الله قليل! فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن. فأعلم الزبير النبي ﷺ، (١٦٢/٢) بذلك، فقال: خلّ سبيلها، فأتته وصلت عليه واسترجعت، وأمر رسول الله ﷺ، به فدُفن.

وكان في المسلمين رجل اسمه قُزّمان، وكان رسول الله ﷺ، يقول إنه من أهل النار، فقاتل يوم أحد قتالاً شديداً، فقتل من المشركين ثمانية أو تسعة، ثم جرح فحمل إلى داره، وقال له المسلمون: أبشّر قُزّمان! قال: بم أبشّر، وأنا ما قاتلت إلا عن أحساب قومي؟ ثم اشتدّ عليه جرحه فاخذ سهماً فقطع رواشه فتزف الدم، فمات، فأخبر رسول الله ﷺ، فقال: أشهد أني رسول الله.

وكان ممّن قُتل يوم أحد مُحْخِرَق اليهودي، قال ذلك اليوم ليهود: يا معشر يهود، لقد علمتم أن نصر محمّد عليكم حقّ. فقالوا: إن اليوم السبت فقال: لا سبت، وأخذ سيفه وعُدته وقال: إن قُلتُ فمالي لمحمّد يصنع به ما يشاء، ثم غدا فقاتل حتى قُتل، فقال رسول الله ﷺ، مُحْخِرَق خير يهود.

وقُتل اليمان أبو حذيفة، قتله المسلمون، وكان رسول الله ﷺ، رفعه وثابت بن قيس بن وقش مع النساء، فقال أحدهما لصاحبه، وهما شيخان: ما ننتظر؟ أفلا نأخذ أسيفتنا فنلحق برسول الله ﷺ؟ لعلّ الله أن يرزقنا الشهادة. فعلا ودخلا في الناس ولا يعلم بهما، فأما ثابت فقتله المشركون، وأما اليمان فاختلفت عليه سيوف المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي أبي! فقالوا: والله ما عرفناه. فقال: يفرّ الله لكم. وأراد رسول الله ﷺ، أن يديّه، فتصدّق حذيفة بديته على المسلمين.

واحتمل بعض الناس قتلهم إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ، بدفنهم حيث صرّعوا، وأمر أن يُدفن الاثنين والثلاثة في القبر (١٦٣/٢) الواحد، وأن يُقدّم إلى القبلة أكثرهم قرآناً، وصلى عليهم، فكان كلّمّا أتى شهيد جعل حمزة معه وصلى عليهما، وقيل: كان يجمع تسعة من الشهداء وحمزة عاشرهم فصلّى عليهم، ونزل في قبره عليّ وأبو بكر وعمرو والزبير، وجلس رسول الله ﷺ، على حفرته وأمر أن يُدفن عمرو بن الجموح وعبد الله بن حرام في قبر واحد، وقال: كانا متصافين في الدنيا.

فلما دُفن الشهداء انصرف رسول الله ﷺ، فلقيته حَمْنَة بنت جَحْش، فعنى لها أخاها عبد الله، فاسترجعت له، ثم نعى لها خالها حمزة، فاستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مُصعب بن عمير، فولولت وصاحت، فقال: إن زوج المرأة منها لبعكان.

ومرّ رسول الله ﷺ، بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والنوائح، فدرفت عيناه فبكى وقال: لكنّ حمزة لا بواكي له! فرجع

يُبلغ من جُحر مرتين، وأمر به فُقتل. خبيب، لقد رأيتُ وما بمكة ثَمرة وإن في يده لِقُطفاً من عنب يأكله ما كان إلا رزقاً رزقه الله خبيياً.

فلما خرجوا من الحرم بخبيب ليقتلوه قال: ردوني أصل ركتين، فتركوه، فصلاهما، فجرت سِنَّة لمن قُتل صبراً، ثم قال خبيب: لولا أن تقولوا جزع لَزِدْتُ، وقال آياتاً، منها:

ولستُ أباي حين أقتلُ مسلماً على أي شيء كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشا يُبارك على أوصالِ ثِيَلٍ ممزُجٍ
اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدءاً ثم صلبوه.

وأما عاصم بن ثابت فإنهم أرادوا رأسه لبيعوه من سُلَافة بنت سعد، وكانت تذرت أن تشرب الخمر في رأس عاصم لأنه قتل ابنتها بأحد، فجاءت النحل فمغتته، فقالوا: دَعُوهُ حتى يُمسي فَنأخذهُ. فبعث الله الوادي فاحتمل عاصماً، وكان عاهد الله أن لا يمس مشركاً ولا يمسهُ مشرك، فمغته الله في مماته كما مُنع في حياته.

وأما ابن الدُّثنة فإن صفوان بن أمية بعث به مع غلامه نسطاس إلى التَّعيم ليقتله بابنيهِ، فقال نسطاس: أشدك الله أنحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: ما أحب أن محمداً الآن مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكَة تؤذيه وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحداً كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتله نسطاس.

(خبيب بضم الخاء المعجمة، وفتح الباء الموحدة، بعدها ياء تحتها نقتنن، وآخره باء موحدة أيضاً. والبكير بضم الباء الموحدة، تصغير بكر). (١٦٩/٢)

ذكر إرسال عمرو بن أمية لقتل أبي سفيان

ولما قُتل عاصم وأصحابه بعث رسول الله ﷺ، عمرو بن أمية الضمري إلى مكة مع رجل من الأنصار وأمرهما بقتل أبي سفيان بن حرب، قال عمرو: فخرجت أنا ومعبي بعير لي وبرجل صاحبي علة، فكنت أحمله على بعيري حتى جئنا بطن يأجج، فعقلنا بعيرنا في الشعب وقلت لصاحبي: انطلق بنا إلى أبي سفيان لقتله، فإن خشيت شيئاً فالحق بالبعير فاركه والحق برسول الله ﷺ، وأخبره الخبر وخل عني. وأوغل بالبلد يحث السياق.

فدخلنا مكة ومعني خنجر [قد أعدته] إن عاقني إنسان ضربته به، فقال لي صاحبي: هل لك أن نبدأ فنطوف ونصلي ركعتين؟ فقلت: إن أهل مكة يجلسون بأفئنتهم وأنا أعرف بها. فلم نزل حتى أتينا البيت فطفنا وصلينا ثم خرجنا فمررنا بمجلس لهم، فعرفني بعضهم فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أمية! فثار أهل مكة إلينا وقالوا: ما جاء إلا لشر وكان فانتكأ متشيطناً في الجاهلية، فقلت لصاحبي: النجاء! هذا الذي كنت أحذر، أما أبو سفيان فليس إليه سبيل، فانج بنفسك.

وأما معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، وهو الذي جدد أنف حمزة ومثل به مع من مثل به، وكان قد أخطأ الطريق، فلما أصبح أتى دار عثمان بن عفان، فلما رآه قال له عثمان: أهلكني وأهلك نفسك. فقال: أنت أقرهم مني رحماً وقد جئتك لتجيرني. وأدخله عثمان داره، وقصد رسول الله ﷺ، ليشفع فيه، فسمع رسول الله ﷺ يقول: إن معاوية بالمدينة فاطلبوه؛ فأخرجوه من منزل عثمان، وانطلقوا به إلى النبي ﷺ، فقال عثمان: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأطلب له أماناً فهبه لي، فوهبه له وأجله ثلاثة أيام وأقسم لئن أقام بعدها ليقتلنه، فجهزه عثمان وقال له: ارتحل.

وسار رسول الله ﷺ، إلى حمراء الأسد وأقام معاوية ليعرف أخبار النبي ﷺ، فلما كان اليوم الرابع قال النبي ﷺ: إن معاوية أصبح قريباً ولم يبعده، فاطلبوه، فطلبه زيد بن حارثة وعمار فأدركاه بالحماة فقتلاه. (١٦٦/٢) وهذا معاوية جد عبد الملك بن مروان بن الحكم لأمه.

وفيها قيل وُلد الحسن بن علي في النصف من شهر رمضان. وفيها علقت فاطمة بالحسين، وكان بين ولادتها وحملها خمسون يوماً، وفيها حملت جميلة بنت عبد الله بن أبي أبيدع الله بن حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة في شوال. (١٦٧/٢)

السنة الرابعة من الهجرة

ذكر غزوة الرُّجيع

في هذه السنة في صفر كانت غزوة الرجيع.

وكان سببها أن رهطاً من غَضَل والقارة قدموا على النبي ﷺ، فقالوا: إن فينا إسلاماً فابعث لنا نفرًا يَفْقَهُونَا في الدين ويُقرُونَنَا القرآن. فبعث معهم ستة نفر وأمر عليهم عاصم بن ثابت، وقيل: مرثد بن أبي مرثد، فلما كانوا بالهذأة غدروا واستصرخوا عليهم حياً من هذيل يقال لهم بنو ليحان، فبعثوا لهم مائة رجل، فالتجأ المسلمون إلى جبل فاستنزلوهم وأعطوهم العهد، فقال عاصم: والله لا أنزل [على] عهد كافر، اللهم خير نبيك عنا! وقتلهم هو ومرثد وخالد بن البكير، ونزل إليهم ابن الدُّثنة وخبيب ابن عدي ورجل آخر فلوَقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أتبعكم! فقتلوه وانطلقوا بخبيب وابن الدُّثنة فباعوهم بمكة، فأخذ خبيياً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بأحد، فأخذه ليقتلوه بالحارث، فبينما خبيب عند بنات الحارث استعار من بعضهن موسى يستحذ بها للقتل، فدب صبي لها فجلس على فخذ خبيب والموسى في (١٦٨/٢) يده، فصاحت المرأة: فقال خبيب: أتخشين أن أقتله؟ إن الغدر ليس من شأننا. فكانت المرأة تقول: ما رأيت أسيراً خيراً من

حرام بن ملحان بكتاب النبي ﷺ، إلى عامر بن الطفيل، فلما أنه لم ينظر إلى الكتاب وعدا على حرام قتلته، فلما طعنه قال: الله أكبر فزئت ورب الكعبة! واستصرخ بني عامر، فلم يجيبوه وقالوا: لن نخفر أباً براء، فقد آجارهم، فاستصرخ بني سليم: عصية ورغلاً وذكوان، فأجابوا وخرجوا حتى أحاطوا بالمسلمين فقاتلهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد الأنصاري، فلنهم تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان في سرح القوم عمرو بن أمية ورجل من الأنصار، فرأيا الطير تحوم على (١٧٢/٢) العسكر فقالا: إن لها لشأناً، فأقبلا ينظران، فإذا القوم صرعى، وإذا الخيل واقفة، فقال عمرو: نلحق برسول الله ﷺ، فنخبره الخبر. فقال الأنصاري: لا أرغب بنفسي عن موطن فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل القوم حتى قتل، فأخذوا عمرو بن أمية أسيراً. فلما علم عامر أنه من سعد أطلقه، وخرج عمرو حتى إذا كان بالقرقرة لقي رجلين من بني عامر فنزلا معه ومعهما عقد من رسول الله ﷺ، ولم يعلم به عمرو فقتلها، ثم أخبر النبي ﷺ، الخبر، فقال له: لقد قتلت قتيلين لأدينهما. ثم قال رسول الله: هذا عمل أبي براء، فشق عليه ذلك.

وكان فيمن قتل عامر بن فُهيرة، فكان عامر بن الطفيل يقول: من الرجل منهم لما قتل رُفع بين السماء والأرض؟ قالوا: هو عامر بن فُهيرة. وقال حسان بن ثابت يحرض بني أبي براء على عامر بن الطفيل:

بني أُمّ التين ألم يُرْعِكُم وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكّم عامرٍ بلي براء ليخضره وما خطأ كعْبِد

في أبيات له. فقال كعب بن مالك:

لقد طارت شعاعاً كل وجوه خُذارة ما أجاز أبو براء

في أبيات أخرى.

فلما بلغ ربيعة بن أبي براء ذلك حمل على عامر بن الطفيل فطعنه، فخر عن فرسه، فقال: إن مت فدمي لعسي. وأنزل الله، عز وجل، في أهل بئر معونة قرآناً: بلغوا قومنا عنا أننا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه، ثم نسخت. (١٧٣/٢)

(معونة بفتح الميم، وضَمّ العين المهملة، وبعد الواو نون. وخرام بالحاء المهملة، والراء وملحان بكسر الميم، وبالحاء المهملة).

ذكر إجلاء بني النضير

وكان سبب ذلك أن عامر بن الطفيل أرسل إلى النبي ﷺ، يطلب دية العامريين اللذين قتلها عمرو بن أمية، وقد ذكرنا ذلك.

فخرج النبي ﷺ، إلى بني النضير يستعينهم فيها ومعه جماعة من

فخرجنا [نشدت] حتى صعدنا الجبل فدخلنا غاراً فبتنا فيه ليلتنا نتظر أن يسكن الطلب. قال: فوالله إني لفيه إذا أقبل عثمان بن مالك التيمي [يتخيل] بفرس له، فقام على باب الغار، فخرجت إليه فضرته بالخنجر، فصاح صيحةً أسمع أهل مكة، فأقبلوا إليه ورجعت إلى مكاني فوجدوه وبه رمق، فقالوا: من ضربك؟ قال: عمرو بن أمية، ثم مات ولم يقدر يُخبرهم بمكاني، وشغلهم قتل صاحبهم عن طلي، (١٧٠/٢) فاحتملوه ومكثنا في الغار يومين حتى سكن [عنا] الطلب، ثم خرجنا إلى التنعيم، فإذا بخشبة خيَّيب وحوله حرس، فصعدت خشبته واحتملت على ظهري، فما مشيت به إلا نحو أربعين خطوة حتى نذروا بي فطرحته، فاشتدوا في أثري، فأخذت الطريق فاعبوا ورجعوا، وانطلق صاحبي فركب البعير وأتى النبي ﷺ، فأخبره، وأما خيَّيب فلم يُر بعد ذلك وكان الأرض ابتلعت.

قال: وسرت حتى دخلت غاراً بضجّان ومعني قوسي وأسهمي، فبينما أنا فيه إذ دخل علي رجل من بني الدئل أعور طويل يسوق غنماً فقال: من الرجل؟ قلت: من بني الدئل، فاضطجع معي ورفع عقيرته يتغنّى ويقول:

ولست بمسلم ما فئت حياً ولست أبين بين المسلمين
ثم نام فقتله ثم سرت، فإذا رجلان بعثهما قريش يتجسسان أمر رسول الله ﷺ، فرميت أحدهما بسهم فقتله واستأمرت الآخر، فقدمت على النبي ﷺ، وأخبرته الخبر، فضحك ودعا لي بخير.

وفي هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ، زينب بنت خزيمة أم المساكين من بني هلال في شهر رمضان، وكانت قبله عند الطفيل ابن الحارث فطلقها.

ووليّ المشركون الحجّ في هذه السنة. (١٧١/٢)

ذكر بئر معونة

في هذه السنة في صفر قتل جمع من المسلمين ببئر معونة.

وكان سبب ذلك أن أبا براء بن عازب بن عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة، سيد بني عامر بن صعصعة، قدم المدينة وأهدى للنبي ﷺ، هدية فلم يقبلها وقال: يا أبا براء لا أقبل هدية مشرك، ثم عرض عليه الإسلام فلم يبعد عنه ولم يُسلم، وقال: إن أملك هذا حسن، فلو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعهم إلى أملك لرجوت أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله ﷺ: أخشى عليهم أهل نجد. فقال أبو براء: أنا لهم جار.

فبعث رسول الله ﷺ، سبعين رجلاً فيهم: المنذر بن عمرو الأنصاري المغنق ليثوث، والحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان، وعامر بن فُهيرة، وغيرهم، وقيل: كانوا أربعين، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، فلما نزلوها بعثوا

أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعليّ، فقالوا: نعم نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض وتأمروا على قتله، وهو جالس إلى جنب جدار، فقالوا: من يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيقتله ويرينا منه؟ فانتدب له عمرو بن جحاش، فنهاهم عن ذلك سلام بن مشكم وقال: هو يعلم، فلم يقبلوا منه، وصعد عمرو بن جحاش، فأتى الخبر من السماء إلى رسول الله، ﷺ، بما عزموا عليه، فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة، فلماً أبطل قام أصحابه في طلبه، فأخبرهم الخبر وأمر المسلمين بحربهم، ونزل بهم، فتحصنوا منه في الحصون، فقطع النخل وأحرق وأرسل إليهم عبد الله بن أبيّ وجماعة معه أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم وإن قوتلتهم قاتلتنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبي، ﷺ، أن يجلبهم ويكف عن دماءهم على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح، فأجابهم إلى ذلك، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام، فكان ممن سار إلى خيبر كنانة بن الربيع وخيبر بن أخطب، وكان فيهم يومئذ أم عمرو صاحبة غزوة بن الزورد التي ابتاعوا منه، وكانت غفارية.

وقيل: إن هذه الغزوة كانت في المحرم سنة خمس من الهجرة.

ذكر غزوة بدر الثانية

وسميت أيضاً غزوة السويق.

وفي شعبان منها خرج رسول الله ﷺ، إلى بدر لمبعاد أبي سفيان بن حرب حتى نزل بدرأ فأقام عليها ثمانين ليال ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة إلى مر الظهران، وقيل: إلى عسفان، ثم رجع ورجعت قريش معه، فسلمهم أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق. (١٧٦/٢) واستخلف رسول الله ﷺ، على المدينة عبد الله بن رواحة.

وفيها تزوج رسول الله ﷺ، أم سلمة.

وفيها أمر رسول الله ﷺ، زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود.

وفيها، في جمادى الأولى، مات عبد الله بن عثمان بن عفان، وأمّه رقية بنت رسول الله ﷺ، وصلى عليه رسول الله ﷺ، وكان عمره ست سنين. وفيها ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، في قول. وولي الحج فيها المشركون. (١٧٧/٢)

السنة الخامسة من الهجرة

فيها تزوج رسول الله ﷺ، زينب بنت جحش، وهي ابنة عمته، كان زوجها مولاة زيد بن حارثة، وكان يقال له زيد بن محمد. فخرج رسول الله ﷺ، يريد على الباب ستر من شعر، فرفعته الريح فراها وهي حاسرة فاعجبته وكوّهت إلى زيد، فلم يستطع أن يقر بها، فجاء إلى النبي، ﷺ، فأخبره، فقال: أراك فيها شيء؟ قال: لا والله. فقال له رسول الله ﷺ: ﴿أَسِيكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٦٣]. ففارقها زيد وحلت، وأُنزل الوحي على النبي، ﷺ، فقال: مَنْ يَشْرَ زَيْنَبَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ زَوَّجَهَا؟ وَفَرَأَ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ؟

أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعليّ، فقالوا: نعم نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض وتأمروا على قتله، وهو جالس إلى جنب جدار، فقالوا: من يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيقتله ويرينا منه؟ فانتدب له عمرو بن جحاش، فنهاهم عن ذلك سلام بن مشكم وقال: هو يعلم، فلم يقبلوا منه، وصعد عمرو بن جحاش، فأتى الخبر من السماء إلى رسول الله، ﷺ، بما عزموا عليه، فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة، فلماً أبطل قام أصحابه في طلبه، فأخبرهم الخبر وأمر المسلمين بحربهم، ونزل بهم، فتحصنوا منه في الحصون، فقطع النخل وأحرق وأرسل إليهم عبد الله بن أبيّ وجماعة معه أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم وإن قوتلتهم قاتلتنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبي، ﷺ، أن يجلبهم ويكف عن دماءهم على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح، فأجابهم إلى ذلك، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام، فكان ممن سار إلى خيبر كنانة بن الربيع وخيبر بن أخطب، وكان فيهم يومئذ أم عمرو صاحبة غزوة بن الزورد التي ابتاعوا منه، وكانت غفارية.

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وكانت رايته مع علي بن أبي طالب.

(سلام بتشديد اللام). ويشكم بكسر الميم، وسكون الشين المعجمة، والكاف.

غزوة ذات الرقاع

أقام رسول الله ﷺ، بالمدينة بعد بني النضير شهري ربيع، ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان حتى نزل نخلاً، وهي غزوة الرقاع، سميت بذلك لأجل جبل كانت الوقعة به سواد وبياض وحمر، فاستخلف على المدينة عثمان بن عفان، فلقي المشركين ولم يكن قتال، وخاف الناس بعضهم بعضاً، فترلت صلاة الخوف، وقد اختلف الرواة في صلاة الخوف، وهو مستقصى في كتب الفقه.

وجاء رجل من محارب إلى النبي، ﷺ، فطلب منه أن ينظر إلى سيفه، فأعطاه السيف، فلماً أخذه وهزه قال: يا محمد أما تخافني؟ قال: لا. قال: أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: لا، يعني الله منك فرد السيف إليه. (١٧٥/٢) وأصاب المسلمون امرأة منهم، وكان زوجها غائباً، فلماً أتى أهله أخبر الخبر، فحلف لا ينتهي حتى يهريق في

لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿[الأحزاب: ٦٣] الآية﴾ فكانت زينب تفخر على نسائه وتقول: زَوَّجَكَ أَهْلُوكُنْ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ.

وفيهما كانت غزوة دومة الجندل في ربيع الأول، وسببها أنه بلغ النبي ﷺ، أَنَّ بَهَا جَمْعاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَغَزَاهُمْ، فَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا، وَخَلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ سَيَاحُ بْنُ عُرْفُطَةَ الْغِفَارِيُّ، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ إِبِلًا وَغَنَمًا وَجَدَّتْ لَهُمْ.

وماتت أم سعد بن عبادة وسعد مع النبي ﷺ، في هذه الغزاة. (١٧٨/٢)

وفيهما وادع رسول الله ﷺ، عَيْنَةَ بَنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ [أَن يَرعى بَعْلَمَيْنِ وَمَا وَالَاهَا].

(عَيْنَةُ بَضْمُ الْعَيْنِ، تَصْغِيرُ عَيْنٍ).

ذكر غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب

وكانت في شَوَّال، وكان سببها أَنَّ نَفَرًا مِنْ يَهُودٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ، مِنْهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ، وَحَيَّيْنِ أَخْطَبُ، وَكِتَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ، وَغَيْرُهُمْ، حَزَبُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: نَكُونُ مَعَكُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ، فَاجَابُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَوْا عَلَى غُطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّ قُرَيْشًا مَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَاجَابُوهُمْ، فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ وَقَاتَلَهَا أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَخَرَجَتْ غُطَفَانُ وَقَاتَلَهَا عَيْنَةُ بَنِ حِصْنٍ فِي بَنِي فِزَارَةَ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ بْنُ أَبِي حَارِثَةَ الْمُزَرِّيِّ فِي مُرَّةٍ، وَيُسْعَرُ بْنُ زُحَيْلَةَ الْأَشْجَعِيِّ فِي الْأَشْجَعِ.

فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَمَرَ بِحَضْرِ الْخَنْدَقِ، وَأَشَارَ بِهِ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، وَكَانَ أَوَّلَ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ حُرٌّ، فَعَمِلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، رَغْبَةً فِي الْأَجْرِ وَحَسًّا لِلْمُسْلِمِينَ، وَتَسْلَلَنَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بِغَيْرِ عِلْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَانْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿فَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمُ لِإِذَا﴾ [الأحزاب: ٦٣] الآية. وكان الرجل من المسلمين إِذَا نَابَتْهُ نَائِبَةٌ لِحَاجَةٍ لَا يَدَّ مِنْهَا يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَيَقْضِي حَاجَتَهُ ثُمَّ يَعُودُ، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التور: ٦٢] الآية.

وقسم الخندق بين المسلمين. فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان كل يدعي أنه منهم، فقال رسول الله ﷺ: سلمان منا، سلمان من أهل البيت. وجعل لكل عشرة أربعين ذراعاً، فكان سلمان وخبيفة والنعمان بن مقرن وعمرو بن عوف وستة من الأنصار يعملون، فخرجت عليهم صخرة كسرت المعول، فأعلموا النبي ﷺ، فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة

صدعها، ويرقت منها برقة أضاعت ما بين لابتي المدينة، فكبر رسول الله ﷺ، والمسلمون، ثُمَّ الثَّانِيَةُ كَذَلِكَ، ثُمَّ الثَّالِثَةُ كَذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجَ وَقَدْ صَدَعَهَا، فَسَأَلَهُ سَلْمَانُ عَمَّا رَأَى مِنَ الْبَرْقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَضَاعَتْ الْحَيْرَةَ وَقَصُورَ كَسْرَى فِي الْبَرْقَةِ الْأُولَى، وَأَخْبَرَنِي جِبْرَائِيلُ أَنَّ أَمَّتِي ظَاهِرَةٌ عَلَيْهَا، وَأَضَاءَ لِي فِي الثَّانِيَةِ الْقُصُورَ الْحُمْرَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَالرُّومِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ أَمَّتِي ظَاهِرَةٌ عَلَيْهَا، وَأَضَاءَ لِي فِي الثَّالِثَةِ قُصُورَ صَنْعَاءَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ أَمَّتِي ظَاهِرَةٌ عَلَيْهَا، فَأَبْشُرُوا، فَاسْتَبَشَرَ الْمُسْلِمُونَ.

وقال المنافقون: أَلَا تَعْجَبُونَ؟ يَدْعُوكُمُ الْبَاطِلَ، وَيُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ يَنْظُرُ مِنْ يَثْرِبِ الْحَيْرَةِ وَمِدَائِنِ كَسْرَى، وَأَنَّهُا تُفْتَحُ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَبْرَزُوا، فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

فَاقْبَلَتْ قُرَيْشٌ حَتَّى نَزَلَتْ بِمَجْمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ رُومَةِ بَيْنِ الْجُرُفِ وَرَغَابَةِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ أَحْبَابِهِمْ وَمَنْ تَابِعَهُمْ مِنْ كِتَانَةَ وَتِهَامَةَ، وَأَقْبَلَتْ غُطَفَانُ وَمَنْ تَابِعَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا إِلَى جَنْبِ أَخْذٍ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالْمُسْلِمُونَ فَجَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، فَتَزَلَّ هُنَاكَ وَرَفَعَ الذَّرَارِيَّ وَالنِّسَاءَ فِي الْأَطَامِ. وَخَرَجَ حَيَّيْنِ بْنُ أَخْطَبٍ حَتَّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ سَيِّدَ قُرَيْظَةَ، وَكَانَ قَدْ وَادَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، عَلَى قَوْمِهِ، فَأَغْلَقَ كَعْبُ حَصْنَهُ وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ وَقَالَ: إِنَّكَ أَمْرٌ مَشْهُوومٌ، وَقَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا وَلَمْ أَرْ مِنْهُ إِلَّا الْوَفَاءَ. قَالَ حَيَّيْنِ: يَا كَعْبُ قَدْ جِئْتُكَ بِعَرِّ الدَّهْرِ وَبِبحر طَامٍ، جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ وَقَادَتِهَا وَسَادَتِهَا، وَغُطَفَانَ بِقَادَتِهَا، وَقَدْ عَاهَدُونِي أَنَّهُمْ لَا يَبْرَحُونَ حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ. قَالَ كَعْبُ: جِئْتَنِي بِذَلِكَ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ قَدْ هَرَقَ مَاءَهُ بِرَعْدٍ وَيَبْرِقُ وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَبِحَكٍّ يَا حَيَّيْنِ! ذَعْنِي [وَمُحَمَّدًا]. وَلَمْ يَزَلْ مَعَهُ يَفْتَلُهُ فِي الذَّرْوَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّى حَمَلَهُ عَلَى الْغَدْرِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَفَعَلَ وَنَكَثَ الْعَهْدَ، وَعَاصَاهُ حَيَّيْنُ إِنْ عَادَتْ قُرَيْشٌ وَغُطَفَانُ وَلَمْ يَصْبِرُوا مُحَمَّدًا أَنْ أَذْخَلَ مَعَكَ فِي حَصْنِكَ حَتَّى يَصْبِيَنِي مَا أَصَابَكَ. فَعَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَلَاءُ وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ وَأَتَاهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ، وَتَجَمَّ النَّفَاقُ مِنْ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِ بَضْعًا وَعَشْرِينَ لَيْلَةً قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقَوْمِ حَرْبٌ إِلَّا الرَّمِي [بِالْبَلِّ].

فَلَمَّا اشْتَدَّ الْبَلَاءُ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِلَى عَيْنَةَ بَنِ حِصْنِ وَالْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ الْمُزَرِّيِّ، قَائِدَيَّ غُطَفَانَ، فَأَعَاظَهُمَا ثَلَاثَ ثَمَارٍ (١٨١/٢) الْمَدِينَةَ عَلَى أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاجَابَا إِلَى ذَلِكَ، فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ وَسَعْدَ بْنَ عَبَّادَةَ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَيْءٌ تَحِبُّ أَنْ تَصْنَعَهُ أَمْ شَيْءٌ أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ أَوْ شَيْءٌ تَصْنَعُهُ لَنَا؟ قَالَ: بَلْ [لَكُمْ]، رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ شَوْكَتَهُمْ. فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهُمْ عَلَى الشَّرْكِ وَلَا يَطْعَمُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَّا ثَمَرَةً إِلَّا قَرِئُوا أَوْ

الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي، فمرتني بما شئت. فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة. فخرج حتى أتى بني قُريظة، وكان نديماً (١٨٣/٢) لهم في الجاهلية، فقال لهم: قد عرفتم ودي إياكم. فقالوا: لست عندنا بكمهم. قال: قد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد، وليسوا كائتم، البلد بلدكم، وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه، وإن قريشاً وغطفان إن رأوا نهضة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ولا طاقة لكم به [إن خلا بكم]، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمدًا قالوا: أشرت بالنصح.

ثم خرج أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه: عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدًا، وقد بلغني أن قُريظة ندموا وقد أرسلوا إلى محمد: هل يُرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم: أن نعم، فإن طلبت قُريظة منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجالاً واحداً. ثم خرج أتى غطفان فقال: أنتم أهلي وعشيرتي. وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.

فلما كان ليلة السبت من شوال [سنة خمس] كان مما صنع الله لرسول [أن] أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى قُريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان وقالوا لهم: إننا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال [حتى] تناجز محمدًا. فإرسلوا إليهم: إن اليوم السبت لا نعمل فيه شيئاً ولسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً ثقةً فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل ونحن ببلاد. فلما أبلغتهم الرسل هذا الكلام قالت قريش وغطفان: والله لقد صدق نعيم بن مسعود، فإرسلوا (١٨٤/٢) إلى قُريظة: [إننا] والله لا ندفع إليكم رجالاً واحداً. فقالت قُريظة عند ذلك: إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق. وخذل الله بينهم، وبعث الله عليهم ريحاً في ليالٍ شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قلوبهم وتطرح أبنتهم.

فلما انتهى إلى النبي ﷺ، اختلاف أمرهم دعا حُنيفة بن اليمان ليلاً فقال: انطلق إليهم وانظر حالهم ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا. قال حذيفة: فلعبت فدخلت فيهم والريح وجنود الله تفعل فيهم ما تفعل لا يقر لهم قدر ولا بناء ولا نار. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر الرجل أمر جلسه، قال: فأخذت بيد الرجل الذي بجانبني فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان، ثم قال أبو سفيان: والله لقد هلك الخف والحافر وأخلفتنا قُريظة ولقينا من هذه الريح ما نرون، فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ، [إني] أن لا أحدث شيئاً لقتلته.

يبعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام نعطهم أموالنا! ما نعطهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فترك ذلك رسول الله ﷺ.

ثم إن فوارس من قريش، منهم: عمرو بن عبد وده أحد بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وتوكل بن عبد الله، وضربار بن الخطاب الفهري، خرجوا على خيولهم واجتازوا بيني كنانة وقالوا: تجهزوا للحرب وستعلمون من الفرسان. وكان عمرو بن عبد وده قد شهد بدرًا كافرًا وقاتل حتى كثرت الجراح فيه، فلم يشهد أحدًا وشهد الخندق معلماً حتى يُعرف مكانه، وأقبل هو وأصحابه حتى وقفوا على الخندق، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً فاقتحموه، فجالت بهم خيولهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فأخذوا عليهم الثغرة، وكان عمرو قد خرج معلماً، فقال له علي: يا عمرو إنك عاهدت أن لا يدعوك رجل من قريش إلى خصلتين إلا أخذت إحداهما؟ قال: أجل. قال له علي: فإني أدعوك إلى الله والإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. قال: فإني أدعوك إلى النزال. قال: والله ما أحب أن أقتلك. قال علي: ولكني أحب أن أقتلك. فحامي عمرو عند ذلك فنزل عن فرسه وعقره ثم أقبل على علي، فتجاولا، وقتله علي، وخرجت خيلهم منهزمة، وقُتل مع عمرو (١٨٢/٢) رجلان، قتل علي أحدهما وأصاب آخر سهم فمات منه بمكة.

ورمي سعد بن معاذ بسهم قطع أكله، رماه حبان بن قيس بن العرقعة ابن عبد مناف من بني مغيص من عامر بن لؤي، والعرقعة أمه، وإنما قبل لها العرقعة لطيب ريح عرقها، وهي قلابة بنت سعد بن متهم، وهي أم عبد مناف بن الحارث. فلما رمى سعداً قال: خنعا وأنا ابن العرقعة. فقال النبي ﷺ: عرق الله وجهك في النار، ولم يقطع [الأكل] من أخذ إلا مات. فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقيني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أقاتلهم من قوم أدوا نبيلك وكذبوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا فاجعل لي شهادة ولا تبتني حتى تفر عيني من بني قُريظة. وكانوا حلفاء ومواليه في الجاهلية.

وقيل: إن الذي رمى سعداً وهو أبو أسامة الجُشمي حليف بني مخزوم فلما قال سعد ما قال انقطع الدم.

وكانت صفية عمة النبي ﷺ، في فارغ، حصن حسان بن ثابت، وكان حسان فيه مع النساء لأنه كان جباناً، قالت: فأتانا أت من اليهود فقلت لحسان: هذا اليهودي يطوف بنا ولا نامنه أن يدل على عوراتنا فانزل إليه فاقطعه. فقال: والله ما أنا بصاحب هذا. قالت: فأخذت عموداً ونزلت إليه فقتلته، ثم رجعت فقلت لحسان: انزل إليه فخذ سلبه فإني يمنعني منه أنه رجل. فقال: والله مالي بسلبه من حاجة.

ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعي أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول

قال حذيفة: فرجعتُ إلى النبي ﷺ، وهو قائم يصلّي في مرط لبعض نسائه، فادخلني بين رجله وطرح عليّ طرف المرط، فلما سلّم خبرته الخبر.

وسمعتُ غطفان بما فعلت قريش فعادوا راجعين إلى بلادهم، فلما عادوا قال رسول الله ﷺ: الآن نغزوهم ولا يغزونا. فكان كذلك حتى فتح الله مكة. (١٨٥/٢)

ذكر غزوة بني قُريظة

لما أصبح رسول الله ﷺ، عاد إلى المدينة ووضع المسلمون السلاح وضرب على سعد بن مُعاذ قبة في المسجد ليعوده من قريب، فلما كان الظهر أتى جبرائيل النبي ﷺ، فقال: أقد وضعت السلاح؟ قال: نعم. قال جبرائيل: ما وضعت الملائكة السلاح، إنّ الله يأمرك بالمسير إلى بني قُريظة وأنا عاهد إليهم. فأمر رسول الله ﷺ، منادياً فنادى: مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّين العصر إلّا في بني قُريظة. وقدم عليّاً إليهم برايته وتلاحق الناس، ونزل رسول الله ﷺ، وأتاه رجال بعد العشاء الأخيرة فصلّوا العصر بها، وما عابهم رسول الله ﷺ.

وحاصر بني قُريظة شهراً أو خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ، أن تبعث إلينا أبا لُبابة بن عبد المُنذر، وهو أنصاري من الأوس، نستشير، فأرسله، فلما رآه قام إليه الرجال وبكى النساء والصبيان، فرق لهم، فقالوا: نزل على حكم رسول الله ﷺ. فقال: نعم، وأشار بيده إلى حلقة أنه الذبح. قال أبو لُبابة: فما زالت قدماي حتى عرفتُ أنّي خُئتُ الله ورسوله وقلتُ: والله لا أقتم بمكان عصيتُ الله فيه. وانطلق على وجهه حتى ارتبط في المسجد وقال: لا أبرح حتى يتوب الله عليّ. فتاب الله عليه وأطلقه رسول الله ﷺ.

ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فقال الأوس: يا رسول الله افعلْ في موالينا مثل ما فعلتْ في موالي الخزرج، يعني بني قُيُشَقاع، وقد تقدّم ذكرهم. فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن مُعاذ؟ قالوا: بلى. فاتاه قومه فاحتملوه على حمار ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ، صلى الله (١٨٦/٢) عليه وسلّم، وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن إلى مواليك. فلما تكروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فعلم كثير منهم أنه يقتلهم، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ، قال: قوموا إلى سيّدكم، أو قال: خيركم، فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا: يا أبا عمرو أحسن إلى مواليك فقد ردّ رسول الله ﷺ، الحكم فيهم إليك. فقال سعد: عليكم عهد الله وميثاقه، إنّ الحكم فيهم إليّ؟ قالوا: نعم، فالتفت إلى الناحية الأخرى التي فيها النبي ﷺ، وغضّ بصره عن رسول الله ﷺ إجلالاً وقال: وعلى من ههنا العهد أيضاً؟ فقالوا: نعم. وقال رسول الله ﷺ: نعم. قال: فليأتني أحكم أن

تُقتل المقاتلة وتُسي الذرّة والنساء وتُقسم الأموال، فقال له رسول الله ﷺ: لقد حكمتُ [فيهم] بحكم الله من فوق سبعة أزرقة.

ثم استنزّلوا فحُيسوا في دار بنت الحارث امرأة بني النجّار. ثم خرج رسول الله ﷺ، إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فيها، وفيهم حُيَيّ بن أخطب وكعب بن أسد سيّدُهم، وكانوا ستمائة أو سبعمائة، وقيل: ما بين سبعمائة وثمانمائة، وأُتي حُيَيّ بن أخطب وهو مكثوف، فلما رأى النبي ﷺ، قال: واللّٰه ما لُمتُ نفسي في عداوتك ولكن من يخذل الله يُخذل. ثم قال للناس: إنّ لا بأس بأمر الله، كتابٌ وقدر وملحمة كُتبت على بني إسرائيل. فأجلّس وضرّبت عنقه، ولم تُقتل منهم إلّا امرأة واحدة. قُلتُ بحدث أحدثه، وقتلت أرفة بنت عارضة منهم. (١٨٧/٢)

وأسلم منهم ثعلبة بن سَعِيّة، وأسيد بن سَعِيّة، وأسد بن عُبيد.

ثم قسم رسول الله ﷺ، أموالهم، فكان للفراس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللراجل مَن ليس له فرس سهم، وكانت الخيل ستّة وثلاثين فرساً، وأخرج منها الخمس، وكان أوّل فيء وقع فيه السهمان والخمس. واصطفى رسول الله ﷺ، لنفسه ربحانة بنت عمرو بن خُثافة من بني قُريظة، فأراد أن يتزوَّجها فقالت: اتركني في ملكك فهو أخفّ عليّ وعليك. فلما انقضى أمر قُريظة انفجر جرح سعد بن مُعاذ واستجاب الله دعاءه، وكان في خيمته التي في المسجد، فحضره رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر، وقالت عائشة: سمعتُ بكاء أبي بكر وعمر عليه وأنا في حجرتي، وأمّا النبي ﷺ، فكان لا يبكي على أحد، كان إذا اشتدّ وجده أخذ بلمحيته.

وكان فتح قُريظة في ذي القعدة وصدر ذي الحجة، وقُتل من المسلمين في الخندق ستّة نفر، وفي قُريظة ثلاثة نفر.

سنة سبت من الهجرة

ذكر غزوة بني لُحَيان

في جُمادى الأولى منها خرج رسول الله ﷺ، إلى بني لُحَيان يطلب بأصحاب الرجيع، حُيَيّ بن عديّ وأصحابه، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غزوةً، وأغذ السير حتى نزل على غُران منازل بني لُحَيان، وهي بين أمّج وعُشْتَمان، فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال، فلما أخطأ ما أراد منهم خرج في مأتي راكب حتى نزل بعشْتَمان تخويفاً لأهل مكة، وأرسل فارسين من أصحابه حتى بلغا كُراع الغميم ثم عاد قافلاً.

(غُران بفتح الغين المعجمة، وفتح الراء، وبعد الألف نون. وأمّج بفتح الهمزة، والميم، وآخره جيم).

ذكر غزوة ذي قرد

ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة فلم يُقسم إلا أياماً قلائل حتى أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل غطفان على لِقاح النبي، وأول من نذر بهم سلمة بن الأكوع الأسلمي؛ هكذا ذكرها أبو جعفر بعد (١٨٩/٢) غزوة بني لحيان عن ابن إسحاق، والرواية الصحيحة عن سلمة: أنها كانت بعد مقدمه المدينة منصرفاً من الحديبية، وبين الوقعتين تفاوت.

قال سلمة بن الأكوع: أقبلنا مع النبي ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ، بظهره مع رياح غلامه وخرجت معه بفارس طلحة بن عبيد الله، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن بن عيينة بن حصن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ، فاستاقه أجمع وقتل راعيه، قلت: يا رياح [خذ] هذا الفرس فابلغه طلحة وأخبر النبي ﷺ، أن المشركين قد أغاروا على سرحه؛ ثم استقبلت الأكمة فنادت ثلاثاً أصوات: يا صباحاه! ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز وأقول:

[خذها] وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع قال: فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا خرج إلي فارس عدت في أصل شجرة فرميتهم ففقرت به، وإذا دخلوا في مضايق الجبل رميتهم بالحجارة من فوقهم، فما زلت كذلك حتى ما تركت من ظهر رسول الله ﷺ، بعيداً إلا جعلته وراء ظهري، وخلصوا بيني وبينه وألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً وثلاثين بردة يستخفون بها، لا يُلقون شيئاً إلا جعلت عليه أمانة، أي علامة، حتى يعرفه أصحاب رسول الله ﷺ، حتى [إذا] انتهوا إلى مضايق من نية أتاها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر مُمدداً، ففعدوا يتضخون، فلما رأيته قال: ما هذا؟ قالوا: لقينا منه (١٩٠/٢) البرح وقد استنقذ كل ما بأيدينا، فما برحت مكاني حتى أبصرت فوارس رسول الله ﷺ، يتخللون الشجر، أولهم الأخرم الأسدي واسمه مُحَرَز بن نُضلة بن أسد بن خزيمة وعلى أثره أبو قتادة وعلى أثرهما المقداد بن عمرو الكندي، فأخذت بعنان الأخرم وقلت: احذر القوم لا يقطعوك حتى تلحق رسول الله ﷺ، وأصحابه، فقال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فلا تحل بيني وبين الشهادة. قال: فخليتُه، فالتقى هو وعبد الرحمن بن عيينة، ففقر الأخرم بعبد الرحمن فرسه وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول عبد الرحمن على فارس الأخرم، [ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ، بعبد الرحمن فطعنه] فانطلقوا هاربين، قال سلمة: فوالذي كرم وجه محمد لا تبعنهم أعدو على رجلي حتى ما أرى من أصحاب محمد ولا غبارهم شيئاً.

وعدلوا قبل غروب الشمس إلى غار فيه ماء يقال له ذو قرد يشربون منه وهم عطاش، فنظروا إليّ أعدو في آثارهم فحلبتهم فما

ذاقوا منه قطرة، قال: واشتدوا في نية ذي بئر فأرشق بعضهم بسهم فيقع في نفض كتفه، فقلت: خذها وأنا الأكوع واليوم [يوم] الرضع. وإذا فرسان على النية فجت بها أقودهما إلى النبي ﷺ. (١٩١/٢) ولحقني عمي عامر بسطيحة فيها مدقة من لبن وسطيحة فيها ماء، فتوضأت وصليت وشربت ثم جئت إلى النبي ﷺ، وهو على الماء الذي حلبتهم عنه بذئ قرد، وإذا رسول الله ﷺ، قد أخذ تلك الإبل التي استنقذت من العدو وكل رمح وكل بردة، وإذا بلال قد نحر لهم ناقة من الإبل وهو يشوي منها، فقلت: يا رسول الله خلني أنتخب مائة رجل فلا يبقى منهم عين تطرف. فضحك وقال: إنهم ليُقرون بأرض غطفان. فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزوراً، فلما كشطوا عنها جلدها رأوا غباراً فقالوا: أتيتم، فخرجوا هاربين.

فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: خير فرساننا أبو قتادة، وخبر رجالتنا سلمة بن الأكوع، ثم أعطاني رسول الله ﷺ، سهم الفارس وسهم الراجل، ثم أردفتي وراءه على القضاة فيبيننا نحن نسير، وكان رجل من الأنصار لا يسبق شداً، فقال: ألا من مسابق؟ مراراً، فقلت: يا رسول الله بأي أنت وأمي إذن لي فلاسابق الرجل. قال: إن شئت. قال: فظفرت وربطت شرفاً أو شرفين فألحقه فقلت: سبقتك والله! فسبقته إلى المدينة، فلم نمكث بها إلا ثلاثاً حتى خرجنا إلى خيبر.

وفي هذه الغزوة نودي: يا خيل الله اركبي، ولم يكن يقال قبلها.

(قرد غزوة القاف والراء) (١٩٢/٢)

ذكر غزوة بني المصطلق من خزاعة

ذكرت هذه الغزوة بعد غزوة ذي قرد، وكانت في شعبان من السنة [سنة ست]، وكان بلغ رسول الله ﷺ، أن بني المصطلق تجمعوا، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جؤيرة زوج النبي ﷺ، فلما سمع بهم خرج إليهم فلقبهم بماء لهم يقال له المريسيع بناحية قُذَيْد، فاقتلوا، فانهزم المشركون وقُتل من قتل منهم وأصيب رجل من المسلمين من بني ليث بن بكر اسمه هشام بن صبابه أخو فقيس بن صبابه، وأصابه رجل من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت بسهم وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ، وأصاب رسول الله ﷺ، سبايا كثيرة قسمها في المسلمين، وفيهم جؤيرة بنت الحارث ابن أبي ضرار، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له، فكانت به عن نفسها، فأتى رسول الله ﷺ، فاستعانه في كتابتها، فقال لها: هل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أقضي كتابتك وأنزجك قالت: نعم يا رسول الله. ففعل، وسمع الناس الخير فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فاعتقوا أكثر من مائة بيت من أهل بني المصطلق، فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها.

وبينا الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن

الخطاب أجبر له من بني غفار يقال له جهجاه، فازدحم هو ومينان الجهني، حليف بني عوف من الخزرج، على الماء فاقتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار! وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين! فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهن من قومه فيهم زيد بن أرقم، غلام حديث السن. فقال: أقد فعلوها! قد كاثرونا في بلادنا! أما والله ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ (١٩٣/٢) لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾! [المنافقين: ٨] ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم! احللتهم ببلادكم وقاسمتهم أموالكم! والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.

فسمع ذلك زيد، فمشى به إلى النبي، ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله، ﷺ، من غزوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله مر به عبّاد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله، ﷺ، كيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! ولكن أذن بالرحيل، فارتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه.

فلقبه أسيد بن حضير فسلم عليه وقال: يا رسول الله لقد رُحْتُ في ساعة لم تكن تروح فيها. فقال: أو ما بلغك ما قال عبد الله بن أبي؟ قال: وماذا؟ قال: زعم إن رجع إلى المدينة ليُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذل. قال أسيد: فأنت والله تُخرجه إن شئت فإنك العزيز وهو الذليل، ثم قال: يا رسول الله ارفق به فوالله لقد من الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكاً.

وسمع عبد الله بن أبي أن زيدا أعلم النبي، ﷺ، قوله فمشى إلى رسول الله، ﷺ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به. وكان عبد الله في قومه شريفاً، فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أخطأ، وأنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ تصديقاً لزيد، فلما نزلت أخذ رسول الله، ﷺ، بأذن زيد وقال: (١٩٤/٢) هذا الذي أوفى الله بأذنه.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ما كان من أمر أبيه فأتى النبي، ﷺ، فقال: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت فاعلاً فمرني به فانا أحمل إليك رأسه، وأخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافراً فأدخل النار. فقال النبي، ﷺ، بل ترفع به وتحسن صحبته ما بقي معنا. فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثاً عاتبه قومه وعنفوه وتوعدوه، فقال رسول الله، ﷺ، لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم: كيف ترى ذلك يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأرعدت له أنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. فقال عمر: أمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

وفيهما قدم يقبس بن صبابه مسلماً فيما يُظهر، فقال: يا رسول الله جئت مسلماً وجئت أطلب دية أخي، وكان قتل خطأ؛ فأمر له بدية

أخيه هشام بن صبابه، وقد تقدّم ذكر قتله آنفاً، فأقام عند رسول الله، ﷺ، غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ثم خرج إلى مكة مرتدّاً فقال:

شَفَى النَّسْرَ أَنْ قَدَّ بَاتَ فِي الْقَاعِ سُدّاً نَصْرَجَ نَوْبِيهِ دَمَاءُ الْأَخْدَاعِ وَكَانَتْ مُنُومُ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ تَلَمَّ فَحَمِينِي وَطَسَاةُ الْمُضَاجِعِ حَلَلْتُ بِهِ نَسْذِي وَادْرَكْتُ ثَوْرَتِي وَكُنْتُ إِلَى الْأَصْنَامِ أَوَّلَ رَاجِعِ (مقيس بكسر الميم، وسكون القاف، وفتح الياء تحتها نقطتان. وصبابه بصاد مهملة، وببائين موحدتين بينهما ألف. وأسيد بهمزة مضمومة. وحضير بضم الحاء المهملة، وفتح الضاد). (١٩٥/٢)

حديث الإفك

وكان حديث الإفك في غزوة بني المصطلق:

لما رجع رسول الله، ﷺ، فكان ببعض الطريق قال أهل الإفك ما قالوا، وكان من حديثه ما روي عن عائشة، قالت: كان رسول الله، ﷺ، إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأَيُّهُنَّ خرج سمعها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه فخرج سهمي فخرج بي معه، وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن الخُلُقَ لم يتفكهن باللحم، وكنت إذا وصل بعيري جلست في هودجي ثم يأتي القوم الذين يرحلون بعيري فيحملون الهودج وأنا فيه فيضعونه على ظهر البعير ثم يأخذون برأس البعير ويسرون. قالت: فلما قتل رسول الله، ﷺ، من سفره ذلك، وكان قريباً من المدينة، بات بمنزل بعض الليل ثم ارتحل هو والناس، وكنت قد خرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقدٌ لي من جزع ظفار أنسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت التمسّت العقد فلم أجده، [وأخذ الناس بالرحيل]، فرجعت إلى المكان الذي كنت فيه التمسّه فوجدته، وجاء القوم الذين يرحلون بعيري فأخذوا الهودج وهم يظنون أنني فيه، فاحتلموه على عادتهم وانطلقوا، ورجعت إلى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب، فتلففت بجلبابي واضطجعت مكاني وعرفت أنهم يرجعون إلي إذا افتقدوني.

قالت: فوالله إنني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان بن أمية السلمي، وكان (١٩٦/٢) تخلف عن المعسكر لحاجته، فلم يبت مع الناس، فلما رأى سوادي أقبل حتى وقف عليّ فعرفني، وكان رأيي قبل أن يضرب الحجاب، فلما رأيي استرجع وقال: ما خلقت؟ قالت: فما كلمته، ثم قرّب البعير وقال: اركبي. فركبت، وأخذ برأس البعير مسرعاً.

فلما نزل الناس واطمأنوا طلع الرجل يقودني، فقال أهل الإفك [أي] ما قالوا، فارتجع العسكر ولم أعلم بشيء من ذلك، ثم قدمنا المدينة فاشتكت شكوى شديدة، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله، ﷺ، وإلى أبيري ولا يذكران لي منه شيئاً، إلا أنني أنكرت من رسول الله، ﷺ، بعض لطفه، فكان إذا دخل عليّ وأمّي تمرّضني قال: كيف

بماذا نجيها! وما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على أبي بكر تلك الأيام. فلما استعجما بكيت ثم قلت: واللّه لا أتوب إلى الله ممّا ذكرت أبداً، واللّه لئن أقررت -واللّه يعلم أنّي منه بريئة- لتصدّقني، ولئن أنكرت لا تصدّقني. ثمّ التمسّت اسم يعقوب فلم أجده فقلت: ولكيّ أقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ولشائي كأنّي أصغر في نفسي أن ينزل الله في قرآنًا يتلى، ولكيّ كنت أرجو أن يرى رؤيا يكذب الله بها عني.

قالت: فوالله ما برح رسول الله، ﷺ، من مجلسه حتى جاءه الوحي، فسُجِّيَ بثوبه، فأما أنا فوالله ما فزعتُ ولا باليتُ، قد عرفت أنّي بريئة وأنّ الله غير ظالمي، وأما أبواي فما سرّي عن رسول الله، ﷺ، حتى ظننتُ لتخرجن أنفسهما فرقاً [من] أن يحقّق الله ما قال الناس. قالت: ثمّ سرّي عن رسول الله، ﷺ، وإنّه ليتحدّر عنه مثل الجمان، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك. فقلت: بحمد الله! ثمّ خرج إلى الناس فخطبهم وذكر لهم ما أنزل الله فيّ من القرآن، ثمّ أمر بسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وخمّة بنت جحش، وكانوا ممّن أفصح بالفاحشة، فضربوا حذمهم، وحلف أبو بكر لا يُنفق على سطح أبداً، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتِئِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٢٢] الآية، فقال أبو بكر: إنّي أحبّ أن يغفر الله لي، ورجع إلى سطح نفقته. ثمّ إنّ صفوان بن المعطل اعترض حسان بن ثابت بالسيف فضربه، ثمّ قال:

تَلَقَّ فُضَابَ السَّيْفِ غَشِي فُتَاتِي غَلَامٌ إِذَا هُوَ جِئْتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ
فَوُتِبَ ثَابِتُ بِنِ قَيْسِ بِنِ شَمَاسٍ فَجَمَعَ بِيَدِهِ إِلَى عَقِهِ وَانْطَلَقَ بِهِ
إِلَى الْحَارِثِ بِنِ الْخَزْرَجِ، فَلَقِيَهُ عَبْدُ اللَّهِ بِنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ: مَا هَذَا؟
فَقَالَ: ضَرَبَ حَسَّانٌ وَمَا أَرَاهُ إِلَّا قَتْلَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَلْ عَلِمَ رَسُولُ
اللَّهِ، ﷺ، بِشَيْءٍ مِمَّا صَنَعْتُ؟ [قال: لا والله]، قال: لقد اجترأتُ،
أطلق الرجل، فاطلقه، فذكر ذلك لرسول الله، ﷺ، فدعا حساناً
وصفوان بن المعطل، فقال صفوان: هجاني يا رسول الله وأذاني
فضربتُ. فقال رسول الله، ﷺ، لحسان: أحسن يا حسان. قال: هي لك
يا رسول الله، فأعطاه رسول الله، ﷺ، عوضاً منها بئرحاء، وهي قصر
بني حذيلة، بالحاء المهملة؛ وأعطاه شيرين، أمة قطيية، وهي أخت
مارية أم إبراهيم ابن رسول الله، فولدت له ابنة عبد الرحمن، وكان
صفوان حصواً لا يأتي النساء، ثمّ قتل بعد ذلك شهيداً.

(سطح بكسر الميم، وسكون السين المهملة، وباءطاء والحاء المهملة). (٢٠٠/٢)

ذكر عمرة الحذيبية

في هذه السنة خرج رسول الله، ﷺ، معتمراً في ذي القعدة لا يريد حرباً ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار وممن تبعه من

تيكم؟ لا يزيد على ذلك، فوجدت في نفسي ممّا رأيت من جفائه، فاستأذنته في الانتقال إلى أمي لتمرّضني، فأذن لي، وانتقلت ولا أعلم بشيء ممّا كان حتى نفهت من وجعي بعد بضعة وعشرين ليلة.

قالت: وكنا قوماً عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف ناعفها ونكرها، إنما كان النساء يخرجسن كلّ ليلة، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعّي أمّ مسطح ابنة أبي رهم بن المطّلب، وكانت أمها خالة أبي بكر الصديق، قالت: فوالله إنها لتمشي إذ عثرت في يربطها فقالت: نَعِسَ مسطح. قالت: قلت: لعمر الله بش ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدمراً! قالت: أوّما بلغك الخبر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان. قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي فرجعت فما زلت أبكي حتى ظننتُ أن البكاء سيصدع كبدي، وقلتُ لأمي: تحدّث الناس بما تحدّثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟ قالت: أي بنية خفّضي عليك، فوالله قلّ ما كانت امرأة حسناء (١٩٧/٢) عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها. قالت: وقد قام رسول الله، ﷺ، في الناس فخطبهم ولا أعلم بذلك، ثمّ قال: أيها الناس ما بال رجال يؤذوني في أهلي ويقولون عليهنّ غير الحق، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيراً وما دخل بيتاً من بيوتي إلا معي.

وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبيّ بن سلول في رجال من الخزرج، مع الذي قال سطح وخمّة بنت جحش، وذلك أن زينب أختها كانت عند رسول الله، ﷺ، فأشاعت تُضارّي لأختها، فلما قال رسول الله، ﷺ، تلك المقالة قال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفّهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك. فقال سعد بن عبادة: والله ما قلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنّهم من الخزرج، ولو كانت من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد: كذبت ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. وتناور الناس حتى كاد يكون بينهم شرّ، ونزل رسول الله، ﷺ، ودعا عليّ بن أبي طالب وأسامه بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى خيراً وأما عليّ فقال: إنّ النساء لكثير وسل الخادم تصدقك، فدعا رسول الله، ﷺ، بريّة يسألها، فقام إليها عليّ فضربها ضرباً شديداً وهو يقول: اصدقي رسول الله. فقالت: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيبُ عليها إلا أنّها كانت تنام عن عجبها فيأتي الداجن فياكله.

ثمّ دخل عليّ رسول الله، ﷺ، وعندني أبواي وامرأة (١٩٨/٢) من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: يا عائشة إنّه قد كان ما بلغك من قول الناس، فإن كنت قارفتِ سوءاً فتوبّي إلى الله.

قالت: فوالله تقلّص دمي حتى ما أحسن منه شيئاً، وانتظرتُ أبوي أن يُجيباه، فلم يفعلا، فقلت: ألا تجيبانه؟ فقالا: والله ما نندري

الأعراب ألف وأربعمائة، وقيل: ألف وخمسمائة، وقيل: ثلاثمائة، وساق الهدي معه سبعين بدنة ليعلم الناس أنه إنما جاء زائراً للبيت. فلما بلغ عُسفان لقيه بُسر بن سفيان الكعبي فقال يا رسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فاجتمعوا بذئ طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً، وقد قدموا خالد بن الوليد إلى كراع الغميم .

وقيل: إنَّ خالداً كان مع النبي، ﷺ، مسلماً، وإنه أرسله، فلقى عكرمة بن أبي جهل فهزمه؛ والأول أصح.

ولما بلغه بُسر ما فعلت قريش قال رسول الله، ﷺ، يا ريش قريش قد أكلتهم الحرب! ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وأفرين، والله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة. ثم خرج على غير الطريق التي هم بها و سلك ذات اليمين حتى سلك ثنية لمُرار على مَهْطِ الحُدَيْبِيَّة، فبركت به ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال: ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل [عن مكة]، لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطَّة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها. ثم قال للناس: انزلوا. فقالوا: ما بالوادي ماء. فأخرج سهماً من كنانته فأعطاها رجلاً من أصحابه، فنزل في قلب من تلك القلب فغرز في جوفه، فجاش الماء بالرِّي حتى ضرب (٢٠١/٢) الناس عنه بقطن، وكان اسم الذي أخذ السهم ناجية بن عُمَيْر سائق بُدَن النبي، ﷺ.

فبينما هم كذلك اتاهم بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه خزاعة، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله، ﷺ، من تهامة، فقال: تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي [قد نزلوا] أعداد مياه الحديبية وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. فقال النبي، ﷺ، إننا لم نأت لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن شئت قريش ماددناهم مدّة ويخلّوا بيني وبين الناس، وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سألتي.

فانطلق بُدَيْل إلى قريش فأعلمهم ما قال النبي، ﷺ، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: إن هذا الرجل عرض عليكم خُطَّة رشد فاقبلوها، دعوني آتيه. فقالوا: آتيه. فأتاه وكلمه، فقال له: يا محمد جمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى يفضك لتفضها بهم، إنها قريش خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمرور يعاهدون الله أنك لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وإيم الله لكأنني بهؤلاء قد تكشفتوا عنك غداً. فقال أبو بكر: امصص بظر اللات! نحن نكشف عنه؟ [قال: من هذا يا محمداً؟] قال النبي، ﷺ، هذا ابن أبي حُفافة. فقال: أما والله لولا يد لك عندي لكافأتك بها. ثم جعل يتناول لحية رسول الله، ﷺ، ويكلمه والمُغِيرَة بن شُعْبَة واقف على رأس رسول الله، ﷺ، في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناولها ويقول له:

اكفف! (٢٠٢/٢) يدك قبل أن لا تصل إليك. فقال [عروة]: مَنْ هذا؟ قال النبي، ﷺ، هذا ابن أخيك المغيرة. فقال: أي غُذُر! وهل غسلت سواك [إلا] بالأمس؟ وكان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك وهرب، فتهايج الحيان بنو مالك رهط المقتولين والأحلاف رهط المغيرة، فودى عروة للمقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر.

وطال الكلام بينهما، فقال له النبي، ﷺ، نحو مقالته بُدَيْل، فقال له عروة: يا محمد أرايت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وجعل يرمق أصحاب النبي، ﷺ، فوالله لا يتنخم النبي نخامة إلا وقعت في كف أحدهم فذلك بها وجهه وجلده، وإن أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضع كادوا يقتلون على وضوئه، وما يحذون النظر إليه تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أي قوم قد وفدت على كسرى وقصر النجاشي فوالله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً وحدثهم ما رأى وما قال النبي، ﷺ.

فقال رجل من كنانة اسمه الحُلَيْس بن علقمة، وهو سيّد الأحابيش: دعوني آتيه. [فقالوا: آتيه]. فلما رآه النبي، ﷺ، قال: [هذا فلان وهو] من قوم يعظمون البدن، فابعثوا الهدي في وجهه، فلما رأى الهدي رجع إلى قريش ولم يصل إلى النبي، ﷺ، فقال: يا قوم قد رأيت ما لا يحلّ صدّه، الهدي في قلاته. فقالوا: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك. فقال: والله ما على هذا حالناكم أن تصلّوا عن البيت من جاء معظماً له، والذي نفسي بيده لتُخلنَّ بين محمد وبين البيت أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا: مَه! كَفْ عَنَّا يا حُلَيْس حتى نأخذ لأنفسنا. (٢٠٣/٢)

فقام رجل منهم يقال له يَكْرُز بن حنص فقال: دعوني آتيه. فقالوا: افعل. فلما أشرف على النبي، ﷺ، قال لأصحابه: هذا رجل فاجر، فجعل يكلم النبي، ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فلما جاء قال النبي، ﷺ، سهل أمركم.

وقال ابن إسحاق: إن قريشاً إنما بعثت سهيلاً بعد رسالة رسول الله، ﷺ، مع عثمان بن عفان، قال: لما رجع عروة بن مسعود إلى قريش بعث رسول الله، ﷺ، خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش على جمل له يقال له الثعلب ليبلغ عنه، ففعلوا به جمل رسول الله، ﷺ، وأرادوا قتله فمئته الأحابيش وخلوا سبيله حتى أتى رسول ﷺ فدعا رسول الله، ﷺ، عمر ليرسله [إلى مكة]، فقال: ليس بمكة من بني عدي من يمتعتي، وقد علمت قريش عداوتي لها وأخافها على نفسي فأرسل عثمان فهو أعز بها مني. [فدعا عثمان] فأرسله ليبلغ عنه، فانطلق، فلقه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره، فأتى أبا سفيان وعظماة قريش فبلغهم عن رسول الله، ﷺ، فقالوا لعثمان حين فرغ

من أداء الرسالة: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به النبي، ﷺ. فاحتبسته قريش عندها، فبلغ النبي، ﷺ، أنه قد قُتل، فقال: لا نبرح حتى نناجز القوم.

ثم دعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة، وهي سَمُرَة، لم يتخلف منهم أحد إلا الجعد بن قيس، وكان أولَ مَنْ بايعه رجل من بني أسد يقال له أبو سينان. ثم أتى الخبر أن عثمان لم يُقتل.

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى النبي، ﷺ، ليصالحه على أن يرجع عنهم عامه ذلك، فأقبل سهيل (٢٠٤/٢) إلى النبي، ﷺ، وأطال معه الكلام وتراجعا، ثم جرى بينهم الصلح، فدعا رسول الله، ﷺ، علي بن أبي طالب، فقال: اكتب باسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا نعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: اكتب: هذا، ما صالح عليه محمد رسول الله، ﷺ، بن عمرو - فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال لعلي: امحُ رسول الله. فقال: لا أمحوك أبداً. فأخذه رسول الله، ﷺ، وليس يُحسن يكتب فكتب موضع رسول الله: محمد بن عبد الله، وقال لعلي: لتبلىن بمثلها - اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، وأنه من أتى منهم رسول الله بغير إذن وليه ردّه إليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم يردّه [عليه]، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله، ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وأن يرجع رسول الله، ﷺ، عنهم عامه ذلك، فإذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمته بها ثلاثاً وسلاح الراكب السيوف في القُرب.

فبينما النبي، ﷺ، يكتب الكتاب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله، ﷺ، وكان أصحاب النبي لا يشكون في الفتح لرويا رآها رسول الله، ﷺ، فلما رأوا الصلح دخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل أخذه وقال: يا محمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت، وأخذه ليرده إلى قريش، فصاح أبو جندل: يا معشر المسلمين أريد إلى المشركين ليفتنوني عن ديني! فزاد الناس شراً إلى ما بهم، فقال له رسول الله، ﷺ: احتسب فإن الله (٢٠٥/٢) جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد أعطينا القوم عهدنا على ذلك فلا نخدر بهم. قال: فوثب عمر بن الخطاب يمشي مع أبي جندل ويقول له: اصبر واحتسب فإنما هم المشركون وإنما دم أحلهم دم كلب! وأدنى قائم السيف منه رجاء أن يأخذه فيضرب به أباه، قال: فيخل الرجل بأبيه.

وشهد على الصلح جماعة من المسلمين فيهم أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم، وجماعة من المشركين.

فلما فرغ النبي، ﷺ، من قصيته قال: قوموا فأنحروا ثم أحلقوا، فما قام أحد حتى قال ذلك مراراً، فلما لم يبق أحد منهم دخل على أم سلمة فذكر لها ذلك، فقالت: يا نبي الله أخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بئذك وتحلق شعرك، ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. فما فتح في الإسلام قبله فتح كان أعظم منه، حيث آمن الناس كلهم فدخل في الإسلام تينك الستين مثل ما دخل فيه قبل ذلك وأكثر.

فلما قدم رسول الله، ﷺ، المدينة جاءه أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي، وهو مسلم، وكان ممن حُبس بمكة، فكتب فيه الأزهر بن عبد عوف والأخنس بن شريق ويعثا فيه رجلاً من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم، فقال له رسول الله، ﷺ: قد علمت أنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً ولا يصلح الغدر في ديتنا، فانطلق معهما إلى ذي الحليفة فجلسوا، وأخذ أبو بصير سيف أحدهما فقتله به وخرج المولى سريعا إلى النبي، ﷺ، فأخبره بقتل صاحبه، ثم أقبل أبو بصير فقال: يا رسول الله قد وفيت ذمتك وأنجاني الله منهم. فقال رسول الله، ﷺ: ويل أمة يسعر حرب لو كان له رجال! فلما سمع (٢٠٦/٢) ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج أبو بصير حتى نزل بناحية ذي المروة على ساحل البحر على طريق قريش إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا [احتبسوا] بمكة ذلك فخرجوا إلى أبي بصير، منهم أبو جندل، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً، فضيقوا على قريش يعترضون العير تكون لهم، فأرسلت قريش إلى النبي، ﷺ، يناشدونه الله والرحم لما أرسل إليهم فمن أئاه فهو آمن، فأواهم رسول الله، ﷺ.

وفيها نزلت سورة الفتح، وهاجر إلى رسول الله، ﷺ، نسوة مؤمنات فيهن أم كلثوم ابنة عتبة بن أبي معيط، فجاء أخوها عمارة والوليد يطلبانها، فأنزل الله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [المتحنة، ١٠] الآية؛ فلم يرسل امرأة مؤمنة إلى مكة، وأنزل الله: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ﴾ [المتحنة، ١٠]؛ فطلق عمر بن الخطاب امرأتين له، إحداهما قُزينة بنت أبي أمية، والثانية أم كلثوم بنت عمرو بن جُزول الخزاعي، وهما مشركان، فتزوج أم كلثوم أبو جهيم بن حذيفة بن غانم.

(بسر بضم الباء الموحدة، وسكون السين المهملة، وآخره راء، بصير بالياء الموحدة المفتوحة، والصاد المهملة المكسورة، والياء الساكنة تحتها نقطتان، وآخره راء أيضاً وأسيد بفتح الهمزة وكسر السين، وجارية بالميم وآخره راء وأيضاً والحائس بضم الحاء المهملة، وفتح اللام، ويعدة ياء تحتها نقطتان، وآخره سين مهملة).

وفيها كانت علة من سرايا وغزوات:

منها سرية عكاشة بن محصن (٢٠٧/٢) في أربعين رجلاً إلى

الْعَمَقُ، فَنَزِرَ بِهِمُ الْقَوْمُ فَهَرَبُوا، فَسَعَتْ الطَّلَاعُ فَوَجَدُوا مَا تَبِعِي يَهْبِطُوا وَاذِيهِمْ.

فَأَخَذُوهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ فِي رِيحِ الْآخِرِ.

وَمِنْهَا سَرِيَّةُ مُحَمَّدَ بْنِ مَسْلَمَةَ، أَرْسَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِي عَشْرَةِ فَوَارِسٍ فِي رِيحِ الْأَوَّلِ إِلَى بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدٍ، فَكَمَنَ الْقَوْمُ لَهُ حَتَّى نَامَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ، فَقَتَلَ أَصْحَابُهُ وَنَجَا هُوَ وَحْدَهُ جَرِيحًا.

وَمِنْهَا سَرِيَّةُ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ فِي رِيحِ الْآخِرِ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا، فَهَرَبَ أَهْلُهُ مِنْهُمْ وَأَصَابُوا نَعْمًا وَرَجُلًا [وَاحِدًا] أَسْلَمَ فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَمِنْهَا سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ بِالسَّجْمِ، فَأَصَابَ امْرَأَةً مِنْ مُزَيْنَةَ اسْمُهَا حَلِيمَةُ، فَذَلَّتْهُمْ عَلَى مَحَلَّةٍ مِنْ مَحَالِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَأَصَابُوا نَعْمًا وَشَاءَ وَأَسْرَى فِيهِمْ زَوْجَهَا، فَأَطْلَقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَزَوَّجَهَا مَعَهَا.

وَمِنْهَا سَرِيَّةُ زَيْدٍ أَيْضًا إِلَى الْعَيْصِ فِي جَمَادَى الْأُولَى، وَفِيهَا أَخَذَتْ الْأَمْوَالَ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّيِّعِ، وَاسْتَجَارَ بَزِينِبُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَجَارَتْهُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ.

وَمِنْهَا سَرِيَّةُ زَيْدٍ أَيْضًا إِلَى الطَّرَفِ فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ إِلَى بَنِي ثَعْلَبَةَ فِي خَمْسَةِ عَشَرَ رَجُلًا، فَهَرَبُوا مِنْهُ، وَأَصَابَ مِنْ نَعْمَتِهِمْ عَشْرِينَ بَعِيرًا. وَمِنْهَا سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ إِلَى جَسْمَى فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ.

وَسَبَبُهَا أَنَّ رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدِ الْجُدَامِيِّ ثُمَّ الضُّبَيْيَّ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فِي هَدَنَةِ الْحَدِيثِ وَأَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، غَلَامًا وَأَسْلَمَ فَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، وَكَتَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، كِتَابًا إِلَى قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْلَمُوا، ثُمَّ سَارُوا إِلَى حَرَّةِ الرَّجُلَاءِ.

ثُمَّ إِنَّ دَحِيَّةَ بْنَ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ أَقْبَلَ مِنَ الشَّامِ مِنْ عِنْدِ قَيْصَرَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بَارِضَ جُدَامٍ أَغَارَ عَلَيْهِ الْهُنْدُ بْنُ عُوصٍ وَابْنُهُ عُوصُ بْنُ الْهَنْدِ الضُّلَيْعِيَّانِ، وَهُوَ بَطْنٌ مِنْ جُدَامٍ، فَأَخَذَا كُلُّ شَيْءٍ مَعَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَفَرًا مِنْ بَنِي الضُّبَيْيِّ (٢٠٨/٢) قَوْمَ رِفَاعَةَ مِمَّنْ كَانَ أَسْلَمَ، فَتَفَرُّوا إِلَى الْهَنْدِ وَابْنِهِ، فَلَقَوْهُمَا وَقَاتَلُوا، فَظَفَرَ بَنُو الضُّبَيْيِّ وَاسْتَفْتَدُوا كُلُّ شَيْءٍ أَخَذَ مِنْ دَحِيَّةٍ وَرَدَّوهُ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ دَحِيَّةٌ حَتَّى قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ خَبْرَهُ وَطَلَبَ مِنْهُ دَمَ الْهَنْدِ وَابْنِهِ عُوصَ، فَارْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِلَيْهِمْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي جَيْشٍ، فَأَغَارُوا بِالْقُضَافِضِ وَجَمَعُوا مَا وَجَدُوا مِنْ مَالٍ وَقَتَلُوا الْهَنْدَ وَابْنَهُ.

فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ بَنُو الضُّبَيْيِّ رَهْطَ رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ سَارَ بَعْضُهُمْ إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فَقَالُوا: إِنَّا قَوْمٌ مُسْلِمُونَ. فَقَالَ زَيْدٌ: فَاقْرَءُوا أَمَّ الْكِتَابِ، فَقَرَأَهَا حَسَّانُ [بْنُ مَلَةَ]. فَقَالَ زَيْدٌ: نَادَاوِي فِي الْجَيْشِ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْنَا مَا أَخَذَ مِنْ طَرِيقِ الْقَوْمِ الَّتِي جَاؤُوا مِنْهَا، وَأَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ إِلَيْهِمْ سَبَايَاهُمْ، فَأَخْبَرَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ عَنْهُمْ بِمَا أَوْجَبَ أَنْ يَخْطَأَ، فَتَوَقَّفَ فِي تَسْلِيمِ السَّبَايَا وَقَالَ: هُمْ فِي حَكْمِ اللَّهِ، وَنَهَى الْجَيْشَ أَنْ

وَعَادَ أَوْلَئِكَ الرِّكْبَ الْجُدَامِيَّ إِلَى رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ وَهُوَ بِكَرَاعِ رَبَّةٍ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: إِنَّكَ لَجَالِسٌ تَحْلُبُ الْمَعَزَى وَنِسَاءَ جُدَامٍ أَسَارَى قَدْ غَرَّحَنَ كِتَابِكَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ. فَسَارَ رِفَاعَةُ وَالْقَوْمُ مَعَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَعَرَضَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْقَتْلِ؟ فَقَالُوا: لَنَا مَنْ كَانَ حَيًّا وَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ تَحْتَ أَقْدَامِنَا، يَعْنُونَ تَرَكُوا الطَّلَبَ بِهِ. فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَأَرْسَلَ مَعَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فَرَدَّ عَلَى الْقَوْمِ مَا لَهُمْ حَتَّى كَانُوا يَتَزَوَّعُونَ لَبْدَ الْمَرْأَةِ تَحْتَ الرَّحْلِ، وَأَطْلَقَ الْأَسَارَى.

(رَبَّةٌ بِالرَّاءِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ. وَالضُّبَيْيُّ بِضَمِّ الضَّادِ الْمَعْجَمَةِ، تَصْغِيرُ ضَبٍّ - وَقِيلَ: هُوَ يَفْتَحُ الضَّادَ، وَكَسَرَ الْبَاءَ، وَآخِرُهُ نُونٌ - نِسْبَةٌ إِلَى ضُبَيْيَّةٍ). (٢٠٩/٢)

وَمِنْهَا سَرِيَّةُ زَيْدٍ أَيْضًا إِلَى وَادِي الْقُرَى فِي رَجَبٍ.

وَمِنْهَا سَرِيَّةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ فِي شَعْبَانَ، فَاسْلَمُوا، فَتَزَوَّجَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ تَمَاضِرَ بِنْتَ الْأَصْبَغِ رَئِيسَهُمْ، وَهِيَ أُمُّ أَبِي سَلَمَةَ.

وَمِنْهَا سَرِيَّةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى فَذَكٍ فِي شَعْبَانَ فِي مِائَةِ رَجُلٍ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، بَلَغَهُ أَنَّ حَيًّا مِنْ بَنِي سَعْدٍ قَدْ تَجَمَّعُوا لَهُ يَرِيدُونَ أَنْ يَمْدُوا أَهْلَ خَيْبَرٍ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ فَأَصَابَ عَيْنًا لَهُمْ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَارَ إِلَى أَهْلِ خَيْبَرٍ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ نَصْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا لَهُمْ تَمْرَ خَيْبَرٍ.

وَمِنْهَا سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ إِلَى أُمِّ قُرْفَةَ فِي رَمَضَانَ، وَكَانَتْ عَجُوزًا كَبِيرَةً، فَلَقِيَ زَيْدُ بْنُ فِزَارَةَ بُوَادِي الْقُرَى فَاصْبَبَ أَصْحَابُهُ وَارْتَثَ زَيْدٌ مِنْ بَيْنِ الْقَتْلِ فَتَدَّرَ أَنْ لَا يَمْسَ مَاءٌ مِنْ جَنَابَةِ حَتَّى يَغْزُو فِزَارَةَ، فَبَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِلَيْهِمْ، فَلَقِيَهُمْ بُوَادِي الْقُرَى فَأَصَابَ مِنْهُمْ وَقَتْلَ وَأَسْرَ أُمَّ قُرْفَةَ وَهِيَ فَاطِمَةُ بِنْتُ رِبْعَةَ بْنِ بَدْرِ عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ وَبِتْنَا لَهَا فَرِيطَ أُمِّ قُرْفَةَ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ فَشَقَّاهَا نِصْفَيْنِ، وَقَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِابْتِهَائِهِ وَكَانَتْ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ هَبَّةً وَأَرْسَلَهَا إِلَى حَرْبِ بْنِ أَبِي وَهَبٍ فَوَلَدَتْ لَهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَرْبٍ.

وَأَمَّا سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ فَإِنَّهُ جَعَلَ أَمِيرَ هَذِهِ السَّرِيَّةِ أَبَا بَكْرٍ، فَرُوي عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَلَيْنَا أَبَا بَكْرٍ، فَغَزَوْنَا نَاسًا مِنْ بَنِي فِزَارَةَ، فَشَتَّنَا عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَأَخَذَتْ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَسَقَّتْهُمْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَفِيهَا امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ مَعَهَا بِنْتُ لَهَا مِنْ أَحْسَنِ الْعَرَبِ، فَتَلَفَنِي أَبُو بَكْرٍ بِتَهَائِهِ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَلَقِيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، بِالسُّوقِ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا سَلَمَةَ لِلَّهِ أَبُوكَ هَبْ لِي الْمَرْأَةَ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي وَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا. فَسَكَتَ ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ فَوَهَبْتُهَا لَهُ، فَبِعْتُ بِهَا إِلَى مَكَّةَ فَفَادَى (٢١٠/٢) بِهَا أَسَارَى مِنْ

المسلمين. ثم أخذ عصاه وخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال: يا معشر

الروم قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا إلى الله، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. قال: فوثبوا عليه فقتلوه. عشرين فارساً.

فرجع دحية إلى هرقل وأخبره الخبر. قال: قد قلت إنا نخافهم على أنفسنا. وقال قيصر للروم: هلموا نعطيه الجزية، فأبوا، فقال: نعطيه أرض سورية، وهي الشام، ونصالحه، فأبوا، واستدعى هرقل أبا سفيان، وكان بالشام تاجراً، إلى الشام في الهدنة، فحضر عنده ومعه جماعة من قريش أجلسهم هرقل خلفه وقال: أنسي سائله فإن كذب فكذبوه. فقال أبو سفيان: لولا أن يؤثر عني (٢١٢/٢) الكذب لكذبت، فسأله عن النبي، قال: فصغرت له شأنه، فلم يلتفت إلى قولتي وقال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو أوسطنا نسباً. قال: هل كان من أهل بيته من يقول مثل قوله؟ قلت: لا. قال: فهل له فيكم ملك سلبتموه إياه؟ قلت: لا. قال: فمن اتبعه منكم؟ قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث. قال: فهل يحبه من يتبعه ويلزمه أو يقلبه ويفارقه؟ قلت: ما يتبعه رجل ففارقه. قال: فكيف الحرب بينكم وبينه؟ قلت: [سجال] يدال علينا ونдал عليه. قال: هل يغدر؟ قال: فلم أجد شيئاً أغمر به غيرها، قلت: لا، ونحن منه في هدنة، ولا نأمن غدره. قال: فما التفت إليها.

قال أبو سفيان: فقال لي هرقل: سألتك عن نسبه فزعمت أنه من أوسط الناس وكذلك الأنبياء، وسألتك هل قال أحد من أهل بيته مثل قوله فهو مثبته به فزعمت أن لا، وسألتك هل سلبتموه ملكه فجاء بهذا لتردوا عليه ملكه، فزعمت أن لا، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين، وكذلك أتباع الرسل، وسألتك عمن يتبعه أيحبه أم يفارقه فزعمت أنهم يحبونه ولا يفارقونه، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه، وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا، ولئن صدقتني ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل قدمي. انطلق لسانك.

قال: فخرجت وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول: أي عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، أصبح ملوك الروم يهابونه في سلطانهم.

قال: وقدم عليه دحية بكتاب النبي، ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، وأسلم يؤتلك الله أجرك مرتين، وإن توليت (٢١٣/٢) فإن إثم الأكارين عليك.

وأما الحارث بن أبي شمر الغساني فأتاه كتاب رسول الله، ﷺ، مع شجاع بن وهب، فلما قرأه قال: أنا سائر إليه، فلما بلغ قوله رسول الله، ﷺ، قال: باد ملكه.

وأما النجاشي فإنه لما جاءه كتاب النبي، ﷺ، آمن به وأتبعه

ومنها سرية كرز بن جابر الفهري إلى الغريين الذين قتلوا راعي النبي، ﷺ، واستاقوا الإبل في شوال. [وبعثه رسول الله، ﷺ، في عشرين فارساً.

وفيها تزوج عمر بن الخطاب جميلة بنت ثابت بن أفلح أخت عاصم، فولدت له عاصماً، فطلقها وتزوجها بعده يزيد بن جارية فولدت له عبد الرحمن بن يزيد، فهو أخو عاصم لأمه.

(جارية بالجيم ويعد الرءاء ياء تحتها نقطتان).

وفيها أجذب الناس جلباً شديداً فاستسقى رسول الله بالناس في رمضان.

ذكر مكاتبة رسول الله، ﷺ، الملوك

وفيها بعث رسول الله، ﷺ، الرسل إلى كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم، وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر، وأرسل شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وأرسل دحية إلى قيصر، وأرسل سليط بن عمرو العامري إلى هرقة بن علي الحنفي، وبعث عبد الله بن حذافة إلى كسرى، وأرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أخو عبد القيس، وقيل: إن إرساله كان سنة ثمان، والله أعلم.

فأما المقوقس فإنه قبل كتاب النبي، ﷺ، وأهدى إليه (٢١١/٢) أربع جوار، منهن مارية أم إبراهيم ابن رسول الله، ﷺ.

وأما قيصر، وهو هرقل، فإنه قبل كتاب رسول الله، ﷺ، وجعله بين فخذه وخاصرته، وكتب إلى رجل رومية كان يقرأ الكتب يخبره شأنه، فكتب إليه صاحب رومية: إنه النبي الذي كنا نظره لا شك فيه فأتبعه وصدقته. فجمع هرقل بطارقة الروم في الدسكرة وغلقت أبوابها ثم أطلع عليهم من عليّة وخافهم على نفسه وقال لهم: قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله النبي الذي نجدته في كتابنا، فهل فتبعه ونصدة فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا. فنحروا نخرة رجل واحد ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا، فقال: ردوهم عليّ، وخافهم على نفسه وقال لهم: إنا قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلاتكم في دينكم، وقد رأيت منكم ما سرتي، فسجدوا له، وانطلق وقال لدحية: إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى ضغاطر الأسقف الأعظم في الروم واذكر له أمر صاحبك وانظر ما يقول لك.

فجاء دحية وأخبره بما جاء به من رسول الله، ﷺ، فقال له ضغاطر: والله إن صاحبك نبي مرسل نعرفه بصفته ونجدته في كتابنا.

وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب وأرسل إليه ابنه في ستين من الحبشة ففرقوا في البحر، وأرسل إليه رسول الله ﷺ، ليزوجه أم حبيبه بنت أبي سفيان، وكانت مهاجرة بالحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، فتصنّر وتوفّي بالحبشة، فخطبها النجاشي إلى رسول الله ﷺ، فأجابته، وزوجها، وأصدقها النجاشي أربعمئة دينار، فلما سمع أبو سفيان تزويج رسول الله ﷺ، أم حبيبه قال: ذاك الفحل لا يقدح أنفه.

وأما كسرى فجاءه كتاب رسول الله ﷺ، مع عبد الله بن خذافة فمزق الكتاب، فقال رسول الله ﷺ: مزق ملكه. وكان كتابه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإني أدعوك بدعاء الله، وإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، فأسلم تسلم، وإن توليت فلإن أثم المجوس عليك.

فلما قرأه شقّه، قال: يكتب إلي بهذا وهو عبدي! ثم كتب إلى باذان، وهو باليمن: أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلاً من عندك جليدين (٢١٤/٢) فليأتاني به. فبعث باذان نابوه، وكان كاتباً حاسباً، ورجلاً آخر من الفرس يقال له خرّخسره، وكتب معهما يأمره بالمسير معهما إلى كسرى، وتقدّم إلى نابوه أن يأتيه يخبر رسول الله ﷺ، وسمعت قريش بذلك ففرحوا وقالوا: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك، فكتب الرجل: فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ، وقد حلقا لحاهما [وأعفيا] شواربهما، فكره النظر إليهما وقال: ويلكما من أمركما بهذا؟ قالوا: ربنا، يعيننا الملك. فقال: لكنّ ربي أمرني أن أعفي لحيتي وأقص شاربي، فأعلماه بما قدما له وقالوا: إن فعلت كتب باذان فيك إلى كسرى، وإن آبيت فهو يهلكك ويهلك قومك. فقال لهما رسول الله ﷺ: أرجعا حتى تأتيا غداً وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء: إن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله، فدعاهما رسول الله ﷺ، وأخبرهما بقتل كسرى وقال لهما: إن ديني وسلطاني سيلعب ملك كسرى ويتهي متهي الخفّ والحافر، وأمرهما أن يقولوا لباذان: أسلم، فإن أسلم أقره على ما تحت يده وأملكه على قومه. ثم أعطى خرّخسره منطقة ذهب وفضة أهداها له بعض الملوك.

وخرجا قدما على باذان وأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا كلام ملك وإني لأراه نبياً، ولنتظرن فإن كان ما قال حقاً فإنّه لنبي مرسل، وإن لم يكن فترى فيه رأينا. فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبره (٢١٥/٢) بقتل كسرى وأنه قتله غضباً للفرس لما استحلّ من قتل أشرافهم، ويأمره بأخذ الطاعة له باليمن وبالكف عن النبي ﷺ. فلما أتاه كتاب شيرويه أسلم وأسلم معه أبناء من فارس. وكانت جُمَيْر

تسمي خرّخسره صاحب المعجزة، والمعجزة بلغة جُمَيْر المنطقة. وأما هُذَّة بن عليّ فكان ملك اليمامة، فلما أتاه سليط بن عمرو يدعوه إلى الإسلام، وكان نصرانياً، أرسل إلى النبي ﷺ، وفدأ فيهم مُجَاعَة بن مُرارة والرُّجَال بن عُقُوفَة يقول له: إن جعل الأمر له من بعده أسلم وسار إليه ونصره، وإلاّ قصد حربته. فقال رسول الله ﷺ: لا ولا كرامة، اللهم اكفنيه! فمات بعد قليل.

وأما مُجَاعَة والرُّجَال فأسلما، وأقام الرُّجَال عند رسول الله ﷺ، حتى قرأ سورة البقرة وغيرها وتفقّه وعاد إلى اليمامة فارتدّ وشهد أن رسول الله ﷺ أشرك مُسَيْلَمَة معه، فكانت فتنة أشدّ من فتنة مسيلمة.

(مُجَاعَة بضم الميم وتشديد الجيم. والرُّجَال بالجمع المشدّدة، وقيل بالحاء المهملة المشدّدة. وعُقُوفَة بضم العين، وسكون النون، وضمّ الفاء، وفتح الواو).

وأما المنذر بن ساوى، والي البحرين، فلما أتاه العلاء بن الحضرمي يدعوه ومنّ معه بالبحرين إلى الإسلام أو الجزية، وكانت ولاية البحرين للفرس، فأسلم المنذر بن ساوى وأسلم جميع العرب بالبحرين.

فأما أهل البلاد من اليهود والنصارى والمجوس فإنهم صالحو العلاء والمنذر على الجزية من كلّ حالم دينار، ولم يكن بالبحرين قتال إنّما بعضهم أسلم وبعضهم صالح.

وولي الحج في هذه السنة المشركون.

وفي هذه السنة ماتت أمّ رومان، وهي أمّ عائشة زوجة النبي ﷺ، (٢١٦/٢).

سنة سبع

ذكر غزوة خيبر

لما عاد رسول الله ﷺ، من الحُدَيْبِيَّة أقام بالمدينة ذا الحِجَّة وبعض المحرم وسار إلى خيبر في ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس وكان مسيره إلى خيبر في المحرم سنة سبع، واستخلف على المدينة سباع بن عُقُوفَة الغفاري، فمضى حتى نزل بجيشه بالرجيع لبحول بين أهل خيبر وغطفان لأنهم كانوا مظاهرين لهم على رسول الله ﷺ وقصدت غطفان خيبر ليظاهروا يهود [عليه]، ثم خافوا المسلمين أن يخلفوهم في أهلهم وأموالهم، [فرجعوا] ونزلوا بين رسول الله ﷺ، ويهود، فسار رسول الله ﷺ، وقال في مسيرة لعامر بن الأكوع، عم سلمة بن عمرو بن الأكوع: اخذ لنا، فنزل وحدهم يقول:

وَاللّٰهُ لَوْلَا اللّٰهُ مَا اعْتَنَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَنَعْنَا

فَانْزِلْنِي سَكِينَةً عَلَيَّ يَا وَكِيلُ الْأَقْدَامُ إِنَّ لَاقِيَنَا
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: رَحِمَكَ اللَّهُ! فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: هَلَّا أَمْتَعْتَنَا
بِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَانَ إِذَا قَالَهَا لِرَجُلٍ قَتَلَ، فَلَمَّا نَزَلُوا خَيْبَرَ (٢١٧/٢)
بَارَزَ عَامِرُ فَعَادَ عَلَيْهِ سَيْفَهُ فَجَرَحَهُ جَرَحاً شَدِيداً، فَمَاتَ مِنْهُ، فَقَالَ
النَّاسُ: إِنَّهُ قَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ أَخِيهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: [مَا قَالُوا]
فَقَالَ: كَذَبُوا بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهَا قَالَ لِأَصْحَابِهِ: قَفُوا.
ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَمَا أَظْلَمُنَّ رَبِّ الْأَرْضِينَ وَمَا أَظْلَمُنَّ
وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَظْلَمُنَّ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا أَفْزَرُنَّ، نَسَاكَ خَيْرَ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ وَخَيْرِ أَهْلِهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا،
أَقْدَمُوا بِسَمِ اللَّهِ. وَكَانَ يَقُولُ ذَلِكَ لِكُلِّ قَرْيَةٍ يَقْدُمُهَا.

وَنَزَلَ عَلَى خَيْبَرَ لَيْلاً وَلَمْ يَعْلَمْ أَهْلُهَا فَخَرَجُوا عِنْدَ الصُّبْحِ إِلَى
عَمَلِهِمْ بِمَسَاحِيهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْهُ عَادُوا وَقَالُوا: مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ، يَعْنُونَ
الْجَيْشَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اللَّهُ أَكْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ «فَنَسَاءُ
صَبَاحُ الْمُتَدَرِّجِينَ» [الصفات، ١٧٧]. ثُمَّ حَصَرَهُمْ وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ وَبَدَأَ
بِالْأَمْوَالِ يَأْخُذُهَا مَالاً مَالاً وَيَفْتَحُهَا حَصْناً حَصْناً، فَكَانَ أَوَّلَ حَصْنٍ
افْتَتَحَهُ حَصْنُ نَاعِمٍ، وَعِنْدَهُ قَتْلُ مُحَمَّدٍ بْنِ سَلَمَةَ، أَلْقَى عَلَيْهِ [مِنْهُ]
رَحِيًّ فَقَتَلْتَهُ، ثُمَّ الْقَمُوصُ حَصْنُ بَنِي أَبِي الْحَقِيقِ، وَأَصَابَ مِنْهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، سِبَايَا مِنْهُمْ صَفِيَّةُ بِنْتُ حَيٍّ بْنِ أَخْطَبٍ وَكَانَتْ عِنْدَ
كِتَابَةِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ الْحَقِيقِ فَاصْطَفَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، وَفُشَتْ
السِّبَايَا فِي الْمُسْلِمِينَ، وَآكَلُوا لَحُومَ الْحِمْرِ الْإِنْسِيَّةِ، فَهَاجَمَهُمْ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ، عَنْهَا.

وَكَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَاطِلِ الْقُرْطُظِيِّ قَدْ مَنَّ عَلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ بِنِ
شَمَّاسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ بُعِثَ، فَاطْلَقَهُ، فَلَمَّا كَانَ الْآنَ أَنَّهُ ثَابِتٌ فَقَالَ
لَهُ: أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: وَهَلْ يَجْهَلُ مِثْلَ مِثْلِكَ! قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيكَ بِيَدِكَ
عِنْدِي. قَالَ: (٢١٨/٢) إِنَّ الْكَرِيمَ يَجْزِي الْكَرِيمَ. فَأَتَى ثَابِتٌ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: كَانَ لِلزُّبَيْرِ عِنْدِي يَدٌ أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهُ بِهَا فَهَبْ لِي.
فَوَهَبَ لَهُ. فَأَنَاهُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَدْ وَهَبَ لِي دِمَكَّ فَهَوِّ لَكَ.
قَالَ: شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، فَاسْتَوْهَبَ ثَابِتٌ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَهَبَهُمْ لَهُ. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَهْلُ بَيْتٍ بِالْحِجَازِ لَا مَالَ
لَهُمْ؛ فَاسْتَوْهَبَ ثَابِتٌ مَالَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَهَبَهُ لَهُ، فَمَنَّ عَلَيْهِ
بِالْجَمِينِ.

فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَيُّ ثَابِتٍ مَا فَعَلَ الَّذِي كَانَ وَجْهُهُ مَرَّةً صَقِيلَةً يَتَرَاى
فِيهَا عَذَارَى الْحَيِّ كَعَبُ بْنُ أَسَدٍ؟ قَالَ: قُتِلَ. قَالَ: فَمَا فَعَلَ سَيِّدُ
الْحَاضِرِ وَالْبَادِي حَيِّيُّ بْنُ أَخْطَبٍ؟ قَالَ: قُتِلَ. قَالَ: فَمَا فَعَلَ مَقْدَمَتُنَا إِذَا
شَدَدْنَا وَحَامَيْتُنَا إِذَا كَرَرْنَا عَزَالَ بْنِ سَمُوءَالٍ؟ قَالَ: قُتِلَ. قَالَ: فَمَا فَعَلَ
الْمَجْلِسَانِ؟ يَعْنِي بَنِي كَعَبٍ بَنِ قُرَيْظَةَ وَبَنِي عَمْرِو بْنِ قُرَيْظَةَ. قَالَ:
ذَهَبُوا. قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ يَا ثَابِتُ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا مَا الْحَقِيقَتِي بِهِمْ،
فَوَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ خَيْرٌ فَقَتَلَهُ.

ثُمَّ افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَصْنَ الصُّعْبِ، وَهُوَ أَكْثَرُهَا طَعَاماً
وَوُدْكَاً، ثُمَّ قَصَدَ حَصْنَهُمُ الْوُطَيْحَ وَالسَّلَّامَ، وَكَانَ آخِرَ مَا افْتَتَحَ فَخَرَجَ
مِنْهُ مَرْحَبُ الْيَهُودِيِّ وَهُوَ يَقُولُ:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْرُ أُنْسِي مَرْحَبُ شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجَرَّبُ
أَطْعُنْ أَحْيَاتِياً وَحِيناً أَضْرِبُ إِذَا الْيَبُوتُ أَقْبَلْتُ تَلَهُبُ
كَانَ حِمَايَ كَالْحَيِّ لَا يُقْرَبُ (٢١٩/٢)

وَسَأَلَ الْمُبَارِزَةَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ وَقَالَ: أَنَا وَاللَّهِ
الْمَوْتُورُ الثَّائِرُ، قَتَلُوا أَخِي بِالْأَمْسِ. فَأَقَرَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بِمُبَارَزَتِهِ
وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَعِزَّهُ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَتَقَاتَلَا طَوِيلًا، ثُمَّ حَمَلَ مَرْحَبُ
عَلَى مُحَمَّدٍ بْنِ سَلَمَةَ فَضْرِبَهُ، فَأَتَقَاهُ بِالذُّرَّةِ، فَوَقَعَ سَيْفُهُ فِيهَا، فَغَضَّتْ
بِهِ فَامْسَكَتَهُ، وَضْرِبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ حَتَّى قَتَلَهُ. ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَهُ أَخُوهُ
يَاسِرُ وَهُوَ يَقُولُ:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْرُ أُنْسِي يَاسِرُ شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُغَاوِرُ
وَطَلَبَ الْمُبَارِزَةَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، فَقَتَلَهُ الزُّبَيْرُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلَ مَرْحَباً وَأَخَذَ الْحَصْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؛
وَهُوَ الْأَشْهَرُ وَالْأَصَحُّ.

قَالَ بُرَيْدَةُ الْأَسْلَمِيُّ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، رُبَّمَا أَخَذَتْهُ الشَّقِيقَةُ
فَيَلْبِثُ الْيَوْمَ وَالْيَوْمِينَ لَا يَخْرُجُ، فَلَمَّا نَزَلَ خَيْبَرَ أَخَذَتْهُ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى
النَّاسِ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ الرَّايَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ نَهَضَ فَقَاتَلَ قِتَالاً
شَدِيداً، ثُمَّ رَجَعَ فَأَخْذَلَهَا عَمْرُ فَقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ
الْأَوَّلِ؛ ثُمَّ رَجَعَ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَا أُعْطِيهَا
غَدَاً رَجُلًا يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَأْخُذُهَا عَنُودٌ. وَلَيْسَ
ثُمَّ عَلَيَّ، كَانَ قَدْ تَخَلَّفَ بِالْمَدِينَةِ لِرَمْدٍ لَحَقَهُ، فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،
مَقَاتَلَهُ هَذِهِ تَطَاوَلَتْ لَهَا قُرَيْشٌ، فَأَصْبَحَ فُجَاءَ عَلِيٌّ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ
حَتَّى أَتَاهُ قُرَيْباً مِنْ خِيبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ أَرْمَدٌ قَدْ غَضِبَ عَيْنَيْهِ،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (٢٢٠/٢) مَا لَكَ؟ قَالَ: رَمَدْتُ بَعْدَكَ. فَقَالَ لَهُ:
ادْنُ مِنِّي. فَدَنَا مِنْهُ، فَتَفَلَّ فِي عَيْنَيْهِ، فَمَا شَكَا وَجَعاً حَتَّى مَضَى لِسَيْلِهِ.
ثُمَّ أُعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَنَهَضَ بِهَا وَعَلَيْهِ حَلَّةٌ حُمْرَاءُ، فَأَتَى خَيْبَرَ، فَأَشْرَفَ
عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. فَقَالَ
الْيَهُودِيُّ: عَلَيْنَا يَا مَعْشَرَ يَهُودٍ. وَخَرَجَ مَرْحَبُ صَاحِبِ الْحَصَنِ وَعَلَيْهِ
مَغْفَرٌ يَمَانِيٌّ قَدْ نَقَبَهُ مِثْلُ الْبَيْضَةِ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْرُ أُنْسِي مَرْحَبُ شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجَرَّبُ
فَقَالَ عَلِيٌّ:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أَسْمَى خَيْذَرَةَ أَيْكَلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنَنَزَةِ
كَيْتُ بِنَابَاتٍ شَدِيدٌ قَسْوَرَةٌ

فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ، فَيَدْرُهُ عَلِيٌّ فَضْرِبُهُ فَقَدْ الْخَجَفَةُ وَالْمَغْفَرُ وَرَأْسُهُ
حَتَّى وَقَعَ فِي الْأَرْضِ؛ وَأَخَذَ الْمَدِينَةَ.

[ذكر غزوة وادي القرى]

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي فافتحه عنوة، وفي حصاره قُتل مِذْغَم مولى رسول الله ﷺ، الذي أهداه له رفاعة بن زيد الجُدَامي، فقال المسلمون: هنيئاً له الجنة. وقال رسول الله ﷺ: كلاً، والذي نفس محمد بيده إن شملته الآن لتشتعل عليه ناراً، وكان غلها من فيء المسلمين يوم خيبر. فسمعه رجل فقال: [يا رسول الله] أصبت شراً كين لنعلين [لي] كنت أخذتهما. فقال رسول الله ﷺ: يُقَدَّرُ لك مثلها من النار.

وترك رسول الله ﷺ، النخل والأرض في أيدي أهل الوادي وعاملهم نحو ما عامل أهل خيبر، فبقوا كذلك إلى أن ولي عمرُ الخلافة فأجلاهم، وقيل: إنه لم يجلبهم لأنها خارجة عن الحجاز. (٢٢٣/٢).

وفي هذه السفرة، أعني خيبر، نام رسول الله ﷺ، عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس، والقصة مشهورة. وشهد معه نساء من نساء المسلمين فَرَضَخَ لهن [من الفيء].

[قصة الحجاج بن علاط السلمي]

وفي هذه السفرة قال الحجاج بن علاط السلمي لرسول الله ﷺ: لي بمكة مالٌ عند صاحبتني أم شَيْبَةَ ابنة أبي طلحة، وهي أم ابنه مُعْرُض بن الحجاج، ومال متفرق بمكة، فأذن لي يا رسول الله. فأذن له. فقال: إنه لا بد من أن أقول. قال: قل. فقدم الحجاج مكة، فسأله أهل مكة عن رسول الله ﷺ، وما صنع بخيبر، ولم يكونوا علموا بإسلامه، فقال لهم: إن يهود هزمته وأصحابه قتل أصحابه قتلاً ذريعاً وأسر محمد، وقالت يهود: لن نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه. فصاحوا بمكة بذلك، فقال: أعينوني في جمع مالي حتى أقدم خيبر فأصيب من فلّ محمد وأصحابه قبل [أن يسبقني] التجار. فجمعوه كله كآحت شيء. فاتاه العباسُ وسأله عن الخبر، فأخبره، بعد أن جمع ماله، بفتح خيبر وأن النبي ﷺ، أخذ صفية بنت حُيَيٍّ لنفسه، وأنه قدم لجمع ماله، وسأله أن يكتم عنه ثلاثاً خوف الطلب. فكتّم العباسُ الخبر ثلاثاً بعد مسيره، ثم لبس حلة له وخرج فطاف بالكعبة، فلما رآته قريش قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلد. قال: كلاً والله! لقد افتتح محمد خيبر وأخذ ابنة ملكهم وأموالهم. وأخبرهم بخبر الحجاج. فقالوا: لو علمنا لكان له ولنا شأن. (٢٢٤/٢)

[ذكر مقام خيبر]

وقسم من أموال خيبر الشَّقَّ والنُّطَأة بين المسلمين، وكانت الكَتَبَةُ خُمُسُ الله والرسول وسهم ذوي القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فطعم أزواج النبي ﷺ، وطعم رجال مشوا بين رسول الله وأهل فدك [بالصلح]، وقُسمت خيبر على أهل الحُدَيْبِيَّة، فأعطى

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: خرجنا مع عليّ حين بعث رسول الله ﷺ، [إبرأته] إلى خيبر، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله، فقاتلهم فضربه يهودي فطرح ترسه من يده فتناول عليّ باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاها من يده؛ فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقله. وكان فتحها في صفر.

فلما فُتحت خيبر جاء بلال بصفية وأخرى معها على قتلى يهود، فلما (٢٢١/٢) رأتهم التي مع صفية صرخت وصكت وجهها وحنت التراب على رأسها، فاصطفى رسول الله ﷺ، صفية وأبعد الأخرى وقال: إنها شيطانة، لأجل فعلها. وقال بلال: أترعت منك الرحمة؟ جئت بهما على قتلهما!

وكانت صفية قد رأت في منامها وهي عروس لكتانة بن أبي الحقيق أن قمرًا وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تتمنين محمدًا. ولطم وجهها لطمة اخضرت عينها منها، فأتي بها رسول الله ﷺ، وبها أثر منها، وسألها فأخبرته، ودفع كتانة ابن أبي الحقيق إلى محمد بن مسلمة فقتله بأخيه محمود.

وحاصر رسول الله ﷺ، حصنَ أهل خيبر الوطيط والسهل، فلما أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم ويحقن دماءهم، فأجابهم إلى ذلك، وكان قد حاز الأموال كلها، الشَّقَّ والنُّطَأة والكَتَبَةُ وجميع حصونهم.

فلما سمع بذلك أهل فدك بعثوا إلى رسول الله ﷺ، يسألونه أن يسيرهم ويخلوا له الأموال. ففعل ذلك، ولما نزل أهل خيبر [على ذلك] سألوا رسول الله ﷺ، أن يعاملهم في الأموال على النصف وأن يُخرجهم إذا شاء، فساقاهم على الأموال على الشرط الذي طلبوا، وفعل مثل ذلك أهل فدك، وكانت خيبر فيئاً للمسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب. ولما استقر رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية مسمومة فوضعها بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ، منها مضغاً فلم يُسِفْها ومعه بشر بن البراء ابن معرور، فأكل بشر منها، وقال رسول الله ﷺ: إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة، ثم دعا المرأة فاعترفت، فقال: ما (٢٢٢/٢) حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت: إن كان نبياً فسُخِّرَ، وإن كان ملكاً استرحنا منه. فتجاوز عنها. ومات بشر من تلك الأكلة.

وقال رسول الله ﷺ، في مرضه الذي مات فيه: هذا الأوان وجدئت انقطاع أبهري من أكلة خيبر. فكان المسلمون يرون أنه مات شهيداً مع كرامة النبوة.

وإبراهيم ابنا خالة. وفيها اتخذ منبره، وقيل: إنه عمل سنة ثمان، وهو الثبت. وفيها بعث رسول الله، ﷺ، عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً إلى عجز هوازن بترية، فهربوا منه ولم يلق كيداً ورجع.

وفيها كانت سرية بشير بن سعد والد النعمان بن بشير الأنصاري إلى بني مرة بفدك في شعبان في ثلاثين رجلاً أصيب أصحابه وارتث في القتلى، ثم رجع إلى المدينة. وفيها كانت سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى أرض بني مرة، فأصاب مزداس بن نهيك حليفاً لهم من جهينة قتل أسامة [ابن زيد] ورجل من الأنصار. قال أسامة: لما غشيناه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فلم نزع عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على النبي، ﷺ، أخبرناه الخبر فقال: كيف تصنع بلا إله إلا الله! وفيها كانت سرية غالب بن عبد الله أيضاً في مائة وثلاثين ركباً إلى بني عبد بن ثعلبة، فأغار عليهم واستاق النعم إلى المدينة. وفيها كانت سرية بشير بن سعد إلى اليمن والجناب في شوال.

وكان سببها أن جبيل بن نورية الأشجعي كان دليل رسول الله، ﷺ، إلى خيبر، قدم على النبي، ﷺ، فأخبره أن جمعاً من غطفان بالجناب قد أمدتهم عيينة بن حصن وأمرهم بالمسير إلى المدينة، فبعث النبي، ﷺ، بشيراً فأصابوا نعلماً وقتلوا مولى لعيينة، ثم لقوا جمع عيينة، فهزمهم المسلمون، وانهزم عيينة، فلقبه الحارث بن عوف منهزماً، فقال له: قد أن لك أن تقصر عما مضى.

(حاطب بالحاء المهملة، وآخره باء موحدة. وبشير بفتح الباء الموحدة، (٢٢٧/٢) وكسر الشين المعجمة، وآخره راء، والد النعمان بن بشير، وعيينة بضم العين، وفتح الياء المشددة تحتها نقطتان، وسكون الياء الثانية، وبعدها نون، تصغير عين).

ذكر غمرة القضاء

لما عاد رسول الله، ﷺ، من خيبر أقام بالمدينة جُماديتين ورجب وشعبان ورمضان وشوالاً يبعث السرايا، ثم خرج في ذي الحجة معتمراً غمرة القضاء وساق معه سبعين بدنةً وخرج معه المسلمون ممن كان معه في عمرته الأولى. فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحذت قريش [بينها] أن النبي، ﷺ، وأصحابه في عُسْر وجهد، فاصطفوا له عند دار الندوة، فلما دخلها اضطجع بردائه فأخرج عضده اليمنى ثم قال: رحم الله امرأ أراهم اليوم [من نفسه] قوة! ثم استلم الركن وخرج يهزول ويهزول أصحابه [معه]، وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته وهو يقول:

خَلَّوْا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلَّوْا فَكُلَّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ اعْرِفْ حَقَّ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكَ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا قَتَلْنَاكَ عَلَى تَزْيِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُنْعِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ
وتزوج النبي، ﷺ، في سفره هذا بيمينونة بنت الحارث وأقام

الفرس سهمين والرجل سهماً. وأقر النبي، ﷺ، أهل خيبر بخيبر، وأبو بكر بعده، وعمر صدراً من إمارته حتى بلغه أن النبي، ﷺ، قال في مرضه الذي مات فيه: لا يجتمع بجزيرة العرب دينان؛ فأجلى عمر من يهود من لم يكن معه عهد من رسول الله، ﷺ.

(سلام بن مشكم بتشديد اللام، ومشكم بكسر الميم، وسكون الشين المعجمة. والحقيق بضم الحاء المهملة، ويقافين. وأخطب بالخاء المعجمة، وآخره باء موحدة. ومغرور بالعين المهملة، وبعده راءان مهملتان. وعلاط بكسر العين المهملة، وطاء مهملة).

ذكر فدك

لما انصرف رسول الله، ﷺ، من خيبر بعث مَحْبِصَةَ ابن مسعود إلى أهل فدك يدعوهم إلى الإسلام ورئيسهم يومئذ يوشع بن نون اليهودي، فصالحوا رسول الله، ﷺ، على نصف الأرض، فقبل منهم ذلك، وكان نصف فدك خالصاً لرسول الله، ﷺ، (٢٢٥/٢) لأنه لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركب، يصرف ما يأتيه منها على أبناء السبيل، ولم يزل أهلها بها حتى استخلف عمر بن الخطاب، وأجلى يهود الحجاز، فبعث أبا الهيثم بن التَّهَّان وسهل بن أبي خيثمة وزيد بن ثابت، فقوموا نصف تربتها بقيمة عدل، فدفعها إلى يهود وأجلاهم إلى الشام، ولم يزل رسول الله، ﷺ، وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ يصنعون صنيع رسول الله، ﷺ، بعد وفاته.

فلما ولي معاوية الخلافة أقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان ابنه عبد الملك وعبد العزيز، ثم صارت لعمر بن عبد العزيز وللوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان، فلما ولي الوليد الخلافة وهب نصيبه عمر بن عبد العزيز، ثم ولي سليمان الخلافة فوهب نصيبه منها أيضاً عمر بن عبد العزيز فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة خطب الناس وأعلمهم أمر فدك وأنه قد ردّها إلى ما كانت عليه مع رسول الله، ﷺ، وأبى بكر وعمر وعثمان وعليّ، فولبها أولاد فاطمة بنت رسول الله، ﷺ، ثم أخذت منهم.

فلما كانت سنة عشر ومائتين ردّها المأمون إليهم.

(مُحْبِصَةُ بضم الميم، وفتح الحاء المهملة، وتشديد الياء المشددة من تحت وكسرها، وآخره صاد مهملة. والتَّهَّان بفتح التاء فوقها نقطتان، وتشديد الياء تحتها نقطتان وكسرها).

وفي هذه السنة رد رسول الله، ﷺ، ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، زوجها، في المحرم. وفيها قدم حاطب من عند المقوقس بمارية أم إبراهيم ابن رسول الله، ﷺ، وأختها شيرين، وبغلتة ذلك، وحمارة يغفور، وكسوة، فأسلمت مارية وأختها قبل قدومهما (٢٢٦/٢) على رسول الله عليه وسلّم، فأخذ مارية لنفسه ووهب شيرين حسان بن ثابت الأنصاري، فهي أم ابنه عبد الرحمن، فهو

وفيها كانت سرية عمرو بن كعب الغفاري إلى ذات الأطلاق في خمسة عشر رجلاً، فوجد بها جمعاً كثيراً فدعاهم إلى الإسلام فأبوا أن يجيبوا وقتلوا أصحاب عمرو ونجا حتى قدم المدينة.

وذات الأطلاق من ناحية الشام، وكانوا [من] قضاة ورئيسهم رجل يقال له سدوس.

ذكر إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وعثمان بن طلحة

في هذه السنة في صفر قدم عمرو بن العاص مسلماً على النبي، وقدّم معه خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبدي. (٢٣١/٢)

وكان سبب إسلام عمرو أنه قال: لما انصرفنا مع الأحزاب [عن الخندق] قلت لأصحابي: أتبي أرى أمر محمد يعلو علواً منكراً؟ وأتبي قد رأيت أن نلتحق بالنجاشي، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، وإن ظهر قومنا على محمد فنحن من قد عرفوا. قالوا: إن هذا الرأي. قال: فجمعنا له أدماً كثيراً وخرجنا إلى النجاشي حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ وصل عمرو بن أمية الضمري رسولاً من النبي، في أمر جعفر وأصحابه. قال: فدخلت على النجاشي وطلبت منه أن يسلم إلي عمرو بن أمية الضمري لأقتله تقريباً إلى قرش بمكة. فلما سمع كلامي غضب وضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، يعني النجاشي، ففخته ثم قلت: والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك. قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لقتله؟ قال: قلت: أيها الملك أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أظنني وأتبعه فإنه والله لعلى الحق وليظنن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون [وجنوده]. قال: فقلت: فبايعني له على الإسلام. فبسط يده فبايعته ثم خرجت إلى أصحابي وكنتمهم إسلامي وخرجت عائداً إلى رسول الله، ولقيني خالد بن الوليد، وذلك قبل الفتح، وهو مقبل [من مكة]، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم، إن الرجل لنبي، أذهب والله أسلم فحتى متى! فقلت: ما جئت إلا للإسلام، فقدمنا على النبي، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم، ثم دنوت فأسلمت، وتقدم عثمان بن طلحة فأسلم. (٢٣٢/٢)

ذكر غزوة ذات السلاسل

وفيها أرسل رسول الله، عمرو بن العاص إلى أرض بلي وغذرة يدعو الناس إلى الإسلام، وكانت أمه من بلي، فالتفهم رسول الله، بذلك، فسار حتى إذا كان على ماء بارض جُذام يقال له السلاسل، وبه سميت تلك الغزوة ذات السلاسل، فلما كان به خاف فبعث إلى النبي، يستمته فبعث إليه رسول الله، أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة

بمكة ثلاثاً، فأرسل المشركون إليه مع علي بن أبي طالب ليخرج عنهم. فقال: ما عليهم لو أعرست بين أظهرهم وصنعنا لهم طعاماً فحضره معنا؟ (٢٢٨/٢) فقالوا: لا حاجة لنا في طعامه. فخرج عنهم وبني بيمونة بسرف، ثم انصرف إلى المدينة فأقام بها بقية ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع، وبعث جيشه الذي أصيب بمؤتة، وولي تلك الحجة المشركون.

وفيها كانت غزوة ابن أبي العوجاء السلمى إلى بني سليم، فلقوه فأصيب هو وأصحابه، وقيل: بل نجا وأصيب أصحابه. (٢٢٩/٢)

سنة ثمان

فيها توفيت زينب بنت رسول الله، قاله الواقدي.

[غزوة غالب بن عبد الله الليثي بني الملوخ]

وفيها كانت سرية غالب بن عبد الله الليثي الكلي، كلب الليث، إلى بني الملوخ في صفر، فلقه الحارث بن البرصاء الليثي فأخذه أسيراً، فقال: إنما جئت لأسلم. فقال له غالب: إن كنت صادقاً فلن يضرك رباط ليلة، وإن كنت كاذباً استوثقنا منك. ووكل به بعض أصحابه وقال له: إن نازعك فخذ رأسه وأمره بالمقام إلى أن يعود، ثم ساروا حتى أتوا بطن الكديد فنزلوا بعد العصر وأرسلوا جند بن مكث الجهنري ريشة لهم، قال: فقصدت تلاً هناك يطلعني على الحاضر فانبطحت عليه، فخرج لي منهم رجل فرآني منبطحاً، فأخذ قوسه وسهمين فرماني بأحدهما، فوضعه في جنبي، قال: فنزعته ولم أتحرك، ثم رماني بالثاني فوضعه في رأس منكمي، قال: فنزعته ولم أتحرك. قال: أما والله لقد خالطه سهماي ولو كان ريشة لتحرك. قال: فأملناهم حتى راحت مواشيهم واحتلبوا فشننا عليهم الغارة فقتلنا منهم واستقنا منهم النعم ورجعنا سراعاً. وأتى صريخ القوم فجاءنا ما لا قيل لنا به حتى إذ لم يكن بيتنا إلا بطن الوادي من قديد بعث الله من حيث شاء سبحانه ما رأينا (٢٣٠/٢) قبل ذلك مطراً مثله، فجاء الوادي بما لا يقدر أحد يجوزه، فلقد رأيتهم ينظرون إلينا ما يقدر أحد يتقدم، وقدما المدينة. وكان شعار المسلمين: أميت أميت، وكان عدتهم بضعة عشر رجلاً.

وفيها بعث رسول الله، العلاء بن الحضرمي إلى البحرين وبها المنذر بن ساوى، فصالح المنذر على أن على المجوس الجزية ولا تؤكل ذبائحهم ولا [ت]نكح نسائهم. وقيل: إن رسالة كان سنة ست من الهجرة مع الرسل الذين أرسلهم رسول الله، إلى الملوك، وقد تقدم ذلك.

وفيها كانت سرية شجاع بن وهب إلى بني عامر في ربيع الأول في أربعة عشر رجلاً، فأصابوا نعاماً، فكان سهم كل رجل منهم خمسة عشر بعيراً.

ذكر غزوة مُوتة

كان ينبغي أن تقدّم هذه الغزوة على ما تقدّم، وإنّا أخرناها لتصل الغزوات العظيمة فيتلو بعضها بعضاً.

وكانت في جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل رسول الله، عليهم زيد بن حارثة، وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فبعد الله بن راحة. فقال جعفر: ما كنت أذهب أن تستعمل عليّ زيداً. فقال: امض فإنك لا تدري أيّ ذلك خير. فبكى الناس وقالوا: هلا متعتنا بهم يا رسول الله؟ فأمسك، وكان إذا قال: فإن أصيب فلان فالأمير فلان، أصيب كلّ من ذكره.

فتجهز الناس، وهم ثلاثة آلاف، ودّعهم رسول الله، والناس. فلما ودّع عبد الله بن راحة بكى عبد الله، فقال له الناس: ما يبكيك؟ فقال: ما بي حبّ الدنيا ولا صباية بكم، ولكن سمعت رسول الله، يقرأ آية، وهي: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ (٢٣٥/٢) إِلَّا وَارِئُهَا كَانَ عَلَى رِيكٍ خْتَمًا مَقْضِيًّا﴾ [مریم، ٧٢]؛ فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله وردكم إلينا سالمين. فقال عبد الله:

لكنني أسأل الرحمن مَغْفِرَةً وضربة ذات فَرْغٍ تَقْذِفُ الرِّسَالَا
أَوْ طَعْنَةً يَلِينِي خُرُكًا مُجَهِّزَةً بِخَرْبَةٍ تَقْذِفُ الْأَحْشَاءَ وَالْكِسَالَا
حتى يقولوا إذا مَرَّوْا عَلَى جَنَّتِي أَرْسَلَكُ اللَّهَ مِنْ غَايَ وَقَدْ رَشَّنَا
فلما ودّعهم رسول الله وعاد قال عبدالله بن راحة:

خَلَّفَ السَّلامَ عَلَى امْرِئٍ وَدَعْنَاهُ فِي النَّخْلِ خَيْرٌ مُتَّبِعٍ وَخَلِيلٍ
ثُمَّ سَارُوا حَتَّى نَزَلُوا مُعَانَ، فَبَلَّغَهُمْ أَنَّ هِرَقْلَ سَارَ إِلَيْهِمْ فِي مِائَةِ
أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ وَمِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُسْتَعَرَّةِ مِنْ لُحْمٍ وَجُدَامٍ وَبَلْقَيْنَ
وَبَلْيَ، عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ بَلْيَ يُقَالُ لَهُ مَالِكُ بْنُ رَافِلَةَ، وَنَزَلُوا مَأْبَ مِنْ
أَرْضِ الْبَلْقَاءِ، فَأَقَامَ الْمُسْلِمُونَ بِمُعَانَ لَيْلَتَيْنِ يَنْظُرُونَ فِي أَمْرِهِمْ،
وَقَالُوا: نَكْتُبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، نَخْبِرُهُ الْخَبْرَ وَنَنْظُرُ أَمْرَهُ،
فَشَجَّعَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَقَالَ: يَا قَوْمَ وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي تَكْرَهُونَ
لِلَّذِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ، الشَّهَادَةَ، وَمَا نَقَاتِلُ النَّاسَ بَعْدَ وَلَا قُوَّةَ وَلَا
نَقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ، فَانْطَلِقُوا فَمَا هِيَ إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ. فَقَالَ
النَّاسُ: صَدَقَ وَاللَّهِ، وَسَارُوا، وَسَمِعَهُ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، وَكَانَ يَتِيمًا فِي
حَجْرِهِ، وَقَدْ أَرْفَدَهُ فِي مَسِيرِهِ ذَلِكَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَهُوَ يَقُولُ:

إِذَا اتَّيَسَّرَ وَحَمَلْتُ رَحْلِي مَسِيرَةً أَرْسِعَ بَعْدَ الْجِيَاءِ
فَسَأَلْتُكَ فَانْعَمِي وَخَلَاؤُكُمْ وَلَا تُرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَأْسِي
وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ وَغَارُونِي بِأَرْضِ الشَّامِ مُنْتَهَى الشَّوَاءِ
وَرَدُّوْكَ كُلِّ ذِي تَسْبِيرٍ قَرِيبٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُقْطَعِ الْإِخَاءِ
هَذَا لَا أَبَالِي طَلَعَ بَنِي لِي وَلَا تَخْلُفُ أَسَافِلُهَا رَوَاءِ
فَلَمَّا سَمِعَهَا زَيْدُ بَكِي، فَخَفَّضَهُ بِالذَّرَّةِ وَقَالَ: مَا عَلَيْكَ يَا لَكْعُ!

حين وجهه: لا تختلفا. [فخرج أبو عبيدة]، فلما قدم عليه قال عمرو: إنما جئت مدداً إليّ. فقال له أبو عبيدة: يا عمرو إن رسول الله، قال: لا تختلفا، فإن عصيتي أطعتك. قال: فانا أمير عليك. قال: فدونك. فصلّى عمرو بالناس.

وفيها أرسل رسول الله، عمرو بن العاص إلى جعفر وعياد ابني الجَلَنْدِيِّ بَعْمَانَ، فَأَمَنَّا وَصَدَّقَا. وَأَخَذَ الْجَزِيَّةَ مِنَ الْمَجُوسِ.

ذكر غزوة الْخَيْطِ وَغَيْرَهَا

وفيها كانت غزوة الْخَيْطِ، وأميرهم أبو عبيدة بن الجراح، في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وكانت في رجب، وزوّدهم رسول الله، جراباً من تمر، فكان أبو عبيدة يقبض لهم قبضة ثم تمرّة (٢٣٣/٢) تمرّة فكان أحدهم يلوكها ويشرب عليها الماء، فتغد ما في الجراب، فأكلوا الْخَيْطَ وجاعوا جوعاً شديداً، فتمر لهم قيس بن سعد بن عبادة تسع جزائر فأكلوها، فنهاه أبو عبيدة، فانتهى. ثم إن البحر ألقى إليهم حوتاً ميتاً فأكلوا منها حتى شبعوا، ونصب أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، فيمرّ الراكب تحته. فلما قدموا المدينة ذكروا ذلك للنبي، فقال كلوا رزقاً أخرجني الله لكم وأكل منه رسول الله، وذكروا صنع قيس بن سعد، فقال: إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت.

وفيها كانت سرية وجهها رسول الله، في شعبان أميرها أبو قتادة ومعه عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي؛ وكان سببها أن رفاعة بن قيس، أو قيس بن رفاعة، في بطن عظيم من جُشَمِ نَزَلَ بِالْغَابَةِ يَجْمَعُ لِحَرْبِ النَّبِيِّ، فبِعت النبي، أبا قتادة ومن معه لياتوا منه بخبر، فوصلوا قريباً من الحاضر مع غروب الشمس، فكمن كل واحد منهم في ناحية، وكانوا ثلاثة، وقيل: كانوا ستة عشر رجلاً، قال عبد الله بن أبي حذرد: فكان لهم راع أبطأ عليهم، فخرج رفاعة بن قيس في طلبه ومعه سلاحه، فرمته بسهم في فؤاده، فما تكلم قال فأخذت رأسه ثم شددت في ناحية العسكر وكبرت وكبر صاحبائي، فوالله ما كان إلا النجاء، فأخذوا نسامهم وأبنامهم وما خفّ عليهم واستقنا الإبل الكثيرة والغنم فجتنا بها رسول الله وراسه معي، فأعطاني رسول الله، من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيراً، وكنت قد تزوجت وأخذت أهلي. وعدل البعير بعشر من الغنم.

وفيها أغزى رسول الله، أبا قتادة أيضاً إلى إصم ومعه مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ اللَّيْثِي قبل الفتح، فلقيهم عامر بن الأصبط الأشجعي على بعير له ومعه متاعه، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، وحمل عليه مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ لشيء كان بينهما فقتله وأخذ بعيره، فلما قدما على رسول الله، أخبره الخبر، فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّسُوا﴾ [النساء، ٩٤]؛ الآية؛ وقيل: كانت هذه السرية حين خرج إلى مكة في رمضان.

وانحازوا عنه، فقال رسول الله ﷺ: ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد، فعاد بالناس، فمن يومئذ سُمي خالد سيف الله.

وقال رسول الله ﷺ: مرّ بي جعفر البارحة في نفر من الملائكة له جناحان مختضب القوادم بالدم.

قالت أسماء: أتاني النبي ﷺ، وقد فرغت من اشتغالي وغسلت أولاد جعفر ودهتهم فأخذهم وشتمهم ودمعت عيناه، فقلت: يا رسول الله أبلغك عن جعفر شيء؟ قال: نعم، أصيب هذا اليوم. ثم عاد إلى أهله فأمرهم أن يصنعوا لآل جعفر طعاماً، فهو أول ما عمل في دين الإسلام. قالت أسماء بنت عُمَيْس: فقمّتُ أصنع، واجتمع إلي النساء فلما رجع الجيش [ودنا من المدينة] لقيهم رسول الله ﷺ والمسلمون، فأخذ عبد الله بن جعفر فحملة بين يديه، فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون: يا فرار يا فرار! ويقول رسول الله ﷺ: ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى. (٢٣٩/٢)

ذكر فتح مكة

وأقام رسول الله ﷺ، بعد غزوة مؤتة جمادى الآخرة ورجباً، ثم إن بني بكر بن عبد مناة عدت على خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوثير، وكانت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، وبكر في عهد قريش في صلح الحديبية؛ وكان سبب ذلك أن رجلاً من بني الحضرمي اسمه مالك بن عباد وكان حليفاً للأسود بن زُرّان الدثلي ثم البكري في الجاهلية خرج تاجراً، فلما كان بأرض خزاعة قتلوه وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة على بني الأسود بن زُرّان، وهم سلمى وكَلُوشم وذؤيب، فقتلوهم بقرعة، وكانوا من أشرف بني بكر، فبينما خزاعة وبكر على ذلك جاء الإسلام واشتغل الناس به، فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة في عهد النبي ﷺ، ودخلت بكر في عهد قريش، اغتمت بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بني الأسود، فخرج نوفل بن معاوية الدثلي بمن تبعه من بكر حتى بيث خزاعة على ماء الوثير.

وقيل: كان سبب ذلك أن رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من بكر يشد هجاء النبي ﷺ، فشجّه، فهاج الشر بينهم وثار بكر بخزاعة حتى يتوهم بالوثير، وأعاتت قريش بني بكر على خزاعة بسلاح ودواب وقاتل معهم جماعة من قريش مختفين، منهم صفوان بن أمية وعكرمة ابن أبي جهل وسهل بن عمرو، فانحازت خزاعة إلى الحرم وقتل منهم نفر. فلما دخلت خزاعة الحرم قالت بكر: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك! (٢٤٠/٢) فقال: لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

فلما قضت بكر وقريش العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ،

يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبي الرجل؟ ثم ساروا، فالتقهم جموع الروم والعرب بقرية من البلقاء يقال لها مشارف، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة، فالتقى الناس عندها، وكان على ميمنة المسلمين قطبة بن قنادة العُذري، وعلى ميسرتهم عبيدة بن مالك الأنصاري، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ، حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل [بها] وهو يقول:

يا حَبْنَا الْجَنَّةَ واقتربنا طَيَّةً واراداً شَرَّهَا
والرُّومُ رومٌ قد دنا عنا بهما، عليّ إذ لا قِتْلَنا، خربنا
فلما اشتد القتال اهتمت عن فرس له شقراء فقهرها ثم قاتل القوم حتى قُتل، وكان جعفر أول من عُقر فرسه في الإسلام، فوجدوا به بضعاََ وثمانين بين رمية وضربة وطعنة، فلما قُتل أخذ الراية عبد الله بن رواحة ثم تقدّم، فتردّد بعض التردّد، ثم قال يخاطب نفسه:

اقسمتُ يا نفس لتزينا طائفة أو لا تكزينا
(٢٣٧/٢)

إن أجلب الناس وشنوا الرثّة مالي أراك تكزينا الجنّة
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل انت إلا نطفة في شنة
وقال أيضاً:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي هذا جِمامُ الموت قد صليت
ومّا تنيت فقد أعطيت إن تقتلي فعلهما هديت

ثم نزل عن فرسه، وأناه ابن عمّ له يعرق من لحم فقال له: شدّ بهذا صلبك، فقد لقيت ما لقيت. فأخذ فانهش منه نهشة ثم سمع الحطمة في ناحية العسكر فقال لنفسه: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه وأخذ سيفه وتقدّم فقاتل حتى قُتل.

واشدّ الأمر على المسلمين وكَلِبَ عليهم العدو، وقد كان قطبة بن قنادة قتل قبل ذلك مالك بن وائلة قائد المستعربة. ثم إن الخبر جاء من السماء في ساعته إلى النبي ﷺ، فصعد المنبر وأمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال: باب خير! (ثلاثاً) [أخبركم] عن جيشكم هذا الغازي؛ إنهم لقوا العدو فقتل زيد شهيداً، فاستغفر له، ثم أخذ اللواء جعفر فشدّ على القوم حتى قُتل شهيداً، فاستغفر له، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة، وصمت حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان من عبد الله ما يكرهون، ثم قال رسول الله ﷺ: فقاتل القوم حتى قُتل شهيداً، ثم قال: لقد رفعوا إلى الجنة على سرور من ذهب، فرأيت في سرير ابن رواحة (٢٣٨/٢) ازوراراً عن سريري صاحبه، فقلت: عمّ هذا؟ فقيل: مضياً، وتردّد بعض التردّد ثم مضى. ولما قُتل ابن رواحة أخذ الراية ثابت بن أرقم الأنصاري وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: رضينا بك. فقال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، فأخذ الراية ودافع القوم

فانصحنى. قال: أنت سيد كنانة فقم فأجر بين الناس والحق بأرضك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس قد أجزت بين الناس. ثم (٢٤١/٢) ركب بعيره وقدم مكة وأخبر قريشاً ما جرى له وما أشار به علي عليه، فقالوا له: والله ما زاد على أن يسخر بك.

ثم إن رسول الله ﷺ، تجهز وأمر الناس بالتجهز إلى مكة وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى تبلغها في بلادها. فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يعلمهم الخبر وسيره مع امرأة من مؤمنة اسمها كنود، وقيل: مع سارة مولاة لبني المطلب. فأرسل رسول الله ﷺ، علياً والزبير، فأدركاهما وأخذاهما الكتاب وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فأحضر حاطباً وقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما بدلت ولا غيرت ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد وليس لي عشيرة فسانعتهم عليهم. فقال عمر: دعني أضرب عنقه فإنه قد نافق. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر؟ لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وأنزل الله (في حاطب): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المنحنة: ١] إلى آخر الآية.

ثم مضى رسول الله ﷺ، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري، وخرج لعشر مضي من رمضان، وفتح مكة لعشر بقين منه، فصار حتى بلغ ما بين عسفان وأمع، فافطروا واستوعب معه المهاجرون والأنصار، فسبعت سليم وألفت مؤمنة، وفي كل القبائل عدد [وإسلام]، وأدركه عشيّة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس، ولقيه العباس بن عبد المطلب بالسُّبُيا، وقيل: بذي الحليفة، مهاجراً، فأمره رسول الله ﷺ، أن يرسل رحله إلى المدينة (٢٤٣/٢) ويعود معه، وقال له: أنت آخر المهاجرين، وأنا آخر الأنبياء.

ولقيه أيضاً مخزومة بن نوفل، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أمية بنيت العقاب، فالتصا الدخول على رسول الله ﷺ، وكلمته أم سلمة فيهما وقالت له: ابن عمك وابن عمتي قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي فهو الذي قال بمكة ما قال. فلما سمعا ذلك وكان مع أبي سفيان ابن له اسمه جعفر فقال: والله ليأذن لي أو لأخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فرق لهما رسول الله ﷺ، فأدخلهما إليه فأسلما.

وقيل: إن علياً قال لأبي سفيان بن الحارث: إيت رسول الله ﷺ، من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ١٩] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه فعلاً ولا قولاً، ففعل ذلك. فقال له رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تُثَرِّبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وقرّبهما، فأسلما، وأشدّه أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره ممّا

خرج عمرو بن سالم الخزاعي ثم الكعبي حتى قدم على رسول الله ﷺ، المدينة فوقف عليه ثم قال:

لَا هُمْ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا جَلَفَ إِنِّي وَأَيُّهُ الْإِتْلَادُ
فَوَالِدَا كِتَابًا وَكُنْتُ وَلَدًا
فَانصُرْ رَسُولَ اللَّهِ نَصْرًا أَعَدَا
فِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّرَا
إِنْ سِيمَ خِصْفًا وَجْهَهُ تَرِيدَا
إِنْ قَرِيشًا أَخْلَفُواكَ الْمُؤَكَّدَا
وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءِ رَصَدَا
وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَقْلُ عُنْدَا
هَمَّ يَتَوَنَّا بِالزُّبَيْرِ هُجْدَا
فَقَتَلُونَا رَكْعًا وَسُجْدَا

فقال رسول الله ﷺ: قد نصرت يا عمرو بن سالم! ثم عرض لرسول الله ﷺ، عنان من السماء فقال: إن هذه السحابة لتسهل بنصر بني كعب.

وكان بين عبد المطلب وخزاعة حلف قديم، فلهمذا قال عمرو بن سالم: حلف أينا وأبيه الأتلا.

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على النبي، (٢٤١/٢) المدينة فنادوه وهو يقتسل فقال: يا ليكم! وخرج إليهم، فأخبروه الخبر ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وكان رسول الله ﷺ، قد قال: كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليجدد العهد خوفاً ويزيد في المدة ومضى بديل فلقى أبا سفيان بعثمان يريد النبي، ليجدد العهد خوفاً منه، فقال لبديل: من أين أقبلت؟ قال: من خزاعة في الساحل وبطن هذا الوادي. قال: أوما أتيت محمداً؟ قال: لا. فقال أبو سفيان لأصحابه (لما راح بديل): انظروا بعن ناقته، فإن جاء المدينة لقد غلف النوى. فنظروا بعن الناقة فأروا فيه النوى.

ثم خرج أبو سفيان حتى أتى النبي ﷺ، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه فقال: أرغبت به عني أم رغبت بي عنه؟ فقالت: هو فراش رسول الله وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه. فقال: لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج حتى أتى النبي ﷺ، فكلّمه، فلم يردّ عليه شيئاً، ثم أتى أبا بكر فكلّمه ليكلّمه له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر فكلّمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ! والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج حتى أتى علياً، وعنده فاطمة والحسن غلام، فكلّمه في ذلك، فقال له: والله لقد عزم رسول الله ﷺ، على أمر لا نستطيع أن نكلّمه فيه. فقال لفاطمة: يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يُجير بين الناس فيكون سيّد العرب؟ فقالت: ما بلغ ابني أن يُجير بين الناس، وما يجير على رسول الله ﷺ أحد. فالتفت إلى علي فقال له: أرى الأمور قد اشتدت عليّ

مضى:

أما هذه ففي النفس منها شيء. قال العباس: فقلت له: ويحك تشهد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك! قال: فتشهد، وأسلم معه حكيم بن حزام ويُدبِل بن ورقاء. فقال رسول الله ﷺ، للعباس: اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضييق الوادي حتى تمر عليه جنود الله. فقلت: يا رسول الله إنه يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه. فقال: مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن.

قال: فخرجتُ به فحبسته عند خطم الجبل، فمرت عليه القبائل فيقول: مَنْ هؤلاء؟ فأقول: أسلم. فيقول: ما لي وأسلم. ويقول: مَنْ هؤلاء؟ فأقول: جهينة. فيقول: ما لي وجهينة. حتى مرَّ رسول الله ﷺ، في كتيبه الخضراء مع المهاجرين والأنصار [في الحديد] لا يُرى منهم إلا (٢٤٦/٢) الحدق. فقال: مَنْ هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ، في المهاجرين والأنصار. فقال: لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيماً. فقلت: ويحك إنها النبوة. فقال: نعم إذن. فقلت: الحق بقومك سريعاً فحذركم. فخرج حتى أتى مكة ومعه حكيم بن حزام، فصرخ في المسجد: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا يُقبل لكم به. فقالوا: فمسه. قال: مَنْ دخل داري فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن؛ ثم قال: يا معشر قريش أسلموا تسلموا.

فاقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحق. فقال: أرسلني لحيتي وأقسم لئن أنت لم تسلمي لتضربن عنقك، ادخلي بيتك! فتركته.

وبعث رسول الله ﷺ، في أثرهما الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كداء، وكان على المُجَنِّبة اليسرى، وأمر سعد بن عُبادة أن يدخل ببعض الناس من كداء، فقال سعد حين وجهه: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة. فسمعا رجل من المهاجرين فاعلم رسول الله ﷺ، فقال لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه وكن أنت الذي تدخل بها، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من اللَّيْط في بعض الناس، وكان معه أسلم وغنار ومُزينة وجهينة وقبائل من العرب، وهو أول يوم أمر رسول الله ﷺ، خالد بن الوليد.

ولما وصل رسول الله ﷺ، إلى ذي طوى وقف على راحلته وهو مُعْتَجِر يبرد خَرَّ أحمر وقد وضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى (٢٤٧/٢) ما أكرمه الله به [من الفتح] حتى إن أسفل لحيته ليمسَّ واسطة الرحل، ثم تقدَّم ودخل من أذخر بأعلاها وضربت قَبْته هناك.

وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد

لعمرك إني يوم أحمل رايةً لتغلب خيلُ الساتِ خيلَ محمدٍ لكاملُج الحيرانِ أظلمَ ليلُكُ فهذا لواتي حين أهتدى وأفتدي وهادٍ هُداني غير نفسي ونائي مع الله مَنْ طردت كلَّ مُطْرَدٍ الأبيات. فضرب رسول الله ﷺ، صدره وقال: (٢٤٤/٢) أنت طردتني كلَّ مُطْرَدٍ. وقيل: إن أبا سفيان لم يرفع رأسه إلى النبي ﷺ، حياء منه.

وقدم رسول الله ﷺ، مرَّ الظهران في عشرة آلاف فارس، من بني غفار أربعمائة، ومن مُزينة ألف وثلاثة نفر، ومن بني سُلَيْم سبعمائة، ومن جُهينة ألف وأربعمائة، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف من العرب، ثم من تميم وأسد وقيس.

فلما نزل مرَّ الظهران قال العباس بن عبد المطلب: يا هلاك قريش! والله لئن بغتها رسول الله ﷺ، في بلادها فدخل عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. فجلس على بغلة النبي ﷺ، وقال: أخرج إلى الأراك لعلِّي أرى حطاباً أو رجلاً يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ، فيأتونه ويستأمنونه. قال: فخرجت أطوف في الأراك إذ سمعت صوت أبي سفيان وحكيم بن حزام ويُدبِل بن ورقاء الخزاعي قد خرجوا يتجسسون. فقال أبو سفيان: ما رأيت نيواناً أكثر من هذه. فقال بدبل: هذه نيران خزاعة. فقال أبو سفيان: خزاعة أذل من ذلك. فقلت: يا أبا حنظلة، يعني أبا سفيان كان يكتني بذلك، فقال: أبو الفضل! قلت: نعم. قال: ليك فذاك أبي وأمي، ما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ، في المسلمين أتاكم في عشرة آلاف. قال: ما تأمرني؟ قلت: تركب معي فاستأمن لك رسول الله ﷺ، فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك. فردفني، فخرجت أركض به نحو رسول الله ﷺ فكلما مرت بنار من نيران المسلمين يقولون: عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ، حتى مورنا بنار عمر بن الخطَّاب، فقال أبو سفيان: الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد! ثم اشتد نحو النبي ﷺ، وركضت البغلة فسبقت عمر، ودخل (٢٤٥/٢) عمر على رسول الله ﷺ، فأخبره وقال: دعني أضرب عنقه. فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته. ثم أخذت برأس رسول الله ﷺ، وقلت: لا ينجيه [اليوم] أحد دوني. فلما أكثر فيه عمر قلت: مهلاً يا عمر، [فوالله] ما تصنع هذا إلا لأنه من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدِّي ما قلت هذه المقالة. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطَّاب لو أسلم. فقال رسول الله ﷺ: [أذهب] فقد أمناه حتى تغدو عليَّ به بالغداة. فرجعت به إلى منزلي وغدوت به على رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لو كان مع الله غيره لقد أغنى [عني] شيئاً. فقال: ويحك ألم يأن لك [أن تعلم] أي رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي،

والطائف ثم أسلم وحسن إسلامه وتوفي بمكة عند خروج الناس إلى البصرة ليوم الجمل.

ومنها عبد الله بن معد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي، وكان قد أسلم وكتب الوحي إلى رسول الله ﷺ، فكان إذا أُملي عليه: عزيز حكيم، يكتب: عليم حكيم، وأشباه ذلك، ثم ارتد وقال لقريش: إني أكتب أحرف محمد في قرآنه حيث شئتُ ودينكم خير من دينه؛ فلما كان يوم الفتح فرّ إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه من الرضاة، فغيبه عثمان حتى اطمان الناس، ثم أحضره عند رسول الله ﷺ، وطلب له الأمان، فصمت رسول الله ﷺ، طويلاً ثم آمنه، فأسلم وعاد، فلما انصرف قال رسول الله ﷺ: لأصحابه: لقد صمتُ ليقته أحدكم. فقال أحدهم: هلا أومات إلينا؟؟ فقال: ما كان للنبي أن يقتل بالإشارة، إن الأنبياء لا يكون لهم خاتمة الأعين.

ومنها عبد الله بن خطل، وكان قد أسلم، فأرسله رسول الله ﷺ، مصدقاً ومعه رجل من الأنصار وغلالم له رومي قد أسلم، فكان الرومي يخدمه ويصنع الطعام، فبني يوماً أن يصنع له طعاماً، فقتله وارثه، وكان له قيتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، فقتله سعيد بن حريث المخزومي، أخو عمرو بن حريث، وأبو برة الأسلمي. (٢٥٠/٢)

ومنها الخويزث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، بمكة وينشد الهجاء فيه، فلما كان يوم الفتح هرب من بيته، فلقبه علي بن أبي طالب بقتله.

ومنها مقيس بن صباب، وإنما أمر بقتله لأنه قتل الأنصاري الذي قتل أخاه هشاماً خطأ وارثه، فلما انهمز أهل مكة يوم الفتح اختفى بمكان هو وجماعة وشربوا الخمر، فعلم به نميلة بن عبد الله الكناني، فأناه فضربه بالسيف حتى قتله.

ومنها عبد الله بن الزبيري السهمي، وكان يهجو رسول الله ﷺ، بمكة ويعظم القول فيه، فهرب يوم الفتح هو وهبيرة ابن أبي وهب المخزومي زوج أم هانئ بنت أبي طالب إلى نجران، فأما هبيرة فأقام بها مشركاً حتى هلك، وأما ابن الزبيري فرجع إلى رسول الله ﷺ، واعتذر، فقبل عذره، فقال حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُشُورُ
إِذْ أَبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سِنِّ الْغَدَا سَيِّئٌ وَمَنْ مَالٌ مِثْلُهُ مُشُورُ
أَمَّنَ الدَّهْمَ وَالْعِظَامَ بِرَيْسِي ثُمَّ نَفْسِي الشَّهِيدَ أَنْتَ التَّنْذِيرُ
فِي أَشْعَارٍ لَهُ كَثِيرَةٌ يَعْتَذِرُ فِيهَا.

ومنها وحشي بن حرب قاتل حمزة فهرب يوم الفتح إلى الطائف، ثم قدم في وفد أهله على رسول الله ﷺ، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ. فقال النبي ﷺ:

جمعوا ناساً بالخدماء ليقاتلوا ومعهم الأحابيش وبنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة، فلقبهم خالد بن الوليد فقاتلهم فقتل من المسلمين جابر بن جليل الفهري وحبيش بن خالد، وهو الأشعر الكعبي، وسلمة بن الميلاء، وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلاً ثم انهزم المشركون.

وكان مع عكرمة جملاس بن خالد الدثلي، وكان قد قال لامرأته: لا تينك بخادم من أصحاب محمد، فلما عاد إليها منهزماً قالت له تستهزي به: أين الخادم؟ فقال:

فَأَنْتَ لَوْ شِئْتِهَا بِالْخِذْمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عَكْرَمَةُ
وَأَبُو يَزِيدَ كَالْعَجُوزِ الْمُؤْتَمَةِ لَمْ تَطْقِي فِي الدُّومِ أَدْنَى كَلِمَةٍ
إِذْ ضَرَبْتِهَا بِالسَّيْفِ الْمُثَلَّثَةِ لَهُمْ زَفِيرٌ خَلْفَنَا وَغَمَمَةٌ
أَبُو يَزِيدَ هَذَا هُوَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو.

وكان رسول الله ﷺ، قد عهد إلى أمرائه أن لا يقتلوا أحداً إلا من قاتلهم. فلما انهزم المشركون وأراد المسلمون دخول مكة قام في وجوههم نساء مشركات يلطمن وجوه الخيل بالخمر وقد نشرن شعورهن، فراهن رسول الله ﷺ، وإلى جنبه أبو بكر، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان؟ فأنشده: (٢٤٨/٢)

نَظَلُّ جَائِدًا شَتَطَرَاتٍ تَلَطُّهُنَّ بِالْخَمْرِ النَّسَاءُ
وكان رسول الله ﷺ، قد أمر بقتل ثمانية رجال وأربع نسوة فأما الرجال فمنهم عكرمة بن أبي جهل، كان يشبه إياه في إيهاء رسول الله ﷺ، وعداوته والإنفاق على محاربتة، فلما فتح رسول الله ﷺ، مكة خافه على نفسه فهرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فاستأمنت له وخرجت في طلبه ومعها غلام لها رومي، فراودها عن نفسها، فأطمعته ولم تمكنه حتى أتت حياً من العرب فاستعانتهم عليه، فأوثقوه، وأدركت عكرمة وهو يريد ركوب البحر فقالت: جئتك من عند أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم وقد آمنك، فرجع، وأخبرته خيرة الرومي، فقتله قبل أن يسلم. فلما قدم على رسول الله ﷺ، سربه، فأسلم وسأل رسول الله ﷺ، أن يستغفر له، فاستغفر.

ومنها صفوان بن أمية بن خلف، وكان أيضاً شديداً على النبي ﷺ، فهرب خوفاً منه إلى جدته، فقال عُمَيْرُ بْنُ وَهَبِ الْجُمَحِيِّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ صَفْوَانَ سَيِّدَ قَوْمِي وَقَدْ خَرَجَ هَارِباً مِنْكَ فَأَمْنُهُ. قَالَ: هُوَ آمَنٌ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَتَهُ الَّتِي دَخَلَ بِهَا مَكَّةَ لِيَعْرِفَ بِهَا أَمَانَهُ، فَخَرَجَ بِهَا عُمَيْرُ (٢٤٩/٢) فأدركه بجدة فأعلمه بأمانه وقال: إنه أحلم الناس وأوصلهم، وإنه ابن عمك وعزه عرك وشرفه شرفك. قال: إني أخافه على نفسي. قال: هو أحلم من ذلك. فرجع صفوان وقال لرسول الله ﷺ: إن هذا يزعم أنك أمتنتني. قال: صدق. قال: اجعلني بالخيار شهرين. قال: أنت فيه أربعة أشهر، فأقام معه كافراً وشهد معه حُنيئاً

تحتة، واجتمع الناس لبيعة رسول الله ﷺ، على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، فكانت هذهبيعة الرجال.

أوحشي؟ قال: نعم. قال: أخبرني كيف قتلتم عمي؟ (٢٥١/٢) فأخبره، فبكى وقال: غيب وجهك عني. وهو أول من جلد في الخمر، وأول من لبس المعصر المصقول في الشام.

وهرب حوئطب بن عبد العزى، فرآه أبو ذر في حائط فأخبر النبي ﷺ، بمكانه، فقال: أوليس قد آمننا الناس إلا من قد أمرنا بقتله؟ فأخبره بذلك، فجاء إلى النبي ﷺ فأسلم. قيل: إنه دخل يوماً على مروان بن الحكم وهو على المدينة فقال له مروان: يا شيخ تأخر إسلامك. فقال: لقد هممت به غير مرة فكان يصدني عنه أبوك.

فأما النساء فممن هنّ بنت عتبة، وكان رسول الله ﷺ، أمر بقتلها لما فعلت بحمزة ولما كانت تؤذي رسول الله ﷺ، بمكة، فجاءت إليه مع النساء متخفية فأسلمت وكسرت كل صنم في بيتهما وقالت: لقد كنا منكم في غرور، وأهدت إلى رسول الله ﷺ، جديدين، واعتذرت من قلة ولادة غنمها، فدعا لها بالبركة في غنمها فكثرت، فكانت تهب وتقول: هذا من بركة رسول الله ﷺ، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام.

وممن سارة، وهي مولاة عمرو بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وهي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة في قول بعضهم، وكانت قدمت على رسول الله ﷺ، مسلمة فوصلها فعادت إلى مكة مرتدة، فأمر بقتلها، فقتلها علي بن أبي طالب.

وممن قيتا عبد الله بن خطل، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما، فقتلت إحداهما واسمها قريظة، وفرت الأخرى وتكررت وجاءت إلى رسول الله ﷺ، فأسلمت وبقيت إلى خلافة عمر بن الخطاب، فأوطأها رجل فرسه خطأ فماتت، وقيل: (٢٥٢/٢) بقيت إلى خلافة عثمان، فكسر رجل ضلعاً من أضلاعها خطأ فماتت، فأغرمه عثمان دينها.

ولما دخل رسول الله ﷺ، مكة كانت عليه عمامة سوداء، فوقف على باب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل دم أو مائة أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية الحج. ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خير، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فانتم الطلقاء، فعفا عنهم، وكان الله قد أمكنه منهم، وكانوا له فيئاً، فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء. وطاف بالكعبة سبعة، ودخلها وصلى فيها، ورأى فيها صور الأنبياء، فأمر بها فمُحيت، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان بيده قضيب، فكان يشير به إلى الأصنام وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء، ٨١]، فلا يشير إلى صنم منها إلا سقط لوجهه. وقيل بل أمر بها وخُلِمت وكُسرت.

ثم جلس رسول الله ﷺ، للبيعة على الصفا، وعمر بن الخطاب

وأما بيعة النساء فإنّه لما فرغ من الرجال بايع النساء، فأتاه منهنّ نساء من نساء قريش، منهنّ أم هانئ بنت أبي طالب، وأم حبيب بنت العاص بن أمية، وكانت عند عمرو بن عبد ود العامري، وأزوى بنت أبي العيص عمّة عتاب (٢٥٣/٢) ابن أسيد، وأختها عاتكة بنت أبي العيص، وكانت عند المطلب بن أبي وداعة السهمي، وأمّه بنت عفان بن أبي العاص أخت عثمان، وكانت عند سعد حليف بني مخزوم، وهند بنت عتبة، وكانت عند أبي سفيان، وبسيرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت عند عكرمة بن أبي جهل، وفاخنة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد، وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف، ورثمة بنت الحجاج، وكانت عند عمرو بن العاص في غيرهنّ، وكانت هند متكرّة لصنيعها بحمزة، فهي تخاف أن تؤخذ به، وقال لها: تباعيني على أن لا تشركن بالله شيئاً. قالت هند: إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال فسوّيتك. قال: ولا تترقن. قالت: والله إن كنت لأصبت من مال أبي سفيان الهبة والهنة. فقال أبو سفيان، وكان حاضراً: أما ما مضى فانت منه في حل. فقال رسول الله ﷺ، أهدأ؟ قالت: أنا هند فاعف عماً سلف عفا الله عنك. قال: ولا تزنين. قالت: وهل تزني الحرة؟ قال: ولا تقتلن أولادكنّ. قالت ريّناهم صغاراً وقتلتهن يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم. فضحك عمر. قال: ولا تأتين ببهتان تفتريه بين أيديكنّ وأرجلكنّ. قالت: والله إنّ إتيان البهتان لمبيح ولبيع بعض التجاوز أمثل. قال: ولا تعصيني في معروف. قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نصيبك. فقال رسول الله ﷺ، لعمر: بايعهنّ. واستغفر لهنّ رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ، لا يمس النساء ولا يصفاهن امرأة (٢٥٤/٢) ولا تمسه امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم [منه]. ولما جاء وقت الظهر أمر رسول الله ﷺ، بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال، فممن من يطلب الأمان ومنهم من قد آمن، فلما أذن وقال: أشهد أنّ محمداً رسول الله ﷺ، قالت جويرية بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيقي بلال فوق الكعبة. وقيل: إنها قالت: لقد رفع الله ذكر محمد، وأما نحن فنسبلي ولكنّا لا نحب من قتل الأعبة. وقال خالد بن أسد، أخو عثمان بن أسد: لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم وقال الحارث بن هشام: ليتني مت قبل هذا اليوم. وقال جماعة نحو هذا القول. ثم أسلموا وحسن إسلامهم ورضي الله عنهم.

(وأما الأسماء المشككة فحاطب بن أبي بلتعة بالحاء والطاء المهملتين، والباء الموحدة، وبلتعة بالباء الموحدة، وبعد اللام تاء مثناة من فوقها. وعيينة بن حصن بضم العين المهملة، ويائين مثنتين من

تحت، ثم نون، تصغير عين، ويُدْبِلُ بن ورقاء بضمّ الباء الموحدة. وأحسنّت. وغَتَّاب بالتاء فوقها نقطتان، وآخره باء موحدة. وأمسيد بفتح الهمزة، وكسر السين).

وقيل: إنَّ خالدًا اعتذر وقال إنَّ عبد الله بن حُذافة السهمي أمره بذلك عن رسول الله، وكان بين عبد الرحمن بن عوف وخالد كلام في ذلك، فقال له: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام. فقال خالد: إنما ثارت بأبيك. فقال عبد الرحمن: كذبت، قد قُتِلْتُ أنا قاتل أبي ولكنك إنما ثارت بعمك الفاكه، حتى كان بينهما شرٌّ، فبلغ ذلك رسول الله، ﷺ، فقال: مهلاً يا خالد، دَع عَنكَ أصحابي، فوالله لو كان لك أخذٌ ذهباً ثم اتَّفَقْتُهُ في سبيل الله ما أدركتْ غَدْوَةُ أحدهم ولا رَوْحَتُهُ.

قال عبد الله بن أبي حَظْرَد الأسلمي: كنتُ يومئذٍ في جند خالد فائترنا في أثر طُعْن مصعدة يسوق بهنّ قتيّة، فقال: أدركوا أولئك. قال: فخرجنا في أثرهم حتى أدركناهم مضوا، ووقف لنا غلام شاب على الطريق، فلَمَّا انتهينا إليه جعل يقاتلنا ويقول:

ارفعن أطراف النِيُول وارترنن مَشِي حَيَات كان لم تُفَرَّغُن
إن تُنْعِ اليومَ النِّساء تُنْعِنُن

فقاتلناه طويلاً ومضينا حتى لحقنا الظعن، فخرج إلينا غلام كأنه (٢٥٧/٢) الأول فجعل يقاتلنا ويقول:

أُقسم ما إن خايرَ نويسَندَ يسررُوم بينَ أثَلِو ووفندَ
يفرسُ شَبانَ الرِّجالِ وحندَ بأصدق الغدّة مني نجندَ

فقاتلناه حتى قتلناه، وأدركنا الظعن فأخذناهم، فإذا فيهم غلام وضئ الوجه به صفرة كالمنهوك، فربطناه بحبل وقدمناه لنقتله، فقال لنا: هل لكم في خير؟ قلنا: ما هو؟ قال: تدركون بي الظعن في أسفل الوادي ثم تقتلونني. قلنا: نفعل، فعارضنا الظعن، فلَمَّا كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته: اسلمي حُيش، على فُقد العيش. فأقبلت إليه جارية يضاء حُسانة وقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء، وشدة البلاء. قال: سلام عليك دهرأ، وإن بقيت عصراً. قالت: وأنت سلام عليك عشراً، وشفعاً تترى، وثلاثاً وتراً. فقال:

إن يقتلونني يا حُيش فلم يدعْ هواك لهم مني سوى غلّة الصدر
فأنت التي أخليت لحمي من دمي وعظمي، وأسبلتِ الدموع على نحري

فقاتل له:

ونحن بكيناً من فراقك مَسرّةً وأخرى وواسيتاك في السُسرِ واليسرِ
وأنت فلم تبعذْ فنع من قسَى الهوى جميل العفاف والموتة في سترِ

فقال لها: (٢٥٨/٢)

لرَبِّكَ إذ طالَ بكم فوجنكُوم بخليّة أو الفينكُم بالخواثق
السم يك حَقّاً أن يُسَوِّغَ عاشقُ تكلّف إدلاج السُرى في الواسق
فلا نذب لي قد قُلتُ إذ نحنُ جيرةً أئسي بوذ قبل إحدى الصّقات
أئسي بوذ قبل أن تُشطح النوى ونشأ الأمير بالخبيب المقارِق
فلنّي لا سراً لندي أضعُفُ ولا منظر مذ غبت عني برانسق

وقول أم سلمة: ابن عمّك وابن عمّتك، فتعني بإبن عمّه أبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب، وابن عمته عبد الله بن أبي أميّة، وهو أخوها لأبيها، وكانت أمّه عاتكة بنت عبد المطلب. وقوله: قال في مكة ما قال، فإنّه قال بمكة: لن نؤمن لك حتى ترقى في السماء، ولن نؤمن لورقك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه. وقد غلط هنا بعض العلماء الكبار فقال: معنى قول أم سلمة ابن عمّتك، أن جدّة النبيّ أم عبد الله كانت مخزومية وعبد الله بن أبي (٢٥٥/٢) أميّة مخزومي، فعلى هذا يكون ابن خالته لا ابن عمته، والصواب ما ذكرناه.

وحُيش بن خالد بضمّ الحاء المهملة، وبالياء الموحدة، ثمّ بالياء المشدّة من تحت، وآخره شين معجمة. ومُقَسِّص بن صُبابة بكسر الميم، وسكون القاف، وبالياء المشدّة من تحت المفتوحة، وآخره سين مهملة. وصُبابة بضمّ الصاد المهملة، وبأثني موحّدين بينهما ألف. خطم الجبل روي بالحاء المعجمة، وبالحاء المهملة، فأما بالحاء المعجمة فهو الأنف الخارج من الجبل، وأما بالحاء المهملة فهو الموضع الذي ثلم منه وقُطِع بقي منقطعاً، وقد روي خطم الخيل بالحاء المهملة، والخيل هذه هي التي تُركب، يعني أنّه يحبسها في الموضع الضيّق الذي يحطم الخيل فيه بعضها بعضاً لضيقه).

ذكر غزوة خالد بن الوليد بني جذيمة

وفي هذه السنة كانت غزوة خالد بن الوليد بني جذيمة، وكان رسول الله، ﷺ، قد بعث السرايا بعد الفتح فيما حول مكة يدعون الناس إلى الإسلام ولم يأمرهم بقتال، وكان ممّن بعث خالد بن الوليد، بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، فنزل على الغنمضاء ماء من مياه جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وكانت جذيمة أصابت في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف، والفاكه بن المغيرة عمّ خالد، كانا أقبالاً [تاجرین] من اليمن، فأخذت ما معهما [وقتلتهما]، فلَمَّا نزل خالد ذلك الماء أخذ بنو جذيمة السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإنّ الناس قد أسلموا. فوضعوا السلاح، فأمر خالد بهم فكتفوا ثمّ عرضهم على السيف فقتل منهم من قتل. (٢٥٦/٢)

فلَمَّا انتهى الخبر إلى النبيّ، ﷺ، رفع يديه إلى السماء ثمّ قال: اللهمّ إني أبرأ إليك ممّا صنع خالد! ثمّ أرسل عليّاً ومعه مال وأمره أن ينظر في أمرهم، فودى لهم الدماء والأموال حتى إنّه ليدي ميلة الكلب، وبقي معه من المال فضلة، فقال لهم عليّ: هل بقي لكم مال أو دم لم يود؟ قالوا: لا. قال: فإني أعطيتكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله، ﷺ، ففعل. ثمّ رجع إلى رسول الله، ﷺ، فأخبره، فقال: أصبت

تستحين تزوجين رجلاً قتل أباك؟ فاستعاذت منه، ففارقتها.

وفيها هدم خالد بن الوليد العُزَّى بطن نخلة لخمس ليال بقين من رمضان، وكان هذا البيت تعظمه قريش وكثانة ومُضَر كُلُّها، وكان سدنتها بنو شيبان ابن سُلَيْم حلفاء بني هاشم، فلما سمع صاحبها بمسير خالد بن الوليد إليها علّق عليها سيفه وقال:

إيا عُرْ شُدَي شُدْ لا شَوَى لها على خالد ألقى القنّاق وشَمَرِي
فلما انتهى خالد إليها جعل السائدُ يقول: أُعْزَى بعض غضبانك،
فخرجت امرأة سوداء حبشية عريانة مولولة، فقتلها وكسر الصنم
وهدم البيت ثم رجع إلى النبي، ﷺ، فأخبره، فقال: تلك العُزَّى لا
تُعبد أبداً.

وفيها هدم عمرو بن العاص سُرَاع، وكان برُهاط لهذيل، فلما
كسر الصنم أسلم سادته، ولم يجد في خزانته شيئاً.

وفيها هدم سعد بن زيد الأشهلي مائة المُشَلَّل. (٢٦١/٢)

ذكر غزوة هوازن بخنِين

وكانت في شِوَال، وسببها أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله
على رسوله من مكة جمعها مالك بن عوف النُصْرِيُّ من بني نصر بن
معاوية بن بكر، وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله، ﷺ، بعد
فتح مكة، وقالوا: لا مانع له من غزونا، والرأي أن نغزوه قبل أن
يفزونا. واجتمع إليه ثقيف يقودها قارب بن الأسود بن مسعود سيّد
الأحلاف، وذو الخِمار سبيح بن الحارث، وأخوه الأحمر بن الحارث
سيّد بني مالك، ولم يحضرها من قيس عيلان إلا نصر وجشم وسعد
بن بكر وناس من بني هلال، ولم يحضرها كعب ولا كلاب، وفي
جُشَم دُرَيْد بن الصّمة شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمّن برايه، وكان
شيخاً مجرباً.

فلما أجمع مالك بن عوف المسير إلى رسول الله، ﷺ، حطّ مع
النّاس أموالهم ونساءهم، فلما نزلوا أوطاس جمع النّاس، وفيهم دريد
بن الصّمة، فقال دريد: بأيّ وادٍ أنتم؟ فقالوا: بأوطاس. قال: نغم
مجال الخيل لا حَزَنٌ ضَرَسٌ، ولا سهلٌ دَمَسٌ؛ ما لي أسمع رُغَاءَ
البعير، ونهاق الحمير، ويغار الشاء ويكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك
مع النّاس ذلك. فقال: يا مالك إن هذا يوم له ما بعده، ما حملك على
ما صنعت؟ قال: سقّتهم مع النّاس ليقاتل كلّ إنسان عن حريمه وماله.
قال دريد: راعي ضأن والله، هل يره المنهزم شيء؟ [نهنها] إن كانت
لك لم يفعلك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُصِيخت في
أهلك ومالك. وقال: ما فعلت كعب وكلات؟ قالوا: لم يشهدا أحد
منهم. قال: غاب الجدّ والحدّة، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه
كعب ولا كلاب، ووددت أنكم فعلتم ما فعلا. ثم قال: يا مالك ارفع
مَن معك إلى غُلَيّا (٢٦٢/٢) بلادهم ثم ألق الصّبا على الخيل، فإن

على أن ما ناب العشرة شاغلٌ ولا ذِكْرٌ إلا أن يكون لوامقٍ
فقدّموه [فضربوا] عنقه. هذا الشعر لعبد الله بن علقمة الكناني،
وكان من جذيمة مع حُبَيْشة بنت حُيَيش الكنانية أنه خرج مع أمّه، وهو
غلام نحو المُحتلم لتزور جارة لها، وكان لها ابنة اسمها حُبَيْشة بنت
حُيَيش. فلما رآها عبد الله هويها ووقعت في نفسه، وأقامت أمّه عند
جارتها، وعاد عبد الله إلى أهله. ثم عاد ليأخذ أمّه بعد يومين، فوجد
حُبَيْشة قد تزوّجت لأمر كان في الحي، فازداد بها عجباً، وانصرفت أمّه،
فمضى معها وهو يقول:

وما أدري، بلسى أنسى لأدري أصوبُ القطر أحسن أم حُيَيشُ
حُبَيْشة والسدي خلّق البرايا وما إن عنتنا للصّب عَيشُ
فسمعت أمّه فتغافلت عنه. ثم إنه رأى ظبياً على ربوة فقال:

يا أمّا خَبرني غير كاذبة وما يريد سؤؤل الحق بالكذب
(٢٥٩/٢)

اتلك أحسن أم ظبي براية. لا بل حُبَيْشة في عيني وفي أرنبي
فزجرته أمّه وقالت: ما أنت وهذا؟ وأنا قد زوّجتك ابنة عمك
فهي من أجمل تلك النساء. وأتت امرأة عمير فأخبرتها الخبر وقالت:
زني ابتك له، ففعلت وأدخلتها عليه، فأطرق. فقالت أمّه: أيهما الآن
أحسن؟ فقال:

إذا عُيِت عني حُبَيْشة مرة من الذعر لا أملك عزاء ولا صبراً
كان الخشا حرّ السعير تحمّهُ وقود الغضا والقلب مضطرب جمرأ
وجعل يرأسل الجارية وتراسله، فعلقته كما علقها، وأكثر قول
الشعر فيها، فمن ذلك:

حُبَيْشة جَدَتِي وَجَدْتُكَ جامعَ بشلّمكُم شملِي وأهلكُم أهلي
وقلّ أنا مُلْتَفٌ بؤسك مرة بصحرأ بين الأبتين إلى النحل

فلما علم أهلها خبرهما حجّبوها عنه، فازداد غرامه. فقالوا لها:
عديه السرحة، فإذا أتاك فقولِي له: نشدتك الله إن أحببتي فوالله ما
على الأرض أبغض إليّ منك، ونحن قريب نسبح ما تقولين، فوعدته
وجلسوا قريباً، فأقبل لموعدها. فلما دنا منها دمعت عينهاما والتفت
إلى جنب أهلها [وهم] جلوس عرف أنهم قريب وبلغه الحال فقال:

فإن قلت ما قالوا لقد زفّني جويّ على أنه لم يبق سرٌّ ولا سرّ
ولم يكّ حتى عن فواك بذلّيو فيسلبني عنك التّجنّب والهجر
وما أنس والأشياء لا أنس وفقّها ونظرتها حتى يُغيّسي القبر

(٢٦٠/٢)

وبعث النبي، ﷺ، إثر ذلك خالد بن الوليد، فكان منه ما تقدّم
ذكره.

وفي السنة تزوّج النبي، ﷺ، مَلِيكة ابنة داود اللَّيْثِيَّة، وكان أبوها
قُتل يوم فتح مكة، فجاء إليها بعض أزواج النبي، ﷺ، فقلن لها: ألا

أحب إليّ من أن يرثني رجل من هوازن! وقال شيبه بن عثمان: اليوم أدرك ناري من محمد، وكان أبوه قتل بأخذ، قال: فادرت به لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذلك.

وكان العباس مع النبي ﷺ، أخذاً بحكمته بغلته دُلْدُل (٢٦٤/٢) وهو عليها، وكان العباس جسيماً شديد الصوت، فقال له رسول الله، ﷺ: يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السُّمُرة! ففعل، فأجابوه: لبيك لبيك! فكان الرجل يريد أن يشي بغيره فلا يقدر، فيأخذ سلاحه ثم ينزل عنه ويؤمّ الصوت، فاجتمع على رسول الله، ﷺ، مائة رجل فاستقبل بهم القوم وقتلهم، فلمّا رأى النبي، ﷺ، شدة القتال قال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
الآن حمي الوطيس؛ وهو أوّل من قالها. واقتل الناس قتالاً شديداً، وقال النبي ﷺ، لبغلته دلدل: البدي دلدل، فوضعت بطنها على الأرض، فأخذ حفنة من تراب فرمى به في وجوههم، فكانت الهزيمة، فما رجع الناس إلّا والأساري في الحبال عند رسول الله، ﷺ، وقيل: بل أقبل شيء أسود من السماء مثل البجاة حتى سقط بين القوم، فإذا نمل أسود مبروث، فكانت الهزيمة.

ولما انهزم هوازن قُتل من ثقيف وبني مالك سبعون رجلاً، فأما الأخلاف من ثقيف فلم يقتل منهم غير رجلين لأنهم انهزموا سريعاً. وقصد بعض المشركين الطائف ومعههم مالك بن عوف، واتبع خيل رسول الله، ﷺ، المشركين فقتلهم، فأدرك ربيعة بن يربوع السلمي ذريّة ابن الصّمة ولم يعرفه لأنّه كان في شجار لكبره، وأناخ بغيره فإذا هو شيخ كبير، فقال له دريد: ماذا تريد؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ فانتسب له، ثمّ ضربه بسيفه فلم يُغن شيئاً. فقال دريد: بش ما سلحتك أمك، (٢٦٥/٢) خذ سيفي فاضرب [به]، ثمّ ارفع [عن] العظام واخفض [عن] الدماغ فإني كذلك كنتُ أقتل الرجال، وإذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصّمة، فربّ يوم قد منعني فيه نساءك. [فقتله]. فلمّا أخبر أمه قالت: واللّه لقد اعتقّ أمهات لك ثلاثاً. واستلب أبو طلحة الأنصاري يوم حُنين عشرين رجلاً وحده، وقتلهم. فقال رسول الله، ﷺ، من قتل قتيلاً فله سلبه. وقتل أبو قتادة الأنصاري قتيلاً واجهضه القتال عن أخذ سلبه فأخذ غيره، فلمّا قال رسول الله، ﷺ، ذلك قام أبو قتادة فقال: قتلْتُ قتيلاً وأخذ غيري سلبه. فقال الذي أخذ السلب: هو عندي فارضه مني يا رسول الله. فقال أبو بكر: لا والله لا تعد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله تقاسمه، فردّ عليه السلب.

وكان لبعض ثقيف غلام نصراني، فقتل، فبينما رجل من الأنصار يستلب قتلى ثقيف إذ كشف العبد فرأه أغرل، فصرخ بأعلى صوته: يا معشر العرب إنّ ثقيفاً لا تختن. فقال له المغيرة بن شعبه: لا تقل

كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك كنت قد أحزرت أهلك ومالك. قال مالك: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر علمك، والله لتطبعني يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني. ثمّ قال مالك: أيها الناس إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا عليهم شدة رجل واحد.

وبعث مالك عيونه لياتوه بالخبر، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً يبيض على خيل بلقي، فوالله ماتمنا سكنا أن حلّ بنا ما ترى! فلم ينه ذلك [عن وجهه أن مضى على ما يريد].

ولما بلغ رسول الله، ﷺ، خير هوازن أجمع المسير إليهم، وبلغه أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه رسول الله، ﷺ، وهو يومئذ مشرك: أعزنا سلاحك نلق في غدونا. فقال له صفوان: أغضباً يا محمد؟ فقال: بل عارية مضمونة نؤذيها إليك. قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح. ثمّ سار النبي، ﷺ، ومعه ألفان من مسلمة الفتح مع عشرة آلاف من أصحابه، فكانوا اثني عشر ألفاً، فلمّا رأى رسول الله، ﷺ، كثرة من معه قال: لن نغلب [اليوم] من قلة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ [التوبة: ٢٥]؛ وقيل: إنّما قالها رجل من بكر.

واستعمل رسول الله، ﷺ، على من بمكة عتاب بن أسيد. قال جابر: فلمّا استقبلنا وادي حُنين انحدرنا في وادٍ أجوف خطوط، (٢٦٣/٢) إنّما ننحدر فيه انحداراً في غماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنا لنا في شعابه ومضايقه، قد تهوؤوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلّا الكتاب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لا يولي أحد على أحد، وانحاز رسول الله، ﷺ، ذات اليمين ثمّ قال: أيها الناس هلموا إليّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، قاله ثلاثاً، ثمّ احتملت الإبل بعضها بعضاً، إلّا أنّه قد بقي مع النبي، ﷺ، نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، منهم: أبو بكر وعمر وعليّ والعبّاس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث وآمين ابن أمّ آمين وأسامة بن زيد. قال: وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء أمام الناس، فإذا أدرك رجلاً طعنه ثمّ رفع رايته لمن وراءه فاتبعوه، فحمل عليه عليّ فقتله.

ولما انهزم الناس تكلم رجال من أهل مكة بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، والأزلام معه. وقال كلفة بن الحنبل، وهو أخو صفوان بن أمية لأمه، وكان صفوان بن أمية يومئذ مشركاً: الآن بطل السحر. فقال له صفوان: اسكت فضّ الله فاك، فوالله لأن يرثني رجل من قريش

غِيلَانُ أَوْ حُلَيَّ الْفَارَعَةَ بِنْتَ عَقِيلٍ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْثَرِ النِّسَاءِ حَلِيًّا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ لَمْ يُوْذَنْ لِي فِي تَقِيْفٍ بِأَخْوِيلَةٍ؟ فَخَرَجَتْ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَدِيثُ حَدَّثْتَنِي أَخْوِيلَةَ أَنْكَ قَدْ قُلْتَهُ؟ قَالَ: قَدْ قُلْتُهُ. قَالَ: أَفَلَا أُوْذَنْ بِالرَّحِيلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلَى، فَاذَنْ بِالرَّحِيلِ.

وقيل: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، اسْتَشَارَ نُوْفَلَ بْنَ مَعَاوِيَةَ الدُّثَلَيْيَّ فِي الْمَقَامِ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَلَعَسْ فِي جُحْرٍ إِنْ أَقَمْتَ عَلَيْهِ أَخَذْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَضُرْكُ، فَاذَنْ بِالرَّحِيلِ. فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى تَقِيْفٍ. قَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ تَقِيْفًا وَأَتِ بِهِمْ. فَلَمَّا رَأَتْ تَقِيْفُ النَّاسِ قَدْ رَحَلُوا عَنْهُمْ نَادَى سَعِيدُ بْنُ عُبَيْدِ التَّقْفِيِّ: أَلَا إِنَّ الْحَيَّ مَقِيمٌ. فَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ حَصْنٍ: أَجَلٌ وَاللَّهِ مُجَدِّدَةٌ كَرَامًا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: قَاتِلْكَ اللَّهُ يَا عَيْنَةَ اتَّمَدَحَهُم بِالْإِتِّسَاعِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا جِئْتُ لِأَقَاتِلَ مَعَكُمْ تَقِيْفًا، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَصِيبَ مِنْ تَقِيْفٍ جَارِيَةٍ لَعَلَّهَا تَلِدُ لِي رَجُلًا، فَإِنْ تَقِيْفًا قَوْمِ مَنَافِكِرٍ.

وَاسْتَشْهَدَ بِالطَّائِفِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ الْمَخْزُومِيَّ، (٢٦٨/٢) وَأُمُّهُ عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقَ، رُمِيَ بِهِمْ فَمَاتَ مِنْهُ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالسَّائِبَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَدِيٍّ، وَغَيْرِهِمْ.

• وَهَذِهِ بَادِيَةُ بِنْتِ غِيلَانَ قَالَ فِيهَا هَيْتَ الْمُخْتَلِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ: إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الطَّائِفَ فَسَلِّ رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَنْفَلَكَ بَادِيَةُ بِنْتِ غِيلَانَ فَإِنَّهَا هَيَفَاءُ شَمْعٍ نَجْلَاءُ، إِنْ تَكَلَّمْتَ تَغْتَنُّ، وَإِنْ قَامَتْ تَنْتَنُ، وَإِنْ مَشَتْ ارْتَجَّتْ، وَإِنْ قَعَدَتْ تَبَتَّ، تُقْبَلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبَرُ بِشَمَانٍ، بِشَفْرِ كَالْأَفْحَوَانِ، بَيْنَ رَجُلَيْهَا كَالْتَقَعِبِ الْمَكْفَأِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ عَلِمْتَ الصِّفَةَ، وَمَنْعَهُ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى نِسَائِهِ.

ذَكَرَ قِسْمَةَ غَنَائِمِ حَتَيْنَ

لَمَّا رَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنَ الطَّائِفِ سَارَ حَتَّى نَزَلَ الْجَعْفَرَانَةَ، وَأَتَتْهُ وَفُودُ هَوَازِنَ بِالْجَعْرَانَةِ وَقَدْ أَسْلَمُوا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا أَصْلُ وَعَشِيرَةٌ، وَقَدْ أَصَابَنَا مَا لَمْ يَخْفُ عَلَيْكَ، فَامْنُنْ عَلَيْنَا مِنْ اللَّهِ عَلَيْكَ. وَقَامَ زَهِيرُ بْنُ صُرْدٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، وَهُمْ الَّذِينَ أَرْضَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا فِي الْحِظَائِرِ عَمَّاتُكَ وَخَالَاتُكَ وَحَوَاضَتُكَ، وَلَوْ أَنَا أَرْضَعْنَا الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَيْمَرَ الْغَسَّانِي أَوْ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ لَرَجَوْنَا عَطْفَهُ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَكْفُولِينَ! ثُمَّ قَالَ:

اَمْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ فَذَلِكَ الْكَرَمُ نَرْجُوهُ وَنُدْخِرُ اَمْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ عَاقَبَهَا قَدَرٌ مَمْرُوقٌ شَمَلَهَا فِي دَهْرٍ غَيْرِ (٢٦٩/٢)

فِي آيَاتٍ. فَخَرِجَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بَيْنَ أِبْنَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ، فَاخْتَارُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، فَقَالَ: أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدِ

هَذَا، إِنَّمَا هُوَ غُلَامٌ نَصْرَانِيٌّ، وَأَرَاهُ قَتْلَى تَقِيْفٍ مُحْتَسِنٍ.

وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِي الطَّرِيقِ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ، فَقَالَ: مَنْ قَتَلَهَا؟ قَالَ: خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ. فَقَالَ لِبَعْضِ مَنْ مَعَهُ: أَدْرُكَ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَنْهَاكَ أَنْ تَقْتُلَ امْرَأَةً أَوْ وَلِيدًا أَوْ عَسِيفًا. وَالْعَسِيفُ الْأَجِيرُ.

وَكَانَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ بِأَوْطَاسٍ فَارَسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَبَا عَامِرَ الْأَشْعَرِيَّ، عَمَّ أَبِي مُوسَى، فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ بِهِمْ، قِيلَ رَمَاهُ سَلَمَةُ بْنُ دُرَيْدٍ بْنُ الصَّمَّةِ، وَقَتَلَ أَبُو مُوسَى سَلَمَةَ هَذَا بَعْمَهُ أَبِي (٢٦٦/٢) عَامِرَ، وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ بِأَوْطَاسٍ، وَظَفَرَ الْمُسْلِمُونَ بِالْغَنَائِمِ وَالسَّبَايَا، فَسَاقُوا فِي السَّبْيِ الشِّيمَاءَ ابْنَةَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ، فَقَالَتْ لَهُمْ: إِنِّي وَاللَّهِ أَخْتُ صَاحِبِكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ، فَلَمْ يَصْدُقْهَا حَتَّى أَتَوْا بِهَا النَّبِيَّ ﷺ. فَقَالَتْ لَهُ: إِنِّي أَخْتُكَ. قَالَ: وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: عَضَّةٌ عَضَضْتُهَا فِي ظَهْرِي وَأَنَا مَتَوَرِّكُكَ. فَعَرَفَهَا وَيَسَّطَ لَهَا رَدَاءَهُ وَاجْلَسَهَا عَلَيْهِ وَخَيْرَهَا فَقَالَ: إِنْ أَحْبَبْتَ فَعَنْدِي مَكْرَمَةٌ مُحِبَّةٌ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أَمْتَعَكَ وَتَرْجِعِي إِلَى قَوْمِكَ. قَالَتْ: بَلْ تَمَتَّنِي وَتَرُدَّنِي إِلَى قَوْمِي، فَفَعَلَ.

وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بِالسَّبَايَا وَالْأَمْوَالِ، فَجُمِعَتْ إِلَى الْجَعْفَرَانَةِ، وَجُعِلَ عَلَيْهَا بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخَزَاعِيَّ.

وَاسْتَشْهَدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِحَتَيْنِ آيَمُنُ بْنُ أُمِّ آيَمُنٍ، وَيزِيدُ بْنُ رَمَّةَ بْنِ الْأَسْوَدِ ابْنَ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ وَغَيْرَهُمَا.

ذَكَرَ حِصَارَ الطَّائِفِ

لَمَّا قَدِمَ الْمَنْهَزَمُونَ مِنْ تَقِيْفٍ وَمَنْ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَى الطَّائِفِ أَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ مَدِينَتَهُمْ وَاسْتَحْصَرُوا وَجَعَلُوا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. فَسَارَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ بِبُخْرَةِ الرُّغَاءِ قَبْلَ وَصُولِهِ إِلَى الطَّائِفِ قَتَلَ بِهَا رَجُلًا مِنْ بَنِي لَيْثٍ قِصَاصًا، كَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ هُذَيْلٍ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ، وَهُوَ أَوَّلُ دَمٍ أُقِيدَ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَسَارَ إِلَى تَقِيْفٍ فَحَصَرَهُمْ بِالطَّائِفِ نِيفًا وَعِشْرِينَ يَوْمًا وَنَصَبَ عَلَيْهِمْ مَنْجَنِيْقًا وَأَشَارَ بِهِ سُلَيْمَانُ الْفَارَسِيُّ، وَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا، حَتَّى [إِذَا] كَانَ يَوْمَ الشَّدْحَةِ عِنْدَ جِدَارِ الطَّائِفِ دَخَلَ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ دَبَابَةِ عَمَلُوهَا ثُمَّ زَفَعُوا بِهَا إِلَى جِدَارِ الطَّائِفِ، فَارْسَلَتْ عَلَيْهِمْ تَقِيْفٌ سَكَّكَ الْحَدِيدُ الْمُخْصَاةَ، فَخَرَجُوا مِنْ تَحْتِهَا، فَرَمَاهُمْ مَنْ بِالطَّائِفِ بِالْنبْلِ فَقَتَلُوا (٢٦٧/٢) رَجُلًا. فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بِقَطْعِ أَعْنََابِ تَقِيْفٍ، فَقَطَعَتْ، وَنَزَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ نَفَرٌ مِنْ رَقِيقِ أَهْلِ الطَّائِفِ فَأَعْتَقَهُمْ، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرَةَ نَفِيعُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ أَبُو بَكْرَةَ بِبَكْرَةَ نَزَلَ فِيهَا، وَغَيْرِهِ. فَلَمَّا أَسْلَمَ أَهْلُ الطَّائِفِ تَكَلَّمَ سَادَاتُ أَوْلَئِكَ الْعَبِيدِ فِي أَنْ يَرُدَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِلَى الرِّقِّ فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ، أَوْلَئِكَ عِتْقَاءُ اللَّهِ.

ثُمَّ إِنَّ خَوِيلَةَ بِنْتَ حَكِيمِ السُّلَمِيَّةِ، وَهِيَ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْطِنِي إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الطَّائِفَ حُلَيَّ بَادِيَةَ بِنْتِ

وقال رجل من الصحابة: يا رسول الله أعطيت عينة والأقرع وترك جُعيل بن سُراقه. فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لجُعيل خيرٌ من طلاع الأرض رجالاً كلهم مثل عينة والأقرع. ولكي تألفهما وولت جُعيلاً إلى إسلامه.

وقيل: إن ذا الخُوَيرة التيمي في هذه القسمة قال لرسول الله ﷺ: إنك لم تعدل اليوم. فقال رسول الله ﷺ: ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: ألا تقتله؟ فقال: دعوه، ستكون له شعبة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية. وقيل: إن هذا القول إنما كان في مال بعث به علي من اليمن إلى رسول الله ﷺ، فقسمة بين جماعة منهم: عينة والأقرع وزيد الخيل.

قال أبو سعيد الخُدري: لما أعطى رسول الله ﷺ، ما أعطى من تلك الغنائم في قريش وقبائل العرب ولم يُعط الأنصار شيئاً وجدوا في أنفسهم حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه فأخبر سعد بن عُبادة رسول الله ﷺ بذلك، فقال له: فأين أنت يا سعد؟ قال: أنا من قومي. قال: فاجمع قومك لي، فجمعهم. فأتاهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله بي؟ وفقرأ فأنغانكم الله بي؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي؟ قالوا: بلى والله يا رسول الله، ولله ورسوله المَن والفضل. فقال: ألا تجيبوني؟ قالوا: بماذا نجيبك؟ فقال: والله لو شتم لقتلتم فصدقتم: أتينا مكذِباً فصدقناك، ومخلولاً فنصرناك، وطريداً فأوريناك، وعائلاً فواسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً لئسَلُوا وولكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون أن ينهب الناس بالثأب والبعر وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكُم؟ والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنتُ أمراً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ (٢٧٢/٢) شعب الأنصار، اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً. وتفرقوا.

ثم اعتمر رسول الله ﷺ، من الجفراة وعاد إلى المدينة، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد، وترك معه معاذ بن جبل يفقه الناس، وحجَّ عتاب بن أسيد بالناس، وحجَّ الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج، وعاد رسول الله ﷺ، إلى المدينة في ذي القعدة أو ذي الحجة.

وفيهما بعث رسول الله ﷺ، عمرو بن العاص إلى جُبَيْر وعيَّاذ ابني الجُلْدَنِي من الأزديَّان مصدقاً، فأخذ الصدقة من أغنيائهم وردَّها على فقرائهم، وأخذ الجزية من المجوس، وهم كانوا أهل البلد، وكان العرب حولها، وقيل سنة سبع.

وفيهما تزوج رسول الله ﷺ، الكلابة، واسمها فاطمة بنت

المطلب فهو لكم، فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيك وأسأل فيكم. فلما صلى الظهر فعلوا ما أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: ما كان لي ولبنِي عبد المطلب فهو لكم، وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله. وقال الأقرع بن حابس: ما كان لي ولبنِي تميم فلا. وقال عينة بن حصن: ما كان لي وللفزارة فلا. وقال عباس بن مرداس: ما كان لي ولسليم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله. فقال: وهتموني. فقال رسول الله ﷺ: مَنْ تمسك بحقه من السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم.

وسأل رسول الله ﷺ، عن مالك بن عوف، فقيل: إنه بالطائف. فقال: أخبروه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة بعير. فأخبر مالك بذلك، فخرج من الطائف سراً ولحق برسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه، واستعمله رسول الله ﷺ، على قومه وعلى مَنْ أسلم من تلك القبائل التي حول الطائف، فأعطاه أهله وماله ومائة بعير. وكان يقاتل بمن أسلم معه من ثَمالة وفهم وسَلَمَة نقيفاً، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه، حتى ضيق عليهم.

ولما فرغ رسول الله ﷺ، من ردِّ سبايا هوازن ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيثا، حتى القوه إلى شجرة، فاختطف رداؤه، فقال: ردوا علي رداي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نَعَمَ لقسمتها عليكم ثم لاتجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. (٢٧٠/٢) ثم رفع وبرة من سنام بعير وقال: ليس لي من فينكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس وهو مردود عليكم. ثم أعطى المؤلفة قلوبهم، وكانوا من أشرف الناس، يتألفهم على الإسلام، فأعطى أبا سفيان وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، والعلاء بن جارية الثقفي، والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وسُهَيْل بن عمرو، وخُوَيط بن عبد العزى، وعينة بن حصن، والأقرع بن حابس، ومالك بن عوف النصري، كل واحد منهم مائة بعير، وأعطى دون المائة رجالاً، منهم: مخرمة بن نوفل الزُهري، وعمير بن وهب، وهشام بن عمرو، وسعيد بن يربوع، وأعطى العباس بن مرداس أباعر، فسخطها وقال:

كَانَتْ يَهَابُ لَا تَلَايْتُهُمَا
وَلِيقَاضِي الْقَوْمِ أَنْ يَرْقِدُوا
فَأَصْبَحَ نَهْبِي وَنَهْبُ الثُّمَيَّةِ
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تَبَدُّلٍ
إِلَّا أَفْئِلًا أُعْطِيَتْهَا
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا
بَكَرِي عَلَى الْمُهَرِّ فِي الْأَجْرِ
إِذَا هَجَعَ النَّاسُ لَمْ أَهْجِعْ
لِي بَيْنَ عَيْنَةٍ وَالْأَقْرَعِ
فَلَمْ أُعْطِ شَيْئاً وَلَمْ أَتُنَّعْ
عَلَيْدَ قَوَائِمِهَا الْأَرْعِ
يَفُوقَانِ مِرْدَاسٍ فِي الْمَجْمَعِ
وَمَنْ تَفْصَحَ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعْ
فَاعْطَاهُ حَتَّى رَضِيَ.

الضحّاك بن سفيان، فاختارت الدنيا، وقيل: إنها استعادت منه ففارقها.

وفيهما ولدت مارية إبراهيم ابن النبي، ﷺ، في ذي الحجة، فدفعه إلى أم بردة بنت المنذر الأنصارية [كانت ترضعه] وزوجها البراء بن أوس الأنصاري. وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول الله، ﷺ، فأرسلت أبا رافع إلى النبي، ﷺ، يشّره بإبراهيم، فوهب له مملوكاً، وغار نساء النبي، ﷺ، وعظم عليهن حين رزقت مارية منه ولداً.

وفيهما بعث رسول الله، ﷺ، كعب بن عمير إلى (٢٧٣/٢) ذات إطلاح من الشام إلى نفر من قضاة يدعوهم إلى الإسلام ومعه خمسة عشر رجلاً، فوصل إليهم فدعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، وكان رئيس قضاة رجلاً يقال له سدوس، فقتلوا المسلمين ونجا

عمير فتقدم إلى المدينة. وفيها بعث أيضاً عبيدة بن حصن الغزاري إلى بني العنبر من تميم، فأغار عليهم وسبى منهم نساء، وكان على عائشة عتي رقية من بني إسماعيل، فقال لها رسول الله، ﷺ: هذا سبي بني العنبر يقدم علينا فتعطيك إنساناً فتعتيقه. (٢٧٤/٢)

سنة تسع

ذكر إسلام كعب بن زهير

قيل: خرج كعب بن زهير بن أبي سلمى، وأبو سلمى ربيعة المُرَني، ومعه أخوه بجير حتى أتيا أبرق العزّاف، فقال له بجير: اثبت في غنمنا حتى آتي هذا الرجل، يعني رسول الله، ﷺ، فاسمع منه. فأقام كعب وسار بجير إلى رسول الله، ﷺ، فأسلم، وبلغ ذلك كعباً فقال:

الابلاغاني بجيراً رسالةً على أي شيءٍ ونسب غيرك فلنكا على خلقٍ لم تلتفوا أملاً ولا اباً عليه ولم تترك عليه إخواناً
سفاكاً أبو بكرٍ بكاسٍ رويةً فأنهك المأمون منها وعلكنا

فلما بلغ رسول الله، ﷺ، قوله غضب وأهمل دمه، فكتب بذلك بجير إلى أخيه بعد عود رسول الله، ﷺ، من الطائف وقال: النجاة النجاة، وما أدري أن تتلفت، ثم كتب إليه: إذا أتاك كتابي هذا فأسلم وأقبل إليه فإنه لا يأخذ مع الإسلام بما كان قبله. فأسلم كعب وجاء حتى أناخ راحلته بباب المسجد، ورسول الله، ﷺ، مع أصحابه، قال كعب: فعرفته بالصفة فتخطيت الناس إليه فأسلمت وقلت: الأمان يا رسول الله، هذا مقام العائذ بك. قال: مَنْ أنت؟ فقلت: كعب بن زهير. قال: الذي يقول، ثم التفت إلى أبي بكر فقال: (٢٧٥/٢) كيف قال؟ فأنشده أبو بكر الأبيات التي أولها:

الا بلغاني بجيراً رسالةً

فقال كعب: ما هكذا قلت يا رسول الله، إنما قلت:

سفاكاً أبو بكرٍ بكاسٍ رويةً فأنهك المأمون منها وعلكنا
فقال رسول الله، ﷺ، مأمون والله. فنتجهته الانتصار وأغلظت

له، ولأنت له قريش وأحبّت إسلامه، فأنشده قصيدته التي أولها:
بأنت سعد قلبي اليوم تبسول مني إثمها لم يفد مكبول
فلما انتهى إلى قوله:

وقال كل خليل كنت آملته لا ألهيك إني عنه مشغول
ثبت أن رسول الله أوعنسي والعفو عند رسول الله مأثول
في فتية من قريش قال قائلهم بطن مكة لما أسلموا رؤلوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا يسل نمازيل
لا يقع الطعن إلا في تخويرهم وما لهم عن حياض الموت تهليل
نظر رسول الله، ﷺ، إلى قريش فأوصا إليهم أن اسمعوا، حتى قال:

يمشون نفي الجمال الزهر يفضيهم ضرب إذا عرد السود التنايل
يُعرض بالأنصار لغلظتهم التي كانت عليه، فأنكرت قريش قوله وقالوا: (٢٧٦/٢) لم تمدحنا إذ هجوتهم، ولم يقبلوا ذلك منه، وعظم على الأنصار هجوه، فشكوه، فقال يمدحهم:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقبب من صالحي الأنصار
الباطلين فوسفهم وديامهم يوم الهياج وسطوة الجبار
يتلهرون كأنه نسك لهم بداء من قتلوا من الكفار

في أبيات. فكساه النبي، ﷺ، بردة كانت عليه، فلما كان زمن معاوية أرسل إلى كعب: أن بغنا بردة رسول الله. فقال: ما كنت لأوتر بثوب رسول الله أحداً. فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم، وهي البردة التي عند الخلفاء الآن.

وقيل: إنما أمر رسول الله، ﷺ، بقتله وقطع لسانه لأنه كان تشب بأم هانئ بنت أبي طالب.

(أبو سلمى بضم السين والإمالة، والمأمور بالراء، قال بعض العلماء: إنما كره رسول الله، ﷺ، ذلك لأن العرب كانت تقول لكل من يتكلم بالشيء من تلقاء نفسه مأمور، بالراء، يريدون أن الذي يقوله تأمره به الجن وإن كان رسول الله، ﷺ، مأموراً من الله تعالى ولكنه كره لعادتهم، فلما قال: المأمون بالنون، رضي به لأنه مأمون على الوحي. ويُجبر بالباء الموحدة المضمومة وبالجيم).

ذكر غزوة تبوك

لما عاد رسول الله، ﷺ، أقام بالمدينة بعد عوده من الطائف ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتجهز لغزو الروم (٢٧٧/٢) وأعلم الناس مقصدهم لبعد الطريق وشدة الحر وقوة العدو، وكان قبل ذلك إذا أراد غزوة ورى بغيرها.

وكان سببها أن النبي، ﷺ، بلغه أن هرقل ملك الروم ومن عنده من متصرة العرب قد عزموا على قصده، فتجهز هو والمسلمون

فدعا له. (٢٧٩/٢) وكان رسول الله ﷺ، حين مرّ بالحجر، وهو بطريقة، وهو منزل ثمود، قال لأصحابه: لا تشربوا من هذا الماء شيئا ولا تتوضأوا منه، وما كان من عجيب فائقوه واعلفوه الإبل ولا تاكلوا منه شيئا، ولا يخرج الليلة أحد إلّا مع صاحب له. ففعل ذلك الناس ولم يخرج أحد إلّا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته فأصابه جنون، وأمّا الذي طلب بعيره فاحتمله الريح إلى جبل طيء، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: ألم أنهكم أن لا يخرج أحد إلّا مع صاحب له؟ فأما الذي خنق فدعا له فشفي، وأمّا الذي حملته الريح فأهدته طيء إلى رسول الله بعد عودته إلى المدينة. وأصبح الناس بالحجر ولا ماء معهم، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فدعا الله فأرسل سحابة فأمطرت حتى روي الناس.

وكان بعض المنافقين يسير مع رسول الله ﷺ، فلما جاء المطر قال له بعض المسلمين: هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مازة.

وصلت ناقة رسول الله ﷺ، في الطريق فقال لأصحابه، وفيهم عمارة بن خزم، وهو عتي بدرّي: إن رجلاً قال إن محمداً يخبركم الخبر من السماء وهو لا يدري أين ناقتي، وإني والله لا أعلم إلّا ما علمني الله عز وجل، وهي في الوادي في شعب كذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا فأنهروها، فرجع عمارة إلى أصحابه فخبّرهم بما قال رسول الله ﷺ، عن الناقة تعجباً مما رأى. وكان زيد بن لُصَيْتِ القَيْنَقَاعِي منافقاً وهو في رحل عمارة قد قال هذه المقالة، فأخبر عمارة بأن زيداً قد قالها، فقام عمارة يطأ عنقه وهو يقول: في رحلي داهية ولا أدري! (٢٨٠/٢) أخرج عني يا عدو الله فرعم بعض الناس أن زيداً تاب [بعد ذلك] وحسن إسلامه، وقيل: لم يزل منهما حتى هلك.

ووقف بأبي ذرّ جملة فتخلف عليه، فقيل: يا رسول الله تخلف أبو ذرّ. فقال: ذروه فإن يك فيه خير فسيُلقَ به الله بكم، فكان يقولها لكل من تخلف عنه، فوقف أبو ذرّ على جملة، فلما أبطأ عليه أخذ رحله عنه وحمله على ظهره وتبع النبي ﷺ، ماشياً. فنظر الناس فقالوا: يا رسول الله هذا رجل على الطريق وحده. فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذرّ. فلما تأمله الناس قالوا: هو أبو ذرّ. فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله أبا ذرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعَث وحده، ويشهد عصابة من المؤمنين.

فلما نفى عثمان أبا ذرّ إلى الرَبِثَةِ أصابه بها أجله ولم يكن معه إلّا امرأته وغلّامه، فأوصاهما أن يغسلاه ويكفّناه ثم يضعاه على الطريق، فأول ركب يمرّ بهما يستعينا بهما على دفنهما؛ ففعل ذلك فاجتاز بهما عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق، فأعلمته امرأة أبي ذرّ بموته. فبكى ابن مسعود وقال: صدق رسول الله ﷺ، تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبْعَث وحدك؛ ثم واروه.

وساروا إلى الروم. وكان الحرّ شديداً، والبلاد مجلبة، والناس في عُسرة، وكانت الثمار قد طابت، فأحبّ الناس المقام في ثمارهم فتجهّزوا على كره، فكان ذلك الجيش يسمّى جيش العُسرة. فقال رسول الله ﷺ، للجدّ بن قيس، وكان من رؤساء المنافقين: هل لك [في] جلد بني الأصفر؟ فقال: والله لقد عرف قومي حبّي للنساء، وأخشى أن لا أصبر على نساء بني الأصفر، فإن رأيت أن تأذن لي ولا تفتني. فقال رسول الله ﷺ: قد أذنت لك، فانزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَذْنُ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ [التوبة، ٤٩] الآية؛ وقال قائل من المنافقين: لا تنفروا في الحرّ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة، ٨١].

ثم إن النبي ﷺ، تجهّز وأمر بالنفقة في سبيل الله، وأنفق أهل الغنى، وأنفق أبو بكر جميع ما بقي عنده من ماله، وأنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم منها، قيل: كانت ثلاثمائة بعير وألف دينار.

ثم إن رجلاً من المسلمين أتوا النبي ﷺ، وهم البكاؤون، وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وكانوا أهل حاجة، فاستحملوه. فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا يكون، فلقبهم يامين بن عُمَيْر بن كعب النضري فسألهم عما ييكلهم فاعلموه، فأعطى أبا ليلى (٢٧٨/٢) عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مُعَوَّل المُنْزِي بعيراً، فكانا يعتقبانه مع رسول الله ﷺ.

وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إلى رسول الله ﷺ، فلم يعذرهم الله، وكان عدّة من المسلمين تخلّفوا من غير شك، منهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة.

فلما سار رسول الله ﷺ، تخلف عنه عبد الله بن أبي المنافق فيمن تبعه من أهل النفاق، واستخلف رسول الله ﷺ، على المدينة سيباع بن عُرْطَةَ، وعلى أهله علي بن أبي طالب، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلّا استغلاً له. فلما سمع علي ذلك أخذ سلاحه ولحق برسول الله ﷺ، فأخبره ما قال المنافقون، فقال: كذبوا وإنما خلفتك لما ورائي، فارجع فأخلفني في أهلي وأهلك، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلّا أنه لا نبي بعدي. فرجع. فسار رسول الله ﷺ.

ثم إن أبا خيثمة أقام أياماً، فجاء يوماً إلى أهله، وكانت له امرأتان، وقد رشت كل امرأة منهما عريشها ويردت له ماء وصنعت طعاماً، فلما رآه قال: يكون رسول الله ﷺ، في الحرّ والريح وأبو خيثمة في الظلّ البارد والماء البارد مقيم! ما هذا بالنصف، والله ما أحلّ عريشاً منهما حتى ألحق برسول الله ﷺ. فهبّ زاده وخرج إلى ناضحه فركبه وطلب رسول الله ﷺ، فأدركه بتوك، فقال الناس: يا رسول الله هذا راكب مقبل. فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة. فقالوا: هو والله أبو خيثمة. وأتى رسول الله ﷺ، فأخبره بخبره،

(يامين النصريّ بالنون، والصاد المعجمة. وعبد الله بن مُغفل بالعين المعجمة، والغاء المشددة المفتوحة. وزيد بن لُصيت باللام المضمومة، والصاد المهملة المفتوحة، وآخره تاء مشددة من فوقها. وخِذام بن خالد بالخاء المكسورة، والذال المعجمتين. وأكْبِدر بالهمزة المضمومة، والكاف المفتوحة، والذال المهملة المكسورة، وآخره راء مهملة). (٢٨٣/٢)

ذكر قدوم غُرُوة بن مسعود الثقفيّ على رسول الله ﷺ

وفيها قدم غُرُوة بن مسعود الثقفيّ على النبيّ ﷺ، مسلماً، وقيل: بل أدركه في الطريق مرجعاً من الطائف، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال رسول الله ﷺ: إنهم قاتلوك. فقال: أنا أحب إليهم من أبكارهم، ورجا أن يوافقوه لمنزلته فيهم، فلما رجع إلى الطائف صعد إلى عليّة له وأشرف منها عليهم وأظهر الإسلام ودعاهم إليه، فرموه بالنبل، فأصابه سهم فقتله، فقيل له: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها إليّ، ليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله، فادفونوني معهم. فلما مات دفنوه معهم. وقال رسول الله ﷺ، فيه: إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه.

ذكر قدوم وفد ثقيف

وفي هذه السنة في رمضان قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ.

وسبب ذلك أنهم رأوا أنّ من يحيط بهم من العرب قد نصبوا لهم القتال وشنوا الغارات عليهم، وكان أشدهم في ذلك مالك بن عوف النصريّ، فلا يخرج منهم مال إلا نهب، ولا إنسان إلا أخذ، فلما رأوا عجزهم اجتمعوا وأرسلوا عبد ياليل بن عمرو بن عُتمير، والمحكم بن عمرو بن (٢٨٤/٢) وهب، وشُرَّخيل بن غيلان، وهؤلاء من الأحلاف، وأرسلوا من بني مالك عثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف، ونُعمير بن خُرْشة، فخرجوا حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فأنزلهم في قبة في المسجد، فكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي بينهم وبين النبيّ ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم ما يأكلونه مع خالد، وكانوا لا يأكلون طعاماً حتى يأكل خالد منه، حتى أسلموا.

وكان فيما سألو رسول الله ﷺ، أن يدع الطاغية، وهي السلات، لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى عليهم، وكان قصدهم بذلك أن يتسلّموا [بتركها] من سفاهتهم ونسائهم، فزّلوا إلى شهر فلم يجبههم، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه، فأجابوا وأسلموا. وأمر عليهم رسول الله ﷺ، عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم، لما رأى من حرصه على الإسلام والتفقه في الدين. ثم رجعوا إلى بلادهم، وأرسل رسول الله ﷺ، معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب ليهدا الطاغية، فتقدم المغيرة فهدمها، وقام قومه

وانتهى رسول الله ﷺ، إلى تبوك، فأتى يوحنا بن ربيعة صاحب أيلة فصالحه على الجزية وكتب له كتاباً، فبلغت جزيتهم ثلاثمائة دينار، ثم زاد فيها الخلفاء من بني أمية. فلما كان عمر بن عبد العزيز لم يأخذ منهم غير ثلاثمائة، وصالح أهل أدُرَج على مائة دينار في كلّ رجب، وصالح أهل جَزَاء على الجزية، وصالح أهل مَقْنَا على ربع ثمارهم. (٢٨١/٢) وأرسل رسول الله ﷺ، خالد بن الوليد إلى أكْبِدر ابن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وكان نصرانياً من كِنَسدة، فقال لخالد: إنك تجده يصيد البقر. فخرج خالد بن الوليد حتى إذا كان من حصنه على منظر العين وأكيدر على سطح داره فباتت البقر تحكّ بقرونها باب الحصن، فقالت امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله، ثم نزل وركب فرسه ومعه نفر من أهل بيته، ثم خرج يطلب البقر، فتلقتهم خيل رسول الله ﷺ، وأخذته وقتلوا أخاه حساناً، وأخذ خالد من أكيدر قباء يبيع مَخْرُوص بالذهب فأرسله إلى رسول الله ﷺ، فجعل المسلمون يلمسونه ويتعجبون منه. فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن مُعاذ في الجنة أحسن من هذا. وقدم خالد بأكيدر على رسول الله ﷺ، فحقن دمه وصالحه على الجزية وخلّى سبيله.

وأقام رسول الله ﷺ، بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها، ولم يقدم عليه الروم والعرب المنتصرة، فعاد إلى المدينة. وكان في الطريق ماء يخرج من وشل لا يروي إلا الراكب والراكبين بواقي يقال له وادي المُشَقَّق، فقال رسول الله ﷺ، مَنْ سَبَقَنَا فلا يستقي منهُ شيئاً حتى نأتيه، فسبقه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه، فلما جاءه رسول الله ﷺ، أخبروه بفعلهم، فلعنهم ودعا عليهم، ثم نزل رسول الله ﷺ، إليه فوضع يده تحته [وجعل] يصب إليها سيرا من الماء، فدعا فيه ونضحه في الوشل، فأنخرق الماء جرياً شديداً، فشرب الناس واستقوا. وسار رسول الله ﷺ، حتى قارب المدينة، فأتاه خبر مسجد الضُرار، فأرسل مالك بن النُخْشَم فحرقه (٢٨٢/٢) وهدمه، وأنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة، ١٠٧] الآيات. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً، وكان قد أخرج من دار خدام بن خالد من بني عمرو بن عوف. وقدم رسول الله ﷺ، وكان قد تخلّف عنه رهط من المنافقين، فأتوه يحلفون له ويعتذرون، فصفع عنهم رسول الله ﷺ، ولم يعذرهم الله ورسوله، وتخلّف أولئك النفر الثلاثة، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، تخلّفوا من غير شك ولا نفاق، فنهى رسول الله ﷺ، عن كلامهم، فاعتزلهم الناس، فبقوا كذلك خمسين ليلة، ثم أنزل الله توبتهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الآيات؛ إلى قوله: ﴿ضَاقِينَ﴾ [التوبة، ١١٨]، وكان قدوم رسول الله ﷺ، [المدينة من تبوك] في رمضان.

من بني شُعَيْب دونه خوفاً أَنْ يُرْمَى بِهِمْ، وخرج نساء قُفَيْف حُسْراً أَحَدٌ.
يَكِينٌ عَلَيْهَا، وَأَخَذَ حَلِيَّهَا وَمَالَهَا.

ذكر قدوم الوفود على رسول الله ﷺ

لما افتتح رسول الله ﷺ، مَكَّةَ وأسلمت قُفَيْف وفرغ من تبوك ضربت إليه وفودُ العرب من كلِّ وجه، وإنَّما كانت العرب تنتظر بإسلامها قريشاً إذ كانوا إمام النَّاس وأهل الحرم وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، لا تنكر العرب ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ، وخلافه، فلمَّا فُتِحَتْ مَكَّةَ (٢٨٧/٢) وأسلمت قريش عرفت العرب أنَّها لا طاقة لها بحرب رسول الله ﷺ، ولا عداوته، فدخلوا في الدِّين أفواجا، كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

وقدمت وفودهم في هذه السنة، قدم وفد بني أسد على رسول الله ﷺ، وقالوا: أتيناك قبل أن ترسل إلينا [رسولاً]، فأنزل الله تعالى: ﴿يُمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]، الآية. وفيها قدم وفد بلقي في شهر ربيع الأول. وفيها قدم وفد الزَّارِين، وهم عشرة نفر.

وفيها قدم على رسول الله ﷺ، وفد بني تميم مع حاجب بن زُرَّارة بن عُدَس، وفيهم الأقرع بن حابس والزُّبَيْرَان بن بدر وعمرو بن الأَهم وقيس بن عاصم والخثات ومعتمر بن زيد في وفد عظيم ومعهم عَيْنَةُ بن حِصْن الفزاري، فلمَّا دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ، [من وراء حُجْرَاتِهِ] أَنْ أخرجَ إلينا يا مُحَمَّد، فأذى ذلك رسول الله ﷺ، وخرج إليهم، فقالوا: جئنا نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فأذن لهم، فقام عَطَّارْد فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظماً نفعل فيها المعروف وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثرهم عدداً، فمن يفاخرنا فليعدد مثل عدداً.

فقال رسول الله ﷺ، لثابت بن قيس: أجب الرجل. فقام ثابت فقال:

الحمد لله الذي له السماوات والأرض خَلَقَهُ، قضى فيهنَّ أمره، ووسَّعَ (٢٨٨/٢) كرميه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثمَّ كان من قدرته أَنْ جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسباً، وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حبساً، فأنزل عليه كتابه، واتمَّنه على خلقه، فكان خيرة الله تعالى من العالمين، ثمَّ دعا النَّاس إلى الإيمان فأمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمته، أكرم النَّاس نسباً وأحسن النَّاس وجوهاً وخير النَّاس فعلاً. ثمَّ كان أوَّل الخلق استجابة لله حين دعا نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل النَّاس حتى يؤمنوا، فَمَنْ آمَنَ بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومَنْ كَفَرَ

وكان أبو مَلِيح بن عروة بن مسعود وقارب بن الأسود بن مسعود قدما على رسول الله ﷺ، لما قُتِلَ عروة والأسود، فأمرهما رسول الله ﷺ، أَنْ يقضيا منه دَيْنَ عروة والأسود ابني مسعود، ففعلوا، وكان الأسود مات كافراً، فسأل ابنه قارب بن الأسود رسول الله ﷺ، أَنْ يقضي دَيْنَ أبيه، فقال: إِنَّهُ كافر فقال: يصل مسلماً ذا قرابته، يعني أَنَّهُ أسلم فيصل أباه وإن كان مشركاً. (٢٨٥/٢)

ذكر غزوة طيء وإسلام عدي بن حاتم

في هذه السنة في شهر ربيع الآخر أرسل النبي ﷺ، علي بن أبي طالب في سرية [إلى ديار] طيء وأمره أَنْ يهدم صنمهم الفلُس، فسار إليهم وأغار عليهم، فغنم وسبى وكسر الصنم، وكان متقلداً سيفين يقال لأحدهما مخذم وللآخر رُسُوب، فأخذهما علي وحملهما إلى رسول الله ﷺ، وكان الحارث بن أبي شمر أهدى السَّيْفَيْن للصنم، فعُلِّقا عليه، وأسر بتاً لحاتم الطائي، وحملت إلى رسول الله ﷺ، بالمدينة فاطلقها.

وأما إسلام عدي بن حاتم فقال عدي: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا أختي وناساً فاتوا بهم رسول الله ﷺ، فقالت أختي: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامننْ علي من الله عليك. فقال: وَمَنْ وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم. قال: الذي فر من الله ورسوله! فمن عليها، وإلى جانبه رجل قائم وهو علي بن أبي طالب، قال: سلبه حُمْلَاناً، فسألته، فأمر لها به وكساه وأعطاهما نفقة. قال عدي: وكنتُ ملك طيء أخذ منهم المِرْبَاع وأنا نصراني، فلمَّا قدمت خيل رسول الله ﷺ، هربتُ إلى الشام من الإسلام وقتلُ أكون عند أهل ديني، فبينما أنا بالشام إذ جاءت أختي وأخذت تلومني على تركها وهربي بأهلي دونها، ثمَّ قالت لي: أرى أَنْ تلحق بمحمد سريعاً فإن كان نبياً كان (٢٨٦/٢) للسابق فضله، وإن كان ملكاً كنت في عزٍّ وأنت أنت. قال: فقدمتُ على رسول الله ﷺ، فسلمتُ عليه وعرفتُ نفسي، فأنطلق بي إلى بيته، فلقيتُه امرأةً ضعيفةً فاستوقفتُ، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقلت: ما هذا بملِك، ثمَّ دخلتُ بيته فأجلسني على وسادة وجلس على الأرض، فقلتُ في نفسي: ما هذا ملك. فقال لي: يا عدي إِنَّكَ تأخذ المِرْبَاع وهو لا يحلُّ في دينك، ولعلَّكَ إِنَّمَا يمتنع من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدونا، والله ليفيضنَّ المال فيهم حتى لا يوجد مَنْ يأخذه، والله لتسمعنَّ بالمرأة تسير من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله، والله لتسمعنَّ بالقصور البيض من بابل وقد فُتحت. قال: فأسلمتُ، فقد رأيتُ القصور البيض وقد فُتحت، ورأيتُ المرأة تخرج إلى البيت لا تخاف إلا الله، والله لتكوننَّ الثالثة ليفيضنَّ المال حتى لا يقبله

جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، والسلام عليكم.
فقالوا: يا رسول الله ائذن لشاعرنا، فأذن له، فقام الزريقان بن بدر فقال:

نحنُ الكِرامُ فلا حيَّ يُعاديُنَا
وكم قُتِرْنَا مِنَ الأحياءِ كلِّهمْ
ونحنُ يُطْعِمُ عندَ القحطِ مَطْعَمُنَا
بما تَرَى النَّاسُ تَاتِينَا سِرَاهُمْ
فَتَحَرَّ الكُومُ عَطِياً فِي أَرْوَمِنَا
فَلَا تَرَانَا إِلَى حَيٍّ نَفَاخِرُهُمْ
إِنَّا إِنِّيْنَا وَلَسْنَا بِأَيِّ لَنَا أَحَدٌ
فَمَنْ يَفَاخِرُنَا فِي ذَاكَ يَعْرِفُنَا

مِنَّا المُلُوكُ وَفِينَا تُصَنَّبُ السَّيْعُ
عِنْدَ النَّهَابِ وَفَضْلُ العُزْبِ يُبَيِّعُ
مِنَ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُوْنَسِ القَرْعُ
مِنْ كُلِّ لَوْحٍ مُرَبَّعاً نَمَّ نَصْطَنُ
لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أُنْزِلُوا شَبَّوْا
إِلَّا اسْتَحْلَاوْا وَكَادَ الرُّؤْسُ يَقْتَلَعُ
إِنَّا كُنَّا عِنْدَ الفَخْرِ نَرْتَبِعُ
فَيَرْجِعُ القَوْلُ وَالْأَخْبَارُ تُسَمِّعُ (٢٨٩/٢)

قال: وكان حسان بن ثابت غائباً، فدعاه رسول الله، ﷺ، ليجيب شاعرهم. قال حسان: فلما سمعتُ قوله قلت على نحوه:

إِنَّ النُّوَابِثَ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتَهُمْ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَبُوا عُدُوهُمْ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سِرِّيَّتُهُ
سَجِيَّةً تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُخَلَّنَةٍ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ
لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ
إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمًا فَلَا سَبْقَهُمْ
أَعِفَّةٌ ذُكِّرَتْ فِي الْوَحْيِ عَنْهُمْ
لَا يَخْلَوْنَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ
إِذَا نَصَبْنَا لِحْيَ لَمْ نَدْبْ لَهُمْ
كَأَنَّهُمْ فِي الرُّغَى وَالْمَوْتُ مُكْتَبٌ
أَكْرَمَ بِقَوْمٍ رَسُولَ اللَّهِ شَيْئَهُمْ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الأحياءِ كُلِّهِمْ

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمُؤْتَى لِه، خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا؛ ثُمَّ أسلموا وأجازهم رسول الله، ﷺ، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْيَاسَ (٢٩٠/٢) يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الآيات [الحجرات: ٤].

(الختات بالخاء المعجمة، وتأتين كلَّ واحدة منهما معجمة باثنتين من فوق. وعُتِبَتْ بضم العين المهملة، ويأتين كلَّ واحدة منهما مثناة من تحت، ونون).

وفيها قدم على رسول الله، ﷺ، كُتِبَ ملوك جُمُير مقرَّين بالإسلام مع رسولهم الحارث بن عبد كلال والنعمان قُيْلَ ذِي رُعَيْن وهمدان، فأرسل إليه رُزْعَةُ ذُو يَزَنَ مالك بن مَرَّةَ الرهاوي بإسلامهم،

وكتب إليهم رسول الله، ﷺ، يأمرهم بما عليهم في الإسلام وينهاهم عما حرم عليهم.

وفيها قدم وفد بهراء على رسول الله، ﷺ، فتنزلوا على الجقداد بن عمرو.
وفيها قدم وفد بني البكاء.

وفيها قدم وفد بني قزارة فيهم خارجة بن حصن. وفيها قدم وفد ثعلبة بن مُقَدَّد.

وفيها قدم وفد سعد بن بكر، وكان وافدهم ضيمام بن ثعلبة، فسأل رسول الله، ﷺ، عن شرائع الإسلام وأسلم، فلما رجع إلى قومه قال رسول الله، ﷺ: لئن صدق ليدخلن الجنة؛ فلما قدم على قومه اجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بنست اللات والعزى! فقالوا: أتى البرص والجُدَامُ والجنون. فقال: ويحكم إنهما لا يضران ولا يفتعان، وإنَّ الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً وقد استنقذكم به ممَّا كنتم فيه؛ وأظهر إسلامه، فما أمسى ذلك اليوم في حاضره رجل مشرك ولا امرأة مشركة، فيما سُمِعَ بوافد قوم كان أفضل من ضيمام بن ثعلبة. (٢٩١/٢)

ذكر حج أبي بكر، رضي الله عنه

وفيها حجَّ أبو بكر بالناس ومعه عشرون بدنة لرسول الله، ﷺ، ولنفسه خمس بدنات، وكان في ثلاثمائة رجل، فلما كان بذِي الحُلَيْفَةِ أرسل رسول الله، ﷺ، في أثره عليّاً وأمره بقراءة سورة براءة على المشركين، فعاد أبو بكر وقال: يا رسول الله أنزل في شيء؟ قال: لا، ولكن لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني، ألا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وصاحبي على الحوض؟ قال: بلى، فسار أبو بكر أميراً على الموسم، فأقام الناس الحجَّ وحجَّت العرب الكُفَّارُ على عادتهم في الجاهلية، وعليّ يؤذَنُ ببراءة، فنادى يوم الأضحى: لا يحجَّنْ بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله، ﷺ، عهد فأجله إلى مدته. ورجع المشركون، فلام بعضهم بعضاً وقالوا: ما تصنعون وقد أسلمت قريش؟ فأسلموا.

وفي هذه السنة فُرِضَت الصدقات، وفُرق رسول الله، ﷺ، فيها عماله.

وفيها في شعبان توفيت أم كلثوم بنت النبي، ﷺ، وهي زوج عثمان بن عفَّان وغسلتها أسماء بنت عُفَيْس وصفية بنت عبد المطلب، وقيل: غسلتها نسوة من الأنصار، منهن أم عطية، وصلى عليها رسول الله، ﷺ، ونزل في حفرتها أبو طلحة.

وفيها مات عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وكان ابتداء مرضه في شوال، فلما توفي جاء ابنه عبد الله إلى النبي، ﷺ، فسأله

كذلك إلى خلافة عثمان. فلما ولي عليّ أبوه وقالوا: ننشدك الله خطك يمينك. فقال: إن عمر كان رشيد الأمر وأنا أكره خلافه، وكان عثمان قد أسقط عنهم مائتي حلة، وكان صاحب النجرائية بالكوفة يبعث إلى من بالشام والتواحي من أهل نجران يجيئونهم الحلل.

فلما ولي معاوية يزيد بن معاوية شكوا إليه تفرقهم وموت من مات منهم وإسلام من أسلم منهم، وكانوا قد قتلوا، وأروه كتاب عثمان، فوضع عنهم مائتي حلة تكلمة أربعمائة حلة. فلما ولي الحجاج العراق وخرج عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أتهم اللعاقين بموالاة وأتهمهم معهم فردهم إلى ألف وثلاثمائة حلة وأخذهم بحلل وشيء. فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فأنهم ونقصهم وإلحاح العرب عليهم بالغارة وظلم الحجاج، فأمر بهم فأحصوا ووجدوا على العشر من عدتهم الأولى، فقال: أرى هذا الصلح جزية وليس على أرضهم شيء وجزية المسلم والميت ساقطة، فآلزمهم مائتي حلة. فلما تولى يوسف بن عمر الثقفي ردّهم إلى أمرهم الأول (٢٩٥/٢) عصية للحجاج. فلما استخلف السفاح عمدوا إلى طريقه يوم ظهوره من الكوفة فآلقوا فيها الريحان ونشروا عليه، فأعجب ذلك من فعلهم، ثم رفعوا إليه أمرهم وتقرّروا إليه بأحواله بني الحارث بن كعب، فكلمه فيهم عبد الله ابن الحارث فردّهم إلى مائتي حلة. فلما ولي الرشيد شكوا إليه العمال فأمر أن يُعفوا من العمال وأن يكون مؤداهم بيت المال.

وفيها قدم وفد سلامان في شوال، وهم سبعة نفر، رأسهم حبيب الساماني. وفيها قدم وفد غُنيان في رمضان ووفد عامر في شهر رمضان أيضاً. وفيها قدم وفد الأزدي رأسهم صرد بن عبد الله في بضعة عشر رجلاً، فأسلم، وأمره رسول الله، ﷺ، على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد المشركين، فسار إلى مدينة جُرش، وفيها قبائل من اليمن فيهم خثعم، فحاصروهم قريباً من شهر فامتنعوا منه فرجع حتى كان بجبل يقال له كشر، فظن أهل جُرش أنه منهزم فخرجوا في طلبه فأدركوه، فعطف عليهم فقاتلهم قتالاً شديداً، وقد كان أهل جُرش يبعثوا رجلين منهم إلى رسول الله، ﷺ، ينظران حاله. فبينما هما عنده إذ قال: بأي بلاد الله شكر؟ فقالا: ببلادنا جبل يقال له كشر. فقال: إنه ليس بكشر ولكنه شكر، وإن يكن الله تتخّر عنه الآن. فقال لهما أبو بكر أو عثمان: ويحكمنا إنه ينمي لكما قومكما فأسألاه أن يدعو الله ليرفع عنهم، ففعل، فقال: اللهم ارفع عنهم، فخرجوا من عنده إلى قومه فوجداهم قد أصيبوا ذلك اليوم في تلك الساعة التي ذكر فيها النبي، ﷺ، حالهم، وخرج وفد جُرش إلى رسول الله، ﷺ، فأسلموا.

وفيها قدم وفد مُراد مع فروة بن مُسيك المُراذي على رسول الله، ﷺ، مفارقاً لمملوك كندة، وقد كان قبيل الإسلام يبين (٢٩٦/٢) مُراد وهمدان وقعة ظفرت [فيها] همدان وأكثرها القتل في مُراد، وكان يقال لذلك اليوم يوم الرّزم، وكان رئيس همدان الأجدع بن مالك

قبضه، فأعطاه، فكفّته فيه، وجاء رسول الله، ﷺ، ليصلي عليه، فقام عمر في صدره وقال: يا رسول الله اتصلي عليه وقد قال يوم (٢٩٢/٢) كذا كذا وكذا؟ يعدد أيامه، ورسول الله، ﷺ، يتسم ثم قال: آخر عني عُمر، قد خِرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]؛ ولوعلمت أن لو زدت على السبعين غفر لهم لزدت، ثم صلى عليه وقام على قبره حتى فرغ منه، فانزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] الآية.

وفيها نعى النبي، ﷺ، النجاشي للمسلمين، وكان موته في رجب سنة تسع، وصلى عليه رسول الله، ﷺ.

وفيها توفي أبو عامر الراهب عند النجاشي. (٢٩٣/٢)

سنة عشر

ذكر وفد نجران مع العاقب والسيد

وفيها أرسل رسول الله، ﷺ، خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً، فإن أجابوا أقام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام، وإن لم يفعلوا قاتلهم. فخرج إليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأجابوا وأسلموا، فأقام فيهم وكتب إلى رسول الله، ﷺ، يُعلمه إسلامهم، وعاد خالد معه وفدّهم فيهم قيس بن الحُصَيْن بن يزيد بن قينان ذي الغُصّة يزيد بن عبد المَدَّان وغيرهما، فقدموا على رسول الله، ﷺ، ثم عادوا عنه في بقية شوال أو في ذي الحجة، وأرسل إليهم عمرو بن حزم يعلمهم شرائع الإسلام ويأخذ صدقاتهم، وكتب معه كتاباً، وتوفي رسول الله، ﷺ، وعمرو بن حزم على نجران.

وأما نصارى نجران فإنهم أرسلوا العاقب والسيد في نفر إلى رسول الله، ﷺ، وأرادوا مبايعته، فخرج رسول الله، ﷺ، ومعه عليّ وفاطمة والحسن والحسين، فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها، ولم يباهلوه وصالحوه على ألفي حلة ثمن كل حلة أربعون درهماً، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله، ﷺ، (٢٩٤/٢) وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده ألا يقتلوا عن دينهم ولا يعشروا، وشرط عليهم أن لا يأكلوا الرِّبَا ولا يتعاملوا به. فلما استخلف أبو بكر عاملهم [بذلك]، فلما استخلف عمر أجلى أهل الكتاب عن الحجاز وأجلى أهل نجران، فخرج بعضهم إلى الشام وبعضهم إلى نجرانية الكوفة، واشترى منهم عقارهم وأموالهم. وقيل: إنهم كانوا قد كثروا فبلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا بينهم، فأتوا عمر بن الخطاب وقالوا: أجبنا، وكان عمر بن الخطاب قد خافهم على المسلمين فآغثنها فأجلاهم، فقدموا بعد ذلك ثم استقالوه فأبى، فبقوا

والد مسروق، وفي ذلك يقول قُروة:

فَإِنْ تَغْلِبَ فَعَلَابُونَ قِنَعًا وَإِنْ نَهَزَمَ فَغَيْرُ مَهْزِيْنَا
وَمَا إِنْ طَيْبًا جَبْنَ وَلَكِنْ مَنَابِتَا وَقَوْلُكُ أَخْرَيْنَا
كَذَلِكَ الدَّعْرُ دَوْلَتُهُ مِجَالًا تَكْرُ صُرُوفُهُ حِينًا وَحِينًا
فِي مَا يَسْرِبُ وَيُزْصِي وَلَوْ لَبِثْتَ غَضَارَتُهُ سِتِينًا
إِذَا انْقَلَبَتْ بِهِ كَرَاتٌ تَعْبِرُ فَالْفَى لِلأُولَى غَبَطُوا طَحِينًا
وَمَنْ يُغْطِ بِرَبِّهِ الدَّهْرَ مِنْهُمْ يَجِدُ رَبَّ الزَّمَانِ لَهُ خُورُنَا
فَلَوْ خَلَّدَ الْمُسُومُ إِذَا خَلَّتْنَا وَلَوْ بَقِيَ الْكِرَامُ إِذَا بَقَيْنَا
فَالْفَى ذَاكُمُ سَرَوَاتٍ قُورُومٍ كَمَا أَفْنَى الْقُرُورُ الْأَوَّلِينََا

ولما توجه قُروة إلى رسول الله ﷺ، مفارقاً لقومه قال:

لَمَّا رَأَيْتُ مُلُوكَ كِسْفَةِ أَعْرَضَتْ كَالرُّجْلِ خَانَ الرُّجْلَ عَزَقَ نَسَائِهَا
يَمْنْتُ رَاحَتِي أَوْ مَحْمَدًا أَرْجُو فَضَائِلَهَا وَخُنْتُ ثَرَائِهَا
فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ لَهُ: يَا قُروة هل ساءك ما
أصاب قومك يوم الرِّزْم؟ فقال: يا رسول الله مَنْ ذا يهيب قومه مثل
ما أصاب قومي ولم يسؤه ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: إِنَّ ذَلِكَ لَا
يَزِيدُ قَوْمَكَ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا خَيْرًا، فَاسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، صَلَّى
(٢٩٧/٢) اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى مُرَادٍ وَرُيُودٍ وَمَذْجٍ كُلِّهَا وَبَعَثَ مَعَهُ
خَالِدَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، فَكَانَ عَلَى الصَّدَقَاتِ إِلَى أَنْ تَوَفَّى رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ.

وفيهما أرسل قُروة بن عمرو الجُدَامِيَّ ثُمَّ النَّفْثَانِيَّ رَسُولًا إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بِإِسْلَامِهِ وَأَهْدَى لَهُ بَغْلَةً بِيضَاءً، وَكَانَ قُروة عَامِلًا
لِلرُّومِ عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعَرَبِ، وَكَانَ مَنَزَلُهُ مُعَانٍ فِي أَرْضِ الشَّامِ،
فَلَمَّا بَلَغَ الرُّومَ إِسْلَامَهُ طَلَبُوهُ حَتَّى أَسْرَوْهُ فَجَسَوْهُ، فَقَالَ فِي مَجْبَسِهِ
ذَلِكَ:

طَرَقْتُ سُلَيْمِي مُؤَهَّمًا فَتَجَانِي وَالرُّومُ بَيْنَ الْبَابِ وَالْقَرْيَانِ
صَدَّ الْخِيَالُ وَسَاءَ مَا قَدَرَايَ وَهَمَمْتُ أَنْ أَغْضِي وَقَدْ ابْكَنِي
لَا تَكْجِلُنِ الْعَيْنَ بَعْدِي إِثْمًا سَلَمْتِي وَلَا تَنْسِنَنَّ لِلْإِنْسَانِ
فَلَمَّا اجْتَمَعَتِ الرُّومُ لَصَلْبِهِ عَلَى مَاءٍ لَهُمْ يَقَالُ لَهُ عِفْرَى بِفِلَسْطِينَ
قَالَ:

الْأَقْلَ اتْنِي سَلَمْتِي بِأَنْ خَلِيلَهَا عَلَى مَاءٍ عِفْرَى فَوْقَ إِحْدَى الرُّوَاهِلِ
عَلَى نَاقَةٍ لَمْ يَلْقَحِ الْفَحْلُ أَمَهَا مَشْتَبَةً أَطْرَافُهَا بِالْمَتَاجِلِ
وَهَذَا مِنْ أَيْتَاتِ الْمَعَانِي. فَلَمَّا قَدِمُوهُ لِيَصْلِبُوهُ قَالَ:

بَلَّغْ سَرَاةَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْتِي سَلَمْتُ لِرَبِّي أَظْهَمِي وَمَقَامِي
ثُمَّ ضَرَبُوا عُنُقَهُ وَصَلَبُوهُ.

وفيهما قدم وفد رُبَيْدٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَعَ عَمْرٍو (٢٩٨/٢)
ابْنِ مَعْدِي كَرِبَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَدْ اسْتَعْمَلَ عَلَى رُبَيْدٍ وَمُرَادٍ
قُروةَ بْنَ مُسَيْكٍ فِي هَذِهِ السَّنَةِ قَبْلَ قُدُومِ عَمْرٍو، فَلَمَّا عَادَ عَمْرٍو مِنْ

عند رسول الله ﷺ، أَقَامَ فِي قَوْمِهِ بَنِي رُبَيْدٍ وَعَلَيْهِمْ قُروة، فَلَمَّا تَوَفَّى
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ارْتَدَّ عَمْرٍو.

وفيهما قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، وفيهم الجارود
بن عمرو، وكان نصرانيًّا فأسلم وأسلم من معه، وكان الجارود حسن
الإسلام، نَهَى قَوْمَهُ عَنِ الرَّدَّةِ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، لَمَّا ارْتَدَّوْا مَعَ
الْعُرُورِ، وَهُوَ الْمَنْذَرُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بَعَثَ
الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ قَبْلَ الْفَتْحِ إِلَى الْمَنْذَرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيِّ فَاسْلَمَ
وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، ثُمَّ هَلَكَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَبْلَ رَدَّةِ أَهْلِ
الْبَحْرَيْنِ، وَالْعَلَاءُ أَمِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْبَحْرَيْنِ.

وفيهما قدم وفد بني خَنِيفَةَ مُسَيْلِمَةَ، وَكَانَ مَنَزَلُهُ فِي دَارِ ابْنَةِ
الْحَارِثِ امْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَاجْتَمَعَ مُسَيْلِمَةُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ عَادَ
إِلَى الْبِمَامَةِ وَتَبَّأَ وَتَكَذَّبَ [لَهُمْ] وَأَدْعَى أَنَّهُ شَرِيكَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي
النَّبُوَّةِ، فَاتَّبَعَهُ بَنُو خَنِيفَةَ.

وفيهما قدم وفد كِنْدَةَ مَعَ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانُوا سِتْنَيْنِ رَاكِبًا،
فَقَالَ الْأَشْعَثُ: نَحْنُ بَنُو أَكْلِ الْمَرَارِ وَأَنْتَ ابْنُ أَكْلِ الْمَرَارِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ لَا نَقْفُوا أَمْنَا وَلَا نَنْتَفِي مِنْ أَيْبِنَا.

وفيهما قدم وفد محارب. وفيهها قدم وفد الرَّهَائِيْنِ، وَهُمْ بَطْنٌ مِنْ
مَذْحِجٍ.

(وَرَهَاءُ بَفَتْحِ الرَّاءِ، قَالَهُ عَبْدُ الْغَنِيِّ بْنُ سَعِيدٍ). وَفِيهَا قَدِمَ وَفَدُ
عَبَسَ. وَفِيهَا قَدِمَ وَفَدُ صَلِيفٍ، وَافَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فِي حِجَّةِ
الْوَادِعِ. وَفِيهَا قَدِمَ وَفَدُ خَوْلَانَ، وَكَانُوا عَشْرَةَ.

وفيهما قدم وفد بني عامر بن صَعْصَعَةَ فِيهِمْ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَأَرِيدُ
بْنُ قَيْسٍ (٢٩٩/٢) وَجَبَّارُ بْنُ سُلَيْمٍ، بِضَمِّ السِّينِ وَبِالْإِمَالَةِ، بَنُ مَالِكِ
بْنِ جَعْفَرٍ، وَكَانَ عَامِرُ يُرِيدُ الْغَدْرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: إِنَّ
النَّاسَ قَدْ أَسْلَمُوا فَاسْلَمْ. فَقَالَ: لَا أَتَّبِعُ عَقِبَ هَذَا الْفَتَى، ثُمَّ قَالَ
لَأَرِيدُ: إِذَا قَدِمْنَا عَلَيْهِ فَإِنِّي شَاغِلُهُ عَنْكَ فَاغْلُهُ بِالسِّيفِ مِنْ خَلْفِهِ. فَلَمَّا
قَدِمُوا جَعَلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ ﷺ، يَشْغَلُهُ لِفَتْكَ بِهِ أَرِيدُ، فَلَمْ يَفْعَلْ أَرِيدُ
شَيْئًا، فَقَالَ عَامِرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَأَمْلَأَنَّهَا عَلَيْكَ خَيْلًا وَرَجَالًا، فَلَمَّا وَلَّى
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ اكْفِنِي عَامِرًا فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ عَامِرُ لَأَرِيدُ:
لَيْمَ لَمْ نَقْتُلْهُ؟ قَالَ: كُلَّمَا هَمَمْتُ بِقَتْلِهِ دَخَلَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَتَّى مَا أَرَى
غَيْرَكَ أَفَاضْرِيكَ بِالسِّيفِ؟ وَرَجَعُوا، فَلَمَّا كَانُوا بِيَعِضِ الطَّرِيقِ أَرْسَلَ
اللَّهُ عَلَى عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ الطَّاعُونَ قَتْلَهُ، وَهُوَ لَفِي بَيْتِ امْرَأَةٍ سَلُولِيَّةَ
فَعَاتٍ وَجَعَلَ يَقُولُ: يَا بَنِي عَامِرِ أَعْنَدْهُ كَعْدَةَ الْبَعِيرِ وَمَوْتَ فِي بَيْتِ
سَلُولِيَّةِ! وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى أَرِيدٍ صَاعِقَةً فَاحْرَقَتْهُ، وَكَانَ أَرِيدُ بَنُ قَيْسٍ
أَخَا لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ لَأَمَةٍ.

وفيهما قدم على رسول الله ﷺ، وَفَدُ طَيٍّ فِيهِمْ زَيْدُ الْخَيْلِ، وَهُوَ
سَيْلَتُهُمْ، فَاسْلَمُوا وَحَسَنَ إِسْلَامَهُمْ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا ذَكَرَ لِي

الجيش إلى رسول الله ﷺ، فقام النبي ﷺ، خطيباً فقال: أيها الناس لا تشكروا علياً فوالله [إنه] لأخشن في ذات الله وفي سبيل الله. (٣٠٢/٢)

ذكر حجة الوداع

خرج رسول الله ﷺ، إلى الحجّ لخمس بقين من ذي القعدة لا يذكر الناس إلا الحجّ، فلما كان يسرف أمر الناس أن يحلوا بعصرة إلا من ساق الهذلي، وكان رسول الله ﷺ، قد ساق الهدي وناس معه، وكان علي بن أبي طالب قد لقيه محرماً، فقال له النبي ﷺ: حلّ كما حلّ أصحابك. فقال: إني قد أهملت بما أهل به رسول الله، فبقى على إحرامه، ونحر رسول الله ﷺ، الهذلي عنه وعن علي وحج بالناس فأراهم مناسكهم وعلمهم سنن حجهم وخطب خطبته التي بين فيها للناس ما بين، وكان الذي يبلغ عنه بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف لكثرة الناس، فقال بعد حمد الله:

أيها الناس اسمعوا قولي فلعلي لا ألتاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، وكلّ ربّاً موضوع، لكم رؤوس أموالكم، وإنّ ربّ العباس بن عبد المطلب موضوع كلّ، وكلّ دم كان في الجاهلية موضوع، وأول دم أضع دم [ابن] ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتله هذيل. أيها الناس إنّ الشيطان قد يشد أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه يطاع فيما سوى ذلك وقد رضي بما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ [التوبة: ٣٧]، وإنّ الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض، و ﴿إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ [التوبة: ٣٦]. أيها الناس استوصوا بالنساء خيراً. وهي خطبة طويلة. (٣٠٣/٢) وقال حين وقف بعرفة: هذا الموقف-للجبل الذي هو عليه- وكلّ عرفة موقف. وقال بالمزدلفة: هذا الموقف وكلّ مزدلفة موقف. ولما نحر بمنى قال: هذا المنحر وكلّ منى منحر. فقضى رسول الله ﷺ، الحجّ، وكانت حجة الوداع وحجة البلاغ، وذلك أنّ رسول الله ﷺ، لم يحج بعدها، وأرى الناس مناسكهم وعلمهم حجهم.

ذكر عدد غزواته، وسراياه

وكان آخر غزوة [غزاه] رسول الله ﷺ، بنفسه غزوة تبوك، وجميع غزواته بنفسه تسع عشرة غزوة. قال الواقدي: هكذا يرويه أهل العراق عن زيد بن أرقم، وهو خطأ لأنّ زيداً غزا مؤتة مع عبد الله بن رواحة وهو رديفه على رحله، ولم يغز مع النبي ﷺ، غير ثلاث غزوات أو أربع، وقيل: غزا رسول الله ﷺ، ستاً وعشرين غزوة، وقيل: سبعاً وعشرين، فمَن قال: ستاً وعشرين جعل غزوة خيبر ووادي القرى واحدة لأنّه لم يرجع من خيبر إلى منزله، ومن فرق

رجل من العرب [بفضل] ثمّ جامني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا ما كان من زيد الخيل، ثمّ سمّاه زيد الخير وأقطع له قيد وأرضين معها. فلما رجع أصابته الحمى بقرية من نجد فمات بها.

وفيها كتب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله ﷺ، يذكر أنّه شريكه في النبوة، وأرسل الكتاب مع رسولين، فسألها رسول الله ﷺ، عنه، فصدّقاه. فقال لهما: لولا أنّ الرسل لا تقتل لقتلتكما. (٣٠٠/٢) وكان كتاب مسيلمة: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أمّا بعد فإنّي قد أشركت معك في الأمر وإنّ لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قریشاً قوم يعتدون.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أمّا بعد فالسلام على من اتبع الهدى، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وقيل: إن دعوى مسيلمة وغيره النبوة كانت بعد حجة الوداع ومرضته التي مات فيها. فلما سمع الناس بعرضه وثب الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة باليمامة، وطلّحة في بني أسد.

ذكر إرسال علي إلى اليمن وإسلام همدان

في هذه السنة بعث رسول الله ﷺ، علياً إلى اليمن، وقد كان أرسل قبله خالد بن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فأرسل علياً وأمره أن يعقل خالداً ومن شاء من أصحابه، ففعل، وقرأ عليّ كتاب رسول الله ﷺ، على أهل اليمن، فأسلمت همدان كلّها في يوم واحد، فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام على همدان، يقوله ثلاثاً، ثمّ تابع أهل اليمن على الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فمسجد شكرًا لله تعالى. (٣٠١/٢)

ذكر بعث رسول الله ﷺ،

أمرائه على الصدقات

وفيها بعث رسول الله ﷺ، أمراءه وعمّاله على الصدقات، فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه العنسي وهو بها، وبعث زياد بن أبيد الأنصاري إلى حضرموت على صدقاتهم، وبعث عدي بن حاتم الطائي على صدقات طيء وأسد، وبعث مالك بن نويرة على صدقات [بني] حنظلة، وجعل الزبير بن بدر وقيس بن عاصم على صدقات سعد بن زيد مناة بن تميم، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيّتهم ويعود، ففعل وعاد، ولقي رسول الله ﷺ، بمكة في حجة الوداع، واستخلف على الجيش الذي معه رجلاً من أصحابه، وسبقهم إلى النبي ﷺ، فلقاه بمكة، فعمد الرجل إلى الجيش فكساهم كلّ رجل حلة من البرّ الذي مع علي، فلما دنا الجيش خرج عليّ ليلتاقهم فرأى عليهم الحلل، فترعها عنهم، فشكاه

بينهما جعل غزواته سبعاً وعشرين ، جعل خيبر غزوة ووادي القرى العين السوداء، والسيط من الشعر ضد الجعد.

وكان بين كثفَيْهِ، ﷺ، خاتم النبوة، وهي بضعة ناشزة حولها شعر. (٣٠٦/٢)

وأما أسماؤه فهي كما قال رسول الله، ﷺ: أنا محمد، وأنا أحمد والمقفى والحاشر ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة والعاقب والمحي الذي يمحو الله به الكفر. والحاشر الذي يحشر الناس على قدمه. والعاقب آخر الأنبياء.

وأما شعره وشبهه فقال أنس: لم يشهه الله بالشيب، وقيل: كان في مقدم لحيته عشرون شعره بيضاء ولم يخضب. قال جابر بن سمرة: وكان في مفرق رأسه شعرات بيض إذا دهنه غطاهن الدهن، وأخرجت أم سلمة شعره مخضوباً بالحناء والكتم. وقال أبو رمثة: كان رسول الله، ﷺ، يخضب وكان شعره يبلغ كثفَيْهِ أو منكبيه. وقالت أم هانئ: كان له صفائر أربع.

ذكر شجاعته، ﷺ، وجوده

قال أنس: كان رسول الله، ﷺ، أشجع الناس، وأسمع الناس، وأحسن الناس، وقع في المدينة فزع فركب فرساً غريباً فسبق الناس إليه فجعل يقول: أيها الناس لم تراعوا لم تراعوا. وقال علي بن أبي طالب: كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله، ﷺ، فكان أقربنا إلى العدو، وكفى بهذا شجاعة أن مثل علي الذي هو هو في شجاعته يقول هذا، وقد تقدم في غزواته ما يستدل به على تمكنه من الشجاعة وأنه لم يقاربه فيها أحد. (٣٠٧/٢)

ذكر عدد أزواج النبي، ﷺ،

وسراريه وأولاده

قال ابن الكلبي: إن النبي، ﷺ، تزوج خمس عشرة امرأة، ودخل بثلاث عشرة، وجمع بين إحدى عشرة، وتوفي عن تسع. وأول امرأة تزوجها خديجة بنت خويلد، وكان تزوجها قبله عتيق بن عاذ بن عبد الله بن مخزوم ومات عنها، وتزوجها بعد عتيق أبو هالة بن زرارة بن نباش التيمي، فولدت له هند بن أبي هالة، ثم مات عنها، فتزوجها رسول الله، ﷺ، فولدت له ثمانية: القاسم والطيب والظاهر وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما الذكور فماتوا وهم صغار، وأما الإناث فبلغن ونكحن وولدن، ولم يتزوج على خديجة في حياتها أحداً وكان موته قبل الهجرة بثلاث سنين، ولم يولد له ولد من غيره إلا إبراهيم.

فلما توفيت خديجة نكح بعدها سوذة بنت زَمْعَةَ، وقيل عائشة، فأما عائشة فكانت يوم تزوجها صغيرة بنت ست سنين، وأما سوذة فكانت امرأة ثيباً، وكانت قبله عند السكران بن عمرو بن عبدشمس

وأول غزوة غزاها وذان، وهي الأبواء، ثم بواط بناحية رَضَوَى، ثم العُشَيْرَة، ثم بدر الأولى لطلب كُرْز بن جابر، ثم بدر التي قتل فيها قريشاً، ثم غزوة بني سليم، ثم غزوة السويق، ثم غزوة غطفان، وهي غزوة ذي أمر، ثم غزوة بخران بالحجاز، ثم غزوة أحد، ثم غزوة حَمْرَاء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع، ثم غزوة بدر الآخرة. (٣٠٤/٢) ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قُريظَة، ثم غزوة بني ليحان من هُذَيْل، ثم غزوة ذي قرد، ثم غزوة بني المصطلق، ثم غزوة الحُدَيْبِيَّة، ثم غزوة خيبر، ثم عمرة القضاء، ثم غزوة فتح مكة، ثم غزوة حُنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك؛ قاتل منها في تسع غزوات: بدر وأحد والخندق وقُريظَة والمصطلق وخبير والفتح وحنين والطائف.

واختلف في عدد سراياه، فقيل: كانت خمساً وثلاثين ما بين سرية وبغت، وقيل: ثمانياً وأربعين.

وفي هذه السنة قدم جرير بن عبد الله البجلي في رمضان مسلماً، فبعثه إلى ذي الخَلَصَة فهدمها، وكان من حجر أبيض بنبالة، وهو صنم بجيلة وخشم وأزد السراة، فلما أتى رسول الله، ﷺ، خبر هدمه سجد شكراً لله تعالى.

وفيهما أسلم باذان باليمن وبعث بإسلامه إلى رسول الله، ﷺ. (٣٠٥/٢)

ذكر عدد حج النبي، ﷺ، وغمره

قال جابر: حج النبي، ﷺ، حجتين، حجة قبل أن يهاجر وحجة بعدما هاجر معها غمرة. وقال ابن عمر: اعتمر رسول الله، ﷺ، ثلاث غمر، وقالت عائشة: أربع غمر، وروي مثل ذلك عن ابن عمر.

ذكر صفة النبي، ﷺ، وأسمائه وخاتم النبوة

قال علي بن أبي طالب: كان رسول الله، ﷺ، ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس واللحية، شثن الكفين والقدمين، ضخم الكراديس، مشرباً وجهه حمرة، طويل المسرة، إذا مشى تكفأً تكفأً كأنما ينحط من صيب، لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان أدعج العينين، سبط الشعر، سهل الخدين، ذا وفرة، كأن عقه إبريق فضة، وإذا التفت التفت جميعاً، كان العرق في وجهه اللؤلؤ الرطب لطيب عرقه وريحه.

قال أبو عبيدة وغيره: شثن الكفين والقدمين، يعني أنهما إلى الغلظ [أقرب]، وقوله: ضخم الكراديس، يعني ألواح الأكشاف، والمسرة الشعر ما بين السرة واللبة، والصبب الانتحار، والدعج في

تحت سلام بن مشكم فتوفي عنها، وخلف عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فقتله محمد بن مسلمة صبراً بأمر النبي ﷺ، ثم اعقنها النبي ﷺ، وتزوجها سنة ست، وماتت سنة ست وثلاثين.

ثم تزوج ميمونة ابنة الحارث الهلالية، وكانت قبله عند عُمير بن عمرو الثقفي، ولم تلد له شيئاً، ثم خلف عليها أبو زهير بن عبد العزى بن عُمير، ثم رسول الله ﷺ، بعده، وهي خالة ابن عباس وخالد بن الوليد، وتزوجها في عمرة القضاء بسرف.

ثم تزوج امرأة من بني كلاب يقال لها النشا بنت رفاعه، وقيل: هي شبنم ابنة أسماء بن الصلت، وقيل: ابنة الصلت بن حبيب، توفيت قبل أن يدخل بها.

ثم تزوج الشبا ابنة عمرو الغفارية، وقيل الكنانية، فمات إبراهيم ابنه قبل أن يدخل بها، فقالت: لو كان نبياً ما مات ابنه، فطلقها. (٣١٠/٢)

ثم تزوج عرية ابنة جابر الكلابية، خطبها عليه أبو أسيد، بضم الهمزة، الساعدي، فلما قدمت على النبي ﷺ، استعاذت بالله منه ففارقها.

ثم تزوج أسماء ابنة النعمان بن الأسود بن براجل الكندي، فلما دخل بها وجد بها أيضاً فمتمها وردّها إلى أهلها، وقيل: بل استعادت منه أيضاً فردّها.

والعالية ابنة طيئان فجمعها ثم فارقها. وقبيلة بنت قيس أخت الأشعث فتوفي عنها قبل أن يدخل بها، فارتدت.

وفاطمة ابنة سرع.

وقال ابن الكلبي: عرية هي أم شريك. قال: وقيل: إنه تزوج خولة ابنة الهديل بن هيرة، وليلى ابنة الخطيم الأنصارية عرضت نفسها عليه فتزوجها، فأخبرت قومها، فقالوا: أنت غيور وله نساء فاستقبله فأقالت ففارقها.

وأما من خطب النبي ﷺ، من النساء، ولم ينكحها فممنهن أم هانئ بنت أبي طالب خطبها ولم يتزوجها.

ومهن ساعة بنت عمر من بني قشير.

ومهن صفية بنت بشامة أخت الأعور العنبري.

ومهن أم حبيبة ابنة عمه العباس، فوجد العباس أخاه من الرضاعة فتركها.

ومهن جمرة ابنة الحارث بن أبي حارثة خطبها، فقال أبوها: بها سوء، ولم يكن بها، (٣١١/٢) فرجع إليها فوجدها قد برصت.

أخي سُهَيْل بن عمرو، وكان من مهاجرة الحبشة فتتصر بها ومات، فخلف عليها رسول الله ﷺ، وهو بمكة وكان الذي خطبها عليه خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون، فدخل بسودة بمكة زوجها منه أبوها ربيعة بن قيس، فلما تزوجها كان أخوها عبد بن ربيعة غائباً، فلما قدم جعل يحيى (٣٠٨/٢) التراب على رأسه، فلما أسلم قال: إني سفيه حيث فعلت ذلك، وندم على ما كان منه.

وأما عائشة فدخل بها بالمدينة وهي ابنة تسع سنين، ومات عنها وهي ابنة ثمان عشرة سنة، ولم يتزوج بكرة غيرها، وماتت سنة ثمان وخمسين.

ثم تزوج بعدها حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند خنيس ابن حذافة السهمي (خنيس بالخاء المعجمة والنون والسين المهملة)، وكان بديراً، ولم يشهد من بني سهم بديراً غيره، ولم تلد له شيئاً وماتت بالمدينة في خلافة عثمان.

ثم تزوج بعدها أم سلمة ابنة أبي أمية زاد الركب المخزومية، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، شهد بديراً وأصابته جراحة يوم أحد فمات منها، وتزوجها رسول الله ﷺ، قبل الأحزاب، وماتت سنة تسع وخمسين، وقيل: بعد قتل الحسين، رضي الله عنه.

ثم تزوج زينب بنت خزيمة من بني عامر بن صعصعة، ويقال لها أم المساكين، وتوفيت في حياته، ولم يمُت في حياته غيرها وغير خديجة بنت خويلد، وكانت زينب قبله عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب.

ثم تزوج عام المرتبسع جوثية ابنة الحارث بن أبي ضرار الخزاعية من بني المصطلق، وكانت قبله عند مالك بن صفوان المصطلق، لم تلد له شيئاً.

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت عند عبيد الله بن جحش، وكان من مهاجرة الحبشة فتتصر بها، فأرسل النبي ﷺ، صلى الله ﷺ (٣٠٩/٢) عليه وسلم، إلى النجاشي فخطبها عليه وتزوجها وهي بالحبشة، وزوجها منه خالد بن سعيد بن العاص، وقيل: بل خطبها إلى عثمان بن عفان فزوجها منه، وبعث فيها إلى النجاشي فساق منه المهر أربعمئة دينار وأرسلها إليه، وتوفيت في خلافة أخيه معاوية فلم تلد له شيئاً.

ثم تزوج زينب بنت جحش، وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولاه، فلم تلد له شيئاً، فزوجها الله إياه وبعث في ذلك جبرائيل، وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ، وتقول: أنا أكرمهن ولياً وسفيراً، وهي أول [من توفي من] أزواجه، توفيت بعده في خلافة عمر.

ثم تزوج عام خير صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت قبله

وأما سراريه فهي مارية ابنة شمعون القبطية، وولدت له إبراهيم. حسين.

وريحانة ابنة زيد القُرْطِيَّة، وقيل: هي من بني النضير.

ذكر موالى رسول الله ﷺ،

فمنهم زيد بن حارثة، وابنه أسامة بن زيد، وثوبان، ويكنى أبا عبد الله، أصله من السراة، ومكنى جُمُص بعد موت النبي ﷺ، ومات سنة سبع وخمسين، وقيل: سكن الرملة، ولا عقب له وشقران وكان من الحبشة وقيل من الفرس واسمه صالح بن عدي، واختلف في أمره، فقيل: إن رسول الله ﷺ ورثه من أبيه، وقيل: كان لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبي ﷺ، وأعقب.

وأبو رافع، واسمه إبراهيم، وقيل روفيع، فقيل: كان للعباس فوهبه للنبي ﷺ، فأعتقه رسول الله ﷺ، وقيل: كان لأبي أحيحة سعيد بن العاص فأعتق ثلاثة من بنيه أنصباهم منه، وشهد معهم بدرًا وهم كفار، وقتلوا يومئذ، وهب خالد بن سعيد نصيبه منه للنبي ﷺ، فأعتقه وابنه البهي، واسمه رافع، وأخوه عبيد الله بن أبي رافع، كان يكتب لعلي بن أبي طالب. (٣١٢/٢)

وسلمان الفارسي، وكنيته أبو عبد الله، من أهل أصبهان، وقيل: من أهل رامهرمز، أصابه سبياً بعض من كلب ويبيع من يهودي بوادي القرى، فكاتب اليهودي وأحانه النبي ﷺ، حتى عتق.

وسَفينَة، كان لأم سلمة، فأعتقه وشرطت عليه خدمة رسول الله ﷺ، [حياته]. قيل: اسمه مهران، وقيل: زياح، وقيل: كان من عجم الفرس.

وأنسة يكنى أبا مسروح، وهو من مولدي السراة، وكان يأذن على رسول الله ﷺ، وشهد معه بدرًا وأُخذوا والمشاهد كلها، وقيل: كان من الفرس.

وأبو كبشة، واسمه سُلَيْم، قيل: كان من موالى مكة، وقيل: كان من مولدي أرض دوس، اشتراه رسول الله ﷺ، وأعتقه، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وتوفي يوم استخلف عمر بن الخطاب سنة ثلاث عشرة.

ورُؤفِع أبو مُؤنِبة، كان من مولدي مُرَينة، فاشتراه رسول الله ﷺ، وأعتقه.

وزِيَّاح الأسود، كان يأذن على رسول الله ﷺ.

وفُضالة نزل الشام.

ومِذْعَم قُتل بوادي القرى (٣١٣/٢)

وأبو ضَميرة، قيل: كان من الفرس من ولد بشتاسب الملك، فأصابه رسول الله ﷺ، فني بعض فقاتعه فأعتقه، وهو جد أبي

ويسار وكان نوبيًا، أصابه في بعض غزواته فأعتقه، وهو الذي قتلهُ العُرَيتون الذين أغاروا على إلقاء رسول الله ﷺ.

ومهران مولاه، حَدَّث عن النبي ﷺ.

وكان له خصي يقال له مابوز، أهده له المُقوقِس مع مارية وشيرين، قيل: إنه الذي قُذِفَت مارية به، فبعث رسول الله ﷺ، عليًا ليقبله، فأراه خصيًا فتركه. وخرج إليه من الطائف وهو محاصره أربعة أعبد فأعتقهم، منهم أبو بكر.

ذكر من كان يكتب لرسول الله ﷺ

ذُكر أنَّ عثمان بن عفان كان يكتب له أحيانًا وعلي بن أبي طالب أحيانًا، وخالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي. وأول من كتب له أبي بن كعب، وكتب له زيد بن ثابت، وكتب له عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ثم ارتدَّ ورجع إلى الإسلام يوم الفتح. وكتب له معاوية بن أبي سفيان، وحظلة الأسدي (بضم الهمزة، وتشديد الياء، كذلك يقوله المحذنون، وهو منسوب إلى أسيد بن عمرو بن تميم، بالتشديد إجمالاً). (٣١٤/٢)

ذكر أسماء خيله ﷺ

قيل: أول فرس ملكه ﷺ، فرس اشتراه بالمدينة من أعرابي من فزارة بعشر أواق، وسمّاه السُكَب، وأول غزوة غزاها عليه أحد.

وفرس لأبي بُردة بن نيار اسمه مُلاوح.

وكان له فرس يُدعى المرتجز، وهو الفرس الذي شهد به خُزيمة بن ثابت، وكان صاحبه من بني مُرة.

وكان له ثلاثة أفراس: ليزاز والظرب واللحيف، وأما ليزاز فأهداه له المُقوقِس، وأما اللحيف فأهداه له ربيعة بن أبي البراء، وأما الظرب فأهداه له فُرَوة بن عمرو الجُدَامي.

وكان له فرس يقال له الورد، أهده له تميم الداري، فوهبه النبي ﷺ، لعمر بن الخطاب، فحمل عليه في سبيل الله فوجده يباع.

وقيل: كان له فرس اسمه اليسوب.

تفسير هذه الأسماء: السكب الكثير الجري، كأنما يُصَبَّ جريه صَبًّا. واللحيف سُمي به لطول ذنبه كأنه يلحف الأرض بذنبه، أي يغطيها. ولزاز سُمي به لشدة تلززه. والظرب سُمي به لشدة خلقه سُمي بالجيل الصغير. والمرتجز سُمي به لحسن صهيله. واليسوب سُمي به لأنه أجود خيله، لأن اليسوب الرئيس.

ذكر بغاله وحميره وإبله ﷺ

كانت له دُلْدُل، وهي أول بغلة رُوِيَتْ في الإسلام، أهداها له المقوقس (٣١٥/٢) ومعها حمار اسمه عُفَيْر، وبقيت البغلة إلى زمن معاوية، وأهدى له فروة بن عمرو بغلة يقال لها فُضَّة، فوهبها لأبي بكر، وحماره يعفور بقي بعد منصرفه من حجة الوداع.

وأما إبله فكانت له القَصْوَى، وهي التي أخذها من أبي بكر بأربعمائة درهم وهاجر عليها، وكانت من نَعَم بني الحَرِثِش، وبقيت مدة، وهي الغَضْبَاء والجَذْعَاء أيضاً. قال ابن المسيَّب: كان في طرف أذنها جُدع، وقيل: لم يكن بها جُدع.

وأما لقاحه فكان له عشرون لقحة بالغابة، وهي التي أغار عليه القوم، يأتي لبنا أهله كل ليلة، وكان له لقاح غِزار، منهن: الحسنة والسمرء والعريس والسعدية والبغوم واليسيرة والرياء ومُهْشَرة والشقراء.

وأما منافحه، فكانت له سبع منائح من الغنم: عجوة وزمزم وسُقْيَا وبركة وورسة وأطلال وأطراف، وسبع أعنز يرعاهن أيمن بن أم أيمن.

تفسير هذه الأسماء: عُفَيْر تصغير ترخيم الأعفر، وهو الأبيض بياضاً غير خالص، ومنه أيضاً اسم حماره يعفور، كاختصر ويخضور. البغام صوت الإبل، ومنه البغوم. والباقي لا يحتاج إلى شرح. (٣١٦/٢)

ذكر أسماء سلاحه ﷺ

كان له ذو الفقار، غنمه يوم بدر، وكان لمُتَبِّه بن الحجاج، وقيل لغيره، وغنم من بني قَيْنَاق ثلاثة أسياف: سيفاً قلعياً وسيفاً يدعى بَتَّاراً وسيفاً يدعى الخيف، وكان له الميخْذَم ورُسُوب، وقدم معه المدينة سيفان شهد بأحدهما بدرأ يسى العضب. وكان له ثلاثة أرماع وثلاث قسي، قوس اسمها الروحاء، وقوس تدعى البيضاء، وقوس تُدعى الصفراء، وكان له درع يقال لها الصعدية، وكان له درع يقال له فُضَّة، غنمها من بني قَيْنَاق، وكان له درع تسمى ذات الفضول، كانت عليه يوم أُحُد، هي وفُضَّة. وكان له ترس فيه تمثال رأس كبش، فكرهه رسول الله، ﷺ، فأصبح وقد أذهب الله عز وجل.

تفسير هذه الأسماء: سُمِّيَ السيف ذو الفقار لحضر فيه. والسيف الميخْذَم القاطع. والرُسُوب الذي يمضي في الضربة ويثبت فيها. (٣١٧/٢)

سنة إحدى عشرة

في المحرم من هذه السنة ضرب النبي، ﷺ، بعثاً إلى الشام

وأمرهم أسامة بن زيد مولاه، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتكلم المنافقون في إمارته وقالوا: أمر غلاماً على جلة المهاجرين والأنصار. فقال رسول الله، ﷺ: إن تطعنوا في إمارته فقد طعتم في إمارة أبيه من قبل، وإنه لخليق للإمارة، وكان أبوه خليفاً لها، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون، منهم: أبو بكر وعمر، فبينما الناس على ذلك ابتدئ برسول الله، ﷺ، مرضه.

ذكر مرض رسول الله، ﷺ، ووفاته

ابتدئ برسول الله، ﷺ، مرضه أواخر صفر في بيت زينب بنت جحش، وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه في بيت ميمونة، فجمع نساء فاستأذنهن أن يمرض في بيت عائشة، ووصلت أخبار بظهور الأسود العنسي باليمن، ومُسَيْلَمَة باليمامة، وطُحْلِيحة في بني أسد، وعسكر بسميراء، وسيجيء ذكر أخبارهم إن شاء الله تعالى.

فتأخر مسير أسامة لمرض رسول الله، ﷺ، ولخبر الأسود العنسي ومسيلمة، فخرج النبي، ﷺ، عاصباً رأسه (٣١٨/٢) من الصداع فقال: إني رأيت [فيما يرى النائم أن] في عضدي سوارين من ذهب فتفتحنهما فطارا فأولتهما بكذاب اليمامة وكذاب صنعاء، وأمر بإنفاذ جيش أسامة وقال: لعن الله الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وخرج أسامة فضرب بالجرف العسكر وتمهل الناس، وثقل رسول الله، ﷺ، ولم يشغله شدة مرضه عن إنفاذ أمر الله، فأرسل إلى نفر من الأنصار في أمر الأسود، فأصيب الأسود في حياة رسول الله، ﷺ، قبل وفاته بيوم، فأرسل إلى جماعة من الناس يحثهم على جهاد من عندهم من المرتدين.

وقال أبو مُؤَيَّبه مولى رسول الله، ﷺ، أيقظني رسول الله، ﷺ، ليلة وقال: إني قد أمرت أن استغفر لأهل البقيع، [فانطلق معي] فانطلقت معه فسلم عليهم ثم قال: ليهتكم ما أصبحتم فيه، قد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، ثم قال: قد أوتيت مفاتيح خزائن الأرض والخلد بها، ثم الجنة، وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي، فاخترت لقاء ربي. ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف، فبدى بمرضه الذي قبض فيه.

قالت عائشة: فلما رجع من البقيع وجدني وأنا أجد صداعاً وأنا أقول: وارساء! قال: بل أنا والله يا عائشة وارساء! ثم قال: ما ضرك لو مت قبلتي فممت عليك وكفتك وصليت عليك ودفنتك؟ فقلت: كآني بك والله لو فعلت ذلك فرجعت إلى بيتي فعرست ببعض نسائك. فتبسم وتأم به وجعه وتمرض في بيتي.

فخرج منه يوماً بين رجلين أحدهما الفضل بن العباس والآخر عليّ، (٣١٩/٢) قال الفضل: فأخرجته حتى جلس على المنبر فحمد الله، وكان أول ما تكلم به النبي، ﷺ، أن صلى على أصحاب أخذ فاكث واستغفر لهم، ثم قال: أيها الناس إنّه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستد منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخش الشحنة من قبلي فإنها ليست من شأني، ألا وإنّ أحبك إليّ من أخذ مني حقاً إن كان له أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس. ثم نزل فصلّى الظهر ثم رجع إلى المنبر فعاد لمقالته الأولى. فادّعى عليه رجل بثلاثة دراهم، فأعطاه عوضها. ثم قال: أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة. ثم صلى على أصحاب أخذ واستغفر لهم، ثم قال: إنّ عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر وقال: فدينك بأنفسنا وآبائنا! فقال رسول الله، ﷺ: لا ييقن في المسجد باب إلا بساب أبي بكر فإني لا أعلم أحداً أفضل في الصحبة عندي منه، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام. ثم أوصى بالأنصار فقال: يا معشر المهاجرين أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لاتزيد، والأنصار عيتي التي أوتيت إليها، فأكروا كريمهم وتجاوزوا عن سيئهم.

قال ابن مسعود: نعى إلينا نبيّنا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر. فلما دنا الفراق جمعنا في بيت عائشة فنظر إلينا فشده ودمعت عيناه وقال: مرحباً بكم، حيّاكم الله، رحمكم الله، آواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، (٣٢٠/٢) وفقكم الله، سلمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، وأؤدبكم إليه، إنّي لكم منه نذير وبشير ألا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصاص: ٨٣]. قلنا: فمتى أجلك؟ قال: دنا الفراق والمنقلب إلى الله وسدرة المنتهى والرفيق الأعلى وجنة المأوى. قلنا: من يغسلك؟ قال: أهلي. قلنا: فيم تكفّنك؟ قال في ثيابي أو في بياض. قلنا: فمن يصلي عليك؟ قال: مهلاً، غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً. فبكينا وبكى، ثم قال: ضعوني على سريري على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة ليصلي عليّ جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة، ثم ادخلوا عليّ فوجاً فوجاً فصلّوا عليّ ولا تؤذوني بتركية ولا رنة، أقرنوا أنفسكم مني السلام، ومن غاب من أصحابي فاقروه مني السلام، ومن تابعكم على ديني فاقروه السلام.

قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس - ثم جرت

دموعه على خديّه اشتد برسول الله، ﷺ، مرضه ووجعه، فقال: إيتوني بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعدي أبداً. فتنازعوا - ولا ينبغي عند نبيّ تنازع - فقالوا: إنّ رسول الله، ﷺ، يهجر. فجعلوا يعيدون عليه، فقال: دعوني فما أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه. فأوصى [بثلاث]: أن يخرج المشركون من جزيرة العرب، وأن يجاز الوفد بنحو ممّا كان يجيزهم. وسكت عن الثالثة عمداً، أو قال: نسيتها. (٣٢١/٢)

وخرج عليّ بن أبي طالب من عند رسول الله، ﷺ، في مرضه. فقال الناس: كيف أصبح رسول الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً. فأخذ بيده العباس فقال: أنت بعد ثلاث عبد العصا، وإنّ رسول الله، ﷺ، سيؤتي في مرضه هذا، وإنّي لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب، فاذهب إلى رسول الله، ﷺ، فاسأله فيمن يكون هذا الأمر، فإن كان فينا علمناه، وإن كان في غيرنا أمره أوصى بنا، فقال عليّ: لئن سألتها رسول الله، ﷺ، فمغنناها لا يُغطيناها الناس أبداً، والله لا أسأله رسول الله، ﷺ، [أبداً].

قال: فما اشتد الضحى حتى توفي رسول الله، ﷺ، قالت عائشة: قالت أسماء بنت عميس: ما وجعه إلا ذات الجنب، فلو لدنتموه، ففعلوا. فلما أفاق قال: لِمَ فعلتم هذا؟ قالوا: ضننا أنّ بك ذات الجنب. قال: لم يكن الله ليسلطها عليّ. ثم قال: لا تبغض أحداً لدنتموه إلا عمي، وكان العباس حاضراً، ففعلوا.

قال أسامة: لما ثقل رسول الله، ﷺ، هبطت أنا ومن معي [إلى المدينة] فدخلنا عليه وقد صمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليّ، فعلمت أنّه يدعو لي. قالت عائشة: وكنت أسمع رسول الله، ﷺ، يقول كثيراً: إنّ الله لم يقبض نبياً حتى يخيره. قالت: فلما احتضر كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول: بل الرفيق الأعلى. قالت: قلت: إذا والله لا يخارنا، وعلمت أنّه تخير. (٣٢٢/٢) ولما اشتد مرضه أذنه بلال بالصلاة فقال: مروا أبا بكر يصلي بالناس. قالت عائشة: فقلت: إنّه رجل رقيق وإنّه متى يقوم مقامك لا يطيق ذلك. فقال: مروا أبا بكر فيصلّي بالناس. فقلت مثل ذلك، فغضب، وقال: إنك صواحب يوسف، مروا أبا بكر يصلي بالناس. فتقدّم أبو بكر، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله، ﷺ، خفة فخرج بين رجلين، فلما دنا من أبي بكر تأخر أبو بكر، فأشار إليه أن قم مقامك، فقعد رسول الله، ﷺ، يصلي إلى جنب أبي بكر جالساً، فكان أبو بكر يصلي بصلاة النبي والناس يصلون بصلاة أبي بكر وصلى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة، وقيل: ثلاثة أيام. ثم إنّ رسول الله، ﷺ، خرج في اليوم الذي توفي فيه إلى الناس في صلاة الصبح، فكاد الناس يفتنون في صلاتهم فرحاً برسول الله، ﷺ، وتبسم رسول الله، ﷺ، فرحاً لما رأى من هيتهم في الصلاة، ثم رجع وانصرف الناس وهم يظنون أنّ رسول

ولما توفي رسول الله ﷺ، ووصل خبره إلى مكة وعامله عليها عتاب بن أمييد بن أبي العاص بن أمية استخفى عتاب وارتجعت مكة وكاد أهلها يرتدون، فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم، فاجتمعوا إليه، فقال: يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله ليمنن الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ، فلقد رأيته قائماً مقامي هذا وحده وهو يقول: قولوا معي لا إله إلا الله تدن لكم العرب وتؤد إليكم العجم الجزية، والله لتنتفن كنوز كسرى وقبصر في سبيل الله، فمن بين مستهزي ومصدق فكان ما رأيتم، والله ليكونن (٣٢٥/٢) الباقي. فامتنع الناس من الردة. وهذا المقام الذي قاله رسول الله ﷺ، لما أسر سهيل بن عمرو في بدر لعمر بن الخطاب، وقد ذكر هناك.

حديث السقيفة وخلافة أبي بكر، رضي الله عنه وأرضاه

لما توفي رسول الله ﷺ، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليلابعوا سعد بن عباد، فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فقال: ما هذا؟ فقالوا: منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: منا الأمراء ومنكم الوزراء. ثم قال أبو بكر قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأمة. فقال عمر: أيكم يطيب نفساً أن يخلف قذمين قدامهما النبي ﷺ؟ فبايعه عمر وبايعه الناس. فقالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلا علياً. قال: وتخلف عليّ وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة. وقال الزبير: لا أغمد سيفاً حتى يبايع عليّ. فقال عمر: خذوا سيفه واضربوا به الحجر، ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة.

وقيل: لما سمع عليّ بيعة أبي بكر خرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلأ حتى بايعه، ثم استدعى إزاره ورداه فتجلله. والصحيح: أن أمير المؤمنين ما بايع إلا بعد ستة أشهر، والله أعلم.

وقيل: لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول: (٣٢٦/٢) أنسي لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم، يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان عليّ والعباس؟ ما بال هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش؟ ثم قال لعليّ: أبسط يدك أبياعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً. فأبى عليّ، عليه السلام، عليه، فتمثل بشعر المثلّمس:

ولن يقيم على خسف يراثبه إلا الأذلان غير الحيّ والرتد هذا على الخسف معكوس برقه وذائض فلا يكي له أخذ فزجره عليّ وقال: والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك.

وقال ابن عباس: كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف القرآن فحج عمر وحججنا معه، فقال لي عبد الرحمن: شهدت أمير

الله ﷺ، قد أفاق من وجعه، ورجع أبو بكر إلى منزله بالسّح. وقالت عائشة: رايت رسول الله ﷺ، وهو يموت وعنده قدح فيه ماء يدخل في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: اللهم أعني على سكرات الموت. قال: ثم دخل بعض آل أبي بكر وفي يده سواك، فنظر إليه [نظراً عرف أنه يريد]، فأخذته فليته ثم ناولته إياه، فاستن به ثم وضعه، ثم ثقل في حجري، قالت: فذهبت أنظر في وجهه وإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى، فقبض، قالت: توفي وهو بين (٣٢٣/٢) سحري ونحري، فمن سفهي وحدائني سني أن رسول الله ﷺ، قبض في حجري، فوضعت رأسه على وسادة وقمت الكتدم مع النساء وأضرب وجهي.

ولما اشتد برسول الله ﷺ، وجعه ونزل به الموت جعل يأخذ الماء بيده ويجعله على وجهه ويقول: واكرها! فتقول فاطمة: واكربي لكربك يا أباي فيقول رسول الله ﷺ: لا كرب على أيك بعد اليوم، فلما رأى شدة جزعها استندناها وسارها، فبكيت، ثم سارها الثانية فضحكت، فلما توفي رسول الله ﷺ سألناها عائشة عن ذلك، قالت: أخبرني أنه ميت فبكيت، ثم أخبرني أنني أول أهله لحوقاً به، فضحكت. وزوي عنها أنها قالت: ثم سارني الثانية وأخبرني أنني سيّدة نساء أهل الجنة، فضحكت.

وكان موته يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، ودفن من الغد نصف النهار، وقيل: مات نصف النهار يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول.

ولما توفي كان أبو بكر يمزله بالسّح، وعمر حاضر، فلما توفي قام عمر فقال: إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ، توفي وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، والله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات. وأقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس، فدخل على رسول الله ﷺ، وهو مسجى في ناحية البيت (٣٢٤/٢) فكشف عن وجهه ثم قبله وقال بأبي أنت وأمي طيبت حياً وميتاً، وأما المودة التي كتب الله عليك فقد ذهبت. ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج، وعمر يكلم الناس، فأمره بالسكوت فأبى، فأقبل أبو بكر على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. قال: فوالله لكان الناس ما سمعوها إلا منه. قال عمر: فوالله ما هو إلا إذ سمعناها فقترت حتى وقعت على الأرض ما تحملي رجلاي، وقد علمت أن رسول الله ﷺ، قد مات.

المؤمنين اليوم بمعنى، وقال له رجل: سمعتُ فلاناً يقول: لو مات عمر لباعيتُ فلاناً، فقال عمر: إني لقاتم العشيّة في الناس أحذرهم هؤلاء الرّهط الذين يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم. قال: فقلت: يا أمير المؤمنين إنّ الموسم يجمع رعايا الناس وغوغاهم وهم الذين يغلبون على مجلسك، وأخاف أن تقول مقالة لا يَعرُوها ولا يحفظوها يطّبروا بها، ولكنّ أمهلّ حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله، ﷺ، فنقول ما قلت فيعوا مقاتلك. فقال: والله لأقومنّ بها أوّل مقام أقومه بالمدينة. قال: فلمّا قدمت المدينة هجرتُ يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن، فلمّا جلس عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال بعد أن ذكر الرّجم وما نُسخ من القرآن فيه: إنّه بلغني أنّ فلاناً منكم يقول: لو مات أمير المؤمنين بايعتُ (٣٢٧/٢) فلاناً، فلا يغرّنّ امرأ أن يقول: إنّ بيعة أبي بكر كانت فتنة، فقد كانت كذلك ولكنّ الله وقى شرّها، وليس منكم من يُقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر، وإنّه كان خيرنا حين توفي رسول الله، ﷺ، وإنّ عليّاً والزبير ومنّ معهم تخلّفوا عنّا في بيت فاطمة وتخلّف عنّا الأنصار واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلتُ له: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقنا نحوهم فلقينا رجلاً صالحاً من الأنصار، أحدهما عُوَيم بن ساعدة، والثاني معن بن عديّ فقالا لنا: ارجعوا اقضوا أمركم بينكم. قال: فأتينا الأنصار وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة وبين أظهرهم رجل مزمل، قلتُ: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة وجع، فقام رجل منهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر قريش رهط بيننا وقد دفت إلينا دافّة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يغتصبوا الأمر، فلمّا سكوت وكنتُ قد زوّرتُ في نفسي مقالة أقولها بين يدي أبي بكر، فلمّا أردتُ أن أتكلّم قال أبو بكر: على رسلك! فقام فحمد الله وما ترك شيئاً كنتُ زوّرتُ في نفسي إلّا جاء به أو بأحسن منه وقال: يا معشر الأنصار إنكم لا تذكرون فضلاً إلّا وأنتم له أهل، وإنّ العرب لا تعرف هذا الأمر إلّا لقريش، هم أوسط العرب داراً ونسباً، وقد رضى لكم أحد هذين الرجلين. وأخذ بيدي ويدي أبي عبيدة بن الجراح، وإني والله ما كرهتُ من كلامه غيرها، إن كنتُ أقدم فتضرب عتقي فيما لا يقربني إلّا إنم أحبّ إليّ من أن أوثر على قوم فيهم أبو بكر.

فلمّا قضى أبو بكر كلامه قام منهم رجل فقال: أنا جُذيلُها المحكّك وعُدَيْقُها المرجّب، منّا أمير ومنكم أمير. وارتفعت الأصوات واللّغظ، فلمّا خفت الاختلاف قلتُ لأبي بكر: أبسط يدك أبايك، فبسط يده فبايعته (٣٢٨/٢) وبايعه الناس، ثمّ نزّونا على سعد بن عبادة، فقال قائلهم: قتلتُم سعداً. فقلت: قتل الله سعداً، وإنّا والله ما وجدنا امرأ هو أقوى من بيعة أبي بكر، خشيتُ إن فارقتُ القوم ولم تكن بيعة أن يُحدثوا بعدنا بيعة، فإمّا أن نتابعهم على ما لا نرضى به، وإمّا أن نخالفهم فيكون فساداً.

وقال أبو عمرة الأنصاريّ: لما قبض النبي، ﷺ، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادة ليولّوه الأمر، وكان مريضاً فقال بعد أن حمد الله: يا معشر الأنصار لكم سابقة وفضيلة ليست لأحد من العرب، إنّ محمّداً، ﷺ، لبث في قومه بضعة عشرة سنة يدعوهم فما آمن به إلّا القليل، وما كانوا يقدرون على منعه ولا على إعزاز دينه ولا على دفع ضيم، حتى [إذا] أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ورزقكم الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه فكتمتم أشدّ الناس على عدوه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المقدّاة صاغراً فدانت لرسوله بأسيا فكم العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ قير العين. استبدوا بهذا الأمر دون الناس، فإنّه لكم دونهم.

فأجابوه بأجمعهم: أن قد وُفّقت وأصبحت الرأى ونحن نوليّك هذا الأمر فإنك متّسع ورزاً للمؤمنين. ثمّ إنهم تراءوا الكلام فقالوا: وإنّ أبي المهاجرين من قريش وقالوا نحن المهاجرون وأصحابه الأوّلون وعشيرته وأولياؤه! فالت طائفة منهم: فإنّا نقول منّا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبداً. فقال سعد: هذا أوّل الوهن.

وسمع عمر الخير فأتى منزل النبي، ﷺ، وأبو بكر فيه، فأرسل إليه: أن أخرج إليّ. فأرسل إليه: إني مشغول. فقال عمر: (٣٢٩/٢) قد حدث أمر لابدّ لك من حضوره. فخرج إليه، فأعلمه الخبر، فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة. قال عمر: فأتيناهم وقد كنتُ زوّرتُ كلاماً أقوله لهم، فلمّا دنوتُ أقول أسكتني أبو بكر وتكلّم بكلّ ما أردتُ أن أقول، فحمد الله وقال: إنّ الله قد بعث فينا رسولاً شهيداً على أمته ليعبّده ويوحّده وهم يعبدون من دونه ألهة شتى من حجر وخشب، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم. فخصّ الله المهاجرين الأوّلين من قومه بتدقيقه والمواساة له والصبر معه على شدّة أذى قومهم [لهم] وتكذيبهم [بإسهم وكلّ الناس لهم مخالفتُ زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم، فهم أوّل من عبد الله في هذه الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم إلّا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار، من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم في الإسلام، رضىكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته فليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفاوتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور.

فقام حُباب بن المنذر بن الجُموح فقال: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإنّ الناس في ظلكم ولن يجترى مجترى على خلافتكم ولا يصدروا إلّا عن رأيكم، أنتم أهل العزّ وأولو

على ربي. فقال عمر: لا تدعه حتى يبيع. فقال بشير بن سعد: إنه قد لجأ وأبى ولا يبيعكم حتى يُقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته، ولا يضركم تركه، وإنما هو رجل واحد. فتركوه.

وجاءت أسلم فبايعت، فقوي أبو بكر بهم، وبايع الناس بعد. قبل إن عمرو بن حُرث قال لسعيد بن زيد: متى يبيع أبو بكر؟ قال يوم مات رسول الله ﷺ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة.

قال الزهري: بقي عليّ وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبيعوا أباً بكر حتى ماتت فاطمة، رضي الله عنها، فبايعوه. (٣٣٢/٢) فلما كان الغد من بيعة أبي بكر جلس على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة، ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد وليتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فاعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخذ له حقّه، والقويّ ضعيف عندي حتى آخذ منه الحقّ، إن شاء الله تعالى لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يده قوم إلا ضربه الله بالذلّ، أطعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله.

(أسيد بن خضير بضم الهمزة، وبالحاء المهملة المضمومة، وبالضاد المعجمة، وآخره راء).

ذكر تجهيز النبي ﷺ، ودفنه

فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ، ودفن يوم الثلاثاء، وقيل: بقي ثلاثة أيام لم يُدفن، والأول أصح. وكان الذي يلي غسله عليّ والعبّاس والفضل وقثم ابنا العبّاس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ، وحضرهم أوس بن خوليّ الأنصاري، وكان بدرية، وكان العبّاس وابناه يعلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء وعلي يغسله وعليه قميصه وهو يقول: بأبي أنت وأمي ما أطيبك حيّاً وميتاً ولم يُز من رسول الله ﷺ، ما يرى من ميت. (٣٣٣/٢) واختلّفوا في غسله في ثيابه أو مجرداً، فالقى الله عليهم النوم ثم كلّمهم مكلّم لا يُدزى من هو أن غسلوا رسول الله ﷺ، وعليه ثيابه، ففعلوا ذلك.

وكفن رسول الله ﷺ، في ثلاثة أثواب: ثوبين صخارين وبرد حيرة أدرج فيها إدراجاً.

واختلّفوا في موضع دفنه فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ما قبض نبيّ إلا دفن حيث قبض، فرفع فراشه ودفن موضعه، وحفر له أبو طلحة الأنصاريّ لحدّاً ودخل الناس يصلّون

العدد والمنعة وذو البأس، إنما ينظر الناس ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم، أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنّا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان [في قرن] والله لا ترضى العرب (٣٣٠/٢) أن تؤمركم ونيّتنا من غيركم، ولا تمتنع العرب أن تولّي أمرها من كانت الثبوة فيهم، ولنا بذلك الحجّة الظاهرة، من ينازعنا سلطان محمّد ونحن أولياؤه وعشيرته!

فقال الحُباب بن المنذر: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم فأجلوهم عن هذه البلاد وتولّوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحقّ بهذا الأمر منهم، فإنّه بأسياقكم دان الناس لهذا الدين، أنا جذليها المحكّك وعذيقها المرجّب! أنا أبو شبل في عرينة الأسد، والله لئن شتّم لنعيدنّها جذعة.

فقال عمر: إذا ليقتلك الله! فقال: بل ليأكل يقتل.

فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار إنكم أوّل من نصر فلا تكونوا أوّل من بدّل وغير! فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال: يا معشر الأنصار إنا والله وإن كنّا أوّل ففضيلة في جهاد المشركين وسابقة في الدين ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبيّنا والكذب لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به الدنيا، ألا إن محمّداً، ﷺ، من قرش وقومه أولى به، وإسم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر، فاتّقوا الله ولا تخالفوه.

فقال أبو بكر: هذا عمر وأبو عبيدة فإن شتّم فبايعوا. فقالوا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله ﷺ، في الصلاة، وهي أفضل دين المسلمين، أبسط يدك نبايعك. فلما ذهب يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه، فناداه الحُباب بن المنذر: عفتك (٣٣١/٢) عفاق! أنفست على ابن عمك الإمارة؟ فقال: لا والله ولكني كرهت أن أنازع القوم حقهم.

ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد قال بعضهم لبعض، وفيهم أسيد بن خضير، وكان نقيّاً: والله لئن وليتها الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أباً بكر فبايعوه فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أباً بكر من كلّ جانب.

ثم تحوّل سعد بن عبادة إلى داره فيقي أياماً، وأرسل إليه لبايع فإنّ الناس قد بايعوا، فقال: لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي، وأخضب سنان رمحي، وأضرب بسيفي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومنّ أطاعني، ولو اجتمع معكم الجنّ والإنس ما بايعتكم حتى أعرض

عليه أرسلاً: الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد، ودُفن ليلة الأربعاء. وكان الذي نزل قبره علي بن أبي طالب والفضل وقثم ابنا العباس وشقران. وقال أوس بن خولي الأنصاري لعلي: أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ، فأمره بالنزول فنزل.

وكان المغيرة بن شعبة يدعي أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ، ويقول: أليت خاتمي في قبره عمداً فنزلت لأخذه، وسأل ناس من أهل العراق علياً عن ذلك فقال: كذب المغيرة، أحدثنا عهداً به قثم بن العباس.

واختلفوا في عمره يوم مات فقال ابن عباس وعائشة ومعاوية وابن المسيب: كان عمره ثلاثاً وستين سنة. وقال ابن عباس أيضاً ودغفل بن حنظلة: كان عمره خمساً وستين سنة. وقال عروة بن الزبير: كان عمره ستين سنة. (٣٣٤/٢)

ذكر إنفاذ جيش أسامة بن زيد

قد ذكرنا استعمال النبي ﷺ، أسامة بن زيد على جيش وأمره بالتوجه إلى الشام، وكان قد ضرب البعث على أهل المدينة ومن حولها وفيهم عمر بن الخطاب، فتوفي النبي ﷺ، ولم يسر الجيش، وارتدت العرب إما عامة أو خاصة من كل قبيلة، وظهر النفاق، وشارب يهود والنصارائية، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد نبيهم وقتلهم وكثرة عدوهم. فقال الناس لأبي بكر: إن هؤلاء، يعنون جيش أسامة، جند المسلمين، والعرب - على ما ترى - قد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ، فخطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجرف، فخرجوا كما أمرهم، وجيش أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم، فصاروا مسالح حول قبائلهم، وهم قليل.

فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر ابن الخطاب، وكان معه في جيشه، إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس وقال: إن معي وجوه الناس وحلهم، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال من مع أسامة من الأنصار (٣٣٥/٢) لعمر بن الخطاب: إن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ، [فإن أبا] إلا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا [رجلاً] أقدم سناً من أسامة.

فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة. فقال: لو خطفنتي الكلاب والذئاب لأنفذت كما أمر به رسول الله ﷺ، ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذت. قال عمر: فإن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سناً من

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركن أو لأنزلن! فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله! فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وسبعمائة سيئة تُمحى عنه.

فلما أراد أن يرجع قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فاذن له، ثم وصاهم فقال: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً [إلا لماكلة]، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصاب فاخفّوهم بالسيف خففاً. اندفعوا باسم الله.

وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ، فسار وأوقع بقبائل من ناس قضاة التي ارتدت وغنم وعاد، وكانت غنيته (٣٣٦/٢) أربعين يوماً، وقيل: سبعين يوماً.

وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش، فكفّوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه.

ذكر أخبار الأسود العنسي باليمن

واسمه عثيلة بن كعب بن عوف العنسي، بالنون؛ وعنس بطن من مذحج، وكان يلقب ذا الخمار لأنه كان معتمداً متخمراً أبداً.

وكان النبي ﷺ، قد جمع لبازان حين أسلم وأسلم أهل اليمن عمل اليمن جميعه وأمره على جميع مخالفيه، فلم يزل عاملاً عليه حتى مات. فلما مات باذان فرّق رسول الله ﷺ، أمراءه في اليمن، فاستعمل عمرو بن حزم على نجران، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران وزبيد، وعامر بن شهر على همدان، وعلى صنعاء شهر بن باذان، وعلى عكّ والأشعرين الطاهر بن أبي هالة، وعلى مارب أبا موسى، وعلى الجند يعلى بن أمية، وكان معاذ معلماً يتنقل في عمالة كل عامل باليمن وحضرموت، واستعمل على أعمال حضرموت زياد بن لبيد الأنصاري، وعلى السكاسك والسكون عكاشة بن ثور، وعلى بني معاوية ابن كندة عبد الله أو المهاجر، فاشتكى رسول الله ﷺ، (٣٣٧/٢) فلم يذهب حتى

بنا ونحن نَحْذَرُه. فبينما نحن على ذلك إذ جاءتنا كتب عامر بن شَهْرٍ
وذي رُوَيْدٍ وذي مُرَّانٍ وذي الكَلَّاحِ وذي طَلَيْمٍ يذللون لنا النصر،
فكاتبناهم وأمرناهم أن لا يفعلوا شيئاً حتى نَبْرِمَ أمرنا، وإِنَّمَا
اعتاجوا لذلك حين كاتبهم النبي ﷺ، وكتب أيضاً إلى أهل نَجْران
فأجابوه، وبلغ ذلك الأسود وأحسن بالهلاك.

قال: فدخلتُ على آزاد، وهي امرأته التي تزوجها بعد قتل
زوجها شهر بن باذان، فدعوتها إلى ما نحن عليه وذكرتها قتل
زوجها شهر وإهلاك عشيرتها وفضيحة النساء. فأجابت وقالت:
والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه، ما يقوم لله على حقٍّ ولا
يتهمي عن محرمٍ، فأعلموني أمركم أخبركم بوجه الأمر. قال:
فخرجتُ وأخبرتُ فيروز وداؤديه وقيساً. قال: وإذ قد جاء رجل
فدعا (٣٣٩/٢) قيساً إلى الأسود، فدخل في عشرة من مذحج
وهمدان فلم يقدر على قتله معهم وقال له: ألم أخبرك الحقَّ
وتخبرني الكذب؟ إنّه، يعني شيطانه، يقول لي: إلّا تقطع من قيس
يده يقطع رقبتيك. فقال قيس: إنّه ليس من الحقّ أن أهلك وأنت
رسول الله، فمرني بما أحببتُ أو اقتلني، فموتة أهون من موتات.

فرق له وتركه، وخرج قيس فمر بنا وقال: اعملوا عملكم. ولم
يقعد عندنا. فخرج علينا الأسود في جمع، فقمنا له وبالباب مائة ما
بين بقرة وبعير، فنحرها ثمّ خلاها، ثمّ قال: أحقّ ما بلغني عنك يا
فيروز؟ وبوّأ له الحربة - لقد هممتُ أن أنحرك. فقال: اخترتُنا
لصهرك وفضلتُنا، فلو لم تكن نبياً لما بعنا نصيبنا منك بشيء، فكيف
وقد اجتمع لنا بك الأمر الدنيا والآخرة! فقال له: اقسم هذه،
فقسمها، ولحق به وهو يسمع سعاية رجل بفيروز وهو يقول له: أنا
قاتله غداً وأصحابه، ثمّ التفت فإذا فيروز فأخبره بقسمتها، ودخل
الأسود ورجع فيروز فأخبرنا الخبر، فأرسلنا إلى قيس فجاءنا،
فاجتمعنا على أن أعود إلى المرأة فأخبرها بعزيمتنا وناخذ رايها،
فأتيها فأخبرتها، فقالت: هو متحرّز وليس من القصر شيء إلّا
والحرس محيطون به غير هذا البيت، فإنّ ظهره إلى مكان كذا
وكذا، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه فإنكم من دون الحرس وليس دون
قتله شيء، وستجدون فيه سراجاً وسلاحاً.

فتلقاني الأسود خارجاً من بعض منازل فقال: ما أدخلك عليّ؟
ووجاً رأسي حتى سقطت، وكان شديداً، فصاحت المرأة فادهشته
وقالت: جاءني ابن عمّي زائراً ففعلتُ به هذا؟ فتركي، فأتيتُ
أصحابي فقلت: النجاء! الهرب! وأخبرتهم الخبر.

فإنّا على ذلك حيارى إذ جاءنا رسولها يقول: لا تدعنّ ما
فارتكت عليه، فلم أزل به حتى اطمان. فقلنا لفيروز: إيتنا فتبثت
منها. ففعل، فلمّا أخبرته قال: نقب على بيوت مبطنة، فدخل فاقطلع
البطانة وجلس عندها (٣٤٠/٢) كالزائر، فدخل عليها الأسود

وجّه أبو بكر، فمات رسول الله ﷺ، وهؤلاء عمّاله على اليمن
وحضرموت.

وكان أوّل من اعترض الأسود الكاذب شهْرٌ وفيروز وداؤديه،
وكان الأسود العنسيّ لما عاد رسول الله ﷺ، من حجّة الوداع
وتمرّض من السفر غير مرض موته بلغه ذلك، فادّعى النبوة، وكان
مشعباً يُريهم الأعاجيب، فاتبعته مذحج، وكانت ردة الأسود أوّل
ردة في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ، وغزا نجران فأخرج
عنها عمرو بن خرّم وخالد بن سعيد، ووثب قيس بن عبد يغوث بن
مكشوح على فرّوة بن مُسيك، وهو على مُراد، فأجلاه ونزل منزله،
وسار الأسود عن نجران إلى صنعاء، وخرج إليه شهر بن باذان
فلقبه، فقتل شهر لخمس وعشرين ليلة من خروج الأسود، وخرج
مُعاذ هارباً حتى لحق بأبي موسى وهو بمأرب، فلحقا بحضرموت،
ولحق بفرّوة من تمّ على إسلامه من مذحج.

واستتبّ للأسود مُلك اليمن، ولحق أمراء اليمن إلى الطاهر بن
أبي هالة إلّا عَمراً وخالداً، فإنّهما رجعا إلى المدينة، والطاهر بجبال
عك وجبال صنعاء، وغلب الأسود على ما بين مفازة حضرموت
إلى الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن، واستطار أمره
كالهزق، وكان معه سبعمائة فارس يوم لقي شهراً سوى الركبان،
واستغلظ أمره، وكان خليفته في مذحج عمرو بن معدى كرب،
وكان خليفته على جنده قيس بن عبد يغوث، وأمر الأبناء إلى فيروز
وذاؤديه.

وكان الأسود تزوّج امرأة شهر بن باذان بعد قتله، وهي ابنة عمّ
فيروز. وخاف من بحضرموت من المسلمين أن يبعث إليهم جيشاً،
أو يظهر بها كذاب (٣٣٨/٢) مثل الأسود، فتزوّج مُعاذ إلى
السكون، فعطفوا عليه.

وجاء إليهم وإلى منّ باليمن من المسلمين كتب النبي ﷺ،
يأمرهم بقتال الأسود، فقام مُعاذ في ذلك وقويت نفوس المسلمين،
وكان الذي قدم بكتاب النبي ﷺ، وبَرُّ بن مُحَنَسٍ الأزديّ، قال
جشّس الديلمي: فجاءتنا كتب النبي ﷺ، يأمرنا بقتاله إمّا مصادمةً
أو غيلةً، يعني إليه وإلى فيروز وداؤديه، وأن نكتب من عنده دين.
فعملنا في ذلك، فرأينا أمراً كثيفاً، وكان قد تغيّر لقيس بن عبد
يغوث، قلنا: إن قيساً يخاف على دمه فهو لأوّل دعوة، فدعوانه
وأبلغناه عن النبي ﷺ، فكانما نزلنا عليه من السماء، فأجابنا،
وكاتبنا الناس. فأخبره الشيطان شيئاً من ذلك، فدعا قيساً فأخبره أنّ
شيطانه يأمره بقتله لميله إلى عدوه، فحلف قيس: لأنت أعظم في
نفسى من أن أحدث نفسي بذلك. ثمّ اتانا فقال: يا جشّس ويا فيروز
ويا ذاؤديه، فأخبرنا بقول الأسود. فبينما نحن معه يحدثنا إذ أرسل
إلينا الأسود فتهدّنا، فاعتذرنا إليه ونجونا منه ولم نكذ وهو مرتاب

فأخذته غيره، فأخبرته برضاع وقرابة منها [عنده] محرّم، فأخرجه. فلما أسيّنا عملنا في أمرنا وأعلمنا أشياعنا وعجلنا عن مراسلة الهمدانيّين والحميريّين فنقبنّا البيت ودخلنا، وفيه سراج تحت

جفنة، وأتقينا فيروز، كان أشدّنا قلنا: انظر ماذا ترى، فخرج ونحن بينه وبين الحرس. فلما دنا من باب البيت سمع غطيظاً شديداً والمرأة قاعدة، فلما قام على باب البيت أجلسه الشيطان وتكلّم على لسانه وقال: ما لي ولك يا فيروز! فخشني إن رجعت أن يهلك وتهلك المرأة فعاجله وخالطه وهو مثل الجمل فأخذ برأسه فقتله ودقّ عنقه ووضع ركبته في ظهره فدقّه ثمّ قام ليخرج، فأخذت المرأة بثوبه وهي ترى أنه لم يقتله. فقال: قد قتلتُه وأرحتك منه، وخرج فأخبرنا، فدخلنا معه، فخار كما يخور الثور، فقطعت رأسه بالشفرة، وابتدر الحرس المقصورة يقولون: ما هذا؟ فقالت

المرأة: النبيّ يوحى إليه فخذوا، وقعدنا تأتمر بيننا، فيروز وداؤويّه وقيس، كيف نخبر أشياعنا، فاجتمعنا على النداء. فلما طلع الفجر نادينا بشعارنا الذي بيننا وبين أصحابنا ففرّج المسلمون والكافرون ثم نادينا بالأذان فقلت: أشهد أنّ محمّداً رسول الله وأنّ عهله كذاب! وألقينا إليهم رأسه، وأحاط بنا أصحابه وحرسه وشنّوا الغارة وأخذوا صبياناً كثيرة وانتهوا. فنادينا أهل صنعاء من عنده منهم فأمسكه، ففعلوا. فلما خرج أصحابه فقدوا سبعين رجلاً، فراسلونا وراسلناهم على أن يتركوا لنا ما في أيديهم وترك ما في أيدينا، ففعلنا، ولم يظفروا منا بشيء، وتردّدوا في ما بين صنعاء ونجران. وتراجع أصحاب النبيّ، (٣٤١/٢) إلى أعمالهم، وكان يصليّ بنا معاذ بن جبل، وكتبنا إلى رسول الله، ﷺ، بخبره، وذلك في حياته.

ذكر أخبار الردة

قال عبد الله بن مسعود: لقد تمّنا بعد رسول الله، ﷺ، مقاماً كذا نهلك فيه لولا أنّ الله منّ علينا بأبي بكر، أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لَبُون، وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلّا بالخطة المخرجة أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخرجة فإن يقرّوا بأن من قُتل منهم في النار ومن قُتل منّا في الجنة، وأن يدعوا قتلتنا ونغنم ما أخذنا منهم، وأنّ ما أخذوا منّا مردودٌ علينا. وأما الحرب المجلية فإن يُخرّجوا من ديارهم.

وأما أخبار الردة فإنّه لما مات النبيّ، ﷺ، وسير أبو بكر جيشاً أسامة ارتدّت العرب وتضرمت الأرض ناراً وارتدّت كلّ قبيلة عامّة أو خاصّة إلّا قريشاً وثقيفاً، واستغفل أمرٌ مُسيلمٌ وطلّيحة، واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد، وارتدّت غطفان تبعاً لعُيَينة بن حصن، فإنّه قال: نبيّ من الحليّفين، يعني أسداً وغطفان، أحبّ إلينا من نبيّ من قريش، وقد مات محمّد وطلّيحة حيّ، فاتبعه وتبعته غطفان، وقدمت (٣٤٣/٢) رسل النبيّ، ﷺ، من اليمامة وأسد وغيرهما وقد مات فدفعوا كتبهم لأبي بكر وأخبروه الخبر عن مسيلم وطلّيحة، فقال: لا تبرحوا حتى تجيء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى ممّا وصفتم، فكان كذلك، وقدمت كتب أمراء النبيّ، ﷺ، من كلّ مكان بانتفاض العرب عامّة أو خاصّة وتسلمتهم على المسلمين، فحاربهم أبو بكر بما كان رسول الله، ﷺ، يحاربهم، بالرسول، فردّ رسلهم بأمره وأتبع رسلهم رسلاً وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة، فكان عمّال رسول الله، ﷺ، على قضاة وكتب امرؤ القيس بن الأصبغ الكلبيّ، وعلى القين عمرو بن الحكم، وعلى سعد هذيم معاوية الواليّ، فارتدّ ودبّعة الكلبيّ فيمن تبعه، وبقي امرؤ القيس على دينه، وارتدّ زُمَيْل بن قُطَيْبة القينيّ، وبقي عمرو، وارتدّ معاوية فيمن اتبعه من سعد هذيم، فكتب أبو بكر إلى امرئ القيس، وهو جدّ سَكينة بنت الحسين، فسار بوديعة إلى عمرو، فأقام لُزُمَيْل، وإلى معاوية العُذريّ، وتوسّطت خيل

وأناه الخبر من ليلته، وقدمت رسلنا، وقد توفّي رسول الله، ﷺ، فأجابنا أبو بكر. قال ابن عمر: أتى الخبر من السماء إلى النبيّ، ﷺ، في ليلته التي قُتل فيها، فقال: قُتل العنسي، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين، قيل: من قتله؟ قال: قتله فيروز.

قيل: كان أوّل أمر العنسيّ إلى آخره ثلاثة أشهر، وقيل قريب من أربعة أشهر، وكان قدوم البشير بقتله في آخر ربيع الأوّل بعد موت النبيّ، ﷺ، فكان أوّل بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة.

قال فيروز: لما قتلنا الأسود عاد أمرنا كما كان، وأرسلنا إلى معاذ بن جبل فصلّى بنا ونحن راجون مؤمّلون لم يبق شيء نكرهه إلّا تلك الخيول من أصحاب الأسود، فأبى موت النبيّ، ﷺ، فانقضت الأمور واضطربت الأرض.

(العنسيّ بالعين والنون).

وفي هذه السنة ماتت فاطمة بنت النبيّ، ﷺ، لثلاث خلون من رمضان وهي ابنة تسع وعشرين سنة أو نحوها، وقيل: توفّيّت بعد

أسامة ببلاد قضاة فشن الغارة فيهم، فغنموا وعادوا سالمين.

ذكر خبر طليحة الأسدي

وكان طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمة قد تنبأ في حياة رسول الله، ﷺ، فوجه إليه النبي، ﷺ، ضرار بن الأزور عاملاً على بني أسد وأمرهم بالقيام على من ارتد، فضعف أمر طليحة حتى لم يبق إلا أخذه، فضربه بسيف، فلم يصنع فيه (٣٤٤/٢) شيئاً، فظهر بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه، فكثر جمعه. ومات النبي، ﷺ، وهم على ذلك، فكان طليحة يقول: إن جبرائيل يأتيني، وسجع للناس الأكاذيب، وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول: إن الله لا يصنع بتعقر وجوهكم وتقيح أباركم شيئاً، اذكروا الله أفعة قياماً، إلى غير ذلك، وتبعه كثير من العرب عصية، فلهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطية. فسارت فزارة وغطفان إلى جنوب طيئة، وأقامت طية على حدود أراضيهم وأسد بسمراء، واجتمعت عيس وعلبة ابن سعد ومرة بالأبرق من الريدة، واجتمع إليهم ناس من بني كنانة، فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين، أقامت فرقة بالأبرق، وسارت فرقة إلى ذي القصة، وأمدهم طليحة بأخيه حبال، فكان عليهم وعلى من معهم من الدئل وليث ومذليج، وأرسلوا إلى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة، فقال أبو بكر: والله لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه. وكان عقل الصدقة على أهل الصدقة وردهم، فرجع وفدهم، فاخبروهم بقله من في المدينة وأطمعهم فيها.

وجعل أبو بكر بعد مسير الوفد على أنقاب المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد خوف الغارة من العدو لقربهم، فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرّقوا المدينة غارة مع الليل وخلقوا بعضهم بذى حسي ليكونوا لهم ردة، فوافوا ليلاً الأنقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم، وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر، فخرج إلى أهل المسجد على التواضع، فردوا العدو وأتبعوهم حتى بلغوا ذا حسي، فخرج عليهم الردة بأنحاء قد نفخوها فيها الحبال، ثم ددهوها على الأرض، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم إلى المدينة ولم يصترع مسلم. (٣٤٥/٢)

وظن الكفار بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى أهل ذي القصة بالخبر، فقدموا عليهم، وبات أبو بكر يعطي الناس، وخرج على تعبئة يعشي وعلى ميمته النعمان بن مقرن وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن وعلى أهل الساقة سويد بن مقرن. فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد، فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف، فما دز قرن الشمس حتى ولّوهم الأدبار وغلّبوهم على عامة ظهرهم وقتل رجال وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة، وكان أول الفتح، ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد،

ورجع إلى المدينة، فذلّ له المشركون. فوثب بنو غنيس وذبيان على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، فحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وازداد المسلمون قوة وثباتاً.

وطرقت المدينة صدقات نفر كانوا على صدقة الناس، بهم صفوان والزبير بن بدر وعدي بن حاتم، وذلك لتمام ستين يوماً من مخرج أسامة، وقدم أسامة بعد ذلك بأيام، وقيل: كانت غزوته وعوده في أربعين يوماً. فلما قدم أسامة استخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهرهم، ثم خرج فيمن كان معه، فناشده المسلمون ليعيم، فأبى وقال: لأواسينكم بنفسي. وسار إلى ذي حسي وذو القصة حتى نزل بالأبرق فقاتل من به، فهزم الله المشركين وأخذ الخطبة أسيراً، فطارت عيس وبنو بكر، وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً، وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين وصدقاتهم.

ولما انهزمت عيس وذبيان رجعوا إلى طليحة وهو بزاخه، وكان رحل من سُميراء إليها، فأقام عليها، وعاد أبو بكر إلى المدينة. فلما استراح أسامة وجنده، وكان قد جاءهم صدقات كثيرة تفضل عليهم، قطع أبو بكر (٣٤٦/٢) البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواء، عقد لواء لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالطاح إن أقام له، وعقد لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلة، وعقد للمهاجر بن أبي أمية وأمره بجند العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح، ثم يمضي إلى كندة بحضرموت، وعقد لخالد بن سعيد فيعته إلى مشارف الشام، وعقد لعمر بن العاص وأرسله إلى قضاة، وعقد لحذيفة بن يمحضر الغلفاني وأمره بأهل دبا، وعقد لعرفجة بن هرثة وأمره بهرة وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما على صاحبه في عمله. وبعث شُرّحيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي جهل وقال: إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاة وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة. وعقد لمعن بن حاجر وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن، وعقد لسويد بن مقرن وأمره بهامة باليمن، وعقد للعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين، ففصلت الأمراء من ذي القصة ولحق بكل أمير جنده، وعهد إلى كل أمير وكتب إلى جميع المرتدين نسخة واحدة يأمرهم بمراجعة الإسلام ويحذرهم، وسير الكتب إليهم مع رسله. ولما انهزمت عيس وذبيان ورجعوا إلى طليحة بزاخه أرسل إلى جديلة والغوث من طية يأمرهم باللاحاق به، فتعجل إليه بعضهم وأمروا قومهم باللاحاق بهم، فقدموا على طليحة.

وكان أبو بكر بعث عدي بن حاتم قبل خالد إلى طية وأتبعه خالداً وأمره أن يبدأ بطية ومنهم يسير إلى بزاخه ثم يثلث بالبطاح

وكان خرج معتمراً [في إمارة أبي بكر] ومراً بجَنَبَاتِ المدينة، فقبل لأبي بكر: هذا طليحة! فقال: ما أصنع به؟ قد أسلم! ثم أتى عمرَ فبايعه حين استخلف. فقال له: أنت قاتل عُكاشة وثابت؟ والله لا أحبك أبداً! فقال: يا أمير المؤمنين ما يهتك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يهني بأيديهما! فبايعه عمر وقال له: ما بقي من كهانتك؟ فقال: نفخة أو نفختان [بالكبر]. ثم رجع إلى قومه فأقام عندهم حتى خرج إلى العراق.

ولما انهزم الناس عن طليحة أسر عيينة بن حصن، فقدم به على أبي بكر، فكان صبيان المدينة يقولون له وهو مكتوف: يا عدو الله أكفرت بعد إيمانك؟ فيقول: والله ما آمنْتُ بالله طرفة عين. فتجاوز عنه أبو بكر وحقن دمه.

وأخذ من أصحاب طليحة رجل كان عالماً به، فسأله خالد عما كان يقول، فقال: إنَّ ممَّا أتى به: والحمَّام واليمام، والصرْد الصَّوَّام، قد صُنَّ (٣٤٩/٢) قبلكم بأعوام، ليلغْنَ مُلْكُنَا العراق والشام.

قال: ولم يؤخذ منهم شيء لأنهم كانوا قد أحرزوا حريمهم، فلما انهزموا أقروا بالإسلام خشية على عيالاتهم، فأمهم.

(جبال بكسر الحاء المهملة، وفتح الباء الموحدة، وبعد الألف لام. وذو القصة بفتح القاف، والصاد المهملة، وذو حُسي بضم الحاء المهملة، والسين المهملة المفتوحة. ودبَّا بفتح السدال المهملة، وبالباء الموحدة. وبزُاخة بضم الباء الموحدة، وبالزاي، والحاء المعجمة).

ذكر ردة بني عامر وهوازن وسُلَيم

وكانت بنو عامر تقدّم إلى الردة رجلاً وتؤخّر أخرى وتنظر ما تصنع أسد وغطفان. فلما أحيط بهم وبنو عامر على قادتهم وسادتهم كان قرّة بن هُبيرة في كعب ومنّ لأفها، وعلقمة بن غلثة في كلاب ومنّ لأفها، وكان أسلم ثم ارتدّ في زمن النبي، ﷺ، ولحق بالشام بعد فتح الطائف، فلما توفي النبي، ﷺ، أقبل مسرعاً حتى عسكر في بني كعب. فبلغ ذلك أبا بكر فبعث إليه سرية عليها القعقاع بن عمر، وقيل بل قعقاع بن سور، وقال له ليخبر على علقمة لعله يقتله أو يستأسره. فخرج حتى أغار على الماء الذي عليه علقمة، وكان لا يبرح [إلا] مستعدّاً، فسابقهم على فرسه فسبقهم، وأسلم أهله وولده، وأخذهم القعقاع وقدم بهم على أبي بكر، فوجدوا أن يكونوا على حال علقمة، ولم يبلغ أبا بكر عنهم أنهم فارقوا دارهم، وقالوا له: ما ذنبنا فيما صنع علقمة؟ فأرسلهم ثم أسلم، فقبل ذلك منه. (٣٥٠/٢)

وأقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بُزَاخَة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله، وأتوا خالداً فبايعهم على ما بايع

ولا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يأذن له. وأظهر أبو بكر للناس أنه خارج إلى خيبر بجيش حتى يلاقي خالداً، يُزهب العدو بذلك.

وقدم عديّ على طيء فدعاهم وخوفهم، فأجابوه وقالوا له: استقبل الجيش فأخبره عنا حتى نستخرج من عند طليحة منّا لئلا يقتلهم. فاستقبل (٣٤٧/٢) عديّ خالدًا وأخبره بالخبر، فتأخّر خالد، وأرسلت طيء إلى إخوانهم عند طليحة فلهقوا بهم، فعادت طيء إلى خالد بإسلامهم، ورحل خالد يريد جديلة، فاستمهلهم عديّ عنهم، ولحق بهم عديّ يدعوهم إلى الإسلام، فأجابوه، فعاد إلى خالد بإسلامهم، ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم، وكان خير مولود في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم.

وأرسل خالد بن الوليد عُكاشة بن مِخْصَن وثابت بن أقرم الأنصاري طليعة، فلقبهما جبال أخو طليحة فقتلاه، فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلّمة، فقتل طليحة عُكاشة وقتل أخوه ثابتاً ورجعا.

وأقبل خالد بالناس فأروا عُكاشة وثابتاً قتيّلين فجزع لذلك المسلمون، وانصرف بهم خالد نحو طيء، فقالت له طيء: نحن نكفيك قيساً، فإن بني أسد حلفاؤنا. فقال: قاتلوا أي الطائفتين شئتم. فقال عديّ بن حاتم: لو نزل هذا على الذين [هم] أسرتي الأذني فالأذني لجاهدتهم عليه، والله لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم. فقال له خالد: إن جهاد الفريقين جهادٌ، لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط؛ ثم تعبى لقتالهم، ثم سار حتى التقيا على بُزَاخَة، وبنو عامر قريباً بترثوصون على من تكون الدائرة، قال: فاقتل الناس على بُزَاخَة.

وكان عيينة بن حصن مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة، فقاتلوا قتالاً شديداً وطليحة متلف في كسائه يتبأ لهم، فلما اشتدّت الحرب كرّ عيينة على طليحة وقال له: هل جاءك جبرائيل بعد؟ قال: لا، فرجع فقاتل، ثم كرّ على طليحة فقال له: لا أبا لك! أجاءك جبرائيل؟ قال: لا. فقال عيينة: حتى متى؟ قد والله بلغ منّا ثم رجع فقاتل قتالاً شديداً ثم (٣٤٨/٢) كرّ على طليحة فقال: هل جاءك جبرائيل؟ قال: نعم. قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: إنَّ لك رَحاً كرحاه، وحديثاً لا تنساه. فقال عيينة: قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه، انصرفوا يا بني فزارة فإِنَّه كذاب، فانصرفوا وانهزم الناس.

وكان طليحة قد أعدّ فرسه وراحلته لامراته الثوار، فلما غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها وقال: يا معشر فزارة من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل. ثم انهزم فلحق بالشام، ثم نزل على كلب فأسلم حين بلغه أن أسداً وغطفان قد أسلموا، ولم يزل مقيماً في كلب حتى مات أبو بكر.

ثم إنَّ أبا شجرة أسلم، فلَمَّا كان زمن عمر قدم المدينة فرأى عمر وهو يقسم في المساكين، فقال: أعطني فأني ذو حاجة، فقال: ومن أنت؟ فقال: أنا أبو شجرة بن عبد العُزَّى السُّلَمي. قال: أيَّ عدوِّ الله [لا] والله! السَّت الذي تقول: (٣٥٢/٢)

فَرَوَيْتُ رُمَحِي مِنْ كَيْبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لَأَزْجُو بَعَثَهَا أَنْ أَعْمُرَ؟ وجعل يعلوه بالدُّرَّة في رأسه حتى سبقه عدوُّاً إلى ناقته فركبها ولحق بقومه وقال:

ضَبْنُ عَلِيٍّ ابْنِ خَصْمٍ بَنِيْلِي وَكُلُّ مُخْبِطٍ يَوْمَالَهُ وَزَقُّ فِي أَيَّامٍ.

ذكر قدوم عمرو بن العاص من عُمان

كان رسول الله ﷺ، قد أرسل عمرو بن العاص إلى جَنْبَرٍ عند منصرفه من حجة الوداع. فمات رسول الله ﷺ، وعمرو بعُمان، فأقبل حتى انتهى إلى البحرين فوجد المنذر بن ساوى في الموت. ثم خرج عنه إلى بلاد بني عامر فنزل بقرّة بن هُبيرة، وقرّة يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى ومعه عسكر من بني عامر، فذبح له وأكرم مثواه. فلَمَّا أراد الرحلة خلا به قرّة وقال: يا هذا إنَّ العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة، فإن أعفيتهموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتهم فلا تجتمع عليكم.

فقال له عمرو: أكفرت يا قرّة؟ اتخوفنا بالعرب؟ فوالله لأوطننّ عليك الخيل في جفش أمك والجفش: بيت تنفرد فيه النفساء. وقدم على المسلمين (٣٥٣/٢) بالمدينة فأخبرهم، فأطافوا به يسألونه، فأخبرهم أنَّ العساكر معسكرة من دُبا إلى المدينة. ففترقوا وتحلقوا حلقاً، وأقبل عمر يريد التسليم على عمرو فمرّ على حلقة فيها عليّ وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد. فلَمَّا دنا عمر منهم سكوا، فقال: فيم أنتم؟ فلم يجيبوه. فقال لهم: إنكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب! قالوا: صدقت. قال: فلا تخافوهم، أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، والله لو تدخلون معاشر قريش، جُحراً لدخلته العرب في آثارك، فاتقوا الله فيهم.

ومضى عمر، فلَمَّا قدِم بقرّة بن هُبيرة على أبي بكر أسيراً استشهد بعمرو على إسلامه، فأحضر أبو بكر عمراً فسأله، فأخبره بقول قرّة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة فقال قرّة: مهلاً يا عمرو! فقال: كلا، والله لأخبرته بجميعه. فعفا عنه أبو بكر وقيل إسلامه.

ذكر بني تميم وسجاح

وأما بنو تميم فإنَّ رسول الله ﷺ، فرّق فيهم عُماله، فكان الزُّبُران منهم وسهل بن مِجَاب وقيس بن عاصم وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ووَكيع بن مالك ومالك بن نُويرة. فلَمَّا

أهل بُزَاخَة وأعطوه بأيديهم على الإسلام، وكانت يبعته: عليكم عهدُ الله وميثاقه لتؤمننَّ بالله ورسوله، ولتقيمنَّ الصلاة، ولتؤتينا الزكاة، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم، فيقولون: نعم، ولم يقبل من أحد من أسد وغطفان وطيء وسُلَيْم وعامر إلّا أن يأتوه بالذين حرّقوا ومثلوا وعدوا على الإسلام في حال ردّتهم، فأتوه بهم، فمثل بهم وحرّتهم ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال ونكسهم في الأبار، وأرسل إلى أبي بكر يعلّمه ما فعل، وأرسل إليه قرّة بن هُبيرة ونفراً معه موثقين وزهيراً أيضاً.

وأما أمّ زمّل فاجتمع فلأل غطفان وطيء وسُلَيْم وهوازن وغيرها إلى أمّ زمّل سُلَمى بنت مالك بن خُذَيْفَة بن بدر، وكانت أمّها أمّ قُرّة بنت ربيعة بن بدر، وكانت أمّ زمّل قد سبّيت أيام أمّها أمّ قُرّة، وقد تقدّمت الغزوة، فوقعت لعائشة، فأعتقتها ورجعت إلى قومها وارتدّت واجتمع إليها الفلّ، فأمرتهم بالقتال، وكثف جمعها وعظمت شوكتها. فلَمَّا بلغ خالداً أمرها سار إليها، فاقتتلوا قتالاً شديداً أوّل يوم وهي واقفة على جمل كان لأمّها وهي في مثل عزّها، فاجتمع على الجمل فوارس فمقروه وقتلوا وقتل حول جملها مائة رجل، وبعث بالفتح إلى أبي بكر.

وأما خبر الفُجّاءة السُّلَمي، واسمه إياس بن عبد ياليل، فإنه جاء إلى أبي بكر فقال له: أعني بالسلاح أقاتل به أهل الرّدة. فأعطاه سلاحاً وأمره إمرة، فخالف إلى المسلمين وخرج حتى نزل بالجواء، وبعث نُخْبَة بن أبي الميثاء من بني الشريد وأمره بالمسلمين، فشنّ الغارة على كلّ مسلم في سُلَيْم وعامر وهوازن، فبلغ ذلك أبا بكر فأرسل إلى طُرَيْفَة بن حاجر فأمّره (٣٥١/٢) أن يجمع له ويسير إليه، وبعث إليه عبد الله بن قيس الحاشي عوناً، فنهبوا إليه وطلباه، فلاذ منهما، ثمّ لقيه على الجواء فاقتتلوا وقتل نُخْبَة وهرب الفُجّاءة، فلحقه طُرَيْفَة فأمره ثمّ بعث به إلى أبي بكر، فلَمَّا قدم أمر أبو بكر أن ترقد له نار في مصلى المدينة ثمّ رمي به فيها مقموطاً.

وأما خبر أبي شجرة بن عبد العُزَّى السُّلَمي، وهو ابن الخنساء، فإنه كان قد ارتدّ فيمن ارتدّ من سُلَيْم وثبت بعضهم على الإسلام مع معن بن حاجر، وكان أميراً لأبي بكر. فلَمَّا سار خالد إلى طليحة كتب إلى معن أن يلحقه فيمن معه على الإسلام من بني سُلَيْم، فسار واستخلف على عمله أخاه طُرَيْفَة بن حاجر. فقال أبو شجرة حين ارتدّ:

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ مَيِّ هَوَاءٍ وَأَقْصَرَا وَطَاوَعُ فِيهَا الْعَادِلِينَ فَلَا يَصْرَا
أَلَا أَيُّهَا الْمُتَلَسِّي بِكَثْرَةِ قَوْمِهِ وَخَطْلِكَ مِنْهُمْ أَنْ تَضَامَ وَتَقَهَّرَا
سَلَّ النَّاسُ عَنَّا كُلَّ يَوْمٍ كَرِهِيَّةً إِذَا مَا تَخَيَّنَا دَارِعِينَ وَخُسْرَا
أَلَسْنَا نَطَايِذَا الطَّمَاخَ لِحَافَةِ وَنَطْعُنُ فِي الْهَيْجَا إِذَا الْمَوْتُ أَهْرَا
فَرَوَيْتُ رُمَحِي مِنْ كَيْبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لَأَزْجُو بَعَثَهَا أَنْ أَعْمُرَا

شغل بها أن يغلب ثُمَامَةُ وشُرَحْبِيل بن حَسَنَةَ والقبائل التي حولهم على حَجْرٍ، وهي اليمامة، فأهدى لها ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتياها، فأمنتها، فجاءها في أربعين من بني حنيفة، فقال مسيلمة: لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد ردَّ الله عليك النصف الذي ردت قریش.

وكان مما شرع لهم أن من أصاب ولداً واحداً ذكراً لا يأتي النساء حتى يموت ذلك الولد فيطلب الولد حتى يصيب ابناً ثم يمك.

وقيل: بل تحصن منها، فقالت له: انزل، فقال لها: أبعدني أصحابك، ففعلت، وقد ضرب لها قبة وخمرها لتذكر بطيب الريح الجماع، واجتمع بها، (٣٥٦/٢) فقالت له: ما أوحى إليك ربك؟ فقال: ألم تر إلى ربك كيف فعل بالخبلي، أخرج منها نسمة تسعى بين صفاق وحشي؟ قالت: وماذا أيضاً؟ قال: إن الله خلق النساء أفرأجا، وجعل الرجال لهن أزواجا، فتولج فيهن [فقساً] إيلاجاً، ثم تخرجها إذا تشاء إخراجاً، فيتجنن لنا سيخلاً إنتاجاً. قالت: أشهد أنك نبي. قال: هل لك أن أتزوجك وأكل بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم. قال:

الْأَوْمِى إِلَى النَّيْكَ قَدْ مِى لَكَ الْمُنْجَعُ
فَإِنْ شِئْتَ فَمِى الْيَسْرَ وَإِنْ شِئْتَ فَمِى الْمَخْذَعُ
وَإِنْ شِئْتَ سَلَقْنَاكَ وَإِنْ شِئْتَ عَلَى أَرْبَعِ
وَإِنْ شِئْتَ بَلَيْتُكَ وَإِنْ شِئْتَ بِوَاجِعِ

قالت: بل به أجمع فإنه أجمع للشم. قال: بذلك أوحى إلي. فأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت إلى قومها، فقالوا لها: ما عندك؟ قالت: كان على الحق قبيحته وتزوجته. قالوا: هل أصدقك شيئاً؟ قالت: لا. قالوا: فارجعي فاطلبي الصداق؛ فرجعت. فلما رآها أغلق باب الحصن وقال: ما لك؟ قالت: أصدقني. قال: من مؤذك؟ قالت: شئت بن ربي الرياحي، فدعاه وقال له: ناد في أصحابك أن مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمد: صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة. فانصرفت ومعها أصحابها، منهم: عطار بن حاجب وعمرو بن الأهنم وغيلان بن خرشة وشيث بن ربي، فقال عطار بن حاجب:

أَسْتَنْشَأُ نِسَاءً تَطُوفُ بِهَا وَاصْبَحَتْ نِسَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا
(٣٥٧/٢)

وصالحها مسيلمة على غلات اليمامة سنة تأخذ النصف وتترك عنده من يأخذ النصف، فأخذت النصف وانصرفت إلى الجزيرة وخلفت الهذيل وعقة وزيدا لأخذ النصف الباقي، فلم يباغتهم إلا دنو خالد إليهم فارقوا.

فلم تزل سجاح في تغلب حتى تقلهم معاوية عام الجماعة

وقع الخبر بموت رسول الله ﷺ، سار صفوان بن صفوان إلى أبي بكر بصداقات بني عمر، وأقام قيس بن عاصم ينظر ما الزبرقان صانع ليخالفه، فقال حين أبطا عليه الزبرقان في عمله: وا ويلناه من ابن العُكَلِيَّةِ والله ما (٣٥٤/٢) أدري ما أصنع، لئن أنا بعثت بالصدقة إلى أبي بكر وبابعت لتيحرن ما معه في بني سعد فيسودني فيهم، ولئن نحرتهما في بني سعد لياتين أبا بكر فيسودني عنده. فقسمها على المقاسم والبطون، ووافى الزبرقان فاتبع صفوان بن صفوان بصداقات الرباب وهي ضبة بن أد بن طابخة، وعدي وكم وعكل وثور بنو عبد مناة بن أد وبصداقات عوف والأبناء، وهذه بطون من تميم. ثم ندِم قيس، فلما أظله العلاء بن الحضرمي أخرج الصدقة فلقاه بها، ثم خرج معه وتشاغل تميم بعضها ببعض.

وكان ثُمَامَةُ بن أثال الحنفي تأتيه أمداد تميم، فلما حدث هذا الحدث أضرب ذلك بشمامة، وكان مقاتلاً لمسيلمة الكذاب، حتى قدم عليه عكرمة بن أبي جهل، فبينما الناس ببلاد تميم مسلمهم بإزاء من أراد الردة وارتاب إذ جاءهم سجاح بنت الحارث بن سويد بن عوفان التميمية قد أقبلت من الجزيرة وأدعت النبوة، وكانت ورهطها في أحوالها من تغلب تقود أفساء ربيعة معها الهذيل بن عمران في بني تغلب، وكان نصرانياً، ترك دينه وتبعها، وعقة بن هلال في النمر، وزباد بن فلان في إداد، والسليل بن قيس في شيبان، فاتاهم أمر أعظم مما هم فيه لاختلافهم.

وكانت سجاح تريد غزو أبي بكر، فأرسلت إلى مالك بن نويرة تطلب الموادة، فأجابها وردّها عن غزوها وحملها على أحياء من بني تميم، فأجابته وقالت: أنا امرأة من بني يربوع، فإن كان ملك فهو لكم. وهرب منها (٣٥٥/٢) عطار بن حاجب وسادة بني مالك وحفظلة إلى بني العنبر، وكرهوا ما صنع وكيع، وكان قد وادعها، وهرب منها أشباههم من بني يربوع وكرهوا ما صنع مالك بن نويرة، واجتمع مالك وكيع وسجاح فسجعت لهم سجاح وقالت: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب. فساروا إليهم، فلقبهم ضبة وعبد مناة فقتل بينهم قتلى كثيرة وأسر بعضهم من بعض ثم تصالحوا، وقال قيس بن عاصم شعراً ظهر فيه ندمة على تخلفه عن أبي بكر بصدقه.

ثم سارت سجاح في جنود الجزيرة حتى بلغت النجاج، فأغار عليهم أوس بن خزيمة الهجيمي في بني عمرو فأسر الهذيل وعقة، ثم اتفقوا على أن يطلق أسرى سجاح ولا يطأ أرض أوس ومن معه.

ثم خرجت سجاح في الجنود وقصدت اليمامة وقالت: عليكم باليمامة، ودفوا ذيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملأه. فقصدت بني حنيفة، فبلغ ذلك مسيلمة فخاف إن هو

الله على الكافرين. وودى مالكا وكتب إلى خالد أن يقدم عليه، ففعل، ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز في عمامته أسهما، فقام إليه عمر فتزعاها وحطهما وقال له: قتلت امرأة مسلماً ثم تزوت على امرأته، والله لأرجمك بأحجارك! وخالد لا يكلمه بظن أن رأي أبي بكر مثله، ودخل على أبي بكر فأخبره الخبر واعتذر إليه، فعذره وتجاوز عنه وعنه في التزويج الذي كانت عليه العرب من كراهة أيام الحرب. فخرج خالد وعمر جالس فقال: هلم إلي يا ابن أم سلمة. فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه، فلم يكلمه.

وقيل: إن المسلمين لما غشوا مالكا وأصحابه ليلاً أخذوا السلاح فقالوا: نحن المسلمون. فقال أصحاب مالكا، ونحن المسلمون. قالوا لهم: ضعوا السلاح، فوضعوه ثم صلوا، وكان يعتذر في قتله أنه قال: ما إخال صاحبكم إلا قال كذا وكذا. فقال له: أوما تعد لك صاحباً؟ ثم ضرب عنقه.

وقدم متمم بن نويرة على أبي بكر يطلب بدم أخيه ويسأله أن يرده عليهم سيبهم، فأمر أبو بكر برده السيبي وودى مالكا من بيت المال. ولما قدم على عمر قال له: ما بلغ بك الوجد على أخيك؟ قال: بكيتُه حولا حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة، وما رأيت ناراً قط إلا كدت أنقطع أسفاً عليه لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف ولا يعرف مكانه. قال: فصفه لي. قال: كان يركب الفرس الحرون، ويقود الجمل الثقال وهو بين المزدتين النضوختين في الليلة القرة وعليه شملة فلوت، معتقلاً رمحاً خطيلاً، فيسري ليلته ثم يصبح وكان وجهه فلقة قمر. قال: أنشدني بعض ما قلت فيه. فأنشده مرثيته التي يقول فيها: (٣٦٠/٢)

وكنا كنننا في جنيمة جبة من الدعر حتى قيل لن يصدعنا
فلما تفرقنا كافي ومالكاً لطلوع اجتماع لم نبت ليلة نفا
فقال عمر: لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدا. فقال متمم:
ولا سواء يا أمير المؤمنين، لو كان أخي صرع مصرع أخيك لما
بكيتُه. فقال عمر: ما عزاني أحد بأحسن مما عزيتي به.

وفي هذه الواقعة قُتل الوليد وأبو عبيدة ابنا عُمارة بن الوليد، وهما ابنا أخي خالد، لهما صحبة.

ذكر مسيئمة وأهل اليمامة

قد ذكرنا فيما تقدم مجيء مسيئمة إلى النبي ﷺ، فلما مات النبي ﷺ، وبعث أبو بكر السرايا إلى المرتدين، أرسل عكرمة بن أبي جهل في عسكر إلى مسيئمة وأتبعه شُرَحْبِيل بن حسنَه، فعجل عكرمة لينهب بصورتها، فواقعهم فنكبوه، وأقام شرحبيل بالطريق حين أدركه الخير، وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالخبر. فكتب إليه أبو بكر: لا أرينك ولا تراني، لا ترجعن فتوهن الناس، امض إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عُمان ومَهْرَةَ، ثم تسير أنت وجندك

وجاءت معهم وحسن إسلامهم وإسلامها وانتقلت إلى البصرة وماتت بها وصلى عليها سمره بن جندب وهو على البصرة لمعاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولايته البصرة.

وقيل: إنها لما قُتل مسيئمة سارت إلى أحوالها تغلب بالجزيرة فماتت عندهم ولم يسمع لها بذكر.

ذكر مالك بن نويرة

لمارجعت سجاح إلى الجزيرة ارعوى مالك بن نويرة وندم وتحير في أمره، وعرف وكيع وسماعة قبح ما أتيا فراجعا رجوعاً حسناً ولم يتجبرا وأخرجوا الصداقات فاستقبلا بها خالداً. وسار خالد بعد أن فرغ من فزارة وغطفان وأسد وطيء يريد البطاح، وبها مالك بن نويرة قد تردّد عليه أمره، وتخلّفت الأنصار عن خالد وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا إن نحن فرغنا من بُراخة أن نقيم حتى يكتب إلينا. فقال خالد: قد عهد إلي أن امضي، وأنا الأمير، ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن علمته فاتتني لم أعلمه، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم (٣٥٨/٢) نعمل به، فانا قاصد إلى مالك ومن معي ولست أكرههم. ومضى خالد وندمت الأنصار وقالوا: إن أصاب القوم خيراً حُرمتهم، وإن أسيبوا ليجتنبكم الناس. فلحقوه.

ثم سار حتى قدم البطاح، فلم يجد بها أحداً، وكان مالك بن نويرة قد فرّقه ونهاهم عن الاجتماع وقال: يا بني يربوع إننا دُعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نُفْلِح، وقد نظرت فيه فرائث الأمر يتأني لهم بغير سياسة، وإذا الأمر لا يسوسه الناس، فلأيام ومساواة قوم صنع لهم، فتفرقوا وادخلوا في هذا الأمر. فتفرقوا على ذلك، ولما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب وإن امتنع أن يقتلوه، وكان قد أوصاهم أبو بكر أن يؤذّوا إذا نزلوا منزلاً، فإن أذن القوم فكفوا عنهم، وإن لم يؤذّوا فاقتلوا وانهبوا، وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم عن الزكاة، فإن أقروا فاقبلوا منهم، وإن أبوا فقاتلوهم.

قال: فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بني ثعلبة بن يربوع، فاختلفت السرية فيهم، وكان فيهم أبو قتادة، فكان فيمن شهد أنهم قد أذنوا وأقاموا وصلوا، فلما اختلفوا أمر بهم فحسبوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، فأمر خالد منادياً فنادى: أذنتوا أسراكم، وهي في لغة كثانة القتل، فظن القوم أنه أراد القتل، ولم يُرد إلا الدف، فقتلوهم، فقتل ضيرار بن الأزور مالكا، وسمع خالد الواقعة فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه. وتزوج خالد أم تميم امرأة مالك. فقال عمر لأبي بكر: إن سيف خالد فيه رَقَم، وأكثر عليه في ذلك. فقال: [هيه] يا عمر! تناول (٣٥٨/٢) فأخطأ، فأرفع لسانك عن خالد، فإني لا أشيم سيفاً سلّه

تستبرئون النَّاسَ حتى تلقى مُهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت. فكتب إلى شُرْحُبِيلَ بالمقام إلى أن يأتي خالد، فإذا فرغوا من مسيلمة تلحق بعمر بن العاص تُعينه على قُضاعة.

فلما رجع خالد من البُطاح إلى أبي بكر واعتذر إليه قبل عذره ورضي (٣٦١/٢) عنه وجهته إلى مسيلمة وأوعب معه المهاجرين والأنصار، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب، وأقام خالد بالبُطاح ينتظر وصول البعث إليه. فلما وصلوا إليه سار إلى اليمامة وبنو حنيفة يومئذ كثيرون كانت عدتهم أربعين ألف مقاتل، وعجل شُرْحُبِيلُ بن حسنة، ويادر خالدًا بقتال مسيلمة، فنكب، فلامه خالد، وأمد أبو بكر خالدًا بسليط ليكون رُدَّةً له لئلا يوتى من خلفه. وكان أبو بكر يقول: لا أستعمل أهل بدر، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم، فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما يتصر بهم. وكان عمر يرى استعمالهم على الجند وغيره.

وكان مع مسيلمة نهارُ الرِّجَالِ بن عُفُوة، وكان قد هاجر إلى النبي ﷺ، وقرأ القرآن، وفقه في الدين، وبعثه معلماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة، فكان أعظم فتنةً على بني حنيفة من مسيلمة، شهد أن محمداً ﷺ، يقول: إن مسيلمة قد أشرك معه، فصَدَّقوه واستجابوا له، وكان مسيلمة ينتهي إلى امره، وكان يؤذَنُ له عبد الله بن النواجة، والذي يُقيم له حُجَيْر بن عُمَيْر، فكان حجير يقول: أشهد أن مسيلمة يزعم أنه رسول الله. فقال له مسيلمة: أفصح حجير، فليس في المجمعمة خير. وهو أول من قالها.

وكان مما جاء به وذكر أنه وحي: يا صفدع بنت صفدع، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكذرين. وقال أيضاً: والمُتْدِيَاتُ زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبيراً، والشاردات ثرداً، واللاقمات لقماً إهالةً وسمناً؛ لقد فضَّلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المَذَرِّ ريقكم (٣٦٢/٢) فامنعوه، والمُعْيِي فَاوَّوه، والباغي فَنَاوَّوه. وأتته امرأةٌ فقالت: إن نخلنا لسحيق، وإن آبارنا لجُرُز، فادع الله لماننا ونخلنا كما دعا محمد ﷺ، لأهل هُزْمان. فسأل نهاراً عن ذلك، فذكر أن النبي ﷺ، دعا لهم وأخذ من ماء آبارهم فتضمض منه ومجَّه في الآبار ففاضت ماءً وأنجيت كل نخل وأطلعت فسبلاً قصيراً مكِّمًا، ففعل مسيلمة ذلك، فغار ماء الآبار وبيس النخل، وإنما ظهر ذلك بعد مهلكه.

وقال له نهار: أمر يدك على أولاد بني حنيفة مثل محمد، ففعل وأمر يده على رؤوسهم وحنكهم فقرع كل صبي مسح رأسه، ولشغ كل صبي حنكه، وإنما استبان ذلك بعد مهلكه.

وقيل: جاءه طلحة النمرى فسأله عن حاله، فأخبره أنه يأتيه

رجل في ظلمة، فقال: أشهد أنك الكاذب، وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَر. فقتل معه يوم عقرباء كافراً.

ولما بلغ مسيلمة دنو خالد ضرب عسكره بعقرباء، وخرج إليه الناس وخرج مَجَاعَة بن مُرارة في سرية يطلب ثأراً لهم في بني عامر، فأخذه المسلمون وأصحابه، فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه في بني حنيفة، وكانوا ما بين أربعين إلى ستين.

وترك مسيلمة الأموال وراء ظهره، فقال شُرْحُبِيلُ بن مسيلمة: يا بني حنيفة قاتلوا فإن اليوم يوم الغيرة، فإن انهزمهم تُستردف النساء سيئات، ويُنكحن غير خطيبات؛ فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم. فاقتلوا بعقرباء، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وكانت قبله (٣٦٣/٢) مع عبد الله بن حفص بن غانم، فقتل، فقالوا: نخشى علينا من نفسك [شبيئاً]! فقال: بشس حامل القرآن أنا إذاً! وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، وكانت العرب على راياتهم، والتقى الناس، وكان أول من لقي المسلمين نهارُ الرِّجَالِ بن عُفُوة فقتل، قتله زيد بن الخطاب، واشتد القتال، ولم يلقَ المسلمون حرباً مثلها قط، وانهمزم المسلمون، وخلص بنو حنيفة إلى مَجَاعَة وإلى خالد، فزال خالد عن الفسطاط ودخلوا إلى مَجَاعَة وهو عند امرأة خالد، وكان سلمه إليها، فأرادوا قتلها، فنهاهم مَجَاعَة عن قتلها وقال: أنا لها جار، فتركوها، وقال لهم: عليكم بالرجال، فقطعوا الفسطاط. ثم إن المسلمين تداعوا، فقال ثابت بن قيس: بشس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين! اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء، يعني أهل اليمامة، واعتذر إليك مما يصنع هؤلاء، يعني المسلمين، ثم قاتل حتى قُتل.

وقال زيد بن الخطاب: لآنحورُ بعد الرجال، والله لا أتكلَّم اليوم حتى نهمهم أو أقتل فأكلهم بحجتي. غَضُّوا أبصاركم وغَضُّوا على أضراسكم أيها الناس، واضربوا في عدوكم وامضوا قُدماً. وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال. وحمل خالد في الناس حتى ردَّوهم إلى أبعادٍ مما كانوا، واشتد القتال وتدامرت بنو حنيفة وقاتلت قتالاً شديداً، وكانت الحرب يومئذ تارة للمسلمين وتارة للكافرين، وقُتل سالم وأبو حذيفة وزيد بن الخطاب وغيرهم من أولي البصائر. فلما رأى خالد ما الناس فيه قال: امتازوا أيها الناس لتعلم بلاء كل حي ولتعلم من أين نوتى. فامتازوا، وكان أهل البوادي قد جنَّبوا المهاجرين والأنصار وجنَّبهم المهاجرون والأنصار. فلما امتازوا قال بعضهم لبعض: اليوم يُستحي من الفرار، فما رأيي يوم كان (٣٦٤/٢) أعظم نكاية من ذلك اليوم، ولم يَدُرْ أي الفريقين كان أعظم نكاية، غير أن القتل كان في المهاجرين والأنصار وأهل القرى أكثر منه في أهل

البوادي.

وأحبوا أن يرجعوا على الظفر ولم يدروا ما هو كائن، وقد قُتل من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة ثلاثمائة وستون، ومن المهاجرين من غير المدينة ثلاثمائة رجل، وقُتل ثابت بن قيس، قطع رجل من المشركين رجله فأخذها ثابت وضربه بها فقتله، وقُتل من بني حنيفة بعقرباء سبعة آلاف، وبالحديقة مثلها، وفي الطلب نحو منها. وصالحه خالد على الذهب والفضة والسلاح ونصف السبي، وقيل رُبْعُه.

فلما فُتحت الحصون لم يكن فيها إلا النساء والصبيان والضعفاء، فقال خالد لمجاعة: ويحك خدعتني! فقال: هم قومي ولم أستطع إلا ما صنعت.

ووصل كتاب أبي بكر إلى خالد أن يقتل كل محتلم، وكان قد صالحهم، فوفى لهم ولم يغدر. ولما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله، وكان معهم: (٣٦٦/٢) ألا هلكت قبل زيد؟ هلك زيد وأنت حي! ألا وارت وجهك عني؟ فقال عبد الله: سأل الله الشهادة فأعطيتها وجهدت أن تُساق إلي فلم أعطها.

وفي هذه السنة بعد وقعة اليمامة أمر أبو بكر بجمع القرآن لما رأى من كثرة من قُتل من الصحابة لثلا يذهب القرآن، وسيرد مبيناً سنة ثلاثين.

ومن قُتل باليمامة شهيداً من الصحابة عباد بن بشر الأنصاري، شهد بدرأ وغيرها.

وقُتل عباد بن الحارث الأنصاري، وكان شهد أخذاً.

وقُتل بها عُمير بن أوس بن عتيك الأنصاري، وكان شهد أخذاً.

وفيهما قُتل عامر بن ثابت بن سلمة الأنصاري.

وفيهما قُتل عُمارة بن خزم الأنصاري أخو عمرو، وكان بدرياً.

وفيهما قُتل علي بن عبيد الله بن الحارث من بني عامر بن لؤي، وكان له صحبة.

وقُتل بها عائد بن معاص الأنصاري، وقيل: قُتل يوم بئر معونة.

وقُتل فيها قزوة بن النعمان، وقيل ابن الحارث بن النعمان الأنصاري، وكان قد شهد أخذاً وما بعدها.

وفيهما قُتل قيس بن الحارث بن عدي الأنصاري، عم البراء بن عازب، وقيل بل قُتل بأحد.

وقُتل بها سعد بن جَمَاز الأنصاري، وكان قد شهد أخذاً.

وقُتل بها أبو دُجانة الأنصاري، وهو بدري، وقيل بل عاش بعد ذلك وشهد صفين مع علي، عليه السلام، والله أعلم.

وثبت مسيلمة فدارت رحاهم عليه، فعرف خالد أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة، ولم تحفل بنو حنيفة بمن قُتل منهم. ثم برز خالد ودعا إلى البراز ونادى بشعارهم، وكان شعارهم: يا محمّده! فلم يبرز إليه أحد إلا قُتل. ودارت رحا المسلمين، ودعا خالد مسيلمة فأجابته، فعرض عليه أشياء مما يشتهي مسيلمة فكان إذا هم بجوابه أعرض بوجهه ليستشير شيطانه فيناه أن يقبل. فأعرض بوجهه مرة وركبه خالد وأرهقه، فأدبر وزال أصحابه، وصاح خالد في الناس فركبهم، فكانت هزيمتهم، وقالوا لمسيلمة: أين ما كنت تبعنا؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم. ونادى المحكم: يا بني حنيفة الحديقة الحديقة! فدخلوها وأغلّقوا عليهم بابها.

وكان البراء بن مالك، وهو أخو أسد بن مالك، إذا حضر الحرب أخذته رعدة حتى يقعد عليه الرجال ثم يقول، فإذا بال نار كما يثور الأسد، فأصابه ذلك، فلما بال وثب وقال: إلي أيها الناس، أنا البراء بن مالك! إلي! وأقاتل قتالاً شديداً، فلما دخلت بنو حنيفة الحديقة قال البراء: يا معشر المسلمين القوني عليهم في الحديقة. فقالوا: لا نفعل. فقال: والله لتطرحنني عليهم بها! فاحتمل حتى أشرف على الجدار فاقتحمها عليهم وقاتل على الباب وفتح للمسلمين ودخلوها عليهم فاقتلوا أشد قتال، وكثر القتلى في الفريقين لا سيما في بني حنيفة، فلم يزالوا كذلك حتى قُتل مسيلمة، واشترك في قتله وحشي مولى جُبَيْر بن مطعم ورجل من الأنصار، أما وحشي فدفع عليه حربته، وضربه الأنصاري بسيف، قال ابن عمر: فصرخ رجل: قتله (٣٦٥/٢) العبد الأسود، فوُلت بنو حنيفة عند قتله منهزمة، وأخذهم السيف من كل جانب، وأخبر خالد بقتل مسيلمة، فخرج بمجاعة يرسف في الحديد ليدلّسه على مسيلمة، فجعل يكشف له القتلى حتى مرّ بمحكم اليمامة، وكان وسيماً، فقال: هذا صاحبكم؟ فقال مجاعة: لا، هذا والله خير منه وأكرم، هذا محكم اليمامة، ثم دخل الحديقة فلما رُوّجِل أُصَيِّرُ أَخْنَس، فقال مجاعة: هذا صاحبكم قد فرغتم منه. وقال خالد: هذا الذي فعل بكم ما فعل.

وكان الذي قتل محكم اليمامة عبد الرحمن بن أبي بكر، رماه بسهم في نحره وهو يخطب ويحرض الناس فقتله. وقال مجاعة لخالد: ما جاءك إلا سرعان الناس، وإن الحصون مملوءة، فهلم إلى الصلح على ما ورائي، فصالحه على كل شيء دون النفوس، وقال: انطلق إليهم فاشاورهم. فانطلق إليهم وليس في الحصون إلا النساء والصبيان ومشيعه فانية ورجال ضعفاء، فالبسهم الحديد وأمر النساء أن يشرن شعورهن ويشرفن على الحصون حتى يرجع إليهم. فرجع إلى خالد فقال: قد أبوا أن يُجيزوا ما صنعت، فرأى خالد الحصون مملوءة وقد نهكت المسلمين الحرب وطال اللقاء

وَقُتِلَ بِالْيَمَامَةِ سَلَمَةُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ سِنَانِ الْأَنْصَارِيِّ.

وَقُتِلَ فِيهَا السَّائِبُ بْنُ عَثْمَانَ بْنِ مَقْطَعُونَ الْجُمَحِيِّ، وَهُوَ مِنْ مِهَاجِرَةِ الْحَبْشَةِ، وَشَهِدَ بَدْرًا.

وَقُتِلَ أَيْضًا السَّائِبُ بْنُ عَوَّامٍ أَخُو الزَّيْرِ لَأَبُوَيْهِ.

وَقُتِلَ بِهَا الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرِو الدَّوْسِيِّ، شَهِدَ خَيْرًا.

وَقُتِلَ بِهَا زُرَّارَةُ بْنُ قَيْسِ الْأَنْصَارِيِّ، لَهُ صَحْبَةٌ.

وَقُتِلَ فِيهَا مَالِكُ بْنُ عَمْرِو السُّلَمِيِّ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، وَهُوَ بَدْرِيٌّ.

وَقُتِلَ مَالِكُ بْنُ أُمَيَّةِ السُّلَمِيِّ، وَهُوَ بَدْرِيٌّ. وَمَالِكُ بْنُ عَوْسِ بْنِ عَتِكَ الْأَنْصَارِيِّ، وَهُوَ مِمَّنْ شَهِدَ أُحُدًا.

وَقُتِلَ بِهَا مَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ الْجَدِّ (٣٦٧/٢) الْبَلَوِيُّ حَلِيفُ الْأَنْصَارِ، شَهِدَ الْعُقْبَةَ وَبَدْرًا وَغَيْرَهُمَا، وَمَسْعُودُ بْنُ سِنَانَ الْأَسْوَدِ حَلِيفُ بَنِي غَانَمٍ، وَشَهِدَ أُحُدًا.

وَفِيهَا قُتِلَ النُّعْمَانُ بْنُ عَصَرَ بْنِ الرَّبِيعِ الْبَلَوِيُّ، وَهُوَ بَدْرِيٌّ.

(وَقِيلَ هُوَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَسُكُونِ الصَّادِ، وَقِيلَ بَفَتْحِهِمَا).

وَفِيهَا قُتِلَ صُنُوفَانُ وَمَالِكُ ابْنَا عَمْرِو السُّلَمِيِّ، وَهُمَا بَدْرِيَّانِ. وَضِرَارُ ابْنِ الْأَزُورِ الْأَسَدِيِّ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ مَالِكََ بْنَ نُؤَيْرَةَ بِأَمْرِ خَالِدٍ.

وَفِيهَا قُتِلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ السَّهْمِيِّ، وَقِيلَ قُتِلَ عَبْدِ اللَّهِ بِالطَّائِفِ هُوَ وَأَخُوهُ السَّائِبُ.

وَفِيهَا قُتِلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَخْرَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى الْعَامِرِيُّ عَامِرُ قَيْسٍ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَغَيْرَهَا.

وَفِيهَا قُتِلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَرْكٍ بَدْرِيٌّ. وَهُوَ بَدْرِيٌّ. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِكَ الْأَنْصَارِيِّ، وَهُوَ قَاتِلُ ابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ، وَهُوَ بَدْرِيٌّ.

وَفِيهَا قُتِلَ شُجَاعُ بْنُ أَبِي وَهَبٍ الْأَسَدِيُّ أَسَدُ خَزِيمَةَ، شَهِدَ بَدْرًا. وَهَرْتَمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُطَّلِبِيُّ الْقُرَشِيُّ، وَأَخُوهُ جُنَادَةُ. وَالْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ بْنُ الْمَغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ، ابْنُ عَمِّ خَالِدٍ.

وَقُتِلَ وَرَقَةُ بْنُ إِيَّاسِ ابْنِ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ، وَهُوَ بَدْرِيٌّ.

وَيَزِيدُ بْنُ أَوْسٍ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، أَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ.

وَأَبُو حَبَّةَ بْنُ غَزِيَّةِ الْأَنْصَارِيِّ، شَهِدَ أُحُدًا.

وَأَبُو عَتِيلِ الْبَلَوِيُّ حَلِيفُ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ بَدْرِيٌّ.

وَأَبُو قَيْسِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ السَّهْمِيِّ، مِنْ مِهَاجِرَةِ الْحَبْشَةِ، شَهِدَ أُحُدًا.

وَيَزِيدُ بْنُ ثَابِتِ أَخُو زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ.

(الرَّجُلَانِ بِنِ عُنْفُوَةَ بِالرَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ، وَبِالْجِيمِ الْمَشْدُودَةِ، وَقِيلَ بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ، وَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ. وَمِجَاجَةٌ بِتَشْدِيدِ الْجِيمِ. وَمَحْكَمُ الْيَمَامَةِ بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ، وَالْكَافِ الْمَشْدُودَةِ. وَسَعْدُ بْنُ جَمَّازٍ بِالْجِيمِ، وَالْمِيمِ الْمَشْدُودَةِ، وَآخِرُهُ زَايٌ). (٣٦٨/٢)

ذِكْرُ رَدَّةِ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ

لَمَّا قَدِمَ الْجَارُودُ بْنُ الْمُعَلَّى الْعَبْدِيُّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَتَفَقَّهَ وَرَدَّهُ إِلَى قَوْمِهِ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَكَانَ فِيهِمْ. فَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ، وَكَانَ الْمَنْدَرُ بْنُ سَاوَى الْعَبْدِيِّ مَرْضًى فَمَاتَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقِيلَ: فَلَمَّا مَاتَ الْمَنْدَرُ بْنُ سَاوَى ارْتَدَّتْ بَعْدَهُ أَهْلُ الْبَحْرَيْنِ؛ فَأَمَّا بِكَرٍ فَتَمَّتْ عَلَى رَدَّتْهَا، وَأَمَّا عَبْدُ الْقَيْسِ فَلِإِنَّهُمْ جَمَعَهُمُ الْجَارُودُ وَكَانَ بَلَّغَهُ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمْ يَمُتْ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ لِلَّهِ أَنْبِيَاءُ فِيمَا مَضَى؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا فَعَلْتُمْ؟ قَالُوا: مَا تَوَا. قَالَ: فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ، قَدْ مَاتَ كَمَا مَاتُوا، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. فَاسْلَمُوا وَبَشَتُوا عَلَى إِسْلَامِهِمْ. وَحَصَرَهُمْ أَصْحَابُ الْمَنْدَرِ بَعْدَهُ حَتَّى اسْتَفْذَهُمُ الْعِلَاءُ بَيْنَ الْحَضْرَمِيِّ. وَاجْتَمَعَتْ رِبْعَةُ بِالْبَحْرَيْنِ عَلَى الرَّدَّةِ إِلَّا الْجَارُودَ وَمَنْ تَبِعَهُ وَقَالُوا: نَرَدُّ الْمُلْكَ فِي الْمَنْدَرِ بْنِ النُّعْمَانَ بْنِ الْمَنْذَرِ، وَكَانَ يُسَمَّى الْغُرُورَ. فَلَمَّا أَسْلَمَ كَانَ يَقُولُ: أَنَا الْمَغْرُورُ وَلَسْتُ بِالْغُرُورِ.

وَخَرَجَ الْحُطَمُ بْنُ ضُبَيْعَةَ أَخُو بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ فِي بَكْرِ بْنِ وَاظِلٍ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ الْمَرْتَدِّينَ مِمَّنْ لَمْ يَزَلْ مُشْرِكًا حَتَّى نَزَلَ الْقَطِيفَ وَفَجَّرَ، وَاسْتَغَرُّوا الْخَطَّ وَمَنْ بِهَا مِنَ الزُّطِّ وَالسَّبَاجَةِ، وَبَعَثَ بَعَثًا إِلَى دَارَيْنِ، وَبَعَثَ إِلَى جُؤَانَا فَحَصَرَ الْمُسْلِمِينَ، فَاشْتَدَّ الْحَصْرُ عَلَى مَنْ بِهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَفٍ، وَقَدْ قَتَلَهُمُ الْجُوعُ: لَا إِلَيْكَ إِلَّا بِكَرٍ رَسُولًا وَفِيَانِ الْمَدِينَةِ أَجْمَعِينَ (٣٦٩/٢)

فَقَالَ لَكُمْ إِلَى قَوْمٍ كَسَرَامٍ قَوْمٌ فِي جُؤَانَا مُخَضَّرِينَ شَاعَ الشَّمْسُ يَغْتَسِي النَّاطِرِينَ تَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّحْمَنِ إِنَّا وَجَدْنَا النَّصْرَ لِلْمُتَوَكِّلِينَ

وَكَانَ سَبَبُ اسْتِغَاذِ الْعِلَاءِ مِنَ الْحَضْرَمِيِّ إِيَّاهُمْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ قَدْ بَعَثَهُ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الرَّدَّةِ بِالْبَحْرَيْنِ، فَلَمَّا كَانَ بِحِيَالِ الْيَمَامَةِ لَحِقَ بِهِ ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالِ الْحَنْفِيِّ فِي مُسْلَمَةِ بَنِي حَنْفِيَّةٍ، وَلَحِقَ بِهِ أَيْضًا قَيْسُ بْنُ عَاصِمِ الْمِنْقَرِيِّ وَأَعْطَاهُ بَدَلًا مَا كَانَ قِسْمَ مِنَ الصَّدَقَةِ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ عَمْرُو وَالْأَبْنَاءُ، وَسَعْدُ بْنُ تَمِيمٍ وَالرَّبَابُ أَيْضًا لِحَقَّتْهُ فِي مِثْلِ عَدَّتِهِ، فَسَلَكَ بِهِمُ الدَّهْنَاءَ حَتَّى [إِذَا] كَانُوا فِي

فقسم الأنفال ونفل رجالاً من أهل البلاء ثياباً، فأعطى ثمانية بن أثال الخنفي خميسة ذات أعلام كانت للحطم يباهي به. فلما رجع ثمانية بعد فتح دارين رآها بنو قيس بن ثعلبة فقالوا له: أنت قتلت الحطم! فقال: لم أقتله ولكنني اشتريتها من المغنم. (٣٧١/٢) فوثبوا عليه فقتلوه.

وقصد عظم الفلال إلى دارين فركبوا إليها السفن ولحقوا بالاقون ببلاد قومهم. فكتب العلاء إلى من ثبت على إسلامه من بكر بن وائل، منهم عتيبة بن النّهاس والمثنى بن حارثة وغيرهما، يأمرهم بالقعود للمنهزمين والمرتدين بكل طريق، ففعلوا، وجاءت رسلهم إلى العلاء بذلك، فأمر أن يؤتى من وراء ظهره، فندب حيثنؤ الناس إلى دارين وقال لهم: قد أراكم الله من آياته في البر لتعجبوا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوكم واستعرضوا البحر. وارتحل وارتحلوا حتى اقتحم البحر على الخيل والإبل والحمر وغير ذلك، وفيهم الراجل، ودعا ودعوا. وكان من دعائهم: يا أرحم الراحمين، يا كريم، يا حليم، يا أحد، يا صمد، يا حي، يا مُحيي الموتى، يا حيّ يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا! فاجتازوا ذلك الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، وبين الساحل ودارين يوم وليلة لسفن البحر، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فظفر المسلمون وانهزم المشركون، وأكثر المسلمون القتل فيهم فما تركوا بها مُعْبِراً وغموا وسبوا، فلما فرغوا رجعوا حتى عبروا، وضرب الإسلام فيها بجرانه.

وكتب العلاء إلى أبي بكر يعرفه هزيمة المرتدين وقتل الحطم. وكان مع المسلمين راهب من أهل هَجَر، فأسلم فقيل له: ما حملك على الإسلام؟ قال: ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخني الله بعدها: فيض في الرمال، وتمهيد أثباج البحر، ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحراً: اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك، والبديع فليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، الحي الذي لا يموت وخالق ما يُرى وما لا يُرى، وكل يوم أنت في شأن، علمت كل شيء (٣٧٢/٢) بغير تعلم. فعلمت أن القوم لم يُعانون بالملائكة إلا وهم على حق، فكان أصحاب النبي، ﷺ، يسمعون هذا منه بعد.

(عتيبة بعد العين تاء معجمة باثنتين من فوقها، وباء تحتها نقطتان، ثم باء موحدة. وحارثة بجاء مهملة، وتاء مثناة).

ذكر ردة أهل عُمان ومَهْرَة

قد اختلف في تاريخ حرب المسلمين هؤلاء المرتدين، فقال ابن إسحاق: كان فتح اليمامة واليمن والبحرين وبعث الجنود إلى الشام سنة اثنتي عشرة، وقال أبو معشر ويزيد بن [عياض] بن جَعْبَة وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر: إن فتوح الردة كلها

بُجِبَتْهَا نزل وأمر الناس بالنزول في الليل، فنشرت إليهم بأحمالها، فما بقي عندهم بغير ولا زاد ولا ماء، فلحقهم من الغم ما لا يعلمه إلا الله، ووصى بعضهم بعضاً فدعاهم العلاء فاجتمعوا إليه، فقال: ما هذا الذي غلب عليكم من الغم؟ فقالوا: كيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحمّ الشمس حتى نهلك. فقال: لن ترعوا، أنتم المسلمون وفي سبيل الله وأنصار الله، فابشروا فوالله لن تُخَذَّلُوا.

فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا معه، فلمع لهم الماء، فمشوا إليه وشربوا واغتسلوا. فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تجمع من كل وجه فأناحت إليهم فسقوها. وكان أبو هريرة فيهم، فلما ساروا عن ذلك المكان قال لمنجاب بن راشد: كيف علمك بموضع الماء؟ قال: عارف به. فقال له: كن معي حتى تقيمني عليه. قال: فرجعت به إلى ذلك المكان فلم نجد إلا غدير الماء فقلت له: والله لولا الغدير لأخبرتك أن هذا هو المكان، وما رأيت بهذا المكان ماء قبل اليوم، وإذا أداة مملوءة ماء. فقال أبو هريرة: هذا والله المكان، ولهذا رجعت بك وملأت إداوتي ثم وضعتها على شفير الغدير وقلت: إن كان منّا من المن عرقته، وإن كان عيناً عرقته، فإذا (٣٧٠/٢) من من المن فحمد الله.

ثم ساروا فنزلوا بهَجَر، وأرسل العلاء إلى الجارود يأمره أن ينزل بعد القيس على الحطم مما يليه، وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هَجَر، فاجتمع المشركون كلهم إلى الحطم إلا أهل دارين، واجتمع المسلمون إلى العلاء، وخذق المسلمون على أنفسهم والمشركون وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خندقهم، فكانوا كذلك شهراً. فبينما هم كذلك سمع المسلمون ضوضاء هزيمة أوقتال فقال العلاء: من يأتينا بخير القوم؟ فقال عبد الله بن خُذَف: أنا، فخرج حتى دنا من خندقهم، فأخذه. وكانت أمه عجلىة، فجعل ينادي: يا أبجراه! فجاء أبجر بن بُجَيْر فعرفه فقال: ما شأنك؟ فقال: علام أقبل وحولي عساكر من عجّل ويَم اللات وغيرهما؟ فخلّصه، فقال له: والله إنني لأظنك بش ابن أخت أئبت الليلة أخوالك. فقال: دعني من هذا وأطعمني فقد مت جوعاً. فقرّب له طعاماً، فأكل. ثم قال: زودني واحملني، يقول هذا لرجل قد غلب عليه السكر، فحملة على بعير وزوده وجوزّه، فدخل عسكر المسلمين فأخبرهم أن القوم سكارى، فخرج المسلمون عليهم فوضعوا فيهم السيف كيف شاؤوا، وهرب الكفار، فمن بين مرتدّ وناج ومقتول ومأسور، واستولى المسلمون على العسكر ولم يفلت رجل إلا بما عليه.

فأما أبجر فأنلت، وأما الحطم فقتل، قتله قيس بن عاصم بعد أن قطع عفيف بن المنذر التميمي رجله. وطلبهم المسلمون فأسر عفيف المنذر بن النعمان بن المنذر العرور فأسلم. وأصبح العلاء

ولخالد وغيره سنة إحدى عشرة، إلا أمر ربيعة بن بُجَيْر فإنه كان سنة

ثلاث عشرة، وقصته: أنه بلغ خالد بن الوليد أن ربيعة بالمُصَيِّح والخصيد في جمع من المرتدّين فقاتله وغنم وسبى وأصاب ابنة لربيعة فبعث بها إلى أبي بكر، فصارت إلى علي بن أبي طالب.

ذكر خير ردة اليمن

لما توفي رسول الله ﷺ، وعلى مكة وأرضها عتّاب ابن أسيد، وعلى عك والأشعرين الطاهر بن أبي هالة، وعلى الطائف عثمان ابن أبي العاص ومالك بن عوف النصرى، عثمان على المدن، ومالك على أهل الوبر، ويصنعاء فيروز وداؤد بن يسانه قيس بن مكشوح، وعلى الجند يعل بن أمية، وعلى مارب أبو موسى، وكان منهم مع الأسود الكذاب ما ذكرناه. فلما أهلك الله الأسود العنسي بقي طائفة من أصحابه يترددون بين صنعاء ونجران لا يأوون إلى أحد. ومات النبي ﷺ، على أثر ذلك، فارتد الناس، فكتب عتّاب بن أسيد إلى أبي بكر يعرفه خبر من ارتد في عمله، وبعث عتّاب أخاه خالدًا إلى أهل تهامة وبها جماعة من مذلج وخزاعة وأبناء كنانة.

وأما كنانة عليهم جنّوب بن سلمى، فالتقوا بالأبارق، فقتلهم خالد وفرّقهم، وأقلت جندب وعاد، وبعث عثمان بن أبي العاص بعثًا إلى شنوءة (٣٧٥/٢) وبها جماعة من الأزد وبجيلة وخثعم، وعليهم حميضة بن النعمان، واستعمل عثمان على السرية عثمان بن أبي ربيعة، فالتقوا بشنوءة، فانهزم الكفار وتفرّقوا، وهرب حميضة في البلاد.

وأما الأخابت من عك فكانوا أوّل منتفض بتهامة بعد النبي ﷺ، ثم تجمّع عك والأشعريون، وأقاموا على الأعلام، فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة ومعه مسروق وقومه من عك ممّن لم يرتد، فالتقوا على الأعلام، فانهزم عك ومن معهم وقتلوا قتلاً ذريعاً، وكان ذلك فتحاً عظيماً. وورد كتاب أبي بكر على الطاهر يأمره بقتالهم، وسأهم الأخابت، وسمّى طريقهم طريق الأخابت، فبقي الاسم عليهم إلى الآن.

وأما أهل نجران فلما بلغهم موت النبي ﷺ، أرسلوا وفدًا ليجددوا عهدهم مع أبي بكر، فكتب بذلك كتاباً.

وأما بجيلة فإنّ أبا بكر ردّ جرير بن عبد الله وأمره أن يستنفر من قومه من ثبت على الإسلام ويقايل بهم من ارتد عن الإسلام وأن يأتي خثعم فيقاتل من خرج غضباً لذي الخلصة، فخرج جرير وفعل ما أمره، فلم يبق له أحد إلا نفر يسير، فقتلهم وتبعهم. (حميضة بالحاء المهملة المضمومة، والضاد المعجمة).

ذكر خير ردة اليمن ثانية

وكان ممّن ارتدّ ثانية قيس بن عبد يغوث بن مكشوح، وذلك أنه لما بلغه موت النبي ﷺ، عمل في قتل فيروز وجشنس، (٣٧٦/٢) وكتب أبو بكر إلى عمر ذي مَرّان وإلى سعيد ذي زُود

وأما عُمان فإنه نبغ بها ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكان يسامي في الجاهلية الجُلندي، وأدعى بمثل ما ادعى من تنبأ، وغلب على عُمان مرتدّاً، والتجأ جيفر وعياذ إلى الجبال، وبعث جيفر إلى أبي بكر يخبره ويستمدّه عليه، وبعث أبو بكر حنيفة بن محصن الغلفاني من جُمَيْر، (٣٧٣/٢) وعرفجة البارقى من الأزد؛ حنيفة إلى عُمان وعرفجة إلى مَهْرَة، وكلّ منهما أمير على صاحبه في وجهه، فإذا قربا من عمان يكتبان جيفراً. فسار إلى عُمان، وأرسل أبو بكر إلى عكرمة بن أبي جهل، وكان بعثه إلى اليمامة، فأصيب. فأرسل إليه أن يلقح بحنيفة وعرفجة بمن معه يساعدهما على أهل عمان ومهرة، فإذا فرغوا منهم سار إلى اليمن. فلحقهما عكرمة قبل عمان، فلما وصلوا رجاماً، وهي قريب من عُمان، كاتبوا جيفراً وعياداً، وجمع لقيط جموعه وعسكر بدّباء، وخرج جيفر وعياذ وعسكرا بصّحار وأرسلوا إلى حنيفة وعكرمة وعرفجة، فقدموا عليهما، وكاتبوا رؤساء من لقيط وأرفضوا عنه، ثم التقوا على دبا فاقتلوا قتلاً شديداً، واستعلى لقيط، ورأى المسلمون الخلل، ورأى المشركون الظفر. فبينما هم كذلك جاءت المسلمين موادهم العظمى من بني ناجية وعليهم الخزيت بن راشد، ومن عبد القيس وعليهم سنيحان بن صوحان، وغيرهم، فقوى الله المسلمين، فولى المشركون الأدبار، فقتل منهم في المعركة عشرة آلاف وركبهم حتى أئخنوا فيهم وسبوا الذراري وقسموا الأموال وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة، وأقام حنيفة بعُمان يسكن الناس.

وأما مَهْرَة فإنّ عكرمة بن أبي جهل سار إليهم لما فرغ من عمان ومعه من استنصر من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد، فاتّحم عليهم بلادهم، فوافق بها جميعين من مَهْرَة أحدهما مع سيخريت، رجل منهم، والثاني مع المصبيح، أحد بني مُحارب، ومعظم الناس معه، وكانا مختلفين. فكتب عكرمة سيخريتا، فأجاباه وأسلم، وكتب المصبيح يدعوه فلم يجب، فقاتله قتلاً شديداً، فانهزم المرتدّون وقتل رئيسهم وركبهم المسلمون فقتلوا من شاؤوا منهم وأصابوا ما شاؤوا من الغنائم، وبعث الأخماس إلى أبي بكر مع (٣٧٤/٢) سيخريت، وازداد عكرمة وجنده قوّة بالظهر والمشاع، وأقام عكرمة حتى اجتمع الناس على الذي يحبّ وبايعوا على الإسلام.

(دبّا بفتح الباء الموحّدة المخفّفة، وفتح الدال المهملة. والخزيت بكسر الخاء المعجمة، وتشديد الراء المهملة المكسورة ثم ياء مثناة من تحتها، وآخره تاء. وسنيحان بفتح السين المهملة،

هم كذلك قدم عكرمة بن أبي جهل أتين من مَهْرَة، وقد تقدّم ذكر قتال مَهْرَة، ومعه بشر كثير من مَهْرَة وغيرهم، فاستبى النخع وجنير، وقدم أيضاً المهاجر بن أبي أمية في جمع من مَكَة والطائف وبجيلة مع جرير إلى نجران، فانضم إليه قُرْوة بن مُسَيِّك المُرَادِي، فأقبل عمرو بن معدى كرب مستحيّاً حتى دخل على المهاجر من غير أمان، فأوثقه المهاجر، وأخذ قيساً أيضاً فأوثقه وسيرهما إلى أبي بكر، فقال: يا قيس قتلّت عباد الله واتخذت المرتدين وليجة من دون المؤمنين! فانتفى قيس من أن يكون قارف من أمر داؤويه شيئاً، وكان قتله سراً، فتجافى له (٣٧٨/٢) عن دمه وقال لعمرو: أما تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور؟ لو نصرت هذا الدين لرفك الله. فقال: لا جرم لأقبل ولا أعود. ورجعا إلى عشائريهما. فسار المهاجر من نجران والتقت الخيول على أصحاب العنسي فاستأمنوا فلم يؤمنهم وقتلهم بكلّ سبيل، ثم سار إلى صنعاء فدخلها وكتب إلى أبي بكر بذلك.

ذكر ردة حضرموت وكندة

لما توفي رسول الله ﷺ، وعُمل على بلاد حضرموت: زياد بن أبي ليلى الأنصاري على حضرموت، وعُكاشة بن أبي أمية على السكاسك والسكون، والمهاجر بن أبي أمية على كندة، استعمله النبي ﷺ، ولم يخرج إليها حتى توفي النبي ﷺ، فبعثه أبو بكر إلى قتال من باليمن ثم المسير بعد إلى عمله، وكان قد تخلف عن رسول الله ﷺ، بتوبك فرجع رسول الله ﷺ، وهو عاتب عليه، فبينما أم سلمة تغسل رأس النبي ﷺ، قالت: كيف ينفعني عيش وأنت عاتب على أخي؟ فرأت منه رقة، فأومأت إلى خادمها فدعته، فلم يزل بالنبي ﷺ، يذكر عذره حتى رضي عنه واستعمله على كندة. فتوفي النبي ﷺ، ولم يسر إلى عمله ثم سار بعده.

وكان سبب ردة كندة وإجابتهم الأسود الكذاب حتى لعن النبي ﷺ، الملوك الأربعة منهم، أنهم لما أسلموا أمر رسول الله ﷺ، أن يوضع بعض صدقة حضرموت في كندة وبعض صدقة كندة في حضرموت، وبعض صدقة حضرموت في السكون، وبعض (٣٧٩/٢) صدقة السكون في حضرموت، فقال بعض بني وليعة: من كندة لحضرموت ليس لنا ظهر، فإن رأيت أن تبعثوا إلينا بذلك على ظهر. قالوا: فإننا نلحقهم فإن لم يكن لكم ظهر فعلنا. فلما توفي رسول الله ﷺ، قالت بنو وليعة: أبلغونا كما وعدتم رسول الله ﷺ! فقالوا: إن لكم ظهراً فاحتملوا، فقالوا لزياد: أنت معهم علينا. فأبى الحضرميون ولج الكنديون ورجعوا إلى دارهم وترددوا في أمرهم، وأمسك عنهم زياد انتظاراً للمهاجر.

وكان المهاجر لما تأخر بالمدينة قد استخلف زياداً على عمله، وسار المهاجر من صنعاء إلى عمله وعكرمة بن أبي جهل أيضاً،

وإلى ذي الكلاع وإلى خُزَيْب ذي ظَلَيْم وإلى شهر ذي نيف يأمرهم بالتمسك بدينهم والقيام بأمر الله، ويأمرهم بإعانة الأبناء على من ناوَاهم، والسمع لفيروز، وكان فيروز وداؤويه وقيس قبل ذلك متساندين. فلما سمع قيس بذلك كتب إلى ذي الكلاع وأصحابه يدعوهم إلى قتل الأبناء وإخراج أهلهم من اليمن، فلم يجيبوه ولم ينصروا الأبناء. فاستعد لهم قيس وكتب أصحاب الأسود المترددين في البلاد سراً يدعوهم ليجتمعوا معه، فجاءوا إليه، فسمع بهم أهل صنعاء قصد قيس فيروز وداؤويه فاستشارهما في أمره خديعة منه ليلبس عليهما، فاطمأنا إليه. ثم إن قيساً صنع من الغد طعاماً ودعا داؤويه وفيروز وجشش، فخرج داؤويه فدخل عليه فقتله، وجاء إليه فيروز، فلما دنا منه سمع امرأتين تحدثان فقالت إحداهما: هذا مقتول كما قُتل داؤويه، فخرج. فطلبه أصحاب قيس، فخرج يركض، ولقيه جشش فرجع معه فتوجهوا نحو جبل خُولان، وهم أخوال فيروز، فصعدا الجبل، ورجعت خيول قيس فأخبروه، فثار بصنعاء وما حولها وأتته خيول الأسود.

واجتمع إلى فيروز جماعة من الناس، وكتب إلى أبي بكر يُخبره، واجتمع إلى قيس عوامٌ قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤسائهم، واعتزل الرؤساء، وعمد قيس إلى الأبناء ففرقهم ثلاث فرق: من أقام أقر عياله، والذين ساروا مع فيروز فرق عيالهم فرفقن فوجه إحداهما إلى عدن ليحملوا في البحر وحمل الأخرى في البر، وقال لهم جميعهم: الحقوا بأرضكم.

فلما علم فيروز ذلك جدّ في حربه وتجرّد لها وأرسل إلى بني عُقَيْل بن ربيعة بن عامر يستمدّهم، وإلى عكّ يستمدّهم، فركبت عُقَيْل، فلقوا (٣٧٧/٢) خيل قيس بن عامر ومعهم عيالات الأبناء الذين كان قد سيرهم قيس فاستنقذوهم وقتلوا خيل قيس. وسارت عكّ فاستنقذوا طائفة أخرى من عيالات الأبناء وقتلوا من معهم من أصحاب قيس، وأمدت عُقَيْل وعكّ فيروز بالرجال. فلما أتته أمدادهم خرج بهم ويمن اجتماع عنده فلقوا قيساً دون صنعاء فاقتلوا قتالاً شديداً، وانهزم قيس وأصحابه وتذبذب أصحاب العنسي وقيس معهم فيما بين صنعاء ونجران.

قيل: وكان قُرْوة بن مُسَيِّك قدم على النبي ﷺ، مسلماً فاستعمله النبي ﷺ، على صدقات مُرَاد ومن نازلهم ونزل دارهم.

وكان عمرو بن معدى كرب الزبيدي قد فارق قومه سعد الغشيرة وانحاز إليهم وأسلم معهم، فلما ارتد العنسي ومعه مذحج ارتد عمرو فيمن ارتد، وكان عمرو مع خالد بن سعيد بن العاص، فلما ارتد سار إليه خالد فلقه فضربه خالد على عاتقه فهرب منه، وأخذ خالد سيفه الصمصامة وفرسه، فلما ارتد عمرو جعله العنسي بإزاء قُرْوة، فامتنع كل واحد منهما من البراح لمكان صاحبه. فبينما

العمرة، وأدركتهم لعنة النبي، ﷺ، وقتلوا فأكثروا، وهرب من أطاق الهرب، وعاد زياد بن ليلى بالأموال والسي، واجتازوا بالأشعث، فثار في قومه فاستنقذهم وجمع الجموع.

وكتب زياد إلى المهاجر يستحثه، فلقية الكتاب بالطريق فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجل في سرعان الناس وقدم على زياد وسار إلى كندة، فالتقوا بمحجر الزرقان فاقتلوا، فانهزمت كندة وقُتلت وخرجوا هرباً فالتجأوا إلى النجير وقد رموه وأصلحوه. وسار المهاجر فنزل عليهم واجتمعت كندة في النجير فتحصنوا به فحصرهم المسلمون، وقدم إليهم عكرمة، فاشتد الحصر على كندة وتفرقت السرايا في طلبهم فقتلوا منهم، وخرج من النجير من كندة وغيرهم فقاتلوا المسلمين فكثرت فيهم القتل فرجعوا إلى حصنهم وخشعت نفوسهم وخافوا القتل وخاف الرؤساء على نفوسهم. فخرج الأشعث ومعه تسعة نفر فطلبوا من زياد أن يؤمنهم وأهليهم على أن يفتحوا له الباب. فأجابهم إلى ذلك وقال: اكتبوا ما شئتم ثم هلموا الكتاب حتى أختمه. ففعلوا، ونسي الأشعث أن يكتب نفسه لأن جحداً وثب عليه بسكين، فقال: تكتبن أواقلك؟ فكتب ونسي نفسه، ففتحو الباب فدخل المسلمون فلم يدعوا مقاتلاً إلا قتلوه وضربوا أعناقهم صبراً وأخذوا الأموال والسي. فلما فرغوا منهم دعا الأشعث أولئك النفر والكتاب معهم فعرضهم، فأجار من في الكتاب، فإذا الأشعث ليس منهم، فقال المهاجر: الحمد لله الذي خطأ فاك يا أشعث يا عدو الله! قد كنت أشتي أن يخزيك الله! وشده كتاباً، فقيل له: آخره وسيه إلى أبي بكر فهو أعلم بالحكم فيه، (٣٨٢/٢) فسيهه إلى أبي بكر مع السي.

وقيل: إن الحصار لما اشتد على من بالنجير نزل الأشعث إلى المهاجر وزياد والمسلمين فسألهم الأمان على دمه وماله حتى يقدموا به على أبي بكر فيرى فيه رايه على أن يفتح لهم النجير ويسلم إليهم من فيه وغدر بأصحابه، فقبلوا ذلك منه، ففتح لهم الحصن، فاستنزلوا من فيه من الملوك فقتلوهم وأوثقوا الأشعث وأرسلوه مع السي إلى أبي بكر، فكان المسلمون يلعنونه ويلعنه سبايا قومه، وسماء نساء قومه عرف النار، وهو اسم الغادر عندهم. فلما قدم المدينة قال له أبو بكر: ما تراني أصعب بك؟ قال: لا أعلم. قال: فأني أقتلك. قال: فإنا الذي راوضت القوم في عشرة فما يحل دمي. قال: إنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من فيها، وإنما كنت قبل ذلك مراوفاً، فلما خشى القتل قال: أوتحسب في خيراً فتطلق إمارتي وتقبلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بأمثالي وترد علي زوجتي؟ وقد كان خطب أم قرة أخت أبي بكر لما قدم على النبي، ﷺ، وأخراها إلى أن يقدم الثانية، فمات النبي، ﷺ، وارثاً؛ فإن فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله. فحقن

فنزلهما على الأسود والآخر على وائل، وكان زياد بن ليلى قد أولي صدقات بني عمرو بن معاوية من كندة بنفسه، فقدم عليهم، فكان أول من انتهى إليه منهم شيطان بن حُجر، فأخذ منهم بكرة ووسمها، فإذا الناقة للعداء بن حُجر أخي شيطان، وكان أخوه قد أومهم حين أخرجها، وكان اسمها شذرة، وظنها غيرها، فقال العداء: هذه ناقتي. فقال شيطان: صدق فأطلقها وخذ غيرها. فأتهمه زياد بالكفر ومباعدة الإسلام، فمعهما عنها وقال: صارت في حق الله. فلجأ في أخذها، فقال لهما: لا تكونن شذرة عليكم كالبسوس. فنادى العداء: يا آل عمرو أضام وأضطهد! إن الذليل من أكل في داره ونادى حارثة بن سُرقة بن معدي كرب، فأقبل إلى زياد وهو واقف، فقال: أطلق بكرة الرجل وخذ غيرها. فقال زياد: ما لي إلى ذلك سبيل. فقال حارثة: ذلك إذا كنت يهودياً؛ وأطلق عقالها وبعثها وقام دونها، فأمر زياد شباباً من حضرموت والسكون فمعهو وكفهو وكفوا أصحابه وأخذوا البكرة، (٣٨٠/٢) وتصابحت كندة وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم، وغضبت حضرموت والسكون لزياد، وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء، ولم يحدث بنو معاوية شيئاً لمكان أسرائهم، ولم يجد أصحاب زياد سبيلاً يتعلقون به عليهم، وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا، وطلبوا أسرائهم فلم يظلقهم، ونهد إليهم ليلاً فقتل منهم وتفرقوا، فلما تفرقوا أطلق حارثة ومن معه. فلما رجع الأسرى إلى أصحابهم حرضوهم على زياد ومن معه، واجتمع منهم عسكر كثير ونادوا بمنع الصدقة، فأرسل الحصين بن نمير، وسكن بعضهم عن بعض، فأقاموا بعد ذلك سيراً.

ثم إن بني عمرو بن معاوية من كندة نزلوا المَحَاجِر، وهي أخماء حمورها، فنزل جَمَد محجراً وميخوس محجراً ومشرح محجراً وأبضعة محجراً وأختهم العمرة محجراً، وهم الملوك الأربعة رؤساء عمرو الذين لنهم رسول الله، ﷺ، وقد ذكروا قبل. ونزلت بنو الحارث بن معاوية محاجرها، فنزل الأشعث بن قيس محجراً، والسمط بن الأسود محجراً، وأطبقت بنو معاوية كلها على منع الصدقة إلا شُرَّخِيل بن السمط وابنه، فأتها قالا لبني معاوية: إنه ليقبح بالأحرار التنقل، إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق إلى الباطل والقيح! اللهم إنا لا نمالي قوماً على ذلك. وانتقل ونزل مع زياد ومعهما امرؤ القيس بن عابس، وقالوا له: يبيت القوم فإن أقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا إليهم وكذلك شذاذ من حضرموت، فإن لم تفعل خشينا أن تفرق الناس عنا إليهم. فأجابهم إلى تبيت القوم، فاجتمعوا وطرقوهم في محاجرهم فوجدوهم جلوساً حول نيرانهم، فأكبوا على بني عمرو بن معاوية، وفيهم العدد والشوكة من خمسة أوجه، (٣٨١/٢) فأصابوا مشرحاً وميخوساً وجَمَدًا وأبضعة وأختهم

دمه وردّ عليه أهله وأقام بالمدينة حتى فتح العراق وقسم الغنائم بين الناس.

وقيل: إنّ عكرمة قدم بعد الفتح فقال زياد والمهاجر لمن معهما: إنّ إخوانكم قدموا مدداً لكم فاشركوهم في الغنيمة، ففعلوا وأشركوهم.

ولما قدم خالد فرّق جنده ثلاث فرق ولم يحملهم على طريق واحد، على مقدّمته المشى وبعده عديّ بن حاتم وجاء خالد بعدهما، ووعدهما الحفير ليصادموا عدوهم، وكان ذلك الفرج أعظم فروج فارس وأشدّها شوكة، فكان صاحبه أسوار اسمه هرمز، فكان يحارب العرب في البرّ والهند في البحر. فلما سمع هرمز بهم كتب إلى أردشير الملك بالخبر وتعلّل هو إلى الكواظم في سرّعان أصحابه، فسمع أنّهم تواعدوا الحفير، فسبقهم إليه ونزل به وجعل على مقدّمته قبّاذ وأنوشجان، وكانا من أولاد أردشير الأكبر، واقتروا في السلاسل ثلاثاً يفرّوا، فسمع بهم خالد فمال بالناس إلى كاظمة، فسبقه هرمز إليها، وكان سيّء المجاورة للعرب، فكلّهم عليه حتّى، وكانوا يضربونه مثلاً يقولون: أكفر من هرمز.

وفيها انصرف معاذ بن جبل من اليمن. وفيها استقضى أبو بكر عمر بن الخطّاب، وكان يقضي بين الناس خلافته كلّها. وحج بالنّاس في هذه السنة عتّاب بن أمّيد، وقيل عبد الرحمن بن عوف. (النّجّير، بضمّ النون، وفتح الجيم، وسكون الباء تحتها نقطتان وآخره راء: حصن باليمن منبع). (٣٨٤/٢)

سنة اثنتي عشرة

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى العراق وصلاح الحيرة

في هذه السنة في المحرم منها أرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة يأمّره بالمسير إلى العراق، وقيل: بل قدم المدينة من اليمامة فسوّيه أبو بكر إلى العراق فسار حتى نزل بياقينا وباروسما وألّيس وصالحه أهلها. وكان الذي صالحه عليها ابن صلوبا على عشرة آلاف دينار سوى حوزة كسرى، وكانت على كلّ رأس أربعة دراهم، وأخذ منهم الجزية. ثمّ سار حتى نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع إياس بن قبيصة الطائي، وكان أميراً عليها بعد النعمان بن المنذر. فدعاهم خالد إلى الإسلام أو الجزية أو المحاربة، فاخاروا الجزية، فصالحهم على تسعين ألف درهم، فكانت أوّل جزية أخذت من الفرس في الإسلام هي والقرّيات التي صالح عليها.

وقيل: إنّما أمره أبو بكر أن يبدأ بالأبلة، وكتب إلى عياض بن غنم أن يقصد العراق ويبدأ بالمصيّح ويدخل العراق من أعلاه ويسير حتى يلقي خالداً، وكان المشى بن حارثة الشيباني قد استأذن أبا بكر أن يغزو بالعراق (٣٨٥/٢) فأذن له، فكان يغزوهم قبل قدوم خالد، وأمر أبو بكر خالداً وعياضاً أن يستفرا من قاتل أهل الرّدة وأن لا يغزوا معهما مرتدّ، ففعلوا وكتبوا إليه يستمدّانه، فأمّد خالداً بالققعاق بن عمرو التميمي، فقيل له: أتمدّ برجل واحد؟ فقال: لا

وقدم خالد فنزل على غير ماء، فقال له أصحابه في ذلك: ما تفعل؟ فقال لهم: لعمري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقيّن، فحطّوا أثقالهم، وتقدّم خالد إلى الفرس فلاقاهم، وأرسل الله سبحانه فأغدرت وراء صفّ المسلمين قنوت قلوبهم، وخرج هرمز ودعا خالداً إلى البراز وأوطأ أصحابه على الغدر بخالد، (٣٨٦/٢) فبرز إليه خالد ومشى نحوه راجلاً، ونزل هرمز أيضاً وتضاربا، فاحتضنه خالد، وحمل أصحاب هرمز، فما شغله ذلك عن قتله، وحمل الققعاق بن عمرو فأزاحهم، وانهزم أهل فارس وركبهم المسلمون، وسُمّيت الوقعة ذات السلاسل، ونجا قبّاذ وأنوشجان، وأخذ خالد سلب هرمز، وكانت قنصوته بمائة ألف لأنّه كان قد تمّ شرفه في الفرس، وكانت هذه عادتهم، إذا تمّ شرف الإنسان تكون قنصوته مائة ألف. وبعث خالد بالفتح والأخماس إلى أبي بكر، وسار حتى نزل بموضع الجسر الأعظم بالبصرة، وبعث المشى بن حارثة في آثارهم، وأرسل مقلّ بن مقرّن إلى الأبلة ففتحها فجمع الأموال بها والسي.

وهذا القول خلاف ما يعرفه أهل النقل لأنّ فتح الأبلة كان على يد عتبة بن غزوان أيام عمر بن الخطّاب سنة أربع عشرة.

وحاصر المشى بن حارثة حصن المرأة ففتحته وأسلمت، ولم يعرض خالد وأصحابه إلى الفاحين لأنّ أبا بكر أمرهم بذلك.

ذكر وقعة الثّني

لما وصل كتاب هرمز إلى أردشير بخبر خالد أمّدّه بكارن بن قريانس، فلما انتهى إلى المذار لقيه المنهزمون فاجتمعوا ورجعوا ومعهم قبّاذ وأنوشجان ونزلوا الثّني، وهو النهر، وسار إليهم خالد

فلقبهم واقتلوا، فبرز قارن فقتله مَعْقِل بن الأَعَشَى بن النَّبَّاش، وقتل عاصم أنوشجان، وقتل عدي بن حاتم قَبَاد، وكان شرف قارن قد انتهى. ولم يقاتل المسلمون بعده أحداً (٣٨٧/٢) انتهى شرفه، وقُتِل من الفرس مقتلة عظيمة يبلغون ثلاثين ألفاً سوى من غرق ومنعت المياه المسلمين من طلبهم. وقسم الفتيء وأنفذ الأخماس إلى المدينة وأعطى الأسلاب مَنْ سلبها، وكانت الغنيمة عظيمة، وسبى عيالات المقاتلة، وأخذ الجزية من الفلاحين وصاروا ذِمَّةً. وكان في السبي أبو الحسن البصري، وكان نصرانياً، وأمر على الجند سعيد بن النعمان، وعلى الحرز سُوَيْد بن مُقَرَّن المُرَنِّي وأمره بنزول الحفير، وأقام يتجسس الأخبار.

ذكر وقعة الولجة

ولما فرغ خالد من الثني وأتى الخبر أردشير بعث الأَنْدَرَزْعَز، وكان فارساً من مولدي السواد، وأرسل يهمن جاذوئه في أثره في جيش، وحشر إلى الأَنْدَرَزْعَز مَنْ بين الحيرة وكشكر ومن عرب الضاحية والدهاقين وعسكروا بالولجة. وسمع بهم خالد فسار إليهم من الثني فلقبهم بالولجة وكَمَنَ لهم فقاتلهم قتالاً شديداً أشد من الأول حتى ظنَّ الفريقان أن الصبر قد أفرغ. واستبطا خالد كمينه فخرجوا من ناحيتين، فانهزمت الأعاجم، وأخذ خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم فقتل منهم خلقاً كثيراً، ومضى الأَنْدَرَزْعَزَ منهزماً فمات عطشاً، وأصاب خالد ابناً لجابر بن بُجَيْر وابناً لعبد الأسود من بكر بن وائل، وكانت وقعة الولجة في صفر، وبذل الأمان للفلاحين، فعادوا وصاروا ذِمَّةً، وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم. (٣٨٨/٢)

ذكر وقعة أليس وهو على الفرات

لَمَّا أَصَابَ خَالِدَ يَوْمَ الْوَلَجَةِ مَا أَصَابَ مِنْ نَصَارَى بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ الَّذِينَ أَعَانُوا الْفَرَسَ غَضِبَ لَهُمْ نَصَارَى قَوْمِهِمْ فَكَاتَبُوا الْفَرَسَ وَاجْتَمَعُوا عَلَى أَلَيْسَ وَعَلَيْهِمْ عَبْدُ الْأَسْوَدِ الْعِجْلِيُّ، وَكَانَ مُسْلِمٌ بَنِي عِجْلٍ، مِنْهُمْ: عُثَيْبَةُ بْنُ النَّهَّاسِ وَسَعِيدُ بْنُ مُرَّةَ وَفَرَاتُ بْنُ حِصَانَ وَمَذْعُورُ بْنُ عَدِيِّ وَالْمُشَنَّى بْنُ لَاحِقٍ، أَشَدُّ النَّاسِ عَلَى أَوْلَئِكَ النَّصَارَى. وَكَتَبَ أَرْدَشِيرُ إِلَى يَهْمَنَ جَاذُوئِهِ، وَهُوَ بِقَشِينَا، بِأَمْرِهِ بِالْقُدُومِ عَلَى نَصَارَى الْعَرَبِ بِأَلَيْسَ، فَقَدَّمَ بِهِمْ جَاذُوئِهِ جَابَانَ إِلَيْهِمْ وَأَمَرَهُ بِالتَّوَقُّفِ عَنِ الْمَحَارِبَةِ إِلَى أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ، وَرَجَعَ بِهِمْ جَاذُوئِهِ إِلَى أَرْدَشِيرَ لِيُشَاوِرَهُ فِيمَا يَفْعَلُ فَوَجَدَهُ مَرِيضاً، فَتَوَقَّفَ عَلَيْهِ، فَاجْتَمَعَ عَلَى جَابَانَ نَصَارَى عِجْلٍ وَتَيْمَ اللَّاتِ وَضَبِيْعَةَ وَجَابِرُ بْنُ بُجَيْرٍ وَعَرَبُ الضَّاحِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ.

وَكَانَ خَالِدٌ لَمَّا بَلَغَهُ تَجَمُّعُ نَصَارَى بَكْرِ وَغَيْرِهِمْ سَارَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَشْعُرُ بِدَنُو جَابَانَ. فَلَمَّا طَلَعَ جَابَانَ بِأَلَيْسَ قَالَتْ الْعِجْمُ لَهُ: أَعَجَلْهُمْ أَمْ نَغْذِي النَّاسَ وَلَا نُرِيَهُمْ أَنَا نَحْفَلُ بِهِمْ ثُمَّ نَقَاتْلَهُمْ؟ فَقَالَ

[ذكر وقعة أمغيشيا]

فَلَمَّا فَرَعَ مِنْ أَلَيْسَ سَارَ إِلَى أَمْغِيشِيَا، وَقِيلَ اسْمُهَا مَنِيْشِيَا، فَاصْبَا فِيهَا مَا لَمْ يَصْبِيَاوْا مِثْلَهُ لِأَنَّ أَهْلَهَا أَعَجَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَنْقَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَثَانَهُمْ وَكَرَاعَهُمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَأُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِالْفَتْحِ وَمَبْلَغِ الْفَنَانِ وَالسَّبْيِ وَأَخْرَبَ أَمْغِيشِيَا. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: عَجَزَ النِّسَاءُ أَنْ يَلْدُنَ مِثْلَ خَالِدٍ. (٣٩٠/٢)

ذكر وقعة يوم فرات باذقلى وفتحته الحيرة

ثُمَّ سَارَ خَالِدٌ مِنْ أَمْغِيشِيَا إِلَى الْحِيرَةِ وَحَمَلَ الرِّحَالَ وَالْأَتْقَالَ فِي السَّفَنِ، فَخَرَجَ مَرْزَبَانَ الْحِيرَةِ، وَهُوَ الْأَزَادِيَّةُ فَعَسَكَرَ عِنْدَ الْغَرِيْنِ وَأُرْسِلَ ابْنُهُ فَقَطَعَ الْمَاءَ عَنِ السَّفَنِ فَبَقِيَتْ عَلَى الْأَرْضِ. فَسَارَ خَالِدٌ فِي خَيْلٍ نَحْوَ ابْنِ الْأَزَادِيَّةِ فَلَقِيَهُ عَلَى فِرَاتٍ بِأَذْقَلَى فَضْرِبَهُ وَقَتْلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ وَسَارَ نَحْوَ الْحِيرَةِ، فَهَرَبَ مِنْهُ الْأَزَادِيَّةُ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ مَوْتُ أَرْدَشِيرَ وَقَتْلُ ابْنِهِ، فَهَرَبَ بِغَيْرِ قِتَالٍ، وَنَزَلَ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ الْغَرِيْنِ، وَتَحَصَّنَ أَهْلُ الْحِيرَةِ فَحَصَرَهُمْ فِي قُصُورِهِمْ. وَكَانَ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ مُحَاصِرَ الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ وَفِيهِ إِيَّاسُ بْنُ قَبِيصَةَ الطَّائِي، وَكَانَ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ مُحَاصِرَ قَصْرِ الْغَرِيْنِ وَفِيهِ عَدِيُّ بْنُ عَدِيٍّ الْمَقْتُولِ، وَكَانَ ضِرَارُ بْنُ مُقَرَّنَ الْمُرَنِّيِّ عَاشِرَ عَشْرَةِ إِخْوَةِ مُحَاصِرَ قَصْرِ ابْنِ بُقَيْلَةَ وَفِيهِ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْمَسِيحِ بْنِ بُقَيْلَةَ، فَدَعَوْهُمْ جَمِيعاً وَأَجْلَوْهُمْ يَوْماً وَلَيْلَةً، فَأَتَى أَهْلُ الْحِيرَةِ، وَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَافْتَحُوا الدُّوْرَ وَالْدِيَرَاتِ وَأَكْثَرُوا الْقَتْلَ. فَنَادَى الْقَسِيسُونَ وَالرَّهْبَانُ: يَا أَهْلَ

قبلها أبو بكر من الجزاء وكتب إلى خالد أن يأخذ منهم بقية الجزية ويحسب لهم الهدية.

وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة، وكتب لهم خالد كتاباً، فلما كفر أهل السواد ضيعوا الكتاب، فلما افتتحه المشي ثانية عاد بشرط آخر، فلما عادوا كفروا، وافتتحها سعد بن أبي وقاص ووضع عليهم أربعمائة ألف.

قال خالد: ما لقيتُ قوماً كَأهل فارس، وما لقيتُ من أهل فارس كَأهل أليس.

ذكر ما بعد الحيرة

قيل: كان الدهاقين يترصون بخالد [وينظرون] ما يصنع أهل الحيرة، فلما صالحهم واستقاموا له أنه الدهاقين من تلك النواحي، أتاه دهقان فرات سرياً وصلّوا ابن نسطورنا ونسطونا، فصالحوه على ما بين الفلاليح إلى هرمزجرد على ألفي ألف، وقيل: ألف ألف سوى ما كان لآل كسرى، وبعث خالد عمّاله ومسالحه، وبعث ضيرار بن الأزور وضيرار بن الخطاب والقعقاع بن عمرو والمشني بن حارثة وعُتَيْبَةُ بن النّهّاس فنزلوا على السبب، وهم كانوا أمراء (٣٩٣/٢) الثغور مع خالد، وأمرهم بالغارة، فمخروا ما وراء ذلك إلى شاطي دجلة، وكتب خالد إلى أهل فارس يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية فإن أجابوا وإلا حاربهم، فكان العجم مختلفين بموت أردشير إلا أنهم قد أنزلوا بهمن جاذوئه بهرسيير ومعه غيره كأنه مقدمة لهم، وجبى خالد الخراج في خمسين ليلة وأعطاه المسلمين، ولم يبق لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمرٌ لاختلافهم بموت أردشير إلا أنهم مجمعون على حرب خالد وخالد مقيم بالحيرة يصعد ويصوب سنة قبل خروجه إلى الشام، والفرس يخلعون ويملكون ليس إلا الدفع عن بهرسيير، وذلك أن شيرى بن كسرى قتل كل من كان يناسبه إلى أنوشروان، وقتل أهل فارس بعده وبعد أردشير ابنه من كان بين أنوشروان وبين بهرام جور، فبقوا لم يقدروا على من يملكونه ممن يجتمعون عليه. فلما وصلهم كتب خالد تكلم نساء آل كسرى فولّي الفرّخزاد بن البنذوان إلى أن يجتمع آل كسرى على من يملكونه إن وجدوه.

ووصل جرير بن عبد الله التبجلي إلى خالد بعد فتح الحيرة، وكان سبب وصوله إليه أنه كان مع خالد بن سعيد بن العاص بالشام فاستأذنه في المصير إلى أبي بكر ليكلّمه في قومه ليجمعهم له، وكانوا أوزاعاً متفرقين في العرب، فأذن له، فقدم على أبي بكر فذكر له ذلك وأن رسول الله، ﷺ، وعده به وشهد له شهود، فغضب أبو بكر وقال: ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن يلازمتهم من فارس والروم ثم أنت تكلفني ما لا يُغني! وأمره بالمسير إلى خالد بن الوليد، فسار حتى قدم عليه بعد فتح الحيرة

القصور ما يقتلنا غيركم! فنادى أهل القصور المسلمين: قد قبلنا واحدة من ثلاث، وهي: إمّا الإسلام أو الجزية أو المحاربة، فكفروا عنهم، وخرج إليهم إياس بن قبيصة وعمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيّان بن الحارث، وهو بُقَيْلَة، وإمّا سُمَي بُقَيْلَة لأنه خرج على قومه في بُزْدَيْن أخضرين، فقالوا: ما أنت إلا بُقَيْلَة خضراء، فأرسلوهم إلى خالد، فكان الذي يتكلّم عنهم عمر بن عبد المسيح، فقال له خالد: كم أتى عليك؟ قال: مئو سنين. قال: فما أعجب ما رأيت؟ قال: رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة تخرج المرأة فلا تنزود إلا أرغيفاً. فتبسّم خالد وقال لأهل الحيرة: (٣٩١/٢) ألم يبلغني أنكم خبّنة خدعة، فما بالكم تتناولون حوائجكم بخروء لا يدري من أين جاء؟

فأحبّ عمرو أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله وصحة ما حدّثه به، قال: وحقّ إنّي لأعرف من أين جئت! قال: فمن أين خرجت؟ قال: من بطن أمي. قال: فأين تريد؟ قال: أمامي. قال: وما هو؟ قال: الآخرة. قال: فمن أين أقصى أثرك؟ قال: من صلب أبي. قال: فقيم أنت؟ قال: في ثيابي. قال: أتعقل؟ قال: إي والله وأقيد. قال خالد: إمّا أسالك! قال: فانا أجيبك. قال: أسلم أنت أم حرب؟ قال: بل سلم. قال: فما هذه الحصون؟ قال: بنيناها للسفيه نجسه حتى ينهأ الحليم. قال خالد: قتلت أرضاً جاهلها وقتل أرضاً عالمها، القوم أعلم بما فيهم.

وكان مع ابن بُقَيْلَة خادم معه كيس فيه سم، فأخذه خالد ونشره في يده وقال: لم تستصحب هذا؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيث فكان الموت أحب إليّ من مكروه أدخله على قومي. فقال خالد: إنها لن تموت نفس حتى تأتني على أجلها، وقال: باسم الله خير الأسماء، ربّ الأرض والسما، الذي لا يضّر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم، وابتلع السم. فقال ابن بُقَيْلَة: والله لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا.

وأبى خالد أن يصالحهم إلا على تسليم كرامة بنت عبد المسيح إلى شويل، فأبوا، فسالّت لهم: هونوا عليهم وأسلموني فأني سافندي. ففعلوا، فأخذها شويل، فسافندت منه بألف درهم، فلامه الناس، فقال: ما كنت أظن أن عدداً أكثر من هذا.

وكان سبب تسليمها إليه أن النبي، ﷺ، لما ذكر استيلاء (٣٩٢/٢) أمته على ملك فارس والحيرة ساله شويل أن يعطى كرامة ابنة عبد المسيح، وكان رها شابة فمال إليها، فوعده النبي، ﷺ، ذلك، فلما فتحت الحيرة طلبها وشهد له شهود بوعد النبي، ﷺ، أن يسلمها إليه، فسلمها إليه خالد.

وصالحهم على مائة ألف وتسعين ألفاً، وقيل: على مائتي ألف وتسعين ألفاً، وأهدوا له هدايا. فبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر،

وفي عين التمر قُتل عُيمِر بن رثاب السَّهْمِيّ، وكان من مهاجرة الحبشة، ومات بها بشير بن سعد الأنصاريّ والد النعمان فدُفِن بها إلى جانب عمير.

ذكر خبر دُومة الجندل

ولما فرغ خالد من عين التمر أتاه كتابُ عياض بن غنم يستمده على مَنْ يَازِئُه من المشركين، فسار خالد إليه، فكان يَازِئُه بهراً وكلب وغسان وتنوخ والضَّجَاجم، وكانت دومة على رئيسين: أكيدر بن عبد الملك والجُودِي (٣٩٦/٢) ابن ربيعة، فأما أكيدر فلم يَزِ قتال خالد وأشار بصلحه خوفاً، فلم يقبلوا منه، فخرج عنهم، وسمع خالد بمسيره فأرسل إلى طريقه فأخذه أسيراً فقتله وأخذ ما كان معه وسار حتى نزل على أهل دومة الجندل فجعلها بينه وبين عياض. فلما اطمان خالد خرج إليه الجوديّ في جمع ممّن عنده من العرب لقتاله وأخرج طائفة أخرى إلى عياض، فقاتلهم عياض فهزمهم، فهزم خالد مَنْ يليه، وأخذ الجوديّ أسيراً وانهزموا إلى الحصن، فلما امتلأ أغلقوا الباب دون أصحابهم فبقوا حولَه، فأخذهم خالد فقتلهم حتى سدّ باب الحصن، وقتل الجوديّ وقتل الأسرى إلّا أسرى كلب، فإنّ بني تميم قالوا لخالد: قد أمّناهم، وكانوا حلفاءهم، فتركهم. ثمّ أخذ الحصن قهراً فقتل المقاتلة وسبى الذرّة والسرْح فباعهم، واشترى خالد ابنة الجوديّ، وكانت موصوفة.

وأقام خالد بدومة الجندل، فطمع الأعاجم، وكاتبهم عرب الجزيرة غضباً لعقّة، فخرج زريمهر وروزيه يريدان الأنبار وأعدا حَصِيداً والخنافس، فسمع القعقاع بن عمرو، وهو خليفة خالد على الحيرة، فأرسل أعبد بن فِدْكَيٍّ وأمره بالحصيد وأرسل عُرْوَة بن الجعد البارقِيّ إلى الخنافس، فخرجوا فحالا بينهما وبين الريف، ورجع خالد إلى الحيرة، فبلغه ذلك، وكان عازماً على مصادمة أهل المدائن، فمنعه من ذلك كراهية مخالفة أبي بكر، فجعل القعقاع بن عمرو وأبا ليلى بن فِدْكَيٍّ إلى رُوزِيه وزريمهر، ووصل إلى خالد أنّ الهذيل بن عِمران قد عسكر بالمُصَيِّخ، ونزل ربيعة بن بُجَيْرٍ بالثَّيِّ والبشر غضباً لعقّة يريدان زرمهر وروزيه، فخرج خالد وسار إلى القعقاع وأبي ليلى فاجتمع بهما بالعين، فبعث القعقاع إلى حصيد، وبعث أبا ليلى إلى الخنافس. (٣٩٧/٢)

ذكر وقعة حصيد والخنافس

فسار القعقاع نحو حصيد، وقد اجتمع بها رُوزِيه وزرمهر، فالتقوا بحصيد، فقتل مَنْ العجم مقتلة عظيمة، فقتل القعقاع زرمهر، وقتل عيصمة بن عبد الله أحد بني الحارث بن طريف الضَّبِّيّ رُوزِيه، وكان عصمة من البرّة، وهم كلّ فخذ هاجرت بأسرها، والخيرة كلّ قوم هاجروا من بطن، وغنم المسلمون ما في حَصيدة

ولم يشهد شيئاً ممّا قبلها بالعراق ولا شيئاً ممّا كان خالد فيه من قتل أهل الرّدة.

(عتيبة بالثناء المثناة من فوقها، وبالياء المثناة من تحتها، وبالياء الموحدة). (٣٩٤/٢)

ذكر فتح الأنبار

ثمّ سار خالد على تعيينه إلى الأنبار، وإنّما سُمِّيَ الأنبار لأنّ أهراء الطّعام كانت بها أنابيب، وعلى مقدّمته الأفرع بن حابس. فلما بلغها أطاف بها وأنشِب القتال، وكان قليل الصبر عنه، وتقدّم إلى رماته أن يقصدوا عيونهم، فرموا رشقاً واحداً ثمّ تابَعوا فاصابوا ألف عين، فسُمِّيت تلك الوقعة ذات العيون. وكان على مَنْ بها من الجند شيرزاد صاحب ساباط، فلما رأى ذلك أرسل يطلب الصلح على أمر لم يرضه خالد، فردّ رسله ونحر من إيّل العسكر كلّ ضعيف والقاء في خندقهم، ثمّ عبره، فاجتمع المسلمون والكفار في الخندق، فأرسل شيرزاد إلى خالد وبذل له ما أراد، فصالحه على أن يُلْحَقه بمأمنه في جريدة ليس معهم من متاع شيء، وخرج شيرزاد إلى بهمن جاذوئيه، ثمّ صالح خالد مَنْ حول الأنبار وأهل كَلْوَذِيّ.

ذكر فتح عين التمر

ولما فرغ خالد من الأنبار استخلف عليها الزُّبَيْرِ قان بن بدر وسار إلى عين التمر، وبها يهران بن بهرام جويين، في جمع عظيم من العجم، وعقّة ابن أبي عقّة في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإباد وغيرهم، فلما سمعوا بخالد قال عقّة لمهران: إنّ العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالد. قال: صدقت فأنتم أعلم بقتال العرب، وإنّكم لمثلنا في قتال العجم. فخدعه (٣٩٥/٢) واتقى به وقال: إن اجتمعنا إلينا أعناكم. فلامه أصحابه من الفرس على هذا القول، فقال لهم: إنّ قد جاءكم من قتل ملوككم أمر عظيم وفلّ حدّكم فاتقيته بهم، فإن كانت لكم على خالد فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهتوا فقتلهم ونحن أقوياء. فاعترفوا له، وسار عقّة إلى خالد فالتقوا، فحمل خالد بنفسه على عقّة وهو يُقيم صفوفه، فاحتضنه وأخذه أسيراً وانهزم عسكره من غير قتال فأسر أكثرهم.

فلما بلغ الخبر يهران هرب في جنده وتركوا الحصن، فلما انتهى المنهزمون إليه تحصّنوا به، فانزلهم خالد، فطلبوا منه الأسان، فأبى، فنزلوا على حكمه، فأخذهم أسرى وقتل عقّة ثمّ قتلهم أجمعين وسبى كلّ مَنْ في الحصن وغنم ما فيه، ووجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلّمون الإنجيل، فأخذهم فقسّمهم في أهل البلاء، منهم: سيرين أبو محمّد، ونُصير أبو موسى، وخُمران مولى عثمان. وأرسل إلى أبي بكر بالخبر والخمس.

يصل إليهم خبر ربيعة، فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها وقسم الغنائم، وبعث الخُمس إلى أبي بكر، وسار خالد بن البشير إلى الرضاب، وبها هلال بن عَقَّة، ففرق عنه أصحابه، وسار هلال عنها فلم يلقَ خالد بها كيداً.

ذكر وقعة الفِراض

ثم سار خالد من الرضاب إلى الفِراض، وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة، وأفطر بها رمضان لاتصال الغزوات، وحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس فأعانوهم، واجتمع معهم تغلب وإياد والنمر وساروا إلى خالد. فلما بلغوا الفرات قالوا له: إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَإِمَّا أَنْ نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ. قال خالد: اعبروا. قالوا له: نَتَخَّ عَنْ طَرِيقِنَا حَتَّى نَعْبُرَ. قال: لا أفعل، ولكن اعبروا أسفل منا. فعبروا أسفل من خالد، وعظم في أعينهم، وقالت الروم: امتازوا حتى نعرف اليوم [مَنْ يَثْبِت] مَن يُولِي. ففعلوا، فاقتلوا قتالاً عظيماً وانهزمت الروم ومن معهم، وأمر خالد المسلمين أن لا يرفعوا عنهم، فقتل في المعركة وفي الطلب مائة ألف، وأقام خالد على الفِراض عشراً، ثم أذن بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، وجعل شَجَر بن الأَعْرَ على الساقة، وأظهر خالد أنه في الساقة. (٤٠٠/٢)

ذكر حجة خالد

ثم خرج خالد حاجاً من الفِراض سراً ومعه عدة من أصحابه يعضف البلاد، فأتى مكة وحجَّ ورجع، فما توافى جنده بالخبر حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدموا معاً وخالد وأصحابه محلَقون، ولم يعلم بحجة إلا مَنْ أعلمه به، ولم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد رجوعه، فعتب عليه، وكانت عقوبته إِيَّاه أن صرفه إلى الشام من العراق ممداً جموع المسلمين باليرموك، وكان أهل العراق أيام علي إذا بلغهم عن معاوية شيء يقولون: نحن أصحاب ذات السلاسل، ويسمون ما بينها وبين الفِراض ولا يذكرون ما بعد الفِراض احتقاراً للذي كان بعدها.

وأغار خالد بن الوليد على سوق بغداد ووجَّه المثنى فأغار على سوق فيها جمعٌ لقضاة وبكر، وأغار أيضاً على مسكن وقُطْرُبَل وتَلَّ عَقْرُوق وبادوريا؛ قال الشاعر:

وَالْمُثَنَّى بِالْقَالِ مَرْكَةٌ شَاهِدًا مِنْ قَبِيلِهِ بَشِيرُ
كَيْفَ أَفْرَعَتْ بِوَقْعَتِهَا كَيْسَرِي وَكَأَذِ الْإِيوَانِ يَنْفُطِرُ
وَشَجَّعَ الْمُسْلِمِينَ إِذْ حَزَنُوا وَفِي صُرُوفِ التَّجَارِبِ الْعَبِيرُ
سَهْلٌ نَهَجَ السَّيْلَ فَاقْتَرَوْا آثَارَهُ وَالْأُمُورُ تَقَعَّرُ

يعني بالعال الأنبار ومسكن وقُطْرُبَل وبادوريا.

وفيها تزوج عمر عائكة بنت زيد. وفيها مات أبو العاص بن

وانهزمت الأعاجم إلى الخنافس، وسار أبو ليلى ومن معه إلى الخنافس وبها المهْزُودان على العسكر، فلما أحسن المهْزُودان بهم هرب إلى المُصَيِّخ إلى الهذيل بن عِمْران.

ذكر وقعة مُصَيِّخ بني البرشاء

ولما انتهى الخبر إلى خالد بمصاب أهل الحَصِيد وهرب أهل الخنافس كتب إلى القعقاع وأبو ليلى وأعيد وعُزَّة وواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المُصَيِّخ، وخرج خالد من العين قاصداً إليهم. فلما كان تلك الساعة من ليلة الموعد اتفقوا جميعاً بالمُصَيِّخ فأغاروا على الهذيل ومن معه وهم نائمون من ثلاثة أوجه فقتلوه، وأفلت الهذيل في ناس قليل وكثر فيهم القتل، وكان مع الهذيل عبد العُزَّى بن أبي رُهم آخر أوس مائة ولبيد بن جرير وكان قد أسلما ومعهما كتاب أبي بكر بإسلامهما، فقتلا في المعركة، فبلغ ذلك أبا بكر وقول عبد العُزَّى: (٣٩٨/٢)

أَقُولُ إِذْ طَسَّرَ الصَّبَاحُ بَغَارَةَ سَبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ
سُبْحَانَ رَبِّي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ رَبَّ الْبِلَادِ وَرَبَّ مَنْ يَتَوَرَّدُ
فُودَاهُمَا وَأَوْصَى بِأَوْلَادِهِمَا، فَكَانَ عَمْرٍو يَعْتَدُّ بِقَتْلِهِمَا وَقَتْلَ
مَالِكِ بْنِ نُؤَيْرَةَ عَلَى خَالِدٍ، فَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ: كَذَلِكَ يَلْقَى مَنْ نَازَلَ
أَهْلَ الشُّرْكِ. وقد كان حرقوص بن النعمان بن النمر قد نصحهم فلم يقبلوا منه فجلس مع زوجته وأولاده يشربون، فقال لهم اشربوا شراب مودع، هذا خالد بالعين وجنوده بالحَصِيد؛ ثم قال:

أَلَا سَقِيَانِي قَبْلَ خَيْلِ إِبْسِي بِكَرٍ لَعَلَّ مَنَابِتَا قَرِيبَ وَمَا نَدِرِي
فَضْرِبَ رَأْسِهِ، فَإِذَا هُوَ فِي جَنَّةٍ فِيهَا الْخَمْرُ، وَقَتَلُوا أَوْلَادَهُ
وَأَخَذُوا بَنَاتَهُ.

وقيل: إن قتل حرقوص وهذه الوقعة ووقعة اثني كان في مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، وسيذكر إن شاء الله تعالى.

ذكر وقعة اثني والزُمَيْل

وكان ربيعة بن بجير التغلبي بالثي والبشر، وهو الزُمَيْل، وهما شرقي الرصافة قد خرج غضباً لعَقَّة وواعد روزبه وزرهمير والهذيل، ولما أصاب خالد أهل المُصَيِّخ وأعد القعقاع أبا ليلى ليلة، وأمرهما بالمسير ليغيروا عليهم، فسار خالد من المُصَيِّخ، فاجتمع هو وأصحابه بالثي فيبيتهم من ثلاثة أوجه وجرَدوا فيهم السيوف، فلم يفلت منهم مخبرٌ، وغنم وسبى (٣٩٩/٢) وبعث بالبشير والخُمس إلى أبي بكر، فاشتري علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، بنت ربيعة بن بجير التغلبي، فولدت له عمر ورقية.

ولما انهزم الهذيل بالمُصَيِّخ لحق بعتاب بن فلان، وهو بالبشر، في عسكر ضخم، فبيتهم خالد بغارة شعواء من ثلاثة أوجه قبل أن

الربيع في (٤٠١/٢) ذي الحجة وأوصى إلى الزبير، وتزوج علي، الله، ﷺ.

عليه السلام، ابنته أمانة، وأنها زينب بنت رسول الله، ﷺ.

وفيهما اشترى عمر أسلم مولاة في قول. وحج بالناس هذه السنة أبو بكر، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان، وقيل: حج بالناس عمر بن الخطاب أو عبد الرحمن بن عوف.

وفيهما مات أبو مرثد الغنوي، وهو بدري، وكان ابنه مرثد بن أبي مرثد قد قُتل بالرجيع، وهو بدري أيضاً. (٤٠٢/٢)

سنة ثلاث عشرة

ذكر فوج الشام

قيل: في سنة ثلاث عشرة وجه أبو بكر الجنود إلى الشام بعد عوده من الحج، فبعث خالد بن سعيد بن العاص، وقيل: إنما سيره لما سير خالد بن الوليد إلى العراق، وكان أول لواء عقده إلى الشام لواء خالد، ثم عزله قبل أن يسير.

وكان سبب عزله أنه تربص ببيعة أبي بكر شهرين ولقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان فقال: يا أبا الحسن، يا بني عبد مناف، أغلبنتم عليها؟ فقال علي: أمغالبه ترى أم خلافة.

فأما أبو بكر فلم يحقد لها عليه وأما عمر فاضطغنها عليه، فلما ولاه أبو بكر لم يزل به عمر حتى عزله عن الإمارة وجعله رداً للمسلمين بتيما وأمره أن لا يفارقها إلا بأمره وأن يدعو من حوله من العرب إلا من ارتد وأن لا يقاتل إلا من قاتله. فاجتمع إليه جموع كثيرة، وبلغ خبره الروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليخ وغسان وكلب ولخم وجذام، فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أقدم ولا تقتحم. فسار إليهم، فلما دنا منهم تفرقوا، فنزل منزلهم وكتب إلى أبي بكر بذلك فأمره بالإقدام بحيث لا يؤتى من خلفه. فسار حتى جازه (٤٠٣/٢) قليلاً ونزل، فسار إليه بطريق [من بطارقة] الروم يدعى باهان، فقاتله فهزمه وقتل من جنده، فكتب خالد إلى أبي بكر يستمده، وكان قد قدم على أبي بكر أوائل مستنصري اليمن وفيهم ذو الكلاع، وقدم عكرمة بن أبي جهل فيمن معه من تهامة وعُمان والبحرين والسرو، فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يُبدلوا من استبدل، فكلهم استبدل، فسُمي جيش البدال، وقدموا على خالد بن سعيد.

وعندها اهتم أبو بكر بالشام وعناه أمره، وكان أبو بكر قد رد عمرو بن العاص إلى عمله الذي كان رسول الله، ﷺ، ولأه إياه من صدقات سعد هذيم وعذرة وغيرهم قبل ذهابه إلى عُمان ووعد أنه يُعيده إلى عمله بعد عوده من عُمان فأنجز له أبو بكر عدة رسول

فلما عزم على قصد الشام كتب له: إني كنت قد رددتكَ على العمل الذي ولأك رسول الله، ﷺ، مرةً ووعدك به أخرى إنجازاً لمواعيد رسول الله، ﷺ، وقد وليته، وقد أحبيتُ أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك.

فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاه وأفضلها فارم به. فأمره وأمر الوليد بن عُقبه، وكان على بعض صدقات قضاة، أن يجمعا العرب، ففعلا، وأرسل أبو بكر إلى عمرو بعض من اجتمع إليه وأمره بطريق سمأه له إلى فلسطين، وأمر الوليد بالأردن وأمده ببعضهم، وأمر يزيد بن أبي سفيان (٤٠٤/٢) على جيش عظيم هو جمهور من انتدب إليه، فيهم سُهَيل بن عمرو في أمثاله من أهل مكة، وشيعة ماشياً وأوصاه وغيره من الأمراء، فكان مما قال ليزيد:

إني قد وليتكَ لأبلوك وأجربك وأخرجك، فإن أحسنت رددتكَ إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتكَ، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله، وقد وليتكَ عمل خالد فإياك وعبيته الجاهلية، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جنك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعذهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبهم حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون به، ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكريك، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرَّك لعلايتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خيرك فتؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتلك الأخبار وتكتشف عندك الأسرار، وأكثر حرسك وبدؤهم في عسكريك، وأكثر مفاجئهم في محارسمهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل التوبة الأولى أطول من الأخيرة (٤٠٥/٢) فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجئ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تخذلها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكريك فتفسده، ولا تجسَّس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكف بعلايتهم، ولا تجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر، وستجدون أقواماً حبسوا

أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له.

وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاء الأمر. ثم إن أبا بكر استعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع وأمره بحمص، وسار أبو عبيدة على باب من البلقاء فقاتله أهله ثم صالحوه، فكان أول صلح في الشام.

واجتمع للروم جمع بالعزة من أرض فلسطين، فوجه إليهم يزيد بن أبي سفيان أبا أمامة الباهلي فهزمهم، فكان أول قتال بالشام بعد سرية أسامة بن زيد. ثم أتوا الدائن فهزمهم أبو أمامة أيضاً، ثم مرج الصفر استشهد فيها ابن لخالد بن سعيد، وقيل: استشهد فيها خالد أيضاً، وقيل: بل سلم وانهمز على ما تذكره، وذلك أنه لما سمع توجيه الأمراء بالجنود بادر لقتال الروم فاستطرد له باهان فاتبعه خالد ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد فنزل مرج الصفر، فاجتمعت عليه مسالح باهان وأخذوا الطرق، وخرج باهان فرأى ابن خالد بن سعيد فقتله ومن معه، فسمع خالد فانهمز، فوصل في هزيمته إلى ذي المروة قريب المدينة، فأمره أبو بكر بالمقام بها، وبقي عكرمة في الناس ردةً للمسلمين يمنع من يطلبهم.

وكان قد قدم شرحبيل بن حسنّة من عند خالد بن الوليد إلى أبي بكر (٤٠٦/٢) وافداً، فأمره أبو بكر بالشام ونسب معه الناس واستعمله على عمل الوليد بن عقبة. فأتى شرحبيل على خالد بن سعيد ففصل عنه ببعض أصحابه، واجتمع إلى أبي بكر ناس فأرسلهم مع معاوية بن أبي سفيان وأمره باللاحق بأخيه يزيد، فلما مرّ بخالد فصل عنه بباقي أصحابه. فآذن أبو بكر لخالد بدخول المدينة. فلما وصل الأمراء إلى الشام نزل أبو عبيدة الجابية، ونزل يزيد البلقاء، ونزل شرحبيل الأردن، وقيل بصرى، ونزل عمرو بن العاص القرية. فبلغ الروم ذلك فكتبوا إلى هرقل، وكان بالقدس، فقال: أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلّبكم على الشام ونصف بلاد الروم. ففرّقوا عنه وعصوه، فجمعهم وسار بهم إلى جنّص، فنزلها وأعد الجنود والعساكر، وأراد إشغال كلّ طائفة من المسلمين بطائفة من عسكره لكثرة جنده لتضعف كلّ فرقة من المسلمين عمّن يلازمه، فأرسل تذارق أخاه لأبيه وأمه في تسعين ألفاً إلى عمرو، وأرسل جرّج بن تودر إلى يزيد بن أبي سفيان، وبعث القيقار بن نستوس في ستين ألفاً إلى أبي عبيدة بن الجراح، وبعث الدراقص نحو شرحبيل، فهابهم المسلمون وكتبوا عمراً ما الرأي، فأجابهم: إن الرأي لمثلنا الاجتماع، فإن مثلنا إذا اجتمعنا لا تغلب من قلّة، فإن تفرّقنا لا يقوم كلّ فرقة له بمن استقبلها لكثرة عدونا.

وكتبوا إلى أبي بكر فأجابهم مثل جواب عمرو وقال: إن مثلكم

لا يؤتى من قلّة وإنما يؤتى العشرة آلاف من الذنوب، فاحترسوا منها، فاجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كلّ واحد منكم بأصحابه. فاجتمع المسلمون باليرموك والروم أيضاً وعليهم التذارق وعلى المقدمة جرّج وعلى المجنية (٤٠٧/٢) باهان، ولم يكن وصل بعد إليهم، والدراقص على الأخرى وعلى الحرب القيقار، فنزل الروم وصار الوادي خندقاً لهم، وإنما أرادوا أن يتأنس الروم بالمسلمين لترجع إليهم قلوبهم، ونزل المسلمون على طريقهم ليس للروم طريق إلا عليهم، فقال عمرو: أبشروا! حُصرت الروم وقلّ ما جاء محصور بخير. وأقاموا صفراً عليهم وشهري ربيع لا يقدرّون منهم على شيء من الوادي والخندق ولا يخرج الروم خرجة إلا أدبيل عليهم المسلمون.

ذكر مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام

لما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدّوا أبا بكر، فكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إليهم وبالحث وأن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المشى بن حارثة الشيباني، ولا يأخذن من فيه نجدة إلا ويترك عند المشى مثله، وإذا فتح الله عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق.

فاستأثر خالد بأصحاب النبي ﷺ، على المشى وترك للمشى عداهم من أهل القنعة من ليس له صحبة، ثم قسم الجند نصفين، فقال المشى: والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر، وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ. فلما رأى خالد ذلك أرضاه. وقيل: سار من العراق في ثمانمائة، وقيل: في ستمائة، وقيل: في خمسمائة، وقيل: في تسعة آلاف، وقيل: في ستة آلاف، وقيل: إنما أمره أبو بكر أن يأخذ أهل القوة والنجدة، فأتى حدوداً فقاتله أهلها فظفر بهم، وأتى المصنّج وبه جمع من تغلب فقاتلهم وظفر بهم وسبى وغنم. (٤٠٨/٢) وكان من السبي الصهباء بنت حبيب بن بجير، وهي أم عمر بن علي بن أبي طالب، وقيل في أمرها ما تقدّم.

وقيل: سار خالد فلماً وصل إلى قُراقِر، وهو ماء لكلب، أغار على أهلها وأراد أن يسير منهم مفوّزاً إلى سُوّى، وهو ماء لبهراء بينهما خمس ليال، فالتمس دليلاً، فدلّ على رافع بن عَميرة الطائي، فقال له في ذلك، فقال له رافع: إنك لن تطيق ذلك بالخيال والأثقال، فوالله إن الراكب المفرد يخافه على نفسه. فقال: إنه لا بدّ لي من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم لتلاّ يجسني عن غياث المسلمين. فأمر صاحب كلّ جماعة أن يأخذ الماء للشعبة لخمس وأن يعطش من الإبل الشرف ما يكتفي به ثم يسقوها غلاً بعد نَهْل، والقلل الشربة الثانية، والنهل الأولى، ثم يصروا آذان الإبل ويشدّوا مشافرها لتلاّ تجتري. ثم ركبوا من قُراقِر، فلماً ساروا يوماً وليلة شقّوا

ذكر وقعة اليرموك

فلما تكامل جمع المسلمين باليرموك وكانوا سبعة وعشرين ألفاً، قدم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفاً سوى عكرمة فإنه كان رداء لهم، وقيل: بل كانوا سبعة وعشرين ألفاً وثلاثة آلاف من فلان خالد بن سعيد، وعشرة آلاف مع خالد بن الوليد، فصاروا أربعين ألفاً سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل، وقيل في عددهم غير ذلك، والله أعلم. وكان فيهم ألف صحابي، منهم نحو مائة ممن شهد بدرًا. وكان الروم في مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل، منهم ثمانون ألف مقيد وأربعون ألف مسلسل للموت وأربعون ألفاً مربوطون بالعصائم لئلا يفروا وثمانون ألف راجل، وقيل: كانوا مائة ألف، وكان قتال المسلمين لهم على تساند، كل أمير على أصحابه لا يجتمعهم أحد حتى قدم خالد بن الوليد من العراق، وكان القيسيون والرهبان يخرضون الروم شهراً، ثم خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بعده قتال في جمادى الآخرة.

فلما أحسن المسلمون بخروجهم أرادوا الخروج متساندين، فسار فيهم (٤١١/٢) خالد بن الوليد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقتاتلوا قوماً على نظام وتعيية وأنتم متساندون فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه رأي من واليكم ومحبة. قالوا: هات فما الرأي؟ قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا ستياسر، ولو علم بذلك كان ويكون قد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيتهم وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله! فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا يتقصه منه إن دان [لأحد] من الأمراء ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا يتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله، ﷺ. هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا، وإن هذا يوم له ما بعده، إن ردناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا فلتتعاون الإمارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم، ودعوني أتمم اليوم. فأمرهم وهم يرون أنها كخرجاتهم وأن الأمر [لا] يطول.

فخرجت الروم في تعيبة لم ير الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعيبة لم تعيتها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين، وقال: إن عدوكم كثير وليس تعيبة أكثر في رأي العين من الكراديس، فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشريحيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، وكان على كردوس القعقاع بن عمرو، وجعل على كل كردوس

لعدة من الخيل بطون عشرة من الإبل فمزجوا ماء في كروشها بما كان من الألبان وسقوا الخيل، ففعلوا ذلك أربعة أيام. فلما دنا من العَلَمَيْنِ قال للناس: انظروا هل ترون شجرة عوسج كعقدة الرجل؟ فقالوا: ما نراها. فقال: إننا لله وإننا إليه راجعون، هلكتم والله وهلكت معكم! وكان أرمد. فقال لهم: انظروا ويحكم! فنظروا فراوها قد قطعت وبقي منها بقية. فلما رأوها كثيراً، فقال رافع احفروا في أصلها. فحفروا واستخرجوا عيناً فشربوا حتى روي الناس. فقال رافع: والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام. فقال شاعر من المسلمين:

للسَّيِّئِ رَافِعِ أَنْسَى أَهْتَنَى فَوَزَّ مِنْ قُرَاقِرٍ إِلَى سُورَى (٤٠٩/٢)

خَيْسًا إِذَا مَا سَارَهُ الْجَيْشُ بِكَى مَا سَلَاها قَبْلَكَ إِسْرَى بِرَى فَلَمَّا انْتَهَى خَالِدٌ إِلَى سُورَى أَغَارَ عَلَى أَهْلِهَا وَهَمَّ بِهِرَاءَ وَهَمَّ يَشْرِبُونَ الْخَمْرَ وَمَغْنِيَهُمْ يَقُولُ:

الَا غَلَانِي قَبْلَ جَيْشِ أَبِي بَكْرٍ لَقَلَّ مَنَالِيَا قَرِيبٌ وَلَا نَلَوِي
الَا غَلَانِي بِالزُّجَاجِ وَكَزَّرُوا عَلَيَّ كَمَيْتَ النَّوْنِ صَافِيَةً تَجْرِي
الَا غَلَانِي مِنْ سُلَافَةٍ قَهْوَرةٍ تُنَلِّي مَمُومَ النَّفْسِ مِنْ جَيْدِ الْخَمْرِ
أُظُنُّ خَيْوَلُ الْمُسْلِمِينَ وَخَالِدًا سَطَرُكُمْ قَبْلَ الصَّبَاحِ مَعَ السَّيْرِ
فَهَلْ لَكُمْ فِي السَّيْرِ قَبْلَ قِتَالِكُمْ وَقَبْلَ خُرُوجِ الْمُعْصِرَاتِ مِنَ الْجِدْرِ
فقتل المسلمون مغنيهم وسال دمه في تلك الجفنة، وأخذوا أموالهم وقتل خرّوص بن النعمان البهراني. ثم أتى أرك فصالحوه، ثم أتى تذمر فتحصن أهله ثم صالحوه، ثم أتى القرينين فقاتلهم فظفر بهم وغنم، وأتى خوارزين فقاتل أهلها فزهمهم وقتل وسبي، وأتى قصم فصالحه بنو شنجعة من قضاة، وسار فوصل إلى ثنية العقاب عند دمشق ناشراً رأيته، وهي راية سوداء، وكانت لرسول الله، ﷺ، تسمى العقاب، وقيل: كانت رأيته تسمى العقاب فسُميت الثنية بها، وقيل: سُميت بعقاب من الطير سقطت عليها، والأول أصح.

ثم سار فأتى مرج راط فآغار على غسان في يوم فصحمهم فقتل وسبي، وأرسل سرية إلى كنيسة بالغوفة فقتلوا الرجال وسبوا النساء وساقوا العيال إلى خالد. ثم سار حتى وصل إلى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم وصالحهم، فكانت بصرى أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد وأهل العراق. (٤١٠/٢) وبعث بالأخماس إلى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر، وطلع باهان على الروم ومعه الشامسة والقيسون والرهبان يخرضون الروم على القتال، وخرج باهان كالمعتذر، فولى خالد قتاله، وقاتل الأمراء من إياهم، ورجع باهان والروم إلى خندقهم وقد نال منهم المسلمون. (عميرة بفتح العين المهملة وكسر الميم).

ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجهت للمهرب أفرجوا لها، ففرقت وقُتل الرجال واقتحموا في خندقهم، فاقتحمه عليهم، [فعمدوا إلى الواقعة حتى] هوى فيها المقترنون وغيرهم، ثمانون ألفاً من المقترنين وأربعون ألف مطلق سوى من قُتل في المعركة، وتجلل الفيقار وجماعة من أشراف الروم برانسهم وجلسوا فقتلوا متزملين. ودخل خالد الخندق ونزل في رواق تدارق. فلما أصبحوا أتى خالد بعكرمة بن أبي جهل جريحاً فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه ومسح وجوههما وفطر في حلوقهما الماء وقال: زعم ابن حنتمة، يعني عمر، (٤١٤/٢) أنا لا نستشهد! وقاتل النساء ذلك اليوم وأبلين.

قال عبد الله بن الزبير: كنت مع أبي البرموك وأنا صبي لا أقاتل، فلما اقتل الناس نظرت إلى ناسي على تل لا يقاتلون، فركبت وذهبت إليهم وإذ أبو سفيان بن حرب ومشخة من قريش من مهاجرة الفتح فراوني حدثاً فلم يتقوني، قال: فجعلوا والله إذا مال المسلمون وركبتهم الروم يقولون: إيه بني الأصفر! فإذا مالت الروم وركبتهم المسلمون قال: ويح بني الأصفر! فلما هزم الله الروم أخبرني أبي فضحك فقال: قاتلهم الله! أبو إلا ضغنا، لنحن خير لهم من الروم!

وفي البرموك أصيبت عين أبي سفيان بن حرب.

ولما انهزمت الروم كان هرقل بحمص، فنادى بالرحيل عنها قريباً وجعلها بينه وبين المسلمين وأمر عليها أميراً كما أمر على دمشق. وكان من أصيب من المسلمين ثلاثة آلاف، منهم عكرمة وابنه عمرو وسلمة بن هشام وعمرو بن سعيد وأبان بن سعيد وجندب بن عمرو والطفيل بن عمرو وطليب بن عمير وهشام بن العاص وعياش بن أبي ربيعة، في قول بعضهم.

(عياش بالياء المشاة والشين المعجمة).

وفيهما قُتل سعيد بن الحرب بن قيس بن عدي السهمي، وهو من مهاجرة الحبشة.

وفيهما قُتل نعيم بن عبد الله النخام العدوي عدي قريش، وكان إسلامه قبل عمر.

وفيهما قُتل النضر بن الحارث بن علقمة، وهو قديم الإسلام (٤١٥/٢) والهجرة، وهو أخو النضر الذي قُتل بيد كافر.

وقُتل فيها أبو الروم بن عمير بن هاشم العبدي أخو مصعب بن عمير وهو من مهاجرة الحبشة شهد أحداً. وقيل قتلوا يوم اجنادين، والله أعلم.

رجلاً من الشجعان، وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاص أبو سفيان بن حرب، وعلى الطلائع قيات بن حرب، وعلى الطلائع قيات بن أشيم، وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود.

وقال رجل لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ما أكثر المسلمين وأقل الروم، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان، والله لو ددت أن الأشقر، يعني فرسه، براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد، وكان قد حفي في مسيره.

فأمر خالد عكرمة بن أبي جهل والققعاق بن عمرو فأنشبا القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان وتقاتلوا، فإنهم على ذلك قدم البريد من المدينة واسمه مخيمية بن زئيم، فسأله الخبر، فأخبرهم بسلامة وأمداده وإنما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة، فبلغوه خالداً فأخبره خبر أبي بكر سرّاً.

وخرج جرجة إلى بين الصفيين وطلب خالداً، فخرج إليه فآمن كل واحد منهما صاحبه، فقال جرجة يا خالد اصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكم فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ قال: لا. قال: ففيم سميت سيف الله؟ فقال له: إن الله بعث فينا نبياً، ﷺ، فكنيت فيمن كذبه وقاتله، ثم إن الله هداني فتابعته. فقال: أنت سيف الله سلّه الله على المشركين! ودعالي بالنصر. قال: فأخبرني إلى ما تدعوني. قال خالد: إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب. قال: فما منزلة الذي يُجيئك ويدخل فيكم؟ قال: منزلتنا واحدة. قال: فهل له مثلكم من الأجر والدُّخر؟ قال: نعم وأفضل لأننا اتبعنا نبياً وهو حي يُخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسلم، وأنتم لم تروا مثلنا (٤١٣/٢) ولم تسمعوا مثلنا، فمن دخل بنية وصدق كان أفضل منا. فقلب جرجة ترسه ومال مع خالد وأسلم وعلمه الإسلام واغتسل وصلى ركعتين ثم خرج مع خالد فقاتل الروم.

وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقعهم إلا المحامية، عليهم عكرمة وعمه الحارث بن هشام، فقال عكرمة [يومئذ]: قاتلت مع النبي، ﷺ، في كل موطن ثم أفر اليوم! ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً، فمنهم من برأ ومنهم من قُتل. وقاتل خالد وجرجة قتالاً شديداً، فقتل جرجة عند آخر النهار وصلى الناس الأولى والعصر إيماء وتضعض الروم ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم، فانهزم الفرسان وتركوا الرُّجالة.

ذكر حال المثنى بن حارثة بالعراق

وأما المثنى بن حارثة الشيباني فإنه لما ودّع خالد بن الوليد، وسار خالد إلى الشام فيمن معه بالجند، أقام بالحيرة ووضع المسلحة وأذكى العيون، واستقام أمر فارس بعد مسير خالد من الحيرة بقليل، وذلك سنة ثلاث عشرة، على شهريان بن أردشير بن شهريار سابور، فوجه إلى المثنى جنداً عظيماً عليهم هرمز جاذوئه في عشرة آلاف، فخرج المثنى من الحيرة نحوه وعلى مجنبيه المعنى ومسعود أخواه، فأقام ببابل وأقبل هرمز نحوه، وكتب كسرى شهريان إلى المثنى كتاباً: إني قد بعثت إليك من وحش أهل فارس، إنما هم رُعاء الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم. فكتب إليه المثنى: إنما أنت أحد رجلين: إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فاعظم الكاذبين فضيحة عند الله وفي الناس الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما أضرتهم إليهم، فالحمد لله الذي ردّ كيدهم إلى رُعاء الدجاج والخنازير.

فجزع الفرس من كتابه فالتقى المثنى وهرمز ببابل فاقتلوا قتالاً شديداً، وكان فيلهم يفرق المسلمين، فانتدب له المثنى معه ناس فقتلوه وانهمز الفرس وتبعهم المسلمون إلى المدائن يقتلونهم. ومات شهريان لما انهمز هرمز جاذوئه واختلف أهل فارس وبقي ما دون دجلة بيد المثنى. ثم اجتمعت الفرس على (٤١٦/٢) دُخِتْ زنان ابنة كسرى، فلم ينفذ لها أمرٌ وخُلعت وملك سابور بن شهريان.

فلما ملك قام بأمره الفَرخزاد بن البندوان فسأله أن يزوجه أَرَمِيدُخْت بنت كسرى، فأجابته. ففضبت أَرَمِيدُخْت فارساً إلى سِياوْخْش الرازي فشكت إليه، فقال لها: لا تعاوديه وأرسلني إليه فليأتك، فأرسلت إليه واستعد سِياوْخْش، فلما كانت ليلة العرس أقبل الفَرخزاد حتى دخل، فثار به سِياوْخْش فقتله، وقصدت أَرَمِيدُخْت ومعها سِياوْخْش سابور فحسروه ثم قتلوه، وملكت أَرَمِيدُخْت ثم تشاغلوا بذلك.

وأبطأ خبر أبي بكر على المثنى فاستخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية وسار إلى المدينة إلى أبي بكر ليخبره خبر المشركين ويستأذنه في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين، فإنهم أنشط إلى القتال من غيرهم، فقدم المدينة وأبو بكر مريض قد أشفى، فأخبره الخبر، فاستدعى عمر وقال له: إني لأرجو أن أموت يومي هذا، فإذا مت فلا تُسَيِّنَ حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ريكم، فقد رأيتني متوفى رسول الله ﷺ، وما صنعت وما أصيب الخلق بمثله، وإذا فتح الله على أهل الشام فارد أهل العراق إلى العراق فإنهم أهله وولاء أمره وأهل الجراءة عليهم.

ومات أبو بكر ليلاً فدفنه عمر وندب الناس مع المثنى، وقال عمر: قد علم أبو بكر أنه يسوؤني أن أؤمر خالداً فلهذا أمرني أن أرد أصحاب خالد، وترك ذكره معهم.

وإلى أَرَمِيدُخْت انتهى شأن أبي بكر، فهذا حديث العراق إلى آخر أيام أبي بكر، رضي الله عنه. (٤١٧/٢)

ذكر وقعة أجنادين

قد ذكرها أبو جعفر عقيب وقعة اليرموك وروى خبرها عن ابن إسحاق من اجتماع الأمراء ومسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام نحو ما تقدم، وقال: فسار خالد من مرج راهط إلى بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشريحيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، فصالحهم أهلها على الجزية، فكانت أول مدينة فتحت بالشام في خلافة أبي بكر. ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمر بن العاص وهو مقيم بالقرابات، واجتمعت الروم بأجنادين وعليهم تذارق أخو هرقل لأبوته، وقيل كان على الروم القبقلار؛ وأجنادين بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين، وسار عمرو بن العاص حين سمع بالمسلمين فلقبهم ونزلوا بأجنادين وعسكروا عليهم، فبعث القبقلار عريياً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم، فدخل فيهم وأقام يوماً وليلة ثم عاد إليه، فقال: ما وراءك؟ قال: بالليل رهبان وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوه، ولو زنى رُجم لإقامة الحق فيهم. فقال: إن كنت صدقتي لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها.

والتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، فظهر المسلمون وهزم المشركون، وقُتل القبقلار وتذارق واستشهد رجال من المسلمين، منهم: سلمة بن هشام بن المغيرة، وهبار بن الأسود، وتعييم بن عبد الله النحام، وهشام بن العاص بن وائل، وقيل: بل قُتل باليرموك وجماعة غيرهم.

قال: ثم جمع هرقل للمسلمين فالتقوا باليرموك، وجاءهم خبر وفاة أبي (٤١٨/٢) بكر وهم مصافرون، وولاية أبي عبيدة، وكانت هذه الواقعة في رجب؛ هذه سياقة الخبر.

وكان فيمن قُتل ضرار بن الخطّاب النهري وله صحبة، وعمر بن سعيد بن العاص وهو من مهاجرة الحبشة، وقُتل باليرموك، ومن قُتل الفضل بن العباس، وقيل: قُتل بمرج الصفر، وقيل: مات في طاعون عمواس.

وفيها قُتل طليب بن عمير بن وهب القرشي وقُتل باليرموك، شهد بدرًا، وهو من المهاجرين الأوّلين.

وفيها قُتل عبد الله بن أبي جهّم القرشي العدوي، وكان إسلامه يوم الفتح.

وفيها قُتل عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب بعد أن قتل جمعاً من الروم في المعركة، وكان عمره يوم مات النبي ﷺ، نحو ثلاثين سنة.

وفيها قُتل عبد الله بن الطفيل الدؤسي، وهو الملقب بذي النور، وكان من فضلاء الصحابة قديم الإسلام هاجر إلى الحبشة. (أجنادين بعد الجيم نون، ودال مهملة مفتوحة، ومنهم من يكسرها، ثم ياء مثناة من تحتها ساكنة، وآخره نون).

وقد قيل: إن وقعة أجنادين كانت سنة خمس عشرة، وسيرد ذكرها إن شاء الله.

ذكر وفاة أبي بكر

كانت وفاة أبي بكر، رضي الله عنه، لثمانين ليال بقين من جمادى الآخرة ليلة الثلاثاء وهو ابن ثلاث وستين سنة وهو الصحيح، وقيل غير ذلك، وكان قد سمّه اليهود في أرز، وقيل في حريرة، وهي الحسو، فأكلف هو (٤١٩/٢) والحرث بن كلفة، فكفّ الحرث وقال لأبي بكر: أكلنا طعاماً مسموماً سمّ سنة، فماتنا بعد سنة. وقيل: إنه اغتسل وكان يوماً بارداً فحمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة فأمر عمر أن يصلي بالناس. ولما مرض قال له الناس: ألا ندعو الطبيب؟ قال: قد أتاني وقال لي أنا فاعل ما أريد؛ فعلموا مراده وسكتوا عنه، ثم مات.

وكانت خلافته ستين وثلاثة أشهر وعشر ليال، وقيل: كانت ستين وأربعة أشهر إلا أربع ليال، وكان مولده بعد الفيل بثلاث سنين.

وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن وأن يُكفن في ثوبه ويشتري معهما ثوب ثالث، وقال: الحيّ أخرج إلى الجديد من الميت، إنما هو للمهلة والصديد.

ودُفن ليلاً وصلى عليه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ، وكبر عليه أربعاً، وحُمِل على السرير الذي حُمِل عليه رسول الله ﷺ، ودخل قبره ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وطلحة، وجُعِل رأسه عند كفي النبي ﷺ، والصقوا لحدّه بلحد النبي ﷺ، وجُعِل قبره مثل قبر النبي ﷺ، مسطحاً. وأقامت عائشة عليه النوح فنهاهنّ عن البكاء عمر فأبين، فقال لهشام بن الوليد: ادخل فأخرج إليّ ابنة أبي قحافة، فأخرج إليه أم فروة ابنة أبي قحافة فعلاها بالدرة ضربات فتفرّق النوح حين سمعن ذلك.

وكان آخر ما تكلم به: توفي مسلماً والحقني بالصالحين.

وكان أبيض خفيف العارضين أخشى لا يستمسك إزاره، معروق الوجه (٤٢٠/٢) نحيفاً، أفتى غائر العينين يخضب بالحناء

والكتّم، وكان أبوه حيّاً بمكة لما توفي.

وهو أبو بكر عبد الله، وقيل: عتيق بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، يجتمع مع النبي ﷺ، في مرة بن كعب، وأمه أم الخير سَلَمَى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم. وقيل: إن رسول الله ﷺ، قال له: أنت عتيق من النار، فلزمه، وقيل: إنما قيل له عتيق لرقّة حسنه وجماله. وأسلمت أمه قديماً بعد إسلام أبي بكر، وتزوج في الجاهلية قتيبة بنت عبد العزى بن عامر بن لؤي فولدت له عبد الله وأسماء، وتزوج أيضاً في الجاهلية أم رمان، واسمها دَعْد بنت عامر بن عميرة الكنانية، فولدت له عبد الرحمن وعائشة، وتزوج في الإسلام أسماء بنت عميس وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب، فولدت له محمد بن أبي بكر، وتزوج أيضاً في الإسلام حبيبة بنت خازجة بن زيد الأنصارية، فولدت له بعد وفاته أم كلثوم.

أسماء فضائه وغمّاله وكتابه

لما ولي أبو بكر قال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال. وقال له عمر: أنا أكفيك القضاء. فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان. وكان عليّ بن أبي طالب يكتب له وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان، وكان يكتب له من حضر. وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد، ومات في اليوم الذي مات فيه أبو بكر، (٤٢١/٢) وقيل: مات بعده. وكان على الطائف عثمان بن أبي العاص، وكان على صنعاء المهاجر بن أبي أمية، وعلى حضرموت زيد بن لبيد الأنصاري، وعلى خولان يعلّى بن ثنية، وعلى زبيد ورمع أبو موسى، وعلى الجند مُعَاذ بن جبل، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي. وبعث جرير بن عبد الله إلى نجران، وعبد الله بن نَزْر إلى جَرْش، وعياض بن غنم إلى دومة الجندل. وكان بالشام أبو عبيدة وشريحيل ويزيد وعمرو، وكلّ رجل منهم على جند وعليهم خالد بن الوليد. وكان نقش خاتمه: نعم القادر الله. وعاش أبوه بعده سنة أشهر وأياماً، ومات وله سبع وتسعون سنة.

ذكر بعض أخباره ومناقبه

كان أبو بكر أوّل الناس إسلاماً في قول بعضهم، وقد تقدّم الخلاف في ذلك، وقال النبي ﷺ: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنة كبوة غير أبي بكر. والذي ورد له عن النبي ﷺ، من المناقب كثير، كشهادته له بالجنة، وعقته من النار وغير ذلك من الأخبار بخلافته تعريضاً كقوله، صلى الله عليه وسلم، للمرأة: إن لم تجديني فاتي أبا بكر، وقوله: اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر، إلى غير ذلك.

وشهد بديراً واحداً والخندق وغير ذلك من المشاهد مع رسول

تسلب عيال أبي بكر عبداً وناضحاً ومسحق قطيفة ثمنها خمسة دراهم، فلو أمرت بردها عليهم. فقال : لا والذي بعث محمداً، ﷺ، لا يكون هذا في ولايتي ولا خرج أبو بكر منه وأقلده أنا. وأمر أبو بكر أن يرّد جميع ما أخذ من بيت المال لنفقته بعد وفاته.

وقيل : إنّ زوجته اشتكت حلواً فقال: ليس لنا ما نشترى به. فقالت : أنا استفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشترى به. قال : افعلني. ففعلت ذلك، فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير، فلمّا عرفته ذلك ليشتري به حلواً أخذه فردّه إلى بيت المال وقال: هذا يفضل عن قوتنا، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كلّ يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له.

هذا والله هو التقوى الذي لا مزيد عليه وبحقّ قدمه النّاس، رضي الله عنه وأرضاه (٤٢٤/٢) وكان منزل أبي بكر بالسُّنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة، فأقام هنالك سنة أشهر بعدما بوع له، وكان يغدو على رجله إلى المدينة، وربّما ركب فرسه، فيصلّي بالنّاس، فإذا صلى العشاء رجع إلى السُّنح، وكان إذا غاب صلى بالنّاس عمر. وكان يغدو كلّ يوم إلى السوق فيبيع ويتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربّما خرج هو بنفسه فيها، وربّما رعى له، وكان يحلب للحمي أغنامهم، فلمّا بوع بالخلافة قالت جارية منهم : الآن لا يحلب لنا مئائح دارنا، فسمعها فقال : بلا لعمرى لأحلبنها لكم، وإنّي لأرجو أن لا يغير بي ما دخلت فيه. فكان يحلب لهم. ثمّ تحوّل إلى المدينة بعد سنة أشهر من خلافته وقال: ما تصلح أمور النّاس مع التجارة، وما يصلح إلّا التفرّغ لهم والنظر في شأنهم، فترك التجارة، وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم ويحجّ ويعتمر، فكان الذي فرضوا له في كلّ سنة سنة آلاف درهم، وقيل : فرضوا له ما يكفيه، فلمّا حضرته الوفاة أوصى أن يُباع الأرض ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين.

وكان أوّل وال فرض له رعيته نفقته، وأوّل خليفة وُلّي وأبوه حيّ، وأوّل من سُمّي مصحف القرآن مصحفاً، وأوّل من سُمّي خليفة.

(زُيّرة بكسر الزاي، والنون مشددة. وعُييس بضم العين المهملة، وبالياء الموحدة المفتوحة، ثمّ بالياء المشددة من تحت، وبالسّين المهملة. ومُنيّة وبالنون الساكنة، والياء تحتها نقطتان.) (٤٢٥/٢)

ذكر استخلاصه عمر بن الخطاب

لما نزل بأبي بكر، رضي الله عنه، الموت دعا عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرني عن عمر. فقال: إنّه أفضل من رأيك إلّا أنّه فيه غلظة. فقال أبو بكر : ذلك لأنّه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً ممّا هو عليه، وقد رمقته فكنّ إذا غضبت على رجل

الله، ﷺ، واعتق سبعة نفر كلّهم يعذب في الله تعالى، منهم بلال وعامر بن نُفيرة وزُيّرة والنّهديّة وابنها وجارية بني مؤمّل وأم عبيس وأسلم. وله أربعون ألفاً أنفقها في الله مع ما كسب في التجارة.

ولمّا ولي الخلافة وارتدت العرب خرج شاهراً سيفه إلى ذي القُصّة، (٤٢٢/٢) فجاءه عليّ وأخذ يزمام رحلته وقال له : أين يا خليفة رسول الله، ﷺ! أقول لك ما قال لك رسول الله، ﷺ، يوم أخذ: شيم سيفك لا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أحيينا بك لا يكون للإسلام نظام؛ فرجع وأمضى الجيش.

وكان له بيت مال بالسُّنح، وكان يسكنه إلى أن انتقل إلى المدينة، فقيل له: ألا نجعل عليه من يحرسه؟ قال: لا. فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى فيه شيء، فلمّا انتقل إلى المدينة جعل بيت المال معه في داره.

وفي خلافته افتتح معدن بني سُليم، وكان يسوّي في قسمته بين السابقين الأوّلين والمتأخّرين في الإسلام وبين الحرّ والعبد والذكر والأنثى، فقيل له: لتقدّم أهل السبق على قدر منازلهم، فقال : إنّما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفهم ذلك في الآخرة، وإنّما هذه الدنيا بلاغ. وكان يشتري الأكسية ويفرقها في الأرامل في الشتاء.

ولما توفّي أبو بكر جمع عمر الأماناء وفتح بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً غير دينار سقط من غرارة، فترحموا عليه.

قال أبو صالح الغفاري: كان عمر يتعهد إمراة عمياء في المدينة بالليل فيقوم بأمرها فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ففعل ما أرادت، فرصده عمر فإذا هو أبو بكر كان يأتيها ويقضي أشغالها سرّاً وهو خليفة، فقال له: أنت هو لعمرى! قال أبو بكر بن حفص بن عمر لمّا حضرت أبا بكر الوفاة حضرته عائشة وهو يعالج الموت فتمثّلت:

لعمرك ما ينسي السَّراءُ عن الفتى إذا حشرت يوماً وضاق بها الصدر فنظر إليها كالغضبان ثمّ قال: ليس كذلك ولكن «جاءت سنكرة» (٤٢٣/٢) الموت بالحقّ ذلك ما كنت منه تحيد» [ق: ١٩] إنّي قد كنت نحلكت حائط كذا وفي نفسي منه شيء فردّيه على الميراث، فردّته، فقال: إنّما هو أخواك وأختك. قالت: من الثانية؟ إنّما هي أسماء. قال: ذات بطن بنت خارجة، يعني زوجته، وكانت حاملاً فولدت أمّ كلثوم بعد موته. وقال لها : أما إنّنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ولكنّا قد أكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فيء المسلمين إلّا هذا العبد وهذا البعير وهذه القطيفة، فإذا متّ فأبقيت بالجميع إلى عمر. فلمّا مات بعثته إلى عمر، فلمّا رآه بكى حتّى سالت دموعه إلى الأرض وجعل يقول : رحم الله أبا بكر! لقد أتعّب من بعده، ويكرّر ذلك، وأمر برفعه. فقال عبد الرحمن بن عوف سبحان الله!

ذكر أهل الجنة بأحسن (٢/ ٤٢٧) أعمالهم لأنه يجاوز لهم ما كان من سيء فإذا ذكرتهم قلت أين عملي من أعمالهم؟ فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت، ولست بمعجزه.

وتوفي أبو بكر فلما دُفن صعد عمر بن الخطاب فخطب الناس ثم قال: إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فليُنظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فرب الكعبة لأحملنكم على الطريق! وكان أول كتاب كتبه إلى أبي عبيدة بن الجراح بتولية جند خالد وعزل خالد لأنه كان عليه ساخطاً في خلافة أبي بكر كلها لوقعته بابين نورية وما كان يعمل في حربه، وأول ما تكلم به عزل خالد وقال: لا يلي لي عملاً أبداً، وكتب إلى أبي عبيدة: إن أكذب خالد نفسه فهو الأمير على ما كان عليه، وإن لم يكذب نفسه فانت الأمير على ما هو عليه، وانزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله. فذكر ذلك لخالد، فاستشار أخته فاطمة، وكانت عند الحارث بن هشام، فقالت له: والله لا يحبك عمر أبداً وما يريد إلا أن تكذب نفسك ثم يزعك. فقبل رأسها وقال: صدقت؛ فأبى أن يكذب نفسه، فأمر أبو عبيدة فنزع عمامة خالد وقاسمه ماله، ثم قدم خالد على عمر بالمدينة، وقيل: بل هو أقام بالشام مع المسلمين، وهو أصح.

ذكر فتح دمشق

قيل: ولما هزم الله أهل اليرموك استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب الجُميري، وسار حتى نزل بالصُّفَر، فأنابه الخبر أن المنهزمين اجتمعوا فيخُل، وأناه الخبر أيضاً بأن المدد قد أتى أهل دمشق من جِمْص، فكتب إلى عمر في ذلك، فأجابه عمر يأمره بأن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام (٢/ ٤٢٨) وبيت ملكهم، وأن يشغل أهل فيخل بخيل تكون بإزائهم، وإذا فتح دمشق سار إلى فيخل، فإذا فتحت عليهم سار هو وخالد إلى جِمْص وترك شُرَحْبِيل بن حَسَنَة وعمراً بالأردن وفلسطين.

فأرسل أبو عبيدة إلى فيخل طائفة من المسلمين فنزلوا قريباً منها، وبقى الروم الماء حول فيخل فوحلت الأرض، فنزل عليهم المسلمون، فكان أول محصور بالشام أهل فيخل ثم أهل دمشق.

وبعث أبو عبيدة جنداً فنزلوا بين جِمْص ودمشق، وأرسل جنداً آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين، وسار أبو عبيدة وخالد فقدموا على دمشق وعليها نسطاس، فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو على ناحية، وكان هرقل قريب جِمْص، فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصاراً شديداً وقتلواهم بالزحف والمجانيق، وجاءت خيول هرقل مغشاة بدمشق فمنعها خيول المسلمين التي عند جِمْص، فحذَل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون. وولد للبُطريق الذي على أهلها مولود فصنع طعاماً

أراني الرضاء عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه. ودعا عثمان بن عفان وقال له: أخبرني عن عمر. فقال: سريره خير من علانيته، وليس فينا مثله. فقال أبو بكر لهما: لا تذكرنا ممّا قلتُ لكما شيئاً ولو تركته ما عدوتُ عثمان، والخيرة له أن لا يلي من أموركم شيئاً، ولوددتُ أني كنتُ من أموركم خلوّاً وكنتُ فيمن مضى من سلفكم.

ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر فقال: استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، وكيف به إذا خلا بهم وأنت لاق ريك فسائلك عن رعيته! فقال أبو بكر أجلسوني، فأجلسوه، فقال: أبا الله تخوفني! إذا لقيت ربي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك.

ثم إن أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خالياً ليكتب عهد عمر، فقال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين، أما بعد ثم أغمي عليه فكتب عثمان: أما بعد قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيراً. ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ. فقرأ عليه، فكبر أبو بكر وقال: أراك خيفت أن يختلف الناس إن مُت في غشيتي. قال: نعم. قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. (٢/ ٤٢٦).

فلما كتب العهد أمر به أن يُقرأ على الناس، فجمعهم وأرسل الكتاب مع مولى له ومعه عمر فكان عمر يقول للناس: انصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله ﷺ، فإنه لم يالكُم نصحاً. فسكن الناس، فلما قرئ عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا، وكان أبو بكر أشرف على الناس وقال: أترضون بمن استخلفت عليكم؟ فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة، وإني استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي. فقالوا: سمعنا وأطعنا. ثم أحضر أبو بكر عمر فقال له: إنسي قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ، وأوصاه بتقوى الله ثم قال:

يا عمر إن لله حقاً بالليل لا يقبله في النهار، وحقاً في النهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤذي الفريضة، ألم تر؟ يا عمر أنما نقلت موازين من نقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق ويُقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً. ألم تر يا عمر أنما خضت موازين من خضت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخضته عليهم، وحق لميزان لا يوضع [فيه] غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً. ألم تر يا عمر أنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً، لا يرغب رغبة يمتنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقى فيها يديه. أولم تر يا عمر أنما ذكر الله أهل النار بأسوا أعمالهم فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو أن لا أكون منهم، وأنه إنما

حيارى وقد أصيب رئيسهم سقلار والذي يليه [فيهم] نسطورس، وظفر المسلمون بهم وركبوه، ولم تعرف الروم مأخذهم، فانتهد بهم الهزيمة إلى الوحل فركبوه، ولحقهم المسلمون فأخذهم ولا يمنعون يد لايس فوخزوهم بالرماح، فكانت الهزيمة بفخل والقتل بالرداغ، فأصيب الروم وهم ثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد، وقد كان الله يصنع للمسلمين وهم كارهون، كرهوا البشوق والوحل، فكانت عوناً لهم على عدوهم وغنموا أموالهم فاقسموها. وانصرف أبو عبيدة بخالد ومن معه إلى جنص.

ومن قتل في هذه الحرب السائب بن الحارث بن قيس بن عدي السهمي، له صحبة.

(يفحل بكسر الفاء، وسكون الحاء المهملة، وآخره لام).

(٤٣١/٢)

ذكر فتح بلاد ساحل دمشق

لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على دمشق وسار إلى فحل سار يزيد إلى مدينة صيدا وعرة وجبيل وبسروت، وهي سواحل دمشق، على مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً سيراً وجلا كثير من أهلها؛ وتولى فتح عرة معاوية بنفسه في ولاية يزيد. ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان، فقصدهم معاوية ففتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع.

ولما ولي عثمان الخلافة وجمع لمعاوية الشام وجّه معاوية سفيان بن محيب الأزدي إلى طرابلس، وهي ثلاث مدن مجتمعة، ثم بنى في مرج على أميال منها حصناً سمي حصن سفيان وقطع المائدة عن أهلها من البر والبحر وحاصره. فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدّهم أو يعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى بلاد الروم، فوجّه إليهم بمراكب كثيرة ركبوا فيها ليلاً وهربوا. فلما أصبح سفيان، وكان يبيت هو والمسلمون في حصنه ثم يغدو على العدو، وجد الحصن خالياً فدخله وكتب بالفتح إلى معاوية، فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود، وهو الذي فيه المينا اليوم، ثم بناء عبد الملك بن مروان وحصنه، ثم نقض أهله أيام عبد الملك ففتحته ابنه الوليد في زمانه.

ذكر فتح ييسان وطبرية

لما قصد أبو عبيدة جنص من فحل أرسل شريحيل ومن معه إلى ييسان فقاتلوا أهلها، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم صالحهم من بقي على صلح (٤٣٢/٢) دمشق فقبل ذلك منهم. وكان أبو عبيدة قد بعث بالأعور إلى طبرية يحاصرها، فصالحه أهلها على صلح

فاكل القوم وشربوا وتركوا مواقفهم، ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد، فإنه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء، وكان قد اتخذ جبلاً كهينة السلالم وأوهاقاً، فلما أمسى ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله وقالوا: إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا واقصدوا الباب. فلما وصل هو وأصحابه إلى السور القوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبل بالشرف، وكان ذلك المكان أحصن (٤٢٩/٢) موضع بدمشق وأكثره ماء، فصعد المسلمون ثم انحدر خالد وأصحابه وترك بذلك المكان من يحميه وأمرهم بالتكبير، فكبروا، فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال، وانتهى خالد إلى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين، ونار أهل المدينة لا يدرون ما الحال، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم، وفتح خالد الباب وقتل كل من عنده من الروم. فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة فبذلوا له الصلح، فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له: ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب، ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم. ودخل خالد عوة، فالتقى خالد والقواد في وسطها، هذا قتلاً ونهباً وهذا صفحاً وتسكيناً، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح، وكان صلحهم على المقاسمة، وقسموا معهم للجنود التي عند فحل وعند جنص وغيرهم ممن هو رده للمسلمين.

وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بالفتح، فوصل كتاب عمر إلى أبي عبيدة يأمره بإرسال جند العراق نحو العراق إلى سعد بن أبي وقاص، فأرسلهم وأمر عليهم هاشم بن عتبة الجوزال، كانوا قد قتل منهم، فأرسل أبو عبيدة عوض من قتل، وكان ممن أرسل الأُمتر وغيره، وسار أبو عبيدة إلى فحل.

ذكر غزوة فحل

فلما فُتحت دمشق سار أبو عبيدة إلى فحل واستخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وبعث خالداً على المقدمة، وعلى الناس شريحيل بن حسنة، وكان على المجنبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضيرار بن الأزور، وعلى الرجال عيباض بن غنم، وكان أهل فحل قد قصدوا ييسان، (٤٣٠/٢) فهم بها، فنزل شريحيل بالناس فحلاً، وبينهم وبين الروم تلك المياه والأوحال، وكتبوا إلى عمر، وكانت العرب تسمي تلك الغزاة ذات الردغة وييسان وفحل. وقام الناس ينتظرون كتاب عمر، فاغترهم الروم فخرجوا وعليهم سقلار بن مخراق، فأتوهم والمسلمون حذرون، وكان شريحيل لا يبيت ولا يصبح إلا على تعية. فلما هجموا على المسلمين لم ينظروهم فافتتلوا أشد قتال كان لهم ليلتهم ويومهم إلى الليل، وأظلم الليل عليهم وقد جاروا، فانهمز الروم وهم

دمشق أيضاً وأن يشايطروا المسلمين المنازل، فنزلها القواد وخيولها
وكتبوا بالفتح إلى عمر.

قال أبو جعفر : وقد اختلفوا في أي هذه الغزوات كان قبل
الأخرى، ففيل ما ذكرنا، وقيل : إن المسلمين لما فرغوا من
أجنادين اجتمع المنهزمون فيحل فقصدها المسلمون فظفروا بها.

ثم لحق المنهزمون من فحل بدمشق فقصدها المسلمون
فحاصروها وفتحوها، وقدم كتاب عمر بن الخطاب بعزل خالد
وولاية أبي عبيدة وهم محاصرون دمشق، فلم يعرفه أبو عبيدة ذلك
حتى فرغوا من صلح دمشق وكتب الكتاب باسم خالد وأظهر أبو
عبيدة بعد ذلك عزله، وكانت فحل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة،
وفتح دمشق في رجب سنة أربع عشرة، وقيل : إن وقعة اليرموك
كانت سنة خمس عشرة، ولم تكن للروم بعدها وقعة، وإنما اختلفوا
لقرب بعض ذلك من بعض.

ذكر خبر المثنى بن حارثة وأبي عبيد بن مسعود

قد ذكرنا قدوم المثنى بن حارثة الشيباني من العراق على أبي
بكر، ووصية أبي بكر عمر بالمبادرة إلى إرسال الجيوش معه؛ فلما
أصبح عمر من الليلة التي مات فيها أبو بكر كان أول ما عمل أن
ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني [إلى أهل فارس]، ثم
بايع الناس، ثم ندب الناس وهو يبايعهم ثلاثاً ولا ينتدب أحد إلى
فارس، وكانوا أثقل الوجوه على المسلمين وأكهرها إليهم لشدة
سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم، فلما كان اليوم (٤٣٣/٢) الرابع
ندب الناس إلى العراق، فكان أول مشدب أبو عبيد بن مسعود
القفقي، وهو والد المختار، وسعد بن عبيد الأنصاري، وسليط بن
قيس، وهو ممن شهد بدرًا، وتتابع الناس.

وتكلم المثنى بن حارثة فقال: أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا
الوجه، فإننا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد
ونلنا منهم واجترأنا عليهم، ولنا إن شاء الله ما بعدها. فاجتمع
الناس، فقبل لعمر : أئمر عليهم رجالاً من السابقين من المهاجرين
أو الأنصار. قال : لا والله لا أفعل، إنما رفعهم الله تعالى بسبقهم
ومسارعهم إلى العدو، فإذا فعل فعلهم قوم وتشاقلوا كان الذين
ينفرون خفافاً وثقالاً ويسبقون إلى الرفع أولى بالرائسة منهم، والله
لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً ثم دعا أبا عبيد، وسعداً وسليطاً،
وقال لهما : لو سبقتمه لوليتكما ولأدركتما بها إلى ما لكما من
السابقة، فأمر أبا عبيد وقال له : اسمع من أصحاب رسول الله، ﷺ،
واشركهم في الأمر، ولم يمتعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى
الحرب، وفي التسرع إلى الحرب ضياع الأعراب، فإنه لا يصلحها
إلا الرجل المكث. وأوصاه بجنده. فكان بعث أبي عبيد أول جيش
سيره عمر، ثم بعده سبر يغلي بن ميثية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل

ذكر خبر النمارق

فسار أبو عبيد القضي وسعد بن عبيد وسليط بن قيس
الأنصاريان والمثنى بن حارثة الشيباني أحد بني هند من المدينة،
وأمر عمر المثنى بالتقدم إلى أن يقدم عليه أصحابه، وأمرهم
باستفزاز من حسن إسلامه من أهل الردة. ففعلوا ذلك، وسار
المثنى فقدم الحيرة، وكانت الفرس تشاغل عن المسلمين بموت
شهريران حتى اصطلحوا على سابور بن شهريران بن أردشير، فثارت
به آرميدخت فقتله وقتلت الفرخزاد وملك بوران، وكانت عدلاً
بين الناس حتى يصطلحوا، فأرسلت إلى رستم بن الفرخزاد بالخبر
وتحته على السير، وكان على فرج خراسان، فأقبل لا يلقى جيشاً
لآرميدخت إلا هزمه حتى دخل المدائن، فاقتلوا، وهزم سياوخش
وحصره وآرميدخت بالمدائن. ثم افتتحها رستم وقتل سياوخش
وفقاً عين آرميدخت، ونصب بوران على أن تملكه عشر سنين ثم
يكون الملك في آل كسرى إن وجدوا من غلمانهم أحداً وإلا ففي
نساينهم، ودعت مرازية فارس وأمرتهم أن يسمعو له ويطيعوه،
وتوجهت، فدانته له فارس قبل قدوم أبي عبيد. وكان منجماً حسن
المعرفة به وبالحوادث، فقال له بعضهم : ما حملك على هذا الأمر
وأنت ترى ما ترى؟ قال : حب الشرف والطمع.

ثم قدم المثنى إلى الحيرة في عشر، وقدم أبو عبيد بعده بشهر.
فكتب رستم إلى الدهاقين أن يشيروا بالمسلمين، وبعث في كل
رستاق رجلاً يثور (٤٣٥/٢) بأهله، فبعث جابان إلى فوات باذقل،
وبعث نرسي إلى كسكر وودعهم يوماً، وبعث جنداً لمصادمة
المثنى. وبلغ المثنى الخبر فحذر، وعجل جابان ونزل النمارق،
وثاروا وتوالوا على الخروج، وخرج أهل الرساتيق من أعلى
الفرات إلى أسفله، وخرج المثنى من الحيرة فنزل خفان لنلا يوتى
من خلفه بشيء يكرهه، وأقام حتى قدم عليه أبو عبيد. فلما قدم
لبث أياماً يستريح هو وأصحابه، واجتمع إلى جابان بشر كثير، فنزل
النمارق، وسار إليه أبو عبيد فجعل المثنى على الخيل، وكان على
مجنبي جابان جشنس ماه ومردانشاه، فاقتلوا بالنمارق قتلاً
شديداً، فهزم الله أهل فارس وأسر جابان، أسره قطر بن فضة
التيمي، وأسر مردانشاه، وأسره أكل بن شمشاك العكلي فقتله.

وأما جابان فإنه خدع مطراً وقال له : هل لك أن تؤمنني
وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عملك وكذا وكذا؟ ففعل،
فخلّى عنه، فأخذه المسلمون وأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه جابان
وأشاروا عليه بقتله. فقال : إني أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل
مسلم والمسلمون كالجسد الواحد، ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم،

وتركوه. وأرسل في طلب المنهزمين حتى أدخلوهم عسكر نرسي وقتلوا منهم.

(أَكْتَل بفتح الهمزة، وسكون الكاف، وفتح التاء المشناة باثنتين من فوقها، وفي آخره لام). (٤٣٦/٢)

(٤٣٨/٢)

ذكر وقعة السقاطية بكسرك

ولحق المنهزمون نحو كسرك وبها نرسي، وهو ابن خالة الملك، وكان له النُرسيان، وهو نوع من التمر يحميه، لا يأكله إلا ملك الفرس أو من أكرموه بشيء منه، ولا يغرسه غيرهم، واجتمع إلى النرسي الفالّة، وهو في عسكره، فصار أبو عُبيد إليهم من التمارق فنزل على نرسي بكسرك، وكان المثنى في تعبيته التي قاتل فيها بالتمارق، وكان على مجنبي نرسي بندويّه وتيرويه ابنا بسطام خال الملك، ومعه أهل باروسما والزوابي. ولما بلغ الخبر بوران ورستم بهزيمة جابان بعثا الجالينوس إلى نرسي فلحقه قبل الحرب، فجاجلهم أبو عُبيد، فالتقوا أسفل من كسرك بمكان يُدعى السقاطية، فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انهزمت فارس وهرب نرسي وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم، فرأى أبو عُبيد من الأطعمة شيئاً كثيراً فنقله من حوله من العرب، وأخذوا النُرسيان فاطعموه الفلاحين وبعثوا يخمسو إلى عمر وكتبوا إليه : إِنَّ اللَّهَ أَطْعَمَنَا مَطَاعِمَ كَانَتْ الْأَكَاْسِرَةُ تَحْمِيهَا وَأَحْيَيْنَا أَنْ تَرَوْهَا لِتَشْكُرُوا إِنْعَامَ اللَّهِ وَإِفْضَالَهُ. وأقام أبو عُبيد.

وبعث أبو عُبيد المثنى إلى باروسما، وبعث والقا إلى الزوابي، وعاصماً إلى نهر جوير، فهزموا من كان تجمع وأخربوا وسبوا أهل زَنْدَوَزَ وغيرها، وبذل لهم فروخ وفراونداد عن أهل باروسما والزوابي وكسرك الجزاء معجلاً، فأجابوا إلى ذلك وصاروا صلحاء، وجاء فروخ وفراونداد إلى أبي عُبيد بأنواع الطعام والأخبصة وغيرها، فقال: هل أكرمتكم الجند بمثلها؟ فقالوا: لسم يتيسر ونحن فاعلون، وكانوا يترصّون قدوم الجالينوس. (٤٣٧/٢) فقال أبو عُبيد: لا حاجة لنا فيه، بشئ المرء أبو عُبيد إن صحب قوماً من بلادهم استأثر عليهم بشيء، ولا والله لا أكل ما أتيتهم به ولا ممّا أفاء الله إلا مثل ما يأكل أوساطهم. فلمّا هزم الجالينوس أتوه بالأطعمة أيضاً، فقال : ما أكل هذا دون المسلمين. فقالوا له: ليس من أصحابك أحد إلا وقد أتى بمثل هذا؛ فاكل حيثنّذ.

ذكر وقعة الجالينوس

ولمّا بعث رستم الجالينوس أمره أن يبدأ بنرسي ثم يقاتل أبا عُبيد، فبادره أبو عُبيد إلى نرسي فهزمه، وجاء الجالينوس فنزل بياقسيانا من باروسما، فصار إليه أبو عُبيد، وهو على تعبيته، فالتقوا بها، فهزمهم المسلمون وهرب الجالينوس وغلب أبو عُبيد على تلك البلاد، ثم ارتحل حتى قدم الحيزة، وكان عمر قد قال له :

ذكر وقعة قسّ الناطف ويقال لها الجسير ويقال المروحة وقتل أبي عُبيد بن مسعود

ولما رجع الجالينوس إلى رستم منهزماً ومن معه من جنده قال رستم: أيّ العجم أشدّ على العرب؟ قال: بهمن جاذويّه المعروف بذئ الحاجب، وإنما قيل له ذو الحاجب لأنه كان يعصّب حاجبيّه بعصابة ليرفعها كبراً. فوجهه ومعه فيلة ورّد الجالينوس معه وقال لبهمن : إن انهزم الجالينوس ثانية فاضرب عنقه. فاقبل بهمن جاذويّه ومعه ذرفش كايان راية كسري، وكانت من جلود النمر، عرض ثمانية أذرع، وطول اثني عشر ذراعاً، فنزل بقسّ الناطف. وأقبل أبو عُبيد فنزل بالمروحة، فرأت دومة، امرأته أم المختار ابنه، إن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب، فشرب أبو عُبيد ومعه نفر، فأخبرت بها أبا عُبيد فقال : لهذه إن شاء الله الشهادة! وعهد إلى الناس فقال: إن قُلتُ فعلى الناس فلان، فإن قُتل فعليهم فلان، حتى أمر الذين شربوا من الإناء، ثم قال: فإن قُتل فعلى الناس المثنى.

وبعث إليهم بهمن جاذويّه : إمّا أن تعبر إلينا ونذعكم والعبور، وإمّا أن تدعونا نعب إليكم. فنهاه الناس عن العبور، ونهاه سلبط أيضاً، فلج وترك الرأي وقال: لا يكونوا أجراً على الموت منا. فعب إليهم على جسر عقده ابن صلوبا للفرقيين، وضاعت الأرض بأهلها واقتتلوا، فلمّا نظرت الخيول إلى الفيلة والخيول عليها التجافيف رأت شيئاً منكراً لم تكن رأت مثله، (٤٣٩/٢) [فجعل المسلمون إذا حملوا عليهم] لم تقدم عليهم [خيولهم]، وإذا حملت الفرس على المسلمين بالفيلة والجلال فرقت خيولهم وكراديسهم ورموهم بالنشاب. واشتد الأمر بالمسلمين، فترجل أبو عُبيد والناس ثم مشوا إليهم ثم صافحهم بالسيوف، فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم، فنادى أبو عُبيد: احتوشوا الفيلة واقطعوا بطانها وأقبلوا عنها أهلها، وثب هو على الفيل الأبيض فقطع بطانه ووقع الذين عليه، وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلاً إلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه. وأهوى الفيل لأبي عُبيد فضربه أبو عُبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوق فوطه الفيل وقام عليه. فلمّا بصر به الناس تحت الفيل خشعت أنفسهم بعضهم، ثم أخذ اللواء الذي [كان] أمره بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عُبيد، فأخذه المسلمون فأحرقوه، ثم قتل الفيل الأمير الذي بعد أبي عُبيد وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاثل حتى يموت، ثم

ذكر وقعة البويب

أخذ اللواء المثنى فهرب عنه الناس.

فلما رأى عبد الله بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه وما يصنع الناس بادرهم إلى الجسر قطعه وقال: يا أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا! وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر، فتوالت بعضهم إلى الفرات ففرق من لم يصبر وأسرعوا فيمن صبر. وحمل المثنى وفرسان من المسلمين الناس وقال: إنا دونكم فاعبروا على هيتكم ولا تدهشوا ولا تفرقوا نفوسكم. وقاتل عروة بن زيد الخيل قتالا شديداً وأبو مخجن الثقفي، وقاتل أبو زبيد الطائي حمية للعريضة، وكان نصرانياً قدم الحيرة لبعض (٤٤٠/٢) أمره، ونادى المثنى: من عبر نجاً. فجاء العلوج ففقدوا الجسر وعبر الناس.

وكان آخر من قُتل عند الجسر سليل بن قيس، وعبر المثنى وحمل جانبه، فلما عبر ارفض عنه أهل المدينة وبقي المثنى في قلة، وكان قد جرح وأثبت فيه حلق من درعه.

وأخبر عمر عن سار في البلاد من الهزيمة استحياء، فاشتد عليه وقال: اللهم كل مسلم في حل مني، أنا فئة كل مسلم، يرحم الله أبا عبيد! ولو كان انحاز إلي لكنت له فئة.

وهلك من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان وبقي ثلاثة آلاف، وقُتل من الفرس ستة آلاف. وأراد بهمجن جاذوته العبور خلف المسلمين فاتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه وصاروا فريقين: الفهلوج على رستم، وأهل فارس على الفيززان، فرجع إلى المدائن.

وكانت هذه الوقعة في شعبان.

وكان فيمن قُتل بالجسر عقبة وعبد الله ابنا قبيط بن قيس، وكانا شهداء أحراراً، وقُتل معهما أخوهما عبادة ولم يشهد معهما أحد، وقُتل أيضاً قيس بن السكن بن قيس أبو زيد الأنصاري، وهو بدري لا عقب له، وقُتل يزيد بن قيس بن الخطيم الأنصاري، شهد أحد، وفيها قُتل أبو أمية الفزاري، له صحبة، والحكم بن مسعود أخو أبي عبيد، وابنه جبر بن الحكم بن مسعود. (٤٤١/٢).

ذكر خير أئس الصغرى

لما عاد ذو الحجاب لم يشعر جابان ومرداناش بما جاءه من الخبر، فخرجوا حتى أخذوا بالطريق، وبلغ المثنى فعلهما فاستخلف على الناس عاصم بن عمرو وخرج في جريدة خيل يريد هما، فلما أنه هارب فاعتراضه، فأخذهما أسيرين، وخرج أهل أئس على أصحابها فأتوه بهم أسرى، وعقد لهم بها فية وقتلهم وقتل الأسرى. وهرب أبو مخجن من أئس ولم يرجع مع المثنى بن حارثة.

وبلغ الخبر رستم والفيززان فبعثا مهران الهذاني إلى الحيرة، فسمع المثنى ذلك وهو بين القادسية وخفان فاستبطن فرات بأذنى وكتب إلى جبر وعصمة وكل من أثناء ممدداً له يعلمهم الخبر ويأمرهم بقصد البويب فهو الموعد، فانتهوا إلى المثنى وهو بالبويب ومهران بإزائه من وراء الفرات، فاجتمع المسلمون بالبويب مما يلي الكوفة اليوم، وأرسل مهران إلى المثنى يقول: إما أن تعبر إلينا وإما أن نغير إليك. فقال المثنى: أعبروا. فعب مهران فنزل على شاطئ الفرات، وعبى المثنى أصحابه، وكان في رمضان، فأمرهم بالإطمار ليقوا على عدوهم، فافطروا. وكان على مجنبيتي المثنى بشير بن الخصاصة وبشر بن أبي رهم، وعلى مجرته المثنى أخوه، وعلى الرجل مسعود أخوه، وعلى الرؤد مذعور، وكان على مجنبي مهران بن الأراذبه مرزبان الحيرة ومرداناش. وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ورجلهم أمام فيلهم ولهم رُجل، فقال المثنى للمسلمين: إن الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت.

ودنا من المسلمين وطاف المثنى في صفوفه يعهد إليهم وهو على فرسه الشמוש، وإنما سمي بذلك للينه، وكان لا يركبه إلا إذا قاتل، فوقف على الرايات يحرضهم ويهزهم، ولكلهم يقول: إني لأرجو أن لا يؤتى الناس من قبلكم اليوم، والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم. فيجيئونه بمثل ذلك، وأنصفهم من نفسه في القول والفعل، وخط الناس في المحبوب والمكروه فلم يقدر أحد أن يعيب له قولاً ولا فعلاً وقال: (٤٤٣/٢) إني مكبر ثلاثاً فتهيأوا ثم أحملوا في الرابعة فلما كبر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم وركدت خيلهم وحزبهم ملياً،

فراى المثنى خللاً في بني عجل فجعل يمدّ لحيته لما يرى منهم وأرسل إليهم يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم. فقالوا: نعم؛ واعتدلوا. فضحك فرحاً.

فلما طال القتال واشتدّ قال المثنى لأنس بن هلال النمري: إنك امرؤ عربي وإن لم تكن على ديننا، فإذا حملت على مهران فاحمل معي، فأجابته، فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمته، ثم خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنيبات تقتل لا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون، وارتث مسعود أخو المثنى يومئذ وجماعة من أعيان المسلمين، فلما أصيب مسعود تضعض من معه، فقال: يا معشر بكر ارفعوا رايتكم رفعكم الله ولا يهولتكم مصرعي! وكان المثنى قال لهم: إذا رايتونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه، الزموا مصافكم واغنوا غناة من يليكم.

وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين، وقتل غلام نصراني من تغلب مهران واستولى على فرسه، فجعل المثنى سلبه لصاحب خيله، وكان التغلبي قد جلب خيلاً هو وجماعة من تغلب، فلما رأوا القتال قاتلوا مع العرب، قال: وأفنى المثنى قلب المشركين والمجنيبات بعضها يقاتل بعضاً. فلما راوه قد أزال القلب وأفنى أهله وثب مجنيبات المسلمين على مجنيبات المشركين وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم: عاداتكم في أمثالهم، انصروا الله ينصركم، حتى هزموا الفرس، وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم، فافترقوا (٤٤٤/٢) مصعدين ومتحدرين، وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثاً.

فما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبقي رسة منها، بقيت عظام القتلى دهرًا طويلاً، وكانوا يحزرون القتلى مائة ألف، وسمي ذلك اليوم الأعشار، أحصى مائة رجل قتل كل رجل منهم عشرة. وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة، وغالب الكنتاني وعرفجة الأزدي من أصحاب التسعة. وقتل المشركون فيما بين السكون اليوم وضفة الفرات وتبعهم المسلمون إلى الليل ومن الغد إلى الليل. وندم المثنى على أخذه بالجسر وقال: عجزت عجرة وفي الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر حتى أخرجتهم، فلا تعودوا أيها الناس إلى مثلها فإنها كانت زلة فلا ينبغي إحراج من لا يقوى على امتناع.

ومات أناس من الجرحى، منهم مسعود أخو المثنى، وخالد بن هلال، فضلى عليهم المثنى وقال: والله إنه ليهون وجدي أن صبروا وشهدوا البؤيب ولم ينكلوا.

وكان قد أصاب المسلمون غنماً وديقاً وبقراً فبعثوا به إلى عيال من قدم من المدينة وهم بالقوادس. وأرسل المثنى الخيل في طلب العجم فبلغوا السبب وغنموا من البقر والسي وسائر الغنائم شيئاً كثيراً، فقسّمه فيهم ونقل أهل البلاد وأعطى بجيلة ربيع الخمس، وأرسل الذين تبعوا المنهزمين إلى المثنى يعرفونه سلامتهم وأنه لا مانع دون القوم ويستأذنونهم في الإقدام، فأذن لهم، فأغاروا حتى بلغوا ساباط، وتحصن أهله منهم واستباحوا القرى ثم مخروا (٤٤٥/٢) السواد فيما بينهم وبين دجلة لا يخافون كيداً ولا يلقون مانعاً، ورجعت مسالح العجم إليهم، وسرهم أن يتركوا ما وراء دجلة.

(بشر بن أبي رهم وبضم الباء الموحدة، وسكون السين المهملة).

ذكر خبر الخنافس وسوق بغداد

ثم خلف المثنى بالحيرة بشير بن الخصاصية، وسار يمخر السواد، وأرسل إلى ميسان ودمشسان واذكى المسالح ونزل أليس، قرية من قرى الأنبار، وهذه الغزوة تدعى غزوة الأنبار الأخيرة وغزوة أليس.

وجاء إلى المثنى رجلان أحدهما أنباري فدله على سوق الخنافس، والثاني حيري دله على بغداد، فقال المثنى: أيهما قبل صاحبتهما؟ قالوا: بينهما مسيرة أيام. قال: أيهما أعجل؟ قالوا: سوق الخنافس يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد وربيعة وقضاة يخفرونهم. فركب المثنى وأغار على الخنافس يوم سورها وبها خيلان من ربيعة وقضاة، وعلى قضاة رومان بن وبرة، وعلى ربيعة السليل بن قيس وهم الخفراء، فانتسف السوق وما فيها وسلب الخفراء. ثم رجع فأتى الأنبار فتحصن أهلها منه، فلما عرفوه نزلوا إليه وأتوه بالأعلاف والزاد، وأخذ منهم الأدلاء على سوق بغداد وأظهر لدمقان الأنبار أنه يريد المدائن، وسار منهم إلى بغداد ليلاً وعبر إليهم وصحبهم في أسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ما شاء. وقال المثنى: لا تأخذوا إلا (٤٤٦/٢) الذهب والفضة والحجر من كل شيء. ثم عاد راجعاً حتى نزل بنهر السالحين بالأنبار، فسمع أصحابه يقولون: ما أسرع القوم في طلبنا، فخطبهم وقال: احمدا الله وسلوه العافية وتناجوا بالبر والتقوى ولا تتناجوا بالإثم والعدوان، انظروا في الأمور وقذروها ثم تكلموا. إنه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد، ولو بلغهم لحال الرغب بينهم وبين طلبكم. إن للغارات روعات تضعف القلوب يوماً إلى الليل، ولو طلبكم المحامون من رأي العين ما أدركوكم وأنتم على العراب حتى تنتهوا إلى عسكركم، ولو أدركوكم لقاتلتهم التماس الأجر ورجاء النصر، فيقولوا بالله وأحسنوا به الظن، فقد نصركم في مواطن كثيرة.

ثم سار بهم إلى الأنبار، وكان من خلفه من المسلمين يمشون السواد ويشنون الغارات ما بين أسفل كسكر وأسفل الفرات، وجسوا متقباً إلى عين التمر وفي أرض الفلاليج، والمثنى بالأنبار.

ولما رجع المثنى من بغداد إلى الأنبار بعث المضارب العجلي في جمع إلى الكباث وعليه فارس الغائب التغلبي، ثم لحقهم المثنى فسار معهم، فوجدوا الكباث قد سار من كان به عنه ومعهم فارس الغائب، فسار المسلمون خلفه فلحقوه وقد رحل من الكباث، فقتلوا في أخريات أصحابه وأكثروا القتل. فلما رجعوا إلى الأنبار سرح فرات بن حيّان التغلبي وعُتيبة بن النّحاس وأمرهما بالغايرة على أحياء من تغلب بصقين ثم اتبعهما المثنى واستخلف على (٤٤٧/٢) الناس عمرو بن أبي سلتى الهجيمي. فلما دنوا من صفين فر من بها وعبروا الفرات إلى الجزيرة، وفي الزاد الذي مع المثنى وأصحابه، فاكلوا وراحلهم إلا ما لا بد منه حتى جلودها، ثم أدركوا عبيراً من أهل ذبا وخوران فقتلوا من بها وأخذوا ثلاثة نفر من تغلب كانوا خضراء وأخذوا العير، فقال لهم: دلوني. فقال أحدهم: آمنوني على أهلي ومالي وأدلكم على حي من تغلب. فأمنه المثنى وسار معهم يومه، فهجم العشى على القوم والنعم صادرة عن الماء وأصحابها جلوس بأفنية البيوت، فقتل المقاتلة وسبى الذرية واستاق الأموال، وكان التغليبيون بني ذو الرؤيلة، فاشترى من كان مع المثنى من ربيعة السبايا بنصيبه من الفداء واعتقوهم؛ وكانت ربيعة لا تسابي إذ العرب يتسايون في جاهليتهم.

وأخبر المثنى أن جمهور من سلك البلاد قد انتجع شاطئ دجلة، فخرج المثنى وعلى معجتيه النعمان بن عوف ومطر الشيبانيان، وعلى مقدمته حذيفة بن مخصن الغلفاني، فساروا في طلبهم فادركوهم بتكرت، فأصابوا ما شاؤوا من النعم، وعاد إلى الأنبار. ومضى عُتيبة وفرات ومن معهما حتى أغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين، فأغاروا عليهم حتى رموا طائفة منهم في الماء، فجعلوا ينادونهم: الغرق الغرق! وجعل عُتيبة وفرات يذمران الناس ويناديانهم: تغريق بتحريق! يذكرانهم يوماً من أيام الجاهلية أحرقوا فيه بكر بن وائل في غيضة من الغياض. ثم رجعوا إلى المثنى وقد غرقوهم، وقد بلغ الخبر عمر فبعث إلى عُتيبة وفرات فاستدعاهما فسألهما عن قولهما، فأخبراه أنهما لم يفعل ذلك على وجه طلب دخل إنما هو مثل. فاستحلفهما وردّهما إلى المثنى.

(عُتيبة بن النّحاس، بآلاء المثناة من فوقها، وآلباء المثناة من تحتها، وآلباء الموحدة). (٤٤٨/٢)

ذكر الخبر عن الذي هيج أمر القادسية وملك يزيد

لما رأى أهل فارس ما يفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم

والفيزان، وهما على أهل فارس: لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهتما أهل فارس وأطمعتهما فيهم عدوهم، ولم يبلغ من أمركما أن تقركما على هذا الرأي وأن تعرضاها للهلكة؛ ما بعد بغداد وساباط وتكرت إلا المدائن، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما ثم نهلك وقد اشتقينا منكما. فقال الفيزان ورستم ليوران ابنه كسرى: اكتبنا لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم، ففعلت، فأحضرهن جميعهن وأخذوهن بالعذاب يستدلوّنهن على ذكر من أبناء كسرى، فلم يوجد عند واحدة منهن أحد، وقال بعضهن: لم يبق إلا غلام يُدعى يزيد جرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بادوريا. فأرسلوا إليها وطلبوه منها، وكانت قد أنزلته أيام شبيري حين جمعهن فقتل الذكور، وأرسلته إلى أخواله، فلما سألوها عنه دلّتهم عليه، فجاءوا به فملكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة واجتمعوا عليه، فاطمأنت فارس واستوثقوا وتبارى المرازبة في طاعته ومعونته فسعى الجنود لكلّ مسلحة وثغر، فسعى جند الحيرة والأهلة والأنبار وغير ذلك.

وبلغ ذلك من أمرهم المثنى والمسلمين، فكتبوا إلى عمر بن الخطاب بما ينتظرون من أهل السواد، فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد، فخرج المثنى حتى نزل بذي قار ونزل الناس بالطف في عسكر واحد. ولما وصل كتاب المثنى إلى عمر قال: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب! فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي وإذا شرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رامهم به، فرماهم بوجوه الناس وغرهم. وكتب عمر إلى المثنى ومن معه يأمرهم بالخروج من بين العجم (٤٤٩/٢) والفرق في المياه التي تلي العجم، وأن لا يدعوا في ربيعة ومضر وحلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أحضره إما طوعاً أو كرهاً. ونزل الناس بالخلّ وثبراف إلى غضى، وهو جبل البصرة، وبسلمان، بعضهم ينظر إلى بعض ويُغيث بعضهم بعضاً، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة. وأرسل عمر في ذي الحجة من السنة مخرجه إلى الحج إلى عمّاله على العرب أن لا يدعوا من له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي إلا وجهوه إليه، فأما من كان على النصف ما بين المدينة والعراق فجاء إليه بالمدينة لما عاد من الحج، وأما من كان أقرب إلى العراق فانضم إلى المثنى بن حارثة، وجاءت أمداد العرب إلى عمر.

وحج في هذه السنة عمر بن الخطاب بالناس وحج سنه كلها.

وكان عامل عمر على مكة هذه السنة عتاب بن أسيد فيما قال بعضهم، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى اليمن يغلى بن منية، وعلى عُمان واليمامة حذيفة بن مخصن، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي، وعلى الشام أبو عُبيدة بن الجراح، وعلى فوج الكوفة وما فتح من أرضها المثنى بن حارثة، وكان على القضاء

فيما ذكر علي بن أبي طالب.

وفي هذه السنة مات أبو كَيْشَة مولى رسول الله ﷺ، وقيل بعد ذلك. وفي خلافة أبي بكر مات سهل بن عمرو أخو سُهِيل، وهو من مسلمة الفتح. وفي خلافته مات الصَّعْب بن جَنَامَة اللَّيْثِي. وفي أوَّل خلافته مات ابنه عبد الله بن أبي بكر، وكان قد جُرح في حصار الطائف ثم انتقض عليه جرحه فمات. وفي هذه السنة توفي الأرقم بن أبي الأرقم يوم مات أبو بكر، وهو الذي كان رسول الله ﷺ مستخفياً بداره بمكة أوَّل ما أُرسل. (٤٥٠/٢)

سنة أربع عشرة

ذكر ابتداء أمر القادسية

لما اجتمع النَّاسُ إلى عمر خرج من المدينة حتَّى نزل على ماء يُدعى صيراراً، فعسكر به ولا يدري النَّاسُ ما يريد أيسر أم يقيم، وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف، فإن لم يقدر هذان على علم شيء ممَّا يريد نثروا بالعباس بن عبد المطلب، فسأله عثمان عن سبب حركته، فأحضر النَّاسُ فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير إلى العراق، فقال العامة: سير وسير بنا معك. فدخل معهم في رأيهم وقال: اغدوا واستعدوا فإنِّي سائر إلَّا أن يجيء رأي هو أمثل من هذا. ثمَّ جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ، وأرسل إلى علي، وكان استخلفه على المدينة، فأتاه، وإلى طلحة، وكان على المقدَّمة، فرجع إليه، وإلى الزبير وعبد الرحمن، وكانا على المجنبتين، فحضرَا، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح وإلَّا أعاد رجلاً وبعث آخر ففي ذلك غيظ العدو. (٤٥١/٢)

فجمع عمر النَّاسَ وقال لهم: إنِّي كنتُ عزمْتُ على المسير حتى صرفني ذؤوب الرأي منكم، وقد رأيتُ أن أقيم وأبعث رجلاً فأشيروا عليَّ برجل.

وكان سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن، فكتب إليه عمر بانتخاب ذؤوب الرأي والنجدة والسلاح فجاءه كتابُ سعد، وعمر يستشير النَّاسَ فيمن يبعثه، يقول: قد انتخبْتُ لك ألف فارس كلَّهم له نجدة ورأي وصاحب حيطة يحوط حريم قومه، إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم. فلَمَّا وصل كتابه قالوا لعمر: قد وجدته. قال: من هو؟ قالوا: الأسد عاديًا سعد بن مالك، فأنتهى إلى قولهم وأحضره وأمره على حرب العراق ووصاه وقال: لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ، وصاحب رسول الله ﷺ، فإنَّ الله لا يمحو السيِّء ولكنَّه يمحو السيِّء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلَّا طاعته، فالنَّاسُ في ذات الله سواء، الله ربُّهم وهم

عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ، يلزمه فالزمه. ووصَّاه بالصبر وسرَّحه فيمن اجتمع إليه من نفر المسلمين، وهم أربعة آلاف، فيهم حُمَيْضَة بن النعمان بن حميضة على بارق، وعمرو بن معددي كرب، وأبو سبرة بن ذؤيب على مَذْحِج، ويزيد بن الحارث الصَّدائِي على صُدَاء، وحبيب ومُثَلِبة وبشر بن عبد الله الهلالي في قيس عيلان.

وخرج إليهم عمر فمرَّ بفتية من السُّكُون مع حُصَيْن بن نُعَيْر ومعاوية ابن حُذَيْج دُلُم سباط فاعرض عنهم، فقليل له: ما لك وهؤلاء؟ فقال: ما مرَّ بي قوم من العرب أكره إليَّ منهم. ثمَّ أمضاهم فكان بعدُ يذكرهم بالكراهة، فكان منهم سُودَان بن حُمُرَان قتل عثمان، وابن مُلْجَم قتل (٤٥٢/٢) عليًّا، ومعاوية بن حُذَيْج جرد السيف في المسلمين يُظهر الأخذ بشار عثمان، وحُصَيْن بن نَمِير كان أشدَّ النَّاسِ في قتال علي.

ثمَّ إنَّ عمر أخذ بوصيتهم ويعظنهم ثمَّ سيرهم، وأمدَّ عمر سعدًا بعد خروجه بالقيِّ يمانِي والقيِّ نجدي، وكان المثنى بن حارثة في ثمانية آلاف، وسار سعد والمثنى ينتظر قدومه، فمات المثنى قبل قدوم سعد من جراحة انتفضت عليه، واستخلف على النَّاسِ بشير بن الخصاصية وسعد يومئذٍ بزُروذ وقد اجتمع معه ثمانية آلاف، وأمر عمر بني أسد أن ينزلوا على حدِّ أرضهم بين الحَزْن والبيضة، فنزلوا في ثلاثة آلاف، وسار سعد إلى شراف فنزلها ولحقه بها الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن، فكان جميع من شهد القادسية بضعة وثلاثين ألفاً، وجميع من قُسم عليه فيها نحو من ثلاثين ألفاً.

ولم يكن أحد أجراً على أهل فارس من ربيعة، فكان المسلمون يسمُّونهم ربيعة الأسد إلى ربيعة الفُرس، ولم يَنزَغ عمر ذا رأي ولا شرف ولا خطيباً ولا شاعراً ولا وجهاً من وجوه النَّاسِ إلَّا سيَّره إلى سعد. وجمع سعد من كان بالعراق من المسلمين من عسكر المثنى، فاجتمعوا بشراف، فعبَّاهم وأمر الأمراء وعرف على كلِّ عشرة عريفًا، وجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة، ولوى الحروب رجالاً على ساقها ومقدِّمتها ورجلها وطلانها ومجنَّباتها، ولم يفصل إلَّا بكتاب عمر، فجعل على المقدَّمة زُهْرَة بن عبد الله بن قتادة بن الحوتية، فأنتهى إلى العُدَيْب، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، وجعل على الميمنة عبد الله بن المُعْتَم، وكان من الصحابة أيضاً، واستعمل على الميسرة شُرَحْبِيل بن السَّمْط الكندي، وجعل خليفته خالد بن عُرْقُطَة حليف بني عبد شمس، وجعل عاصم بن عمرو التميمي على الساقة، وسواد بن مالك التميمي على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهلي (٤٥٣/٢) على المجردة، وعلى الرُّجَالَة حَمَال بن مالك الأسدي، وعلى الركبان عبد الله ابن ذي السَّهْمَيْن الحنفي، وجعل عمر على القضاء بينهم

عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، وعلى قسمة الفتيه أيضاً، وجعل راندهم وداعيتهم سلمان الفارسي، والكاتب زياد بن أبيه.

وقدم المعنى بن حارثة الشيباني وسلمى بنت خصفة زوج المثنى بشراف، وكان المعنى بعد موت أخيه قد سار إلى قابوس بن قابوس بن المنذر بالقادسية، وكان قد بعثه إليها الفرس يستنفر العرب، فسار إليه المعنى فقبله فأنامه ومَن معه، ورجع إلى ذي قار وسار إلى سعد يُعلمه برأي المثنى له وللمسلمين يأمرهم أن يقتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حَجَر من أرض العرب ولا يقتلوه بقر دارهم، فإن يُظهر الله المسلمين فلهم ما وراهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فته ثم يكونوا أعلم بسيلهم وأجراً على أرضهم إلى أن يرِدَ الله الكربة عليهم. فترحم سعد ومَن معه على المثنى، وجعل المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً، ثم تزوج سعد سلمى زوج المثنى. وكان معه تسعة وتسعون بدرية وثلاثمائة وبضعة عشر مَن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة مَن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة.

وقدم على سعد كتاب عمر بمثل رأي المثنى، وكتب عمر أيضاً إلى أبي عبيدة ليصرف أهل العراق ومن اختار أن يلحق بهم إلى العراق. وكان للفرس رابطة بقصر ابن مقاتل عليها النعمان بن قبيصة الطائي، وهو ابن عم قبيصة بن إياس صاحب الحيرة، فلما سمع بمجيء سعد سأل عنه وعنده عبد الله بن سنان بن خُزيم الأسدي، فقبل: رجل من قريش. فقال: والله لأحادثه (٤٥٤/٢) القتال فإن قريشاً عبيد مَن غلب، والله لا يخرجون من بلادهم إلا بخفين! فغضب عبد الله بن سنان من قوله وأمهله حتى دخل قُبته فقتله ولحق بسعد وأسلم.

وسار سعد من شيراف فنزل العُذَيْب، ثم سار حتى نزل القادسية بين العتيق والخندق بحيال القطرة وقُدَيْس أسفل منها بميل. وكتب عمر إلى سعد: إني ألقى في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتهم، فمتى لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو بإشارة أو بلسان كان عندهم أماناً فأجروا له ذلك مجرى الأمان والوفاء، فإن الخطأ بالفداء بقية، وإن الخطأ بالغدر هلكة، وفيها وهنكم وقوة عدوكم. فلما نزل رُهرة في المقدمة وأمسى بعث سرية في ثلاثين معروفين بالنجدة وأمرهم بالغارة على الحيرة، فلما جازوا السيلحين سمعوا جلبة فمكثوا حتى حاذوهم، وإذا أخت آزادُمُذ بن آزاذبه مرزبان الحيرة تزف إلى صاحب الصئين، وهو من أشرف العجم، فحمل بكبر بن عبد الله الليثي أمير السرية على شيرزاد بن آزاذبه فدفق صلبه وطارت الخيل على وجوهها وأخذوا الأثقال وابنة آزاذبه في ثلاثين من الدهاقين ومائة من التوابيع ومعهم ما لا يُدرى قيمته، فاستاق ذلك ورجع فصبح سعداً بعذيب

وجاءت الأخبار إلى سعد بذلك، فكتب إلى عمر، فكتب إليه

واستأث أهل السواد إلى يزدجرد وأعلموه أن العرب قد نزلوا القادسية ولا يبقى على فعلهم شيء وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات ونهبوا الدواب والأطعمة، وإن أبطأ الغياث أعطيناهم بأيدينا، وكتب إليه بذلك الذين لهم الضياع بالطف وهيجوه على إرسال الجنود. فأرسل يزدجرد إلى رستم، فدخل عليه فقال: إني أريد أن أوجهك في هذا الوجه، فأت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله، فأظهر له الإجابة ثم قال له: دَعْنِي فإن العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تضربهم بي، ولعل الدولة أن تثبت بي إذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة والرأي في الحرف أنفع من بعض الظفر، والأناسة خير من العجلة، وقاتل جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرّة وأشدّ على عدونا. فأبى عليه، وأعاد رستم كلامه وقال: قد اضطررتي تضيق الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها، ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلّم به، فأنشدك الله في نفسك وملكتك دَعْنِي أقيم بعسكري (٤٥٦/٢) وأمرح الجالينوس، فإن تكن لنا فذلك وإلا بعثنا غيره حتى إذا لم نجد بداً صبرنا لهم وقد وهّناهم ونحن حامون، فإني لا أزال مرجوّاً في أهل فارس ما لم أهزم. فأبى إلا أن يسير، فخرج حتى ضرب عسكره بسباط وأرسل إلى الملك ليعفيه فأبى.

لأكون الذي أبلغكم وهم يشهدون على ذلك لي؛ فأما ما ذكرت من سوء الحال فهي على ما وصفت وأشد؛ ثم ذكر من سوء عيش العرب وإرسال الله النبي، ﷺ، إليهم نحو قول النعمان وقيل مَنْ خالفهم أو الجزية، ثم قال له: اختر إن شئت الجزية عن يدي وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف أو تُسلم فتتجني نفسك.

فقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلُكم! لا شيء لكم عندي. ثم استدعى بوقر من تراب فقال: احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من (٤٥٨/٢) باب المدائن. ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنني مُرسل إليه رستم حتى يدفعه ويدفعكم معه فسي خندق القادسية ثم أوردته بلادكم حتى اشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور.

فقام عاصم بن عمرو لياخذ التراب وقال: أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء، فحملة على عنقه وخرج إلى راحلته فركبها وأخذ التراب وقال لسعد: ابشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم.

واشد ذلك على جلساء الملك. وقال الملك لرستم، وقد حضر عنده من ساباط: ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء، ما أنتم بأحسن جواباً منهم، ولقد صدقني القوم، لقد وعدوا أمراً يُدركته أو ليموتنّ عليه، على أنني وجدت أفضلمهم أحققهم حيث حمل التراب على رأسه. فقال رستم: أيها الملك إنه أعقلهم، وتطير إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه. وخرج رستم من عند الملك غضبان كثيراً وبعث في أثر الوفد وقال لثقتي: إن أدرتهم الرسول تلافينا أرضنا، وإن أعجزه سلبكم الله أرضكم. فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم، فقال: ذهب القوم بأرضكم من غير شك؛ وكان منجماً كاهناً.

وأغار سواد بن مالك التميمي بعد مسير الوفد إلى يزدجرد على النجاف والفراض؛ فاستاق ثلاثمائة دابة من بين بغل وحمار وثور وأوفرها سمكاً، وصيح العسكر، فقسمه سعد بين الناس، وهذا يوم الحيتان، وكانت السرايا تسري لطلب اللحوم، فإن الطعام كان كثيراً عندهم، فكانوا يسَمون الأيام بها: يوم الأباقر ويوم الحيتان. وبعث سعد سرية أخرى فأغاروا فأصابوا إبلاً لبني تغلب والنمر واستاقوها ومن فيها، ففجر سعد الإبل وقسمها في الناس فأخصبوا. وأغار عمرو بن الحارث على النهرين فاستاق مواشي كثيرة وعاد.

وسار رستم من ساباط وجمع آلة الحرب وبعث على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً، وخرج هو في ستين ألفاً، وفي ساقته عشرون ألفاً، وجعل (٤٥٩/٢) في ميمته الهرمزان، وعلى الميسرة مهران بن بهرام الرازي، وقال رستم للملك يشجعه بذلك: إن فتش الله علينا القوم فتوجّهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في

عمر: لا يكرهك ما يأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعل دُعاهم توهيناً لهم.

فأرسل سعد نفرأ، منهم: النعمان بن مقرن، وسُر بن أبي رهم، وخمالة بن خويّة، وخنظلة بن الربيع، وفرات بن حيّان، وعدي بن سُهَيْل، وعطارد بن حاجب، والمُعيرة بن زُرارة بن النُباش الأسدي، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسان، وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معدي كرب، والمُعيرة بن شُعْبَة، والمعنى بن حارثة إلى يزدجرد دُعَاة، فخرجوا من العسكر فقدموا على يزدجرد وطووا رستم واستاذنوا على يزدجرد فحُسو، وأحضر وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ويقولوه لهم.

واجتمع الناس ينظرون إليهم وتحتم خيول كلهم صُهلًا، وعليهم البرود ويأيدهم السياط، فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال له: سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟ فقال النعمان بن مقرن لأصحابه: إن شئتم تكلمت عنكم، ومن شاء أثرتُه. فقالوا: بل تكلم. فقال: إن الله رحماً فارسل إلينا رسلاً بالخير وبهنا عن الشر، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع قبيلة إلا وقارب منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، فبدأ بهم، فدخلوا معه على وجهين: مكره عليه فاغتبط، وطائع [أناه] (٤٥٧/٢) فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبداً بمن يلينا من الأمم فندعوه إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتُم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية، فإن أبيتُم فالمناجزة، فإن أجبتُم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتُم الجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم.

فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيقومنا أمركم، ولا تطعموا أن تقوموا لفارس فإن كان غرر لحقكم فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنّا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فاستكت القوم، فقام المُعيرة بن زُرارة فقال: أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب وجوهمهم وهم أشرف يستحيون من الأشراف، وإنما يُكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف، وليس كل ما أرسلوا به قالوه، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، فجاءني

أصلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المسالمة.

وكان خروج رستم من المدائن في ستين ألف متبوع، ومسيره على ساباط في مائة ألف وعشرين ألف متبوع، وقيل غير ذلك.

ولما فصل رستم عن ساباط كتب إلى أخيه البندوان: أما بعد فرموا حصونكم وأعدوا واستعدوا، فكأنكم بالعرب قد قارعوكم عن أرضكم وأبنائكم، وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعدوهم نحوساً، فإن السمكة قد كثرت الماء، وإن النعائم قد حسنت، والزهرة قد حسنت، واعتدل الميزان، وذهب بهرام ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا ويستولون على ما يلينا، وإن أشد ما رأيت أن الملك قال: لتسيرن أو لآسرن بنفسي.

ولقي جابان رستم على قنطرة ساباط، وكانا منجمين، فشكا إليه وقال له: ألا ترى ما أرى؟ فقال له رستم: أما أنا فأنا قد بخشاش وزمام ولا أجد بداً من الانقياد. ثم سار فنزل بكوني، فأتى برجل من العرب، فقال له: ما جاء بكم وماذا تطلبون؟ فقال: جئنا نطلب موعد الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا. قال رستم: فإن قتلتم قبل ذلك! قال: من قتل منا دخل الجنة، ومن بقي منا أنجزه الله ما وعده، فنحن على يقين.

فقال رستم: قد وضعنا إذن في أيديكم! فقال: أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغرتك من ترى حولك، فإنك لست تجاول الإنسان إنما تجاول القدر. فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس، فغضب أصحابه الناس أبناءهم (٤٦٠/٢) وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمر، فضج أهلها إلى رستم فقال: يا معشر فارس والله لقد صدق العربي، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم، إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والإحسان، فإذا تغيرتم فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم، وما أنا بأمن من أن ينزع الله سلطانه منكم. وأني ببعض من يشكى منه فضرب عنقه.

ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها وتهنأهم وهم بهم، فقال له ابن بغيطة: لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا.

ولما نزل رستم بالنجف رأى كأن ملكاً نزل من السماء ومعه النبي ﷺ، وعمر، فأخذ الملك سلاح أهل فارس فحتمته ثم دفعه إلى النبي ﷺ، فدفعه النبي ﷺ، إلى عمر، فأصبح رستم حزناً.

وأرسل سعد السرايا ورستم بالنجف والجالينوس بين النجف والسيلحين، فطافت في السواد، فبعث سواداً وحُمَيْضَةً في مائة مائة، فأغاروا على النهرين، وبلغ رستم الخبر فأرسل إليهم خيلاً،

وسمع سعد أن خيله قد غلت فأرسل عاصم بن عمرو وجابراً الأسدي في آثارهم، فلقبهم عاصم وخيل فارس تحوشهم ليخلصوا ما بأيديهم، فلما رآته الفرس هربوا ورجع المسلمون بالغنائم. وأرسل سعد عمرو بن معدي كرب وطلحة الأسدي طليعة، فسارا في عشرة، فلم يسيرا إلا فرسخاً وبعض آخر حتى راوا مسالحهم وسرحهم على الطوف قد ملأوها، فرجع عمرو ومن معه، وأبى طليحة إلا التقدم، فقالوا له: أنت رجل في نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن مخضن، فارجع معنا. فأبى، فرجعوا إلى سعد فأخبروه بقرب القوم.

ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه بجوسه ويتوسم، فهتك (٤٦١/٢) أطناب بيت رجل عليه واقتاد فرسه، ثم هتك على آخر بيته وحل فرسه، ثم فعل بآخر كذلك، ثم خرج يعدو به فرسه، ونزى به الناس فركبوا في طلبه، فأصبح وقد لحقه فارس من الجند فقتله طليحة ثم آخر فقتله ثم لحق به ثالث فرأى مصرع صاحبه، وهما ابنا عمه، فازداد حنفاً، فلحق طليحة فكر عليه طليحة وأسر ولحقه الناس، فراوا فارس الجند قد قُتلا وأسر الثالث وقد شارف طليحة عسكره، فأحجموا عنه، ودخل طليحة على سعد معه الفارسي وأخبره الخبر، فسأل الترجمان الفارسي، فطلب الأمان، فأمنه سعد، قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عن قبلي، باشرت الحروب منذ أنا غلام إلى الآن وسمعت بالأبطال ولم أسمع بمثل هذا أن رجلاً قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوت، فلما أدركناه قتل الأول وهو يُدعى بألف فارس، ثم الثاني وهو نظيره، ثم أدركته أنا [ولا أظن أنني] خلقت من بعدي من يعدلني وأنا النائر بالقتلين فرائت الموت واستوسرت. ثم أخبره عن الفرس وأسلم ولزم طليحة، وكان من أهل البلاء بالقادسية، وسماء سعد مسلماً.

ثم سار رستم وقدم الجالينوس وذا الحاجب، فنزل الجالينوس بحيال زهرة من دون القنطرة، ونزل ذو الحاجب بطير ناباذ، ونزل رستم بالخرارة، ثم سار رستم فنزل بالقادسية؛ وكان بين مسيره من المدائن ووصوله القادسية أربعة أشهر لا يقدم رجاء أن يضجروا بمكانهم فينصرفوا، وخاف أن يلقي ما لقي من قبله، وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجله ويُنهضه [ويقدمه] حتى أقحمه.

وكان عمر قد كتب إلى سعد يأمره بالصبر والمطاوله أيضاً، فاعد للمطاوله. (٤٦٢/٢) فلما وصل رستم القادسية وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل الناس، فما زالوا يتلاحقون حتى أعتما من كثرتهم والمسلمون ممسكون عنهم. وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلاً، منها فيل سابور الأبيض، وكانت القبيلة تألفه،

فجعل في القلب ثمانية عشر فيلاً، وفي المجنبتين خمسة عشر فيلاً. فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسائر العتيق نحو خفان حتى أتى على مُنْقَطع عسكر المسلمين، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة، فتمأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ووقف على القنطرة، وأرسل إلى زُهْرَةَ فوافقه، فأراه على أن يصالحه ويجعل له جُغلاً على أن يتصرفوا عنه من غير أن يصرح له بذلك بل يقول له: كنتم جيراننا وكنّا نُحْسِن إليكم ونحفظكم، ويخبره عن صنعهم مع العرب.

فقال له زُهْرَةُ: ليس أمرنا أمر أولئك، إنّا لم نأتكم لطلب الدنيا إنّما طَلَبْنَا وهَمَّنَا الآخرة، وقد كنّا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولاً فدعانا إلى ربّه فأجبناه، فقال لرسوله: إني سلّطت هذه الطائفة على من لم يدبّ بديني، فأنّا متقم به منهم وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرّين به، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به أحد إلا عزّ.

فقال له رستم: ما هو؟ قال: أمّا عموده الذي لا يصلح إلا به شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. قال: وأي شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأمّ. قال: ما أحسن هذا! [ثمّ] قال رستم: أرايت إن أجبت إلى هذا ومعى قومي كيف يكون أمركم، أترجعون؟ قال: إي والله. قال: صدقتي، أمّا إنّ أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السُفلة، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم: تعدّوا طَوْرَهم وعادوا أشرفهم. فقال زُهْرَةُ: نحن خير الناس للناس، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون بل نطيع الله (٤٦٣/٢) في السُفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا.

فانصرف عنه ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فأنفقوا. فأرسل إلى سعد: أن ابعث إلينا رجلاً نكلّمه ويكلّمنا. فدعا سعد جماعة ليرسلهم إليهم. فقال له رُبَيْع بن عامر: متى نأثمهم جميعاً يروا أنّا قد احتفلنا بهم فلا ترذّمهم على رجل.

فأرسله وحده، فسار إليهم، فحبسوه على القنطرة. وأعلم رستم بمجيئه فأظهر زينته وجلس على سرير من ذهب وبسط البُسط والتمارق والوسائد المنسوجة بالذهب، وأقبل رُبَيْع على فرسه وسيفه في خرقة ورمحه مشدود بعصب وقدّ، فلما انتهى إلى البُسط قيل له: انزل، فحمل فرسه عليها ونزل وربطها بوسادتين شقّهما وأدخل الجبل فيهما، فلم ينهوه وأروه التهاون، وعليه درع، وأخذ عباءة بعيره فتدرّعها وشدّها على وسطه. فقالوا: ضنّع سلاحك. فقال: لم آتكم فاضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتُموني. فآخبروا رستم، فقال: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه، فلم

يدع لهم نمرقاً ولا بساطاً إلا أفسده وهتكه. فلما دنا من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البُسط، فقيل له: ما حملك على هذا؟ قال: إنّنا لا نستحبّ القعود على زينتك. فقال له ترجمان رستم، واسمه عبّود من أهل الحيرة: ما جاء بك؟ قال: الله جاء بنا، وهو بعثنا لنُخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفّضي إلى الجنة أو الظفر. فقال رستم: قد سمعنا قولكم فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال: نعم، وإنّ منّا سنّ لنا رسول الله ﷺ، أن لا نمكّن الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن متردّدون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل: إمّا الإسلام (٤٦٤/٢) وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكفّ عنك وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنازلة في اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا، أنا كفيل بذلك عن أصحابي. قال: أسديهم أنت؟ قال: لا ولكنّ المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أديانهم على أعلامهم.

فخلا رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم كلاماً قطّ أعزّ وأوضح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب! أمّا ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إنّ العرب تستخفّ باللباس وتصون الأحساب، ليسوا مثلكم.

فلما كان من الغد أرسل رستم إلى سعد: أن ابعث إلينا ذلك الرجل. فبعث إليهم حُذَيْفَة بن يَحْصَن، فأقبل في نحو من ذلك الزيّ ولم ينزل عن فرسه ووقف على رستم راكباً. قال له: انزل. قال: لا أفعل. فقال له: ما جاء بك ولم يجئ الأول؟ قال له: إنّ أميرنا يحبّ أن يعدل بيتنا في الشدّة والرخاء، وهذه نوبتي. فقال: ما جاء بك؟ فأجابه مثل الأول. فقال رستم: أو المودعة إلى يوم ما؟ قال: نعم، ثلاثاً من أمس. فردّه وأقبل على أصحابه وقال: ويحكم أما ترون ما أرى؟ جاءنا الأول بالأمس فغلّبنا على أرضنا وحقّر ما نعظم وأقام فرسه على زبرجتنا، وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو في يَمْن الطائر يقوم على أرضنا دوننا.

فلما كان الغد أرسل: ابعثوا إلينا رجلاً. فبعث المُغْيَرَة بن شُعْبَة، فأقبل إليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ويُسطهم على غلوة لا يوصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها، فأقبل المُغْيَرَة حتى جلس مع رستم على سرير، فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه، وقال: قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى (٤٦٥/٢) قوماً أسفه منكم، إنّنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً، فظننت أنكم تواسون قومكم كما تتواسى، فكان أحسن من الذي صنعت أن تخبروني أنّ بعضكم أرباب بعض، فإنّ هذا الأمر

لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد، وإني لم آتكم ولكن دعوتموني اليوم، علمت أنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول. فقالت السفلة: صدق والله العربي. وقالت الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا يسزعون إليه، قاتل الله أولينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة!

ثم تكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وقال: لم نزل متمكّنين في البلاد ظاهرين على الأعداء أشرافاً في الأمم، فليس لأحد مثل عزنا وسلطاننا، نُصّر عليهم ولا يُصرون علينا إلا اليوم واليومين والشهر للذنوب، فإذا انتقم الله منا ورضي علينا ردّ لنا الكرامة على عدونا، ولم يكن في الأمم أمة أصغر عندنا أمراً منكم، كنتم أهل قسوة ومعيشة سيئة لا نراكم شيئاً، وكنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا الجهد في بلادكم، فأننا أمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وأمر لكل منكم بوقر تمر وتصرفون عنا، فإني لست أشتهي أن أقتلكم.

فتكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن الله خالق كل شيء ورازقه، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه، وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك فنحن نعرفه، فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم، وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف فنحن نعرفه ولسنا ننكره، والله (٤٦٦/٢) ابتلانا به والدنيا دول، ولم يزل أهل الشدائد يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل الرخاء يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم يقصر عما أوتيتهم، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغيير الحال، ولو كنّا فيما ابتلينا به أهل كفر لكان عظيم ما ابتلينا به مستجباً من الله رحمةً يرفقه بها عنا، إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسلاً. ثم ذكر مثل ما تقدّم من ذكر الإسلام والجزية والقتال، وقال له: وإن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم، فقالوا: لا صبر لنا عنه.

فقال رستم: إذا تموتون دونها. فقال المغيرة: يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار، ويظفر من بقي منا بمن بقي منكم.

فاستشاط رستم غضباً ثم حلف أن لا يرتفع الصبح غداً حتى تقتلهم أجمعين. وانصرف المغيرة وخلص رستم بأهل فارس وقال: أين هؤلاء منكم! هؤلاء والله الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين، والله لئن كان بلغ من عقلهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء! فلجّوا وتجلّدوا.

فأرسل رستم مع المغيرة وقال له: إذا قطع القنطرة فأعلمه أن عينه نفقا غداً، فأعلمه الرسول ذلك؛ فقال المغيرة: بشرتني بخير

قال: فتكلم القوم وذكروا سوء حالهم وما من الله به عليهم من إرسال رسوله واختلافهم أولاً ثم اجتماعهم على الإسلام، وما أمرهم به من الجهاد، (٤٦٨/٢) وقالوا: وأما ما ضربت لنا من الأمثال فليس كذلك ولكن إننا مثلكم كمثل رجل غرس أرضاً واختار لها الشجر وأجرى إليها الأنهار وزينها بالقصور وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جناتها، فخلا الفلاحون في القصور على ما لا يحب فأطال إهمالهم فلم يستجيبوا، فدعا إليها غيرهم وأخرجهم منها، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس وإن أقاموا فيها صاروا خولاً لهؤلاء فيسومونهم الخسف أبداً؛ والله لو لم يكن ما تقول حقاً ولم يكن إلا الدنيا لما صبرنا عن الذي نحن فيه من لذت عيشكم ورأينا من زيجكم ولقار عناكم عليه!

فقال رستم: اتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فقالوا: بل اعبروا

إلينا.

(٤٧٠/٢) الركوب استخلف خالد بن عُرقطة على الناس، فاختلف

عليه فأخذ نقرأ ممن شغب عليه فحبسهم في القصر، منهم: أبو مخجن الثقفي، وقيلهم، وقيل: بل كان حبس أبي مخجن بسبب الخمر، وأعلم الناس أنه قد استخلف خالداً وإنما يأمرهم خالد، فسمعوا وأطاعوا، وخطب الناس يومئذٍ، وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة، وحثهم على الجهاد وذكرهم ما وعدهم الله من فتح البلاد وما نال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس، وكذلك فعل أمير كل قوم، وأرسل سعد نقرأ من ذوي الرأي والنجدة، منهم: المغيرة وحذيفة وعاصم وطلحة وقيس الأسدي وغالب وعمرو بن معدى كرب وأمثالهم، ومن الشعراء: الشماخ والحطيفة وأوس بن مقرن وعبد بن الطيب وغيرهم، وأمرهم بتحريض الناس على القتال، ففعلوا.

وكان صفّ المشركين على شفير العتيق، وكان صفّ المسلمين مع حائط قُدَيْسٍ والخندق، فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق، ومع الفرس ثلاثون ألف مُسَلَّس، وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد، وهي الأنفال، فلما قرئت هتت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها. فلما فرغ القراء منها قال سعد: الزموا موافقكم حتى تصلوا الظهر، فإذا صليتم فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا، فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عُدَّتكم، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله. فلما كبر سعد الثالثة برز أهل النجدات فانشبوا القتال، وخرج إليهم من الفرس أمثالهم، فاعتوروا الطعن والضرب، وقال غالب بن عبد الله الأسدي: (٤٧١/٢)

قد علمت لردة المشائخ ذات اللبان والبيان الواضح
أنسي سماماً البطّل المسالِحَ وفارح الأمر المهمّ الفادح
فخرج إليه هرمز، وكان من ملوك الباب، وكان متوجّحاً، فأسرّه غالب، فجاه به سعداً ورجع وخرج عاصم وهو يقول:

قد علمت نضاً صفراء اللبّ مثل النّجين إذ تغشاه النّعب
أنسي أسراً لا من تبعه الشّبب مثلي على مثلك بغريه القتب

فطارد فارسياً فانهمز، فاتبعه عاصم حتى خالط صفّهم، فحموه، فأخذ عاصم رجلاً على بغل وعاد به، وإذا هو خباز الملك معه من طعام الملك وخيصر، فأتى به سعداً فنقله أهل موقفه. وخرج فارسيّ فطلب البراز، فبرز إليه عمرو بن معدى كرب، فأخذه وجلد به الأرض، فذبحه وأخذ سواربه ومنطقته. وحملت الفيلة عليهم ففرقت بين الكتائب، فنفرت الخيل، وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلاً، فنفرت خيل بجيلة، فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها عنها وعمّن معها، وأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة وعمّن معها من الناس. فخرج طلحة بن خويلد وحمال

ورجعوا من عنده عشياً، وأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا موافقهم، وأرسل إليهم: شانكم والعبور، فأرادوا القنطرة فقال: لا ولا كرامة! أما شيء غلبناكم عليه فلن نردّه عليكم. فباتوا يسكرون العتيق حتى الصباح بالتراب والقصب والبراذع حتى جعلوه طريقاً، واستمّ بعدما ارتفع النهار.

ورأى رستم من الليل كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ قسيّ أصحابه فحتم عليها ثم صعد بها إلى السماء، فاستيقظ مهموماً واستدعى خاصته فقصها عليهم وقال: إن الله ليعطينا لو اتعظنا. ولما ركب رستم ليعبر كان عليه درعان ومغفر، وأخذ سلاحه ووئب فإذا هو على فرسه لم يضع رجله في الركاب، وقال: غداً ندقّم دقاً! فقال له رجل: إن شاء الله. فقال: وإن لم يشأ! ثم قال: إنما ضغا الثعلب حين مات الأسد، يعني كسرى، وإنّي أخشى أن تكون هذه سنة القروء! فإنما قال هذه الأشياء توهيناً للمسلمين عند الفرس، وإلاً فالمشهور عنه الخوف من المسلمين، وقد أظهر ذلك إلى من يثق به. (٤٦٩/٢)

ذكر يوم أزمات

لما عبر الفرس العتيق جلس رستم على سريه وضرب عليه طيارة وعبى في القلب ثمانية عشر فيلاً عليها صناديق ورجال وفي المجنبتين ثمانية وسبعة، وأقام الجالينوس بينه وبين ميمته، والفيرزان بينه وبين ميسرته، وكان يزدرجد قد وضع بينه وبين رستم رجلاً على كل دعوة رجلاً، أولهم على باب إيوانه وآخرهم مع رستم، فكلما فعل رستم شيئاً قال الذي معه للذي يليه: كان كذا وكذا، ثم يقول الثاني ذلك للذي يليه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى يزدرجد في أسرع وقت. وأخذ المسلمون مصافهم. وكان بسعد دمايل وعرق النساء فلا يستطيع الجلوس، إنما هو مكب على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس والصف في أصل حائطه، لو أغراه الصف فوق ناقية لأخذ برُمته، فما كثره هول تلك الأيام شجاعة، وذكر ذلك الناس، وعابه بعضهم بذلك فقال:

نُقاتل حتى أنزلَ الله نصره وسعد يباب القادسيّة مُغصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة وسوء سعد ليس فيهن إيم

فبلغت أبياته سعداً فقال: اللهم إن كان هذا كاذباً وقال الذي قاله رياء وسعة فاقطع عني لسانه! فإنه لو اوقف في الصف يومئذٍ أناه سهم غرب فأصاب لسانه فما تكلم بكلمة حتى لحق بالله تعالى. فقال جرير بن عبد الله نحو ذلك أيضاً، وكذلك غيره، ونزل سعد إلى الناس فاعتذر إليهم وأراه ما به من القروح في فخذيه واليتية، فعذره الناس وعلموا حاله، ولما عجز عن

ذكر يوم أغواث

بن مالك في كتابيهما فباشروا الفيلة حتى عدلها ركبائها. وخرج إلى طلحة عظيم منهم، فقتله طليحة، وقام الأشعث بن قيس في كينة فقال: يا معشر كينة لله دو بني أسد أي قري يقرن وأي هذ يهذون عن (٤٧٢/٢) مرفقهم، أغنى كل قوم ما يليهم، وأنتم تنتظرون من يكفيكم، أشهد ما أحستم أسوة قومكم من العرب. فنهذ ونهذوا معه، فازالوا الذين يلزائهم. فلما رأى الفرس ما يلقي الناس والفيلة من أسد رموهم بحدتهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحجاب والجالينوس، والمسلمون ينتظرون التكبير الرابعة من سعد، فاجتمعت حلبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة فثبتوا لهم، وكبر سعد الرابعة وزحف إليهم المسلمون ورحا الحرب تدور على أسد، وحملت الفيول على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها.

فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمي فقال: يا معشر بني تميم، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟ قالوا: بلى والله! ثم نادى في الرجال من قومه رمة وآخرين لهم ثقافة فقال: يا معشر الرماة، ذبوا ركبنا الفيلة عنهم بالنبل. وقال: يا معشر أهل الثقافة، استدبروا الفيلة فقطعوا وضئها، وخرج يحميهم ورحا الحرب تدور على أسد وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذناب توابعها فقطعوا وضئها وارتفع عواهم فما بقي لهم فيل إلا أوى وقتل أصحابها ونفس عن أسد وردوا فارساً عنهم إلى مواقعهم واقتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هداة من الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء، وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة، وكانوا ردة للناس، وكان عاصم حامية للناس، وهذا اليوم الأول، وهو يوم أرمات؛ فقال عمرو بن شأس الأسدي:

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَكْثَافِ يَنْقِ إِلَى كَيْسَرَى فَوَاقَهَا رِغَالَا
تَرَكْنَا لَهُمْ عَلَى الْأَسْوَاقِ شُجُوءًا وَالْمُخَفَّوِينَ يَأْمَأُ طُلُوعًا
(٤٧٣/٢)

قَتَلْنَا رُسُتْمًا وَبَنِيهَ قَسْرًا تُشِيرُ الْخَيْلُ فَوْقَهُمُ الْهَيْالَا
الآيات. وكان سعد قد تزوج سلمى امرأة المشي بن حارثة الشيباني بعده بشراف، فلما جال الناس يوم أرمات وكان سعد لا يطيق الجلوس، جعل سعد يتململ جزعاً فوق القصر، فلما رأت سلمى ما يصنع الفرس قالت: وامشيانه ولا مشي للخيول اليوم! قالت ذلك عند رجل ضجر مما يرى في أصحابه ونفسه، فلطم وجهها وقال: أين المشي عن هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحا يعني أسداً وعاصماً. فقالت: أغيرة وجينا؟ فقال: والله لا يعذرني اليوم أحد إن لم تعذرني وأنت ترين ما بي! فتعلقها الناس لم يبق شاعر إلا اعتد بها عليه، وكان غير جبان ولا ملوم.

ولما أصبح القوم وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم، فسلم الجرحى إلى النساء ليقرن عليهم، وأما القتلى فذفونوا هناك على مشرق، وهو واد بين العذيب وعين الشمس. فلما نقل سعد القتلى والجرحى طلعت نواصي الخيل من الشام، وكان فتح دمشق قبل القادسية، فلما قدم كتاب عمر على أبي عبيدة بن الجراح يارسال أهل العراق سيرهم وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي، فتعجل القعقاع فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم، وهو يوم أغواث، وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أعشاراً، وهم ألف، كلماً بلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة، فقدم أصحابه في عشرة، قاتى الناس فسلم عليهم وبشرهم بالجنود وحرصهم على القتال وقال: اصنعوا كما أصنع، وطلب البراز فقالوا فيه يقول أبي بكر: (٤٧٤/٢) لا يهزم جيش فيهم مثل هذا. فخرج إليه ذو الحجاب، فعرفه القعقاع فنادى: يا لشارت أبي عبيد ومليط وأصحاب الجسر! وتضاربا، فقتله القعقاع وجعلت خيله ترد إلى الليل وتنشط الناس، وكان لم يكن بالأمس مصيبة، وفرحوا بقتل ذي الحجاب، وانكسرت الأعاجم بذلك.

وطلب القعقاع البراز فخرج إليه الفيرزان والبنذوان، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أحد بني تيم اللات فتبارزوا، فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البنذوان، ونادى القعقاع: يا معشر المسلمين، باشروهم بالسيف فإنما يحصد الناس بها! فاقتلوا حتى المساء، فلم ير أهل فارس في هذا اليوم [شيئاً] مما يحجبهم، وأكثر المسلمون فيهم القتل، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل كانت توابعها تكسرت بالأمس، فاستأنفوا عملها فلم يفرغوا منها حتى كان الغد.

وجعل القعقاع كلماً طلعت قطعة من أصحابه كبير وكبر المسلمون ويحمل ويحملون، وحمل بنو عم للقعقاع عشرة عشرة على إبل قد ألبسوها وهي مجلله مبرقة، وأطافت بهم خيولهم تحميهم، وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة، ففعلوا بهم هذا اليوم، وهو يوم أغواث، كما فعلت فارس يوم أرمات، فجعلت خيل الفرس تفر منها وركبتها خيول المسلمين. فلما رأى الناس ذلك استنوا بهم، فلقى الفرس من الإبل أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة.

وحمل رجل من تميم على رستم يريد قتله فقتل دونه. وخرج رجل من فارس يبارز، فبرز إليه الأعرف بن الأغلم العقيلي فقتله، ثم برز إليه آخر فقتله، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوا سلاحه، فغبر في وجوههم (٤٧٥/٢) التراب حتى رجع إلى أصحابه. وحمل القعقاع بن عمرو يومئذ ثلاثين حملة، كلماً طلعت

قطعة حمل حملة وأصاب فيها وقتل، فكان آخرهم بُزْزَجِيهْر الهمذاني. وبارز الأعورُ بن قُطْبَةَ شَهْرِيَّارَ سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه، وقاتلت الفرسان إلى انتصاف النهار. فلمَّا اعتدل النهار تراحف الناس فافتتلوا حتى انتصف الليل. فكانت ليلة أرمات تُدعى الهداة، وليلة أغوات تُدعى السواد، ولم يزل المسلمون يرون [في] يوم أغوات الظفر، وقتلوا فيه عامَّة أعلامهم، وجالت فيه خيل القلب وثبت رَجُلُهم، فلولا أنَّ خيلهم عادت أخذت رستم أخذًا. وبات الناس على ما بات عليه القوم ليلة أرمات، ولم يزل المسلمون يتمنون. فلمَّا سمع سعد ذلك قال لبعض من عنده: إن تمَّ الناس على الانتماء فلا توقظني فإنهم أقوىاء، وإن سكتوا ولم يتمَّ الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء، فإن سمعتمهم يتمنون فأيقظني فإن انتماءهم عن السوء.

ذكر يوم عِمَاس

ثم أصبحوا اليوم الثالث وهم على مواقفهم، وبين الصَّفين من قتلى المسلمين ألفان من جريح وميت، ومن المشركين عشرة آلاف، فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وكان النساء والصبيان يحفرون القبور، وكان على الشهداء حاجب بن زيد. وأمَّا قتلى المشركين فبين الصَّفين لم يُنقلوا، وكان ذلك ممَّا قوَّى المسلمين، وبات القعقاع تلك الليلة يسرَّب أصحابه إلى المكان الذي فارقه في وقتله. وقال: إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة، فإن جاء هاشم فذاك وإلا جدتكم للناس رجاء وجدًا ولا يشعر به أحد. وأصبح الناس على مواقفهم، فلمَّا ذرَّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع، فحين رآهم كثير وكثير المسلمون وتقذموا وتكتبت الكتائب واختلطوا الضرب والطعن والمدد متتابع، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم فأخبر بما صنع القعقاع، فعبى أصحابه سبعين سبعين، وكان فيهم قيس بن ثبيرة بن عبد يَغوث المعروف بقيس بن المكشوح المُرادي، ولم يكن من أهل الأيام إنما كان باليرموك، فانتدب مع هاشم حتى إذا خالط القلب كثير وكثير المسلمون وقال: أوَّل قتال المطاردة ثمَّ المراماة ثمَّ حمل على المشركين يقاتلهم حتى خرق صفهم إلى العتيق ثم عاد.

وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيتهم حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم، وأقبلت الرُّجالة مع الفيلة يحمونها أن تُقطع وُضُنُها، ومع الرُّجالة فرسان يحمونهم، فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأنَّ الفيل إذا كان وحده كان أوحش وإذا أطافوا به كان آنس، وكان يوم عِمَاس من أوَّله إلى (٤٧٨/٢) آخره شديدًا، العربُ والعجمُ فيه سواء، ولا تكون بينهم نقطة إلا أبلغوها بزدجدة بالأصوات، فيعبث إليهم أهل النجيدات ممن عنده، فلولا أنَّ الله ألهم القعقاع ما فعل في اليومين وإلا كسر ذلك المسلمين.

وقاتل قيس بن المكشوح، وكان قد قدم مع هاشم، قتالًا شديدًا وحرَّض أصحابه، وقال عمرو بن معدى كرب: إني حاملٌ على الفيل ومن حوله، لفيل بإزائه، فلا تدعوني أكثر من جَزَر جَزور، فإن تأخرت عني فقدمت أبا ثور، يعني نفسه، وأين لكم مثل أبي ثور! فحمل وضرب فيهم حتى ستره الغبار وحمل أصحابه فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه، وإن سيفه لفي يده بصارمهم، وقد طعن فرسه، فأخذ برجل فرس أعجمي فلم يطق الجري، فنزل

ولما اشتدَّ القتال، وكان أبو ميخجن قد حُبس وقُيد فهو في القصر، قال لِسَلَمَى زوج سعد: هل لك أن تخلي عني وتعيروني البلقاء؟ فلهه عليَّ إن سلَّمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي. فأبت، فقال:

كَفَى حَزْنًا أَنْ تُرَدِّي الْخَيْلَ بِالْقَنَا وَأُسْرًا مُشْلُوفًا عَلَيَّ زَنَا
إِذَا قَمْتُ غَنَائِي الْخَيْدُ وَأَغْلَقْتُ مَصَارِيْعَ دُونِي قَدْ تَصَمَّ الْمُنَائِيَا
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ قَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَالِيَا
وَلَوْ غَهَّدَ لَا أَخِيْسُ بَعْدِي لَشَن فُرَجَتْ أَنْ لَا تُرَوِّرَ الْحَوَالِيَا

فوقَّت له سَلَمَى وأطلفته وأعطته البلقاء فرس سعد، فركبها حتى [إذا] كان (٤٧٦/٢) بحيال الميمنة كبر ثمَّ حمل على ميسرة الفرس ثمَّ رجع خلف المسلمين وحمل على ميمتهم، وكان يقصف الناس قصفًا منكرًا، وتعجَّب الناس منه وهم لا يعرفونه، فقال بعضهم: هو من أصحاب هاشم أو هاشم نفسه، وكان سعد يقول: لولا محبس أبي ميخجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء. وقال بعض الناس: هذا الخضر. وقال بعضهم: لولا أنَّ الملائكة لا تبشر الحرب لقلنا إنَّه ملك. فلمَّا انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه في القيد وقال:

لَقَدْ عَلِمْتُ قَيْفَ غَيْرِ فَخْصٍ بَأَنَّا نَحْنُ أَكْثَرُهُمْ سُيُوفَا
وَأَكْثَرُهُمْ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ وَأَصِيرُهُمْ إِذَا كَرِهُوا الْوُقُوفَا
وَأَنَا وَقَدْ لَعِمْتُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فَإِنْ عَمَّرُوا قَتَلَ بِهِمْ عَرِيْفَا
وَلَيْلَةَ قَادِسٍ لَمْ يَشْعُرُوا بِسِي وَلَمْ أَشْعُرْ بِمُخْرَجِي الرُّخُوفَا
فَإِنْ أَحْبَبْتُ فَلَيْكُمُ بِلَاتِي وَإِنْ أَسْرَكَ أَفِيْهُمُ الْحُرُوفَا

فقال له سَلَمَى: في أي شيء حبستك؟ فقال: والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني، فقلت:

إِذَا مَثُ فَادَفَنِي إِلَى أَصْلِ كَرْمِي تَرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عَرُوفَا

عنه صاحبه إلى أصحابه وركب عمرو. وبرز فارسي فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له شبر بن علقمة، وكان قصيراً، فترجل الفارسي إليه فاحتمله وجلس على صدره ثم أخذ سيفه ليذبحه ومقود فرسه مشدود في منطقتة، فلما سل سيفه نفر الفرس ف جذبته المقود عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باني عشر ألفاً.

فلما رأى سعد الفيول قد فرقت بين الكتابات وعادت لفعلها أرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو: اكفياني الأبيض، وكانت كلها كلفة له، وكان بإزائهما، وقال لحمال والرئيل: اكفياني الأجراب، وكان بإزائهما، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين وتقدما في خيل ورجل، وفعل حمال والرئيل مثل فعلهما، فحمل القعقاع وعاصم فوضعا رمحينهما في عين الفيل الأبيض فنفض (٤٧٩/٢) رأسه فطرح سائسه ودلى مشفره، فضربه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا من كان عليه، وحمل حمال والرئيل الأسديان على الفيل الآخر فطعنه حمال في عينه فأقعى ثم استوى، وضربه الرئيل فأبان مشفره، وبصر به سائسه فبقر أنفه وجنبه بالطبرزين، فأفلت الرئيل جريحا، فبقي الفيل جريحا متحيراً بين الصفتين كلما جاء صف المسلمين وخزوه وإذا أتى صف المشركين نخسوه. وولى الفيل، وكان يُدعى الأجراب، وقد عور حمال عينيه، فألقى نفسه في العتيق، فاتبعته الفيلة فخرقت صف الأعاجم فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابعها، وهلك من فيها. فلما ذهب الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظل تراحم المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا وهم على السواء. فلما أمسى الناس اشتد القتال وصبر الفريقان فخرجا على السواء.

ذكر ليلة الهرير وقتل رستم

قيل: إنما سُميت بذلك لتركه الكلام إنما كانوا يهرون هريراً. وأرسل سعد طليحة وعمراً ليلة الهرير إلى مخاضة أسفل العسكر ليقوموا عليها خشية أن يأتيه القوم منها. فلما أتياها قال طليحة: لو خضنا وأتينا الأعاجم من خلفهم. قال عمرو: بل نعبأ أسفل. فافترقا وأخذ طليحة وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات ثم ذهب وقد ارتاع أهل فارس وتعجب المسلمون، وطلبه الأعاجم فلم يدركوه. (٤٨٠/٢)

وأما عمرو فإنه أغار أسفل المخاضة ورجع، وخرج مسعود بن مالك الأسدي وعاصم بن عمرو وابن ذي البرتين الهلالي وابن ذي السهمين وقيس بن هبيرة الأسدي وأشباههم فطاردوا القوم، فإذا هم لا يشدون ولا يريدون غير الزحف، فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير إذن سعد، وكان أول من زاحفهم القعقاع، وقال سعد: اللهم اغفرها له وانصره فقد أدنت له إن لم يستأذني. ثم قال: أرى الأمر ما فيه هذا، فإذا كبرت ثلاثاً فاحملوا، وكبر

واحدة فلحقهم أسد، فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم. ثم حملت النخع فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم. ثم حملت بجيلة فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم. ثم حملت كندة فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم. ثم زحف الرؤساء ورعا الحرب تدور على القعقاع، وتقدم حنظلة بن الربيع وأمرأ الأعشار وطليحة وغالب وحمال وأهل النجدات، ولما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضاً وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبلاً بعدما صلوا العشاء، وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم إلى الصباح، وأفرغ الله الصبر عليهم إفراغاً، ومات سعد بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط، وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم، وأقبل سعد على الدعاء، فلما كان عند الصبح اتسمى الناس فاستدل بذلك على أنهم الأعلون، وكان أول شيء سمعه نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول:

نَحْنُ قَتَلْنَا عَشْرًا وَزَيْدًا الرُبْعَةَ وَخَمْسَةَ وَوَاحِدًا
نُحَسِبُ فَوْقَ الْبُيُوتِ الْأَسْوَدَا حَتَّى إِذَا مَاتُوا دَعَوْتُ جَاهِنَا
اللَّهُ رَبِّي وَأَحْزَنْتُ عَابِدَا

وقتل كندة تركاً الطبري، وكان مقدماً فيهم. (٤٨١/٢)

وأصبح الناس ليلة الهرير - وتسمى ليلة القادسية من بين تلك الليالي - وهم حسري لم يُغمضوا ليلتهم كلها. فسار القعقاع في الناس فقال: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا، فإذا النصر مع الصبر. فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح. فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا: لا يكونن هؤلاء أجداً في أمر الله منكم، ولا هؤلاء، يعني الفرس أجراً على الموت منكم. فحملوا فيما يليهم وخالطوا من بإزائهم فاقتلوا حتى قام قائم الظهيرة، فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخروا وثبتا حيث انتھيا، وانفجر القلب وركد عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق، وهي ذبور، ومال الغبار عليهم، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير فعضوا به وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال فهي واقفة، فاستظل في ظل بغل وحمله، وضرب هلال بن عُلفة الحمل الذي تحته رستم فقطع حباله ووقع عليه أحد العبدلين، ولا يراه هلال ولا يشعر به، فأزال عن ظهره فقاراً، وضربه هلال ضربة ففتحت مسكاً. ومضى [رستم] نحو العتيق فرمى بنفسه فيه، واقتحمه هلال عليه وأخذ برجله ثم خرج به فضرب به جبينه بالسيف حتى قتله، ثم ألقاه بين أرجل البغال ثم صعد السرير وقال: قتل رستم ورب الكعبة! إليّ! فإطافوا به وكبروا، فنقله سعد سلبه، وكان قد أصابه الماء ولم يظفر بقلنسوته، ولو ظفر بها لكانت قيمتها مائة ألف.

ربيعه، وابن الهريذ، وكان بإزاء عبد الرحمن بن ربيعة، والفرحان الأهوازي، وكان بإزاء بسر بن أبي رهم الجهني، ومنهم خُشدسوم الهمداني، وكان بإزاء ابن الهذيل الكاهلي.

وتراجع الناس من طلب المنهزمين وقد قُتل مؤذنهم، فتشاج المسلمون في الأذان حتى كادوا يقتتلون، وأقرع سعد بينهم فخرج سهم رجل، فأذن. وفُضِّل أهل البلاء من أهل القادسية عند العطاء بخمس مئة، وهم خمس مئة، وهم خمسة وعشرون رجلاً، منهم: زُهرة وعصمة الضبي والكَلَج، وأما أهل (٤٨٤/٢) الأيام قبلها فإنهم فُرض لهم على ثلاثة آلاف فُضِّلوا على أهل القادسية، فقبل لعمر: لو ألحق بهم أهل القادسية. فقال: لم أكن لألحق بهم مَنْ لم يدرِكهم. وقيل له: لو فُضِّلَتْ مَنْ بُدِدَتْ دارُهُ على مَنْ قاتلهم بغيره. قال: كيف أفضِّل عليهم وهم شجن العدو! فهلاً فعل المهاجرون بالنصار هذا!

وكانت العرب تتوقَّع وقعة العرب وأهل فارس بالقادسية فيما بين الغُذَيْب إلى عدن اليَين وفيما بين الأُبُلَّة وأيلة، يرون أن ثبات مُلكهم وزواله بها، وكانت في كلِّ بلد مُصَيِّخة إليها، تنظر ما يكون من أمرها. فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فأتت بها أناساً من الإنس فسبقت أخبار الإنس [اليهم].

وكتب سعد إلى عمر بالفتح وبعده من قُتلوا وبعده من أصيب من المسلمين، وسَمَّى من يعرف مع سعد بن عُقَيْلَة الفزاري. وكان عمر يسأل الركبان من حين يصبح إلى انتصاف النهار عن أهل القادسية ثم يرجع إلى أهله ومزله، قال: فلما لقي البشير سأل من أين؟ فأخبره، قال: يا عبد الله حدَّثني. قال: هزم الله المشركين. وعمر يخبُّ معه يسأله والآخر يسير على ناقته لا يعرفه حتى دخل المدينة وإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين، قال البشير: هلاً أخبرتني، رحمك الله، أنك أمير المؤمنين! فقال عمر: لا بأس عليك يا أخي.

وأقام المسلمون بالقادسية في انتظار قدوم البشير، وأمر عمر الناس أن يقوموا على أقباضهم ويصلحوا أحوالهم ويتابع اليهم أهل الشام ممَّن شهد (٤٨٥/٢) اليرموك ودمشق ومدَّين لهم، وجاء أولهم يوم أغواث وآخرهم بعد الغد يوم الفتح فكتبوا فيهم إلى عمر يسألونه عما ينبغي أن يشار فيه مع نذير بن عمرو.

وقيل: كانت وقعة القادسية سنة ست عشرة، قال: وكان بعض أهل الكوفة يقول: إنها كانت سنة خمس عشرة، وقد تقدَّم أنها كانت سنة أربع عشرة.

(حُمَيْضَة بن النعمان بضمَّ الحاء المهملة، وفتح الميم، وبالضاد المعجمة. بسر بن أبي رهم بضمَّ الباء الموحدة، وسكون السين المهملة. والحوية بفتح الحاء المهملة، وكسر الواو، وقيل

وقيل: إن هلالاً لما قصد رستم وماه رستم بنشابة أثبت قدمه بالركاب، فحمل عليه هلال فضربه فقتله ثم احتز رأسه وعلقه ونادى: قُلت رستم! (٤٨٢/٢) فانهزم قلب المشركين.

وقام الجالينوس على الردم ونادى الفرس إلى العبور، وأما المقترنون فإنهم جشعوا فتهافتوا في العتيق، فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مُخْبِر، وهم ثلاثون ألفاً. وأخذ خيبر بن الخطَّاب دِرْغَش كايان، وهو العلم الأكبر الذي كان للفرس، فعَوَّض منه ثلاثين ألفاً، وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف. وقتلوا في المعركة عشرة آلاف سوى مَنْ قتلوا في الأيام قبله، وقُتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة، وقُتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف فدُفِنوا في الخندق حيال مُشْرِق، ودُفِن ما كان قبل ليلة الهرير على مشرق، وجُمِعت الأسلاب والأموال فجمع منها شيء لم يُجمَع قبله ولا بعده مثله.

وأرسل سعد إلى هلال فسأله عن رستم، فأخبره، فقال: جَرَدَه إلّا ما شئت. فأخذ سلبه فلم يَدَعْ عليه شيئاً. وأمر القعقاع ومُشْرِخِيل باتباعهم حتى بلغا مقدار الخُزارة من القادسية، وخرج زُهرة بن الحَوَية التميمي في آثارهم في ثلاثمائة فارس، ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم، فقتله زُهرة وأخذ سلبه، وقتلوا ما بين الخُزارة إلى السَّيلحين إلى النَّجَف، وعادوا من أثر المنهزمين ومعهم الأسرى، فرؤي شاب من النَّخَع وهو يسوق ثمانين رجلاً أسرى من الفرس.

واستكثر سعد سلب الجالينوس فكتب فيه إلى عمر. فكتب عمر إلى سعد: تعمد إلى مثل زُهرة وقد صلي بمثل ما صلي به وقد بقي عليك من حربك ما بقي (٤٨٣/٢) تُفسد قلبه، امض له سلبه وفضَّله على أصحابه عند عطاؤه بخمسمائة.

ولما اتبع المسلمون الفرس كان الرجل يشير إلى الفارسي فيأتيه فيقتله، وربما أخذ سلاحه فقتله به، وربما أمر رجلين فيقتل أحدهما صاحبه.

ولحق سلمان بن ربيعة الباهلي وعبد الرحمن بن ربيعة طائفة منهم قد نصبوا راية وقالوا: لا نبرح حتى نموت، فقتلهم سلمان ومَنْ معه. وكان قد ثبت بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة استحبوا من الفرار، وقصدهم بضع وثلاثون من رؤساء المسلمين لكلِّ كتيبة منها رئيس. وكان قتال أهل الكتائب من الفرس على وجهين، منهم من هرب ومنهم مَنْ ثبت حتى قُتل، وكان ممَّن هرب من أمراء الكتائب الهُرْمَزَان، وكان بإزاء عُطارد، ومنهم أهوذ، وكان بإزاء حنظلة بن الربيع، وهو كاتب النبي ﷺ، ومنهم زاد بن بُهَيْش، وكان بإزاء عاصم بن عمرو، ومنهم قارن، وكان بإزاء القعقاع، وكان ممَّن ثبت وقُتل شهريار بن كَنَارا، وكان بإزاء سلمان بن

أسيراً، ثم خطب عتبة أصحابه وقال: إن الدنيا قد تصرمت وولت خذاً ولم يبق منها إلا صُباية كصُباية الإناء، ألا وإنكم منتقلون منها إلى دار القرار، فانقلوا بخير ما بحضرتكم، وقد ذكر لي: لو أن صخرة أُلقيت من شفير جهنم لَهوت سبعين خريفاً ولتَمَلَّأَتْ، وعَجبتُ! ولقد ذكر لي أن ما بين مصرعين من مصاريح الجنة مسيرة أربعين خريفاً وليأتين عليه يومٌ وهو كظيط، ولقد رأيتني وأنا سابع سبعة مع النبي ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق السُّمر حتى تَفَرَّحت أشداقنا، والتقطت بُردة فشققتها بيني وبين سعد، فما منا أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مصر من الأمصار، وسيجربون الناس بعُدنا.

وكان نزوله البصرة في ربيع الأول أو الآخر سنة أربع عشرة. وقيل: إن البصرة مُصِرَّت سنة ست عشرة بعد جلولاء وتكريت، أرسله سعد إليها بأمر عمر. وإن عتبة لما نزل البصرة أقام نحو شهر فخرج إليه أهل الأُبلة، وكان بها خمسمائة أسوار يحمونها، وكانت مرفأ السفن من الصين، فقاتلهم عتبة فهزمهم حتى دخلوا المدينة، ورجع عتبة إلى عسكره، وألقى الله الرعب في قلوب الفرس فخرجوا عن المدينة وحملوا ما خفَّ وعبروا الماء وأخلوا المدينة ودخلها المسلمون فأصابوا متاعاً وسلاحاً وسيأ فاقسموه وأخرج الخمس (٤٨٨/٢) منه، وكان المسلمون ثلاثمائة. وكان فتحها في رجب أو في شعبان. ثم نزل موضع مدينة الرزق وخط موضع المسجد وبناه بالقبص.

وكان أول مولود بها عبد الرحمن بن أبي بكر، فلما وُلد ذبح أبوه جزواً فكفنتهم لقلَّة الناس. وجمع لهم أهل دُستيسان فلقبهم عتبة فهزمهم وأخذ مرزبانها أسيراً وأخذ قتادة منطلقته فبعث بها مع أنس بن حجة إلى عمر، فقال له عمر: كيف الناس؟ فقال: انشالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة. فرغب الناس في البصرة فأتوها.

واستعمل عتبة مُجاشع بن مسعود على جماعة وسيَّروهم إلى الفرات، واستخلف المغيرة بن شعبة على الصلاة إلى أن يقدم مجاشع بن مسعود، فإذا قدم فهو الأمير، وسار عتبة إلى عمر. فظفر مجاشع بأهل الفرات وجمع الفليكان، عظيم من الفرس، للمسلمين، فخرج إليه المغيرة بن شعبة فلقبهم بالمرغاب فاقتلوا. فقال نساء المسلمين: لو لحقنا بهم فكنا معهم، فاتخذن من خمرهن رايات وصرن إلى المسلمين. فلما رأى المشركون الرايات ظنوا أن مدداً للمسلمين قد أقبل فانهزموا وظفر بهم المسلمون. وكتب إلى عمر بالفتح، فقال عمر لعبته: من استعملت على البصرة؟ فقال: مجاشع بن مسعود. قال: أتستعمل رجلاً من أهل الدير على أهل المَدَن؟ وأخبره بما كان من المغيرة، وأمره أن يرجع إلى عمله، فمات في الطريق، وقيل في موته غير ذلك، وسيرد ذكره

بالجيم المضمومة، وفتح الواو والأول أصح. وحَمَل بفتح الحاء المهملة، وتشديد الميم. والمُعْنَى بضم الميم، وفتح العين المهملة، والنون المشددة. وحُصَيْن بن نمير بضم الحاء، وفتح الصاد. ومعاوية بن خُذَيج بضم الحاء، وفتح الدال المهملتين، وآخره جيم. والمُعْتَم بضم الميم، وسكون العين المهملة، وفتح التاء فوقها نقطتان، وآخره ميم مشددة. وصرار بكسر الصاد المهملة، وبالرائين المهملتين بينهما ألف: موضع عند المدينة. وصرين بكسر الصاد المهملة، والنون المشددة بعدها ياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها، وآخره نون: موضع من ناحية الكوفة).

انتهى خبر القادسية.

ذكر ولاية عتبة بن غزوان البصرة

قيل: في هذه السنة بعث عمر عتبة بن غزوان إلى البصرة، وكان بها قُطبة بن قتادة السُدوسيّ يغير بتلك الناحية كما كان يغير المثنى بناحية الحيرة، (٤٨٦/٢) فكتب إلى عمر يعلمه مكانه وأنه لو كان معه عددٌ يسيرٌ ظفر بمن كان قبَّله من العجم فنفاهم عن بلادهم. فكتب إليه عمر يأمره بالمقام والحذر، ووجه إليه شُرَيْج بن عامر أحد بني سعد بن بكر، فأقبل إلى البصرة وترك بها قُطبة ومضى إلى الأهواز حتى انتهى إلى دارس، وفيها مسلحة الأعاجم، فقتلوه، فبعث عمر عتبة بن غزوان، قال له حين وجهه:

يا عتبة، إنني قد استعملتك على أرض الهند، وهي حومة من العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها ويعينك عليها، وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدك بقرْفجة بن هرثمة، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو، فإذا قدم عليك فاستشره وادعُ إلى الله، فمن أجابك فأقبل منه ومن أبي فالجزية وإلا فالسيف، وأتق الله فيما وليت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر ممّا يُفسد عليك إخوانك، وقد صحبت رسول الله ﷺ، فَعَزَزَتْ به بعد الذلَّة، وقويت به بعد الضعف، حتى صرتُ أسيراً مسلطاً وملكاً مطاعاً، تقول فيسمع منك، وتامر قِطاع أملك، فيا لها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك وتُطْرِك على مَنْ دونك، واحفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرك وتخدعك فتسقط سقطه تصير بها إلى جهنم، أعيذك بالله ونفسي من ذلك. إن الناس أسرعوا إلى الله حتى رُفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرد الله ولا تُرد الدنيا، وأتق مصارع الظالمين. انطلق أنت ومن معك حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا.

فسار عتبة ومن معه حتى إذا كانوا بالمرِيد تقدَّموا حتى بلغوا حيال (٤٨٧/٢) الجسر الصغير فنزلوا. فبلغ صاحب الفرات خبرهم فأقبل في أربعة آلاف فالتقوا، فقاتلهم عتبة بعد الزوال، وكان في خمسمائة، فقتلهم أجمعين ولم يبق إلا صاحب الفرات فأخذه

سنة سبع عشرة.

وكان مِنْ سَنِي مَيْسَانَ يَسَارُ أَبُو الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَأَرْطَابَانُ جَدُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْنِ بْنِ أَرْطَابَانَ.

وقيل: إن إِمَارَةَ عَتَبَةِ الْبَصْرَةِ كَانَتْ سَنَةَ خَمْسِ عَشْرَةَ، وَقِيلَ: سَنَةُ (٤٨٩/٢) عَشْرَةَ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، فَكَانَتْ إِمَارَتُهُ عَلَيْهَا سَنَةَ أَشْهُرٍ.

وَاسْتَعْمَلَ عُمَرَ عَلَى الْبَصْرَةِ الْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ، فَبَقِيَ مَسْتَتِينَ ثُمَّ رُمِيَ، وَاسْتَعْمَلَ أَبَا مُوسَى، وَقِيلَ: اسْتَعْمَلَ بَعْدَ عَتَبَةِ أَبَا مُوسَى وَبَعْدَهُ الْمَغِيرَةَ.

وَفِيهَا، أَعْنَى سَنَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ، ضَرَبَ عُمَرُ ابْنَهُ عَيْدَ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ فِي شَرَابٍ شَرِبُوهُ وَأَبَا مِخْجَنٍ. وَفِيهَا أَمَرَ عُمَرَ بِالْقِيَامِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي الْمَسَاجِدِ بِالْمَدِينَةِ وَجَمْعِهِمْ عَلَى أَبِي بَنِي كَعْبٍ وَكُتِبَ إِلَى الْأَمْصَارِ بِذَلِكَ. وَحُجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. وَكَانَ عَلَى مَكَّةَ عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ فِي قَوْلٍ، وَعَلَى الْيَمَنِ يَعْلَى بْنُ مُثَنَّى، وَعَلَى الْكُوفَةِ سَعْدُ، وَعَلَى الشَّامِ أَبُو عَيْبَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَعَلَى الْبَحْرَيْنِ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ، وَقِيلَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ، وَعَلَى عُثْمَانَ حُذَيْفَةُ بْنُ مِخْصَنٍ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ مَاتَ أَبُو قُحَافَةَ وَالِدُ أَبِي بَكْرٍ الصَّلْتِيقِ بَعْدَ مَوْتِ ابْنِهِ. وَفِيهَا مَاتَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ، وَقِيلَ: سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَقِيلَ: سَنَةَ خَمْسِ عَشْرَةَ. وَفِيهَا قُتِلَ سَلِيطُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَامِرٍ بْنِ لُؤْيٍ. وَفِيهَا مَاتَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ أُمِّ مُعَاوِيَةَ، وَكَانَ إِسْلَامُهَا يَوْمَ الْفَتْحِ. (٤٩٠/٢)

سنة خمس عشرة

وقيل: إنَّ الْكُوفَةَ مَصَرُّهَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، دَلَّهِمْ عَلَى مَوْضِعِهَا ابْنُ بُقَيْلَةَ، قَالَ لِسَعْدٍ: أَدَلَّكَ عَلَى أَرْضِ اللَّهِ ارْتَفَعَتْ مِنَ الْبَقِِّ وَانْحَدَرَتْ عَنِ الْفَلَاةِ فَدَلَّكَ عَلَى مَوْضِعِهَا، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَيَأْتِي ذِكْرُهُ.

ذكر الوقعة بمرج الروم

فِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ الْوَقْعَةُ بِمَرْجِ الرُّومِ، وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا عَيْبَةَ وَخَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ سَارَا بِمَنْ مَعَهُمَا مِنْ فِجَلٍ قَاصِدِينَ حِمَصَ، فَتَزَلَا عَلَى ذِي الْكَلَّاعِ، وَبَلَغَ الْخَبَرُ هِرْقَلَ فَبَعَثَ تَوْذَرَ الْبَطْرِيقَ حَتَّى نَزَلَ بِمَرْجِ الرُّومِ غَرِبَ دِمَشْقَ، وَنَزَلَ أَبُو عَيْبَةَ بِمَرْجِ الرُّومِ أَيْضًا، وَنَازَلَهُ يَوْمَ نَزُولِهِ شَنْشُ الرُّومِيِّ فِي مِثْلِ خَيْلٍ تَوْذَرُ إِمْدَادًا لِتَوْذَرَ وَرَدَّاءَ لِأَهْلِ حِمَصَ. فَلَمَّا نَزَلَ أَصْبَحَتْ الْأَرْضُ مِنْ تَوْذَرَ بِلَاقِعَ، وَكَانَ خَالِدٌ بِبَازَاتِهِ وَأَبُو عَيْبَةَ بِبَازَاتِهِ شَنْشَ، وَسَارَ تَوْذَرُ يَطْلُبُ دِمَشْقَ، فَسَارَ خَالِدٌ وَرَاءَهُ فِي جَرِيدَةٍ، وَبَلَغَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ فَعَلَ تَوْذَرَ

فَاسْتَقْبَلَهُ فَاقْتَتَلُوا، وَلَحِقَ بِهِمْ خَالِدٌ وَهُمْ يَقْتُلُونَ فَأَخَذَهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ وَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا الشَّرِيدُ، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ مَا مَعَهُمْ، فَقَسَمَهُ يَزِيدُ فِي أَصْحَابِهِ وَأَصْحَابِ خَالِدٍ، وَعَادَ يَزِيدُ إِلَى دِمَشْقَ وَرَجَعَ خَالِدٌ إِلَى أَبِي عَيْبَةَ وَقَدْ قُتِلَ تَوْذَرُ. وَقَاتَلَ (٤٩١/٢) أَبُو عَيْبَةَ بَعْدَ مَسِيرِ خَالِدٍ شَنْشَ فَاقْتَتَلُوا بِمَرْجِ الرُّومِ، فَقُتِلَتِ الرُّومُ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَقُتِلَ شَنْشُ، وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى حِمَصَ، فَلَمَّا بَلَغَ هِرْقَلَ ذَلِكَ أَمَرَ بِطَرِيقِ حِمَصَ بِالسَّيْرِ إِلَيْهَا، وَسَارَ هُوَ إِلَى الرَّهَاءِ، وَسَارَ أَبُو عَيْبَةَ إِلَى حِمَصَ.

ذكر فتح حمص وبعليك وغيرها

فَلَمَّا فَرَغَ أَبُو عَيْبَةَ مِنْ دِمَشْقَ سَارَ إِلَى حِمَصَ فَسَلَكَ طَرِيقَ بَعْلِيكَ فَحَصَرَهَا، فَطَلَبَ أَهْلُهَا الْأَمَانَ فَأَمَنَهُمْ وَصَالِحَهُمْ وَسَارَ عَنْهُمْ فَتَزَلَّ عَلَى حِمَصَ وَمَعَهُ خَالِدٌ، وَقِيلَ: إِنَّمَا سَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى حِمَصَ مِنْ مَرْجِ الرُّومِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. فَلَمَّا نَزَلُوا قَاتَلُوا أَهْلَهَا فَكَانُوا يُضَادُّونَهُمُ الْقِتَالَ وَيُرَاحُونَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ بَارِدٍ، وَلَقِيَ الْمُسْلِمُونَ بَرْدًا شَدِيدًا وَالرُّومَ حَصَارًا طَوِيلًا، فَصَبَرَ الْمُسْلِمُونَ وَالرُّومَ، وَكَانَ هِرْقَلَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ حِمَصَ يَعِدُهُمُ الْمَدَدَ وَأَمَرَ أَهْلَ الْجَزِيرَةِ جَمِيعَهَا بِالتَّجَهُّزِ إِلَى حِمَصَ، فَسَارُوا نَحْوَ الشَّامِ لِيَمْنَعُوا حِمَصَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ. فَسَيَّرَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ السَّرَابِيَا مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى هَيْتَ وَحَصَرُوهَا، وَسَارَ بَعْضُهُمْ إِلَى قَرْيَسِيَا، فَتَفَرَّقَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ وَعَادُوا عَنْ نَجْدَةِ أَهْلِ حِمَصَ، فَكَانَ أَهْلُهَا يَقُولُونَ: تَمَسَّكُوا بِمَدِينَتِكُمْ فَإِنَّهُمْ حَفَاةٌ، فَإِذَا أَصَابَهُمُ الْبَرْدُ تَقَطَّعَتْ أَقْدَامُهُمْ. فَكَانَتْ أَقْدَامُ الرُّومِ تَسْقُطُ وَلَا يَسْقُطُ لِلْمُسْلِمِينَ إِصْبَعٌ. فَلَمَّا خَرَجَ الشِّتَاءُ قَامَ شَيْخٌ مِنَ الرُّومِ فَدَعَاهُمْ إِلَى مَصَالِحَةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يَجِيبُوهُ، وَقَامَ آخَرُ فَلَمْ يَجِيبُوهُ، فَغَاوَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَكَبَّرُوا تَكْبِيرَةً فَانْهَدَمَ كَثِيرٌ مِنْ دُورِ حِمَصَ وَزَلْزَلَتْ حِيطَانُهَا فَتَصَدَّعَتْ، فَكَبَّرُوا ثَانِيَةً فَأَصَابَهُمْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ أَهْلُهَا إِلَيْهِمْ يَطْلُبُونَ الصِّلَحَ وَلَا يَعْلَمُ الْمُسْلِمُونَ بِمَا حَدَثَ (٤٩٢/٢) فِيهِمْ، فَأَجَابُوهُمْ وَصَالِحَهُمْ عَلَى صِلَحٍ دِمَشْقَ، وَأَنْزَلَهَا أَبُو عَيْبَةَ السَّمْنُطَ بْنَ الْأَسَدِ الْكَنْدِيِّ فِي بَنِي مُعَاوِيَةَ، وَالْأَشْعَثُ بْنُ مَيْسَانَ فِي السُّكُونِ، وَالْجُقْدَادَ فِي بَلْيَ، وَأَنْزَلَهَا غَيْرَهُمْ، وَبَعَثَ بِالْأَخْمَاسِ إِلَى عُمَرَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَكُتِبَ عُمَرَ إِلَى أَبِي عَيْبَةَ: أَنْ أَقِمَّ بِمَدِينَتِكَ وَادْعُ أَهْلَ الْقُوَّةَ مِنْ عَرَبِ الشَّامِ فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكٍ الْبُعْثَةَ إِلَيْكَ.

ثُمَّ اسْتَخْلَفَ أَبُو عَيْبَةَ عَلَى حِمَصَ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، وَسَارَ إِلَى حِمَاةَ، فَتَلَقَّاهُ أَهْلُهَا مَدْعَيْنِ، فَصَالِحَهُمْ أَبُو عَيْبَةَ عَلَى الْجَزِيرَةِ لِرُؤُوسِهِمُ وَالْخِرَاجِ عَلَى أَرْضِهِمْ، وَمَضَى نَحْوَ شِيزَرٍ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ يَسْأَلُونَ الصِّلَحَ عَلَى مَا صَالَحَ عَلَيْهِ أَهْلَ حِمَاةَ، وَسَارَ أَبُو عَيْبَةَ إِلَى مَعْرَةَ حِمَصَ، وَهِيَ مَعْرَةُ النِّعْمَانِ، نُسِبَتْ بَعْدُ إِلَى النِّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ، فَادْعَوْا لَهُ بِالصِّلَحِ عَلَى مَا صَالَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ حِمَصَ. ثُمَّ أَتَى اللَّادِقِيَّةَ فَقَاتَلَهُ أَهْلُهَا، وَكَانَ لَهَا بَابٌ عَظِيمٌ يَفْتَحُهُ جَمْعٌ مِنَ

بكر هو كان أعلم بالرجال مني! وقد كان عزله والمثنى بن حارثة وقال: إني لم أعزلهما عن ربية ولكن الناس عظموهما فخشيت أن ياكلوا إليهما.

فأما المثنى فإنه رجع عن رايه فيه لما قام بعد أبي عبيد ورجع عن خالد بعد قسرين. وأما هرقل فإنه خرج من الرها؛ وكان أول من أنبح كلابها ونفر دجاجها من المسلمين زياد بن حنظلة، وكان من الصحابة، وسار هرقل فتزل بشمشاط، ثم أدرب منها نحو القسطنطينية. فلما أراد المسير منها علا على نسر ثم التفت إلى الشام فقال: السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليت لا يولد! فما أحلى فعله وأمر فتته على الروم. ثم سار فدخل القسطنطينية، وأخذ أهل الحصون التي بين إسكندرية وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم، وشعث الحصون، فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً، وربما كمن عندها الروم فأصابوا غرة المتخلفين، فاحتاط المسلمون لذلك.

ذكر فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم

لما فرغ أبو عبيدة من قسرين سار إلى حلب، فبلغه أن أهل قسرين نقضوا وغدروا، فوجه إليهم السبط الكندي فحصرهم وفتحها وأصاب (٤٩٥/٢) فيها بقرأ وغنماً فقسم بعضه في جيشه وجعل بقيته في المغنم. ووصل أبو عبيدة إلى حاصر حلب وهو قريب منها فجمع أصنافاً من العرب، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك، وأتى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري، فتحصن أهلها وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم، فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد، وكان الذي صالحهم عياض، فأجاز أبو عبيدة ذلك. وقيل: صلحوها على أن يقاسموا منازلهم وكنائسهم. وقيل: إن أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحداً لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية وراسلوا في الصلح، فلما تم ذلك رجعوا إليها.

وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية وقد تحصن بها كثير من الخلق من قسرين وغيرها. فلما فارقها لقينه جمع العدو فهزمهم فالتجأهم إلى المدينة وحاصرها من جميع نواحيها، ثم إنهم صالحوه على الجلاء أو الجزية، فجلا بعض وأقام بعض فأمهم، ثم نقضوا فوجه أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة، ففتحها على الصلح الأول.

وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين، فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولا تجس عنهم العطاء.

الناس، فعسكر المسلمون على بُعد منها، ثم أمر فحضر حفائز عظيمة تستر الخفرة منها الفارس ركباً، ثم أظهروا أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما جنهم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائز وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة ومكثت عنوة وهرب قوم من النصاري ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم، ففوطعوا على خراج يؤدونه قلو أو كثروا وتركوا لهم كنيسهم، وبنى المسلمون بها مسجداً جامعاً، بناه عبادة بن الصامت، ثم وسع فيه بعد.

ولما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جبلة من الروم عنها، فلما كان زمن معاوية بنى حصناً خارج الحصن الرومي وشحنه بالرجال.

وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت أنطربوس، وكان حصيناً، فجلا (٤٩٣/٢) عنه أهله، فبنى معاوية مدينة أنطربوس ومصرها وأقطع بها القطائع للمقاتلة، وكذلك فعل بانياس. وفتحت سلمية أيضاً، وقيل: إنما سُميت سلمية لأنه كان يقربها مدينة تدعى المؤتكة انقلبت بأهلها ولم يسلم منهم غير مائة نفس فبنوا لهم مائة منزل وسميت سلم مائة، ثم حرق الناس فقالوا سلمية: وهذا يتمشى لقائله لو كان أهلها عرباً ولسانهم عربياً، وأما إذا كان لسانهم أعجمياً فلا يسوغ هذا القول. ثم إن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس اتخذها داراً وبنى ولده فيها ومصرها ونزلها من نزلها من ولده، فهي وأرضوها لهم.

ذكر فتح قسرين ودخول هرقل القسطنطينية

ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قسرين. فلما نزل الحاضر زحف إليهم الروم وعليهم مينا، وكان من أعظم الروم بعد هرقل، فاقتتلوا فقتل مينا ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها، فماتوا على دم واحد. وسار خالد حتى نزل على قسرين فتحصنوا منه، فقالوا: لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا. فنظروا في أمرهم ورأوا ما لقي أهل حمص فصالحوهم على صلح حمص، فأبى خالد إلا على إخراج المدينة فآخروها. فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية؛ وسببه: أن خالداً وعياضاً أدربا إلى هرقل من الشام، وأدرب عمرو بن مالك من الكوفة، فخرج من ناحية قرقيسيا، وأدرب عبد الله بن المعتم من ناحية الموصل ثم رجعوا، فعندها دخل هرقل القسطنطينية، وكانت هذه أول مدبرة في الإسلام سنة خمس (٤٩٤/٢) عشرة، وقيل ست عشرة.

فلما بلغ عمر صنيع خالد قال: أمر خالد نفسه، يرحم الله أبا

ذكر فتح قيسارية وحصر غزة

في هذه السنة تفتحت قيسارية، وقيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين. وكان سببها: أنَّ عمر كتب إلى يزيد بن أبي سفيان أن يرسل معاوية إلى قيسارية، وكتب عمر إلى معاوية يأمره بذلك فسار معاوية إليها فحصر أهلها فجعلوا يزاحفونه وهو يهزمهم ويردهم إلى حصنهم. ثم زاحفوه آخر ذلك مستميتين، وبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً وكملاها في هزيمتهم مائة ألف وفتحها، وكان علقمة بن مُجَزَّر قد حصر القيصار بغزة وجعل يرأسه، فلم يشفه أحد بما يريد، فاتاه كأنه رسول علقمة، فأمر القيصار رجلاً أن يقعد له في الطريق فإذا مرَّ به قتله، ففطن علقمة فقال: إنَّ معي نفرًا يشركوني في الرأي فانطلق فأتيت بهم، فبعث القيصار إلى ذلك الرجل أن لا يعرض له، فخرج علقمة من عنده فلم يعدَّ وفعل كما فعل عمرو بالأرطوبون.

(مُجَزَّر بجيم وزاين الأولى مكسورة [مشددة]). (٤٩٨/٢)

ذكر فتح تيسان ووقعة اجتنادين

ولما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص نزل عمرو وشُرَّحِيل على أهل تيسان فاقتحما وصالحا أهل الأرذ، واجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين وتيسان، وسار عمرو وشرحيل إلى الأرطوبون ومن معه وهو بأجنادين، واستخلف على الأرذ أبا الأعور، فنزل بالأرطوبون ومعه الروم. وكان الأرطوبون أدهى الروم وأبعدها غوراً، وكان قد وضع بالرملة جنداً عظيماً، وبإيلياء جنداً عظيماً، فلما بلغ عمر بن الخطاب الخبر قال: قد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب فانظروا عمَّ تنفجر.

وكان معاوية قد شغل أهل قيسارية عن عمرو، وكان عمرو قد جعل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي على قتال إيلياء، فشغلوا من به عنه، وجعل أيضاً أبا أيوب المالكي على مَنْ بالرملة من الروم فشغلهم عنه، وتتابعت الأمداد من عند عمر إلى عمرو، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطوبون على شيء ولا تشفيه الرسل، فسار إليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول، ففطن به الأرطوبون وقال: لا شك أنَّ هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير براه، فأمر إنساناً أن يقعد على طريقه ليقته إذا مرَّ به، وفطن عمرو لفعله فقال له: قد سمعت مني وسمعت منك، وقد وقع قولك مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر إلى هذا الوالي لنكافئه فأرجع فأتيت بهم الآن، فإن راوا الذي عرضت عليَّ الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر، وإن لم يروه رددتهم إلى أمأنهم. فقال: نعم، وردَّ الرجل الذي أمر بقتله. (٤٩٩/٢) فخرج عمرو من عنده وعلم الرومي أنها خدعة اختدعه بها فقال: هذا أدهى الخلق!

وبلغت خديعته عمر بن الخطاب فقال: لله درَّ عمرو! وعرف

وبلغ أبا عبيدة أنَّ جمعاً من الروم بين معرة مضرين وحلب، فسار إليهم فلقبهم فهزمهم وقتل عدَّة بطارقة وسبى وغنم وفتح معرة مضرين على مثل صلح حلب وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين وتيزين وغلبوا على جميع أرض تيسرين وأنطاكية، ثم أتى أبو عبيدة حلب (٤٩٦/٢) وقد التأت أهلها، فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة. وسار أبو عبيدة يريد قورس وعلى مقدّمة عياض، فلقبه راهب من رهبانها يسأله الصلح، فبعث به إلى أبي عبيدة فصالحه على صلح أنطاكية، وبثَّ خيله فغلب على جميع أرض قورس وفتح تلَّ عزاز، وكان سلمان بن ربيعة الباهلي في جيش أبي عبيدة فنزل في حصن بقورس فنسب إليه فهو يُعرف بحصن سلمان.

ثم سار أبو عبيدة إلى منبج وعلى مقدّمة عياض، فلحقه وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكية، وسير عياضاً إلى ناحية دُلوكة ورعيان فصالحه أهلها على مثل [صلح] منبج، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم. وولّى أبو عبيدة كلَّ كورة فتحها عاملاً وضمَّ إليه جماعة وشحن النواحي المخوفة، وسار إلى بالس، وبعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج، ولم يكن الجسر يومئذٍ، وإنما اتُخذ في خلافة عثمان للصوافف، وقيل: بل كان له رسم قديم. واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات، وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين.

وكان بجبل اللُكَّام مدينة يقال لها جرجومة وأهلها يقال لهم الجراجمة، فسار حبيب بن مسلمة إليها من أنطاكية فاقتحها صلحاً على أن يكونوا أعواناً للمسلمين.

وفيها سير أبو عبيدة بن الجراح جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبيسي، فسلخوا درب بَغْرَاس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم، وهو أول مَنْ سلك ذلك الدرب، فلقي جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتوخ وإياد يريدون اللّحاق بهرقل، فواقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم لحق به مالك الأشتر (٤٩٧/٢) النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة وهو بأنطاكية، فسلموا وعادوا. وسير جيشاً آخر إلى مَرَّعَش مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها. وسير جيشاً آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحَدَث، وإنما سُمِّيَ الحدث لأن المسلمين لقوا عليه غلاماً حدثاً فقاتلهم في أصحابه، فقبل درب الحدث، وقيل: لأنَّ المسلمين أصيبوا به فقبل درب الحدث، وكان بنو أمية يسمّونه درب السلامة لهذا المعنى.

يأتي تستقبلون في هذا الزيّ وإنما شبعتم مذ ستان! وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم. فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنها يلامقة، (٥٠١/٢) وإن علينا السلاح. قال: نعمم إذن، وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحيل كأنهما لم يتحركا.

فلما قدم عمر الجابية قال له رجل من اليهود: يا أمير المؤمنين، إنك لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء، وكانوا قد شجوا عمراً وأشجاهم ولم يقدر عليها ولا على الرملة. فبينما عمر معسكر بالجابية فزع الناس إلى السلاح، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: ألا ترى إلى الخيل والسيوف؟ فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف. فقال عمر: مستأمنة فلا تراعوا، فأمّنهم، وإذا أهل إيلياء وحيزها، فصالحهم على الجزية وفتحوها له؛ وكان الذي صالحه العوام لأنّ أربطون والتذارق دخلا مصر لما وصل عمر إلى الشام وأخذ كتابه على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها، فشهد ذلك اليهودي الصلح. فسأله عمر عن الدجال، وكان كثير السؤال عنه. فقال له: وما مسألتك عنه يا أمير المؤمنين؟ أتمم والله تقتلونونه دون باب لذبض عشرة ذراعاً. وأرسل عمر إليهم بالأمان وجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة، وجعل علقمة بن مجزز على نصفها الآخر وأسكنه إيلياء. وضمّ عمراً وشرحيل إليه بالجابية، فلقياه راكباً فقبلاً ركبتيه، وضمّ [عمراً] كلّ واحد منهما محتضنهما.

ثم سار إلى بيت المقدس من الجابية فركب فرسه فرأى به عرجاً، فنزل عنه وأتى بيرذون فركبه، فجعل يتجلجل به، فنزل وضرب وجهه وقال: لا أعلم من علمك هذه الخيلاء! ثم لم يركب برذونا قبله ولا بعده.

وفتحت إيلياء وأهلها على يديه. وقيل: كان فتحها سنة ست عشرة، ولحق أربطون ومنّ أبي الصلح من الروم بمصر، فلما ملك المسلمون مصر (٥٠٢/٢) قُتل، وقيل: بل لحق بالروم، فكان يكون على صوافضهم، والتقى هو وصاحب صائفة المسلمين، ومع المسلمين رجل من قيس يقال له ضريس، فقطع يد القيسي وقتله القيسي، فقال فيه:

فلان يكن أربطون الروم أفسدنا فلان فيها بخمد الله شفقنا وإن يكن أربطون الروم قلعها فقد تركت بها أوصالنا قلعنا

ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

وفي سنة خمس عشرة فرض عمر للمسلمين القروض، ودون الدواوين، وأعطى العطايا على السابقة، وأعطى صفوان بن أمية والحاتر بن هشام وسهيل بن عمرو في أهل الفتح أقل ما أخذ من قبلهم، فامتنعوا من أخذه وقالوا: لا نتعرف أن يكون أحد أكرم منا. فقال: إني إنما أعطيتكم على السابقة في الإسلام لا على

عمرو ماخذه فلقية فاقتلوا بأجنادين قتلاً شديداً كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم، وانهزم أربطون إلى إيلياء، ونزل عمرو أجنادين، وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المقدس لأربطون، فدخل إيلياء وأزاح المسلمين عنه إلى عمرو.

وقد تقدّم ذكر وقعة أجنادين على قول من يجعلها قبل اليرموك، وسياقها على غير هذه السياقة، فلهذا ذكرناها هنالك وهاهنا.

ذكر فتح بيت المقدس وهو إيلياء

في هذه السنة فتح بيت المقدس، وقيل: سنة ست عشرة في ربيع الأول.

وسبب ذلك أنه لما دخل أربطون إيلياء فتح عمرو غزّة، وقيل: كان فتحها في خلافة أبي بكر، ثم فتح بسببية، وفيها قبر يحيى بن زكرياء، عليه السلام، وفتح نابلس بأمان على الجزية، وفتح مدينة لُد، ثم فتح يثني وعمّاس وبيت جبرين، وفتح يافا، وقيل: فتحها معاوية، وفتح عمرو مرج [عيون]، فلما تم له ذلك أرسل إلى أربطون رجلاً يتكلم بالرومية وقال له: اسمع ما يقول، وكتب معه كتاباً، فوصل الرسول ودفع الكتاب إلى أربطون وعنده وزراؤه، فقال أربطون: لا يفتح والله عمرو شيئاً من (٥٠٠/٢) فلسطين بعد أجنادين. فقالوا له: من أين علمت هذا؟ فقال: صاحبها رجل صفته كذا وكذا، وذكر صفة عمر. فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره الخبر، فكتب إلى عمر بن الخطاب يقول: إني أعالج عدواً شديداً وبلاذا قد أذخرت لك، فأريك. فعلم عمر أن عمراً لم يقل ذلك إلا بشيء سمعه، فسار عمر عن المدينة.

وقيل: كان سبب قدوم عمر إلى الشام أنّ أبا عبيدة حصر بيت المقدس، فطلب أهله منه أن يصلحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة واستخلف عليها علي بن أبي طالب، فقال له علي: أين تخرج بنفسك؟ إنك تريد عدواً كلباً. فقال عمر: أبادر بالجهاد قبل موت العباس، إنكم لو فقدتم العباس لاتنقض بكم الشر كما ينتقض الحبل. فمات العباس لست سنين من خلافة عثمان، فانتقض بالناس الشر.

وسار عمر فقدم الجابية على فرس، وجميع ما قدم الشام أربع مرات: الأولى على فرس، الثانية على بعير، والثالثة على بغل، رجع لأجل الطاعون، والرابعة على حمار. وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سمّاه لهم في المجردة ويستخلفوا على أعمالهم، فلقوه حيث رُفعت لهم الجابية، فكان أول من لقيه يزيد وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحريز، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال: ما أسرع ما رجعت عن رأيكم!

أربعة آلاف، ألفاً يجعلها الرجل في أهله، وألفاً يزودها معه، وألفاً يتجهز بها، وألفاً يترقب بها. فمات قبل أن يفعل.

وقال له قائل عند فرض العطاء: يا أمير المؤمنين لو شركت في بيوت الأموال عدة لكون إن كان. فقال: كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها، وهي فتنة لمن بعدي، بل أعد لهم ما أعد الله ورسوله طاعة لله ورسوله، هما عدتنا التي بها أفضينا إلى ما ترون، فإذا كان المال ثمن دين أحكم هلكتم.

وقال عمر للمسلمين: إني كنت امرأ تاجراً يغني الله عيالي بتجارتني، وقد شغلتموني بأمركم هذا، فما ترون أنه يحل لي في هذا المال؟ وعليّ ساكت. فأكثر القوم، فقال: ما تقول يا عليّ؟ فقال: ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره. فقال القوم: القول ما قال عليّ. فأخذ قوته واشتدّت حاجة عمر، فاجتمع نفر من الصحابة منهم عثمان وعليّ وطلحة والزبير فقالوا: لو قلنا لعمر في زيادة زريده إياها في رزقه. فقال عثمان: هلموا فلنستبرئ ما عنده (٥٠٥/٢) من وراء وراء، فأتوا حفصة ابنته فأعلموها الحال واستكنتموها أن لا تخبر بهم عمر. فلقيت عمر في ذلك، فغضب وقال: من هؤلاء لأسوهم؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم. قال: أنت بيني وبينهم، ما أفضل ما اقتنى رسول الله، ﷺ، في بيتك من الملبس؟ قالت: ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجُمُوع. قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: حرقاً من خبز شعير فصصنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها. قال: وأي مَبْسُط كان يسط عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء تخين كنا نرعيه في الصيف، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه. قال: يا حفصة فأبلغهم أن رسول الله، ﷺ، قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالتزجية، فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأبلغن بالتزجية، وإنما مثلي ومثل صاحبي ثلاثة سلوكوا طريقاً، ففضى الأول وقد تزود فبلغ المنزل، ثم أتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم أتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزيادهما ألحق بهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما.

ذكر الحروب إلى آخر السنة

فمن ذلك يوم بُرْس وبابل وكُوَيْ

لما فرغ سعد من أمر القادسية أقام بها بعد الفتح شهرين وكتب عمر فيما يفعل، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن وأن يخلف النساء والعيال بالعقيق وأن يجعل معهم جنداً كثيراً وأن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون (٥٠٦/٢) المسلمين في عيالاتهم. ففعل ذلك وسار من القادسية أياماً بقيين من شوال، وكلّ الناس مؤدّ مذ نقل الله إليهم ما كان في عسكر الفرس. فلما وصلت مقدمة المسلمين بُرْس وعليهم عبد الله بن المعتّم وزهرة

الأحساب. قالوا: فنعزم إذاً وأخذوا، وخرج الحارث وسهيل بأهلهم نحو الشام فلم يزالا مجاهدين حتى أصيبا في بعض تلك الدروب، وقيل: ماتا في طاعون عمواس.

ولما أراد عمر وضع الديوان قال له عليّ وعبد الرحمن بن عوف: أبدأ بنفسك. قال: لا بل أبدأ بعن رسول الله، ﷺ، ثم الأقرب فالأقرب، ففرض للعباس وبدأ به، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن ألقع أبو بكر عن أهل الردّة ثلاثة آلاف ثلاثة (٥٠٣/٢) آلاف؛ في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الأيام قبل القادسية، كلّ هؤلاء ثلاثة آلاف، ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين، وفرض لأهل البلاء النازع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة.

فقيل له: لو ألحق أهل القادسية بأهل الأيام، فقال: لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا. وقيل له: قد سوّيت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فئائه. فقال: من قرّبت داره أحقّ بالزيادة لأنهم كانوا ردةً للتحوف وشجى للعدو، فهلاً قال المهاجرون مثل قولكم حين سوّينا بين السابقين منهم والأنصار! فقد كانت نصرة الأنصار بفنائهم وهاجر إليهم المهاجرون من بعد.

وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً، ثم فرض للروادف المثنى خمسمائة خمسمائة، ثم للروادف الثلاث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة، سوى كلّ طبقة في العطاء قوتهم وضعيفهم، عربهم وعجمهم، وفرض للروادف الربيع على مائتين وخمسين، وفرض لمن بعدهم، وهم أهل هجر والعباد، على مائتين، والحق بأهل بدر أربعة من غير أهلها: الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان. وكان فرض للعباس خمسة وعشرين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً، وأعطى نساء النبي، ﷺ، عشرة آلاف عشرة آلاف، إلا من جرى عليها الملك. فقال نساء رسول الله، ﷺ، ما كان رسول الله، ﷺ، يفضلنا عليهن في القسمة، فسوّينا؛ ففعل وفصل عائشة بألفين لمحبة رسول الله، ﷺ، إياها، (٥٠٤/٢) فلم تأخذ. وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة، ونساء من بعدهم إلى الحديبية على أربعمائة أربعمائة، ونساء من بعد ذلك إلى الأيام ثلاثمائة ثلاثمائة، ونساء أهل القادسية مائتين مائتين، ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء على مائة مائة، ثم جمع ستين مسكيناً وأطعمهم الخبز، فأحصوا ما أكلوا فوجده يخرج من جريبتين، ففرض لكلّ إنسان منهم ولعياله جريبتين، ففرض لكلّ إنسان منهم ولعياله جريبتين في الشهر.

وقال عمر قبل موته: لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف

على تأدية الجزية، ولقي زهرة كتيبة بنت كسرى التي تدعى بوران، وكانوا يحلفون كل يوم أن لا يزول ملك فارس ما عشنا، فهزمهم وقتل هاشم بن عتبة، وهو ابن أخي سعد، المقرط، وهو أسد كان لكسرى قد ألّفه، فقتل سعد رأس هاشم، وقتل هاشم قدم سعد، وأرسله سعد في المقدمة إلى بهرسير، فنزل إلى المظلم، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]؛ ثم ارتحل فنزل على بهرسير، ووصلها سعد والمسلمون فأروا الإيوان، فقال ضرار بن الخطاب: الله أكبر! أبيض كسرى! هذا ما وعد الله ورسوله. وكبر وكبر الناس معه، فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة، وكان نزولهم عليها في ذي الحجة.

وحج بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب. وكان عامله فيها على مكة عتاب بن أسيد في قول، وعلى الطائف يعلى بن منيعة، وعلى اليمامة والبحرين عثمان بن أبي العاص، وعلى عُمان حذيفة بن محصن، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجراح، وعلى الكوفة وأرضها سعد بن أبي وقاص، وعلى البصرة المنيرة بن شعبة.

وفيها مات سعد بن عُبادة الأنصاري، وقيل: توفي في خلافة أبي بكر. وتوفى بن الحارث بن عبد المطلب، وكان أسن من أسلم من بني هاشم. (٥٠٩/٢)

سنة ست عشرة

ذكر فتح المدائن الغربية وهي بهرسير

في هذه السنة في صفر دخل المسلمون بهرسير، وكان سعد محاصراً لها، وأرسل الخيول فاغارت على من ليس له عهد، فأصابوا مائة ألف فلاح، فأصاب كل واحد منهم فلاحاً لأن كل المسلمين كان فارساً، فأرسل سعد إلى عمر يستأذنه، فأجابته: إن من جاءكم من الفلاحين ممن لم يعينوا عليكم فهو أمانهم، ومن هرب فأدركموه فشانكم به. فحلى سعد عنهم وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة، فتراجعوا ولم يدخل في ذلك ما كان لآل كسرى، فلم يبق [في] غربي دجلة إلى أرض العرب سوادي إلا أمن واعتبط بملك الإسلام.

وأقاموا على بهرسير شهرين يرونهم بالمجانق ويدئون إليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكل عدة، ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً فشغلهم بها، وربما خرج العجم فقاتلهم فلا يقومون لهم، وكان آخر ما خرجوا متجذدين للحرب وتبايعوا على الصبر، فقاتلهم المسلمون. وكان على زهرة بن الحوية درع (٥١٠/٢) منصرمة، فقيل له: لو أمرت بهذا القمص فسرد. فقال لهم: إنني على الله لكريم أن ترك سهم فارس الجند كلهم ثم أثناني من هذا القمص

بن حوية وشرخيل بن السمط لقيهم بها بصبها في جمع من الفرس، فهزمه المسلمون ومن معه إلى بابل وبها قالة القادسية وبقياء رؤسائهم النخريخان ومهران الرازي والهزمزان وأشباههم وقد استعملوا عليهم الفيززان، وقدم بصبها منهزماً من برس فوق في النهر ومات من طعنة كان طعنه زهرة، ولما هزم بصبها أقبل بنظام دهقان برس فصالح زهرة وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل، فأرسل زهرة إلى سعد يُعرفه ذلك. فقدم عليه سعد ببرس وسيره في المقدمة وأتبعه عبد الله وشرخيل وهاشماً الميرقال وأتبعهم فنزلوا على الفيززان ببابل وقد قالوا: نقاتلهم قبل أن نفرق، فاقبلوا فهزمهم المسلمون، فاطلقوا على وجهين، فسار الهزمزان نحو الأهواز فأخذها فأكلمها، وخرج الفيززان نحو نهاوند فأخذها فأكلمها وبها كنوز كسرى، وأكل الماهين، وسار النخريخان ومهران إلى المدائن وقطعا الجسر.

وأقام سعد ببابل، فقدم زهرة بين يديه بكبر بن عبد الله الليثي وكثير ابن شهاب السعدي حتى عبرا الصراة فلحقا بأخريات القوم وفيهم فيومان والفرخان، فقتل بكير الفرخان وقتل كثير فيومان بسوراء، وجاء زهرة فجاز سوراء ونزل، وجاء سعد وهاشم والناس ونزلوا عليه، وتقدم زهرة نحو الفرس، وكانوا قد نزلوا بين الدير وكوثي، وقد استخلف النخريخان ومهران على جنودهما شهریار، فنأزلهم زهرة، فبرزوا إلى قتاله، وخرج شهریار يطلب (٥٠٧/٢) المبارزة، فأخرج زهرة إليه أبا نباتة نائل بن جشتم الأعرجي، وكان من شجعان بني تميم، وكلاهما وثيق الخلق. فلما رأى شهریار نائلاً ألقى الرمح ليعتقه، وألقى أبو نباتة ليعتقه أيضاً، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا ثم اعتنقا فسقطا عن دابتهما، فوقع شهریار عليه كأنه جمل، فضغطه بفخذه وأخذ الخنجر وأراد حل أزرار درعه، فوقعت إصبعه في نائل فكسر عظمها، ورأى منه فتوراً فبادر وجلس به الأرض ثم قد على صدره وأخذ خنجره وكشف درعه عن بطنه وطعن به بطنه وجنبه حتى مات، وأخذ فرسه وسواريته وسلبه، وانهزم أصحابه فذهبوا في البلاد، وأقام زهرة بكوثي حتى قدم عليه سعد، فقدم إليه نائلاً وألبسه سلاح شهریار وسواريته وأركبه برؤونه وغنمه الجميع، فكان أول أعرجي سور بالعراق، وقام بها سعد أياماً وزار مجلس إبراهيم الخليل، عليه السلام.

وقيل: كانت هذه الوقعات سنة ست عشرة.

(نائل بالنون، وبعد الألف ياء تحتها نقطتان، وآخره لام). (٥٠٨/٢)

ذكر بهرسير وهي المدينة العتيقة وهي المدائن الدنيا من الغرب

ثم إن سعداً قدم زهرة إلى بهرسير فمضى في المقدمات، فتلقاه شيرازاد دهقان ساباط بالصالح فأرسله إلى سعد، فصالحه

أهل الأيام وعطلوا ثغورهم، وقد رأيت من الرأي أن تجاهدوا العدو قبل أن تحصدمكم الدنيا، ألا إني قد (٥١٢/٢) عزمتُ على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل. فندب الناس إلى العبور وقال: من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من العبور؟ فانتدب له عاصم بن عمرو ذو البأس في ستمائة من أهل النجدات، فاستعمل عليهم عاصماً، فقدمهم عاصم في ستين فارساً وجعلهم على خيل ذكور وإناث ليكون أسلس لسباحة الخيل، ثم اتحموا دجلة. فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا أخرجوا للخليل التي تقدمت مثلها فاتحموا عليهم دجلة، فلقوا عاصماً وقد دنا من الفراض. فقال عاصم: الرماح الرماح! أشروعها وتوخوا العيون. فالتقوا فاطعنوا، وتوخى المسلمون عيونهم فولوا، ولحقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم، ومن نجا منهم صار أعور من الطعن، وتلاحق الستمائة بالستين غير متعينين.

ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها أذن للناس في الاقتحام وقال: قولوا نستعين بالله وتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه ويظهرن دينه وليهزمن عدوه، [لا حول] ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وتلاحق الناس في دجلة وإنهم يتحدثون كما يتحدثون في البر، وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطئ شيء. وكان الذي يسير سعداً سلمان الفارسي، فعاتت بهم خيولهم، وسعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه ويظهرن دينه وليهزم من عدوه إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنة. فقال له سلمان: الإسلام جديد، ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن من أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً. فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيئاً، (٥١٣/٢) إلا أن مالك بن عامر العبدي سقط منه قدح فذهبت به جرية الماء فقال له الذي يسيره مغيراً له: أصابه القدر فطاح. فقال: والله إني لعملى حالة ما كان الله ليسليني قدحي من بين العسكرين. فلما عبروا ألقته الريح إلى الشاطئ فتناوله بعض الناس وعرفه صاحبه فأخذه. ولم يفرق منهم أحد غير أن رجلاً من بارق يُدعى غرقدة زال عن ظهر فرس له أشقر، فثنى القعقاع عنان فرسه إليه فأخذ بيده فأخرجه سالماً. وخرج الناس سالمين وخیلهم تنفض أعرافها.

فلما رأى الفرس ذلك وأتاهم أمر لم يكن في حسابهم خرجوا هارين نحو حلوان، وكان يزدرج قد قدم عياله إلى حلوان قبل ذلك وخلف مهران الرازي والنخیرخان، وكان على بيت المال بالهروان، وخرجوا معهم بما قدروا عليه من خير متاعهم وخفيته وما قدروا عليه من بيت المال وبالنساء والذراري وتركوا في

حتى ثبت في! فكان أول رجل أصيب من المسلمين يومئذ هو بنشابة من ذلك القصب. فقال بعضهم: انزعوها. فقال: دعوني فلان نفسي معي ما دامت في، لعلني أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة. فمضى نحو العدو فضرب بسيفه شهريار من أهل إصطخر فقتله، وأحيط به فقتل وما انكشفا.

وقيل: إن زهرة عاش إلى أيام الحجاج فقتله شبيب الخارجي، وسيرد ذكره.

واشتد الحصار بأهل المدائن الغربية حتى أكلوا السنابير والكلاب وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم، فبينما هم يحاصرونهم إذ أشرف عليهم رسول الملك، فقال: الملك يقول لكم: هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة إلى جبلنا ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شيعتم لا أشيع الله بطونكم! فقال لهم أبو مفضل الأسود بن قُبْطَة، وقد انطقه الله تعالى بما لا يدري ما هو ولا من معه. فرجع الرجل فقطعوا دجلة إلى المدائن الشرقية التي فيها الإيوان، فقال له من معه: يا أبا مفضل ما قلت له؟ قال: والذي بعث محمداً بالحق ما أدري وأنا أرجو أن أكون قد نطقْتُ بالذي هو خير. وسأله سعد والناس عما قال فلم يعلم. فنادى سعد في الناس، فنهضوا إليهم فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج رجل إلا رجل ينادي بالأمان، فأمنوه، فقال لهم: ما بقي بالمدينة من يمنعكم. فدخلوا فما وجدوا فيها شيئاً ولا أحداً إلا أسارى (٥١١/٢) وذلك الرجل، فسأله لأي شيء هربوا؟ فقال: بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتوه أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفريدون بأترج كوشى. فقال الملك: يا ويلتيه! إن الملائكة تتكلم على ألسنتهم ترد علينا.

فساروا إلى المدينة القصوى. فلما دخلها المسلمون أنزلهم سعد المنازل، وأرادوا العبور إلى المدائن فوجدوا المعابر قد أخذوها ما بين المدائن وتكرت.

ذكر فتح المدائن التي فيها إيوان كسرى

وكان فتحها في صفر أيضاً سنة ست عشرة، قيل: وأقام سعد ببهرسير أياماً من صفر، فأتاه عليج فدلّه على مخاضة تخاض إلى صلب الفرس، فأبى وتردد عن ذلك، وقحمهم المد، وكانت السنة كثيرة المدود ودجلة تغذف بالزبد، فأتاه عليج فقال: ما يقيمك؟ لا يأتي عليك ثلاثة حتى يذهب يزدجرد بكل شيء في المدائن. فبهجه ذلك على العبور، ورأوا رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرت، فعزم سعد لتأويل الرؤيا، فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه ويخلصون إليكم إذا شأوا في سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤثروا منه، قد كفاكم

نهبوا عند الهزيمة وهربوا في كل وجه، فما أفلت أحد منهم بشيء إلا أدركهم الطلب فأخذوا ما معهم» ورأوا بالمدائن قباً تركية مملوءة سلالاً مختومة برصاص فحسبوها طعاماً، فإذا فيها آنية الذهب والفضة، وكان الرجل يطوف لبيع الذهب بالفضة تمانين. ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحاً، فعجنوا به فوجدوه مرّاً.

وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه، فوقع منهم بغل في الماء فعجلوا وكبوا عليه، فقال بعض المسلمين: (٥١٦/٢) إِنَّ لِهَذَا الْبَغْلَ لَشَأْنًا، فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه وفيه حلية كسرى، ثيابه وخزراته وشاحه ودرعه التي فيها الجوهر، وكان يجلس فيها للمباهاة. ولحق الكلج بغلين معهما فارسيان فقتلها وأخذ البغليين فأبلغهما صاحب الأقباض، وهو يكتب ما يأتيه به الرجال، فقال له: قف حتى ننظر ما مكنك. فحط عنهما فإذا سَفْطَانُ فِيهِمَا تَاجُ كَسْرَى مَرصَعًا، وكان لا يحمله إلا أسطوانتان وفيه الجوهر، وعلى البغل الآخر سَفْطَانُ فِيهِمَا ثِيَابُ كَسْرَى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجاً منظوماً.

وأدرك القعقاع بن عمرو فارسياً فقتله وأخذ منه عبتين في أحدهما خمسة أسياف وفي الأخرى ستة أسياف وأدراع، منها درع كسرى ومغافره ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك الهند ودرع بهرام جوبين ودرع سياوخش ودرع النعمان استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان وهرقل وداهر، وأما النعمان وجوبين فحين هربا من كسرى، والسيوف من سيوف كسرى وهرمز وقباد وفيروز وهرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان؛ فأحضر القعقاع الجميع عند سعد، فخبّره بين الأسياف فاختر سيف هرقل، وأعطاه درع بهرام ونقل سائرهما في الخرساء، إلا سيف كسرى والنعمان، بعث بهما إلى عمر بن الخطاب لسمع العرب بذلك (٥١٧/٢) وحسبوهما في الأخماس، وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون.

وأدرك عيصم بن خالد الضبي رجلين معهما حماران فقتل أحدهما وهرب الآخر، وأخذ الحمارين فأتى بهما صاحب الأقباض فإذا على أحدهما سَفْطَانُ فِي أَحَدِهِمَا فَرَسٌ مِنْ ذَهَبٍ بِسَرَجٍ مِنْ فُضَّةٍ وَعَلَى ثِقَرِهِ وَلَبِيهِ الْيَاقُوتُ وَالزَّمَرْدُ الْمُنْظُومُ عَلَى الْفُضَّةِ، وَلِجَامٌ كَذَلِكَ، وَفَارَسٌ مِنْ فُضَّةٍ مَكْلَلٌ بِالْجَوْهَرِ، وَفِي الْآخَرِ نَاقَةٌ مِنْ فُضَّةٍ عَلَيْهَا شَلِيلٌ مِنْ ذَهَبٍ وَبَطَانٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَهَا زِمَامٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَكُلٌّ ذَلِكَ مَنُظُومٌ بِالْيَاقُوتِ، وَعَلَيْهَا رَجُلٌ مِنْ ذَهَبٍ مَكْلَلٌ بِالْجَوْهَرِ، كَانَ كَسْرَى يَضَعُهُمَا عَلَى أَسْطَوَانَتِي التَّاجِ.

وأقبل رجل يخو إلى صاحب الأقباض فقال هو والذين معه: ما رأينا مثل هذا [قط]، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا: هل

الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفصوص والألطف ما لا يُدْرَى قِيَمَتُهُ، وَخَلَفُوا مَا كَانُوا أَعْدَاؤًا لِلْحَصَارِ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْأَطْعَمَةِ. وَكَانَ فِي بَيْتِ الْمَالِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ أَلْفَ أَلْفٍ، ثَلَاثُ مَرَّاتٍ، أَخَذَ مِنْهَا رَسْتَمٌ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الْقَادِسِيَةِ النِّصْفَ وَبَقِيَ النِّصْفُ. وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ الْمَدَائِنَ كِتَابَةُ الْأَهْوَالِ، وَهِيَ كِتَابَةُ عَاصِمِ بْنِ عَمْرٍو، ثُمَّ كِتَابَةُ الْخُرْسَاءِ، وَهِيَ كِتَابَةُ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو، فَأَخَذُوا فِي سَكْكِهَا لَا يَلْقَوْنَ فِيهَا أَحَدًا يَخْشَوْنَهُ إِلَّا مَنْ كَانَ فِي الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ، فَأَحَاطُوا بِهِمْ وَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا عَلَى تَأْدِيَةِ (٥١٤/٢) الْجَزِيَةِ وَالذَّمَّةِ، فَتَرَجَعَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْمَدَائِنَ عَلَى مِثْلِ عَهْدِهِمْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا كَانَ لَأَلِ كَسْرَى.

ونزل سعد القصر الأبيض، وسرح سعد زهرة في آثارهم إلى النهروان، ومقدار ذلك من كل جهة. وكان سلمان الفارسي رائد المسلمين وداعيتهم، دعا أهل بهرسير ثلاثاً وأهل القصر الأبيض ثلاثاً، واتخذ سعد إيوان كبير مصلّى ولم يغيّر ما فيه من التماثيل. ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور الماء، وكان يُدعى يوم الجرائيم، لا يبغي أحد إلا اشمخزت له جرثومة من الأرض يستريح عليها ما يبلغ الماء حزام فرسه، ولذلك يقول أبو بُجَيْدٍ نافع بن الأسود:

وَأَسْلَمْنَا عَلَى الْمَدَائِنِ خَيْلاً بِحُرْمَا مِثْلَ بَرْمَنِ لَرِيضَا
فَاتَلْتَنَّا خَزَائِنَ الْمَرْءِ كَسْرَى يَوْمَ وَلَّوْا وَخَاضَ مِنْهَا جَرِيضَا
ولما دخل سعد الإيوان قرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
وَزُرُوعٍ﴾ [الدخان: ٢٥] إلى قوله: ﴿فَوَمَا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨]؛
وصلى فيه صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يفصل بينهن ولا يصلي جماعة، وأتم الصلاة لأنه نوى الإقامة، وكانت أول جمعة بالعراق، وجمعت بالمدائن في صفر سنة ست عشرة.

ولما سار المسلمون وراءهم أدرك رجل من المسلمين فارسياً يحمي أصحابه فضرب فرسه ليقتل على المسلم، فأحجم وأراد الفرار فتقاعس، فأدركه المسلم (٥١٥/٢) فقتله وأخذ سَلْبَهُ؛ وأدرك رجل آخر من المسلمين جماعة من الفرس يتلاومون وقد نصبوا لأحدهم كرة وهو يرميها لا يخطئها، فرجعوا فلقبهم المسلم، فتقدم إليه ذلك الفارسي فرماه بأقرب مما كانت الكرة فلم يصبه، فوصل المسلم إليه فقتله وهرب أصحابه.

(أبو بُجَيْدٍ بَضَمَ الْبَاءَ الْمَوْحَدَةَ، وَفَتَحَ الْجِيمَ، وَبَعْدَهَا يَاءٌ تَحْتَهَا نَقَطَتَانِ، وَدَالٌ مَهْمَلَةٌ).

ذكر ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

كان سعد قد جعل على الأقباض عمرو بن عمرو بن مقرن، وعلى القسمة سلمان بن ربيعة الباهلي، فجمع ما في القصور والإيوان والدور وأحصى ما يأتيه به الطلب، وكان أهل المدائن قد

وكان الذي سار بالأخماس بشير بن الخصاصية، وأثنى الناس على أهل القادسية، فقال عمر: أولئك أعيان العرب.

ولما رأى عمر سيف النعمان سأل جبير بن مطعم عن نسب النعمان، فقال جبير: كانت العرب تنسبه إلى أشلاء قنص، وكان أحد بني عجم بن قنص، فجعل الناس عجم فقالوا لخمس، فنقله سيفه.

وولى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحره، وولى الخراج النعمان ومؤيداً ابني مقرن، سويداً على ما سقت الفرات، والنعمان على ما سقت دجلة، ثم استعفيا، فولى عملها حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو المزني، ثم ولى عملها بعد حذيفة بن اليمان وعثمان ابن حنيف.

(حذيفة بن أسيد بفتح الهمزة، وكسر السين).

ذكر وقعة جلولا وفتح خلوان

وفي هذه السنة كانت وقعة جلولا.

وسببها أن الفرس لما انتهوا بعد الهرب من المدائن إلى جلولا وافترقت (٥٢٠/٢) الطرق بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس قالوا: لو افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا، فهللوا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم، فإن كانت لنا فهو الذي نحب، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبلىنا عذراً. فاحتفروا خندقاً واجتمعوا فيه على مهران الرازي، وتقدم يزدجرد إلى خلوان وأحاطوا خندقهم بحسك الحديد إلا طرفهم. فبلغ ذلك سعداً فأرسل إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن سرخ هاشم بن عتبة إلى جلولا واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو، وإن هزم الله الفرس فاجعل القعقاع بين السواد والجبل، وليكن الجند اثني عشر ألفاً.

ف فعل سعد ذلك، وسار هاشم من المدائن بعد قسمة الغنيمة في اثني عشر ألفاً، منهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن كان ارتد ومن لم يرتد، فسار من المدائن فمر بباابل مهرود، فصالحه دهقانها على أن يفرش له جريب الأرض دراهم، ففعل وصالحه، ثم مضى حتى قدم جلولا فحاصروهم في خنادقهم وأحاط بهم، وطاولهم الفرس وجعلوا لا يخرجون إلا إذا أرادوا، وزاحفهم المسلمون نحو ثمانين يوماً، كل ذلك يُنصر المسلمون عليهم، وجعلت الأمداد ترد من يزدجرد إلى مهران، وأمد سعد المسلمين، وخرجت الفرس وقد احتفلوا، فاقتتلوا، فأرسل الله عليهم الريح حتى أظلمت عليهم البلاد فتحاجزوا فسقط فرسانهم في الخندق، فجعلوا فيه طرقاً ممّا يليهم يصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم. وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا إليهم، وقاتلهم قتالاً

أخذت منه شيئاً؟ فقال: والله لولا الله ما أتيكم به. فقالوا: من أنت؟ فقال: والله لا أخبركم فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلاً، فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس. وقال سعد: والله إن الجيش لئذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلْتُ إنهم على فضل أهل بدر، لقد تبعَتْ منهم هناتٍ ما أحسبها من هؤلاء.

وقال جابر بن عبد الله: والذي لا إله إلا هو ما أطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة، فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كاماتهم وزهدهم، وهم: طلحة، وعمر بن معدي كرب، وقيس بن المكشوح. وقال عمر لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وبزبرجه: إن قوماً (٥١٨/٢) أذوا هذا لذوو أمانة. فقال علي: إنك عفت فعت الرعية.

فلما جمعت الغنائم قسم سعد الفتي بين الناس بعدما قسمه، وكانوا ستين ألفاً، فأصاب الفارس اثنا عشر ألفاً، وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل، ونفل من الأخماس في أهل البلاد، وقسم المنازل بين الناس، وأحضر العيالات فأنزلهم الدور، فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولا وخلوان وتكريت والموصل ثم تحولوا إلى الكوفة. وأرسل سعد في الخميس كل شيء أراد أن يعجب منه العرب، وما كان يعجبهم أن يقع، وأراد إخراج خمس القطف فلم تعدل قسمته، وهو بهار كسرى، فقال المسلمين: هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه ينبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء فإننا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعاً فقالوا: نعم. فبعثه إلى عمر. والقطف بساط واحد طوله ستون ذراعاً، وعرضه ستون ذراعاً مقدار جريب، كانت الأكاسرة تُعدّه للشتاء إذا ذهب الرياحين شربوا عليه، فكانهم في رياض، فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كاللؤلؤ وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب، وزهره الذهب والفضة، وثمره الجوهر وأشياء ذلك، وكانت العرب تسميه القطف.

فلما قدمت الأخماس على عمر نقل منها من غاب ومن شهد من أهل البلاد، ثم قسم الخمس في مواضعه، ثم قال: أشيروا علي في هذا القطف؛ فمن بين مشير يقبضه وآخر مفوض إليه. فقال له علي: لم يجعل الله علمك جهلاً ويقينك شكاً، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفانيت، وإنك إن تبقه على هذا اليوم لم تعلم في غد من يستحق به ما ليس له. فقال: صدقتي ونصحتي، فقطعه بينهم، فأصاب (٥١٩/٢) علياً قطعةً منه فباعها بعشرين ألفاً، وما هي بأجود تلك القطع.

أقسمه. فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانه في المسجد، فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى، فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما يُبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا لموطن شكر. فقال عمر: والله ما ذلك يُبكيني، وبالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا لقي الله بأسهم بينهم. ومنع عمر من قسمة السواد لتعذر ذلك بسبب الأجام والغياض ومغيض المياه، وما كان لبيوت النار ولسكك البرد، وما كان لكسرى ومن جامعه، وما كان لمن قُتل، والأرحاء، وخاف أيضاً الفتنة بين المسلمين، فلم يقسمه ومنع من يبيعه لأنه لم يقسم، وأقرّوها حبيساً يولونها من أجمعوا عليه بالرضا، (٥٢٣/٢) وكانوا لا يُجمعون إلا على الأمراء، فلا يحل بيع شيء من أرض السواد ما بين حُلوان والقادسية، واشترى جرير أرضاً على شاطئ الفرات، فردّ عمر ذلك الشراء وكرهه.

ذكر فتح تكريت والموصل

وفي هذه السنة فتحت تكريت في جمادى.

وسبب ذلك أن الأنطاق سار من الموصل إلى تكريت وخندق عليه ليحمي أرضه ومعه الروم وإياد تغلب والنمر والشهارجة، فبلغ ذلك سعداً فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن سرحَ إليه عبدُ الله بن المُعْتَمِّم واستعمل على مقدمته ربيعة بن الأفكل، وعلى الخيل عرفة بن هرثة. فسار عبد الله إلى تكريت ونزل على الأنطاق فحصره ومنّ معه أربعين يوماً، فتزاحفوا أربعة وعشرين زحفاً، وكانوا أهون شوكة من أهل جلولاء، وأرسل عبدُ الله بن المُعْتَمِّم إلى العرب الذين مع الأنطاق يدعوهم إلى نصرته، وكانوا لا يخفون عليه شيئاً. ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم إلى السفن، فأرسلت تغلب وإياد والنمر إلى عبد الله بالخبر وسأله الأمان وأعلموه أنهم معه، فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين فأسلموا. فأجابوه وأسلموا. فأرسل إليهم عبدُ الله: إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أننا أخذنا أبواب الخندق فخذوا الأبواب التي تلي دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه.

ونهد عبدُ الله والمسلمون وكبروا وكبرت تغلب وإياد والنمر وأخذوا الأبواب، فظن الروم أن المسلمين قد أترهم من خلفهم ممّا يلي دجلة، فقصدوا (٥٢٤/٢) الأبواب التي عليها المسلمون، فأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف الربيعة الذين أسلموا تلك الليلة، فلم يفلت من أهل الخندق إلا من أسلم من تغلب وإياد والنمر. وأرسل عبدُ الله بن المُعْتَمِّم ربيعة بن الأفكل إلى الحصنين، وهما نينوى والموصل، تسمى نينوى الحصن الشرقي وتسمى الموصل الحصن الغربي، وقال: اسبق الخبر، وسرحَ معه تغلب

شديداً لم يقتلوا مثله ولا ليلة الهرير إلا أنه كان أعجل. وانتهى القعقاع بن عمرو من الوجه الذي زحف فيه إلى باب خندقهم فأخذ به وأمر منادياً فنادى: يا معاشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل الخندق وأخذ به (٥٢١/٢) فأقبلوا إليه ولا يمنعكم من ينكم وبينه من دخوله. وإنما أمر بذلك ليقوى المسلمين. فحملوا ولا يشكون بأن هاشماً في الخندق، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذ به، فانهزم المشركون عن المجال يمنة ويسرة فهلكوا فيما أعدوا من الحسك، فعُثرت دوابهم وعادوا رجالة واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا من لا يُعَدُّ، وقُتل يومئذٍ منهم مائة ألف، فجلبت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه فسميت جلولاء بما جلبها من قتلاهم، فهي جلولاء الواقعة. فسار القعقاع بن عمرو في الطلب حتى بلغ خانقين.

ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حُلوان نحو الري، وقدم القعقاع حُلوان فنزلها في جند من الأفناء والحمراء، وكان فتح جلولاء في ذي القعدة سنة ست عشرة. ولما سار يزدجرد عن حُلوان استخلف عليها خشرشوم، فلما وصل القعقاع قصر شيرين خرج عليه خشرشوم وقدم إليه الزينبي دهقان حُلوان، فلقبه القعقاع، فقتل الزينبي وهرب خشرشوم واستولى المسلمون على حُلوان وبقي القعقاع بها إلى أن تحول سعد إلى الكوفة فلحقه القعقاع واستخلف على حُلوان قباذ، وكان أصله خراسانياً.

وكتبوا إلى عمر بالفتح وينزل القعقاع حُلوان واستأذنوه في اتباعهم، فأبى وقال: لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبتا من الريف السواد، إنني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال. وأدرك القعقاع في اتباعه الفرس مهران بخانقين فقتله، وأدرك الفيرزان فنزل وتوغل في الجبل فتحامى، وأصاب القعقاع سبائاً فارساً إلى هاشم (٥٢٢/٢) فقسمهن، فأتخذن فولدن، ومنّ ينسب إلى ذلك السبي أمُ الشعبي.

وقُسمت الغنيمة وأصاب كل واحد من الفوارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب، وقيل: إن الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف، فقسمها سلمان بن ربيعة، وبعث سعداً بالأخماس إلى عمر، وبعث الحساب مع زياد بن أبيه، فكلّم عمرَ فيما جاء له ووصف له، فقال عمر: هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل ما كلمتني به؟ فقال: والله ما على الأرض أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك! فقام في الناس بما أصابوا وما صنعوا وبما يستأنفون من الانسحاق في البلاد. فقال عمر: هذا الخطيب المصقع. فقال: إن جندنا أطلقوا الستنا.

فلما قدم الخمس على عمر قال: والله لا يُجنّه سقف حتى

فجاء قَرْيَيسِيَا على غَرَّةٍ فأخذها عنوةً، فأجابوا إلى الجزية، وكتب إلى الحارث (٥٢٦/٢) ابن يزيد: إن هم استجابوا فخلّ عنهم فليخرجوا وإلاّ فخذقْ على خندقهم خندقاً بأبوابه ممّا يليك حتى أرى رأيي. فراسلهم الحارث، فأجابوا إلى العود إلى بلادهم، فتركهم وسار الحارث إلى عمر بن مالك.

وفيها غرّب عمر بن الخطاب أبا محجن النقيّ إلى ناصع. وفيها تزوّج ابنُ عمر صفية بنت أبي عبيد أخت المختار. وفيها حمى عمر الرّيذة لخيّل المسلمين. وفيها ماتت مارية أم إبراهيم ابن رسول الله، ﷺ، وصلى عليها عمر ودفنها بالبقيع في المحرم. وفيها كتب عمر التاريخ بمشورة عليّ بن أبي طالب.

وحجّ بالنّاس في هذه السنة عمر بن الخطاب، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت. وكان عماله على البلاد الذين كانوا في السنة قبلها، وكان على حرب الموصل ريميّ بن الأفكل، وعلى خراجها عرفجة بن هرثمة، وقيل: كان على الحرب والخراج بها عتبة بن فرقد، وقيل: كان ذلك كلّهُ إلى عبد الله بن المعتّم. وعلى الجزيرة عياض بن غنم. (٥٢٧/٢)

سنة سبع عشرة

ذكر بناء الكوفة والبصرة

في هذه السنة اختطّت الكوفة وتحول سعد إليها من المدائن. وكان سبب ذلك أنّ سعداً أرسل وفداً إلى عمر بهذه الفتنوح المذكورة، فلمّا رآهم عمر سألهم عن تغيّر ألوانهم وحالهم، فقالوا: وخومة البلاد غيرتنا. فأمرهم عمر أن يرتادوا منزلاً ينزله النّاس، وكان قد حضر مع الوفد نفر من بني تغلب ليعاقدوا عمرَ على قومهم، فقال لهم عمر: أعاقدهم على أنّ من أسلم منكم كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن أبى فعليه الجزية. فقالوا: إذن يهربون ويصيرون عجماء، وبذلوا له الصدقة، فأبى، فجعلوا جزيتهم مثل صدقة المسلم، فأجابهم على أن لا يتصّروا وليدًا، فهاجر هؤلاء التغلبيّون ومن أطاعهم من النمر وإياد إلى سعد بالمدائن ونزلوا بالمدائن ونزلوا معه بعدُ بالكوفة.

وقيل: بل كتب حذيفة إلى عمر: إنّ العرب قد رقت بطونها وجعت أعضادها وتغيّرت ألوانها. وكان مع سعد فكتب عمر إلى سعد: أخبرني ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم؟ فكتب إليه سعد: إنّ الذي غيّرهم وخومة البلاد، وإنّ العرب لا يوافقها إلاّ ما وافق إيلها من البلدان. فكتب إليه عمر: أن ابعث سلمان وحذيفة راثنين فليرتادا منزلاً بريّاً بحرّياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر. فارسلهما سعد، فخرج سلمان حتى يأتني الأنبار فسار في (٥٢٨/٢) غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة، وسار

وإياد والنمر. فقدمهم ابن الأفكل إلى الحصنين، فسبقوا الخبر وأظهروا الظفر والغنمة وبشروهم ووقفوا بالأبواب، وأقبل ابنُ الأفكل فاقترح عليهم الحصنين وكتبوا أبوابهما، فنادوا بالإجابة إلى الصلح وصاروا ذمةً. وقسموا الغنمة فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم، وسهم الراجل ألف درهم، وبعثوا بالأخماس إلى عمر؛ وولّى حرب الموصل ريميّ بن الأفكل، والخراج عَرْفَجَةَ بن هرثمة.

وقيل: إنّ عمر بن الخطاب استعمل عُتْبَةَ بن فرقد على قصد الموصل، وفتحها سنة عشرين، فأثامها فقاتله أهل نينوى، فأخذ حصنها، وهو الشرقيّ، عنوةً، وعبر دجلة، فصالحه أهل الحصن الغربيّ، وهو الموصل، على الجزية، ثم فتح المرج وياهنذرا وياعدرا وجيتون وداسن وجميع معاقل الأكراد وفرّدي ويازيدي وجميع أعمال الموصل فصارت للمسلمين.

وقيل: إنّ عياض بن غنم لما فتح بلدًا، على ما ذكره، أتى الموصل ففتح أحد الحصنين وبعث عتبة بن فرقد إلى الحصن الآخر ففتحه على الجزية والخراج، والله أعلم.

(المُعْتَمَ بضم الميم، وسكون العين المهملة، وآخره ميم مشددة). (٥٢٥/٢)

ذكر فتح ماسبذان

ولما رجع هاشم من جلّولاء إلى المدائن بلغ سعداً أنّ أذينة بن الهُرْمَزان قد جمع جمعاً وخرج بهم إلى السهل، فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب في جيش، فالتقوا بسهل ماسبذان فاقتلوا، فأسرع المسلمون في المشركين، وأخذ ضرار أذينة أسيراً فغضب رقبته. ثم خرج في الطلب حتى انتهى إلى السيروان، فأخذ ما سبذان عنوةً، فهرب أهلها في الجبال، فدعاهم فاستجابوا له، وأقام بها حتى تحول سعد إلى الكوفة، فأرسل إليه فنزل الكوفة واستخلف على ماسبذان ابنُ الهذيل الأسديّ، فكانت أحد فروع الكوفة.

وقيل: إنّ فتحها كان بعد وقعة نهاوند.

ذكر فتح قريسيّا

ولما رجع هاشم من جلّولاء إلى المدائن وقد اجتمعت جموع أهل الجزيرة فأمدّوا هرقل على أهل حمص وبعثوا جنداً إلى أهل هيت، أرسل سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جند وجعل على مقدّمته الحارث بن يزيد العامريّ، فخرج عمر بن مالك في جنده نحو هيت فنال من بها وقد خندقوا عليهم، فلمّا رأى عمر بن مالك اعتصامهم بخندقهم ترك الأخبية على حالها وخلف عليهم الحارث بن يزيد يحاصرهم وخرج في نصف النّاس

فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأمره أن يخرق باب القصر ثم يرجع، ففعل، فبلغ سعداً ذلك فقال: هذا رسول أرسل لهذا، فاستدعاه سعد، فأبى أن يدخل إليه، فخرج إليه سعد وعرض عليه نفقة، فلم يأخذ وأبلغه كتاب عمر إليه: بلغني أنك (٥٣٠/٢) اتخذت قصراً جعلته حصناً، ويسمى قصر سعد، بينك وبين الناس باب، فليس بقصرك ولكنه قصر الخيال، انزل منه [منزلاً] مما يلي بيوت الأموال وأغلقه وإلا نجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله. فحلف له سعد ما قال الذي قالوا، فرجع محمد فبلغ عمر قول سعد، فصده.

وكانت ثغور الكوفة أربعة: خلوان وعليها القعقاع، وما سبذان وعليها خيرار ابن الخطاب، وقرقيسيا وعليها عمر بن مالك، أو عمرو بن عتبة بن نوفل، والموصل وعليها عبد الله بن المعتم، وكان بها خلفاؤهم إذا غابوا عنها؛ وولي سعد الكوفة بعدما اختطت ثلاث سنين ونصف سوى ما كان بالمدائن قبلها.

ذكر خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين

وفي هذه السنة قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بحمص، وكان المهدي للروم أهل الجزيرة، فأنهم أرسلوا إلى ملكهم ويعثو على إرسال الجنود إلى الشام ووعدوا من أنفسهم المعاونة، ففعل ذلك. فلما سمع المسلمون باجتماعهم ضم أبو عبيدة إليه مسالحهم وعسكر بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد بن قنسرين إليهم، فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين إلى مجيء الفيث، فأشار خالد بالمناجزة، وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبه عمر، فطاعهم وكتب إلى عمر بذلك، وكان عمر قد اتخذ في كل مصر خيولاً على قدره من فضول أموال المسلمين عدة لكون إن كان، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي ونفر من أهل الكوفة، وفي كل مصر من الأمصار الثمانية على قدره، فإن (٥٣١/٢) تأتهم آتية ركبها الناس وساروا إلى أن يتجهز الناس.

فلما سمع عمر الخبر كتب إلى سعد: أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرّحهم من يومهم، فإن أبا عبيدة قد أحيط به. وكتب إليه أيضاً: سرّح سهيل بن عدي إلى الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استأثروا الروم على أهل حمص، وأمره أن يسرّح عبد الله بن عتيان إلى نصيبين، ثم ليقتصد حران والرهاء، وأن يسرّح الوليد بن عتبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتوخ، وأن يسرّح عياض بن غنم، فإن كان قتال فأمرهم إلى عياض.

فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم إلى حمص، وخرج عياض بن غنم وأمرأه الجزيرة وأخذوا طريق الجزيرة، وتوجه كل أمير إلى الكورة التي أمر عليها، وخرج عمر من المدينة فأتى

حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة، وكل رمل وحصاء مختلطين فهو كوفة، فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاثة: دير حرمة، ودير أم عمرو، ودير سلسلة، وخصاص خلال ذلك، فأعجبتهما البقة فتزلا فصليا ودعوا الله تعالى أن يجعلها منزل الثبات. فلما رجعا إلى سعد بالخبر وقدم كتاب عمر إليه أيضاً كتب سعد إلى القعقاع بن عمرو وعبد الله بن المعتم أن يستخلفا على جندهما ويحضرا عنده، ففعلا. فارتحل سعد من المدائن حتى نزل الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة؛ وكان بين نزول الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهران، وكان فيما بين قيام عمر واختطاط الكوفة ثلاث سنين وثمانية أشهر؛ ولما نزلها سعد كتب إلى عمر: إني قد نزلت بالكوفة منزلاً فيما بين الحيرة والفرات برياً وبحرياً بنيت الحلفاء والنصي، وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن فمن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالمسلحة. ولما استقروا بها عرفوا أنفسهم ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوتهم، واستأذن أهل الكوفة بنيان في القصب، واستأذن فيه أهل البصرة أيضاً، واستقر منزلهم فيها في الشهر الذي نزل أهل الكوفة بعد ثلاث نزلات قبلها.

فكتب إليهم: إن العسكر أشد لحربكم واذكر لكم، وما أحب أن أخالفكم.

فابتنى أهل المصيرين بالقصب، ثم إن الحريق وقع في الكوفة والبصرة، وكانت الكوفة أشد حريقاً في سؤال، فبعث سعد نفرأ منهم إلى عمر يستأذنه (٥٢٩/٢) في البنيان باللبن، فقدموا عليه بخبر الحريق واستأذنه أيضاً، فقال: افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة آيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة. فرجع القوم إلى الكوفة بذلك، وكتب عمر إلى البصرة بمثل ذلك.

وكان على تنزيل الكوفة أبو هياج بن مالك، وعلى تنزيل البصرة عاصم بن ذلف أبو الجرباء، وقدر المناهج أربعين ذراعاً، وما بين ذلك عشرين ذراعاً، والأزقة سبع أذرع، والقطائع ستين ذراعاً، وأول شيء خط فيهما وبني مسجدهما، وقام في وسطهما رجل شديد الزرع، فرمى في كل جهة بسهم وأمر أن يبنى ما وراء ذلك، وبني ظلة في مقدمة مسجد الكوفة على أساطين رخام من بناء الأكاسرة في الحيرة، وجعلوا على الصحن خندقاً لئلا يقتحمه أحد ببنيان، وبنوا لسعد داراً بحياله، وهي قصر الكوفة اليوم، بناه روزبه من أجرة بنيان الأكاسرة بالحيرة، وجعل الأسواق على شبه المساجد من سبق إلى مقلده فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه.

وبلغ عمر أن سعداً قال وقد سمع أصوات الناس من الأسواق: سكنا عني الصوئت؛ وأن الناس يسعون قصر سعد،

الجابية لأبي عبيدة مغياً يريد حمص.

ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص، وهم معهم، خبر الجنود الإسلامية تفرقوا إلى بلادهم وفارقوا الروم، فلما فارقوهم استشار أبو عبيدة خالداً في الخروج إلى الروم، فأشار به، فخرج إليهم فقاتلهم، ففتح الله عليه، وقدم القعقاع بن عمرو بعد الوقعة بثلاثة أيام، فكتبوا إلى عمر بالفتح وبقدوم المدد عليهم والحكم في ذلك، فكتب إليهم: أن اشركوهم فإنهم نفروا إليكم وانفرك لهم عدوكم، وقال: جرى الله أهل الكوفة خيراً، يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار. فلما فرغوا رجعوا. (٥٣٢/٢)

ذكر فتح الجزيرة وأرمينية

وفي هذه السنة فتحت الجزيرة.

قد ذكرنا إرسال سعد العساكر إلى الجزيرة، فخرج عياض بن غنم ومن معه فارس سُهَيْل بن عدي إلى الرقة وقد ارفض أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم حين سمعوا بأهل الكوفة، فنزل عليهم فأقام يحاصروهم حتى صالحوه، فبعثوا في ذلك إلى عياض وهو في منزل وسط بين الجزيرة، فقبل منهم وصالحهم، وصاروا ذمة، وخرج عبد الله بن عتيبان على الموصل إلى نصيبين، فلقوه بالصلح وصنعوا كصنع أهل الرقة، فكتبوا إلى عياض فقبل منهم وعقد لهم. وخرج الوليد بن عُقبة فقدم على عرب الجزيرة، فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلا إياهم بن نزار فلأنهم دخلوا أرض الروم، فكتب الوليد بذلك إلى عمر.

ولما أخذوا الرقة ونصيبين ضم عياض إليه سهيلاً وعبد الله وسار بالناس إلى حران، فلما وصل أجابه أهلها إلى الجزيرة فقبل منهم. ثم إن عياضاً سرح سهيلاً وعبد الله إلى الرهاء فاجابوهم إلى الجزيرة وأجروا كل ما أخذوه من الجزيرة عنوة مجرى الذمة، فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحاً. ورجع سهيل وعبد الله إلى الكوفة. وكتب أبو عبيدة إلى عمر بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضم إليه عياض بن غنم إذا أخذ خالداً إلى المدينة، فصرفه إليه، فاستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحريرها، والوليد بن عُقبة على عربها. (٥٣٣/٢)

فلما قدم كتاب الوليد على عمر بمن دخل الروم من العرب كتب عمر إلى ملك الروم: بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فوالله لتخرجنه إلينا أو لنخرجن النصارى إليك. فأخرجهم ملك الروم، فخرج منهم أربعة آلاف وتفرق بقيتهم في ما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم، فكل إبادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف. وأبى الوليد ابن عُقبة أن يقبل من تغلب إلا الإسلام، فكتب فيهم إلى عمر، فكتب إليه عمر: إنما ذلك

بجزيرة العرب لا يقبل منهم [فيها] إلا الإسلام، فذغهم على أن لا ينصروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام. وكان في تغلب عز وامتناع، فهم بهم الوليد فخاف عمر أن يسطوا عليهم فعزله وأمر عليهم فرأت بن حيان وهند بن عمرو الجملي.

وقال ابن إسحاق: إن فتح الجزيرة كان سنة تسع عشرة، وقال: إن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص: إذا فتح الله الشام والعراق فابعث جنداً إلى الجزيرة وأمر عليه خالد بن عُرقطة أو هاشم بن عُتبة أو عياض بن غنم. قال سعد: ما آخر أمير المؤمنين عياضاً إلا لأن له فيه هوى وأنا موليه؛ فبعثه معه جيشاً فيه أبو موسى الأشعري وابنه عمر بن سعد ليس له من الأمر شيء، فسار عياض ونزل بجندة على الرهاء، فصالحه أهله مصالحة حران، وبعث أبا موسى إلى نصيبين فافتتحها، وسار عياض بنفسه إلى دارا فافتتحها، ووجه عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة فقاتل أهلها، فاستشهد صفوان بن المعطل، وصالح أهلها عثمان على الجزية. ثم كان فتح قيسارية من فلسطين وهرب هرقل.

فعلى هذا القول تكون الجزيرة من فتوح أهل العراق، والأكثر على أنها (٥٣٤/٢) من فتوح أهل الشام، فإن أبا عبيدة سیر عياض بن غنم إلى الجزيرة.

وقيل: إن أبا عبيدة لما توفي استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بولايته حمص وقنسرين والجزيرة، فسار إلى الجزيرة سنة ثمان عشرة للنصف من شعبان في خمسة آلاف وعلى ميمته سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي، وعلى ميسرته صفوان بن المعطل، وعلى مقدمته قبيصة بن مسروق، فانتفت طليعة عياض إلى الرقة فاغاروا على الفلاحين وحصروا المدينة، وبث عياض السرايا فاتوه بالأسرى والأطعمة، وكان حصرها ستة أيام، فطلب أهلها الصلح، على أنفسهم وذرائعهم وأموالهم ومدينتهم، وقال عياض: الأرض لنا قد وطنناها وملكناهنا، فأقرها في أيديهم على الخراج ووضع الجزية. ثم سار إلى حران فجعل عليها عسكراً يحصرها عليهم صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة وسار هو إلى الرهاء، فقاتله أهلها ثم انهزموا وحصرهم المسلمون في مدينتهم، فطلب أهلها الصلح فصالحهم، وعاد إلى حران فوجد صفوان وحبيباً قد غلبا على حصون وقري من أعمال حران فصالحه أهلها على مثل صلح الرهاء.

وكان عياض يغزو ويعود إلى الرهاء، وفتح سُمَيْسَاط وأتى سروج ورأس كيفا والأرض البيضاء فصالحه أهلها على صلح الرهاء. ثم إن أهل سُمَيْسَاط غدروا، فرجع إليهم عياض فحاصروهم حتى فتحها، ثم أتى قريّات على الفرات، وهي جسر منبج وما يليها، ففتحها وسار إلى رأس عين، وهي عين الوردية، فامتعت عليه

الخطاب، وكان لا يخفى عليه شيء من عمله، فدعا عمرُ البريد فكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته ويتزع عنه قلنسوته حتى يُعلمكم من أين أجاز الأشعث، أمن ماله أم من مال إصابة أصابها، فإن زعم أنه فرقه من إصابة أصابها فقد أقر بخيانه، وإن زعم أنه من ماله فقد أسرف، وأعزله على كل حال واضمم إليك عمله. فكتب أبو عبيدة إلى خالد، فقدم عليه، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر، فقام البريد فسأل خالدًا من أين أجاز الأشعث، فلم يجبه، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئًا، فقام بلال فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ونزع عمامته، فلم يمتعه سمعًا وطاعة، ووضع قلنسوته، ثم أقامه فعقله بعمامته وقال: من أين أجزت الأشعث، من مالك أجزت أم من إصابة أصبتها؟ فقال: بل من مالي؛ فاطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال: نسع ونطيع لولائنا ونفخ ونخدم موالينا.

قال: وأقام خالد متحيرًا لا يدري أمعزول أم غير معزول، ولا يُعلمه أبو عبيدة بذلك تكرمه وتفخمة. فلما تأخر قدومه على عمر ظن الذي كان، فكتب إلى خالد بالإقبال إليه، فرجع إلى قُسرین فخطب الناس وودعهم (٥٣٧/٢) ورجع إلى حمص فخطبهم ثم سار إلى المدينة، فلما قدم على عمر شكاه وقال: قد شكوتك إلى المسلمين فبالله إنك في أمري لغير مجبول. فقال له عمر: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان، ما زاد على ستين ألفًا فلك، فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفًا فجعلها في بيت المال ثم قال: يا خالد والله إنك عليّ لكریم وإنك إليّ لحبيب. وكتب إلى الأمصار: إني لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانه ولكن الناس فخموه وفتنوا به ففخت أن يوكّلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة. وعوضه عما أخذ منه.

ذكر بناء المسجد الحرام والتوسعة فيه

وفيها، أعني سنة سبع عشرة، اعتمر عمر بن الخطاب وبنى المسجد الحرام ووسّع فيه وأقام بمكة عشرين ليلة، وهدم على قوم أبوا أن يبيعوا، ووضع أثمان دورهم في بيت المال حتى أخذوها، وكانت عمرته في رجب، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت، وأمر بتجديد أنصاب الحرم، فأمر بذلك مخرمة بن نوفل والأزهر بن عبد عرف وحويطب بن عبد العزى وسعيد بن يربوع، واستأذنه أهل المياه أن يبنوا منازل بين مكة والمدينة، فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظل والماء.

وفيها تزوج عمر أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وهي ابنة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ودخل بها في ذي القعدة. (٥٣٨/٢)

ذكر غزوة فارس من البحرين

قيل: كان عمر يقول لما أخذت الأهواز وما يليها: وددت أن

وتركها وسار إلى تلّ موزن، ففتحها على صلح الرهاء سنة تسع عشرة، وسار إلى آمدٍ فحصرها، فقاتله أهلها ثم صالحوه على صلح الرهاء، وفتح ميفارقين على مثل ذلك، وكفر ثوثا، فسار إلى نصيبين فقاتله أهلها ثم صالحوه على مثل صلح الرهاء، وفتح طور غبدين وحسن ماردین، وقصد الموصل ففتح أحد الحصنين، وقيل: لم يصل إليها، وأتاه بطريق (٥٣٥/٢) الرّوزان فصالحه، ثم سار إلى أرزن ففتحها، ودخل الدرب فأجازه إلى بدليس وبلغ خيلاط فصالحه بطريقها، وانتهى إلى العين الحامضة من أرمينية، ثم عاد إلى الرقة ومضى إلى حمص فمات سنة عشرين.

واستعمل عمر سعيد بن عامر بن جذيم، فلم يلبث إلا قليلًا حتى مات، فاستعمل عُمر بن سعد الأنصاري، ففتح رأس عين بعد قتال شديد.

وقيل: إن عياضًا أرسل عُمر بن سعد إلى رأس عين ففتحها بعد أن اشتد قتاله عليها. وقيل: إن عمر أرسل أبا موسى الأشعري إلى رأس عين بعد وفاة عياض. وقيل: إن خالد بن الوليد حضر فتح الجزيرة مع عياض ودخل حمًا بأيد فاطمى بشيء فيه خمر فعزله عمر. وقيل: إن خالدًا لم يسر تحت لواء أحد غير أبي عبيدة. والله أعلم.

ولما فتح عياض مُعَسَّط بعث حبيب بن مسلمة إلى ملطية ففتحها عنوة، ثم نقض أهلها الصلح، فلما ولي معاوية الشام والجزيرة وجّه إليها حبيب بن مسلمة أيضًا ففتحها عنوة ورتّب فيها جنودًا من المسلمين مع عاملها.

ذكر عزل خالد بن الوليد

في هذه السنة، وهي سنة سبع عشرة، عُزل خالد بن الوليد عما كان عليه من التقدّم على الجيوش والسرايا.

وسبب ذلك أنه كان أدرب هو وعياض بن غنم فأصاب أموالاً عظيمة، وكانا توجهًا من الحجابة مرجع عمر إلى المدينة، وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت يده على قُسرین، وعلى دمشق يزيد، وعلى الأردن معاوية، وعلى (٥٣٩/٢) فلسطين علقمة بن مُعْجَز، وعلى الساحل عبد الله بن قيس، فبلغ الناس ما أصاب خالد فانتجعهم رجال، وكان منهم الأشعث بن قيس، فأجازه بعشرة آلاف.

ودخل خالد الحَمَام فتدكك بغسل فيه خمر، فكتب إليه عمر: بلغني أنك تدككت بخمر، وإن الله قد حرّم ظاهر الخمر وباطنه ومثّه فلا تمسوها أجسادكم. فكتب إليه خالد: إنّا قتلناها فعادت غسولًا غير خمر. فكتب إليه عمر: إن آل المُغيرة ابتلوا بالجفاء فلا أمانكم الله عليه.

فلما فرّق خالد في الذين اتجعوه الأموال سمع بذلك عمر بن

على المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا، وهي الغزوة التي شرفت فيها نابتة البصرة، وكانوا أفضل نوابت الأمصار، ثم انكفأوا بما أصابوا، وكان عتبة كتب إليهم بالحث وقلة الفرجة، فرجعوا إلى البصرة سالمين.

ولما أحرز عتبة الأهواز وأوطأ فارس استأذن عمرَ في الحج فأذن له، فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يُعفيه وعزم عليه ليرجع إلى عمله، فدعا الله ثم انصرف، فمات في بطن نخلة فدُفن، وبلغ عمرَ موته فمرَّ به زائرًا لبقبره وقال: أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم. وأثنى عليه خيرًا ولم يخط فيمن (٥٤٠/٢) اختط من المهاجرين، وإنما ورث ولده منزلهم من فاختة بنت غزوان وكان تحت عثمان بن عفان، وكان حُباب مولاة قد لزم شيمته فلم يخط، وماتت عتبة بن غزوان على رأس ثلاث سنين من مفارقة سعد، وذلك بعد أن استنفذ الجند الذين بفارس ونزلهم البصرة، واستخلف على الناس أبا سيرة ابن أبي رهم بالبصرة، فأقره عمرَ بقية السنة، ثم استعمل المغيرة بن شعبة عليها، فلم يتقض عليه أحد ولم يُحدث شيئاً إلا ما كان بينه وبين أبي بكر، ثم استعمل أبا موسى على البصرة، ثم صُرف إلى الكوفة ثم استعمل عمر بن سراقه، ثم صرف ابن سراقه إلى الكوفة من البصرة، وصُرف أبو موسى من الكوفة إلى البصرة، فعمل عليها ثانية. وقد تقدّم ذكر ولاية عتبة بن غزوان البصرة والاختلاف فيها سنة أربع عشرة.

ذكر عزل المغيرة عن البصرة وولاية أبي موسى

في هذه السنة عزل عمرَ المغيرة بن شعبة عن البصرة واستعمل عليها أبا موسى وأمره أن يُشخص إليه المغيرة بن شعبة في ربيع الأول؛ قاله الواقدي.

وكان سبب عزله أنه كان بين أبي بكر والمغيرة بن شعبة منافرة، وكانا متجاورين بينهما طريق، وكانا في مشرتين في كل واحدة منهما كوة مقابلة الأخرى، فاجتمع إلى أبي بكر نفر يتحدثون في مشرته، فهبت الريح ففتحت باب الكوة، فقام أبو بكر ليسدّه فبصر بالمغيرة وقد (٥٤١/٢) فتحت الريح باب كوة مشرته وهو بين رجلتي امرأة، فقال للنفر: قوموا فانظروا، فقاموا فانظروا، وهم أبو بكر ونافع بن كلفة وزبيد بن أبيه، وهو آخر أبي بكر لأمة، وشيبل بن معبد البجلي، فقال لهم: اشهدوا، قالوا: ومن هذه؟ قال: أم جميل بن الأقم، وكانت من بني عامر بن صعصعة، وكانت تُغشي المغيرة والأمراء، وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها، فلما قامت عرفوها. فلما خرج المغيرة إلى الصلاة منعه أبو بكر وكتب إلى عمر، فبعث عمرَ أبا موسى أميراً على البصرة وأمره بلزوم السنة، فقال: أعني بعدة من أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم في هذه الأمة كالملح. قال له: خذ مَنْ أحببت. فأخذ معه

بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا تصل إليهم منه ولا يصلون إلينا. وقد كان العلاء بن الحضرمي على البحرين أيام أبي بكر فعزله عمر وجعل موضعه قدامة بن مظعون، ثم عزل قدامة وأعاد العلاء يناوي سعد بن أبي وقاص، ففاز العلاء في قتال أهل الردة بالفضل، فلما ظفر سعد بأهل القادسية وأزاح الأكاسرة جاء بأعظم ممّا فعله العلاء، فأراد العلاء أن يصنع في الفرس شيئاً ولم ينظر في الطاعة والمعصية، وقد كان عمر ناه عن الغزو في البحر ونهى غيره أيضاً اتباعاً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأبى بكر وخوف الغرر فندب العلاء الناس إلى فارس فأجابوه، وفرّقهم أجناداً، على أحدها الجارود بن المعلّى، وعلى الآخر سوار بن همام، وعلى الآخر خُليد بن المنذر بن ساوى، وخُليد على جميع الناس، وحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر، فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا إلى إصطخر وبإزاهم أهل فارس وعليهم الهرذ، فجالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم، فقام خُليد في الناس فخطبهم ثم قال: أما بعد فإن القوم لم يدعوكم إلى حربهم وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب، ﴿اسْتَبِينُوا بالصبر والصلوة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٢ الآية ٤٥] فأجابوه إلى ذلك ثم صلّوا الظهر ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً بمكان (٥٣٩/٢) يُدعى طاووس فقتل سوار والجارود.

وكان خُليد قد أمر أصحابه أن يقاتلوا رجالة ففعلوا فقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة، ثم خرجوا يريدون البصرة ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً، وأخذت الفرس منهم طرقهم فمسكروا وامتنعوا.

ولما بلغ عمرَ صنع العلاء أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاد جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا، وقال فلاني قد ألقى في روعي كذا وكذا نحو الذي كان، وأمر العلاء بأثقل الأشياء عليه، تأمير سعد عليه.

فشخص العلاء إلى سعد بمن معه، وأرسل عتبة جيشاً كثيفاً في اثني عشر ألف مقاتل فيهم عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة والأحنف بن قيس وغيرهم، فخرجوا على البغال يجنبون الخيل وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم أحد بني عامر بن لؤي، فسار بالناس وساحل بهم لا يعرض له أحد حتى التقى أبو سبرة وخُليد بحيث أخذ عليهم الطريق عُقب وقعة طاووس، وإنما كان ولي قتالهم أهل إصطخر وحدهم ومن شدّ من غيرهم، وكان أهل إصطخر حيث أخذوا الطريق على المسلمين، فجمعوا أهل فارس عليهم فجاؤوا من كل جهة فالتقوا هم وأبو سبرة بعد طاووس وقد توافت إلى المسلمين أمدادهم، وعلى المشركين سهرك، فاقتتلوا ففتح الله

الموعِد بين سُلمى وحرملة وغالب وكُليب، وكان الهرمزان يومئذ بين نهر تيرى وبين دُلُك وخرج سُلمى وحرملة صبيحتهما في تعبته وأنهما نُعيماً وَمَنْ معه فالتقوا هم والهرمزان بين دُلُك ونهر تيرى، وسُلمى بن القين على أهل البصرة، ونعيم بن مقرن على أهل الكوفة، فاقتلوا.

فبينما هم على ذلك أقبل مدد من قبل غالب وكليب، وأتى الهرمزان الخبر بأن مناذر ونهر تيرى قد أخذوا، فكسر ذلك قلب الهرمزان وَمَنْ معه وهزمه الله وإياهم، فقتل المسلمون منهم ما شأوا وأصابوا ما شأوا واتبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دُجِيل وأخذوا ما دونه وعسكروا بحيال سوق الأهواز، وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وأقام، وصار دجيل بين الهرمزان والمسلمين. فلما رأى الهرمزان ما لا طاقة [له] به طلب الصلح، فاستأمرُوا عُبَيْة، فأجاب إلى ذلك على الأهواز كلها ويهر جانقذق ما خلا نهر تيرى ومناذر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فإنه لا يرد عليهم، وجعل سُلمى على مناذر مسلحة وأمرها إلى غالب، وحرملة على نهر تيرى وأمرها إلى كليب، فكانا على مصالح البصرة. وهاجرت طوائف من بني العم فزلوا البصرة.

ووقد عتبة وفداً إلى عمر، منهم: سُلمى وجماعة من أهل البصرة، فأمرهم عمر أن يرفعوا حوائجهم، فكلّمهم قال: أما العامة فانت صاحبا، وطلبوا لأنفسهم، [إلا ما كان من] الأحنف بن قيس فإنه قال: يا أمير المؤمنين إنك كما ذكرُوا، ولقد يعزب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة، وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر (٥٤٤/٢) ويسمع بأذانهم، فإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة ومن العيون العذاب والجنان الخصاب فتأتيهم ثمارهم ولم يحصدوا، وإنّا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة وعقة ناشئة، طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأجاج، يجري إليها ما جرى في مثل مريء النعاسة، دارنا فعمّة، ووظيفتنا ضيقة، وعددنا كثير، وأشرافنا قليل، وأهل البلاء فينا كثير، درهمنا كبير، وقفيزنا صغير، وقد وسّع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها. فلما سمع عمر قوله أحسن إليهم وأقطعهم ممّا ما كان فينا لأهل كسرى زادهم، ثم قال: هذا الفتى سيّد أهل البصرة، وكتب إلى عتبة فيه بأن يسمع منه ويرجع إلى رأيه، وردّهم إلى بلدهم.

وبينا الناس على ذلك من ذمتهم مع الهرمزان وقع بين الهرمزان وغالب وكليب في حدود الأرضين اختلاف، فحضر سُلمى وحرملة لينظرا فيما بينهم فوجدا غالباً وكلياً محقّقين والهرمزان مبطلاً فحالاً بينهما وبينه، فكفر الهرمزان ومنع ما قبله واستعان بالأكراد وكفّ جنده، وكتب سُلمى وَمَنْ معه إلى عتبة

تسعة وعشرين رجلاً، منهم: أنس بن مالك وعمران بن حُصَيْن وهشام بن عامر، وخرج معهم فقدم البصرة فدفع الكتاب بإمارته إلى المغيرة، وهو أوجز كتاب وأبلغه: أمّا بعد فإنه بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً، فسلمت إليه ما في يدك والعجل. فاهدى إليه المغيرة وليدة تسمى عقيلة.

ورحل المغيرة ومعه أبو بكر والشهود، فقدموا على عمر، فقال له المغيرة: سل هؤلاء الأعبد كيف رأوني أمستقبلهم أم مستدبرهم، وكيف رأوا المرأة أو عرفوها، فإن كانوا مستقبليّ فكيف لم أستر، أو مستدبريّ فبأي شيء استحلّوا النظر إلي في منزلي على امرأتي؟ والله ما أتيت إلا امرأتي! وكانت تشبهها. فشهد أبو بكر أنه رآه على أم جميل يدخله كالميل في المكحلة وأنه رآهما مستدبرين، وشهد شبل ونافع مثل ذلك. وأمّا زياد فإنه قال: رأيته جالساً بين رجلي امرأة فرايت قدمين مخضوبتين تخفقان واستين مكشوفتين وسمعت حفراً شديداً. قال: هل رأيت كالميل في المكحلة؟ قال: لا. قال: هل تعرف المرأة؟ قال: لا ولكن أشبهها. قال: فتفتح. وأمر بالثلاثة فجلبوا (٥٤٢/٢) الحد. فقال المغيرة: اشفني من الأعبد. قال: اسكت أسكت الله نامتك، أمّا والله لو تمّت الشهادة لرجمتك بأحجارك!

ذكر الخبر عن فتح الأهواز ومناذر ونهر تيرى

وفي هذه السنة فتحت الأهواز ومناذر ونهر تيرى، وقيل: كانت سنة عشرين.

وكان السبب في هذا الفتح أنه لما انهزم الهرمزان يوم القادسية، وهو أحد البيوتات السبعة في أهل فارس، وكانت أمته منهم يهر جانقذق وكور الأهواز، فلما انهزم قصد خوزستان فملكها وقاتل بها مَنْ أرادهم، فكان الهرمزان يغير على أهل ميسان ودستميان من مناذر ونهر تيرى. فاستمد عُبَيْة بن غزوان سعداً فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان ودستميان حتى يكونا بينهما وبين نهر تيرى، ووجه عتبة ابن غزوان سُلمى بن القين وحرملة بن مُرْبَطة، وكانا من المهاجرين مع رسول الله ﷺ، وهما من بني العدوية من بني حنظلة، فنزلا على حدود ميسان ودستميان بينهما وبين مناذر، ودعوا بني العم، فخرج إليهم غالب الوائلي وكُليب بن وائل الكلبي فتركاً نعيماً [ونعيمياً] وأتيا سُلمى وحرملة وقالوا: انتما من العشرة وليس لكما منزل، فإذا كان يوم كذا وكذا فانهذا للهرمزان، فإن أحلنا يشور بمناذر والآخر بنهر تيرى فتقتل المقاتلة ثم يكون وجهنا إليكم، فليس دون الهرمزان شيء إن شاء الله، ورجعوا وقد استجابا واستجاب قومهما بنو العم بن مالك، وكانوا ينزلون خوزستان قبل الإسلام، فأهل البلاد (٥٤٣/٢) يأمنونهم. فلما كان تلك الليلة ليلة

بذلك، فكتب عتبة إلى عمر، فكتب إليه عمر يأمره بقصده، وأمدّ المسلمين بحُرْقُوص بن زُهَيْر السعديّ، كانت له صجبة من رسول الله، وأمّره على القتال وعلى ما غلب عليه. وسار الهرمزان ومن معه وسار المسلمون إلى جسر سوق الأهواز وأرسلوا إليه: إِمَّا أَنْ تَعْبِرَ إِلَيْنَا أَوْ نَعْبِرَ إِلَيْكُمْ. فقال: اعبروا إلينا. فعبروا فوق الجسر فاقتتلوا ممّا يلي سوق (٥٤٥/٢) الأهواز. فانهزم الهرمزان وسار إلى رامهرمز، وفتح حرقوص سوق الأهواز ونزل بها واتّسعت له بلادها إلى نُسْتَر، ووضع الجزية، وكتب بالفتح إلى عمر وأرسل إليه الأخماس.

ذكر صلح الهرمزان وأهل نُسْتَر مع المسلمين

وفي هذه السنة فُتِحَتْ نُسْتَر، وقيل: سنة ست عشرة، وقيل: سنة تسع عشرة.

قيل: ولما انهزم الهرمزان يوم سوق الأهواز وافتتحها المسلمون بعث حرقوص جزءً بن معاوية في أثره بأمر عمر إلى سوق الأهواز، فما زال يقتلهم حتى انتهى إلى قرية الشعر وأعجزه الهرمزان، فمال جزء إلى دُورق، وهي مدينة سُرّ، فأخذها صافيةً ودعا مَنْ هرب إلى الجزية، فأجابوه، وكتب إلى عمر وعُتْبَةُ بذلك، فكتب عمر إلى حُرْقُوص وإليه بالمقام فيما غلبا عليه حتى يأمرهما بأمره، فعمر جزء البلاد وشقّ الأنهار وأحيا الموات. وراسلهم الهرمزان يطلب الصلح، فأجاب عمر إلى ذلك وأن يكون ما أخذه المسلمون بأيديهم، ثم اصطَلَحُوا على ذلك، وأقام الهرمزان والمسلمون يمتنعونه إذا قصده الأكراد ويجيء إليهم. ونزل حرقوص جبل الأهواز، وكان يشقّ على النَّاس الاختلاف إليه، فبلغ ذلك عمر فكتب إليه يأمره بنزول السهل وأن لا يشقّ على مسلم ولا معاهد ولا تدرك فترة ولا عجلة فتكدّر دنياك وتذهب آخرتك. وبقي حرقوص إلى يوم صِفَيْن، وصار حُرُورِيًّا وشهد النهروان مع الخوارج. (٥٤٦/٢)

ذكر فتح رامهرمز ونُسْتَر وأسر الهرمزان

قيل: كان فتح رامهرمز ونُسْتَر والشُّوس في سنة سبع عشرة، وقيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين.

وكان سبب فتحها أنّ يزجرجد لم يزل وهو بمرو يُشير أهل فارس أسفاً على ما خرج من ملكهم، فتحركوا وتكاثبوا هم وأهل الأهواز وتعاقدوا على النصرة، فجاءت الأخبار حرقوص بن زُهَيْر وجزءاً وسُلْمَى وحرملة، فكتبوا إلى عمر بالخبر، فكتب عمر إلى سعد: أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرن وعجلّ فلينزلوا بإزاء الهرمزان ويتحققوا أمره. وكتب إلى أبي موسى: أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً وأمرّ عليهم سهل ابن عديّ أخا سهيل وابعث معه البراء بن مالك ومجزأة بن ثُور وعرفجة بن هرثمة

وغيرهم، وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعاً أبو سبرة بن أبي رُهم. فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة فسار إلى الأهواز على البغال يجنبون الخيل، فخلف حُرْقُوصاً وسُلْمَى وحرملة وسار نحو الهرمزان وهو برامهرمز. فلَمَّا سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدة ورجا أن يقطعته ومعه أهل فارس، فالتقى النعمان والهرمزان بَارِثِك فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إنَّ الله، عزَّ وجلَّ، هزم الهرمزان فترك رامهرمز ولحق بَنَسْتَر، وسار النعمان إلى رامهرمز ونزلها وصعد إلى إِيْذَج، فصالحه تيرؤنه (٥٤٧/٢) على إيْذَج ورجع إلى رامهرمز فأقام بها. ووصل أهل البصرة فنزلوا سوق الأهواز وهم يريدون رامهرمز، فأناهم خبر الواقعة وهم بسوق الأهواز، وأناهم الخبر أنّ الهرمزان قد لحق بَنَسْتَر، فساروا نحوه وسار النعمان أيضاً وسار حرقوص وسُلْمَى وحرملة وجزء فاجتمعوا على نُسْتَر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس والجبال والأهواز في الخنادق وأمدّهم عمر بأبي موسى وجعله على أهل البصرة، وعلى الجميع أبو سبرة، فحاصروهم أشهراً وأكثروا فيهم القتل، وقتل البراء بن مالك، وهو أخو أنس بن مالك، في ذلك الحصار إلى الفتح مائة مبارزة سوى مَنْ قتل في غير ذلك، وقتل مثله مجزأة بن ثُور وكعب بن ثُور وعبدية من أهل البصرة وأهل الكوفة، وزاحفهم المشركون أيام نُسْتَر ثمانين زحفاً يكون لهم مرة ومرة عليهم. فلَمَّا كان في آخر زحفٍ منها واشتدَّ القتال قال المسلمون: يا براء أقسم على ربك ليهزمهم [لنا]. قال: اللهم اهزمهم لنا واستشهدني، وكان مجاب الدعوة، فهزمهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثم أحتموها عليهم ثم دخلوا مدينتهم وأحاط بها المسلمون.

فبينما هم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهم وطالت حربهم خرج رجل إلى النعمان يستأمنه عل أن يدلّه على مدخل يدخلون منه، ورمى في ناحية أبي موسى بسهم: إن آمتموني دلّلتكم على مكان تأتون المدينة منه. فأمنوه في نشابة. فرمى إليهم بأخرى وقال: انهضوا من قبل مخرج الماء فإنكم تقتحمونها. فندب النَّاس إليه، فانتدب له عامر بن عبد قيس وبشر كثير ونهضوا لذلك المكان ليلاً، وقد ندب النعمان أصحابه ليسيروا مع الرجل الذي يدلّهم على المدخل إلى المدينة، فانتدب له بشر كثير، فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج، فدخلوا في السرب والنَّاس من خارج. فلَمَّا دخلوا المدينة كبروا (٥٤٨/٢) فيها وكبر المسلمون من خارج وفتحت الأبواب فاجتلدوا فيها فأناموا كلّ مقاتل، وقصد الهرمزان القلعة فتحصن بها وأطاف به الذين دخلوا، فنزل إليهم على حكم عمر، فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف، وسهم الراجل ألفاً. وجاء صاحب الرمية والرجل الذي خرج بنفسه فأمنوهما ومنّ أغلق بابيه معهما.

[شيئاً من] الفارسية، إلى أن جاء المترجم.

وقال عمر للوفد: لعلّ المسلمين يؤذون أهل الذمة فلهذا يتقضون بكم؟ قالوا: ما نعلم إلا وفاء. قال: فكيف هذا؟ فلم يشفه أحد منهم، إلا أن (٥٥٠/٢) الأحنف قال له: يا أمير المؤمنين إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وإنّ ملك فارس بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يُخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانعائهم وغدرهم، وإنّ ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم، فهناك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال: صدقتني والله! ونظر في حوائجهم وسرحهم. وأتى عمر الكتاب باجتماع أهل نهاوند، فأذن في الانسياح في بلاد الفرس.

وقُتل محمد بن جعفر بن أبي طالب شهيداً على تُستر في قول بعضهم.

(أزبك بفتح الهمزة، وسكون الراء، وضَمّ الباء الموحدة، وفي آخره كاف: موضع عند الأهواز).

ذكر فتح السوس

قيل: ولما نزل أبو سبرة على السوس وبها شهر يار أخو الهرمزان أحاط المسلمون بها وناوشوهم القتال مرّات، كلّ ذلك يصيب أهل السوس في المسلمين، فأشرف عليهم الرهبان والقيسيون فقالوا: يا معشر العرب إنّ ممّا عهد إلينا علماؤنا أنّه لا يفتح السوس إلا الدجال أو قوم فيهم الدجال، فإن كان فيكم فسفتحونها.

وسار أبو موسى إلى البصرة من السوس وصار مكانه على أهل البصرة بالسوس المقرب بن ربيعة، واجتمع الأعاجم بنهاوند، والنعمان على أهل (٥٥١/٢) الكوفة محاصراً أهل السوس مع أبي سبرة، وزرّ محاصراً أهل جُند يسابور. فجاء كتاب عمر بصرف النعمان إلى أهل نهاوند من وجهه ذلك، فناوشهم القتال قبل مسيره، فصاح أهلها بالمسلمين وناوشوهم وغازوهم، وكان صافي بن صياد مع المسلمين في خيل النعمان، فأتى صافي باب السوس فدفع برجله فقال: انفتح بظنار! وهو غضبان، فتقطعت السلاسل وتكسرت الأغلاق وتفتحت الأبواب ودخل المسلمون وألقى المشركون بأيديهم ونادوا: الصلح الصلح. فأجابهم إلى ذلك المسلمون بعدما دخلوها عنوة، واقتسموا ما أصابوا.

ثم افرقوا فصار النعمان حتى أتى نهاوند، وسار المقرب حتى نزل على جند يسابور مع زرّ.

وقيل لأبي سبرة: هذا جسد دانيال في هذه المدينة. قال: وما

وقُتل من المسلمين تلك الليلة بشر كثير، وممن قتل الهرمزان بنفسه مجزأة بن ثور والبراء بن مالك. وخرج أبو سبرة بنفسه في أثر المنهزمين إلى السوس ونزل عليها ومعه النعمان بن مقرن وأبو موسى، وكتبوا إلى عمر فكتب إلى أبي موسى برده إلى البصرة، وهي المرة الثالثة، فانصرف إليها من على السوس.

وسار زرّ بن عبد الله بن كليب الفقيمي إلى جُند يسابور فنزل عليها، وهو من الصحابة، وأمر عمر على جند البصرة المقرب، وهو الأسود بن ربيعة أحد بني ربيعة بن مالك، وهو صحابي أيضاً، وكانا مهاجرين، وكان الأسود قد وفد على رسول الله ﷺ، وقال: جئت لأقترب إلى الله بصحبتك، فسمّاه المقرب.

وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر بن الخطاب فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان، فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب وتاجه، وكان مكللاً بالياقوت، وحليته ليراه عمر والمسلمون، فطلبوا عمر فلم يجدوه، فسألوا عنه فقيل: جلس في المسجد لوفد من الكوفة، فوجدوه في المسجد متوسداً برنسه، وكان قد لبسه للوفد، فلما قاموا عنه توسدوه ونام، فجلسوا دونه وهو نائم والدرة في يده، فقال الهرمزان: أين عمر؟ قالوا: هو ذا. فقال: أين حرسه وحجابه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب. قال: فينبغي أن يكون نبياً. قالوا: بل يعمل بعمل الأنبياء. (٥٤٩/٢) فاستيقظ عمر بجلبة الناس فاستوى جالساً ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم. فقال: الحمد لله الذي أدلّ بالإسلام هذا وغيره أشباهه فأمر بنزع ما عليه، فزعه وألبسوه ثوباً صفيقاً، فقال له عمر: يا هرمزان، كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر، إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم فغلبناكم، فلما كان الآن معكم غلبتمونا. ثم قال له: ما حجّتك وما عذرک في انتفاضك مرة بعد أخرى؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك. قال: لا تخف ذلك، واستسقى ماء فأتي به في قدح غليظ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا فأتي به في إناء يرضاه، فقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب. فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفاه، فقال عمر: أعيّدوا عليه ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش. فقال: لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن أستأمن به. فقال عمر له: إني قاتلك. فقال: قد أمتني. فقال: كذبت. قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قد أمتته. قال عمر: يا أنس، أنا أو من قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك! والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبك. قال: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك حتى تشربه. وقال له من حوله مثل ذلك. فأقبل على الهرمزان وقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلا أن تسلم. فأسلم، ففرض له في القين وأنزله المدينة؛ وكان المترجم بينهما المغيرة بن شعبه، وكان يفقه

عليّ بذلك! فأقرّه في أيديهم.

المسلمون، فقالوا: رमितم بالأمان قبلناه وأقررنا بالجزية. فقالوا: ما فعلنا! وسأل المسلمون فإذا عبد يُدعى مكثفاً كان أصله منها فعل هذا، فقالوا: هو عبد. فقال أهلها: لا نعرف العبد من الحرّ، وقد قبلنا الجزية وما بلدنا، فإن شتمت فاغدروا. فكتبوا إلى عمر فأجاز أمانهم فأمنوهم وانصرفوا عنهم.

ذكر مسير المسلمين إلى كرمان وغيرها

قيل: في سنة سبع عشرة أذن عمر للمسلمين في الانسحاب في بلاد فارس، وانتهى في ذلك إلى رأي الأحنف، فأمر أبا موسى أن يسير من البصرة إلى مقطع دمة البصرة فيكون هناك حتى يأتيه أمره، ويبحث بالوية من ولّى مع سهيل بن عديّ، فدفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس، ولواء أردشير خرة وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء إسطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء فسا ودارابجرد إلى سارية بن زئيم الكناني، ولواء كرمان إلى سهيل بن عديّ، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو، وكان من (٥٥٤/٢) الصحابة، ولواء مكران إلى الحكم بن عُمير التغلبيّ، فخرجوا ولم يتهتأ مسيرهم إلى سنة ثمان عشرة، وأمدّهم عمر بنفر من أهل الكوفة، فأمدّ سهيل بن عديّ بعبد الله بن عتيبان، وأمدّ الأحنف بلقمة بن النضر ويعبد الله بن أبي عقيل وبريعي بن عامر وأمدّ عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الأشجعيّ، وأمدّ الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق في جموع.

وقيل: كان ذلك سنة إحدى وعشرين، وقيل: سنة اثنتين وعشرين، وسنذكر كيفية فتحها هناك وذكر أسبابها إن شاء الله تعالى.

وكان على مكة هذه السنة عتاب بن أسيد في قول، وعلى اليمن يعلى ابن مُنية، وعلى اليمامة والبحرين عثمان بن أبي العاص، وعلى عُمان حذيفة بن يمحضر، وعلى الشام من ذكر قبل، وعلى الكوفة وأرضها سعد بن أبي وقاص، وعلى قضائها أبو قرة، وعلى البصرة وأرضها أبو موسى، وعلى القضاء أبو مريم الحنفي، وقد ذكر من كان على الجزيرة والموصل قبل.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب. (٥٥٥/٢)

سنة ثمان عشرة

ذكر القحط وعام الرمادة

في سنة ثمان عشرة أصاب الناس مجاعة شديدة، وجذب وقحط، وهو عام الرمادة، وكان الريح تسفي تراباً كالرماد فسُمي عام الرمادة، واشتدّ الجوع حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها. وفيه أيضاً كان

وكان دانيال قد لزم نواحي فارس بعد بخت نصر. فلما حضرته الوفاة ولم يرَ أحداً على الإسلام أكرم كتاب الله عنّ لم يجبه فقال لابنه: ائت ساحل البحر فاخذف بهذا الكتاب فيه، فاخذه الغلام وغاب عنه وعاد وقال له: قد فعلت. قال: ما صنع البحر؟ قال: ما صنع شيئاً. فغضب وقال: والله ما فعلت الذي أمرتُك به! فخرج من عنده وفعل فعلته الأولى. فقال: كيف رأيت البحر صنع؟ قال: ماج واصطفق. فغضب أشدّ من الأوّل وقال: والله ما فعلت الذي أمرتُك به. فعاد إلى البحر وألقاه فيه، فانفلق البحر عن الأرض وانفجرت له الأرض عن مثل التّنور، فهوى فيها ثمّ انطقت عليه واختلط الماء، فلما رجع إليه وأخبره بما رأى قال: الآن صدقت. ومات (٥٥٢/٢) دانيال بالسوس، وكان هناك يستسقى بجسده، فاستأذنوا عمر فيه فأمر بدفنه.

وقيل في أمر السوس: إن يزيد جرد سار بعد وقعة جلولاء فنزل إسطخر ومعه سياه في سبعين من عظماء الفرس فوجهه إلى السوس والهرمزان إلى نُسْتَر، فنزل سياه الكتاتية، وبلغ أهل السوس أمر جلولاء ونزل يزيد جرد إسطخر، فسألوا أبا موسى الصلح، وكان محاصراً لهم، فصالحهم وسار إلى رامهرمز، ثم سار إلى نُسْتَر، ونزل سياه بين رامهرمز ونُسْتَر ودعا من معه من عظماء الفرس وقال لهم: قد علمتم أنّنا كنّا نتحدّث أنّ هؤلاء القوم سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في إيوانات إسطخر ويشدونّ خيولهم في شجرها، وقد غلبوا على ما رأيتم، فانظروا لأنفسكم. قالوا: رأينا رأيك. قال: أرى أن تدخلوا في دينهم. ووجهوا شيرويه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى، فشرط عليهم أن يقتلوا معه العجم ولا يقتلوا العرب، وإن قاتلهم أحد من العرب منعهم منهم، وينزلوا حيث شاؤوا، ويلحقوا بأشرف العطاء، ويعقد لهم ذلك عمر على أن يُسلموا، فأعطاهم عمر ما سألوا، فأسلموا وشهدوا مع المسلمين حصار نُسْتَر. ومضى سياه إلى حصن قد حاصره المسلمون في زيّ العجم، فألقى نفسه إلى جانب الحصن ونضح ثيابه بالدم، فرآه أهل الحصن صريعاً فظنّوه رجلاً منهم ففتحو باب الحصن ليدخلوه إليهم، فوثب وقاتلهم حتى خلّوا عن الحصن وهربوا، فملكه وحده. وقيل: إنّ هذا الفعل كان منه بنسْتَر. (٥٥٣/٢)

ذكر مصالحة جند يسابور

وفي هذه السنة سار المسلمون عن السوس فنزلوا بجند يسابور، ووزّر بن عبد الله محاصراً، فأقاموا عليها يقاتلونهم، فرمى إلى من بها من عسكر المسلمين بالأمان، فلم يفجأ المسلمين إلا وقد فتحت أبوابها وأخرجوا أسواقهم وخرج أهلها، فسألهم

إليك بعم نبيك، وبقيّة آبائه وكثير رجاله فإنك تقول وقولك الحق: ﴿وَأُمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٨، الآية: ٨٢]. فحفظتهما بصلاح آبائهما، فاحفظ اللهم نبيك، ﷺ، في عمّه، فقد دلونا به إليك مستشفعين مستغفرين. ثم أقبل على الناس فقال: استغفروا ربكم إنه كان غفاراً.

وكان العباس قد طال عمره وعينه تذرّفان ولحيته تجول على صدره وهو يقول: اللهم أنت الراعي فلا تهمل الضالّة ولا تدع الكبير بدار مضیعة، فقد صرخ الصغير ورقّ الكبير وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السرّ وأخفى، اللهم فأغنيهم بغناك قبل أن يقطنوا فيهلكوا فإنه لا يئاس إلا القوم الكافرون. فنشأت طريرة من سحاب، فقال الناس: ترون ترون! ثم التأمت ومشت فيها ريح ثم هذأت ودرّت، فوالله ما تروّحوا حتى اعتقوا الجدار وقلّصوا المآزر. فطلق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون: هنياً لك ساقى الحرمين! فقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

بَعَثِي سَقَى اللَّهِ الْحِجَازَ وَأَهْلَهُ عَشِيَّةً يَسْتَقِي بِشَيْئِهِ عُمَرُ (٥٥٨/٢)

توجّه بالعباس في الجديّ راغباً إليه فما إن رام حتى أتى المطر ومنازل رسول الله فينا ترائه فهل فوق هذا للمفاخر مُنتخِر

ذكر طاعون عمّواس

في هذه السنة كان طاعون عمّواس بالشام، فمات فيه أبو عبيدة بن الجراح، وهو أمير الناس، ومُعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث ابن هشام، وسُهَيْل بن عمرو، وعُتْبَةُ بن سهيل، وعامر بن غيلان الثقفي، مات وأبوه حي، وتغافى الناس منه.

قال طارق بن شهاب: أتينا أبا موسى في داره بالكوفة تحدّث عنده فقال: لا عليكم أن تخفوا فقد أصيب في الدار إنسان، ولا عليكم أن تنزّهوا من هذه القرية فتخرجوا في فسخ بلادكم ونزّهها حتى يُرفع هذا الوباء، وسأخبركم بما يُكره ويُتقى، من ذلك أن يظنّ من خرج أنه لو أقام مات، ويظنّ من أقام فأصابه لو خرج لم يصبه، فإذا لم يظنّ المسلم هذا فلا عليه أن يخرج؛ إني كنت مع أبي عبيدة بالشام عام طاعون عمّواس، فلمّا اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: أن سلام عليك، أما بعد فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشفّئك فيها، فعزمت عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تُقبل. فعرف أبو عبيدة (٥٥٩/٢) ما أراد فكتب إليه: يا أمير المؤمنين، قد عرفت حاجتك إليّ وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنه، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه، فحلّلتني من عزيمتك. فلمّا قرأ عمر الكتاب بكى، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، أمات أبو عبيدة؟ فقال: لا، وكان قد.

طاعون عمّواس، وفيه ورد كتاب أبي عبيدة على عمر يذكر فيه أن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب، منهم: ضرار وأبو جندل، فسألناهم فتأبوا، وقالوا: خيرنا فاخترنا. قال: فهل أنتم متّهون؟ ولم يعزم، فكتب إليه عمر: إنّما منعاه، فانتهوا، وقال له: ادعهم على رؤوس الناس وسلّمهم أحلال الخمر أم حرام، فإن قالوا: حرام، فاجلدّم ثمانين ثمانين، وإن قالوا: حلال، فاضرب أعناقهم. فسألهم فقالوا: بل حرام، فجلّدّم، وندموا على لجاجتهم، وقال: ليحدثنّ فيكم يا أهل الشام حدث، فحدث عام الرمادة، وأقسم عمر أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيي الناس. فقدمت السوق عكّة سمّن وطب من لبن، فاشترها غلام لعمر بآربعين درهماً ثم أتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين قد أبرّ الله يمينك وعظّم أجرك، قدم السوق وطب من لبن وعكّة من سمّن (٥٥٦/٢) ابعتهم بآربعين درهماً. فقال عمر: أغليت بهما فتصدّق بهما فلّني أكره أن أكل إسرافاً. وقال: كيف يعنيني شأن الرعيّة إذا لم يصبني ما أصابهم!

وكتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدّهم، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح بآربعة آلاف راحلة من طعام، فولّاه قسمتها فيمن حول المدينة، فقسمها وانصرف إلى عمله، وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز، وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام إلى المدينة، فصار الطعام بالمدينة كسعر مصر، ولم ير أهل المدينة بعد الرمادة مثلاًها حتى حُبس عنهم البحر مع مقتل عثمان، فذلّوا وتقاصروا، وكان الناس بذلك وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار.

فقال أهل بيت من مزيّنة لصاحبهم، وهو بلال بن الحارث: قد هلكنا فاذبح لنا شاة. قال: ليس فيهنّ شيء. فلم يزالوا به حتى ذبح فسلخ عن عظم أحمر، فنادى: يا محمّده! فأرني في المنام أن رسول الله، ﷺ، أتاه فقال: أبشّر بالحياء، إيت عمر فأقرئه مني السلام وقلّ له إني عهدتُك وأنت وفي العهد شديد العقد، فالكيس الكيس يا عمر! فجاء حتى أتى باب عمر فقال لغلامه: استأذن لرسول رسول الله، ﷺ، فأتى عمر فأخبره، ففرّج وقال: رأيت به ممّاً؟ قال: لا، فأدخله وأخبره الخبر، فخرج فنادى في الناس وصعد المنبر فقال: نشدّكم الله الذي هداكم هل رأيتم [مني] شيئاً تكرهون؟ قالوا: اللهم لا، ولم ذاك فأخبرهم، (٥٥٧/٢) ففطنوا ولم يظنّ عمر، فقالوا: إنّما استبطأك في الاستسقاء فاستسقى بنا. فنادى في الناس، وخرج معه العباس ماشياً فخطب وأوجز وصلى ثم جثا لركبتيه وقال: اللهم عجّزت عنا أنصارنا وعجّز عنا حولنا وقوتنا وعجّزت عنا أنفسنا ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم فاسقنا وأحي العباد والبلاد! وأخذ بيد العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وإن دموع العباس لتتحدّر على لحيته، فقال: اللهم إنّنا نتقرّب

بالطعن أو الطاعون. فقال رسول الله، ﷺ، فبالطاعون.

ولما هلك يزيد بن أبي سفيان استعمل عمرُ أخاه معاوية بن أبي سفيان على دمشق وأخراجها، واستعمل شُرْحَيْبِلَ بن حَسَنَةَ على جند الأردن وأخراجها. وأصاب الناس من الموت ما لم يروا مثله قط، وطمع له العدو في المسلمين لطول مكثه، مكث شهوراً، وأصاب الناس بالبصرة مثله، وكان عدة من مات في طاعون عمواس خمسة وعشرين ألفاً. (٥٦١/٢)

ذكر قدوم عمر إلى الشام بعد الطاعون

لما هلك الناس في الطاعون كتب أمراء الأجناد إلى عمر بما في أيديهم من الموارث، فجمع الناس واستشارهم وقال لهم: قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم، فأشيروا عليّ، وفي القوم كعب الأحبار، وفي تلك السنة أسلم، فقال كعب: يا أمير المؤمنين، بأيها تريد أن تبدأ؟ قال: بالعراق. قال: فلا تفعل فإن الشر عشرة أجزاء، تسعة منها بالمشرق وجزء بالمغرب، والخير عشرة أجزاء، تسعة بالمغرب وجزء بالمشرق، وبها قرن الشيطان وكل داء عضال. فقال عليّ: يا أمير المؤمنين، إن الكوفة للهجرة بعد الهجرة، وإنها لقبة الإسلام، لياتيها يوم لا يبقى مسلم إلا وحن إليها، وليُصْرَنَ بأهلها كما انتصر بالحجارة من قوم لوط. فقال عمر: إن موارث أهل عمّواس قد ضاعت، أبدأ بالشام فأقسم الموارث وأقيم لهم ما في نفسي ثم أرجع فأثقل في البلاد وأبدي إليهم أمري.

فسار عن المدينة واستخلف عليها عليّ بن أبي طالب واتخذ آيلة طريقاً، فلما دنا منها ركب بعيره وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبة، فلما تلقاه الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم، يعني نفسه، فساروا أمامهم، وانتهى هو إلى آيلة فنزلها، وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين إليها ونزلها، فرجعوا [إليه]. وأعطى عمر الأسقف بها قميصه، وقد تخرق (٥٦٢/٢) ظهره، ليخسله ويرقع، ففعل وأخذ لبسه، وخاط له الأسقف قميصاً غيره فلم يأخذه. فلما قدم الشام قسم الأرزاق، وسعى الشواتي والصوائف، وسد فروج الشام ومسالحها، وأخذ يدورها، واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة، واستعمل معاوية، وعزل شُرْحَيْبِلَ بن حَسَنَةَ وقام بعذره في الناس وقال: إني لم أعزله عن سخطه ولكني أريد رجلاً أقوى من رجس. واستعمل عمرو بن عبّة على الأهراء. وقسم موارث أهل عمّواس، فورث بعض الورثة من بعض، وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم. وخرج الحارث بن هشام في سبعين من أهل بيته فلم يرجع منهم إلا أربعة. ورجع عمر إلى المدينة في ذي القعدة.

ولما كان بالشام وحضرت الصلاة قال له الناس: لو أمرت

وكتب إليه عمر ليرفعن بالمسلمين من تلك الأرض، فدعا أبا موسى فقال له: ارتد للمسلمين منزلاً. قال: فرجعت إلى منزلي لأرتحل فوجدت صاحبتني قد أصيبت. فرجعت إليه فقلت له: والله لقد كان في أهلي حدث فقال: لعل صاحبتك أصيبت؟ قلت: نعم. قال: فأمر ببعيره فرحل له. فلما وضع رجله في غرزه طعن، فقال: والله لقد أصيبت! ثم سار بالناس حتى نزل الجابية، وكان أبو عبيدة قد قام في الناس فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة ربيكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة سأل الله أن يقسم له منه حظاً فطعن فمات. واستخلف على الناس معاذ بن جبل، فقام خطيباً بعده فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة ربيكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم، وإن معاذاً يسأل الله أن يقسم لآل معاذ حظهم. فطعن ابنه عبد الرحمن فمات، ثم قام فدعا به لنفسه فطعن في راحته فلقد كان يقبلها ثم يقول: ما أحب أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا. فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص، فخرج بالناس إلى الجبال، ورفع الله عنهم. فلم يكره عمر ذلك من عمرو.

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب قدم الشام، فلما كان بسرخ لقيه أمراء الأجناد فيهم أبو عبيدة بن الجراح، فأخبروه بالوباء وشدته، وكان معه المهاجرون والأنصار، خرج غازياً، فجمع المهاجرين الأولين والأنصار فاستشارهم، فاختلفوا عليه، فمنهم القائل: خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا، ومنهم (٥٦٠/٢) القائل: إنه بلاء وفناء فلا نرى أن تقدم عليه. فقال لهم: قوموا ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود، فنأدى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر. فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ فسمع بهم عبد الرحمن بن عوف فقال: إن النبي، ﷺ، قال: إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه فانصرف عمر بالناس إلى المدينة.

وهذه الرواية أصح، فإن البخاري ومسلماً أخرجاها في صحيحهما، ولأن أبا موسى كان هذه السنة بالبصرة ولم يكن بالشام، لكن هكذا ذكره وإنما أوردناه لتنبيه عليه.

(عمّواس بفتح العين المهملة والميم والواو، وبعد الألف سين مهملة. وسرخ بفتح السين المهملة، وسكون الراء المهملة، وآخره غين معجمة).

ومعنى قوله: دعوة نبيكم، حين جاءه جبرائيل فقال: فناء أمّتك

بهم عمرو قاتلوه، فأرسل إليهم: لا تعجلونا حتى نعلم إليكم، وليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام، فكفوا، وخرجا إليه، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصية النبي، ﷺ، بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل، عليه السلام، فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء أئمة حتى ترجع إليك. فقال عمرو: مثلي لا يُخدع ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنتظر. فقالا: زدنا، فزادهما يوماً، فرجعا (٥٦٥/٢) إلى المقوقس. فأبى أربطون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم، فقال لأهل مصر: أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم. فلم يفجأ عمراً إلا البيات وهو على عذة، فلقوه فقتل أربطون وكثير ممن معه وانهزم الباقون، وسار عمرو والزبير إلى عين الشمس وبها جمعهم، وبعث إلى قرمأ أبرهة بن الصبياح، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية، فنزل عليها. قيل: وكان الإسكندر وفرما أخوين، ونزل عمرو بعين الشمس، فقال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلى قتال قوم هزموا كسرى وقصر وغلبوهم على بلادهم! فلا تعرض لهم ولا تعرضنا لهم! -وذلك في اليوم الرابع- [فأبى] وناهدهم وقاتلهم.

فلما التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا جال المسلمون، فذمرهم عمرو، فقال له رجل من اليمن: إننا لم نخلق من حديد. فقال له عمرو: اسكت، إنما أنت كلب. قال: فانت أمير الكلاب. فنادى عمرو بأصحاب النبي، ﷺ، فأجابوه، فقال: تقدّموا فيكم ينصر الله، فتقدّموا وفيهم أبو بردة وأبو بزة وتبعهم الناس، وفتح الله على المسلمين وظفروا وهزموا المشركين، فارتقى الزبير بن العوام سورها، فلما أحسوا فتحو الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم، ونزل الزبير عليهم عنوة حتى خرج على عمرو من الباب معهم، فاعتقدوا صلحاً بعدما أشرفوا على الهلكة، فأجروا ما أخذوا عنوة مجرى الصلح فصاروا ذمة، وأجروا من دخل في صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر، ومن اختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه.

واجتمعت خيول المسلمين بمصر وبنوا القسطنطين ونزلوه، وجاء أبو مريم (٥٦٦/٢) وأبو مريام إلى عمرو وطلب منه السبايا التي أصيبت بعد المعركة، فطردهما، فقالا: كل شيء أصبتموه منذ فارتقاكم إلى أن رجعنا إليكم ففي ذمة، فقال عمرو لهما: أنغيرون علينا وتكونون في ذمة؟ قالوا: نعم. فقسم عمرو بن العاص السبي على الناس وتفرق في بلدان العرب. وبعث بالأخماس إلى عمر بن الخطاب ومعها وفد، فأخبروا عمر بن الخطاب بحالهم كله وبما قال أبو مريم، فرد عمر عليهم سبي من لم يقاتلهم في تلك الأيام الأربعة وترك سبي من قاتلهم فردوهم.

وحضرت القبط باب عمرو، وبلغ عمراً أنهم يقولون: ما أرت العرب! ما رأينا مثلاً دان لهم. فخاف أن يطعمهم ذلك فأمر بجزر طبخت ودعا أمراء الأجناد فأعلموا أصحابهم فحضروا عنده

بلافاً فاذن، فأمره فاذن، فما بقي أحد أدرك النبي، ﷺ، ويلاذ يؤذن إلا ويكي حتى بل لحيته، وعمر أشدهم بكاء، ويكي من لم يدركه بيكانهم ولذكروهم رسول الله، ﷺ.

قال الواقدي: إن الرهاء وحران والرقّة فُتحت هذه السنة على يد عياض بن غنم، وإن عين الورد، وهي رأس عين، فُتحت فيها على يد عمير بن سعد، وقد تقدّم شرح فتحها.

في هذه السنة في ذي الحجة حول عمر المقام إلى موضعه اليوم، وكان ملصقاً بالبيت. وفيها استقضى عمر شريح بن الحارث الكندي على الكوفة، وعلى البصرة كعب بن سور الأزدي. وكانت الولاة على الأمصار الولاة (الذين كانوا عليها) في السنة قبلها. وحج بالناس عمر بن الخطاب. (٥٦٣/٢)

سنة تسع عشرة

قال بعضهم: إن فتح جلولاء والمدائن كان [في] هذه السنة [على يد سعد]، وكذلك فتح الجزيرة، وقد تقدّم ذكر فتح الجميع والخلاف فيه. وقيل: فيها كان فتح قيسارية على يد معاوية، وقيل: سنة عشرين، وقد تقدّم أيضاً ذكر ذلك سنة ست عشرة.

وفي هذه السنة سالت حرّة ليلى، وهي قريب المدينة، ناراً، فأمر عمر بالصدقة، فتصدق الناس فانطفأت.

وحج بالناس هذه السنة عمر. وكان عماله فيها من تقدّم ذكرهم. وفيها قتل صفوان بن المعطل السلمي، وقيل: بل مات سنة ستين آخر خلافة معاوية. وفيها مات أبي بن كعب، وقيل: بل مات سنة عشرين، وقيل: اثنتين وعشرين، وقيل: اثنتين وثلاثين، والله أعلم. (٥٦٤/٢)

سنة عشرين

ذكر فتح مصر

قيل: في هذه السنة فُتحت مصر في قول بعضهم على يد عمرو بن العاص والإسكندرية أيضاً، وقيل: فُتحت الإسكندرية سنة خمس وعشرين، وقيل: فُتحت مصر سنة ست عشرة في ربيع الأول، وبالجملة فينبغي أن يكون فتحها قبل عام الرمادة لأن عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القلزم من مصر إلى المدينة، والله أعلم، وقيل غير ذلك.

وأما فتحها فإنه لما فتح عمر بيت المقدس وأقام به أياماً وأمضى عمرو ابن العاص إلى مصر وأتبعه الزبير بن العوام فأخذ المسلمون باب اليون وساروا إلى مصر فلقبهم هناك أبو مريم، جاثليق مصر، ومعه الأسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم، فلما نزل

كَأَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ. وَأَمَّا السَّيْبِيُّ فَإِنَّ أَعْطَاكَ مَلِكُهُمُ الْجِزْيَةَ عَلَى أَنْ تَخِيروا مَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْهُمْ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَدِينِ قَوْمِهِ فَمَنْ اخْتَارَ الْإِسْلَامَ فَهُوَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ اخْتَارَ دِينَ قَوْمِهِ فَضَعُ عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ، وَأَمَّا مَنْ تَفَرَّقَ فِي الْبِلَادِ فَإِنَّهُ لَا تَقْدَرُ عَلَى رَدِّهِمْ. فَعَرَضَ عَمْرُو ذَلِكَ عَلَى صَاحِبِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، فَأَجَابَ إِلَيْهِ، فَجَمَعُوا السَّيْبِيَّ وَاجْتَمَعَتِ النَّصَارَى وَخِيَرُوهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، فَمَنْ اخْتَارَ الْمُسْلِمِينَ كَبَرُوا، وَمَنْ اخْتَارَ النَّصَارَى نَخَرُوا وَصَارَ عَلَيْهِ جِزْيَةٌ، حَتَّى فَرَّغُوا.

وَكَانَ مِنَ السَّيْبِيِّ أَبُو مَرْيَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَاخْتَارَ الْإِسْلَامَ وَصَارَ عَرِيفَ زَيْدٍ. وَكَانَ مَلُوكُ بَنِي أُمَيَّةٍ يَقُولُونَ: إِنَّ مِصْرَ دُخِلَتْ عَنْوَةً وَأَهْلُهَا عَيِّدُنَا زَيْدٌ عَلَيْهِمْ شَنْنًا. وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ.

ذِكْرُ عِدَّةِ حَوَادِثَ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، أَعْنِي سَنَةَ عَشْرِينَ، غَزَا أَبُو بَحْرِيَّةُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ أَرْضَ الرُّومِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ دَخَلَهَا فِيمَا قِيلَ، وَقِيلَ أَوَّلُ: مَنْ دَخَلَهَا مَيْسَرَةً بَنَ (٥٦٩/٢) مَسْرُوقُ الْعَبْسِيِّ فَسَبَى وَغَنِمَ. وَقِيلَ: فِيهَا عَزَلَ عَمْرُ قَدَامَةَ بْنِ مَطْعُونٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ وَحَذَاهُ فِي الْخَمْرِ وَاسْتَعْمَلَ أَبَا بَكْرَةَ عَلَى الْبَحْرَيْنِ وَالْيَمَامَةِ. وَفِيهَا تَزَوَّجَ عَمْرُ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْوَلِيدِ أُمِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ. وَفِيهَا عَزَلَ عَمْرُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ عَنِ الْكُوفَةِ لَشُكَايَتِهِمْ إِلَيْهِ وَقَالُوا: لَا يُحْسِنُ يَصَلِّي. وَفِيهَا قَسَمَ عَمْرُ خَيْبَرَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَجْلَى الْيَهُودِ عَنْهَا وَقَسَمَ وَادِي الْقُرَى. وَفِيهَا أَجْلَى يَهُودِ نَجْرَانَ إِلَى الْكُوفَةِ. وَفِيهَا بَعَثَ عَمْرُ عُلَمَاءَهُ بَنَ مُجَزَّرَ الْمَذَلُجِيَّ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَكَانَتْ تَطَرَّقَتْ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَأَصَابَ الْمُسْلِمُونَ، فَجَعَلَ عَمْرُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَحْمِلَ فِي الْبَحْرِ أَحَدًا أَبَدًا، يَعْنِي لِلْغَزْوِ، وَقِيلَ سَنَةٌ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ.

(مُجَزَّرُ بَجِيمٍ وَزَائِينَ الْأَوَّلَى مَكْسُورَةٌ مُشَدَّدَةٌ).

وَفِيهَا مَاتَ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ؛ أَسِيدُ تَصْغِيرِ أَسَدٍ. وَخُضَيْرٌ بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ الْمَضْمُومَةِ، وَالضَّادُ الْمَفْتُوحَةُ، وَالرَّاءُ. وَفِيهَا مَاتَ هِرْقَلُ وَمَلِكُ ابْنَةِ قُسْطَنْطِينَ. وَفِيهَا مَاتَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ وَنَزَلَ فِي قَبْرِهَا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَابْنُ أَخِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ.

وَحِجَّ بِالنَّاسِ عَمْرُ. وَكَانَ عَمَّالُهُ عَلَى الْأَمْصَارِ مَنْ كَانَ قَبْلَ هَذِهِ السَّنَةِ إِلَّا مَنْ ذَكَرْتُ أَنَّهُ عَزَلَهُ. وَكَانَ قَضَايَتُهُ فِيهَا الْقَضَاةَ فِي السَّنَةِ قَبْلَهَا.

وَفِيهَا مَاتَ عِيَاضُ بْنُ غَنَمٍ، وَهُوَ الَّذِي فَتَحَ الْجَزِيرَةَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَجَازَ الدَّرْبَ إِلَى الرُّومِ. وَفِيهَا مَاتَ بِلَالُ بْنُ رِيَّاحٍ مُؤَدِّنُ النَّبِيِّ ﷺ، بِدِمَشْقَ، وَقِيلَ بِحَلَبَ. وَفِيهَا مَاتَ أَنَسُ بْنُ مَرْثَدَ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ الْقُتَيْبِيُّ، وَلَهُ وَلَايَةٌ وَلَجَدَتْهُ صَحْبَةٌ، وَقُتِلَ أَبُوهُ فِي غَزْوَةِ الرَّجِيعِ. وَفِيهَا مَاتَ سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ بْنِ جَنْدِيسٍ الْمُجَمَّحِيُّ، شَهِيدُ فَتْحِ خَيْبَرَ، وَكَانَ قَاضِيًا، وَكَانَ عَلَى جَمْعٍ حَتَّى مَاتَ، وَقِيلَ: مَاتَ سَنَةٌ تِسْعَ

وَأَكَلُوا أَكْلًا عَرِيثًا، انْتَشَلُوا وَحَسُوا فِي الْعَبَاءِ بِغَيْرِ سِلَاحٍ، فَازْدَادَ طَمَعُهُمْ، وَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ [أَنْ] يَحْضُرُوا الْغَدَّ فِي ثِيَابٍ [أَهْلًا] مِصْرَ وَأَحْذَيْتَهُمْ، فَفَعَلُوا، وَأَذَنَ لِأَهْلِ مِصْرَ فَرَأَوْا شَيْئًا غَيْرَ مَا رَأَوْا بِالْأَمْسِ، وَقَامَ عَلَيْهِمُ الْقَوَامُ بِالْوَأَنِ مِصْرَ فَأَكَلُوا أَكْلَ أَهْلِ مِصْرَ، فَارْتَابَ الْقَيْطُ، وَبَعَثَ أَيْضًا إِلَى الْمُسْلِمِينَ: تَسَلَّحُوا لِلْعَرَضِ غَدًا، [وَعَدَا عَلَى الْعَرَضِ]، وَأَذَنَ لَهُمْ فَعَرَضَهُمْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: عَلِمْتُ حَالَكُمْ حِينَ رَأَيْتُمْ اقْتِصَادَ الْعَرَبِ فَخَشِيتُ أَنْ تَهْلِكُوا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَرِيَكُمْ حَالَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ كَيْفَ كَانَتْ، ثُمَّ حَالَهُمْ فِي أَرْضِكُمْ، ثُمَّ حَالَهُمْ فِي الْحَرْبِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ ظَفَرَهُمْ بِكُمْ وَذَلِكَ؛ عَيْشُهُمْ وَقَدْ كَلَبُوا عَلَى بِلَادِكُمْ بِمَا نَالُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، فَارْتَدَّتْ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ مَا رَأَيْتُمْ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ غَيْرَ تَارِكٍ عَيْشَ الْيَوْمِ الثَّانِي وَرَاجِعٌ إِلَى عَيْشِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ. (٥٦٧/٢) فَتَفَرَّقُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: لَقَدْ رَمَتَكُمْ الْعَرَبُ بِرِجْلِهِمْ. وَبَلَغَ عَمْرُ ذَلِكَ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ حَرِيهَ لَلْيَسَنِ مَا لَهَا سَطْوَةٌ وَلَا سُورَةٌ كَسُورَاتِ الْحُرُوبِ مِنْ غَيْرِهِ.

ثُمَّ إِنَّ عَمْرًا سَارَ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَكَانَ مَنَ بَيْنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَالْفُسْطَاطِ مِنَ الرُّومِ وَالْقَيْطُ قَدْ تَجَمَّعُوا لَهُ وَقَالُوا: نَغْزُوهُ قَبْلَ أَنْ يَغْزُونَا وَيُرُومَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ. فَالْتَقُوا وَاقْتَلَوْا، فَهَزِمَهُمْ وَقَتْلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَسَارَ حَتَّى بَلَغَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ، فَوَجَدَ أَهْلَهَا مَعْدِينِ لِقَاتِهِ. فَأَرْسَلَ الْمَقْقُوسَ إِلَى عَمْرٍو يَسْأَلُهُ الْهَدَنَةَ إِلَى مَدَّةٍ، فَلَمْ يَجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ وَقَالَ: لَقَدْ لَقِينَا مَلِكَكُمْ الْأَكْبَرَ هِرْقَلَ فَكَانَ مِنْهُ مَا بَلَغَكُمْ. فَقَالَ الْمَقْقُوسُ لِأَصْحَابِهِ: صَدَقَ فَتَحْنُ أَوَّلَى بِالْإِذْعَانِ. فَأَغْلَظُوا لَهُ فِي الْقَوَالِ وَامْتَنَعُوا، فَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَحَصَرُوهُمْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَفَتَحَهَا عَمْرُو عَنْوَةً وَغَنِمَ مَا فِيهَا وَجَعَلَهُمْ ذِمَّةً.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَقْقُوسَ صَالِحَ عَمْرًا عَلَى اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ وَيَقِيمَ مَنْ أَرَادَ الْقِيَامَ، وَجَعَلَ فِيهَا عَمْرُو جُنْدًا.

وَلَمَّا فَتَحَتْ مِصْرَ غَزَاوا الثُّوبَةَ فَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْجَرَاحَاتِ وَذَهَابَ الْحَدَقُ لِحُجُودَةِ رَمِيهِمْ، فَسَمَوْهُمْ رُمَاةَ الْحَدَقِ.

فَلَمَّا وَلِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ مِصْرَ أَيَّامَ عُثْمَانَ صَالِحَهُمْ عَلَى هَدِيَّةِ عِدَّةِ رُؤُوسٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَيَهْدِي إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ كُلَّ سَنَةٍ طَعَامًا مَسْمُومًا وَكُسُورًا، وَأَمَضَى ذَلِكَ الصَّلَاحَ عُثْمَانُ وَمَنْ بَعْدَهُ وَلَاةُ الْأُمُورِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا انْتَهَوْا إِلَى بَلْهَيْبٍ وَقَدْ بَلَغَتْ سَبَايَاهُمْ إِلَى الْيَمَنِ أَرْسَلَ صَاحِبَهُمْ إِلَى عَمْرٍو: إِنِّي كُنْتُ أَخْرَجْتُ الْجِزْيَةَ إِلَى مَنْ هُوَ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْكُمْ: فَارِسَ وَالرُّومَ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ الْجِزْيَةَ عَلَى أَنْ تَرُدَّ مَا سَبَيْتُمْ مِنْ أَرْضِي (٥٦٨/٢) فَعَلْتُ. فَكُتِبَ عَمْرُو إِلَى عَمْرِو يَسْتَاذِنُهُ فِي ذَلِكَ، وَرَفَعُوا الْحَرْبَ إِلَى أَنْ يَرُدَّ كِتَابَ عَمْرِو. فَوُورِدَ الْجَوَابُ مِنْ عَمْرِو: لِعَمْرِي جِزْيَةٌ قَائِمَةٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ غَنِيمَةٍ تُقَسَّمُ ثُمَّ

عشرة، وقيل: سنة إحدى وعشرين وعمره أربعون سنة. وفيها مات أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. وفيها ماتت صفية بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ. وفيها (٥٧٠/٢) قُتل المُظَهَّر بن رافع الأنصاري، قدم من الشام ومعه من علوج الشام، فلمّا كان بخيبر أمرهم قوم من اليهود فقتلوه، فأجلاهم عمر.

(المُظَهَّر بضم الميم، وفتح الظاء المعجمة، وتشديد الهاء، وآخره راء مهملة). (٥/٣)

سنة إحدى وعشرين

ذكر وقعة نهاوند

قيل: فيها كانت وقعة نهاوند، وقيل: كانت سنة ثمانى عشرة، وقيل سنة تسع عشرة.

وكان الذي هيج أمر نهاوند أن المسلمين لما خلصوا جند العلاء من بلاد فارس وفتحوا الأهواز كانت الفرس ملكهم وهو يمرّو فحركوه، وكاتب الملوك بين الباب والسند وخراسان وخلقوان، فتحركوا وتكاتبوا واجتمعوا إلى نهاوند، ولمّا وصلها أوائلهم بلغ سعداً الخير، فكتب إلى عمر، وثار بسعد قوم سعو به وألبوا عليه، ولم يشغلهم ما نزل بالناس، وكان ممن تحرك في أمره الجراح بن مينان الأسدي في نفر. فقال لهم عمر: واللّه ما يمنعني ما نزل بكم من النظر فيما لديكم. فبعث عمرُ محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس، وكان محمد صاحب العمّال يقتصر آثار من شكا زمان عمر، فطاف (٦/٣) بسعد على أهل الكوفة يسأل عنه، فما سأل عنه جماعة إلا أثنوا عليه خيراً سوى من مالا الجراح الأسدي، فإنهم سكتوا ولم يقولوا سوءاً ولا يسوغ لهم، حتى انتهى إلى بني عبس فسألهم، فقال أسامة بن قتادة: اللهم إني لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو في السرية. فقال سعد: اللهم إن كان قالها رياءً وكذباً وسمعة فأعم بصره، وأكثر عياله، وعرضه لمضلات الفتن. فعمي، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى يجسها، فإذا عثر عليه قال: دعوة سعد الرجل المبارك. ثم دعا سعد على أولئك النفر فقال: اللهم إن كانوا خرجوا أشراً ويطروا ورياء فاجهد بلادهم. فجهدوا، وقطع الجراح بالسيف يوم بادر الحسن بن علي، عليه السلام، ليعتاله بسباط، وشدخ قبيصة بالحجارة، وقتل أربد بالوج ونعال السيف.

وقال سعد: إني أول رجل أهرق دماً من المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ، أبويه وما جمعهما لأحد قبلي، ولقد رأيته خُمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أنني لا أحسن أصلي وأن الصيد يليهني.

وخرج محمد بسعد. ويهم معه إلى المدينة فقدموا على عمر

فأخبروه الخبر فقال: كيف تصلّي يا سعد؟ قال: أطيل الأولين وأحذف الآخرين. فقال: (٧/٣) هكذا الظن بك يا أبا إسحق ولسولا الاحتياط لكان سيئلهم بيتاً. وقال: من خليفتك يا سعد على الكوفة؟ قال: عبد الله [بن عبد الله] بن عتياب. فاقرة. فكان سبب نهاوند وبعثها زمن سعد.

وأما الوقعة فهي زمن عبد الله، فنشرت الأعاجم بكتاب يزدجرد فاجتمعوا بنهاوند على الفيزان في خمسين ألفاً ومائة ألف مقاتل، وكان سعد كتب إلى عمر بالخبر ثم شافه به لمّا قدم عليه وقال له: إن أهل الكوفة يستأذك في الانسياح وإن يبدوهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوهم.

فجمع عمرُ الناس واستشارهم، وقال لهم: هذا يوم له ما بعده، وقد هممت أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه فانزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين ثم استغفرهم وأكون لهم ردهاً حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب، فان فتح الله عليهم صبتهم في بلدانهم.

فقال طلحة بن عبيد الله: يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور، وعجمتك البلابل، واحتكتك التجارب، وأنت وشانك ورأيك، لا ننبؤ في يدك ولا نكل عليك، إليك هذا الأمر، فمرنا نطع وادعنا نجب واحملنا نركب وقدنا ننقد، فإنك ولي هذا الأمر، وقد بلوت وجربت واحترت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيارهم. ثم جلس.

فعاد عمر، فقام عثمان فقال: يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمتهم، ثم تسير (٨/٣) أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين يجمع المسلمين، فإنك إذا سرت قلّ عندك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعزّ عزراً وأكثر. يا أمير المؤمنين، إنك لا تستقي بعد نفسك من العرب باقية، ولا تمتع من الدنيا بعزيز، ولا تلوذ منها بحريز. إن هذا يوم له ما بعده من الأيام، فاشهده برأيك وأعاونك ولا تغب عنه. وجلس.

فعاد [عمر] فقام إليه علي بن أبي طالب فقال: أمّا بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمتهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك ممّا بين يديك من العورات والغيالات، أقرّ هؤلاء في أمصارهم واكتب إلى أهل البصرة فليغفروا ثلاث فِرَق: فرقة في حرمهم وذراريهم، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا، ولتير فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدأ قالوا: هذا أمير المؤمنين أمير العرب وأصلها، فكان ذلك أشدّ لكلهم

عليك. وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكرمهم لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالضر.

فقال عمر: هذا هو الرأي، كنت أحب أن أتابع عليه، فأشيروا عليّ برجل أوليه.

وقيل: إن طلحة وعثمان وغيرهما أشاروا عليه بالمقام. والله أعلم.

فلما قال عمر: أشيروا عليّ برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقياً، قالوا: أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك. فقال: والله لأولين أمرهم رجلاً يكون (٩/٣) أول الأئمة إذا لقيها غداً. فقيل: من هو؟ فقال: هو النعمان بن مقرن المزني. فقالوا: هو لها.

وكان النعمان يومئذ معه جمع من أهل الكوفة قد اقتحموا جنديسابور والسوس. فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى ماه لتجتمع الجيوش عليه، فإذا اجتمعوا إليه سار بهم إلى الفيرزان ومن معه. وقيل بل كان النعمان يكسّر. فكتب إلى عمر يسأله أن يعزله ويبعثه إلى جيش من المسلمين. فكتب إليه عمر يأمره بهناوند، فسار.

فكتب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن جثان ليستنفر الناس مع النعمان كذا وكذا ويجمعوا عليه بماء. فندب الناس، فكان أسرعهم إلى ذلك الرواد ليلاً في الذين ولیدروا حقاً.

فخرج الناس منها وعليهم حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن حتى قدموا على النعمان، وتقدم عمر إلى الجند الذين كانوا بالأهواز ليشغلوا فارساً عن المسلمين وعليهم المقرب وحرمة وزر، فأقاموا بتخوم أصبهان وفارس وقطعوا أمداد فارس عن أهل نهاوند، واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة بن اليمان وابن عمر وجريز بن عبد الله البجلي والمغيرة بن شعبة وغيرهم، فأرسل النعمان طليحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب وعمرو بن نسي، وهو ابن أبي سلمى، ليأتوه بخبرهم. وخرجوا وساروا يوماً إلى الليل، فرجع إليه عمرو بن نسي، فقالوا: ما رجعت؟ فقال: لم أكن في أرض العجم، وقتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها. ومضى طليحة وعمرو (١٠/٣) ابن معد يكرب.

فلما كان آخر الليل رجع عمرو، فقالوا: ما رجعت؟ قال: ميرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً فرجعت. ومضى طليحة حتى انتهى إلى نهاوند. وبين موضع المسلمين الذي هم به ونهاوند بضعة وعشرون فرسخاً. فقال الناس: ارتد طليحة الثانية. فعلم كلام القوم ورجع. فلما رآه كبروا. فقال: ما شأنكم؟ فأعلموه بالذي خافوا عليه. فقال: والله لو لم يكن دين إلا العربي ما كنت لأجزر العجم

الطماطم هذه العرب العارية. فأعلم النعمان أنه ليس بينهم وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد.

فرحل النعمان وعبي أصحابه، وهم ثلاثون ألفاً، فجعل على مقدمته نعيم بن مقرن وعلى مجنبيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود. وقد توافقت إليه أمداد المدينة فيهم المغيرة بن شعبة، فأتوها إلى إسيذهان والفرس وقوف على تعبيتهم، وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبيه الزردق وبهم جاذوئه الذي جعل مكان ذي الحاجب. وقد توافى إليهم الأمداد بهناوند كل من غاب عن القادسية ليسوا بدونهم، فلما رآهم النعمان كبر وكبر معه الناس فتزلزلت الأعاجم وحطت العرب الأثقال وضرب فسطاط النعمان، فابتدر أشراف الكوفة فضربوه، منهم: حذيفة بن اليمان، وعقبة بن عامر، والمغيرة بن شعبة، وبشير بن الخصاصة، وحظلة الكاتب، وجريز بن عبد الله البجلي، والأشعث بن قيس، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر وغيرهم. فلم ير بناء فسطاط بالعراق كهؤلاء. (١١/٣)

وانشبت النعمان القتال بعد حط الأثقال، فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم سجالاً وإنهم انجحوا في خنادقهم يوم الجمعة، وحصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ما شاء الله، والفرس بالخيار لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج، فخاف المسلمون أن يطول أمرهم، حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع تجمع أهل الرأي من المسلمين وقالوا: نراهم علينا بالخيار. وأتوا النعمان في ذلك فوافوه وهو يروي في الذي روي فيه فأخبروه، فبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي فأحضرهم، فتكلم النعمان فقال: قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وأنهم لا يخرجون إلينا إلا إذا شأوا ولا يقدر المسلمون على إخراجهم، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق، فما الرأي الذي به نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل؟

فتكلم عمرو بن نسي، وكان أكبر الناس، وكانوا يتكلمون على الأسنان، فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم وقاتل من أتاك منهم. فردوا عليه رأيه.

وتكلم عمرو بن معد يكرب فقال: ناهضهم وكابزهم ولا تخفهم، فردوا جميعاً عليه رأيه وقالوا: إنما يناطح بنا الجدران وهي أعوان علينا.

وقال طليحة: أرى أن نبعث خيلاً لينشبو القتال فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً فإننا لم نستطد لهم في طول ما قاتلناهم، فإذا رآوا ذلك طعموا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضي الله فيهم وفيما

ما أحب.

فأمروا [النعمان] القعقاع بن عمرو، وكان على المجردة، فأنشب القتال، (١٢/٣) فأخرجهم من خنادقهم كأنهم جبال حديد قد توافقوا أن لا يفروا، وقد قرن بعضهم بعضاً كل سبعة في قران و القوا حسك الحديد خلفهم لئلا يهزموا. فلما خرجوا نكص ثم نكص واغتمتها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا: هي هي، فلم يبق أحد إلا من يقوم على الأبواب وركبهم. ولحق القعقاع بالناس، وانقطع الفرس عن حصنهم بعض الانقطاع والمسلمون على تسمية في يوم جمعة صدر النهار، وقد عهد النعمان إلى الناس عهده وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم، ففعلوا واستروا بالحجف من الرمي، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفسوا فيهم الجراح.

وشكا بعض الناس وقالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه فما تنتظر بهم؟ ائذن للناس في قتالهم. فقال: رويداً رويداً. وانتظر النعمان بالقتال أحب الساعات كانت إلى رسول الله، ﷺ، أن يلقي العدو فيها وذلك عند الزوال، فلما كان قريباً من تلك الساعة ركب فرسه وسار في الناس ووقف على كل راية يذكروهم ويحرضهم ويمنيهم الظفر، وقال لهم: إني مكبر ثلاثاً فإذا كبرت الثالثة فإني حامل فاحملوا، وإن قُلتُ فالأمير بعدي حذيفة، فإن قُتل ففلان، حتى عد سبعة آخرهم المغيرة. ثم قال: اللهم أعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

وقيل: بل قال: اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام واقتضي شهيداً. فبكى الناس. ورجع إلى موقفه فكبر ثلاثاً والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال، وحمل النعمان والناس معه وانقضت رايته انقضاض العقاب والنعمان معلّم بيباض القباء والقلنسوة، فاقتتلوا قتالاً (١٣/٣) شديداً لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منها، وما كان يسمع إلا وقع الحديد، وصبر لهم المسلمون صبراً عظيماً، وانهزم الأعاجم وقتل منهم ما بين الزوال والإعتام ما طبّق أرض المعركة دماً يزلق الناس والدواب.

فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيداً، زلق به فرسه فصرع. وقيل: بل رمي بسهم في خاصرته فقتله، فسجّاه أخوه نعيم بثوب، وأخذ الراية وناولها حذيفة، فأخذها وتقدم إلى موضع النعمان وترك نعيماً مكانه. وقال لهم المغيرة: اكموا مصاب أميركم حتى نتظر ما يصنع الله فينا وفيهم لئلا يهن الناس. فاقتتلوا. فلما أظلم الليل عليهم انهزم المشركون وذهبوا ولزمهم المسلمون وعمي عليهم قصدهم فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذي كانوا دونه

بأسيدها فوقعوا فيه، فكان الواحد منهم يقع فيقع عليه ستة بعضهم على بعضهم في قياد واحد فيقتلون جميعاً، وجعل يعقرهم حسك الحديد، فمات منهم في اللهب مائة ألف أو يزيدون سوى من قُتل في المعركة.

وقيل: قُتل في اللهب ثمانون ألفاً وفي المعركة ثلاثون ألفاً سوى من قُتل في الطلب، ولم يفلت إلا الشريد، ونجا الفيززان من بين الصرعى فهرب نحو همدان، فاتبه نعيم بن مقرن، وقدم القعقاع قدامه فأدركه بثنية همدان، وهي إذ ذاك مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلاً، فحبسه الدواب على أجله. فلما لم يجد طريقاً نزل عن دابته وصعد في الجبل، فقتله القعقاع راجلاً (١٤/٣) فأدركه فقتله المسلمون على الثنية وقالوا: إن لله جنوداً من عسل. واستاقوا العسل وما معه من الأحمال. وسميت الثنية ثنية العسل.

ودخل المشركون همدان والمسلمون في آثارهم فنزلوا عليها وأخذوا ما حولها. فلما رأى ذلك خسر وشؤم استأمنهم، ولما تم الظفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النعمان بن مقرن، فقال لهم أخوه معقل: هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة فاتبعوا حذيفة.

ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة بعد الهزيمة واحتنوا ما فيها من الأمتعة وغيرها وما حولها من الأسلاب والأثاث وجمعوا إلى صاحب الأقباض السائب ابن الأقرع. وانتظر من نهاوند ما يأتيهم من إخوانهم الذين على همدان مع القعقاع ونيهم، فأتاهم الهرزد صاحب بيت النار على أمان، فأبلغ حذيفة، فقال: تؤمني ومن شئت على أن أخرج لك ذخيرة لكسرى تركت عندي لنواب الزمان؟ قال: نعم. فأحضر جوهرأ نفيساً في سقطين، فارسلها مع الأخماس إلى عمر. وكان حذيفة قد نفل منها وأرسل الباقي مع السائب بن الأقرع الثقفي، وكان كاتباً حاسباً، أرسله عمر إليهم وقال له: إن فتح الله عليكم فاقسم على المسلمين فيهم وخذ الخمس، وإن هلك هذا الجيش فاذهب بطن الأرض خير من ظهرها.

قال السائب: فلما فتح الله على المسلمين وأحضر الفارسي السفطين اللذين أودعهما عنده النخیر جان فإذا فيهما اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فلما فرغ (١٥/٣) من القسمة احتملتهما معي وقدمت على عمر، وكان قد قدر الوقعة فبات يتلملح ويخرج ويتوقع الأخبار، فبينما رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه فرجع إلى المدينة ليلاً، فمر به راكب فسأله: من أين أقبل؟ فقال: من نهاوند، وأخبره بالفتح وقتل النعمان، فلما أصبح الرجل تحدث بهذا بعد ثلاث من الوقعة، فبلغ الخبر عمر فسأله فأخبره، فقال: ذلك بريد الجن.

ذكر فتح همدان والماهين وغيرهما

لما انهزم المشركون دخل من سلم منهم همدان وحاصره نعيم بن مقرن والقعقاع بن عمرو. فلما رأى ذلك خسرو شئونهم استأمنهم وقبل منهم الجزية على أن يضمن منهم همدان ودسئتيه والآن يؤتى المسلمون منهم، فأجابوه إلى ذلك وأمنوه ومن معه من الفرس، وأقبل كل من كان هرب، وبلغ الخبر الماهين بفتح همدان وملكها ونزول نعيم والقعقاع بها، فاقصدوا بخسرو وشنوم فراسلوا حذيفة فأجابهم إلى ما طلبوا وأجمعوا على القبول وأجمعوا على إتيان حذيفة، فخذعهم دينار وهو أحد أولئك الملوك، وكان أشرفهم قارن، وقال: لا تلقوهم في جمالكم، ففعلوا، وخالفهم فأتاهم في الديباج والحلى فأعطاهم حاجاتهم، واحتمل المسلمون ما أرادوا وعاقبوه عليهم، ولم يجد الآخرون بداً من متابعتها والدخول في أمره، فليل ماه دينار لذلك. وكان النعمان بن مقرن قد عاهد بهراذان على مثل ذلك فنسب إلى بهرذان، وكان قد وكل النسير بن ثور بقلعة قد لجأ إليها قوم فجاهدهم فافتتحها فنسبت إلى النسير وهو تصغير نسر.

قيل: دخل دينار الكوفة أيام معاوية فقال: يا أهل الكوفة إنكم أول ما مررت بنا كنتم خيار الناس فبقيت كذلك زمن عمر وعثمان، ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع: بخل، وخب، وغدر، وضيق، ولم يكن فيكم واحدة منهن، وقد رمقتمكم فرأيت ذلك في مولديكم فعملت من أين أتيت، فإذا الخب من قبل النبط، والبخل من قبل فارس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز. (١٨/٣)

ذكر دخول المسلمين بلاد الأعاجم

وفيها أمر عمر المسلمين بالانسياح في بلاد العجم وطلب الفرس أين كانوا، وقيل: كان ذلك سنة ثمان عشرة، وقد تقدم ذكره. وسبب ذلك ما كان من يزدجرد وبعثه الجنود مرة بعد أخرى، فوجه الأمراء من أهل البصرة وأهل الكوفة بعد فتح نهاوند، وكان بين عمل سعد وعمل عمار أميران، أحدهما عبد الله بن عبد الله بن عتيان، وفي زمانه كانت وقعة نهاوند، والآخر زياد بن حنظلة حليف بني عبد بن قصي، وفي زمانه أمر بالانسياح وعزل عبد الله ويث في وجه آخر، وولي زياد، وكان من المهاجرين، فعمل قليلاً والحق في الاستعفاء فأعفاه عمر وولى عمار بن ياسر وكتب معه إلى أهل الكوفة: إني بعثت عماراً أميراً وجعلت معه ابن مسعود معلماً. وكان ابن مسعود بحمص فسيره عمر إلى الكوفة، وأمد أهل البصرة بعبد الله بن عبد الله، وأمد أهل الكوفة بأبي موسى. وكان أهل همدان قد كفروا بعد الصلح، فبعث عمر لواء إلى نعيم بن مقرن وأمره بقصد همدان، فإذا فتحها سار إلى ما وراء ذلك إلى خراسان، وبعث عتبة بن فرقد ويكير بن عبد الله إلى أذربيجان،

ثم قدم البريد بعد ذلك فأخبره بما يسره ولم يخبره بقتل النعمان. قال السائب: فخرج عمر من الغد يتوقع الأخبار. قال: فأتيته فقال: ما وراءك؟ فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين، فتح الله عليك وأعظم الفتح، واستشهد النعمان بن مقرن. فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه فوق كتفيه. قال: فلما رأيت ذلك وما لقي قلت: يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده رجل يعرف وجهه. فقال: أولئك المستضعفون من المسلمين ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنع أولئك بمعرفة عمرا! ثم أخبرته بالسفطين فقال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما والحق بجندك. قال: ففعلت وخرجت سريعاً إلى الكوفة.

وبات عمر، فلما أصبح بعث في أثري رسلاً فما أدركني حتى دخلت الكوفة فأنخت بعيري وأناخ بعيره على عرقوبي بعيري فقال: الحق بأمر المؤمنين، فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك إلا الآن. قال: فركبت معه فقدمت على عمر، فلما رأي قال: إني وما لي وللسائب! قلت: ولماذا؟ قال ويحك والله ما هو إلا أن نمث الليلة التي خرجت فيها فباتت الملائكة (١٦/٣) تستحني إلى السفطين يشعلان ناراً فيقولون: لنكونك بهما، فاقول: إني سأقسمهما بين المسلمين. فخذهما عني فبعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم. قال: فخرجت بهما فوضعتهما في مسجد الكوفة، فباتعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بالفي ألف درهم، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف، فما زال أكثر أهل الكوفة مالا. وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف وسهم الراجل ألفين.

ولما قدم سي نهاوند المدينة جعل أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لا يلقى منهم صغيراً إلا ومسح رأسه وبكى وقال له: أكل عمر كبدي! وكان من نهاوند فأسرته الروم وأسره المسلمون من الروم فنسب إلى حيث سبي.

وكان المسلمون يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن للفرس بعده اجتماع. وملك المسلمون بلادهم.

ذكر فتح الدينور والصيخرة وغيرهما

لما انصرف أبو موسى من نهاوند، وكان قد جاء مدداً على بعث أهل البصرة، فمر بالدينور فأقام عليها خمسة أيام وصالحه أهلها على الجزية ومضى فصالحه أهل سيروان على مثل صلحهم، وبعث السائب بن الأقرع الثقفي إلى الصيخرة مدينة مهران فذق ففتحها صلحاً، وقيل: إنه وجه السائب من الأهواز ففتح ولاية مهران فذق. (١٧/٣)

ذكر ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة

وفيها ولي عمرُ عَمَّارُ بن ياسر على الكوفة، وابن مسعود على بيت المال. فشكا أهل الكوفة عَمَّاراً، فاستعفى عَمَّار عمر بن الخطاب، فولّى عمرُ جبير بن مطعم الكوفة، وقال له: لا تذكره لأحد. فسمع المغيرة بن شعبة أن عمر خلا بجبير، فأرسل امرأته إلى امرأة جبير بن مطعم لتعرض عليها طعام السفر، ففعلت، فقالت: نعم ما حيتني به. فلما علم المغيرة جاء إلى عمر فقال له: بارك الله لك فيمن وليت! وأخبره الخبر فعزله وولّى المغيرة بن شعبة الكوفة، فلم يزل عليها حتى مات عمر. وقيل: إن عَمَّاراً عَزَلَ سنة اثنين وعشرين وولي بعده أبو موسى. وسيرد ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

قيل: وفيها بعث عمرو بن العاص عَقْبَةَ بن نافع الفهري فافتتح زُوَيْلَةَ صلحاء، وما بين بَرْقَةَ وزُوَيْلَةَ سلم للمسلمين. وقيل: سنة عشرين.

كان الأمراء في هذه السنة: عمير بن سعد على دمشق وحوارن وحمص (٢١/٣) وقنسرين والجزيرة، ومعاوية على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية وقلقية ومعرّة مصرّين، وعند ذلك صالح أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة على قلقية وأنطاكية ومعرّة مصرّين.

وفيها ولد الحسن البصري والشعبي.

وحجّ بالناس عمر بن الخطاب، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت. وكان عامله على مكّة والطائف واليمن واليمامة ومصر والبصرة من كان قبل ذلك، وكسان على الكوفة عَمَّار بن ياسر، وشريح على القضاء.

وفيها بعث عثمان بن أبي العاصي بعثاً إلى ساحل فارس فخاربوهم ومعهم الجارود المبدئي، فقتل الجارود بغبة تُعْرَفُ بعقبة الجارود، وقيل: بل قتل بهاوند مع النعمان.

وفيها مات حمزة، وهو من الصحابة، بأصبهان بعد فتحها، والعلاء بن الحضرمي وهو على البحرين، فاستعمل عمرُ مكانه أبا هريرة. وفيها مات خالد بن الوليد بحمص وأوصى إلى عمر بن الخطاب، وقيل: مات سنة ثلاث وعشرين، وقيل: مات بالمدينة. والأول أصح (٢٢/٣).

سنة اثنين وعشرين

في هذه السنة افتتحت أذربيجان، وقيل: سنة ثمان عشرة بعد

يدخل أحدهما من حلوان والآخر من الموصل، وبعث عبد الله بن عبد الله إلى أصبهان، وأمر عمرُ مُرَاقَةَ على البصرة.

ذكر فتح أصبهان

وفيها بعث عمر إليها عبد الله بن عبد الله بن عتبّان، وكان شجاعاً من أشرف الصحابة ومن وجوه الأنصار حليفاً لبني الحبلى، وأمه بآبي موسى، وجعل على مُجَنَّبِيَةِ عبد الله بن ورقاء الرياحي وعصمة بن عبد الله، فساروا إلى نهاوند، ورجع حذيفة إلى عمله على ما سقت دجلة وما وراءها، وسار (١٩/٣) عبد الله فيمن كان معه ومن تبعه من جند النعمان بنهاوند نحو أصبهان، وعلى جندهما الاسيديدان، وعلى مقدمته شهریار بن جاذوّه، شيخ كبير، في جمع عظيم، ومقدمة المشركين برستاق لأصبهان، فاقتتلوا قتلاً شديداً، ودعا الشيخ إلى البراز، فبرز له عبد الله بن ورقاء الرياحي فقتله، وانهزم أهل أصبهان، فسمي ذلك الرستاق رستاق الشيخ إلى اليوم، وصالحهم الاسيديدان على رستاق الشيخ، وهو أوّل رستاق أخذ من أصبهان.

ثم سار عبد الله إلى مدينة جَيّ وهي مدينة أصبهان، فانتهى إليها والملك بأصبهان الفاذوسفان، فنزل بالناس على جَيّ وحاصرها وقتلها، ثم صالحه الفاذوسفان على أصبهان وأن على من أقام الجزيرة وأقام على ماله وأن يُجَرى من أخذت أرضه عنوة مجراهم ومن أبى وذهب كان لكم أرضه، وقدم أبو موسى على عبد الله من ناحية الأهواز وقد صالح، فخرج القوم من جَيّ ودخلوا في الذمّة إلا ثلاثين رجلاً من أهل أصبهان لحقوا بكرمان. ودخل عبد الله وأبو موسى جَيّاً، وكتب بذلك إلى عمر. فقدم كتاب عمر إلى عبد الله: أن يبرّ حتى تقدم على سهيل بن عدي فتكون معه على قتال من بكرمان، فسار واستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع، ولحق بهيل قبل أن يصل إلى كرمان.

قيل: وقد روي عن معقل بن يسار أن الأمير كان على الجند الذين فتحوا أصبهان النعمان بن مقرن، وأن عمر أرسله من المدينة إلى أصبهان وكتب إلى أهل الكوفة أن يمدّوه، فسار إلى أصبهان وبها ملكها ذو الحاجين، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة وعاد من عنده فقاتلهم وقتل النعمان ووقع ذو الحاجين عن دابته فانشقت بطنه وانهزم أصحابه. قال معقل: فأتيّت النعمانيان وهو صريع (٢٠/٣) فجعلت عليه علماً. فلما انهزم المشركون أتته، ومعها إدارة فيها ماء، فغسلت عن وجهه التراب فقال: ما فعل الناس؟ فقلت: فتح الله عليهم. قال: الحمد لله! ومات.

هكذا في هذه الرواية، والصحيح أن النعمان قتل بنهاوند وافتتح أبو موسى قَمَ وقاشان.

فتح همذان والريّ وجُرجان، فنبدأ بذكر فتح هذه البلاد ثم نذكر غزا الديلم وجيلان وموقان والبَيْر والطيلسان ثم انصرف. أذربيجان بعدها.

ذكر فتح الريّ

ثم انصرف نعيم من واج روز حتى قدم الريّ وخرج الزينبي أبو الفَرخَان من الريّ فلقني نعيماً طالباً الصلح ومسالماً له ومخالفاً لملك الريّ وهو سياوخش بن مهران بن بهرام جويين، فاستمد سياوخش أهل دُنبَاوَنَد وطبرستان وقومس وجرجان فامدّوه خوفاً من المسلمين، فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل الريّ إلى جنب مدينتها، فاقتتلوا به، وكان الزينبي قال لنعيم: إن القوم كثير وأنت في قلة فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به، وناهضهم أنت فإنهم إذا خرجنا عليهم لم يثبتوا لك. فبعث معه نعيم خيلاً من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم الزينبي المدينة ولا يشعر القوم ويبتهم نعيم بيّاتاً فشغلهم عن مدينتهم، فاقتتلوا وصبروا له حتى سمعوا التكبير من ورائهم فانهزموا فقتلوا مقتلة عدواً بالقصب فيها، وأفاء الله على المسلمين بالريّ نحواً مما في المدائن وصالحه الزينبي على الريّ، ومَرَزَبُة عليهم نعيم، فلم يزل شرف الريّ في أهل الزينبي، وأخرب نعيم مدينتهم، وهي التي يقال لها العتيقة، وأمر الزينبي فبنى مدينة الريّ الحديث. وكتب نعيم إلى عمر بالفتح وأنفذ الأخماس، وكان البشير المضارب العجلي، ورأسه المصغنان في الصلح على شيء يفندي به منه على دنباوند، فأجاب به إلى ذلك.

وقد قيل: إن فتح الريّ كان على يد قَرْظَة بن كعب، وقيل: كان فتحها سنة إحدى وعشرين. وقيل غير ذلك. والله أعلم. (٢٥/٣)

ذكر فتح قومس وجُرجان وطبرستان

لما أرسل نعيم إلى عمر بالبشارة وأخماس الريّ كتب إليه عمر يأمره بإرسال أخيه سويد بن مقرن ومعه هند بن عمرو الجملي وغيره إلى قومس، فسار سويد نحو قومس، فلم يبق له أحد، فاخذهما مسلماً وعسكر بها، وكتبه الذين لجؤوا إلى طبرستان منهم والذين أخذوا المفاوز، فأجابهم إلى الصلح والجزية وكتب لهم بذلك. ثم سار سويد إلى جُرجان فعسكر بها بيسظام وكتب إلى ملك جرجان، وهو زرنان صول، وكتبه زرنان صول وصالحه على جُرجان على الجزية وكفاية حرب جرجان وأن يعينه سويد إن غلب، فأجاب سويد إلى ذلك، وتلقاه زرنان صول قبل دخوله جرجان فدخل معه وعسكر بها حتى جئى الخراج ونسبى قزوينها فسدها بترك دهستان، ورفع الجزية عن قام بمنعها وأخذها من الباقيين.

وقيل: كان فتحها سنة ثمانين عشرة. وقيل: سنة ثلاثين زمن عثمان.

ذكر فتح همذان ثانياً

قد تقدّم مسير نعيم بن مقرن إلى همذان وفتحها على يده ويد القعقاع بن عمرو، فلما رجعا عنها كفر أهلها مع خسرو شتوم، فلما قدم عهد نعيم من عند عمر ودّع حذيفة وسار يريد همذان وعاد حذيفة إلى الكوفة، فخرج نعيم بن مقرن على تعبئة إلى همذان فاستولى على بلادها جميعاً وحاصرها، فلما رأى أهلها ذلك سألوا الصلح ففعل وقبل منهم الجزية. وقد قيل: إن فتحها كان سنة أربع وعشرين بعد مقتل عمر بستة أشهر. فبينما نعيم بهمذان في اثني عشر ألفاً من الجند كاتب الديلم وأهل الريّ وأذربيجان، إذ خرج موتا في الديلم حتى نزل بواج روز، وأقبل الزينبي أبو الفَرخَان في أهل الريّ، وأقبل أسفنديار أخو رستم في أهل أذربيجان، فاجتمعوا وتحصّن منهم أمراء المسالحيين وبعثوا إلى (٢٣/٣) نعيم بالخبر، فاستخلف يزيد بن قيس الهمداني وخرج إليهم، فاقتتلوا بواج روز قتالاً شديداً، وكانت وقعة عظيمة تعدل بنهاوند، فانهزم الفرس هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة كبيرة لا يحصون، فأرسلوا إلى عمر مبشراً، فأمر عمر نعيماً بقصد الريّ وقتال من بها والمقام بها بعد فتحها، وقيل: إن المغيرة بن شعبة، وهو عامل على الكوفة، أرسل جرير ابن عبد الله إلى همذان فقاتله أهلها وأصيبت عينه بسهم فقال احتسبتها عند الله الذي زين بها وجهي ونور لي ما شاء ثم سلبنيها في سبيله. ثم فتحها على مثل صلح نهاوند وغلب على أرضها قسراً وقيل كان فتحها على يد المغيرة بنفسه، وكان جرير على مقدمته. وقيل: فتحها قرظة بن كعب الأنصاري.

ذكر فتح قزوين وزنجان

لما سير المغيرة جريراً إلى همذان ففتحها سير البراء بن عازب في جيش إلى قزوين وأمره أن يسير إليها فإن فتحها غزا الديلم منها، وإنما كان مغزاهم قبل من دسّتي. فسار البراء حتى أتى أبهر، وهو حصن، فقاتلوه ثم طلبوا الأمان فآمنهم وصالحهم، ثم غزا قزوين، فلما بلغ أهلها الخبر أرسلوا إلى الديلم يطلبون النصرة فوعدهم، ووصل المسلمون إليهم فخرجوا لقتالهم والديلم وقوف على الجبل لا يمدون يداً، فلما رأى أهل قزوين ذلك طلبوا الصلح على صلح أبهر، وقال بعض المسلمين:

فَدَعَلِمَ الدِّلِمُ إِذْ تَحَارَبَ حِينَ أَتَى فِي جَيْشِهِ ابْنَ عَازِبٍ
بِأَنَّ طَلَنَ الْمُشْرِكِينَ كَانَتْ فَكَمَ قَطْعُنَا فِي دُجَى الْغِيَابِ

من جيل وغزو من سباسب (٢٤/٣)

وغزا البراء الديلم حتى أدوا إليه الإتاوة، وغزا جيلان والطيلسان، وفتح زنجان عنوة. ولما ولي الوليد بن عقبة الكوفة

قيل: وراسل الأصبهيد صاحب طبرستان مسوياً في الصلح على أن يتوادعا ويجعل له شيئاً على غير نصر ولا معونة على أحد، فقبل ذلك منه وكتب له كتاباً.

ذكر فتح طرابلس الغرب وبرقة

في هذه السنة سار عمرو بن العاص من مصر إلى برقة فصالحه أهلها على الجزية وأن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا بيعه. فلما فرغ من برقة سار إلى طرابلس الغرب فحاصرها شهراً فلم يظفر بها، وكان قد نزل شرقها، فخرج رجل من (٢٦/٣) ينسئ مدلج يتصيد في سبعة نفر وسلخوا غرب المدينة، فلما رجعوا اشتد عليهم الحر فأخذوا على جانب البحر، ولم يكن السور متصلاً بالبحر، وكانت سفن الروم في مرسأها مقابل بيوتهم، فرأى المدلجي وأصحابه مسلماً بين البحر والبلد فدخلوا منه وكبروا، فلم يكن للروم ملجأ إلا سفنهم لأنهم ظنوا أن المسلمين قد دخلوا البلد، ونظر عمرو ومن معه فرأى السيف في المدينة وسمعوا الصباح، فاقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد، فلم يفلت الروم إلا بما خف معهم في مراكبهم.

وكان أهل حصن سيرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس، فلما امتنعوا عليه بطرابلس أمنا واطمأنوا، فلما فتحت طرابلس جند عمرو عسكرياً كثيفاً وسيره إلى سيرة، فصبحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرح لأنهم لم يكن بلغهم خبر طرابلس، فوقع المسلمون عليهم ودخلوا البلد مكابرةً وغنموا ما فيه وعادوا إلى عمرو. ثم سار عمرو بن العاص إلى برقة وبها لواتة، وهم من البربر.

وكان سبب مسير البربر إليها وإلى غيرها من الغرب أنهم كانوا بنواحي فلسطين من الشام وكان ملكهم جالوت، فلما قتل سارت البرابر وطلبا الغرب حتى إذا انتهوا إلى لوبية ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية، تفرقا فسارت زناتة ومغيلة، وهما قبيلتان من البربر، إلى الغرب فسكنوا الجبال، وسكنت لواتة أرض برقة، وتعرف قديماً بآنطابلس، وانتشروا فيها حتى بلغوا السوس، ونزلت هواره مدينة لبة، ونزلت نفوسة إلى مدينة سيرة وجلا من كان بها من الروم لذلك، وقام الأفارق، وهم خدم التروم، على صلح يؤذونه إلى من غلب على بلادهم. وسار عمرو بن العاص، كما ذكرنا، فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزيةً وشرطوا أن يبيعوا من أرادوا من أولادهم في جزيتهم. (٢٧/٣)

ذكر فتح أذربيجان

قال: فلما افتتح نعيم الري بعث سيماك بن خرشة الأنصاري، وليس بأبي دجانة، ممداً لبيكر بن عبد الله بأذربيجان، أمره عمر بذلك، فسار سيماك نحو بكيك، وكان بكيك حين بعث إليها سار حتى

إذا طلع بجبال جرميدان طلع عليهم اسفنديار بن فرخزاد مهزوماً من واج روزه، فكان أول قتال لقيه بأذربيجان، فاقتلوا، فهزم الفرس وأخذ بكيك اسفنديار أميراً. فقال له اسفنديار: الصلح أحب إليك أم الحرب؟ قال: بل الصلح. قال: أمسكني عندك فإن أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجيء إليهم لم يقوموا لك وجلوا إلى الجبال التي حولها، ومن كان على التحصن تحصن إلى يوم ما. فأمسكه عنده، وصارت البلاد إليه إلا ما كان من حصن. وقدم عليه سيماك بن خرشة ممداً واسفنديار في إيساره وقد افتتح ما يليه، وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه.

وكتب بكيك إلى عمر يستأذنه في التقدم، فأذن له أن يتقدم نحو الباب، وأن يستخلف على ما افتحه، فاستخلف عليه عتبة بن فرقد، فأقر عتبة سيماك بن خرشة على عمل بكيك الذي كان افتحه، وجمع عمر أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد.

وكان بهرام بن فرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره حتى قدم عليه عتبة، فاقتلوا، فانهزم بهرام، فلما بلغ خبره اسفنديار وهو في الأسر عند بكيك قال: الآن تم الصلح وطفئت الحرب. فصالحه وأجاب إلى ذلك أهل أذربيجان كلهم، وعادت أذربيجان سلباً. وكتب بذلك بكيك وعتبة إلى عمر وبعثا بما خمساً. ولما جمع عمر لعنة عمل بكيك كتب لأهل أذربيجان كتاباً بالصلح.

وفيها قدم عتبة على عمر بالخبيص الذي كان أهدي له. (٢٨/٣)

وكان عمر يأخذ عماله بموافاة الموسم كل سنة يمنعهم بذلك عن الظلم.

ذكر فتح الباب

في هذه السنة كان فتح الباب، وكان عمر رد أبى موسى إلى البصرة وبعث سراقاً بن عمرو، وكان يدعى ذا النور، إلى الباب، وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة، وكان أيضاً يدعى ذا النور، وجعل على إحدى مجنبيه حذيفة بن أسيد الغفاري، وعلى الأخرى بكيك بن عبد الله الليثي، وكان بكيك سبقه إلى الباب. وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلي. فسار سراقاً، فلما خرج من أذربيجان قدم بكيك إلى الباب، وكان عمر قد أمد سراقاً بحبيب بن مسلمة من الجزيرة وجعل مكانه زياد بن حنظلة. ولما أطل عبد الرحمن بن ربيعة على الباب، والملك بها يومئذ شهریار، وهو من ولد شهریار الذي أفسد بني إسرائيل وأغزى الشام بهم، فكاتبه شهریار واستأمنه على أن يأتيه، ففعل، فاتاه فقال: إني بإزاء عدو كليب وأمم مختلفة ليست لهم أحساب ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعينهم على ذي الحسب ولست من القبيح ولا الأرمن في شيء، وإنكم قد غلبتم على بلادتي وأمتي فأنا منكم

لهم فزادهم فساداً، فغزا عبد الرحمن بن ربيعة بعد ذلك فتذامرت الترك واجتمعوا في الغياض فرمى رجلٌ منهم رجلاً من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه أصحابه، فخرجوا عليه عند ذلك فاقتتلوا واشتد قتالهم ونادى مناو من الجوّ: صبراً عبد الرحمن وموعدكم الجنة! فقاتل عبد الرحمن حتى قتل وانكشف أصحابه، وأخذ الرابّة سلمان بن ربيعة أخوه فقاتل بها، ونادى مناو من الجوّ: صبراً آل سلمان! فقال سلمان: أو ترى جزعاً؟ وخرج سلمان بالناس معه أبو هريرة الدوسي على جيلان فقطعوها إلى جرجان، ولم يمنعهم ذلك من إنجاء جسد عبد الرحمن، فهم يستسقون به إلى الآن.

ذكر تعديل الفتح بين أهل الكوفة والبصرة

في هذه السنة عدّل عمرُ فتوح أهل الكوفة والبصرة بينهم.

وسبب ذلك أن عمر بن سراقه كتب إلى عمر بن الخطاب يذكر له كثرة أهل البصرة وعجز خراجهم عنهم، وسأله أن يزيدهم أحد الماهين أو ماستّذان، وبلغ أهل الكوفة ذلك وقالوا لعمار بن ياسر، وكان على الكوفة أميراً سنة وبعض أخرى: اكتب إلى عمر أن راقهم رمز وإيذج لنا دونهم لم يعينوا عليهما ولم يلحقونا حتى افتتحناهما، فلم يفعل عمار، فقال له عطارد: (٣١/٣) أيها العبدُ الأجدع فعلام تدع فينشا؟ فقال: لقد سببت أحبّ أذني إلي! فابغضوه لذلك. واختصم أهل الكوفة وأهل البصرة، وادعى أهل البصرة قرى افتتحها أبو موسى دون أصبهان أيام أمد به عمر بن الخطاب أهل الكوفة. فقال لهم أهل الكوفة: أتيتونا مدداً وقد افتتحنا البلاد فأنشبتكم في المغانم، والذمة دُمّتنا والأرض أرضنا. فقال عمر: صدقوا. فقال أهل الأيام والقادسية ممّن سكن البصرة: فلتعطونا نصيبنا ممّا نحن شركاؤكم فيه من سوادهم وحواشيهم. فأعطاهم عمر مائة دينار برضا أهل الكوفة أخذها ممّن شهد الأيام والقادسية.

ولما ولي معاوية، وكان هو الذي جند قنسرين ممّن أتاه من أهل العراقيين أيام عليّ، وإنمّا كان قنسرين رُستاقاً من رساتيق حمص، فأخذ لهم معاوية حين ولي نصيبهم من فتوح العراق وأذربيجان والموصل يومئذ ناقلة، انتقل إليها كلّ من نزل بهجرته من أهل البلدين أيام عليّ، فأعطاهم معاوية من ذلك نصيباً.

وكفر أهل أرمينية أيام معاوية، وقد أثر حبيب بن مسلمة على الباب، وحبيب يومئذ بجرجان، وكاتب أهل تَقْلَيْس وتلك الجبال من جرجان فاستجابوا له.

ذكر عزل عمار بن ياسر عن الكوفة وولاية أبي موسى والمغيرة بن

شُعْبَة

وفيها عزل عمر بن الخطاب عَمَارَ بن ياسر عن الكوفة

ويدي مع أيديكم وجزيتي إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تسومونا الجزية فتوهنونا بعدوكم.

قال: فسيرَه عبد الرحمن إلى سراقه، فلقبه بمثل ذلك، فقبل منه سراقه ذلك، وقال، لا بدّ من الجزية ممّن يقيم ولا يحارب العدو. فأجابه إلى ذلك. وكتب سراقه في ذلك إلى عمر فأجازه عمر واستحسنه. (٢٩/٣)

ذكر فتح موقان

لما فرغ سراقه من الباب أرسل بكير بن عبد الله وخبيب بن مسلمة وحذيفة بن أسيد وسلمان بن ربيعة إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية، فوجه بكيراً إلى موقان، وخبيباً إلى تَقْلَيْس، وحذيفة إلى جبال اللان، وسلمان إلى الوجه الآخر. وكتب سراقه بالفتح إلى عمر وبارسال هؤلاء النفر إلى الجهات المذكورة، فأتى عمر أمر لم يظن أن يستم له بغير مؤونة لأنّه فرج عظيم وجند عظيم، فلما استوسقوا واستحلوا الإسلام وعدله مات سراقه، واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة. ولم يفتح أحد من أولئك القواد إلا بكير فإنه فضّ أهل موقان ثم تراجعوا على الجزية عن كلّ حالٍ دينار.

وكان فتحها سنة إحدى وعشرين. ولما بلغ عمر موث سراقه واستخلفه عبد الرحمن بن ربيعة أقرّ عبد الرحمن على فرج الباب وأمره بغزو الترك.

(أسيد في هذه التراجم يفتح الهزمة وكسر السين. والنور في الموضعين بالراء).

ذكر غزو الترك

لما أمر عمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك خرج بالناس حتى قطع الباب. فقال له شهریار: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد غزو بلنجر والترك. قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب. قال عبد الرحمن: لكننا لا نرضى حتى نغزوهم في ديارهم، وبالله إن معنا أقواماً لو يأذن لهم أميرنا في الإيمان لبلغت بهم الروم. قال: وما هم؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله، ﷺ، ودخلوا في هذا الأمر نبية، ولا يزال هذا الأمر لهم دائماً (٣٠/٣) ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يُلْقُوا عن حالهم. فغزا بلنجر غزاة في زمن عمر فقالوا: ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت، فهربوا منه وتحصنوا، فرجع بالغنيمة والظفر، وقد بلغت خيله البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بلنجر، وعادوا ولم يقتل منهم أحد.

ثم غزاهم أيام عثمان بن عفان غزوات فظفر كما كان يظفر، حتى تبدل أهل الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتد استصلاحاً

وأمن من أن يؤتى، وذان له من بقي من الأهاجم. وكتب الهرمزان وأثار أهل فارس، فنكثوا، وأثار أهل البجبال والفيروزان، فنكثوا، فأذن عمر للمسلمين فدخلوا بلاد الفرس، فسار الأحنف إلى خراسان فدخلها من الطَّبْسَيْنِ فافتتح هَرَاةَ عَنوةً واستخلف عليها صُحَّار بن فلان العبدي، ثم سار نحو مرو الشاهجان فأرسل إلى نيسابور مطرُف بن عبد الله بن الشَّخِيرِ وإلى سَرْخِيسِ الحسلرت بن حسان، فلَمَّا دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدرج إلى مرو الروذ حتى نزلها، ونزل الأحنف (٣٤/٣) مرو الشاهجان، وكتب يزدرج، وهو بمرو الروذ، إلى خاقان وإلى ملك الصُّغْدِ وإلى ملك الصين يستمنهم. وخرج الأحنف من مرو الشاهجان واستخلف عليها حارثة بن النعمان الباهلي بعدما لحقت به أمداد أهل الكوفة، وسار نحو مرو الروذ.

فلَمَّا سمع يزدرج سار عنها إلى بلخ ونزل الأحنف مرو الروذ. وقدم أهل الكوفة إلى يزدرج واتبعهم الأحنف، فالتقى أهل الكوفة ويَزْدَرَجِد بِلخ، فانهزم يزدرج وعبر النهر ولحق الأحنف بأهل الكوفة، وقد فتح الله عليهم؛ فبلخ من فتوحهم.

وتتابع أهل خراسان من هرب وشد على الصلح فيما بين نيسابور إلى طَخَرِسْتَان، وعاد الأحنف إلى مرو الروذ فنزلها، واستخلف على طَخَرِسْتَان رُبْعِي بن عامر، وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح فقال عمر، وددت أن يبتنا وبينها بحراً من نار. فقال علي: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن أهلها سيتفضون منها ثلاث مرات فيجتاحون في الثالثة، فكان ذلك بأهلها أحب إلي من أن يكون بالمسلمين.

وكتب عمر إلى الأحنف أن يقتصر على ما دون النهر ولا يجوز.

ولما عبر يزدرج النهر مهزوماً أنجده خاقان في الترك وأهل فرغانة والصُّغْدِ، فرجع يزدرج وخاقان إلى خراسان فنزلا بلخ، ورجع أهل الكوفة إلى الأحنف بمرو الروذ، ونزل المشركون عليه بمرو أيضاً.

وكان الأحنف لما بلغه خير عبور يزدرج وخاقان النهر إليه خرج ليلاً يسمع هل يسمع برأي يتفتح به، فمر برجلين يتقيان علفاً وأحدهما يقول لصاحبه: لو أسندنا الأمير إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً (٣٥/٣) وكان الجبل في ظهورنا فلا يأتونا من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله. فرجع، فلَمَّا أصبح جمع الناس ورحل إلى سفح الجبل، وكان معه من أهل البصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة نحو منهم، وأقبلت الترك ومن معها فتنزلت وجعلوا يغادونهم القتال ويروحونهم وفي الليل يتنحون عنهم.

واستعمل أبا موسى. وسبب ذلك أن أهل الكوفة شكوه وقالوا له: إنه لا يحتمل ما هو فيه وإنه (٣٦/٣) ليس بأمين، ونزاه به أهل الكوفة. فدعاه عمر، فخرج معه وقد يريد أنهم معه، فكانوا أشد عليه ممن تخلف عنه، وقالوا: إنه غير كافٍ وعالم بالسياسة ولا يدري على ما استعملته. وكان منهم سعد بن مسعود الثقفي، عم المختار، وجريز بن عبد الله، فسعياب به، فعزله عمر. وقال عمر لعمار: أساءك العزل؟ قال: ما سرتي حين استعملت ولقد ساءني حين عزلت. فقال له: قد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكني تأولت: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلُهم الْوَارِثِينَ﴾. [المقصص: ٥]

ثم أقبل عمر على أهل الكوفة فقال: من تريدون؟ قالوا: أبا موسى. فأمره عليهم بعد عمار. فأقام عليهم سنة فباع غلامه العلف، فشكاه الوليد ابن عبد شمس وجماعة معه وقالوا: إن غلامه يتجر في جسرنا، فعزله عنهم وصرفه إلى البصرة. وصرف عمرو بن سراقه إلى الجزيرة.

وخلا عمر في ناحية المسجد فنام، فأثاء المغيرة بن شعبه فحرمه حتى استيقظ، فقال: ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا من عظيم. فقال: وأي شيء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضي عنهم أمير؟ وأحيطت الكوفة على مائة ألف مقاتل. وأثاء أصحابه فقالوا: ما شأنك؟ فقال: إن أهل الكوفة قد عضلوني. واستشارهم فيمن يولي. وقال: ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قوي مسدد؟ فقال المغيرة: أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك، وأما القوي المسدد فإن سداه لنفسه وقوته (٣٣/٣) للمسلمين. فولى المغيرة الكوفة، فبقي عليها حتى مات عمر، وذلك نحو ستين وزيادة. وقال له حين بعثه: يا مغيرة ليأمنك الأبرار وليخفك الفجار. ثم أراد عمر أن يبعث سعداً على عمل المغيرة فقتل عمر قبل ذلك فأوصى به.

ذكر فتح خراسان

وفي هذه السنة غزا الأحنف بن قيس خراسان، في قول بعضهم. وقيل: سنة ثمان عشرة.

وسبب ذلك أن يزدرج لما سار إلى الري بعد هزيمة أهل جلولا وانتهى إليها وعليها أبان جاذويه وثب عليه فآخذه. فقال يزدرج: يا أبان تغدرني! قال: لا ولكن قد تركت ملكك فصار في يد غيرك فأحببت أن أكتب على ما كان لي من شيء. وأخذ خاتم يزدرج وكتب الصكاك بكل ما أعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم، ثم أتى بعد سعداً فرد عليه كل شيء في كتابه.

وسار يزدرج من الري إلى أصبهان، ثم منها إلى كرمان والثار معه، ثم قصد خراسان فأتى مرو فنزلها وبنى للنار بيتاً واطمأن

القوم الذين أخرجوكم من بلادكم فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل منكم مع كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم. فقلت: سلني عما أحببت. فقال: أيوفون بالعهد؟ قلت: نعم. قال: وما يقولون لكم قبل القتال؟ قال قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبننا أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة، أو المناينة. قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم وأرشدهم. قال: فما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته. (٣٧/٣) قال: هل يحلون ما حرم عليهم أو يحرمون ما حلل لهم؟ قلت: لا. قال: فإن هؤلاء القوم لا يزالون على ظفر حتى يحلوا حرامهم أو يحرموا حلالهم. ثم قال: أخبرني عن لباسهم؟ فأخبرته، وعن مطاياهم؟ فقلت: الخيل العرب، ووصفتها له. فقال: نعمت الحصون! ووصفت له الإبل وبروكها وقيامها بحملها. فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق. وكتب معه إلى يزيدجرد: إنه لم يمتنعني أن أبعث إليك بجند أوله بمر وآخره بالعصين الجهالة بما يحق علي، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلا لهم سربهم أزالوني ما داموا على [ما] وصف، فسألهم وأرض منهم بالمساكنة ولا تهييجهم ما لم يهيجوك. فأقام يزيدجرد بفرغانة ومعه آل كسرى بعهد من خاقان.

ولما وصل خبر الفتح إلى عمر بن الخطاب جمع الناس، وخطبهم وقرا عليهم كتاب الفتح وحمد الله في خطبته على إنجاز وعده ثم قال: ألا وإن ملك المجوسية قد هلك فليسوا يملكون من بلادهم شيئا يضرب بمسلم. ألا وإن الله قد أورتكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون، فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم.

وقيل: إن فتح خراسان كان زمن عثمان، وسيرد هناك. (٣٨/٣)

ذكر فتح شهرزور والصامغان

ولما استعمل عمر عزة بن قيس على خلوان حاول فتح شهرزور، فلم يقدر عليها، فغزاها عتبة بن فرقد ففتحها بعد قتال على مثل صلح خلوان، فكانت العقارب تصيب الرجل من المسلمين فيموت. وصالح أهل الصامغان وداراباذ على الجزية والخراج، وقتل خلقاً كثيراً من الأكراد. وكتب إلى عمر: إن فتحي قد بلغت أذربيجان. فولاه إياها وولى هرمة بن عرفة الموصل. ولم تزل شهرزور وأعمالها مضمومة إلى الموصل حتى أفردت عنها آخر خلافة الرشيد.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا معاوية بلاد الروم ودخلها في عشرة آلاف فارس من المسلمين.

فخرج الأحنف ليلة طليعة لأصحابه حتى إذا كان قريباً من عسكر خاقان وقف، فلما كان وجه الصبح خرج فارس [من] الترك بطوقه فضرب ببيله ثم وقف من العسكر موقفاً يقفه مثله، فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه الأحنف فقتله وأخذ طوق التركي ووقف، فخرج آخر من الترك ففعل فعل صاحبه، فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه فقتله وأخذ طوقه ووقف، ثم خرج الثالث من الترك ففعل فعل الرجلين، فحمل عليه الأحنف فقتله، ثم انصرف الأحنف إلى عسكره.

وكانت عادة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكفاء كلهم يضرب ببيله ثم يخرجون بعد خروج الثالث. فلما خرجوا تلك الليلة بعد الثالث قاتلوا على فرسانهم مقتلين تشاءم خاقان وتطير فقال: قد طال مقامنا وقد أصيب فرساننا، ما لنا في قتال هؤلاء القوم خير؟ فرجعوا. وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحداً، وأنهم الخبر بانصراف خاقان والترك إلى بلخ، وقد كان يزيدجرد ترك خاقان مقابل المسلمين بمر الروذ وانصرف إلى مرو الشاهجان، فتحصن حارثة بن النعمان ومن معه، فحصرهم واستخرج خزائنه من موضعها وخاقان مقيم بلخ.

فلما جمع يزيدجرد خزائنه، وكانت كبيرة عظيمة، وأراد أن يلحق بخاقان قال له أهل فارس: أي شيء تريد أن تصنع؟ قال: أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين. قالوا له: إن هذا رأي سوء، ارجع بنا إلى (٣٦/٣) هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم أوفياء وهم أهل دين، وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا نديري ما وفاؤهم. فأبى عليهم. فقالوا: دع خزائنا نردها إلى بلادنا ومن يلينا لا تخرجها من بلادنا. فأبى، فاعتزلوه وقتلوه فهزموه وأخذوا الخزائن واستولوا عليها وإنهزم منهم ولحق بخاقان وعبر النهر من بلخ إلى فرغانة، وأقام يزيدجرد ببلد الترك، فلم يزل مقيماً زمن عمر كله إلى أن كضر أهل خراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونهم. وسيرد ذكر ذلك في موضعه.

ثم أقبل أهل فارس بعد رحيل يزيدجرد على الأحنف فنصالحوه ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة، واغتبطوا بملك المسلمين. وأصاب الفارس يوم يزيدجرد كسهمه يوم القادسية. وسار الأحنف إلى بلخ فنزلها بعد عبور خاقان النهر منها ونزل أهل الكوفة في كورها الأربع. ثم رجع إلى مرو الروذ فنزلها وكتب بفتح خاقان ويزجرد إلى عمر.

ولما عبر خاقان ويزجرد النهر لقا رسول يزيدجرد الذي أرسله إلى ملك الصين فأخبرهما أن ملك الصين قال له: صف لي هؤلاء

وفيه ولد يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان.

وحج بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب؛ وكان عماله على الأمصار فيها عماله في السنة قبلها إلا الكوفة، فإن عامله كان عليها المغيرة بن شعبة، وإلا البصرة فإن عامله عليها صار أبا موسى الأشعري (٣٩/٣).

سنة ثلاث وعشرين

قال بعضهم: كان فتح إصطخر سنة ثلاث وعشرين. وقيل: كان فتحها بعد توج الأخيرة.

ذكر الخبر عن فتح توج

لما خرج أهل البصرة الذين توجهوا إلى فارس أسراء عليها وكان معهم سارية بن رثيم الكناني فساروا وأهل فارس مجتمعون بتوج فلم يقصدهم المسلمون بل توجهوا [كل] أمير إلى الجهة التي أمر بها. وبلغ ذلك أهل فارس، فافترقوا إلى بلدانهم كما افترق المسلمون، فكانت تلك هزيمتهم وتشتت أمورهم. فقصص مجاشع بن مسعود لسابور وأردشير خوه، فالتقى هو والفارس بتوج فاقتلوا ما شاء الله، ثم انهزم الفرس وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا كل قتل وغنموا ما في عسكرهم وحصروا توج فافتحوها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما فيها، وهذه توج الأخيرة، والأولى هي التي استقدمتها جنود العلاء بن الحضرمي أيام طاووس. ثم دعوا إلى الجزية فرجعوا وأقروا بها. وأرسل مجاشع بن مسعود السلمي بالبشارة والأخماس إلى عمر بن الخطاب (٤٠/٣).

ذكر فتح إصطخر وغيرها

وقصد عثمان بن أبي العاص الثقفي لإصطخر فالتقى هو وأهل إصطخر بجور فاقتلوا وانهزم الفرس وفتح المسلمون جوز ثم إصطخر وقتلوا ما شاء الله، ثم قر منهم من قر فدعاهم عثمان إلى الجزية والذمة، فأجابته الهزيمة إليها، فتراجعوا، وكان عثمان قد جمع الغنائم لما هزمهم فبعث بخمسها إلى عمر وقسم الباقي في الناس.

وفتح عثمان كازرون والثوبندجان وغلب على أرضها وفتح هو وأبو موسى مدينة شيراز وأرجان، وفتحاً سبئيز على الجزية والخرج. وقصد عثمان أيضاً جنوباً فتحها، ولقيه جمع الفرس بناحية جهرم فهزمهم وفتحها.

ثم إن شريك خلع في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان. فوجه إليه عثمان بن أبي العاص ثمانية وأتته الأمداد من البصرة وأميرهم عبيد الله بن معمر وشيبل بن غنيد، فالتقوا بأرض فارس. فقال شهر بن لابتة وهما في المعركة، وبينهما وبين قرية لهما تدعى ويشهر ثلاثة فراسخ: يا بني أين يكون غداً هنا أم يشهر؟ قال

له: يا أبا، إن تركونا فلا يكون غداً هنا ولا يشهر ولا نكون إلا في المنزل، ولكن والله ما أراهم يتركوننا. فما فرغوا من كلامهما حتى أنشب المسلمون الحرب فاقتلوا قتلاً شديداً وقتل شهرك وابنه وخلق عظيم. والذي قتل شهرك الحكم بن أبي العاص أخو عثمان. وقيل: قتله سوار بن همام العبدي حمل عليه فطعنه فقتله. وحمل ابن شهرك على سوار فقتله (٤١/٣).

وقيل: إن إصطخر كانت ثمان وعشرين، وكانت فارس الأخيرة سنة تسع وعشرين.

وقيل: إن عثمان بن أبي العاص أرسل أخاه الحكم من البحرين في ألفين إلى فارس ففتح جزيرة بركاوان في طريقه ثم سار إلى توج، وكان كسرى أرسل شهرك فالتقوا مع شهرك، وكان الجارود وأبو صفرة على مجتبي المسلمين، وأبو صفرة هذا هو والد المهلب، فحمل الفرس على المسلمين فهزمهم. فقال الجارود: أيها الأمير ذهب الجند. فقال: ستري أمرك. قال: فما لبثوا حتى رجعت خيل لهم ليس عليها فرسانها والمسلمون يتبعونهم يقتلونهم، فثرت الرؤوس فرأى المكعب رأساً ضخماً فقال: أيها الأمير هذا رأس الازدهاق، يعني شهرك. وحوصر الفرس بمدينة سابور، فصالح عليها ملكها أرزنيان، فاستعان به الحكم على قتال أهل إصطخر. ومات عمر. وبعث عثمان بن عفان عبيد الله بن معمر مكانه، فبلغ عبيد الله أن أرزنيان يريد الغدير به، فقال له: أحب أن تتخذ لأصحابي طعاماً وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الحفنة التي تليني فإني أحب أن أتمشش العظام، ففعل وجعل يأخذ العظم الذي لا يكسر إلا بالفؤوس فيكسره بيده ويأخذ مخه، وكان من أشد الناس، فقام أرزنيان فأخذ برحله وقال: هذا مقام العاقد بك! فأعطاه عهداً. وأصاب (٤٢/٣) عبيد الله منجنيق فأوصاهم وقال: إنكم ستفتحون هذه المدينة إن شاء الله فاقتلوهم بي ساعة فيها، ففعلوا، فقتلوا منهم بشراً كثيراً، ومات عبيد الله بن معمر.

وقيل: إن قتله كان سنة تسع وعشرين.

ذكر فتح فسا ودارابجرد

وقصد سارية بن رثيم الدثلي فسا ودارابجرد حتى انتهى إلى عسكرهم فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء الله، ثم إنهم استمدوا وتجمعوا وتجمعت إليهم أكرد فارس، فدعاهم المسلمين أمر عظيم، وجمع كثير، وأتاهم الفرس من كل جانب، فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة معركتهم وعديدهم في ساعة من النهار، فيأدي من الغد: الصلاة جامعة! حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم، وكان ابن رثيم والمسلمون يصيحوا إن أقاموا فيها أحيط بهم، وإن استبدلوا إلى جبل من خلفهم لم يؤثروا إلا من وجه واحد. فقام فقال: يا أيها الناس، إني رأيت هذين الجمعين، وأخبر

جمي، فكان المسلمون يتجنبونها خشية أن يصيبوا منها شيئاً فيُخفروا، وأقيم أهل سجستان على الخراج، وكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجاً، يقاتلون القنذهار والترك وأماً كثيرة، فلم يزل كذلك حتى كان زمن معاوية، فهرب الشاه من أخيه رُئيل إلى بلد فيها يدعى أَمَل، ودان لَسَلَم بن زياد، وهو يومئذ على سجستان، [ففرح بذلك] وعقد لهم (٤٥/٣) وأنزلهم البلاد وكتب إلى معاوية بذلك يري أنه فُتح عليه. فقال معاوية: إن ابن أخي ليفرح بأمر إنه ليحزني [ويبغني له أن يحزنه]. قال: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: إن أَمَل بلدة بينها وبين زَرَنْج صعوبة وتضايق، وهؤلاء قوم غُدر، فإذا اضطرب الحبل غداً فأهون ما يجيء منهم أنهم يغلبون على بلاد أَمَل بأسرها. وأقرهم على عهد سَلَم بن زياد. فلما وقعت الفتنة بعد معاوية كفر الشاه وغلب على أَمَل واعتصم منه رُئيل بمكانه، ولم يرُضه ذلك حين تشاغل عنه الناس حتى طمع في زَرَنْج فغزاها وحصر من بها حتى انتهت الأمداد من البصرة، وصار رُئيل والذين معه عصية، وكانت تلك البلاد مدللة إلى أن مات معاوية.

وقيل في فتح سجستان غير هذا، وسيرد ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح مُكران

وقصد الحكم بن عمرو التغلبي مُكران حتى انتهى إليها، ولحق به شهاب بن المخارق ومُهَيْل بن عدي وعبد الله بن عبد الله بن عتيان، فانتهاوا إلى دوين النهر، وأهل مُكران على شاطئه، فاستمدّ ملكهم ملك السند، فأمده بجيش كثيف، فالتقوا مع المسلمين فانهزموا وقُتل منهم في المعركة مقتلة عظيمة واتبعهم المسلمون يقتلونهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر، ورجع المسلمون إلى مُكران فأقاموا بها. وكتب الحكم إلى عمر بالفتح وبعث إليه بالأخماس مع صُحار العبدى. فلما قدم المدينة سأل عمر عن مُكران، فقال: يا أمير المؤمنين، هي (٤٦/٣) أرض سهلها جبل، وماؤها وشلّ، وتمرها دَقْل، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير فيها قليل، والقليل فيها ضائع، وما وراها شرّ منها. فقال: أسجّاع أنت أم مخبر؟ لا والله لا يغزوها جيش لي أبداً. وكتب إلى سهيل والحكم بن عمرو: أن لا يجوزنّ مُكران أحد من جنودكما. وأمرهما ببيع القبيلة التي غنمها المسلمون ببلاد الإسلام وقسم أثمانها على الغانمين.

(مُكران بضم الميم وسكون الكاف)

ذكر خبر يبرود من الأهواز

ولما فصلت الخيول إلى الكُوز، اجتمع ببيروذ جمع عظيم من الأكراد وغيرهم. وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير إلى

بحالهما، وصاح عمر وهو يخطب: يا سارية بن رُئيم، الجبل الجبل! ثم أقبل عليهم وقال: إن لله جنوداً، ولعل بعضها أن يبلّغهم. فسمع سارية ومن معه الصوت فلبّوا إلى الجبل، ثم قاتلهم، فهزمهم الله وأصاب المسلمون مغانمهم، وأصابوا في الغنائم سَفَطاً فيه جوهر، فاستوبه منهم سارية وبعث به وبالفتح مع رجل إلى عمر. فقدم على عمر وهو يطعم الطعام، فأمره فجلس وأكل، فلما انصرف عمر (٤٣/٣) اتبعه الرسول، فظنّ عمر أنه لم يشبع، فأمره فدخل بيته، فلما جلس أتى عمر بغدائه وزيت وملح جريش فأكلا. فلما فرغا قال الرجل: أنا رسول سارية يا أمير المؤمنين. قال: مرحباً وأهلاً. ثم أدناه حتى مسّت ركبته ركبته، وسأله عن المسلمين، فأخبره بقصة الدُرُج، فظفر إليه وصاح به: لا ولا كرامة حتى يقدم على ذلك الجند فيقسمه بينهم. فطرده، فقال: يا أمير المؤمنين، إنني قد أنصيتُ جملتي واستقرضتُ في جائزتي فأعطني ما أتبلغ به. فما زال به حتى أبدله بغيراً من إبل الصدقة وجعل بعيرة في إبل الصدقة ورجع الرسول مغضوباً عليه محروماً. وسأل أهل المدينة الرسول هل سمعوا شيئاً يوم الواقعة؟ قال: نعم سمعنا: يا سارية، الجبل الجبل، وقد كدنا نهلك فلجانا إليه ففتح الله علينا.

ذكر فتح كرمان

ثم قصد مُهَيْل بن عدي كَرَمَانَ، ولحقه أيضاً عبد الله بن عبد الله بن عتيان، وحشد لهم أهل كرمان واستعانوا عليهم بالقفص، فاقتتلوا في أداني أرضهم، ففرض الله تعالى المشركين وأخذ المسلمون عليهم الطريق. وقتل النُسير بن عمرو العجلي مرزبانها، فدخل سهيل من قبل طريق القرى اليوم إلى جيرفت، وعبد الله بن عبد الله من مفازة سبز، فأصابوا ما أرادوا من بغير (٤٤/٣) أو شاء، فقوموا الإبل والغنم فتحاصوها بالاثمان لعظم البُخت على العراب، وكرهوا أن يزيدوا، وكتبوا إلى عمر بذلك، فأجابهم: إذا رأيتم أن في البُخت فضلاً فزيدوا.

وقيل: إن الذي فتح كرمان عبد الله بن بُذَيْل بن ورقاء الخزاعي في خلافة عمر، ثم أتى الطَّبْسَيْن من كرمان، ثم قدم على عمر فقال: أقطعني الطَّبْسَيْن، فأراد أن يفعل، فقيل: إنهما رستاقان، فامتنع عمر من ذلك.

ذكر فتح ميجستان

وقصد عاصم بن عمرو سجستان، ولحقه عبد الله بن عمير، فاستقبلهم أهلها، فالتقوا هم وأهل سجستان في أداني أرضهم، فهزمهم المسلمون، ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزَرَنْج ومخروا أرض سجستان ماه، ثم إنهم طلبوا الصلح على زَرَنْج وما احتازوا من الأرضين فأعطوا، وكانوا قد اشتغلوا في صلحهم أن فادقها

ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد

كان عمر إذا اجتمع إليه جيش من المسلمين أمر عليهم أميراً من أهل العلم والفقه، فاجتمع إليه جيش من المسلمين، فبعث عليهم سلمة بن قيس الأشجعي. فقال: سِرْ باسم الله، قاتِلْ في سبيل الله مَنْ كَفَرَ بالله، فإذا لقيتم عدوكم فادعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا وأقاموا بدارهم فعليهم الزكاة وليس لهم من الشيء نصيب، وإن ساروا معكم فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم، وإن أبوا فادعوهم إلى الجزية، فإن أجابوا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم، وإن تحصنوا منكم وسالوكم أن ينزلوا على حكم الله ورسوله أو ذمة الله ورسوله فلا تجيبوهم، فإنكم لا تدرن أنصبيون حكم الله ورسوله وذمتها أم لا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا تمثّلوا.

قال: فساروا حتى لقوا عدوًا من الأكراد المشركين فدعوههم إلى الإسلام أو الجزية، فلم يجيبوا، فقاتلوهم فهزموهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية قسمه بينهم، ورأى سلمة جؤهرًا في سَفَط فاسترضى عنه المسلمين وبعث به إلى عمر (٤٩/٣) فقدم الرسول بالشارة وبالسَفَط على عمر، فسأله عن أمور الناس وهو يخبره، حتى أخبره بالسَفَط، فغضب غضبًا شديدًا وأمر به فوجيء به في عتقه، ثم إنه قال: إن تفرّق الناس قبل أن تقدم عليهم ويغسّمه سلمة فيهم لأسوءتكم. فسار حتى قدم على سلمة فباعه وقسمه في الناس. وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفًا.

وحجّ بالناس هذه السنة عمر بن الخطاب وحجّ معه أزواج النبي ﷺ، وهي آخر حجة حجّها، وفيها قُتل عمر، رضي الله عنه.

ذكر الخبر عن مقتل عمر، رضي الله عنه

قال المسور بن مخرمة: خرج عمر بن الخطاب يطوف يومًا في السوق، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المخيرة بن شعبة، وكان نصرانيًا، فقال: يا أمير المؤمنين، أغليني على المخيرة بن شعبة فإن عليّ خراجًا كثيرًا. قال: وكم خراجك؟ قال: درهمان كلّ يوم. قال: وآيش صناعتك؟ قال: نجار، نقاش، حدّاد. قال: فما أرى خراجك كثيرًا على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أصنع رحي تطحن بالريح لفعلت! قال: نعم. قال: فاعمل لي رحي. قال: لئن سلّمت لأعملن لك رحيّ يتحدث بها من بالشرق والمغرب! ثم انصرف عنه. فقال عمر: لقد أوعدني العبد الآن. (٥٠/٣)

ثم انصرف عمر إلى منزله، فلمّا كان الغد جاء كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين، اعهد فإنك ميت في ثلاث ليال. قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب التوراة. قال عمر: [اللّه! إنك] لتجد

أقصى ذمة البصرة حتى لا يؤتى المسلمون من خلفهم، وخشي أن يهلك بعض جنوده أو يُخلفوا في أعقابهم، فاجتمع الأكراد ببيروذ، وأبطل أبو موسى حتى تجمعوا، ثم سار فتزل بهم ببيروذ، فاتفقوا في رمضان بين نهر تيرى ومناذر، فقام المهاجر بن زياد وقد تحنّط واستقتل، وعزم أبو موسى على الناس فأنظروا، وتقدّم المهاجر فقاتل قتالًا شديدًا حتى قُتل. ووهن الله المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة، واشتد جزع الربيع بن زياد على أخيه المهاجر وعظم عليه فقده، فرق له أبو موسى فاستخلفه عليهم في جند، وخرج أبو موسى حتى بلغ أصهبان واجتمع (٤٧/٣) بها بالمسلمين الذين يحاصرون جيًّا، فلمّا فتحت رجع أبو موسى إلى البصرة، وفتح الربيع بن زياد الحارثي ببيروذ من نهر تيرى وغنم ما معهم.

ووفد أبو موسى وفدًا معهم الأخماس، فطلب ضبّة بن يحصن العنزي أن يكون في الوفد فلم يجبه أبو موسى، وكان أبو موسى قد اختار من سبي بيروذ ستين غلامًا، فانطلق ضبّة إلى عمر شاكيًا، وكتب أبو موسى إلى عمر يخبره، فلمّا قدم ضبّة على عمر سلّم عليه. فقال: من أنت؟ فأخبره. فقال: لا مرحبًا ولا أهلاً فقال: أمّا المرحب فمن الله، وأمّا الأهل فلا أهل. ثم سأله عمر عن حاله فقال: إن أبا موسى انتقى ستين غلامًا من أبناء الدهاقين لنفسه وله جارية تغدّي جفنة وتُعشّي جفنة تدعى عقيلة، وله قفيزان وله خاتمان، وفوض إلى زياد بن أبي سفيان أمور البصرة، وأجاز الحطيئة بالف.

فاستدعى عمر أبا موسى. فلمّا قدم عليه حجه أيامًا ثم استدعاه فسأل عمر ضبّة عمّا قال فقال: أخذ ستين غلامًا لنفسه. فقال أبو موسى: ذللت عليهم وكان لهم فداء ففديتهم وقسمته بين المسلمين. فقال ضبّة: ما كذب ولا كذبت. فقال: له قفيزان. فقال أبو موسى: قفيز لأهلي أقوتهم به وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم. فقال ضبّة: ما كذب ولا كذبت، فلمّا ذكر عقيلة سكّت أبو موسى ولم يعتذر. فعلم أن ضبّة قد صدقه، قال: وولي زياد. قال: رأيت له رأيًا ونبلًا فاستدت إليه عملي. قال: وأجاز الحطيئة بالف. قال: سددت فمه بمالي أن يشتمني. فردّه عمر وأمره أن يرسل إليه زيادًا وعقيلة، ففعل. فلمّا قدم عليه زياد سأله عن حاله وعطائه والفرائض والسنن والقرآن، فأراه فقيهاً، فردّه وأمر أمراء البصرة أن يسيروا برأيه، وحبس عقيلة بالمدينة.

وقال عمر: ألا إن ضبّة غضب على أبي موسى وفارقه مراغمًا أن فاته (٤٨/٣) أمر من أمور الدنيا فصدق عليه وكذب، فأفسد كذبه صدقه، فلأيّاكم والكذب فإنه يهدي إلى النار.

(بيروذ بفتح الباء الموحدة، وسكون الياء تحتها نقطتان، وضم الراء، وسكون الواو، وآخره ذال معجمة).

عليه، فقال له عمر: أنت لي بهذا يا ابن عباس؟ فأوماً إليه عليّ أن قل نعم. فقال ابن عباس: نعم. فقال عمر: لا تغرّني أنت وأصحابك. ثم قال: يا عبد الله، (٥٢/٣) خذ رأسي عن الوسادة فضعه في التراب لعلّ الله، جلّ ذكره، ينظر إليّ فيرحمني، والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع.

ودعي له طيب من بني الحارث بن كعب فسقاه نبيذاً فخرج غير متغير، فسقاه لبناً فخرج كذلك أيضاً، فقال له: اعهد يا أمير المؤمنين. قال: قد فرغت. ولما احتضر ورأسه في حجر ولده عبد الله قال:

ظَلَمْتُ لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي مُسْلِمٌ أَصْلَى الصَّلَاةَ كُلَّهَا وَأَصُومُ وَلَمْ يَزَلْ يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى وَيُدَيِّمُ الشَّهَادَةَ إِلَى أَنْ تَوَفَّى لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ ثَلَاثَ بَقِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ ثَلَاثَ وَعَشْرِينَ. وقيل: طعن يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة ودُفن يوم الأحد هلال محرم سنة أربع وعشرين.

وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام، وبويع عثمان لثلاث مضيّن من المحرم. وقيل: كانت وفاته لأربع بقين من ذي الحجة وبويع عثمان لليلة بقيت من ذي الحجة واستقبل بخلافته هلال محرم سنة أربع وعشرين. وكانت خلافة عمر على هذا القول عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام. وصلى عليه صُهَيْب، وحُمِلَ إلى بيت عائشة، ودُفن عند النبي، ﷺ، وأبي بكر، ونزل في قبره عثمان وعليّ والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وعبد الله بن عمر. (٥٣/٣)

ذكر نسب عمر وصفته وعمره

فأما نسبه فهو عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، وكنيته أبو حفص، وأمه خُثَيمَة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهي ابنة عم أبي جهل، وقد زعم من لا معرفة له أنها أخت أبي جهل، وليس بشيء.

وسمّاه النبي، ﷺ، الفاروق، وقيل: بل سمّاه أهل الكتاب.

وأما صفته فكان طويلاً آدم أصلح أعسر يسراً، يعني يعمل بيديه، وكان لطوله كأنه راكب، وقيل: كان أبيض أبهى، يعني شديد البياض، تعلوه حمرة، طوالاً أصلح أشيب، وكان يصغر لحيته ويرجل رأسه. وكان مولده قبل الفجار بأربع سنين، وكان عمره خمساً وخمسين سنة، وقيل: ابن ستين سنة، وقيل: ابن ثلاث وستين سنة وأشهر، وهو الصحيح، وقيل: ابن إحدى وستين سنة.

(رياح بكسر الراء وبالياء تحتها نقطتان).

عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا ولكني أجد حليتيك وصفتك وأنت قد فني أجلك. قال: وعمر لا يحس وجعاً! فلما كان الغد جاءه كعب فقال: بقي يومان. فلما كان الغد جاءه كعب فقال: مضى يومان وبقي يوم. فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يركل بالصفوف رجالاً فإذا استوت كبر، ودخل أبو لؤلؤة في الناس ويده خنجر له راسان نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرّته وهي التي قتله، وقتل معه كليب بن أبي البكير الليثي وكان خلفه، وقتل جماعة غيره.

فلما وجد عمر حرّ السلاح سقط وأمر عبد الرحمن بن عوف فصلى بالناس، وعمر طريح، فاحتمل فأدخل بيته، ودعا عبد الرحمن فقال له: إني أريد أن أعهد إليك. قال: أتشير عليّ بذلك؟ قال: اللهم لا. قال: والله لا أدخل فيه أبداً. قال: فهني صمتاً حتى أعهد إلى نفر الذين توفي رسول الله، ﷺ، وهو عنهم راضٍ. ثم دعا عليّاً وعثمان والزبير وسعداً فقال: انتظروا أحاكم طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم؛ أنشدك الله يا عليّ إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس، أنشدك الله يا عثمان إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس، أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس، قوموا فتشاوروا ثم اقضوا أمركم وليصل بالناس صُهَيْب. (٥١/٣)

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري، فقال: قم على بابهم فلا تدع أحداً يدخل إليهم. وأوصي الخليفة من بعدي بالأبصار الذين تبرؤوا الدار والإيمان أن يحسن إلى محسنهم ويعفو عن مسيئهم، وأوصي الخليفة بالعرب، فإنهم مادة الإسلام، أن يؤخذ من صدقاتهم حقها فتوضع في فقرائهم، وأوصي الخليفة بذمة رسول الله، ﷺ، أن يوفي لهم بعهدهم، اللهم هل بلغت؟ تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة؛ يا عبد الله بن عمر، اخرج فانظر من قتلني.

قال: يا أمير المؤمنين، قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة؛ يا عبد الله بن عمر، اذهب إلى عائشة فسلها أن تأذن لي أن أدفن مع النبي، ﷺ، وأبي بكر. يا عبد الله، إن اختلف القوم فكُن مع الأكثر، فإن تشاوروا فكُن مع الحزب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف، يا عبد الله، ائذن للناس. فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه ويقولون لهم: هذا عن ملائمتكم؟ فيقولون: معاذ الله! قال: ودخل كعب الأحبار مع الناس فلما رآه عمر قال:

توعدني كعب ثلاثاً أعطها ولا شك أن القول ما قال لي كعب وما بي جناز الموت، إني لمتّ، ولكن جناز النسيب يتبعه النسيب ودخل عليه عليّ يعودّه فقعده عند رأسه، وجاء ابن عباس فأتى

ذكر أسماء ولده ونسائه

تزوج عمر في الجاهلية زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن خذافة بن جحج فولدت له عبدالله وعبد الرحمن الأكبر وخفصة. وتزوج مليكة بنت جزول الخزاعي في الجاهلية، فولدت له عبيد الله بن عمر، ففارقها في الهدنة، فخلع عليها أبو جهم بن حذيفة، وقتل عبيد الله بصفيين (٥٤/٣) مع معاوية، وقيل: كانت أمه أم زيد الأصغر أم كلثوم بنت جزول الخزاعي، وكان الإسلام فرق بينها وبين عمر. وتزوج قُرَيْبَةُ بنت أبي أمية المخزومي في الجاهلية، ففارقها في الهدنة أيضاً، فتزوجها بعده عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق، فكانا سلفي رسول الله ﷺ، لأن قُرَيْبَةَ أختت أم سلمة زوج النبي ﷺ. وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي في الإسلام، فولدت له فاطمة طفلتها، وقيل لم يطلقها. وتزوج جميلة أخت عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأوسي الأنصاري في الإسلام، فولدت له عاصماً طفلتها، ثم تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأصدقها أربعين ألفاً، فولدت له رقية وزيداً. وتزوج لَهْثَةُ امرأة من اليمن، فولدت له عبد الرحمن الأوسط، وقيل الأصغر. وقيل: كانت أم ولد، وكانت عنده فكَّهَة أم ولد فولدت له زينب، وهي أصغر ولد عمر. وتزوج عائكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قبله عند عبد الله بن أبي بكر الصديق، فقتل عنها، فلما مات عمر تزوجها الزبير بن العوام، فقتل عنها أيضاً، فخطبها علي، فقالت: لا أفعل، إني أضربك عن القتل فإنك بقية الناس. فتركها.

وخطب أم كلثوم ابنة أبي بكر الصديق إلى عائشة، فقالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه، إنه خشن العيش شديد على النساء، فأرسلت عائشة إلى عمرو (٥٥/٣) ابن العاص فقال: أنا أكفيك. فأتى عمر فقال: بلغني خبر أعيدك بالله منه. قال: ما هو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر. قال: نعم، أفرغت بي عنها أم رغبت بها عني؟ قال: ولا واحدة، ولكنها حذثة نشأت تحت كنف أمير المؤمنين في لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفك في شيء فسطوت بها. كنت قد خلقت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك وقال فكيف بعائشة وقد كلمتها؟ قال: أنا لك بها وأدلك على خير منها، أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب تعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ.

وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت: يغلق بابي، ويمنع خيرته، ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

ذكر بعض سيرته، رضي الله عنه

قال عمر: إنما مثل العرب مثل جمل أنف أتبع قائده فليظفر قائده حيث يفوقه، فأمّا أنا فرب الكعبة لأحملتهم على الطريق !

قال نافع العيشي: دخلت خير الصدقة مع عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، قال: فجلس عثمان في الظل يكتب وقام علي على رأسه يملئ عليه ما يقول عمر، وعمر قائم في الشمس في يوم شديد الحر عليه بردان أسودان اتزرا بأحدهما ولف الآخر على رأسه يعدل الصدقة يكتب الوانها وأستانها. فقال علي لعثمان: في كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَأْذِنُوا إِنْ خِيزَ مِنْكُمْ اسْتَأْذِنُوا﴾ [القوي الأمين] [القصص: ٢٦] ثم أشار علي بيده إلى عمر وقال: هذا القوي الأمين.

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: رأيتُ عمرو أخذ بتبنة من الأرض فقال: يا ليتني هذه التبنة لم أك شيئاً، يا ليت إمي لم تلدني، يا ليتني كنت نسياً منسياً. وقال الحسن: قال عمر: لئن عشتُ إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً فأني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي، فأسير إلى الشام فأقيم شهرين، وبالجيزة شهرين، وبمصر شهرين، وبالحرين شهرين، وبالكوفة شهرين، وبالبصرة شهرين، والله لنعم الحول هذا ! وقيل لعمر: إن ههنا رجلاً من الأنبار له بصر بالديوان لو اتخذته كاتباً. فقال: لقد اتخذتُ إذن بطانة من دون المؤمنين.

قيل: خطب عمر الناس فقال: والذي بعث محمداً ﷺ، بالحق لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات لتخشيت أن يسألني الله عنه.

وقال أبو فراس: خطب عمر الناس فقال: أيها الناس، إني ما أرسل إليكم عملاً ليعزبوا أبشاركم ولا لياخذوا أموالكم وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفس عمر بيده لأقصه منه. فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرايتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فآذب بعض رعيته إنك لتقصه منه؟ قال: إي والذي نفس عمر بيده إذن لأقصه منه، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت النبي ﷺ، يقص من نفسه ! ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تحمدوهم فتفتنّوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم. (٥٧/٣)

قال بكر بن عبد الله: جاء عمر بن الخطاب إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يصلي في بيته ليلاً، فقال له عبد الرحمن: ما جاء بك في هذه الساعة؟ قال: رفقة نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة، فانطلق فلنحرسهم. فأتيا السوق فقعدا على نشز من الأرض يتحدثان، فرفع لهما مصباح فقال عمر: ألم أنه عن المصاييح بعد النوم؟ فانطلقا فإذا قوم على شراب لهم. قال: انطلق فقد عرفت. فلما أصبح أرسل إليه قال: يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب ! قال: وما أعلمك يا أمير المؤمنين؟ قال: شيء شهدته. قال: أولم ينهك الله عن التمجس؟ فتجاوز عنه.

له: يا خليفة خليفة رسول الله. فقال عمر: هذا أمر يطول، كلما جاء خليفة قالوا يا خليفة (٥٩/٣) خليفة خليفة رسول الله، بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسَميَ أمير المؤمنين.

وهو أول من كتب التاريخ، وقد تقدّم.

وهو أول من اتخذ بيت مال، وأول من عسّ الليل، وأول من عاقب على الهجاء، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد، وأول من جمع الناس في صلاة الجنازة على أربع تكبيرات، وكانوا قبل ذلك يصلون أربعاً وخمساً وسناً. قال الواقدي:

وهو أول من جمع الناس على إمام يصلي بهم التراويح في شهر رمضان وكتب به إلى البلدان وأمرهم به، وهو أول من حمل الذرة وضرب بها، وأول من دُون في الإسلام.

قال زاذان: قال عمر لسلمان: أملك أنا أم خليفة؟ قال له سلمان: إن أنت جيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ووضعت في غير حقّه فانت ملك غير خليفة. فبكى عمر.

وقال أبو هريرة: يرحم الله ابن خنثة! لقد رأيت عام الرمادة وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت في يده وإنه يتعقب هو وأسلم، فلما رأي قال: من أين يا أبا هريرة؟ قلت: قريباً، فأخذت أعقبه فحملناه حتى انتهينا إلى صرار فإذا نحو من عشرين بيتاً من محارب، فقال لهم: ما أقدمكم؟ قالوا: الجهد، وأخرجوا لنا جلد الميتة مشويّاً كانوا ياكلونه ورمّة العظام مسحوقة كانوا يستفونها، فرايت عمر طرح رداءه ثم أتزر فما زال يطبخ حتى أشبعهم، ثم أرسل أسلم إلى المدينة فجاءنا بأعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبنة ثم كساهم، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك.

قال أبو خنثة: رأت الشفاء بنت عبد الله فتينا بقصدون في المشي ويتكلمون (٦٠/٣) رويداً، فقالت: ما هذا؟ قالوا: نُسّاك، فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو والله ناسك حقاً.

قال الحسن: خطب عمر الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة منها آدم. قال أبو عثمان النهدي: رأيت عمر يرمي الجمرة وعليه إزار مرقع بقطعة جراب، وقال علي: رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيها من آدم.

وقال الحسن: كان عمر يمرّ بالآية من ورده فيسقط حتى يعاد كما يعاد [الطور: ٨٠٧] المريض، وقيل: إنه سمع قارناً يقرأ والطور، فلما انتهى إلى قوله تعالى: «إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ»، سقط ثم تحامل إلى منزله فمرض شهراً من ذلك.

وإنما نهى عمر عن المصاييح لأن الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها في سقف البيت فتحرقه، وكانت السيوف من جريد، وقد كان رسول الله ﷺ، نهى عن ذلك.

وقال أسلم: وخرج عمر إلى حرّة واقم وأنا معه، حتى إذا كنّا بصرار إذا نار تسعّر. فقال: انطلق بنا إليهم. فهورلنا حتى دنونا منهم فإذا بامرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون. فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء. وكره أن يقول: يا أصحاب النار. قالت: وعليك السلام. قال: أدنوا؟ قالت: ادنّ بخير أو دع. فدنا فقال: ما بالكُم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد. قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع. قال: وأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ما لي ما أسكتهم حتى يناموا فلنا أعللهم وأوهمهم أني أصلح لهم شيئاً حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر! قال: أي رحمك الله، ما يُدري بكم عمر؟ قالت: يتولّى أمرنا ويفعل عنا. فأقبل عليّ وقال: انطلق بنا. فخرجنا نهول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال: احمله على ظهري. قال أسلم: فقلت: أنا أحمله عنك، مرتين أو ثلاثاً. فقال آخر ذلك: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك؟ فحملته (٥٨/٣) عليه، فانطلق وانطلقت معه نهول حتى انتهينا إليها، فالتقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها: ذري عليّ وأنا أحرّك لك، وجعل ينفخ تحت القدر، وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى أنفضج ثم أنزل القدر، فأتته بصحفة فأفرغها [فيها] ثم قال: أطعميهم وأنا أسطح لك، فلم يزل حتى شبعوا، ثم خلى عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين! فيقول: قولني خيراً فإنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك، إن شاء الله! ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وريض لا يكلمني حتى رأى الصبية يضحكون ويصطرون، ثم ناموا وهدؤوا، فقام وهو يحمد الله، فقال: يا أسلم، الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحييت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم.

(صرار بكسر الصاد المهملة ورائين).

قال سالم بن عبد الله بن عمر: كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً [منكم] فعله إلا أضعت عليه العقوبة. قال سلام بن مسكين: وكان عمر إذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه، فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر، وربما خرج عطاءه فقضاه.

قال: وهو أول من دعي بأمر المؤمنين وذلك أنه لما ولي قالوا

قال الشعبي: كان عمر يطوف في الأسواق ويقرأ القرآن ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم.

قال موسى بن عقبة: أتى رهط إلى عمر فقالوا له: كثر العيال واشتدت المؤونة فزدنا في عطائنا. قال: فعلتموها، جمعتم بين الضرائر واتخذتم الخدم من مال الله، لوددت أني وإياكم في سفينة في لجة البحر تذهب بنا شرقاً وغرباً فليس يعجز الناس أن يولّوا رجلاً منهم فإن استقام أتبعوه وإن جف قتلوه. فقال طلحة: وما عليك لو قلت: وإن تعوج عزلوه؟ قال: لا، القتل أنكل من بعده، احذروا فتى ابن قريش وابن كريمها الذي لا ينأى إلا على الرضا ويضحك عند الغضب وهو يتناول من فوقه ومن تحته. (٦١/٣)

قال مجالد: ذكر رجل عند عمر فقيل: يا أمير المؤمنين، فاضل لا يعرف من الشر شيئاً. قال: ذاك أوقع له فيه. قال صالح بن كيسان: قال المغيرة بن شعبة: لما دفن عمر أثبت علياً وأنا أحب أن أسمع منه في عمر شيئاً، فخرج ينفض رأسه ولحيته وقد اغتسل وهو ملتحف بثوب لا يملك أن الأمر يصير إليه، فقال: يرحم الله ابن الخطاب، لقد صدقت ابنة أبي حشمة، ذهب بخيرها ونجا من شرها، أما والله ما قالت ولكن قولت. وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو في عمر:

فجئني في فيروز لا فؤوه بانيض نال للكتاب نجيب
روؤف على الأذن غليظ على العدا أخي تقي في التيات شبيب
منى ما يكره لا يكذب القول فعله سريع إلى الخيرات غير قطوب

وقال أيضاً:

غين جودي بتميرة ونحيب لا تملني على الإثم النجيب
فجئتني المشون بالناريس المعد بلم يوم الهياج والتليب
عصمة الناس والمعين على النفع سر وغيبو الثباب والمحروب
قل لأهل الشراء والبوس موتوا قيد بقة المشون كاس شعوب

قال ابن المسيب: وحي عمر فلماً كان بضجنان قال: لا إله إلا الله العظيم العلي المعطي ما شاء من شاء، كنت أرى إيل الخطاب في هذا الوادي في منزعة صوفى، وكان فلماً يتجني إذا عملت ويضربني إذا قصرت، وقد أسيت وليس بيني وبين الله أحد؛ ثم تمثل: (٦٢/٣)

لا شيء فيما نرى بقي بئاشته يقى الإله ويندي المال والوكذ
لم نعن عن هزمير يوماً خراشته والمخلد قد حاولت عاذ فما خلوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح به والإنس والجن فيما ينهاسيرد
إين الملوكة التي كانت نوافلها من كل أوبى إليها راكب يقد
حوضاً هنالك موروداً بلا كذيب لابس من وزه يوماً كما وودوا

قال أسلم: إن هند بنت عتبة استقرضت عمر من بيت المال أربعة آلاف تجر فيها وتضمنها، فأقرضها، فخرجت فيها إلى بلاد

كلب فاشترت وباعت، فبلغها أن سفيان وابنه عمرأ أنيا معاوية، فعلتت إليه، وكان أبو سفيان قد طلقها، فقال لها معاوية: ما أقدمك أي أمه؟ قالت: النظر إليك أي بني، إنه جبري وأنا يعمل لله وقد اتكك أبوك فخشيت أن تخرج إلي من كل شيء وأهل ذلك هو ولا يعلم الناس من أين أعطيت فيزيونك ويؤنيك عمر فلا يستقبلها أبداً. فبعث إلى أبيه وإلى أخيه بمائة دينار وكساهما وحملهما، فتسخطها عمرو، فقال أبو سفيان: لا تسخطها فإن هذا عطاء لم تغب عنه هند، ورجعوا جميعاً، فقال أبو سفيان لهند: أريحتي؟ قال: الله أعلم. فلما أتت المدينة وباعت شكت الوضيعة، فقال لها عمر: لو كان مالي لتكره لك، ولكنه مال المسلمين. وقال لأبي سفيان: يكمل أجازك معاوية؟ قال: بمائة دينار.

قال ابن عباس: بينما عمر بن الخطاب وأصحابه يتذاكرون الشعر فقال بعضهم: فلان أشعر، وقال بعضهم: بل فلان أشعر، قال: فأقبلت فقال (٦٣/٣) عمر: قد جاءكم أعلم الناس بها، من أشعر الشعراء؟ قال: قلت: زهير بن أبي سلمى. فقال: هلم من شعره ما نستدل به على ما ذكرت. فقلت: امتدح قوماً من غطفان فقال:

لو كان يقصد فوق الشمس من كرم قسوم لأولهم يوماً إذا قتلوا
قوم أبومهم سنان حين تسبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولتوا
حين إذا فرغوا ليس إذا أمسوا مبرودون بهاليل إذا جهلوا
محبسون على ما كان من نعم لا يتي الله منهم ما له خيلوا

فقال عمر: أحسن والله وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحي من بني هاشم لفضل رسول الله ﷺ، وقرابتهم منه. فقلت: وفتت يا أمير المؤمنين ولم تزل موثقاً! فقال: يا ابن عباس، أتدري ما منع قومك منهم بعد محمد، ﷺ؟ فكرهت أن أجيبه فقلت: إن لم أكن أدري فإن أمير المؤمنين يدريني! فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومك بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابته ووفقت. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن تاذن لي في الكلام وتمطع عني الغضب (٦٤/٣) تكلمت. قال: تكلم. قلت: أما قولك يا أمير المؤمنين: اختارت قريش لأنفسها فأصابته ووفقت، فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود. وأما قولك: إنهم أبوا أن تكون لنا النبوة والخلافة، فإن الله عز وجل، وصف قوماً بالكراهة فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]. فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس، قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أفكر عليها فتزِيل منزلتك مني. فقلت: ما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقاً فما ينبغي أن تزِيل منزلتي منك، وإن كانت باطلاً فمتلكي أماط البتاطل عن نفسه. فقال عمر: بلغني أنك تقول: إنما صرّفوها عنك حسداً

رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ، وهو عنكم راضٍ، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذننا فتشاوروا فيها. ووضع رأسه وقد نزفه الدم.

فدخلوا فتناجوا حتى ارتفعت أصواتهم، فقال عبد الله بن عمر: سبحان الله! إن أمير المؤمنين لم يمست بعد. فسمعه عمر فأنابه وقال: [ألا] أعرضوا عن هذا فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهييب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة قبل قدومه فأمضوا أمركم، ومن لي بطلحة؟ فقال سعد بن أبي وقاص: أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله تعالى. فقال عمر: أرجو أن لا يخالف إن شاء الله، وما أظن يلي إلا أحد هذين الرجلين: علي أو عثمان، (٦٧/٣) فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي ففيه دُعابة، وأحرى به أن يحملهم على طريق الحق، وإن تولوا سعداً فأهله هو وإلا فليستن به الوالي، فإني لم أعزله عن ضعف ولا خيانة، ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف، فاسمعوا منه وأطيعوا.

وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إن الله طالما أمر بك الإسلام فاختَرُ خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتوني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً.

وقال لصهييب: صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، وإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا يحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقي إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس.

فخرجوا فقال علي لقوم معه من بني هاشم: إن أطيع فيكم قومكم لم تؤمروا أبداً، وتلقاه عمه العباس فقال: عدلت عنا! فقال: وما علمك؟ قال: قرن بني عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلاً رجلاً ورجلاً رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن، فسعد لا يخالف ابن عمه، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليا أحدهما الآخر، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني. فقال له العباس: لم أرفعك في شيء إلا رجعت إلي مستأخراً لما أكره، أشرت عليكم عند وفاة رسول الله ﷺ، أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت، فأشرت عليكم بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت،

وبغياً وظلماً. فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين: ظلماً، فقد تبين للجاهل والحليم، وأما قولك: حسداً، فإن آدم حسد. ونحن ولده المحسدون. فقال عمر: هيهات هيهات! أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً لا يزول. فقلت: مهلاً يا أمير المؤمنين، لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بالحسد والغش، فإن قلب رسول الله ﷺ، من قلوب بني هاشم. فقال عمر: إليك عني يا ابن عباس، فقلت: أفعل. فلما ذهبت لأقوم استحيا مني فقال: يا ابن عباس، (٦٥/٣) مكانك! فوالله إني لبراع لحقك محب لما سرك. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن لي عليك حفاً وعلى كل مسلم، فمن حفظه حفظه أصاب، ومن أضاعه حفظه أخطأ. ثم قام فمضى.

ذكر قصة الشورى

قال عمرو بن ميمون الأودي: إن عمر بن الخطاب لما طعن قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت. فقال: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: «إنه أمين هذه الأمة». ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: «إن سالماً شديد الحب لله تعالى». فقال له رجل: أدلك على عبد الله بن عمر. فقال: قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا! ويحك! كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا في أموركم، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فقد صُرف عنا، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجلاً واحد ويُسال عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد؛ وأنظر فإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، ولن يضيع الله دينه.

فخرجوا ثم راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عهدت عهداً. فقال: قد كنت (٦٦/٣) أجمعت بعد مقالتي أن أنظر فأولي رجلاً أمركم هو أحرأكم أن يحملكم على الحق، وأشار إلى علي، فرفقتني غشية فرأيت رجلاً دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويأبى فيضمه إليه ويصيره تحته، فعلمت أن الله غالب [علي] أمره، فما أردت أن أتحملها حياً وميتاً، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ: إنهم من أهل الجنة، وهم علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولوا والياً فأحسنوا موازرتهم وأعينوه.

فخرجوا فقال العباس لعلي: لا تدخل معهم. قال: إني أكره الخلاف. قال: إذن ترى ما تكره. فلما أصبح عمر دعا علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن والزبير فقال لهم: إني نظرت فوجدتكم

مخرمة فايقظه وقال له: لم أذق في هذه الليلة كبير غمض، انطلق فادع الزير وسعداً، فدعاهما، فبدأ بالزير فقال له: خل بني عبد مناف وهذا الأمر. قال: نصيبي لعلّي. وقال لسعد: اجعل نصيبك لي. فقال: إن اخترت نفسك فنعيم، وإن (٧٠/٣) اخترت عثمان فعليّ أحب إليّ؛ أيها الرجل، بايع نفسك وأرخنا وارفع رؤوسنا. فقال له: قد خلعت نفسي على أن أختار، ولو لم أفعل لم أردّها، إني رأيت روضة خضراء كثيرة العشب، فدخل فحلّ ما رأيت أكرم منه فمرّ كأنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى قطعها لسم يعرج، ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج منها، ثم دخل فحلّ عبقرى يجزّ خطامه ومضى قصد الأركين، ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة، ولا والله لا أكون الرابع ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضى الناس عنه.

قال: وأرسل المسور فاستدعى عليّاً فناجاه طويلاً وهو لا يشكّ أنه صاحب الأمر، ثم نهض، ثم أرسل إلى عثمان فتناجيا حتى فرّق بينهما الصبح.

قال عمرو بن ميمون: قال لي عبد الله بن عمر: من أخبرك أنه يعلم ما كلّ به عبد الرحمن بن عوف عليّاً وعثمان فقد قال بغير علم فوقع قضاء ربك على عثمان. فلما صلوا الصبح جمع الرهط وبعث إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وإلى أمراء الأجناد فاجتمعوا حتى اتّسع المسجد بأهله فقال: أيها الناس، إن الناس قد أجمعوا أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم، فاشيروا عليّ. فقال عمار: إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليّاً. فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار، إن بايعت عليّاً قلنا: سمعنا وأطعنا. قال ابن أبي سرح: إن أردت أن لا تختلف قریش فبايع عثمان. فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صدقت إن بايعت عثمان قلنا: سمعنا وأطعنا. فشمّ عمار ابن أبي سرح وقال: متي كنت تنصح المسلمين؟ فتكلّم (٧١/٣) بنو هاشم وبنو أمية فقال عمار: أيها الناس، إن الله أكرمنا بنبينا وأعزنا بدينه فأنتي تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟ فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يا ابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها! فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن، افرغ قبل أن يفتن الناس. فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت وشاروت فلا تجعلنّ أيها الرهط على أنفسكم سيلاً؛ ودعا عليّاً وقال: عليكم عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفيتين من بعده. قال: أرجو أن أفعل فأعمل ببلغ علمي وطاقتي؛ ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلّي، فقال: نعم نعمل. فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللهم استمع واشهد اللهم أني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقة عثمان، فبايعه.

فقال عليّ: ليس هذا أوّل يوم تظاهروا فيه علينا، ﴿فَصَبِّرْ

واشترُ (٦٨/٣) عليك حين سمّاك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فابيت، احفظ عني واحدة: كلّما عرض عليك القوم فقل: لا، إلا أن يولوك، واحذر هؤلاء الرهط فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به لنا غيرنا، وإيم الله لا يناله إلا بشر لا ينفع معه خير! فقال عليّ: أما لئن بقي عثمان لأذكرته ما أتى، ولئن مات ليتداولنها بينهم، ولئن فعلوا لتجدني حيث يكرهون؛ ثم تمثّل: حلفت برّب الرّاقصات عشيةً غلّون خفافاً فابتزّن الموحّصا ليختلن رهط ابن يفسر قارنأ نجيعاً بنسو الشلّاخ ورداً مصلّبا والتفت فرأى أبا طلحة فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لئن تراع أبا الحسن.

فلما مات عمر وأخرجت جنازته صلى عليه صهيب، فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة، وقيل: في بيت المال، وقيل: في حجرة عائشة بإذنهما، وطلحة غائب، وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب، فحصبهما سعد وأقامهما وقال: تريدان أن تقولاً: حضرنا وكنا في أهل الشورى! فتناقص القوم في الأمر وكثر فيهم الكلام، فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تتناقصوها، والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمر، ثم أجلس في بيتي فانظر ما تصنعون! فقال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه وينقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد. فقال: فانا أنخلع منها. فقال عثمان: أنا أوّل من رضي. فقال القوم: قد رضينا. وعليّ ساكت. فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: أعطني موثقاً لتؤثروا الحق ولا تتبع الهوى (٦٩/٣) ولا تخصّ ذا رحم ولا تألو الأمة [نصحاً]. فقال: أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من بذل وغيره وأن ترضوا من اخترت لكم، وعليّ ميثاق الله أن لا أخصّ ذا رحم لرحمه ولا أكو المسلمين؛ فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، فقال لعلّي: تقول إني أحقّ من حضر بهذا الأمر لقربتك وسابقتك وحسن أشرك في الدين ولم تبعده، ولكن رأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحقّ به؟ قال: عثمان. وخلا بعثمان فقال: تقول شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله، ﷺ، وابن عمّه، ولي سابقة وفضل، فإين يصرف هذا الأمر عني؟ ولكن لو لم تحضر أي هؤلاء الرهط تراه أحقّ به؟ قال: عليّ.

ولقي عليّ سعداً فقال له: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، أسألك برحم ابني هذا من رسول الله، ﷺ، وبرحم عمّي حمزة منك أن تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً. ودار عبد الرحمن لياليه يلقي أصحاب رسول الله، ﷺ، ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشرف الناس يشاورهم، حتى إذا كان الليلة التي صبيحتها تستكمل الأجل أتى منزل المسور بن

واجدر بها أن تكون إن خولف أمرُك وتُترك دعاؤُك، فانا أول مجيب [لك] وداع إليك وكفيل بما أقول؛ واستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلم الزبير بعده فقال: أما بعد فإن داعي الله لا يُجهل، ومجيبه لا يُخذل عند تفرق الأهواء ولي الأعتاق، ولن يقصر عما قلت إلا غوي، ولن يترك ما دعوت إليه إلا شقي، ولولا حدود لله فرضت، وفرائض الله حدثت، تراح على أهلها وتحيا ولا تموت، لكان الموت من الإمارة نجاة، والفرار من الولاية عصمة، ولكن لله علينا إجابة الدعوة وإظهار السنة لئلا نموت موتة عتيبة، ولا نعى عى الجاهلية، فانا مجيبك إلى ما دعوت، ومعينك على ما أمرت، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلم سعد فقال بعد حمد الله: وبمحمد، ﷺ، أنارت الطرق واستقامت السبل وظهر كل حق ومات كل باطل، إياكم أيها النفر وقول الزور وأمنية أهل الغرور، وقد سلبت الأمانى قوماً قبلكم ورتو ما ورثتم ونالوا ما نلتهم فاتخذهم الله عدواً ولعنهم لعناً كبيراً. قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، [المائدة: ٧٨، ٧٩] إني نكيت قرني وأخذت سهمي الفالج وأخذت لطلحة بن عبيد الله ما ارتضيت لنفسي، فانا به كفيل وبما أعطيت عنه زعيم والأمير إليك يا ابن عوف بجهد النفس وقصد النصح، وعلى الله قصد السبيل، وإليه الرجوع، واستغفر الله لي ولكم، وأعوذ بالله من مخالفتكم.

ثم تكلم علي بن أبي طالب فقال: الحمد لله الذي بعث محمداً من نبياً، وبعثه إلينا رسولاً، فنحن بيت النبوة، ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب، لنا حق إن نعطه ناخذ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل ولو طال السرى، لو عهد إلينا رسول الله، ﷺ، عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحيم، لا حول ولا قوة إلا بالله، اسمعوا كلامي وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا المجمع تنضى فيه السيوف، وتخان فيه العهود، حتى تكونوا جماعة، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة، ثم قال:

فإن تك جاسمٌ هلكت فإني بما فعلت بنو عبد بن ضجيم مطيع في الهواجر كل غي بصير بالتوى من كل نجم (٧٥/٣)

فقال عبد الرحمن: أيكم يطيب نفساً أن يُخرج نفسه من هذا الأمر؟ وذكر قريباً مما تقدم.

ثم جلس عثمان في جانب المسجد بعد بيعته، ودعا عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وكان قتل [قاتل] أبيه أبا لؤلؤة، وقتل جفينة

جميل والله المستعان على ما تصفون [يوسف: ١٨]، والله ما وليت عثمان إلا ليرة الأمر إليك، والله كل يوم في شان! فقال عبد الرحمن: يا علي، لا تجعل على نفسك حجةً وسيلاً. فخرج علي وهو يقول: سيلغ الكتاب أجله. فقال المقداد: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركته وإنه من الذي يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال: يا مقداد، والله لقد اجتهدت للمسلمين. قال: إن كنت أردت الله فأتاك الله ثواب المحسنين. فقال المقداد: ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبئهم، إني لأعجب من قرش أنهم تركوا رجلاً ما أقول ولا أعلم أن رجلاً أقضى بالعدل ولا أعلم منه، أما والله لو أجد أعواناً عليه! فقال عبد الرحمن: يا مقداد أتق الله فأني خائف عليك الفتنة. فقال (٧٢/٣) رجل للمقداد: رحمك الله، من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل؟ قال: أهل البيت بنو عبد المطلب، والرجل علي بن أبي طالب. فقال علي: إن الناس ينظرون إلى قرش وقرش تنظر بيننا فتقول: إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم تداولتموها بينهم.

وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان فقبل له: بايعوا لعثمان. فقال: كل قرش راض به؟ قالوا: نعم. فأتى عثمان، فقال له عثمان: أنت على رأس أمرك وإن أبيت رددتها. قال: أتردّها؟ قال: نعم. قال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم. قال: قد رضيت لا أرغب عما أجمعوا عليه. وبإيعه.

وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن: يا أبا محمد قد أصبت أن بايعت عثمان. وقال لعثمان: ولو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا. فقال عبد الرحمن: كذبت يا أعور، لو بايعت غيره لباعته ولقلت هذه المقالة. قال: وكان المسور يقول: ما رأيت أحداً بذ قوماً فيما دخلوا فيه بمثل ما بذهم عبد الرحمن.

قلت قوله: إن عبد الرحمن صهر عثمان، يعني أن عبد الرحمن تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أخت عثمان لأمه خلف عليها عقبة بعد عثمان.

وقد ذكر أبو جعفر رواية أخرى في الشورى عن المسور بن مخرمة وهي تمام حديث مقتل عمر، وقد تقدم، والذي ذكره مهنا قريب من الذي تقدم آنفاً، غير أنه قال: لما دفن عمر جمعهم عبد الرحمن وخطبهم وأمرهم بالاجتماع وترك التفرق، فتكلم عثمان فقال: الحمد لله الذي اتخذ محمداً نبياً وبعثه رسولا وصدقه وعده ووهب له نصره على كل من بعد نسياً أو قرب رجماً، (٧٣/٣) جعلنا الله له تابعين، وبأمره مهتدين، فهو لنا نور ونحن بأمره نقوم عند تفرق الأهواء ومجادلة الأعداء، جعلنا الله بفضل أئمة، وبطاعته أمراء، لا يخرج أمرنا منا، ولا يدخل علينا غيرنا، إلا من سفه الحق ونكل عن القصد، وأحربها يا ابن عوف أن تترك،

الدم لم يتعرض له علي. (٧٧/٣)

ذكر عدة حوادث

كان العمال فيها على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعي، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن مئبة، وعلى الجند عبد الله بن أبي ربيعة، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى البصرة أبو موسى الأشعري، وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى حمص عمير بن سعد، وعلى دمشق معاوية، وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبي العاص الثقفي.

وفيهما غزا معاوية الصائفة ومعه عبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصاري وأبو ذر وشداد بن أوس.

وفيهما فتح معاوية عسقلان على صلح، وكان على قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة كعب بن سور، وقيل: إن أبا بكر وعمر لم يكن لهما قاض.

وفي هذه السنة توفي قتادة بن النعمان الأنصاري، وهو الذي رد رسول الله ﷺ، عينه، وصلى عليه عمر بن الخطاب، وهو بدري، وقيل: توفي سنة أربعة وعشرين.

وفي خلافة عمر توفي الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، وهو بدري، وبيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وهو أسن من العباس، وعمير بن عوف مولى سهيل بن عمرو، وهو بدري، وعمير بن وهب بن خلف الجُمحي، شهد أحدًا، وعُتبة بن مسعود آخر عبد الله بن مسعود، وهو من مهاجرة الحبشة شهد أحدًا، وعدي بن أبي الزغباء الجهني، وهو عين رسول الله ﷺ، يوم بدر وشهد غيرها أيضاً.

وفيهما مات غويزم بن ساعدة الأنصاري، وهو عَقَبِي بدري، وقيل: (٧٨/٣) إنه من بني وله حليف في الأنصار. وفيها مات سهيل بن رافع الأنصاري، شهد بدرًا، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصاري، وقيل: بل عاش بعد ذلك وشهد صفين مع علي.

وفيهما توفي واقد بن عبد الله التميمي حليف الخطّاب، وهو أول من قاتل في سبيل الله في الإسلام وقتل عمرو بن الحضرمي، وكان إسلامه قبل دخول رسول الله ﷺ، دار الأرقم.

وفيهما مات أبو جندل بن سهيل بن عمرو، وأخوه عبد الله، وكان عبد الله بدريًا، ولم يشهدا أبو جندل لأن آباه سجنه بمكة ومنعه من الهجرة إلى يوم الحديبية، وقد تقدم كيف خلّص.

وفيهما مات أبو خالد الحارث بن قيس بن خالد، وكان أصابه جرح باليمامة فاندمل ثم انتقض عليه فمات منه، وهو عَقَبِي بدري.

وفيهما مات أبو خراش الهذلي الشاعر، وخبر موته مشهور.

رجلاً نصرانياً من أهل الحيرة كان ظهيراً لسعد بن مالك، وقتل الهرمزان، فلما ضربه بالسيف قال: لا إله إلا الله! فلما قتل هؤلاء أخذه سعد بن أبي وقاص وحسبه في داره وأخذ سيفه وأحضره عند عثمان، وكان عبيد الله يقول: والله لأقتلن رجالاً ممن شرك في دم أبي، يعرض بالمهاجرين والأنصار، وإنما قتل هؤلاء النفر لأن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة قتل عمر: رأيت عشيّة أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة، وجُفَيَّة وهم يتناجون، فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وهو الخنجر الذي ضرب به عمر، فقتلهم عبيد الله. فلما أحضره عثمان قال: أشيروا عليّ في هذا الرجل الذي فتق في الإسلام منافق! فقال عليّ: أرى أن تقتله. فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم! فقال عمرو بن العاص: إن الله قد أعفأك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان. فقال عثمان: أنا وليّه وقد جعلتها دية واحتملها في مالي. وكان زياد بن لبيد البياضي الأنصاري إذا رأى عبيد الله يقول:

إيا عبيد الله مالك مهرب ولا ملجأ من ابن أروى ولا خسر
أصبت دماً والله في غير جلد حراماً وقتل الهرمزان له خطير
على غير شيء غير أن قال قتال اتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه، والحوادث جمة: نعم أنهم قد انشروا وقد أسر (٧٦/٣)

وكان سلاح العبد في جوفه يته فقلها والأمر بالأمر يتسبر
فشكا عبيد الله إلى عثمان زياد بن لبيد، فنهى عثمان زياداً، فقال في عثمان:

إبنا عمرو عبيد الله وهن فلا تنكك بقتل الهرمزان
فإنك إن فخرت الجرم عنه وأسباب الخطأ قرأها
أنتفواذ عسوت بغير حق فمنا لك بالذي تحكني يمان
فدعا عثمان زياداً فيها وشذبه.

وقيل في فداء عبيد الله غير ذلك، قال الغماديان بن الهرمزان كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، فمر فيروز أبو لؤلؤة بالهرمزان ومعه خنجر له رأسان فتناولته منه وقال: ما تصنع به؟ قال: أسن به. فأراه رجل، فلما أصيب عمر قال: رأيت الهرمزان دفعه إلى فيروز، فأقبل عبيد الله فقتله، فلما ولي عثمان أمكنني منه فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي إلا أنهم يطلبون إليّ فيه، فقلت لهم: إليّ قتله؟ قالوا: نعم، وسبوا عبيد الله، قلت لهم: أفلكم منعة؟ قالوا: لا، وسبوه، فتركته لله ولهم، فحملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الناس.

والأول أصح في إطلاق عبيد الله لأن علياً لما ولي الخلافة أراد قتله فهرب منه إلى معاوية بالشام، ولو كان إطلاقه بأمر ولي

الإسكندرية عن ملكهم، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح، فأجابوهم إلى ذلك. فسار إليهم من القسطنطينية جيش كثير وعليهم مَنَوِيل الخصي، فأرسوا بها، واتَّفَقَ معهم من بها من الروم، ولم يوافقهم المَقَوْس بل ثبت على صلحه. فلَمَّا بلغ الخبر إلى عمرو بن العاص سار إليهم وسار الروم إليه فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الروم وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الإسكندرية وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة، منهم مَنَوِيل الخصي. وكان الروم لما خرجوا من الإسكندرية قد أخذوا أموال أهل تلك القرى مَنَ وافقهم ومن خالفهم. فلَمَّا ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذي خالفوهم فقالوا لعمرو بن العاص: إن الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة. فردَّ عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد إقامة البيِّنة. وهدم عمرو سور الإسكندرية وتركها بغير سور.

وفيها بلغ سعد بن أبي وقاص عن أهل الري عزم على نقض الهدنة والغدر، فأرسل إليهم وأصلحهم وغزا الديلم ثم انصرف. (٨٢/٣)

ذكر عزل سعد عن الكوفة وولاية الوليد بن عُقبة

في هذه السنة عزل عثمان بن عفان سعد بن أبي وقاص عن الكوفة في قول بعضهم، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط، واسم أبي معيط أبان بن أبي عمرو، واسمه ذكوان بن أمية بن عبد شمس، وهو أخو عثمان لأمه، أمهما أروى بنت كُريز، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب.

وسبب ذلك أن سعداً اقترض من عبد الله بن مسعود من بيت المال قرضاً، فلَمَّا تقاضاه ابن مسعود لم يتيسر له قضاؤه فارتفع بينهما الكلام، فقال له سعد: ما أراك إلا سبتلي شراً، هل أنت إلا ابن مسعود عبدٌ من هذيل؟ فقال: أجل والله إني لابن مسعود وإنك لابن حُمينة. وكان هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حاضراً فقال: إنكما لصاحبا رسول الله ﷺ، يُنظر إليكما. فرفع سعد يده ليدعو على ابن مسعود، وكان فيه حدة، فقال: اللهم رب السموات والأرض. فقال ابن مسعود: ويلك قل خيراً ولا تلعن. فقال سعد عند ذلك: أمّا والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطنك. فولَّى عبد الله سريعاً حتى خرج، ثم استعان عبد الله بأناس على استخراج المال، واستعان سعد بأناس على إظهاره، فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً، يلوم هؤلاء سعداً وهؤلاء عبد الله، فكان أوَّل ما نَزَعَ به بين أهل الكوفة، وأول مصر نزاع الشيطان بين أهله الكوفة. وبلغ الخبر عثمان فغضب عليها فعزل سعداً وأقرَّ عبد الله، واستعمل الوليد بن عُقبة بن أبي معيط مكان سعد، وكان على عرب الجزيرة (٨٣/٣) عاملاً لعمر بن الخطَّاب، وعثمان بن عفان بعده، فقدم الكوفة والياً عليها، وأقام عليها خمس سنين، وهو من

وفيها توفي غيلان بن سلَمة الثقفي، وهو الذي أسلم وتحتة عشر نسوة.

وفيها في آخرها مات الصعب بن جثامة بن قيس الليثي. (٧٩/٣)

سنة أربع وعشرين

ذكربيعة عثمان بن عفان بالخلافة

في المحرم منها ثلاث مضي من بويح عثمان بن عفان، وقيل غير ذلك على ما تقدَّم، وكان هذا العام يسمَّى عام الرُعاف لكثرة فيه بالناس. واجتمع أهل الشورى عليه، وقد دخل وقت العصر، فأذن مؤذن صُهب واجتمعوا بين الأذان والإقامة، فخرج فصلَّى بالناس وزادهم مائة مائة، ووفد أهل الأمصار، وهو أوَّل من صنع ذلك، وقصد المنبر وهو أشدهم كابة، فخطب الناس ووعظهم وأقبلوا يبايعونه.

ذكر عزل المغيرة عن الكوفة وولاية سعد بن أبي وقاص

وفيها عزل عثمان المغيرة بن شعبة عن الكوفة واستعمل سعد بن أبي وقاص عليها بوصية عمر، فإنه قال: أوصي الخليفة بعدي أن يستعمل سعداً فإنِّي لم أعزله عن سوء ولا خيانة، فكان أوَّل عامل بعثه عثمان، فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى، وقيل: بل أقرَّ عثمان عمال عمر جميعهم سنة لأن عمر أوصى بذلك، ثم عزل المغيرة بعد سنة واستعمل سعداً؛ فعلى هذا القول تكون (٨٠/٣) إمارة سعد سنة خمس وعشرين.

وحجَّ بالناس في هذه السنة عثمان، وقيل: عبد الرحمن بن عوف بأمر عثمان.

وقد تقدَّم ذكر الفتوح التي ذكر بعض العلماء أنها كانت زمن عثمان وذكرَت الخلاف هنالك.

وفي هذه السنة مات عبد الرحمن بن كعب الأنصاري، وهو بدري، وهو أحد البكائين في غزوة تبوك؛ وسُرَّاقه بن مالك بن جعشم المُدَلْجي، وقيل: مات بعد ذلك، وهو الذي أدرك النبي ﷺ، في هجرته. (٨١/٣)

سنة خمس وعشرين

ذكر خلاف أهل الإسكندرية

في هذه السنة خالف أهل الإسكندرية ونقضوا صلحهم.

وكان سبب ذلك أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الإسكندرية وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج

العاص يأمره بإمداد حبيب، فأمدّه يسلماني في ستة آلاف، وأجمع حبيب على تبني الروم، فسمّته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبيّة فقالت: أين موعذك؟ فقال: سرادق الموزيان. ثمّ بيّتهم فقتل من وقف له، ثمّ أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته إليه، فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها حجاب سرادق. ومات عنها حبيب فخلف عليها الضحّاك بن قيس، فهي أم ولده.

ولما انهزمت الروم عاد حبيب إلى قاليقلا، ثمّ سار منها فنزل مريلا، فأناه بطريق خلط بكتاب عياض بن غنم بأمانه، فأجراه عليه، وحمل إليه البطريق ما عليه من المال، ونزل حبيب خلط، ثمّ سار منها فلقى صاحب مكش، وهي من البُسفرجان، فقاطعه على بلاده، ثمّ سار منها إلى أَرُوشَاط، (٨٤/٣) وهي القرية التي يكون بها القرمز الذي يُصبغ به، فنزل على نهر دَبِيل وسرّح الخيول إليها فحصرها، فتحصّن أهلها، فنصب عليهم منجنيقا، فطلبوا الأمان، فأجابهم إليه ريث السرايا، فبلغت خيله ذات اللُجُم، وإنما سُميت ذات اللُجُم لأن المسلمين أخذوا لُجُم خيولهم فكبسهم الروم قبل أن يلجموها ثمّ الجموها وقتلواهم فظفروا بهم؛ ووجّه سرية إلى سراج طبر ويزروند، فصالحه بطريقها على إتاوة. وقدم عليه بطريق البُسفرجان فصالحه على جميع بلاده.

وأتى السيسجان فحاربه أهلها، فهزمهم وغلب على حصونهم وسار إلى جُزران، فأناه رسولاً بطريقها يطلب الصلح فصالحه. وسار إلى تفلّيس فصالحه أهلها، وهي من جُزران، وفتح عدة حصون ومدن تجاوزها صلحاً. وسار سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أَران ففتح التيلقان صلحاً على أن أمنهم على دمايتهم وأموالهم وحيطان مدينتهم، واشترط عليهم الجزية والخراج.

ثمّ أتى سلمان مدينة بُرْدُعة فعسكر على الثُور، ونهر بينه وبينها نحو فرسخ، فقاتله أهلها أياماً، وشن الغارات في قراها، فصالحوه على مثل صلح البيلقان ودخلها؛ ووجّه خيله ففتحت رساتيق الولاية، ودعا أكراد البلاشجان إلى الإسلام فقاتلوه فظفروا بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدّى بعضهم الصدقة، وهم قليل؛ ووجّه سرية إلى شَمُكور ففتحوها، وهي مدينة قديمة، ولم تنزل معمورة حتى آخرها السُناوردية، وهم قوم تجمّعوا لما انصرف يزيد بن أسيد عن أرمينية فعظم أمرهم، فعمرها بغا سنة أربعين ومائتين وسمّاها المتوكلية نسبة إلى المتوكل.

وسار سلمان إلى مجمع أرس والكُرّ ففتح قَبْلَة، وصالحه صاحب سكر (٨٦/٣) وغيرها على الإتاوة، وصالحه ملك شروان وسائر ملوك الجبال وأهل مُسقط والشابران ومدينة الباب ثمّ امتنعت بعده.

أحبّ الناس إلى أهلها. فلمّا قدم قال له سعد: أكرست بعدنا أم حمقنا بعدك؟ فقال: لا تجزعنّ يا أبا إسحاق، كلّ ذلك لم يكن وإنّما هو الملك يتغده قوم ويتعشاه آخرون. فقال سعد: أراكم جعلتموها ملكاً! وقال له ابن مسعود: ما أدري أصلحت بعدنا أم فسدت الناس!

ذكر صلح أهل أرمينية وأذربيجان

لما استعمل عثمان الولي على الكوفة عزل عُبّة بن فرقند عن أذربيجان، ففوضوا، فغزاهم الوليد سنة خمس وعشرين، وعلى مقدمته عبد الله بن شُبَيْل الأحسي، فأغار على أهل موقان والببر والطليسان ففتح وغنم وسبي، فطلب أهل كُور أذربيجان الصلح، فصالحهم على صلح خديفة، وهو ثمانمائة ألف درهم، وقبض المال. ثمّ بث سراياه، وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً، فسار في أرمينية يقتل ويسبي ويغنم، ثمّ انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد، فعاد الوليد وقد ظفر وغنم وجعل طريقه على الموصل، ثمّ أتى الخديفة فنزلها، فأناه بها كتاب عثمان فيه أن معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أن السروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فابعت إليهم رجلاً له نجدة ويسأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه والسلام.

فقام الوليد في الناس وأعلمهم الحال وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي، فانتدب معه ثمانية آلاف، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض السروم، (٨٤/٣) فشَنُوا الغارات على أرض الروم فأصاب الناس ما شاؤوا وافتتحوا حصوناً كثيرة.

وقيل: إن الذي أمدّ حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد بن العاص، وكان سبب ذلك أن عثمان كتب إلى معاوية يأمره أن يُغزّي حبيب بن مسلمة في أهل الشام أرمينية، فوجّهه إليها، فأتى قاليقلا فحصرها وضيق على من بها، فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية، فجلا كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم، وأقام حبيب بها فيمن معه أشهراً.

وإنما سُميت قاليقلا لأن امرأة بطريق أرميناقيس كان اسمها قالي بنت هذه المدينة فسمتها قالي قلّه، تعني إحسان قالي، فعزّيتها العرب فقالت: قاليقلا.

ثمّ بلغه أن بطريق أرميناقيس، وهي البلاد التي هي الآن بيد أولاد السلطان قَلَج أرسلان، وهي مَلطية وسيواس واقصرا وقونية وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينية، واسمه الموزيان، قد توجه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم. فكتب حبيب إلى معاوية يخبره، فكتب معاوية إلى عثمان، فأرسل عثمان إلى سعيد بن

ذكر غزوة معاوية الروم

وفيها غزا معاوية الروم فبلغ عُمُورية فوجد الحصون التي ييسن أنطاكية وطرُسُوس خالية فجعلل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته، ثم أغزى بعد ذلك يزيد بن الحرّ العبيسي الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك، ولما خرج هدم الحصون إلى أنطاكية.

ذكر غزوة إفريقية

في هذه السنة سَير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبي سَرح إلى أطراف إفريقية غازياً بأمر عثمان، وكان عبد الله من جند مصر، فلما سار إليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده، فلما عاد عبد الله كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية، فأذن له في ذلك.

ذكر عدة حوادث

وفيها أرسل عثمان عبد الله بن عامر إلى كابل، وهي عمالة سيجستان، فبلغها في قول، فكانت أعظم من خراسان، حتى مات معاوية وامتنع أهلها.

وفيها وُلد يزيد بن معاوية. وفيها كانت [غزوة] سابور الأولى، وقيل: سنة ست وعشرين، وقد تقدّم ذلك. وحجّ بالناس عثمان. (٨٧/٣)

سنة ست وعشرين

ذكر الزيادة في الحرم

في هذه السنة أمر عثمان بتجديد أنصاب الحرم. وفيها زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه وابتاع من قوم قباي آخرون فهدم عليهم ووضع الأثمان في بيت المال. فصاحوا بعثمان، فأمر بهم فحبسوا، وقال لهم: قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به. فكلّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم.

(أسيد بفتح الهزمة وكسر السين). (٨٨/٣)

سنة سبع وعشرين

ذكر ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سَرح مصر وفتح إفريقية

في هذه السنة عُزل عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستعمل عليه عبد الله بن سعد بن أبي سَرح، وكان أخا عثمان من الرضاة، فتباغيا، فكتب عبد الله إلى عثمان يقول: إن عمراً كسر على الخراج. وكتب عمرو يقول: إن عبد الله قد كسر على مكيدة الحرب. فعزل عثمان عمراً واستقدمه، واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها، فقدم عمرو مغضباً، فدخل على عثمان

وعليه جبة محشوة [قُطناً]، فقال له: ما حشوّ جَبَتِكَ؟ قال: عمرو. قال: قد علمت [أنّ حشوها عمرو] ولم أرد هذا، [إنما سألتُ أقطنَ هو أم غيره ؟].

وكان عبد الله من جند مصر، وكان قد أمره عثمان بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين، وقال له عثمان: إن فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس نقلاً. وأمر عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحرث على جند وسرحهما [إلى الأندلس]، وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سعد على صاحب إفريقية، ثم يقيم عبد الله في عمله. فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر (٨٩/٣) ووطنوا أرض إفريقية، وكانوا في جيش كثير عدتهم عشرة آلاف من شجعان المسلمين، فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدموا على دخول إفريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها.

ثم إن عبد الله بن سعد لما ولي أرسل إلى عثمان في غزو إفريقية والاستكثار من الجوع عليها وفتحها، فاستشار عثمان من عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بذلك، فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة، منهم عبد الله بن عباس وغيره، فسار بهم عبد الله بن سعد إلى إفريقية. فلما وصلوا إلى بَرقة لقيهم عُبَية بن نافع فيمن معه من المسلمين، وكانوا بها، وساروا إلى طرابلس الغرب فنبهوا من عندها من الروم. وسار نحو إفريقية وبث السرايا في كلّ ناحية، وكان ملكهم اسمه جرجير، وملكه من طرابلس إلى طنجة، وكان يرّقل ملك الروم قد ولّاه إفريقية فهو يحمل إليه الخراج كلّ سنة. فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سُنَيْطِلَة يوم ليلة، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك، فأقاموا هناك يقتتلون كلّ يوم، وراسله عبد الله بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما.

وانقطع خبر المسلمين عن عثمان، فسَير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم، فسار معجداً ووصل إليهم وأقام معهم، ولما وصل إليهم ليأتيه بأخبارهم، فسار معجداً ووصل إليهم وأقام معهم، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر فقبل قد أتاهم عسكر، فقت ذلك في عضده. ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كلّ يوم من بكرة إلى الظهر فإذا أذن بالظهر عاد كلّ فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم ير (٩٠/٣) ابن أبي سَرح معهم، فسأل عنه، فقبل إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزواجه ابنتي، وهو يخاف، فحضر عنده وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتانى برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده. ففعل ذلك، فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله.

الغزوة الأولى وأعطى مروان خمس الغزوة الثانية التي افتتحت فيها جميع إفريقية، والله أعلم.

ذكر انتفاض إفريقية وفتحها ثانية

كان هرقل ملك القسطنطينية يؤدي إليه كل ملك من ملوك النصارى الخراج، فهم من مصر وإفريقية والأندلس وغير ذلك، فلما صالح أهل إفريقية (٩٢/٣) عبد الله بن سبيد أرسل هرقل إلى أهلها بطريقاً له وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون، فنزل البطريق في قرطاجنة وجمع أهل إفريقية وأخبرهم بما أمره الملك، فأبوا عليه، وقالوا: نحن نؤذي ما كان يؤخذ منا، وقد كان ينبغي له أن يسامحنا لما ناله المسلمون منا. وكان قد قام بأمر إفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم، فطرده البطريق بعد قتل كثيرة، فسار إلى الشام وبه معاوية وقد استقر له الأمر بعد قتل علي، فوصف له إفريقية وطلب أن يرسل معه جيشاً، فسير معه معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج السكوني. فلما وصلوا إلى الإسكندرية هلك الرومي ومضى ابن حديج فوصل إلى إفريقية وهي نار تضطرم وكان معه عسكر عظيم فنزل عند قمنية، وأرسل البطريق إليه ثلاثين ألف مقاتل. فلما سمع بهم معاوية سير إليهم جيشاً من المسلمين، فقاتلهم، فانهزمت الروم وحصر حصن جلولاء فلم يقدر عليه فانهدم سور الحصن فملكه المسلمون وغنموا ما فيه، وبث السرايا، فسكن الناس وأطاعوا، وعاد إلى مصر.

(حديج بضم الحاء وفتح الدال المهملتين وآخره جيم).

ثم لم يزل أهل إفريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك حتى دب إليهم أهل العراق واستأثروهم فشقوا العصا وفرقوا بينهم إلى اليوم، وكانوا يقولون: لا نخالف الأئمة بما تجني العمال. فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. فقالوا: حتى نخبرهم، فخرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلاً فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم، فدخلوا على الأبرش فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجندة فإذا غنمنا نفلهم، ويقول: هذا أخلص لجهادنا، وإذا حاصرتنا مدينة قدمنا وأخبرهم، ويقول: هذا ازدياد في الأجر، ومثلنا كفى إخوانه؛ ثم إنهم عمدوا إلى مائيتنا فجعلوا يقيرون (٩٣/٣) بطونها عن سخالها يطلبون القراء البيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فاحتملنا ذلك، ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم أعين رأي أمير المؤمنين هذا أم لا؟ فطال عليهم المقام ونفذت نفقاتهم، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه وقالوا: إن سأل عنا أمير المؤمنين فآخبروه. ثم رجعوا إلى إفريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية، وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر فعرّف

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة سالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متلعبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملأوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك.

فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شليداً. فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتبعهم ثم عاد عنهم هو والمسلمون، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تبعاً، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكثروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون وقتل جرجير، قتله ابن الزبير، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذت ابنة الملك جرجير سيئة، ونازل عبد الله بن سعد المدينة، فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار. (٩١/٣)

ولما فتح عبد الله مدينة سبيلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة، فسبوا وغنموا، وسير عسكراً إلى حصن الأجم، وقد احتوى به أهل تلك البلاد، فحصره وفتح بالأسان فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار، ونقل عبد الله بن الزبير ابنة الملك وأرسله إلى عثمان بالبطارية بفتح إفريقية؛ وقيل: إن ابنة الملك وقعت لرجل من الأنصار فأركبها بعيراً وارتجز بها يقول: يا ابنة جرجير تشي غبتك إن عليك بالحجاز ريتك لتحملن من قبله قريشك

ثم إن عبد الله بن سعد عاد من إفريقية إلى مصر، وكان مقامه بإفريقية سنة وثلاثة أشهر، ولم يفقد من المسلمين إلا ثلاثة نفر، قتل منهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر فذعن هناك، وحمل خمس إفريقية إلى المدينة فاشتره مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار فوضعها عنه عثمان، وكان هذا مما أخذ عليه.

وهذا أحسن ما قيل في خمس إفريقية، فإن بعض الناس يقول: أعطى عثمان خمس إفريقية عبد الله بن سعد، وبعضهم يقول: أعطاه مروان بن الحكم. وظهر بهذا أنه أعطى عبد الله خمس

أسماءهم فإذا هم الذي صنعوا ذلك.

ذكر غزوة الأندلس

لما فتحت إفريقية أمر عثمانُ عبدَ الله بن نافع بن الحصين وعبدَ الله بن نافع ابن عبد القيس أن يسيرا إلى الأندلس، فأتياها من قِبَل البحر، وكتب عثمان إلى من انتدب معهما: أما بعد فإن القسطنطينية إنما تفتح من قِبَل الأندلس.

فخرجوا ومعهم البربر، ففتح الله على المسلمين وزاد في سلطان المسلمين مثل إفريقية. ولما عزل عثمانُ عبدَ الله بن سعد عن إفريقية ترك في عمله عبدَ الله بن نافع بن عبد القيس فكان عليها، ورجع عبد الله إلى مصر، وبعث عبد الله إلى عثمان مالا قد حشد فيه، فدخل عمرو على عثمان فقال له: يا عمرو هل تعلم أن تلك اللقاح دُرَّتْ بعدك؟ قال عمرو: إن فصالحا قد هلك. (٩٤/٣)

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة عثمان.

وفيهما كان فتح إصطخر الثاني على يد عثمان ابن أبي العاص. وفيها غزا معاوية بن أبي سفيان قيسرين.

وفيهما مات أبو ذؤيب الهذلي الشاعر بمصر منصرفاً من إفريقية، وقيل: بل مات بطريق مكة في البادية، وقيل: مات ببلاد الروم، وكلهم قالوا: مات في خلافة عثمان.

وفيهما مات أبو رمثة البلوي بإفريقية، له صجة.

وفيهما ماتت حفصة بنت عمر بن الخطاب زوج النبي ﷺ، وقيل: ماتت سنة إحدى وأربعين، وقيل: سنة خمس وأربعين. (٩٥/٣)

سنة ثمان وعشرين

ذكر فتح قبرس

قيل: في سنة ثمان وعشرين كان فتح قبرس على يد معاوية، وقيل: سنة تسع وعشرين، وقيل: سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: إنما غزيت سنة ثلاث وثلاثين لأن أهلها غدروا، على ما ذكره، فغزاها المسلمون. ولما غزاها معاوية هذه السنة غزا معه جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر وعبيدة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام، وأبو الدرداء وشذاد بن أوس، وكان معاوية قد لحج على عمر في غزو البحر وقرب الروم من حمص، وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم. فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صيف لي البحر وراكبه. فكتب إليه عمرو بن العاص: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلقٌ صغير، ليس إلا السماء والماء، إن

قال جبير بن نفير: ولما فُتحت قبرس ونهب منها السبي نظرتُ إلى أبي الدرداء يبكي فقلت: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: فضرب منكبي بيده وقال: ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره بينما هي أمّة (٩٧/٣) ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك إذا تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى فسلبت عليهم السبأ، وإذا سلط السبأ على قوم فليس له فيهم حاجة.

وفي هذه الغزاة ماتت أم حرام بنت ملحان الأنصارية، ألقها بغلتها بجزيرة قبرس فاندقت عنقها فماتت، تصديقاً للنبي ﷺ، حيث أخبرها أنها أول من يغزو في البحر، وبقي عبد الله بن قيس الجاسي على البحر فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في

منكم (١٠٠/٣) خسيس فترفعوه؟ أما منكم فقير فتجبروه؟ يا معشر قريش، حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد؟ فانتبه لها عثمان فعزل أبا موسى وولى عبد الله بن عامر بن كُرَيْز. فلما سمع أبو موسى قال: يأتاكم غلام خراج ولأج، كريم الجذات والخالات والعمات، يُجمع له الجندان. وكان عمر ابن عامر خمساً وعشرين سنة، وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عُمان والبحرين، واستعمل على خراسان عُمَيْر بن عثمان بن سعد، وعلى ميجستان عبد الله بن عُمَيْر الليثي، وهو من ثعلبة، فأتخن فيها إلى كابل، وأتخن عمير في خراسان حتى بلغ فرغانة لم يدع دونها كورة إلا أصلحها؛ وبعث إلى مُكران عُيَيْدُ الله بن مَعْمَر فأتخن فيها حتى بلغ النهر؛ وبعث على كُرْمان عبد الرحمن بن عُبَيْس؛ وبعث إلى الأهواز وفارس نفرأ؛ ثم عزل عبد الله بن عمير واستعمل عبد الله بن عامر فأقره عليها سنة ثَمَّ عزله؛ واستعمل عاصم بن عمرو وعزل عبد الرحمن بن عُبَيْس؛ وأعاد عدي بن سهيل بن عدي وصرف عبيد الله بن معمر إلى فارس واستعمل مكانه عمير بن عثمان؛ واستعمل على خراسان أُمَيْر بن أحمر الشكري؛ واستعمل على سجستان سنة أربع عمران بن الفضيل البرجمي. ومات عاصم بن عمرو بكرمان.

(عُبَيْس بضم العين المهملة وفتح الباء الموحدة ثم الباء المثناة من تحتها وآخره سين مهملة. وأُمَيْر بضم الهمزة وفتح النيم وآخره راء. وكُرَيْز بن ربيعة بضم الكاف وفتح الراء). (١٠١/٣)

ذكر انتقاض أهل فارس

ثم إن أهل فارس انتقضوا ونكثوا بعبيد الله بن مَعْمَر، فسار إليهم، فالتقوا على باب إصطخر، فقتل عبيد الله وانهزم المسلمون، وبلغ الخبر عبد الله بن عامر، فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس إلى فارس فالتقوا بإصطخر، وكان على ميمنته أبو بَرْزَةَ الأسلمي، وعلى يسارته مَعْقِل بن يسار، وعلى الخيل عمران بن الحُصَيْن، ولكلهم صحبة، واشتد القتال، فانهزم الفرس وقتل منهم مقتلة عظيمة وفتحت إصطخر عنوة، وأتى دارابجرد وقد غدر أهلها ففتحها، وسار إلى مدينة جُور، وهي أردشير خُرَّه، فانتقضت إصطخر فلم يرجع وتمم السير إلى جُور وحاصرها، وكان هَرَم بن حَيَّان محاصراً لها، وكان المسلمون يحاصرونها ويتصرفون عنها فيأتون إصطخر ويغزون نواحي كانت تنتقض عليهم، فلما نزل ابن عامر عليها فتحها.

وكان سبب فتحها أن بعض المسلمين قام يصلي ذات ليلة وإلى جانبه جراب له فيه خبز ولحم، فجاء كلب فجره وعدا به حتى دخل المدينة من مدخل لها خفي، فلزم المسلمون ذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة.

البر والبحر، لم يفرق أحد ولم يُنكَب، فكان يدعو الله أن يعافيه في جنده، فاجابه، فلما أراد الله أن يصيبه في جسده خرج في قارب طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم وعليه مساكين يسألون فتصدق عليهم، فرجعت امرأة منهم إلى قريتها فقالت للرجال: هذا عبد الله بن قيس في المرفأ؛ فثاروا إليه فهجموا عليه فقتلوه بعد أن قاتلهم فأصيب وحده ونجا الملاح حتى أتى أصحابه فأعلمهم فجاؤوا حتى أرسوا بالمرفأ، والخليفة عليهم سفيان بن عوف الأزدي، فخرج إليهم فقاتلهم فضجر فجعل يشتم أصحابه. فقالت جارية عبد الله: ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: فكيف كان يقول؟ قالت: ألغمرات ثم ينجليتا. فلزمها بقولها، وأصيب في المسلمين يومئذ. وقيل لتلك المرأة بعد: بأي شيء عرفته؟ قالت: كان كالتاجر فلما سألته كالمملك فعرفته بهذا.

وفي هذه السنة غزا حبيب بن مسلمة سورية من أرض الروم.

(٩٨/٣) وفيها تزوج عثمان نائلة بنت الفرافصة، وكانت نصرانية فأسلمت قبل أن يدخل بها. وفيها بنى عثمان الزوراء، وحج بالناس عثمان هذه السنة.

(أحرام بالحاء المهملة والراء. والجاسي بالجيم والسين المهملة. والفرافصة بفتح الفاء إلا الفرافصة بن الأحوص الكلبي الذي من ولده نائلة زوج عثمان). (٩٩/٣)

سنة تسع وعشرين

ذكر عزل أبي موسى عن البصرة واستعمال ابن عامر عليها

قيل: في هذه السنة عزل عثمان أبا موسى الأشعري عن البصرة، واستعمل عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وهو ابن خال عثمان، وقيل: كان ذلك لثلاث سنين مضت من خلافة عثمان.

وكان سبب عزله أن أهل إِيذَج والأكراد كفروا في السنة الثالثة من خلافة عثمان، فنادى أبو موسى في الناس وحضهم على الجهاد، وذكر من فضل الجهاد ماشياً، فحمل نفر على دوابهم وأجمعوا على أن يخرجوا رجالة. وقال آخرون: لا نعمل بشيء حتى ننظر ما يصنع، فإن أشبه قوله فعله فعلنا كما يفعل.

فلما خرج أخرج قَمْلَه من قصره على أربعين بغلاً، فتعلقوا بعبائهم وقالوا: احملنا على بعض هذه الفضول وارغب في المشي كما رغبتنا. فضرب القوم بسوطه، فتركوا دابته، فمضى. وأثروا عثمان فاستغفوه منه وقالوا: ما كل ما نعلم نحب أن تسألنا عنه، فأبدينا به. فقال: من تحبون؟ فقال غيلان بن خُرَّشَة: في كل أحد عوض من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا! أما

عهد، ولقد عهدت النبي ﷺ، وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين وأنت صدرأ من خلافتك، فما أردى ما ترجع إليه. فقال: رأي رأيته. وبلغ الخبر عبد الرحمن بن عوف وكان معه، فجاءه وقال له: ألم تصل في هذا المكان مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر ركعتين؟ وصليتهما أنت ركعتين قال: بلى ولكني أخبرت أن بعض من حج من اليمن وجفاة الناس قالوا: إن الصلاة للمقيم ركعتان، واحتجوا بصلاتي، وقد اتخذت بمكة أهلاً ولي بالطائف مال. فقال عبيد الرحمن: ما في هذا عذر، أما قولك: اتخذت بها أهلاً، فإن زوجك بالمدينة تخرج بها إذا (١٠٤/٣) شئت وإنما تسكن بسكنائك، وأما مالك بالطائف فينك وبينه مسيرة ثلاث ليال، وأما قولك عن حاج اليمن وغيرهم، فقد كان رسول الله ﷺ، ينزل عليه الوحي والإسلام قليل، ثم أبو بكر وعمر، فصلوا ركعتين وقد ضرب الإسلام بجرائه. فقال عثمان: هذا رأي رأيته.

فخرج عبد الرحمن فلقى ابن مسعود فقال: أبا محمد، غير ما تعلم. قال: فما أصنع؟ قال: اعمل بما ترى وتعلم. فقال ابن مسعود: الخلاف شر وقد صليت بأصحابي أربعاً. فقال عبد الرحمن: قد صليت بأصحابي ركعتين وأما الآن فسوف أصلي أربعاً.

وقيل: كان ذلك سنة ثلاثين. (١٠٥/٣)

سنة ثلاثين

ذكر عزل الوليد عن الكوفة وولاية سعيد

في هذه السنة عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة وولاه سعيد بن العاص، وقد تقدم سبب ولاية الوليد على الكوفة في السنة الثانية من خلافة عثمان وأنه كان محبوباً إلى الناس، فبقي كذلك خمس سنين وليس لداره باب، ثم إن شباباً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي وكاثروه، فنذر بهم وخرج عليهم بالسيف وصرخ، فاشرف عليهم أبو شريح الخزاعي، وكان قد انتقل من المدينة إلى الكوفة للقرب من الجهاد، فصاح بهم أبو شريح فلم يلتفتوا وقتلوا ابن الحيسمان. وأخذهم الناس وفيهم زهير بن جندب الأزدي ومورع بن أبي سورج الأسدي، وشبيل بن أبي الأزدي وغيرهم، فشهد عليهم أبو شريح وابنه، فكتب فيهم الوليد إلى عثمان، فكتب عثمان بقتلهم، فقتلهم على باب القصر، ولهذا السبب أخذ في القسامة بقول ولي المقتول عن ملا من الناس ليفطم الناس عن القتل.

وكان أبو زبيد الشاعر في الجاهلية والإسلام في بني تغلب، وكانوا أخواله، فظلموه ديناً له، فأخذ له الوليد حقه إذ كان عاملاً عليهم، فشكر أبو زبيد ذلك له وانقطع إليه وغشيه بالمدينة

فلما فرغ منها ابن عامر عاد إلى إصطخر ففتحها عنوة بعد أن حاصرها واشتد القتال عليها، ورميت بالمجانيق، وقتل بها خلقاً كثيراً من الأعاجم وأفنى أكثر أهل البيوتات ووجوه الأساورة، وكانوا قد لجؤوا إليها. وقيل: إن أهل إصطخر لما نكثوا عاد إليها ابن عامر قبل وصوله إلى جور فملكها عنوة وعاد إلى جور فأتى دارابجرد فملكها، وكانت منتقضة أيضاً، ووطى أهل فارس وطاة لم يزلوا منها في ذل، وكتب إلى عثمان بالخبر، فكتب إليه أن يستعمل (١٠٢/٣) على بلاد فارس هرم بن حيان الشكري وهرم بن حيان العبدى والخزيت بن راشد والمينجاب بن راشد والترجمان الهجيمي، وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الأحنف على المروزي، وحبيب بن قره اليربوعي على بلخ، وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة، وأمير بن أحمر على طوس، وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور، وبه تخرج عبد الله بن خازم، وهو ابن عمه، ثم جمعها عثمان قبل موته لقيس، واستعمل أمير بن أحمر على سجستان، ثم جعل عليها عبد الرحمن بن سمرة، وهو من آل حبيب بن عبد شمس، فمات عثمان وهو عليها، ومات وعمران على مكران، وعُمير بن عثمان بن سعد على فارس، وابن كندير القشيري على كرمان.

ثم وقد قيس بن هبيرة عبد الله بن خازم إلى ابن عامر في زمن عثمان، وكان ابن عامر يكرمه، فقال لابن عامر: اكتب لي على خراسان عهداً أن خرج عنها قيس. ففعل، فرجع إلى خراسان، فلما قتل عثمان وجاش العدو قال ابن خازم لقيس: الرأي أن تخلفني وتمضي حتى تنظر فيما ينظرون فيه، ففعل، فأخرج ابن خازم بعده عهداً بخلافته وثبت على خراسان إلى أن قام علي بن أبي طالب وغضب قيس من صنع ابن خازم.

(الخزيت بكسر الخاء المعجمة والراء المشددة وسكون الباء تحتها نقطتان وآخره تاء فوقها نقطتان). (١٠٣/٣)

ذكر الزيادة في مسجد النبي ﷺ

في هذه السنة زاد عثمان في مسجد النبي ﷺ، في ربيع الأول، وكان ينقل الجص من بطن نخل، ويثا به بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه على ما كانت أيام عمر ستة أبواب.

ذكر إتمام عثمان الصلاة بجمع وأول ما تكلم الناس فيه

حج بالناس هذه السنة عثمان، وضرب فسطاطه بمنى، وكان أول فسطاط ضربه عثمان بمنى، وأتم الصلاة بها وبقرعة، فكان أول ما تكلم به الناس في عثمان ظاهراً حين أتم الصلاة بمنى، فعاب ذلك غير واحد من الصحابة، وقال له علي: ما حدث أمر ولا قدم

فأبوا أبا وهب ولو اقتسوا - فخرت بين الشفع والوتر
كفوا عنك إذ جريت ولو تركوا جسدك لم نزل تجري
فلما علم عثمان من الوليد شرب الخمر عزله وولى سعيد بن
العاص بن أمية، وكان سعيد قد ربي في حجر عمر، فلما فتح الشام
قدمه، فأقام مع معاوية، فذكر عمر يوماً قريشاً، فقال عنه، فأخبر أنه
بالشام، فاستقدمه، فقدم عليه، فقال له: قد بلغني عنك بلاء وصلاح
فازددت بذلك الله خيراً. وقال له: هل لك من زوجة؟ قال: لا. وجاء
عمر بنات سفيان بن عوف ومعهن أمهاتهن، فقالت أمهاتهن: هلك
رجالنا وإذا هلك الرجال ضاع النساء، فضعهن في أكفائهن. فزوج
سعيداً إحداهن وزوج عبد الرحمن بن عوف أخرى وأتاه بنات
مسعود بن نعيم النهشلي فقلن له: قد هلك رجالنا وبقي الصبيان
في أكفائنا فزوج سعيداً إحداهن وجير بن مطعم الأخرى. وكان
عمومته ذوي بلاء في الإسلام وسابقة، فلم يمت عمر حتى كان
سعيد من رجال قريش. فلما استعمله عثمان سار حتى أتى الكوفة

أميراً ورجع معه (١٠٨/٣) الأشتر وأبو خشة الغفاري وجندب بن
عبد الله (وخمسة) بن صعب بن جثامة، وكانوا ممن شخص مع
الوليد يعينونه فصاروا عليه، فقال بعض شعراء الكوفة:

فررت من الوليد إلى سعيد كاهل الجبر إذ جرعوا فباروا
يلينا من قريش كل عام امرئ محدث أو مشش
لنا نل نؤفها فتخشي وليس لهم، فلا يخشون، نل

فلما وصل سعيد الكوفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم
قال: والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره، ولكني لم أجذب بدأ إذا
أمرت أن أتمر، إلا إن الفتنة قد أطلعت خطمتها وعينها، والله
لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعيني، وإني لرائد نفسي اليوم.

ثم نزل وسأل عن أهل الكوفة فعرف حال أهلها، فكتب إلى
عثمان أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم
والبيوتات والسابقة، والغالب على تلك البلاد روادف قدمت،
وأعراب لحقت، حتى لا ينظر إلى ذي شرف وبلاء من نابتها ولا
نازلها.

فكتب إليه عثمان: أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ومن
فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها من غيرهم تبعاً لهم إلا
أن يكونوا تافلاً عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، واحفظ
لكل منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق، فإن المعركة بالناس
بها يصاب العدل. (١٠٩/٣)

فأرسل سعيد إلى أهل الأيتم والقادسية فقال: أنتم وجوه
الناس والوجه بيتي عتق الجسد، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة.
وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف. وجعل القراء في
منبره، فقصبت القالة في أهل الكوفة، فكتب سعيد إلى عثمان

والكوفة، وكان نصرانياً، فأسلم عند الوليد (١٠٦/٣) وحسن إسلامه،
فبينما هو عنده أتى أبا زينب وأبا موزع وجندباً، وكانوا يحفرون
للوليد منذ قتل أبناءهم ويضعون له العيون، فقال لهم: إن الوليد
وأبا يزيد يشربان الخمر، فثاروا وأخذوا معهم نفرًا من أهل الكوفة
فاقتحموا عليه فلم يروا، فأقبلوا يتلاومون وسبهم الناس، وكتم
الوليد ذلك عن عثمان.

وجاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا له: إن الوليد
يعتكف على الخمر، وأداعوا ذلك. فقال ابن مسعود: من استر عنا
لم تتبع عورته. فعاتبه الوليد على قوله حتى تغاضبا. ثم أتى الوليد
بساحر، فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حده، واعترف الساحر
عند ابن مسعود، وكان يخيل إلى الناس أنه يدخل في دبر الحمار
ويخرج من فيه، فأمره ابن مسعود بقتله. فلما أراد الوليد قتله أقبل
الناس ومعهم جندب فضرب الساحر فقتله، فحبسه الوليد وكتب
إلى عثمان فيه، وأمره بإطلاقه وتأديبه، فغضب لجندب أصحابه
وخرجوا إلى عثمان يستعفون من الوليد، فردهم خائنين. فلما
رجعوا أتاهم كل موثور فاجتمعوا معهم على رأيهم، ودخل أبو
زينب وأبو موزع وغيرهما على الوليد فتحدثوا عنده، فنام فأخذ
خاتمه وسارا إلى المدينة، واستيقظ الوليد فلم ير خاتمه، فسأل
نساءه عن ذلك، فأخبرته أن آخر من بقي عنده رجلان صفتها كذا
وكذا، فاتهما وقال: هما أبو زينب وأبو موزع، وأرسل يطلبهما،
فلم يوجدا.

فقدما على عثمان ومعهما غيرهما وأخبراه أنه شرب الخمر،
فأرسل إلى الوليد، فقدم المدينة، ودعا بهما عثمان فقال: أتشهدان
أنكما رأيتهما يشرب؟ فقالا: لا. قال: فكيف؟ قالا: اعتصمناهما من
لحيته وهو يقيء الخمر. فأمر سعيد بن العاص فجلبه، فأورث ذلك
عداوة بين أهليهما، فكان على الوليد خميسة فأمر علي بن أبي
طالب بنزعها لما جلد.

هكذا في هذه الرواية، والصحيح أن الذي جلده عبد الله بن
جعفر بن أبي طالب لأن علياً أمر ابنه الحسن أن يجلده، فقال
الحسن: ول حارها من تولى (١٠٧/٣) قارها! فأمر عبد الله بن
جعفر فجلبه أربعين. فقال علي: أمسك، جلد رسول الله، ﷺ
وأبو بكر أربعين وجلد عثمان ثمانين وكل سنة وهذا أحب إلي.

وقيل: إن الوليد سكر وصلى الصبح بأهل الكوفة أربعاً ثم
التفت إليهم وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك في
زيادة منذ اليوم، وشهدوا عليه عند عثمان، فأمر علياً بجلده، فأمر
علي بن عبد الله بن جعفر فجلبه، وقال الحطية:

شهد الحطية يوم تلقى ربه أن الوليد أحسن منك بالعدو
نادى وقد نمت صلاحهم أزيدكم؟ سكرًا وما يلدي

بذلك، فجمع الناس وأخبرهم بما كتب إليه. فقالوا له: أصبت، لا تطعمهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا نهض في الأمور من ليس بأهل لها لم يحتملها وأفسدها. فقال عثمان: يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا فقد دبت إليكم الفتنة، وإني والله لأتخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتمهم حتى يأتي من شهد مع أهل العراق سهمه فيقيم معه في بلاده. فقالوا: كيف تنقل إلينا سهمنا من الأرضين؟ فقال: يبيعها من شاء بما كان له بالحجاز واليمن وغيرهما من البلاد. ففرحوا وفتح الله لهم أمراً لم يكن في حسابهم، وفعلوا ذلك واشتره رجال من كل قبيلة وجاز لهم عن تراضٍ منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق.

ذكر غزو سعيد بن العاص طبرستان

في هذه السنة غزا سعيد بن العاص طبرستان، فإنها لم يغزها أحد إلى هذه السنة. وقد تقدم في أيام عمر الخلاف في ذلك، وأن اصبهذه صالح سويد بن مقرن أيام عمر على مال بذله. وأما على هذا القول فإن سعيداً غزاها من الكوفة سنة ثلاثين ومعه الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان وابن الزبير وناس من أصحاب النبي ﷺ، وخرج ابن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق (١١٠/٣) سعيداً ونزل نيسابور، ونزل سعيد قومس، وهي صالحهم حذيفة بعد نهاوند فأتى جرجان فصالحوه على ماتني ألف، ثم أتى طميسه، وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان، على البحر، فقاتله أهلها، فصلى صلاة الخوف، أعلمه حذيفة كيفيتها، وهم يقتلون. وضرب سعيد يومئذ رجلاً بالسيف على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرققه، وحاصرهم، فسألوا الأمان، فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً، ففتحوا الحصن فقتلوا جميعاً إلا رجلاً واحداً وحوى ما في الحصن، فأصاب رجل من بني نهدي سقطاً عليه قفل، فظن أن فيه جوهراً، وبلغ سعيداً فبعث إلى النهدي فأناه بالسقط، فكسروا قفله فوجدوا فيه سقطاً، ففتحوه فوجدوا خرقة حمراء فنشروها، فإذا خرقة صفراء وفيها أيران كميث وورد. فقال شاعر يهجو بني نهدي:

آب الكرام بالسبايا غنيمةً وآب بنو نهدي بليرين في سقط
كميت وورد وافرزين كلامها فظنهما غنماً فنهايك من غلط
وفتح سعيداً نامية، وليست بمدينة، هي صحارى.

ومات مع سعيد محمد بن الحَكَم بن أبي عقيل جد يوسف بن عمر. ثم رجع سعيد، فمدحه كعب بن جعيل فقال:

فيعم الفنى إذا حال جيلان دونه وإذا قبطوا من مسمى ثم إهرا
(١١١/٣)

في أبيات. ولما صالح سعيداً أهل جرجان كانوا يجيئون أحياناً

ذكر غزو حذيفة الباب وأمر المصاحف

وفيها صُرف حذيفة عن غزو الري إلى غزو الباب مدداً لعبد الرحمن بن ربيعة، وخرج معه سعيد بن العاص، فبلغ معه أذربيجان، وكانوا يجعلون الناس رذءاً، فأقام حتى عاد حذيفة ثم رجعا. فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص: لقد رأيت في سفرتي هذه أمراً، لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبداً. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون: إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وإنهم قرؤوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وإنهم قرؤوا على أبي موسى وسئو مصحفه لباب القلوب. فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ، وكثير من التابعين. وقال له أصحاب ابن مسعود: (١١٢/٣) ما تنكر؟ ألسنا نقرأه على قراءة ابن مسعود؟ فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنما أنتم أعراب فاسكتوا فإنكم على خطأ. وقال حذيفة: والله لئن عشت لأتبن أمير المؤمنين، ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك. فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام وتفرق الناس، وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى، وقال: أنا النذير العريان فأدركوا الأمة. فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر، فأعظموه وراوا جميعاً ما رأى حذيفة.

فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر: أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها. وكانت هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر، فإن القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر: إن القتل قد كثر واستحز بقاء القرآن يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستحز القتل بالقرآن فيذهب من القرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن؛ فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمع من الرقاع والعُسب وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر، فلما توفي عمر أخذتها حفصة فكانت عندها.

فأرسل عثمان إليها [من] أخذها منها وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن

أبا ذرّ فقال: يا أبا ذرّ ألا تعجب من معاوية يقول: المال مال الله! ألا إنّ كلّ شيء لله، كأنه يريد أن يحتجته دون الناس ويمحو اسم المسلمين. فأتاه أبو ذرّ فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله الساعة؟ قال: يرحمك الله يا أبا ذرّ! السنة عباد الله والمال ماله؟ قال: فلا تقله. قال: سأقول مال المسلمين. وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له مثل ذلك. فقال: أظنك [والله] يهودياً! فأتى عبادة بن الصامت فعلق به عبادة وأتى به معاوية فقال: هذا والله الذي بعث عليكم أبا ذرّ.

وكان أبو ذرّ يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يُعده لكريم، ويأخذ بظاهر القرآن: ﴿الَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشْرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. [التوبة: ٣٤] فكان يقوم بالشام ويقول: يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء، بُشِّرَ الذين يكتزون الذهب والفضة ولا يتفقهون في سبيل الله بمكافئ من نار تُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، فما زال حتى ولَّع الفقراء بمثل ذلك وأوجبه على الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقون منهم. فأرسل معاوية إليه بالف دينار في جنح الليل فأفتقتها. فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه فقال: اذهب إلى أبي ذرّ فقل له: أنفذ جسدي من (١١٥/٣) عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك وإني أخطأت بك. ففعل ذلك. فقال له أبو ذرّ: يا بني قل له: والله ما أصبح عندنا من دنائرك دينار ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجتمع. فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب إلى عثمان: إنّ أبا ذرّ قد ضيّق عليّ، وقد كان كذا وكذا، للذي يقوله الفقراء. فكتب إليه عثمان: إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها ولم يبق إلا أن تثب فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذرّ التي وأبعث معه دليلاً وكفّفت الناس ونفسك ما استطعت. وبعث إليه بأبي ذرّ.

فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل جبل سلع قال: بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكارة. ودخل على عثمان فقال له: ما لأهل الشام يشكون ذرّب لسانك؟ فأخبره. فقال: يا أبا ذرّ عليّ أن أقضي ما عليّ وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد وما عليّ أن أجبرهم على الزهد. فقال أبو ذرّ: لا ترضوا من الأغنياء حتى يذلوا المعروف ويحسبوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القرايات. فقال كعب الأحبار، وكان حاضراً: من أذى القرية فقد قضى ما عليه. فضربه أبو ذرّ فشجّه، وقال له: يا ابن اليهودية ما أنت وما ههنا؟ فاستوهب عثمان كعباً شجّه، فوهبه. فقال أبو ذرّ لعثمان: تأذن لي في الخروج من المدينة؛ فإنّ رسول الله، ﷺ، أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلماً. فأذن له، فنزل الرتبة وبني بها مسجداً، وأقطع عثمان صيرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه كلّ يوم عطاء، وكذلك على رافع بن خديج،

هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم؛ ففعلوا. فلما نسخوا الصحف ردها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كلّ أفت بمصحف وحرق ما سوى ذلك وأمر أن يعتدوا عليها ويدعوا ما سوى ذلك. فكلّ الناس عرف فضل هذا الفعل إلا ما كان من أهل الكوفة، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبي، ﷺ، وإن أصحاب عبد الله ومن وافقهم امتنعوا من ذلك وعابوا الناس، فقام فيهم ابن مسعود وقال: ولا كلّ ذلك فإنكم قد سبّتم سبّاً يبيّن فاربعوا على ظلمكم. ولما قدم عليّ الكوفة قام إليه رجل فصاب عثمان بجمع الناس على المصحف، فصاح به وقال: اسكت فغن ملاً منّا فعل ذلك، فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكت سبيله. (١١٣/٣)

ذكر سقوط خاتم النبي، ﷺ، في بئر أريس

وفيها وقع خاتم النبي، ﷺ، من يد عثمان في بئر أريس، وهي على ميلين من المدينة، وكانت قليلة الماء، فما أدرك قعرها بعد.

وكان رسول الله، ﷺ، اتخذه لما أراد أن يكتب الأعاجم يدعوهم إلى الله تعالى، فقيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا مختوماً، فأمر رسول الله، ﷺ، أن يعمل له خاتم من حديد، فلما عمل جعله في إصبه، فاتاه جبرائيل فنهاه عنه، فنبذه، وأمر فعمل له خاتم من نحاس وجعله في إصبه، فقال [له] جبرائيل: انبذه، فنبذه، وأمر رسول الله، ﷺ، بخاتم من فضة، فصنع له، فجعله في إصبه، فأمره جبرائيل أن يقرّه، فأقرّه. وكان نقشه ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر، فتختم به رسول الله، ﷺ، حتى توفي، ثم تختم به أبو بكر حتى توفي، ثم عمر حتى توفي، ثم تختم به عثمان ست سنين. فحفروا بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين، فبعد على رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم فسقط من يده في البئر، فطلبوه فيها ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه، فجعل فيه مالا عظيماً لمن جاء به، واغتم لذلك غمّاً شديداً. فلما ينس منه صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقي في إصبه حتى هلك، فلما قُتل ذهب الخاتم فلم يدرْ من أخذه.

ذكر تفسير أبي ذرّ إلى الرتبة

وفي هذه السنة كان ما ذكر في أمر أبي ذرّ وإشخاص معاوية إياه من الشام إلى المدينة، وقد ذكر في سبب ذلك أمور كثيرة، ومن سبب معاوية إياه وتهديده (١١٤/٣) بالقتل وحمله إلى المدينة من الشام بغير وطاء ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع، لا يصح النقل به، ولو صح لكان ينبغي أن يُعتر عن عثمان، فإنّ للإمام أن يؤذّب رعيته، وغير ذلك من الأعذار، لا أن يجعل ذلك سبباً للظن عليه، كرهت ذكرها.

وأما العاذرون فإنهم قالوا: لما ورد ابن السوداء إلى الشام لقي

وأمر عمرُ مكانه عمر بن سعد الأنصاري، ومات عمر وعمر على حمص وقُتسرين، ومات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمرُ مكانه أخاه معاوية، فاجتمعت لمعاوية الأردنُ ودمشق، ومرض عمر بن سعد فاستعفى عثمان واستأذنه في الرجوع إلى أهله، فأذن له، وضمَّ عثمانُ حمص وقُتسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمن بن علقمة، وكان على فلسطين، فضمَّ عثمان عمله إلى معاوية فاجتمع الشام لمعاوية لستين من إمارة عثمان، فهذا كان سبب اجتماع الشام له.

وأما سبب هذه الغزوة فلأن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوههم، خرج قسطنطين بن هرقل في جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان (١١٨/٣) الإسلام؛ فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم، فأرسل المسلمون والروم وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم؛ فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلُّون ويدعون، والروم يضربون بالتواقيس، وقربوا من الغد سفنهم وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيف والخناجر، وقُتل من المسلمين بشرٌ كثير، وقُتل من الروم ما لا يُحصى، وصبروا يومئذٍ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فانهزم قسطنطين جريحاً ولم ينج من الروم إلا الشريد. وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ورجع. فكان أول ما تكلم به محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر في أمر عثمان في هذه الغزوة وأظهروا عيبه وما غيّر وما خالف به أبا بكر وعمر، ويقولان استعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله، قد أباح دمه، ونزل القرآن بكفره، وأخرج رسول الله، قوماً أدخلهم، ونزع أصحاب رسول الله، واستعمل سعيد بن العاص وابن عامر. فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما معهما إلا القبط، فلقوا العدو، فكانا أقل المسلمين نكايةً وقتالاً، فقبل لهما في ذلك، فقالا: كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد؟ استعمله عثمان وعثمان فعل كذا وكذا. فأرسل إليهما عبد الله ينهما ويتهددهما، ففسد الناس بقولهما، وتكلموا ما لم يكونوا ينطقون به.

وأما قسطنطين فإنه سار في مركبه إلى صقلية، فسأله أهلها عن حاله، فأخبرهم. فقالوا: أهلك الصراية وأفنت رجالها! لو أنانا العرب لم يكن عندنا من (١١٩/٣) يمينهم. ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه في المركب وأذنوا لهم في المسير إلى القسطنطينية.

وقيل: في هذه السنة فتحت أرمينية على يد حبيب بن مسلمة، وقد تقدّم ذكر ذلك.

وكان قد خرج أيضاً عن المدينة لشيء سمعه.

وكان أبو ذرّ يتعاهد المدينة مخافة أن يعود أعرابياً، وأخرج معاوية إليه أهله، فخرجوا ومعهم جراب مثقل يذ الرجل، فقال: انظروا إلى هذا الذي يزهد في الدنيا ما عنده؟ فقالت امرأته: والله ما هو دينار ولا درهم ولكنها (١١٦/٣) فلوس كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه فلوساً لحوائجنا. ولما نزل الرينة أقيمت الصلاة وعليها رجل يلي الصدقة، فقال: تقدّم يا أبا ذرّ. فقال: لا، تقدّم أنت، فإن رسول الله، قال لي: اسمع وأطع وإن كان عليك عبد مجذع، فانت عبد ولست بأجده؛ وكان من رقيق الصدقة اسمه مجاشع.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة زاد عثمان النداء الثالث يوم الجمعة على الزوراء.

وفيها مات حاطب بن أبي بلتعة اللخمي وهو من أهل بدر.

(حاطب بالحاء المهملة. وبلتعة بالياء الموحدة ثم التاء المثناة من فوق بوزن مفرّعة).

وفيها مات عمرو بن أبي سرح الفهري وكان بدرياً.

وفيها مات مسعود بن الربيع، وقيل: ابن ربيعة بن عمرو القاري، من القارة، أسلم قبل دخول النبي، دار الأرقم، وشهد بدرًا، وكان عمره قد جاوز الستين.

وفيها مات عبد الله بن كعب بن عمرو الأنصاري، شهد بدرًا، وكان على غنائم النبي، فيها وفي غيرها.

وفيها مات عبد الله بن مظعون أخو عثمان وكان بدرياً وجبار بن صخر، وهو بدري أيضاً.

(جبار بالجيم وآخره راء). (١١٧/٣)

سنة إحدى وثلاثين

ذكر غزوة الصواري

قيل: وفي هذه السنة كانت غزوة الصواري، وقيل: كانت سنة أربع وثلاثين، وقيل: في سنة إحدى وثلاثين كانت غزوة الأساورة، وقيل: كانتا معاً سنة إحدى وثلاثين، وكان على المسلمين معاوية، وكان قد جُمع الشام له أيام عثمان.

وسبب جمعه له أن أبا عبيدة بن الجراح لما حضر استخلف على عمله عياض بن غنم، وكان خاله وابن عمه، وكان جواداً مشهوراً، وقيل: استخلف معاذ بن جبل، على ما تقدّم، فمات عياض واستخلف عمرُ بعده سعيد بن جثيم الجمحي، ومات سعيد

ذكر مقتل يزيدجرد بن شهریار

في هذه السنة هرب يزيدجرد من فارس إلى خراسان في قول بعضهم، وقد تقدّم الخلاف فيه، وكان ابن عامر قد خرج من البصرة حين وليها إلى فارس فافتتحها، وهرب يزيدجرد من جور، وهي أردشير خوره، في سنة ثلاثين، فوجه ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود، وقيل: هرم بن حسان العبيدي، وقيل: هرم بن حيان الشكري، فاتبعه إلى كرمان، فهرب يزيدجرد إلى خراسان. وأصاب مجاشع بن مسعود ومن معه الثلج والذئق واشتد البرد، وكان الثلج قيد رمح، فهلك الجند وسلم مجاشع ورجل معه جارية فشق بطن بعير فأدخلها فيه وهرب. فلما كان الغد جاء فوجدوا حية فحملها، فسُمي ذلك القصر قصر مجاشع لأن جيشه هلكوا فيه، وهو على خمسة فراسخ أو ستة من السيرجان من أعمال كرمان.

هذا على قول من يقول: إن هرب يزيدجرد من فارس كان هذه السنة. (١٢٠/٣)

وأما سبب قتله، على ما تقدّم ذكره من فتح فارس وخراسان، فقد اختلف الناس في سبب قتله، فقيل: إنه هرب من كرمان في جماعة إلى مرو ومعه خرزاد أخو رستم، فرجع عنه إلى العراق ووصى به ماهويه مرزبان مرو، فسأله يزيدجرد مالا فمنعه، فخافه أهل مرو على أنفسهم فارسلوا إلى الترك يستنصرونهم عليه، فاتوه فيثوه فقتلوا أصحابه، فهرب يزيدجرد ماشياً إلى شط المزاب فأوى إلى بيت رجل ينقر الأرحاء، فلما نام قتله، وقيل: بل بيته أهل مرو ولم يستنصروا بالترك فقتلوا أصحابه وهرب منهم فقتله الثقار، وتبعوا أثره إلى بيت الذي ينقر الأرحاء فأخذوه وضربوه فأقرّ بقتله فقتلوه وأهله.

وكان يزيدجرد قد وطئ امرأة بها فولدت له غلاماً ذاهب الشق، ولدته بعد قتله فسُمي المخذج، فولد له أولاد بخراسان، فوجد قتيبة بن مسلم حين افتتح الصفد وغيرها جارين من ولد المخذج فبعث بهما أو بإحدهما إلى الحجّاج، فبعث بهما إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت للوليد يزيد بن الوليد الناقص. وأخرج يزيدجرد من النهر وجعل في تابوت وحمل إلى اصطخر فوضع في ناووس هناك.

وقيل: إن يزيدجرد هرب بعد وقعة نهساوند إلى أرض أصبهان وبها رجل يقال له مطيار كان قد أصاب من العرب شيئاً يسيراً فصار له بها محل كبير، فأتى مطيار يزيدجرد ذات يوم فحجبه بوابه ليستأذن له، فضربه وشجّه، فدخل البواب على يزيدجرد مدس، فرحل عن أصبهان من ساعته فأتى الري، فخرج إليه صاحب طبرستان وعرض عليه بلاده وأخبره بحصانها، فلم يجبه.

وقيل: مضى من فوره ذلك إلى سجستان، ثم سار إلى مرو في

ألف فارس، (١٢١/٣) وقيل: بل قصد فارس فأقام بها أربع سنين، ثم أتى كرمان فأقام بها ستين أو ثلاثاً فطلب إليه دهقانه شيئاً فلم يجبه فجره برجله وطرده عن بلاده، فسار إلى موبجستان فأقام بها نحواً من خمس سنين، ثم هزم على قصد خراسان ليجمع الجموع ويسير بهم إلى العرب، فسار إلى مرو ومعه الرهن من أولاد الديهاقين ومعه فرخزاد. فلما قدم مرو كاتب ملوك الصين وملك فرغانة وملك كابل وملك الخزر يستمدهم، وكان الدهقان يومئذ يبرو ماهويه أبو براز، فوكل ماهويه يبرو ابنه براز ليحفظها ويمنع عنها يزيدجرد خوفاً من مكروه، فركب يزيدجرد يوماً وطاف بالمدينة وأراد دخولها من بعض أبوابها، فمنعه براز، فصاح به أبوه ليفتح الباب فلم يفعل، وأوماً إليه أبوه أن لا يفعل، ففطن له رجل من أصحاب يزيدجرد فأعلمه بذلك واستأذنه في قتله، فلم ياذن له.

وقيل: أراد يزيدجرد صرف الدهقنة عن ماهويه إلى سنجان ابن أخيه، فبلغ ذلك ماهويه، فعمل في هلاك يزيدجرد؛ فكتب إلى نيزك طرخان يدعوهُ إلى القدوم عليه ليتفقا على قتله ومصالحة العرب عليه؛ وضمن له إن فعل أن يعطيه كل يوم ألف درهم. فكتب نيزك إلى يزيدجرد يعده المساعدة على العرب وأنه يقدم عليه بنفسه إن أبعد عسكره وفرخزاد عنه، فاستشار يزيدجرد أصحابه فقال له سنجان: لست أرى أن تبعد عنك أصحابك وفرخزاد، وقال أبو براز: أرى أن تتألف نيزك وتجيئه إلى ما سأل. فقبل رأيهُ وفرّق عنه جنده، فصاح فرخزاد وشقّ جبيه وقال: أظنكم قاتلي هذا! ولم يرح فرخزاد حتى كتب له يزيدجرد بخط يده أنه أمين وأنه قد أسلم يزيدجرد وأهله وما معه إلى ماهويه، وأشهد بذلك. وأقبل نيزك فلقبه يزيدجرد بالمزامير والملاهي، أشار عليه بذلك أبو سراز، فلما لقيه تأخر عنه أبو براز فاستقبله نيزك ماشياً، فأمر له يزيدجرد (١٢٢/٣) بجنيّة من جنائبه، فركبها، فلما توسّط عسكره توافقا فقال له نيزك فيما يقول: زوجني إحدى بناتك حتى أئاصحك في قتال عدوك. فسبه يزيدجرد، فضربه نيزك بمقرعته، وصاح يزيدجرد، وركض منهزماً. وقتل أصحاب نيزك أصحاب يزيدجرد وانتهى يزيدجرد إلى بيت طحان فمكث فيه ثلاث أيام لم يأكل طعاماً. فقال له الطحان: اخرج أيها الشقي فكل طعاماً فقد جعت! فقال: لست أصل إلى ذلك إلا بزمزمة، وكان عند الطحان رجل يزرم، فكلمه الطحان في ذلك ففعل وزرم له فأكل. فلما رجع المزرم سمع بذكر يزيدجرد، فسأل عن خليته فوصفوه له فأخبرهم به وبخليته فأرسل إليه أبو براز رجلاً من الأساورة وأمره بخنقه وإلقائه في النهر، وأتى الطحان فضربه ليدله عليه، فلم يفعل وجعله. فلما أراد الانصراف عنه قال له بعض أصحابه: إني لأجد ريح فسك؛ ونظر إلى طرف ثوبه من ديباج في الماء فجنّبه فإذا هو يزيدجرد، فسأله أن لا يقتله ولا يتكل عليه وجعل له خاتمه ومنطقته وسواره. فقال له: أعطني أربعة دراهم وأحلّي عنك؛ فلم يكن معه وقال: إن خاتمي لا يحصى ثمنه

فخذَه، فأبى عليه، فقال له يزدجرد: قد كنتُ أخْبِرُ أَنِّي سأحتاج إلى أربعة دراهم فقد رأيتُ ذلك، ثم نزع أحد قرطيه فأعطاه الطحان ليستر عليه، وأرادوا قتله، فقال: ويحكم! إنا نجد في كتبنا أَنه من قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدنيا، فلا تقتلوني واحملوني إلى الدهقان أو إلى العرب فإنهم يستبقون مثلي! فأخذوا ما عليه وخفوه بوتر القوس والقوه في الماء، فأخذَه أسقفُ مرو وجعله في تابوت ودفنه. وسأل أبو براز عن أحد القرطين وأخذ الذي دلَّ عليه فضربه حتى أتى على نفسه.

وقيل: بل سار يزدجرد من كرمان قبل ورود العرب إليها نحو مرو على الطَّبْسَيْن وقوهستان في أربعة آلاف، فلما قارب مرو لقيه قائدان يقال لأحدهما براز وللآخر سنجان وكانا متباغضين، فسعى براز يسنجان حتى همَّ يزدجرد (١٢٣/٣) بقتله، وأفضى ذلك إلى امرأة من نسائه، ففشأ الحديث، فجمع سنجان أصحابه وقصد قصر يزدجرد، فهرب براز وخاف يزدجرد فهرب أيضاً إلى رحي على فرسخين من مرو، فدخل بيت نقار الرحي، فأطعمه الطحان، فطلب منه شيئاً فأعطاه منطقة، فقال: إنَّما يكفيني أربعة دراهم، فلم يكن معه، ثم نام يزدجرد فقتله الطحان بغاس كانت معه وأخذ ما عليه وألقى جثته في الماء وشق بطنه وثقله.

ووجه ابنُ عامر الأسود بن كلثوم العدوي من عدي الرُّباب، وكان ناسكاً، إلى يَبَيق، من أعمالها أيضاً، فقصد قصبته ودخل حيطان البلد من ثلثة كانت فيه ودخلت معه طائفة من المسلمين فأخذ العدو عليهم تلك الثلثة، فقاتل الأسود حتى قُتل هو وطائفة ممن معه، وقام بأمر الناس بعده أخوه أدهم بن كلثوم، فظفر وفتح يَبَيق، وكان الأسود يدعو الله أن يحشره من بطون السباع والطيور، فلم يواره أخوه، ودفن من استشهد من أصحابه. وفتح ابنُ عامر بُشت من نيسابور. (١٢٥/٣)

(وهذه بشت بالشين المعجمة، وليست ببست التي بالسين المهمة، تلك من بلاد الداؤن وهذه من خراسان من نيسابور).

وافتح خَوَاف وأسفرايين وأرغيان، ثم قصد نيسابور بعدما استولى على أعمالها وافتتحها، فحصر أهلها أشهراً، وكان على كلِّ ريع منها مرزبان للفرس يحفظه، فطلب صاحب ريع من تلك الأرباع الأمان على أن يُدخل المسلمين المدينة، فأجيب إلى ذلك، فادخلهم ليلاً ففتحو الباب وتحصَّن مرزبانها الأكبر في حصنها، ومعه جماعة، وطلب الأمان والصلح على جميع نيسابور، فصالحه على ألف درهم، وولَّى نيسابورَ قيس بن الهيثم السُّلَمي، وسير جيشاً إلى نسا وأبيورد فافتحوها صلحاً؛ وسير سريةً أخرى إلى سَرَخَس مع عبد الله بن خازم السُّلَمي، فقاتلوا أهلها ثم طلبوا الأمان والصلح على أمان مائة رجل، فأجيبوا إلى ذلك، فصالحهم مرزبانها على ذلك وسمى مائة رجل ولم يذكر نفسه فقتله، ودخل سَرَخَس عنوةً.

وأتى مرزبان طوس إلى ابن عامر فصالحه عن طوس على ستمائة درهم؛ وسير جيشاً إلى هَرَاة عليهم عبد الله بن خازم، وقيل غيره، فبلغ مرزبان هَرَاة ذلك فسار إلى ابن عامر فصالحه عن هَرَاة وباذغيس وبوشنج. وقيل: بل سار ابن عامر في الجيش إلى هَرَاة فقاتله أهلها ثم صالحه مرزبانها على ألف ألف درهم، ولما غلب ابن عامر على هذه البلاد أرسل إليه مرزبانُ مرو فصالحه على ألفي

وسمع بقتله مطران كان بمرو، فجمع النصارى وقال: قُتل ابن شهریار، وإنَّا شهریار بن شیرين المؤمنة التي قد عرفتم حقها وإحسانها إلى أهل ملتنا مع ما نال النصارى في ملك جدِّه أنوشیروان من الشرف، فينبغي أن نحزن لقتله ونبني له ناووساً، فأجابوه إلى ذلك وبنوا له ناووساً وأخرجوا جثته وكفنوها ودفنوها في الناووس.

وكان ملكه عشرين سنة، منها أربع سنين في دعة، وست عشرة سنة في تعب من محاربة العرب إياه وغلظتهم عليه، وكان آخر من ملك من آل أردشير بن بابك وصفا الملك بعده للعرب.

ذكر مسير ابن عامر إلى خراسان وفتحها

لما قُتل عمر بن الخطاب نقض أهل خراسان وغدروا. فلما افتتح ابن عامر فارس قام إليه حبيب بن أوس التميمي فقال له: أيها الأمير إن الأرض (١٢٤/٣) بين يديك ولم يفتح منها إلا القليل، فيبر فإن الله ناصرُك. قال: أولم نامر بالمسير؟ وكبره أن يظهر أنه قبل رأيه. وقيل: إن ابن عامر لما فتح فارس عاد إلى البصرة واستخلف على إصطخر شريك بن الأعور الحارثي، فبنى شريك مسجد إصطخر. فلما دخل البصرة أثناء الأحنف بن قيس، وقيل غيره، فقال له: إن عدوك منك هارب، ولك هائب، والبلاد واسعة، فيبر فإن الله ناصرُك ومعزُّ دينه. فتجهز وسار واستخلف على البصرة زياداً، وسار إلى كرمان فاستعمل عليها مجاشع بن مسعود

ولعلّه من حقّي ولكن أقبضه حتى أنظر، فقبضه حتى قدم الأحنف فأخبره، فسألهم عنه، فقالوا ما قالوا لأسيد، فحمله إلى ابن عامر وأخبره عنه، فقال: خذه يا أبا بحر. قال: لا حاجة لي فيه. فأخذه ابن عامر. قال الحسن البصري: فضمه القرشي، وكان مضماً.

ولما تمّ لابن عامر هذا الفتح قال له الناس: ما فُتح لأحد ما فُتح عليك، فارس وكرمان وميجستان وخراسان. فقال: لا جرم لأجلن شكري لله على ذلك أن أخرج محرماً من موقفي هذا. فأحرم بعمره من نيسابور وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم، فسار قيس بعد شخوصه في أرض طخارستان فلم يأت بلداً منها إلا صالحه أهله وأذعنوا له، حتى أتى سيستان فامتنعوا عليه، فحصرهم حتى فتحها عنوة.

(أسيد بفتح الهمزة وكسر السين. وحضين بن المنذر بالضاد المعجمة).

ذكر فتح كرمان

لما سار ابن عامر عن كرمان إلى خراسان واستعمل مجاشع بن مسعود السلمي على كرمان، على ما ذكرناه قبل، أمره أن يفتحها، وكان أهلها قد نكثوا (١٢٨/٣) وغدروا، ففتح حميد عنوة واستبقى أهلها وأعطاهم أماناً وبنى بها قصراً يُعرف بقصر مجاشع، وأتى السيرجان، وهي مدينة كرمان، فأقام عليها أياماً يسيرة وأهلها متحصنون، فقاتلهم وفتحها عنوة، فجلا كثير من أهلها عنها، وفتح جيزت عنوة، وسار في كرمان فدخل أهلها، وأتى القفص وقد تجمع له خلق كثير من الأعاجم الذي جلوا، فقاتلهم فظفر بهم وظهر عليهم، وهرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران وبعضهم بسجستان، فأقطعت العرب منازلهم وأراضهم فعمروها واحترفوا لها القني في مواضع منها وأدوا العشر منها.

ذكر فتح سجستان وكابل وغيرها

قد تقدّم ذكر فتح سجستان أيام عمر بن الخطاب، ثم إن أهلها نقضوا بعده. فلما توجه ابن عامر إلى خراسان سار إليها من كرمان الربيع بن زياد الحارثي، فقطع المفازة حتى أتى حصن زالق، فأغار على أهله يوم مهرجان وأخذ اللعنان، فافتدى نفسه بأن عزز عترة وغمرها ذهباً وقضة وصالحه على صلح فارس. ثم أتى بلدة يقال لها كركوت، فصالح أهلها، وسار إلى زرنج فنزل على مدينة رُوش بقر زرنج، فقاتله أهلها وأصيب ورجال من المسلمين. ثم انهزم المشركون وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأتى الربيع ناشروذ ففتحها، ثم أتى شرواذ فملك عليها وسار منها إلى زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم، فأرسل إليه مرزبانها لصالحه وامتأنته على نفسه ليحضر عنده فأمته، وجلس له الربيع على جسد

الف وماتت ألف درهم، وقيل غير ذلك؛ وأرسل ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي إلى مرزبانها، وكانت مرو كلها صلحاً إلا قرية منها يقال لها سينج، فإنها أخذت عنوة (وهي بكسر السين المهملة والنون الساكنة وآخرها جيم).

وتوجه ابن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان، فمر برستاق يُعرف برستاق الأحنف ويدعى سوانجرد، فحصر أهلها فصالحوه (١٢٦/٣) على ثلاثمئة ألف درهم، فقال الأحنف: أصالحكم على أن يدخل رجل من القصر فيؤذن فيه ويقم فيكم حتى ينصرف. فرضوا بذلك، ومضى الأحنف إلى مرو الروذ فقاتله أهلها فقتلهم وهزمهم وحصرهم، وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن، فكتب إلى الأحنف: إنه دعاني إلى الصلح إسلام باذان، فصالحه على ستمائة ألف، وسيّر الأحنف سرية فاستولت على رستاق يغ واستأقت منه مواشي، ثم صالحوا أهله. وجمع له أهل طخارستان، فاجتمع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومن حولهم في خلق كثير، فالتقوا واقتلوا، وحمل ملك الضغانيان على الأحنف فانتزع الأحنف الرمح من يده وقاتل قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً كيف شاؤوا وعاد إلى مرو الروذ، ولحق بعض العدو بالجوزجان، فوجه إليهم الأحنف الأقرع بن حابس التميمي في خيل وقال: يا بني تميم تحاثوا وتبادلوا تعدل أمورك وابدؤوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم.

فسار الأقرع فلقى العدو الجوزجان فكانت بالمسلمين جولة ثم عادوا فهزموا المشركين وفتحوا الجوزجان عنوة، فقال ابن الغريزة النهشلي:

سقى صوب السحاب إذا استهلت مصارع قتيّة بالجوزجان
إلى القصرين من رستاق خوئ أقدم هناك الأقرعان

وفتح الأحنف الطالقان صلحاً، وفتح الفارياب، وقيل: بل فتحها أمير بن أحمر، ثم سار الأحنف إلى بلخ، وهي مدينة طخارستان، فصالحه أهلها على أربعمئة ألف، وقيل: سبعمئة ألف؛ واستعمل على بلخ أسيد بن المششمس (١٢٧/٣) ثم سار إلى خوارزم، وهي على نهر جيحون، فلم يقدر عليها، فاستشار أصحابه، فقال له حضين بن المنذر: قال عمرو بن معديكرب:

إنا لم نطع أمراً فدغره وجاوره إلى ما نستطيع

فعاد إلى بلخ وقد قبض أسيد صلحاً، ووافق وهو يجيهم المهرجان، فأهدوا له هدايا كثيرة من عاهتهم وكنائز ودواب وأوان وثياب وغير ذلك، فقال لهم: ما صالحتهم على هذا! فقالوا: لا، ولكن هذا شيء نفعله في هذا اليوم بأمرائنا فقال: ما أدري ما هذا!

من أجساد القتلى واتكأ على آخر وأمر أصحابه ففعلوا مثله، فلما رآهم المرزبان هاله ذلك فصالحه على ألف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب، ودخل المسلمون المدينة. ثم سار منها إلى سنارود، وهي واد، فعبه وآتى القرية التي بها مريط فرس رستم الشديد، فقاتله أهلها، فظفر بهم (١٢٩/٣) ثم عاد إلى زرنج وأقام بها نحو سنة؛ وعاد إلى ابن عامر، واستخلف عليها عاملاً، فأخرج أهلها العامل وامتنعوا.

فكانت ولاية الربيع سنة ونصفاً. وسبى فيها أربعين ألف رأس. وكان كاتبه الحسن البصري. فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سبرة بن حبيب بن عبد شمس على سجستان، فسار إليها فحصر زرنج، فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم وألفي وصيف. وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند، وغلب من ناحية الرنج على ما بينه وبين الداؤن. فلما انتهى إلى بلد الداؤن حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز، وهو صنم من ذهب، عيناه ياقوتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين، ثم قال للمرزبان: دونك الذهب والجوهر. وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع. وفتح كابل وزابلستان، وهي ولاية غزنة، ثم عاد إلى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان، فاستخلف عليها أمير بن أحمر الشكري وانصرف، فأخرج أهلها أمير بن أحمر وامتنعوا ولايمير يقول زياد بن الأعجم:

لولا أمير هلكت يشكر ويشكر فلكى على كل حال

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس هذه السنة عثمان.

وفيه مات أبو الدرداء الأنصاري، وهو بدري، وقيل: سنة اثنين وثلاثين.

وفيه مات أبو طلحة الأنصاري (١٣٠/٣) وهو بدري، وقيل: سنة اثنين وثلاثين، وقيل: سنة إحدى وخمسين.

وفيه مات أبو أسيد الساعدي، وقيل: مات سنة ستين، وهو على هذا القول آخر من مات من البدرين.

(أسيد بضم الهمزة).

وفيه مات أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، وأخوه الطفيل. وأبو سفيان بن حرب بن أمية، وهو ابن ثمان وثمانين سنة. (١٣١/٣)

سنة اثنين وثلاثين

قيل: في هذه السنة غزا معاوية بن أبي سفيان مضيق

القسطنطينية ومعه زوجته عائكة بنت قرظة، وقيل فاختة ذكر ظفر الترك وقتل عبد الرحمن بن ربيعة في هذه السنة انتصرت الخزر وترك على المسلمين.

وسببه أن الغزوات لما تابعت عليهم تذاامروا وقالوا: كنا [أمة] لا يقرن بنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة فصرنا لا نقوم لها. فقال بعضهم: إن هؤلاء لا يموتون وما أصيب منهم أحد في غزوهم. وقد كان المسلمون غزوهم قبل ذلك فلم يقتل منهم أحد، فلماذا ظنوا أنهم لا يموتون. فقال بعضهم: أفلا تجربون؟ فكمثروا لهم في الغياض، فمر بالكمين نفر من الجند فرموهم منها فقتلوهم فتواعد رؤوسهم إلى حربهم ثم أعدوا يوماً. وكان عثمان قد كتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب: إن الرعية قد أبطرها البطة فلا تقتحم بالمسلمين فإني أخشى أن يقتلوا. فلم يرجع عبد الرحمن عن مقصده، فغزا نحو بلنجر، وكان الترك قد اجتمعت مع الخزر فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً وقتل عبد الرحمن (١٣٢/٣) وكان يقال له ذو النور، وهو اسم سيفه، فأخذ أهل بلنجر جسده وجعلوه في تابوت فهم يستسقون به، فلما قتل انهزم الناس وافترقوا فرقتين: فرقة نحو الباب، فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن، كان قد سيره سعيد بن العاص مدداً للمسلمين بأمر عثمان، فلما لقوه نجوا معه، وفرقة نحو جيلان وجرجان، فيهم سلمان الفارسي وأبوهريرة، وكان في ذلك العسكر يزيد بن معاوية النخعي وعلقة بن قيس ومعضد الشيباني وأبو مفرز التميمي في خيباء واحد، وعمرو بن عتبة وإخالد بن ربيعة والحلحال بن ذري والقرنخ في خيباء، فكانوا متجاوزين في ذلك العسكر، وكان القرنخ يقول: ما أحسن لمع الدماء على الثياب! وكان عمرو بن عتبة يقول لقباء عليه: ما أحسن حمرة الدماء على بياضك!

ورأى يزيد بن معاوية أن غزاً لا جيء به لم يز أحسن منه فلف في ملحفة ثم دفن في قبر لم يز أحسن منه عليه ثلاثة نفر قعود، فلما استيقظ واقتل الناس رُمي بحجر فهشم وأسه فمات، فكانما زين ثوبه بالماء وليس بتلطخ، فدفن في قبره على الصبورة التي رأى.

وقال معضد لعلقة: أعزني برك أعصب به رأسي، ففعل، فأتى برج بلنجر الذي أصيب فيه يزيد فرماهم فقتل منهم وأتاه حجر عرادة ففضخ هامته، فأخذه أصحابه فدفنوه إلى جنب يزيد، وأخذ علقمة البرد فكان يغسله فلا يخرج أثر الدم منه، وكان يشهد فيه الجمعة ويقول: يحملني على هذا أن دم معضد فيه وأصاب عمرو بن عتبة جراحة فرأى قباه كما اشتكى ثم قتل. وأما القرنخ فإنه قاتل حتى خرق بالحرايب، فبلغ الخبر بذلك عثمان فسال: إنا لله، انتكأ أهل الكوفة، اللهم تب عليهم وأقبل بهم! (١٣٣/٣) وكان

التخعين، والحلحال الضبي، والحارث بن سويد التميمي، وعمرو بن عبدة السلمي، وابن ربيعة السلمي، وأبا رافع المزني، وسويد بن شعبة التميمي، وزباد بن معاوية النخعي، وأخا القرئع الضبي، وأخا معضد الشيباني. وقيل: كان موته سنة إحدى وثلاثين.

وقيل: إن ابن مسعود لم يحمل أهل أبي ذر معه إنما تركهم حتى قدم على عثمان بمكة فأعلمه بموته، فجعل عثمان طريقه عليهم فحملهم معه. (١٣٥/٣)

ذكر خروج قارن

ثم جمع قارن جمعاً كثيراً من ناحية الطيسين وأهل بأذغيس وهرة وقوهستان وأقبل في أربعين ألفاً، فقال قيس لابن خازم: ما ترى؟ قال: أرى أن تخلي البلاد فإني أميرها ومعني عهد من ابن عامر إذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها، وأخرج كتاباً كان قد اقتله عمداً، فكره قيس منازعته وخلاه والبلاد وأقبل إلى ابن عامر، فلامه ابن عامر وقال: قد تركت البلاد خراباً وأقبلت! قال: جاءني بعهد منك. قال: فسار ابن خازم إلى قارن في أربعة آلاف وأمر الناس فحملوا الودك، فلما قرب من قارن أمر الناس أن يدرج كل رجل منهم على رُج رمحه خرقه أو قطناً ثم يكتروا دهنه، ثم سار حتى أمسى، فقدم مقدمته ستمائة ثم اتبعهم وأمر الناس، فاشعلوا النيران في أطراف الرماح، فانتهدت مقدمته إلى معسكر قارن نصف الليل فثاوشوهم، وهاج الناس على دغش وكانوا آمينين من البيات، ودنا ابن خازم منهم فراؤا النيران بمنة وسيرة تتقدم وتتأخر وتتخف وتترفع، فهاهم ذلك، ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم، ثم غشيهم ابن خازم بالمسلمين فقتل قارن، فانهزم المشركون واتبعوهم يقتلهم كيف شاؤوا، وأصابوا سبياً كثيراً. وكتب ابن خازم بالفتح إلى ابن عامر، فرضي وأقره على خراسان، فلبث عليها حتى انقضى أمر الجمل، وأقبل إلى البصرة فيشهد وقعة ابن الحضرمي وكان معه في دار سبيل.

وقيل: لما جمع قارن استشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم فيما يصنع، فقال: أرى أنك لا تطيق كثرة من قد اتانا، فأخرج بنفسك إلى ابن عامر فتخبره بكثرة العدو وتقيم نحن في الحصون ونطاولهم ويأتينا مددكم. فخرج قيس، فلما أمعن أظهر ابن خازم عهداً وقال: قد ولّاني ابن عامر خراسان، وسار إلى (١٣٦/٣) قارن فظفر به وكتب بالفتح إلى ابن عامر فأقره على خراسان، ولم يزل أهل البصرة يغزون من لم يكن صالح من أهل خراسان، فإذا عادوا تركوا أربعة آلاف نجدة.

ذكر علة حراوة

وفي هذه السنة مات العباس عم النبي، وكان عمره يوم مات ثمانين وثمانين سنة، كان أسنن من رسول الله، بثلاث

عشائين قد كتب إلى سعيد بن العاص أن يُنفذ سلمان إلى الباب للغزو، فسيره فلقى المهزومين، على ما تقدم، فتجاهم الله به. فلما أصيب عبد الرحمن استعمل سعيداً سلمان بن ربيعة على الباب، واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حذيفة بن اليمان، وأمدهم عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة، فتأمر عليهم سلمان وأبى حبيب حتى قال أهل الشام: لقد هممنا بضرب سلمان. فقال الكوفيون: إذن والله نضرب حبيباً ونجسه وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم؛ وقال أوس بن مغراء في ذلك:

إن تضربوا سلماناً نضرب حبيبكم وإن ترخلوا نحو ابن عثمان نرحل وإن تفسطوا فالغزو فمرأنا وهذا أمر في الكناش مقبل ونحس ولاء الأمر كنا حمتاه ليالي نرمي كل ثمر ونعكل وأراد حبيب أن يتأمر على صاحب الباب كما يتأمر أمير الجيش إذا جاء من الكوفة، فكان ذلك أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة والشام. وغزا حذيفة ثلاث غزوات، فقتل عثمان في الثالثة، ولقيهم مقتل عثمان فقال حذيفة بن اليمان: اللهم العن قتله وشتمه ! اللهم إنا كنا نعتابه وبعائنا فأتخذوا ذلك سلماً إلى الفتنة ! اللهم لا تمتهم إلا بالسيوف !

ذكر وفاة أبي ذر

وفيهما مات أبو ذر، وكان قد قال لابنته: استشرني يا بنتي هل ترين أحداً؟ قالت: لا. قال: فما جاءت ساعتى بعد. ثم أمرها فذبحت شاة ثم طبختها (١٣٤/٣) ثم قال: إذا جاءك الذين يدفنونني فإنه سيشهدني قوم صالحون فقلولي لهم: يقسم عليكم أبو ذر أن لا تركبوا حتى تأكلوا. فلما نضجت قدرها قال لها: انظري هل ترين أحداً؟ قالت: نعم هؤلاء ركب. قال: استقبلي بي الكعبة، ففعلت. فقال: بسم الله وبالله وعلى منة رسول الله، ثم مات، فخرجت ابنته فتلقتهم وقالت: رحمكم الله، اشهدوا أبا ذر. قالوا: وأين هو؟ فأشارت إليه، قالوا: نعم ونعمة عين! لقد أكرمنا الله بذلك. وكان فيهم ابن مسعود فيكى وقال: صدق رسول الله، يموت وحده ويبيع وحده. ففسلوه وكفوه وصلوا عليه ودفنوه. وقالت لهم ابنته: إن أبا ذر يقرأ عليكم السلام، وأقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا، ففعلوا وحملوا أهله معهم حتى أقدموهم مكة ونعوه إلى عثمان، فحضر أبنته إلى عياله وقال: يرحم الله أبا ذر ويغفر له نزوله الرعدة.

ولما حضروا شموأ من الخباء ربح مسك فبالوها عنه فقالت: إنه لما حضر قال: إن الميت يحضره شهد يجدون الريح لا يأكلون، فدوفي لهم مسكاً بماء ورشي به الخباء.

وكان النضر الذي شهدوه ابن جهمود، وأبا مغز، ويكنى بن عبد الله التميميين، والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس، ومالك الأشتر

فقال: لا يغشوني أبداً، فكفّا السكتما ولا تحزّباً الناس. ففعلا، وقعد أولئك النفر في بيوتهم وأقبلوا يقعون في عثمان.

سنين. وفيها مات عبد الرحمن بن عوف وعمره خمس وسبعون سنة. وعبد الله بن مسعود وصلى عليه عمار بن ياسر، وقيل عثمان. وتوفي عبد الله بن زيد بن عبد ربه الذي أرى الأذان.

(١٣٧/٣)

سنة ثلاث وثلاثين

في هذه السنة كانت غزوة معاوية حصن المرأة من أرض الروم بناحية ملطية. وفيها كانت غزوة عبد الله بن سعد إفريقية الثانية حين نقض أهلها العهد؛ وفيها كان سير الأحنف إلى خراسان وفتح المروين، ومسير ابن عامر إلى نيسابور وفتحها، في قول بعضهم، وقد تقدّم ذكر ذلك؛ وفيها كانت غزوة قبرس، في قول بعضهم، وقد تقدّم ذكرها مستوفى، وقيل إن فتحها كان سنة ثمان وعشرين، فلما كان سنة اثنتين وثلاثين أعان أهلها الروم على الغزاة في البحر بمرابك أعطوهم إياها، فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين ففتحها عنوة قتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم وبعث إليهم اثني عشر ألفاً فبنوا المساجد وبنى مدينة. وقيل: كانت غزواته الثانية سنة خمس وثلاثين.

ذكر تسيير من سير من أهل الكوفة إلى الشام

وفي هذه السنة سير عثمان نفراً من أهل الكوفة إلى الشام. وكان السبب في ذلك أن سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة حين شهد على الوليد بشرب الخمر أمره أن يسير الوليد إليه، فقدم سعيد الكوفة وسير الوليد وغسل المنبر، فنهاه رجال من بني أمية كانوا قد خرجوا معه عن ذلك، فلم يجبههم واختار سعيد (١٣٨/٣) وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة، فكان هؤلاء دخلته إذا خلا، وأما إذا خرج فكل الناس يدخل عليه، فدخلوا عليه يوماً، فبيناهم يتحدثون قال حبيش بن فلان الأسدي: ما أجود طلحة بن عبيد الله! فقال سعيد: إن من له مثل الشاستج لحقيق أن يكون جواداً، والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله به عيشاً رغداً. فقال عبد الرحمن بن حبيش، وهو حدث: والله لوددت أن هذا الملطاط لك، يعني لسعيد، وهو ما كان للأكاسرة على جانب القرات الذي يلي الكوفة. قالوا: فض الله فاك! والله لقد هممنا بك! فقال أبوه: غلام فلا تجازوه. فقالوا: يمتنى له سوادنا. قال: ويتمنى لكم أضعافه، فشار به الأشتر وجندب وابن ذي الحنكة وصعصة وابن الكواء وكميل وعُمير بن ضابئ فأخذوه، فشار أبوه ليمنع عنه، فضر بهما حتى غشي عليهما، وجعل سعيد يناشلهما ويأبون حتى قضا منهما وطراً. فسمعت بذلك بنو أسد فجاؤوا وفيهم طليحة فأحاطوا بالقصر وركبت القبائل فعادوا بسعيد، فخرج سعيد إلى الناس فقال: أيها الناس قوم تنازعوا وقد رزق الله المعافاة، فردّهم فتراجعوا. وأفاق الرجلان فقالا: قاتلنا غاشيتك.

فلما قدموا على معاوية أنزلهم كنيسة مريم وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق بأمر عثمان، وكان يتغدى ويتعشى معهم، فقال لهم يوماً:

إنكم قوم من العرب لكم أسنان والسنّة، وقد أدركتهم بالإسلام شرفاً وغلبيّة الأمم وحريتم موارثهم، وقد بلغني أنكم تقمتم قريشاً، ولو لم تكن قريش كنتم أدلة، إن أئمتكم لكم جنة فلا تفرقوا عن جنتكم، وإن أئمتكم يصيرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة، والله لتتھن أو ليبتليكنم الله بمن يسومكم سوء ولا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم.

فقال رجل منهم، وهو صعصة: أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن (١٤٠/٣) أكثر العرب ولا أمنها في الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترت خلص إلينا.

فقال معاوية: عرفتمكم الآن وعلمت أن النبي أغرامكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيهم ولا أرى لك عقلاً، أعظم عليكم أمر الإسلام وتذكرني بالجاهلية! أخزى الله قوماً عظموا أمرهم! افقهوا عني، ولا أظنكم تفقهون، أن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله تعالى، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحصهم أنساباً، وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية، والناس يأكل بعضهم بعضاً، إلا بالله، فبواهم حرماً أمناً يتخطف الناس من حولهم! هل تعرفون عربياً أو عجمياً

يشتمون بنا، ولكن ميلوا إلى الجزيرة، فسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان على حمص، فدعاهم فقال: يا آله الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً، قد رجح الشيطان محسوراً وأنتم بعد نشاط، خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم، يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم، لا تقولوا لي ما بلغني أنكم قلت لمعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقى الردة! والله لئن بلغني يا صعصعة أن أحداً ممن معي دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهري! فاقامهم شهراً كلماً ركب أمشاهم، فإذا مر به صعصعة قال: يا ابن الحطينة، أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر؟ ما لك لا تقول كما بلغني أنك قلت لسعيد ومعاوية؟ فيقولون: نتوب إلى الله، ألقنا أقالك الله. فما زالوا به حتى قال: تاب الله عليكم. وسرح الأشتر إلى عثمان، فقدم إليه ثانياً، فقال له عثمان: احلل حيث شئت. فقال: مع عبد الرحمن بن خالد. فقال: ذلك إليك، فرجع إليه.

قيل: وقد روي أيضاً نحو ما تقدم وزادوا فيه أن معاوية لما عاد إليهم من القابلة وذكرهم كان ممّا قال لهم: وإني والله لا أمركم بشيء إلا وقد بدأت فيه بنفسي وأهل بيتي، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه، فإنه اتخيه وأكرمه، وإني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً. قال صعصعة: قد (١٤٣/٣) كذبت! قد ولدهم خير من أبي سفيان من خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة فسجدوا له، وكان فيهم البر والفاجر، والأحمق والكيس. فخرج تلك الليلة من عندهم ثم أتاهم القابلة فتحدث عندهم طويلاً ثم قال: أيها القوم ردوا خيراً أو استكروا وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهاليكم والمسلمين فاطلبوه. فقال صعصعة: لست بأهل ذلك ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله. فقال: أليس أول من ابتدأكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعة نبيه وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا؟ قالوا: بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي، فقال: إني أمركم الآن إن كنتم فعلت فأتوب إلى الله وأمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه، ولزوم الجماعة وأن توقروا آمئتمكم وتدلوه على أحسن ما قدرتم عليه. فقال صعصعة: فإننا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك، من كان أبوه أحسن قديماً في الإسلام من أباك وهو أحسن في الإسلام قديماً منك. فقال: والله إن لي في الإسلام قديماً ولغيري كان أحسن قديماً مني ولكنه ليس في زماني أحد أقوى على ما أنا فيه مني، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيري أقوى مني لم تكن عند عمر هودة لي ولا لغيري، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن اعتزل عملي، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين لكتب إلي فاعتزلت عمله، فمهلاً فإن في ذلك وأشبهه ما يتمنى الشيطان ويأمر، ولعمري لو كانت الأمور تقضى على رأيكم وأمانيتكم ما استقامت

أو أسود أو أحمر إلا وقد أصابه الدهر في بلده وحرمة إلا ما كان من قريش فإنهم لم يُردعهم أحدٌ من الناس بكيد إلا جعل الله خذته الأسفل، حتى أراد الله أن يستتد من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً، ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم، افتراه لا يحوطهم وهم على دينه؟ أف لك ولأصحابك!

أما أنت يا صعصعة فإن قريتك شر القرى! انتهت بيتاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشر، والأمها جيراناً! لم يسكنها شريف قط ولا وضع إلا سب بها، ثم كانوا الأم العرب القبا وأصهاراً، نزاع الأم، وأنتم جيران الخط، وقلة (١٤١/٣) فارس، حتى أصابتكم دعوة النبي، لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبي، فأتت شر قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس أقبلت تبغي دين الله عوجاً، وتنزع إلى الذلّة، ولا يضر ذلك قريشاً ولا يضعهم ولن يمنهم من تادية ما عليهم، إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر فأغرى بكم الناس، وهو صارعكم، ولا تدركون بالشر أمراً أبداً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى.

ثم قام وتركهم فتفاضرت إليهم أنفسهم، فلما كان بعد ذلك اتاهم فقال: إني قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً أبداً ولا يضره ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يطرركم الإنعام، فإن البطر لا يعترى الخيار، اذهبوا حيث شئتم فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

فلما خرجوا دعاهم وقال لهم: إني معيد عليكم أن رسول الله، كان معصوماً فولاني وأدخلني في أمره، ثم استخلف أبو بكر فولاني، ثم استخلف عمر فولاني، ثم استخلف عثمان فولاني، ولم يولني أحداً إلا وهو عني راضٍ، وإنما طلب رسول الله، للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء، وإن الله ذو سطوات ونقعات يمكر بمن مكر به، فلا تعرضوا لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظنون، فإن الله غير تارككم حتى يختبركم وييدي للناس سرائركم.

وكتب معاوية إلى عثمان: إنه قدم علي أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، اضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزبهم، وليسوا بالذين (١٤٢/٣) يتكون أحداً إلا مع غيرهم، فأنه سعيداً ومن عنده عنهم، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير.

فخرجوا من دمشق فقالوا: لا ترجعوا بنا إلى الكوفة فإنهم

لا يرى لآل إبراهيم عليه فضلاً؛ ودخل عليه ابن عامر فأطبق المصحف وحذنه، فقال له ابن عامر: ألا تغشانا؟ فقال: سعد بن أبي القرحاء يحب الشرف. فقال: ألا نستعملك؟ فقال: خُصين بن الحُرِّ يحبَّ العمل. فقال: ألا تزوجك؟ فقال: ربيعة بن عَسل يعجبه النساء. فقال: إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلاً! فتصَفَّح المصحف، فكان أول ما وقع عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. [آل عمران: ٣٣].

لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، فعادوا الخير وقرلوه، وإن لله لسطوات، وإني لخائف عليكم(١٤٤/٣) أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن فيجعلكم ذلك دار الهوان في العاجل والأجل. فوثبوا عليه وأخذوا رأسه ولحيته، فقال: مه إن هذه ليست بارض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتُم بي ما ملكتُ أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلغمري إن ضئيعكم ليشبه بعضه بعضاً!

ثم قام من عندهم وكتب إلى عثمان نحو الكتاب المتقدم، فكتب إليه عثمان يأمه أن يردَّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم فأطلقوا الستهم، فضجَّ سعيد منهم إلى عثمان، فكتب إليه عثمان أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بحمص، فسيرهم إليها، فأنزلهم عبد الرحمن وأجرى عليهم رزقاً، وكانوا: الأشتر وثابت بن قيس الهمداني وكُمَيْل بن زياد وزيد بن صُوحان وأخاه صعصعة وجندب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحقيق الخزاعي وابن الكواء.

قيل: سأل معاوية ابن الكواء عن نفسه قال: أنت بعيد الشرى كثير المرعى طيب البديهة بعيد الغور، الغالب عليك الحلم، ركن من أركان الإسلام، سُدَّتْ بك فرجة مخوفة. قال: فأخبرني عن أهل الأحداث من الأمصار فإنك أعقل أصحابك. قال: أما أهل المدينة فهم أحرص الأمة على الشرِّ وأعجزهم عنه، وأما أهل الكوفة فإنهم يردون جميعاً ويصدرون شتى، وأما أهل مصر فهم أوفى الناس بشراً وأسرعهم ندامة، وأما أهل الشام فهم أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغربيهم.

ذكر تسير من سَير من أهل البصرة إلى الشام

ولما مضت ثلاث سنين من إمارة عبد الله بن عامر بلغه أن [في عبد القيس] رجلاً نازلاً على حَكِيم بن جَبَلَة العبدى، وكان عبد الله بن سبأ، المعروف(١٤٥/٣) بابن السوداء، هو الرجل النازل عليه، واجتمع إليه نفر فطرح إليهم ابن السوداء ولم يصرح، فقبلوا منه. فأرسل إليه ابن عامر فسأله: من أنت؟ فقال: رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام وفي جوارك. فقال: ما يبلغني ذلك، أخرج عني. فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها، فقصده مصر فاستقرَّ بها وجعل يكاثرهم ويكاتبونه وتختلف الرجال بينهم.

وكان حُمران بن أبان قد تزوج امرأة في عدتها ففرق عثمان بينهما وضربه وسَّيره إلى البصرة، فلزم ابن عامر فتذاكروا يوماً المرور بعامر بن عبد القيس، فقال حُمران: ألا أستبقكم فأخبره؟ فخرج فدخل عليه وهو يقرأ في المصحف فقال: الأمير يريد المرور بك فأحييتُ أن أعلمك؛ فلم يقطع قراءته، فقام من عنده، فلما انتهى إلى الباب لقيه ابن عامر فقال: [جتك من عند امرئ].

فسمى به حُمران، وأقام حُمران بالبصرة ما شاء الله، وأذن له عثمان فقدم المدينة ومعه قوم، فسعوا بعامر بن عبد القيس أنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة، فألحقه بمعاوية، فلما قدم عليه رأى عنده ثريداً فأكل(١٤٦/٣) أكلاً عربياً، فعرَّف أن الرجل مكذوب عليه، فعرَّفه معاوية سبب إخراجِه، فقال: أما الجمعة فإنِّي أشهدها في مؤخر المجلس ثم أرجع في أوائل الناس، وأما التزويج فإنِّي خرجتُ وأنا يُخطب عليّ، وأما اللحم فقد رأيتُ ولكني لا أكل ذبائح القضاة منذ رأيت قصاباً يجرّ شاة إلى مذبحها ثم وضع السكين على حلقها فما زال يقول: التفاق التفاق، حتى ذهبها. قال: فأرجع. قال: لا أرجع إلى بلد استحلَّ أهله مني ما استحلوا؛ فكان يكون في السواحل، فكان يلقي معاوية فيكثر معاوية أن يقول: ما حاجتك؟ فيقول: لا حاجة لي. فلما أكثر عليه قال: تردُّ عليّ من حرِّ البصرة شيئاً لعلَّ الصوم أن يشتدَّ عليّ فإنه يخفُّ عليّ في بلادكم.

ذكر عدة حوادث

وحجَّ بالناس عثمان.

وفيها مات المقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الأسود صاحب رسول الله ﷺ، وأوصى أن يصلى عليه الزبير.

وفيها توفي الطفيل والحُصَيْن ابنا الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وشهدا بدرأ وأخذاً، وقيل: ماتا سنة إحدى وثلاثين، وقيل اثنتين وثلاثين. (١٤٧/٣)

سنة أربع وثلاثين

قيل: فيها كانت غزوة الصواري، في قول بعضهم، وقد تقدّم ذكرها.

وفيها تكاتب المنحرفون عن عثمان للاجتماع لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم نعموا عليه.

ذكر الخبر عن ذلك وعن يوم الجرة

قد ذكرنا خبر المسييرين من الكوفة ومقامهم عند عبد الرحمن

وقالوا: صل بنا. فقال: لا إلا على السمع والطاعة لعثمان. قالوا: نعم. فصلّى بهم وأتاه ولايته فولّاهم.

وقيل: سبب يوم الجّرة أنّه كان قد اجتمع ناس من المسلمين فتذكروا أعمال عثمان فأجمع رأيهم، فأرسلوا إليه عامر بن عبد الله التميمي ثمّ العنبري، وهو الذي يدعى عامر بن عبد القيس، فأتياه فدخل عليه فقال له: إنّ ناساً من المسلمين اجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبنا أموراً عظيماً، فاتى الله وتبّ إليه. فقال عثمان: انظروا إلى هذا فإنّ الناس يزعمون أنّه قارى ثمّ هو يجيء يكلمني في المحقرات، والله ما يدري أين الله! فقال عامر: بلى والله إنّي لأدري أن الله لبالمرصاد!

فأرسل عثمان إلى معاوية وعبد الله بن سعد وإلى سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعبد الله بن عامر فجمعهم فشاوهم وقال لهم: إن لكلّ امرئ وزراء ونصحاء وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل تقّي، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إليّ أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبّون، فاجتهدوا رأيكم. فقال له ابن عامر: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلّوا لك ولا يكون همّة أحدهم إلا في نفسه وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته. وقال سعيد: أحسم عنك الداء فاقطع عنك الذي تخاف، إن لكلّ قوم قادة متى تهلك يتفرّقوا ولا يجتمع لهم أمر. فقال عثمان: إن هذا هو الرأي لنولا ما فيه. وقال معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد (١٥٠/٣) فيكفيك كلّ رجل منهم ما قيله وأكفيك أنا أهل الشام. وقال عبد الله بن سعد: إن الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليكم قلوبهم. ثمّ قام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد ركبنا الناس بمثل بني أميّة فقلقت وقالوا وزغرت وزاغوا فاعتدل أو اعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزمًا وأقدم قُدُمًا. فقال له عثمان: ما لك قمل فروك؟ أهذا الجدّ منك؟ فسكت عمرو حتى تفرّقوا فقال: والله يا أمير المؤمنين لأنك أكرم عليّ من ذلك ولكنني علمت أنّ الباب من يُلغ الناس قول كلّ رجل منّا فأردت أن يبلّغهم قولني فيشقوا بي فأقود إليك خيرًا وأدفع عنك شرًا.

فردّ عثمان عماله إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعث وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه، وردّ سعيداً إلى الكوفة، فلقية الناس من الجّرة وروّوه، كما سبق ذكره. قال أبو ثور الحداثي: جلست إلى حذيفة وأبي مسعود الأنصاري بمسجد الكوفة يوم الجّرة، فقال أبو مسعود: ما أرى أن تُردّ على عقيبتها حتى يكون فيها دماء. فقال حذيفة: والله ليردّ على عقيبتها ولا يكون فيها محجمة دم وما أرى اليوم شيئاً إلا وقد علمته والنبي، ﷺ حي. فرجع سعيد إلى عثمان ولم يُسفك دم، وجاء أبو موسى أميراً، وأمر عثمان حذيفة بن اليمان أن يغزو الباب فسار نحوه.

بن خالد بن الوليد، ووفد سعيد بن العاص إلى عثمان سنة إحدى عشرة من خلافة عثمان، وكان سعيد قد ولّى قبل مغرجه إلى عثمان بسنة وبعض أخرى الأشعث بن قيس أذربيجان، وسعيد بن قيس الري، والنسير العجليّ همدان، والسائب بن الأفرع أصبهان، ومالك بن حبيب مائة، وحكيم بن سلام الحزامي الموصل، وجريز بن عبد الله قرقيسيا، وسلمان بن ربيعة الباب، وجعل القعقاع بن عمرو على الحرب، وعلى خلوان عتية بن النّحاس، وعلت الكوفة من الرؤساء. فخرج يزيد بن قيس وهو يزيد خلع عثمان ومعه الذي كان ابن السوداء يكايتهم، فأخذه القعقاع بن عمرو فقال: إنّما نستعفي من سعيد. فقال: أما هذا فنعم، فتركه وكاتب يزيد المسيّرين في القدوم عليه، فسار الأشتر والذين عند عبد الرحمن (١٤٨/٣) ابن خالد، فسبقهم الأشتر، فلم يفجأ الناس يوم الجمعة إلا والأشتر على باب المسجد يقول: جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركتم سعيداً يريد على نقصان نساكم على مائة درهم، وردّ أولي البلاء منكم إلى الفين، ويزعم أن فينكم بستان قريش. فاستخفّ الناس وجعل أهل الرأي ينهونهم فلا يُسمع منهم.

فخرج يزيد وأمر منادياً بنادي: من شاء أن يلحق بيزيد لردّ سعيد فليفلح، فبقي أشراف الناس وحلماؤهم في المسجد. وعمرو بن حُرث يومئذ خليفة سعيد، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأمرهم بالاجتماع والطاعة، فقال له القعقاع: اتّردّ السيل عن أدراجهم لا هيات لا والله لا يسكن الغوغاء إلا المشركية ويوشك أن تنّضى ويعجز العذّان ويتنوّن ما هم فيه اليوم فلا يردّه الله عليهم أبداً، فاصبر. قال: أصبر. وتحول إلى منزله، وخرج يزيد بن قيس فنزل الجّرة، وهي قريب من القادسية، ومعه الأشتر، فوصل إليهم سعيد بن العاص، فقالوا: لا حاجة لنا بك. إنّما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وإلى رجلاً، وهل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد؟ ثمّ انصرف عنهم وتحسّسوا بمولى له على بعير قد حسر فقال: والله ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع. فقتله الأشتر. ومضى سعيد حتى قدم على عثمان فآخيره بما فعلوا وأنهم يريدون البذل وأنهم يختارون أبا موسى، فجعل أبا موسى الأشعري أميراً، وكتب إليهم:

أما بعد فقد أمرتُ هليكم من اخترتم وأعيتكم من سعيد، والله لأقرضكم عرضي ولأبذلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا ما (١٤٩/٣) استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببت حتى لا يكون لكم على الله حجة، ولتصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون. ورجع من الأمراء من قرب الكوفة، فرجع جرير من قرقيسيا، وعتية بن النّحاس من خلوان، وخطبهم أبو موسى وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان، فأجابوا إلى ذلك

ذكر ابتداء قتل عثمان

في هذه السنة تكاتب نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، وغيرهم بعضهم إلى بعض: أن اقدموا فلان الجهاد عندنا، وعظم الناس على (١٥١/٣) عثمان ونالوا منه، وليس أحد من الصحابة ينهى ولا يذُبُّ إلا نفرٌ منهم: زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس فكلّموا علي بن أبي طالب، فدخل على عثمان فقال له: الناس ورائي وقد كلّموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك ولا أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه، إنك لتعلم ما أعلم، ما سبقناك إلى شيء فتخبرك عنه ولا خلونا بشيء فيبلغك وما خصصنا بأمر دونك، وقد رأيت وصحب رسول الله ﷺ، وسمعت منه ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك، وأنت أقرب إلى رسول الله ﷺ، رحماً، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ، ما لم ينالاه، وما سبقاك إلى شيء، فإله الله في نفسك، فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهالة، وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين لقائمة. اعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله إمام عادل هدي وهدي فأقام سنة معلومة وأما بدعة متروكة، فوالله إن كلاً ليين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وأضل فأما سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة، وإنسي أحذرك الله وسطواته ونقماته، فإن عذابه شديد اليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يُقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أمرها عليها ويتركها شيئاً لا يصرون الحق لعلو الباطل، يمجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً.

فقال عثمان: قد علمت والله ليقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكانني ما عتقتك ولا أسلمتك ولا عبث عليك ولا جئت مُكبراً أن وصلت رحماً (١٥٢/٣) وسددت خلّة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي. أنشدك الله يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم. قال: فتعلم أن عمر ولأه؟ قال: نعم. قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمة وقرايته؟ قال علي: إن عمر كان يطأ على صمخ من ولي إن بلغه عنه حرف جلّه ثم بلغ به أقصى العقوبة وأنت لا تفعل، ضعفت ورقتت على أقربائك. قال عثمان: وهم أقرباؤك أيضاً! قال: أجل، إن رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم. قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولي معاوية؟ فقد وليته. فقال علي: أنشدك الله، هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من يرقأ غلام عمر له؟ قال: نعم. قال علي: فإن معاوية يقطع الأمور دونك ويقول للناس هذا أمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تتغير عليه.

ثم خرج علي من عنده وخرج عثمان على أثره فجلس على

المنبر ثم قال: أما بعد فإن لكل شيء آفة ولكل أمر عاهة، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويسترون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم ويقولون، أمثال النعام يتبعون أول ناعق، أحبّ مواردهم إليهم البعيد، لا يشربون إلا نغصاً ولا يردون إلا عكرًا، [لا] يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الأمور، إلا فقد والله عيتم علي ما أقررتم لابن الخطاب بمنله، ولكنه وطنكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدينتم له على ما أحببتهم وكرهتم، ولنت لكم وأوطأتكم كفي وكفت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي. أما والله لانا أعز نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأحرى، إن قلت هلم أي علي، ولقد عددت لكم أقراناً، وأفضلت عليكم فضولاً، وكشرت (١٥٣/٣) لكم عن نابي، وأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به، فكفوا عني الستمكم وعيكم وطعنكم على ولانتكم، فإني كفت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرؤيت من بدون منطقي هذا. ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ولم تكونوا تختلفون عليه.

فقام مروان بن الحكم فقال: إن شتمت حكمتنا والله ما بيننا وبينكم السيف، نحن وأنتم والله كما قال الشاعر:

فرسنا لكم اعراضاً فبنت بكم معارسمكم تبنون في يمن السرى
فقال عثمان: اسكت لا سكّت، دعني وأصحابي، ما منطقت في هذا! ألم أتقدم إليك أن لا تنطق؟ فسكت مروان ونزل عثمان عن المنبر، فاشتدّ قوله على الناس وعظم وزاد تألبهم عليه.

ذكر عذّة حوادث

وحجّ هذه السنة بالناس عثمان.

وفي هذه السنة توفي كعب الأحبار، وهو كعب بن ماتع، وأسلم أيام عمر.

وفيها مات أبو عبيد الرحمن بن جبر الأنصاري، شهيد بدرًا.

وفيها مات مسطح بن أثانة المطليبي، وهو ابن ست وخمسين سنة، وقيل: بل عاش وشهد صفين مع علي، وهو الأكثر، وكان بدرًا.

وفيها توفي عبادة بن الصامت الأنصاري، وهو ممن شهد العقبة، وكان تقياً بدرًا، وعافل بن البكير، وهو بدري أيضاً. (١٥٤/٣)

سنة خمس وثلاثين

ذكر مسير من سار إلى حصر عثمان

قيل: في هذه السنة كان مسير من سار من أهل مصر إلى ذي خُشْب، ومسير من سار من أهل العراق إلى ذي المروة.

وكان سبب ذلك أن عبد الله بن سبا كان يهودياً، وأسلم أيام عثمان، ثم تنقل في الحجاز ثم بالبصرة ثم بالكوفة ثم بالشام يريد إضلال الناس فلم يقدر منهم على ذلك، فأخرجاه أهل الشام، فأتى مصر فأقام فيهم وقال لهم: العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمداً يرجع، فوضع لهم الرجعة، فقبلت منه، ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان لكل نبي وصي، وعلي وصي محمد، فمن أظلم ممن لم يُجز وصية رسول الله ﷺ، ووُثب على وصيه، وإن عثمان أخذها بغير حق، فانهضوا في هذا الأمر وابدؤوا بالظعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس.

ويث دعائه، وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما هو عليه رأيهم وصاروا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا بذلك الأرض إذاعة، فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية (١٥٥/٣) مما ابتلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فلأنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس. فاتوا عثمان فقالوا: يا أمير المؤمنين آياتيك عن الناس الذي يأتينا؟ فقال: ما جامني إلا السلامة وأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا علي. قالوا: نشير عليك أن تبعث رجلاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.

فدعا محمد بن سلمة فارس له إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام، وفرق رجالاً أسواهم، فرجعوا جميعاً قبل عمار فقالوا: ما أنكرنا شيئاً أيها الناس ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عواهم. وتاخر عمار حتى ظنوا أنه قد اغتيل فوصل كتاب من عبد الله بن أبي سرح يذكر أن عماراً قد استماله قوم وانقطعوا إليه، منهم: عبد الله بن السوداء، وخالد بن فلج، وسودان بن حمران، وكتانة بن بشر.

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار: [إما بعد] فلاني أخذ عمالي بموافاتي كل موسم، وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقوماً يشتمون ويضربون، فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يتأخذ حقه حيث كان مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي

المتصدقين. فلما قرئ في الأمصار بكى الناس ودعوا لعثمان. وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه في الموسم: عبد الله بن عامر، وعبد الله بن سعد، ومعاوية، وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمر، فقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يعصب هذا إلا بي! فقالوا له: ألم تبعث! ألم يرجع إليكم الخبر عن العوام؟ ألم يرجع رسلك ولم يشافهم أحد بشيء؟ والله ما صدقوا ولا برؤوا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً (١٥٦/٣) ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة! فقال: أشيروا علي. فقال سعيد: هذا أمر مصنوع يلقي في السر فيحدث به الناس، ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذي يخرج هذا من عندهم. وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنه خير من أن تدعهم. وقال معاوية: قد ليئني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير، والرجلان أعلم بناحيتهما، والرأي حسن الأدب. وقال عمرو: أرى أنك قد لبثت لهم ورخت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك فتشدد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين.

فقال عثمان: قد سمعتُ كل ما أشرتم به علي ولكل أمر باب يؤتى منه، إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابي الذي يعلق عليه ليفتحن فنكفكه باللين والمؤاتاة إلا في حدود الله، فإن فتح فلا يكون لأحد علي حجة حق، وقد علم الله أنني لم آكل الناس خيراً، وإن رحي الفتنة للدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها. سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تذهنوا فيها. فلما نفر عثمان وشخص معاوية والأمراء معه واستقل على الطريق رجز به الحادي فقال:

قد علمت ضوامر المطي وضفرائ غرَج القيسي
أن الأمير بمئة علسي وفي الزبير خلف رضىي
[وظلعة الخامي لها ولي]

فقال كعب: كذبت بل يلي بعده صاحب البغلة الشهباء، يعني معاوية؛ فطمع فيها من يومئذ.

فلما قدم عثمان المدينة دعا علياً وطلحة والزبير وعنده معاوية، فحمد (١٥٧/٣) الله معاوية ثم قال: أنتم أصحاب رسول الله ﷺ، وخيرته من خلقه وولاء أمر هذه الأمة، لا يطمع فيه أحد غيركم، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع، وقد كبر وولى عمره ولو انتظرت به الهرم لكان قريباً مع أي أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغه ذلك، وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبت فيه من شيء، فهذه يدي لكم به، ولا تطمعوا الناس في أمركم، فوالله إن طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً إلا إدياراً.

قال علي: ما لك ولذللك لا تملأها؟ قال: دع أمي فإنها ليست

بشر أمهاتكم، قد أسلمت وبايعت النبي ﷺ، وأجبتني عما أقول لك. فقال عثمان: صدق ابن أخي، أنا أخبركم عني وعمّا وليت، إن صاحبني اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً، وإن رسول الله ﷺ، كان يعطي قرابته وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمرني لأمركم تبع. فقالوا: قد أصبت وأحسن، قد أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً، وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً. فآخذ منهما ذلك، فرضوا وخرجوا راضين.

وقال معاوية لعثمان: أخرج معي إلى الشام فإنهم على الطاعة قبل أن يهجم عليكم من لا قبل لك به. فقال: لا أبيع جواز رسول الله ﷺ، بشيء وإن كان فيه خيط عنقي. قال: فإن بعثت إليك جنداً منهم يقيم معك لئلا تبغى؟ قال: لا أضيّق على جيران رسول الله ﷺ. فقال: والله لتقتلن ولتغزبن! فقال: حسبي الله ونعم الوكيل!

ثم خرج معاوية فمر على نفر من المهاجرين فيهم علي وطلحة والزبير وعليه (١٥٨/٣) ثياب السفر، فقام عليهم وقال: إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه حتى بعث الله نبيّه ﷺ، وكانوا يتفاضلون بالسابقة والقُدْمة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس لهم تبع، وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك وردّه الله إلى غيرهم، وإن الله على البذل لقادر، وإنّي قد خلّفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً، وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك. ثم ودعهم ومضى. فقال علي: [ما] كنت أرى في هذا خيراً. فقال الزبير: والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورتنا منه اليوم.

واتعد المنحرفون عن عثمان يوماً يخرجون فيه بالأمصار جميعاً إذا سار عنها الأمراء، فلم يتهيا لهم ذلك، ولما رجع الأمراء ولم يتم لهم الوثوب [صاروا] يكاتبون في القدوم إلى المدينة لينظروا فيما يريدون ويسألوا عثمان عن أشياء لتطير في الناس. وكان بمصر محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة يحرضان على عثمان.

فلما خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوي في خمسمائة، وقيل: في ألف، وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسودان بن حُمران السكوني وقُتَيْرة بن فلان السكوني، وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العنكي؛ وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن ضَرَحان العبدي والأشتر النخعي وزباد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصم العامري، وهم في عداد أهل مصر؛ وخرج أهل البصرة فيهم حُكَيْم بن جَبَلَة العبدي وذريح بن عباد وبشر بن شَرِيح القيسي وابن المحترش، وهم بعداذ أهل مصر، وأميرهم حُرْقُوص

بن زهير السعدي؛ فخرجوا (١٥٩/٣) جميعاً في شوال وأظهروا أنهم يريدون الحجّ، فلما كانوا من المدينة على ثلاث تقدّم ناس من أهل البصرة فزّلوا ذا خُشب، وكان هواهم في طلحة، وتقدّم ناس من أهل الكوفة، وكان هواهم في الزبير، وتركوا الأعوص، وجاءهم ناس من أهل مصر، وكان هواهم في عليّ، ونزلوا عامتهم بذي المروة، ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم وقالوا لهم: لا تعجلوا حتى ندخل المدينة ونرتاد لكم، فقد بلغنا أنهم عسكروا لنا، فوالله إن كان هذا حقاً واستحلّوا قتالنا بعد علم حالنا إن أمرنا لباطل، وإن كان الذي بلغنا باطلاً رجعنا إليكم بالخير. قالوا: اذهب. فذهبوا فدخلوا المدينة فلقيها أزواج النبي ﷺ، وعليّاً وطلحة والزبير، فقالوا: إنّما نريد هذا البيت ونستعفي من بعض عمالنا، واستاذنهم في الدخول، فكلّمهما أبيّ ونهاهما، فرجعا إلى أصحابهما. فاجتمع نفر من أهل مصر فاتوا عليّاً، ونفر من أهل البصرة فاتوا طلحة، ونفر من أهل الكوفة فاتوا الزبير، وقال كلّ فريق منهم: إن بايعنا صاحبنا وإلاّ كذبناهم وفرّقنا جماعتهم ثم رجعنا عليهم حتى نفيّتهم. فأثنى المصريون عليّاً وهو في عسكر عند أحجار الزيت متقلداً سيفه، وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه، فسلموا عليه وعرضوا عليه، فصاح بهم وطردهم وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وجيش ذي خُشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ، فانصرفوا عنه. وأثنى البصريون طلحة فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل ابنه إلى عثمان؛ وأثنى الكوفيون الزبير فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل ابنه عبد الله إلى عثمان. (١٦٠/٣)

فرجعوا ونفّروا عن ذي خُشب وذو المروة والأعوص إلى عسكرهم ليتفرّق أهل المدينة ثم يرجعوا إليهم. فلما بلغوا عسكرهم تفرّق أهل المدينة، فرجعوا بهم، فلم يشعر أهل المدينة إلاّ والتكبير في نواحيها، ونزلوها وأحاطوا بعثمان وقالوا: من كفّ يده فهو آمن. وصلى عثمان بالناس أياماً، ولزم الناس بيوتهم ولم يمتنعوا الناس من كلامه، وأتاهم أهل المدينة وفيهم عليّ فقال لهم: ما ردكم بعد ذهابكم؟ فقالوا: أخذنا مع بريد كتابا بقتلنا. وأثنى طلحة الكوفيّين فسألهم عن عودهم فقالوا مثل ذلك. وأثنى الزبير البصريّين فقالوا مثل ذلك، وكلّ منهم يقول: نحن نمنع إخواننا وننصرهم، كما أنّا كانوا على ميعاد. فقال لهم عليّ: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرّتم مراحل حتى رجعت علينا؟ هذا والله أمر أبرم بليل! فقالوا: ضعه كيف شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزل عنا. وعثمان يصلّي بهم وهم يصلّون خلفه، وهم أدق في عينه من التراب، وكانوا يمتنعون الناس من الاجتماع.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستنجدهم ويأمرهم بالحث

الدعاء المسفوقة والإحْن والأثرَةُ الظاهرة والأحكام المغيرة.

وكان عبد الله بن سعد قد خرج إلى عثمان في آثار المصريين يباذنه له، فلمّا كان بأيلة بلغه أن المصريين رجعوا إلى عثمان فحصره، وأن محمد بن أبي حذيفة غلب على مصر واستجابوا له، فعاد عبد الله إلى مصر فمُتّع عنها، فأتى فلسطين فأقام بها حتى قُتل عثمان.

فلَمّا نزل القوم ذا حُشْب يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عَمّا يكرهون، ولما رأى عثمان ذلك جاء إلى عليّ فدخل عليه بيته فقال له: يا ابن عمّ، إنّ قرابتي قريبة ولي عليك حقّ عظيم، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبّحني، ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك، وأحبّ أن تركب إليهم فتردهم عني، فإن في دخولهم عليّ توهيناً لأمرِي وجراً عليّ! فقال عليّ: على أيّ شيء أرْضُهم عنك؟ قال: على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورايتَه لي. فقال عليّ: إنّني قد كلمتك مرّة بعد أخرى فكلّ ذلك نخرج ونقول ثمّ ترجع عنه، وهذا من فعل مروان وابن عاص ومعاوية وعبد الله بن سعد، فإنّك أطعتهم وعصيتني. قال عثمان: فانا أعصيه وأطيعك.

فأمر الناس فركب معه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً فيهم سعيد بن زيد وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ومن الأنصار أبو أسيد الساعدي وأبو حميد وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك، ومن العرب نيار بن (١٦٣/٣) مكرز، فأتوا المصريين فكلّموهم، وكان الذي يكلمهم عليّ ومحمد بن مسلمة، فسمِعوا مقالتهما ورجعوا إلى مصر. فقال ابن عُدَيْس لمحمد بن مسلمة: أتوصينا بخاجة؟ قال: نعم، تنقي الله وترد من يَبْلُغُك عن إمامهم فإنّه قد وعدنا أن يرجع ويتزع. قال ابن عُدَيْس: أفعل إن شاء الله. ورجع عليّ ومن معه إلى المدينة، فدخل على عثمان فأخبره بروجعهم وكلمه بما في نفسه ثمّ خرج من عنده، فمكث عثمان ذلك اليوم، وجاء مروان بكرة الغد فقال له: تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً قبل أن يحيي الناس إليك من أمصارهم وبأيتك ما لا تستطيع دفعه. ففعل عثمان، فلمّا خطب الناس قال له عمرو بن العاص: اتق الله يا عثمان، فإنّك قد ركبت أموراً وركبناها معك، فنبّ إلى الله تنبّ. فناداه عثمان: وإنّك هنالك يا ابن النابغة! قملت والله جيّتك منذ عزلتك عن العمل! فتودي من ناحية أخرى: تُبّ إلى الله. فرفع يديه وقال: اللهمّ إنّني أوّل تائب!

وخرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، وكان يقول: والله إنّني كنتُ لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان. وأتى عليّاً وطلحة والزبير فحرّضهم على عثمان، فبينما هو بقصره بفلسطين

للمنع عنه ويعرفهم ما الناس فيه. فخرج أهل الأمصار على الصعب والذلول، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حذيج، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو وقام بالكوفة نفر يحضون على إغاة أهل المدينة، منهم: عتبة بن عامر وعبد الله بن أبي أوفى وحظلة الكاتب وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ، ومن التابعين: مسروق والأسود وشريح وعبد الله بن حكيم وغيرهم، وقام بالبصرة: عمران بن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عمار وغيرهم من الصحابة ومن التابعين: كعب بن سور وهُرم بن حيان وغيرهما، وقام بالشام جماعة من الصحابة والتابعين وكذلك بمصر.

ولما جاءت الجمعة التي على أثر دخولهم المدينة، خرج عثمان فصلّى بالناس (١٦١/٣) ثمّ قام على المنبر فقال: يا هؤلاء، الله الله! فوالله إن أهل المدينة ليلعمون أنكم ملعونون على لسان محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فامحوا الخطأ بالصواب. فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك، فأقعده حكيم بن جبلة، وقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبي قتيبة، وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرّ عن المنبر مغشياً عليه، فأدخل داره واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان، منهم: سعد بن أبي وقاص والحسين بن عليّ وزيد بن ثابت وأبو هريرة. فأرسل إليهم عثمان يعزم عليهم بالانصراف، فأنصرفوا، وأقبل عليّ وطلحة والزبير فدخلوا على عثمان يعودونه من صرعه ويشكون إليه ما يجدون، وكان عند عثمان نفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم، فقالوا كلهم لعليّ: أهلبكتنا وصنعت هذا الصنيع، والله لئن بلغت الذي تريد لتمرّن عليك الدنيا! فقام مغضباً وعاد هو والجماعة إلى منازلهم. وصلّى عثمان بالناس بعدما نزلوا به في المسجد ثلاثين يوماً، ثمّ منعه الصلاة، وصلّى بالناس أميرهم الغافقي، وتفرّق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يجلس أحد ولا يخرج إلا بسيفه ليتنصع به، وكان الحصار أربعين يوماً ومن تعرّض لهم وضعوا فيه السلاح.

وقد قيل: إنّ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان، وسار محمد بن أبي بكر مع من سار إلى عثمان، وأقام ابن أبي حذيفة بمصر وغلب عليها لما سار عنها عبد الله بن سعد، على ما يأتي. فلمّا خرج المصريون إلى قصد عثمان أظهروا أنّهم يريدون العمرة وخرجوا في رجب وعليهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوي، وبعث عبد الله بن سعد رسولا إلى عثمان (١٦٢/٣) يخبره بحالهم وأنهم قد أظهروا العمرة وقصدهم خلعه أو قتله، فخطب عثمان الناس وأعلمهم حالهم، وقال لهم: إنهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عمري، والله لئن فارقتهم ليمتنون أن عمري كان عليهم مكان كل يوم سبعة مائة يرون من

ومعه ابناه محمد وعبد الله وسلامه بن روح الجذامي إذ مرّ به راكب من المدينة، فسأله عمرو عن عثمان، فقال: هو مصبور. قال عمرو: أنا أبو عبد الله، قد يضطر العير والمكواة في النار. ثم مرّ به راكب آخر فسأله فقال: قُتل عثمان. فقال عمرو: أنا أبو عبد الله،

إذا حككت قرحة نكأها. فقال له سلامة بن روح: يا معشر قريش كان بينكم وبني العرب باب فكسرتموه! فقال: أردنا أن نُخرج الحق من (١٦٤/٣) خاصرة الباطل ليكون الناس في الحق شرعاً سواء.

وقيل: إن علياً لما رجع من عند المصريين بعد رجوعهم إلى عثمان قال له: تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليك ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والأمانة، فإن البلاد قد تمخضت عليك، فلا آمن أن يجيء ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول: يا علي اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعْتُ رحمتك واستخففت بحقك. فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: أنا أول من اتعظ، استغفر الله مما فعلتُ واتوبُ إليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلتُ فليأتني أشرافكم فليروا في رأيهم، فوالله لئن ردّني الحقُّ عبداً لأستنّ بسنة العبد ولا ذلّ للعبد وما عن الله مذهب إلا إليه، فوالله لأعطيتكم الرضا ولأنجين مروان وذويه ولا أحتجب عنكم! فرق الناس ويكوا حتى أخضلوا لحاهم وبكى هو أيضاً.

فلما نزل عثمان وجد مروان وسعيدها ونفراً من بني أمية في منزله لم يكونوا شهدوا خطبته، فلما جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين أتكلّم أم أسكت؟ فقالت نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان: لا بل اصمت فإنهم والله قاتلوه ومؤتموه، إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها. فقال لها مروان: ما أنتِ وذاك! فوالله قد مات أبوك وما يحسن يتوصلاً! فقالت: مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء! تخبر عن أبي وهو غائب تكذب عليه وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه؟ أمّا والله لولا أنه عمه وأنه يناله غمه لأخبرتك عنه ما لن أكذب عليه. قالت: فأعرض عنها مروان، فقال: يا أمير المؤمنين أتكلّم أم أسكت؟ (١٦٥/٣) قال: تكلم. فقال مروان: بأبي أنت وأمي، والله لو ددّت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع فكنت أول من رضي بها وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطيّبين وخلف السيل الرّبي، وحين أعطى الخطبة الذليلة الذليل؛ والله لإقامة على خطيئة يُستغفر منها أجمل من توبة يخوف عليها، وأنت إن شئت تقرّبت بالتوبة ولم تقرّ بالخطيئة؛ وقد اجتمع بالباب أمثال الجبال من الناس. فقال عثمان: فاخرج إليهم فكلّمهم فلّاني استحيي أن أكلمهم. فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لهنبي؟ شأهت الوجوه! ألا من أريد؟ جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا!

فأقبل عليّ على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فقال: أخضرت خطبة عثمان؟ قال: نعم. قال: أفحضرت مقالة مروان للناس؟ قال: نعم. فقال عليّ: أي عباد الله! يا للمسلمين! إني إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرايتي وحفي، وإني إن تكلمتُ فجاء ما يريد يلعب به مروان فصار سبيّة له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله، وقام مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له: أما رضيّت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به؟ (١٦٦/٣) والله ما مروان بذى رأي في دينه ولا نفسه! وإيّم الله إني لأراه يوردك ولا يصدرك! وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبك، أذهبت شركك وغلبت على رأيك.

فلما خرج عليّ دخلت عليه امرأته نائلة ابنة الفرافصة فقالت: قد سمعتُ قول عليّ لك وليس يعاودك وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء. قال: فما أصنع؟ قالت: تقبلي الله وتتبع سنة صاحبيك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هبة ولا محبة، وإنما تركك الناس لمكانه، فأرسل إلى عليّ فاستصلحه فإن له قرابة وهو لا يعصى. فأرسل عثمان إلى عليّ فلم يأتِه وقال: قد أعلمته أنني غير عائد. فبلغ مروان مقالة نائلة فيه فجلس بين يدي عثمان فقال: يا ابنة الفرافصة! فقال عثمان: لا تذكرها بحرف فأسود وجهك، فهي والله أنصح لي! فكفّ مروان.

وأتى عثمان إلى عليّ بمنزله ليلاً وقال له: إني غير عائد، وإني فاعل. فقال له عليّ: بعدما تكلمت على منبر رسول الله، وأعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك فخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ويؤذيهم.. فخرج عثمان من عنده وهو يقول: خذلتني وجزأت الناس عليّ. فقال عليّ: والله إني لأكثر الناس ذباً عنك، ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضا جاء مروان بأخرى فسمعتُ قوله وتركْتُ قولِي.

ولم يعد عليّ يعمل ما كان يعمل إلى أن منع عثمان الماء. فقال عليّ لطلحة: أريد أن تدخل عليه الروايا، وغضب غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان. (١٦٧/٣)

قال: وقد قيل إن علياً كان عند حصر عثمان بخيبر، فقدم المدينة والناس مجتمعون عند طلحة، وكان ممن له فيه أثر، فلما قدم عليّ أنه عثمان وقال له: أمّا بعد فإن لي حق الإسلام وحق

الإخاء والقرابة والصُّهر، ولو لم يكن من ذلك شيء وكُنّا في الجاهلية لكان عاراً على بني عبد مناف أن يتترع أخو بني تيم، يعني طلحة، أمرهم. فقال له عليّ: سيأتيك الخبر، ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة، وهو [في] خلوة من الناس، فقال له: يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه؟ فقال: يا أبا الحسن بعدما منّ الحزامُ الطَّيِّين. فانصرف عليّ حتى أتى بيت المال فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب وأعطى الناس، فانصرفوا من عند طلحة حتى بقي وحده، ومُشّر بذلك عثمان، وجاء طلحة فدخل على عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين أردتُ أمراً فحال الله بيني وبينه! فقال عثمان: والله ما جئتُ تائباً، ولكن جئتُ مغلوباً، الله حسيبك يا طلحة!

ذكر مقتل عثمان

قد ذكرنا سبب مسير الناس إلى قتل عثمان، وقد تركنا كثيراً من الأسباب التي جعلها الناس ذريعة إلى قتله لعلل دعت إلى ذلك، ونذكر الآن كيف قُتل وما كان بدء ذلك وابتداء الجراءة عليه قبل قتله.

فكان من ذلك أن إبلاً من إبل الصدقة قُدم بها على عثمان فوهبها لبعض بني الحكم، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، فأتىها وقسمها بين الناس وعثمان في الدار. (١٦٨/٣)

قيل: وكان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق جيلة بن عمرو الساعدي، مرّ به عثمان وهو في نادي قومه ويده جامعة، فسلم فردّ القوم، فقال جيلة: لم تردّون على رجل فعل كذا وكذا؟ ثم قال لعثمان: والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه الخيشية: مروان وابن عامر وابن سعد، منهم من نزل القرآن بدمه وأباح رسول الله، ﷺ، دمه. فاجترأ الناس عليه، وقد تقدّم قول عمرو بن العاص له في خطبته.

قيل: وخطب يوماً ويده عصا كان النبي، ﷺ، وأبو بكر وعمر يخطبون عليها، فأتىها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته فرمي في ذلك المكان بأكلة.

وقيل: كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم إلى من بالأفاق منهم: إن أردتم الجهاد فاهلموا إليه فإن دين محمد ﷺ قد أفسده خليفتمكم فأقيموه. فاختلفت قلوب الناس، على ما تقدّم ذكره، وجاء المصريون، كما ذكرنا، إلى المدينة، فخرج إليهم عليّ ومحمد بن مسلمة، كما تقدّم، فكلماهم فعادوا ثم رجعوا، فلمّا رجعوا انطلق إليهم محمد بن مسلمة فسألهم عن سبب عودهم، فأخرجوا صحيفة في أنبوبة رصاص وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من إبل الصدقة، ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عُدَيْس وعمرو بن الحُوَيق

وعروة بن اليباع وجبسه وحلق رؤوسهم ولحامهم وصلب بعضهم. وقيل: إن الذي أخذت منه الصحيفة أبو الأعور السُلَمي. فلمّا رآوه سالوه عن مسيره وهل معه كتاب فقال: لا. فسألوه في أي شيء هو، فتغير كلامه، فأنكروه وفتشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا وعاد الكوفيون والبصريون. فلمّا عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة وقالوا له: قد كلّمنا عليّاً ووعدنا أن يكلمه، وكلّمنا (١٦٩/٣) سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فقالا: لا ندخل في أمركم. وقالوا لمحمد بن مسلمة ليحضر مع عليّ عند عثمان بعد الظهر، فوعدهم بذلك، فدخل عليّ ومحمد بن مسلمة على عثمان فاستأذنا للمصريين عليه، وعنده مروان، فقال: دعني أكلمهم. فقال عثمان: اسكت فضّ الله فاك! ما أنت وهذا الأمر؟ أخرج عني! فخرج مروان. وقال عليّ ومحمد لعثمان ما قال المصريون، فاقسم بالله: ما كتبه ولا علّم [لي] به. فقال محمد: صدق، هذا من عمل مروان.

ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة، فعرفوا الشرّ فيهم، وتكلّموا فذكر ابن عُدَيْس ما فعل عبد الله بن سعد بالمسلمين وأهل الذمة والاستثثار في الغنائم، فإذا قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين. وذكروا شيئاً ممّا أحدث بالمدينة، وقالوا له: وخرجنا من مصر ونحن نريد قتلك فردّنا عليّ ومحمد بن مسلمة وضّينا لنا النزوع عن كلّ ما تكلمنا فيه، فرجعنا إلى بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبد الله بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس.

فحلف عثمان أنّه ما كتب ولا أمر ولا علم. فقال عليّ ومحمد: صدق عثمان. قال المصريون: فمن كتبه؟ قال: لا أدري. قالوا: فيجترأ عليك ويبيّث غلامك وجعلاً من الصدقة ويُنقش على خاتمك ويبيّث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تعلم؟ قال: نعم. قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير حق، وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبت بطانتك، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته، فأخلع نفسك منه كما خلعت الله! فقال: لا أنزع قميصاً البسني الله، ولكني أتوب وأنزع. قالوا: لو كان هذا أول ذنب تبتّ منه قبلنا، ولكنّا رأيناك توب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلمك أو نقتلك. أو تلحق أرواحنا بالله تعالى (١٧٠/٣) وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك. فقال: أمّا أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحبّ إليّ من ذلك، وأمّا قولكم تقتلون من منعني فإنّي لا آمر أحداً بقتالكم، فمن قتلكم بغير أمري قاتل، ولو أردت قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا عليّ أو لحقت ببعض أطرافي. وكثرت الأصوات واللغط.

فقام عليّ فخرج وأخرج المصريين ومضى عليّ إلى منزله، وحصر المصريون عثمان، وكتب إلى معاوية وابن عامر وأمرأه الأجناد يستجدهم ويأمرهم بالعجل وإرسال الجنود إليه. فترى به معاوية، فقام في أهل الشام يزيد بن أسد القسري جد خالد بن عبد الله القسري فتبعه خلق كثير، فسار بهم إلى عثمان، فلما كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان فرجعوا. وقيل: بل سار من الشام حبيب بن مسلمة النهري، وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السلمي، فلما وصلوا الرّيزة ونزلت مقدمتهم حيراراً بناحية المدينة أتاها قتل عثمان فرجعوا.

وكان عثمان قد استشار نصحاء في أمره، فأشاروا عليه أن

يُرسل إلى عليّ يطلب إليه أن يردهم ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه إمداده. فقال: إنهم لا يقبلون التعلل، وقد كان مني في المرة الأولى ما كان. فقال مروان: أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك، فإنهم قوم بغوا عليك ولا عهد لهم. فدعا عليّاً فقال له: قد ترى ما كان من الناس ولست آمنهم على دمي، فارددهم عني فأني أعطيهم ما يريدون من الحق من نفسي وغيري. فقال عليّ: الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك، ولا يرضون إلا بالرضا، وقد كنت أعطيهم أولاً عهداً فلم تف به فلا تغرني هذه المرة فإني معطيهم عليك الحق. فقال: (١٧١/٣) أعطهم فوالله لأفين لهم. فخرج عليّ إلى الناس فقال لهم: إنما طلبتم الحق وقد أعطيتموه وقد زعم أنه منصفكم من نفسه. فقال الناس: قبلنا فاستوثق منه لنا فإننا لا نرضى بقول دون فعل. فدخل عليه عليّ فأعلمه فقال:

اضرب بيني وبينهم أجلاً فأني لا أقدر على أن أرد ما كرهوا في يوم واحد. فقال عليّ: أما ما كان بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك. قال: نعم، فأجلني فيما في المدينة ثلاثة أيام. فأجابه إلى ذلك، وكتب بينهم كتاباً على رد كل مظلمة وعزل كل عامل كروهه.

فكف الناس عنه، فجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وأخذ جنداً، فلما مضت الأيام الثلاثة ولم يغير شيئاً ثار به الناس، وخرج عمرو بن حزم الأنصاري إلى المصريين فأعلمهم الحال، وهم بذي خشب، فقدموا المدينة وطلبوا منه عزل عماله ورد مظالمهم. فقال: إن كنت مستعلاً من أردت وعازلاً من كرهتم فلسْتُ في شيء والأمر امركم. فقالوا: والله لتفعلن أو لتخلعن أو لتقتلن. فأبى عليهم وقال: لا أنزع سريالاً سربليته الله. فحصره واشتد الحصار عليه، فأرسل إلى عليّ وطلحة والزبير فحضره، فأشرف عليهم فقال: يا أيها الناس اجلسوا. فجلسوا المحارب والمسال. فقال لهم: يا أهل المدينة استودعكم الله وأسأله أن يحسن إليكم الخلافة من بعدي، ثم قال: أشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتكم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم؟

أتقولون إن الله لم يستجب لكم وهتم عليه وأنتم أهل حقه؟ أم تقولون: هان على الله دينه فلم يبال من ولي والدين لم يفرق أهله يومئذ؟ أم تقولون: لم يكن أخذ عن مشورة إنما كان مكابرة فوكل الله الأمة إذا عصته ولم يشاوروا في الإمامة؟ أم تقولون: إن الله لم يعلم عاقبة أمري! وأشدكم بالله (١٧٢/٣) أعلمون لي من سابقة خير وقدم خير قدمه الله لي ما يوجب على كل من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها! فمهللاً لا تقتلونني فإنه لا يحلّ إلا قتل ثلاثة: رجل زني بعد إحصائه، أو كفر بعد إيمانه، أو قتل نفساً بغير حق، فإنكم إذا قتلتموني وضعت سيفي على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً.

قالوا: أما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فإن كل ما صنع الله خيرة، ولكن الله جعلك بليّة ابتلى بها عباده، وأما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله، فقد كنت كذلك وكنت أهلاً للولاية، ولكن أحدث ما علمته ولا تترك إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاماً قابلاً، وأما قولك: إنه لا يحلّ إلا قتل ثلاثة، فإننا نجد في كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميت، قتل من سعى في الأرض فساداً، وقاتل من بغى ثم قاتل على بغيه، وقاتل من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه، وقد بغيت ومنعت وخلت دونه وكأبرت عليه ولم تقب من نفسك من ظلمت، وقد تمسكت بالإمارة علينا، فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليه فإن الذي قاموا دونك ومنعوك منا إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة، فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك!

فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلا الحسن بن علي وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباههم، واجتمع إليه ناس كثير، فكانت مدة الحصار أربعين يوماً، فلما مضت ثمان عشرة ليلة قدم ركب من الأمصار فأخبروا بخبر من تهيأ إليهم من الجنود وشجعوا الناس، فعندما حالوا بين الناس وبين عثمان ومنعه كل شيء حتى الماء. فأرسل (١٧٣/٣) عثمان إلى عليّ سراً وإلى طلحة والزبير وأزواج النبي، إنهم قد منعوني الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا ماء فافعلوا. فكان أولهم إجابة عليّ، وأم حبيبة زوج النبي، فجاء عليّ في الغلس فقال: يا أيها الناس إن الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة، فإن الروم وفارس لتأسر قطعهم وتسقي! فقالوا: لا والله ولا نعمة عين! فرمى بعلمته في الدار بأني قد نهضت ورجعت، وجاءت أم حبيبة على بغلة لها مشتملة على إدواة فضربوا وجه بغلتها فقالت: إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل. فقالوا: كاذبة؛ وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فنفرت وكادت تسقط عنها، فتلقأها الناس

ففتح الباب لمنهم، فلمّا خرج ورآه المصريون رجعوا فركبهم هؤلاء وأقسم عثمان على أصحابه ليدخلنّ فدخلوا فاعلق الباب دون المصريين، فقام (١٧٥/٣) رجل من أسلم يقال له نيار بن عياض، وكان من الصحابة، فنادى عثمان، فينا هو يناشده أن يعتزلهم إذ رماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله.

فقالوا لعثمان عند ذلك: ادفع إلينا قاتله لنقتله به. قال: لم أكن لأقتل رجلاً نصري وأتمّ تريدون قتلي. فلمّا رأوا ذلك ثاروا إلى الباب، فلم يمنعه أحد منه، والباب مغلق لا يقدرّون على الدخول منه، فجأوا بنار فأحرقوه والسقيفة التي على الباب، وثار أهل الدار، وعثمان يصلي قد افتتح طه فما شغله ما سمع، ما يخطئ وما يتتبع، حتى أتى عليها، فلمّا فرغ جلس إلى المصحف يقرأ فيه، وقرأ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: آية ١٧٣] فقال لمن عنده بالدار: إن رسول الله، ﷺ، قد عهد إليّ عهداً فانا صابر عليه، ولم يحرقوا الباب إلّا وهم يطلبون ما هو أعظم منه، فأخرج على رجل أن يستقل أو يقاتل، وقال للحسن: إن أباك الآن لفي أمر عظيم من أمرك فأقسمت عليكم لما خرجت إليه، فتقدموا فقاتلوا ولم يسمعوا قوله، فبرز المغيرة بن الأخنس بن شريق، وكان قد تعجل من الحج، في عضابة لينصروا عثمان وهو معه في الدار، وارتمى يقول:

قد علمت ذات القرون الميل والخنس والأنامل الطغسول
تصدّقن نيسني خليلي بصارم ذي رونسني مصقول
لا استغلّ إذ أقلت قيلي (١٧٦/٣)

وخرج الحسن بن عليّ وهو يقول:

لا فيهم فيني ولا أنا منهم حتى أمير إلى طمار شمام

وخرج محمد بن طلحة وهو يقول:

أنا ابن من حلفي عليه بأخذ ورد أزياباً علي رغم تغد

وخرج سعيد بن العاص وهو يقول:

صيرنا غداة السكر والموت واقب بأسياتنا دون ابن أروى نضارب
وكنا غداة الزوع في السكر نضو نشافهم بالضرب والموت نئاب

وكان آخر من خرج عبد الله بن الزبير فكان يحدث عن عثمان بأخر ما كان عليه، وأقبل أبو هريرة والناس محجمون فقال: هذا يوم طاب فيه الضرب! ونادى: ﴿يَا قَوْمَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ [آفة: آية ٤١]، وبرز مروان وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل والكف والأنامل الطغسول
أني لروى أول الرعييل بفسارة مثل القطا الشليل

فبرز إليه رجل من بني ليث يدعى اليباع، فضربه مروان

فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها.

فاشرف عثمان يوماً فسلم عليهم ثم قال: أنشدكم الله هل تعلمون أنّي اشتريت بئر رومة بمالي لئلاّ تستعذب بها فجعلت رشائي فيها كرجل من المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: فلم تمنعوني أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر؟ ثم قال: أنشدكم بالله هل تعلمون أنّي اشتريت أرض كذا فزدتها في المسجد؟ قيل: نعم. قال: فهل علمتم أن أحداً منع أن يصلي فيه قبلي؟ ثم قال: أنشدكم بالله أتعلمون أن النبي، ﷺ، قال عني كذا وكذا؟ أشياء في شأنه. فقشا النهي في الناس يقولون: مهلاً عن أمير المؤمنين. فقام الأشتر فقال: لعله مكر به ويكم. وخرجت عائشة إلى الحج واستبعت أخاها محمداً فأبى، فقالت: والله لئن استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلن. فقال له حنظلة الكاتب: تستبعت أم المؤمنين فلا تتبعها وتتبع ذبيان العرب إلى ما [لا] يحل؟ وإن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبك عليه بنو عبد مناف. ثم رجع حنظلة إلى الكوفة وهو يقول: (١٧٤/٣)

عجبت لما يخوض الناس فيه يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخمر عنهم ولا قروا بعتنا ذلاً فليلا
وكانوا كاليهود وكالنصارى سواء كلهم ضلوا السبيل

وبلغ طلحة والزبير ما لقي عليّ وأمّ حبيبة فلزموا بيوتهم وبقي عثمان يسقي آل حزم في الغفلات، فاشرف عثمان على الناس فاستدعى ابن عباس فأمره أن يحج بالناس، وكان ممن لزم الباب، فقال: جهاد هؤلاء أحب إليّ من الحج، فأقسم عليه فانطلق.

قال عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة: دخلت على عثمان فأخذ بيدي فاسمعني كلام من على بابه، فمتهم من يقول: ما تنتظرون به؟ ومنهم من يقول: انظروا عسى أن يراجع. قال: فيمينا نحن واقفون إذ مرّ طلحة فقال: أين ابن عديس؟ فقام إليه فاجابه ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده. فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة، اللهم اكفني طلحة فإنه حمل عليّ هؤلاء وآلهم عليّ! والله إنّي لأرجو أن يكون منها صفرأ وأن يسفك دمه! قال: فاردت أن أخرج فيمنعوني حتى أمرهم محمد بن أبي بكر فتركوني أخرج. وقيل: إن الزبير خرج من المدينة قبل أن يقتل عثمان، وقيل: أدرك قتله.

ولما رأى المصريون أن أهل الموسم يريدون قتلهم وأن يجمعوا ذلك إلى حجهم مع ما بلغهم من مسير أهل الأمصار قالوا: لا يخرجنا من هذا الأمر الذي وقتنا فيه إلّا قتل هذا الرجل فيشتغل الناس عنا بذلك. فرأوا الباب فمتهم الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة واجتلدوا، فزجرهم عثمان وقال: أنتم في حل من نصرتي، فأبوا،

حمران والغافقي، فضربه الغافقي بحديدة معه وضرب المصحف برجله، فاستدار المصحف واستقر بين يديه وسالت عليه الدماء، وجاء سودان ليضربه، فأكبّت عليه امرأته وأتقت السيف بيدها، فنفع أصابعها فأطنّ أصابع يدها وولّت، فغمز أوراكاها وقال: إنها لكيرة العجز! وضرب عثمان فقتله.

وقيل: الذي قتله كنانة بن بشر التّجبيي. وكان عثمان رأى النبي ﷺ، تلك الليلة يقول له: إنك تنظر الليلة عندنا، فلما قُتل سقط (١٧٩/٣) من دمه على قوله تعالى: ﴿فَتَسْكُفِيهِمْ إِلَهُ﴾ (البقرة: ١٣٧). ودخل غلّمة لعثمان مع القوم لينصروه، وكان عثمان قد اعتق من كف يده منهم، فلما ضربه سودان ضرب بعض الغلمان رقبة سودان فقتله، وثب فتيرة على الغلام فقتله، وانهبوا ما في البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى، فلما خرجوا وثب غلام لعثمان على فتيرة فقتله، وثار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى أخذوا ما على النساء، وأخذ كلثوم التّجبيي ملاءة من على نائلة، فضربه غلام لعثمان فقتله، وتنادوا: أدركوا بيت المال ولا تسبقوا إليه، فسمع أصحاب بيت المال كلامهم وليس فيه إلا غرارتان، فقالوا: النجاء فإن القوم إنما يحاولون الدنيا فهربوا، وأتوا بيت المال فانهبوه وماج الناس.

وقيل: إنهم ندموا على قتله. وأما عمرو بن الحقيق فوثب على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات، قال: فأما ثلاث منها فإني طعنتن إياه لله تعالى، وأما ست فلما كان في صدري عليه. وأرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة عليه وأم البنين فصاحت وضربت الوجوه. فقال ابن عُدّيس: اتركوه. وأقبل عمير بن ضابغ فوثب عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: سجنّت أبي حتى مات في السجن.

وكان قتله لثمانية عشرة خلعت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وقيل: إلا ثمانية أيام، وقيل: بل كان قتله لثمانية عشرة خلعت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين، وقيل: بل قُتل أيام التشريق وكان عمره اثنتين وثمانين سنة، وقيل: ثمانية وثمانين سنة، وقيل: تسعين سنة، وقيل: خمسا ومسيعين سنة، وقيل: ستا وثمانين سنة. (١٨٠/٣)

ذكر الموضع الذي دُفن فيه ومن صلى عليه

قيل: بقي عثمان ثلاثة أيام لا يُدفن، ثم إن حكيم بن حزام القرشي وجبير بن مطعم كلّمَا عليّاً في أن يأذن في دفنه، ففعل، فلما سمع من قصده بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة، وخرج به ناس يسير من أهله وغيرهم، وفيهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة ومروان، بين المغرب والعشاء، فأتوا به حائطاً من حيطان

وضرب هو مروان على رقبته فأثبته وقطع إحدى علباويه، فعاش مروان بعد ذلك أوقص، وقام (١٧٧/٣) إليه عبيد بن رفاعنة الزُرقي ليدفّن عليه، فقامت فاطمة أم إبراهيم بن عدي، وكانت أرضعت مروان وأرضعت له، فقالت: إن كنت تريد قتله فقد قُتل، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح! فتركه وأدخلته بيتها، فعرف لها بنوه ذلك واستعملوا ابنها إبراهيم بعد. ونزل إلى المغيرة بن الأحنس بن شريق رجل قُتل المغيرة، قال: فلما سمع الناس يذكرونه قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال له عبد الرحمن بن عُدّيس: ما لك؟ فقال: رأيت فيما يرى النائم هاتفاً يهتف فقال: بشّر قاتل المغيرة بن الأحنس بالنار، فانبثت به.

واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها ودخلوها من دار عمرو بن حزم إلى دار عثمان حتى ملأوها ولا يشعر من بالباب، وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلاً يقتله، فانتدب له رجل، فدخل عليه البيت فقال: اخلعها وتدعك. فقال: ويحك! واللّه ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغنيت ولا تمنيت ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ، ولست خالعا قميصا كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة! فخرج عنه، فقالوا: ما صنعت؟ فقال: واللّه لا ينجنينا من الناس إلا قتله ولا يحلّ لنا قتله. فأدخلوا عليه رجلاً من بني ليث فقال له: لست بصاحبي لأن النبي ﷺ، دعا لك أن تحفظ يوم كذا وكذا ولن تضيع. فرجع عنه وفارق القوم. ودخل عليه رجل من قريش فقال له: إن رسول الله ﷺ، استغفر لك يوم كذا وكذا فلن تقارف دماً حراماً. فرجع وفارق أصحابه. وجاء عبد الله بن سلام ينهاهم عن قتله. (١٧٨/٣) فقال: يا قوم لا تسلبوا سيف الله فيكم، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه! ويلكم! إن سلطانكم اليوم يقوم بالذرة، فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف، ويلكم! إن مدينتكم محفوفة بالملائكة فإن قتلتموه ليركنها. فقالوا: يا ابن اليهودية ما أنت وهذا! فرجع عنهم. وكان آخر من دخل عليه من رجوع محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان: ويلك أعلى الله تغضب؟ هل لي إليك جرم إلا حقه أخذته منك؟

فأخذ محمد لحيته وقال: قد أحزاك الله يا نعثل! فقال: لست بنعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين، وكانوا يلقبون به عثمان. فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان! فقال عثمان: يا ابن أخي فما كان أبوك ليقبض عليها. فقال محمد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك، والذي أريد بك أشد من قبضي عليها! فقال عثمان: استنصر الله عليك وأستعين به! فتركه وخرج.

وقيل: بل طعن جبينه بمشقص كان في يده. والأول أصح. قال: فلما خرج محمد وعرفوا انكساره ثار فتيرة وسودان بن

المدينة يسمي حش كوكب، وهو خارج البقيع، فصلّى عليه جبير بن مطعم، وقيل: حكيم بن حزام، وقيل: مسروان، وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ثم تركوهم خوفاً من الفتنة. وأرسل عليّ إلى من أراد أن يرجع سريره ممن جلس على الطريق لما سمع بهم فمنعهم عنه، ودُفن في حش كوكب. فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان على الناس أمر بذلك الحائط فهدم وأدخل في البقيع وأمر الناس فدفنوا أمواتهم حول قبره حتى اتصل الدفن بمقابر المسلمين. وقيل: إنما دُفن بالبقيع ممّا يلي حش كوكب. وقيل: شهد جنازته عليّ وطلحة وزيد بن ثابت وكعب بن مالك وعامة من ثمّ من أصحابه. قال: وقيل لم يُغسل وكُنّ في ثيابه.

ذكر بعض سيرة عثمان

قال الحسن البصري: دخلت المسجد فإذا أنا بعثمان متكئاً على رداءه، فاتاه سقاءان يخصمان إليه، ففضى بينهما. وقال الشعبي: لم يمت عمر بن الخطاب حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة، وقال: أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد، فإن كان الرجل منهم ليستأذنه في الغزو فيقول: قد (١٨١/٣) كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ، ما يملكك، وخير لك من غزوك اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك. وكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكة. فلما ولي عثمان خلى عنهم فانتشروا في البلاد وانقطع إليهم الناس وكان أحب إليهم من عمر. قيل: وحجّ عثمان بالناس سنوات خلافته كلها، وحجّ بأزواج النبي ﷺ، كما كان يصنع عمر. وكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في الموسم ومن يشكو منهم، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وأنه مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً.

وقيل: كان أوّل منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا طيران الحمام والرمي على الجلاهقات، وهي قوس البندق، واستعمل عليها عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثمان من خلافته، فقصّ الطيور وكسر الجلاهقات.

قيل: وسأل رجل سعيد بن المسيّب عن محمد بن أبي حذيفة ما دعاه إلى الخروج على عثمان، فقال: كان يتيماً في حجر عثمان وكان والي أيتام أهل بيته ومحتلاً كلهم، فسأل عثمان العمل، فقال: يا بني لو كنت رصاً لاستعملتك. قال: فأذن لي فأخرج فأطلب الرزق. قال: اذهب حيث شئت، وجهّز من عنده وحمله وأعطاه، فلما وقع إلى مصر كان فيمن أعان عليه حين منعه الإمارة. قال: وعمار بن ياسر؟ قال: كان بينه وبين عيّاس بن عتبة بن أبي لهب كلام فضر بهما عثمان فأورث ذلك تعادياً بين أهل عمار وأهل عيّاس. وكانا تقاذفاً.

قيل: سئل سالم بن عبد الله عن محمد بن أبي بكر ما دعاه إلى ركوب عثمان. قال: الغضب والطمع، كان من الإسلام بمكان فغره أقوام فطعم، وكانت له دالة فلزمه حق، فأخذ عثمان من ظهره، فاجتمع هذا إلى ذلك فصار مذمماً (١٨٢/٣) بعد أن كان محمداً. قيل: واستخفّ رجل بالعباس بن عبد المطلب فضربه عثمان فاستحسن منه ذلك، فقال: أيفخّم رسول الله ﷺ، عمه وأرخص في الاستخفاف به! لقد خالف رسول الله ﷺ، من فعل ذلك ورضي به. قيل: وكان كعب بن ذي الحبكة النهدي يعيب بالتارنجيات، فبلغ عثمان، فكتب إلى الوليد أن يرجعه ضرباً، فعزّره وأخبر الناس خبره وقرأ عليهم كتاب عثمان، وفيه: إنه قد جدّ بكم فجذّوا وأياكم والهزل. فغضب كعب وكان في الذي خرجوا عليه، وكان سيره إلى دنباوند، فقال في ذلك للوليد:

لعمري لئن طردتني ما إلى التي طمعت بها من سقطتي لسيل رجوت رجوعي يا ابن أروى ورجعتي إلى الحقّ دهنراً، غاب ذلك غول فإني اغترابي في البلاد وجفوتي وشمني في ذات الإله قليل وإن دعائي كل يوم وليله عليك بدناوندكم لطويلاً

قال: وأما ضايئ بن الحارث البرجمي فإنه استعار في زمن الوليد بن عتبة من قوم من الأنصار كلياً يدعى قرحان يصيد الظباء فحبسه عنهم، فانتزعه الأنصاريون منه قهراً، فهجاهم وقال:

نجشتم دوني وفد قرحان خطئة تفضل لها الوجاء وهي خسير (١٨٣/٣)

فباتوا شباعاً طامعين كأنما جباهم بيت المرزبان أمير فكلبكم لا تتركوا فهو أئكم فإن عقوق الأئمة كبير فاستعدوا عليه عثمان، فعزّره وحبسه، فما زال في السجن حتى مات فيه. وقال في الفتك معتذراً إلى أصحابه:

هممت ولم أفعل وكسدت وليتني تركت على عثمان نكي خلافة وقائلة قد مات في السجن ضايئ الا من لخصم لم يجذ من يجادله فلذلك صار ابنه عمير سيئاً. قال: وأما كميل بن زياد وعمير بن ضايئ فإنهما سارا إلى المدينة لقتل عثمان، فأما عمير فإنه نكل عنه، وأما كميل فإنه جسر وثاوره، فوجأ عثمان وجهه فوقع على استه فقال: أوجعتني يا أمير المؤمنين! قال: أولست بفاتك؟ قال: لا والله. فقال عثمان: فاستقذ مني، وقال: دونك، ففعا عنه، وبقي إلى أيام الحجاج فقتلها، وسيرد ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

قيل: وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً، فقال له يوماً: قد نهيا مالك فأقبضه. قال: هو لك معونة على مروءتك. قيل: فلما حصر عثمان قال علي لطلحة: أنشدك الله ألا رددت الناس عن عثمان! قال: لا والله حتى تعطيني بنو أمية الحق من أنفسها. (١٨٤/٣)

بنت الوليد بن المغيرة المخزومية، ولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد؛ وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية، ولدت له عبد الملك، هلك؛ وتزوج رملة بنت شيبه بن ربيعة، ولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو؛ وتزوج رملة بنت الفرافصة الكلبية، ولدت له مريم بنت عثمان، وقيل: ولدت له أم البنين بنت عيينة عبد الملك وعتبة، وولدت له نائلة عنبسة، وكان له منها أيضاً ابنة تدعى أم البنين، وكانت عند عبد الله بن يزيد بن أبي سفيان؛ وقُتل عثمان وعنده رملة ابنة شيبه ونائلة وأم البنين ابنة عيينة وفاخته بنت غزوان، غير أنه طلق أم البنين وهو محصور.

فهؤلاء أزواجه في الجاهلية والإسلام وأولاده.

ذكر أسماء عماله في هذه السنة

كان عماله هذه السنة على مكة: عبد الله بن الحضرمي، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن مئبة، وعلى الجند عبد الله بن ربيعة، وعلى البصرة عبد الله بن عامر، خرج منها ولم يول عثمان عليها أحداً، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، وعامل معاوية على حمص عبد الرحمن بن خالد، وعلى قيسرين حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى الأردن أبو الأعور السلمي، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني، وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاري، وعلى القضاء أبو الدرداء في قول بعضهم، والصحيح أنه كان قد توفي قبل أن قُتل عثمان، وكان حامل عثمان على الكوفة أبو موسى على الصلاة، وعلى خراج السواد جابر بن فلان المزني، وهو صاحب المستأنة إلى جانب الكوفة، وسماك الأنصاري، وعلى حربها القعقاع بن عمرو، وعلى قرقيسيا جرير بن عبد الله، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس الكندي، وعلى خلوان غثينة بن (١٨٧/٣) النّهاس، وعلى ماه مالك بن حبيب، وعلى هذمان النسير، وعلى الري سعيد بن قيس، وعلى أمبهران السائب بن الأقرع، وعلى ماسبذان خنيس، وعلى بيت المال عقبة بن عامر، وكان على قضاء عثمان زيد بن ثابت.

(غثينة بن النّهاس بالياء فوقها نقطتان، وبعدها ياء تحتها نقطتان، وآخره ياء موحدة. وغثينة بن حصن بالياء تحتها نقطتان، وياء ثانية، وآخره نون، تصغير عين. والنسير بالنون، والسين المهملة، تصغير نسر).

ذكر الخير عمن كان يصلي في مسجد النبي، ﷺ، حين حضر

عثمان

قيل: وجاء ذلك اليوم الذي منع فيه عثمان الصلاة سعد القرظ، وهو المؤذن، إلى علي بن أبي طالب، فقال: من يصلي بالناس؟ فقال: ادع خالد بن زيد، فدعاه، فصلى بالناس، فهو أول يوم عُرف أن اسم أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد، فصلى أياماً ثم صلى

وكان عثمان يلقب ذا النورين لأنه جمع بين ابتي النبي، ﷺ.

قال الأصمعي: استعمل عبد الله بن عامر قطن بن عبد عوف على كerman، فاقبل جيش للمسلمين ففتحهم سيل في واد من العبور، وخشي قطن الفوت فقال: من عبر له ألف درهم. فحملوا أنفسهم وعبروا، وكانوا أربعة آلاف، فأعطاهم أربعة آلاف درهم، فأبى ابن عامر أن يجري ذلك له وكتب إلى عثمان، فكتب عثمان: أن أحسبها له فإنه إنما أعان بها في سبيل الله، فلذلك سُميت الجواز لإجازة الوادي.

وقال حسان بن زيد: سمعتُ علياً وهو يخطب الناس ويقول بأعلى صوته: يا أيها الناس إنكم تكثرُونَ في وفي عثمان، فإن مثلي ومثله كما قال الله تعالى: ﴿وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرٍّ مَتَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. وقال أبو حميد الساعدي، وهو بدري وكان مجانباً لعثمان، فلما قُتل عثمان قال: والله ما أردنا قتله، اللهم لك عليّ أن لا أفعل كذا وكذا ولا أضحك حتى ألقاك.

ذكر نسبه وصفته وكنيته

أما نسبه فهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وأما أم حكيم بنت عبد المطلب.

وأما صفته فإنه كان رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، حسن الوجه، (١٨٥/٣) رقيق البشرة، بوجهه أثر جذري، كبير اللحية عظيمها، أسمر اللون، أصلع، عظيم الكراديس، عظيم ما بين المنكبين، يصفّر لحيشته، وقيل: كان كثير شعر الرأس، أزوح الرجلين.

وأما كنيته فإنه كان يكنى أبا عبد الله بولد جاءه من رقيقة بنت رسول الله، ﷺ، اسمه عبد الله، توفي وعمره سنتين، نقره ديك في عينه فمرض فمات في جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة، وقيل: كان يكنى أبا عمرو.

ذكر وقت إسلامه وهجرته

قيل: كان إسلامه قديماً قبل دخول رسول الله، ﷺ، دار الأرقم، وكان ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى والثانية ومعه فيها امرأته رقيقة بنت رسول الله، ﷺ.

ذكر أزواجه وأولاده

تزوج رقيقة وأم كلثوم ابتي رسول الله، ﷺ، فولدت له رقيقة عبد الله، وتزوج فاخنة بنت غزوان، فولدت له عبد الله الأصغر، هلك، وتزوج أم عمرو بنت جندب بن عمرو بن حُمَمة الدوسية، ولدت له (١٨٦/٣) عمراً وخالداً وأباناً وعمر ومريم؛ وتزوج فاطمة

بعد ذلك بالناس، وقيل: بل أمر عليّ سهل بن حنيف فصلّى بالناس من أول ذي الحجة إلى يوم العيد، ثم صلى عليّ بالناس العيد، ثم صلى بهم حتى قُتل عثمان. وقد تقدم غير ذلك في ذكر قتله. (١٨٨/٣)

ذكر ما قيل فيه من الشعر

قال حسان بن ثابت الأنصاري:

قوله: وأين ابن ذكوان، فإن الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو اسمه ذكوان بن أمية بن عبد شمس، ويذكر جماعة من النساين أن ذكوان مولى لأمية، فبناه وكناه أبا عمرو، ويعني: إنك مولى لست من بني أمية حتى تكون ممن يطلب بئار عثمان.

وقال غيرهم من الشعراء أيضاً بعد مقتله فمن بين مادم وهاج، ومن ناع وباك، ومن سار فرح، فممن مدحه حسان، كما تقدم، وكعب بن مالك في آخرين غيرهم كذلك.

ذكر بيعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب

وفي هذه السنة يبيع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وقد اختلفوا في كيفية بيعته، فقيل: إنه لما قُتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله، ﷺ، من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير، فأتوا عليّاً فقالوا له: إنه لا بد للناس من إمام. قال: لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيتم به. فقالوا: ما نختار غيرك، وترددوا إليه مراراً وقالوا له في آخر ذلك: إننا نعلم أحداً أحقّ به منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله، صلى (١٩١/٣) الله عليه وسلم. فقال: لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً. فقالوا: واللّه ما نحن بفاعلين حتى نبأيكك. قال: ففني المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفية ولا تكون إلا في المسجد. وكان في بيته، وقيل: في حائط لبني عمرو بن مبدول، فخرج إلى المسجد وعليه إزار وطاق وعمامة خزّ ونعلاه في يده متوكئاً على قوس، فبايعه الناس؛ وكان أول من بايعه من الناس طلحة بن عبيد الله، فنظر إليه حبيب بن ذؤيب فقال: إنّا لله! أول من بدأ بالبيعة يد شلاء، لا يتم هذا الأمر! وبايعه الزبير. وقال لهما عليّ: إن أحببتما أن تبأيعاني وإن أحببتما بايعتكما. فقالا: بل نبأيكك. وقالاً بعد ذلك: إنما فعلنا ذلك خشية على نفوسنا، وعرفنا أنه لا يبايعنا. وهربا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر. وبايعه الناس، وجاءوا بسعد بن أبي وقاص، فقال عليّ: بايع. فقال: لا، حتى يبايع الناس، واللّه ما عليك مني بأس. فقال: خلّوا سبيلهم. وجاءوا بابن عمر فقالوا: بايع. قال: لا، حتى يبايع الناس. قال: اتني بكفيل. قال: لا أرى كفيلاً. قال الأشتر: دعني اضرب عنقه! قال عليّ: دعوه أنا كفيله، إنك ما علمت نسيء الخلق صغيراً وكبيراً.

وبايعت الأنصار إلا فقيراً يسيراً، منهم: حسان بن ثابت، وكعب

أترككم غزو السروب وبادكم
فليس هنئي المسلمين هديتم
إن تعلموا جعل قري سرواكم
أو تدبروا فليس ما سافروكم
وكان أصحاب النبي عشية
أبكي أبا عمرو لحسن بلائه
وقال أيضاً:

إن نفس دار ابن أروى اليوم خاوية
قد يصادف باغي الخير حاجته
يا أيها الناس أبدا ذات أنفسكم
قوموا بحق ملكك الناس تعترفوا
فيهم حبيب شهاب الموت يقتلهم
وقال أيضاً:

من سره الموت صرفاً لا مزاج له
مستعري خلقي الماضي قد شقيعت
صبراً فلتى لكم أمي وما ولكت
فقد رضىنا بأهل الشام نفاقه
إنني لمنهم وإن غابوا وإن شهلوا
لنسمع ونسكاً فني ديارهم
ضخوا بأشعث عنوا السجود به
قال أبو عمر بن عبد البر، وقد ذكر بعض هذه الأبيات فقال:

وقد زاد فيها أهل الشام، ولم أر لذكره وجهاً، يعني ما فيها من ذكر عليّ، وهو:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني
وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط يحرض أخاه عمارة:

إلا إن خير الناس بعد ثلاث
فلان بك ظني بآبئ أمي صادقاً
ييت وأوتار ابن عفان عنده
فاجابه الفضل بن العباس:

أطلبُ ثاراً لست منه ولا لسه
وإن ابن ذكوان الصموري من عمرو

أنا كاحدكم، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه. ثم افترقوا على ذلك وأتعدوا الغد.

وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا: إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت، فبعث البصريون إلى الزبير حُكَيْم بن جَلَّة وقالوا: احذر لا تحابه، ومعه نفر، فجاءوا به يحدثونه بالسيف، فبايع، وبعثوا إلى طلحة الأشتر ومعه نفر، فأتى طلحة، فقال: دعني أنظر ما يصنع الناس، فلم يدعه، فجاء به يتلأ عتفاً، وصعد المنبر فبايع. وكان الزبير يقول: جاني لص من لصوص عبد القيس فبايعتُ والسيف على عتي، وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة، وقد خشن أهل الكوفة والبصرة أن صاروا أتباعاً لأهل مصر وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظاً.

ولما أصبحوا يوم البيعة، وهو يوم الجمعة، حضر الناس المسجد، وجاء علي فصعد المنبر وقال: أيها الناس، عن ملا وإذن، إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم، وقد افترقنا بالأمس على أمر وكنتُ كارهاً لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح ما لكم معي وليس (١٩٤/٣) لي أن آخذ درهماً دونكم، فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا أجد على أحد. فقالوا: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس. فقال: اللهم اشهد. ولما جاؤوا بطلحة ليبيع قال: إنما أبايع كرهاً. فبايع، وكان به شلل، فقال رجل يعاتب: إنا لله وإنا إليه راجعون، أول يد بايعت يد سلاء، لا يتم هذا الأمر! ثم جيء بالزبير فقال مثل ذلك وبايع، وفي الزبير اختلاف، ثم جيء بعده بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا: نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزير والذلليل، فبايعهم، ثم قام العامة فبايعوا، وصار الأمر أمر أهل المدينة وكانهم كما كانوا فيه وتفرقوا إلى منازلهم.

ويوم يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة، والناس يحسبون بيعته من [يوم] قُتل عثمان.

وأول خطبة خطبها علي حين استُخلف حُجِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض الفرائض أقوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة. إن الله حرم حُرُمَاتٍ غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب. بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم وإن ما [من] خلفكم الساعة تحدوكم. تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم. اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم. أطيعوا الله فلا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر

بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان ابن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عُجْرَة، وكانوا عثمانية؛ فأما حسان فكان شاعراً لا يبالي ما يصنع، وأما زيد ابن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال، فلما حُضر عثمان قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصاراً لله، مرتين، فقال له أبو أيوب: ما تنصرونه إلا لأنه أكثر لك من العبدان. وأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزية وترك له ما أخذ منهم؛ ولم يبايعه عبد الله بن سلام، وصُهب بن سنان، ومسلمة بن سلامة (١٩٢/٣) ابن وقش، وأسامة بن زيد، وقُدامة بن مظعون، والمغيرة بن شعبة.

فأما النعمان بن بشير فإنه أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التي قُطعت وقميص عثمان الذي قُتل فيه وهرب به فلحق بالشام، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع، فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً وجداً في أمرهم، ثم رفعه، فإذا أحسن منهم يفتور يقول له عمرو بن العاص: حرك لها حوارها تحن، فيعلقها.

وقد قيل: إن طلحة والزبير إنما بايعا علياً كرهاً، وقيل: لم يبايعه الزبير ولا صُهب ولا سلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد.

فأما علي قول من قال: عن طلحة والزبير بايعا كرهاً فقال: إن عثمان لما قُتل بقيت المدينة خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيهم إلى القيام بالأمم فلا يجدونه، ووجدوا طلحة في حائط له، ووجدوا سعداً والزبير قد خرجا من المدينة، ووجدوا بني أمية قد هربوا إلا من لم يطق الهرب، وهرب سعيد والوليد ومروان إلى مكة، وتبعهم غيرهم، فأتى المصريون علياً فبايعهم، وأتى الكوفيون الزبير فبايعهم، وأتى البصريون طلحة فبايعهم، وكانوا مجتمعين على قتل عثمان مختلفين فيمن يلي الخلافة. فأرسلوا إلى سعد يطلبونه، فقال: إني وابن عمر لا حاجة لنا فيها، فأتوا ابن عمر فلم يجبه، فبقوا حيارى. وقال بعضهم لبعض: لئن رجع الناس إلى أمصارهم بغير إمام لم نأمن الاختلاف وفساد الأمة. فجمعوا أهل المدينة فقالوا لهم: يا أهل المدينة أنتم أهل الشورى، وأنتم تعبدون الإمامة، وحكمكم جائز على الأمة، فانظروا رجلاً تنصّبونه ونحن لكم تبع، وقد أجلناكم يومكم، فوالله لئن لم تفرغوا لقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً! فغشي الناس علياً فقالوا: (١٩٣/٣) نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من بين القرى. فقال علي: دعوني والتمسوا غيري فإنما مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال: قد أجبتكم واعلموا أنني إن أجبتكم ركبْتُ بكم ما أعلم، وإن تركموني فإنما

فدعوه، ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦]. ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبيئة:

خُذْنَا إِلَيْكَ وَاحِدُونَ يَا حَسَنَ إِنَّا نَمِيرُ الْأَمْرَ إِسْرَارًا الرَّسَنَ صَوْلَةَ أَقْوَامٍ كَأَشَدِّ السُّفْنِ بِمَشْرِقَاتِ كُفْرَانَ اللَّيْلِ وَنَطْعِنُ الْمَلِكَ يَلِينُ كَالْخَطَنِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى غَيْرِ عَنَنِ فَقَالَ عَلِيٌّ:

إِنِّي عَجَزْتُ عَجْزَةً لَا أَعْنِيزُ سَوْفَ أَكِينُ بَعْتَهَا وَأَسْتَمِرُّ أَرْفَعُ مِنْ ذِلَّتِي مَا كُنْتُ أَجْرُ وَاجْتَمَعَ الْأَمْرُ الثَّيْتِ الْمُتَشِيرُ إِنْ لَمْ يُشَاغِبْنِي الْعَجُوزُ الْمُتَصَرُّ إِنْ تَسْرُكُونِي وَالسَّلَاحُ يَنْشِيرُ وَرَجَعَ عَلِيٌّ إِلَى بَيْتِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فِي عِدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فَقَالُوا: يَا عَلِيُّ إِنَّا قَدْ اشْتَرَطْنَا إِقَامَةَ الْحُدُودِ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ قَدْ اشْتَرَكُوا فِي قَتْلِ هَذَا الرَّجُلِ وَاحْتَلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ. فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ أَصْنَعُ بِقَوْمٍ يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ؟ هَا هُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ وَثَابَتَ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ وَهُمْ خِلَاطُكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاءُوا، فَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعًا لِقُدْرَةِ عَلِيٍّ شَيْءٌ مِمَّا تَرِيدُونَ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَلَا وَاللَّهِ لَا أَرَى إِلَّا رَأْيَا تَرُونَهُ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ. إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ وَإِنْ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يَشْرَعْ شَرِيْعَةً قَطُّ فَيَرْحِ الْأَرْضَ [مَنْ] أَخَذَ بِهَا أَبَدًا. إِنَّ النَّاسَ (١٩٦/٣) مِنْ هَذَا الْأَمْرِ إِنْ حَرَّكَ عَلَى أُمُورٍ: فَرَقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ، وَفَرَقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرُونَ، وَفَرَقَةٌ لَا تَرَى هَذَا وَلَا هَؤُلَاءِ، حَتَّى يَهْدِيَ النَّاسَ وَتَقَعُ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا وَتُؤَخِّذَ الْحَقُوقَ، فَاهْدَأُوا عَنِّي وَانظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ ثُمَّ عُودُوا. وَاشْتَدَّ عَلَى قُرَيْشٍ وَحَالٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخُرُوجِ عَلَى حَالِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ جَعْدَةٌ عَلَى ذَلِكَ هَرَبُ بَنِي أُمَيَّةٍ وَتَفَرُّقُ الْقَوْمِ، فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ مَا قَالَ عَلِيٌّ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: تَقْضِي الَّذِي عَلَيْنَا وَلَا تُؤَخِّرُهُ، وَاللَّهِ إِنَّ عَلِيًّا لَمُسْتَعْنٍ بِرَأْيِهِ وَلِيَكُونَنَّ أَشَدُّ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ غَيْرِهِ.

فَسَمِعَ ذَلِكَ فَخَطَبَهُمْ وَذَكَرَ فَضْلَهُمْ وَحَاجَتَهُ إِلَيْهِمْ وَنَظَرَهُ لَهُ وَقِيَامَهُ دُونَهُمْ وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ سُلْطَانِهِمْ إِلَّا ذَاكَ وَالْأَجْرُ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَنَادَى: بَرِثَ الذِّمَّةَ مِنْ عَبْدِ لَا يَرْجِعُ إِلَى مَوْلَاهُ. فَتَذَامَرَتِ السَّبِيَّةُ وَالْأَعْرَابُ وَقَالُوا: لَنَا غَدَاٌ مِثْلُهَا وَلَا نَسْتَطِيعُ نَحْتَجُّ فِيهِمْ بِشَيْءٍ. وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ أَخْرِجُوا عَنْكُمْ الْأَعْرَابَ فَلْيَلْحَقُوا بِمِيَاهِهِمْ، فَأَبَتِ السَّبِيَّةُ وَأَطَاعَهُمُ الْأَعْرَابُ. فَدَخَلَ عَلِيٌّ بَيْتَهُ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: دُونَكُمْ ثَارَكُمْ فَاقْتُلُوهُ. فَقَالُوا: عَشَاؤُا عَنْ ذَلِكَ. فَقَالَ: هُمْ وَاللَّهِ بَعْدَ الْيَوْمِ أَعْشَى! وَقَالَ:

وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي طَاوَعَتْنِي سَرَاتِهِمْ أَمَرْتُهُمْ أَمْرًا يَدِيخُ الْأَعْلِيَا وَقَالَ طَلْحَةُ: دَعْنِي آتِ الْبَصْرَةَ فَلَا يَفْجَأُكَ إِلَّا وَأَنَا فِي خَيْلٍ. وَقَالَ الزُّبَيْرُ: دَعْنِي آتِ الْكُوفَةَ فَلَا يَفْجَأُكَ إِلَّا وَأَنَا فِي خَيْلٍ. فَقَالَ:

قِيلَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَتَيْتُ عَلِيًّا بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ عِنْدَ عُرْدِي مِنْ مَكَّةَ فَوَجَدْتُ الْمُغْيِرَةَ بْنَ شُعْبَةَ مُسْتَخْلِيًا بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا قَالَ لَكَ هَذَا؟ فَقَالَ: قَالَ لِي قَبْلَ مَرَّتِهِ هَذِهِ: إِنَّ لَكَ حَقَّ الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَأَنْتَ بَقِيَّةُ النَّاسِ، وَإِنَّ الرَّأْيَ الْيَوْمَ تُحَرِّزُ بِهِ مَا فِي غَدٍ، وَإِنَّ الضَّيَاعَ الْيَوْمَ يَضِيعُ بِهِ مَا فِي غَدٍ، أَقَرَّرَ مُعَاوِيَةَ وَابْنَ عَامِرٍ وَعَمَالَ عُثْمَانَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حَتَّى تَأْتِيكَ يَتِيمَتُهُمْ وَيَسْكُنَ النَّاسُ، ثُمَّ أَعْزَلَ مِنْ شَنْتٍ، فَأَبَيْتُ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَقُلْتُ: لَا أَدَاهُنْ فِي دِينِي وَلَا أُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي أَمْرِي. قَالَ: فَإِنْ كُنْتُ أَبَيْتُ عَلِيًّا فَانْزِعْ مِنْ شَنْتٍ وَاتَّركَ مُعَاوِيَةَ، فَإِنَّ فِي مُعَاوِيَةَ جَرَاءً، وَهُوَ فِي أَهْلِ الشَّامِ يُسْتَمْعَنُ مِنْهُ، وَلَكِنْ حُجَّةٌ فِي إِثْبَاتِهِ، كَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَدْ وَلَّاهُ الشَّامَ. فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَسْتَعْمَلُ مُعَاوِيَةَ يَوْمِينَ! ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِي وَأَنَا أَعْرِفُ فِيهِ أَنَّهُ يُوَدُّ أَنِّي مَخْطُوءٌ، ثُمَّ عَادَ إِلَيَّ الْيَوْمَ فَقَالَ: إِنِّي أَشْرْتُ عَلَيْكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ بِالَّذِي أَشْرْتُ وَخَالَفْتَنِي فِيهِ، ثُمَّ رَأَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ تَصْنَعَ الَّذِي رَأَيْتُ فَتَعَزَّلَهُمْ وَتَسْتَعِينُ بِمَنْ تَقَى بِهِ، فَقَدْ كَفَى اللَّهُ وَهُمْ أَمُورًا شَوْكَةً مِمَّا كَانَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقُلْتُ لِعَلِّي: أَمَّا الْمَرَّةُ الْأُولَى فَقَدْ نَصَحْتُكَ، وَأَمَّا الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ غَشَيْتُكَ. قَالَ: وَلَمْ نَصَحْنِي؟ قُلْتُ: لِأَنَّ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابَهُ أَهْلُ دُنْيَا فَمَتَى تَتَّبِعُهُمْ لَا يَبَالُوا مَنْ وَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ، وَمَتَى تَعَزَّلَهُمْ يَقُولُوا: أَخَذَ هَذَا الْأَمْرَ بِغَيْرِ شُورَى وَهُوَ قَتْلُ صَاحِبِنَا! وَيُؤَلِّسُونَ عَلَيْكَ، فَتَنْقُضُ عَلَيْكَ الشَّامَ وَأَهْلَ الْعِرَاقِ، مَعَ أَنِّي لَا أَمْنُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ أَنْ يَكْرَهُا عَلَيْكَ، وَأَنَا أَشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَثْبِتَ مُعَاوِيَةَ، فَإِنَّ بَايَعَ لَكَ فَعَلِيٌّ أَنْ أَقْلَعَهُ مِنْ مَنَزَلِهِ، وَقَالَ عَلِيٌّ: وَاللَّهِ لَا أُعْطِيهِ إِلَّا السَّيْفَ! ثُمَّ تَمَثَّلَ:

وَمَا مِثْلُهَا إِنْ مَثَلَا غَيْرَ عَاجِزٍ بَعَارِ إِذَا غَالَتْ النَّفْسُ غَوْلَهَا (١٩٨/٣)

فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ رَجُلٌ شَجَاعٌ لَسْتُ صَاحِبَ رَأْيٍ فِي الْحَرْبِ، أَمَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الْحَرْبُ خُدْعَةٌ؟ فَقَالَ: بَلَى. فَقُلْتُ: أَمَّا وَاللَّهِ لَشَنْ أَطْعَمْتَنِي لِأَصْدَرْتَنَّهُمْ بَعْدَ وَرْدٍ وَلَا تَرَكْتَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ فِي دَبْرِ الْأُمُورِ لَا يَعْرِفُونَ مَا كَانَ وَجْهَهَا فِي غَيْرِ نَقْصَانٍ عَلَيْكَ وَلَا إِثْمَ لَكَ. فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ لَسْتُ مِنْ هُنَاتِكَ وَلَا مِنْ هُنَاتٍ مُعَاوِيَةَ فِي شَيْءٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقُلْتُ لَهُ: أَطْعَمْتَنِي وَالْحَقُّ بِمَا لَكَ يَنْبَغُ وَأَغْلَقْتُ بَابَكَ عَلَيْكَ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَجُولُ جَوْلَةً وَتَضْطَرُّ وَلَا تَجِدُ غَيْرَكَ، فَإِنَّكَ وَاللَّهِ لَشَنْ نَهَضْتَ مَعَ هَؤُلَاءِ الْيَوْمَ لِيَحْمِلَنَّكَ النَّاسُ دَمَ عُثْمَانَ غَدًا. فَأَبَى عَلِيٌّ فَقَالَ: تَشِيرُ عَلِيٌّ وَأَرَى فَإِذَا عَصَيْتَكَ فَاطْعَنِي. قَالَ: فَقُلْتُ: أَفْعَلْ! إِنْ أَبَسَ مَا لَكَ عِنْدِي الطَّاعَةَ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: تَسِيرُ إِلَى الشَّامِ فَقَدْ وَلَيْتُكِهَا. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا هَذَا بِرَأْيِ مُعَاوِيَةَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ عُثْمَانَ وَعَامِلُهُ وَلَسْتُ أَمِنُ أَنْ يُضْرِبَ عَتَقِي بِعُثْمَانَ، وَإِنْ أَدْنَى مَا هُوَ صَانِعٌ أَنْ يَجْسِنِي فَيَتَحَكَّمُ عَلَيَّ لِقَرَابَتِي مِنْكَ، وَإِنْ كُلُّ مَا حُمِّلَ عَلَيْكَ حُمِّلَ

علي، ولكن اكتب إلى معاوية فمَنَعَهُ وعَدَهُ. فقال: لا والله، لا كان هذا أبداً!

وكان المغيرة يقول: نصحتَه فلمّا لم يقبل عَشَشَتُهُ. وخرج فلحق بمكة. (١٩٩/٣)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، أعني سنة خمس وثلاثين، سار قسطنطين بن هرقل في ألف مركب يريد أرض المسلمين قبل قتل عثمان، فسَلَطَ الله عليهم ريحاً عاصفاً فغرّقهم ونجا قسطنطين فأتى صِيقَلِيَّةَ فصنعوا له حماماً، فدخله فقتلوه فيه وقالوا: قتلنا رجلاً. هكذا قال أبو جعفر.

وهذا قسطنطين هو الذي هزمه المسلمون في غزوة الصواري سنة إحدى وثلاثين، وقتله أهل صِيقَلِيَّةَ في الحمام، وإن كانوا قد اختلفوا في السنة التي كانت الوقعة فيها، فلولا قوله: إن المراكب غرقت، لكانت هذه الحادثة هي تلك، فإنها في قول بعضهم: كانت سنة خمس وثلاثين.

وفي خلافة عثمان مات أوس بن حَوَلِي الأنصاري.

وفي خلافة عثمان أيضاً مات الجلاس بن سويد الأنصاري، وكان من المنافقين على عهد رسول الله، ﷺ، وحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ.

وفيها مات الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، والد الملقب بَبِيَّةَ.

وفي آخرها مات الحكم بن أبي العاص، وهو والد مروان وعم عثمان.

وفيها مات حَبَان بن مُنْفَذ الأنصاري، وهو والد يحيى بن حَبَان، بفتح الحاء المهملة وبالياء الموحدة.

وفيها مات عبد الله بن قيس بن خالد الأنصاري، وقيل: بل قُتِلَ بأُحُدٍ شهيداً، وفي خلافته مات قُطَيْبَةُ بن عامر الأنصاري، وهو عَقْبِي بدري.

وفي خلافته مات زيد بن خارجة بن زيد الأنصاري، وهو الذي تكلم بعد موته.

وفيها قُتِلَ مُعَبَّد بن العباس بن عبد المطلب بإفريقية في آخر خلافة عثمان.

وفيها مات مُعْتَقِب بن أبي فاطمة، وكان من مهاجرة الحبشة، وكان على خاتم رسول الله، ﷺ، (٢٠٠/٣)، وقيل: بل مات سنة أربعين في خلافة علي.

وفيها مات مطيع بن الأسود العدوي، وكان إسلامه يوم الفتح. وفي خلافته مات نُعَيْم بن مسعود الأشجعي، وقيل: بل قُتِلَ في وقعة الجمل مع مُجَاشِع بن مسعود.

وفي خلافته مات عبد الله بن حُذَافَةَ السهمي، وهو بدري، وكان فيه دُعاية.

وفيها مات عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي والد عمر الشاعر، وكان قد جاء من اليمن لينصر عثمان لما حُصِرَ فسقط عن راحلته فمات؛ وأبو رافع مولى رسول الله، ﷺ، وقيل: مات في خلافة علي، وهو أصح.

وفي خلافته توفي أبو سَبْرَةَ بن أبي رُهم العامري من عامر بن لؤي، وهو بدري.

وفيها مات هاشم بن عُثْبَةَ بن ربيعة خال معاوية، أسلم يوم الفتح وكان صالحاً.

وفيها مات أبو السرداء، وقيل: عاش بعده، والأول أصح. (٢٠١/٣)

سنة ست وثلاثين

ذكر تفريق عليّ غَمَّالَه وخلاف معاوية

وفي هذه السنة فرّق عليّ عمَّالَه على الأمصار، فبعث عثمان بن حُثَيْفَ على البصرة، وعُمَارَةَ بن شهاب على الكوفة، وكانت له هجرة، وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر، وسهل بن حُثَيْفَ على الشام.

فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بنبوك لقيته خيلٌ فقالوا: مَنْ أنت؟ قال: أمير. قالوا: على أي شيء؟ قال: على الشام. قالوا: إن كان بعثك عثمان فحيّ هلاً بك، وإن كان بعثك غيره فارجع. قال: أوما سمعتم بالذي كان؟ قالوا: بلى. فرجع إلى علي. وأما قيس بن سعد فإنه لما انتهى إلى أيلة لقيته خيلٌ فقالوا له: مَنْ أنت؟ قال: من فالة عثمان، فأنا أطلب من أوي إليه فأنصر به لله. قالوا: مَنْ أنت؟ قال: قيس بن سعد. قالوا: امض. فمضى حتى دخل مصر. فافترق أهل مصر فرقاً، فرقة دخلت في الجماعة فكانوا معه، وفرقة اعتزلت بخزبنا وقالوا: إن قُتِلَ قتله عثمان فنحن معكم، وإلا فنحن على جديلتنا حتى نُحرِّكَ أو نصيب حاجتنا، وفرقة قالوا: نحن مع علي ما لم يُقَدَّ من إخواننا، وهم في ذلك مع الجماعة. وكتب قيس إلى علي بذلك.

وأما عثمان بن حُثَيْفَ فسار ولم يرده أحد عن دخول البصرة ولم يجد لابن عامر (٢٠٢/٣) في ذلك رأياً ولا استقلالاً بحرب،

العيسى وصاحت السيئة وقالت: هذا الكلب رسول الكلاب، اقلطوه! فنادى: يا آل مضر! يا آل قيس! الخيل والنبل! أقسم بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي، فانظروا كم الفحول والركاب! وتعاونوا عليه، فمنتعته مضر، فجعلوا يقولون له: اسكت، فيقول: لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً، أتاهم ما يوعدون، لقد حلّ بهم ما يحذرون، انتهت (٢٠٤/٣) والله أعمالهم وذهبت ريحهم، فوالله ما أمسوا حتى عُرف الذلّ فيهم.

وأحب أهل المدينة أن يعلموا رأي عليّ في معاوية وقتاله أهل القبلة، أبجسر عليه أم ينكل عنه؟ وقد بلغهم أن ابنه الحسن دعاه إلى القعود وترك الناس، فمدسوا زياد بن حنظلة التميمي وكان منقطعاً إلى عليّ فجلس إليه ساعة، فقال له عليّ: يا زياد تيسر، فقال: لأي شيء؟ فقال: لغزو الشام. فقال زياد: الأناة والرفق أمثل، وقال:

وَمَنْ لَمْ يُصْلِحْ فِي أَسْرِ كَثِيرَةٍ يُضْرَسْ بِأَيَّابٍ وَيُوطَأَ بِمَنْسَمٍ
فَتَمَثَّلَ عَلَيَّ وَكَانَهُ لَا يَرِيدُهُ :

مضى تجمع القلب الزكيّ وصلواً وانفصلاً تجتنبك المظالم
فخرج زياد والناس يتظفرون وقالوا: ما وراءه؟ فقال: السيف يا قوم. فغرفوا ما هو فاعل. واستأذنه طلحة والزبير في العمرة، فاذن لهما، فلهقا بمكة، ودعا عليّ محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء، وولى عبد الله بن عباس ميمته، وعمر بن أبي سلمة أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ولأه ميسرته، ودعا أبا ليلى بن عمر بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح فجعله على مقدمته، واستخلف على المدينة قثم بن العباس، ولم يولّ من خرج على عثمان أحداً، وكتب إلى قيس بن سعد وإلى عثمان بن حنيف وإلى أبي موسى أن يندبوا الناس إلى أهل الشام، ودعا أهل المدينة إلى قتالهم وقال لهم: إن في سلطان الله عصمة أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوبة ولا مستكره بها، والله لتفعلنّ أو لينقلنّ الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يارز الأمر إليها، انهضوا إلى هؤلاء القوم الذي يريدون تفريق جماعتكم لعلّ الله يصلح بكم ما أفسد أهل (٢٠٥/٣) الأفاق وتقضون الذي عليكم.

(خَرَّبْنَا بِنُفْحِ الْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ، وَسَكُونِ الرَّاءِ، وَفَتْحِ النُّونِ، وَبِالْيَاءِ الْمَوْحَدَةِ، وَآخِرُهُ أَلِفٌ).

ذكر ابتداء وقعة الجمل

فبينما هم كذلك على التجهّز لأهل الشام أتاهم الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بنحو آخر وأنهم على الخلاف، فأعلم عليّ الناس ذلك، وأن عائشة وطلحة والزبير قد سخطوا إمارته ودعوا الناس إلى الإصلاح، وقال لهم: سأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكفّ إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني.

وافترق الناس بها، فاتّبعت فرقة القوم ودخلت فرقة في الجماعة، وقالت فرقة: نلظ ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا. وأما عمارة بن شهاب فلمّا بلغ رُيالة لقيه طليحة بن خويلد، وكان خرج يطلب بثار عثمان وهو يقول: لهفي على أمر لم يسبقني ولم أدركه! وكان خروجه عند عود القعقاع من إغاثة عثمان، فلمّا لقي عمارة قال له: ارجع، فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً، فإن آيت ضربت عتقك. فرجع عمارة إلى عليّ بالخبر. وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن، فجمع يعلّى بن مئنة كلّ شيء من الجباية وخرج به إلى مكة فقدمها بالمال، ودخل عبيد الله اليمن.

ولما رجع سهل بن حنيف من الشام وأتت عليّاً الأخبار دعا طلحة والزبير فقال: إنّ الأمر الذي كنت أحمذركم قد وقع، وإن الذي قد وقع لا يُدرَك إلاّ بإماتته، وإنها فتنة كالنار كلّما سُعِرَتْ ازدادت واستارت. فقال لا: ائذن لنا نخرج من المدينة فإنما أن نكاثر وإنّا أن ندعنا. فقال: سامسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بُدّاً فأخّر الداء الكي.

وكتب إلى معاوية وإلى أبي موسى. فكتب إليه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، وبين الكارة منهم للذي كان والراضي ومن بين ذلك حتى كان عليّ كأنه يشاهددهم. وكان رسول عليّ إلى أبي موسى معبداً الأسلمي، وكان رسوله إلى معاوية سيرة الجهشي، فقدم عليه، فلم يجبه معاوية بشيء، كلّما تنجّز جوابه لم يزد على قوله:

أدِمَّ إِدَامَةَ جِصْنَ أَوْ خَلَا يَيْدِي حَرِيّاً ضَرْوْماً نَشَبَ الْجَزَلَ وَالضَّرْمَا
(٢٠٣/٣)

فِي جَارِكُمْ وَابْنِكُمْ إِذْ كَانَ مَقْتَلُهُ شَعَاءَ شَيْتِ الْأَصْلَاغِ وَاللَّغْمَا
أَعْيَا السُّدُودَ بِهَا وَالسَّيْلُونَ فَلَمْ يُوجِدْ لَنَا غَيْرَ مَوْلَى وَلَا حَكَمًا

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر دعا معاوية رجلاً من بني عيس يدعى قبيصة فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه: من معاوية إلى عليّ، وقال له: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول، وأعاد رسول عليّ معه. فخرجاً قدماً المدينة في ربيع الأول، فدخلها العيسى كما أمره قد رفع الطومار، فتبعه الناس ينظرون إليه، وعلموا أن معاوية معترض، ودخل الرسول على عليّ فدفع إليه الطومار، ففحص ختمه فلم يجد فيه كتاباً. فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال: نعم، إن الرسول لا يُقتل. قال: ورائي أني تركت قوماً لا يرضون إلاّ بالقود.

قال: ممّن؟ قال: من خيظ رقبتي. وترك ستين ألف شيخ بكبي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق. قال: أمني يطلبون دم عثمان، ألسن موتوراً كيرة عثمان؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان! نجا والله قتلة عثمان إلاّ أن يشاء الله، فإنه إذا أراد أمراً أصابه، اخرج. قال: وأنا آمن؟ قال: وأنت آمن. فخرج

وَلَيْسَ لِلْخَرِيبِ أَتَوَابُهَا وَمَا مِنْ وَفَى مِثْلٍ مِنْ قَدْ غَدَرَ
فَانصَرَفَتْ إِلَى مَكَّةَ فَقَصَدَتْ الْحِجْرَ فَسُتِرَتْ فِيهِ، فَاجْتَمَعَ
النَّاسُ حَوْلَهَا، فَقَالَتْ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ الْغَوَاءُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ
وَأَهْلِ الْمِيَاهِ وَعَبِيدِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ اجْتَمَعُوا عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الْمَقْتُولِ
ظُلماً بِالْأَمْسِ وَنَقَمُوا عَلَيْهِ اسْتِعْمَالاً مِنْ حَدَثَتْ سَنَةً، وَقَدْ اسْتَعْمَلَ
أَمْثَالَهُمْ قَبْلَهُ، وَمَوَاضِعَ مِنَ الْحُمَى حَمَاهَا لَهُمْ فَتَابِعَهُمْ وَنَزَعَ لَهُمْ
عَنْهَا. فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوا حِجَّةً وَلَا عَذراً يَادِرُوا بِالْعُدْوَانِ فَسَفَكُوا الدَّمَ
الْحَرَامَ وَاسْتَحَلُّوا الْبِلَدَ الْحَرَامَ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَأَخَذُوا الْمَالَ
الْحَرَامَ، وَاللَّهُ لِأَصْبَحَ مِنْ عُثْمَانَ خَيْرٌ مِنْ طَبَاقِ الْأَرْضِ أَمْثَالَهُمْ !
وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ الَّذِي اعْتَدَى بِهِ عَلَيْهِ كَانَ ذَنْباً لَخَلَصَ مِنْهُ كَمَا يَخْلُصُ
الذَّهَبُ مِنْ خَبَثِهِ أَوْ الثَّوْبُ مِنْ دَرَنِهِ إِذْ مَاصُوه كَمَا يَمَاصُ الثَّوْبُ
بِالْمَاءِ، أَيُّ يُغْسَلُ.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ الْحَضْرَمِيُّ، وَكَانَ عَامِلَ عُثْمَانَ عَلَى
مَكَّةَ: هَا أَنَا أَوَّلُ طَالِبٍ ! فَكَانَ أَوَّلُ مُجِيبٍ، وَتَبِعَهُ بَنُو أُمَيَّةَ عَلَى
ذَلِكَ، وَكَانُوا هَرَبُوا مِنَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ إِلَى مَكَّةَ وَرَفَعُوا
رُؤُوسَهُمْ، وَكَانَ أَوَّلُ مَا تَكَلَّمُوا بِالْحِجَازِ وَتَبِعَهُمْ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ
وَالْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَسَائِرُ بَنِي أُمَيَّةَ، وَقَدِمَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ مِنَ
الْبَصْرَةِ بِمَالٍ كَثِيرٍ، وَيَعْلَى بْنُ أُمَيَّةَ، وَهُوَ ابْنُ ثُمَيَّةَ، مِنَ الْيَمَنِ وَمَعَهُ
سِتْمَانَةُ بَعِيرٍ وَسِتْمَانَةُ الْفِ دَرَاهِمَ، فَانْأَخَ بِالْأَطْحَ، وَقَدِمَ طَلْحَةُ
وَالزُّبَيْرُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَلَقِيَا عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: مَا وَرَاءُكُمْ؟ فَقَالَا: إِنَّا
تَحْمِلُنَا هَرَاباً مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ غَوْغَاءَ (٢٠٨/٣) وَأَعْرَابٍ وَفَارَقْنَا قَوْمًا
حَيَارَى لَا يَعْرِفُونَ حَقًّا وَلَا يُنْكِرُونَ بَاطِلًا وَلَا يَمْنَعُونَ أَنْفُسَهُمْ.
فَقَالَتْ: انْهَضُوا إِلَى هَذِهِ الْغَوْغَاءِ. فَقَالُوا: نَأْتِي الشَّامَ. فَقَالَ ابْنُ
عَامِرٍ: قَدْ كَفَاكُمْ الشَّامَ مَعَاوِيَةُ، فَأَتُوا الْبَصْرَةَ فَإِنَّ لِي بِهَا صَنَائِعَ وَلَهُمْ
فِي طَلْحَةِ هَوًى. قَالُوا: قُبْحَكَ اللَّهُ ! فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ بِالْمَسَالِمِ وَلَا
بِالْمَحَارِبِ، فَهَلَّا أَقَمْتُ كَمَا أَقَامَ مَعَاوِيَةُ فَكُنْفِي بِكَ ثُمَّ نَأْتِي الْكُوفَةَ
فَنَسَدَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمَذَاهِبِ؟ فَلَمْ يَجِدُوا عَنْدهُ جَوَاباً مُقْبُولًا،
فَاسْتَقَامَ الرَّأْيُ عَلَى الْبَصْرَةِ، وَقَالُوا لَهَا: نَتْرِكُ الْمَدِينَةَ فَإِنَّا خَرَجْنَا
فَكَانَ مَعَنَا مَنْ لَا يَطِيقُ مَنْ بَهَا مِنَ الْغَوْغَاءِ وَنَأْتِي بِلَدًا مُضْئِعًا
سَيَحْتَجُونَ عَلَيْنَا بَيْعَةَ عَلِيٍّ فَتَهْضِمُهُمْ كَمَا أَتَهَضَّتْ أَهْلُ مَكَّةَ، فَإِنْ
أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمْرَ كَانَ الَّذِي أَرَدْنَا، وَلَا دَفَعْنَا بِجَهْدِنَا حَتَّى يَقْضِيَ
اللَّهُ مَا أَرَادَ.

فَأَجَابَتْهُمْ إِلَى ذَلِكَ. وَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لِيَسِيرَ مَعَهُمْ، فَأَبَى
وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَفْعَلُ مَا يَفْعَلُونَ. فَتَرَكُوهُ.

وَكَانَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ، مَعَهَا عَلَى قَصْدِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا تَغَيَّرَ
رَأْيُهَا إِلَى الْبَصْرَةِ تَرَكْنَ ذَلِكَ، وَأَجَابَتْهُمُ حَفْصَةُ إِلَى الْمَسِيرِ مَعَهُمْ،
فَمَنَعَهَا أَخُوها عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ. وَجَهَّزَهُمْ يَعْلى بْنُ ثُمَيَّةَ بِسِتْمَانَةِ
بَعِيرٍ وَسِتْمَانَةِ الْفِ دَرَاهِمَ، وَجَهَّزَهُمْ ابْنُ عَامِرٍ بِمَالٍ كَثِيرٍ، وَنَادَى
مُنَادِيَهَا: إِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ شَاخِصُونَ إِلَى الْبَصْرَةِ، فَمَنْ

ثُمَّ أَنَاهُ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ الْبَصْرَةَ، فَسَرَّهُ ذَلِكَ وَقَالَ: إِنْ الْكُوفَةَ فِيهَا
رِجَالُ الْعَرَبِ وَبَيُوتَاتُهُمْ. فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنْ الَّذِي سَرَّكَ مِنْ
ذَلِكَ لَيْسَ وَثَنِي، أَنَّ الْكُوفَةَ فَسْطَاطٌ فِيهِ [أَعْلَامٌ] مِنْ أَعْلَامِ الْعَرَبِ،
وَلَا يَحْمِلُهُمْ عِدَّةُ الْقَوْمِ، وَلَا يَزَالُ فِيهَا مَنْ يَسْمُو إِلَى أَمْرِ لَا يَنْتَالُهُ،
فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ شَغِبَ عَلَيَّ الَّذِي قَدْ نَالَ مَا يَرِيدُ حَتَّى تُكْسِرَ حَدَثَهُ.

فَقَالَ عَلِيٌّ: إِنْ الْأَمْرُ لِيُشَبِّهَ مَا نَقُولُ، وَتَهَيَّأَ لِلْخُرُوجِ إِلَىهِمْ،
فَنَدَبَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لِلْمَسِيرِ مَعَهُمْ فَتَنَاقَلُوا، فَبَعَثَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ كُفَيْلاً يُخْبِرُهُ، فَجَاءَهُ بِهِ، فَدَعَاهُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا
مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَقَدْ دَخَلْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَدَخَلْتُ مَعَهُمْ، فَإِنْ
يُخْرِجُونَا أُخْرِجْ مَعَهُمْ، وَإِنْ يَقْعِدُوا أَقْعِدْ. قَالَ: فَأَعْطَنِي كُفَيْلاً. قَالَ:
لَا أَفْعَلُ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: لَوْلَا مَا أَصْرَفَ مِنْ سُوءِ خَلْقِكَ
صَغِيرًا (٢٠٦/٣) وَكَبِيرًا لَأَنْكَرْتَنِي، دَعَا فَنَا كُفَيْلَهُ. فَزَجَعَ ابْنُ عُمَرَ
إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي كَيْفَ نَصْنَعُ، إِنْ الْأَمْرُ
لَمُتَشَبِّهٌ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مُقِيمُونَ حَتَّى يُضْيِيَ لَنَا.

فَخَرَجَ مِنْ تَحْتِ لَيْلَتِهِ وَأَخْبَرَ أُمَّ كَلْثُومَ ابْنَةَ عَلِيٍّ، وَهِيَ زَوْجَةُ
عُمَرَ، بِالَّذِي سَمِعَ، وَأَنَّهُ يَخْرُجُ مَعْتَمِرًا مُقِيمًا عَلَى طَاعَةِ عَلِيٍّ مَا خِلَا
النَّهْوَضِ. فَاصْبَحَ عَلِيٌّ قَفِيلٌ لَهُ: حَدَثَ اللَّيْلَةُ حَدَثٌ هُوَ أَشَدُّ مِنْ
طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَائِشَةُ وَمَعَاوِيَةُ. قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: خَرَجَ ابْنُ
عُمَرَ إِلَى الشَّامِ فَأَتَى السُّوقَ وَأَعَدَ الظُّهْرَ وَالرِّجَالَ وَأَخَذَ لِكُلِّ طَرِيقٍ
طَلَابًا وَمَاجَ النَّاسِ. فَسَمِعَتْ أُمَّ كَلْثُومُ فَاتَتْ عَلِيًّا فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ،
فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَقَالَ: انْصَرَفُوا، وَاللَّهِ مَا كَذِبْتُ وَلَا كَذَبَ، وَاللَّهِ إِنَّهُ
عِنْدِي ثِقَةٌ، فَانْصَرَفُوا.

وَكَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ بِمَكَّةَ أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ خَرَجَتْ إِلَيْهَا،
وَعُثْمَانُ مُحْصُورٌ، ثُمَّ خَرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ تَرِيدُ الْمَدِينَةَ. فَلَمَّا كَانَتْ
بَسْرَفَ لِقَائِهَا رَجُلًا مِنْ أَخْوَالِهَا مِنْ بَنِي لَيْثٍ يُقَالُ لَهُ عُيَيْدُ بْنُ أَبِي
سَلِيمَةَ، وَهُوَ ابْنُ أُمِّ كَلَّابٍ، فَقَالَتْ لَهُ: مَهَيْمٌ؟ قَالَ: قُتِلَ عُثْمَانُ وَيَقُومُوا
ثَمَانِيًا. قَالَتْ: ثُمَّ صَنَعُوا مَاذَا؟ قَالَ: اجْتَمَعُوا عَلَى بَيْعَةِ عَلِيٍّ. فَقَالَتْ:
لَيْتَ هَذِهِ انْطَبَقَتْ عَلَى هَذِهِ إِنْ تَمَّ الْأَمْرُ لِصَاحِبِكَ ! رَدُونِي رَدُونِي !
فَانْصَرَفَتْ إِلَى مَكَّةَ وَهِيَ تَقُولُ: قُتِلَ وَاللَّهِ عُثْمَانُ مَظْلُومًا، وَاللَّهِ
لَا طَلِبِينَ بِدَمِهِ ! فَقَالَ لَهَا: وَلَمْ؟ وَاللَّهِ إِنْ أَوَّلَ مِنْ أَمَالِ حَرْفِهِ لَأَنْتِ،
وَلَقَدْ كُنْتُ تَقُولِينَ: اقْتُلُوا نَعْتَلًا قَدْ كَفَرَ. قَالَتْ: إِنَّهُمْ اسْتَبَاوَهُ ثُمَّ
قَتَلُوهُ، وَقَدْ قُلْتُ وَقَالُوا، وَقَوْلِي الْآخِرُ خَيْرٌ مِنْ قَوْلِي الْأَوَّلِ. فَقَالَ
لَهَا ابْنُ أُمِّ كَلَّابٍ :

فَمَنْكَ الْبِدَاءُ وَمَنْكَ الْفَيْزُ وَمَنْكَ الرِّيَاحُ وَمَنْكَ الْمَطَرُ
وَأَنْتِ أَمَرْتِ بِقَتْلِ الْإِمَامِ وَقُلْتِ لَنَا إِنَّهُ قَدْ كَفَرَ
فَهَبْنَا أَطْعَامًا فِي قُلُوبِهِ وَقَاتَلْتُهُ عِنْدَنَا مَنْ أَتَى

(٢٠٧/٣)

وَلَمْ يَسْقُطِ السَّقْفُ مِنْ فَوْقَا وَلَمْ يَنْكَبِ شَمْسُنَا وَالْقَمَرُ
يَزِيلُ الشُّبَا وَيُقِيمُ الصَّغَرَ

معه فلامر على واد إلا سالوني عنه، حتى طرقتا الحواب، وهو ماء، فنبحتا كلابه، فقالوا: أي ماء هذا؟ فقلت: هذا ماء الحواب. فصرخت عائشة بأعلى صوتها وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، إني لهيئة، سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: «ليت شعري أيتكن تنبها كلاب الحواب!» ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت: ردوني، أنا والله صاحبة ماء الحواب. فأناخوا حولها يوماً وليلة، فقال لها عبد الله بن الزبير: إنه كذب، ولم يزل بها وهي تمتنع، فقال لها: النجاة النجاة! قد أدرككم علي بن أبي طالب. فارتحلوا نحو البصرة، فلما كانوا بفنائها لقيهم عمير بن عبد الله التميمي وقال: يا أم المؤمنين أشدك الله أن تقدمي اليوم على قوم لم تراسلي منهم أحداً فجئني ابن عامر فإن له بها صنائع فليذهب إليهم ليلقوا الناس إلى أن تقدمي ويسمعوا ما جئتم به. فأرسلته فاندس إلى البصرة، فأتى القوم، وكتبت عائشة إلى رجال من أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس وصبرة بن شيثان وأمثالهم وأقامت بالحفير تنتظر الجواب. (٢١١/٣)

ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمانُ بن حُنيفَ عمرانَ بن حصين وكان رجل عامه، والزُّبَيْرُ بابي الأسود الدثلي، وكان رجل خاصة، وقال لهما: انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها. فخرجا فأنهيا إليها بالحفير، فأذنت لهما، فدخلتا وسلمتا وقالتا: إن أميرنا بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك فهل أنت مخرتنا؟ فقالت: والله ما مثلي يُعطى لبنيه الخبر، إن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرَمَ رسول الله ﷺ، وأحدثوا فيه وآووا المجدثين فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله ﷺ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا بُزّة ولا عُدْر فاستحلوا الدم الحرام فخرجتُ في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس فيه ورائنا وما ينبغي لهم من إصلاح هذه القصة، وقرأت: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ [النساء: ١١٤] الآية، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ومنكر ننهاكم عنه.

فخرج عمران وأبو الأسود من عندها فأتيا طلحة وقالوا: ما أقدمك؟ فقال: الطلب بدم عثمان. فقالا: ألم تبايع علياً؟ فقال: بلى والسيف على عتقي وما أستقبل علياً البيعة إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان. ثم أتيا الزبير فقالا له مثل قولهما لطلحة، وقال لهما مثل قول طلحة، فرجعا إلى عثمان بن حنيف ونادى مناديهما بالرحيل، فدخلتا على عثمان فبادر أبو الأسود عمران فقال: يا ابن حنيف قد أتيت فاتير وطاعن القوم وجالذ واصبر وابرز لهم شتلياً وشمر (٢١٢/٣)

فقال عثمان: إنا لله وإنا إليه راجعون، دارت رحى الإسلام ورب الكعبة فانظروا بأي زيفان تزيف. فقال عمران: إي والله لتعركنكم عركاً طويلاً. قال: فأشر علي يا عمران. قال: اعتزل فليأتي

أراد إعزاز الإسلام وقتال المُجَلِّين والطلب بشار عثمان وليس له مركب وجهاز فليات! فحملوا ستمائة على ستمائة بعير وساروا في ألف، وقيل: في ستمائة من أهل المدينة ومكة، ولحقهم الناس فكانوا في ثلاثة آلاف رجل. وبعث أم الفضل بنت الحارث أم عبد الله بن عباس رجلاً (٢٠٩/٣) من جهينة يدعى ظفراً فاستأجرته على أن يأتي علياً بالخبر، فقدم على علي بكتباها.

وخرجت عائشة ومن معها من مكة، فلما خرجوا منها أذن مروان بن الحكم، ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير فقال: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة؟ فقال عبد الله بن الزبير: على أبي عبد الله، يعني أباه الزبير. وقال محمد بن طلحة: على أبي محمد، يعني أباه طلحة. فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت له: أتريد أن تفرق أمرنا! ليصل بالناس ابن أخي، تعني عبد الله بن الزبير. وقيل: بل صلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد حتى قُتل، فكان معاذ بن عبيد يقول: والله لو ظفرنا لاقتلنا، ما كان الزبير يترك طلحة والأمر ولا كان طلحة يترك الزبير والأمر.

وتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق فبكوا على الإسلام، فلم ير يوم كان أكثر باكياً وباكياً من ذلك اليوم، فكان يسمى يوم النخب. فلما بلغوا ذات عرق لقي سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بها فقال: أين تذهبون وتتركون ثأركم على أعجاز الإبل وراءكم؟ يعني عائشة وطلحة والزبير، اقتلوه ثم ارجعوا إلى منازلكم. فقالوا: نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً. فخلا سعيد بطلحة والزبير فقال: إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر؟ اصدقاني. قال: نجعله لأحدنا أينما اختاره الناس. قال: بل تجعلونه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطالبون بدمه. فقالا: ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام! قال: فلا أراني أسعى إلا لإخراجها من بني عبد مناف. فرجع ورجع عبد الله بن خالد بن أسيد، وقال المغيرة بن شعبة: الرأي ما قال سعيد، من كان ههنا من ثقيف فليرجع. فرجع ومضى القوم ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان. (٢١٠/٣)

وأعطى يعلى بن منية عائشة جملأ اسمه عسكراً اشتراه بثمانين ديناراً، فركبته، وقيل: بل كان جملها لرجل من غزينة.

قال العُزَينِي: بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لي راكب فقال: أتبيع جملك؟ قلت: نعم. قال: يكس؟ قلت: بألف درهم. قال: أمجنون أنت؟ قلت: ولم؟ والله ما طلبتُ عليه أحداً إلا أدركته ولا طلبني وأنا عليه أحد إلا قتته. قال: لو تعلم لمن نريدته! إنما نريدته لأَم المؤمنين عائشة! فقلت: خذ بغير ثمن. قال: بل ترجع معنا إلى الرجل فنعطيك ناقة ودراهم. قال: فرجعت معه فأعطوني ناقة مَهْرية وأربعمائة درهم أو ستمائة، وقالوا لي: يا أخا غزينة هل لك دلالة بالطريق؟ قلت: إنا من أدل الناس. قالوا: فسر معنا. فسرنا

قاعده. قال عثمان: بل أنعمهم حتى يأتي أمير المؤمنين. فأنصرف عمران إلى بيته وقام عثمان في أمره، فأتاه هشام بن عامر فقال: إن هذا الأمر الذي تريده يُسلم إلى شرٍّ مما تكره، إن هذا فتق لا يرتق، وصنّغ لا يجبر، فارتق بهم وسامحهم حتى يأتي أمر علي. فأتى ونادى عثمان في الناس وأمرهم بلبس السلاح، فاجتمعوا إلى المسجد، وأمرهم بالتجهّز، وأمر رجلاً منه إلى الناس خديماً كوفيّاً قيسياً، فقال: أيها الناس أنسا قيس بن العَقْدِيَّة الحُمَيْسِي، إن هؤلاء القوم إن كانوا جاؤوا خائفين فقد أتوا من بلد يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان، فاطيعوني ورؤوهم من حيث جاؤوا. فقام الأسود بن سريع السعدي فقال: أوزعمو أنا قتلة عثمان؟ إنما أتوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا. فحصبه الناس فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً فكسره ذلك.

فأقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى المريد فدخلوا من أعلاه ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يكون معها، فاجتمع القوم بالمريد، فتكلّم طلحة وهو في ميمنة المريد وعثمان في ميسرته، فأنصتوا له، فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان وفضله وما استحلّ منه ودعا إلى الطلب بدمه وحثم عليه، وكذلك الزبير. فقال من في ميمنة المريد: صدّقوا وتبرّأ. وقال من في ميسرته: فجّروا وغدّروا وأمروا بالباطل، (٢١٣/٣) فقد بايعا عليّاً ثم جاءا يقولان، وتحاشى الناس وتحاصبوا وأرهجوا.

فتكلّمت عائشة، وكانت جهّوزيّة الصوت، فحمدت الله وقالت: كان الناس يتجنّبون على عثمان ويؤرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، فننظر في ذلك فنجد به بريئاً تقياً وقيّاً، ونجدهم فجّرة غدّرة كذّبة، وهم يحاولون غير ما يُظهرون، فلمّا قوا كاثروا واقتحموا عليه داره واستحلّوا الدّم الحرام والشّهْر الحرام والبلد الحرام بلا ترّ ولا عُذر، ألا إن ممّا ينبغي لا ينبغي لكم غيره، أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله، وقرأت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٣]؛ فافترق أصحاب عثمان فرقتين، فرقة قالت: صدقت وبرّت، وقال الآخرون: كذبتم والله ما نعرف ما جئتم به! فتحاتوا وتحاصبوا. فلمّا رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان بن حنيف حتى وقفوا في المريد في موضع الدّبّاغين، وبقي أصحاب عثمان على حالهم، ومال بعضهم إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان.

وأقبل جارية بن قدامة السعدي وقال: يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح! إنه قد كان لك من الله متر وحرمة فهتكت مترك

وأبحت حرمتك! إنه من رأى قتالك يرى قتلك! لئن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس.

وخرج غلام شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير فقال: أمّا أنت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ، وأمّا أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ﷺ، يسدك وأرى أمكما معكما فهل (٢١٤/٣) جئتما بنسائكما؟ قالوا: لا. قال: فما أنا منكم في شيء؟ واعتزل وقال في ذلك:

صُتِمَ حِلَالُكُمْ وَقُلْتُمْ أَكُفُّمَ هَذَا لَعْمُكَ قِلَّةُ الْإِنصَافِ
أُيَسِّرُ بَجْرَ فَيُؤَلِّفُ فِي بَيْتِهَا فَهَوَتْ تَشَقُّ الْيَدَ بِالْإِجْصَافِ
غَرَضاً يَقَاتِلُ دُونَهَا أَبْلَاهَا بِالْأَيْلِ وَالْخَطِيءِ وَالْأَسْبَافِ
هُكَّتْ بَطْلَحَةُ وَالزَّبِيرُ سَتُورُهَا هَذَا الْمُخْبِرُ عَنْهُمْ وَالْكَافِي

وأقبل حُكَيْم بن جَبَلَة العبدى وهو على الخيل، فأنشب القتال، وأشرع أصحاب عائشة رماحهم وأمسكوا ليمسك حُكَيْم وأصحابه، فلم يته وقاتلهم وأصحاب عائشة كافون يدفعون عن أنفسهم وحُكَيْم يذمر خيله ويركبهم بها، فاقتلوا على قسم السكّة، وأمّرت عائشة أصحابها فيأتوا إلى مقبرة بني مازن وحجز الليل بينهم، ورجع عثمان إلى القصر، وأتى أصحاب عائشة إلى ناحية دار الرزق وباتوا يتأهبون وبات الناس يأتونهم واجتمعوا بساحة دار الرزق. فغاداهم حُكَيْم بن جبلة وهو يسب ويبيد الرمح، فقال له رجل من عبد القيس: من هذا الذي تسبّه؟ قال: عائشة. قال: يا ابن الخبيثة الأم المؤمنين تقول هذا؟ فطعنه حُكَيْم فقتله ثم مرّ بامرأته وهو يسبّها أيضاً، فقالت له: الأم المؤمنين تقول هذا يا ابن الخبيثة؟ فطعنها فقتلها. ثم سار فاقتلوا بدار الرزق قتلاً شديداً إلى أن زال النهار وكثر القتل في أصحاب عثمان بن حنيف وكثر الجراح في الفريقين. فلمّا غشيتهم الحرب تنادوا إلى الصلح وتوادعوا، فكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسلاً إلى المدينة يسأل أهلها، فإن كان طلحة والزبير أكرها خرج عثمان بن حنيف عن البصرة وأخلاها لهما، وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير، (٢١٥/٣) وكتبوا بينهم كتاباً بذلك. وسار كعب بن سور إلى أهل المدينة يسألهم. فلمّا قدما اجتمع الناس إليه، وكان يوم الجمعة، فقام وقال: يا أهل المدينة، أنا رسول أهل البصرة، نسألكم هل أكره طلحة والزبير على بيعه عليّ أم أتياها طائعين؟ فلم يجبه أحد إلا أسامة بن زيد فإنه قام وقال: إنهما بايعا وهما مكرها. فأمر به تسمّام بن العباس فوثبه سهل بن حنيف والناس وثار صُهَيْب وأبو أيوب في عدّة من أصحاب النبي ﷺ، فبهم محمد بن مسلمة حين خافوا أن يقتل أسامة فقالوا: اللهم نعم. فتركوه، وأخذ صهيب أسامة بيده إلى منزله وقال له: أما وسعك ما وسعنا من السكوت؟ قال: ما كنت أظن أن الأمر كما أرى. فرجع كعب وبلغ عليّاً الخبر، فكتب إلى

عثمان يعجزه وقال: والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرا ونظروا.

فقدم الكتاب على عثمان، وقدم كعب بن سور، فأرسلوا إلى عثمان ليخرج، فاحتج بالكتاب وقال: هذا أمر آخر غير ما كنا فيه. فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة ذات رياح ومطر ثم قصدا المسجد فوافقا صلاة العشاء، وكانوا يؤخرونها، فابطأ عثمان، فقدمما عبد الرحمن بن عتاب، فشهر الزط والسباحة السلاح ثم وضعوه فيهم، فأقبلوا عليهم فاقتلوا في المسجد فقتلوا، وهم أربعون رجلاً، فأدخلوا الرجال على عثمان فأخرجوه إليهما. فلما وصل إليهما [توطؤوه] وما بقيت في وجهه شعرة، فاستعظما ذلك وأرسلوا إلى عائشة يعلمانها الخبر، فأرسلت إليهما أن خلوا سبيله.

وقيل: لما أخذ عثمان أرسلوا إلى عائشة يستشيرونها في أمره، فقالت: (٢١٦/٣) اقتلوه. فقالت لها امرأة: نشدتك الله في عثمان وصحبته لرسول الله، ﷺ! فقالت لهم: احبسوه. فقال لهم مجاشع بن مسعود: اضربوه وانفروا لحيته وحاجبيه وأشفار عينيه، فضربوه أربعين سوطاً ونفروا لحيته وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه ثم أطلقوه وجعلوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

وقد قيل في إخراج عثمان غير ما تقدم، وذلك أن عائشة وطلحة الزبير لما قدموا البصرة كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان: من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله، ﷺ، إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان، أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم فانصرتنا، فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي.

فكتب إليها: أما بعد فإنا ابنك الخالص، لئن اعترلت ورجعت إلى بيتك وإلا فإنا أول من نابذك.

وقال زيد: رحم الله أم المؤمنين! أمرت أن تلزم بينها وأمرنا أن نقاتل، فتركت ما أمرت به وأمرتنا به وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه.

وكان على البصرة عند قدومها عثمان بن حنيف فقال لهم: ما نعمتم على صاحبكم؟ فقالوا: لم نره أولى بها منا وقد صنع ما صنع. قال: فإن الرجل أمرني فأعلمه ما جئتم به على أن أصلي أنا بالناس حتى يأتينا كتابه.

فوقفوا عنه، فكتب فلم يلبث إلا يومين أو ثلاثة حتى وثبوا على عثمان عند مدينة الرزق فظفروا به وأرادوا قتله ثم خشوا غضب الأنصار فنفروا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه وفضضوه وحبسوه. وقام طلحة والزبير خطيبين فقالا: يا أهل البصرة توبة لحيوة، إنما أردنا أن نستعنت أمير المؤمنين عثمان فغلب السفهاء

الحلماء فقتلوه! فقال الناس لطلحة: يا أبا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا. (٢١٧/٣) فقال الزبير: هل جاءكم مني كتاب في شأنه؟ ثم ذكر قتل عثمان وأظهر عيب علي، فقام إليه رجل من عبد القيس فقال: أيها الرجل أنصت حتى تتكلم. فانصت. فقال العبدي: يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاب رسول الله، ﷺ، فكان لكم بذلك فضل ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم، فلما توفي رسول الله، ﷺ، بايعتم رجلاً منكم فرضينا وسلمنا ولم تستأمنوا في شيء من ذلك، فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة، ثم مات واستخلف عليكم رجلاً فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسلمنا، فلما توفي جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورتنا، ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم علياً عن غير مشورة منا، فما الذي نعمتم عليه فقاتلته؟ هل استأثر بغيره أو عمل بغير الحق أو أتى شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه، وإلا فما هذا؟ فهتفوا بقتل ذلك الرجل، فمنعه عشيرته، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه فقتلوا منهم سبعين. وبقي طلحة والزبير بعد أخذ عثمان بالبصرة ومعهما بيت المال والحرس والناس، ومن لم يكن معهما استتر.

وبلغ حكيم بن جبلة ما صنع بعثمان بن حنيف فقال: لست أخاف الله إن لم أنصره! فجاء في جماعة من عبد القيس ومن تبعه من ربيعة وتوجه نحو دار الرزق، وبها طعام أراد عبد الله بن الزبير أن يرزقه أصحابه، فقال له عبد الله: ما لك يا حكيم؟ قال: نريد أن نرتزق من هذا الطعام وأن تخلوا عثمان فيقيم في دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم علي، وإني والله لو أجد أعواناً عليكم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم بمن قتلتم، ولقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم، أما تخافون الله؟ بم تستحلون الدم الحرام؟ قال: بدم عثمان. قال: فالذي قتلتم هم قتلوا عثمان، أما تخافون مقت الله؟ فقال له عبد الله: لا نرتزقكم (٢١٨/٣) من هذا الطعام ولا نخلي سبيل عثمان حتى تخلع علياً. فقال حكيم: اللهم إنك حكم عدل فاشهد، وقال لأصحابه: لست في شك من قتال هؤلاء القوم، فمن كان في شك فليصرف. وتقدم فقاتلهم. فقال طلحة والزبير: الحمد لله الذي جمع لنا ثارنا من أهل البصرة، اللهم لا تبقي منهم أحداً! فاقتلوا قتلاً شديداً، ومع حكيم أربعة قتواد، فكان حكيم بحيال طلحة، وفريح بحيال الزبير، وابن المحترش بحيال عبد الرحمن بن عتاب، وحر قوص بن زهير بحيال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فزحف طلحة لحكيم وهو في ثلاثمائة، وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول:

أمرهم بالسيف ضرب غلام عباس
من الغينة آيس في الفرات تسلس

فضرب رجلي رجله فقطعها، فحيا حتى أخذها فرمى بها

صاحبه فصّره واثاه فقتله ثم انكا عليه وقال:

باساقي لن تراعي إذ تعني ذراعي
أحمي بها كراعي

وقال أيضاً:

ليس علي أن أموت عاراً والمعارفي الناس هو القرار
والمجدد لا يفضحه العار

فأني عليه رجل وهو ريث، رأسه على آخر، فقال: ما لك يا حَكِيم؟ قال: قُلتُ. قال: مَنْ قُلتُ؟ قال: وسادتي. فاحتمله وضمه في سبعين من (٢١٩/٣) أصحابه، وتكلم يومئذ حَكِيم وإنه لقائم على رجل واحدة، وإن السيوف لتأخذهم وما يتتبع ويقول: إنا خلقتنا هذين، وقد بايعا علياً وأعطياه الطاعة ثم أقبلا مخالفتين محاربين يطلبان بدم عثمان، ففرقنا بيننا ونحن أهل دار وجوار، اللهم إني لم يريدنا عثمان! فناداه مناد: يا خبيث! جزعت حين عضك نكال الله إلى كلام من نصبك وأصحابك بما ركبتم من الإمام المظلوم وفرّتم [من] الجماعة وأصبتم من الدماء، فذُق وبال الله وانتقامه. وقتلوا وقتل معهم، قتله يزيد بن الأسحمر الحُدائي، فوجد حَكِيم قتيلاً بين يزيد وأخيه كعب.

وقيل: قتله رجل يقال له ضَحَمٍ وقتل معه ابنه الأشرف وأخوه الرُّعل بن جبلة. ولما قُتل حَكِيم أرادوا قتل عثمان بن حُنيف فقال لهم: أما إن سهلاً بالمدينة فإن قتلتموني انتصر، فخلو سبيله، فقصد علياً. وقتل ذريح ومن معه، وأفلت خرّقوص بن زهير في نفر من أصحابه، فلهجوا إلى قومهم، فنادى منادي طلحة والزبير: من كان فيهم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم، فجيء بهم فقتلوا ولم ينج منهم إلا خرّقوص بن زهير، فإن عشيرته بني سعد منعوه، وكان منهم، فنالهم من ذلك أمر شديد، وضربوا فيه أجلاً وخشوا صدور بني سعد، وكانوا عثمانية، فاعتزلوا، وغضبت عبد القيس حين غضبت سعد لمن قُتل منهم بعد الوقعة ومن كان هرب إليهم إلى ما هم عليه من لزوم الطاعة لعلي، فأمر طلحة والزبير وليس معهما ثار إلا خرّقوص بن زهير، وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا وصاروا إليه، وكتب عائشة إلى أهل الكوفة بما كان منهم (٢٢٠/٣) وتأمروهم أن يشطروا الناس عن علي وتحثهم على طلب قتلة عثمان، وكتبت إلى أهل اليمامة وإلى أهل المدينة بما كان منهم أيضاً، وسيّرت الكتب.

وكانت هذه الوقعة لخمس ليال بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

وبايع أهل البصرة طلحة والزبير، فلمّا بايعوهما قال الزبير: ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي أقتله يائساً أو صباحاً قبل أن يصل إلينا! فلم يجبه أحد، فقال: إن هذه للفتنة التي كنّا نحدث عنها.

فقال له مولا: أتمسكها فتنة وتقاتل فيها؟ قال: ويلك! إنا نبصّر ولا نبصّر، ما كان أمر قط إلا وأنا أعلم موضع قدمي فيه غير هذا الأمر فأني لا أدري أمقل أنا فيه أم مدبر! وقال علقمة بن وقاص الليثي: لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحبّ المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيتك على صدرك، إن كرهت شيئاً فاجلس. قال: فقال لي: يا علقمة بيننا نحن يد واحدة على من سوانا إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً، إنه كان مني في عثمان شيء ليس توتي إلا أن يسفك دمي في طلب دمه. قال: فقلت: فرد ابنك محمداً فإن لك ضيعة وعيلاً، فإن يك شيء يخلفك. قال: فأمسحه. قال: فأثيت محمداً ابنه فقلت له: لو أقمت فإن حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضيعة. قال: ما أحب أن أسأل عنه الرُّكيان.

(يعلى بن مَنية بضم الميم، وسكون النون، والياء المعجمة باثنتين من تحتها، وهي أمه، واسم أبيه أمية. عبد الله بن خالد بن أسيد بفتح همزة أسيد. جارية بن قدامة بالجيم. حَكِيم بن جبلة بضم الحاء، وفتح الكاف، وقيل بفتح الحاء، وكسر الكاف. وصُوحان بضم الصاد، وآخره نون.) (٢٢١/٣)

ذكر مسير علي إلى البصرة والوقعة

قد ذكرنا فيما تقدّم تجهز علي إلى الشام، فبينما هو على ذلك أتاه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة من مكة بما عزموا عليه، فلمّا بلغه ذلك دعا وجوه أهل المدينة وخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح [به] أوله، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم. فتناقلوا، فلمّا رأى زياد بن حنظلة تناقل الناس انتدب إلى علي وقال له: من تناقل عنك فإننا نخف معك فنقاتل دونك. وقام رجلان صالحان من أعلام الأنصار، أحدهما أبو الهيثم بن التَّيهان، وهو بدري، والثاني خزيمة بن ثابت، قيل: [هو ذو الشَّهادتين]، وقال الحكم: ليس بذِي الشَّهادتين، مات ذو الشَّهادتين أيام عثمان، فأجابه إلى نصرته.

قال الشعبي: ما نهض في تلك الفتنة إلا ستة نفر بدريون ما لهم سابع. وقال سعيد بن زيد: ما اجتمع أربعة من أصحاب النبي، ﷺ، لخير يعملونه إلا وعليّ أحدهم، وقيل: وقال أبو قتادة الأنصاري لعلي: يا أمير المؤمنين إن رسول الله، ﷺ، قلّذني هذا السيف وقد أعمدته زماناً وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذي [لا] يألون الأمة غشاً، وقد أحببت أن تقدمني فقدمني. وقالت أم سلمة: يا أمير المؤمنين لولا أن أعصى الله وأنت لا تقبله مني لخرجت ههنا، وهذا ابن عمي، وهو والله أعز علي من نفسي، يخرج معك ويشهد مشاهدك. فخرج معه وهو لم يزل معه، واستعمله (٢٢٢/٣) عليّ على البحرين ثم عزله واستعمل النعمان بن عجلان الرُّزَقي. فلمّا أراد عليّ المسير إلى البصرة وكان

ولما قدم عليّ الرّيلة وسمع بها خبر القوم أرسل منها إلى الكوفة محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن جعفر وكتب إليهم: إني اخترتكم على الأمصار وفزعتُ إليكم لما حدث، فكونوا للدين الله أعراناً وأنصاراً وانهبوا إليّ، فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخواناً. فمضيا وبقي عليّ بالرّيلة، وأرسل إلى المدينة فاتاه ما يريد من دابة وسلاح وأمر أمره وقام في الناس فخطبهم وقال: إن الله تبارك وتعالى أعزّنا بالإسلام ورفّعنا به وجعلنا به إخواناً بعد ذلّة وقلة وتباغض وتباعد، (٢٢٤/٣) فجرى الناس على ذلك ما شاء الله، الإسلام دينهم والحق فيهم والكتاب إمامهم، حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان ليزرغ بين هذه الأمة! ألا إن هذه الأمة لا بدّ مفترقة كما افترقت الأمم قبلها، فنعوذ بالله من شرّ ما هو كائن؛ ثمّ عاد ثانية وقال: إنه لا بدّ ممّا هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تتحلني ولا تعمل بعملها، وقد أدرتكم ورأيتم، فالتزموا دينكم واهدوا بهديّ فإنّه هديّ نبيكم واتبعوا سنّته وأعرضوا عمّا أشكل عليكم حتى تعرضوه على القرآن فما عرفه القرآن فالتزموه وما أنكره فردوه، وارضوا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً ومحمّداً نبياً والقرآن حكماً وإماماً.

فلما أراد المسير من الرّيلة إلى البصرة قام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين أيّ شيء تريد وأين تذهب بنا؟ فقال: أمّا الذي نريد وننوي فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه. قال: فإن لم يجيبونا إليه؟ قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهما الحق ونصبر. قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما تركونا. قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم. قال: نعم إذا. وقام الحجاج بن غزاة الأنصاري فقال: لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول؛ وقال:

فراهم فراقها قبل الفوت فاقربنا واسم بنا نحو الصوت
لا وآلت نفسي إن كرت الموت

والله لننصرن الله كما سمّانا أنصاراً! ثمّ أتاه جماعة من طيء وهو بالرّيلة، (٢٢٥/٣) فقيل لعليّ: هذه جماعة قد أتتكم، منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك. قال: جرى الله كلهما خيراً وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. فلما دخلوا عليه قال لهم: ما شهدتمونا به؟ قالوا: شهدناك بكلّ ما تحبّ. فقال: جزاكم الله خيراً فقد أسلمتم طائعتين وقاتلتهم المرتدين ووافيتهم بصدقاتكم المسلمين. فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال: يا أمير المؤمنين إن من الناس من يعبر لسانه عمّا في قلبه، وإني والله ما أجد لسانني يعبر عمّا في قلبي، وسأجهد وبالله التوفيق، أمّا أنا فسأصبح لك في السرّ والعلانية، وأقاتل عدوك في كلّ موطن، وأرى من الحقّ لك ما لا أراه لأحد غيرك من أهل زمانك لفضلك وقربانك. فقال: رحمك الله! قد أدّى لسانك عمّا

يرجو أن يدرك طلحة والزبير فيردّهما قبل وصولهما إلى البصرة أو يوقع بهما، فلما سار استخلف على المدينة تمام بن العباس، وعلى مكة قثم بن العباس، وقيل: أمر على المدينة سهل بن حنيف، وسار عليّ من المدينة في تعيته التي تعبها لأهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، فقالت أخت عليّ بن عدي من بني عبد شمس:

لأهمّ فاعقر بقليّ جملته ولا تبارك فيّ بعير خملته
لأعليّ بن عديّ ليس له

وخرج معه من نشط من الكوفيّين والبصريّين متخفّفين في تسعائة، وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم، فلقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال: يا أمير المؤمنين لا تخرج منها، فالله إن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً! فسبّوه. فقال: دعوا الرجل من أصحاب محمد، ﷺ.

وسار حتى انتهى إلى الرّيلة، فلما انتهى إليها أتاه خبر سبقهم، فأقام بها يأتمر ما يفعل، وأتاه ابنه الحسن في الطريق فقال له: لقد أمرتك فعصيتني فتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك. فقال له عليّ: إنك لا تزال تخنّ خنين الجارية، وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أحبط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثمّ أمرتك يوم قتل أن لا تباع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كلّ مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك، فأبيت عليّ، وأمرتك حين (٢٢٣/٣) خرجت هذه المرأة وهذا الرجل أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فإن كان الفساد كان على يد غيرك، فعصيتني في ذلك كلّ.

فقال: أي بني! أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أحبط بعثمان، فوالله لقد أحبط بنا كما أحبط به، وأمّا قولك: لا تباع حتى يباع أهل الأمصار، فإن الأمر أمر أهل المدينة، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر، ولقد مات رسول الله، ﷺ، وما أرى أحداً أحقّ بهذا الأمر مني، فباع الناس أبا بكر الصديق فباعته، ثمّ إن أبا بكر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحقّ بهذا الأمر مني، فباع الناس عمر فباعته، ثمّ إن عمر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحقّ بهذا الأمر مني فجعلني سهماً من ستة أسهم، فباع الناس عثمان فباعته، ثمّ سار الناس إلى عثمان فقتلوه وباعوني طائعتين غير مكرهين، فأنّا مُقاتِل من خالفني بمن أطاعني حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين. وأمّا قولك أن أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير، فكيف لي بما قد لزمني أو من تريدني؟ أتريدني أن أكون كالضبع التي يحاط بها ويقال ليست ههنا حتى يحلّ غرقوبها حتى تخرج! وإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر ويعينني فمن ينظر فيه؟ فكفّ عنك يا بني.

يُجَنِّ ضَمِيرَكَ. فُقُتِلَ مَعَهُ بِصَفِينٍ.

وسار عليّ من الرّيْذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح، والراية مع محمد بن الحنفية، وعليّ على ناقه حمراء يقود فرساً كميّناً.

فلَمَّا نزل بَقِيدُ أُنْثَى أسد وطيء فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: الزموا قراكم، في المهاجرين كفاية. وأناه رجل بَقِيد من الكوفة، فقال له: مَنْ الرجل؟ قال: عامر بن مطر الشيباني. قال: أخبر عمّا وراءك. فأخبره، فسأله عن أبي موسى، فقال: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه. فقال عليّ: واللّه ما أريد إلّا الصلح حتى يُرَدَّ علينا.

ولما نزل عليّ الثعلبية أناه الذي لقي عثمان بن حنيف وحرسه فأخبر (٢٢٦/٣) أصحابه الخبر فقال: اللهم عافني ممّا ابتليت به طلحة والزبير. فلَمَّا انتهى إلى الإسّاد أناه ما لقي حَكِيم بن جَبَلَة وقَتْلَة عثمان فقال: الله أكبر! ما ينجيني من طلحة والزبير إن أصابا نارهما! وقال:

دعا حَكِيم دعوة الرُّمّاع حلّ بها منزلة السّراع

فلَمَّا انتهى إلى ذي قار أناه فيها عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعرة، وقيل: أناه بالرّيْذة، وكانوا قد نفّوا شعر رأسه ولحيته، على ما ذكرناه، فقال: يا أمير المؤمنين بعثني ذا لحية وقد جئتكم أمدد. فقال: أصبت أجراً وخيراً، إنّ الناس وليهم قبلي رجلاً فعمل بالكتاب والسنة، ثمّ وليهم ثالث فقالوا وفعلوا، ثمّ بايعوني وبايعني طلحة والزبير، ثمّ نكحنا بيعتي وألبا الناس عليّ، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما عليّ، واللّه إنّهما ليعلمان أنّي لست بدون رجل ممّن تقدّم، اللهم فاحللّ ما عقدا ولا تُبرّم ما أحكما في أنفسهما وأرهما المساءة فيما قد عملا! وأقام بذّي قار ينتظر محمداً ومحمداً، فأناه الخبر بما لقيت ربيعة وخروج عبد القيس، فقال: عبد القيس خير ربيعة وفي كلّ ربيعة خير، وقال:

يا لهف نفسي على ربيعة ربيعة السّائمة المطيعة
قد سبقتني فهم الرّبيعة دعا عليّ دعوة سميرة
خلّوا بها منزلة الرّبيعة

وعرضت عليه بكر بن وائل فقال لها ما قال لطيّء وأسد. وأمّا محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فأتيا أبا موسى بكتاب عليّ وقاما في الناس بأمره، فلم يجابا إلى شيء. فلَمَّا أمسوا دخل ناس من أهل الحجاز على أبي موسى (٢٢٧/٣) فقالوا: ما ترى في الخروج؟ فقال: كان الرأي بالأمس ليس اليوم، إنّ الذي تهاوتم [به] فيما مضى هو الذي جرّ عليكم ما ترون، إنّما هما أمران: القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا، فاختاروا. فلم ينفر إليه

أحد، فغضب محمد ومحمد وأغلظا لأبي موسى. فقال لهما: واللّه إن بيعه عثمان لفي عتقي وعتق صاحبيكما، فإن لم يكن بدّ من قتال لا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتل عثمان حيث كانوا.

فانطلقا إلى عليّ فأخبراه الخبر وهو بذّي قار، فقال للأشتر، وكان معه: أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كلّ شيء، اذهب أنت وابن عباس فاصلح ما أسدست. فخرجّا فقدمّا الكوفة فكلّمّا أبا موسى واستعانا عليه بنفر من أهل الكوفة، فقام لهم أبو موسى وخطبهم وقال: أيّها الناس إن أصحاب النبي، ﷺ، الذين صحبوه أعلم باللّه وبرسوله ممّن لم يصحبه، وإن لكم علينا لحقاً، وأنا مؤدّ إليكم نصيحة، كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان اللّه وأن لا تجتروا على اللّه وأن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتدروهم إليها حتى يجتمعوا فهم أعلم بمن تصلح له الإمامة، وهذه فتنة صماء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، والراكب خير من الساعي، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فاعمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة.

فرجع ابن عباس والأشتر إلى عليّ فأخبراه الخبر، فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر، وقال لعمار: انطلق فاصلح ما أسدست. فأقبلا حتى دخلا المسجد، (٢٢٨/٣) وكان أوّل من أتاها المسروق بن الأجدع فسلم عليهما، وأقبل على عمار فقال: يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان؟ قال: على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا. قال: فوالله ما عاقبتكم بمثل ما عوقبتكم به، ولئن صبرتم لكان خيراً للصّابرين. فخرج أبو موسى فلقى الحسن فضمه إليه وأقبل على عمار فقال: يا أبا اليقظان أعذّوت على أمير المؤمنين فيمن عدا فأحللت نفسك مع الفجّار؟ فقال: لم أفعل ولم يسؤني. فقطع الحسن عليهما الكلام وأقبل على أبي موسى فقال له: لمّ تشبط الناس عتاً؟ فوالله ما أردنا إلّا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يُخاف على شيء. فقال: صدقت يا بابي أنت وأمي، ولكن المستشار مؤتمن، سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: إنّها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب. وقد جعلنا الله إخواناً وقد حرّم علينا دماءنا وأموالنا. فغضب عمار وسبه وقام وقال: يا أيّها الناس إنّما قال له وحده: أنت فيها قاعداً خير منك قائماً. فقام رجل من بني تميم فسبّ عماراً وقال: أنت فيها قاعداً خير منك قائماً. فقام رجل من بني تميم فسبّ عماراً وقال: أنت أمس مع الفوغاء واليوم تسافه أميرنا! وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار الناس وجعل أبو موسى يكفكف الناس، ووقف زيد على باب المسجد ومعه كتاب إليه من عائشة تأمره فيه بملازمة بيته أو نصرتها، وكتاب إلى أهل الكوفة بمعناه،

رسول الله ﷺ، وإلى طلحة والزبير، وإني أشهد أنها زوجته في الدنيا والآخرة، فانظروا ثم انظروا في الحق فقاتلوا معه. فقال له رجل: أنا مع من شهدت له بالجنة على من لم تشهد له. فقال له الحسن: اكف عنا فإن للإصلاح أهلاً. وقام الحسن بن علي فقال: أيها الناس أجيئوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجل والأجل وخير في العاقبة، فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم، وإن أمير المؤمنين يقول: قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً، وإني أذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر، فإن كنت مظلوماً أعاني وإن كنت ظالماً أخذ مني، والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني وأول من غدر، فهل استأثرت بمال أو بدلت حكماً؟ فانفروا فمروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر. فسامح الناس وأجابوا ورضوا. وأتى قوم من طيء عدي بن حاتم فقالوا: ماذا ترى وما تأمر؟ فقال: قد بايعنا هذا الرجل وقد دعانا إلى جميل وإلى هذا الحدث العظيم لتنظر فيه، ونحن سائرون وناظرون. (٢٣١/٣) فقام هند بن عمرو فقال: إن أمير المؤمنين قد دعانا وأرسل إلينا رسله حتى جاءنا ابنه، فاسمعوا إلى قوله وانتهوا إلى أمره وانفروا إلى أميركم فانظروا معه في هذا الأمر وأعينوه ب رأيكم.

فأخرجهما فقرأهما على الناس، فلما فرغ منهما قال: أمرت أن تقر في بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة، فأمرتنا بما أمرت به وربكت ما أمرنا به. فقال له شيب بن رعي: يا عُماني - لأنه من عبد القيس وهم يسكنون عمان - سرت بجلولاء فقطعت يدك وعصيت أم المؤمنين ! وتهاوى الناس.

وقام أبو موسى وقال: أيها الناس أطيعوني وكونوا جراثمة من جراثيم العرب يأوي إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف، إن الفتنة إذا أقبلت شُبّهت (٢٢٩/٣) فإذا أدبرت يَبُتت، وإن هذه الفتنة فاقرة كداء البطن تجري بها الشمال والجنوب والصبا والذبور تذر الحليم وهو حيران كابن أمس، شيموا سيوفكم وقصدوا رماحكم وقطعوا أوتاركم والزموا بيوتكم، خلوا قريباً إذا أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل علم بالأمر، استصحبوني ولا تستغشوني، أطيعوني يسلم لكم دينكم ودنياكم ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها.

فقام زيد فشال يده المقطوعة فقال: يا عبد الله بن قيس ردّ الفرات على أدراجه، اردده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد، فدع عنك ما لست مدركه ! سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين، انفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق.

فقام القعقاع بن عمرو فقال: إني لكم ناصح وعليكم شفيق، أحبّ لكم أن ترضوا ولا قولن لكم قولاً هو الحق، أمّا ما قال الأمير فهو الحق لو أن إليه سبيلاً، وأمّا ما قال زيد فزيد عدو هذا الأمر فلا تستصحبوه، والقول الذي هو الحق أنه لا بدّ من إمارة تنظم الناس وترزع الظالم وتعزّ المظلوم، وهذا أمير المؤمنين وليّ بما وليّ وقد أنصف في الدعاء، وإنما يدعو إلى الإصلاح، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع.

وقال عبد الخير الخيراني: يا أبا موسى هل بايع طلحة والزبير؟ قال: نعم. قال: هل أحدث عليّ ما يحلّ به نقض بيعته؟ قال: لا أدري. قال: لا دريت، نحن نترك حتى تدري، هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة؟ إنما الناس أربع فرق: عليّ يظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، (٢٣٠/٣) وفرقة بالحجاز لا غناء بها ولا يقاتل بها عدو. فقال أبو موسى: أولئك خير الناس، وهي فتنة. فقال عبد الخير: غلب عليك غشك يا أبا موسى ! فقال سيحان بن صوحان: أيها الناس لا بدّ لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعزّ المظلوم ويجمع الناس، وهذا واليكم يدعوكم لتظفروا فيما بينه وبين صاحبيه، وهو الصامون على الأمة الفقيه في الدين، فمن نهض إليه فإنما سائرون معه. فلما فرغ سيحان قال عمار: هذا ابن عم رسول الله ﷺ، يستفركم إلى زوجة

وقام حجر بن عدي فقال: أيها الناس أجيئوا أمير المؤمنين وانفروا خفافاً وثقلاً، مروا وأنا أولكم. فاذعن الناس للمسير، فقال الحسن: أيها الناس إني غاو فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء في الماء. ففر معه قريب [من] تسعة آلاف، أخذ في البرّ ستة آلاف ومائتان، وأخذ في الماء ألفان وأربعمائة.

وقيل: إن عليّاً أرسل الأشتر بعد ابنه الحسن وعمار إلى الكوفة، فدخلها والناس في المسجد وأبو موسى يخطبهم ويثبّطهم والحسن وعمار معه في منازعة، وكذلك سائر الناس، كما تقدم، فجعل الأشتر لا يمرّ بقبيلة فيها جماعة إلا دعاهم، ويقول: اتبعوني إلى القصر، فانتهى إلى القصر في جماعة الناس، فدخله وأبو موسى في المسد يخطبهم ويثبّطهم والحسن يقول له: اعتزل عملنا لا أم لك ! وتنع عن منبرنا ! وعمار ينازعه، فأخرج الأشتر غلمان أبي موسى من القصر، فخرجوا يعدون وينادون: يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر فضرنا وأخرجنا. فنزل أبو موسى فدخل القصر فصاح به الأشتر: اخرج لا أم لك أخرج الله نفسك ! فقال: أجلني هذه العشية. فقال: هي لك ولا تبيتني في القصر الليلة. ودخل الناس يتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشتر وقال: أنا له جار. فكفّوا عنه. ففر الناس في العدد المذكور.

وقيل: إن عدد من سار من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل. قال أبو الطفيل: سمعت عليّاً يقول ذلك قبل وصولهم، فعددت

فأحسبهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً. وكان على كنانة وأسد وتميم والرباب ومُزينة مَعْقِل (٢٣٢/٣) ابن يسار الرياحي، وكان على سُبُع قيس سعد بن مسعود الثقفي عم المختار، وعلى بكر وتغلب وعلة بن محدوج الذهلي، وكان على مذحج والأشعرين حجر بن عدي، وعلى بجيلة وأنمار وخثعم والأزد مخنف بن سُلَيْم الأزدي، فقدموا على أمير المؤمنين بذي قار، فلقبهم في ناس معه فيهم ابن عباس فرحب بهم وقال: يا أهل الكوفة أنتم قاتلتُم ملوك العجم وفرضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم فمنعتم حوزتكم واعتصم الناس على عدوهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك الذي نريد، وإن يلبجوا داويناهم بالرفق حتى يبدوونا بظلم، ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله. واجتمعوا عنده بذي قار وعبد القيس بأسرها في الطريق بين علي [وأهل] البصرة ينتظرونه وهم ألوف.

وكان رؤساء الجماعة من الكوفيين: القعقاع بن عمرو وسعد بن مالك وهند بن عمرو والهيثم بن شهاب، وكان رؤساء الثُّقَات: زيد بن صُوحان والأشتر وعدي بن حاتم والمسبب بن نجبة ويزيد بن قيس، وأمثال لهم ليسوا دونهم، إلا أنهم لم يؤمروا، منهم حجر بن عدي. فلما نزلوا بذي قار دعا عليّ القعقاع فارسه إلى أهل البصرة وقال: ألقِ هذين الرجلين، وكان القعقاع من أصحاب النبي ﷺ، فادعُهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة، وقال له: كيف تصنع فيما جاءك منهما وليس عندك فيه وصاة [مني]؟ قال: نلقاهم بالذي أمرت به. فإذا جاء منهم ما ليس عندنا منك فيه رأي اجتهدنا رأينا (٢٣٢/٣) وكلّمناهم كما نسمع ونرى أنه ينبغي. قال: أنت لها. فخرج القعقاع حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة فسلم عليها وقال: أي أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أي بني الإصلاح بين الناس. قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلاهما. فبعثت إليهما، فجاءا، فقال لهما: إنني سألتُ أم المؤمنين ما أقدمها، فقالت: الإصلاح بين الناس، فما تقولان أتما، أمتابعان أو مخالفان؟ قال: متابعان. قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فقال لهن عرفناه لنصلحن ولئن أنكرناه لا نصلح. قال: قتلة عثمان، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن. قال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتهم حرقوص بن زهير فمنعته ستة آلاف، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون، وإن قاتلتموهم والذي اعتزلوكم فأدبلوا عليكم فالذي حذرتم وقويت به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون، وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير.

قالت عائشة: فماذا تقول أنت؟ قال: أقول: إن هذا الأمر دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتبائسير رحمة ودرك بشار، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شرّ وذهاب هذا المال، فأثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم، ولا تعرّضونا للبلاء فتعرّضوا له فيصرعنا وإياكم. وإيم الله إنني لأقول هذا القول وأدعوكم إليه! وإني لخائف أن لا يتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة التي قلّ متاعها ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس (٢٣٤/٣) يُقدَّر، وليس يقتل الرجل الرجل ولا النفس الرجل ولا القبيلة الرجل. قالوا: قد أصبت وأحسنت فارجع، فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر.

فرجع إلى عليّ فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح كره ذلك من كرهه ورضيه من رضيه. وأقبلت وفود العرب من أهل البصرة نحو عليّ بذي قار قبل رجوع القعقاع ليظفروا ما رأى إخوانهم من أهل الكوفة وعلى أي حال نهضوا إليهم وليعلموهم أن الذي عليه رأيهم الإصلاح ولا يخطر لهم قتالهم على بال.

فلما لقوا عشائرهم من أهل الكوفة قال لهم الكوفيون مثل مقاتلتهم وأدخلوهم على عليّ فأخبروه بخبرهم، وسأل عليّ جرير بن شبر عن طلحة والزبير فأخبره بدقيق أمرهما وجليله وقال له: أما الزبير فيقول: بايعنا كرهاً، وأما طلحة فيمثل الأشعار ويقول:

ألا ابْلِغْ بني بكر رُسولاً فليس إلى بني كعب سبيلٌ
سِرِجَ ظِلْمِكُمْ مِنْكُمْ عَلَيْكُمْ طویلُ الساعِلينَ لَهُ فَضولٌ
فتمثل عليّ عندها:

ألم تَغْلَمْ إِبْسا سَمْعَانُ أَنَا نرد الشيخ مثلك ذا الصُّدَاعِ
وينمل عقله بالحرب حتى يقوم فينجب لغير داعٍ
فدافع عن خزاعة جمع بكر وما بك يا سُرَاقَة من دُفَاعِ

ورجعت وفود أهل البصرة برأي أهل الكوفة، ورجع القعقاع من البصرة، فقام عليّ خطيباً فحمد الله وذكر الجاهلية وشقائها والإسلام والسعادة وإنعام الله (٢٣٥/٣) على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ، ثم الذي يليه ثم الذي يليه، ثم حدث هذا الحدث الذي جرّه على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا وحسدوا من أفاضها الله عليه وعلى الفضيلة وأرادوا ردّ الإسلام والأشياء على أديارها، والله بالغ أمره. ألا وإني راحل غداً فارتحلوا، ولا يرتحلن أحد أغان على عثمان بشيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم. فاجتمع نفر، منهم: علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة القيسي وشريح بن أوفى والأشتر في عدة ممن سار إلى عثمان ورضي بسير من سار، وجاء

عما تكروهون. فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون.

معهم المضربون وابن السوداء وخالد بن ملجم فتشاوروا فقالوا: ما الرأي؟ وهذا عليّ وهو والله أبصر بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان وأقرب إلى العمل بذلك، وهو يقول ما يقول ولم ينسر إليه سواهم والقليل من غيرهم، فكيف به إذا شام القوم وشاموه وراوا قلتنا في كثرتهم، وأنتم والله تراءون وما أنتم بالحي من شيء!

فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، وأما عليّ فلم نعرف رأيه إلى اليوم، ورأي الناس فينا واحد، فإن يصطلحوا مع عليّ فعلى دماننا، فهلّموا بنا تنب على عليّ فنلحقه بعثمان فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون.

فقال عبد الله بن السوداء: بشس الرأي رأييت، أنتم يا قتلة عثمان بذى قار ألفان وخمسائة أو نحو من ستمائة، وهذا ابن الحنظلية، يعني طلحة، وأصحابه في نحو من خمسة آلاف بالأسواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سيلاً.

فقال علباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عنهم ودعوهم، فإن قلّوا كان أقوى لعدوهم عليهم، وإن كثروا كان أحرق أن يصطلحوا عليكم، دعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيتكم فيه من تقرون به وامتنعوا من الناس.

فقال ابن السوداء: بشس ما رأييت، وذ والله الناس أنكم انفردتم ولم تكونوا مع أقوام برّاء، ولو انفردتم (٢٣٦/٣) لتخطفكم الناس كلّ شيء.

فقال عدي بن حاتم: والله ما رضيت ولا كرهت، ولقد عجبت من تردّد من تردّد عن قتلة في خوض الحديث، فأما إذا وقع ما وقع ونزل من الناس بهذه المنزلة فإن لنا عتاداً من خيول وسلاح، فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتهم أمسكنا.

فقال ابن السوداء: أحسنت.

وقال سالم بن ثعلبة: من كان أراد بما أتى الدنيا فلأني لم أرد ذلك، والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى شيء، وأحلف بالله إنكم لتفرّقنّ السيف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف.

فقال ابن السوداء: قد قال قولاً.

وقال شريح بن أوفى: أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا، ولا تؤخروا أمراً ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجلوا أمراً ينبغي لكم تأخير، فإنّا عند الناس بشرّ المنازل وما أدري ما الناس صانعون إذا ما هم بالتقوا.

وقال ابن السوداء: يا قوم إن عزمكم في خطبة الناس، خطبة التي الناس غداً فأنشروا القتال ولا تفرغوه للظن، فمن أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع، ويشغل الله عليّاً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم

وأصبح عليّ على ظهر ومضى، ومضى معه الناس حتى نزل على عبد القيس فانضمّوا إليه، وسار من هناك فنزل الزاوية، وسار من الزاوية يريد البصرة، وسار طلحة والزبير وعائشة من الغرضة، فالتقوا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد. فلما نزل الناس أرسل شقيق بن ثور إلى عمرو بن مروحم العبدى أن اخرج فإذا خرجت فعمل بنا إلى عسكر عليّ. فخرجوا في عبد القيس وبكر بن وائل فعدلوا إلى عسكر عليّ، فقال الناس: من كان هؤلاء معه غلب.

وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال، فكان يرسل عليّ إليهم يكلمهم ويدعوهم، وكان نزولهم في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، ونزل بهم عليّ وقد (٢٣٧/٣) سبق أصحابه وهم يتلاحقون به. فلما نزل قال أبو الجرياء للزبير: إن الرأي أن تبعث ألف فارس إلى عليّ قبل أن يوافي إليه أصحابه. فقال: إنا لنعرف أمور الحرب ولكنهم أهل دعوتنا وهذا أمر حدث لم يكن قبل اليوم، من لم يلق الله فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة، وقد فارقنا وفدهم على أمر وأنا أراجو أن يتم لنا الصلح فابشروا واصبروا. وأقبل صبرة بن شيمان فقال لطلحة والزبير: انتهزنا بنا هذا الرجل فإن الرأي في الحرب خير من الشدة. فقالا: إن هذا أمر لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن أو يكون فيه سنة من رسول الله، وقد زعم قوم أنه لا يجوز تحريكه، وهم عليّ ومن معه، وقلنا نحن: إنه لا ينبغي لنا أن نتركه ولا نؤخره، وقد قال عليّ: ترك هؤلاء القوم شرّ وهو خير من شرّ منه، وقد كان يتبين لنا، وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بأعماها منفعة. وقال كعب بن سور: يا قوم اقطعوا هذا العنق من هؤلاء القوم، فأجابوه بنحو ما تقدّم. وقام عليّ فخطب الناس، فقال إليه الأعور بن بنان المنقري فسأله عن إقدامهم على أهل البصرة، فقال له عليّ: على الإصلاح وإطفاء النائرة لعلّ الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ويضع حربهم. قال: فإن لم يجيبونا؟ قال: تركناهم ما تركونا. قال: فإن لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا. قال: فهل لهم من هذا مثل الذي عليهم؟ قال: نعم.

وقام إليه أبو سلامة الدالاني فقال: أتري لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله بذلك؟ قال: نعم. قال: أفترى لك حجة بتأخير ذلك؟ قال: نعم، إن الشيء إذا كان لا يدرك فإن الحكم فيه أحوطه وأعمده (٢٣٨/٣) بنعماً. قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً؟ قال: إني لأرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقي قلبه لله إلا أدخله الله الجنة.

وقال في خطبته: أيها الناس املكوا عن هؤلاء القوم أيديكم والستكم وإياكم أن تسبقونا فإن المخصوم غداً من خصم اليوم. وبعث إليهم حكيم بن سلامة ومالك بن حبيب. إن كسم عليّ ما

الحق» [النور: ٢٥]. يا طلحة، تطلب بدم عثمان فلعن الله قتلة عثمان ! يا طلحة، أجت بعرض رسول الله، ﷺ، تقاتل بها وخيات عرسك في البيت ! أما بايعتي؟ قال: بايعتك والسيف على عقي. فقال علي للزبير: يا زبير ما أخرجك؟ قال: أنت، ولا أراك لهذا الأمر أهلاً (٢٤٠/٣) ولا أولى به منا. فقال له علي: ألسنت له أهلاً بعد عثمان؟ قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا. وذكره أشياء، وقال له: تذكر يوم مررت مع رسول الله، ﷺ، في بني غنم فنظر إلي فضحك وضحك إلي فقلت له لا يدع ابن أبي طالب زهو، فقال لك رسول الله، ﷺ، ليس به زهو، لتقاتله وأنت ظالم له. قال: اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبداً. فانصرف علي إلى أصحابه فقال: أما الزبير فقد أعطى الله عهداً أن لا يقاتلكم. ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا. قالت: فما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أدعهم وأذهب. قال له ابنه عبد الله: جمعت بين هذين الغارين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب، ولكنك خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد وأن تحتها الموت الأحمر فجئت. فأحفظه ذلك، وقال: إنني حلفت أن لا أقاتله. قال: كَفَر عن يمينك وقابلته. فاعتق غلامه مكحولاً، وقيل سرجس، فقال عبد الرحمن بن سليمان التميمي:

لَم أَزْكَالِيَوْمَ أَحِبَّ إِخْوَانٍ أَعْجَبَ مِنْ مُكْتَبَرِ الْأَيَّامِ
الأيام. وقيل: إنما عاد الزبير عن القتال لما سمع أن عمار بن ياسر (٢٤١/٣) مع علي، فخاف أن يقتل عماراً، وقد قال النبي، ﷺ: يا عمار تقتلك الفئة الباغية، فردّه ابنه عبد الله، كما ذكرناه. وافترق أهل البصرة ثلاث فرق: فرقة مع طلحة والزبير، وفرقة مع علي، وفرقة لا ترى القتال، منهم الأحنف وعمران بن حصين وغيرهما. وجاءت عائشة فنزلت في مسجد الجُدَّان في الأزد، ورأس الأزد يومئذ صبرة بن شيمان، فقال له كعب بن سور: إن الجموع إذا ترامت لم تستطع، إنما هي بحور تدفق، فأطعني ولا تشهدهم واعتزل بقومك فإنني أخاف أن لا يكون صلح، ودع مضر وربيعة فهما أخوان فإن اصطالحا فالصلح أردنا وإن اقتتلا كنا حكماً عليهم غداً.

وكان كعب في الجاهلية نصرانياً، فقال له صبرة: أخشى أن يكون فيك شيء من النصرانية ! أنأمرني أن أغيب عن إصلاح بين الناس وأن أخذل أم المؤمنين وطلحة والزبير إن ردوا عليهم الصلح وأدع الطلب بدم عثمان؟ والله لا أفعل هذا أبداً ! فأطبق أهل اليمن على الحضور، وحضر مع عائشة المنجاب بن راشد في الرباب، وهم: تيم، وعدي، وثور، وعُكل بنو عبد مناف بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر. وخشيته بن أد بن طابخة، وحضر أيضاً أبو

فارقتم عليه القعقاع فكفوا حتى نزل ونظر في هذا الأمر. وخرج إليه الأحنف بن قيس وبنو سعد مشعرين قد منعوا حرقوص بن زهير وهم معتزلون، وكان الأحنف قد بايع علياً بالمدينة بعد قتل عثمان لأنه كان قد حج وعاد من الحج فبايعه. قال الأحنف: ولم أبايع علياً حتى لقيت طلحة والزبير وعائشة بالمدينة وأنا أريد الحج وعثمان محصور، فقلت لكلّ منهم: إن الرجل مقتول فمن تأمروني أبايع؟ فكلمهم قال: بايع علياً. فقلت: أنرضونه لي؟ فقالوا: نعم. فلما قضيت حاجي ورجعت إلى المدينة رايت عثمان قد قُتل فبايعت علياً ورجعت إلى أهلي ورايت الأمر قد استقام. فبينما أنا كذلك إذ أناني أت فقال: هذه عائشة وطلحة والزبير بالخريبة يدعونك. فقلت: ما جاء بهم؟ قال: يستصرونك على قتال علي في دم عثمان، فأتاني أقطع أمر، فقلت: إن خذلاني أم المؤمنين وخواري رسول الله، ﷺ، لشديدي، وإن قتال ابن عم رسول الله، ﷺ، وقد أمروني ببيعته أشد، فلما أتيتهم قالوا: جئنا لكذا وكذا. قال: فقلت: يا أم المؤمنين ويا زبير ويا طلحة، نشدكم الله أقلت لكم: من تأمروني أبايع؟ فقلت: بايع علياً. فقالوا: نعم ولكنه بدل وغير. فقلت: والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين ولا أقاتل ابن عم رسول الله، ﷺ، وقد أمرتموني ببيعته، ولكني اعتزل. فاذنوا له في ذلك، فاعتزل بالجلحاء ومعه زهاء ستة آلاف، وهي من البصرة على فرسخين. فلما قدم علي أنهاه الأحنف (٢٣٩/٣) فقال له: إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً قتلت رجالهم وسببت نساءهم. قال: ما مثلي يخاف هذا منه، وهل يحل هذا إلا لمن تولى وكفر وهم قوم مسلمون؟ قال: اختر مني واحدة من اثنتين، إما أن أقاتل معك وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف. قال: فكيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال؟ قال: إن من الوفاء لله قتالهم. قال: فأكف عنّا عشرة آلاف سيف. فرجع إلى الناس فدعاهم إلى القعود ونادى: يا آل خندف ! فأجاب ناس، ونادى: يا آل تميم ! فأجاب ناس، ثم نادى: يا آل سعد ! فلم يبق سعدى إلا أجابه، فاعتزل بهم ونظر ما يصنع الناس، فلما كان القتال وظفر علي دخلوا فيما دخل فيه الناس وأقرين.

فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه سلاح، ففيل لعلي: هذا الزبير. فقال: أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله تعالى أن يذكر.

وخرج طلحة فخرج إليهما علي حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال علي: لعمري قد أعددتما سلاحاً وخيلاً ووجالاً إن كتتما أعددتما عند الله عذراً، فاتقيا الله ولا تكونا «كألتى نقصت عزّلهما من بعد قوّه أنكنا» [النحل: ٩٢]، ألم أكن أخاكما في دينكما تحرّمان دمي وأحرّوم دمعكما، فهل من حدث أحلّ لكما دمّي؟ قال طلحة: ألبت على عثمان. قال علي: «يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُم

إلا القتال لعل الله أن يصلح بك...

الجرباء في بني عمرو بن تميم، وهلال بن وكيع في بني حنظلة، وصبرة بن شيمان على الأزدي، ومجاشع بن مسعود السلمي على سليم، ورفر بن الحارث في بني عامر وغطفان، ومالك بن مسجع على بكر، والخزيت بن راشد على بني ناجية، وعلى اليمن ذو الأجرة الحميري.

ولما خرج طلحة والزبير نزلت مضر جميعاً وهم لا يشكون في الصلح، ونزلت ربيعة فوقهم وهم لا يشكون في الصلح، ونزلت اليمن أسفل منهم ولا يشكون في الصلح، وعائشة في الحذان، والناس بالزبوة على رؤسائهم هؤلاء، وهم ثلاثون ألفاً، وردوا حكيماً ومالكاً إلى عليّ أنبا على ما فارقتا عليه (٢٤٢/٣) القعقاع، ونزل عليّ بحياهم، فنزلت مضر إلى مضر، وربيعه إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن، فكان بعضهم يخرج إلى بعض لا يذكرهم إلا الصلح، وكان أصحاب عليّ عشرين ألفاً، وخرج عليّ وطلحة والزبير فتوافقوا فلم يروا أمراً أمثل من الصلح ووضع الحرب، فافترقوا على ذلك. وبعث عليّ من العشي عبد الله بن عباس إلى طلحة والزبير، وبعثهما محمد بن أبي طلحة إلى عليّ، وأرسل عليّ إلى رؤساء أصحابه، وطلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما بذلك، فباتوا ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية التي أشرفوا عليها والصلح وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة وقد أشرفوا على الهلكة، وباتوا يتشاورون، فاجتمعوا على إنشأ الحرب، فغذوا مع الفلاس وما يشعر بهم، فخرجوا متسللين وعليهم ظلمة، فقصدهم مضرهم إلى مضرهم، وربيعتهم إلى ربيعهم، ويمنهم إلى يمنهم، فوضعوا فيهم السلاح، فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجه أصحابهم الذين اتروهم، وبعث طلحة والزبير إلى الميمنة، وهم ربيعة، أميراً عليها عبد الرحمن بن الحارث، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب، وثبتا في القلب وقالوا: ما هذا؟ قالوا: طرقتا أهل الكوفة ليلاً. فقال: قد علمنا أن عليّاً غير منته حتى يسفك الدماء وأنه لن يظاوعنا. فرد أهل البصرة أولئك الكوفيين إلى عسكرهم.

فسمع عليّ وأهل الكوفة الصوت وقد وضع النسيئة رجلاً قريباً منه يخبره بما يريد، فلما قال عليّ: ما هذا؟ قال ذلك الرجل: ما شعرنا إلا وقوم منهم قد يبيتون فرددناهم فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس. فأرسل عليّ صاحب الميمنة إلى الميمنة وصاحب الميسرة إلى الميسرة وقال: لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء وأنهما لن يظاوعانا والنسيئة لا تفر [إنشأها]، ونادى عليّ في الناس: كفوا فلا شيء، وكان من رأيهم (٢٤٣/٣) جميعاً في تلك الفتنة أن لا يقتلوا حتى يبدؤوا، يطلبون بذلك الحق، وأن لا يقتلوا مذنباً ولا يجهزوا على جريح ولا يستحلوا سلباً ولا يرزوا بالبصرة سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً. وأقبل كعب بن سور حتى أتى عائشة فقال: أدركني فقد أبى القوم

فركبت والبسوا هودجها الأدراع، فلما برزت من البيوت وهي على الجمل بحيث تسمع الغوغاء وقتت وقتل الناس وقتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح والزبير كافاً عنه ويقول: أنتقلي يا أبا اليقظان؟ فيقول: لا يا أبا عبد الله. وإنما كف الزبير عنه لقول رسول الله ﷺ: «قتل عماراً الفتنة الباغية»، ولولا ذلك لقتله. وبينما عائشة واقفة إذ سمعت ضجة شديدة فقالت: ما هذا؟ قالوا: ضجة العسكر. قالت: بخير أو بشر؟ قالوا: بشر، فما فجأها إلا الهزيمة، فمضى الزبير من وجهه إلى وادي السباع، وإنما فارق المعركة لأنه قاتل تعذيراً لما ذكر له عليّ.

وأما طلحة فأتاه سهم غريب فأصابه فشك رجله بصفحة الفرس وهو ينادي: إليّ إليّ عباد الله! الصبر الصبر! فقال له القعقاع بن عمرو: يا أبا محمد إنك لجريح وإنك عما تريد لعليل، فادخل البيوت. فدخل ودمه يسيل وهو يقول: اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضي، فلما امتلأ خفه دمًا ونقل قال لغلامه: أردفني وأمسكني وأبلغني مكاناً أنزل فيه. فدخل البصرة، فأنزله في دار خربة فمات فيها، وقيل: إنه اجتاز به رجل من أصحاب عليّ فقال له: أنت من أصحاب أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: امدد يدك أبياعك له؛ فباعه، فخاف أن يموت وليس في عقه بيعة. ولما قضى دفن في بني سعد، وقال: (٢٤٤/٣) لم أر شيئاً أضيع دمًا مني. وتمثل عند دخول البصرة مثله ومثل الزبير:

فإن تكن الحواشي أقتلني وأخطأ من سهمي حين أرمي
قد ضيقت حين تبعته سهماً سفاهاً ما سفهت وضل حلمي
نمت نائمة الكسبي لئلا شرت رضا بني سهم برغمي
أطعمهم بفرقة آل لاي فلقوا للسباع تملي ولحمي

وكان الذي رمى طلحة مروان بن الحكم، وقيل غيره. وأما الزبير فإنه مر بعسكر الأحنف بن قيس فقال: والله ما هذا أنحياز، جمع بين المسلمين حتى ضرب بعضهم بعضاً لحق بيته. وقال الأحنف للناس: من يأتيني بخبره؟ فقال عمرو بن جرموز لأصحابه: أنا، فاتبعه، فلما لحقه نظر إليه الزبير قال: ما وراءك؟ قال: إنما أريد أن أسألك. فقال غلام للزبير اسمه عطية: إنه مُعد. قال: ما يهلك من رجل! وحضرت الصلاة، فقال ابن جرموز: الصلاة. فقال الزبير: الصلاة، فلما نزل استديره ابن جرموز فطعنه في جربان درعه فقتله وأخذ فرسه وسلاحه وخاتمه وخلّى عن الغلام فدفنه بوادي السباع ورجع إلى الناس بالخير. وقال الأحنف لابن جرموز: والله ما أدري أحسنت أم أسأت.

فأتى ابن جرموز عليّاً فقال لحاجه: استأذن لقاتل الزبير. فقبل عليّ، اثنى له ويشره بالثار. وأحضر سيف الزبير عند عليّ فمأخذه

أطلب طول العمر ما حيت

وإنما تمثلها، وقال ابن أبي ثمران الهمداني :

جردت سيفي في رجال الأرد أضرب في كهولهم والمرد
كل طويل الساعليس نهذ

ورجعت ربيعة الكوفة فاقتلوا قتلاً شديداً فقتل على رايتهم،
وهم في الميسرة: زيد وعبد الله بن رقية وأبو عبيدة بن راشد بن
سلمى وهو يقول: اللهم أنت هديتنا من الضلالة واستغفرتنا من
الجهالة وإبليتنا بالفتنه فكنا في شبهة وعلى رية، وقُتل. واشتد
الأمر حتى لزقت ميمنة أهل الكوفة بقلبيهم وميسرة أهل البصرة
بقلبيهم ومنعوا ميمنة أهل الكوفة أن يخلطوا بقلبيهم وإن كانوا إلى
جنبهم، وفعل مثل ذلك ميسرة أهل الكوفة بميمنة أهل البصرة،
فلما رأى الشجعان من مضر الكوفة والبصرة الصبر تنادوا: طرّفوا
إذا فرغ الصبر، فجعلوا يقصدون الأطراف الأيدي والأرجل، فما
رؤي وقعة كانت أعظم منها قبلها ولا بعدها ولا أكثر ذراعاً مقطوعة
ولا رجلاً مقطوعة، وأصابت يد عبد الرحمن (٢٤٧/٣) ابن عتاب
قبل قتله. فنظرت عائشة من يسارها فقالت: من القوم عن يساري؟
قال صبرة بن شيمان: بنوك الأرد. فقالت: يا آل غسان حافظوا اليوم
[على] جلاذكم الذي كنا نسعى به، وتمثلت :

وجالذ من غسان أهل حفاظها ونسب وأوس جالذ وشيب

فكان الأرد يأخذون بقر الجمل يشمونهم ويقولون: بعر جمل
أما ريحهم ريح المسك. وقالت لمن عن يمينها: من القوم عن
يمينني؟ قال: بكر بن وائل. قالت: لكم يقول القائل :

وجاؤا إلينا في الحديد كأنهم من العزة القعاء بكر بن وائل

إنما بإزائكم عبد القيس. فاقتلوا أشد من قتالهم قبل ذلك.
وأقبلت على كتيبة بين يديها فقالت: من القوم؟ قالوا: بنو ناجية.
قالت: بخ يخ سيف أبطحية قرشية! فجالدوا جلاذاً يضادى منه.
ثم أطافت بها بنو ضبة فقالت: وبها جمرة الجمرات! فلما رُفوا
خالطهم بنو عدي بن عبد مناة وكثروا حولها، فقالت: من أنتم؟
قالوا: بنو عدي خالطنا إختوتنا، فأقاموا رأس الجمل وضربوا ضرباً
شديداً ليس بالتعذير ولا يعدلون بالتطريف، حتى إذا كثر ذلك
وظهر في العسكرين جميعاً راموا الجمل وقالوا: لا يزال القوم أو
يُصرع الجمل، وصار مجتنباً علي إلى القلب، وفعل ذلك أهل
البصرة، وكره القوم بعضهم بعضاً. وأخذ عبيدة بن يثربي برأس
الجمل وكان قاضي البصرة قبل كعب بن سور، فشهد الجمل هو
وأخوه عبد الله، فقال علي: من يحمل على الجمل؟
فانتدب (٢٤٨/٣) له هند بن عمرو الجملي المرادي، فاعترضه ابن
يثربي فاختلفا ضربتين فقتله ابن يثربي، ثم حمل علباء بن الهيثم
فاعترضه ابن يثربي فقتله وقتل سيحان بن صوحان وارثه
صعصعة، وقال ابن يثربي :

فنظر إليه وقال: طالما جئني به الكرب عن وجه رسول الله، ﷺ !
وبعث به إلى عائشة لما انجلت الوقعة وانهزم الناس يريدون
البصرة، لما رأوا الخيل أطافت بالجمل عادوا قلباً كما كانوا حيث
التقوا وعادوا في أمر جديد، ووقفت ربيعة بالبصرة (٢٤٥/٣) بميمنة
وبعضهم ميسرة، وقالت عائشة لما انجلت الوقعة وانهزم الناس
لكعب بن سور: خلّ عن الجمل وتقدم بالمصحف فادعهم إليه.
وناولته مصحفاً. فاستقبل القوم والسبيبة أمامهم فرموه رشقاً واحداً
فقتلوه ورموا أم المؤمنين في هودجها، فجعلت تنادي: البقية البقية
يا بني! ويعلو صوتها كثرة: الله الله! اذكروا الله والحساب!
فيأبون إلا إقداماً، فكان أول شيء أحدثه حين أبوا أن قالت: أيها
الناس العنوا قتل عثمان وأشياعهم. وأقبلت تدعو، وضجّ الناس
بالدعاء. فسمع عليّ فقال: ما هذه الضجة؟ قالوا: عائشة تدعو على
قتلة عثمان وأشياعهم. فقال علي: اللهم العن قتلة عثمان!
فأرسلت إلى عبد الرحمن بن عتاب وعبد الرحمن بن الحارث بن
هشام أن اثبتا مكانكما، وحرّضت الناس حين رأت القوم يريدونها
ولا يكفون، فحملت مضر البصرة حتى قصفت مضر الكوفة حتى
رُحم عليّ ففخس قفا ابنه محمد، وكانت الراية معه، وقال له:
احمل! فتقدم حتى لم يجد متقدماً إلا على ستان رمح، فأخذ عليّ
الراية من يده وقال: يا بني بين يديّ.

وحملت مضر الكوفة، فاجتلدوا قدام الجمل حتى ضرسوا
والمجبتان على حالهما لا تصنع شيئاً، ومع عليّ قوم من غير
مضر، منهم زيد بن صوحان، طلبوا ذلك منه، فقال له رجل: تنح
إلى قومك، ما لك ولهذا الموقف؟ ألسنت تعلم أن مضر بحيالك
والجمل بين يديك وأن الموت دونه؟ فقال: الموت خير من
الحياة، الموت أريد، فأصيب هو وأخوه سيحان وارثه صعصعة
أخوهما واشتدت الحرب، فلما رأى عليّ ذلك بعث إلى ربيعة
وإلى اليمن أن اجتمعوا من يليكم. فقام رجل من عبد القيس من
أصحاب عليّ فقال: ندعوكم إلى كتاب الله. فقالوا: وكيف يدعونا
إليه من لا يستقيم ولا يقيم حدود الله وقد قتل كعب بن سور داعي
الله! ورمته ربيعة رشقاً واحداً فقتلوه، فقام مسلم بن (٢٤٦/٣) عبد
الله العجلي مكانه فرشقوه رشقاً واحداً فقتلوه، ودعت يمن الكوفة
يمن البصرة فرشقوهم، وأبى أهل الكوفة إلا القتال ولم يرسدوا إلا
عائشة، فذكرت أصحابها فاقتلوا حتى تنادوا فتحاجزوا ثم رجعوا
فاقتلوا وتزاحف الناس وظهرت اليمن البصرة على يمن الكوفة
فهزمتهم، وربيعه البصرة على ربيعة الكوفة فهزمتهم، ثم عاد يمن
الكوفة فقتل على رايتهم عشرة، خمسة من همدان وخمسة من
سائر اليمن. فلما رأى ذلك يزيد بن قيس أخذها فثبتت في يده وهو
يقول :

قد عشت يا نفسي وقد عشت دهرأ قسلك اليوم مما بقيت

بخطام الجمل، وكان ممن أخذ بزمام الجمل محمد بن طلحة، وقال: يا أمّاه مزيّني بأمرك. قالت: أملك أن تكون خير بني آدم إن تركت، فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل [عليه]، وقال: (٢٥٠/٣) حاميم لا يُصرون، واجتمع عليه نفر كلهم ادعى قتله، المكعب الأسدي، والمكعب الضبّي، ومعاوية بن شداد العبسي، وعفّار السعدي النُصري، فأنفذه بعضهم بالرمح، ففي ذلك يقول:

واشغف قسّامٌ بآيات ربي قليل الأذى فيما ترى العينُ مسلم
هتكت له بالرمح جيبَ قبيصٍ فخرَ صريعاً للبين وللشم
يذكرني حلِيمٌ والريحُ شاجرٌ ففلاً تلا حاميمٌ قبل التّقدم
على غير شيءٍ غير أن ليس تابِعاً علياً ومن لا يتبع الحقَّ يندم
وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف فجعل لا يدنو منه أحد إلا خبطه بالسيف، فأقبل إليه الحارث بن زهير الأزدي وهو يقول:

يا أمّيا خيراً أمْ نعلمُ أما ترين كم شجاع يكلّم
وتُختلى هامتهُ والبعضمُ

فاختلفا ضربتين فقتل كلّ واحد منهما صاحبه، وأحذق أهل النجدات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الخطام أحد إلا قُتل، وكان لا يأخذه والراية إلا معروف عند المطيفين بالجمل فينتسب: أنا فلان بن فلان، فوالله إن كان ليقاتلون عليه وإنه للموت لا يوصل إليه إلا بطلبة وعنت، وما رماه أحد من أصحاب علي إلا قُتل أو أفلت ثم لم يعد، وحمل عدي بن حاتم الطائي عليهم ففقت عينه، وجاء عبد الله بن الزبير ولم يتكلّم فقالت: من أنت؟ فقال: ابنك ابن أختك. قالت: واتكل أسماء! وانتهى إليه الأشتر، فاقتلا، فضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحاً شديداً، وضربه عبد الله ضربة خفيفة، واعتنق كلّ رجل منهما صاحبه وسقطا إلى الأرض يتركان، فقال ابن الزبير: (٢٥١/٣)

اقتلونني ومالكاً واقتلوا مالكاً ثمّني

فلو يعلمون من مالك لقتلوه، وإنما كان يُعرف بالأشتر، فحمل أصحاب علي وعائشة فخلصوهما. قال الأشتر: لقيت عبد الرحمن بن عتاب فلقيت أشدّ الناس وأخرقه ما لبثت أن قتله، ولقيت الأسود بن عوف فلقيت أشدّ الناس وأشجعه فما كدت أنجو منه فتميّت أني لم أكن لقيته، ولحقني جندب بن زهير الغامدي فضرته فقتله، قال: ورأيت عبد الله بن حكيم بن حزام وعنده راية قريش وهو يقاتل عدي بن حاتم وهما يتصاولان تصاول الفحلين فتعاورناه فقتلناه. قال: وأخذ الخطام الأسود بن أبي البخري فقتل، وهو قرشي أيضاً، وأخذه عمرو بن الأشرف فقتل وقُتل معه ثلاثة عشر رجلاً من أهل بيته، وهو أزدي، وجُرح مروان بن الحكم، وجُرح عبد الله بن الزبير سبعة وثلاثين جراحة من طعنة ورمية، قال: وما رأيت مثل يوم الجمل ما ينهزم منا أحد وما نحن إلا كالجيل الأسود، وما يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قُتل حتى ضاع

إنّا لمن يكرني ابن يثربي قاتل علباء وهذا الجملي
وابن لصوحان على دين علي
وقال ابن يثربي أيضاً:

أضربهم ولا أرى إباحةً كسى بهذا خزناً من الحرّ
إنّا نميرُ الأمر إمارة الرّسن

فناداه عمار: لقد عدت بحريز وما إليك من سبيل، فإن كنت صادقاً فخرج من هذه الكتيبة إليّ. فترك الزمام في يد رجل من بني عدي، حتى إذا كان بين الصّفين تقدم عمار، وهو ابن تسعين سنة، وقيل أكثر من ذلك، عليه فرو قد شدّ وسطه بجبل ليف، وهو أضعف من بارزه، واسترجع الناس وقالوا: هذا لاحق بأصحابه، وضره ابن يثربي فأتقاه عمار بدركته فنشب سيفه فيها فعالجته فلم يخرج، وأسفّ عمار لرجليه فضره فقطعهما فوق عاتقه وأخذ أسيراً فأتي به إلى علي، فقال: استقي. فقال: أبعد ثلاثة تقتلهم! وأمر به فقتل. وقيل: إن المقتول عمرو بن يثربي وإن عميرة بقي حتى ولي قضاء البصرة مع معاوية، ولما قُتل ابن يثربي تولّى ذلك العدوي الزمام فتركه بيد رجل من بني عدي وبرز، فخرج إليه ربيعة الغفيلي يرتجز ويقول:

يا أمّيا أعنّ أمْ نعلمُ والأُمّ تكلّموا ولداً وتزحمُ
الأتريّن كم شجاع يكلّم وتُختلى منه يدٌ ويعصمُ
(٢٤٩/٣)

كذب فهي من أبر أمّ نعلم. ثم اقتتلا فأتخن كلّ واحد منهما صاحبه، فماتا جميعاً، وقام مقام العدوي الحارث الضبّي، فما رُوي أشد منه، وجعل يقول:

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل نبارز القرون إذا القرون نزلت
نمعي ابن عفّان بأطراف الأمل الموت أحلى عندنا من القتل
رؤوا علينا شيخنا ثمّ تجلّ

وقيل: إن هذه الأبيات لوسيم بن عمرو الضبّي، وكان عمرو يحرض أصحابه يوم الجمل، وقد أخذ الخطام، ويقول:

نحن بنو ضبة لا نفر حتى نرى جماعاً تخبر
يخر منها القتل المحمر

ويقول:

يا أمّيا غيش لن تراعي كلّ نبيك يطّل شجاع
ويقول:

يا أمّيا زوجة النبي يا زوجة البوارك المهدي
ولم يزل الأمر كذلك حتى قُتل على الخطام أربعون رجلاً. قالت عائشة: ما زال جملي معتداً حتى فقدت أصوات بني ضبة. قال: وأخذ الخطام سبعون رجلاً من قريش كلهم يقتل وهو أخذ

وقال القعقاع :

إِذَا وَرَزْنَا أَجْسًا جَهْرَنَاءَ . وَلَا يَطْلُقُ وَرْدَ مَا شَتَّانَا
وزحف إلى زفر بن الحارث الكلابي، وتسارعت عامر إلى
حربه فاصبوا، فقال القعقاع لبجير بن دلجة، وهو من أصحاب
علي: يا بجير بن دلجة صيغ يقومك فليعفروا الجمل قبل أن تصابوا
وتصاب أم المؤمنين. فقال بجير: يا آل ضبة! يا عمرو بن دلجة!
ادعُ بي إليك، فدعاه، فقال: أنا آمن حتى أرجع عنكم؟ قال: نعم.
فاجتث ساق البعير فرمى نفسه على شقه وجرحر البعير، فقال
القعقاع لمن يليه: أنتم آمنون. واجتمع هو وزفر على قطع بطن
البعير وحملوا اليهودج فوضعا، وإنه كالقنفذ لما فيه من السهام، ثم
أطافا به، وفر من وراء ذلك من الناس. فلما انتهزوا أمر علي منادياً
فنادى: ألا لا تتبعوا (٢٥٤/٣) مديراً ولا تجهزوا على جريح ولا
تدخلوا الدور. وأمر علي نفراً أن يحملوا اليهودج من بين القتلى،
وأمر أخاه محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة، وقال: انظر هل
وصل إليها شيء من جراحة؟ فادخل رأسه في هودجها، فقالت:
من أنت؟ فقال: أبغض أهلك إليك. قالت: ابن الخنعمية؟ قال:
نعم. قالت: يا بابي، الحمد لله الذي عافاك!

وقيل: لما سقط الجمل أقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه عمار
فاحتلما اليهودج فنجياه، فادخل محمد يده فيه، فقالت: من هذا؟
فقال: أخوك البر. قالت: عقق! قال: يا أختي هل أصابك شيء؟
قالت: ما أنت وذاك؟ قال: فمن إذا الضلال؟ قالت: بل الهداة.
وقال لها عمار: كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه؟ قالت: لست
لك بأم. قال: بلى وإن كرهت. قالت: فخرتم أن ظفرتم وأتيتم مثل
الذي تقمتم، هيهات والله لن يظفر من كان هذا دابه!

فأبرزوا هودجها فوضعوها ليس قريباً أحد، وأتاها علي فقال:
كيف أنت يا أمه؟ قالت: بخير. قال: يغفر الله لك. قالت: ولك.
وجاء أعين بن ضبيعة بن أعين المجاشعي حتى أطلع في اليهودج،
فقالت: إليك لعنك الله! فقال: والله ما أرى إلا حميراً! فقالت
له: هتك الله سترك وقطع يدك وأبدى عورتك. فقتل بالبصرة،
وسلب، وقطعت يده ورمي غريباً في خربة من خربات الأزد، ثم
أتى وجوه الناس عائشة وفيهم القعقاع بن عمرو فسلم عليها
فقالت: إني رأيت بالأمس رجلين اجتلدا وارتجزا بكذا فهل تصرف
كوفيك؟ قال: نعم، ذاك الذي قال: اعن أم تعلم، وكذب، أنك لأبر
أم تعلم ولكن لم تطاعي. قالت: والله لوددت أني مت قبل هذا
اليوم بعشرين سنة.

وخرج من عندها فأتى علياً، فقال له علي: والله لوددت أني
مت (٢٥٥/٣) من قبل اليوم بعشرين سنة، وكان علي يقول ذلك
اليوم بعد الفراغ من القتال :

الخطام، ونادى علي: اعقروا الجمل فإنه إن عُقر تفرقوا، فضربه
رجل فسقط فما سمعت صوتاً قط أشد من عجيج الجمل، وكانت
راية الأزد من أهل الكوفة مع مخنف بن سليم فقتل وأخذها
الصقعب، وأخوه عبد الله بن سليم فقتل، وأخذها العلاء بن غروة،
فكان الفتح وهي بيده. وكانت راية عبد القيس من أهل الكوفة مع
القاسم بن سليم فقتل، وقتل معه زيد وسيحان ابنا صوحان،
وأخذها عدة نفر فقتلوا، منهم عبد الله بن ربيعة، ثم
أخذها (٢٥٢/٣) مُنْقِذُ بن النعمان فدفعها إلى ابنه مرة بن منقذ
فانقضت الحرب وهي في يده، وكانت راية بكر بن وائل في بني
ذهل مع الحارث بن حسان الذهلي، فأقدم وقال: يا معشر بكر لم
يكن أحد له من رسول الله، ﷺ، مثل منزلة صاحبكم [فانصروه]،
فتقدم وقتلهم فقتل ابنه وخمس من بني أهله، وقتل الحارث، فقيل
فيه :

اتمى الرئيس الحارث بن حسان لاك دُغسل ولاك شـيـان
وقال رجل من بني ذهل :

تمنى لنا خير امرئ من عذنان عند الطمان ونزال الأقران
وقال أخوه بشر بن حسان:

أنا ابن حسان بن خوط وأبي رسول بكر كلها إلى النبي
وقتل رجال من بني محدوج، وقتل من بني ذهل خمسة
وثلاثون رجلاً، وقال رجل لأخيه وهو يقاتل: يا أخي ما أحسن
قتالنا إن كنا على الحق! قال: فإننا على الحق، إن الناس أخذوا
يميناً وشمالاً، وإننا تمسكنا بأهل بيت نبينا فقاتلنا حتى قُتِلَا. وجرح
يومئذ عمير بن الأهلب الضبي، فمر به رجل من أصحاب علي وهو
في الجرحى يفحص برجليه ويقول :

لقد أوزدنا حومة الموت أمنا فلم نصرف إلا ونحن رواء
لقد كان في نصر ابن ضبة أنه وشيعتها مندوحة وغناه
أطعنا قريشاً قبل أن نحلومنا ونصرتنا أهل الحجاز عناه
(٢٥٣/٣)

أطعنا بني تميم بن مرة شقوة ومهل تيمم إلا أغبض وإساءة
فقال له الرجل: قل لا إله إلا الله. قال: ادن مني فلقنتي فبي
صمم. فدنا منه الرجل، فوثب عليه فقص أذنه قطعها.

وقيل في عقر الجمل: إن القعقاع لقي الأشتر وقد عاد من
القتال عند الجمل فقال: هل لك في القود؟ فلم يجبه. فقال: يا
أشتر بعضنا أعلم بقتال بعض منك، وحمل القعقاع والزمام مع زفر
بن الحارث، وكان آخر من أخذ الخطام، فلم يبق شيخ من بني
عامر إلا أصيب قدام الجمل، وزفر بن الحارث يرتجز ويقول :

يا أمنا مثلنك لا يرأخ كل ينك بطل شجأخ
ليس يوهوا ولا بيرأخ

إليك أشكو عُثْرِي وَيُجْرِي ومعثراً أفشوا عليّ بصري
 قتلْت منهم مُضْراً بَعْضِي شَفِيتْ نَفْسِي وَتَلَّتْ مَعْشَرِي
 فلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ادْخَلَهَا أَخُوها مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْبَصْرَةَ فَأَنْزَلَهَا
 فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلْفٍ الْخَزَاعِي عَلَى صَفِيَّةَ بِنْتِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي
 طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ، وَهِيَ أُمُّ طَلْحَةَ
 الطَّلْحَاتِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلْفٍ، وَتَسْلُلُ الْجُرْحَى مِنْ بَيْنِ الْقَتْلَى
 لِيَلَّا فَدْخَلُوا الْبَصْرَةَ، فَأَقَامَ عَلِيٌّ بِظَاهِرِ الْبَصْرَةِ ثَلَاثًا وَأَذِنَ لِلنَّاسِ فِي
 دَفْنِ مَوْتَاهُمْ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ فَدَفَنُوهُمْ، وَطَافَ عَلِيٌّ فِي الْقَتْلَى، فَلَمَّا
 أَتَى عَلَى كَعْبِ بْنِ سُوْر قَالَ: أَزْعَمْتُ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَهُمُ السَّفَهَاءُ وَهَذَا
 الْحَبْرُ قَدْ تَرَوْنِي وَأَتَى عَلِيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَنَابٍ فَقَالَ: هَذَا
 يَعْسُوبُ الْقَوْمِ، يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَطِيفُونَ بِهِ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى الرُّضَا بِهِ
 لَصَلَاتِهِمْ، وَمَرَّ عَلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَهُوَ صَرِيحٌ فَقَالَ: لَهْفِي
 عَلَيْكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ
 أَنْ أَرَى قَرِيبًا صَرِيحًا، أَنْتَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَمَّا خَرَجَ عَلِيٌّ أَعَادَتْ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، فَكَفَّ بَغْلَتَهُ وَقَالَ: لَقَدْ
 هَمَمْتُ أَنْ أَفْتَحَ هَذَا الْبَابَ، وَأُشَارَ إِلَى بَابٍ فِي الدَّارِ، وَأَقْتُلَ مَنْ
 فِيهِ، وَكَانَ فِيهِ نَاسٌ مِنَ الْجُرْحَى، فَأَخْبِرْ عَلِيَّ بِمَكَانِهِمْ فَتُغَاوِلَ عَنْهُمْ
 فَسَكَتَ، وَكَانَ مَذْهَبُهُ أَنْ لَا يَقْتُلَ مَدْبِرًا وَلَا يَذْفِفُ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا
 يَكْشِفُ سِتْرًا وَلَا يَأْخُذَ مَالًا.

وَلَمَّا خَرَجَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِ عَائِشَةَ قَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَزْدٍ: وَاللَّهِ لَا
 تَغْلِيظُنِي هَذِهِ الْمَرْأَةُ! فَغَضِبَ وَقَالَ: مَا لَا تَهْتَكُنَّ سِتْرًا وَلَا تَدْخُلُنَّ
 دَارًا وَلَا تَهَيِّجُنَّ امْرَأَةً بِأَذَى وَإِنْ شِئْتُمْ أَعْرَاضَكُمْ وَسَفَهَنَ أَمْرَكُمْ
 وَضَلَّحَكُمْ، فَإِنَّ النِّسَاءَ ضَعِيفَاتٌ، وَلَقَدْ كُنَّا نُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ
 وَهُنَّ مَشْرَكَاتٌ، فَكَيْفَ إِذَا هُنَّ مُسْلِمَاتٌ؟

وَمَضَى عَلِيٌّ فَلَحَقَهُ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَامَ رَجُلَانِ
 عَلَى الْبَابِ قَتَلَانَا مِنْ هُوَ أَمْضُ شَتِيمَةً لَكَ مِنْ صَفِيَّةٍ. قَالَ: وَيَحْكُ
 لِعُلَاهَا عَائِشَةُ! قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَحَدُهُمَا: جُرِّيتُ عَنْنَا أَثْنَا عَقُوقًا. وَقَالَ
 الْآخَرُ: يَا أَمِي تَوْبِي فَقَدْ أَخْطَأْتُ. فَبَعَثَ الْفَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى
 الْبَابِ، فَأَقْبَلَ بِمَنْ كَانَ عَلَيْهِ، فَأَحَالُوا عَلَى رَجُلَيْنِ مِنْ أَزْدِ الْكُوفَةِ،
 وَهُمَا: عَجْلَانُ وَسَعْدُ ابْنَا عَبْدِ اللَّهِ، فَضَرَبَهُمَا مِائَةَ سَوْطٍ وَأَخْرَجَهُمَا
 مِنْ ثِيَابِهِمَا.

وَسَأَلَتْ عَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَتْلِ مَنْ النَّاسِ مِنْهُمْ مَعَهَا وَمَنْهُمْ
 عَلَيْهَا وَالنَّاسُ عِنْدَهَا، فَكَلَّمَا نَعِيَ وَاحِدًا مِنَ الْجَمِيعِ قَالَتْ: يَرْحَمُهُ
 اللَّهُ. فَقِيلَ لَهَا: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: كَذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،
 فَلَانَ فِي الْجَنَّةِ، وَفَلَانَ (٢٥٨/٣) فِي الْجَنَّةِ، وَقَالَ عَلِيٌّ: إِنِّي لَأَرْجُو
 أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدٌ نَفَى قَلْبُهُ لِلَّهِ مِنْ هَوْلَاءِ إِلَّا ادْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ.

ثُمَّ جَهَّزَ عَلِيٌّ عَائِشَةَ بِكُلِّ مَا يَنْبَغِي لَهَا مِنْ مَرْكَبٍ وَزَادَ وَمَتَاعٍ
 وَغَيْرَ ذَلِكَ وَبَعَثَ مَعَهَا كُلَّ مَنْ نَجَا مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهَا إِلَّا مَنْ أَحَبَّ
 الْمَقَامَ، وَاخْتَارَ لَهَا أَرْبَعِينَ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ الْبَصْرَةِ الْمَعْرُوفَاتِ، وَسَيَّرَ
 مَعَهَا أَخَاهَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي ارْتَحَلَتْ فِيهِ
 أَتَاهَا عَلِيٌّ فَوَقَفَ لَهَا وَحَضَرَ النَّاسُ فَخَرَجَتْ وَودعتهم وقالت: يَا
 بَنِيَّ لَا يَتَّبِعْ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَلِيٍّ فِي
 الْقَدِيمِ إِلَّا مَا يَكُونُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ أَحْمَائِهَا، وَإِنَّهُ عَلَى مَعْنَتِي لِمَنْ

قَتَى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقٍ إِذَا مَا قَوَّاسْتَنَى وَيُجِئُهُ الْفَقْرُ
 وَجَعَلَ كُلُّمَا مَرَّ بِرَجُلٍ فِيهِ خَيْرٌ قَالَ: زَعَمَ مِنْ زَعَمٍ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ
 إِلَيْنَا إِلَّا الْغَوَاةُ وَهَذَا الْعَابِدُ الْمُجْتَهِدُ فِيهِمْ. وَصَلَّى عَلِيٌّ عَلَى
 الْقَتْلَى مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ، وَصَلَّى عَلَى قَرِيشٍ مِنْ هَوْلَاءِ
 وَهَوْلَاءِ، وَأَمَرَ فَدْفَنْتِ الْأَطْرَافَ فِي قَبْرِ عَظِيمٍ، وَجَنَعَ مَا كَانَ فِي
 الْعُسْكَرِ مِنْ شَيْءٍ وَبَعَثَ بِهِ إِلَى مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ وَقَالَ: مَنْ عَرَفَ شَيْئًا
 فَلْيَأْخُذْهُ إِلَّا سِلَاحًا كَانَ فِي الْخَزَائِنِ عَلَيْهِ سِمَةُ السُّلْطَانِ. وَكَانَ
 جَمِيعُ الْقَتْلَى عَشْرَةَ آلَافٍ نَصَفَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ وَنَصَفَهُمْ مِنْ
 أَصْحَابِ عَائِشَةَ (٢٥٦/٣) وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَقُتِلَ مِنْ ضَبَّةِ الْفِ
 رَجُلٍ، وَقُتِلَ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ حَوْلَ الْجَمَلِ سَبْعُونَ رَجُلًا كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ
 الْقُرْآنَ سِوَى الشُّبَابِ وَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ. وَلَمَّا فَرَّغَ عَلِيٌّ مِنَ الْوَقْعَةِ أَتَاهُ
 الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فِي بَنِي سَعْدٍ، وَكَانُوا قَدْ اعْتَزَلُوا الْقِتَالَ، فَقَالَ لَهُ
 عَلِيٌّ: تَرَبَّصْتُ؟ فَقَالَ: مَا كُنْتُ أَرَانِي إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ وَبَارَكْتَ كَانَ
 مَا كَانَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَسَارَفَ فَيَا نَظْرِيكَ الَّذِي سَلَكَتَ بِغَيْدٍ
 وَأَنْتَ إِلَيَّ غَدًا أَحْجُجَ مِنْكَ أَمْسٍ، فَأَعْرَفَ إِحْسَانِي وَاسْتَصْفَى مَوْدَتِي
 لَغَاوٍ وَلَا تَقُلْ مِثْلَ هَذَا فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ لَكَ نَاصِحًا.

ثُمَّ دَخَلَ عَلِيٌّ الْبَصْرَةَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ فَبَايَعَهُ أَهْلُهَا عَلَى رِايَتِهِمْ
 حَتَّى الْجُرْحَى وَالْمُسْتَأْمَنَةَ، وَأَتَاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ فِي
 الْمُسْتَأْمَنِينَ أَيْضًا فَبَايَعَهُ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: وَ [مَا] عَمَلُ الْمَرِيضِ
 الْمُتَقَاعِدِ بِي أَيْضًا؟ يَعْنِي أَبَاهُ أَبَا بَكْرَةَ! فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَرِيضٌ وَإِنَّهُ
 عَلَى مَسَرَّتِكَ لَحَرِيصٌ. فَقَالَ عَلِيٌّ: أَمْسِ أَمَامِي! فَمَشَى مَعَهُ إِلَى
 أَبِيهِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ عَلِيٌّ قَالَ لَهُ: تَقَاعَدْتُ بِي وَتَرَبَّصْتُ؟ وَوَضَعَ
 يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: هَذَا وَجَعٌ بَيْنَ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَقَبِلَ عَذْرَهُ،
 وَأَرَادَهُ عَلَى الْبَصْرَةِ، فَامْتَنَعَ وَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِكَ يَسْكُنُ إِلَيْهِ النَّاسُ
 وَسَاشِيرٌ عَلَيْهِ. فَافْتَرَقَا عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَوَلَّى زِيَادًا عَلَى الْخُرَاجِ

صدورنا وصدورهم حتى لو سِيرت عليها الخيل لسارت. ثم قال علي: السيوف يا بني المهاجرين! فما شبهت أصواتها إلا بضرب الفصّارين (٢٦٠/٣) وعلم أهل المدينة بالوقعة يوم الحرب قبل أن تغرب الشمس من نسر مرّ بماء حول المدينة ومعه شيء معلق فسقط منه فإذا كفّ فيه خاتم نقشه: عبد الرحمن بن عتّاب. وعلم من بين مكّة والمدينة والبصرة بالوقعة بما ينقل إليهم النسر من الأيدي والأقدام.

وأراد عليّ المقام بالبصرة لإصلاح حالها فأعجلته السبئية عن المقام، فإنهم ارتحلوا بغير إذنه، فارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إن أرادوه.

[رواية أخرى في وقعة الجمل]

وقد قيل في سبب القتال يوم الجمل غير ما تقدّم مع الاتفاق على مسير أصحاب عائشة ونزولهم بالبصرة والوقعة الأولى مع عثمان بن حنيف وحكيم.

وأما مسير عليّ وعزل أبي موسى فقيل فيه: إن عليّاً لما أرسل محمد بن أبي بكر إلى أبي موسى وجرى له ما تقدّم سار هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى عليّ بالريّة فأعلمه الحال، فأعاده عليّ إلى أبي موسى يقول له: أرسل الناس فإنّي لم أولئك إلا لتكون من أهواني على الحقّ. فامتنع أبو موسى، فكتب هاشم إلى عليّ: إنّي قدمتُ على رجلٍ غالٍ مشافقٍ ظاهر الشّستان، وأرسل الكتاب مع المُجلِّ بن خليفة الطائي، فبعث عليّ الحسن ابنه وعمار بن ياسر يستفتران الناس، وبعث قُرظَةَ بن كعب الأنصاري أميراً، وكتب معه إلى أبي موسى: إنّي قد بعثتُ الحسن وعماراً يستفتران الناس، وبعثتُ قُرظَةَ (٢٦١/٣) ابن كعب والياً على الكوفة، فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، وإن لم تفعل فإنّي قد أمرته أن يناديك، فإن نأبذته فظفر بك يقطعك إرباً إرباً. فلما قدم الكتاب على أبي موسى اعتزل، واستفتر الحسن الناس، ففروا نحو ما تقدّم، وسار عليّ نحو البصرة، فقال جَوْن بن قتادة: كنتُ مع الزبير فجاء فارس يسير فقال: السلام عليك أيّها الأمير، فردّ عليه، فقال: إن هؤلاء القوم قد أتوا مكان كذا وكذا فلم أرَ أثراً سلاحاً ولا أقلّ عدداً ولا أرفع قلوباً منهم. ثمّ انصرف عنه، وجاء فارس آخر فقال له: إن القوم قد بلغوا مكان كذا وكذا فسمعوا بما جمع الله لكم من العدد والمُدّة فخافوا فوَلُّوا مدبرين. فقال الزبير: إيهّا عنك! فوالله لو لم يجد عليّ بن أبي طالب إلا العرفج لدب إلينا فيه. فانصرف.

وجاء فارس، وقد كادت الخيل تخرج من الرهج، فقال: هؤلاء القوم قد أتوك فليقتل عماراً فقلتُ له وقال لي: فقال الزبير: إنه ليس فيهم! فقال الرجل: بلى والله إنه لفِيهم. فقال الزبير: والله ما جعله الله فيهم. فقال الرجل: بلى والله. فلما كرّر عليه أرسل الزبير

الأخبار. وقال عليّ: صدقت، والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنّها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.

وخرجت يوم السبت غرة رَجَب وشيّعها أميالاً وسرحَ بنيه معها يوماً، فكان وجهها إلى مكّة، فأقامت إلى الحجّ ثمّ رجعت إلى المدينة، وقال لها عمار حين ودّعها: ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك! قالت: والله إنك ما علمتُ لِقَوالَ بالحقّ. قال: الحمد لله الذي قضى على لسانك لي.

وأما المنهزمون فقد ذكرنا حالهم، وكان منهم: عتبة بن أبي سفيان، فخرج هو وعبد الرحمن ويحيى ابنا الحكم فساروا في البلاد، فلقيهم عصمة ابن أبيير التيمي فقال لهم: هل لكم في الجوار؟ فقالوا: نعم. فأجارهم وأنزلهم حتى برأت جراحهم وسيّره نحو الشام في أربعمئة راكب، فلما وصلوا إلى دومة الجندل قالوا: قد وفيت ذمتك وقضيت ما عليك. فرجع. وأما ابن عامر (٢٥٩/٣) فإنه خرج أيضاً فلقبه رجلٌ من بني حرقوص يدعى مُرّي، فأجاره وسيّره إلى الشام. وأما مروان بن الحكم فاستجار بمالك بن مسمع، فأجاره ووفى له، وحفظ له بنو مروان ذلك في خلافتهم وانتفع بهم وشرفوه بذلك. وقيل: إن مروان نزل مع عائشة بدار عبد الله بن خلف وصحبها إلى الحجاز، فلما سارت إلى مكّة سار إلى المدينة. وأما عبد الله بن الزبير فإنه نزل بدار رجلٍ من الأزد يدعى وزيراً، فقال له: انت أُمّ المؤمنين فأعلمها بمكاني ولا يعلم محمد بن أبي بكر. فأنتى عائشة فأخبرها، فقالت: عليّ بمحمد. فقال لها: إنه قد نهاني أن يعلم محمد. فلم تسمع قوله وأرسلت إلى محمد وقالت: اذهب مع هذا الرجل حتى تأتيني بأبن أختك. فانطلق معه، وخرج عبد الله ومحمد حتى انتهيا إلى دار عائشة في دار عبد الله بن خلف.

ولما فرغ عليّ من بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فرأى فيه ستمائة ألف وزيادة، فقسمها على من شهد معه، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة، فقال لهم: إن أظفركم الله بالشام فلکم مثلها إلى أعطياتكم. فخاض في ذلك السبئية، وطعنوا على عليّ من وراء وراء، وطعنوا فيه أيضاً حين نهاهم عن أخذ أموالهم، فقالوا: ما [له] يحلّ لنا دماءهم ويحرّم علينا أموالهم؟ فقال لهم عليّ: القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ومن لَجّ حتى يصاب قَتاله مني على الصدر والنجح.

وقال القعقاع: ما رأيتُ شيئاً أشبه بشيءٍ من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين، لقد رأيتُنا ندافعهم بأستنا وتنكّى على أَرْجَحَتنا وهم مثل ذلك، حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلّت بهم.

وقال عبد الله بن سنان الكاهلي: لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فويت، وتطاعنا بالرماح حتى تكسرت وتشبكت في

وفيها قُتل مُعرِض بن عِلَاط السُّلَمي أخو الحجاج بن عِلَاط، قُتل مع عليّ.

وفيها قُتل مجاشع ومجالد ابنا مسعود السُّلَميّان مع عائشة، لهما صحبة، فأما مجاشع فلا شك أنه قُتل في التَّجَمُّل، وقُتل عبد الله بن حكيم بن حزام الأسدي القرشي مع عائشة، وكان إسلامه يوم الفتح، وفيها قُتل هند بن أبي هالة الأُسَيْدي، أمه خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ، مع عليّ، وقيل: مات بالبصرة، والأوّل أصح.

(الأُسَيْدي يضم الهمزة، منسوب إلى أُمَيّد بتشديد الباء، وهم بطن من تميم).

وقُتل هلال بن وكيع بن بشر التميمي مع عائشة، له صحبة.

وفيها قُتل مُعَاذ بن عَفْرَاء أخو معوذ، وهما ابنا الحارث بن رفاعة الأنصاريان، وشهدا بدرًا، وقُتل مع عليّ، وقيل: عاش وقُتل في وقعة الحرة.

(التَّيْهَان يفتح التاء فوقها نقطتان، وتشديد الباء تحتها نقطتان، وآخره نون).

ومُتَّبِع يفتح الشين المعجمة، والباء الموحدة، وآخره تاء مثناة.

وسَيِّحَان يفتح السين المهملة، وسكون الباء تحتها نقطتان، وفتح الحاء المهملة، وآخره نون. (٢٦٤/٣).

ونَجْبَة يفتح النون والجيم، والباء الموحدة.

وعَيمِرَة يفتح العين، وكسر الميم.

وأبِير يضم الهمزة، وفتح الباء الموحدة.

والخَرِيْت بكسر الحاء المعجمة، والراء المشددة، وسكون الباء المثناة من تحتها نقطتان، وفي آخره تاء فوقها نقطتان).

ذكر قصد الغوارج سجستان

في هذه السنة بعد الفراغ من وقعة التَّجَمُّل خرج حَسَكَة بن عَتَاب الحَظِي وعِمْران بن الفَضِيل البرجمي في صماليك من العرب حتى نزلوا زالق من سجستان، وقد نكث أهلها، فأصابوا منها مالا ثم أنوا زَرَبَ وقد خافهم مرزبانها فصالحهم ودخلوها، فقال الراجز:

بَشْر سِجِسْتَان بِجَوْعٍ وَخَرَبٍ بَابِنِ الْفَضِيلِ وَصَحَابِيكَ الْعَرَبِ
لَا فَتْنَةَ تَنْتَهُمُ وَلَا قَتْلَ

فبعث عليّ عبد الرحمن بن جرو الطائي، فقتله حَسَكَة، فكتب عليّ إلى عبد الله بن العباس يأمره أن يولي سجستان رجلاً ويسيره

رجلين يظنران، فانطلقا ثم رجعا فقالا: صدق الرجل. فقال الزبير: يا جدد أنفاه! يا قطع ظهره! ثم أخذته رعدة فجعل السلاح يتفرض. قال جُون: فقلتُ نكلتني أمي! هذا الذي كنتُ أريد أن أموت معه أو أعيش، ما أخذه هذا الأمر إلا لشيء سمعته من رسول الله ﷺ. وانصرف جُون فاعتزل، وجاء عليّ، فلما تواقف الناس دعا الزبير وطلحة فتوافقوا، وذكر من أمر الزبير وعوده وتكفيره عن يمينه مثل ما تقدّم، فلما أبوا إلا القتال قال عليّ: أياكم يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه فإن قطعت يده أخذه بيده الأخرى فإن قطعت أخذه بأسنانه وهو مقتول؟ فقال شاب: أنا. فطاف به على أصحابه فلم يجبه إلا ذلك الشاب (٢٦٢/٣) ثلاث مرّات، فسلمه إليه، فدعاهم، فقطعت يده اليمنى، فأخذه اليسرى، فقطعت، فأخذه بصدرة والدما تسيل على قيّانه، فقتل، فقال عليّ: الآن خلّ قتالهم. فقالت أمّ الفتي:

لَا أُمُّ إِنْ مُسْلِمًا دَعَاهُمْ يَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ لَا يَخْشَاهُمْ
وَأُمُّهُمْ قَاتِنَةٌ تَرَاهُمْ تَلْمِزُهُمْ بِالْقَتْلِ لَا تَهْلَاهُمْ
فَدَخَضَتْ مِنْ عَلَقِي لِجَاهِهِمْ

وحملت ميمنة عليّ على مسيرتهم، فالتقوا، فإذ الناس بعائشة، وكان أكثرهم من ضيعة والأزد، وكان قتالهم من ارتفاع النهار إلى قريب من العصر ثم انتهزموا، ونادى رجل من الأزد: كروا، فضربه محمد بن عليّ فقطع يده، فقال: يا معشر الأزد فروا، واستحزّ القتل في الأزد فنادوا: نحن على دين عليّ. فقال رجل من بني ليث:

سَاتِلٌ يَسَاحِينُ لَقِيْنَا الْأَزْدَا وَالْخَيْلُ تَمْلُؤُا شِقْرًا وَوَرْدَا
لَمَّا قَطَعْنَا كَيْدَهُمُ وَالزَّيْبَا سَحَقًا لَهُمْ فِي رَأْيِهِمْ وَتَيْبَا

وحمل عمار بن ياسر على الزبير فجعل يحوزه بالرمح، فقال: أتريد أن تقتلني يا أبا العيظان؟ فقال: لا يا أبا عبد الله، انصرف، فانصرف، وجرح عبد الله بن الزبير فآلَفِي نفسه في الجرحى ثم برا. وعُفِّرَ التَّجَمُّل، واحتمل محمد ابن أبي بكر عائشة فأنزلها وضرب عليها قبة، فوقف عليّ عليها وقال لها: استغفرت الناس وقد فُروا وألّيت بينهم حتى قتل بعضهم بعضًا، في كلام كثير. فقالت عائشة: ملكت فأسجج، نغم ما ابتليت قومك اليوم! فسرحها وأرسل (٢٦٣/٣) معها جماعة من رجال ونساء وجهزها بما تحتاج.

لم أذكر في وقعة التَّجَمُّل إلا ما ذكره أبو جعفر إذ كان أوثق من نقل التاريخ، فإن الناس قد خشوا تواريخهم بمقتضى أهوائهم.

وممن قُتل يوم التَّجَمُّل عبد الرحمن بن عبيد الله أخو طلحة، له صحبة، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس بن عامر بن لؤي، له صحبة. وفيها قُتل المُحَرِّز بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس، له صحبة، واستعمله عمر على مكة ثم عزله.

وقيل غير ذلك، وهو أن محمد بن أبي حذيفة سائر المصريين إلى عثمان، فلما حصروه أخرج محمد عبد الله بن سعد عن مصر، وهو عامل عثمان، واستولى عليها، فنزل عبد الله على تخوم مصر وانتظر أمر عثمان، فطلع عليه راكب فسأله، فأخبره بقتل عثمان، فاسترجع، وسأله عما صنع الناس بعده، فأخبره ببيعة علي، فاسترجع، فقال له: كان إمرة علي تعدل عندك قتل عثمان! قال: نعم. قال: أظنك عبد الله بن سعد. فقال: نعم. فقال له: إن كانت لك في نفسك حاجة فالتجاء النجاء، فإن رأي أمير المؤمنين علي فيك وفي أصحابك إن ظفر بكم أن يقتلكم أو ينفيككم، وهذا يعدي أمير يقدم عليك. فقال: من هو؟ قال: قيس بن سعد بن عباد. قال عبد الله بن سعد: أبعد الله محمد بن أبي حذيفة، فإنه يغي على ابن عمه ومعى عليه، وقد كفله ورباه وأحسن إليه، فأساء جواره وجهز إليه الرجال حتى قُتل ثم ولى عليه من هو أبعد منه ومن عثمان ولم يمتعه بسلطان ببلاده شهراً ولم يره لذلك أهلاً. وخرج عبد الله (٢٦٧/٣) هارياً حتى قدم على معاوية.

وهذا القول يدل على أن قيساً ولي مصر ومحمد بن أبي حذيفة حي، وهو الصحيح.

وقيل: إن عمرو سار إلى مصر بعد صفين، فلقه محمد بن أبي حذيفة في جيش، فلما رأى عمرو كثرة من معه أرسل إليه، فالتقيا واجتمعا، فقال له عمرو: إنه قد كان ما ترى وقد بايعت هذا الرجل، يعني معاوية، وما أنا براص بكثير من أمره، وإنني لأعلم أن صاحبك علياً أفضل من معاوية نفساً وقديماً وأولى بهذا الأمر، فواعدني موعداً التقي معك فيه في غير جيش، ثاني في مائة وآتي في مثلها، وليس معنا إلا السيوف في القرب. فتماهدا وتعاقدا على ذلك واتعلا العريش، ورجع عمرو إلى معاوية، فأخبره الخبر، فلمل جاء الأجل سار كل واحد منهما إلى صاحبه في مائة، وجعل عمرو له جيشاً خلفه لينطوي خبره، فلما التقيا بالعريش قدم جيش عمرو على أثره، فعلم محمد أنه قد غدر به، فدخل قصره بالعريش فتحصن به، فحصره عمرو ورماه بالمنجنيق حتى أخذ أسيراً، وبعث به عمرو إلى معاوية فسجنه، وكانت ابنة قُرظَة امرأة معاوية ابنة عمه محمد بن أبي حذيفة أمها فاطمة بنت عتبة، فكانت تصنع له طعاماً ترسله إليه، فأرسلت إليه يوماً في الطعام مبارد، فبرد بها قيوده وهرب فاختفى في غار فأخذ وقتل، والله أعلم.

وقيل: إنه بقي محبوساً إلى أن قُتل جُحَير بن عدي، ثم إنه هرب، فطلبه مالك بن هُبيرة السكوني فظفر به فقتله غضباً لحجر، وكان مالك قد شفع إلى معاوية في حجير فلم يشفعه. وقيل: إن محمد بن أبي حذيفة لما قُتل محمد بن أبي بكر خرج في جمع كثير إلى عمرو فأمنه عمرو ثم غدر به وحمله إلى معاوية (٢٦٨/٣) بفلسطين فحبسه، ثم إنه هرب، فآظهر معاوية

إليها في أربعة آلاف، فوجّهه ربيع بن كاس العنبري ومعه الحصين بن أبي الحر العنبري، فلما ورد سجستان قاتلهم حَسَكَة وقتلوه، وضبط ربيع البلاد، وكان فيروز حصين يُسب إلى الحصين بن أبي الحر هذا، وهو من سجستان. (٢٦٥/٣)

ذكر قتل محمد بن أبي حذيفة

في هذه السنة قُتل محمد بن أبي حذيفة، وكان أبوه أبو حذيفة بن عُتْبَة بن ربيعة بن عبد شمس قد قُتل يوم اليمامة، وترك ابنه محمداً هذا، فكفله عثمان بن عفان وأحسن تربيته، وكان فيما قيل: أصاب شراً ما فحذه عثمان، ثم تنسك محمد وأقبل على العبادة وطلب من عثمان أن يوليه عملاً، فقال: لو كنت أهلاً لذلك لوليتك. فقال له: إنني قد رغبت في غزو البحر فأذن لي في إتيان مصر، فأذن له وجهزه، فلما قدمها رأى الناس عبادته فلزموه وعظموه، وغزا مع عبد الله بن سعد غزوة الصواري.

وكان محمد يعيبه ويعيب عثمان بتوليته ويقول: استعمل رجلاً أباح رسول الله ﷺ، دمه. فكتب عبد الله إلى عثمان: إن محمداً قد أفسد علي البلاد هو محمد بن أبي بكر. فكتب إليه: أما ابن أبي بكر فإنه يوجب لأبيه ولعائشة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيته وهو فرخ قریش. فكتب إليه: إن هذا الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق إلا أن يطير. فبعث عثمان إلى ابن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم وبجمل عليه كسوة، فوضعها محمد في المسجد ثم قال: يا معشر المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه! فازداد أهل مصر تعظيماً له وطمعاً على عثمان، ويابعوه على رياستهم، فكتب إليه عثمان يذكره به به وتربيته إياه وقيامه بشانه، ويقول: إنك كثرت إحساني أحوج ما كنت إلى شكرك. فلم يرده ذلك عن دمه وتآليب الناس عليه وحثهم على المسير إلى حصره ومساعدة من يريد ذلك.

فلما سار المصريون إلى عثمان، أقام هو بمصر، وخرج عنها عبد الله بن (٢٦٦/٣) سعد بن أبي سرح، فاستولى عليها وضبطها فلم يزل بها مقيماً حتى قُتل عثمان وبويع علي، واتفق معاوية وعمرو بن العاص على خلاف علي، فسار إلى مصر قبل قدوم قيس بن سعد إليها أميراً، فأراد دخولها فلم يقدر على ذلك، فخذع محمداً حتى خرج منها إلى العريش في ألف رجل فتحصن بها، فنصب عليه المنجنيق حتى نزل في ثلاثين من أصحابه فقتل.

وهذا القول ليس بشيء لأن علياً استعمل قيساً على مصر أول ما بويع له، ولو أن ابن أبي حذيفة قتله معاوية وعمرو قبل وصول قيس إلى مصر لاستولوا عليها لأنه لم يكن بها أمير يمتنعها عنها، ولا خلاف أن استيلاء معاوية وعمرو عليها كان بعد صفين، والله أعلم.

معاوية إلى قيس :

سلام عليك، أما بعد فإنكم نعمتم على عثمان ضربة بسوط أو شتمة رجل أو تسير آخر واستعمال قتي، وقد علمتم أن دمه لا يحل لكم، فقد ركبتم عظيمًا (٢٧٠/٣) ووجتم أمرًا إذا، فنب إلى الله يا قيس، فإنك من المجليين على عثمان، فأما صاحبك فإنا استيقنا أنه الذي أغرى [به] الناس وحملهم حتى قتلوه، وإنه لم يسلم من دمه عظم قومك، فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلني ما شئت فإني أعطيك واكتب إلي براك.

فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبيدي له أمره ولا يتعجل إلى حربه، فكتب إليه: أما بعد فقد فهمت ما ذكرته من قتلة عثمان فذلك شيء لم أقاره، وذكرت أن صاحبي هو الذي أغرى به حتى قتلوه، وهذا مما لم أطلع عليه، وذكرت أن عظم عشيرتي لم تسلم [من دم عثمان]، فأول الناس كان فيه قياماً عشيرتي، وأما ما عرضته من متابعتك فهذا أمر لي فيه نظر وفكرة، وليس هذا مما يسرّ إليه، وأنا كاف عك وليس يأتيني من قبلي شيء تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله تعالى.

فلما قرأ معاوية كتابه رآه مقارباً مباعدًا، فكتب إليه :

أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تذنبوا فاعدك سلماً ولا متباعدًا فاعدك حرباً، وليس مثلي يصانع المخادع ويتخذ للمكاييد ومعه عده الرجال ويده [أعنة الخيل]، والسلام.

فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لا يفيد معه المدافعة والمناظلة أظهر له ما في نفسه، فكتب إليه: أما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك في واستسقاطك إياي، أسومني الخروج عن طاعة أولى الناس بالإمارة وأقولهم بالحق وأهداهم (٢٧١/٣) سبيلاً وأقربهم من رسول الله، وسيلة وتأمري بالدخول في طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلاً وأبعدهم من رسول الله، وسيلة، ولذ ضالين مضلين، طاغوت من طاغيت إبليس ! وأما قولك إني مالى عليك مصر خيلاً ورجلاً، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهم إليك إنك لقد جئت، والسلام.

فلما رأى معاوية كتابه آيس منه وثقل عليه مكانه ولم تنتج حيله فيه، فكاده من قتل علي، فقال لأهل الشام: لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شعبة قد تأتينا كنية ونصيحته سرًا، ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربنا، يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويحسن إليهم ! وافعل كتاباً عن قيس إليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه فسي ذلك وقراه على أهل الشام.

للناس أنه كره هربه وأمر بطلبه، فسار في أثره عبيد الله بن عمرو بن ظلام الخثعمي فأدركه بحوران في غار، وجاءت حُمُر تدخل الغار، فلما رأت محمداً نفرت منه، وكان هناك ناس يحصدون، فقالوا: والله إن لفترة هذه الحمر لثأناً. فذهبوا إلى الغر فرأوه، فخرجوا من عنده، فوافقهم عبيد الله فسألهم عنه ووصفه لهم، فقالوا: هو في الغار، فأخرجه وكره أن يأتي به معاوية فيخلى سبيله، فضرب عنقه، وكان ابن خال معاوية.

ذكر ولاية قيس بن سعد مصر

وفي هذه السنة في صفر بعث علي قيس بن سعد أميراً على مصر، وكان صاحب راية الأنصار مع رسول الله، وكان من ذوي الرأي والبأس، فقال له: سِرْ إلى مصر فقد وليتها وأخرج إلى رحلك واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصبحك حتى تأتينا ومعك جند، فإن ذلك أربع لعدوك وأعز لوليك، وأحين إلى المحسن واشتد على المريب، وارق بالعامّة والخاصة، فإن الرفق يُمن. فقال له قيس: أما قولك: أخرج إليها بجند، فوالله لئن لم أدخلها إلا بجند آتينا به من المدينة لا أدخلها أبداً، فأنا أدع ذلك الجند لك، فإن كنت احتجت إليهم كانوا منك قريباً، وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عُدّة. فخرج قيس حتى دخل مصر في سبعة من أصحابه على الوجه الذي تقدّم ذكره، فصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب أمير المؤمنين (٢٦٩/٣) فقرأ على أهل مصر بإمارته وإمامهم ببياضته ومساعدته وإعانتته على الحق، ثم قام قيس خطيباً وقال :

الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين، أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا، فقوموا أيها الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم.

فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر، وبعث عليها عماله إلا قرية منها يقال لها خربنا فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان، عليهم رجل من بني كنانة ثم من بني مُدَلج اسمه يزيد بن الحارث، فبعث إلى قيس يدعو إلى الطلب بدم عثمان. وكان مسلمة بن مُخَلد قد أظهر الطلب أيضاً بدم عثمان، فأرسل إليه قيس: ويحك أعلي تشب ! فوالله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وأني قتلتك ! فبعث إليه مسلمة: إني كاف عك ما دمت أنت والي مصر.

وبعث قيس، وكان حازماً، إلى أهل خربنا: إني لا أكرهكم على البيعة وإني كاف عنكم؛ فهادنهم وجبى الخراج ليس أحد ينازع، وخرج أمير المؤمنين إلى الجمل وزجج وهو بمكانه، فكان أثقل خلق الله على معاوية لقربه من الشام ومخافة أن يُقتل علي في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع بينهما معاوية، فكتب

وإياكم لصالح الأعمال برحمته.

ثم نزل ولبت شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذي كانوا قد وادعهم قيس، فقال لهم: إما أن تدخلوا في طاعتنا وإما أن تخرجوا عن بلادنا. فاجابوه: إنا لا نفعل، فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمرنا فلا تعجل لحربنا. فأبى عليهم، فامتنعوا [منه] وأخذوا حذرهم، فكانت وقعة صفين وهم هائبون لمحمد.

فلما رجع علي عن معاوية وصار الأمر إلى التحكيم طمعوا في محمد وأظهروا له المبارزة، فبعث محمد الحارث بن جهمان الجعفي إلى أهل خربا وفيها يزيد بن الحارث مع بني كنانة ومن معه، فقاتلهم فقاتلوه وقتلوه. فبعث محمد إليهم أيضاً ابن مضاء الكلبى فقتلوه.

وقد قيل: إنه جرى بين محمد ومعاوية مكاتبات كرهت ذكرها فإنها مما لا يحتمل سماعها العامة.

وفيها قدم أبراز مرزيان مرو إلى علي بعد الجمل مقرأً بالصلح، فكتب له كتاباً إلى دهاقين مرو والأساورة ومن بمرو، ثم إنهم كفروا وأغلقت نيسابور، فبعث علي خليل بن قرّة، وقيل: ابن طريف البربري، إلى خراسان. (٢٧٤/٣)

ذكر قديم عمرو بن العاص على معاوية ومتابعته له

قيل: كان عمرو بن العاص قد سار عن المدينة، قبل أن يقتل عثمان، نحو فلسطين.

وسبب ذلك أنه لما أحيط بعثمان قال: يا أهل المدينة لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله بذل، من لم يستطع نصره فليهرب. فسار، وقيل غير ذلك، وقد تقدم، وسار معه ابنه عبد الله ومحمد، فسكن فلسطين، فمر به راكب من المدينة، فقال له عمرو: ما اسمك؟ قال: حصيرة. قال عمرو: خُصِر الرجل! فما الخير؟ قال: تركت عثمان محصوراً. ثم مر به راكب آخر بعد أيام فقال له عمرو: ما اسمك؟ قال: قتال. قال: قُتل الرجل! فما الخير؟ قال: قُتل عثمان، ولم يكن شيء إلى أن سرت. ثم مر به راكب من المدينة، فقال له عمرو: ما اسمك؟ قال: حرب. قال عمرو: يكون حرب، وقال له: ما الخير؟ فقال: بايع الناس علياً. فقال سلم بن زياع: يا معشر العرب كان بينكم وبين العرب باب فكسر فاتخذوا باباً غيره. فقال عمرو: ذلك الذي نريده. ثم ارتحل عمرو راجلاً معه ابنه يكي كما تبكي المرأة وهو يقول: واعثمان! أنعى الحياء والدين! حتى قدم دمشق، وكان قد علم الذي يكون فعمل عليه، لأن النبي ﷺ، كان قد بعثه إلى عُمان، فسمع من حبر هناك شيئاً عرف مصداقه، فسأله عن وفاة النبي ﷺ، ومن يكون بعده، فأخبره

فبلغ ذلك علياً، أبلغه ذلك محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب، وأعلمته عينه بالشام، فأعظمه وأكبره، فدعا ابنه عبد الله بن جعفر فأعلمهم ذلك. فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين دُعِ ما يريك إلى ما لا يريك، اعزل قيساً عن مصر. فقال علي: إني والله ما أصدق بهذا عنه. فقال عبد الله: اعزله فإن كان هذا حقاً لا يعتزل لك. فإنيهم كذلك إذ جاءهم كتاب من قيس يخبر أمير المؤمنين بحال المعتزلين وكفه عن قتالهم. فقال ابن جعفر: ما أخوفني أن يكون ذلك ممالاً منه، فمره بقتالهم. فكتب إليه يأمره بقتالهم، فلما قرأ الكتاب كتب جوابه: أما بعد فقد عجبك لأمرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك مفرغيك لعدوك! ومتى حادناهم ساعدوا عليك عدوك، فأطعني يا أمير المؤمنين واكف عنهم فإن الرأي تركهم، والسلام. فلما قرأ علي الكتاب قال (٢٧٢/٣) ابن جعفر: يا أمير المؤمنين ابعث محمد بن أبي بكر على مصر واعزل قيساً، فقد بلغني أن قيساً يقول: إن سلطاناً لا يستقيم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء.

وكان ابن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه، فبعث علي محمد بن أبي بكر إلى مصر، وقيل: بعث الأشتر النخعي، فمات بالطريق، فبعث محمداً، فقدم محمد على قيس بمصر، فقال له قيس: ما بال أمير المؤمنين؟ ما غيره؟ أدخل أحد بني وبينه؟ قال: لا، وهذا السلطان سلطانك. قال: لا والله لا أقيم. وخرج منها مقبلاً إلى المدينة وهو غضبان لعزله، فجاءه حسان بن ثابت، وكان عثمانياً، يشمت به، فقال له: قتلت عثمان ونزعت علي، فبقي عليك الإثم ولم تحسن لك الشكر! فقال له قيس: يا أعمى القلب والبصر! والله لولا أن ألقى بين رهطي ورهطك حرباً لضربت عنقك! أخرج عني! ثم أخاف مروان بن الحكم قيساً بالمدينة، فخرج منها هو وسهل بن خيف إلى علي فشهدا معه صفين. فكتب معاوية إلى مروان يتغيط عليه ويقول له: لو أمددت علياً بمائة ألف مقاتل لكان أيسر عندي من قيس بن سعد في رأيه ومكانه.

فلما قدم قيس على علي وأخبره الخبر، علم أنه كان يقاسي أموراً عظيماً من المكيدة، وجاءهم خبر قتل محمد بن أبي بكر، فعظم محل قيس عنده وأطاعه في الأمر كله، ولما قدم محمد مصر قرأ كتاب علي على أهل مصر ثم قام فخطب فقال:

الحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحث وبصرنا وإياكم (٢٧٣/٣) كثيراً مما كان عمي عنه الجاهلون. ألا إن أمير المؤمنين ولأني أمركم وعهد إلي ما سمعتم، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، فإن يكن ما ترون من إمارتي وأعمالى طاعة لله فأحمدوا الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادي له، وإن رأيتم عاملاً لي عمل بغير الحق فارفعوه إلي عاتبوني فيه فإني بذلك أسعد وأتم [بذلك] جديرون، وفقنا الله

بأبي بكر وإن مدته قصيرة، (٢٧٥/٣) ثم يلي بعده رجل من قومه مثله تطول مدته ويُقتل غيلة ثم يلي بعده رجل من قومه تطول مدته ويُقتل عن ملأ، قال: ذلك أشد، ثم يلي بعده رجل من قومه يتشتر الناس عليه ويكون على رأسه حرب شديدة، ثم يُقتل قبل أن يجتمع الناس عليه، ثم يلي بعده أمير الأرض المقدسة فيطول ملكه وتجتمع عليه أهل تلك الفرقة ثم يموت.

وقيل: إن عمراً لما بلغه قتل عثمان قال: أنا أيسر عبد الله أنا قتلته وأنا بوادي السباع، إن لي هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سيئاً، وإن يله ابن أبي طالب فهو أكره من يليه إليّ. فبلغه بيعة عليّ فاشتد عليه وأقام ينتظر ما يصنع الناس، فأتاه مسير عائشة وطلحة والزبير، فأقام ينتظر ما يصنعون، فأتاه الخبر بوقعة الجمل فأرتج عليه أمره، فسمع أن معاوية بالشام لا يبيع علياً وأنه يعظم شأن عثمان، وكان معاوية أحب إليه من عليّ، فدعا ابنه عبد الله ومحمداً فاستشارهما وقال: ما تريان؟ أما عليّ فلا خير عنده، وهو يدلّ بسابقتها، وهو غير مشركي في شيء من أمره. فقال له ابنه عبد الله: توفي النبي، وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس [على إمام فتابعه]. وقال له ابنه محمد: أنت نأب من أنياب العرب ولا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت. فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي [في آخرتي وأسلم لي] في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وشر لي في آخرتي. ثم خرج ومعه ابنه حتى قدم على معاوية، فوجد أهل الشام يحضرون معاوية على (٢٧٦/٣) الطلب بدم عثمان، وقال عمرو: أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم ومعاوية لا يلتفت إليه، فقال لعمرو ابنه: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك؟ فانصرف إلى غيره. فدخل عمرو على معاوية فقال له: والله لعجب لك! إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني، [أما والله] إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس [من ذلك] ما فيها حيث تقاتل من تعلم سابقتها وفضله وقرباته، ولكننا إنما أردنا هذه الدنيا. فصالحه معاوية وعطف عليه.

ذكر ابتداء وقعة صفين

وقيل: كان الذي حمل معاوية على ردّ جرير البجلي غير مقضي الحاجة شرحبيل بن السمط الكندي. (٢٧٨/٣) وكان سبب ذلك أن شرحبيل كان قد سيره عمر بن الخطاب إلى العراق إلى سعد بن أبي وقاص وكان معه، فقدّمه سعد وقرّبه، فحسده الأشعث بن قيس الكندي لمنافسة بينهما، فوفد جرير البجلي على عمر، فقال له الأشعث: إن قدرت أن تنال من شرحبيل عند عمر فافعل. فلما قدم على عمر سأله عمر عن الناس، فأحسن الثناء على سعد، قال: وقد قال شعراً:

الأيّتي والمرء سعد بن مالك وزيراً وابن السمط في لجة البحر
فيشرق أصحابي وأخرج سالماً على ظهر فرقور أبادي أبا بكر
فكتب عمر إلى سعد يأمره بأن يرسل زيراً وشرحبيلاً إليه، فأرسلهما، فأمسك زيراً بالمدينة وسير شرحبيلاً إلى الشام، فشرّف وتقدّم، وكان أبوه السمط من غزوة الشام. فلما قدم جرير بكتاب عليّ إلى معاوية في البيعة انتظر معاوية قدوم شرحبيل، فلما قدم عليه أخبره معاوية بما قدم فيه جرير، فقال: كان أمير المؤمنين عثمان خليفتنا، فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا. فانصرف

لما عاد عليّ من البصرة بعد فراغه من الجمل قصد الكوفة وأرسل إلى جرير بن عبد الله البجلي، وكان عاملاً على همدان استعمله عثمان، وإلى الأشعث ابن قيس، وكان على أذربيجان استعمله عثمان أيضاً، يأمرهما بأخذ البيعة والحضور عنده، فلما حضرا عنده أراد عليّ أن يرسل رسولاً إلى معاوية، قال جرير: أرسلني إليه فإنه لي ودّ. فقال الأشعث: لا تفعل فإن هواه مع معاوية. فقال عليّ: دعه حتى نظّر ما الذي يرجع إليه به. فبعثه وكتب معه كتاباً إلى معاوية يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته

جرير، فقال النجاشي:

شُرَّحِيلَ مَا لِلثَّيْنِ فَارَقَتْ أَمْرَنَا وَلَكِنْ لِبَغْضِ الْمَالِكِيِّ جَرِيرٍ
وَقَوْلِكَ مَا قَدْ قَلْتُ عَنْ أَمْرِ أَشْعَثٍ فَاصْبَحْتَ كَالْحَادِي بَغِيرٍ بَعِيرٍ
(جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك، فُتِسِبَ إلى جده مالك).

وخرج عليّ فَعَسَكَرَ بِالنُّخَيْلَةِ، وَتَخَلَّفَ عَنْهُ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ،
وَمِنْهُمْ: (٢٧٩/٣) مُرَّةُ الْهَمْدَانِيِّ وَمَسْرُوقٌ، أَخَذَا أَعْطِيَاتَهُمَا وَقَصَدَا
قَزْوِينَ، فَأَمَّا مَسْرُوقٌ فَإِنَّهُ كَانَ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ تَخَلُّفِهِ عَنْ عَلِيٍّ
بِصَفَيْنَ، وَقَدِمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَمِنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ،
وَبَلَغَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةَ، فَاسْتَشَارَ عَمْرَأَ فَقَالَ: أَمَّا إِذَا سَارَ عَلِيٌّ فَسِرْ إِلَيْهِ
بِنَفْسِكَ وَلَا تَغِبْ عَنْهُ بِرَأْيِكَ وَمَكِيدَتِكَ. فَتَجَهَّزَ مَعَاوِيَةُ وَتَجَهَّزَ
النَّاسُ وَحَضُّهُمْ عَمْرُو وَضَعْفٌ عَلِيًّا وَأَصْحَابُهُ وَقَالَ: إِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ
قَدِ فَرَّقُوا جَمْعَهُمْ وَوَهَّنُوا شُوكَهُمْ وَقَلُّوا حُدُودَهُمْ، وَأَهْلَ الْبَصْرَةِ
مَخَالِفُونَ لِعَلِيٍّ بَمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَقَدْ تَفَانَتْ صَنَادِيدُهُمْ وَصَنَادِيدُ أَهْلِ
الْكُوفَةِ يَوْمَ الْجَمَلِ، وَإِنَّمَا سَارَ عَلِيٌّ فِي شَرِذِمَةٍ قَلِيلَةٍ وَقَدْ قَتَلَ
خَلِيفَتُكُمْ، وَاللَّهِ اللَّهُ فِي حَقِّكُمْ أَنْ تُضَيِّعُوهُ وَفِي دِمَكُمُ أَنْ تُطْلُوهُ !
وَكُتِبَ مَعَاوِيَةَ أَهْلَ الشَّامِ وَعَقِدَ لُؤَاءُ لِعَمْرُو وَلُؤَاءُ لَأَبْنَيْهِ عَبْدِ اللَّهِ
وَمُحَمَّدٍ وَلُؤَاءُ لِعَلَامَةِ وَرْدَانَ، وَعَقِدَ عَلِيٌّ لُؤَاءَ لِعَلَامَةِ قَتْبَرٍ، فَقَالَ
عَمْرُو:

هَلْ يُغْنِيَنِي وَرْدَانٌ عَنِّي قَتْبَرًا وَتُغْنِيَنِي الشُّكُوفُ عَنِّي جَمْبَرًا
إِذَا الْكَمَاءُ لَبَسُوا السَّوْزَا

فبلغ ذلك عليًّا فقال:

لَأَصْبِحَنَّ الْعَاصِي ابْنَ الْعَاصِي سَجِينٌ أَلْفَا عَاقِلِي النَّوَاصِي
مُجْنِبِينَ الْخِيَلِ بِالْقِيَلَاصِ مُسْتَحْقِينَ حُلُقَ الدَّلَاصِ
فَلَمَّا سَمِعَ مَعَاوِيَةَ ذَلِكَ قَالَ: مَا أَرَى عَلِيًّا إِلَّا وَقَدْ وَفَى لَكَ.
وَسَارَ مَعَاوِيَةُ وَتَأَتَّى فِي مَسِيرِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ بَعَثَ
إِلَيْهِ يَقُولُ: (٢٨٠/٣)

أَلَا ابْلُغْ مَعَاوِيَةَ بْنَ حَرْوَبٍ فَإِنَّكَ مِنْ أَخِي يُقَوِّمُ لِيْمُ
قَطَعْتَ النَّعْرَ كَالشَّدِيمِ الْمَعْنَى تَهْدُرُ فِي مَشَقِّ فَمَا تَرِيْمُ
وَأَنَّكَ وَالْكَسَابُ إِلَى عَلِيٍّ كَدَابِغُهُ وَقَدْ خَلِمَ الْأَدِيمُ
يُعْنِيكَ الْإِمَارَةُ كُلَّ رُكْبٍ لَأَقْضَاضِ الْمِرَاقِ بِهَارِ سِيمِ
وَلَيْسَ آخِرُ السَّرَاتِ بِمَنْ تَوَاتَى وَلَكِنْ طَالِبُ السَّرَةِ الْعُشُومُ
وَلَوْ كُنْتَ الْقَتِيلَ وَكَانَ حَيًّا لَجَرَدَ لَا الْفُ وَلَا غُشُومُ
وَلَا يَكُلُ عَنِ الْأَوْتَارِ حَسَى يُبِي بِهَذَا وَلَا يَرْمُ جُشُومُ
وَقَوْمُكَ بِالْمَيْمَنَةِ قَدْ أَبِيرُوا فَهُمْ صَرَعَى كَأَنَّهُمْ الْهَشِيمُ

فكتب إليه معاوية:

وَمُسْتَعْجِبٌ مِمَّا يَرَى مِنْ لَائِنَاتِهَا وَلَوْ رَشَقَةُ الْحَرْبِ لَمْ يَسْتَرْمِ
وَبَعَثَ عَلِيٌّ زِيَادَ بْنَ النَّضْرِ الْحَارِثِي طَلِيْعَةً فِي ثَمَانِيَةِ آلَافٍ،
وَبَعَثَ مَعَهُ شُرَيْحَ بْنَ هَانُو [فِي] أَرْبَعَةِ آلَافٍ، وَسَارَ عَلِيٌّ مِنْ

النُّخَيْلَةِ وَأَخَذَ مَعَهُ مِنَ الْمَدَائِنِ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَوَلَّى عَلَى الْمَدَائِنِ
سَعْدُ بْنُ مَسْعُودٍ، عَمَّ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُيَيْدٍ الْبُقْفِي. وَلَمَّا سَارَ عَلِيٌّ
كَانَ مَعَهُ نَابِغَةُ بَنِي جَعْدَةَ، فَحَدَا بِهِ يَوْمًا فَقَالَ: (٢٨١/٣)

قَدْ عَلِمَ الْبَصْرَانُ وَالْعِرَاقُ أَنَّ عَلِيًّا فَحَلَّهَا الْعُشَاقُ
أَيْضًا جَحَاحٌ لَهُ زَوَاقُ إِنَّ الْأَوَّلَى جَسَارُوكَ لَا أَفَاقُوا
لَكُمْ سِبَاقٌ وَلَهُمْ سِبَاقُ قَدْ عَلِمْتَ ذَلِكَمُ الرَّفَاقُ
وَوَجَّهَ عَلِيٌّ مِنَ الْمَدَائِنِ مَعْقِلَ بْنَ قَيْسٍ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَأَمَرَهُ
أَنْ يَأْخُذَ عَلَى الْمَوْصِلِ حَتَّى يَوَافِيَهُ عَلَى الرَّقَّةِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الرَّقَّةِ
قَالَ لِأَهْلِهَا لِيَعْمَلُوا لَهُ جَسْرًا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَى الشَّامِ، فَأَبَوْا، وَكَانُوا قَدْ
ضَمُّوا مَفْتَحَهُمُ الْيَهُمَ، فَهَمَّضَ مِنْ عِنْدِهِمْ لِيَجْعَلَ عَلَى جِسْرِ مَنَاجِ
وَتَخَلَّفَ عَلَيْهِمُ الْأَشْتَرُ، فَنَادَاهُمْ الْأَشْتَرُ وَقَالَ: أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَنْ لَمْ
تَعْمَلُوا جَسْرًا يَجْرِي عَلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْرَدُنْ فَيَكُمُ السَّيْفُ
وَلَا تَقْتُلَنَّ الرِّجَالَ وَلَا تَحْذُنْ الْأَمْوَالَ ! فَلَغِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَقَالُوا: إِنَّهُ
الْأَشْتَرُ وَإِنَّهُ قَبِيلٌ أَنْ يَفِي لَكُمْ بِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ أَوْ يَأْتِي بِأَكْثَرِ مِنْهُ.
فَنَصَبُوا لَهُ جَسْرًا وَعَبَّرَ عَلَيْهِ عَلِيٌّ وَأَصْحَابُهُ وَازْدَحَمُوا عَلَيْهِ،
فَسَقَطَتْ قَلَنْسُوَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَصِينِ الْأَزْدِي فَنَزَلَ فَأَخَذَهَا ثُمَّ
رَكِبَ، وَسَقَطَتْ قَلَنْسُوَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَجَّاجِ الْأَزْدِي فَنَزَلَ فَأَخَذَهَا،
ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِهِ:

فَلَنْ يَكُ ظَنُّ الرَّاجِرِي الطَّرِيقَ صَادِقًا كَمَا زَعَمُوا أَقْتُلْ وَشَبِّكًا وَتَقْتُلْ
فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْحَصِينِ: مَا شِئْتُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا ذَكَرْتَ ! فَقَتَلَا
جَمِيعًا بِصَفَيْنَ.

وَلَمَّا بَلَغَ عَلِيٌّ الْفَرَاتَ دَعَا زِيَادَ بْنَ النَّضْرِ الْحَارِثِي وَشُرَيْحَ بْنَ
هَانُو فَسَرَّحَهُمَا أَمَامَهُ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا نَحْوَ مَعَاوِيَةَ عَلَى حَالِهِمَا
الَّتِي خَرَجَا عَلَيْهَا مِنَ الْكُوفَةِ. وَكَانَ سَبَبُ عَوْدِهِمَا إِلَيْهِ أَنَّ هُمَا حَيْثُ
سَيَّرَهُمَا عَلِيٌّ مِنَ الْكُوفَةِ أَخَذَا (٢٨٢/٣) عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ مِمَّا
يَلِي الْبَرَّ. فَلَمَّا بَلَغَا عَانَاتَ بَلْفَهُمَا أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَدْ أَقْبَلَ فِي جُنُودِ
الشَّامِ، فَقَالَا: لَا وَاللَّهِ مَا هَذَا لَنَا بَرًّا نَسِيرُ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ
وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا الْبَحْرُ ! وَمَا لَنَا خَيْرٌ فِي أَنْ نَلْقَى جُنُودَ الشَّامِ
بَقَلَّةٍ مِنْ مَعْنَا. فَذَهَبُوا لِيَجْعَلُوا مِنْ عَانَاتٍ، فَمَنْعَهُمْ أَهْلُهَا. فَارْجَعُوا
فَعَبَرُوا مِنْ هَيْتَ، فَلَحَقُوا عَلِيًّا دُونَ فَرْقِيسِيَا، فَلَمَّا لَحَقُوا عَلِيًّا قَالَ:
مَقْدَمَتِي تَأْتِيَنِي مِنْ وَرَائِي. فَأَخْبَرَهُ شُرَيْحٌ وَزِيَادُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ:
سُدُّتُمَا. فَلَمَّا عَبَرَ الْفَرَاتَ سَيَّرَهُمَا أَمَامَهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى سَوْرِ الرُّومِ
لَقِيَهُمَا أَبُو الْأَعْوَرِ السَّلْمِيُّ فِي جَنْدٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَأَرْسَلَا إِلَى عَلِيٍّ
فَاعْلَمَاهُ، فَأَرْسَلَ عَلِيٌّ إِلَى الْأَشْتَرِ وَأَمَرَهُ بِالسَّيْرِ وَقَالَ لَهُ: إِذَا قَدِمْتَ
فَأَنْتَ عَلَيْهِمُ، وَإِنَّكَ أَنْ تَبْدَأَ الْقَوْمَ بِقِتَالٍ إِلَّا أَنْ يَدُورُوكَ حَتَّى تَلْقَاهُمْ
فَتَدْعُوهُمْ وَتَسْمَعُ مِنْهُمْ، وَلَا يَحْمِلُكَ بَغْضُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ
دَعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَاجْعَلْ عَلَى مِمْشِكَ زِيَادًا
وَعَلَى مِيسْرَتِكَ شُرَيْحًا، وَلَا تَدْعُ مِنْهُمْ دَنُوً مِنْ يَرِيدُ أَنْ يُنْشَبَ
الْحَرْبُ، وَلَا تَبَاغُذْ مِنْهُمْ تَبَاغُذَ مِنْ يَهَابِ الْبَاسِ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَيْهِ،

قتلهم الله ! فقال عمرو بن العاص: خلّ بين القوم وبين الماء وإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ولكن بغيز الماء فانظر فيما بينك وبين الله. فأعاد الوليد وعبد الله بن سعد مقاتلتهما وقالوا: امنعهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدرُوا عليه رجعوا وكان رجوعهم هزيمة، امنعهم الماء منهمم الله [أياه] يوم القيامة! قال صعصعة: إنما يمنع الله الفجرة وشربة الخمر، لعنك الله ولعن هذا الفاسق يعني الوليد بن عقبة. فشتموه وتهتدوه.

وقد قيل: إن الوليد وابن أبي سرح لم يشهدا صفين.

فرجع صعصعة فأخبره بما كان وأن معاوية قال: سيايتكم رأيي، فسرب الخيل إلى أبي الأعور ليمنعهم الماء، فلمّا سمع عليّ ذلك قال: قاتلوهم على الماء. فقال الأشعث بن قيس الكندي: أنا أسير إليهم، فلمّا دنوا منهم ثاروا في وجوههم فرموهم بالنبل فتراموا ساعة ثمّ تطاعنوا بالرماح ثمّ صاروا إلى السيوف فاقتلوا ساعة، وأرسل معاوية يزيد بن أسد البجلي القسري، جد خالد بن عبد الله القسري، في الخيل إلى أبي الأعور، فاقبلوا، فأرسل عليّ شيث بن رعي الرياحي، فازداد القتال، فأرسل معاوية عمرو بن العاص في جند كثير، فأخذ يمدّ أبا الأعور ويزيد بن أسد، وأرسل عليّ الأشعثي جمع (٢٨٥/٣) عظيم وجعل يمدّ الأشعث وشيثاً، فاشتد القتال، فقال عبد الله بن عوف الأزدي الأحمري:

خَلُّوا لَنَا مَاءَ الْفَرَاتِ الْجَارِي أَوْ ابْتَسُوا لِحِضْلِ جَرَّارٍ
لِكُلِّ قَرْمٍ مُّشْتَبِئٍ شَارِي مُطْئِئَانٍ بِرُوحِهِ كَرَّارٍ
فَرَاكِيبَ مَلَسَاتِ الْيَدَى مَقْشُورٍ لَمْ يَخْشَ غَيْرَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ

وقاتلوهم حتى خلّوا بينهم وبين الماء وصار في أيدي أصحاب عليّ، فقالوا: والله لا نسقي أهل الشام! فأرسل عليّ إلى أصحابه أن خذوا من الماء حاجتكم وخلّوا عنهم، فإن الله نصركم ببغيهم وظلمهم. ومكث عليّ يومين لا يرسل إليهم أحداً ولا يأتيه أحد، ثمّ إن عليّاً دعا أبا عمرو بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشيث بن رعي التميمي، فقال لهم: اتوا هذا الرجل وادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة. فقال له شيث: يا أمير المؤمنين ألا تطعمه في سلطان توليه إياه أو منزلة تكون له بها أثره عندك إن هو بايعك؟ قال: انطلقوا إليه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه. وهذا في أول ذي الحجة. فأتوه فدخلوا عليه، فابتدأ بشير بن عمرو الأنصاري فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإني أشهدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها.

فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هلاً أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال أبو عمرو: إن صاحبي ليس مثلك، إن صاحبي أحقّ البرية

فإنّي حيث المسير في إترك إن شاء الله تعالى. وكتب عليّ إلى شريح وزباد بذلك وأمرهما بطاعة الأشتر.

فسار الأشتر حتى قدم عليهم وأتبع ما أمره وكفّ عن القتال، ولم يزالوا متوافقين حتى [إذا] كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور السلمي، فنبثوا له واضطربوا ساعة، ثمّ انصرف أهل الشام وخرج إليهم من الغد هاشم بن عتبة المرقالي، وخرج إليه أبو الأعور، فاقتلوا يومهم وصبر بعضهم لبعض ثمّ انصرفوا، وحمل عليهم الأشتر وقال: أروني أبا الأعور، وتراجعوا، ووقف أبو الأعور وراء المكان الذي كان فيه أول مرة، وجاء الأشتر فصفّ أصحابه بمكان أبي الأعور بالأمس، فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعي: انطلق إلى أبي الأعور فداعه إلى البراز. فقال: إلى مبارزتي أو مبارزتك؟ فقال الأشتر: (٢٨٣/٣) لو أمرتك بمبارزته فعلت؟ قال: نعم، والله لو أمرتني أن أعترض صفهم بسيفي لفعلت! فدعا له وقال: إنما تدعوه لمبارزتي. فخرج إليهم فقال: أوتوني فيّاني رسول، فأمتوه، فأنتهى إلى أبي الأعور وقال له: إن الأشتر يدعوك إلى أن تبارزه، فسكت طويلاً ثمّ قال: إن خفة الأشتر وسوء رأيه حملاه على إجلاء عمال عثمان عن العراق وتبيح محاسنه وعلى أن سار إليه في داره حتى قتله فأصبح متبعاً بدمه لا حاجة لي في مبارزته. قال له الرسول: قد قلت فاسمع مني أجيبك. قال: لا حاجة لي في جوابك، اذهب عني! فصاح به أصحابه، فأنصرف عنه ورجع إلى الأشتر فأخبره، فقال: لنفسه نظر. فوقفوا حتى حجز الليل بينهم، وعاد الشاميون من الليل وأصبح عليّ غدوة عند الأشتر، وتقدّم الأشتر ومن معه فأنتهى إلى معاوية فواقفه ولحق بهم عليّ فتوافقوا طويلاً.

ثمّ إن عليّاً طلب لعسكره موضعاً ينزل فيه، وكان معاوية قد سبق فنزل منزلاً اختاره بسيطاً واسعاً أفيح وأخذ شريعة الفرات، وليس في ذلك الصقع شريعة غيرها، وجعلها في حيزه، وبعث عليها أبا الأعور السلمي يحميها ويمنعها، فطلب أصحاب عليّ شريعة غيره فلم يجدوا، فأثروا عليّاً فأخبروه بفعلهم وبعطش الناس، فدعا صعصعة بن ضوحان فأرسله إلى معاوية يقول له: إنما مسرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، فقدمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، ونحن من رأينا الكفّ حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها، منعتم الناس عن الماء والناس غير متئين، فابعت إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء وليكفوا لنظر فيما بيننا وبينكم وفيما (٢٨٤/٣) قدما لنا، فإن أردت أن نترك ما جئنا له ونقتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا.

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال الوليد بن عقبة وعبد الله بن سعد: امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان، اقتلهم عطشاً

كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة بالرسول، ﷺ. قال: فماذا يقول؟ قال: يا مارك بتقوى الله وأن تجيب ابن عمك إلى ما (٢٨٦/٣) يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دينك وخير لك في عاقبة أمرك! قال معاوية: وترك دم ابن عفاً؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً.

قال: فذهب سعيد بن قيس يتكلم، فبادره شبيب بن ربعي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معاوية قد فهمت ما رددت على ابن محصن، إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب، إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه، فاستجاب لك سفهاء طغام، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب، ورب متمني أمر وطالبه يحول الله دونه، وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته، والله ما لك في واحدة منهما خير! والله إن أخطأك ما ترجو إنك لشرب العرب حالاً! ولئن أصبت ما تمناه لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلياً النار! فاتى الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله.

قال: فحمد معاوية الله ثم قال: أما بعد فإن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك أن قطعت على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقاً ثم اعترضت بعد فيما لا علم لك به، فقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت! انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلا السيف. وغضب، وخرج القوم. فقال له شبيب بن ربعي: أتتهول بالسيف؟ أقسم بالله لنجعلنها إليك.

فاتوا علياً فأخبروه بذلك، فأخذ عليّ يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة من أصحابه ويخرج إليه آخر من أصحاب معاوية ومعه جماعة، فيقتلان في خيلهما ثم ينصرفان، وكرهوا أن يلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام لما خافوا أن يكون فيه من الاستئصال والهلاك، فكان عليّ يخرج مرة الأشتر (٢٨٧/٣) ومرة حجر بن عدي الكندي ومرة شبيب بن ربعي ومرة خالد بن المعمر ومرة زياد بن النضر الحارثي ومرة زياد بن خصفة التيمي ومرة سعيد بن قيس الهمداني ومرة معقل بن قيس الرياحي ومرة قيس بن سعد الأنصاري، وكان الأشتر أكثرهم خروجاً. وكان معاوية يخرج إليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأبا الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة القهري وابن ذي الكلاع الجُميري وعبيد الله بن عمر بن الخطاب وشرحبيل بن السمط الكندي وخمرة بن مالك الهمداني، فاقتلوا أيام ذي الحجة كلها، وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات حذيفة بن اليمان بعد قتل عثمان يسير ولم

يترك الجمل وقُتل ابنه صفوان وسعيد مع عليّ بصفيين بوصية أبيهما، وقيل: مات سنة خمس وثلاثين، والأول أصح.

وفيها مات سلمان الفارسي في قول بعضهم، وكان عمره مائتين وخمسين سنة، هذا أقبل ما قيل فيه، وقيل: ثلاث مئة وخمسون سنة، وكان قد أدرك بعض أصحاب المسيح، عليه السلام. وعبد الله بن سعد بن أبي سرح مات بعسقلان حيث خرج معاوية إلى صفين وكره الخروج معه.

ومات فيها عبد الرحمن بن عُديس البلري أمير القادامين من مصر لقتل عثمان، وكان ممن بايع النبي، ﷺ، تحت الشجرة، وقيل: بل قُتل بالشام.

وفيها مات قدامة بن مظعون الجُمحي، وهو من مهاجرة الحبشة، وشهد بدرًا.

وفيها توفي عمرو بن أبي عمرو بن ضبة الفهري أبو شداد، شهد بدرًا.

وفيها استعمل عليّ على الري يزيد بن حُجبة التيمي تيم (٢٨٨/٣) اللات، فكسر من خراجها ثلاثين ألفاً، فكتب إليه عليّ يستدعيه، فحضر، فسأله عن المال قال: أين ما غلثت من المال؟ قال: ما أخذت شيئاً! فخفقه بالذرة خفقات وجسه ووكل به سعداً مولاه، فهرب منه يزيد إلى الشام، فسوّغه معاوية المال، فكان ينال من عليّ، وبقي بالشام إلى أن اجتمع الأمر لمعاوية فسار معه إلى العراق فولاه الري، فقبل: إنّه شهد مع عليّ الجمل وصفين والنهروان، ثم ولاه الري، وهو الصحيح، فكان ما تقدّم ذكره.

(٢٨٩/٣)

سنة سبع وثلاثين

ذكر تمة أمر صفين

في هذه السنة في المحرم منها جرت موادة بين عليّ ومعاوية، توادعا على ترك الحرب بينهما حتى ينقضي المحرم طمعاً في الصلح، واختلفت بينهما الرسل، فبعث عليّ عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبيب بن ربعي وزباد بن خصفة.

فتكلم عدي بن حاتم فحمد الله وقال: أما بعد فإنّا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمننا ونحنق به الدماء ونصلح ذات البين، إن ابن عمك سيّد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس ولم يبق أحد غيرك وغير من معك، فاحذر يا معاوية لا يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل! فقال له معاوية: كأنك إنما جئت متهدداً لم تأت مصلحاً! هيها يا عدي! كلا والله إنّي لأبئ حرب لا يقفّع له بالشان، وإنك والله

ثم حمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ، بالحق فأنقذ به من الضلالة والهلكة وجمع به من الفرقة ثم قبضه الله إليه فاستخلف الناس أبا بكر، واستخلف أبو بكر عمر، فأحسن السيرة وعدل، وقد وجدنا عليها أن تؤلي الأمور ونحن آل رسول الله ﷺ، ففقرنا ذلك لهما، وولى الناس عثمان فعمل بأشياء عابها الناس فسياروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس فقالوا لي: بايع، فأبيت، فقالوا: بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وأنا نخاف إن لم تفعل أن يتفرق الناس، فبايعتهم، فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، حزب من الأحزاب، لم يزل حرباً لله ورسوله هو وأبوه حتى دخلوا في الإسلام كارهين، ولا عجب (٢٩٢/٣) إلا من اختلافكم معه وانقيادكم له وتتركوا آل بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم إلا إنني أذكركم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإمارة الباطل وإحياء الحق ومعالم الدين! أقول قولتي هذا واستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين. فقالوا: تشهد أن عثمان قتل مظلوماً؟ فقال لهما: لا أقول إنه قتل مظلوماً ولا ظالماً. قالوا: فمن لم يزعم أنه قتل مظلوماً فنحن منه برآء. وانصرفا، فقال [علي]: عليه السلام: «إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْعَوْنِي»، إلى قوله: «فَهُمْ مُسْلِمُونَ». [النمل: ٨٠] ثم قال لأصحابه: لا يكن هؤلاء في الجند في ضلالهم أجد منكم في الجند في حاكم وطاعة ربكم.

فتنازع عامر بن قيس الجذيري ثم الطائي وعدي بن حاتم الطائي في الراية بصفين، وكانت جذير أكثر من بني عدي رهط حاتم، فقال عبد الله بن خليفة التولاني عند علي: يا بني جذمر أعلى عدي تتوثبون وهل فيكم وفي آبائكم مثل عدي وأبيه؟ أليس بحامي القرية ومنع الماء يوم رويته؟ أليس ابن ذي المرباع، وابن جواد العرب، وابن المنهب ماله ومنع جاره، ومن لم يعذر ولم يفجر ولم ييخل ولم ييمن ولم يجبن؟ هاتوا في آبائكم مثل أبيه، أوفيكهم مثله، أليس أفضلكم في الإسلام ووافدكم إلى النبي ﷺ؟ أليس برأسكم يوم النخيلة ويوم القادسية ويوم المدائن ويوم جلولاء ويوم نهاوند ويوم تشر؟ فقال علي: حسبك يا ابن خليفة. وقال علي: لتحضرن جماعة طية. فأتوه، فقال: من كان رأسكم في هذه المواطن؟ قالوا: عدي. فقال ابن خليفة: سلهم يا أمير المؤمنين أليسوا راضين برياسة عدي؟ ففعل، فقالوا: بلى. فقال علي: فعدي أحقكم بالراية، وأخذها. فلما كان أيام حجر بن عدي طلب زياد عبد الله بن خليفة ليعثه مع حجر، فسار إلى الجبلين ووعد عدي أن يرده (٢٩٣/٣) وأن يسأل فيه، فطال عليه ذلك، فقال شعراً منه:

أنتى بلاتي سادراً يا ابن حاتم عشي ما أغت عليك جذمراً

من المجلبين على عثمان، وإنك من قتلته، وإنني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به! فقال له شبيب وزباد بن خصفة جواباً واحداً: أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال، دع ما لا ينفع وأجبنا فيما يعم نفعه، وقال يزيد بن قيس: إنا لم نأت إلا لنيلفك ما أرسلنا به إليك ونودي عنك ما سمعنا منك، (٢٩٠/٣) ولسن ندع أن تنصح لك وأن نذكر ما يكون به الحجة عليك ويرجع إلى الألفة والجماعة، إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله ولا يخفى عليك، فاتى الله يا معاوية ولا تخالفه، فإننا والله ما رأينا في الناس رجلاً قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فحمد الله معاوية ثم قال: أما بعد فلأنكم دعوتكم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتكم إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها لأن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وأوى ثأرنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد عليه ذلك فليدفع إلينا قتلة عثمان لنتلثمهم ونحن نجيحكم إلى الطاعة والجماعة.. فقال شبيب بن ربعي: أبسر ك يا معاوية أن تقتل عمارة؟ فقال: وما يمنعني من ذلك؟ لو تمكنت من ابن سمية لمقتله بملسى عثمان. فقال شبيب: والذي لا إله غيره لا تصل إلى ذلك حتى تنذر الهام عن الكواهل وتضيق الأرض الفضاء عليك! فقال معاوية: لو كان ذلك لكانت عليك أضيق!

وتفرق القوم عن معاوية، وبعث معاوية إلى زياد بن خصفة فخلاه وقال له: يا أخا ربيعة، إن علينا قطع أرحامنا وقتل إمامنا وأوى قتلة صاحبنا، وإنني أسألك النصر عليه بعشيرتك ثم لك عهد الله وميثاقه أنني أولئك إذا ظهرت أي المصريين أحببت. فقال زياد: أما بعد فإني على بينة من ربي وما أنعم الله علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين وأقام. فقال معاوية لعمر بن العاص: ليس نكلم رجلاً منهم فيجب إلى خير، ما قلوبهم إلا كقلب واحد. (٢٩١/٣)

وبعث معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة الفهري وشرحбил بن السمط وممن بن يزيد بن الأخنس، فدخلوا عليه، فحمد الله حبيب وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن عثمان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله وينيب إلى أمره، فاستقلتم حياته واستطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله [تقتلهم به]، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شوري بينهم يولونه من أجمعوا عليه. فقال له علي: ما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر؟ اسكت [فإنك] لست هناك ولا بأهل له. فقال: والله لتريني بحيث تكروه! فقال له علي: وما أنت؟ لا أبقي الله عليك إن أبقيت علينا، اذهب فصوص وصعد ما بدا لك! وقال شرحibil: ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي، فهل عندك جواب غير هذا؟ فقال علي: ليس عندي جواب غيره.

فدافعت عنك القوم حتى تخذلوا. وكنت أنا الخصم الألد الغفورا. فوكلوا وما قاموا مقامي كأنما راوئي ليشأ بالأبائة مخذلوا نصرتك إذ خام القريب وبعد الس جعد وقد أهدت نصرأ مؤزرا فكان جزائي أن أجرز يتكسم سحيا وأن أولي الهوان وأوسرا. وكم عدة لي منك أنك راجعي فلم تكن بالمعلو عني خبيرا. وسترده قصته بتمامها، إن شاء الله تعالى.

فلما انسلك المحرم أمر علي مناديا فنادي: يا أهل الشام! يقول لكم أمير المؤمنين: قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتبينوا إليه، فلم تنهوا عن طغيانكم ولم تجيبوا إلى الحق، وإنني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين! فاجتمع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم، خرج معاوية وعمرو بكتبان الكتاب وتعيينان الناس، وكذلك فعل أمير المؤمنين، وقال للناس: لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فأنتم بحمد الله على حجة، وترككم قتالهم حجة أخرى، فإذا هزمتهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تملأوا بقتل، وإذا وصلت إلى رجال القوم فلا تهتكوا سراً ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم، ولا تهيجوا امرأة وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضياف القوي والأفئس. وكان يقول بهذا المعنى (٢٩٤/٣) لأصحابه في كل موطن، وحرّض أصحابه فقال: عباد الله اتقوا الله وغضوا الأبصار واخفضوا الأصوات وأقلوا الكلام ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجاوله والمزاولة والمناضلة والمعانقة والمكادمة والملازمة، «فأثبثوا واذكروا الله كثيراً لتلقكم تلقحون» [الأنفال: ٤٥]، «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين» [الأنفال: ٤٦]، اللهم ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر!

وأصبح علي فجعل على خيل الكوفة الأشتر، وعلى جند البصرة سهل بن حنيف، وعلى رجالة الكوفة عمار بن ياسر، وعلى رجالة البصرة قيس بن سعد، وهاشم بن عتبة المرقال معه الراية، وجعل يسهر بن فذكي على قراء الكوفة وأهل البصرة. وبعث معاوية على ميمته ابن ذي الكلاع الحميري، وعلى مسيرته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى مقدمته أبا الأعور السلمي، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص، وعلى رجالة دمشق مسلم بن عتبة المرمي، وعلى الناس كلهم الضحّاك بن قيس، وباع رجالاً من أهل الشام على الموت، ففعلوا أنفسهم بالعمائم، وكانوا خمسة صفوف، وخرجوا أول يوم من صفّر فقاتلوا، وكان على الذين خرجوا من أهل الكوفة الأشتر، وعلى من خرج من أهل الشام حبيب بن مسلمة، فقاتلوا يومهم قتالاً شديداً معظم النهار ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض. ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجال، وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي،

وقال عمار لزياد بن النضر وهو على الخيل: احمل على أهل الشام. فحمل وقاتله الناس وصبروا له، وحمل عمار فزال عمرو بن العاص عن موضعه، وبارز يومئذ زياد بن النضر أخاه لأمه، واسمه عمرو بن معاوية من بني المتقي، فلما التقيا تعارفا فانصرف كل واحد منهما عن صاحبه وتراجع الناس. وخرج من الغد محمد بن علي، وهو ابن الحنفية، وخرج إليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمعين عظيمين فقاتلوا أشد القتال، وأرسل عبيد الله إلى ابن الحنفية يدعو إلى المبارزة، فخرج إليه، فحرك علي دابته وردّ ابنه ويرز علي إلى عبيد الله، فرجع عبيد الله، وقال محمد لأبيه: لو تركتني لرجوت قتله. وقال: يا أمير المؤمنين وكيف تبرز إلى هذا الفاسق؟ والله إنني لأرغب بك عن أبيه! فقال علي: يا بني لا تقل في أبيه إلا خيراً. وتراجع الناس. وخرج عبد الله بن عباس في اليوم الخامس، وخرج إليه الوليد بن عتبة، فقاتلوا قتالاً شديداً، فسب الوليد بني عبد المطلب، فطلبه ابن عباس ليبارزه فأبى، وقاتل ابن عباس قتالاً شديداً. وخرج في اليوم السادس قيس بن سعد الأنصاري، وخرج إليه ابن ذي الكلاع الحميري، فقاتلوا قتالاً شديداً ثم انصرفوا. ثم عاد يوم الثلاثاء وخرج الأشتر، وخرج إليه حبيب، فقاتلوا قتالاً شديداً وانصرفوا عند الظهر.

ثم إن علياً قال: حتى متى لا نهاض هؤلاء القوم بأجمعنا؟ فقال في الناس عشية الثلاثاء ليلة الأربعاء خطيباً فحمد الله وأثنى عليه فقال: الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض وما أبرم لم ينقضه الناقضون، ولو شاء الله ما اختلف اثنان من (٢٩٦/٣) خلقه ولا اختلفت الأمة في شيء ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله وقد ساقنا هؤلاء القوم الأقدار فنحن بمرأى من ربنا ومسمع فلو شاء عجل النعمة وكان منه التغيير حتى يكذب الظالم ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال وجعل الآخرة دار القرار «ليجزى الذين أسأوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى» [النجم: ٣١]، ألا وإنكم لاقو القوم غداً فأطيلوا الليلة القيام واكثروا تلاوة القرآن واسألوا الله النصر والصبر والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين. فقام القوم يصلحون سلاحهم، فمر بهم كعب بن جعيل فقال:

أصبحت الأمة في أمر عجب والمليك مجموع غداً لمن غلب

قُلْتُ قَوْلًا صَادِقًا غَيْرَ كَذِيبٍ إِنَّ غَدًا تَهْلِكُ أَسْلَامُ الْعَرَبِ وَعُبِيَ عَلِيٌّ النَّاسُ لَيْلَتَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ وَزَحَفَ بِالنَّاسِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ فِي أَهْلِ الشَّامِ، فَسَأَلَ عَلِيٌّ عَنِ الْقِبَائِلِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَعَرَفَ مَوَاقِفَهُمْ، فَقَالَ لِلْأَزْدِ: أَكْفُونَا الْأَزْدَ، وَقَالَ لَخَثْمِمْ: أَكْفُونَا خَثْمِمْ، وَأَمَرَ كُلَّ قَبِيلَةٍ أَنْ تَكْفِيَ اخْتِهَاً مِنَ الشَّامِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ قَبِيلَةً لَيْسَ مِنْهَا بِالشَّامِ أَخَذَ فَيَصْرِفُهَا إِلَى قَبِيلَةٍ أُخْرَى مِنَ الشَّامِ لَيْسَ بِالْعِرَاقِ مِنْهُمْ أَحَدٌ، مِثْلَ بَجِيلَةَ لَمْ يَكُنْ بِالشَّامِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ صَرَفَهُمْ إِلَى لَخْمِمْ.

وَقَاتَلَهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُذَيْلٍ فِي الْمَيْمَنَةِ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى انْتَهَى

فَتَنَاهَضَ النَّاسُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا ثُمَّ انْصَرَفُوا عِنْدَ الْمَسَاءِ وَكُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ صَلَّى عَلِيٌّ بِفُلَسٍّ وَخَرَجَ بِالنَّاسِ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ فَزَحَفَ إِلَيْهِمْ وَزَحَفُوا مَعَهُ، وَكَانَ عَلَى مَيْمَنَةِ عَلِيٍّ عَبْدِ اللَّهِ (٢٩٧/٣) ابْنُ بُذَيْلٍ بَيْنَ رِقَاءِ الْخَزَاعِيِّ، وَعَلَى مِيسَرَتِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَالْقَرَاءُ مَعَ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ: عَمَّارٌ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُذَيْلٍ، وَالنَّاسُ عَلَى رَايَاتِهِمْ وَمَرَكَزِهِمْ، وَعَلِيٌّ فِي الْقَلْبِ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ، وَأَكْثَرُ مِنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْأَنْصَارِ وَمَعَهُ عِدَدٌ مِنْ خَزَاعَةَ وَكِنَانَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَزَحَفَ إِلَيْهِمْ. وَرَفَعَ مَعَاوِيَةُ قَبَةَ عَظِيمَةً فَالْقَى عَلَيْهَا الثِّيَابَ وَيَابَعَهُ أَكْثَرُ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى الْمَوْتِ، وَأَحَاطَ بِقَبْتِهِ خَيْلُ دِمَشْقَ. وَزَحَفَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ بُذَيْلٍ فِي الْمَيْمَنَةِ نَحْوَ حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ وَهُوَ فِي مِيسَرَةِ مَعَاوِيَةَ، فَلَمْ يَزَلْ يَحْوَرُهُ وَيَكْشِفُ خَيْلَهُ حَتَّى اضْطَرَّهُمْ إِلَى قَبَةِ مَعَاوِيَةَ عِنْدَ الظُّهْرِ، وَحَرَضَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ بُذَيْلٍ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: إِلَّا إِنَّ مَعَاوِيَةَ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَنَازَعَ الْحَقَّ أَهْلَهُ، وَعَانَدَ مَنْ لَيْسَ مِثْلُهُ، وَجَادَلَ الْبَاطِلَ لِيُدْحِضَ بِهِ الْحَقَّ، وَصَالَ عَلَيْكُمْ بِالْأَعْرَابِ وَالْأَحْزَابِ الَّذِينَ قَدْ زَيَّنَ لَهُمُ الضَّلَالَةَ، وَزَرَعَ فِي قُلُوبِهِمْ حُبَّ الْفِتْنَةِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، وَزَادَهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِمْ، فَقَاتِلُوا الطُّغْيَانَ الْجَفَاءَ وَلَا تَخْشَوْهُمْ، ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وَحَرَضَ عَلِيٌّ أَصْحَابَهُ فَقَالَ فِي كَلَامٍ لَهُ: فَسَوُّوا صَفُوفَكُمْ كَالْبَنِيَانِ الْمَرْصُورِ وَقُدِّمُوا الدَّارِعَ وَأَخْرُوا الْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ فَإِنَّ أَنْبِيَّ السُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَالتَّوَرَا فِي الْأَطْرَافِ فَإِنَّهُ أَصُونٌ لِلْأَسْنَةِ، وَغَضُّوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْطَبُ لِلْجَاشِ وَأَسْكِنُ لِلْقَلْبِ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفُشْلِ وَأُولَى بِالْوَقَارِ، وَرَايَاتِكُمْ فَلَا تَعْمَلُوهَا وَلَا تَزِيلُوهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شَجْعَانِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا (٢٩٨/٣) بِالصِّدْقِ وَالصَّبْرِ، فَإِنَّ بَعْدَ الصَّبْرِ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ النَّصْرُ.

وَقَامَ يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ الْأَرْحَجِيُّ يَحْرِضُ النَّاسَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُسْلِمَ مِنْ سَلَمٍ فِي دِينِهِ وَرَأْيِهِ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ وَاللَّهِ لَا يِقَاتِلُونَا عَلَى إِقَامَةِ دِينِ ضَيْعَانَةٍ وَإِحْيَاءِ حَقِّ أَمْتِنَاهُ، إِنْ يِقَاتِلُونَا إِلَّا عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا

إِلَى قَبَةِ مَعَاوِيَةَ وَأَقْبَلَ الَّذِينَ تَبَايَعُوا عَلَى الْمَوْتِ إِلَى مَعَاوِيَةَ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَصْمُدُوا لَابْنَ بُذَيْلٍ فِي الْمَيْمَنَةِ، وَبَعَثَ إِلَى حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ فِي الْمِيسَرَةِ فَحَمَلَ بِهِمْ وَبَعَثَ مَعَهُ عَلَى مَيْمَنَةِ النَّاسِ فَهَزَمَهُمْ، وَانْكَشَفَ أَهْلُ الْعِرَاقِ مِنْ قِبَلِ الْمَيْمَنَةِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا ابْنُ بُذَيْلٍ فِي مَتْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَتَيْنِ مِنَ الْقَرَاءِ قَدْ أَسْنَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَانْجَفَلَ النَّاسُ، وَأَمَرَ عَلِيٌّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ فَاسْتَقْدَمَ فِيمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلْتَهُمْ جَمْعُوعٌ لِأَهْلِ الشَّامِ عَظِيمَةٌ فَاحْتَمَلْتَهُمْ حَتَّى أَوْقَفْتَهُمْ فِي الْمَيْمَنَةِ، وَكَانَ فِيمَا بَيْنَ الْمَيْمَنَةِ إِلَى مَوْقِفِ عَلِيٍّ فِي الْقَلْبِ أَهْلُ الْيَمَنِ. فَلَمَّا انْكَشَفُوا انْتَهَتْ الْهَزِيمَةُ إِلَى عَلِيٍّ، فَانْصَرَفَ عَلِيٌّ يَمْشِي نَحْوَ الْمِيسَرَةِ، فَانْكَشَفَتْ عَنْهُ مَضْرُ مِنْ (٢٩٩/٣) الْمِيسَرَةِ وَثَبَتَ زَيْعَةُ، وَكَانَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ مَعَهُ حِينَ قَصَدَ الْمِيسَرَةَ وَالتَّبَلُّ يَمُرُّ بَيْنَ عَاتِقِهِ وَمِنْكَبِيهِ، وَمَا مِنْهُ مِنْ بَنِيهِ أَحَدٍ إِلَّا يَقِيهِ بِنَفْسِهِ فَيُرَدُّهُ فَيَصْرُ بِهَ أَحْمَرُ مَوْلَى ابْنِ سَفْيَانَ أَوْ عُثْمَانَ فَأَقْبَلَ نَحْوَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ كَيْسَانُ مَوْلَى عَلِيٍّ فَاخْتَلَفَا بَيْنَهُمَا ضَرْبَتَانِ فَقَتَلَهُ أَحْمَرُ، فَأَخَذَ عَلِيٌّ بِجَبِيبِ دَرْعٍ أَحْمَرَ فَجَذَبَهُ وَحَمَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكَسَرَ مِنْكَبِيهِ وَغَضَّ بِهِ، وَدَنَا مِنْهُ أَهْلُ الشَّامِ، فَمَا زَادَهُ قُرْبَهُمْ إِلَّا إِسْرَاعًا، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْحَسَنِ: مَا ضَرَبَكَ لَوْ سَعَيْتَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ أَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنْ لَا يَكُ يَوْمًا لَا يَعْدُوهُ وَلَا يَطِيئُهُ بِهِ عَنْهُ السَّعْيُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ إِلَيْهِ الْمَشْيُ، إِنْ أَبَاكَ وَاللَّهِ لَا يَسَالِي أَوْقَعَ عَلَى الْمَوْتِ أَمْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى رِبْعِيَّةٍ نَادَى بِصَوْتٍ عَالٍ كَغَيْرِ الْمَكْتُورِ لِمَا فِيهِ النَّاسُ: لِمَنْ هَذِهِ الرَّايَاتُ؟ قَالُوا: رَايَاتُ رِبْعِيَّةٍ. قَالَ: بَلْ رَايَاتُ عَصَمَةَ اللَّهِ أَهْلُهَا فَهَضَبُوهُمْ وَثَبَّتْ أَقْدَامَهُمْ. وَقَالَ لِلْحَضِيِّينَ بِنِ الْمُنْدَرِ: يَا قَتْلَى الْأَتَدْنِي رَايَتَكَ هَذِهِ ذِرَاعًا. قَالَ: بَلَى وَاللَّهِ وَعَشْرَةُ أَذْرَعٍ، فَادْنَاهَا حَتَّى قَالَ: حَسْبُكَ مَكَانُكَ. وَلَمَّا انْتَهَى عَلِيٌّ إِلَى رِبْعِيَّةٍ تَنَادَوْا بَيْنَهُمْ: يَا رِبْعِيَّةُ أَنْ أَصِيبَ فَيْكُمُ امِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَفَيْكُمُ رَجُلٌ حَيٌّ اقْتَضَحْتُمْ فِي الْعَرَبِ! فَقَاتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا مَا قَاتَلُوا مِثْلَهُ، فَلِذَلِكَ قَالَ عَلِيٌّ:

لِمَنْ رَايَةُ سُرْدَاهُ يَخْفِئُ ظُلُمًا إِنْ قِيلَ قَتَعَهَا خُفْيَتْ بَقْدَمَاهُ
وَيَقْدَعُهَا فِي الْمَوْتِ حَتَّى يُزِيرَهَا حِيَاضُ الْمَنِيَا تَقْطُرُ الْمَوْتَ وَالْبَقَا
أَفْئَا ابْنِ حَرْبٍ طَعَنَّا وَغَيْرَانَا بِأَسْيفِنَا حَتَّى تَوَلَّى وَاحْجَمْنَا

جَزَى اللَّهَ قَوْمًا صَابِرُوا فِي لِقَائِهِمْ لَدَى الْمَوْتِ قَوْمًا مَا اعْفَى وَكَرَّمَا (٣٠٠/٣)

وَأَطِيبَ إِخْبَارًا وَكَرَّمَ شَيْئًا إِذَا كَانَ أَصْوَاتُ الرِّجَالِ تَغْمَعُ مَا رِيْعَةً أَعْنِي، إِيَّاهُمْ أَهْلُ نَجْدَةٍ وَيَأْسَ إِذَا لَأَقَرَّا خَيْسًا عَرَمَرَمَا وَرَمَّ بِهِ الْأَشْتَرُ وَهُوَ يَقْصِدُ الْمَيْسِرَةَ، وَالْأَشْتَرُ يَرْكُضُ نَحْوَ الْقَرْعِ قَبْلَ الْمَيْمَنَةِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: يَا مَالِكُ! قَالَ: لِيَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قَالَ: إِنَّهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ قُتِلَ لَهُمْ: أَيْنَ فَرَارِكُمْ مِنَ الْمَوْتِ الَّذِي لَنْ تُعْجِزُوهُ إِلَى الْحَيَاةِ الَّتِي لَا تَبْقَى لَكُمْ؟ فَمَضَى الْأَشْتَرُ فَاسْتَقْبَلَ النَّاسَ مِنْهُمْ مَنَازِلَ فَقَالَ لَهُمْ مَا قَالَ عَلِيٌّ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا الْأَشْتَرُ، إِلَيَّ! فَاقْبَلْ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَذَهَبَ الْبَعْضُ، فَنَادَى: أَيُّهَا النَّاسُ مَا أَقْبَحَ مَا قَاتَلْتُمْ مَذِ الْيَوْمِ! أَخْلَصُوا لِي مَذْجِيًّا، فَاقْبَلْتُ مَذْجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا أَرْضَيْتُمْ رَبِّكُمْ وَلَا نَصَحْتُمْ لَهُ فِي عُدُوكُمْ، وَكَيْفَ ذَلِكَ وَأَنْتُمْ أَبْنَاءُ الْحَرْبِ، وَأَصْحَابُ الْغَارَاتِ، وَفَتَيَانُ الصَّبَاحِ وَفِرْسَانُ الطَّرَادِ، وَخُتُوفُ الْأَقْرَانِ، وَمَذْجُ الطَّعَانِ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا يُسَبِّقُونَ بَثَارَهُمْ وَلَا تُطَلُّ دِمَاؤُهُمْ، وَمَا تَفْعَلُونَ هَذَا الْيَوْمَ فَإِنَّهُ مَأْثُورٌ بَعْدَهُ، فَانْصَحُوا وَاصْدُقُوا عُدُوكُمْ الْيَوْمَ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ هَؤُلَاءِ - وَأَشَارَ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ - رَجُلٌ عَلَى مِثْلِ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ مِنْ دِينَ، أَجَلُوا سُودًا وَجْهِي يَرْجِعُ فِيهِ دَمُهُ، عَلَيْكُمْ بِهَذَا السُّودِ الْأَعْظَمِ، فَإِنَّ اللَّهَ [لَوْ] قَدْ قَضَى تَبِعَهُ مَنْ بَجَانِيهِ. قَالُوا: تَجِدُنَا حَيْثُ أَحْبَبْتَ. فَقَصَدَ نَحْرَ عَظْمِهِمْ مِمَّا يَلِي الْمَيْمَنَةَ يَزْحَفُ إِلَيْهِمْ وَيُرْدُهُمْ، وَاسْتَقْبَلَهُ شَبَابٌ مِنْ هَمْدَانَ، وَكَانُوا ثَمَانِمِائَةَ مَقَاتِلٍ يَوْمَئِذٍ، وَكَانُوا صَبِرُوا فِي الْمَيْمَنَةِ حَتَّى أَصِيبَ مِنْهُمْ ثَمَانُونَ وَمِائَةً رَجُلًا وَقُتِلَ مِنْهُمْ أَحَدٌ عَشَرَ رِيسًا، كَانَ أَوَّلَهُمْ ذُوَيْبُ بْنُ شَرِيحٍ، ثُمَّ شُرَيْبُ بْنُ مُرْدُثٍ ثُمَّ هُبَيْرَةُ ثُمَّ يَرْيَسُ ثُمَّ مُسْمِرُ بْنُ أَوْلَادٍ شَرِيحٍ فَقَتَلُوا، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَمِيرَةُ ثُمَّ الْحَارِثُ ابْنُ بَشِيرٍ فَقَتَلُوا جَمِيعًا، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَفِيَانُ وَعَبْدُ اللَّهِ (٣٠١/٣) وَيَكْرِ بَنُو زَيْدٍ فَقَتَلُوا جَمِيعًا، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ وَهَبُ بْنُ كَرِيبٍ، فَانْصَرَفَ هُوَ وَقَوْمُهُ وَهُمْ يَقُولُونَ: لَيْتَ لَنَا عِدَّتَنَا مِنَ الْعَرَبِ يَحَالِفُونَنَا عَلَى الْمَوْتِ ثُمَّ نَرْجِعُ فَلَا نَنْصَرِفُ أَوْ نَقْتُلُ أَوْ نَنْظُرُ! فَسَمِعَهُمُ الْأَشْتَرُ يَقُولُونَ هَذَا فَقَالَ لَهُمْ: أَنَا أَحَالِفُكُمْ عَلَى أَنْ لَا نَرْجِعَ أَبَدًا حَتَّى نَنْظُرَ أَوْ نَهْلِكَ. فَوَقَفُوا مَعَهُ، وَفِي هَذَا قَالَ كَعْبُ بْنُ جُعَيْلٍ:

وَهَمْدَانُ رُزِقَ تَبَعِي مَنْ تَخَالَفَ

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ وَإِنْ شَرَمَتْ يَوْمًا بِهِ الْحَرْبُ شَرَمًا وَزَحَفَ الْأَشْتَرُ بَعْدَ الْأَشْعَرِينَ وَقَالَ لِمَذْجِ: أَكْفُونَا عَكًّا، وَوَقَفَ فِي هَمْدَانَ وَقَالَ لَكِنْدَةَ: أَكْفُونَا الْأَشْعَرِينَ، فَاقْتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا إِلَى الْمَسَاءِ، وَقَاتَلَهُمُ الْأَشْتَرُ فِي هَمْدَانَ وَطَوَائِفَ مِنَ النَّاسِ، فَازَالَ أَهْلُ الشَّامِ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ حَتَّى أَحَقَّهُمُ بِالْصَّفُوفِ الْخَمْسَةِ الْمَعْقِلَةَ بِالْعَمَامَةِ حَوْلَ مَعَاوِيَةَ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِمْ حِمْلَةً أُخْرَى فَصَرَعَ أَرْبَعَةَ صَفُوفٍ مِنَ الْمَعْقِلِينَ بِالْعَمَامَةِ [حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْخَامِسِ (٣٠٣/٣) الَّذِي حَوْلَ مَعَاوِيَةَ]، وَدَعَا مَعَاوِيَةَ بِفَرَسِهِ فَرَكِبَ وَكَانَ يَقُولُ: أَرَدْتُ أَنْ أَهْزِمَ فَذَكَرْتُ قَوْلَ ابْنِ الْإِطَابَةِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ جَاهِلِيًّا:

أَبَتْ لِي عَيْتِي وَابْنِي بِلَاتِي وَإِقْدَامِي عَلَى الْبَطْلِ الْمَشِيحِ وَإِعْطَايَ عَلَى الْمَكْرُوءِ مَالِي وَأَخَذِي الْحِمْدَ بِالثَّنِ الرَّيْحِ وَفَرَلِي كُلَّمَا جَشَّتْ وَجَشَّتْ: مَكَاتِكُ مُحَمَّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

قَالَ: فَمَنْعَنِي هَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْفِرَارِ، وَنَظَرَ إِلَيَّ عَمْرُو وَقَالَ: الْيَوْمَ صَبِرَ وَغَدًا فُخِرَ. فَقُلْتُ: صَدَقْتَ. وَتَقَدَّمَ جُنْدُبُ بْنُ زَهِيرٍ فَبَارَزَ رَأْسَ أَرْدَ الشَّامِ، فَقَتَلَهُ الشَّامِيَّ وَقُتِلَ مِنْ رَهْطِهِ عِجْلٌ وَسَعْدُ ابْنُ عَبْدِ

وَزَحَفَ الْأَشْتَرُ نَحْوَ الْمَيْمَنَةِ وَثَابَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَتَرَجَعُوا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَلَمْ يَقْصِدْ كِتَابَةً إِلَّا كَشَفَهَا وَلَا جَمْعًا إِلَّا أَحَازَهُ وَرَدَّهُ، فَإِنَّهُ كَذَلِكَ إِذْ مَرَّ بِهِ زِيَادُ بْنُ النَّضْرِ الْحَارِثِيُّ يُحْمَلُ إِلَى الْعِسْكَرِ وَقَدْ صُرِعَ، وَسَبَّهَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ اسْتَلَحِمَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ بُذَيْلٍ وَأَصْحَابَهُ فِي الْمَيْمَنَةِ، فَتَقَدَّمَ زِيَادُ إِلَيْهِمْ وَرَفَعَ رَايَتَهُ لِأَهْلِ الْمَيْمَنَةِ، فَصَبِرُوا وَقَاتَلَتْ حَتَّى صُرِعَ. ثُمَّ مَرَّوْا بِزَيْدِ بْنِ قَيْسِ الْأَرْحَبِيِّ مَحْمُولًا نَحْوَ الْعِسْكَرِ، وَكَانَ قَدْ رَفَعَ رَايَتَهُ لِأَهْلِ الْمَيْمَنَةِ لَمَّا صُرِعَ زِيَادُ وَقَاتَلَتْ

الله، وقُتل أبو زينب بن عوف. وخرج عبد الله بن أبي الحصين الأزدي في القراء الذين مع عمار بن ياسر فأصيب معه، وتقدم عقبة بن حديد التميري وهو يقول: ألا إن مرعى الدنيا أصبح هشيماً، وشجرها خضيداً، وجديدها سَمَلاً، وحلوهها مرّاً للمذاق، إني قد ستمت الدنيا وعزفت نفسي عنها، وإني أتمنى الشهادة وأتعرض لها في كل جيش وغارة فأبى الله إلا أن يبلغني هذا اليوم، وإني متعرض لها من ساعتي هذه وقد طمعت أن لا أحرماها فما تنتظرون عباد الله بجهاد من عادى الله؟ في كلام طويل. وقال: يا إختوتي قد بعث هذه الدار بالتي أمامها وهذا وجهي إليها. فتبعه إخوته عبيد الله وعوف ومالك وقالوا: لا نطلب رزق الدنيا بعدك، فقاتلوا حتى قُتلوا. وتقدم شمر بن ذي الجوشن فبارز، فضرب أدهم بن مُحَرِّز الباهلي بالسيف وجهه وضربه شمر فلم يضره، فعاد شمر إلى رحله (٣٠٤/٣) فشرّب ماء، وكان ظمآن، ثم أخذ الرمح ثم حمل على أدهم فصربه وقال: هذه بتلك.

وكانت راية بجيلة مع أبي شداد قيس بن هيرة الأحمسي وهو قيس بن مكشوح، ومكشوح لقب، فقال لقومه: والله لأنتهين بكم إلى صاحب الترس المذهب، وكان صاحبه عبد الرحمن بن خالد، فقاتل الناس قتالاً شديداً وشدّ بسيفه نحو صاحب الترس، فعرض له مولى رومي لمعاوية فضرب قدم أبي شداد فقطعها، وضربه أبو شداد فقتله، وأشرعت إليه الرماح فقتل، وأخذ الراية عبد الله بن قُلَع الأحمسي فقاتل حتى قُتل، ثم أخذها عفيف بن إياس فلم تزل في يده حتى تحاجز الناس. وقُتل حازم بن أبي حازم أخو قيس بن أبي حازم يومئذ، وقُتل أبوه أيضاً، له صحبة، ونعيم بن ضُبيب بن العيلة البجليون مع علي.

فلما رأى علي ميمنة أصحابه قد عادت إلى مواضعها ومواقفها وكشفت من بإزائها من عدوها حتى ضاربهم في مواقعهم ومراكزهم، أقبل حتى انتهى إليهم فقال: إني قد رأيت جولتكم عن صفوفكم يحوزكم الجفأة الطعام وأعراب الشام وأنتم لهاميم العرب والشام الأعظم وعُمار الليل يتلاوة القرآن وأهل دعوة الحق. فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكركم بعد انحيازكم، لوجب عليكم ما يجب على المولى يوم الزحف [دبره] وكنتم من الهالكين، ولكن هوّن وجدي وشفى أحاح نفسي أني رأيتكم بأخرة حزتموهم كما حازركم وأزلموهم عن (٣٠٥/٣) مصافهم كما أزالوكم، تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطرودة الهيم، فالآن فاصبروا فقد نزلت عليكم السكينة وثبتكم الله باليقين ليعلم المنهزم أنه مسخط ربّه، وموبق نفسه، في كلام طويل. وكان بشر بن عصمة المرّي قد لحق بمعاوية، فلما أقتل الناس بصرين نظر بشر إلى مالك بعد العقديّة الجُشمي وهو يفتك بأهل الشام، فاغتاظ لذلك فحمل على مالك وتجاولا ساعة ثم طعنه بشر بن عصمة

فصرعه ولم يقتله وانصرف عنه، وقد ندم على طعنه إياه، وكان جباراً، فقال: وإني لأرجو من تليكي تجاوزاً ومن صاحب المومسوم في الصدر نَفَقْتُ له تحت القُبُر بطعنة على ساعة فيها الطمأن تخلص فبلغت مقالته ابن العقديّة فقال:

ألا أبلغا بشر بن عَصْمَةَ أَنَسِي شَبَلْتُ والهاني النيسن أمّاس وصادفت بني غيرة وأصنفا كذلك والأبطال ماض وحابس وحمل عبد الله بن الطفيل البكائي على أهل الشام، فلما انصرف حمل عليه رجل من بني تميم يقال له قيس بن مرة ممن لحق بمعاوية من أهل العراق فوضع الرمح بين كتفي عبد الله، واعترضه ابن عم لعبد الله اسمه يزيد بن معاوية فوضع الرمح بين كتفي التميمي، فقال له: والله لئن طعنتك لأطعنتك! فقال له: عليك عهد الله وميثاقه إن رفعت الرمح عن ظهر صاحبك لترفعن سنائك (٣٠٦/٣) عني! قال: نعم. فرفع التميمي سنانه ورفع يزيد سنانه، فلما رجع الناس إلى الكوفة عتب يزيد على ابن الطفيل، فقال [له]:

الم ترنسي حانيت عنك مُصاحباً بهيفين إذ خلّ لك كل خميم ونهنت عنك الحظلي وقد أنسى على سابع ذي ميعه وغريم وخرج رجل من آل عك من أهل الشام يسأل المبارزة، فبرز إليه قيس بن فهدان الكندي فحمل عليه وتجاولا ساعة ثم طعنه عبد الرحمن فقتله، وقال:

أقد علمت عك بهيفين أننا إذا نقت الخيلان نطعنهما شززا ونحمل راياتو الطمان بختها نوردها يضاً ونصدها حمرأ

ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلته. وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أَرْضِي لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم عملاً هو أَرْضِي لك منه لفعلته. والله إني لأرى قوماً ليضربنكم ضرباً يرتاب منه المظلون، وإيم الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرٍ لعلمتُ أنا على الحقِّ وأنهم على الباطل. ثم قال: من يبتغي رضوان الله ربّه ولا (٣٠٩/٣) يرجع إلى مال ولا ولد؟ فاتاه عصابة، فقال: اقتصدوا بنا هؤلاء القوم الذين يطلبون دم عثمان، والله ما أَرَادُوا الطلب بدمه ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبّوها وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يترغّون فيه منها، ولم يكن لهم سابقة يستحقّون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخذعوا أتباعهم وإن قالوا: إمامنا قُتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، فبلغوا ما ترون، فولوا هذه ما تبغهم من الناس رجلاً. اللهم إن تصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فاذخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم. ثم مضى ومعه تلك العصابة، فكان لا يمرّ بوادٍ من أودية صُفَيْنَ إلّا تبعه من كان هناك من أصحاب النبي، ﷺ، ثم جاء إلى هاشم بن عُتْبَةَ بن أبي وقاص، وهو البُرْقَال، وكان صاحب راية علي، وكان أعور، فقال: يا هاشم أعوراً وجنباً؟ لا خير في أعور لا يغشى البأس، اركب يا هاشم؛ فركب ومضى معه وهو يقول:

اعورُ ينسي الله مَحْلاً قد عالج الحية حتى مَلَأَ
لِبْدَانٍ يُسَلُّ لَوْفُهَا يَتْلَهُم بِئْسَ الكعبوب نَلَأَ

وعمار يقول: تقدّم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف والموت تحت أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين. اليوم ألقى الأحبة، محمداً وحزبه. وتقدّم حتى دنا من عمرو بن العاص فقال له: يا عمرو بعث دينك بمصر، ثبأ لك! فقال له: لا ولكن أطلب بدم عثمان. قال: أنا أشهد على علمي فيك أنك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله وأنت إن لم تقتل اليوم تمت غداً، فانظر إذا أعطي الناس على قدر نياتهم ما نيتك، لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله، ﷺ، وهذه الرابعة ما هي بأبر وأتقى، ثم قاتل عمار فلم يرجع وقُتل. (٣١٠/٣)

وقال حبة بن جُزَيْن الغُرَنِي: قلت لحذيفة بن اليمان: حدثنا فإننا نخاف الفتن. فقال: عليكم بالفتنة التي فيها ابن سُمَيّة، فإن رسول الله، ﷺ، قال: تقتله الفتنة الباغية الناكبة عن الطريق، وإن آخر رزقه ضياع من لبن، وهو الممزوج بالماء من اللبن. قال حبة: فشهدته يوم قُتل وهو يقول: اتوني بأخر رزق لي في الدنيا، فأُتي بضياع من لبن في قدح أروح له حلقة حمراء، فما أخطأ حذيفة مقياس شعرة، فقال: اليوم ألقى الأحبة، محمداً وحزبه، والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرٍ لعلمتُ أنا على الحقِّ وأنهم على الباطل. ثم قُتل، قتله أبو الغزاة، واحتز رأسه ابن حُويّ السكسكي؛ وقيل

وقاتلت النخع يومئذ قتلاً شديداً فأصيب منهم حيّان ويكر ابننا هوذة، وشعيب بن نعيم، وربيعة بن مالك بن وغيل، وأبي أخو علقمة بن قيس الفقيه، وقُطعت رجل علقمة يومئذ فكان يقول: ما أحب أن رجلي أصح ممّا كانت، وإنها لممّا أرجو بها الشواب وحسن الجزاء من ربّي. قال: ورأيت أخي في المنام قُلت له: ماذا قدمتم عليه؟ فقال لي: إنا التقينا نحن والقوم عند الله تعالى فاحتججنا فحججناهم، ما سررت بشيء سروري بتلك الرؤيا، وكان يقال لأبي أبي الصلاة لكثرة صلاته. وخرجت جُمَيْرُ في جمعها ومن انضم إليها من أهل الشام، ومقدمهم ذو الكلاع، ومعه عبيد الله بن الخطّاب، وهم ميمنة أهل الشام، فقصدوا ربيعة من أهل العراق، وكانت ربيعة ميسرة أهل العراق، وفيهم ابن عباس على الميسرة، فحملوا على ربيعة حملة شديدة، فتضعضت راية ربيعة، وكانت الراية مع أبي ساسان حُصَيْنَ بن المنذر، فانصرف أهل الشام عنهم، ثم كرّ عبيد الله بن عمر وقال: يا أهل الشام إن هذا الحيّ من أهل العراق قتلة عثمان وأنصار عليّ. فشدوا على الناس شدة عظيمة، فثبتت ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلّا قليلاً من الضعفاء والفشلة، وثبت أهل الرايات وأهل الصبر والحفاظ وقاتلوا قتلاً حسناً، وانهزم خالد بن المعمر مع من انهزم، وكان على ربيعة، فلما رأى أصحاب الرايات قد صبروا رجع وصاح بمن انهزم وأمرهم بالرجوع فرجعوا، وكان خالد قد سعى به إلى عليّ أنّه كاتب معاوية، فأحضره عليّ ومعه ربيعة فسأله عليّ عما قيل، وقال له: إن كنت فعلت ذلك (٣٠٨/٣) فالحق بأيّ بلد شئت لا يكون لمعاوية عليه حكم. فأنكر ذلك.

وقالت ربيعة: يا أمير المؤمنين لو نعلم أنّه فعل ذلك لقتلناه، فاستوثق منه عليّ بالعهود، فلما قرأ اتهمه بعض الناس واعتذر هو بأنّي لما رأيت رجلاً منا قد انهزموا استقبلتهم لأردّهم إليكم فأقبلت بمن أطاعني إليكم. ولما رجع إلى مقامه حرص ربيعة فاشتد قتالهم مع جُمَيْرُ وعبيد الله بن عمر حتى كثرت بينهم القتل فقتل سُمَيْرُ بن الرِّثَّان العجلي، وكان شديد البأس، وأتى زياد بن عمر بن خُصَفة عبد القيس فأعلمهم بما لقيت بكر بن وائل من حمير وقال: يا عبد القيس لا بكر بعد اليوم، فأنت عبد القيس بن بكر فقاتلوا معهم فقتل ذو الكلاع الحميري وعبيد الله بن عمر، قتله محرز بن الصحصص من تيم الله بن ثعلبة من أهل البصرة، وأخذ سيفه ذو الوشاح، وكان لعمر، فلما ملك معاوية العراق أخذه منه، وقيل: بل قتله هانيء بن خطّاب الأرحبي، وقيل: قتله مالك بن عمرو التثعي الحضرمي.

وخرج عمار بن ياسر على الناس فقال: اللهم إنك تعلم أنّي لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته. اللهم إنك تعلم أنّي لو أعلم أن رضاك في أن أضغ طبة سيفي في بطني

حملة رجل واحد فلم (٣١٢/٣) يبقى لأهل الشام صف إلا انتقض وقتلوا كل من انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية وعلي يقول:

اقتلهم ولا أرى معاوية الجاحظ العين العظيم الحاوي
ثم نادى معاوية فقال: علام يقتل الناس بيننا؟ هل من أحاكمكم إلى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور. فقال له عمرو: انصتفك. فقال له معاوية: ما أنصفت، إنك لتعلم أنه لم يبرز إليه أحد إلا قتله. فقال له عمرو: ما يحسن بك ترك مبارزته. فقال له معاوية: طمعت فيها بعدي! وكان أصحاب علي قد وكلوا به رجلين يحافظانه لئلا يقتل، وكان يحمل إذا غفلا فلا يرجع حتى يخضب سيفه، وإنه حمل مرة فلم يرجع حتى انثنى سيفه فآلقاه إليهم وقال: لولا أنه انثنى ما رجعت إليكم. فقال الأعمش لأبي عبد الرحمن: هذا والله ضرب غير مراتب. فقال أبو عبد الرحمن: سمع القوم شيئاً فاذوه ما كانوا بكاذبين.

وأمر معاوية جماعة من أصحاب علي، فقال له عمرو: اقتلهم. فقال عمرو بن أوس الأودي: لا تقتلني فإنك خالي. قال: من أين أنا خالك ولم يكن بيننا وبين أود مصاهرة؟ قال: إن أخبرتك فهو أمانى عندك؟ قال: نعم. قال: ليست أختك أم حبيبة زوج النبي، ؟؟ قال: بلى. قال: فإني ابنها وأنت أخوها فأنت خالي. فقال معاوية: ما له لله أبوه! أما كان في هؤلاء من يظن لها غيره؟ وخلى سبيله، وكان قد أسر علي أسارى كثيرة فخلى سبيلهم، فجاءوا معاوية وإن عمراً ليقول له وقد أسر أيضاً أسارى كثيرة: اقتلهم، فلما وصل أصحابهم قال معاوية: يا عمرو لو أظعنك في هؤلاء الأسارى لوقعتنا في قبض من الأمر؛ وخلى سبيل من عنده. (٣١٣/٣)

وأما هاشم بن عتبة فإنه دعا الناس عند المساء وقال: ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فإلي فأقبل إليه ناس كثير، فحمل علي أهل الشام مراراً ويصبرون له، وقاتل قتالاً شديداً وقال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم، فوالله ما هو إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها وإنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق. ثم حرض أصحابه وحمل في عصابة من القراء فقاتل قتالاً شديداً حتى رأوا بعض ما يسرون به، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم شاب وهو يقول:

يا ابن أرباب الملوكة غسان والدائن اليوم بين عثماني
تباركوا بنا بأكبان أن علينا قتل ابن غسان

ثم يحمل فلا يرجع حتى يضرب بسيفه ويشتد ويلعن. فقال له هاشم: يا هذا إن هذا الكلام بعده الخصام، وإن هذا القتال بعده الحساب، فاتق الله فإنه سائلك عن هذا الموقف وما أردت به. قال: فإني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي وأنتم لا تصلون، وإن

قتله غيره.

وقد كان ذو الكلاع سمع عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله، ﷺ، لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرية تشربها ضياح من لبن، فكان ذو الكلاع يقول لعمرو: ما هذا ويحك يا عمرو؟ فيقول عمرو: إنه سيرجع إلينا، فقتل ذو الكلاع قبل عمار مع معاوية، وأصيب عمار بعده مع علي، فقال عمرو لمعاوية: ما أدري يقتل أيهما أنا أشد فرحاً، يقتل عمار أو يقتل ذي الكلاع، والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعمامة أهل الشام إلى علي. فأتى جماعة إلى معاوية كلهم يقول: أنا قتلنا عماراً. فيقول عمرو: فما سمعته يقول؟ فيخلطون، فأتاه ابن حوَيَّ فقال: أنا قتلته فسمعته يقول: اليوم ألقى الأحبة، محمداً وحزبه. فقال له عمرو: أنت صاحبه، ثم قال: رويداً والله ما ظفرت يدك ولقد أسخطت ربك.

قيل: إن أبا الغارية قتل عماراً وعاش إلى زمن الحجاج ودخل عليه فأكرمه (٣١١/٣) الحجاج وقال له: أنت قتل ابن سمية؟ يعني عماراً. قال: نعم. فقال: من سره أن ينظر إلى عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلى هذا الذي قتل ابن سمية، ثم سأله أبو الغارية حاجته فلم يجبه إليها، فقال: نوطيء لهم الدنيا ولا يعطوننا منها ويزعم أنني عظيم الباع يوم القيامة! [فقال الحجاج]: أجل والله من كان ضربة مثل أخذ وفخذه مثل جبل ورقان ومجلسه مثل المدينة والريذة إنه لعظيم الباع يوم القيامة، والله لو أن عماراً قتله أهل الأرض كلهم لدخلوا كلهم النار.

وقال عبد الرحمن السلمي: لما قُتل عمار دخلت عسكر معاوية لأنظر هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا، وكنا إذا تركنا القتال تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم، فإذا معاوية وعمرو وأبو الأعور وعبد الله بن عمرو يتسايرون، فدخلت فرسي بينهم لئلا يفوتني ما يقولون، فقال عبد الله لأبيه: يا أبة قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا وقد قال رسول الله، ﷺ، ما قال، قال: وما قال؟ قال: ألم يكن المسلمون ينقلون في بناء مسجد النبي، ﷺ، لبنة لبنة وعمار لبتين لبتين فغشي عليه فاتاه رسول الله، ﷺ، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: ويحك يا ابن سمية، الناس ينقلون لبنة لبنة وأنت تنقل لبتين لبتين رغبة في الأجر، وأنت مع ذلك تقتلك الفئة الباغية. فقال عمرو لمعاوية: أما تسمع ما يقول عبد الله؟ قال: وما يقول؟ فأخبره، فقال معاوية: أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به. فخرج الناس من فساطيطهم وأخيبتهم يقولون: إنما قتل عماراً من جاء به، فلا أدري من كان أعجب أم هو أم هم.

فلما قُتل عمار قال علي لربيعة وهمدان: أنتم درعي ورمحي، فانتدب له نحو من اثني عشر وتقدمهم علي على بغلة فحملوا معه

صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم ساعدتموه على قتله. فقال له هاشم: ما أنت وعثمان، قتله أصحاب رسول الله ﷺ، وأبناء أصحابه وقراء الناس، وهم أهل الدين والعلم، وما أهمل أمر هذا الدين طرفه عين. وأما قولك: إن صاحبنا لا يصلي، فإنه أول من صلى واقفه خلق الله في دين الله وأولى بالرسول ﷺ، وأما كل من ترى معي فكلهم قارئ لكتاب الله لا ينال الليل تهجدًا، فلا يغوينك هؤلاء الأشقياء. فقال الفتى: فهل لي من توبة؟ قال: نعم، تب إلى الله يتب عليك فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. فرجع الفتى، فقال له أهل الشام: خدعك العراقي. فقال: كلاً ولكن نصح لي. وقاتل هاشم وأصحابه قتالاً شديداً حتى رآوا الظفر، فأقبلت عليهم عند المغرب كتيبة لتتوخ، فقاتلهم هاشم وهو يقول:

(٣١٤/٣)

أَمْوَرٌ يَخِي أَهْلَهُ مَحَلًّا لَا بُدَّ أَنْ يَقْبَلَ أَوْ يَنْفَلَا
قَدْ عَلَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى مَلَا يَتْلَهُمْ بَنِي الْكُصُوبِ تَلَا
فقتل يومئذ تسعة أو عشرة، وحمل عليه الحارث بن المنذر التنوخي فطعنه فسقط، فأرسل إليه علي أن قدم لواءك. فقال لرسوله: انظر إلى بطني، فإذا هو [قد] انشق. فقال الحجاج بن عزيّة الأنصاري:

فَإِنْ تَمْخَرُوا بِأَبْنِ الْبَيْتِلِ وَهَاشِمٍ فَنَحْنُ قَتَلْنَا ذَا الْكَلَالِ وَخَوَّشَا
وَنَحْنُ تَرَكْنَا عِنْدَ مُعَزِّزِ الْقَنَا أَخَاكَ عَيْدَ اللَّهِ لَحْمًا مُلْجَا
وَنَحْنُ أَخْطَبَا بِالْبَجْرِ وَالْمِسْوَ وَنَحْنُ سَقَيْنَاكُمْ سِجْلًا مَقْشَا

ومر علي بكتيبة من أهل الشام فرأهم لا يزولون، وهم غسان، فقال: إن هؤلاء لا يزولون إلا بطعن وضرب يفلق الهام ويطيح العظام تسقط منه المعاصم والأكف وحتى تفرج جباههم بعُد الحديد، أين أهل النصر والصبر طُلاب الأجر؟ فأنه عصابة من المسلمين، فدعا ابنه محمداً فقال له: تقدّم نحو هذه الراية مشياً رويداً على هيبتك حتى إذا أشرعت في صدورهم الرماح فامسك حتى يأتبك أمري. ففعل وأعد لهم علي مثلهم وسيرهم إلى ابنه محمد وأمره بقتالهم، فحملوا عليهم فازالوهم عن مواقعهم وأصابوا منهم رجلاً ومراً الأسود بن قيس المرادي بعبد الله بن كعب المرادي وهو صريح، فقال عبد الله: يا أسود! قال: لييك! وعرفه وقال له: عز علي مصرعك. ثم نزل إليه وقال له: إن كان جارك ليأمن بوائقك وإن كنت لمن الذاكرين الله كثيراً، أوصني رحمك الله. فقال: أوصيك بتقوى الله وأن تناصح أمير المؤمنين وأن تقاتل معه المجليين (٣١٥/٣) حتى تظهر أو تلحق بالله، وأبلغه عني السلام وقل له: قاتل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك، فإنه من أصبح غداً والمعركة خلف ظهره كان العالي. ثم لم يلبث أن مات، فأقبل الأسود إلى علي فأخبره، فقال: رحمه الله، جاهد عدونا في الحياة ونصح لنا في الوفاة.

وقيل: إن الذي أشار على أمير المؤمنين علي بهذا عبد الرحمن بن الحنبل الجُمحي. قال: فاقتل الناس تلك الليلة كلها إلى الصباح، وهي ليلة الهرير، فقطاعوا حتى نقصت الرماح، وتراموا حتى نفذ النبل وأخذوا السيوف، وعلي يسير فيما بين الميمنة والميسرة ويأمر كل كتيبة أن تقدم على التي تليها، فلم يزل يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره، والأشتر في الميمنة وابن عباس في الميسرة وعلي في القلب والناس يقتلون من كل جانب، وذلك يوم الجمعة، وأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها، وكان قد تولأها عشية الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحى، ويقول لأصحابه: ازحفوا قيد هذا الرمح، ويزحف بهم نحو أهل الشام، فإذا فعل ذلك بهم قال: ازحفوا قيد هذه القوس، فإذا فعلوا سالم مثل ذلك حتى ملأ أكثر الناس الإقدام. فلما رأى الأشتر ذلك قال: أعيدكم بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليوم! ثم دعا بفرسه فركبه وترك رايته مع حيّان بن هوزة النخعي وخرج يسير في الكئاب ويقول: مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ وَيُقَاتِلُ مَعَ الْأَشْتَرِ [حتى] يظهر أو يلحق بالله؟ فاجتمع إليه ناس كثير فيهم حيّان بن هوزة النخعي وغيره، فرجع إلى المكان الذي كان فيه وقال لهم: شدوا شدة، فذئ لكم خالي وعمي، ترضون بها الرب وتُعزّون بها الدين! ثم نزل وضرب وجه دابته وقال لصاحب رايته: اقدم بها، وحمل على القوم وحملوا معه، فضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم، ثم قاتلوه عند العسكر قتالاً شديداً، وقتل صاحب رايته. ولما رأى علي الظفر من ناحيته (٣١٦/٣) أمده بالرجال، فقال عمرو بن العاص لوردان مولاه: أتدري ما مثلي ومثلك ومثل الأشتر؟ قال: لا. قال: كالأشقر إن تقدم عُقر وإن تأخر عُقر، لن تأخرت لأضربن عتقك. قال: أما والله يا أبا عبد الله لأوردنك حياض الموت، ضع يدك على عاتقي؛ ثم جعل يتقدم ويتقدم ويقول: لأوردنك حياض الموت واشتد القتال.

[رفع المصاحف والدعوة إلى الحكومة]

فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال: نعم. قال: نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها: هذا حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها رفعتنا القتال عنا إلى أجل.

فرفعوا المصاحف بالرمح وقالوا: هذا حكم كتاب الله، عز وجل، بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهله؟ من لثغور العراق بعد أهله؟ فلما رآها الناس قالوا: نجيب إلى كتاب الله. فقال لهم علي: عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم وقاتل عدوكم فإن معاوية وعمراً وابن أبي معيط وحبیباً وابن أبي سرح والضحاك

فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال: أرى الناس قد رضوا بما دعوهم إليه من حكم القرآن فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد. قال: اتبه. فأتاه فقال لمعاوية: لأي شيء رفعتهم هذه المصاحف؟ قال: لارجع نحن وأنتم إلى ما أمر به الله في كتابه، تبعثون رجلاً ترضون به وتبعث نحن رجلاً نرضى به، نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم تبع ما اتفقا عليه. قال له الأشعث: هذا الحق. فعاد إلى عليّ فأخبره، فقال الناس: قد رضيينا وقبلنا. فقال أهل الشام: قد رضيينا عنهما. وقال الأشعث وأولئك القوم الذين صاروا خوارج: إنا قد رضيينا بأبي موسى الأشعري. فقال عليّ: قد عصيتوني في أول الأمر فلا تعصوني الآن، لا أرى أن أولي أبا موسى. فقال الأشعث وزيد بن حُصَيْن ويشعر بن فُذَكِّي: لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه. قال عليّ: فإنه ليس بثقة، قد فارقتي وخدلت الناس عني ثم هرب مني حتى (٣١٩/٣) أمته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك. قالوا: والله لا نبالي أنت كنت أم ابن عباس لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء. قال عليّ: فإني أجعل الأشتر قالوا: وهل سحر الأرض غير الأشتر؟ فقال: قد أيتمم إلا أبا موسى؟ قالوا: نعم. قال: فاصنعوا ما أردتم.

فبعثوا إليه وقد اعتزل القتال وهو بغرض، فأتاه مولى له فقال: إن الناس قد اصطلحوا. فقال: الحمد لله. قال: قد جعلوك حكماً. قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. وجاء أبو موسى حتى دخل العسكر، وجاء الأشتر عليّاً فقال: أُرثي بعمر بن العاص فوالله لئن ملأته عيني منه لأقتله. وجاء الأخنف بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد رُميت بحجر الأرض وإني قد عجمت أبا موسى وحلبت أسطره فوجدته كليل الشفرة قريب القعر، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكتفهم ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعلني ثانياً أو ثالثاً، فإنه لن يعقد عقدة إلا حلتها، ولا يحل عقدة أعقدها لك إلا عقدت أخرى لأحكم منها.

فأبى الناس إلا أبا موسى والرضا بالكتاب. فقال الأخنف: إن أيتمم إلا أبا موسى فأدفتوا ظهره بالرجال.

وحضر عمرو بن العاص عند عليّ ليكتب القضية بحضوره، فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين. فقال عمرو: [اكتب اسمه واسم أبيه]، هو أميركم وأما أميرنا فلا. فقال الأخنف: لا تمنع اسم إمارة المؤمنين فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً، لا تمنعها (٣٢٠/٣) وإن قتل الناس بعضهم بعضاً. فأبى ذلك عليّ ملياً من النهار، ثم إن الأشعث بن قيس قال: امحُ هذا الاسم، فمُحى، فقال عليّ: الله أكبر! سنة بسنة. والله إني لكاتب رسول الله، ﷺ، يوم الحديبية فكتبت:

ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، قد صحتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال، ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعةً وهناً ومكيدةً. فقالوا له: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله فقال لهم عليّ: فإني إنما أقاتلهم ليدنسوا لحكم الكتاب فإنهم (٣١٧/٣) قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه. فقال له يشعر بن فُذَكِّي التميمي وزيد بن حُصَيْن الطائي، في عصابة من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا عليّ أجب إلى كتاب الله، عز وجل، إذ دُعيت إليه ولأدفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان! قال: فاحفظوا عني نهيسي إياكم واحفظوا مقالتيكم لي، فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم. قالوا: ابعث إلى الأشتر فليأتك. فبعث عليّ يزيد بن هانئ إلى الأشتر يستدعيه. فقال الأشتر: ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك أن تزيتني [فيها] عن موقعي، إني قد رجوت أن يفتح الله لي! فرجع يزيد فأخبره، وارتفعت الأصوات وارتفع الرهج من ناحية الأشتر، فقالوا: والله ما نراك إلا أموت أن يقاتل! فقال عليّ: هل رأيتموني ساررتي؟ ليس كلمته على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك ولأدفعناك! فقال له: ويلك يا يزيد! قل له: أقبل إليّ فإن الفتنة قد وقعت. فابلغه ذلك، فقال الأشتر: أرفع المصاحف؟ قال: نعم. قال: والله لقد ظننت أنها ستوقع اختلافاً وفرقةً إنها مشورة ابن العاهر! ألا ترى إلى الفتحة؟ ألا ترى ما يلقون؟ ألا ترى ما صنع الله لنا؟ لن ينبغي أن أدع هؤلاء! وانصرف عنهم. فقال له يزيد: أتحب أن تظفر وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوه أو يقتل؟ قال: لا والله، سبحان الله! فأعلمه بقولهم، فأقبل إليهم الأشتر وقال: يا أهل العراق! يا أهل الذل والوهن! أحيين علوتكم القوم وظننوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها سنة من أنزلت عليه؟ فأمهلوني فوفاً فإني قد أحسست بالفتنة. قالوا: لا. قال: أمهلوني عدو القوم الظالمون! فسبوه قد (٣١٨/٣) طمعت في النصر. قالوا: إذن ندخل معك في خطيتك. قال: فخبروني عنكم متى كنتم محقين؟ أحيين تقاتلون وخياركم يقتلون؟ فأنتم الآن إذ أمسكنكم عن القتال مطبلون أم أنتم الآن محقون؟ فقتلاكم الذين لا تتكرون فضلهم وهم خير منكم في النار. قالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم لله وندع قتالهم لله! قال: خدعتم فاندعتم ودعيتهم إلى وضع الحرف فأجبتهم، يا أصحاب الجباه السود! كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أرى مرادكم إلا الدنيا، ألا قبحاً يا أشياء التيب الجلالة! ما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً فابعدوا كما بُدَّ القوم الظالمون! فسبوه وسبهم وضربوا وجه دابته بسياطهم وضرب وجهه دوابهم بسوطه فصاح به وبهم عليّ فكفوا. وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً.

ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة واندفعت الدابة، وصاح به أصحاب الأشعث، فرجع، وغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن، فمشى إليه الأحنف بن قيس ومُسْعَر بن قَدَكي وناس من تميم فاعتذروا، فقبل وشكر.

وكتب الكتاب يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، واتفقوا على أن يوافي أمير المؤمنين عليّ موضع الحكمين بدومة الجندل أو بأذرح في شهر رمضان. وقيل لعلّي: إن الأشعث لا يقر بما في الصحيفة ولا يرى إلا (٣٢١/٣) قتال القوم. فقال عليّ: وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا، فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت وإذا رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى الله ويتعدى كتابه، فقاتلوا من ترك أمر الله، وأما الذي ذكرت من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك فلست أخاف على ذلك، يا ليت فيكم مثله اثنين! يا ليت فيكم مثله واحداً يرى في عدوي ما أرى إذا لحقت عليّ مؤونكم ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم، وقد نهيتكم فعصيتوني، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

وهل لنا إلا من غربة إن غوت غوت وإن ترضد غربة أترشد
والله لقد فعلتم فعلة ضعفت قوة واسقطت منة وأورثت
وهنا وذلة، ولما كنتم الألعين وخاف عدوكم الاجتياح واستحار
بهم القتل ووجدوا ألم الجراح رفعوا المصاحف فدعوكم إلى ما
فيها ليفتنوكم عنهم ويقطعوا الحرب ويترصوا بكم المنون خديعة
ومكيدة، فأعطيتموهم ما سألوا، وأبيتم إلا أن تدهنوا وتجبروا، وإيم
الله ما أظنكم بعدها توفقون الرشد ولا تصيبون باب الحزم.

ثم رجع الناس عن صفين، فلما رجع عليّ خالفت الحرورية وخرجت، كان ذلك أول ما ظهرت وأنكرت تحكيم الرجال، ورجعوا على غير الطريق الذي قبلوا فيه، أخذوا على طريق البر، وعادوا وهم أعداء متباغضون وقد فشا فيهم التحكيم يقطعون الطريق بالثقات والتضارب بالسياط، يقول الخوارج: يا أعداء الله أدهمت في أمر الله، ويقول الآخرون: فارقت إماننا وفرقت جماعتنا.

وساروا حتى جازوا النخيلة ورأوا بيوت الكوفة، فإذا بشيخ في ظل بيت (٣٢٣/٣) عليه أثر المرض، فسلم عليه أمير المؤمنين، فردّ رداً حسناً، فقال له عليّ: أرى وجهك متغيراً، أمن مرض؟ قال: نعم. قال: لعلك كرهته. قال: ما أحبّ أنه بغيري. فقال: اليس احتساباً للخير فيما أصابك؟ قال: بلى. قال: فأبشر برحمة ربك وغفران ذنبك، من أنت يا عبد الله؟ قال: صالح بن سليم. قال: ممن أنت؟ قال: أما الأصل فمن سلامان طيء، وأما الدعوة والجوار ففي سليم بن منصور. فقال: سبحان الله ما أحسن اسمك واسم أبيك ومن اعتريت إليه واسم ادعائك! هل شهدت معنا

محمد رسول الله، وقالوا: لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمرني رسول الله، ﷺ، بمجنوه، فقلت: لا أستطيع. فقال: أرنيه، فأرته، فمحاها بيده وقال: إنك ستدعي إلى مثلها فتجيب. فقال عمرو: سبحان الله! أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون! فقال عليّ: يا ابن النابغة ومتى لم تكن للفاسقين ولياً وللمؤمنين عدواً؟ فقال عمرو: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد هذا اليوم أبداً. فقال عليّ: إني لأرجو أن يطهر الله مجلسي منك ومن أشباهك. وكتب الكتاب: هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم، إننا نزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحى ما أحيا ونميت ما أمانت، فما وجد الحكماء من كتاب الله، وهما أبو موسى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص، عملا به، وما لم يجدها في كتاب الله فالتسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكماء من عليّ ومعاوية ومن الجنديين من اليهود والمواثيق أنهما آمان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة لا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا، وأجل القضاء إلى رمضان، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه، وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام.

وشهد الأشعث بن قيس وسعيد بن قيس الهمداني ووقاء بن سميّ البجلي (٣٢١/٣) وعبد الله بن محلّ البجلي وحجر بن عدي الكندي وعبد الله بن الطفيل العامري وعقبة بن زياد الحضرمي ويزيد بن حُجبة التميمي ومالك بن كعب الهمداني، ومن أصحاب معاوية أبو الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة وزمّل بن عمرو الحذري وحُمرة بن مالك الهمداني وعبد الرحمن بن خالد المخزومي وسبيع بن يزيد الأنصاري وعتبة بن أبي سفيان ويزيد بن الحرّ العبسي.

وقيل للأشعث ليكتب فيها، فقال: لا صحبتني يعني ولا نفعتني بعدها شمالي إن خطّ لي في هذه الصحيفة [اسم على صلح ولا موادة]، أولست على بينة من ربي من ضلال عدوي، أولستم قد رأيتم الظفر؟ فقال له الأشعث: والله ما رأيته ظفراً، هلّم إلينا لأرغبه بك عنا. فقال: بلى والله، الرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة، لقد سفك الله بسيفي دماء رجال ما أنت خير عندي منهم ولا أحرم دماً. قال: فكأنما قصع الله على أنف الأشعث الحُمم. وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس حتى مرّ على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية أخو أبي بلال فقراه عليهم، فقال عروة: تحكمون في أمر الله الرجال؟ لا حكم إلا لله!

عن هذا الرنين؟ قال: يا أمير (٣٢٥/٣) المؤمنين لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثاً قدرنا على ذلك، ولكن قُتل من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل، فليس دار إلا وفيها البكاء، فأما نحن معشر الرجال فإننا لا نبكي ولكننا نفرح بالشهادة. قال علي: رحم الله قتلكم وموتاكم! فأقبل يمشي معه وعلي راكب، فقال له علي: ارجع، ووقف ثم قال له: ارجع فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن. ثم مضى حتى مرّ بالناعطين وكان جلهم عثمانيّة، فسمع بعضهم يقول: والله ما صنع علي شيئاً، ذهب ثم انصرف في غير شيء، فلما راوه أبلستوا، فقال علي لأصحابه: وجوه قوم ما راوا الشام. ثم قال لأصحابه: [قوم] فارقناهم آنفاً خير من هؤلاء. ثم قال:

أخوك السني إن أجرتك ثلثة من التهر لم يبرح يشك واجما
وليس أخوك بالذي إن تسعت عليك الأمور ظلّ يلحاك لا يئما
ثم مضى فلم يزل يذكر الله حتى دخل القصر. فلما دخل الكوفة لم يدخل الخوارج معه فأثروا حروراً فنزلوا بها، وقُتل أريس القرني بصفيّين، وقيل: بل مات بدمشق، وقيل: بآرمينية، وقيل: بسجستان. وفيها قُتل جندب بن زهير الأزدي، وهو من الصحابة، مع علي، وقُتل بصفيّين أيضاً حابس بن سعد الطائي مع معاوية، وهو خال يزيد بن عدي بن حاتم، فقتل يزيد قاتله غدرًا، فأراد عدي إسلامه إلى أولياءه المقتول فهرب إلى معاوية. وممن شهد صفيّن مع علي خزيمه بن ثابت ذو الشهادتين، ولم يقاتل، فلما قُتل عمار بن ياسر جرد سيفه وقاتل حتى قُتل، وقال: سمعت رسول الله، يقول: تقتل عماراً الفئة الباغية، وقُتل مع علي سهيل بن عمرو بن أبي عمر الأنصاري، وهو بدرّي. وممن شهد وقُتل فيها مع (٣٢٦/٣) علي من المهاجرين خالد بن الوليد، وله صحبة.

(شرح بن هانيء بضم الشين، وآخره حياء مهملة. الهمداني بفتح الهاء، وسكون الميم، وفتح الدال المهملة، نسبة إلى همدان: قبيلة كبيرة من اليمن. حُمرة بن مالك بضم الحاء المهملة، وسكون الميم، وآخره راء. حُصين بن المنذر بضم الحاء المهملة، وفتح الضاد المعجمة. يريم بفتح الياء تحتها نقطتان، وكسر الراء، وسكون الياء الثانية، وآخره ميم. بُذيل بن ورقاء بضم الباء الموحدة وفتح الدال المهملة. حازم بن أبي حازم بالحاء المهملة. حبة بن جزيّن بفتح الحاء المهملة والباء المشددة الموحدة. والغرني بضم العين المهملة، وفتح الراء، وآخره نون).

ذكر استعمال جَعْدَة بن هُبيرة على خراسان

وفي هذه السنة بعث علي جَعْدَة بن هُبيرة المخزومي إلى خراسان بعد عودته من صفيّن، فانتفى إلى نيسابور، وقد كفروا وامتنعوا، فرجع إلى علي، فبعث خليل بن قسرة البربري، فحاصر

غزاتنا هذه؟ قال: لا والله ولقد أردتها ولكن ما ترى من أثر الحمى منعي عنها. فقال: **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى** [التوبة: ٩١]. الآية، خيّرني ما يقول الناس فيما كان بيننا وبين أهل الشام؟ قال: فيهم المسرور، وهم أغشَاء الناس، وفيهم المكبوت الأسف بما كان بينك وبينهم، وأولئك نصحاء الناس لك. قال: صدقت، جعل الله ما كان من شكواك خطاً لسيئاتك، فإن المرض لا أجر فيه ولكن لا يدع على العبد ذنباً إلا حطّه، وإنما الأجر في القول باللسان والعمل باليد والرّجل، وإن الله عزّ وجلّ، ليُدخل بصدق النية والسريرة الصالحة عالماً من عباده الجنة. ثم مضى غير بعيد فلقية عبد الله بن وداعة الأنصاري فدنا منه وسلّم عليه وسأيره، فقال له: ما سمعت الناس يقولون في أمرنا؟ قال: منهم المعجب به ومنهم الكاره له. قال: فما قول ذوي الرأي؟ قال: يقولون إن علياً كان له جمع عظيم ففرقه، وكان له حصن حصين فهدمه، فمتى يبني ما هدم ويجمع ما فرق؟ ولو كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظفر أو يهلك كان ذلك الحزم. قال علي: أنا هدمت أم هم هدموا؟ أنا فرقته أم هم فرقوا؟ أمّا قولهم: لو كان مضى بمن أطاعه فقاتل حتى يظفر أو يهلك، فوالله ما خفي هذا عني، (٣٢٤/٣) وإن كنت لسخياً بنفسي عن الدنيا طيب النفس بالموت، ولقد هممت بالإقدام على القوم فنظرت إلى هذين قد ابتدراني، يعني الحسن والحسين، ونظرت إلى هذين قد استقدماني، يعني عبد الله بن جعفر ومحمد بن علي، فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل رسول الله، ﷺ، من هذه الأمة وكرهت ذلك وأشفقت على هذين أن يهلكا، وإيم الله لئن لقيتهم بعد يومي هذا لألقتهم وليسوا معي في عسكر ولا دار.

ثم مضى وإذا على يمينه قبور سبعة أو ثمانية فقال علي: ما هذه؟ فقيل: يا أمير المؤمنين إن حجاب بن الأرت توفي بعد مخرجك وأوصى بأن يُدفن في الظهر، وكان الناس إنما يدفنون في دورهم وأقبيتهم، وكان أول من دُفن بظاهر الكوفة ودُفن الناس إلى جنبه، فقال علي: رحم الله حجاباً فلقد أسلم رغباً وهاجر طائعاً وعاش مجاهداً وابتلي في جسمه أحوالاً ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً، ووقف عليها وقال: السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة والمحال المفقرة من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات! إنتم لنا سلف فاطم. ونحن لكم تبع وبكم عملاً قليل لا حقون! اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عن بعضنا وعنهم! طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضى عن الله، عزّ وجلّ! ثم أقبل حتى حاذى سكة الثورين فسمع البكاء فقال: ما هذه الأصوات؟ فقيل: البكاء على قتلي صفيّن. فقال: أمّا إني أشهد لمن قُتل منهم صابراً محتسباً بالشهادة. ثم مرّ بالفائسين فسمع مثل ذلك، ثم مرّ بالشاميين فسمع رجة شديدة فوقف فخرج إليه حرب بن شريحيل الشامي، فقال له علي: أيعليكم نساؤكم؟ ألا تهوّنهن

أهلها حتى صالحوه وصالحه أهل مرو.

ذكر اعتزال الخوارج علياً ورجوعهم إليه

ولما رجع علي من صفين فارقه الخوارج وأتوا خروءه، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً، ونادى مناديههم: إن أمير القتال شئت بن رباعي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكوا الشكري، والأمير شوري بعد الفتح، والبيعة (٣٢٧/٣) لله، عز وجل، والأمير بالمعروف، والنهي عن المنكر. فلما سمع علي ذلك وأصحابه قامت الشيعة فقالوا له: في أعناقنا بيعة ثانية، نحن أولياء من وأليت وأعداء من عادت. فقال الخوارج: استقمتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا، وبايعتم أنتم علياً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى. فقال لهم زياد بن النضر: والله ما بسط علي يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله وسنة نبيه، ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعة فقالوا له: نحن أولياء من وأليت وأعداء من عادت، ونحن كذلك، وهو على الحق والهدى ومن خالفه ضال مضل.

وبعث علي عبد الله بن عباس إلى الخوارج وقال: لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى أتيك. فخرج إليهم فاقبلوا يكلمونه، فلم يصبر حتى راجعهم، فقال: ما نعمتم من الحكمين وقد قال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]، فكيف بأمة محمد، ﷺ؟ فقالت الخوارج: أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمرهم بالنظر فيه فهو إليهم، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم في الزاني مائة جلدة، وفي السارق القطع، فليس للعباد أن ينظروا في هذا، قال ابن عباس: فإن الله تعالى يقول: ﴿يُحْكَمْ بِهِ دُونُ عَذَلٍ مِّنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]. فقالوا: أوتجعل الحكم في الصيد والحرث وبين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟ وقالوا له: أعذل عندك عمرو بن العاص وهو بالأمس يقاتلنا؟ فإن كان عدلاً فلنسنا بعدول، وقد حكمتم في أمر الله الرجال، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يرجعوا، وقد كتبتم بينكم وبينهم كتاباً وجعلتم بينكم المودعة، وقد قطع الله المودعة بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية. (٣٢٨/٣)

وبعث علي زياد بن النضر فقال: انظر بأي رؤوسهم [هم] أشد إظافة فأخبره بأنه لم يرههم عند رجل أكثر منهم عند يزيد بن قيس.

فخرج علي في الناس حتى دخل إليهم، فأتى فسطاط يزيد بن قيس فدخله فصلى فيه ركعتين وأمره على أصهبان والري، ثم خرج حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عباس فقال: ألسم أنهلك عن كلامهم؟ ثم تكلم فقال: اللهم هذا مقام من يملج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة. ثم قال لهم: من زعيمكم؟ قالوا: ابن الكوا.

قال: فما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتك يوم صفين. قال: أنشدكم الله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف وقتلتم نبيهم قلت لكم إني أعلم بالقوم منكم أنهم ليسوا بأصحاب دين؟ وذكر ما كان قاله لهم، ثم قال لهم: قد اشترطت على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن ويُميتا ما أمات القرآن، فإن حكما يحكم القرآن فليس لنا أن نخالف، وإن أبيا فنحن عن حكمهما برآء.

قالوا: فخيرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟ فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال. قالوا: فخيرنا عن الأجل لم جعلته بينكم؟ قال: ليعلم الجاهل ويتثبت العالم، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة، ادخلوا مصركم رحمكم الله. فدخلوا من عند آخرهم.

قيل: والخوارج يزعمون أنهم قالوا له: صدقت قد كنا كما ذكرت وكان ذلك كفراً منا وقد تبنا إلى الله فتب كما تبنا نبأيك وإلا فنحن مخالفون. (٣٢٩/٣)

فبايعنا علي وقال: ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى ننجي المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا. وقد كذب الخوارج فيما زعموا.

ذكر اجتماع الحكمين

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين أرسل علي أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي وأوصاه أن يقول لعمرو بن العاص: إن علياً يقول لك: إن أفضل الناس عند الله، عز وجل، من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه من الباطل وإن زاده. يأمرو والله إنك لتعلم أين موضع الحق فلم تتجاهل؟ إن أوتيت طمعاً يسيراً كنت لله به ولأوليائه عدواً، وكان والله ما أوتيت قد زال عنك! ويحك فلا تكن للثنتين خصيماً وللظالمين ظهيراً، أما إني أعلم بيومك الذي أنت فيه نادم، وهو يوم وفاتك، تمنى أنك لم تظهر لمسلم عداوة ولم تأخذ على حكم رشوة.

فلما بلغه تغير وجهه ثم قال: متى كنت أقبل مشورة علي أو أنتهي إلى أمره أو أعتد برأيه؟ فقال له: وما يمنعك يا ابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم مشورته؟ فقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه. فقال له: إن مثلي لا يكلم مثلك. قال شريح: بأي أبويك. ترغب عني يا ابن النابغة؟ أبايك الوسط أم بآبك النابغة؟ فقام عنه.

وأرسل علي أيضاً معهم عبد الله بن عباس ليصلي بهم ويسلي أمورهم، ومعهم أبو موسى الأشعري. (٣٣٠/٣)

وأرسل معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام

خرج معاوية لي من سلطانه كله لما وليته، وما كنت لأرتشي في حكم الله! ولكنك إن شئت أحينا اسم عمر بن الخطاب، رحمه الله.

قال له عمرو: فما يمنعك من ابني وأنت تعلم فضله وصلاحه؟ فقال: إن ابنك رجلٌ صديق ولكنك قد غمست في هذه الفتنة. فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل يأكل ويطعم؛ وكانت في ابن عمر غفلة؛ فقال له ابن الزبير: افطن فانتبه! فقال: والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً. وقال: يا ابن العاص إن العرب قد استندت إليك أمرها بعدما تقارعوا بالسيوف فلا تردّتهم في فتنة. (٣٣٢/٣)

وكان عمرو وقد عود أبو موسى أن يقدمه في الكلام يقول له: أنت صاحب رسول الله ﷺ، وأسئني فتكلم، وتعود ذلك أبو موسى، وأراد عمرو بذلك كله أن يقدمه في خلع علي، فلمّا أراد عمره على ابنه وعلى معاوية فأبى وأراد أبو موسى ابن عمر فأبى عمرو، قال له عمرو: خبرني ما رأيك؟ قال: أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا. فقال عمرو: الرأي ما رأيته. فأتقلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال عمرو: يا أبا موسى أعلمهم أن رأينا قد اتفق. فتكلم أبو موسى فقال: إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة. فقال عمرو: صدق وبر، تقدّم يا أبا موسى فتكلم. فتقدّم أبو موسى، فقال له ابن عباس: ويحك! والله إني لأظنه قد خدعك، إن كنتما اتفقتما على أمر فقدّمه فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده، فإنه رجلٌ غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما فإذا قمت في الناس خالفك.

وكان أبو موسى مُتَقَلِّلاً فقال: إنا قد اتفقتنا، وقال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرَ أصحح لأمرها ولا أَلَمَ لشئها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا، وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً. ثم تنحى.

وأقبل عمرو فقام وقال: إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأبئت صاحبي معاوية، فإنه ولي ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه.

فقال سعد: ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده! فقال أبو موسى: فما أصنع؟ واقفي على أمر ثم نزع عنه! فقال ابن عباس: لا ذنب لك يا أبا موسى، الذنب لمن قدّمك في هذا المقام. قال: غدر فما أصنع؟ فقال ابن عمر: (٣٣٣/٣) انظروا إلى ما صار أمر هذه الأمة! صار إلى رجل ما يبالي ما صنع وإلى آخر ضعيف.

وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لو مات الأشعري قبل هذا

حتى توافوا من دومة الجندل بأفروح. وكان عمرو إذا أتاه كتاب من معاوية لا يدرى بما جاء فيه ولا يسأله أهل الشام عن شيء؛ وكان أهل العراق يسألون ابن عباس عن كتاب يصله من علي، فإن كنهم ظنوا به الظنون وقالوا: أترأه كتب بكذا وكذا؟ فقال لهم ابن عباس: أما تعقلون؟ أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم أحد بما جاء به ولا يسمع لهم صياح، وأنتم عندي كل يوم تظنون في الظنون؟

وحضر معهم ابن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وابن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الرحمن بن عبد يغوث الزهري وأبو جهم بن حذيفة العدوي والمغيرة بن شعبة.

وكان سعد بن أبي وقاص على ماء لبني سليم بالبادية، فأتاه ابنه عمر فقال له: إن أبا موسى وعمراً قد شهدهما نفر من قريش فاحضر معهم فإنك صاحب رسول الله ﷺ، وأحد الثوري ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة وأنت أحق الناس بالخلافة. فلم يفعل، وقيل: بل حضرهم سعد وندم على حضوره فأحرم بعمره من بيت المقدس.

وقال المغيرة بن شعبة لرجال من قريش: أترون أحداً يستطيع أن يأتي برأي يعلم به أن يجتمع الحكمان أم لا؟ فقالوا: لا. فقال: إني أعلمه منهما. فدخل على عمرو بن العاص فقال: كيف ترانا معشر من اعتزل الحرب؟ فإنا قد شككتنا في الأمر الذي استبان لكم فيها. فقال له عمرو: أراكم خلف الأبرار أمام الفجار. فانصرف المغيرة إلى أبي موسى فقال له مثل قوله لعمرو. فقال له أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأياً، فيكم بقية الناس. فعاد المغيرة إلى أصحابه وقال لهم: لا يجتمع هذان على أمر واحد. (٣٣١/٣)

فلما اجتمع الحكمان قال عمرو: يا أبا موسى ألسنت تعلم أن عثمان قتل مظلوماً؟ قال: أشهد. قال: ألسنت تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال: بلى. قال: فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت؟ فإن خفت أن يقول الناس: ليست له سابقة، فقلّ وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السيامة والتبدير وهو أخو أم حبيسة زوج رسول الله ﷺ، وكتبته وقد صبحه وعرض له بسلطان.

فقال أبو موسى: يا عمرو اتق الله! فإما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف تولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أنني لو كنت أعطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب، وأما قولك: إن معاوية ولي دم عثمان فوله هذا الأمر، فلم أكن لأوليّه وأدع المهاجرين الأولين، وأما تعريضك لي بالسلطان، فوالله لو

اليوم لكان خيراً له... وقال أبو موسى الأشعري لعمر: لا وقَّك الله، غدرت وفجرت! إنما مثلك **﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَوَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَزَكَّهْ يَلْهَثُ﴾** [الأعراف: ١٧٦]. قال عمرو: إنما مثلك **﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْوِلُ أَسْفَارًا﴾** [الجمعة: ٥]. فحمل شريح بن هانئ على عمرو فضربه بالسوط وحمل ابن عمرو على شريح فضربه بالسوط أيضاً وحجز الناس بينهم. وكان شريح يقول بعد ذلك: ما ندمتُ على شيءٍ ندامتي على ضرب عمرو بالسوط ولم أضربه بالسيف.

والتمس أهل الشام أبا موسى فهرب إلى مكة، ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح إلى علي، وكان علي إذا صلى الغداة يَقْنُتُ فيقول: اللهم العن معاوية وعمرأ وأبا الأعور وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد! فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنَّت سب علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر.

وقد قيل: إن معاوية حضرَ الحكمين وإنه قام عشيّة في الناس فقال: أما بعدُ من كان متكلماً في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه. قال ابن عمر: فاطلعتُ حُبُوتِي فاردتُ أن أقول يتكلم فيه رجال قاتلوك وأباك على الإسلام، فخشيتُ أن أقول كلمة تفرّق الجماعة ويُسفك فيها دم، وكان ما وعد الله فيه (٣٣٤/٣) الجنان أحب إليّ من ذلك، فلما انصرفتُ إلى المنزل جاني حبيب بن مسلمة فقال: ما منعك أن تتكلم حين سمعتَ هذا الرجل يتكلم؟ قلتُ: أردتُ ذلك ثم خشيتُ. فقال حبيب: وَقَنْتَ وَغَضِبْتَ، وهذا أصحُّ لأنّه ورد في الصحيح.

ثم إن الخوارج لقي بعضهم بعضاً واجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي، فخطبهم فزهدهم في الدنيا وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: اخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كُور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكبين لهذه البدع المُضلة. فقال له خرقوص بن زهير: إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعونكم زيتها وبيعجتها إلى المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، **﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾** [النحل: ١٢٨].

فقال حمزة ابن ستان الأسدي: يا قوم إن الرأي ما رأيتم فولّوا أمركم رجلاً منكم فإنكم (٣٣٦/٣) لا بد لكم من عِماد وسِناد ورأية تحفون بها وترجعون إليها. فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى، وعرضوها على خرقوص بن زهير فأبى، وعلى حمزة بن سنان وشريح بن أوفى العبسي فأبى، وعرضوها على عبد الله بن وهب، فقال: هاتوها، أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أذعها قرقاً من الموت. فبايعوه لعشر خلون من شوال. وكان يقال له ذو الثَّيْنَات.

ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفى العبسي، فقال ابن وهب:

اشخصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله فإنكم أهل الحق. قال شريح: نخرج إلى المدائن فننزلها ونأخذها بأبوابها ونخرج منها سكانها ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا. فقال زيد بن حصين: إنكم إن خرجتم مجتمعين أتبعتم ولكن اخرجوا وحداناً مستخفين، فأما المدائن فإن بها من يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزل جسر النهروان وتكتابوا إخوانكم من أهل البصرة.

فقال خرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب عنه فقال علي: ما هو ذنب ولكنه عجز عن الرأي وقد نهيتكم. فقال زُرعة: يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك، اطلب وجه الله تعالى. فقال علي: يؤسأ لك ما أشقاك! كأنني بك تبتلاً تسفي عليك الرياح! قال: وددت لو كان ذلك. فخرجوا من عنده يحكمّان.

قالوا: هذا الرأي. هذه الخوارج قُتِلَتْ، وكأني بك وقد وطنتُك الخيل بحوافرها.

قُتِلَ يوم النهر في خوارج البصرة.

وأما خوارج البصرة فإنهم اجتمعوا في خمسمائة رجل وجعلوا عليهم يستعز بن فذكي التميمي، فعلم بهم ابن عباس فتابعهم أبا الأسود الدؤلي، فلحقهم بالجرس الأكبر، فتوافقوا حتى حجز بينهم الليل، وأدلى مسعر بأصحابه وأقبل يعترض الناس وعلى مقدمته الأشوس بن عوف الشيباني، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب بالنهر.

فلما خرجت الخوارج وهرب أبو موسى إلى مكة ورد علي ابن عباس إلى البصرة قام في الكوفة فخطبهم فقال: الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم، وقد كنتُ أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمرى وتحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر، ولكن أبيت إلا ما أردتم فكنتُ أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

أمرتهمُ امرئ بمُتَعَرِّجِ السَّوَى فلم يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إِلَّا فَضَحَى الْغَدِ
إِلَّا أَنْ هَذِينَ الرَّجْلَيْنِ الَّذِينَ اخْتَرْتُمُوهُمَا حَكَمَيْنِ قَدْ نَبَذَا حَكْمَ
الْقُرْآنِ وراءَ ظُهورِهِمَا وأحياناً ما أمات القرآن وأتبع كل واحد منهما
هواه بغير هُدًى من الله فحكمما بغير حجة بينة ولا سُنَّة ماضية
واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرىء الله منهما ورسوله
وصالح المؤمنين، استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا في
معسكرهم إن شاء الله يوم الاثنين.

ثم نزل، وكتب إلى الخوارج بالنهر: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد (٣٣٩/٣) الله أمير المؤمنين إلى زيد بن حُصَيْن وعبد الله بن وهب ومن معهم من الناس. أما بعدُ فإن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمين قد خالفا كتاب الله وأتبعوا هواهما بغير هُدًى من الله فلم يعملوا بالسنة ولم يُنفِذوا القرآن حكماً فبرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون، فإذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا إلينا فإننا سائرنا إلى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه.

فكتبوا إليه: أما بعدُ فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرننا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نبذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

فلما قرأ كتابهم أبس منهم ورأى أن يذهبهم ويمضي الناس حتى يلقي أهل الشام فيتاجزهم، فقام في أهل الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنه من ترك الجهاد في الله وأدعن في أمره كان على شفا هلكة إلا أن يتداركه الله بنعمته، فاتقوا الله وقاتلوا من حاد الله ورسوله وحاول أن يطفئ نوره الله، فقاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين الذين ليسوا بقرء القرآن ولا فقهاء في

وكتب عبد الله بن وهب إلى من بالبصرة منهم يُعلمونهم ما اجتمعوا عليه ويحثونهم على اللحاق بهم، وسير الكتاب إليهم، فاجابوه أنهم على اللحاق به.

فلما عزموا على المسير تعبدوا ليلتهم، وكانت ليلة الجمعة ويوم الجمعة، وساروا يوم السبت، فخرج شريح بن أوفى العسبي وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ إلى «سُرَّاءِ السَّبِيلِ» [الفصص: ٢١/٢٢]. وخرج معهم طرفة بن عدي بن حاتم الطائي، فاتبعه أبوه، فلم يقدر عليه، فانتهى إلى المدائن ثم رجع، فلما بلغ سابط لقيه عبد الله بن وهب الراسبي في نحو عشرين فارساً، فأراد عبد الله قتله فمنعه عمرو بن مالك النهاني ويشر بن زيد البولاني، وأرسل عدي إلى سعد بن مسعود عامل علي على المدائن يُخبره أمرهم، وأخذ أبواب (٣٣٧/٣) المدائن وخرج في الخيل واستخلف بها ابن أخيه المُختار بن أبي عبيد وسار في طلبهم. فأخبر عبد الله بن وهب خبره، فرأى طريقه وسار على بغداد، ولحقهم سعد بن مسعود بالكُرَّخ في خمسمائة فارس عند المساء، فانصرف إليهم عبد الله في ثلاثين فارساً، فاقبضوا ساعة وامتنع القوم منهم.

وقال أصحاب سعد لسعد: ما تريد من قتال هؤلاء ولم يأتك فيهم أمر؟ خلهم فليذهبوا، واكتب إلى أمير المؤمنين فإن أمرك باتباعهم أتبعتم، وإن كفاكم غيرك كان في ذلك عافية لك. فأبى عليهم. فلما جن عليهم الليل خرج عبد الله بن وهب فغير دجلة إلى أرض جُوخى وسار إلى النهروان فوصل إلى أصحابه وقد أبسوا منه، وقالوا: إن كان هلك ولينا الأمر زيد بن حُصَيْن أو خرقوص بن زهير.

وسار جماعة من أهل الكوفة يريدون الخوارج ليكونوا معهم، فردهم أهلهم كرهأ، منهم: القُقَّاع بن قيس الطائي عم الطُّرَّاح بن حكيم، وعبد الله بن حكيم بن عبد الرحمن البكائي، وبلغ علياً أن سالم بن ربيعة العسبي يريد الخروج فأحضره عنده ونهاه فانتهى.

ولما خرجت الخوارج من الكوفة أتى علياً أصحابه وشيعته فبايعوه وقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت. فشرط لهم فيه سنة رسول الله ﷺ، فجاءه ربيعة بن أبي شداد الخثعمي، وكان شهد معه الجمل وصفيين ومعه راية خثعم، فقال له: بايع على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فقال ربيعة: على سنة أبي بكر وعمر. قال له علي: ويلك! لو أن أبا بكر وعمر عملاً بغير كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، لم يكونا على شيء من الحق. فبايعه. فنظر إليه علي (٣٣٨/٣) وقال: أما والله لكأني بك وقد نفرت مع

والدين ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في مسابقة الإسلام، والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل، تيسروا للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم، فإذا اجتمعتم شخصنا إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكتب إلى ابن عباس: أما بعد فإننا خرجنا إلى معسكرنا بالنجيلة وقد أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل المغرب، فاشخص إلى الناس حتى يأتيك رسولي، وأقم حتى يأتيك أمري، والسلام عليك.

ذكر قتال الخوارج

قيل: لما أقبلت الخارجة من البصرة حتى دنت من النهروان رأى عصاة منهم رجلاً يسوق بامرأة على حمار، فدعوه فانهروه فافزعوه وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ، فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم، فقالوا: لا روع عليك، حدثنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ، تنفعنا به. فقال: حدثني أبي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يُمسي فيها مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح كافراً ويُمسي مؤمناً. قالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فإني عليهما خيراً. قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي (٣٤٢/٣) آخرها؟ قال: إنه كان محققاً في أولها وفي آخرها. قالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنه أعلم بالله منكم وأشدّ توقياً على دينه وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائهم لا على أفعالهم، والله لنقتلك قتلة ما قتلناها أحداً.

فأخذوه وكفوه ثم أقبلوا به وبإمرائه، وهي جليسة مُتِم، حتى نزلوا تحت نخل موابير، فسقطت منه رُطبة، فأخذها أحدهم فتركها في فيه، فقال آخر: أخذتها بغير حلّها وبغير ثمن، فآلقها. ثم مرّ بهم خنزير لأهل الذمة فضربه أحدهم بسيفه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فلقني صاحب الخنزير فأرضاه، فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عليّ منكم من بأس، إني مسلم ما أحدث في الإسلام حدثاً، ولقد آمنتموني، قلتهم: لا روع عليك. فاضجعوه فذبحوه، فسأل دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: أنا امرأة ألا تتقون الله فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيء، وقتلوا أم سنان الصيداوية.

فلما بلغ علياً قتلهم عبد الله بن خباب واعتراضهم الناس، بعث إليهم الحارث بن مرة العبدي لياتيهم وينظر ما بلغه عنهم ويكتب به إليه ولا يكتمه. فلما دنا منهم يسألهم قتلوه، وأتى علياً الخير والناس معه، فقالوا: يا أمير المؤمنين علام ندع هؤلاء ورائنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا؟ سير بنا إلى القوم فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام.

وقام إليه الأشعث بن قيس وكلمه بمثل ذلك، وكان الناس يرون أن الأشعث يرى رأيهم لأنه كان يقول يوم صفين: أنصفنا قوم

فقرأ ابن عباس الكتاب على الناس وندبهم مع الأحنف بن قيس، فشخص (٣٤٠/٣) ألف وخمسمائة، فخطبهم وقال: يا أهل البصرة أتاني كتاب أمير المؤمنين فأمرتكم بالتغير إليه فلم يشخص منكم إليه إلا ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألف مقاتل سوى أبناءكم وعبيدكم! ألا انفروا إليه مع جارية بن قدامة السعدي، ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلاً، فإني موقع بكل من وجدته متخلفاً عن دعوته عاصياً لإمامه، فلا يلومن رجل إلا نفسه.

فخرج جارية فاجتمع إليه ألف وسبعمائة، فوافوا علياً وهم ثلاثة آلاف ومائتان، فجمع إليه رؤوس أهل الكوفة ورؤوس الأسباع ووجوه الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل الكوفة أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحق وأصحابي إلى جهاد المعجلين بكم أضرب المدير وأرجو تمام طاعة المعقل، وقد استفترت أهل البصرة فاتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان، ليكتب لي رئيس كل قبيلة ما في عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركو القتال وعبدان عشيرته ومواليهم ويرفع ذلك إلينا.

فقال إليه سعد بن قيس الهمداني فقال: يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة، أنا أول الناس أجاب ما طلبت. وقام معقل بن قيس وعدي بن حاتم وزيد بن خصفة وحجر بن عدي وأشرف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك، وكتبوا إليه ما طلب، وأمرُوا أبناءهم وعبيدهم أن يخرجوا معهم ولا يتخلف منهم متخلف، فرفعوا إليه أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ممن أدرك وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم، وكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفاً سوى أهل البصرة، وهم ثلاثة آلاف ومائتا رجل.

وكتب إلى سعد بن مسعود بالمداخن يأمره بإرسال من عنده من المقاتلة.

وكتب إلى سعد بن مسعود بالمداخن يأمره بإرسال من عنده من المقاتلة.

وبلغ علياً أن الناس يقولون: لو سار بنا إلى قتال هذه الحرورية فإذا (٣٤١/٣) فرغنا منهم توجّهنا إلى قتال المعجلين فقال لهم: بلغني أنكم قلتهم كيت وكيت وإن غير هؤلاء الخارجين أهم إلينا فدعوا ذكرهم وسيروا إلى قوم يقتاتونك كيما يكونوا جبارين ملوكاً

يدعون إلى كتاب الله. فلما قال هذه المقالة علم الناس أنه لم يكن يرى رأيهم. (٣٤٣/٣)

فاجتمع عليّ على ذلك وخرج فعبر الجسر وسار إليهم، فلقاه المنجم في مسيره فأشار عليه أن يسير وقتاً من النهار، فقال له: إن أنت سرت في غيره لقيت أنت وأصحابك ضرراً شديداً. فخالفه عليّ وسار في الوقت الذي نهاه عنه، فلما فرغ من أهل النهر حمد الله وأثنى عليه ثم قال: لو سرنّا في الساعة التي أمر بها المنجم لقال الجهال الذين لا يعلمون شيئاً: سار في الساعة التي أمر بها المنجم فظفر. وكان المنجم مُسافر بن عفيف الأزدي.

فأرسل عليّ إلى أهل النهر: أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم اقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكافّ عنكم حتى ألقى أهل المغرب ففعل الله يُقبل بقلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم. فقالوا: كلنا قتلهم وكلنا مستحلّ لدمائكم ودمائهم. وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فقال لهم: عباد الله أخرجوا إلينا طليقتنا منكم وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه وعُودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر، تشهدون علينا بالشرك وتسفكون دماء المسلمين فقال لهم عبد الله بن شجرة السلمي: إن الحق قد أضاع لنا فلسنا متابعيكم أو تاتونا بمثل عمر، فقال: ما تعلمه [فيّنا] غير صاحبنا، فهل تعلمونه فيكم؟ قالوا: لا. قال نشدكم الله في أنفسكم أن تهلكوها فيّني لا أرى الفتنة إلا وقد غلبت عليكم.

وخطبهم أبو أيوب الأنصاري فقال: عباد الله إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنّا عليها، أليست بيننا وبينكم فرقة فعلاً ثمّ تقولوننا. فقالوا: إنا لسو تابعيناكم اليوم حكمتم غداً. قال: فيّني أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابل.

وأثامهم عليّ فقال: أيّنها العصابة التي أخرجها عداوة المرء وللجاجة. وصلّها عن الحقّ الهوى، وطمع بها الحزق، وأصبحت في الخطب العظيم (٣٤٤/٣) إني نذير لكم أن تصيحوا تلعنكم الأمة غداً صرعى بأثناء هذا الوادي وباهضام هذا الغائط بغير بينة من ربكم ولا برهان مبين، ألم تعلموا أنّي نهيتكم عن الحكومة، وبناتكم أنّها مكيدة، وأن القوم ليسوا بأصحاب دين، فعصيتوني، فلما فعلتْ شرطت واستوقفتْ على الحكمين أن يُحيا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة، فنبذنا أمرهما ونحن على الأمر الأوّل؟ فمن أين أنتم؟ فقالوا: إنا حكمنا فلما حكمنا أثمنا، وكنا بذلك كافرين وقد نبأ، فإن نبئت فنحن معك ومنك، وإن أبيت فإننا متابعونك على سواء. فقال عليّ: أصابكم حاصب ولا بقي منكم وابر، أيّما إيماني برسول الله، ﷺ، وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفرا لقد

ضللت إذا وما أنا من المهتدين. ثم انصرف عنهم. وقيل: إنه كان من كلامه لهم: يا هؤلاء إن أنفسم قد سولت لكم فراقى لهذه الحكومة التي أنتم بدأتوها وسالتموها وأنا لها كاره، وأنباتكم أن القوم إنما طلبوها مكيدة ودعنا فأيتم عليّ إباء المخالفين، وعندتم غنود النكداء العاصين، حتى صرفت رأيي إلى رأيكم، رأي معاشر والله أخفاء الهام، سفهاء الأحلام، فلم آت، لا أبا لكم، هُجراً! والله ما خلتهم عن أموركم، ولا أخفيت شيئاً من هذا الأمر عنكم، ولا أوطأكم عشوة، ولا دثيت لكم الضراء، وإن كان أمرنا لأمر المسلمين ظاهراً فاجمع رأي ملاكم [عليّ] أن اختاروا رجلين فأخذنا عليهما أن يحكما بما في القرآن ولا يعدوا، فتأها فتروكا الحقّ وهما يصيرانه وكان الجور هوامها، والثقة في أيدينا حين خالفا (٣٤٥/٣) سبيل الحقّ وأتيا بما لا يُعرف، فبيّنا لنا بماذا تستحلّون قتلنا والخروج عن جماعتنا وتضعون أسياقكم على عواتقكم ثمّ تستعرضون الناس تضربون رقابهم؟ إن هذا لهُو الخسران المبين، والله لو قتلتم على هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها! كيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام؟

فتنادوا: لا نخاطبهم ولا نكلّمهم وتهيؤوا للقاء الله، الروح الروح إلى الجنة! فعاد عليّ عنهم.

ثم إن الخوارج قصدوا جسر النهر وكانوا غربه، فقال لعليّ أصحابه: إنهم قد عبروا النهر. فقال: لن يعبروا. فأرسلوا طليعة فعاد وأخبرهم أنّهم عبروا النهر، وكان بينهم وبينه عطفة من النهر، فلخوف الطليعة منهم لم يقرّبهم، فعاد فقال: إنهم قد عبروا النهر. فقال عليّ: والله ما عبروه وإنّ مصارعهم لدون الجسر، والله لا يُقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة! وتقدّم عليّ إليهم فرأهم عند الجسر لم يعبروه، وكان الناس قد شكوا في قوله وارتاب به بعضهم، فلما راوا الخوارج لم يعبروا كبروا وأخبروا عليّاً بحالهم، فقال: والله ما كذبت ولا كُتبت! ثمّ إنه عبأ أصحابه، فجعل على ميمته حجر بن عدي، وعلى ميسرته شبيب بن ربيعة أو معقل بن قيس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرُجالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة، وهم سبعمئة أو ثمانمئة، قيس بن سعد بن عبادة، وعبأت الخوارج فجعلوا على ميمتهم زيد بن حصّين الطائي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى العبسي، وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسدي، وعلى رجّالهم خرقوص بن زهير السعدي.

وأعطى عليّ أبا أيوب الأنصاري رايةً لآمان، فناداهم أبو أيوب فقال: من جاء تحت هذه الراية فهو آمن، ومن لم يقتل ولم يستعرض، ومن انصرف منكم (٣٤٦/٣) إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة

إخواننا منكم في سفك دمائكم.

الرّميّة، علامتهم رجل مُخَذَج اليد، سمعوا ذلك منه مراراً، فلمّا خرج أهل النهروان مبار بهم إليهم عليّ وكان منه معهم ما كان، فلمّا فرغ أمر أصحابه أن يلتبسوا المُخَذَج، (٣٤٨/٣) فالتمسوه، فقال بعضهم: ما نجلده، حتى قال بعضهم: ما هو فيهم، وهو يقول: واللّه إنّه لفِيهم، واللّه ما كَذِبْتُ ولا كَذِبْتُ! ثمّ إنّه جاءه رجل فبشّره فقال: يا أمير المؤمنين قد وجدناه. وقيل: بل خرج عليّ في طلبه قبل أن يبشّره الرجل ومعه سلّم بن ثُمّامة الحنفي والريان بن صبرة فوجده في حفرة على شاطئ النهر في خمسين قبلاً، فلمّا استخرجه نظرا إلى عضده فإذا لحم مجتمع كشدي المرأة وخَلَمَةٌ عليها شعرات سود فإذا مدّت امتدّت حتى تحاذي يده الطولى ثمّ تَرَكَ فتعود إلى منكبيّه. فلمّا رآه قال: اللّه أكبر ما كَذِبْتُ ولا كَذِبْتُ، لولا أن تنكّلوا عن العمل لأخبرتكم بما قصّ اللّه على لسان نبيّه، ﷺ، لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم عارفاً للحقّ الذي نحن عليه.

وقال حين مرّ بهم وهم صرعى: بؤساً لكم! لقد ضركم من غركم! قالوا: يا أمير المؤمنين من غركم؟ قال: الشيطان وأنفس أمّارة بالسوء غرتهم بالأمانى وزيّنت لهم المعاصي ونبّأتهم أنهم ظاهرون.

قيل: واخذ ما في عسكرهم من شيء، فأما السلاح والدواب وما شُهر عليه فقسّمه بين المسلمين، وأما المتاع والإماء والعبيد فإنّه رده على أهله حين قدم.

وطاف عديّ بن حاتم في القتل على ابنه طرفة فدفنّه، ودفن رجال من المسلمين قتلاهم. فقال عليّ حين بلغه: أقتلونيهم ثمّ تدفنونهم؟ ارتحلوا فارتحل الناس.

فلم يُقتل من أصحاب عليّ إلا سبعة. وقيل: كانت الواقعة سنة ثمان وثلاثين. وكان فيمن قتل من أصحابه يزيد بن نويرة الأنصاري، وله صحبة وسابقة، وشهد له رسول اللّه، ﷺ، بالجنة، وكان أوّل من قُتل. (٣٤٩/٣)

ذكر رجوع عليّ إلى الكوفة

ولما فرغ عليّ من أهل النهر حمد اللّه وأثنى عليه وقال: إنّ اللّه قد أحسن بكم وأعزّ نصركم فتوجّهوا من فوركم هذا إلى عدوكم. قالوا: يا أمير المؤمنين نفدت نبأنا وكلّت سيوفنا ونصلت أمتة رماحنا وعاد أكثرها قِصداً، فارجع إلى مصرنا فلنستعذّ، ولعلّ أمير المؤمنين يزيد في عدوّنا فإنّه أقوى لنا على عدوّنا. وكان الذي تولّى كلامه الأشعث بن قيس، فأقبل حتى نزل النخيلة فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطّئوا على الجهاد أنفسهم وأن يلقوا زيارة آبائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوهم. فاقاموا فيه أياماً ثمّ تسلّلوا من معسكرهم فدخلوا إلّا رجالاً من وجوه الناس وترك

فقال فروة بن نوفل الأشجعي: واللّه ما أدري على أيّ شيء نقاتل عليّاً، أرى أن أنصرف حتى يتضح لي بصيرتي في قتاله أو أتابعه. فأنصرف في خمسمائة فارس حتى نزل البنتيجين والدمسكرة. وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلوا الكوفة، وخرج إلى عليّ نحو مائة، وكانوا أربعة آلاف، بقي مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة، فزحفوا إلى عليّ، وكان عليّ قد قال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤكم. فتنادوا: الرواح إلى الجنة! وحملوا على الناس، فافتقت خيل عليّ فرقتين: فرقة نحو الميمنة وفرقة نحو الميسرة، واستقبلت الرماة وجوهم بالنبل، وعطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فما لبثوا أن أناموهم. فلمّا رأى حمزة بن سنان الهلاك نادى أصحابه: أن انزلوا! فذهبوا لينزلوا فلم يلبثوا أن حمل عليهم الأسود بن قيس المرادي وجاءهم الخيل من نحو عليّ فأهلكوا في ساعة، فكانما قيل لهم موتوا فماتوا.

وجاء أبو أيوب الأنصاري إلى عليّ فقال: يا أمير المؤمنين قتلت زيد بن حُصَيْن الطائي، طعمته في صدره [حتى] خرج السنان من ظهره، وقلت له: أبشر يا عدوّ اللّه بالنار. فقال: ستعلم غداً أينما أولى بها صليّاً. فقال له عليّ: هو أولى بها صليّاً. وجاءه هانيء بن خطاب الأزدي وزباد بن خصفة يحتجان في قتل عبد الله بن وهب، فقال: كيف صنعتما؟ قالوا: لما رأينا عرفناه فابتدنا، وطعنّا برمحينا. فقال: كلاكما قاتل.

وحمل جيش بن ربيعة الكِنَاني على خرقوص بن زهير فقتله، وحمل عبد الله (٣٤٧/٣) ابن زحر الخولاني على عبد الله بن شجرة السلمي فقتله، ووقع شريح بن أوفى إلى جانب جدار فقاتل عليه، وكان جُل من يُقاتله همدان، فقال:

قد علّمت جارية عبيّة ناعمة في أهلها مكينة
أنسى ساحمي ثلثي الثبّة

فحمل عليه قيس بن معاوية فقطع رجله، فجعل يقاتلهم وهو يقول:

القرم يحمي شوكه معقولا

فحمل عليه قيس أيضاً فقتله، فقال الناس:

اقتلت همدان يوماً وزجّل اقتلوا من غدوة حتى الأصل
فتنتع اللّه لهمدان الرجل

ذكر مقتل ذي النُدبة

قد روى جماعة أن عليّاً كان يحدّث أصحابه قبل ظهور الخوارج أن قوماً يخرجون يرفقون من الذين كما يرفق السهم من

المعسكر خالياً، فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير وقال لهم أيضاً: أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدوكم ومن في جهاده القرية إلى الله، عز وجل، ودرك الوسيلة عنده، حيارى من الحق جفاة عن الكتاب يعمهون في طغيانهم، فاعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وتوكلوا على الله وكفى بالله كيلاً وكفى بالله نصيراً. فلم ينفروا ولا تيسروا. فتركهم أياماً حتى إذا أيس من أن يفعلوا دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذي يطيئ بهم. فممنهم المعتل ومنه المتكبر، وأقلهم من نشط.

فقام فيهم فقال: عباد الله ما بالكم إذا أمرتكم أن تنفروا ﴿إِنَّا قُلْتُ إِلَى الْأَرْضِ، أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٢٨]. وبالدّل والهوان من (٣٥٠/٣) العز خلفاً؟ وكلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم عنكم كناتكم من الموت في سكرة وكان قلوبكم مألوسة وأنتم لا تعقلون، فكان أبصاركم كمة وأنتم لا تبصرون! لله أنتم ما أنتم إلا أسد الشرى في الدعة، وثعلب روَاعَة حين تدعون إلى البأس. ما أنتم لي بثقة سجين الليالي. ما أنتم بركب يصابكم به. لعمر الله لبس حشائش الحرب أنتم! إنكم تكادون ولا تكيدون، وتنتقص أطرافكم وأنتم لا تتحاشون، ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون. ثم قال: أما بعد فإن لي عليكم حقاً وإن لكم عليّ حقاً، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوفير فيحكم عليكم، وتعليصكم كني لا تجهلوا، وتأديبكم كني تعلّموا، وأما حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصح لسي في المغيب والمشهد والإجابة حين أَدْعُوكُم والطاعة حين أَمْرُكُمْ، فإن يرد الله بكم خيراً تزعوا عما أكره وترجعوا إلى ما أحب فتتالوا ما تطلبوا وتذكروا ما تأملون.

ذكر عدة حوادث

قيل نوحج بالفاضل هذه السنة عبيد الله بن عباس، وكان عامل عليّ بن أبي المنذر، وكان عليّ فكة والمظانف قُسم بين العباسيين، وكان عليّ المديحة سهل بن حنيف، وقيل تمام بن العباس، وكاناه عليّ البصرة عبد الله بن عباس، وعليّ مصر محمد بن أبي بكر، ولما سار عليّ إلى حرقين استخلفه عليّ الكوفي أيضاً مسعود (٣٥١/٣) الأنصاري، وكان عليّ خراسان خليل بن قرة البربري، وكان بالشام معاوية ابن أبي سفيان.

وفيها قتل حازم بن أبي حازم أخو قيس الأحمسي الهجلي بصفيين مع عليّ.

وفيها مات خباب بن الارت، شهد بدرًا وما بعدها، وشهد صفين مع عليّ والنهروان، وقيل لم يشهدا، كان مريضاً ومات قبل قدوم عليّ إلى الكوفة، وقد تقدّم ذكره، وقيل مات ميتة تسع

وثلاثين وكان عمره ثلاثاً وستين سنة. وفيها قتل أبو الهيثم بن التيهان بصفيين مع عليّ، وقيل عاش بعدها سيراً، وقُتل بها أخوه عبيد بن التيهان، وكان أبو الهيثم أول من بايع رسول الله ﷺ، ليلة العقبة، في قول، وهو بدري.

وفيها قتل يعلى بن مئّية، وهي أمّه، واسم أبيه أمية التميمي، وهو ابن أخت عتبة بن غزوان، وقيل ابن عتبة، وكان قد شهد الجمل مع عائشة، ثم شهد صفين مع عليّ فقتل بها، وكان إسلامه يوم الفتح، وشهد حُنيناً، وقُتل بصفيين مع عليّ أبو عزة الأنصاري النجاري والد عبد الرحمن، وهو أيضاً بدري.

وفيها قتل أبو فضالة الأنصاري في قول، وهو بدري.

وفيها توفي سهل بن حنيف الأنصاري في قول، وهو بدري، وشهد مع عليّ حروبه.

وتوفي بها صهيب بن سنان وصفوان بن يحيى، وهو بدري.

وفي هذه السنة توفي عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعسقلان فجاءه وهو في الصلاة وكره الخروج مع معاوية إلى صفين، وقيل شهدا، ولا يصح. (٣٥٢/٣)

سنة ثمان وثلاثين

ذكر ملك عمرو بن العاص مصر وقتل محمد بن أبي بكر الصديق في هذه السنة قتل محمد بن أبي بكر الصديق بمصر وهو عامل عليّ عليها، وقد ذكرنا سبب تولية عليّ إياه مصر وعزل قيس بن سعد [عنها] ودخوله مصر وإفاده ابن مضاءم الكلبي إلى أهل خرباء، فلما مضى ابن مضاءم إليهم قتلوه، وخرج معاوية بن حُذَيج السكوني وطلب بدم عثمان ودعا إليه، فأجابته ناس وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، فبلغ ذلك عليّاً فقال: ما لمصر إلا أحد الرجلين، صاحبنا الذي عزلنا، يعني قيساً، أو الأشتر، وكان الأشتر قد عاد بعد هجرته إلى عمله بالجزيرة، وقال عليّ لقيس: أقم جدي على شرطتي حتى تنقضي الحكومة ثم تستلوا إلى أذربيجان. فلما بلغ عليّاً أمر مصر كتب إلى الأشتر وهو بصيحين يستدعيه، فحضر عنده، فأخبره خبر أهل مصر وقال: ليس لها غيرك فإخرج إليها، فإنني لو لم أوصك اكتفيت برأيك، واستعن بالله واخبط المشقة باللين وافرّق ما كان الرقيق أبلغ وتشدد حين لا يعني إلا الشدة.

فخرج الأشتر يتجهز إلى مصر وأتت معاوية صوته بذلك، فغضب عليه، (٣٥٣/٣) وكان قد طمع في مصر، فعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشدّ عليه من محمد بن أبي بكر، فبعث معاوية إلى التقدم عليّ أهل الخراج بالقرمز وقال له: إن الأشتر قد ولي مصر، فإن كفتيته لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت. فخرج الحابسات

حتى أتى القلزم وأقام به، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول، فنزل عنده، فأتاه بطعام، فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سمًا فسقاها إياه، فلما شربه مات.

وأقبل معاوية يقول لأهل الشام: إن عليًا قد وجّه الأشتر إلى مصر فادعوا الله عليه، فكانوا يدعون الله عليه كل يوم، وأقبل الذي سقاء إلى معاوية فأخبره بمهلك الأشتر، فقام معاوية خطيبًا ثم قال: أما بعد فإنه كانت لعلّي يمينان فقطعت إحداهما بصرفين، يعني عمار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم، يعني الأشتر.

فلما بلغ عليًا موته قال: للذين وللسم! وكان قد ثقل عليه لأشياء نقلت عنه، وقيل: إنه لما بلغه قتله قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! مالك وما مالك وهل موجود مثل ذلك؟ لو كان من حديد لكان قيدًا أو من حجر لكان صلدًا! على مثله فلتبك البواكي! وهذا أصح لأنه لو كان كارهاً له لم يولّه مصر.

وكان الأشتر قد روى الحديث عن عمر وعليّ وخالد بن الوليد وأبي ذر، وروى عنه جماعة، وقال أحمد بن صالح: كان ثقة.

قيل: ولما بلغ محمد بن أبي بكر إنفاذ الأشتر شقّ عليه فكتب إليه عليّ: أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الأشتر إلى عمّلك، وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا ازدياداً مني لك في الجذ، ولو نزع ما تحت (٣٥٤/٣) يدك لوليتك ما هو أيسر عليك مؤونة منه وأعجب إليك ولأية، إن الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيباً وعلى عدونا شديداً، وقد استكمل أيامه ولاقى جماعه، ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب، أصبر لعدوك وشمر للحرب واذع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة [النحل: ١٢٥]. وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أمّك وتعمك على ما ولأك.

وكتب إليه محمد: أما بعد فقد انتهى إليّ كتابك وفهمته، وليس لأحد من الناس أرضى برأي أمير المؤمنين ولا أجاهد على عدوّه ولا أراف بولّه مني، وقد خرجت فمسكرت وأمنت الناس إلا من نصب لنا حرباً وأظهر لنا خلافاً، وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظه. والسلام.

وقيل: إنما تولى الأشتر مصر بعد قتل محمد بن أبي بكر.

وكان أهل الشام ينتظرون بعد صيفين أمر الحكمين، فلما تفرقا بايع أهل الشام معاوية بالخلافة، ولم يزد إلا قوة، واختلف الناس بالعراق على عليّ، فما كان لمعاوية هم إلا مصر، وكان يهاب أهلها لقرّهم منه وشدّتهم على من كان على رأي عثمان، وكان يرجو أنه

إذا ظهر عليها ظهر على حرب عليّ لعظم خراجها، فدعا معاوية عمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر ابن أبي أرطاة والضحّاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد وأبا الأعور السلمي وشُرّخيل بن السمط الكندي فقال لهم: أتدرون لم جمعكم؟ فلاني جمعتكم لأمر لي مهم! فقالوا: لم يطّلع الله على الغيب أحداً وما نعلم ما تريد. فقال (٣٥٤/٣) عمرو بن العاص: دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر، فإن كنت جمعتنا لذلك فاعزم واصبر، فيعم الرأي رأيت في افتتاحها! فإن فيه عزّك وعزّ أصحابك وكتب عدوك وذلّ أهل الشقاق عليك. فقال معاوية: أمّك يا ابن العاص ما أمّك! وذلك أن عصراً كان صالح معاوية على قتال عليّ! على أن له مصر طعمة ما بقي. وأقبل معاوية على أصحابه وقال: أصاب أبو عبد الله، فما ترون؟ فقالوا: ما نرى إلا ما رأى عمرو. قال: فكيف أضنع؟ فإن عمراً لم يفسّر كيف أضنع. فقال عمرو: أرى أن تبعث جيشاً كثيراً عليهم رجل حازم صابر صارم تامنه وتثق به فيأتي مصر فإنه سيأتي من كان على مثل رأينا فيظاّره على عدونا، فإن اجتمع جندك ومنّ بها على رأينا رجوت أن ينصرك الله.

قال معاوية: أرى أن نكتب منّ بها من شيعتنا فنعينهم ونأمرهم بالثبات، ونكتب منّ بها من عدونا فندعوهم إلى صلحنا ونعنيهم شكرنا ونخونهم حربنا، فإن كان ما أردنا بغير قتال فذاك الذي أردنا وإلا كان حربهم من بعد ذلك. إنك يا ابن العاص بورك لك في الشدة والعجلة، وأنا بورك لي في التؤدة. قال عمرو: افعل ما ترى فما أرى أمرنا يصير إلا إلى الحرب.

فكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج السكوني، وكانا قد خالفا علياً، يشكرهما على ذلك ويحثهما على الطلب بدم عثمان ويعدّهما المواساة في سلطانه، وبعث مع مولاه سبيح.

فلما وقفا عليه أجاب مسلمة بن مخلد الأنصاري عن نفسه وعن ابن حديج: أما بعد فإن الأمر الذي بدلنا له أنفسنا وإيعنا به أمر الله أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا وتعجيل النعمة على من سعى على إمامنا، وأما ما ذكرت (٣٥٦/٣) من المواساة في سلطانتك، فتالله إن ذلك أمر ما له نهضنا ولا إياه أردنا، فعجل إلينا بخيلك ورجلك فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائنين فإن باتنا مدد يفتح الله عليك. والسلام.

فجاءه الكتاب وهو بفلسطين، فدعا أولئك النفر وقال لهم: ما ترون؟ قالوا: نرى أن تبعث جنداً.

فأمر عمرو بن العاص ليتجهز إليها، وبعث معه ستة آلاف رجلاً ووّصاه بالتؤدة وترك العجلة. وسار عمرو فنزل أداني أرض مصر، فاجتمعت إليه العثمانية، فأقام بهم وكتب إلى محمد بن أبي

بكر: أما بعد فتفتح عني بدمك يا ابن أبي بكر فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مُسلموك فاخرج منها إنسي لك من الناصحين. وبعث معه كتاب معاوية في المعنى أيضاً ويتهذه بقصده حصار عثمان.

فأرسل محمد الكاتبين إلى عليّ ويؤخّره بسزول عمرو بأرض مصر وأنه رأى التناقل ممن عنده ويستمدّه. فكتب إليه عليّ يأمره أن يضمّ شيعته إليه ويعدّه إنفاذ الجيوش إليه ويأمره بالصبر لعدوه وقتاله. وقام محمد بن أبي بكر في الناس وتنبههم إلى الخروج إلى عدوهم مع كنانة بن بشر، فالتبّ مع القان، وخرج محمد بن أبي بكر بعده في ألفين وكنانة على مقدمته، وأقبل عمرو نحو كنانة، فلما دنا منه سرّح الكتائب كتيبة بعد كتيبة، فجعل كنانة لا تأتيه كتيبة إلاّ حمل عليها فالحقها بعمرو بن العاص، فلما رأى ذلك بعث إلى معاوية بن حُذَيْج فاتاه في مثل الدُّعْم، فأحاطوا بكنانة وأصحابه، واجتمع أهل الشام عليهم من كلّ جانب، فلما رأى ذلك كنانة نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه فصار بهم بسيفه حتى استشهد. (٢٥٧/٣)

وبلغ قتله محمد بن أبي بكر فتفرّق عنه أصحابه، وأقبل نحوه عمرو، وما بقي معه أحد، فخرج محمد يمشي في الطريق، فالتهمى إلى خربة في ناحية الطريق فأوى إليها، وسار عمرو بن العاص حتى دخل القسطنطينية، وخرج معاوية بن حُذَيْج في طلب محمد بن أبي بكر فالتهمى إلى جماعة على قارعة الطريق فسألهم عنه، فقال أحدهم: دخلت تلك الخربة فرأيت فيها رجلاً جالساً. فقال ابن حُذَيْج: هو هو. فدخلوا عليه فاستخرجوه وقد كساد يموت عطشاً، وأقبلوا به نحو القسطنطينية، فوثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في جنده، وقال: أنقتل أخي صبراً؟ ابعت إلى ابن حُذَيْج فأنه عنه. فبعث إليه يأمره أن يأتيه بمحمد، فقال: قتلتم كنانة بن بشر وأخطي أنا محمد؟ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القم: ٤٣]. هيهات هيهات! فقال لهم محمد بن أبي بكر: اسقوني ماء. فقال له معاوية بن حُذَيْج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً، إنكم منعمت عثمان شرب الماء والله لأتلتنك حتى يسفك الله من الحميم والغساق! فقال له محمد: يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك إليك إنما ذلك إلى الله، يسقي أوليائه ويظمي أعداءه أنت وأمثالك، أما والله لو كان مسيفي بيدي ما بلغتني مني هذا. ثم قال له: أتدري ما صانع بك؟ أدخلك جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار. فقال محمد: إن فعلت بي ذلك فلطالما تعلمت ذلك بأوليائه الله، وإنني لأرجو أن يجعلها عليك وعلى أوليائك ومعاوية وعمرو نارا تظلي كلما خبت زادها الله سعيراً. فغضب منه وقتله ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار.

فقال كعب بن مالك الأرحبيّ وقال: يا أمير المؤمنين اندب الناس، لهذا اليوم كنت أدخر نفسي. ثم قال: أيها الناس اتقوا الله وأجيبوا إمامكم وانصروا دعوته وقتلوا عدوه وأنا أمير إليه. فخرج معه القان. فقال له: مير فوالله ما أظنك تدرهم حتى ينقضي أمرهم. فسار بهم خمساً.

ثم إن الحجاج بن عروبة الأنصاري قدم من مصر فأخبره بقتل محمد بن (٣٥٩/٣) أبي بكر، وكان معه، وقدم عليه عبد الرحمن بن شبيب الفزاري من الشام، وكان عنده هناك، فأخبره أن البشارة من عمرو وردت بقتل محمد ومُلك مصر وسرور أهل الشام بقتله. فقال عليّ: أما إن حزناً عليه بقدر سرورهم به لا يل يزيد أضعافاً! فأرسل عليّ فأعاد الجيش الذي أنفذه وقام في الناس خطيباً وقال:

ألا إن مصر قد افتتحتها الفجرة أولي الجور والظلمة الذين صدوا عن سبيل الله وبقوا الإسلام عوجاً! ألا وإن محمد بن أبي بكر استشهد فعند الله نحسبه! أما والله إن كان كما علمت لميمن يتظر القضاء ويعمل للجزاء وينفض شكل الفاجر ويحبب هدى المؤمن، إني والله ما ألوم نفسي على تقصير، وإني لمقاساة

فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وقتت في دبر

واعتزل القوم. وقام عمرو بن مرحوم العبدى فقال: أيها الناس الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا تنكثوا بيعتكم فتقع بكم الواقعة. وكان عباس بن صُحار العبدى مخالفاً لقومه فسي حب عليّ فقام وقال: لننصرتك بأيدينا والستنا. فقال له المُثنى بن مُخربة العبدى: والله لئن لم ترجع إلى مكانك الذي جئتاً منه لنجاهدك بأسيافا ورماحنا ولا يفرك هذا الذي يتكلم، يعني ابن صُحار.

فقال ابن الحضرمي لصُبرة بن شُيمان: أنت ناب من أنياب العرب فانصرتني. فقال: لو نزلت في داري لنصرتك.

فلما رأى ذلك خاف فاستدعى حُصَيْن بن المنذر ومالك بن مسمع فقال: أنتم يا معشر بكر بن وائل أنصار أمير المؤمنين وتقاتله وقد كان من ابن الحضرمي ما ترون وأناه من أتاه فامنعوني حتى يأتياني أمر أمير المؤمنين. فقال حُصَيْن بن المنذر: نعم. وقال مالك وكان رايه مانلاً إلى بني أمية: هذا أمر لي فيه شركاء أستشير فيه وأنظر. فلما رأى زياد تشاقل مالك خاف أن تختلف عليه ربيعة فارسل إلى صُبرة بن شُيمان الحُدَاني الأزدي يطلب أن يُجيره. وبيت مال المسلمين. فقال: إن حملته إلى داري أجزئكما. فنقله إلى داره بالحُدان ونقل المنير أيضاً، فكان يصلي الجمعة بمسجد الحُدان ويُطعم الطعام. فقال زياد لجابر بن وهب الراسبي: يا أبا محمد إني لا أرى ابن الحضرمي يكف (٣٦٧/٣) وأراه سيقا تلکم ولا أدري ما عند أصحابك، فأنظر ما عندهم. فلما صلى زياد جلس في المسجد واجتمع الناس إليه، فقال جابر: يا معشر الأزدي إن تميمًا تزعم أنهم هم الناس وأنهم أصبر منكم عند البأس، وقد بلغني أنهم يريدون أن يسيروا إليكم ويأخذوا جاركم ويخرجوه قسراً، فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك وقد أجزتموه وبيت مال المسلمين! فقال صُبرة بن شُيمان، وكان مفخماً: إن جاء الأخنف جئت، وإن جاء حُصانهم جئت، وإن جاء شبابهم فتيان شباب.

وكتب زياد إلى عليّ بالخبر، فارسل عليّ إليه أعين بن ضبيعة المجاشعي ثم التميمي ليفرق قومه عن ابن الحضرمي، فإن امتنعوا قاتل بمن أطاعه من عصاه، وكتب إلى زياد يعلمه ذلك. فقدم أعين، فأتى زياداً، فنزل عنده، وجمع رجالاً وأتى قومه ونهض إلى ابن الحضرمي ومن معه ودعاهم، فشتموه، وواقفهم نهاره ثم انصرف عنهم، فدخل عليه قوم، قيل إنهم من الخوارج، وقيل وضعهم ابن الحضرمي على قتله، وكان معهم، فقتلوه غيلة، فلما قُتل أعين أراد زياد قتالهم، فارسلت تميم إلى الأزدي: إنا لم نعرض لجارك فما تريدون إلى جارنا؟ فكرهت الأزدي قتالهم وقالوا: إن عرضوا لجارنا منعناه.

وكتب زياد إلى عليّ يخبره خبر أعين وقلته، فارسل عليّ جارية بن قدامة السعدي، وهو من بني سعد من تميم، وبعث معه

الحروب لجدير خبير، وإني لأتقدم على الأمر وأعرف وجه الحزم وأقوم فيكم بالرأي المُصيب وأستصرحكم معلناً وأناذيكُم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي أمراً حتى تصير بي الأمور إلى عواقب المساء، فأتيت القوم لا يدرك بكم الشارب ولا تنقض بكم الأوتار، دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة فتجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق، وتشاقلتم إلى الأرض تناقل من ليست له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الأجر، ثم خرج إلي منكم جُنْد متذائب كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، فأقبل لكم! ثم نزل.

(معاوية بن حُذَيج بضم الحاء، وفتح الدال المهملتين. جارية بن قدامة بالجيم وفي آخره ياء تحتها نقطتان. يُسر بن أبي أُرطاة بضم الباء الموحدة، وسكون السين المهملة). (٣٦٧/٣)

ذكر إرسال معاوية عبد الله بن الحضرمي إلى البصرة

في هذه السنة بعد مقتل محمد بن أبي بكر واستيلاء عمرو بن العاص على مصر سَير معاوية عبد الله بن عمرو بن الحضرمي إلى البصرة وقال له: إن جُل أهلها يرون رأينا في عثمان وقد قُتلوا في الطلب بدمه، فهم لذلك حثقون يودّون أن يأتيهم من يجمعهم وينهض بهم في الطلب بثأرهم ودم إمامهم، فانزل في مَضَر وتودّد الأزدي فأنهم كلهم معك، وادع ربيعة فلن ينحرف عنك أحد سواهم لأنهم كلهم ترائية فاحذرهم.

فسار ابن الحضرمي حتى قدم البصرة. وكان ابن عباس قد خرج إلى عليّ بالكوفة واستخلف زياد بن أبيه على البصرة، فلما وصل ابن الحضرمي إلى البصرة نزل في بني تميم، فأناه العثمانيّة مسلمين عليه وحضره غيرهم، فخطبهم وقال: إن عثمان إمامكم إمام الهدى قُتل مظلوماً. قتله عليّ، فطلبت بدمه فجزاكم الله خيراً.

فقام الضحّاك بن قيس الهلالي، وكان على شرطة ابن عباس، فقال: قبح الله ما جئتنا به وما تدعوننا إليه! أتيتنا والله بمثل ما أنانا به طلحة والزبير، أتينا وقد بايعنا عليّاً واستقامت أمورنا فحملنا على الفرقة حتى ضرب بعضنا بعضاً، ونحن الآن مجتمعون على بيعته، وقد أقال العثرة، وعفا عن المسيء. أقمنا أن نتضي أسيافا ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً؟ والله ليوم من أيام عليّ خبير من معاوية وآل معاوية! فقام عبد الله بن خازم السلمي (٣٦١/٣) فقال للضحّاك: اسكت فلست بأهل أن تتكلم. ثم أقبل على ابن الحضرمي فقال: نحن أنصارك ويدك والقول قولك فاقرأ كتابك. فأخرج كتاب معاوية إليهم يذكرهم فيه آثار عثمان فيهم وحبّ العافية وسدّ غورهم ويذكر قتله ويدعوهم إلى الطلب بدمه ويضمن أنه يعمل فيهم بالسنة ويعطيهم عطائين في السنة. فلما فرغ من قراءته قام الأحنف فقال: لا ناقي في هذا ولا جملي.

لك، وذلك بعد تحكيم الحكيمين. فقال له: نكلك أمك! إذا تعصي ربك. وتكثك عهدك ولا تقصر إلا نفسك! خيبرني لم تفعل ذلك؟ قال: لأنك حكمت وضعت عن الحق، وركنت إلى القوم الذين ظلموا، فأنا عليك زار وعليهم ناقم، ولكم جميعاً مباين. فقال له علي: هلم أدارسك الكتاب وأناظرك في السن وأفاتحك أموراً أنا أعلم بها منك فلعلك تعرف ما أنت له الآن منك، قال: فلاني عائد إليك. قال: لا يستهونك الشيطان، ولا يستخفك الجهال، والله لئن استرشدتني وقبلت مني لأهديك سبيل الرشاد.

فخرج من عنده منصرفاً إلى أهله، وسار من ليته هو وأصحابه. فلما (٣٦٥/٣) سمع بمسيرهم علي قال: بعداً لهم كما بعدت ثمود! إن الشيطان اليوم استهواهم واضلهم وهو غداً متبرئ منهم. فقال له زياد بن خصفة البكري: يا أمير المؤمنين، إنه لم يعظم علينا فقدّم فتاسي عليهم، إنهم قل ما يزيدون في عدداً لو أقاموا، ولقل ما يتقصون من عدداً يخروجهم عنا، ولكننا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدمون عليك من أهل طاعتك، فأذن لي في أتباعهم حتى أردّمهم عليك. فقال: أتدري أين توجهوا؟ قال: لا، ولكني أسأل وأنبئ الأثر. فقال له: اخرج، رحمك الله، وانزل دير أبي موسى وأقم حتى يأتيك أمري، فإن كانوا ظاهرين فإن عمالي سيكتبون بخبرهم.

فخرج زياد فأتى داره وجمع أصحابه من بكر بن وائل وأعلمهم الخبر، فسار معه مائة وثلاثون رجلاً، فقال: حسبي. ثم سار حتى أتى دير أبي موسى فنزله يوماً ينتظر أمر علي، وأتى علياً كتاب من قرظة بن كعب الأنصاري يخبره أنهم توجهوا نحو يثرب، وأنهم قتلوا رجلاً من الدهاقين كان أسلم. فأرسل علي إلى زياد يأمره باتباعهم ويخبره خبرهم وأنهم قتلوا رجلاً مسلماً ويأمره بردهم إليه، فإن أبوا يناجزهم، وسر الكتاب مع عبد الله، فاستأذنه عبد الله في المسير مع زياد، فأذن له، وقال له: إني لأرجو أن تكون من أعواني على الحق وأنصاري على القوم الظالمين. قال ابن وال: فوالله ما أحب أن لي بمقاتلة تلك حُرّ النعم.

وسار بكتاب علي إلى زياد، وساروا حتى أتوا يثرب، فقبل إنهم ساروا نحو جرجاريا، فتبعوا آثارهم حتى أدركوهم بالمذار وهم نزول قد أقاموا يومهم وليلتهم واستراحوا، فأتاهم زياد وقد تقطع أصحابه وتعبوا فلما رأوهم ركبوا خيولهم، وقال لهم الخزيت: أخبروني ما تريدون. فقال له زياد، وكان مُجرباً رفيقاً: قد ترى ما بنا من التعب، والسذي جنتاك له لا يصلحه (٣٦٦/٣) الكلام علانية ولكن ننزل ثم نخلو جميعاً فتذاكر أمرنا، فإن رأيت ما جنتاك به حظاً لنفسك قبلته، وإن رأينا فيما نسمع منك أمراً نرجو فيه العافية لم نردّه عليك. قال: فانزل. فنزل زياد وأصحابه على ماء هناك وأكلوا شيئاً وعلقوا على دوابهم، ووقف زياد في خمسة فوارس

خمسین رجلاً، وقيل خمسماية من تميم، وكسب إلى زياد يأمره بمعونة جارية والإشارة عليه. فقدم جارية البصرة، فحضره زياد ما أصاب أعين، فقام جارية في الأزد فجزاهم خيراً وقال: عرفتم الحق إذ جهله غيركم. وقرأ كتاب علي إلى أهل البصرة يوبخهم ويتهددهم ويعنفهم ويتوعددهم بالمسير إليهم والإيقاع بهم وقعة تكون وقعة (٣٦٣/٣) الجمل عندها هباء. فقال صبرة بن شيمان: سمعاً لأمر المؤمنين وطاعة! نحن حرب لمن حاربه وسلم لمن سالمه. وقال أبو صفرة، والد المهلب، لزياد: لو أدركت يوم الجمل ما قاتل قومي أمير المؤمنين. وقيل: إن أبا صفرة كان توفي في مسيره إلى صفين، والله أعلم.

وصار جارية إلى قومه وقرأ عليهم كتاب علي ووعدهم، فأجابه أكثرهم، فسار إلى ابن الحضرمي ومعه الأزد ومن تبعه من قومه، وعلى خيل ابن الحضرمي عبد الله بن خازم السلمي، فافتتلوا ساعة، وأقبل شريك بن الأعور الحارثي فصار مع جارية، فانهزم ابن الحضرمي فتحصن بقصر شئيل ومعه ابن خازم، فأتته أمه عجل، وكانت حبشية، فأمرته بالنزول، فأبى، فقالت: والله لتنزلن أو لأزعن ثيابي! فنزل ونجا، وأحرق جارية القصر بمن فيه، فهلك ابن الحضرمي ويسعون رجلاً معه، وعاد زياد إلى القصر، وكان قصر شئيل لفارس قديماً وصار لسئيل السعدي، وحوله خندق، وكان فيمن احترق ذراع بن بدر أخو حارثة بن بدر؛ فقال عمرو بن العرنّس:

زدنا زياداً إلى داره وجار تميم دخلاً نقيب
لحقى الله قوماً شرواً جزاهم ولم يلفعوا عنه حرّ اللهب
في أبيات غير هذه؛ وقال جرير:

غدرتكم بالثبر فما وقيتكم وفلة الأزد إذ تمعروا زلفاً
فأصبح جازهم بنجاة عجز وجار مجاشع أسبى رماة
فلو عاقت جيل أبي سميد لناد القوم ما حمل النجاة
وأدنى الخيل من رقع المنايا وأغشاها الأسنة والصمّاة

(جارية بن قدامة بالجيم والياء تحتها نقطتان. وحارثة بن بدر بالحاء المهملة، ويغشاها ثاء مثناة. وعبد الله بن خازم بالخاء المعجمة والزاي. والمثني بن مخزبة بضم الميم، وفتح الخاء المعجمة، وكسر الراء المشددة، وآخره ياء موحدة).

ذكر خبر الخريت بن راشد وبني ناجية

قيل: وفي هذه السنة أظهر الخريت بن راشد الناجي الخلاف على علي، فجاء إلى أمير المؤمنين وكان معه ثلاثمائة من بني ناجية خرجوا مع علي من البصرة فشهدوا معه الجمل وصفين وأقاموا معه بالكوفة إلى هذا الوقت، فحضر عند علي في ثلاثين ركباً فقال له: يا علي والله لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك، وإني غداً مفارق

بين أصحابه وبين القوم، وكانوا قد نزلوا أيضاً، وقال زياد لأصحابه:

إِنْ عَدَدْنَا كَعَدَّتْهُمْ، وَارَى أَمْرُنَا يَصِيرُ إِلَى الْقِتَالِ، فَلَا تَكُونُوا أَعْجَزَ الْفَرِيقَيْنِ.

فقدم معقل الأهواز ينتظر مدد البصرة، فأبطأ عليه فسار عن الأهواز يطلب الخريّث، فلم يسرْ إلّا يوماً حتى أدركه المدد مع خالد بن معدان الطائي، فساروا جميعاً، فلحقوهم قريب جبل من جبال رامهرمز، فصَفَّ مَعْقِلُ أصحابه، فجعل على ميمته يزيد بن المَعْقِل، وعلى ميسرته وينجاف بن راشد الضبي من أهل البصرة، وصَفَّ الخريّثُ أصحابه فجعل من معه من العرب ميمنةً، ومن معه من أهل البلد والعلوج ميسرة، ومعهم الأكراد، وحرَضَ (٣٦٨/٣) كل واحد منهما أصحابه، وحرَكَ معقل رأسه مرتين ثم حمل في الثالثة، فصبروا له ساعة ثم انهزموا، فقتل أصحاب معقل منهم سبعين رجلاً من بني ناجية ومن معهم من العرب، وقتلوا نحواً من ثلاثمائة من العلوج والأكراد، وانهزم الخريّث بن راشد فلحق بأسياف البحر، وبها جماعة كثيرة من قومه، فما زال يسير فيهم ويدعوهم إلى خلاف عليّ ويُخبرهم أنّ الهُدَى في حربه حتى اتبعه منهم ناس كثير.

وأقام معقل بارض الأهواز وكتب إلى عليّ بالفتح، فقرأ عليّ الكتاب على أصحابه واستشارهم، فقالوا كلهم: نرى أن تأمر مَعْقِلًا أن يتبع آثار الفاسق حتى يقتله أو ينفيه فإننا لا نأمن أن يُفسد عليك الناس. فكتب إلى معقل يُثني عليه وعلى من معه ويأمره باتباعه وقتله أو نفيه. فسأل معقل عنه، فأخبر بمكانه بالأسياف وأنه قد رد قومه عن طاعة عليّ وأفسد من عنده من عبد القيس وسائر العرب، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صيفين وذلك العام. فسار إليهم معقل فأخذ على فارس وانتهى إلى أسياف البحر.

فلَمَّا سمع الخريّث بمسيره قال لمن معه من الخوارج: أنا على رأيكم وإن عليّاً لم ينغ له أن يحكم. وقال للآخرين من أصحابه: إنَّ عليّاً حَكَمَ ورضي فخلعه حكمه الذي ارتضاه، وهذا كان الرأي الذي خرج عليه من الكوفة وإليه كان يذهب. وقال سرّاً للعثمانيّة: إنا والله على رأيكم، قد والله قُتل عثمان مظلوماً، فأرضى كل صف منهم. وقال لمن منع الصدقة: شدوا أيديكم على صدقاتكم وصلوا بها أرحامكم. وكان فيها نصارى كثير قد أسلموا، فلَمَّا اختلف الناس قالوا: والله لدينا الذي خرجنا منه خير من دين هؤلاء، لا ينهاهم دينهم عن سفك الدماء. فقال لهم الخريّث: ويحكم! لا ينجيكم من (٣٦٩/٣) القتل إلّا قتل هؤلاء القوم والصبر فإن حكمهم فيمن أسلم ثم ارتد أن يُقتل ولا يقبلون منه توبة ولا عُذراً. فخذعهم جميعهم. وأتاه من كان من بني ناجية وغيرهم خلق كثير. فلَمَّا انتهى معقل إليه نصب راية أمان وقال: من أتاه من الناس فهو آمن إلّا الخريّث وأصحابه الذي حاربونا أوّل مرة. ففترّق عن الخريّث جُلٌّ من كان معه من غير قومه، وعبأ معقل أصحابه وزحف نحو الخريّث ومعه قومه مسلمهم ونصرانيّهم

وخرج زياد إلى الخريّث فسمعهم يقولون: جاءنا القوم وهم كالون تبعون، فتركناهم حتى استراحوا، وهذا والله سوء الرأي. فدعاه زياد وقال له: ما الذي نَقَمْتَ على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا؟ فقال: لم أرض صاحبكم إماماً ولا سيرتكم سيرة فرائت أن اعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى، فقال له زياد: وهل يجتمع الناس على رجل يداني صاحبك الذي فارقه علماً بالله وسنته وكتابه مع قربانه من الرسول ﷺ، وسابقته في الإسلام؟ فقال له: ذلك لا أقول لك. فقال له زياد: ففيم قُتِلَ ذلك الرجل المسلم؟ فقال له: ما أنا قُتِلته وإِنَّمَا قُتِلَ طائفة من أصحابي. قال: فادفعهم إلينا. قال: ما لي إلى ذلك سبيل. فدعا زياد أصحابه ودعا الخريّث أصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ تطاعنوا بالرماح حتى لم يبق رمح، وتضاربوا بالسيف حتى انحنت، وعُفِرَت عانة خيولهم، وكثرت الجراحة فيهم، وقُتل من أصحاب زياد رجلان ومن أولئك خمسة وجاء الليل فحجز بينهما، وقد كسر بعضهم بعضاً، وجرح زياد، فسار الخريّث من الليل وسار زياد إلى البصرة، وأتاهم خبر الخريّث أنه أتى الأهواز فنزل بجانب منها وتلاحق به ناس من أصحابهم فصاروا نحو مائتين، فكتب زياد إلى عليّ بخبرهم وأنه مقيم يداوي الجرحى وينتظر أمره. (٣٦٧/٣)

فلَمَّا قرأ عليّ كتابه قام إليه مَعْقِلُ بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كل واحد منهم عشرة، فإذا لحقوهم استأصلوهم وقطعوا ذابهم، فأما أن يلقاهم عددهم فلعمري ليصيرن لهم فإن العدة تضرب للعدة. فقال: تجهّز يا معقل إليهم، وتذب مع ألفين من أهل الكوفة، منهم يزيد بن المَعْقِل الأسدي. وكتب عليّ إلى ابن عباس يأمره أن يبعث من أهل البصرة رجلاً شجاعاً معروفاً بالصلاح في ألقي رجل إلى معقل وهو أمير أصحابه حتى يأتي معقلاً، فإذا لقيه كان معقل الأمير. وكتب إلى زياد بن خَصَفَةَ يشكره ويأمره بالعود.

واجتمع على الخريّث الناجي علّوج من أهل الأهواز كثير أرادوا كسر الخراج ولصوص وطائفة أخرى من العرب ترى رأيه، وطعم أهل الخراج في كسره فكسروه، وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس، وكان عاملاً لعليّ، عليها، في قول من يزعم أنه لم يمّت ستة سبع وثلاثين. فقال ابن عباس لعليّ: أنا أكفيك فارس بزياد، يعني ابن أبيه، فأمره بإرساله إليها وتعجيل تسفيره، فأرسل زياداً إليها في جمع كثير، فوطئ بلاد فارس، فأدّوا الخراج واستقاموا، وسار مَعْقِلُ بن قيس، ووصّاه عليّ فقال له: أتت الله ما استطعت، ولا تبغ على أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمّة، ولا تكبر فإن الله لا

والله لو كان ابن هند ما طالبني بها ولو كان ابن عفان لوهبها لي، ألم تره أطعم الأشعث بن قيس كل سنة من خراج إدرىجان مائة ألف؟ قال: قلت: إن هذا لا يرى ذلك الرأي ولا يترك منها شيئاً. فهرب مصقلة من ليلته فلحق بمعاوله، وبلغ علياً ذلك فقال: ما له، ترحه الله، فعل فعل السيد وفرار العبد وخان خيانة الفاجر! أما إنه لو أقام فعجز ما زدنا على حبسه، فإن وجئنا له شيئاً أخذناه وإلا تركناه. (٣٧١/٣)

ثم سار علي إلى داره فهدمها وأجاز عتق السبي وقال: اعتقهم مبتاعهم وصارت أثمانهم ديناً على معتقهم.

وكان أخوه نعيم بن هبيرة شيعه علمي، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تغلب اسمه جلولان يقول له: إن معاوية قد عدك الإمارة والكرامة فأقبل ساعة يلقاك رسولي، والسلام. فآخذه مالك بن كعب الأرحبي فسرّحه إلى علي، فقطع يده، فمات، وكتب نعيم إلى مصقلة يقول:

لا ترمين هذاك الله مُترعاً بالظن منك فما بالي وخلواتنا
ذاك الخريس على ما نال من طمع وهو البعد فلا يحزنك إن خانا
مادا أردت إلى رسالي سفهاً ترجو ميقا امرئ لم يلف زسانا
قد كنت في منظر عن ذا وستمع تحمي العراق وتُدعى خير شيانا
حي تخلصت امرأ كنت تكزفه لساكبين له سراً وإعلانا
عرصته قلبي إنه أمد يمشي العرصة من أساد خفانا
لو كنت أيت مال الأرم مضطراً للحق أحيات أحيانا وفوتانا
لكن لحقت بأهل الشام ملثماً فقل ابن هند وذاك الرأي أشجانا
فاليوم تفرغ من العجز من ندم مادا تقول وقد كئنا الذي كافا
أصبحت تبغضك الأجلة قاطبة لم يرفع الله بالبغيض إنسانا
فلما وقع الكتاب إليه علم أنه قد هلك، وأناه التغليبيون فطلبوا منه دية صاحبهم، فوداه لهم. (٣٧٢/٣)

وقال بعض الشعراء في بني ناجية:

سالككم بالخلل قوفاً عراباً اخو قوفاً ما يرخ الدعر غراباً
فصاحكم في رجليه وخيوله بضرب شري منه المتدجج هاوياً
فأصحبكم من بعد كبير ونخوة غيد النصارى لا تمنعون الذراوياً
وقال مصقلة بن هبيرة:

لعمرى لئن عاب أهل العراق علي اتعاش بنسي ناجية
لا عظم من عظيم رقبهم وكنت في معيهم ماله
وذهبت فيهم لإطلاقهم وعيالي إن القاصي غالية

ذكر أمر الحوارج بعد النهروان

لما قتل أهل النهروان خرج أشروس بن عوف الشيباني على علي بالدمكوة في مائتين ثم سار إلى الأساورة فوجّه إليه علي

ومانع الزكاة منهم. فقال الخريت لمن معه: قاتلوا عن حريمكم وأولادكم، فوالله لئن ظهروا عليكم ليقتلنكم وليستكنكم. فقال له رجل من قومه: هذا والله ما جرّته علينا يدك ولسانك. فقال: سبق السيف العذل.

وسار معقل في الناس يحرضهم ويقول: أيها الناس ما تريدون أفضل مما سبق لكم من الأجر العظيم؟ إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة، وارتدوا عن الإسلام. وبكسوا البيعة ظلماً، فأشهد لمن قتل منكم بالجنة، ومن بقي منكم فإن الله مؤثر عينه بالفتح. ثم حمل معقل وجميع من معه فقاتلوا قتالاً شديداً وصبروا له، ثم إن النعمان بن صهبان الراسبي بصر بالخريت فحمل عليه فطعنه فصرع عن دابته، ثم اختلفا ضربتين فقتله النعمان وقُتل معه في المعركة سبعون ومائة رجل وذهب الباقيون يميناً وشمالاً، وسبى معقل من أدرك من حريمهم وذرياتهم، وأخذ رجالاً كثيراً، فأما من كان مسلماً فخلّاه وأخذ بيعته وترك له عياله، وأما من كان ارتد فعرض عليهم الإسلام فرجعوا فخلّى سبيلهم وسبيل عيالهم، إلا شيئاً كثيراً نصرانياً منهم يقال له الرماحس لم يسلم فقتله، وجمع من منع الصدقة وأخذ منهم صدقة عامين، وأما النصاري وعيالهم فاحتلمهم مقبلاً بهم، وأقبل المسلمون معهم يشيعونهم، (٣٧٠/٣) فلمّا ودعوهم بكى الرجال والنساء بعضهم إلى بعض حتى رحّمهم الناس.

وكتب معقل إلى علي بالفتح، ثم أقبل بهم حتى مرّ على مصقلة بن هبيرة الشيباني، وهو عامل علي على أردشير خزه، وهم خمسمائة إنسان، فبكى النساء والصبيان وصاح الرجال: يا أبا الفضل يا حامي الرجال وماوى المعصب وفكّك العانة امن علينا واشترنا واعتقنا! فقال مصقلة: أقسم بالله لا تصدقن عليكم! إن الله يجزي المتصدقين. فبلغ قوله معقلاً فقال: والله لو أعلم أنه قالها توجعاً عليهم وإزراء علينا لضربت عنقه ولو كان في ذلك ثنائي تميم ويكر. ثم إن مصقلة اشتراه من معقل بخمسمائة ألف، فقال له معقل: عجل المال إلى أمير المؤمنين. فقال: أنا أبست الآن يبقضه ثم كذلك حتى لا يبقى منه شيء.

وأقبل معقل إلى علي فأخبره بما كان منه، فاستحسنه، وبلغ علياً أن مصقلة اعتق الأسرى ولم يسألهم أن يعينوه بشيء، فقال: ما أظن مصقلة إلا قد تحمل حمالة سترونه عن قريب منها قبلد. وكتب إليه يطلب منه المال أو يحضر عنده، فحضر عنده وحمل من المال مائتي ألف.

قال دهل بن الحارث: فاستدعاني ليلة قطعنا ثم قال: إن أمير المؤمنين يسألني هذا المال ولا أقدر عليه. فقلت: والله لو شئت ما مضيت جُمعة حتى تحمله. فقال: والله ما كنت لأحملها قومي، أما

الأبرش بن حسان في ثلاثمائة واقعه، فقتل أشرس في ربيع الآخر
سنة ثمان وثلاثين.

سنة تسع وثلاثين

ذكر سرايا أهل الشام إلى بلاد أمير المؤمنين، عليه السلام

وفي هذه السنة فرق معاوية جيوشه في العراق في أطراف
علي، فوجه النعمان بن بشير في ألف رجل إلى عين التمر وفيها
مالك بن كعب مسلحة لعل في ألف رجل، وكان مالك قد أذن
لأصحابه فاتوا الكوفة ولم يبق معه إلا مائة رجل، فلما سمع
بالنعمان كتب إلى أمير المؤمنين يخبره ويستمدّه، فخطب عليّ
الناس وأمرهم بالخروج إليه، فتأثّلوا، وواقع مالك النعمان وجعل
جدار القرية في ظهور أصحابه، وكتب مالك إلى يخف بن سليم
يستعينه، وهو قريب منه، واقتل مالك والنعمان أشد قتال، فوجه
يخف ابنه عبد الرحمن في خمسين رجلاً، فأتوا إلى مالك وقد
كسروا جفون سيوفهم واستأثّلوا، فلما رآهم أهل الشام انهزموا عند
المساء وظنوا أن لهم مدداً، وتبعهم مالك فقتل منهم ثلاثة نفر.

ولما تناقل أهل الكوفة عن الخروج إلى مالك صعد عليّ
المنبر فخطبهم ثم قال: يا أهل الكوفة كلما سمعتم بجمع من أهل
الشام اظلمكم انجح كل امرئ منكم في بيته وأغلق عليه بابه
انجحاز الضب في جحره والضع (٣٧٦/٣) في جاره، المغرور
من غرورتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب، لا أحرار عند
الدناء ولا إخوان عند النجاء إنا لله وإنا إليه راجعون! ماذا مُنيت به
منكم؟ عُمي لا يُبصرون، وبُكم لا ينطقون، وصُم لا يسمعون! إنا
لله وإنا إليه راجعون.

وجه معاوية في هذه السنة أيضاً سفيان بن عوف في سنة
آلاف رجل وأمره أن يأتي هيت فيقطعها، ثم يأتي الأنبار، والمدائن
فيوقع بأهلها. فأتى هيت فلم يجد بها أحداً، ثم أتى الأنبار وفيها
مسلحة لعل تكون خمسمائة رجل وقد تفرّقوا ولم يبق منهم إلا
ماتاً رجل، وكان سبب تفرّقهم أنه كان عليهم كميل بن زياد، فبلغه
أن قوماً بقرقيسيا يريدون الغارة على هيت فسار إليهم بغير أمير
عليّ، فأتى أصحاب سفيان وكميل غائب عنها، فأغضب ذلك عليّاً
على كميل، فكتب إليه ينكر ذلك عليه، وطعم سفيان في أصحاب
عليّ لقتلهم فقاتلهم، فصر أصحاب عليّ ثم قتل صاحبهم، وهو
أشرس بن حسان البكري، وثلاثون رجلاً، واحتملوا ما في الأنبار
من أموال أهلها ورجعوا إلى معاوية، وبلغ الخبر عليّاً فأرسل في
طلبهم فلم يذركوا.

وفيها أيضاً وجه معاوية عبد الله بن مسعدة بن تحكّم بن مالك
بن بدر الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء، وأمره أن
يصدق من مرّ به من أهل البوادي ويقتل من امتنع، ففعل ذلك،

ثم خرج هلال بن علفّة من تيم الرّباب ومعه أخوه مجالد فأتى
مأسبذان، فوجه إليه عليّ معقل بن قيس الرياحي فقتله وقتل
أصحابه، وهم أكثر من مائتين، وكان قتلهم في جمادى الأولى سنة
ثمان وثلاثين.

ثم خرج الأشهب بن بشر، وقيل الأشعث، وهو من بجيلة، في
مائة وثمانين رجلاً، فأتى المعركة التي أصيب فيها هلال وأصحابه
فصلّى عليهم ودفن من (٣٧٣/٣) قدر عليه منهم، فوجه إليهم عليّ
جارية بن قدامة السعدي، وقيل حُجر بن عدي، فأقبل إليهم
الأشهب، فاقتلا بجزجرايا من أرض جوحى، فقتل الأشهب
وأصحابه في جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين.

ثم خرج سعيد بن قفل التيمي من تيم الله بن ثعلبة في رجب
بالتّيزيحين ومعه مائتا رجل فأتى دزرجان، وهي من المدائن على
فوسخين، فخرج إليهم سعد بن مسعود فقتلهم في رجب سنة ثمان
وثلاثين.

ثم خرج أبو مريم السعدي التيمي فأتى شهرزور، وأكثر من
معه من الموالي، وقيل لم يكن معه من العرب غير مئة نفر هو
أحدهم، واجتمع معه مائتا رجل، وقيل أربعمائة، وعاد حتى نزل
على خمسة فراسخ من الكوفة، فأرسل إليه عليّ يدعوه إلى بيعته
ودخول الكوفة، فلم يفعل وقال: ليس بيننا غير الحرب. فبعث إليه
عليّ شريح بن هانئ في سبعمائة، فحمل الخوارج على شريح
وأصحابه فانكشفوا وبقي شريح في مائتين، فأنحاز إلى قرية،
فترجع إليه بعض أصحابه ودخل الباقر الكوفة، فخرج عليّ بنفسه
وقدّم بين يديه جارية بن قدامة السعدي، فدعاهم جارية إلى طاعة
عليّ وحذرهم القتل فلم يجيبوا، ولحقهم عليّ أيضاً فدعاهم فأبوا
عليه وعلى أصحابه، فقتلهم أصحاب عليّ ولم يسلم منهم غير
خمسین رجلاً استأمنوا فآمنهم. وكان في الخوارج أربعون رجلاً
جرحي، فأمر عليّ بإدخالهم الكوفة ومداواتهم حتى يبرؤوا. وكان
قتلهم في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين، وكانوا من أشجع من
قاتل من الخوارج، ولجأهم قاربوا الكوفة. (٣٧٤/٣)

ذكر عمدة حوادث

وسج بالناس في هذه السنة قثم بن العباس من قبل عليّ، وكان
عامله على مكة، وكان على اليمن عبيد الله بن عباس، وعلى
البصرة عبد الله بن عباس، وعلى خراسان خلد بن قرّة السريوعي،
وقيل كان ابن أبزي، وأما الشام ومصر فكان بهما معاوية وعمّاله.

وفي هذه السنة مات صهيب بن سنان، في قول بعضهم، وكان

شبية بن عثمان العبدري بالسَّع والطاعة، فعزم قَتَم على مفارقة مكة واللاحق ببعض شعابها ومكاتبة أمير المؤمنين بالخبر فإن أمده بالجيش قاتل الشاميين، فنهاه أبو سعيد الخدري عن مفارقة مكة وقال له: اقم فإن رأيت منهم القتال وبيك قوة فاعمل بزيك وإلا فالمسير عنها امامك. فأقام وقدم الشافيون ولم يعرضوا لقتال أحد، وأرسل قَتَم إلى أمير المؤمنين يخبره، فسار جيشاً فيهم الريان بن ضمرة بن هذلة بن علي الحنفي وأبو الطفيل أول هي الحجة، وكان قدوم ابن شجرة قبل التروية بيومين، فنادى في الناس: انتم آمنون إلا من قاتلنا ونازعنا. واستدعى أبا سعيد الخدري وقال له: إنني أريد الإلحاد في الحزم ولو شئت لفعلت لما فيه أميركم من الضعف، فقل له يعتزل الصلاة بالناس وأعتزلنا أنا وبخيار الناس رجلاً يصلي بهم. فقال أبو سعيد لقَتَم ذلك، فاعتزل الصلاة، واختار الناس شبية بن عثمان فصلى بهم وحج بهم، فلما قضى الناس حجهم رجع يزيد إلى الشام، وأقبل خيل علي فأخبروا بعود أهل الشام، فتبعوهم، وعليهم معقل بن قيس، (٣٧٩/٣) فأدركوهم وقد رحلوا عن وادي القرى، فظفروا بنصر منهم فآخذوهم أسارى وأخذوا ما معهم ورجعوا بهم إلى أمير المؤمنين، فساد بهم أسارى كانت له عند معاوية.

(الرَّهَاقِي) منسوب إلى الرَّهَاق: قبيلة من العرب، وقد ضبطه عبد الغني ابن سعيد بفتح الراء: قبيلة مشهورة، وأما المدينة فبضم الراء).

ذكر غارة أهل الشام على أهل الجزيرة

وفيها سار معاوية عبد الرحمن بن قيس بن أشيم إلى بلاد الجزيرة وفيها شبيب بن عامر جد الكرماني الذي كان بخراسان، وكان شبيب بتصيبين فكتب إلى كميل بن زياد، وهو بهيت، يُعلمه خبرهم، فسار كميل إليه نجدة له في ستماية فأسارى، فأدركوا عبد الرحمن ومعه مَن بن يزيد السلمي، فقاتلها كميل وهزمهما فغلب على عسكرهما وأكثر القتل في أهل الشام وأمر أن لا يُسعى يُدبر ولا يُجهز على جريح، وقتل من أصحاب كميل رجلان، وكتب إلى علي بالفتح فجزاه خيراً وأجابه جواباً حسناً ورضي عنه، وكان باخطاً عليه لما تقدم ذكره.

وأقبل شبيب بن عامر من نصيبين فرأى كميلاً قد أوقع بالقوم فهناه بالظفر وتابع الشاميين فلم يلحقهم فغير الفرات وبث خيله فأغارت على أهل الشام حتى بلغ بعلبك، فوجه معاوية إليه حبيب بن مسلمة فلم يدركه، ورجع شبيب فأغار على نواحي الرقة فلم يدع للعثمانية بها ماشية إلا استقاها ولا خيلاً ولا سلاحاً إلا أخذه وعاد إلى نصيبين وكتب إلى علي، فكتب إليه علي ينهيه عن أخذ أموال الناس إلا الخيل والسلاح الذي يقاتلون به وقال: رحم الله

ويبلغ مكة والمدينة وفعل ذلك، واجتمع إليه بشر كثير من قومه، وبلغ ذلك علياً فأرسل المسيب بن نجدة الفزاري في ألفي رجل، فلاحق عبد الله بتيما، فاقتتلوا حتى زالت الشمس قتالاً شديداً، وحمل المسيب على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات لا يزيد قتله (٣٧٧/٣) ويقول له: النجاة النجاة! فدخل ابن مسعدة وجماعة معه الحصن وهرب الباقر نحو الشام، وأتتهب الأعراب إيل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة، وحصره ومن معه ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب في الباب وحرقه، فلما رأوا الهلاك استرقوا عليه وقالوا: يا مسيب قومك، ففرق لهم، وأمر بالنار فأطفئت، وقال لأصحابه: قد جاءني عيوني فأخبروني أن جنداً قد أتاكم من الشام. فقال له عبد الرحمن بن شبيب: سرخني في طلبهم، فأبى ذلك عليه، فقال: غششت أمير المؤمنين وذهنت في أمرهم.

وفيها أيضاً وجه معاوية الضحاك بن قيس وأمره أن يمر بأسفل واقصة ويُغير على كل من مر به ممن هو في طاعة علي من الأعراب، وأرسل ثلاثة آلاف رجل معه، فسار الناس، وأخذ الأموال ومضى إلى الثعلبية، وقتل وأغار على مسلحة علي، وانتهى إلى القطفانة. فلما بلغ ذلك علياً أرسل إليه حُجر بن عدي في أربعة آلاف وأعطاهم خمسين درهماً وخمسين درهماً، فلحق الضحاك بتدمر فقتل منهم تسعة عشر رجلاً، وقتل من أصحابه رجلان، وحجز بينهما الليل، فهرب الضحاك وأصحابه ورجع حُجر ومن معه.

وفي هذه السنة سار معاوية بنفسه حتى شارف دجلة ثم نكص راجعاً.

واختلف فيما بين حج [بالناس] هذه السنة، فقيل: حج بالناس عبيد الله بن عباس من قبل علي، وقيل: بل حج عبد الله أخوه، وذلك باطل، فإن عبد الله بن عباس لم يحج في خلافة علي، وإنما كان على هذه السنة على الحج عبيد الله بن عباس، ويحدث معاوية يزيد بن شجرة الزهراوي، فاختلف عبيد الله ويزيد بن شجرة واتفقا على أن يحج بالناس شبية بن عثمان، وقيل: إن الذي حج من جانب علي قَتَم بن العباس، وكان عمال علي على البلاد من تقدم ذكرهم. (٣٧٨/٣)

ذكر مسير يزيد بن شجرة إلى مكة

وفي هذه السنة دعا معاوية يزيد بن شجرة الزهراوي، وهو من أصحابه، فقال له: إنني أريد أن أوجهك إلى مكة لتقيم للناس الحج وتأخذ لي البيعة بمكة وتنفني عنها عامل علي.

فأجابه إلى ذلك وسار إلى مكة في ثلاثة آلاف فارس وبها قَتَم بن العباس عامل علي، فلما سمع به قَتَم خطب أهل مكة وأعلمهم بمسير الشاميين ودعاهم إلى حربهم، فلم يجيبوه بشيء، وأجابه

شيباً، لقد أبعد الغارة وعجل الانتصار. (٣٨٠/٣)

ذكر ولاية زياد بن أبيه بلاد فارس

وفي هذه السنة ولّى عليّ زياداً كرمان وفارس.

ذكر غارة الحارث بن نمر التوخي

ولما قدم يزيد بن شجرة على معاوية وجّه الحارث بن نمر التوخي إلى الجزيرة ليأتيه بمن كان في طاعة عليّ، فآخذ من أهل دارا سبعة نفر من بني تغلب، وكان جماعة من بني تغلب قد فارقوا عليّاً إلى معاوية، فسألوه في إطلاق أصحابهم فلم يفعل، فاعتزلوه أيضاً، وكتب معاوية إلى عليّ ليفاديه بمن أسر معقل بن قيس من أصحاب يزيد بن شجرة، فسيرهم عليّ إلى معاوية، وأطلق معاوية هؤلاء، وبعث عليّ رجلاً من خضم يقال له عبد الرحمن إلى ناحية الموصل ليُسكن الناس، فلقبه أولئك التغليبيون الذي اعتزلوا معاوية وعليهم قريع بن الحارث التغليبي، فشامتوا ثم اقتتلوا فقتلوه، فأراد عليّ أن يوجّه إليهم جيشاً، فكلمته ربيعة وقالوا: هم معتزلون لعدوك داخلون في طاعتك وإنما قتلوه خطأ. فأمسك عنهم.

ذكر أمر ابن العُشبة

بعث معاوية زهير بن مكحول العامري من عامر الأجدار إلى السماوة وأمره أن يأخذ صدقات الناس، وبلغ ذلك عليّاً فبعث ثلاثة نفر: جعفر بن عبد الله الأشجعي، وعروة بن العشة والجلاس بن عُمير الكلبيين، ليصدّقوا من في طاعته من كلب وبكر بن وائل، فوافوا زهيراً فاقتتلوا، فانهزم أصحاب عليّ وقتل جعفر بن عبد الله ولحق ابن العشة بعليّ، فعنفه وعلاه بالذرة، فغضب ولحق بمعاوية، وكان زهير قد حمل ابن العشة على فرس فلذلك اتهمه. وأمّا الجلاس فإنه مرّ براع فآخذ جيّته وأعطاه جيّة خزّ، فأدرسته الخيل، فقالوا: أين أخذ هؤلاء الترابيون؟ فأشار إليهم: أخذوا هاهنا، ثم أقبل إلى الكوفة. (٣٨١/٣)

ذكر أمر مسلم بن عقبة بدومة الجندل

وبعث معاوية مسلم بن عقبة المرّي إلى دومة الجندل، وكان أهلها قد امتنعوا من بيعة عليّ ومعاوية جميعاً، فدعاهم إلى طاعة معاوية وبيعته، فامتنعوا، وبلغ ذلك عليّاً فسير مالك بن كعب الهمداني في جمع إلى دومة الجندل، فلم يشعر مسلم إلا وقد وافاه مالك، فاقتلوا يوماً ثم انصرف مسلم منهزماً وأقام مالك أياماً يدعو أهل دومة الجندل إلى البيعة لعليّ فلم يفعلوا، وقالوا: لا نبايع حتى يجتمع الناس على إمام. فانصرف وتركهم.

وفيها توجه الحارث بن مُسرة العبدي إلى بلاد السند غازياً متطوعاً بأمر أمير المؤمنين عليّ، فغنم وأصاب غنائم وسيياً كثيراً، وقسم في يوم واحد ألف راس وبقي غازياً إلى أن قُتل بأرض القيقان هو ومن معه إلا قليلاً سنة اثنتين وأربعين أيام معاوية.

وسبب ذلك أنه لما قُتل ابن الحضرمي واختلف الناس على عليّ طمع أهل فارس وكرمان في كسر الخراج، فطمع أهل كل ناحية وأخرجوا عاملهم، وأخرج أهل فارس سهل بن حنيف، فاستشار عليّ الناس فقال له جارية بن قدامة: ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأي عالم بالسياسة كافٍ؟ (٣٨٢/٣) لمّا سألوا: قال: من هو؟ قال: زياد. فأمر عليّ ابن عباس أن يولّي زياداً، فسيره إليها في جمع كثير، فوطئ بهم أهل فارس، وكانت قد اضطربت، فلم يزل يبعث إلى رؤوسهم يعد من ينصره ويمنيه ويخوف من امتنع عليه، وضرب بعضهم ببعض، فدلّ بعضهم على عورة بعض، وهربت طائفة، وأقامت طائفة، فقتل بعضهم بعضاً، وصفت له فارس ولم يلق منهم جمعاً ولا حرباً، وفعل مثل ذلك بكرمان. ثم رجع إلى فارس وسكن الناس واستقامت له، ونزل إصطخر، وحصّن قلعة تسمى قلعة زياد قريب إصطخر، ثم تحصّن فيها بعد ذلك منصور الشكري، فهي تسمى قلعة منصور. وقيل [إن] ابن عباس أشار بولايته، وقد تقدّم ذكره.

وفيها مات أبو مسعود الأنصاري البديري، وقيل في أوّل خلافة معاوية، وقيل غير ذلك، ولم يشهد بدرأ وإنما قيل له بدري لأنه نزل ماء بدر، وانقرض عقبه. (٣٨٣/٣)

سنة أربعين

ذكر سرية بُسر بن أبي أرتاة إلى الحجاز واليمن

في هذه السنة بعث معاوية بُسر بن أبي أرتاة، وهو من عامر بن لؤي، في ثلاثة آلاف، فسار حتى قدم المدينة، وبها أبو أيوب الأنصاري عامل عليّ عليها، فهرب أبو أيوب فأتى عليّاً بالكوفة، ودخل بُسر المدينة ولم يقاتله أحد، فصعد منبرها فنادى عليه: يا دينار يا نجار يا رزّيق! وهذه بطون من الأنصار، شيخي شيخي عهدته هاهنا بالأمس فأين هو؟ يعني عثمان. ثم قال: واللّه لولا ما عهد إليّ معاوية ما تركتُ بها محتملاً، فأرسل إلى بني سَلَمَة فقال: واللّه ما لكم عندي أمان حتى تأتوني بجابر بن عبد الله! فانطلق جابر إلى أم سَلَمَة زوج النبي ﷺ، فقال لها: ماذا تريد؟ إن هذه بيعة ضلالة وقد خشيتُ أن أقتل. قالت: أرى أن تباع فإني قد أمرتُ ابني عمر وختي ابن زَمْعَة أن يبايعا، وكانت ابنتها زينب تحت ابن زَمْعَة، فأتاه جابر فبايعه.

وهدم بالمدينة دوراً ثم سار إلى مكّة، فخاف أبو موسى الأشعري أن يقتله فهرب منه، وأكره الناس على البيعة، ثم سار إلى اليمن، وكان عليها عبيد الله بن عباس عاملاً لعليّ، فهرب منه إلى

حتى مات.

ولما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه عبيد الله بن عباس وعنده بسر فقال لبسر: وددت أن الأرض أتيتني عندك حين قتلت ولدي. فقال لبسر: هاك سيفي. فاهوى عبيد الله ليتناوله فأخذه معاوية وقال لبسر: أخزلك الله شيخاً قد خرفت! والله لو يمكن منه لبدأ بي! قال عبيد الله: أجل، ثم ثبّت به.

(سليمة، بكسر اللام: بطن من الأنصار).

وقيل: إن مسير بسر إلى الحجاز كان سنة اثنتين وأربعين، فأقام بالمدينة شهراً يستعرض الناس لا يقال له عن أحد إنه شرك في دم عثمان إلا قتله.

وفيها جرت مهادنة بين علي ومعاوية بعد مكاتبات طويلة على وضع الحرب، ويكون لعلي العراق وللمعاوية الشام لا يدخل أحدهما بلد الآخر بغارة. (٣٨٦/٣)

(بسر بضم الباء الموحدة، والسين المهملة. رُزِقَ، بالزاي والراء: قبيلة من الأنصار أيضاً. وجارية بالجميم والراء).

ذكر فراق ابن عباس البصرة

في هذه السنة خرج عبد الله بن عباس من البصرة ولحق بمكة في قول أكثر أهل السير، وقد أنكر ذلك بعضهم وقال: لم يزل عاملاً عليها لعلي حتى قتل علي، وشهد صلح الحسن مع معاوية ثم خرج إلى مكة. والأول أصح. وإنما كان الذي شهد صلح الحسن عبيد الله بن عباس.

وكان سبب خروجه أنه مرّ بابي الأسود فقال: لو كنت من البهائم لكنت جملًا، ولو كنت راعياً لما بلغت المرعى. فكتب أبو الأسود إلى علي: أما بعد فإن الله عز وجل جعلك والياً مؤتمناً وراعياً مستولياً، وقد بلونك فوجدناك عظيم الأمانة، ناصحاً للرعية، توفّر لهم فيهم، وتكفّ نفسك عن دنياهم، ولا تأكل أموالهم، ولا ترتشي في أحكامهم، وإن ابن عمك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك، ولم يسمعي كتمانك، رحمك الله، فانظر فيما هناك، واكتب إليّ براك فيما أحببت، والسلام.

فكتب إليه علي: أما بعد فمهلك نصيح الإمام والأمة والوالى على الحق، وقد كتبت إلى صاحبك فيما كتبت إليّ، ولم أعلمه بكتابك، فلا تدع إعلامي بما يكون يحضرتك مما النظر فيه صلاح للأمة، فإنك بذلك جدير، وهو حق واجب عليك، والسلام.

وكتب إلى ابن عباس في ذلك، فكتب إليه ابن عباس: أما بعد فإن الذي بلغك باطل، وإني لما تحت يدي لضابط وله حافظ، فلا تصدّق الظنين، (٣٨٧/٣) والسلام. فكتب إليه علي: أما بعد فأعلمني

علي بالكوفة، واستخلف علي [علي] اليمن عبد الله بن عبد المطلب الحارثي، فأتاه بسر فقتله وأخذ ابنه وأخذ ابنين لعبيد الله بن عباس صغيرين هما: عبد الرحمن وقثم فقتلهما، وكانا عند رجل من كنانة بالبادية، فلما أراد قتلهما قال له الكناني: لم تقتل هذين ولا (٣٨٤/٣) ذنب لهما؟ فإن كنت قاتلهما فاقتلني معهما! فقتله وقاتلهما بعده. وقيل إن الكناني أخذ سيفه وقاتل عن الغلامين وهو يقول:

الليث من يمنع حافيات الدار ولا يزال مصلاً دون الجار
وقاتل حتى قتل. وأخذ الغلامين فدفعهما. فخرج نسوة من بني كنانة فقالت امرأة منهن: يا هذا! قتلت الرجال فعلام تقتل هذين؟ والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية والإسلام! والله يا ابن أبي أرتاة إن سلطاناً لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء!

وقتل بسر في مسيره ذلك جماعة من شيعة علي باليمن، وبلغ علياً الخبر فأرسل جارية بن قدامة السعدي في الفين، ووهب بن مسعود في الفين، فسار جارية حتى أتى نجران فقتل بها فاساً من شيعة عثمان، وهرب بسر وأصحابه منه، واتبه جارية حتى أتى مكة فقال: يايعوا أمير المؤمنين. فقالوا: قد هلك فلمن نبايع؟ قال: لمن بايع له أصحاب علي. فبايعوا خوفاً منه.

ثم سار حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلي بالناس، فهرب منه فقال جارية: لو وجدت أبا سبّور لقتلته. ثم قال لأهل المدينة: يايعوا الحسن بن علي، فبايعوه، وأقام يومه، ثم عاد إلى الكوفة ورجع أبو هريرة يصلي بهم.

وكانت أم ابني عبيد الله أم الحكم جويرة بنت خويلد بن قارظ، وقيل: عائشة بنت عبد الله بن عبد المطلب. فلما قتل ولداهما ولّكت عليهما، فكانت لا تعقل ولا تصفي ولا تنزال تشلعهما في المواسم فتقول:

يا مَنْ أَحْسَنَ بُيُوتِي اللَّذَيْنِ هُمَا كَالذُّرْتَيْنِ تَشْطَى عَنْهُمَا الصَّلَفُ
يا مَنْ أَحْسَنَ بُيُوتِي اللَّذَيْنِ هُمَا مَخُ الْعِظَامِ فَمَخِي الْيَوْمَ مُزْعَفُ

يا مَنْ أَحْسَنَ بُيُوتِي اللَّذَيْنِ هُمَا قَلْبِي وَسَمْعِي، قَلْبِي الْيَوْمَ مَخْطَفُ
مَنْ ذَاكَ وَالْهَوَى خَيْرُ مُدْلَهَةِ عَلَى صَيْنٍ ذَلَّ إِذْ غَدَا السَّلَفُ
بُئِيتُ بِسُرٍّ وَمَا صَنَعْتُ مَا زَعَمُوا مِنْ إِفْكَهِمْ وَمَنْ الْقَوْلَ الَّذِي اقْتَرَفُوا
أَحْسَى عَلَى وَدَجْنِي ابْنِي مُرْفَقَةَ مَنْ الشَّفَارِ، كَذَاكَ الْإِسْمُ يُقْتَرَفُ

وهي أبيات مشهورة، فلما سمع أمير المؤمنين بقتلهما جزع جزعاً شديداً ودعا على بسر فقال: اللهم اسلبه دينه وعقله! فأصابه ذلك وفقد عقله فكان يهذي بالسيف ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ويُجعل بين يديه رق مفوخ فلا يزال يضربه، ولم يزل كذلك

ما أخذت من الجزية ومن ابن أخذت وفيما وضعت. فكتب إليه ابن عباس: أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بملك، إني رزائه من أهل هذه البلاد، فابعث إلى عملك من أحببت فإني طاعن عنه والسلام.

واستدعى أخواله من بني حلال بن عامر، فاجتمعت معه قيس كلها، فحمل مالا وقال: هذه أرزاقنا اجتمعت فتبعه أهل البصرة فلمحقوه بالطف يريدون أخذ المال، فقالت قيس: والله لا يوصل إليه وفيما عين تطرف! فقال صبرة بن شيمان الحداني: يا معشر الأزدي إن قيسا إخواننا وجيراننا وأعاوننا على العدو، وإن الذي يصيبكم من هذا المال لقليل وهم لكم خير من المال. فطاعوه فانصرفوا وانصرف معهم بكر وعبد القيس، وقتلهم بنو تميم، فنهاهم الأحنف، فلم يسمعوا منه، فاعتزلهم وحجز الناس بينهم، ومضى ابن عباس إلى مكة.

ذكر مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السلام

وفي هذه السنة قُتل علي في شهر رمضان لسبع عشرة خلت منه، وقيل: لإحدى عشرة، وقيل: لثلاث عشرة بقيت منه، وقيل: في شهر ربيع الآخر سنة أربعين. والأول أصح.

قال أنس بن مالك: مرض علي فدخلت عليه وعنده أبو بكر وعمر فجلست عنده، فأثاء النبي ﷺ، فنظر في وجهه فقال له أبو بكر (٣٨٨/٣) وعمر: يا نبي الله ما نراه إلا ميتا. فقال: لن يموت هذا الآن ولن يموت حتى يملا غيظا ولن يموت إلا مقتولا.

وقيل من غير وجه: إن عليا كان يقول: ما يمنع أشقاكم أن يخضب هذه من هذه؟ يعني لحيته من دم رأسه.

وقال عثمان بن المغيرة: كان علي لما دخل رمضان يتعشى ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند أبي جعفر لا يزيد على ثلاث لقم، يقول: أحب أن يأتيني أمر الله وأنا خفيض، وإنما هي ليلة أو ليلتان، فلم تمض ليلة حتى قُتل.

وقال الحسن بن كثير عن أبيه قال: خرج علي من الفجر فأقبل الإور يصرح في وجهه فطردوه عن عنده، فقال: ذروهم فإنهم نوائح، فضربه ابن ملجم في ليلته.

وقال الحسن بن علي يوم قُتل علي: خرجت البارحة وأبي يصلي في مسجد داره فقال لي: يا بني إني بت أوقظ أهلي لأنها ليلة الجمعة صبيحة بدر، فملكتني عيناي فتمت فسبح لي رسول الله، ﷺ، فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأزد واللذذ؟ قال: والأود الوجع، واللذذ الخصومات. فقال لي: ادع عليهم. فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير منهم، وأبدلهم بي من هو شر مني! فجاء ابن النجاشي فأذنه بالصلاة، فخرج وخرجت خلفه،

فتعاهدوا أن لا ينكس أحدهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، وأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان، وقصد كل رجل منهم الجهة التي يريد؛ فأتى ابن ملجم الكوفة، فلقي أصحابه بالكوفة وكنهم أمره، ورأى يوما أصحابا له من تيم الرباب، وكان علي قد قتل منهم يوم النهر عذبة، فتذكروا قتلى النهر، ولقي معهم امرأة من تيم الرباب اسمها قطام وقد قُتل أبوها وأخوها يوم النهر، وكانت فائقة الجمال. فلما رآها أخذت قلبه فخطبها. فقالت: لا أتزوجك حتى تستفي لي. فقال: وما تريدني؟ قالت: ثلاثة آلاف وعبدًا وقبنة وقتل علي. فقال: أما قتل علي؟ فما أراك ذكركه وأنت تريدني. قالت: بلى، التمس غرته فإن أصبته شفيت نفسك ونفسي ونفك العيش معي، وإن قُلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها. قال: والله ما جاء بي إلا قتل علي، فلك ما سألت. قالت: سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك. وبعثت إلى رجل من قومها اسمه وردان وكلمته، فأجابها، وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع اسمه شبيب بن بجرزة فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وماذا؟ قال: قتل علي. قال شبيب: نكثت أمتك! لقد جئت شيئا إذا كيف تقدر على قتله؟ قال: (٣٩٠/٣) أكنم له في المسجد فإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا فقد شفيتم أنفسنا، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها. قال: ويحك! لو كان غير علي كان أهون، قد عرفت سابقته وفضله وبلاءه في الإسلام، وما أجدني أنشرح لقتله. قال: أما تعلمه قتل أهل النهر العباد الصالحين؟ قال: بلى. قال: فقتله بمن قتل من أصحابنا. فأجابه.

فلما كان ليلة الجمعة، وهي الليلة التي واعد ابن ملجم أصحابه على قتل علي وقتل معاوية وعمرو، أخذ سيفه ومعه شبيب ووردان وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي للصلاة، فلما خرج علي نادى: أيها الناس الصلاة الصلاة. فضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب، وضربه ابن ملجم على قرنه بالسيف،

وقال: الحكم لله لا لسك يا علي! ولا لأصحابك! وهرب وردان فدخل منزله، فأتاه رجل من أهله، فأخبره وردان بما كان، فأنصرف عنه وجاء بمنيفه فضرب به وردان حتى قتله، وهرب شبيب فني الغلس، وصاح الناس، فلحقه رجل من حضرموت يقال له عويمر، وفي يده شبيب السيف، فأخذه وجلس عليه، فلما رأى الحضرمي الناس قد أقبلوا في طلبه وسيف شبيب في يده خشي على نفسه فتركه ونجا، وهرب شبيب في غمار الناس.

وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، وكفن في ثلاثة أبواب ليس فيها قميص، وكبر عليه الحسن سبع تكبيرات.

فلما قبض بعث الحسن إلى ابن ملجم فأحضره، فقال للحسن: هل لك في حيلة؟ إني والله قد أعطيت الله عهداً لمن لا أعاهد عهداً إلا وفيت به، وإني عاهدت الله عند الخطيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما، فإن شئت خليت بيني وبينه فلك الله علي إن لم أقتله أو قتله ثم بقيت أن أتيتك حتى أضع يدي في يدك. فقال له الحسن: لا والله حتى تعانين النار. ثم قدّمه فقتله، وأخذته الناس فادجوه في بوارى ولجروه بالنار.

قال عمرو بن الأصم: قلت للحسن بن علي: إن هذه الشيعة تزعم أن علياً مبعوث قبل القيامة! فقالت كذبا والله هؤلاء الشيعة، لو علمنا أنه مبعوث قبل القيامة ما زوجنا نساءه ولا قسمنا ماله، أما قوله: هذه الشيعة، فلا شك (٣٩٢/٣) أنه يعني طائفة منها، فإن كل شيعة لا تقول هذا إنما تقول طائفة يسيرة منهم، ومن مشهوري هذه الطائفة: جابر بن يزيد الجعفي الكوفي، وقد انقرض القائلون بهذه المقالة فيما نعلمه.

(بجزة يفتح الباء والجيم. ولا يرك يضم الباء الموحدة، وفتح الراء، وآخره كاف).

وأما البرك بن عبد الله فإنه بعد معاوية في تلك الليلة التي ضرب فيها علي، فلما خرج معاوية ليصلي الغداة شد عليه بالسيف، فوقع السيف في آية، فأخذ، فقال: إن عندي خبراً أسرك به، فإن أخبرتك فنافعي ذلك [عندك]؟ قال: نعم. قال: إن أحس لي قد قتل علياً هذه الليلة. قال: فلعله لم يقد على ذلك. قال: بلى، إن علياً ليس معه أحد يحرسه. فأمر به معاوية فقتل.

وبعث معاوية إلى الساعدي، وكان طبيباً، فلما نظر إليه قال: اختر! إما أن أحمي حديدة فاضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها، فإن ضربتكم مسمومة. فقال معاوية: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني. فسقاه شربة فبرأ ولم يولد له بعدها.

وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد، وهو أول من عملها في الإسلام. وقيل: إن معاوية لم يقتل البرك وإنما أمر فقطعت يده ورجله وبقي إلى أن ولي زياد البصرة، وكان البرك قد صار إليها وولد له، فقال له زياد: يولد لك وتركت أمير المؤمنين لا يولد له؟ فقتله وصلبه. (٣٩٤/٣)

وقال: الحكم لله لا لسك يا علي! ولا لأصحابك! وهرب وردان فدخل منزله، فأتاه رجل من أهله، فأخبره وردان بما كان، فأنصرف عنه وجاء بمنيفه فضرب به وردان حتى قتله، وهرب شبيب فني الغلس، وصاح الناس، فلحقه رجل من حضرموت يقال له عويمر، وفي يده شبيب السيف، فأخذه وجلس عليه، فلما رأى الحضرمي الناس قد أقبلوا في طلبه وسيف شبيب في يده خشي على نفسه فتركه ونجا، وهرب شبيب في غمار الناس.

ولما ضرب ابن ملجم علياً قال: لا يفوتكم الرجل، فشد الناس عليه فأخذوه، وتأخر علي وقدم جعدة بن هبيرة، وهو ابن أخته أم هانئ، يصلي بالناس الغداة، وقال علي: أحضروا الرجل عندي. فأدخل عليه. فقال: أي عدو الله! ألم أحسن إليك؟ قال: بلى. قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه. فقال لعلي: لا أراك إلا مقتولاً به ولا أراك إلا من شر خلق الله. ثم قال: النفس بالنفس، (٣٩١/٣) إن هلك فاقتلوه كما قتلتني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي، يا بني عبد المطلب لا أفنيكم نخوضون دماء المسلمين تقولون قد قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتل إلا قاتلي، انظر يا حسن إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.

هذا كله وابن ملجم مكتوف. فقالت له أم كلثوم ابنة علي: أي عدو الله! لا بأس على أبي، والله مخزيك! قال: فعلى من تبيكين؟ والله إن سيفي اشتريته بالثمن، وسممته بالثمن، ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقي منهم أحد.

ودخل جذب بن عبد الله على علي فقال: إن قدناك، ولا نفقدك، فنباع الحسن؟ قال: ما أكرمكم ولا أنهاركم، أنتم أبصر. ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما: أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بختكما، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما، وقولا الحق، وارحموا البيتم، وأعين الضائع، واصنعوا للأخرة، وكونوا للظالم خصيماً، وللمظلوم ناصراً، واعملوا بما في كتاب الله ولا تأخذكم في الله لومة لائم. ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال: هل حفظت ما أوصيت به أخوتك؟ قال: نعم. قال: فإني لأوصيك بمثل ما أوصيك بتوفير أخوتك لعظيم حقهما عليك فاتبع أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما. ثم قال: أوصيكما به، فإنه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أبابا كان يحبه. وقال للحسن: (٣٩٢/٣) أوصيك أي بني بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء، فإنه لا صلاة إلا بطهور، وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عن الجاهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش.

وأما عمرو بن بكر فإنه جلس لعمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج، وكان اشتكى بطنه، فأمر خارجة بن أبي خبيصة، وكان صاحب شرطته، وهو من بني عامر بن لؤي، فخرج ليصلي بالناس، فشذ عليه وهو يرى أنه عمرو بن العاص، فضربه فقتله، فأخذه الناس إلى عمرو فسلّموا عليه بالإمرة. فقال: مَنْ هذا؟ قالوا: عمرو. قال: مَنْ قتلته؟ قالوا: خارجة. قال: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك! فقال عمرو: أردتني وأراد الله خارجة. فقدمه عمرو فقتله.

قال: ولما بلغ عائشة قتل علي قالت:

فألفت عصاه واستقر بها النوى كما قرع عينا بالإياب الميسافر
ثم قالت: مَنْ قتلته؟ فقيل: رجل من مراد، فقالت:

فإن يك نائياً فلقد نده نعي ليس في فيه التراب
فقال زينب بنت أبي سلمة: أتقولين هذا لعلّي؟ فقالت: إنني أنسى فإذا نسيت فذكروني؛ وقال ابن أبي ميثاس المرادي:

نحن ضربنا، يا لك الخير، حيدرا أبا حسن مائة ففطرنا
ونحن خلعنا ملكة من نظايرو بضرة سيف إذ غلا وتجنبرنا
ونحن كرام في الصباح أجزة إذا المرء بالموت ارتدى وتأزرا

وقال أيضاً: (٣٩٥/٣)

ولم أزمهراً ساقه ذو سملحة كنهز قطام بين عزرب ومعجم
ثلاثة الأفر وعبد وقينة وضرب علي بالخصام المصمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا تنك إلا مون فلك ابن ملجم

وقال أبو الأسود الدؤلي في قتل علي:

ألا ابلغ معاوية بن خزرب فلا قرنت غيور الثابتين
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً اجتماعين
قتلتم خير من ركب المطايا ورخلها ومن ركب السفين
ومن لبس الثعالب ومن حافها ومن قنر القشاني والدين
إذا استقبلت وجه أبي حسين رايبت الجدر واغ الناظرين
لقد علمت فرمض حيث كانت بأنك خير ما حباً ودين

وقال بكر بن حنادة الباهري:

قل لا بين ملجم والأندلس غالبه: هتعت للدين والإسلام أركانها
قلت أفضل من يمشي على قدم وأعظم الناس إسلاماً وإيماناً
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما سن الرسول لنا شرعاً وتياناً
صهر النبي ومولاه وناصره أضحت ثمانية نورا ووزاناً
وكان منه على رغم الحسود له مكان هارون من موسى بن عمران
ذكرت قاتله والتمتع منحدر قلت سبحان رب العرش سبحان
إني لأحسبه ما كان من أنس كلاً ولكنك قد كان شيطاناً

(٣٩٦/٣)

قد كان يخبرهم [هنا] بمقتله قبل المنيّة أزماناً فازماناً
فلا غفا الله عنه سوة فقلته ولا سقى قبر عمران بن حطان
يا ضربة من شقي ما أرادها إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً
بل ضربة من غوي أوردته لقي وسوف يلقي بها الرحمن غضباناً
كأنه لم ير ضربة فصد بضربه إلا ليملأ عذاب الخلد نيراناً

ذكر مدة خلافته ومقدار عمره

وقد قال بعضهم: كانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة، وقيل: كان عمره تسعاً وخمسين، وقيل: خمساً وستين، وقيل: ثمانياً وخمسين. والأول أصح. ولما قُتل دُفن عند مسجد الجماعة، وقيل: في القصر، وقيل خير ذلك. والأصح أن قبره هو الموضع الذي يُزار ويُتبرك به.

ذكر نسبه وصفته ونسائه وأولاده

كان آدم شديد الأدمة، ثقيل العينين عظيمهما، ذا بطن، أصلع، عظيم اللحية، كثير شعر الصدر، هو إلى القصر أقرب، وقيل: كان فوق الربيعة، وكان ضخم عضلة الذراع، دقيق مستدقها، ضخم عضلة الساق، دقيق (٣٩٧/٣) مستدقها، وكان من أحسن الناس وجهاً، ولا يُغيّر شيبه، كثير التبسم.

وأما نسبه فهو علي بن أبي طالب، واسم أبي طالب عيد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، أبواه هاشميان، ولم يل الخلافة إلى وقتنا هذا من أبواه هاشميان غيره، وغير الحسن ولده، ومحمد الأمين، فإن أباه هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور.

وأما أزواجه فأول زوجة تزوجها فاطمة بنت رسول الله، ﷺ، لم يتزوج عليها حتى توفيت عنده، وكان له منها الحسن والحسين، وقد ذكر أنه كان له منها ابن آخر يقال له مُحسن وأنه توفي صغيراً، وزينب الكبرى، وأم كلثوم الكبرى. ثم تزوج بعدها أم البنين بنت حرام الكلابية، فولدت له العباس وجعفر وأبي عبد الله وعثمان، وقتلوا مع الحسين بالطف ولا بقية لهم غير العباس؛ وتزوج ليلي بنت مسعود بن خالد النهلوية التميمية، فولدت له عبيد الله وأبا بكر، قتلا مع الحسين، وقيل: إن عبيد الله قتله المختار بالمدار، وقيل: لا بقية لهما. وتزوج أسماء بنت عيسى المخزومية، فولدت له محمداً الأصغر ويحيى، ولا عقب لهما، وقيل: إن محمداً لأم ولد، وقتل مع الحسين، وقيل: إنها ولدت له عوناً، وله من الصبيان بنت ربيعة التغلبية، وهي من السبي الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر، وولدت له عمر بن علي، ورقية بنت علي، فعمّر عمر حتى بلغ خمساً وثمانين سنة، فحاز نصف ميراث علي، ومات يتيماً. وتزوج علي أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، وأمها زينب بنت رسول الله، ﷺ، فولدت له محمداً الأوسط، وله محمد (٣٩٨/٣) ابن علي الأكبر الذي يقال له

ابن الحنفية، أمه خولة بنت جعفر من بني حنيفة. وتزوج علي أيضاً أم سعيد ابنه غزوة بن مسعود الثقفي، فولدت له أم الحسن ورملة الكبرى، وأم كلثوم، وكان له بنات من أمهات شتى لم يذكرن لئلا، منهن أم هانئ، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى، وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونفيسة، كلهن من أمهات أولاد. وتزوج أيضاً مخابة بنت امرئ القيس بن عدي الكلبية، فولدت له جارية هلكت صغيرة، كانت تخرج إلى المسجد فيقال لها: من أخوالك؟ فيقول: وه وه، تعني كلباً.

وقال هارون بن عترة عن أبيه: دخلت على علي بالخزائن وهو فصل (٤٠٠/٣) شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يزعد فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال: والله ما أرزأكم شيئاً وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة.

وقال يحيى بن سلمة: استعمل علي عمرو بن سلمة على أصبهان فقدم ومعه مال وزقاق فيها حسل وسمن فأرسلت أم كلثوم بنت علي إلى عمرو تطلب منه سمناً وعسلًا، فأرسل إليها ظرف صقل وظرف سمن. فلما كان الغد خرج علي وأحضر المال والعسل والسمن ليقسم، فعذ الزقاق فقضت زقين، فسأله عنهما، فكتمه وقال: نحن نحضرهما، فعزم عليه إلا ذكرها له، فأخبره، فأرسل إلى أم كلثوم فأخذت الزقين منها فأرهما قد نقصا فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما، فكان ثلاثة دراهم، فأرسل إليها فأخذها منها ثم قسم الجميع.

قيل: وخرج من همدان فرأى رجلين يقتلان ففرق بينهما ثم مضى، فسمع صوتاً: يا غوثاً بالله! فخرج يحضر نحوه وهو يقول: أذاك الغوث. فإذا رجل يلزم رجلاً. فقال: يا أمير المؤمنين بعث هذا ثوباً بسبعة دراهم وشرطت أن لا يعطيني مغموزاً ولا مقطوعاً، وكان شرطهم يومئذ، فأتاني بهذه الدراهم، فأتيت ولزمته فلطمني. فقال للأطم: ما تقول؟ فقال: صدق يا أمير المؤمنين. فقال: أعطه شرطه. فأعطاه. وقال للملطوم: اقتصر. قال: أو أعفو يا أمير المؤمنين؟ قال: ذلك إليك. ثم قال: يا معشر المسلمين خذوه، فأخذوه، فحمل على ظهر رجل كما يحمل صبيان الكتاب، ثم ضربه خمس عشرة ديرة وقال: هذا نكال لما انتهكت من حرمة.

ولما قتل، عليه السلام، قام ابنه الحسن خطيباً فقال: لقد قتلتم الليلة رجلاً في ليلة نزل فيها القرآن وفيها رفع عيسى وفيها قتل يوشع بن نون، والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدرکه أحد يكون بعده، والله إن كان رسول الله، صلى الله عليه وآله (٤٠١/٣)، عليه وسلم، يبعثه في السرية وجبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة أو سبعمائة أرضها لجارية.

وقال سفيان: إن علياً لم يبن أجرة على أجرة، ولا لبنه على لبنه، ولا قصبه على قصبه، وإن كان ليؤتى بحبوه من المدينة في جراب.

وقيل: إنه أخرج سيقاً له إلى السوق فباعه وقال: لو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه. وكان لا يشتري ممن يعرفه، وإذا

فجميع ولده أربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة امرأة، وكان النسل منهم للحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية.

ذكر عماله

وكان عامله على البصرة هذه السنة عبد الله بن عباس، وقد ذكرنا الاختلاف في أمره، وكان إليه الصدقات والجند والمعاون أيام ولايته كلها، وكان على قضائهما من قبل علي أبو الأسود الدثلي، وكان على فارس زياد، وقد ذكرنا مسيره إليها، وكان على اليمن عبيد الله بن عباس، حتى كان من أمره وأمر بسر بن أبي أرطاة ما ذكر، وكان على الطائف ومكة وما اتصل بذلك قسم بن عباس، وكان على المدينة أبو أيوب الأنصاري، وقيل: سهل بن حنيف، وكان عند قدوم بسر عليه من أمره ما كان، وذكر (٣٩٩/٣).

ذكر بعض سيرته

كان أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، خازناً لعلي على بيت المال، فدخل علي يوماً وقد ربت ابنته، فرأى عليها لؤلؤة كان عرفها لبيت المال فقال: من أين لها هذه؟ لأقطعن يدها فلما رأى أبو رافع جده في ذلك قال: أنا والله يا أمير المؤمنين ربت بها: فقال علي: لقد تزوجت بفاطمة وما لي فراش إلا جلد كبش نعام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحاً بالنهار وما لي خادم غيرها.

قال ابن عباس: قسم علم الناس خمسة أجزاء، فكان لعلي منها أربعة أجزاء وللسائر الناس جزء شاركهم علي فيه فكان أعلمهم به.

وقال أحمد بن حنبل: ما جاء لأحد من أصحاب النبي ﷺ، ما جاء لعلي.

وقال عمرو بن ميمون: لما ضرب عمر بن الخطاب وجعل الخلافة في السنة من الصحابة، فلما خرجوا من عنده قال: إن يولوها الأجلح يسلك بهم الطريق، فقال له ابنه عبد الله: فما يمنعك يا أمير المؤمنين من توليته؟ قال: أكره أن أتحمّلها حياً وميتاً.

يُدْعَى بِالْأَمِيرِ (٤٠٣/٣) فِي بِلَادِ الشَّامِ، فَلَمَّا قُتِلَ عَلِيٌّ دُعِيَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، هَكَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ يُوَسَّعُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ اجْتِمَاعِ الْحَكَمِيِّينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وكانت خلافة الحسن سنة أشهر.

وفيها مات الأشعث بن قيس الكندي بعد قتل عليّ بأربعين ليلة وصلى عليه الحسن بن عليّ.

وفيها مات حسان بن ثابت وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ، وهما من الصحابة.

وفيها مات شُرَحْبِيلُ بْنُ السَّمْطِ الْكِنْدِيُّ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاوِيَةَ، قِيلَ لَهُ صُحْبَةٌ، وَقِيلَ لَا صُحْبَةَ لَهُ.

وفي أول خلافة عليّ مات جهجاه البغاريّ له صحبة.

وفيها مات الحارث بن خزيمة الأنصاريّ، شهد بدرًا وأُخِذَ وَغِيْرَهُمَا.

وفيها مات خوات بن جبير الأنصاريّ بالمدينة، وكان قد خرج مع النبيّ ﷺ، إِلَى بَدْرٍ فَرَجَعَ لَعُذْرَ فُضْرَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بِسَهْمِهِ، وَهُوَ صَاحِبُ ذَاتِ النَّحِيْنِ.

وفي خلافة عليّ مات قُرْظَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ بِالْكُوفَةِ، وَقِيلَ: بَلِ مَاتَ فِي إِمَارَةِ الْمُغِيرَةِ عَلَى الْكُوفَةِ لِمُعَاوِيَةَ، شَهِدَ أُجْدَاً وَغِيْرَهَا وَشَهِدَ سَائِرَ الْمَشَاهِدِ مَعَ عَلِيٍّ.

ومات مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ عَلِيٍّ، وَهُوَ بِدَرٍّ، شَهِدَ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وفي خلافته مات أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاريّ، وكان نقيباً، شهد بدرًا، وقيل: بَلِ اسْتَخْلَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَلَى الْمَدِينَةِ وَرَدَّهُ مِنْ طَرِيقِ بَدْرٍ وَضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ.

وفيها توفي مُعْقِبُ بْنُ أَبِي فَاطِمَةَ الدَّوْسِيُّ، لَهُ صُحْبَةٌ، قَدِيمُ الْإِسْلَامِ، هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ الْهَجْرَةَ الثَّانِيَةَ، وَكَانَ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ مُجْتَبِئًا، وَاسْتَعْمَلَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعَمَرُ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ، وَكَانَ مَعَهُ الْخَاتَمُ أَيَّامَ عَثْمَانَ، فَمِنْ يَدِهِ وَقَعَ الْخَاتَمُ، وَقِيلَ: إِنَّهُ تَوَفَّى آخِرَ خِلَافَةِ عَثْمَانَ. (٤٠٤/٣)

سنة إحدى وأربعين

ذكر تسليم الحسين بن عليّ الخلافة إلى معاوية

كان أمير المؤمنين عليّ قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت لما ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام، فبينما هو يتجهز للمسير قُتِلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَلَا مَرَدَ لَهُ. فَلَمَّا قُتِلَ

اشترى قميصاً قدر كَمَهُ عَلَى طَوْلِ يَدِهِ وَقَطَعَ الْبَاقِي. وَكَانَ يَخْتُمُ عَلَى الْجِرَابِ الَّذِي فِيهِ دَقِيقُ الشَّعِيرِ الَّذِي يَأْكُلُ مِنْهُ وَيَقُولُ: لَا أَحَبُّ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنِي إِلَّا مَا أَعْلَمُ.

وقال الشعبيّ: وجد عليّ درعاً له عند نصرانيّ فسأقبل به إلى شريح وجلس إلى جانبه وقال: لو كان خصمي مسلماً لساويته، وقال: هذه درعي! فقال النصرانيّ: ما هي إلا درعي، ولم يكذب أمير المؤمنين؟ فقال شريح لعليّ: ألك بيتة؟ قال: لا، وهو يضحك، فأخذ النصرانيّ الدرع ومشى يسيراً ثم عاد وقال: أشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين قد مني إلى قاضيه وقاضيه يقضي عليه. ثم أسلم واعترف أن الدرع سقطت من عليّ عند مسيره إلى صفين، ففرح عليّ بإسلامه ووهب له الدرع وفرنساً، وشهد معه قتال الخوارج.

وقيل: إِنَّ عَلِيًّا رَوَى وَهُوَ يَحْمِلُ فِي مِلْحَفَتِهِ تَمْرًا قَدْ اشْتَرَاهُ بِدَرْهَمٍ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا نَحْمِلُهُ عَنْكَ؟ قَالَ: أَبُو الْعِيَالِ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ.

وقال الحسن بن صالح: تذكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز، فقال عمر: أزهّد الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب.

وقال المذائنيّ: نظر عليّ إلى قوم يبابه فقال لقنبر مولاة: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ (٤٠٢/٣) قَالَ: شِيعَتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: وَمَا لِي لَا أَرَى فِيهِمْ سِيْمَا الشَّيْعَةِ؟ قَالَ: وَمَا سِيْمَاهُمْ؟ قَالَ: خُمْصُ الْبَطُونِ مِنَ الطَّوِيِّ، يُسَّسُ الشِّفَاهُ مِنَ الظُّلُمَا، عُمُشُ الْعِيُونِ مِنَ الْبِكَاءِ.

ومناقبه لَا تُحْصَى، قَدْ جُمِعَتْ قُضَايَاهُ فِي كِتَابِ مُفْرَدٍ.

ذكر بيعة الحسن بن عليّ

وفي هذه السنة، أعني سنة أربعين، بُويعَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ. وَأَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيُّ، وَقَالَ لَهُ: ابْسِطْ يَدَكَ أَبَايَعُكَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَقَتَالِ الْمُجَلِّينَ. فَقَالَ الْحَسَنُ: عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ عَلَى كُلِّ شَرْطٍ. فَبَايَعَهُ النَّاسُ. وَكَانَ الْحَسَنُ يَشْتَرِطُ عَلَيْهِمْ: أَنْكُمْ طَافِعُونَ تُسَالِمُونَ مَنْ سَالَمْتُمْ وَتَحَارِبُونَ مَنْ حَارَبْتُمْ. فَارْتَابُوا بِذَلِكَ وَقَالُوا: مَا هَذَا لَكُمْ بِصَاحِبٍ وَمَا يَرِيدُ هَذَا إِلَّا الْقِتَالُ.

ذكر عدة حوادث

حجّ بالناس هذه السنة المغيرة بن شعبة، وافعل كتاباً على لسان معاوية، فيقال: إِنَّهُ عَرَفَ يَوْمَ التَّروِيَةِ، وَنَحَرَ يَوْمَ عَرَفَةَ خَوْفًا أَنْ يُفْطَنَ لِفَعْلِهِ، وَقِيلَ: فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عُثْبَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ مَصْبُوحَهُ وَالْيَا عَلَى الْمَوْسَمِ.

وفيها بويع معاوية بالخلافة ببيت المقدس، وكان قبل ذلك

وبايح الناس ولذله الحسن بلغه مسير معاوية في أهل الشام إليه، فتجهز هو والجيش الذين كانوا بايعوا علياً وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية، وكان قد نزل مسكن، فوصل الحسين إلى المدائن وجعل قيس بن سعد بن عباد الأنصاري على مقدمته في اثني عشر ألفاً، وقيل بل كان الحسن قد جعل على مقدمته عبد الله بن عباس، فجعل عبد الله على مقدمته في الطلائع قيس بن سعد بن عباد. فلما نزل الحسن المدائن نادى مُناد في العسكر: ألا إن قيس بن سعد قُتل فانفروا. فانفروا بسرادق الحسن، فنهبوا متاعه حتى نازعوه بساطاً كان تحته، فازداد لهم بغضاً ومنهم دُعيوا ودخل المقصورة البيضاء بالمدائن، وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد، فقال له المختار: وهو شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: تستوثق من الحسن وتستأمن به إلى معاوية. فقال له عمه: عليك لعنة الله! أثب على ابن بنت رسول الله ﷺ، وأوقفه؟ بنى الرجل أنت! (٤٠٥/٣)

فلما رأى الحسن تفرق الأمر عنه كتب إلى معاوية وذكر شروطاً وقال له: إن أنت أعطيتني هذا فأنا سامع مطيع وعليك أن تنفي لي به. وقال لأخيه الحسين وعبد الله بن جعفر: إني قد راسلت معاوية في الصلح. فقال له الحسين: أنشدك الله أن تصدق أحدوثه معاوية وتكذب أحدوثه أيك! فقال له الحسن: اسكت، أنا أعلم بالأمر منك.

فلما انتهت كتاب الحسن إلى معاوية أمسكه، وكان قد أرسل عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سبرة بن حبيب بن عبد شمس إلى الحسن قبل وصول الكتاب ومعهما صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه: أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت ففعل لك.

فلما أتت الصحيفة إلى الحسن اشترط أضعاف الشروط التي سال معاوية قبل ذلك وأمسكها عنده، فلما سلم الحسن الأمر إلى معاوية طلب أن يعطيه الشروط التي في الصحيفة التي ختم عليها معاوية، فأبى ذلك معاوية وقال له: قد أعطيتك ما كنت تطلب. فلما اصطالحا قام الحسن في أهل العراق فقال: يا أهل العراق إنه منحنى بنفسه عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي.

وكان الذي طلب الحسن من معاوية أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة، ومبلغه خمسة آلاف ألف، وخراج دارابجرد من فارس، وأن لا يشتم علياً، فلم يجبه إلى الكوفة عن شتم علي، فطلب أن لا يشتم وهو يسمع، فأجابه إلى ذلك ثم لم يف له به أيضاً، وأما خراج دارابجرد فإن أهل البصرة منعه منه وقالوا: هو فيتنا لا نعطيه أحداً، وكان منعهم بأمر معاوية أيضاً.

وتسلم معاوية الأمر لخمس بقين من ربيع الأول من هذه

السنة، وقيل: (٤٠٦/٣) في ربيع الآخر، وقيل: في جمادى الأولى، وقيل: إنما سلم الحسن الأمر إلى معاوية لأنه لما راسله معاوية في تسليم الخلافة إليه خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: إنا والله ما نشئنا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلاطة والصبر، فثيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صفين وديكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم وديناكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفتين تكون له، وقتيل بالهروان تطلبون باره، وأما الباقي فخيال، وأما الباقي فثائر، ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصبة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله، عز وجل، نطبي السيف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأدخلنا لكم الرضى.

فداه الناس من كل جانب: البقية البقية وأمضى الصلح.

ولما عزم على تسليم الأمر إلى معاوية خطب الناس فقال: أيها الناس إنما نحن أمراءكم وضيغانكم ونحن أهل بيت نبيكم الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وكرر ذلك حتى ما بقي في المجلس إلا من بكى حتى سمع نسيجه. فلما ساروا إلى معاوية في الصلح اصطالحا على ما ذكرناه وسلم إليه الحسن الأمر.

وكانت خلافة الحسن، على قوله من يقول: إنه سلم الأمر في ربيع الأول، خمسة أشهر ونحو نصف شهر، وعلى قول من يقول: في ربيع الآخر، يكون ستة أشهر وشيئاً، وعلى قول من يقول: في جمادى الأولى، يكون سبعة أشهر وشيئاً، والله تعالى أعلم.

ولما اصطالحا وبايع الحسن معاوية دخل معاوية الكوفة وبايعه الناس، وكتب (٤٠٧/٣) الحسن إلى قيس بن سعد، وهو على مقدمته في اثني عشر ألفاً، يأمره بالدخول في طاعة معاوية، فقام قيس في الناس فقال: أيها الناس اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع إمام. فقال بعضهم بل نخار الدخول في طاعة إمام ضلالة. فبايعوا معاوية أيضاً. فانصرف قيس فيمن تبعه، على ما نذكره. ولما دخل معاوية الكوفة قال عمرو بن العاص ليأمر الحسن أن يقوم فيخطب الناس ليظهر لهم عيئه، فخطب معاوية الناس ثم أمر الحسن أن يخطبهم. فقام فحمد الله بديهة ثم قال: أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقق دماءكم بأخرنا، وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول، وإن الله، عز وجل، قال لنبيه: ﴿وَأَنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]. فلما قاله قال له معاوية: اجلس، وحققها على عمرو وقال: هذا من رأيك.

ولحق الحسن بالمدينة وأهل بيته وحشمهم، وجعل الناس ييكون عند مسيرهم من الكوفة.

قيل للحسن: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلا غلب، ليس أحد

منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين لا نية لهم في خير ولا شر، لقد لقي أبي منهم أموراً عظماً، فليت شعري لمن يصلحون بعدي، وهي أسرع البلاد خراباً!

ولما سار الحسن من الكوفة عرض له رجل فقال له: يا مسود وجه المسلمين! فقال: لا تعذلي فلان رسول الله، ﷺ، رأي في المنام بني أمية ينزون على منبره رجلاً رجلاً فساءه ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ الْكُوفَرُ﴾ [الكوفر: ١]، وهو نهر في الجنة، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١٣]، يملكها بعدك بنو أمية. (٤٠٨/٣)

ذكر صلح معاوية وقيس بن سعد

وفيهما جرى الصلح بين معاوية وقيس بن سعد، وكان قيس امتنع من ذلك، وسبب امتناعه أن عبيد الله بن عباس لما علم بما يريد الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية كتب إلى معاوية يسأله الأمان لنفسه على ما أصاب من مال وغيره، فأجابه إلى ذلك، وأرسل عبد الله بن عامر في جيش كثيف، فخرج إليهم عبيد الله ليلاً وترك جنده الذي هو عليهم بغير أمير وفيهم قيس بن سعد، فأمر ذلك الجند عليهم قيس بن سعد وتعاقبوا هو وهم على قتال معاوية حتى يشترط لشعبة عليّ وللمن كان معه على دمائهم وأموالهم. وقيل: إن قيساً كان هو الأمير على ذلك الجيش في المقدمة، على ما ذكرناه، وكان شديد الكراهة لإمارة معاوية ابن أبي سفيان، فلما بلغه أن الحسن بن عليّ صالح معاوية اجتمع معه جمع كثير وبايعوه على قتال معاوية حتى يشترط لشعبة عليّ على دمائهم وأموالهم وما كانوا أصابوا في الفتنة، فراسله معاوية يدعوه إلى طاعته، وأرسل إليه بسجلاً، وختم على أسفله وقال له: اكتب في هذا ما شئت فهو لك. فقال عمرو لمعاوية: لا تعطوه هذا وقاتله. فقال معاوية: على رسلك فإننا لا نخلص إلى قتلهم حتى يقتلوا أعداءهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك؟ فإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بذاً.

فلما بعث إليه معاوية ذلك السجل اشترط قيس له ولشعبة على الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل في سجله ذلك مالا، وأعطاه معاوية ما سأل، ودخل قيس ومن معه في طاعته.

وكانوا يُعدّون دُعاة الناس حين ثارت الفتنة خمسة يقال إنهم ذوو رأي العرب ومكيدتهم: معاوية، وعمرو، والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد، (٤٠٩/٣) وعبد الله بن بُذيل الخزاعي، وكان قيس وابن بُذيل مع عليّ، وكان المغيرة معتزلاً بالطائف، ولما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه سعد بن أبي وقاص فقال: السلام عليك أيها الملك! فضحك معاوية وقال: ما كان عليك يا أبا إسحاق لو

قلت: يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنقولها جذلان ضاحكاً؟ والله ما أحبّ أني وليتها بما وليتها به!

ذكر خروج الخوارج على معاوية

قد ذكرنا فيما تقدّم اعتزال فروة بن نوفل الأشجعي في خمسمائة من الخوارج ومسيرهم إلى شهرزور، وتركوا قتال عليّ والحسن؛ فلما سلّم الحسن الأمر إلى معاوية قالوا: قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه. فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى حلّوا بالنخيلة عند الكوفة، وكان الحسن بن عليّ قد سار يريد المدينة، فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال فروة، فلحقه رسوله بالقادسية أو قريباً منها، فلم يرجع وكتب إلى معاوية: لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك، فإني تركتك لصلاح الأمة وحقق دمائها.

فأرسل إليهم معاوية جمعاً من أهل الشام، فقاتلهم، فانهزم أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: والله لا أمان لكم عندي حتى تكفّوهم. فخرج أهل الكوفة فقاتلهم. فقالت لهم الخوارج: أليس معاوية عدونا وعدوك؟ دُعونا حتى نقاتله، فإن أصبنا كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصبنا كنتم قد كفيتونا. فقالوا: لا بد لنا من قتالكم. فأخذت أشجع صاحبهم فروة فحادثوه ووعظوه فلم يرجع، فآخذوه قهراً وأدخلوه الكوفة، فاستعمل الخوارج (٤١٠/٣) عليهم عبد الله بن أبي الحوساء، رجلاً من طي، فقاتلهم أهل الكوفة فقتلهم في ربيع الأول، وقيل: في ربيع الآخر، وقتل ابن أبي الحوساء، وكان ابن أبي الحوساء حين ولي أمر الخوارج قد خُوف من السلطان أن يصلبه، فقال:

ما إن أبالي إذا نزاحاً قُضتْ ما إذا فلتتم بأزْوالٍ وإبْشارِ
نجري النَجْرة والنَّيرانِ عن قنبرِ الشمس والقمر السَّاري بمقدارِ
وقد علّمتُ، وخيرَ القولِ أنْفَعُ، إن السَّعيدَ الذي ينجو من النَّارِ

ذكر خروج خوثره بن وداع

ولما قُتل ابن أبي الحوساء اجتمع الخوارج فولّوا أمرهم خوثره بن وداع بن مسعود الأسدي، فقام فيهم وعاب فروة بن نوفل لشكّه في قتال عليّ ودعا الخوارج وسار من براز الروز، وكان بها حتى قدم النخيلة في مائة وخمسين، وانضمّ إليه فل ابن أبي الحوساء، وهم قليل، فدعا معاوية أبا خوثره فقال له: اخرج إلى ابنك فلعلّه يرق إذا راك. فخرج إليه وكلمه وناشده وقال: ألا أجيئك بابنك فلعلك إذا رأيته كرهت فراقه؟ فقال: أنا إلى طعنة من يد كافر يرمع أثقلّ فيه ساعة أشوق مني إلى ابني. فرجع أبوه فأخبر معاوية بقوله، فسار معاوية إليهم عبد الله بن عوف الأحمر في ألفين، وخرج أبو خوثره فيمن خرج فدعا ابنه إلى البراز، فقال: يا أبا لك في غيري سعة، وقاتلهم ابن عوف وصبروا، وبارز خوثره

عبد الله بن عوف قطعته ابن عوف فقتله وقتل (٤١١/٣) أصحابه إلا خمسين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك في جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين. ورأى ابن عوف بوجه حوثة أثر السجود، وكان صاحب عبادة، فندم على قتله، وقال:

قُلتُ أخا بني أسدٍ سفاهاً لعمري لبي فمأقيتُ رُشدِي
قُلتُ مُصلِّياً مَخِيلاً ليل طويلاً الحزن ذابِرٍ وقُصدِي
قُلتُ أخا نقي لا نال دنيا وفاءً لثِقوتي وعِشاري جُسدِي
فهب لي نَفسَ ياربِّ واغفر لما قُلتُ من خطيأ وعُبدِي

ذكر خروج فروة بن نوفل ومقتله

ثم إن فروة بن نوفل الأشجعي خرج على المغيرة بن شعبة بعد مسير معاوية، فوجه إليه المغيرة خيلاً عليها شتت بن ربيعي، ويقال: مَعْقِل بن قيس، فلقبه بشهزور فقتله، وقيل قتل ببعض السواد.

ذكر شبيب بن بخره

كان شبيب مع ابن ملجم حين قتل علياً، فلما دخل معاوية الكوفة أتاه شبيب كالمقرب إليه فقال: أنا وابن ملجم قتلنا علياً، فوثب معاوية من مجلسه مذعوراً حتى دخل منزله وبعث إلى أشجع وقال: لئن رأيتُ شبيباً أو بلغني أنه يبالي لأهلكنكم، أخرجوه عن بلدكم. وكان شبيب إذا جنَّ عليه الليل (٤١٢/٣) خرج فلم يلق أحداً إلا قتله، فلما ولي المغيرة الكوفة خرج عليه بالقف فرب الكوفة، فبعث إليه المغيرة خيلاً عليها خالد بن عُرْفُطَة، وقيل: مَعْقِل بن قيس، فاقتلوا فقتل شبيب وأصحابه.

ذكر معين الخارجي

ويلغ المغيرة أن معين بن عبد الله يريد الخروج، وهو رجل من محارب، وكان اسمه معناً فصغر، فأرسل إليه، وعنده جماعة، فأخذ وحبس، وبعث المغيرة إلى معاوية يُخبره أمره، فكتب إليه: إن شهد أني خليفة فخل سبيله. فأحضره المغيرة وقال له: أتشهد أن معاوية خليفة وأنه أمير المؤمنين؟ فقال: أشهد أن الله، عز وجل، حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. فأمر به فقتل، قتله قبضة الهلالي، فلما كان أيام بشر بن مروان جلس رجل من الخوارج على باب قبضة حتى خرج فقتله، ولم يُعرف قاتله حتى خرج قاتله مع شبيب بن يزيد، فلما قدم الكوفة قال: يا أعداء الله أنا قاتل قبضة!

ذكر خروج أبي مريم

ثم خرج أبو مريم مولى بني الحارث بن كعب ومعه امرأتان: قطام وكخيلة، وكان أول من أخرج معه النساء، فعاب ذلك عليه أبو بلال من أدية، فقال: (٤١٣/٣) قد قاتل النساء مع رسول الله، ﷺ، ومع المسلمين بالشام، وسارتعهما، فردعهما، فوجه إليه المغيرة

جابرًا البجلي، فقاتله فقتل أبو مريم وأصحابه ببادوريا.

ذكر خروج أبي ليلى

وكان أبو ليلى رجلاً أسود طويلاً، فأخذ بعضادتي باب المسجد بالكوفة وفيه عدة من الأشراف وحكم بصوت عال، فلم يعرض له أحد، فخرج وتبعه ثلاثون رجلاً من الموالي، فبعث فيه المغيرة مَعْقِل بن قيس الرياحي فقتله بسواد الكوفة سنة اثنتين وأربعين.

ذكر استعمال المغيرة بن شعبة على الكوفة

وفيها استعمل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة، فاتاه المغيرة بن شعبة فقال له: استعملت عبد الله على الكوفة وأباه على مصر فتكون أميراً بين نسائي الأسد. فعزله عنها واستعمل المغيرة على الكوفة. وبلغ عمراً ما قال المغيرة، فدخل على معاوية فقال: استعملت المغيرة على الخراج فيقتال المال ولا تستطيع أن تأخذه منه، استعمل على الخراج رجلاً يخافك ويتقيك. فعزله عن الخراج واستعمله على الصلاة.

ولما ولي المغيرة الكوفة استعمل كثير بن شهاب على الري، وكان يكثر (٤١٤/٣) سب علي على منبر الري، وبقي عليها إلى أن ولي زياد الكوفة، فأقره عليها، وغزا الديلم ومعه عبد الله بن الحجاج التغلبي، وقتل ديلمياً وأخذ سلبه، فأخذه منه كثير، فناشده الله في رده عليه فلم يفعل، فاخفى له وضربه على وجهه بالسيف أو بعضاً هشم وجهه، فقال:

مَنْ مُلِغَ أَفْئاءَ خِيفَ أُنْسِي أدركت طائفتي من ابن شهاب
أدركت ليلاً بمقورة داره فضرته فتمسأ على الأنياب
هلا خشت وأنت عاد ظالم بقصور أبهر أنسرتي وعقابي

ذكر ولاية بسر على البصرة

في هذه السنة ولي بسر بن أبي أرطاة البصرة.

وكان السبب في ذلك أن الحسن لما صالح معاوية أول سنة إحدى وأربعين وثب حمران بن أبان على البصرة فأخذها وغلب عليها، فبعث إليه معاوية بسر بن أبي أرطاة وأمره بقتل بني زياد بن أبيه، وكان زياد على فارس قد أرسله إليها علي بن أبي طالب، فلما قدم بسر البصرة خطب على منبرها وشتم علياً ثم قال: نشدت الله رجلاً يعلم أبي صادق إلا صدقني أو كاذب إلا كذبتني. فقال أبو بكر: اللهم إنا لا نعلمك إلا كاذباً. قال: فأمر به فخنق. فقام أبو لؤلؤة الضبي فرمى بنفسه عليه فمنعه. وأقطعه أبو بكر مائة جريب، وقيل لأبي بكر: ما حملك على ذلك؟ فقال: يناشدنا بالله ثم لا نصدقه؟

وأرسل معاوية إلى زياد: إن في يدك مالاً من مال الله فاذ ما

ذكر ولاية ابن عامر البصرة لمعاوية

ثم أراد معاوية أن يولي عُتْبَةَ بن أبي سفيان البصرة، فكلّمه ابن عامر وقال له: إن لي بالبصرة ودافع وأموالاً، فإن لم تولني عليها ذهبت. فولاه البصرة. فقدمها في آخر سنة إحدى وأربعين، وجعل إليه خراسان وسجستان، فجعل على شرطته حبيب بن شهاب، وعلى القضاء عميرة بن يثربي أخا عمرو، وقد تقدّم في وقعة الجمل أن عميرة قتل فيها، وقيل عمرو هو المقتول، والله سبحانه أعلم بالصواب. (٤١٧/٣)

ذكر ولاية قيس بن الهيثم خراسان

وفي هذه السنة استعمل ابن عامر قيس بن الهيثم السلمي على خراسان، وكان أهل بأذغيس وهرارة وبوشنج قد نكثوا، فسار إلى بلخ فآخرب نوبهارها، كان الذي تولّى ذلك عطاء بن السائب مولى بني ليث، وهو الخشك، وإنما سمي عطاء الخشك لأنه أوّل من دخل مدينة هراة من المسلمين من باب خشك، وأتخذ قناطر على ثلاثة أنهار من بلخ على فرسخ قليل قناطر عطاء.

ثم إن أهل بلخ سألوا الصلح ومراجعة الطاعة فصالحهم قيس. وقيل: إنما صالحهم الربيع بن زياد سنة إحدى وخمسين، وسيرد ذكره. ثم قدم قيس على ابن عامر فضربه وجسه واستعمل عبد الله بن خازم، فأرسل إليه أهل هراة وبأذغيس وبوشنج يطلبون الأمان والصلح، فصالحهم وحمل إلى ابن عامر مالا.

(عبد الله بن خازم بالخاء المعجمة).

ذكر خروج منهم بن غالب

وفي هذه السنة خرج منهم بن غالب الهيثمي على ابن عامر في سبعين رجلاً، منهم الخطيم الباهلي، وهو يزيد بن مالك، وإنما قيل له الخطيم لضربة ضربها على وجهه، فنزلوا بين الجسرين والبصرة، فمر بهم عبادة بن فرّص الليثي من الغزو ومعه ابنه وأبنت أخيه، فقال لهم الخوارج: من أنتم؟ قالوا: (٤١٨/٣) قوم مسلمون. قالوا: كذبتم. قال عبادة: سبحانه الله! اقبلوا منا ما قبل رسول الله، ﷺ، مني، فإني كذبتُه وقاتلته ثم أتيتُه فأسلمتُ فقبل ذلك مني. قالوا: أنت كافر، وقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه. فخرج إليهم ابن عامر بنفسه وقاتلهم فقتل منهم عدة وانحاز بقيتهم إلى أجمة وفيهم منهم والخطيم، فعرض عليهم ابن عامر الأمان لقبولهم، فأمّتهم، فرجموا، فكتب إليه معاوية يأمر بقتلهم، فكتب إليه ابن عامر: إني قد جعلتُ لهم ذمتك.

فلما أتى زياد البصرة سنة خمس وأربعين هرب منهم والخطيم فخرجوا إلى الأهواز، فاجتمع إلى سهم جماعة فأقبل بهم إلى البصرة، فأخذ قوماً، فقالوا: نحن يهود، فخلّاهم، وقتل سعداً مولى

عندك منه. (٤١٥/٣) فكتب إليه زياد: إنه لم يبقَ عندي شيء، ولقد صرفتُ ما كان عندي في وجهه، واستودعتُ بعضه لنازلة إن نزلت، وحملتُ ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمة الله عليه. فكتب إليه معاوية: أن أقبلَ نظراً فيما وليتُ فإن استقام بيننا أمر وإلا رجعتُ إلى مأمك. فامتنع، فأخذ يُسرُ أولاد زياد الأكابر، منهم: عبد الرحمن وعبيد الله وعباد، وكتب إلى زياد: لتقدمنّ على أمير المؤمنين أو لأقتلنّ بنيك. فكتب إليه زياد: لستُ بارحاً من مكاني حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك، وإن قتلتُ ولدي فإلهمصير إلى الله ومن ورائنا الحساب، ﴿وَسَيَمْلَأُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. فأراد يُسرُ قتلهم فأتاه أبو بكره فقال: قد أخذتُ ولد أخِي بلا ذنب، وقد صالح الحسن معاوية على ما أصاب أصحاب عليّ حيث كانوا، فليس [لك] عليهم ولا على أبيهم سبيل. وأجله أياماً حتى يأتيه بكتاب معاوية، فركب أبو بكره إلى معاوية، وهو بالكوفة، فلما أتاه قال له: يا معاوية إن الناس لم يُعطوك بيعتهم على قتل الأطفال! قال: وما ذاك يا أبا بكره؟ قال: يُسرُ يريد قتل بني أخِي زياد. فكتب له بتخليتهم. فأخذ كتابه إلى يُسر بالكوفة عن أولاد زياد. وعاد فوصل البصرة يوم الميصاد، وقد أخرج يُسرُ أولاد زياد مع طلوع الشمس ينتظرون بهم الغروب ليقتلهم، واجتمع الناس لذلك وهم ينتظرون أبا بكره إذ رُفع لهم على نجيب أو برذون يكذبه، فوقف عليه ونزل عنه والاح بثوبة وكبر وكبر الناس معه، فأقبل يسعى على رجلَيْه فأدرك يُسرأ قبل أن يقتلهم، فدفع إليه كتاب معاوية، فأطلقهم.

وقد كان معاوية كتب إلى زياد حين قُتل عليّ يتهذّده، فقام خطيباً فقال: العجب من ابن أكلة الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب يتهذّبني، (٤١٦/٣) وبينه ابنا عم رسول الله، ﷺ، يعني ابن عباس والحسن بن عليّ، في سبعين ألفاً واضعي سيوفهم على عواقبهم! أما والله لئن خلص إليّ ليجذّني أحمر ضراباً بالسيف. فلما صالح الحسن معاوية وقدم معاوية الكوفة تحصّن زياد في القلعة التي يقال لها قلعة زياد.

قول من قال في هذا: إن زياداً عنى ابن عباس، وهم لأن ابن عباس فارق عليّاً في حياته.

وقيل: إن معاوية أرسل هذا إلى زياد في حياة عليّ، فقال زياد هذه المقالة وعنّى بها عليّاً. وكتب زياد إلى عليّ يُخبره بما كتب إليه معاوية، فاجابه بما هو مشهور، وقد ذكرناه في استلحاق معاوية زياداً.

(كل ما في هذا الخبر يُسرُ فهو بضمّ الباء الموحدة والسين المهملة الساكنة).

قُدَّامة بن قَطْمُون، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْبَصْرَةِ تَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، فَاجْتَنَبَ سَهْمٌ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ تَفَرَّقُوا عِنْدَ اسْتِخْفَائِهِ، فَطَلَبَ الْأَمَانُ وَظَنَّ أَنَّهُ يَسُوقُ لَهُ عِنْدَ زِيَادٍ مَا سَأَلَ لَهُ عِنْدَ ابْنِ عَامِرٍ، فَلَمْ يَوْمَنْهُ زِيَادٌ، وَبَحَثَ عَنْهُ، فَذُلَّ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ وَقَتْلَهُ وَصَلَبَهُ فِي دَارِهِ.

وقيل: لم يزل مستخفياً إلى أن مات زياد فأخذه عبيد الله بن زياد فصلبه سنة أربع وخمسين، وقيل: قبل ذلك؛ فقال رجل من الخوارج:

فإن تكن الأحزاب يَأْزُوا بِصَلْبِهِ فَلَا يُعِيدَنَّ اللَّهُ سَهْمَ بْنِ غَالِبٍ
وَأَمَّا الْخَطِيمُ فَإِنَّهُ سَأَلَ زِيَادَ عَنْ قَتْلِهِ عِبَادَةَ فَانْكِرَهُ فَسَيَّرَهُ إِلَى
الْبَحْرَيْنِ ثُمَّ أَعَادَهُ بَعْدَ ذَلِكَ. (٤١٩/٣)

ذكر عِدَّةُ حَوَادِثَ

قيل: وفي هذه السنة وُلِدَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَقِيلَ: وَوُلِدَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ عَلِيٌّ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، وَيَأْسَمُ عَلِيٌّ سَمَاءً، وَقَالَ: سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ.
وَحَجَّ بِالنَّاسِ هَذِهِ السَّنَةَ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، وَقِيلَ: عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ.

وفي هذه السنة استعمل عمرو بن العاص عُقْبَةَ بْنَ نَافِعٍ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ، وَهُوَ ابْنُ خَالَةِ عَمْرٍو، عَلَى إفريقية، فَانتهى إلى لُؤَاتِ وَمَزَاتِ، فَطَاعُوا ثُمَّ كَفَرُوا، فَغَزَاهُمْ مِنْ سِتِّهِ، فَقَتَلَ وَسَبَى، ثُمَّ افْتَتَحَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ غُدَامِيسَ، فَقَتَلَ وَسَبَى، وَفَتَحَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ كُورًا مِنْ كُورِ السُّودَانِ، وَافْتَتَحَ وَدَّانَ، وَهِيَ مِنْ بَرْقَةِ، وَافْتَتَحَ عَامَةَ بِلَادِ بَرْبَرٍ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَلَفَ الْقَيْرَوَانُ سَنَةَ خَمْسِينَ، وَسَيُذَكَّرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وفيهما مات ليبيد بن ربيعة الشاعر، وقيل: مات يوم دخل معاوية الكوفة وعمره مائة سنة وسبع وخمسون سنة، وقيل: مات في خلافة عثمان، وله صحيفة، وترك الشعر مذ أسلم. (٤٢٠/٣)

سنة الثنتين وأربعين

في هذه السنة غزا المسلمون اللان وغزا الروم أيضاً فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعتهم من بطارتهم.

وفيهما وُلِدَ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ فِي قَوْلٍ.

وفيهما وَلِيَ معاوية مروان بن الحكم المدينة، وولَّى خِصَالِدَ بْنَ الْعَاصِ بْنِ هِشَامٍ مَكَّةَ، فَاسْتَقْضَى مَرْوَانُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ.

وكان على الكوفة المغيرة بن شعبة وعلى قضائهما شريح، وعلى خراسان قيس بن الهيثم استعمله ابنُ عامر، وقُتِلَ: استعمله

معاوية لما استقامت له الأمور، فَلَمَّا وَلِيَ ابْنُ عَامِرٍ الْبَصْرَةَ أَقْرَبَهُ عَلَيْهَا.

ذكر الخبر عن تحرك الخوارج

وفي هذه السنة تحركت الخوارج الذين كانوا انحازوا عمن قتل في النهر ومن كان ارتك من جراحته في النهر فبرأوا وعفا علي عنهم، وكان سبب خروجهم أن حَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ السُّلَمِيَّ كَانَ خَارِجِيًّا وَكَانَ قَدْ ارْتَكَبَ يَوْمَ النَّهْرِ، فَلَمَّا بَرَأَ لِحَقِّ بِالرِّيِّ فِي رِجَالٍ مَعَهُ، فَأَقَامُوا بِهَا حَتَّى بَلَغَهُمْ مَقْتَلُ عَلِيٍّ. (٤٢١/٣) فدعا أصحابه، وَكَانُوا بِضْعَةَ عَشَرَ، أَحَدُهُمْ سَالِمُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَسِي، فَأَعْلَمَهُمْ بِقَتْلِ عَلِيٍّ، فَقَالَ سَالِمٌ: لَا شَكَّ يَمِينُ عِلْتُ قَذَالَةَ بِالسَّيْفِ وَحَمَدُوا اللَّهَ عَلَى قَتْلِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَا رَضِيَ عَنْهُمْ. ثُمَّ إِنَّ سَالِمًا رَجَعَ عَنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ بَعْدَ ذَلِكَ وَصَلَحَ، وَدَعَاهُمْ حَيَّانَ إِلَى الْخُرُوجِ وَمَقَاتِلَةِ أَهْلِ الْقَبْلَةِ، فَأَقْبَلُوا إِلَى الْكُوفَةِ فَأَقَامُوا بِهَا حَتَّى قَدِمَهَا معاوية، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْكُوفَةِ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ، فَاحْبَبَ الْعَافِيَةَ وَأَحْسَنَ الصِّيرَةَ، وَكَانَ يُؤْتَى بِقَالَ لَهُ: إِنَّ فَلَانًا يَرَى رَأْيَ الشَّيْعَةِ وَفَلَانًا يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ، فيقول: قَضَى اللَّهُ أَنْ لَا يَزَالَوا مُخْتَلِفِينَ وَسَيُحْكِمُ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ. فامنه الناس.

وكانت الخوارج يلقي بعضهم بعضاً ويتذكرون مكان إخوانهم بالنهر، فَاجْتَمَعُوا عَلَى ثَلَاثَةِ نَفَرٍ: عَلَى الْمُسْتَوْدِ بْنِ عُفَّةَ التَّيْمِيِّ مِنْ تَيْمِ الرِّيَابِ، وَعَلَى مُعَاذِ بْنِ جُوَيْنٍ الطَّلَاسِيِّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ زَيْدِ بْنِ حُصَيْنٍ الَّذِي قُتِلَ يَوْمَ النَّهْرِ، وَعَلَى حَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ السُّلَمِيِّ، وَاجْتَمَعُوا فِي أَرْبَعِمِائَةٍ فَتَشَارَوْا فِيمَنْ يُولُونَ عَلَيْهِمْ، فَكَلَّمَهُمْ دَفْعَ الْإِمَارَةِ عَنْ نَفْسِهِ، ثُمَّ اتَّفَقُوا فَوَلَّوْا الْمُسْتَوْدَ وَيَا يَعُو، وَذَلِكَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَاتَّعَدُوا لِلْخُرُوجِ وَاسْتَعَدُّوا، وَكَانَ خُرُوجُهُمْ غُرَّةَ شَعْبَانَ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ.

(عُفَّةَ بَضْمُ الْعَيْنِ الْمَهْمَلَةُ، وَتَشْدِيدُ التَّلَامِ الْمَكْسُورَةُ، وَفَتْحُ الْفَاءِ). (٤٢٢/٣)

ذكر قدوم زياد على معاوية

وفي هذه السنة قدم زياد على معاوية [من فارس].

وكان سبب ذلك أن زياداً كان قد استودع ماله عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَلِي مَالَهُ بِالْبَصْرَةِ، وَبَلَغَ معاوية ذلك فبعث المغيرة بن شعبة لينظر في أموال زياد، فَأَخَذَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَالَ لَهُ: إِنْ كَانَ أَبُوكَ قَدْ أَسَاءَ إِلَيَّ لَقَدْ أَحْسَنَ عَمَّكَ، يَعْنِي زِيَادًا. وَكُتِبَ إِلَى معاوية: إِنِّي لَمْ أَجِدْ فِي يَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَالاً يَحِلُّ لِي اخْذَهُ. فَكُتِبَ إِلَيْهِ معاوية: أَنْ عَذَّبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَارَادَ أَنْ يُعَذَّبَ، وَبَلَغَ ذَلِكَ معاوية فقال لعبد الرحمن: احتفظ بما في يديك. وَالْقِسَى عَلَى وَجْهِهِ غُرْبَةٌ وَنَضْحُهَا بِالْمَاءِ، فَعَشِيَ عَلَيْهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ

مَرَاتِ ثُمَّ خَلَاهُ وَكَتَبَ إِلَى معاوية: إِنِّي عَذَبْتُهُ فَلَمْ أَصِبْ عِنْدَهُ شَيْئًا. وَحَفِظَ لَزِيَادَ يَدَهُ عِنْدَهُ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَغِيرَةَ عَلَى معاوية، فَقَالَ معاوية حِينَ رَأَاهُ:

إِنَّمَا مَوْضِعُ بَرِّ الْمَرْءِ إِذَا بَلَغَ بِالسَّيْرِ آخِرَهُ الْمُتَصَحِّحُ فَإِنَّا بَخْتُ بِسِرِّ فُلَانٍ نَصَاحُ يَنْتَرُهُ لَوْلَا لَبَّحُ فَقَالَ الْمَغِيرَةُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ تَسْتَوْدِعُنِي تَسْتَوْدِعُ نَاصِحًا مُشَفِّقًا، وَمَا ذَلِكَ؟ قَالَ لَهُ معاوية: ذَكَرْتُ زِيَادًا وَاعْتَصَمَ بِفَارَسٍ فَلَمْ أَنْمُ لَيْلَتِي. فَقَالَ الْمَغِيرَةُ: مَا زِيَادُ هُنَاكَ؟ فَقَالَ معاوية: دَاهِيَةُ الْعَرَبِ مَعَ أَمْوَالِ فَارَسٍ يَدْبُرُ الْحِيلَ، مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَبِيعَ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ أَعَادَ [عَلَيَّ] الْحَرْبَ جَذْعَةً، فَقَالَ الْمَغِيرَةُ: أَتَأْذَنُ لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي إِتْيَانِهِ؟ قَالَ: (٤٢٣/٣) نَعَمْ، فَأَتَيْهِ وَتَلَطَّفْ لَهُ.

فَاتَاهُ الْمَغِيرَةُ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ معاويةَ اسْتَخَفَّهَ الْوَجَلُ حَتَّى بَعَثَنِي إِلَيْكَ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَمْدُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ غَيْرَ الْحَسَنِ وَقَدْ بَاعَ، فَخَذْتُ لِنَفْسِكَ قَبْلَ التَّوْطِينِ فَيَسْتَغْنِي معاويةُ عَنْكَ. قَالَ: أَثِيرَ عَلَيَّ وَارِمْ الْغُرُضَ الْأَقْصَى، فَإِنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ. فَقَالَ لَهُ الْمَغِيرَةُ: أَرَى أَنْ تَصِلَ حَبْلُكَ بِحَبْلِهِ وَتَشْخَصَ إِلَيْهِ وَيَقْضِيَ اللَّهُ. وَكَتَبَ إِلَيْهِ معاويةُ بِأَمَانِهِ بَعْدَ غُودِ الْمَغِيرَةِ عَنْهُ. فَخَرَجَ زِيَادٌ مِنْ فَارَسٍ نَحْوَ معاويةَ وَمَعَهُ الْجِنَجَابُ بْنُ رَاشِدٍ الضَّبِّيُّ وَحَارِثَةُ بْنُ بَدْرِ الْعَدَنِيُّ.

وَسَرَّحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَازِمٍ فِي جَمَاعَةٍ إِلَى فَارَسٍ وَقَالَ: لَعَلَّكَ تَلْقَى زِيَادًا فِي طَرِيقِكَ فَتَأْخُذْهُ. فَسَارَ ابْنُ خَازِمٍ، فَلَقِيَ زِيَادًا بَارِجَانِ، فَأَخَذَ بَعْنَانَهُ وَقَالَ: انْزِلْ يَا زِيَادُ. فَقَالَ لَهُ الْمُنَجَّابُ: نَحْبُ يَا ابْنَ السُّودَاءِ وَلَا أَعْلَقْتُ بِكَ بِالْجَنَانِ. وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ مَنَازَعَةٌ. فَقَالَ لَهُ زِيَادُ: قَدْ أَتَانِي كِتَابُ معاويةَ وَأَمَانَتُهُ. فَتَرَكَ ابْنَ خَازِمٍ، وَقَدَّمَ زِيَادُ عَلَى معاويةَ، وَسَأَلَهُ عَنْ أَمْوَالِ فَارَسٍ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا حَمَلَ مِنْهَا إِلَى عَلِيٍّ وَبِمَا أَنْفَقَ مِنْهَا فِي الْوُجُوهِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى النِّفْقَةِ وَمَا بَقِيَ عِنْدَهُ وَأَنَّهُ مُودِعٌ لِلْمُسْلِمِينَ، فَصَدَقَهُ معاويةَ فِيمَا أَنْفَقَ وَفِيمَا بَقِيَ عِنْدَهُ وَقَبِضَهُ مِنْهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ زِيَادًا لَمَّا قَالَ لِمعاويةَ قَدْ بَقِيََتْ بَقِيَّةٌ مِنَ الْمَالِ وَقَدْ أَوْدَعْتَهَا، مَكَثَ معاويةَ يَرُدُّهُ، فَكَتَبَ زِيَادُ كِتَابًا إِلَى قَوْمِ أَوْدَعَهُمُ الْمَالُ وَقَالَ لَهُمْ: قَدْ عَلِمْتُمْ مَا لِي عِنْدَكُمْ مِنَ الْأَمَانَةِ فَتَدْبَرُوا كِتَابَ اللَّهِ: ﴿وَأَنَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الْآيَةِ، فَاحْفَظُوا بِمَا قِيلَ لَكُمْ. وَسَمِعَ فِي الْكُتُبِ الْمَالُ الَّذِي أَقْرَبَهُ لِمعاويةَ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يَتَرَعَّضَ لِبَعْضٍ مِنْ يُبَلِّغُ ذَلِكَ معاويةَ. فَفَعَلَ رَسُولُهُ، وَانْتَشَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ معاويةَ لَزِيَادٍ حِينَ وَقَفَ عَلَى الْكِتَابِ: (٤٢٤/٣) أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مَكْرُتٌ بِي فَصَالِحُنِي عَلَى مَا شِئْتُ. فَصَالَحَهُ عَلَى شَيْءٍ وَحَمَلَهُ إِلَيْهِ، وَمِثْلُهُ: أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ. وَاسْتَأْذَنَهُ فِي نَزُولِ الْكُوفَةِ، فَأَذِنَ لَهُ، فَكَانَ الْمَغِيرَةُ

يَكْرَهُهُ وَيُعَظِّمُهُ. فَكَتَبَ معاويةَ إِلَى الْمَغِيرَةِ لِيَسْلُزِمَ زِيَادًا وَخُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ وَسُلَيْمَانَ بْنَ صُرَّةَ وَشَيْثَ بْنَ رُبَيْعٍ وَابْنَ الْكَوَّارِ بْنَ الْحَمِقِ بِالصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ، فَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَعَهُ الصَّلَاةَ. وَإِنَّمَا الزَّمَهُمْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ.

ذكر عدة حوادث

وَحَجَّ هَذِهِ السَّنَةَ بِالنَّاسِ عُنْبَسَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ.

وَفِيهَا مَاتَ حَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْفَهْرِيُّ بِأَرْمِينِيَّةَ، وَكَانَ أَمِيرًا لِمعاويةَ عَلَيْهَا، وَكَانَ قَدْ شَهِدَ مَعَهُ حَرْبَهُ كُلَّهَا.

وَفِيهَا مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْعَبْدَرِيُّ، لَهُ صُحْبَةٌ.

وَفِيهَا مَاتَ رُكَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَزِيدَ بْنِ هَاشِمٍ بْنِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ الَّذِي صَارَ النَّبِيُّ ﷺ؛ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلْفِ الْجُمَحِيِّ، وَلَهُ صُحْبَةٌ.

وَفِيهَا مَاتَ هَانِيُ بْنُ يَنَارَ بْنِ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ، وَهُوَ خَالَ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَقِيلَ: سَنَةُ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ، وَكَانَ بِدَرْيَا عَقِيًّا.

(يَنَارُ بِكُسْرِ النُّونِ، وَفُتِحَ الْيَاءُ تَحْتَهَا نَقَطَتَانِ، وَآخِرُهُ رَاءٌ.) (٤٢٥/٣)

سنة ثلاث وأربعين

فِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا بُسْرُ بْنُ أَبِي أَرْطَاةِ الرُّومِ وَشَتَا بِأَرْضِهِمْ حَتَّى بَلَغَ الْقِسْطَنْطِينِيَّةَ فِيمَا زَعَمَ الْوَاقِدِيُّ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْأَخْبَارِ وَقَالُوا: لَمْ يَشْتِ بُسْرُ بِأَرْضِ الرُّومِ قَطًّا.

وَفِيهَا مَاتَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِمَصْرِ يَوْمَ الْفِطْرِ، وَكَانَ عَمِلَ عَلَيْهَا لِعَمْرِ أَرْبَعِ سِنِينَ، وَلِعُثْمَانَ أَرْبَعِ سِنِينَ إِلَّا شَهْرَيْنِ، وَلِمعاويةَ سِتِّينَ إِلَّا شَهْرًا.

وَفِيهَا وَلِيَ معاويةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مَصْرَ فُولِيهَا نَحْوًا مِنْ سِتِّينَ.

وَفِيهَا مَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بِالْمَدِينَةِ فِي صَفَرٍ، وَصَلَّى عَلَيْهِ مروانُ بْنُ الْحَكَمِ، وَعَمَرُهُ سَبْعٌ وَسِعُونَ سَنَةً.

ذكر مقتل المستورد الخارجي

وَفِيهَا قُتِلَ الْمُسْتَوْدِعُ بْنُ عُلْفَةَ التِّيمِيُّ تِيمَ الرِّبَابِ، وَقَدْ ذَكَرَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ: تَحَرَّكَ الْخَوَارِجُ وَبِيعْتَهُمْ لَهُ وَمَخَاطَبَتُهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَلَمَّا كَانَ هَذِهِ السَّنَةَ أَخْبَرَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ بِأَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي مَنَازِلِ حَيَّانَ بْنِ ظُبْيَانَ السُّلَمِيِّ وَاتَّعَدُوا لِلْخُرُوجِ غَرَّةَ شُعْبَانَ، فَارْسَلَ الْمَغِيرَةُ صَاحِبَ شَرْطَتِهِ، (٤٢٦/٣) وَهُوَ قَبِيصَةُ بْنُ الدُّمُونِ، فَاحْطَاطَ

بدار حيان هو ومن معه، وإذا عنده مُعَاذُ بن جُوَيْنٍ ونحو عشرين رجلاً، وثارت امرأته، وهي أم ولد كانت له كارهة، فأخذت سيوفهم فآلقتها تحت الفراش، وقاموا ليأخذوا سيوفهم فلم يجدوها فاستسلموا، فانطلق بهم إلى المغيرة فحبسهم بعد أن قرَّره فلم يعترفوا بشيء، وذكروا أنهم اجتمعوا لقراءة القرآن، ولم يزالوا في السجن نحو سنة، وسمع إخوانهم فحلَّوهم، وخرج أصحابهم المستورد فنزل الحيرة، واختلف الخوارج إليه، فرأهم حجار بن آبجر، فسأله أن يكتم عليهم ليلتهم تلك، فقال لهم: ساكنم عليكم الدهر، فخافوه أن يذكر حالهم للمغيرة، فتحوَّلوا إلى دار سُلَيْم بن مَخْدُوج العبدي، وكان صهراً للمستورد، ولم يذكر حجار من أخبارهم شيئاً.

وقال: يا معشر عبد القيس إن ولاتنا هؤلاء أعرف شيء بكم وبرأيكم، فلا تجعلوا لهم عليكم سيلاً، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى مثلكم. ثم جلس وكل قوم قال: لعنهم الله وبرئ منهم، لا نُؤيِّهم، ولئن علمنا بمكانهم لَنُطْلَعَنَّك عليهم، غير سُلَيْم بن محدوج فإنه لم يقل شيئاً ورجع كئيباً يكره أن يُخْرِج أصحابه من داره فيلوموه، ويكره أن يؤخذوا في داره فيهلك معهم.

وجاء أصحاب المستورد إليه فأعلموه بما قام به المغيرة في الناس وبما قام به رؤوسهم فيهم. فسأل ابن محدوج عما قام به صَعْقَةُ في عبد القيس فأخبره، وقال: كرهت أن أعلمكم فظننوا أنه ثقل علي مكانكم. فقال له: قد أكرمت المشوى وأحسنت، ونحن مرتحلون عنك.

وبلغ الخبر الذين في محبس المغيرة من الخوارج فقال مُعَاذ بن جُوَيْنٍ بن حصين في ذلك:

ألا أيها السَّوْءُ قَدْ حَانَ لَامِرئ
شَرَى نَفْسَهُ لِلْوَإِ أَنْ يَتْرَحَلَ
أَقْسَمَ بِدَارِ الْخَاطِئِينَ جَهْلَهُ
وَكُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ يُصَادُّ لِقَتْلِهِ
فَنَشَلُوا عَلَى الْقَوْمِ الْحُدُودَ فَإِنَّمَا
أَصَابَتْكُمْ لِلنَّبِيحِ رَأْيَا مُضَلَّلاً
أَلَا فَاغْصِدُوا بِأَقْصَمِ لِلْغَايَةِ النَّبِي
إِذَا ذُكِرَتْ كَانَتْ أَبْرَ وَأَعْدِلَا
فِيَا لَيْتِي فَيَكُمُ عَلَى ظَهْرِ سَابِغٍ
شَدِيدِ الْقَصْرِ دَارِعاً غَيْرَ أَعْزَلَا
وَيَا لَيْتِي فَيَكُمُ أَعَادِي عَدُوْكُمْ
فَيَسْتَبِي كَأَنَّ النِّيَّةَ أَوْلا

(٤٢٩/٣)

يَحْزَنُ عَلَيَّ أَنْ تُخَالَفُوا وَتُظْهَرُوا
وَلَمَّا أَجْرَدَ فِي الْمَجْلِينَ مُضْطَلَا
وَلَمَّا يَفْرُقُ جَمْعَهُمْ كُلَّ مَاجِدٍ
إِذَا قُلْتُ قَدْ وَلَّى وَابْتَرَّ أَقْبَلَا
مُضِيحاً بِنَصْلِ السِّيفِ فِي حَسِّ الزُّغَى
يَرَى الصِّرَافِي بَعْضَ الْمَوَاطِنِ أَمْثَلَا
وَعَزَّ عَلَيَّ أَنْ تُصَابُوا وَتُقْصَا
وَأَصْبَحَ ذَابِئُ أَمِيرٍ مُكْبَلَا
وَلَوْ لَأَتَيْتِي فَيَكُمُ وَقَدْ قُصِدُوا لَكُمْ
اِثْرَتْ إِذَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ قُسْطَلَا
فِيَا رَبِّ جَمْعٌ قَدْ فَلَّتْ وَغَارَةٌ
شَهِدَتْ وَقَبْرٌ قَدْ تَرَكْتُ مُجْدَلَا
وأرسل المستورد إلى أصحابه فقال لهم: اخرجوا من هذه

وبلغ المغيرة خبرهم وأنهم عازمون على الخروج تلك الأيام، فقام في الناس فحمد الله ثم قال: لقد علمتم أنني لم أزل أحب لجماعتهم العافية وأكف عنكم الأذى، وخشيت أن يكون ذلك أدب سوء لسفهاؤكم، وقد خشيت أن لا نجد بداً من أن يؤخذ الحليم التقي بذنب الجاهل السفیه، فكفوا عنها سفهاؤكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم، وقد بلغنا أن رجالاً يريدون أن يظهرُوا في المصر بالشقاق والنفاق والخلاف، وإيم الله لا يخرجون في شيء من أحياء العرب إلا أهلكتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم!

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرياحي فقال: أيها الأمير أعلمنا بهؤلاء القوم، فإن كانوا منا كفيناؤهم، وإن كانوا غيرنا أمرت أهل الطاعة فأنالك كل قبيلة بسفهاؤهم. فقال: ما سألني لي أحد باسمه. فقال مَعْقِل: أنا أكفيك (٤٢٧/٣) قومي فليكنك كل رئيس قومه. فاحضر المغيرة الرؤساء وقال لهم: ليكنيني كل رجل منكم قومه وإلا فوالله لأتحوَّلَنَّ عما تعرفون إلى ما تذكرون، وعما تحبون إلى ما تكرهون.

فرجعوا إلى قومهم فنادى بهم الله والإسلام إلا دلوهم على كل من يريد أن يهيج الفتنة، وجاء صَعْقَةُ بن صُوحَانَ إلى عبد القيس، وكان قد علم بمنزل حيان في دار سُلَيْم، ولكنه كره أن يؤخذ من عشيرته على فراقه لأهل الشام ويغضه لرايهم، وكره مساءة أهل بيت من قومه، فقام فيهم فقال: أيها الناس، إن الله، وله الحمد، لما قسم الفضل خصكم بأحسن القسم فأجبتم إلى دين الله الذي اختاره لنفسه وارتضاه لملائكته ورسله، ثم أقمت حتى قبض الله رسوله، ﷺ، ثم اختلف الناس بعده فثبتت طائفة وارتدَّت طائفة وأدهنت طائفة وتربصت طائفة، فلزمت دين الله إيماناً به ويزسوله وقاتلتهم المرتدِّين حتى قام الدين وأهلك الله الظالمين، ولم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً حتى اختلفت الأمة بينها فقالت طائفة: نريد طلحة والزبير وعائشة، وقالت طائفة: نريد أهل المغرب، وقالت طائفة: نريد عبد الله بن وهب الراسبي، وقتلتم أئمت: لا نريد إلا أهل

جاؤونا فإن نذهب بل نقيم حتى يحكم الله بيننا. وقال بعضهم: بل نتحى ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء. فقال لهم: لا أرى أن نقيم حتى يأتونا وهم مستريحون، بل أرى أن نسير بين أيديهم فيخرجوا في طلبنا فيقطعوا ويتبدؤوا فنلقاهم على تلك الحال.

فساروا فعبروا بجرجرايا ومضوا إلى أرض جُوخى ثم بلغوا المذار فأقاموا بها.

وبلغ ابن عامر بالبصرة خبرهم فسأل كيف صنع المغيرة فأخبر بفعله، فاستدعى شريك بن الأعور الحارثي، وكان من شيعة علي، فقال له: اخرج إلى هذه المارقة. ففعل. وانتخب معه ثلاثة آلاف فارس من الشيعة، وكان أكثرهم من ربيعة، وسار بهم إلى المذار.

وأما معقل بن قيس فسار إلى المدائن حتى بلغها، فبلغه رحيلهم فشق ذلك على الناس، فقال لهم معقل: إنهم ساروا لاتبعهم وتتبدؤوا وتنقطعوا فتلقوهم وقد تعبت، وإنه لا يصيبكم شيء من ذلك إلا وقد أصابهم مثل ذلك. وسار في آثارهم وقدم بين يديه أبا الرواغ الشاكري في ثلاثمائة فارس، فتبعهم أبو الرواغ حتى لحقهم بالمذار، فاستشار أصحابه في قتالهم قبل قدوم معقل، فقال بعضهم: لا تفعل، وقال بعضهم: بل نقاتلهم. فقال لهم: إن معقلاً أمرني أن لا أقاتلهم. فقالوا له: ينبغي أن تكون قريباً منه حتى يأتي معقل، وكان ذلك عند المساء. فباتوا يتحارسون حتى أصبحوا، فلما ارتفع النهار خرجت الخوارج إليهم، وكانوا أيضاً ثلاثمائة، وحملوا عليهم، فانهزم أصحاب أبي الرواغ ساعة ثم صاح بهم أبو الرواغ: الكزة الكزة! وحمل ومعه أصحابه، فلما دنوا من الخوارج عادوا منهزمين، إلا أنهم لم يقتل منهم أحد، قصاص بهم (٤٣٢/٣) أبو الرواغ أيضاً: نكلتكم أهانتكم! ارجعوا بنا نكن قريباً منهم لا نفارقهم حتى يقدم علينا أميرنا، وما أقبح بنا أن نرجع إلى الجيش منهزمين من عدونا فقال له بعض أصحابه: إن الله لا يستحي من الحق، قد والله هزمونا. فقال له: لا أكثر الله فينا مثلك، إننا ما لم نفارق المعركة فلم نهزم، ومتى عطفنا عليهم وكنا قريباً منهم فنحن على حال حسنة، فقروا قريباً منهم فإن أتوكم وعجزتم عنهم فتأخروا قليلاً، فإذا حملوا عليكم وعجزتم عن قتالهم فأنحازوا على حامية، فإذا رجعوا عنكم فاعطفوا عليهم وكونوا قريباً منهم، فإن الجيش يأتيكم عن ساعة.

فجعلت الخوارج كلما حملت عليهم أنحازوا عنهم، فإذا عاد الخوارج رجع أبو الرواغ في آثارهم، فلم يزالوا كذلك إلى وقت الظهر، فنزل الطائفتان يصلون ثم أقاموا إلى العصر، وكان أهل القرى والسيارة قد أخبروا معقلاً بالتقاء الخوارج وأصحابه، وأن الخوارج تطرد أصحابه بين أيديهم، فإذا رجعوا عاد أصحابه خلفهم. فقال معقل: إن كان ظني في أبي الرواغ صادقاً لا يأتيكم

القبيلة، وأتعدوا سوراء. فخرجوا إليها متقطعين، فاجتمعوا بها ثلاثمائة رجل وساروا إلى الصرأة، فسمع المغيرة بن شعبة خبرهم فدعا رؤساء الناس فاستشارهم فيمن يؤسله إليهم، فقال له عدي بن حاتم: كلنا لهم عدو ولرايهم ميغض وبطاعتك متمسك، فأبى شئت سار إليهم. وقال له معقل بن قيس: إنك لا تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولك إلا رأيتهم سامعاً مطيعاً ولهم مفارقاً ولهلاكهم محباً، ولا أرى أن تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولك إلا رأيتهم سامعاً مطيعاً ولهم مفارقاً ولهلاكهم محباً، ولا أرى أن تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى لهم مني، فابعثني إليهم، فانا أكفيكمهم بإذن الله تعالى. فقال: اخرج على اسم الله! فجهز معه ثلاث آلاف وقال المغيرة لصاحب شرطته: الصق بمعقل شيعة علي فإنه كان من رؤساء أصحابه، فإذا اجتمعوا استانس بعضهم ببعض وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة وأجراً عليهم من غيرهم، فقد قاتلوهم قبل هذه المرة. وقال له صعصعة بن صوحان نحواً من قول معقل. فقال له المغيرة: اجلس فإنما أنت خطيب. فأحفظه ذلك. (٤٣٠/٣)

وإنما قال له ذلك لأنه بلغه أنه يعيب عثمان بن عفان ويكثر ذكر علي ويفضله، وكان المغيرة دعاه وقال له: إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان، وإياك أن يبلغني أنك تظهر شيئاً من فضل علي، فانا أعلم بذلك منك، ولكن هذا السلطان قد ظهر وقد أخذنا بإظهار عيبه للناس فنحن ندع شيئاً كثيراً مما أمرنا به ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بداً ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا، فإن كنت ذاكرةً فضله فاذكره بينك وبين أصحابك في منازلكم سرّاً، وأما علانية في المسجد فإن هذا لا يحتمله الخليفة لنا. فكان يقول له: نعم، ثم يبلغه عنه أنه فعل ذلك، فحقد عليه المغيرة فأجابه بهذا الجواب، فقال له صعصعة: وما أنا إلا خطيب فقط! قال: أجل. فقال: والله إنني للخطيب الصليب الرئيس، أما والله لو شهدتني يوم الجمل حيث اختلفت القنا فشيرون تقرى وهامة تختلى لعلمت أني الليث النهذ. فقال: حسبك لعمرى لقد أوتيت لساناً فصيحاً.

وخرج معقل ومعه ثلاثة آلاف فارس نقاة الشيعة وسار إلى سوراء ولحقه أصحابه.

وأما الخوارج فلأنهم ساروا إلى نهْرَسير وأرادوا العبور إلى المدينة العتيقة التي فيها منازل كسرى، فمنعهم سيماك بن عبيد الأزدي العبيسي، وكان عاملاً عليها، فكتب إليه المستورد يدعوه إلى البراءة من عثمان وعلي وأن يتولاه وأصحابه. فقال سيماك: بشس الشيخ أنا إذا! وأعاد الجواب على المستورد يدعوه إلى الجماعة وأن يأخذ له الأمان، فلم يجب وأقام بالمدائن ثلاثة أيام، ثم بلغه مسير معقل إليهم فجمعهم المستورد وقال لهم: إن المغيرة قد بعث إليكم معقل بن قيس وهو من السبيّة المفترين الكاذبين، فأشيروا علي برايكم. فقال (٤٣١/٣) بعضهم: خرجنا نريد الله والجهاد وقد

منهزماً أبداً. ثم أسرع السير في ميغافاة من أهل القوة واستخلف
مُحَرِّز بن شهاب التميمي على ضَعْفَةِ الناس، فلَمَّا أشرَفوا على أبي
الرَّوَّاح قال لأصحابه: هذه غيرة فقدموا بنا إلى عدونا حتى لا يرانا
أصحابنا، إِنَّا نَتَجَبَّأُ عَنْهُمْ وَهَيْبَانَهُمْ. فتقدَّم حتى وقف مقابل
الخوارج ولحقهم معقل، فلَمَّا دنا منهم غربت الشمس فصلَّى
بأصحابه وصلَّى أبو الروَّاح بأصحابه وصلَّى الخوارج أيضاً، وقال
أبو الرَّوَّاح لمعقل: إِنَّ لَهُمْ شِدَاتٍ مَكْرَاتٍ فَلَا تَلْهَأُ بِتَشْكٍ وَلَكِنْ
قَفْ وَرَاءَ النَّاسِ تَكُونَ رِدْءاً لَهُمْ. فقال: نَعَمْ مَا رَأَيْتُ.

فَبَيْنَا هُوَ يَخَاطِبُهُ حَمَلَتِ الْخَوَارِجُ عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمَ عَامَّةُ أَصْحَابِ
مَعْقِلٍ وَثَبَتَ (٤٣٣/٣) هُوَ، فَنَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ وَمَعَهُ أَبُو الرَّوَّاحِ فِي
نَحْوِ مِائَتَيْ رَجُلٍ، فَلَمَّا غَشِيَهُمُ الْمُسْتَوْدُ اسْتَقْبَلُوهُ بِالرَّمَاخِ
وَالسُّيُوفِ، فَانْهَزَمَتْ خَيْلُ مَعْقِلٍ سَاعَةً، ثُمَّ نَادَاهُمْ مُسْكِينُ بْنُ عَامِرٍ،
وَكَانَ شَجَاعاً: أَيْنَ الْفِرَارُ وَقَدْ نَزَلَ أَمِيرُكُمْ، أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟ ثُمَّ رَجَعَ
وَرَجَعَتْ مَعَهُ خَيْلُ عَظِيمَةٍ وَمَعْقِلُ بْنُ قَيْسٍ يَقَاتِلُ الْخَوَارِجَ بَيْنَ مَعِهِ،
فَلَمْ يَزَلْ يَقَاتِلُهُمْ حَتَّى رَدَّهُمْ إِلَى الْبُيُوتِ، ثُمَّ لَمْ يَلِثُوا إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى
جَاءَهُمْ مُحَرِّزُ بْنُ شِهَابٍ فَمِنْ مَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ مَعْقِلٌ مِئْتَةً وَمِيسِرَةً
وَقَالَ لَهُمْ: لَا تَبْرَحُوا حَتَّى تَصْبَحُوا وَتَثْرَثُوا بِهِمْ.

وَوَقَّفَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ مَقَابِلَ بَعْضٍ، فَبَيْنَمَا هُمْ مُتَوَاقِفُونَ أُنِىَ
الْخَوَارِجُ عَيْنَ لَهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ شَرِيكَ بْنَ الْأَعُورِ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ
الْبَصْرَةِ فِي ثَلَاثِ آلَافٍ. فَقَالَ الْمُسْتَوْدُ لِأَصْحَابِهِ: لَا أَرَى أَنْ نَقِيسَ
لَهُوْلَاءَ جَمِيعاً، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ نَرْجِعَ إِلَى الرَّجْعَةِ الَّتِي جِئْنَا مِنْهَا، فَإِنَّ
أَهْلَ الْبَصْرَةِ لَا يَتَّبِعُونَنَا إِلَى أَرْضِ الْكُوفَةِ فَيُهَوِّنُونَنَا قِتَالِ أَهْلِ
الْكُوفَةِ. ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالْخُزُولِ لِيَرْيَحُوا دَوَابَّهُمْ سَاعَةً، فَفَعَلُوا، ثُمَّ دَخَلُوا
الْقَرْيَةَ وَاخْتَلَوْا مِنْهَا مَنْ دَلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي أَقْبَلُوا مِنْهُ وَعَادُوا
رَاجِعِينَ.

وَأَمَّا مَعْقِلٌ فَإِنَّهُ بَعَثَ مِنْ يَأْتِيهِ بِخَبَرِهِمْ حِينَ لَمْ يَرِ سَوَادَهُمْ،
فَعَادَ إِلَيْهِ بِالْخَبَرِ أَنَّهُمْ قَدْ سَارُوا، فَخَافَ أَنْ تَكُونَ مَكِيدَةٌ وَخَافَ
الْبَيَاتَ فَخَاطَبَهُمْ وَأَصْحَابَهُ وَتَحَارَسُوا إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا
أَتَاهُمْ مِنْ أَخْبَرِهِمْ بِمَسِيرِهِمْ، وَجَاءَ شَرِيكَ بْنُ الْأَعُورِ فَمِنْ مَعِهِ
فَلَقِيَ مَعْقِلًا فَتَسَاءَلَا سَاعَةً وَأَخْبَرَهُ مَعْقِلٌ بِخَبَرِهِمْ، فَدَعَا شَرِيكَ
أَصْحَابَهُ إِلَى الْمَسِيرِ مَعَ مَعْقِلٍ، فَلَمْ يَجِيبُوهُ، فَاعْتَدَلَ إِلَى مَعْقِلٍ
بِخِلَافِ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ يَجْمَعُهُمَا رَأْيُ الشَّيْعَةِ، وَدَعَا مَعْقِلٌ
أَبَا الرَّوَّاحِ وَأَمَرَهُ بِاتِّبَاعِهِمْ، فَقَالَ لَهُ: زِدْنِي مِثْلَ الَّذِينَ كَانُوا مَعِي
لِيَكُونَ أَقْوَى لِي إِذَا رَادُّوا مِثْلَ جَزْيَةٍ. فَنَبِذَ مَعَهُ سِتْمَافَةَ فِأَرَسٍ،
فِيأَبْرُوا سَرِيعاً حَتَّى أَهْرَكَوا الْخَوَارِجَ (٤٣٤/٣) بِجَرَجَرِيٍّ وَقَدْ نَزَلُوا
فَنَزَلَ بِهِمْ أَبُو الرَّوَّاحِ مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ قَالُوا: إِنَّ قِتَالَ
هَؤُلَاءِ أَيْسَرُ مِنْ قِتَالِ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ، فَحَمَلُوا عَلَى أَبِي الرَّوَّاحِ
وَأَصْحَابِهِ حَمْلَةً صَادِقَةً، فَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ وَثَبَتَ فِي مِائَةِ قَارَسٍ،
فَقَاتَلَهُمْ طَوِيلًا وَهُوَ يَقُولُ:

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو الرَّوَّاحِ عَلَيْهِمْ فَمِنْ مَعِهِ. وَكَانَ
سَبَبُ عَوْدَةِ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ أَقَامَ بِمَكَانِهِ يَنْتَظِرُهُمْ، فَلَمَّا أَبْطَأُوا عَلَيْهِ أَرْسَلَ
مَنْ يَأْتِيهِ بِخَبَرِهِمْ، فَرَأَوْا الْجِسْرَ مَقْطُوعاً فَفَرَحُوا ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ
الْخَوَارِجَ فَعَلُوا ذَلِكَ هَيْبَةً لَهُمْ، فَجَرَعُوا إِلَى إِيَّتِي الرَّوَّاحِ فَأَخْبَرُوهُ
أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهُ وَأَنَّ الْجِسْرَ قَدْ قَطَعُوهُ هَيْبَةً لَهُمْ. فَقَالَ لَهُمْ أَبُو
الرَّوَّاحِ: لَعَمْرِي مَا فَعَلَ هَذَا إِلَّا مَكِيدَةٌ، وَمَا أَرَاهُمْ إِلَّا وَقَدْ سَتَرُوا
إِلَى مَعْقِلٍ حَيْثُ رَأَوْا فَرَسِيَّانِ أَحْجَلِيَّيْهِ جَعِي، وَقَدْ قَطَعُوا الْجِسْرَ
لِيَسْخَلُوكُمْ بِهِ عَنْ لِحَاقِهِمْ، فَالْتَجَاءَ فَالْتَجَاءَ فِي الطَّلَبِ.

ثُمَّ أَمَرَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ فَعَقَلُوا لِلْجِسْرِ وَعَبَسَ عَلَيْهِ وَاتَّبَعَ الْخَوَارِجُ،
فَلَقِيَهِ أَوَّلُ النَّاسِ مِنْهُمْ، فَصَلَّحَ بِهِمْ: إِلَيَّ إِلَيَّ فَجَرَعُوا إِلَيْهِ
وَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ وَأَنَّهُمْ تَرَكُوا مَعْقِلًا يَسْتَلْتُهُمْ وَمِنَا يَظُنُّونَهُ إِلَّا قَتِيلًا.
فَفَجَأَ فِيهِ الْهَبِيرُ وَرَدَّ مَعَهُ كُلَّ مَنْ لَقِيَهِ مِنَ الْمَنْهَزِمِينَ، فَانْتَهَى إِلَى
الْعَبِيكَرِ فَرَأَى رَايَةَ مَعْقِلٍ مُنْصَرِفَةً وَالنَّاسَ يَقْتُلُونَ، فَحَمَلَ أَبُو الرَّوَّاحِ

وقال: ما هذه؟ قالوا: امرأة نَفَساء يُعْبَلُ لها الخبيص؛ فأمر أن يُطْعَم معقل فإذا هو متقدّم يحرّض أصحابه، فشَدُّوا على الخوارج شدةً منكراً، ونزل المستورد ومن معه من الخوارج ونزل أصحاب معقل أيضاً ثم اقتتلوا طويلاً من النهار بالسيوف أشدّ قتال.

ثم إنَّ المستورد نادى معقلاً ليبرز إليه، فبرز إليه، فمنعه أصحابه، فلم يقبل منهم، وكان معه سيفه ومع المستورد رمحه، فقال أصحاب معقل: خذ (٤٣٦/٣) رمحك. فأبى وأقبل على المستورد، فطعنه المستورد برمحه فخرج السنان من ظهره، وتقدّم معقل والرمح فيه إلى المستورد فضربه بالسيف فخالط دماغه فوقع المستورد ميتاً ومات معقل أيضاً.

وكان معقل قد قال: إن قُتِلْتُ فأمركم عمرو بن مُحَرَّر بن شهاب التميمي. فلما قُتِل أخذ الراية عمرو ثم حمل في الناس على الخوارج فقتلوه ولم ينج منهم غير خمسة أو ستة.

وقال ابن الكلبي: كان المستورد من تميم ثم من بني رياح؛ واحتج بقول جرير:
ومنا قس القتيان والجوّد معقِلٌ ومنا الذي لا قى بجلّة معقِلًا
يعني هذه الواقعة.

ذكر عود عبد الرحمن إلى ولاية سجستان

في هذه السنة استعمل عبد الله بن عامر عبد الرحمن بن سمرّة على سجستان، فأثابها وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبليّ ومعه من الأشراف عمرو بن عبيد الله بن مخمر وغيره، فكان يغزو البلد قد كفر أهله فيفتحه، حتى بلغ كابل فحصرها أشهراً ونصب عليها مجانيق فثلثت سورها ثلثة عظيمة، فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يطاعن المشركين حتى أصبح فلم يقدروا على سنها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة، ثم سار إلى بُست ففتحها عنوة، وسار إلى زران فهرب أهلها وغلب عليها، ثم سار (٤٣٧/٣) إلى خُشك فصالحه أهلها، ثم أتى الرُخج فقاتلوه فظفر بهم وفتحها، ثم سار إلى زابلستان، وهي غزنة وأعمالها فقاتله أهلها، وقد كانوا نكثوا، ففتحها، وعاد إلى كابل وقد نكث أهلها ففتحها.

ذكر غزوة السند

استعمل عبد الله بن عامر على نهر الهند عبد الله بن سوار العبدي، ويقال ولّاه معاوية من قبله، فغزا القيقان فأصاب مغنماً، ووفد على معاوية وأهدى له خيلاً قيقانية، ورجع فغزا القيقان فاستجدوا بالترك فقتلوه، وفيه يقول الشاعر:

وابن سوار على عنادٍ موقد النار وقتل الشنق
وكان كريماً لم يوقد أحد في عسكره ناراً، فرأى ذات ليلة نارا

ذكر ولاية عبد الله بن خازم خراسان

قيل: وفي هذه السنة عزل عبد الله بن عامر قيس بن الهيثم القيسي ثم السلمي عن خراسان واستعمل عبد الله بن خازم. (٤٣٨/٣)

وسبب ذلك أن قيساً أبطأ بالخراج والهدية، فقال عبد الله بن خازم لعبد الله بن عامر: ولّني خراسان أكفكها. فكتب له عهده، فبلغ ذلك قيساً فخاف ابن خازم وشغبه فترك خراسان وأقبل، فازداد ابن عامر غضباً لتضييعه الثغر، فضربه وحبسه وبعث رجلاً من يشكر على خراسان، وقيل: بعث أسلم بن زُرعة الكلابي ثم ابن خازم.

وقيل في عزله غير ذلك، وهو أن ابن خازم قال لابن عامر: إنك استعملت على خراسان قيساً وهو ضعيف، وإنني أخاف إن لقي حرباً أن ينهزم بالناس فتهلك خراسان وتفضح أخوالك، يعني قيس عيلان. قال ابن عامر: فما الرأي؟ قال: تكتب لي عهداً إن هو انصرف عن عدوّ قمتُ مقامه. فكتب له.

وجاش جماعةً من طخارستان فشاوره قيس فأشار عليه ابن خازم أن يتصرف حتى يجتمع إليه أطرافه، فلما سار مريحة أو اثنتين أخرج ابن خازم عهده وقام بأمر الناس ولقي العدو فهزمهم، وبلغ الخبر الكوفة والبصرة والشام فغضب القيسيّة وقالوا: خذ قيساً وابن عامر! وشكوا إلى معاوية، فاستقدمه، فاعتذر ممّا قيل فيه، فقال معاوية: ممّ غداً فاعتذر في الناس. فرجع إلى أصحابه وقال: إنني أمرت بالخطبة ولست بصاحب كلام فاجلسوا حول المنبر فإذا قلت فصّ قوني. فقام من الغد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنما يتكلّف الخطبة إمام لا يجد منها بداً أو أحقّ يهمر من رأسه، ولست بواحد منهما، وقد علم من عرفني أنني بصير بالقرص وثاب إليها، وقاف عند المهالك، أنفذ بالسرية وأقسم بالسوية، أنشد الله من عرف ذلك مني فليصدّقني. فقال أصحابه: صدقت. فقال: يا أمير المؤمنين إنك فيمن نشدتُ قتل بما تعلم. فقال: صدقت. (٤٣٩/٣)

ذكر عدة حوادث

وحجّ هذه السنة مروان بن الحكم وكان على المدينة، وكان على مكة خالد بن العاص بن هشام، وعلى الكوفة المغيرة، وعلى البصرة عبد الله بن عامر.

فيها مات عبد الله بن سلام، وله صحيفة مشهورة، وهو من علماء أهل الكتاب، وشهد له رسول الله، ﷺ، بالجنة. (٤٤٠/٣)

سنة أربع وأربعين

في هذه السنة دخل المسلمون مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم وشتوا بها، وغزا يسر بن أبي أرطاة في البحر.

ذكر عزل عبد الله بن عامر عن البصرة

وفي هذه السنة عزل عبد الله بن عامر عن البصرة.

وسببه أن ابن عامر كان حليماً كريماً ليئلاً، لا يأخذ على أيدي السفهاء، وفسدت البصرة في أيامه فشكا ذلك إلى زياد، فقال له: جرد السيف. فقال له: إني أكره أن أصلحهم بفساد نفسي. ثم إن ابن عامر وفد وفداً من البصرة إلى معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة، وفيهم ابن الكواء، واسمه عبد الله بن أبي أوفى الشكري، فسألهم معاوية عن أهل العراق وعن أهل البصرة خاصة، فقال ابن الكواء: يا أمير المؤمنين، إن أهل البصرة قد أكلهم سفهاؤهم، وضعف عنهم سلطانهم، وعجز ابن عامر وضعفه. فقال له معاوية: تتكلم عن أهل البصرة وهم حضور؟

فلما عاد أهل البصرة أبلغوا ابن عامر، فغضب وقال: أي أهل العراق أشدّ عداوة لابن الكواء؟ ف قيل: عبد الله بن أبي شيخ الشكري، فولاه خراسان، فبلغ ذلك ابن الكواء فقال: إن ابن دجاجة، يعني ابن عامر، (٤٤١/٣) قليل العلم في، ظن أن ولاية عبد الله خراسان تسووني! لوددت أنه لم يبق يشكري إلا عباداني. وأنه ولأه.

وقيل: إن الذي ولأه ابن عامر خراسان طفيل بن عوف الشكري.

فلما علم معاوية حال البصرة أراد عزل ابن عامر فأرسل إليه يستزيه، فجاء إليه، فردّه على عمله، فلما ودّعه قال: إني سأفلك ثلاثاً فقلّ من لك. فقال: من لك، وأنا ابن أم حكيم. قال: تردّ عليّ عملي ولا تغضب. قال: قد فعلت. قال: وتهب لي ماله بقرعة. قال: قد فعلت. قال: وتهب لي دورك بمكة. قال: قد فعلت. قال: وصنّلك رجم. فقال ابن عامر: يا أمير المؤمنين إني سأفلك ثلاثاً فقلّ من لك. فقال: من لك، وأنا ابن هند. قال: تردّ عليّ مالي بقرعة. قال: قد فعلت. قال: ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع لي أثراً. قال: قد فعلت. قال: وتبكي ابتك هنداً. قال: قد فعلت.

ويقال: إن معاوية قال له: اختر إما أن أتبع أثرك وأحاسبك بما صار إليك وأردك، وإما أن أعزلك وأسوئك ما أصبت. فاختار العزل وأن لا يسوئك ما أصاب، فعزله وولى البصرة الحارث بن عبد الله الأزدي.

ذكر استلحاق معاوية زياداً

وفي هذه السنة استلحق معاوية زياد بن سمية، فزعموا أن رجلاً من عبد القيس كان مع زياد لما وفد على معاوية، فقال لزياد: إن لابن عامر عندي يدأ فإن أذنت لي أتيته. قال: عسى أن تحدثني بما يجري بينك وبينه. قال: نعم. (٤٤٢/٣) فأذن له فاتاه، فقال له ابن عامر: هيه هيه! وابن سمية يفتح آثاري ويعرض بعُمالي! لقد هممت أن آتي بقساماً من قريش يحلفون بالله أن أبا سفيان لم ير سمية.

فلما رجع سألّه زياد فلم يخبره، فألح عليه حتى أخبره، فأسخبر زياد بذلك معاوية. فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضرب وجهه دأته عن أقصى الأبواب. ففعل ذلك به. فأتى ابن عامر يزيد فشكا ذلك إليه، فركب معه حتى أدخله، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل، فقال يزيد لابن عامر: اجلس، فكم عسى أن تقعد في البيت عن مجلسه! فلما اطّلا خرج معاوية وهو يتمثل:

لنا سباق ولكم سباق قد علمت ذلكم الرقاق
ثم قد قال: يا ابن عامر أنت القائل في زياد ما قلت؟ أما والله لقد علمت العرب أنني كنت أعزها في الجاهلية وأن الإسلام لم يزدني إلا عزاً، وأني لم أنكث زياد من قلة ولم أنعز به من ذلة، ولكن عرفت حقاً له فوضعت موضعه. فقال: يا أمير المؤمنين نرجع إلى ما يحب زياد. قال: إذا نرجع إلى ما تحب. فخرج ابن عامر إلى زياد فترصاه.

فلما قدم زياد الكوفة قال: قد جئتكم في أمر ما طلبته إلا لكم. قالوا: ما تشاء؟ قال: تلحقون نسي بمعاوية. قالوا: أما بشهادة الزور فلا. فأتى البصرة فشهد له رجل. (٤٤٣/٣) هذا جميع ما ذكره أبو جعفر في استلحاق معاوية نسب زياد، ولم يذكر حقيقة الحال في ذلك، إنما ذكر حكاية جرت بعد استلحاقه، وأنا أذكر سبب ذلك وكيفية، فإنه من الأمور المشهورة الكبيرة في الإسلام لا ينبغي إهمالها.

وكان ابتداء حاله أن سمية أم زياد كانت لدهقان زُندورد بكسرك، فمرض الدهقان، فدعا الحارث بن كلدة الطيب الثقفى، فعالجه فبرأ، فوهبه سمية، فولدت عند الحارث أبا بكر، واسمه نعيم، فلم يُقر به، ثم ولدت نافعاً، فلم يُقر به أيضاً، فلما نزل أبو بكر إلى النبي ﷺ، حين حصر الطائف قال الحارث لنافع: أنت ولدي. وكان قد زوج سمية من غلام له اسمه عبيد، وهو رومي، فولدت له زياداً.

وكان أبو سفيان بن حرب سار في الجاهلية إلى الطائف فتزل على خمار يقال له أبو مريم السلولي، وأسلم أبو مريم بعد ذلك وصحب النبي ﷺ، فقال أبو سفيان لأبي مريم: قد اشتبهت النساء

تكتب له: إلى زياد بن أبي سفيان، فيحتج بذلك، فكتبت: من عائشة أم المؤمنين إلى ابنتها زياد. وعظم ذلك على المسلمين عامة وعلى بني أمية خاصة، وجرى أقاصيص يطول بذكرها الكتاب فأضربنا عنها.

ومن اعتذر لمعاوية قال: إنما استلحق معاوية زياداً لأن انكحة الجاهلية كانت أنواعاً، لا حاجة إلى ذكر جميعها، وكان منها أن الجماعة يجامعون البغي فإذا حملت وولدت الحقت الولد لمن شاءت منهم فيلحقه، فلما جاء الإسلام حرم هذا النكاح، إلا أنه أقر كل ولد كان ينسب إلى أب من أي نكاح كان من انكحتهم على نسيه ولم يفرق بين شيء منها، فتوهم معاوية أن ذلك جائز له ولم يفرق بين استلحاق في الجاهلية والإسلام، وهذا مردود لاتفاق المسلمين على إنكاره ولأنه لم يستلحق أحد في الإسلام مثله ليكون به حجة.

قيل: أراد زياد أن يحج بعد أن استلحقه معاوية، فسمع أخوه أبو بكره، وكان مهاجراً له من حين خالفة في الشهادة بالزنا على المغيرة بن شعبة، فلما سمع بحجّه جاء إلى بيته وأخذ ابناً له وقال له: يا بني قل لأبيك إنني سمعت أنك تريد الحج ولا بد من قدومك إلى المدينة ولا شك أن تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ، فإن أذنت لك فأعظم به خيراً مع رسول الله ﷺ، وإن منعتك فأعظم به فضيحة في الدنيا وتكذيباً لأعدائك. فترك زياد الحج وقال: جزاك الله خيراً فقد أبلغت في النصح. (٤٤٦/٣)

ذكر غزو المهلب السند

وفيها غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند فأتى بنة والأهواز، وهما بين الملتان وكابل، فلقيه العدو وقتلته، ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعاً، فقال المهلب: ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشهير منا! فحذف الخيل، وكان أول من حذفها من المسلمين، وفي يوم بنة يقول الأزدي:

الم تر أن الأزد ليلست يئسوا بينة كانوا خير جيش المهلب؟

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس في هذه السنة معاوية.

وفيها عمل مروان بن الحكم المقصورة بالمدينة، وهو أول من عملها بها، وكان معاوية قد عملها بالشام لما ضربه الخارجي.

وفيها توفيت أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ.

وفيها قتل رفاعة العدوي من عدي رباب، وهو بصري له

صحة. (٤٤٧/٣)

فالتمس لي بغيًا. فقال له: هل لك في سمية؟ فقال: هاتها على طول ثديها وذفر بطنها. فأتاه بها، فوقع عليها، فعلق بزياد، ثم وضعت في السنة الأولى من الهجرة، فلما كبر ونشأ استكتبه أبو موسى الأشعري لما ولي البصرة، ثم إن عمر بن الخطاب استكفى زياداً أمراً فقام فيه مقاماً مرضياً، فلما عاد إليه حضر، وعند عمر المهاجرون والأنصار، فخطب خطبة لم يسمعوها بمثلها. فقال عمرو بن العاص: لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه! فقال أبو سفيان، وهو حاضر: والله إني لأعرف أبيه ومن وضعه في رحم أمه. فقال علي: يا أبا سفيان اسكت فإنك لتعلم أن عمر لو سمع هذا القول منك لكان إليك سريعاً.

فلما ولي علي الخلافة استعمل زياداً على فارس، فضبطلها وحمل قلاعها، واتصل الخير بمعاوية، فساه ذلك وكتب إلى زياد يتهدده ويعرض له بولادة (٤٤٤/٣) أبي سفيان إياه، فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس وقال: العجب كل العجب من ابن أكلة الأكباد، ورأس النفاق! يخونني بقصده ليأي ويبيني وبينه ابناً عم رسول الله ﷺ، في المهاجرين والأنصار؟ أما والله لو أذن لي في لقائه لوجدني أحمر مخشياً ضرباً بالسيف.

وبلغ ذلك علياً فكتب إليه: إني ولتلك ما ولتلك وأنا أراك له أهلاً، وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثاً ولا تحل له نسباً، وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذر ثم احذر، والسلام.

فلما قتل علي، وكان من أمر زياد ومصالحته معاوية ما ذكرناه، واضع زياداً مصقلة بن هبيرة الشيباني وضمن له عشرين ألف درهم ليقول لمعاوية: إن زياداً قد أكل فارس برأً وبحراً وصالحك على ألفي ألف درهم، والله ما أرى الذي يقال إلا حقاً، فإذا قال لك: وما يقال؟ قل: يقال إنه ابن أبي سفيان. ففعل مصقلة ذلك، ورأى معاوية أن يستميل زياداً، واستصفى مودته باستلحاقه، فاتفقا على ذلك، وأحضر الناس وحضر من يشهد لزياد، وكان فيمن حضر أبو مريم السلولي، فقال له معاوية: بيم تشهد يا أبا مريم؟ فقال: أنا أشهد أن أبا سفيان حضر عندي وطلب مني بغيًا فقلت له: ليس عندي إلا سمية، فقال: إيتني بها على قدرها ووضرها، فأتيتها بها، فخلا معها ثم خرجت من عنده وإن إسكتها لتقتران متياً. فقال له زياد: مهلاً أبا مريم! إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً.

فاستلحقه معاوية، وكان استلحاقه أول ما ردت أحكام الشريعة علانية، فإن رسول الله ﷺ، قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر.

(٤٤٥/٣)

وكتب زياد إلى عائشة: من زياد بن أبي سفيان، وهو يريد أن

سنة خمس وأربعين

فيها وثى معاوية الحارث بن عبد الله الأزدي البصرة في أولها حين عزل ابن عامر، وهو من أهل الشام، فاستعمل الحارث على شرطته عبد الله بن عمرو الثقفي، فبقي الحارث أميراً على البصرة أربعة أشهر، ثم عزله وولاه زياداً.

ذكر ولاية زياد بن أبيه البصرة

قدم زياد الكوفة فأقام ينتظر إمارته عليها، فقبل ذلك للمغيرة بن شعبة، فسار إلى معاوية فاستقاله الإمارة وطلب منه أن يعطيه منازل بقرقيسيا ليكون بين قيس، فخافه معاوية وقال له: لترجعن إلى عمله. فآبى، فازداد معاوية ثمة له، فردّه على عمله، فعاد إلى الكوفة ليلاً وأرسل إلى زياد فأخرجه منها.

وقيل: إن المغيرة لم يسر إلى الشام وإنما معاوية أرسل إلى زياد، وهو بالكوفة، فأمره بالمسير إلى البصرة، فولاه البصرة وخراسان وسجستان، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان، فقدم البصرة آخر شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين والفسق ظاهر فاش، فخطبهم خطبة البتراء، لم يحمد الله فيها، وقيل: بل حمد الله فقال:

الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله مزيداً من نعمه، اللهم كما رزقنا نعماً فألهمنا شكراً على نعمك علينا! أما بعدُ فإن الجهالة الجاهل والضلالة العمياء (٤٤٨/٣) والفجر الموقد لأهله النار، الباقي عليهم سعيهم، ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه حلساؤكم من الأمور العظام، فبنت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كان لم تسمعوا نبي الله، ولم تقرأوا كتاب الله، ولم تعلموا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمذ الذي لا يزول، أنكونون كمن طرفت عينه الدنيا، وسدت مسامحة الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه؛ هذه المواخير المنصورة والضعيفة المضطربة في النهار المنصر، والعدد غير قليل، ألم تكن منكم ثمة تمنع الغبوة عن دُلج الليل وغارة النهار؟ قرئتم القرابة وباعدتم الدين، تعتدون بغير العذر، وتعطفون على المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه، صبيح من لا يخاف عاقبة، ولا يخشى معاداً! ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً في مكائس الرئس، حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً! إنني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير جبرية وعنف، وإنني لأقسم بالله لأخذن الولي بالولي، والمقيم بالطاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم

بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تسقيم لي قناتكم، إن كذبة المنبر [إلقاه] مشهورة، فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي، من يئت منكم (٤٤٩/٣) فإنا ضامن لما ذهب له، وإني ودلج الليل فلاني لا أوتي بمُدلج إلا سفكت دمه، وقد اجتلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخير الكوفة ويرجع إليكم، وإني ودعوى الجاهلية فلاني لا أجد أحداً دعابها إلا قطع لسانه.

وقد أحدثتم إحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوماً غرقناه، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نهب بيتاً نهب عن قلبه، ومن نهب قبراً دفنته فيه حياً، فكفوا عني أيديكم والستكم أكف عنكم لساني ويدي، وإني لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه، وقد كانت بيني وبين أقوام إحتر ف جعلت ذلك ذبر أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزد إحساناً، ومن كان مسيئاً فليترع عن إساءته. إنني لو علمت أن أحكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهلك له سراً حتى يئدي لي صفحته، فإذا فعل لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتسن بقدمونا سيئراً، ومسروور بقدمونا سيئس.

أيها الناس إننا أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونؤدو عنكم بفي الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستخرجوا عدلنا وفينا بما صحتكم، واعلموا أنني مهما قصرت عنه فإني لا أصر عن ثلاث: لميت محتجاً عن طالب حاجة منكم ولو أثاني طارقاً بليل، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانة، ولا مجسراً لكم بعثاً، فادعوا الله بالصلاح لأمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تذكروا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم لكان شراً لكم، أسأل الله أن يعين كلاً على كل، (٤٥٠/٣) فإذا رايتوني أفقد فيكم الأمر فانفذوه على أذلاله، وإن لي فيكم لصعاً كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعائي.

فقام إليه عبد الله بن الأهم فقال: أشهد أيها الأمير أنك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب. فقال: كذبت، ذاك نبي الله داود! فقال الأحف: قد قلت فأحسن أيها الأمير، والثناء بعد الهلاء، والحمد بعد العطاء، وإننا لن نتي حتى نبلي. فقال زياد: صدقت. فقام إليه أبو بلال مرداس بن أدية، وهو من الخوارج، وقال: أتبا الله بغير ما قلت، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَزَلِيمَ الَّذِي وَقَىٰ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٧-٣٩] فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتني يا زياد. فقال زياد: إننا لا نجد إلى ما تريد

أنت وأصحابك سبيلاً حتى نخوض إليها الدماء.

واستعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن، وأجل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخير، فكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلي فيأمر رجلاً أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يُرْتَل القرآن، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج، فيخرج فلا يرى إنساناً إلا قتله، فأخذ ذات ليلة أعرابياً فأتى به زياداً فقال: هل سمعت النداء؟ فقال: لا والله! قدمت بحلوبة لي وغشيتني الليل فاضطرتها إلى موضع وأقمْتُ لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير. فقال: أظنك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح الأمة. ثم أمر به فضربت عنقه.

وكان زياد أول من شدد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وجرد سيفه، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمِن بعضهم بعضاً، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى (٤٥١/٣) يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه.

وأدر العطاء، وبنى مدينة الرزق، وجعل الشرط أربعة آلاف، وقيل له: إن السبيل مخوفة. فقال: لا أعاني شيئاً وراء المصير حتى أصلح المصير، فإن غلبني فغيره أشد غلبة منه. فلما ضبط المصير وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه.

ذكر عمال زياد

استعان زياد بعدة من أصحاب النبي، منهم: عمران بن حصين الخزاعي ولآء قضاء البصرة، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سُمرة، وسُمرة بن جندب. فأما عمران فاستعفى من القضاء فأعفاه، واستعفى عبد الله بن فضالة الليثي، ثم أخاه عاصماً، ثم زُرارة بن أوفى، وكانت أخته عند زياد.

وقيل إن زياداً أول من سير بين يديه بالحراوب والعمد واتخذ الحرس رابطة خمسمائة لا يفارقون المسجد.

وجعل خراسان أربعاء، واستعمل على مرو أُمير بن أحمر، وعلى نيسابور خُلَيْد بن عبد الله الحنفي، وعلى مرو البروذ والفارياب والطالقان قيس بن الهيثم، وعلى هراة وباذغيس ويوشنج نافع بن خالد الطاحي، ثم عتب عليه فعزله.

وسبب تغييره عليه أن نافعاً بعث بخوان باذهر إلى زياد قوائمه منه، (٤٥٢/٣) فأخذ نافع منها قائمة وعمل مكانها قائمة من ذهب وبعث الخوان مع غلام له اسمه زيد، وكان يلي أمور نافع كلها، فسعى زيد بنافع إلى زياد وقال: إنّه خائنك وأخذ قائمة الخوان. فعزله زياد وحسبه وكتب عليه كتاباً بمائة ألف، وقيل: بشماتة ألف، فشفع فيه رجال من وجوه الأزدي فاطلعه.

واستعمل الحكم بن عمرو الغفاري، وكانت له صُحبة، وكان زياد قال لحاجبه: ادع لي الحكم، يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي، ليؤيه خراسان، فخرج حاجبه فرأى الحكم بن عمرو الغفاري فاستدعاه، فحين رآه زياد قال له: ما أردتكم ولكن الله أرادكم! فولاه خراسان وجعل معه رجالاً على جباية الخراج، منهم: أسلم بن زُرعة الكلبي وغيره. وغزا الحكم طخارستان، فغنم غنائم كثيرة، ثم مات؛ واستخلف أنس بن أبي أناس بن زُئيم، فعزله زياد وكتب إلى خُلَيْد بن عبد الله الحنفي بولاية خراسان، ثم بعث الربيع بن زياد الحارثي في خمسين ألفاً من البصرة والكوفة.

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس هذه السنة مروان بن الحكم، وكان على المدينة. وفيها مات زياد بن ثابت الأنصاري، وقيل: سنة خمس وخمسين، وعاصم بن عدي الأنصاري البلوي، وكان بدرياً، وقيل: لم يشهدوا بل ردّه رسول الله، ﷺ، إلى المدينة وضرب له بسهمه، وكان عمره مائة وعشرين سنة.

وفيها مات سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري بالمدينة، وشهد العقبة وبدراً، وكان عمره سبعين سنة.

وفيها توفي ثابت بن الضحّاك بن خليفة الكلبي، وهو من أصحاب الشجرة، وهو أخو أبي جُبيرة بن الضحّاك. (٤٥٣/٣)

سنة ست وأربعين

في هذه السنة كان مشى مالك بن عبد الله بأرض الروم، وقيل: بل كان ذلك عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وقيل: بل كان مالك بن هُبيرة السكوني.

وفيها انصرف عبد الرحمن بن خالد من بلاد الروم إلى حمص ومات.

ذكر وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد

وكان سبب موته أنه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا إليه لما عندهم من آثار أبيه ولغائته في بلاد الروم ولشدّة بأسه، فخافه معاوية وخشي منه وأمر ابن أُنال النصراني أن يحتال في قتله وضمن له أن يضع عنه حراجة ما عاش وأن يوليه [جباية] خراج حمص. فلما قدم عبد الرحمن من الروم دس إليه ابن أُنال شربة مسمومة مع بعض مماليكه، فشربها، فمات بحمص، فوفى له معاوية بما ضمن له.

وقدم خالد بن عبد الرحمن بن خالد المدينة فجلس يوماً إلى عروة بن الزبير، فقال له عروة ما فعل ابن أُنال، فقام من عنده

وسار إلى حمص فقتل ابن أثال، فحُمِلَ إلى معاوية، فحبسه أياماً ثم غرّمه ديتة، ورجع خالد إلى المدينة فأثى عروة، فقال عروة: ما فعل ابن أثال؟ فقال: قد كفيّتك ابن أثال، ولكن ما فعل ابن جرموز؟ يعني قاتل الزبير، فسكت عروة. (٤٥٤/٣)

ذكر خروج سَهْم والخَطِيم

وفيهما خرج الخَطِيم، وهو يزيد بن مالك الباهلي، وسَهْم بن غالب الهُجَيْمِي، فحَكَمَا؛ فَأَمَّا سَهْم فَأُثِرَ خُورُجُ إِلَى الْأَهْوَازِ فَحَكَّم بِهَا، ثُمَّ رَجَعَ فَأَخْتَفَى وَطَلَبَ الْأَمَانُ فَلَمْ يَوْمَنْهُ زِيَادٌ وَطَلَبَهُ حَتَّى أَخَذَهُ وَقَتْلَهُ وَصَلَبَهُ عَلَى بَابِهِ.

وَأَمَّا الْخَطِيمُ فَإِنَّ زِيَادًا سَيَّرَهُ إِلَى الْبَحْرَيْنِ ثُمَّ أَقْدَمَهُ وَقَالَ لِمُسْلِمِ بْنِ عَمْرٍو الْبَاهَلِيِّ، وَالِدِ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ: اضْمَنْهُ، فَأَبَى وَقَالَ: إِنْ بَاتَ خَارِجًا عَنْ بَيْتِهِ أَعْلَمْتُكَ، ثُمَّ أَنَاهُ مُسْلِمٌ فَقَالَ لَهُ: لَمْ يَسْتَخْطِمْ الْخَطِيمُ اللَّيْلَةَ فِي بَيْتِهِ، فَأَمَرَهُ بِفَقْتُلِ وَأَلْقِي فِي بَاهِلَةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ أَنْتُمْ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ هَاهُنَا لِأَنَّهُ قُتِلَ هَذِهِ السَّنَةَ.

ذكر عدة حوادث

وحجَّ بالناس هذه السنة عُثْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، وَكَانَ الْعَمَلُ مِنْ تَقَدَّمَ ذَكَرَهُمْ.

وفيهما توفي صالح بن كيسان مولى بني غفار، وقيل: مولى بني عامر، وقيل: الخُزَاعِي. (٤٥٥/٣)

سنة سبع وأربعين

في هذه السنة كان مشى مالك بن قُبَيْرَةَ بِأَرْضِ الرُّومِ، وَمَشَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَيْنِيُّ بِأَنْطَاكِيَةَ.

ذكر عزل عبد الله بن عمرو عن مصر وولاية ابن خُذَيْج

وفيهما عزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ووليها معاوية بن خُذَيْج وَكَانَ عِشْمَانِيًّا، فَمَرَّ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا مُعَاوِيَةُ قَدْ أَخَذْتَ جَزَائِكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ، قَدْ قَتَلْتَ أَخِي مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ لَتَلِي مِصْرَ فَقَدْ وَلَيْتَهَا. فَقَالَ: مَا قَتَلْتُ مُحَمَّدًا إِلَّا بِمَا صَنَعَ بِعِثْمَانَ. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَلَوْ كُنْتَ إِنَّمَا تَطْلُبُ بِلَدِّ عِثْمَانَ لَمَا شَارَكْتَ مُعَاوِيَةَ فِيمَا صَنَعَ حَيْثُ عَمِلَ عَمْرُو بِالْأَشْعَرِيِّ مَا عَمِلَ فَوَلَّيْتُ أَوَّلَ النَّاسِ فَبَايَعْتَهُ.

(خُذَيْجٌ بَضَمَ الْحَاءَ الْمَهْمَلَةَ، وَفَتَحَ الدَّالَ الْمَهْمَلَةَ، وَبِالْجِيمِ).

ذكر غزوة العور

في هذه السنة سار الحَكَمُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى جِبَالِ الْبُقُورِ فَبِغَا مِنْهَا، وَكَانُوا (٤٥٦/٣) ارْتَدَّوْا، فَأَخَذَهُمْ بِالسَّيْفِ عَنُودٌ وَفَتَحَهَا وَأَصَابَ

ذكر مكيدة للمهلب

وَكَانَ الْمَهْلَبُ مَعَ الْحَكَمِ بْنِ عَمْرٍو بِخُرَاسَانَ، وَغَزَا مَعَهُ بَعْضُ جِبَالِ التُّرُكِ فَغَنَمُوا، وَأَخَذَ التُّرُكُ عَلَيْهِمُ الشَّعَابَ وَالطَّرِيقَ، فَبَعِيَ الْحَكَمُ بِالْأَمْرِ، فَوَلَّى الْمَهْلَبَ الْحَرْبَ، فَلَمْ يَزَلْ يَحْتَالُ حَتَّى أَسْرَ عَظِيمًا مِنْ عِظَمَاءِ التُّرُكِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّمَا أَنْ تَخْرُجَنَا مِنْ هَذَا الضَّيْقِ أَوْ لِأَقْتُلَنَّكَ. فَقَالَ لَهُ: أَوْقِدِ النَّارَ حِيَالَ طَرِيقِ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ وَسَيَّرِ الْأَنْثَالَ نَحْوَهُ فَإِنَّهُمْ سَيَجْتَمِعُونَ فِيهِ وَيَخْلُونُ مَا سِوَاهُ مِنَ الطَّرِيقِ فَيَادِرُهُمْ إِلَى طَرِيقٍ آخَرَ فَمَا يَدْرُكُونَكِمْ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْهُ. فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَسَلِمَ النَّاسُ بِمَا مَعَهُمْ مِنَ الْغَنَائِمِ.

وحجَّ بالثلاث هذه السنة عُثْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، وَقِيلَ: عُثْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ؛ وَكَانَ الْوَلَاةُ مِنْ تَقَدَّمَ ذَكَرَهُمْ. (٤٥٧/٣)

سنة ثمان وأربعين

فِيهَا كَانَ مَشَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَيْنِيُّ بِأَنْطَاكِيَةَ. وَصَافَتْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ الْفَزَارِيِّ. وَغَزَا مَالِكُ بْنُ قُبَيْرَةَ السَّكُونِي الْبَحْرَ. وَغَزَا عُثْبَةُ بْنُ عَامِرِ الْجُبَيْنِيِّ بِأَهْلِ مِصْرَ الْبَحْرَ وَبِأَهْلِ الْمَدِينَةِ.

وفيهما استعمل زياد غالب بن فضالة الليثي على خراسان، وكانت له صُحْبَةٌ. وَحَجَّ بِالنَّاسِ مِرْوَانَ وَهُوَ يَتَوَقَّعُ الْعِزْلَ لِمَوْجِدَةٍ كَانَتْ مِنْ مُعَاوِيَةَ عَلَيْهِ، وَارْتَجَعَ مُعَاوِيَةُ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ وَهَبُهَا لَهُ، وَكَانَ وَلَاةُ الْأَنْصَارِ مِنْ تَقَدَّمَ ذَكَرَهُمْ. (٤٥٨/٣)

سنة تسع وأربعين

فِيهَا كَانَ مَشَى مَالِكُ بْنُ قُبَيْرَةَ بِأَرْضِ الرُّومِ.

وفيهما كانت غزوة فضالة بن عُيَيْدٍ جَرَّيَةً وَشَتَا بِهَا، وَفُتِحَتْ عَلَى يَدِهِ، وَأَصَابَ فِيهَا شَيْئًا كَثِيرًا. وَفِيهَا كَانَتْ صَافَتْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كُرَّزٍ الْبَجَلِيُّ.

وفيهما كانت غزوة يزيد بن شَجْرَةَ الرَّهَوَايَ فِي الْبَحْرِ فَشَتَا بِأَهْلِ الشَّامِ.

وفيهما كانت غزوة عُثْبَةُ بْنُ نَافِعٍ الْبَحْرِ فَشَتَا بِأَهْلِ مِصْرَ.

ذكر غزوة القسطنطينية

في هذه السنة؛ وَقِيلَ: سَنَةُ خَمْسِينَ، سَيَّرَ مُعَاوِيَةُ جَيْشًا كَثِيفًا

فأذنت له، فلَمَّا توفيَّ أرادوا دفنه عند النبي، ﷺ، فلم يعرض إليهم سعيد بن العاص، وهو الأمير، فقام مروان بن الحكم وجمع بني أمية وشيعتهم ومنع عن ذلك، فأراد الحسين الامتناع فقبل له: إن أخاك قال: إذا ختمت الفتنة فقي مقابر المسلمين، وهذه فتنة. فسكت، وصلى عليه سعيد بن العاص، فقال له الحسين: لولا أنه سنة لما تركتُ تصلي عليه. (٤٦١/٣)

سنة خمسين

فيها كانت غزوة بُسر بن أبي أوطاة وسفيان بن عوف الأزدي أرض الروم، وغزوة فضالة بن عُبيد الأنصاري في البحر.

ذكر وفاة المغيرة بن شعبه وولاية زياد الكوفي

في هذه السنة في شعبان كانت وفاة المغيرة بن شعبه في قول بعضهم، وهو الصحيح، وكان الطاعون قد وقع بالكوفة، فهرب المغيرة منه، فلَمَّا ارتفع الطاعون عاد إلى الكوفة فطعن فمات.

وكان طَوَّالاً أعور ذهبَ عنه يوم اليرموك، وتوفي وهو ابن سبعين سنة، وقيل: كان موته سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة تسع وأربعين.

فلَمَّا مات المغيرة استعمل معاوية زياداً على الكوفة (وبالصرة)، وهو أول من جُمعنا له. فلَمَّا وليها سار إليها واستخلف على البصرة سمره بن جندب، وكان زياد يقيم بالكوفة سنة أشهر وبالصرة سنة أشهر، فلَمَّا وصل الكوفة خطبهم فحُصب وهو على المنبر، فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصته فأمرهم (٤٦٢/٣) فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدري من جليسي، ثم أمر بكروسي فوضع له على باب المسجد، فدعاهم أربعة أربعة يحلفون: ما منا من حصيك، فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه، حتى صار إلى ثلاثين، وقيل: إلى ثمانين، فقطع أيديهم على المكان.

وكان أول قتل زياد بالكوفة أوفى بن حصن، وكان بلغه عنه شيء، فطلبه فهرب، فعرض الناس [زياداً]، فمَرَّ به فقال: من هذا؟ قال: أوفى بن حصن. فقال زياد: أتلك بحائن رجلاه. وقال له: ما رأيك في عثمان؟ قال: ختن رسول الله، ﷺ، على ابنته. قال: فما تقول في معاوية؟ قال: جواد حليم. قال: فما تقول في؟ قال: بلغني أنك قلت بالصرة والله لأخذن البيء بالسقيم والمقبل بالمعبر. قال: قد قلت ذاك. قال: خطبتها عشواء! فقال زياد: ليس التفاح بشر الزمرة! فقتله.

ولمَّا قدم زياد الكوفة قال له عمارة بن عُقبة بن أبي مُعيط: إن عمرو ابن الحمق يجمع إليه شيعة أبي ترابة. فأرسل إليه زياد: ما

إلى بلاد الروم للغزاة وجعل عليهم سفيان بن عوف وأمير ابنه يزيد الغزاة معهم، فتناقل واعتل، فأمسك عنه أبوه، فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض شديد، فانشأ يزيد يقول:

ما إن أبالي بما لآلت جُوعُهُمْ
بالفرقونة من حُتى ومن مُوم
إذا تكاث على الأنماط مَرْتَقِيَا
بني مُرَّان عندي أم كلثوم
(٤٥٩/٣)

وأم كلثوم امرأته، وهي ابنة عبد الله بن عامر.

فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسفيان في أرض الروم لبيصيه ما أصاب الناس، فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه، وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم وعبد العزيز بن زُرارة الكلبي، فأوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا القسطنطينية، فقاتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدَّت الحرب بينهم، فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يُقتل، فانشأ يقول:

قد عشت في الدغر أطواراً على طُرُقٍ شتى فصاقت منها اللين والبيضا
كلاً بَلَوْتُ فلا النماء بَطْرُسي ولا تجشمت من أولها جَزَعَا
لا يملأ الأمر صدري قَبْلَ مَرْقِيه ولا أضيق به ذراعاً إذا وَقَعَا

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم، فشجرة الروم برماحهم حتى قتلوه، رحمه الله. فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه: والله ملك فتى العرب! فقال: ابني أو ابنك؟ قال: ابنك، فأجرك الله. فقال:

فلان يكن الموت أدنى به وأصبح نَحْ الكلابي زيراً
فكل فتى شارب كاسه فإنا صغيراً وإنا كَبِيراً

ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام وقد توفي أبو أيوب الأنصاري عند القسطنطينية فدفن بالقرب من سورها، فأهلها يستسقون به، وكان قد شهد بدرًا وأخذوا والمشاهد كلها مع رسول الله، ﷺ، وشهد صفين مع علي وغيرها من حروبه. (٤٦٠/٣)

ذكر عزل مروان عن المدينة وولاية سعيد

وفيها عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة في ربيع الأول وأمر سعيد بن العاص عليها في ربيع الآخر، وقيل: في ربيع الأول، وكانت ولاية مروان كلها بالمدينة لمعاوية ثمانين سنين وشهرين؛ وكان على قضاء المدينة عبد الله بن الحارث بن نوفل، فعزله سعيد حين ولي واستقضى أبا سَلَمَةَ بن عبد الرحمن.

ذكر وفاة الحسن بن علي بن أبي طالب، عليه السلام

في هذه السنة توفي الحسن بن علي، سمته زوجته جَعَلَة بنت الأشعث بن قيس الكندي، ووصى أن يُدفن عند النبي، ﷺ، إلا أن يخاف فتنة فيُقتل إلى مقابر المسلمين، فاستأذن الحسين عائشة

هذه الجماعات عندك؟ مَنْ أَرَدْتَ كلامه ففي المسجد. وقيل: الذي سعى بعمرو يزيد بن رُوَيْمٍ. فقال له زياد: قد أشطت بدمه، ولو علمتُ أَنَّ مَخْ ساقه قد سال من بُغْضِي ما هَجَّته حتى يخرج عليّ. فاتخذ زياد المقصورة حين حُصِبَ.

ولما حجَّ سليمان بن عبد الملِك أخبره عمر بما كان من الوليد، فقال سليمان: ما كنتُ أحبُّ أن يُذكر عن أمير المؤمنين عبد الملك هذا ولا عن الوليد، ما لنا ولهذا! أخذنا الدنيا فهي في أيدينا ونريد أن نَعْمِدَ إلى علم من أعلام الإسلام يوفدُ إليه فنُحْمَلُ [إلى ما قبلنا]! هذا ما لا يصلح!

وفيها عزل معاوية بن حُذَيْج السُّكُونِيَّ عن مصر ووليها مُسَلِّمَةُ بن مُخَلَّد مع إفريقية، وكان معاوية بن أبي سفيان بعث قبل أن يولِّي مسلمة إفريقية ومصر عُقْبَةَ بن نافع إلى إفريقية، وكان اختطَّ قيروانها، وكان موضعه غِيضَةً لا ترام من السباع والحَيَّات وغيرها، فدعا الله عليها فلم يبقَ منها شيء إلا خرج هارباً (٤٦٥/٣) حتى إن كانت السباع لتحمل أولادها، وبني الجامع. فلَمَّا عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حُذَيْج السُّكُونِيَّ عن مصر عزل عُقْبَةَ عن إفريقية وجمعها لمسلمة بن مُخَلَّد، فهو أوَّل من جُمِعَ له المغرب مع مصر، فولَّى مسلمة إفريقية مولى له يقال له أبر المَهاجر، فلم يزل عليها حتى هلك معاوية بن أبي سفيان.

ذكر خروج قريب

وفيها خرج قريب الأزدي وَرَحَاف الطائي بالبصرة، وهما ابنا خالة، وزياد بالكوفة وسُمِّرَةُ على البصرة، فأتيا بني ضَبَّيَّة، وهم سيمون رجلاً، وقتلوا منهم شيخاً، وخرج على قريب وَرَحَاف شباب من بني عليّ وبني راسب فروهم بالبَّيْل، وقتل عبدُ الله بن أوس الطاحي قريباً وجاء برأسه.

واشتدَّ زياد في أمر الخوارج قتلهم، وأمر سُمِّرَةَ بذلك فقتل منهم بشراً كثيراً. وخطب زياد على المنبر فقال: يا أهل البصرة والله لتكننني هؤلاء أو لأبدأنَّ بكم! والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهماً فثار الناس بهم فقتلوه.

ذكر إرادة معاوية نقل المنبر من المدينة

وفي هذه السنة أمر معاوية بمنبر النبي ﷺ، أن يُحْمَلَ من المدينة إلى الشام، وقال: لا يُترك هو وعصا النبي ﷺ، (٤٦٤/٣) بالمدينة وهم قتلة عثمان، وطلب العصا، وهو عند سعد القرظ، فحَرَكَ المنبر فكسفت الشمس حتى رُوِيَت النجوم بادية، فأعظم الناس ذلك، فتركه. وقيل: أتاه جابر وأبو هريرة وقالوا له: يا أمير المؤمنين لا يصلح أن تُخرج منبر رسول الله ﷺ، من موضع وضعه، ولا تنقل عصاه إلى الشام، فانتقل المسجد. فتركه وزاد فيه ست درجات واعتذر ممَّا صنع.

فلَمَّا ولي عبد الملك بن مروان هم بالمنبر، فقال له قبيصة بن ذؤيب: أدركك الله أن تفعل! إن معاوية حرَّكه فكسفت الشمس، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: مَنْ حلف على منبري [أثماً] فليتبوأ مقعده من النار، [فتخرجه من المدينة] وهو مُقَطَّع الحقوق عندهم بالمدينة! فتركه عبد الملك، فلَمَّا كان الوليد ابنته وحجَّ هم بذلك، فأرسل سعيد بن المسيَّب إلى عمر بن عبد العزيز

ذكر ولاية عُقْبَةَ بن نافع إفريقية وبناء مدينة القيروان

قد ذكر أبو جعفر الطبري أنَّ في هذه السنة ولي مُسَلِّمَةُ بن مُخَلَّد إفريقية، وأنَّ عُقْبَةَ ولي قبله إفريقية وبني القيروان، والذي ذكره أهل التاريخ من المغاربة: أنَّ ولاية عُقْبَةَ بن نافع إفريقية كانت هذه السنة وبني القيروان، ثم بقي إلى سنة خمس وخمسين ووليها مُسَلِّمَةُ بن مُخَلَّد، وهم أخير ببلادهم، وأنا أذكر ما أثبتوه في كتبهم:

قالوا: إنَّ معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حُذَيْج عن إفريقية حسب واستعمل عليها عُقْبَةَ بن نافع الفهري، وكان مقيماً ببرقة ورويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص، وله في تلك البلاد جهاد وفروح. فلَمَّا استعمله معاوية سَير إليه عشرة آلاف فارس، فدخل إفريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر، فكثُر جمعه، ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام، فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتدَّ مَنْ أسلم، ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكوِّن من أهل البلاد، فقصد موضع القيروان، وكان أجمةً شبيكة بها (٤٦٩/٣) من اتسواع الحيوَان، من السباع والحَيَّات وغير ذلك، فدعا الفُجَّاء وكان مستجاب الدعوة، ثم نادى: أيُّها الحَيَّات والسباع إنا أصحاب رسول الله ﷺ، إرحلوا هنا فإننا نازلون وسنَّ وجنناه بعد ذلك قتلناه. فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمِلُ أولادها وتنتقل، فرآه قبيص كثير من البربر فأسلموا، وقطع الأشجار وأمر ببناء

المدينة، فُبِيت، وبني المسجد الجامع، وبني الناسُ مساجدهم ومسكنهم، وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمئة باع، وتم أمرها سنة خمس وخمسين وسكنها الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتذهب، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام ثبت الإسلام فيها.

ذكر ولاية مسلمة بن مخلد إفريقية

ثم إن معاوية بن أبي سفيان استعمل على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد الأنصاري، فاستعمل مسلمة على إفريقية مولى له يقال له أبو المهاجر، فقدم إفريقية وأساء عزل عُقبة واستخف به، وسار عُقبة إلى الشام وعاتب معاوية على ما فعله به أبو المهاجر، فاعتذر إليه ووعده بإعادته إلى عمله، وتمادى الأمر فتوفي معاوية وولي بعده ابنه يزيد، فاستعمل عُقبة بن نافع على البلاد سنة اثنتين وستين، فسار إليها.

وقد ذكر الواقدي أن عُقبة بن نافع ولي إفريقية سنة ست وأربعين واختط القيروان، ولم يزل عُقبة على إفريقية إلى سنة اثنتين وستين، فعزله يزيد بن معاوية (٤٦٧/٣) واستعمل أبا المهاجر مولى الأنصار، فحبس عُقبة وضيق عليه، فلما بلغ يزيد بن معاوية ما فعل بعقبة كتب إليه يأمره بإطلاقه وإرساله إليه، ففعل ذلك، ووصل عُقبة إلى يزيد فأعاده إلى إفريقية والياً عليها، فقبض على أبي المهاجر وأوثقه، وساق من خير كسيلة مثل ما تذكره إن شاء الله تعالى سنة اثنتين وستين.

ذكر حرب الفرزدق بن زياد

وفيها طلب زياد الفرزدق، استعدته عليه بنو نهشل وفقيم.

وسبب ذلك: قال الفرزدق: هاجيت الأشهب بن رُميلة والبعيث فسقطا، فاستعدى علي بنو نهشل وبنو فقيم زياد بن أبيه، واستعدى علي أيضاً يزيد بن مسعود بن خالد بن مالك، قال: فلم يعرفني زياد حتى قيل له الغلام الأعرابي الذي أنهب ماله وثيابه، فعرفني.

قال الفرزدق: وكان أبي غالب قد أرسلني في جلب له أبيه وأمتار له، فبعت الجلب بالبصرة وجعلت ثمنه في ثوبي، فعرض لي رجل فقال: لشد ما تستوثق منها، أما لو كان مكانك رجل أعرفه بما صر عليها، فقلت: ومن هو؟ قال: غالب بن صعصعة وهو أبو الفرزدق. فدعوت أهل المريد ونثرتها. فقال لي: قاتل. ألقى رداك. ففعلت. فقال آخر: ألقى ثوبك. ففعلت. وقال آخر: ألقى عمامتك. ففعلت. فقال آخر: ألقى إزارك. فقلت: لا ألقيه وأمشي مجرداً، إني لست بمجنون. وبلغ الخبر زياداً فقال: هذا أحقق يضري الناس

أبوك وعمي يا معاوي أوتينا
تراً فبحار السرات أقارن
فما بال ميراث الخناس أختف
وميراث صخر جامد لك ذائفة
فلو كان هذا الأمر في جاهلية
علمت من المرأة القليل حلافة
ولو كان في دين سؤى فاشتتم
لنا حقاً أو غصن بالمد شارية
(٤٦٩/٣)

أبوك وعمي يا معاوي أوتينا
تراً فبحار السرات أقارن
فما بال ميراث الخناس أختف
وميراث صخر جامد لك ذائفة
فلو كان هذا الأمر في جاهلية
علمت من المرأة القليل حلافة
ولو كان في دين سؤى فاشتتم
لنا حقاً أو غصن بالمد شارية

يريد بالمالكين مالك بن حنظلة ومالك بن زيد مناة بن تميم، وهما جداه. لأن الفرزدق بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقيل بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم.

فلما بلغ معاوية شعره رد على أهله ثلاثين ألفاً، فأغضبت أيضاً زياداً عليه، فلما استعدت عليه نهشل وفقيم ازداد عليه غضباً فطلبه فهرب وأتى عيسى بن خصيلة السلمى لئلا وقال له: إن هذا الرجل قد طلبني وقد لفظني الناس وقد أتيك لتغييني عندك. فقال: مرحباً

بك. فكان عنده ثلاث ليال. ثم قال له: قد بدا لي أن آتي الشام، فسيره. وبلغ زياداً مسيره فأرسل في أثره، فلم يذرك، وأتى الزوّحاء فنزل في بكر بن وائل فأمنهم بمقاصد. (٤٧٠/٣)

وفيها توفي زيد بن خالد الجهني، وقيل: توفي سنة ثمان وستين، وقيل: ثمان وسبعين.

وفيها توفي مدلاج بن عمرو السلمي، وكان قد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكلّمهم لهم صحبة (٤٧٢/٣).

سنة إحدى وخمسين

وفيها كان مشني فضالة بن عبيد بأرض الروم، وغزوة يسر بن أبي أرتاة الصائفة.

ذكر مقتل حُجْر بن عدي وعمرو بن الحمق وأصحابهما في هذه السنة قتل حُجْر بن عدي وأصحابه.

وسبب ذلك أن معاوية استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة إحدى وأربعين، فلما أمره عليها دعاه وقال له: أما بعد فإنّ لذي الحلم قبل اليوم ما تفرّع العصا، وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعليم، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك، ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تترك شتم عليّ وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب لأصحاب عليّ والإقصاء لهم، والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم. فقال له المغيرة: قد جرّبت وجربت، وعملت قبلك لغيرك فلم يذممني، وستبلو فتحمّد أو تذمّ. فقال: بل نحمد إن شاء الله.

فأقام المغيرة عاملاً على الكوفة وهو أحسن شيء سيرة، غير أنّه لا يدع شتم عليّ والوقوف فيه والدعاء لعثمان والاستغفار له، فإذا سمع ذلك حُجْر بن (٤٧٣/٣) عدي قال: بل إياكم ذمّ الله ولعن... ثم قام وقال: أنا أشهد أنّ من تذرّون أحقّ بالفضل، ومن تزكّون أولى بالذمّ. فيقول له المغيرة: يا حُجْر اتق هذا السلطان وغيظه وسطوته، فإنّ غضب السلطان يُهلك أمثالك، ثم يكف عنه ويصفح.

فلما كان آخر إمارته قال في عليّ وعثمان ما كان يقوله، فقام حجر فصاح صيحةً بالمغيرة سميعاً كلّ من بالمسجد وقال له: مَرّ لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا وليس ذلك لك، وقد أصبحت مولعاً بذمّ أمير المؤمنين. فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون: صدق حُجْر وير، مَرّ لنا بأرزاقنا فإنّ ما أنت عليه لا يُجدي علينا نفعاً! وأكثروا من هذا القول وأمثاله. فنزل المغيرة فاستأذن عليه قومه ودخلوا وقالوا: علام ترك هذا الرجل يجترئ عليك في سلطانك ويقول لك هذه المقالة فيوهن سلطانك ويسخط عليك أمير المؤمنين معاوية؟ فقال لهم المغيرة: إني قد قتلته، سيأتي من بعدي أمير يحسبه مثلي فيصنع به ما ترونه يصنع بي فياخذ به ويقتله! إني قد قرب أجلي ولا أحب أن أقتل خيار أهل هذا المصر فيسعدوا واشقى ويعزّ في الدنيا معاوية ويشقى في الآخرة المغيرة.

بك. فكان عنده ثلاث ليال. ثم قال له: قد بدا لي أن آتي الشام، فسيره. وبلغ زياداً مسيره فأرسل في أثره، فلم يذرك، وأتى الزوّحاء فنزل في بكر بن وائل فأمنهم بمقاصد. (٤٧٠/٣)

ثم كان زياد إذا نزل البصرة نزل الفرزدق الكوفة، وإذا نزل الكوفة نزل الفرزدق البصرة، فبلغ ذلك زياداً فكتب إلى عامله على الكوفة، وهو عبد الرحمن بن عبيد، يأمره بطلب الفرزدق، ففارق الكوفة نحو الحجاز، فاستجار بسعيد بن العاص فأجاره فمدحه الفرزدق، ولم يزل بالمدينة مرّة وبمكة مرّة حتى هلك زياد.

وقد قيل: إنّ الفرزدق إنّما قال هذا الشعر لأنّ الحنّات لما أسلم أخى النبي ﷺ، بينه وبين معاوية، فلما مات الحنّات بالشام ورثه معاوية بتلك الأخوة فقال الفرزدق هذا الشعر. وهذا القول ليس بشيء لأنّ معاوية لم يكن يجهل أنّ هذه الأخوة لا يرث بها أحد.

(الحنّات بضمّ الحاء وبتائين مثّائين من فوقهما بينهما ألف)

ذكر وفاة الحكم بن عمرو الغفاري

في هذه السنة توفي الحكم بن عمرو الغفاري بمرو بعد انصرافه من غزوة جبل الأشلّ في قول، وقد تقدّم ذكر وفاته في قول آخر، وكان زياد قد كتب إليه: إنّ أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة. فكتب إليه الحكم: بلغني ما أمر به أمير المؤمنين، وإنني وجدت كتاب الله قبل كتابه، وإنه والله [لو] أنّ السموات والأرض كانتا رتقا على عبد ثم اتقى الله لجعل له فرجاً وتخرجاً، ثم قال للناس: اغدوا على أعطيائكم ومالككم، فقسّمه بينهم، ثم قال: اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني إليك. فتوفي بمرو. وله صحبة. (٤٧١/٣)

ذكر عدة حوادث

حجّ بالناس هذه السنة معاوية، وقيل: بل حجّ ابنه يزيد، وكان العُمال على البلاد من تقدّم ذكرهم.

وفيها توفي سعد بن أبي وقاص بالعقيق فحُمل على الرقاب إلى المدينة فدفن بها، وقيل: توفي سنة أربع وخمسين، وقيل: سنة خمس وخمسين، وعمره أربع وسبعون، وقيل: ثلاث وثمانون سنة، وهو أحد العشرة، وكان قصيراً دحداً.

وفيها توفيت صفية بنت حيّي زوج النبي ﷺ، وقيل: توفيت أيام عمر.

وفيها توفي عثمان بن أبي العاص الثقفي. وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، توفي بالبصرة. وأبو موسى الأشعري، وقيل: توفي سنة اثنتين وخمسين.

حسبت ابن برصاء الجزار قتالاً. قتالك زياد يسوم دار حكيم
وكان ذلك السيف أول سيف ضرب به في الكوفة في اختلاف
بين الناس.

ومضى حُجْر وأبو العمرطة إلى دار حُجْر واجتمع إليهما ناس
كثير، ولم يأتِه من كِنْدَةَ كثير أحد. فأرسل زياد، وهو على المنبر،
مُذْجج وهمدان إلى جَبَانَةِ كِنْدَةَ وأمرهم أن يأتوه بحجر، وأرسل
سائر أهل اليمن إلى جَبَانَةِ الصائدين وأمرهم أن يمضوا إلى
صاحبهم حجر فيأتوه به، ففعلوا، فدخل مذجج وهمدان إلى جَبَانَةِ
كِنْدَةَ فأخذوا كل من وجدوا، فأتى عليهم زياد.

فلما رأى حجر قتلة من معه أمرهم بالانصراف وقال لهم: لا
طاقة لكم بمن قد اجتمع عليكم وما أحب أن تهلكوا. فخرجوا،
فأدركهم مذجج وهمدان فقاتلوهم وأسروا قيس بن يزيد ونجا
الباقون، فأخذ حجر طريقاً إلى بني حُوت فدخل دار رجل منهم
يقال له سُلَيْم بن يزيد، وأدركه الطلب فأخذ سُلَيْم (٤٧٦/٣) سيفه
ليقاتل، فيكث بناته، فقال حجر: بس ما أدخلت على بنائك إذا
قال: والله لا تؤخذ من داري أسيراً ولا قتيلاً وأنا حي. فخرج حجر
من خوخة في داره فأتى النخع فنزل دار عبد الله بن الحارث أخيه
الأشتر، فأحسن لقاءه. فبينما هو عنده إذ قيل له: إن الشرط تسال
عنك في النخع. وسبب ذلك أن أمة سوداء لقيتهم فقالت: من
تطلبون؟ فقالوا: حجر بن عدي. فقالت: هو في النخع.

فخرج حجر من عنده فأتى الأزد فاخفى عند ربيعة بن ناجد.

فلما أعياهم طلبه دعا زياد محمد بن الأشعث وقال له: والله
لتأتيني به أو لأقطعن كل نخلة لك وأهدم دورك ثم لا تسلم مني
حتى أقطعك إرباً إرباً. فاستهله، فأهله ثلاثاً وأحضر قيس بن يزيد
أسيراً، فقال له زياد: لا بأس عليك، قد عرفت رأيك في عثمان
وبلاءك مع معاوية بهيفين وأنت إنما قاتلت مع حُجْر حمية وقد
غفرتك لك ولكن انتني بأخيك عُمَيْر. فاستأمن له منه على ماله
ودمه، فأمنه، فأتاه به وهو جريح فأنقله حديدًا، وأمر الرجال أن
يرفعوه ويلقوه، ففعلوا به ذلك مراراً، فقال قيس بن يزيد لزياد: ألم
تؤمنه؟ قال: بلى قد آمنته على دمه ولست أهرق له دمًا. ثم ضمنه
وخلّى سبيله.

ومكث حجر بن عدي في بيت ربيعة يوماً وليلة، فأرسل إلى
محمد بن الأشعث يقول له لياخذ له من زياد أماناً حتى يبعث به
إلى معاوية. فجمع محمد جماعةً منهم: جرير بن عبد الله، وحجر
بن يزيد، وعبد الله بن الحارث أخو الأشتر، فدخلوا على زياد
فاستأمنوا له على أن يرسله إلى معاوية، فأجابهم، فأرسلوا إلى
حجر بن عدي فحضر عند زياد، فلما رآه قال: مرحباً بك أبا عبد
الرحمن، حرب أيام الحرب، وحرب وقد سالم الناس، على أهلها

ثم توفي المغيرة وولّي زياد، فقام في الناس فخطبهم عند
قدومه ثم ترحم على عثمان وأثنى على أصحابه ولعن قاتليه. فقام
حُجْر ففعل كما كان يفعل بالمغيرة. ورجع زياد إلى البصرة
واستخلف على الكوفة عمرو بن حُرَيْث، فبلغه أن حجراً يجتمع
إليه شيعة علي ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه وأنهم حصبوا
عمرو بن حُرَيْث، فنخص زياد إلى الكوفة حتى دخلها فصعد
المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وحُجْر جالس، ثم قال: أما بعد فإن
غِبّ البغي (٤٧٤/٣) والغي وخيم، إن هؤلاء جموا فأثيروا، وأمنوني
فاجتروا على الله، لئن لم تستقيموا لأدوا بينكم بدوائكم، ولست
بشيء إن لم أمنع الكوفة من حُجْر وأذعه نكالا لمن بعده، ويل
أمك يا حُجْر سقط الغشاء بك على مبرحان.

وأرسل إلى حُجْر يدعوهُ وهو بالمسجد، فلما أتاه رسول زياد
يدعوهُ قال أصحابه: لا تأتوه ولا كرامة. فرجع الرسول فأخبر زياداً،
فأمر صاحب شرطته، وهو شداد بن الهيثم الهلالي، أن يبعث إليه
جماعةً ففعل، فسبهم أصحاب حجر، فرجعوا وأخبروا زياداً، فجمع
أهل الكوفة وقال: تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي
وقلوبكم مع حجر الأحق! هذا والله من دحسكم! والله ليظهرن
لي براءتكم أو لأتيكم بقرم أقيم بهم أودكم وصغركم! فقالوا: معاذ
الله أن يكون لنا رأي إلا طاعتك وما فيه رضاك. قال: فليقم كل
رجل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله. ففعلوا وأقاموا
أكثر أصحابه عنه. وقال زياد لصاحب شرطته: انطلق إلى حُجْر فإن
تبعتك فأتني به وإلا فشدوا عليهم بالسبوف حتى تأتونني به.

فأتاه صاحب الشرطة يدعوهُ، فمنعه أصحابه من إجابته، فحمل
عليهم، فقال أبو العمرطة الكندي لحجر: إنه ليس معك من معه
سيف غيري وما يغني عنك سيفي، قم فالحق بأهلك يمنعك
قومك. وزياد ينظر إليهم وهو على المنبر، وغشيه أصحاب زياد،
وضرب رجل من الحمراء رأس عمرو بن الحقيق بعموده فوقه،
وحمله أصحابه إلى الأزد فاخفى عندهم حتى خرج، وانحاز
أصحاب حجر إلى أبواب كِنْدَةَ، وضرب بعض الشرطة يد عائد بن
حَمَلَة (٤٧٥/٣) التميمي وكسر نابه وأخذ عموداً من بعض الشرط
فقاتل به وحمى حجراً وأصحابه حتى خرجوا من أبواب كِنْدَةَ،
وأثنى حجر بقلته، فقال له أبو العمرطة: اركب فقد قتلنا ونفسك،
وحمله حتى أركبه، وركب أبو العمرطة فرسه، ولحقه يزيد بن
طريف المُسَلِّي فضرب أبا العمرطة على فخذه بالعمود، وأخذ أبو
العمرطة سيفه فضرب به رأسه فسقط، ثم براء وله يقول عبد الله بن
هَمَام السلولي:

الزوم ابن لزوم ما عدا بك حاسراً إلى يطل في جُـرارة وشكيم
مُعَادٍ ضرب النارعين بسيفه على الهام عند الرُوع غير أئيم
إلى فارس الغارين يوم تلاقيا بهيفين قرم خير نجل قُـرُوم

تَجَنَّبِي بِرَأْفَتِهِ، (٤٧٧/٣) فَقَالَ حَجْرٌ: مَا خَلَعْتُ طَاعَةً، وَلَا فَارَقْتُ جَمَاعَةً، وَإِنِّي عَلَى بَيْعَتِي. فَأَمَرَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ. فَلَمَّا وَلَّى قَالَ زِيَادٌ: وَاللَّهِ لَا حَرَصَ عَلَى قَطْعِ خِيَطِ رَقَبَتِهِ! وَطَلَبَ أَصْحَابَهُ، فَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ الْحَيَّاقِ حَتَّى أَتَى الْمَوْصِلَ وَمَعَهُ رِفَاعَةُ بْنُ شَدَّادٍ فَاخْتَفَا بِجَبَلٍ هُنَاكَ، فَرَفَعَ خَبْرَهُمَا إِلَى عَامِلِ الْمَوْصِلِ، فَسَارَ إِلَيْهِمَا، فَخَرَجَا إِلَيْهِ، فَأَمَّا عَمْرُو فَكَانَ قَدْ اسْتَسْقَى بَطْنَهُ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ امْتِنَاعٍ، وَأَمَّا رِفَاعَةُ فَكَانَ شَابًا قَوِيًّا فَرَكِبَ فَرَسَهُ لِيُقَاتِلَ عَنْ عَمْرُو، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: مَا يَنْفَعُنِي قِتَالُكَ عَنِّي؟ إِنِّجْ بِنَفْسِكَ! فَحَمِلَ عَلَيْهِم، فَافْرَجَا لَهُ، فَنَجَا، وَأَخَذَ عَمْرُو أَسِيرًا، فَسَأَلُوهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مَنْ إِنْ تَرَكْتُمُوهُ كَانَ أَسْلَمَ لَكُمْ، وَإِنْ قَتَلْتُمُوهُ كَانَ أَضَرَّ عَلَيْكُمْ؛ وَلَمْ يَخِيرْهُمْ. فَبِعَثُوهُ إِلَى عَامِلِ الْمَوْصِلِ، وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ التَّقْفِي الَّذِي يُعْرِفُ بَابِنَ أُمِّ الْحَكَمِ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ مَعَاوِيَةَ، فَعَرَفَهُ فَكَتَبَ فِيهِ إِلَى مَعَاوِيَةَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّهُ طَعَنَ عُثْمَانَ تِسْعَ طَعَنَاتٍ بِمَشَاقِصٍ مَعَهُ فَاطَنُهُ كَمَا طَعَنَ عُثْمَانَ. فَأَخْرَجَ وَطْعَنَ، فَمَاتَ فِي الْأُولَى مِنْهُنَّ أَوْ الثَّانِيَةِ.

وَجَدَ زِيَادٌ فِي طَلَبِ أَصْحَابِ حَجَرٍ فَهَرَبُوا، وَأَخَذَ مِنْ قَدَرٍ عَلَيْهِ مِنْهُمْ. فَأَتَى بَقِيصَةَ بْنَ ضُبَيْعَةَ الْعَصِي بِأَمَانَ فَجَسَّهُ، وَجَاءَ قَيْسُ بْنُ عُبَادٍ الشَّيْبَانِي إِلَى زِيَادٍ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَمْرًا يُقَالُ لَهُ صَيْفِي مِنْ رُؤُوسِ أَصْحَابِ حَجَرٍ. فَبِعَثَ زِيَادٌ فَأَتَى بِهِ، فَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي أَبِي تَرَابٍ؟ قَالَ: مَا أَعْرِفُكَ بِهِ! أَتَعْرِفُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَذَلِكَ أَبُو تَرَابٍ. قَالَ: كَلَّا، ذَلِكَ أَبُو الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ الشَّرْطَةِ: يَقُولُ الْأَمِيرُ هُوَ أَبُو تَرَابٍ وَتَقُولُ لَا! قَالَ: فَإِنْ كَذَبَ الْأَمِيرُ أَكْذَبَ أَنَا وَأَشْهَدُ عَلَى بَاطِلٍ كَمَا شَهِدَ؟ فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ: وَهَذَا أَيْضًا، عَلِيٌّ بِالْعَصَا، فَأَتَى بِهِمَا، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ؟ قَالَ: أَحْسَنُ قَوْلٍ. قَالَ: اضْرِبُوهُ، حَتَّى لَصِقَ بِالْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: أَفَلَعَا عَنْهُ، مَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ شَرَحْتُهِ (٤٧٨/٣) بِالْمَوَاسِي مَا قُلْتُ فِيهِ إِلَّا مَا سَمِعْتُ مِنْي. قَالَ: لَتَلْعَنَهُ أَوْ لِأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ! قَالَ: لَا أَفْعَلُ. فَأَوْتَقُوهُ حَدِيدًا وَحَبَسُوهُ.

قِيلَ: وَعَاشَ قَيْسُ بْنُ عُبَادٍ حَتَّى قَاتَلَ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ فِي مَوَاطِنِهِ. ثُمَّ دَخَلَ الْكُوفَةَ فَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ حَوْشِبٌ لِلْحَجَّاجِ: إِنَّ هُنَا أَمْرًا صَاحِبَ قَتْلِ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةً بِالْعِرَاقِ إِلَّا وَثَبَ فِيهَا، وَهُوَ تَرَابِيٌّ يَلْعَنُ عُثْمَانَ، وَقَدْ خَرَجَ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ حَتَّى هَلَكَ، وَقَدْ جَاءَ فَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ. فَبِعَثَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ بَنُو أَبِيهِ لَأَلْ حَوْشِبَ: سَعَيْتُمْ بِصَاحِبِنَا! فَقَالُوا: وَأَنْتُمْ أَيْضًا سَعَيْتُمْ بِصَاحِبِنَا، يَعْنِي صَبِيغًا الشَّيْبَانِي.

وَأَرْسَلَ زِيَادٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلِيفَةَ الطَّائِي، فَتَوَارَى، فَبِعَثَ إِلَيْهِ الشَّرْطَ فَآخَذُوهُ، فَخَرَجَتْ أُخْتُهُ النَّوَارُ فَحَرَضَتْ طَبِيًّا، فَتَارُوا بِالشَّرْطِ وَخَلَّصُوهُ، فَرَجَعُوا إِلَى زِيَادٍ فَخَبَرُوهُ، فَآخَذَ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: ابْنَتِي بَعِيدُ اللَّهِ! قَالَ: وَمَا حَالُهُ؟ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: لَا

عِلْمَ لِي بِهِذَا! قَالَ: لِتَأْتِيَنِي بِهِ. قَالَ: لَا أَتِيكَ بِهِ أَبَدًا، أَتِيكَ بِابْنِ عَمِّي نَقْتَلُهُ! وَاللَّهِ لَوْ كَانَ تَحْتَ قَدَمَيْ مَا رَفَعْتُهُمَا عَنْهُ! فَأَمَرَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ، فَلَمْ يَبْقَ بِالْكُوفَةِ يَمْنِي وَلَا رِيحِي إِلَّا كَلَّمَ زِيَادًا وَقَالُوا: تَفْعَلُ هَذَا بِعَدِيَّ بْنِ حَاتِمٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ؟ فَقَالَ: فَلْيَأْتِي أَخْرَجَهُ عَلَى شَرْطٍ أَنْ يُخْرِجَ ابْنَ عَمِّهِ عَنِّي فَلَا يَدْخُلُ الْكُوفَةَ مَا جَاءَ لِي سُلْطَانٌ. فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَرْسَلَ عَدِيَّ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ يَعْرِفُهُ مَا كَانَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْحَقَ بِجَبَلِي طَبِيًّا، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا، وَكَانَ يَكْتُبُ إِلَى عَدِيَّ لِيَشْفَعَ فِيهِ لِيَعُودَ إِلَى الْكُوفَةِ، وَعَدِيَّ يُعِينُهُ؛ فَمِمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ يَعَاتِبُهُ وَيُرِيهِ حَجْرًا وَأَصْحَابَهُ قَوْلَهُ:

وَذَكَرَ الصَّبَابُ بَرَزَ عَلَى مَنْ تَذَكَّرَا
وَلَيْسَ الشَّيْبُ فَافْقَدْتُ حُضُورَهُ
فِيَا لَكَ مِنْ وَجْدٍ بِهِ حِينَ أَهْبَرَا
(٤٧٩/٣)

وَأَسْبَابُهُ إِذْ بَانَ عَنْكَ فَاجْتَمَرَا
وَلَمْ يَجِدُوا عَنْ مَهْلِ الْمَوْتِ مَصْدَرَا
مَنْ النَّاسِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَنْ يُؤْخَرَا
إِذَا الْيَوْمُ أَتَى ذَا احْتِدَامٍ مَذْذَرَا
بِشْيءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا أَنْ تُعْمَرَا
سَجِينِ اللَّيَالِي أَوْ أَمُوتَ فَأَقْبَرَا
مَنْ إِلَهٍ وَلَيْسَ الْعَمَامُ الْكَتْهُورَا
قَدْ كَانَ أَرْضَى اللَّهَ حُجْرًا وَأَعْلَرَا
عَلَى قَبْرِ حُجْرٍ أَوْ يُنَادِي فُحْشَرَا
وَلِلْمَلِكِ الْمُعْزِي إِذَا مَا تَنَشَّعَرَا
بَقَوَى وَمَنْ إِنْ قِيلَ بِالْجَوْرِ غَيْرَا
لَأَطْمَحَ أَنْ تَوْفَى الْخُلُودَ وَتُخَيَّرَا
وَتُعْرِفَ مَعْرُوفًا وَتُكْرَمَ مُتَكْرَمَا
وَتُسَرَّعَ لِمَا لَحَاحَاتُ فَايْهَرَا
بِمَا مَعْنَا حَيْثَمَا أَنْ تَكْبَرَا
(٤٨٠/٣)

وَشِيئَانِ لَقَيْنَا حَسَابًا مَيْسَرَا
حِجَابًا لَدَى الْمَوْتِ الْجَلِيلِ وَأَصِيرَا
حَمَامٍ يَلْبَسُ الْوَاقِيفِينَ وَقَرَّارَا
مَنْ كُنْتَ أَخْشَى بَيْنَكُمْ أَنْ أَسْأَرَا
وَقَدْ دُثَّ حَتَّى مَالَ نَسَمُ تَجَوَّرَا
كَتَبِي غَرِيبٌ مِنْ لِسَانٍ وَأَغْضَرَا
وَمَنْ لَكُمْ مِثْلِي [إِذَا الْبَلَاءُ] أَصْحَرَا
وَأَوْضَعَ فِيهَا الْمُسْتَمِيتَ وَثَمَرَا
طَرِيدًا فَلَوْ شَاءَ الْإِلَهَ لَنَفِيرَا
رَغِيبتُ بِمَا شَاءَ الْإِلَهَ وَقَسَرَا
كَانَ لَمْ يَكُونُوا لِي قَبِيلًا وَمُعْشَرَا
وَكَانَ مَعْنَا مِنْ غَضَبٍ وَمَحْضَرَا

تَذَكَّرْتُ لَيْسَى وَالشَّيْبَةَ أَهْضَرَا
وَوَلَّى الشَّيْبُ فَافْقَدْتُ حُضُورَهُ
فَنَفَعَ عَنْكَ تَذَكُّرُ الشَّيْبِ وَقَفْتُهُ
وَبَكَ عَلَى الْخِلَافِ لَمَّا تَنَفَّرُوا
دَخَلْتُمْ مَتَابَعَهُمْ وَمَنْ حَانَ يَوْمُهُ
أَوَّلُكَ كَانُوا شَيْعَةً لِي وَمَوَلَا
وَمَا كُنْتُ أَمْوِي بَعْدَهُمْ مَتَعَلِّلَا
أَقُولُ وَلَا وَاللَّهِ أُنْسَى إِكْذَابَهُمْ
عَلَى أَهْلِ عَذْرَاءِ السَّلَامِ مُضَافِلَا
وَأَقْبَى بِهَا حُجْرٌ مِنَ اللَّهِ رَحِمَةً
وَلَا زَالَ تَهْطِلُ مُلْتَمِسَةً وَدِيمَةً
فِيَا حُجْرُ مَنْ لِلْخَيْلِ قَلَمِي نَحْرُهُمَا
وَمَنْ صَادَعُ بِالْحَقِّ بَعْدَكَ نَاطِقًا
فَيَعْمُ أَخُو الْإِسْلَامِ كُنْتُ وَإِنِّي
وَقَدْ كُنْتُ تَطْلِي السِّيفَ فِي الْحَرْبِ
فِيَا أَخَوَاتِي مَنْ فُتِمَ عَصِمَتَا
وَيَا أَخَوَاتِي الْخَلِيفَتَيْنِ إِيْشَرَا

وَيَا إِخْوَتَنَا مِنْ حَضْرَمَوْتَ وَغَالِبِ
سَوَلَمْتُ فَلَمْ أَسْمَعْ بِأَصَوْبٍ مِنْكُمْ
سَابِكِيكُمْ مَا لَاحَ نَجْمٌ وَغَرَّةٌ أَلِ
قَلْبْتُ وَلَمْ أَظَلَمْ: أَعُوذُ بِكَ طَبِيٍّ
هَيْلَتُمْ إِلَّا قَاتَلْتُمْ عَنْ أَخِيكُمْ
تَفَرَّجْتُ عَنِّي فَتَوَدَّعْتُ مُسَلِّمًا
فَمَنْ لَكُمْ مِثْلِي لَدَى كُلِّ غَارَةٍ
وَمَنْ لَكُمْ مِثْلِي إِذَا الْحَرْبُ قَلَصَتْ
فَهَا أَنَا ذَا أَوَى بِأَجْيَالِ طَبِيٍّ
فَنَاتِي عَدُوِّي ظَالِمًا عَنْ مَهْجَارِي
وَأَسْلَمْتُ قَوْمِي بِغَيْرِ جَانِبَةٍ
فَلَا أَلْفَ فِي دَارِ بِأَجْيَالِ طَبِيٍّ

فما كنت أخشى أن أرى متغرباً
لحقى الله قيلَ الحضرمين وأتلاً
ولاقي الردى القوم الذين تخزيوا
فلا يدعي قوم لغوهم من طيء
فلم اغزهم في المعلمين ولم أئسر
فبلغ خليلي إن زحلت مُشرقاً
وبهتان والأقواء من جذم طيء
الس تذكروا يومَ الغليظ الذي
وكري على يهران والجمع حابس
ويومَ جلولا الواقعة لم أقم
وتسوتني يومَ الشريعة والقنا
جزى رؤى عني عدي بن حاتم
أنتى بلائي سادراً يا ابن حاتم
فدافقتُ عنك القوم حتى تخاذلوا
تولوا وما قاموا مقامى كأنما

لحقى الله منَ لاحتى عليه وكثراً
ولاقي القناني بالسنان المؤسراً
عليان وقالوا قولك زور وثكراً
لئن دعهم اشقى بهم وتغيراً
عليهم عجاجاً بالكوفة أكلراً
جديلة والحين معناً ويخترأ
الس لك فيكم ذا الغناء الغشترأ
أماكنكم لا أرى الدهر مُلبداً
وقلي الهمام المستحيت المسورا
ويومَ نهاتوا الفسوح وتنترا
بصيرين في أكافهم قد تكسرا
برفضي وخذلاني جزاء مؤفرا
عشبة ما أغتت عليك خزمترا
وكنتم أنا الخصم الألد العذورا
راونسي لئلا بالأبادة مخليداً

وقد تقدم ما فعله عبد الله مع عدي في وقعة صفين، فلهذا لم

نذكره هاهنا. (٤٨٢/٣)

نصرتك إذ خان القريب وأبطأ الد
فكان جزائي أن أجرز ينيكم
وكم عبت لي منك أنك راجمي
فأصبحت أرمي النيب طورا وتلوة
كأنني لم أركب جواداً لغارة
ولم اعترض بالسيف منكم مفيرة
ولم استحث الركض في إثر غضبة
ولم أذعر الأبلام مني بفارة
ولم أرفي خيل تطاعن مثلها
فلنك دمر زالك عني خيلة
فلا تغدق قومي وإن كنت عاباً
ولا خير في التبا ولا العيش بعدهم

جيداً وقد أفردت نصراً مؤزراً
سحياً وإن أولى الهوان وأوسراً
فلم تغن بالمعاوية عني خبترا
أفرهز إن راعي الشوهدات هرماً
ولم أترك القرن الكمي مقطراً
إذ النكس مشى القهقري ثم جزراً
مئمة علياً مجاسي وأهراً
كوزد القطائم انحزرت مظهرأ
بقروين أو شروين أو أغر كيدراً
وأصبح لي معروفه قد تكسراً
وكنتم المضاع فيهم والمكسراً
وإن كنت عنهم نائي الدار مخصراً

فمات عبد الله بالجليلين قبل موت زياد، ثم أتى زياد بكرم بن
عفيف الخثعمي من أصحاب حُجر بن عدي، فقال: ما اسمك؟
قال: كريم بن عفيف. قال: ما أحسن اسمك واسم أبيك وأسوأ
عملك وأبك! فقال له: أما والله إن عهدك برايتي منذ قريب.

(٤٨٣/٣)

قال: وجمع زياد من أصحاب عدي اثني عشر رجلاً في
السجن ثم دعا رؤساء الأرباع يومئذ، وهم: عمرو بن حُرث على
ربع أهل المدينة، وخالد بن عُرْقُطَة على ربع تميم وهمدان، وقيس
بن الوليد على ربع ربيعة وكندة، وأبو بُردة بن أبي موسى على ربع
مذحج وأسد، فشهد هؤلاء أن حُجراً جمع إليه الجموع وأظهر شتم

الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا
يصلح إلا في آل أبي طالب، ووثب بالمصر، وأخرج عامل أمير
المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه
وأهل خزبه، وأن هؤلاء نفر الذين معه هم رؤوس أصحابه على
مثل رايه وأمره. ونظر زياد في شهادة الشهود وقال: إني لأحسب أن
يكونوا أكثر من أربعة، فدعا الناس ليشهدوا عليه، فشهد إسحاق
وموسى ابنا طلحة بن عبيد الله، والمندر بن الزبير، وعُمارة بن عُتبة
بن أبي مُعيط، وعمرو بن سعد بن أبي وقاص، وغيرهم، وكتب في
الشهود شُرَيْح بن الحارث القاضي وشُرَيْح بن هاني، فأما شُرَيْح بن
هاني فكان يقول: ما شهدت وقد لُمْتُه.

ثم دفع زياد حُجراً بن عدي وأصحابه إلى وائل بن حُجر
الحضرمي وكثير بن شيباب، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى الشام،
فخرجوا عشية، فلما بلغوا القرين لحقهم شُرَيْح بن هاني وأعطى
وأتل كتاباً وقال: أبلغه أمير المؤمنين، فأخذه، وساروا حتى انتهوا
بهم إلى مرج عذراء عند دمشق، وكانوا: حُجراً بن عدي الكندي،
والأرقم بن عبد الله الكندي، وشريك بن شذاد الحضرمي، وصيفي
بن قسيل الشيباني، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، وكريم بن عفيف
الخنثعمي، وعاصم بن عوق البجلي، وورقاء بن سُمي البجلي،
وكدام بن حيان، وعبد الرحمن بن حسان الغنزي، ومُحزب بن
شهاب التميمي، وعبد الله بن حوثة السعدي التميمي، فهؤلاء اثنا
عشر رجلاً، وأتبعهم زياد (٤٨٤/٣) برجلين، وهما: عُتبة بن الأخنس
من سعد بن بكر، وسعد بن نمران الهمداني، فتَمَرُوا أربعة عشر
رجلاً.

فبعث معاوية إلى وائل بن حُجر وكثير بن شيباب، فادخلهما
واخذ كتابهما فقرأه، ودفع إليه وائل كتاب شُرَيْح بن هاني، فإذا فيه:
بلغني أن زياداً كتب شهادتي، وإن شهادتي على حُجراً أنه ممن يقيم
الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحج والعمرة ويامر بالمعروف وينهى
عن المنكر حرام الدم والمال، فإن شئت فاقتله وإن شئت فذعه.
فقال معاوية: ما أرى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم وحبس
القوم بمرج عذراء. فوصل إليهم الرجلان اللذان الحقهما زياد
بحجر وأصحابه، فلما سار عامر بن الأسود العجلي إلى
معاوية ليُعلمه بهما، فقام إليه حُجراً بن عدي في قيوده فقال له: أبلغ
معاوية أن دماءنا عليه حرام، وأخبره أننا قد أومأنا وصالحناه
وصالحنا، وأنا لم نقتل أحداً من أهل القبلة فيحل له دماؤنا.

فدخل عامر على معاوية فأخبره بالرجلين، فقام يزيد بن أسد
البجلي فاستوبه ابني عمه، وهما: عاصم وورقاء، وكان جرير بن
عبد الله البجلي قد كتب فيهما يركيها ويشهد لهما بالبراءة مما
شهد عليهما، فأطلقهما معاوية، وشفع وائل بن حجر في الأرقم
فتركه له، وشفع أبو الأعور السلمي في عُتبة بن الأخنس فتركه،

وشفع حُمرّة بن مالك الهمدانيّ في سعد بن نمران فوهبه له، وشفع حبيب بن مسلمة في ابن حويرة فتركه له، وقام مالك بن هُبيرة السكونيّ فقال: دُع لي ابن عمّي حُجراً. فقال له: هو رأس القوم وأخاف إن خَلَيْتُ سبيله أن يُفسد عليّ مصره فتحاج أن تُشخصك إليه بالعراق. فقال: والله ما أنصفتني يا معاوية! قاتلتُ معك ابن عمّك يوم صفين حتى (٤٨٥/٣) ظفرت وعلا كعبك ولم تخف الدوائر، ثم سالتك ابن عمّي فمَنَعْتَنِي! ثم انصرف فجلس في بيته.

فبعث معاوية هُذَبة بن فياض القُضاعيّ، والحُصَيْن بن علي بن عبد الله الكلابيّ، وأبا شريف البذّيّ إلى حجر وأصحابه ليقْتُلُوا مَنْ أَمَرُوا بِقَتْلِهِ مِنْهُمْ، فَأَتَوْهُمْ عِنْدَ الْمَسَاءِ. فَلَمَّا رَأَى الْخُثْعَمِيّ أَحَدَهُمْ أَعْرَضَ قَالَ: بِقَتْلِ نَصْفَانِ وَيَتْرُكُ نَصْفَانِ، فَتَرَكُوا سَبْعَةً وَقَتْلُوا ثَمَانِيَةً، وَقَالُوا لَهُمْ قَبْلَ الْقَتْلِ: إِنَّا قَدْ أَمَرْنَا أَنْ نَعْرِضَ عَلَيْكُمْ الْبِرَاءَةَ مِنْ عَلِيٍّ وَاللَّعْنَ لَهُ، فَإِنْ عَلِمْتُمْ تَرْكَنَاكُمْ وَإِنْ أَبَيْتُمْ قَتْلَنَاكُمْ. فَقَالُوا: لَسْنَا فَاعِلِي ذَلِكَ. فَأَمَرَ فَحَفَرُوا الْقُبُورَ وَأَحْضَرُوا الْأَكْفَانَ وَقَامَ حَجَرٌ وَأَصْحَابُهُ يَصْلُونَ عَامَةَ اللَّيْلِ. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَدَّمُوهُمْ لِيَقْتُلُوهُمْ فَقَالَ لَهُمْ حَجَرُ بْنُ عَدِيٍّ: اتْرُكُونِي أَوْضَاً وَأَصْلِي فَإِنِّي مَا تَوْضَعْتُ إِلَّا صَلَاحٌ، فَتَرَكُوهُ، فَصَلَّيْتُ ثُمَّ انْصَرَفْتُ مِنْهَا وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُ صَلَاةً قَطُّ أَخَفَّ مِنْهَا، وَلَوْلَا أَنْ تَنْظُرُونِي فِي جَزَعٍ مِنَ الْمَوْتِ لَا مَسْتَكْرَثُ مِنْهَا. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِيدُكَ عَلَى امْتِنَا! فَإِنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ شَهِدُوا عَلَيْنَا، وَإِنَّ أَهْلَ الشَّامِ يَقْتُلُونَنَا، أَمَّا وَاللَّهِ لَنُشَنِّقَنَّ مَوْنِي بِهَا فَإِنِّي لِأَوَّلُ فَارِسٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هَلَكَ فِي وَادِيهَا، وَأَوَّلُ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَبَحَتْهُ كِلَابُهَا! ثُمَّ مَشَى إِلَيْهِ هُذَبة بن فياض بالسيف فارتعد، فقالوا له: زَعَمْتَ أَنَّكَ لَا تَجْزِعُ مِنَ الْمَوْتِ، فَأَبْرَأَ مِنْ صَاحِبِكَ وَنَدَعُكَ. فَقَالَ: وَمَا لِي لَا أَجْزِعُ وَأَرَى قَبِيراً مُحْفُوراً، وَكُنْناً مَشْهُوراً، وَسَيْفاً مَشْهُوراً وَإِنِّي وَاللَّهِ إِنْ جَزَعْتُ مِنَ الْقَتْلِ لَا أَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ. فَقَتَلُوهُ وَقَتْلُوا سَبْعَةً.

فقال عبد الرحمن بن حسان العنزيّ وكریم الخثعميّ: ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين فنحن نقول في هذا الرجل مثل مقالته. فاستأذنوا معاوية فيهما، فأذن بإحضارهما. فلما دخلا عليه قال الخثعميّ: اللَّهُ اللَّهُ يَا مُعَاوِيَةُ! فَإِنَّكَ مَقُولٌ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الزَّائِلَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ الدَّائِمَةِ، ثُمَّ مَسْؤُولٌ عَمَّا أَرَدْتَ بِسَفْكَ (٤٨٦/٣) دَمَانَا! فَقَالَ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ؟ قَالَ: أَقُولُ فِيهِ قَوْلُكَ. قَالَ: أَتَبْرَأُ مِنْ دِينِ عَلِيٍّ الَّذِي يَدِينُ اللَّهُ بِهِ؟ فَسَكَتَ، وَقَامَ شَجَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ بَنِي قَحْطَافَةَ ابْنِ خُثْعَمٍ فَاسْتَوْصَبَهُ، فَوَهَبَهُ لَهُ عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ الْكُوفَةَ، فَاخْتَارَ الْمَوْصِلَ، فَكَانَ يَقُولُ: لَوْ مَاتَ مُعَاوِيَةُ قَدِمْتُ الْكُوفَةَ، فَمَاتَ قَبْلَ مُعَاوِيَةَ بِشَهْرٍ. ثُمَّ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ: يَا أَخَا رِبْعِيَّةَ مَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ؟ قَالَ: دَعْنِي وَلَا تَسْأَلْنِي فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَدْعُكَ. قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ تَعَالَى كَثِيراً، مِنْ الْأَمْرَيْنِ بِالْحَقِّ وَالْقَانَمِينَ بِالْقِسْطِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ. قَالَ: فَمَا

قِيلَ: وَلَمَّا بَلَغَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيَّ قَتَلَ حُجْرٌ وَأَصْحَابُهُ قَالَ: صَلُّوا عَلَيْهِمْ وَكُفُّوهُمْ وَدَفِنُوهُمْ وَاسْتَقْبِلُوا بِهِمُ الْقَبِيلَةَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: حَجُّوهُمْ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ!

وَأَمَّا مَالِكُ بْنُ هُبَيْرَةَ السَّكُونِيَّ فَمِنْ لَمْ يَشْفَعَهُ مُعَاوِيَةُ فِي حَجَرٍ جَمَعَ قَوْمَهُ وَسَارَ بِهِمْ إِلَى عِزْرَاءَ لِيَخْلَصَ حَجْرًا وَأَصْحَابَهُ، فَلَقِيَتْهُ قَتْلَتْهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْهُ عِلِمُوا أَنَّهُ جَاءَ لِيَخْلَصَ حَجْرًا، فَقَالَ لَهُمْ: مَا وَرَاءَكُمْ؟ قَالُوا: قَدْ تَابَ الْقَوْمُ وَجِئْنَا لِنُخْبِرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَسَكَتَ وَسَارَ إِلَى عِزْرَاءَ، فَلَقِيَهُ بَعْضُ مَنْ جَاءَ مِنْهَا فَأَخْبَرَهُ بِقَتْلِ الْقَوْمِ، فَأَرْسَلَ الْخَيْلَ فِي إِثْرِ قَتْلَتِهِمْ فَلَمْ يَدْرِكُوهُمْ، وَدَخَلُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ (٤٨٧/٣) فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّمَا هِيَ حَرَارَةٌ يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ وَكَأَنَّهَا طَفَنَتْ، وَعَادَ مَالِكُ إِلَى بَيْتِهِ وَلَمْ يَأْتِ مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَقَالَ: مَا مَنَعْنِي أَنْ أَشْفَعَكَ إِلَّا خَوْفًا أَنْ يُعِيدُوا لَنَا حَرْبًا فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَلَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ قَتْلِ حُجْرٍ. فَأَخَذَهَا وَطَابَتْ نَفْسَهُ.

ولما بلغ خبر حجر عائشة أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معاوية فيه وفي أصحابه، فقدم عليه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمن: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ قال: حين غاب عني مثلك من حلماء قومي وحملني ابن سُمَيَّةَ فَاحْتَمَلْتُ.

وقالت عائشة: لَوْلَا أَنَا لَمْ نُغَيِّرْ شَيْئاً إِلَّا صَارَتْ بَنَى الْأُمُورِ إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ لَغَيْرِنَا قَتَلَ حَجْرًا أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ كَانَ مَا عَلِمْتَ لِمُسْلِمًا حَجَّاجًا مُعْتَمِراً.

وقال الحسن البصريّ: أَرَبِعُ خِصَالٍ كُنَّ فِي مُعَاوِيَةَ، لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ إِلَّا وَاحِدَةً لَكَانَتْ مُؤَبَّةً: اِتِّتْرَافُهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى أَخَذَ الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ وَفِيهِمْ بَقَايَا الصَّحَابَةِ وَذُووُ الْقُضَيْلَةِ، وَاسْتِخْلَافُهُ بَعْدَهُ ابْنَهُ سَكْبَرًا خَيْرًا يَلْبِسُ الْحَرِيرَ وَيَضْرِبُ بِالطَّنَابِيرِ، وَادِّعَاؤُهُ زِيَادًا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْوَلَدُ لِلْفَرَّاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرِ، وَقَتْلُهُ حُجْرًا وَأَصْحَابَ حَجْرٍ فَيَا وَيْلًا لَهُ مِنْ حَجْرٍ! وَيَا وَيْلًا لَهُ مِنْ حَجْرٍ وَأَصْحَابِ حَجْرٍ!

قيل: وكان الناس يقولون: أول ذلك دخل الكوفة موت الحسن بن علي، وقتل حجر، ودعوة زياد؛ وقالت هند بنت زيد الأنصارية تروني حجراً، وكانت تشيع:

تَرْفَعُ إِلَيْهَا الْقَمَرُ النُّجُومُ تَبْصُرُ هَلْ تَرَى حُجْرًا يَسِيرُ
(٤٨٨/٣)

في هذه السنة مات جرير بن عبد الله البجلي، وقيل: سنة أربع وخمسين، وكان إسلامه في السنة التي توفي فيها رسول الله ﷺ.

يَسِيرُ إِلَى معاوية بن حنظل لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْأَمِيرُ
تَحَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ تَعْدُ حُجْرُ وَطَابَ لَهَا الْخَوَزَنْقُ وَالشُّنْمُ
وَأَصْبَحَتِ الْبِلَادُ لَهُ مُسَوَّلًا كَانَ لَمْ يُخَيَّا مُزْنَ مُطِيرُ
أَلَا يَا حُجْرُ حُجْرُ بَنِي عَدِي تَلَقَّيْتَ السَّلَامَةَ وَالسَّرُورُ
أَحَابَ عَلَيْكَ مَا أَرَادِي عَلَيْكَ وَشَيْخًا قَسِي بِمَشَقِّ لَهْ زَعِيرُ
فَلَا تَهْلِكْ فَكُلْ زَعِيمُ قَوْمِ مِنَ النَّبَا إِلَى هَلْكَ يَصِيرُ

وفيها مات سعيد بن زيد، وقيل: سنة اثنتين، وقيل: ثمان وخمسين، ودُقن بالمدينة، وهو أحد العشرة. وأبو بكره نقيع بن الحارث، له صحبة، وهو أخو زياد لأمه.

وقد قيل في قتله غير ما تقدم: وهو أن زياداً خطب يوم الجمعة فاطال الخطبة وأخر الصلاة، فقال له حجر بن عدي: الصلاة. فمضى في خطبته. فلما خشي حُجْرُ بْنُ عَدِي فوت الصلاة ضرب يده إلى كف من حصصى وقام إلى الصلاة وقام الناس معه. فلما رأى زياد ذلك نزل فصلّى بالناس وكتب إلى معاوية وكثر عليه، فكتب إليه معاوية ليشده في الحديد ويرسله إليه. فلما أراد أخذه قام قومه لينعوه، فقال حجر: لا ولكن سمعاً وطاعة. فشُدَّ في الحديد وحُمِلَ إلى معاوية. فلما دخل عليه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين! فقال معاوية: أمير المؤمنين أنا؟ والله لا أقبلك ولا أستقبلك! أخرجوه فاضربوا عنقه! فقال حجر للذين يلون أمره: دعوني حتى أصلي ركعتين. فقالوا: صل، فصلّى ركعتين خفّفَ فيهما، ثم قال: لولا أن تظنوا بي غير الذي أردت لأظلمتهما، وقال من حضره من قومه: لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً، فإني لاق معاوية غداً على الجادة؛ وضربت عنقه. قال: فلقيت عائشة معاوية فقالت له: أين كان حُجْلُكَ عن حُجْرٍ؟ فقال: لم يحضرني رشيد. قال ابن سيرين: بلغنا أن معاوية لما حضرته الوفاة جعل يقول: يومي منك يا حجر طويلاً!

وفيها مات ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ، بسرف، وفيها دخل بها رسول الله ﷺ، وقيل: (٤٩٠/٣) ماتت سنة ثلاث وستين، وقيل: ست وستين.

وحج بالناس هذه السنة يزيد بن معاوية. وكان العمال بهذه السنة من تقدم ذكرهم.

(بريدة بضم الباء الموحدة، وفتح الراء المهملة، والحُصَيْب بضم الحاء المهملة، وفتح الصاد المهملة، وآخره باء موحدة). (٤٩١/٣)

سنة اثنين وخمسين

فيها كانت غزوة سفيان بن عوف الأسدي الروم وشتى بأرضهم، وتوفي بها في قول، فاستخلف عبد الله بن مسعدة الفزاري، وقيل: إن الذي شتى هذه السنة بأرض الروم بشر بن أبي أرطاة ومعه سفيان بن عوف.

وغزا الصائفة هذه السنة محمد بن عبد الله الثقفي.

ذكر خروج زياد بن خراش العجلي

وفي هذه السنة خرج زياد بن خراش العجلي في ثلاثمائة فارس فأتى أرض مسكن من السواد، فسير إليه زياد خيلاً عليها سعد بن حذيفة أو غيره، فقتلوه وقد صاروا إلى ماه.

(عباد بضم العين، وفتح الباء الموحدة وتخفيفها). (٤٨٩/٣)

ذكر خروج مُعَاذِ الطائي

وخرج على زياد أيضاً رجل من طيء يقال له مُعَاذُ، فأتى نهر عبد الرحمن ابن أمّ الحكم في ثلاثين رجلاً هذه السنة، فبعث إليه زياد من قتله وأصحابه، وقيل: بل حلّ لواءه واستأمن. ويقال لهم أصحاب نهر عبد الرحمن. (٤٩٢/٣)

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس سعيد بن العاص. وكان العمال من تقدم ذكرهم.

ذكر استعمال الربيع على خراسان

وفي هذه السنة وجّه زياد الربيع بن زياد الحارثي أميراً على خراسان، وكان الحكم بن عمرو القفاري قد استخلف عند موته أنس بن أبي أناس، فعزله زياد وولّى خُلَيْدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْفِيَّ، ثم عزله وولّى الربيع بن زياد أول سنة إحدى وخمسين وسير معه خمسين ألفاً بغيالاتهم من أهل الكوفة والبصرة، منهم: بريدة بن الحُصَيْب، وأبو بَرَزَةَ، ولهما صحبة، فسكنوا خراسان، فلما قدما غزا بلخ ففتحها صلحاً، وكانت قد أغلقت بعدما صالحهم الأحنف

وفيها مات عمران بن الحصين الخزاعي بالبصرة. وأبو أيوب الأنصاري، واسمه خالد بن زيد، شهد العقبة ويدرأ، وقد تقدم أنه توفي سنة تسع وأربعين عند القسطنطينية. وكعب بن عجرة، وله خمس وسبعون سنة. (٤٩٣/٣)

سنة ثلاث وخمسين

فيها كان مثنى عبد الرحمن بن أم الحَكَم الثقفى بأرض الروم.

وفيها فتحت رُودس، جزيرة في البحر، فتحها جُنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم، وكانوا أشد شيء على الروم، يعترضونهم في البحر فيأخذون سفنهم، وكان معاوية يدر لهم العطاء، وكان العدو قد خافهم. فلما توفي معاوية أقفلهم ابنه يزيد.

وقيل: فتحت سنة ستين.

ذكر وفاة زياد

وفي هذه السنة توفي زياد بن أبيه بالكوفة في شهر رمضان.

وكان سبب موته أنه كتب إلى معاوية: إني قد ضبطت العراق بشمالي ويميني فارغة فاشغلها بالحجاز. فكتب له عهده على الحجاز، فبلغ أهل الحجاز فأتى نفر منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب فذكروا ذلك، فقال: أدعو الله عليه ثم استقبل القبلة. ودعا ودعا معه، وكان من دعائه أن قال: اللهم اكفنا شر زياد. فخرجت طاعونة على أصبع يمينه فمات منها. فلما حضرته (٤٩٤/٣) الوفاة دعا شريحاً القاضي فقال له: قد حدث ما ترى وقد أمرت بقطعها فأشير علي. فقال له شريح: إني أخشى أن يكون الأجل قد دنا فتلقى الله أجدم وقد قطعت يدك كراهية لقاتله، أو أن يكون في الأجل تأخير فتعيش أجدم وتعيّر ولدك. فقال: لا أبيت والطاعون في لحاف واحد. فخرج شريح من عنده، فسأله الناس، فأخبرهم، فلاموه وقالوا: هلا أشرت بقطعها؟ فقال: المستشار مؤتمن.

وأراد زياد قطعها، فلما نظر إلى النار والمكاوي جزع وتركه، وقيل: بل تركه لما أشار عليه شريح بتركه، ولما حضرته الوفاة قال له ابنه: قد هيأت لك ستين ثوباً أكفك بها. فقال له: يا بني قد دنا من أبيك لباس هو خير من لباسه [هكذا]، أو سلب سريعاً فمات فدفن بالثوبة إلى جانب الكوفة.

فلما بلغ موته ابن عمر قال: اذهب ابن سُمَيَّة، لا الآخرة أدركت ولا الدنيا بقيت عليك.

وكان مولده سنة إحدى من الهجرة؛ قال يسكين الدارمي

يرثيه:

وَلَيْتُ زِيَادَةَ الْإِسْلَامِ وَلَيْتُ جِهَاراً حِينَ وَقَعَا زِيَادُ
فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ يَجِيه، وَلَمْ يَكُنْ هِجَا زِيَاداً حَتَّى مَاتَ:

أَسْكِنُ لَيْكِي اللَّهُ عَيْنِكَ إِيمَا جَرَى فِي ضَلَالٍ دَعَمَهَا فَحَلَّتْهَا
بَكَيْتَ امْرَأً مِنْ أَهْلِ نَيْسَانَ كَافِراً كَكَرَى عَلَى عَيْنَانِهِ أَوْ كَقِصْرَا
أَقُولُ لَكَ لَمَّا تَلَيْتَنِي نَيْكَةً بِأَوْ لَا يَطْبِي بِالصَّرِيمَةِ أَغْفِرَا

وكان زياد فيه خُمرة، وفي عينة اليمنى انكسار، أبيض اللحية مخروطها، عليه قميص ربماً رقعه. (٤٩٥/٣)

ذكر وفاة الربيع

وفيها مات الربيع بن زياد الحارثي عامل خراسان من قتل زياد.

وكان سبب موته أنه سخط قتل حُجر بن عدي حتى إنه قال: لا تزال العرب تقتل صبراً بعده، ولو نفرت عند قتله لم يقتل رجل منهم صبراً، ولكنها أقرت فذلت. ثم مكث بعد هذا الكلام جُمعة، ثم خرج يوم الجمعة فقال: أيها الناس إني قد مللت الحياة وإني داع بدعوة فأمّنوا! ثم رفع يديه بعد الصلاة فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فأقبضني إليك عاجلاً! وأمن الناس، ثم خرج فما توارت ثيابه حتى سقط فحمل إلى بيته، واستخلف ابنه عبد الله ومات من يومه، ثم مات ابنه بعده بشهرين واستخلف خُلَيْد بن يربوع الحنفي، فأقره زياد. ولما مات زياد كان على البصرة سُمرة بن جندب، وكان على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد، فأقر سُمرة على البصرة ثمانية عشر شهراً، وقيل: ستة أشهر، ثم عزله معاوية، فقال سُمرة: لعن الله معاوية! والله لو أطعت الله كما أطعته ما عذبني أبداً. وجاء رجل إلى سُمرة فأدى زكاة ماله ثم دخل المسجد فصلى، فأمر سُمرة بقتله فقتل فمر به أبو بكره فقال: يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، قال: وما مات سُمرة حتى أخذه الزمهرير فمات شر ميتة.

(الثوبة بضم التاء المثناة، وفتح الواو، والياء تحتها نقطتان: موضع فيه مقبرة). (٤٩٦/٣)

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة سعيد بن العاص، وكان عامل المدينة، وخرجت هذه السنة وعلى الكوفة عبيد الله بن خالد بن أسيد، وعلى البصرة سُمرة، وعلى خراسان خُلَيْد بن يربوع الحنفي.

(أسيد بفتح الهمزة، وكسر السين المهملة، وسكون الياء المعجمة بאתين من تحتها).

وفيها مات عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بطريق مكة في

نومة نامها، وقيل: توفي بعد ذلك.

وفيها توفي فيروز الديلمي، وكانت له صُحبة، وكان معاوية قد

أحسن ما يعهده. وقدم سعيد على معاوية فسأله عن مروان فأثنى عليه خيراً، فقال له معاوية: ما बादع بينه وبينك؟ قال: خافني على شرفه وخفته على شرفي. قال: فمأذله عندك؟ قال: أسره شاهداً وغائباً.

ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على خراسان

وفي هذه السنة عزل معاوية سمرّة بن جندب واستعمل على البصرة عبد الله بن عمرو بن غيلان سنة أشهر.

وفيها استعمل معاوية عبيد الله بن زياد على خراسان.

وكان سبب ولايته أنه قدم عليه بعد موت أبيه، فقال له معاوية: من استعمل أبوك على الكوفة والبصرة؟ فأخبره، فقال: لو استعملك أبوك (٤٩٩/٣) لاستعملتك. فقال عبيد الله: أنشدك الله أن يقولها لي أحد بعدك: لو استعملك أبوك وعمك لاستعملتك. فولاه خراسان وقال له: أتق الله ولا تؤثرن على تقواه شيئاً، فإن في تقواه عوضاً، ووفرّ عرضك من أن تدنسه، وإذا أعطيت عهداً ففؤ به، ولا تبعن كثيراً بقليل، ولا يخرجن منك أمر حتى تُبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك، وإذا لقيت عدوك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبوك على بطنها، ولا تطمعن أحداً في غير حقّه، ولا تؤيسن أحداً من حقّ هو له. ثم ودّعه، وكان عمر عبيد الله خمساً وعشرين سنة، وسار إلى خراسان، فقطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل، فكان أوّل من قطع جبال بخارى في جيش، ففتح رامني ونسف ويكند، وهي من بخارى، فمن ثم أصاب البخارية وغنم منهم غنائم كثيرة، ولما لقي الترك وهزمهم كان مع ملكهم زوجته فمعلوها عن لبس خفيها فلبست أحدهما وبقي الآخر، فأخذه المسلمون، فقوم بمائتي ألف درهم، وكان قتاله الترك من رُحوف خراسان التي تُذكر، فظهر منه بأس شديد، وأقام بخراسان ستين.

ذكر عدة حوادث

وحجّ بالناس هذه السنة مروان بن الحكم وهو أمير المدينة. وكان على الكوفة عبد الله بن خالد، وقيل: الضحّاك بن قيس، وعلى البصرة عبد الله بن عمرو بن غيلان. (٥٠٠/٣)

وفي هذه السنة توفي أبو قتادة الأنصاري وعمره سبعون سنة، وقيل: مات سنة أربعين، وصلى عليه عليّ وكبر عليه سبعاً، وشهد مع عليّ حروبه كلها، وهو بدري.

وفيها توفي حوْطب بن عبد العزى وله مائة وعشرون سنة. وفيها توفي ثوبان مولى رسول الله ﷺ. وأسماء بن زيد، وقيل: توفي أسماء سنة ثمان وخمسين، وقيل: سنة تسع وخمسين. وفيها توفي سعيد بن يربوع بن عَنَكَة، وكان عمره مائة وأربعاً

استعمله على صنعاء.

وفيها مات عمرو بن حزم الأنصاري.

وفيها مات فضالة بن عبيد الأنصاري بدمشق، وكان قاضياً لمعاوية، وقيل: مات آخر أيام معاوية، وقيل غير ذلك، شهد أهدأ وما بعدها. (٤٩٧/٣)

سنة أربع وخمسين

ذكر غزوة الروم وفتح جزيرة أرواد

فيها كان مشى محمد بن مالك بأرض الروم، وصافقة معن بن يزيد السلمي.

وفيها فتح المسلمون ومقدمهم جُنادة بن أبي أمية جزيرة أرواد قريب القسطنطينية، فأقاموا بها سبع سنين، وكان معهم مُجاهد بن جبر، فلما مات معاوية وولي ابنه يزيد أمرهم بالعود فعادوا.

ذكر عزل سعيد عن المدينة واستعمال مروان

وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مروان.

وكان سبب ذلك أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص أن يهدم دار مروان ويقبض أمواله كلها ليجعلها صافيةً ويقبض منه فذلك، وكان وهبها له، فراجع سعيد بن العاص في ذلك، فأعاد معاوية الكتاب بذلك، فلم يفعل سعيد ووضع الكتابين عنده، فعزله معاوية وولى مروان وكتب إليه يأمره بقبض أموال سعيد بن العاص وهدم داره، فأخذ الفعلة وسار إلى دار سعيد ليهدمها، فقال له سعيد: يا أبا عبد الملك أتهدم داري؟ قال: نعم، كتب إليّ أمير المؤمنين، ولو كتب إليك في هدم داري لفعلت. فقال: ما كنت لأفعل. (٤٩٨/٣) قال: بلى والله. قال: كلا. وقال لغلامه: إيتني بكتاب معاوية؛ فجاءه بالكتابين، فلما رآهما مروان قال: كتب إليك فلم تفعل ولم تعلمني؟ فقال سعيد: ما كنت لأمنّ عليك، وإنما أراد معاوية أن يحرض بيننا. فقال مروان: أنت والله خير مني. وعاد ولم يهدم دار سعيد، وكتب سعيد إلى معاوية: العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا! إنه يُضغّن بعضنا على بعض، فأمر المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره من الأخيئين، وعفوه وإدخاله القطيعة بيننا والشجاعة وتوارث الأولاد ذلك، فوالله لو لم نكن أولاد أب واحد لما جمعنا الله عليه من نصرة أمير المؤمنين الخليفة المظلم، واجتماع كلمتنا، لكان حقاً على أمير المؤمنين أن يرضى ذلك.

فكتب إليه معاوية يعتذر من ذلك ويتصل وأنه عائد إلى

الرحمن ابن مسعود. وقيل: غزا فيها في البحر يزيد بن شجرة، وفي البر عياض بن الحارث، واعتمر معاوية فيها في رجب، وحج بالناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

ذكر البيعة ليزيد بولاية العهد

وفي هذه السنة بايع الناس يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه.

وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبه، فلما معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص، قبلغه ذلك فقال: الرأي أن أشخص إلى معاوية فاستعفيه ليظهر للناس كراحتي للولاية. فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً. ومضى حتى دخل على يزيد وقال له: إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي ﷺ، وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال: أوتري ذلك يتيم؟ قال: نعم. (٥٠٤/٣)

فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة، فأحضر المغيرة وقال له ما يقول يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف، فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة. قال: قال: ومن لي بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرتين أحد يخالفك. قال: فارجع إلى عملك وتحذرت مع من تثق إليه في ذلك وترى ونرى. فودعه ورجع إلى أصحابه. فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعت رجلاً معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقاً لا يترق أبداً، وتمثل:

بمطي شاهدي التجوى وغالي بي الأعداء والخصم الفضابا وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية أمر يزيد، فأجابوا إلى بيعته، فأوفد منهم عشرة، ويقال أكثر من عشرة، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة، وقدموا على معاوية فزبنوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقلها. فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم. ثم قال لموسى: يكمن اقترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: ثلاثين ألفاً. قال: لقد هان عليهم دينهم.

وقيل: أرسل أربعين رجلاً وجعل عليهم ابنه عروة، فلما دخلوا على معاوية قاموا خطباء فقالوا: إنما أشخصهم إليه النظر لأمة محمد، ﷺ، وقالوا: يا أمير المؤمنين كبرت سنك وخفنا انتشار الحيل فانصب لنا علماً وحلاً لنا جداً ننهي إليه. فقال: أشيروا علي. فقالوا: نشير بيزيد ابن أمير المؤمنين. فقال: أوقد رضيتموه؟ قالوا:

وعشرين سنة، وله صُحبة. ومُخَرَّمَة بن نوفل، وهو من مسلمة الفتح، وعمره مائة سنة وخمس عشرة سنة، وعبد الله بن أنيس الجهنّي.

وفيها قُتل زيد بن شجرة الرهاوي في غزوة غزاها، وقيل: سنة ثمان وخمسين. (٥٠١/٣)

سنة خمس وخمسين

في هذه السنة كان مشى سفيان بن عوف الأزدي في قول، وقيل: بل الذي شتى هذه السنة عمرو بن مُحَرَّز، وقيل: بل عبد الله بن قيس الفزاري، وقيل: بل مالك بن عبد الله.

ذكر ولاية ابن زياد البصرة

في هذه السنة عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن عجلان عن البصرة وولاه عبيد الله بن زياد.

وكان سبب ذلك: أن عبد الله خطب على منبر البصرة فحصبه رجل من بني ضبة فقطع يده، فأناه بنو ضبة وقالوا: إن صاحبنا جنى ما جنى وقد عاقبته ولا نأمن أن يبلغ خبرنا أمير المؤمنين فيعاقب عقوبة نعم، فكتب لنا كتاباً إلى أمير المؤمنين يخرج به أحداً إليه يُخبره أنك قطع على شيعة وأمر لم يتضح. فكتب لهم، فلما كان رأس السنة توجه عبد الله إلى معاوية ووافاه الضبيون بالكتاب وأدعوا أنه قطع صاحبهم ظلماً. فلما رأى معاوية الكتاب قال: أما القود من عمالي فلا سبيل إليه ولكن أدي صاحبكم من بيت المال. (٥٠٢/٣) وعزل عبد الله عن البصرة واستعمل ابن زياد عليها، فولى ابن زياد على خراسان أسلم بن زرعة الكلابي، فلم يغز ولم يفتح بها شيئاً.

ذكر عدة حوادث

وفيها عزل معاوية عبد الله بن خالد عن الكوفة وولاه الضحّاك بن قيس، وقيل ما تقدّم.

وفيها مات الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وهو الذي كان رسول الله، ﷺ، يختفي في داره بمكة، وكان عمره ثمانين سنة وزيادة، وقيل: مات يوم مات أبو بكر.

وفيها توفي أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري، وهو بدرّي، وشهد صفين مع علي، وقيل: توفي قبل. وحج بالناس هذه السنة مروان بن الحكم. (٥٠٣/٣)

سنة ست وخمسين

فيها كان مشى جنادة بن أبي أمية بأرض الروم، وقيل: عبد

﴿وَالَّذِي قَالَ لِيَا إِلَهُيَ أَفْتُ لَكُمْ﴾ [الأحقاف: ١٧] الآية. (٥٠٧/٣)

فسمعت عائشة مقالته فقامت من وراء الحجاب وقالت: يا مروان يا مروان! فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه. فقالت: أنت القاتل لعبد الرحمن إنه نزل فيه القرآن؟ كذبت! والله ما هو به ولكنه فلان بن فلان، ولكنك أنت فضض من لعنة نبي الله. وقام الحسين بن علي فأنكر ذلك، وفعل مثله ابن عمر وابن الزبير، فكتب مروان بذلك إلى معاوية، وكان معاوية قد كتب إلى عُمّاله بتقريب يزيد ووصفه وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار، فكان فيمن أئاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة، والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة، فقال محمد بن عمرو لمعاوية: إن كل راجع مسؤول عن رعيته، فانظر من تولي أمر أمة محمد. فأخذ معاوية بهز حتى جعل يتنفس في يوم شات ثم وصله وصرفه، وأمر الأحنف أن يدخل على يزيد، فدخل عليه، فلما خرج من عنده قال له: كيف رأيت ابن أخيك؟ قال: رأيت شاباً ونشاطاً وجلداً ومزاحاً. ثم إن معاوية قال للضحّاك بن قيس الفهري، لما اجتمع الوفود عنده: إنّي متكلم فإذا سكّئت فكن أنت الذي تدعوا إلى بيعة يزيد وتحشي عليها. فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحققا وما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض ببيعته، فأعرضه الضحّاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين إنه لا بد للناس من والٍ بعدك، وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء، وأصلح للدماء، وآمن للسبل، وخيراً في العاقبة، والأنام عوج راجع، والله كل يوم في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت، وهو من أفضلنا علماً وحلماً، وأبعدنا رياءً، فواله عهدك واجعله لنا علماً بعدك ومفرجاً نلجأ إليه ونسكن في ظله. (٥٠٨/٣)

وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من ذلك. ثم قام يزيد بن المقنن العذري فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبي فهذا، وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: اجلس فأنّت سيّد الخطباء. وتكلم من حضر من الوفود.

فقال معاوية للأحنف: ما تقول يا أبا بحر؟ فقال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف الله إن كذبتنا، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلاتيه ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضى فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا. وقام رجل من أهل الشام فقال: ما ندرى ما تقول هذه المعديّة العراقيّة وإنما عندنا سمع وطاعة وضرب وازدلاف.

فتفرق الناس يحكون قول الأحنف، وكان معاوية يُعطي

نعم. قال: وذلك رأيكم؟ (٥٠٥/٣) قالوا: نعم، ورأي من ورائنا. فقال معاوية لغزوة سراً عنهم: بكم اشتري أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة دينار. قال: لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً. وقال لهم: نظروا ما قدمتم له ويقضي الله ما أراد، والأناة خير من العجلة. فرجعوا. وقوي عزم معاوية على البيعة ليزيد، فأرسل إلى زياد يستشير، فأحضر زياد عبيد بن كعب التميمي وقال له: إن لكل مستشير ثقة، ولكل سرّ مستودع، وإن الناس قد أبدع بهم خصلتان: إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضع السر إلا أحد رجلين: رجل آخره يرجو ثوابها، ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه، وقد خبرتهما منك، وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف، إن أمير المؤمنين كتب يستشيرني في كذا وكذا، وإنه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد، فالق أمير المؤمنين وأد إليه فعلاات يزيد وقل له رويدك بالأمر، فأحرى أن يتم لك ما تريد، لا تعجل فإن ذرّكاً في تأخير خير من فوت في عجلة.

فقال له عبيد: أفلا غير هذا؟ قال: وما هو؟ قال: لا تُفسد على معاوية رأيي، ولا تبغض إليه أبني، وألقى أنا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له، وأناك تتخوف خلاف الناس عليه لهناتو يقيمونها عليه، وأنت ترى له ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ما تريد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من أمر الأمة. فقال زياد: لقد رمت الأمر بحجره، اشخص على بركة الله، فإن أصبت (٥٠٦/٣) فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مُستغش، وتقول بما ترى، ويقضي الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فذكر ذلك له، فكف عن كثير مما يصنع، وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتؤدة وأن لا يعجل، فقبل منه. فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد، فأرسل إلى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم، فقبلها، فلما ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر: هذا أراد أن ديني عندي إذن لرخيص. وامتنع. ثم كتب معاوية بعد ذلك إلى مروان بن الحكم: إنّي قد كبرت سني، ودق عظمي، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أخير لهم من يقوم بعدي، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك، فأعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك. فقام مروان في الناس فأخبرهم به، فقال الناس: أصاب ووقى، وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يالو. فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب يذكر يزيد، فقام مروان فيهم وقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يال، وقد استخلف ابنه يزيد بعده. فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: كذبت والله يا مروان وكذب معاوية! ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هزقلية كلاً مات هزقل قام هزقل. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه:

المُقارب ويداري المُباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبإيابه. فلمَّا بایعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز في ألف فارس، فلمَّا دنا من المدينة لقيه الحسين بن عليٍّ أول الناس، فلمَّا نظر إليه قال: لا مرحباً ولا أهلاً! بدنة يترقرق دمها والله مهريقه! قال: مهلاً فإني والله لست بأهل لهذه المقالة! قال: بلى ولشر منها. ولقيه ابن الزبير فقال: لا مرحباً ولا أهلاً! خبِّ ضُبُّ ثلعة، يَدْخُلُ رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويُدَقَّ ظهره، نَحْيَاهُ عَنِّي، فاضرب وجه راحلته. ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال له معاوية: لا أهلاً ولا مرحباً! شيخ قد خرف وذعب عقله، ثم أمر فاضرب وجه راحلته، ثم فعل بآبن عمر نحو ذلك، فأقبلوا معه لا يلتفت إليهم حتى دخل المدينة، فحضرُوا بابيه، فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه ما يحبون، فخرجوا إلى مكة فاتَمَّامُوا بها، وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال: مَنْ أَحَقُّ (٥٠٩/٣) منه بالخلافة في فضله وموضعه؟ وما أظنُّ قوماً بمتمتين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم، وقد أُنذرت إن أغتت النُذْرُ؛ ثم أنشد تمثلاً:

قد كنتُ حذرتُك آل المصطلقِ وقلتُ يا عمرو اطنني وانطلقِ
إنك إن كلفْتَنِي مآلِمَ أطقِ ساءك ما سركَ مِنِّي من خلقِ
دونك ما استقيتَ فاحشٍ وفقِ

ثم دخل على عائشة، وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه، فقال: لأقتلنهم إن لم يبايعوا، فشكاهم إليها، فوعظته وقالت له: بلغني أنك تهذهم بالقتل، فقال: يا أم المؤمنين هم أعزُّ من ذلك ولكني بايعت ليزيد وبإيابه غيرهم، أفترين أن أنقض بيعه قد تمت؟ قالت: فافرق بهم فإنهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله. قال: أفعل. وكان في قولها له: ما يؤمنك أن أقعد لك رجلاً يقتلك وقد فعلت بأخي ما فعلت؟ تعني أخاها محمداً. فقال لها: كلا يا أم المؤمنين، إني في بيت آمن. قالت: أجل.

ومكث بالمدينة ما شاء الله ثم خرج إلى مكة فلقية الناس، فقال أولئك النفر: نلتناه فلعله قد ندم على ما كان منه، فلقوه بيطن مر، فكان أول من لقيه الحسين، فقال له معاوية: مرحباً وأهلاً يا ابن رسول الله وسيد شباب المسلمين! فأمر له بدابة فركب وسأيره، ثم فعل بالباقيين مثل ذلك وأقبل يسأيرهم لا يسير معه غيرهم حتى دخل مكة، فكانوا أول داخل وآخر خارج، ولا يمضي يوم إلا ولهم صلة ولا يذكر لهم شيئاً حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره، فقال بعض أولئك النفر لبعض: لا تُخَدَّعُوا فما صنع بكم هذا لحبكم وما (٥١٠/٣) صنعه إلا لما يريد. فأعدوا له جواباً فاتَّفَقُوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبير.

فاحضرهم معاوية وقال: قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم وحملتي ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت

ثم أقبل علي بن الزبير، فقال: هات لعبري إنك خطيبهم. فقال: نعم، نخيرك بين ثلاث خصال. قال: اعرضهن. قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ، أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر. قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ، ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف. قالوا: صدقت فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية فريش ليس من بني أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه. قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا. ثم قال: فأنتم؟ قالوا: قولنا قوله. قال: فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم، إنه قد أعذر من أنذر، إني كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك. وأصفع، وإني قائم بمقالة فأقسم بالله لأن رد عليٍّ أحكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يُقَيِّنُ رجل إلا على نفسه.

ثم دعا صاحب حرسه يحضرهم فقال: أقم على رأس كل رجل من (٥١١/٣) هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم رد علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرُّهط سادة المسلمين وخيارهم لا يثبت أمر دونهم ولا يُقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله! فبايع الناس، وكانوا يترصون ببيعة هؤلاء النفر، ثم ركب راحله وانصرف إلى المدينة، فلقي الناس أولئك النفر فقالوا لهم: زعمتم أنكم لا تبايعون فلم أرضيتهم وأعطيتهم وبايعتم؟ قالوا: والله ما فعلنا. فقالوا: ما منعكم أن تردوا على الرجل؟ قالوا: كادنا وخفنا القتل.

وبإيابه أهل المدينة، ثم انصرف إلى الشام وجفا بني هاشم، فاثاه ابن عباس فقال له: ما بالك جفوتنا؟ قال: إن صاحبكم لم يبايع ليزيد فلم تتكروا ذلك عليه. فقال: يا معاوية إني لخليق أن أنحاز إلى بعض السواحل فأقيم به ثم أنطق بما تعلم حتى أذع الناس كلهم خوارج عليك. قال: يا أبا العباس تُعطون وترضون وتراودون.

وقيل: إن ابن عمر قال لمعاوية: أبايعك على أني أدخل فيما تجتمع عليه الأمة، فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها! ثم عاد إلى منزله فأغلق بابيه ولم ياذن لأحد.

قلت: ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر لا يستقيم على قول من يجعل وفاته سنة ثلاث وخمسين، وإنما يصح على قول من يجعلها بعد ذلك الوقت. (٥١٢/٣)

ذكر عزل ابن زياد عن خراسان واستعمال سعيد بن عثمان بن

عفان

في هذه السنة استعمل معاوية سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان وعزل ابن زياد.

وسبب ذلك أنه سأل معاوية أن يستعمله على خراسان، فقال: إن بها عبيد الله بن زياد. فقال: والله لقد اصطنعت أبي حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا تجارى إليه ولا تسامى، فما شكرت بلاءه ولا جازيته وقدمت هذا، يعني يزيد، وبايعت له، والله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً فقال معاوية: أما بلاء أبيك فقد يحق عليك الجزاء به، وقد كان من شكركي لذلك أنني قد طلبت بدمه، وأما فضل أبيك على أبيه فهو والله خير مني، وأما فضل أمك على أمه فلعمرى امرأة من قريش خير من امرأة من كلب، وأما فضلك عليه فوالله ما أحب أن الغوطة ملئت [ليزيد] رجالاً مثلك. فقال له يزيد: يا أمير المؤمنين ابن عمك وأنت أحق من نظري في أمره، قد عتب عليك فاعتبه.

فولاه حرب خراسان، وولى إسحاق بن طلحة خراجها، وكان إسحاق ابن خالة معاوية، أمه أم أبان بنت عتبة بن ربيعة، فلما صار بالرقي مات إسحاق فولى سعيد حربها وخراجها، فلما قدم خراسان قطع النهر إلى سمرقند، فخرج إليه الصغد فتوافقوا يوماً إلى الليل ولم يقتلوا فقال مالك بن الربيع:

ما زلت يسوم الصغد ترعد واقفاً من الجبن حتى خفت أن تنصراً (٥١٣/٣)

فلما كان من الغد اقتتلوا فهزمهم سعيد وحصرهم في مدينتهم، فصالحوه وأعطوه رهناً منهم خمسين غلاماً من أبناء عظمائهم، فسار إلى يزيد ففتحها صلحاً ولم يبق لأهل سمرقند وجاء بالغللمان معه إلى المدينة. وكان ممن قتل معه قثم بن عباس بن عبد المطلب.

وفي هذه [السنة] ماتت جويرية بنت الحارث زوج النبي ﷺ. (٥١٤/٣)

سنة سبع وخمسين

فيها كان مشى عبد الله بن قيس بأرض الروم.

وفيها عزل مروان بن الحكم عن المدينة، واستعمل عليها الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان، وقيل: لم يعزل مروان هذه السنة.

وفي هذه السنة مات عبد الله بن عامر، وقيل: سنة تسع وخمسين. وعبد الله بن قدامة السعدي، وله ضحية، وقيل: هو عبد الله بن عمرو بن وقدان السعدي، وإنما قيل له السعدي لأن أباه استرضع في بني سعد بن بكر، وهو من بني عامر بن لؤي. وعثمان بن شيبة بن أبي طلحة العبدي، وهو جد بني شيبة سدة الكعبة ومفتاحها معهم إلى الآن، وأسلم يوم الفتح، وقيل يوم حنين، وجير بن مطعم بن نوفل القرشي، له ضحية. وأم سلمة زوج النبي ﷺ، وقيل: بقيت إلى قتل الحسين. (٥١٥/٣)

سنة ثمان وخمسين

في هذه السنة غزا مالك بن عبد الله الخثعمي أرض الروم وعمرو بن يزيد الجهني في البحر، وقيل: جنادة بن أبي أمية.

ذكر عزل الضحاک عن الكوفة واستعمال ابن أم الحكم

وفي هذه السنة عزل معاوية الضحاک بن قيس عن الكوفة واستعمل عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفي، وهو ابن أم الحكم، وهو ابن أخت معاوية.

وفي عمله هذه السنة خرجت الخوارج الذين كان المغيرة بن شعبة حبسهم فجمعهم حيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جؤين الطائي فخطبهم وحشاهم على الجهاد فبايعوا حيان بن ظبيان وخرجوا إلى باقيها، فسار إليهم الجيش من الكوفة فقتلهم جميعاً.

ثم إن عبد الرحمن بن أم الحكم طرده أهل الكوفة لسوء سيرته، فلحق بخاله معاوية فولاه مصر، فاستقبله معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر، فقال له: ارجع إلى خالك، فلعمري لا تسير فينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة! فرجع إلى معاوية. (٥١٦/٣)

ثم إن معاوية بن حديج وفد إلى معاوية، وكان إذا قدم إلى معاوية رُتبت له الطرق بقياب الريحان تعظيماً لشأنه، فدخل على معاوية وعنده أخته أم الحكم، فقالت: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: يخ بخ! هذا معاوية بن حديج. قالت: لا مرحباً، تسمع بالمعدي خير من أن تراه! فسمعها معاوية بن حديج فقال: على رسلك يا أم الحكم، والله لقد تزوجت فما أكرمت، وولدت فما أنجبت، أردت أن يلي ابنك الفاسق علينا فيسر فينا كما سار في إخواننا من أهل الكوفة وما كان الله ليريه ذلك، ولو فعل ذلك لضربناه ضرباً يطأطن منه، ولو كرر هذا القاعد، يعني خاله معاوية.

فالتفت إليها معاوية وقال: كفي، فكفّت.

ذكر خروج طواف بن غلاق

كان قوم من الخوارج بالبصرة يجتمعون إلى رجل اسمه جدار فيحدثون عنده ويعيرون السلطان، فأخذهم ابن زياد فحبسهم ثم دعا بهم وعرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً ويخلى سبيل القاتلين، ففعلوا، فأطلقهم، وكان ممن قتل طواف، فعدلهم أصحابهم وقالوا: قتلتم إخوانكم! قالوا: أكرهنا وقد يكره الرجل على الكفر وهو مطمئن بالإيمان.

وندم طواف وأصحابه، فقال طواف: أما من توبة؟ فكانوا يكون، وعرضوا على أولياء من قتلوا الدية فأبوا، وعرضوا عليهم الفدية فأبوا، ولقي طواف الهشام بن سُرور السدوسي فقال له: أما ترى لنا من توبة؟ فقال: (٥١٧/٣) ما أجد لك إلا آية في كتاب الله، عز وجل، قوله: ﴿ثُمَّ إِنْ رُبِّكَ لِلظَّالِمِينَ هَاجِرٌ وَمِنْ بَعْدِهِ مَا فِتْنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبِّرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهِمَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

فدعا طواف أصحابه إلى الخروج وإلى أن يفتكوا بابن زياد، فبايعوه في سنة ثمان وخمسين، وكانوا سبعين رجلاً من بني عبد القيس بالبصرة، فسعى بهم رجل من أصحابهم إلى ابن زياد، فبلغ ذلك طوافاً فعبّل الخروج، فخرجوا من ليلتهم فقتلوا رجلاً ومضوا إلى الجملاء، فندب ابن زياد الشرط البخارية، فقاتلوه، فانهزم الشرط حتى دخلوا البصرة وأتبعوهم، وذلك يوم عيد الفطر، وكثرهم الناس فقاتلوا فقتلوا، وبقي طواف في ستة نفر، وعطش فرسه فأقحمه الماء، فرماه البخارية بالنشاب حتى قتلوه وصلبوه، ثم دفنوه أهله؛ فقال شاعر منهم:

يَا رَبَّ حَبِيبِي أَلَيْسَ النَّصِي وَالصَّدَقُ فِي وَاحِدٍ الْمُهْمُ فَاتَتْ الرَّاكِبَ الْكَافِي
حَتَّى أَبَيْعَ الشَّيْءَ تَنْفَسَ بِأَخْرَ تَبَقَى عَلَى دِينٍ يَرْزُلُ وَطَوَانِي
وَكَهْمُ وَإِسِي الشَّعْثَاءِ إِذْ نَسَرُوا إِلَى الْإِسْوَ ذِي خِصَابٍ وَخَفَا

ذكر قتل غزوة بن أذينة وغيره من الخوارج

في هذه السنة اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج فقتل منهم جماعة كثيرة، منهم: غزوة بن أذينة أخو أبي بلال مرداس بن أذينة، وأذينة أمهما، وأبوها حذير، وهو تميمي.

وكان سبب قتله أن ابن زياد كان قد خرج في رهان له، فلما جلس (٥١٨/٣) ينتظر الخيل اجتمع إليه الناس وفيهم عبدة، فأقبل على ابن زياد يعظه، وكان ممّا قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ. وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠]. فلما قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يقل ذلك إلا ومعه جماعة، فقام وركب وترك رهانه. فقيل لعروة: ليقننك! فاختفى، فطلبه ابن زياد فهرب وأتى الكوفة، فأخذ به على ابن زياد، فقطع يديه ورجليه وقتله، وقتل ابنته.

وأما أخوه أبو بلال مرداس فكان عابداً مجتهداً عظيم القدر في الخوارج، وشهد صفين مع عليّ فأنكر التحكيم، وشهد النهروان مع الخوارج، وكانت الخوارج كلها تتولاه، ورأى على ابن عامر قباء أنكره فقال: هذا لباس الفساق! فقال أبو بكر: لا تقل هذا للسلطان فإن من أبغض السلطان أبغضه الله. وكان لا يدين بالاستعراض، ويحرم خروج النساء، ويقول: لا تقاتل إلا من قاتلنا ولا نجبي إلا من حمينا.

وكانت البشلاء امرأة من بني يربوع، تحرّض على ابن زياد وتذكر تجربته وسوء سيرته، وكانت من المجتهديات، فذكرها ابن زياد، فقال لها أبو بلال: إن الثقة لا بأس بها فتغيبني فإن هذا الجبار قد ذكرك. قالت: أخشى أن يلقي أحد بسبي مكرهاً. فأخذها ابن زياد فقطع يديها ورجليها، فمر بها أبو بلال في السوق فعرض على لحيته وقال: أهذه أطيب نفساً بالموت منك يا مرداس؟ ما ميتة أموتها أحب إليّ من ميتة البشلاء! ومرّ أبو بلال بعبير قد طلي بقطران فغشي عليه ثم أفاق فتلا: ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطِيرَانٍ وَتَغَشَّى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [ابراهيم: ٥٠].

ثم إن ابن زياد ألحّ في طلب الخوارج فملا منهم السجن وأخذ الناس (٥١٩/٣) بسبيهم وحبس أبا بلال قبل أن يقتل أخاه عروة، فرأى السجن عبادته فأذن له كل ليلة في إتيان أهله فكان يأتيهم ليلاً ويعود مع الصبح، وكان صديق لمرداس يسامر ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج ليلة فعرّض على قتلهم، فانطلق صديق مرداس إليه فأعلمه الخبر، وبات السجن ليلة سوء خوفاً أن يعلم مرداس فلا يرجع، فلما كان الوقت الذي كان يعود فيه إذا به قد أتى، فقال له السجن: أما بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: بلى. قال: ثم جئت؟ قال: نعم، لم يكن جزاؤك مني مع إحسانك إليّ أن تعاقب. وأصبح عبيد الله فقتل الخوارج، فلما أحضر مرداس قام السجن، وكان ظنّاً لعبيد الله، فشفع فيه وقصّ عليه قصته، فوهبه له وخلى سبيله.

ثم إنه خاف ابن زياد فخرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز فكان إذا اجتاز به مال لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثم يرد الباقي، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم جيشاً عليهم أسلم بن روعة الكلابي سنة ستين، وقيل: أبو حصين التميمي، وكان الجيش ألفي رجل، فلما وصلوا إلى أبي بلال ناشدهم الله أن يقاتلوه فلم يفعلوا، ودعاهم أسلم إلى معاودة الجماعة، فقالوا: أترونا إلى ابن زياد الفاسق؟ فرمى أصحاب أسلم رجلاً من أصحاب أبي بلال فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدؤوكم بالقتال. فشدّ الخوارج على أسلم وأصحابه شدة رجل واحد فهزموهم فقدموا بالبصرة، فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت في ألفين، لا خير فيك! فقال: لأن تلومني وأنا حي خير من أن تنني عليّ وأنا ميت. فكان

دخلوا رَحْبَ معاويةَ بالأحنف وأجلسه معه على سريره، فاحسن القوم الشاء على ابن زياد والأحنف ساكت، فقال له معاوية: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال: إن تكلمت خالفتُ القوم. فقال معاوية: انهضوا فقد عزلته عنكم واطلبوا والياً ترضونه؛ فلم يبق أحد إلا أتى رجلاً من بني أمية أو من أهل الشام والأحنف لم يسبح من منزله فلم يأت أحداً، فلبثوا أياماً، ثم جمعهم معاوية وقال لهم: من اخترتم؟ فاختلفت كلمتهم والأحنف ساكت، فقال: ما لك لا تتكلم؟ فقال: إن وليت علينا أحداً من أهل بيتك لم نعدل بعييد الله أحداً، وإن وليت [من] غيرهم فانظر في ذلك: فردّه معاوية عليهم وأوصاه بالأحنف وقبح رايه في مبادعته، فلما هاجت الفتنة لم يَفِرْ له غير الأحنف.

ذكر هجاء يزيد بن مفرغ الحميري بني زياد وما كان منه
كان يزيد بن مفرغ الحميري مع عباد بن زياد بسجستان، فاشتغل عنه بحرب الترك، فاستبطاه ابن مفرغ، وأصاب الجند الذين مع عباد ضيقاً في علوفات دوابهم، فقال ابن مفرغ:

الايـت اللـحـى كـانـت خـيـشـاً فـلـفـلـها خـيـولـ المـسـلـمـيـن
(٥٢٣/٣)

وكان عباد بن زياد عظيم اللحية، ف قيل: ما أراد غيرك. فطلب فهرب منه وهجاه بقصائد، وكان ممّا هجاه به قوله:

إذا أوتى معاوية بن خـزـرـب فبشـر شعبـ رحـلـك بـانـصـيـاع
فاشـهـد أنـ أمـك لـم تـأخـر أبـا سـفـيـان واطـمـنـة القـنـصـاع
ولـكـن كـانـ انـصـرا فـيـو كـيـس عـلى و جـل شـلـيـب وازـنـيـاع
وقال أيضاً:

الايـلـح معاوية بن خـزـرـب مغلـفـة مـن الرـجـل الـيـسـاني
انـفـصـب أن يـقال أبـوك عـفـ وقرضـي أن يـقال أبـوك زان
فاشـهـد مـن رحـمـك مـن زيـاد كـر حـم الفـيل مـن ولـد الأثـان
وقدم يزيد بن مفرغ البصرة وعبيد الله بن زياد بالشام عند معاوية، فكتب إليه أخوه عباد بما كان منه، فأعلم عبيد الله معاوية به وأنشده الشعر واستأذنه في قتل ابن مفرغ، فلم ياذن له وأمره بتأديبه.

ولما قدم ابن مفرغ البصرة استجار بالأحنف وغيره من الزرّاء فلم يُجرّه أحد، فاستجار بالمنذر بن الجارود فأجاره وأدخله داره، وكانت ابنته عند عبيد الله بن زياد، فلما قدم عبيد الله البصرة أخبر بمكان ابن مفرغ، وأتى المنذر عبيد الله مسلماً، فأرسل عبيد الله الشرط إلى دار المنذر فأخذوا ابن مفرغ وأتوه به والمنذر عنده، فقال له المنذر: أيها الأمير إني قد أجرته! فقال: يا منذر يمدحك وأباك ويهجوني وأبي وتجير عليّ! ثم أمر به فسُقي دواء ثم حُمِلَ على حمار وطيف به وهو يسلم في ثيابه، فقال:

الصبيان إذا رأوا أسلمَ صاحوا به: أما أبو بلال وراءك! فشكا ذلك إلى ابن زياد، فنهاهم فانتهوا.

وقال رجل من الخوارج (٥٢٠/٣)

اللفـا مؤمـن مـكـم رُعـمـم وبقـلـهـم بـأنـك ازيـعـونـا
كنـبـم لـيـس ذاك كـما رُعـمـم ولـكـيـن الخـولـج مؤمـنـونـا
[هي الفتنة القليلة قد علمتم على الفتنة الكبيرة يُصروننا]

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس الوليد بن عتبة. في هذه السنة مات عُقبة بن عامر الجهني، وله صحبة، وشهد صفين مع معاوية.

وفيها توفيت عائشة، عليها السلام، وسمرّة بن جندب، له صحبة. ومالك بن عباد الغافقي، وله صحبة. وعميرة بن يثري قاضي البصرة، واستقضي مكانه هشام بن هبيرة. (٥٢١/٣)

سنة تسع وخمسين

في هذه السنة كان مثنى عمرو بن مرة الجهني بأرض الروم في البر، وغزا في البحر جنادة بن أبي أمية، وقيل: لم يكن في البحر غزوة هذه السنة.

وفي هذه السنة عزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة واستعمل عليها النعمان بن بشير الأنصاري، وقد تقدّم سبب عزله، وقيل: كان عزله سنة ثمان وخمسين.

ذكر ولاية عبد الرحمن بن زياد خراسان

وفيها استعمل معاوية عبد الرحمن بن زياد على خراسان، وقدم بين يديه قيس بن الهيثم السلمي، وأخذ أسلم بن زُرعة فحبسه وأخذ منه ثلاثمائة ألف درهم، ثم قدم عبد الرحمن، وكان كريماً حريصاً ضعيفاً لم يغرّ غزوة واحدة، وبقي بخراسان إلى أن قُتل الحسين، فقدم على يزيد ومعه عشرون ألف ألف درهم، فقال: إن شئت حاسبناك وأخذنا ما معك ورددناك إلى عملك، وإن شئت أعطيناك ما معك وعزلناك وتُعطي عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم. قال: بل تُعطيني ما معي وتعزلني. ففعل فارسل عبد الرحمن إلى ابن جعفر بألف ألف وقال: هذه خمسمائة ألف من يزيد وخمسمائة ألف مني. (٥٢٢/٣)

ذكر عزل ابن زياد عن البصرة وعوده إليها

في هذه السنة عزل معاوية عبيد الله بن زياد عن البصرة وأعادها إليها.

وسبب ذلك أن ابن زياد وفد على معاوية في وجوه أهل البصرة وفيهم الأحنف، وكان سيء المنزلة من عبيد الله، فلما

المنذر:

الله بن زياد، وعلى المدينة الوليد بن عتبة، وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد، وعلى سجستان عباد بن زياد، وعلى كرمان شريك بن الأعور.

وفيها مات قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري بالمدينة، وقيل: سنة ستين، وكان قد شهد مع عليّ مشاهدته كلها.

وفيها مات سعيد بن العاص، ووُلد (٥٢٦/٣) عام الهجرة، وقُتل أبوه يوم بدر كافراً.

وفيها مات مرة بن كعب البهري السلمي، وله صحبة.

وفيها مات أبو محذورة الجمحي مؤذن رسول الله، ﷺ، بمكة، ولم يزل يؤذن بها حتى مات وولده من بعده، وقيل: مات سنة تسع وستين.

وفيها مات عبد الله بن عامر بن كُرَيز بمكة فدفن بعرفات.

وفيها مات أبو هريرة، فحمل جنازته ولد عثمان بن عفان لهواه كان في عثمان.

وفيها غزا المسلمون حصن كَمَخ ومعهم عُمير بن الحُباب السلمي، فصعد عُمير السور ولم يزل يُقاتل عليه وحده حتى كشف الروم فصعد المسلمون، ففتح بهيمر، وبذلك كان يفتخر ويُفخر له بذلك. (٥/٤)

سنة ستين

في هذه السنة كانت غزوة مالك بن عبد الله سورية ودخول جُنادة رُدَس وهدمه مدينتها في قول بعضهم.

وفيها توفي معاوية بن أبي سفيان، وكان قد أخذ على وفد أهل البصرة البيعة ليزيد.

ذكر وفاة معاوية بن أبي سفيان

خطب معاوية قبل مرضه وقال: إني كزور مستحصد وقد طالت إمرتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني وتميت فراقكم وتميت فراقني، ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه، كما أن من قبلي كان خيراً مني، وقد قيل: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، اللهم إني قد أحبيت لقاءك فأحبب لقائي وبارك لي فيه!

فلم يمض غير قليل حتى ابتداء به مرضه، فلما مرض المرض الذي مات (٦/٤) فيه دعا ابنه يزيد فقال: يا بُنيّ إني قد كفيبتك الشدة والترحال، ووطأت لك الأمور، وذلك لك الأعداء، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك مالم يجمعه أحد، فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، وأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر

ترك قريشاً أن أجاور فيهم وجاورت عبد القيس أهل المشقر وأناس أجاورنا فكان جوارهم أصاب من قسوة العراق المبر.

(٥٢٤/٣)

فصاح جاري من جنيمة نلها ولا يمنع الجيران غير المشقر فقال لعبيد الله:

يفسل الماء ما صنعت وقرولي راسخ منك في العظام البوالي ثم سيره عبيد الله إلى أخيه عباد بسجستان، فكلمت البمانية بالشام معاوية فيه، فأرسل إلى عباد فأخذه من عنده، فقدم على معاوية وقال في طريقه:

عنت ما لبدي عليك إمارة أمنت وهذا تحملين طليق لعمري لقد نجالت من هوة الردى إمام وحبل للألغام ويثق ساشكر ما أوليت من حسن نعمتي ومثلي بشكر المتعمين حقيق فلما دخل على معاوية بكى وقال: ركب مني ما لم يركب من مسلم مثله على غير حدث، قال: أولست القاتل:

الابلغ معاوية بن حرب

القصيدة؟ فقال: لا والله الذي عظم حق أمير المؤمنين ما قلت هذا، وإنما قاله عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان واتخذني ذريعة إلى هجاء زياد. قال: ألت القاتل:

فأشهد أن أتكلم بأشهر أباسفيان واضعة القناع (٥٢٥/٣)

في أشعار كثيرة هجوت بها ابن زياد؟ اذهب فقد عفونا عنك فانزل أي أرض الله شئت. فتنزل الموصل وتزوج بها. فلما كان ليلة بنائه بامراته خرج حين أصبح إلى الصيد فلقي إنساناً على حمار. فقال: من أين أقبلت؟ فقال: من الأمواز. قال: فما فعل ماء مسروق؟ قال: على حاله. فارتاح إلى البصرة فقدمها ودخل على عبيد الله فآمنه.

وغضب معاوية على عبد الرحمن بن الحكم فكلّم فيه فقال: لا أرضى عنه حتى يرضى عنه ابن زياد. فقدم البصرة على عبيد الله وقال له:

لأنت زيادة في آل حرب أحب إلي من إحدى بنتي أراك أخاً وعمّاً وابن عم فلا أدرى بغير ما تراتني

[فقال]: أراك شاعر سوء! ورضي عنه.

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

وكان الوالي على الكوفة النعمان بن بشير، وعلى البصرة عبيد

وَرَدَّتْ أَكْفُ السَّائِلِينَ وَأَسْكُوا مِنَ الْيَمِينِ وَالثُّنْيَا بِخَلْفِ مُجْنَدٍ (٨/٤)

فَقَالَتْ إِحْدَى بَنَاتِهِ: كَلَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ يَدْفَعُ اللَّهُ عَنْكَ. فَقَالَ مِمْتَلًا بِشَعْرِ الْهُذَلِيِّ: وَإِذَا الْمَنِيَّةُ، الْبَيْتُ. وَقَالَ لِأَهْلِهِ: اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّهُ لَا وَاقِيَ لِمَنْ لَا يَتَّقِي اللَّهَ. ثُمَّ قَضَى وَأَوْصَى أَنْ يُرَدَّ نَصَفُ مَالِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ، كَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُطِيبَ لَهُ الْبَاقِي لِأَنَّ عَمَرَ قَاسِمَ عَمَّالَهُ، وَأَنْشَدَ لِمَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ:

إِنْ تَسَاقَشَ يَكُنْ يَقَاشُكَ يَارَ بْنَ عَذَابٍ لَا طَرِيقَ لِي بِالْعَذَابِ
أَوْ تَجَاوَزَ فَاتَتْ رَبَّ حَقُّوْحٍ عَنْ مَسِيٍّ ذُنُوبُهُ كَالْتَرَابِ
وَلَمَّا اشْتَدَّ مَرَضُهُ أَخَذَتْ ابْنَتُهُ زَمَلَةً رَأْسَهُ فِي حَجَرِهَا وَجَعَلَتْ
تَقْلِبُهُ، فَقَالَتْ: إِنَّكَ لَتَقْلِبُنِي خَوْلاً قَلْبًا، جَمَعَ الْمَالُ مِنْ شُبِّ إِلَى دُبِّ
فَلَيْتَهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ ثُمَّ تَمَثَّلَ:

لَقَدْ سَعَيْتُ لَكُمْ مِنْ سَعْيٍ ذِي نَصَبٍ وَقَدْ كَفَيْتُكُمْ التَّطَوُّفَ وَالرَّحْلَا
وَبَلَغَهُ أَنْ قَوْمًا يَفْرَحُونَ بِمَوْتِهِ، فَأَنْشَدَ:

فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِنْ مَا هَلَكْنَا وَهَلْ بِالمَوْتِ يَا لِلنَّاسِ عَارٌ؟
وَكَانَ فِي مَرَضِهِ رُبَّمَا اخْتَلَطَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، فَقَالَ مَرَّةً: كَمْ
يَبْنَتَا وَبَيْنَ الْغَوْطَةِ؟ فَصَاحَتْ بَنَتُهُ: وَاحْزَنَاهُ أَفَاقَ فَقَالَ: إِنْ تَنْفَرِي
فَقَدْ رَأَيْتُ مَنْفَرًا.

فَلَمَّا مَاتَ خَرَجَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ حَتَّى صَعَدَ الْمَنْبِرَ وَأَكْفَانُ
مَعَاوِيَةَ عَلَى يَدَيْهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ
عُودَ الْعَرَبِ وَحَدَّ الْعَرَبِ (٩/٤) وَجَدَّ الْعَرَبِ، قَطَعَ اللَّهُ بِهِ الْفِتْنَةَ
وَمَلَكَهُ عَلَى الْعِبَادِ وَفَتَحَ بِهِ الْبِلَادَ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ وَهَذِهِ أَكْفَانُهُ
وَنَحْنُ مُذَرِّجُوهُ فِيهَا وَمُذْخَلُوهُ قَبْرُهُ وَمُخْلَوْنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمَلِهِ ثُمَّ هُوَ
الْهَرَجُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ يُرِيدُ [أَنْ] يَشْهَدَهُ فَعِنْدَ الْأُولَى.
وَصَلَّى عَلَيْهِ الضَّحَّاكُ.

وَقِيلَ: لَمَّا اشْتَدَّ مَرَضُهُ، أَي مَرَضُ مَعَاوِيَةَ، كَانَ وَلَدُهُ يُزِيدُ
بَحْوَارِينَ، فَكَتَبُوا إِلَيْهِ يَحْتَوْنَهُ عَلَى الْمَجِيءِ لِيُدْرِكَهُ، فَقَالَ يُزِيدُ شِعْرًا:
جَاءَ السَّرِيدُ بِقُرْطَاسٍ يَخْبُئُ بِهِ فَأَوْجَسَ الْقَلْبُ مِنْ قُرْطَاسِهِ فَرَعَا
قَلْبًا: لَكَ الْوَيْلُ مَاذَا فِي كِتَابِكُمْ؟ قَالَ: الْخَلِيفَةُ أَسْمَى مُنْتَأً وَجَعَا
ثُمَّ انْتَبَهَا إِلَى خُصُوصِ مَرْفَعَةٍ تَرْمِي الْفَجَاحَ بِهَا لَا نَاتِلِي سُرْعَا
كَأَنَّ أَغْصِينَ مِنْ أَرْكَانِهَا انْقَطَعَا تَوَشَّكَ مَقَالِيدُ تِلْكَ النَّفْسِ أَنْ تَقْعَا
وَصَوْتُ زَمَلَةٍ رُبِعَ الْقَلْبُ فَانْصَعَا وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أُنْبِتَ جَزْعَا
كَتَبَا جَمِيعًا فَمَاتَا قَاطِعِينَ مَعَا لَوْ قَارَعَ النَّاسُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ قَرْعَا

أَهْلَ الْعِرَاقِ فَإِنْ سَأَلُوكَ أَنْ تَعَزَلَ عَنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ عَامِلًا فَاغْفِرْ، فَإِنَّ
عَزَلَ عَامِلَ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يُشْهَرَ عَلَيْكَ مِائَةُ أَلْفِ سَيْفٍ، وَانْظُرْ أَهْلَ
الشَّامِ فَلْيَكُونُوا بِطَانَتِكَ وَعَيْتِكَ، فَإِنْ رَابَكَ مِنْ عَدُوِّكَ شَيْءٌ فَانْتَصِرْ
بِهِمْ، فَإِذَا أَصْبَحْتُمْ فَارْدُدْ أَهْلَ الشَّامِ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَإِنَّهُمْ إِنْ أَقَامُوا
بِغَيْرِ بِلَادِهِمْ تَغَيَّرَتْ أَخْلَاقُهُمْ؛ وَإِنِّي لَسْتُ أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ يَنَازِعَكَ
فِي هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ: الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَعَبْدُ اللَّهِ
بْنُ عَمْرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ؛ فَأَمَّا ابْنُ
عَمْرٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ قَدْ وَقَفَتْهُ الْعِبَادَةُ، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرُهُ بَابِعُكَ؛ وَأَمَّا
الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ فَهُوَ رَجُلٌ خَفِيفٌ وَلَسَنٌ يَتْرَكُهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ حَتَّى
يُخْرِجُوهُ، فَإِنْ خَرَجَ وَظَفَرْتَ بِهِ فَاصْفَحْ عَنْهُ، فَإِنَّ لَهُ رَحِمًا مِائَةً
وَحَقًّا عَظِيمًا وَقَرَابَةً مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَمَّا ابْنُ أَبِي بَكْرٍ فَإِنْ رَأَى
أَصْحَابَهُ صَنَعُوا شَيْئًا صَنَعَ مِثْلَهُ، لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا فِي النِّسَاءِ وَاللَّهْوِ،
وَأَمَّا الَّذِي يَجْثُمُ لَكَ جُثُومُ الْأَسَدِ وَيَرَاوِغُكَ مَرَاوِعَةُ الثَّلَعِ فَإِنْ
أَمَكَّتْهُ فُرْصَةٌ وَتَبَّ ذَافِكُ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَإِنْ هُوَ فَعَلَهَا بِكَ فَظَفَرْتَ بِهِ
فَقَطِّعْهُ إِرْبًا إِرْبًا؛ وَاحْفَظْ دِمَاءَ قَوْمِكَ مَا اسْتَطَعْتَ.

هَكَذَا فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ ذَكَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَيْسَ
بِصَحِيحٍ؛ فَإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ مَعَاوِيَةَ.
وَقِيلَ: إِنَّ يُزِيدَ كَانَ غَائِبًا فِي مَرَضِ أَبِيهِ وَمَوْتِهِ، وَإِنَّ مَعَاوِيَةَ أَحْضَرَ
الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ وَمُسْلِمَ بْنَ عُقْبَةَ الْمُرِّيَّ فَأَمَرَهُمَا أَنْ يُؤَدِّيَا عَنْهُ هَذِهِ
الرِّسَالَةَ إِلَى يُزِيدَ ابْنِهِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

ثُمَّ مَاتَ بِدِمَشْقَ لَهْلَالِ رَجَبٍ، وَقِيلَ لِلنَّصَفِ مِتْ، وَقِيلَ لثَمَانَ
بَقِيْنِ مِتْ، (٧/٤) وَكَانَ مَلِكُهُ تِسْعَ عَشْرَةِ سَنَةً وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَسَبْعَةَ
وَعَشْرِينَ يَوْمًا مِذْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرُ وَبَايَعَ لَهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَقِيلَ
كَانَ مَلِكُهُ تِسْعَ عَشْرَةِ سَنَةً وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ إِلَّا أَيَّامًا،
وَكَانَ عَمْرُهُ خَمْسًا وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَقِيلَ ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ سَنَةً. وَقِيلَ
تَوَفَّى وَهُوَ ابْنُ ثَمَانَ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَقِيلَ خَمْسَ وَثَمَانِينَ.

وَقِيلَ: وَلَمَّا اشْتَدَّتْ عِلَّتُهُ وَأَرْجَفَ بِهِ قَالَ لِأَهْلِهِ: احْشَرُوا عَيْنِي
إِثْبِدُوا وَادْهِنُوا رَأْسِي. فَفَعَلُوا وَبَرَقُوا وَجْهَهُ بِالذَّهْنِ ثُمَّ مَهَّدَ لَهُ
فَجَلَسَ وَأَذِنَ لِلنَّاسِ، فَسَلَّمُوا قِيَامًا وَلَمْ يَجْلِسْ أَحَدٌ، فَلَمَّا خَرَجُوا
عَنْهُ قَالُوا: هُوَ أَصَحُّ النَّاسِ. فَقَالَ مَعَاوِيَةُ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ عِنْدِهِ:

وَتَجَلَّسَدِي لِلثَّامِنِينَ أَرْبَعِينَ أَسْبَابَ الدَّعْرِ لَا تَضَعُفُ
وَإِذَا النِّيَّةُ انْتَبَهَتْ أَظْفَارُهَا الْفَيْتُ كُلَّ تَيْمِيَّةٍ لَا تَفْعُ

وَكَانَ بِهِ نَفَاثَاتٌ، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ: إِنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَسَانِي قَمِيصًا فَحَفَظْتُهُ، وَقَلَمَ أَظْفَارَهُ يَوْمًا فَاخَذْتُ
قَلَامَةً فَجَعَلْتُهَا فِي قَارُورَةٍ، فَلِذَا مِتُّ فَالْبَسُونِي ذَلِكَ الْقَمِيصَ
وَاسْحَقُوا تِلْكَ الْقَلَامَةَ وَذَرُّوْهَا فِي عَيْنِي وَفَمِي فَعَسَى اللَّهُ أَنْ
يَرْحَمَنِي بِبَرَكَتِهَا؛ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِشَعْرِ الْأَشْهَبِ بْنِ رُمَيْلَةَ النَّهْشَلِيِّ:

إِذَا مِتُّ مَاتَ الْجُودُ وَانْقَطَعَ النَّدَى مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِنْ قَلِيلٍ مُصَرَّدٍ

فأقبل يزيد وقد دفن فأثى قبره فصلّى عليه. (١٠/٤)

ذكر نسبه وكنيته وأزواجه وأولاده

أما نسبه فهو: معاوية بن أبي سفيان، واسم أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وكنيته أبو عبد الرحمن.

وأما نساه وولده، فمنهن: ميسون بنت يخذل بن أنثف الكلبية أم يزيد ابنه، وقيل ولدت بنتاً اسمها أمة ربّ المشارق فماتت صغيرة، ومنهن فاختة ابنة قُرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ابني معاوية، وكان عبد الله أحمق، اجتاز يوماً بطحان وبغله يطحن وفي عنقه جلاجل فسأل عن الجلاجل فقال: جعلتها في عنقه لأعلم أن قد قام فلم تدر الرحا. فقال: أرايت إن قام وحرك رأسه كيف تعلم؟ فقال الطحان: إن يغلي ليس له عقل مثل عقل الأمير. وأما عبد الرحمن فمات صغيراً.

ومنهن نائلة ابنة عمارة الكلبية، تزوجها وقال لميسون: انظري إليها، فنظرت إليها وقالت: رأيتها جميلة، ولكني رأيت تحت سرّتها خالاً، ليوضع رأس زوجها في حجرها، فطلقها معاوية وتزوجها حبيب بن مسلمة الفهري، ثم خلف عليها بعده النعمان بن بشير، وقتل فوضع رأسه في حجرها.

ومنهن كثرة بنت قُرظة أخت فاختة، وغزا قبرس وهي معه فماتت هناك. (١١/٤)

ذكر بعض سيرته وأخاره وقضائه وكتابه

لما بُويع معاوية بالخلافة استعمل على شرطته قيس بن حمزة الهمداني، ثم عزله واستعمل زُمل بن عمرو العُذري، وقيل السكسكي. وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون الرومي، وعلى حرسه رجل من الموالي يقال له المختار، وقيل أبو المخارق مالك مولى جُمَيْر، وكان أول من اتخذ الحرس، وكان على حجابيه سعد مولاه، وعلى القضاء فضالة بن عبيد الأنصاري، فمات، فاستقضى أبا إدريس الخولاني. وكان على ديوان الخاتم عبد الله بن مخصن الجُميري، وكان أول من اتخذ ديوان الخاتم، وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمر بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلك إلى زياد، ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحسبه، فقضاه عنها أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث عند ذلك معاوية ديوان الخاتم وحزّم الكتب، ولم تكن تُحزّم.

قال عمر بن الخطّاب: يذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية!

قيل: وقدم عمرو بن العاص من مصر على معاوية ومعه من أهل مصر، فقال لهم عمرو: لا تسلّموا على معاوية بالخلافة فإنّه أهيب لكم في قلبه وصغروا ما استطعتم. فلما قدموا قال معاوية لحجّابه: كأني بابن النابغة وقد صغر أمري عند القوم، فانظروا إذا دخل القوم فتعنّوهم أشدّ ما يحضركم. فكان أول من دخل عليه رجلٌ منهم يقال له ابن الخياط فقال: السلام عليك يا رسول الله! وتابع القوم على ذلك، فلما خرجوا قال لهم عمرو: لعنكم الله! نهيتكم أن تسلّموا عليه بالإمارة فسلّمتم عليه بالنبوة! (١٢/٤)

قيل: ودخل عبيد الله بن أبي بكره على معاوية ومعه ولد له فأكثر من الأكل، فلحظه معاوية، وفطن عبيد الله وأراد أن يغمز ابنه فلم يرفع رأسه حتى فرغ من الأكل، ثم عاد عبيد الله وليس معه ابنه، فقال معاوية: ما فعل ابنك التلقأمة؟ قال: اشتكى. قال: قد علمت أنّ أكله سيورته داء.

قال جُوَيْرِيَة بن أسماء: قدم أبو موسى الأشعري على معاوية في برنس أسود فقال: السلام عليك يا أمين الله! قال: وعليك السلام. فلما خرج قال معاوية: قدم الشيخ لأوليّه، والله لا أوليّه!

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: ألتست أنصح الناس لك؟ قال: بذلك نلت ما نلت.

قال جويرية بن أسماء أيضاً: كان يُسر بن أبي أرطاة عند معاوية فقال من عليّ وزيد بن عمر بن الخطّاب حاضر، وأمه أم كلثوم بنت عليّ، فعلاه بالمصا وشجّه، فقال معاوية لزيد: عمدت إلى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربت! وأقبل على يُسر فقال: تشتم عليّاً وهو جدّه وابن الفاروق على رؤوس الناس! أتري أن يصبر على ذلك؟ فأرضاهما جميعاً.

وقال معاوية: إني لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكبر من حلمي، وعورة لا أواربها بستري، وإساءة أكثر من إحساني. وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم: يا ابن أخي إنك قد لهجت بالشعر فلإياك والتشبيب بالنساء فتغر الشريفة، والهجاء فتغر كريماً وتستشير لثيماً، والمدح فإنّه طعنة الوقاح، ولكن افخر بمفاخر قومك وقل من الأمثال ما ترين به نفسك وتؤدّب به غيرك.

قال عبد الله بن صالح: قيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك؟ قال: أشدهم لي تحيياً إلى الناس. (١٣/٤)

وقال معاوية: العقل والحلم والعلم أفضل ما أعطي العباد، فإذا ذُكر ذكراً، وإذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز.

قال عبد الله بن عمير: أغلظ لمعاوية رجلٌ فأكثر، فقيل له:

أتعلم عن هذا؟ فقال: إني لا أحوّل بين الناس وبين الستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا.

وقال محمد بن عامر: لام معاوية عبد الله بن جعفر على الغناء، فدخل عبد الله على معاوية ومعه بُدَيح ومعاوية واضع رجلًا على رجل، فقال عبد الله لبُدَيح: إيه يا بُدَيح! فتغنى، فحرك معاوية رجله، فقال عبد الله: مَه يا أمير المؤمنين! فقال معاوية: إنَّ الكريم طروب.

قال ابن عباس: ما رأيتُ أخلق للمُلك من معاوية، إن كان ليرد الناس منه [على] أرجاء وإد رحب، ولم يكن كالضيق الحخصص الحصر، يعني ابن الزبير وكان مغضبًا..

وقال صفوان بن عمرو: وقف عبد الملك بقر معاوية فوقف عليه فترحم، فقال رجل: قبر من هذا؟ فقال: قبر رجل كان والله فيما علمته ينطق عن علم ويسكت عن حلم، إذا أعطى أغنى، وإذا حارب أفنى، ثم عجل له الدهر ما أخره لغيره ممن بعده، هذا قبر أبي عبد الرحمن معاوية.

ومعاوية أوّل خليفة بايع لولده في الإسلام، وأوّل من وضع البريد، وأوّل من سُمّي الغالية التي تطيب من الطيب غالية، وأوّل من عمل المقصورة في المساجد، وأوّل من خطب جالسًا، في قول بعضهم. (١٤/٤)

ذكر بيعة يزيد

قيل: وفي رجب من هذه السنة بويح يزيد بالخلافة بعد موت أبيه، على ما سبق من الخلاف فيه، فلمّا تولّى كان على المدينة الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى الكوفة النعمان بن بشير، ولم يكن ليزيد همّة إلا بيعة النّسر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب إلى الوليد يُخبره بموت معاوية، وكتابًا آخر صغيراً فيه: أمّا بعدُ فخذُ حسيماً وعبد الله بن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذاً ليس فيه رُخصة حتى يبايعوا، والسلام. فلمّا أتاه نعي معاوية قطع به وكبر عليه وبعث إلى مروان بن الحكم فدعاه. وكان مروان عاملاً على المدينة من قبل الوليد، فلمّا قدمها الوليد كان مروان يختلف إليه متكارهاً، فلمّا رأى الوليد ذلك منه شتمه عند جلسائه، فبلغ ذلك مروان فانقطع عنه ولم يزل مضارماً له حتى جاء نعي معاوية، فلمّا عظم على الوليد هلاكه وما أمر به من بيعة هؤلاء النّفر، استدعى مروان فلمّا قرأ الكتاب بموت معاوية استرجع وترحم عليه، واستشاره الوليد كيف يصنع. قال: أرى أن تدعوهم الساعة وتأمّره بالبيعة، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم، وإن أبوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنهم إن علموا بموته وثب كل رجل منهم بناحية وأظهر الخلاف ودعا إلى نفسه،

فقال مروان للوليد: عصيتني، لا والله لا يمكنك من نفسه بمثلها أبداً. فقال الوليد: ونجّ غيرك يا مروان، والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه (١٦/٤) الشمس وغربت عنه من مال الدنيا ومُلْكها وأني قتلْتُ حسيماً إن قال لا أبايع، والله إني لأظن أن امرأً يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة. قال مروان: قد أصبت. يقول له هذا وهو غير حامد له على رايه.

وأما ابن الزبير فقال: الآن آتيكم. ثم أتى داره فكنم فيها، ثم بعث إليه الوليد فوجده قد جمع أصحابه واحتزّز، فالح عليه الوليد وهو يقول: أمهلوني. فبعث إليه الوليد موابله، فشموه وقالوا له: يا ابن الكاهلية لتأتين الأمير أو ليقتلنك! فقال لهم: والله لقد استرثت لكثرة الإرسال فلا تعجلوني حتى أبعث إلى الأمير من يأتيني براهيه. فبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير، فقال: رحمك الله، كفّ عن عبد

ذكر عزول الوليد عن المدينة وولاية عمرو بن سعيد

في هذه السنة عزّل الوليد بن عُتبَة عن المدينة، عزله يزيد، واستعمل عليها عمرو بن سعيد الأشدق، فقدما في رمضان، فدخل عليه أهل المدينة، وكان عظيم الكبر، واستعمل على شرطته عمرو بن الزبير لما كان بينه وبين أخيه عبد الله من البغضاء، فأرسل إلى نفر من أهل المدينة فضربهم ضرباً شديداً لهواهم في أخيه عبد الله، منهم: أخوه المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر، وغيرهم، فضربهم الأربعين إلى الخمسين إلى الستين.

فاستشار عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير فيمن يرسله إلى أخيه. فقال: لا توجه إليه رجلاً أنكأ له مني. فجهّز معه الناس وفيهم أنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة، فجاء مروان بن الحكم إلى عمرو بن سعيد فقال له: لا تغز مكة واتق الله ولا تحل حرمة البيت وخلوا ابن الزبير فقد كبر وله ستون سنة وهو لجوئ. فقال عمرو بن الزبير: والله لنغزونه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم.

وأتى أبو شريح الخزاعي إلى عمرو فقال له: لا تغز مكة فلاني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما أذن لي بالقتال فيها ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس. فقال له عمرو: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ. فسار أنيس في مقدمته.

وقيل: إن يزيد كتب إلى عمرو بن سعيد ليرسل عمرو بن الزبير إلى أخيه (١٩/٤) عبد الله، ففعل، فأرسله ومع جيش نحو ألفي رجل، فنزل أنيس بذي طوى ونزل عمرو بالأطح، فأرسل عمرو إلى أخيه: برّيعين يزيد، وكان حلف أن لا يقبل بيعته إلا أن يؤتى به في جامعة، ويقال: حتى أجعل في عنقك جامعة من فضة لا ترى ولا يضرب الناس بعضهم بعضاً فإنك في بلد حرام. فأرسل عبد الله بن الزبير عبد الله بن صفوان نحو أنيس فيمن معه من أهل مكة ممن اجتمع إليه، فهزمه ابن صفوان بذي طوى وأجهز على جريحهم وقتل أنيس بن عمرو وسار مصعب بن عبد الرحمن إلى عمرو بن الزبير، ففرّق عن عمرو أصحابه، فدخل دار ابن علقمة، فأتاه أخوه عبيدة فأجاره، ثم أتى عبد الله فقال له: إني قد أجرت عمراً. فقال: أتجبر من حقوق الناس! هذا ما لا يصلح وما أمرتك أن تجبر هذا الفاسق المستحلّ لحُرّمات الله. ثم أقاد عمراً من كل من ضربه إلا المنذر وابنه فإنهما أيا أن يستقيدا، ومات تحت السباط.

الله فإنك قد أنزعت وذعرت وهو ياتيك غداً إن شاء الله تعالى، فمرّ رُسلك فليصرفوا عنه. فبعث إليهم فأنصرفوا. وخرج ابن الزبير من ليلته فأخذ طريق الفرع هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث وسارا نحو مكة، فسرح الرجال في طلبه فلم يدركوه، فرجعوا وتشاغلو به عن الحسين ليلتهم، ثم أرسل الرجال إلى الحسين فقال لهم: أصبحوا ثم ترون ونرى. وكانوا يثقون عليه، فكفّوا عنه.

فسار من ليلته، وكان مخرج ابن الزبير قبله بليلة، وأخذ معه بنيه وإخوته وبني أخيه وجُلّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية فإنه قال له: يا أخي أنت أحب الناس إليّ وأعزهم عليّ ولست أذخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك، تتجّ بيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت وابتعت رسلك إلى الناس وادعهم إلى نفسك فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك، إني أخاف أن تأتي مصراً وجماعة من الناس فيختلفوا عليك، فمنهم طائفة معك وأخرى عليك، فيقتلون فتكون لأول الأسنة، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً (١٧/٤) أضيقها دماً وأذلها أهلاً. قال الحسين: فأين أذهب يا أخي؟ قال: انزل مكة فإن اطمانت بك الدار فسيبيل ذلك، وإن نأت بك لحقت بالرمال وشغف الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس، ويفرق لك الرأي، فإنك أصوب ما يكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبلاً، ولا تكون الأمور [عليك] أبداً أشكل منها حين تستدبرها.

قال: يا أخي قد نصحت وأشفقت وأرجو أن يكون رأيك سديداً وموفقاً إن شاء الله. ثم دخل المسجد وهو يمثل بقول يزيد بن مفرغ:

لَا دَعَرْتُ السَّوَامَ فِي شَفَقِ الصُّبْحِ حُثُوراً وَلَا دُمَيْتُ بَرْدًا بِرْمٍ أُعْطِيَ مِنَ الْمَهَانَةِ ضَيْمًا وَالْمَنَاسِيْرُ مَدْنِي أَنْ أَحِيَا وَلَمَّا سَارَ الْحُسَيْنُ نَحْوَ مَكَّةَ قَرَأَ: «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» الآية [القصص: ٢١]. فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ قَرَأَ: «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ» الآية [القصص: ٢٢].

ثم إن الوليد أرسل إلى ابن عمر ليسانع فقال: إذا بايع الناس بايعت؛ فتركوه وكانوا لا يتخوفونه. وقيل: إن ابن عمر كان هو وابن عباس بمكة فعادا إلى المدينة، فلقيهما الحسين وابن الزبير فسألاهما: ما وراءكما؟ فقالا: موت معاوية وبيعة يزيد. فقال ابن عمر: لا تفرقا جماعة المسلمين. وقدم هو وابن عباس المدينة. فلما بايع الناس بايعا. قال: ودخل ابن الزبير مكة وعليها عمرو بن سعيد، فلما دخلها قال: أنا عائد بالبيت. ولم يكن يصلي بصلاتهم ولا يفيض بإفاضتهم، وكان يقف هو وأصحابه ناحية. (١٨/٤)

ذكر الخبر عن مراسلة الكوفيين الحسين بن علي ليسر إليهم وقتل
مُسْلِم بن عقيل

لما خرج الحسين من المدينة إلى مكة لقيه عبد الله بن مُطِيع فقال له: جُعِلَتْ فُداك! أين تريد؟ قال: أما الآن فمكة، وأما بعدُ فإني استخير الله. قال: خار الله لك وجعلنا فداك! فإذا أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة فإنها بلدة مشؤومة بها قُتل أبوك وخُذِل أخوك واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه، الزم الحرم فإنك سيّد العرب لا يعدل بك أهل الحجاز أحداً ويتداعى إليك الناسُ (٢٠/٤) من كلِّ جانب، لا تُفارِق الحرم، فداك عمي وخالي! فوالله لئن هلكت لَسُتَرَقَّن بعدك.

فأقبل حتى نزل مكة وأهلها مختلفون إليه ويأتونه ومن بها من المعتنقين وأهل الأفاق، وابن الزبير بها قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأي، وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير، لأن أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين باقياً بالبلد.

ولما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين وابن عمر وابن الزبير عن البيعة أرفقوا بيزيد، واجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي، فذكروا مسير الحسين إلى مكة وكتبوا إليه عن نفر، منهم: سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مطهر وغيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، سلام عليك، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أم بعدُ فالحمد لله الذي قسم عبدك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها فيها وتأمر عليها بغير رضى منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وإنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنّا نجتمع معه في جمعة ولا عيد، ولو بلغنا إقبالك إلينا أخرجنه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وسيروا الكتاب مع عبد الله بن سبع الهمداني وعبد الله بن وال، ثم كتبوا إليه كتاباً آخر وسيروه بعد ليلتين، فكتب الناس معه نحواً من مائة وخمسين صحيفة ثم أرسلوا إليه رسولاً ثالثاً يحثونه على المسير إليهم، ثم كتب إليه شُبَيْث بن ربيعة وحَجَّار بن أبجر ويزيد بن (٢١/٤) الحارث ويزيد بن رُويم وعروة بن قيس وعمرو بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي بذلك.

فكتب إليهم الحسين عند اجتماع الكتب عنده: أما بعد فقد فهمت كل الذي اقتصصتم وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مُسْلِم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورايكم، فإن كتب إلي أنه قد اجتمع رأي ملاكم وذوي الجبى

منكم على مثل ما قدمت به رسلكم أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله، فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق، والسلام.

واجتمع ناس من الشيعة بالبصرة في منزل امرأة من عبد القيس يقال لها مارية بنت سعد، وكانت تشيع، وكان منزلها لهم مألفاً يتحدثون فيه. فعزم يزيد بن بُنَيْط على الخروج إلى الحسين، وهو من عبد القيس، وكان له بنون عشرة، فقال: أيكم يخرج معي؟ فخرج معه إثنان له: عبد الله وعُبيد الله، فساروا فقدموا عليه بمكة ثم ساروا معه فقتلوا معه.

ثم دعا الحسين مُسْلِم بن عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بقوى الله وكتمان أمره واللطف، فإن رأى الناس مجتمعين له عجل إليهم بذلك. فأقبل مسلم إلى المدينة فصلّى في مسجد رسول الله ﷺ، وودّع أهله واستأجر دليلين من قيس، فأقبلا به، فضلاً الطريق وعطشوا، فمات الدليلان من العطش وقالوا لمسلم: هذا الطريق إلى الماء. فكتب مسلم إلى الحسين: إني أقبلت إلى المدينة واستأجرت دليلين فضلاً الطريق واشتد عليهما العطش فماتا، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننسج إلا بخشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يُدعى المضيق من بطن الخبيث وقد تطيرت، فإن رأيت أعفيتني (٢٢/٤) وبعثت غيري. فكتب إليه الحسين: أما بعد فقد خشيت أن لا يكون حملك على الكتاب إلي إلا الجبن، فامض لوجهك، والسلام.

فسار مسلم حتى أتى الكوفة ونزل في دار المختار، وقيل غيرها، وأقبلت الشيعة تختلف إليه، فكلما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين فيكون ويعدون من أنفسهم القتال والنصرة، واختلفت [إليه] الشيعة حتى علم بمكانه وبلغ ذلك النعمان بن بشير، وهو أمير الكوفة، فصعد المنبر فقال: أما بعد فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإن فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال. وكان حليماً ناسكاً يحب العافية، ثم قال: إني لا أقاتل من لم يقاتلني، ولا أثب على من لم يثب علي، ولا أثبه نائمكم، ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة، ولكنكم إن أبديتم صفتكم، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيقي ما ثبت قائمٌ بيدي، ولأول [لم يكن لي منكم ناصر ولا معين، أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يُرديه الباطل.

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية فقال: إنه لا يصلح ما ترى إلا الغشم، إن هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين. فقال: أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأعزّين في معصية الله. ونزل. فكتب

ومعه الخلق يصيحون، فقال له النعمان: أنشدك الله ألا تنجيت عني! فوالله ما أنا بمسلم إليك أمانتي وما لي في قتالك من حاجة! فدنا منه عبيد الله وقال له: افتح لا فتحت! فسمعا إنسان خلفه فرجع إلى الناس وقال لهم: إنه ابن مَرْجَانة. ففتح له النعمان فدخل، وأغلقوا الباب وتفرق الناس، وأصبح فجلس على المنبر، وقيل: بل خطبهم من يومه فقال: أما بعد فإن أمير المؤمنين ولأني مصركم وثمركم وفيتكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم، وأنا متبع فيكم أمره، ومُتَقَدِّم فيكم عهده، فأنا لمحتكم كالوالد البرّ، ولمطيعكم كالأخ الشقيق، وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه.

ثم نزل فاخذ العُرْفَاء والناس أخذاً شديداً وقال: اكتبوا إليّ الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الخُرُورَةِ وأهل الرّيب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم إليّ فبرئ، ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا (٢٥/٤) ما في عرفته أن لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغى علينا منهم باغ، فمن لم يفعل فبرئت منه الذمّة وحلال لنا دمه وماله، وأيّما عريف وجد في عرفته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب على باب داره وألقيت تلك العرافة من العطاء وسير إلى موضع بعمان الزارة. ثم نزل.

وسمع مسلم بمقالة عبيد الله فخرج من دار المختار وأتى دار هاني بن عُرْوَة المرادي فدخل بابه واستدعى هانئا، فخرج إليه فلما رآه كره مكانه فقال له مسلم: أتيتك لتجبريني وتضيفني. فقال له هاني: لقد كلفني شططاً، ولولا دخولك داري لأحييت أن تنصرف عني، غير أنه يأخذني من ذلك ذمام، ادخل. فأواه، فاختلفت الشيعة إليه في دار هاني.

ودعا ابن زياد مولى له وأعطاه ثلاثة آلاف درهم وقال له: اطلب مسلم ابن عقيل وأصحابه والقهم وأعطهم هذا المال وأعلمهم أنك منهم واعلم أخبارهم. ففعل ذلك وأتى مسلم بن عوسجة الأسديّ بالمسجد فسمع الناس يقولون: هذا يبايع للحسين، وهو يصلي، فلما فرغ من صلاته قال له: يا عبد الله إني امرؤ من أهل الشام أتمم الله عليّ بحب أهل هذا البيت، وهذه ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله ﷺ وقد سمعتُ قرأ يقولون إنك تعلم أمر هذا البيت وإني أتيتك لتقبض المال وتدخلني على صاحبك أبياعه، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائي إياه.

فقال: لقد سرّني لقاءك ليأيّ لتال الذي تحبّ وينصر الله بك أهل بيت نبيه، وقد ساعني معرفة الناس هذا الأمر مني قبل أن يتمّ مخافة هذا الطاغية وسطوته. (٢٦/٤) فأخذ بيعته والموائيق

عبد الله بن مسلم إلى يزيد يُخبره بقدم مسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له، ويقول له: إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً يُنفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك، فإن النعمان رجل ضعيف أو هو يتضعّف. وكان هو أوّل من كتب إليه، ثم كتب إليه عُمارة بن الوليد بن عُقبة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص بنحو ذلك.

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد دعا مَرْجُون مولى معاوية فأقرأه الكتب (٢٣/٤) واستشاره فيمن يوليه الكوفة، وكان يزيد عاتياً على عبيد الله بن زياد، فقال له مَرْجُون: أرايت لو نُشر لك معاوية كنت تأخذ براهيه؟ قال: نعم. قال: فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة. فقال: هذا رأي معاوية، ومات وقد أمر بهذا الكتاب. فأخذ براهيه وجمع الكوفة والبصرة لعبيد الله وكتب إليه بعهدته وسيره إليه مع مسلم بن عمرو الباهليّ والد قتيبة، فأمره بطلب مسلم بن عقيل ويقتله أو نفيه. فلما وصل كتابه إلى عبيد الله أمر بالتجهز ليبرز من الغد.

وكان الحسين قد كتب إلى أهل البصرة نسخة واحدة إلى الأشتراف، فكتب إلى مالك بن مِسْعَم البكري، والأحنف بن قيس، والمنذر بن الجارود، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمر بن عبد الله بن مَعْمَر، يدعوهم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وأن السنة قد ماتت والبدعة قد أحييت، فكلهم كتبوا كتابه إلا المنذر بن الجارود فإنه خاف أن يكون دسيساً من ابن زياد فاتاه بالرسول والكتاب فضرب عنق الرسول وخطب الناس وقال:

أما بعد فوالله ما بي تُقرن الصعبة، وما يُقعق لي بالشئان، وإني لئنك لمن عاداني وسيلّم لمن حاربني، وأنصت القارة من رامها، يا أهل البصرة إن أمير المؤمنين قد ولاني الكوفة وأنا غام إليها بالغداة وقد استخلفت عليكم أخي عثمان بن زياد، فإياكم والخلاف والإرجاف، فوالله لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتله وعريفه ووليه، ولاخذن الأدنى بالأقصى، حتى تستقيموا (٢٤/٤) ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق، وإني أنا ابن زياد أشبهته من بين من وطئ الحصى فلم يتزعني شبه خال ولا ابن عم.

ثم خرج من البصرة ومعه مسلم بن عمرو الباهليّ وشريك بن الأعور الحارثي وحشمه وأهل بيته، وكان شريك شيعياً، وقيل: كان معه خمسمائة فتساقطوا عنه، فكان أوّل من سقط شريك، ورجوا أن يقف عليهم ويسبقه الحسين إلى الكوفة، فلم يقف على أحد منهم حتى دخل الكوفة وحده، فجعل يمرّ بالمجالس فلا يشكون أنه الحسين فيقولون: مرحباً بك يا ابن رسول الله! وهو لا يكلمهم، وخرج إليه الناس من دورهم، فسأه ما رأى منهم، وسمع النعمان فاغلق عليه الباب وهو لا يشك أنه الحسين، وانتهى إليه عبيد الله

المعظمة ليناصحن، وليكتمن، واختلف إليه أياماً ليدخله على مسلم بن عقيل.

ومرض هاني بن عروة، فأتاه عبيد الله يوعده، فقال له عُمارة بن عبد السلولي: إنما جماعتنا وكيدنا قتل هذا الطاغية وقد أمكنك الله فاقته. فقال هاني: ما أحب أن يقتل في داري. وجاء ابن زياد فجلس عنده ثم خرج، فما مكث إلا جُمعة حتى مرض شريك بن الأعور، وكان قد نزل على هاني وكان كريماً على ابن زياد وعلى غيره من الأمراء، وكان شديد التشيع، قد شهد صقيين مع عمار، فارسل إليه عبيد الله: أتني رائج إليك العشيّة. فقال لمسلم: إن هذا الفاجر عاندني العشيّة فإذا جلس اخرج إليه فاقته ثم أقعد في القصر ليس أحد يحول بينك وبينه، فإن برأت من وجعي سرت إلى البصرة حتى أكفيك أمرها. فلمّا كان من العشيّ أتاه عبيد الله، فقام مسلم بن عقيل ليدخل، فقال له شريك: لا يفتوتك إذا جلس. فقال هاني بن عروة: لا أحب أن يقتل في داري. فجاء عبيد الله فجلس وسأل شريكاً عن مرضه، فأطال، فلمّا رأى شريك أن مسلماً لا يخرج خشي أن يفوته فاخذ يقول:

ما تنظرون بسلامي لا تحيروا اسقونيها وإن كانت بها نفسي فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً، فقال عبيد الله: ما شأنه؟ أترونه يخلط؟ فقال له هاني: نعم، ما زال هذا دأبه قبيل الصبح حتى ساعته هذه، فانصرف.

وقيل: إن شريكاً لما قال اسقونيها وخلط كلامه فطن به مهران فغمز عبيد الله فوثب، فقال له شريك: أيها الأمير إني أريد أن أوصي إليك. فقال: أعود إليك. فقال له مهران: أنه أراد قتلك. فقال: وكيف مع إكرامي (٢٧/٤) له وفي بيت هاني ويد أبي عنده؟ فقال له مهران: هو ما قلت لك.

فلمّا قام ابن زياد خرج مسلم بن عقيل، فقال له شريك: ما منعك من قتله؟ قال: خصلتان، أما إحداهما فكراهية هاني أن يقتل في منزله، وأما الأخرى فحديث حدثه عليّ عن النبي، ﷺ: إن الإيمان قيد الفتك، فلا يفتك مؤمن بمؤمن. فقال له هاني: لو قتلتَه لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً!

ولبت شريك بعد ذلك ثلاثاً ثم مات، فصلّى عليه عبيد الله. فلمّا علم عبيد الله أن شريكاً كان حرّض مسلماً على قتله قال: والله لا أصلي على جنازة عراقني أبداً، ولولا أن قبر زياد فيهم لنبشت شريكاً.

ثم إن مولى ابن زياد الذي دسّه بالمال اختلف إلى مسلم بن عوسجة بعد موت شريك، فأدخله على مسلم بن عقيل فاخذ يبعثه ويقض ماله وجعل يختلف إليهم ويعلم أسرارهم وينقلها إلى ابن زياد. وكان هاني قد انقطع عن عبيد الله بعذر المرض، فدعا عبيد

الله محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة، وقيل: دعا معهم بعمر بن الحجاج الزبيدي فسألهم عن هاني وانقطاعه، فقالوا: إنه مريض. فقال: بلغني أنه يجلس على باب داره وقد برأ، فالفقه فمروه أن لا يدع ما عليه في ذلك.

فاتوه فقالوا له: إن الأمير قد سأل عنك وقال: لو أعلم أنه شاك لعُدته وقد بلغه أنك تجلس على باب دارك، وقد استبطأك، والجفاء لا يحتمله السلطان، أقسمنا عليك لو ركبت معنا. فلبس ثيابه وركب معهم. فلمّا دنا من القصر أحست نفسه بالشّر فقال لحسان بن أسماء بن خارجة: يا ابن أخي إني لهذا (٢٨/٤) الرجل لخائف، فما ترى؟ فقال: ما أتخوف عليك شيئاً فلا تجعل على نفسك سيلاً، ولم يعلم أسماء ممّا كان شيئاً. وأمّا محمد بن الأشعث فلمّا علم به، قال: فدخل القوم على ابن زياد وهاني معهم، فلمّا رآه ابن زياد قال لشريح القاضي: اتك بحائن رجلاه؛ فلمّا دنا منه قال عبيد الله:

أريد حياتَه ويريد قلبي غنيرك من خليلك من مُراد وكان ابن زياد مكروماً له، فقال هاني: وما ذاك؟ فقال: يا هاني ما هذه الأمور التي ترّخص في دارك لأمير المؤمنين والمسلمين! جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذاك يخفي عليّ! قال: ما فعلت. قال: بلى. وطال بينهما النزاع، فدعا ابن زياد موله ذاك العين، فجاء حتى وقف بين يديه، فقال: أتعرف هذا؟ قال: نعم، وعلم هاني أنه كان عيناً عليهم، فسقط في يده ساعة ثم راجعته نفسه، قال: اسمع مني وصدقني، فوالله لا أكذبك، والله ما دعوتُه ولا علمتُ بشئ من أمره حتى رأيته جالساً على بابي يسألني النزول عليّ، فاستحييت من ردّه ولزمني من ذلك فقام فأدخلته داري وغيثته، وقد كان من أمره الذي بلغك، فإن شئت أعطيتك الآن موقفاً تطمئن به ورهينة تكون في يدك حتى انطلق وأخرجه من داري وأعود إليك. فقال: لا والله لا تفارقني أبداً حتى تأتيني به. قال: لا أتيك بضيفي تقتله أبداً.

فلمّا كثُر الكلام قام مسلم بن عمرو الباهليّ، وليس بالكوفة شامي ولا بصريّ غيره، فقال: خلني وإيّاك حتى أكلمه، لما رأى من لجاجة وأخذ هانئاً وخلا به ناحية من ابن زياد بحيث يراهما، فقال له: يا هاني أئشذك الله (٢٩/٤) أن تقتل نفسك وتدخل البلاء على قومك! إن هذا الرجل ابن عمّ القوم وليسوا بقاتليه ولا ضائريه، فادفعه إليه فليس عليك بذلك مغزاة ولا منقصة إنما تدفعه إلى السلطان! قال: بلى والله إن عليّ في ذلك خزيّاً وعاراً، لا أدفع ضيفي وأنا صحيح شديد الساعد كثير الأعوان، والله لو كنت واحداً ليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه.

فسمع ابن زياد ذلك فقال: أدنوه مني. فأدنوه منه. فقال: والله

لثأيتي به أو لأضربن عنقك! قال: إذن والله تكثر البارقة حول دارك! وهو يرى أن عشيرته ستمنعه. فقال: أبا لبارقة تخوفني؟

وقيل إن هاتئنا لما رأى ذلك الرجل كان عيناً لعبيد الله علم أنه قد أخبره الخبر فقال: أيها الأمير قد كان الذي بلغك ولن أضيق يدك عندي وأنت آمن وأهلك فير حيث شئت. فأتطرق عبيد الله عند ذلك ومهران قائم على رأسه وفي يده معكزة، فقال: واذلأه! هذا الحائك يؤمك في سلطانك! فقال خذه، فأخذ مهران ضفيريته هانئاً وأخذ عبيد الله القضيبي ولم يزل يضرب أنفه وجبينه وخذه حتى كسر أنفه وسيل الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى كسر القضيبي، وضرب هانئ يده إلى قائم سيف شريطي وجذبه فمضع منه، فقال له عبيد الله: آخروري! أحللت بنفسك وحل لنا قتلك! ثم أمر به فألقى في بيت وأغلق عليه.

فقام إليه أسماء بن خارجة فقال: أرسله يا غادر! أمرتنا أن نجيثك بالرجل فلما أتيناك به هشمت وجهه وسيلت دماؤه وزعمت أنك تقتله. فأمر به عبيد الله فلهز وتضع ثم ترك فجلس. فأما ابن الأشعث فقال: رضيينا بما رأى الأمير، لنا كان أو علينا. (٣٠/٤)

وبلغ عمرو بن الحجاج أن هاتئنا قد قتل فأقبل في مذبح حتى أحاطوا بالقصر، ونادى: أنا عمرو بن الحجاج، هذه فرسان مذبح ووجوهها، لم نخلع طاعة ولم نفرق جماعة. فقال عبيد الله لشريح القاضي، وكان حاضراً: ادخل على صاحبهم فانظر إليه ثم اخرج إليهم فاعلمهم أنه حي. ففعل شريح، فلما دخل عليه قال له هانئ: يا للمسلمين! أهلكت عشيرتي؟ أين أهل الدين؟ أين أهل النصر؟ أيخلونني وعدوهم وابن عدوهم! وسمع الضجة فقال: يا شريح إنني لأظنها أصوات مذبح وشيعتي من المسلمين، إنه إن دخل علي عشرة نفر أفقدوني. فخرج شريح ومعه عين أرسله ابن زياد، قال شريح: لولا مكان العين لأبلغهم قول هانئ. فلما خرج شريح إليهم قال: قد نظرت إلى صاحبكم وإنه حي لم يقتل. فقال عمرو وأصحابه: [فأما] إذ لم يقتل فالحمد لله! ثم انصرفوا.

وأتى الخبر مسلم بن عقيل فنادى في أصحابه: يا منصور أيتنا! وكان شعارهم، وكان قد باعته ثمانية عشر ألفاً وحوله في الدور أربعة آلاف، فاجتمع إليه ناس كثير، فعقد مسلم لعبد الله بن عزيير الكندي على ريع كندة وقال: مير أمامي، وعقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على ريع مذحج وأسد، وعقد لأبي ثمامة الصائدي على ريع تميم وهمدان، وعقد لعباس بن جعنة الجذلي على ريع المدينة، وأقبل نحو القصر. فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرر في القصر وأغلق الباب، وأحاط مسلم بالقصر واستلأ المسجد والسوق من الناس وما زالوا يجتمعون حتى المساء، وضاق بعبيد الله أمره وليس معه في القصر إلا ثلاثون رجلاً من الشرط

وعشرون رجلاً من الأشراف وأهل بيته ومواليه، وأقبل (٣١/٤) أشراف الناس يأتون ابن زياد من قبل الباب الذي يلي دار الروميين والناس يستون ابن زياد وأباه. فدعا ابن زياد كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج فيسير ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضر موت فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الثعلبي وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن أبجر العجلي وشير بن ذي الجوشن الضبابي، وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم لقلة من معه.

وخرج أولئك النفر يخذلون الناس، وأمر عبيد الله من عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس من القصر فيمنوا أهل الطاعة ويخوفوا أهل المعصية، ففعلوا، فلما سمع الناس مقالة أشرافهم أخذوا يتفرقون حتى إن المرأة تأتي ابنها وأخاها وتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويفعل الرجل مثل ذلك، فما زالوا يتفرقون حتى بقي ابن عقيل في المسجد في ثلاثين رجلاً. فلما رأى ذلك خرج متوجهاً نحو أبواب كندة، فلما خرج [إلى] الباب لم يبق معه أحد، فمضى في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب، فأنتهى إلى باب امرأة من كندة يقال لها طوعة أم ولد كانت للأشعث واعتقها فتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له بلالاً، وكان بلال قد خرج مع الناس وهي تنتظره، فسلم عليها ابن عقيل وطلب الماء فسقته، فجلس، فقالت له: يا عبد الله ألم تشرب؟ قال: بلى. قالت: فإذهب إلى أهلك، فسكت، فقالت له ثلاثاً فلم يرح، فقالت: سبحان الله! إنني لا أحل لك الجلوس على بابي. فقال لها: ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة، فهل لك إلى أجر ومعروف ولعلي أكافئك به بعد اليوم؟ قالت: وما ذاك؟ قال، أنا مسلم بن عقيل، كذبني هؤلاء القوم وغروني. قالت: ادخل. فادخله بيتاً في دارها وعرضت عليه الغشاء فلم يتعش. وجاء (٣٢/٤) ابنها فراها تكثر الدخول في ذلك البيت، فقال لها: إن لك لساناً في ذلك البيت. وسألها فلم تخبره، فالح عليها فأخبرته واستكتمته وأخذت عليه الأيمان بذلك، فسكت

وأما ابن زياد فلما لم يسمع الأصوات قال لأصحابه: انظروا هل ترون منهم أحداً؟ فنظروا فلم يروا أحداً، فنزل إلى المسجد قبيل العتمة وأجلس أصحابه حول المنبر وأمر فنودي: [ألا] برئت الذمة من رجل من الشرط والعرفاء والمساكين والمقاتلة صلى العتمة إلا في المسجد. فاستلأ المسجد، فصلى بالناس ثم قام فحمد الله ثم قال: أما بعد فإن ابن عقيل السفية الجاهل قد أتى مبا رايتم من الخلاف والشقاق فبرئت الذمة من رجل وجدناه في داره، ومن أتانا به فله دية. وأمرهم بالطاعة ولزومها، وأمر الحصين بن تميم أن يمسك أبواب السكك ثم يفتش الدور، وكان على الشرط

وهو من بني تميم.

له، فقال له عبيد الله: ما أنت والأمان! ما أرسلناك لتؤمنا إنما أرسلناك لتأتينا به! فسكت محمد، ولما جلس مسلم على باب القصر رأى جرة فيها ماء بارد، فقال: اسقوني من هذا الماء. فقال له مسلم بن عمرو الباهلي: أتأراها ما أبردها! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم! فقال له ابن عقيل: من أنت؟ قال: أنا من عرف الحق إذ تركته، ونصح الأمة والإمام إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته، أنا مسلم بن عمرو. فقال له ابن عقيل: لأملك الثكل ما أجفاك وأفطك وأقسي قلبك وأغلظك! أنت يا ابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني! قال: فدعا عمارة بن عتبة بماء بارد فصب له في قدح فاخذ ليشرب فامتلا القدح دماً، ففعل ذلك ثلاثاً، فقال: لو كان من الرزق المقسوم شربته.

وأدخل على ابن زياد فلم يسلم عليه بالإمارة، فقال له الحرسي: ألا تسلم على الأمير؟ فقال: إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه، وإن كان لا يريد قتلي فليكرن تسليمي عليه. فقال له ابن زياد: لعمرى لتقتلن! فقال: كذلك؟ قال: نعم. قال: فدعني أوصي إلى بعض قومي. قال: افعل. فقال لعمر بن سعد: إن بنيي وبينك قرابة ولي إليك حاجة وهي سر، فلم يمكنه من ذكرها، فقال له ابن زياد: لا تمتنع من حاجة ابن عمك. فقام معه فقال: إن علي بالكوفة ذنباً استندته [منذ قدمت الكوفة] سبعمائة درهم فاقضها عني ونظر جثتي فاستوهمها فوارها وابعث إلى الحسين من يردّه.

فقال عمر لابن زياد: إنه قال كذا وكذا. فقال ابن زياد: لا يخونك الأمين ولكن قد يؤتمن الخائن، أما مالك فهو لك تصنع به ما شئت، وأما الحسين فإن لم يردنا لم نردّه، وإن أرادنا لم نكف عنه، وأما جثته فإننا لن نشفقك فيها، وقيل إنه قال: أما جثته فإننا إذا قتلناه لا نبالي ما صنع بها (٣٥/٤).

ثم قال لمسلم: يا ابن عقيل أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشت بينهم وتفرق كلمتهم! فقال: كلاً ولكن أهل هذا المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماهم وعمل فيهم أعمال كسرى وقبصر فأتيناهم لنامر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب والسنة. فقال: وما أنت وذاك يا فاسق؟ ألم يكن يفعل بذلك فيهم إذ أنت تشرب الخمر بالمدينة؟ قال: أنا أشرب الخمر! والله إن الله يعلم أنك تعلم أنك غير صادق وإنني لست كما ذكرت، وإن أحق الناس بشرب الخمر مني من يلغ في دماء المسلمين فيقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئاً. فقال له بن زياد: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام! قال: أما إنك أحق من أحدث في الإسلام ما ليس فيه، أما أنك لا تدع سوء القتلة وقبح الميلة وخيب السيرة ولؤم الغلبة ولا أحد من الناس أحق بها منك. فشتمه ابن زياد وشم الحسين وعلياً وعقيلاً، فلم يكلمه مسلم، ثم

ودخل ابن زياد وعقد لعمر بن حُرَيْث وجعله على الناس، فلما أصبح جلس للناس. ولما أصبح بلال ابن تذك العجوز التي آوت مسلم بن عقيل أتى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأخبره بمكان ابن عقيل، فأتى عبد الرحمن أباه، وهو عند ابن زياد، فأسر إليه بذلك، فأخبر به محمد ابن زياد، فقال له ابن زياد: قم فأتني به الساعة، وبعث معه عمرو بن عبيد الله بن عباس السلمي في سبعين من قيس حتى أتو الدار التي فيها ابن عقيل. فلما سمع الأصوات عرف أنه قد أتى، فخرج إليهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار، ثم عادوا إليه فحمل عليهم فأخرجهم مراراً، وضرب بكبر بن حمدان الأحمر فيم مسلم فقطع شفته العليا وسقطت ثنيته، وضربه مسلم على رأسه وثني بأخرى على جبل العاتق كادت تطلع على جوفه، فلما راوا ذلك أشرفوا على سطح البيت وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونها عليه. فلما رأى ذلك خرج عليهم (٣٣/٤) بسيفه فقاتلهم في السكة، فقال له محمد بن الأشعث: لك الأمان فلا تقتل نفسك! فأقبل يقاتلهم وهو يقول:

اقسمت لا أقول إلا خراً وإن رأيت الموت شيئاً تكفراً
أو يخلط البارد سخناً فاستغراً ردة شعاع الشمس فاستغراً
كل امرئ يوماً يلاقي شراً أخاف أن أكذب أو أغفراً
فقال له محمد: إنك لا تكذب ولا تخدع، القوم بنو عمك

وليسوا بقاتليك ولا ضاريك. وكان قد أخذ بالحجارة وعجز عن القتال، فأسند ظهره إلى حائط تلك الدار، فأمنه ابن الأشعث والناس غير عمرو بن عبيد الله السلمي فإنه قال: لا ناقة لي في هذا ولا جمل، وأني ببغلة فحمل عليها وانتزعوا سيفه، فكانه أيس من نفسه، فدمعت عيناه ثم قال: هذا أول الغدر. قال محمد: أرجو أن لا يكون عليك بأس. قال: وما هو إلا الرجاء، أين أمانكم؟ ثم بكى. فقال له عمرو بن عبيد الله بن عباس السلمي: من يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك! فقال: ما أبكي لنفسي ولكني أبكي لأهلي المتغلبين إليكم، أبكي للحسين وآل الحسين. ثم قال لمحمد بن الأشعث: إني أراك ستعجز عن أماني فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل؟ فقال له ابن الأشعث: والله لأفعلن! ثم كتب بما قال مسلم إلى الحسين، فلقيه الرسول برؤالة فأخبره، فقال: كلما قدر نازل عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمتنا.

وكان سبب مسيره من مكة كتاب مسلم إليه يخبره أنه بايعه ثمانية عشر ألفاً ويستحثه للقدوم. وأما مسلم فلأن محمداً قدم به القصر، ودخل محمد على (٣٤/٤) عبيد الله فأخبره الخبر وأمانه

مستنصحي كفتت عما أريد. فقال له: قل فوالله ما استغشك وما أظنك بشيء من الهوى. قال له: قد بلغني أنك تريد العراق، وإنني مشفق عليك، إنك تأتي بلداً فيه عماله وأمرأه ومعهم بيوت الأموال، وإنما الناس عبيد الدنيا والدرهم، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه. فقال له الحسين: جزاك الله خيراً يا ابن عم، فقد علمت أنك مشيت بنصح وتكلمت بعقل، ومهما يقض من أمر يكن، أخذت برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمد مشير، وأنصح ناصح.

قال: وأناه عبد الله بن عباس فقال له: قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فيبين لي ما أنت صانع؟ فقال له: قد أجمعت السير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى. فقال له ابن عباس: فلاني أعينك بالله من ذلك، خيرني، رحمك الله، أنسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفروا عدوهم؟ فإن كانوا فعلوا ذلك فبئر إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فإنما دعوك إلى الحرب، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك. فقال الحسين: فلاني أستخير الله وأنظر ما يكون. (٣٨/٤)

فخرج ابن عباس وأناه ابن الزبير فحدثه ساعة ثم قال: ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم وكفنا عنهم ونحن أبناء المهاجرين وولاء هذا الأمر دونهم، خيرني ما تريد أن تصنع؟ فقال الحسين: لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتبت إلي شيعتي بها وأشرف الناس وأستخير الله. فقال له ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها. ثم خشي أن يتهمه فقال له: أما أنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ههنا لما خالفنا عليك وساعدناك وبايعناك ونصحننا لك. فقال له الحسين: إن أبي حدثني أن لها كبشاً به تستحل حرمته، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش. قال: فأقم إن شئت وتوليني أنا الأمر فتطاع ولا تعصى. قال: ولا أريد هذا أيضاً. ثم أتتهما أخفيا كلاهما [دوننا]، فالتفت الحسين إلى من هناك وقال: اتدرون ما يقول؟ قالوا: لا ندري، جعلنا الله فداك! قال: إنه يقول: أقم في هذا المسجد أجمع لك الناس، ثم قال له الحسين: والله لن أقتل خارجاً منها بشير أحب إلي من أن أقتل فيها، ولأن أقتل خارجاً منها بشيرين أحب إلي من أن أقتل خارجاً منها بشير، وإسم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم أو الله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت. فقام ابن الزبير فخرج من عنده.

فقال الحسين: إن هذا ليس شيء من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز، وقد علم أن الناس لا يعدلون به في فود أني خرجت حتى يخلو له.

أمر به فأصعد فوق القصر لتضرب رقبته ويثبوا رأسه جسده، فقال مسلم لابن الأشعث: والله لولا أمانك ما استسلمت، قم بسيقك دوني، قد أخفرت ذمتك. فأصعد مسلم فوق القصر وهو يستغفر ويسبح، وأشرف به على موضع الحدائين فضربت عنقه، وكان الذي قتله بكبر بن حمران الذي ضربه مسلم، ثم أتبع رأسه جسده.

فلما نزل بكبر قال له ابن زياد: ما كان يقول وأنتم تصعدون به؟ قال: كان يسبح ويستغفر، فلما أدنيته لأقتله قلت له: ادن مني، الحمد لله الذي أمكن منك وأقادني منك! فضرته ضربة لم تغن شيئاً، فقال: أما ترى في (٣٦/٤) خدش تخدشني وفاء من دمك أيها العبد؟ فقال ابن زياد: وفخراً عند الموت! قال: ثم ضرته الثانية فقتلته.

وقام محمد بن الأشعث فكلّم ابن زياد في هاني وقال له: قد عرفت منزله في المصر وبيته، وقد علم قومه أنني أنا وصاحبي سقناه إليك، فأنشدك الله لما وهبته لي فلاني أكره عداوة قومه. فوعده أن يفعل. فلما كان من مسلم ما كان بدا له فامر بهاني حين قتل مسلم فأخرج إلى السوق فضربت عنقه، قتله مولى تركي لابن زياد، قال: فبصر به عبد الرحمن بن الحُصَيْن المُرَادِي بعد ذلك بخازر مع ابن زياد فقتله. فقال عبد الله بن الزبير الأسدي في قتل هاني ومسلم، وقيل قاله الفرزدق، (الزبير يفتح الزاي وكسر الباء الموحدة):

فإن كنت لا تدري ما الموت فأنظري إلى هاني في السوق وابن عقيل إلى بطل قد هشم السيوف وجهه وأخر يهوي من طمار قبيل وهي أبيات. ويعد ابن زياد برأسيهما إلى يزيد، فكتب إليه يزيد يشكره ويقول له: وقد بلغني أن الحسين قد توجه نحو العراق، فضع المراصد والمسالخ واحترس واحبس على التهمة وخذ على الظنة، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك.

وقيل: وكان مخرج ابن عقيل بالكوفة لثمان ليال مضين من ذي الحجة سنة ستين، وقيل: تسع مضين منه، قيل: وكان فيمن خرج معه المختار بن أبي عبيد وعبد الله بن الحارث بن نوفل، فطلبهما ابن زياد وحبسهما، وكان فيمن قاتل مسلماً محمداً بن الأشعث وشبث بن ربعي التميمي والقعقاع بن شورة وجعل شبث يقول: انتظروا بهم الليل يفرقوا، فقال له القعقاع: إنك قد سددت عليهم وجه مهربهم فافرج لهم يفرقوا. (٣٧/٤)

ذكر مسير الحسين إلى الكوفة

قيل: لما أراد الحسين المسير إلى الكوفة بكتب أهل العراق إليه أناه عمر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وهو بمكة فقال له: إنني أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك، فإن كنت ترى أنك مستنصحي قتلها وأديت ما علي من الحق فيها، وإن ظننت أنك لا

خير الناس خلفك. قال: الخبير سألت، فلوَب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء. فقال الحسين: صدقت، لله الأمرُ يفعل ما يشاء وكل يوم ربنا في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته، والتقوى سريره.

قال: وأدرك الحسين كتاب عبد الله بن جعفر مع ابنيه عون ومحمد، وفيه: أما بعد فإني أسالك بالله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا، فإني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستتصال أهل بيتك، إن هلك اليوم طغى نور الأرض، فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإني في إثر كتابي، والسلام.

وقيل: وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد فقال له: اكتب للحسين كتاباً تجعل له الأمان فيه وتُمنيه فيه البر والصلة وإسالة الرجوع. وكان عمرو عامل يزيد على مكة ففعل عمرو ذلك وأرسل الكتاب مع أخيه يحيى بن سعيد ومع عبد الله بن جعفر، فلقاه وقرأ عليه الكتاب وجهداً أن يرجع، فلم يفعل، (٤١/٤) وكان مما اعترض به إليهما أن قال: إني رأيت رؤيا رأيت فيها رسول الله ﷺ، وأمرت فيها بأمر أنا ماضٍ له، عليّ كان أو لي. فقالا: ما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثت بها أحداً وما أنا محدث بها أحداً حتى ألقى ربي.

ولما بلغ ابن زياد مسير الحسين من مكة بعث الحُصَيْن بن نمير التميمي صاحب شرطته فنزل القادسية ونظم الخيل ما بين القادسية إلى خُفان، وما بين القادسية إلى القطفطانة وإلى جبل لُغُلج. فلما بلغ الحسين الحاجر كتب إلى أهل الكوفة مع قيس بن مُسهر الصيداوي يعرفهم قُدومه ويأمرهم بالجد في أمرهم، فلما انتهى قيس إلى القادسية أخذه الحُصَيْن فبعث به إلى ابن زياد، فقال له ابن زياد: اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب الحسين ابن علي. فصعد قيس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا الحسين بن علي خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنا رسوله إليكم وقد فارقت بالحاجر فأجيبوه؛ ثم لعن ابن زياد وأباه واستغفر علي.

فأمر به ابن زياد فرُمي من أعلى القصر فتقطع فمات.

ثم أقبل الحسين يسير نحو الكوفة فاتته إلى ماء من مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مطيع، فلما رآه قام إليه فقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله! ما أقدمك؟ فاحتلمه فانزله، فأخبره الحسين، فقال له عبد الله: أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنهك، أنشدك الله في حرمة قریش، أنشدك الله في

قال: فلما كان من العشي أو من الغد أتاه ابن عباس فقال: يا ابن عم، إني أنصبر ولا أصبر، إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستتصال، إن أهل العراق قومٌ عُذْر فلا تقربهم، أقم في هذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فليفخوا عاملهم (٣٩/٤) وعدوهم ثم أقدم عليهم، فإن آبيت إلا أن تخرج فسير إلى اليمن فإن بها حصونا وشعاباً، وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعه، وأنست عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاءك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية.

فقال له الحسين: يا ابن عم إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق، وقد أزمعت واجمعت المسير. فقال له ابن عباس: فإن كنت سائراً فلا تير بسائك وصيبتك فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه ولله ينظرون إليه. ثم قال له ابن عباس: لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك، والله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علينا الناس أعطيتي فأقمت لفعلت ذلك.

ثم خرج ابن عباس من عنده فمرّ بابن الزبير فقال: قرّت عينك يا ابن الزبير! ثم أنشد قائلاً:

يا لك بمن كُتِرَ بِنَمِرٍ خلاك الجور فيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تقري

هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز.

قيل: وكان الحسين يقول: والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقه من جوفي، فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرم المرأة. قال: والفرم خرقه تجعلها المرأة في قبلها إذا حاضت.

ثم خرج الحسين يوم التروية، فاعترضه رسل عمرو بن سعيد بن العاص، وهو أمير على الحجاز ليزيد بن معاوية مع أخيه يحيى، يمنعون، فأبى عليهم ومضى، وتضاربوا بالسياط، وامتنع الحسين وأصحابه وساروا فمروا بالتثميم، (٤٠/٤) فرأى بها عبيراً قد أقبلت من اليمن بعث بها بحير بن ريسان من اليمن إلى يزيد بن معاوية، وكان عامله على اليمن، وعلى العير الوزر والخلل، فأخذها الحسين وقال لأصحاب الإبل: من أحب منكم أن يمضي معنا إلى العراق أوفينا كراءه وأحسننا صُحبته، ومن أحب أن يفارقنا من مكاننا أعطياه نصيبه من الكراء؛ فمن فارق منهم أعطاه حقه، ومن سار معه أعطاه كراءه وكساه.

ثم سار، فلما انتهى إلى الصفاح لقيه الفرزدق الشاعر فقال له: أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب. فقال له الحسين: بين لي

أَشَدُّكَ اللَّهُ لَمَّا انصرفت فَوَ اللَّهِ مَا تَقْدُم إِلَّا عَلَى الْأَسِنَّةِ وَحَدَّ السُّيُوفِ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَعَثُوا إِلَيْكَ لَوْ كَانُوا كَفُوكَ مُؤُونَةَ الْقِتَالِ وَوَطَّؤُوا لَكَ الْأَشْيَاءَ فَقَدِمْتَ عَلَيْهِمْ لَكَانَ ذَلِكَ رَأْيًا، فَمَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَذَكَّرُ فَلَا أَرَى أَنْ تَفْعَلَ. فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَخْضِي عَلَيَّ مَا ذَكَرْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يُغَلِّبُ عَلَى أَمْرِهِ. ثُمَّ ارْتَحَلَ مِنْهَا.

ذِكْرُ عِدَّةِ حَوَادِثَ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ حَجَّ بِالنَّاسِ عَمْرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْغَاصِ الْأَشْدُقِ، وَكَانَ الْعَامِلَ عَلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ.

وَفِيهَا مَاتَ جَزْهَدُ الْأَسْلَمِيِّ لَهُ صُحْبَةٌ.

وَفِي أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ (٤٤/٤) مَاتَ حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ الْأَنْصَارِيُّ، وَهُوَ بَدْرِيٌّ.

وَفِي أَيَّامِهِ أَيْضًا مَاتَ دُخَيْجَةُ بْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ الَّذِي كَانَ يُشَبِّهِهُ جِيرَاتِيلُ إِذَا أَنْزَلَ بِالرُّوحِيِّ.

وَفِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ مَاتَ رِفَاعَةُ بْنُ رَافِعِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْعَجْلَانِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ بَدْرِيًّا، وَشَهِدَ مَعَ عَلِيِّ الْجَمَلِ وَصَفَيْنَ.

وَفِي أَيَّامِهِ مَاتَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةِ الضَّمْرِيِّ بِالْمَدِينَةِ.

وَفِي أَيَّامِهِ مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ حُثَيْفٍ الْأَنْصَارِيُّ، وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ.

وَفِي أَيَّامِهِ مَاتَ عِثْبَانُ بْنُ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ، شَهِدَ بَدْرًا.

وَفِي أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ مَاتَ سَهْلُ بْنُ الْخُظَلَمِيِّ، وَهُوَ ابْنُ الرِّبْعِ الْأَنْصَارِيِّ، بِدِمَشْقَ.

وَفِي أَيَّامِهِ بَعْدَ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ مَاتَ السَّنَابُ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ السَّهْمِيِّ.

وَمَاتَ فِي أَيَّامِهِ سُرَاقَةُ بْنُ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيُّ، وَهُوَ بَدْرِيٌّ.

وَفِي أَيَّامِهِ مَاتَ زِيَادُ بْنُ لَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ فِي أَوَّلِهَا، وَهُوَ بَدْرِيٌّ.

وَفِي أَيَّامِهِ مَاتَ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارِ الْمُزَنِيِّ، وَإِلَيْهِ يُنْسَبُ نَهْرُ مَعْقِلٍ بِالْبَصْرَةِ، وَقِيلَ: مَاتَ فِي أَيَّامِ زَيْدٍ.

(مَعْقِلُ بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَالْقَافِ. وَيَسَارُ بِالْيَاءِ الْمَشْنَاءِ وَالسَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ).

وَفِي أَيَّامِهِ مَاتَ نَاجِيَةُ بْنُ جُنْدُبِ بْنِ عُثْمَانَ صَاحِبِ بُذْنِ النَّبِيِّ، ❦

وَفِيهَا مَاتَ نُعَيْمَانُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ رِفَاعَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ فِيهِ مَزَاحٌ وَدُعَابَةٌ، وَشَهِدَ بَدْرًا، وَقِيلَ: بَلِ الَّذِي مَاتَ ابْنُهُ.

حَرَمَةُ الْعَرَبِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ طُلِبَتْ مَا فِي أَيْدِي بَنِي أُمَيَّةَ لَيَقْتُلَنَّكَ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ لَا يَهَابُونَ بَعْدَكَ أَحَدًا أَبَدًا، وَاللَّهِ إِنَّهَا لَحَرَمَةُ الْإِسْلَامِ [تَنْتَهَكَ] وَحَرَمَةُ قُرَيْشٍ وَحَرَمَةُ الْعَرَبِ، فَلَا تَفْعَلْ وَلَا تَأْتِ الْكُوفَةَ وَلَا تُعْرِضْ نَفْسَكَ لِبَنِي أُمَيَّةَ! فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَعْضِيَ. (٤٢/٤)

وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ الْبَجَلِيُّ قَدْ حَجَّ، وَكَانَ عُمَانِيًّا، فَلَمَّا عَادَ جَمْعُهُمَا الطَّرِيقَ، وَكَانَ يَسِيرُ الْحُسَيْنُ مِنْ مَكَّةَ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْزِلُ مَعَهُ، فَاسْتَدْعَاهُ يَوْمًا الْحُسَيْنُ فَشَقَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ ثُمَّ أَجَابَهُ عَلَى كَرِهِ، فَلَمَّا عَادَ مِنْ عِنْدِهِ نَقَلَ نَقْلَهُ إِلَى نَقْلِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ قَالُوا لِأَصْحَابِهِ: مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّبِعَنِي وَلَا فَإِنَّهُ آخِرُ الْعَهْدِ، وَسَاحَدْتُكُمْ حَدِيثًا، غَزَوْنَا بَلْجَرَ فَفُتِّحَ عَلَيْنَا وَأَصْبَحْنَا غَنَامَ فَرَحْنَا وَكَانَ مَعَنَا سَلْمَانُ الْفَارَسِيُّ فَقَالَ لَنَا: إِذَا أَدْرَكْتُمْ سَيِّدَ شَبَابِ أَهْلِ مُحَمَّدٍ فَكُونُوا أَشَدَّ فَرَحًا بِقِتَالِكُمْ مَعَهُ بِمَا أَصَبْتُمْ الْيَوْمَ مِنَ الْغَنَائِمِ، فَمَا أَنَا فَاسْتَوْدَعَكُمْ اللَّهُ! ثُمَّ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ وَقَالَ لَهَا: الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ يَصِيبَكَ فِي سَبَبِي إِلَّا خَيْرٌ. وَلَزِمَ الْحُسَيْنُ حَتَّى قُتِلَ مَعَهُ.

وَأَتَاهُ خَبَرُ قَتْلِ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ بِالْعَلَمِيَّةِ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: نَنْشُدُكَ إِلَّا رَجَعْتَ مِنْ مَكَانِكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِالْكُوفَةِ نَاصِرٌ وَلَا شَيْعَةٌ بَلْ تَنْخَوِّفُ عَلَيْكَ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْكَ! فَوُثِّبَ بَنُو عَقِيلٍ وَقَالُوا: وَاللَّهِ لَا نَبْرَحُ حَتَّى نَدْرِكَ ثَارَنَا أَوْ نَذُوقَ كَمَا ذَاقَ مُسْلِمٌ! فَقَالَ الْحُسَيْنُ: لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ. فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: إِنَّكَ وَاللَّهِ مَا أَنْتَ مِثْلُ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ، وَلَوْ قَدِمْتَ الْكُوفَةَ لَكَانَ النَّاسُ إِلَيْكَ أَسْرَعَ. ثُمَّ ارْتَحَلُوا فَاتَّهَرُوا إِلَى زُبَاةَ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِمَاءٍ إِلَّا أَتَبَعَهُ مَنْ عَلَيْهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى زُبَاةَ، فَاتَاهُ خَبَرُ مَقْتَلِ أَخِيهِ مِنَ الرِّضَاةِ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ يَقْطَرٍ، وَكَانَ سَرَّحَهُ إِلَى مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ مِنَ الطَّرِيقِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِقِتْلِهِ، فَأَخَذَتْهُ خَيْلُ الْحَصِينِ، فَسَيَّرَهُ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى ابْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ لَهُ: اصْعَدْ فَوْقَ الْقَصْرِ وَالْعَيْنِ الْكَذَّابُ ابْنُ الْكَذَّابِ ثُمَّ أَنْزَلَ حَتَّى أَرَى فِيكَ رَأْيِي. فَصَعِدَ فَأَعْلَمَ النَّاسَ بِقُدُومِ الْحُسَيْنِ وَلَعَنَ ابْنَ زِيَادٍ وَأَبَاهُ، فَأَلْقَاهُ مِنَ الْقَصْرِ فَتَكَسَّرَتْ (٤٣/٤) عِظَامُهُ وَبَقِيَ بِهِ رَمَقٌ، فَاتَاهُ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُثْمَانَ اللَّخْمِيُّ فَذَبَحَهُ، فَلَمَّا عَرِيبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أُرِيحَهُ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يَكُنِ الَّذِي ذَبَحَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ يُشَبِّهُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ.

فَلَمَّا أَتَى الْحُسَيْنَ خَبَرَ قَتْلِ أَخِيهِ مِنَ الرِّضَاةِ وَمُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ أَعْلَمَ النَّاسَ ذَلِكَ وَقَالَ: قَدْ خَذَلْنَا شَيْعَتَنَا، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْصَرِفَ فَلْيَنْصَرِفْ لَيْسَ عَلَيْهِ مَنَافِعٌ. فَتَفَرَّقُوا يَمِينًا وَشِمَالًا حَتَّى بَقِيَ فِي أَصْحَابِهِ الَّذِينَ جَاؤُوا مَعَهُ مِنْ مَكَّةَ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ الْأَعْرَابَ ظَنُّوا أَنَّهُ يَأْتِي بِلَدَا قَدْ اسْتَقَامَتْ لَهُ طَاعَةُ أَهْلِهِ فَأَرَادَ أَنْ يَعْلَمُوا عَلَامًا يَقْدُمُونَ.

ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ بِطَنْ الْعَقَبَةِ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالَ لَهُ:

وفي آخر أيامه مات عبد الله بن مالك بن بُحَيْثَةَ، له صحبة.

وفيهما مات عبد الله بن مُعْقَل بن عبد غنم المُزَنِّي بالبصرة.

(وَمُعْقَل بضم الميم، وفتح الغين المعجمة، وفتح الفاء المشددة).

وفي أيامه مات هند بن جارية بن هند الأسلمي.

وفي سنة ستين توفي حكيم بن حزام وله مائة وعشرون سنة، ستون في الجاهلية وستون في الإسلام.

وفيهما مات أبو أُسَيْد الساعدي، واسمه مالك بن ربيعة، وهو بدرّي، (٤٥/٤) وقيل: مات سنة خمس وستين، وهو آخر من مات من البدرين، وقيل: مات سنة ثلاثين، ولا يصح. وفي أول أيام معاوية مات أبو بُرْدة هاني بن نيار البلوي حليف الأنصار وهو عَقْبِي بدرّي، وشهد مع علي حروبه كلها.

وفي أيامه مات أبو ثعلبة الخشني، له صحبة، وقيل: مات سنة خمس وسبعين.

وفي أيامه مات أبو جهم بن حذيفة العدوي القرشي في آخرها، وقيل: شهد ببيان الكعبة أيام ابن الزبير، وكان قد شهد قريشاً حين بنتها.

وفي أول أيامه مات أبو حنمة الأنصاري والد سهل.

وفي آخر أيامه مات أبو قيس الجهني، شهد الفتح.

وفي سنة ستين توفي صفوان بن المُعْتَل السلمي بسُمِّيَ سَاط، وقيل: إنه قُتل شهيداً قبل هذا.

وفيهما توفيت الكلبيّة التي استعادت من النبي ﷺ، حين تزوجها ففارقتها، وكانت قد أصابها جنون، وتوفي بلال بن الحارث المُزَنِّي أبو عبد الرحمن.

وفي آخر أيامه مات وائل بن حُجر الحضرمي، وأبو إدريس الخولاني.

(هَند بن جارية بالجيم، والياء المشناة من تحتها. وحارثة بن النعمان بالحاء المهملة، والثاء المثناة. أبو أُسَيْد بضم الهمزة وفتح السين) (٤٦/٤)

سنة إحدى وستين

ذكر مقتل الحسين، رضي الله عنه

وسار الحسين بن شَرَف، فلما اتصف النهار كبر رجل من أصحابه، فقال له: مِمَّ كَبُرَتْ؟ قال: رأيت النخل. فقال رجلان من بني أسد: ما بهذه الأرض نخلة قط؟ فقال الحسين: فما هو؟ فقالا:

لا نراه إلا هوداتي الخيل. فقال: وأنا أيضاً أراه ذلك. وقال لهما: أما لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد؟ فقالا: بلى، هذا ذو حُسْم إلى جنبك تميل إليه عن يسارك فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد. فقال إليه، فما كان بأسرع من أن طلعت الخيل وعدلوا إليهم، فسبقهم الحسين إلى الجبل فنزل، وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي ثم البربوعي، فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه في حر الظهيرة، فقال الحسين لأصحابه وقتيانه: اسقوا القوم ورشفوا الخيل ترشيفاً. ففعلوا، وكان مجيء القوم من القادسية، أرسلهم الحُصَيْن بن نُمَيْر التميمي في هذه الألف يستقبل الحسين، فلم يزل موافقاً الحسين حتى حضرت صلاة الظهر، فامر الحسين مؤذنه بالأذان، فأذن، وخرج الحسين إليهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (٤٧/٤) أيها الناس إنها معذرة إلى الله وإليكم، إني لم أتيكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم إينا فليس لنا إمام لعل الله أن يجعلنا بك على الهدى، فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا أو كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه.

فسكتوا وقالوا للمؤذن: أقم، فاقام، وقال الحسين للحر: أتريد أن تصلي أنت بأصحابك؟ فقال: بل صل أنت ونصلي بصلاتك. فصلى بهم الحسين، ثم دخل واجتمع إليه أصحابه وانصرف الحر إلى مكانه، ثم صلى بهم الحسين العصر، ثم استقبلهم بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد أيها الناس فإنكم إن تقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المذعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان، فإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم ورسلكم انصرفت عنكم.

فقال الحر: إنا والله ما نندري ما هذه الكتب والرسول التي تذكر. فأخرج خرجين مملوءين صحفاً فقرأها بين أيديهم. فقال الحر: فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا أننا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى تقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد. فقال الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك! ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك. فقال له الحسين: تكلتك أمك! ما تريد؟ قال له: أما والله لو غيرك من العرب يقولها [لي] ما تركت ذكر أمه بالمثل كأننا من كان، ولكني والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدّر عليه. فقال له الحسين: ما تريد؟ قال الحر: أريد أن أنطلق بك إلى ابن زياد. قال الحسين: إذن والله لا (٤٨/٤) أتبعك. قال الحر: إذن والله لا أدعك. فتراداً الكلام، فقال له الحر: إني لم أؤمر بقتالك وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك

عليك. (٥٠/٤)

الكوفة، [فإذا أبيت] فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد أو إلى ابن زياد فلعل الله أن يأتي بأمر يرزقي فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك. فتياسر عن طريق العذيب والقادسية والحر يساره .

ثم إن الحسين خطبهم فحمد الله وأتسبى عليه ثم قال: أيها الناس إن رسول الله ﷺ، قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يخذله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيري، وقد اتبني كتيككم ورسلكم ببيعكم، وأنكم لا تسلموني ولا تخذلونني، فإن تمتم على بيعكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي، ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلکم في أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فلعمرى ما هي لكم بنكير، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغتر بكم، فحفظكم أخطائكم، ونصيبكم ضيعتكم، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثْ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠] وسيغني الله عنكم، والسلام.

فقال له الحر: إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن. (٤٩/٤) فقال له الحسين: أبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ وما أدري ما أقول لك! ولكني أقول كما قال أخو الأوسني لابن عمه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ، فقال له: أين تذهب؟ فإنك مقتول! فقال:

سامضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى خيراً وجاهداً مسلماً وواسى رجالاً صالحين بنسبي وخالف مشبوراً وفارق مجبوراً فإن هتكت لم أئذم وإن مت لم أثم كفى بك ذلاً أن تيمش وترقعاً فلما سمع ذلك الحر تنحى عنه، فكان يسير ناحية عنه حتى انتهى إلى عذيب الهجانات، كان به هجائن النعمان ترعى هناك ففسب إليها، فإذا هو بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم يجنبون فرساً لنافع بن هلال يقال له الكامل ومعهم دليلهم الطرماح بن عدي واتهوا إلى الحسين، فأقبل إليهم الحر وقال: إن هؤلاء النفر من أهل الكوفة وأنا حابسهم أو رادهم. فقال الحسين: لا منعتم مما أمتع منه نفسي، إنما هؤلاء أنصاري وهم بمنزلة من جاء معي، فإن تمت على ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك. فكشف الحر عنهم، فقال لهم الحسين: أخبروني خبر الناس خلفكم. فقال له مجتمع بن عبيد الله العائذي، وهو أحدهم: أما أشرف الناس فقد أعظمت رשותهم، ومثلت غرائرهم، فهم ألب واحد عليك، وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهورة

وسالهم عن رسوله قيس بن مسهر، فأخبروه بقتله وما كان منه، فترقت عيناه بالدموع ولم يملك دمعته، ثم قرأ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَلَغُوا تَبَدُّلاً﴾ [الأحراب: ٢٣]؛ اللهم اجعل لنا ولهم الجنة واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك رغائب مذكور ثوابك.

وقال له الطرماح بن عدي: والله ما أرى معك كثير أحيد، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم، ولقد رأيت قبل خروجي من الكوفة يوم ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم تر عيناى جمعاً في صعيد واحد أكثر منه قط ليسيروا إليك، فأشددك الله إن قدرت على أن لا تقدم إليهم شبراً فافعل، فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتى ترى راكب ويستبين لك ما أنت صانع فير حتى أنزلك جبلنا آجاء فهو والله جبل امتنعنا به من ملوك غسان وحمير والنعمان بن منذر ومن الأحمر والأبيض، والله ما إن دخل علينا ذل قط، فأسير معك حتى أنزلك [القرية]، ثم تبعث إلى الرجال ممن أبأج وأسلمى من طيء، فو الله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى يأتيك طيء رجالاً وركباً، ثم أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيج فانا زعيم لك بعشرين ألف طائي يضربون بين يديك بأسياهم، فوالله لا يوصل إليك أبداً وفيهم عين تطرف. فقال له: جزاك الله وقومك خيراً! إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسا نقدر معه على الانصراف ولا ندري علام تصصرف بنا وبهم الأمور. فودعه وسار إلى أهله ووعد أنه يوصل الميرة إلى أهله ويعود إلى نصره، ففعل، ثم عاد إلى الحسين، فلما بلغ عذيب الهجانات لقيه خبر قتله فرجع إلى أهله.

ثم سار الحسين حتى بلغ قصر بني مقاتل فرأى فسطاطاً مضروباً فقال: (٥١/٤) لمن هذا؟ فقيل: لعبيد الله بن الحر الجعفي. فقال: ادعوه لي. فلما أتاه الرسول يدعوه قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله ما خرجت من الكوفة إلا كراهية أن يدخلها الحسين وأنا بها، والله ما أريد أن أراه ولا يراني. فعاد الرسول إلى الحسين فأخبره، فلبس الحسين نعليه ثم جاء فسلم عليه ودعاه إلى نصره، فاعاد عليه ابن الحر تلك المقالة، قال: فإن لا تنصرتني فأتاك الله أن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع وأعيننا أحد ثم لا ينصرتنا إلا هلك. فقال له: أما هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله تعالى.

ثم قام الحسين فخرج إلي وجلبه ثم سار ليلاً ساعة فخفف برأسه خفقة ثم أتته وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين فقال: يا أبت جعلت فداك! مِم حمدت واسترجعت؟ قال: يا بني إني خففت برأسي [خفقة فعن لي فارس على فهرس، فقال: القوم يسبيرون والمنايا تسير إليهم؛ فعلمت أن أنفسنا نعت إلينا. فقال: يا أبت لا

أراك الله سوءاً. ألسنا على الحق؟ قال: بلى والذي يرجع إليه العباد. قال: إذن لا نبالي أن نموت محقين. فقال له: جزاك الله من ولد خيراً ما جرى ولداً عن والده.

فلما أصبح نزل فصلّى ثم عجل الركوب فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرقهم، فأتى الحرّ فردّه وأصحابه، فجعل إذا ردهم نحو الكوفة رداً شديداً امتنعوا عليه وارتفعوا، فلم يزالوا يتياسرون حتى انتهوا إلى نينوى، المكان الذي نزل به الحسين، فلما نزلوا إذا راكب مقبل من الكوفة، فوقفوا يتظرونه، فسلم على الحرّ ولم يسلم على الحسين وأصحابه، ودفع إلى الحرّ كتاباً من ابن زياد، فإذا فيه: أما بعد فجمعني بالحسين حين يملك كتابي ويقدم عليك (٥٢/٤) رسولي فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بإفناذك أمري، والسلام.

فلما قرأ الكتاب قال لهم الحرّ: هذا كتاب الأمير يأمرني أن أجمع بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابه، وقد أمر رسوله أن لا يفارقتي حتى أفقد رايه وأمره. وأخذهم الحرّ بالنزول على غير ماء ولا في قرية، فقالوا: دعنا نزل في نينوى أو الغاصرية أو شقبة. فقال: لا أستطيع، هذا الرجل قد بعث عيناً عليّ. فقال زهير بن القين للحسين: إنه لا يكون والله بعد ما ترون إلا ما هو أشد منه يا ابن رسول الله، وإن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا يقل لنا به! فقال الحسين: ما كنت لأبدهم بالقتال. فقال له زهير: سير بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنها حصينة وهي على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلتهم فقتلهم أهون علينا من قتال من يجيء بعده. فقال الحسين: ما هي؟ قال: العفر. قال: اللهم إني أعوذ بك من العفرا ثم نزل، وذلك يوم الخميس الثاني من محرم سنة إحدى وستين.

فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف، وكان سبب مسيره إليه أن عبيد الله بن زياد كان قد بعثه على أربعة آلاف إلى دمشق، وكانت الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، وكتب له عهده على الري، فمسكر بالناس في حمام أعين، فلما كان من أمر الحسين ما كان دعا ابن زياد عمر بن سعد وقال له: سر إلى الحسين فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينه سيرت إلى عملك. فاستعفا. فقال: نعم، على أن تردّ عهدها. فلما قال له ذلك قال: أمهلني اليوم حتى أنظر. فاستشار نصحاءه فكلهم نهاه، وأناه حمزة بن المقيرة بن شعبة، وهو ابن أخته، فقال: أشدك الله يا خالي (٥٣/٤) أن تسير إلى الحسين فتأثم وتقطع رحمتك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك خير من أن تلقى الله بدم الحسين! فقال: أفعل. وبات ليلة مفكراً في أمره، فسمع وهو يقول:

أتركك ملك الري والري رغبة أم أرجع منعمواً بقتل حسين وفي قلبه النار التي ليس دونها حجاب وملك الري قرّة عين ثم أتى ابن زياد فقال له: إنك قد وليتني هذا العمل وسمع الناس به، فإن رأيت أن تفعل لي ذلك فافعل وأبعث إلى الحسين من أشرف الكوفة من لست أغنى في الحرب منه؛ وسئى أناساً. فقال له ابن زياد: لست أستمرك فيمن أريد أن أبعث، فإن سرت بجندنا وإلا فابعث إلينا بعدنا. قال: فإني سائر. فاقبل في ذلك الجيش حتى نزل بالحسين، فلما نزل به بعث إليه رسولا يسأله ما الذي جاء به، فقال الحسين: كتب إلي أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم، فأمّا إذ كرهوني فإني أنصرف عنهم. فكتب عمر إلى ابن زياد يعرفه ذلك، فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال:

الآن إذ علقت مغالباً يرجو النجاة ولات حين مناص ثم كتب إلى عمر يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فإن فعل ذلك رأينا رأينا، وأن يمنعه ومن معه الماء. فأرسل عمر بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء، وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام، ونادى عبد الله بن أبي الحصين الأزدي، وعياده في بجيلة: يا حسين أما تنظر إلى الماء؟ لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً! (٥٤/٤) فقال الحسين: اللهم اقله عطشاً ولا تغفر له أبداً. قال: فمرض فيما بعد فكان يشرب الماء القلّة ثم بقي. ثم يعود فيشرب حتى يتقرّ ثم بقي. ثم يشرب فما يروى، فما زال كذلك حتى مات.

فلما اشتد العطش على الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن عليّ فسار في عشرين رجلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً فدنوا من الماء فقاتلوا عليه وملؤوا القرب وعادوا، ثم بعث الحسين إلى عمر بن سعد عمرو بن قرظة بن كعب الأنصاري أن القيني الليلة بين عسكري وعسكري. فخرج إليه عمر، فاجتمعا وتحدثا طويلاً ثم انصرف كل واحد منهما إلى عسكريه، وتحدث الناس أن الحسين قال لعمر بن سعد: اخرج معي إلى يزيد بن معاوية وندع العسكريين. فقال عمر: أخشى أن تهذب داري. قال: أبنيها لك خيراً منها. قال: تؤخذ ضياعي. قال: أعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز. ففكره ذلك عمر.

وتحدث الناس بذلك ولم يسمعه، وقيل: بل قال له: اختاروا مني واحدة من ثلاث: إما أن أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه، وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رايه، وإما أن تسيروا بي إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شتم فأكون رجلاً من أهله لي ما لهم وعلي ما عليهم.

وقد روي عن عتبة بن ميمعان أنه قال: صحبت الحسين من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق ولم أفارقه حتى قُتل،

وسمعتُ جميع مخاطباته للناس إلى يوم مقتله، فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس أنه يضع يده في يد يزيده، ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه قال: دعوني أرجع إلى (٥٥/٤) المكان الذي أقبلتُ منه أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى نظر إلى ما يصير إليه أمر الناس. فلم يفعلوا.

ثم التقى الحسين وعمر بن سعد مراراً ثلاثاً أو أربعاً فكتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد: أما بعد فإن الله أطفأ النار، وجمع الكلمة، وقد أعطاني الحسين أن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه أو أن نسيره إلى أي ثغر من الثغور شئت، أو أن يأتي يزيده أمير المؤمنين فيضع يده في يده، وفي هذا لكم رضى وللافة صلاح. فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال: هذا كتاب رجل ناصح لأمره، مشفق على قومه، نعم قد قبلتُ.

فقام إليه شمر بن ذي الجوشن فقال: أثقل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك؟ والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت كنت ولي العقوبة، وإن عفوت كان ذلك لك، والله لقد بلغني أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين العسكرين.

فقال ابن زياد: نعم ما رأيت! اخرج بهذا الكتاب إلى عمر فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن فعلوا فليبعث بهم إليّ مسلماً، وإن أبوا فليقاتلهم، وإن فعل فاسمع له وأطع، وإن أبى فانت للامير عليه وعلى الناس واضرب عنقه وابعث إليّ برأسه. وكتب معه إلى عمر بن سعد: أما بعد فإني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتنبه ولا لتطاوله ولا لتقتله عني شافعاً، انظر فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إليّ مسلماً، وإن أبوا فأتزحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق قاطع ظلم، (٥٦/٤) فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أنت أبيت فاعترل جندنا وحل بين شمر وبين العسكر، والسلام. فلما أخذ شمر الكتاب كان معه عبد الله بن أبي المحل بن حزام عند ابن زياد، وكانت عنده أم البنين بنت حزام هند علي، فولدت له العباس. وعبد الله وجعفر وأثمان، فقال لابن زياد: إن رأيت أن يكتب لبيّ اختنا أماناً فافعل، فكتب لهم أماناً فبعث به مع مولى له إليهم ففعلوا وأوا الكتاب قالوا: لا حاجة لنا في أمانكم، أمان الله خير من أمان ابن سبيّة. فلما أتى شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر قال له: ما لك وملك جميع الله ما جئت به! والله إنى لأظنك أنت نبيته أن يفصل ما كنت كبت إليه به، أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح، والله لا

ثم ركب عمر والناس معه بعد العصر والحسين جالس أمام بيته مخبئاً سيقه إذ خفق برأسه على ركبته، وسمعت أخته زينب الضجة فندت منه فأيقظته، فرفع رأسه فقال، إني رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في المنام، فقال: إنك تروح إلينا. قال: فلطمت أخته وجهها وقالت: يا ويلته! قال: ليس لك الويل يا أختي، اسكتي رحمك الله! قال له العباس أخوه: يا أخي أتاك القوم، فهض فقال: يا أخي اركب بنفسي. فقال له العباس: بل أروح أنا. فقال: اركب أنت حتى تلقاهم فتقول: ما لكم؟ وما بئس لكم؟ وتسالهم عما جاء بهم فاتاهم في نحو عشرين فارساً فيهم زهير بن القين فسألهم، (٥٧/٤) فقالوا: جاء [أمر] الأمير بكذا وكذا. قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم. فوقفوا ورجع العباس إليه بالخبر، ووقف أصحابه يخاطبون القوم ويذكرونهم الله، فلما أخبره العباس بقولهم قال له الحسين: ارجع إليهم فإن استطعت أن توخرهم إلى غدوة نعلنا نصلّي لرئيسنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره فهو يعلم أي كنت أحب الصلاة له وقلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار. وأراد الحسين أيضاً أن يوصي أهله. فرجع إليهم العباس وقال لهم: انصرفوا عنا العشيّة حتى نطرح في هذا الأمر، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله، فامأ رضينا وإما ردنا.

فقال عمر بن سعد: ما ترى يا شمر؟ قال: أنت الأمير. فأقبل على الناس فقال: ما ترون؟ فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي: سبحان الله! والله لو كانوا من الديلم ثم سألوكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوهم. وقال قيس بن الأشعث بن قيس: أجيبهم لعمرى ليصحبك بالقتال غدوة. فقال: لو أعلم أن يفعلوا ما أخرتهم العشيّة. ثم رجع عنهم.

فجمع الحسين أصحابه بهم رجوع عمر فقال: أنسي على الله أحسن الشاء وأجملده على البراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وجعلت لنا أسماً وأبصاراً وأقنعة وعلمتنا القرآن وقهنتنا في الدين فأجعلنا لك من الشاكرين، أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أرفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً الآل وإني لأظن يوماً من هؤلاء الأعداء غداً، وإني قد أدبت لكم جميعاً فأتطلقوا في حل ليس عليكم مني دمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملًا وليأخذ كل (٥٨/٤) رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي فجزاكم الله جميعاً، ثم تفرقوا في البلاد، في حواديتكم ومدايتكم حتى يفزع الله،

ويدعون. فلما صلى عمر بن سعد الغداة يوم السبت، وقيل الجمعة، يوم عاشوراء، خرج فيمن معه من الناس، وعبى الحسين أصحابه وصلى بهم صلاة الغداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون رجلاً، فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه، وحبيب بن مظهر في مسرتهم، وأعطى رايته العباس أخاه، وجعلوا البيوت في ظهورهم، وأمر يحطب وقصب فألقي في مكان منخفض (٦٠/٤) من ورائهم كأنه ساقية عملوه في ساعة من الليل لتلاً يؤتوا من ورائهم وأضرهم ناراً فتضهم ذلك.

وجعل عمر بن سعد على ريع أهل المدينة عبد الله بن زهير الأزدي، وعلى ريع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث بن قيس، وعلى ريع مذحج وأسد عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي، وعلى ريع تميم وهمدان الحر بن يزيد الرياحي، فشهد هؤلاء كلهم مقتل الحسين إلا الحر بن يزيد فإنه عدل إلى الحسين وقتل معه، وجعل عمر على ميمنته عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى مسيرته شمير ابن ذي الجوشن، وعلى الخيل عروة بن قيس الأحمسي، وعلى الرجال شبيب بن ربيعة اليربوعي التميمي، وأعطى الراية دريداً مولاه.

فلما دنوا من الحسين أمر فُضرب له الفسطاط، ثم أمر بمسك فبيث في جفنة، ثم دخل الحسين فاستعمل النورة، ووقف عبد الرحمن بن عبد ربه ويبرير بن خضير الهمداني على باب الفسطاط وازدحما إليهما يطلعي بعده، فجعل يبرير يهازل عبد الرحمن، فقال له: والله ما هذه بساعة باطل. فقال يبرير: والله إن قومي لقد علموا أني ما أحيت الباطل شيئاً ولا كهلاً، ولكنني مستشير بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحُور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم. فلما فرغ الحسين دخلاً، ثم ركب الحسين دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه، واقتل أصحابه بين يديه، فرفع يديه ثم قال: اللهم أنت تقني في كل كرب ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعُدَّة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل في الصديق ويشمت به (٦١/٤) العدو أنزلته بك وشكركه إليك رغبة إليك عمن سواك ففرجته وكشفته وكفيتني، فانت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومتهى كل رغبة.

فلما رأى أصحاب عمر النار تلتهب في القصب نادى شمير الحسين: تعجلت النار في الدنيا قبل القيامة! فعرفه الحسين فقال: أنت أولى بها صلياً!

ثم ركب الحسين راحلته وتقدم إلى الناس ونادى بصوت عال يسمعه كل الناس فقال: أيها الناس اسمعوا قلبي ولا تعجلوني حتى أعظمهم بما يجب لكم عليّ وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قلبي وأنصفتُموني كتبت بذلك

فإن القوم يطلبونني ولو أصابوني لهوا عن طلب غيري. فقال له إخوته وأبناءه وإخوته وأبناء عبد الله بن جعفر: لم تفعل هذا؟ لنبقى بعدك! لا أرانا الله ذلك أبداً فقال الحسين: يا بني عقيل حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا فقد أذنت لكم. قالوا: وما نقول للناس؟ نقول: تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم يسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب بسيف ولا ندرى ما صنعوا؟ لا والله لا نفعل ولكننا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد مورديك، فقبّح الله العيش بعدك!

وقام إليه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال: أنحن نتخلّى عنك ولم نعد إلى الله في أداء حقك؟ أمّا والله لا افارقتك حتى أكر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، والله لو لم يكن معي سلاحي لقدفنتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك. وتكلّم أصحابه بنحو هذا، فجزاهم الله خيراً.

وسمعت أخته زينب تلك العشيّة وهو في خباء له يقول، وعنده حوّي مولى أبي ذر الغفاري يعالج سيفه:

يا زهراً أف [لك] من خليلي كم لك بالإسراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والذهر لا ينع بالبدليل
وإنما الأمر إلى الجليل وكل حي سالك السبيل
فأعاده مرتين أو ثلاثاً، فلما سمعته لم تملك نفسها إن وثبت
تجرّ ثوبها (٥٩/٤) حتى انتهت إليه ونادت: وإنكلاه! ليت الموت
أعطني الحياة اليوم! ماتت فاطمة أمي وعليّ أبي والحسن أخي يا
خليفة الماضي وثمان الباقي! فذهب فنظر إليها وقال: يا أختي لا
يُدبّن حلمك الشيطان. قالت: بأبي أنت وأمي استقتلت نفسي
لنفسك القدي فردّد غصته وترقرقت عيناه ثم قال: لو ترك القطا
[ليلاً] لنام. فلطمت وجهها وقالت: وأولئها! أفتغصبك نفسك
اغتصاباً، فذلك أفرح لقلبي وأشدّ على نفسي ثم لطمت وجهها
وشقت جيبها وخرت مغشياً عليها. فقام إليها الحسين فصّب الماء
على وجهها وقال: أتقي الله وتعزّي بعزاء الله واعلمي أن أهل
الأرض يموتون وأهل السماء لا يقون وأن كل شيء هالك إلا وجه
الله، أباي خير مني وأمي خير مني وأخي خير مني ولي ولهم ولكل
مسلم برسول الله أسوة. فعزّاها بهذا ونحوه وقال لها: يا أختي إني
أقسم عليك لا تشقي عليّ جيباً، ولا تخمسي عليّ وجهاً، ولا
تدعي عليّ بالويل والثبور إن أنا هلكت.

ثم خرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقرّبوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا الأطباء بعضها في بعض ويكونوا بين يدي البيوت فيستقبلون القوم من وجه أحد والبيوت على إيمانهم وعن شمالكهم ومن ورائهم.

فلما أمسوا قاموا الليل كله يصلّون ويستغفرون ويتضرعون

بريي وريكم من كل متكرّر لا يؤمن يوم الحساب. ثم أناخ راحلته ونزل عنها.

وخرج زهير بن القين على فرس له في السلاح فقال: يا أهل الكوفة، نذّر لكم من عذاب الله نذراً، إنّ حقاً على المسلم نصيحة المسلم، ونحن حتى الآن إخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العضمة وكنا نحن أمة وأنتم أمة، إنّ الله قد ابتلانا وإياكم بذريعة نبيّه محمد، ﷺ، لينظر منا نحن وأنتم عاملون، إنّنا ندعوكم إلى نصره وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا سوءاً، يسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمشلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أمثالكم وقراءكم، أمثال حُجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة وأشباهها.

قال: فسبّوه وأثنوا على ابن زياد وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد سلماً. فقال لهم: يا عباد الله إنّ ولد فاطمة أحقّ بالود والنصر من ابن سُميّة، فإن كنتم لم تنصروهم فاعيدكم بالله أن تقتلوهم، خلّوا بين الرجل وبين ابن عمّه يزيد بن معاوية، فلعمري إنّ يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين. فرماه شمر بسهم وقال: اسكت! اسكت! أسكت الله نامتك، أبومتنا بكثرة كلامك! فقال زهير: يا ابن البؤال على عقيبه! ما إياك أخاطب، إنّما أنت بهيمة! والله ما أظنك تحكيهم من كتاب الله آيتين فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم. فقال شمر: إنّ الله قاتلك وصاحبك من ساعة.

قال: أفبالموت (٦٤/٤) تخوفني؟ والله للموت مع أحب إليّ من الخلد معكم! ثم رفع صوته وقال: عباد الله لا يفرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي، فوالله لا تنال شفاعه محمداً قوماً أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم وذبح عن حريمهم. فأمره الحسين فرجع.

ولما زحف عمر نحو الحسين أثناء الحُر بن يزيد فقال له: أصلحك الله! أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال له: إي إني والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي. قال: أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضى؟ فقال عمر بن سعد: والله لو كان الأمر إليّ لفعلتُ ولكن أميتك قد أبى ذلك. فأقبل يدنو نحو الحسين قليلاً قليلاً وأخذته رعدة، فقال له رجل من قومه يقول له المهاجر بن أوس: والله إنّ أمرك لمريب! والله ما رايتُ منك في موقف قط مثل ما أراه الآن! ولو قيل من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك. فقال له: إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار ولا اختار على الجنة شيئاً ولو قطعتم وحرقت. ثم ضرب فرسه فليحق بالحسين، فقال له: جعلني الله فداك يا ابن رسول الله! أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسأيرتك في الطريق

أسعد ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُون﴾ [يونس: ٧١] ﴿إِنْ وَلِيَني اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]! قال: فلما سمع أخواته قوله بكين وصرخن وارتفعت أصواتهن، فأرسل إليهن أخاه العباس وابنه عليّاً ليُسكتاهن، وقال: لعمري ليكثرن بكاهن! فلما ذهب قال: لا يبعد ابن عباس، وإنما قالها حين سمع بكاهن لأنه كان نهاه أن يخرج بهن معه.

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وعلى الملائكة والأنبياء وقال مالا يخصّ كثرة، فما سمع أبلغ منه، ثم قال: أمّا بعد فانسبوني فانظروا من أنا ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوا وانظروا هل يصلح ويحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألسنت ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمّه، وأولسى المؤمنين (٦٢/٤) بالله والمصدق لرسوله؟ أو ليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيّار في الجنة عمّي؟ أو لم يلغكم قول مستفيض [فيكم]: إنّ رسول الله، ﷺ، قال لي ولاخي: أنتم سيّد شباب أهل الجنة وقرة عين أهل السّنة؟ فإن صدقتموني بما أقول، وهو الحق، والله ما تعدّدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه [أهلنه]، وإن كذبتُموني فإن فيكم من إن سألتُموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله أو أبا سعيد أو سهل بن سعد أو زيد بن أرقم أو أنساً يخبروكم أنهم سمعوه من رسول الله، ﷺ، أمّا في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي؟

فقال له شمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول! فقال له حبيب بن مظهر: والله إني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وإن الله قد طبع على قلبك فلا تدري ما تقول.

ثم قال الحسين فإن كنتم في شك مما أقول أو تشكّون في أنّي ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري منكم ولا من غيركم. أخبروني أنظلبوني بقتيل منكم قتلته، أو بمال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحه؟ فلم يكلموه، فنادى: يا شُبّ بن ربعي! ويا حجار بن أبجر! ويا قيس بن الأشعث! ويا زيد بن الحارث! ألم تكتبوا إليّ في القدوم عليكم؟ قالوا: لم نفعل. ثم قال: بلى فعلتم. ثم قال: أيها الناس إذ كرهتموني فذعنوني أنصرف إلى مامني من الأرض.

قال: فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم ابن عمك، يعني ابن زياد، فإنك لن ترى إلا ما تحب. فقال له الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله ولا أعطيهم (٦٣/٤) بيدي عطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبد. عباد الله إني عدت بريي وريكم أن ترجمون، أعوذ

على الرماح، فذهبت الخيل لترجع فرشقوهم بالنبل فصرعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين.

وتقدم رجل منهم يقال له ابن حوزة فقال: أفياكم الحسين؟ فلم يجبه أحد، فقالها ثلاثاً فقالوا: نعم، فما حاجتك؟ قال: يا حسين أبشر بالنار! قال له: كذبت بل أقدم على رب رحيم وشفيح مطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزة. فرفع الحسين يديه فقال: اللهم حرّه إلى النار! فغضب ابن حوزة فألقم فرسه في نهر بينهما فتعلقت قدمه بالركاب وجالت به الفرس فسقط عنها فانقطعت فخذه وساقه وقدمه وبقي جنبه الآخر متعلقاً بالركاب يضرب به كل حجر وشجر حتى مات.

وكان مسروق بن وائل الحضرمي قد خرج معهم وقال لعلي: أصيب رأس الحسين، فأصيب به منزله عند ابن زياد، فلما رأى ما صنع الله بابن حوزة بدعاه الحسين رجع وقال: لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئاً، لا أقاتلهم أبداً.

ونشب القتال وخرج يزيد بن معقل حليف عبد القيس فقال: يا بُرَيْرُ ابن خضير كيف ترى الله صنع بك؟ قال: والله لقد صنع بي خيراً وصنع بك شراً. فقال: كذبت وقبل اليوم ما كنت كذاباً، وأنا أشهد أنك من الضالين. فقال له ابن خضير: هل لك أن أباهلك أن يلعن الله الكاذب ويقتل المبطل، ثم أخرج أبارزك! فخرجاً فتباها لا أن يلعن الله الكاذب ويقتل المبطل ثم تبارزا فاختلفا ضربتين فضرب يزيد بن معقل بُرَيْرَ بن خضير فلم يضره شيئاً وضربه ابن خضير ضربة قذت المغفر وبلغت الدماغ فسقط والسيوف في رأسه، فحمل عليه رضى بن مقداد العبدى، فاعتنق ابن خضير، فاعتراك ساعة ثم إن (٦٧/٤) ابن خضير قعد على صدره، فحمل كعب بن جابر الأزدي عليه بالرمح فوضعه في ظهره حتى غيب السنان فيه، فلما وجد من الرمح نزل عن رضى فعنض أنفه وقطع طرفه، وأقبل إليه كعب بن جابر فضربه بسيفه حتى قتله، وقام رضا ينفض التراب عن قبائه، فلم رجع كعب قالت له امرأته: أعنت على ابن فاطمة وقتلت بُرَيْرَ سيد القراء، (والله لا أكلمك أبداً)

وخرج عمرو بن قرظة الأنصاري وقاتل دون الحسين فقتل، وكان أخوه مع عمر بن سعد، فنادى: يا حسين يا كذاب ابن الكذاب! أضللت أخي وغررته حتى قتلتها! فقال: إن الله لم يضل أخاك بل هداه وأضلك. قال: قتلني الله إن لم أقتلك أو أموت دونك. فحمل واعترضه نافع بن هلال المُرادي فطعنه فصرعه، فحمل أصحابه فاستقذوه [فدويّ بعداً] فبرأ.

وقاتل الحرّ بن يزيد مع الحسين قتالاً شديداً، وبرز إليه يزيد بن سفيان فقتله الحرّ، وقاتل نافع بن هلال مع الحسين أيضاً فبرز إليه مُزاحم بن حُرَيْث فقتله نافع.

وجمععت بك في هذا المكان، والله ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المتزلة أبداً، فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ولا يرون أنني خرجت من طاعتهم، وأما هم فيقبلون بعض ما تدعوهم إليه، والله لو ظننت أنهم لا يقبلونها منك ما ركبها منك، ولأنني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربّي مؤاسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك توبة؟ قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك.

وتقدم الحرّ أمام أصحابه ثم قال: أيها القوم ألا تقبلون من الحسين خصلة من هذه الخصال التي عرض عليكم فيعافيتكم الله من حربه وقتاله؟ فقال عمر: (٦٥/٤) لقد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً. فقال: يا أهل الكوفة لا تمكّم الهبل والعُبر! ادعوتموه حتى إذا أناكم أسلمتموه وزعمت أنكم قاتلوا أنفسكم دونة ثم عدوتم عليه لتقتلوه؟ أمسكنتم بنفسه وأحطتم به ومنعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرراً، ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه وما هو وأهله قد صرعهم العطش! بنسما خلفتم محمداً في ذرّيته! لا سباقكم الله يوم الظما إن لم تتوبوا وتزعموا عما أنتم عليه! فرموه بالنبل، فرجع حتى وقف أمام الحسين.

ثم قدم عمر بن سعد برايته، وأخذ ستمهاً فرمى به وقال: اشهدوا لي أنني أول رام! ثم رمى الناس، وبرز يسار، مولى زياد، وسالم، مولى عبيد الله، وطلبا البراز، فخرج إليهما عبد الله بن عُمير الكلبي، وكان قد أتى الحسين من الكوفة وسارت معه امرأته، فقالا له: من أنت؟ فانتسب لهما. فقالا: لا نعرفك، ليخرج إلينا رُهير بن القين، أو حبيب بن مطهر، أو بُرَيْرُ ابن خضير. وكان يسار أمام سالم، فقال له الكلبي: يا ابن الزانية ويك رغبة عن مبارزة أحد من الناس، و [ما] يخرج إليك أحد إلا وهو خير منك! ثم حمل عليه فضربه بسيفه حتى برد فاشتغل به بضربه، فحمل عليه سالم، فلم يابه له حتى غشيه فضربه، فأنقاه الكلبي بيده فأطار أصابع كفه اليسرى، ثم مال عليه الكلبي فضربه حتى قتله، وأخذت امرأته عموداً، وكانت تسمى أم وهب، وأقبلت نحو زوجها وهي تقول: فذاك أبي وأمي! قاتل دون الطيبين ذرية محمداً! فردّها نحو النساء، فامتنعت وقالت: لن أدعك دون أن أموت معك. فناداها (٦٦/٤) الحسين فقال: جُزئتم من أهل بيت خير! أرجعي رحمك الله، ليس الجهاد إلى النساء. فرجعت.

فزحف عمرو بن الحجاج في ميمنة عمر، فلما دنا من الحسين جثوا له على الركب وأشرعوا الرماح نحوهم، فلم تقدم خيلهم

فلما قال شُبْتُ ذلك دعا عمر بن سعد الحُصَيْنَ بن نُمَيْرٍ فبحث معه المُجَفِّفَةَ وخمسائة من المرامية، فلما دنوا من الحسين وأصحابه رشقوهم بالنبل فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم وصاروا رجالة كلهم، وقاتل الحُرَيْنَ يزيدَ راجلاً قتالاً شديداً، فقاتلوه، إلى أن انتصف النهار، أشدَّ قتال خليفه الله لا يقدر أن يأتوهم إلا من وجه واحد لا اجتماع مضاربهم. فلما رأى ذلك عمر أرسل رجلاً يُقَوِّضونها عن إيمانهم وشمالهم ليحيطوا بهم، فكان نفر من أصحاب الحسين الثلاثة والأربعة يتخللون البيوت فيقتلون الرجل وهو يقوِّض وينهب ويرمونه من قريب أو يعقرونه، فأمر بها عمر بن سعد فأحرق، فقال لهم الحسين: دعوهم فليحرقوها فإنهم إذا حرقوها لا يستطيعون أن يجزوا إليكم منها فكان كذلك.

وخرجت امرأة الكلي فجلست عند رأسه تسمع الشراخ عن وجهه وتقول: هنيئاً لك الجنة! فأمر شير غلاماً اسمه رستم فضرب رأسها بالعمود فماتت مكانها.

وحمل شير حتى بلغ فسطاط الحسين ونادى: علي بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله. فصاح النساء وخرجن، وصاح به الحسين: أنت تحرق بيتي على أهلي؟ حرقك الله بالنار! فقال حميد بن مسلم لشر: إن هذا لا يصلح [لك] تُعَذِّبُ بعذاب الله وتقتل الولدان والنساء، والله إن في قتل الرجل لما يرضى به أميرك! فلم يقبل منه، فجاءه شُبْتُ بن ريمي فنهاه فانتفى، وذهب ليصرف (٧٠/٤) فحمل عليه زهير بن القين في عشرة فكشفهم عن البيوت وقتلوا أبا عزة الضبابي، وكان من أصحاب شير. وعطف الناس عليهم فكثروهم، وكانوا إذا قُتِلَ منهم الرجل والرجلان يبين فيهم لقتلهم، وإذا قُتِلَ في أولئك لا يبين فيهم لكثرتهم.

ولما حضر وقت الصلاة قال أبو ثُماعة الصائدي للحسين: نفسي لنفسك الفداء! أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، والله لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة! فرفع الحسين رأسه وقال: ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها، ثم قال: سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي. ففعلوا، فقال لهم الحسين: إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظهر: زعمت لا تقبل الصلاة من آل رسول الله ﷺ، وتقبل منك يا حماراً فحمل عليه الحسين، وخرج إليه حبيب فضرب وجهه فرسه بالسيف فشبه فسقط عنه الحسين فاستنقذه أصحابه، وقاتل حبيب قتالاً شديداً فقتل رجلاً من بني تميم اسمه بُذَيْلَ بن صُرَيْمٍ، وحمل عليه آخر من تميم فطعنه فذهب ليقوم فضربه الحسين على رأسه بالسيف فوقع ونزل إليه التميمي فاجتزأ رأسه، فقال له الحسين: أنا شريكك في قتله. فقال الآخر: لا والله! فقال له الحسين: أعطنيه أعلقه في عنق فرسي كيما يرى الناس أنني شركت في قتله ثم خذه وامض به إلى ابن زياد فلا حاجة لي فيما أعطاه.

فصاح عمرو بن الحجاج بالناس: أتدرون من تقتلون؟ فرسان مصر، قومًا مستيتين لا يبرز إليهم منكم أحد فإنهم قليل وقتل ما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم. يا أهل الكوفة! الزموا طاعتكم وجماعتكم، لا ترتابوا في قتل من لرق من الدين وخالف الإمام. فقال عمر: الرأي ما وأيت. ومنع الناس من المبارزة. قال: وسمعه الحسين فقال: يا عمرو بن الحجاج أعلي تحرض الناس؟ أنحن مرقنا من الدين أم أنتم؟ والله لتعلمن لو قبضت أرواحكم ومتم على أعمالكم أين المارق.

ثم حمل عمرو بن الحجاج على الحسين من نحو المفرات فاضطربوا ساعة، فصرع مسلم بن عوسجة الأسدي، وانصرف عمرو ومسلم صريع، فمشى إليه الحسين وبه رمق فقال: رحمك الله يا مسلم بن عوسجة، **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ﴾** (٦٨/٤) قضى نحبه ومنهم من ينتظر **﴿[الأحزاب: ٢٣]**. ودنا منه حبيب بن مظهر وقال: عز علي مصرعك، أبشر بالجنة، ولولا أنني أعلم أنني في أترك لاحق بك لأحببت أن توصيني حتى أحفظك بما أنت له أهل. فقال: أوصيك بهذا، رحمك الله، وأوصأ بيده نحو الحسين، أن تموت دونه. فقال: أفعل. ثم مات مسلم وصاحت جارية له فقالت: يا ابن عوسجة! فينادي أصحاب عمرو: قتلنا مسلماً. فقال شُبْتُ لبعض من حوله: تكلتكم أمهاتكم! إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم وتلدون أنفسكم لغيركم، أفترحون بقتل مثل مسلم؟ أما والذي أسلمت له لرب موقف له قد رأيته في المسلمين، فلقد رأيته يوم سلق أذربيجان قتل ستة من المشركين قبل أن تنام خيول المسلمين، أفيقتل مثله وتفرحون؟ وكان الذي قتله مسلم بن عبد الله الضبابي وعبد الرحمن بن أبي خشكرة البجلي.

وحمل شير في الميسرة فثبتوا له وحملوا على الحسين وأصحابه من كل جانب، فقتل الكلي وقد قتل رجلين بعد الرجلين الأولين وقاتل قتالاً شديداً، فقتله هاني بن ثابت الحضرمي ويكبر بن حي التيمي من تيم الله بن ثعلبة، وقاتل أصحاب الحسين قتالاً شديداً، وهم اثنان وثلاثون فارساً، فلم تحمل على جانب من خيل الكوفة إلا كشته. فلما رأى ذلك عزة بن قيس، وهو على خيل الكوفة، بعث إلى عمر فقال: ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة البسيرة؟ ابعث إليهم الرجال والرواة. فقال لشُبْتُ بن ربيعي: ألا تقدم إليهم! فقال: سبحان الله! شيخ مضر وأهل مصر عاقبة تبعته في الرماة، لم تجد لهذا غيري! ولم يزالوا يرون من شُبْتُ الكراهة للقتال حتى أنه كان يقول في إمارة مُصَنَّبٍ: لا يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً ولا يسندهم لرشد، (٦٩/٤) ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه آل أبي سفيان خمس سنين ثم عدونا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية وابن سبيّة الزانية، ضلال يا لك من ضلال!

قَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» [غسافر: ٣٠-٣٣]. يا قوم لا تقتلوا الحسين فَيُسْحِتَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ «وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى» [طه: ٦١]، فقال له الحسين: رحمك الله! إنهم قد استوجبو العذاب حين ردّوا ما دعوتهم إليه من الحقّ ونهضوا ليستبيحوك وأصحابك فكيف (٧٣/٤) بهم الآن قد قتلوا إخوانك الصالحين! فسلم على الحسين وصلى عليه وعلى أهل بيته وتقدّم وقاتل حتى قُتل.

وتقدّم الفتيان الجابريّان فودّعا الحسين وقاتلا حتى قُتلا.

وجاء عابس بن أبي شبيب الشاكريّ وشوّذب مولى شاكر إلى الحسين فسلمّا عليه وتقدّما فقاتلا فقتل شوّذب، وأمّا عابس فطلب البراز فتحاماه الناس لشجاعته، فقال لهم عمر: ارموه بالحجارة، فرموه من كلّ جانب، فلمّا رأى ذلك القى درعه ومغفره وحمل على الناس فهزمهم بين يديه، ثمّ رجعوا عليه فقتلوه وادّعى قتله جماعة.

وجاء الضحّاك بن عبد الله المشرفي إلى الحسين فقال: يا ابن رسول الله قد علمت أنّي قلت لك إنّني أقاتل عنك ما رأيتُ مقاتلاً، فإذا لم أرُ مقاتلاً فأنا في حلٍّ من الإنصراف. فقال له الحسين: صدقت، وكيف لك بالنجاء؟ إن قدرت عليه فانت في حلٍّ. قال: فأقبلتُ إلى فرسي، وكنت قد تركته في خباء حيث رأيتُ خيل أصحابنا تغرّ، وقاتلتُ راجلاً وقتلتُ رجلين وقطعتُ يد آخر، ودعا إلى الحسين مراراً، قال: واستخرجتُ فرسي واستويّتُ عليه وحملتُ على غرض القوم فافرجوا لي وتبعني منهم خمسة عشر رجلاً ففتّهم وسلمتُ.

وجنا أبو الشعثاء الكنديّ، وهو يزيد بن أبي زياد، بين يدي الحسين، فرمى بمائة سهم ما سقط منها خمسة أسهم، وكلّما رمى يقول له الحسين: اللهمّ سدّد رميته واجعل ثوابه الجنة! وكان يزيد هذا يَمِنُ خرج مع عمر ابن سعد، فلمّا ردّوا الشروط على الحسين عدل إليه فقاتل بين يديه، وكان أوّل من قُتل. (٧٤/٤)

وأما الصيداويّ عمرو بن خالد وجبّار بن الحارث السلميانيّ وسعد مولى عمرو بن خالد ومُجمّع بن عبيد الله العائذيّ فإِنَّهم قاتلوا أوّل القتال، فلمّا وغلوا فيهم عطفوا إليهم فقطعوه من أصحابهم، فحمل العباس بن عليّ فاستنقذهم وقد جرحوا، فلمّا دنا منهم عدوهم حملوا عليهم فقاتلوا فقتلوا في أوّل الأمر في مكان واحد. وكان آخر من بقي من أصحاب الحسين سُويّد بن أبي المطاع الخثعميّ، وكان أوّل من قُتل من آل بني أبي طالب يومئذ عليّ الأكبر ابن الحسين، وأمه ليلى بنت أبي مُرّة بن عُرْوَة بن مسعود الثقفيّة، وذلك أنّه حمل عليهم وهو يقول:

ففعّل وجال به في الناس ثمّ دفعه إليه، فلمّا رجعوا إلى الكوفة أخذ الرأس وجعله في عنق فرسه ثمّ أقبل به إلى ابن زياد في القصر، فبصر به القاسم بن حبيب، وقد راهق، فأقبل مع الفارس لا يفارقه، فارتاب به الرجل، فسأله عن حاله، فأخبره وطلب الرأس ليدفنه، فقال: إنّ الأمير لا يرضى أن يُدفن وأرجو أن يبيني الأمير. فقال له: لكنّ الله لا يبيّنك إلّا أسوأ الثواب. ولم ينزل يطلب غيرة قاتل أبيه حتى كان زمان مُصعّب، وغزا مصعب باجميريّ، ودخل القاسم عسكره فإذا قاتل أبيه في فسطاطه فدخل عليه نصف النهار فقتله.

فلمّا قُتل حبيب هدّ ذلك الحسين وقال عند ذلك: احتسب نفسي وحماة أصحابي. وحمل الحرّ زهير بن القين فقاتلا قتالاً شديداً، وكان إذا حمل أحدهما وغاص فيهم حمل الآخر حتى يخلصه، فعلا ذلك ساعة ثمّ إنّ رجالة حملت على الحرّ بن يزيد فقتلته، وقُتل أبو ثمامة الصائديّ ابن عمّ له كان عدوّه، ثمّ صلّوا الظهر، صلّى بهم الحسين صلاة الخوف، ثمّ اقتتلوا بعد الظهر، فاشتدّ قتالهم، ووُصل إلى الحسين، فاستقدم الحنفيّ أمامه فاستهدف لهم يرمونه بالنبل وهو بين يديه حتى سقط. وقاتل زهير بن القين قتالاً شديداً فحمل عليه كثير بن عبيد الله الشعميّ ومهاجر بن أوس فقتلاه، وكان نافع بن هلال الجمليّ قد كتب اسمه على أوقاف نبله، وكانت مسمومة، فقتل بها اثني عشر رجلاً سوى من جرح، فضرّب حتى كسرت عضده وأخذ أسيراً، فأخذه شمر بن ذي الجوشن فأثبّه به عمر بن سعد والدم على وجهه وهو يقول: لقد قتلتُ منكم اثني عشر رجلاً (٧٢/٤) سوى من جرحتُ، ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني. فانتضى شمر سيفه ليقتله، فقال له نافع: والله لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه! فقتله شمر ثمّ حمل على أصحاب الحسين.

فلمّا راوا أنّهم قد كثروا وأنهم لا يقدرّون يمنعون الحسين ولا أنفسهم تنافسوا أن يقتلوا بين يديه، فجاء عبد الله وعبد الرحمن ابنا عُرْوَة الغفاريّان إليه فقالا: قد حازنا الناس إليك. فجعلا يقاتلان بين يديه، وأتاه الفتيان الجابريّان وهما سيف بن الحارث بن سريع ومالك بن عبد بن سريع، وهما ابنا عمّ وأخوان لأمّ وهما يبيكان، فقال لهما: ما يبيكيكما؟ إنّني لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري عين. فقالا: والله ما على أنفسنا نبيكي ولكن نبيكي عليك، نراك قد أحيط بك ولا نقدر أن نمنعك! فقال: جزاكم الله جزاء المتقين!

وجاء حنظلة بن أسعد الشاميّ فوقف بين يدي الحسين وجعل ينادي: «يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ، مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ، وَمَا

الأرض ثم قال: ربي إن تكن حبيباً عنا لننصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم من هؤلاء الظالمين.

ورمى عبد الله بن عتبة الغنوي أباً بكر بن الحسين بن عليّ بسهم فقتله، (٧٦/٤) وقال العباس بن عليّ لإخوته من أمه عبد الله وجعفر وعثمان: تقدّموا حتى أرتكم فإنه لا ولد لكم. ففعلوا فقتلوا، وحمل هاني بن ثبيت الحضرمي على عبد الله بن عليّ فقتله، ثم حمل على جعفر بن عليّ فقتله، ورمى خولّي ابن يزيد الأصبحي عثمان بن عليّ، ثم حمل عليه رجل من بني أبان بن دارم فقتله وجاء برأسه، ورمى رجل من بني أبان أيضاً محمد بن عليّ بن أبي طالب فقتله وجاء برأسه.

وخرج غلام من خباء من تلك الأخبية فأخذ يعود من عيدانه وهو ينظر كأنه مذعور، فحمل عليه رجل قيل إنّه هاني بن ثبيت الحضرمي فقتله.

واشتد عطش الحسين فذنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن نمير بسهم فوقع في فمه فجعل يتلقى الدم بيده ورمى به إلى السماء، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: اللهم إني أشكر إليك ما يصنع بأبن بنت نبيك! اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بئزداً، ولا تبقي منهم أحداً!

وقيل الذي رماه رجل من بني أبان بن دارم، ففككت ذلك الرجل سيراً ثم صب الله عليه الطمأ فجعل لا يروى فكان يروى عنه ويورد له الماء فيه السكر. وعباس فيها اللين ويقول: استقوني، فيعطى القلة أو العس فيشره، فإذا شره اضطلع هنية ثم يقول: استقوني قتلي الطمأ، فما لبث إلا يسيراً حتى انقادت بطنه انقداد بطن البعير.

ثم إن شير بن ذي الجوشن أقبل في نفر نحو عشرة من رجالهم نحو منزل الحسين فحالوا بينه وبين رحله، فقال لهم الحسين: ويلكم! إن لم يكن لكم دين ولا تخافون يوم المعاد فكونوا أحراراً ذوي أحساب، امتعوا رحلي وأهلي من طعناتكم وجهاً لكم. فقالوا: ذلك لك يا ابن قاطمة. وأقدم عليه شير (٧٧/٤) بالرجال منهم: أبو الجشوب، واسمه عبد الرحمن الجعفي، والقشعم بن نذير الجعفي، وصالح بن وهب النيزي، وسنان بن أسن النخعي، وخولّي بن يزيد الأصبحي، وجعل شير يحرصهم على التحسين وهو يحمل عليهم فيكشفون عنه، ثم إنهم أحاطوا به. وأقبل إلى الحسين غلام من أهله فقام إلى جنبه وقد أهوى بخو بن كعب بن تيم الله بن ثعلبة إلى الحسين بالسيف، فقال الغلام: يا ابن الخبيثة أقتل عمي! فضربه بالسيف، فأتقاه الغلام بيده فأتقاه إلى الجبلدة، فنادى الغلام: يا أمّاه! فاعتقه الحسين وقال له: يا ابن أخي اصبر! علي ما نزل بك فلن الله يلحقك بأبائك الطاهرين

أنا علي بن الحسين بن عليّ نحن رب البيت أولى بالنبي نالّه لا يحكم فينا ابن الدعي

ففعل ذلك مراراً، فحمل عليه مرة بن مقيذ العبدي فطعنه فصرع وقطعه الناس بسيفهم، فلما رآه الحسين قال: قتل الله قوماً قتلوك! يا بني ما أجرامهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول! على الدنيا بعدك العفاء! وأقبل الحسين إليه ومعه قتيانه فقال: احملا أخاكم، فحملوه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه.

ثم إن عمرو بن صبيح الصدائي رمى عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفه على جبهته فلم يستطع أن يحركها ثم رماه بسهم آخر فقتله.

وحمل الناس عليهم من كل جانب، فحمل عبد الله بن قطبة الطائي على عون بن عبد الله بن جعفر فقتله، وحمل عثمان بن خالد بن أسير الجعفي (٧٥/٤) ويشر بن سوط الهمداني على عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب فقتله، ورمى عبد الله بن عروة الخنعمي جعفر بن عقيل فقتله. ثم حمل القاسم بن الحسن بن عليّ وبيده السيف، فحمل عليه عمرو بن سعد بن نعليل الأزدي ف ضرب رأسه بالسيف فسقط القاسم إلى الأرض لوجهه وقال: يا عمّاه! فأنقض الحسين إليه كالصقر ثم شدّ شدة ليث أغضب ف ضرب عمراً بالسيف فاتقاه بيده فقطع يده من المرفق فصاح، وحملت خيل الكوفة ليستنفذوا عمراً فاستقبلته بصدورها وجالت عليه فوطته حتى مات، وانجلت الغيرة والحسين واقف على رأس القاسم وهو يفحص برجليه والحسين يقول: بُعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك! ثم قال: عزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك أو يجيبك ثم لا ينفك صوته، والله هذا يوم كثر واتره وقلّ ناصره! ثم احتمله على صدره حتى ألقاه مع ابنه عليّ ومن قتل معه من أهل بيته.

ومكث الحسين طويلاً من النهار كلما انتهى إليه رجل من الناس رجع عنه وكبه أن يتولى قتله وعظم إثمه [عليه]، ثم إن رجلاً من كندة يقال له ممالك بن النسيير أتاه فضربه على رأسه بالسيف فقطع البرنس وأدمى رأسه وامتلا البرنس دماً، فقال له الحسين: لا أكلت بها ولا شربت وجشرك الله مع الظالمين! والقي البرنس ولبس القلنسوة، وأخذ الكندي البرنس، فلما قدم على أهله أخذ البرنس يغسل الدم عنه، فقالت له امرأته: أسلب ابن [بنت] رسول الله تدخل بيتي؟ أخرجه عني! قال: لم يزل ذلك الرجل فقيراً بشر حتى مات.

ودعا الحسين بابنه عبد الله وهو صغير فاجلسه في حجره، فرماه رجل من بني أسد فذبحه، فأخذ الحسين دمه فصبّه في

الصالحين، برسول الله ﷺ، وعليّ وحمة وجعفر والحسن. وقال الحسين: اللهم أمسك عنهم قطر السماء وامنعهم بركات الأرض! اللهم فإن متعنتهم إلى حين ففرقهم فرقاً واجعلهم طرائق قِيداً ولا تُرض عنهم الولاة أبداً، فإنهم دعوتنا ليصرونا فعدوا علينا فقتلونا!

ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية.

وأما سويد بن المطاع فكان قد صرع فوقع بين القتلى مُتخذاً بالجراحات، فسمعهم يقولون: قُتل الحسين! فوجد خفّة فوثب ومعه سكين، وكان سيفه قد أخذ، فقاتلهم بسكينه ساعة ثم قتل، قتله عروة بن بطلان الثعلبيّ وزيد بن رقاد الجُبَبيّ، وكان آخر من قُتل من أصحاب الحسين.

ثم انتهوا إلى عليّ بن الحسين زين العابدين، فأراد شمر قتله، فقال له حُميد بن مسلم: سبحان الله أقتل الصبيان! وكان مريضاً، وجاء عمر بن سعد فقال: لا يدخلن بيت هذه النسوة أحد ولا يُعرض لهذا الغلام المريض، ومن أخذ متاعهم شيئاً فليرده، فلم يرد أحد شيئاً. فقال الناس لسان بن أنس النخعي: قتل الحسين بن عليّ وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قتل أعظم العرب خطراً، أراد أن يُزيل ملك هؤلاء، فأنت امرأك فاطمب ثوابك منهم فإنهم لو أعطوك بيوت أموالهم في قتله كان قليلاً. فأقبل على فرسه، وكان شجاعاً شاعراً به لوثته، حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد ثم نادى بأعلى صوته:

أَوْسُرْ رُكابي نَصَّةً وَدَقِّبَا إِنِّي قَتَلْتُ السَّيِّدَ الْمُحَجَّبا
قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ أَمَّا وَأَبَا وَخَيْرَهُمْ إِذْ يَنْسَبُونَ نَسَبًا
(٨٠/٤)

فقال عمر بن سعد: أشهد أنك مجنون، أدخلوه عليّ. فلما دخل حذفه بالقضيب وقال: يا مجنون اتكلم بهذا الكلام؟ والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك! وأخذ عمر بن سعد عُقْبَةَ بَن سِمْعَانَ مولى الرباب ابنة امرئ القيس الكلبية امرأة الحسين فقال: ما أنت؟ فقال: أنا عبد مملوك، فغلى سبيله، فلم ينج منهم غيره وغير المُرقع بن ثُماعة الأسديّ، وكان قد نثر بئله فقاتل فجاء نفر من قومه فأمنوا فخرج إليهم، فلما أخبر ابن زياد خبره نفاه إلى الزّارة.

ثم نادى عمر بن سعد في أصحابه مَنْ يَشُدُّ إِلَى الْحُسَيْنِ فَيُوطئه فرسه، فانتدب عشرة، منهم إسحاق بن حيوة الحضرمي، وهو الذي سلب قميص الحسين، فبرص بعد، فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره. وكان عدّة من قُتل من أصحاب الحسين اثنين وسبعين رجلاً.

ودفن الحسين وأصحابه أهل الغاضرة من بني أسد بعد قتلهم بيو.

ثم ضارب الرّجالة حتى انكشفوا عنه، ولما بقي الحسين في ثلاثة أو أربعة دعا بسرّاويل ففرّزه ونكته لثلاً يُسَلِّبُهُ، فقال له بعضهم: لو لبست تحته الثّبان. قال: ذلك ثوب مذلة ولا ينبغي [لي] أن ألبسه. فلما قُتل سلبه بحر بن كعب، وكانت يده في الثّناء تنضحان بالماء، وفي الصيف تيسان كأنهما عود. وحمل الناس عليه عن يمينه وشماله، فحمل على الذين عن يمينه ففرّقوا، ثم حمل على الذين عن يساره ففرّقوا، فما رُوي مكنور قط قد قُتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جاشاً منه ولا أمضى جثناً ولا أجراً مقدماً منه، إن كانت الرّجالة لتكشف عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذئب. (٧٨/٤)

فبينما هو كذلك إذ خرجت زينب وهي تقول: ليت السماء انطبقت على الأرض! وقد دنا عمر بن سعد، فقالت: يا عمر أَيْقُتِل أبو عبد الله وأنت تنظر [إليه]؟ فدمعت عيناه حتى سالت دموعه على خديّته ولحيته وصرف وجهه عنه.

وكان على الحسين جبة من خزّ وكان معتماً مخضوباً بالوريمة، وقاتل رجلاً قتال الفارس الشجاع يتقي الرمية ويفترص العبورة ويشدّ على الخيل وهو يقول: أعلى قتلي تجتمعون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله الله أسخط عليكم قتله مني! وإيم الله إنّي لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون! أما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم.

قال: ومكث طويلاً من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض ويحبّ هؤلاء أن يكفهم هؤلاء، فنادى شمر في الناس: ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه تكلتكم أمهاتكم! فحملوا عليه من كلّ جانب، فضرب رُزْعَةً بَن شريك التميمي على كفه اليسرى، وضرب أيضاً على عاتقه، ثم انصرفوا عنه وهو يقوم ويكيو، وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع، وقال لخولي بن يزيد الأصبحي: احتز رأسه، فأراد أن يفعل فضعف وأرعد، فقال له سنان: فت الله عضدك! ونزل إليه فذبحه واحتز رأسه فدفعه إلى خولي، وسلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سرّاويله بخزّين كعب وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وهي من خزّ، فكان يسمّى بعد قيس قطيفة، وأخذ نعليه الأسود الأوديّ، وأخذ سيفه رجل (٧٩/٤) من دارم، ومال

وقُتل من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون رجلاً سوى الجرحى فصلّى عليهم عمر ودفنهم.

ولما قُتل الحسين أرسل رأسه ورؤوس أصحابه إلى ابن زياد مع خولّي بن يزيد وحמיד بن مسلم الأزدّي، فوجد خولّي القصر مغلّقاً فأتى منزله فوضع الرأس تحت إيجانه في منزله ودخل فراشه وقال لامرأته النوار: جئت بك بنى الدهر، هذا رأس الحسين معك في الدار. فقالت: ويلك! جاء الناس بالذهب والفضة وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ! واللّه لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً! وقامت من الفراش فخرجت إلى الدار قالت: فما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجانة، ورأيت طيراً أبيض يرفرف حولها. فلما أصبح غدا بالرأس إلى ابن زياد.

وقيل: بل الذي حمل الرؤوس كان ثيمر وقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجاج وعروة بن قيس، فجلس ابن زياد وأذن للناس فاحضرت الرؤوس بين يديه وهو ينكت بقضيب بين شينيه ساعة، فلما رآه زيد بن الأرقم لا يرفع قضيبه قال: أغل هذا القضيب عن هاتين الشينيتين، فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ، على هاتين الشفتين يقبلهما! ثم بكى، فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك! فوالله لو أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك! فخرج وهو يقول: أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم فاطمة، وأترمت ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم ويستعيد شراركم، فريضتم بالذل، فبعداً لمن يرضى بالذل!

فأقام عمر بعد قتله يومين ثم ارتحل إلى الكوفة وحمل معه بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان، وعليّ بن الحسين مريض، فاجتازوا بهم على الحسين وأصحابه صرعى، فصاح النساء ولطن خدودهن، وصاحت زينب أخت: يا محمداه صلي عليك ملائكة السماء! هذا الحسين بالعراء، مرثى بالدما، مقطع الأعضاء، وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا! فابكت كل عدو وصديق.

فلما أدخلوهم على ابن زياد لبست زينب أردل ثيابها وتكررت وحفت بها إماؤها، فقال عبيد الله: من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه، فقال ذلك ثلاثاً وهي لا تكلمه، فقال بعض إمائها: هذه زينب بنت فاطمة. فقال لها ابن زياد: الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأكذب أعدوتكم! فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً، لا كما تقول، وإنما تقول، وإنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر. فقال: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟ قالت: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده. فغضب ابن زياد وقال: قد شفى الله

غظي من طاعتك والعصاة المردة من أهل بيتك. فبكست وقالت: لعمرى لقد قتلت كهلي، وأبرزت أهلي، وقطعت فرعي، واجتشت أهلي، فإن يشك هذا فقد اشتفيت. فقال لها: هذه شجاعة، لعمرى لقد كان أبوك شجاعاً! فقالت: ما للمرأة والشجاعة!

ولما نظر ابن زياد إلى عليّ بن الحسين قال: ما اسمك؟ قال: عليّ بن الحسين. قال: أولم يقتل الله عليّ بن الحسين؟ فسكت. فقال: ما لك لا تتكلم؟ فقال: كان لي أخ يقال له أيضاً عليّ فقتله الناس. فقال: إن الله قتله. فسكت عليّ. فقال: ما لك لا تتكلم؟ فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. قال: أنت والله منهم. ثم قال لرجل: ويحك انظر هذا هل أدرك؟ إني لأحسبه رجلاً. قال: فكشف عنه مريّ بن مُعاذ الأحمرّي فقال: نعم قد أدرك. قال: اقله. فقال عليّ: من توكّل بهذه النسوة؟ وتعلّقت به زينب فقالت: يا ابن زياد حسبك منة، أما رويت من دماثنا، وهل أبقيت منا أحداً! وأعتقته وقالت: أسالك بالله إن كنت مؤمناً إن قتله لما قتلتني معه! وقال له عليّ: يا ابن زياد إن كانت بينك وبينهن قرابة فابعت معهن رجلاً نقيّاً يصحبه بصحبة الإسلام. فنظر إليها ساعة ثم قال: عجبا للرحم! والله إني لأظنها وذت لو أني قتلتها أني قتلتها معه، دعوا الغلام ينطلق مع نسائه.

ثم نادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر فخطبهم وقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأطهه، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه، وقتل الكذاب (٨٣/٤) ابن الكذاب الحسين بن عليّ وشيعته.

فوثب إليه عبد الله بن غفّث الأزدّي ثم الوالبي، وكان ضريراً قد ذهب إحدى عينيه يوم الجمل مع عليّ والأخرى بصفين معه أيضاً، وكان لا يفارق المسجد يصلي فيه إلى الليل ثم ينصرف، فلما سمع مقالة ابن زياد قال: يا ابن مرجانة! إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه! يا ابن مرجانة أقتلون أبناء النبين وتكلمون بكلام الصديقين؟ فقال: عليّ به.

فأخذوه، فنادى بشعار الأزد: يا مبرورا فوثب إليه فتية من الأزد فانتزعوه، فأرسل إليه من أتاه به فقتله وأمر بصلبه في المسجد، فصلب، رحمه الله.

وأمر ابن زياد برأس الحسين فطيف به في الكوفة، وكان رأسه أول رأس حمل في الإسلام على خشية في قول، والصحيح أن أول رأس حمل في الإسلام رأس عمرو بن الحوق. ثم أرسل ابن زياد رأس الحسين ورؤوس أصحابه مع زحر بن قيس إلى الشام إلى يزيد ومعه جماعة، وقيل: مع شير وجماعة معه، وأرسل معه النساء والصبيان، وفيهم عليّ بن الحسين، قد جعل ابن زياد الغلّ في يديه

يرشفه، أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيحك، ويحيي هذا ومحمد شفيعه. ثم قام فولى.

فقال يزيد: والله يا حسين لو كنت أنا صاحبك ما قتلتك. ثم قال: أتدرون من أين أتى هذا؟ قال: أبي علي خير من أبيه، وفاطمة أمي خير من أمه، وجدّي رسول الله خير من جدّه، وأنا خير منه وأخوتي بهذا الأمر منه؛ فأما قوله أبوه خير من أبي فقد حاجّ أبي إياه إلى الله وعلم الناس أيهما جُحِمَ له؛ وأما قوله أمي خير من أمه فلمعري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي؛ وأما قوله جدّي رسول الله خير من جدّه فلمعري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا يذاً، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه، ولم يقرأ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]

ثم أدخل نساء الحسين عليه والراس بين يديه، فجعلت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين تتطاولان لتنظرا إلى الرأس، وجعل يزيد يتطاول ليستر عنهما (٨٦/٤) الرأس. فلما راين الرأس صحن، فصاح نساء يزيد ولولول بنات معاوية. فقالت فاطمة بنت الحسين، وكانت أكبر من سكينة: ابنت رسول الله سبايا يا يزيد؟ فقال: يا ابنة أخي أنا لهذا كنت أكرهه. قالت: والله ما ترك لنا خُرُص. فقال: ما أتى إليك أعظم ممّا أخذ منكُن. فقام رجل من أهل الشام فقال: هب لي هذه، يعني فاطمة، فأخذت بثياب أختها زينب، وكانت أكبر منها، فقالت زينب: كذبت ولؤمت، ما ذلك لك ولا له. فغضب يزيد وقال: كذبت والله، إن ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلته. قالت: كلاً والله ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا. فغضب يزيد واستطار ثم قال: إني تستقبلين بهذا؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك! قالت زينب: بدين الله ودين أبي وأخي وجدّي اهتديت أنت وأبوك وجدك. قال: كذبت يا عدوة الله! قالت: أنت أمير تشتم ظالماً وتقره بسلطانك؟ فاستحى وسكت، ثم أخرجنا وأدخلن دور يزيد، فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أنتهن وأقمن المائم وسألهن عمّا أخذ منهن فاضعهن لهن، فكانت سكينة تقول: ما رأيت كافراً بالله خيراً من يزيد بن معاوية.

ثم أمر بعلي بن الحسين فأدخل مغلولاً فقال: لو رأينا رسول الله، ﷺ، مغلولين لفك عنا. قال: صدقت. وأمر بفك غلّه عنه. فقال علي: لو رأنا رسول الله، ﷺ، بُدءاً لأحب أن يقربنا. فأمر به فقرب منه، وقال له يزيد: إيه يا علي بن الحسين، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقّي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيت. فقال علي: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [لِكَيْلَا (٨٧/٤)] تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [الحديد: ٢٢، ٢٣].. فقال يزيد: ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ آيَاتِكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ثم سكت عنه وأمر بإنزاله

ورقبته، وحملهم على الأقتاب، فلم يكلمهم علي بن الحسين في الطريق حتى بلغوا الشام، فدخل زحر بن قيس على يزيد، فقال: ما وراءك؟ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، ورد علينا الحسين به علي في ثمانية عشر من أهل بيته، وستين من شيعته، فسرنا إليهم فسالناهم أن يتزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال فاختاروا القتال فعدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم جعلوا يهربون إلى غير وِزَر، ويلوذون بالأكام والحضر، كما لاذ الحماائم من صقر، فوالله ما كان إلا جزر جزور، أو نومة قاتل، حتى أتينا على آخرهم! فهاتيك (٨٤/٤) أجسادهم مجرّدة، وثيابهم مرملة، وخدودهم معفّرة، تصهرهم الشمس، وتسفي عليهم الريح، وزأروهم العقبان والزخّم بقي سبب.

قال: فدمعت عينا يزيد وقال: كنت أَرْضَى من طاعيتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سُمَيّة! أما والله لو أتى صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين! ولم يصله بشيء.

وقيل: إن آل الحسين لما وصلوا إلى الكوفة حبسهم ابن زياد وأرسل إلى يزيد بالخبر، فبينما هم في الحبس إذ سقط عليهم حجر فيه كتاب مربوط وفيه: إن البريد سار بأمركم إلى يزيد فيصل يوم كذا ويعود يوم كذا، فإن سمعتم التكبير فأيقنوا بالقتل، وإن لم تسمعوا تكبيراً فهو الأمان. فلما كان قبل قدوم البريد يتوّمين أو ثلاثة إذا حجر قد ألقي وفيه كتاب يقول فيه: أوصوا واعهدوا فقد قارب وصول البريد. ثم جاء البريد بأمر يزيد بإرسالهم إليه، فدعا ابن زياد محقّر بن ثعلبة وشمر بن ذي الجوشن وسيرهما بالقتل والرأس، فلما وصلوا إلى دمشق نادى محقّر بن ثعلبة على باب يزيد: جئنا برأس أحق الناس والأهم فقال يزيد: ما ولدت أم محقّر الأم وأحق منه، ولكنه قاطع ظالم.

ثم دخلوا على يزيد فوضعوا الرأس بين يديه وحذّوه، فسمعت الحديث هنّ بنت عبد الله بن عامر بن كريز، وكانت تحت يزيد، فتفجعت بثوبها وخرجت فقالت: يا أمير المؤمنين أراس الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله، ﷺ؟ قال: نعم، فأعولي عليه وحذّي علي ابن بنت (٨٥/٤) رسول الله، ﷺ، وصريحة قریش، عجل عليه ابن زياد فقتله، قتله الله! ثم أذن للناس فدخلوا عليه والرأس بين يديه ومعه قضيب وهو ينكت به ثغره، ثم قال: إن هذا وإيانا كما قال الحُصَيْن بن الحُمَام:

أبى قومنا أن يصفونا فأنصفنا قواضب في إيماننا تقطر الدما
يفلقن هاماً من رجال أعزّ علينا وهم كانوا أعزّ واطلّنا

فقال له أبو برزة الأسلمي: أتنتك بقضيبك في ثغر الحسين؟ أما لقد أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً، لربّما رأيت رسول الله، ﷺ،

وإنزال نسائه في دار عليّ جدّه، وكان يزيد لا يتغذى ولا يتعشى إلاّ دعا عليّاً إليه، فدعا ذات يوم معه عمرو بن الحسن، وهو غلام صغير، فقال لعمرو: أتقاتل هذا؟ يعني خالد بن يزيد. فقال عمرو: أعطني سكيناً وأعطيه سكيناً حتى أقاتله. فضمّه يزيد إليه وقال: شينينة أعرفها من أخزّم، هل تلد الحية إلاّ حية!

وقيل: ولما وصل رأس الحسين إلى يزيد حسنت حال ابن زياد عنده وزاده ووصله وسره ما فعل، ثم لم يلبث إلاّ يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنه وسبّه فقدم على قتل الحسين، فكان يقول: وما عليّ لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معي في داري وقد حكمته فيما يريد وإن كان عليّ في ذلك وهنّ في سلطاني حفظاً لرسول الله ﷺ، ورعاية لحقه وقرباته، لعن الله ابن مرجانة فإنه اضطره، وقد سأله أن يضع يده في يدي أو يلحق بشعر حتى يتوفاه الله، فلم يجبه إلى ذلك فقتله، فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع في قلوبهم العداوة، فابغضني الزّ والفاجر بما استعظموه من قتلي الحسين، ما لي ولا بن مرجانة، لعن الله وغضب عليه!

ولما أراد أن يسيرهم إلى المدينة أمر يزيد النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم ويسير معهم رجلاً أميناً من أهل الشام ومعه خيل يسير بهم إلى المدينة، ودعا عليّاً ليودعه وقال له: لعن الله ابن مرجانة! أما والله لو أتني صاحبه (٨٨/٤) ما سألني خصلة أبداً إلاّ أعطيتها إياها ولدفعته الحنف عنه بكلّ ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن قضى الله ما رأيت. يا بُنيّ كاتني حاجة تكون لك. وأوصي بهم هذا الرسول، فخرج بهم فكان يسايرهم ليلاً فيكونون أمامه بحيث لا يفوتون طرفه، فإذا نزلوا تنحى عنهم هو وأصحابه، فكانوا حولهم كهينة الحرس، وكان يسألهم عن حاجتهم ويلطف بهم حتى دخلوا المدينة. فقالت فاطمة بنت عليّ لأختها زينب: لقد أحسن هذا الرجل إلينا فهل لك أن نصله بشي؟ فقالت: والله ما معنا ما نصله به إلاّ حُلَيْنَا، فأخرجتا سوارين ودُمْلَجَيْنِ لهما فبعثتا بها إليه واعتذرتا، فردّ الجميع وقال: لو كان الذي صنعت للدنيا لكان في هذا ما يُرضيني، ولكن والله ما فعلته إلاّ لله ولقرابتكم من رسول الله ﷺ.

وكان مع الحسين امرأته الرباب بنت امرئ القيس، وهي أم ابنته سَكِينَة، وحملت إلى الشام فيمن حُمِلَ من أهلها، ثم عادت إلى المدينة، فخطبها الأشراف من قريش، فقالت: ما كنت لأتخذ حمواً بعد رسول الله ﷺ. وبقيت بعده سنة لم يظّلها سقف بيت حتى بليت وماتت كمداء، وقيل: إنها أقامت على قبره سنة وعادت إلى المدينة فماتت أسفاً عليه.

فأرسل عبيد الله بن زياد مبشراً إلى المدينة بقتل الحسين إلى عمرو بن سعيد، فلقية رجل من قريش فقال: ما الخبر؟ فقال: الخير

عند الأمير. فقال القرشي: إنا لله وإنا إليه راجعون، قُتل الحسين. ودخل البشير على عمرو بن سعيد فقال: ما وراءك؟ قال: ما سرّ الأمير، قتل الحسين بن عليّ فقال: تاد بقتله، فنادى، فصاح نساء بني هاشم وخرجت ابنة عقيل بن أبي طالب ومعها نساؤها حاسرة تلوي ثوبها وهي تقول: (٨٩/٤).

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم بعزّي وسألي بعد مقتلي منهم أسارى وقتلى ضُرَجوا بدم ما كان هذا جزائي إذ فصحت لكم فلما سمع عمرو أصواتهنّ ضحك وقال:

عَجَبْتُ نِسَاءَ بَنِي زِيَادٍ عَجَبَةً كَعَجَبِ نِسَوَاتِ غِلْدَةِ الْأَرْنَبِ وَالْأَرْنَبِ وَقَعَةَ كَانَتْ لِبَنِي زَيْدٍ عَلَى بَنِي زِيَادٍ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ، وَهَذَا الْبَيْتُ لِعَمْرُو بْنِ مَعْدِي كَرَبٍ.

ثم قال عمرو: واية كواعية عثمان؛ ثم صعد المنبر فأعلم الناس قتله.

ولما بلغ عبد الله بن جعفر قتل أبيه مع الحسين دخل عليه بعض مواليه يعزيه والناس يعزّونه، فقال مولاؤه: هذا ما لقيناه من الحسين! فحذفه ابن جعفر بنعله وقال:

يا ابن اللخاء للحسين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحييت أن لا أفارقه حتى أقتل معه، والله إنه لَمَمَّا يُسَخِّي بنفسي عنهما ويهون عليّ المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخي وابن عسيّ مواسيين له صابرين معه. ثم قال: إن لم تكن أسئت الحسين يدي فقد أساء ولدي.

ولما وفد أهل الكوفة بالراس إلى الشام ودخلوا مسجد دمشق اتاهم مروان بن الحكم فسألهم: كيف صنعوا؟ فأخبروه، فقام عنهم ثم اتاهم أخوه يحيى بن الحكم فسألهم فأعادوا عليه الكلام، فقال: حُجِيتُم عن محمد ﷺ، يوم القيامة، لن أجامعكم على أمر أبداً ثم انصرف عنهم. فلما دخلوا على يزيد قال يحيى بن أكثم: (٩٠/٤)

لَهُمْ بِجَنبِ الطُّفَى أَنْفَى قَرَابَةِ مَنْ ابْنُ زِيَادٍ الْعَبْدُ الذِي الْحَسْبُ الْوُغْلُ سَعِيَةً أَسَى نَسْلُهَا عِنْدَ الْحَضَى وَلَيْسَ لَأَلِ الْمِصْطَفَى الْيَوْمَ مِنْ نَسْلِ فَضْرِبَ زَيْدٌ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ: اسْكُتْ. قيل: وسمع بعض أهل المدينة ليلة قُتل الحسين متادياً ينادي:

إِنَّمَا الْقَاتِلُونَ جَهْلًا حُسَيْنًا ابْشُرُوا بِالسَّالِيبِ وَالتَّكْبِيلِ كُلِّ أَهْلِ السَّمَاءِ يَدْعُو عَلَيْكُمْ مِنْ نَبِيٍّ وَمَلَائِكَةٍ وَقَبِيلٍ قَدْ لَعَنَ عَلَى لِسَانِ ابْنِ دَاوُدَ دَوْمُوسَى وَصَاحِبِ الْإِنْجِيلِ

ومكث الناس شهرين أو ثلاثة كأنما تُلَطِّخُ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع. قال رأس جالوت ذلك الزمان: ما

القيس الكلبي، قتله هانيء بن نُبَيْت الحضرمي. وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن أيضاً، وأمّه أم ولد، قتله خَرملة بن الكاهن، رماه بسهم. وقتل القاسم بن الحسن أيضاً، قتله سعد بن عمرو بن نُفَيْل الأزدي. وقتل عون بن أبي جعفر بن أبي طالب، وأمّه جمانة بنت المسيب بن نَجْبة الفزاري، قتله عبد الله بن قُطَيْبة الطائي. وقتل محمد بن عبد الله بن جعفر، وأمّه الخوصاء بنت خَصَفَة بن تيم الله بن ثعلبة، قتله عامر بن نُهْشل التيمي. وقتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب، وأمّه أم بنين ابنة الشقر بن الهضاب، قتله بشر بن الخوِط الهمداني. وقتل عبد الرحمن بن عقيل، وأمّه أم ولد، قتله عثمان بن خالد الجُهَني. وقتل عبد الله بن عقيل، وأمّه أم ولد، رماه عمرو بن صَبِيح الصيداوي بسهم فقتله. (٩٣/٤) وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة، وأمّه أم ولد. وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل، وأمّه رُقَيّة ابنة علي بن أبي طالب، قتله عمرو بن صَبِيح الصيداوي، ويقال قتله مالك بن أسيد الحضرمي. وقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل، وأمّه أم ولد، قتله لُقَيْط بن ياسر الجُهَني.

واستصغر الحسن بن الحسن بن علي، وأمّه خولة بنت منظور بن زيان الفزاري، واستصغر عمرو بن الحسين، وأمّه أم ولد، فلم يُقتل.

وقتل من الموالى [سليمان مولى] الحسين، قتله سليمان بن عوف الحضرمي وقتل مُنَجِّج مولى الحسين أيضاً، وقتل عبد الله بن بَقَطْر رضيع الحسين.

قال ابن عباس: رايتُ النبي ﷺ، الليلة التي قُتل فيها الحسين وبنيه قارورة وهو يجمع فيها دماً. فقلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذه دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى. فأصبح ابنُ عباس فاعلم الناس بقتل الحسين وقصّ رؤياه، فوجدته قد قُتل في ذلك اليوم.

وروي أنّ النبي ﷺ، أعطى أم سلمة تراباً من تربة الحسين حملة إليه جبرائيل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم، لأم سلمة: إذا صار هذا التراب دماً فقد قتل الحسين. فحفظت أم سلمة ذلك التراب في قارورة عندها، فلما قُتل الحسين صار التراب دماً، فأعلمت الناس بقتله أيضاً. وهذا يستقيم على قول من يقول أم سلمة توفيت بعد الحسين.

ثم إنَّ ابن زياد قال لعمر بن سعد بعد عوده من قتل الحسين: يا عمر إيتني بالكتاب الذي كتبت إليك في قتل الحسين. قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب. قال: لتجنتي به. قال: ضاع. قال: لتجنتي به. قال: ترك والله يُقرأ على (٩٤/٤) عجائز قرش بالمدينة اعتذاراً إليهن، أما والله لقد نصحتك في الحسن نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص لكنت قد أدبت حقّه. فقال عثمان بن زياد

مررت بكربلاء إلا وأنا أركض دأيتي حتى أخلف المكان، لأننا كنا نتحدث أن ولد نبي يُقتل بذلك المكان، فكنت أخاف، فلما قُتل الحسين أمنتُ فكنت أسير ولا أركض.

قيل وكان عمر الحسين يوم قُتل خمساً وخمسين سنة. وقيل: قُتل وهو ابن إحدى وستين، وليس بشيء.

وكان قتله يوم عاشوراء سنة إحدى وستين.

(بُزَيْر بن خُضَيْر بضم الباء الموحدة، وفتح الراء المهملة، وسكون الباء المثناة من تحتها، وآخره راء. وخُضَيْر بالحاء والضاد المعجمتين. بُيُت بضم التاء المثناة، وفتح الباء الموحدة، وسكون الباء المثناة من تحتها، وآخره تاء (٩١/٤) مثناة من فوقها. ومُحَفَّر بضم الميم، وفتح الحاء المهملة، وتشديد الفاء المكسورة، وآخره راء.)

*[وقال] ... التيمي تيم مرة يرثي الحسين وأهله وكان منقطعاً إلى بني [هاشم]:

مررت على أيات آل مُحَمَّد فليس أرها مثلاً يوم خلست
فلا يُعبد الله الديار وأهلها وإن أصبحت من أهلها قد خلست
وإن قيل الطُف من آل هاشم أذكركم المسلمين فللست
وكانوا رجاء ثم أضحووا وزنة لقد عظمت تلك الرزايا وجلست
وعند غشي قطرة من دماي سجنهم يوماً بها حيث خلست
إذا انقضت قيس جبرنا فقيرها قتلنا قيس إذا العمل زلست

ذكر أسماء من قُتل معه

قال سليمان: لما قُتل الحسين ومن معه حُمِلت رؤوسهم إلى ابن زياد، فجاءت كندة بثلاثة عشر رأساً، وصاحبهم قيس بن الأشعث، وجاءت هوازن بعشرين رأساً، وصاحبهم شمر بن ذي الجوشن الضبابي، وجاءت بنو تميم بسبعة عشر رأساً وجاءت بنو أسد بستة أرؤس، وجاءت مذحج بسبعة (٩٢/٤) أرؤس، وجاء سائر الجيش بسبعة أرؤس، فذلك سبعون رأساً.

وقُتل الحسين، قتله مينا بن أسد النخعي، لعنه الله، وقتل العباس بن علي، وأمّه أم البنين بنت حزام، قتله زيد بن رُقَاد الجُهَني وحكيم بن الطفيل السبسي. وقتل جعفر بن علي، وأمّه أم البنين أيضاً. وقتل عبد الله بن علي، وأمّه أم البنين أيضاً. وقتل عثمان بن علي، وأمّه أم البنين أيضاً، رماه خولّي بن يزيد بسهم فقتله. وقتل محمد بن علي، وأمّه أم ولد، قتله رجل من بني دارم. وقتل أبو بكر بن علي، وأمّه ليلى بنت مسعود الدارميّة، وقد شك في قتله. وقتل علي بن الحسين بن علي، وأمّه ليلى ابنة أبي مرة ابن عروة الثقفي، وأمّه ميمونة ابنة أبي سفيان بن حرب، قتله مُنَجِّد بن النعمان العبدّي، وقتل عبد الله بن الحسين بن علي، وأمّه الرباب ابنة امرئ

آخر عبيد الله: صدق والله! لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنه خزيمة إلى يوم القيامة، وأن الحسين لم يقتل! فما أنكر ذلك عبيد الله بن زياد. آخر المقتل.

ذكر مقتل أبي بلال برداس بن خديز الحظلي

قد تقدم ذكر سبب خروجه وتوجيه عبيد الله بن زياد العساكر إليه في ألفي رجل فالتقاهم بأسك وهزيمة عسكر ابن زياد، فلما هزمهم أبو بلال وبلغ ذلك ابن زياد أرسل إليه ثلاثة آلاف عليهم عباد بن الأخضر، والأخضر زوج أمه، نسب إليه، وهو عباد بن علقمة بن عباد التميمي، فاتبعه حتى لحقه بتروج فصفت له عباد وحمل عليهم أبو بلال فيمن معه، فثبوا واشتد القتال حتى دخل وقت العصر، فقال أبو بلال: هذا يوم جمعة وهو يوم عظيم وهذا وقت العصر فدعونا حتى نصلي. فاجابهم ابن الأخضر وتحاجزوا، فعجل ابن الأخضر الصلاة، وقيل قطعها، والخوارج يصلون، فشده عليهم هو وأصحابه وهم ما بين قائم وراكم وساجد لم يتغير منهم أحد من حاله، فقتلوا من آخرهم (٩٥/٤) وأخذ رأس أبي بلال.

ورجع عباد إلى البصرة فرصده بها عبيدة بن هلال ومعه ثلاثة نفر، فأقبل عباد يزيد قصر الإمارة وهو مردف ابناً صغيراً له، فقالوا له: قف حتى نستفتيك. فوقف، فقالوا: نحن إخوة أربعة قتل أخونا فما ترى؟ قال: استعدوا الأمير. قالوا: قد استعديناه فلم يغلبنا. قال: فاقتلوه قتله الله! فوثبوا عليه وحكموا به فألقى ابنه فنجاً وقُتل هو، فاجتمع الناس على الخوارج فقتلوا غير عبيدة.

ولما قُتل ابن عباد كان ابن زياد بالكوفة ونائبه بالبصرة عبيد الله بن أبي بكر، فكتب إليه يأمره أن يتبع الخوارج، ففعل ذلك وجعل يأخذهم، فإذا شفع في أحدهم ضمنه إلى أن يقدم ابن زياد، ومن لم يكفله أحد حبسه، وأتى بمروءة بن أدية فاطلقه وقال: أنا كفيلك. فلما قدم ابن زياد أخذ من في الحبس من الخوارج فقتلهم وطلب الكفلاء بمن كفلوا به فمن أتى بخارجي أطلقه وقتل الخارج، ومن لم يأت بالخارجي قتله، ثم طلب عبيد الله بن أبي بكر بمروءة ابن أدية، قال: لا أقدر عليه. فقال: إذن أقتلك به، فلم يزل يبحث عنه حتى ظفر به وأحضره عند ابن زياد، فقال له ابن زياد: لا مثلن بك. فقال: اختر لنفسك من القصاص ما شئت به، فأمر به فقطعت يده ورجلاه وصلبه، وقيل: إنه قُتل سنة ثمان وخمسين.

ذكر ولاية سلم بن زياد على خراسان وسجستان

قيل: في هذه السنة استعمل يزيد سلم بن زياد على خراسان.

وخراسان سلم سمرقند وعبرت معه النهر امرأته أم محمد ابنة عبد الله بن عثمان ابن أبي العاص الثقفي، وهي أول امرأة من العرب قطع بها النهر، فولدت له ابناً سماه صغدي، واستعارت امرأته من امرأة صاحب الصغد عليها فلم تعد إليها وذهبت به. ووجه جيشاً إلى خجندة فيهم أمشي همدان فهزموا، فقال أمشي:

ليث خيلي يوم الخجندة لم نه
تحضر الطير مصرعني وتروخ
ثم إلى اللو بالتماء خضيا

ذكر ولاية يزيد بن زياد وطلحة الطلحات سجستان

ولما استعمل يزيد بن معاوية سلم بن زياد على خراسان استعمل أخاه يزيد على سجستان، فغدر أهل كابل فنكسوا وأسروا

وسبب ذلك أن سلماً قدم على يزيد، فقال له يزيد: يا أبا حرب أوليك (٩٦/٤) عمل أخريك عبد الرحمن وعباد. فقال: ما أحب أمير المؤمنين. فولاه خراسان وسجستان، فوجه سلم الحارث بن

أبا عبيدة بن زياد، فسار إليهم يزيد بن زياد في جيش فاقتلوا وانهمز

المسلمون وقتل منهم كثير، فممن قتل يزيد بن عبد الله بن أبي
مؤليكة وصلبة بن أشيم أبو الصهباء العدوي زوج معاذة العدوية،
فلما بلغ الخبر سلم بن زياد سير طلحة بن عبد الله بن خلف
(٩٨/٤) الخراعي، وهو طلحة الطلحات، فقدى أبا عبيدة بن زياد

بخمسمائة ألف درهم، وسار طلحة من كابل إلى سجستان واليا
عليها، فجنى المال وأعطى زواره، ومات بسجستان واستخلف
رجلاً من بني يشكر، فأخرجته المضربة ووقعت العصية فطمع
فيهم رتييل.

فلما بلغه الرسول الرسالة قال عبد العزيز الأبيات، فقال ابن

الزبير: يا بني مروان قد سمعت ما قلتما فأخبرا أباكما:
إني لمن نبتة صم مكاسرها إذا تناوحت القصباء والغسائر
فلا الين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

وامتنع ابن الزبير من رسل يزيد، فقال الوليد بن عتبة وناس من
بني أمية ليزيد: لو شاء عمرو لأخذ ابن الزبير وسرحه إليك. فعزل
عمرو وولي الوليد الحجاز، وأخذ الوليد غلمان عمرو ومواليه
فحبسهم، فكلهم عمرو فأبى أن يخليهم، فسار عن المدينة ليلتين
وأرسل إلى غلمانه بعدتهم من الإبل، فكسروا الحبس وساروا إليه
فلحقوه عند وصوله إلى الشام، فدخل على يزيد وأعلمه ما كان فيه
من مكيدة ابن الزبير، فعذره وعلم صدقه. (١٠١/٤)

ذكر عدة حوادث

حج بالناس الوليد هذه السنة.

وكان الأمير بالعراق عبيد الله بن زياد، وعلى خراسان سلم بن
زياد، وعلى قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة هشام بن
هبيبة.

وفي هذه السنة مات علقمة بن قيس النخعي صاحب ابن
مسعود، وقيل: سنة اثنين، وقيل: خمس، وله تسعون سنة.

وفيها توفي المنذر بن الجارود العبدي. وجابر بن عتيك
الأنصاري، وقيل حر، وكان عمره إحدى وتسعين سنة، وشهد بدرًا.
وفيها مات حمزة بن عمرو الأسلمي، وعمره إحدى وسبعون
سنة، وقيل ثمانون سنة، له صُحبة.

وفيها توفي خالد بن عُرْطَةَ الليثي، وقيل العُدري، حليف بني
زُهرة، وقيل مات سنة ستين، وله صُحبة. (١٠٢/٤)

سنة اثنين وستين

ذكر وفد أهل المدينة إلى الشام

لما ولي الوليد الحجاز أقام يريد غرة ابن الزبير فلا يجده إلا

ذكر ولاية الوليد بن عتبة المدينة والحجاز وعزل عمرو بن سعيد
قيل: وفي هذه السنة عزل يزيد عمرو بن سعيد عن المدينة
وولاه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

وكان سبب ذلك أن عبد الله بن الزبير أظهر الخلاف على يزيد
وبويح بمكة بعد قتل الحسين، فإنه لما بلغه قتل الحسين قام في
الناس فعظم قتله وعاب أهل الكوفة خاصة وأهل العراق عامة،
فقال بعد حمد الله والصلاة على رسول الله، ﷺ : إن أهل العراق
عذُرٌ فُجِرَ إلا قليلاً، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق، وإنهم دعوا
الحسين لينصروه ويولوه عليهم، فلما قدم عليهم ثاروا عليه فقالوا:
إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية
فيُضي فيك حكمه، وإما أن تجارب؛ فرأى والله أنه هو وأصحابه
قليل في كثير، فإن كان الله لم يُطْلِعْ على الغيب أحداً أنه مقتول
ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة فرحم الله الحسين
وأخرى قائله! لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان
في مثله واعظ وناوهم، (٩٩/٤) ولكنه ما قرّر نازل، وإذا أراد
الله أمراً لم يُدْفَعْ، أفبعد الحسين نظمنا إلى هؤلاء القوم ونصدق
قولهم ونقبل لهم عهداً؟ لا والله لا نراهم لذلك أهلاً، أما والله
لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم
فيه منهم وأولى به في الدين والفضل، أما والله ما كان يبذل بالقرآن
الغناء، ولا بالكاء من خشية الله الحذاء، ولا بالصيام شرب الخمر،
ولا بالمجالس في خلق الذكر تطلاب الصيد، يعرض بيزيد،
﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾. [قرئ: ٥٩]

فثار إليه أصحابه وقالوا: أظهر بيعتك فإنك لم يبق أحد إذ
هلك الحسين يتنازعك هذا الأمر. وقد كان يبايع سراً ويُظهر أنه
عائد بالبيت. فقال لهم: لا تعجلوا وعمرو بن سعيد يومئذ عامل
مكة، وهو أشد شيء على ابن الزبير، وهو مع ذلك يداري ويرفق،
فلما استقر عند يزيد ما قد جمع ابن الزبير بمكة من الجموع أعطى
الله عهداً ليوقفه في سلسلة، فبعث إليه سلسلة من فضة مع ابن
عطاء الأشعري وسعد وأصحابهما ليأتوه به فيها، وبعث معهم

محترزاً ممتنعاً، وثار نَجْدَةُ بن عامر النَّخَعِيُّ باليمامة حين قُتِل الحسين، وثار ابن الزبير بالحجاز، وكان الوليد يُقيض من المُعَصَّرُ ويقيض معه سائر الناس، وابن الزبير واقف وأصحابه، ونَجْدَةُ واقف في أصحابه، ثم يقيض ابن الزبير بأصحابه ونجدة بأصحابه، وكان نجدة يلقى ابن الزبير فيكثر، حتى ظن أكثر الناس أنه سيبايعه، ثم إن ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد، فكتب إلى يزيد: إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق لا يتجه لرشد ولا يرعوي لعظة الحكيم، فلو بعثت رجلاً سهل الخلق رجوت أن يسهّل من الأمور ما استوعر منها، وأن يجتمع ما تفرق.

ف عزل يزيد الوليد وولى عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وهو فتى غير حَدَث لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن، لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله، فبعث إلى يزيد وفداً من أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة، غسيل الملائكة، وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، والمنذر بن الزبير، (١٠٣/٤) ورجالاً كثيراً من أشرف أهل المدينة، فقدموا على يزيد، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، فأعطى عبد الله بن حنظلة، وكان شريفاً فاضلاً عابداً سيّداً، مائة ألف درهم، وكان معه ثمانين بيتن، فأعطى كل ولد عشرة آلاف.

فلما رجعوا قدموا المدينة كلهم إلا المنذر بن الزبير، فإنه قدم العراق على ابن زياد، وكان يزيد قد أجازته بمائة ألف، فلما قدم أولئك انفر الوفد المدينة قاموا فيهم فأنظروا شتم يزيد وعيبه وقالوا: قد منا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويضرب بالطناوير ويعزف عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسمر عنده الخراب، وهم للصوص، وإنا نشهدكم أنا قد خلعتناه.

وقام عبد الله بن حنظلة الغسيل فقال: جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت منه عطائه إلا لأتقوى به. فخلعه الناس وباعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد وولوه عليهم.

وأما المنذر بن الزبير فإنه قدم على ابن زياد فأكرمه وأحسن إليه، وكان صديق زياد، فأناه كتاب يزيد حيث بلغه أمر المدينة يأمره بحبس المنذر، فكره ذلك لأنه ضيفه وصديق أبيه، فدعاه وأخبره بالكتاب، فقال له: إذا اجتمع الناس عندي فقم وقل انشد لي لأنصرف إلى بلادي، فإذا قلت بل أقنم عندي فلك الكرامة والمواساة، فقل إن لي ضيعة وشغلاً ولا أجد بدلاً لي من الانصراف، فإني أذن لك في الانصراف فتلتحق بأهلك.

فلما اجتمع الناس على ابن زياد فعل المنذر ذلك فأذن له في الانصراف، فقدم المدينة، فكان ممن يحرض الناس على يزيد، وقال: إنه قد أجازني (١٠٤/٤) بمائة ألف ولا يمنعني ما صنع بي

أن أخبركم خبره، والله إنه لشرب الخمر، والله إنه ليسكر حتى يدع الصلاة! وعابه بمثل ما عابه به أصحابه وأشد. فبعث يزيد النعمان بن بشير الأنصاري وقال له: إن عديم الناس بالمدينة قومك، فإنهم ما يمتنعهم [شيء] عما يريدون، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترئ الناس على خلافي.

فأقبل النعمان فأتى قومه فأمرهم بلزوم الطاعة وخوفهم الفتنة، قال لهم: إنكم لا طاقة لكم بأهل الشام. فقال عبد الله بن مطيع العدوي: يا نعمان ما يحملك على فساد ما أصلح الله من أمرنا وتفرق جماعتنا؟ فقال النعمان: والله لكأنني بك لو نزل بك الجموع وقامت لك على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيف ودارت رحا الموت بين الفريقين قد ركبت بغلتك إلى مكة وخلفت هؤلاء المساكين، يعني الأنصار، يقتلون في سكرهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم. فعصاه الناس وانصرف، وكان الأمر كما قال. (١٠٥/٤)

ذكر ولاية عُقْبَةَ بن نافع إفریقیة ثانية وما افتحه فيها وقتله قد ذكرنا عزل عُقْبَةَ عن إفریقیة وعوده إلى الشام، فلما وصل إلى معاوية وعده بإعادته إلى إفریقیة، وتوفي معاوية وعُقْبَةُ بالشام، فاستعمله يزيد على إفریقیة في هذه السنة وأرسله إليها، فوصل إلى القيروان مجدداً، وقبض أبا المهاجر أميرها وأوقفه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذراري والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوي، وأحضر أولاده، فقال له: إني قد بعث نفسي من الله، عز وجل، فلا أزال أجاهد من كفر بالله. وأوصى بما يفعل بعده.

ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية، وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم، فقاتلوه قتالاً شديداً وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً وغنم منهم غنائم كثيرة، ودخل المنهزمون المدينة وحاصروهم عتبة. ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب، وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة، فقصدها مدینتها العظمى واسمها أرتة، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى عدة دفعات ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم، ورحل إلى تاهرت.

فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فاجابوهم ونصروهم، فاجتمعوا في جمع كثير والتقوا واقتلوا قتالاً شديداً، واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ثم إن الله تعالى نصرهم فانهمزت الروم والبربر وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل (١٠٦/٤) وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

ثم سار حتى نزل على طنجة فلقية بطريق من الروم اسمه يليان فاهدي له هدية حسنة ونزل على حكمه، ثم سأل عن الأندلس

فبلغ عقبة ذلك فاطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتقم (١٠٨/٤) الشهادة. فلم يفعل وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة. فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقتلواهم، فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد، وأسر محمد بن أوس الأنصاري في نفر يسير، فخلصهم صاحب قنصة ويث بهم إلى القيروان. فعزم زهير بن قيس البلوي على القتال، فخالفه جيش الصنعاني وعاد إلى مصر، فترعه أكثر الناس، فاضطر زهير إلى العود معهم، فصار إلى برقة وأقام بها.

وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية، وقصد إفريقية، وبها أصحاب الأنفال والذرائع من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة فآمنهم ودخل القيروان واستولى على إفريقية وأقام بها إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان فاستعمل على إفريقية زهير بن قيس البلوي، وكان مقيماً ببرقة مرابطاً.

ذكر ولاية زهير بن قيس إفريقية وقتله وقتل كسيلة

لما ولي عبد الملك بن مروان ذكر عنده من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإفناذ الجيوش إلى إفريقية لاستقانهم فكتب إلى زهير بن قيس البلوي بولاية إفريقية وجهاز له جيشاً كثيراً، فصار سنة تسع وستين إلى إفريقية.

فبلغ خبره إلى كسيلة، فاحتفل وجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه وقال: قد رأيت أن أرحل إلى ممش فانزلها فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يشب هؤلاء (١٠٩/٤) من ورائنا، فإذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيراً، فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من إفريقية، وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجيال ونجونا فأجابوه إلى ذلك، ورحل إلى ممش، وبلغ ذلك زهيراً فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهراً ثلاثة أيام حتى أراح واستراح، ورحل في طلب كسيلة، فلما قارب نزول وعي أصحابه وركب إليه، فالتقى العسكران، واشتد القتال وكثر القتل في الفريقين، حتى أيس الناس من الحياة، فلم يزالوا كذلك أكثر النهار، ثم نصر الله المسلمين وانتهز كسيلة وأصحابه وقتل هو وجماعة من أعيان أصحابه بممش وتبع المسلمون البربر والروم فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا، وفي هذه الرقعة ذهب رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم وعاد زهير إلى القيروان.

ثم أن زهيراً رأى بإفريقية ملكاً عظيماً فأبى أن يقيم وقال: إنما قدمت للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك.

وكان عابداً زاهداً، فترك بالقيروان عسكرياً وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذي شوك، ورحل في جمع كثير إلى مصر.

فعظم الأمر عليه، فسأله عن البربر، فقال: هم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله، وهم بالسوس الأدنى، وهم كفار لم يدخلوا في النصرانية ولهم بأس شديد.

فسار عقبة إليهم نحو السوس الأدنى، وهي مغرب طنجة، فانتهى إلى أوائل البربر، فلقوه في جمع كثير، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ويث خيله في كل مكان هربوا إليه، وسار هو حتى وصل إلى السوس الأقصى، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى، فلقبهم وقتلهم وهزمهم، وقتل المسلمون فيهم حتى ملأوا وغنموا منهم وسبوا سبياً كثيراً، وسار حتى بلغ ماليان ورأى البحر المحيط، فقال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك.

ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفاً منه، واجتاز بمكان يُعرف اليوم بماء الفرس فزله، ولم يكن به ماء، فلقح الناس عطشاً كثير أشرفوا [منه] على الهلاك، فصلى عقبة ركعتين ودعا، فبحث فرس له الأرض بيديه فكشف له عن صفاة فانفجر الماء، فنادى عقبة في الناس فحفروا أحصاء كثيرة وشربوا، فسُمي ماء الفرس.

فلما وصل إلى مدينة طينة، وبينها وبين القيروان ثمانية أيام، أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثمة منه بما نال من العدو، وأنه لم يبق أحداً يخشاه وسار إلى تهودة لينظر إليها في نفر يسير، فلما رآه الروم في قلعة ظلموا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه. (١٠٧/٤)

ذكر خروج كسيلة بن كرم البربري على عقبة

هذا كسيلة بن كرم البربري كان قد أسلم لما ولي أبو المهاجر إفريقية وحسن إسلامه، وهو من أكابر البربر وأبعدهم صوتاً، وصحب أبا المهاجر، فلما ولي عقبة عرفه أبو المهاجر محلاً كسيلة وأمره بحفظه، فلم يقبل واستخف به، وأتى عقبة بغنم فامر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين، فقال كسيلة: هؤلاء فتياني وعلماني يكفونني المؤونة. فشتمه وأمره بسلخها، ففعل، فقبح أبو المهاجر هذا عند عقبة، فلم يرجع، فقال له: أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه! فتهانوا به عقبة. فأضمر كسيلة الغدر، فلما كان الآن ورأى الروم قلعة من مع عقبة أرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله، وكان في عسكر عقبة مضمراً للغدر، وقد أعلم الروم ذلك وأطمعهم. فلما راسلوه أظهر ما كان يضمرة وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه. وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة. فزحف عقبة إلى كسيلة، ففتح كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي مخنف التقيي:

كفى خزاناً أن تمرغ الخيل بالقتا وأترك مشلولاً علي وثاقها
إذا قمت عني الحديد وأغلقت مصارع من دوني تصم المتابيا

فلما قرأ الكتاب تمثل :

لقد بلكوا الجلم الذي في سجنتي فبكت قومي غلظةً بليان
ثم قال: أما يكون بنو أمية ألف رجل؟ فقال الرسول: بلى والله
وأكثر.

قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من النهار! فبعث إلى
عمرو بن سعيد فأقرأه الكتاب وأمره أن يسير إليهم في الناس،
فقال: قد كنت ضبطت لك الأمور والبلاد، فاما الآن إذ صارت دماء
قريش تهرق بالصعيد فلا أحب أن أتولى ذلك.

وبعث إلى عبيد الله بن زياد يأمره بالمسير إلى المدينة
ومحاصرة ابن الزبير (١١٢/٤) بمكة، فقال: والله لا أجمعنها
للفاسق، قتل ابن رسول الله وغزو الكعبة. ثم أرسل إليه يعتذر.

فبعث إلى مسلم بن عقبة المرّي، وهو الذي سُمّي سُرفاً، وهو
شيخ كبير مريض، فأخبره الخبر، فقال: أما يكون بنو أمية ألف
رجل؟ فقال الرسول: بلى. قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من
النهار! ليس هؤلاء بأهل أن ينصروا فليأثم الأذلاء، ذعهم يا أمير
المؤمنين حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم ويتبين لك من
يقاتل على طاعتك ومن يستسلم. قال: ويحك! إنه لا خير في
الميش بعدهم، فأخرج بالناس.

وقيل: إن معاوية قال ليزيد: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإن
فعلوا فارهم بمسلم بن عقبة، فإنه رجل قد عرفت نصيحته. فلما
خلع أهل المدينة أمر مسلماً بالمسير إليهم فنادى في الناس بالتجهز
إلى الحجاز وأن يأخذوا عطاءهم ومعونة مائة دينار، فانتدب لذلك
اثنا عشر، وخرج يزيد يعرضهم وهو متقلد سيفاً مشكّب قوساً
عريّة، وهو يقول :

ابسخ أباً بكراً إذا الليل سرى وهبط القوم على وادي القرى
اجتمع سكران من القوم تسرى أم جمع يقطان نفى عنه الكرى
يا عجباً من ملحد يا عجباً مخادع بالليل يفسو بالمرى

وسار الجيش وعليهم مسلم، فقال له يزيد: إن حدث بك
حدث فاستخلف الحصين بن نمير السكوني، وقال له: ادع القوم
ثلاثاً، فإن أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فانهبها ثلاثاً،
فكل ما فيها من مال أو دابة أو (١١٣/٤) سلاح أو طعام فهو
للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس، وانظر علي بن
الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً، فإنه لم يدخل مع الناس،
وإنه قد أتاني كتابه.

وقد كان مروان بن الحكم كلم ابن عمر لما أخرج أهل المدينة
عامل يزيد وبني أمية في أن يغيب أهله عنده، فلم يفعل، فكلم علي
بن الحسين، فقال: إن لي خرمًا وخرمي تكون مع خرمك. فقال:

وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من بركة إلى
إفريقية لقتال كسيلة، فاعتمروا خلوها فخرجوا إليها في مراكب
كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية وأغاروا على بركة، فأصابوا منها
سبياً كثيراً، وقتلوا ونهبوا، ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى
برقة. فأخبر الخير، فأمر العسكر بالسرعة والجذ في قتالهم، ورحل
هو ومن معه، وكان الروم خلقاً كثيراً، فلما رآه المسلمون استعاثوا
به فلم يمكنه الرجوع وباشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب
وتكاثر (١١٠/٤) الروم عليهم فقتلوا زهيراً وأصحابه ولم ينج منهم
أحد، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية.

ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل زهير عظم عليه واشتد
ثم سار إلى إفريقية حسان بن النعمان الغساني، وسنذكره سنة أربع
وسبعين إن شاء الله.

وكان ينبغي أن نذكر ولاية زهير وقله سنة تسع وستين، وإنما
ذكرناه ههنا ليتصل خبر كسيلة ومقتله، فإن الحادثة واحدة وإذا
تفرقت لم تعلم حقيقتها.

ذكر عذة حوادث

حج بالناس هذه السنة الوليد بن عتبة.

وفيه ولد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس والد السفاح
والمصور.

وفيه توفي عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب
بن هاشم الهاشمي، وله صحبة.

ومسلمة بن مخلد الأنصاري، وكان عمره لما مات النبي ﷺ،
عشر سنين.

وتوفي بمصر مسروق بن الأجدع، وقيل توفي سنة ثلاث
وستين.

(مُخلد بضم الميم، وفتح الخاء المعجمة، وفتح السلام
وتشديدها). (١١١/٤)

سنة ثلاث وستين

ذكر وقعة الحرّة

كان أول وقعة الحرّة ما تقدّم من خلع يزيد، فلما كان هذه
السنة أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد
وحصروا بني أمية بعد بيعتهم عبد الله بن حنظلة، فاجتمع بنو أمية
ومواليهم ومن يرى رأيهم في ألف رجل حتى نزلوا دار مروان بن
الحكم، فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به، فقدم الرسول إليه وهو جالس
على كرسي وقد وضع قدميه في طشت فيه ماء لنقرس كان بهما،

أفعل، فبعث بامرأته، وهي عائشة ابنة عثمان بن عفان، وحرّمه إلى عليّ بن الحسين، فخرج عليّ بحرّمه وحرّم مروان إلى يثع، وقيل: بل أرسل حرّم مروان وأرسل معهم ابنه عبد الله بن عليّ إلى الطائف.

ولما سمع عبد الملك بن مروان أنّ يزيد قد سار الجنود إلى المدينة قال: ليت السماء وقعت على الأرض، إعظاماً لذلك.

فلما مضت الثلاث قال: يا أهل المدينة ما تصنعون، أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا: بل نحارب. فقال لهم لا تفعلوا بل ادخلوا في الطاعة ونجعل جنداً وشوكتنا على أهل هذا المُجَلّ الذي قد جمع إليه المُرّاق والفَسّاق من كلّ أَوْب، يعني ابن الزُّبير. فقالوا له: يا أعداء الله لو أردتم أن تجوزوا إليه ما تركناكم، نحن ندعُكم أن تأتوا بيت الله الحرام فتخيفوا أهله وتلحدوا فيه وتستحلوا حرّمته! لا والله لا نفعل.

وكان أهل المدينة قد اتخذوا خندقاً وعليه جمع منهم، وكان عليه عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف، وهو ابن عمّ عبد الرحمن بن عوف وكان عبد الله بن مُطيع على رُبع آخر، وهم قريش في جانب المدينة، وكان معقل بن سنان الأشجعيّ، وهو من الصحابة، على رُبع آخر، وهم المهاجرون، وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاريّ في أعظم تلك الأرباع، وهم الأنصار.

وصمد مسلم فيمنّ معه، فأقبل من ناحية الحرة حتى ضرب فسطاطه على طريق الكوفة، وكان مريضاً، فأمر فوضع له كرسيّ بين الصفّين وقال: يا أهل الشام قاتلوا عن أميركم وادعوا. فأتخذوا لا يقصدون رُبعاً من تلك الأرباع إلّا هزموه، ثمّ وجّه الخيل نحو ابن الغسيل، فحمل عليهم ابن الغسيل فيمنّ معه فكشفهم، فانتهوا إلى مسلم، فنهض في وجوههم بالرجال وصاح بهم، فقاتلوا قتالاً شديداً.

ثمّ إنّ الفضل بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى ابن الغسيل فقاتل معه في نحو من عشرين فارساً قتالاً حسناً، ثمّ قال لابن الغسيل: (١١٦/٤) مَنْ كان معك فارساً فليأتني فليقف معي، فإذا حملت فليحملوا، فو الله لا انتهي حتى أبلغ مسلماً فأتله أو أقتل دونه. ففعل ذلك وجمع الخيل إليه، فحمل بهم الفضل على أهل الشام فانكشفوا، فقال لأصحابه: احملوا أخرى جعلت فداكم، فو الله لئن عايت أميرهم لأقتلنه أو أقتل دونه. إته ليس بعد الصبر إلّا النصر! ثمّ حمل وحمل أصحابه، فانفجرت خيل الشام عن مسلم بن عقبة ومعه نحو خمسمائة راجل جئّة على الرُكب مشرعي الأسنة نحو القوم، ومضى الفضل كما هو نحو راية مسلم فضرب رأس صاحبها، فقطع المغفر ولفق هامته وخر ميتاً، وقال: خذها مني وأنا ابن عبد المطلب! وظن أنه مسلم، فقال: قلت طاغية القوم وربّ الكعبة! فقال: أخطأت استك

ثمّ إنّه ابتلي بعد ذلك بأن وجّه الحجاج فحصر مكّة ورمى الكعبة بالمنجنيق وقتل ابن الزبير. وأمّا مسلم فإنه أقبل بالجيش فبلغ أهل المدينة خبرهم، فاشتدّ حصارهم لبني أمية بدار مروان، وقالوا: والله لا نكفّ عنكم حتى تستزلّكم ونضرب أعناقكم أو تُعطونا عهد الله وميثاقه أن لا تبغونا غائلة، ولا تدلّونا لنا على عورة، ولا تظاهروا علينا عدوّاً، فكفّ عنكم ونُخرجكم عنّا فعادهم على ذلك فأخروهم من المدينة.

وكان أهل المدينة قد جعلوا في كلّ منهل بينهم وبين الشام زقاً من قطران وعُور، فأرسل الله السماء عليهم فلم يستقوا بدلو حتى وردوا المدينة.

فلما أخرج أهل المدينة بني أمية ساروا بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى فدعا يعمر بن عثمان بن عفان أوّل الناس فقال له: خبرني ما (١١٤/٤) وراءك وأشير عليّ. فقال: لا أستطيع، قد أخذ علينا اليهود والمواثيق أن لا ندلّ على عورة ولا نظاهر عدونا. فانتهره وقال: والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك، وإيم الله لا أقبلها قرشياً بعدك فخرج إلى أصحابه فأخبرهم خبره، فقال مروان بن الحُكم لابنه عبد الملك: ادخل قبلي لعلّه يجتزيء بك عني.

فدخل عبد الملك فقال: هات ما عندك. فقال: نعم، أرى أن تسير بمنّ معك فإذا انتهيت إلى ذي نخلة نزلت فاستظّل الناس في ظلّه فأكبلوا من صقره، فإذا أصبحت من الغد مضيت تركت المدينة ذات اليسار ثمّ درت بها حتى تأتيتهم من قبل الحرة مشرفاً ثمّ تستقبل القوم، فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيه ويصيههم أذاها ويرون من اتّلاق ييضكم وأسنة رماحكم وسيفوكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ما داموا مغرّبين، ثمّ قاتلهم واستعين الله عليهم.

فقال له مسلم: لله أبوك أيّ امرئ ولّد!

ثمّ إنّ مروان دخل عليه فقال له: إيه! فقال: اليس قد دخل عليك عبد الملك؟ قال: بلى، وأي رجل عبد الملك! قلّ ما كلّمت من رجال قريش رجلاً به شيباً. فقال مروان: إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني. ثمّ إنّه صار في كلّ مكان يصنع ما أمر به عبد الملك،

الحفرة:

سَطَّتْ [أَيَّ يَدَكَ لِيَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِمَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ] [المائدة: ٢٨].

فقال: من أنت؟ فقال: أنا أبو سعيد الخُدْري. قال: صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم فتركه ومضى.

وقيل: إن مسلماً لما نزل بأهل المدينة خرج إليه أهلها بجموع كثيرة وهيئة حسنة، فهابهم أهل الشام وكرهوا أن يُقاتلوه، فلما رأهم مسلم، وكان شديد الوجع، سبهم وذمهم وحرَضهم، فقاتلوه.

فبينما الناس في قتالهم إذ سمعوا تكبيراً من خلفهم في جوف المدينة، وكان سببه أن بني حارثة أدخلوا أهل الشام المدينة فانهزم الناس، فكان من أصيب في الخندق أكثر ممن قُتل.

ودعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد، على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم من شاء، فمِن امتنع من ذلك قتله، وطلب الأمان ليزيد ابن عبد الله بن ربيعة بن الأسود، ولمحمد بن أبي الجهم بن حذيفة، ولَمَعْلُ ابن مينا بن الأشجعي، فأُتي بهم بعد الرقعة يوم، فقال: بايعوا على الشرط.

فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة رسوله. فضرب أحناقهما. فقال مروان: سبحان الله! أقتل رجلين من قريش أنبا بآمان؟ فطعن بخاصرته بالقضيب، فقال: وأنت والله لو قلت بمقاتلتكما لقتلتكما! (١١٩/٤)

وجاء معقل بن مينا فجلس مع القوم فدعا بشراب لِيَسْقَى، فقال [له] مسلم: أي الشراب أحب إليك؟ قال: العسل. قال: اسقوه، فشرب حتى ارتوى، فقال له: أروي؟ قال: نعم. قال: والله لا تشرب بعدها شربة إلا في نار جهنم. فقال: أنشدك الله والرَّجُم! فقال له: أنت الذي لقيتني بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد فقلت: سرنا شهراً، ورجعنا شهراً، وأصبحنا صفراء، نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ابن الفاسق ونبايع لرجل من المهاجرين أو الأنصار! فمِن غطفان وأشجع من الخلق والخلافة! إني أليتُ يمين لا ألقاك في حرب أقدر منه على قتلك إلا فعلت. ثم أمر به فقتل.

وأُتي يزيد بن وهب، فقال له: بايع. قال: أبايحك على الكتاب والسنة.

قال: اقتلوه. قال: أنا أبايحك! قال: لا والله، فتكلم فيه مروان لصهر كان بينهما، فأمر بمروان فوجئت عنقه ثم قُتل يزيد.

ثم أتى مروان بعلي بن الحسين، فجاء يعشي بين مروان وابنه عبد الملك حتى جلس بينهما عنده، فدعا مروان بشراب ليتحرم بذلك [من مسلم]، فشرب منه يسيراً ثم ناوله علي بن الحسين،

وإنما كان ذلك غلاماً رومياً وكان شجاعاً، فأخذ مسلم رايته وحرَض أهل الشام وقال: شدوا مع هذه الراية. فمشى برايته وشدت تلك الرجال أمام الراية، فصُرْع الفضل بن عباس، فقتل وما بينه وبين أتاب مسلم بن عقبة إلا نحو من عشرة أذرع، وقُتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف.

وأقبلت خيل مسلم ورجاله نحو ابن الغسيل، وهو يحرَض أصحابه ويدم أهل المدينة، ويُقدِّم الخيل إلى ابن الغسيل [وأصحابه]، فلم تقدم عليهم للرماح التي بأيدهم والسيوف، وكانت تفرق عنهم، فنادى مسلم الحُصَيْن بن نعيم وعبد الله بن عِصاة الأشعري وأمرهما أن ينزلا في جندهما، ففعلا وتقدما إليهم فقال لأصحابه: إن عدوكم قد أصاب وجه القتال الذي كان ينبغي أن يقاتلكم به، وإني قد ظننت ألا يلبثوا إلا ساعة حتى يفصل الله بينكم وبينهم إما لكم وإما عليكم، أما إنكم أهل النصرة ودار الهجرة وما أظن ريكُم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بارضى منه عنكم، ولا على أهل بلد من بلدان العرب بأسخط منه على هؤلاء الذين يقاتلونكم، وإن لكل امرئ منكم ميتة هو ميت بها لا محالة، والله ما [من] ميتة أفضل من ميتة الشهادة، وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها.

ثم دنا بعضهم من بعض فأخذ أهل الشام يرمونهم بالنبل، فقال ابن الغسيل لأصحابه: علام تستهدفون لهم؟ من أراد التعجيل إلى الجنة فليزِم هذه الراية. فقام إليه كل مستميت فنهض بعضهم إلى بعض فاقبلوا أشد قتال روي لأهل هذا القتال، وأخذ ابن الغسيل يُقدِّم بنيه واحداً واحداً حتى قتلوا بين يديه وهو يضرب [بسيفه] ويقول:

بُعْدًا لِمَنْ رَامَ الْفَسَادَ وَطَغَى وَجَنَّبَ الْحَقَّ وَأَيَّاتَ الْهَلَاكِ لَا يَبْعِدُ الرَّحْمَنُ إِلَّا مَنْ عَصَى

ثم قُتل وقُتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، فقال: ما أحب أن الديلم قتلوني مكان هؤلاء القوم! وقُتل معه عبد الله بن زيد بن عاصم ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصاري. فمر به مروان بن الحكم فقال: رحمك الله! رب سارية قد رأيتك تطيل القيام في الصلاة إلى جنبها. وانهزم الناس، وكان فمِن انهزم محمد بن سعد بن أبي وقاص بعدما أبلى.

وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال، فافزع (١١٨/٤) ذلك من بها من الصحابة. فخرج أبو سعيد الخُدْري حتى دخل في كهف الجبل، فبعه رجل من أهل الشام، فاقتحم عليه الغار، فانقضى أبو سعيد سيفه يخوف به الشامي، فلم ينصرف عنه، فعاد أبو سعيد وأغمد سيفه وقال «لئن

ولمّا وقع في يده قال له مسلم: لا تشرب من شراينا! فارتعدت كَفَه ولم يأمنه على نفسه وأمسك القدح، فقال له: اجثت تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي؟ والله لو كان اليهما أمر لقتلتك! ولكن أمير المؤمنين أوصاني بك وأخبرني أنك كاتبته، فإن شئت فاشرب. فشرب ثم أجلسه معه على السرير ثم قال له: لعنّ أهلك فزعوا؟ قال: إي والله. فأمر بدابة (١٢٠/٤) فأسرجت له فحمله عليها فردّه ولم يلزمه بالبيعة يزيد على ما شرط على أهل المدينة.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة توفي الربيع بن خثيم الكوفي الزاهد

وحجّ بالناس هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكان يسمى يومئذ العائد، ويرون الأمر شورى، وأتاه الخبر بوقعة الحرة هلال المحرم مع [سعيد مولى] المسور بن مخرمة، فجاءه أمر عظيم، فاستعدّ هو وأصحابه وعرفوا أنّ مسلماً نازل بهم. (١٢٣/٤)

سنة أربع وستين

ذكر مسير مسلم لحصار ابن الزبير وموته

فلما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ونهبها شخص بمن معه نحو مكة يريد ابن الزبير ومن معه، واستخلف على المدينة رَوْح بن زُبَيْع الجذامي، وقيل: استخلف عمرو بن مخرمة الأشجعي، فلما انتهى إلى المشلل نزل به الموت، وقيل: مات بشيئة هَرَشَى، فلما حضره الموت أحضر الحُصَيْن بن النعمير وقال له: يا ابن برذعة الحمارة! لو كان الأمر إلى ما وليتُك هذا الجند، ولكن أمير المؤمنين ولأك. خذ عني أربعاً: اسرع السير، وعجل المناجزة، [وعمّ الأخبار]، ولا تمكّن قرشيّاً من أفنك. ثم قال: اللهم إني لم أجعل قطّ بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله عملاً أحبّ إليّ من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة.

فلما مات سار الحُصَيْن بالناس فقدم مكة لأربع بقين من المحرم سنة أربع وستين وقد بايع أهلها وأهل الحجاز عبد الله بن الزبير واجتمعوا عليه، ولحق به المنهزمون من أهل المدينة، وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفي في الناس من (١٢٤/٤) الخوارج يعمنون البيت، وخرج ابن الزبير إلى لقاء أهل الشام ومعه أخوة المنذر، فبارز المنذر رجلاً من أهل الشام فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة مات منها، ثم حمل أهل الشام عليهم حملة انكشف منها أصحاب عبد الله، وعثرت بغلة عبد الله فقال: تمسّ! ثم نزل فصاح بأصحابه، فأقبل إليه المسور بن مخرمة ومُصَنَّب بن عبد الرحمن بن عوف فقاتلا حتى قُتلا جميعاً، وضاربهم ابن الزبير إلى الليل ثم انصرفوا عنه.

هذا في الحصر الأول ثم أقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كلّهُ حتى إذ مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول سنة أربع

فلما وقع في يده قال له مسلم: لا تشرب من شراينا! فارتعدت كَفَه ولم يأمنه على نفسه وأمسك القدح، فقال له: اجثت تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي؟ والله لو كان اليهما أمر لقتلتك! ولكن أمير المؤمنين أوصاني بك وأخبرني أنك كاتبته، فإن شئت فاشرب. فشرب ثم أجلسه معه على السرير ثم قال له: لعنّ أهلك فزعوا؟ قال: إي والله. فأمر بدابة (١٢٠/٤) فأسرجت له فحمله عليها فردّه ولم يلزمه بالبيعة يزيد على ما شرط على أهل المدينة.

وأحضر علي بن عبد الله بن عباس ليبيع، فقال الحُصَيْن بن النعمير السُكُونِي: لا يسابع ابن أختنا إلا كيعة علي بن الحسين، وكانت أم علي بن عبد الله كندية، فقامت كيدة مع الحُصَيْن، فتركه مسلم، فقال علي:

أبى العباسُ قَرْمُ بنِي قُصَيٍّ وأخوالي المُلُوكُ بنو وَلِيكَةٍ هُمُ مَنَعُوا ذِمَّارِي يَوْمَ جَاءَتْ كِتَابُ مُسْرِفٍ وَبَنُو اللَّكِيَّةِ أَرَادُونِي الشِّي لَا عَزَّ فِيهَا فَحَالَتْ دُونَهُ لِيَسْرِيَّةٌ يعني بقوله مسرف مسلم بن عقبة، فإنه سُمِّي بعد وقعة الحرة مسرفاً، وبنو وليعة بطن من كندة، منهم أمّه، واللكيعة أم أمّه.

وقيل: إنّ عمرو بن عثمان بن عفان لم يكن فيمن خرج من بني أمية، فأتى به يومئذ إلى مسلم فقال: يا أهل الشام تعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا الخيث ابن الطيّب، هذا عمرو بن عثمان، هيه يا عمرو! إذا ظهر أهل المدينة قلت أنا رجل منكم، وإن ظهر أهل الشام قلت أنا ابن أمير المؤمنين عثمان.

فأمر به فتُفَتّ لحيته، ثم قال يا أهل الشام إنّ أم هذا كانت تدخل الجُعل في فيها ثم تقول يا أمير المؤمنين حاجيتك ما في في؟ وفي فمها ما شأها وبأها. وكانت من دؤس. ثم خلى سبيله.

وكانت وقعة الحرة للميلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين. (١٢١/٤)

قال محمد بن عُمارة: قدمت الشام في تجارة فقال لي رجل: من أين أنت؟ فقلت: من المدينة. فقال: خيصة. فقلت: يسميها رسول الله، ﷺ، طيبة وتسميها خيصة! فقال: إنّ لي ولها لشأناً، لما خرج الناس إلى وقعة الحرة رأيت في المنام أنّي قتلت رجلاً اسمه محمد أدخل بقتله النار، اجتهدت في أنّي لا أسير معهم فلم يُقبل مني، فسرت معهم ولم أقاتل حتى انتقضت الوقعة، فمررت برجل في القتلى به رمق فقال: تنح يا كلب! فأنفثت من كلامه وقتلته، ثم ذكرت رؤياي فجنّت برجل من أهل المدينة يتصفّح القتلى، فلما رأى الرجل الذي قتلت قال: إنا لله، لا يدخل قاتل هذا الجنة. قلت ومن هذا؟ قال: هو محمد بن عمرو بن حزم وُلد على عهد رسول الله، ﷺ، فسماه محمداً وكان أباً عبد الملك؛ فأتيت أهله فعرضت عليهم أن يقتلوني فلم يفعلوا، وعرضت عليهم الدية فلم يأخذوا.

هذا الرأي، حاجتي أن تُعطيني من النار لأن من ولي أمر الأمة ثلاثة أيام أعقته الله من النار، فتعقد لي العهد بعدك، وتوليني العام الصلابة، وتأذن لي في الحج إذا رجعت وتوليني الموسم، وتزيد لأهل الشام كل رجل عشرة دنانير، وتفرض لأيتام بني جُمح وبنِي سهم وبنِي عديّ لأَنهم حلفائي. فقال معاوية: قد فعلت، وقبل وجهه. فقال لامراته ابنة قرظة: كيف رأيته؟ قالت: أوصيه يا أمير المؤمنين. ففعل. (١٢٧/٤)

وقال عمر بن شُبّة: حجّ يزيد في حياة أبيه، فلمّا بلغ المدينة جلس على شراب له، فاستأذن عليه ابن عبّاس والحسين، فقيل له: إنّ ابن عبّاس إن وجد ربح الشراب عرفه، فحجبه وأذن للحسين، فلمّا دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب فقال: لله درّ طيبك ما أطيبه، فما هذا؟ قال: هو طيب يُصنّع بالشام، ثم دعا بقدح فشربه، ثم دعا بآخر فقال: استي أبَا عبد الله. فقال له الحسين: عليك شرابك أيها المرء لا عين عليك متي، فقال يزيد:

الايصاصاح للعبجب دعوتك ولم تجب
إلى الفيات والشهوا والصفهاء والطرب
باطيلة مكللة عليها سافة العرب
وفيهن التي تليست فؤادك ثم لم تب

فنهض الحسين وقال: بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت.

وقال شقيق بن سلمة: لما قُتل الحسين نار عبد الله بن الزبير فدعا ابن عبّاس إلى بيعته، فامتنع وظنّ يزيد أنّ امتناعه تمسك منه ببيعته، فكتب إليه: أمّا بعد فقد بلغني أن الملعون ابن الزبير دعاك إلى بيعته وأنك اعتصمت ببيعته وفاء منك لنا، فجزاك الله من ذي رحم خير ما يجزي الواصلين لأرحامهم الموفين بعهودهم، فما انس من الأشياء فلست بناس برك وتعييل صلتك بالذي أنت له أهل، فانظر من طلع عليك من الآفاق ممّن سحرهم ابن الزبير بلسانه فأعلمهم بحاله فإنهم منك أسمع الناس ولك أطوع منهم للمحل.

فكتب إليه ابن عبّاس: أمّا بعد فقد جاءني كتابك، فأما تركي بيعه (١٢٨/٤) ابن الزبير فوالله ما أرجو بذلك برك ولا حميدك ولكن الله بالذي أنسوي عليهم، وزعمت أنك لست بناس بري، فاحبس أيها الإنسان برك عني فإني حابس عنك بري، وسألت أن أحب الناس إليك وأبغضهم وأخذلهم لابن الزبير، فلا ولا سرور ولا كرامة، كيف وقد قتلت حسينا وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام غادرتهم خيولك بأمرك في صعيد واحد مرمّلين بالدماء، مسلوبين بالعراء، مقتولين بالظماء؛ لا مكفنين ولا مومنين، تسفي عليه الرياح، وينش بهم عرج البطاح، حتى أتاحت الله بقوم لم يشركوا في دمائهم كفنوهم وأجنوهم، وبني وبهم لير

وستين رموا البيت بالمجانيق وحرّقه بالنار وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطارة حبل الفينق المزبد نرسي بها أعواد هذا المسجد
وقيل أنّ الكعبة احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبد الله حول الكعبة وأقبلت شررة هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترق خشب البيت، والأول أصح لأن البخاري قد ذكر في صحيحه أن ابن الزبير ترك الكعبة ليراه الناس محترقة يحرّضهم على أهل الشام.

وأقام أهل الشام يحاصرون ابن الزبير حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية لهلال ربيع الآخر. (١٢٥/٤)

ذكر وفاة يزيد بن معاوية

وفي هذه السنة توفي يزيد بن معاوية بخوارين من أرض الشام لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة في قول بعضهم، وقيل: تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: توفي في ربيع الأول سنة ثلاث وستين، وكان عمره خمساً وثلاثين سنة، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، والأول أصح.

وأما ميسون بنت بحدل بن أبي الكلبية.

وكان له من الولد معاوية، وكنيته أبو عبد الرحمن وأبو ليلى، وهو الذي ولي بعده، وخالد ويكنى أبا هاشم، يقال إنه أصاب عمل الكيمياء، ولا يصح ذلك لأحد، وأبو سفيان، وأمه أم هاشم بنت [أبي هاشم بن] غنبة بن ربيعة، تزوجها بعده مروان بن الحكم، وله أيضاً عبد الله بن يزيد، كان أرمي العرب، وأمه أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، وهو الأسوار، وعبد الله الأصغر وعمرو وأبو بكر وحنّبة وحرب وعبد الرحمن ومحمد لأمهات شتى. (١٢٦/٤)

ذكر بعض سيرته وأخباره

قال محمد بن عبيد الله بن عمرو الثبيتي: نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قرظة إلى يزيد وأمه ترجله، فلما فرغت منه قبلته، فقالت ابنة قرظة: لعن الله سواد ساقِي أمك! فقال معاوية: أما والله لما تفرّجت عنه وركاها خير ممّا تفرّجت عنه وركاك! وكان لمعاوية من ابنة قرظة عبد الله، وكان أحق، فقالت: لا والله ولكنك تؤثر هذا. فقال: سنوف آيين لك ذلك، فأمر فدعي له عبيد الله، فلمّا حضر قال: أي بني إني أردت أن أعطيك ما أنت أهله وليست بسائل شيئاً إلا أجبتك إليه. فقال: حاجتي أن تشتري [لي] كلباً فارهاً وحماراً. فقال: أي بني، أنت حمار واشتري لك حماراً! قم فاخرج. ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لأخيه، فخرّ ساجداً ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه في

يتم الأمر، فإن هناك ناساً من بني أمية يطلبون هذا الأمر.

وسار الحصين إلى المدينة، فاجتراً أهل المدينة على أهل الشام، فكان لا يفرد منهم أحد إلا أخذت دأبته، فلم يفرقوا، وخرج معهم بنو أمية من المدينة إلى الشام، ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد.

فوصل أهل الشام دمشق وقد بويع معاوية بن يزيد، فلم يمكث إلا ثلاثة أشهر حتى هلك، وقيل: بل ملك أربعين يوماً ومات. وعمره إحدى وعشرون سنة وثمانية عشر يوماً.

ولما كان في آخر إمارته أمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني ضعفت عن أمركم فابتغيث لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيث ستة مثل [سنة] الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتهم. ثم دخل منزله وتغيّب حتى مات.

وقيل: إنه مات مسموماً، وصلى عليه الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان، ثم أصابه الطاعون من يومه فمات أيضاً، وقيل: لم يمكث، وكان معاوية أوصى أن يصلي الضحك بن قيس بالناس حتى يقوم لهم خليفة، وقيل لمعاوية: لو استخلفت؟ فقال: لا أتزوّد مرارتها وأترك لبني أمية حلاوتها. (١٣١/٤)

ذكر حال ابن زياد بعد موت يزيد

لما مات يزيد وأتى الخبر غيّب الله بن زياد مع مولاة خُمران، وكان رسوله إلى معاوية بن أبي سفيان، ثم إلى يزيد بعده، فلما أتاه الخبر أسرّه إليه وأخبره باختلاف الناس في الشام، فأمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، وصعد المنبر فمضى يزيد وثله، فقال الأحنف: إنه قد كانت ليزيد في أعناقنا بيعة، ويقال في المثل أغرض عن ذي فنن، وأعرض عنه عبيد الله، وقال: يا أهل البصرة إن مهاجريننا إليكم ودارنا فيكم ومولدي فيكم، ولقد وليتكم وما يحضني ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألفاً، ولقد أحصى اليوم مائة ألف، وما كان يحضني ديوان عمالك إلا تسعين ألفاً، ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً، وما تركت لكم ذا ظنية أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم، وإن يزيد قد توفي وقد اختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناءً وأغناهم عن الناس وأوسعهم بلاداً، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم، فانا أول راضٍ من رضيتموه، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، وإن (١٣٢/٤) كرهتم ذلك كنتم على جدبتكم حتى تُعطوا حاجتكم، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغني الناس عنكم. فقام خطباء أهل البصرة وقالوا: قد سمعنا

عززت وجلست مجلسك الذي جلست، فما أنس من الأشياء فليست بناسٍ أطرادك حسينا من حرم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى حرم الله، وتسيرك الخيول إليه فما زلت بذلك حتى أشخصته إلى العراق، فخرج خائفاً يترقب، فنزلت به خيلك عداوة منك لله ولرسوله ولأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فطلب إليكم المودعة وسألكم الرجعة، فاجتمعت قلة أنصاره واستنصاه أهل بيته وتعاونتم عليه كأنكم قتلتم أهل بيت من الشرك والكفر، فلا شيء أعجب عندي من طيلتك وذو وقد قتل ولد أبي سيفك يقطر من دمي وأنت أحد ثاري ولا يعجبك أن ظفرت بنا اليوم فلنظفرن بك يوماً، والسلام.

قال الشريف أبو يعلى حمزة بن محمد بن أحمد بن جعفر العلوي، وقد جرى عنده ذكر يزيد: أنا لا أكفر يزيد لقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إني سألت الله أن لا يسلط على بني أحدٍ من غيرهم فأعطاني ذلك. (١٢٩/٤)

ذكر بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير

في هذه السنة بويع لمعاوية بن يزيد بالخلافة بالشام، ولعبد الله بن الزبير بالبحجاز، ولما هلك يزيد بلغ الخبر عبد الله بن الزبير بمكة قبل أن يعلم الحصين بن نمير ومن معه من عسكر الشام، وكان الحصار قد اشتد من الشاميين على ابن الزبير، فناداهم ابن الزبير وأهل مكة: علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم؟ فلم يصدقوهم.

فلما بلغ الحصين خبر موته بعث إلى ابن الزبير فقال: موعد ما بيننا الليلة الأبطح؛ فالتقيا وتحادثا، فراث فرس الحصين، فجاء حمام الحرم يلتقط روث الفرس، فكفّ الحصين فرسه عنهم وقال: أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم. فقال ابن الزبير: تخرجون من هذا وأنتم تقتلون المسلمين في الحرم؟

فكان فيما قال له الحصين: أنت أحق بهذا الأمر، هلم فلنبايعنك ثم أخرج معنا إلى الشام، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانهم، فو الله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم. فقال له: أنا لا أهدر الدماء، والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم. واخذ الحصين يكلمه سرّاً، وهو يجهر ويقول: والله لا أفعل. فقال له الحصين: قبح الله من يخذك بعد داهيا وأريباً، قد كنت (١٣٠/٤) أظن أن لك رأياً، وأنا أكلمك سرّاً وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة. ثم فارقه ورحل هو وأصحابه نحو المدينة، وندم ابن الزبير على ما صنع، فأرسل إليه: أما المسير إلى الشام فلا أفعله ولكن بايعوا لي هناك فإني مؤمنكم وعادل فيكم. فقال الحصين: إن لم تقدم بنفسك لا

أردك إذا اخترتنا، وما أدري كيف أماني لك، إن أخرجتك نهارة
أخاف أن تقتل وأقتل، ولكنني أقيم معك إلى الليل ثم أردفك خلفي
لئلا تُعرّف. فقال عبيد الله: نعم ما رأيت. فأقام عنده فلما كان الليل
حملة خلفه (١٣٤/٤)

وكان في بيت المال تسعة عشر ألف الف، ففرّق ابن زياد
بعضها في مواليه وأدّخر الباقي فبقي لآل زياد.

وسار الحارث بعبيد الله بن زياد، فكان يمرّ به على الناس
وهم يتحارسون مخافة الحرورية وعبيد الله يسأله: أين نحن؟
والحارث يُخبره، فلما كانوا في بني سُليم قال: أين نحن؟ قال: في
بني سُليم. قال: سلما إن شاء الله. فلما أتى بني ناجية قال: أين
نحن؟ قال: في بني ناجية. قال: نجونا إن شاء الله. فقال بنو ناجية:
من أنت؟ قال: الحارث بن قيس، وكان يعرف رجل منهم عبيد الله،
فقال: ابن مَرْجانة! وأرسل سهماً فوقق في عمامته.

ومضى به الحارث فأنزله في دار نفسه في الجهاضم، فقال له
ابن زياد يا حارث إنك أحسنت فأصنع ما أشيرُ به عليك، قد علمت
منزلة مسعود بن عمرو في قومه وشرقه وسنه وطاعة قومه له، فهل
لك أن تذهب بي إليه فأكون في داره فهي في وسط الأزد، فإنك إن
لم تفعل فرّق عليك أمر قومك. فأخذه الحارث فدخل على
مسعود، ولم يشعر وهو جالس يصلح خفاً له، فلما رآهما عرفهما
فقال للحارث: أعوذ بالله من شرّ طرفتي به! فقال: ما طرقتك إلا
بخير، قد علمت أن قومك أنجوا زياداً ووفوا له فصارت مكربة
يفتخرون بها على العرب، وقد بايعتم عبيد الله بيعة الرضى عن
مشورة وبيعة أخرى قبل هذه، يعني بيعة الجماعة. قال مسعود:
أترى لنا أن نعادي أهل مصرنا في عبيد الله ولم نجد من أبيه مكافأة
ولا شكراً فيما صنعنا معه؟ قال الحارث: إنه لا يعاديك أحد على
الوفاء على بيعتك حتى تبلغه مأمته، أفتخرجه من بيتك بعدما دخله
عليك؟ (١٣٥/٤)

وأمره مسعود فدخل بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو، ثم ركب
مسعود من ليلته ومعه الحارث وجماعة من قومه فطافوا في الأزد
فقالوا: إن ابن زياد قد ونا لا نأمن أن نلحظوا به. فأصبحوا في
السلح وفقد الناس ابن زياد فقالوا ما هو إلا في الأزد.

وقيل: إن الحارث لم يكلم مسعوداً بل أمر عبيد الله فحمل
معه مائة ألف وأتى بها أم بسطام امرأة مسعود، وهي بنت عمرو بن
الحارث، ومعه عبيد الله، فاستأذن عليها فأذنت له، فقال لها: قد
أتيتك بأمر تسودين به نساء العرب وتجمعين به الغنى. وأخبرها
الخبر، وأمرها أن تدخل ابن زياد البيت وتلبسه ثوباً من ثياب
مسعود، ففعلت، ولما جاء مسعود أخذ برأسها يضربها، فخرج عبيد
الله والحارث عليه وقال له: قد أجارتني وهذا ثوبك علي وطعامك

مقاتلك وما تعلم أحداً أقوى عليها منك، فهلم فلنبايحك. فقال: لا
حاجة لي في ذلك. ففكروا عليه فأبى عليهم ثلاثاً، ثم بسط يده
فبايعوه ثم انصرفوا ومسحوا أيديهم بالحيطان وقالوا: أيطن ابن
مَرْجانة أننا نقاد له في الجماعة والفرقة!

فلما بايعوه أرسل إلى أهل الكوفة مع عمرو بن شمع وسعد
بن القرحاء التميمي يعلم أهل الكوفة ما صنع أهل البصرة
ويدعوهم إلى البيعة له، فلما وصلا إلى الكوفة، وكان خليفته عليها
عمرو بن حُرَيْث، جمع الناس وقام الرسولان فخطبا أهل الكوفة
وذكرا لهم ذلك، فقام يزيد بن الحارث بن يزيد الشيباني، وهو ابن
رؤيم، فقال: الحمد لله الذي أراحنا من ابن سُمَيّة! أنحن نبايعه؟
لا ولا كرامة! وحصبهما أول الناس ثم حصبهما الناس
بعده، وشرقت تلك الفعلة يزيد بن رؤيم في الكوفة ورفعته.

ورجع الرسولان إلى البصرة فأعلماه الحال، فقال أهل البصرة:
أبخلعه أهل الكوفة ونوليّه نحن! فضعف سلطانه عندهم، فكان يأمر
بالأمر فلا يُقضى ويرى الرأي فيردّ عليه، ويأمر بحبس المخطئ
فيحال بين أعوانه وبيته.

ثم جاء إلى البصرة سُلَيْمَة بن ذؤيب الحنظلي التميمي فوقف
في السوق ويده لواء وقال: أيها الناس هلموا إليّ، إني أدعوكم إلى
ما لم يدعكم إليه أحد، أدعوكم إلى العائد بالحرم، يعني عبد الله
بن الزبير. فاجتمع إليه ناس وجعلوا يصفقون على يديه يبايعونه.
فبلغ الخبر ابن زياد، فجمع الناس فخطبهم وذكر (١٣٣/٤) لهم
أمره معهم وأنه دعاهم إلى من يرتضونه، فبايعه منهم أهل البصرة
وأنتهم أبوا غيره، وقال: إني بلغني أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان
وباب الدار وقتلتم ما قتلتم، وإني أمر بالأمر فلا ينفذ ويؤدّ عليّ رأيي
ويُحال بين أعواني وبين طلبتي، ثم إن هذا سُلَيْمَة بن ذؤيب يدعو
إلى الخلاف عليكم ليفرق جماعتكم ويضرب بعضكم رقاب بعض
بالسيف.

فقال الأحنف والناس: نحن نأتيك بسلمة، فباتوه بسلمة فإذا
جمعه قد كثف والفتق قد اتسع، فلما رأوا ذلك قعدوا عن ابن زياد
فلم يأتوه. فدعا عبيد الله رؤساء محاربة السلطان وأرأدهم ليقاتلوا
معه، قالوا إن أمرنا فؤادنا فعلنا. فقال له إخوته: ما من خليفة فقاتل
عنه فإن هُزمت رجعت إليه فأمذك ولعل الحرب تكون عليك وقد
اتخذنا بين هؤلاء القوم أمراً فإن ظفروا بنا أهلكونا وأهلكوها فلم
تبق لك بقية.

فلما رأى ذلك أرسل إلى الحارث بن قيس بن صبهاء
الجَهْضَمي الأزدي فأحضره وقال له: يا حارث إن أبي أوصاني
أنّي إن احتجت إلى الهرب يوماً أن أختاركم. فقال الحارث: إن
قومي قد اختبروا أباك فلم يجدوا عنده مكاناً ولا عندك مكافأة، ولا

في بطني. وشهد الحارث وتلفوا به حتى رضي، فلم يزل ابن زياد في بيته حتى قُتل مسعود فسار إلى الشام.

ولما قُتل ابن زياد بقي أهل البصرة في غير أمير، فاختلوا فيمن يؤمرون عليهم ثم تراضوا بقيس بن الهيثم السلمى وبالنعمان بن سفيان الراسبي الحرمي ليختارا من يرضيان لهم، وكان رأي قيس في بني أمية، ورأي النعمان في بني هاشم، فقال النعمان: ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من فلان، لرجل من بني أمية، وقيل: بل ذكر له عبد الله بن الأسود الزُهري، وكان هوى قيس فيه، وإنما قال النعمان ذلك خديعةً ومكرًا بقيس، فقال قيس: قد قلدتك أمرى ورضيت من رضيت، ثم خرجا إلى الناس، فقال قيس: قد رضيت من رضي النعمان. (١٣٦/٤)

ذكر ولاية عبد الله بن الحارث البصرة

لما اتفق قيس والنعمان ورضي قيس بمن يؤمره النعمان أشهد عليه النعمان بذلك وأخذ على قيس وعلى الناس العهد بالرضى، ثم أتى عبد الله بن الأسود وأخذ بيده واشترط عليه * حتى ظن الناس أنه يابعه، ثم تركه وأخذ بيد عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الملقب ببيبة واشترط عليه مثل ذلك، ثم حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ، وحق أهل بيته وقرابته وقال: أيها الناس ما تنقمون من رجل من بني عم نبيكم وأمه هند بنت أبي سفيان قد كان الأمر فيهم، فهو ابن أختكم، ثم أخذ بيده وقال: رضيت لكم به، فسادوه: قد رضينا، وبإيعوه وأقبلوا به إلى دار الإمارة حتى نزلها، وذلك أول جمادى الآخرة سنة أربع وستين. وقال الفرزدق في بيعته:

وبابعت أقواماً وفيت بهم لهم ويبة قد بايعته غير نادم

ذكر هرب ابن زياد إلى الشام

ثم إن الأزد وريبة جددوا الحلف الذي كان بينهم وبين الجماعة، وانفق ابن زياد مالا كثيراً فيهم حتى تم الحلف وكتبوا بذلك بينهم كتابين، فكان أحدهما عند مسعود بن عمرو. فلما سمع الأحنف أن الأزد طلبت إلى ربيعة ذلك، قال: لا يزالون لهم أتباعاً إذا أتوهم. فلما تحالفوا اتفقوا على أن يردوا ابن زياد إلى دار الإمارة، فساروا، ورئيسهم مسعود بن عمرو، وقالوا لابن زياد: مير معنا، فلم يفعل وأرسل معه مواله على الخيل وقال لهم: لا تتحدثوا بخير ولا بشر إلا أئتموني به، فجعل مسعود لا يأتي سكة ولا يتجاوز قبيلة إلا أتى بعض أولئك الغلمان ابن زياد بالخبر، وسارت ربيعة، وعليهم مالك بن مسمع، فأخذوا سكة الجوزيد، وجاء مسعود فدخل المسجد فصعد المنبر وعبد الله بن الحارث في دار الإمارة، فقيل له: إن مسعوداً وأهل اليمن وريبة قد ساروا وسهيج بين الناس شرّ قلوبهم أصلحت بينهم أو ركبت في

فصار عيس إلى المسجد، فلما سار عيس جاء عباد فقال: ما صنع الناس؟

فقيل: سار بهم عيس. فقال: لا أسير تحت لواء عيس، وعاد إلى بيته ومعه ستون فارساً. فلما وصل عيس إلى المسجد قاتل الأزد على أبوابه ومسعود على المنبر يحضض الناس، فقاتل غطفان بن أبيات التميمي وهو يقول: (١٣٦/٤)

يأل تميم إنيها مذكورة إن فات مسعود بها مشهورة
فاستميكوا بجانب المقصورة

أي لا يهرب [فيقتل]. وأتوا مسعوداً وهو على المنبر فاستنزله وقتلوه وذلك أول شوال سنة أربع وستين، وانهزم أصحابه، وهرب أشيم بن شقيق بن ثور فطعنه أحدهم فنجأ بها، فقال الفرزدق:

لو أن أشيم لم يسبق استنسا وخطا الباب إذ نرأنا تقيد

السخاء فما كان لي مال فأجود به عليكم، ولو ضننت لأخذت بعض مالكم فخصصت به بعضكم دون بعض فيقولون ما أسخاه. وأما قولك ليتني لم أكن قتلته من قتلته فما عملت بعد كلمة الإخلاص عملاً هو أقرب إلى الله عندي من قتل من قتلته من الخوارج، ولكني سأخبرك [بما حدثت به نفسي]، قلت: ليتني كنت قاتلت أهل البصرة فإنهم بياصوني طائعين، ولقد حرصت على ذلك ولكن بني زياد قالوا: إن قاتلتهم فظهروا عليك لم يبقوا منا أحداً، وإن تركتهم تغيب الرجل منا عند أخواله وأصهاره فوقعت بهم، فكنت أقول: ليتني أخرجت أهل السجن فضربت أعناقهم، وأما إذ نانت هاتان فليتني أقدم الشام ولم يبرموا أمراً.

قال: فقدم الشام ولم يبرموا أمراً، فكأنما كانوا معه صبياناً، وقيل: بل قدم وقد أبرموا فنقض عليهم ما أبرموا.

فلما سار من البصرة استخلف مسعوداً عليها، فقال بنو تميم وقيس: لا نرضى به ولا نولي إلا رجلاً ترضاه جماعتنا. فقال مسعود: قد استخلفتني ولا أدر ذلك أبداً.

وخرج حتى انتهى إلى القصر ودخله، واجتمعت تميم إلى الأحف فقالوا له: إن الأزد قد دخلوا المسجد. قال: إنما هو لهم ولكم. قالوا: قد دخلوا القصر وصعد مسعود المنبر، وكانت خوارج قد خرجوا فزولوا نهر الأساورة حين خرج عبيد الله إلى الشام، فزعم الناس أن الأحف بعث إليهم أن هذا الرجل الذي قد دخل القصر هو لنا ولكم عدو فما يمنعكم عنه فجاءت عصابة منهم حتى (١٤٢/٤) دخلوا المسجد ومسعود على المنبر يبايع من أتاه، فرماه عليّ يقال له مسلم من أهل فارس، دخل البصرة فأسلم ثم دخل في الخوارج، فأصاب قلبه قتيله، فقال الناس: قتله الخوارج، فخرجت الأزد إلى تلك الخوارج فقتلوا منهم وجرحوا فطردوهم عن البصرة.

ثم قيل للأزد: إن تميماً قتلوا مسعوداً، فأرسلوا يسألون، فإذا ناس من تميم يقولون، فاجتمعت الأزد عند ذلك فرأسوا عليهم زياد بن عمرو أخا مسعود بن عمرو ومعهم مالك بن يسلم في ربيعة، وجاءت تميم إلى الأحف يقولون: قد خرج القوم، وهو يتمكث لا يخف للفتنة، فجاءته امرأة بمجمر فقالت: اجلس على هذا، أي إنما أنت امرأة.

فخرج الأحف في بني تميم وبهم من بالبصرة من قيس فالتقوا، فقتل بينهم قتلى كثيرة، فقال لهم بنو تميم: والله يا معشر الأزد في دعائنا ودمائكم! بينا وبينكم القرآن ومن شئتم من أهل الإسلام فإن لكم علينا بينة فاجتادوا الفضل رجل فينا فاقتلوه، وإن لم تكن لكم بينة فإننا نخلف يالله ما قتلنا ولا أمرنا ولا نعلم له قتلاً، وإن لم تريدوا ذلك فمضى لدي صاحبكم بمائة ألف درهم.

إذا لصاحب مسعوداً وصاحبه. وقد تهافت الأعرج والكبيد ولما صعد مسعود المنبر أتى ابن زياد فقبل له ذلك، فتهباً ليجيء إلى دار الإمارة، فأتوه وقالوا له: إنه قتل مسعود، فركب ولحق بالشام.

فأما مالك بن يسلم فأتاه ناس من مضر فحصبوه في داره وحرقوا داره.

ولما هرب ابن زياد تبعوه فأعجزهم فتهبوا ما وجدوا له، ففي ذلك يقول واقد بن خليفة التميمي:

يَا زُبَيْرَ بْنَ شَيْدٍ كَلْبَهُ قَدْ صَارَ فِتْنَةً تَائِبَةً وَسَلْبَةً مِنْهُمْ عَيْدُ اللَّهِ يَوْمَ نَسَبَتْ جِيَادَهُ وَنَزَتْ وَتَهَبَتْ يَوْمَ النَّفْسِ مَقْتَبَةً وَمَقْتَبَةً لَوْلَمْ يَكُ ابْنُ زِيَادٍ هَرَبَةً

وقد قيل في قتل مسعود ومسير ابن زياد غير ما تقدم، وهو أنه لما استجار ابن زياد بمسعود بن عمرو أجاره، ثم سار ابن زياد إلى الشام وأرسل معه مسعود (١٤٠/٤) مائة من الأزد حتى قدموا به إلى الشام، فبينما هو يسير ذات ليلة قال: قد ثقل عليّ ركوب الإبل فوطئوا لي على ذي حافر؛ فجعلوا له قطيفة على حمار، فركبه ثم سار وسكت طويلاً.

قال سافر بن شريح البكري: فقلت في نفسي: لئن كان نائماً لأنفض عليه نومه، [فدنوت منه] فقلت: أنائم أنت؟ قال: لا، كنت أحدث نفسي. قلت: أفلا أحدثك بما كنت تحدث به نفسك؟ قال: هات.

قلت: كنت تقول: ليتني كنت لم أقتل حسينا. قال: وماذا؟ قلت: تقول: ليتني لم أكن قتلته من قتلته. قال: وماذا؟ قلت: تقول: ليتني لم أكن بنيت البيضاء. قال: وماذا؟ قلت: تقول: ليتني لم أكن استعملت الدهاقين.

قال: وماذا؟ قلت: تقول: ليتني كنت أسخى مما كنت.

قال: أما قتلي الحسين فإنه أشار إليّ يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله، وأما البيضاء فإني اشتريتها من عبيد الله بن عثمان الثقفي وأرسل إليّ يزيد بألف فأفقتها عليها، فإن بقيت فلاهلي وإن هلكت لم أس عليها، وأما استعمال الدهاقين فإن عبد الرحمن بن أبي بكره وزاذان فروخ وقعا في عند معاوية [حتى ذكرا فشور الأرز] فبلغا بخراج العراق مائة ألف ألف فخبرني معاوية بين العزل والضمان، فكرهت العزل، فكنت إذا استعملت العربي كسر الخراج، فإن أغرمت عشيرته أو طالبته أو عرت صدورهم، وإن تركته تركت مال الله (١٤١/٤) وأنا أعرف مكانه، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون بالمطالبة منكم مع أني قد جعلتكم أمناً عليهم لئلا يظلموا أحداً. وأما قولك في

واتاهم الأحنف واعتذر إليهم ممّا قيل، وسفر بينهم عمر بن عبيد الله بن معمر وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فطلبوا عشر ديات، فأجابهم إلى ذلك واصطلحوا عليه.

وكان طاعون الجارف بالبصرة فماتت أمّه فما وجد لها من يحملها حتى استأجروا لها أربعة أعلاج فحملوها.

ذكر خلاف أهل الرّي

في هذه السنة بعد موت يزيد خالف أهل الرّي، وكان عليهم الفرّخان الرازي، فوجّه إليهم عامر بن مسعود، وهو أمير الكوفة، محمّد بن عُثَير بن عطار بن حاجب بن زُرارة بن عُذس التيمي، فلقبه أهل الرّي، فانهزم محمّد، فبعث إليهم عامر عتاب بن ورقاء الرياحي التيمي، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل الفرّخان وانهزم المشركون، وكان هذا محمّد بن عُثَير مع عليّ بصّفين على تميم الكوفة، ثم عاش بعد ذلك، فلمّا ولي الحجاج الكوفة فارقها وسار إلى الشام لكرهته ولاية الحجاج (١٤٥/٤).

ذكر بيعة مروان بن الحكم

في هذه السنة بويع مروان بن الحكم بالشام.

وكان السبب فيها أنّ ابن الزّبير لما بويع له بالخلافة ولّى عبدة بن الزبير المدينة، وعبد الرحمن بن جحّذم الفهريّ مصر، وأخرج بني أميّة ومروان بن الحكم إلى الشام، وعبد الملك بن مروان يومئذ ابن ثمان وعشرين سنة، فلمّا قدم الحُصَيْن بن نُعَير ومَن معه إلى الشام أخبر مروان بما كان بينه وبين ابن الزبير، وقال له ولبني أميّة: تراكم في اختلاط فاقبموا أميركم قبل أن يدخل عليكم شامكم فتكون فتنة عمية صماء. وكان من رأي مروان أن يسير إلى ابن الزبير فيبايعه بالخلافة، فقدم ابن زياد من العراق، وبلغه ما يريد مروان أن يفعل، فقال له: قد استحييت لك من ذلك، أنت كبير قرش وسيدها تمضي إلى أبي خُيَيب فتبايعه، يعني ابن الزبير، لأنّه كان يكتنّى بابنه خُيَيب! فقال: ما فات شيء بعد، فقام معه بنو أميّة ومواليهم وتجمّع إليه أهل اليمن فسار إلى دمشق وهو يقول: ما فات شيء بعد، فقدم دمشق والضحاك بن قيس قد بايعه أهلها على أن يصلي بهم ويقم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس، وهو يدعو إلى ابن الزبير سرّاً.

وكان زُفر بن الحارث الكلبيّ يقشّرين يبايع لابن الزّبير، والنعمان بن بشير بحمص يبايع له أيضاً، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبيّ بفلسطين عاملاً لمعاوية ولابنه يزيد وهو يريد بني أميّة، فسار إلى الأردنّ واستخلف على فلسطين رُوح بن زُبَيع الجُدّاميّ، فثار ناتل بن قيس بروج فأخرجه من (١٤٦/٤) فلسطين وبايع لابن الزّبير.

وكان حسان في الأردنّ يدعو إلى بني أميّة، فقال لأهل الأردنّ:

وأما عبد الله بن الحارث بيّة فإنّه أقام يصلّي بهم حتى قدم عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر أميراً من قبل الزّبير. وقيل: بل كتب ابن الزبير إلى عمر بمعهد على البصرة، فاتّاه الكتاب وهو متوجّه إلى العمرة، فكتب عمر إلى أخيه عبيد الله يأمره أن يصلّي بالناس، فصلّى بهم حتى قدم عمر، فبقي (١٤٣/٤) عمر أميراً شهراً حتى قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ بعزله ووَلّيهَا الحارث، وهو القُباع.

وقيل: اعتزل عبد الله بن الحارث بيّة أهل البصرة بعد قتل مسعود بسبب العصيّة وانتشار الخوارج، فكتب أهل البصرة إلى ابن الزّبير، فكتب ابن الزّبير إلى أنس بن مالك يأمره أن يصلّي بالناس، فصلّى بهم أربعين يوماً، وكان عبد الله بن الحارث يقول: ما أحب أن أصلح الناس بفساد نفسي، وكان يتدنّى.

وفي آيامه سار نافع بن الأزرق إلى الأهواز، من البصرة.

وأما أهل الكوفة فإنّهم لما ردّوا رسل ابن زياد على ما ذكرناه قبل، عزلوا خليفته عليهم، وهو عمرو بن حُرَيْث، واجتمع الناس وقالوا: نؤمّر علينا رجلاً إلى أن يجتمع الناس على خليفة، فاجتمعوا على عمر بن سعد، فجاءت نساء همدان يكيّن الحسين، ورجالهم متقلّدون السيوف، فأطافوا بالمنبر، فقال محمّد بن الأشعث: جاء أمر غير ما كنّا فيه. وكانت كندة تقوم بأمر عمر بن سعد لأنّهم أحواله، فاجتمعوا على عامر بن مسعود بن أميّة بن خلف بن وهب بن حُذافة الجُمحيّ، فخطب أهل الكوفة فقال: إنّ لكلّ قوم أشربة ولذات فاطلّوها في مظانّها، وعليكم بما يحلّ ويحسد، واكسروا شرايبكم بالماء، وتواروا عني بهذه الجدران، فقال ابن هَمَام:

اشرب شرايبك وانعم غير محسود واكسره بالماء لا تمنع ابن مسعود
إنّ الأمير له في الخمس مائة فاشرب شيئاً مرشاً غير مرصود
مَن فاحصرم ماء المزن خالطه في قصر خابية ماء العنساقيد
(١٤٤/٤)

إنّي لأكره تشديد الرّواة لنا فيها ويعجنني قول ابن مسعود
ولما بايع أهل الكوفة وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير أقرّه عليها، وكان يلقب دُخْرُوجَة الجُعَل، وكان قصيراً، فمكث ثلاثة أشهر من مهلك يزيد بن معاوية، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الخطميّ الأنصاريّ على الصلاة، وإبراهيم بن محمّد بن طلّحة على الخراج من عند ابن الزبير، واستعمل محمّد بن الأشعث ابن قيس على الموصل، فاجتمع لابن الزبير أهل الكوفة والبصرة ومَن بالقبلة من

لرجل من بني أمية، فرضوا وكتبوا إلى حسان، ومار الضحّاك وبنو أمية نحو الجابية، فأتاه ثور بن معن السلمي فقال: دعوتنا إلى ابن الزبير فبابعناك على ذلك وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من كلب تستخلف ابن أخته خالد بن يزيد! قال الضحّاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تظهر ما كنا نكتبك وتدعو إلى ابن الزبير.

فرجع الضحّاك ومن معه من الناس فنزل بمرج راهط ودمشق بيده، واجتمع بنو أمية وحسان وغيرهم بالجابية، فكان حسان يصلي بهم أربعين يوماً والناس يتشاورون، وكان مالك بن هبيرة السكوني يهوي خالد بن يزيد، والحصين بن نمير يميل إلى مروان، فقال مالك للحصين: هل نابع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه وقد عرفت منزلتنا من أبيه فإنه يحملنا على رقاب العرب (١٤٨/٤) غداً؟ يعني خالدًا. فقال الحصين: لا والله لا تأتينا العرب بشيخ وتأتينا بصبي. فقال مالك: والله لئن استخلفت مروان ليحسدك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها، إن مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة فإن يابعموه كتسم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أختكم، فقال الحصين: إني رأيت في المنام قنديلاً معلقاً من السماء وأن من يلي الخلافة يتناوله فلم ينله أحد إلا مروان، والله لنستخلفنه.

وقام زوخ بن زنياع الجذامي فقال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر وصُحْبته وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكنه ضعيف، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف، وتذكرون ابن الزبير وهو كما تذكرون أنه ابن حوارى رسول الله ﷺ، وإنه ابن ذات النطاقين، ولكنه منافق قد خلع خليفتين يزيد وابنته معاوية وسفك الدماء وشق عصا المسلمين، وليس المنافق بصاحب أمة محمد، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدق إلا كان ممن يشعبه، وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل، وأنا نرى للناس أن يابعوا الكبير ويستشيروا الصغير، يعني بالكبير مروان، وبالصغير خالد بن يزيد.

فاجتمع رأيهم على البيعة لمروان بن الحكم، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعمر بن سعيد بن العاص من بعد خالد، على أن إمرة دمشق لعمر وإمرة حمص لخالد بن يزيد.

فدعا حسان خالدًا فقال: يا ابن أختي إن الناس قد أبوك لحدائثك سنك وإنني والله ما أريد هذا الأمر إلا لك ولأهل بيتك وما أباع مروان إلا نظراً لكم. فقال خالد: بل عجزت عنا. قال والله ما عجزت عنكم ولكن الرأي لك ما رأيت. (١٤٩/٤)

ثم يابعوا مروان ثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين؛ وقال مروان حين يوبع له:

لما رأيت الأمر أمراً نهياً يسرتُ عُشَّاناً لهم وكُتِّبَا

ما شهداكم على ابن الزبير وقتلى الحرّة؟ قالوا: نشهد أنه منافق وأن قتلى الحرّة في النار. قال: فما شهداكم على يزيد وقتلاككم بالحرّة؟ قالوا: نشهد أنه على الحق وأن قتلانا في الجنة. قال: فأنّا أشهد لئن كان يزيد وشيعته على حق إنهم اليوم على حق، ولئن كان ابن الزبير وشيعته على باطل إنهم اليوم عليه. قالوا له: صدقت، نحن نبايعك على أن نقاتل من خالفك وأطاع ابن الزبير على أن نجنبنا هذين الغلامين، يعنون ابني يزيد عبد الله وخالدًا، فإنّا نكره أن يأتينا الناس بشيخ وتأتينا بصبي.

وكتب حسان إلى الضحّاك كتاباً يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس، وكتب كتاباً آخر وسلّمه إلى الرسول، واسمه باغضة، وقال له: إن قرأ كتابي على الناس وإلا فأقرأ هذا الكتاب عليهم. وكتب حسان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك، فقدم باغضة فدفع كتاب الضحّاك إليه وكتاب بني أمية إليهم، فلما كانت الجمعة صعد الضحّاك المنبر، فقال له باغضة ليقرأ كتاب حسان على الناس. فقال له الضحّاك: اجلس، فقام إليه الثانية والثالثة وهو يقول له: اجلس، فأخرج باغضة الكتاب وقرأه على الناس، فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: صدق حسان وكذب ابن الزبير، وشتمه.

وقيل: كان الوليد قد مات بعد موت معاوية بن يزيد وقام يزيد بن أبي الغمس الفسائي وسفيان بن الأبرد الكلبى فصدقاً حساناً وشتما ابن الزبير، وقام عمرو بن يزيد الحكمي فشت حساناً وأثنى على ابن الزبير، فأمر الضحّاك بالوليد ويزيد بن أبي الغمس وسفيان فحبسوا، وجال الناس ووثبت كلب (١٤٧/٤) على عمرو بن يزيد الحكمي فضربوه ومزقوا ثيابه، وقام خالد بن يزيد فصعد مرقأتين من المنبر وسكن الناس، ونزل الضحّاك فصلّى الجمعة ودخل القصر. فجاءت كلب فأخرجوا سفيان، وجاءت غسان فأخرجوا يزيد، وجاء خالد بن يزيد وأخوه عبد الله معهما أخوالهما من كلب فأخرجوا الوليد بن عتبة، وكان أهل الشام يسمون ذلك اليوم يوم جيرون الأول.

ثم خرج الضحّاك إلى المسجد فجلس فيه وذكر يزيد بن معاوية فسبه، فقام إليه شاب من كلب فضربه بعضاً فقام الناس بعضهم إلى بعض فاقبلوا قيس تدعو إلى ابن الزبير، ونصرة الضحّاك وكتب تدعو إلى بني أمية ثم إلى خالد بن يزيد لأنه ابن أختهم.

ودخل الضحّاك دار الإمارة ولم يخرج من الغد إلى صلاة الفجر، وبعث إلى بني أمية فاعتذر إليهم وأنه لا يريد ما يكرهون، وأمرهم أن يكتبوا إلى حسان ويكتب معهم ليسير من الأردن إلى الجابية ويسيروا هم من دمشق فيجتمعون معه بالجابية ويأبىعون

ولما بلغت الهزيمة زُفر بن الحارث الكلبي بقُتسرين هرب منها فلحق بقرقيسيا وعليها عياض الحرشي، وكان يزيد ولأه إياها، فطلب منه أن يدخل الحمام ويحلف له بالطلاق والعناق على أنه حينما يخرج من الحمام لا يقيم بها، فأذن له، فدخلها فغلب عليها وتحصن بها ولم يدخل حمامها، فاجتمعت إليه قيس.

وهرب ناقل بن قيس الجذامي عن فلسطين فلحق بابن الزبير بمكة واستعمل مروان بعده على فلسطين رُوح بن زُبَاع واستوثق الشام لمروان واستعمل عماله عليها.

وقيل: إن عبيد الله بن زياد إنما جاء إلى بني أمية وهم يتدمر ومروان يريد أن يسير إلى ابن الزبير ليبيعه ويأخذ منه الأمان لبني أمية، فردّه عن ذلك وأمره أن يسير بأهل تدمر إلى الضحّاك فيقاتله، ووافقه عمرو بن سعيد وأشار على مروان بأن يستزوج أم خالد بن يزيد ليستقل من أعين الناس، فتزوجها، وهي فاختة ابنة أبي هاشم بن عُتَيْبَة، ثم جمع بني أمية فباعوه وباعه أهل تدمر، وسار إلى الضحّاك في جمع عظيم، فخرج الضحّاك إليه فتقاتلا فانهمز الضحّاك ومن معه وقُتل الضحّاك.

وسار زُفر بن الحارث إلى قرقيسيا واجتمعت عليه قيس، وصحبه في هزيمته إلى قرقيسيا شابان من بني سُليم، فجاءت خيل مروان تطلبهم، فقال الشابان (١٥٢/٤) لزُفر: اتج بنفسك فإننا نحن نُقتل، فمضى زفر وتركهما قتلًا، وقال زُفر في ذلك:

أرى الحرب لا تزداد إلا تماثيا
مقيّد دمي أو قاطع من لساني
إذا نحن رُفنا لهن المأثيا
ولا تفرحوا إن جتكم بقاءيا
له ورق من تجو الشر بابيا
وتبقى حزازات النفوس كما هيّا
لحسن صدعاً يتأثيا
فسارري وتركبي صاحبي ورائيا
من الناس إلا من علي ولا ييا
بصالح إيامي وحسن بلاثيا
وتأز من نسوان كلب نساثيا
توخاً وخيبي طيبي من شيفاثيا
فأجابه جُواس بن القَعَطَل :

على زُفر مُراً من اللد باقيا
(١٥٣/٤)

وبين الحشا أعيا الطيب المداثيا
وفيان معنورا وتبكي البواثيا
سيف جناب والطوال المذاثيا

والسككين رجالاً غلبا وطيباً تأبله إلا ضرّبا
والقن تمشي في الحديد نكبا ومن تنوخ مُشمخراً صعبا
لا يباغنون الملك إلا غصباً فإن كنت قيس قتل لا قرّنا
(خبيب بضم الخاء المعجمة، وفتح الباء الموحدة، وسكون الباء تحتها نقطتان، وآخره باء موحدة).

ذكر وقعة مرج راهط وقُتل الضحّاك والنعمان بن بشير

ثم إن مروان لما بايعه الناس سار من الجابية إلى مرج راهط، وبه الضحّاك بن قيس ومعه ألف فارس، وكان قد استمد الضحّاك النعمان بن بشير وهو على حمص فأمدّه بشُرْحِيل بن ذي الكلاع، واستمد أيضاً زُفر بن الحارث وهو على قُتسرين، فأمدّه بأهل قُتسرين وأمدّه ناقل بأهل فلسطين، فاجتمعوا عنده، واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمته عمرو بن سعيد وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، وكان يزيد بن أبي الغمس (١٥٠/٤) الغساني مختفياً بدمشق لم يشهد الجابية، فغلب على دمشق وأخرج عامل الضحّاك بن قيس وغلب على الخزائن وبيت المال ويبيع لمروان وأمدّه بالأموال والرجال والسلاح، فكان أول فتح على بني أمية.

وتحارب مروان والضحّاك بمرج راهط عشرين ليلة واقتلوا قتلاً شديداً، فقتل الضحّاك، قتله دحية بن عبد الله، وقُتل معه ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام، وقُتل أهل الشام مقتلة عظيمة، وقُتل قيس مقتلة لم يُقتل مثله في موطن قط، وكان فيمن قُتل هاني بن قبيصة النُميري سيد قومه، كان مع الضحّاك، قتله وازع بن ذؤالة الكلبي، فلما سقط جريحاً قال:

نُصبت ابن ذات النوف أجهز على قتي يرى الموت خيراً من فرار
ولا تتركني بالخشاشة إنني صبور إذا ما [النكس] ملك أحجما
فعاد إليه وازع فقتله.

وكانت الوقعة في المحرم سنة خمس وستين، وقيل: بل كانت في آخر سنة أربع وستين.

ولما رأى مروان رأس الضحّاك ساءه ذلك وقال: الآن حين كبرت سني ودق عظمي وصرت في مثل ظمء الحمار، أقبلت بالكنايب أضرب بعضها ببعض!

ولما انهزم الناس من المرج لحقوا بأجنادهم، فأنتهى أهل حمص إليها وعليها النعمان بن بشير، فلما بلغه الخبر خرج هارباً ليلاً ومعه امرأته نائلة (١٥١/٤) بنت عمارة الكلية وثقلته وأولاده، فتحير ليلته كلها، وأصبح أهل حمص فطلبوه، وكان الذي طلبه عمرو بن الجلي الكلاعي، فقتله وردّ أهله والرأس معه، وجاءت كلب من أهل حمص فأخذوا نائلة وولدها معها.

بن يزيد ودعا الناس إلى البيعة على الرضى حتى يستقيم أمر الناس على خليفته، فبايعوه ثم نكثوا به بعد شهرين، وكان مُحسناً إليهم محبوباً فيهم، فلما خلع عنهم استخلف عليهم المهلب بن أبي صفرة، ولما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة بن ربيعة، فقال له: ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من اليمن؟ يعني المهلب، وكان أزدياً والأزد من اليمن، فولاه مرؤ الروذ والقارباب والطالقان والجوزجان، وولى أوس بن ثعلبة بن زفر، وهو صاحب قصر أوس بالبصرة، هراة، فلما وصل إلى نيسابور لقيه عبد الله بن خازم فقال: مَنْ وَلَيْتَ خراسان؟ فأخبره فقال: أما وجدت في مصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن؟ اكتب لي عهداً على خراسان. فكتب له وأعطاه مائة ألف درهم.

وسار ابن خازم إلى مرو، وبلغ خبره المهلب فأقبل واستخلف رجلاً من بني جُشم بن سعد بن زيد مناة بن تميم، فلما وصلها ابن خازم متعه الجُشمي (١٥٦/٤) وجرت بينهما مناوشة، فأصاب الجُشمي رمية بحجر في جبهته، وتحاجزوا، ودخلها ابن خازم، ومات الجُشمي بعد ذلك بيومين.

ثم سار ابن خازم إلى سليمان بن مرثد بمرو الروذ فقاتله أياماً فقتل سليمان ثم سار إلى عمرو بن مرثد وهو بالطالقان فاقتلوا طويلاً فقتل عمرو بن مرثد وانهزم أصحابه فلحقوا بهراة بأوس بن ثعلبة، ورجع ابن خازم إلى مرو وهرب من كان بمرو الروذ من بكر بن وائل إلى هراة وانضم إليها من كان بكور خراسان من بكر وكثر جمعهم وقالوا لأوس بن ثعلبة: نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج من خراسان، فأبى عليهم، فقال له بنو صُهَيْب، وهم موالى بني جُشم: لا نرضى أن تكون نحن ومضرب في بلد واحد وقد قتلوا سليمان وعمراً ابني مرثد، فإما أن تبايعنا على هذا وإلاً بايعنا غيرك. فأجابهم، فبايعوه، فسار إليهم ابن خازم فنزل على واد بينه وبين هراة، فأشار البكريون بالخروج من هراة وعمل خندق، فقال أوس: بل نلزم المدينة فإنها حصينة ونطاول ابن خازم ليضجر ويُعطينا ما نريد. فأبوا عليه، فخرجوا وخندقوا خندقاً، وقاتلهم ابن خازم نحو سنة، وقال له هلال الضبي: إنما تقاتل إخوانك وبني أهلك، فإن نلت منهم الذي تريد فما في العيش خير، فلبسوا أعطيهم شيئاً يرضون به وأصلحت هذا الأمر. قال: والله لو خرجنا لهم من خراسان ما رضوا قال هلال: والله لا أقاتل معك أنا ولا رجل أو تطيعني حتى تعتذر إليهم. قال: فانت رسول إليهم فأرضهم. فأتى هلال أوس بن ثعلبة فتناشده الله والقراة في نزار وأن يحفظ ولاءها فقال: هل لقيت بني صُهَيْب؟ قال: لا. قال: فالتقهم. قال: فخرج قلبي جماعة من رؤساء أصحابه فأخبرهم ما أتى له. فقالوا له: هل لقيت بني صُهَيْب؟ فقال: لقد عظم أمر بني صُهَيْب عندهم، فأتاهم

عليها كأسد الغاب فينادي نخدة: إذا شرعوا نحروا الطعان العواليا وقال عمرو بن الجلي الكليبي:

بكى زُفرُ القيسي من مُلكه قومه
بَعْرَةَ عَيْنٍ ما يَجِفُّ سَحْجُومُهَا
يُكَيِّ على قَتلى أُصَيِّتَ بِرَاحِمِطٍ
تَجَاوَبُ هَامُ الْقَقْبَارِ وَيَوْمُهَا
أَبْحَا حَمِيَّ لِلْحَيِّ قَيْسَ بِرَاحِمِطٍ
وَوَلَّتْ شَيْلَالاً وَاسْتَبَحَّ خَرِيمُهَا
يُكَيِّهِمْ حِرْكَانَ تَجْسِرِي مُؤَمُّعُ
يُوجِي نِزَاراً أَنْ تَوُوبَ خُلُومُهَا
فَمَتَ كَمَدًا أَوْ عَثَرَ فَلَيْلًا مَهْضُمًا
بَحْسَرَةَ نَفْسٍ لَا تَسَامُ مُؤَمُّعُهَا
في أبيات.

(يزيد بن أبي الغفس بالسین المهمله، وقيل بالشين المعجمة، وكان قد ارتد عن الإسلام ودخل الروم مع جبلة بن الأيهم ثم عاود الإسلام وشهد صفين مع معاوية وعاش إلى أيام عبد الملك بن مروان. وناتل بالنون، والهاء المعجمة من فوق باثنتين). (١٥٤/٤)

ذكر فتح مروان مصر

فلما قتل الضحَّاك وأصحابه واستقر الشام لمروان سار إلى مصر فقدمها وعليها عبد الرحمن بن جُشم القرشي يدعو إلى ابن الزبير، فخرج إلى مروان فيمن معه، ويعث مروان عمرو بن سعيد من ورائه حتى دخل مصر، فقبل لابن جُشم ذلك، فرجع وبأيع الناس مروان ورجع إلى دمشق. فلما دنا منها بلغه أن ابن الزبير قد بعث إليه أخاه مُصَنَّباً في جيش، فأرسل إليه مروان عمرو بن سعيد قبل أن يدخل الشام، فقاتله، فانهزم مصعب وأصحابه، وكان مصعب شجاعاً. ثم عاد مروان إلى دمشق واستقر بها.

وقد كان الحُصَيْن بن نُعَيْر ومالك بن هُبَيْرَة قد اشترطا على مروان شروطاً لهما ولخالد بن يزيد، فلما توطن ملكه قال ذات يوم ومالك عنده: إن قوماً يدعون شروطاً، منهم عطارة مكحلة، يعني مالكا وكان يتعطب ويتكحل، فقال مالك: هذا ولما تردني تهامة ويبلغ الجزام الطيبين. فقال مروان مهلاً يا أبا سليمان، إنما داعيناك! فقال: هو ذاك.

ذكر بيعة أهل خراسان سلم بن زياد وأمر عبد الله بن خازم ولما بلغ سلم بن زياد، وهو بخراسان، موت يزيد كسم ذلك؛ فقال ابن عُرادة:

يا أيها الملك المغلَّق بابُه
حدثتُ أُمُورَ شَاهِنٍ عَظِيمٍ
(١٥٥/٤)

قَتلى بِحَرَّةٍ وَالذِينَ بِكَائِلٍ وَيَزِيدُ أَغْلَى شَأْنُ الْمَكُومِ
أَبْنِي أَيْتِهْ إِنْ أَخَرُ مَلِكُكُمْ جَمْدٌ بِخُرَاسَانَ ثُمَّ مَقِيمٌ
طَرَفَتْ مَيْتُهُ وَعِنْدَ وَسَائِيهِ كَوْبٌ وَزُقْرٌ رَاحِفٌ مَرْتُومٌ
وَمُرْتُهُ تَكِي عَلَى نِشَائِيهِ بِالصَّحْبِ قَعْدُ مَرَّةً وَتَقُومُ
فلما أظهر شيعره أظهر سلم موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية

القتل فيهم، فاجتمعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤساء الشيعة: إلى سليمان بن صُرَد الخزاعي، وكانت له صحبة، وإلى المسيب بن نَجِية الفزاربي، وكان من أصحاب علي، وإلى عبد الله بن سعد بن نَعْلٍ الأزدي، وإلى عبد الله بن وال التيمي، تيم بكر بن وائل، وإلى رفاعَةَ بن شَدَّاد البجلي، وكانوا من خيار أصحاب علي، فاجتمعوا في منزل سليمان بن صُرَد الخزاعي، فبداهم المسيب بن نَجِية فقال بعد حمد الله :

أما بعد فإننا ابتلينا بطول العمر والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا أن لا يجعلنا ممن يقول له غداً: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فإن أمير المؤمنين علياً قال: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا فوجدنا الله كاذبين في كل موطن من مواطن ابن بنت نبيّه ﷺ، وقد بلغنا قبل ذلك كتبه ورسله وأعذر إلينا فسألنا نصره غروراً وبدءاً وعلاية فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قُتل إلى جانبنا لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بالسبب ولا قويناه بأموالنا ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرتنا، فما عذرتنا عند ربنا وعند لقاء نبيّنا وقد قُتل فينا ولد حبيبته وذريته ونسله؟ لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، ولا أنا بعد لقاءه لعقوبته بأمن. أيها القوم ولّوا عليكم رجلاً منكم فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه ورأية تحفون بها.

وقام رفاعَةَ بن شَدَّاد وقال: أما بعد فإن الله قد هداك لأصوب القول وبدأت بأرشد الأمور بدعائك إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم، فمسموع منك مستجاب إلى قولك، وقلت: ولّوا أمركم رجلاً تفزعون إليه وتحفون برايته، وقد رأينا مثل الذي رأيت، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضياً، وفيما منتصباً، وفي جماعتنا محبوباً، وإن رأيت ورأى أصحابنا (١٦٠/٤) ذلك ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة وصاحب رسول الله ﷺ، وذا السابقة والقدم سليمان بن صُرَد الخزاعي، المحمود في بأسه ودينه، الموثوق بحزمه.

وتكلم عبد الله بن سعد بنحو ذلك وأثبنا على المسيب وسليمان. فقال المسيب قد أصبتم فولّوا أمركم سليمان بن صُرَد.

فتكلم سليمان فقال بعد حمد الله: أما بعد فإنني لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة وعظمت فيه الرزية وشمل فيه الجور أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير، إنا كنا نمذّ أعناقنا إلى قدوم آل بيت نبيّنا ﷺ، نعمتهم النصر ونحتهم على القدوم، فلما قدموا وبنينا وعجزنا وأدعنا وتربصنا حتى قُتل فينا ولد نبيّنا وسلالته وعصارتة وبضعة من لحمه ودمه إذ جعل

فكلمهم، فقالوا: لولا (١٥٧/٤) أنك رسول لقتلناك. قال: فهل يرضيكم شيء؟ قالوا: واحدة من اثنتين إما أن تخرجوا من خراسان، وإما أن تقيموا وتخرجوا لنا عن كل سلاح وكراع وذهب وفضة.

فرجع إلى ابن خازم، فقال: ما عندك؟ فأخبره. فقال: إن ربيعة لم تزل غضاباً على ربها منذ بعث نبيّه من مضر. وأقام ابن خازم يقاتلهم، فقال يوماً لأصحابه: قد طال مقامنا، وناداهم: يا معشر ربيعة أَرْضَيْتُمْ من خراسان بخندقكم؟ فأحفظهم ذلك، فتنادوا للقتال، فنهاهم أوس بن ثعلبة عن الخروج بجماعتهم وأن يقاتلوا كما كانوا يقاتلون، فعصوه. فقال ابن خازم لأصحابه: اجعلوه يومكم فيكون الملك لمن غلب، وإذا لقيتم الخيل فاطعنوها في مناخرها.

فاقتلوا ساعة وانهزمت بكر بن وائل حتى انتهوا إلى خندقهم وتفرقوا يميناً وشمالاً وسقط الناس في الخندق وقُتلوا قتلاً ذريعاً وهرب أوس بن ثعلبة إلى سيجستان فمات بها أو قريباً منها، وقُتل من بكر يومئذ ثمانية آلاف، وغلب ابن خازم على هراة واستعمل عليها ابنه محمداً وضم إليه شماس بن ديار الطاردي وجعل بكبير بن وسّاج الثقفي على شرطته، ورجع ابن خازم إلى مرو.

وأغار الترك على قصر اسغاد، وابن خازم على هراة، وكان فيه ناس من الأزد، فحصرهم، فأرسلوا إلى ابن خازم، فوجه إليهم زهير بن حيان فبي تميم وقال له: إياك ومناواة الترك، إذا رأيتهم فاحملوا عليهم.

فوافاهم في يوم بارد، فلما التقوا حمل عليهم فانهزمت الترك وأتبعوهم حتى مضى عامة الليل، فرجع زهير وقد يست يده على زمحه من البرد، فجعلوا يسخنون الشحم فيضعه على يده ودهنوه وأوقدوا له ناراً فانفتحت يده، ثم رجع إلى هراة فقال في ذلك ثابت قُطنة: (١٥٨/٤)

فلدت نفسي فوارس من تميم على ما كان من ضلوك المأم
بقصر الباهلي وقد أراستي أحامي حين قل بي المحامي
بسنفي بعد كسر الرمح فيهم أنودهم بني شطط الحام
أكر عليهم الحمرم كراً كسر الشربو آية الملام
فلولا الله ليس له شريك ورضي قوتن الملك الهمام
إذا فاطت بساء بني ديار أمام الترك بأبيّة الخدام

ذكر أمر التوابين

قيل: لما قُتل الحسين ورجع ابن زياد من معسكره بالنجيلة ودخل الكوفة تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت أن قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين وتركه نصرته وإجابته حتى قُتل إلى جانبهم، وراوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عليهم إلا قتل من قتله أو

الكوفة، ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين وتبعنا قتلته ودعونا الناس إلى أهل هذا البيت المستأثر عليهم المدفوعين عن حقهم.

فقال سليمان بن صرد: لا تبعوا هؤلاء إني قد نظرت فيما ذكرتكم فرائت أن قتل الحسين هم أشراف الكوفة وفسان العرب وهم المطالبون بعده، ومتى علموا ما تريدون كانوا أشد الناس عليكم، ونظرت فيمن تبني منكم فعلت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا نفوسهم وكانوا جَزَرًا (١٦٣/٤) لعدوهم، ولكن بشوا دعاتكم وادعوا إلى أمركم. ففعلوا واستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد.

ثم إن أهل الكوفة أخرجوا عمرو بن حُرَيْث وباعوا لابن الزبير، وسليمان وأصحابه يدعون الناس.

فلما مضت ستة أشهر بعد هلاك يزيد قدم المختار بن أبي عبيد الكوفة في النصف من رمضان، وقدم عبد الله بن يزيد الأنصاري أميراً على الكوفة من قبل ابن الزبير لثمان بقين من رمضان، وقدم إبراهيم بن محمد بن طلحة معه على خراج الكوفة. فأخذ المختار يدعو الناس إلى قتل قتل الحسين ويقول: جئتكم من عند المهدي محمد بن الحنفية وزيراً أميناً. فرجع إليه طائفة من الشيعة، وكان يقول: إنما يريد سليمان أن يخرج فيقتل نفسه ومن معه وليس له بصير بالحرِب. وبلغ الخبر عبد الله بن يزيد بالخروج عليه بالكوفة في هذه الأيام، وقيل له ليحبسه، وخوف عاقبة أمره إن تركه.

فقال عبد الله: إن هم قاتلونا قاتلناهم، وإن تركونا لم نطلبهم. إن هؤلاء القوم يطلبون بدم الحسين بن علي، فرحم الله هؤلاء القوم، [إنهم] آمنون، فليخرجوا ظاهرين وليسيروا إلى من قاتل الحسين، فقد أقبل إليهم، يعني ابن زياد، وأنا لهم ظهير، هذا ابن زياد قاتل الحسين قاتل أخياركم وأمانتكم قد توجه إليكم، وقد فارقه على ليلة من جسر منج فقاتله والاستعداد إليه أولى من أن تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضاً فيلقاكم عدوكم وقد ضعفت، وتلك أمنيته، وقد قدم عليكم أعدى خلق الله لكم، من ولي عليكم هو وأبوه سبع سنين (١٦٤/٤) لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين، هو الذي قتلكم، ومن قبله أتيتم والذي قتل من تنادون بعده قد جاءكم فاستقبلوه بحذكم وشوكتكم واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم، إني لكم ناصح.

وكان مروان قد سير ابن زياد إلى الجزيرة، ثم إذا فرغ منها سار إلى العراق.

فلما فرغ عبد الله بن يزيد ومن قوله قال إبراهيم بن محمد بن طلحة: أيها الناس لا يغرنكم من السيف والغشم مقالة هؤلاء المداين، والله لن يخرج علينا خارج لقتله، ولن استبقينا أن قوماً يريدون الخروج علينا لناخذن الوالد بولده والمولود بوالده

يستصرخ ويسأل النصف فلا يُعطى، اتخذوه الفاسقون غرضاً للئيل ودرية للرماح حتى أقصدوه، وعدوا عليه فسلبوه. ألا انهضوا، فقد سخط عليكم ربكم ولا ترجعوا إلى الحلال والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنه راضياً دون أن تتجاوزوا من قتلته، إلا لا تهابوا الموت فما هابه أحد قط إلا ذلك، وكونوا كبنو إسرائيل إذ قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّكُمْ (١٦١/٤) ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ﴿فَتَوَلَّوْا إِلَى بَارِكِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] ففعلوا وجشوا على الربك ومدوا الأعناق حين علموا أنهم لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا القتل، فكيف بكم لو دُعيتُم إلى ما دُعوا! أخذوا السيوف وركبوا الأسمنة ﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] حتى تدعوا وتستفروا.

فقال خالد بن سعد بن نقييل: أما أنا فوالله لو أعلم أنه ينجني من ذنبي ويرضي ربي عني قتلي نفسي لقاتلتها، وأنا أشهد كل من حضر أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوي صدقة على المسلمين أقرهم به على قتال الفاسقين. قال أبو المعتمر بن حبيب بن ربيعة الكناني مثل ذلك.

فقال سليمان: حسبكم، من أراد من هذا شيئاً فليأت به عبد الله بن وال التيمي، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجهم جهنماً به ذوي الخلّة والمسكنة من أشياعكم.

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان يعلمه بما عزموا عليه ويدعوه إلى مساعدتهم ومن معه من الشيعة بالمداين، فقرأ سعد بن حذيفة الكتاب على من بالمداين من الشيعة، فأجابوا إلى ذلك، فكتبوا إلى سليمان بن صرد يعلمونه أنهم على الحركة إليه والمساعدة له.

وكتب سليمان أيضاً كتاباً إلى المثنى بن مخزوم العبدى بالبصرة مثل ما كتب إلى سعد بن حذيفة، فأجابه المثنى: إنا معشر الشيعة حمدنا الله على ما (١٦٢/٤) عزمتم عليه ونحن موافق إن شاء الله للأجل الذي غربت. وكتب في أسفل الكتاب:

تَصَرَّ كَأَنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ مُتَبِعاً عَلَى أَمْرِ الْهَادِي أَجَشْ هَزِيم طَوِيلَ الْقَرَارِ أَهْلُ الشَّوَارِ مُقْلَصٌ مُلْتَحِ عَلَى فَنَاسِ الْجَبَامِ أَوْزَمُ بِكُلِّ قَسٍّ لَا يَمْلَأُ الرِّزْقَ قَلْبَهُ وَخَشَّ لِنَارِ الْحَرْبِ غَيْرَ مَسْووم أَخِي قَسَّةٌ يَسُوِي الْإِلَهَ بِسَعْيِهِ قَسْرُوبٌ يَنْصَلِي السِّيفَ غَيْرَ أَيْم

فكان أول ما ابتدأوا به أمرهم بعد قتل الحسين سنة إحدى وستين، فما زالوا يجمع آلة الحرب ودعاء الناس في السر إلى الطلب بدم الحسين، فكان يجيبهم القوم، ولم يزالوا على ذلك إلى أن هلك يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، فلما مات يزيد جاء إلى سليمان أصحابه فقالوا: قد هلك هذا الطاغية والأمر ضعيف، فإن شئت وثبنا على عمرو بن حُرَيْث، وكان خليفة ابن زياد على

والحميم بالحميم والعريف بما في عرافته حتى يدينوا للحق ويذلّوا للطاعة.

فوثب إليه المسيّب بن نجبة فقطع عليه منقه ثم قال: يا ابن الناكثين! أنت تهذّنا بسيّفك وغشمك! أنت والله أدلّ من ذلك! إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك، وأما أنت أيها الأمير فقد قلت قولاً سيّداً.

فقال إبراهيم: والله لتقتلنّ وقد أدهن هذا، يعني، عبد الله بن يزيد. فقال له عبد الله بن وال: ما اعترضك فيما بيننا وبين أميرنا؟ ما أنت علينا بأمرٍ إنّما أنت أمير هذه الجزية، فأقبل على خراجك، ولئن أفسدت أمر هذه الأمة فقد أفسده والدك وكانت عليهما دائرة السوء! فشتّمهم جماعة ممّن مع إبراهيم (١٦٥/٤) فشاتموا، فنزل الأمير من على المنبر، وتهذّب إبراهيم بأنّه يكتب إلى ابن الزبير يشكّره، فجاءه عبد الله في منزله واعتذر إليه، فقبل عذره. ثم إنّ أصحاب سليمان خرجوا يشيرون السلاح ظاهرين ويتجهّزون.

ذكر فراق الخوارج عبد الله بن الزبير وما كان منهم

وفي هذه السنة فارق الخوارج الذين كانوا قدموا مكة عبد الله بن الزبير، وكانوا قد قاتلوا معه أهل الشام.

وكان سبب قدومهم عليه أنّهم لما اشتدّ عليهم ابنُ زياد بعد قتل أبي بلال اجتمعوا فذكّروا ذلك، فقال لهم نافع بن الأزرق: إنّ الله قد أنزل عليكم الكتاب، وفرض عليكم الجهاد، واحتج عليكم [بالبليان]، وقد جرّد أهل الظلم فيكم السيوف فأخرجوا بنا إلى هذا الذي قد ثار بمكة فإن كان على رأينا جاهدنا معه، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت. وكان عسكر الشام قد سار نحو ابن الزبير.

فسار الخوارج حتى قدموا على ابن الزبير، فسُرّ بمقدمهم وأخبرهم أنّه على مثل رأيهم من غير تفتيش. فقاتلوا معه أهل الشام حتى مات يزيد بن معاوية وانصرف أهل الشام.

ثم إنّهم اجتمعوا وقالوا: إنّ الذي صنعتُم أمس لغير رأي، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعلّه ليس على مثل رأيكم، وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه وينادي: يا ثارات عثمان! فأتوه واسألوه عن عثمان فإن برئ منه كان وليكم، (١٦٦/٤) وإن أسيء كان عدوكم. فأتوه فسألوه، فنظر فإذا أصحابه حوله قليل، فقال: إنكم أتيتوني حين أردت القيام، ولكن روحوا [إليّ] العشيّة حتى أعلمكم.

فانصرفوا، وبعث إلي أصحابه فجمعهم حوله بالسلاح، وجاءت الخوارج وأصحابه حوله وعلى رأسه ويأيدهم العمد، فقال ابن الأزرق لأصحابه: إنّ الرجل قد أزمع خلافكم، فتقدّم إليه نافع بن الأزرق وعبيدة بن هلال، فقال: عبيدة بعد حمد الله:

أما بعد فإنّ الله بعث محمداً يدعو إلى عبادته وإخلاص الدين له، فدعا إلى ذلك فأجاباه المسلمون، فعمل فيهم بكتاب الله حتى قبضه الله واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر، فكلّهما عمل بكتاب الله وسنة نبيه، ثم إنّ الناس استخلفوا عثمان، فحصى الأحماء وآثر القرى واستعمل الفتى ورفع الدرة ووضع السوط ومزّق الكتاب وضرب منكر الجور وآوى طريد رسول الله، ﷺ، وضرب السابقين بالفضل وحرّمهم، وأخذ فيء الله الذي أفاء عليهم قسمه في فساق قريش ومجان العرب، فسارت إليه طائفة فقتلوه، فنجح لهم أولياءه ومن ابن عفان وأولياؤه برأء، فما تقول أنت يا ابن الزبير؟ فقال: قد فهمت الذي ذكرت به النبي، ﷺ، فهو فوق ما ذكرت وفوق ما وصفت، وفهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر، وقد وفقت وأصبت، وفهمت الذي ذكرت به عثمان، وإنّي لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره مني، كنتُ معه حيث نقم [القوم] عليه واستعنيوه فلم يدع شيئاً إلّا أعتبهم، ثم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنّه كتبه يأمر فيه بقتلهم، فقال لهم: ما كتبتُ فإن شتمّ فهاتوا يبتكم فإن لم تكن حلفت لكم فوالله ما جاؤوه ببينة ولا استحلّفوه ووكبوا عليه فقتلوه، وقد (١٦٧/٤) سمعتُ ما عتبه به، فليس كذلك بل هو لكلّ خير أهل، وأنا أشهدكم ومن حضرني أنّي ولي لابن عفان وعدو أعدائه فيبرئ الله منكم.

وتفرّق القوم فأقبل نافع بن الأزرق الحنظليّ وعبد الله بن الصّفار السعديّ وعبد الله بن إياض وحنظلة بن تيهس وبشر الماحوز: عبد الله وعبيد الله والزبير من بني سليط بن يربوع، وكلهم من تميم، حتى أتوا البصرة، وانطلق أبو طالوت، من بني بكر بن وائل، وأبو قتيك عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة، وعطيّة بن الأسود الشكريّ إلى البصرة، فوثبوا بها مع أبي طالوت، ثمّ اجتمعوا بعد ذلك على نجدة بن عامر الحنفي وتركوا أبا طالوت.

فأمّا نافع وأصحابه فإنهم قدموا البصرة وهم على رأي أبي بلال، واجتمعوا وتذكّروا فضيلة الجهاد، فخرج نافع على ثلاثمائة، وذلك عند وثوب الناس بابن زياد وكسر الخوارج باب السجن، وخرجوا واشتغل الناس عنهم بحرب الأزديّة وربيعة وتميم، فلمّا خرج نافع تبعوه، واصطاح أهل البصرة على عبد الله بن الحارث، فتجرّد الناس للخوارج وأخافوهم، فلحق نافع بالأهواز في شوال سنة أربع وستين، وخرج من بقي منهم بالبصرة إلى ابن الأزرق إلّا من لم يرد الخروج يومه ذلك، منهم: عبد الله بن الصّفار، وعبد الله بن إياض، ورجال معهم على رأيهم، ونظر نافع فرأى أنّ ولاية من تخلف عن الجهاد من الذين قعدوا من الخوارج لا تحلّ له، وأنّ من تخلف عنه لا نجاه له، فقال لأصحابه ذلك ودعاهم إلى البراءة منهم وأنهم لا يحلّ مساكنتهم ولا أكل ذبائهم، ولا

ثم إن المختار بعث إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب يسأله أن يشفع فيه، وكان ابن عمر تزوج أخت المختار صفية بنت أبي عبيد، فكتب ابن عمر إلى يزيد يشفع فيه، فأرسل يزيد إلى ابن زياد يسأله بإطلاقه، فأطلقه وأمره أن لا يقيم غير ثلاث.

فخرج المختار إلى الحجاز، فلقبه ابن العرق وراء واقصة فسلم عليه وسأله عن عينه، فقال: خطبها ابن الزانية بالقضيب فصارت كما ترى، ثم قال: قتلتني الله إن لم أقطع أنامله وأعضائه إرباً إرباً! ثم سأله المختار عن ابن الزبير، فقال: إنه عائد بالبيت وإنه يبايع سراً ولو اشتدت شوكته وكثرت رجاله لظهر.

فقال المختار: إنه رجل العرب اليوم وإن اتبع رأيي أكفه أمر الناس.

إن الفتنة أرعدت وأبرقت وكان قد انبعث، فإذا سمعت بمكان قد ظهرت (١٧٠/٤) به [فقل إن المختار] في عصابة من المسلمين يطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول بالطغف، سيد المسلمين وابن بنت سيد المرسلين وابن سيدها، الحسين بن علي، فوربك لأقتلن يقتله عدة من قتل على دم يحيى بن زكرياء.

ثم سار وابن العرق يعجب من قوله، قال ابن العرق: فوالله لقد رأيت ما ذكره وحذت به الحجاج بن يوسف، فضحك وقال: لله دره أي رجل ديناً ويسر حرب، ومقارع أعداء كان!

ثم قدم المختار على ابن الزبير، فكتسم عنه ابن الزبير أمره، ففارقه وغاب عنه سنة، ثم سأل عنه ابن الزبير فقيل إنه بالطائف وإنه يزعم أنه صاحب الغضب ومسير الجبارين. فقال ابن الزبير: ما له قاتله الله؟ لقد انبعث كذاباً متكهنًا، إن يهلك الله الجبارين يكسن المختار أولهم.

فهر في حديثه إذ دخل المختار المسجد فطاف وصلى ركعتين وجلس، فاتاه معارفه يحدثونه، ولم يأت ابن الزبير، فوضع ابن الزبير عليه عباس بن سهل ابن مسقر، فاتاه وسأله عن حاله ثم قال له: مثلك يغيب عن الذي قد اجتمع عليه الأشراف من قريش والأنصار وثقيف! لم تبق قبيلة إلا وقد أتاه زعيمها فبايع هذا الرجل. فقال إني أتيت العام الماضي وكم عني خبره، فلما استغنى عني أحببت أن أريه أي مستغن عنه. فقال له العباس: القه الليلة وأنا معك.

فأجابه إلى ذلك، ثم حضر عند ابن الزبير بعد العتمة، فقال المختار: أبايعك على أن لا تقضي الأمور دوني وعلى أن أكون أول داخل، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك. فقال ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله (١٧١/٤) فقال: وشتر علمائي تبايعه على ذلك، والله لا أبايعك أبداً إلا على ذلك.

يجوز قبول شهادتهم وأخذ علم الدين عنهم، ولا يحل ميراثهم، ورأى قتل الأطفال والاستعراض، وأن جميع المسلمين كفار مثل كفار العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل.

فأجابه إلى ذلك بعضهم وفارقه بعضهم، وممن فارقه نجدة بن عامر، (١٦٨/٤) وسار إلى اليمامة، فأطاعه الخوارج الذين بها وتركوا أبنا طالوت، فكتب نافع إلى ابن إياض وابن الصغار يدعوهم ومن معهما إلى ذلك، فقرأ ابن الصغار الكتاب ولم يقرأه. على أصحابه خشية أن يتفرقوا ويختلفوا، فأخذ ابن إياض قفراً، فقال: قاتله الله أي رأي رأي! صدق نافع، لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأياً وكانت سيرته كسيرة [النبي، ﷺ] في المشركين، ولكنه قد كذب فيما يقول، إن القوم بُراء من الشرك ولكنهم كفار بالنعم والأحكام ولا يحل لنا إلا دماؤهم، وما سوى ذلك فهو حرام علينا.

فقال له ابن الصغار: برئ الله منك فقد قصرت، وبرئ الله من ابن الأزرق فقد غلا. فقال الآخر: برئ الله منك ومنه.

فتفرق القوم واشتدت شوكة ابن الأزرق وكثرت جموعه وأقام بالأهواز يجبي الخراج ويتقوى به، ثم أقبل نحو البصرة حتى دنا من الجسر، فبعث إليه عبد الله بن الحارث مسلم بن عبيس بن كزيم بن ربيعة من أهل البصرة.

(عبيس بالعين المهملة المضمومة، والباء الموحدة، والياء المعجمة المثناة من تحت، وبالسین المهملة. وعبيدة بن بلال بضم العين المهملة والباء الموحدة.)

ذكر قدوم المختار الكوفة

كانت الشيعة تسب المختار وتعيبه لما كان منه في أمر الحسن بن علي حين طعن في ساباط وحمل إلى أبيض المدائن، حتى [إذا] كان زمن الحسين، بعث (١٦٩/٤) الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة، وكان المختار في قرية له تدعى لقا، فجاءه خبر ابن عقيل عند الظهر أنه قد ظهر، ولم يكن خروجه عن ميعاد كما سبق، فأقبل المختار في موابله فاتته إلى باب الفيل بعد الحضر، وقد أعد عبيد الله بن زياد عمرو بن حزم بالمسجد معه رابية، فوقف المختار لا يدري ما يصنع، فبلغ خبره عمراً فاستدعاه وأمنه، فحضر عنده.

فلما كان الغد ذكر عمارة بن الوليد بن عتبة أمره لعبيد الله، فأحضره فيمن دخل وقال له: أنت العقيل في الجموع لتصور ابن عقيل؟ قال: لم أفعل ولكني أقبلت ونزلت تحت راية عمرو فشهد له عمرو، فضرب وجه المختار فشر عنه وقال: لولا شهادة عمرو لقتلتك! ثم حبسه حتى قتل الحسين.

أحداً، وهو أثقل خلق الله على المختار، وهو ينظر إلى ما يصير أمر سليمان.

فلما خرج سليمان نحو الجزيرة قال عمر بن سعد وثبت بن ربيعي وزيد بن الحارث بن رُوَيْم لعبد الله بن يزيد الخطمي وإبراهيم بن محمد بن طلحة: إن المختار أشد عليكم من سليمان، إنما خرج يقاتل عدوكم، وإن المختار (١٧٣/٤) يريد أن يشب عليكم في مصركم، فأوثقوه واسجنوه حتى يستقيم أمر الناس.

فأثرو فآخذوه بغتة، فلما رآهم قال: ما لكم؟ فوالله ما ظفرت أكتفكم! فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة: شدة كثافاً ومثته حافياً. فقال عبد الله: ما كنت لأفعل هذا برجل لم يظهر لنا غدره، إنما أخذناه على الظن. فقال إبراهيم: ليس هذا بعشك فادرجي. ما هذا الذي بلغنا عنك يا ابن أبي عبيد؟ فقال: ما بلغك عني إلا باطل وأعوذ بالله من غش كغش أبيك وجدك!

ثم حُمل إلى السجن غير مقيد، وقيل: بل كان مقيداً، فكان يقول في السجن: أما ورب البحار، النخيل والأشجار، والمهام والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلن كل جبار، بكل لدن خطار، ومُهتد بتار، بجموع الأنصار، ليسوا بعييل أغمار، ولا بزعزاع أشرار؛ حتى إذا أقمْتُ عمود الدين، وزايلت شعب صلع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت نار النبيين، لم يكبر عليّ زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى.

وقيل في خروج المختار إلى الكوفة وسببه غير ما تقدّم، وهو أن المختار قال لابن الزبير وهو عنده: إني لأعلم قوماً لو أن لهم رجلاً له فقه وعلم بما يأتي ويذر لاستخرج لك منهم جنداً تقاتل بهم أهل الشام. قال: من هم؟ قال: شيعة علي بالكوفة. قال: فكن أنت ذلك الرجل. فبعثه إلى الكوفة، فنزل ناحية منها يكي على الحسين ويذكر مصابه حتى لقوه وأحبه فنقلوه إلى وسط الكوفة وأتاه منهم بشر كثير، فلما قوي أمره سار إلى ابن مطيع. (١٧٤/٤)

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكان عامله على المدينة فيها أخوه عبيدة بن الزبير، وعلى الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمي، وعلى قضائهما هشام بن مغيرة، وعلى البصرة عمر بن عبيد الله بن عمر التيمي، وعلى خراسان عبيد الله بن خازم.

وفيهما مات شداد بن أوس بن ثابت، وهو ابن أخي حسان بن ثابت.

وفيهما توفي المسور بن مخرمة بمكة في اليوم الذي ورد فيه خبر موت يزيد ابن معاوية، وكان سبب موته أن أصابه فلقه حجر متجنيق في جانب وجهه فمضى أياماً ومات.

فبايعه، فأقام عنده وشهد معه قتال الحُصَيْن بن نُعيم وأبلى أحسن بلاء وقاتل أشد قتال، وكان أشد الناس على أهل الشام.

فلما هلك يزيد بن معاوية وأطاع أهل العراق ابن الزبير أقام عنده خمسة أشهر، فلما رآه لا يستعمله جعل لا يقدم عليه أحد من أهل الكوفة إلا سألوه عن حال الناس، فأخبره هاني بن جبة الوفاعي بأنساق أهل الكوفة على طاعة ابن الزبير إلا أن طائفة من الناس هم عدد أهلها لو كان لهم من يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم [ما].

فقال المختار: أنا أبو إسحاق، أنا والله لهم أن أجمعهم على الحق وألقى بهم رُكيان الباطل وأهلك بهم كل جبار عنيد. ثم ركب راحلته نحو الكوفة فوصل إلى نهر الحيرة يوم الجمعة فاغتسل ولبس ثيابه ثم ركب فمر بمسجد السكون وجبابة كندة لا يمر على مجلس إلا سلم على أهله وقال: أبشروا بالنصرة والفلاح، أناكم ما تحبون.

ومرّ ببني بداء فلقى عبيدة بن عمرو البدي من كندة، فسلم عليه وقال له: أبشر بالنصر والفلاح، إنك أبا عمرو على رأي حسن، لن يدع الله لك معه إنما إلا غفره لك ولا ذنباً إلا ستره. وكان عبيدة من أشجع الناس وأشعرهم وأشدّهم تشيعاً وحياً لعلي، وكان لا يصبر عن الشراب، فقال له: بشرك الله بالخير! فهل أنت ميين لنا؟ قال: نعم، الفتي الليلة.

ثم سافر ببني هند فلقى إسماعيل بن كثير فحُب به وقال له: الفتي أنت (١٧٢/٤) وأحورك الليلة فقد أتيتكم بما تحبون. ومرّ على حلقة من همدان فقال: قد قدمت عليكم بما يسركم، ثم أتى المسجد واستشرف له الناس، فقام إلى سارية فصلّى عندها حتى أقيمت الصلاة وصلّى مع الناس ثم صلى ما بين الجمعة والعصر ثم انصرف إلى داره، واختلف إليه الشيعة، وأتى إسماعيل بن كثير وأخوه وعبيدة بن عمرو فسألهم فأخبروه خبر سليمان بن صرد وأنه على المنبر، فحمد الله ثم قال: إن المهدي ابن الوصي بعثني إليكم آميناً ووزيراً ومختبأً وأميراً أمرني بقتل الملحدين والطلب بدم أهل بيته والدفع عن الضعفاء، فكونوا أول خلق الله إجابة.

فضربوا على يده وبايعوه؛ وبعث إلى الشيعة وقد اجتمعت عند سليمان بن صرد وقال لهم نحو ذلك، وقال لهم: إن سليمان ليس له بصير بالحرب ولا تجربة بالأمور وإنما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه، وأنا أعمل على مثال مثل لي وأمرين لي عن وليكم، وأقتل عدوكم وأشفي صدوركم، فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري، ثم انتشروا.

وما زال بهذا ونحوه حتى استمال طائفة من الشيعة وصاروا يختلفون إليه ويعظمونه، وعظماء الشيعة مع سليمان لا يعدلون به

وفيها توفي أبو بَرْزَةَ الأشْهَلِيُّ بخراسان.

وفيها توفي الوليد بن عُثْبَةَ بن أبي سفيان في قول.

وفي أيام يزيد مات أبو ثعلبة الخُثَنِيُّ، وقيل مات سنة خمس وسبعين، له صُحْبَةٌ.

وفي أيامه أيضاً مات عائذ بن عمرو المُزَنَسِيُّ بالبصرة، وشهد بيعة الرضوان.

وفي أيام ابن زياد بالكوفة مات قيس بن خَرَشَةَ، وهو صحابي، وخبر موته عجيب مع ابن زياد لأنه كان قوَّالاً بالحق.

وفي أيامه مات نوفل بن معاوية بن عمرو الدثلي.

وفي أيامه مات أبو خَيْثَمَةَ الأنصاري، شهد أحدًا، وذكره في تبوك مشهور.

وفي أيامه مات عَثْبَانُ بن مالك، وهو بدري، وفي هذه السنة توفي شقيق بن ثور السُدُوسي. (١٧٥/٤)

سنة خمس وستين

ذكر مسير التوابين وقتلهم

لَمَّا أَرَادَ سُلَيْمَانُ بْنُ صُرْدٍ الْخَزَاعِيُّ الشُّخُوصَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ بَعَثَ إِلَى رُؤُوسِ أَصْحَابِهِ فَأَتَوْهُ، فَلَمَّا أَهْلَ رَبِيعَ الْآخِرِ خَرَجَ فِي وَجْهِ أَصْحَابِهِ، وَكَانُوا تَوَاعَدُوا لِلْخُرُوجِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمَّا أَتَى النَّخِيلَةَ دَارَ فِي النَّاسِ فَلَمْ يَجْعِبْهُ عِدَّتُهُمْ فَأَرْسَلَ حَكِيمَ بْنَ مُثَفَّذٍ الْكِنْدِيَّ وَالْوَلِيدَ بْنَ عَصِيرِ الْكِنَانِيِّ، فَتَدَايَا فِي الْكُوفَةِ: يَا لثَارَاتِ الْحُسَيْنِ! فَكَانَ أَوَّلَ خَلْقِ اللَّهِ دَعْوًا: يَا لثَارَاتِ الْحُسَيْنِ.

فَأَصْبَحَ مِنَ الْغَدِ وَقَدْ أَتَاهُ نَحْوُ مِائَةٍ فِي عَسْكَرِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي دِيَوَانِهِ فَوَجَدَهُمْ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفًا مِمَّنْ بَايَعَهُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا وَفَّانَا مِنْ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفًا إِلَّا أَرْبَعَةَ آلَافٍ. فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ الْمَخْشَارَ يَبْسُطُ النَّاسَ عِنْدَكَ، إِنَّهُ قَدْ تَبِعَهُ الْفَانُ.

فَقَالَ: قَدْ بَقِيَ عَشْرَةُ آلَافٍ، أَمَا هَؤُلَاءِ يُمُؤِنِينَ؟ أَمَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَالْعَهْدَ وَالْمَوَاقِفَ؟ فَأَقَامَ بِالنَّخِيلَةِ ثَلَاثًا يَبْعَثُ إِلَى مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ نَحْوُ مِنْ أَلْفٍ رَجُلٍ. فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُسَيَّبُ بْنُ نَجْبَةَ فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ! إِنَّهُ لَا يَنْفَعُكَ الْكَارَهُ وَلَا يِقَاتِلُ مَعَكَ إِلَّا مَنْ أَخْرَجَتْهُ النَّيَّةُ، فَلَا تَنْتَظِرْ أَحَدًا وَجَدَّ فِي أَمْرِكَ. (١٧٦/٤) قَالَ: نَعَمْ مَا رَأَيْتُ.

ثُمَّ قَامَ سُلَيْمَانُ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ خَرَجَ يَرِيدَ بِخُرُوجِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَالْآخِرَةِ فَذَلِكَ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُ فَرَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَرِيدُ الدُّنْيَا فَوَاللَّهِ مَا نَاتِي فَيَسَأُ نَأْخُذَهُ

وَنُغْنِمَةً نَغْنِمُهَا مَا خَلَا رِضْوَانُ [اللَّهِ]، وَمَا مَعَنَا مِنْ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ وَلَا مَتَاعٍ، وَمَا هِيَ إِلَّا سَيُوفُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا، وَزَادَ قَدْرَ الْبُلْغَةِ، فَمَنْ كَانَ يَنْوِي غَيْرَ هَذَا فَلَا يَصْحَبْنَا. فَتَدَايَ أَصْحَابِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: إِنَّا لَا نَطْلُبُ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهَا خَرَجُنَا إِنَّمَا خَرَجُنَا نَطْلُبُ التَّوْبَةَ وَالطَّلَبَ بِدَمِ ابْنِ بَنَتِ رَسُولِ اللَّهِ نَبِيِّنَا، ﷺ.

فَلَمَّا عَزَمَ سُلَيْمَانُ عَلَى الْمَسِيرِ قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ نُفَيْلٍ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا إِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَاللَّهُ الْمَوْفُوقُ، وَإِنْ يَكُنْ لَيْسَ صَوَابًا فَمَنْ قَتَلَنِي، إِنَّمَا خَرَجْنَا نَطْلُبُ بِدَمِ الْحُسَيْنِ، وَقَتْلَتَهُ كُلَّهُمْ بِالْكُوفَةِ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ وَرُؤُوسُ الْأَرْبَاعِ وَالْقَبَائِلِ، فَأَيْنَ نَذْهَبُ هَاهُنَا وَنَدْعُ الْأَرْثَارَ؟ فَقَالَ أَصْحَابُهُ كُلَّهُمْ: هَذَا هُوَ الرَّأْيُ.

فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لَكِنْ أَنَا لَا أَرَى ذَلِكَ، إِنَّ الَّذِي قَتَلَهُ وَعَبَا الْجُنُودَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَا أَمَانَ لَهُ عِنْدِي دُونَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ فَأَمْضِي فِيهِ حَكْمِي، هَذَا الْفَاسِقُ ابْنُ الْفَاسِقِ عَيْدُ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ، فَسَيَرُوا إِلَيْهِ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ فَإِنْ يَظْهَرُكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ رَجَوْنَا أَنْ يَكُونَ مِنْ بَعْدِهِ أَهْوَنَ عَلَيْنَا مِنْهُ، وَرَجَوْنَا أَنْ يَدِينَ لَكُمْ أَهْلُ مِصْرَ كَمَا فِي عَافِيَةٍ فَيَنْظُرُونَ إِلَى كُلِّ مَنْ شَرِكَ فِي دَمِ الْحُسَيْنِ فَيَقْتُلُونَهُ وَلَا يَفْشِمُوا، وَإِنْ تُسْتَشْهِدُوا فَإِنَّمَا قَاتَلْتُمُ الْمُحْلِينَ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَرْبَاعِ، إِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ تَجْعَلُوا جُلُودَكُمْ بِغَيْرِ (١٧٧/٤) الْمُحْلِينَ، وَلَوْ قَاتَلْتُمْ أَهْلَ مِصْرَ كَمَا عَدِمَ رَجُلٌ أَنْ يَرَى رَجُلًا قَدْ قَتَلَ أَخَاهُ وَأَبَاهُ وَحَمِيمَهُ وَرَجُلًا يَزِيدُ قَتْلَهُ، فَاسْتَخِيرُوا اللَّهَ وَسَيَرُوا.

وَبَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ طَلْحَةَ خُرُوجَ ابْنِ صُرْدٍ، فَأَتِيَاهُ فِي أَشْرَافِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَلَمْ يَصْحَبِهِمْ مَنْ شَرِكَ فِي دَمِ الْحُسَيْنِ خَوْفًا مِنْهُ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ تِلْكَ الْأَيَّامَ يَبِيتُ فِي قَصْرِ الْإِمَارَةِ خَوْفًا مِنْهُمْ. فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ: إِنَّ الْمُسْلِمَ آخِرَ الْمُسْلِمِ لَا يَخُونُهُ وَلَا يَفْشِيهِ، وَأَنْتُمْ إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ بِلَدُنَا وَأَحِبُّ أَهْلٍ مِصْرَ خَلَقَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا، فَلَا تَجْعَلُونَا بِأَنْفُسِكُمْ وَلَا تَنْقُصُوا عِدَّتَنَا بِخُرُوجِكُمْ مِنْ جَمَاعَتِنَا، أَقِيمُوا مَعَنَا حَتَّى نُنْهِيَ، فَإِذَا سَارَ عِدُونَا إِلَيْنَا خَرَجْنَا إِلَيْهِ بِجَمَاعَتِنَا فَقَاتَلْنَاهُ.

وَجَعَلَ لِسُلَيْمَانَ وَأَصْحَابِهِ خُرَاجَ جُرُوحِي إِنْ أَقَامُوا. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ مِثْلَهُ؛ فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِهَمَا: قَدْ مَحَضْتُمَا النَّصِيحَةَ وَاجْتَهَدْتُمَا فِي الْمَشُورَةِ، فَحَنَنْ بِاللَّهِ وَلَهُ، وَنَسَأَ اللَّهُ الْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ وَلَا تَرَانَا إِلَّا سَاطِرِينَ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأَقِيمُوا حَتَّى نَعْبِي مَعَكُمْ جَرِيدًا كَثِيفًا فَتَلْقُوا عَدُوَّكُمْ بِجَمْعٍ كَثِيفٍ. وَكَانَ قَدْ بَلَغَنِيهِمْ إِقْبَالَ عَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ مِنَ الشَّامِ فِي جُنُودٍ فَلَمْ يَقُمْ سُلَيْمَانُ، فَسَارَ عَشِيَّةَ الْجُمُعَةِ لَخْمِسَ مَضِينَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ، فَوَصَلَ دَارَ الْأَهْوَازِ وَقَدْ تَخَلَّفَ عَنْهُ نَاسٌ كَثِيرٌ، فَقَالَ: مَا أَحَبُّ أَنْ [مَنْ] تَخَلَّفَ [عَنْكُمْ] مَعَكُمْ، وَلَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خِيَالًا، إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ اتِّبَاعَكُمْ فَتَبْطِطُكُمْ وَاتَّخَصَّكُمْ بِفَضْلٍ ذَلِكَ. (١٧٨/٤)

تغلق أبواب المدينة إلا لتعلم إيانا تريدون أم غيرنا، وما بنا عجز عن الناس وما نحب قتالكم وقد بلغنا عنكم صلاح وسيرة جميلة.

ثم أمر ابنه فأخرج لهم سوقاً، وأمر للمسيب بألف درهم وفرس، فرد (١٨٠/٤) المال وأخذ الفرس وقال: لعلني أحتاج إليه إن عرج فرسي. وبعث زُفر إليهم بخبز كثير وعلف ودقيق حتى استغنى الناس عن السوق، إلا إن كان الرجل يشتري سوطاً أو ثوباً.

ثم ارتحلوا من الغد، وخرج إليهم زُفر يشيعهم وقال لسليمان: إنه قد سار خمسة أمراء من الرقة وهم الحصين بن نمير وشُرَّخِيل بن ذي الكلال وأدهم بن مُحَرَّز وجبلة بن عبد الله الخثعمي وعبيد الله بن زياد في عدد كثير مثل الشوك والشجر، فإن شئتم دخلتم مدينتنا وكانت أيدينا واحدة، فإذا جاءنا هذا العدو قاتلناهم جميعاً. فقال سليمان: قد طلب أهل مصرنا ذلك منا فأينما عليهم.

قال زُفر: فبادروهم إلى عين الوردة وهي رأس عين فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة في أيديكم وما بيننا وبينكم فائت آمنون منه فاطروا المنازل، فو الله ما رايت جماعة قط أكرم منكم، فإني أرجو أن تسبقوهم، وإن قاتلتوهم فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعونهم فإنهم أكثر منكم، ولا آمن أن يحيطوا بكم، فلا تقفوا لهم فيصرعوكم، ولا تصفوا لهم، فإني لا أرى معكم رجالة ومعهم الرجالة والفرسان بعضهم يحمي بعضاً، ولكن القوم في الكتاب والمقارب ثم بثوها فيما بين ميمتهم وميسرتهم واجعلوا مع كل كتيبة أخرى إلى جانبها، فإن حُمل على إحدى الكتيبتين رحلت الأخرى فنقست عنها، ومتى شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى شاءت كتيبة انحطت، ولو كنتم صفاً واحداً فزحفت إليكم الرجالة فدفعت عن الصف انتفض فكانت الهزيمة. ثم ودعهم ودعا لهم ودعوا له وأثنوا عليه.

ثم ساروا مجدين فانتهوا إلى عين الوردة فنزلوا غربيها وأقاموا خمساً فاستراحوا وأراحوا. (١٨١/٤)

وأقبل أهل الشام في عساكرهم حتى كانوا من عين الوردة على مسيرة يوم وليلة، فقام سليمان في أصحابه وذكر الآخرة ورغب فيها ثم قال: أما بعد فقد اتاكم عدوكم الذي دأبت إليه في السر آتاء الليل والنهار، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم القتال واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا يولّينهم امرؤ دبرة إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، ولا تقتلوا مديراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلا أن يقتلكم بعد أن تأسروه، فإن هذه كانت سيرة علي في أهل هذه الدعوة.

ثم قال: إن أنا قُلتُ فأمر الناس مسيب بن نجبة، فإن قُتل فالأمير عبد الله بن سعد بن نَظِيل، فإن قُتل فالأمير عبد الله بن وال، فإن قُتل فالأمير رفاعة بن شداد، رحم الله امرأ صدق ما عاهد الله

ثم ساروا فانتهوا إلى قبر الحسين، فلما وصلوا صاحوا صيحة واحدة، فما رُئي أكثر باكياً من ذلك اليوم، فترحموا عليه وتابوا عنه من خذلانه وترك القتال معه وأقاموا عنده يوماً وليلة يكون ويتضرعون ويترحمون عليه وعلى أصحابه، وكان من قولهم عند ضريحه: اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهدي ابن المهدي، الصديق، ابن الصديق اللهم إنا نشهدك أنا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم، اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا، ﷺ، فافغر لنا ما مضى منا وثب علينا وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نشهدك أنا على دينهم وعلى ما قتلوا عليه وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين! وزادهم النظر إليه حقاً.

ثم ساروا بعد أن كان الرجل يعود إلى ضريحه كالمودع له، فازدحم الناس عليه أكثر من ازدحامهم على الحجر الأسود، ثم أخذوا على الأنبار، وكتب إليهم عبد الله بن يزيد كتاباً، منه: يا قومنا لا تطيعوا عدوكم، أنت في أهل بلادكم خيار كلكم، ومتى يُصَبِّح عدوكم يعلموا أنكم أعلام مصركم فيقطعهم ذلك فيمن وراءكم، يا قومنا ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعْدُّوكُمْ فِي مَلَبِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدُوا﴾ [الكهف: ٢٠]، يا قوم إن أيدينا وأيديكم واحدة وعدونا وعدوكم واحد ومتى تجتمع كلمتنا على عدونا نظهر على عدونا ومتى تختلف نهن شوكتنا على من خالفنا، (١٧٩/٤) يا قومنا لا تستغشوا نصحي ولا تخالفوا أمري وأقبلوا حين يُقرأ كتابي عليكم والسلام.

فقال سليمان وأصحابه: قد أبننا هذا ونحن في مصرنا، فحين وطنا أنفسنا على الجهاد ودنونا من أرض عدونا، ما هذا برأي. فكتب إليه سليمان يشكره ويثني عليه ويقول: إن القوم قد استبشروا ببيعهم أنفسهم من ربهم، وإنهم قد تابوا من عظيم ذنبهم وتوجهوا إلى الله وتوكلوا عليه ورضوا بما قضى الله عليهم.

فلما جاء الكتاب إلى عبد الله قال: استمات القوم، أول خبر يأتيكم عنهم قتلهم، والله ليقتلن كراماً مسلمين.

ثم ساروا حتى انتهوا إلى قرقيسيا على تعبئة، وبها زُفر بن الحارث الكلبي قد تحصن بها منهم ولم يخرج إليهم، فأرسل إليه المسيب بن نجبة يطلب إليه أن يُخرج إليه سوقاً، فأتى المسيب باب قرقيسيا فعرّفهم نفسه وطلب الإذن على زُفر، فأتى هُذَيْل بن زُفر أباه فقال: هذا رجل حسن الهيئة اسمه المسيب بن نجبة يستأذن عليك: فقال أبوه: أما تدري يا بني من هذا؟ هذا فارس مضر الحمراء كلها، إذا عد من أشرافها عشرة كان أحدهم هو، وهو يعضد رجل ناسك له دين، إيذن له. فأذن له، فلما دخل عليه أجلسه إلى جانبه وسأله، فعرّفه المسيب حاله وما عزموا عليه، فقال زُفر: إنا لم

عليه.

سيفه ونزل معه ناس كثير وكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه، فقاتلوهم فقتل من أهل الشام مقاتلة عظيمة وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح. فلما رأى الحُصَيْنُ صبرهم وبأسهم بعث الرجالَ ترميهم بالنبل واكتفتهم الخيل والرجال، فقتل سليمان، رحمه الله، رماءً. يزيد بن الحُصَيْنِ بسهم فوقع ثم وثب ثم وقع.

فلما قتل سليمان أخذ الراية المسيبُ بن نجبة وترحم على سليمان ثم تقدم فقاتل بها ساعة ثم رجع ثم حمل، فعل ذلك مراراً، ثم قتل، رحمه الله بعد أن قتل رجالاً.

فلما قتل أخذ الراية عبد الله بن سعد بن نُبَيْل وترحم عليهما، ثم قرأ ﴿فَيَنْهَضْنَ مِنْ قُصَىٰ نَجْبِهِ وَيَنْهَضْنَ مِنْ يَثْرِبَ وَمَا يَدْلُوا نَبِيلاً﴾. [الأحزاب: ٢٣] وحف به من كان معه من الأزد. فبينما هم في القتال أتاهم فرسان ثلاثة من سعد بن حذيفة يُخْبِرُونَ بِمسيرهم في سبعين ومائة من أهل المدائن ويُخْبِرُونَ أَيْضاً بِمسير أهل البصرة مع المثنى بن مُخَرَّبَةَ الْعَيْدِيِّ فِي ثلاثمائة، فسر الناس فقال عبد الله بن سعد: ذلك لو جاؤونا ونحن أحياء.

فلما نظر الرسل إلى مصارع إخوانهم ساءهم ذلك واسترجعوا وقاتلوا معهم، وقتل عبد الله بن سعد بن نُبَيْل، قتله ابن أخي ربيعة بن مخارق، وحمل خالد بن سعد بن نُبَيْل على قاتل أخيه فطعنه بالسيف، واعتقه الآخر فحمل أصحابه عليه فخلصوه بكسرتهم وقتلوا خالداً، وبقيت الراية ليس عندها أحد، فتادوا عبد الله بن وال فإذا هو قد اصطلى الحرب في عصابة معه، فحمل رفاعه بن شداد فكشف أهل الشام عنه، فأتى فأخذ الراية وقاتل ملياً ثم قال (١٨٤/٤) لأصحابه: مَنْ أراد الحياة التي ليس بعدها موت والراحة التي ليس بعدها نصب، والسرو الذي ليس بعده حزن، فليقترب إلى الله بقتال هؤلاء الْمُجَلِّينَ والرواح إلى الجنة، وذلك عند العصر، فحمل هو وأصحابه فقتلوا رجالاً وكشفوهم.

ثم إن أهل الشام تعطفوا عليهم من كل جانب حتى ردوهم إلى المكان الذي كانوا فيه، وكان مكانهم لا يؤتى إلا من وجه واحد، فلما كان المساء تولى قتالهم أدهم بن محرز الباهلي فحمل عليهم في خيله ورجله، فوصل ابن محرز إلى ابن وال وهو يتلو ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا﴾ الآية: [آل عمران: ١٦٩] فغاظ ذلك أدهم بن محرز فحمل عليه فضرب يده فابانها ثم تنحى عنه وقال: إني أظنك وددت أنك عند أهلك. قال ابن وال: بئس ما ظننت، والله ما أحب أن يدك مكانها إلا أن يكون لي من الأجر مثل ما في يدي ليعظم وزرك ويعظم أجري. فغاظه ذلك أيضاً، فحمل عليه وطعنه فقتله وهو مقبل ما يزول. وكان ابن وال من الفقهاء العبَّاد.

فلما قتل أنوار رفاعه بن شداد البجلي وقالوا: لنأخذ الراية.

ثم بعث المسيب في أربعمائة فارس ثم قال: سر حتى تلقى أول عساكرهم فشن عليهم [الغارة]، فإن رأيت ما تحبه وإلا رجعت، وإياك أن تنزل [أو تدع] أحداً من أصحابك [ينزل] أو يستقبل آخر ذلك، حتى لا تجد منه بداً. فسار يومه وليته ثم نزل السحر. فلما أصبحوا أرسل أصحابه في الجهات ليأتوه بمن يلقون، فأتوه بأعرابي، فسأله عن أدنى العساكر منه، فقال: أدنى عسكر من عساكرهم منك عسكر شُرَحْبِيلَ بْنِ ذِي الْكَلَّاحِ، وهو منك على رأس ميل، وقد اختلف هو والحُصَيْنُ، ادعى الحُصَيْنُ أَنَّهُ على الجماعة وأبى شُرَحْبِيلَ ذلك، وهما ينتظران أمر ابن زياد.

فسار المسيب ومن معه مسرعين فأشرفوا عليهم وهم غارون، فحملوا في جانب عسكرهم، فانهزم العسكر وأصاب المسيب منهم رجالاً، فأكثروا فيهم (١٨٢/٤) الجراح وأخذوا الدواب، وغلَى الشاميون عسكرهم وانهزموا، فغنم منه أصحاب المسيب ما أرادوا ثم انصرفوا إلى سليمان موفورين.

وبلغ الخبر ابن زياد فسرَّح الحُصَيْنَ بن نُمَيْرٍ مسرعاً حتى نزل في اثني عشر ألفاً، فخرج أصحاب سليمان إليه لأربع بقين من جمادى الأولى، وعلى ميمتهم عبد الله بن سعد، وعلى ميسرتهم المسيب بن نجبة، وسليمان في القلب، وجعل الحصين على ميمته جملة بن عبد الله، وعلى ميسرته ربيعة بن المخارق القنوي، فلما دنا بعضهم من بعض دعاهم أهل الشام إلى الجماعة على عبد الملك بن مروان، ودعاهم أصحاب سليمان إلى خلع عبد الملك وتسليم عبيد الله بن زياد إليهم وأنهم يخرجون من بالعراق من أصحاب ابن الزبير ثم يرد الأمر إلى أهل بيت النبي، ﷺ. فأبى كل منهم، فحملت ميمته سليمان على ميسرة الحصين، والميسرة أيضاً على الميمنة، وحمل سليمان في القلب على جماعتهم، فانهزم أهل الشام إلى عسكرهم، وما زال الظفر لأصحاب سليمان إلى أن حجز بينهم الليل.

فلما كان الغد صبح الحصين جيش مع ابن ذي الكلال ثمانية آلاف، أمدهم بهم عبيد الله بن زياد، وخرج أصحاب سليمان فقاتلوهم قتالاً لم يكن لشدة منه جميع النهار لم يحجز بينهم إلا الصلاة، فلما أمسوا تحاجزوا وقد كثرت الجراح في الفريقين، وطاف القصاص على أصحاب سليمان يحرضونهم.

فلما أصبح أهل الشام أتاهم أدهم بن محرز الباهلي فسي نحو من عشرة آلاف من ابن زياد، فاقتلوا يوم الجمعة قتالاً شديداً إلى ارتفاع الضحى ثم إن أهل الشام كثروهم وتعطفوا عليهم من كل جانب، ورأى سليمان ما لقي أصحابه، فنزل ونادى: عباد الله من أراد البكور إلى ربه والتوبة (١٨٣/٤) من ذنبه فإليّ! ثم كسر جفنة

فقال: ارجعوا بنا لعل الله يجمعنا ليوم شرهم. فقال له عبد الله بن عوف بن الأحمر: هلكنا والله، لئن انصرفت ليركبن أكثافنا فلا نبليغ فرسخاً حتى نهلك عن آخرنا، وإن نجنا منا نأج أخذته العرب يقتربون به إليهم فقتل صبراً، هذه الشمس قد قاربت الغروب فقاتلهم على خيلنا، فإذا غسق الليل ركبنا خيولنا أول الليل وسرنا حتى نصح ونسير على مهل ويحمل الرجل صاحبه وجريحه ونعرف الوجه الذي نأخذه. فقال رفاعه: نعم ما رأيت! وأخذ الراية وقاتلهم قتالاً شديداً، (١٨٥/٤) ورأى أهل الشام إهلاكهم قبل الليل فلم يصلوا إلى ذلك لشدة قتالهم، وتقدم عبد الله بن عزيز الكناني فقاتل أهل الشام ومعه ولده محمد وهو صغير، فنادى بني كنانة من أهل الشام وسلم ولده إليهم ليوصلوه إلى الكوفة، فعرضوا عليه الأمان، فأبى ثم قاتلهم حتى قتل.

وتقدم كرب بن يزيد الحميري عند المساء في مائة من أصحابه فقاتلهم أشد قتال، فعرض عليه وعلى أصحابه ابن ذي الكلاع الجعفري الأمان، قال: قد كنا آمين في الدنيا وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة. فقاتلوهم حتى قتلوا وتقدم صخر بن هلال المزي في ثلاثين من مؤينة فقاتلوا حتى قتلوا.

فلما أمسوا رجع أهل الشام إلى معسكرهم، ونظر رفاعه إلى كل رجل قد عُقر به فرسه وجرح فدفعه إلى قومه ثم سار بالناس ليلته، وأصبح الحصين ليلتيهم فلم يرههم، فلم يبعث في آثارهم، وساروا حتى أتوا قرقيسيا، فعرض عليهم زفر الإقامة، فأقاموا ثلاثاً، فاضافهم ثم زدوهم وساروا إلى الكوفة.

ثم أقبل سعد بن حذيفة بن اليمان في أهل المدائن فبلغ هيت، فأتاه الخبر فرجع فلقى المثنى بن مخزومة العبد في أهل البصرة يصندوداء فآخبره، فأقاموا حتى أتاهم رفاعه فاستقبلوه، وبكى بعضهم إلى بعض وأقاموا يوماً وليلة ثم تفرقوا، فسار كل طائفة إلى بلدهم.

ولما بلغ رفاعه الكوفة كان المختار محبوساً، فأرسل إليه: أما بعد فرحياً بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ورضي فعلهم حين قتلوا، (١٨٦/٤) أما ورب البيت ما خطا خاط منكم خطوة ولا ربا ربوة إلا كان ثواب الله له أعظم من الدنيا! إن سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله وجعل وجهه مع أرواح النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون، إني أنا الأمير المأمور، والأمين المأمون، وقاتل الجبارين، والمتقم، من أعداء الدين، المقيد من الأوتار، فاعدوا واستعدوا وأبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه، والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، وجهاد المجالين، والسلام.

وكان قتل سليمان ومن معه في شهر ربيع الآخر.

ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل سليمان وانهزام أصحابه سعد المتبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فإن الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان بن صرد، ألا وإن السيوف تركن رأس المسيب خذاريق، وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين: عبد الله بن سعد الأزدي، وعبد الله بن وال البكري، ولم يبق بعدهم من عنده امتناع، وفي هذا نظر فإن أباه كان حياً؛ قال أعشى همدان في ذلك، وهي مما يكتم ذلك الزمان:

فَحَيَّتْ غَنَّا مِنْ حَيْسِبِ مُجَانِبٍ
لَهُمْ غَرَانِي مِنْ فِرَاقِكِ نَاصِبٍ
(١٨٧/٤)

إِنَّمَا مَعَ الْبَيْضِ الْحِصَانِ الْخَرَّاعِيبِ
لَطِيفَةُ طَيِّ الْكَشْحِ رَبَا الْخَصَابِ
كُنْصِ الْفُحَى تَنْكُلُ بَيْنَ السَّحَابِ
بَدَا حَاجِبٌ مَهَا وَضُنْتُ بِحَاجِبِ
فَاحْبِبْ بِهَا مِنْ خُلَّةٍ لَمْ تُصَاقِبِ
وَحُبُّ تَصَافِي الْمُعْصِرَاتِ الْكَوَاعِبِ
لُعَاباً وَسُقُفَاً لِلْخَلْبِيسِ الْمُقَارِبِ
رُزِيَتْ مُخْبِئَاتُ قَرِيْمِ الْمَنَاصِبِ
وَتَقَرَّى إِلَهِ خَيْرِ تَكْسَابِ كَاسِبِ
وَتَابَ إِلَى اللَّهِ الرَّفِيعِ الْمَرَاتِبِ
فَلَسْتُ إِلَيْهَا مَا حَيْثُ بِأَيِّ
وَيَسْعَى لَهُ السَّاعُونَ فِيهَا بِرَاجِبِ
(١٨٨/٤)

إلى ابن زياد في الجُمُوعِ الْكَثَائِبِ
مَصَالِيَتْ أَنْجَادُ سُرَاةٍ مُنَاجِبِ
وَلَمْ يَسْتَجِبُوا لِلْأَمْرِ الْمُخَاطِبِ
وَأَخَّرَ مِمَّا جَرَّ بِالْأَمْسِ تَائِبِ
إِلَيْهِمْ فَحَسُّوهُمْ بِيضِ قَوَاضِبِ
بَخِيلٌ عِتَاقِي مُقَرَّنَاتِ سَلَابِ
جُمُوعٌ كَسْرُوحِ الْبَحْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ نَسَمٌ غَيْرُ عَصَابِ
تَسَاوَرَهُمْ رِيحُ الصَّبَا وَالْجَنَابِ
كَانَ لَمْ يُقَاتِلْ مَرَّةً وَيُحَارِبِ
شَتَاةً وَتَيْسِي هَادِي الْكَسَابِ
وَزَيْدٌ بَنُ بَكْرٍ وَالْحُلَيْسُ بَنُ غَالِبِ
إِذَا شَدَّ لَمْ يَنْكُلْ كَرِيْمِ الْمَكَاسِبِ
وَفَوْ حَسْبِ فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ ثَابِ
وَطَعْنِ بِأَطْرَافِ الْأَمِيَّةِ صَائِبِ
(١٨٩/٤)

فَمَا أُنْسَ لَا أُنْسَ اتَّفَالَكِ فِي الْفُحَى
تَرَأَتْ لَنَا هَيْفَةً تَهْضُمَةُ الْخَشَا
مُتَبَلِّغَةٌ غَرَاءَ وَؤْدِ شَبَابِهَا
فَلَمَّا تَغَشَّاهَا السَّحَابُ وَخَوْلَتْهُ
فَتَلَّكَ الْهَوَى وَفَى الْجَوَى لِي وَالْمُنَى
وَلَا يُعَدُّ إِلَهُ الشَّبَابِ وَذِكْرُهُ
وَسَدَادُ مَا أَحْيَيْتُهُ مِنْ عَتَابِنَا
فَلَمَّا وَإِنْ لَمْ أَنْسَهُنَّ لَذَاكَرُ
تَوَسَّلْ بِالْقَوَى إِلَى اللَّهِ صَادِقاً
وَحَلَّى عَنِ الدُّنْيَا فَلَمْ يَلْبَسْ بِهَا
تَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا وَقَالَ اطْرَحْنَهَا
وَمَا أَنَا فِيمَا يَكْرَهُ النَّاسُ قَفْدَهُ

فَوَجَّهَهُ نَحْوَ الثَّقِيَّةِ سَائِراً
بَقَرْمٍ هُمُ أَهْلُ الثَّقِيَّةِ وَالْهَمِ
مَضَوْا تَارِكِي رَايِ ابْنِ طَلْحَةَ جِسَّةً
فَسَارُوا وَهَمَ مَا بَيْنَ ثَلَاثِينَ ثَقِيَّةً
فَلَاقُوا بَيْنَ الْوُرْدَةِ الْجَيْشِ فَاصِلَاً
بِمَاثِيَّةٍ تَسْنُرِي الْأَكْصَفَ وَتَسَارَةً
فَجَاءَهُمْ جَمْعٌ مِنَ الشَّامِ يَمْنَةً
فَمَا يَرْحَوُا حَتَّى أَيْبَسَتْ سُرَاهِمُ
وَعُوذُوا أَهْلَ الصَّبْرِ صَرَعِي فَاصْبَحُوا
فَاضْحَى الْخَرَّاعِي الرَّئِيسُ مُجْدَلَاً
وَرَأْسُ بَنِي شَمْنُخٍ وَفَسَارِسُ قَوْمِهِ
وَعَمَرُو بَنُ بَشَرٍ وَالْوَلِيدُ وَخَالِدُ
وَضَارِبُ مِنْ هَمْدَانَ كُلِّ مَشِيْعٍ
وَمِنْ كُلِّ قَوْمٍ قَدْ أَصِيبَ زَعِيمُهُمْ
أَبُوَا غَيْرَ ضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ وَقَفْعُهُ

وإنَّ سَعِيداً يَوْمَ يَنْفَسُ عَامِراً
لَأَخْجَعَنَّ مِنْ لَيْسَ بِذَرْبِ مُوَائِبِ
فِيَا خَيْرَ جَيْشٍ بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ
مُسْتَقِيمٌ رَوَايَا كُلِّ اسْحَمٍ سَاكِبِ
فَلَا يَعْدُنَّ فِرْسَانَنَا وَحُمَاتُنَا
إِذَا الْبُضُّ أَلْبَتَ عَنْ خِدَامِ الْكُوَاعِبِ
وَمَا قُتِلُوا حَتَّى ائْتَارُوا عَصْبَةً
مُجَلِّينَ نُوراً كَالشَّمُوسِ الْقُتُورِ
وَقِيلَ: قُتِلَ سُلَيْمَانُ وَمَنْ مَعَهُ فِي شَهْرِ رَجَبِ الْآخِرِ.

الْخَزَاعِيُّ الَّذِي هُوَ فِي هَذَا الشَّعْرِ هُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ صُرْدِ
الْخَزَاعِيِّ. وَرَأْسُ بَنِي شَمَخٍ هُوَ الْمَسِيبُ بْنُ نَجْبَةَ الْفَزَارِيِّ. وَرَأْسُ
شَنْوَةَ هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بْنُ نَقِيلِ الْأَزْدِيِّ أَزْدَ شَنْوَةَ. وَالتَّيْمِيُّ هُوَ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَالٍ التَّيْمِيُّ مِنْ تَيْسَمِ اللَّاتِ ابْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عُكَابَةَ بْنِ
صَنْبُ بِنِ عَلِيٍّ بْنِ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ. وَالْوَلِيدُ [هُوَ] ابْنُ عَصِيرِ الْكِنَانِيِّ.
وَخَالِدٌ هُوَ خَالِدُ بْنُ سَعْدٍ بْنُ نَقِيلِ أَخُو عَبْدِ اللَّهِ.

(نَجْبَةُ بِالنُّونِ، وَالْجَيْمِ، وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ الْمَفْتُوحَاتِ).

ذَكَرَ بَعْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ ابْنِي مَرْوَانَ بُولَايَةَ الْعَهْدِ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَمَرَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ بِالْبَيْعَةِ لِابْنَيْهِ عَبْدِ الْمَلِكِ
وَعَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ سَعِيدٍ بْنُ الْعَاصِ لَمَّا هَزَمَ
مُضْعَبَ بْنَ الزُّبَيْرِ حِينَ وَجَّهَهُ أَخُوهُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى فِلَسْطِينَ رَجَعَ إِلَى
مَرْوَانَ وَهُوَ بِدِمَشْقَ قَدْ غَلَبَ عَلَى الشَّامِ وَمِصْرَ، فَبَلَغَ مَرْوَانَ أَنَّ
عَمراً يَقُولُ: أَنَّ الْأَمْرَ لِي بَعْدَ مَرْوَانَ، فَدَعَا (١٩٠/٤) مَرْوَانَ حَسَّانَ
بْنَ مَالِكٍ بَنَ تَحْدَلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَبَايَعَ لِابْنَيْهِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعَبْدِ
الْعَزِيزِ وَأَخْبَرَهُ بِمَا بَلَغَهُ عَنْ عَمْرُو، فَقَالَ: أَنَا أَكْفِيكَ عَمراً فَلَمَّا
اجْتَمَعَ النَّاسُ عِنْدَ مَرْوَانَ عَشِيّاً قَامَ حَسَّانُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ
رِجَالاً يَتَمَنُّونَ أَمَانِي، قَوْمُوا فَبَايَعُوا لِعَبْدِ الْمَلِكِ وَعَبْدِ الْعَزِيزِ مِنْ
بَعْدِهِ، فَبَايَعُوا عَنْ آخَرِهِمْ.

ذَكَرَ بَعَثَ ابْنَ زِيَادٍ وَخَيْشَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ سَيرَ مَرْوَانَ بْنُ الْحَكَمِ بَعَثَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَعَ عُبَيْدِ
اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ إِلَى الْجَزِيرَةِ وَمُحَاوِرَةِ زُفَرِ بْنِ الْحَارِثِ بَقَرِيسِيَا
وَأَسْتَعْمَلَهُ عَلَى كُلِّ مَا يَفْتَحُهُ، فَإِذَا فَرَّغَ مِنَ الْجَزِيرَةِ تَوَجَّهَ لِقَصْدِ
الْعِرَاقِ وَأَخَذَهُ مِنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَلَمَّا كَانَ بِالْجَزِيرَةِ بَلَغَهُ مَوْتُ مَرْوَانَ
وَأَنَّهُ كَتَبَ عَبْدِ الْمَلِكُ بْنُ مَرْوَانَ يَسْتَعْمَلُهُ عَلَى مَا اسْتَعْمَلَهُ عَلَيْهِ
أَبُوهُ وَيُحْتَجُّ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى الْعِرَاقِ.

وَالْبَعَثُ الْآخَرُ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ خَيْشٍ بَنِ دَلْجَةَ الْقِنِيِّ، فَسَارَ
بِهِمْ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَدِينَةِ وَعَلَيْهَا جَابِرُ بْنُ الْأَسْوَدِ بَنِ عَوْفِ ابْنِ
أَخِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَنِ عَوْفٍ مِنْ قَبْلِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَهَرَبَ مِنْهُ جَابِرٌ.

ثُمَّ إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي رِبْعَةَ، وَهُوَ أَخُو عَمْرُو بْنِ أَبِي رِبْعَةَ،
وَجَّهَ جَيْشاً مِنَ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ وَالِيّاً عَلَيْهَا، لِابْنِ الزُّبَيْرِ وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ

الْخَيْفَ بِنِ النُّعْفِ التَّيْمِيِّ لِحَرْبِ خَيْشٍ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ خَيْشٌ
سَارَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَأَرْسَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْعَبَّاسُ بْنُ سَهْلٍ
بِنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمِيراً وَأَمَرَهُ أَنْ (١٩١/٤) يَسِيرَ فِي
طَلَبِ خَيْشٍ حَتَّى يُوَافِيَ الْجَنْدَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ
الْحَيْفُ، فَأَقْبَلَ عَبَّاسٌ فِي أَتَارِهِمْ حَتَّى لَحِقَهُمْ بِالرَّبَذَةِ، فَقَاتَلَهُمْ
حَيْشٌ، فَرَمَاهُ يَزِيدُ بْنُ سَنَانَ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ مَعَهُ يَوْمَئِذٍ يَوْسُفُ
بِنِ الْحَكَمِ وَابْنُهُ الْحُجَّاجُ، وَهُمَا عَلَى جَمَلٍ وَاحِدٍ، وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ،
فَتَحَرَّزَ مِنْهُمْ خَمْسَمِائَةَ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ سَهْلٍ: انْزِلُوا عَلَيَّ
حَكَمِي، فَتَزَلُّوا، فَقَتَلَهُمْ، وَرَجَعَ فَلَّ حَيْشٍ إِلَى الشَّامِ، وَلَمَّا دَخَلَ
يَزِيدُ بْنُ سَنَانَ الْمَدِينَةَ كَانَ عَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيْضٌ فَاسْوَدَّتْ مِمَّا مَسَحَهُ
النَّاسُ وَمِمَّا صَبَّوْا عَلَيْهِ مِنَ الطَّيْبِ.

ذَكَرَ مَوْتَ مَرْوَانَ بِنِ الْحَكَمِ وَوَلَايَةَ ابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ

فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ مَاتَ مَرْوَانَ بْنُ الْحَكَمِ.

وَكَانَ سَبَبُ مَوْتِهِ أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ يَزِيدٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ لَمْ
يَسْتَخْلِفْ أَحَدًا، وَكَانَ حَسَّانُ بْنُ تَحْدَلٍ يَرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ الْأَمْرَ مِنْ
بَعْدِهِ فِي أَخِيهِ خَالِدِ بْنِ يَزِيدٍ، وَكَانَ صَغِيرًا، وَحَسَّانُ خَالَ أَبِيهِ يَزِيدٍ،
فَبَايَعَ حَسَّانُ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ
لِخَالِدِ، فَلَمَّا بَايَعَهُ هُوَ وَأَهْلُ الشَّامِ قَبْلَ لَمَرْوَانَ تَزَوَّجَ أُمُّ خَالِدِ، وَهِيَ
بِنْتُ أَبِي هَاشِمٍ بِنِ عُثْبَةَ، حَتَّى يَصْغُرَ شَأْنُهُ فَلَا يَطْلُبُ الْخِلَافَةَ،
فَتَزَوَّجَهَا، فَدَخَلَ خَالِدٌ يَوْمًا عَلَى مَرْوَانَ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ وَهُوَ يَمْشِي
بَيْنَ صَفَيْنِ، فَقَالَ مَرْوَانَ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحْمَقُ! تَعَالَى يَا ابْنَ الرُّطْبَةِ
الْاِسْتِ! يُقَصِّرُ بِهَ لِيَسْقُطَهُ مِنْ أَعْيُنِ أَهْلِ الشَّامِ. (١٩٢/٤) فَرَجَعَ
خَالِدٌ إِلَى أُمِّهِ فَأَخْبَرَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: لَا يَعْلَمَنَّ ذَلِكَ مِنْكَ إِلَّا أَنَا، أَنَا
أَكْفِيكَ. فَدَخَلَ عَلَيْهَا مَرْوَانَ فَقَالَ لَهَا: هَلْ قَالَ لَكَ خَالِدٌ فِي شَيْئٍ؟
قَالَتْ: لَا، إِنَّهُ أَشَدُّ لَكَ تَعْظِيمًا مِنْ أَنْ يَقُولَ فَيْكَ شَيْئًا. فَصَدَّقَهَا
وَمَكَثَ أَيَّامًا، ثُمَّ إِنَّ مَرْوَانَ تَامَ عِنْدَهَا يَوْمًا، فَغَطَّتْهُ بِوَسَادَةٍ حَتَّى
قَتَلَتْهُ، فَمَاتَ بِدِمَشْقَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً، وَقِيلَ: [إِحْدَى
وَسِتِّينَ]. وَأَرَادَ عَبْدِ الْمَلِكُ قَتْلَ أُمِّ خَالِدِ، فَقِيلَ لَهُ: يَظْهَرُ عِنْدَ الْخَلْقِ
أَنَّ امْرَأَةً قَتَلَتْ أَبَاكَ، فَتَرَكَهَا.

وَلَمَّا تَوَفَّى مَرْوَانَ قَامَ بِأَمْرِ الشَّامِ بَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَ
بِمِصْرَ ابْنُهُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِطَاعَةِ أَخِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

وَكَانَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَدٌ لِسَبْعَةِ أَشْهُرٍ، فَكَانَ النَّاسُ يَذَمُّونَهُ لِذَلِكَ،
قِيلَ: إِنَّهُ اجْتَمَعَ عِنْدَهُ قَوْمٌ مِنَ الْأَشْرَافِ، فَقَالَ لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ بِنِ
ظِيَّانِ الْبَكْرِيِّ: بَلَغَنِي أَنَّكَ لَا تُشَبِّهُ أَبَاكَ، فَقَالَ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لِأَشْبِهُهُ
بِهِ مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ وَالْغُرَابِ بِالْغُرَابِ، وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ بِمَنْ
لَمْ تَنْضِجْهُ الْأَرْحَامُ، وَلَمْ يُولَدْ بِالْإِتْمَامِ، وَلَمْ يُشَبِّهِ الْأَخْوَالَ وَالْأَعْمَامَ.
قَالَ: مَنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: سُؤْيِدُ بْنُ مَنَجُوفٍ، فَلَمَّا خَرَجَ عُبَيْدُ اللَّهِ وَسُؤْيِدُ
قَالَ لَهُ سُؤْيِدُ: مَا سَرَّتِي بِمَقَالَتِكَ لِي بِحُجْرِ النَّعَمِ.

وكان سبب قوته اشتغال أهل البصرة واختلافهم بسبب مسعود بن عمرو وقتله، وكثرت جموعه وأقبل نحو الجسر، فبعث إليه عبد الله بن الحارث مسلم بن عبيس بن كريب بن ربيعة، فخرج إليه فرفعه عن أرض البصرة حتى بلغ دولا ب من أرض الأهواز، فاقتتلوا هناك، وجعل مسلم بن عبيس على ميمته الحجاج بن باب الحميري، وعلى ميسرته حارثة بن بدر الغداني، وجعل (١٩٥/٤) ابن الأزرق على ميمته عبيدة بن هلال، وعلى ميسرته الزبير بن الماحوز التميمي واشتد قتالهم، فقتل مسلم أمير أهل البصرة، وقتل نافع بن الأزرق أمير الخوارج في جمادى الآخرة، فأمر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميري وأمرت الخوارج عبد الله بن الماحوز التميمي، واقتتلوا، فقتل عبد الله والحجاج فأمر أهل البصرة عليهم ربيعة بن الأجرم التميمي، وأمرت الخوارج عبيد الله بن الماحوز التميمي، ثم عادوا فاقتتلوا حتى أمسوا وقد كره بعضهم بعضاً وملوا القتال.

فإنهم كذلك متوافقون متحاجزون إذ جاءت الخوارج سرية مستريحة لم تشهد القتال، فحملت على الناس من ناحية عبد القيس، فانهزم الناس وقتل أمير أهل البصرة ربيعة بعد أن قتل أيضاً دغفل بن حنظلة الشيباني النسابة، وأخذ الراية حارثة بن بدر، فقاتل ساعة، وقد ذهب الناس عنه، فقاتل وحمى الناس ومعه جماعة من أهل البصرة، ثم أقبل حتى نزل بالأهواز، وبلغ ذلك أهل البصرة فأقزعهم، وبعث عبد الله بن الزبير الحارث بن أبي ربيعة وعزل عبد الله بن الحارث، فأقبلت الخوارج نحو البصرة.

ذكر محاربة المهلب الخوارج

لما قربت الخوارج من البصرة أتى أهلها الأحنف بن قيس وسأله أن يتولى حربهم، فأشار بالمهلب بن أبي صفرة لما يعلم فيه من الشجاعة والرأي والمعرفة (١٩٦/٤) بالحرب، وكان قد قدم من عند ابن الزبير وقد ولّاه خراسان، فقال الأحنف: ما لهذا الأمر غير المهلب.

فخرج إليه أشراف أهل البصرة فكلّموه، فأبى، فكلّمه الحارث بن أبي ربيعة، فاعتذر بعهدده على خراسان، فوضع الحارث وأهل البصرة كتاباً إليه عن ابن الزبير يأمره بقتال الخوارج وأتوه بالكتاب، فلما قرأه قال: والله لا أسير إليهم إلا أن تجعلوا لي ما غلبت عليه وتقطعوني من بيت المال ما أقوى به من معي.

فأجابوه إلى ذلك وكتبوا له به كتاباً، وأرسلوا إلى ابن الزبير فأماضه فاختار المهلب من أهل البصرة ممن يعرف نجدته وشجاعته اثني عشر ألفاً منهم: محمد بن واسع وعبد الله بن رباح الأنصاري ومعابرة بن قرّة المزني وأبو عمران الجوني، وأخرج المهلب إلى الخوارج وهم عند الجسر الأصغر، فحاربهم وهو فني

فقال عبيد الله: وما سرّني والله باحتمالك إني ومسكوتك سودها. (١٩٣/٤)

ذكر صفته ونسبه وأخباره

هو مروان بن الحكم بن أبي الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وأمه أمنة بنت علقمة بن صفوان بن أمية من كنانة، وكان مولده سنة اثنتين من الهجرة، وكان أبوه قد أسلم عام الفتح، ونفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف لأنه يتجنس عليه، ورآه النبي ﷺ يوماً يمشي ويتخلّج في مشيه كأنه يحكيه، فقال له: كن كذلك، فما زال كذلك حتى مات.

ولما توفي رسول الله ﷺ، كلّم عثمان أباً بكر في رده، لأنه عمه، فلم يفعل، فلما توفي أبو بكر وولي عمر كلّمه أيضاً في رده فلم يفعل، فلما ولي عثمان رده وقال: إن رسول الله ﷺ وعدني إن يرده إلى المدينة، فكان ذلك ممّا أنكر الناس عليه.

وتوفي في خلافة عثمان فصلّى عليه، وقد رُوي أخبار كثيرة في لعنه ولعن [مَنْ] في صلّيه، رواها الحافظ، في أسانيدهما كلام.

وكان مروان قصيراً أحمر أوقص، يكنى أبا الحكم، وأبا عبد الملك، واعتق في يوم واحد مائة رقبة، وولي المدينة لمعاوية مرّات، فكان إذا وليّ يبلغ في سبّ علي، وإذا عزل ووليّ سعيد بن العاص كفّ عنه، فسئل عنه محمد بن عليّ الباقر وعن سعيد، فقال: كان مروان خيراً لنا في السرّ، وسعيد خيراً لنا في العلانية.

وقد أخرج حديث مروان في الصحيح، وكسان الحسن والحسين يصلّيان (١٩٤/٤) خلفه ولا يعيدان الصلاة. وهو أول من قدّم الخطبة في صلاة العيد وقبل الصلاة.

ولما مات بويج لولده عبد الملك بن مروان في اليوم الذي مات فيه، وكان يقال له ولولده بنو الزرقاء، يقول ذلك من يريد ذمهم وعيبهم، وهي الزرقاء بنت موهب جدّة مروان بن الحكم لأبيه، وكانت من ذوات الرايات التي يستدلّ بها على بيوت البغساء، فلهاذا كانوا يذمّون بها، ولعلّ هذا كان منها قبل أن يتزوجها أبو العاص بن أمية والد الحكم، فإنه كان من أشراف قريش، لا يكون هذا من امرأة له وهي عنده، والله أعلم.

(حيث بن دلجة بضمّ الحاء المهملّة، وفتح الباء الموحدة المفتوحة، ثمّ الباء المشدّدة من تحت، وآخره شين معجمة، ودلجة بفتح الدال واللام).

ذكر مقتل نافع بن الأزرق

في هذه السنة اشتدّت شوكة نافع بن الأزرق، وهو الذي يتسبب إليه الأزارقة من الخوارج.

وجوه الناس وأشرفهم، فدفعهم عن الجسر، ولم يكن بقي إلا أن يدخلوا، فارتفعوا إلى الجسر الأكبر، فسار إليهم في الخيل والرجال. فلما رآوه قد قاربهم ارتفعوا فوق ذلك.

وقال فيه بعض الخوارج:

ولما بلغ حارثة بن بدر تأمير المهلب على قتال الأزارقة قال لمن معه [من] الناس:

كُتِبَ لَنَا وَتَوَلَّى لَنَا خِيَلُ شَيْئٍ فَنَافِثُوا

فأقبل بمن معه نحو البصرة فرد الحارث بن أبي ربيعة إلى المهلب، وركب حارثة في سفينة في نهر دُجَيْل يريد البصرة، فأتاه رجل من تميم وعليه سلاحه والخوارج وراءه، فصاح التميمي بحارثة يستغيث به ليحمله معه، فقتل السفينة (١٩٧/٤) إلى شاطئ النهر، وهو جرف، فوثب التميمي إليها ففاصت بجميع من فيها ففرقوا.

وأما المهلب فإنه سار حتى نزل بالخوارج وهم بنهر تيري وتَنَحَّوا عنه إلى الأهواز، وسير المهلب إلى عسكرهم الجواسيس تأتبه بأخبارهم، فلما أتاه خبرهم سار نحوهم واستخلف أخاه المعارك بن أبي صفرة على نهر تيري، فلما وصل الأهواز قاتلت الخوارج مقدمته، وعليهم ابنه المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة، فجال أصحابه ثم عادوا.

فلما رأى الخوارج صبرهم ساروا عن سوق الأهواز إلى متاندر، فسار يريدهم، فلما قاربهم سير الخوارج جمعاً عليهم واقد مولى أبي صفرة إلى نهر تيري وبها المعارك فقتلوه وصلبوه، وبلغ الخبر إلى المهلب فسير ابنه المغيرة إلى نهر تيري، فأنزل عنه المعارك ودفنه وسكن الناس واستخلف بها جماعة وعاد إلى أبيه وقد نزل سولاف.

وكان المهلب شديد الاحتياط والحذر لا ينزل إلا في خندق وهو على تعبئة ويتولى الحرس بنفسه، فلما نزل الخوارج بسولاف ركبوا ووقفوا له واقتتلوا قتالاً شديداً صبر فيه الفريقان، ثم حملت الخوارج حملة صادقة على المهلب وأصحابه فانهمزوا وقتل منهم، وثبت المهلب وأبلى ابنه المغيرة يومئذ بلاة حسناً ظهر فيه أثره، ونادى المهلب أصحابه فعادوا إليه معهم جمع كثير نحو أربعة آلاف فارس، فلما كان الغد أراد القتال بمن معه فهما بعض أصحابه لضعفهم وكثرة الجراح فيهم، فترك القتال وسار وقطع دُجَيْل ونزل بالعاقول لا يؤتى إلا من جهة واحدة، وفي يوم سولاف يقول ابن قيس الرقيات:

الاطرقت من أرمية طارقته على أنها معشوقة الدل عائشة
تميس وأرض السوس يني وينها وسولاف رستاق حنة الأزارقة
إننا نحن نشتى صافتنا عصابة خروية أضحت من اللين مارقة

وأسرع المهلب حتى سبق المنهزمين إلى مكان مرتفع، ثم نادى: إلي عباد الله! فاجتمع إليه ثلاثة آلاف أكثرهم من قومه من الأزدي، فلما رآهم رضي عذتهم فخطبهم وحثهم على القتال ووعدهم النصر وأمرهم أن يأخذ كل رجل منهم عشرة أحجار، وقال: سيروا بنا نحو عسكرهم فإني الآن آمنون وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم، فوالله إني لأرجو أن لا يرجع إليهم خيلهم حتى تستيحبوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم. فأجابوه، فأقبل بهم راجعاً، فما شعرت الخوارج إلا والمهلب يقاتلهم في جانب

فنهبا، وكانت لبني حنيفة، فأخذها منهم معاوية بن أبي سفيان فجعل فيها من الرقيق ما عدتهم وعدة إبنائهم ونسائهم أربعة آلاف، فغنم ذلك وقسمه بين أصحابه، وذلك سنة خمس وستين، فكثر جمعه.

ثم إن عيراً خرجت من البحرين، وقيل من البصرة، تحمل مالا وغيره يراد بها ابن الزبير، فاعترضها نجدة فأخذها وساقها حتى أتى بها أبا طلوت بالحضارم فقسمها بين أصحابه، وقال: اقتسموا هذا المال وردوا هؤلاء العبيد واجعلوهم يعملون الأرض لكم فإن ذلك انفع. فاقسموا المال وقالوا: نجدة خير لنا من أبي طلوت؛ فخلعوا أبا طلوت وبايعوا نجدة وبايعه أبو طلوت، وذلك في سنة ست وستين، ونجدة يومئذ ابن ثلاثين سنة.

ثم سار في جمع إلى بني كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، فلقبهم بذئ المجاز فهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعاً، وصبر كلاب وعطيف ابنا قرة بن (٢٠٢/٤) هيرة القشيريان وقاتلا حتى قُتلا، وانهزم قيس بن الرقاد الجعدي فلاحقه أخوه أبيه معاوية فسأله أن يحمله ردفاً فلم يفعل.

ورجع نجدة إلى اليمامة فكثر أصحابه فصاروا ثلاثة آلاف، ثم سار نجدة إلى البحرين سنة سبع وستين، فقالت الأزدي: نجدة أحب إلينا من ولاتنا لأنه ينكر الجور ولاتنا يجوزونه، فعمزوا إلى مسالمتهم، واجتمعت عبد القيس ومن بالبحرين غير الأزدي على محاربتهم، فقال بعض الأزدي: نجدة أقرب إليكم منه إلينا لأنكم كنتم من ربيعة فلا تحاربوه! وقال بعضهم: لا ندع نجدة وهو حروري مارق تجري علينا أحكامه. فالتقوا بالقطيف فانهزمت عبد القيس وقتل منهم جمع كثير وسبى نجدة من قدر عليه من أهل القطيف؛ فقال الشاعر:

نصحت لعبد القيس يوم قطيفها وما نفع نصيح، قيل، لا يتقبل وأقام نجدة بالقطيف ووجه ابنه المطرَح في جمع إلى المنهزمين من عبد القيس، فقاتلوه بالثوير، فقتل المطرَح بن نجدة وجماعة من أصحابه.

وأرسل نجدة سرية إلى الخط فظفر بأهله، وأقام نجدة بالبحرين. فلما قدم مصعب بن الزبير إلى البصرة سنة تسع وستين بعث إليه عبد الله بن عمير الليثي الأعور في أربعة عشر ألفاً، فجعل يقول: اثبت نجدة فإننا لا نفر، فقدم ونجدة بالقطيف، فأتى نجدة إلى ابن عمير، وهو غافل، فقاتلهم طويلاً وافترقوا، وأصبح ابن عمير فهاله ما رأى في عسكره من القتلى والجرحى، وحمل عليهم نجدة فلم يلبثوا أن انهزموا، فلم يبق عليهم نجدة وغنم ما في عسكرهم وأصاب جوارى فيهن أم ولد لابن عمير، فعرض عليها أن يرسلها إلى مولاها فقالت: لا حاجة بي إلى من فرغني

عسكرهم، فلقبهم عبد الله بن الماحوز والخوارج، فرماهم أصحاب المهلب بالأحجار حتى أثنخوهم ثم طعنوهم بالرمح وضربوهم بالسيف، فاقتلوا ساعة، فقتل عبد الله بن الماحوز وكثير من أصحابه، وغنم المهلب عسكرهم، وأقبل من كان في طلب أهل البصرة راجعاً، وقد وضع المهلب لهم خيلاً ورجالاً تختطفهم وتقتلهم. (٢٠٠/٤) وانكفأوا راجعين مذلولين مغلوبين، فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصبهان.

قال بعض الخوارج لما رأى قتال أصحاب المهلب بالحجارة: اثنا بأحجار يقتلنا بها وهل تقتل الأقران ويحك بالحجر ولما فرغ المهلب منهم أقام مكانه حتى قدم مصعب بن الزبير على البصرة أميراً، وعزل الحارث بن أبي ربيعة؛ وفي هذا اليوم يقول الصلتان العبدى:

يسلى ويسلئرى مصارع قبيح كرام وقلى لم تؤسذ خدودها فلما قتل عبد الله بن الماحوز استخلف الخوارج الزبير بن الماحوز.

وكتب المهلب إلى الحارث بن أبي ربيعة يعرفه ظفراً، فأرسل الحارث الكتاب إلى ابن الزبير بمكة ليقرأه على الناس هناك، وكتب الحارث إلى المهلب:

أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه نصر الله وظفر المسلمين، فهنيئاً لك يا أخا الأزدي شرف الدنيا وعزها وثواب الآخرة وفضلها. فلما قرأ المهلب كتابه ضحك وقال: أما يعرفني إلا بأخي الأزدي ما هو إلا أعرابي جاف.

وقيل: إن عثمان بن عبيد الله بن معمر قاتل الخوارج ونافع بن الأزرق قبل مسلم، فقتل عثمان وانهزم أصحابه بعد أن قتل من الخوارج خلق كثير، فسير إليهم من البصرة بعده حارثة بن بدر الغداني، فلما رآهم عرف أنه لا طاقة له بهم فقال لأصحابه:

كزبوا وذليلوا كيف شئتم فاذفبوا يعني ما شاء؛ ثم سار بعده مسلم بن عيسى. (٢٠١/٤)

وقيل: إن المهلب لما دفع الخوارج من البصرة إلى ناحية الأهواز أقام بقية سنته يجبي كوز دجلة، ورزق أصحابه، وأتاه المدد من البصرة حتى بلغ أصحابه ثلاثين ألفاً.

فعلى هذا تكون هزيمة الخوارج سنة ست وستين.

ذكر نجدة بن عامر الحنفي

هو نجدة بن عامر بن عبد الله بن ساد بن المفرج الحنفي، وكان مع نافع بن الأزرق، ففارقه لإحداثه في مذهبه ما تقدم ذكره، وسار إلى اليمامة، ودعا أبا طلوت إلى نفسه، فمضى إلى الحضارم

وتركي. (٢٠٣/٤)

عبّاس، فسألوه، ومساءلة ابن عباس مشهورة.

وبعث نجدة أيضاً بعد هزيمة ابن عمير جيشاً إلى عُمان واستعمل عليهم عطية بن الأسود الحنفي، وقد غلب عليها عبّاد بن عبد الله، وهو شيخ كبير، وابنيه سعيد وسليمان يعشّران السفن ويجيبان البلاد، فلما أتاهم عطية قاتلوا قُتل عبّاد واستولى عطية على البلاد فأقام بها أشهراً ثم خرج منها واستخلف رجلاً يكنى أبا القاسم، فقتله سعيد وسليمان ابنا عبّاد وأهل عُمان.

ثم خالف عطية نجدة، على ما ذكره إن شاء الله، فعاد إلى عُمان فلم يقدر عليها فركب في البحر وأتى كرمّان وضرب بها دارهم سمّاهم العطوية وأقام بكرمان. فأرسل إليه المهلب جيشاً، فهرب إلى سيجستان ثم إلى السند، فلقبه خيل المهلب بقنديل فقتله، وقيل: قتله الخوارج.

ثم بعث نجدة إلى البوادي بعد هزيمة ابن عمير أيضاً من يأخذ من أهلها الصدقة، فقاتل أصحابه بني تميم بكاطمة، وأعان أهل طُوَيْلَع بني تميم، فقتلوا من الخوارج رجلاً، فأرسل نجدة إلى أهل طُوَيْلَع من أغار عليهم وقتل منهم ثيافاً وثلاثين رجلاً وسبى. ثم إنّه دعاهم بعد ذلك فأجابوه، فأخذ منهم الصدقة، ثم سار نجدة إلى صنعاء في خوف من الجيش، فبايعه أهلها وظنّوا أن وراءه جيشاً كبيراً، فلما لم يروا مدداً يأتيه ندموا على بيعته، وبلغه ذلك فقال: إن شتمت أقتلكم بيعتكم وجعلتكم في حلّ منها وقاتلتكم. فقالوا: لا نستقبل بيعتنا. فبعث إلى مخالفيها فأخذ منهم الصدقة، وبعث نجدة أبا فُذَيْك إلى حضرموت فجنّب صدقات أهلها.

وحجّ نجدة سنة ثمان وستين، وقيل سنة تسع وستين، وهو في ثمانمائة وستين رجلاً، وقيل في ألفي رجل وستمائة رجل، وصالح ابن الزبير على أن يصلي كلّ واحد بأصحابه ويقف بهم ويكف بعضهم عن بعض.

فلما صدر نجدة عن الحجّ سار إلى المدينة، فتأهب أهلها لقتاله، وتقلّد عبد الله بن عمر سيفاً، فلما كان نجدة يدخل أخير بلبس ابن عمر السلاح، (٢٠٤/٤) فرجع إلى الطائف وأصاب بشتاً لعبد الله بن عمرو بن عثمان كانت عند ظنّ لها فضمها إليه، فقال بعض أصحابه: إن نجدة ليتعصب لهذه الجارية فامتحنوه، فسأله بعضهم بيعها منه، فقال: قد اعتقت نصيبي منها فهي حرة. قال: فزوجني إياها. قال: هي بالغ وهي أملك بنفسها فانا استأمرها؛ فقام من مجلسه ثم عاد، قال: قد استأمرتها وكرهت الزواج.

فقيل: إن عبد الملك أو عبد الله بن الزبير كتب إليه: والله لئن أحدثت فيها حدثاً لأطان بلادك وطأة لا يبقى معها بكري.

وكتب نجدة إلى ابن عمر يسأله عن أشياء، فقال: سلوا ابن

ولما سار نجدة من الطائف أتاه عاصم بن عُزْوة بن مسعود الثقفي فبايعه عن قومه، ولم يدخل نجدة الطائف، فلما قدم الحجاج الطائف لمحاربة ابن الزبير قال لعاصم: يا ذا الوجهين بايعت نجدة! قال: إي والله وذو عشرة أوجه أعطيت نجدة الرضى ودفعته عن قومي وبلدي.

واستعمل الحاروق، وهو حراق، على الطائف وتبالة والسراة، واستعمل سعد الطلائع على ما يلي نُجْران، ورجع نجدة إلى البحرين فقطع الميرة عن أهل الحرمين منها ومن اليمامة، فكتب إليه ابن عباس: إن ثمامة بن أثال لما أسلم قطع الميرة عن أهل مكة وهم مشركون فكتب إليه رسول الله، ﷺ: إن أهل مكة أهل الله فلا تمنعهم الميرة، فجعلها لهم، وإنك قطعت الميرة عنا ونحن مسلمون، فجعلها نجدة لهم.

ولم يزل عمال نجدة على النواحي حتى اختلف عليه أصحابه فطعم فيهم (٢٠٥/٤) الناس؛ فأما الحاروق فطلبوه بالطائف فهرب، فلما كان في العقبة في طريقه لجقه قوم يطلبونه فرموه بالحجارة حتى قتلوه.

ذكر الاختلاف على نجدة وقله وولاية أبي فُذَيْك

ثم إن أصحاب نجدة اختلفوا عليه لأسباب تقومها منه، فمنها: أن أبا سنان حنّ بن وائل أشار على نجدة بقتل من أجابه تقيّة، فشمته نجدة، فهم بالفتك به، فقال له نجدة: كلّف الله أحداً علم الغيب؟ قال: لا. قال: فإنما علينا أن نحكم بالظاهر. فرجع أبو سنان إلى نجدة.

ومنها: أن عطية بن الأسود خالف على نجدة، وسببه أن نجدة سبر سرية بحراً وسرية برّاً، فأعطى سرية البحر أكثر من سرية البر، فنازعه عطية حتى أغضبه، فشمته نجدة، فغضب عليه وألب الناس عليه. وكلّم نجدة في رجل يشرب الخمر في عسكره فقال: هو رجل شديد النكاية على العدو وقد استنصر رسول الله، ﷺ، بالمشرّكين. وكتب عبد الملك إلى نجدة يدعو إلى طاعته ويؤيّه اليمامة ويهذّر له ما أصاب من الأموال والدماء فطمس عليه عطية وقال: ما كاتبه عبد الملك حتى علم منه دهاناً في الدين، وفارقه إلى عُمان.

ومنها أن قوماً فارقوا نجدة واستتابوه فحلف أن لا يعود، ثم ندموا على استتابته وتفرقوا وتقموا عليه أشياء أخر فخالف عليه عامة من معه فاتحازوا عنه ولوا أمرهم أبا فُذَيْك عبد الله بن ثور، أحد بني قيس بن ثعلبة، واستخفى (٢٠٦/٤) نجدة، فأرسل أبو فُذَيْك في طلبه جماعة من أصحابه وقال: إن ظفرت به فجيئوني به.

ذكر الحرب بين ابن خازم وبني تميم

في هذه السنة كانت الحرب بين ابن خازم السُلَمي وبني تميم بخراسان وسبب ذلك أن من كان بخراسان من بني تميم أعانوا ابن خازم على (٢٠٨/٤) من بها من ربيعة، وقد تقدّم ذكر ذلك، فلمّا صفت له خراسان جفا بني تميم، وكان قد جعل ابنه محمداً على هراة، وجعل على شرطته بكير بن وسّاج وضّم إليه شماس بن دثار العطاردي، وكانت أم محمد تميمية، فلمّا جفا ابن خازم بني تميم أتوا ابنه محمداً بهراة، فكتب ابن خازم إلى ابنه محمداً وإلى بكير وشماس يأمرهم بمنعهم عن هراة، فأما شماس فصار مع بني تميم، وأما بكير فإنه منعهم، فأقاموا ببلاد هراة، فأرسل بكير إلى شماس: إني أعطيتك ثلاثين ألفاً فأعط كل رجل من بني تميم ألفاً على أن ينصرفوا.

فأبوا عليه وأقاموا يترصدون محمداً، فخرج يتصيد فأخذه وشدوه وثاقاً وشربوا ليلتهم وجعلوا يبولون عليه كلّما أرادوا البول، فقال لهم شماس: أما إذ بلغتم هذا منه فاقتلوه بصاحبيكما اللذين قتلها بالسياط. وكان قد ضرب رجلين من تميم بالسياط حتى ماتا. فقاموا إليه ليقتلوه، فنهاهم عنه جيهان بن مشجعة الضبيّ وألقى نفسه عليه، فلم يقبلوا منه وقتلوا محمداً. فشكر ابن خازم لجيهان ذلك [فلم] يقتله فيمن قتل [يوم] فرّنا.

وكان الذي تولى قتل محمداً رجلان اسم أحدهما عجلة واسم الآخر كسيب. فقال ابن خازم: بش ما اكتسب كسيب لقومه، ولقد عجل عجلة لقومه شراً.

واقبلت تميم إلى مرو وأمرؤا عليهم الحريش بن هلال القريني، وأجمع أكثرهم على قتال ابن خازم، فقاتل الحريش بن هلال عبد الله بن خازم ستين، فلمّا طالت الحرب خرج الحريش فنادى ابن خازم وقال له: طالت الحرب بيننا فعلاّم تقتل قومي وقومك؟ ابرز إليّ فأينا قتل صاحبه صارت الأرض له. (٢٠٩/٤)

فقال له ابن خازم: قد أنصفت. فبرز إليه فتضاربا وتصالوا تصاول الفحلين لا يقدر أحدهما على صاحبه، ثم غفل ابن خازم فضربه الحريش على رأسه فألقى فروة رأسه على وجهه وانقطع ركاب الحريش وانتزع السيف، ولزم ابن خازم عنق فرسه راجعاً إلى أصحابه، ثم غاداهم القتال، فمكثوا بذلك بعد الضربة أياماً ثم ملّ الفريقان فتفرقوا ثلاث فرق: فرقة إلى نيسابور مع بحير بن ورقاء، وفرقة إلى ناحية أخرى، وفرقة فيها الحريش إلى مرو الرود، فأتبعه ابن خازم إلى قرية تسمى الملحمة والحريش في اثني عشر رجلاً، وقد تفرقت عنه أصحابه، وهم في خربة، فلمّا انتهى إليه ابن خازم خرج إليه في أصحابه، فحمل مولى لابن خازم على الحريش فضربه فلم يصنع شيئاً، فقال الحريش لرجل معه: إن سيني لا

وقيل لأبي فديك: إن لم تقتل نجدة تفرق الناس عنك، فالحق في طلبه. وكان نجدة مستخفياً في قرية من قرى حجر، وكان للقوم الذين اختفى عندهم جارية يخالف إليها راع لهم، فأخذت الجارية من طبيب كان مع نجدة فسألها الراعي عن أمر الطبيب، فأخبرته، فأخبر الراعي أصحاب أبي فديك بنجدة، فطلبوه فسلّز بهم، فأتى أخواله من بني تميم فاستخفى عندهم. ثم أراد المسير إلى عبد الملك فأتى بيته ليعهد إلى زوجته، فعلم به الفديكيّة وقصده، فسبق إليه رجل منهم فاعلمه، فخرج ويده السيف، فنزل الفديكي عن فرسه وقال: إن فرسي هذا لا يدرك فاركيه فلعلك تنجو عليه. فقال: ما أحب البقاء ولقد تعرّضت للشهادة في مواطن ما هذا بأحسنها، وغشيه أصحاب أبي فديك فقتلوه، وكان شجاعاً كريماً، وهو يقول:

وإن جرّ مولانا علينا جريرة صبرنا لها إن الكرام الدعايم
ولما قتل نجدة سخط قتله قوماً من أصحاب أبي فديك
ففارقه، وثار به مسلم بن جبير فضربه اثني عشرة ضربة بسكين، فقتل مسلم وحمل أبو فديك إلى منزله فبرأ.

ذكر استعمال مصعب على المدينة

في هذه السنة عزل عبد الله بن الزبير أخاه عبيدة بن الزبير عن المدينة واستعمل أخاه مصعباً. (٢٠٧/٤)

وسبب ذلك أن عبيدة خطب الناس فقال لهم: قد ترون ما صنع الله بقوم في ناقة قيمتها خمسة دراهم، فسُمي مقوم الناقة، فبلغ ذلك أخاه عبد الله فغزله واستعمل مصعباً.

ذكر بناء ابن الزبير الكعبة

لما احترقت الكعبة حين غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير أيام يزيد تركها ابن الزبير يشنع بذلك على أهل الشام، فلمّا مات يزيد واستقر الأمر لابن الزبير شرع في بنائها، فأمر يهدمها حتى ألحقت بالأرض، وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق، وجعل الحجر الأسود عنده، وكان الناس يطوفون من وراء الأساس، وضرب عليها السور وأدخل فيها الججر، واحتج بأن رسول الله ﷺ قال لعائشة: لولا حدثان عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم وأزيد فيها الججر.

فحفر ابن الزبير فوجد أساساً أمثال الجمال فحركوا منها صخرة فبرقت بارقة فقال: آتروها على أساسها وبنائها، وجعل لها بابين يَدْخُل من أحدهما ويُخْرَج من الآخر.
وقيل: كانت عمارتها سنة أربع وستين.

يصنع في سلاحه شيئاً فاعطني خشية، فاعطاه عوداً من عُتَاب، فحمل على المولى فضربه فنقط وقيداً، ثم قال لابن خازم: ما تريد مني وقد خليتك والبلاد؟ قال: إنك تعود إليها. قال: لا أعوده، فصالحه على أن يخرج من خراسان ولا يعود إلى قتاله، فاعطاه ابن خازم أربعين ألفاً، وفتح له الحريش باب القصر، فدخله ابن خازم وضمن له وفاء دينه وتحذراً طويلاً.

وطارت قطنة عن الضربة التي برأس ابن خازم، فأخذها الحريش ووضعها مكانها، فقال له ابن خازم: مسك اليوم ألين من مسك أمس. فقال الحريش: معذرة إلى الله وإليك، أما والله لولا أني ركايتي انقطع لخالط السيف رأسك؛ قال الحريش في ذلك: **إِذَا عَظُمَ ذِرَاعِي عَنْ مَرْكَبِهِ حَمَلُ الرُّبْدِيِّ فِي الإِدْلَاجِ بِالسَّحَرِ** (٢١٠/٤)

خولني ما اغتمضت عيني بمنزلة إلا وقفي وسألني على حجر بزوي الخليفة وسرناي إذا مجفت عني العيون يحال الفرح الذكر (بحير بن ورقاء بفتح الباء الموحدة والحاء المهملة المكسورة. والحريش بالحاء والراء المهملتين، والشين المعجمة).

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وقع طاعون الجارف بالبصرة وعليها عبيد الله بن مغنر، فهلك به خلق كثير، فماتت أم عبيد الله، فلم يجدوا لها من يحملها حتى استأجروا من حملها، وهو الأمير.

وجع بالناس عبد الله بن الزبير. وكان على المدينة مضتب، وعلى الكوفة ابن مطيع، وعلى البصرة الحارث بن ربيعة المخزومي، وعلى خراسان عبد الله بن خازم.

وفيهما توفي عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي، وكان قد عمي آخر عمره، وكانت وفاته بمصر، وقيل: توفي سنة ثمان وستين (٢١١/٤).

سنة ست وستين

ذكر وثوب المختار بالكوفة

في هذه السنة رابع عشر ربيع الأول وثب المختار بالكوفة وأخرج عنها عبد الله بن مطيع عامل عبد الله بن الزبير.

وسبب ذلك أن سليمان بن صرد لما قتل قدم من بقي من أصحابه الكوفة فلما قدموا وجدوا المختار محبوساً قد حبسه عبد الله بن يزيد الخطمي وإبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد تقدم ذكر ذلك، فكتب إليه من الحبس بشي عليهم ويمتهم الظفر ويعرفهم أنه هو الذي أمره محمد بن علي، المعروف بابن الحنفية، بطلب الثار،

فقرأ كتابه رفاعه بن شداد والمثنى بن مخزبة العبدى وسعد بن حذيفة بن اليمان ويزيد بن أنس وأحمو بن شميظ الأحمسي وعبد الله بن شداد البجلي وعبد الله بن كامل، فلما قرأوا كتابه بعثوا إليه ابن كامل يقولون له: إننا بحيث يسرك، فإن شئت أن نأتبك ونخرجك من الحبس فعلنا. فأثاه فأخبره، فسر بذلك وقال لهم: إنني أخرج في أيامي هذه.

وكان المختار قد أرسل إلى ابن عمر يقول له: إنني قد حبست مظلوماً، ويطلب إليه أن يشفع فيه إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة، فكتب إليهما ابن عمر في أمره، فشفعه وأخرجاه من السجن وضمناه وحلفاه (٢١٢/٤) أنه لا ينيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن فعل فعليه ألف بدنة ينجرها عند الكعبة ومما ليكه أحرار ذكرهم وأناهم.

فلما خرج نزل بداره، فقال لمن يثق به: قاتلهم الله ما أحقهم حين يرون أنني أني لهم! أما حلقي بالله فإني إذا حلفت على يمين فرأيت خيراً منها كفرت عن يميني، وخروحي عليهم خير من كفي عنهم، وأما هدي البذن وعق المماليك فهو أهون علي من بشفة، فوددت أن تم لي أمري ولا أملك بعده مملوكاً أبداً.

ثم اختلفت إليه الشيعة واتفقوا على الرضى به، ولم يزل أصحابه يكثرُونَ وأمره يقوى حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد الخطمي وإبراهيم بن محمد بن طلحة واستعمل عبد الله بن مطيع على عملهما بالكوفة، فلقبه بحير بن رستان الجُميري عند مسيره إلى الكوفة فقال له: لا تسير الليلة فإن القمر بالناطح فلا تسير، فقال له: وهل نطلب إلا النطح! فلقي نطحاً كما يريد، فكان البلاء موثقاً بمنطقه، وكان شجاعاً.

وسار إبراهيم إلى المدينة وكسر الخراج وقال: كانت فتنة، فسكت عنه ابن الزبير.

وكان قدوم ابن مطيع في رمضان لخمس بقين منه، وجعل على شرطته إياس بن مضارب العجلي، وأمره بحسن السيرة والشدّة على العرب، ولما قدم صعد المنبر فخطبهم وقال: أما بعد فإن أمير المؤمنين يعني على مصركم وثغوركم، وأمرني بجباية فينكم وأن لا أحمل فضل فينكم عنكم إلا برضى (٢١٣/٤) منكم، وأن أتبع وصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وسيرة عثمان بن عفان، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم، فإن لم تفعلوا فلو موات أنفسكم [ولا تلوموني]، فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي، ولأقيمن درء الأصغر المرتاب.

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري فقال: أما حمل فيتنا برضانا فإننا تشهد أننا لا نرضى أن يُحمل عنا فضله وأن لا يُقسم إلا فينا، وأن لا يُسار فينا إلا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في

بلادنا هذه حتى هلك، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في قيتنا ولا في أنفسنا، ولا في سيرة عمر بن الخطاب فينا، وإن كانت أهون السيرتين علينا، وقد كان يفعل بالناس خيراً.

فقال يزيد بن أنس: صدق السائب وبر.

فقال ابن مطيع: نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها. ثم نزل.

فقام عبد الرحمن بن شريح وأخبرهم بحالهم ومسيرهم وأن ابن الحنفية (٢١٥/٤) أمرهم بمظاهرة وموازرتة، وقال لهم: ليلع الشاهد الغائب واستعدوا وتأهبوا وقام جماعة من أصحابه فقالوا نحواً من كلامه.

فاستجمعت له الشيعة، وكان من جعلتهم الشيعي وأبوه شراحيل، فلما تهيأ أمره للخروج قال له بعض أصحابه: إن أشراف أهل الكوفة مجمعون على قتالكم مع ابن مطيع، فإن أجابنا إلى أمرنا إبراهيم بن الأشتر رجونا القوة على عدونا، فإنه فتى رئيس، وابن رجل شريف، له عشيرة ذات عز وعدد.

فقال لهم المختار: فالفقه وادعوه. فخرجوا إليه ومعهم الشعبي فأعلموه حالهم وسألوه مساعدتهم عليه وذكروا له ما كان أبوه عليه من ولاء علي وأهل بيته. فقال لهم: إني قد أجبتكم إلى الطلب بدم الحسين وأهل بيته على أن تولوني الأمر. فقالوا له: أنت لذلك أهل ولكن ليس إلى ذلك سبيل، هذا المختار قد جاءنا من قتل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته. فسكت إبراهيم ولم يجهم، فانصرفوا عنه فأخبروا المختار، فمكث ثلاثاً ثم سار في بضعة عشر من أصحابه والشيعي وأبوه فيهم إلى إبراهيم فدخلوا عليه، فألقى لهم الوسائل، فجلسوا عليها وجلس المختار معه على فراشه، فقال له المختار: هذا كتاب من المهدي محمد بن علي أمير المؤمنين وهو خير أهل الأرض اليوم وابن خير أهلها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله، وهو يسألك أن تنصرتنا وتوازرنا.

قال الشعبي: وكان الكتاب معي، فلما قضى كلامه قال لي: ادفع الكتاب إليه، فدفعه إليه الشعبي، فقرأه فإذا فيه: من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني قد بعثت إليكم وزيراً وأميناً الذي ارتضيته لنفسه وأمرته بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي فانهض معهم بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك فإنك (٢١٦/٤) إن نصرتني وأجبت دعوتي كانت لك بذلك عندي فضيلة، ولك أcente الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام.

فلما فرغ من قراءة الكتاب قال: قد كتب إلي ابن الحنفية قبل اليوم وكتب فلم يكتب إلي إلا باسمه واسم أبيه. قال المختار: إن ذلك زمان وهذا زمان. قال: فمن يعلم أن هذا كتابه [إلي]؟ فشهد جماعة ممن معه، منهم: زيد بن أنس وأحمر بن شميظ وعبد الله بن كامل وجماعتهم إلا الشعبي.

وجاء إياس بن مضارب إلى ابن مطيع فقال له: إن السائب بن مالك من رؤوس أصحاب المختار، فابعث إلى المختار فليأتك، فإذا جاء فاحبسه حتى يستقيم أمر الناس، فإن أمره قد استجمع له وكأنه قد وثب بالمصر.

فبعث ابن مطيع إلى المختار زائدة بن قدامة وحسين بن عبد الله البرسمي من همدان، فقالا: أجب الأمير، فعزم على الذهاب، فقرأ زائدة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية [الأأنفال: ٣٨]؛ فألقى المختار ثيابه وقال: ألقوا علي قطيفة فقد وعثت، إني لأجد برداً شديداً، أرجعوا إلى الأمير فأعلمناه حاله. فعادوا إلى ابن مطيع فأعلمناه، فتركه. (٢١٤/٤)

ووجه المختار إلى أصحابه فجمعهم حوله في الدور وأراد أن يثب في الكوفة في المحرم، فجاء رجل من أصحاب شيبام، وشيبام حي من همدان، وكان شريفاً اسمه عبد الرحمن بن شريح، فلقى سعيد بن مئذ الثوري وسفر بن أبي سفيان الحنفي والأسود بن جراد الكندي وقدامة بن مالك الجشمي فقال لهم: إن المختار يريد أن يخرج بنا ولا ندري أرسله ابن الحنفية أم لا، فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية نخبره بما قدم علينا به المختار، فإن رخص لنا في اتباعه تبعناه وإن نهانا عنه اجتنبناه، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من الدنيا أثر عندنا سلامة ديننا. قالوا له: أصبت.

فخرجوا إلى ابن الحنفية، فلما قدموا عليه سألهم عن حال الناس فأخبروه عن حالهم وما هم عليه وأعلموه حال المختار وما دعاهم إليه واستأذنه في اتباعه.

فلما فرغوا من كلامهم قال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر فضيلة أهل البيت والمصيبة بقتل الحسين، ثم قال لهم: وأما ما ذكرتم ممن دعاكم إلى الطلب بدمائنا فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه، ولو كره لقال لا تفعلوا.

فعادوا وناس من الشيعة ينتظرونهم ممن أعلموه بحالهم، وكان ذلك قد شق على المختار وخاف أن يعودوا بأمر يخذل الشيعة عنه، فلما قدموا الكوفة دخلوا على المختار قبل دخولهم إلى بيوتهم، فقال لهم: ما وراءكم فقد فتنتم وارتبتم فقالوا له: إنا قد أمرنا بنصرك. فقال: الله أكبر، اجمعوا إلي الشيعة، فجمع من كان قريباً منهم، فقال لهم: إن نقرأ قد أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت

قومه فاحتز رأسه، وتفرق أصحاب إياس ورجعوا إلى ابن مُطيع.

فلما شهدوا تأخر إبراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه ثم خرجوا من عنده، وقال إبراهيم للشعبي: قد رأيته لم تشهد مع القوم أنت ولا أبوك، أقرى هؤلاء شهداء على حق؟ فقال له: هؤلاء سادة القراء ومشيوخه المصر وفرسان العرب ولا يقول مثلهم إلا حقاً.

فكتب أسماءهم وتركها عنده، ودعا إبراهيم عشيرته ومن أطاعه وأقبل يختلف إلى المختار كل عشية عند المساء يدبرون أمرهم، واجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ست وستين.

فلما كان تلك الليلة عند المغرب صلى إبراهيم بأصحابه ثم خرج يريد المختار وعليه وأعلى أصحابه السلاح، وقد أتى إياس بن مضارب عبد الله بن مُطيع فقال له: إن المختار خارج عليك بإحدى هاتين الليلتين وقد بعثت ابني إلى الكناسة فلو بعثت في كل جبانة عظيمة بالكوفة رجلاً من أصحابك في جماعة من أهل الطاعة لهاب المختار وأصحابه الخروج عليك.

فبعث ابن مُطيع عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني إلى جبانة السبيح، (٢١٧/٤) وقال: اكفني قومك ولا تخذلني بها حدثاً. وبعث كعب بن أبي كعب الخثعمي إلى جبانة بشر. وبعث زحر بن قيس الجعفي إلى جبانة كندة.

وبعث عبد الرحمن بن مخنف إلى جبانة الصائتين. وبعث شعير بن ذي الجوشن إلى جبانة سالم. وبعث يزيد بن رؤيم إلى جبانة المراد، وأوصى كلأ منهم أن يؤتى من قبله. وبعث شبيب بن ربيعة إلى السبخة وقال: إذا سمعت صوت القوم فوجه نحوهم.

وكان خروجهم إلى الجبابين يوم الاثنين، وخرج إبراهيم بن الأشتر يريد المختار ليلة الثلاثاء وقد بلغه أن الجبابين قد ملئت رجلاً، وأن إياس بن مضارب في الشرط قد أحاط بالسوق والقصر، فأخذ معه من أصحابه نحو مائة دارع وقد لبسوا عليها الأقبية، فقال له أصحابه: تجنب الطريق. فقال: والله لأمرن وسط السوق بجنب القصر ولأربعن عدونا ولأرئتهم هوانهم علينا.

فسار على باب الفيل ثم على دار عمرو بن حُرَيْث، فلقبهم إياس بن مضارب في الشرط مظهرين السلاح. فقال: مَنْ أَنْتُمْ؟ فقال إبراهيم: أنا إبراهيم بن الأشتر. فقال إياس: ما هذا الجمع الذي معك وما تريد؟ لست بتاركك حتى آتي بك الأمير. فقال إبراهيم: خلّ سبيلاً. قال: لا أفعل، وكان مع إياس بن مضارب رجل من همدان يقال له أبو قطن، وكان يُكرمه، وكان صديقاً لابن الأشتر، فقال له ابن الأشتر: ادن مني يا أبا قطن، فدنا منه، وهو يظن أن إبراهيم يطلب منه أن يشفع فيه إلى إياس، فلما دنا منه أخذ رمحاً كان معه وطعن به إياساً في ثغرة نحره فصرعه وأمر رجلاً من

فقال له إبراهيم: إن هؤلاء الذين في الجبابين يمنعون أصحابنا من إتياننا، فلو سرت إلى قومي بمن معي ودعوت من أجابني وسرت بهم في نواحي الكوفة ودعوت بشعارنا لخرج إلينا من أراد الخروج ومن أنك حسنة عندك إلى من معك، فإن عوجلت كان عندك من يمنعك إلى أن أتيك. فقال له: افعل وعجل وإياك أن تسير إلى أميرهم فتقاتله ولا تقاتل أحداً وانت تستطيع أن لا تقاتله إلا أن يذاك أحد بقتال.

فخرج إبراهيم وأصحابه حتى أتى قومه، واجتمع إليه جل من كان أجابه، وسار بهم في سكك المدينة ليلاً طويلاً وهو يتجنب المواضع التي فيها الأمراء الذين وضعهم ابن مُطيع، فلما انتهى إلى مسجد السكون أتاه جماعة من خيل زحر بن قيس الجعفي ليس عليهم أمير، فحمل عليهم إبراهيم فكشفهم حتى أدخلهم جبانة كندة وهو يقول: اللهم إنك تعلم أننا غضبنا لأهل بيت نبيك وثرنا لهم فانصرنا على هؤلاء.

ثم رجع إبراهيم عنهم بعد أن هزمهم، ثم سار إبراهيم حتى أتى جبانة أثير، فتنادوا بشعارهم، فوقف فيها، فأتاه سُؤيد بن عبد الرحمن المنقري (٢١٩/٤) ورجا أن يصيبهم فيحظى بها عند ابن مُطيع، فلم يشعر به إبراهيم إلا وهو معه فقال إبراهيم لأصحابه: يا شرطة الله انزلوا فإني أرى أولى بالنصر من هؤلاء الفساق الذين خاضوا في دماء أهل بيت نبيكم فنزلوا، ثم حمل عليهم إبراهيم حتى أخرجهم إلى الصحراء فانهزموا، فركب بعضهم بعضاً وهو يتلاومون، وتبعهم حتى أدخلهم الكناسة، فقال لإبراهيم أصحابه: اتبعهم واغتنم ما دخلهم من الرعب. فقال: لا ولكن نأني صاحبنا يؤمن الله بنا وحشته ويعلم ما كان من نصرنا له فيزداد هو وأصحابه قوة مع أنني لا آمن أن يكون قد أتي.

ثم سار إبراهيم حتى أتى باب المختار، فسمع الأصوات عالية والقوم يقتلون، وقد جاء شبيب بن ربيعة من قبيل السبخة، فبعث له المختار يزيد بن أنس. وجاء حجار بن أبجر البجلي فجعل المختار

وأمره بقتال شَيْثَ بن رَبِيعٍ وَمَنْ معه، وأمرهما بتعجيل القتال وأن لا يستهدفا لعدوهما فإنه أكثر منهما، فتوجه إبراهيم إلى راشد، وقدم المختارُ يزيدُ بن أنسٍ في موضعٍ مسجد شَيْثَ بن رَبِيعٍ في تسعة أمانه، فتوجه نعيم إلى شَيْثَ فقاتله قتالاً شديداً، فجعل نعيمُ يسيرُ بين أبي سِغَرٍ على الخيل ومشى هو في الرِّجَالَةِ فقاتلهم حتى أشرقت الشمس وانسبطت، فانهزم أصحابُ شَيْثَ حتى دخلوا البيوت، فناداهم شَيْثَ وحرَّضهم، فرجع إليه منهم جماعة، فحملوا على أصحاب نعيمٍ وقد تفرقوا، فهزمهم، وصبر نعيمُ فقتل، وأسير سِغَرُ ابن أبي سِغَرٍ وجماعة من أصحابه، فاطلق العرب وقتل الموالي، وجاء شَيْثُ حتى أحاط بالمختار، وكان قد وهن لقتل نعيم.

وبعث ابنُ مطيعٍ يزيدُ بن الحارث بن رُوَيْمٍ في ألفين، فوقفوا في أفواه السكك، وولى المختارُ يزيدُ بن أنسٍ خيله وخرج هو في الرِّجَالَةِ، فحملت عليه خيلُ شَيْثَ فلم يبرحوا مكانهم، فقال لهم يزيدُ بن أنسٍ: يا معشر الشيعة إنكم كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم وتُسَمِّلُ أعينكم وترْفَعُونَ على جذوع النخل في حب أهل بيت نبيكم، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوكم، فما ظنكم بهؤلاء القوم إذا ظهروا عليكم اليوم؟ والله لا يدعون منك عيناً نظرف، وليقتلنكم صبراً، ولترون منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خير منه، والله لا يُنجيكم منهم إلا الصدق والصبر والطعن الصائب والضرب الدراك، فتهيأوا للحملة. فتيسروا ويتظنون أمره وجنوا على رُكْبهم. (٢٢٢/٤)

وأما إبراهيم بن الأشتر فإنه لقي راشداً معه أربعة آلاف، فقال إبراهيم لأصحابه: لا يهولنكم كثرة هؤلاء، فوالله لرب رجل خير من عشرة، والله مع الصابرين. وقدم خزيمة بن نصر إليهم في الخيل، ونزل هو ومشى في الرِّجَالَةِ، وأخذ إبراهيم يقول لصاحب رايته: تقدّم برايتك، امض بهؤلاء وبها.

واقبل الناس قتالاً شديداً، وحمل خزيمة بن نصر العسبي على راشد فقتله، ثم نادى قتل راشد ورب الكعبة! وانهزم أصحاب راشد، وأقبل إبراهيم وخزيمة ومن معهم بعد قتل راشد نحو المختار، وأرسل البشير إلى المختار بقتل راشد، فكبر هو وأصحابه وقويت نفوسهم، ودخل أصحاب ابن مطيع الفشل.

وأرسل ابنُ مطيعٍ حسان بن قائد بن بكر العسبي في جيش كثيف نحو ألفين، فاعترض إبراهيم ليرده عمن بالسبحة من أصحاب ابن مطيع، فتقدم إليهم إبراهيم، فانهزموا من غير قتال، وتأخر حسان يحمي أصحابه، فحمل عليه خزيمة، فعرفه فقال: يا حسان لولا القرابة لقتلتك، فانج بنفسك. فعثر به فرسه فوقع، فابتدره الناس، فقاتل ساعة، فقال له خزيمة: أنت آمن فلا تقتل

في وجهه أحمر بن شميظ. فبينما الناس يقتلون إذا جاء إبراهيم من قبل القصر فبلغ حجاراً وأصحابه أن إبراهيم قد أتاهم من ورائهم، فنفروا في الأرقه قبل أن يأتهم، وجاء قيس بن طهفة النهدي في قريب من مائة، وهو من أصحاب المختار، فحمل على شَيْثَ وهو يقاتل يزيد بن أنس، فخلّى لهم الطريق حتى اجتمعوا وأقبل شَيْثَ بن رَبِيعٍ إلى ابن مطيع وقال له: اجمع الأمراء الذين بالجبابين وجميع الناس ثم انفذ إلى هؤلاء القوم فقاتلهم فإن أمرهم قد قوي وقد خرج المختار وظهر واجتمع له أمره.

فلما بلغ قوله المختارُ خرج في جماعة من أصحابه حتى نزل في ظهر دَيْرِ هند في السبحة، وخرج أبو عثمان النهدي فنشأ في شاكراً وهم مجتمعون في (٢٢٠/٤) دورهم يخافون أن يظهروا لقرب كعب الخثعمي منهم، وكان قد أخذ عليهم أفواه السكك. فلما أتاهم أبو عثمان في جماعة من أصحابه نادى: يا لشارت الحسين! يا منصور أيت أيت! يا أيها الحي المهتدون إن أمين آل محمد ووزيرهم قد خرج فنزل دير هند وبعثني إليكم داعياً ومبشراً، فاخرجوا رحمكم الله! فخرجوا يتداعون: يا لشارت الحسين. وقاتلوا كعباً حتى خلّى لهم الطريق، فأقبلوا إلى المختار فنزلوا معه، وخرج عبد الله بن قتادة في نحو من مائتين فنزل مع المختار، وكان قد تعرض لهم كعب، فلما عرفهم أنهم من قومه خلّى عنهم.

وخرجت شبام، وهم حي من همدان، من آخر ليلتهم، فبلغ خبرهم عبد الرحمن بن سعيد الهمداني، فأرسل إليهم: إن كنتم تريدون المختار فلا تمروا على جبانة السبيع. فلحقوا بالمختار فتوافى إلى المختار ثلاثة آلاف وثمانمائة من اثني عشر ألفاً كانوا بابعوه، فاجتمعوا له قبل الفجر، فأصبح وقد فرغ من تعبته وصلّى بأصحابه بفلس.

وأرسل ابن مطيع إلى الجبابين فأمر من بها أن يأتوا المسجد، وأمر راشد ابن إلياس فنشأ في الناس: برئت الذمة من رجل لم يأت المسجد الليلة. فاجتمعوا فبعث ابنُ مطيع شَيْثَ بن رَبِيعٍ في نحو ثلاثة آلاف إلى المختار، وبعث راشد بن إلياس في أربعة آلاف من الشُرط.

فصار شَيْثَ إلى المختار، فبلغه خبره وقد فرغ من صلاة الصبح، فأرسل من أتاه بخبرهم، وأتى إلى المختار ذلك الوقت يسيرُ بين أبي سِغَرٍ الحنفي، وهو من أصحابه، لم يقدر على إتيانه إلا تلك الساعة، فرأى راشد بن إلياس (٢٢١/٤) في طريقه فأخبر المختار خبره أيضاً، فبعث المختارُ إبراهيم بن الأشتر إلى راشد في سبع مائة، وقيل في ستمائة فارس وستمائة راجل، وبعث نعيم بن هبيرة، أخا مصقلة بن هبيرة، في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل

الناس أن الحقوا بابن مُساحق.

نفسك، وكف عنه الناس وقال لإبراهيم: هذا ابن عمي وقد أمته، فقال: أحسنت! وأمر بفروسه فأحضر فاركه وقال: الحق بأهلك.

وأقبل إبراهيم نحو المختار و شَبَّ بنُ رِيعي محيط به، فلقبه يزيد بن الحارث وهو على أفواه السكك التي تلي السَّبِيخة، فأقبل إلى إبراهيم ليصده عن شَبَّ وأصحابه، فبعث إبراهيم إليه طائفة من أصحابه مع خُزَيْمة بن نصر وسار نحو المختار وشَبَّ فيمن بقي معه، فلمَّا دنا منهم إبراهيم حمل على شَبَّ، وحمل يزيد بن أنس، فانهزم شَبَّ ومَن معه إلى أبيات الكوفة، وحمل خُزَيْمة بن نصر على يزيد بن الحارث فهزمه، وازدحموا على أفواه السكك وفوق (٢٢٣/٤) البيوت وأقبل المختار. فلمَّا انتهى إلى أفواه السكك رمته الرماة بالنبل فصدوه عن الدخول إلى الكوفة من ذلك الوجه.

ورجع الناس من السَّبِيخة منهزمين إلى ابن مطيع، وجاءه قتل راشد بن إياس فسقط في يده، فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي: أيها الرجل لا تلق بيدك واخرج إلى الناس واتدبهم إلى عدوك، فإنَّ الناس كثير وكلهم معك إلا هذه الطائفة التي خرجت والله يُخزيها، وأنا أول متدب، فانتدب معي طائفة ومع غيري طائفة.

فخرج ابن مطيع فقام في الناس وويخهم على هزيمتهم وأمرهم بالخروج إلى المختار وأصحابه.

ولما رأى المختار أنه قد منعه يزيد بن الحارث من دخول الكوفة عدل إلى بيوت مُزَيْنَة وأحمس وبارق، وبيوتهم منفردة، فسقوا أصحابه الماء ولم يشرب هو، فإنه كان صائماً، فقال أحمر بن شميطة لابن كامل: أتراه صائماً؟ قال: نعم. قال: لو أظطر كان أقوى له. قال: إنه معصوم، وهو أعلم بما يصنع. فقال أحمر: صدقت، استغفر الله.

فقال المختار: نغم المكان للقتال هذا. فقال إبراهيم: إنَّ القوم قد هزمهم الله وأدخل الرعب في قلوبهم، مير بنا، فوالله ما دون القصر مانع. فترك المختار هناك كلَّ شيخ ضعيف ذي علة ونقلهم واستخلف عليهم أبا عثمان النهدي، وقدم إبراهيم أمامه؛ وبعث ابن مطيع عمرو بن الحجاج في ألفين، فخرج عليهم؛ فأرسل المختار إلى إبراهيم أن أطوه ولا تغم عليه؛ فطواه وأقام؛ (٢٢٤/٤) وأمر المختار يزيد بن أنس أن يوافق عمرو بن الحجاج، فمضى إليه، وسار المختار في أثر إبراهيم، ثم وقف في موضع مصلَّى خالد بن عبد الله، ومضى إبراهيم ليدخل الكوفة من نحو الكتاسة، فخرج إليه شعير بن ذي الجَوْشَن في ألفين، فسرَّح إليه المختار سعيد بن مُنْذ الهمداني فواقعه، وأرسل إلى إبراهيم يأمره بالمسير، فسار حتى انتهى إلى سكة شَبَّ، فإذا نوفل بن مُساحق في ألفين وقيل خمسة آلاف، وهو الصحيح، وقد أمر ابن مطيع منادياً فنادى في

وخرج ابن مطيع فوقف بالكتاسة واستخلف شَبَّ بن رِيعي على القصر، فدنا ابن الأشر من ابن مطيع فأمر أصحابه بالنزول وقال لهم: لا يهولنكم أن يقال جاء شَبَّ وآل عَتِيبة بن النُّهَّاس وآل الأشعث وآل يزيد بن الحارث وآل فلان، فسئى بيوتات أهل الكوفة، ثم قال: إنَّ هؤلاء لو وجدوا حرَّ السيف لانهزموا عن ابن مطيع انهزام المعزى من الذئب. ففعلوا ذلك.

وأخذ ابن الأشر أسفل قبائه فادخله في منطقته، وكان القباء على الدرع، فلم يلثوا حين حمل عليهم أن انهزموا يركب بعضهم بعضاً على أفواه السكك وازدحموا، وانتهى ابن الأشر إلى ابن مساحق، فأخذ بعنان دابته ورفع السيف عليه، فقال له: يا ابن الأشر أنتشدك الله هل بيني وبينك من إحنة أو تطلبني بثار؟ فخلَّى مسيله، وقال: أذكرها: فكان يذكرها له.

ودخلوا الكتاسة في آثارهم حتى دخلوا السوق والمسجد وحصروا ابن مطيع ومعه الأشراف من الناس غير عمرو بن خُزَيْم، فإنه أتى داره ثم خرج إلى البر، وجاء المختار حتى نزل جانب السوق. وولى إبراهيم حصار القصر ومعه (٢٢٥/٤) يزيد بن أنس وأحمر بن شميطة، فحصروهم ثلاثاً، فاشتد الحصار عليهم، فقال شَبَّ لابن مطيع: انظر لنفسك ولمن معك فوالله ما عندهم غناء عنك ولا عن أنفسهم. فقال: أشيروا علي. فقال شَبَّ: الراي أن تأخذ لنفسك ولنا أماناً وتخرج ولا تهلك نفسك ومَن معك. فقال ابن مطيع: إني لأكره أن أخذ منه أماناً والأمور لأمير المؤمنين مستقيمة بالحجاز والبصرة. قال: فتخرج ولا يشعر بك أحد فتنزول بالكوفة عند مَن تثق به حتى تلحق بصاحبك.

وأشار بذلك عبد الرحمن بن سعيد وأسماء بن خازجة وابن مخنف وأشراف الكوفة، فأقام حتى أمسى وقال لهم: قد علمت أن الذين صنعوا هذا بكم هم أراذلكم وأحساؤكم وأن أشرافكم وأهل الفضل منكم سامعون مطيعون، وأنا مبلغ ذلك صاحبني ومعلمه طاعتكم وجهادكم حتى كان الله الغالب على أمره. فأتوا عليه خيراً.

وخرج عنهم وأتى دار أبي موسى، فجاء ابن الأشر ونزل القصر، ففتح أصحابه الباب وقالوا: يا ابن الأشر آمنون نحن؟ قال: أنتم آمنون. فخرجوا فباعوا المختار، ودخل المختار القصر فبات فيه، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر، وخرج المختار فقصده المنبر فحمد الله وأثنى عليه فقال:

الحمد لله الذي وعد ولَّيه النصر وعدوه الخسر وجعله فيه إلى آخر الدهر وعداً مفعولاً وقضاء مقضياً، وقد خاب من افترى، أيها الناس إنَّا رفعت (٢٢٦/٤) لنا رايةً ومُدَّت لنا غاية، فقيل لنا في

وبعث سعد بن حذيفة بن اليمان على خلوان وأمره بقتال الأكراد وإقامة الطرق.

وكان ابن الزبير قد استعمل على الموصل محمد بن الأشعث بن قيس، فلما ولي المختار وبعث عبد الرحمن بن سعيد إلى الموصل أميراً سار محمد عنها إلى تكريت ينظر ما يكون من الناس، ثم سار إلى المختار فبايعه.

فلما فرغ المختار مما يريد صار يجلس للناس ويقضي بينهم، ثم قال: إن لي فيما أحاول لشغلاً عن القضاء؛ ثم أقام شريحاً يقضي بين الناس، ثم خافهم شريح فتمارض، وكانوا يقولون: إنه عثماني، وإنه شهد على حُجر (٢٢٨/٤) ابن عدي، وإنه لم يبلغ هاني بن عروة ما أرسله به، وإن علياً عزله عن القضاء. فلما بلغ شريحاً ذلك منهم تمارض، فجعل المختار مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم إن عبد الله مرض فجعل مكانه عبد الله بن مالك الطائي.

ذكر قتل المختار قتلته الحسين، عليه السلام

وفي هذه السنة وثب المختار بمن بالكوفة من قتلته الحسين.

وكان سبب ذلك أن مروان بن الحكم لما استوسق له الشام بعث جيشين: أحدهما إلى الحجاز عليه حبيش بن دلجة القينسي، وقد ذكرنا أمره وقلته، والجيش الآخر إلى العراق مع عبيد الله بن زياد، وقد ذكرنا ما كان من أمره وأمر التوابين، وكان قد جعل لابن زياد ما غلب عليه وأمره أن يهب الكوفة ثلاثاً، فاحتبس بالجزيرة وبها قيس عيلان مع زفر بن الحارث على طاعة ابن الزبير، فلم يزل عبيد الله بن زياد مشتغلاً بهم عن العراق نحو سنة.

فتوفي مروان وليي بعده ابنه عبد الملك بن مروان، فسافر ابن زياد على ما كان أبوه ولأه وأمره بالجد في أمره.

فلما لم يمكنه في زفر ومن معه من قيس شيء أقبل إلى الموصل، فكتب عبد الرحمن بن سعيد عامل المختار إلى المختار يُخبره بدخول ابن زياد أرض الموصل وأنه قد تنحى له عن الموصل إلى تكريت. فدعا المختار يزيد بن أسد الأسدي وأمره أن يسير إلى الموصل فينزل بأداني أرضها حتى يمدّه بالجنود، (٢٢٩/٤) فقال له يزيد: خلني أنتخب ثلاثة آلاف فارس، وخلني ممّا توجّهني إليه، فإن احتجتُ كتبْتُ إليك استمدك. فاجابه المختار، فانتخب له ثلاثة آلاف، وسار عن الكوفة، وسار معه المختار والناس يشيعونه، فلما ودّعه قال له: إذا لقيت عدوك فلا تناظرهم، وإذا مكثت الفرصة فلا تؤخرها، وليكن خبرك كل يوم عندي، وإن احتجت إلى مددٍ فاكب إليّ مع أنني ممدك وإن لم تستمد لأنه أشدّ لعدوك وأرعب لعدوك. ودعا له الناس بالسلامة،

الراية أن ارفعوها وفي الغاية أن اجروا إليها ولا تعدوها، فسمعنا دعوة الداعي ومقالة الواعي، فكم من ناع وناعية لقتلى في الواعية وتُعداً لمن طغى وأدبر وعصى وكذب وتولى، ألا فادخلوا أيها الناس وبايعوا بيعة هدى، فلا والذي جعل السماء سقفاً مكفوفاً والأرض فجاجاً سبلاً ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب وآل علي أهدى منها!

ثم نزل ودخل عليه أشراف الكوفة فبايعوه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المجالين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا.

وكان ممن بايعه المنذر بن حسان وابنه حسان، فلما خرجا من عنده استقبله سعيد بن مقيذ الثوري في جماعة من الشيعة، فلما رأوهما قالوا: هذان والله من رؤوس الجبارين، فقتلوا المنذر وابنه حسان، فنهاهم سعيد حتى يأخذوا أمر المختار، فلم يتهوا، فلما سمع المختار ذلك كرهه، وأقبل المختار بمنى الناس ويستجر مودة الأشراف ويحسن السيرة.

وقيل له: إن ابن مطيع في دار أبي موسى، فسكت، فلما أمسى بعث له بمائة ألف درهم وقال: تجهّز بهذه فقد علمت مكانك وأنت لم يمنعك من الخروج إلا عدم النفقة. وكان بينهما صداقة.

ووجد المختار في بيت المال تسعة آلاف ألف، فأعطى أصحابه الذين قاتل بهم حين حصر ابن مطيع في القصر، وهم ثلاثة آلاف وخمسمائة، لكل رجل منهم خمسمائة درهم، وأعطى ستة آلاف من أصحابه أتوه بعدما أحاط بالقصر (٢٢٧/٤) وأقاموا معه تلك الليلة وتلك الأيام الثلاثة مائتين مائتين، واستقبل الناس بخير، وجعل الأشراف جلساءه، وجعل على شرطته عبد الله بن كامل الشاكري، وعلى حرسه كيسان أبا عمرة.

فقام أبو عمرة على رأسه ذات يوم وهو مقبل على الأشراف بحديثه ووجهه، فقال لأبي عمرة بعض أصحابه من الموالي: أما ترى أبا إسحاق قد أقبل على العرب ما ينظر إلينا؟ فسأله المختار عما قالوا له، فأخبره، فقال: قل لهم لا يشقّ عليهم ذلك فأنتم مني وأنا منكم، وسكت طويلاً ثم قرأ: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]. فلما سمعوها قال بعضهم لبعض: أبشروا، كأنكم والله قد قتلتم، يعني الرؤساء.

وكان أول راية عقدتها المختار لعبد الله بن الحارث أخي الأشر على أرمينية، وبعث محمد بن عُمير بن عطار على أذربيجان، وبعث عبد الرحمن بن سعيد بن قيس على الموصل، وبعث إسحاق بن مسعود على المدائن وأرض جوحى، وبعث قدامة بن أبي عيسى بن رمة النصرى حليف ثقيف على بهقباد الأعلى، وبعث محمد بن كعب بن قرة على بهقباد الأوسط،

ودعوا له، فقال لهم: اسألو الله لي بالشهادة فوالله لئن فاتني النصر لا تفوتني الشهادة.

فكتب المختار إلى عبد الرحمن بن سعيد أن خلّ بين يزيد وبين البلاد. فسار يزيد إلى المدائن، ثم سار إلى أرض جوحى والراذات إلى أرض الموصل فتزل بياتلي، وبلغ خبره ابن زياد، فقال: لأبعثن إلى كل ألف ألفين، فأرسل ربيعة بن مخارق الغنوي في ثلاثة آلاف، وعبد الله بن جملة الخثعمي في ثلاثة آلاف، فسار ربيعة قبل عبد الله يوم فتزل بيزيد بن أنس بياتلي، فخرج يزيد بن أنس وهو مريض شديد المرض راكب على حمار يمسكه الرجال، فوقف على أصحابه وعيابه وحثمهم على القتال وقال: إن هلك فأميركم ورقاء بن العازب الأسدي، فإن هلك فأميركم عبد الله بن ضمرة العذري، تبقى هذه فإن هلك فأميركم ميعر بن أبي ميعر الحنفي، وجعل على ميمته عبد الله، وعلى ميسرته ميعر، وعلى الخيل ورقاء، ونزل هو، فوضع بين الرجال على سرير، وقال: قاتلوا عن أميركم إن شئتم أو فرّوا عنه، وهو يأمر الناس بما يفعلون، ثم يغني عليه ثم يفيق. (٢٣٠/٤)

فاقتل الناس عند قلنّ الصباح يوم عرفة واشتد قتالهم إلى ارتفاع الضحى، فانهزم أهل الشام وأخذ عسكرهم، وانتهى أصحاب يزيد إلى ربيعة بن مخارق وقد انهزم عنه أصحابه وهو نازل ينادي: يا أولياء الحق أنا ابن مخارق، إنما تقاتلون العبيد الأثام ومن ترك الإسلام وخرج منه! فاجتمع إليه جماعة فقاتلوا معه، فاشتد القتال، ثم انهزم أهل الشام وقتل ربيعة بن مخارق، قتله عبد الله بن ورقاء الأسدي وعبد الله بن ضمرة العذري، فلم يسر المنهزمون غير ساعة حتى لقيهم عبد الله بن جملة في ثلاثة آلاف فردّ معه المنهزمين.

ونزل يزيد بياتلي فباتوا ليلتهم يتحارسون، فلما أصبحوا يوم الأضحى خرجوا إلى القتال فاقتلوا قتلاً شديداً، ثم نزلوا فصلوا الظهر، ثم عادوا إلى القتال فانهزم أهل الشام وترك ابن جملة في جماعة فقاتل قتلاً شديداً، فحمل عليه عبد الله بن قمراد الخثعمي فقتله، وحوى أهل الكوفة عسكرهم وقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً وأسروا منهم ثلاثمائة أسير، وأمر يزيد بن أنس بقتلهم، وهو بأخر رمق، فقتلوا، ثم مات آخر النهار، فدفنه أصحابه وسقط في أيديهم.

وكان قد استخلف ورقاء بن عازب الأسدي، فصلّى عليه ثم قال لأصحابه: ماذا ترون؟ إنه قد بلغني أنّ ابن زياد قد أقبل إليكم في ثمانين ألفاً، وإنما أنا رجل منكم فأشيروا عليّ فلاني لا أرى لنا بأهل الشام طاقة على هذه الحال وقد هلك يزيد وتفرق عنا بعض من معنا، فلو انصرفنا اليوم من تلقاء أنفسنا لقالوا: إنما رجعنا عنهم نموت أميرنا ولم يزلوا لنا هائبين، وإن لقيتاهم اليوم كنا مخاطرين،

فذهب إليه فلم يدع شيئاً أنكره إلا ذكره له، فأخذ لا يذكر خصلة إلا قال له المختار: أنا أرضيهم في هذه الخصلة وأتي لهم كل ما أحبوا، وذكر له الموالي ومشاركتهم في الفيء، فقال له: إن أنا تركت مواليكم وجعلت فيكم لكم تقاتلون معي بني أمية وابن الزبير وتعطوني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن إليه من الأيمان؟ فقال شئت: حتى أخرج إلى أصحابي فاذكر لهم ذلك. فخرج إليهم فلم يرجع إليه وأجمع رأيهم على قتاله.

فاجتمع شئت بن ربيعة ومحمد بن الأشعث وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس وشمر حتى دخلوا على كعب بن أبي كعب الخثعمي فكلموه في ذلك، فأجابهم إليه، فخرجوا من عنده حتى دخلوا على عبد الرحمن بن ميثم الأزدي فدعوه إلى ذلك، فقال لهم: إن اطمعنوني لم تخرجوا. فقالوا له: لِمَ؟ فقال: لأنني أخاف أن تفرقوا وتختلفوا ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم مثل فلان وفلان، ثمّ معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة، ومواليكم أشدّ حنفاً عليكم من عدوكم، فهم مقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوة العجم، وإن (٢٣٢/٤) انتظرتموه قليلاً كفيتموه بقدم أهل الشام أو مجيء أهل البصرة، فتكونوا قد كفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم. فقالوا: ننشدك الله أن لا تخالفنا وتفسد علينا رأينا وما أجمعنا عليه! فقال: إنما أنا رجل منكم، فإذا شئتم فاخرجوا.

فوثبوا بالمختار بعد مسير إبراهيم بن الأشتر وخرجوا بالجبّابين كلّ رئيس بجبّانة. فلما بلغ المختار خروجهم أرسل قاصداً مجداً إلى إبراهيم بن الأشتر، فلحقه وهو يساباط يأمره بالرجوع والسرعة، وبعث المختار إليهم في ذلك: أخبروني ماذا تريدون فلاني صانع كل ما أحببتهم. قالوا: نريد أن تعزّ لنا فإنك زعمت أنّ ابن الحنفية بعثك ولم يبعثك. قال: فأرسلوا إليه وفداً من قبلهم وأرسل أنا إليه وفداً، ثم انظروا في ذلك حتى يظهر لكم. وهو يريد أن يريتهم بهذه المقالة حتى يقدم عليه إبراهيم بن الأشتر، وأمر

أصحابه فكفوا أيديهم، وقد أخذ عليهم أهل الكوفة بأفواه السكك فلا يصل إليهم شيء إلا القليل. وخرج عبد الله بن مسيعة في الميدان فقاتله بنو شاكرا قتالاً شديداً، فجاءه عقبة بن طارق الجُشمي فقاتل معه ساعة حتى ردهم عنه، ثم أقبل فنزل عقبة مع شير ومعه قيس عيلان في جبانة سلول، ونزل عبد الله بن مسيعة مع أهل اليمن في جبانة الشبيع.

وأما ابن الأشر فأنه مضى إلى مضر فلقي شبيب بن ربيعة ومن معه، فقال لهم إبراهيم: ويحكم انصرفوا فما أحب أن يصاب من مضر على يدي. فأبوا وقتلوه، فهزمهم، وجرح حسان بن فائد العبيسي فحمل إلى أهله فمات، فكان مع شبيب، وجاءت البشارة إلى المختار بهزيمة مضر، فأرسل إلى أحمر بن شميطة وابن كامل يشيرهما، فاشتد أمرهما.

فاجتمع شيام، وقد رأسوا عليهم أبا القلوص، لبأثوا [أهل] اليمن من ورائهم، فقال بعضهم لبعض: لوجعلتم جدكم على مضر وريعة لكان أصوب، وأبو القلوص ساكت، فقالوا: ما تقول؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة ٩، ١٢٣]. فساروا معه نحو أهل اليمن، فلما خرجوا إلى جبانة الشبيع لقيهم على فم السكة الأصغر الشاكري فقتلوه ونادوا في الجبانة، وقد دخلوها: يا لثارات الحسين! فسمعا يزيد بن عُمير بن ذي مِران الهمداني فقال: يا لثارات عثمان! فقال لهم رفاعة بن شداد: ما لنا ولعثمان! لا أقاتل (٢٣٥/٤) مع قوم يبقون دم عثمان. فقال له ناس من قومه: جئت بنا وأطعناك حتى إذا رأينا قومنا تأخذهم السيوف قلت انصرفوا ودعوهما فعطف عليهم وهو يقول شعراً:

أنا ابن شداد على دين علي لست لعثمان بن أروى بولي
لأصلي اليوم فيمن يخطلي بخمر نار الحرب غير مؤتل
فقاتل حتى قتل.

وكان رفاعة مع المختار، فلما رأى كذبه أراد قتله غيلة، قال فمغنني قول النبي ﷺ: مَنْ اتَّعَمَنَهُ رَجُلٌ عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فَأَنَا مِنْهُ بِرِيءٌ.

فلما كان هذا اليوم قاتل مع أهل الكوفة، فلما سمع يزيد بن عُمير يقول: يا لثارات عثمان، عاد عنهم فقاتل مع المختار حتى قتل، وقتل يزيد بن عُمير ابن ذي مِران والنعمان بن صُهبان الجرهمي، وكان ناسكاً، وقتل الفرات بن زحر بن قيس، وجرح أبوه زحر، وقتل عبد الله بن سعيد بن قيس، وقتل عمر بن مخنف، وقتل عبد الرحمن بن مخنف حتى جرح وحملته الرجال على أيديهم وما يشعروا، وقتل حوله رجال من الأزد، وانهزم أهل اليمن هزيمة قبيحة، وأخذ من دور الوديعتين خمسمائة أسير فأتى بهم المختار مكثفين، فأمر المختار بإحضارهم وعرضهم عليه، وقال: انظروا من شهد منهم قتل الحسين فاعلموني. فقتل كل من شهد

ولما سار رسول المختار وصل إلى ابن الأشر عشية يومه، فوجع ابن الأشر بقية عشية تلك، ثم نزل حين أمسى [فتعشى أصحابه] وأراحوا (٢٣٣/٤) دوابهم قليلاً ثم سار ليلته كلها ومن الغد فوصل العصر وبات ليلته في المسجد ومعه من أصحابه أهل القوة. ولما اجتمع أهل اليمن بجبانة الشبيع حضرت الصلاة، فكره كل رأس من أهل اليمن أن يتقدمه صاحبه، فقال لهم عبد الرحمن بن مخنف: هذا أول الاختلاف، فقاموا الرضى فيكم سيد القراء رفاعة بن شداد البجلي، ففعلوا، فلم يزل يصلّي بهم حتى كانت الوقعة.

ثم إن المختار عيّا أصحابه في السوق وليس فيه ببيان، فأمر ابن الأشر فسار إلى مضر وعليهم شبيب بن ربيعة ومحمد بن عُمير بن عطاردهم بالكناسة، وخشي أن يرسله إلى أهل اليمن فلا يبلغ في قتال قومه. وسار المختار نحو أهل اليمن بجبانة الشبيع ووقف عند دار عمرو بن سعيد وسرح بين يديه أحمر بن شميطة البجلي وعبد الله بن كامل الشاكري وأمر كلا منهما بلزوم طريقي ذكره له يخرج إلى جبانة الشبيع وأسر إليهما أن شياماً قد أرسلوا إليه يخبرونه أنهم يأتون القوم من ورائهم، فمضيا كما أمرهما.

فبلغ أهل اليمن مسيرهما فافترقوا إليهما واقتتلوا أشد قتال رآه الناس، ثم انهزم أصحاب أحمر بن شميطة وأصحاب ابن كامل ووصلوا إلى المختار، فقال: ما وراءكم؟ قالوا: هُزِمْنَا وقد نزل أحمر بن شميطة ومعه ناس من أصحابه. وقال أصحاب ابن كامل: ما ندري ما فعل ابن كامل.

فأقبل بهم المختار نحو القوم حتى بلغ دار أبي عبد الله الجدلي، فوقف ثم أرسل عبد الله بن فراد الخثعمي في أربعمائة إلى ابن كامل وقال له: إن كان قد هلك فانت مكانه وقبائل القوم، وإن كان حيّاً فاتركه عنده ثلاثمائة من أصحابك وامض في مائة حتى تأتي جبانة الشبيع فتأتي أهلها من ناحية حمام قطن. (٢٣٤/٤)

فمضى فوجد ابن كامل يقاتلهم في جماعة من أصحابه قد صبروا معه، فترك عنده ثلاثمائة رجل وسار في مائة حتى أتى مسجد عبد القيس، وقال لأصحابه: إني أحب أن يظهر المختار وأكره أن تهلك أشرف عشيرتي اليوم، والله لأن أموت أحب إلي من أن يهلكوا على يدي، ولكن كفوا فقد سمعت أن شياماً يأتونهم

قتل الحسين، فقتل منهم مائتين وثمانية وأربعين قتيلاً، وأخذ أصحابه يقتلون كل من كان يؤذيهم.

فلما سمع المختار بذلك أمر بإطلاق كل من بقي من الأسارى وأخذ عليهم الموائيق أن لا يجماعوا عليه عدواً ولا يغيروا وأصحابه غائلة، ونادى منادي (٢٣٦/٤) المختار: من أغلق بابه فهو آمن إلا من شرك في دماء آل محمد، ﷺ.

وكان عمرو بن الحجاج الزبيدي ممن شهد قتل الحسين فركب راحلته وأخذ طريق واقصة فلم ير له خبر حتى الساعة، وقيل: أدركه أصحاب المختار وقد سقط من شدة العطش فذبحوه وأخذوا رأسه.

ولما قتل فوات بن زحر بن قيس أرسلت عائشة بنت خليفة بن عبد الله الجعفي، وكانت امرأة الحسين، إلى المختار تسأله أن يأذن لها في دفنه، ففعل، فدفنته.

وبعث المختار غلاماً له يذمى زري في طلب شير بن ذي الجوشن ومعه أصحابه، فلما دنوا منه قال شير لأصحابه: تباعدوا عني لعلني يطعم في، فتباعدوا عنه، فطعم زري عن أصحابه ثم حمل عليه شير فقتله، وسار شير حتى نزل مساء سائداً، ثم سار حتى نزل منه قرية يقال لها الكلتانية على شاطئ نهر إلى جانب تل، ثم أرسل إلى أهل تلك القرية فأخذ منها علجاً فضربه وقال: امضي بكتابي هذا إلى مُصَنَّبِ بن الزبير. فمضى العلج حتى دخل قرية فيها أبو عمرة صاحب المختار، وكان قد أرسله المختار إلى تلك القرية ليكون مسلحاً بينه وبين أهل البصرة، فلقي ذلك العلج علجاً آخر من تلك القرية فشكا إليه ما لقي من شير، فيينا هو يكلمه إذ مر به رجل من أصحاب أبي عمرة اسمه عبد الرحمن بن أبي الكنود فرأى الكتاب وعنوانه: لمصعب بن الزبير من شير، فقالوا: للعلج: أين هو؟ فأخبرهم، فإذا ليس بينه وبينهم إلا (٢٣٧/٤) ثلاثة فراسخ، قال: فاقبلوا يسيرون إليه. وكان قد قال لشير أصحابه: لو ارتحلنا بنا من هذه القرية فإننا نتخوف بها. فقال: أوكل هذا فرعاً من الكذاب! والله لا أتحوّل منها ثلاثة أيام، ملا الله قلوبكم رعباً. فإنيهم لنيام إذ سمع وقع الحوافر، فقالوا في أنفسهم: هذا صوت الدبا، ثم اشتد، فذهب أصحابه ليقوموا فإذا بالخيّل قد أشرفت من التل، فكبروا وأحاطوا بالأيّيات، فولى أصحابه هارين وتركوا خيولهم، وقام شير وقد اتزر ببرد، وكان أبرص، فظهر يياض برصه من فوق البرد وهو يطاعنهم بالرمح وقد عجلّوه عن لبس ثيابه وسلاحه، وكان أصحابه قد فارقه، فلما أبعدوا عنه سمعوا التكبير وقتلاً يقول: قتل الخبيث، قتله ابن أبي الكنود، وهو الذي رأى الكتاب مع العلج، وألقيت جثته للكلاب، قال: وسمعت بعد أن قاتلنا بالرمح ثم الفاه وأخذ السيف فقاتلنا به وهو يرتجز، شعر:

يَهْتَمُّ لَيْسَتْ غَرِيبَ بَابِلَا جَهْمًا مَحِيًا يَدْفُقُ الْكِبَالَا
لَمْ يَرَوْنَا عَنْ عَدُوِّنَا كَلَا إِلَّا كُنَّا مُقَاتِلًا أَوْ قَاتِلًا
يُرْجُمُ ضَرْبًا وَيُورِي الْعَالَا

وأقبل المختار إلى القصر من جبانة السبي ومعه سُرَاقَة بن مرداس البارقي أسيراً فتأذاه، شعر: (٢٣٨/٤)

أَمِنَ عَلَيَّ الْيَوْمَ يَا خَسِيرٌ مَعْدٌ وَخَيْرٌ مَنْ حَلَّ بِشِخْرِ الْجَنْدِ
وَخَيْرٌ مَنْ لَبَّى وَحَيَّ وَسَجَدَ

فأرسله المختار إلى السجن ثم أحضره من الغد، فأقبل إليه وهو يقول، شعر:

الْأَبْلَغُ أَبَا إِسْحَاقَ أَنَا نَزَرْنَا نَزْوَةً كَانَتْ عَلَيْنَا
وَكُنَّا خُرُوجًا بِطَرًّا وَحِينَا خَرَجْنَا لَا نَرَى الضَّمَاءَ شَيْئًا
لَقِينَا مِنْهُمْ ضَرْبًا طَلْحًا وَطَعْنَا صَائِبًا حَتَّى التَّيْنَا
نُصِرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ كُلِّ يَوْمٍ بِكُلِّ كَيْفَةٍ تَمْسِي حِينَا
كَهَرٍ مَحْدٍ فِي يَوْمٍ بَدْرٍ وَيَوْمَ الشَّعْبِ إِذْ لَاقَى حِينَا
فَانْجَحَ إِذْ مَلَكَتْ فَلَوْ مَلَكَتْ لَجُرْنَا فِي الْحُكُومَةِ وَاعْتَدَيْنَا
تَقَبَّلْ نَزْوَةً مَنِي فَنَانِي سَائِكُرْ إِنْ جَعَلْتَ التَّقْدِيرُ فِينَا

قال: فلما انتهى إلى المختار قال: أصلح الله الأمير، أحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد رايت الملائكة تقاتل معك على الخيول البلق بين السماء والأرض. فقال له المختار: اصعد المنبر فأعلم الناس. فصعد فأخبرهم بذلك ثم نزل، فحلب به [المختار] فقال له: إني قد علمت أنك لم تر شيئاً وإنما أردت ما قد عرفت أن لا أقتلك، فاذهب عني حيث شئت لا نقض علي أصحابي؛ (٢٣٩/٤) فخرج إلى البصرة فنزل عند مُصَنَّبِ وقال، شعر:

الْأَبْلَغُ أَبَا إِسْحَاقَ أَنِّي رَأَيْتُ الْبَلْقَ مُعَمَّاً مُصَنَّبَاتِ
كُفِّرْتُ بِوَحْيِكُمْ وَجَعَلْتُ نَدْرًا عَلَيَّ تَسْلُكُكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ
أَرَى عَنِّي مَا لَمْ يُصِرَّاهُ كَلَانَا عَالِمٌ بِالْأَرْهَاتِ
وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ قَيْسِ الْهَمْدَانِيِّ، وَادَّعَى قَتْلَهُ سِغَرُ بْنُ أَبِي سِغَرٍ، وَأَبُو الزَّبِيرِ الشَّيْبَانِيُّ، وَشِبَابٌ مِنْ هَمْدَانَ، وَرَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لِأَبِي الزَّبِيرِ الشَّيْبَانِيِّ: اتَّقِ قَتْلَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَيِّدِ قَوْمِكَ؟ فَقَرَأَ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية [المجادلة، ٢٢].

وانجلت الرقعة عن سبعمئة وثمانين قتيلاً من قومه، وكان أكثر القتل ذلك اليوم في أهل اليمن. وكانت الواقعة لست ليال بقين من ذي الحجة سنة ست وستين.

وخرج أشرف الناس فلاحقوا بالبصرة، وتجرّد المختار لقتلة الحسين، وقال: ما من ديننا أن نترك قتلة الحسين أحياء، بنس ناصر آل محمد، ﷺ، أنا إذا في الدنيا، أنا إذا الكذاب كما سموني، وإني استعين بالله عليهم فسؤهم لي، ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم، فإني

منه ويأمانه. فقال له مولا: وأي حدث أعظم مما صنعت؟ تركت أهلك ورحلك وأيتت إلى هاهنا، ارجع ولا تجعل عليك سبيلاً. فرجع وأتى المختار فأخبره بانطلاقه، فقال: كلاً، إن في عنقه سلسلة سترده. وأصبح المختار فيعث إليه أبا غمرة فأنابه وقال: أجيب الأمير. فقام عمرو ففثر في جبة له، فضربه أبو غمرة بسيفه فقتله وأخذ رأسه فأحضره عند المختار. فقال المختار لابنه حفص بن عمرو وهو جالس عنده: أتعرف من هذا؟ قال: نعم ولا خير في العيش بعده فأمر به فقتل، وقال المختار: هذا بحسين وهذا بعلي بن الحسين ولا سواء، والله لو قتلته به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أئمة من أنامله.

وكان السبب في تهيج المختار على قتله أن يزيد بن شراحيل الأنصاري أتى (٢٤٢/٤) محمداً بن الحنفية وسلم عليه وجرى الحديث إلى أن تذكرا المختار، فقال ابن الحنفية: إنه يزعم أنه لنا شيعة وقتله الحسين عنده على الكراسي يحدثونه.

فلما عاد يزيد أخبر المختار بذلك، فقتل عمرو بن سعد وبعث برأسه ورأس ابنه إلى ابن الحنفية وكتب إليه يعلمه أنه قد قتل من قدر عليه، وأنه في طلب الباقيين ممن حضر قتل الحسين.

قال عبد الله بن شريك: أدركت أصحاب الأردية المعلمة وأصحاب البرانس السود من أصحاب السواري إذا مر بهم عمرو بن سعد قالوا: هذا قاتل الحسين، وذلك قبل أن يقتله. وقال ابن سيرين: قال علي لعمر بن سعد: كيف أنت إذا قمت مقاماً تُخبر فيه بين الجنة والنار فتختار النار؟

ثم إن المختار أرسل إلى حكيم بن طفيل الطائي، وكان أصاب سلب العباس بن علي ورمي الحسين بسهم، وكان يقول: تعلق سهمي بسرياله وما ضره، فأنابه أصحاب المختار فأخذوه، وذهب أهله فشفعوا بعدي بن حاتم، فكلّمهم عديّ فيه، فقالوا: ذلك إلى المختار. فمضى عديّ إلى المختار ليشفع فيه، وكان المختار قد شفعه في نفر من قومه أصابهم يوم جباة السبيع، فقالت الشيعة: إنا نخاف أن يشفعه المختار فيه، فقتلوه رمياً بالسهم كما رمى الحسين حتى صار كأنه القنّذ؛ ودخل عديّ بن حاتم على المختار، فأجلسه معه، فشفع فيه عديّ، فقال المختار: أنستحل أن تطلب في قتله الحسين؟ فقال عديّ: إنه مكذوب عليه. قال: إذا ندّعه لك.

فدخل ابن كامل فأخبر المختار بقتله، فقال: ما أعجلكم إلى ذلك؟ ألا أحضرتموه عندي؟ وكان قد سرّه قتله. فقال ابن كامل: غلبتني عليه الشيعة. فقال عديّ لابن كامل: كذبت ولكن ظننت أن من هو خير منك سيسفّعني (٢٤٣/٤) فقتلته. فسبه ابن كامل، فنهاه المختار عن ذلك.

وبعث المختار إلى قاتل علي بن الحسين، وهو مرة بن مُنقذ

لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى أظهر الأرض منهم. فذلّ على عبد الله بن أسيد الجهني ومالك بن بشير البديّ وحمل بن مالك المحاربي، فبعث إليهم المختار فأحضرهم من القادسية، فلما رآهم قال: يا أعداء الله ورسوله! أين الحسين بن علي؟ أدوا إلي الحسين، قتلتم من أمرتم بالصلاة عليهم. فقالوا: رحمك الله! بئنا كارهين فامتن علينا واستبقنا. فقال لهم: هلاً منتم على الحسين ابن بنت نبيكم (٢٤٠/٤) فاستبقتموه وسقيتموه؟ وكان البديّ صاحب برنسة فأمر بقطع يديه ورجليه وترك يضطرب حتى مات، وقتل الآخرين وأمر بزياد بن مالك الضبعي وبعمران بن خالد القشيري وبعبد الرحمن بن أبي خشكاراة البجليّ وبعبد الله بن قيس الخولاني فأحضرهم عنده، فلما رآهم قال: يا قتلة الصالحين وقتلة سيّد شباب أهل الجنة، قد أقاد الله منكم اليوم، لقد جاءكم الورد في يوم نحس، وكانوا نهوا من الورد الذي كان مع الحسين. ثم أمر بهم فقتلوا.

وأحضرهم عنده: عبد الله وعبد الرحمن ابنا صلحت وعبد الله بن وهب بن عمرو الهمداني، وهو ابن عمّ أعشى همدان، فأمر بقتلهم، فقتلوا، وأحضر عنده: عثمان بن خالد بن أسيد اللهماني الجهني وأبو أسماء بشر بن شميّط القانصي، وكانا قد اشتراكا في قتل عبد الرحمن بن عقيل وفي سلبه، فضرب أعناقهما وأحرقا بالنار.

ثم أرسل إلى خوليّ بن يزيد الأصبحي، وهو صاحب رأس الحسين، فاخفى في مخرجه، فدخل أصحاب المختار يفتشون عنه، فخرجت امرأته، واسمها العيوف بنت مالك، وكانت تعاديه منذ جاء برأس الحسين، فقالت لهم: ما تريدون؟ فقالوا لها: أين زوجك؟ قالت: لا أدري، وأشارت بيدها إلى المخرج، فدخلوا فوجدوه وعلى رأسه قوصرة، فأخرجوه وقتلوه إلى جانب أهله وأحرقوه بالنار. (٢٤١/٤)

ذكر مقتل عمرو بن سعد وغيره ممن شهد قتل الحسين

ثم إن المختار قال يوماً لأصحابه: لأقتلن غداً رجلاً عظيماً القدمين غائر العينين مشرف الحاجبين يسرّ قتله المؤمنين والملائكة المقربين. وكان عنده الهيثم بن الأسود النخعي، فعلم أنه يعني عمرو بن سعد، فرجع إلى منزله وأرسل إلى عمرو مع ابنه العريان يعرفه ذلك، فلما قاله له قال: جزى الله أباك خيراً، كيف يقتلني بعد العهد والميثاق؟ وكان عبد الله بن جعدة بن هبيرة أكرم الناس على المختار لقرباه بعلي، وكلّمه عمرو بن سعد لياخذ له أماناً من المختار، ففعل وكتب له المختار أماناً وشرط فيه أن لا يحدث، وعني بالحدث دخول الخلاء. ثم إن عمرو بن سعد خرج من بيته بعد عود العريان عنه فأتى حمامة فأخبر مولاه بما كان

من عبد القيس، وكان شجاعاً، فأحاطوا بداره، فخرج إليهم على فرسه ويده رمحه فطاعهم فضرب على يده وهرب منهم فنجوا ولحق بمصعب بن الزبير وشلت يده بعد ذلك.

ذكر بيعة المثنى العبدى للمختار بالبصرة

وفي هذه السنة دعا المثنى بن مخرّبة العبدى بالبصرة إلى بيعة المختار، وكان ممن شهد عین الوردة مع سليمان بن صرد، ثم رجع فباع للمختار، فسبّره إلى البصرة يدعو بها إليه، فقدم البصرة ودعا بها، فأجابته رجال من (٢٤٥/٤) قومه وغيرهم، ثم أتى مدينة الرزق فمسكروا عندها، وجمعوا الميرة بالمدينة، فوجه إليهم القبّاع أمير البصرة، ودعا بها عباد بن حصين، وهو على شرطته، وقيس بن الهيثم في الشرط والمقاتلة، فخرجوا إلى السبخة، ولزم الناس بيوتهم فلم يخرج أحد، وأقبل عباد فيمن معه، فتواقف هو والمثنى، فسار عباد نحو مدينة الرزق وترك قيساً مكانه.

فلما أتى عباد مدينة الرزق أصعد على سورها ثلاثين رجلاً وقال لهم: إذا سمعتم التكبير فكبروا، ورجع عباد إلى قيس، وأنشروا القتال مع المثنى، وسمع الرجال الذين في دار الرزق التكبير فكبروا، وهرب من كان بالمدينة، وسمع المثنى التكبير من ورائهم فهرب فيمن معه، فكف عنهم قيس وعباد ولم يتابعهم.

وأتى المثنى قومه عبد القيس، فأرسل القبّاع عسكرياً إلى عبد القيس ليأتوه بالمثنى ومن معه. فلما رأى زياد بن عمرو العنكي ذلك أقبل إلى القبّاع فقال له: لست أدري خيلك عن إخواننا أو لنقاتلهم. فأرسل القبّاع الأحنف بن قيس وعمر بن عبد الرحمن المخزومي ليصلحا بين الناس، فاصلح الأحنف الأمر على أن يخرج المثنى وأصحابه عنهم، فأجابوه إلى ذلك وأخرجوهم عنهم، فسار المثنى إلى الكوفة في نفر يسير من أصحابه.

(مخرّبة بضم الميم، وفتح الخاء المعجمة، وتشديد الراء وكسرهما، ثم باء مفتوحة). (٢٤٦/٤)

ذكر مكر المختار بابن الزبير

فلما أخرج المختار عامل ابن الزبير عن الكوفة، وهو ابن مطيع، سار إلى البصرة وكبره أن يأتي ابن الزبير مهزوماً، فلما استجمع للمختار أمر الكوفة أخذ يخادع ابن الزبير، فكتب إليه: قد عرفت مناصحتي إليك وجهدي على أهل عداوتك وما كنت أعطيته إذا أنا فعلت ذلك [من نفسك]، فلما وفيك لك لم تغر بما عاهدتني عليه، فإن ترد مراجعتي ومناصحتي فعلت، والسلام.

وكان قصد المختار أن يكفّ ابن الزبير عنه ليتّم أمره، والشيعية لا يعلمون بشيء من أمره، فأراد ابن الزبير أن يعلم أسلم هو أم حرب، فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فولّاه الكوفة وقال له: إن المختار سماع مطيع، فتجهّز بما بين ثلاثين ألف درهم إلى أربعين ألفاً وسار نحو الكوفة. وأتى الخبر

وبعث المختار إلى زيد بن رقاد الجني، كان يقول: لقد رميت فتي منهم بسهم وكفه على جبهته يتقي النبل فأتيت كفه في جبهته فما استطاع أن يزيل كفه عن جبهته، وكان ذلك الفتى عبد الله بن مسلم بن عقيل، وإنه قال حين رميته: اللهم إنهم استقلونا واستدلّونا فاقتلهم كما قتلونا! ثم إنه رمى الغلام بسهم آخر وكان يقول: جئت وهو ميت فنزعت سهمي الذي قتلت به من جوفه، فلم أزل أنضضه من جبهته حتى أخذته وبقي النصل؛ فلما أناه أصحاب المختار خرج إليهم بالسيف، فقال لهم ابن كامل: لا تطعنوه ولا تضربوه بالسيف ولكن ارموه بالنبل والحجارة. ففعلوا ذلك به، فسقط، فأحرقوه حياً.

وطلب المختار سينان بن أسس الذي كان يدعى قتل الحسين، فرآه قد هرب إلى البصرة، فهدم داره.

وطلب عبد الله بن عتبة الغنوي فوجده قد هرب إلى الجزيرة، فهدم داره، وكان قد قتل منهم غلاماً. وطلب آخر من بني أسد يقال له خرّمة بن الكاهن، كان قد قتل رجلاً من أهل الحسين ففاته. (٢٤٤/٤)

وطلب أيضاً رجلاً من خثعم اسمه عبد الله بن عمرو الخثعمي، كان يقول: رميت فيهم باثني عشر سهماً؛ ففاته ولحق بمصعب بن الزبير فهدم داره.

وطلب أيضاً عمرو بن الصبيح الصدائي، كان يقول: لقد طعنت فيهم وجرحت وما قتلت منهم أحداً، فأتي ليلاً فأخذ وأحضر عند المختار فأمر بإحضار الرماح وطعن بها حتى مات.

وأرسل إلى محمد بن الأشعث، وهو في قرية له إلى جنب القادسية، فطلبه فلم يجده، وكان قد هرب إلى مصعب، فهدم المختار داره وبني بلبينا وطينها دار حنجر بن عدي الكندي، كان زياد قد هدمها.

(بحير بن ريسان بفتح الباء الموحدة، وكسر الحاء المهملة. شيام بكسر الشين المعجمة، والباء الموحدة: بطن من همدان؛ وهمدان يسكنون الميم وبالدال المهملة. وميعر بكسر السين المهملة. وأحمر بن شبيب بالحاء المهملة، والراء المهملة، وشبيب بالشين المعجمة. وشبث بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة. جبانة أثير بضم الهمزة، وبالثاء المثناة، وبالياء المهملة، وبالثاء المثناة من تحت، وبالراء المهملة. عتيبة بن النّحاس بالعين المهملة، وبالثاء المثناة من فوق، ثم بالياء المثناة من تحت، وبالياء الموحدة. حسان بن قائد

إلى المختار بذلك، فدعا المختار زائدة بن قدامة وأعطاه سبعين ألف درهم وقال له: هذا ضعف ما أنفق عمر بن عبد الرحمن في طريقه إلينا، وأمره أن يأخذ معه خمسمائة فارس ويسير حتى يلقاه بالطريق ويعطيه النفقة ويأمره بالعود، فإن فعل وإلا فليره الخيل.

فأخذ زائدة بن قدامة المال وسار حتى لقي عمر فأعطاه المال وأمره بالانصراف، فقال له: إن أمير المؤمنين قد ولاني الكوفة ولا بد من إتيانها. فدعا زائدة الخيل، وكان قد كتمها، فلما رآها قد أقبلت أخذ المال وسار نحو البصرة، فاجتمع هو وابن مطيع في إمارة الحارث بن أبي ربيعة، وذلك قبل وثوب المشي بن مخزومة العبدى بالبصرة. (٢٤٧/٤)

وقيل: إن المختار كتب إلى ابن الزبير: إني اتخذت الكوفة داراً، فإن سوغتني ذلك وأمرت لي بألف ألف درهم سرت إلى الشام فكفيتك ابن مروان. فقال ابن الزبير: إلى متى أمارك كذاب ثقيف ويماك رني؟ ثم تمثّل، شعر: عاري الجواهر من ثمود أصله عبيد وزعم أنه من يفسد وكتب إليه: والله ولا درهم:

ولا أمستري [عبد] الهوان يلدتني وإني لأني الحنف ما دعت أسمع ثم إن عبد الملك بن مروان بعث عبد الملك بن الحارث بن أبي الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى، وكان المختار قد وادع ابن الزبير ليكشف عنه ليتفرغ لأهل الشام. فكتب المختار إلى ابن الزبير: قد بلغني أن ابن مروان قد بعث إليك جيشاً، فإن أحببت أمددتك بمدد.

فكتب إليه ابن الزبير: إن كنت على طاعتي فبايع لي الناس قبلك وعجل إنفاذ الجيش ومُرهم ليسيروا إلى من بوادي القرى من جند ابن مروان فليقاتلوهم، والسلام.

فدعا المختار شُرْحِبِيل بن ورس الهمداني فسيّره في ثلاثة آلاف أكثرهم من الموالي وليس فيهم من العرب إلا سيمعانة رجل، وقال: سير حتى تدخل المدينة، فإذا دخلتها فاكتب إلي بذلك حتى يأتيك أمري. وهو يريد إذا دخلوا (٢٤٨/٤) المدينة أن يعث عليهم أميراً ثم يأمر ابن ورس بمحاصرة ابن الزبير بمكة.

وخشي ابن الزبير أن يكون المختار إنما يكيده، فبعث من مكة عباس بن سهل بن سعد في ألفين، وأمره أن يستقر الأعراب، وقال له: إن رأيت القوم على طاعتي وإلا فكأيتهم حتى تهلكهم.

فأقبل عباس بن سهل حتى لقي ابن ورس بالرقم وقد عيا ابن ورس أصحابه، وأتى عباس وقد تقطع أصحابه، ورأى ابن ورس على الماء وقد عيا أصحابه، فدنا منهم وسلم عليهم ثم قال لابن ورس سرّاً: ألتسم على طاعة ابن الزبير؟ قال: بلى. قال: فسير بنا

على عدوّه الذي بوادي القرى. فقال ابن ورس: ما أمرت بطاعتكم إنما أمرت أن آتي المدينة، فإذا أنيتها رأيت رأيي. فقال له عباس: إن كنت في طاعة ابن الزبير فقد أمرني أن أسيركم إلى وادي القرى. فقال: لا أتبعك، أقدم المدينة وأكتب إلى صاحبي فيأمرني بأمره. فقال عباس: رأيك أفضل، وفتن لما يريد وقال: أما أنا فسانر إلى وادي القرى.

ونزل عباس أيضاً وبعث إلى ابن ورس بجزائر وغنم مسلّخة، وكانوا قد ماتوا جوعاً، فذبحوا واشتغلوا بها واختلطوا على الماء، وجمع عباس من أصحابه نحو ألف رجل من الشجعان وأقبل نحو فسطاط ابن ورس، فلما رآهم نادى في أصحابه، فلم يجتمع إليه مائة رجل حتى انتهى إليه عباس واقتلوا يسيراً، فقتل ابن ورس في سبعين من أهل الجفاظ، ورفع عباس راية أمان لأصحاب ابن ورس، فأتوها إلا نحو من ثلاثمائة رجل مع سليمان بن جهمير الهمداني وعبّاس بن جعدة الجدلي، فظفر ابن سهل منهم بنحو من مائتين فقتلهم وأفلت (٢٤٩/٤) الباقر فرجعوا، فمات أكثرهم في الطريق.

وكتب المختار بخبرهم إلى ابن الحنفية يقول: إني أرسلت إليك جيشاً لئذ لك الأعداء ويحرزوا البلاد فلما قاربوا طيبة فعل بهم كذا وكذا، فإن رأيت أن أبعث إلى المدينة جيشاً كثيفاً وتبعث إليهم من قبلك رجلاً حتى يعلموا أنني في طاعتك فافعل فإنك ستجدهم بحقكم أعرف وبكم أهل البيت أراف منهم بآل الزبير، والسلام.

فكتب إليه ابن الحنفية: أما بعد فقد قرأت كتابك وعرفت تعظيمك لحقي وما تنويه من سروري، وإن أحب الأمور كلها إلي ما أطيع الله فيه، فأطع الله ما استطعت، وإني لو أردت القتال لوجدت الناس إلي سراعاً والأعوان لي كثيراً، ولكن أعزلكم وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. وأمره بالكف عن الدماء.

ذكر حال ابن الحنفية مع ابن الزبير ومسير الجيش من الكوفة

ثم إن ابن الزبير دعا محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته وشيعته وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة، منهم أبو الطفيل عامر بن واثلة، له صحبة، ليأيعوه، فامتنعوا وقالوا: لا نبايع حتى تجتمع الأمة؛ فأكثر الوقعة في ابن الحنفية وذمه، فأغلظ له عبد الله بن هانئ الكندي وقال: (٢٥٠/٤) لنن لم يضرك إلا تركنا بيعتك لا يضرك شيء، وإن صاحبنا يقول: لو بايعتني الأمة كلها غير سعد مولى معاوية ما قبلته. وإنما عرض بذكر سعد لأن ابن الزبير أرسل إليه فقتله، فسبه عبد الله وسب أصحابه وأخرجهم من عنده، فأخبروا ابن الحنفية بما كان منهم، فأمرهم بالصبر، ولم يلح عليهم

ابن الزبير.

فكبروا وقالوا: يا لشارات الحسين! فخافهم ابن الزبير، وخرج محمد بن الحنفية ومن معه إلى شعب علي وهم يسبون ابن الزبير ويستأذنون محمداً فيه، فأبى عليهم. فاجتمع مع محمد في الشعب أربعة آلاف رجل، فقسم بينهم المال وعزّوا وامتنعوا.

فلما قُتل المختار تضعضعوا واحتاجوا. ثم إن البلاد استوثقت لابن الزبير (٢٥٢/٤) بعد قتل المختار، فأرسل إلى ابن الحنفية: ادخل في بيعتي وإلا نابذتك.

وكان رسوله عروة بن الزبير. فقال ابن الحنفية: بؤساً لأخيكَ ما الجَّه فيما أسخط الله وأغفل عن ذات الله! وقال لأصحابه: إن ابن الزبير يريد أن يثرب بنا وقد أذنت لمن أحب الانصراف عنا فإنه لا ذمام عليه منا ولا لوم، فإني مقيم حتى يفتح الله بيني وبين ابن الزبير، وهو خير الفاتحين.

فقام إليه أبو عبد الله الجذلي وغيره فأعلموه أنهم غير مفارقيه. وبلغ خبره عبد الملك بن مروان، فكتب إليه يُعلمه أنه إن قدم عليه أحسن إليه وأنه ينزل إلى الشام إن أراد حتى يستقيم أمر الناس، فخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام، وخرج معه كثير عزة، وهو يقول، شعر:

هَلِيتَ يَا مَهْدِيًّا ابْنَ الْمُهْدِي أَتَيْتَ الَّذِي تَرْضَى بِهِ وَتَرْجِي
أَتَيْتَ ابْنَ خَيْرِ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ أَتَيْتَ إِمَامَ الْحَقِّ لَسْنَا نُسْـَـرِي
يَا ابْنَ عَلِيٍّ مِيرَ وَمَنْ مِثْلُ عَلِيٍّ

فلما وصل مدّين بلغه غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد، فندم على إتيانه وخافه، فنزل آيلة، وتحدث الناس بفضل محمد وكثرة عبادته وزهده وحسن هديه، فلما بلغ ذلك عبد الملك ندم على إذنه له في قدومه بلده، فكتب إليه: إنه لا يكون في سلطاني من لم يبايعني. فارتحل إلى مكة ونزل شعب أبي طالب، فأرسل إليه ابن الزبير يأمره بالرحيل عنه، وكتب إلى أخيه مصعب بن الزبير يأمره أن يسير نساء من مع ابن الحنفية، فسير نساء، منهن امرأة أبي الطفيل عامر بن واثلة، فجاءت حتى قدمت عليه، فقال الطفيل، شعر:

إِنَّكَ سَرَّهَا مُصْـَـصِبُ فَبَئِذَا لِيَ مَصْـَـصِبُ
أَتَوْهُ الْكَيْسَ مُنْـَـكَلًا كَأَنِّي أَخُو عَزَّةٍ أَحْرَبُ
وهي عذّة أبيات. (٢٥٣/٤)

والتج ابن الزبير على ابن الحنفية بالانتقال إلى مكة، فاستأذنه أميحابه في قتال ابن الزبير، فلم يأذن لهم وقال: اللهم اليس ابن الزبير لباس الذل والخوف وسلط عليه وعلى أشياعه من يسومهم الذي يسوم الناس.

ثم ناز إلى الطائف، فدخل ابن عباس على ابن الزبير وأغلظ

فلما استولى المختار على الكوفة وصارت الشيعة تدعو لابن الحنفية، خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس إلى الرضا به فآلح عليه وعلى أصحابه في البيعة له، فحبسهم بزمزم وتوعدهم بالقتل والإحراق وإعطاء الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به، وضرب لهم في ذلك أجلاً.

فأشار بعض من كان مع ابن الحنفية عليه أن يبعث إلى المختار يُعلمه حالهم، فكتب إلى المختار بذلك وطلب منه التجدة. فقرأ المختار الكتاب على الناس وقال: إن هذا مهديكم وصریح أهل بيت نبيكم، وقد تركوا محظوراً عليهم كما يحظر على الغنم يتظرون القتل والتحريق في الليل والنهار، لست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزراً، وإن لم أسرب الخيل في أثر الخيل كالسيل يتلو السيل حتى يحلّ بابن الكاهلية الويل!

يعني ابن الزبير، وذلك أن أم خويلد أبي العوام زهرة بنت عمرو من بني كاهل بن أسد بن خزيمه.

فيكى الناس وقالوا: سرّخنا إليه وعجّل. فوجه أبا عبد الله الجذلي في سبعين ركباً من أهل القوة، ووجه طليان بن عماره أخا بني تميم ومعه أربعمائه، وبعث معه لابن الحنفية أربعمائه ألف درهم، وسير أبا المعمر في مائة، وهانئ بن قيس في مائة، وعُمير بن طارق في أربعين، ويونس بن (٢٥١/٤) عمران في أربعين. فوصل أبو عبد الله الجذلي إلى ذات عرق، فأقام بها حتى أتاها عُمير ويونس في ثمانين ركباً، فبلغوا مائة وخمسين رجلاً، فسار بهم حتى دخلوا المسجد الحرام، ومعهم الرايات، وهم ينادون: يا لثارات الحسين! حتى انتهوا إلى زمزم، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم، وكان قد بقي من الأجل يؤمان، فكسروا الباب ودخلوا على ابن الحنفية فقالوا: خلّ بيننا وبين عدو الله ابن الزبير! فقال لهم: إني لا أستحل القتال في الحرم. فقال ابن الزبير: وإعجاباً لهذه الخشية! يتعون الحسين كأنني أنا قتلته، والله لو قدرتُ على قتلته لقتلتهم.

ولما قيل لهم خشية لأنهم دخلوا مكة وبأيديهم الخشب كراهة شهر السيف في الحرم، وقيل: لأنهم أخذوا الحطب الذي أعده ابن الزبير.

وقال ابن الزبير: اتحسبون أنني أخلي سبيلهم دون أن يبايع ويبايعوا؟ فقال الجذلي: إي ورب الركن والمقام لتخليّن سبيله أو لنجالذك بأسافنا جلاداً يرتاب منه المبطون! فكفّ ابن الحنفية أصحابه وجذرهم الفتنة.

ثم قدم باقي الجند ومعهم المال حتى دخلوا المسجد الحرام

له، فجرى بينهما كلام كرهنا ذكره، وخرج ابن عباس أيضاً فلحق بالطائف، ثم توفي، فصلّى عليه ابن الحنفية وكبر عليه أربعاً، وبقي ابن الحنفية حتى حصر الحجاج ابن الزبير، فأقبل من الطائف فنزل الشعب، فطلبه الحجاج ليبيع عبد الملك، فامتنع حتى يجتمع الناس.

فلما قُتل ابن الزبير كتب ابن الحنفية إلى عبد الملك يطلب منه الأمان له ولمن معه، وبعث إليه الحجاج يأمره بالبيعة، فأبى وقال: قد كتبتُ إلى عبد الملك فإذا جاءني جوابه بايعتُ.

وكان عبد الملك كتب إلى الحجاج يوصيه بابن الحنفية، فتركه، فلما قدم رسولُ ابن الحنفية، وهو أبو عبد الله الجذلي، ومعه كتاب عبد الملك بأمانه ويسط حقه وتعظيم أهله، حضر عند الحجاج وبايع لعبد الملك بن مروان، وقدم عليه الشام وطلب منه أن لا يجعل للحجاج عليه سيلاً، فأزال حكم الحجاج عنه.

وقيل: إن ابن الزبير أرسل إلى ابن عباس وابن الحنفية أن يبايعا، فقالا: حتى يجتمع الناس على إمام ثم نبايع، فأنك في فتنة. فعظم الأمر بينهما وغضب من ذلك وحبس ابن الحنفية في زمزم وضيق على ابن عباس في منزله وأراد إحراقهما، فأرسل المختار جيشاً، كما تقدّم، فأزال عنهما ضررَ ابن الزبير. (٢٥٤/٤)

فلما قُتل المختار قوي عليهما ابن الزبير وقال: لا تجاوراني. فخرجوا إلى الطائف، وأرسل ابن عباس ابنه علياً إلى عبد الملك بالشام وقال: لئن يرّني بنو عمي أحب إليّ من أن يرّني رجل من بني أسد؛ يعني بني عمه بني أمية لأنهم جميعهم من ولد عبد مناف، ويعني برجل من بني أسد ابن الزبير، فإنه من بني أسد بن عبد العزى بن قصي. ولما وصل علي بن عبد الله بن عباس إلى عبد الملك، سأله عن اسمه وكنيته، فقال: اسمي علي، والكنية أبو الحسن. فقال: لا يجتمع هذا الاسم وهذه الكنية في عسكري، أنت أبو محمد.

ولما وصل ابن عباس إلى الطائف توفي به، وصلى عليه ابن الحنفية.

ذكر الفتنة بخراسان

في هذه السنة كان حصار عبد الله بن خازم من كان بخراسان من بني تميم بسبب قتلهم ابنه محمداً، وقد تقدّم ذكره، فلما تفرقت بنو تميم بخراسان، على ما تقدّم، أتى قصر فرتنا علة من فرسانهم ما بين السبعين إلى الثمانين فولوا أمرهم عثمان بن بشر بن المَحْتَفَر المازني ومعه شعبة بن ظهير النّهشلي وورد بن الفلق العنبري وزهير بن ذؤيب الغدوي وجهان بن مشجعة الضبي والحجاج بن ناشب الغدوي ورقبة بن الحرّ في فرسان من تميم وشجعانهم،

فحاصروهم ابن خازم، فكانوا يخرجون إليه فيقاتلون ثم يرجعون إلى القصر. (٢٥٥/٤)

فخرج ابن خازم يوماً في سَةِ آلاف، وخرج إليه أهل القصر، فقال لهم عثمان بن بشر: ارجعوا فلن تطيقوه، فحلف زهير بن ذؤيب بالطلاق أنه لا يرجع حتى ينقض صفوفهم. فاستبطن نهراً قد يس، فلم يشعر به أصحاب عبد الله حتى حمل عليهم فحط أولهم على آخرهم واستدار وكرّ راجعاً، واتبعوه يصيحون به، ولم يجسر أحد أن ينزل إليه حتى رجع إلى موضعه، فحمل عليهم فأفروا له حتى رجع.

فقال ابن خازم لأصحابه: إذا طاعتم زهيراً فأجعلوا في رماحكم كلاليب ثم علّقوها في سلاحه. فخرج إليهم يوماً فطاعهم فأعلّقوا فيه أربعة أرماع بالكلاليب، فالتفت إليهم ليحمل عليهم فاضطربت أيديهم وغلوا رماحهم فعاد يجرّ أربعة أرماع حتى دخل القصر.

فأرسل ابن خازم إلى زهير يضمن له مائة ألف ومئسان طعمة ليناصحه، فلم يجبه. فلما طال الحصار عليهم أرسلوا إلى ابن خازم ليتمكنهم من الخروج ليفرقوا، فقال: لا إلا على حكمي، فأجابوا إلى ذلك. فقال زهير: تكلتكم أمهاتكم! واللّه ليقتلنكم عن آخركم، وإن طبتم بالموت نفساً فموتوا كراماً، اخرجوا بنا جميعاً فإما أن تموتوا كراماً وإما أن ينجو بعضكم ويهلك بعضكم، وإيم الله لئن شددتم عليهم شدة صادقة ليفرجن لكم، فإن شتمت كنتُ أمامكم، وإن شتمت كنتُ خلفكم. فأبوا عليه. فقال: سأريكم. ثم خرج هو ورقبة بن الحرّ وغلّام تركي وابن ظهير فحملوا على القوم حملة منكرة، فأفروا لهم، فمضوا، فأما زهير فرجع ونجا أصحابه.

فلما رجع زهير إلى من بالقصر قال: قد رأيتم، أطيعوني. قالوا: إنا (٢٥٦/٤) نضعف عن هذا ونطمع في الحياة. فقال: لا أكون أعجزكم عند الموت. فنزلوا على حكم ابن خازم، فأرسل إليهم فقتلهم وحملوا إليه رجلاً رجلاً، فأراد أن يمنّ عليهم فأبى عليه ابنه موسى وقال له: إن عفوت عنهم قتلْتُ نفسي، فقتلهم إلا ثلاثة: أحدهم الحجاج بن ناشب، فشنع فيه بعض من معه، فاطلقه، والآخر جيهان بن مشجعة الضبي الذي ألقى نفسه على محمد بن عبد الله، كما تقدّم، والآخر رجل من بني سعد من تميم، وهو الذي ردّ الناس عن ابن خازم يوم لحقوه، وقال: انصرفوا عن فارس مُضَر.

وقال: ولما أرادوا حمل زهير بن ذؤيب وهو مقيد أبي واعتمد على رمحه فوثب الخندق، ثم أقبل إلى ابن خازم يحجل في قيوده، فجلس بين يديه، فقال له ابن خازم: كيف شكرتك إن أطلقتك وأطعمتكَ مئسان؟ قال: لو لم تصنع بي إلا حقن دمي لشكرتك.

ذكر حال الكرسي الذي كان المختار يستنصر به

قال الطُّفَيْلُ بن جَعْدَةَ بن هُبَيْرَةَ: أضفنا إضافةً شديدة فخرجت يوماً فإذا جار لي زِيَاتٌ عنده كرسيٌّ ركبهُ الوسخُ، فقلتُ في نفسي: لو قلتُ للمختار في هذا شيئاً فأخذتهُ من الزِيَّاتِ وغسلتهُ فخرج عودُ نضارٍ قد شرب الدهن وهو يَبِضُّ، قال فقلتُ للمختار: إني كنتُ أكرمُك شيئاً وقد بدا لي أن أذكره لك، إن أبي جَعْدَةَ كان يجلس على كرسيٍّ عندنا ويروي أن فيه أثراً من عليٍّ. قال: سبحان الله أخبرتني إلى هذا الوقت! ابعت به، فأحضرتُه عنده وقد غُشِّي، فأمر لي بانتي عشر ألفاً ثم دعا: الصلاة جامعة، فاجتمع الناسُ، فقال المختار: (٢٥٩/٤)

إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه كان في بني إسرائيل التابوت، وإن هذا فينا مثل التابوت. فكشفوا عنه، وقامت السبيبةُ فكبروا.

ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد، وخرج بالكرسي على بغلٍ وقد غُشِّي، فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة، فزادهم ذلك فتنة، فارتفعوا حتى تعاطوا الكفر، فقدمتُ على ما صنعتُ وتكلم الناسُ في ذلك تعبيه.

وقيل: إن المختار قال لآل جَعْدَةَ بن هُبَيْرَةَ، وكانت أم جعدة أم هانئٍ أخت عليٍّ بن أبي طالب لأبويه: إيتوني بكرسيٍّ عليٍّ. فقالوا: والله ما هو عندنا. فقال: لتكونن حمقى، اذهبوا فاتوني به. قال: فظنوا أنهم لا يأتونه بكرسيٍّ إلا قال هذا هو وقبله منهم. فاتوه بكرسيٍّ، وقبضه منهم، وخرجت شيبام وشاكر ورؤوس أصحاب المختار وقد جعلوا عليه الحرير، وكان أولُ من سدنه موسى بن أبي موسى الأشعريُّ، كان يلمُ بالمختار لأن أمه أم كلثوم بنت الفضل بن العباس، فغتب الناسُ على موسى، فتركه وسدنه حَوْشِبُ البرسميُّ حتى هلك المختار؛ وقال أغشى همدان في ذلك، شعر:

شهدتُ عليكم أنكم سبيبةٌ وإني بكم يا شرطة الشرِّ عارِفٌ
فأقيم ما كرساكم بكيَّةٍ وإن كان قد لُفَّت عليه ألفائفٌ
وإن ليس كالتابوتِ فينا وإن سعتُ شيبام حوالبه ونهذ وخارفٌ
وإني امرؤٌ أحببتُ آل محمَّدٍ وتابعتُ وحياً ضُمَّتُهُ المصاحفُ
(٢٦٠/٤)

وتابعتُ عبد الله لما تابعتُ عليه قريشَ شُططها والغطارفُ
وقال المتوكل الليثي:

أبلغ إباحاً إن جئتُ إني بكرسيكم كافِرٌ
تروا شيبام حوَّلَ أعرايه وتحولَ الرحي لهُ شاكرٌ
مُحَمَّرَةٌ أعينهم حوَّلَ كآتهنَ الجفمنَ الحسايرُ

فلم يمتكنه ابنه موسى من إطلاقه، فقال له أبوه: ويحك تقتل مثل زهير! من لقتال عدو المسلمين؟ من لحمي نساء العرب؟ فقال: والله لو شركت في دم أخي لتقتلك! فأمر بقتله. فقال زهير: إن لي حاجة، لا تقتلني ويخلط دمي بدماء هؤلاء اللئام، فقد نهيتهم عما صنعوا وأمرتهم أن يعمتوا كراماً ويخرجوا عليكم مصليتين، وإيم الله لو فعلوا لأذعروا بئيك هذا وشغلوه بنفسه عن طلب ثار أخيه، فأبوا، ولو فعلوا ما قُتل منهم رجل حتى يقتل رجالاً. فأمر به ابن خازم فقتل ناحية.

فلما بلغ الحريش قتلهم قال:

أعاذك إني لم أَلَم في قتلهم وقد عَضَّ سِنِي كِبشهم ثم صمنا
أعاذك ما وليتُ حتى تبدلتُ رجالاً وحشي لم أجِدْ مُقْتَلَمَا
(٢٥٧/٤)

أعاذك أفناني السَّلاحُ، ومن يُطِيلُ مفرعةُ الأبطال يزججُ مكلَّمَا
أعني إن أرتفتا التَّمع فاسكبَا دماً لازماً لي دون أن تسكبَا دَمَا
أبعد زهير وابن بشر تابعا وورد أُرْجِي في خراسان فمَنَمَا
أعاذك كم من يومٍ حربيٍّ شهيدته أكر إذا ما فارسُ السَّره أجمعا
يعني زهير بن ذؤيب، وابن بشر هو عثمان، وورد بن الفلق.

ذكر مسير ابن الأشتر إلى قتال ابن زياد

وفي هذه السنة لثمان بقين من ذي الحجة سار إبراهيم بن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد، وكان مسيره بعد فراغ المختار من وقعة الشَّيْبِ بيومين، وأخرج المختار معه فرسان أصحابه ووجوههم وأهل البصائر منهم ممن له تجربة، وخرج معه المختار يشيعه، فلما بلغ ذبير عبد الرحمن بن أم الحكم لقيه أصحاب المختار معهم الكرسي يحملونه على بغلٍ أشهب وهم يدعون الله له بالنصر ويستنصرونه، وكان سادن الكرسي حَوْشِبُ البرسميُّ، فلما رآهم المختار قال: (٢٥٨/٤)

أنا وربُّ المُرْسَلاتِ غُرُفَا لثقتن بعد صف صفَا
وبعد ألف قاسطين ألفَا

ثم ودَّع المختار وقال له: خذ عني ثلاثاً: خَفِ الله، عز وجل، في سرِّ أمرِك وعَلَانِيَتِك، وعَجِّل السير، وإذا لقيتَ عدوك فاجزهم ساعةً لتلقاهم.

ورجع المختار وسار إبراهيم فاتهم إلى أصحاب الكرسي، وهم عكوف عليه قد رفعوا أيديهم إلى السماء يدعون الله، فقال إبراهيم: اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، هذه سنة بني إسرائيل، والذي نفسي بيده، إذ عكفوا على عجلهم، ثم رجعوا وسار إلى قصده.

قال عُمَيْرُ: أَطْعَمَهُ فَإِنَّ الشَّيْخَ قَدْ ضَرَمَتْهُ الْحَرْبُ وَقَاسَى مِنْهَا مَا لَمْ يُقَامِيهِ أَحَدٌ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَتَاهَضْهُمْ.

ذِكْرُ عِدَّةِ حَوَادِثَ

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْرِ.

وَكَانَ عَلَى الْمَدِينَةِ مُصَنَّبٌ بِنُ الزَّيْرِ عَامِلًا لِأَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَلَى الْبَصْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي رِيْعَةَ الْمَخْزُومِيُّ لِأَبْنِ الزَّيْرِ أَيْضًا، وَكَانَ بِالْكُوفَةِ الْمُخْتَارُ مُتَغَلِّبًا عَلَيْهَا، وَبِخُرَاسَانَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ خَازِمٍ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تَوَفَّى أَسْمَاءُ بْنُ حَارِثَةَ الْأَسْلَمِيُّ، وَلَهُ صُحْبَةٌ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ، وَقِيلَ: بَلَ مَاتَ بِالْبَصْرَةِ فِي إِمَارَةِ ابْنِ زِيَادٍ.

وَتَوَفَّى جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَقِيلَ: مَاتَ فِي إِمَارَةِ يَشْرَ بْنِ هَارُونَ.

وَتَوَفَّى أَسْمَاءُ بْنُ خَارِجَةَ بْنِ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ سَيِّدَ قَوْمِهِ.

(حَارِثَةُ بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ، وَالتَّاءُ الْمُثَلَّثَةُ): (٢٦١/٤)

سنة سبع وستين

ذِكْرُ مَقْتَلِ ابْنِ زِيَادٍ

وَلَمَّا سَارَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْثَرِ مِنَ الْكُوفَةِ أَسْرَعَ السَّيْرَ لِيَلْقُوا ابْنَ زِيَادٍ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ أَرْضَ الْعِرَاقِ، وَكَانَ ابْنُ زِيَادٍ قَدْ سَارَ فِي عَسْكَرٍ عَظِيمٍ مِنَ الشَّامِ، فَبَلَغَ الْمَوْصِلَ وَمَلَكَهَا، كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا، فَسَارَ إِبْرَاهِيمُ وَخَلَّفَ أَرْضَ الْعِرَاقِ وَأَوْغَلَ فِي أَرْضِ الْمَوْصِلِ وَجَعَلَ عَلَى مَقْدَمَةِ الطُّفَيْلِ بْنِ لَقِيطِ النَّخَعِيِّ، وَكَانَ شَجَاعًا.

فَلَمَّا دَنَا ابْنُ زِيَادٍ عَنِ أَصْحَابِهِ وَلَمْ يَسِرْ إِلَّا عَلَى تَعْيِيَةِ وَاجْتِمَاعِ، إِلَّا أَنَّهُ يَعِثُ الطُّفَيْلُ عَلَى الطَّلَائِعِ حَتَّى يَبْلُغَ نَهْرَ الْخَازَرِ مِنْ بَلَدِ الْمَوْصِلِ فَنَزَلَ بِقَرْيَةِ بَارَشِيَا. وَأَقْبَلَ ابْنُ زِيَادٍ إِلَيْهِ حَتَّى نَزَلَ قَرِيبًا مِنْهُمْ عَلَى شَاطِئِ الْخَازَرِ.

وَأَرْسَلَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُبَابِ السُّلَمِيُّ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ زِيَادٍ، إِلَى ابْنِ الْأَشْثَرِ أَنَّ الْفَتْحَ، وَكَانَتْ قَيْسُ كُلِّهَا مُضْطَغْنَةً عَلَى ابْنِ مِرْوَانَ وَقَعَةً مَرَجٍ رَاهِطٍ، وَجَدَ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمئِذٍ كَلْبًا. فَاجْتَمَعَ عُمَيْرُ وَابْنُ الْأَشْثَرِ، فَأَخْبَرَهُ عُمَيْرُ أَنَّهُ عَلَى مِيسِرَةِ ابْنِ زِيَادٍ وَوَاْعَدَهُ أَنْ يَنْهَزِمَ بِالنَّاسِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْأَشْثَرِ: مَا رَأَيْكَ؟ أَخَذْتُكَ عَلَيَّ وَأَتَوَقَّفُ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً؟ فَقَالَ عُمَيْرُ: لَا تَفْعَلْ، وَهَلْ يَرِيدُونَ إِلَّا هَذَا؟ فَإِنَّ الْمِطَاوَلَةَ خَيْرٌ لَهُمْ، هُمْ كَثِيرٌ أَضْعَافَكُمْ وَلَيْسَ يَطِيقُ الْقَلِيلُ الْكَثِيرَ فِي الْمِطَاوَلَةِ، وَلَكِنْ نَاجِزَ الْقَوْمِ فَإِنَّهُمْ قَدْ مَلُّنَا مِنْكُمْ رَعْبًا، وَإِنْ هُمْ شَاؤُوا أَصْحَابَكُمْ وَقَاتَلَوْهُمْ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَمَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ أَسْأَوْا بِهِمْ وَاجْتَرَأُوا (٢٦٢/٤) عَلَيْهِمْ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: الْآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ لِي مَنَاصِحٌ وَبِهَذَا أَوْصَانِي صَاحِبِي.

وَرَكِبَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَ عَلَى الرِّايَاتِ يَحْتَنِمُ وَيَذْكَرُ لَهُمْ فَعَلَ ابْنُ زِيَادٍ بِالْحَسَنِ وَأَصْحَابِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ مِنَ السَّبْيِ وَالْقَتْلِ وَمَنْعَ الْمَاءِ، وَحَرَّضَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ.

وَتَقَدَّمَ الْقَوْمُ إِلَيْهِ، وَقَدْ جَعَلَ ابْنُ زِيَادٍ عَلَى مِيمَتِهِ الْخُصَيْنَ بْنَ نُعَيْرِ السُّكُونِيِّ، وَعَلَى مِيسِرَتِهِ عُمَيْرُ بْنُ الْحُبَابِ السُّلَمِيُّ، وَعَلَى الْخَيْلِ شُرَيْحِيلُ بْنُ ذِي الْكَلَاعِ الْجَمِيرِيُّ. فَلَمَّا تَدَانَى الصَّفَانِ حَمَلَ الْخُصَيْنُ بْنُ نُعَيْرٍ فِي مِيمَتِهِ أَهْلَ الشَّامِ عَلَى مِيسِرَةِ إِبْرَاهِيمَ، فَنَبَتَ لَهُ عَلَيَّ بْنُ مَالِكِ الْجَشْمِيُّ قَتْلًا، (٢٦٣/٤) ثُمَّ أَخَذَ رَابِتَهُ قُرَّةُ بْنُ عَلِيٍّ فَقَتَلَ فِي رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْبَاسِ وَانْهَزَمَتِ الْمِيسِرَةُ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَرْقَانَ بْنِ جُنَادَةَ السُّلُولِيُّ ابْنَ أَخِي حُبَشِيِّ بْنِ جُنَادَةَ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَقْبَلَ الْمَنْهَزِمِينَ، فَقَالَ: إِلَيَّ يَا شُرْطَةُ اللَّهِ. فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ أَكْثَرَهُمْ. فَقَالَ: هَذَا أَمِيرُكُمْ يُقَاتِلُ ابْنَ زِيَادٍ، ارْجِعُوا بِنَا إِلَيْهِ. فَارْجِعُوا، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ كَاشَفَ رَأْسَهُ يَنَادِي: إِلَيَّ شُرْطَةُ اللَّهِ، أَنَا ابْنُ الْأَشْثَرِ، إِنَّ خَيْرَ فَرَارِكُمْ كَرَارِكُمْ، لَيْسَ مُسَيِّئًا مَنْ اغْتَنَبَ. فَارْجَعَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ، وَحَمَلَتْ مِيمَتُهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى مِيسِرَةِ ابْنِ زِيَادٍ وَهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يَنْهَزِمَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُبَابِ، كَمَا زَعَمَ، فَقَاتَلَهُمْ عُمَيْرُ قِتَالًا شَدِيدًا وَأَنْفَ مِنَ الْفِرَارِ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: اقْصِدُوا هَذَا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَوَاللَّهِ لَوْ هَزَمْنَا لَا نَجْصُلُ مَنْ تَرَوْنَ يَمِينَةً وَيسرةً انْجِفَالِ طَيْرٍ ذَعَرَتْهَا. فَمَشَى أَصْحَابُهُ إِلَيْهِمْ فَتَقَاعُوا ثُمَّ صَارُوا إِلَى السِّيَوفِ وَالْعَمَدِ فَاضْطَرَبُوا بِهَا مَلِيًّا، وَكَانَ صَوْتُ الضَّرْبِ بِالْحَدِيدِ كَصَوْتِ الْقَصَّارِينَ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ لِصَاحِبِ رَابِتِهِ: اتَغَمِسْ بِرَابِتِكَ فِيهِمْ. فَيَقُولُ: لَيْسَ لِي مُتَقَدِّمٌ. فَيَقُولُ: بَلَى، فَإِذَا تَقَدَّمَ شَدَّ إِبْرَاهِيمُ بِسَيْفِهِ فَلَا يَضْرِبُ [بِهِ] رَجُلًا إِلَّا صَرَعَهُ، وَكَرَدَ

وأقام إبراهيم بالموصل، وأنفذ رأس عبيد الله بن زياد إلى المختار ومعه رؤوس قواده، فألقيت في القصر فجاءت حية دقيقة فتخللت الرؤوس حتى دخلت في فم عبيد الله بن زياد ثم خرجت من منخره ودخلت في منخره وخرجت من فيه، فعلت هذا مراراً؛ أخرج هذا الترمذي في جامعه.

وقال المغيرة: أول من ضرب الزئوف في الإسلام عبيد الله بن زياد، وقال بعض حجاب ابن زياد: دخلت معه القصر حين قُتل الحسين فاضطرم في وجهه ناراً فقال بكمه هكذا على وجهه وقال: لا تحدثن بهذا أحداً.

وقال المغيرة: قالت مرجانة لابنها عبيد الله بعد قتل الحسين: يا خبيث قتلت ابن رسول الله ﷺ، لا ترى الجنة أبداً! وقال ابن مفرغ حين قُتل ابن زياد:

إِنَّ النَّبَا إِذَا مَا زُوْنَ طَاغِيَةً مَكَّنْ اسْتَارَ حُجَابِ وَأَبْوَابِ
(٢٦٦/٤)

أقول بهذا وسحقاً عند مصرعه لابن الخيشة وابن الكوندي الكابي
لا انت زوجت عن ملك فتعنه ولا انت إلى قوم بأسباب
لا من يزار ولا من جسد ذي يمن جلودا القيت من بين الهباب
لا تقبل الأرض موتاهم إذا قبروا وكيف تقبل رجساً بين أنواب؟

وقال شرافة البارقى يمدح إبراهيم بن الأشتر:

أحكم غلاماً من عرائس مذبح جري على الأعداء غير نكول
فيا ابن زياد بؤساً عظم مالك وفق حد ماضي الشفرتين صقيل
جزى الله خيراً شرطة الله إنهم شفواً من عيد الله أمس غليلي

وقال عمير بن الحباب السلمي يذم جيش ابن زياد:

وما كان جيش يجمع الخمر والزنا مجلداً إذا لاقى العدو ليُنصرا

ذكر ولاية مصعب بن الزبير البصرة

وفي هذه السنة عزل عبد الله بن الزبير الحارث بن أبي ربيعة، وهو القبايع، عن البصرة واستعمل عليها أخاه مصعباً. فقدّمها مصعباً مثلاً ودخل المسجد وصعد المنبر، فقال الناس: أمير أمير! وجاء الحارث بن أبي ربيعة، وهو الأمير، فسفر مصعب لئامه ففرقه، وأمر مصعب الحارث بالصمود إليه (٢٦٧/٤) فأجلسه تحته بدرجة ثم قام مصعب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

بسم الله الرحمن الرحيم، «طسم تلك آيات الكتاب المبين
تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون» إلى قوله
«من المفسيدين» [القصص: ١-٤]؛ فأشار بيده نحو الشام؛ «ونريد
أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم
الوارثين» [القصص: ٥]؛ وأشار نحو الحجاز؛ «ونري فرعون
وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» [القصص: ٦]؛ وأشار

إبراهيم الرُّجَالَةَ [من] بين يديه كأنهم الخملان، وحمل أصحابه حملة رجل واحد. واشتد القتال فانهزم أصحاب ابن زياد وقُتل من الفريقين قتلى كثيرة.

وقيل: إن عمير بن الحباب أول من انهزم، وإنما كان قتاله أولاً تعذيراً. (٢٦٤/٤)

فلما انهزموا قال إبراهيم: إني قد قتل رجلًا تحت راية منفردة على شاطئ نهر الخازر فالتمسوه فإني شممت منه رائحة المسك، شرقت يده وغرقت رجلاه. فالتمسوه فإذا هو ابن زياد قتيلًا بضربة إبراهيم فقد قدّنه بنصفين وسقط، كما ذكر إبراهيم، فأخذ رأسه وأحرقت جثته.

وحمل شريك بن جدير التغلبي على الحصين بن نمير السكوني وهو يظنه عبيد الله بن زياد، فاعتق كل واحد منهما صاحبه، فنادى التغلبي: اقتلوني وابن الزانية! فقتلوا الحصين.

وقيل: إن الذي قتل ابن زياد شريك بن جدير، وكان هذا شريك شهد صفين مع علي وأصيب عينه، فلما انقضت أيام علي لحق شريك ببيت المقدس فأقام به، فلما قُتل الحسين عاهد الله تعالى إن ظهر من يطلب بدمه ليقتل ابن زياد أو ليموتن دونه. فلما ظهر المختار للطلب بئار الحسين أقبل إليه وسار مع إبراهيم بن الأشتر، فلما التقوا حمل على خيل الشام يهتكها صفاً صفاً مع أصحابه من ربيعة حتى وصلوا إلى ابن زياد ونار الهرج فلا يسمع إلا وقع الحديد، فانفجرت عن الناس وهما قتيلان شريك وابن زياد. والأول أصح. وشريك هو القاتل:

كل عيش قد أراه باطلاً غير ركز الرمح في ظل الفرس
قال: وقُتل شريك بن ذي الكلاع الحميري، وأدعى قتله

سفيان يزيد الأزدي وورقاء بن عازب الأسدي وعبيد الله بن زهير السلمي وكان عيينة بن أسماء مع ابن زياد، فلما انهزم أصحابه حمل أخته هند بنت أسماء، وكانت زوجة عبيد الله بن زياد، فذهب بها وهو يرتجز: (٢٦٥/٤)

إن نصرمي جالفاً فرئما أريد في الهيجا الكمي الملعنا
ولما انهزم أصحاب ابن زياد تبعهم أصحاب إبراهيم، فكان من غرق أكثر ممن قُتل، وأصابوا عسكرهم وفيه من كل شيء.

وأرسل إبراهيم البشارة إلى المختار وهو بالمدائن، وأنفذ إبراهيم عماله إلى البلاد، فبعث أخاه عبد الرحمن بن عبد الله إلى نصيبين وغلب على سنجار ودارا وما والاها من أرض الجزيرة، فولى زفر بن الحارث قرقيسيا، وحاتم بن النعمان الباهلي حران والرها، ومسيط وناحيها، وولى عمير بن الحباب السلمي كفرنوتا وطور عبيد.

يطيروا عليها ويسلموك. وكان (٢٦٩/٤) هذا غشاً منه للموالي لما كانوا لقوا منهم بالكوفة، فأحَبَّ أن كانت عليهم الهزيمة وأن لا ينجو منهم أحد. فلم يتهمه ابن شُمَيْط، ففعل ما أشار به، فنزل الموالي معه.

وجاء مصعب وقد جعل عباد بن الحُصَيْن على الخيل، فدنا عباد من أحمر وأصحابه وقال: إِنَّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله وإلى بيعة المختار وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى في آل الرسول. فرجع عباد فأخبر مصعباً، فقال له: ارجع فاحملهم عليهم. فرجع وحمل على ابن شُمَيْط وأصحابه، فلم ينزل منهم أحد، ثم انصرف إلى موقفه، وحمل المهلب على ابن كامل، فجال بعضهم في بعض، فنزل ابن كامل فانصرف عنه المهلب، ثم قال المهلب لأصحابه: كَرُّوا عليهم كَرَّةً صادقة، فحملوا عليهم حملة منكرة، فولَّوا، وصبر ابن كامل في رجال من همدان ساعة ثم انهزم، وحمل عمر بن عبيد الله على عبد الله بن أنس، فصبر ساعة ثم انصرف، وحمل الناس جميعاً على ابن شُمَيْط، فقاتل حتى قُتل، وتنادوا: يا معشر بجيلة وخثعم الصبر! فناداهم المهلب: الفسار اليوم أنجى لكم، علام تقتلون أنفسكم مع هذه العبيد؟ ثم قال: واللَّه ما أرى كثرة القتل اليوم إلَّا في قومي.

ومالت الخيل على رجالة ابن شُمَيْط فانهزمت، وبعث مصعب عباداً على الخيل، فقال: أيما أسير أخذته فاضرب عنقه. وسرح محمد بن الأشعث في خيل عظيمة من أهل الكوفة فقال: دونكم ثاركم. فكانوا أشدَّ على المنهزمين من أهل البصرة لا يدركون منهزماً إلَّا قتلوه، ولا يأخذون أسيراً فيعفون عنه، فلم ينجُ من ذلك الجيش إلَّا طائفة أصحاب الخيل، وأمَّا الرجالة فأبديوا إلَّا قليلاً.

قال معاوية بن قرَّة المُرْنِي: انتهيتُ إلى رجل منهم فأدخلتُ السنان في عينه (٢٧٠/٤) فأخذتُ أخضخص عينه به. فقيل له: أفعلتَ هذا؟ فقال: نعم، إنهم كانوا عندنا أحلَّ دماء من التُّرك والديلم. وكان معاوية هذا قاضي البصرة.

فلما فرغ مصعب منهم أقبل حتى قطع من تلقاء واسط، ولم تكن بُيُوت بعد، فأخذ في سكر، ثم حمل الرجال وأثقالهم والضعفاء في السفن فأخذوا في نهر خرشاد ثم خرجوا إلى نهر قُوسان ثم خرجوا إلى الفرات.

وأتى المختار خبر الهزيمة ومَن قُتل بها من فرسان أصحابه، فقال: ما من الموت بُدٌّ، وما من مِيتة أموتها أحبُّ إليَّ من أن أموت مِيتة ابن شُمَيْط. فعلموا أنه إن لم يبلغ ما يريد يقاتل حتى يُقتل.

ولما بلغه أن مصعباً قد أقبل إليه في البر والبحر وسار حتى وصل السيلحين ونظر إلى مجتمع الأنهار: نهر الحيرة ونهر السيلحين ونهر القادسية ونهر يوسف، فسكَّر الفرات فذهب ماؤها

نحو الكوفة، وقال: يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد لُقِّبْتُ نفسي بالجزار.

ذكر مسير مُصْعَب إلى المختار وقتل المختار

ولما هرب أشراف الكوفة من وقعة الشَّيْبَعِ أتى جماعة منهم إلى مصعب فاتاه شُبَيْب بن رُبَيْعٍ على بغلة قد قطع ذنبها وطرف أذنها وشقَّ قَبَاءَهُ وهو ينادي: يا غزواته! فرُفِعَ خبره إلى مُصْعَب، فقال: هذا شُبَيْب بن رُبَيْعٍ، فأدخل عليه، فاتاه أشراف الكوفة فدخلوا عليه وأخبروه بما اجتماعوا عليه وسألوه النصْرَ لهم والمسير إلى المختار معهم.

وقدم عليه محمد بن الأشعث أيضاً واستحثه على المسير، فأدناه مصعب وأكرمه لشرفه، وقال لأهل الكوفة حين أكثروا عليه: لا أسير حتى يأتيني المهلب بن أبي صُفْرَةَ. وكتب إليه، وهو عامله على فارس، يستدعيه ليشهد معهم قتال المختار، فأبطأ المهلب واعتلَّ بشيء من الخراج لكراهية الخروج، (٢٦٨/٤) فأمر مُصْعَبُ محمد بن الأشعث أن ياتي المهلب يستحثه، فاتاه محمد ومعه كتاب مصعب، فلما قرأه قال له: أمَّا وجد مصعب يريدُ غيرك؟ فقال: ما أنا بيريد لأحد، غير أن نساءنا وأبنائنا وحرَمَنا غلبنا عليهم عبيدنا.

فأقبل المهلب معه بجموع كثيرة وأموال عظيمة فقدم البصرة، وأمر مصعب بالعسكر عند الجسر الأكبر، وأرسل عبد الرحمن بن يَحْنَفٍ إلى الكوفة فأمره أن يُخرج إليه مَنْ قدر عليه وأن يُبْطِئ الناس عن المختار ويدعوههم إلى بيعة ابن الزَّيْبِرِ سرّاً، ففعل، ودخل بيته مستتراً، ثم سار مصعب فقدم أمامه عباد بن الحُصَيْنِ الحَطَمِيُّ التميمي، وبعث عمر بن عبيد الله بن مَعْمَرٍ على مِيعَتِهِ، والمهلب على ميسرته، وجعل مالك بن مِشْعَمٍ على بكر، ومالك بن المُنْذَرِ على عبد القيس، والأحنف بن قيس على تميم، وزباد بن عمرو العُتْكِيُّ على الأزد، وقيس بن الهَيْثَمِ على أهل العالية.

وبلغ الخبر المختار فقال في أصحابه فاعلمهم ذلك وندبهم إلى الخروج مع أحمر بن شُمَيْط، فخرج وعسكر بحمص أغين، ودعا المختار رؤوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر فيعتهم مع أحمر بن شُمَيْط، فسار وعلى مقدّمته ابنُ كامل الشاكري، فوصلوا إلى المذار، وأتى مصعب فعسكر قريباً منه، وعبّا كل واحد منهما جنده ثم تزاخفا، فجعل ابن شُمَيْط ابن كامل على مِيعَتِهِ، وعلى الميسرة عبد الله بن وَهَيْبِ الجُشَمِيِّ، وجعل أبا عَمْرَةَ مولى عُرَيْنَةَ على الموالي.

فجاء عبد الله بن وَهَيْبِ الجُشَمِيِّ إلى ابن شُمَيْط فقال له: إنَّ الموالي والعبيد أولو خور عند المصدوقة، وإنَّ معهم رجالاً كثيراً على الخيل وأنت تمشي فمَرَّهم فليمشوا معك فلا تبي أن تخوَّف أن

في هذه الأنهار وبقيت سفن أهل البصرة في الطين، فلما رأوا ذلك خرجوا من السفن إلى ذلك السكر فأصلحوه وقصدوا الكوفة، وسار المختار إليهم فنزل حُروراء وحال بينهم وبين الكوفة، وكان قد حصن القصر والمسجد وأدخل إليه عُدَّة الحصار.

وأقبل مُصعب وقد جعل على ميمته المهلب، وعلى مسيرته عمر بن عبيد الله، وعلى الخيل عباد بن الحصين؛ وجعل المختار على ميمته سليم بن يزيد الكندي، وعلى مسيرته سعيد بن مُنقذ الهمداني، وعلى الخيل عمرو بن عبد الله النهدي، وعلى الرجال مالك بن عبد الله النهدي. وأقبل محمد بن الأشعث فيمن هرب من أهل الكوفة فنزل بين مُصعب والمختار. فلما رأى ذلك المختار بعث إلى كل جيش من أهل البصرة رجلاً من أصحابه، وتنادى الناس، فحمل سعيد بن (٢٧١/٤) منقذ على بكر وعبد القيس وهم في ميمته مصعب فاقتلوا قتالاً شديداً، فأرسل مصعب إلى المهلب ليحمل على من يرازه، فقال: ما كنت لأجزر الأزد خشية أهل الكوفة حتى أرى فرصتي.

وبعث المختار إلى عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومي، فحمل على من يرازه، وهم أهل العالية، فكشفهم، فأتوها إلى مصعب فجنا مصعب على ركبته ويرك الناس عنده فقاتلوا ساعة وتحاجزوا.

ثم إن المهلب حمل في أصحابه على من يرازه فحطموا أصحاب المختار حطمة منكورة فكشفوهم. وقال عبد الله بن عمرو النهدي، وكان ممن شهد صفين: اللهم إني على ما كنت عليه بصفيين، اللهم أبرأ إليك من فعل هؤلاء، لأصحابه [حين انهزموا]، وأبرأ إليك من أنفس هؤلاء، يعني أصحاب مصعب، ثم جالد بسيفه حتى قُتل.

وانقصف أصحاب المختار كأنهم أجمة قصب فيها نار، وحمل مالك بن عمرو النهدي، وهو على الرُجالة، ومعه نحو خمسين رجلاً، وذلك عند المساء، على أصحاب ابن الأشعث حملةً منكورة، فقتل ابن الأشعث وقتل عامة أصحابه.

وقاتل المختار على فم سكة شئت عامة ليلته وقاتل معه رجال من أهل الباس وقاتلت معه همدان أشد قتال وتشرق الناس عن المختار، فقال له من معه: أيها الأمير اذهب إلى القصر، فجاء حتى دخله فقال له بعض أصحابه: ألم تكن وعدتنا الظفر وأنا سنهزمهم؟ فقال: أما قرأت في كتاب الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]. فقيل: إن (٢٧٢/٤) المختار أول من قال بالبداء.

فلما أصبح مصعب أقبل يسير فيمن معه نحو السبخة، فمر بالمهلب، فقال له المهلب: ياله فتناً ما أهنأ لو لم يقتل محمد بن

الأشعث. قال: صدقت. ثم قال مصعب للمهلب: إن عبيد الله بن علي بن أبي طالب قد قُتل، فاسترجع المهلب، فقال مصعب: قد كنت أحب أن يشهد هذا الفتح، أتدري من قتله؟ إنما قتله من يزعم أنه شيعة لأبيه.

ثم نزل السبخة فقطع عنهم الماء والمادة وقاتلهم المختار وأصحابه قتالاً ضعيفاً، واجترأ الناس عليهم فكانوا إذا خرجوا رماهم الناس من فوق البيوت وصبوا عليهم الماء القذر، وكان أكثر معاشهم من النساء، تأتي المرأة متخفية ومعها القليل من الطعام والشراب إلى أهلها. فظن مصعب بالنساء فمتعنهن، فاشتد على المختار وأصحابه العطش، وكانوا يشربون ماء البثر يعملون فيه العسل فكان ذلك ما يروى بعضهم.

ثم إن مصعباً أمر أصحابه فاقتربوا من القصر واشتد الحصار عليهم، فقال لهم المختار: ويحكم إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفاً فانزلوا بنا فقاتل حتى تقتل كراماً إن نحن قتلنا، فوالله ما أنا بآيس إن صدقتموه أن ينصركم الله. فضحقوا ولم يفعلوا. فقال لهم: أما أنا فوالله لا أعطي يدي ولا أحكمكم في نفسي، وإذا خرجت فقتلت لم تزدادوا إلا ضعفاً وزلاً، فإن نزلتم على حكمهم وثبت أعداؤكم فقتلوكم وبعضكم ينظر إلى بعض فيقولون: يا ليتنا أطعنا المختار، ولو أنكم خرجتم معي كنتم إن أخطأتم الظفر متم كراماً.

فلما رأى عبد الله بن جعدة بن هبيرة ما عزم عليه المختار تدلى من القصر فلقق بناس من إخوانه فاخفى عندهم سرّاً. ثم إن المختار تطيب وتحط (٢٧٣/٤) وخرج من القصر في تسعة عشر رجلاً، منهم السائب بن مالك الأشعري، وكانت تحته عسرة بنت أبي موسى الأشعري، فولدت له غلاماً اسمه محمد، فلما أخذ القصر وجد صبياً فتركوه.

فلما خرج المختار قال للسائب: ماذا ترى؟ قال: ما ترى أنت. قال: ويحك يا أحمق إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير قد وثب بالحجاز، ورأيت ابن نخعة وثب باليمامة، ومروان بالشام، وكنت فيها كأحدهم، إلا أنني قد طلبت بنار أهل البيت إذ نامت عنه العرب، فقاتلت على حسيك إن لم يكن لك نية. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما كنت أصنع أن أقاتل على حسي. ثم تقدم المختار فقاتل حتى قُتل، قتله رجلان من بني حنيفة أخوان، أحدهما طرفة، والآخر طراف، ابنا عبد الله بن دجاجة.

فلما كان الغد من قتله دعاهم بحير بن عبد الله المسكي ومن معه بالقصر إلى ما دعاهم المختار فأبوا عليه وأمنوا أصحاب مصعب من أنفسهم ونزلوا على حكمه فأخرجوهم مكتفين، فأراد إطلاق العرب وقتل الموالي، فأبى أصحابه عليه، فعرضوا عليه فأمر يقتلهم، وعرض عليه بحير المسكي، فقال لمصعب: الحمد لله

الذي ابتلانا بالأسر وابتلاك بأن تغف عنا، هما منزلتان: إحداهما رضا الله، والأخرى سخطه، من عفا عفا الله عنه وزاد عزاً، ومن عاقب لم يأمن القصاص، يا ابن الزبير نحن أهل قبلكم وعلى ملتكم ولنا تركاً ولا ديلماً، فإن خالفنا إخواننا من أهل مصرنا. فإما أن نكون أصبنا وأخطاوا، وإما أن نكون أخطأنا وأصابوا، فاقبلنا بيننا كما اقبل أهل الشام بينهم ثم (٢٧٤/٤) اجتمعوا، وكما اقبل أهل البصرة واصطلحوا واجتمعوا، وقد ملكتم فأسجدوا، وقد قدرتم فاعفوا. فما زال بهذا القول حتى رق لهم الناس ومصعب وأراد أن يخلي سبيلهم.

فقام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقال: أتخلي سبيلهم؟ اخترنا أو اخترهم. وقام محمد بن عبد الرحمن بن سعيد الهمداني فقال مثله، وقام أشراف الكوفة فقالوا مثلها، فأمر بقتلهم، فقالوا له: يا ابن الزبير لا تقتلنا واجعلنا على مقدمتك إلى أهل الشام غداً، فما بكم عنا غي، فإن قتلنا لم نقتل حتى نضفيهم لكم، وإن ظفروا بهم كان ذلك لكم. فأبى عليهم. فقال بحير المسكي: لا تخطئ دمي بدمائهم إذ عصوني. فقتلهم.

وقال مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي: ما تقول يا ابن الزبير لربك غداً وقد قتلت أمه من المسلمين حكموك في أنفسهم صبراً؟ اقتلوا منا بعدة من قتلنا منكم، ففينا رجال لم يشهدوا موطناً من حربنا يوماً واحداً، كانوا في السواد وجباية الخراج وحفظ الطرق. فلم يسمع منه وأمر بقتله.

ولما أراد قتلهم استشار مصعب الأحنف بن قيس، فقال: أرى أن تغفو، فإن العفو أقرب للمقوى. فقال أشراف أهل الكوفة: اقتلهم، وضجوا، فقتلهم. فلما قتلوا قال الأحنف: ما أدرككم بقتلهم ثاراً، فليت لا يكون في الآخرة وبالاً.

وبعث عائشة بنت طلحة امرأة مصعب إليه في إطلاقهم، فوجدهم الرسول قد قتلوا. (٢٧٥/٤)

وأمر مصعب بكف المختار بن أبي عبيدة ففطعت وسمرت بمسما إلى جانب المسجد، فبقيت حتى قدم الحجاج فنظر إليها وسأل عنها فقيل: هذه كف المختار، فأمر بنزعها.

وبعث مصعب عماله على الجبال والسواد وكتب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعو إلى طاعته ويقول له: إن أعطيتي فلك الشام وأعة الخيل وما غلبت عليه من أرض المغرب ما دام لآل الزبير سلطان، وأعطاه عهد الله على ذلك. وكتب عبد الملك بن مروان إلى ابن الأشتر يدعو إلى طاعته ويقول: إن أنت أجبتني فلك العراق، فاستشار إبراهيم أصحابه فاختلوا، فقال إبراهيم: لو لم أكن أضيت ابن زياد وأشراف الشام لأجبت عبد الملك مع أنني لا أختار على أهل مصري وعشيري غيرهم. فكتب إلى مصعب بالدخول معه.

فكتب إليه مصعب أن أقبل، فأقبل إليه بالطاعة، فلما بلغ مصعباً إقباله إليه بعث المهلب على عمله بالموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان.

ثم إن مصعباً دعا أم ثابت بنت سمر بن جندب امرأة المختار وعمره بنت النعمان بن بشير الأنصارية امرأته الأخرى فأحضرهما وسألهما عن المختار. فقالت أم ثابت: نقول فيه بقولك أنت، فأطلقها، وقالت عمره: رحمه الله، كان عبداً لله صالحاً فحسبها، وكتب إلى أخيه عبد الله بن الزبير: إنها تزعم أنه نبي، فأمره بقتلها، فقتلت ليلاً بين الكوفة والحيرة، قتلها بعض الشرط ضربها ثلاث ضربات بالسيف وهي تقول: يا ابتاه! يا عثرتاه! فرفع رجل يده فطمم القاتل وقال: يا ابن الزانية عذبتك! ثم تشحطت فماتت، فتعلق الشرطي بالرجل وحمله إلى مصعب، فقال: خلوه، فقد رأى أمراً فظيعاً. فقال: عمر بن أبي ربيعة المخزومي في ذلك:

إن من أعجب العجائب عندي قتل يضاء جرة عطبول (٢٧٦/٤)

قتلت مكذا على غير جرم إن للسوداء من قتل كيب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جسر اللؤلؤ وقال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري في ذلك أيضاً:

أتى راكب بالأمير ذي النبا العجب بقتل ابنة النعمان ذي الدين الحسب بقتل قاتل ذات قلب ستيرة مهنية الأخلاق والخيم والنسب من المؤثرين الخير في سالف العجب من المؤثرين الخير في سالف العجب وصاحبه في الحرب والضرب والكره على قتلها، لا يجنوا القتل والسلب وذاقوا لباس النك والخوف والحرب فلا هنات آل الزبير مبيحة بأسهم فازوا بمملكة العرب من المحصنات التي مخمودة الأذب من الدماء والبهتان والشك والكذب وعن العفاف في الجبال وفي الحجب كرام مضت لم تحز أهلاً ولم ترب من الحفريات لا حشور بليلة ملائمة تبني على جارها العجب

(٢٧٧/٤) ولا الجار ذي القرى ولم تدر ما الخنا ولم تزل يوماً بسوء ولم تجب عجب لها إذ كشت وهي حية إلا إن هذا الخطب من أعجب العجب

وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة، وإن مصعباً لما سار إليه فبلغه مسيره أرسل إليه أحمر بن شميظ وأمره أن يواقعه بالمدار، وقال: إن الفتح بالمدار لأنه بلغه أن رجلاً من قتيق يفتح عليه بالمدار فتح عظيم، فظن أنه هو، وإنما كان ذلك للحجاج في قتال عبد الرحمن بن الأشعث.

وأمر مصعب عبّاد الحطميّ بالمسير إلى جمع المختار، فتقدّم وتقدّم معه عبّاد الله بن عليّ بن أبي طالب، وبقي مصعب على نهر البصريين، وخرج المختار في عشرين ألفاً، وزحف مصعب ومن معه فوافوه مع الليل، فقال المختار لأصحابه: لا يبرحن أحد منكم حتى يسمع منادياً ينادي: يا محمّد، فإذا سمعتموه فاحملوا.

فلما طلع القمر أمر منادياً فنادى: يا محمّد، فحملوا على أصحاب مصعب فهزموهم وأدخلوهم عسكرهم، فلم يزالوا يقاتلونهم حتى أصبحوا وأصبح المختار وليس عنده أحد وأصحابه قد أوغلوا في أصحاب مصعب، فأنصرف المختار منهزماً حتى دخل قصر الكوفة، وجاء أصحابه حين أصبحوا فوقروا ملياً فلم يروا المختار فقالوا: قد قُتل، فهرب منهم من أطاق الهرب فاختفوا بدور الكوفة، وتوجّه منهم نحو القصر ثمانية آلاف فوجدوا المختار في القصر، فدخلوا عليه، وكانوا قد قتلوا تلك الليلة من أصحاب مصعب خلقاً كثيراً، منهم محمّد بن الأشعث. وأقبل مصعب فأحاط بالقصر وحاصروهم أربعة أشهر يخرج المختار كلّ يوم فيقاتلهم في سوق الكوفة.

فلما قُتل المختار بعث من في القصر يطلب الأصان، فأبى مصعب، فنزلوا (٢٧٨/٤) على حكمه، فقتل من العرب سبعمائة أو نحو ذلك وسالروهم من العجم، وكان عدّة القتلى ستّة آلاف رجل.

ولما قُتل المختار كان عمره سبعاً وستين سنة، وكان قتله لأربع عشرة خلت من رمضان سنة سبع وستين.

قيل: إنّ مصعباً لقي ابن عمر فسلم عليه وقال له: أنا ابن أخيك مصعب. فقال له ابن عمر: أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة غير ما بدا لك. فقال مصعب: إنهم كانوا كفّرة فحجّرة. فقال: والله لو قتلت عدّتهم غنماً من تراث أبيك لكان ذلك سرفاً.

وقال ابن الزبير لعبد الله بن عباس: ألم يبلغك قتل الكذاب؟ قال: ومن الكذاب؟ قال: ابن أبي عبيد. قال: قد بلغني قتل المختار. قال: كأنك نكرت تسميته كذاباً ومتوجّع له. قال: ذاك رجل قتل قتلنا وطلب ثارنا وشفى غليل صدورنا وليس جزاؤه منا الشتم والشماتة.

وقال عروة بن الزبير لابن عباس: قد قُتل الكذاب المختار وهذا رأسه. فقال ابن عباس: قد بقيت لكم عقبة كؤود فإن صعدتموها فأنتم أنتم وإلا فلا يعني عهد الحليّ بن مروان.

وكانت هدايا المختار تأتي ابن عمير وابن الحنفية فيقيلانها، وقيل: ردّ ابن عمر هديته.

ذكر عزل مُصعب بن الزُّبير وولاية حمزة بن عبد الله بن الزبير وفي هذه السنة عزل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً عن العراق بعد أن قتل المختار وولى مكانه ابنه حمزة بن عبد الله، وكان حمزة جواداً سخلاً يجرّد (٢٧٩/٤) أحياناً حتى لا يدع شيئاً يملكه ويمنع أحياناً ما لا يمتنع مثله، وظهر منه بالبصرة خفة وضعف، فيقال إنّه ركب يوماً فرأى فيض البصرة فقال: إنّ هذا الغدير إن رفقوا به ليكفيهم صيفهم، فلما كان بعد ذلك رآه جازراً فقال: قد قلت لو رفقوا به لكفاهم. وظهر منه غير ذلك فكتب الأحنف إلى أبيه وسأله أن يعزله عنهم ويُعيد مصعباً، فعزله، فاحتمل مالا كثيراً من مال البصرة، فعرض له مالك بن وسّمع فقال له: لا ندعك تخرج بعطيانا. فضمن له عبيد الله ابن عبد الله العطاء فكفّ عنه، وشخص حمزة بالمال وأتى المدينة فأودعه رجلاً، فحجّدهو إلا رجلاً واحداً فوقى له، وبلغ ذلك أباه فقال: أبعد الله! أردت أن أباهي به بني مروان فنكص.

وقيل إنّ مصعباً أقام بالكوفة سنة بعد قتل المختار معزولاً عن البصرة، عزله أخوه عبد الله واستعمل عليها ابنه حمزة، ثم إنّ مصعباً وفد على أخيه عبد الله فردّه على البصرة، وقيل: بل أنصرف مصعب إلى البصرة بعد قتل المختار واستعمل على الكوفة الحارث بن أبي ربيعة، فكانتا في عمله، فعزله أخوه عن البصرة واستعمل ابنه حمزة، ثم عزل حمزة بكتاب الأحنف وأهل البصرة ورّد مصعباً.

ذكر عدّة حوادث

حجّ بالناس [في هذه السنة] عبد الله بن الزبير، وكان عامله على الكوفة والبصرة من تقدّم ذكره، وكان على قضاء الكوفة عبد الله بن عتبة بن مسعود، (٢٨٠/٤) وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة، وبالشام عبد الملك بن مروان، وبخراسان عبد الله بن خازم.

وفي هذه السنة مات الأحنف بن قيس بالكوفة مع مصعب، وقيل: مات سنة إحدى وسبعين بالكوفة لما سار مصعب إلى قتال عبد الملك بن مروان.

وقُتل هبيرة بن مريم مولى الحسين بن عليّ بالخازر، وهو من أصحاب المختار وثقات المحفّطين.

وفيها توفي جُنادة بن أبي أمية وأدرك الجاهليّة، وتيسّت له صعبة.

وقتل مصعب عبد الرحمن وعبد الربّ ابننيّ جُحبر بن عديّ وعمران بن حبيب بن اليمان، قتلهم صبراً بعد قتل المختار وبعد قتل أصحابه. (٢٨١/٤)

سنة ثمان وستين

ذكر عزل حمزة وولاية مصعب البصرة

وقصدوا نحو أصبهان، فأقاموا عندها حتى قروا واستعدوا، ثم أقبلوا حتى مروا بفارس وبها عمر، فقطعوها في غير الموضع الذي هم به، أخذوا على سابور ثم على أرجان حتى أتوا الأهواز.

فقال مُصْعَبُ: العجب لعمر! قطع هذا العدو الذي هو يصدد محاربتة أرض فارس فلم يقاتلهم، ولو قاتلهم وفر كان أعذر. له وكتب إليه: يا ابن مَعْمَرٍ (٢٨٣/٤) ما أنصفتني، تجبي الفتيء وتحيد عن العدو، فاكفني أمرهم.

فسار عمر من فارس في أثرهم مجداً يرجو أن يلحقهم قبل أن يدخلوا العراق، وخرج مصعب فعسكر عند الجسر الأكبر وعسكر الناس معه، وبلغ الخوارج وهم بالأهواز إقبالاً عمر إليهم وأن مصعباً قد خرج من البصرة إليهم، فقال لهم الزبير بن الماحوز: من سوء الرأي وقوعكم بين هاتين الشكتين، انهضوا بنا إلى عدونا نلقهم من وجه واحد. فسار بهم فقطع بهم أرض جوحسى والنهروانات فأتى المدائن وبها كَرْدَم بن مرثد الفَرَادِي، فشنوا الغارة على أهل المدائن يقتلون الرجال والنساء والولدان ويشقون أجواف الحبالى. فهرب كَرْدَم، وأقبلوا إلى ساباط ووضعوا السيف في الناس يقتلون، وأرسلوا جماعة إلى الكرخ فلقوا أبا بكر بن ميخنف فقاتلهم قتالاً شديداً، فقتل أبو بكر وانهزم أصحابه، وأفسد الخوارج في الأرض.

فأتى أهل الكوفة أميرهم، وهو الحارث بن أبي ربيعة ولقبه القُبَاع، فصاحوا به وقالوا: اخرج فإن العدو قد أطل علينا ليست له بقة. فخرج حتى نزل النخيلة فأقام أياماً، فوثب إليه إبراهيم بن الأشتر فحثه على المسير، فسار حتى نزل دير عبد الرحمن فأقام به حتى دخل إليه شبيب بن ربيعة فأمره بالمسير، فلما رأى الناس بطة مسيره رجزوا به فقالوا:

سَارَ بِنَا الْقُبَاعُ سَيْرًا نَكْرًا يَسِيرُ يَوْمًا وَيَقِيمُ شَهْرًا
فسار من ذلك المكان، فكان كلما نزل منزلاً أقام به حتى يصبح به الناس، (٢٨٤/٤) فبلغ الفرات في بضعة عشر يوماً، فأتاها وقد انتهى إليها الخوارج، فقطعوا الجسر بينهم وبينه وأخذوا رجلاً اسمه سيماك بن يزيد ومعه بنت له فأخذوها ليقتلوه، فقالت لهم: يا أهل الإسلام! إن أبي مصاب فلا تقتلوه، وأما أنا فجارسة والله ما أتيت فاحشة قط ولا أذيت جارة لي ولا تطلعت ولا تشرفت قط. فلما أرادوا قتلها منقطعت ميتة فقطعوها بأسياهم، وبقي سيماك معهم حتى أشرفوا على الصرة، فاستقبل أهل الكوفة فناداهم: اعبروا إليهم فإنهم قليل خيخ. فضرىوا عنقه وصلبوه.

فقال إبراهيم بن الأشتر للحارث: اندب معي الناس حتى أعبر إلى هؤلاء الكلاب فأجيتك برؤوسهم. فقال شبيب وأسماء بن خارجة ويزيد بن الحارث ومحمد بن عُمَيْر وغيرهم: أصلح الله

وفي هذه السنة ردَّ عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً إلى العراق. وسببه: أن الأحنف رأى من حمزة بن عبد الله اختلاطاً وحمقاً، فكتب إلى أبيه، فعزله وردَّ مصعباً واستعمل على الكوفة الحارث بن أبي ربيعة.

وقيل: كان سبب عزله حمزة أنه قصر بالأشراف ويسط يده ففرعوا إلى مالك بن يسلم ففرض خيمته على الجسر ثم أرسل إلى حمزة: الحق بأبيك؛ وأخرجه عن البصرة، فقال العدلى الجعلى:

إِذَا مَا أَخْتَنِي مِنْ أَمِيرٍ ظَلَامَةٍ دَعَوْنَا أَبَا سُفْيَانَ يَوْمًا فَعَسَاكَوْا

ذكر حروب الخوارج بفارس والعراق

في هذه السنة استعمل مصعب عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس وولاه حرب الأزارقة، وكان المهلب على حربهم أيام مصعب الأولى وأيام حمزة بن عبد الله بن الزبير. فلما عاد مصعب أراد أن يولي المهلب بلاد الموصل (٢٨٢/٤) والجزيرة وأرمينية ليكون بينه وبين عبد الملك بن مروان، فكتب إليه، وهو بفارس، في القدوم عليه، فقدم واستخلف على عمله ابنه المغيرة ووصاه بالاحتياط، وقدم البصرة، فعزله مصعب عن حرب الخوارج وبلاد فارس واستعمل عليهما عمر بن عبيد الله بن معمر. فلما سمع الخوارج به قال قَطْرِي بن المُجَاعَة: قد جاءكم شجاع وهو شجاع وبطل، جاء يقاتل لدينه وملكه بطبيعة لم أر مثلاً لأحد، ما حضر حرباً إلا كان أول فارس يقتل قرنه.

وكان الخوارج قد استعملوا عليهم يعد قتل عبيد الله بن الماحوز الزبير بن الماحوز، على ما ذكرناه سنة خمس وستين، فجاءت الخوارج إلى إصطخر، فقدم إليهم عمر ابنه عبيد الله في خيل، فاقتلوا قتل عبيد الله بن عمر، وأراد الزبير بن الماحوز قتال عمر فقال له قَطْرِي: إن عمر ماثور فلا تقاتله، فأبى فقاتله، فقتل من فرسان الخوارج تسعون رجلاً، وطعن عمر صالح بن مخارق فشر عينه، وضرب قَطْرِي على جبينه فقلقه، وانهزمت الخوارج وساروا إلى سابور، فعاد عمر ولحقهم بها ومعه مُجَاعَة بن سيعر، فقتل مُجَاعَة بعمود كان معه أربعة عشر رجلاً من الخوارج، وكاد عمر يهلك في هذه الوقعة، فدافع عنه مُجَاعَة، فوهب له عمر تسعمائة ألف درهم، فقتل في ذلك:

قَدْ ذُذْتُ عَادِيَةَ الْكَيْفَةِ عَنْ قَتْلِ قَدْ كُنْتُ يَتْرَكَ لِحُمَةِ أَطْلَاسَا
وظهر عليهم فساروا وقطعوا قطرة بينهما ليمتتع من طلبهم

الأمير، دعهم فليذهبوا، وكأنهم حسدوا إبراهيم.
فلما رأى الخوارج كثرة الناس قطعوا الجسر، واغتم ذلك الحارث فتحبس ثم جلس للناس فقال: أما بعد فإن أول القتال الرمية بالنبل وإشراع الرماح والطنن ثم الطعن شراً ثم السلة آخر ذلك كله. فقال له رجل: قد أحسن الأمير الصفة ولكن متى نصنع هذا وهذا البحر بيننا وبينهم؟ فمر بهذا الجسر فليعقد ثم عبرنا إليهم، فإن الله سيربك ما تحب.

ذكر قتل ابن الماحوز وإمارة قطري بن الفجاءة

لما أمر عتاب أصحابه بقتال الخوارج وأجابه إلى ذلك جمع الناس وأمر لهم بطعام كثير، ثم خرج حين أصبح فأتى الخوارج وهم آمنون، فحملوا عليهم فقاتلهم حتى أخرجوهم من عسكرهم وانتهوا إلى الزبير بن الماحوز فنزل في عصابة من أصحابه فقاتل حتى قتل، وانحازت الأزارقة إلى قطري بن الفجاءة المازني، وكنيته أبو نعام، فبايعوه، وأصاب عتاب وأصحابه من عسكره ما شأوا، وجاء قطري فنزل في عسكر الزبير، ثم سار عن أصبهان وتركها وأتى ناحية كرمان وأقام بها حتى اجتمعت إليه جموع كثيرة وجبى المال وقوي. ثم أقبل إلى أصبهان ثم أتى إلى أرض الأهواز فأقام بها والحارث بن أبي ربيعة عامل مصعب على البصرة، فكتب إلى مصعب يخبره بالخوارج وأنها ليس لهم إلا المهلب. فبعث إلى المهلب وهو على الموصل والجزيرة فأمره بقتال الخوارج، وبعث إلى الموصل إبراهيم بن الأشتر، وجاء المهلب إلى البصرة وانتخب الناس وسار بهم نحو الخوارج، ثم أقبلوا إليه حتى التقوا بسلولاف فاقتلوا بها ثمانية أشهر أشد قتال رآه الناس. (٢٨٧/٤)

ذكر حصار الري

وفيها أمر مصعب عتاب بن ورقاء الرياني، عامله على أصبهان، بالمسير إلى الري وقتال أهلها لمساعدتهم الخوارج على يزيد بن الحارث بن رستم وامتناعهم من مدينتهم، فسار إليهم عتاب فزائلهم وقاتلهم وعليهم القرخان، وألح عليهم عتاب بالقتال ففتحها عنوة غيم ما فيها وافتتح سائر قلاع نواحيها.
وفيها كان بالشام حقط شديد حتى إنهم لم يقدرُوا من شدته على الغزو.

وفيها عسكر عبد الملك بن مروان ببطنان [حبيب]، وهو قريب [من] قنسرين، وشى بها ثم رجع إلى دمشق.

ذكر خبر عبيد الله بن الحر ومقتله

في هذه السنة قتل عبيد الله بن الحر الجعفي، وكان من خيار قومه صلاحاً وفضلاً واجتهاداً، فلما قتل عثمان ووقعت الحرب بين علي ومعاوية قصد معاوية فكان معه لمحبة عثمان وشهد معه صفيين هو ومالك بن يسلم، وأقام عبيد الله عند معاوية. وكان له زوجة بالكوفة، فلما طالت غيبته زوجها أخوها رجلاً يقال له عكرمة بن الخبيص، وبلغ ذلك عبيد الله فأقبل من الشام فخاصم

فعقد الجسر وعبر الناس، فطارده الخوارج حتى أتوا المدائن، وطاردت بعض خيلهم عند الجسر طراداً ضعيفاً فرجعوا، فأتيهم الحارث عبد الرحمن بن ميخنف في ستة آلاف ليخرجهم من أرض الكوفة، وقال له: إذا وقعوا في أرض البصرة فاتركهم. فسار عبد الرحمن يتبعهم حتى وقعوا في أرض أصبهان، فرجع عنهم ولم يقاتلهم، وقصدوا الري وعليها يزيد بن الحارث بن (٢٨٥/٤) رستم الشيباني، فقاتلهم فأعان أهل الري الخوارج، فقتل يزيد وهرب ابنه خوشب، ودعاه أبوه ليدفع عنه فلم يرجع، فقال بعضهم:

فلو كان حراً خوشب فاختطفه رأي ما رأي في الموت عيسى بن يعني أن عيسى بن مصعب لم يفر عن أبيه بل قاتل عنه معه حتى قتل.

وقال بشر بن مروان يوماً وعنده خوشب هذا وعكرمة بن ربيعة: من يدلني على فرس جواد؟ فقال عكرمة: فرس خوشب فإنه نجا عليه يوم الري. وقال بشر أيضاً يوماً: من يدلني على بغلة قوية الظهر؟ فقال خوشب: بغلة واصل بين مسافر، كان عكرمة يتهم بامارة واصل، فتبس بشر وقال: لقد انتصفت.

ولما فرغ الخوارج من الري انحطوا إلى أصبهان فحاصروها وبها عتاب بن ورقاء، فصير لهم، وكان يقاتلهم على باب المدينة ويرمون من السور بالنبل والحجارة. وكان مع عتاب رجل من حضرموت يقال له أبو هريرة، فكان يحمل عليهم ويقول:

كيف ترون يا كلاب النار شدابي هريرة الهراير يهركم بالليل والنهار يا ابن أبي الماحوز والأشرار كيف ترى حزبي على المضار

فلما طال ذلك على الخوارج كمن له رجل منهم ذات يوم فضربه بالسيف على حبل عاتقه فصرعه، فاحتمله أصحابه ودأوه حتى برا وخرج إليهم على عادته. (٢٨٦/٤)

ثم إن الخوارج أقامت عليهم شهراً حتى نفدت أطعمتهم واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد الشديد، فقال لهم عتاب: أيها الناس قد نزل بكم من الجهد ما ترون وما بقي إلا أن يموت أحدكم على فراشه فيدفنه أخوه إن استطاع، ثم يموت هو فلا يجد

إلا أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ويكتب لصاحب المال بذلك، ثم دعا يتقضى الكور على مثل ذلك، إلا أنه لم يتعرض لمال أحد ولا ذمة. فلم يزل كذلك حتى ظهر المختار وسمع ما يعمل في السواد، فأخذ امرأته فحبسها، فأقبل عبيد الله في أصحابه إلى الكوفة فكسر باب السجن وأخرجها وأخرج كل امرأة فيه، وقال في ذلك:

لَمْ تَلْمِ بِمَا أُمُّ تَوْبَةَ أَنْتَ يَا أُنَا الْفَارِسِ حَامِي حَسْبُكَ مَذْجِجِ (٢٩٠/٤)

وَأَنِّي صَبَحْتُ السَّجْنَ فِي سُورَةٍ
فَمَا إِنْ بَرَّخَا السَّجْنَ حَتَّى بَدَأْنَا
وَحَدَّثُ اسْمِي عَنْ قَتَاةٍ حَبِيبَةٍ
فَمَا التَّيْسُ إِلَّا أَنْ أُرْوَدَكَ أَنْبَاءُ
وَمَا زِلْتُ مُحُوساً لِحَبِيبِكَ وَاجِماً
وَهِيَ طَوِيلَةٌ.

وجعل يعذب بعمال المختار وأصحابه، فأخرقت بهمذان داره ونهبوا ضيعته، فسار عبيد الله إلى ضياع همذان فنهبا جميعها، وكان يأتي المدائن فيمر بعمال جوحى فيأخذ ما معهم من المال، ثم يميل إلى الجبل، فلم يزل على ذلك حتى قُتل المختار.

وقيل: إنه بايع المختار بعد امتناع، وأراد المختار أن يسطو به فامتنع لأجل إبراهيم بن الأشتر. ثم سار مع ابن الأشتر إلى الموصل ولم يشهد معه قتال ابن زياد، أظهر المرض. ثم فارق ابن الأشتر وأقبل في ثلاثمائة إلى الأنبار فأغار عليها وأخذ ما في بيت مالها. فلما فعل ذلك أمر المختار بهدم داره وأخذ امرأته، ففعل ما تقدم ذكره. وحضر مع مصعب قتال المختار وقتله، فلما قُتل المختار قال الناس لمصعب في ولايته الثانية: إننا لا نأمن أن يشب ابن الحر بالسواد كما كان يفعل بابن زياد والمختار، فحبسه، فقال:

فَمَنْ مُبْلِغُ الْفِتْيَانِ أَنْ أَحَابَهُمْ
بِمَنْزِلَةٍ مَا كَانَ يُرْغَى بِمِثْلِهَا
إِذَا قَامَ عَنْهُ كِبُولُ تَجَاوِثَةٍ (٢٩١/٤)

على الساق فوق الكعب أسود صامت
وما كان ذا من عظم جرم جرثومة
وقد كان في الأرض العريضة مسلماً
وقال:

بِأَيِّ بِلَاءٍ أَمْ بِأَيَّةِ نَعْمَةٍ تَهْتَمُّ قَلْبِي مُسْلِمٌ وَالْمُهَلَّبُ؟
يعني مسلم بن عمرو والد قتيبة، والمهلب بن أبي صفرة.

وكلم عبيد الله قوماً من وجوه مذحج ليشفعوا له إلى مصعب، وأرسل إلى قتيان مذحج وقال: البسوا السلاح واستروه، فإن شفعهم مصعب فلا تعترضوا لأحد، وإن خرجوا ولم يشفعهم

عكرمة إلى علي، فقال له: ظهرت علينا عدونا فقلت: فقال له: أيمعنني ذلك من عدلك؟ قال: لا، قصص عليه قصته، فرد عليه امرأته، وكانت حبلى، فوضعها عند من يشق إليه حتى وضعت فالحق الولد بعكرمة ودفع المرأة إلى عبيد الله وعاد إلى الشام فأقام به حتى قُتل علي، فلما قُتل أقبل إلى الكوفة (٢٨٨/٤) فأتى إخوانه فقال: ما أرى أحداً ينفعه اعتزاله، كنا بالشام فكان من أمر معاوية كيت وكيت، فقالوا: وكان من أمر علي كيت وكيت، وكانوا يلتقون بذلك.

فلما مات معاوية وقُتل الحسين بن علي لم يكن عبيد الله فيمن حضر قتله، يغيب عن ذلك تعمداً، فلما قُتل جعل ابن زياد يتفقد الأشراف من أهل الكوفة فلم ير عبيد الله بن الحر، ثم جاءه بعد أيام حتى دخل عليه فقال له: أين كنت يا ابن الحر؟ قال: كنت مريضاً. قال: مريض القلب أم مريض البدن؟ فقال: أما قلبي فلم يمرض، وأما بدني فقد من الله علي بالعافية. فقال ابن زياد: كذبت، ولكنك كنت مع عدونا. فقال: لو كنت معه لرأى مكاني.

وغفل عنه ابن زياد، فخرج فركب فرسه، ثم طلبه ابن زياد فقالوا: ركب الساعة. فقال: علي به. فأحضر الشرط خلفه، فقالوا: أجب الأمير، فقال: أبلغوه عني أنني لا أتبه طالعاً أبداً. ثم أجرى فرسه وأتى منزل أحمد ابن زياد الطائي، فاجتمع إليه أصحابه، ثم خرج حتى أتى كربلاء فنظر إلى مصارع الحسين ومن قُتل معه فاستغفر لهم ثم مضى إلى المدائن وقال في ذلك:

يَقُولُ أَمِيرٌ غَاوِرٌ وَابْنٌ غَاوِرٌ :
وَنَفْسِي عَلَى خِذْلَانِهِ وَاعْتَرَالِهِ
فِيَا نَدْبِي أَنْ لَا أَكُونَ نَصْرَتُهُ
وَأَنِّي لَأَنِّي لَمْ أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهِ
سَقَى اللَّهُ أَرْوَاحَ الَّذِينَ بَادَرُوا
إِلَى نَصْرِهِ سَحَابٌ مِنَ الْغَيْثِ دَائِمَةٌ

(٢٨٩/٤)

فَكَادَ الْحَشَا يَقْفُضُ وَالْمِيتُ سَاجِدَةٌ
سَرَاعاً إِلَى الْهَيْجَا حُمَاةَ خَضِرَاتٍ
بِأَسْمَائِهِمْ أَسَادَ غِيلٍ ضَرَاغِفَةٍ
عَلَى الْأَرْضِ قَدْ أَضْحَتْ لِنَلْكَ وَاجِدَةٌ
لَدَى الْمَوْتِ سَادَاتٍ وَهُمُ قَمَاوِفَةٌ
فَتَدْعُ خَطَّةَ لَيْسَتْ لَنَا بِمَلَاوِفَةٍ
فَكَمْ نَسَاقِمُ مَنَا عَلَيْكُمْ وَنَاقِمَةٌ
إِلَى فِتْنَةٍ زَاغَتْ عَنِ الْحَقِّ ظَالِمَةٌ
أَشَدَّ عَلَيْكُمْ مِنْ زُخُوفِ النَّيَالِمَةِ

وأقام ابن الحر بمنزله على شاطئ الفرات إلى أن مات يزيد ووقعت الفتنة، فقال: ما أرى قریشاً، تصيف، أين أبناء الحرائر؟ فاتاه كل خليع، ثم خرج إلى المدائن فلم يدع مالا قدم به للسلطان

فابعثوا السجج لثاني ساعيتكم من داخل.

فبعث إليه مصعبَ عمر بن عبيد الله بن معمر فقاتله، فخرج إلى قهر الأعور، فبعث إليه مصعبَ حجارَ ابنِ الجحر، فانهزم حجار، فقتله مصعبُ وضمَّ إليه الجؤنَ بن كعب الهمداني وعمر بن عبيد الله بن معمر، فقاتلوه باجمعهم وكثرت الجراحات في عسكر عبيد الله بن الحرِّ وعُقرت خيولهم، فانهزم حجار، ثم رجع فقاتلوا قتالاً شديداً حتى أسوا، وخرج ابن الحرِّ من الكوفة.

وكتب مصعبُ إلى يزيد بن الحارث بن رُوَيس الشيباني، وهو بالمدائن، يأمره بقتل ابن الحرِّ، فقدم ابنه خوشباً، فلقيه بياجسرى فهزمه عبيد الله وقتل فيهم، وأقبل ابن الحرِّ إلى المدائن فتحصنوا منه، فخرج عبيد الله فوجَّه إليه الجؤنَ بن كعب الهمداني وبشر بن عبد الله الأسدي، فنزل الجؤنَ بخولاي، وقدم بشر إلى تائراً فلقي ابن الحرِّ فقتله ابن الحرِّ وهزم أصحابه، ثم لقي الجؤنَ بن كعب بخولاي فخرج إليه عبد الرحمن بن عبد الله فقتله ابن الحرِّ وهزم أصحابه، وخرج إليه بشر بن عبد الرحمن بن بشير العجلي فقاتله بسوراء قتالاً شديداً، فرجع عنه بشير، وأقام ابن الحرِّ بالسواد بغير ويجبي الخراج.

ثم لحق بعبد الملك بن مروان، فلما صار إليه أكرمه وأجلسه معه على السرير وأعطاه مائة ألف درهم وأعطى أصحابه مالا، فقال له ابن الحرِّ ليؤجَّه معه جنداً يقاتل بهم مصعباً، فقال له: مير بأصحابك وأدعُ مَنْ قَدِرت عليه وأنا ممثلك بالرجال.

فسار بأصحابه نحو الكوفة فنزل بقرية إلى جانب الأنبار، فاستأذنه أصحابه (٢٩٤/٤) في إتيان الكوفة، فأذن لهم وأمرهم أن يُخبروا أصحابه بقدومه ليخرجوا إليه. فبلغ ذلك القيسية فاتوا الحارث بن أبي ربيعة عامل ابن الزبير بالكوفة فسألوه أن يرسل معهم جيشاً يقاتلون عبيد الله ويغتنمون الفرصة فيه بفرق أصحابه، فبعث معهم جيشاً كثيفاً، فساروا فلقوا ابن الحرِّ، فقال لابن الحرِّ أصحابه: نحن نفرٌ يسيرٌ وهذا الجيش لا طاقة لنا فيه. فقال: ما كنت لأدعهم، وحمل عليهم وهو يقول:

يَا لَكَ يَوْمَافَاتٍ فِيهِ نَهْيِي وَغَابَ عَنِّي نَفْسِي وَصَجِي

ثم عطفوا عليه فكشفوا أصحابه وحاولوا أن يأسروه فلم يقدروا على ذلك، وأذن لأصحابه في الذهاب، فذهبوا فلم يعرض لهم أحد، وجعل يقاتل وحده، فحمل عليه رجل من باهلة يكنى أبا كدية فطعنه وجعلوا يرمونه ويكتبون عليه ولا يدنون منه، وهو يقول: أهذه تِلْ أم مغازل؟ فلما أثختته الجراح خاض إلى معبر هناك فدخله ولم يدخل فرسه، فركب السفينة ومضى به الملاح حتى توسط الفرات، فأشرفت عليه الخيل، وكان معه في السفينة نبطٌ، فقالوا لهم: إن في السفينة طليعة أمير المؤمنين، فلان فاتكم قتلناكم، فوثب ابن الحرِّ ليرمي نفسه في الماء، فوثب إليه رجل

فلما شفع أولئك نفرٌ فيه شفَّعهم مصعب وأطلقه، فأتى منزله وأتاه الناس يهتفون، فقال لهم: إن هذا الأمر لا يصلح إلا بمثل الخلفاء الماضين الأربعة، ولم نزلهم فينا شيئاً فنلقي إليه أزمناً، فإن كان مَنْ عَزَّ بَزْ فعلاَمَ نعقد في أعناقنا بيعةً وليسوا بأشجع منا لقاء ولا أعظم مناعة، وقد قال رسول الله ﷺ: لا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى، وكلَّهم عاص مخالف قوي الدنيا ضعيف الآخرة، فعلاَمَ تُستحلَّ حُرْمَتنا ونَحْنُ أصحاب النُخَيْلة والقَادِسِيَّة وجُلُولاء ونهاوند، نلقى الأُسنة بنحورنا، والسيوف بجباهنا، ثم لا يُعْرِفُ حَقَّنَا وفضلنا؟ فقاتلوا عن حريمكم، فلما قد قلبت ظهر الميِّجَنَ وأظهرت لهم العداوة ولا قوة إلا بالله. وخرج عن الكوفة وحاربهم وأغار.

فأرسل إليه مصعبُ سيفَ بن هاني الماردي، فعرض عليه خراج بادوريا وغيرها ويدخل في الطاعة، فلم يجب إلى ذلك، فبعث إليه مصعبُ الأبرد بن قرَّة الرياحي فقاتله، فهزمه عبيد الله وضربه على وجهه، فبعث إليه أيضاً حُرَيْثَ (٢٩٢/٤) ابن يزيد، فقتله عبيد الله، فبعث إليه مصعبُ الحجاجَ بن جارية الخثعمي ومسلم بن عمرو فلقياه بنهر صَرَصَر، فقاتلها فهزماه، فأرسل إليه مصعبُ يدعوهُ إلى الأمان والصلة وأن يوليه أي بلد شاء، فلم يقبل، وأتى نَزْسى ففر دهقانها بمال الفلوجة، فتيهه ابن الحرِّ حتى مرَّ بعين تمر وعليها بسطام بن مَصْقَلَة ابن هُبيرة الشيباني، فالتجأ إليهم الدهقان، فخرجوا إلى عبيد الله فقاتلوه، ووافاهم الحجاج بن جارية الخثعمي فحمل على عبيد الله، فأسره عبيد الله وأسر أيضاً بسطام بن مَصْقَلَة وناساً كثيراً، وبعث ناساً من أصحابه فأخذوا المال الذي مع الدهقان وأطلق الأسرى.

ثم إن عبيد الله أتى تَكْرِيتَ فاقام بجبي الخراج، فبعث إليه مصعبُ الأبرد بن قرَّة الرياحي والجؤنَ بن كعب الهمداني في ألف، وأمرهم المهلبَ بيزيد بن المغفل في خمسمائة، فقال لعبيد الله رجلٌ من أصحابه: قد أتاك جمع كثير فلا تقاتلهم. فقال:

يُخَوِّسُنِي بِالْقَتْلِ قَوْمِي وَإِنَّمَا أَمُوتُ إِذَا جَاءَهُ الْكَاسُ الْمُؤْجِلُ
لَعَلَّ الْقَتْلَ تَنْتَنِي بِأَطْرَافِهَا الْغِنَى فَتَحِيَا كِرَاماً أَوْ تَكْسُرَ قَتَقُصْلُ
الْأَسْمُ تَرَانِ الْقَسْرِ يُزِيرُ بِالْأَمْرِ وَأَنْ الْقَتْلَ فِيهِ الْعُلَى وَالتَّجْمُلُ
وَأَنْكُ إِلَّا تَرْكِبُ الْهَوَلَ لَا تَتَلَّ مِنْ الْمَالِ مَا يُرْضِي الصَّلَاقَ وَبِفَضْلِ

وقاتلهم عبيد الله يومين وهو في ثلاثمائة، ولما كان عند المساء تحاجزوا وخرج عبيد الله من تَكْرِيتَ وقال لأصحابه: إني سائر بكم إلى عبد الملك (٢٩٢/٤) ابن مروان فتجوزوا، وقال: إني تخافتُ أن أُمُوتَ ولم أَدْرِ مصعباً وأصحابه. وسار نحو الكوفة فبلغ كَسْكَرَ فأخذ بيتَ مالها، ثم أتى الكوفة فنزل بحمام جريز،

عظيم الخلق فقبض على يديه وجراحاته تجري دماً وضربه الباقون بالمجاديف، فلما رأى أنه يُفصد به نحو القيسية قبض على الذي معه وألقى نفسه معه في الماء فغرقا.

ومات أبو واقد الليثي واسمه الحارث بن مالك.

وفيهما توفي أبو شريح الخزاعي واسمه خُوَيْلِد بن عمرو وهو الكعبي.

(شريح بالشين المعجمة).

وعبد الرحمن بن حاطب بن أبي بَلْتَعَة، وقيل: إنه وُلِدَ زمن النبي، ﷺ.

(حاطب بالحاء المهملة. وبلتعة بالباء الموحدة، والشاء المشاة من فوق، والعين المهملة المفتوحات). (٢٩٧/٤)

سنة تسع وستين

ذكر قتل عمرو بن سعيد الأشدق

في هذه السنة خالف عمرو بن سعيد عبد الملك بن مروان وغلب على دمشق فقتله، وقيل: كانت هذه الحادثة سنة سبعين.

وكان السبب في ذلك أن عبد الملك بن مروان أقام بدمشق بعد رجوعه من قُتَيرين ما شاء الله أن يقيم، ثم سار يريد قرقيسيا وبها زُفر بن الحارث الكلبي، وكان عمرو بن سعيد مع عبد الملك، فلما بلغ بطنان حبيب رجع عمرو ليلاً ومعه حميد بن خُريت الكلبي وزُفير بن الأبرد الكلبي، فأتى دمشق وعليها عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي قد استخلفه عبد الملك، فلما بلغه رجوع عمرو بن سعيد هرب عنها، ودخلها عمرو فغلب عليها وعلى خزانها وهدم دار ابن أم الحكم، واجتمع الناس إليه فخطبهم ومنّاهم ووعدهم.

وأصبح عبد الملك وفقد عمراً، فسأل عنه فأخبر خبره، فرجع إلى دمشق فقاتله أياماً، وكان عمرو إذا أخرج حميد بن خُريت على الخيل أخرج إليه عبد الملك سفيان بن الأبرد الكلبي، وإذا أخرج عمرو زُفير بن الأبرد أخرج (٢٩٨/٤) إليه عبد الملك حسان بن مالك بن بَحْدَل.

ثم إن عبد الملك وعمراً اصطلحا وكتبا بينهما كتاباً وآمنه عبد الملك، فخرج عمرو في الخيل إلى عبد الملك فاقبل حتى أوطأ فرسه أطناب عبد الملك فانقطعت وسقط السراق، ثم دخل على عبد الملك فاجتمعا.

ودخل عبد الملك دمشق يوم الخميس، فلما كان بعد دخول عبد الملك بأربعة أيام أرسل إلى عمرو أن اتنني، وقد كان عبد الملك استشار كُريب بن أبرهة الحميري في قتل عمرو، فقال: لا

وقيل في قتله: إنه كان يغشى مصعب بن الزبير بالكوفة فرآه يقدم عليه غيره، فكتب إلى عبد الله بن الزبير قصيدة يعاتب فيها مصعباً ويخوفه مسيره إلى ابن مروان يقول فيها:

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً فليست على رأي قيس أولئكة
أني الحق أن أجنى ويجعل مصعباً وزيراً له من كنت فيه أحاركة

فكيف وقد آتيتكم حق يعمي وخفي يلوى عندكم وأطالكة
وابليتكم ما لا يفيح مثله وآسيكم والأمر صعب مراتكة
فلما استأثر الملك وانقاد العبد وأدرك من ملك العراق زغائكة
جفا مصعب عني ولو كان غيره لأصبح فيما يتأ لا أعائكة
لقد رايتني من مصعب أن مصعباً أرى كل ذي غش لنا هو صاحبة
وما أنا إن خلأتموني بوارد على كل قد غش بالهاء شاركة
وما لاسرى إلا الذي الله سائق إليه وما قد خط في الزبر كائكة
إذا قمت عند الباب أدخل مسلماً ويمعني أن أدخل الباب حاجكة
فحبسه مصعب، وله معه معاتبات من الحبس، ثم إنه قال قصيدة يهجو فيها قيس غيلان، منها:

ألم تر قيساً قيس غيلان برفقت إحاماً وساعت نبهها بالفلازل
فأرسل زُفر بن الحارث الكلبي إلى مصعب: إنني قد كفيتك قتال ابن الزرقاء، يعني عبد الملك بن مروان، وابن الحر يهجو قيساً، ثم إن نفراً من بني سليم أسروا ابن الحر، فقال: إنما قلت: ألم تر قيساً قيس غيلان أقبلت وسارت إلينا في القنا والقنابل
فقتله رجل منهم يقال له عياش. (٢٩٦/٤)

ذكر عدة حوادث

قيل: في هذه السنة وافى عرفات أربعة ألوية: لواء لابن الحنفية وأصحابه ولواء لابن الزبير وأصحابه، ولواء لبني أمية، ولواء لنجدة الخواري، ولم يجز بينهم حرب ولا فتنة، وكان أصحاب ابن الحنفية أسلم الجماعة.

وكان العامل لابن الزبير على المدينة هذه السنة جابر بن الأسود بن عرف الزُهري، وعلى البصرة والكوفة مصعب أخوه، وعلى قضاء الكوفة عبد الله بن عتبة بن مسعود، وعلى قضاء البصرة هشام بن هيرة، وعلى خراسان عبد الله بن خازم، وكان عبد الملك بن مروان بالشام مشاقفاً لابن الزبير.

ومات عبد الله بن عباس سنة ثمان وستين وعمره أربع وسبعون سنة، وقيل غير ذلك.

ناقة لي في هذا ولا جمل، في مثل هذا هلكت جُمَيْر.

فلَمَّا أتى الرسولُ عَمْرًا يدعوهُ صادق عنده عبدُ الله بن يزيد بن معاوية، فقال لعمرُو: يا أبا أمية أنت أحبُّ إليَّ من سمعي ومن بصري وأرى لك أن لا تأتيه. فقال عمرُو: لِمَ؟ قال: لأنَّ تيسع ابن امرأة كعب الأحبار قال: إنَّ عظيمًا من ولد إسماعيل يرجع فيغلق أبواب دمشق ثم يخرج منها فلا يلبث أن يُقتل. فقال عمرُو: والله لو كنت نائمًا ما انتهني ابن الزرقاء ولا اجترأ عليّ، أما إني رأيتُ عثمان البارحة في المنام فالبسني قميصه. وكان عبد الله بن يزيد زوج ابنة عمرُو. ثم قال عمرُو للرسول: أنا رائج المشية.

فلَمَّا كان العشاء لبس عمرُو درعًا وليس عليها القباء وتقلد سيفه وعنده حُمَيْد بن حُرَيْث الكلبي، فلَمَّا نهض متوجهًا عشرًا باليساط، فقال له حُمَيْد: والله لو أطعني لم تأتِه. وقالت له امرأته الكلبيّة كذلك، فلم يلتفت ومضى في مائة من موابيه. (٢٩٩/٤) وقد جمع عبد الملك عنده بني مروان، فلَمَّا بلغ الباب أذن له، فدخل، فلم يزل أصحابه يُحبسون عند كلِّ باب حتى بلغ قارعة الدار وما معه إلا وصيف له، فنظر عمرُو إلى عبد الملك وإذا حوله بنو مروان وحسان بن بخدل الكلبي وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي، فلَمَّا رأى جماعتهم أحسن بالشَّرِّ، فالتفت إلى وصيفه وقال: انطلق إلى أخي يحيى فقل له يأتي، فلم يفهم الرصيف فقال له: لييك! فقال عمرُو: اغرب عني في حرق الله وناره! وأذن عبد الملك لحسان وقبيصة فقاما فلقيا عَمْرًا في الدار، فقال عمرُو لوصيفه: انطلق إلى يحيى فمُرّه أن يأتي. فقال: لييك! فقال عمرُو: اغرب عني.

فلَمَّا خرج حسان وقبيصة أغلقت الأبواب ودخل عمرُو، فرحّب به عبدُ الملك وقال: هاهنا هاهنا يا أبا أمية! فأجلسه معه على السرير وجعل يحادثه طويلًا، ثم قال: يا غلام خذ السيف عنه. فقال عمرُو: إنا لله يا أمير المؤمنين. فقال عبد الملك: أنطمع أن تجلس معي متقلدًا سيفك؟ فأخذ السيف عنه، ثم تحدّث، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية إنك حيث خلعتني أبيتُ بينين إن أنا ملأتُ عيني منك وأنا مالك لك أن أجعلك في جامعة. فقال له بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وما عسيت أن أصنع بأبي أمية؟ فقال: بنو مروان: أبر قسم أمير المؤمنين. فقال عمرُو: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين.

فأخرج من تحت فراشه جامعة وقال: يا غلام قم فاجمعه فيها. فقام الغلام فجمعهم فيها. فقال عمرُو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: أمكراً يا أبا أمية عند الموت؟ لا والله ما كنّا (٣٠٠/٤) لنُخرجك في جامعة على رؤوس الناس. ثم جذبه جذبة أصاب قمه السرير فكسر ثنيته.

فقال عمرُو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين كسر عظم مني فلا تركب ما هو أعظم من ذلك. فقال له عبد الملك: والله لو أعلم أنك تبقي عليّ [إن] أنا أبقيتُ عليك وتصلح قريش لأطلقك، ولكن ما اجتمع رجلان في بلدة قطّ على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه. فلَمَّا رأى عمرُو أنه يريد قتله قال: أغدراً يا ابن الزرقاء!

وقيل: إنَّ عَمْرًا لما سقطت ثنيته جعل يمسهما، فقال عبد الملك: يا عمر أرى ثنيّتك قد وقعت منك موقعاً لا تطيب نفسك بعده.

وأذن المؤذن العصر فخرج عبد الملك يصلّي بالناس وأمر أخاه عبد العزيز أن يقتله، فقام إليه عبد العزيز بالسيف، فقال عمرُو: أذكرك الله والرحم أن تلي قلتي، ليقتلني مَنْ هو أبعد رحماً منك. فألقى السيف وجلس، وصلى عبد الملك صلاة خفيفة ودخل وغلقت الأبواب. ورأى الناس عبد الملك حين خرج وليس معه عمرُو، فذكروا ذلك ليحيى بن سعيد، فأقبل في الناس ومعه ألف عبد لعمرُو وناس من أصحابه كثير، فجعلوا يصيحون بباب عبد الملك: أسمعنا صوتك يا أبا أمية! فأقبل مع يحيى حُمَيْد بن حُرَيْث وُوَيْعير بن الأبرد فكسروا باب المقصورة وضربوا الناس بالسيف، وضرب الوليد بن عبد الملك على رأسه، واحتمله إبراهيم بن عربي صاحب الديوان فادخله بيت القراطيس.

ودخل عبد الملك حين صلى فرأى عَمْرًا بالحياة، فقال لعبد العزيز: ما منعك أن تقتله؟ فقال: إنه ناشدني الله والرحم فرقت له. فقال له: أخزى الله أمك البوالة على عقبيها، فإنك لم تشبه غيرها! ثم أخذ عبد الملك الحرية فطعن (٣٠١/٤) بها عَمْرًا فلم تجز، ثم ثنى فلم تجز، فضرب يده على عضده فرأى الدرع فقال: ودع أيضاً؟ إن كنت لمعدداً فأخذ الصمصامة وأمر بعمرُو فصُرع، وجلس على صدره فذبحه وهو يقول:

يا عمرو إن لا تدخ شئني ومقتضي أضرتك حيث تقول الهامة أسقوني وانفض عبد الملك رعدة، فحمل عن صدره فوضع على سريرته وقال: ما رأيتُ مثل هذا قطّ قتله صاحب دنيا ولا طالب آخره.

ودخل يحيى ومن معه على بني مروان يُخرجهم ومن كان من مواليهم، فقاتلوا يحيى وأصحابه، وجاء عبد الرحمن بن أمّ الحكم الثقفي فدفع إليه الرأس، فألقاه إلى الناس، وقام عبد العزيز بن مروان وأخذ المال في البيت فجعل يلقيها إلى الناس، فلبس رأى الناس الرأس والأموال انتهبوا الأموال وتفرقوا، ثم أمر عبد الملك بتلك الأموال فحيّت حتى عادت إلى بيت المال.

وقيل: إنَّ عبد الملك إنما أمر بقتل عَمْرُو حين خرج إلى الصلاة غلامه ابن الزهريرة، فقتله وألقى رأسه إلى الناس، ورُمي

لي بعدك، فلم يجبه عبد الملك إلى ذلك، فرجع إلى دمشق، وكان من قتله ما تقدم.

وقيل: بل كان عبد الملك قد استخلف عمرأ على دمشق فخالفه وتحصن بها، والله أعلم.

ولما سمع عبد الله بن الزبير بقتل عمرو قال: إن ابن الزرقاء قتل لطيم الشيطان، ﴿وَكَذَلِكَ تَوَلَّى بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام، ١٢٩]، وبلغ ذلك ابن الحنفية فقال: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَنَامًا يَنْكُثْ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح، ١٠]، يُرفع له يوم القيامة لواء على قدر غدرته. (٣٠٤/٤)

ذكر عصيان الجراحمة بالشام

لما امتنع عمرو بن سعيد على عبد الملك خرج أيضاً قائداً من قواد الضواحي في جبل اللكّام وأتبعه خلق كثير من الجراحمة والأنباط وأباقي عبيد المسلمين وغيرهم، ثم سار إلى لبنان، فلما فرغ عبد الملك من عمرو أرسل إلى هذا الخارج عليه فبذل له كل جُمعة ألف دينار، فركن إلى ذلك ولم يفسد في البلاد، ثم وضع عليه عبد الملك سَحِيمَ بن المهاجر، فتلطف حتى وصل إليه متكرراً فآظمه له ممالأته وذم عبد الملك وشتمه ووعده أن يذله على عوراته وما هو خير له من الصلح. فوثق به. ثم إن سَحِيمًا عطف عليه وعلى أصحابه وهم غارون غافلون بجيش مع موالي عبد الملك وبني أمية وجند من ثقات جنده وشجعانهم كان أعدهم بمكان خفي قريب وأمر فتودي: مَنْ أَثَانَا مِنَ الْعَبِيدِ، يَعْنِي الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، فَهُوَ حُرٌّ وَيُثَبِّتُ فِي الدِّيَّانِ، فَانْفَضَّ إِلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، فَكَانُوا مَعَهُ قَاتِلِينَ مَعَهُ، فَقَتَلَ الْخَارِجَ وَمَنْ أَعَانَهُ مِنَ الرُّومِ، وَقَتَلَ نَفَرًا مِنَ الْجَرَّاحِمَةِ وَالْأَنْبَاطِ، وَنَادَى الْمَنَادِي بِالْأَمَانِ فِيمَنْ لَقِيَ مِنْهُمْ، فَتَفَرَّقُوا فِي قُرَاهِمِ وَسَدِّ الْخَلَلِ وَعَادَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَوَفَّى لِلْعَبِيدِ.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قُتل زهير بن قيس أمير إفريقية، وقد ذكرنا ذلك سنة اثنتين وستين، وفيها حكم رجل من الخوارج بمنى وسلّ سفينة، وكانوا جماعة، (٣٠٥/٤) فأمسك الله أيديهم فقتل ذلك الرجل عند الجمرة.

وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكان على البصرة والكوفة له أخوه مصعب، وعلى قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة، وعلى خراسان عبد الله بن خازم.

وفيها توفي أبو الأسود الدؤلي وله خمس وثمانون سنة. (٣٠٦/٤)

يحيى بصخرة في رأسه، وأخرج عبد الملك سريره إلى المسجد وخرج وجلس عليه، وفقد الوليد ابنه فقال: والله لئن كانوا قتلوه لقد أدركوا ثأرهم. فأتاه إبراهيم بن عربي الكناني، فقال: الوليد عندني وقد جرح وليس عليه بأس.

وأني عبد الملك يحيى بن سعيد، وأمر به أن يقتل، فقام إليه عبد العزيز بن مروان فقال: جعلتُ فداك يا أمير المؤمنين! أتراك قاتلاً بني أمية في يوم واحد! فأمر يحيى فحُيِس. وأراد قتل عنبسة بن سعيد، فشفع فيه عبد العزيز (٣٠٢/٤) أيضاً، وأراد قتل عامر بن الأسود الكلبي، فشفع فيه عبد العزيز، وأمر ببني عمرو بن سعيد فحبسوا، ثم أخرجهم مع عنهم يحيى فالحقهم بمصعب بن الزبير.

ثم بعث عبد الملك إلى امرأة عمرو الكلبيّة: ابعتي لي كتاب الصلح الذي كتبت له عمرو. فقالت لرسوله: أرجع فأعلمه أنّ ذلك الصلح معه في أكفانه ليخاصمك عند ربّه. وكان عبد الملك وعمرو يلتقيان في النسب في أمية، هذا عبد الملك بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أمية، وذاك عمرو بن سعيد ابن العاص بن أمية، وكانت أم عمرو أم البنين بنت الحكم عمّة عبد الملك.

فلما قتل عبد الملك مصعباً واجتمع الناس عليه دخل أولاد عمرو على عبد الملك، وهم أربعة: أمية وسعيد وإسماعيل ومحمد، فلما نظر إليهم قال لهم: إنكم أهل بيت لم تزالوا ترون لكم على جميع قومكم فضلاً لم يجعله الله لكم، وإن الذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً ولكن كان قديماً في أنفس أوليكم على أولينا في الجاهليّة.

فأقطع بأمية، وكان أكبرهم، فلم يقدر على أن يتكلّم، فقام سعيد بن عمرو وكان الأوسط، فقال: يا أمير المؤمنين ما تنقّي علينا أمراً كان في الجاهليّة وقد جاء الله بالإسلام فهدم ذلك ووعد جنّة وحذر ناراً، وأما الذي كان بينك وبين عمرو فإنه كان ابن عمك وأنت أعلم بما صنعت، وقد وصل عمرو إلى الله وكفى بالله حسيباً، ولعمري لئن أخذتنا بما كان بينك وبينه لبطن الأرض خير لنا من ظهرها. ففرق لهم عبد الملك وقال: إن أباكم خيرني بين أن يقتلني أو أقتله فاخترت قتله على قتلي، وأما أنتم فما أرغبني فيكم وأوصلني لقرابتكم! (٣٠٣/٤) وأحسن جائرتهم ووصلهم وقربهم.

وقيل: إن خالد بن يزيد قال لعبد الملك ذات يوم: عجبت كيف أصبت غرة عمرو. فقال عبد الملك:

أَفَيْتَهُ مَنْ سَيَ لَيْسَكَ رُوعُهُ فَاصُولُ صَوْلَةٍ حَازِمٍ مُسْتَمَكِرٍ غَضِباً وَمَحَبَّةً لَلْبَنِي إِنْ سَهُ لَيْسَ الْمُسِيءُ سِيلُهُ كَالْمُحْسِنِ وَقِيلَ: إِنَّمَا خَلَعَ عَمْرُو وَقَتْلَهُ حِينَ سَارَ عَبْدِ الْمَلِكِ نَحْوَ الْعِرَاقِ لِقِتَالِ مِصْعَبٍ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: إِنَّكَ تَخْرُجُ إِلَى الْعِرَاقِ وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ جَعَلَ لِي هَذَا الْأَمْرَ بَعْدَهُ وَعَلَى ذَلِكَ قَاتَلْتُ مَعَهُ، فَاجْعَلْ هَذَا الْأَمْرَ

سنة سبعين

في هذه السنة اجتمعت الروم واستجاشوا على مَنْ بالشام، فصالح عبد الملك ملكهم على أن يؤدي إليه كلَّ جمعة ألف دينار خروفاً منه على المسلمين.

وفيهما شخص مصعبٌ إلى مكة، في قول بعضهم، ومعه أموال كثيرة ودواب كثيرة قسمها في قومه وغيرهم ونهض ونحر بُدناً كثيرة.

وحجَّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكان عماله فيها مَنْ تقدَّم ذكرهم.

ذكر يوم الجفرة

وفي هذه السنة سار عبد الملك بن مروان يريد مصعباً، فقال له خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد: إن وجهتني إلى البصرة وأتبعني خيلاً يسيرة رجوت أن أغلب لك عليها. فوجهه عبد الملك، فقدمها مستخفياً في خاصته حتى نزل على عمرو بن أسمع، وقيل: نزل على علي بن أسمع الباهلي، فأرسل عمرو إلى عباد بن الحصين، وهو على شرطة ابن مَعْمَر، وكان مصعب قد استخلفه على البصرة، ورجا ابن أسمع أن يبايعه عباد بن الحصين وقال له: إني قد (٣٠٧/٤) أجزت خالداً وأحييت أن تعلم ذلك لتكون ظهراً لي. فوافاه الرسول حين نزل عن فرسه، فقال عباد: قل له والله لا أضع ليد فرسي حتى أتيك في الخيل. فقال ابن أسمع لخالد: إن عباداً يأتينا الساعة ولا أقدر [أن] أمنعك عنه فعليك بمالك بن مسمع.

فخرج خالد يركض وقد أخرج رجله من الركابيين حتى أتى مالكا فقال: أجزني، فأجابه، وأرسل إلى بكر بن وائل والأزد فكان أول راية أتته راية بني يشكر، وأقبل عباد في الخيل، فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال.

فلما كان الغد عدوا إلى جفرة نافع بن الحارث ومع خالد رجال من تميم، منهم: صَخْصَعَةُ بن معاوية وعبد العزيز بن بشر ومرة بن ميحكان وغيرهم، وكان أصحاب خالد جُفْرِيَّة يتسبون إلى الجفرة، وأصحاب ابن مَعْمَر زُبَيْرِيَّة، وكان من أصحاب خالد: عبيد الله بن أبي بكره وخُفْران بن أبيان والمُعْصِرَة بن المهلب، ومن الزُبَيْرِيَّة: قيس بن الهيثم السلمي.

ووجه مصعب رَحْرَحَ بن قيس الجعفي مَدَدَا لابن معمر في ألف، ووجه عبد الملك عبيد الله بن زياد بن ظبيان مَدَدَا لخالد، فأرسل عبيد الله إلى البصرة من يأتيه بالخبر، فعاد إليه فأنخبره بفرق القوم، فرجع إلى عبد الملك. فاقتلوا أربعة وعشرين يوماً

وأصيبت عين مالك بن مسمع وضج من الحرب ومشت بينهم السفراء فاصطلحوا على أن يخرج خالد من البصرة، فأخرجه مالك.

ثم لحق مالك بئاج، وكان عبد الملك قد رجع إلى دمشق، فلم يكن لمصعب همة إلا البصرة وطمع أن يدرك بها خالداً فوجده قد خرج، وسخط مصعب على ابن معمر وأحضر أصحاب خالد فشتهم وسبهم، فقال لعبيد الله بن أبي بكره: يداين مسروح إنما أنت ابن كلبة تعاورها الكلاب فجاءت (٣٠٨/٤) بأحمر وأصفر وأسود من كل كلب بما يشبهه، وإنما كان أبوك عبداً نزل إلى رسول الله ﷺ، من حصن الطائف ثم ادعيتهم أن أبا سفيان زنى بأمكم، والله لئن بقيت لألحقنكم بنسبكم. ثم دعا خُفْران فقال له: إنما أنت ابن يهودية عليج تبطن سييت من عين التمر. وقال للحكم بن المنذر بن الجارود ولعبد الله بن فضالة الزُفْراني ولعلي بن أسمع ولعبد العزيز بن بشر وغيرهم نحو هذا من التوبيخ والتفريع، وضربهم مائة مائة، وحلق رؤوسهم ولحاهم، وهدم دورهم وصخرهم في الشمس ثلاثاً، وحملهم على طلاق نساءهم، وجمر أولادهم في البعوث، وطاف بهم في أقطار البصرة وأحلفهم أن لا ينكحوا الحرائر، وهدم دار مالك بن مسمع وأخذ ما فيها، فكان مما أخذ جارية ولدت له عمرو بن مصعب.

وأقام مصعب بالبصرة، ثم شخص إلى الكوفة فلم يزل بها حتى خرج إلى حرب عبد الملك بن مروان.

(المُعْصِرَة بضم الميم، وبالفين، والراء. خالد بن أسيد بفتح الهمزة، وكسر السين. والجفرة بضم الجيم، وسكون الراء).

وفي هذه السنة مات عاصم بن عمر بن الخطّاب، وهو جدّ عمر بن عبد العزيز لأمه، ووُلِدَ قبل موت النبي ﷺ، بستين. (٣٠٩/٤)

ذكر مقتل عمير بن الحباب بن جفدة السلمي

في هذه السنة قُتِلَ عُمَيْرُ بن الحُبَابِ بن جَفْدَةَ السُّلَمِيُّ، ونحن نذكر سبب الحرب بين قيس وتغلب حتى آله الأمر إلى قتل عُمَيْر.

وكان سبب ذلك أنه لما انقضى أمر مرج راطع وسار رُفَيرُ بن الحارث الكلّاني إلى قَرْقِيسَا، على ما ذكرناه، وبسابع عمير مروان بن الحكم وفي نفسه ما فيها بسبب قتل قيس بالمرج، فلما سير مروان بن الحكم عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة والعراق كان عمير معه فلحقوا سليمان بن صُرْدَ بعين الوردة، وسار عبيد الله إلى قَرْقِيسَا لقتال رُفَير، فقبضه عمير وأشار عليه بالمسير إلى الموصل قبل وصول جيش المختار إليها، وسار إليها ولقي إبراهيم بن الأشر بالخازر، فمال عمير معه، فانهزم جيش عبيد الله وقُتِلَ هو،

لما قُتل بماكسين مَنْ ذَكَرْنَا اسْتَمَدَّتْ تَغْلِبُ وَحَشَدَتْ
وَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهَا النَّبَرُ بْنُ قَاسِطٍ وَأَتَاهَا الْمَشْجَرُ بْنُ الْحَارِثِ
الشَّيْبَانِيَّ، وَكَانَ مِنْ سَادَاتِهِمْ بِالْجَزِيرَةِ، وَأَتَاهَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ
ظَبْيَانٌ مُنْجِدٌ لَهُمْ عَلَى قَيْسٍ، فَلِذَلِكَ حَقَدَ عَلَيْهِ مُصْعَبُ بْنُ الزَّبِيرِ
حَتَّى قَتَلَ أَخَاهُ النَّابِغَ بْنَ زِيَادٍ، وَاسْتَنْجَدَ عُمَيْرٌ تَمِيمًا وَأَسَدًا فَلَمْ
يَنْجِدْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ. فَالْتَقَوْا عَلَى الثَّرَاثِرِ، وَقَدْ جَعَلَتْ تَغْلِبُ عَلَيْهَا بَعْدَ
شُعَيْثَ زِيَادٍ بْنُ هُوَيْرٍ، وَيَقَالُ: يَزِيدُ بْنُ هُوَيْرِ التَّغْلِبِيُّ، فَاقْتَلَوْا قَتْلًا
شَدِيدًا، فَانْهَزَمَتْ قَيْسٌ وَقَتَلَتْ تَغْلِبُ وَمَنْ مَعَهَا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً
وَيَقْرَوُا بِطَوْنِ ثَلَاثِينَ أَمْرَةً مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ؛ وَقَالَتْ لَيْلَى بِنْتُ الْحَارِثِ
التَّغْلِبِيَّةُ، وَقِيلَ هِيَ لِلْأَخْطَلِ :

لَمَّا رَأَوْنَا وَالصَّلِيبَ طَالَعَا وَمَلَأَ سَرْجِيْسٌ وَسُمًّا نَاقَعَا
وَالْغَيْلَ لَا تَحْمِلُ إِلَّا دَارِعَا وَالْيَضْنَ فِي أَيْمَانِنَا قَوَاطِعَا
خَلَّوْنَا الثَّرَاثِرَ وَالْمَزَارِعَا وَحِطَّةً طَيِّبًا وَكَرْمًا يَابَعَا
(٣١٢/٤)

يوم الثَّرَاثِرِ الثَّانِي

ثُمَّ إِنْ قَيْسًا تَجَمَّعَتْ وَاسْتَمَدَّتْ وَاسْتَعَدَّتْ وَعَلَيْهَا عُمَيْرُ بْنُ
الْحُبَابِ، وَأَتَاهُمْ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ قَرْقِيسِيَا، وَكَانَ رَئِيسَ بَنِي
تَغْلِبَ، وَالنَّبَرُ وَمَعَهُمَا ابْنُ هُوَيْرٍ فَالْتَقَوْا بِالْثَّرَاثِرِ وَاقْتَلَوْا أَشَدَّ قِتَالٍ
اقتله الناس، وانْهَزَمَتْ بَنُو عَامِرٍ، وَكَانَتْ عَلَى مَجْنِبَةِ قَيْسٍ،
وَصَبَرَتْ سُلَيْمٌ وَأَعَصَرَتْ حَتَّى انْهَزَمَتْ تَغْلِبُ وَمَنْ مَعَهَا وَقَتَلَ ابْنَا
عَبْدِ يَشُوعَ وَغَيْرَهُمَا مِنْ أَشْرَافِ تَغْلِبَ، فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُبَابِ :

فِيْدَا لَقَرَارِيسِ الثَّرَاثِرِ نَفْسِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ أَهْلِ وَمَالٍ
وَوَلَّيْتُ عَامِرَ عَنَّا فَاجَلَّتْ وَخَوَّلَنِي مِنْ زَيْفَةِ كَالْجِبَالِ
أَكَاوِحِهِمْ بُلْهَمٍ مِنْ سُلَيْمٍ وَأَعَصَرَ كَالْمَصَاعِيْبِ النَّهَالِ
وقال زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ :

أَلَا مَنْ بَلَغَ عَنِّي عُمَيْرًا رِسَالَةَ نَاصِحٍ وَعَلَيْهِ زَارِي
أَتَرَكْتُ حَيًّا ذِي يَمَنِ وَكَلْبًا وَنَجَعَلُ جُنْدَا بَكَ فِي بَزَارٍ
كَمُعْتِدٍ عَلَى إِحْسَنِ يَتِيهِ فَخَاتَمُهُ يَوْمُ مَنْ وَاتَكْبَارِ
(٣١٣/٤)

يوم القُدَيْنِ

وَأَغَارَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُبَابِ عَلَى الْقُدَيْنِ، وَهِيَ قَرْيَةٌ عَلَى الْخَابُورِ،
وَقَتَلَ مَنْ بِهَا مِنْ بَنِي تَغْلِبَ، فَهَزَمَهُمْ، فَقَالَ نُفَيْحُ بْنُ صَفَارٍ الْمُحَارِبِيُّ :

لَوْ تَسَالُ الْأَرْضُ الْقَضَاءَ عَلَيْكُمْ شَهِدَ الْفَتْنَيْنِ يَهْلِكُكُمْ وَالصُّورُ
وَالصُّورُ: قَرْيَةٌ مِنَ الْقُدَيْنِ.

يوم السُّكَيْرِ

وَهُوَ عَلَى الْخَابُورِ يُسَمَّى سُكَيْرَ الْعَبَّاسِ.

فَأَتَى عُمَيْرٌ قَرْقِيسِيَا وَصَارَ مَعَ زُفَرٍ، فَجَعَلَا يَطْلُبَانِ كَلْبًا وَالْيَمَانِيَّةَ بِمَنْ
قَتَلُوا مِنْ قَيْسٍ، وَكَانَ مَعَهُمَا قَوْمٌ مِنْ تَغْلِبَ يَقَاتِلُونَ مَعَهُمَا
وَيَدُلُّوْنَهُمَا.

وَشَغَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْهُمَا بِمُصْعَبٍ، وَتَغْلِبُ عُمَيْرَ عَلَى نَصِيصِينَ.
ثُمَّ إِنَّهُ مَلَأَ الْمَقَامَ بِقَرْقِيسِيَا فَاسْتَأْمَنَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَمَنَهُ، ثُمَّ غَدَرَ بِهِ
فَحَبَسَهُ عِنْدَ مَوْلَاهُ الرِّثَّانَ، فَسَقَاهُ عُمَيْرٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْحُرَسِ خَمْرًا
حَتَّى أَسْكَرَهُمْ وَتَسَلَّقَ فِي سُلُوكِهِ مِنْ حِبَالٍ وَخَرَجَ مِنَ الْحَبْسِ وَعَادَ
إِلَى الْجَزِيرَةِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبَلِيخِ بَيْنَ حُرَّانَ وَالرَّقَّةِ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ
قَيْسٌ فَكَانَ يَغِيرُ بِهِمْ عَلَى كَلْبٍ وَالْيَمَانِيَّةِ، وَكَانَ مَعَهُ يَسْتَارُونَ
جَوَارِي تَغْلِبَ وَيَسْخَرُونَ مَشَايِخَهُمْ مِنَ النَّصَارَى، فَهَاجَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ
شَرًّا لَمْ يَبْلُغِ الْحَرْبَ، وَذَلِكَ قَبْلَ مَسِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى مُصْعَبٍ
وَزُفَرٍ. (٣١٠/٤)

ثُمَّ إِنْ عُمَيْرًا أَغَارَ عَلَى كَلْبٍ، ثُمَّ رَجَعَ فَنَزَلَ عَلَى الْخَابُورِ،
وَكَانَتْ مَنَازِلُ تَغْلِبَ بَيْنَ الْخَابُورِ وَالْفَرَاتِ وَدَجَلَةَ. وَكَانَتْ بَحِثُ
نَزَلَ عُمَيْرُ أَمْرَةً مِنْ تَمِيمٍ نَاكِحٌ فِي تَغْلِبَ يَقَالُ لَهَا أُمُّ دَوِيلٍ، فَأَخَذَ
غِلَامًا مِنْ بَنِي الْخَرِيشِ أَصْحَابَ عُمَيْرٍ عَدَدًا مِنْ غَنَمِهَا، فَشَكَتْ إِلَى
عُمَيْرٍ، فَلَمْ يَمْنَعْ عَنْهَا، فَأَخَذُوا الْبَاقِي، فَمَانَعَهُمْ قَوْمٌ مِنْ تَغْلِبَ، فَقَتَلَ
رَجُلًا مِنْهُمْ يَقَالُ لَهُ مَجَاشِعُ التَّغْلِبِيُّ، وَجَاءَ دَوِيلٌ فَشَكَتْ أُمُّهُ إِلَيْهِ،
وَكَانَ فَارَسًا مِنْ فَرَسَانِ تَغْلِبَ، فَسَارَ فِي قَوْمِهِ وَجَعَلَ يَذْكُرُهُمْ مَا
تَصْنَعُ بِهِمْ قَيْسٌ وَيَشْكُرُوا إِلَيْهِمْ مَا أَخَذَ مِنْ غَنَمِ أُمِّهِ، فَاجْتَمَعَ مِنْهُمْ
جَمَاعَةٌ وَأَمَرُوا عَلَيْهِمْ شُعَيْثُ بْنُ مُلَيْكِ التَّغْلِبِيِّ وَأَغَارُوا عَلَى بَنِي
الْخَرِيشِ وَمَعَهُمْ قَوْمٌ مِنْ نَمِيرٍ، فَقَتَلَ فِيهِمُ التَّغْلِبِيُّونَ وَاسْتَأْفَقُوا ذُودًا
لَا أَمْرَةً مِنْهُمْ يَقَالُ لَهَا أُمُّ الْهَيْثَمِ، فَمَانَعَهُمُ الْقَيْسِيُّونَ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى
مَنْعِهِمْ، فَقَالَ الْأَخْطَلُ :

فَلَا تَسَالُونَا بِالْخَرِيشِ فَإِنَّا مُنِيَابُوكَ مِنْهُمْ وَفُجُورِ
غُدَاةَ تَحَامَتْنَا الْخَرِيشُ كَانَهَا كَلَابُ بَدَتْ أَيْبَاهَا لَهْرِيرِ
وَجَاؤُوا بِجَمْعٍ نَاصِرِيٍّ أَمْ هَيْثَمٍ فَمَا رَجَعُوا مِنْ ذُودِهِمَا يَمِيرِ

يوم مَآكِسِينَ

وَلَمَّا اسْتَحْكَمَ الشَّرُّ بَيْنَ قَيْسٍ وَتَغْلِبَ، وَعَلَى قَيْسٍ عُمَيْرُ، وَعَلَى
تَغْلِبَ شُعَيْثُ، غَزَا عُمَيْرُ بَنِي تَغْلِبَ وَجَمَاعَتَهُمْ بِمَآكِسِينَ مِنْ
الْخَابُورِ فَاقْتَلَوْا قَتْلًا (٣١١/٤) شَدِيدًا، وَهِيَ أَوَّلُ وَقْعَةٍ لَهُمْ، فَقَتَلَ
مِنْ بَنِي تَغْلِبَ خَمْسَمَائَةَ، وَقَتَلَ شُعَيْثَ، وَكَانَتْ رِجْلُهُ قُطِعَتْ، فَقَاتَلَ
حَتَّى قَتَلَ وَهُوَ يَقُولُ :

قَدْ عَلِمْتُ قَيْسٌ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْفَتَى يُقَاتِلُ وَهُوَ أَجْنَنُ

يوم الثَّرَاثِرِ الْأَوَّلِ

وَالثَّرَاثِرُ نَهْرٌ أَصْلُ مَنْبَعِهِ شَرْقِيَّ مَدِينَةِ سَنْجَارَ وَبِالْقُرْبِ مِنْ قَرْيَةٍ
يَقَالُ لَهَا سُرُقٌ وَيَفْرَغُ فِي دَجَلَةٍ بَيْنَ الْكُحَيْلِ وَرَأْسِ الْأَيْلِ مِنْ عَمَلِ
الْفَرَجِ.

ثم اجتمعوا والتقوا بالسكبر، وعلى قيس عُمير بن الحُبَاب، وعلى تغلب والنير يزيد بن هوبر، فاقْتَلَوْا قتالاً شديداً، فانهزمت تغلب والنير وهرب عمير بن جندل، وهو من فرسان تغلب، فقال عُمير بن الحُبَاب :

وأفلتسا يوم السكبر ابنُ جندل على سابع عروج البان مُشارِب
ونحنُ كرزنا الخيلَ قنماً شوافياً فحلق الهوادي داميست التوائير
وقال ابن صفار :

صَبَحْنَاكُمْ يَهْنَ عَلَى سُكَيْرٍ وَلَا قِتْمَ هَذَا الْأَقْرَبِ نَا
(٣١٤/٤)

يوم المعارك

والمعارك بين الحَضَرِ والعتيق من أرض الموصل، اجتمعت تغلب بهذا المكان فالتقوا هم وقيس فاقْتَلَوْا به فاشتد قتالهم، فانهزمت تغلب، وقال ابن صفار :

ولقد تركنا بالمعارك مَكُومُ والحَضَرِ والثَّرَارِ اجساداً جفا
فيقال: إن يوم المعارك والحضر واحد، هزمهم إلى الحضر وقتلوا منهم بشراً كثيراً. وقال بعضهم: هما يومان كانا لقيس، والله أعلم.

والتقوا أيضاً بليي فوق تَكْرِيت من أرض الموصل، فتناصفوا، فقيس تقول: كان الفضل لنا، وتغلب تقول: كان الفضل لنا.

يوم الشرعية

ثم التقوا بالشرعية، وعلى قيس عُمير بن الحُبَاب، وعلى تغلب وألفاهما ابن هوبر، فكان بينهم قتال شديد، قُتل يومئذ عمار بن المهزم السلمي، وكان لتغلب على قيس؛ قال الأخطل :

ولقد بكى الجحاف لما أوقعت بالشرعية إذ رأى الأفراس وال
يعني أوقعت الخيل. والشرعية: من بلاد تغلب. والشرعية أيضاً: ببلاد مَنبِج؛ فبعضهم يقول: إن هذه الرقعة كانت ببلاد مَنبِج، وذلك خطأ. (٣١٥/٤)

يوم البليخ

واجتمعت تغلب وسارت إلى البليخ، وهناك عُمير في قيس؛ والبليخ نهر بين حَرَّانَ والرقة؛ فالتقوا وانهزمت تغلب وكثر القتل فيها وبُغِرت بطون النساء كما فعلوا يوم الثرثار، فقال ابن صفار :

زرق الزماح ووقع كل مُهَنَّدٍ زلزلن قلبك بالبليخ فزالا
يوم الحشاك ومقتل عُمير بن الحُبَاب السلمي وابن هوبر

التعليق

لما رأت تغلب إلحاح عُمير بن الحُبَاب عليها جمعت

تفرقوا واقتلوا من الغد إلى الليل ثم تحاجزوا.

وأصبحت تغلب في اليوم الثالث فتعاقدوا أن لا يفروا، فلما رأى عمير حَتَمَهُم وأن نساءهم معهم قال لقيس: يا قوم أرى لكم أن تنصرفوا عن هؤلاء فإنهم مستقفلون، فإذا اطمأنوا وصاروا إلى سرهم وجئنا إلى كل قوم منهم مَنْ يغير عليهم. فقال له عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي: قتلْت فرسان قيس أمس وأول أمس ثم ملئ سَحْرَكَ وجيئت! ويقال: إن عُنَيْنَةَ بن أسماء بن خارجة الفزاري قال له ذلك، وكان أئاه منجداً، فغضب عمير وقال: كَأَنِّي (٣١٦/٤) بك وقد حمس الرغى أول فاراً فنزل عمير وجعل يقتل راجلاً وهو يقول:

إِنَّا عُمَيْرٌ وَابْنُ الْمُتَلَسِّنِ قَدْ أَحْبَسَ الْقَوْمَ بِضَنْكٍ فَاحْبِسْ
وانهزم زُفَرُ يومئذٍ، وهو اليوم الثالث، فلحق بقرقيسيا، وذلك أنه بلغه أن عبد الملك بن مروان قد عزم على الحركة إليه بقرقيسيا، فبادر للتأهب، وقيل: إنه ادَّعى ذلك حين فرَّ اعتذاراً، وانهزمت قيس وركبت تغلب وَمَنْ معها أكثافهم وهم يقولون: أما تعلمون أن تغلب تغلب؟

وشد على عُمير جُمَيْل بن قيس من بني كعب بن زُهَيْر فقتله، وقيل: بل تغاوى على عمير غلامان من بني تغلب فرمياه بالحجارة وقد أعيا فائخذاه، وكرَّ عليه ابن هوبر فقتله.

وأصاب ابن هوبر يومئذ جراحة، فلما انتقضت الحرب أوصى بني تغلب بأن يولوا أمرهم مُرَادُ بن علقمة الزُهيري.

وقيل: خرج ابن هوبر في اليوم الثاني من أيامهم هذه الثلاثة وأوصى أن يولوا أمرهم مُرَادُ، ومات من ليلته، وكان مُرَادُ رئيسهم في اليوم الثالث، فعَبَّاهم على راياتهم وأمر كل بني أب أن يجعلوا نساءهم خلفهم، فلما أبصرهم عمير قال ما تقدَّم ذكره؛ قال الشاعر:

أرقتُ بئانه الفرات وشفتي نوائح إكهاما قَتِيلُ ابنِ هوبر
ولم تظلمي إن نَحَسْتِمْ مَغْلَسَ قَتِيلِ النَّصَارَى فِي نَوَائِحِ حُسْرِ
(٣١٧/٤)

وقال بعض الشعراء يُنكر قتل ابن هوبر عُميراً:

وإن عُمَيْرَ يَوْمَ لَأَقَتْ تَغْلِبُ قَتِيلُ جُمَيْلٍ لَا قَتِيلُ ابنِ هوبر
وكثر القتل يومئذ في بني سُلَيْمٍ وغني خاصة، وقُتِلَ من قيس أيضاً يومئذ بشرٌ كثير، وبعث بنو تغلب رأس عُمير بن الحُبَاب إلى عبد الملك بن مروان بدمشق، فأعطى الوفد وكساهم. فلما صالح

الملك رُفْرُ بن الحارث واجتمع الناسُ عليه قال الأخطل :
وقد كانوا أولي عز فاصحوا وليس لهم من الذل انتصار
وأمره حتى رد عليه ماله ووصله، فقال فيه :

إني وإن كان قومي ليس بيهم ويس قومك إلا ضربة الهادي
مُثْنٍ عليك بما أوليت من حسن وقد تعرّض [لي] من مقتلٍ بادي
* (حُبِّب الذي في الشعر هو بضم الحاء المهملة، وفتح الباء
الموحدة، وهو في نسب بني تغلب).

يوم البشر

لما استقر الأمر لعبد الملك واجتمع المسلمون عليه قدم عليه
الأخطل الشاعر التغلبي وعنده الجحاف بن حُكَيْم السلمي، فقال له
عبد الملك: أتعرف هذا يا أخطل؟ قال: نعم، هذا الذي أقول فيه:
(٣٢٠/٤)

الاسائل الجحاف هل موثاقر يقتلى أصيبت من سليم وعامر
وانشد القصيدة حتى فرغ منها، وكان الجحاف ياكل رطباً،
فجعل النوى يتساقط من يده غيطاً، وأجابه وقال :
بلى سوف نكيهم بكل مُهْنِدٍ ونمسي عُمريراً بالرماح الشواجر
ثم قال: يا ابن النصرانية ما كنت أظن أن تجترئ عليّ بمثل
هذا! فأرعد الأخطل من خوفه ثم قام إلى عبد الملك وأمسك ذيله
وقال: هذا مقام العائد بك. فقال: أنا لك مجير. ثم قال الجحاف
ومشى وهو يجر ثوبه ولا يعقل به، فتلطّف لبعض كتاب الديوان
حتى اختلق له عهداً على صدقات تغلب وبكر بالجزيرة، وقال
لأصحابه: إن أمير المؤمنين قد ولّاني هذه الصدقات، فمن أراد
اللحاق بي فليقبل.

ثم سار حتى أتى رُصافة هشام فاعلم أصحابه ما كان من
الأخطل إليه وأنه افتعل كتاباً، وأنه ليس بوال، فمن كان أحب أن
يفسل عني العار وعن نفسي فليصحبني فإني قد أقسمت أن لا
أغسل رأسي حتى أوقع في بني تغلب. فرجعوا عنه غير ثلاثمائة
قالوا له: نموت بموتك ونحيا بحياتك.

فسار ليلته حتى صبح الرُحوب، وهو ماء لبني جُشم بن بكر
من تغلب، فصادف عليه جماعة عظيمة منهم، فقتل فيهم مقتلة
عظيمة وأمر الأخطل وعليه عباءة وسيخة، فظنه الذي أسره عبداً،
فسأله من هو، فقال: عبد. (٣٢١/٤) فأطلقه، فرمى بنفسه في جُب،
فخاف أن يراه من يعرفه فيقتله. فلما انصرف الجحاف خرج من
الجُب، وأسرف الجحاف في القتل ونقر البطون عن الأجنة وفعل
أمراً عظيماً، فلما عاد عنهم قدم الأخطل على عبد الملك فأنشده
قوله:

بني أمية قد تناضلت دونكم أبناء قوم أمّوا وهم نصرُوا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فبايعوا لك قسراً بعدما قهرُوا
ضجوا من الحرب إذ غصت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجرُ
في أبيات كثيرة.

فلما قتل عُمر بن الحُباب وقف رجل على أسماء بن خارجة
الفراري بالكوفة فقال: قتلت بنو تغلب عُمر بن الحُباب. فقال: لا
باس، إنما قتل الرجل في ديار القوم مقبلاً غير مدبر؛ ثم قال :
ييدي زفن على سليم بغارة تشب لها اصداغ بكر بن وائل
وتزك أولاد الفتوكس عالمة ينامي ليامي نهرة للقبائل
(٣١٨/٤)

يوم الكَحْخَل

وهو من أرض الموصل في جانب دجلة الغربي.

وسببه أنه لما قتل عُمر بن الحُباب السلمي أتى تميم بن عُمر
رُفْرُ بن الحارث فسأله أن يطلب له بثاره، فامتنع، فقال الهذيل بن
رُفْرُ لأبيه: والله لئن ظفرت بهم تغلب إن ذلك لعار عليك، ولئن
ظفروا بتغلب وقد خذلتهم إن ذلك لأشد. فاستخلف رُفْرُ على
قريسيه أخاه أَوْس بن الحارث وعزم على أن يغير على بني تغلب
ويغزوهم، فوجه خيلاً إلى بني فَدْرُكْس بطن من تغلب فقتل
رجالهم واستبيحت أموالهم ونساؤهم حتى لم يبق غير امرأة واحدة
استجارت فأجارها يزيد بن حُمران.

وجه رُفْرُ بن الحارث ابنه الهذيل في جيش إلى بني كعب بن
زُهَيْر، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وبعث رُفْرُ أيضاً مُسْلِم بن ربيعة
العُقَيْلي إلى قوم تغلب مجتمعين فاكثر فيهم القتل. ثم قصد رُفْرُ
لبني تغلب وقد اجتمعوا بالعقيق من أرض الموصل، فلما أحسّت
به ارتحلت تريد عبور دجلة، فلما صارت بالكَحْخَل لحقهم رُفْرُ في
القيسية، فاقتلوا قتالاً شديداً، وترجل أصحاب زفر أجمعون وبقي
زفر على بغل له فقتلوه ليلتهم وبقروا بطون نساء منهم وغرق في
دجلة أكثر ممن قتل بالسيف، فأتى فلهم لقي، فوجه زفر ابنه الهذيل
فأوقع بهم إلا من عبر فنجاً، وأسر زفر منهم مائتين فقتلهم صبراً،
فقال زفر :

إلا يا عين بكسي بانسكاب وبكسي عاصماً وابن الحُباب
فإن تك تغلب قتلت عُمريراً ورمطاً من غني في الجراب
وقدرهم فواريس من كلاب ونهرهم فواريس من كلاب
وقتلنا منهم مائتين صبراً وما عدلوا عُمر بن الحُباب
(٣١٩/٤)

وقال ابن صفار المحاربي :

بن أبي العاص: عُمُه بأن يقطع بالشام ويترك ابن الزبير والعراق، وكان يقول عبد الملك: مَنْ أراد صواب الرأي فليخالف يحيى. وقال بعضهم: إن العام جذب وقد غزوت ستين فلم تظفر فأقم عامك. هذا. فقال عبد الملك: الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاذه، وقد كتب كثير من أشرف العراق يدعونني إليهم. قال أخوه محمد بن مروان: الرأي أن تطلب حَقَّك وتسير إلى العراق فإني أرجو أن الله ينصرك. وقال بعضهم: الرأي أن تقيم وتبعث بعض أهلِكَ وتمدَّ بالجنود. فقال عبد الملك: إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قُرشيٌّ له رأي، ولعلِّي أبعث مَن له شجاعة ولا رأي له، وإني بصير بالحرب شجاع بالسيف إن احتجَّ إلي، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب بحبَّ الخفض ومعه من يخالفه ومعني من ينصح لي. (٣٢٤/٤)

فلما عزم على المسير ودَّع زوجته غانكة بنت يزيد بن معاوية، فبكت وبكى جواربها لِكَافئها، فقال: قاتل الله كثيرَ غزاةٍ لكأنه يشاهدنا حين يقول:

إذا ما أراد الغزو لم يَسْنِ مَنَّهُ حساناً عليها عقدُ فَرْزِينِها
نَهْنَه فلَمَّا لم تَرِ النَّهْيَ عاقَه بَكَتْ وبكى مَنَّا غانما قَطِينِها

وسار عبدُ الملك إلى العراق، فلَمَّا بلغ مصعباً مسيرَه وهو بالبصرة أرسل إلى المهلب، وهو يُقاتل الخوارج، يستشيره، وقيل: بل أحضره عنده، فقال لمصعب: اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فلا تُبعِدني عنك. فقبِلَ له مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذ سار عبد الملك إلي أن لا أسير إليه، فأَكْفَيْني هذا الشر.

فعاد إليهم وسار مصعب إلى الكوفة ومعه الأخنف، فتوفي بالكوفة، وأحضر مصعب إبراهيم بن الأشتر، وكان على الموصل والجزيرة، فلَمَّا حضر عنده جعله على مقدّمته وسار حتى نزل بَاجْمِيزَى، وهي قريب [من] أوانا، وهي من مَسْكَن، فعسكر هناك.

وسار عبد الملك وعلى مقدّمته أخوه محمد بن مروان وخالد بن عبد الله بن خالد بن أمييد فقتلوا بقرقيسياً وحسروا رُفْر بن الحارث الكلّابي، ثم صالحهم، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وسير رُفْر ابنه الهذيل مع عبد الملك، وكان معه، ثم لحق بمصعب بن (٣٢٥/٤) الزبير. فلَمَّا اصطلحا سار عبد الملك ومَن معه فقتلوا بِمَسْكَن قَرِيباً من عسكر مصعب، بين العسكرين ثلاثة فراسخ، ويقال: فرسخان، وكتب عبدُ الملك إلى أهل العراق مَنْ كاتبه ومَن لم يكاتبه، وبذل لجميعهم أضيئان طُعْمَةً، وقيل: إن كلَّ مَنْ كاتبه طلب منه إمرة أضيئان، فقال: أي شيء هذه أضيئان حتى كلَّهم يطلبها!

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعةً إلى الله فيها المُشْكَى والمُعْرَكُ فهرب الجحاف، فطلبه عبد الملك، فلحق ببلاد الروم، وقال بعد وقعة البشر يخاطب الأخطل:

أبا مالِكِ هَلْ لُنْتِني أو حَضَضْتِني على القتل أم هل لَانْتِني كلَّ لَأِيْمِ
ألم أَفَيْكَمْ قِتْلاً وأجْدَعْ أَفْكَكَمْ بَيْنَنا قَيْسٍ والسَّيْفُ الصَّوْراِمِ
بكلِّ نَفْسٍ يَنْمى عُميراً بِسَيِّفِهِ إذا عَصَمْتَ لِيْمَتَهُم بِالْقَوَائِمِ
فإن تُطْرِدُونِي تُطْرِدُونِي وقد جَرَى بي السَّوْدُ يوماً في مِماء الأراقِمِ
نَكَحْتُ بِسَيِّفِي في زُهَيْرٍ ومالِكِ نَكاحَ اغْتصابٍ لا نَكاحَ ذِراهِمِ
في أبيات.

ولم يزل الجحاف يتردّد في بلاد الروم من طرابزنده إلى قاليقلا، ويبحث إلى بطانة عبد الملك من قيس حتى أخذوا له الأمان فأمنه عبد الملك، فقدم عليه، فأكرمه ديات من قتل وأخذ منه الكفلاء وسعى فيها، فأتى الجحاف من الشام (٣٢٢/٤) فطلب منه، فقال له: متى عهدتني خائناً؟ فقال له: ولكنك سيّد قومك ولك عمالة واسعة. فقال: لقد ألهمت الصدق، فأعطاه مائة ألف درهم وجمع الديات فأوصلها.

ثم تنسك بعد وصلح ومضى حاجباً فتعلّق بأستار الكعبة وجعل ينادي: اللهم اغفر لي وما أظنّ تفعل. فسمعه محمد بن الحنفية فقال: يا شيخ قنوطك شر من ذنبك.

وقيل: إن سبب عوده كان أن الجحاف أكرمه ملك الروم وقرّبه وعرض عليه النصرانية ويعطيه ما شاء، فقال: ما أتيتك رغبة عن الإسلام. ولقي الروم تلك السنة عساكر المسلمين صافّة، فانهزم المسلمون، وأخبروا عبد الملك أنهم هزمهم الجحاف، فأرسل إليه عبدُ الملك يؤمّه، فسار وقصد البشر وبه حي من بشر وقد لبس أكفانه وقال: قد جئت إليكم أعطي القود من نفسي. وأراد شابهم قتله فنهاهم شيوخهم، فغفوا عنه وحجّ، فسمعه عبد الله بن عمر وهو يطوف ويقول: اللهم اغفر لي وما أظنك تفعل. فقال ابن عمر: لو كنت الجحاف ما زدت على هذا. قال: فانا الجحاف. (٣٢٣/٤)

سنة إحدى وسبعين

ذكر مقتل مصعب وملك عبد الملك العراق

في هذه السنة قُتل مصعب بن الزبير في جمادى الآخرة، واستولى عبد الملك ابن مروان على العراق.

وسبب ذلك أن عبد الملك بن مروان لما قتل عمرو بن سعيد بن العاص، كما تقدّم ذكره، وضع السيف فقتل مَنْ خالفه، فصفا له الشام. فلَمَّا لم يبق له مخالف فيه أجمع المسير إلى مصعب بن الزبير بالعراق، فاستشار أصحابه في ذلك، فأشار يحيى بن الحكم

مصعب: يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم! ثم التفت فرأى عُرْوَةَ بن المغيرة بن شُعْبَةَ فاستدناه فقال له: أخبرني عن الحسين بن علي كيف صنع بامتناعه عن النزول على حكم ابن زياد وعزمه على الحرب، فأخبره، فقال: (٣٢٧/٤)

إِنَّ الْأَكْبَى بِالطَّفِّ مَنْ أَلَّ هَاتِمٌ تَأَسَّوْا فَتَسَّوْا لِلْكَرَامِ النَّاسِيَا
قال عُرْوَةُ: فعلمتُ أَنَّهُ لَا يَبْرَحُ حَتَّى يُقْتَلَ.

ثم دنا محمد بن مروان من مصعب وناداه: أنا ابن عمك محمد بن مروان فاقبل أمان أمير المؤمنين. فقال: أمير المؤمنين بمكة، يعني أخاه عبد الله بن الزبير. قال: فَإِنَّ الْقَوْمَ خَاذِلُونَ. فأبى ما عرض عليه. فنادى محمد عيسى بن مصعب بن الزبير له، فقال له مصعب: انظر ما يريد منك. فدنا منه، فقال له: إني لك ولأبيك ناصح ولكما الأمان. فرجع إلى أبيه فأخبره، فقال: إني أظن القوم يفون لك، فإن أحببت أن تأتيهم فافعل. فقال: لا تتحدث نساء قريش أني خذلتك ورغبت بنفسي عنك. قال: فاذهب أنت ومن معك إلى عمك بمكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعني فلاني مقتول. فقال: لا أخبر عنك قريشاً أبداً، ولكن يا أبا الحق بالبصرة فلأنهم على الطاعة أو الحق بأمير المؤمنين. فقال مصعب: لا تتحدث قريش أني فرت.

وقال لابنه عيسى: تقدم إذن احتسبك. فتقدم ومعه ناس فقتل وقتلوا؛ وجاء رجل من أهل الشام ليحتز رأس عيسى، فحمل عليه مصعب فقتله وشد على الناس فانفجروا له، وعاد ثم حمل ثانية فانفجروا له، وبذل له عبد الملك الأمان وقال: إنه يعز علي أن تقتل فاقبل أمانتي ولك حكمك في المال والعمل. فأبى وجعل يضارب. فقال عبد الملك: هذا والله كما قال القائل:

وَمَذْجُجَ كَمَرُ الْكُفَّةِ زَالَهُ لَا مُنِيأَ هَرَباً وَلَا مُسْتَلِمَا
(٣٢٨/٤)

ودخل مصعب سرادقه فتحنط ورمى السراقد وخيرج فقاتل، فأتاه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فدعاه إلى المبارزة، فقال له: يا كلب اعزب! مثلي يبارز مثلك! وحمل عليه مصعب فضربه على اليضة فهشما وجرحه، فرجع وعصب رأسه، وترك الناس مصعباً وخذلوه حتى بقي في سبعة أنفس، وأتخن مصعب بالرمي وكشرت الجراحات فيه، فعاد إلى عبيد الله بن زياد بن ظبيان، فضربه مصعب فلم يصنع شيئاً لضعفه بكثرة الجراحات، وضربه ابن ظبيان فقتله.

وقيل: بل نظر إليه زائلة بن قدامة الثقفي فحمل عليه فطعنه وقال: يا لثارات المختار! فصرعه، وأخذ عبيد الله بن زياد رأسه وحمله إلى عبد الملك فألقاه بين يديه وأنشد:

نُطِيطِي الْمُلُوكَ الْحَقَّ مَا قُطِطُوا لَنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمٍ

فكل منهم أخفى كتابه، إلا إبراهيم بن الأشتر فإنه أحضر كتابه عند مصعب مختوماً، فقرأه مصعب فإذا هو يدعو إلى نفسه ويجعل له ولاية العراق، فقال له مصعب: أتدري ما فيه؟ قال: لا. قال: يعرض عليك كذا وكذا، وإن هذا لما يرغب فيه. فقال إبراهيم: ما كنت لأتقصد الغدر والخيانة، والله ما عند عبد الملك من أحد الناس بآياس منه مني، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم مثل الذي كتب إلي فاطغني واضرب أعناقهم. قال: إذا لا يخاصمني عشائريهم. قال: فأورقهم حديداً وأبعث بهم إلى أبيض كسرى وأحبسهم هناك ووكل بهم من إن غلبت وتفرقت عشائريهم عنك ضرب رقابهم، وإن ظهرت مننت على عشائريهم بإطلاقهم. فقال: إني لفي شغل عن ذلك، فرحم الله أبا بحر، يعني الأحنف بن قيس، إن كان ليحذرني غدر أهل العراق ويقول هم كالموساة تريد كل يوم بعلاً، وهم يريدون كل يوم أميراً.

فلما رأي قيس بن الهيثم ما عزم أهل العراق عليه من الغدر لمصعب قال لهم: ويحكم! لا تدخلوا أهل الشام عليكم! فوالله لئن يطعموا بعيشكم ليضيئن عليكم منازلكم، والله لقد رأيت سيده أهل الشام على باب الخليفة يفوح إن أرسله في حاجة، ولقد رأيتنا في الصوائف وإن زاد أحدنا على عدة (٣٢٦/٤) أحمال وإن الرجل من وجوههم ليفزو على فرسه وزاده خلفه.

فلم يسموا منه، فلما تدانى العسكران أرسل عبد الملك إلى مصعب رجلاً من كلب وقال له: أقرئ ابن أختك السلام؛ وكانت أم مصعب كلبية؛ وقل له يدع دعاءه إلى أخيه وأدع دعائي إلى نفسي ويجعل الأمر شوري. فقال له مصعب: قل له السيف بيننا.

فتقدم عبد الملك أخاه محمداً وقدم مصعب إبراهيم بن الأشتر، فالتقيا فتناوش الفريقان فقتل صاحب لواء محمد وجعل مصعب يمد إبراهيم، فأزال محمداً عن موقفه، فوجه عبد الملك عبد الله بن يزيد إلى أخيه محمد، فاشتد القتال، فقتل مسلم بن عمرو الباهلي والد قتيبة، وهو من أصحاب مصعب، وأمد مصعب إبراهيم بعتاب بن وراق، فساء ذلك إبراهيم وقال: قد قلت له لا تبتدني بعتاب وضربائه، وإنا لله وإنا إليه راجعون! فانهزم عتاب بالناس، وكان قد كاتب عبد الملك ويأبى، فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقتل، قتله عبيد بن مسيرة مولى بني عذرة وحمل رأسه إلى عبد الملك.

وتقدم أهل الشام فقاتلهم مصعب وقال لقطن بن عبد الله الحارثي: قدم خيلك أبا عثمان. فقال: أكره أن تقتل مذحج في غير شيء. فقال لحجَّار بن أبجر: يا أبا أمييد قدم خيلك. قال: إلى هؤلاء الأتنان! قال: ما تتأخر إليه أنتن! فقال لمحمد بن عبد الرحمن بن سعيد مثل ذلك، فقال: ما فعل أحد هذا فأفعله. فقال

فلما رأى عبد الملك الرأس سجد. قال ابن ظبيان: لقد هممت أن أقتل عبد الملك وهو ساجد فأكون قد قتلت ملكي العرب وأرحت الناس منهما. وقال عبد الملك: لقد هممت أن أقتل ابن ظبيان فأكون قد قتلت أفتك الناس بأشجع الناس.

وأمر عبد الملك لابن ظبيان بالف دينار، فقال: لم أقتله على طاعتك وإنما قتلت على أخي النابى بن زياد؛ ولم يأخذ منها شيئاً.

وكان قتل مصعب بذي الجائلين عند نهر دجيل، فأمر عبد الملك به وبابنه عيسى فدُفنا، وقال: كانت الحرمة بيننا قديمة ولكن المُلْك عقيم. (٣٢٩/٤)

وكان سبب قتل النابى أنه قطع الطريق هو ورجل من بني نُمير، فأحضرًا عند مطرف بن سیدان الباهلي صاحب شرطة مصعب فقتل النابى وضرب النيمري وأطلقه، فجمع عبيد الله جمعاً وقصد مطرفاً بعد أن عزله مصعب عن شرطته وولاه الأهواز، وسار عبيد الله إلى المطرف فقتله، فبعث مصعب مكرّم بن مطرف في طلب عبيد الله، فسار حتى بلغ عسكر مكرّم، فسب إليه، ولم يلق عبيد الله، كان قد لحق بعبد الملك. وقيل في قتله غير ذلك.

فلما أتى عبد الملك برأس مصعب نظر إليه وقال: متى تغدو قرشية مثلك! وكانا يتحدثان إلى حبي وهما بالمدينة، فقيل لها: قتل مصعب. فقالت: تمس قاتله! فقيل: قتله عبد الملك بن مروان. فقالت: وأبائي القاتل والمقتول!

ثم دعا عبد الملك بن مروان جند العراق إلى بيعته فبايعوه، وسار حتى دخل الكوفة فأقام بالتحيلة أربعين يوماً، وخطب الناس بالكوفة فودع المحسن وتوعد المسيء، فقال: إن الجامعة التي وضعت في عنق عمرو بن سعيد عندي، والله لا أضعها في عنق رجل فانتزعها إلا صعداً لا أفكها عنه فكاً، فلا يتيقن امرؤ إلا على نفسه ولا يولغن دمه، والسلام.

ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه، فحضرت قضاة، فقال لهم: كيف سلمتم وأنتم قليل مع مضر؟ فقال عبد الله بن يعلى التهدي: نحن أعزّ منهم وأمنع (٣٣٠/٤) بك وبمن معك منّا. ثم جاءت مذبح فقال: ما أرى لأحد مع هؤلاء بالكوفة شيئاً. ثم جاءت جعفي فقال: إيتوني بآبن أختكم، يعني يحيى بن سعيد، وكانت أمه مذحجية، فقالوا: هو آمن؟ فقال: وتشترطون أيضاً! فقال رجل منهم: إنا ما نشترط جهلاً بحقك ولكنّا تتسحب عليك تتسحب الولد على الوالد. فقالت: يزعم أنتم الحيّ! إن كنتم لفرساناً في الجاهلية [والإسلام]. ليحضر فهو آمن. فأتوه به فبايعه. ثم أتته عدوان فقدموا بين أيديهم رجلاً جميلاً وسيماً، فقال عبد الملك:

عزير الحيّ من غنوا نكثوا حيّة الأرض
بقي بعضهم بعضاً فلم يرعوا على بعض
ومنهم كائن السادة والموفون بالقرض
ثم أقبل على ذلك الرجل الجميل فقال: إيه! فقال: لا أدري.
فقال مغيد بن خالد الجدي، وكان خلفه:

ومنهم حكيم يقضي فلا يقض ما يقضي
ومنهم من يجير الحج بالسنة والفقرض
وهم مذولوا شربوا بسر الشرب المحض
فأقبل عبد الملك على ذلك الجميل فقال: من هو؟ فقال: لا أدري. فقال معبد من ورائه: هو ذو الإصبع، فأقبل على الجميل فقال: لم تسمي (٣٣١/٤) ذا الإصبع؟ فقال: لا أدري. فقال معبد: لأنّ حية نهشت إصبعه فقطعتها. فأقبل على الجميل فقال: ما كان اسمه؟ قال: لا أدري. فقال معبد: حرثان بن الحارث. فقال للجميل: من أيكم هو؟ قال: لا أدري. فقال معبد: من بني ناج. ثم قال للجميل: كم عطاوك؟ قال: سبعمئة. قال لمعبد: كم عطاوك. قال: ثلاثمئة. فقال لكاتبه: اجعل معبدًا في سبعمئة وانقص من عطاء هذا أربعمئة، ففعل.

ثم جاءت كينة فنظر إلى عبد الله بن إسحاق بن الأشعث فأوصى به أخاه بشر بن مروان. وأقبل داود بن قحذم في جمع كثير من بكر بن وائل عليهم الأتية الداودية، وبه سُميت، فجلس مع عبد الملك على سريره، فأقبل عليه عبد الملك ثم نهض ونهضوا معه، فقال عبد الملك: هؤلاء الفساق لولا أنّ أصحابهم جاءني ما أعطاني أحد منهم طاعة.

ثم ولّى قطن بن عبد الله الحارثي الكوفة، ثم عزله فاستعمل أخاه بشر بن مروان، ثم استعمل محمد بن عمير الهمداني على همدان، ويزيد بن زوئم على الري، ولم يبق لأحد شرط له أصبهان، وقال: عليّ بهؤلاء الفساق الذين أنغلوا الشام وأفسدوا العراق. فقيل: قد أجارهم رؤساء عشائهم. فقال: وهل يجير عليّ أحد؟

وكان عبد الله بن يزيد بن أسد والد خالد القسري قد لجأ إلى علي بن عبد الله بن عباس، ولجأ إليه أيضاً يحيى بن معيوف الهمداني، ولجأ الهذيل بن زفر بن الحارث، وكان مع عبد الملك، على ما نذكره، وعمرو بن يزيد الحكمي إلى خالد بن يزيد، فآمنهم عبد الملك فظهروا. فضع عمرو بن حرث لعبد الملك (٣٣٢/٤) طعماً كثيراً وأمر به إلى الخورنق وإذن إضناً عاماً، فدخل الناس وأخذوا مجالسهم، فدخل عمرو بن حرث، فجلس معه على سريره، ثم جاءت الموائد فأكلوا، فقال عبد الملك: ما الذّ عشنا لو دام، ولكنّا كما قال الأول:

وكلّ جليليّنا أقيم إلى بلى وكلّ امرئ يصير يوماً إلى كان
فلما فرغوا من الطعام طاف عبد الملك في القصر وعمره بن
حرث معه وهو يسأله: لمن هذا البيت؟ ومن بنى هذا البيت؟
وعمره يُخبره، فقال عبد الملك:

اعمل على مهل فلنأك ميث واكسح نضيك إليها الإنسان
فكان ما قد كان لم يك إذ مضى وكان ما هو كائن قد كان
ولما بلغ عبد الله بن خازم سير مصعب لقتال عبد الملك
قال: أمعه عمر بن عبيد الله بن معمر؟ قيل: لا، استعمله على
فارس. قال: أمعه المهلب؟ قيل: لا، استعمله على الخوارج. قال:
أمعه عباد بن الحصين؟ قيل: استخلفه على البصرة. قال: وأنا
بخراسان.

خلّيني فخرّني جمار وبشري بلحم امرئ لم يشهد اليوم تاصرة
ولما قُتل مصعب بعث عبد الملك رأسه إلى الكوفة، أو حمّله
معه إليها، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر، فلما
رآه وقد قطع السيف أنفه قال: رحمك الله! أمّا والله لقد كنت من
أحسنهم خلقاً وأشدّهم بأساً وأسأخهم نفساً. ثم سيّره إلى الشام
فَنَصَّبَ بدمشق، وأرادوا أن يطوفوا به في نواحي الشام، فأخذته
عائكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان، (٣٣٣/٤)
وهي أم يزيد بن عبد الملك، فغسلته ودفتته وقالت: أما رضيتم بما
صنعت حتى تطوفوا به في المدن؟ هذا بخي.

وكان عُمر مصعب حين قُتل ستاً وثلاثين سنة.

قال يوماً عبد الملك لجلسائه: من أشدّ الناس؟ قالوا: أمير
المؤمنين. قال: اسلكوا غير هذا الطريق. قالوا: عُمر بن الحُبَاب.
قال: قُبِحَ الله عميراً! لص، ثوب ينازع عليه أعزّ عنده من نفسه
ودينه. قالوا: فشيب. قال: إنّ للحرورية طريقاً. قالوا: فمن؟ قال:
مصعب كان عنده عقيلتا قريش سكينه بنت الحسين وعائشة بنت
طلحة، ثم هو أكثر الناس مالاً، جعلت له الأمان وولاية العراق
وعلم أنّي سافى له للمودة التي كانت بيننا فحمى أنفأ وأبى وقاتل
حتى قُتل. فقال رجل: كان مصعب يشرب النبيذ. قال: كان ذلك
قبل أن يطلب المروءة، فأمّا منذ طلبها فلو علم أنّ الماء يُنقّص
مروءته ما ذاقه. قال الأقرش الأسدي:

حمى أنّه أن يقبل الضيم مصعب فمات كريماً لم تُذمّ خلافة
ولو شاء أعطى الضيم من رام فضمه فعاش ملوماً في الرجال طرائقه
ولكن مضى والبرق يبرق خالقه يشاوره مراً وترّاً يعلقه
فولّى كريماً لم تكله منّة ولم يك رعباً تطيو تملّقه
وقال عرقمة بن شريك:

ما لابن مروان أعمى الله ناظره ولا أصاب رغبات ولا قبالا
يرجو الفلاح ابن مروان وقد ظلت خيل ابن مروان حراً ملجأ بطلا

(٣٣٤/٤)

يا ابن الخواري كم من نعمة لكم لورام غيركم أمثالها شغلا
حُلتكم فحلتكم كلّ تفضلة إنّ الكريم إذا خلت حُتلا
وقال عبد الله بن الزبير الأسدي في إبراهيم بن الأشتر، هذا
الزبير بفتح الزاي وكسر الباء:

سلبكي وإن لم تترك قتيان منجج فاعلم إذا الليل التمام تأوتا
قئ لم يكن في مرة الحرب جاهلاً ولا بمطيع في الوعى من نهيا
إبان أنوف الحي قحطان قلته وأنف يزار قد إبان فارعا
فمن يك أمسى خائلاً لا يمر به فما خان إبراهيم في الموت مصعباً
وحين قُتل مصعب كان المهلب يحارب الأزارقة بسواف، بلد
بفارس على شاطئ البحر، ثمانية أشهر، فبلغ قتله الأزارقة قبل
المهلب، فصاحوا بأصحاب المهلب: ما قولكم في مصعب؟ قالوا:
أمير هدى، وهو وليّنا في الدنيا والآخرة، ونحن أولياؤه. قالوا: فما
قولكم في عبد الملك؟ قالوا: ذاك ابن اللعين، نحن نبرأ إلى الله
منه وهو أحلّ دماً منكم. قالوا: فإنّ عبد الملك قتل مصعباً
وستجعلون غداً عبد الملك إمامكم. فلما كان الغد سمع المهلب
وأصحابه قتل مصعب فباع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان،
فصاح بهم الخوارج: يا أعداء الله! ما تقولون في مصعب؟ قالوا: يا
أعداء الله لا نخبركم. (٣٣٥/٤) وكروها أن يكذبوا أنفسهم. قالوا:
وما قولكم في عبد الملك؟ قالوا: خليفتنا. ولم يجدوا بداً إذ بايعوه
أن يقولوا ذلك. قالوا: يا أعداء الله! أنتم بالأمس تبرأون منه في
الدنيا والآخرة وهو اليوم إمامكم وقد قتل أميركم الذي كنتم
تولونه! فأبهما المهتدي وأبهما المبطل؟ قالوا: يا أعداء الله رضينا
بذلك إذ كان يتولّى أمرنا ونرضى بهذا. قالوا: لا والله ولكنكم
إخوان الشياطين وعبيد الدنيا.

وأما عبد الله بن الزبير فلما انتهى إليه قتل أخيه مصعب قام
في الناس فخطبهم فقال:

الحمد لله الذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء وينزع
الملك ممن يشاء ويعزّز من يشاء ويذلّ من يشاء، ألا وإنّه لم يذل
الله من كان الحقّ معه وإن كان فرداً، ولم يعزّز من كان وليّه
الشیطان وإن كان الناس معه طراً، ألا وإنّه قد أتانا من العراق خبر
أحزنا وأفرحنا، أتانا قتل مصعب، رحمه الله، وأمّا الذي أفرحنا
فعلما أنّ قتله شهادة، وأمّا الذي أحزنا فإنّ لفرق الحميم لوعة
يجدها حميمه عند المصيبة يرعوي بعدها ذوو الرأي الجميل إلى
الصبر وكريم العزاء، وما مصعب إلّا عبيد من عبيد الله وعون من
أعوانه، ألا وإنّ أهل العراق أهل الغدر والفتاق أسلموه وباعوه
بأقل الثمن، فإن يقتل قعّة، والله ما نموت على مضاجعتنا كما
يموت بنو أبي العاص! والله ما قتل رجل منهم في زحف في
الجاهلية ولا في الإسلام، ولا نموت إلّا قعصاً بالرمح وتحت

ظلال السيوف، إلا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبديد ملكه، فإن تقبل لا آخذها أخذ البطور، وإن تدبر لم أبك (٣٣٦/٤) عليها بكاء الضريح المهين، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

لقد تركتني متجئاً ابن بخلد الحيد عن المصفور حين يطير
وكان خالد بن يزيد بن معاوية مجداً في قتالهم، فقال رجل من أصحاب (٣٣٨/٤) زُفر من بني كلاب: لأقولن لخالد كلاماً لا يعود لي ما يصنع. فلما كان الغد خرج خالد للمحاربة، فقال له الكلابي:

ماذا ابتغى خالد ومعه إذ سلب الملك وبكت أمه
فاستحيا وعاد ولم يرجع يقاتلهم.

وقالت كلب لعبد الملك: إنا إذا لقينا زفر انهزمت القيسية الذين معك فلا تخلطهم معنا. ففعل، فكتبت القيسية على ثبلها: إنه ليس يقاتلكم غداً مضري، ورموا الثبل إلى قرقيسيا، فلما أصبح زُفر دعا ابنه الهذيل، وبه كان يكنى، وقيل: [كان] يكنى أبنا الكوثر، فقال: اخرج إليهم فشذ عليهم شدة لا ترجع حتى تضرب فسطاط عبد الملك، والله لئن رجعت دون أن تطأ أطناب فسطاطه لأقتلك. فجمع الهذيل خيله وحمل عليهم، فصبروا قليلاً ثم انكشفوا، وتبعهم الهذيل بخيله حتى وطئوا أطناب الفسطاط وقطعوا بعضها، ثم رجعوا، فقتل زُفر رأس الهذيل وقال: لا يزال عبد الملك يحيك بعدنا أبداً. فقال الهذيل: والله لو شئت أن أدخل الفسطاط لفعلت. فقال زُفر:

الا لا أبالي من أمة جمائمه إذا ما المنايا عن هذيل تجلست
تراه أمام الخيل أول فارس ويضرب في أعجازها إن نولت
ولما ثلم برج قرقيسيا قال لعبد الملك بعض أهله: لو قاتلتهم بقضاعة لملكتم. ففعل وقاتلهم، فلما كان عند المساء انكشفت قضاعة وكثر القتل فيهم، وأقبل رُوح بن زُبَاع الجذامي إلى برج منها فسأل أهله وقال: نشدتكم الله كم قتلنا منكم؟ قالوا: والله لم يقتل منا أحد ولم يُجرح إلا رجل واحد ولا بأس عليهم، ثم قالوا: نشدتكم الله كم قتل منكم؟ قال: هذه فرسان وجرحتم ما لا يحصى، فلعن الله ابن بخلد! (٣٣٩/٤)

ورجع رُوح إلى عبد الملك وقال: إن ابن بخلد يمينك الباطل، فأعرض عن هذا الرجل.

وكان رجل من كلب يقال له الذبال يخرج فيسب زُفر فيكثر، فقال زُفر للهذيل ابنه أو لبعض أصحابه: أما تكفيني هذا؟ قال: أنا أجبتك به. فدخل عسكر عبد الملك ليلاً فجعل ينادي: من يعرف بغلاً من صفته كذا وكذا؟ حتى انتهى إلى خباء الرجل وقبده. عرفه فقال الرجل: ردة الله عليك ضالكت. فقال: يا عبد الله إني قد عييت فلو أدنت لي فاسترحت قليلاً. قال: ادخل، فدخل والرجل وحده

(حجّار بن أبجر يفتح الحاء المهملة، وتشديد الجيم، وكنيته أبو أسيد بضم الهجمة، وفتح السين. وحّبي بضم الحاء المهملة، وبالياء الموحدة المشددة الممالة، وآخره ياء مثناة من تحتها. وعبد الله بن خازم بالخاء المعجمة والزاي).

ذكر ولاية خالد بن عبد الله البصرة

وفي هذه السنة تنازع ولاية البصرة حُمران بن أبان وعبيد الله بن أبي بكر، فقال ابن أبي بكر: أنا أعظم منك، كنت أنفق على أصحاب خالد يوم الجفرة. فقيل لحُمران: إنك لا تقوى على ابن أبي بكر فاستعن بعبد الله بن الأهِم. فاستعان به، فغلب على البصرة وعبد الله على شرطها، وكان لحُمران منزلة عند بني أمية، وكانت هذه المنازعة بعد قتل مصعب.

فلما استولى عبد الملك على العراق بعد قتله استعمل على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، فوجه خالد عبيد الله بن أبي بكر إليها خليفة له، فلما قدم على حُمران قال: أقصد جئت لا جئت! فكان عبيد الله عليها حتى قدم خالد، ولما فرغ عبد الملك من أمر العراق عاد إلى الشام. (٣٣٧/٤)

ذكر أمر عبد الملك وزُفر بن الحارث

قد ذكرنا في وقعة راهط مسير زُفر إلى قرقيسيا واجتماع قيس عليه والسبب في استيلائه عليها وما كان منه بعد ذلك، وكان علىبيعة ابن الزبير وفي طاعته. فلما مات مروان بن الحكم وولّى ابنه عبد الملك كتب إلى أبان بن عُقبة بن أبي مُعيط وهو على جنص يأمره أن يسير إلى زُفر، فسار إليه وعلى مقدمته عبد الله بن زميت الطائي، فواقع عبد الله زُفر قبل وصول أبان وكثر في أصحابه القتل، قُتل منهم ثلاثمائة، فلما أبان على عجلته، وأقبل أبان فواقع زُفر، فقتل ابنه وكيع بن زُفر، وأدركت طيء فقتل زُفر ونسائه، فاستوهم محمد بن حصين بن ثُمير النساء والحقهن بزُفر بقرقيسيا، فقال زُفر:

غلّظن بخل من حصين لو آتته
تغيّب حالت دونهن المصائر
أبوكم أبونا في القيسم وإنسي
لتفركم في آخر الدهر شاكر
وكان يقال لزُفر إنه من كندة.

ثم إن عبد الملك لما أراد المسير إلى مصعب سار إلى قرقيسيا فحصر زُفر فيها ونصب عليها المجانيق، فأمر زُفر أن ينادى [في] عسكر عبد الملك: لم نصبتكم علينا المجانيق؟ قال: لتسلم ثلثة

وقال له: (٣٤١/٤) أنت لا عهدَ عليك. فسار معه، فلما قارب مصعباً هرب إليه وقتل مع ابن الأشر، فلما قُتل ابن الأشر اختفى الهذيل بالكوفة حتى استؤمن له من عبد الملك فأمنه، كما تقدّم.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة افتتح عبد الملك قيسارية، في قول الواقدي. وفيها نزع ابن الزبير جابر بن الأسود بن عوف عن المدينة واستعمل عليها طلحة بن عبيد الله بن عوف، وهو آخر وال كان له على المدينة، حتى أتاه طارق بن عمرو مولى عثمان، فهرب طلحة وأقام طارق بها حتى سار إلى مكة لقتال ابن الزبير.

وفي إمارة مصعب مات البراء بن عازب بالكوفة. ويزيد بن مفرغ الحميري الشاعر بها أيضاً. وعبد الله بن أبي حنزة الأسلمي، شهد الحديبية وخير.

وفي أيامه مات شبيب بن شكل القيسي الكوفي، وهو من أصحاب علي وابن مسعود.

(شبيب بضم الشين المعجمة، وفتح التاء فوقها نقطتان، وبعدها ياء تحتها نقطتان. وشكل بفتح الشين المعجمة، والكاف، وآخره لام.) (٣٤٢/٤)

سنة اثنين وسبعين

ذكر أمر الخوارج

لما استقر عبد الملك بالكوفة بعد قتل مصعب استعمل خالد بن عبد الله على البصرة، فلما قدمها خالد كان المهلب يحارب الأزارقة، فجعله على خراج الأهواز ومعونتها، وسير أخاه عبد العزيز بن عبد الله إلى قتال الخوارج، وسير معه مقاتل بن يسلم، فخرجوا يطلبان الأزارقة، فأثت الخوارج من ناحية كرومان إلى دارابجرد، وأرسل فطري بن الفجاءة المازني مع صالح بن مخرارق تسعمان فارس، فأقبل يسير بهم حتى استقبل عبد العزيز وهو يسير مهلاً على غير تعبية، فانهمز بالناس، ونزل مقاتل بن يسلم [فقاتل] حتى قُتل، وانهزم عبد العزيز، وأخذت امرأته ابنة المنذر بن الجارود فأقيمت فيمن يزيد، فبلغت قيمتها مائة ألف، فجاء رجل من قومها من رؤوس الخوارج فقال: تنحوا هكذا، ما أرى هذه المشركة إلا قد فتتكم! وضرب عنقه، ولحق بالبصرة، فراه آل المنذر فقالوا: والله ما ندرى أنحمدك أم نذمك! فكان يقول: ما فعلته إلا غيرة وحمية.

وانتهى عبد العزيز إلى رامهرمز، وأتى المهلب خبره، فأرسل إليه شيخاً من الأزد وقال له: إن كان منهزماً فعزه. فأتاه الرجل فرآه نازلاً في نحو ثلاثين فارساً كثيراً حزناً، فأبلغه الرسالة، وعاد إلى المهلب بالخبر، فأرسل (٣٤٣/٤) المهلب إلى أخيه خالد بن عبد

في حياته، فرمى بنفسه ونام صاحب الخباء، فقام إليه فأيقظه وقال: والله لئن تكلمت لأقتلك. قال: قُلت أو سلمت فماذا يتفكك قتلي؟ قال: لئن سكنت وجئت معي إلى زفر فلك عهد الله وميثاقه أن أردك إلى عسكريك بعد أن يصلك زفر ويحسن إليك. فخرجا وهو ينادي: من دل على بغل من صفته كذا وكذا؟ حتى أتى زفر والرجل معه، فأعلمه أنه قد آمنه، فوهب له زفر دنائير وحمله على رحالة النساء والبسه ثيابهن وبعث معه رجلاً حتى دنوا من عسكري عبد الملك، فنادوا: هذه جارية قد بعث بها زفر إلى عبد الملك. وانصرفوا، فلما نظر إليه أهل العسكر عرفوه وأخبروا عبد الملك الخبر، فضحك وقال: لا يبعد الله رجلاً نصر، والله إن قتلهم لذل وإن تركهم لحسرة. وكف الرجل فلم يعد يسب زفر، وقيل: إنه هرب من العسكر.

ثم إن عبد الملك أمر أخاه محمداً أن يعرض على زفر وابنه الهذيل الأمان على أنفسهما ومن معهما وماله من أعطيا ما أحبّا. ففعل محمد ذلك، فاجاب الهذيل وكلم أباه وقال له: لو صالحت هذا الرجل فقد أطاعه الناس وهو خير (٣٤٠/٤) لك من ابن الزبير. فاجاب على أن له الخيار في بيعته سنة وأن ينزل حيث شاء ولا يعين عبد الملك على قتال ابن الزبير. فبينما الرسل تختلف بينهما إذ جاءه رجل من كلب فقال: قد هُدم من المدينة أربعة أبراج. فقال عبد الملك: لا أصالحهم. وزحف إليهم فهزموا أصحابه حتى أدخلوهم عسكريهم. فقال: أعطوهم ما أرادوا. فقال زفر: لو كان قبل هذا لكان أحسن. واستقر الصلح على أمان الجميع، ووضع الدماء والأموال، وأن لا يسايح عبد الملك حتى يموت ابن الزبير للبيعة له في عنقه، وأن يعطى مالا يقسمه في أصحابه.

وخاف زفر أن يغدر به عبد الملك كما غدر بعمرو بن سعيد، فلم ينزل إليه، فأرسل إليه بفضيب النبي، عليه السلام، أماناً له، فترز إليه، فلما دخل عليه أجلسه معه على سريره، فقال ابن عضاء الأشعري: أنا كنت أحق بهذا المجلس منه. فقال زفر: كذبت هناك، إني عادت فضررت وواليت فنفعت.

ولما رأى عبد الملك قلة من مع زفر قال: لو علمت أنه في هذه القلة لحاصرته أبداً حتى ينزل على حكمي. فبلغ قوله زفر فقال: إن شئت رجعتا ورجعت. فقال: بل بقي لك يا أبا الهذيل.

وقال له عبد الملك يوماً: بلغني أنك من كندة. فقال: وما خير من لا يبغي حسداً ولا يدعي رغبة!

وتزوج مسلمة بن عبد الملك الرباب بنت زفر، فكان يؤذن لأخويها الهذيل والكوثر في أول الناس.

وأمر زفر ابنه الهذيل أن يسير مع عبد الملك إلى قتال مصعب

اللَّهُ يُخْبِرُهُ بِهِزِمَتِهِ. فقال للرسول: كذبت. فقال: واللَّهِ ما كذبتُ، فإن كنتُ كاذباً فاضربْ عُنُقِي، وإن كنتُ صادقاً فأعطني جُثَّتَكَ ومطرفك. قال: قد رَضِيتُ من الخطر العظيم بالخطر اليسير. وحبسه وأحسن إليه حتى صَحَّ خبر الهزيمة.

قال ابن قيس الرُّقِيَّاتُ في هزيمة عبد العزيز وفراره عن امرأته: عبد العزيز فضحت جِيشَكَ كُلَّهُمْ وتركَهُمْ صُرْعِي بِكُلِّ سَبِيلٍ من بين ذِي عَطَشٍ يَجُودُ بِضَبِّهِ وملَحَّيْبِيْنَ الرِّجَالِ قَبِيلٍ فَلَا صَبْرَ مَعَ الشَّهِيدِ مُقَاتِلًا إِذْ رَحَّتْ مَتَكْتُ الْقُرَى بِأَصِيلٍ وتركْتَ جِيشَكَ لَا أَمِيرَ عَلَيْهِمْ فارَّجِعْ بِعَارِ فِي الْحَيَاةِ طَوِيلٍ وَنَسِيتَ عِرْمَكَ إِذْ تَهَادَسِيَّةً تَبْكِي الْعِزَّ بِرُتَّةٍ وَعَوِيلٍ

فكتب خالد إلى عبد الملك يُخْبِرُهُ بذلك، فكتب إليه عبد الملك: قد عرفتُ ذلك وسألتُ رسولَكَ عن المهلب فأخبرني أَنه عامل على الأهواز، ففتحَ اللَّهُ وأيكَ حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتُدْعُ المهلبَ يجيبي الخراج، وهو الميمون النقيبة، المقاسي للحرب، ابنها وابن أبنائها، أرسل إلى المهلب يستقبلهم، وقد بعثتُ إلى بشر بالكوفة ليمدكَ بجيش، فيزُف معهم ولا تعمل في عدوكَ برأي حتى يحضره المهلب، والسَّلام.

وفي هذه السنة كان خروج أبي فُذَيْك الخارجي، وهو من بني قيس بن ثعلبة، فغلب على البحرين وقتل نَجْدَةَ بن عامر الخنفي، فاجتمع على خالد ابن عبد الله نزول فُطْرِي الأهواز وأمر أبي فُذَيْك، فبعث أخاه أمية بن عبد الله في جند كثيف إلى أبي فُذَيْك، فهزمه أبو فُذَيْك وأخذ جارية له فاتخذها لنفسه، فكتب خالد إلى عبد الملك بذلك.

ذكر قتل عبد الله بن خازم

ولما قُتل مُصَنَّب كان ابن خازم يُقاتل بَحِيرَ بن ورقاء الصُرْتَمِيَّ التميميَّ بنيسابور، فكتب عبد الملك إلى ابن خازم يدعوهُ إلى البيعة له ويُطْعِمُهُ خُرَّاسَانَ سبع سنين، وأرسل الكتاب مع سودة بن أَشْتَمِ التَّمِيمِيَّ، وقيل: مع مُكَمَّلِ الغنوي. فقال ابن خازم: لولا أن أُضْرِبَ بين [بني] سُلَيْمٍ و [بني] عامر لقتلتك، ولكن كل كتابك، فأكله.

وقيل: بل كان الكتاب مع سودة بن عبيد الله التَّمِيمِيَّ، وقيل: مع مُكَمَّلِ الغنوي. فقال له ابن خازم: إِنَّمَا بَعَثْتُ أَبَا الذَّبَّانَ لَأُنْكَرَ من غيٍّ وقد علم أَنِّي لَا أَقْتُلُ رَجُلًا من قيس، ولكن كل كتابك.

وكتب عبدُ الملك إلى بُكَيْرِ بن وَسَّاجٍ، وكان خليفة ابن خازم على مرو، بهداه على خُرَّاسَانَ، ووعدَهُ ومَنَاهُ، فخلع بُكَيْرُ عبدَ اللَّهِ بن الزَّيْبِرِ ودعا إلى عبد الملك، فأجابه أهلُ مرو، وبلغ ابن خازم فخاف أن يأتيه بُكَيْرُ فيجتمع عليه أهلُ مرو وأهلُ نِيسَابُور، فترك بحيراً وأقبل إلى مرو ويزيد ابنه بَئْرِيذَ، فاتبعه بِحِيرٌ فلحقه بقرية على ثمانية فراسخ من مرو، فقاتله ابن خازم، فقتل (٣٤٦/٤) ابنُ خازم؛ وكان الذي قتله وكيع بن عمرو القُرَيْشِيَّ، أعمره وكيع وبَحِيرٌ بن ورقاء وعمار بن عبد العزيز فطعنوه فصرعوه، وقعد وكيع على صدره فقتله. فقال بعضُ الولاة لوكيع: كيف قتلته؟ قال: غلبته

بفضل القنا، فلَمَّا صُرِّعَ قعدتُ على صدره، فلم يقدر [أن] يقوم، وقلت: يا لثاراتِ دويلة! وهو أخو وكيع لأمه، قُتل في بعض تلك الحروب. قال وكيع: فتتخَّم في وجهي وقال: لعنك اللَّهُ! أقتل كيش مُضَرَّ بأخيك وهو لا يساوي كَفًّا من نوى؟ أو قال: من تراب. قال: فما رأيتُ أكثرَ ريقاً منه على تلك الحال عند الموت.

وبعث بِحِيرٌ ساعة قُتل ابنُ خازم إلى عبد الملك يُخْبِرُهُ بقتله،

وقال ابن قيس الرُّقِيَّاتُ في هزيمة عبد العزيز وفراره عن امرأته: عبد العزيز فضحت جِيشَكَ كُلَّهُمْ وتركَهُمْ صُرْعِي بِكُلِّ سَبِيلٍ من بين ذِي عَطَشٍ يَجُودُ بِضَبِّهِ وملَحَّيْبِيْنَ الرِّجَالِ قَبِيلٍ فَلَا صَبْرَ مَعَ الشَّهِيدِ مُقَاتِلًا إِذْ رَحَّتْ مَتَكْتُ الْقُرَى بِأَصِيلٍ وتركْتَ جِيشَكَ لَا أَمِيرَ عَلَيْهِمْ فارَّجِعْ بِعَارِ فِي الْحَيَاةِ طَوِيلٍ وَنَسِيتَ عِرْمَكَ إِذْ تَهَادَسِيَّةً تَبْكِي الْعِزَّ بِرُتَّةٍ وَعَوِيلٍ

فكتب خالد إلى عبد الملك يُخْبِرُهُ بذلك، فكتب إليه عبد الملك: قد عرفتُ ذلك وسألتُ رسولَكَ عن المهلب فأخبرني أَنه عامل على الأهواز، ففتحَ اللَّهُ وأيكَ حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتُدْعُ المهلبَ يجيبي الخراج، وهو الميمون النقيبة، المقاسي للحرب، ابنها وابن أبنائها، أرسل إلى المهلب يستقبلهم، وقد بعثتُ إلى بشر بالكوفة ليمدكَ بجيش، فيزُف معهم ولا تعمل في عدوكَ برأي حتى يحضره المهلب، والسَّلام.

وكتب عبد الملك إلى بشر أخيه بالكوفة يأمره بإنفاذ خمسة آلاف مع رجل يرضاه لقتال الخوارج، فإذا قضوا غزوتهم ساروا إلى الري فقاتلوا عدوهم وكانوا مسلحة. فبعث بشر خمسة آلاف، وعليهم عبد الرحمن بن محمد بن (٣٤٤/٤) الأشعث، فكتب له عهداً على الري عند الفراغ من قتاله.

وخرج خالد بأهل البصرة حتى قدم الأهواز، وقدمها عبد الرحمن بن محمد في أهل الكوفة، وجاءت الأزارقة حتى دنوا من الأهواز، فقال المهلب لخالد: إِنِّي أَرَى هَاهُنَا سَفْناً كَثِيراً فَضْمَهَا إِلَيْكَ فَإِنَّهُمْ سِيحْرُقُونَهَا، فلم يمضِ إلا ساعة حتى أرسلوا إليها فأحرقوها.

وجعل خالدُ المهلبَ على ميمته، وعلى ميسرته داود بن قُحْذَمٍ من بني قيس بن ثعلبة، ومَرَّ المهلبُ على عبد الرحمن بن محمد ولم يخندق عليه، فقال: ما يمنعك من الخندق؟ فقال: هم أهون عليَّ من ضرورة الجمل. قال: لا يهودنوا عليك فإنهم سباع العرب.

ولم يبرح المهلبُ حتى خندق عبد الرحمن عليه، فأقاموا نحواً من عشرين ليلة، ثم زحف خالد إليهم بالناس، فأروا أمراً هالهم من كثرة الناس، فكثرت عليهم الخيل وزحفت إليهم، فانصرفوا كأنهم على حامية وهم مولون لا يرون طاقة بقتال جماعة الناس، فأرسل خالد داود بن قُحْذَمٍ في آثارهم، وانصرف خالد إلى البصرة، وسار عبد الرحمن إلى الري، وأقام المهلبُ بالأهواز، وكتب خالد إلى

قد هرب، فطلبوه فأدركوه فقتلوه ومن معه. فاغتم عبد الملك بن مروان لقتله وقال: قتلوا رجلاً مسلماً صالحاً بغير ذنب.

وعزل ابن الزبير الحارث واستعمل مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهري، فوجه جابر أبا بكر بن أبي قيس في ستمائة فارس وأربعين فارساً إلى خيبر، فوجدوا أبا القمقام ومن معه مقيمين بذلك يعسفون الناس فقاتلوهم، فانهزم (٣٤٩/٤) أصحاب أبي القمقام وأسر منهم ثلاثون رجلاً فقتلوا صبراً. وقيل: بل قُتل الخمسمائة أو أكثرهم.

وجه عبد الملك طارق بن عمرو مولى عثمان وأمره أن ينزل بين آيلة ووادي القرى ويمنع عمال ابن الزبير من الانتشار ويسد خلاً إن ظهر له. فوجه طارق إلى أبي بكر خيلاً، فاقتلوا، فأصيب أبو بكر في المعركة وأصيب من أصحابه أكثر من مائتي رجل.

وكان ابن الزبير قد كتب إلى القبايع أيام كان عامله على البصرة يأمره أن يرسل إليه ألفي فارس ليعينوا عامله على المدينة، فوجه إليه ألفي رجل، فلما قُتل أبو بكر أمر ابن الزبير جابر بن الأسود أن يسير جيش البصرة إلى قتال طارق، فسار البصريون عن المدينة، وبلغ طارقاً الخبر فسار نحوه، فالتقى، فقتل مقدم البصريين وقتل أصحابه قتلاً ذريعاً، وطلب طارق مدبرهم وأجهز على جريحهم ولم يستبق أسيرهم.

ورجع طارق إلى وادي القرى، وكان عامل ابن الزبير بالمدينة جابر بن الأسود، وعزل ابن الزبير جابراً واستعمل طلحة بن عبيد الله بن عوف، الذي يُعرف بطلحة السدي، سنة سبعين، فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق.

فلما قتل عبد الملك مصعباً وأتى الكوفة وجه منها الحجاج بن يوسف الثقفي في ألفين، وقيل: في ثلاثة آلاف، من أهل الشام لقتال عبد الله بن الزبير. وكان السبب في تسييره دون غيره أنه قال لعبد الملك: قد رأيت في المنام أنني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته، فأبعثني إليه وولني قتاله. فبعثه وكتب معه أماناً لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا، فسار في جمادى الأولى سنة اثنين وسبعين، ولم يمرض للمدينة، ونزل الطائف، وكان يبعث الخيل إلى عرفة وبعث ابن الزبير أيضاً فيقتلون بقرعة فتنهزم خيل ابن الزبير في كل ذلك وتعود خيل الحجاج بالظفر. (٣٥٠/٤)

ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفرق أصحابه ويستمدّه، فكتب عبد الملك إلى طارق يأمره باللاحاق بالحجاج، فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنين وسبعين، وأخرج عامل ابن الزبير عنها وجعل عليها رجلاً من أهل الشام اسمه ثعلبة، فكان ثعلبة يُخرج المخ وهو على منبر النبي، ثم يأكله ويأكل عليه التمر ليغيظ أهل المدينة،

ولم يبعث بالراس، وبعث بحير بكير بن وساج في أهل مرو فوافاهم حين قُتل ابن خازم فأراد أخذ الراس وإنفاذه إلى عبد الملك، فمنعه بحير، فضره بكير بعمود وحبسه وسير الراس إلى عبد الملك وكتب إليه يخبره أنه هو الذي قتله. فلما قدم الراس دعا عبد الملك برسول بحير وقال: ما هذا؟ قال: لا أدري، وما فارقته القوم حتى قُتل ابن خازم.

وقيل: إن ابن خازم إنما قُتل بعد قتل عبد الله بن الزبير، وإن عبد الملك أنفذ إليه رأس ابن الزبير ودعاه إلى نفسه، فغسل الراس وكفنه وبعثه إلى أهله بالمدينة وأطعم الرسول الكتاب، وقال: لولا أنك رسول لقتلتك. وقيل: بل قطع يديه ورجليه وقتله وحلف أن لا يطيع عبد الملك أبداً.

(بحير بفتح الباء الموحدة، وكسر الحاء المهملة). (٣٤٧/٤)

ذكر عدة حوادث

كان العامل على المدينة طارقاً لعبد الملك، وعلى الكوفة بشر بن مروان، وعلى قضائها عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وعلى البصرة خالد بن عبد الله، وعلى قضائها هشام بن هبيرة، وعلى خراسان، في قول بعضهم: بكير بن وساج، وفي قول بعضهم: عبد الله بن خازم.

وفي هذه السنة مات عبيدة السلماني، وهو من أصحاب علي.

(عبيدة بفتح العين، كسر الباء الموحدة). (٣٤٨/٤)

سنة ثلاث وسبعين

ذكر قتل عبد الله بن الزبير

لما بويع عبد الملك بالشام بعث إلى المدينة عروة بن أنيف في ستة آلاف من أهل الشام وأمره أن لا يدخل المدينة وأن يعسكر بالقرصة، وكان عامل عبد الله بن الزبير على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن متمر الجمحي، فهرب الحارث، وكان ابن أنيف يدخل ويصلي بالناس الجمعة ثم يعود إلى معسكره، فأقام شهراً ولم يبعث إليهم ابن الزبير أحداً.

وكتب إليه عبد الملك بالعود إليه، فعاد هو ومن معه، وكان يصلي بالناس بعده عبد الرحمن بن سعد القرظي، ثم عاد الحارث إلى المدينة، وبعث ابن الزبير سليمان بن خالد الرزقي الأنصاري، وكان رجلاً صالحاً عاملاً على خيبر وفدك، فنزل في عمله، فبعث عبد الملك عبد الواحد بن الحارث بن الحكم، وقيل: اسمه عبد الملك، وهو أصح، في أربعة آلاف، فسار حتى نزل وادي القرى وسير سرية عليها أبو القمقام في خمسمائة إلى سليمان، فوجدوه

ابن الزبير وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم لحمها في أصحابه، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم، والمذبة ذرة بعشرين دوهمًا، وإنَّ بيوت ابن الزبير لمملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده، وكان يحفظ ذلك ولا يتفق منه إلا ما يمسك الرمح، ويقول: أنفس أصحابي قوياً ما لم يفن.

فلما كان قبيل مقتله تفرق الناس عنه وخرجوا إلى الحجاج بالأمان، خرج من عنده نحو عشرة آلاف، وكان ممن فارقه ابنه حمزة وخبيب، أخذوا لأنفسهما أماناً، فقال عبد الله لابنه الزبير: خذ لنفسك أماناً كما فعل أخواك، فوالله إنني لأحب بقاءكم. فقال: ما كنت لأرغب بنفسي عنك. فصبر معه فقتل.

ولما تفرق أصحابه عنه خطب الحجاج الناس وقال: قد ترون قلة من مع ابن الزبير وما هم عليه من الجهد والضييق. ففرحوا واستبشروا فتقدموا فملأوا ما بين الحجون إلى الأبواء. فدخل على أمه فقال: يا أماه قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا السير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قُتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبته يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلك نفسك ومَنْ قُتل معك، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس بفعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك في الدنيا! القتل أحسن! فقال: يا أماه أخاف إن قتلني (٣٥٣/٤) أهل الشام أن يمشلوا بي ويصلبوني. قالت: يا بني إن الشاة [إذا ذُبحت] لا تتألم بالسُلخ، فامض على بصيرتك واستعِز بالله.

فقبل رأسها وقال: هذا رأيي والذي قمتُ به داعياً إلى يومي هذا ما ركنتُ إلى الدنيا ولا أحببتُ الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله وإن تُسحل حُرُماته، ولكني أحببتُ أن أعلم رأيك، فقد زدني بصيرة، فانظري يا أماه فإنني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزركُ وسلمي الأمر إلى الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عملاً بفاحشة، ولم يُجز في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد، ولم يبلغي ظلم عن عمالي فرضيتُ به بل أنكرته، ولم يكن شيء أشر عندي من رضا ربي، اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني!

فقالت أمه: [إنني] لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً، إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سرورتُ بظفرك، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. فقال: جزاك الله خيراً، فلا تدعي الدعاء لي. قالت: لا ادعه لك أبداً، فمن قُتل على باطل فقد قُلت على حق.

وكان مع ذلك شديداً على أهل الزبير، وقدم طارق على الحجاج بمكة في سلخ ذي الحجة في خمسة آلاف.

وأما الحجاج فإنه قدم مكة في ذي القعدة وقد أحرم بحجة، فنزل بثر ميمون، وحج بالناس تلك السنة الحجاج، إلا أنه لم يطف بالكعبة ولا سعى بين الصفا والمروة، منعه ابن الزبير من ذلك، فكان يلبس السلاح ولا يقرب النساء ولا الطيب إلى أن قُتل ابن الزبير، ولم يحج ابن الزبير ولا أصحابه لأنهم لم يقفوا بعرفة ولم يرموا الجمار، ونحر ابن الزبير يده بمكة.

ولما حصر الحجاج ابن الزبير نصب المنجنيق على أبي قبيس ورمى به الكعبة، وكان عبد الملك ينكر ذلك أيام يزيد بن معاوية ثم أمر به، فكان الناس يقولون: خلل في دينه.

وحج ابن عمر تلك السنة فأرسل إلى الحجاج: أن اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فإنك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً، وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف، فاكفف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة. فطبل الرمي حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا، ولم يمنع ابن الزبير الحاج من الطواف والسعي، فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادي الحجاج: انصرفوا (٣٥١/٤) إلى بلادكم فإننا نعود بالحجارة على ابن الزبير المملحد.

وأول ما رمي بالمنجنيق إلى الكعبة رعدت السماء وبرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة، فاعظم ذلك أهل الشام وأمسكوا أيديهم، فأخذ الحجاج حجر المنجنيق بيده فوضعه فيه ورمى به معهم، فلما أصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً، فانكسر أهل الشام، فقال الحجاج: يا أهل الشام لا تنكروا هذا، فإنني ابن نهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قد حضر فابشروا. فلما كان الغد جاءت الصاعقة فاصابت من أصحاب ابن الزبير عدَّة، فقال الحجاج: ألا ترون أنهم يُصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلافتها؟ وكان الحجر يقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلي فلا ينصرف، وكان أهل الشام يقولون:

يا ابن الزبير طالما عصيكا وطالما عتيتك إيكما
لنجرتن بالذي أتيكما

يعنون: عصيت وأتيت.

وقدم عليه قوم من الأعراب فقالوا: قدما للقتال معك، فنظر فإذا مع كل امرئ منهم سيف كأنه شفرة وقد خرج من غمده، فقال: يا معشر الأعراب لا قريبكم الله! فوالله إن سلاحكم ليرث، وإن حديثكم لغث؛ وإنكم لقتال في الجذب، أعداء في الخصب. فتفرقوا ولم يزل القتال بينهم دائماً، فقتل (٣٥٢/٤) الأسعار عند

ثم قالت: اللهم ارحم طول ذاك القيام في الليل الطويل وذلك النحب والظما في هواجر مكة والمدينة وبره بآبيه وبني! اللهم قد سلمته لامرك فيه ورضيت بما قضيت فأثني فيه ثواب الصابرين

الشاكرين! (٣٥٤/٤)

إنما الذي قرزت يوم الخسرة والخسر لا يفسر إلا مرة واليوم اجزي فترة بكرة

وقاتل حتى قُتل، وقيل: إنه أصابته جراح فمات منها بعد أيام.

وقال ابن الزبير لأصحابه وأهله يوم قُتل بعد صلاة الصبح: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم، وعليهم المغافر. ففعلوا. فقال: يا آل الزبير لو (٣٥٦/٤) طُيتم بي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا في الله، فلا يرعكم وقع السيوف، فإن ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، غصوا بأصابعكم من البارقة وليسغل كل امرئ قرنيه ولا تسألوا عني، فمن كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول، احملوا على بركة الله. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرمى بأجرة، رماه رجل من الشكون، فأصابته في وجهه فأرعنش لها ودمي وجهه، فلما وجد الدم على وجهه قال:

فلنسا على الأعقاب تدمي كلؤنا ولكن على أقدامنا تقطر النسا
وقاتلهم قتلاً شديداً، فتعاوروا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة، وتولى قتله رجل من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج فسجد ووقد السكوني والمرادي إلى عبد الملك بالخبر، فأعطى كل واحد منهما خمسمائة دينار.

وسار الحجاج وطارق حتى وقفا عليه، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا. فقال الحجاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟ قال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، إنما محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا بل يفضل علينا. فبلغ كلامهما عبد الملك فصوب طارقاً.

ولما قُتل ابن الزبير كبر أهل الشام فرحاً بقتله، فقال ابن عمر: انظروا (٣٥٧/٤) إلى هؤلاء ولقد كبر المسلمون فرحاً بولادته وهؤلاء يكبرون [فرحاً] بقتله.

وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة ثم ذهب بها إلى عبد الملك بن مروان وأخذ جثته فصلبها على النخلة اليمنى بالحجون. فأرسلت إليه أسماء: تاتلك الله! على ماذا صلبته؟ قال: استبقت أنا وهو إلى هذه الخشبة وكانت له. فاستأذنته في تكفينه ودفنه، فأبى ووكل بالخشبة من يحرسها، وكتب إلى عبد الملك يخبره بصلبه، فكتب إليه يلومه ويقول: ألا خليت بينه وبين أمه فأذن لها الحجاج فدفتته بالحجون، فمر به عبد الله بن عمر فقال: السلام عليك يا أبا حبيب! أما والله لقد كنت أنهارك عن هذا ولقد كنت صواماً قواماً وصولاً للرحم، أما والله إن قوماً أنت شرهم لنعم القوم.

فتناول يديهما ليقبلهما فقالت: هذا وداع فلا تبعد. فقال لها: جئت مودعاً لأنني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا. قالت: امض على بصيرتك وادن مني حتى أودعك. فدن منها فعاتقها وقبلها، فوقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد. فقال: ما ليسته إلا لأشد منك. قالت: فإنه لا يشد مني، فزعهما ثم درج كعبه وشد أسفل قميصه وجبه خز تحت أثناء السراويل وأدخل أسفلها تحت المنطقة وأمه تقول له: أليس ثيابك مشمرة. فخرج وهو يقول:

إنسي إذا عرفت يومي أصبر وإنما يعرف يومه الخسر
إذ بعضهم يعرف ثم يكر

فسمعت فقالت: تصبر إن شاء الله، أبواك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب. فحمل على أهل الشام حملة منكراً فقتل منهم ثم انكشف هو وأصحابه، وقال له بعض أصحابه: لو لحقت بموضع كذا. قال: ينس الشيخ أنا إذا في الإسلام لئن أوقعت قوماً فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم. ودنا أهل الشام حتى امتلأت منهم الأبواب، وكانوا يصيحون به: يا ابن ذات النطاقين، فيقول:

وتلك شكاة ظاهراً عنك علماً

وجعل أهل الشام على أبواب المسجد رجلاً من أهل كل بلد، فكان لأهل (٣٥٥/٤) حصن الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبه، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جحج، ولأهل قنشرين باب بني تميم، وكان الحجاج وطارق من ناحية الأبطح إلى المروة، فمرة يحمل ابن الزبير في هذه الناحية ومرة في هذه الناحية، فكانه أسد في أجمة ما يقدم عليه الرجال يعدو في أثر القوم حتى يخرجهم، ثم يصيح: أيا صفوان! ويل أمه فتحاً لو كان له رجال أو كان قرني واحداً كفيته! فيقول أبو صفوان عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف: إي والله واللف.

فلما رأى الحجاج أن الناس لا يقدمون على ابن الزبير غضب وترجل وأقبل يسوق الناس ويصمد بهم صمد صاحب علم ابن الزبير وهو بين يديه. فتقدم ابن الزبير على صاحب علمه وضاربهم وانكشفوا، وعرج وصلى ركعتين عند المقام، فحملوا على صاحب علمه فقتلوه عند باب بني شيبه وصار العلم بأيدي أصحاب الحجاج. فلما فرغ من صلاته تقدم فقاتل بغير علم فضرب رجلاً من أهل الشام وقال: خلدنا وأنا ابن الحواري! وضرب آخر، وكان

كما يفعل بأهل الذمة، منهم جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وسهل بن سعد، ثم عاد إلى مكة، فقال حين خرج منها: الحمد لله الذي أخرجني من أمّ تن، أهلها أحبت بلد وأغشّه لأمر المؤمنين وأحسد لهم على نعمة الله، والله لو ما كانت تأتيني كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحمار أعوداً يعودون بها ورمّة قد بليت، يقولون منبر رسول الله، ﷺ، وقبر رسول الله، ﷺ. فبلغ جابر بن عبد الله قوله فقال: إنّ وراءه ما يسوءه، قد قال فرعون ما قال ثمّ أخذه الله بعد أن أنظره.

وقيل: إنّ ولاية الحجاج المدينة وما فعله بأصحاب رسول الله، ﷺ، كان سنة أربع وسبعين في صفر.

(خبيب بن عبد الله بن الزبير بضم الخاء المعجمة، وبائين موحدتين بينهما ياء مثناة من تحت، وكان عبد الله يكنى به وبأبي بكر أيضاً).

ذكر عمر ابن الزبير وسيرته

كان له من العمر حين قُتل اثنتان وسبعون سنة، وكانت خلافته تسع سنين، لأنّه بويع له سنة أربع وستين، وكانت له جمّة مفروقة طويلة.

قال يحيى بن وثاب: كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تظنه حائفاً لسكونه وطول سجوده. وقال غيره: قسّم عبد الله الدهر ثلاث (٣٦٠/٤) حالات: قليلة قائم حتى الصباح، وليلة راكع حتى الصباح، وليلة ساجد حتى الصباح.

وقيل: أول ما علّم من همّة ابن الزبير أنّه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان وهو صبيّ فمرّ به رجل فصاح عليهم ففروا، ومشى ابن الزبير القهقري وقال: يا صبيان اجعلوني أميركم وشدّوا بنا عليه، ففعلوا. ومرّ به عمر بن الخطاب وهو يلعب ففرّ الصبيان ووقف هو، فقال له عمر: ما لك لم تفرّ معهم؟ فقال: لم أجزم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك.

وقال قطن بن عبد الله: كان ابن الزبير يواصل من الجمعة إلى الجمعة. قال خالد بن أبي عمران: كان ابن الزبير يفطر في الشهر ثلاثة أيام، ومكث أربعين سنة لم ينزع ثيابه عن ظهره.

وقال مجاهد: لم يكن باب من أبواب العبادة يعجز عنه الناس إلاّ تكلفه ابن الزبير، ولقد جاء سيل طيّب البيت فجعل ابن الزبير يطوف سباحة. قال هشام بن عروة: كان أول ما أفصح به عمّي عبد الله بن الزبير وهو صغير السيف، فكان لا يضعه من يده، فكان الزبير يقول: والله ليكوننّ لك منه يوم وآيام. قال ابن سيرين: قال ابن الزبير: ما شيء كان يحدثنا به كعب إلاّ وقد جاء على ما قال إلاّ قوله: فتى ثقيف يقتلني وهذا رأسه بين يدي، يعني المختار، قال

وكان ابن الزبير قبل قتله بقي أياماً يستعمل الصبر والمسك نللاً يتسن، فلما صلب ظهرت منه رائحة المسك، فقيل: إنّ الحجاج صلب معه كلباً ميتاً فغلب على ريح المسك، وقيل: بل صلب معه ميتاً.

ولما قُتل عبد الله ركب أخوه عروة ناقةً لم يزل مثلها فصار إلى عبد الملك فقدم الشام قبل وصول رسل الحجاج يقتل عبد الله، فأتى باب عبد الملك فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل سلّم عليه بالخلافة، فردّ عليه عبد الملك ورخّب به وعانقه وأجلسه على السرير، فقال عروة:

مُتْ بِالرَّحَامِ إِلَيْكَ قَرِيبَةً وَلَا تُقَرِّبْ لِلرَّحَامِ مَا لَمْ تُقَرِّبْ

ثمّ تحدّثا حتى جرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إنّ كان، فقال عبد الملك (٣٥٨/٤): وما فعل؟ قال: قُتل، فخرّ ساجداً، فقال عروة: إنّ الحجاج صلبه فهبّ جثته لأمّه. قال: نعم، وكبّ إلى الحجاج يعظّم صلبه. وكان الحجاج لما فقد عروة كتب إلى عبد الملك يقول له: إنّ عروة كان مع أخيه، فلما قُتل عبد الله أخذ مالاّ من مال الله فهرب. فكتب إليه عبد الملك: إنّ لم يهرب ولكنته أتانى مبابياً وقد أمّته وحلّته ممّا كان، وهو قادم عليك فإياك وعروة. وعاد عروة إلى مكة، وكانت غيبته عنها ثلاثين يوماً.

فأنزل الحجاج جثة عبد الله عن الخشبة وبعث به إلى أمّه، ففسلته، فلما أصابه الماء تقطّع، ففسلته عضواً عضواً فاستمسك، وصلى عليه عروة، فدفتته.

وقيل: إن عروة لما كان غائبا عند عبد الملك كتب إليه الحجاج وعأوده في إنفاذ عروة إليه، فهمّ عبد الملك بإنفاذه، فقال عروة: ليس الدليل من قتلتموه ولكنّ الدليل من ملكتموه، وليس بملوم من صبر فمات، ولكنّ الملوّم من فرّ من الموت. فسمع مثل هذا الكلام فقال عبد الملك: يا أبا عبد الله لن نسمع منّا شيئا نكرهه.

وإنّ عبد الله لم يصلّ عليه أحد، منع الحجاج من الصلاة عليه، وقال: إنّما أمر أمير المؤمنين بدفنه، وقيل: صلى عليه غير عروة، والذي ذكره مسلم في صحيحه: إنّ عبد الله بن الزبير ألقى في مقابر اليهود، وعاشت أمّه بعده قليلاً وماتت، كانت قد أضرت، وهي أمّ عروة أيضاً.

فلما فرغ الحجاج من أمر ابن الزبير دخل مكة فبايعه أهلها لعبد الملك ابن مروان، وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم، وسار إلى المدينة، وكان عبد الملك قد استعمله على مكة والمدينة، فلما قدم المدينة أقام بها شهراً (٣٥٩/٤) أو شهرين فأساء إلى أهلها واستخفّ بهم وقال: أنتم قتلة أمير المؤمنين عثمان، وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم

ابن سيرين: ولا يشعر ابن الزبير أن الحجاج قد خيَّب له.

وقال عبد العزيز بن أبي جميلة الأنصاري: إن ابن عمر مرَّ بابن الزبير وهو مصلوب بعد قتله فقال: رحمك الله أبا خبيب! إنك كنت لصوَّاماً قوَّاماً، ولقد أفلحت قريش إن كنت شرَّها.

وكان الحجاج قد صلبه ثم القاه في مقابر اليهود وأرسل إلى أمه يستحضرها، (٣٦١/٤) فلم تحضر، فأرسل إليها: لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك، فلم تأت، فقام إليها. فلما حضر قال لها: كيف رأيتني صنعت بعد الله؟ قالت: رأيتك أفسدت على ابني دنياه وأفسد عليك آخرتك، فإن رسول الله ﷺ، حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فقد رأيناه، تعني المختار، وأما المبير فانت هو. وهذا حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه.

وقال ابن الزبير لعبد الله بن جعفر: أتذكر يوم لقينا رسول الله ﷺ، أنا وأنت فأخذ ابني فاطمة؟ فقال: نعم فحملنا وتركك، ولو علم أنه يقول له هذا ما ساله.

ذكر ولاية محمد بن مروان الجزيرة وأرمينية

وفي هذه السنة استعمل عبد الملك أخاه محمداً على الجزيرة وأرمينية فغزا منها وأثنى [في] العدو، وكانت بخيرة الطريق التي بأرمينية مباحة لم يعرض لها أحد بل يأخذ منها من شاء، فمنع من صيدها وجعل عليها من يأخذ ويبيعه ويأخذ ثمنه، ثم صارت بعده لابنه مروان، ثم أخذت منه لما انتقلت الدولة عنهم، وهي إلى الآن على هذه الحال من الحجر، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن يقص من أوزارهم شيء.

وهذا الطريق من عجائب الدنيا لأن سمكه صغير له كل سنة موسم يخرج من هذه البحيرة في نهر يصب إليها كثيراً يؤخذ بالأيدي والآلات المصنوعة له، فإذا انقضى موسمه لا يوجد منه شيء. (٣٦٢/٤)

ذكر قتل أبي فديك الخارجي

قد ذكرنا سنة اثنتين وسبعين قتل نجدة بن عامر الخارجي وطاعة أصحابه أبا فديك، وثبت قدم أبي فديك إلى الآن، فأمر عبد الملك بن مروان عمر بن عبيد الله بن معمر أن يندب الناس من أهل الكوفة والبصرة ويسير إلى قتاله، فندبهم واتدب معه عشرة آلاف، فأخرج لهم أرزاقهم، ثم سار بهم، وجعل أهل الكوفة على اليمينة وعليهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، وأهل البصرة على الميسرة وعليهم عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر، وهو ابن أخي عمر، وجعل خيله في القلب، وساروا حتى انتهوا إلى البحرين فالتقوا واصطفوا للقتال، فحمل أبو فديك وأصحابه

حملة رجل واحد فكشفوا ميسرة عمر حتى أبعدوا إلا المغيرة بن المهلب ومجاعة بن عبد الرحمن وفرسان الناس، فإنهم مالوا إلى صف أهل الكوفة باليمينة، وجرح عمر بن موسى.

فلما رأى أهل الميسرة أهل اليمينة لم ينهزموا رجعوا وقتلوا وما عليهم أمير لأن أميرهم عمر بن موسى كان جريحاً، فحملوه معهم، واشتد قتالهم حتى دخلوا عسكر الخوارج، وحمل أهل الكوفة من اليمينة ومن معهم من أهل الميسرة حتى استباحوا عسكرهم وقتلوا أبا فديك وحصلوا أصحابه بالمشقر فنزلوا على الحكم، فقتل منهم نحو ستة آلاف وأسر ثمانمائة، ووجدوا جارية عبد الله بن أمية حبلى من أبي فديك، وعادوا إلى البصرة. (٣٦٣/٤)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة وولاه أخاه بشراً، في قول بعضهم، فاجتمع له المصران الكوفة والبصرة، فسار بشر إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث. وفيها غزا محمد بن مروان الروم صاففة فهزمهم. وفيها كانت وقعة عثمان بن الوليد بالروم من ناحية أرمينية في أربعة آلاف والروم في ستين ألفاً، فهزمهم وأكثر القتل فيهم.

وحج بالناس هذه السنة الحجاج، وكان على مكة واليمن واليمامة. وكان على الكوفة والبصرة في قول بعضهم بشر بن مروان، وقيل: كان على الكوفة بشر، وعلى البصرة خالد بن عبد الله، وعلى قضاء الكوفة شريح بن الحارث، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة، وعلى خراسان بكير بن وساج.

وفي هذه السنة مات عبد الله بن عمر بمكة ودُفن بذي طوى، وقيل بفتح، وكان سبب موته أن الحجاج أمر بعض أصحابه فضرب ظهر قدمه برمح مسموم فمات منها، وعاده الحجاج في مرضه، فقال: من فعل بك هذا؟ قال: أنت لأنك أمرت بحمل السلاح في بلد لا يحل جملة فيه. وكان موته بعد ابن الزبير بثلاثة أشهر، وقيل غير ذلك، وكان عمره سبعاً وثمانين سنة.

وفيها مات سلمة بن الأكوع. وأبو سعيد الخدري. ورافع بن خديج. ومالك بن يسع أبو غسان البكري، وقيل: مات سنة أربع وستين، وولد على عهد رسول الله ﷺ.

وتوفي سلم بن زياد بن أبيه قبل بشر بن مروان. وأسماء بنت أبي بكر بعد ابنها بقليل، وكانت قد عمت، (٣٦٤/٤) وكانت مطلقة من الزبير، قيل: إن ابنها عبد الله قال له: مثلي لا نوطاً أمه، فطلقها.

وفيها مات عوف بن مالك الأشجعي، وكان أول مشاهده

خير. ومعاوية بن خُذَيْج قبل ابن عمر يسير.

وفيهما مات معبد بن خالد الجُهَنِيُّ وهو ابن ثمانين سنة، وله صُحْبَةٌ.

وفيهما قُتِلَ عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله مع ابن الزبير، وهو ابن أخِي طلحة بن عبيد الله، وله صُحْبَةٌ.

(رافع بن خُذَيْج يفتح الخاء المعجمة، وكسر الدال المهملة. ومعاوية بن خُذَيْج بضم الحاء، وفتح الدال المهملتين، وآخره جيم.) (٣٦٥/٤)

سنة أربع وسبعين

في هذه السنة عزل عبد الملك طارقاً عن المدينة واستعمل عليها الحجاج، فأقام بها شهراً وفعل بالصحابية ما تقدّم ذكره، وخرج عنها معتمراً.

وفيهما هدم الحجاج بناء الكعبة الذي كان ابن الزبير بنائه وأعادها إلى البناء الأوّل وأخرج الحجر منها، وكان عبد الملك يقول: كذب ابن الزبير على عائشة في أنّ الحجر من البيت، فلمّا قيل له: قال غير ابن الزبير إنّها روت ذلك عن رسول الله، ﷺ، قال: وددت أنّي تركته وما يحمل.

وفيهما استقضى عبد الملك أبا إدريس الخولاني.

ذكر ولاية المهلب حرب الأزارقة

لما استعمل عبد الملك أخاه بشراً على البصرة سار إليها، فأثابه كتاب عبد الملك يأمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة في أهل البصرة ووجوهم، وكان يتخب منهم من أراد أن يتركه وراءه في الحرب، وأمره أن يبعث من أهل الكوفة رجلاً شريفاً معروفاً باللباس والنجدة والتجربة في جيش كثيف إلى المهلب، وأمرهم أن يتبعوا الخوارج أين كانوا حتى يهلكوهم.

فأرسل المهلب جُذَيْج بن سعيد بن قبيصة، وأمّرة أن يتخب الناس من (٣٦٦/٤) الديوان، وشقّ على بشر أن إمرة المهلب جاءت من [قيل] عبد الملك فأوغرت صدره عليه حتى كأنه أذنب إليه، فدعا عبد الرحمن بن ميخنف فقال له: قد عرفت منزلتك عندي، وقد رأيت أنّ أولئك هذا الجيش الذي أسبّره من الكوفة للذي عرفته منك، فكُنْ عند أحسن ظني بك وانظر إلى هذا الكذا كذا، يقع في المهلب، فاستبدّ عليه بالأمر ولا تقبلنّ له مشورة ولا رأياً وتنقصه.

قال عبد الرحمن: فترك أن يوصيني بالجيش وقتال العدو والنظر لأهل الإسلام وأقبل يغريني بأبن عمي كاتبي من السفهاء، ما

رأيت شخصاً مثلي طمع منه في مثل هذا، قال: فلمّا رأى أنّي لست بنشيط إلى جوابه قال لي: ما لك؟ قلت: أصلحك الله، وهل يسعني إلاّ إنفاذ أمرك فيما أحببت وكرهت!

وسار المهلب حتى نزل رَاهِزْمُزْ فلقى بها الخوارج فخذق عليه، وأقبل عبد الرحمن في أهل الكوفة ومعه بشر بن جبرير ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس وإسحاق بن محمد بن الأشعث وزحر بن قيس، فسار حتى نزل على ميل من المهلب حيث يترامى العسكران برامهرمز، فلم يلبث العسكر إلاّ عسراً حتى أتاهاهم نعي بشر بن مروان، توفي بالبصرة، ففترق ناسٌ كثير من أهل البصرة وأهل الكوفة، واستخلف بشر على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حُرَيْث.

وكان الذين انصرفوا من أهل الكوفة زحر بن قيس وإسحاق بن محمد بن الأشعث ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد فاتوا الأهواز، فاجتمع بها ناسٌ كثير، فبلغ ذلك خالد بن عبد الله، فكتب إليهم يأمرهم بالرجوع إلى المهلب ويهدّدهم إن لم يفعلوا بالضرب والقتل، ويحدّثهم عقوبة عبد الملك، فلمّا قرأ الرسول من الكتاب عليهم سطرّاً أو سطرين قال زحر: أوجز، فلمّا فرغ من قراءته (٣٦٧/٤) لم يلبث الناس إليه، وأقبل زحر ومن معه حتى نزلوا إلى جانب الكوفة وأرسلوا إلى عمرو بن حُرَيْث: إنّ النفر لما بلغهم وفاة الأمير تفرقوا فأقبلنا إلى مصرنا وأحببنا أن لا ندخل إلاّ بإذن الأمير. فكتب إليهم يَنكِر عليهم عودهم ويأمرهم بالرجوع إلى المهلب، ولم يأذن لهم في دخول الكوفة، فانتظروا الليل ثم دخلوا إلى بيوتهم فأقاموا حتى قدم الحجاج أميراً.

ذكر عزل بُكَيْر عن خراسان وولاية أميّة بن عبد الله بن خالد في هذه السنة عزل عبد الملك بُكَيْرَ بن وَسَّاج عن خراسان وولّاهَا أميّة ابن عبد الله بن خالد بن أسيد، وكانت ولاية بُكَيْر ستين.

وكان سبب عزله أنّ تميمًا اختلفت بها فصارت مُقَاعَسَ والبطون يتعصبون لبحير، ويطلبون بُكَيْراً، وصارت أوف والأبناء يتعصبون لبُكَيْر، وكلّ هذه بطون من بني تميم، فخاف أهل خراسان أن تعود الحرب وتفيد البلاد ويقهرهم المشركون، فكتبوا إلى عبد الملك بذلك وأنها لا تصلح إلاّ على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصبون عليه، فاستشار عبد الملك فيمن يوليه، فقال أميّة: يا أمير المؤمنين تداركهم برجل منك. قال: لولا انهزامك عن أبي فذّيك كنت لها. قال: يا أمير المؤمنين، والله ما انهزمت حتى خذلني الناس ولم أجد مقاتلاً، طرأت انا انخازي إلى فئة أفضل من تعريضي عصابة بقيت من المسلمين للهلكة، وقد كتب إليك خالد بن عبد الله بعذري، وقد علم الناس ذلك. قوله خراسان.

وكان عبد الملك يحبه، فقال الناس: ما رأينا أحداً عُوض من هزيمة ما عُوض أمية. (٣٦٨/٤)

فلما سمع بُكير بمسيره أرسل إلى بحير، وهو في حبسه، وقد تقدّم ذكر ذلك في مقتل ابن خازم، يطلب منه الصلح، فامتنع بحير وقال: ظنُّ بُكير أن خراسان تبقى له في الجماعة. ومشتت السفراء بينهم، فأبى ذلك بحير، فدخل عليه ضرار بن حُصَيْن الضبيّ فقال: أراك أحمق! يرسل إليك ابنُ عمك يعتذر إليك وأنت أسيره

والسيف بيده ولو قتلتك ما حبقت فلا تقبل منه! أقبل الصلح واخرج وأنت على رأس أمرك. فقبل منه وصالح بُكيراً، فأرسل إليه بُكير بأربعين ألفاً وأخذ عليه ألا يقتله، وخرج بحير فأقام يسأل عن مسير أمية، فلما بلغه أنه قد قارب نيسابور سار إليه ولقيه بها فآخبره عن خراسان وما يحسن به طاعة أهلها ورفع على بُكير أموالاً أخذها وحذّره وسار معه حتى قدم مرو، وكان أمية كريماً، ولا يعرض لبُكير ولا لعماله، وعرض عليه شرطته فأبى، فولاها بحير بن وراق، فلام بُكيراً رجلاً من قومه، فقال: كنت بالأمس أميراً تحمل الحروب بين يدي فأصير اليوم أحمل الحرية!

ثم خيّر أمية بُكيراً أن يوليه ما شاء من خراسان، فاختار طخرستان، قال: فتجهّز لها، فاتفق مالاً كثيراً. فقال بحير لأمية: إن أتى طخرستان خلعتك، وحذّره فلم يولّه.

(أسيد بفتح الهمزة، وكسر السين. ويحير بفتح الباء الموحدة، وكسر الحاء).

ذكر ولاية عبد الله بن أمية سجستان

لما وصل أمية بن عبد الله إلى كرمان استعمل ابنه عبد الله على سجستان، فلما قدمها غزا رتبيل الذي ملك بعد المقتول الأول، وكان رتبيل هائباً للمسلمين، (٣٦٩/٤) فلما وصل عبد الله إلى بُست أرسل رتبيل يطلب الصلح وبذل ألف ألف، وبعث إليه بهدايا ورقيق، فأبى عبد الله قبول ذلك وقال: إن ملا لي هذا الرواق ذهباً وإلا فلا صلح، وكان غراً، فخلّى له رتبيل البنلاد حتى أوغل فيها وأخذ عليه الشباب والمضايق، وطلب أن يخلّي عنه وعن المسلمين ولا يأخذ منه شيئاً، فأبى رتبيل وقال: بل يأخذ ثلاثمائة ألف درهم صلحاً ويكتب لنا به كتاباً ولا يغزو بلادنا ما كنتُ أميراً ولا يحرق ولا يخرب. ففعل، وبلغ ذلك عبد الملك فمزله.

ذكر ولاية حسان بن النعمان الإفريقية

قد ذكرنا ولاية زهير بن قيس سنة اثنتين وستين، وكان قتله سنة تسع وستين، فلما علم عبد الملك قتله عظم عليه وعلى المسلمين وأهمه ذلك، وشغله عن إفريقية ما كان بينه وبين ابن الزبير، فلما

فلما ورد القيروان تجهّز منها وسار إلى قرطاجنة، وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية، ولم يكن المسلمون قط حاربوها، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يُخصى كثرة، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً، فلما راوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب، فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس، ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلاً ذريعاً وأرسل الجيوش فيما حولها، فأسرعوا إليه خوفاً، فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه. (٣٧٠/٤)

ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في صطّورة وبُزرت، وهما مدينتان، فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة، فصبر لهم المسلمون، فانهزمت الروم وكثّر القتل فيهم واستولوا على بلادهم، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلا وطنه، وخافه أهل إفريقية خوفاً شديداً، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة باجة فتحصّنوا بها، وتحصّن البربر بمدينة بونة، فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحوا.

ذكر تغريب إفريقية

لما صلح الناس قال حسان: دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقية، فدّلّه على امرأة تملك البربر تُعرف بالكاهنة، وكانت تُخبرهم بأشياء من الغيب، ولهذا سُميت الكاهنة، وكانت بربرية، وهي بجبل أوراس، وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كُتَيْلَة، فسأل أهل إفريقية عنها فعظّموا محلّها وقالوا له: إن قتلناها لم تختلف البربر بعدها عليك. فسار إليها، فلما قاربها هدمت حصن باغاية ظناً منها أنه يريد الحصون، فلم يعرج حسان على ذلك وسار إليها، فالتقوا على نهر نيني واقتتلوا أشد قتال رآه الناس، فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير، وانهزم حسان وأسر جماعة كثيرة أطلقتهم الكاهنة سوى خالد بن يزيد القيسي، وكان شريفاً شجاعاً، فاتخذته ولداً.

وسار حسان حتى فارق إفريقية وأقام وكتب إلى عبد الملك يُعلمه الحال، فأمره عبد الملك بالمقام إلى أن يأتيه أمره. فأقام بعمل برقة خمس سنين، فسُي ذلك المكان قصور حسان إلى الآن، وملكت الكاهنة إفريقية كلّها وأساعت (٣٧١/٤) السيرة في أهلها وعسفتمهم وظلمتهم.

ثم سار إليه عبد الملك الجنود والأموال وأمره بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة، فأرسل حسان رسولاً سراً إلى خالد بن يزيد، وهو عند الكاهنة، بكتاب يستعلم منه الأمور، فكتب إليه خالد

وقيل: إنه لما قُتل الكاهنة عاد من فوره إلى عبد الملك واستخلف على إفريقية رجلاً اسمه أبو صالح، إليه يُنسب فُحص صالح. (٣٧٣/٤)

ذكر عدة حوادث

حجّ بالناس هذه السنة الحجاج بن يوسف، وكان على قضاء المدينة عبد الله بن قيس بن مخرمة، وعلى قضاء البصرة هشام بن مغيرة، وعلى قضاء البصرة هشام بن مغيرة.

وقيل: إن عبد الملك اعتمر هذه السنة، ولا يصح.

* وفيها غزا محمد بن مروان الروم صائفة فبلغ أندولية.

وفيها مات جابر بن سُمرة السوائي في إمارة بشر بن مروان بالكوفة، وفي إمارته أيضاً مات أبو جُحيفة بالكوفة.

وفيها مات عمرو بن ميمون الأودي، وقيل: سنة خمس وسبعين، وكان قد أدرك الجاهلية، وهو من المعمرين.

وفيها مات عبد الله بن عُتبة بن مسعود، وكان من عمال عمر، وقيل: مات سنة ثلاث وسبعين.

وفيها مات عبد الرحمن بن عثمان التيمي، وله صُحبة.

وفيها مات محمد بن حاطب بن الحارث الجُمحي، وكان مولده بآرض الحبشة، وأُتي به النبي، ﷺ.

وفيها مات أبو سعيد ابن معلى الأنصاري.

وفيها مات أوس بن ضمعج الكوفي.

(ضمعج بالضاد المعجمة والجيم). (٣٧٤/٤)

سنة خمس وسبعين

في هذه السنة غزا محمد بن مروان الصائفة حين خرجت الروم من قبل مُرْعَش.

ذكر ولاية الحجاج بن يوسف العراق

في هذه السنة ولّى عبد الملك الحجاج بن يوسف العراق دون خُراسان وميجستان، فأرسل إليه عبد الملك بعده على العراق وهو بالمدينة وأمره بالمسير إلى العراق، فسار في اثني عشر راكباً على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة، وقد كان بشر بعث المهلب إلى الخوارج، فبدأ الحجاج بالمسجد فصعد المنبر وهو مثلب بعمامة خز حمراء فقال: عليّ بالناس، فحسبوه وأصحابه خارجيّة، فهموا به وهو جالس على المنبر ينتظر اجتماعهم، فاجتمع الناس وهو ساكت قد أطال السكوت، فتناول محمد بن عُمر حصباء وأراد [أن] يحصبه بها وقال: قاتله الله ما أغياه وأذمه! والله إنّي لأحسب خبره كزوائه. فلما تكلم الحجاج جعلت الحصباء

جوابه في رقعة يعرفه تفرّق البربر وأمره بالسريعة، وجعل الرقعة في خُبْزَة، وعاد الرسول، فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول: ذهب ملكهم فيما يأكل الناس. فطلب الرسول فلم يوجد، فوصل إلى حسان وقد احترق الكتاب بالنار، فعاد إلى خالد وكتب إليه بما كتب أولاً وأودعه قُربوس السرج.

فسار حسان، فلما علمت الكاهنة بمسيره إليها قالت: إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي، ولا أرى إلّا [أن] أخرب إفريقية حتى يأسوا منها. وفرت أصحابها ليخربوا البلاد، فخرّبوها وهدموا الحصون ونهبوا الأموال، وهذا هو الخراب الأول لإفريقية.

فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون إليه منها، فسره ذلك وسار إلى قابس، فلقه أهلها بالأموال والطاعة، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء، وجعل فيها عاملاً، وسار إلى قُصّة ليتقرب الطريق فاطاعه من بها واستولى عليها وعلى قُسْطَلِيَّة ونُزَاوَة.

وبلغ الكاهنة قدومه فأحضرت ولدين لها وخالد بن يزيد وقالت لهم: إنني مقتولة فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أماناً. فساروا إليه ويقولون (٣٧٢/٤) معه، وسار حسان نحوها فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال وكثر القتل حتى ظن الناس أنه الفناء، ثم نصر الله المسلمين وانهزم البربر وقتلوا قتلاً ذريعاً، وانهزمت الكاهنة، ثم أذركت فقتلت.

ثم إن البربر استأمنوا إلى حسان، فأمنهم وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو، فأجابوه إلى ذلك، فجعل على هذا العسكر ابني الكاهنة. ثم فشا الإسلام في البربر، وعاد حسان إلى القيروان في رمضان من السنة وأقام لا ينازعه أحد إلى أن توفي عبد الملك.

فلما ولي الوليد بن عبد الملك ولي إفريقية عمه عبد الله بن مروان، فعزل عنها حساناً واستعمل موسى بن نصير سنة تسع وثمانين، على ما ذكره إن شاء الله.

وقد ذكر الواقدي أن الكاهنة خرجت غضباً لقتل كُسَيْلَة وملكت إفريقية جميعها وعملت بأهلها الأفاعيل القبيحة وظلمتهم الظلم الشنيع ونال من بالقيروان من المسلمين أذى شديد بعد قتل زهير بن قيس سنة سبع وستين، فاستعمل عبد الملك على إفريقية حسان بن النعمان، فسار في جيوش كثيرة وقصد الكاهنة فاقتتلوا فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة كثيرة، وعاد حسان منهزماً إلى نواحي برقة فأقام بها إلى سنة أربع وسبعين، فسار إليه عبد الملك جيشاً كثيفاً وأمره بقصد الكاهنة، فسار إليها وقاتلها فهزمها وقتلها وقتل أولادها وعاد إلى القيروان.

القارئ: (٣٧٧/٤) أما بعد، سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم، قال له: اقطع، ثم قال: يا عبيد العصا يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا يرده راد منكم السلام! أما والله لأودبنيكم غير هذا الأدب! ثم قال للقارئ: اقرأ، فلما قرأ سلام عليكم قالوا بأجمعهم: سلام الله على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

ثم دخل منزله لم يزد على ذلك، ثم دعا العرفاء وقال: ألحقوا الناس بالمهلب واتوني بالبراءات بموافاتهم ولا تغلقن أبواب الجسر ليلاً ولا نهاراً حتى تنقضي هذه المدة.

تفسير هذه الخطبة

قوله: أنا ابن جلا، فابن جلا هو الصبح لأنه يجلو الظلمة. وقوله: فاشتدتي زيم، هو اسم للحرب، والحطم الذي يحطم كل ما مر به، والوضم ما وقى به اللحم عن الأرض، والعصبي الشديد، والأعلاط من الإبل التي لا أرسان عليها. وقوله: فعجم عيدانها، أي عضها واختبرها. وقوله لأعصبتكم عصب السلمة، فالعصب القطع، والسلمة شجر من العضاة. وقوله: لا أخلق إلا فريت، فالخلق التقدير، ويقال: فريت الأديم إذا أصلحته. والسُمهي: الباطل، وأصله ما تسميه العامة مخاط الشيطان. والعطاط، بضم العين، وقيل بفتحها: ضرب من الطير.

فلما كان اليوم الثالث سمع تكبيراً في السوق فخرج حتى جلس على المنبر فقال: يا أهل العراق وأهل الشقاق والتفاح ومساوي الأخلاق! إني سمعت (٣٧٨/٤) تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به وجه الله ولكنه التكبير الذي يراد به التهريب، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف، يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الأيامي ألا يبيع رجل منكم على ظلمه، ويحسن حقن دمه، ويعرف موضع قدمه! أقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدبا لما بعدها.

فقام عمير بن ضابئ الحنظلي التميمي فقال: أصلح الله الأمير، أنا في هذا البعث وأنا شيخ كبير عليل وابني هذا أشب مني. فقال الحجاج: هذا خير لنا من أبيه، ثم قال: ومن أنت؟ قال: أنا عمير بن ضابئ. قال: اسمعت كلامنا بالأمس؟ قال: نعم. قال: ألسنت الذي غزا عثمان بن عفان؟ قال: بلى. قال: يا عدو الله أفسلا إلى عثمان بعثت بدلاً؟ وما حملك على ذلك؟ قال: إنه حبس أبي وكان شيخاً كبيراً. قال: أولست القاتل؟

هممت ولم أقتل وكسدت ولئيتي تركت على عثمان يكي خلالة إني لأحسب أن في تلك صلاح المصريين. وأمر به فضربت رقبته وأتهب ماله.

وقيل: إن عتبة بن سعيد بن العاص قال للحجاج: أعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا أحد قتلة عثمان. فقال الحجاج: أي عدو

تنتثر من يده وهو لا يعقل به، قال: ثم كشف الحجاج عن وجهه وقال: (٣٧٥/٤)

أنا ابن جلا وطلاع الثيابا متى أضغ العمامة تعرفوني أما والله إني لأحمل الشر محمله وأحذره بنعله وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وقد حان قطفها، إني لأنظر إلى الدماء بين العمام والمحي قد شمعت عن سابقها تشميراً:

هذا أو أن الحرب فاشتدتي زيم قد لفتها الليل سوراق حطيم ليس براعي يسيل ولا غيم ولا بجزار على ظهره فشم

ثم قال:

قد لفتها الليل بعضلبي أروغ خراج من النوى مهاجر ليس بأعراي

ليس أو أن بكورة الخلاط جاءت به والقلص الأعلاط تهوي هوي سابق الغطاط

إني والله يا أهل العراق ما أغمر كغماز الثين، ولا يُفَقِّع لي بالشئان، ولقد فررت عن ذكاه، وجريت إلى الغاية القصوى. ثم قرأ: «ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنئون» [النحل: ١١٢]، وأنتم أولئك وأشباه أولئك، إن أمير المؤمنين عبد الملك نشر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرها غوداً وأصلبها بكسراً فوجئني إليكم رمي بي في نحوركم، فإنكم أهل بغي وخلاف وشقاق وفساق، فإنكم طالما أوضعتم في الشر وسنتم سنن الغي فاستوتقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان ولأمرينكم به حتى تدرؤا، ولألحونكم لحو العود، ولأعصبتكم عصب السلمة حتى تذلوأ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا العصيان وتقادوا، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلبثوا، إني والله ما أجد إلا وفيت، ولا أخلق إلا فريت، وإياي وهذه الجماعات فلا يركبن رجل إلا وحده، أقسم بالله لتقبلن على الإنصاف، ولتدعن الإرجاف، وقيلاً وقالاً وما تقول وما يقول وأخبرني فلان، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده! فيم أنتم وذاك؟ والله لتستقيمن على الحق أو لأضربنكم بالسيف ضرباً يذع النساء أيامي، والولدان يتامى، حتى تذروا السُمهي، وتقلعوا عن ما وهأ، ألا إنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جبي فتي، ولا قوتل عدو، ولعطلت الثغور، ولولا أنهم يغزون كرها ما غزوا طوعاً!

وقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم على مصركم عاصين مخالفين، وإني أقسم بالله لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه وأنهت داره!

ثم أمر بكتاب عبد الملك فقري على أهل الكوفة، فلما قال

اللَّهُ! أفلا إلى أمير المؤمنين بُعثت بديلاً؟ ثم أمر به ففُضِرَت عنقه،

وأمر متادياً فتأدى: ألا إن عمير بن ضابع أتى بعد ثلاثة وكان سمع النداء فأمرنا بقتله، ألا إن ذمه الله بريئة ممن لم يأت الليلة من جند المهلب. (٣٧٩/٤)

فخرج الناس فازدحموا على الجسر، وخرج العُرفاء إلى المهلب، وهو برامهرمز، فأخذوا كتبه بالموافاة. فقال المهلب: قدم العراق اليوم رجل ذكر، اليوم قُوتل العلو.

فلما قتل الحجاج عميراً لقي إبراهيم بن عامر الأسدي عيد الله بن الزبير فسأله عن الخبر، فقال:

أقول لإبراهيم لما قُتِلَهُ
أرى الأمر أضحي مُضحيًا مُتَشَعِّبًا
تجهز وأسرع فالحق الجيش لا أرى
سوى الجيش إلا في المهالك مُتَقَبِّبًا
تخير فلما أن تزور ابن ضابع
عميراً وإنما أن تزور المهلبا
هما خطنا خسف نجاؤك منهما
رؤوسك حولاً من تلج أشبهها
فحال ولو كانت خراسان دونة
أها مكان السوق أو هي أقربا
فكانت ترى من مكره الغزو مسرماً
تحتم جنود السرج حتى تحببا
تحتم أي لزمه حتى صار كالحميم. وتحبب: اصبرج. والزبير
ههنا يفتح الزاي وكسر الباء.

قيل: وكان قدوم الحجاج في شهر رمضان، فوجه الحكيم بن أيوب الثقفي على البصرة أميراً وأمره أن يشتد على خالده بن عبد الله، فبلغ خالدا الخبر فخرج عن البصرة فنزل الجَلحاء وشيعة أهل البصرة فقسم فيهم ألف ألف.

فكان الحجاج أول من عاقب بالقتل على التخلف عن الوجه الذي يكتب إليه. قال الشعبي: كان الرجل إذا أخل بوجهه الذي يكتب إليه زمن عمر (٣٨٠/٤) وعثمان وعلي نزع عمامته ويقام للناس ويشهر أمره، فلما ولي مصعب قال: ما هذا بشيء، وأضاف إليه خلق الرؤوس واللقى، فلما ولي بشر بن مروان زاد فيه فصار يُرفع الرجل عن الأرض ويُسنم في يديه مسماران في حائط، فربما مات وربما خرق المسماز كفه فسلم، فقال شاعر:

لولا مخافة بشر أو عقوبته وإن سوط في كفي مسماز
إذا نطقت نغري ثم رزقكم إن المصعب لمن يهواه زور
فلما كان الحجاج قال: هذا لعب، أضرب عنق من يخل مكانه من الثغر.

ذكر ولاية سعيد بن أسلم السند وقلته

في هذه السنة استعمل عبد الملك على السند سعيد بن أسلم بن زُرعة، فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلاقيان فقتلاه وغلبا على البلاد، فأرسل الحجاج مجاعة بن مبغر التميمي إلى السند فغلب على ذلك الثغر وغزا وفتح أماكن من قنابيل، ومات

مجاعة بعد سنة بمكران فقيل فيه:

ما من مشاهلك التي شامتها إلا يزينك ذكرها مُجَاعَةً
ذكر وثوب أهل البصرة بالحجاج

في هذه السنة خرج الحجاج من الكوفة إلى البصرة واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة، فلما قدم البصرة خطبهم بمثل خطبته بالكوفة وتوعد من رآه منهم بعد ثلاثة ولم يلحق بالمهلب، فأتاه شريك بن عمرو (٣٨١/٤) البشكري، وكان به فتق، وكان أعور يضع على عينه قطعة، فلُقِبَ ذا الكُرسُفة، فقال: أصلح الله الأمير، إن بي فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرني، وهذا عطائي مردود في بيت المال. فأمر به ففُضِرَت عنقه، فلم يبق بالبصرة أحد من عسكر المهلب إلا لحق به. فقال المهلب: لقد أتى العراق رجل ذكر. وتتابع الناس مزدحمين إليه حتى كثر جمعه.

ثم سار الحجاج إلى رُسْتَقِياد، وبينها وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً، وإنما أراد أن يشد ظهر المهلب وأصحابه بمكانه، فقام برسْتَقِياد خطياً حين نزلها فقال: يا أهل المصرين! هذا المكان والله مكانكم شهراً بعد شهر وستة بعد سنة حتى يهلك الله عدوكم هؤلاء الخوارج المظلمين عليكم. ثم إنه خطب يوماً فقال: إن الزيادة التي زادكم [ياها ابن الزبير إنما هي زيادة مخبئة باطلة [من] ملحد فاسق منافق وليست نُجيزها! وكان مصعب قد زاد الناس في العطاء مائة مائة.

فقال عبد الله بن الجارود: إنها ليست بزيادة ابن الزبير إنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أنفذها وأجازها على يد أخيه بشر. فقال له الحجاج: ما أنت والكلام! لتحسن حمل رأسك أو لأسلبك إياه! فقال: ولم؟ إني لك لناصر وإن هذا القول من ورائي.

فنزل الحجاج ومكث أشهراً لا يذكر الزيادة ثم أعاد القول فيها، فرد عليه ابن الجارود مثل رده الأول. فقام مصقلة بن كُرب العبدي أبو رقية ابن مصقلة المحدث عنه فقال: إنه ليس للبيعة أن ترد على راعيها، وقد سمعنا ما قال الأمير، فسمعاً وطاعة فيما أحببنا وكبرهنا. فقال له عبد الله بن الجارود: يا ابن الجرمانية! ما أنت وهذا! ومتى كان مثلك يتكلم وينطق في مثل هذا؟ (٣٨٢/٤)

وأتى الوجوه عبد الله بن الجارود فصوروا رأيه وقوله، وقال الهذلي ابن عمران البرجمي وعبد الله بن حكيم بن زياد المُجاشعي وغيرهما: نحن معك وأعوانك، إن هذا الرجل غير كالب حتى يقضنا هذه الزيادة، فهلم نباعك على إخراجك من العراق ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولي علينا غيره، فإن أبى خلعتنا، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج. فبايعه الناس سرراً وأعطوه المواثيق على الوفاء وأخذ بعضهم على بعضهم اليهود.

وجاء عامل بن يسمع إلى الحجاج فقال: إني قد أخذت لك أماناً من الناس، فجعل الحجاج يرفع صوته ليسمع الناس ويقول: والله لا أؤمنهم أبداً حتى (٣٨٤/٤) يأتوا بالهذيل وعبد الله بن حكيم. وأرسل إلى عبيد بن كعب النميري يقول: هلم إلي فامنعني. فقال: قل له إن أنتنسي منعك. فقال: لا ولا كرامة! وبعث إلى محمد بن عمير بن عطارد كذلك، فأجابه مثل الجواب الأول، فقال: لا ناقتي في هذا ولا جملي. وأرسل إلى عبد الله بن حكيم المجاشعي فأجابه كذلك أيضاً.

ومرَّ عباد بن الحصين الحنظلي بابن الجارود وابن الهذيل وعبد الله بن حكيم وهم يتناجون، فقال: أشركونا في نجواكم. فقالوا: هيهات أن يدخل في نجوانا أحد من بني الجبطا فغضب وصار إلى الحجاج في مائة رجل، فقال له الحجاج: ما أبا لي من تخلف بعدك.

وسعى قتيبة بن مسلم في قومه في يحيى أعصر (؟) وقال: لا والله لا ندع قيساً يقتل ولا ينهب ماله، يعني الحجاج، وأقبل إلى الحجاج.

وكان الحجاج قد يش من الحياة، فلما جاءه هؤلاء اطمأن، ثم جاءه سيرة بن علي الكلابي وسعيد بن أسلم بن رزعة الكلابي فسلم، فأذانه منه، وأناه جعفر بن عبد الرحمن بن يخنف الأزدي، وأرسل إليه يسمع بن مالك ابن يسمع: إن شئت أتيتك وإن شئت أقمت وتبطلت الناس عنك. فقال: أقم وتبطل الناس عني.

فلما اجتمع إلى الحجاج جمع يُمنع بمثلهم خرج فعبا أصحابه وتلاحق الناس به، فلما أصبح إذا حوله نحو ستة آلاف، وقيل غير ذلك. فقال ابن الجارود لعبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما الرأي؟ قال: تركت الرأي أمس حين قال لك الفضبان تعش بالجلدي قبل أن يتغذى بك، وقد ذهب الرأي وبقي الصبر. (٣٨٥/٤)

فدعا ابن الجارود بدرع فلبسها مقلوبة فطير. وحرّض الحجاج أصحابه وقال: لا يهولنكم ما ترون من كثرتهم. وتزاحف القوم على ميمنة ابن الجارود الهذيل بن عمران، وعلى ميسرته عبد الله بن زياد بن ظبيان، وعلى ميمنة الحجاج قتيبة بن مسلم، ويقال عباد بن الحصين، وعلى ميسرته سعيد بن أسلم؛ فحمل ابن الجارود في أصحابه حتى جاز أصحاب الحجاج، فغطف الحجاج عليه، ثم اقتلوا ساعة وكاد ابن الجارود يظفر فأناه سهم غرب فأصابه فوقع ميتاً. ونادي منادي الحجاج بأمان الناس إلا الهذيل وعبد الله بن حكيم، وأمر أن لا يُبْعِثَ المهزومون، وقال: الأتباع من سوء الغلبة. فانهزم عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وأتى سعيد بن عياذ بن الجُلندي الأزدي بعمان، فقيل لسعيد: إنه رجل فاتك فاحذره، فلما جاء البطيخ بعث إليه بنصف بطيخة مسمومة وقال: هذا أول شيء جاء من البطيخ وقد أكلت نصف بطيخة وبعثت بنصفها، فأكلها عبيد

وبلغ الحجاج ما هم فيه فأحرز بيت المال واحتاط فيه. فلما تم لهم أمرهم أظهروه، وذلك في ربيع الآخر سنة ست وسبعين، وأخرج عبد الله بن الجارود عبد القيس على رايانهم، وأخرج الناس معه حتى بقي الحجاج وليس معه إلا خاصته وأهل بيته، فخرجوا قبل الظهر، وقطع ابن الجارود ومن معه الجسر، وكانت خزائن الحجاج والسلاح من ورائه. فأرسل الحجاج أعين، صاحب حمام أعين بالكوفة، إلى ابن الجارود يستدعيه إليه، فقال ابن الجارود: ومن الأمير! لا ولا كرامة لابن أبي رغال! ولكن ليخرج عنا مذموماً مدحوراً وإلا قاتلناه! فقال أعين: فإنه يقول لك أنطيب نفساً بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك؟ والذي نفسي بيده لئن لم يأتني لأدعن قومك عامة وأهلك خاصة حديثاً للغابرين. وكان الحجاج قد حمل أعين هذه الرسالة. فقال ابن الجارود: لولا أنك رسول لقتلتك يا ابن الخيثة! وأمر فوجي في عقبه وأخرج.

واجتمع الناس لابن الجارود، فأقبل بهم زحفاً نحو الحجاج، وكان رأيهم أن يخرجوه عنهم ولا يقاتلوه، فلما صاروا إليه نهبوه في فسطاطه وأخذوا ما قدروا عليه من متاعه ودوابه، وجاء أهل اليمن فأخذوا امرأته ابنة النعمان بن بشير، وجاءت مفسر فأخذوا امرأته الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمن (٣٨٣/٤) ابن عمرو أخي سئيل بن عمرو. فخافه السفهاء، ثم إن القوم انصرفوا عن الحجاج وتركوه، فأتاه قوم من أهل البصرة فصاروا معه خائفين من محاربة الخليفة.

فجعل الفضبان بن القُبَيْرِي الشيباني يقول لابن الجارود: تعش بالجلدي قبل أن يتغذى بك، أما ترى من قد أتاه منك؟ ولئن أصبح ليكرن ناصره ولتضعفن متكماً! فقال: قد قرب المساء ولكنا نعالجه بالغداة.

وكان مع الحجاج عثمان بن قطن وزياد بن عمرو العنكي، وكان زياد على شرطة البصرة، فقال لهما: ما تريان؟ فقال زياد: أن آخذ لك من القوم أماناً وتخرج حتى تلحق بأمر المؤمنين فقد أرفض أكثر الناس عنك ولا أرى لك أن تقاتل بمن معك. فقال عثمان بن قطن الحارثي: لكني لا أرى ذلك، إن أمير المؤمنين قد شركك في أمرك وخلطك بنفسه واستصحبك وسلطك فسرت إلى ابن الزبير، وهو أعظم الناس خطراً، فقتلته، فولاك الله شرف ذلك وسناه، وولاك أمير المؤمنين الحجاج، ثم رفعت فولاك العراقين، فحيث جريت إلى المدى وأصبحت الغرض الأقصى تخرج على قعود إلى الشام، والله لئن فعلت لا نلت من عبد الملك مثل الذي أنت فيه من سلطان أبداً ولتضعفن شأنك، ولكني أرى أن نمشي بسبوفنا معك فنقاتل حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً. فقال له الحجاج: الرأي ما رأيت. وحفظ هذا لعثمان وحفظها على زياد بن عمرو.

بالكتاب إليه فجعل يقرأه ووجهه يتغير ويتغير وجيسته يرشح عرقاً ويقول: يغفر الله لأمرير المؤمنين. ثم اجتمع بآنس فرحب به الحجاج واعتذر إليه وقال: أردت أن يعلم أهل العراق إذ كان من ابنك ما كان وإذ بلغت منك ما بلغت أي إليهم بالعقوبة أسرع.

قال أنس: ما شكوت حتى بلغ مني الجهد وحتى زعمت أننا الأشرار وقد سمنا الله الأنصار، وزعمت أننا أهل النفاق ونجن الذين تبوأوا الدار والإيمان، وميحكم الله بيننا وبينك فهو أقدر على التغيير، لا يشبه الحق عنده الباطل ولا الصدق الكذب، وزعمت أنك اتخذتني ذريعةً وسلماً إلى مساءة أهل العراق باستحلال محارم الله عليك مني، ولم يكن لي عليك قوة فوكلتني إلى الله ثم إلى أمير المؤمنين فحفظ من حقّي ما لم تحفظ، فوالله لو أنّ النصارى على كفرهم رأوا رجلاً خدم عيسى بن مريم يوماً واحداً لعرفوا من حقه ما لم تعرف أنت من حقّي، وقد خدمت رسول الله، ﷺ، عشر سنين. وبعد فإن رأينا خيراً حمدنا الله عليه وأثنينا، وإن رأينا غير ذلك صبرنا، والله المستعان. وردّ عليه الحجاج ما كان أخذ منه. (٣٨٨/٤)

ذكر سير زنجي والزنج معه

اجتمع الزنج بفرات البصرة في آخر أيام مصعب بن الزبير، ولم يكونوا بالكثير، فافسدوا وتناولوا الثمار، وولي خيالد بن عبد الله بن خالد البصرة وقد كثروا، فشكا الناس إليه ما نالهم منهم، فجمع لهم جيشاً، فلما بلغهم ذلك تفرقوا وأخذ بعضهم قتلهم وصلبهم.

فلما كان من أمر ابن الجارود ما ذكرنا خرج الزنج أيضاً فاجتمع منهم خلق كثير بالفرات وجعلوا عليهم رجلاً اسمه رباح، ويلقب سير زنجي، يعني أسد الزنج، فافسدوا، فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود أمر زياد بن عمرو، وهو على شرطة البصرة، أن يرسل إليهم جيشاً يقاتلهم، ففعل وسير إليهم جيشاً عليه ابنه حفص بن زياد فقاتلهم فقتلوه وهزموا أصحابه، ثم أرسل إليهم جيشاً آخر فهزم الزنج وقتلهم واستقامت البصرة.

ذكر إجماع الخوارج عن رافضئهم وقتل ابن مخنف

لما أتى كتاب الحجاج إلى المهلب وابن مخنف يأمرهما بمناهضة الخوارج، زحفوا إليهم وقتلوهم شيئاً من قتال، فانهزمت الخوارج كأنهم على جامية، ولم يكن منهم قتال، وسار الخوارج حتى نزلوا كازرون، وسار المهلب وابن مخنف حتى نزلوا بهم، وخذل المهلب على نفسه وقال ابن مخنف: إن رأيت أن تخندق عليك فافعل. فقال أصحابه: نحن خندقنا سيوفنا.

فأتى الخوارج المهلب ليبيتوه فوجدوه قد تحرّروا، فمالوا نحو

الله فأحسن بالشّر فقال: أردت أن أقتله فقتلني.

وحمل رأس ابن الجارود وثمانية عشر رأساً من وجوه أصحابه إلى المهلب فنصبت ليرأها الخوارج ويأسوا من الاختلاف.

وحبس الحجاج عبيد بن كعب ومحمد بن غمير حيث قالوا للحجاج: تأتينا لنمنعك. وحبس الغضبان بن القبيشري وقال له: أنت القاتل تعش بالجددي قبل أن يتغدي بك؟ فقال: ما نفعت من قبلي له ولا ضررت من قبلي فيك. فكتب عبد الملك إلى الحجاج بإطلاقه.

وقتل مع ابن الجارود عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري، فقال الحجاج: ألا أرى أنساً يعين عليّ! فلما دخل البصرة أخذ ماله، فحين دخل عليه أنس (٣٨٦/٤) قال لا مرحباً ولا أهلاً بك يا ابن الخبيثة! شيخ ضلالة جوال في الفتن مرة مع أبي تراب ومرة مع ابن الزبير ومرة مع ابن الجارود! أما والله لأجرتك جرّة القضيب، ولأعصبتك عصب السلّة، ولأقلعتك قلع الصمغة! فقال أنس: من يعني الأمير؟ قال: ليك أعني، أصمّ الله صداك! فرجع أنس فكتب إلى عبد الملك كتاباً يشكو فيه الحجاج وما صنع به. فكتب عبد الملك إلى الحجاج:

أما بعد يا ابن أم الحجاج فإنك عبد طمّ بك الأمور فعلوت فيها حتى عدوت طورك وجاوزت قدرك، يا ابن المستقرمة بعجم الزبيب لأغمرنك غمرة كعبض غمرات الليث الثعالب، ولأخيطنك خيطاً تؤدّ لها أنك رجعت في مخرجك من بطن أمك، أما تذكر حال آبائك في الطائف حيث كانوا يتقلون الحجارة على ظهورهم ويحتفرون الآبار بأيديهم في أوديتهم ومياههم؟ أنسيت حال آبائك في اللوم والدناءة في المروّة والخلق؟ وقد بلغ أمير المؤمنين الذي كان منك إلى أنس بن مالك جرّة وإقداماً، وأظنك أردت أن تسير ما عند أمير المؤمنين في أمره فتعلم إنكاره ذلك وإغضاه عنك، فإن سوغك ما كان منك مضيت عليه قدماً، فعليك لعنة الله من عند أخفش العيّنين أصبك الرّجلين ممسوح الجاعريّن! ولولا أنّ أمير المؤمنين يظنّ أنّ الكتاب أكثر في الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأرسل من يسحب ظهراً لبطن حتى يأتي بك أنساً فيحكم فيك، فأكرم أنساً وأهل بيته واعرف له حقه وخدمته رسول الله، ﷺ، (٣٨٧/٤) ولا تقصّر في شيء من حوائجه ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدّم فيه إليك من أمر أنس وبرّه وإكرامه فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك ويشمت بك عدوك، والله في منزله منتصلاً إليه، وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله، والسلام.

وبعث بالكتاب مع إسماعيل بن عبد الله مولى بني مخزوم، فأتى إسماعيل أنساً بكتاب أمير المؤمنين إليه فقرأه، وأتى الحجاج

الجيش مع المهلب، فجعل المهلب عليهم ابنه حبيباً.

وقال سُرَاقَة بن مِرْدَاس البارقِي يَرثِي عبد الرحمن بن مِخْنَف :

نَوَى سَيِّدُ الْأَرَقِينِ لَزْدَ شَرُونَةٍ وَارْدَ عُمَانٍ وَهَنَ رَمْسَ بَكَازِيرِ
وَضَارِبَ حَسَى مَاتَ أَكْرَمَ مَيَّةٍ بِأَبْيَضٍ صَافٍ كَالْعَقِيقَةِ بِأَيْرِ
وَصُرَّعَ عِنْدَ التَّلِّ تَحْتَ لَوَائِهِ كَرَامَ الْمَسَاعِي مِنْ كَرَامِ الْمَعَاثِيرِ
قَضَى نَجَبَهُ يَوْمَ الْلِقَاءِ ابْنُ مِخْنَفٍ وَاجْبَرَ عَنْهُ كُلَّ السَّوْتِ دَائِرِ

(٣٩١/٤)

اسْدَوْلَمْ يُنْزِدْ فِرَاحَ مَشَرّاً إِلَى اللَّهِ لَمْ يَنْعَبْ بِأَنْوَافِ غَايِرِ
وَأَقَامَ الْمَهْلَبُ بِسَابُورٍ يَقَاتِلُهُمْ نَحْواً مِنْ سَنَةٍ.

ذَكَرَ عِدَّةُ حَوَادِثَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ تَحَرَّكَ صَالِحُ بْنُ مَسْرُوحٍ أَحَدُ بَنِي أُمِّ الْقَيْسِ بْنِ زَيْدٍ مَنَاءً مِنْ تَمِيمٍ، وَكَانَ يَرَى رَأْيَ الصُّفَرِيَّةِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَرَجَ فِيهِمْ، وَحَجَّ هَذِهِ السَّنَةَ وَمَعَهُ شَيْبِ بْنِ يَزِيدٍ وَسُوَيْدُ بْنُ الْبَطِينِ وَأَشْيَاهُمْ؛

وَحَجَّ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ، فَهُمْ شَيْبِ أَنْ يَفْتَكُ بِهِ فَبَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ خَبَرِهِمْ، فَكَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ بَعْدَ انْصِرَافِهِ يَأْمُرُهُ بِطَلْبِهِمْ، وَكَانَ شَيْخاً صَالِحاً يَأْتِي الْكَوْفَةَ فَيَقِيمُ بِهَا الشَّهْرَ وَنَحْوَهُ فَيَلْقَى أَصْحَابَهُ وَيُعِيدُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا طَلَبَهُ الْحَجَّاجُ نَبَّتَ بِهِ الْكَوْفَةَ فَتَرَكَهَا.

وَفِيهَا غَزَا مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الصَّافِيَّ عِنْدَ خُرُوجِ الرُّومِ إِلَى الْغَنِيِّ مِنْ نَاحِيَةِ مَرْعَشٍ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ عَبْدُ الْمَلِكِ فَخَطَبَ النَّاسَ بِالْمَدِينَةِ فَقَالَ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ: أَمَّا بَعْدُ فإِنِّي لَسْتُ بِالْخَلِيفَةِ الْمُسْتَضْعَفِ، يَعْنِي عُثْمَانَ، وَلَا بِالْخَلِيفَةِ الْمَدَاهِنِ، يَعْنِي مُعَاوِيَةَ، وَلَا بِالْخَلِيفَةِ الْمَأْفُونِ، يَعْنِي يَزِيدَ، أَلَا وَإِنِّي لَا أَدَاوِي هَذِهِ الْأُمَّةَ إِلَّا بِالنِّيفِ حَتَّى تَسْتَقِيمَ لِي قَنَاتُكُمْ، وَإِنِّكُمْ تَحْفَظُونَنَا أَعْمَالُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ (٣٩٢/٤) وَتَتَسَوَّنَ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاللَّهُ لَا يَأْمُرُنِي أَحَدٌ بِتَقْوَى اللَّهِ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ. ثُمَّ نَزَلَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ مَاتَ الْعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةِ السُّلَمِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، وَقِيلَ: بَلَ مَاتَ بِالشَّامِ فِي قَتْنَةِ ابْنِ الزَّيْرِ.

وَفِيهَا تَوَفَّى الْأَسَدُ بْنُ يَزِيدَ النُّخَعِيِّ، وَهُوَ ابْنُ أَخِي عُلُقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ. (٣٩٣/٤)

ابن مخنف فوجوده لم يخندق فقاتلوه فانهزم عنه أصحابه، فنزل فقاتل في أناس من أصحابه (٣٨٩/٤) قُتِلَ وَقُتِلُوا [خَوَلَهُ]، فَقَالَ شَاعِرُهُمْ :

لَمِنْ الْعَسْكَرِ الْمَكْلَلُ بِالْعَصْرِ عَسَى فَهْمُ يَنْ مَيَّتَ وَقِيلَ
فَتَرَاهُمْ تَسْفِي الرِّيَاحَ عَلَيْهِمْ حَاصِبَ الرَّمْلِ بَعْدَ جَرِّ النَّيْلِ
هَذَا قول أهل البصرة.

فَأَمَّا أَهْلُ الْكَوْفَةِ فَإِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا وَصَلَ كِتَابُ الْحَجَّاجِ بِمَنَاهَضَةِ الْخَوَارِجِ نَاهَضَهُمُ الْمَهْلَبُ وَعَبَدُ الرَّحْمَنِ فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً وَمَالَتِ الْخَوَارِجُ إِلَى الْمَهْلَبِ فَاضْطُرُّوا إِلَى عَسْكَرِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَسْتَمِدُّهُ، فَأَمَدَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِالْخَيْلِ وَالرِّجَالِ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الظَّهْرِ لِعَشْرِ بَقِيْنَ مِنْ رَمَضَانَ.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ الْعَصْرِ وَرَأَتْ الْخَوَارِجُ مَا يَجِيءُ مِنْ عَسْكَرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنَ الرِّجَالِ، ظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ خَفَّ أَصْحَابُهُ، فَجَعَلُوا بِإِزَاءِ الْمَهْلَبِ مَنْ يَشْغَلُهُ وَانْصَرَفُوا بِجَنْدِهِمْ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ قَدْ قَصَدُوهُ نَزَلَ وَنَزَلَ مَعَهُ الْقُرَاءُ مِنْهُمْ: أَبُو الْأَخْوَصِ، صَاحِبُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَخَزِيمَةُ بْنُ نَصْرٍ أَبُو نَصْرٍ بْنُ خَزِيمَةَ الْعَبْسِيُّ، الَّذِي قُتِلَ مَعَ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَصَلَّبَ مَعَهُ بِالْكَوْفَةِ، وَنَزَلَ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ أَحَدٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا، وَحَمَلَتْ عَلَيْهِمُ الْخَوَارِجُ فَقَاتَلَهُمْ قِتَالاً شَدِيداً وَانْكَشَفَ النَّاسُ عَنْهُ وَيَقِي فِي عَصَابَةٍ مِنْ أَهْلِ الصَّبْرِ ثَبَتُوا مَعَهُ، وَكَانَ ابْنُهُ جَعْفَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَيَمِّنُ بَعَثَهُ إِلَى الْمَهْلَبِ، فَتَادَى فِي النَّاسِ لِيَتَّبِعُوهُ إِلَى أَبِيهِ، فَلَمْ يَتَّبِعْهُ إِلَّا نَاسٌ قَلِيلٌ، فَجَاءَ حَتَّى دَنَا مِنْ أَبِيهِ، فَحَالَاتِ الْخَوَارِجُ بَيْنَهُمَا، فَقَاتَلَتْ حَتَّى جُرِحَ. وَقَاتَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَمَنْ مَعَهُ عَلَى تَلٍّ مَشْرِفٍ حَتَّى ذَهَبَ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِي اللَّيْلِ، ثُمَّ قُتِلَ فِي تِلْكَ الْعَصَابَةِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَاءَ الْمَهْلَبُ فَدَفَنَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ وَكَبَّرَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَجَّاجِ، فَكَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بِذَلِكَ، فَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ وَذَمَّ أَهْلَ الْكَوْفَةِ. (٣٩٠/٤)

وَبَعَثَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَسْكَرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَتَابَ بْنَ وَرْقَاءَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْمَعَ لِلْمَهْلَبِ، فَسَاءَ ذَلِكَ وَلَمْ يَجِدْ بَدَأً مِنْ طَاعَتِهِ، فَجَاءَ إِلَى الْعَسْكَرِ وَقَاتَلَ الْخَوَارِجَ وَأَمَرَهُ إِلَى الْمَهْلَبِ وَهُوَ يَقْضِي أَمْرَهُ وَلَا يَكَادُ يَسْتَشِيرُ الْمَهْلَبَ. فَوَضَعَ عَلَيْهِ الْمَهْلَبُ رَجَالاً اصْطَنَعَهُمْ وَأَغْرَاهُمْ بِهِ، مِنْهُمْ سَيْطَانُ بْنُ مَصْقَلَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ. وَجَرَى بَيْنَ عَتَابَ وَالْمَهْلَبِ ذَاتَ يَوْمٍ كَلَامٌ أَغْلَظَ كُلَّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ، وَرَفَعَ الْمَهْلَبُ الْقَضِيبَ عَلَى عَتَابَ، فَوَثَبَ إِلَيْهِ ابْنُهُ الْمُغِيرَةُ بْنُ الْمَهْلَبِ فَقَبِضَ الْقَضِيبَ وَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! شَيْخٌ مِنْ أَشْيَاحِ الْعَرَبِ وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، إِنْ سَمَعْتَ [منه] يَعْضُ مَا تَكْرَهُ فَاحْتَمِلْهُ لَهُ فَإِنَّهُ لَذَلِكَ أَهْلٌ. فَفَعَلَ، فَافْتَرَقَا، فَأَرْسَلَ عَتَابُ إِلَى الْحَجَّاجِ يَشْكُو الْمَهْلَبَ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالْعُودِ إِلَيْهِ، فَوَافَقَ ذَلِكَ حَاجَةً مِنَ الْحَجَّاجِ إِلَيْهِ فِيمَا لَقِيَ أَشْرَافَ الْكَوْفَةِ مِنْ شَيْبِ، فَاسْتَقْدَمَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَتْرَكَ ذَلِكَ

سنة ست وسبعين

ذكر خروج صالح بن مسرّح

كان صالح بن مسرّح التميمي رجلاً ناسكاً مصفر الوجه صاحب عبادة، وكان بداراً وأرض الموصل والجزيرة، وله أصحاب يقرأ بهم القرآن والفقه ويقصّ عليهم، قدعاهم إلى الخروج وإنكار الظلم وجهاد المخالفين لهم، فأجابوه، وحثهم عليهم، فراسل أصحابه بذلك وتلاقوا به، فبينما هم في ذلك إذ قدم عليه كتاب شبيب يقول له: إنك كنت تريد الخروج فإن كان ذلك من شأنك اليوم فانت شيخ المسلمين ولن نعدل بك أحداً، وإن أردت تأخير ذلك [اليوم] أعلنني فإن الأجال غادية ورائحة ولا آمن أن تخترمني المنية ولم أجاهد الظالمين.

فكتب إليه صالح: إنه لم يمنعني من الخروج إلا انتظارك، فاقبل إلينا فإنك ممن لا يستغنى عن رأيه ولا تقضى دونه الأمور. فلما قرأ شبيب كتابه دعا نقرأ من أصحابه، منهم: أخوه مصاد بن يزيد بن نعيم الشيباني والمحلل ابن وائل الشكري وغيرهما، وخرج بهم حتى قدم على صالح بداراً، فلما لقيه قال: أخرج بنا رحمتك الله، فوالله ما تزداد [السنة] إلا دروساً ولا يزداد المجرمون إلا طغياناً. (٣٩٤/٤)

فبث صالح رسله وواعد أصحابه الخروج إلى ذلك هلال صفر سنة ست وسبعين، فاجتمعوا عنده تلك الليلة، فسأله بعضهم عن القتال قبل الدعاء أم بعده؟ فقال: بل ندعوهم فإنه أقطع لحجتهم. فقال له: كيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به، ما تقول في دمائهم وأموالهم؟ فقال لهم: إن قتلنا وغنمنا فلنا وإن عفونا فموسع علينا.

ثم وعظ أصحابه وأمرهم بأمره وقال لهم: إن أكثركم رجالة وهذه دواب لمحمد بن مروان فابدأوا بها فاحملوا عليها رجالكم وتقووا بها على عدوكم.

فخرجوا تلك الليلة فأخذوا الدواب فاحملوا عليها وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة. وتحصن منهم أهلها وأهل نصيبين وسنجار، وكان خروجه وهو في مائة وعشرين، وقيل وعشرة.

وبلغ محمداً مخرجهم، وهو أمير الجزيرة، فأرسل عدي بن عدي الكندي إليهم في ألف فارس، فسار من حران فيخزل دوغان، وكانوا أول جيش سار إلى صالح، وسار عدي، وكأنه يساق إلى الموت. وأرسل إلى صالح يسأله أن يخرج من هذه البلاد ويعلمه أنه يكره قتاله، وكان عدي ناسكاً فاعاد صالح: إن كنت ترى أيضاً خرجنا عنك، وإلا فنرى رأينا. فأرسل إليه عدي: إني لا أرى رأيك ولكني أكره قتالك. فقال صالح لأصحابه: اركبوا،

فركبوا، وحسن الرسول عنده ومضي بأصحابه فأتى عدياً وهو يصلي الضحى، فلم يشعروا إلا والخيل طالعة عليهم، فلما رأوها تنادوا، (٣٩٥/٤) وجعل صالح شبيهاً في ميمته، وسويد بن سليم في مسرته، ووقف في القلب، فأتاهم وهم على غير تعبئة وبعضهم يحول في بعض، فحمل عليهم شبيب وسويد فانهزموا، وأتى عدي بن عدي بدابته فركبها وانهزم، وجاء صالح ونزل في معسكره وأخذوا ما فيه.

ودخل أصحاب عدي على محمد بن مروان، فغضب على عدي ثم دعا خالد بن جزء السلمي فبعثه في ألف وخمسمائة، ودعا الحارث بن جعونة العامري فبعثه في ألف وخمسمائة، وقال: أخرجنا إلى هذه المارقة وأغذا السير فايكما سبق فهو الأمير على صاحبه. فخرجوا متساندين يسألان عن صالح، فقيل لهما: إنه نحو أيد، فقصداه، فوجّه صالح شبيهاً في شطر من أصحابه إلى الحارث بن جعونة، وتوجّه هو نحو خالد، فاقتلوا من وقت العصر أشد قتال، فلم تثبت خيل محمد لخيل صالح، فلما رأى أميراهم ذلك ترجلاً وترجل معها أكثر أصحابهما، فلم يقدر أصحاب صالح حيتلهم عليهم، وكانوا إذا حملوا استقبلتهم الرجالة بالرماح ورماهم الرماة بالنبل وطاردتهم خيالتهم، فقاتلوه إلى المساء، فكثرت الجراح في الفريقين، وقتل من أصحاب صالح نحو ثلاثين رجلاً، ومن أصحاب محمد أكثر من سبعين.

فلما أمسوا تراجعوا، فاستشار صالح أصحابه، فقال شبيب: إن القوم قد اعتصموا بخندقهم فلا أرى أن نقيم عليهم. فقال صالح: وأنا أرى ذلك. فخرجوا من ليلتهم سائرين فقطعوا أرض الجزيرة وأرض الموصل وانهوا إلى الدسكرة. فلما بلغ ذلك الحجاج سرّح إليهم الحارث بن عزيمة بن ذي الشعار قتي ثلاثة آلاف من أهل الكوفة، فسار حتى دنا من الدسكرة، وخرج صالح بن مسرّح حتى أتى قرية يقال لها مديح على تخوم ما بين الموصل وجوخى، (٣٩٦/٤) وصالح في تسعين رجلاً، فلقيهم الحارث لثلاث عشرة بقين من جمادى، فاقتلوا فانهزم سويد بن سليم في مسيرة صالح، وشبيب صالح، فقتل وقاتل شبيب حتى جبرع عن نفسه، فحمل عليهم راجلاً، فانكشفوا عنه، فجاء إلى موقف صالح فاصابه قتيلاً، فنادى: إني يا معشر المسلمين، فلاذوا به. فقال لأصحابه: ليجعل كل واحد منكم ظهره إلى ظهر صاحبه وليطاعن عدوه حتى يدخل هذا الحصين ونرى رأينا، ففعلوا ذلك ودخلوا الحصين جميعهم، وهم سبعون رجلاً، وأحاط بهم الحارث وأحرق عليهم الباب، وقال: إنهم لا يقدرون على الخروج منه.

(مسرّح يضم الميم، وفتح السين المهملة، وتشديد الراء وكسرها، وبالحاء المهملة. وجعونة بفتح الجيم، وسكون العين المهملة، وفتح الواو، وآخرة نون.)

صَفَحَ جَبَلٍ سَاتِدِمًا، فَقَالَ: لَا تَبْنَ بِهَا تَكُونُ فِي عَسْكَرِي لَا تَصَارِقُنِي حَتَّى تَمُوتَ أَوْ أَمُوتَ. فَسَارَ بِهِمْ سَاعَةً، وَإِذَا هُوَ بِجَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي شِيَّانٍ فِي أَمْوَالِهِمْ مُقِيمِينَ لَا يَرُونَ أَنَّ شِيْبِيًّا يَمُرُّ بِهِمْ وَلَا يَشْعُرُ بِهِمْ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ فَقَتَلَ ثَلَاثِينَ شِيْبِيًّا فِيهِمْ خَوْثَرَةٌ بِنِ اسْدَ، وَمَضَى شِيْبِيٌّ إِلَى أُمِّهِ فَحَمَلَهَا، وَأَشْرَفَ رَجُلٌ مِنَ الدَّيْرِ عَلَى أَصْحَابِ شِيْبِيٍّ، وَكَانَ قَدْ اسْتَخْلَفَ شِيْبِيٍّ عَلَيْهِمْ أَخَاهُ مُصَادَ بْنَ يَزِيدَ، وَهُمْ قَدْ حَصَرُوا مَنْ فِي الدَّيْرِ، فَقَالَ: يَا قَوْمَ بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ الْقُرْآنُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْ بِلِحْظِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة ٩، ٦]، فَكَفُّوا عَنَّا حَتَّى نَخْرُجَ إِلَيْكُمْ عَلَى أَمَانٍ وَتَعَرَّضُوا عَلَيْنَا أَمْرَكُمْ، فَإِنْ قَبِلْنَاهُ حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ دِمَاؤُنَا وَأَمْوَالَنَا، وَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَقْبَلْهُ رَدَدْتُمُونَا إِلَى مَأْمَنِنَا ثُمَّ رَأَيْتُمْ رَأْيَكُمْ. فَاجَابُوهُمْ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ، فَعَرَّضَ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ (٣٩٧/٤) شِيْبِيٍّ قَوْلَهُمْ فَقَبِلُوهُ كُلَّهُ ثُمَّ خَالَطُوهُ وَنَزَلُوا إِلَيْهِمْ، وَجَاءَ شِيْبِيٌّ فَخَبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: أَصَبْتُمْ وَوَقَّعْتُمْ.

ذكر الوقعة بين شيب و سفيان الخثعمي

ثُمَّ إِنَّ شِيْبِيًّا لَقِيَ سَلَامَةَ بْنَ سَيَانَ التَّيْمِيَّ، تَيْمَ شِيَّانَ، بِأَرْضِ الْمَوْصِلِ، فَدَعَاهُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ، فَشَرَطَ عَلَيْهِ سَلَامَةُ أَنْ يَتَخَبَّ ثَلَاثِينَ فَارَسًا يَنْطَلِقُ بِهِمْ نَحْوَ عِزَّةَ فَيُشْفِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ، فَإِنْهُمْ كَانُوا قَتَلُوا أَخَاهُ فَضَالَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ فَضَالَةَ كَانَ خَرَجَ فِي ثَمَانِيَةِ عَشْرِ رَجُلًا حَتَّى نَزَلَ مَاءَ يُقَالُ لَهُ الشَّجَرَةُ عَلَيْهِ أَثْلَةٌ عَظِيمَةٌ وَعَلَيْهِ عِزَّةُ نَازِلُونَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا نَقْتُلُ هَؤُلَاءِ وَنَغْدُو عَلَى أَمِيرِنَا فَيُعْطِينَا شِيْبًا، فَقَالَ أَحْوَالُهُ مِنْ بَنِي نَصْرٍ: لَا نَسَاعِدُكُمْ عَلَى قَتْلِ ابْنِ أَخِيْنَا، فَتَهَضَّتْ عِزَّةُ فَتَقْتُلُوهُمْ وَأَتُوا بِرُؤُوسِهِمْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ، فَلِذَلِكَ أُنْزِلَ بِهِمْ بِأَقْبَا وَفُرِضَ لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ فَرَانِضٌ إِلَّا قَلِيلَةً، فَقَالَ سَلَامَةُ أَخُو فَضَالَةَ يَذْكُرُ قَتْلَ أَخِيهِ وَخِذْلَانِ أَحْوَالِهِ إِيَّاهُ :

ذَكَرَ بَيْعَةَ شِيْبِيٍّ الْخَارِجِيِّ وَمَحَارَبَةَ الْحَارِثِ بْنِ عَمِيرَةَ فَلَمَّا أَحْرَقَ الْحَارِثُ الْبَابَ عَلَى شِيْبِيٍّ وَمَنْ مَعَهُ وَقَالَ: إِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ وَنَصَبْتُهُمْ غَدًا فَنَقْتُلُهُمْ، وَانْصَرَفَ إِلَى عَسْكَرِهِ، قَالَ شِيْبِيٌّ لِأَصْحَابِهِ: مَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَوَاللَّهِ لَتَنْ صَبَحَكُمْ هَؤُلَاءِ غَدَةً إِنَّهُ لَهْلَاكُكُمْ. فَقَالُوا: مَرْنَا بِأَمْرِكَ. فَقَالَ: يَا عِوَنِي أَوْ مَنْ شِئْتُمْ مِنْ أَصْحَابِكُمْ وَاخْرُجُوا بِنَا حَتَّى نَشُدَّ عَلَيْهِمْ فِي عَسْكَرِهِمْ فَلْيَنْهَمُ أَمَنُونَ.

فَبَايَعُوا شِيْبِيًّا، وَهُوَ شِيْبِيٌّ بْنُ يَزِيدَ بْنِ نَعِيمِ الشَّيْبَانِيِّ، وَأَتُوا بِالْبُودِ فَلَبَّوْهُ وَجَعَلُوهُ عَلَى جَمْرِ الْبَابِ وَخَرَجُوا، فَلَمْ يَشْعُرْ الْحَارِثُ إِلَّا وَشِيْبِيٍّ وَأَصْحَابِهِ (٣٩٧/٤) يُضَارِبُونَهُمْ بِالسُّيُوفِ فِي جُوفِ الْعَسْكَرِ، فَفُصِّرَ الْحَارِثُ، فَاحْتَمَلَهُ أَصْحَابُهُ وَانْهَزَمُوا نَحْوَ الْمَدَائِنِ، وَحَوَى شِيْبِيٌّ عَسْكَرَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ الْجَيْشُ أَوَّلُ جَيْشٍ هَزَمَهُ شِيْبِيٌّ.

ذكر الحرب بين أصحاب شيب وغيره

ثُمَّ إِنَّ شِيْبِيًّا لَقِيَ سَلَامَةَ بْنَ سَيَانَ التَّيْمِيَّ، تَيْمَ شِيَّانَ، بِأَرْضِ الْمَوْصِلِ، فَدَعَاهُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ، فَشَرَطَ عَلَيْهِ سَلَامَةُ أَنْ يَتَخَبَّ ثَلَاثِينَ فَارَسًا يَنْطَلِقُ بِهِمْ نَحْوَ عِزَّةَ فَيُشْفِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ، فَإِنْهُمْ كَانُوا قَتَلُوا أَخَاهُ فَضَالَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ فَضَالَةَ كَانَ خَرَجَ فِي ثَمَانِيَةِ عَشْرِ رَجُلًا حَتَّى نَزَلَ مَاءَ يُقَالُ لَهُ الشَّجَرَةُ عَلَيْهِ أَثْلَةٌ عَظِيمَةٌ وَعَلَيْهِ عِزَّةُ نَازِلُونَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا نَقْتُلُ هَؤُلَاءِ وَنَغْدُو عَلَى أَمِيرِنَا فَيُعْطِينَا شِيْبًا، فَقَالَ أَحْوَالُهُ مِنْ بَنِي نَصْرٍ: لَا نَسَاعِدُكُمْ عَلَى قَتْلِ ابْنِ أَخِيْنَا، فَتَهَضَّتْ عِزَّةُ فَتَقْتُلُوهُمْ وَأَتُوا بِرُؤُوسِهِمْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ، فَلِذَلِكَ أُنْزِلَ بِهِمْ بِأَقْبَا وَفُرِضَ لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ فَرَانِضٌ إِلَّا قَلِيلَةً، فَقَالَ سَلَامَةُ أَخُو فَضَالَةَ يَذْكُرُ قَتْلَ أَخِيهِ وَخِذْلَانِ أَحْوَالِهِ إِيَّاهُ :

وَمَا خِلْتُ أَحْوَالَ الْفَتَى يَسْلُمُونَهُ لَوْعَ السَّلَاحِ قَبْلَ مَا فَعَلْتُ نَصْرًا وَكَانَ خُرُوجُ فَضَالَةَ قَبْلَ خُرُوجِ صَالِحٍ. فَاجَابَهُ شِيْبِيٌّ، فَخَرَجَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى عِزَّةَ، فَجَعَلَ يَقْتُلُ مُحَلَّةً بَعْدَ مُحَلَّةٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى فَرِيقٍ مِنْهُمْ فِيهِمْ خَالَتُهُ قَدْ أَكْبَتْ عَلَى ابْنِ لَهَا، وَهُوَ غُلَامٌ حِينَ احْتَلَمَ، فَاخْرَجَتْ ثَدْيِيهَا وَقَالَتْ: أُنْشِدْكَ بِرَحْمِ هَذَا يَا سَلَامَةُ! فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فَضَالَةَ مَذَانَا بِأَصْلِ الشَّجَرَةِ، يَعْنِي أَخَاهُ، لَتَقْوِيَنَّ عَنْهُ أَوْ لَا جَمْعَتُكُمْ بِالرَّمْحِ! فَقَامَتْ عَنْهُ فَقَتَلَهُ. (٣٩٨/٤)

ذكر مسير شيب إلى بني شيبان وإيقاعه بهم

ثُمَّ أَقْبَلَ شِيْبِيٌّ فِي خِيَلِهِ نَحْوَ رِذَاذَانَ، فَهَرَبَ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي شِيَّانَ وَمَعَهُمْ نَاسٌ مِنْ غَيْرِهِمْ قَلِيلٌ حَتَّى نَزَلُوا دَيْرَ خُرَزَادَ إِلَى جَنْبِ خَزَلَايَا، وَهُمْ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَشِيْبِيٌّ فِي نَحْوِ سَبْعِينَ رَجُلًا أَوْ يَزِيدُونَ قَلِيلًا، فَنَزَلَ بِهِمْ فَتَحَصَّنُوا مِنْهُ.

ثُمَّ إِنَّ شِيْبِيًّا سَرَى فِي اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا إِلَى أُمِّهِ، وَكَانَتْ فِي

فَلَمْ يَلْتَقُوا، فَاتَّبَعُوهُ، فَلَمَّا جَاوَزُوا الْكَمِينَ رَجَعَ عَلَيْهِمْ شِيْبِيٌّ وَخَرَجَ (٤٠٠/٤) أَخُوهُ فِي الْكَمِينَ فَانْهَزَمَ النَّاسُ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَثَبَتَ سَفِيَانٌ فِي نَحْوِ مَنْ مَاتَتْ رَجُلٌ، فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا، وَحَمَلَ سُؤْيِدَ بْنَ سُلَيْمٍ عَلَى سَفِيَانَ قَطَاعَهُ، ثُمَّ تَضَارَبَا بِالسُّيُوفِ وَاعْتَنَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، فَوَقَعَا إِلَى الْأَرْضِ. ثُمَّ تَحَاجَزَا وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ شِيْبِيٌّ فَانْكَشَفُوا، وَأَتَى سَفِيَانَ غُلَامٌ لَهُ فَتَزَلَّ عَنْ دَائِيَّتِهِ وَأَرْكَبَهُ وَقَاتَلَ دُونَهُ، فَقَتَلَ الْغُلَامَ وَنَجَا سَفِيَانٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَابِلٍ مَهْرُودٌ، وَكُتِبَ إِلَى الْحِجَاجِ بِالْخَبَرِ وَيَعْرِفُهُ وَصُولُ الْجَنْدِ إِلَّا سُورَةَ بَنِي الْخُرَّ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ مَعِيَ الْقِتَالَ، فَلَمَّا قَرَأَ الْحِجَاجُ الْكِتَابَ أَتَنَى عَلَيْهِ.

ذكر الوقعة بين شبيب وسورة بن الحر

رجلاً، ففرقهم أربع فرق، على كل أربعين رجل من أصحابه، فجعل أخاه مصاداً في أربعين، وسويد بن سليم في أربعين، والمحلل بن وائل في أربعين، وبقي هو في أربعين، وأتته عيونه فاختبروه أن الجزل يذير يزدجرد، فأمر شبيب أصحابه فعلقوا على دوابهم، ثم سار بهم وأمر كل رأس من أصحابه أن يأتي الجزل من جهة ذكرها له، وقال: إني أريد أن أتيه؛ وأمرهم بالجد في القتال؛ فسار أخوه فاتته إلى فيز الخزارة، فرأى للجزل مسلحة مع ابن أبي لُبنة، فحمل عليهم مصاد في أربعين رجلاً، فقاتلوه ساعة ثم اندفعوا بين يديه، وقد أدركهم شبيب، فقال: اركبوا أكتافهم لتدخلوا عليهم عسكريهم إن استطعتم.

واتبعوهم ملحين فاتتهوا إلى عسكريهم، فممنهم أصحابه من دخول خندقهم، وكان للجزل مسالح أخرى، فرجعت فممنهم من دخول الخندق، وقال: انضحوا عنكم بالنبل. وجعل شبيب يحمل على المسالح حتى اضطروهم إلى الخندق، ورشقهم أهل العسكر بالنبل. فلما رأى شبيب أنه لا يصل إليه قال لأصحابه: سيروا ودعوهم. فمضى على الطريق ثم نزل هو وأصحابه فاستراحوا، ثم أقبل بهم راجعاً إلى الجزل أيضاً على التعية الأولى وقال: أطيفوا بعسكريهم. فأقبلوا وقد أدخل أهل العسكر مسالحهم إليهم وقد أمنوا، فما شعروا إلا بوقع حوافر الخيل، فاتتهوا إليهم قبل الصبح واحاطوا بعسكريهم من جهاته الأربع فقاتلوه.

ثم إن شبيباً أرسل إلى أخيه مصاد، وهو يقاتلهم من نحو الكوفة، أن أقبل إلينا وخل لهم الطريق، ففعل، وقاتلوه من الوجوه الثلاثة حتى أصبحوا، (٤٠٣/٤) فسار شبيب وتركهم ولم يظفر بهم فنزل على ميل ونصف ثم صلى الغداة ثم سار إلى جرجرايا.

وأقبل الجزل في طلبهم على تعية ولا ينزل إلا في خندق. وسار شبيب في أرض جوحى وغيرها يكسر الخراج، فطال ذلك على الخجاج، فكتب إلى الجزل يُكر عليه إبطاءه ويأمره بمناهضتهم، فجاء في طلبهم، وبعث الخجاج سعيد بن مجالد على جيش الجزل وأمره بالجد في قتال شبيب وترك المطاولة.

فوصل سعيد إلى الجزل، وهو بالنهروان قد خندق عليه، وقام في العسكر ويؤخهم وعجزهم، ثم خرج وأخرج معه الناس وضم إليه خيول أهل العسكر ليسير بهم جريدة إلى شبيب ويترك الباقيين مكانهم، فقال له الجزل: ما تريد أن تصنع؟ قال: أقدم على شبيب في هذه الخيل. فقال له الجزل: أقم أنت في جماعة الناس فارسهم وراجلهم وأبرز لهم، فوالله لا يقدمن عليك، ولا تفرق أصحابك. فقال: قف أنت في الصف. فقال الجزل: يا سعيد ليس لي في ما صنعت رأي، أنا بريء منه.

فلما وصل كتاب سفيان إلى الخجاج كتب إلى سورة بن الحر يلومه ويتهدده ويأمره أن يتخب من المدائن خمسمائة فارس ويسير بهم ويمن معه إلى شبيب. ففعل ذلك سورة وسار نحو شبيب، وشبيب يجول في جوحى، وسورة في طلبه، حتى انتهى إلى المدائن، فتحصنوا منه، وأخذ منها دواب وقتل من ظهر له، فأتى فليل له: هذا سورة قد أقبل، فخرج حتى أتى النهروان، فصلوا وترحموا على أصحابهم الذين قتلهم علي وتبرأوا من علي وأصحابه. وأخبرت سورة عيونه بمنزل شبيب، فدعا أصحابه فقال: إن شبيباً لا يزيد على مائة رجل، وقد رأيت أن أنتخبكم فأسير في ثلاثمائة رجل من شجعانكم فأتيه وهو آمن بياتكم، فإني أرجو من الله أن يصرحهم. فأجابوه إلى ذلك، فانتخب ثلاثمائة وسار بهم نحو النهروان، وبات شبيب وقد أذكى الحرس، فلما دنا أصحاب سورة علموا بهم فاستروا على خيولهم وتعبدوا تعبتهم للحرب، فلما انتهى إليهم سورة رآهم قد حذروا، فحمل عليهم، فقتلوا له وضاربوهم، وصاح شبيب بأصحابه فحملوا عليهم حتى تركوا العرصة، وشبيب يقول: (٤٠١/٤)

مَنْ يَكُ الْقَرْيَ تَكُ نَاكَا جَنْدَلْتَانِ اصْطَلَكَا اصْطَلَكَا
فرجع سورة إلى عسكريه وقد هزم الفرسان وأهل القوة، فتحمل بهم وأقبل نحو المدائن واتبه شبيب يرجو أن يدركه فيصيب عسكريه. فوصل إليهم وقد دخل الناس المدائن، وخرج ابن أبي المُصَيَّر أمير المدائن في أهل المدائن فرموا أصحاب شبيب بالنبل والحجارة، فارتفع شبيب عن المدائن فرم على كلواذى فأصاب بها دواب كثيرة للخجاج، فأخذها ومضى إلى تكريت، وأرجف الناس المدائن بوصول شبيب إليهم، فهرب من بها من الجند نحو الكوفة، وكان شبيب بتكريت، ولأم الخجاج سورة وحجسه ثم أطلقه.

ذكر الحرب بين شبيب والجزل بن سعيد وقتل سعيد بن مجالد

فلما قدم الفل الكوفة ستر الخجاج الجزل بن سعيد بن شُرْحِبِيل الكندي، واسمه عثمان، نحو شبيب، وأوصاه بالاحتياط وترك العجلة، فقال له: لا تبعث معي من الجند المهزوم أحداً فإنهم قد دخلهم الرعب ولا يتفجع بهم المسلمون. قال: قد أحسنت. فأخرج معه أربعة آلاف، فساروا معه، فقدم الجزل بين يديه عياض بن أبي لُبنة الكندي، فساروا في طلب شبيب، وجعل شبيب يري الهيئة له فيخرج من رستاق إلى رستاق ولا يقيم إرادة أن يفرق الجزل أصحابه فيلقاه وهو على غير تعية. فجعل الجزل لا يسير إلا على تعية ولا ينزل إلا خندق على نفسه. (٤٠٢/٤)

فلما طال ذلك على شبيب دعا أصحابه وكانوا مائة وستين

ووقف الجزلُ فصَفَّ أهل الكوفة وقد أخرجهم من الخندق. وتقدم سعيد بن مجالد معه الناس، وقد أخذ شبيبٌ إلى قطيظيا فدخلها، وأمر دهقاناً أن يصلح لهم غداء، ففعل وأغلق الباب، فلم يفرغ من الغداء حتى أتاه سعيد في ذلك العسكر، فأقبل الدهقانُ فأعلم شبيباً بهم، فقال: لا بأس، قَرَّبَ الغداء، فقرَّبه، فأكل وتوضأ وصلى ركعتين وركب بغلاً له وخرج عليه، وسعيد على باب المدينة، فحمل عليهم فقال: لا حُكْم إِلَّا للحَكَم. [الحَكَم] أنا أبو مُدْلَه، اثبتوا إن شئتم. (٤٠٤/٤)

وجعل سعيد يقول: هؤلاء إنما هم أكلة رأس، وجعل يجمع خيله ويرسلها في أثر شبيب، فلما رأى شبيبُ تفرقهم جمع أصحابه وقال: استعرضهم فوالله لأقتلن أميرهم أو ليقتلني، وحمل عليهم مستعرضاً، فهزمهم، وثبت سعيد ونادى أصحابه، فحمل عليه شبيبُ فضربه بالسيف فقتله، وانهزم ذلك الجيشُ وقتلوا [كلَّ قَتْلَةٍ] حتى انتهوا إلى الجزل، فناداهم: أيها الناس إليّ إليّ! وقاتل قتالاً شديداً حتى حُمل من بين المقتلى جريحاً، وقدم المنهزمون الكوفة، وكتب الجزلُ إلى الحجاج بالخبر ويُخبره بقتل سعيد وأقسام بالمدائن، وكتب إليه الحجاج يشي عليه ويشكره، وأرسل إليه حَيَّان بن أبجر ليدأوي جراحته وألغى درهم لينفقها، وبعث إليه عبد الله بن أبي عَصِيْفَر بألف درهم، فكان يعوده ويتعاهده بالهدية.

وسار شبيبٌ نحو المدائن، فعلم أنه لا سبيل [له] إلى أهلها مع المدينة، فأقبل حتى انتهى إلى الكرخ فعبر دجلة إليها، فأرسل إلى سوق بغداد فأمنهم، وكان يوم سرقهم، وبلغه أنهم يخافونه، واشترى أصحابه دوابً وأشياء يريدونها.

ذكر مسير شبيب إلى الكوفة

ثم سار شبيبٌ إلى الكوفة فنزل عند حمَّام عُمَيْر بن سعد، فلما بلغ الحجاجُ مكانه بعث سُوَيْد بن عبد الرحمن السعدي في ألفي رجل إليه، وقال له: اتق شبيباً فإن استطرد لك فلا تتبعه.

فخرج وعسكر بالسبخة، فبلغه أن شبيباً قد أقبل فسار نحوه، فكأنما يساقون إلى الموت، فأمر الحجاجُ عثمان بن قُطْن فعسكر بالناس في السبخة، وسار سويد إلى زُرارة فهو يغيث أصحابه إذ قبل قد أتاك شبيب، فنزل ونزل معه جلُّ أصحابه، فأخبر أن شبيباً قد تركك وعبر الفرات وهو يريد الكوفة من (٤٠٥/٤) وجه آخر، فنادى في أصحابه فركبوا في آثارهم، وبلغ من السبخة من عثمان إقبالُ شبيب إليهم، فصاح بعضهم ببعض وهموا أن يدخلوا الكوفة حتى قبل لهم: إن سُوَيْداً في آثارهم قد لحقهم وهو يقتلهم، وحمل شبيبٌ على سُوَيْد ومن معه حملةً منكرة، فلم يقدر منهم على شيء، وأخذ على بيوت الكوفة نحو الحيرة، وذلك عند المساء، وتبعه سويدٌ إلى الحيرة، فرأه قد ترك الحيرة وذهب، فتركه

سويد وأقام حتى أصبح، وأرسل إلى الحجاج يُعلمه بمسير شبيب.

ذكر محاربة شبيب أهل البادية

وكتب الحجاجُ إلى سُوَيْد يأمره باتباعه، فأتبعه، ومضى شبيبٌ حتى أغار أسفل الفرات على مَنْ وجد من قومه وارتفع في البرِّ وراء خَفَّان فأصاب رجالاً من بني الورقة، فقتل منهم ثلاثة عشر رجلاً، منهم حنظلة بن مالك، ومضى شبيب حتى أتى بني أبيه على اللصِّف، وعلى ذلك الماء الفُزْر بن الأسود، وهو أحد بني الصلت، وكان ينهى شبيباً عن رأيه، وكان شبيبٌ يقول: لنن ملكتُ سبعة أعنة لأغزوَن الفُزْر، فلما بلغهم خبرُ شبيب ركب الفُزْر فرساً وخرج من وراء البيوت وانهزم منه الرجال ورجع وقد أخاف أهل البادية فأخذ على القُطْقُطانة ثم على قصر بني مُقاتل ثم على الحَصَاصَة ثم على الأبار، (٤٠٦/٤) ومضى حتى دخل دُقوقاء، ثم ارتفع إلى أداني أذربيجان.

فلما أبعد سار الحجاجُ إلى البصرة واستخلف على الكوفة عُرْوَة بن المغيرة بن شُعْبة. فما شعر الناسُ إلّا وقد أتاهاهم كتابُ دهقان بابل مَهْرُود إلى عروة يذكر له أن بعض جُباة الخراج أخبره أن شبيباً قد نزل خانيجار، وهو على قصد الكوفة، فأرسل عروة الكتابُ إلى الحجاج بالبصرة، فأقبل مجدداً نحو الكوفة يسابق شبيباً إليها.

ذكر دخول شبيب الكوفة

وأقبل شبيبٌ إلى قرية اسمها خَرْبِي، فقال: حربٌ يصلى بها عدوكم، ثم سار فنزل عَقْرُوق، فقال له سُوَيْد بن سُلَيْم: يا أمير المؤمنين لو تحولت من هذه القرية المشؤومة الاسم. قال: وقد تطيرت أيضاً! والله لا أسير إلى عدوي إلا منها، إنما شؤمها على عدونا والعقر لهم، إن شاء الله.

ثم سار منها يبادر الحجاجُ إلى الكوفة، وكانت كتب عروة ترد عليه، أعني الحجاجُ، يحثه على العجل إليه، فطوى الحجاجُ المنازل، فنزلها الحجاجُ صلاة العصر، ونزل شبيبٌ بالسبخة صلاة المغرب، فأكلوا شيئاً ثم ركبوا خيولهم فدخلوا الكوفة وبلغوا السوق، وضرب شبيب باب القصر بعموده فأثر فيه أثراً عظيماً، ثم وقف عند المصطبة وقال:

عَبْدُ دَعْيٍ مِنْ مُسَوِّدٍ أَمْلُهُ لَا بَلْ يُقَالُ أَبُو إِيهِمْ يُقَدِّمُ
يعني الحجاجُ؛ فَإِنَّ بعض الناس يقول: إِنَّ ثَقِيفاً بقايا مُثَمود، وبعضهم (٤٠٧/٤) يقول: هم من نَسْلِ يَدْعَم الإيادي.

ثم اقتحموا المسجد الأعظم، وكان لا يزال فيه قوم يصلون، فقتلوا عَقِيل بن مصعب الدواعي وعدي بن عمرو الثقفي وأبا ليث بن أبي سُلَيْم ومروءا بدار خَوْشَب، وهو على الشرط، فقالوا: إِنَّ الأمير يطلبه، فأراد الركوب ثم أنكرهم فلم يخرج إليهم، فقتلوا

غلامه، ثم أتى الجحاف بن نبيط الشيباني فقال له: انزل لتفزيك ثمن البكرة التي اشتريت منك بالبادية. فقال الجحاف: أما ذكرت أمانتك إلا والليل أظلم وأنت على فرسك يا سويد؟ قبح الله ديناً لا يصلح إلا بإراقة الدماء وقتل القرابة.

ثم مروا بمسجد دُخل فراوا دُخل بن الحارث، وكان يطيل الصلاة فيه، فقتلوه، ثم خرجوا من الكوفة فاستقبلهم النضر بن قَعْقاع بن شُور الذُهلي، فقال له: السلام عليك أيها الأمير. فقال له سويد: أمير المؤمنين وملك! فقال: أمير المؤمنين. فقال له شيب: يا نضر لا حكم إلا لله، وأراد يلعنه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فشذ أصحاب شيب عليه فقتلوه، وكان قد أقبل مع الحجاج من البصرة فتخلف عنه وكانت أم النضر ناجية بنت هاني ابن قبيصة الشيباني، فاحب شيب نجاته.

ثم خرجوا نحو المردمة وأمر الحجاج منادياً فنادى: يا خيل الله اركبي، وهو فوق باب القصر، وعنده مصباح، فكان أول من أناه عثمان بن قطن ابن عبد الله بن الحُصَيْن ذي القُصَّة، فقال: أعلموا الأمير بمكاني. فقال له (٤٠٨/٤) غلام للحجاج: قِفْ بمكانك. وجاء الناس من كل جانب.

ثم إن الحجاج بعث بشر بن غالب الأسدي في ألفي رجل، وزائدة بن قدامة الثقفي في ألفي رجل، وأبى الصُرثميس مولى بني تميم في ألفي رجل، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر وزباد بن عمرو العنكي.

وكان عبد الملك بن مروان قد استعمل محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله على سجستان، وكتب إلى الحجاج ليجهزه ويسيره سريعاً في ألف رجل إلى عمله، فأقام يتجهز، وحدث من أمر شيب ما حدث، فقال له الحجاج: تلقى شيباً وهذه الخارجة فتجاهدهم ويكون الظفر لك ويطير اسمك ثم تمضي إلى عملك. فسيره معهم، وقال لهؤلاء الأمراء: إن كان حرب فأمركم زائدة بن قدامة. فسار هؤلاء الأمراء فنزلوا أسفل الفرات، فترك شيب الوجه الذي هم فيه وأخذ نحو القادسية.

ذكر محاربة شيب زحر بن قيس

ووجه الحجاج جريدة خيل نقاة ألف وثمانمائة فارس مع زحر بن قيس، وقال له: اتبع شيباً حتى تواقعه أين أدركته إلا أن يكون ذاهباً فاتركه ما لم يعطف عليك أو يقيم. فخرج زحر حتى انتهى إلى السلميين، وأقبل شيب نحوه، فالتقيا، فجمع شيب خيله ثم اعترض بهم الصف حتى انتهى إلى زحر، فقاتل زحر حتى صرع وانهزم أصحابه وظنوا أنهم قتلوه، فلما كان السحر وأصابه البرد قام يتمشى حتى دخل قرية فبات بها وحمل منها إلى الكوفة (٤٠٩/٤) وبوجهه وبرأسه بضع عشرة جراحة، فمكث أياماً ثم أتى الحجاج

فأجلسه معه على السرير، وقال لمن حوله: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين الناس وهو شهيد فليَظنر إلى هذا.

ذكر محاربة الأمراء المقدم ذكرهم وقتل محمد بن موسى بن

طلحة

فلما هزم أصحاب زحر قال أصحاب شيب لشيب: قد هزمتنا لهم جنداً، انصرف بنا الآن وافزين. فقال لهم: هذه الهزيمة قد أربعت هؤلاء الأمراء والجنود الذين في طلبكم، فاقصدوا بنا نحوهم فوالله لئن قاتلناهم فما دون الحجاج مانع ونأخذ الكوفة إن شاء الله تعالى. فقالوا: نحن لزايك تبع.

فسار وسال عن الأمراء فأخبر أنهم برؤذبار على أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة، فقصدهم، فأرسل إليهم الحجاج يعلمهم بمسيره ويقول لهم: إن أمير الجماعة زائدة بن قدامة.

وانتهى إليهم شيب وقد تعبوا للحرب، فكان على ميمنة أهل الكوفة زياد بن عمرو العنكي، وفي مسيرتهم بشر بن غالب الأسدي، وكل أمير واقف في أصحابه، وأقبل شيب على فرس كميث أغر في ثلاث كتائب، كتيبة فيها سويد بن سليم، فوقف بإزاء الميمنة، وكتيبة فيها مصاد، آخر شيب، فوقف بإزاء الميسرة، ووقف شيب مقابل القلب. (٤١٠/٤)

فخرج زائدة بن قدامة يسير في الناس ويحثهم على الجهاد لعدوهم والقتال ويطعمهم في عدوهم لقلته وباطله وكثرتهم وأنهم على الحق، ثم انصرف إلى موقفه، فحمل سويد بن سليم على زياد بن عمرو، فانكشفوا وثبت زياد في نحو من نصف أصحابه، ثم ارتفع عنهم سويد قليلاً ثم حمل عليهم ثانية، فقطعتوا ساعة وصبر زياد ساعة وقاتل زياد قتالاً شديداً وقاتل سويد أيضاً قتالاً شديداً، وإنه لأشجع العرب، ثم ارتفع سويد عنهم وإذا أصحاب زياد يتفرقون، فقال لسويد أصحابه: ألا تراهم يتفرقون؟ أحمل عليهم. فقال لهم شيب: خلّوهم حتى يخفوا، فتركهم قليلاً ثم حمل الثالثة فانهزموا، وأخذت زياد بن عمرو السيوف من كل جانب، فما ضره منها شيء لليسة التي عليه، ثم إنه انهزم وقد جرح جراحة يسيرة، وذلك عند المساء.

ثم حملوا على عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر فهزموه، ولم يقاتل كثيراً، ولحق بزباد بن عمرو، فمضيا منهزمين، وحملت الخوارج حتى انتهت إلى محمد بن موسى بن طلحة عند المغرب فقاتلوه قتالاً شديداً وصبر لهم، ثم إن مصاداً أخا شيب حمل على بشر بن غالب وهو في ميسرة أهل الكوفة، فصرى بشر ونزل ونزل معه نحو خمسين رجلاً، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم أصحابه.

طريقه وأنه قد أعياك وترجو أن يريح الله منه على يده فيكون له ذكره وفخره.

ف فعل الحجاج ذلك، فأجابه محمد وعدل إلى شبيب، فأرسل إليه شبيب: إنك مخدوع وإن الحجاج قد اتقى بك وأنت جاز لك حق، فانطلق لما أمرت به ولك الله لا أؤذيك. فأبى إلا محاربتة، فواقفه شبيب وأعاد إليه الرسول، فأبى وطلب البراز، فبرز إليه البطين بن قنعب وسويد بن سليم، فأبى إلا شبيباً، فقالوا ذلك لشبيب، فبرز شبيب إليه وقال له: أنشدك الله في دمك فإن لك جواراً، فأبى، فحمل شبيب عليه فضربه بعمود حديد وزنه اثنا عشر رطلاً بالشامي، فهشم البيضة ورأسه، فسقط ميتاً، ثم كفه ودفنه وابتاع ما غنموا من عسكره فبعته إلى أهله واعتذر إلى أصحابه، وقال: هو جاري ولي أن أهب ما غنمت لأهل الردة. (٤١٣/٤)

ذكر محاربة شبيب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وقتل عثمان بن قطن

ثم إن الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وأمره أن ينتخب من الناس ستة آلاف فارس ويسير في طلب شبيب أين كان، ففعل ذلك وسار نحوه، وكتب الحجاج إليه وإلى أصحابه يتهددهم بالقتل والتكيد إن انهزموا. فوصل عبد الرحمن إلى المدائن، فأتى الجزل يعود من جراحته، فأوصاه الجزل بالاحتياط وحذره من شبيب وأصحابه وأعطاه فرساً كانت له تسمى الفستيفاء، وكانت لا تجاري، ثم ودعه عبد الرحمن وسار إلى شبيب.

فسار شبيب إلى دقوقاء وشهزور، فخرج عبد الرحمن في طلبه حتى إذا كان بالتخوم وقف وقال: هذه أرض الموصل فليقاتلوا عنها. فكتب إليه الحجاج: أما بعد فاطلب شبيباً واسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فتقتله أو تنفيه، فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجند جنده، والسلام.

فخرج عبد الرحمن في أثر شبيب، فكان شبيب [فكان شبيب] يدعه حتى يدنو منه فيبته فيجده قد خندق على نفسه وحذر، فبتركه ويسير، فيتبعه عبد الرحمن. فإذا بلغ شبيباً مسيره أتاهاهم وهم سائرون فيجدهم على تعبئة فلا يصيب منه غيرة، ثم جعل إذا دنا منه عبد الرحمن يسير عشرين فرسخاً أو ما يقاربها فينتزل في أرض خشنة غليظة ويتبعه عبد الرحمن، فإذا دنا منه فعل مثل ذلك حتى عذب ذلك (٤١٤/٤) الجيش وشق عليه وأخفى دوابهم ولقوا منه كل بلاء، ولم يزل عبد الرحمن يتبعه حتى مر به على خائفتين وجنولاء وسامراء، ثم أقبل إلى البتة، وهي من قرى الموصل، ليس بينها وبين سواد الكوفة إلا نهر خولاي، وهو في راذان الأعلى من أرض جوحى، ونزل عبد الرحمن في عواقل من النهر لأنها مثل الخندق.

وحملت الخوارج على أبي الضريس مولى بني تميم، وهو يلي بشر بن غالب، فهزموه، حتى انتهى إلى موقف أعين فهزموهما، حتى انتهوا بهما إلى زائدة بن قدامة، فلما انتهوا إليه نادى: يا أهل الإسلام! الأرض الأرض، لا يكونوا على كفرهم أصبر منكم على إيمانكم. فقاتلهم عامة الليل حتى كان السحر.

ثم إن شبيباً حمل عليه في جماعة من أصحابه فقتله وقتل أصحابه وتركهم ربيعة حوله. (٤١١/٤)

ولما قتل زائدة دخل أبو الضريس وأعين جوسقاً عظيماً، وقال شبيب لأصحابه: ارفعوا السيف [عن الناس] وادعوه إلى البيعة. فدعوه إلى البيعة عند الفجر فبايعوه. وكان فيمن بايعه أبو برة بن أبي موسى، فقال شبيب لأصحابه: هذا ابن أحد الحكمين. فأرادوا قتله، فقال شبيب: ما ذنب هذا؟ وتركه، وسلموا على شبيب بإمرة المؤمنين وخلق سبيلهم، فبقوا كذلك حتى انفجر الفجر، فلما ظهر الفجر أمر محمد بن موسى مؤذنه فأذن، وكان لم يهزم، فسمع شبيب الأذان فقال: ما هذا؟ قالوا: محمد بن موسى بن طلحة لم يبرح. فقال: قد ظننت أن حمقه وخيلاءه يحمله على هذا. ثم نزل شبيب فأذن هو وصلى بأصحابه الصبح ثم ركعوا فحملوا على محمد وأصحابه، فانهزمت طائفة منهم وثبتت معه طائفة، فقاتل حتى قتل، وأخذت الخوارج ما كان في العسكر وانهزم الذين كانوا بايعوا شبيباً فلم يبق منهم أحد.

ثم أتى شبيب الجوسق الذي فيه أعين وأبو الضريس فتحصنوا منه، فأقام عليهم ذلك اليوم وسار عنهم. فقال أصحابه: ما دون الكوفة أحد يمنع، فنظر وإذا أصحابه قد جرحوا، فقال لهم: ما عليكم أكثر مما فعلتم. فخرج بهم على يثر ثم على الصراة فأتى خانيجار فأقام بها. فبلغ الحجاج مسيره نحو يثر فظن أنه يريد المدائن، وهي باب الكوفة، ومن أخذها كان في يده من السواد أكثره، فهال ذلك الحجاج فبعث عثمان بن قطن أميراً على المدائن وجوخى والأنبار وعزل عنها عبد الله بن أبي عصفير، وكان بها الجزل يداوي جراحته، فلم يتعمده عثمان كما كان ابن أبي عصفير يفعل، فقال الجزل: اللهم زد ابن أبي عصفير جوداً وفضلاً، وزد عثمان بن قطن بخلاً وضيقاً. (٤١٢/٤)

وقد قيل في مقتل محمد بن موسى غير هذا، والذي ذكر من ذلك أن محمد بن موسى كان قد شهد مع عمر بن عبيد الله بن معمر قتال أبي فديك، وكان شجاعاً ذا بأس، فزوجه عمر ابنته، وكانت أخته تحت عبد الملك بن مروان، فولاه سيجستان، فمر بالكوفة وفيها الحجاج فقيل له: إن صار هذا بسجستان مع صهره، لعبد الملك، فلجأ إليه أحد ممن تطلب منعك منه. فقال: وما الحيلة؟ قال: تأتبه وتسلم عليه وتذكر نجدته وبأسه، وأن شبيباً في

رجالاً، فلما دنا منهم عثمان شدّ عليهم فيمن معه فصار يروهم حتى فرّقوا بينهم، وحمل شبيب بالخيّل من ورائهم، فما شعر عثمان ومنّ معه إلّا والراح في اكتافهم تكبّهم لوجوهم، وعطف عليهم سويد بن سُلَيْم أيضاً في خيله، ورجع مصاد وأصحابه فاضطربوا ساعة، وقاتل عثمان بن قُطْن أحسن قتال، ثمّ إنهم أحاطوا به وضربه مصاد أخو شبيب ضربة بالسيف استدار لها وقال: «وَكَاكَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً» [الأحزاب: ٣٧]، ثمّ إنّ الناس قتلوه ووقع عبد الرحمن، فأتاه ابن أبي سيرة الجُعْفِيّ، وهو على بغله، فعرفه فأركبه معه ونادى في الناس: الحقوا بدير أبي مريم؛ ثمّ انطلقا ذاهبين. (٤١٦/٤)

ورأى واصل السكوني فرس عبد الرحمن التي أعطاه الجزل تجول في العسكر، فأتاها بعض أصحاب شبيب، فظنّ أنّه قُتل فطلبه في القتلى فلم يجده، فسأل عنه فأعطي خبره، فاتبعه واصل على برذونه ومعه غلامه على بغل، فلما دنا منهما نزل عبد الرحمن وابن أبي سيرة ليقاتلا، فلما رآهما واصل عرفهما وقال: إنكما تركتما النزول في موضعه فلا تنزلا الآن وحس عمامته عن وجهه ففرقا، وقال لابن الأشعث: قد أتيتك بهذا البرذون لتركبه، فركبه وسار حتى نزل دَيْر البقار.

وأمر شبيب أصحابه فرفعوا السيف عن الناس ودعاهم إلى البيعة فبايعوه. وقُتل من كُتلة يومئذ مائة وعشرون، وقُتل معظم العرفاء.

وبات عبد الرحمن بدير البقار، فأتاه فارسان فصعدا إليه، فخلا أحدهما بعبد الرحمن طويلاً ثمّ نزلّا فتيبين أن ذلك الرجل كان شيباً، وقد كان بينه وبين عبد الرحمن مكاتبة، وسار عبد الرحمن حتى أتى دير أبي مريم، فاجتمع الناس إليه وقالوا له: إن سمع شبيب بمكانك أنك فكتت له غنيمة. فخرج إلى الكوفة واختفى من الحجاج حتى أخذ له الأمان منه.

ذكر ضرب الدراهم والدنانير الإسلامية

وفي هذه السنة ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير والدراهم وهو أوّل من أحدث ضربها في الإسلام، فانتفع الناس بذلك.

وكان سبب ضربها أنّه كتب في صدور الكتب إلى الروم: «قُتل هو» (٤١٧/٤) الله أخذ» [الإخلاص: ١]، وذكر النبي، ﷺ، مع التاريخ، فكتب إليه ملك الروم: إنكم قد أحدثتم كذا وكذا فاتركوه وإلّا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون. فعظم ذلك عليه. فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره فيه، فقال: حرّم دنانيرهم واضرب للناس سكّة فيها ذكر الله تعالى. فضرب الدنانير والدراهم.

فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن يقول: إنّ هذه الأيام عيدٌ لنا ولكم، يعني عيد النحر، فهل لك في المودعة حتى تمضي هذه الأيام؟ فأجابته إلى ذلك، وكان يحبّ المطاولة، وكتب عثمان بن قُطْن إلى الحجاج: أمّا بعد فإنّ عبد الرحمن قد حفر جُوحى كلها خندقاً واحداً وكسر خراجها وخلّى شيباً يأكل أهلها، والسلام. فكتب إليه الحجاج يأمره بالمسير إلى الجيش وجعله أميرهم وعزل عنهم عبد الرحمن، وبعث الحجاج إلى المدائن مُطَرَف بن المُغيرة بن شُعْبَةَ، وسار عثمان حتى قدم على عبد الرحمن وعسكر الكوفة، فوصل عشية الثلاثاء يوم التروية، فنادى الناس وهو على بقلة: أيها الناس اخرجوا إلى عدوكم. فوثب إليه الناس وقالوا: هذا المساء قد غشيّا والناس لم يوطنوا أنفسهم على الحرب، فبست الليلة ثمّ اخرج على تعبية، وهو يقول: لأناسجرتهم فلتكوننّ الفرصة لي أو لهم. فأتاه عبد الرحمن فأنزله.

وكان شبيب قد نزل بيعة البتّ، فأتاه أهلها فقالوا له: أنت ترحم الضعفاء وأهل الدمة ويحكمك من تلي عليه ويشكون إليك فتنتظر إليهم، وإنّ هؤلاء جبابرة لا يكلمون ولا يقبلون العذر، والله لن بلغهم أنك مقيم في بيتنا ليقتلنا إذا ارتحلت عنه، فإن رأيت أن تنزل جانب القرية ولا تجعل علينا مقالاً فافعل. فخرج عن البيعة فنزل جانب القرية.

وبات عثمان ليلته كلها يحرّض أصحابه، فلما أصبح يوم الأربعاء خرج بالناس كلّهم، فاستقبلتهم ريحٌ شديدة وغبرة شديدة، فصاح الناس وقالوا له: نشدك الله أن تخرج بنا والريح علينا. فأقام بهم ذلك اليوم، ثمّ خرج بهم يوم. (٤١٥/٤) الخميس وقد عبأ الناس، فجعل في الميمنة خالد بن نهيك بن قيس، وعلى الميسرة عقيل بن شدّاد السلولي، ونزل هو في الرّجالة، وعبر شبيب النهر إليهم، وهو يومئذ في مائة وأحد وثمانين رجلاً، فوقف هو في الميمنة وجعل أخاه مصاداً في القلب، وجعل سويد بن سُلَيْم في الميسرة، وزحف بعضهم إلى بعض.

وقال شبيب لأصحابه: أيّ حامل على ميسرتهم ممّا يلي النهر فإذا هزمتها فليحمل صاحب ميسرتي على ميمتهم ولا يتجرّح صاحب القلب حتى يأتي أمرى.

وحمل على ميسرة عثمان فانهزموا، ونزل عقيل بن شدّاد فقاتل حتى قُتل، وقُتل أيضاً مالك بن عبد الله الهمداني عمّ عيّاش بن عبد الله المتوفى، ودخل شبيب عسكرهم، وحمل سويد على ميمنة عثمان فهزمها وعليها خالد بن نهيك، فقاتله قتالاً شديداً، وحمل شبيب من ورائه فقتله.

وتقدّم عثمان بن قُطْن وقد نزل معه العرفاء وأشراف الناس والفرسان نحو القلب، وفيه مصاد أخو شبيب في نحو من ستين

الله بن خالد، وعلى قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة زُرارة بن أوفى.

وفيها غزا محمد بن مروان الروم من ناحية مَلْطِيَّة.

وفيها مات حَبَّة بن جُوَيْن الغُرنيُّ صاحب علي.

(حَبَّة بالحاء المهملة، وبالياء الموحدة، وهو منسوب إلى غُرْنَة، بالعين المهملة المضمومة، والراء المهملة، والنون). (٤١٩/٤)

سنة سبع وسبعين

ذكر محاربة شيب عتاب بن ورقاء وزُهرَة بن خُوَيْة وقتلها
وفي هذه السنة قتل شيب عتاب بن ورقاء الرّياحي وزُهرَة بن خُوَيْة.

وسبب ذلك أنّ شيباً لما هزم الجيش الذي كان وجهه الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وقتل عثمان بن قَلْن، كان ذلك في حرّ شديد، وأتى شيب مآه بهراذان فصيّف بها ثلاثة أشهر، وأتاه ناس كثير ممّن يطلب الدنيا وممّن كان الحجاج يطلبهم بمال أو تبعات. فلما ذهب الحرّ خرج شيب في نحو ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن، وعليها مطّرف بن المغيرة بن شُعْبَة، فجاء حتى نزل قناطر حُدَيْفَة بن اليمان، فكتب عظيم بابل مهورذ إلى الحجاج بذلك، فلما قرأ الكتاب قام في الناس فقال: أيها الناس لتقاتلنّ عن بلادكم وعن فينكم أو لأبعثن إلى قوم هم أطوع وأصبر على اللاواء والفيظ منكم فيقاتلون عدوكم ويأكلون فينكم.

فقام إليه الناس من كلّ جانب ومكان فقالوا: نحن نقاتلهم ونعتب الأمير، فليندبنا الأمير إليهم. وقام إليه زُهرَة بن خُوَيْة، وهو شيخ كبير لا يستمّ (٤٢٠/٤) قائماً حتى يؤخذ بيده، فقال [له]: أصّح الله الأمير، إنّما تبعث إليهم الناس متقطّعين، فاستنفر الناس إليهم كافّة وأبعث إليهم رجلاً شجاعاً معجراً ممّن يرى الفرار هضماً وعاراً، والصبر مجداً وكرماً. فقال الحجاج: فانت ذلك الرجل فاخرج. فقال زُهرَة: أصّح الله الأمير، إنّما يصلح الرجل يحمل الدرع والرمح ويهزّ السيف ويثبت على [متن] الفرس، وأنا لا أطيق من هذا شيئاً، وقد ضعف بصري [وضعت]، ولكن أخرجني مع الأمير في الناس فأكون معه وأشير عليه برأيي. فقال الحجاج: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله في أول أمرك وآخره، فقد نصحت. ثم قال: أيها الناس سيروا بأجمعكم كافّة.

فانصرف الناس يتجهّزون ولا يدرون ممّن أميرهم. وكتب الحجاج إلى عبد الملك يُخبره أنّ شيباً قد شارف المدائن وأنّه

ثم إنّ الحجاج ضرب الدراهم ونقش فيها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، فكره الناس ذلك لمكان القرآن لأنّ الجُنُب والحائض يمسّها، ونهى أن يضرب أحد غيره، فضرب سميّر اليهودي، فأخذه ليقتله، فقال له: عيار درهمي أجود من دراهمك فلم تقتلي؟ فلم يتركه، فوضع للناس سنج الأوزان ليتركه فلم يفعل، وكان الناس لا يعرفون الوزن إنّما يزنون بعضها ببعض، فلما وضع لهم سميّر السنج كفّ بعضهم عن غبن بعض.

وأول من شدّد في أمر الوزن وخلّص الفضة أبليغ من تخليص من قبله عمر بن هُبَيْرَة أيام يزيد بن عبد الملك، وجوّد الدراهم، وخلّص العيار واشتدّ فيه. ثم كان خالد بن عبد الله القسريّ أيام هشام بن عبد الملك فاشتدّ أكثر من ابن هُبَيْرَة. ثم ولي يوسف بن عمر فأفرط في الشدّة، فامتحن يوماً العيار فوجد درهماً يتقص حبة فضرب كلّ صانع ألف سوط. وكانوا مائة صانع، فضرب في حبة مائة ألف سوط. وكانت الهُبَيْرِيَّة والخالدِيَّة والبوسفِيَّة أجود نقود بني أمّية، ولم يكن المنصور يقبل في الخراج غيرها، فسُمّيت الدراهم الأولى مكروهة.

وقيل: إنّ المكروهة الدراهم التي ضربها الحجاج ونقش عليها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص، ١]، فكرهها العلماء لأجل ممّن الجُنُب والحائض. (٤١٨/٤)

وكانت دراهم الأعجام مختلفة كباراً وصغاراً، وكانوا يضربون مثقالاً، وهو وزن عشرين قيراطاً، ومنها وزن اثني عشر قيراطاً، ومنها وزن عشرة قيراط، وهي أصناف المشاقيل، فلما ضرب الدراهم في الإسلام أخذوا عشرين قيراطاً واثني عشر قيراطاً وعشرة قيراط فوجدوا ذلك اثنين وأربعين قيراطاً فضربوا على الثلث من ذلك، وهو أربعة عشر قيراطاً، فوزن الدرهم العربي أربعة عشر قيراطاً، فصار وزن كلّ عشرة دراهم سبعة مثاقيل.

وقيل: إنّ مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة أيام أخيه عبد الله بن الزبير، ثمّ كسرت بعد ذلك أيام عبد الملك.

والأول أصحّ في أن عبد الملك أول ممّن ضرب الدراهم والدنانير.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وفد يحيى بن الحكم على عبد الملك.

وفيها ولّى عبد الملك المدينة أبان بن عثمان.

وفيها ولد مروان بن محمد بن مروان.

وأقام الحجّ للناس هذه السنة أيان بن عثمان، وهو أمير المدينة. وكان على العراق الحجاج، وعلى خراسان أمّية بن عبد

يريد الكوفة وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة، [فسي كلها] يقتل أمراءهم ويهزم جنودهم؛ ويطلب إليه أن يبعث إليه جنداً من الشام يقاتلون الخوارج ويأكلون البلاد.

فلما أتى الكتاب بعث إليه عبد الملك مقيان بن الأبرد الكلبي في أربعة آلاف، وخبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ألفين. فبعث الحجاج إلى عتاب ابن ورقاء الرياحي، وهو مع المهلب، يستدعيه، وكان عتاب قد كتب إلى الحجاج يشكو من المهلب ويسأله أن يضمه إليه لأن عتاباً طلب من المهلب أن يرزق أهل الكوفة الذين معه من مال فارس، فأبى عليه وجرت بينهما منافرة فسادت تؤذي إلى الحرب، فدخل المغيرة بن المهلب بينهما فاصالح الأمر وألزم أباه برزق أهل الكوفة، فأجاباه إلى ذلك، وكتب يشكو منه.

فلما ورد كتابه سر الحجاج بذلك واستدعاه، ثم جمع الحجاج أهل (٤٢١/٤) الكوفة واستشارهم فيمن يوليه أمر الجيش، فقالوا: رأيك أفضل. فقال: قد بعثت إلى عتاب وهو قادم عليكم الليلة أو القابلة. فقال زُهرة: أيها الأمير وميتهم بحجرهم، والله لا نرجع إليك حتى نظفروا أو نقتل.

وقال له قبيصة بن وقعة: إن الناس قد تحدثوا أن جيشاً قد وصل إليك من الشام، وأن أهل الكوفة قد هزموا وهان عليهم الفرار، فقلوبهم كأنها ليست فيهم، فإن رأيت أن تبعث إلى أهل الشام ليأخذوا حذرهم ولا يبيتوا إلا وهم محتاطون فبأنك تحارب خوفاً قلباً طمعاً رَحَلاً، وقد جهزت إليهم أهل الكوفة ولست واثقاً بهم كل الثقة، وإن شبيباً بينا هو في أرض إذا هو في أخرى، ولا آمن أن يأتي أهل الشام وهم آمنون، فإن يهلكوا نهلك ويهلك العراق.

قال له: لله أبوك ما أحسن ما أشرت به! وأرسل إلى أهل الشام يحذروهم ويأمرهم أن يأتوا على عين التمر، ففعلوا.

وقدم عتاب بن ورقاء تلك الليلة، فبعثه الحجاج على ذلك الجيش، فعسكر بحمام أعين، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كلواذي فقطع فيها دجلة، ثم سار حتى نزل مدينة بَهْرَسِير الدنيا، فصار بينه وبين مطرف [جسر] دجلة، وقطع مطرف الجسر وبعث إلى شبيب: أن ابعث إلي رجلاً من وجوه أصحابك أدارسهم القرآن وأنظر فيما يدعون إليه. فبعث إليه قُتَيْب بن سُوَيْد والمُحَلَّل وغيرهما، وأخذ منه رهائن إلى أن يعودوا، فأقاموا عنده أربعة أيام ثم لم يتفقوا على شيء. فلما لم يتبعه مطرف نهياً للمسير إلى عتاب وقال لأصحابه: إني كنت عازماً أن آتي أهل الشام جريدة والقاهم على غيرة قبل أن يتصلوا بأمير (٤٢٢/٤) مثل الحجاج ومصر مثل الكوفة، فثبطني عنهم مطرف، وقد جاءتني عيوني فأخبروني أن أولائهم قد دخلوا عين التمر فهم الآن قد شارفوا الكوفة، وقد أخبروني أن عتاباً ومن

معه بالبصرة، فما أقرب ما بيننا وبينه، فتيسروا للمسير إلى عتاب. وخاف مطرف بن المغيرة أن يبلغ خبره مع شبيب إلى الحجاج، فخرج نحو الجبال. فأرسل شبيب أخاه مَصَاداً إلى المدائن وعقد الجسر، وأقبل عتاب إليه حتى نزل بسوق حكمة، وقد خرج معه من المقاتلة أربعون ألفاً، ومن الشباب والأتباع عشرة آلاف، فكانوا خمسين ألفاً، وكان الحجاج قد قال لهم حين ساروا: إن للسان المجتهد الكرامة والأثرة، وللهابر الهوان والجفوة، والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذه المواطن كفعلكم في المواطن الآخر لأولينكم كنفاً خشناً، ولأعزكنكم بكل كل ثقل.

فلما بلغ عتاب سوق حكمة أتاه شبيب، وكان أصحابه بالمدائن ألف رجل، فحتمهم على القتال، وسار بهم، فتخلف عنه بعضهم، ثم صلى الظهر بسباط وصى العصر ومار حتى أشرف على عتاب وعسكره، فلما رآهم نزل فصلى المغرب، وكان عتاب قد عبأ أصحابه، فجعل في الميمنة محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس، وقال: يا ابن أخي إنك شريف صابر. فقال: والله لأصبرن ما ثبت معي إنسان. وقال لقبيصة بن وقعة الثعلبي: اكفي الميسرة. فقال: أنا شيخ كبير لا أستطيع القيام إلا أن أقام، فجعل عليها نُعَيْم بن عُثَيْم، وبعث حنظلة بن الحارث الربوعي، وهو ابن عمه وشيخ أهل بيته، على الرجال، وصفهم ثلاثة صفوف: صف فيهم أصحاب السيوف، وصف فيهم أصحاب الرماح، وصف فيهم الرماة، ثم سار في الناس يحرضهم (٤٢٣/٤) على القتال ويقص عليهم، ثم قال: أين القصاص؟ فلم يجبه أحد. ثم قال: أين من يروي شعر عنترة؟ فلم يجبه أحد. فقال: إنا لله، كأتي بكم قد فررت من عتاب بن ورقاء وتركتموه تسفي في استه الريح!

ثم أقبل حتى جلس في القلب ومعه زُهرة بن خويصة جالس وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وأبو بكر بن محمد بن أبي جهنم القُدَوِي. وأقبل شبيب وهو في ستمائة وقد تخلف عنه من أصحابه أربعمائة، فقال: لقد تخلف عنا من لا أحب أن يَرَى فينا، فجعل سُوَيْد بن سُلَيْم في مائتين في الميسرة، وجعل المُحَلَّل بن وائل في مائتين في القلب، ومضى هو في مائتين إلى الميمنة بين المغرب والجناء الأخيرة حين أضاء القمر، فناداهم: لمن هذه الرايات؟ فقالوا: رايات لربيعة. قال: طالما نصرت الحق وطالما نصرت الباطل، والله لأجاهدكنم محتسباً، أنا شبيب، لا حكم إلا لله، للحكم، اثبتوا إن شئتم! ثم حمل عليهم ففضهم، فثبت أصحاب رايات قبيصة بن وقعة وعبيد بن الحُكَيْس ونُعَيْم بن عُثَيْم فقتلوا، وانهمزت الميسرة كلها، ونادى الناس من بني ثعلبة: قتل قبيصة! وقال شبيب: قتلتموه، ومثله كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. ثم وقف عليه وقال: ويحك لو ثبتت على إسلامك الأول سعدت!

ذكر قلوب شيب الكوفة أيضاً وانهمزها عنها

ثم سار شيب من سورا فنزل حمام أعين، فدعا الحجاج
الحارث بن معاوية الثقفي فوجهه في ناس من الشرط لم يشهدوا
يوم عتاب وغيرهم، فخرج في نحو ألف فنزل زرارة، فبلغ ذلك
شيباً فجعل إلى الحارث بن معاوية، فلما انتهى إليه حمل عليه
فقتله وانهمز أصحابه، وجاء المنهزمون فدخلوا الكوفة، وجاء
شيب فمسك بناحية الكوفة وأقام ثلاثاً، فلم يكن في اليوم الأول
غير قتل الحارث.

فلما كان اليوم الثاني أخرج الحجاج مواليه فأخذوا بأفواه
السكك، وجاء (٤٢٦/٤) شيب فنزل السبخة وابتنى بها مسجداً،
فلما كان اليوم الثالث أخرج الحجاج أبا الورد موله عليه تجفاف
ومعه غلمان له وقالوا: هذا الحجاج، فحمل عليه شيب فقتله،
وقال: إن كان هذا الحجاج فقد أرحمكم منه.

ثم أخرج الحجاج غلامه طهمان في مثل تلك العدة والحالة،
فقتله شيب وقال: إن كان هذا الحجاج فقد أرحمكم منه.

ثم إن الحجاج خرج ارتفاع النهار من القصر فطلب بئلاً يركبه
إلى السبخة، فأتى ببغل، فركبه ومعه أهل الشام، فخرج، فلما رأى
الحجاج شيباً وأصحابه نزل، وكان شيب في ستمائة فارس، فأقبل
نحو الحجاج، وجعل الحجاج سيرة بن عبد الرحمن بن مخنف
على أفواه السكك في جماعة الناس، ودعا الحجاج بكرسي فقعده
عليه ثم نادى: [يا] أهل الشام أستم أهل السمع والطاعة [والصبر]
واليقين فلا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم، غصوا الأبصار
واجنوا على الركب واستقبلوهم بأطراف الأسنة. ففعلوا وأشرعوا
الرماح، وكأنهم حرة سوداء، وأقبل شيب في ثلاثة كراديس، كتيبة
معه وكتيبة مع سويد بن سليم وكتيبة مع المحلل بن وائل، وقال
لسويد: احمل عليهم في خيلك، فحمل عليهم، فثبوا له ووثبوا في
وجهه بأطراف الرماح فقطعوه حتى انصرف هو وأصحابه.

وصاح الحجاج: هكذا فافعلوا، وأمر بكرسيه فقدم، وأمر
شيب المحلل فحمل عليهم ففعلوا به كذلك، فناداهم الحجاج:
هكذا فافعلوا، وأمر بكرسيه فقدم.

ثم إن شيباً حمل عليهم في كتيبته فثبوا له وصنعوا به كذلك،
فقاتلهم طويلاً، ثم إن أهل الشام طاعوه حتى الحقوه بأصحابه.
فلما رأى صبرهم (٤٢٧/٤) نادى: يا سويد احمل عليهم بأصحابك
على أهل هذه السكة لعلك تزيل أهلها وتأتي الحجاج من ورائه
ونحمل نحن عليه من أمامه. فحمل سويد فرمى من فوق البيوت
وأفواه السكك فرجع. وكان الحجاج قد جعل عروة بن المغيرة بن
شعبة في ثلاثمائة رجل من أهل الشام رداءً له لئلا يؤتوا من
خلفهم، فجمع شيب أصحابه ليحمل بهم، فقال الحجاج: اصبروا

وقال لأصحابه: إن هذا أتى رسول الله ﷺ، فأسلم، ثم جاء
يقاتلكم مع الفسقة.

ثم إن شيباً حمل من الميسرة على عتاب، وحمل سويد بن
سليم على الميمنة، وعليهما محمد بن عبد الرحمن، فقاتلهم في
رجال من تميم وهمدان، (٤٢٤/٤) فما زالوا كذلك حتى قيل لهم
قتل عتاب، فانفضوا.

ولم يزل عتاب جالساً على طنفسة في القلب ومعه زهرة بن
خوية إذ غشيهم شيب، فقال [له] عتاب: يا زهرة هذا يوم كثر فيه
العدد وقل فيه الغناء، والهفي على خمسمائة فارس من تميم من
جميع الناس، ألا صابر لعدوه؟ ألا مواس بنفسه؟ فانفضوا عنه
وتركوه، فقال [له] زهرة: أحسنت يا عتاب، فعلت فعلاً [لا يفعل]
مثلك. أبشر، فإني أرجو أن يكون الله، جل ثناؤه، قد أهدى إلينا
الشهادة عند فناء أعمارنا.

فلما دنا منه شيب وثب في عصابة قليلة صبرت معه وقد
ذهب الناس، فقليل له: إن عبد الرحمن بن الأشعث قد هرب وتبعه
ناس كثير. فقال: ما رأيت ذلك الفتى يبالي ما صنع. ثم قاتلهم
ساعة، فرآه رجل من أصحاب شيب يقال له عامر بن عمر التغلبي
فحمل عليه فطعنه، ووطئت الخيل زهرة بن خوية، فأخذ يذب
بسيفه لا يستطيع أن يقرم، فجاءه الفضل بن عامر الشيباني فقتله،
فانتهى إليه شيب فرآه صريعاً فعرفه فقال: هذا زهرة بن خوية، أما
والله لئن كنت قتلت على ضلالة لرُب يوم من أيام المسلمين قد
حسن فيه بلاؤك وعظم فيه غناؤك! ولرب خيل للمشركين هزمتها
وقرية من قراهم جم أهلها قد افتحتها! ثم كان في علم الله أنك
تقتل ناصراً للظالمين. وتوجع له. فقال له رجل من أصحابه: إنك
لتتوجع لرجل كافر. فقال: إنك لست بأعرف بضلالتهم مني،
ولكني أعرف من قديم أمرهم ما لا تعرف، ما لو (٤٢٥/٤) ثبوا
عليه لكانوا إخواننا.

فاستمسك شيب من أهل العسكر والناس، فقال: ارفعوا
السيف، ودعاهم إلى البيعة، فبايعه الناس وهربوا من تحت ليلتهم،
وحوى ما في العسكر، وبعث إلى أخيه فأنشاه من المدائن. وأقام
شيب بعد الوقعة ببيت قرّة يومين، ثم سار نحو الكوفة فنزل بسورا
وقتل عاملها.

وكان سفيان بن الأبرد وعسكر الشام قد دخلوا الكوفة فشدوا
ظهر الحجاج واستغنى به وبعسكره عن أهل الكوفة، فقام على
المنبر فقال: يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر
من أراد بكم النصر، اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا،
انزلوا بالحيرة مع اليهود والنصارى ولا يقاتل معنا إلا من لم يشهد
قتال عتاب.

لهذه الشدة الواحدة ثم هو الفتح، فجنّوا على الركب.

وأخذ في أرض جُوحى، ثم قطع دجلة مرة أخرى عند واسط ثم أخذ نحو الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ليستريح هو ومن معه.

وقيل في هزيمته غير ذلك، وهو أنّ الحجاج كان قد بعث إلى شبيب أميراً فقتله، ثم أميراً فقتله، أحدهما أعين صاحب حمام أعين، ثم جاء شبيب حتى (٤٢٩/٤) دخل الكوفة ومعه زوجته غزالة، وكانت نذرت أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عمران، وتأخذ في عسكره اختصاصاً. فجمع الحجاج ليلاً بعد أن لقي من شبيب الناس ما لقوا فاستشارهم في أمر شبيب، فاطرقوا، وفصل قتيبة من الصف فقال: أئاذن لي في الكلام؟ قال: نعم. قال: إنّ الأمير ما راقب الله ولا أمير المؤمنين ولا نصيح الرعية. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك تبعث الرجل الشريف وتبعث معه راعاً فينهزمون ويستحي أن يهزم فيقتل. قال: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تخرج إليه فتحاكمه. قال: فانظر لي معسكراً.

فخرج الناس يلعنون غنيسة بن سعيد لأنّه هو الذي كَلَم الحجاج فيه حتى جعله من صحابته، وصلى الحجاج من الغد الصبح واجتمع الناس وأقبل قتيبة وقد رأى معسكراً حسناً، فدخل إلى الحجاج ثم خرج ومعه لواء منشور، وخرج الحجاج يتبعه حتى خرج إلى السبخة وبها شبيب، وذلك يوم الأربعاء، فتواقفوا، وقيل للحجاج: لا تعرفه مكانك، فأخفى مكانه، وشبه له أبا الورد مولاه، فنظر إليه شبيب فحمل عليه فضربه بعمود فقتله، وحمل شبيب على خالد بن عتاب ومن معه وهو على ميسرة الحجاج فبلغ بهم الرحبة، وحمل على مطر بن ناجية وهو على ميمنة الحجاج فكشفه، فنزل عند ذلك الحجاج ونزل أصحابه وجلس على عباءة ومعه غنيسة بن سعيد، فإنهم على ذلك إذ تناول مصفلةً بن مهلهل الضبيّ لجام شبيب وقال: ما تقول في صالح بن مروح وبسم تشهد عليه؟ قال: أعلى هذه الحال؟ قال: نعم. قال: فبرئ من صالح. فقال له مصفلة: برئ الله منك، وفارقه إلا أربعين فارساً فقال الحجاج: قد اختلفوا، وأرسل إلى خالد بن عتاب فأتى بهم في عسكرهم (٤٣٠/٤) فقاتلهم فقتلت غزالة، ومّر برأسها إلى الحجاج مع فارس، فعرفه شبيب فأمر رجلاً فحمل على الفارس فقتله وجاء بالرأس، فأمر به فغسل ثم دفنه.

ومضى القوم على حمايتهم ورجع خالد فأنخبر الحجاج بانصرافهم، فأمره باتباعهم، فاتبعهم يحمل عليهم، فرجع إليه ثمانية نفر فقاتلوه حتى بلغوا به الرحبة، وأتى شبيب بخوط بن عمير السدوسيّ فقال: يا خوط لا حكم إلا لله. فقال: إنّ خوطاً من أصحابكم ولكنه كان يخاف، فأطلقه، وأتى بعمير بن القعقاع فقال: يا عمير لا حكم إلا لله. فقال: في سبيل الله شبابي، فردّد عليه

وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه، فوثبوا في وجهه، وما زالوا يطاعنونه ويضاربونه قدماً ويدفعونه وأصحابه حتى أجازوهم مكانهم، وأمر شبيب أصحابه بالنزول، فنزل نصفهم، وجاء الحجاج حتى انتهى إلى مسجد شبيب ثم قال: يا أهل الشام هذا أول الفتح، وصعد المسجد ومعه جماعة معهم النبيل ليرموهم إن دنوا منه، فاقترلوا عامة النهار أشد قتال رآه الناس حتى أقر كل واحد من الفريقين لصاحبه.

ثم إنّ خالد بن عتاب قال للحجاج: انذني لي في قتالهم فإنني موتور، فاذن له، فخرج ومعه جماعة من أهل الكوفة وقصد عسكرهم من ورائهم فقتل مصداً أحاً شبيب وقتل امرأته غزالة وحرّق في عسكره. وأتى الخبر الحجاج وشيباً، فكبر الحجاج وأصحابه، وأما شبيب فركب هو وأصحابه، وقال الحجاج لأهل الشام: احملوا عليهم فإنهم قد أتاهم ما أروعهم. فشدوا عليهم فهزمهم، وتخلّف شبيب في حامية الناس. فبعث الحجاج إلى خيله: أن دعوهم، فتركوه ورجعوا، ودخل الحجاج الكوفة فصعد المنبر ثم قال: والله ما قوتل شبيب قبلها، ولّى والله هارباً وترك امرأته يكسر في استها القصب. ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن الحكمي فبعثه في ثلاثة آلاف فارس من أهل الشام في أثر شبيب، وقال له: احذر بيّاته وحيث لقيته فانزل له، فإن الله تعالى (٤٢٨/٤) قد فلّ حذّه وقصم نابه.

فخرج في أثره حتى نزل الأنبار، وكان الحجاج قد نادى عند انهزامهم: من جاءنا منكم فهو آمن. فتفرّق عن شبيب ناس كثير من أصحابه. فلما نزل حبيب الأنبار أتاهم شبيب، فلما دنا منهم نزل فصلّى المغرب، وكان حبيب قد جعل أصحابه أربعاء، وقال لكل ربع منهم: ليمنع كل ربع منكم جانبه، فإن قاتل هذا الربع فلا يُعَنَّم ربع الآخر، فإن الخوراج قريب منكم، فوطّونا أنفسكم على أنكم ميّتون ومقاتلون.

فأتاهم شبيب وهم على تعب، فحمل على ربع فقاتلهم طويلاً، فما زالت قدم إنسان عن موضعها، ثم تركهم وأقبل إلى ربع آخر فكانوا كذلك، ثم أتى ربعاً آخر فكانوا كذلك، ثم الربع الرابع فما برح يقاتلهم حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل، ثم نازلهم راجلاً فسقط منهم الأيدي وكثرت القتلى وفُقت الأعين وقُتل من أصحاب شبيب نحو ثلاثين رجلاً، ومن أهل الشام نحو مائة، واستولى التعب والإعياء على الطائفتين حتى إنّ الرجل ليضرب بسيفه فلا يصنع شيئاً، وحتى إنّ الرجل ليقاتل جالساً فيما يستطيع أن يقوم من التعب.

فلما ينس شبيب منهم تركهم وانصرف عنهم. ثم قطع دجلة

وجاء ليعبر وهو على حصان، وكانت بيسن يديه فرس أثنى، فنزا فرسه عليها وهو على الجسر فاضطربت الجيحر تحته ونزل حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء، فلمّا سقط قال: ﴿لَيْفِضِي اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وانغمس في الماء، ثم ارتفع وقال: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وغرق.

وقيل في قتله غير ذلك، وهو أنّه كان مع جماعة من عشيرته ولم تكن لهم تلك البصيرة النافذة، وكان قد قتل من عشائريهم رجلاً، فكان قد أوجع قلوبهم، وكان منهم رجل اسمه مقاتل من بني تيم بن شيبان، فلمّا قتل شبيب من بني تيم اغار هو على بني مُرّة بن قَمَام رهط شبيب فقتل منهم، فقال له شبيب: ما حملك على قتلهم بغير أمري؟ فقال له: قتلت كَفَار قومي فقتلت كَفَار قومك، ومن ديننا قتل من كان على غير رأينا، وما أصبت من رهطي أكثر ممّا أصبت من رهطك، وما يحلّ لك يا أمير المؤمنين أن تجد على قتل الكافرين. قال: لا أجد.

وكان معه أيضاً رجال كثير قد قتل من عشائريهم، فلمّا تخلّف في آخر الناس قال بعضهم لبعض: هل لكم أن نقطع به الجسر فنذكر ثأرنا؟ فقطعوا الجسر، فمالت به السفن، ففتر به الفرس فوق في الماء فغرق. والأوّل أصح وأشهر.

وكان أهل الشام يريدون الانصراف، فأتاهم صاحب الجسر فقال لسفيان: (٤٣٣/٤) إنّ رجلاً منهم وقع في الماء، فنادوا بينهم: غرق أمير المؤمنين! ثمّ إنهم انصرفوا راجعين وتركوا عسكرهم ليس فيه أحد، فكبر سفيان وكبر أصحابه، وأقبل حتى انتهى إلى الجسر، وبعث إلى العسكر وإذا ليس فيه أحد وإذا هو أكثر العساكر خيراً، ثمّ استخرجوا شبيبا فشقوا جوفه وأخرجوا قلبه، وكان صلباً كأنه صخرة، فكان يضرب به الصخرة فيشب عنها قامة الإنسان.

قيل: وكان شبيب يُنعى إلى أمّه، فيقال: قُتل، فلا تقبل ذلك، فلمّا قيل لها غرق صدقت ذلك وقالت: إني رأيت حين ولدته أنّه خرج مني شهاب نار فعلمت أنّه لا يُطفئه إلّا الماء. وكانت أمّه جارية رومية قد اشتراها أبوه فولدها شبيبا منه سنة خمس وعشرين يوم النحر، وقالت: إني رأيت فيما يرى النائم أنّه خرج من بُلي شهاب نار فذهب ساطعاً في السماء وبلغ الآفاق كلّها، فبينما هو كذلك إذ وقع في ماء كثير فخبأ، وقد ولدته في يومكم هذا الذي تهريقون فيه الدماء، وقد أوّلت ذلك أنّ ولدي يكون صاحب دماء، وأنّ امره سيعلو فيعظم سريعاً. وكان أبوه يختلف به إلى اللُصّف أرض قومه، وهو من بني شيبان.

ذكر خروج مطوّف بن المؤيرة بن شعبة

قيل: إنّ بني المؤيرة بن شعبة كانوا صلحاء أشرافاً بأنفسهم مع

شبيب: لا حكم إلّا لله، فلم يفقه ما يريد، فقتله.

وقُتل مصاد أخو شبيب، وجعل شبيب ينتظر الثمانية الذين اتبعوا خالد، فأبطأوا ولم يقدم أصحاب الحجاج على شبيب هيبة له، وأتى إلى شبيب أصحابه الثمانية فساروا واتبعهم خالد وقد دخلوا إلى دُور بناحية المدائن فحصرهم فيه، فخرجوا عليه فهزموه نحو فرسخين فالتقوا أنفسهم في دجلة منهزمين وألقى خالد نفسه فيها بفرسه ولواؤه بيده، فقال شبيب: قاتله الله هذا أسد الناس! فقيل: هو خالد بن عتاب. فقال: مُعَرِّقٌ [له] في الشجاعة، ولو عرفته لأحمت خلفه ولو دخل النار. ثمّ سار إلى كُorman، على ما تقدّم ذكره، وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستمده ويعرفه عجز أهل الكوفة عن قتال شبيب، فسير سفيان بن الأبرد في جيش إليه. (٤٣١/٤)

ذكر مهلك شبيب

وفي هذه السنة هلك شبيب.

وكان سبب ذلك أنّ الحجاج أنفق في أصحاب سفيان بن الأبرد مالاً عظيماً بعد أن عاد شبيب عن محاربتهم وقصد كُorman بشهرين، وأمر سفيان وأصحابه بقصد شبيب، فسار نحوه، وكتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب زوج ابنته، وهو عامله على البصرة، يأمره أن يرسل أربعة آلاف فارس من أهل البصرة إلى سفيان، فسيرهم مع زياد بن عمرو العنكي، فلم يصل إلى سفيان حتى التقى سفيان مع شبيب، وكان شبيب قد أقام بكُorman، فاستراح هو وأصحابه ثمّ أقبل راجعاً فالتقى مع سفيان بجسر دُجَيْل الأهواز، فعبر شبيب الجسر إلى سفيان، فوجد سفيان قد نزل في الرجال، وجعل مهاضر بن سيف على الخيل. وأقبل شبيب في ثلاثة كراديس فاقتلوا أشد قتال، ورجع شبيب إلى المكان الذي كان فيه، ثمّ حمل عليهم هو وأصحابه أكثر من ثلاثين حملة، ولا يزول أهل الشام، وقال لهم سفيان: لا تتفرقوا وليزحف الرجال إليهم زحفاً، فما زالوا يضاربونهم ويطاعتونهم حتى اضطروهم إلى الجسر. فلمّا انتهى شبيب إلى الجسر نزل ونزل معه نحو مائة فقاتلهم حتى المساء وأوقعوا بأهل الشام من الضرب والطعن ما لم يروا مثله.

فلما رأى سفيان عجزه عنهم وخاف أن يُنصروا عليه أمر الرّماة أن يرموهم، وذلك عند المساء، وكانوا ناحية، فتقدّموا ورموا شبيبا ساعة، فحمل هو وأصحابه على الرّماة فقتلوا منهم أكثر من ثلاثين رجلاً، ثمّ عطف على سفيان (٤٣٢/٤) ومنّ معه فقاتلهم حتى اختلط الظلام، ثمّ انصرف، فقال سفيان لأصحابه: لا تتبعوهم.

فلما انتهى شبيب إلى الجسر قال لأصحابه: اعبروا وإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله. فعبروا أمامه وتخلّف في آخرهم،

وكان ممن رجع عنه سيرة بن عبد الرحمن بن مخنف، فجاء إلى الحجاج وقتل شيباً مع أهل الشام.

وسار مطرف نحو خلوان، وكان بها سويد بن عبد الرحمن السعدي من قتل الحجاج، فأراد هو والأكراد منعه ليعذر عند الحجاج، فجازاه مطرف بمواطاة منه وأوقع مطرف بالأكراد فقتل منهم وسار، فلما دنا من همدان وبها أخوه حمزة بن المغيرة تركها ذات السوار وقصد ماه دينار وأرسل إلى أخيه حمزة يستمده بالمال والسلاح، فأرسل إليه سرّاً ما طلب. وسار مطرف حتى بلغ قم وقاشان وبعث عماله على تلك النواحي، وأتاه الناس، وكان ممن أتاه: سويد بن مبرحان الثقفي، ويكير بن هارون النخعي، من الري في نحو مائة رجل.

وكتب البراء بن قبيصة، وهو عامل الحجاج على أصبهان، إليه يعرفه حال مطرف ويستمده، فأمدّه بالرجال بعد الرجال على دواب البريد، وكتب (٤٣٦/٤) الحجاج إلى عدي بن زياد عامل الري يأمره بقصد مطرف وأن يجتمع هو والبراء على محاربته، فسار عدي من الري فاجتمع هو والبراء بن قبيصة، وكان عدي هو الأمير، فاجتمعوا في نحو ستة آلاف مقاتل، وكان حمزة بن المغيرة قد أرسل إلى الحجاج يعتذر، فأظهر قبول عذره وأراد عزله وخاف أن يمتنع عليه، فكتب إلى قيس بن سعد العجلي، وهو على شرطة حمزة بهمدان، بعهده على همدان ويأمره أن يقبض على حمزة بن المغيرة.

وكان بهمدان من عجل وريعية جمع كثير، فسار قيس بن سعد إلى حمزة في جماعة من عشيرته فأقرأه العهد بولاية همدان وكتاب الحجاج بالقبض عليه، وقال: سمعاً وطاعة. فقبض قيس على حمزة وجعله في السجن، وتولى قيس همدان، وتفرغ قلب الحجاج من هذه الناحية لقتال مطرف، وكان يخاف مكان حمزة بهمدان لئلا يمدّ أخاه بالمال والسلاح ولعله ينجده بالرجال.

فلما قبض عليه سكن قلبه وتفرغ باله، ولما اجتمع عدي بن زياد الإيادي والبراء بن قبيصة سارا نحو مطرف فخذلوا عليه، فلما دنوا منه اصطفوا للحرب واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أصحاب مطرف وقتل مطرف وجماعة كثيرة من أصحابه، قتله عمير بن هبيرة الفزاري، وحمل رأسه فقدم بذلك عند بني أمية، وقتل ابن هبيرة ذلك اليوم وأبلى بلاء حسناً.

وقتل يزيد بن أبي زياد مولى المغيرة، وكان صاحب راية مطرف، وقتل من أصحابه عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف الأزدي، وكان ناسكاً صالحاً.

وبعث عدي بن زياد إلى الحجاج أهل البلاء، فآكرمهم وأحسن إليهم، وآمن عدي بكبير بن هارون وسويد بن سرحان وغيرهما،

شرف أبيهم ومنزلتهم من قومهم، فلما قدم الحجاج ورآهم علم أنهم رجال قومهم، (٤٣٤/٤) فاستعمل غزوة على الكوفة، ومطرفاً على المدائن، وحمزة على همدان، وكانوا في أعمالهم أحسن الناس سيرة، وأشدّهم على العرب، وكان مطرف على المدائن عند خروج شبيب وقرية منها، كما سبق، فكتب إلى الحجاج يستمده، فأمدّه بسيرة بن عبد الرحمن بن مخنف وغيره، وأقبل شبيب حتى نزل بهرسير، وكان مطرف بالمدينة العتيقة، وهي التي فيها إصوان كسرى، فقطع مطرف الجسر وبعث إلى شبيب يطلب إليه أن يرسل بعض أصحابه لينظر فيما يدعون، فيحث إليه عدّة منهم، فسألهم مطرف عما يدعون إليه، فقالوا: ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإن الذي نقمن من قومنا الاستتار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجيرة.

فقال لهم مطرف: ما دعوتكم إلا إلى حق، وما نقتسم إلا جوراً ظاهراً، أنا لكم متابع فتابعوني على ما أدعوكم إليه ليجتمع أمري وأمركم. فقالوا: اذكره فإن يكن حقاً نجيبك إليه. قال: أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة على إحدائهم وندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون من يرتضون على مثل هذه الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب، فإن العرب إذا علمت أن ما يراود بالشورى الرضى من قریش رضوا وكثر تبعكم وأعاونكم. فقالوا: هذا ما لا نجيبك إليه، وقاموا من عنده وترددوا بينهم أربعة أيام، فلم تجتمع كلمتهم، فساروا من عنده. وأحضر مطرف نصحاء وثقاته فذكر لهم ظلم الحجاج وعبد الملك وأنه ما زال يؤثر مخالفتهم ومناعتهم وأنه يرى ذلك ديناً لو وجد عليه أعواناً، وذكر لهم ما جرى بينه وبين أصحاب شبيب وأنهم لو تابعوه على رأيه لخلع عبد الملك (٤٣٥/٤) والحجاج، واستشارهم فيما يفعل.

فقالوا له: اخف هذا الكلام ولا تظهره لأحد. فقال له يزيد بن أبي زياد، مولى أبيه المغيرة بن شعبة: والله لا يخفي على الحجاج ممّا كان بينك وبينهم كلمة واحدة ليزادن على كل كلمة عشر أمثالها، ولو كنت في السحاب لالتمسك الحجاج حتى يهلكك، فالتجاة النجاة!

فوافقه أصحابه على ذلك، فسار عن المدائن نحو الجبال، فلقيه قبيصة بن عبد الرحمن الخثعمي بدير يزدجرد فأحسن إليه وأعطاه نفقة وكسوة، فصحبته ثم عاد عنه، ثم ذكر مطرف لأصحابه بالأسكرة ما عزم عليه ودعاهم إليه، وكان رأيه خلع عبد الملك والحجاج والدعاء إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبّوه. فبايعه البعض على ذلك ورجع عنه البعض.

النصول المسمومة فيرمي بها أصحاب المهلب، فشكا أصحابه منها، فقال: أكفيكموه، فوجّه رجلاً من أصحابه ومعه كتاب وأمره أن يلقيه في عسكر قُطْرِيّ ولا يراه أحد، ففعل ذلك، ووقع الكتاب إلى قُطْرِيّ، فرأى فيه: أما بعد فإن نصالك وصلت وقد انفذت إليك ألف درهم. فاحضر الصانع فسأله فوجد، فقتله قُطْرِيّ، فأنكر عليه عبد ربّه الكبير قتله واختلفوا.

ثم وضع المهلب رجلاً نصرانياً وأمره أن يقصد قُطْرِيّاً ويسجد له، ففعل ذلك، فقال له الخوارج: إن هذا قد اتخذك إلهاً. ووثب بعضهم إلى النصراني فقتله، فزاد اختلافهم وفارق بعضهم قُطْرِيّاً، ثم ولّوا عبد ربّه الكبير وخلعوا قُطْرِيّاً، وبقي مع قُطْرِيّ منهم نحو من رُبعم أو خمسم (٤٣٩/٤) واقتتلوا فيما بينهم نحواً من شهر.

وكتب المهلب إلى الحجاج بذلك. فكتب إليه الحجاج يأمره أن يقتلهم على حال اختلافهم قبل أن يجتمعوا، فكتب إليه المهلب: إني لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضاً، فإن تمّوا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رفق بعضهم بعضاً فأنامضهم حينئذ وهم أهون ما كانوا وأضعفه شوكة إن شاء الله تعالى، والسلام. فسكت عنه الحجاج، وتركهم المهلب يقتلون شهراً لا يحركهم، ثم إن قُطْرِيّاً خرج بمنّ أتبعه نحو طبرستان، وبايع الباقون عبد ربّه الكبير.

ذكر مقتل عبد ربّه الكبير

لما سار قُطْرِيّ إلى طبرستان وأقام عبد ربّه الكبير بكرمان نهض إليهم المهلب فقاتلوه قتالاً شديداً وحصرهم بجيرفت وكرّر قتالهم وهو لا ينال منهم حاجته. ثم إن الخوارج طال عليهم الحصار فخرجوا من جيرفت بأموالهم وخرمهم فقاتلهم المهلب قتالاً شديداً حتى عُمرت الخيل وتكسر السلاح وقُتل الفرسان فتركهم، فساروا، ودخل المهلب جيرفت، ثم سار يتبعهم إلى أن لحقهم على أربعة فراسخ من جيرفت فقاتلهم من بُكرة إلى نصف النهار وكفّ عنهم، وأقام عليهم. (٤٤٠/٤)

ثم إن عبد ربّه جمع أصحابه وقال: يا معشر المهاجرين! إن قُطْرِيّاً ومنّ معه هربوا طلب البقاء ولا سبيل إليه فالفرو عدوكم وهبوا أنفسكم لله. ثم عاد للقتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً أنساهم ما قبله، فبايع جماعة من أصحاب المهلب على الموت، ثم ترجلت الخوارج وعبروا دوابهم واشتد القتال وعظم الخطب حتى قال المهلب: ما مرّ بي مثل هذا. ثم إن الله تعالى أنزل نصره على المهلب وأصحابه وهزم الخوارج وكثر القتل فيهم، وكان فيمن قُتل: عبد ربّه الكبير، وكان عدد القتلى أربعة آلاف قتل، ولم ينج منهم إلا قليل، وأخذ عسكرهم وما فيه وسبوا لأنهم كانوا يسبون نساء المسلمين. وقال الطُّفَيْل بن عامر بن وائلة يذكر قتل عبد ربّه الكبير وأصحابه:

وطُلب منه الأمان (٤٣٧/٤) للحجاج بن حارثة الخثعمي فبعث إليهم كتاب الحجاج يأمره بإرساله إليه إن كان حياً، فاخفى ابن حارثة حتى عُزل عدي، ثم ظهر في إمارة خالد بن عتاب بن وراق.

وكان الحجاج يقول: إن مطرفاً ليس بولد للمغيرة بن شعبة إنما هو ولد مصقلة بن سبرة الشيباني، وكان مصقلة والمغيرة يدعيانه، فألحق بالمغيرة وجُلد مصقلة الحد، فلما أظهر رأي الخوارج قال الحجاج ذلك لأن كثيراً من ربيعة كانوا من خوارج ولم يكن منهم أحد من قيس عيلان.

ذكر الاختلاف بين الأزارقة

قد ذكرنا مسير المهلب إلى الأزارقة ومحاربتهم إلى أن فارقه عتاب بن وراق الرياحي ورجع إلى الحجاج، وأقام المهلب بعد مسير عتاب عنه يقاتل الخوارج، فقاتلهم على سابور نحو سنة قتالاً شديداً. ثم إنّه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم أشد قتال، وكانت كرمان بيد الخوارج، وفارس بيد المهلب. فضاق على الخوارج مكانهم لا يأتيهم من فارس مادة، فخرجوا حتى أتوا كرمان، وتبعهم المهلب بالساكن حتى نزل بجيرفت، وهي مدينة كرمان، فقاتلهم قتالاً شديداً. فلما صارت فارس كلها في يد المهلب أرسل الحجاج العمال عليها، فكتب إليه عبد الملك يأمره أن يترك بيد المهلب فسادا ودارا مجرد وكورة إصطخر تكون له معونة على الحرب، فتركها له، وبعث الحجاج إلى المهلب البراء ابن قبيصة ليحثه على قتال الخوارج ويأمره بالجد وأنه لا عذر له عنده.

فخرج المهلب بالساكن فقاتل الخوارج من صلاة الغداة إلى الظهر، ثم انصرفوا والبراء على مكان عال يراهم، فجاء إلى المهلب فقال: ما رأيت كتيبة (٤٣٨/٤) ولا فرساناً أصبر ولا أشد من الفرسان الذين يقاتلونك. ثم إن المهلب رجع العصر فقاتلهم كقتالهم أول مرة لا يصد كتيبة عن كتيبة، وخرجت كتيبة من كتاب الخوارج لكتيبة من أصحاب المهلب، فاشتدّ بينهم القتال إلى أن حجز بينهم الليل، فقالت إحداهما للأخرى: من انتهم؟ فقال هؤلاء: نحن من بني تميم. وقال هؤلاء: نحن من بني تميم. انصرفوا عند المساء. فقال المهلب للبراء بن قبيصة: كيف رأيت قوماً ما يعينك عليهم إلا الله جلّ ثناؤه؟ فاحسن المهلب إلى البراء وأمر له بعشرة آلاف درهم. وانصرف البراء إلى الحجاج وعرفه عُذر المهلب.

ثم إن المهلب قاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء. ثم إن عاملاً لقُطْرِيّ على ناحية كرمان يدعى المقعطر الضبي قتل رجلاً منهم، فوثبت الخوارج إلى قُطْرِيّ وطلبوا منه أن يقيدهم من المقعطر، فلم يفعل وقال: إنه تأول فأخطأ التأويل، وما أرى أن تقتلوه، وهو من ذري السابقة فيكم، فوقع بينهم الاختلاف.

وقيل: كان سبب اختلافهم أن رجلاً كان في عسكرهم يعمل

العلج، غير أنه يظن أنه من أشرفهم لكمال سلاحه وحسن هيئته، فجاء إليه نفر من أهل الكوفة فقتلوه، منهم: سؤرة بن الحر التميمي، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف، والصباح بن محمد بن الأشعث، وباذان مولاهم، وعمر بن أبي الصلت، وكل هؤلاء ادعى قتله.

فجاء إليهم أبو الجهم بن كنانة فقال لهم: ادفعوا رأسه إلي حتى تصطلحوا، فدفعوه إليه، فأقبل به إلى إسحاق بن محمد وهو على الكوفة فأرسله معه إلى سفيان، فسير سفيان الرأس مع أبي الجهم إلى الحجاج، فسيرة الحجاج إلى عبد الملك، فجعل غطاءه، في ألفين.

ثم إن سفيان سار إليهم فأحاط بهم، ثم أمر مناديه فنادى: من قتل صاحبه وجاء إلينا فهو آمن؛ فقال عبيدة بن هلال في ذلك: (٤٤٣/٤)

لعمري لقد قام الأصم بخطيبي لذي الشك منها في الصلور غليل
لعمري لئن أعطيت سفيان بيتي وفارقت ديني لئنسي لجهول
إلى الله أشكو ما نرى بجياني ناولك هزلي متهن قليل
تأولها القذائف من كل جاني بقوميس حتى صبهن ذلول
فإن يك أماناها الحصار فرما نخط فيما يتهن قليل
وقد كن مما إن يفلن على الوجي لمن بابواب القباب صهيل
وحصرهم سفيان حتى أكلوا دوابهم، ثم خرجوا إليه فقاتلوه فقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحجاج. ثم دخل سفيان دنباوند وطبرستان فكان هناك حتى عزله الحجاج قبل الجماجم.

وقال بعض العلماء: وانقرضت الأزارقة بعد مقتل قطري وعبيدة، إنما كانوا دفعة متصلة أهل عسكر واحد، وأول رؤسائهم نافع بن الأزرق، وآخرهم قطري وعبيدة، واتصل أمرهم بضعاً وعشرين سنة، إلا أنني أشك في صريح المازني التميمي مولى سوار بن الأشعر الخارج أيام هشام، قيل: هو من الأزارقة أو الصفريّة، إلا أنه لم تطل أيامه بل قتل عُقَيْب خروجه.

ذكر قتل بكير بن وساج

في هذه السنة قتل أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بكير بن وساج.

وكان سبب ذلك أن أمية بن عبد الله، وهو عامل عبد الملك بن مروان (٤٤٤/٤) على خراسان، أمر بكيراً بالتهيز لغزو ما وراء النهر، وقد كان قبل ذلك ولاه طخارستان، فتجهز له، فوشى به بحير بن ورقاء إلى أمية، فمتمعه عنها، فلما أمره بغزو ما وراء النهر تجهز وأتفق نفقة كثيرة وأدان فيها، فقال بحير لأمية: إن صار بينك وبينه النهر خلع الخليفة. فأرسل إليه أمية: أن أقم لعلي أغزو فتكون معي. فغضب بكير وقال: كأنه يضارني. وكان عُقاب ذو اللقرة

لقد مر منّا عذرب وجنّته
سما لهم بالجيش حتى أزاخهم
وما قطري الكفر إلا نعاثة
طريق يدوي ليلته غير نالهم
إذا فر منّا هارباً كان وجهه
طريقاً سوى قصد الهدى والمعاليم
فليس بمنجيه الفرار وإن جرت
به القللك في لجج من البحر دائيم
وهي أكثر من هذا تركناها لشهرتها.

وأحسن الحجاج إلى أهل البلاد وزادهم، وسير المهلب إلى الحجاج مبشراً، فلما دخل عليه أخبره عن الجيش وعن الخوارج وذكر حروبهم وأخبره عن بني المهلب فقال: المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيتهم قيصة، ولا يستحيي الشجاع أن يفر من مدركة، (٤٤١/٤) وعبد الملك سم نافع، وخبيب موت دُعا، ومحمد ليث غاب، وكفالك بالمنضل نجدة، قال: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفردة لا يعرف طرفها. فاستحسن قوله وكتب إلى المهلب يشكره ويأمره أن يولي كرمان من يثق به ويجعل فيها من يحميها ويقدم إليه. فاستعمل على كرمان يزيد ابنه، وسار إلى الحجاج، فلما قدم عليه أكرمه وأجلسه إلى جانبه وقال: يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب. ثم قال له: أنت كما قال لقيط بن يغمر الإيادي في صفة أمراء الجيوش:

وقلّسوا امرؤكم للود دُرُكُم رعب الذراع بامر الحرب مفلطعا
لا مترفاً إن رعباً المعيش ساعده ولا إذا عضّ مكسرة به خشماً
مُسَهَّد السوم تعينه نفوركم يروم منها إلى الأعداء مطلقاً
[ما] انشكح حلق هذا الدهر اضطرو بكود تيمناً طموراً وتيسماً
وأيسر يسفلة مالاً يمشرو عنكم ولا زلّة يغني له الرقما
حتى استمرت على شزير مريزته مستحکم السن لا قعماً ولا ضرعاً
وهي قصيدة طويلة هذا هو الأجود منها.

ذكر قتل قطري بن الفجاءة وعبيدة بن هلال

قيل: وفي هذه السنة كانت هلكة قطري وعبيدة بن هلال ومن [كان] معهما من الأزارقة. (٤٤٢/٤)

وكان السبب في ذلك أن أمرهم لما تشبّت بالاختلاف الذي ذكرنا، وسار قطري نحو طبرستان، وبلغ خبره الحجاج، سير إليه سفيان بن الأبرد في جيش عظيم. وسار سفيان واجتمع معه إسحاق بن محمد بن الأشعث في جيش لأهل الكوفة بطبرستان، فأقبلوا في طلب قطري فلاحقوه في شيعب من شيعاب طبرستان فقاتلوه، فنصر قطري عنه أصحابه ووقع عن دابته فتهدى إلى أسفل الشعب، وأتاه علج من أهل البلد، فقال له قطري: استقي الماء. فقال العلج: اعطني شيئاً. فقال: ما معي إلا سلاحي وأنا أعطيكه إذا أتيتني بالماء. فانطلق العلج حتى أشرف على قطري، ثم حذر عليه حجراً من فوقه فاصاب وركه فأورنه، فصاح بالناس، فأقبلوا نحوه، ولم يعرفه

العدائي استدان ليخرج مع بُكير، فأخذهُ غرماؤه فُجِس حتى أدّى عنه بُكير.

ثم إن أمية تجهّز للغزو إلى بخارى ثم يعود منها إلى موسى بن عبد الله بن خازم يترمّذ، وتجهّز الناس معه وفيهم بُكير، وساروا، فلما بلغوا النهر وأرادوا قطعه قال أمية لبُكير: إني قد استخلفت ابني على خراسان وأخاف أنه لا يضبطها لأنه غلام حدث، فتارجع إلى مرو فاكنّ فيها فإني قد وليتها، فقم بأمر ابني.

فانتخب بُكير فرساناً كان عرفهم ووثق بهم ورجع، ومضى أمية إلى بخارى للغزاة. فقال عقاب ذو اللقوة لبُكير: إنا طلبنا أميراً من قريش فجاءنا أمير يلعب بنا ويحولنا من سجن إلى سجن، وإني أرى أن تحرق هذه السفن ونمضي إلى مرو ونخلع أمية ونقيم بمرو ونأكلها إلى يوم ما، ووافقه الأخنف بن عبد الله العبزي على هذا. قال بُكير: أخاف أن يهلك هؤلاء الفرسان الذين معي. قال: إن هلك هؤلاء فإنا آتيك من أهل مرو بما شئت. قال: يهلك المسلمون. قال: إنما يكفيك أن ينادي مناد: مَنْ أسلم رفعا عنه الخراج، فيأتيك خمسون ألفاً أسمع من هؤلاء وأطوع. قال: فيهلك أمية ومن معه. قال: ولم يهلكون (٤٤٥/٤) ولهم عدد وعدة ونجدة وسلاح ظاهر ليقاتلوا عن أنفسهم حتى يبلغوا الصين! فحرق بُكير السفن ورجع إلى مرو، فاخذ ابن أمية فحبسه وخلع أمية.

وبلغ أمية الخبر فصالح أهل بخارى على فدية قليلة ورجع وأمر باتخاذ السفن وعبر وذكر للناس إحسانه إلى بُكير مرة بعد أخرى وأنه كافاة بالعصيان، وسار إلى مرو، وأثناء موسى بن عبد الله بن خازم، وأرسل أمية شماس بن دثار في ثمانمائة، فسار إليه بُكير وبيته فهزمه وأمر أصحابه أن لا يقتلوا منهم أحداً، فكانوا يأخذون سلاحهم ويطلقونهم، وقدم أمية فلقاه شماس، فقدم أمية ثابت بن قُطبة، فلقبه بُكير فأمر ثابتاً وفرّق جمعه ثم أطلقه ليند كانت لثابت عنده.

وأقبل أمية وقاتله بُكير فانكشف يوماً أصحابه، فحماهم بُكير، ثم التقوا يوماً آخر فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم التقوا يوماً آخر فضرِب بُكير ثابت ابن قُطبة على رأسه، فحمل حُرث بن قُطبة أخو ثابت على بُكير، فأنحاز بُكير وانكشف أصحابه، وأتبع حُرث بُكيراً حتى بلغ القنطرة، وناداه: إلى أين يا بُكير؟ فرجع، فضرِب حُرث على رأسه فقطع المغفر وعَض السيف رأسه فصُرع، واحتمله أصحابه فأدخلوه المدينة، وكانوا يقتلونهم. فكان أصحاب بُكير يغدون في الثياب المصبغة من أحمر وأصفر فيجلسون يتحدثون وينادي مناديوهم: مَنْ رمى بسهم رمينا إليه برأس رجل من ولده وأهله، فلا يرميه أحد.

وخاف بُكير إن طال الحصار أن يخذله الناس، فطلب الصلح

وأحب ذلك أيضاً أصحاب أمية، فاصطلحوا على أن يقضي أمية عنه أربعمائة ألف ويصل أصحابه ويوليه أي كور خراسان شاء ولا يسمع قول بجير فيه وإن رابه ريب فهو آمن أربعين يوماً. (٤٤٦/٤)

ودخل أمية مدينة مرو ووفى لبُكير وعاد إلى ما كان من إكرامه وأعطى أمية عقيباً عشرين ألفاً.

وقد قيل: إن بُكيراً لم يصحب أمية إلى النهر، كان أمية قد استخلفه على مرو، فلما سار أمية وعبر النهر خلعه، فجرى الأمر بينهما على ما ذكرناه.

وكان أمية سهلاً ليناً سخيّاً، وكان مع ذلك ثقيلاً على أهل خراسان، وكان فيه زهو شديد، وكان يقول: ما تكفيني خراسان لمطبخي.

وعزل أمية بجيراً عن شرطته وولاهما عطاء بن أبي السائب. وطالب أمية الناس بالخراج واشتد عليهم، وكان بُكير يوماً في المسجد وعنده الناس فذكروا شدة أمية وذمّوه، وبجير وضرار بن حصين وعبد الله بن جارية بن قدامة في المسجد، فنقل بجير ذلك إلى أمية، فكذّبه، فادّعى شهادة هؤلاء، فشهد مزاحم بن أبي المَجْشَر السلمي أنه كان يمزح فتركه أمية.

ثم إن بجيراً أتى أمية وقال له: والله إن بُكيراً قد دعاني إلى خلعتك وقال: لولا مكانك لقتلت هذا القرشي وأكلت خراسان، فلم يصدقه أمية، فاستشهد جماعة ذكر بُكير أنهم أعداؤه، فقبض أمية على بُكير وعلى بدل وشمر دل ابني أخيه، ثم أمر أمية بعض رؤساء من معه بقتل بُكير، فامتنعوا، فأمر بجيراً بقتله فقتله، وقتل أمية ابنسي أخى بُكير. (٤٤٧/٤)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عبر أمية نهر بلخ للغزو فحُوصِر حتى جهد هو وأصحابه، ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك ورجعوا إلى مرو.

وحجّ هذه السنة بالناس إبان بن عثمان، وهو أمير المدينة. وكان على الكوفة والبصرة الحجاج، وعلى خراسان أمية. وغزا هذه السنة الصائفة الوليد بن عبد الملك.

وفيه مات جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري. (٤٤٨/٤)

سنة ثمان وسبعين

ذكر عزل أمية بن عبد الله وولاية المهلب خراسان

في هذه السنة عزل عبد الملك بن مروان أمية بن عبد الله بن خالد عن خراسان وسجستان وضمّهما إلى أعمال الحجاج بن يوسف ففرّق عماله فيهما، فبعث المهلب بن أبي صفرة على

العقاب والشعاب، فسقط في أيدي المسلمين، فظنوا أن قد هلكوا، فصالحهم عبيد الله على سبعمائة ألف درهم يوصلها إلى رتبيل ليتمكن المسلمون من الخروج من أرضه، فلقبه شريح فقال له: إنكم لا تصلحون على شيء إلا أحسبه السلطان من أعطياتكم، وقد بلغت من العمر طويلاً وقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان وإن فاتيتم اليوم الشهادة ما أدركها حتى أموت. ثم قال شريح: (٤٥١/٤) يا أهل الإسلام تعاونوا على عدوكم. فقال له ابن أبي بكر: إنك شيخ قد خرفت. فقال له شريح: إنما حسبك أن يقال بستان عبيد الله وحمام عبيد الله. يا أهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإلى. فاتبعه ناس من المتطوعة غير كثير وفرسان الناس وأهل الحفاظ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلاً، وجعل شريح يرتجز ويقول:

أصِخْتُ ذَابَتْ أَقَاسِي الْكِبَرَا قَدِ عَشْتُ يَنْ الْمَشْرِكِينَ أَعْصُرَا
ثُمَّ أَدْرَكْنَا النَّبِيَّ الْمُنِيرَا وَغَنَّةً حَيْثُكَ وَغَفَرَا
وَيَوْمَ يَهْرَانِ وَيَوْمَ تُنْشَرَا وَالْجَمْعُ فِي صَفِيهِمْ وَالنَّهْرَا
وَسَاجِدَاتِ مَسْجِدِ الْمُشْفَرَا مِهَاتِ مَا أَطْوَلَ هَذَا عُصْرَا
وقاتل حتى قُتل في ناس من أصحابه ونجا من نجا منهم، فخرجوا من بلاد رتبيل، فاستقبلهم الناس بالطعام، فكان أحدهم إذا أكل وشيع مات، فحذر الناس وجعلوا يطعمونهم السمن قليلاً قليلاً حتى استمروا، وبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى عبد الملك يعرفه ذلك ويخبره أنه قد جهز من أهل الكوفة وأهل البصرة جيشاً كثيفاً ويستأذنه في إرساله إلى بلاد رتبيل.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أصاب أهل الشام طاعونٌ شديد حتى كادوا يفنون، فلم يغر تلك السنة أحد فيما قيل. وفيها أصاب أهل الروم أجل أنطاكية وظفروا بهم. (٤٥٢/٤)

وفيها استعفى شريح بن الحارث عن القضاء فأعفاه الحجاج واستعمل على القضاء أبا بريدة بن أبي موسى. وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان، وكان على المدينة، وكان على العراق والشرق كله الحجاج بن يوسف. وكان على قضاء البصرة موسى بن أنس. وفيها مات محمود بن الربيع، وكنيته أبو إبراهيم.

وولد على عهد رسول الله، ﷺ. وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود. (٤٥٣/٤)

سنة ثمانين

في هذه السنة أتى سيلٌ بمكة فذهب بالحجاج، وكان يحمل

خراسان، وقد فرغ من الأزارقة، ثم قدم على الحجاج وهو بالبصرة فاجلسه معه على السزير ودعا أصحاب البلاء من أصحاب المهلب فأحسن إليهم وزادهم. وبعث عبيد الله بن أبي بكره على سجستان، وكان الحجاج قد استخلف على الكوفة عند منسيه إلى البصرة المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل، فلما استعمل المهلب على خراسان سير ابنه حبيباً إليها، فلما ودع الحجاج أعطاه بغلة خضراء فسار عليها وأصحابه على البزيد، فسار عشرين يوماً حتى وصل خراسان، فلما دخل باب منرو لقيه حمل حطب فنصرت البغلة، فعجبوا من نفاها بعد ذلك التعب وشدة السير. فلما وصل خراسان لم يعرض لأمية ولا لعمالة وأقام عشرة أشهر حتى قدم عليه المهلب سنة تسع وسبعين.

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس هذه السنة أبان بن عثمان، وكان أمير المدينة. وكان أمير الكوفة والبصرة وخراسان وسجستان وكرمان الحجاج بن يوسف، وكان نائبه (٤٤٩/٤) بخراسان المهلب، وسجستان عبيد الله بن أبي بكره، وكان على قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس، فيما قيل.

في هذه السنة مات عبد الرحمن بن عبد الله القاري وله ثمان وسبعون سنة، ومسح النبي، ﷺ، برأسه. (القاري بالياء المشددة).

وفيها مات زيد بن خالد الجهني، وقيل غير ذلك، وتوفي عبد الرحمن ابن غنم الأشعمري، أدرك الجاهلية، وليست له صحبة. (٤٥٠/٤)

سنة تسع وسبعين

ذكر غزو عبيد الله بن أبي بكره رتبيل

لما ولّى الحجاج عبيد الله بن أبي بكره سجستان، وذلك سنة ثمان وسبعين، مكث سنة لم يغر، وكان رتبيل مصالحاً، وكان يؤدي الخراج، وربما امتنع منه.

فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكره يأمره بمناجزة وإن لا يرجع حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ويقتد رجاله.

فسار عبيد الله في أهل البصرة وأهل الكوفة، وكان على أهل الكوفة شريح بن هانئ، وكان من أصحاب علي، ومضى عبيد الله حتى دخل بلاد رتبيل فأصاب من الغنائم ما شاء، وهدم حصوناً، وغلب على أرض من أراضيهم، وأصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم أرضاً بعد أرض حتى أمعنوا في بلادهم ودنوا من مدينتهم، وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخاً، فأخذوا على المسلمين

الإبل عليها الأحمال والرجال ما لأحد فيهم حيلة، وغرقت بيوت مكة، وبلغ السيلُ الركنَ فسُمِّي ذلك العام الجَحَاف.

وفي هذه السنة وقع بالبصرة طاعون الجارف.

ذكر غزوة المهلب ما وراء النهر

في هذه السنة قطع المهلبُ نهر بلخ ونزل على كَشْ، وكان على مقدمته أبو الأدهم الزمانيُّ في ثلاثَةِ آلاف وهو في خمسة آلاف، وكان أبو الأدهم يغني غنَاءَ ألفَيْن في البأس والتدبير والصيحة، فأتى المهلبُ وهو نازل على كَشْ ابن عمِّ ملك الختل فدعاه إلى غزو الختل، فوجّه معه ابنه يزيد، وكان اسم ملك الختل الشبل، فنزل يزيد ونزل ابن عمِّ الملك ناحية، فيبته الشبلُ وأخذته فقتله، وحصر يزيد قلعة الشبل فصالحوه على فدية حُمِلت إليه، ورجع يزيد عنهم، ووجّه المهلبُ ابنه حبيباً فوافى صاحبَ بخارى في أربعين ألفاً، فنزل جماعة من العدو قرية، فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية، فسُميت المحترقة، ورجع حبيب إلى أبيه. (٤٥٤/٤)

وأقام المهلبُ بكشَ ستين، فقبل له: لو تقدّست إلى ما وراء ذلك. فقال: ليت حظي من هذه الغزاة سلامة هذا الجند وعودهم سالمين.

ولما كان المهلبُ بكشَ أتاهم قومٌ من مضر فحبسهم بها، فلما رجع أطلقهم، فكتب إليه الحجاج: إن كنت أصببت بحبسهم فقد أخطأت بإطلاقهم، وإن كنت أصببت بإطلاقهم فقد ظلمتهم إذ حبستهم. فكتب المهلبُ: خفتهم وحبستهم، فلما أمتهم خلّيتهم. وكان فيمن حُبس عبد الملك بن أبي شيخ القُشيريُّ.

وصالح المهلبُ أهل كَشْ على فدية يأخذها منهم، وأتاه كتاب ابن الأشعث بخلع الحجاج ويدعوه إلى مساعدته، فبعث بكتابه إلى الحجاج وأقام بكشَ.

ذكر تسيير الجنود إلى رُبَيْل مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

قد ذكرنا حال المسلمين حين دخل بهم ابنُ أبي بكرٍ بلاد رُبَيْل، واستأذن الحجاجُ عبدَ الملك في تسيير الجنود نحو رُبَيْل، فأذن له عبد الملك في ذلك، فأخذ الحجاجُ في تجهيز الجيش، فجعل على أهل الكوفة عشرين ألفاً، وعلى أهل البصرة عشرين ألفاً، وجَدَّ في ذلك، وأعطى الناس أعطيائهم كمالاً، وأنفق فيهم ألفي ألف سوى أعطيائهم، وأنجدهم بالخيال الرائقة والسلاح الكامل، وأعطى كلَّ رجلٍ يوصف بشجاعة وغنَاء، منهم عبيد بن أبي مخنفٍ الثقفي وغيره.

فلما فرغ من أمر الجندين بعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكان الحجاجُ يبقضه ويقول: ما رأيته قط إلا أردت قتله. وسمع الشعبيُّ ذلك من الحجاج ذات يوم فأخبر عبد الرحمن به، فقال: والله لأحاولن أن (٤٥٥/٤) أزيل الحجاجَ عن سلطانه. فلما أراد الحجاجُ أن يبعث عبد الرحمن على ذلك الجيش أتاه إسماعيل بن الأشعث فقال له: لا تبعثه فوالله ما جاز جسر الفرات فرأى لوالٍ عليه طاعة وإنِّي أخاف خلافه. فقال الحجاجُ: هو أهيبُ لي من أن يخالف أمري. وسيره على ذلك الجيش، فسار بهم حتى قدم سجستان، فجمع أهلها فخطبهم ثم قال: إن الحجاجَ ولأني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم، فليأكم أن يتخلف منكم أحد فتمسه العقوبة.

فسكروا مع الناس وتجهّزوا، وسار بأجمعهم، وبلغ الخبرُ رُبَيْلَ فأرسل يعتذر ويذل الخراج، فلم يقبل منه، وسار إليه ودخل بلاده وترك له رُبَيْل أرضاً وأرضاً ورستاقاً ورستاقاً وحصناً وحصناً، وعبد الرحمن يحوي ذلك، وكلّما حوى بلدأ بعث إليه عاملاً وجعل معه أعواناً، وجعل الأرصَاد على العقاب والشُعاب، ووضع المسالِح بكلِّ مكان مخوفٍ حتى إذا جاز من أرضه [أرضاً] عظيمة وملأ الناس أيديهم من الغنائم العظيمة منع الناس من الوجود في أرض رُبَيْل، وقال: نكتفي بما قد أصبناه العام من بلادهم حتى نجيبها ونعرفها ويجترؤ المسلمون على طرفها، وفي العام المقبل نأخذ ما وراءها إن شاء الله تعالى، حتى نقاتلهم في آخر ذلك على كتوزهم وذرايرهم وأقصى بلادهم حتى يهلكهم الله تعالى ثم كتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه وبما يريد أن يعمل.

وقد قيل في إرسال عبد الرحمن غير ما ذكرنا، وهو أن الحجاجَ كان قد ترك بكرمان هِمَّان بن عدي السدوسيُّ يكون بها مسلحة إن احتاج إليه عامل سجستان والسند، فعصى هِمَّان، فبعث إليه الحجاجُ عبدَ الرحمن بن (٤٥٦/٤) محمد، فحاربه فانهمز هِمَّان وأقام عبد الرحمن بموضعه. ثم إن عبيد الله بن أبي بكرٍ مات وكان عاملاً على سجستان، فكتب الحجاجُ لعبد الرحمن عهده عليها وجَهَّز إليه هذا الجيش، فكان يسمَّى جيش الطواويس لحسنه.

ذكر عدة حوادث

وحجَّ بالناس هذه السنة أبان بن عثمان، وكان أمير المدينة. وكان على العراق والمشرق الحجاج، وكان على خراسان المهلب من قِبَل الحجاج، وكان على قضاء البصرة موسى بن أنس، وعلى قضاء الكوفة أبو بُزْدة.

وفي هذه السنة مات أسلم مولى عمر بن الخطاب.

وفيها توفي أبو إدريس الخولانيُّ.

وفيه مات عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقيل سنة أربع، وقيل سنة خمس، وقيل سنة ست وثمانين، وقيل سنة تسعين.

وفيه قُتل عقيد بن عبد الله بن عليم الجهنّي الذي يروي حديث الدّبّاغ، وهو أول من قال بالقدر في البصرة، قتله الحجاج، وقيل: قتله عبد الملك بن مروان بدمشق.

وفيه توفي محمد بن علي بن أبي طالب، وهو ابن الحنفية، وفيه توفي جنادة بن أبي أمية، وله صحبة، وكان على غزو البحر أيام معاوية كلها.

وفيه مات السائب بن يزيد ابن أخت النمر، وقيل: سنة ست وثمانين، وُلد على عهد النبي ﷺ.

وفيه توفي سويد بن غفلة، (بفتح الغين المعجمة، والفاء). وفيه توفي عبد الله بن أبي أوفى، وهو آخر من مات من الصحابة بالكوفة.

وجبّير بن نفيّر بن مالك الحضرمي، أدرك الجاهلية، وليس له صحبة. (٤٥٧/٤)

سنة إحدى وثمانين

في هذه السنة سار عبد الملك بن مروان ابنه عبيد الله ففتح قالقلا.

ذكر مقتل بحير بن ورقاء

وفي هذه السنة قُتل بحير بن ورقاء الصّرّمي.

وكان سبب قتله أنه لما قُتل بكير بن وسّاج، وكلاهما تميميّان، بأمر أمية بن عبد الله بن خالد إياه بذلك، كما تقدّم ذكره، قال عثمان بن رعاء بن جابر أحد بني عوف بن سعد من الأبناء يحرض بعض آل بكير من الأبناء، والأبناء، عدّة بطون من تميم سُمّوا بذلك:

لعمرى لقد اغضبت عينا على القذى
وخلبت ثارا طلل واخترت نومة
فلو كنت من عوف بن سعد ذابّة
فقل لبحير نم ولا تخش ثارا
ذع الضان يوما قد سبقتم بوتركم
وفسوا فلو امسى بكير كتهديو
لغاداهم زحفا بجلاوة فيلتي
وقال أيضا:

فلو كان بكير بارزا نسي أدابو
وفي العرش لم يقدم عليه بجير
ففي الدهر إن أبقاني الدهر مطلب
وفي الله طلاب بذلك جنير

فبلغ بحيرا أن رهط بكير من الأبناء يتوعدونه فقال:

توعّني الأبناء جهلا كأنبا
يرون فثاني مقفرا من بني كعب
رفعت له قسي بقسيب مهتد
حسام كلون الثلج ذي زون غضب
فتعاقد سبعة عشر رجلا من بني عوف على الطلب بدم بكير، فخرج فتى منهم يُقال له شمردل من البادية حتى قدم خراسان فرأى بحيرا واقفا فحمل عليه، فطعنه فصرعه وظن أنه قد قتله، فقال الناس: خارجي، وراكضهم، فغثر به فرسه فسقط عنه فقتل.

وخرج صغصعة بن حرب العوفي من البادية، وقد باع غنيمات له، ومضى إلى سبجستان فجاور قرابة لبحير مدة وأدعى إلى بني حنيفة من اليمامة وأطال مجالستهم حتى أنسوا به، ثم قال لهم: إن لي بخراسان ميراثا فكتبوا لي إلى بحير كتابا ليعينني على حقني. فكتبوا له، وسار فقدم على بحير وهو مع المهلب في غزوته، فلقي قوماً من بني عوف، فأخبرهم أمره، ولقي بحيرا فأخبره (٤٥٩/٤) أنه من بني حنيفة من أصحاب ابن أبي بكره وإن له مالا بسبجستان وميراثا بمرو، وقدم لبيعه ويعود إلى اليمامة. فأنزله بحير وأمر له بنفقة ووعده، فقال صغصعة: أقيم عندك حتى يرجع الناس؛ فأقام شهرا يحضر معه باب المهلب، وكان بحير قد حذر، فلمّا أتاه صغصعة بكتاب أصحابه وذكر أنه من حنيفة آمنه.

فجاء يوما صغصعة وبحير عند المهلب عليه قميص ورداء، ففقد خلفه ودنا منه، كأنه يكلمه فوجاه بخنجر معه في خاصره فغيبه في جوفه، ونادى: يا لثارات بكير! فأخذ وأتى به المهلب، فقال له: بوسا لك! ما أدركت بئارك وقتلت نفسك، وما على بحير بأس. فقال: لقد طعنته طعنة لو قُسمت بين الناس لमतوا، ولقد وجدت ربح بظنه في يدي. فحبسه، فدخل عليه قوم من الأبناء فقلّبوا رأسه، ومات بحير من الغد، فقال صغصعة لما مات بحير: اصنعوا الآن ما شئتم، البس قد خلّت نذور أبناء بني عوف وأدركت بئاري؟ والله لقد أمكنتني منه خاليا غير مرة فكرهت أن أقتله سرا. فقال المهلب: ما رأيت رجلا أسخى نفسا بالموت من هذا. وأمر بقتله فقتل.

وقيل: إن المهلب بعثه إلى بحير قبل أن يموت، فقتله، ومات بحير بعده.

وعظم موته على المهلب وغضبت عوف والأبناء وقالوا: علام قُتل صاحبنا وإنما أخذ بئاره؟ فنازعهم مقاعس والبطون، وكلهم بطون من تميم، حتى خاف الناس أن يعظم الأمر، فقال أهل الحجى: احمّلوا دم صغصعة واجعلوا دم بحير بيكير، فسودوا صغصعة، فقال رجل من الأبناء يمدح صغصعة:

لله ذوقى تجاوز همت
دون العراق مفاوزا وبحورا

ما زال يثيب نفسه وركبته
حتى تاول في الحروب بحيرا

(٤٦٠/٤) ذكر دخول الديلم قزوين وما كان منهم

كانت قزوين ثغر المسلمين من ناحية ديلم، فكانت العساكر لا تبحر مرابطة بها يتحارسون ليلاً ونهاراً، فلما كان هذه السنة كان في جماعة من رابط بها محمد بن أبي سبرة الجعفي، وكان فارساً شجاعاً عظيم الغناء في حروبه، فلما قدم قزوين رأى الناس يتحارسون فلا ينامون الليل، فقال لهم: اتخافون أن يدخل عليكم العدو مدينتكم؟ قالوا: نعم. قال: لقد أنصفوكم إن فعلوا، افتحوا الأبواب ولا بأس عليكم، ففتحوها.

وبلغ ذلك الديلم فساروا إليهم ويترهم وجمعوا إلى البلد، وتصايح الناس، فقال ابن أبي سبرة: أغلقوا أبواب المدينة علينا وعليهم فقد أنصفونا وقتلواهم. فاعلقوا الأبواب وقتلواهم، وأبلى ابن أبي سبرة بلاء عظيماً، وظفر بهم المسلمون، فلم يفلت من الديلم أحد، واشتهر اسمه بذلك، ولم يعد الديلم بعدها يقدمون على مفارقة أرضهم. فصار محمد فارس ذلك الثغر المشار إليه، وكان يدمن شرب الخمر، وبقي كذلك إلى أيام عمر بن عبد العزيز، فأمر بتسييره إلى زراة، وهي دار الفساق بالكوفة، فسُير إليها، فأغارَت الديلم ونالت من المسلمين، وظهر الخلل بعده، فكتبوا إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن أمير الكوفة يسألونه أن يرده عليهم ابن أبي سبرة، فكتب بذلك إلى عمر، فأذن له في عودته إلى الثغر، فعاد إليه وحماً.

ولمحمد أخ يقال له خثيمة بن عبد الرحمن، وهو اسم أبي سبرة، وكان من الفقهاء. (٤٦١/٤)

ذكر خلاف عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الحجاج

وفي هذه السنة خالف عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ومن معه من جند العراق على الحجاج وأقبلوا إليه لحربه، وقيل: كان ذلك سنة اثنتين وثمانين. وكان سبب ذلك أن الحجاج لما بعث عبد الرحمن بن محمد على الجيش إلى بلاد رُبَيْل فدخلها وأخذ منها الغنائم والحصون كتب إلى الحجاج يعرفه ذلك وأن رأيه أن يتركوا التوغل في بلاد رُبَيْل حتى يعرفوا طريقها ويجبوا خراجها، على ما سبق ذكره.

فلما أتى كتابه إلى الحجاج كتب جوابه: إن كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى المودعة، قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً، قد أصابوا [من] المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم عظيماً، وإنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدتي لسخي النفس بمن أصيب من المسلمين، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلتهم وسبي ذرائعهم، ثم أردفه كتاباً آخر بنحو ذلك، وفيه: أما بعد فمر من قبلك من المسلمين فليحترقوا وليقيموا بها فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم. ثم كتب

إليه ثالثاً بذلك، ويقول له: إن مضيت لما أمرتك وإلاً فأخوك إسحاق بن محمد أمير الناس.

فدعا عبد الرحمن الناس وقال لهم: أيها الناس إني لكم ناصح ولصالحكم (٤٦٢/٤) محب ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر، وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي بما رضىه ذوو أحلامكم وأولو التجربة منكم، وكتبْتُ بذلك إلى أميركم الحجاج فأتاني كتابه يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم امضي إذا أمضيت وآبى إذا آبيت.

فثار إليه الناس وقالوا: بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع. فكان أول من تكلم أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانى، وله صفة، فقال بعد حمد الله: أما بعد فإن الحجاج يرى بكم ما رأى القاتل الأول: أحمل عيذك على الفرس فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. إن الحجاج ما يبالي أن يخاطر بكم فيحكمكم بلاداً كثيرة ويفشى اللُهو واللُصوب، فإن ظفرتم وغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوكم كتتم أتعاء البغضاء الذين لا يبالي عتھم ولا يبقي عليهم. اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا الأمير عبد الرحمن، فإني أشهدكم أنني أول خالع. فنادى الناس من كل جانب: فعلنا فعلنا، قد خلعتنا عدو الله.

وقام عبد المؤمن بن شبيب بن ربيعة فقال: عباد الله! إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم وجرمكم تجمير فرعون الجنود، (٤٦٣/٤) فإنه بلغني أنه أول من جمر البعوث، ولن تماتوا الأحياء أو يموت أكثركم فيما أرى، فبايعوا أميركم وانصرفوا إلى عدوكم الحجاج فانفوه عن بلادكم. فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق وعلى النصرة له، ولم يذكر عبد الملك.

وجعل عبد الرحمن على بُسْت عياض بن هيثم الشيباني، وعلى زَرْج عبد الله بن عامر التميمي، وصالح رُبَيْل على أن ابن الأشعث إن ظهر فلا خراج عليه أبداً ما بقي، وإن هُزم فأراد منعه. ثم رجع إلى العراق، فسار بين يديه أعشى همدان وهو يقول:

شَطَطَتْ نَوَى مَنْ دَاوَهُ بِالإِيَّانِ إِسْوَانِ كَسَرَى ذِي الْقُرَى وَالرَّيْحَانِ
مَنْ عَانِيَتْ أَمْسَى بِزَابِلِيسْتَانِ إِنَّ قَيْفَا مِنْهُمُ الْكَذِبَانِ
كَذَّبَهَا الْمَاضِي وَكَذَّابُ نَاثِ أَمَكْنَ رَبِّي مِنْ قَيْفِ قَمَدَانِ
يَوْمَا إِلَى اللَّيْلِ يُسَلِّي مَا كَانَا إِنَّا سَمَوْنَا لِلْكَفُورِ الْفَتَانِ
حِينَ طَفَى فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِالسَّيِّدِ الْفُطْرِيفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
سَارَ بِجَمْعِ كَالْبَا مِنْ قَطَطَانِ وَمَنْ مَعَهُ قَدْ أَتَى ابْنَ عَدْنَانِ
بِجَهْضِ جَمِّ شَدِيدِ الْأَرْكَانِ قَتَلَ الْحَجَّاجَ وَلِسَى الشَّيْطَانِ
يَشِيَتْ بِجَمْعٍ مَذْجِجٍ وَقَمَدَانِ فَبَلَّغَهُمْ سَاقُوهُ كَأْسَ النَّفْثَانِ
وَمُلْجِقُوهُ بَقَرَى ابْنِ مَرْوَانَ

وينادون: يا محمداه يا محمداه! ولا يدرون أين يذهبون، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون، فلما قدم ابن الأشعث عُقَيْب ذلك بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك.

وخذلق الحجاج على نفسه وخذلق عبد الرحمن على البصرة؛ وكان دخول عبد الرحمن البصرة في آخر ذي الحجة. (٤٦٦/٤)

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس هذه السنة سليمان بن عبد الملك، وكان ممن حج أم الدرداء الصغرى. وفيها ولد ابن أبي ذئب.

وكان العامل على المدينة أبيان بن عثمان، وعلى العراق والمشرق كله الحجاج، وعلى خراسان المهلب، وعلى قضاء الكوفة أبو بردة، وعلى قضاء البصرة عبد الرحمن بن أذينة. وكانت سجستان وكرمان وفارس والبصرة بيد عبد الرحمن. (٤٦٧/٤)

سنة اثنين وثمانين

ذكر الحرب بين الحجاج وابن الأشعث

قيل: في المحرم من هذه السنة اقتتل عسكر الحجاج وعسكر عبد الرحمن ابن الأشعث قتالاً شديداً، فتزاحفوا في المحرم عدة دفعات، فلما كان ذات يوم في آخر المحرم اشتد قتالهم فانهزم أصحاب الحجاج حتى انتهوا إليه وقاتلوا على خنادقهم، ثم إنهم تزاحفوا آخر يوم من المحرم، فجال أصحاب الحجاج وتقوض صفهم، فجتا الحجاج على ركبتيه وقال: لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وعزم على أنه لا يفر.

فحمل سفيان بن الأبرد الكلبي على الميمنة التي لعبد الرحمن فهزمها وانهزم أهل العراق وأقبلوا نحو الكوفة مع عبد الرحمن وقتل منهم خلق كثير، منهم عقبة بن عبد الغافر الأزدي وجماعة من القراء قتلوا ربيعة واحدة معه.

ولما بلغ عبد الرحمن الكوفة تبعه أهل القوة وأصحاب النخيل من أهل البصرة، واجتمع من بقي في البصرة مع عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فبايعوه، فقاتل بهم الحجاج خمس ليال أشد قتال رآه الناس، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث وتبعه طائفة من أهل البصرة، وقتل منهم طفيل بن عامر بن وائلة، فقال أبوه يرثيه، وهو من الصحابة. (٤٦٨/٤)

وعد ذلك ركني هنة عجباً خلّى طفيل عليّ الهم فانتصباً
مهما نسيت فلا أنساه إذ حدثت به الأسة مقبولاً ومشلباً
واخطأتني العنابي لا تطالني حتى كبرت ولم يتركن لي نسباً
وكتبت بعد طفيل كالدني نصبت عنه السيول وغاض الماء فانصباً
وهي آيات عدة. وهذه الواقعة تسمى يوم الزاوية.

وجعل عبد الرحمن على مقدمته عطية بن عمرو الغنبري، وجعل على (٤٦٤/٤) كرمات خزيمة بن عمرو التميمي، فلما بلغ فارس اجتمع الناس بعضهم إلى بعض وقالوا: إذا خلعتنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعتنا عبد الملك، فاجتمعوا إلى عبد الرحمن، فكان أول الناس خلع عبد الملك تيجان بن أبجر من تيم الله بن ثعلبة، قام فقال: أيها الناس إني خلعت أبا ذئان كخلعي قميصي. فخلعه الناس إلا قليلاً منهم، وبايعوا عبد الرحمن، وكانت بيعته: نبايع على كتاب الله وسنة نبيه، وعلى جهاد أهل الضلالة وخطمهم وجهاد المجنّين.

فلما بلغ الحجاج خلعه كتب إلى عبد الملك بخبر عبد الرحمن ويسأله أن يعجل بعثة الجنود إليه. وسار الحجاج حتى نزل البصرة، ولما بلغ المهلب خبر عبد الرحمن كتب إلى الحجاج من خراسان: أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل ليس يردهم شيء حتى ينتهوا إلى قراره، وإن لأهل العراق شيرة في أول مخرجهم وصباية إلى أبنائهم ونسائهم، فاتركهم حتى يسقطوا إلى أهاليهم ويشموا أولادهم ثم واقفهم عنده، فإن الله ناصرك عليهم. فلما قرأ كتابه سيه وقال: ما لي نظر وإنما النظر لابن عمه، يعني عبد الرحمن.

ولما وصل كتاب الحجاج إلى عبد الملك هاله ودعا خالد بن يزيد فاقرأه الكتاب، فقال: يا أمير المؤمنين إن كان الحدث من سجستان فلا تخف، فإن كان من خراسان فإني أتخوفه. فجهز عبد الملك الجند إلى الحجاج، فكانوا (٤٦٥/٤) يصلون إلى الحجاج على البريد من مائة ومن خمسين وأقل وأكثر، وكتب الحجاج تتصل بعبد الملك كل يوم بخبر عبد الرحمن. فسار الحجاج من البصرة ليلقي عبد الرحمن، فنزل تسر وقدم بين يديه مقدمة إلى دجيل، فلحقوا عنده خيلاً لعبد الرحمن، فانهزم أصحاب الحجاج بعد قتال شديد، وكان ذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين، وقتل منهم جمع كثير.

فلما أتى خبر الهزيمة إلى الحجاج رجع إلى البصرة وتبعه أصحاب عبد الرحمن فقتلوا منهم وأصابوا بعض أنفاسهم، وأقبل الحجاج حتى نزل الزاوية وجمع عنده الطعام وترك البصرة لأهل العراق، لما رجع نظر في كتاب المهلب فقال: لله دره أي صاحب حرب هو! وفرق في الناس مائة وخمسين ألف ألف درهم.

فأقبل عبد الرحمن حتى دخل البصرة، فبايعه جميع أهلها قرأوها وكهولها مستبشرين في قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام. وكان السبب في سرعة إجابتهم إلى بيعته أن عمال الحجاج كتبوا إليه: إن الخراج قد انكسر، وإن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار. فكتب إلى البصرة وغيرها: إن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية، فجعلوا يكون

وأياً عليه ما دام حياً وعبد الملك خليفة، فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك عزلا الحجاج عنها وصار محمد بن مروان أمير العراق، وإن أبى أهل العراق قبول ذلك فالحجاج أمير الجماعة ووالي القتال ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته.

فلم يأت الحجاج أمر قط كان أشد عليه ولا أوجع لقلبه من ذلك، مخافة أن يقبل أهل العراق عزله فيُغزل عنهم، فكتب إلى عبد الملك: والله لو أعطيت أهل العراق نزع لم يلبثوا إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جراً عليك، ألم تر ويبلغك وثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان وسؤالهم نزع سعيد بن العاص، فلما نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا إلى عثمان فقتلوه، وإن الحديد بالحديد يُفْلَح.

فأبى عبد الملك إلا عرض عزله على أهل العراق. فلما اجتمع عبد الله ومحمد مع الحجاج خرج عبد الله بن عبد الملك وقال: يا أهل العراق أنا ابن أمير المؤمنين، وهو يعطيكم كذا وكذا. وخرج محمد بن مروان وقال: أنا رسول أمير المؤمنين، وهو يعرض عليكم كذا وكذا، فذكر هذه الخصال. فقالوا: نرجع العشيّة، فرجعوا واجتمع أهل العراق عند ابن الأشعث، فقال لهم: قد أعطيتكم أمراً، انتهازكم اليوم إياه فرصة، وإنكم اليوم على النصف، فإن كانوا اعتدوا عليكم يوم الزاوية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تُستَر، فاقبلوا (٤٧١/٤) ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقرباء لقوم هم لكم هاتيون وأنتم لهم متقصون، فوالله لا زلتم عليهم جرّاء وعندهم أعزاء أبداً ما بقيتم إن أنتم قبلتم.

فوثب الناس من كلّ جانب فقالوا: إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك والمجاعة والقلّة واللذّة، ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة، لا والله لا نقبل! وأعادوا خلعه ثانية.

وكان أوّل من قام بخلعه بذئير الجماجم عبد الله بن ذؤاب السلمي وعُمَيْر بن ييجان، وكان اجتماعهم على خلعه بالجماجم أجمع من خلعهما إياه بفارس.

فقال عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان للحجاج: شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك فإننا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع. فقال: قد قلت: إنه لا يُراد بهذا الأمر غيركم، فكانا يسلمان عليه بالإمرة وسلم عليهما بالإمرة. فلما اجتمع أهل العراق بالجماجم على خلعه عبد الملك قال عبد الرحمن: ألا إن بني مروان يعيرون بالزرقاء، والله ما لهم نسب أصح منه إلا أن بني [أبي] العاص أعلاج من أهل صفورية، فإن يكن هذا الأمر في قريش فعني فقتلت بيضة قريش، وإن يك في العرب فانا ابن الأشعث، ومدّ بها صوته يسمع الناس، وبرزوا للقتال.

فأقام الحجاج أوّل صفر واستعمل على البصرة الحَكَم بن أيوب الثقفي. وسار عبد الرحمن إلى الكوفة، وقد كان الحجاج استعمل عليها عند مسيره إلى البصرة عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر الحضرمي حليف بني أمية، فقصد مطر بن ناجية البربوعي، فتحصن منه ابن الحضرمي في القصر، ووثب أهل الكوفة مع مطر، فأخرج ابن الحضرمي ومن معه من أهل الشام، وكانوا أربعة آلاف، واستولى مطر على القصر، واجتمع الناس وفرّق فيهم مائتي درهم مائتي درهم.

فلما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة كان مطر بالقصر، فخرج أهل الكوفة يستقبلونه، ودخل الكوفة وقد سبق إليه همدان، فكانوا حوله، فأتى القصر، فمنعه مطر بن ناجية ومعه جماعة من بني تميم، فأصعد عبد الرحمن الناس في السلايل إلى القصر، فأخذوه، فأتى عبد الرحمن بمطر بن ناجية فحبسه ثم أطلقه وصار معه. فلما استقرّ عبد الرحمن بالكوفة اجتمع إليه الناس وقصد أهل البصرة، منهم عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة الهاشمي بعد قتاله الحجاج بالبصرة. (٤٦٩/٤)

وقتل الحجاج يوم الزاوية بعد الهزيمة أحد عشر ألفاً خدعهم بالأمان وأمر منادياً فنادى: لا أمان لفلان بن فلان، فسمي رجلاً، فقال العامة: قد آمن الناس، فحضروا عنده فامرهم بهم فقتلوا.

ذكر وقعة دير الجماجم

وكانت وقعة دير الجماجم في شعبان من هذه السنة، وقيل: كانت سنة ثلاث وثمانين.

وكان سببها أن الحجاج سار من البصرة إلى الكوفة لقتال عبد الرحمن ابن محمد فنزل دير قرّة، وخرج عبد الرحمن من الكوفة فنزل دير الجماجم. فقال الحجاج: إن عبد الرحمن نزل دير الجماجم ونزلت دير القرّة، أما تجرر الطير؟ واجتمع إلى عبد الرحمن أهل الكوفة وأهل البصرة والقراء وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم فاجتمعوا على حرب الحجاج ليغضه، وكانوا مائة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم، وجاءت الحجاج أيضاً أمداد من الشام قبل نزوله بدير قرّة، وخذق كلّ منهما على نفسه، فكان الناس يقتلون كلّ يوم ولا يزال أحدهما يُدني خندقه من الآخر.

ثم إن عبد الملك وأهل الشام قالوا: إن كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج عنهم نزعناه فإن عزله أيسر من حربه ونحقق بذلك الدماء. فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان، وكان محمد بأرض الموصل، إلى الحجاج في جند كتيّف وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وأن يجريا (٤٧٠/٤) عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام، وأن ينزل عبد الرحمن بن محمد أي بلد شاء من بلد العراق، فإذا نزل كان

حتى نموت أو تموتوا أو تعطونا شيئاً، فلم يعطهم يزيد شيئاً. فقال مجاعة: اذكرك الله، قد هلك المغيرة، فأنشدك الله أن تهلك فتجتمع على المهلب المصيبة. فقال: إن المغيرة لم يعد أجله ولست أعدو أجلي. فرمى اليهم مجاعة بعمامة صفراء فاخذوها وانصرفوا. (٤٧٤/٤)

ذكر صلح المهلب أهل كِش

وفي هذه السنة صالح المهلب أهل كِش.

وكان سبب ذلك أنه اتهم قوماً من مضر فحبسهم وصالح وقفل وخلف حُرَيْث بن قُطَيْبَة مولى خُزاعة وقال: إذا استوفيت الفدية فردّ عليهم الرهن.

وسار المهلب فلما صار يبلغ كتب إلى حُرَيْث: إني لست آمن إن رددت عليهم الرهن أن يغيروا عليك، فإذا قبضت الفدية فلا تخل الرهن حتى تقدم أرض تبلغ. فقال حُرَيْث لملك كِش: إنَّ المهلب كتب إليّ كذا وكذا، فإن عجلت الفدية سلّمت إليك الرهن وسرت وأخبرت أن كتابه ورد وقد استوفيتها منكم ورددت عليكم الرهن.

فعجل ملك كِش الفدية وأخذ الرهن، ورجع حُرَيْث، فعرض لهم الترك فقالوا له: افد نفسك ومن معك، فقد لقينا يزيد بن المهلب ففدى نفسه. فقال حُرَيْث: ولدنني إذا أم يزيد. وقاتلهم فقتلهم وأسر منهم أسرى، ففدوهم، فاطلقهم وردّ عليهم الفداء.

وبلغ المهلب قوله فقال: يائف العبد أن تلده أم يزيد، فغضب، فلما قدم عليه بلغ قال: أين الرهن؟ قال: خليتهم قبل وصول كتابك وقد كفيت ما خفت. قال: كذبت ولكنك تقربت إليهم. وأمر بتجريده، فجزع من ذلك حتى ظن المهلب أن به مرضاً، فجزّده وضربه ثلاثين سوطاً. فقال حُرَيْث: وددت أنه ضربني ثلاثمائة ولم يجردني أنفة وحياة؛ وحلف ليقتلن المهلب. فركب يوماً مع المهلب فأمر غلامين له أن يضربا المهلب، فلم يفعلوا وقالوا: يخاف عليك أن تقتل. وترك حُرَيْث إتيان المهلب، فأرسل إليه أخاه ثابت (٤٧٥/٤) ابن قُطَيْبَة ليأتيه به وقال له: إنك كبعض ولدي أذبه كبعضهم، فأثى ثابت أخاه وسأله أن يركب إلى المهلب، فلم يفعل، وحلف ليقتلنه، فقال ثابت: إن كان هذا رأيك فاخرج بنا إلى موسى بن عبد الله بن خازم. وخاف ثابت أن يقتل حُرَيْث المهلب فيقتلون جميعاً، فخرجوا في ثلاثمائة من أصحابها المنقطعين إليهما.

ذكر وفاة المهلب بن أبي صفرة وولاية ابنه يزيد خراسان

لما صالح المهلب أهل كِش رجع يريد مرو، فلما كان بمرو الرُود أخذته الشوصة، وقيل الشوكة، فمات منها، وأوصى إلى ابنه حبيب فصلّى عليه، وقال لهم: قد استخلف عليكم يزيد فلا

فجعل الحجاج على ميمته عبد الرحمن بن سليم الكلبي، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي، وعلى خيله سفيان بن الأبرد الكلبي، وعلى رجاله عبد الله بن خبيب الحكمي؛ وجعل عبد الرحمن بن محمد على ميمته الحجاج بن حارثة الخثعمي، وعلى ميسرته الأبرد بن قرة التميمي، وعلى خيله عبد (٤٧٢/٤) الرحمن بن العباس بن ربيعة الهاشمي، وعلى رجاله محمد بن سعد بن أبي وقاص، وعلى مجنّته عبد الله بن رزام الحارثي، وجعل على القراء جبلة بن زحر بن قيس الجعفي، وفيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبي وأبو البختري الطائي وعبد الرحمن بن أبي ليلى.

ثم أخذوا يتزاحفون كل يوم ويقتلون وأهل العراق تأتيهم موائدهم من الكوفة وسوادها وهم في خصب، وأهل الشام في ضنك شديد قد غلت عليهم الأسعار وقد عندهم اللحم كأنهم في حصار، وهم على ذلك يغادون القتال ويراوحون. فلما كان اليوم الذي قُتل فيه جبلة بن زحر بن قيس، وكانت كتيبه تدعى القراء تحمل عليهم فلا يبرحون، وكانوا قد عرفوا بذلك، وكان فيهم كميل بن زياد، وكان رجلاً ركيناً. فخرجوا ذات يوم كما كانوا يخرجون، وعيا الحجاج صفوفه وعيا عبد الرحمن أصحابه، وعيا الحجاج لكتيبة القراء ثلاث كتائب وبعث عليها الجراح بن عبد الله الحكمي، فأقبلوا نحوهم فحملوا على القراء ثلاث حملات كل كتيبة تحمل حملة فلم يبرحوا وصبروا.

ذكر وفاة المغيرة بن المهلب

وفي هذه السنة مات المغيرة بن المهلب بخراسان، وكان قد استخلفه أبوه المهلب على عمله بخراسان، فمات في رجب سنة اثنين وثمانين، فأثى الخبر (٤٧٣/٤) يزيد بن المهلب وأهل العسكر فلم يغيروا المهلب، فأمر يزيد النساء فصرخن، فقال المهلب: ما هذا؟ فقيل: مات المغيرة. فاسترجع وجزع حتى ظهر جزعه، فلامه بعض خاصته، ثم دعا يزيد ووجهه إلى مرو ووصاه بما يعمل وإن دموعه لتتحد على لحيته.

فكان المهلب مقيماً بكش بما وراء النهر يحارب أهلها، فسار يزيد في ستين فارساً، ويقال سبعين، فلقبهم خمسمائة من الترك في مفازة بُسْت، فقالوا: ما أنتم؟ قالوا: تجار. فأعطونا شيئاً. فأبى يزيد، فأعطاهم مجاعة بن عبد الرحمن العنكي ثوباً وكرابيس وقوساً، فانصرفوا ثم غدروا وعادوا إليهم فقاتلوهم فاشتد القتال [بينهم]، ومع يزيد رجل من الخوارج كان قد أخذه، فقال: استقتني، فاستبقاه. فحمل الخارجي عليهم حتى خالطهم وصار من ورائهم وقتل رجلاً ثم كرّ حتى خالطهم وقتل رجلاً ورجع إلى يزيد، وقتل يزيد عظيماً من عظمائهم، ورُمي يزيد في ساقه، فاشتدت شوكتهم، وصبر [لهم] يزيد حتى حازجروهم، فقالوا: قد غدروا ولا تنصرف

تخالفوه. فقال له ابنه المفضل: لو لم تقدمه لقدمناه.

(٤٧٨/٤)

سنة ثلاث وثمانين

ذكر بقية الوقعة بدثر الجماحم

فلما حملت كتاب الحجاج الثلاث على القراء من أصحاب عبد الرحمن وعليهم جبلة بن زحر نادى جبلة: يا عبد الرحمن بن أبي ليلى! يا معشر القراء! إن الفرار ليس بأحد [من الناس] بأقبح منه بكم، إني سمعت علي بن أبي طالب، رفع الله درجته في الصالحين وآتاه ثواب الصادقين والشهداء، يقول يوم لقينا أهل الشام: أيها المؤمنون إنه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعو إليه فأنكره قبله فقد سلم ويرى، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونور في قلبه اليقين، فقاتلوا هؤلاء المجلحين المحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحق فلا يعرفونه، وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه.

وقال أبو البختري: أيها الناس قاتلوهم على دينكم وديناكم. فقال الشعبي: أيها الناس قاتلوهم ولا يأخذكم خرج من قتالهم، والله ما أعلم (٤٧٩/٤) على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور في حكم منهم. وقال سعيد بن جبيرة نحو ذلك، وقال جبلة: احملوا عليهم حملة صادقة، ولا تردوا وجوهكم عنهم حتى تواقعوا صفهم.

فحملوا عليهم حملة صادقة، فضربوا الكتاب حتى أزالوها وفرقوها، وتقدموا حتى واقعا صفهم فآزالوه عن مكانه، ثم رجعوا فوجدوا جبلة بن زحر قتيلاً لا يدرون كيف قُتل.

وكان سبب قتله أن أصحابه لما حملوا على أهل الشام ففرقوهم وقف لأصحابه ليرجعوا إليه فافترت فرقة من أهل الشام فوقت ناحية، فلما راوا أصحاب جبلة قد تقدموا قال بعضهم لبعض: هذا جبلة، احملوا عليه ما دام أصحابه مشاغبل بالقتال. فحملوا عليه فلم يول لكنه حمل عليهم فقتلوه، وكان الذي قتله الوليد بن نحيث الكلبي، وحيء برأسه إلى الحجاج فبشّر أصحابه بذلك. فلما رجع أصحاب جبلة وراوه قتيلاً سقط في أيديهم وتناوخ بينهم، فقال لهم أبو البختري: لا يظهرن عليكم قتل جبلة إنما كان كرجل منكم أتته ميتة فلم يكن ليتقدم [يومه] ولا ليشأخر [عنه]. وظهر القتل في القراء، وناداهم أهل الشام: يا أعداء الله قد هلكتم وقد قُتل طاعتكم!

وقدم عليهم بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني، وفرحوا به وقالوا: تقدم مقام جبلة. وكان قدومه من الري، فلما أتى عبد

وأحضر ولده فوصاهم، وأحضر سهاماً فحزمت، فقال: أنكسرونها مجتمعة؟ قالوا: لا. قال: أنكسرونها متفرقة؟ قالوا: نعم. قال: نعم. قال: فهكذا الجماعة. ثم قال: أوصيكم بتقوى الله وصلة الرّحم فإنها تُنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإنها تُعقب النار والقلة والذلة، وعليكم بالطاعة والجماعة، وليكن فعالكم أفضل من مقالكم، وأنقوا الجواب وزلة اللسان، فإن الرجل تزل قدمه فيتعش منها ويزل لسانه فيهلك، اعرفوا لمن يغشاكم حقّه، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وأنشروا الجود على البخل، وأحيوا العُسر، واصنعوا المعروف، فإن الرجل من العرب تعدّه العدة فيموت دونك فكيف بالصنعة عندها عليكم في الحرب بالتؤدة والمكيدة، (٤٧٦/٤) فإنها أنفع من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء فإن أخذ الرجل بالحزم فظفر قيل أتى الأمر من وجهه فظفر فحُمد، وإن لم يظفر قيل ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب، وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنن وأدب الصالحين، وإياكم وكثرة الكلام في مجالسكم. ثم مات، رحمه الله، فقال نهار بن تومعة التميمي يريته :

الا ذهب المعروف والجزء والبنى ومات الندى والجود بعد المهلب
أقام بمرور الرود رهن ضريحه وقد غاب عنه كل شرق ومغرب
إذا قيل أي الناس أولى بعمق على الناس قلنا هو ولم تهيب
فلما توفي كتب ابنه يزيد إلى الحجاج يعلمه بوفاته، فأقر يزيد على خراسان.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة عزل عبد الملك أبان بن عثمان عن المدينة في جمادى الآخرة واستعمل عليها هشام بن إسماعيل المخزومي، فعزل هشام نوفل بن مساحق عن قضاء المدينة، وولى على القضاء عمرو بن خالد الزُرقي.

وفيها غزا محمد بن مروان أرمينية فهزمهم، ثم سألوه الصلح فصالحهم وولى عليهم أبا شيخ ابن عبد الله، فغدروا به فقتلوه، وقيل: بل قتلوه سنة ثلاث وثمانين. (٤٧٧/٤)

وفيها قُتل عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي بدجيل.

وفيها مات أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الرعي، وعطاء بن عبد الله السلمي العابد.

(السلمي بفتح السين المهملة، وكسر اللام).

وفيها مات زاذان، وأبو وائل، وعمر بن عبيد الله بن معمر التميمي، وعمره ستون سنة.

الرحمن جعله على ربيعة، وكان شجاعاً، فقاتل يوماً فدخل عسكر الحجاج فأخذ أصحابه ثلاثين امرأة فأطلقهن. فقال الحجاج: منعوا نساءهم، لو لم يردوهن لسيئت نساءهم إذا ظهرت عليهم.

وخرج عبد الرحمن بن عوف الرؤاسي أبو حُمَيْد فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه رجل من أهل الشام، فتضاربا، فقال كل واحد منهما: أنا الغلام الكلبي. فقال كل واحد منهما لصاحبه: مَنْ أنت؟ وإذا هما ابنا عَمٍّ، (٤٨٠/١) فتحاجزا. وخرج عبد الله بن رزام الحارثي فطلب المبارزة، فخرج إليه رجل من عسكر الحجاج فقتله، ثم فعل ذلك ثلاثة أيام.

فلما كان اليوم الرابع خرج، فقالوا: جاء لا جاء الله به! فطلب المبارزة، فقال الحجاج للجراح: اخرج إليه. فخرج إليه. فقال له عبد الله، وكان له صديقاً: ويحك يا جراح ما أخرجك؟ قال: ابتليت بك. قال: فهل لك في خير؟ قال الجراح: ما هو؟ قال عبد الله: انهزم لك وترجع إلى الحجاج وقد أحسنت عنده وحمدك، وأما أنا فأحتمل مقالة الناس في انهزامي حباً لسلامتك فإني لا أحب قتل مثلك من قومي. قال: افعل. فحمل الجراح على عبد الله فاستطرد له عبد الله، وحمل عليه الجراح بجِدٍّ يريد قتله، فصاح لعبد الله غلامه، وكان ناحية معه ماء ليشربه، وقال له: يا سيدي إن الرجل يريد قتلَكَ! فعطف عبد الله على الجراح فضربه بعمود على رأسه فصرعه، وقال له: يا جراح بنس ما جزيتني! أردت بك العافية وأردت قتلي! انطلق فقد تركتك للقرابة والعشيرة.

وكان سعيد بن جبيرة وأبو البخري الطائي يحملان على أهل الشام بعد قتل جبلة بن زُحْر حتى يخالطهم، وكانت مدة الحرب مائة يوم وثلاثة أيام لأنه كان نزولهم بالهجمات لثلاث مضي من ربيع الأول، وكانت الهزيمة لأربع عشرة مضي من جمادى الآخرة.

ولما كان يوم الهزيمة اقتتلوا أشد قتال، واستظهر أصحاب عبد الرحمن على أصحاب الحجاج واستعملوا عليهم وهم آمنون أن يهزموا. فبينما هم كذلك (٤٨١/٤) إذ حمل سفيان بن الأبرد، وهو في ميمنة الحجاج، على الأبرد بن قرة التيمي، وهو على ميسرة عبد الرحمن، فانهزم الأبرد بن قرة من غير قتال يُذكر، فظن الناس أنه قد كان صلوح على أن يهزم بالناس، فلما انهزم تقوضه الصقوف من نحوه وركب الناس بعضهم بعضاً، وصعد عبد الرحمن المنبر ينادي الناس: إلي عباد الله. فاجتمع إليه جماعة، فثبت حتى دنا منه أهل الشام فقاتل من معه ودخل أهل الشام العسكر، فأتاه عبد الله بن يزيد بن المفضل الأودي فقال له: انزل فإني أخاف عليك أن تؤسر ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعاً يهلكهم الله به.

ثم دعا بكُمَيْل بن زياد فقال له: أنت المقتص من أمير المؤمنين عثمان؟ قد كنت أحب من أن أجد عليك سبيلاً. قال: على أيها أنت أشد غضباً، عليه حين أقاد من نفسه أم علي حين عفوت عنه؟ ثم قال: أيها الرجل من تقيف لا تصرف علي أنيابك ولا تكسر علي كالذئب، والله ما بقي من عمري إلا ظم الحمار، اقضي ما أنت قاض فإن الموعد الله وبعد القتل الحساب. فقال (٤٨٢/٤) الحجاج: فإن الحجة عليك. قال: ذلك إذا كان القضاء إليك. فأمر به فقتل، وكان خصيصاً بأمير المؤمنين. وأتي بأخر من بعده، فقال له الحجاج: أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر. فقال له الرجل: اتخادعني عن نفسي؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكثر من فرعون. فضحك منه وخلق سبيله.

وأقام بالكوفة شهراً، وأنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة، أنزلهم الحجاج فيها مع أهلها، وهو أول من أنزل الجند في بيوت غيرهم، وهو إلى الآن لا سيما في بلاد العجم، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها وورز من عمل بها إلى يوم القيامة.

ذكر الوقعة بمسكن

ولما انهزم عبد الرحمن أتى البصرة واجتمع إليه من المنهزمين جمع كثير، وكان فيهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمره بن حبيب بن عبد الشمس القرشي، وكان بالمداين محمد بن سعد بن أبي وقاص، فسار إليه الحجاج، فلحق ابن سعد بعبد الرحمن، وشار عبد الرحمن نحو الحجاج، ومعه جمع كثير فيهم بسطام بن مفضل بن هبيرة الشيباني، وقد بايعه خلق كثير على الموت، فاجتمعوا بمسكن، وختلق عبد الرحمن على أصحابه وجعل القتال من وجه واحد.

وقدم عليه خالد بن جرير بن عبد الله من خراسان في ناس من يمش الكوفة، فاقتلوا خمسة عشر يوماً من شعبان أشد قتال، فقتل زياد بن عثيم القيني، (٤٨٣/٤) وكان على مسالح الحجاج، فهذه تلك هذة أصحابه. وبات الحجاج يحرص أصحابه، ولما أصبحوا باكروا بالقتال فاقتلوا أشد قتالاً كان بينهم، فانكشفت خيل سفيان

بن الأبرد، فأمر الحجاجُ عبدَ الملك بن المهلب فحمل على أصحاب عبد الرحمن، وحمل أصحاب الحجاج من كل جانب، فانهزم عبد الرحمن وأصحابه وقُتل عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه وأبو البخري الطائي، ومشي بسطام بن مفضل بن هيرة في أربعة آلاف فارس من شجعان أهل الكوفة والبصرة فكسروا جفون سيوفهم وحث أصحابه على القتال، فحملوا على أهل الشام فكشفوهم مراراً، فدعا الحجاجُ الرماة فرموهم وأحاط بهم الناس فقتلوا إلا قليلاً، ومضى ابن الأشعث نحو سجستان.

وقد قيل في هزيمة عبد الرحمن بمسكن غير هذا، والذي قيل: إنه اجتمع هو والحجاج بمسكن، وكان عسكر بن الأشعث والحجاج بين دجلة والسبب والكرخ، فاقتتلوا شهراً ودونه، فأتى شيخ فدل الحجاج على طريق من وراء الكرخ في أجمة وضحضاح من الماء، فأرسل معه أربعة آلاف وقال لقائدهم: إن صدق فأعطه ألف درهم، فإن كذب فاقتله. فسار بهم، ثم إن الحجاج أقاتل أصحاب عبد الرحمن، فانهزم الحجاج فعبر السبب، ورجع ابن الأشعث إلى عسكره آمناً ونهب عسكر الحجاج فأمّنوا وألقوا السلاح، فلم يشعروا نصف الليل إلا والسيوف يأخذهم من تلك السرية، ففرق من أصحاب عبد الرحمن أكثر ممن قُتل، ورجع الحجاج في عسكره على الصوت فقتلوا من وجدوا، فكان عدة من قُتل أربعة آلاف، منهم: عبد الله بن شداد بن الهاد، وبسطام ابن مفضل، وعمرو بن ضبيعة الرقاشي، وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم. (٤٨٤/٤)

وقد قيل في هزيمة عبد الرحمن بمسكن غير هذا، والذي قيل: إنه اجتمع هو والحجاج بمسكن، وكان عسكر بن الأشعث والحجاج بين دجلة والسبب والكرخ، فاقتتلوا شهراً ودونه، فأتى شيخ فدل الحجاج على طريق من وراء الكرخ في أجمة وضحضاح من الماء، فأرسل معه أربعة آلاف وقال لقائدهم: إن صدق فأعطه ألف درهم، فإن كذب فاقتله. فسار بهم، ثم إن الحجاج أقاتل أصحاب عبد الرحمن، فانهزم الحجاج فعبر السبب، ورجع ابن الأشعث إلى عسكره آمناً ونهب عسكر الحجاج فأمّنوا وألقوا السلاح، فلم يشعروا نصف الليل إلا والسيوف يأخذهم من تلك السرية، ففرق من أصحاب عبد الرحمن أكثر ممن قُتل، ورجع الحجاج في عسكره على الصوت فقتلوا من وجدوا، فكان عدة من قُتل أربعة آلاف، منهم: عبد الله بن شداد بن الهاد، وبسطام ابن مفضل، وعمرو بن ضبيعة الرقاشي، وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم. (٤٨٤/٤)

ذكر مسير عبد الرحمن إلى رتبيل وما جرى له ولأصحابه

ولما انهزم عبد الرحمن من مسكن سار إلى ميجستان فأتبعه الحجاجُ ابنه محمداً وعمارة بن تميم اللخمي وعمارة على الجيش، فأدركه عمارة بالسوس فقاتله ساعة، فانهزم عبد الرحمن ومن معه وساروا حتى أتوا سابور، واجتمع إليه الأكراد، فقاتلهم عمارة قتالاً شديداً على العقبة، ففرج عمارة وكثير من أصحابه، وانهزم عمارة وترك لهم العقبة.

وسار عبد الرحمن حتى أتى كرمان وعمارة يتبع أثرهم، فدخل بعض أهل الشام قصرأ في فمارة كرمان فإذا فيه كتاب قد كتبه بعض أهل الكوفة من شعر ابن جلة الشكري، وهي طويلة:

إيا لَهْفًا وإِيا حَزَنًا جَمِيعًا وإِيا خَرَّ القُودِ وإِيا لَقِينَا
تَرَكْنَا الثُّبْنَ والذِّبْنَ جَمِيعًا وأسَلَمْنَا الحِلَّ واليَتِيمَا
فَمَا كُنَّا أَنَسَاءَ أَهْلِ دِيْنٍ فَصَبِرْ فِي البَلَاءِ إِيَّا ابْنِيْنَا
فَمَا كُنَّا أَنَسَاءَ أَهْلِ دُنْيَا فَتَمَتَّعُوا وَلَوْ لَمْ نَرْجُ دُنْيَا
تَرَكْنَا دُورَنَا لَطَنَامِ عَيْكَ وَأَبْسَاطَ القُرَى والأَشْجَرِيْنَا
فَلَمَّا وَصَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى كَرْمَانَ أَتَاهُ عَامِلُهُ، وَقَدْ هَيَّأَ لَهُ نَزْلًا

فنزَلَ، (٤٨٥/٤) ثُمَّ رَجَلَ إِلَى سَجِسْتَانَ فَأَتَى زَرْجَنَ وَفِيهَا عَامِلُهُ فَأَغْلَقَ بَابَهَا وَمَنَعَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ مِنْ دُخُولِهَا، فَأَقَامَ عَلَيْهَا أَيَّامًا لِيَفْتَحَهَا فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا، فَسَارَ إِلَى بُسْتِ، وَكَانَ قَدْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا عِيَاضُ بْنُ هَيْثَمَ بْنِ هِشَامِ السَّدُوسِيَّ الشَّيْبَانِيَّ، فَاسْتَقْبَلَهُ وَأَنزَلَهُ، فَلَمَّا غَفَلَ أَصْحَابُهُ قَبِضَ عَلَيْهِ عِيَاضُ وَأَوْتَقَهُ وَأَرَادَ أَنْ يَأْمَنَ بِهِ عِنْدَ الْحَجَّاجِ.

وقد كان رتبيل ملك الترك سمع بمقدم عبد الرحمن، فسار إليه ليستقبله، فلما قبضه عياض نزل رتبيل على بُسْتِ وبعث إلى عياض يقول: والله لئن أدبته بما يُقْذِي عنه أو ضررته ببعض الضرر أو أخذت منه ولو حبلاً من شعر لا أبرح حتى استترك وأقتلك وجميع من معك، وأسي ذراريكم، وأغنم أموالكم. فاستأمنه عياض، فأطلق عبد الرحمن، فأراد قتل عياض فمنعه رتبيل.

ثم سار عبد الرحمن مع رتبيل إلى بلاده، فأنزله وأكرمه وعظمه. وكان ناس كثير من المنهزمين من أصحاب عبد الرحمن من الرؤوس والقادة الذين لم يقبلوا أمان الحجاج ونصبوا له العداوة في كل موطن قد تبعوا عبد الرحمن فبلغوا سجستان في نحو ستين ألفاً ونزلوا على زرنج يحاصرون من بها، وكتبوا إلى عبد الرحمن يستدعونه ويخبرونه أنهم على قصد خراسان ليقبوا بمن بها من عشائهم، فاتاهم، وكان يصلي بهم عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، إلى أن قدم عبد الرحمن. فلما أتت كتبهم عبد الرحمن سار إليهم، ففتحوا زرنج، وسار نحوهم عمارة بن تميم في أهل الشام، فقال لعبد الرحمن أصحابه: اخرج بنا عن سجستان إلى خراسان. فقال: إن بها يزيد بن المهلب وهو رجل شجاع ولا يترك لكم سلطانه ولو دخلناها لقاتلنا وتبعنا أهل الشام فيجتمع علينا أهل خراسان وأهل الشام. فقالوا: لو دخلنا خراسان لكان من يتبعنا أكثر ممن يقاتلنا. (٤٨٦/٤)

فسار معهم حتى بلغوا هراة، فهرب من أصحابه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمره القرشي في ألفين، فقال لهم عبد الرحمن: إني كنت في مأمن وملجأ فجأتني كتبكم أن أقبل فإن أمرنا واحد فلعلنا نقاتل عدونا، فأتيتكم فرأيتم أن أمضي إلى خراسان وزعمتم أنكم تجتمعون إلي وأنكم لا تتفرقون، وهذا عبيد الله قد صنع ما رأيتم فاصنعوا ما بدا لكم، أما أنا فمصرف إلى صاحبي الذي أتيت من عنده.

ففرق منهم طائفة وبقي معه طائفة وبقي أعظم العسكر مع عبد الرحمن بن العباس فبايعوه، ومضى عبد الرحمن بن الأشعث إلى رتبيل، وسار عبد الرحمن بن العباس إلى هراة، فلقوا بها الرقاد الأزد فقتلوه، فسار إليهم يزيد بن المهلب.

وقيل: إن عبد الرحمن بن الأشعث لما انهزم من مسكن أتى عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمره هراة، وأتى عبد الرحمن بن

العباس سيجستان، فاجتمع فلّ ابن الأشعث فسار إلى خراسان في عشرين ألفاً فنزل هراة، ولقوا الرقاد فقتلوه، فأرسل إليه يزيد بن المهلب: قد كان لك في البلاد مُتَسِّعٌ وَمَنْ هُوَ أَهْوَنُ مِنِّي شُوْكَةً، فارتحل إلى بلد ليس لي فيه سلطان فإني أكره قتالك، وإن أردت مالأ أرسلت إليك. فأعاد الجواب: إنا ما نزلنا لمحاربة ولا لمقام ولكننا أردنا أن نريح ثم نرحل عنك وليست بنا إلى المال حاجة.

وأقبل عبد الرحمن بن العباس على الجبابة، وبلغ ذلك يزيد فقال: مَنْ أراد أن يريح ثم يرتحل لم يجِبِ الخراج. فسار يزيد نحوه وأعاد مراسلته: إنك قد أرحت وسمت وجيت الخراج فلنك ما جيت وزيادة فاخرج عني فإني أكره قتالك. فإني إلا القتال، وكاتب جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه، فعلم يزيد فقال: جَلَّ الأمر عن العتاب؛ ثم تقدّم إليه فقاتله، فلم يكن بينهم (٤٨٧/٤) كثير قتال حتى تفرق أصحاب عبد الرحمن عنه وصبر وصبرت معه طائفة ثم انهزموا، وأمر يزيد أصحابه بالكف عن اتباعهم، وأخذوا ما كان في عسكرهم وأسروا منهم أسرى، وكان منهم: محمد بن سعد بن أبي وقاص، وعمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر، وعباس بن الأسود بن عوف الزهري، والهلقال بن نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وبيروز بن حصين، وأبو الفلج مولى عبيد الله بن معمر، وسوار بن مروان، وعبد الرحمن بن طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وعبد الله بن فضالة الزهراني الأزدي.

ولحق عبد الرحمن بن العباس بالسند، وأتى ابن سَمُرَةَ مَرَوْ، وانصرف يزيد إلى مرو وبعث الأسرى إلى الحجاج مع سيرة ونجدة، فلما أراد تسييرهم قال له أخوه حبيب: بأي وجه تنظر إلى البيانية وقد بعثت عبد الرحمن بن طلحة؟ فقال يزيد: إنه الحجاج ولا يتعرّض له. قال: وطن نفسك على العزل ولا ترسل به فإن له عندنا يداً. قال: وما هي؟ قال: ألزم المهلب في مسجد الجماعة بمائة ألف فاذاها طلحة عنه. فاطلقه يزيد، ولم يرسل يزيد أيضاً عبد الله بن فضالة لأنه من الأزدي، وأرسل الباقيين.

فلما قدموا على الحجاج قال لحاجبه: إذا دعوتك بسيدهم فأيتني بغيروز، وكان بواسط [القصب] قبل أن تبنى مدينة [واسط]. فقال لحاجبه: اتني بسيدهم. فقال لبيروز: قم. فقام، فأحضره عنده. فقال له الحجاج: أبا عثمان ما أخرجك مع هؤلاء؟ فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دماهم! قال: فتنة عمّت الناس. قال: اكتب إلي أموالك. قال: اكتب يا غلام ألف ألفي ألف، فذكر مالا كثيراً. فقال الحجاج: أين هذه الأموال؟ قال: عندي. قال: فاذهب. قال: وأنا آمن على دمي؟ قال: والله لتؤدبها ثم لاقتلك. قال: والله لا أجمع بين دمي ومالي. فأمر به فنجي.

(٤٨٨/٤)

ثم أحضر محمد بن سعد بن أبي وقاص فقال له: يا ظلّ

بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب، وقد تقدّم ذكره. وقوله: سفيان، هو ابن الأبرد الكلبى من قواد العساكر الشامية. وقوله: فرخ محمد، هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. وقوله: الأشج، هو محمد بن الأشعث. وقوله: بين قيس، هو معقل بن قيس الرياحي، وهو جدّ عبد الرحمن بن محمد لأمه. وقوله: كما شام الله النجير وأهله بجدّ له، يعني لما ارتد الأشعث بن قيس جدّ عبد الرحمن بعد وفاة النبي ﷺ وتبعه كندة، فلما حاربهم المسلمون وحصرهم بالنجير أخذوهم وقتلوهم، وقد تقدّم ذكر ذلك في قتال أهل الردّة. (٤٩٣/٤) قيل: وأني الحجاج بأسيرين فامر بقتلها، فقال أحدهما: إن لي عندك يداً. قال: وما هي؟ قال: ذكر عبد الرحمن يوماً أمك بسوء فنهته. قال: ومن يعلم ذلك؟ قال: هذا الأسير الآخر، فسأله الحجاج فصدقه، فقال له الحجاج: فلم لم تفعل كما فعل؟ قال: ويتعني الصدق عندك؟ قال: نعم. قال: متعني البغض لك ولقومك. قال: خلوا عن هذه لفعله وعن هذا لصدقه.

قيل: جاء رجل من الأنصار إلى عمر بن عبد العزيز فقال: أنا فلان بن فلان، قُتل جدّي يوم بدر وقُتل جدّي فلان يوم أحد، وجعل يذكر مناقب سلفه، فنظر عمر إلى غنسة بن سعيد بن العاص فقال: هذه المناقب والله لا يوم مسكن ويوم الجماجم ويوم راهط، وأنشد:

تلك التكرار لا فغان من لبس شيئا يماء فعاداً بعداً أبوالا

ذكر ما جرى للشعبي مع الحجاج

لما انهزم أصحاب عبد الرحمن بالجماجم نادى منادي الحجاج: من لحق بقتيبة بن مسلم فهو آمن، وكان قد ولّاه الري وسار إليه؛ فلحق به ناس كثير، وكان منهم الشعبي، فذكره الحجاج يوماً فسأل عنه، فقال له يزيد بن أبي مسلم: إنه لحق بقتيبة بالري، فكتب الحجاج إلى قتيبة يأمره بإرسال الشعبي، فأرسله.

قال الشعبي: فلما قدمت على الحجاج لقيت ابن أبي مسلم، وكان صديقاً لي، فاستشرته [فقال]: اعتذر مهمما استطعت، وأشار بمثل ذلك إخواني ونصحائي، فلما دخلت على الحجاج رأيت غير ما ذكروا لي، فسلمت عليه (٤٩٤/٤) بالإمرة وقلت: أيها الأمير إن الناس قد امروني أن اعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وإيم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله مردنا عليك وحرصنا وجهنا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأقوياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت قبذوننا وما جرّت إليه أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد فالحجة لك علينا.

فقال الحجاج: أنت والله أحب إليّ قولاً ممّن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، وقد امتن يا شعبي، كيف وجدت الناس بعدنا؟ فقلت: أصلح الله الأمير،

ولكنّ فخرأ فيهم وترثنا ومزقهم عرض البلاد وشركنا وجيشهم أمسى ذليلاً مطركنا وابرق منه العارضان والزعنا قطعنا وأفضنا إلى الموت موصنا كضاحاً ولم يضرب لذلك موعنا إذا ما تجلّس يفضّه وتوقنا جبال شروزي أو نساقد قهقنا علينا فولّى جمنا وتبنا لنا مئاماً ملقى للفرج معونا تشبهاً قطعاً من الليل امونا الأيما لاقى الجبال فجركنا بغرسنا لها والشعري مقصنا من الطعن سيند بات بالصبح مجسنا تساعير ابطال إذا التكنس عزركنا (٤٩١/٤)

فأنهل خِرَضان الرماح وأوزنا وسلطانهم أمسى غزيراً مؤثنا على أمّة كانوا سعاة وشعنا وكانوا هم أبغى البغاة وأعدنا وأفضل هذا الناس جلماً وسودنا وأكرههم إلا النبي محمنا وجننا أمير المؤمنين مسكنا وإن كليلوه كان أقسى وأكثنا مريضاً ومن وإلى الشقاق والحدنا وبضاً عليهم الجلايب خركنا وتزين نعماً في الخلود وإثنا أمان الإله من أمان وأبعنا بحق وما لاقى من الطير اسعدنا (٤٩٢/٤)

بجدّ له قد كان أشقى وأنكدنا فقال أهل الشام: أحسن، أصلح الله الأمير. فقال الحجاج: لا لم يحسن، إنكم لا تدرون ما أراد بها. ثم قال: يا عدو الله! والله لا نحمدك [على هذا القول]، إنما قلت: تأسف أن لا يكون ظهر وظفر، وتحريضاً لأصحابك علينا، وليس عن هذا سالتك، أنشدنا قولك «بين الأشج وبين قيس باذخ»، فأنشده، فلما قال: «بخ بخ لوالده وللمولود»، قال الحجاج: والله لا تبخّخ بعدها أبداً! فضربت عنقه.

قوله في هذه الأبيات: ابن عباس، هو عبد الرحمن بن العباس

اكتحلتُ بعدك السهر، واستوعرتُ الجَناب، واستحلستُ الخوف، وفقدتُ صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً. قال: انصرف يا شعبي. فانصرفتُ.

ذكر خلع عمر بن أبي الصلت بالري وما كان منه

لما ظفر الحجاج بابن الأشعث لحق خلق كثير من المهزمين بعمر بن أبي الصلت، وكان قد غلب علي الري في تلك الفتنة، فلما اجتمعوا بالري أرادوا أن يحيطوا عند الحجاج بأمر يمحو عنهم أنفسهم عثرة الجماجم، فاشاروا على عمر بخلع الحجاج وقتية، فامتنع، فوضعوا عليه أباه أبا الصلت، وكان به بارزاً، فاشار عليه بذلك والزَّمه به وقال له: يا بني إذا سار هؤلاء تحت لوائك لا أبالي أن تقتل غداً. ففعل.

فلما قارب قتيبة الري بلغه الخبر فاستعدَّ لقتاله، فالتقوا واقتتلوا، فغدر (٤٩٥/٤) أصحاب عمر به، وأكثرهم من تميم، فانهزم ولحق بطبرستان، فأواه الأصبهيد وأكرمه وأحسن إليه. فقال عمر لأبيه: إنك أمرتني بخلع الحجاج وقتية فأطعنك، وكان خلاف رأيي فلم أحمد رأيك، وقد نزلنا بهذا العلاج الأصبهيد فدعني حتى أتب عليه فاقته وأجلس على مملكته، فقد علمت الأعاجم أنني أشرف منه. فقال أبوه: ما كنت لأفعل هذا لرجل أوانا ونحن خائفون، وأكرمنا وأنزلنا. فقال عمر: أنت أعلم وسري.

ودخل قتيبة الري وكتب إلى الحجاج بخبر عمر وانهزامه إلى طبرستان، فكتب الحجاج إلى الأصبهيد: أن ابعت بهم أو برؤوسهم وإلا فقد برئت منك الذمة. فصنع لهم الأصبهيد طعاماً وأحضرهما، فقتل عمر وبعث أباه أسيراً، وقيل: بل قتلها وبعث برؤوسهما.

ذكر بناء مدينة واسط

وفي هذه السنة بني الحجاج واسطاً.

وكان سبب ذلك أن الحجاج ضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان وعسكر بحمصا عمر، وكان فتى من أهل الكوفة حديث عهد بعرس، فانصرف من العسكر إلى ابنة عمه ليلاً، فطرق الباب طارق ودقه دقاً شديداً، فإذا سكران من أهل الشام، فقالت للرجل ابنة عمه: لقد لقينا من هذا الشامي شراً، يفعل بنا كل ليلة ما ترى، يريد المكره، وقد شكوت به إلى مشيخة أصحابه. فقال لها زوجها: انذني له، فأذنت له، فقتله زوجها، فلما أذن الفجر خرج إلى العسكر وقال لابنة عمه: إذا صليت الفجر فابعني إلى الشاميين ليأخذوا صاحبهم، فإذا أحضروك عند الحجاج فاصدقيه الخبر على وجهه. (٤٩٦/٤)

ففعلت فأحضرت عند الحجاج فأخبرته، فقال: صدقتي. وقال للشاميين: خذوا صاحبكم لا قود له ولا عقل فإنه قتيل الله إلى

البار. ثم نادى مناد: لا يترنل أحد على أحد.

وكان الحجاج قد أنزل أهل الشام على أهل الكوفة، فخرج أهل الشام فعسكروا، وبعث رواداً يرتادون له منزلاً، وأقبل حتى نزل موضع واسط، فإذا راهب قد أقبل على حمار له، فلما كان بموضع واسط بال الحمار فترل الراهب فاحضر ذلك البسول واحتمله وزماه في دجلة والحجاج يراه. فقال: علي به. فأتي به. فقال: ما حملك على ماصنته؟ قال: نجد في الكتب أنه ينبغي في هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه ما دام في الأرض أحد يوحده. فاختط الحجاج مدينة واسط وبنى المسجد في ذلك الموضع.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل عبد الملك أبان بن عثمان من المدينة، في قول بعضهم، واستعمل عليها هشام بن إسماعيل. وكان العمال هذه السنة سوى المدينة الذين تقدّم ذكرهم في السنة قبلها.

قيل: وكان الحجاج قد سير نساء وأهله إلى الشام خوفاً من عبد الرحمن بن الأشعث وفيهن أخته زينب التي ذكرها التميمي في شعره، فلما هزم ابن الأشعث أرسل البشير إلى عبد الملك بذلك وكتب كتاباً إلى أخته زينب، فأخذت الكتاب وهي راكبة ففترت البغلة من قمعة الكتاب فسقطت زينب فماتت.

وفي هذه السنة توفي وإثله بن الأسقع، وهو ابن خمس ومائة سنة، وقيل: (٤٩٧/٤) مات سنة خمس وثمانين وهو ابن ثمان وتسعين سنة.

وفيها مات زب بن خبيش وعمره مائة واثنان وعشرون سنة. وأبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي، وكان مولده سنة إحدى من الهجرة. (٤٩٨/٤)

سنة أربع وثمانين

ذكر قتل ابن القريّة

وفيها قتل الحجاج أيوب بن القريّة، وكان مع ابن الأشعث بذي الجماجم، فلما هزم ابن الأشعث التحق أيوب بخوشب بن يزيد عامل الحجاج على الكوفة، فاستحضره الحجاج، فقال له: ألقني عثرتي واسقني رقي فإنه ليس جواد إلا له كبوة، ولا شجاع إلا له هبوة، ولا صارم إلا له نبوة. فقال الحجاج: كلا والله لأزيرنك جهنم. قال: فارخني فإني أجد حرماً! فأمر به فضربت عنقه. فلما رآه قتيلاً قال: لو تركناه حتى نسمع من كلامه.

ذكر فتح قلعة نيزك بإذ غيس

في هذه السنة فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك، وكان يزيد قد

سنة خمس وثمانين

ذكر هلاك عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

لما انصرف عبد الرحمن إلى رُبَيْل من هَرَاة قال له علقمة بن عمرو الأودي: ما أريد أن أدخل معك لأنني أخشع عليك وعلى مَنْ معك، [والله] لكأنني بالحجّاج وقد كتب إلى رُبَيْل يرغبه ويُرهبه، فإذا هو قد بعث بك مسلماً أو قتلتم، ولكن معي خمسمائة قد تباعدنا على أن ندخل مدينة نتحصن بها حتى نغطي الأمان أو نموت كراماً، ولم يدخل إلى بلاد رُبَيْل معه، وخرج هؤلاء الخمسمائة وجعلوا عليهم مودوداً البصري، وقدم عليهم عُمارة بن تميم اللخمي فحاصروهم، فامتنعوا حتى آمنهم، فخرجوا إليه، فوفى لهم.

وتابعت كتب الحجّاج إلى رُبَيْل في عبد الرحمن: أن ابعت به إليّ وإلا والذي لا إله غيره لأوطئن أرضك ألف ألف مقاتل.

وكان مع عبد الرحمن رجل من تميم يقال له عُبيد بن سُبيع التميمي، وكان رسوله إلى رُبَيْل، فخصّ رُبَيْل وخفّ عليه، فقال القاسم بن محمد ابن الأشعث لأخيه عبد الرحمن: إني لا آمن غدر هذا التميمي فاقتلته. فخافه عُبيد ووشى به إلى رُبَيْل وخوفه الحجّاج ودعاه إلى الغدر بابن الأشعث وقال له: أنا آخذ لك من الحجّاج عهداً ليكفّن عن أرضك سبع سنين على أن تدفع (٥٠٧/٤) عبد الرحمن. فأجابه إلى ذلك، فخرج عُبيد إلى عُمارة سرّاً فذكر إليه ما استقر مع رُبَيْل وما بذل له، وكتب عُمارة إلى الحجّاج بذلك، وأجابه إليه أيضاً وبعث رُبَيْل برأس عبد الرحمن إلى الحجّاج.

وقيل: إن عبد الرحمن كان قد أصابه السلّ فمات فأرسل رُبَيْل إليه فقطع رأسه قبل أن يُدفن وأرسله إلى الحجّاج.

وقد قيل: إن رُبَيْل لما صالح عُمارة بن تميم اللخمي على ابن الأشعث كتب عُمارة إلى الحجّاج بذلك فأطلق له خراج بلاده عشر سنين، فأرسل رُبَيْل إلى عبد الرحمن وثلاثين من أهل بيته فحضرُوا فقيدهم وأرسلهم إلى عُمارة، فألقى عبد الرحمن نفسه من سطح قصر، فمات فاحتزّ رأسه وسيره إلى الحجّاج، فسيره الحجّاج إلى عبد الملك، وسيره عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز؛ فقال بعض الشعراء:

هيهات موضعُ جُشّةٍ مِن رَأْسِهَا رَأْسُ بِمَصْرٍ وَجُشّةٌ بِالرُّحَيْجِ

وقيل: إن هلاك عبد الرحمن كان سنة أربع وثمانين.

ذكر عزل يزيد بن المهلب عن خراسان وولاية أخيه المفضل

وفي هذه السنة عزل الحجّاج يزيد بن المهلب عن خراسان.

وضع على نيزك العيون، فلمّا بلغه خروج نيزك عنها سار إليها فحاصرها فملكها وما فيها من الأموال والذخائر، وكانت من أحسن القلاع وأمنها، وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيماً لها؛ وقال كعب بن مُعَدان الأشقريّ يذكرها: (٤٩٩/٤)

وباذغيسَ التي من حلّ ذرّوتها عزّ الملوكَ فإن شاجر أو ظلّمَا مَنِيعةً لم يكنها قُبلةً ملك إلا إذا واجهت جيشاً له وجّمَا نخالَ ترائنها من بُعدٍ منظرها بعضُ النجوم إذا ما ليّلتها عَنّا وهي آيات عُدّة؛ وقال أيضاً يذكر يزيد وفتحها:

نقى نيزكاً عن باذغيسَ ونيزكٌ بمنزلةِ أعيانِ الملوكِ اغتصابها مُحَلّفةٌ دونَ السماءِ كأنّها غمامةٌ صيفٍ رآلَ عنها سَحَابُهَا ولا تبلغُ الأروى شاربِها العُلَى ولا الطيرُ إلا تسرّها وعَقَلُهَا وما خوّفتُ بالندبِ ولدانَ أهلها ولا تَبَحَثُ إلا التجوّمَ كَلَابُهَا في آياتٍ غيرها.

فلمّا فتحها كتب إلى الحجّاج بالفتح، وكان يكتب له يحيى بن يَعمَر العدواني حليف هُذَيْل: إنا لحقنا العدو ففتحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفةً وأسرنا طائفةً ولحقّت طائفة برؤوس الجبال وعواعر الأودية فأهضام الغيطان وأثناء الأنهار. فقال الحجّاج: مَنْ يكتب ليزيد؟ فقيل: يحيى بن يَعمَر، فكتب إليه بحمله على البريد. فقدم إليه أفصح الناس. فقال: أين وُلدت؟ قال: بالأهواز. [قال]: فهذه الفصاحة من أين؟ قال: حفظتُ من كلام أبي؟ وكان فصيحاً. قال: أخبرني هل يلحن عُتبسة بن سعيد؟ قال: نعم كثيراً. قال: ففلان؟ قال: نعم. قال فأخبرني هل إلحن؟ قال: نعم تلحن لحناً خفياً، تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل أن في موضع إن، وإن في موضع أن. قال: قد أجلتلك ثلاثاً فإن وجدتلك بارض العراق قتلتك. فرجع إلى خراسان. (٥٠٠/٤)

ذكر عُدّة حوادث

في هذه السنة غزا عبد الله بن عبد الملك الرومَ ففتح المَصْبِصَةَ وبنى حصنها ووضع بها ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى مسجدًا.

وحجّ بالناس هذه السنة هشام بن اسماعيل. وكان العمّال مَنْ تقدّم ذكرهم. وفيها غزا محمد بن مروان أرمينية.

وفيها مات عبد الله بن الحارث بن نُوفَل الملقّب ببيّة بَعْمَان، وكان يسكن البصرة، وكان مولده على عهد رسول الله ﷺ.

(٥٠١/٤)

وكان سبب عزله إياه أن الحجاج وفد إلى عبد الملك فمر في طريقه براهب فقيل له: إن عنده علماء فدعا به وسأله هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه ونحن؟ قال: نعم. قال: مسمي أم موصوف؟ فقال: كل ذلك نجده موصوفاً بغير اسم، ومسمي بغير صفة. قال: فما تجدون صفة أمير المؤمنين؟ قال: نجده في (٥٠٣/٤) زماننا: ملك أفرغ، من يقيم لسيله يصرغ. قال: ثم من؟ قال: اسم رجل يقال له الوليد، ثم رجل اسمه اسم نبي يفتح به على الناس. قال: أفتعلم من يلي بعدي؟ قال: نعم، رجل يقال له يزيد. قال: أفتعرف صفته؟ قال: يغدر غدرة، لا أعرف غير هذا. فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب، ثم سار وهو وجل من قول الراهب، ثم عاد وكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ويخبره أنهم زبيريّة. فكتب إليه عبد الملك: إنني لا أرى طاعتهم لآل الزبير نقصاً بآل المهلب، وفاؤهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي.

أمرتك أمراً حازماً فقصتني فاصبحت مسلوب الإمارة نادياً
فما أنا بالباكي عليك صلياً وما أنا بالناغي لشرج سالماً
قال: فلما قدم قتيبة خراسان قال لحضين: ما قلت ليزيد؟ قال:
قلت:

أمرتك أمراً حازماً فقصتني ففسك أول اللوم إن كنت لأئماً
فإن يبلغ الحجاج أن قد عصيته فإنيك تلقى أثره متفاقماً
قال: فماذا أمرته به [فقصاك]؟ قال: أمرته أن لا يدع صفراء
ولا بيضاء إلا حملها إلى الأمير. قال بعضهم: فوجده قتيبة فارخاً.

وقيل: كتب الحجاج إلى يزيد: أغزو خوارزم، فكتب: إنها قليلة
السلب شديدة الكلب. فكتب إليه الحجاج: استخلف واقدم.
فكتب: إنني أريد أن أغزو خوارزم. فكتب الحجاج: لا تغزها فإنها
كما ذكرت. فغزا ولم (٥٠٥/٤) يطفه، فصالحه أهلها وأصاب
سبياً، وقتل في الشتاء، وأصاب الناس برداً، فأخذوا ثياب الأسرى،
فمات ذلك السبي. فكتب إليه الحجاج أن اقدم. فسار إليه، فكان لا
يمر ببلد إلا فرش أهله الراحين.

(حضين بن المنذر بالحاء المهملة المضمومة، والضاد
المعجمة المفتوحة، وآخره نون).

ذكر غزو المفضل بأذغيس وآخرون

لما ولي المفضل خراسان غزا بأذغيس ففتحها وأصاب مغنماً
فقسمه، فأصاب كل رجل ثمانين مائة. ثم غزا آخرون وشروان فغنم
وقسم ما أصاب، ولم يكن للمفضل بيت مال، كان يعطي الناس
كلما جاء شيء، وإن غنم شيئاً قسمه بينهم.

ذكر مقتل موسى بن عبد الله بن خازم

في هذه السنة قتل موسى بن عبد الله بن خازم بيزيد.

وكان سبب مصيره إلى ترمذ أن إياه لما قتل من قتل من بني
تميم، وقد تقدم ذكر ذلك، تفرق عنه أكثر من كان معه منهم، فخرج
إلى نيسابور، وخاف بني تميم على ثقله بمرو، فقال لابنه موسى:
خذ ثقلي واقطع نهر بلخ حتى تلجئ إلى بعض الملوك وإلى
حصن تقيم فيه. فرحل موسى عن مرو في (٥٠٦/٤) عشرين
ومائتي فارس، واجتمع إليه تمة أربعمائة، وانضم إليه قوم من بني
سليم، فأتى زم، فقاتله أهلها، فظفر بهم فأصاب مالا وقطع النهر
وأتى بخاري فسأل صاحبها أن يلجأ إليه فأبى. فخافه وقال: رجل
فاتك وأصحابه مثله فلا آمنه. ووصله وسار، فلم يأت ملكاً يلجأ
إليه إلا كره مقامه عنده، فأتى سمرقند فأقام بها وأكرمه ملكها
طرخون وأذن له في المقام وأقام ما شاء الله.

ولأهل الصغد مائدة يوضع عليها الخيم وحل وخبز وإبريق

فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرة وبما قال الراهب. فكتب عبد
الملك إليه: إنك قد أكثرت في يزيد وآل المهلب، فسم لي رجلاً
يصلح لخراسان. فسمي قتيبة بن مسلم، فكتب إليه أن ولّو.

وبلغ يزيد أن الحجاج عزله، فقال لأهل بيته: من ترون
الحجاج يولي خراسان؟ قالوا: رجلاً من ثقيف. قال: كلا ولكنّه
يكتب إلى رجل منكم بعده، فإذا قدمت عليه عزله وولّى رجلاً من
قيس، وأخلى بقتية بن مسلم.

فلما أذن عبد الملك في عزل يزيد كره أن يكتب إليه بعزله،
فكتب إليه يأمره أن يستخلف أخاه المفضل ويقبل إليه.

واستشار يزيد حضين بن المنذر الرقاشي، فقال له: أقم واعتل
واكتب إلى أمير المؤمنين ليترك فإنه حسن الحال والرأي فيك. قال
يزيد: نحن أهل بيت قد بورك لنا في الطاعة، وأنا أكره الخلاف.
فأخذ يتجهز، فأبطأ، فكتب الحجاج إلى المفضل: إنني قد وليتك
خراسان. فجعل المفضل يستحث يزيد، فقال له يزيد: إن الحجاج
لا يترك بعدي وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن امتنع عليه،
وستعلم. (٥٠٤/٤)

وخرج يزيد في ربيع الآخر سنة خمس وثمانين، وأقر الحجاج
أخاه المفضل تسعة أشهر ثم عزله.

وقد قيل: إن سبب عزله أن الحجاج لما فرغ من عبد الرحمن
بن الأشعث لم يكن له هم إلا يزيد بن المهلب وأهل بيته، وقد كان
أذل أهل العراق كلهم إلا آل المهلب ومن معهم بخراسان، وتخوفه
على العراق، وكان يبيع إليه لياثيه فيعتل عليه بالعدو والحروب،
فكتب الحجاج إلى عبد الملك يشير عليه بعزل يزيد ويخبره
بطاعتهم لآل الزبير، فكتب إليه عبد الملك بنحو ما تقدم، وساق
باقي الخبر كما تقدم، وقال حضين ليزيد:

لعمرو بن خالد: اخرج بعدينا فكن أنت ومن معك قريباً، فإذا سمعتم تكبيرنا فكبروا. ثم سار حتى ارتفع فوق عسكر الترك ورجع إليهم وجعل أصحابه أرباعاً وأقبل إليهم، فلما رآهم أصحاب الأرصاد قالوا: من أنتم؟ قالوا: عابروا سبيل. فلما جاوزوا الرصد حملوا على الترك وكبروا، فلم يشعر الترك إلا بوقع السيوف فيهم، فساروا يقتل بعضهم بعضاً وولوا، فأصيب من المسلمين ستة عشر رجلاً وحووا عسكرهم وأصابوا سلاحاً كثيراً ومالاً، وأصبح الخزاعي وأصحابه وقد كسروهم ذلك، فخافوا مثله، فقال عمرو بن خالد لموسى: إننا لا نظفر إلا بمكيدة ولهم أمداد وهم كثيرون فدعني آتو لعلي أصيب فرصة فاضربني وخلاك ذم. فقال له موسى: تتعجل الضر وتعرض للقتل. قال: أما التعرض للقتل فانا كل يوم متعرض له، وأما الضرب فما أيسره في جنب ما أريد. فضربه موسى خمسين سوطاً، فخرج من عسكر موسى وأتى عسكر الخزاعي مستامناً وقال: أنا رجل من أهل اليمن كنت مع عبد الله بن خازم، فلما قتل أئيت ابنه فكننت معه، وإنه اتهمني وقال: قد تعصبت لعدونا وأنت عين له، فضربني ولم آمن القتل فهرت منه. فأمنه الخزاعي وأقام معه، فدخل يوماً وهو خال ولم ير عنده سلاحاً فقال كأنه ينصح له: أضلع الله الأمير، إن مثلك في مثل هذه الحال لا ينبغي أن يكون بغير سلاح. قال: إن معي سلاحاً. فرفع طرف فراشه فإذا سيف متضى، فأخذه عمرو فضربه حتى قتله وخرج فركب فرسه وأتى موسى، وتفرق ذلك الجيش، وأتى بعضهم موسى مستامناً فأمنه، ولم يوجه إليه أمة أحدًا.

وغزل أمة وقدم المهلب أميراً، فلم يتعرض لموسى وقال لبيته: إياكم وموسى، فإنكم لا تزالون ولادة خراسان ما دام هذا الشيط بمكانة فإن قتل فأول طالع عليكم أمير على خراسان من قيس. فلما مات المهلب وولي يزيد لم يتعرض أيضاً لموسى. (٥٠٩/٤)

وكان المهلب قد ضرب خريث بن قطبة الخزاعي، فخرج هو وأخوه ثابت إلى موسى، فلما ولي يزيد بن المهلب أخذ أمرهما وخزمتما وقتل أخاهما لأمتها الحارث بن مقذ. فخرج ثابت إلى طرخون فشكا إليه ما صنع به، وكان ثابت محبوباً إلى الترك بعيد الصوت فيهم، فغضب له طرخون وجمع له نيزك والسبل وأهل بخارى والصغانيان فقدموا مع ثابت إلى موسى، وقد اجتمع إلى موسى فل عبد الرحمن بن العباس من قرأة وفل ابن الأشعث من العراق ومن ناحية كابل، فاجتمع معه ثمانية آلاف، فقال له ثابت وخريث: مير حتى تقطع النهر وتخرج يزيد عن خراسان ونوليكم. فهم أن يفعل، فقال له أصحابه: إن أخرجت يزيد عن خراسان تولى ثابت وأخوه خراسان وغلباك عليها. فلم يسر وقال لثابت وخريث: إن أخرجنا يزيد قدم عامل لعبد الملك، ولكننا نخرج عمال يزيد

شراب، وذلك كل عام يوماً، يجعلون ذلك لفارس الصفد فلا يقربه غيره، فإن أكل منه أحد بارزه فأيهما قتل صاحبه فالمائدة له. فقال رجل من أصحاب موسى: ما هذه المائدة؟ فأخبر، فجلس فأكل ما عليها، وقيل لصاحب المائدة فجاء مغضباً وقال: يا عريسي بارزني فبارزه فقتله صاحب موسى، فقال ملك الصفد: أنزلتكم وأكرمتكم فقتلتهم فارسي، لولا أنني أمتك وأصحابك لقتلتكم، اخرجوا عن بلدي. فخرجوا.

فأتى كيش فضعف صاحبها عنه فاستنصر طرخون فأتاه، فخرج موسى إليه وقد اجتمع معه سبعمائة فارس، فقاتلهم حتى أسسوا وتحاجزوا وبأصحاب موسى جراح كثيرة، فقال لزوجة بن علقمة: احتل لنا على طرخون. فأتاه فقال: أيها الملك ما حاجتك إلى أن تقتل موسى وتقتل معه، فإنك لا تصل إليه حتى يقتلوا [مثل] عدتهم منكم، ولو قتله وإياهم جميعاً ما نلت (٥٠٧/٤) حظاً، لأن له قدراً في العرب، فلا يأتي أحد خراسان إلا طالبك بدمه.

فقال: ليس لي إلى ترك كش في يده سبيل. قال: فكيف عنه حتى يرتحل. فكف.

وسار موسى فأتى بتريد وبها حصن يشرف على جانب النهر، فنزل موسى خارج الحصن وسأل يزيد شاه أن يدخله حصنه، فأتى، فأهدى له موسى ولاطفه حتى حصل بينهما مودة وخرج فتصيد معه. فصنع صاحب يزيد طعاماً وأحضر موسى لياكل معه، ولا يحضر إلا في مائة من أصحابه، فاختار موسى مائة من أصحابه، فدخلوا الحصن وأكلوا، فلما فرغوا قال له: اخرج، قال: لا اخرج حتى يكون الحصن بيتي أو قبري. وقاتلهم فقتل منهم عدة وهرب الباقون، واستولى موسى عليها وأخرج ترمذ شاه منها ولم يعرض له ولا لأصحابه، فاتوا الترك يستنصرونهم على موسى فلم ينصروهم وقالوا: لا نقاتل هؤلاء. وأقام موسى بترمد، فأتاه جمع من أصحاب أبيه فقوي بهم، فكان يخرج فيغير على ما حوله.

ثم ولي بكير بن وساج خراسان فلم يعرض له، ثم قدم أمة فسار بنفسه يريد مخالفة بكير فرجع، على ما تقدم ذكره. ثم إن أمة وجه إلى موسى بعد صلح بكير رجلاً من خزاعة في جمع كثير، وعاد أهل ترمذ إلى الترك فاستنصروهم وأعلموهم أنه قد غزا قوم من العرب وحصروه. فسارت الترك في جمع كثير إلى الخزاعي، فأطاف بموسى الترك والخزاعي، فكان يقاتل الخزاعي أول النهار والترك آخر النهار، فقاتلهم شهرين أو ثلاثة. ثم إنه أراد أن يبيت الخزاعي وعسكره، فقال له عمرو بن خالد بن حصين الكلابي: ليكن البيات بالمعجم، فإن العرب أشد حذراً وأجراً على الليل، فإذا فرغنا من المعجم تفرغنا للعرب. (٥٠٨/٤)

فأقام حتى ذهب ثلث الليل وخرج موسى في أربعمائة وقال

عمًا وراء النهر ويكون لنا، فأخرجوا عمال يزيد عمًا وراء النهر وجبوا الأموال، فقوي أمرهم، وانصرف طرخون ومن معه، واستبدّ ثابت وحُرَيْث بتدبير الأمر، والأمير موسى ليس له غير الاسم.

فقبل لموسى: ليس لك من الأمور شيء والأمور إلى ثابت وحُرَيْث فاقبلهما وتولّى الأمر. فأبى، فآلحوا عليه حتى أفسدوا قلبه عليهما وهم يقتلها.

فلما هم لفى ذلك إذ خرج عليهم الهياطلة والتبّت والترك في سبعين ألفاً لا يعدّون الحاسر ولا صاحب البيضة الجماء ولا يعدّون صاحب بيضة ذات قوّنس. فخرج ابن خازم وقاتلهم فيمنّ معه، ووقف ملك الترك على تلّ في عشرة آلاف في أكمل عدّة والقتال أشدّ ما كان، فقال موسى: إن أزلتم هؤلاء فليس الباقون بشيء. فقصدهم حُرَيْث بن قُطَيْبَة فقاتلهم وآلح عليهم حتى أزالهم عن التلّ، ورُمي حُرَيْث بنشابة في جبهته، فتحاجزوا، فبينهم موسى، (٥١٠/٤) وحمل أخوه خازم بن عبد الله بن خازم حتى وصل إلى شجرة ملكهم، فوجأ رجلاً منهم بقيعة سيفه فقطع فرسه، فاحتمله الفرس فألقاه في نهر بلخ، فغرق، وقتل من الترك خلق كثير، ونجا منهم بشر، ونجا من نجا منهم بشر، ومات حُرَيْث بعد يومين.

ورجع موسى وحمل معه الرؤوس فبنى منها جوسقين. وقال أصحاب موسى: قد كُفينا أمر حُرَيْث، فاكفينا أمر ثابت. فأبى، وبلغ ثابتاً بعض ما يخوضون فيه، فدسّ محمد بن عبد الله الخزاعي - عم نصر بن عبد الحميد، عامل أبي مسلم على الري - على موسى، وقال: إياك أن تتكلّم بالعربية، وإن سالوك فقلّ أنا من سبي الباميان. ففعل ذلك واتصل بموسى، وكان يخدمه وينقل إلى ثابت خبرهم، فحذر ثابت، وآلح القوم على موسى فقال لهم ليلة: لقد أكثرتم عليّ وفيما تريدون هلاككم، فعلى أي وجه تقتلون و [أنا] لا أغدر به؟ قال له أخوه نوح: إذا إياك غداً عدلنا به إلى بعض الدور فضررنا عنقه فيها قبل أن يصل إليك. فقال: والله إنّه هلاككم، وأتم أعلم.

فخرج الغلام فأبى ثابتاً فأخبره، فخرج من ليلته في عشرين فارساً ومضى. وأصبحوا فلم يروه ولم يروا الغلام، فعلموا أنّه كان عينا له.

ونزل ثابت بحوشرا واجتمع إليه خلق كثير من العرب والعجم، فاقبل موسى إليه وقاتله، وتحصّن ثابت بالمدينة، وأتاه طرخون معينا له، فرجع موسى إلى يزيد، وأقبل ثابت وطرخون ومعهما أهل بخارى ونسب وكش فاجتمعوا في ثمانين ألفاً فحصروا موسى حتى جهد هو وأصحابه، فلما اشتدّ عليهم قال يزيد بن هذيل: والله لأقتلن ثابتاً أو لأموتن. فخرج إلى ثابت فاستأمنه، (٥١١/٤) فقال له ظهير: أنا أعرف بهذا منك، ما أتاك إلا

بغدره فأخذه، فأخذ ابنته قدامة والضحاك رهناً، فكانا في يد ظهير.

وأقام يزيد يلتصق غيرة ثابت فلم يقدر على ما يريد حتى مات ابن لزياد القصير الخزاعي، فخرج ثابت إليه ليعزيه وهو بغير سلاح وقد غابت الشمس، فلما يزيد من ثابت فضربه على رأسه فوصل إلى الدماغ وهرب فسلم، وأخذ طرخون قدامة والضحاك ابني يزيد فقتلها، وعاش ثابت سبعة أيام ومات، وقام بأمر العجم بعد موت ثابت طرخون، وقام ظهير بأمر أصحاب ثابت، فقاما قياماً ضعيفاً، وانتشر أمرهم واجتمع موسى على بيتاتهم، فأخبر طرخون بذلك فضحك وقال: موسى يعجز أن يدخل متوضّاه فكيف يبيتنا؟ لا يحرس الليلة أحد.

فخرج موسى في ثمانمائة وجعلهم أرباعاً وبيتهم، وكان لا يمرّ بشيء إلا ضربه من رجل ودابة وغير ذلك، فليس نيزك سلاحه ووقف، وأرسل طرخون إلى موسى أن كفّ أصحابك فإننا نرحل إذا أصبحنا. فرجع موسى وارتحل طرخون والعجم جميعاً.

فكان أهل خراسان يقولون: ما رأينا مثل موسى ولا سمعنا به، قاتل مع أبيه سنتين ثم خرج يسير في بلاد خراسان فأبى ملكاً فغلب على مدينته. وأخرجه منها، ومارس الجنود من العرب والترك إليه، وكان يقاتل العرب أوّل النهار والترك آخر النهار.

وأقام موسى في الحصن خمس عشرة سنة وصار ما وراء النهر لموسى لا ينازعه فيه أحد.

فلما عزل يزيد بن المهلب وولي المفضل أراد أن يخطى عند الحجاج بقتال موسى بن عبد الله، فسير عثمان بن مسعود إليه في جيش، وكتب إلى مُذْرِك بن المهلب وهو يبلغ يأمره بالمسير معه، فعبّر النهر في خمسة عشر ألفاً، (٥١٢/٤) فكتب إلى السبيل وإلى طرخون فقدموا عليه، فحصروا موسى وضيقوا عليه وعلى أصحابه

فمكث شهرين في ضيق، وقد خندق عثمان عليه وحذر الليث، فقال موسى لأصحابه: اخرجوا بنا، حتى متى نصبراً فاجعلوا يومكم معهم إمّا ظفرتهم وإمّا قتلتم واقتصدوا بالترك. فخرجوا وخلف النضر بن سليمان بن عبد الله بن خازم في المدينة، وقال له: إن قُلت فلا تدفعن المدينة إلى عثمان وادفعها إلى مُذْرِك بن المهلب. وخرج وجعل ثلث أصحابه بإزاء عثمان، وقال: لا تقاتلوه إلا أن يقاتلكم. وقصد لطرخون وأصحابه فصدقوهم القتال، فانهزم طرخون وأخذوا عسكرهم، وزحف الترك والصغد فحالوا بين موسى والحصن، فقاتلهم، فغفروا فرسه فسقط، فقال لمولى له: أحملني. فقال: الموت كربة ولكن ارتدّ فإن نجونا نجونا جميعاً وإن هلكنا هلكنا جميعاً. قتال: فارتدّ، فلما نظر إليه عثمان حين وثب قال: وثبة موسى ورب الكعبة!

وقصد إلى موسى، وغُفرت دابة موسى فسقط هو ومولاه، فقتلوه، ونادى منادي عثمان: مَنْ لقيتموه فخذوه أسيراً ولا تقتلوا أحداً.

فقتل ذلك اليوم من الأسرى خلقاً كثيراً من العرب خاصة، فكان يقتل العرب ويضرب المولى ويطلقه، وكان فظاً غليظاً.

وكان الذي أجهز على موسى واصل بن طيسلة العنبري.

وبقيت المدينة بيد الضر بن سليمان فلم يدفعها إلى عثمان، وسلمها إلى مُدرك بن المهلب وأمنه، فسلمها مدرك إلى عثمان. وكتب المفضل إلى الحجاج بقتل موسى. فقال: العجب منه! أكتب إليه بقتل ابن سبرة فيكتب إلي أنه لمآبه ويكتب إلي أنه قد قتل موسى بن عبد الله بن خازم. ولم يسره قتل موسى لأنه من قيس. (٥١٣/٤)

وقُتل موسى سنة خمس وثمانين، وضرب رجل من الجند ساق موسى، فلما ولي قتيبة قال: ما دعاك إلى ما صنعت بفتى العرب بعد موته؟ قال: كان قتل أخي. فأمر به فقتل.

ذكر موت عبد العزيز بن مروان والبيعة للوليد بولاية العهد

كان عبد الملك بن مروان أراد أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويبيع لابنه الوليد بن عبد الملك، فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذؤيب وقال: لا تفعل فلأنك تبعث على نفسك صوت عار، ولعل الموت يأتيه [فستريح منه]. فكف عنه ونفسه تنازعه إلى خلع. فدخل عليه روح بن زنباع، وكان أجمل الناس عند عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعت ما انتطع فيه عتران، وأنا أول مَنْ يجيبك إلى ذلك. قال: نصيح إن شاء الله. ونام روح عند عبد الملك، فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وهما نائمان، وكان عبد الملك قد تقدّم إلى حجابيه أن لا يحجبا قبيصة عنه، وكان إليه الخاتم والسكة تأتيه الأخبار قبل عبد الملك والكتب. فلما دخل سلم عليه، قال: أجرك الله في عبد العزيز أخيك. قال: هل توفي؟ قال: نعم. فاسترجع ثم أقبل على روح وقال: كفانا الله ما كنا نريد، وكان ذلك مخالفاً لك يا قبيصة. فقال قبيصة: يا أمير المؤمنين إن الرأي كله في الأناة، فقال عبد الملك: وربما كان في العجلة خير كثير، رأيت أمر عمرو بن سعيد، ألم تكن العجلة فيه خيراً من الأناة؟

وكانت وفاة عبد العزيز في جمادى الأولى في مصر، فضم عبد الملك علمه (٥١٤/٤) إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك وولاه مصر

وقيل: إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزيّن لهبيعة الوليد وأوفد في ذلك وقد، فلما أراد عبد الملك خلع عبد العزيز والبيعة للوليد كتب إلى عبد العزيز: إن رأيت أن يصير هذا الأمر لابن

أخيك، فأبى، فكتب إليه ليجعل الأمر له ويجعله له أيضاً من بعده. فكتب إليه عبد العزيز: إني أرى في ابني أبي بكر ما ترى في الوليد. فكتب إليه عبد الملك ليحمل خراج مصر، فأجابه عبد العزيز: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنًا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً، وإنّا لا ندرى أين يأتيه الموت أولاً، فإني رأيت أن لا تنفس عليّ بقية عمري فافعل. فرق له عبد الملك وتركه، وقال للوليد وسليمان: إن يُرد الله أن يعطيكما الخلافة لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك. فقال عبد الملك حيث رده عبد العزيز: اللهم إنه قطعني فاقطعه.

فلما مات عبد العزيز قال أهل الشام: ردّ على أمير المؤمنين أمره. فلما أتى خبر موته إلى عبد الملك أمر الناس بالبيعة لابنّه الوليد وسليمان، فبايعوا، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان. وكان على المدينة هشام بن إسماعيل، فدعا الناس إلى البيعة فاجابوا، إلا سعيد بن المسيّب فإنه أبى وقال: لا أبايع وعبد الملك حي، فضربه هشام ضرباً مبرحاً وطاف به وهو في ثياب شعر حتى بلغ رأس الثنية التي يقتلون ويصلبون عندها ثم رذوه وحسوه. فقال سعيد: لو ظننت أنهم [لا] يصلبوني ما لبست ثياب مسوح ولكنتي قلت يصلبوني فيسترنني. فبلغ عبد الملك الخبر فقال: قبح الله هشاماً، إنما كان ينبغي أن يدعوه إلى البيعة، فإن أبى أن يبايع فيضرب عنقه أو يكف عنه. وكتب إليه بلومه ويقول له: (٥١٥/٤) إن سعيداً ليس عنده شقاق ولا خلاف.

وقد كان سعيد امتنع من بيعة ابن الزبير وقال: لا أبايع حتى يجمع الناس. فضربه جابر بن الأسود عامل ابن الزبير ستيّن سوطاً، فبلغ ذلك ابن الزبير فكتب إلى جابر بلومه وقال: ما لنا ولسعيد، دعه لا تعرض له.

وقيل: إن بيعة الوليد وسليمان كانت سنة أربع وثمانين، والأول أصح، قبل قدوم عبد العزيز على أخيه عبد الملك من مصر، فلما فارقه وصّاه عبد الملك فقال: أبسط بشرك والسن كنفسك وأثر الرقي في الأمور فهو أبلغ بك، وانظر حاجبك وليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يفتن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتعلم أنت الذي تأذن له أو تردّه، فإذا خرجت إلى مجلسك فابداً جلساءك بالكلام يأسوا بك وتثبت في قلوبهم محبتك، وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المهمة، واعلم أن لك نصف الرأي ولأخيك نصفه، ولن يهلك امرؤ عن مشورة، وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته فلأنك على العقوبة بعد التوقّف عنها أقدر منك على ردّها بعد إمضاها. والسلام.

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة هشام بن إسماعيل المخزومي. وكان العامل على العراق والمشرق الحجاج بن يوسف.

وفيها غزا محمد بن مروان أرمينية فصاف فيها وشيئ. (٥١٦/٤)

وفي هذه السنة مات عمرو بن حُرَيْث المخزومي.

وفيها مات عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، وقيل سنة سبع، وقيل سنة ثمان وثمانين.

وفيها مات عبد الله بن عامر بن ربيعة حليف بني عدي، وكان له لما توفي النبي ﷺ أربع سنين. (٥١٧/٤)

سنة ست وثمانين

ذكر وفاة عبد الملك

في هذه السنة توفي عبد الملك بن مروان منتصف شوال، وكان يقول: أخاف الموت في شهر رمضان، فيه ولدت وفيه قطعت وفيه جمعت القرآن، وفيه بايع لي الناس، فمات للنصف من شوال حين أمن الموت في نفسه. وكان عمره ستين سنة، وقيل ثلاثاً وستين سنة، وكانت خلافته من لدن قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليالٍ، وقيل وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوماً.

ولما اشتد مرضه قال بعض الأطباء: إن شرب الماء مات. فاشتد عطشه فقال: يا وليد اسقني ماء. قال: لا أعين عليك. فقال لابنته فاطمة: اسقيني ماء. فمتعها الوليد. فقال: لتدعنها أو لأخلعنك. فقال: لم يبق بعد هذا شيء؟ فسقته فمات. ودخل الوليد عليه وابنته فاطمة عند رأسه تبكي فقال: كيف أمير المؤمنين؟ قال: هو أصالح. فلما خرج قال عبد الملك:

وستخبر عنا يريذلنا السرى ومستخيرات والتمسوع سراجم

وأوصى بنيه فقال: أوصيكم بتقوى الله فإنها أزين حلية وأحصن كهف، ليعطى الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير، وانظروا (٥١٨/٤) مسلمة فصدروا عن رأيه فإنه نابكم الذي عنه تفترون، ومجنكم الذي عنه ترمون، فاكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر ودوخ لكم البلاد وأذل الأعداء، وكونوا بني أم بردة لا تدب بينكم العقارب، وكونوا في الحرب أمراء فلان القتال لا يقرب ميتة، وكونوا للمعروف منارا فلان المعروف يقي أجره وذكره، وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب فإنهم أضون له وأشكر لما يؤتى إليهم منه، وتمغذوا ذنوب أهل الذنوب فلان استقلوا فأقبلوا وإن عادوا فانتقموا.

ولما توفي دفن خارج باب الجابية وصلى عليه الوليد، فتمثل هشام:

فما كان قيسَ مُلكه مُلكاً واحداً ولكنه بئسان قسزم تهتكاً فقال الوليد: اسكت فإنك تتكلم بلسان شيطان، ألا قلت كما قال أوس بن حجر:

إذا مقرر منادياً خد نبهه تخبط منساب آخر مقرر وقيل: إن سليمان تمثل بالبيت الأول، وهو الصحيح، لأن هشاماً كان صغيراً له أربع عشرة سنة. وقد رأى الشعراء عبد الملك، كثير عزة وغيره، فمما قيل فيه:

سفاك ابن مروان من الفيس فسيل أجش شمالي بجود وبهطل فمافي حياة بعد موتك رغبة لحر وإن كنا الوليد نؤمل (٥١٩/٤)

ذكر نسه وأولاده وأزواجه

أما نسه فهو أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية.

وأما أولاده وأزواجه فمنهم: الوليد وسليمان ومروان الأكبر، درج، وعائشة؛ أمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن خزيمة العبسية؛ ومنهم يزيد ومروان ومعاوية، درج، وأم كلثوم؛ وأمهم عاتكة ابنة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان؛ ومنهم هشام، وأمهم أم هشام بنت إسماعيل ابن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومية، واسمها عائشة؛ ومنهم أبو بكر، وهو بكار، أمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله؛ ومنهم الحكم، درج، أمهم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان؛ ومنهم فاطمة بنت عبد الملك، أمها أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة؛ ومنهم عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لأمهات أولاد.

وكان له من النساء شقراء بنت مسلم بن الحُجيس الطائي وأم أبيها ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. وقيل: كان عنده ابنة لعل بن أبي طالب، ولا يصح. (٥٢٠/٤).

ذكر بعض أخباره

كان عبد الملك عاقلاً حازماً أديباً ليلاً عالماً.

قال أبو الزباد: كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان. وقال الشعبي: ما ذاكرت أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك، فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني

وكان عبد الملك أول من غدر في الإسلام، وقد تقدّم فعله بعمرو بن سعيد، وكان أول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وأول من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء، وكان الناس قبله يراجعونهم، وأول خليفة بخل، وكان يقال له رشح الحجارة ليخله، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف، فإنه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير: ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه.

ذكر خلافة الوليد بن عبد الملك

فلما دفن عبد الملك بن مروان انصرف الوليد عن قبره فدخل المسجد وصعد المنبر واجتمع إليه الناس فخطبهم وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا لموت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا.

وكان أول من عزى نفسه ومناها؛ وكان أول من قام لبيعته عبد الله ابن همام السلولي وهو يقول:

الله اعطاك النسي لا توفها وقد أراد المُلحدون عوفها
عنك ويأتي الله إلا سرقها إليك حتى قلنوك طوفها
فبايعه ثم قام الناس لبيعته.

وقد قيل: إن الوليد لما صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لا مقدّم لِمَا أَمَرَ اللهُ، ولا مؤخّر لِمَا قَدَّمَ، وهذا كان من قضاء الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وخملة عرشه الموت، وقد صار إلى (٥٢٣/٤) منازل الأبرار ولي هذه الأمة بالذي يحقّ عليه لله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء الله، فلم يكن عاجزاً ولا مفترطاً. أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد. أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكّ مات بدائه. ثم نزل. وكان جباراً عبيداً.

ذكر ولاية قتيبة خراسان وما كان منه هذه السنة

وفي هذه السنة قدم قتيبة خراسان أميراً عليها للحجاج، فقدمها والمفضل يعرض الجند للغزاة، فخطب قتيبة الناس وحثهم على الجهاد، ثم عرضهم وسار، وجعل يعمرو على حربها إياس بن عبد الله بن عمرو، وعلى الخراج عثمان السعدي.

فلما كان بالطاقان أتاه دهاقين بلخ وساروا معه، فقطع النهر، فتلّقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفاتيح من ذهب ودعاه إلى بلاده، فمضى معه، فسلمها إليه لأن ملك آخرون وشومان كان يسيء جواره.

فيه. وقال جعفر بن عتبة الخطائي: قيل لعبد الملك: أسرع إليك الشئب. فقال: شئبي ارتقاء المناير وخوف اللحن.

وقال عبد الملك: ما أعلم أحداً أقوى على هذا الأمر مني، إن ابن الزبير لطويل الصلاة، كثير الصيام، ولكن ليلخله لا يصلح أن يكون سائساً.

قال أبو مسهر: قيل لعبد الملك في مرضه: كيف تجدك؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُتُمْ مَا خَوْنًاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦ الآية ٩٤]. وقال المفضل بن فضالة عن أبيه: استأذن قوم على عبد الملك بن مروان وهو شديد المرض فدخلوا عليه وقد أسندته خصي إلى صدره، فقال لهم: إنكم دخلتم عليّ عند إقبال آخرتي وإدبار دنياي، وإني تذكرت أرجى عمل لي فوجدتها غزوة غزوتها في سبيل الله وأنا خلو من هذه الأشياء، فإياكم وإيا أبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها. وقال سعيد بن عبد العزيز التنوخي: لما نزل بعبد الملك بن مروان الموت أمر (٥٢١/٤) بفتح باب قصره، فإذا قصر يقصر ثوباً فقال: يا ليتني كنت قصاراً يا ليتني كنت قصاراً مرتين. فقال سعيد بن عبد العزيز: الحمد لله الذي جعلهم يفرعون إلينا ولا نفرع إليهم.

وقال سعيد بن بشير: إن عبد الملك حين ثقل جعل يلوم نفسه ويضرب يده على رأسه، وقال: وددت أني كنت أكسب يوماً يوماً ما يقوتني وأشتغل بطاعة الله، فذكر ذلك لابن خازم، فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه. وقال مسعود بن خلف: قال عبد الملك بن مروان في مرضه: والله وددت أني عبد لرجل من تهامة أرعى غنماً في جبالها وأني لم أك شيئاً.

وقال عمران بن موسى المؤدّب: يروى أن عبد الملك بن مروان لما اشتدّ مرضه قال: ارفعوني على شرف. ففعل ذلك. فتسمّ الروح ثم قال: يا دنيا ما أطيبك! إن طويلك لقصير، وإن كبيرك لحفير، وإن كنا منك لفي غرور! وتمثل بهذين البيتين:

إن تنافش يكرن فاشك يار ب غنايا، لا طوق لي بالسلب
أو تجاوز فسانت رب صفوح عن ميسر قنوة كالتراب
ويروى أن هذه الأبيات تمثل بها معاوية، ويحقّ لعبد الملك أن يحذر هذا الحذر ويخاف، فإن من يكن الحجاج بعض سيئاته يعلم على أي شيء يقدم عليه.

قال عبد الملك لسعيد بن المسيّب: يا أبا محمد صرت أعمل الخير فلا أسر به، وأصنع الشر فلا أساء به. فقال: الآن تكامل فيك موت القلب. (٥٢٢/٤)

وفي آخر أيامه مات الوليد بن هُبادة بن الصامت الأنصاري،
وولد في آخر زمن النبي ﷺ.

وفي هذه السنة توفي لاحق بن حُمَيْد أبو مجلز السدوسي.
(٥٢٦/٤)

سنة سبع وثمانين

ذكر إمارة عمر بن عبد العزيز بالمدينة

وفي هذه السنة عزل الوليد هشام بن إسماعيل عن المدينة
لسبع ليال خلون من ربيع الأول، وكانت إمارته عليها أربع سنين
غير شهر أو نحوه، وولى عمر بن عبد العزيز المدينة، فقدمها والياً
في ربيع الأول، وثقله على ثلاثين بعيراً فنزل دار مروان، وجعل
يدخل عليه الناس فيسلمون، فلما صلى الظهر دعا عشرة من
الفقهاء الذين في المدينة: عُرْوَةَ بن الزبير، وأبا بكر بن سليمان بن
أبي خيثمة، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وأبا بكر بن
عبد الرحمن بن الحارث، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد،
وسالم بن عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عبيد الله بن عمر، وعبد
الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد، فدخلوا عليه، فقال لهم:
إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق، لا
أريد أن أقطع أمراً إلا برايكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم
أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأخرج الله على من
بلغه ذلك إلا بلغني. فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا.

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره أن يقف هشام بن
إسماعيل للناس، وكان سيء الرأي فيه، وكان هشام بن إسماعيل
يسيء جوار علي بن (٥٢٧/٤) الحسين، فخافه هشام، فتقدم علي
بن الحسين إلى خاصته ألا يعرض له أحداً بكلمة، ومرو به علي وقد
وقف للناس ولم يعرض له، فناداه هشام: «اللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ
رِسَالَتُهُ».

ذكر صلح قتيبة ونيزك

ولما صالح قتيبة ملك شومان كتب إلى نيزك طرخان صاحب
باذغيس في إطلاق من عنده من أسرى المسلمين، وكتب إليه
يتهدده، فخافه نيزك فأطلق الأسرى وبعث بهم إليه، وكتب إليه قتيبة
مع سليم الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكره يدعو إلى الصلح
وإلى أن يؤمنه، وكتب إليه يحلف بالله لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم
ليطلبته حيث كان حتى يظفر به أو يموت دونه.

فقدم سليم بالكتاب، فقال له نيزك، وكان يستنصحه: يا سليم
ما أظن عند صاحبك خيراً، كتب إلي كتاباً لا يكتب إلى مثلي. فقال
له سليم: إنه رجل شديد في سلطانه، سهل إذا سهل، صعب إذا

ثم سار قتيبة منها إلى أخرون وشومان، وهما من طخارستان،
فصالحه ملكهما على فدية أداها إليه فقبلها قتيبة ثم انصرف إلى
مرو واستخلف على الجند (٥٢٤/٤) أخاه صالح بن مسلم، ففتح
صالح بعد رجوع قتيبة كاشان وأورشت، وهي من قوغانة، وفتح
أخشيكت، وهي مدينة فرغانة القديمة، وكان معه نصر بن سيار
فأبلى يومئذ بلاءً حسناً.

وقيل: إن قتيبة قدم خراسان سنة خمس وثمانين فعرض الجند
فغزا أخرون وشومان ثم رجع إلى مرو. وقيل: إنه أقام السنة ولم
يقطع النهر لسبب بلخ فإن بعضها كان منتقضا عليه فحاربهم؛ وكان
من سبي امرأة بزمك أبي خالد ابن برمك، وكان برمك على
النوبهار، فصارت لعبد الله بن مسلم أخى قتيبة فوقع عليها. ثم إن
أهل بلخ صالحوه وأمر قتيبة برد السبي، فقالت امرأة برمك لعبد
الله: إني قد علقت منك، وحضرت عبد الله بن مسلم الوفاة
فاوصى أن يلحق به ما في بطنها ورُدَّت إلى برمك. فذكر أن ولد
عبد الله بن مسلم جاؤا أيام المهدي حين قدم الري إلى خالد
فادعوه. فقال لهم مسلم بن قتيبة: إنه لا بد لكم إن استلحقتموه
ففعل [من] أن تزوجه. فتركوه. وكان برمك طبيباً.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم. وفيها
حبس الحجاج يزيد بن المهلب وعزل حبيب بن المهلب على
كرمان وعبد الملك عن شرطته. وحج بالناس هشام بن إسماعيل
المخزومي. وكان الأمير على العراق والمشرق كله الحجاج بن
يوسف.

وفي أيام عبد الملك مات أُمَيَّة بن ظهير الأنصاري. (٥٢٥/٤)

(أسيد بضم الهمزة. وظهير بضم الظاء المعجمة)

وفيها مات عمر بن أبي سلمة، وهو ابن أم سلمة.

وفي أيامه مات علقمة بن وقاص الليثي، وله صحبة.

وفي هذه السنة مات قبيصة بن ذؤيب الخزاعي، وولد أول سنة
من الهجرة، وحنكه النبي ﷺ وكان على خاتم عبد الملك بن
مروان، وكان فقيهاً.

وفي أيامه مات سعد بن زيد الأنصاري، وولد على عهد النبي ﷺ.

وفي أيامه مات سلمة ابن أم سلمة ربيب النبي ﷺ.

وفي هذه السنة مات عبد الله بن إبي أوفى الأسلمي، وقيل
سنة سبع وثمانين، شهد الحديبية وخيبر.

عوسر، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك، فأحسن خالك عنده. فقام نيزك مع سليم فصالحه أهل بادغيس على أن لا يدخلها قتيبة. (٥٢٨/٤)

ذكر غزو الروم

قيل: وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم فقتل منهم عدداً كثيراً بسوسة من ناحية البصيصية وفتح حصوناً. وقيل: إن الذي غزا في هذه السنة هشام بن عبد الملك ففتح حصن بولس وحصن الأخرم وحصن بولس وقمم، وقتل من المستعربة نحواً من ألف مقاتل، وسب ذريتهم ونساءهم.

ذكر غزو قتيبة بيكند

ولما صالح قتيبة نيزك أقام إلى وقت الغزو فغزا بيكند سنة سبع وثمانين، وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر، فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم، فأتوهم في جمع كثير وأخذوا الطرق على قتيبة، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه خبر شهرين، وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وهم يقتلون كل يوم.

وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تندر، فأعطاه أهل بخارى مالا ليرد عنهم قتيبة، فأتاه فقال له سرّاً من الناس: إن الحجاج قد غزول وقد أتى عامل إلى خراسان فلو رجعت بالناس كان أصلح. فأمر به فقتل خوفاً من أن يظهر الخبر فيهلك الناس، ثم أمر أصحابه بالجد في القتال فقاتلهم قتالاً شديداً، فانهزم الكفار يريدون المدينة وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاؤوا، وتحصن من دخل المدينة بها، فوضع قتيبة القلعة ليهدم سورها، فسأله الصلح فصالحهم واستعمل عليهم عاملاً وارتحل عنهم يريد الرجوع، فلما سار خمسة فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومن معه، فرجع قتيبة فنقب سورهم فسقط، (٥٢٩/٤) فسأله الصلح فلم يقبل ودخلها عنوة وقتل من كان بها من المقاتلة.

وكان فيمن أخذوا في المدينة رجل أعور هو الذي استجاش الترك على المسلمين، فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي بخمسة آلاف حريرة قيمتها ألف ألف. فاستشار قتيبة الناس فقالوا: هذه زيادة في الغنائم وما عسى أن يبلغ كيد هذا! قال: لا والله لا يرؤع بك مسلم أبداً فأمر به فقتل.

وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يُحصى، ولا أصابوا بخراسان مثله، فقوي المسلمون، وولي قسّم الغنائم عبد الله بن والآن السدي أحد بني ملكان، وكان قتيبة يسميه الأمين ابن الأمين، فإنه كان أميناً.

وكان من حديث أمانة أبيه أن مسلماً الباهلي أبا قتيبة قال

لوالآن: إن عندي مالا أحب أن أستودعك ولا يعلم به أحد. قال والآن: أبعث به مع رجل تثق به إلى موضع كذا وكذا ومرة إذا رأى في ذلك الموضع رجلاً أن يضع المال وينصرف. فجعل مسلم المال في خرج وحمله على بغل وقال لمولى له: انطلق بهذا المال إلى موضع كذا وكذا فإذا رأيت رجلاً جالساً فخلّ البغل وانصرف. ففعل المولى ما أمره وأتى المكان، وكان والآن قد سبقه إليه وانتظر، وأبطأ عليه رسول مسلم فظن أنه قد بدا له فانصرف، وجاء رجل من بني تغلب فجلس في ذلك المكان، وجاء مولى مسلم فراه فسلم إليه البغل ورجع، فأخذ التغلبيّ البغل والمال ورجع إلى منزله، وظن مسلم أن المال قد أخذه والآن فلم يسأله حتى احتاج إليه، فلقيه فقال: مالي! فقال: ما قبضت شيئاً ولا لك عندي مال، فكان مسلم يشكوه إلى الناس، فشكاه يوماً والتغلبيّ جالس فخلاه به التغلبيّ وسأله عن المال فأخبره، فانطلق به إلى منزله وسلم المال إليه وأخبره الخبر، فكان مسلم يأتي الناس والقبائل فيذكر لهم عذر والآن ويخبرهم الخبر.

قال: فلما فرغ قتيبة من فتح بيكند رجع إلى مرو. (٥٣٠/٤)

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة. وكان على قضاء المدينة أبو بكر بن عمرو بن حزم. وكان على العراق وخراسان الحجاج، وكان خليفته على البصرة هذه السنة الجراح بن عبد الله الحكمي، وعلى قضائها عبد الله بن أذينة، وكان على قضاء الكوفة أبو بكر بن موسى الأشعري.

وفيه مات عبيد الله بن عباس بالمدينة، وقيل باليمن، وكان أصغر من عبد الله بسنة.

وفيه مات مطرّف بن عبد الله بن الشخير في طاعون الجوارف بالبصرة.

وفيه مات المقدام بن معدي كرب الكندي، له صُحبة، وقيل مات سنة إحدى وتسعين.

وفيه مات أمية بن عبد الله بن أسيد.

(أسيد بفتح الهمزة. الشخير بكسر الشين والخاء المعجمتين، وتشديد الخاء وبعبداً ياء). (٥٣١/٤)

سنة ثمان وثمانين

ذكر فتح طرانة من بلد الروم

في هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك والعبّاس بن الوليد بن عبد الملك بلد الروم، وكان الوليد قد كتب إلى صاحب أرمينية

بخبيره، وأدركه الترك فقاتلوه، ورجع قتيبة فأنتهى إلى عبد الرحمن وهو يقاتل الترك، وقد كاد الترك يظهرون، فلما رأى المسلمون قتيبة طابت نفوسهم وقاتلوا إلى الظهر، وأبلى يومئذ نيزك، وهو مع قتيبة، فانهزم الترك، ورجع قتيبة قطع النهر عند يرمذ وأتى مرو.

ذكر ما عمل الوليد من المعروف

وفي هذه السنة كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل الشايبا وحفر الآبار وأمره أن يعمل الفوارة بالمدينة فعملها وأجرى ماءها، فلما حجَّ الوليد ورأها أعجبه فأمر لها بقوام يقومون عليها، وأمر أهل المسجد أن يستقوا منها، وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق، وعمل الآبار، ومنع المجذمين من الخروج على الناس، وأجرى لهم الأرزاق. (٥٣٤/٤)

ذكر عدة حوادث

وحجَّ بالناس هذه السنة عمر بن عبد العزيز، ووصل جماعة من قريش، وساق معه بُذُنًا وأحرم من ذي الحليفة، فلما كان بالتنعيم أخبر أنَّ مكة قليلة الماء وأنهم يخافون على الحاج العطش، فقال عمر: تعالوا ندعُ الله تعالى، فدعا معه الناس، فلما وصلوا البيت إلا مع المطر وسال الوادي، فخاف أهل مكة من شدته، ومطرت عرفة ومكة وكثر الخصب.

وقيل: إنما حجَّ هذه السنة عمر بن الوليد بن عبد الملك.

وكان العمال من تقدم ذكرهم.

وفيهما مات سهل بن سعد الساعدي، وقيل: بل سنة إحدى وتسعين، وله مائة سنة.

وعبد الله بن بسر المازني من مازن بن منصور، وكان ممن صلى القبلتين، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة.

(يسر بضم الباء الموحدة، وبالسین المهملة). (٥٣٥/٤)

سنة تسع وثمانين

ذكر غزو الروم

قيل: في هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك الروم، فافتتح مسلمة حصن عمورية، وفتح العباس أذرويلة، ولقي من الروم جمعا فهزمهم.

وقيل: إن مسلمة قصد عمورية فلقى بها جمعا من الروم كثيرا فهزمهم وافتتح هرقلة وقمونية، وغزا العباس الصائفة من ناحية البذلثون.

ذكر غزو قتيبة بخارى

في هذه السنة أتى قتيبة كتابا الحجاج يأمره بقصد وزدان

بأمره أن يكتب إلى ملك الروم يُعرفه أن الخَزَر وغيرهم من ملوك جبال أرمينية قد أجمعوا على قصد بلاده، ففعل ذلك، وقطع الوليد البعث على أهل الشام إلى أرمينية وأكثر وأعظم جهازه، وساروا نحو الجزيرة ثم عطفوا منها إلى بلد الروم فقاتلوا هم والروم، فانهزم الروم ثم رجعوا فانهزم المسلمون، فبقي العباس في نفر منهم ابن مُحَيَّرِيز الجُمَحِيُّ فقال له العباس: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟ فقال ابن محيريز: نادمم يأتوك. فنادى العباس: يا أهل القرآن! أقبِلُوا جميعاً، فهزم الله الروم حتى دخلوا طوانة، وحصرهم المسلمون وفتحوها في جمادى الأولى.

قيل: وفيها وُلد الوليد بن يزيد بن عبد الملك. (٥٣٢/٤)

ذكر عمارة مسجد النبي ﷺ

قيل: وفي هذه السنة كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز في بيع الأول بأمره بإدخال حَجَرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ وأن يشتري ما في نواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع، ويقول له: قدَّم القبله إن قدرت، وأنت تقدر لمكان أخوالك، وأنهم لا يخالفونك، فمن أبى منهم فقوموا ملكه قيمة عدل واهدّم عليهم وادفع الأثمان إليهم، فإن لك في عمر وعثمان أسوة.

فأحضرهم عمر وأقراهم الكتاب، فأجابوه إلى الثمن، فأعطاهم إياه، وأخذوا في هدم بيوت أزواج رسول الله ﷺ وبنى المسجد، وقدم عليهم الفعلة من الشام، أرسلهم الوليد، وبعث الوليد إلى ملك الروم يُعلمه أنه قد هدم مسجد النبي ﷺ ليعمره، فبعث إليه ملك الروم مائة ألف مثقال ذهب ومائة عامل وبعث إليه من السيفساء بأربعين جملاً، فبعث الوليد بذلك إلى عمر بن عبد العزيز، وحضر عمر ومعه الناس فوضعوا أساسه وابتدأوا بعمارته.

قيل: وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم أيضاً ففتح ثلاثة حصون: أحدها حصن قسطنطين وغزاه وحصن الأخرم، وقتل من المستعمرية نحواً من ألف وأخذ الأموال. (٥٣٣/٤)

ذكر غزو نوميشت ورامنة

قيل: وفي هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم نوميشت واستخلف على مرو أخاه يسار بن مسلم، فتلقاه أهلها فصالحهم، ثم سار إلى رامنة فصالحها أهلها وانصرف عنهم.

وزحف إليه الترك ومعهم الصغد وأهل قرغانة في مائتي ألف وملكهم كور تعابون ابن أخت ملك الصين، فاعترضوا المسلمين فلحقوا عبد الرحمن ابن مسلم أخا قتيبة وهو على الساقة، وبينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل، فلما قربوا منه أرسل إلى قتيبة

الرجال، وكان أولهم صعوداً رجل من مُراد من أهل الكوفة، ففتحت عنوة وقتل فيها ثلاثة أيام وهرب عامل ذاهر عنها وانزلها محمد أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها وسار عنها إلى البيرون، وكان أهلها بعثوا إلى الحجّاج فصالحوه، فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم، وسار عنها وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهراً دون مهران، فأتاه أهل سريردس فصالحوه، ووظف عليهم الخراج وسار عنهم إلى سهبان ففتحها، ثم سار إلى نهر مهران فنزل في وسطه. (٥٣٨/٤)

وبلغ خبره ذاهر فاستعد لمحاربه وبعث جيشاً إلى سندوستان، فطلب أهلها الأمان والصلح، فأمنهم ووظف عليهم الخراج، ثم عبر محمد مهران ممّا يلي بلاد راسل الملك على جسر عقده وذاهر مستخف به، فلقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة، ومعه التكاكر، فاقتلوا قتالاً شديداً لم يُسمع بمثله، وترجل ذاهر فقتل عند المساء ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، وقال قاتله :

الخيال تشهد يوم ذاهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أنني فرجت الجمع غير معرّ حتى علوت عظيمهم بمهني
فركته تحت العجاج مجندلاً متفكر الخبيث غير مؤسدي
فلما قتل ذاهر غلب محمد على بلاد السند وفتح مدينة راور
عنوة، وكان بها امرأة لذاهر، فخافت أن تؤخذ فأحرقته نفسها
وجواربها وجميع مالها.

ثم سار إلى برهمناباد العتيقة، وهي على فرسخين من المنصورة، ولم تكن المنصورة يومئذ، كان موضعها غيضة، وكان المنهزمون من الكفار بها، فقاتلوه ففتحها محمد عنوة وقتل بها بشراً كثيراً وخربت.

وسار يريد الرور ويغزو أهل ساوندري فطلبوا الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين، ثم أسلم أهلها بعد ذلك. ثم تقدّم إلى بسند وصالح أهلها، ووصل إلى الرور، وهي من مدائن السند على جبل، فحصرهم شهوراً فصالحوه، وسار إلى السكة ففتحها، ثم قطع نهر بيّاس إلى (٥٣٩/٤) الملتان فقاتله أهلها وانهزموا، فحصرهم محمد فجاءه إنسان ودله على قطع الماء الذي يدخل المدينة فقطعه، فعطشوا فآلقوا بأيديهم ونزلوا على حكمه، فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسدّ البُد، وهم ستة آلاف، وأصابوا ذهباً كثيراً، فجمع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى إليه من كوة في وسطه، فسُميت الملتان فرج بيت الذهب، والفرج الثغر، وكان يَد الملتان تهْدَى إليه الأموال ويُحجّج من البلاد ويحلّقون رؤوسهم ولحاهم عنده ويزعمون أن صنمه هو أيوب النبي، ﷺ.

خُذاه، فعبر النهر من رَم، فلقى الصغد وأهل كِش وسَف في طريق المفازة فقاتلوه، فظفر بهم ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان، فلقوه في جمع كثير، فقاتلهم يومين وليتين فظفر بهم، وغزا وردان خذاه ملك بخارى فلم يظفر بشيء، فرجع إلى مرو وكب إلى الحجّاج بخبره، فكتب إليه الحجّاج أن صوّرها [لي]، فبعث إليه بصورتها، فكتب إليه الحجّاج أن تبّ إلى الله، جلّ ثناؤه، (٥٣٦/٤) ممّا كان منك وأنتا من مكان كذا وكذا، وكب إليه: أن يسّ بكش وانسف نسف ورذ وردان، وإنيك والتحويط، ودعني من ثبات الطريق.

وقيل: إنّما كان فتح بخارى سنة تسعين، على ما نذكره.

ذكر ولاية خالد بن عبد الله القسري مكة

قيل: وفي هذه السنة ولي خالد بن عبد الله القسري مكة، فخطب أهلها فقال: أيّها الناس أيّها أعظم، خليفة الرجل على أهله أو رسوله إليهم؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أنّ إبراهيم خليل الرحمن استسقاء فسقاه ملحاً أجاباً واستسقاء الخليفة فسقاه عذباً فرأنا، يعني بالملح زمزم، وبالماء الفرات بشراً حفرها الوليد، بثينة طوى في ثنية الحجون وكان ماؤها عذباً وكان ينقل ماؤها ويضعه في حوض إلى جنب زمزم ليُعرف فضله على زمزم، فغارت البئر وذهب ماؤها فلا يُدري أين هو اليوم.

وقيل: ولها سنة إحدى وتسعين، وقيل: سنة أربع وتسعين، وقد ذكرناه هناك.

ذكر قتل ذاهر ملك السند

في هذه السنة قتل محمد بن القاسم بن محمد بن الحَكَم بن أبي عقيل الثقفي، يجتمع هو والحجّاج في الحَكَم، ذاهر بن صعصعة ملك السند ومَلِك بلاده، (٥٣٧/٤) وكان الحجّاج بن يوسف استعمله على ذلك الثغر وسير معه ستة آلاف مقاتل وجهّزه بكلّ ما يحتاج إليه حتى المسال والإبر والخيوط، فسار محمد إلى مكران فأقام بها أياماً ثم أتى قَنْزَبُور ففتحها، ثم سار إلى ارماتيل ففتحها، ثم سار إلى الديبل فقدمها يوم الجمعة، ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة فخندق حين نزل الديبل وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقا يقال له العروس كان يمدّ به خمسمائة رجل، وكان بالديبل بُدّ عظيم عليه دقل عظيم وعلى الدقل راية حمراء إذا هبّ الريح أطافت بالمدينة، وكانت تدور، والبُدّ صنم في بناء عظيم تحت منارة عظيمة مرتفعة، وفي رأس المنارة هذا الدقل، وكلّ ما يُعبد فهو عندهم بَدّ.

فحصرها وطال حصارها، فرمى الدقل بحجر العروس فكسره، فطير الكفار بذلك، ثم إنّ محمداً أتى وناهضهم وقد خرجوا إليه فنهزمهم حتى ردهم إلى البلد وأمر بالسلامة فنصبت وصعد عليها

وأعظمت فتوحه، ونظر الحجاج في الثقة على ذلك الشر فكانت ستين ألف درهم، ونظر في الذي حمل فكان مائة ألف

ألف وعشرين ألف ألف، فقال: ربحتنا ستين ألفاً وأدركنا ثارنا ورأس ذاهر. ثم مات الحجاج، ونذكر أمر محمد عند موت الحجاج إن شاء الله تعالى.

(صغير بضم الصاد، وفتح العين المهملة).

وفيها مات ظليم مولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح بإفريقية.

(ظليم بفتح الظاء المعجمة، وكسر اللام). (٥٤٢/٤)

سنة تسعين

ذكر فتح بخارى

قد ذكرنا ورود كتاب الحجاج إلى قتيبة يأمره بالتوبة عن انصرافه عن وردان خذاه ملك بخارى ويعرفه الموضع الذي يأتي بلده منه، فلما ورد الكتاب على قتيبة خرج غازياً إلى بخارى سنة تسعين، فاستجاش وردان خذاه بالصند والبرك من حوله فأتوه، وقد سبق إليها قتيبة فحصرها، فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إلى المسلمين يقاتلونهم، فقالت الأزد: اجعلونا ناحية وخلوا بيننا وبين قتلهم. فقال قتيبة: تقدموا، فتقدموا وقاتلوهم قتالاً شديداً، ثم إن الأزد انهزموا حتى دخلوا العسكر وركبهم المشركون فحطمهم حتى أدخلوهم عسكرهم وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين، فكروا راجعين، فانطوت مجيئنا المسلمين على الترك وقاتلوهم حتى ردهم إلى مواقعهم، فوقف الترك على نَشْر، فقال قتيبة: من يزيلهم عن هذا الموضع؟ فلم يقدم عليهم أحد من العرب، فأتى بني تميم فقال لهم: يوم كآبامكم، فأنخذ وكيع اللواء وقال: يا بني تميم أنسلموني اليوم؟ قالوا: لا يا أبا مطرف.

وكان هُرَيم بن أبي طحمة على خيل تميم، ووكيع رأسهم، فقال وكيع: يا هُرَيم قدّم خيلك. ودفع إليه الراية، فتقدم هُرَيم وتقدم وكيع في الرُجالة، فاتتهى هُرَيم إلى نهر بينهم وبين الترك، فوقف فقال وكيع: تقدم يا هُرَيم، فنظر هُرَيم نظر الجمل الهائج الصائل وقال: ألحقم الخيل هذا النهر؟ فإن انكشفت (٥٤٣/٤) كان هلاكها يا أحمق. فقال وكيع: بالبن اللخشاء أترد أمري! فحذفه بعمود كان معه، فعب هُرَيم في الخيل، واتتهى وكيع إلى النهر فعمل عليه جسراً من خشب وقال لأصحابه: من وطن نفسه على الموت فليعبز وإلا فليثب مكانه.

فما عبر معه إلا ثمانمائة رجل، فلما عبر بهم ودنا من العدو قال لهريم: إني مطاعنهم فاشغلهم عنا بالخيل، فحمل عليهم حتى خالطهم، وحمل هُرَيم في الخيل فطاعنهم، ولم يزالوا يقاتلونهم

وأعظمت فتوحه، ونظر الحجاج في الثقة على ذلك الشر فكانت ستين ألف درهم، ونظر في الذي حمل فكان مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف، فقال: ربحتنا ستين ألفاً وأدركنا ثارنا ورأس ذاهر.

ثم مات الحجاج، ونذكر أمر محمد عند موت الحجاج إن شاء الله تعالى.

ذكر استعمال موسى بن نصير على إفريقية

في هذه السنة استعمل الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير على إفريقية، وكان نصير والده على حرس معاوية، فلما سار معاوية إلى صفين لم يسر معه، فقال له: ما يمنعك من المسير معي إلى قتال عليّ ويدي عندك معروفة؟ فقال: لا أشرك بكفر من هو أولى بالشكر منك، وهو الله، عز وجل. فسكت عنه معاوية.

فوصل موسى إلى إفريقية وبها صالح الذي استخلفه حسان على إفريقية، وكان البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان، فلما وصل موسى عزل صالحاً وبلغه أن باطراف البلاد قوماً خارجين عن الطاعة، فوجه إليهم ابنه (٥٤٠/٤) عبد الله فقاتلهم فظفر بهم، وسبى منهم ألف رأس وسيّره في البحر إلى جزيرة ميورقة، فنهباها وغنم منها ما لا يحصى وعاد سالماً، فوجه ابنه هارون إلى طائفة أخرى فظفر بهم وسبى منهم نحو ذلك وتوجه هو بنفسه إلى طائفة أخرى فغنم نحو ذلك، فبلغ الخمس ستين ألف رأس من السبي، ولم يذكر أحد أنه سمع بسبي أعظم من هذا.

ثم إن إفريقية قحطت واشتد بها الغلاء، فاستسقى بالناس وخطبهم ولم يذكر الوليد، وقيل له في ذلك، فقال: هذا مقام لا يدعى فيه لأحد ولا يذكر إلا الله، عز وجل، فسقى الناس ورخصت الأسعار، ثم خرج غازياً إلى طنجة يريد من بقي من البربر، وقد هربوا خوفاً منه، فتبعهم وقتلهم قتلاً ذريعاً حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد، فاستأمن البربر إليه وأطاعوه، واستعمل على طنجة مولاة طارق بن زياد، ويقال: إنه صدقي. وجعل معه جيشاً كثيراً جلهم من البربر، وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض، وعاد إلى إفريقية. فمر بقلعة مجانية فتحصن أهلها منه وترك عليها من يحاصرها مع بشر بن فلان، ففتحها، فسُميت قلعة بشر إلى الآن، وحيث لم يبق له في إفريقية من ينازعه.

وقيل: كانت ولاية موسى سنة ثمان وسبعين، استعمله عليها عبد العزيز بن مروان، وهو حيثن على مصر لأخيه عبد الملك.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية

اثنى عشر ألفاً إلى البروقان، وقال: أقم بها ولا تُحدث شيئاً، فإذا انقضى الشتاء سرّ نحو طخارستان، واعلم أنني قريب منك. (٥٤٥/٤)

فسار، فلما كان آخر الشتاء كتب قتيبة إلى نيسابور وغيرها من البلاد ليقدم عليه الجنود، فقدموا قبل أوانهم، فسار نحو الطالقان، وكان ملكها قد خلع وطابق نيزك على الخلع، فأتاه قتيبة فأوقع بأهل الطالقان قتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سماًطين أربعة فراسخ في نظام واحد، ثم انقضت السنة قبل محاربة نيزك، وسنذكر تمام خبره سنة إحدى وتسعين إن شاء الله.

ذكر حرب يزيد بن المهلب وإخوته من سجن الحجاج

قيل: وفي هذه السنة حرب يزيد بن المهلب وإخوته الذين كانوا معه في سجن الحجاج، وكان الحجاج قد خرج إلى رُستقباد للبعث لأن الأكراد كانوا قد غلبوا على فارس، وخرج معه يزيد بن المهلب وإخوته عبد الملك والمفضل في عسكره، وجعل عليهم كهنية الخندق، وجعلهم في فسطاط قريب منه، وجعل عليهم الحرس من أهل الشام، وطلب منهم ستة آلاف ألف، وأخذ يعذبهم، فكان يزيد يصبر صبراً حسناً، وكان ذلك مما يغيب الحجاج منه. فقيل للحجاج إنه رُمي في ساقه بنشابة فثبت نصلها فيه فهو لا يسمن إلا صاح، فأمر أن يُعذب في ساقه، فلما فعلوا به ذلك صاح، وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج. فلما سمعت صوته صاحت وناحت، فطلقها الحجاج، ثم إنه كف عنهم وأقبل يستأديهم وهم يعملون في التخلص، فبعثوا إلى أخيه مروان، وكان بالبصرة، أن يضمن لهم خيلاً ويرى الناس أنه يريد بيعها لتكون عدة. ففعل ذلك، وكان أخوه حبيب يُعذب بالبصرة أيضاً.

فصنع يزيد للحرس طعاماً كثيراً وأمر لهم بشراب، فسقوا واشتغلوا به، ولبس يزيد ثياب طباخه وخرج وقد جعل له لحية بيضاء، فرآه بعض الحرس (٥٤٦/٤) فقال: كانت هذه مشية يزيد، فجاء إليه فرأى لحيته بيضاء في الليل، فتركه وعاد، فخرج المفضل ولم يُظن له، فجاءوا إلى سفن معدة فركبوا، يزيد والمفضل وعبد الملك، وساروا ليلتهم حتى أصبحوا، فلما أصبحوا علم بهم الحرس فرفعوا خبرهم إلى الحجاج، ففرح وظن أنهم يُفسدون خراسان ليفتنوا بها، فبعث البريد إلى قتيبة بخبرهم وأمره بالحذر.

ولما دنا يزيد من البطائح استقبلته الخيل فخرجوا عليها ومعهم دليل من كلب، فأخذوا طريق الشام على طريق السماوة، وأتى الحجاج بعد يومين فقيل له: إنهم أخذوا طريق الشام، فبعث إلى الوليد بن عبد الملك يُعلمه.

ثم سار يزيد فقدم فلسطين فنزل على وهيب بن عبد الرحمن الأزدى، وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك، فجاء وهيب إلى

حتى حذروهم من التلّ، ونادى قتيبة: ما ترون العدو منهزمين؟ فلم يعبر أحد النهر حتى انهزموا، وعبر الناس، ونادى قتيبة: مَنْ أتى برأس فله مائة، فأُتي برؤوس كثيرة، فجاء يومئذ أحد عشر رجلاً من بني قُريع كل رجل برأس، فيقال له: مَنْ أنت؟ فيقول: قُريعي. فجاء رجل من الأزد برأس، فقيل له: مَنْ أنت؟ فقال: قُريعي، فعرفه جهنم بن زُحر، فقال: كذب، والله إنه أزدى. فقال: له قتيبة: ما دعاك إلى هذا؟ فقال: رأيت كل مَنْ جاء يقول قُريعي فظننت أنه ينبغي لكل مَنْ جاء برأس أن يقوله. فضحك قتيبة.

وَجُرح خافان وابنه، وفتح الله عليهم، وكتب [قُتيبة] بالفتح إلى الحجاج.

ذكر صلح قتيبة مع الصغد

لما أوقع قتيبة بأهل بخارى هابه الصغدُ فرجع طرخون ملكهم ومعه فارسان، فدنا من عسكر قتيبة فطلب رجلاً يكلمه، فأرسل إليه قتيبة حيّان النبطي، فطلب الصلح على فدية يؤديها إليهم، فأجابه قتيبة إلى ما طلب وصالح، ورجع طرخون إلى بلاده ورجع قتيبة ومعه نيزك.

(حيّانُ) بالحاء المهملة، والياء المشددة تحتها نقطتان، وآخره (نون). (٥٤٤/٤)

ذكر غدر نيزك وفتح الطالقان

قيل: لما رجع قتيبة من بخارى ومعه نيزك وقد خاف لما يرى من الفتح فقال لأصحابه: أنا مع هذا ولست آمنه فلو استأذنته ورجعت كان الرأي. قالوا: افعل. فاستأذن قتيبة فأذن له وهو بسأمل، فرجع يريد طخارستان وأسرع السير حتى أتى النوبهار فنزل يصلي فيه ويترك به، وقال لأصحابه: لا أشك أن قتيبة قد ندم على إذنه لي وسيبعث إلى المغيرة بن عبد الله يأمره بحجسي.

وندم قتيبة على إذنه له فأرسل إلى المغيرة يأمره بحجس نيزك، وسار نيزك وتبعه المغيرة فوجده قد دخل شعباً خُلم، فرجع المغيرة، وأظهر نيزك الخلع وكتب إلى أصبهذ بلخ وإلى باذان ملك مرو الروذ وإلى ملك الطالقان وإلى ملك الفارياض وإلى ملك الجوزجان أن يدعوه إلى خلع قتيبة، فأجابوه، فوعدهم الربيع أن يجتمعوا ويغزوا قتيبة، وكتب إلى كابل شاه يستظهر به وبعث إليه بقله وماله وسأله أن يأذن له إن اضطر إليه أن يأتيه، فأجابه إلى ذلك.

وكان جيجويه ملك طخارستان ضعيفاً، فأخذه نيزك فقيده بقيد من ذهب لئلا يخالف عليه، وكان جيجويه هو الملك، ونيزك عبده، فاستوثق منه وأخرج عامل قتيبة من بلاد جيجويه. وبلغ قتيبة خُلمه قبل الشتاء وقد تفرق الجند، فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم في

سليمان فاعلمه بحال يزيد وإخوته وأنهم قد استعاذوا به من الحجاج، قال: فأتني بهم فهم آمنون لا يوصل إليهم أبداً وأنا حيٌّ. فجاء بهم إليه، وكانوا في مكان آمن.

وكتب الحجاج إلى الوليد: إن أكل المهلب خانوا أمان الله وهربوا مني ولحقوا بسليمان. وكان الوليد قد حذرهم وظن أنهم يأتون خراسان للفتنة بها، فلما علم أنهم عند أخيه سليمان سكن بعض ما به وطار غضباً للمال الذي ذهب به، فكتب سليمان إلى الوليد: إن يزيد عندي وقد أمته، وإنما عليه ثلاثة آلاف ألف لأن الحجاج أغرمه ستة آلاف ألف فأدى ثلاثة آلاف ألف، والذي بقي عليه أنا أؤديه. فكتب الوليد: والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلي. فكتب: لئن أنا بعثت به إليك لأجيتن معه. فكتب الوليد: والله لئن جئتني لا أؤمنه. فقال يزيد: أرسلني إليه فوالله ما أحب أن أوقع بينه وبينك عداوة ولا أن يتشام الناس بي لكما، واكتب معي بالطف ما قدرت عليه.

وفيها مات أنس بن مالك الأنصاري، وقيل: سنة اثنتين وتسعين، وقيل: ثلاث وتسعين، وكان عمره ستاً وتسعين سنة، وقيل: مائة وست سنين، وقيل: وسبع، وقيل: وثلاث.

وفيها مات أبو العالية الرياحي في شوال.

وفيها توفي نصر بن عاصم الليثي النحوي، أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي، وقيل: مات سنة تسعين. (٥٤٩/٤)

سنة إحدى وتسعين

ذكر تمة خير قتيبة مع نيزك

قد ذكرنا مسير قتيبة إلى نيزك وما جرى له بالطالقان وقتل من قتل بها، فلما فتح الطالقان استعمل أخاه عمر بن مسلم، وقيل: إن ملكها لم يحارب قتيبة فكف عنه، وكان بها لصوص فقتلهم قتيبة وصلبهم، ثم سار قتيبة إلى الفارياب فخرج إليه ملكها مُقراً مذعناً، فقبل منه ولم يقتل بها أحداً واستعمل عليها رجلاً من أهله.

وبلغ ملك الجوزجان خبرهم فهرب إلى الجبال، وسار قتيبة إلى الجوزجان، فلقيه أهلها سامعين مطيعين، فقبل منهم ولم يقتل بها أحداً، واستعمل عليها عامر بن مالك الجيماني.

ثم أتى بلغ فلقيه أهلها فلم يقيم بها إلا يوماً واحداً وسار يتبع أخاه عبد الرحمن إلى شعب خلم ومضى نيزك إلى بغلان وخلف مقاتلة على فم الشعب ومضاهيه ليمنعوه، ووضع مقاتلة في قلعة حصينة من وراء الشعب. فأقام قتيبة أياماً بقاتلهم على مضيق الشعب لا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقاً يسلكه إلى نيزك إلا الشعب أو مفازة لا تحتلها العساكر، فبقي متحيراً، فقدم إنسان فاستأمنه على أن يدلّه على مدخل القلعة التي من وراء الشعب، فأمنه قتيبة وبعث (٥٥٠/٤) معه رجلاً فأتته بهم إلى القلعة من وراء شعب خلم، فطرقوهم وهم آمنون فقتلوهم، وهرب من بقي منهم ومن كان في الشعب، فدخل قتيبة الشعب فأتى القلعة ومضى إلى ميمنجان فأقام بها أياماً ثم سار إلى نيزك وقدم أخاه عبد

فأرسله وأرسل معه ابنه أيوب، وكان الوليد قد أمره أن يبعث به مقبداً. فقال سليمان لابنه: إذا دخلت على أمير المؤمنين فادخل أنت يزيد في سلسلة. (٥٤٧/٤)

ففعل ذلك. فلما رأى الوليد ابن أخيه في سلسلة قال: لقد بلغنا من سليمان. ودفع أيوب كتاب أبيه إلى عمه وقال له: يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك لا تخفر ذمة أبي وأنت أحق من منعتها، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا لمكاننا منك، ولا تؤذ من رجا العز في الانقطاع إلينا لعز بابك.

فقرأ الوليد كتاب سليمان فإذا هو يستعطفه ويشفع إليه ويضمن إيصال المال، فلما قرأ الكتاب قال: لقد شققتا على سليمان. وتكلم يزيد واعتذر، فأمنه الوليد، فرجع إلى سليمان، وكتب الوليد إلى الحجاج: إني لم أصل إلى يزيد وأهله مع سليمان، فاكف عنهم، فكف عنهم.

وكان أبو عبيدة بن المهلب عند الحجاج عليه ألف ألف فتركها وكف عن حبيب بن المهلب.

وأقام يزيد بن المهلب عند سليمان يهدي إليه الهدايا ويصنع له الأطعمة، وكان لا يأتي [يزيداً] هدية إلا بعث بها إلى سليمان، ولا يأتي سليمان هدية إلا بعث بنصفها إلى يزيد، وكان لا تعجبه جارية إلا بعث بها إلى يزيد.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم ففتح الحصون الخمسة التي بسورية، وغزا عباس بن الوليد حتى بلغ أرزن وبلغ سورية. وفيها استعمل الوليد بن عبد الملك قرة بن

الرحمن.

نيزك، فدعا قتيبة الناس واستشارهم في قتله، واختلفوا، فقال ضيرار بن حصين: إني سمعتك تقول: أعطيت الله عهداً إن أمكنك منه أن تقتله فإن لم تفعل فلا ينصرك الله عليه أبداً.

فدعا نيزك فضرب رقبة يده وأمر بقتل صول وابن أخي نيزك، وقتل (٥٥٢/٤) من أصحابه سبعمائة، وقيل: اثني عشر ألفاً، وصلب نيزك وابن أخيه، وبعث برأسه إلى الحجّاج، وقال نهار بن نوميعة في قتل نيزك:

لعمري ليعت غزوة الجند غزوة قضت نحبها من نيزك وتلت
وأخذ الزنير مولى عباس الباهلي حَقّاً لنيزك فيه جوهر، وكان أكثر من في بلاده مالاً وعقاراً من ذلك الجوهر، وأطلق قتيبة جيفويه ومنّ عليه وبعث به إلى الوليد، فلم يزل بالشام حتى مات الوليد.

كان الناس يقولون: غدر قتيبة بنيزك، فقال بعضهم:

فلا تحسبن الغدر حراماً فرتبنا تركت به الأقدام يوماً فزلت
فلما قتل قتيبة نيزك رجع إلى مرو، وأرسل ملك الجوزجان يطلب الأمان، فأمنه على أن يأتيه، فطلب رهنًا ويعطي رهائن، فأعطاه قتيبة حبيب بن عبد الله بن حبيب الباهلي، وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته، وقدم على قتيبة [فصالحه] ثم رجع فمات بالطالقان، فقال أهل الجوزجان: إنهم سمّوه، فقتلوا حبيباً، وقتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده. (٥٥٣/٤)

ذكر غزو شومان وكيش ونسف

وفي هذه السنة سار قتيبة إلى شومان فحصرها.

وكان سبب ذلك أن ملكها طرد عامل قتيبة من عنده فأرسل إليه قتيبة رسولين، أحدهما من العرب اسمه عياش، والآخر من أهل خراسان، يدعوان ملك شومان أن يؤدي ما كان صالح عليه. فقدم شومان، فخرج أهلها إليهما فرموهما، فانصرف الخراساني وقاتلهم عياش فقتلوه، ووجدوا به ستين جراحة.

وبلغ قتله قتيبة فسار إليهم بنفسه، فلما أتاها أرسل صالح بن مسلم أخو قتيبة [رجلاً] إلى ملكها، وكان صديقاً له، يأمره بالطاعة ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح. فأبى وقال لرسول صالح: اتخوفني من قتيبة وأنا أمنع الملوك حصناً؟ فأتاه قتيبة وقد تحصن ببلده فوضع عليه المجانيق، ورمى الحصن فهشمه وقتل رجلاً في مجلس الملك بحجر، فلما خاف أن يظهر عليه قتيبة جمع ما كان بالحصن من مال وجوهر ورمى به في بئر بالقلعة لا يُدْرَك قعرها ثم فتح القلعة وخرج إليهم فقاتلهم حتى قتل، وأخذ قتيبة القلعة عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية.

فارتحل نيزك من منزله قطع وادي فرغانة ووجه ثقله وأمواله إلى كابل شاه ومضى حتى نزل الكوز وعبد الرحمن يتبعه، فنزل عبد الرحمن حذاء الكوز، ونزل قتيبة بمنزل بينه وبين عبد الرحمن فرسخان، فتحصن نيزك في الكوز وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد وهو صعب لا تطيقه الدواب، فحصره قتيبة شهرين حتى قتل ما في يد نيزك من الطعام وأصابهم الجُدري وجدر جيفويه.

وخاف قتيبة الشتاء فدعا سليماً الناصح فقال: انطلق إلى نيزك واحتل لتأتيه به بغير أمان، فإن احتال وأبى فأمنه، واعلم أنني إن عانيتك وليس هو مَعك صلبتك. قال: فكتب إلى عبد الرحمن لا يخالفني، فكتب إليه، فقدم عليه، فقال له: ابعت رجلاً ليكونوا على فم الشعب، فإذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا وبين الشعب. فبعث عبد الرحمن خيلاً فكانت هناك، وحمل سليم معه أطعمة وأخصة أوقاراً وأتى نيزك فقال له: إنك أسأت إلى قتيبة وغدرت. قال نيزك: فما الرأي؟ قال: أرى أن تأتيه فإنه ليس ببارح، وقد عزم على أن يشتو مكانه هلك أو سلم. قال نيزك: فكيف آتيه على غير أمان؟ قال: ما أظنه يؤمنك لما في نفسه عليك لأنك قد ملأته غيظاً، ولكنني أرى أن لا يعلم [بك] حتى تضع يدك في يده. (٥٥١/٤) فإني أرجو أن يستحي ويعفو [عنك]. قال: إني أرى نفسي تأبى هذا وهو إن رأيته قتلني. فقال سليم: ما أتيتك إلا لأشير عليك بهذا، ولو فعلت لرجوت أن تسلم وتعود حالك عنده، فإذا آبيت فلأني منصرف.

وقدم سليم الطعام الذي معه، ولا عهد لهم بمثله، فأنتهى أصحاب نيزك، فسأه ذلك، فقال له سليم، إني لك من الناصحين، أرى أصحابك قد جهدوا وإن طال بهم الحصار لم آمنهم أن يستأنموا بك فأت قتيبة. فقال: لا آمنه على نفسي ولا آتيه إلا بأمان، وإن ظني أن يقتلني وإن آمنتني، ولكن الأمان أعذر إلي. فقال سليم: قد آمنك، أفنتهنني؟ قال: لا. وقال له أصحابه: اقبل قول سليم فلا يقول إلا حقاً.

فخرج معه ومع جيفويه وصول طرخان، خليفة جيفويه، وحبس طرخان صاحب شرطته وشقرا ابن أخي نيزك، فلما خرجوا من الشعب عطفت الخيل التي خلفها سليم فحالوا بين الأتراك أصحاب نيزك والخروج، فقال نيزك: هذا أول الغدر. قال سليم: تخلف هؤلاء عنك خير لك. وأقبل سليم ونيزك ومنّ معه حتى دخلوا إلى قتيبة فحبسهم وكتب إلى الحجّاج يستأذنه في قتل نيزك. ووجه قتيبة [معاوية بن عامر بن علقمة الغليجي، فاستخرج] ما كان في الكوز من متاع ومن كان فيه فقدم به على قتيبة. فانتظر بهم كتاب الحجّاج، فأتاه كتاب الحجّاج بعد أربعين يوماً يأمره بقتل

ثم سار إلى كِشْرَ وَنَسَفَ فَمَتَّحَهُمَا. وَاِمْتَنَعَتْ عَلَيْهِ فَارِيَابُ فَاحْرَقَهَا، فَسُمِّيَتْ الْمَحْرَقَةُ، وَسَيَّرَ مِنْ كِشْرَ وَنَسَفَ أَخَاهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَى الصُّغْدِ، وَمَلَكَهَا طَرِخُونُ، فَقَبِضَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مِنْ طَرِخُونِ مَا كَانَ صَالِحَهُ عَلَيْهِ قَتِيبةً وَدَفَعَ إِلَيْهِ رَهْناً كَانُوا مَعَهُ، وَرَجَعَ إِلَى قَتِيبةَ بِيخَارَى وَكَانَ قَدْ سَارَ إِلَيْهَا مِنْ كِشْرَ وَنَسَفَ، فَرَجَعُوا إِلَى مَرَوْ. وَلَمَّا كَانَ قَتِيبةَ بِيخَارَى مَلَكَ بِخَارِاخْدَاهُ، وَكَانَ (٥٥٤/٤) غَلاماً حَدَثًا، وَقَتْلَ مِنْ يَخَافُ أَنْ يَضَاهَهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ قَتِيبةَ سَارَ بِنَفْسِهِ إِلَى الصُّغْدِ، فَلَمَّا رَجَعَ عَنْهُمْ قَالَتْ الصُّغْدُ لَطَرِخُونُ: إِنَّكَ قَدْ رَضِيتَ بِالذَّلِّ وَاسْتَطَيْتَ الْجَزِيَةَ وَأَنْتَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا فَيْكَ، فَحَبَسُوهُ وَوَلَّوْا غَوْزَكَ، فَقَتَلَ طَرِخُونُ نَفْسَهُ.

ذكر عدة حوادث

قِيلَ: فِي هَذِهِ السَّنَةِ اسْتَعْمَلَ الْوَلِيدُ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقُسْرِيُّ عَلَى مَكَّةَ، فَلَمْ يَزَلْ وَالِيًا عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ الْوَلِيدُ، وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ سَنَةً تِسْعَ وَثَمَانِينَ ذَكَرَهُ أَيْضًا، فَلَمَّا وَلِيَ مَكَّةَ خَطَبَهُمْ وَعَظَّمُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَحَثَّهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوَحْشَ الَّتِي تَأْمَنُ فِي الْحَرَمِ لَوْ نَطَقَتْ لَمْ تَقْرَ بِالطَّاعَةِ لِأَخْرَجَتْهَا مِنْهُ، فَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُوتِي بِأَحَدٍ يَطْعُنُ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَبْتُهُ فِي الْحَرَمِ، إِنِّي لَا أَرَى فِيمَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَاهُ إِلَّا إِمَاضَاهُ. وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ هَذِهِ السَّنَةَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ يَنْظُرُ إِلَى بَنَاتِهِ، وَأَخْرَجَ النَّاسَ مِنْهُ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ سَعِيدِ بْنِ الْمَسْبُوحِ لَمْ يَجْزُ أَحَدٌ مِنَ الْحَرَسِ أَنْ يُخْرِجَهُ، فَقَبِلَ لَهُ: لَوْ قَمْتُ. قَالَ: لَا أَقُومُ حَتَّى يَأْتِيَ الْوَقْتُ الَّذِي كُنْتُ أَقُومُ فِيهِ. فَقَبِلَ: لَوْ سَلِمْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ. قَالَ: عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: فَجَعَلْتُ أَعْدِلُ بِالْوَلِيدِ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ لثَلَاثَ يَرَاهُ، فَالْتَفَتَ الْوَلِيدُ [إِلَى] الْقَبِيلَةِ فَقَالَ: مَنْ ذَلِكَ الشَّيْخُ؟ أَمْهُوَ سَعِيدٌ؟ قَالَ عُمَرُ: نَعَمْ، وَمِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا، فَلَوْ عَلِمَ بِمَكَانِكَ لَقَامَ فَلَئِمَ عَلَيْكَ، وَهُوَ ضَعِيفُ الْبَصَرِ. (٥٥٥/٤)

قَالَ الْوَلِيدُ: قَدْ عَلِمْتُ حَالَهُ وَنَحْنُ نَائِبُهُ، فَدَارَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى أَتَاهُ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ؟ فَوَاللَّهِ مَا تَحْرُكُ سَعِيدٌ بَلْ قَالَ: بِخَيْرٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَكَيْفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَكَيْفَ حَالُهُ؟ فَانْصَرَفَ وَهُوَ يَقُولُ لِعُمَرَ: هَذَا بَقِيَّةُ النَّاسِ!

وَقَسَمَ بِالْمَدِينَةِ دَقِيقًا كَثِيرًا وَأَتَيْتُهُ مِنْ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ وَأَمْوَالًا، وَصَلَّى بِالْمَدِينَةِ الْجُمُعَةَ فَخَطَبَ الْخُطْبَةَ الْأُولَى جَالِسًا ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ الْخُطْبَةَ الثَّانِيَةَ قَائِمًا. قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ يَحْيَى: فَقُلْتُ لِرَجَاءِ بْنِ خَبْزَةَ وَهُوَ مَعَهُ: أَهَكَذَا تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، مُكَرَّرًا، وَهَكَذَا صَنَعَ مَعَاوِيَةَ وَهَلُمَّ جَرًّا. قَالَ فَقُلْتُ لَهُ: هَلَا تَكَلِّمُهُ؟ قَالَ: أَخْبَرَنِي قَبِيصَةُ

بْنُ ذُوَيْبٍ أَنَّهُ كَلَّمَ عَبْدَ الْمَلِكِ وَلَمْ يَتْرَكَ الْقَهْقُودَ، وَقَالَ: هَكَذَا خُطِبَ عِثْمَانُ. قَالَ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا خُطِبَ إِلَّا قَائِمًا. قَالَ رَجَاءُ: رَوَى لِيهِمْ شَيْءٌ فَاقْتَدُوا بِهِ. قَالَ إِسْحَاقُ: لَمْ تَرَ مِنْهُمْ أَشَدَّ تَجَبُّرًا مِنْهُ.

وَكَانَ الْعَمَالُ عَلَى الْبِلَادِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ غَيْرُ مَكَّةَ، فَإِنْ خَالَدًا كَانَ عَامِلُهَا، وَقِيلَ: إِنَّ عَامِلَهَا هَذِهِ السَّنَةَ كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْوَلِيدِ الصَّافَّةَ، وَكَانَ عَلَى ذَلِكَ الْجَيْشِ مُسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ.

وَفِيهَا عَزَلَ الْوَلِيدُ عَمَّهُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ عَنِ الْجَزِيرَةِ وَأُورَمِيْنِيَّةَ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا أَخَاهُ مُسْلِمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَغَزَا مُسْلِمَةُ التُّرُكَ مِنْ نَاحِيَةِ أَذْرَبَيْجَانَ حَتَّى بَلَغَ الْبَابَ، وَفَتَحَ مَدَائِنَ وَجَبْصُونَاً وَنَصَبَ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقَ. (٥٥٦/٤)

سنة اثنتين وتسعين

فِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا مُسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرْضَ الرُّومِ فَفَتَحَ حَصْرُونَاً ثَلَاثَةَ وَجَلَا أَهْلَ سُوسَةَ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ.

ذكر فتح الأندلس

وَفِيهَا غَزَا طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ مَوْلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرِ الْأَنْدَلُسِ فِي اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا، فَلَقِيَ مَلِكَ الْأَنْدَلُسِ، وَاسِمَهُ أَذْرَبَيْقُ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، وَهُمْ مُلُوكُ عَجَمِ الْأَنْدَلُسِ، فَزَحَفَ لَهُ طَارِقُ بِجَمِيعٍ مِنْ مَعَهُ، وَزَحَفَ الْأَذْرَبَيْقُ وَعَلَيْهِ تَاجُهُ وَجَمِيعُ الْخَلِيَةِ الَّتِي كَانَ يَلْبِسُهَا الْمُلُوكُ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، فَقَتَلَ الْأَذْرَبَيْقُ وَفَتَحَ الْأَنْدَلُسَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ.

هَذَا جَمِيعُهُ ذَكَرَهُ أَبُو جَعْفَرٍ فِي فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ، وَبِمِثْلِ ذَلِكَ الْإِقْلِيمِ الْعَظِيمِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ لَا يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ، وَأَنَا أَذْكَرُ فَتَحَهَا عَلَى وَجْهِ أَتَمٍّ مِنْ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَصَانِيفٍ أَهْلُهَا إِذْ هُمْ أَعْلَمُ بِلَادِهِمْ.

قَالُوا: أَوَّلُ مَنْ سَكَنَهَا قَوْمٌ يُعْرَفُونَ بِالْأَنْدَلُسِ، بِشَيْنٍ مَعْجَمَةٍ، فَسَمِّيَ الْبِلَادُ بِهِمْ، ثُمَّ عَرَبَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَيْنٍ مَهْمَلَةٍ، وَالتَّصَارِيُّ يَسْمُونُ الْأَنْدَلُسَ إِشْبَانِيَّةً بِاسْمِ رَجُلٍ صُلِبَ فِيهَا يُقَالُ لَهُ إِشْبَانَسُ، وَقِيلَ: بِاسْمِ مَلِكٍ كَانَ بِهَا فِي (٥٥٧/٤) الزَّمَانِ الْأَوَّلِ اسْمُهُ إِشْبَانُ بْنُ طَيْطُسَ، وَهَذَا هُوَ اسْمُهَا عِنْدَ بَطْلَمْيُوسَ. وَقِيلَ: سُمِّيَتْ بِأَنْدَلُسَ بْنِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمَرَهَا، قِيلَ: أَوَّلُ مَنْ سَكَنَ الْأَنْدَلُسَ بَعْدَ الطُّوفَانِ قَوْمٌ يُعْرَفُونَ بِالْأَنْدَلُسِ فَعَمَرُوهَا وَتَدَاوَلُوا مَلَكَهَا دَهْرًا طَوِيلًا وَكَانُوا مَجُوسًا، ثُمَّ حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْمَطَرُ وَتَوَالَى عَلَيْهِمُ الْقَحْطُ فَهَلَكَ أَكْثَرُهُمْ وَفَرَّ مِنْهَا مَنْ أَطَاقَ الْفِرَارَ، فَخَلَسَتْ الْأَنْدَلُسُ مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ ابْتَدَعَ اللَّهُ لِعِمَارَتِهَا الْآفَاقَةَ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا قَوْمٌ مِنْهُمْ

عبادة الأوثان، فجمع من أصحابه مائة ألف وسار إلى رومة، فسير إليه ملك الروم جيشاً فهزمه وقتلوه. (٥٥٩/٤)

ثم بعده الريق، وكان زنديقاً شجاعاً، فسار ليأخذ بنار وغديش ومن قُتل معه، ونازل رومية وحاصرها وضيق على أهلها ودخلها عنوة وغنم أموالهم، ثم جمع أسطول البحر وسار إلى صقلية ليفتحها ويقنم ما فيها، ففرق أكثر أصحابه في البحر، وهو فيمن غرق.

ثم ملك بعده اطولف ست سنين وخرج عن بلد إيطالية وأقام ببلد غاليس مجاوراً أقصى الأندلس، ثم انتقل منها إلى برشلونة.

ثم بعده أخوه ثلاث سنين ثم بعده واليا، ثم بورذاريش ثلاثاً وثلاثين سنة، ثم ابنه طرشمند، ثم بعده أخوه لذريق ثلاث عشرة سنة، ثم بعده أوريق سبع عشرة سنة، ثم بعده الريق بطلوشة ثلاثاً وعشرين سنة، ثم عشليق، ثم امليق ستين، ثم تودبوش سبع عشرة سنة وخمسة أشهر، ثم بعده طودتقليس سنة وثلاثة أشهر، ثم بعده اثله خمس سنين، ثم بعده اطلنجة خمس عشر سنة، ثم بعده ليوباً ثلاث سنين، ثم بعده أخوه لويلد، وهو أول من اتخذ طليطلة دار ملك ونزلها ليكون متوسطاً لملكه ليحارب من خرج عن طاعته عن قريب، فلم يزل يحارب من خرج عن طاعته حتى احتوى على جميع الأندلس وبنى مدينة رفويل وأتقنها وأكثر بساطيتها، وهو على القرب من طليطلة، وسماها باسم ولده، وغزا بلاد البشقس حتى أذلهم، وخطب إلى ملك الفرنج ابنته لولده ارمنجلد فزوجه وأسكنه إشبيلية، فحسنت له (٥٦٠/٤) عصيان والده، ففعل، فسار إليه أبوه وحصرهما وضيق عليه وطال مقامه إلى أن أخذه عنوة وسجنه إلى أن مات.

ثم ملك بعد لويلد ابنه ركرد، وكان حسن السيرة، فجمع الأساقفة وغير سيرة أبيه وسلم البلاد إليهم، وكانوا نحو ثمانين أسقفًا، وكان تقياً عفيفاً قد لبس ثياب الرهبان، وهو الذي بنى الكنيسة المعروفة بالوزقة بإزاء مدينة وادي آش. ثم بعد ابنه ليوبا فسار كسيرة أبيه، فاغتاله رجل من القوط يقال له بتريق فقتله، وملك بعده بتريق هذا بغير رضا أهل الأندلس، وكان مجرمًا طاغيًا فاسقًا، فثار عليه رجل من خاصته فقتله.

ثم ملك من بعده غندمار ستين، ثم بعده سيميفوط، وكانت ولايته تسع سنين، وكان حسن السيرة، ثم بعده ابنه ركريد، وكان صغيراً عمره ثلاثة أشهر، ومات ثم ملك شنتله، وكان ملكه عند البعث، وكان مشكوراً، ثم بعده ميشند خمس سنين، ثم بعده خنتله ستة أعوام، ثم بعده خندس أربعة أعوام، ثم بعده بنيان ثمانية أعوام، ثم بعده أروي سبع سنين.

وكان في دولته قحط شديد حتى كادت بلاد الأندلس تخرب

أجلاهم ملك إفريقية تخففاً منهم لقط توالى على بلاده حتى كاد يُفني أهلها، فحملهم في السفن مع أمير من عنده فأسروا بجزيرة قادس، وروا الأندلس قد أخصبت بلادها وجرت أنهارها فسكنوها وعمرها ونصبوا لهم ملوكاً يضبطون أمرهم، وهم على دين من قبلهم، وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب من أرض إشبيلية بنوها وسكنوها وأقاموا مدة تزيد على مائة وخمسين سنة، ملك منهم فيها أحد عشر ملكاً.

ثم أرسل الله عليهم عجم رومة، وملكهم إشبان بن طيطس، فغزاهم ومزقهم وقتل فيهم وحاصره بطالقة وقد تحصنوا فيها فابتنى عليهم إشبانية، وهي إشبيلية، واتخذها دار مملكته، وكثرت جموعه وعتا وتجبر، وغزا بيت المقدس فغنم ما فيه وقتل فيه مائة ألف، ونقل الممر منه إلى إشبيلية وغيرها، وغنم أيضاً مائة سليمان بن داود، عليه السلام، وهي التي غنمها طارق من طليطلة لما افتتحها، وغنم أيضاً قليلة الذهب والحجر الذي لقي بماردة.

وكان هذا إشبان قد وقف عليه الخضر وهو يحرق الأرض فقال له: يا إشبان سوف تحظى وتملك وتعلو، فإذا ملكت إلباء فافرق بذرية الأنبياء. فقال: أتسخر مني؟ كيف ينال مثلي الملك؟ فقال: قد جعله فيك من جعل عصاك (٥٥٨/٤) هذه كما ترى. فنظر إليها فإذا هي قد أورت، فارتاع وذهب عنه الخضر وقد وثق إشبان بقوله، فدخل الناس فارتقى حتى ملك ملكاً عظيماً، وكان ملكه عشرين سنة، ودام ملك الإشبانيين بعده إلى أن ملك منهم خمسة وخمسون ملكاً.

ثم دخل عليهم من عجم رومة أمة يدعون البشنوليات، وملكهم طويش بن نيطة، وذلك حين بعث الله المسيح، فغلبوا عليها واستولوا على ملكها، وكانت مدينة ماردة دار مملكتهم، وملك منهم سبعة وعشرون ملكاً.

ثم دخلت عليهم أمة القوط مع ملك لهم فغلبوا على الأندلس فاقتطعوا من يومئذ عن صاحب رومة، وكان ابتداء ظهورهم من ناحية إيطالية شرق الأندلس، فأغارت على بلاد مجدونية من تلك الناحية، وذلك في أيام قلوبديوس قيصر، ثالث القياصرة، فخرج إليهم وهزمهم وقتل فيهم ولم يظهرها بعدها إلى أيام قسطنطين الأكبر وأعادوا الغارة، فسير إليهم جيشاً فلم يثبتوا له وانقطع خبرهم إلى ثلث دولة قيصر، فإتهم قدموا على أنفسهم أميراً اسمه لذريق، وكان يعبد الأوثان، فسار إلى رومة ليحمل النصراري على السجود لأوثانه، فظهر منه سوء سيرته، فتخاذل أصحابه عنه ومالوا إلى أخيه وحاربوه، فاستعان بصاحب رومة فيبعث إليه جيشاً، فهزم أخاه، ودان بدين النصراري، وكانت ولايته ثلاث عشرة سنة، ثم ولي بعده اقريط، وبعده امليق، وبعده وغديش، وكانوا قد عادوا إلى

لشدة الجوع. ثم بعده ابقه خمس عشرة سنة، وكان جائراً مذموماً، ثم ملك بعده ابنه غبطة، وكانت ولايته سنة سبع وسبعين للهجرة، وكان حسن السيرة لئن العريكة وأطلق كلّ محبوبس كان في مسجن أبيه وأدّى الأموال إلى أربابها. (٥٦١/٤)

فلما تكامل أصحاب طارق بالجبل نزل إلى الصحراء وفتح الجزيرة الخضراء فأصاب بها عجزاً، فقالت له: إني كان لي زوج وكان عالماً بالحوادث وكان يحدثهم عن أمير يدخل بلدهم فيغلب عليه، ووصف من نعت أنه ضخم الهامة، وأن في كتفه اليسرى شامة عليها شعراً فكشف طارق ثوبه فإذا الشامة كما ذكرت، فاستبشر طارق أيضاً هو ومن معه. ونزل من الجبل إلى الصحراء وافتتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل.

ولما بلغ رُذريق غزو طارق بلاده عظم ذلك عليه، وكان غائباً في غزاته، فرجع منها وطارق قد دخل بلاده فجمع له جمعاً يقال بلغ مائة ألف، فلما بلغ طارقاً الخبر كتب إلى موسى يستمده ويخبره بما فتح وأنه زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به. فبعث إليه بخمسة آلاف، فتكامل المسلمون اثني عشر ألفاً ومعهم يوليان يدلهم على عورة البلاد ويتجسس لهم الأخبار. فأتاهم رُذريق في جنده، فالتقوا على نهر لكّة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من رمضان (٥٦٣/٤) سنة اثنين وتسعين، واتصلت الحرب ثمانية أيام، وكان على ميمته وميسرته ولداً الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك، وأتفقوا على الهزيمة بغضاً لرُذريق، وقالوا: إن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقي المُلْك لنا. فانهزموا وهزم الله رُذريق ومن معه، وغرق رُذريق في النهر، وسار طارق إلى مدينة إستجة متبعاً لهم، فلقية أهلها ومعه من المنهزمين خلق كثير، فقاتلوه قتالاً شديداً، ثم انهزم أهل الأندلس ولم يلق المسلمون بعدها حرباً مثلاً. ونزل طارق على عين بينها وبين مدينة إستجة أربعة أميال فسُميت عين طارق إلى الآن.

ولما سمعت القوط بهاتين الهزيمتين قذف الله في قلوبهم الرعب، وكانوا يظنون أنه يفعل فعل طريف، فهربوا إلى طليطلة، وكان طريف قد أوهمهم أنه ياكلهم هو ومن معه. فلما دخلوا طليطلة وأخلوا مدائن الأندلس قال له يوليان: قد فرغت من الأندلس ففرّق جيوشك وميز أنت إلى طليطلة. ففرّق جيوشه من مدينة إستجة وبعث جيشاً إلى قرطبة، وجيشاً إلى غرناطة، وجيشاً إلى مالقة، وجيشاً إلى تلميس، وسار هو ومعظم الجيش إلى جيان يريد طليطلة. فلما بلغ طليطلة وجدها خالية وقد لحق من كان بها بمدينة خلف الجبل يقال لها ماية.

فأما الجيش الذي سار إلى قرطبة فإنهم دلّهم راع على ثغرة في سورها فدخلوا منها البلد وملكوه.

وأما الذين قصدوا تدمير فلقية أصحابها، واسمه تدمير وبه

ثم توفي وخلف ولدين فلم يرَضَ بهما أهل الأندلس وتراضوا برجل يقال له رُذريق، وكان شجاعاً وليس من بيت الملك، وكانت عادة ملوك الأندلس إنهم يعيئون أولادهم الذكور والإناث إلى مدينة طليطلة يكونون في خدمة الملك لا يخدمه غيرهم يتأدّبون بذلك، فإذا بلغوا الحلم أنكح بعضهم بعضاً وتولّى تجهيزهم، فلما ولي رُذريق أرسل إليه يوليان، وهو صاحب الجزيرة الخضراء وسبته وغيرهما، ابنه له، فاستحسنها رُذريق وافترضها، فكتبت إلى أبيها، فأغضبه ذلك، فكتب إلى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك على إفريقية بالطاعة واستدعاه إليه، فسار إليه، فأدخله يوليان مدائنه وأخذ عليه العهد له ولأصحابه بما يرضى به، ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها، وذلك آخر سنة تسعين.

فكتب موسى إلى الوليد بما فتح الله عليه وما دعاه إليه يوليان. فكتب إليه الوليد: خضتها بالسرايا ولا تغرّر بالمسلمين في بحر شديد الأحوال. فكتب إليه موسى: إنه ليس ببحر متسع وإنما هو خليج يبين ما وراءه. فكتب إليه الوليد أن اختبرها بالسرايا وإن كان الأمر على ما حكيت.

فبعث رجلاً من مواليه يقال له طريف في أربع مائة رجل ومعهم مائة فرس، فسار في أربع سفائن فخرج في جزيرة بالأندلس فسُميت جزيرة طريف لنزوله فيها، ثم أغار على الجزيرة الخضراء فأصاب غنيمة كثيرة ورجع سالماً في رمضان سنة إحدى وتسعين. فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الغزو.

ثم إن موسى دعا مولى له كان على مقدّمات جيوشه يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم البربر والموالي وأقلهم العرب، فساروا في البحر، وقصد إلى جبل منيف وهو متصل بالبر فنزله، فسُمي الجبل (٥٦٢/٤) جبل طارق إلى اليوم، ولما ملك عبد المؤمن البلاد أمر ببناء مدينة على هذا الجبل وسماه جبل الفتح، فلم يثبت له هذا الاسم وجرت الألسنة على الأول.

وكان حلول طارق فيه في رجب سنة اثنين وتسعين من الهجرة. ولما ركب طارق البحر غلبته عينة فرأى النبيّ ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتكبّوا القسي، فقال له النبيّ ﷺ: يا طارق تقدّم لشأنك. وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالمعهد، فنظر طارق فرأى النبيّ ﷺ وأصحابه قد دخلوا الأندلس

سُمِّيَتْ، وكان اسمها أرويلة، وكان معه جيش كثيف، فقاتلهم قتالاً شديداً ثم انهزم فقتل من أصحابه خلقٌ كثير، فأمر تدمير النساء فلبسهن السلاح ثم صالح المسلمين عليها وفتح سائر الجيوش ما قصدوا إليه من البلاد. (٥٦٤/٤)

وأما طارق فلما رأى طليطلة فارغة ضم إليها اليهود وترك معهم رجالاً من أصحابه وسار هو إلى وادي الحجارة فقطع الجبل من فجّ فيه فسُمِّيَ بفجّ طارق إلى اليوم. وانتهى إلى مدينة خلف التّجبل تسمى مدينة المائدة، وفيها وجد مائدة سليمان بن داود، عليه السلام، وهي من زبرجد خضر حافاتها وأرجلها منها مكلّلة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير ذلك، وكان لها ثلاثمائة وستون رجلاً. ثم مضى إلى مدينة مائة فغنم منها ورجع إلى طليطلة في سنة ثلاث وتسعين.

وسار موسى من مدينة ماردة في شوال يريد طليطلة، فخرج طارق إليه فلقيه، فلما أبصره نزل إليه فضربه موسى بالسوط على رأسه ويخيه على ما كان من خلافه ثم سار به إلى مدينة طليطلة، فطلب منه ما غنم والمائدة أيضاً، فأناه بها وقد انتزع رجالاً من أرجلها، فسأله عنها فقال: لا علم لي، كذلك وجدتها، فعمل عوضها من ذهب.

وقيل: اقتحم أرض جليقية فخرقها حتى انتهى إلى مدينة استرقة وانصرف إلى طليطلة ووافته جيوشه التي وجهها من إستجة بعد فراغهم من فتح تلك المدن التي سيرهم إليها.

وسار موسى إلى سرقسطة ومدائنها فافتتحها وأوغل في بلاد الفرنج فانتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار، فأصاب فيها صنماً قائماً فيه مكتوب بالنقر: يا بني إسماعيل إلى ها هنا منتهاكم فارجعوا، وإن سألتم إلى ماذا ترجعون أخبرتكم أنكم ترجعون إلى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق بعض، وقد فعلتم. (٥٦٦/٤)

ودخل موسى بن نصير الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين في جمع كثير، وكان قد بلغه ما صنع طارق فحسده، فلما عبر إلى الأندلس ونزل الجزيرة الخضراء قيل له: تسلك طريق طارق، فأبى، فقال له الأدلاء: نحن ندلك على طريق أشرف من طريقه ومدائن لم تفتح بعد، ووعده يوليان بفتح عظيم، فسّر بذلك، وكان قد غمّه.

فرجع ووافاه رسول الوليد في أثناء ذلك يأمره بالخروج عن الأندلس والقول إليه، فساءه ذلك ومطل الرسول وهو يقصد بلاد العدو في غير ناحية الصنم يقتل ويسبي ويهدم الكنائس ويكسر النواقيس حتى بلغ صخرة بلاي على البحر الأخضر، وهو في قوة وظهور، فقدم عليه رسول آخر للوليد يستحثه وأخذ يعنان بغلته وأخرجه، وكان موافاة الرسول بمدينة لك بجليقية، وخرج على الفجّ المعروف بفجّ موسى، ووافاه طارق من الثغر الأعلى فأقفلته معه ومضيا جميعاً.

فساروا به إلى مدينة ابن السليم فافتتحها عنوة، ثم سار إلى مدينة قرومنة، وهي أحصن مدن الأندلس، فقدم إليها يوليان وخاصته، فاتوهم على حال المنهزمين معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم، فأرسل موسى إليهم الخيل ففتحوها لهم ليلاً، فدخلها المسلمون وملكوها، ثم سار موسى إلى إشبيلية، وهي من أعظم مدائن الأندلس بنياناً وأغزها آثاراً، فحصرها أشهراً وفتحها وهرب من بها، فأنزلها موسى اليهود وسار إلى مدينة ماردة فحصرها، وقد كان (٥٦٥/٤) أهلها خرجوا إليه فقاتلوه قتالاً شديداً، فكمن لهم موسى ليلاً في مقاطع الصخر، فلم يرههم الكفار، فلما أصبحوا زحف إليهم فخرجوا إلى المسلمين على عاداتهم فخرجوا عليهم من الكمين وأحرقوا بهم وحالوا بينهم وبين البلد وقتلوهم قتلاً ذريعاً ونجا من نجا منهم، فدخل المدينة، وكانت حصينة، فحصرهم بها أشهراً، وقاتلهم، وزحف إليهم بدبابية عملها ونقبوا سورها، فخرج أهلها على المسلمين، فقتلوهم عند البرج، فسُمِّيَ برج الشهداء إلى اليوم، ثم افتتحها آخر رمضان سنة أربع وتسعين يوم الفطر صلحاً على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين.

وقيل: إنه قدم الشام والوليد حي، وكان قد كتب إليه وأدعى أنه هو الذي فتح الأندلس وأخبره خبر المائدة، فلما حضر عنده عرض عليه ما معه وعرض المائدة، ومعه طارق، فقال طارق: أنا غنمتها. فكذب موسى. فقال طارق للوليد: سله عن رجلها المعدومة. فسأله عنها فلم يكن عنده منها علم، فأظهرها طارق

وكان صاحبها في البحر في مائة وعشرين مركباً، ففتنحها وقتل فاكتر وسمى النساء والذرية، فسمع بذلك ملوك الروم فجمعوا إليه وساروا إليه من البر الكبير في جمع عظيم فاقتلوا، وانهزم المسلمون وأخرجوا من جزيرة سردانية، وأخذت بعض مراكبهم وأسر أخو مجاهد وابنه علي بن مجاهد، ورجع بمن بقي إلى دانية ولم تغر بعد ذلك.

وإنما ذكرنا جميع أخبارها هاهنا لقلتها، وإذا تفرقت لم تعرف كما يجب. (٥٦٧/٤)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض النروم ففتح حصونا ثلاثة وجلا أهل سوسنة إلى بلاد الروم.

وفي هذه السنة غزا قتيبة سيجستان في قول بعضهم، وأراد قصد رتييل الأعظم، فلما نزل قتيبة سيجستان أرسل رتييل إليه رسلاً بالصلح، فقبل ذلك وانصرف واستعمل عليهم عبد ربه بن عبد الله الليثي.

وحج بالناس هذه السنة عمر بن عبد العزيز وهو على المدينة؛ وكان عمال الأمصار من تقدم ذكرهم.

وفيها مات مالك بن أوس بن الحدان البصري، من ولد نصر بن معاوية، بالمدينة، وله أربع وتسعون سنة. (٥٧٠/٤)

سنة ثلاث وتسعين

ذكر صلح خوارزمشاه وفتح خام جرد

وفي هذه السنة صالح قتيبة خوارزمشاه.

وكان سبب ذلك أن ملك خوارزم كان ضعيفاً فقلبه أخوه خرزاد على أمره، وكان أصغر منه، وكان إذا بلغه أن عند أحد ممن هو منقطع إلى الملك جارية أو مالاً أو دابة أو بنتاً أو اختاً أو امرأة جميلة أرسل إليه وأخذه منه، وكان لا يمتنع عليه أحد ولا الملك، فإذا قيل للملك قال لا أقوى به وهو مغتاظ عليه.

فلما طال ذلك عليه كتب إلى قتيبة يدعو إلى أرضه ليسلمها إليه، واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه وكل من يضاده ليحكم فيهم بما يرى، ولم يطلع أحد من مرابته على ذلك، فأجابه قتيبة إلى ما طلب وتجهز للغزو، وأظهر قتيبة أنه يريد الصغد، وسار من مرو، وجمع خوارزمشاه أجناده ودهاقته، فقال: إن قتيبة يريد الصغد وليس يغازيكم، فهلّموا تنتعم في ربيعنا هذا.

فأقبلوا على الشرب والتنعّم، فلم يشعروا حتى نزل قتيبة في هزاسب، فقال خوارزمشاه لأصحابه: ما ترون؟ قالوا: نرى أن

وذكر أنه أخفاها لهذا السبب. فعلم الوليد صدق طارق وإنما فعل هذا لأنه كان حبسه وضربه حتى أرسل الوليد فأخرجه، وقيل لم يحبسه. (٥٦٧/٤)

قالوا: ولما دخلت الروم بلاد الأندلس كان في مملكتهم بيت إذا ولي ملك منهم أقفل عليه قفلاً، فلما ملكت القوط فعلوا كفعلهم، فلما ملك رذريق أراد فتح الأقال فنهاه أكابر أهل البلاد عن ذلك فلم يقبل منهم وفتح الأقال فرأى في البيت صور العرب وعليهم العمام الحمر على خيول شهب، وفيه كتاب: إذا فتح هذا البيت دخل هؤلاء القوم هذا البلد. ففتحت الأندلس تلك السنة.

فهذا القدر كافٍ في فتح الأندلس، ونذكر باقي أخبار الأندلس عند أوقات حدوثها على ما شرطنا إن شاء الله تعالى.

ذكر غزوة جزيرة سردانية

هذه الجزيرة في بحر الروم، وهي من أكبر الجزائر ما عدا جزيرة صقلية وأقريطش، وهي كثيرة الفواكه، ولما فتح موسى بلاد الأندلس سبر طائفة من عسكره في البحر إلى هذه الجزيرة سنة اثنتين وتسعين فدخلوها، وعمد النصارى إلى ما لهم من آية ذهب وفضة فألقوا الجميع في الميناء الذي لهم وجعلوا أموالهم في سقف بنوه للبيعة العظمى التي لهم تحت السقف الأول، وغنم المسلمون فيها ما لا يحصى ولا يوصف، وأكثروا الغلول. فاتفق أن رجلاً من المسلمين اغتسل في الميناء فعلقت رجله في شيء فأخرجه فإذا صخرة من فضة. وأخذ المسلمون جميع ما فيه، ثم دخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة فنظر إلى حمام فرماه بهم فأخطاه وقع في السقف وانكسر لوح فنزل منه شيء من الدنانير وأخذوا الجميع، وازداد المسلمون غلواً، فكان بعضهم يذبح الهرة ويرمي ما في جوفها فيملاؤه دنانير ويخيط عليها ويلقيها في الطريق، فإذا خرج أخذها، (٥٦٨/٤) وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملاؤه ذهباً.

فلما ركبوا في البحر سمعوا قائلاً يقول: اللهم غرقهم، فغرقوا عن آخرهم، فوجدوا أكثر الغرقى والدنانير على أساطهم.

وفي سنة خمس وثلاثين ومائة غزاها عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري فقتل من بها قتلاً ذريعاً ثم صالحوه على الجزية، فأخذت منهم وقيت ولم يغزها بعده أحد، فعمرها الروم.

فلما كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة أخرج إليها المنصور بن القائم العلوي، صاحب إفريقية، أسطولاً من المهدية فمروا بجنوة ففتحوا المدينة وأوقعوا بأهل سردانية وسبوا فيها وأحرقوا مراكب كثيرة وأخربوا جنوة وغنموا ما فيها.

وفي سنة ست وأربعمائة غزاها مجاهد العامري من دانية،

نصف الليل جامعهم عدوهم، فلما رأوا صالحاً حملوا عليه، فلما اقتتلوا شذ الكمينان عن يمين وشمال فلم يرَ قوم كانوا أشد من أولئك. قال بعضهم: إنا لقاتلهم إذا رأيت تحت الليل قتية وقد جاء سرّاً فضربت ضربة أعجبتني. فقلت: كيف ترى بأمتي وأبي؟ قال: اسكتْ قُضِ الله فاك. قال: قتلناهم فلم يفلت منهم إلا الشريد، وحوينا أسلابهم وسلاحهم فاحتزنا رؤوسهم وأسرنا منهم أسرى، فسألناهم عمن قتلنا فقالوا: ما قتلنا إلا ابن ملك أو عظيماً أو بطلاً، كان الرجل يُعَدُّ بمائة رجل، وكتبنا أسماءهم على أذانهم ثم دخلنا العسكر حين أصبحنا، فلم يأت أحد بمثل ما جئنا به من القتل والأسرى والخيل ومناطق الذهب والسلاح، قال: وأكرمني قتية وأكرم معي جماعة، وظننتُ أنه رأى منهم مثل الذي رأى مني.

ولما رأى الصفد ذلك انكسروا، ونصب قتية عليهم المجانيق فرماهم وتلم (٥٧٣/٤) ثلثة، فقام عليها رجل شتم قتية، فرماه بعض الرماة فقتله، فأعطاه قتية عشرة آلاف. وسمع بعض المسلمين قتية وهو يقول كأنما يناجي نفسه: حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان؟ أما والله [لئن] أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية. فانصرف ذلك الرجل فقال لأصحابه: كم من نفس تموت غداً! وأخبر الخبر. فلما أصبح قتية أمر الناس بالنجد في القتال، فقاتلوه واشتد القتال، وأمرهم قتية أن يبلغوا ثلثة المدينة، فجعلوا الترس على وجوههم وحملوا فبلغوها ووقفوا عليها، ورماهم الصفد بالنشاب فلم يبرحوا. فأرسل الصفد إلى قتية فقالوا له: انصرف عنا اليوم حتى نصلحك غداً. فقال قتية: لا نصلحهم إلا ورجلنا على الثلثة، وقيل: بل قال قتية: جزع العبيد، انصرفوا على ظفركم، فانصرفوا فصالحهم من الغد على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يُعطوه تلك السنة ثلاثين ألف فارس، وأن يُخلوا المدينة لقتية فلا يكون لهم فيها مقاتل فيني فيها مسجداً ويدخل ويصلي ويخطب ويتغذى ويخرج.

فلما تم الصلح وأخلوا المدينة وبنا المسجد دخلها قتية في أربعة آلاف انتخبهم، فدخل المسجد فصلى فيه وخطب وأكل طعاماً ثم أرسل إلى الصفد: من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذ فإني لست أخرجاً منها ولست أخذ منكم إلا ما صالحتكم عليه، غير أن الجند يقيمون فيها.

وقيل: إنه شرط عليهم في الصلح مائة ألف فارس وبيوت التيران وحلية الأصنام، فقبض ذلك، وأتى بالأصنام فكانت كالقصر العظيم وأخذ ما عليها وأمر بها فأحرق. فجاءه غوزك فقال: إن شُرك علي واجب، لا تعرض لهذه الأصنام فإن منها أصناماً من أحرقها هلك. فقال قتية: أنا أحرقها بيدي، فدعا بالنار فكبر ثم أشعلها فأحترقت، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مثقال. (٥٧٤/٤)

تقاتله. قال: لكني لا أرى ذلك لأنه قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة، ولكن أصرفه بشيء أوديه إليه. فأجابوه إلى ذلك.

فسار خوارزمشاه فنزل بمدينة الفيل من وراء النهر، وهي أحصن بلاده، وكتيبة لم يعبر النهر، فأرسل إليه خوارزمشاه فصالحه على عشرة آلاف رأس (٥٧١/٤) وعين ومتاع وعلى أن يعينه على خام جرد، فقبل قتية ذلك.

وقيل: صالحه على مائة ألف رأس، ثم بعث قتية أخاه عبد الرحمن إلى خام جرد، وكان يغازي خوارزمشاه، فقاتله فقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه، وقدم منهم بأربعة آلاف أسير، فقتلهم قتية، وسلم قتية إلى خوارزمشاه أخاه ومن كان يخالفه، فقتلهم ودفع أموالهم إلى قتية.

ذكر فتح سمرقند

فلما قبض قتية صلح خوارزمشاه قام إليه المجشّر بن مزاحم السلمي. فقال له سرّاً: إن أردت الصفد يوماً من الدهر فالآن فإنهم آمنون من أن يأتيتهم عامل هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام. قال: أثار عليك بهذا أحد؟ قال: لا. قال: فسمعه منك أحد؟ قال: لا. قال: والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك.

فلما كان الغد أمر أخاه عبد الرحمن فسار في الفرسان والرماة وقدم الأتقال إلى مرو فسار يومه، فلما أمسى كتب إليه قتية: إذا أصبحت فوجه الأتقال إلى مرو وسير بالفرسان والرماة نحو الصفد واكتبم الأخبار، فإني في الأثر. ففعل عبد الرحمن ما أمره، وخطب قتية الناس وقال لهم: إن الصفد شاغرة برجلها، وقد نقضوا العهد الذي بيننا وصنعوا ما بلغكم، وإني أرجو أن يكون خوارزم والصفد كقرينة والنضير. ثم سار فأتى الصفد فبلغها بعد عبد الرحمن بثلاث أو أربع، وقدم معه أهل خوارزم وبخارى فقاتلوه شهراً من أوجه واحد وهم محصورون. (٥٧٢/٤)

وخاف أهل الصفد طول الحصار فكتبوا إلى ملك الشاش وخاقان واخشاد فرغانة: إن العرب [إن] ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به، فانظروا لأنفسكم ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها. فنظروا وقالوا: إنما نؤتى من سفلتنا فإنهم لا يجدون كوجدنا. فانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازمة والأساورة والأبطال وأمروهم أن يأتوا عسكر قتية فيبتيوه فإنه مشغول عنه بحصار سمرقند، وولوا عليه ابناً لخاقان، فساروا.

وبلغ قتية الخبر فانتخب من عسكره أربعمائة، وقيل: ستمائة من أهل النجدة والشجاعة وأعلمهم الخبر وأمرهم بالمسير إلى عدوهم، فساروا وعليهم صالح بن مسلم، فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم، فجعل صالح له كمينين، فلما مضى

وأصاب بالصغد جارية من ولد يزدجرد، فأرسلها إلى الحجاج، فأرسلها الحجاج إلى الوليد، فولدت له يزيد بن الوليد.

وأمر غوزك بالانتقال عنها فانتقل.

وقيل: إن أهل سمرقند خرجوا على المسلمين وهم يقتاتلونهم يوم فتحها، وقد أمر قتيبة يومئذ بسرير فأبرز وقعد عليه، فطاعونهم حتى جازوا قتيبة وإنه لمحتب بسيفه ما حلّ حبوته، وانطوت مجنبتا المسلمين على الذين هزموا القلب فهزموهم حتى ردّوهم إلى عسكرهم، وقتل من المشركين عدد كثير، ودخلوا المدينة فصالحوهم، وصنع غوزك طعاماً ودعا قتيبة، فاتاه في عدة من أصحابه، فلما بعد استوهم منه سمرقند وقال للملك: انتقل عنها، فلم نجد بداً من طاعته، وتلا قتيبة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادَا الْأُولَىٰ وَتُؤَمَّدُ فَمَا أَتَىٰ﴾ [سورة النجم ٥٣، الآية ٥٠: ٥١].

وحكي عن الذي أرسله قتيبة إلى الحجاج بفتح سمرقند قال: فأرسلني الحجاج إلى الوليد، فقدمت دمشق قبل طلوع الفجر فدخلت المسجد فإذا إلى جنبي رجل ضريب، فسألني: من أين أنت؟ فقلت: من خراسان، وأخبرته خبر سمرقند. فقال: والذي بعث محمداً بالحق ما افتتحتموها إلا غدرًا! وإنكم يا أهل خراسان الذين تسلبون بني أمية ملكهم ثم تنقضون دمشق حجرًا حجرًا. فلما فتح قتيبة سمرقند قيل: [إن] هذا لأعدى العيرين، لأنه فتح سمرقند وخوارزم في عام واحد، وذلك أن الفارس إذا صرع في طلق واحد عيرين قيل: عادي عيرين. فلما فتحها قتيبة دعا نهار بنن توسيعه فقال: يا نهار أين قولك: (٥٧٥/٤)

ألا ذهب الغزوة المقرّب للفتى ومات الندى والجود بعد المهلب أقاموا بسرور الرود ومن ضريحه وقد غُصّا عن كل شرق ومغرب أغزوه هذا؟ قال: لا، هذا أحسن، وأنا الذي أقول:

وما كان مُدْكنا ولا كان قُلبنا ولا هو فيما بعثنا كابن مسلم أعم لأهل الشرك قُلباً بسيفه وأكثر فيما مقيمًا بعد مقيم قال وقال الشعراء في ذلك، فقال الكُميت من قصيدة:

كانت سمرقند أحقاباً بمانية فسألونم تنبها قتيبة مضرر وقال كعب الأشقر، وقيل رجل من جُعفي:

كل يوم يحوي قتيبة نهباً ويزيد الأموال مالا جليفاً ساهلي قد أليس التاج حتى شأب منه مفارق كن مودنا فوخ الصغد بالكتاب حتى ترك الصغد بالقراء فعودنا فوليد يكي لفقدايسه وأب مؤجج يكي الوليدنا

ثم رجع قتيبة إلى مرو، وكان أهل خراسان يقولون: إن قتيبة غدر بأهل سمرقند فملكها غدرًا.

وكان عامله على خوارزم إلياس بن عبد الله على حربها، وكان

ضعيفاً، وكان على خراجها عبيد الله بن أبي عبيد الله مولى مسلم. فاستضعف أهل خوارزم إلياساً، فجمعوا له، فكتب عبيد الله إلى قتيبة، فبعث قتيبة أخاه عبد الله عاملاً، (٥٧٦/٤) وأمره أن يضرب إلياساً وحيّان النبطي مائة مائة ويحلّهما. فلما قرب عبد الله من خوارزم أرسل إلى إلياس فأنذره، فتنحى، وقدم عبد الله وأخذ حيّان فضربه وحلقه. ثم وجه قتيبة الجنود إلى خوارزم مع المغيرة بن عبد الله، فبلغهم ذلك، فلما قدم المغيرة اعتزل أبناء الذين قتلهم خوارزم شاه وقالوا: لا نعينك، فهرب إلى بلاد الترك، وقدم المغيرة فقتل وسبى، فصالحه الباقر بن علي الجزيرة، وقدم على قتيبة فاستعمله على نيسابور.

ذكر فتح طليطلة من الأندلس

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة غضب موسى بن نصير على مولاه طارق فسار إليه في رجب منها، واستخلف على إفريقية ابنه عبد الله بن موسى، وعبر موسى إلى طارق في عشرة آلاف، فتلّقه وترضاه، فرضي عنه وقبل عذره وسيره إلى طليطلة، وهي من عظام بلاد الأندلس، وهي من قرطبة على عشرين يوماً، ففتحها وأصاب فيها مائدة سليمان بن داود، عليه السلام، وما فيها من الذهب والجوهر، والله أعلم به.

قلت: لم يزد على هذا، وقد ذكرت في سنة اثنتين وتسعين من فتح الأندلس ودخول موسى بن نصير إلى طارق ما فيه كفاية فلا حاجة إلى إعادته؛ إلا أن أبا جعفر قد ذكر أن موسى هو الذي سائر طارقاً وهو بالأندلس ففتح مدينة طليطلة، والذي ذكره أهل الأندلس في تواريخهم ما تقدّم ذكره. (٥٧٧/٤)

ذكر عزل عمر بن عبد العزيز عن الحجاز

قيل: وفي هذه السنة عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن الحجاز والمدينة.

وكان سبب ذلك أن عمر كتب إلى الوليد يُخبره بعسف الحجاج أهل العراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق، فبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى الوليد: إن من عندي من المُرّاق وأهل الشقاق قد جلّوا عن العراق ولحقوا بالمدينة ومكة، وإن ذلك وهن. فكتب إليه الوليد يستشيره فيمن يوليه المدينة ومكة، فأشار عليه بخالد بن عبد الله وعثمان بن حيّان، فولّى خالدًا مكة، وعثمان المدينة، وعزل عمر عنهما.

فلما خرج عمر من المدينة قال: إني أخاف أن أكون بمن نفّته المدينة، يعني بذلك قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: تنفي خبيثها.

وكان عزله عنها في شعبان؛ ولما قدم خالد مكة أخرج من بها

الرحمن إلى رُبَيْل لِقَاتِهِ، فَلَمَّا خَلَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْحِجَّاجَ كَانَ سَعِيدُ فَيَمَنْ خَلَعَ، فَلَمَّا هُزِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَدَخَلَ بِلَادَ رُبَيْلِ هَرَبَ سَعِيدٌ إِلَى أَصْبَهَانَ، فَكُتِبَ الْحِجَّاجُ إِلَى عَامِلِهَا بِأَخَذِ سَعِيدٍ، فَخَرَجَ الْعَامِلُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى سَعِيدٍ يَعْرِفُهُ ذَلِكَ وَيَأْمُرُهُ بِمَفَارِقَتِهِ، فَسَارَ عَنْهُ فَأَتَى أَذْرَبِيجَانَ فَطَالَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ فَسَاعَتَمَ بِهَا، فَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ فَكَانَ بِهَا هُوَ وَأَنَاسٌ أَمْثَالُهُ يَسْتَخْفُونَ فَلَا يُخْبِرُونَ أَحَدًا أَسْمَاءَهُمْ.

من أهل العراق كوهًا، وتهدد من أنزل عراقياً أو أجبره داراً، واشتد على أهل المدينة وعسفهم وجار فيهم ومنعهم من إنزال عراقي، وكانوا أيام عمر بن عبد العزيز كل من خاف الحجاج لجأ إلى مكة والمدينة.

وقيل: إنما استعمل على المدينة عثمان بن حيان، وقد تقدم سنة إحدى وتسعين ولاية خالد مكة في قول بعضهم. (٥٧٨/٤)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح بسيطية والمرزبانين وطرسوس.

وفيه غزا مروان بن الوليد فيلغ خنجرة.

وفيه غزا مسلمة الروم أيضاً ففتح ماسية وحصن الحديد وغزالة من ناحية ملطية.

وفيه أجذب أهل إريقية فاستسقى موسى بن نصير فسقوا.

وفيه كتب الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز قبل أن يعزله يأمره بضرب خبيب بن عبد الله بن الزبير ويصب على رأسه ماء بارداً، فضربه خمسين سوطاً وصب عليه ماء بارداً في يوم شاتٍ ووقفه على باب المسجد فمات في يومه.

(خبيب بضم الخاء المعجمة، وبأين موحدين بينهما ياء تحتها نقطتان).

وحج بالناس هذه السنة عبد العزيز بن الوليد. وكان على الأمصار من تقدم ذكرهم إلا المدينة فإن عاملها عثمان بن حيان قدمها في شوال لليلتين بقيتا منه، وقد تقدم ذكر ولاية خالد بن عبد الله مكة في سنة تسع وثمانين، وفي سنة إحدى وتسعين قد ذكرنا أنه وليها هذه السنة.

وفيه مات أبو الشعثاء جابر بن زيد. وأبو العالية البراء، واسمه زياد بن فيروز، وكان مولى لأعرابية من بني رياح، وليس بأبي العالية الرياحي، ذاك كان موته سنة تسعين.

وفيه مات بلال بن أبي الدرداء الأنصاري قاضي دمشق. (٥٧٩/٤)

سنة أربع وتسعين

ذكر قتل سعيد بن جبير

قيل: وفي هذه السنة قتل سعيد بن جبير.

وكان سبب قتله خروجه مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكان الحجاج قد جعله على عطاء الجند حين وجهه عبد

فلما ولي خالد بن عبد الله مكة قيل لسعيد: إنه رجل سوء فلو سرت عن مكة. فقال: والله لقد فررت حتى استحييت من الله وسيجيتي ما كتب الله لي. فلما قدم خالد مكة كتب إليه الوليد بحمل أهل العراق إلى الحجاج، فأخذ سعيد بن جبير ومجاهداً وطلق بن حبيب فأرسلهم إليه، فمات طلق بالطريق وحبس مجاهد حتى مات الحجاج.

وكان سيرهم مع حرسين، فانطلق أحدهما لحاجة وبقي الآخر، فقال (٥٨٠/٤) لسعيد، وقد استيقظ من نومه ليلاً: يا سعيد إني أبرأ إلى الله من دمك، إني رأيت في منامي قتيلاً لي: وبلك أترا من دم سعيد بن جبير! فاذهب حيث شئت فإني لا أطلبك. فأبى سعيد، فرأى ذلك الحرس مثل تلك الرؤيا ثلاثاً ويأذن لسعيد في الذهاب وهو لا يفعل.

فقدما به الكوفة فأنزل في داره، وأتاه قرأ الكوفة، فجعل يحذرنهم وهو يضحك ويبتة له في حجره، فلما نظرت إلى القيد في وجهه بكت، ثم أدخلوه على الحجاج، فلما أتى به قال: لعن الله ابن النصرانية! يعني خالداً، وكان هو أرسله، أما كنت أعرف مكانه؟ بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة. ثم أقبل عليه فقال: يا سعيد ألم أشركك في إمامتي؟ ألم أفعل؟ ألم أستعملك؟ قال: بلى. قال: فما أخرجك علي؟ قال: إنما أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب مرة. فطابت نفس الحجاج ثم عاوده في شيء، فقال: إنما كانت بيعه في عني؛ فغضب الحجاج وانتفخ وقال: يا سعيد ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمر المؤمنين عبد الملك؟ قال: بلى. قال: ثم قدمت الكوفة واليا فجددت البيعة فأخذت بيعتك لأمر المؤمنين ثانية؟ قال: بلى. قال: فتنتك بيعتين لأمر المؤمنين وتوفي بواحدة للحائك ابن الحائك؟ والله لأقتلك! قال: إني إذا لسعيد كما سمعني أمي. فأمر به فضربت رقبته، فبدر رأسه عليه كمأة بيضاء لاطية، فلما سقط رأسه هلك ثلاثاً، انصاح بمرة ولم يفصح بمرة.

فلما قتل التبس عقل الحجاج فجعل يقول: قيودنا قيودنا! فظنوا أنه يريد القيود، فقطعوا رجلي سعيد من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود، وكان الحجاج إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع

فغزا بهم، فلما كان بالشاش أبو بكشماهان أنه مات الحجاج في شوال منها، فقمه ذلك وتمثل يقول :

لعمري لنسم المرأة من آل جعفر
فإن تحي لا أقتل حياتي وإن تمت
ورجع إلى مرو وتفرق الناس، فأنه كتاب الوليد: قد عرف أمير المؤمنين بلاك وجدك واجتهادك [فني جهاد] أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك، فالتم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأتي أنظر إلى بلاك والثغر الذي أنت فيه.

ذكر وفاة الحجاج بن يوسف

قيل: إن عمر بن عبد العزيز ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولادة الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك، قال: الحجاج بالعراق، والوليد بالشام، (٥٨٤/٤) وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة، اللهم قد امتلات الدنيا ظلماً وجوراً فأريح الناس! فلم يمض غير قليل حتى توفي الحجاج وقرة بن شريك في شهر واحد، ثم تبعهما الوليد وغزل عثمان وخالد، واستجاب الله لعمر.

وما أشبه هذه القصة بقصة [ابن] عمر مع زياد بن أبيه حيث كتب إلى معاوية يقول له: قد ضبطت العراق بشمالي ويميني فارغة. يعرض بإمارة الحجاز. فقال ابن عمر لما بلغه ذلك: اللهم أرحنا من يمين زياد وأرح أهل العراق من شماله، فكان أول خبر جاءه موت زياد.

وكانت وفاة الحجاج في شوال سنة خمس وتسعين، وقيل: كانت وفاته لخمس بقين من شهر رمضان وله من العمر أربع وخمسون سنة، وقيل: ثلاث وخمسون سنة، وكانت ولايته العراق عشرين سنة، ولما حضرته الوفاة استخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج، واستخلف على حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة، وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم، فأقرهما الوليد بعد موته ولم يغير أحداً من عمال الحجاج.

ذكر نسبه وشيء من سيرته

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن عامر بن مسعود بن مَعْبَد بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف أبو محمد الثقفي. (٥٨٥/٤)

قال قتيبة بن مسلم: خطبنا الحجاج فذكر القبر، فما زال يقول: إنه بيت الوحدة، إنه بيت الغربة، وبيت كذا وكذا حتى بكى وأبكى، ثم قال: سمعت أمير المؤمنين عبد الملك يقول: سمعت مروان يقول في خطبته: خطبنا عثمان فقال في خطبته: ما نظر رسول الله ﷺ إلى قبر أو ذكره إلا بكى. وقد روي أحاديث غير هذا عن ابن

نوبه، فيقول: يا عدو الله فيم قتلتي؟ فيقول: ما لي ولسعيد بن جبيرة! ما لي ولسعيد بن جبيرة! (٥٨١/٤)

ذكر غزوة الشاش وفرغانة

في هذه السنة قطع قتيبة النهر وفرض على أهل بخارى وكبش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل فساروا معه، فوجههم إلى الشاش وتوجه هو إلى فرغانة فأتى خجندة، فجمع له أهلها فلقوه فافتتلوا مراراً، كل ذلك يكون الظفر للمسلمين. ثم إن قتيبة أتى كاشان مدينة فرغانة وأتاه الجنود الذين وجههم إلى الشاش وقد فتحوها وأحرقوا أكثرها وانصرف إلى مرو؛ وقال سحيان يذكر قتالهما بخجندة فقال :

فصل الفوارس في خجندة
هل كنت أجمعهم إذا
ثم كئت أضرب هامة الـ
هنا وأنت قريب فـ
وفضلت قيساً في الندى
ولقد تين غل حـ
تمت مرو وتكلم نسا
سنة تحت مرقعة الخوالي
هزموا وأسلم في القتال
ماتي وأسير للخوالي
من كلهما ضخم النوال
وأولك في الجحج الخوالي
ملك فيهم في كل حال
غى عزكم غلب الجبال
(٥٨٢/٤)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا العباس بن الوليد أرض الروم ففتح أنطاكية.

وفيها غزا عبد العزيز بن الوليد فيبلغ غزاة، وبلغ الوليد بن هشام المصيطي برج الحمام، ويزيد بن أبي كبشة أرض سورية.

وفيها كانت الزلازل بالشام ودامت أربعين يوماً فخرت البلاد، وكان عظم ذلك في أنطاكية. وفيها افتتح القاسم بن محمد الثقفي أرض الهند.

وتوفي في هذه السنة علي بن الحسين في أولها. ثم جروزة بن الزبير. ثم سعيد بن المسيب. وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

واستقضى الوليد على الشام سليمان بن حبيب. وحج بالناس مسلمة بن عبد الملك، وقيل: عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، وكان العامل بمكة خالد بن عبد الله، وبالمدينة عثمان بن حيان، وبمصر قرة بن شريك، وبخراسان قتيبة من قبل الحجاج. (٥٨٣/٤)

سنة خمس وتسعين

ذكر غزوة الشاش

قيل: وفي هذه السنة بعث الحجاج جيشاً من العراق إلى قتيبة

عبّاس وأنس.

وقال ابن عوف: كنتُ إذا سمعتُ الحجاجَ يقرأ عرفته أنه طالما درس القرآن. وقال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيتُ أفصح من الحجاج ومن الحسن، وكان الحسن أفصح.

وقال عبد الملك بن عُمر: قال الحجاج يوماً: مَنْ كان له بلاءٌ فليَقمْ فَنُعْطِهِ على بلائه. فقام رجل فقال: أعطني على بلائي. قال: وما بلاؤك؟ قال قتلُ الحسين. قال: فكيف قتلته؟ قال: دسرتُه بالرمح دسراً، وهبّرتُه بالسيف هبّراً، وما أشركتُ معي في قتله أحداً. قال: فإنّك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد. وقال أخرج! ولم يعطه شيئاً.

قيل: كتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بقتل أسلم بن عبد البكري بشيء بلغه عنه، فأحضره الحجاج وقال: أمير المؤمنين غائب وأنت حاضر، واللّه تعالى يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَأَمِيقُ بَيِّنَاتٍ فَيَقِينُوا﴾ الآية؛ والذي بلغه عني باطل، فاكتب إلى أمير المؤمنين أنّي أعول أربعاً وعشرين امرأةً وهنّ بالباب، فأحضرهنّ، فهذه أمّه، وهذه عمته وزوجته وابنته، وكان في آخرهنّ جارية قاربت عشر سنين. فقال لها: مَنْ أَسَمْتِ منه؟ قالت: (٥٨٦/٤) ابنته، أصحّ الله الأمير! ثمّ أنشأت تقول:

أَحْجَاجٌ لَمْ تَسْهَدْ مَقَامَ بَنَاتِهِ وَعَمَاءَهُ يَنْتَبِهُ اللَّيْلَ أَجْمَعًا
أَحْجَاجٌ لَمْ يَقْبَلْ بِهِ أَنْ قُتِلَتْهُ ثَمَانًا وَعَشْرًا وَاتِّبَنَ وَارْتَعَا
أَحْجَاجٌ مَنْ هَذَا يَقْسُومُ مَقَامَهُ عَلَيْنَا فَهَلْ لَنَا أَنْ تَرَدَّنَا تَضَعُفُنَا
أَحْجَاجٌ أَمَا أَنْ تَجُودَ يَمَعُنَا عَلَيْنَا وَأَمَا أَنْ تَقْتُلَنَا مَعَا
فبَكَى الْحَجَّاجُ وَقَالَ: وَاللّهِ لَا أَعْنَتْ الدَّهْرَ عَلَيْكَ وَلَا زِدْتِكَ نَ تَضَعُفًا.

وكتب إلى عبد الملك بخبر الرجل والجارية، فكتب إليه عبد الملك: إن كان الأمر كما ذكرتُ فأحسن صلته وتفقد الجارية. ففعل.

وقال عاصم بن بهذلة: سمعتُ الحجاج يقول: اتّقوا الله ما استطعتم، هذا والله مثوية، واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ليس في مثوية، والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا حلّت لي دماؤكم، ولا أجد أحداً يقرأ عليّ قراءة ابن أمّ عبد، يعني ابن مسعود، إلا ضربت عنقه، ولأحكمتها من المصحف ولو بضلع خنزير؛ قد ذكر ذلك عند الأعمش. فقال: وأنا سمعته يقول: قُلتُ في نفسي لأقرأنها على رغم أنفك.

قال الأوزاعي: قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كلّ أمة بخبيثها وجنّا بالحجاج لغلبناهم. قال منصور: سألتُ إبراهيم الشّجاعيّ عن الحجاج فقال: ألم يقل الله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظّالمين﴾؟ قال الشّافعي: بلغني أنّ عبد الملك بن مروان قال للحجاج: ما من أحد إلا وهو عارف بعيوب نفسه، فعبّ نفسك ولا تخبأ منها شيئاً. قال: يا أمير المؤمنين أنا لجوجٌ حقود. فقال له (٥٨٧/٤) عبد الملك: إذا بينك وبين إبليس نسب. فقال: إنّ الشيطان إذا رأيَني سالماني.

قال الحسن: سمعتُ عليّاً على المنبر يقول: اللهمّ اتمتتهم فخافوني، ونصحتهم فغشّوني، اللهمّ فسّط عليهم غلاماً ثقيف يحكم في دمائهم وأموالهم بحكم الجاهليّة! فوصفه وهو يقول: الزّبال، مفجر الأنهار، يأكل خضرتها ويلبس فروتها. قال الحسن: هذه واللّه صفة الحجاج.

قال خبيب بن أبي ثابت: قال عليّ لرجل: لا تموت حتى تُدرك فتى ثقيف. قيل له: يا أمير المؤمنين ما فتى ثقيف؟ قال: ليقالَ له يوم القيامة أكفنا زاوية من زوايا جهنّم، رجل يملك عشرين أو بضعاً وعشرين سنة لا يدع لله معصية إلا ارتكبها حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة وبينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها، يقتل بمن أطاعه من عصاه.

وقيل: أحصى من قتله الحجاج صبراً فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً. وقيل: إنّ الحجاج مرّ بخالد بن يزيد بن معاوية وهو يخطر في مشيته، فقال رجل لخالد: مَنْ هذا؟ قال خالد: بخ بخ! هذا عمرو بن العاص. فسمعهما الحجاج فرجع وقال: واللّه ما يسرّني أنّ العاص ولدني، ولكنّي ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش، وأنا الذي ضربت بسيفي هذا مائة ألف، كلّهم يشهد أنّ أباك كان يشرب الخمر ويضمّر الكفر. ثمّ ولّى وهو يقول: بخ بخ عمرو بن العاص! فهو قد اعترف في بعض أيامه بمائة ألف قتيل على ذنب واحد. (٥٨٨/٤)

ذكر ما فعله محمّد بن القاسم بعد موت الحجاج وقلته

لما مات الحجاج بن يوسف كان محمّد بن القاسم بالملتان، فأثاه خبر وفاته، فرجع إلى الرور والبغور، وكان قد فتحهما، فأعطى الناس، ووجّه إلى التّيلمان جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة، وسأله أهل سُرشْت، وهي مغزى أهل البصرة، وأهلها يقطعون في البحر، ثمّ أتى محمّد الكيرج فخرج إليه دوهراً فقاتله فانهمز دوهراً وهرب، وقيل: بل قُتل، ونزل أهل المدينة على حكم محمّد فقتل وسبى؛ قال الشاعر:

نَحْنُ قَتَلْنَا ذَاهِرًا وَدُوْهَرًا وَالْخَيْلُ تُرْدِي مُنْشَرًّا فَمَنْسَرًّا
ومات الوليد بن عبد الملك ووليّ سليمان بن عبد الملك، فولّى يزيد بن أبي كُبشة السكسكيّ السند، فأخذ محمّداً وقيده وحمله إلى العراق، فقال محمّد متملاً:

اضاعوني واي قسى اضاعوا ليم كريمة ويدلوا نمر
فبكي اهل السند على محمد، فلما وصل إلى العراق حبسه
صالح بن عبد الرحمن بواسط، فقال :

فلئن ثوبت بواسط وبارضها زمن الخلد مكبلاً مفلولاً
فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قبلاً
وقال:

ولو كنت اجمعت الفرائز لو طقت إنك أعدت للوعسى وذكور
(٥٨٩/٤)

وما دخلت خيل السكابك لرضاً ولا كان من عك علي أمير
وما كنت للبذ المزوني تابعاً فبالك دمر بالكرام عكور

فعذبه صالح في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم، وكان
الحجاج قتل آدم أخا صالح، وكان يرى رأي الخوارج، وقال حمزة
بن يئز الحنفي يرثي محمداً :

إن المروءة والسماحة والنزى لمحمد بن القاسم بن محمد
سأس الجيوش لسبع عشرة حجة يا أقرب ذلك سوداً من مؤلّد

وقال آخر:

سأس الرجال لسبع عشرة حجة ولدائنه إذ ذاك في انغال
ومات يزيد بن أبي كبشة بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر

يوماً، واستعمل سليمان بن عبد الملك على السند حبيب بن
المهلب، فقدمها وقد رجع ملوك السند إلى ممالكهم، ورجع
جيشه بن ذاهر بن برهمنا باده، فنزل حبيب على شاطئ مهران،
فأعطاه أهل الرور الطاعة، وحارب قوماً فظفر بهم.

ثم مات سليمان واستخلف عمر بن عبد العزيز، فكتب إلى
الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملّكهم ولهم ما
للمسلمين وعليهم ما عليهم. فأسلم جيشه والملوك وتسّموا
بأسماء العرب.

وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر، فغزا
بعض الهند فظفر. ثم إن الجند بن عبد الرحمن ولي السند أيام
هشام بن عبد الملك، فأتى الجند شط مهران فمنعه جيشه بن ذاهر
العبور وأرسل إليه: إني قد (٥٩٠/٤) أسلمت وولائي الرجل
الصالح بلادي ولست آمنك. فأعطاه رهنأ وأخذ منه رهنأ على
خراج بلاده، ثم تراذا وكفر جيشه وحارب، وقيل: إنه لم يحارب
ولكن الجند تجنى عليه فأتى الهند فجمع جموعاً وأعد السفن
واستعد للحرب، فسار إليه الجند بالسفن، فالتقوا في بطيحة، فأخذ
جيشه أميراً، وقد جنحت سفينته، فقتله الجند وهرب صصه بن
ذاهر وهو يريد أن يمضي إلى العراق فيشكو غدر الجند، فلم يزل
الجند يؤنسه حتى وضع يده في يده فقتله.

وغزا الجند الكيرج، وكانوا قد نقضوا، فاتخذوا كبشاً وصك
بها سور المدينة فثلمه ودخلها فقتل وسبى وجه العمال إلى
المرمذ والمندل ودعج وبرونج. وكان الجند يقول: القتل في
الجزع أكبر منه في الصبر. وجه جيشاً إلى أزين فأغاروا عليها
وحرقوا برضاها وفتح التيلمان وحصل عنده سوى ما حمل أربعون
ألف ألف وحمل مثلها، وولى الجند تميم بن زيد القيني، فضعف
ووهن ومات قريباً من الدليل.

وفي أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم،
ثم ولي الحكم بن عوام الكلي، وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصّة،
فبنى مدينة سمأها المحفوظة وجعلها مأوى للمسلمين، وكان معه
عمرو بن محمد بن القاسم، وكان يفوض إليه عظيم الأمور، فأغراه
من المحفوظة، فلما قدم عليه وقد ظفر أمره فبنى مدينة وسمأها
المنصورة، فهي التي ينزلها الأمراء، واستخلص ما كان قد غلب
عليه العدو، ورضي الناس بولايته، وكان خالد القسري يقول:
واعجباً وليت فتى العرب، يعني تميمأ، فرفض وترك، ووليت
أبخل العرب فرضي به. ثم قتل الحكم، وكان العمال يقاتلون العدو
فكانوا يفتحون ناحية ويأخذون ما تيسر لهم لضعف الدولة الأموية
بعد ذلك، إلى أن جاءت الدولة المباركة العباسية، ونحن نذكر إن
شاء الله أيام المأمون بقية أخبار السند. (٥٩١/٤)

ذكر عذة حوادث

في هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح هرقله وغيرها.
وفيها فتح آخر الهند إلا الكيرج والمندل.

وفي هذه السنة افتتح العباس بن الوليد قسرين.

وفيها قتل الواضي بارض الروم ونحو ألف رجل معه.

وفيها ولد المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن
العباس.

وحج بالناس هذه السنة بشر بن الوليد بن عبد الملك، وكان
عمال الأمصار من تقدم ذكرهم.

وفيها مات أبو عثمان التهدي، اسمه عبد الرحمن بن مل،
وكان عمره مائة وثلاثين سنة، وقيل في موته غير ذلك.

وفيها مات سعد بن إلياس أبو عمرو الشيباني، وله مائة
وعشرون سنة. وفي إمارة الحجاج مات سفيته مولى رسول الله،
ﷺ.

وفي هذه السنة مات سالم بن أبي الجعد.

وفيها مات جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، وهو أخو عبد

الله بن مروان من الرضاة.

وفي إمارة الحجاج قُتل أبو الأحوص عوف بن مالك بن نضلة الجُشمي الكوفي، قتله الخوارج. (٥/٥)

سنة ست وتسعين

ذكر فتح قتيبة مدينة كاشغر

وفي هذه السنة غزا قتيبة كاشغر، فسار وحمل مع الناس عيالهم ليضعهم بسمزقند، فلما عبر النهر استعمل رجلاً على معبر النهر ليمنع من يرجع إلا بجواز منه، ومضى إلى فرغانة وأرسل إلى شيب عمام من يسهل الطريق إلى كاشغر، وهي أدنى مدائن الصين، وبعت جيشاً مع كبير بن فلان إلى كاشغر، فغنم وسبى سبباً، فختم أعناقهم وأوغل حتى بلغ قريب الصين.

فكتب إليه ملك الصين: أن ابعت إلي رجلاً شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم. فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وباس وعقل وصلاح، فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وغير ذلك وخيول حسنة، وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي، فقال لهم: إذا دخلتم عليه فأعلموه أنني قد حلفت أنني لا أنصرف حتى أطا بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم.

فساروا وعليهم هبيرة، فلما قدموا عليهم دعاهم ملك الصين فلبسوا (٦/٥) ثياباً بياضاً تحتها الغلائل وتطيوا ولبسوا النعال والأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه فجلسوا، فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده، فنهضوا. فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء؟ فقالوا: رأينا قوماً ما هم إلا نساء، ما بقي منا أحد إلا انتشر ما عنده.

فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشي والعمامم الخز والمطارف وغداوا عليه، فلما دخلوا قيل لهم: ارجعوا، وقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهبة؟ قالوا: هذه أشبه بهيمة الرجال من تلك. فلما كان اليوم الثالث دعاهم، فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسي وركبوا. فنظر إليهم ملك الصين فرأى مثل الجبل، فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمرين، فقبل لهم: ارجعوا، فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون. فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء.

فلما أمسى بعث إليهم: أن ابعثوا إلي زعيمكم. فبعثوا إليه هبيرة بن مشمرج، فقال له: قد رأيتم عظم ملكي وأنه ليس أحد منكم مني، وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي، وإنني سأثلكم عن أمر فإن لم تصدقوني قتلثكم. قال: سل. قال: لم صنعتم بزيكم

الأول اليوم الأول والثاني والثالث ما صنعتم؟ قال أما زينا اليوم الأول فلباسنا في أهلنا، وأما اليوم الثاني فزينا إذ أمنا أمراءنا، وأما الثالث فزينا لعدونا. قال: ما أحسن ما دبّرتم دهركم، فقولوا لصاحبكم ينصرف، فإني قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم. قال كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا أجالاً إذا حضرت (٧/٥) فأكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه؛ وقد حلف أن لا ينصرف حتى يطا أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية.

فقال: فإننا نُخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها. فبعث إليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن، فقدموا على قتيبة، فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب. فقال سودة بن عبد الملك السلولي:

لا عيب في الوفد الذين بعثهم للصين إن سلكوا طريق المنهج كسروا الجفون على القننى خوف
حاشا الكريم هبيرة بن مشمرج
أدى رسالتك التي استرعيته فأتاك من جنث اليمين بمخرج
فاوفد قتيبة هبيرة إلى الوليد، فمات بقرية من فارس، فراه سودة فقال:

لله ذر هبيرة بن مشمرج ماذا تضمن من ندى وجمال
وبهية يجا بها أبنائوها عند احتفال مشاهد الأقوال
كان الريح إذا السيوف تسابعت واليئ عند تكمع الأبطال
فسقى بقرية حيث أمسى قبره غريوخن بمسبل هطال
(٨/٥)

بكسر الجياد الصانعات لفقده وبكاه كل منصف عسال
ويكته شعث لم يجدن مواسياً في العام ذي السنوات والإمحال
ووصل الخبر إلى قتيبة في هذه الغزاة بموت الوليد.

وكان قتيبة إذا رجع من غزاته كل سنة اشترى اثني عشر فرساً واثني عشر هجيناً، فتحدر إلى وقت الغزو، فإذا تأهب للغزو ضمها وحمل عليها الطلائع، وكان يجعل الطلائع فرساناً الناس وأشراقهم ومعهم من العجم من يستصح، وإذا بعث طليعة أمر بلوح فتنش ثم شقه بنصفين وجعل شقة عنده ويعطي نصفه الطليعة ويأمرهم أن يدفئوه في موضع يصفه لهم من شجرة أو مخاضة أو غيرها، ثم يبعث بعد الطليعة من يستخرجه ليعلم أصدقت الطليعة أم لا.

وفيها غزا بشر بن الوليد الشاتية ورجع وقد مات الوليد.

ذكر موت الوليد بن عبد الملك

ليخلعه وأخرج خيَّمه، فمات قبل أن يسير إليه.

وفي النصف من جمادى الآخرة من هذه السنة مات الوليد بن عبد الملك في قول جميعهم، وكانت خلافته تسع سنين وسبعة أشهر، وقيل: تسع (٩/٥) سنين وثمانية أشهر، وقيل: واحد عشر شهراً، وكانت وفاته بدير مُرَّان، ودُفِنَ خارج الباب الصغير، وصلى عليه عمرُ بن عبد العزيز، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة وستة أشهر، وقيل: كان عمره خمساً وأربعين سنة، وقيل: ستاً وأربعين سنة وأشهرًا، وقيل: تسعاً وأربعين. وخلف تسعة عشر ابنًا، وكان دميماً يتختر في مشيته، وكان سائل الأنف جدًّا، فقيل فيه:

فقدت الوليد وانفأ لسه كمثل الفصيل بئدان يولوا
ولمَّا دَلِّي في جنازته جُمعت ركبته إلى عقبه، فقال ابنه: أعاش أبي؟ فقال له عمر بن عبد العزيز، وكان فيمن دفنه: عوجل واللَّه أبوك! وأتَّع به عمر.

ذكر بعض سيرة الوليد

وكان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلافتهم، بنى المساجد، مسجد دمشق ومسجد المدينة، على ساكنها السلام، والمسجد الأقصى، ووضع المنائر، وأعطى المجذمين ومنعهم من سؤال الناس، وأعطى كلَّ مُفْعَد خادماً وكلَّ ضريح قائدًا، وفتح في ولايته فتوحاً عظامًا، منها: الأندلس وكاشغر والهند.

وكان يمرَّ بالبحال فيقف عليه ويأخذ منه حزمة بقل فيقول: بكم هذه؟ فيقول: بفلس. فيقول زد فيها. (١٠/٥).

وكان صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء، وكان سليمان صاحب طعام ونكاح، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن النكاح والطعام، وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة، وكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن الخير ما وردك الليلة وكم تحفظ من القرآن وكم تصوم من الشهر؟

ومرض الوليد مرضة قبل وفاته وأغمي عليه فبقي يومه ذلك كأنه ميت، فبكوا عليه وسارت البردُ بموته، فاسترجع الحجاجُ وشدَّ في يده حبلاً إلى أسطوانة وقال: اللهم لا تسلط عليَّ من لا رحمة له فقد طال ما سألتك أن تجعل منيتي قبله! فإنه كذلك يدعو إذ قدم عليه البريد بإفاته. ولمَّا أنشأ الوليدُ قال: ما أحد أشدَّ سروراً بعافيتي من الحجاج؛ ثم لم يمت حتَّى قفل الحجاجُ عليه.

وكان الوليد أراد أن يخلع أخاه سليمان ويباع لولده عبد العزيز، فأبى سليمان، فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك، فلم يجبه إلا الحجاجُ وقيَّبه وخوَّاه من الناس، فكتب للوليد إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه، فأبطأ، فعزم الوليد على المنسبر إليه

ولمَّا أراد أن يني مسجد دمشق كان فيه كنيسة فهدمها وبناها مسجداً، فلما ولي عمرُ بن عبد العزيز شكوا إليه ذلك فقال لهم عمر: إن ما كان خارج المدينة فُتح عنوة ونحن نردُّ عليكم كنيتكم ونهدم كنيسة توما فإنها فُتحت عنوةً وبنيها مسجداً. فقالوا: بل نَدْعُ لكم هذا ودعوا كنيسة توما.

وكان الوليد لحناً لأَيُّحَسَّ النحْو، دخل عليه أعرابي فمَّت إليه بصهر (١١/٥) بينه وبين قرابته، فقال له الوليد: مَنْ خَتَنَكَ؟ بفتح النون، وظنَّ الأعرابي أنه يريد الختان، فقال: بعض الأطباء. فقال سليمان: إنَّما يريد أمير المؤمنين مَنْ خَتَنَكَ؟ وضَمَّ النون. فقال الأعرابي: نعم فلان وذكر ختته. وعاتبه أبوه على ذلك وقال: إنه لا يلي العرب إلا مَنْ يُحَسِّن كلامهم. فجمع أهل النحو ودخل بيتاً فلم يخرج منه ستة أشهر ثم خرج وهو أجهل منه يوم دخل. فقال عبد الملك: قد أعذر. فقيل: إنه لمَّا ولي الخلافة يختم القرآن في كلِّ ثلاث، وكان يقرأ في رمضان كلَّ يوم ختمة، وخطب يوماً فقال: يا ليتها كانت القاضية، وضَمَّ التاء، فقال عمر بن عبد العزيز: عليك وأراحتنا منك.

ذكر خلافة سليمان بن عبد الملك وبعثه

وفي هذه السنة بويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي توفِّي فيه الوليد وهو بالرملة.

وفيها عزل سليمان بن عبد الملك عثمان بن حيان عن المدينة لسبع بقين من رمضان واستعمل عليها أبا بكر بن محمد بن حزم، وكان عثمان قد عزم على أن يجلد أبا بكر ويحلق لحيته من الغد، فلمَّا كان الليل جاء البريد إلى أبي بكر بتأثيره وعزل عثمان وحده [وأن] يقيده.

وفيها عزل سليمان يزيد بن أبي مسلم عن العراق واستعمل يزيد بن المهلب وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج وأمره بقتل بني عقيل وبسط العذاب عليهم وهم أهل الحِجَّاج، فكان يعذبهم ولي عذابهم عبد الملك بن المهلب، وكان يزيد بن المهلب قد استعمل أخاه زياداً على حرب عثمان. (١٢/٥)

ذكر مقتل قتيبة

قيل: وفي هذه السنة قُتل قتيبة بن مسلم الباهلي بخراسان.

وكان سبب قتله أنَّ الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعل [بذله] ابنه عبد العزيز، فأجابته إلى ذلك الحجاجُ وقيَّبه على ما تقدَّم. فلمَّا مات الوليدُ ووليَّ سليمان خاتمه قتيبة وخاف أن يوتيَّ سليمان يزيد بن المهلب خراسان، فكتب قتيبة إلى سليمان كتاباً يُهتِّم بالخلافة ويذكر بلاه وطاعته لعبد

الملك والوليد وأنه له على مثل ذلك إن لم يعزله عن خراسان، وكتب إليه كتاباً آخر يُعلمه فيه فتوحه ونكايته، وعظّم قدره عند ملوك العجم وتهيته في صدورهم، وعظّم صولته فيهم، ويذم أهل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليلخلعنه. وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه، ويحث الكتب مع رجل من باهلة فقال له: ادفع الكتاب الأول إليه فإن كان يزيد حاضراً فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثاني، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثالث، فإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحبس الكتابين الآخرين.

ثم نزل فدخل بيته، فأتاه أهله وقالوا: ما أربناك كالיום قط؟ ولا موه. فقال: لما تكلمت فلم يجبني أحد غصبت فلم أدر ما قلت. وغضب الناس وكرهوا خلع سليمان فاجمعوا على خلع قتيبة وخلافه، وكان أول من تكلم الأزدي، فأتوا حُصَيْن بن المنذر (بضاد معجمة)، فقالوا: إن هذا قد دعا إلى خلع الخليفة وفيه فساد الدين والدنيا وقد شتمنا فما ترى؟ فقال: إن مضر بخراسان كثيرة وتميم أكثرها وهم فرسان خراسان ولا يرضون أن يصير الأمر في غير مضر، فإن أخرجتموهم منه أعانوا قتيبة. فاجابوه إلى ذلك وقالوا: من ترى من تميم؟ قال: لا أرى غير وكيع. فقال حَيَّان النبطي مولى بني شيان: إن أحداً لا يتولى هذا غير وكيع فيصلى بحرّه ويذل (١٥/٥) دمه ويتعرض للقتل، فإن قدم أمير أخذه بما جنى، فإنه لا ينظر في عاقبة وله عشيرة تطيعه وهو مورتور يطلب قتيبة برياسته التي صرفها عنه وصيرها لضرار بن حُصَيْن الضبي.

فمشى الناس بعضهم إلى بعض سرّاً، وقيل لقتيبة: ليس يُفسد أمر الناس إلا حَيَّان، فأراد أن يقتله، وكان حَيَّان يلاطف خدم الولاة، فدعا قتيبة رجلاً فأمره بقتل حَيَّان، وسمع بعض الخدم فأتى حَيَّان فأخبره، فلما جاء رسوله يدعوه تمارض. وأتى الناس وكيعاً وسألوه أن يلي أمرهم ففعل.

ويخراسان يومئذ من أهل البصرة والعالية من المقاتلة تسعة آلاف، ومن بكر سبعة آلاف، ورئيسهم حُصَيْن بن المنذر، ومن تميم عشرة آلاف، وعليهم ضرار بن حُصَيْن، وعبد القيس أربعة آلاف، وعليهم عبدالله بن علوان، والأزد عشرة آلاف، وعليهم عبدالله بن حوزان، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف، وعليهم جهم بن زُحْر، والموالي سبعة آلاف، وعليهم حَيَّان، وهو من الذُبَلَم، وقيل من خراسان، وإنما قيل له نبطي لأنكته.

فأرسل حَيَّان إلى وكيع: إن أنا كفتُ عنك وأعتك أنجعل لي الجانب الشرقي من نهر بلخ خراجاً ما دمت حياً وما دمت أميراً؟ قال: نعم. فقال حَيَّان للعجم: هؤلاء يقاتلون على غير دين فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً. ففعلوا فبايعوا وكيعاً سرّاً.

وقيل لقتيبة: إن الناس يبايعون وكيعاً. فهدس ضرار بن سنان الضبي إلى وكيع فبايعه سرّاً، فظهر لقتيبة أمره فأرسل يدعوه،

فقدم رسول قتيبة فدخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب، فقرأه وألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الآخر فقرأه وألقاه إلى يزيد، فأعطاه الكتاب الثالث فقرأه فتغير لونه وختمه وأمسكه بيده.

وقيل: كان في الكتاب الثالث: لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمنني (١٣/٥) لأخلعنك ولأملأها عليك رجلاً وخيلاً.

ثم أمر سليمان برسول قتيبة فأُتِل، فأحضره ليلاً فأعطاه دنائير جائزته وأعطاه عهد قتيبة على خراسان، وسير معه رسولاً بذلك، فلما كانا بجلوان بلغهما خلع قتيبة، فرجع رسول سليمان.

وكان قتيبة لما هم بخلع سليمان استشار إخوته، فقال له أخوه عبد الرحمن: اقطع بعثاً فوجه فيه كل من تخافه ووجه قوماً إلى مرو وسير حتى تنزل سمرقند، وقل لمن معك: من أحب المقام فله المراسلة، ومن أراد الانصراف فغير مستكره، فلا يقيم عندك إلا مناصح ولا يختلف عليك أحد.

وقال له أخوه عبدالله: اخلعه مكانك فلا يختلف عليك رجلاً. فخلع سليمان مكانه ودعا الناس إلى خلعه وذكر أثره فيهم وسوء أثر من تقدمه، فلم يجبه أحد، فغضب وقال: لا أعز الله من نصرتكم! ثم والله اجتمعتم على عز ما كسرتم قرنهما! يا أهل السافلة، ولا أقول يا أهل العالية، أوباش الصدقة جمعتمكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب! يا معشر بكر بن وائل! يا أهل التفخ والكذب والبخل! بأي يومئكم تفخرون؟ بيوم حربكم أو بيوم سلمكم! يا أصحاب سُليمة! يا بني ذميم! ولا أقول تميم! يا أهل الجور والقصف كنتم تسعون الغدر في الجاهلية كيسان! يا أصحاب سجاح! يا معشر عبد القيس القساة تبدلتكم بتأثير النخل أعنة الخيل! يا معشر (١٤/٥) الأزد تبدلتكم بقلوس السفن أعنة الخيل! إن هذا بدعة في الإسلام، الأعراب وما الأعراب لعنة الله عليهم! يا كناسة المصرتين جمعتمكم من منابت الشج والقيصوم تركبون البقر والحُمُر، فلما جمعتمكم قلتكم كيت وكيت! أما والله إني لابن أبيه وأخو أخيه! والله لأعصبنكم غضب السُلَمة! إن حول

رأسه، فنزل سعد فشقَّ القسطاط واحتزَّ رأسه وقتل معه من أهل إخوته عبد الرحمن وعبد الله وصالح وحُصَيْن وعبد الكريم ومسلم، وقتل كثير ابنه، وقيل: قتل عبد الكريم بقزوين.

وكان عذَّة مَن قُتل مع قُتَيْبَة من أهل بيته أحد عشر رجلاً، ونجا عمر بن مسلم أخو قُتَيْبَة، نجَّاه أخواله. وكانت أمه الغبراء بنت ضرار بن القَعْقَاع (١٨/٥) ابن معبد بن زُرَّارة القيسية. فلما قُتل قُتَيْبَة سعد وكيع المنبر فقال: مثلي ومثل قُتَيْبَة كما قال الأول:

مَنْ يَمْلِكُ الْغَيْبَ يَمْلِكُ نَيْكََا

أراد قُتَيْبَة قتلي وأنا قتال

قد جربوني ثم جربوني من غلوتين ومن المنين
حتى إذا شئت وشيوني غلبوا عاني وتكبروني
أنا أبو مطرف! ثم قال:

أنا ابن خنثف تمني قبائلها بالصالحات وعني قيس غيلانبا
ثم أخذ بلحيته فقال:

شيخ إذا حُمل مكرومة شدَّ الشرايف لها والحزيم
والله لأقتلن ثم لأتلن! ولأصلبن ثم لأصلبن! إن مرزبانكم
هذا ابن الزانية قد أغلى أسعاركم! والله ليُصيرن القفيز بأربعة
دراهم أو لأصلبنه! صلوا على نبيكم. ثم نزل، وطلب وكيع رأس
قُتَيْبَة وخاتمه، فقيل له: إن الأزد أخذته. فخرج وكيع مشهوراً وقال:
والله الذي لا إله إلا هو لا أبرح حتى أوتى بالراس أو يذهب
رأسي معه. فقال له حُصَيْن: اسكن يا أبا مطرف فلانك تؤتى به.
وذهب حُصَيْن إلى الأزد، وهو سيدهم، فأمرهم (١٩/٥) بتسليم
الراس إلى وكيع، فسلموه إليه، فسبَّره إلى سليمان مع نفر ليس
فيهم تميمي، ووفى وكيع لحيَّان النبطي بما كان ضمن له.

فلما أتى سليمان برأس قُتَيْبَة ورؤوس أهله كان عنده الهذيل
بن زُفر بن الحارث، فقال له: هل ساءك هذا يا هذيل؟ فقال: لو
سأمني لساء قوماً كثيراً. فقال سليمان: ما أردت هذا كله. وإنما قال
سليمان هذا للهذيل لأنه هو وقُتَيْبَة من قيس غيلان؛ ثم أمر
بالرؤوس فدُفنت، ولما قُتل قُتَيْبَة قال رجل من أهل خراسان: يا
معشر العرب قتلتم قُتَيْبَة، والله لو كان منا فمات لجعلناه في تابوت
فكنا ننسقي به ونستفتح به إذا غزونا، وما صنع أحد بخراسان قط
ما صنع قُتَيْبَة إلا أنه غدر، وذلك أنَّ الحجاج كتب إليه: أن اختلهم
واقتلهم لله.

وقال الأصمعي: قتلتم قُتَيْبَة وزيد بن المهلب وهما سيِّدا
العرب. قيل له: أيهما كان أعظم عندكم وأهيب؟ قال: لو كان قُتَيْبَة
بأقصى جُحُر في الغرب مكبلاً وزيد معنا في بلادنا وال علينا لكان
قُتَيْبَة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد. وقال الفرزدق في ذلك:

فوجده قد طلى رجله (١٦/٥) بعمرة وعلَّق على رأسه حرزاً وعنده
رجلان يرقبان رجله، فقال للرسول: قد ترى ما برجلي. فرجع
فأخبر قُتَيْبَة، فأعاده إليه يقول له: لتأتيني محمولاً. قال: لا أستطيع.
فقال قُتَيْبَة لصاحب شرطته: انطلق إلى وكيع فأخبرني به فإن أبي
فاضرب عنقه، ووجه معه خيلاً، وقيل: أرسل إليه شُعْبَة بن ظُهَيْر
التميمي، فقال له وكيع: يا ابن ظُهَيْر البث قليلاً تلحق الكتاب.
ولبس سلاحه ونادى في الناس، فأتوه، وركب فرسه وخرج، فتلقاه
رجل، فقال: ممن أنت؟ قال: من بني أمد. قال: ما اسمك؟ قال:
ضرغامه. قال: ابن من؟ قال: ابن ليث، فأعطاه وابته، وقيل كانت
مع عُقْبَة بن شهاب المازني. وأتاه الناس أرسالاً من كل وجه،
فتقدَّم بهم وهو يقول:

فَرَمَ إِذَا حُمِلَ مَكْرُومَةٌ شَدَّ الشَّرَافُ لَهَا وَالْحَزِيمُ

واجتمع إلى قُتَيْبَة أهل بيته وخواص أصحابه وثقاته، منهم
إياس بن يهَّس بن عمرو، وهو ابن عم قُتَيْبَة، فأمر قُتَيْبَة رجلاً
فنادى: أين بنو عامر؟ فقال له محقر بن جَزْء العلاني، وهو قيسي
أيضاً، وكان قُتَيْبَة قد جفاهم: نادهم حيث وضعتهم. قال قُتَيْبَة: ناو:
أذكركم الله والرحيم. قال محقر: أنت قطعتهما. قال: ناو: لكم
العُثْبَى. قال محقر: لا أقالنا الله إذن؛ فقال قُتَيْبَة عند ذلك:

يا نفس صبرا على ما كان من المِإْذَلَمِ أَجِدْ لِفَضُولِ الْعَيْشِ أَقْرَابَا
(١٧/٥)

ودعا بيرذون له مدرب ليركبه، فجعل يمنعه حتى أعيا. فلما
رأى ذلك عاد إلى سريره فجلس عليه وقال: دَعَوْه، إنَّ هذا أمر
يُراد. وجاء حيَّان النبطي في العجم وقُتَيْبَة واجد عليه، فقال عبد الله
أخو قُتَيْبَة لحيَّان: احمل عليهم. فقال حيَّان: لم يأن بعد. فقال
عبد الله: ناولني قوسي. فقال حيَّان: ليس هذا يوم قوس. وقال
حيَّان لابنه: إذا رأيته قد حولت قلنسوتي ومضيت نحو عسكر
وكيع فمَلْ بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْعَجَمِ إِلَيَّ.

فلما حول حيَّان قلنسوته مالت الأعاجم إلى عسكر وكيع
وكبروا. فبعث قُتَيْبَة أخاه صالحاً إلى الناس، فرماه رجل من بني
خُزَيْمَة، وقيل من بَلْعَم، فأصاب رأسه، فحُمِلَ إلى قُتَيْبَة ورأسه مائل
فَوَضِعَ فِي مِصْلَاةٍ، وَجَلَسَ قُتَيْبَة عِنْدَهُ سَاعَةً.

وتهايج الناس وأقبل عبد الرحمن أخو قُتَيْبَة نحوهم، فرماه أهل
السوق والغوغاء فقتلوه، وأحرق الناس موضعاً كانت فيه إبل لقُتَيْبَة
ودوابه ودنوا منه. فقاتل عنه رجل من باهلة، فقال له قُتَيْبَة: انجُ
بنفسك. فقال: بش ما جزيتك إذا وقد أطعمتني الجرذق والبستني
النُزْمَق. وجاء الناس حتى بلغوا فسطاطه فقطعوا أطنابه، وجرح قُتَيْبَة
جراحات كثيرة، فقال جُهْم بن زُحْر بن قيس لسعد: انزل فخذ

سنة سبع وتسعين.

ذكر مقتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير

وكان سبب قتله أن أباه استعمله على الأندلس، كما ذكرنا، عند عوده إلى الشام، فضبطها وسدّ أمورها وحمى ثغورها، وافتتح في إمارته مدائن بقيت بعد أبيه وكان خيراً فاضلاً، وتزوج امرأة رُذريق، فحظيت عنده وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يفعل لزوجها رُذريق. فقال لها: إن ذلك ليس في ديننا. فلم تنزل به حتى أمر ففتح باب قصير لمجلسه الذي كان يجلس فيه، فكان أحدهم إذا دخل منه طأطا رأسه فيصير كالراكم، فرضيت به، فصار كالسجود عندها، فقالت له: الآن لحقت بالملوك وبقي أن أعمل لك تاجاً ممّا عندي من الذهب واللؤلؤ، فأبى، فلم تنزل به حتى فعل. فانكشف ذلك للمسلمين فقتل نصير، وفطنوا للباب فثاروا عليه فقتلوه في آخر سنة سبع وتسعين. وقيل: إن سليمان ابن عبد الملك بعث إلى الجند في قتله عند سخطه على والده موسى بن نصير، فدخلوا عليه وهو في المحراب فصلّى الصبح وقد قرأ الفاتحة وسورة الواقعة فضربه بالسيوف ضربة واحدة وأخذوا رأسه فسيروه إلى سليمان، فعرضه سليمان على أبيه، فتجلّد للمصيبة وقال: هنيئاً له بالشهادة فقد قتلتموه والله صواماً قواماً. وكانوا يعدونها من زلات سليمان. وكان قتله على هذه الرواية سنة ثمان وتسعين في آخرها. (٢٣/٥)

ثم إن سليمان ولّى الأندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي، فأقام والياً عليها إلى أن استخلف عمر بن عبدالعزيز فعزله، هذا آخر ما أردنا ذكره من قتل عبدالعزيز على سبيل الاختصار.

وفيها عزل سليمان بن عبد الملك عبد الله بن موسى بن نصير عن إفريقية واستعمل عليها محمد بن يزيد القرشي، فلم يزل عليها حتى مات سليمان فعزل، فاستعمل عمر بن عبد العزيز مكانه إسماعيل بن عبيد الله سنة مائة، وكان حسن السيرة، فأسلم البربر في أيامه جميعهم.

ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان

وكان السبب في ذلك أن سليمان بن عبد الملك لما ولّى يزيد العراق فوّض إليه حربها والصلاة بها وخراجها، فنظر يزيد لنفسه وقال: إن العراق قد أخرجها الحجاج وأنا اليوم رجل أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبته على ذلك صرّت مثل الحجاج وأعدت عليهم السجون وما عافاهم الله منه، ومتى لم آت سليمان بمثل ما كان الحجاج آتى به لم يقبل مني. فأتى يزيد سليمان وقال: أدلك على بصير بالخراج توليه إياه؟ قال: نعم. قال: صالح بن عبد الرحمن مولى [بني] تميم، فولّاه الخراج وسيّره قبل

إنساني ورحلي في المدينة وقعة لآل تميم أتعدت كل قائم وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي يرثي قتيبة:

كَانَ أبا حَضِرٍ قَتِيْبَةً لَمْ يَسِرْ بِجَيْشٍ إِلَى جَيْشٍ وَلَمْ يَعْلُ مِنْهَا وَلَمْ تَخْفُ الرِّايَاتُ وَالْجَيْشُ حَوْلَهُ وَقُوفٌ وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ النَّاسُ عَسْكَراً دَعَتْهُ الْمَنَاسِبُ فَاسْتَجَابَ لِرَبِّهِ وَوَرَّاحَ إِلَى الْجَنَّتِ عَفَا مَطْهَرَا (٢٠/٥)

فما رزى الإسلام بعد محمد بعثل أبي حَضِرٍ فَبِكَيْهِ غَيْرَا وَغَيْرَ أُمٍّ وَلَدَ لَهُ. قيل: وقال شيوخ من غسان: كُنَّا بَيْنَهُ الْعُقَابُ إِذَا نَحْنُ بِرَجُلٍ مَعَهُ عَصَا وَجِرَابٍ، قُلْنَا: مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ خُرَاسَانَ. قُلْنَا: هَلْ كَانَ بِهَا مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْ بِهَا قَتِيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ أَمْسَ. فَعَجِبْنَا لِقَوْلِهِ، فَلَمَّا رَأَى إِنْكَارَنَا قَالَ: أَيْنَ يَرُونِي اللَّيْلَةَ مِنْ أَفْرِيقَةٍ؟ وَتَرْكَنَا وَمَضَى، فَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى خَيْولِنَا فَلِذَا هُوَ يَسْبِقُ الْغُرَفَ.

ذكر عدة حوادث

قيل: وفي هذه السنة مات قرّة بن شريك العبسي أمير مصر في صفر، وقيل: مات سنة خمس وتسعين في الشهر الذي مات فيه الحجاج.

وحج بالناس هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وهو أمير المدينة، وكان على مكة عبدالعزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد (بفتح الهمزة وكسر السين). وعلى حرب العراق وصلاتها يزيد بن المهلب. وعلى خراجها صالح بن عبد الرحمن. وعلى البصرة سفیان بن عبد الله الكندي من قبل يزيد بن المهلب. وعلى قضائها عبد الرحمن بن أذينة. وعلى قضاء الكوفة أبو بكر ابن أبي موسى. وعلى حرب خراسان وكيع بن أبي سؤد.

وفيها مات شُرَيْح القاضي، وقيل سنة سبع وتسعين، وله مائة وعشرون سنة.

وفيها مات عبد الرحمن بن أبي بكر. ومحمود بن ليث الأنصاري، وله صحبة. وفي ولاية الوليد مات عبد الله بن مُحَيْرِيز، قيل له صحبة. وأبو (٢١/٥) سعيد المقبري، كان يسكن المقابر فنُسب إليها.

وفيها توفي إبراهيم بن يزيد النخعي الفقيه. وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف وله خمس وسبعون سنة.

وفيها توفي عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان في أيام الوليد بن عبد الملك.

وفيها توفي محمد بن أسامة بن زيد بن حارثة وعباس بن سهل بن سعد الساعدي. (٢٢/٥)

يزيد، فنزل واسطاً، وأقبل يزيد، فخرج الناس يلتقونه، ولم يخرج صالح حتى قرب يزيد، فخرج صالح في الدُّرَاعَة بين يديه أربعمائة من أهل الشام فلقى يزيد وسايده، فنزل يزيد، وضيق عليه صالح فلم يمكنه من شيء، واتخذ [يزيد] ألف خوان يطعم الناس عليها، فأخذها صالح، فقال يزيد: (٢٤/٥) اكتب ثمنها عليّ. واشترى يزيد متاعاً وكتب صكاً بثمانه إلى صالح، فلم يقبله وقال ليزيد: إنَّ الخراج لا يقوم بما تريد ولا يرضى بهذا أمير المؤمنين وتؤخذ به. فضاحكه يزيد وقال: أجز هذا المال هذه المرة ولا أعود. ففعل صالح.

وكان سليمان لم يجعل خراسان إلى يزيد، فضجر يزيد من العراق لتضييق صالح عليه، فدعا عبد الله بن الأَهمم فقال له: إنني أريدك لأمر قد أهمني فأحب أن تكفيني. قال: أفعل. قال: أنا فيما ترى من الضيق وقد ضجرت منه وخراسان شاغرة برجلها فهل من حيلة؟ قال: نعم، سرّخني إلى أمير المؤمنين. قال: فآتكم ما أخبرتك. وكتب إلى سليمان يخبره بحال العراق وأثنى على ابن الأَهمم وذكر علمه بها، وسير ابن الأَهمم على البريد.

فأتى سليمان واجتمع به، فقال له سليمان: إنَّ يزيد كتب إليّ يذكر علمك بالعراق وخراسان، فكيف علمك بها؟ قال: أنا أعلم الناس بها، بها ولدت وبها نشأت ولي بها وبأهلها خير وعلم. قال: فاشير عليّ برجل أوليّه خراسان. قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يريد، فإن ذكر منهم أحداً أخبرته برأيي فيه. فسعى رجلاً من قريش، فقال: ليس من رجال خراسان. قال: فعبد الملك بن المهلب. قال: لا يصلح فإنه يصبو عن هذا فليس له مكر أيه ولا شجاعة أخيه. حتى عدّد رجلاً، وكان آخر من ذكر وكيع بن أبي سُود، فقال: يا أمير المؤمنين وكيع رجل شجاع صارم رئيس مقدام، وما أحد أوجب شكراً ولا أعظم عندي يداً من وكيع، لقد أدرك بشأري وشفاني من عدوي، ولكن أمير المؤمنين أعظم حقاً والنصيحة له تلزمني، إنَّ وكيعاً لم تجتمع له مائة عنان قط إلاّ حدث نفسه بغدرة، خامل في الجماعة ثابت (٢٥/٥) في الفتنة، قال ما هو ممن تستعين به، فمن لها ويحك؟ قال: رجل أعلمه لم يسمه أمير المؤمنين. قال: فمن هو؟ قال: لا أذكره حتى يضمن لي أمير المؤمنين ستر ذلك وأن يجبرني منه إن علم. قال: نعم. قال: يزيد بن المهلب. قال: العراق أحب إليّ من خراسان. قال ابن الأَهمم: قد علمت ولكن نكرهه فيستخلف على العراق ويسير. أصببت الرأي. فكتب عهد يزيد على خراسان وسيره مع ابن الأَهمم، فأتى يزيد به فأمره بالجهاز للمسير ساعته، وقدم ابنه مخلد إلى خراسان من يومه، ثم سار يزيد بعده واستخلف على واسط الجراح بن عبدالله الحَكَمي، واستعمل على البصرة عبدالله بن هلال الكلابي، وجعل أخاه مروان بن المهلب على حوائجه وأموره بالبصرة، وكان

أوثق إخوته عنده، واستخلف بالكوفة حَرَمَلَة بن عُمَيْر اللخمي أشهراً ثم عزله، وولى بشير بن حيّان النهدي. وكانت قيس تزعم أنَّ قتيبة لم يخلع، فلما سار يزيد إلى خراسان أمره سليمان أن يسأل عن قتيبة فإن أقامت قيس البيّنة أنَّ قتيبة لم يخلع أن يقيد وكيعاً به، ولما وصل مخلد بن يزيد مرواً أخذه فحبسه وعذبه وأخذ أصحابه وعذبهم قبل قدوم أبيه، وكانت ولاية وكيع خراسان تسعة أشهر أو عشرة أشهر. ثم قدم يزيد في هذه السنة خراسان فأدنى أهل الشام وقوماً من أهل خراسان، فقال نهار بن تُوَيْعَة في ذلك:

وما كنّا نؤمّل من أميرٍ كما كنّا نؤمّل من يزيد
فاخطأ ظننا فيه وقدماً زملنا قسي معاشره الزميد
إذا لم يُعطنا نصفاً أميرٍ مثينا نحوه مشي الأسود
فمهلاً يا يزيد لئيب إلينا وقننا من معاشره العبيد
(٢٦/٥)

نجي، ولا نسرى إلاّ صدوداً على أناس لم من بعيد
ونرجع خائين بلا نوال فما بال التجهّم والصدود
ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة جهّز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية واستعمل ابنه داود على الصائفة فافتتح حصن المرأة.

وفيها غزا مسلمة أرض الوضاحية ففتح الحصن الذي فتحه الوضاح صاحب الوضاحية. وفيها غزا عمر بن هُبيرة أرض الروم في البحر فشتى فيها.

وفيها حجّ سليمان بن عبد الملك بالناس.

وفيها غرل داود بن طلحة الخضرمي عن مكة، وكان عمله عليها ستة أشهر، وولى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد. وكان عمال الأمصار من تقدم ذكرهم.

وفيها مات عطاء بن يسار، وقيل سنة ثلاث ومائة.

وفيها مات موسى بن نصير الذي فتح الأندلس، وكان موته بطريق مكة مع سليمان ابن عبد الملك.

وفيها توفي قيس بن أبي حازم البجليّ وقد جاوز مائة سنة، وجاء إلى النبي ﷺ ليُسَلِّم، فرآه قد توفي، وروى عن العشرة، وقيل: لم يرو عن عبد الرحمن بن عوف، وذهب عقله في آخر عمره.

(حازم بالحاء المهملة والزاي المعجمة).

وفيها توفي سالم بن أبي الجعد مولى أشجع، واسم أبي الجعد رافع. (٢٧/٥)

سنة ثمان وتسعين

ذكر محاصرة القسطنطينية

في هذه السنة سار سليمان بن عبد الملك إلى دابق وجهز جيشاً مع أخيه مسلمة بن عبد الملك ليسير إلى القسطنطينية، ومات ملك الروم، فأتاه اليون بن أذربيجان فأخبره، فضمن له فتح الروم، فوجه مسلمة معه، فسار إلى القسطنطينية، فلما دنا منها أمر كل فارس أن يحمل معه مئذنين من طعام على عجز فرسه إلى القسطنطينية، ففعلوا، فلما أتوها أمر بالطعام فألقي أمثال الجبال، وقال للمسلمين لا تأكلوا منه شيئاً وأغبروا في أرضهم وازرعوا. وعمل بيوتاً من خشب، فشتى فيها وصاف، وزرع الناس، وبقي الطعام في الصحراء والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات ومن الزرع، وأقام مسلمة قاهراً للروم معه أعيان الناس خالد بن معدان ومجاهد بن جبر وعبد الله بن أبي زكريا الخزازي وغيرهم.

فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً، فلم يقبل. فقالت الروم لأليون: إن صرفت عنا المسلمين لمكنناك. فاستوثق منهم، فأتى مسلمة فقال له: إن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال وأنت (٢٨/٥) تطاولهم مادام الطعام عندك، فلو أحرقتهم أعطوا الطاعة بأيديهم، فأمر به فأحرق، فقوي الروم وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون، ويقوا على ذلك حتى مات سليمان. وقيل: إنما خدع اليون مسلمة بأن يسأله أن يدخل الطعام إلى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوه أن أمره وأمر مسلمة واحد وأنهم في أمان من السبي والخروج من بلادهم، فأذن له، وكان اليون قد أعد السفن والرجال، ففعلوا تلك الليلة الطعام، فلم يتركوا في تلك الحظائر إلا ما لا يذكر، وأصبح اليون محارباً، وقد خدع خديعة لو كانت امرأة لعميت بها، ولقي الجند ما لم يلقه جيش آخر، حتى إن كان الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده، وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب، وسليمان مقيم بدابق، وتولى الشتاء فلم يقدر أن يمدتهم حتى مات.

وفي هذه السنة بايع سليمان لابنه أيوب بولاية العهد، فمات أيوب قبل أبيه. وفي هذه السنة فتحت مدينة الصقالية، وكانت بُرجان قد أغازت على مسلمة بن عبد الملك وهو في قلعة، فكتب إلى سليمان يستمده، فأمدته، فمكرت بهم الصقالية ثم انهزموا.

وفيها غزا الوليد بن هشام وعمرو بن قيس، فأصيب ناس من أهل أنطاكية، وأصاب الوليد ناساً من ضواحي الروم وأسروا منهم بشراً كثيراً. (٢٩/٥)

ذكر فتح جرجان وطبرستان

في هذه السنة غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان لما قدم خراسان.

وسبب غزوهم واهتمامه بهما أنه لما كان عند سليمان بن عبد الملك بالشام كان سليمان كلماً فتح قتيبة فتحا يقول ليزيد: ألا ترى إلى ما يفتح الله على قتيبة؟ فيقول يزيد: ما فعلت جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت قوميس ونيسابور ويقول: هذه الفتوح ليست بشيء، الشان هي جرجان.

فلما ولّاه سليمان خراسان لم يكن له همة غير جرجان، فسار إليها في مائة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان سوى الموالي والمتطوعة، ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال ومخارم وأبواب يقوم الرجل على باب منها فلا يقدم عليه أحد. فابتدأ بقهستان فحاصرها، وكان أهلها طائفة من الترك، وأقام عليها، وكان أهلها يخرجون ويقاتلون فيهمهم المسلمون في كل ذلك، فإذا هزموا دخلوا الحصن. فخرجوا ذات يوم وخرج إليهم الناس فاقتتلوا قتالاً شديداً، فحمل محمد بن أبي سبرة على تركي قد صد الناس عنه فاختلفا ضربتين، فثبت سيف التركي في بيضة ابن أبي سبرة، وضربه ابن أبي سبرة فقتله ورجع وسيفه يقطر دماً وسيف التركي في بيضته، فنظر الناس إلى أحسن منظر راوه.

وخرج يزيد بعد ذلك يوماً ينظر مكاناً يدخل منه عليهم، وكان في أربعمائة من وجوه الناس وفرسانهم، فلم يشعروا حتى هجم عليهم الترك في نحو أربعة آلاف فقاتلوه ساعة، وقاتل يزيد قتالاً شديداً، فسلموا وانصرفوا (٣٠/٥) وكانوا قد عطشوا، فانتبهوا إلى الماء فشربوا، ورجع عنهم العدو،

ثم إن يزيد ألح عليهم في القتال وقطع عنهم المواد حتى ضعفوا وعجزوا. فأرسل صول، دهقان قهستان، إلى يزيد يطلب منه أن يصلحه ويؤمنه على نفسه وأهله وماله ليدفع إليه المدينة بما فيها، فصالحه ووفى له ودخل المدينة فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز والسبي ما لا يحصى، وقتل أربعة عشر ألف تركي صبراً، وكتب إلى سليمان بن عبد الملك بذلك.

ثم خرج حتى أتى جرجان، وكان أهل جرجان قد صالحهم سعيد بن العاص، وكانوا يجيئون أحياناً مائة ألف وأحياناً مائتي ألف وأحياناً ثلاثمائة ألف، وربما أعطوا ذلك وربما منعوه، ثم امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خراجاً، ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد ومنعوا ذلك الطريق، فلم يكن يسلك طريق خراسان أحد إلا على فارس وكرمان. وأول من صير الطريق من قومس قتيبة بن مسلم حين ولي خراسان. وبقي أمر جرجان كذلك حتى ولي يزيد وأتاهم فاستقبلوه بالصلح وزادوه وهابوه، فأجابهم إلى ذلك وصالحهم.

مخلد الكتاب إلى أبيه يزيد، فأغرمه مائتي ألف درهم.

وقيل: إن سبب مسير يزيد إلى جرجان أن صولاً التركي كان ينزل قهستان والبحيرة، وهي جزيرة في البحر بينها وبين قهستان خمسة فراسخ، وهما من جرجان ممالي خوارزم، وكان يغير على فيروز [بن] قول مرزيان جرجان فيصيب من بلاده. فخافه فيروز فسار إلى يزيد بخراسان وقدم عليه، فسأله عن سبب قدومه، فقال: خفت صولاً فهربت منه، وأخذ صول جرجان. فقال يزيد لفيروز: هل من حيلة لقتاله؟ قال: نعم، شيء واحد إن ظفرت به قتلته وأعطى يده. قال: ما هو؟ قال: تكتب إلى الأصهب كتاباً تسأله فيه أن يحتال لصول حتى يقيم بجرجان واجعل له على ذلك جُفلاً، فإنه يبعث بكتابك إلى صول يتقرب [به] إليه فيتحول عن جرجان فينزل البحيرة، وإن تحول عن جرجان وحاصرته ظفرت به. ففعل يزيد ذلك وضمن للأصهب خمسين ألف دينار إن هو حبس صولاً عن البحيرة ليحاصره بجرجان، فأرسل الأصهب الكتاب إلى صول، فلما أتاه الكتاب رحل إلى البحيرة ليتحصن بها، وبلغ يزيد مسيره فخرج إلى جرجان ومعه فيروز، واستعمل على خراسان ابنه مخلد، وعلى سمرقند وكيش ونسف وبخارى ابنه معاوية، وعلى طخارستان حاتم بن قيصة بن المهلب، وأقبل حتى أتى جرجان فدخلها ولم يمنعه منها أحد، وسار منها إلى البحيرة فحصر صولاً بها، فكان يخرج إليه صول فيقاتله ثم (٣٣/٥) يرجع، فمكثوا بذلك ستة أشهر، فأصابهم مرض وموت، فأرسل صول يطلب الصلح على نفسه وماله وثلاثمائة من أهله وخاصته وسلم إليه البحيرة، فاجابه يزيد، فخرج بماله وثلاثمائة ممن أحب.

وقتل يزيد من الأتراك أربعة عشر ألفاً صبراً وأطلق الباقين. وطلب الجند أرزاقهم فقال لإدریس بن حنظلة العمي: أحص لنا ما في البحيرة حتى نعطى الجند. فدخلها إدریس فلم يقدر على إحصاء ما فيها، فقال ليزيد: لا أستطيع ذلك وهو في ظروف، فتحصى الجواليق ويعلم ما فيها ويعطى الجند فمن أخذ شيئاً عرفنا ما أخذ من الحنطة والشعير والأرز والسمن والعسل، ففعلوا ذلك وأخذوا شيئاً كثيراً، وكان شهر بن حوشب على خزانة يزيد بن المهلب، فرفعوا عليه أنه أخذ خريطة، فسأله يزيد عنها، فأتاه بها فأعطاهم شهراً، فقال بعضهم:

لقد باع شهر دينه بخريطة فمن يمان القراءة يملك يا شهر

وقال مرة الحنفي:

يا ابن المهلب ما أردت إلى امرئ لولاك كان كصالح القراء
وأصاب يزيد بجرجان تاجاً فيه جوهر فقال: أترون أحداً يزهده في هذا؟ قالوا: لا. فدعا محمد بن واسع الأزدي فقال: خذ هذا التاج. قال: لا حاجة لي فيه. قال: عزمت عليك. فأخذه، فأمر يزيد رجلاً ينظر ما يصنع به، فلقى سائلاً فدفعه إليه، فأخذ الرجل السائل

فلما فتح قهستان وجرجان طمع في طبرستان أن يفتحها فعزم على أن يسير إليها، فاستعمل عبد الله بن المعتمر الشكري على الساسان وقهستان وخلف معه أربعة آلاف، ثم أقبل إلى أداني جرجان ممالي طبرستان فاستعمل على أيدوسا راشد بن عمرو وجعله في أربعة آلاف ودخل بلاد طبرستان، فأرسل إليه الأصهب صاحبها يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستان، فأبى يزيد ورجا أن يفتحها ووجه أخاه أبا عبيدة من وجه وابنه خالد بن يزيد من وجه وأبا الجهم الكلبي من وجه، وقال: إذا اجتمعتم فأبو عبيدة على الناس. فسار أبو عبيدة وأقام يزيد معسكراً. (٣١/٥)

واستجاش الأصهب أهل جيلان والدليم فأتوه فالتقوا في سفح جبل فانهمز المشركون في الجبل، فاتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى قم الشعب، فدخله المسلمون وصعد المشركون في الجبل واتبعهم المسلمون يرمون الصعود، فرماهم العدو بالنشاب والحجارة، فانهمز أبو عبيدة والمسلمون يركب بعضهم بعضاً يتساقطون في الجبل حتى انتهوا إلى عسكر يزيد، وكف عدوهم عن اتباعهم وخافهم الأصهب، فكان أهل جرجان ومقدمهم المرزيان يسألهم أن يبيتوا من عندهم من المسلمين وأن يقطعوا عن يزيد المداية والطريق فيما بينه وبين بلاد الإسلام ويعدهم أن يكافئهم على ذلك، فثاروا بالمسلمين فقتلهم أجمعين وهم غارون في ليلة، وقتل عبد الله بن المعتمر وجميع من معه فلم ينج منهم أحد، وكتبوا إلى الأصهب بأخذ المضايق والطرق.

وبلغ ذلك يزيد وأصحابه فغظم عليهم وهالهم، وفزع يزيد إلى حيّان النبطي وقال له: لا يمنك ما كان مني إليك من نصيحة المسلمين وقد جاءنا عن جرجان ما جاءنا فاعمل في الصلح. فقال: نعم. فأتى حيّان الأصهب فقال: أنا رجل منكم وإن كان الدين فرق بيني وبينكم، فأنا لكم ناصح، فأتى أحب إلي من يزيد وقد بعث يستمد وأمداده منه قريبة، وإنما أصابوا منه طرفاً ولست آمن أن يأتيك من لا تقوم له، فأرح نفسك وصالحه، فإن صالحته صير حدة. على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم أصحابه. فصالحه على سبعماية ألف، وقيل خمسمائة ألف وأربعماية وقر زعفران أو قيمته من العن، وأربعماية رجل، على كل رجل منهم ترس وطيلسان، ومع كل رجل جام من فضة وخرقة حرير وكسوة. ثم رجع حيّان إلى يزيد فقال: ابعث من يحمل صلحهم، فقال: من عندهم أو عندنا؟ قال: من عندهم، وكان يزيد قد طابت نفسه أن يعطيهم ما سألوا ويرجع إلى جرجان، فأرسل (٣٢/٥) يزيد من يقبض ما صالحهم عليه حيّان، فانصرف إلى جرجان. وكان يزيد قد أغرم حيّان مائتي ألف درهم، وسبب ذلك أن حيّان كتب إلى مخلد بن يزيد، فبدا بنفسه، فقال له ابنه مقاتل بن حيّان: تكتب إلى مخلد وتبدأ بنفسك. قال: نعم، وإن لم يرض لقي ما لقي قتيبة. فبعث

وأتى به يزيد وأخبره، فأخذ يزيد التاج وعرض السائل مالا كثيرا. (٣٤/٥)

ذكر فتح جرجان الفتح الثاني

قد ذكرنا فتح جرجان وقهستان وغدر أهل جرجان، فلما صالح يزيد أصبهيد طبرستان سار إلى جرجان وعاهد الله تعالى لئن ظفر بهم لا يرفع السيف حتى يطحن بدمائهم ويأكل من ذلك الطحين. فأتاهم وحصر أهلها بحصن فجاء ومن يكون بها لا يحتاج إلى عدة من طعام أو شراب، فحصرهم يزيد فيها مدة سبعة أشهر وهم يخرجون إليه الأيام فيقاتلون ويرجعون.

فبينما هم على ذلك إذ خرج رجل من عجم خراسان يتصيد، وقيل: رجل من طبرستان، فأبصر وعلا في الجبل ولم يشعر حتى هجم على عسكرهم فرجع كأنه يريد أصحابه وجعل يخرق قباهه ويعقد على الشجر علامات، فأتى يزيد فأخبره، فضمن له يزيد دية إن دلهم على الحصن، فانتخب معه ثلاثمائة رجل واستعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد وقال له: إن غلبت على الحياة فلا تغلبن على الموت، وإياك أن أراك عندي مهزوما. وضم إليه جهنم بن زحر، وقال للرجل: متى تصلون؟ قال: غدا العصر. قال يزيد: ساجدهم على مناهضتهم عند الظهر.

فساروا فلما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كل حطب كان عندهم، فصار مثل الجبال من النيران، فنظر العدو إلى النيران فهاهم ذلك فخرجوا إليهم، وتقدم يزيد إليهم فاقتتلوا وهجم أصحاب يزيد الذين ساروا على عسكر الترك قبل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيد يقاتلهم من هذا الوجه، (٣٥/٥) فما شعروا إلا بالتكبير من ورائهم، فانطلقوا جميعا إلى حصنهم، وركبهم المسلمون فأعطوا بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد، فسبى ذرائعهم وقتل مقاتلتهم وصلبهم فرسخين إلى يمين الطريق ويساره وقاد منهم اثني عشر ألفا إلى وادي جرجان وقال: من طلبهم بشار فليقتل. فكان الرجل من المسلمين يقتل الأربعة والخمسة، وأجرى الماء على الدم وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ليبر يمينه، فطحن وخبز وأكل، وقيل: قتل منه أربعين ألفا.

وبنى مدينة جرجان، ولم تكن بُنيت قبل ذلك مدينة، ورجع إلى خراسان واستعمل على جرجان جهنم بن زحر الجعفي، وقيل: بل قال يزيد لأصحابه لما ساروا: إذا وصلتم إلى المدينة انتظروا فإذا كان السحر كبروا واقصدوا الباب فستجدوني قد نهضت بالناس إليه. فلما دخل ابن زحر المدينة أمهل حتى كانت الساعة التي أمره يزيد أن ينهض فيها فكبر، ففرغ أهل الحصن، وكان أصحاب يزيد لا يلقون أحدا إلا قتلوه، فدهش الترك فبقوا لا يدرون أين يتوجهون، وسمع يزيد التكبير فسار في الناس إلى الباب

سنة تسع وتسعين

ذكر موت سليمان بن عبد الملك

في هذه السنة توفي سليمان بن عبد الملك بن مروان لعشر بقين من صفر، فكانت خلافته ستين وخمسة أشهر وخمسة أيام، وقيل توفي فيها لعشر مضي من صفر، فتكون ولايته ستين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز. وكان الناس يقولون: سليمان مفتاح الخير، ذهب عنهم الحجاج وولي سليمان فأطلق الأسرى وأخلى السجون وأحسن إلى الناس واستخلف عمر

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي أيوب بن سليمان بن عبد الملك وهو ولي عهد.

وفيهما فتحت مدينة الصفالبة. وقيل غير ذلك، وقد تقدم.

وفيهما غزا داود بن سليمان أرض الروم ففتح حصن المرأة مما يلي ملطية.

وفيهما كانت الزلازل في الدنيا كثيرة ودامت ستة أشهر.

وفيهما مات عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وأبو عبيد مولى عبد الرحمن بن عوف، ويُعرف بمولى ابن أزهري. وعبد الرحمن بن زيد بن حارثة الأنصاري. وسعيد بن مرجانه مولى قريش، وهي أمه، واسم أبيه عبد الله.

وحج بالناس عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد. وهو أمير على مكة، وكان المماليق تقدم ذكرهم إلا البصرة، فإن يزيد استعمل عليها سفيان بن عبد الله الكندي. (٣٧/٥)

أعزم [عليه]؛ فمكث سليمان يوماً أو يومين ثم خرّقه ودعا رجاء فقال: ما ترى في ولدي داود؟ فقال رجاء: هو غائب عنك بالقسطنطينية ولا تدري أحى [هو] أم لا. قال: فمن ترى؟ قال رجاء: رايك. قال: فكيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ قال رجاء: فقلت أعلمه والله خيراً فاضلاً سليماً. قال سليمان: هو على ذلك ولئن وليته ولم أول أحدًا سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده، وكان عبد الملك قد عهد إلى الوليد وسليمان أن يجعل أحاهما يزيد ولي عهد، فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر، وكان يزيد غائباً في الموسم. قال رجاء: قلت رايك. فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إنني قد وليت الخلافة بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا. واتقوا الله ولا تختلفوا فتطمع فيكم. وختم الكتاب. فأرسل إلى كعب بن جابر العبيسي صاحب شرطته فقال: ادع أهل بيتي. فجمعهم كعب. ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابي إليهم وأخبرهم بكتابي ومُرهم فيأيعوا من وليت فيه.

فعل رجاء، فقالوا: ندخل ونسلم على أمير المؤمنين؟ قال: نعم. فدخلوا، فقال لهم سليمان: في هذا الكتاب، وهو يشير إلى الكتاب الذي في يد رجاء بن حيوة، عهدي فاسمعوا وأطيعوا لمن سميت فيه. فبايعوه رجلاً رجلاً وتفرقوا. (٤٠/٥)

وقال رجاء: فأتاني عمر بن عبد العزيز فقال: أخشى أن يكون هذا أسند إلي شيئاً من هذا الأمر، فأنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا أعلمتني إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن تأتي حال لا أقدر فيها على ذلك. قال رجاء: ما أنا بمُخبرك [حرفاً]. قال: فذهب عمر عني غضبان.

قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك فقال: إن لي بك حُرمة ومودة قديمة وعندي شكر فأعلمني بهذا الأمر، فإن كان إلى غيري تكلمت ولله علي أن لا أذكر شيئاً من ذلك أبداً. قال رجاء: فسأيت أن أخبره حرفاً، فانصرف هشام وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو يقول: فإلى من إذا نَحيت عني؟ أخرج من بني عبد الملك؟

قال رجاء: ودخلت على سليمان فإذا هو يموت، فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت حرفته إلى القيلة فيقول حين يفيق: لم يأن بعد، فجعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً، فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء إن كنت تريد شيئاً، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فحرقته، فمات، فلما غمضه وسجّيته وأغلقت الباب أرسلت إلي زوجته فقالت: كيف أصبح؟

بن عبد العزيز. وكان موته بدابق من أرض قنسرين، لبس يوماً حلة خضراء وعمامة خضراء ونظر في المرأة فقال: أنا الملك الفتى، فما عاش جُمعة، ونظرت إليه جارية، فقال: ما تنظرين؟ فقالت:

أنت نعم المتاع ولو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان ليس فيما علمته فيك عيب كان في الناس غير أنك فسان وقيل: وشهد سليمان جنازة بدابق فدُفنت في حقل فجعل سليمان يأخذ من تلك التربة ويقول: ما أحسن هذه [التربة] وأطيبها! فما أتى عليه جمعة حتى دُفن إلى جنب [ذلك] القبر. (٣٨/٥)

قيل: حجّ سليمان وحجّ الشعراء، فلما كان بالمدينة قافلاً تلقّوه بنحو أربعمائة أسير من الروم، ففعد سليمان وأقربهم منه مجلساً عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فقدم بطريقهم، فقال: يا عبد الله اضرب عنقه! فأخذ سيفاً من خروسي فضربه فأبان الراس وأطن الساعد وبعض العنق، ودفع البقية إلى الوجوه يقتلونهم، ودفع إلى جرير رجلاً منهم، فأعطاه بنو عبس سيفاً جيداً، فضربه فأبان رأسه، ودفع إلى الفرزدق أسيراً، فأعطوه سيفاً ردياً لا يقطع، فضرب به الأسير ضربات قلم يصنع شيئاً، فضحك سليمان والقوم وشتمت به بنو عبس أحوال سليمان، وألقى السيف وأنشأ يقول:

وإن بك سيفٌ خان أو قلّزأتني بتأخير نفسي حضاها غير شاهدي
نسيب بني عبس وقد ضربوا به نبيي رداء عن راسي خالدي
كذلك سيوف الهند تنبؤ طلباتها وتقطع أحياناً مناط القلائدي

ورقاء هو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبيسي، ضرب خالد بن جعفر ابن كلاب وخالد قد أكب على [أبيه] زهير وضربه بالسيف فصرعه، فأقبل ورقاء فضرِب خالداً ضربات لم يصنع شيئاً، فقال ورقاء بن زهير:

رايت زهيراً تحت كلّ كلّ خالد فاقبلت أسمى كالمجول أبادر
فثلثت يميني يوم أضرب خالداً ويمنه مني الحديد المظالم

ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز

في هذه السنة استخلف عمر بن عبد العزيز.

وسبب ذلك أن سليمان بن عبد الملك لما كان بدابق مريض، على ما (٣٩/٥) وصفنا، فلما نقل عهد في كتاب كتبه لبعض بنيهِ، وهو غلام لم يبلغ، فقال له رجاء بن حيوة: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه ممّا يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على الناس الرجل الصالح. فقال سليمان: أنا أستخير الله وأنظر [فيه]. ولم

السلام، إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، فترك ذلك وكتب إلى العمال في الأفاق بتركه.

وكان سبب محبته علياً أنه قال: كنت بالمدينة أنعم العلم وكنت أزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فبلغه عني شيء من ذلك، فأتيته يوماً وهو يصلي، فأطال الصلاة، فقعدت أنتظر فراغه، فلما فرغ من صلاته التفت إلي فقال لي: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟ قلت: لم أسمع ذلك. قال: فما الذي بلغني عنك في علي؟ قلت: معذرة إلى الله واليك! وتركت ما كنت عليه، وكان أبي إذا خطب فقال من علي، رضي الله عنه، تلجلج قلت: يا أبا إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك نقصيراً؟ قال: أوظنت لذلك؟ قلت: نعم. فقال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده.

فلما ولي الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا ما يرتكب هذا الأمر العظيم لأجلها، فترك ذلك وكتب بتركه وقرأ عوضه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ (٤٣/٥) بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ الآية [النحل: ٩٠]، فحل هذا الفعل عند الناس محلاً حسناً وأكثروا مدحه بسببه؛ فمن ذلك قول كثير عزة:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برأ ولم تبع مقالة مخبرم
تكلمت بالحق المين وإنما تئين آيات الهدي بالتكلم
وصدقت معروف الذي قلت بالذي فعلت فاضحياً راضياً كل مسلم
إلا إنما يكفي الفتى بعد زينة من الأود البادي ثقاف المقرم
فقال عمر حين أنشد هذا الشعر: أفلحنا إذاً.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة وجّه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة، وهو بأرض الروم، يأمره بالقول منها بمن معه من المسلمين، ووجّه له خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً، وحث الناس على معاونتهم.

وفيهما أغار الترك على أذربيجان فقتلوا من المسلمين جماعة، فوجّه عمر حاتم بن النعمان الباهلي فقتل أولئك الترك ولم يفلت منهم إلا اليسير، وقدم على عمر منهم بخمسين أسيراً.

وفيهما عزل يزيد بن المهلب عن العراق ووجّه إلى البصرة عدي بن أرطاة الفزاري وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي القرشي، وضم إليه أبا الزناد، وكان كاتبه، وبعث عدي في أثر يزيد بن المهلب موسى بن الوجيبة الجهمي.

وحج بالناس في هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حازم، وكان عامل [عمر على] المدينة. وكان العامل على مكة عبد

فقلت: هو نائم قد تغطى. ونظر إليه الرسول متغطياً فرجع فأخبرها، فظنت أنه نائم، قال: فاجلس على الباب من أتق به وأوصيته أن لا يبرح ولا يترك أحداً يدخل على الخليفة. قال: فخرجت فأرسلت إلى كعب بن جابر فجمع أهل بيت سليمان، فاجتمعوا في مسجد دابق، فقلت: يايعوا. فقالوا: قد بايعنا مرة. قلت: وأخرى، هذا عهد أمير المؤمنين. فبايعوا الثانية، فلما بايعوا بعد موته رأيت أنني قد أحكمت الأمر فقلت: قوموا إلى (٤١/٥) صاحبكم فقد مات. قالوا: إنا لله وأنا إليه راجعون! وقرأت الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز قال هشام: لا نبايعه والله أبداً. قلت: أضرب والله عنقك، قم فبايع، فقام يجر رجله. قال رجاء: فأخذت بضبعي عمر بن عبد العزيز فاجلسته على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه. فبايعوه.

وغسل سليمان وكفن وصلى عليه عمر بن عبد العزيز ودفن. فلما دفن أتني عمر بمرائب الخلافة ولكل دابة سائس، فقال: ما هذا؟ فقيل: مراكب الخلافة. قال: دابتي أوفق لي، وركب دابته وصرفت تلك الدواب، ثم أقبل سائراً، فقيل له: أمزل الخلافة؟ فقال: فيه عيال أبي أيوب، يعني سليمان، وفي فسطاطي كفاية حتى يتحولوا. فأقام في منزله حتى فرغوه.

قال رجاء: فأعجبني ما صنع في الدواب ومنزل سليمان، ثم دعا كاتباً فأملى عليه كتاباً واحداً وأمره أن ينسخه ويسيره إلى كل بلد.

وبلغ عبد العزيز بن الوليد، وكان غائباً، عن موت سليمان، ولم يعلم ببيعة عمر، فعقد لواء ودعا إلى نفسه، فبلغه بيعة عمر بعهد سليمان وأقبل حتى دخل عليه، فقال له عمر: بلغني أنك بايعت من قبلك وأردت دخول دمشق! فقال: قد كان ذاك وذلك أنه بلغني أن سليمان لم يكن عهد لأحد فخفت على الأموال أن تنهب. فقال عمر: لو بايعت وقمت بالأمر لم أنازعك فيه ولقعدت في بيتي. فقال عبد العزيز ما أحب أنه ولي هذا الأمر غيرك، وبايعه، وكان يرجي لسليمان بتوليته عمر بن عبد العزيز وترك ولده.

فلما استقرت البيعة لعمر بن عبد العزيز قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك: إن أردت صحبتي فردّي ما ملك من مال وحلى وجوهر إلى بيت مال المسلمين فإنه لهم، فإني لا أجمع أنا وأنت وهو في بيت واحد. فردته جميعه. (٤٢/٥)

فلما توفي عمر ولي أخوها يزيد رده عليها وقال: أنا أعلم أن عمر ظلمك. قالت: كلا والله. وامتنعت من أخذه وقالت: ما كنت أطيعه حياً وأعصيه ميتاً. فأخذه يزيد وفرقه على أهله.

ذكر ترك سب أمير المؤمنين علي، عليه السلام

كان بنو أمية يسبون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه

والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أمن رضى من الناس ومشورة أم ابتزمت أمرهم؟

فقال عمر: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها، وعهد إلي رجل كان قبلي فقممت ولم يُكره علي أحد ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس، فاتركوني ذلك الرجل، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم.

قالا: بيننا وبينك أمر واحد. قال: ما هو؟ قال: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسببنا مظلماً، فإن كنت على هدى وهم على الضلالة فالعنهم وإبرأ منهم. فقال عمر: قد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها، إن الله عز وجل، لم يبعث رسوله ﷺ لعانا، وقال إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبَغَّيْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [إبراهيم، ٣٦] وقال الله، عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتِدْ﴾. [الأنعام، ٩٠] وقد سميت أعمالهم ظلماً، وكفى بذلك ذمًا ونقصاً، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها، فإن قلمت أنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون؟ قال: ما أذكر متى لعنته. قال: أفيسعد أن لا تلعن فرعون وهو أخيت الخلق وشركهم ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون! قال: أما هم كفار بظلمهم؟ قال: لا لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان، فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه، فإن أحدث حدثاً أقيم عليه الحد. (٤٧/٥)

فقال الخارجي: إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده. قال عمر: فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم، ولكن غلب عليهم الشقاء. قال عاصم: فابراً مما خالف عملك ورد أحكامهم. قال عمر: أخبراني عن أبي بكر وعمر اليسا على حق؟ قال: بلى. قال: أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال؟ قال: بلى. قال: أتعلمان أن عمر رد السبابة بعده إلى عشائرهم بفدية؟ قال: نعم. قال: فهل يرى عمر من أبي بكر؟ قال: لا. قال: أفترؤن أنتم من واحد منهما؟ قال: لا. قال: فأخبراني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلمان أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دماً ولم يأخذوا مالاً وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجارته وهي حامل؟ قال: نعم. قال فهل يرى من لم يقتل ممن قتل واستعرض؟ قال: لا. قال: أفترؤن أنتم من أحد من الطائفتين؟ قال: لا. قال: أفيسعكم إن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحداً فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله ﷺ وتردون عليهم ما قبل،

العزير بن عبد الله بن خالد. وعلى (٤٤/٥) الكوفة عبد الحميد، وعلى القضاء بها عامر الشعبي. وكان على البصرة عدي بن ارسطاة، وعلى القضاء الحسن بن أبي الحسن البصري، ثم استعفى عدياً فأعفاه واستقضى إياس بن معاوية، وقيل: بل شكا الحسن فعزله عدي واستقضى إياساً.

واستعمل عمر بن عبد العزيز على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي.

في هذه السنة مات نافع بن جبير بن مطعم بن عدي بالمدينة. ومحمود ابن الربيع ولد على عهد رسول الله ﷺ. وأبو ظبيان بن حصين بن جندب الجني والد قابوس؛ (ظبيان بالطاء المعجمة).

وفيهما توفي أبو هاشم بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب من سم منقه عند عوده من الشام، وضع عليه سليمان بن عبد الملك من سقاء، فلما أحسن بذلك عاد إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو بالحخيمة فعرفه حاله وأعلمه أن الخلافة صائرة إلى ولده وأعلمه كيف يصنع، ثم مات عنده.

وفي أيام سليمان توفي عبيد الله بن شريح المغني المشهور. وعبد الرحمن بن كعب بن مالك أبو الخطأب. (٤٥/٥)

سنة مائة

ذكر خروج شوذب الخارجي

في هذه السنة خرج شوذب، واسمه بسطام، من بني يشكر، في جوحى، وكان في ثمانين رجلاً، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة أن لا يحركهم حتى يسفكوا دماء ويُفسدوا في الأرض، فإن فعلوا وجه إليهم رجلاً صلياً حازماً في جند.

فبعث عبد الحميد محمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين وأمره بما كتب به عمر، وكتب عمر إلى بسطام يسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يتحرك.

فكان في كتاب عمر: بلغني أنك خرجت غضباً لله ورسوله ولست أولى بذلك مني، فهلم إلي أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس، وإن كان في يذك نظرننا في أمرك.

فكتب بسطام إلى عمر: قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. وأرسل إلى عمر مولى لبني شيان حبشياً اسمه عاصم، ورجلاً من بني يشكر، فقدم على عمر بخناصرة فدخلوا إليه، فقال لهما: ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمت؟ فقال عاصم: ما نقمتا سيرتك، إنك (٤٦/٥) لتتحري العدل

ويأمن عندكم مَنْ خاف عنده، ويخاف عندكم من أمن عنده، فلأنكم يخاف عندكم مَنْ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وكان مَنْ فعل ذلك عند رسول الله آمناً وحقن دمه وماله وأنتم تقتلون، ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم.

قال الشكري: أرايت رجلاً ولي قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيّرَها بعده (٤٨/٥) إلى رجل غير مأمون، أتراه أدّى الحق الذي يلزمه لله، عز وجل، أو تراه قد سلم؟ قال: لا. قال: أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق؟ قال: إنما ولّاه غيبي والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال: أفترى ذلك من صنع مَنْ ولّاه حقاً؟ فبكى عمر وقال: أنظراني ثلاثاً.

فخرجوا من عنده ثم عادوا إليه فقالوا عاصم: أشهد أنك على حق. فقال عمر للشكري: ما تقول أنت؟ قال: ما أحسن ما وصفت ولكني لا أثبت على المسلمين بأمر، أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم.

فأما عاصم فأقام عند عمر، فأمر له عمر بالعتاء، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً. فكان عمر بن عبد العزيز يقول: أهلكني أمر يزيد وخصمت فيه، فاستغفر الله.

فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال وأن يخلع يزيد من ولاية العهد، فوضعوا على عمر مَنْ سقاه سماً، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً حتى مرض ومات، ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لا يتعرض إليهم ولا يتعرضون إليه، كلّ منهم يتظر عود الرسل من عند عمر بن عبد العزيز، فتوفي والأمر على ذلك.

ذكر القبض على يزيد بن المهلب واستعمال الجراح على خراسان قيل: وفي هذه السنة كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة يأمره بإنفاذ يزيد بن المهلب موثقاً، وكان عمر قد كتب إليه أن يستخلف على (٤٩/٥) عمله ويقبل إليه، فاستخلف مخلصاً ابنه وقدم من خراسان ونزل واسطاً، ثم ركب السفن يريد البصرة، فبعث عدي بن أرطاة موسى بن الوحيه الجعفري، فلقه في نهر مغيل عند الجسر، فاوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز، فدعا به عمر، وكان يبغض يزيد وأهل بيته، ويقول: هؤلاء جبابرة ولا أحبّ مثلهم. وكان يزيد يبغض عمر ويقول: إنه مُراء، فلما ولي عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء، ولما دعا عمر يزيد سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان، فقال: كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به. فقال له: لا أجد في أمرك إلا حبسك، فأتى الله وأدّ ما يتركها فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها.

وحبسه بحصن حلب، وبعث الجراح بن عبد الله الحكمي فسرّحه إلى خراسان أميراً عليها، وأقبل مُخَلَّد بن يزيد من خراسان يعطي الناس، ففرّق أموالاً عظيمة، ثم قدم على عمر فقال له: يا أمير المؤمنين إن الله صنع لهذه الأمة بولايته وقد ابتلينا بك، فلا نكن نحن أشقى الناس بولايته، علام تحبس هذا الشيخ؟ أنا أتحمّل ما عليه فصالحني على ما تسأل. فقال عمر: لا إلا أن يحمل الجميع. فقال: يا أمير المؤمنين إن كانت لك بينه فخذ بها وإلا فصدّق مقالة يزيد واستحلفه فإن لم يفعل فصالحه. فقال عمر: ما آخذة إلا بجمع المال. فخرج مُخَلَّد من عنده، فقال عمر: هذا خير من أبيه. ثم لم يلبث مُخَلَّد إلا قليلاً حتى مات، فصلّى عليه عمر بن عبد العزيز، فقال: اليوم مات فتى العرب؛ وأنشد:

بَكُوا خُلَيْفَةً لَمْ يَكُونُوا مِثْلَهُ حَتَّى نَبَذَ خُلَافَتُكَ لَمْ تَخْلُقْ
فَلَمَّا أَبَى يَزِيدُ أَنْ يُوَدِّيَ إِلَى عَمْرِ شَيْئاً أَلْبَسَهُ جَبَّةً صُوفَ وَحْمَلَهُ
عَلَى جَمَلٍ وَقَالَ: سِيرُوا بِهِ إِلَى ذَلِكَ. فَلَمَّا خَرَجَ وَمَرُّوا بِهِ عَلَى
النَّاسِ أَخَذَ يَقُولُ: (٥٠/٥) أَمَا لِي عَشِيرَةٌ؟ إِنَّمَا يَذْهَبُ إِلَى دَهْلِكَ
الْفَاسِقُ اللَّصُّ. فَدَخَلَ سَلَامَةً بِنُتَيْمِ الْخَوْلَانِيِّ عَلَى عَمْرِ فَقَالَ: يَا
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ارْجِعْ يَزِيدَ إِلَى مُحْبِسِهِ فَلَنِي أَخَافُ أَنْ أَمْضِيَهُ أَنْ
يَتَزَعَّزِعَ قَوْمُهُ، فَإِنَّمَا قَدْ عَصَبُوا لَهُ. فَزَدَهُ إِلَى مُحْبِسِهِ، فَبَقِيَ فِيهِ حَتَّى
بَلَغَهُ مَرَضُ عَمْرِ.

ذكر عزل الجراح واستعمال عبد الرحمن بن نعيم القشيري وعبد الرحمن بن عبد الله

وقيل: في هذه السنة عزل عمر الجراح بن عبد الله الحكمي عن خراسان واستعمل عليها عبد الرحمن بن نعيم القشيري، وكان عزل الجراح في رمضان.

وكان سبب ذلك أن يزيد لما عزل عن خراسان أرسل عامل العراق عاملاً على جرجان، فاخذ جهنم بن زحر الجعفي، وكان على جرجان عاملاً ليزيد بن المهلب، فحبسه وقيده وحبس رهطاً قدموا معه، ثم خرج إلى الجراح بخراسان، فاطلق أهل جرجان عاملهم، وقال الجراح لجهنم: لولا أنك ابن عمي لم أسوِّغك هذا. فقال جهنم: ولولا أنك ابن عمي لم أتك.

وكان جهنم يسلّف الجراح من قبل ابنتي الحُصَيْن بن الحارث، وأما كونه ابن عمه فلا أن الحكم والجعفي ابنا سعد القشيري.

فقال له الجراح: خالفت إمامك فاغز لعلك تظفر فيصلح أمرك عنده. فوجهه إلى الختل، فغتم منهم ورجع، وأوفد الجراح إلى عمر وفداً رجلاً من العرب ورجلاً من الموالي يكنى أبا الصيد، فتكلم العريّان والمولى ساكت، فقال عمر: ما أنت من الوفد؟ قال: بلى. قال: فما يمنعك من الكلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق،

الدُّعَاة فِي الْأَفَاقِ.

ومثلهم قد أسلموا من الذمّة يؤخذون بالخراج، فأمرنا عسبي جافٍ بقرم على منبرنا فيقول: أتيتكم حقياً، وأنا اليوم عسبي، والله لرجل من قومي أحب إليّ من مائة من غيرهم. وهو بعد سيف من سيوف الحجاج، قد عمل بالظلم والعدوان. قال عمر: إذن بمثلك يوفد.

فكتب عمر إلى الجراح: أنظر من صلى قبلك [إلى القبلة] فضع عنه الجزية. فسارع الناس إلى الإسلام، فقبل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية فامتنعهم بالختان. فكتب الجراح بذلك إلى عمر، فكتب عمر إليه: إن الله بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه خاتناً، وقال: إيتوني رجلاً صدوقاً أسأله عن خراسان. فقبل له: عليك بابي مجلّز. فكتب إلى الجراح: أن أقبل واحملاً أبا مجلّز وخلف على حرب خراسان عبد الرحمن بن نعيم العامري. فخطب الجراح وقال: يا أهل خراسان جئتكم في ثيابي هذه التي عليّ وعلى فرسي ولم أصب من مالكم إلا حلية سيفي. ولم يكن عنده إلا فرس وبغلة. فسار عنهم، فلما قدم على عمر قال: متى خرجت؟ قال: في شهر رمضان. قال: صدق من وصفك بالجفاء، هلا أقمت حتى تغفر ثم تخرج (٥٢/٥)

وكان الجراح كتب إلى عمر: إنني قدمت خراسان فوجدت قوماً قد أبطرتهم الفتنة، فأحب الأمور إليهم أن يعودوا ليعنوا حق الله عليهم، فليس يكفهم إلا السيف والوسط، فكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك. فكتب إليه عمر: يا ابن أم الجراح، أنت أحرص على الفتنة منهم، لا تضرين مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في الحق، واحذر القصاص، فإنك صائر إلى من يعلم خاتنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

فلما قدم الجراح على عمر وقدم أبو مجلّز قال له عمر: أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله، قال: يكافي الأكفاء ويعادي الأعداء، وهو أمير يفعل ما يشاء، ويقدم إن وجد من يساعده. قال: فعبد الرحمن بن نعيم؟ قال: يحب العافية والتأني وهو أحب إليّ. فولاه الصلاة والحرب، وولى عبد الرحمن القشيري الخراج، وكتب إلى أهل خراسان: إنني استعملت عبد الرحمن على حربكم، وعبد الرحمن [بن عبد الله] على خراجكم، وكتب إليهما بأمرهما بالمعروف والإحسان.

فلم يزل عبد الرحمن بن نعيم على خراسان حتى مات عمر وبعد ذلك حتى قتل يزيد بن المهلب، ووجه مسلمة بن عبد العزيز الحارث بن الحَكَم فكانت ولايته أكثر من سنة ونصف. (٥٢/٥)

ذكر ابتداء الدعوة العباسية

في هذه السنة وجه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

وكان سبب ذلك أن محمداً كان ينزل أرض الشراء من أعمال البلقاء بالشام، فسار أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى الشام إلى سليمان بن عبد الملك، فاجتمع به محمد بن علي فاحسن صحبته، واجتمع أبو هاشم بسليمان وأكرمه وقضى حوائجه، ورأى من علمه وفصاحته ما حسده عليه وخافه، فوضع عليه من وقف على طريقه فسّمه في لبن.

فلما أحسن أبو هاشم بالشراء قصد الحُمَيْمَة من أرض الشراء، وبها محمد، فنزل عليه وأعلمه أن هذا الأمر صائر إلى ولده وعزفه ما يعمل، وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم إليه أن الأمر صائر إلى ولد محمد بن علي، وأمرهم بقصده بعده.

فلما مات أبو هاشم قصدوا محمداً وبايعوه وعادوا فدعوا الناس إليه، فأجابوهم، وكان الذين سبّروهم إلى الأفاق جماعة، فوجه ميسرة إلى العراق، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج، وهو أبو محمد الصادق، وحيّان العطار، خال إبراهيم بن سلمة، إلى خراسان، وعليها الجراح الحكمي، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته. فلحقوا من لقوا. ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علي، فدفعوها إلى ميسرة، فبعث بها ميسرة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فاختر أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر رجلاً نقباء، منهم: سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قُرَيْظ التيمي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وموسى بن كعب التيمي، (٥٤/٥) وخالد بن إبراهيم أبو داود من بني شياب بن ذهل، والقاسم بن مجاشع التيمي، وعمران بن إسماعيل أبو النجم مولى آل أبي مُعَيْط، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطلحة بن زُرَيْق الخزاعي، وعمر بن أغين أبو حمزة مولى خزاعة، وشبل بن طهمان أبو علي الهروي مولى لبني حنيفة، وعيسى بن أعين مولى خزاعة، واختار سبعين رجلاً، وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثلاً وسيرة يسبغون بها.

(الحُمَيْمَة بضم الحاء المهملة. والشراء بالشين المعجمة)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أمر عمر بن عبد العزيز أهل طرندة بالقول عنها إلى ملطية، وطرندة وأغلة في البلاد الرومية من ملطية بثلاث مراحل، وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ثلاث وثمانين، وملطية يومئذ خراب، وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم، فلم يزالوا كذلك إلى أن ولي عمر فأمرهم بالعود إلى ملطية وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو وأخرب

طرندة، واستعمل على ملطية جَعَوَنَة بن الحارث أحد بني عامر بن صَعْنَة.

وفيها كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملّكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وقد كانت سيرته يَلْعَنُهم، فأسلم جيشة بن ذاهر، والملوك تسمّوا له بأسماء العرب، وكان عمر قد استعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم أخا قُتَيْبَة بن مسلم، (٥٥/٥) فغزا بعض الهند، فظفر وبقي ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد بن عبد الملك، فلمّا كان أيام هشام ارتدّوا عن الإسلام، وكان سببه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المُعْطِطِيَّ وعمر بن قيس الكِنْدِي الصائفة.

وفيها استعمل عمر بن عبد العزيز عمر بن هُبَيْرَة الفزاريّ على الجزيرة عاملاً عليها.

وحجّ بالناس هذه السنة أبو بكر بن محمّد بن عمرو. وكان العمّال من تقدّم ذكرهم إلّا عامل خراسان. وكان على حربها عبد الرحمن بن نُعَيْم، وعلى خراجها عبد الرحمن بن عبد الله في آخرها.

وفيها استعمل عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبد الله مولى بني مخزوم على إفريقية، واستعمل السّمح بن مالك الخولانيّ على الأندلس، وكان قد رأى منه أمانةً وديانةً عند الوليد بن عبد الملك فاستعمله.

في هذه السنة مات أبو الطّفَيْل عامر بن وائلة بمكة، وهو آخر من مات من الصحابة.

وفيها مات شهر بن حوشب، وقيل سنة اثنتي عشرة ومائة.

وفيها توفي القاسم بن مُخَيَّمَة الهمدانيّ.

وفيها توفي مسلم بن يسار الفقيه، وقيل: سنة إحدى ومائة.

وفيها توفي أبو أمامة أسعد بن سهل بن حنيف، وكان وُلِدَ على عهد النبي ﷺ فسماه وكناه بجده لأمّه أبي أمامة أسعد بن زُرارة، وكان قد مات قبل بدر.

وفيها توفي بُسْر بن سعد مولى الحضرميين، (بسر بضم الباء الموحدة، وبالسين المهملة). وعيسى بن (٥٦/٥) طلحة بن عبد الله التيمي. ومحمّد بن جَبْرِ بن مُطْعِم. ورَبِيع بن جِراش الكوفي؛ (جراش بكسر الحاء المهملة، وبالراء المهملة)، وقيل سنة أربع ومائة. وحشّ بن عبد الله الصنعاني، كان من أصحاب عليّ، فلمّا قُتِل انتقل إلى مصر، وهو أوّل من اختطّ جامع سَرَقُطَة بالأندلس؛

(حشّ بالحاء المهملة والنون المفتوحين، والشين المعجمة). صَعْنَة. (٥٧/٥)

سنة إحدى ومائة

ذكر هرب ابن المهلب

قد ذكرنا حبس يزيد بن المهلب، فلم يزل محبوباً حتّى اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز، فعمل في الهرب، فخاف يزيد بن عبد الملك لأنّه قد عذب أصحابه آل أبي عقيل، وكانت أمّ الحجاج بنت محمّد بن يوسف، وهي ابنة أخي الحجاج، زوجة يزيد بن عبد الملك.

وكان سبب تعذيبهم أنّ سليمان بن عبد الملك لما وليّ الخلافة طلب آل أبي عقيل فأخذهم وسلّمهم إلى يزيد بن المهلب ليخلص أموالهم، فعذبهم وبعث ابن المهلب إلى البلقاء من أعمال دمشق، وبها خزائن الحجاج بن يوسف وعياله، فنقلهم وما معهم إليه، وكان فيمنّ أني به أمّ الحجاج زوجة يزيد بن عبد الملك، وقيل: بل اخت لها، فعذبها، فأتى يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلب في منزله فشفع فيها، فلم يشفعه، فقال: الذي قرّرت عليها أنا أحمله، فلم يقبل منه، فقال لابن المهلب: أما والله لئن وليتُ من الأمر شيئاً لأقطعنك منك عضواً! فقال ابن المهلب: وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف. فحمل يزيد بن عبد الملك ما كان عليها، وكان مائة (٥٨/٥) ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك.

فلما اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز خاف ابنُ المهلب من يزيد بن عبد الملك، فأرسل إلى مواليه، فأعدّوا له إبلاً وخيلاً وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه، فأرسل إلى عامل حلب مالا وإلى الحرس الذين يحفظونه وقال: إنّ أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجا، وإنّ وليّ يزيد يسفك دمي. فأخرجوه، فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيه، فركب الدوابّ وقصد البصرة، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول: إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك، ولكنّي خفت أن يلي يزيد فيقتلني شرّ قتلة. فورد الكتاب وبه رمق، فقال: اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فالحقّة به وهضه فقد هاضني.

ومرّ يزيد في طريقه بالهذيل بن رُقَر بن الحارث، وكان يخافه، فلم يشعر الهذيل إلّا وقد دخل يزيد منزله ودعا بلبن فشربه، فاستحيا منه الهذيل وعرض عليه خيله وغيرها، فلم يأخذ منه شيئاً.

وقيل في سبب خوف ابن المهلب من يزيد بن عبد الملك ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة عمر بن عبد العزيز

قيل: توفي عمر بن عبد العزيز في رجب سنة إحدى ومائة، وكانت شكواه عشرين يوماً، ولما مرض قيل له: لو تداويت. قال: لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها، نعم المنهوب إليه ربي. وكان موته بذيّر سَمْعَان، وقيل: بخناصرة، ودُفن بدير سَمْعَان. وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، (٥٩/٥)

وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة وأشهرًا، وقيل: كان عمره أربعين سنة وأشهرًا، وكانت كنيته أبا حفص، وكان يقال له أشج بن أمية، وكان قد رمحه دابة من دواب أبيه فشجته وهو غلام، فدخل على أمه فضمته إليها وعذلت أباه ولامته حيث لم يجعل معه حاضناً، فقال لها عبد العزيز: اسكتي يا أم عاصم فطوباك إن كان أشج بن أمية.

قال ميمون بن مهران: قال عمر بن عبد العزيز: لما وضعت الوليد في حفرة نظرت فإذا وجهه قد اسود، فإذا مُت ودُفنت فاكشف عن وجهي؛ ففعلت فرأيت أحسن مما كان أيام تنعمه.

وقيل: كان ابن عمر يقول: يا ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً؟

وكانت أم عمر بن عبد العزيز أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطّاب، وهو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أمية، ورثاه الشعراء فأكثروا، فقال كثير غزّة:

أقول لَمَّا أُنْشِئَ نَمَ مَهْلَكُهُ لَا تَبْعِدُنَّ قِوَامَ الْحَقِّ وَالْدِينِ
قَدْ غَادَرُوا فِي ضَرْحِ اللَّحْدِ مُتَجِدِلًا بَيْتِيرَ سَمْعَانَ قِسْطَاسِ الْمَوَازِينِ
ورثاه جرير والفرزدق وغيرهما. (٦٠/٥)

ذكر بعض سيرته

قيل: لما ولي الخلافة كتب إلى يزيد بن المهلب: أما بعد فإن سليمان كان عبداً من عباد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفني، ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان، وإن الذي ولاني الله من ذلك وقدّر لي ليس عليّ بهين، ولو كانت رغبتني في اتخاذ أزواج أو اعتقاد أموال، لكن في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً ومسألة غليظة إلا ما عفا الله ورحم، وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك.

فلما قرأ الكتاب قيل له: لست من عماله لأن كلامه ليس ككلام من مضى من أهله. فدعا يزيد الناس إلى البيعة، فبايعوا.

قال مقاتل بن حيان: كتب عمر إلى عبد الرحمن بن نعيم: أما بعد فاعمل عمل من يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين.

قال طفيل بن مرداس: كتب عمر إلى سليمان بن أبي السري: أن اعمل خانات، فمن ربك من المسلمين فاقروه يوماً وليلة وتعهّدوا دوائهم، ومن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين، وإن كان منقطعاً به فأبلغه بلده. فلما أناه كتاب عمر قال له أهل سمرقند: قتيبة ظلمنا وغدر بنا فأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليقدم منا وفد على أمير المؤمنين. فأذن لهم، فوجهوا وفداً إلى عمر، فكتب لهم إلى سليمان: إن أهل سمرقند شكوا ظلماً وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أهلك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرج (٦١/٥) العرب إلى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة. قال: فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة. فقال أهل الصغد: بل نرضى بما كان ولا نحدث حرباً، وتراضوا بذلك.

قال داود بن سليمان الجعفي: كتب عمر إلى عبد الحميد: أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنة خيشة سنّها عليهم عمال السوء، وإن قوام الدين العدل والإحسان، فلا يكوننّ شيء أهم إليك من نفسك، فإنه لا قليل من الإثم، ولا تحمل خراباً على عامر وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذ أجور الضرايين ولا هدية السوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف، ولا أجور الفتح ولا أجور البيوت، ولا درهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع في ذلك أمري فإنّي قد ولّيتك من ذلك ما ولّاني الله، ولا تعجلّ دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد من الدّرة أن يحجّ فعجلّ له مائة ليحجّ بها، والسلام.

قال عثمان بن عبد الحميد: حدثني أبي قال: قالت فاطمة بنت عبد الملك، رحمها الله، امرأة عمر: لما مرض عمر اشتدّ قلقه ليلة، فسهرنا معه، فلما أصبحنا أمرت وصيفاً له يقال له مرثد ليكون عنده، فإن كانت له حاجة كنت قريباً منه، ثم نمنا، فلما انتفخ النهار استيقظت فتوجهت إليه فرأيت مرثداً خارجاً من البيت نائماً، فقلت له: ما أخرجك؟ قال: هو أخرجني، قال (٦٢/٥) لي: إني أرى شيئاً ما هو بإنس ولا جن، فخرجت فسمعتهم يتلو: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. [القصص: ٨٣] قالت: فدخلت فوجدته بعدما دخلت قد وجه نفسه للقبلة وهو ميت.

قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر أعوده فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لامراته فاطمة، وكانت أخت مسلمة: اغسلوا ثياب أمير المسلمين. فقالت: نفعل. ثم عدت فإذا القميص على

حاله. فقلت: ألم آمركم أن تغسلوا قميصه؟ فقالت: والله ما له غيره. قيل: وكانت نفقته كل يوم درهمتين.

قال: وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه مراحم: إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطوني، وإنني قد هممت برده على أربابه. قال: فكيف نصنع بولدك؟ فجرت دموعه وقال: أكلهم إلى الله. قال: وجد (٦٤/٥) لولده ما يجد الناس، فخرج مراحم حتى دخل على عبد الملك بن عمر فقال له: إن أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا، وهذا امر يضركم وقد نهيت عنه. فقال عبد الملك: بش وزير الخليفة أنت! ثم قام فدخل على أبيه وقال له: إن مراحماً أخبرني بكذا وكذا فما رأيك؟ قال: إنني أريد أن أقوم به العشيّة. قال: عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث؟ فرفع عمر يديه وقال: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني! ثم قام به من ساعته في الناس وردها.

قال: ولما ولي عمر الخلافة أخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم، ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان، فأنشأ فقالت له: تكلم أنت يا أمير المؤمنين. فقال: إن الله بعث محمداً ﷺ رحمةً ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء، ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان ابنا عبد الملك حتى أفضى الأمر إليّ وقد يس النهر الأعظم فلم يرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه. فقالت: حسبك، قد أردت كلامك، فأمّا إذا كانت مقاتلت هذه فلا أذكر شيئاً أبداً. فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه. وقد قيل: إنها قالت له: إن بني أمية يقولون كذا وكذا، فلما قال لها هذا الكلام قالت له: إنهم يحذرونك يوماً من أيامهم، فغضب وقال: كل يوم أخافه غير يوم القيامة فلا أمنت شراً. فرجعت إليهم فأخبرتهم وقالت: أنتم فعلتم هذا (٦٥/٥) بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جدّه. فسكتوا.

قال: وقال سفيان الثوري: الخلفاء خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وعمر بن عبد العزيز، وما كان سواهم فهم متزون.

قال: وقال الشافعيّ مثله، قال: وكان يكتب إلى عماله بثلاث، فهي تدور بينهم: بإحياء سنة أو إطفاء بدعة، أو قسم في مسكنة، أو رد مظلمة.

قال: وكانت فاطمة بنت الحسين بن عليّ تنني عليه وتقول: لو كان بقي لنا عمر بن عبد العزيز ما احتجنا بعده إلى أحد. قالت فاطمة امرأته: دخلت عليه وهو في مصلاه ودموعه تجري على لحيته فقلت: أحدث شيء؟ فقال: إنني تقلدت أمر أمة محمد ففكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع والغازي والمظلوم

قيل: وكان عبد العزيز قد بعث ابنه إلى المدينة ليتأدب بها، فكتب إلى صالح بن كيسان أن يتعاهده، فأبطأ عمر يوماً عن الصلاة، فقال: ما حسبك؟ قالت: مرّجّلتني تصلح شعري، فكتب إلى أبيه بذلك، فأرسل أبوه رسلاً، فلم يزل حتى حلق شعره.

وقال محمد بن عليّ الباقر: إن لكل قوم نجية، وإن نجية بني أمية عمر بن عبد العزيز، وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

وقال مجاهد: أتينا عمر نعلمه، فلم نبرح حتى تعلمنا منه.

وقال ميمون: كانت العلماء عند عمر تلامذة. وقيل لعمر: ما كان بدء إنشأتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال: أذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة. وقال عمر: ما كذبت منذ علمت أن الكذب يضر أهله.

وقال رياح بن عبيدة: خرج عمر بن عبد العزيز وشيخ متوكّء على يده، فلما فرغ ودخل قلت: أصلح الله الأمير، من الشيخ الذي كان متوكّئاً (٦٣/٥) على يدك؟ قال: أرايت؟ قلت: نعم. قال: ذاك أخي الخضر أعلمني أنني سألني أمر هذه الأمة وأني ساعدل فيها.

قال: وأتاه أصحاب مراكب الخلافة يطلبون علفها، فأمر بها فبيعت، وجعل أثمانها في بيت المال وقال: تكفيني بغلتي هذه. قال: ولما رجع من جنازة سليمان بن عبد الملك رآه مولى له مغتماً فسأله، فقال: ليس أحد من أمة محمد في شرق الأرض ولا غربها إلا وأنا أريد أن أوذي إليه حق من غير طلب منه. قال: ولما ولي الخلافة قال لامراته وجواريه إنه قد شغل بما في عنقه عن النساء، وخيرهن بين أن يضمن عنده أو يفارقه، فبكين واخترن المقام معه.

قال: ولما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وكانت أول خطبة خطبها ثم قال: أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بهجده، ويدلنا من الخير ما نهتدي إليه، ولا يغتابن أحداً، ولا يعترض في ما لا يعنيه. فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله. قال: فلما ولي الخلافة أحضر قريشاً ووجوه الناس فقال لهم: إن فذك كانت بيد رسول الله ﷺ فكان يضعها حيث أراه الله، ثم وليها أبو بكر كذلك وعمر كذلك، ثم أقطعها مروان، ثم إنها صارت إليّ ولم تكن من مالي أعود منها عليّ، وإنني أشهدكم أنني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله، ﷺ؛ قال: فانقطعت ظهور الناس ويشسوا من

لَمَنْ لَا يَحْمَدُكَ وَتَصِيرُ إِلَى مَنْ لَا يَعْدُرُكَ، وَالسَّلَامُ.

فَلَمَّا وَلِيَ يَزِيدُ نَزَعَ أَبَا بَكْرٍ بِنَ مُحَمَّدٍ بَنَ عَمْرٍو بَنَ حَزْمٍ عَنِ الْمَدِينَةِ وَاسْتَعْمَلَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَنَ الضَّحَّاكِ بَنَ قَيْسِ الْفِهْرِيِّ عَلَيْهَا، وَاسْتَقْضَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ سَلِيمَةَ بِنَ عَبْدِ اللَّهِ بَنَ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيِّ، وَأَرَادَ مَعَارَضَةَ ابْنِ حَزْمٍ فَلَمْ يَجِدْ عَلَيْهِ سَبِيلًا، حَتَّى شَكَا عَثْمَانُ بَنَ حَيَّانَ إِلَى يَزِيدٍ بَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ ابْنِ حَزْمٍ وَأَنَّهُ ضَرَبَهُ حَدِّثِينَ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَقْبِذَهُ مِنْهُ، فَكَتَبَ يَزِيدُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَنَ الضَّحَّاكِ كِتَابًا: أَمَّا بَعْدُ فَانْظُرْ فِيمَا ضَرَبَ ابْنُ حَزْمٍ ابْنَ حَيَّانَ، فَإِنْ كَانَ ضَرَبَهُ فِي أَمْرٍ بَيِّنٍ أَوْ أَمْرٍ يَخْتَلَفُ فِيهِ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ.

فَارْسَلَ ابْنُ الضَّحَّاكِ فَأَحْضَرَ ابْنَ حَزْمٍ وَضَرَبَهُ حَدِّثِينَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ.

وَعَمِدَ يَزِيدُ إِلَى كُلِّ مَا صَنَعَهُ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِمَّا لَمْ يُوَافِقْ هَوَاهُ فَزَدَهُ وَلَمْ يَخْفِ شُنَاعَةُ عَاجِلَةٍ وَلَا إِيْمَاءُ عَاجِلًا، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ يَوْسُفَ أَخَا (٦٨/٥) الْحَجَّاجِ بَنَ يَوْسُفَ كَانَ عَلَى الْيَمَنِ، فَجَعَلَ عَلَيْهِمْ خَرَجًا مَجْدَدًا، فَلَمَّا وَلِيَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ يَأْمُرُهُ بِالْإِقْصَارِ عَلَى الْعَشْرِ وَنِصْفِ الْعَشْرِ وَتَرْكِ مَا جَدَّاهُ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ وَقَالَ: لِأَنْ يَأْتِيَنِي مِنَ الْيَمَنِ حَصَّةٌ ذُرَّةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ تَقْرِيرِ هَذِهِ الْوَضِيعَةِ، فَلَمَّا وَلِيَ يَزِيدُ بَعْدَ عَمْرٍو أَمَرَ بِرَدِّهَا وَقَالَ لِعَامِلِهِ: خُذْهَا مِنْهُمْ وَلَوْ صَارُوا حُرًّا، وَالسَّلَامُ.

ذَكَرَ مَقْتَلَ شَوْذَبِ الْعَجَارِجِيِّ

قَدْ ذَكَرْنَا خُرُوجَهُ وَمِرَاسِلَتَهُ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِمَنَاظَرَتِهِ، فَلَمَّا مَاتَ عَمْرُ أَحَبَّ عَبْدُ الْحَمِيدِ بَنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَنَ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ، وَهُوَ الْأَمِيرُ عَلَى الْكُوفَةِ، أَنْ يَحْطِيَ عِنْدَ يَزِيدِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَكَتَبَ إِلَى مُحَمَّدَ بْنَ جَرِيرٍ يَأْمُرُهُ بِمَنَاجَزَةِ شَوْذَبِ، وَاسْمُهُ بِسْطَامٌ، وَلَمْ يَرْجِعْ رَسُولًا شَوْذَبِ وَلَمْ يَعْلَمْ بِمَوْتِ عَمْرٍو.

فَلَمَّا رَأَوْا مُحَمَّدًا يَسْتَعِدُّ لِلْحَرْبِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ شَوْذَبُ: مَا أَعْجَلَكُمْ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْمَدَّةِ! الْيَسَّ قَدْ تَوَاعَدْنَا إِلَى أَنْ يَرْجِعَ الرُّسُولَانِ؟ فَارْسَلَ مُحَمَّدٌ: إِنَّهُ لَا يَسْعُنَا تَرْكُكُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، فَقَالَتْ الْخَوَارِجُ: مَا فَعَلَ هَؤُلَاءِ هَذَا إِلَّا وَقَدْ مَاتَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ.

فَاقْتَتَلُوا فَأَصِيبَ مِنَ الْخَوَارِجِ نَفَرٌ وَقُتِلَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَانْهَزَمُوا، وَجَرَحَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ فِي اسْتِهِ، فَدَخَلَ الْكُوفَةَ وَتَبِعَهُمُ الْخَوَارِجُ حَتَّى بَلَّغُوا الْكُوفَةَ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى مَكَانِهِمْ.

وَأَقَامَ شَوْذَبُ يَنْتَظِرُ صَاحِبِيَّهِ، فَقَدِمَا عَلَيْهِ وَأَخْبَرَاهُ بِمَوْتِ عَمْرٍو، وَوَجَّهَ (٦٩/٥) يَزِيدُ مَنْ عِنْدَ تَمِيمِ بْنِ الْحُبَابِ فِي الْفَتَنِ قَدْ أَرْسَلَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ يَزِيدَ لَا يَفَارِقُهُمْ عَلَى مَا فَارَقَهُمْ عَلَيْهِ عَمْرُ، فَلَعَنُوهُ وَلَعَنُوا يَزِيدَ مَعَهُ وَحَارِبُوهُ فَقَتَلُوهُ وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ، وَلَجَأَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْكُوفَةِ وَبَعْضُهُمْ إِلَى يَزِيدٍ. فَارْسَلَ إِلَيْهِمْ يَزِيدُ نَجْدَةَ بَنَ الْحَكَمِ

الْمَقْهُورَ وَالْغَرِيبَ الْأَسِيرَ وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَذِي الْعِيَالِ الْكَثِيرَ وَالْمَالِ الْقَلِيلَ وَأَشْبَاهَهُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ فَعَلِمْتُ أَنَّ رَبِّي مَسِئَلَانِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنْ خَصَمِي دُونَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى اللَّهِ، فَخَشِيتُ أَنْ لَا تَثْبِتَ حُجَّتِي عِنْدَ الْخَصْمَةِ، فَرَحِمْتُ نَفْسِي فَبَكَيْتُ.

قِيلَ: وَلَمَّا مَرَضَ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَرَضَ مَوْتِهِ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ أَعْوَانِهِ عَلَى الْعَدْلِ، دَخَلَ عَلَيْهِ عَمْرُ فَقَالَ لَهُ: يَا بَنِيَّ كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: أَجِدُنِي فِي الْحَقِّ. قَالَ: يَا بَنِيَّ أَنْ تَكُونَ فِي مِيزَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ فِي مِيزَانِكَ. فَقَالَ ابْنُهُ: يَا أَبَتَاهُ لَأَنْ يَكُونَ مَا تُحِبُّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَا أَحَبُّ. فَمَاتَ فِي مَرَضِهِ وَلَهُ سَبْعُ عَشْرَةَ سَنَةً.

قِيلَ: وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِأَبِيهِ عَمْرٍو: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَقُولُ لِرَبِّكَ إِذَا أَتَيْتَهُ وَقَدْ تَرَكْتَ حَقًّا لَمْ تُخَيِّهِ وَبَاطِلًا لَمْ تُجَنِّهِ؟ فَقَالَ: يَا بَنِيَّ إِنَّ أَبَاكَ وَأَجْدَادَكَ قَدْ دَعَا النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ فَانْتَهَتْ الْأُمُورُ إِلَيَّ وَقَدْ أَقْبَلَ شَرُّهَا (٦٦/٥) وَأَدْبَرَ خَيْرُهَا، وَلَكِنْ أَلَيْسَ حَسَنًا وَجَمِيلًا إِلَّا تَطْلُعَ الشَّمْسُ عَلَيَّ فِي يَوْمٍ إِلَّا أَحْيَيْتُ فِيهِ حَقًّا وَأَمِتُ فِيهِ بَاطِلًا حَتَّى يَأْتِيَنِي الْمَوْتُ فَأَنَا عَلَى ذَلِكَ؟ وَقَالَ لَهُ أَيْضًا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ انْقُذْ لَأَمْرِ اللَّهِ وَإِنْ جَاشَتْ بِي وَبِكَ الْقُدُورُ. فَقَالَ: يَابَنِيَّ إِنْ بَادَهْتُ النَّاسَ بِمَا تَقُولُ أَحُوجُّونِي إِلَى السِّيفِ، وَلَا خَيْرَ فِي خَيْرٍ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالسِّيفِ، فَكَّرَ ذَلِكَ.

قِيلَ: كَتَبَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عُمَّالِهِ نَسْخَةً وَاحِدَةً: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، أَكْرَمَ بِالْإِسْلَامِ أَهْلَهُ، وَشَرَّفَهُمْ وَأَعَزَّهُمْ، وَضَرَبَ الذَّلَّةَ وَالصُّغَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، فَلَا تَوَلَّيْنِ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ ذَمِّهِمْ وَخَرَجِهِمْ فَتَبْسِطُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّتْمَ فَتَذْلِمُهُمْ بَعْدَ أَنْ أَعَزَّهُمُ اللَّهُ، وَتَهَيِّئْهُمْ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَتَعَرَّضْهُمْ لِكَيْدِهِمْ وَالْإِسْطَالَةَ عَلَيْهِمْ، وَمَعَ هَذَا فَلَا يُؤْمِنُ غَشْمُ إِيَّاهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَشِيْتُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]؛ وَالسَّلَامُ.

فهذا القدر كافٍ في التنبيه على فضله وعدله.

وفي هذه السنة مات محمد بن مروان في قول، وأبو صالح ذكوان. (٦٧/٥)

ذَكَرَ خِلَافَةَ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

وفيها تولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة، وكنيته أبو خالد، بعهد من أخيه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز، ولما احتضر عمر قيل له: اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة، قال: بماذا أوصيه؟ إنه من بني عبد الملك. ثم كتب إليه: أما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة ولا تقدر على الرجعة، إنك ترك ما ترك

بالتحرّز من يزيد ويعرفهما هربه، وأمر عديّاً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلب، فآخذهم وجسهم، فيهم: المفضلّ وحبيب ومروان بنو المهلب، وأقبل يزيد حتّى ارتفع على القُطْقُطانة، وبعث عبد الحميد جنداً إليهم عليهم هشام بن مُساحق العامريّ، عامر بن لؤي، فساروا حتّى نزلوا العُدَيْب، ومَرَّ يزيد قريباً منهم فلم يقدموا عليه، ومضى يزيد نحو البصرة وقد جمع عديّ بن أرطاة أهل البصرة وخندق عليها، وبعث على خيل البصرة المغيرة بن عبد الله بن أبي عَقِيل الثقفيّ، وجاء يزيد في أصحابه الذين معه، فالتقاه أخوه محمد بن المهلب فيمَن اجتمع إليه من أهله وقومه ومواليه، فبعث عديّ على كلّ خمس من أحماس البصرة رجلاً، فبعث على الأزد المغيرة بن زياد بن عمرو القَتَكِيّ، وبعث على تميم مُحَرِّز بن حُمران السعديّ، وعلى خمس بكر مفرّج بن شيبان بن مالك بن مسمع، وعلى عبد القيس [مالك بن] المنذر بن الجارود، وعلى أهل العالية عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر؛ وأهل العالية قريش وكنانة والأزد ويَجِيلَة وخَتَم وقيس عيلان كلّها ومُزَيْنَة، وأهل العالية والكوفة يقال لهم رُبُع أهل المدينة.

فأقبل يزيد لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلّا تنحوا له عن طريقه، وأقبل يزيد حتّى نزل داره، فاختلف الناس إليه، فأرسل إلى عديّ: (٧٢/٥) أن ابعث إليّ إخواني وإني أصالحك على البصرة وأخليك وإياها حتّى آخذ لنفسي من يزيد ما أحبّ. فلم يقبل منه، فسار حميد بن عبد الملك بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالد القسريّ وعمرو ابن يزيد الحَكَميّ بأمان يزيد بن المهلب وأهله.

وأخذ يزيد بن المهلب يُعْطِي مَنْ أتاه قطع الذهب والفضّة، فمال الناس إليه، وكان عديّ لا يُعْطِي إلّا درهمين درهمين ويقول: لا يحلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلّا بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن تَبَلَّغُوا بهذه حتّى يأتي الأمرُ في ذلك؛ وفي ذلك يقول الفرزدق:

أظنّ رجلاً درهمين يُقودهم إلى الموت آجالاً لهم ومصارُحْ
واكْبَهُمْ مَنْ قَرَفِي قمريته وإيقن أنّ الموت لا بُدَّ واقِعْ

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عديّ فنزلوا اليمزبد، وبعث إليهم يزيد بن المهلب مولى له يُقال له دارس، فحمل عليهم فهزمهم، وخرج يزيد حين اجتمع الناس له حتّى نزل جَبَانَة بني يشكر، وهي النصف فيما بينه وبين القصر، فليقه قيس وتمدّم وأهل الشام واقتلوا هنيهة، وحمل عليهم أصحاب يزيد فانهزموا، وتبعهم ابنُ المهلب حتّى دنا من القصر، فخرج إليهم عديّ بنفسه، فقتل من أصحابه موسى بن الوجيه الجُمَريّ، والحارث بن المُصَرِّف الأوديّ، وكان من فرسان الحجاج وأشراف أهل الشام، وانهزم أصحاب عديّ، وسمع إخوة يزيد، وهم في مجلس عديّ،

الأوديّ في جمع، فقتلوه وهزموا أصحابه، فوجّه إليهم يزيد السحّاج بن وداع في الفَتِن، فقتلوه وهزموا أصحابه، وقُتل منهم نفر، منهم هُذْبَة ابن عَمّ شُوذْب. فقال أيوب بن خُوَليّ يرثيهم:

تركنا تميمًا في الغار مُلَحِبًا تَبَكِّي عليه عرسُهُ وقرائبُهُ
وقد أسلمت قيسَ تميمًا ومالكًا كما أسلم السحّاج أسس أثاربُهُ
وأقبل من حِمران يحمل رايةً يغالِبُ أمرَ الله والله غَالِبُهُ
فيا مُدْبِ للهيجا ويا مُدْبِ للندي ويا مُدْبِ للخصم الألدّ يحارِبُهُ
ويا مُدْبِ كم من ملجم قد أحْبَبُهُ وقد أسلمت للرياح جواربُهُ
وكان أبرشيان خير مقاتل يُرْجَى ويخشى خَرَبَ مَنْ يحارِبُهُ
فماز ولاقى الله في الخير كلّهُ وخَلَعَهُ بالسيف في الله صارِبُهُ
نزوةً بين دنياه درعاً ومِقْفَرًا وَغَضِبًا حُساماً لم تَخْنَهُ مَقْصَرِبُهُ
وأجره محبوك السُرّة كأنهُ إنا نقصّ وإني الريش حُجْنٌ مخالِبُهُ

وأقام الخوارج بمكانهم حتّى دخل مسلّمَةُ بن عبد الملك الكوفة، فشكا إليه أهل الكوفة مكان شُوذْب وخوفه منه، فأرسل إليه مسلّمَةُ سعيذ بن (٧٠/٥) عمرو الحَرَشِيّ، وكان فارساً، في عشرة آلاف، فأتاه وهو بمكانه، فرأى شُوذْب وأصحابه ما لا يُقِيلُ لهم به، فقال لأصحابه: مَنْ كان يريد الشهادة فقد جاءته، وَمَنْ كان يريد الدنيا فقد ذهب. فكسروا أعماص سيوفهم وحملوا فكشفوا سعيذاً وأصحابه مراراً حتّى خاف سعيذ الفضيحة، فوَيْخ أصحابه وقال: من هذه الشرذمة لا أب لكم تفرون! يا أهل الشام يوماً كأيامكم! فحملوا عليهم فطحنوهم طحناً وقتلوا بسطاماً، وهو شُوذْب، وأصحابه.

ذكر موت محمد بن مروان

وفي هذه السنة توفي محمد بن مروان بن الحَكَم أخو عبد الملك، وكان قد ولي الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، وغزا الروم وأهل أرمينية عدّة دفعات، وكان شجاعاً قوياً، وكان عبد الملك يحسده لذلك، فلمّا انتظمت الأمور لعبد الملك أظهر ما في نفسه له، فتجهّز محمد ليسير إلى أرمينية، فلمّا ودّع عبد الملك ساله عن سبب مسيره، فقال وأنشد:

وأنك لا تسرى طرداً لُحَرَّ كإلصاق به بعضُ الهوان
فلسر كنسا بمنزلةٍ جميعاً جريئاً وأنت مضطرب الجنان
فقال له عبد الملك: أقسمت عليك لتقيمن، فوالله لا رأيت مني ما تكرهه، واصلح له؛ ولما أراد الوليد عزله طلب مَنْ يسدّ مكانه، فلم يقدم أحد عليه إلّا مسلّمَةُ بن عبد الملك. (٧١/٥)

ذكر دخول يزيد بن المهلب البصرة وخلعه يزيد بن عبد الملك

قيل: وفي هذه السنة هرب يزيد بن المهلب من حبس عمر بن عبد العزيز، على ما تقدّم، فلمّا مات عمر وبويع يزيد بن عبد الملك كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وإلى عديّ بن أرطاة يأمرهما

ابن المهلب لا كلفنا اتباعه في هذا البرد. فقال حيّان النبطي مولى لثبيان: أنا أضمن لك أنه لا ييرة الأرصه، يريد أضمن أنه لا يبرح العرصه. فقال له العباس: لا أم لك أنت بالنبطية أبصر منك بهذا! فقال حيّان: أنبط الله وجهك أسقر أهرم ليس إليه طابىء الخلافة، يريد: أشقر أحمر ليس عليه طابع الخلافة.

قال مسلمة: يا أبا سفيان لا يهولنك كلام العباس. فقال: إنه أحمق، يريد أحمق.

(٧٥/٥) ولما سمع أصحاب ابن المهلب وصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك، فبلغ ابن المهلب، فخطب الناس وقال: قد رأيتم أهل العسكر وخوفهم، يقولون: جاء أهل الشام ومسلمة، وما أهل الشام؟ هل هم إلا تسعة أسياف، سبعة منها إليّ وسيفان عليّ؟ وما مسلمة إلا جرادة صفراء، أتاكم في برايرة وجرامقة وجرامة وأنباط وأبناء فلاحين وأوباش وأخلاط، أوليسوا بشراً يأملون كما تأملون، وترجون من الله ما لا يرجون؟ أعيروني سواعدكم تصفقون بها وجوههم وقد ولّوا الأديار. واستوسقوا أهل البصرة ليزيد بن المهلب، وبعث عثمانه على الأهواز وفارس وكرمان، وبعث إلى خراسان مذكّر بن المهلب، وعليها عبد الرحمن بن نعيم، فقال لأهلها: هذا مذكّر قد أتاكم ليُلقي بينكم الحرب وأنتم في بلاد عافية وطاعة، فسار بنو تميم ليمنعوه، وبلغ الأردن بخراسان ذلك، فخرج منهم نحو ألفي فارس، فلقوا مدركا على رأس المفازة، فقالوا له: إنك أحب الناس إلينا وقد خرج أخوك، فإن يظهر فإنما ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وأحقه بذلك، وإن تكن الأخرى فما لك في أن تغشينا البلا راحة. فانصرف عنهم، فلما استجمع أهل البصرة ليزيد خطبهم وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ويحثهم على الجهاد ويزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم.

وكان الحسن البصري يسمع، ورفع صوته يقول: والله لقد رأيته وأبناك واليا ومولى عليك، فما ينبغي لك ذلك. ووثب أصحابه فأخذوا بفمه وأجلسوه، ثم خرجوا من المسجد وعلى باب المسجد النضر بن أنس بن مالك يقول: يا (٧٦/٥) عباد الله ما تقومون من أن تجيبوا إلى كتاب الله وسنة نبيه، فوالله ما رأيته ذلك [ولا رأيتموه] منذ ولدتُم إلا هذه الأيام [من إمارة] عمر بن عبد العزيز. فقال الحسن: والنضر أيضاً قد شهد. ومر الحسن بالناس وقد نصبوا الرايات وهم ينتظرون خروج يزيد، وهم يقولون: تدعونا إلى سنة العُمَريين. فقال الحسن: كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يرسلهم إلى بني مروان يريد رضاهم. فلما غضب نصب قصبا ثم وضع عليها خرقة ثم قال: إنني قد خالفتهم فخالفوههم. قال هؤلاء: نعم، ثم قال: إنني أعدوهم إلى سنة العُمَريين، وإن من سنة العُمَريين أن يوضع في رجله قيد، ثم رد إلى

الأصوات تدنو والنشاب تقع في القصر، وقال لهم عبد الملك: إني أرى أن يزيد قد ظهر ولا آمن من مع عدي من مضر وأهل الشام أن يأتونا فيقتلونا قبل أن (٧٣/٥) يصل إلينا يزيد، فاعلقوا الباب وألقوا عليه الرحل. ففعلوا، فلم يلبثوا أن جاءهم عبدالله بن دينار مولى بني عامر، وكان على حرس عدي، فجاء يشتد إلى الباب هو وأصحابه وأخذوا يعالجون الباب فلم يطيّقوا قلعه، وأعجلهم الناس فخلّوا عنهم.

وجاء يزيد بن المهلب حتى نزل داراً لسليمان بن زياد بن أبيه، إلى جنب القصر، وأتى بالسلالم وفتح القصر، وأتى بعدي بن أرطاة فحبسه وقال له: لولا حبسك إخواني لما حبستك.

فلما ظهر يزيد هرب رؤوس أهل البصرة من تميم وقيس ومالك بن المنذر فلحقوا بالكوفة، ولحق بعضهم بالشام، وخرج المغيرة بن زياد بن عمرو الغنكي نحو الشام فلقي خالد القسري وعمرو بن يزيد الحكمي ومعهما حميد بن عبد الملك بن المهلب قد أقبلوا بأمان يزيد بن المهلب وكل شيء أراد، فسأله عن الخبر، فخلا بهما سرا من حميد وأخبرهما وقال: أين تريدان؟ فأخبراه بأمان يزيد. فقال: إن يزيد قد ظهر على البصرة وقتل القتلى وحبس عدياً فارجعاً. فرجعاً وأخذاً حميداً معهما، فقال لهما حميد: أنشدكما الله أن تخالفا ما بعثتما به، فإن ابن المهلب قابل منكما، وإن هذا وأهل بيته لم يزالوا لنا أعداء، فلا تسمعا مقاتله. فلم يقبلا قوله ورجعا به.

وأخذ عبد الحميد بن عبد الرحمن بالكوفة خالد بن يزيد بن المهلب وحمال بن زحر، ولم يكونا في شيء من الأمر، فأوثقهما وسيرهما إلى الشام، فحبسهما يزيد بن عبد الملك، فلم يفارقا السجن حتى هلكا فيه، وأرسل يزيد بن عبد الملك إلى الكوفة شيئا على أهلها ويمنيهم الزيادة وجهز أخاه مسلمة (٧٤/٥) ابن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل الشام والجزيرة، وقيل: كانوا ثمانين ألفاً، فساروا إلى العراق. وكان مسلمة يعيب العباس ويذمه، فوقع بينهما اختلاف؛ وكتب إليه العباس:

ألا نفسي فسدك أبا سعيد وتقصّر عن ملاحاتي وعذلي فلولا أن أصلك حين يُنمى وفرغك منهى فرعي وأصلي وأني إن رميتك هضت عظمي ونالني إذا نالك نلبي لقد أنكرتني إنكار خوفو كقول المرء عمرو في القوافي أريد حياته ويريد قلبي قيل: إن هذه الأبيات للعباس، وقيل: إنما تمثل بها.

فبلغ ذلك يزيد بن عبد الملك، فأرسل إليهما وأصلح بينهما، وقدم الكوفة ونزلا بالبخيلة، فقال مسلمة: ليت هذا المزوني، يعني

وقيل: وفيها توفي أبو صالح ذكوان.

وفيها توفي عامر بن أكتمة الليثي. وأبو صالح السمان^(١)، وقيل له الزيات أيضاً لأنه كان يبيعهما. وأبو عمرو سعيد بن إياس الشيباني، وكان عمره سبعاً وعشرين ومائة سنة، وليست له صحة. وفي خلافة عمر توفي عبيدة بن أبي لبابة أبو القاسم العامري.

(٧٩/٥)

سنة اثنتين ومائة

ذكر مقتل يزيد بن المهلب

ثم إنَّ يزيد بن المهلب سار عن واسط واستخلف عليها ابنه معاوية وجعل عنده بيت المال والأسراء، وسار على فم النيل حتى نزل القفر، وقدم أخاه عبد الملك بن المهلب نحو الكوفة، فاستقبله العباس بن الوليد بسوراً، فاقتتلوا، فحمل عليهم أصحاب عبد الملك حملة كشفهم فيها؛ ومعهم ناس من تميم وقيس من أهل البصرة، فنادوا: يا أهل الشام! الله الله أن تسلمونا! وقد اضطربهم أصحاب عبد الملك عبد الملك إلى النهر. فقال أهل الشام: لا بأس عليكم، إنَّ لنا جولة في أول القتال؛ ثمَّ كرَّروا عليهم فانكشف أصحاب عبد الملك فانهمزوا وعادوا إلى يزيد. وأقبل مسلمة يسير على شاطئ الفرات إلى الأنبار وعقد عليها الجسر، فعبّر وسار حتى نزل على ابن المهلب، وأتى إلى ابن المهلب ناس من أهل الكوفة كثير ومن الثغور، فبعث على من خرج إليه من أهل الكوفة ورَّع أهل المدينة عبدالله بن سفيان بن يزيد بن المغفل الأزدي، وعلى ربيع مذحج وأسد النعمان بن إبراهيم بن الأشتر، وعلى كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن الأشعث، وعلى تميم وهمدان حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمي، وجميعهم جميعاً [مع] المفضل بن المهلب وأحصى ديوان ابن المهلب مائة ألف وعشرين ألفاً، فقال: لوددت أنَّ لي بهم من بخراسان من قومي؛ ثمَّ قام في أصحابه فحرَّضهم على القتال. (٨٠/٥)

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن قد عسكر بالنخيلة وشقَّ المياه وجعل على أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا إلى ابن المهلب، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع سيرة بن عبد الرحمن بن ميخنف، وبعث مسلمة فعزل عبد الحميد عن الكوفة، واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن عتبة، وهو ذو الشامة.

فجمع يزيد رؤوس أصحابه فقال: قد رايتُ أن أجمع اثني عشر ألفاً فأبعثهم مع أخي محمد بن المهلب حتى يبيتوا مسلمة

محبسه. فقال ناس من أصحابه: لكأنك راضٍ عن أهل الشام؟ فقال أنا راضٍ عن أهل الشام؟ قبحهم الله وبرَّحهم! ليس هم الذين أحلَّوا حرم رسول الله ﷺ يقتلون أهله ثلاثاً؟ قد أباحوها لأنباطهم وأقباطهم، يحملون الحرائر ذوات الدين، لا يتهمون عن إنتهاك حرمة، ثمَّ خرجوا إلى مال بيت الله الحرام فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها، عليهم لعنة الله وموء الدار.

ثمَّ إنَّ يزيد سار من البصرة واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلب وأتى واسطاً، فكان قد استشار أصحابه حين توجه نحو واسط، فقال له أخوه حبيب وغيره: نرى أن نخرج وننزل بفارس فتأخذ بالشعاب والعقاب وتدنو من خراسان ونطاول أهل الشام، فإنَّ أهل الجبال يأتون إليك وفي يدك القلاع والحصون. فقال: ليس هذا برأيي، تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل. فقال حبيب: إنَّ الرأي الذي كان ينبغي أن يكون أول الأمر قد فات، قد أمرتُك حيث ظهرت على البصرة أن توجه خيلاً عليها بعض أهلِك إلى الكوفة، (٧٧/٥) وإنما بها عبد الحميد، مررت به في سبعين رجلاً فعجز عنك فهو عن خيلك أعجز فسبق إليها أهل الشام وأكثر أهلها يرون رأيك، ولأن تلي عليهم أحب إليهم من أن يلي عليهم أهل الشام، فلم تطعني، وأنا أشير الآن برأي، سرَّخ مع بعض أهلِك خيلاً كثيرة من خيلك فتأتي الجزيرة وتبادر إليها حتى ينزلوا حصناً من حصونهم، وتسير في أثرهم، فإذا أقبل أهل الشام يريدونك لم يدعوا جندك بالجزيرة يقلبون إليك فيقيمون عليهم فيحبسونهم عنك حتى تأتيهم، ويأتيك من الموصل من قومك وينفض إليك أهل العراق وأهل الثغور وتقاتلهم في أرض رخيصة السم، وقد جعلت العراق كله وراء ظهرك. قال: أكره أن أقطع جيشي. فلما نزل واسطاً أقام بها أياماً يسيرة وخرجت السنة.

ذكر عدة حوادث

حجَّ بالناس عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، وكان عامل المدينة. وكان على مكة عبد العزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد، وكان على الكوفة عبد الحميد، وعلى قضائها الشعمي، وكانت البصرة قد غلب عليها ابن المهلب. وكان على خراسان عبد الرحمن بن نعيم.

وفيها عزل إسماعيل بن عبيد الله عن إفريقية واستعمل مكانه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجَّاج، بقي عليها إلى أن قُتل على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها توفي مُجاهد بن جبر، وقيل سنة ثلاث، وقيل سنة أربع، وقيل سبع ومائة، وله ثلاث وثمانون سنة.

وفيها توفي عمار بن جبر

فلَمَّا دنا الوضاح من الجسر ألهب فيه النار، فسطع دخانه، وقد أقبل الناس، ونشبت الحرب ولم يشتد القتال، فلَمَّا رأى الناس الدخان وقيل لهم أخرج الجسر انهزموا فقبل ليزيد: قد انهزم الناس. فقال: مم انهزموا؟ هل كان قتال يُهزم من مثله؟ فقبل له: قالوا أخرج الجسر فلم يثبت أحد. فقال: قبحهم الله! بئ ذُخْن عليه فطار! ثم خرج معه أصحابه فقال: اضربوا وجوه المنهزمين، ففعلوا ذلك بهم حتى كثروا عليه، واستقبله أمثال الجبال، فقال: دعوهم فوالله إني لأرجو أن لا يجمعني وإياهم مكان أبداً، دعوهم يرحمهم الله، غنم عدا في نواحيها الذئب!

وكان يزيد لا يحدث نفسه بالفراغ، وكان قد أتاه يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي، وهو ابن أخي عثمان بن أبي العاص صاحب رسول الله ﷺ ليس بينه وبين الحكم بن أبي العاص والسد مروان نسب، وهو بواسط، فقال له: إن بني مروان قد بَادَ ملكهم، فإن كنت لم تشعر بذلك فاشعر. فقال: ما شعرت؛ فقال ابن الحكم:

فَعَشْ مَلِكاً أَوْ مَتْ كَرِيماً فَإِنْ مَتَتْ وَسَيْفَكَ مَشْهُوراً بِكَفِّكَ تُعَذِّرُ
فقال: أمّا هذا فعسى. فلَمَّا رأى يزيد انهزام أصحابه قال: يا سَيِّدُ أراي أجود أم أرايك؟ ألم أعلمك ما يريد القوم؟ قال: بلى، فنزل سميذع ونزل يزيد فسي أصحابهما. وقيل: كان على فرس أشهب فأنه أتى فقال: إن أخاك حبیباً قد قُتِلَ. فقال: لا خير في العيش بعده، قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة وقد ازدادت لها بغضاً، امضوا قُدُماً. فعلموا أنه قد استقتل، فتسلل عنه من يكره القتال وبقي معه جماعة حسنة وهو يتقدم، فكلما مرّ بخيل (٨٣/٥) كشفها، أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه، وأقبل نحو مسلمة لا يريد غيره. فلَمَّا دنا منه أدنى مسلمة فرسه ليركب، فعطف عليه خيول أهل الشام وعلى أصحابه فقتل يزيد والسميذع ومحمد بن المهلب.

وكان رجل من كلب يقال له القحّل بن عياش، فلَمَّا نظر إلى يزيد قال: هذا والله يزيد! والله لأقتله أو ليقتلني! فمَن يحمل معي يكفيني أصحابه حتى أصل إليه؟ فحمل معه ناساً فاقتلوا ساعة وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً وعن القحّل بآخر رمقه، فأومأ إلى أصحابه يُريهم مكان يزيد وأنه هو قاتله وأن يزيد قتله.

وأتى برأس يزيد مولى لبني مُرّة، فقبل له: أنت قتلته؟ قال: لا، فلَمَّا أتى مسلمة سيّره إلى يزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط. وقيل: بل قتله الهذيل بن زُفر بن الحارث الكلبي، ولم يزل يأخذ رأسه أنفة.

ولَمَّا قُتِلَ يزيد كان المفضل بن المهلب يقاتل أهل الشام وما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة الناس، وكان كلّمَا حمل على الناس

ويحملوا معهم البراذع والأكف والزبل لدفن خندقهم فيقاتلهم على خندقهم بقية ليلته، وأميده بالرجال حتى أصبح، فإذا أصبحت نهضت إليهم في الناس فأنجزهم، فإني أرجو عند ذلك أن ينصرونا الله عليهم، فقال السّيد: إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منّا، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا [ما زعموا أنهم قبلوه منّا]. وقال أبو روية، وهو رأس الطائفة المرجئة، ومعه أصحاب له: صدق، هكذا ينبغي.

فقال يزيد: ويحكم! اتصدّقون بني أمية أنهم يعملون بالكتاب والسنة وقد ضيعوا ذلك منذ كانوا؟ إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم فلا يسقوكم إليه، إني لقيتُ بني مروان فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غدراً من هذه الجردة الصفراء يعني مسلمة. قالوا: لا تفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قبلوه منّا.

وكان مروان بن المهلب بالبصرة يحث الناس على حرب أهل الشام، والحسن البصري يثبطهم، فلَمَّا بلغ ذلك مروان قام في الناس يأمرهم بالجد والإحتشاد، (٨١/٥) ثم قال: بلغني أن هذا الشيخ الضالّ المرائي، ولم يسمه، يثبط الناس، والله لو أن جاره نزع من خصّ داره قصبه لظلّ يعرف أنفه! وإيم الله ليكنّ عن ذكرنا وعن جمعه إليه سقاط الأبله وعلوج فرات البصرة أو لأنحين عليه مبرداً خشناً.

فلَمَّا بلغ ذلك الحسن قال: والله [ما أكره] أن يكرمني الله بهوانه. فقال ناس من أصحابه: لو أراذك ثم شئتُ لمتنعناك. فقال لهم: فقد خالفتكم إذا إلى ما نهيتكم عنه، أرمكم أن لا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري، وأرمكم أن يقتل بعضكم بعضاً دوني! فبلغ ذلك مروان فاشتدّ عليهم وطلبهم وتفرّقوا، وكفّ عن الحسن.

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومسلمة بن عبد الملك بن مروان ثمانية أيام، فلَمَّا كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر بعث مسلمة إلى الوضاح أن يخرج بالسفن حتى يحرق الجسر، ففعل، وخرج مسلمة فعبا جنود أهل الشام ثم قرب من ابن المهلب وجعل على ميمته جبلة من مخزومة الكندي، وعلى ميسرته الهذيل بن زُفر بن الحارث الكلبي، وجعل العباس بن الوليد على ميمته سيف بن هاني الهمداني، وعلى ميسرته سُؤيد بن القعقاع التميمي، وكان مسلمة على الناس.

وخرج يزيد بن المهلب وقد جعل على ميمته حبيب بن المهلب، وعلى ميسرته المفضل بن المهلب. فخرج رجل من أهل الشام فدعا إلى المبارزة، فبرز إليه محمد بن المهلب، فضربه محمد، فأثاقه الرجل بيده وعلى كفه (٨٢/٥) كف من حديد، فضربه محمد فقطع الكف الحديد، وأسرع السيف في كفه واعتسق فرسه فانهمز.

فلمّا اجتمع آل المهلب بالبصرة حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ثم لججوا في البحر حتى إذا كانوا بحيال كُرمَان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب، وكان المفضلّ عليهم المفضلّ بن المهلب، وكان بكرمان فلول كثيرة، فاجتمعوا إلى المفضلّ، وبعث مسلمة بن عبد الملك مُدْرِكُ بن ضبّ الكلبي في طلبهم وفي أثر الفلّ، فأدرِك مُدْرِكُ المفضلّ ومعه الفلّول في عُقْبَةٍ، فعضقوا عليه فقاتلوه، واشتدّ قتالهم [إيَّاه]، فقتل من أصحاب المفضلّ النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي، ومحمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث، وأخذ ابن صُور ملك قُهْستان أسيراً، وجرح عثمان بن إسحاق بن محمد بن الأشعث وهرب حتى انتهى إلى حُلُوان، فذُلّ عليه فقتل وحُمِلَ رأسه إلى مسلمة بالحيرة. ورجع ناس من أصحاب ابن المهلب فطلبوا الأمان فأومئوا، منهم: مالك بن إبراهيم بن الأشتر، والورد بن عبد (٨٦/٥) الله بن حبيب السعديّ التميمي.

ومضى آل المهلب ومن معهم إلى قنْدابيل، وبعث مسلمة إلى مُدْرِك بن ضبّ فردّه وسيّر في أثرهم هلال بن أخوز التميمي، فلحقهم بقنْدابيل، فأراد أهل المهلب دخولها فمنعهم ودّاع بن حُمَيْد وكان هلال بن أخوز لم يباين آل المهلب، فلمّا التقوا كان ودّاع على الميمنة وعبد الملك بن هلال على الميسرة، وكلاهما أزدّي، فرفع هلال بن أخوز راية أمان، فمال إليه ودّاع بن حميد وعبد الملك بن هلال ونفّرق الناس عن آل المهلب. فلمّا رأى ذلك مروان بن المهلب أراد أن ينصرف إلى النساء فيقتلنّ لئلاّ يصرن إلى أولئك، فهناك المفضلّ عن ذلك وقال: إنا لا نخاف عليهنّ من هؤلاء. فتركهنّ، وتقدّموا بأسياهم فقاتلوا حتى قُتلوا من عند آخرهم، وهم: المفضلّ، وعبد الملك، وزباد، ومروان بنو المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب، والمِنْهال بن أبي عَيْنَةَ بن المهلب، وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب، وحُمِلت رؤوسهم، وفي أذن كلّ واحد رقعة فيها اسمه إلاّ أبا عَيْنَةَ بن المهلب وعمر بن يزيد بن المهلب، وعثمان بن المفضلّ بن المهلب فأنهم لحقوا بربّيعيل. وبعث هلال بن أخوز بنسائهم ورؤوسهم والأسرى من آل المهلب إلى مسلمة بالحيرة، فبعثهم مسلمة إلى يزيد بن عبد الملك، فسيرهم يزيد إلى العباس بن الوليد وهو على حلب، فنصب الرؤوس، وأراد مسلمة أن يبيع الذرّية، فاشتراهم منه الجراح بن عبد الله الحكّمي بمائة ألف وخلّى سبيلهم، ولم يأخذ مسلمة من الجراح شيئاً.

ولمّا بلغ يزيد بن عبد الملك الخبر بقتل يزيد سرّه لانتصاره ولما في نفسه منه قبل الخلافة (٨٧/٥) وكان سبب العداوة بينهما أن ابن المهلب خرج من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضمّخ بالغالية فاجتاز بيزيد بن عبد الملك، وهو إلى جانب عمر

انكشفوا، ثمّ يحمل حتى يخالطهم، وكان معه عامر بن العميش الأزدّي يضرب بسيفه ويقول:

قد علمت أنّ الصبيّ المولود إني بصل السيف غير رغديذ فاقتلوا ساعة، فانهمزت ربيعة، فاستقبلهم المفضلّ يناديهم: يا معشر ربيعة الكرّة الكرّة! والله ما كنتم بكشف ولا لثام ولا لكم هذه عبادة، فلا يؤتَيْنَ أهل العراق من قبلكم، فدنّكم نفسي! فرجعوا إليه يريدون الحملة، فأُتِيَ (٨٤/٥) وقيل له: ما تصنع هاهنا وقد قُتل يزيد وحبيب ومحمد وانهمز الناس منذ طويل؟ فتفرّق الناس عنه، ومضى المفضلّ إلى واسط، فما كان من العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة للحرب ولا أغشى للناس منه. وقيل: بل أتاه أخوه عبد الملك وكره أن يُخبره بقتل يزيد فيستقتل، فقال له إن الأمير قد انحدر إلى واسط. فانهدر المفضلّ بمن بقي من ولد المهلب إلى واسط، فلمّا علم بقتل يزيد حلف أنه لا يكلم عبد الملك أبداً، فما كلمه حتى قُتل بقنْدابيل. وكانت عينه أُصيبت في الحرب، فقال: فضحني عبد الملك، ما عذري إذا رأي الناس فقالوا شيخ أعور مهزوم! الا صدقني فقتلته؟ ثمّ قال:

ولا خير في طعن الصناديد بالقنا ولا في لقاء الحرب بعد يزيد فلمّا فارق المفضلّ المعركة جاء عسكر الشام إلى عسكر يزيد، فقاتلهم أبو ربيعة صاحب المُرْجَة ساعة من النهار، وأسر مسلمة نحو ثلاثمائة أسير فسرحهم إلى الكوفة، فحبسوا بها، وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد يأمره بضرب رقاب الأسرى، فأمر العُريان بن الهيثم، وكان على شرطته، أن يُخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين، فقام نحو ثلاثين رجلاً من تميم فقالوا: نحن انهزمنا بالناس فابدأوا بنا قبل الناس. فأخرجهم العُريان فضرب رقابهم وهم يقولون: انهزمنا بالناس فكان هذا جزاءنا. فلمّا فرغوا منهم جاء رسول بكتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسرى. وأقبل مسلمة حتى نزل الحيرة.

ولمّا أتت هزيمة يزيد إلى واسط أخرج ابنه معاوية اثنين وثلاثين أسيراً (٨٥/٥) كانوا عنده فضرب أعناقهم، منهم: عديّ بن أراط، ومحمد بن عديّ بن أراط، ومالك وعبد الملك ابنا مِسْمَع وغيرهم، ثمّ أقبل حتى أتى البصرة ومعه المال والخزائن، وجاء المفضلّ بن المهلب، واجتمع أهل المهلب بالبصرة فأعدّوا السفن وتجهّزوا للركوب في البحر. وكان يزيد بن المهلب بعث ودّاع ابن حُمَيْد الأزدّي على قنْدابيل أميراً وقال له: إني سائر إلى هذا العدو ولو قد لقيتهم لم أبرح العرصة حتى يكون لي أولهم، فلما ظفرت أكرمك، وإن كانت الأخرى كنت بقنْدابيل حتى يقدم عليك أهل بيتي فيتحصنوا بها حتى يأخذوا [أنفسهم] أماناً، وقد اخترتُك لهم من بين قومي، فكن عند أحسن ظني. وأخذ عليه العهد ليناصح أهل بيته إن هم لجأوا إليه.

وله فيه مراثيات كثيرة.

بن عبد العزيز، فقال: قَبِحَ اللَّهُ الدُّنْيَا، لَوَدِدْتُ أَنَّ مِثْقَالَ غَالِيَةِ بِالْفِ
دينار فلا ينالها إِلَّا كُلُّ شَرِيف. فسمع ابنُ المهلب فقال له: بل
وددتُ أَنَّ الغالية كانت في جبهة الأسد فلا ينالها إِلَّا مثلي. فقال له
يزيد بن عبد الملك: واللَّهِ لئن وليتُ يوماً لأقتلَنَّكَ. فقال له ابن
المهلب: واللَّهِ لئن وليتُ هذا الأمر وأنا حيٌّ لأضربنَّ وجهك
بخمسين ألف سيف، فهذا كان سبب البغض بينهما، وقيل غير
ذلك، وقد تقدَّم ذكره.

وأما الأسرى فكانوا ثلاثة عشر رجلاً، فلَمَّا قَدِمَ بهم على يزيد
بن عبد الملك وعنده كثيرٌ عَزَّة فأنشد:

حليمٌ إذا ما نال عاقبٌ مُجْبِلًا أَشدَّ العقاب أو عفا لَمْ يُثْرِبِ
فغفروا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَجِسْبَةً فما تابوا من صالحٍ لك يَكْتَبِ
أساؤوا فإن تصفح فسأتك قادرٌ وأفضل حلم حِسْبَةً حِلْمٌ مُنْضَبِ
قال يزيد بن عبد الملك: هيهات يا أبا صخر! طفٌ بك الرحم
لا سبيل إلى ذلك، إِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، أفادنيهم بأعمالهم الخبيثة. ثم
أمر بهم فقتلوا، وبقي غلامٌ صغير فقال: اقتلوني فما أنا بصغير.
فقال: انظروا أنبت. فقال: أنا أعلم بنفسي، قد احتلمتُ ووطئتُ
النساء. فأمر به يزيد فقتل.

وأسماء الأسرى الذين قتلوا: المَعَارِكُ وعبد اللَّهِ والمغيرة
والمفضلُ ومِنْجَاب أولاد يزيد بن المهلب، وذريرد والحجاج
وغَسَّان وشبيب والفضل أولاد المفضل بن المهلب، والمفضل بن
قيصة بن المهلب. وقال ثابت قُطْنَةُ (٨٨/٥) يرثي يزيد بن المهلب:

أبى طولُ هذا الليل أن يصرمًا وهاج لك الهمُّ السود الميثمًا
أرقتُ ولم تارق معي أم خالد وقد أرقنت عيناى حَوْلًا مجرمًا
على هالكٍ هذه العشرة قصيدة دغته الناياب فاستجاب وسَلَمًا
على ملكٍ بالعقر يا صاح جَبَّنتُ كتابُهُ واستورد الموت مُجْلِمًا
أصيب ولم أشهد ولو كنتُ شاهدًا لسببت إن لم يجمع الحي مائمًا
وفي غير الأيام يا هند فاعلمي لطلح الوتر نظرة إن تلومنا
فعلني إن مالت بي الرياح بيلة على ابن أبي قيس أن يتلما
امسَلَمَ إن تقدر عليك وماحنا نؤفك بها قية الأسود مُسَلَمًا
وإن نلتُ للعباس في الدهر عشرة نكافيه باليوم السني كان قنما
قصاصاً ولم نعد الذي كان قد أتى إلينا وإن كان ابن مروان اظلمنا
ستعلم إن زلتُ بك النعل زلةً وأظهر أقوامَ حياةً مجمجما
من الظالم الجاني على أهل يسه إذا أحضرت أسباب أمر وإيها
وإنما لعطافون بالحلم يعلمنا نرى الجهل من فرط اللئيم نكرمنا
وإنما لحلائون بالثغرا نرى به ساكنًا إِلَّا الخميسن الترمزنا
نرى أن للجيران حقاً ودفعة إذا الناس لم يرعوا لذي الجار مخرما
وإنما لنقري الضيف من قَمَعِ الدُرى إذا كان وفد الرافلين تجشما (٨٩/٥)

وأما أبو عَيْنَةَ بن المهلب فأرسلت هند بنت المهلب إلى يزيد
بن عبد الملك في أمانه، فأمنه، وبقي عمر وعثمان حتَّى وليَ أسد
بن عبد اللَّهِ القَسْرِي خراسان، فكتب إليهما بأمانهما فقدمَا خراسان.
(قُطْنَةُ بالنون، وهو ثابت بن كعب بن جابر العَنَكِي الأزدي،
أصيب عينه بخراسان فجعل عليها قُطْنَةُ فعُرف بذلك، وهو يشبهه
بثابت بن قُطْبَةَ، بالباء الموحدة، وهو خُزَاعِي وذاك عَنَكِي).

ذكر استعمال مُسَلِّمة على العراق وخراسان

ولَمَّا فرغ مُسَلِّمة بن عبد الملك من حرب يزيد بن المهلب
جمع له أخوه يزيد بن عبد الملك ولاية الكوفة والبصرة وخراسان،
فأقرَّ مُحَمَّدُ بن عمرو بن الوليد على الكوفة، وكان قد قام بأمر
البصرة بعد آل المهلب شبيب بن الحارث التميمي، فبعث عليها
مُسَلِّمة عبد الرحمن بن سليمان الكلبي، وعلى شرطتها وأحداثها
عمرو بن يزيد التميمي، فأراد عبدُ الرحمن أن يستعرض أهلَ
البصرة فيقتلهم، ففاه عمرو واستمهله عشرة أيام وكتب إلى مُسَلِّمة
بالخبر، فعزله وولَّى البصرة عبدُ الملك بن بَشْر بن مروان، وأقرَّ
عمرو بن يزيد على الشرط والأحداث. (٩٠/٥)

ذكر استعمال سعيد خُدَيْنة على خراسان لمسلمة

استعمال مُسَلِّمة على خُراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث
بن الحكم بن أبي العاص بن أُمَيَّة، وهو الذي يقال له سعيد خُدَيْنة،
وإنما لُقِبَ بذلك لأنَّه كان رجلاً لَيِّنًا مُتَمَتِّعًا، فدخل عليه ملك أَعْبَر
وسعيد في ثياب مصبغة وحوله مرافق مصبغة، فلَمَّا خرج من عنده
قالوا: كيف رأيتَ الأمير؟ قال: خُدَيْنة، فلَقِبَ خُدَيْنة، وخُدَيْنة هي
الدُهْقانة ربة البيت.

وكان سعيد تزوج ابنة مُسَلِّمة، فلهمذا استعماله على خراسان.
فلَمَّا استعمال مُسَلِّمة سعيداً على خراسان سار إليها فاستعمل شُعْبَةَ
بن ظُهَيْر التَّهَمَلِيَّ على سَمَرْقَنْد، فسار إليها فقدم الصُّغْدَ، وكان
أهلها كفروا في ولاية عبد الرحمن بن نُعَيْم، ثم عادوا إلى الصلح،
فخطب شُعْبَةُ أهل الصُّغْدَ وبيَّح سكانها من العرب وغيرهم بالجن
وقال: ما أرى فيكم جريحاً ولا أسمع أنة. فاعتذروا إليه بأن جَبَسُوا
أميرهم عِلْبَةً بن حَبِيب العبدي.

وأخذ سعيد عَمَّالَ عبد الرحمن بن عبد اللَّهِ الذين ولوا أيام
عمر بن عبد العزيز فحبسهم ثم أطلقهم، ثم رُفِعَ إلى سعيد أن جهَّم
بن زُحْر الجُعْفِي، وعبد العزيز بن عمرو بن الحجاج الزبيدي،
والمستجع بن عبد الرحمن الأزدي، ولُوا يزيد بن المهلب في ثمانية
نفر وعندهم أموال قد اختانوها [من فيهم المسلمون. فأرسل إليهم]
فحبسهم بَقَهْدُزْمَرُو، وحمل جهَّم بن زُحْر على حمار وأطاف به

إنكم تقدمون على حلبة الترك عليهم خاقان، والعوض إن صبرتم الجنة، والعقاب إن فرتم النار، فمن أراد الغزو والصبر فليقدم، فرجع عنه ألف وثلاثمائة، فلما سار فرسخاً رجع بمثل مقاتله الأولى فاعتزله ألف، ثم سار فرسخاً آخر فقال لهم مثل ذلك، فاعتزله ألف، ثم سار فلما كان على فرسخين منهم نزل، فأتاهم ترك خاقان ملك في فقال: لم يبق هاهنا دهقان إلا وقد بايع الترك غيري وأنا في ثلاثمائة مقاتل، فهم معك وعندي الخبر قد كانوا صالحوهم وأعطوهم سبعة عشر رجلاً يكونون رهينة في أيديهم (٩٢/٥) حتى يأخذوا صلحهم، فلما بلغهم مسيركم إليهم قتلوا الرهائن، وميادهم أن يقاتلوا غداً ويفتحوا لهم القصر.

فبعث المسيب رجلين، رجلاً من العرب ورجلاً من العجم، ليعلما علم القوم، فأقبلا في ليلة مظلمة، وقد أخذت الترك الماء في نواحي القصر فليس يصل إليه أحد، ودنوا من القصر، فصاح بهم الربيئة، فقالا له: اسكت وادع لنا عبد الملك بن دثار. فدعاه، فأعلمناه بقرب المسيب منهم وقال: هل عندكم امتناع الليلة وغداً؟ قالوا: قد أجمعنا على تقديم نساننا للموت أمامنا حتى نموت جميعاً غداً. فرجعوا إلى المسيب فأخبراه، فقال لمن معه: إني سائر إلى هذا العدو، فمن أحب أن يذهب فليذهب، فلم يفارقه أحد وبايعوه على الموت.

فأصبح وسار وقد ازداد القصر تحصيناً بالماء الذي أجراه الترك، فلما صار بينه وبين الترك نصف فرسخ نزل وقد أجمع على يأتهم، فلما أمسى أمر أصحابه بالصبر وحثهم عليه وقال: ليكون شعاركم يا محمد، ولا تتبعوا مولياً، وعليكم بالدواب فاعقروها، فإنها إذا عُقرت كانت أشد عليهم منكم، وليست بكم قلة، فإن سبعمائة سيف لا يضرب بها في عسكر إلا أوهنوه وإن كثر أهله. وجعل على ميمته كثيراً الذبوس، وعلى ميسرته ثابت قُطنة، وهو من الأزدي، فلما دنوا منه كبروا، وذلك في السحر، وثار الترك وخالطهم المسلمون فعقروا الدواب، وترجل المسيب في رجال معه فقاتلوا قتالاً شديداً، وانقطعت يمين البخترى المرائي، فأخذ السيف بشماله فقطعت، فجعل يذب بيديه حتى استشهد وضرب ثابت قُطنة عظيماً من عظامه الترك فقتله، وانهزمت الترك، ونادى منادي المسيب: لا تتبعوهم فإنهم لا يدرون من العرب أتبعوهم أم لا، واقتصدوا القصر، ولا تحملوا إلا الماء، ولا (٩٤/٥) تحملوا إلا من يقدّر على المشي، ومن حمل امرأة أو صبيّاً أو ضعيفاً جسيبة فاجره على الله ومن أبى فله أربعون درهماً، وإن كان في القصر أحد من أهل عهدكم فاحملوه. فحملوا من في القصر وأتوا ترك خاقان، فأنزلهم قصرهم وأتاهم بطعام، ثم ساروا إلى سمرقند. ورجعت الترك من الغد فلم يروا في القصر أحداً ورأوا قتلاهم فقالوا: لم يكن الذي جاءنا من الإنس؛ فقال ثابت قُطنة:

فضره ماتني سوط وأمر به وبالثمانية الذين حُبسوا معه فسلّموا إلى وراق بن نصر الباهلي فاستغفاه، فأغفاه، فسلّمهم إلى عبد الحميد (٩١/٥) ابن دثار وعبد الملك بن دثار والزبير بن نسيط مولى باهلة، فقتلوا في العذاب جهنم بن زحر وعبد العزيز والمتجع، وعذبوا القعقاع وقوماً حتى أشفوا على الموت، فلم يزالوا في السجن حتى غزاهم الترك والصغد، فأمر سعيد بإخراجهم، وكان يقول: قبح الله الزبير فإنه قتل جهنماً!

ذكر البيعة بولاية العهد لهشام والوليد

لما وجه يزيد بن عبد الملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب، على ما ذكرناه، واستعمل على الجيش مسلمة بن عبد الملك أخاه والعباس بن الوليد بن عبد الملك وهو ابن أخيه، قال له: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف، وقد توجهنا محاربين والحوادث تحدث ولا نأمن أن يرجف أهل العراق ويقولوا مات أمير المؤمنين فيقتل ذلك في أعضادنا، فلو عهدت عهد عبد العزيز بن الوليد لكان رأياً صواباً.

فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك، فأتى أخاه يزيد فقال: يا أمير المؤمنين إنما أحب إليك أخوك أم ابن أخيك؟ فقال: بل أخي. فقال: فأخوك أحق بالخلافة. فقال يزيد: إذا لم تكن في ولدي فأخي أحق بها من ابن أخي كما ذكرت. قال: فابنك لم يبلغ قبائع لهشام بن عبد الملك ثم بعده لابنك الوليد، وكان الوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة، فبايع بولاية العهد لهشام بن عبد الملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد، ثم عاش يزيد حتى بلغ ابنه الوليد، فكان إذا رآه يقول: الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك. (٩٢/٥)

ذكر غزو الترك

لما ولي سعيد خراسان استضعفه الناس وسموه خذينة، وكان قد استعمل شعبة على سمرقند ثم عزله، فطمعت الترك، فجمعهم خاقان وجههم إلى الصغد، وعلى الترك كورصول، فأقبلوا حتى نزلوا بقصر الباهلي.

وقيل: أراد عظيم من عظماء الدهاقين أن يتزوج امرأة من باهلة كانت في ذلك القصر، فأبى، فاستجاش، ورجوا أن يسبوا من في القصر، فأقبل كورصول حتى حصر أهل القصر وفيه مائة أهل بيت بذرايرهم، وكان على سمرقند عثمان بن عبد الله بن مطرف الشخير، قد استعمله سعيد بن شعبة، فكتبوا إليه وخافوا أن يبطئ عنهم المدد فصالحوا الترك على أربعين ألفاً وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة، وندب عثمان الناس، فانتدب المسيب بن بشر الرياحي، وانتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل وفيهم شعبة بن ظهير وثابت قُطنة وغيرهما من الفرسان، فلما عسكروا قال لهم المسيب:

على خيل بني تميم حتى ولي نصر بن سيار، ثم صارت رياستهم لأخيه الحكم بن أوس.

فلما كان العام المقبل بعث رجالاً من تميم إلى وزغيش فقالوا: ليتنا تلقى العدو فنطاردهم. وكان سعيد إذا بعث سرية فأصابوا أو غنموا وسبوا رد السبي وعاقب السرية؛ فقال الهجري الشاعر:

سريت إلى الأعداء تلهو بلغبة وإبرك مسلون وسيفك مُنْعَد
وأتيت لمن عادت عرس خينة وأنت علينا كالخُصام المهتد
فقد سعيد على الناس وضعفه. وكان رجل من بني أسد يقال له إسماعيل منقطعاً إلى مروان بن محمد، فذكر إسماعيل عند خذينة مودته لمروان، فقال خذينة: وما ذاك المِلْطُ؟ فقال إسماعيل: زعمت خذينة أنني يَلْطُ لخذينة المرأة والمشطُ ومجارم ومكاحل جعلت ومعارف وبخنا تقطُ (٩٧/٥)

أفذاك أم زَعَفَ مضاعفةً ومهتد من شأنه القَطُ
لُقُرسٍ ذكرٍ أخشي قبة لم ينفذ الثأب واللقطُ
في أبيات غيرها.

ذكر موت حيّان النبطي

وقد ذكر من أمر حيّان فيما تقدّم عند قتل قتيبة وأنه ساد وتقدّم بخراسان، فلما قال له سورة بن الحرّ: يا نبطي، وأجابه حيّان فقال: أنبط الله وجهك، على ما تقدّم أنشأ، حقدنا عليه سورة، فقال لسعيد خذينة: إن هذا العبد أهدى الناس للعرب والوالي، وهو أفسد خراسان على قتيبة، وهو واثب بك مُفسد عليك خراسان ثم يتحصن في بعض هذه القلاع. فقال سعيد: لا تسمعن هذا أحداً. ثم دعا في مجلسه بلبن وقد أمر بذهب فسحق وألقي في اللبن الذي في إناء حيّان، فشربه حيّان، ثم ركض سعيد والناس معه أربعة فراسخ ثم رجع، فعاش حيّان أربعة أيام ومات، وقيل: إنه لم يمضِ هذه السنة، وسيرد ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ذكر عزل مسلمة عن العراق وخراسان وولاية ابن هُبيرة

وكان سبب ذلك أنه ولي العراق وخراسان، فلم يرفع من الخراج شيئاً واستحيا يزيد بن عبد الملك أن يعزله فكتب إليه: استخلف على عملك وأقبل. (٩٨/٥) وقيل إن مسلمة شاور عبد العزيز بن حاتم بن النعمان في الشخص إلى يزيد ليزوره. قال: أمن شوق إليه؟ إن عهدك منه لقريب. قال: لا بد من ذلك. قال: إذا لا تخرج من عملك حتى تلقى الوالي عليه. فسار مسلمة فلقية عمر بن هبيرة الفزاري بالعراق على دواب البريد، فسأله عن مقدمه، فقال عمر: وجهني أمير المؤمنين في حيازة أموال بني المهلب.

غداة الرُوع في ضلوك المقام
على الأعداء في رَجَح القَتَام
أحامي حيث ضنّ به المحامي
أزودهم بنّي شَطَب حَسَام
ككّر الشرب آتية المُدَام
تجلّت لا يضيّق به مقامي
وخرسي قوتنّ الملك الهُمَام
أمام السرك باليدية الخُدَام
أبي بشر كقائمة الحَمَام
فلولا الله ليس له شريك
إذا لست نساء بني دُثار
فمن مثل المنيب في تميم

وعور تلك الليلة معاوية بن الحجاج الطائي وشلت يده، وكان قد ولي ولاية قبل سعيد، فأخذه سعيد بشيء بقي عليه فدفعه إلى شداد بن خُلَيْد (٩٥/٥) الباهلي ليستأديه، فضيق عليه شداد، فقال معاوية: يا معشر قيس سرت إلى قصر الباهلي وأنا شديد البطش حديد البصر، فعوزت وشلت يدي، وقاتلت حتى استقتنهم بعدما أشرفوا على القتل والأسر والسبي، وهذا صاحبكم يصنع بي ما يصنع فكفوه عني، فخلّاه.

قال بعض من كان بالقصر: لما التقوا ظننا أن القيامة قد قامت لما سمعنا من مهام القوم ووقع الحديد وصهيل الخيل.

ذكر غزو الصغد

وفي هذه السنة عبر سعيد خذينة النهر وغزا الصغد، وكانوا قد نقضوا العهد وأعانوا الترك على المسلمين، فقال الناس لسعيد: إنك قد تركت الغزو وقد أغار الترك وكفر أهل الصغد. فقطع النهر وقصد الصغد، فلقية الترك وطائفة من الصغد فهزمهم المسلمون، فقال سعيد: لا تتبعوهم فإن الصغد بستان أمير المؤمنين وقد هزمتهم، أفتريدون بوارهم؟ وقد قاتلتهم يا أهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم؟ فقال سورة بن الحرّ لحيّان النبطي: ارجع عنهم يا حيّان. قال: عقيرة الله لا أدعها. قال: انصرف يا نبطي. قال: أنبط الله وجهك!

وسار المسلمون فانتهوا إلى واد بينهما وبين المرج، فقطعه بعضهم وقد أكن لهم الترك، فلما جاءهم المسلمون خرجوا عليهم، فانهمز المسلمون (٩٦/٥) حتى انتهوا إلى الوادي، فصبروا حتى انكشفوا لهم. وقيل: بل كان المنهزمون مسلحة المسلمين، فما شعروا إلا وتركوا قد خرجوا عليهم من غيضة وعلى الخيل شعبة بن ظهير، فأعجلهم الترك عن الركوب، فقاتلهم شعبة فقتل وقتل نحو من خمسين رجلاً وانهمز أهل المسلحة، وأتى المسلمين الخبر، فركب الخليل بن أوس العشمي أحد بني ظالم ونادى: يا بني تميم إلي أنا الخليل! فاجتمع معه جماعة، فحمل بهم على العدو فكفّوهم حتى جاء الأمير والناس فانهمز العدو، فصار الخليل

فلما ماتت حبابة قال القعقاع:

هَلَمْ قَدِمَاتِ حَبَابَةَ سَابِيَنِي بِفَسْكَ يَقْلَمُكَ النَّدَى وَالْكَوَامِلُ
(١٠٠/٥)

اغْرُكْ أَنْ كَانَتْ حَبَابَةَ مَرَّةً تَمِيحُ فَاَنْظُرْ كَيْفَ مَا أَنْتَ فَاعْلُ
في أبيات. وكان بينه وبين القعقاع يوما كلام فقال له القعقاع:
يا بن اللخاء من قَدَمِكَ؟ فقال: قَدَمُكَ أَنْتَ وَأَهْلُكَ أَعْجَازُ الْغَوَانِي،
وَقَدَمَنِي صُدُورُ الْعَوَالِي. فسكت القعقاع. يعني أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ
قَدِمَهُمْ لَمَّا تَزَوَّجَ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ أُمَّ الْوَلِيدِ وَسَلِيمَانَ ابْنِي عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ
مِرْوَانَ عَبَسِيَّةً.

ذكر بعض الدعاة للدولة العباسية

وفي هذه السنة وَجَّهَ مَيْسَرُ رَسَلَهُ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى خِرَاسَانَ،
فَظَهَرَ أَمْرُ الدَّعَاةِ بِهَا، فَجَاءَ عَمْرُو بْنُ بَحِيرٍ بْنُ وَرْقَاءِ السَّعْدِيِّ إِلَى
سَعِيدِ خُذَيْتَةَ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَاهُنَا قَوْمًا قَدْ ظَهَرَ مِنْهُمْ كَلَامُ قَبِيحٍ،
وَأَعْلَمُهُ حَالَهُمْ، فَبَعَثَ سَعِيدٌ إِلَيْهِمْ فَأَتَى بِهِمْ، فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتُمْ؟
قَالُوا: نَاسٌ مِنَ التَّجَارِ. قَالَ: فَمَا هَذَا الَّذِي يُحْكِي عَنْكُمْ؟ قَالُوا: لَا
نَدْرِي. قَالَ: جِئْتُمْ دَعَاةً؟ قَالُوا: إِنَّ لَنَا فِي أَنْفُسِنَا وَتِجَارَتِنَا شُغْلًا عَنْ
هَذَا. فَقَالَ: مَن يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ؟ فَجَاءَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ خِرَاسَانَ أَكْثَرُهُمْ
مِنْ رِبْعَةِ وَالْيَمَنِ فَقَالُوا: نَحْنُ نَعْرِفُهُمْ، وَهُمْ عَلَيْنَا إِنْ أَتَاكَ مِنْهُمْ
شَيْءٌ تَكْرَهُهُ. فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ. (١٠١/٥)

ذكر قتل يزيد بن أبي مسلم

قيل: كَانَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ اسْتَعْمَلَ يَزِيدَ بْنَ أَبِي مُسْلِمٍ
بِإِفْرِيقِيَّةِ سَنَةِ إِحْدَى وَمِائَةٍ، وَقِيلَ هَذِهِ السَّنَةُ؛ وَكَانَ سَبَبُ قَتْلِهِ أَنَّهُ
عَزَمَ أَنْ يَسِيرَ فِيهِمْ بِسِيرَةِ الْحِجَّاجِ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ سَكَنُوا
الْأَمْصَارَ مِمَّنْ كَانَ أَصْلُهُ مِنَ السَّوَادِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَأَسْلَمَ بِالْعِرَاقِ،
فَإِنَّهُمْ رَدُّهُمْ إِلَى قِرَاهِمَ وَوَضَعَ الْجَزِيَّةَ عَلَى رِقَابِهِمْ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَتْ
تُؤْخَذُ مِنْهُمْ وَهُمْ كَفَّارٌ، فَلَمَّا عَزَمَ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى
قَتْلِهِ فَقَتَلُوهُ وَوَلَّوْا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْوَالِي الَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ قَبْلَ يَزِيدَ بْنِ
أَبِي مُسْلِمٍ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ، فَوَلَّى الْأَمْصَارَ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ،
وَكُتِبُوا إِلَى يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ: إِنَّا لَمْ نَخْلَعْ أَيْدِيَنَا مِنْ طَاعَةٍ، وَلَكِنْ
يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ سَامَنَا مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ وَالْمُسْلِمُونَ فَقَتَلْنَاهُ وَأَعْدَنَّا
عَامِلَكُمْ. فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: إِنِّي لَمْ أَرْضَ مَا صَنَعَ
يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ؛ وَأَقَرَّ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ عَمَلَهُ.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا عمر بن هُبَيْرَةُ الرُّومَ مِنْ نَاحِيَةِ أَرْمِينِيَّةٍ وَهُوَ
عَلَى الْجَزِيرَةِ قَبْلَ أَنْ يَلِيَ الْعِرَاقَ، فَهَزَمَهُمْ وَأَسَرَّ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا
قِيلَ سَبْعُمِائَةِ أَسِيرٍ.

وفيها غزا عَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الرُّومَ فَافْتَتَحَ دَلْسَةَ.

فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ أَحْضَرَ مَسْلَمَةَ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ حَاتِمٍ وَأَخْبَرَهُ
خَبَرَ ابْنِ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ: قَدْ قُلْتُ لَكَ. قَالَ مَسْلَمَةُ: فَإِنَّهُ جَاءَ لِحِيَاةِ
أَمْوَالِ آلِ الْمُهَلَّبِ. قَالَ: هَذَا أَعْجَبُ مِنَ الْأَوَّلِ، يَكُونُ ابْنُ هُبَيْرَةَ
عَلَى الْجَزِيرَةِ فَيَعْزِلُ عَنْهَا وَيَبْعَثُ لِحِيَاةِ أَمْوَالِ بَنِي الْمُهَلَّبِ وَلَمْ
يَكْتُبْ مَعَهُ إِلَيْكَ كِتَابًا! فَلَمْ يَلْبَثْ حَتَّى أَتَاهُ عَزْلُ ابْنِ هُبَيْرَةَ عَمَلُهُ
وَالْغُلْظَةُ عَلَيْهِمْ؛ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

رَاحَتْ بِمَسْلَمَةَ الْبَغَالُ عَشِيَّةً فَارْغَى فِرَازَةً لَا هُنَاكَ الْمَرْتَعُ
عُزْلُ ابْنِ بَشَرَ وَابْنِ عَمْرٍو قَبْلَهُ وَأَخُو هَمْرَةَ لَمَنْلَهَا يَتَوَقَّعُ
يعني يابن بشر عبد الملك بن مروان، ويابن عمرو
محمدًا ذا الشامة، وبأخي همرَةَ سَعِيدُ خُذَيْتَةَ.

وَأَمَّا ابْتِدَاءُ أَمْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ حَتَّى وَلِيَ الْعِرَاقَ فَإِنَّهُ قَدِمَ مِنَ الْبَادِيَةِ
مِنْ بَنِي فِرَازَةَ فَافْتَرَضَ مَعَ بَعْضِ وَلَاةِ حَرْبٍ، وَكَانَ يَقُولُ: لَأَرْجُو أَنْ
لَا تَنْقُضِي الْأَيَّامَ حَتَّى إِلَيَّ الْعِرَاقُ. وَسَارَ مَعَ عَمْرٍو بْنِ مَعَاوِيَةَ
الْمُقَلِّبِي إِلَى غَزْوِ الرُّومِ، فَأَتَى بِفَرَسٍ رَافِعٍ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَسْتَطَاعُ رُكُوبَهُ،
فَقَالَ: فَمِنْ رُكْبَةٍ فَهُوَ لَهُ، فَجَاءَ عَمْرُ بْنُ هُبَيْرَةَ وَتَنَحَّى عَنِ الْفَرَسِ
وَأَقْبَلَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِحَيْثُ تَنَالَهُ رَجُلَا الْفَرَسِ إِذَا رَمَحَهُ وَثَبَ فَنَصَارَ
عَلَى سَرَجِهِ، فَأَخَذَ الْفَرَسَ. (٩٩/٥)

فَلَمَّا خَلَعَ مُطَرِّفُ بْنُ الْمَغِيرَةِ بْنُ شُعْبَةَ الْحِجَّاجِ سَارَ عَمْرُ بْنُ
هُبَيْرَةَ فِي الْجَيْشِ الَّذِي حَارَبُوهُ مِنَ الرِّيِّ، فَلَمَّا التَقَى الْعَسْكَرَانِ
التَحَقَّ ابْنُ هُبَيْرَةَ بِمُطَرِّفٍ مَظْهَرًا أَنَّهُ مَعَهُ، فَلَمَّا جَالَ النَّاسُ كَانَ مَعَهُ
قَتْلُهُ وَأَخَذَ هُوَ رَأْسَهُ، وَقِيلَ قَتَلَهُ غَيْرُهُ وَأَخَذَ رَأْسَهُ وَأَتَى بِهِ عَدِيًّا
فَأَعْطَاهُ مَالًا وَأَوْفَدَهُ إِلَى الْحِجَّاجِ بِالرَّأْسِ، فَسَيَّرَهُ الْحِجَّاجُ إِلَى عَبْدِ
الْمَلِكِ، فَأَقْطَعَهُ بِبَرْزَةٍ، وَهِيَ قَرْيَةٌ بِدِمَشْقَ، وَعَادَ إِلَى الْحِجَّاجِ،
فَوَجَّهَهُ إِلَى كَرْدَمَ بْنِ مَرْثَدِ الْفَزَارِيِّ لِيَخْلَصَ مِنْهُ مَالًا، فَأَخَذَهُ مِنْهُ
وَهَرَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَالَ: أَنَا عَائِدٌ بِاللَّهِ وَبِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
الْحِجَّاجِ، فَإِنِّي قَتَلْتُ ابْنَ عَمِّهِ مُطَرِّفَ بْنِ الْمَغِيرَةِ وَأَتَيْتُ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ بِرَأْسِهِ ثُمَّ رَجَعْتُ فَأَرَادَ قَتْلِي، وَلَسْتُ أَمِنُ أَنْ يَنْسَبَنِي إِلَى
أَمْرِ يَكُونُ فِيهِ هَلَاقِي. فَقَالَ: أَنْتَ فِي جَوَارِي. فَأَقَامَ عِنْدَهُ، فَكَتَبَ
فِيهِ الْحِجَّاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يَذْكُرُ أَخْذَهُ الْمَالَ وَهَرَبَهُ، فَقَالَ أَمْسِكْ
عَنْهُ.

وَتَزَوَّجَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بَتْنًا لِلْحِجَّاجِ، فَكَانَ ابْنُ هُبَيْرَةَ
يَهْدِي لَهَا وَيَبْرُهَا وَيَسِّرُ عَلَيْهَا، فَكَتَبَتْ إِلَى أَبِيهَا تَنْتَشِي عَلَيْهِ، فَكَتَبَ
إِلَيْهِ الْحِجَّاجُ يَأْمُرُهُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ حَاجَتَهُ، وَعَظَّمُ شَأْنُهُ بِالشَّامِ. فَلَمَّا
اسْتَخْلَفَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْجَزِيرَةِ، فَلَمَّا وَلِيَ يَزِيدُ
بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَرَأَى ابْنَ هُبَيْرَةَ تَحْكُمُ حَبَابَةَ عَلَيْهِ تَابِعَ هَدَايَاهُ إِلَيْهَا
وَالَى يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَعَمَلَتْ لَهُ فِي وِلَايَةِ الْعِرَاقِ، فَوَلَّاهُ يَزِيدَ.

وَكَانَ ابْنُ هُبَيْرَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَعْقَاعِ بْنِ خُلَيْدِ الْعَبْسِيِّ تَحَاسُدٌ،
فَقَالَ الْقَعْقَاعُ: مَنْ يَطِيقُ ابْنَ هُبَيْرَةَ، حَبَابَةَ بِاللَّيْلِ وَهَدَايَاهُ بِالنَّهَارِ!

والغزو معه إن أراد ذلك، واعتذروا ممّا كان منكم وأعطوه رهائن. قالوا: نخاف أن لا يرضى ولا يقبل ذلك ممّا ولكنّا نأتي خُجَنْدَةَ فنتسجّر ملكها ونرسل إلى الأمير فنسأله الصفح عمّا كان ممّا ونوثق [له] أنّه لا يرى [ممّا] أمراً يكرهه. فقال: أنا رجل منكم، والذي أشرتُ به عليكم خير لكم.

فأبوا وخرجوا إلى خُجَنْدَةَ، وأرسلوا إلى ملك فرغانة يسألونه أن يمنهم ويُرْزِلهم مدينته، فأراد أن يفعل فقالت أمّه: لا يدخل هؤلاء الشياطين مدينتك، ولكن فرغَ لهم رُستاقاً يكونون فيه، فأرسل إليهم: سمّوا رستاقاً تكونون فيه (١٠٥/٥) حتّى أفرغه لكم وأجلوني أربعين يوماً، وقيل عشرين يوماً. فاختاروا شُعبَ عصام بن عبد الله الباهلي، وكان قتيبة قد خلفه فيهم، فقال: نعم، وليس [لكم] عليّ عقد وجوار حتّى تدخلوه، وإن أنتمكم [العرب] قبل أن تدخلوه لم أمتعكم. فرضوا، ففرغَ لهم الشُعب.

ذكر عدّة حوادث

قبل: وفي هذه السنة أغارت الترك على اللان.

وفيها غزا العبّاس بن الوليد الرُّومَ ففتح مدينة يقال لها دلسة.

وفيها جُمعت مَكّة والمدينة لعبد الرحمن بن الضُّحاك.

وفيها وليّ عبد الواحد بن عبد الله النضريّ الطائف، وعُزل عبد العزيز بن عبد الله بن خالد عنه وعن مَكّة.

وحجّ بالناس عبد الرحمن بن الضُّحاك، وكان عامل مَكّة والمدينة، وكان على العراق عمر بن هُبَيْرَة، وعلى خُراسان الحرّشيّ، وعلى قضاء الكوفة القاسم بن عبد الرحمن، وعلى قضاء البصرة عبد الملك بن يعلّى.

وفي هذه السنة مات الشُعبيّ، وقيل سنة أربع، وقيل خمس، وقيل سبع ومائة، وهو ابن سبع وسبعين سنة.

وفيها مات يزيد بن الأصمّ وهو ابن أخت ميمونة زوج النبي ﷺ. وقيل: مات سنة أربع ومائة وعمره ثلاث وسبعون سنة.

وفيها مات أبو بُرْقة ابن أبي موسى الأشعريّ. ويزيد بن الحُصَيْن (١٠٦/٥) ابن مُعَمر السكوني.

وفيها توفيّ عطاء بن يسار، وهو أخو سليمان؛ (يسار بالياء المثناة من تحت، والسين المهملة).

وفيها توفيت عمّرة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن زُرارة الأنصاريّة، وهي ابنة سبع وسبعين سنة.

وفيها توفيّ مُصَنَّب بن سعد بن أبي وقاص. ويحيى بن وثّاب الأسديّ المُنقريّ. وعبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهليّ، وكان

وحجّ بالناس هذه السنة عبد الرحمن بن الضُّحاك، وهو عامل المدينة، (١٠٢/٥) وكان على مَكّة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد. وكان على الكوفة محمّد بن عمرو ذو الشامة، وعلى قضائها القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وعلى البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان إلى أن عزله عمر بن هُبَيْرَة، وعلى خُراسان سعيد خُذَيْنَة، وعلى مصر أسامة ابن زيد. (١٠٣/٥)

سنة ثلاث ومائة

ذكر استعمال سعيد الحرّشيّ على خُراسان

في هذه السنة عزل عمر بن هُبَيْرَة سعيد خُذَيْنَة عن خُراسان. وكان سبب عزله أنّ المُجَشَّر بن مُزاحم السُلَميّ وعبد الله بن عُثَير الليثيّ قدما على عمر بن هُبَيْرَة فشكواه، فعزله واستعمل سعيد بن عمرو الحرّشيّ، (بالحاء المهملة، والسين المعجمة، من بني الحرّيش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة). وكان خُذَيْنَة [غازياً] بباب سَمَرْقَنْد، فبلغه عزله، وخلفَ بسمرقند ألف رجل.

وقيل: إنّ عمر بن هُبَيْرَة كتب إلى يزيد بن عبد الملك بأسماء من أبلى يوم الغفر ولم يذكر سعيداً الحرّشيّ، فقال يزيد، لم لم يذكر الحرّشيّ؟ وكتب إلى عمر بن هُبَيْرَة أن ولّ الحرّشيّ خُراسان، فولاه، فقدم بين يديه المُجَشَّر بن مُزاحم السُلَميّ؛ فقال نهار بن تَوْسِيعَة:

فهل من مُبلِّغ قتيان قومي بأنّ الثُّبُل ريشت كل ريش
وإنّ الله أبدل من سعيد سعيداً لا المَخْت من قريش

وقد قدم سعيد الحرّشيّ خُراسان، فلم يعرض لعمّال خُذَيْنَة، وقرأ رجل عهده فلحن فيه، فقال صّه، مهما سمعتم فهو من الكاتب والأمير منه بريء. ولما قدم الحرّشيّ خُراسان كان الناس بإزاء العدو، وكانوا قد نُكبوا، فخطبهم (١٠٤/٥) وحثهم على الجهاد وقال: إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعدّة ولكن بنصر الله وعزّ الإسلام، فقالوا: لا حول ولا قوة إلّا بالله [العليّ] العظيم؛ وقال:

فلست لعامر إن لم تروني أمام الخيل أطعمس بالموالي
واضرب مائة الجبار منهم بنضب الحدّ حُودث بالهفّال
فما أنا في الحروب بمسكين ولا أخشى مُصاولة الرجال
أبى لى والسي من كل دم وخالي في الحوادث خير خال

فلما سمع أهل الصُّغد بقُدوم الحرّشيّ خافوا على نفوسهم لأنهم كانوا قد أعانوا الترك أيام خُذَيْنَة، فاجتمع عظماءهم على الخروج من بلادهم، فقال لهم ملكهم: لا تفعلوا، أقيموا واحملوا الخراج ما مضى واضمنوا له الخراج ما يأتي وعمارة الأرض

عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة. (١٠٧/٥)

سنة أربع ومائة

ذكر الوقعة بين الحَرْشِيِّ والصُّغْدِ

قيل: وفي هذه السنة غزا الحَرْشِيُّ قطع النهر وسار فقتل في قصر الريح على فرسخين من الدَّبُوسِيَّةِ، ولم يجتمع إليه جنده، فأمر بالرحيل، فقال له هلال بن عُثَيْم الحنظلي: يا هناء إنك وزيراً خيرٌ منك أميراً، لم يجتمع إليك جندك وقد أمرت بالرحيل. فعاد فأمر بالنزول، وأتاه ابن عمِّ ملك فرغانة فقال له: إن أهل الصُّغْدِ بخُجَنْدَة، وأخبره بخبرهم، وقال: عاجلهم قبل أن يصلوا الشعب فليس لهم جوار علينا حتى يمضي الأجل. فوجه معه عبد الرحمن القُشَيْرِيُّ وزباد بن عبد الرحمن في جماعة، ثم ندم بعدما فصلوا وقال: جاءني عِلَجٌ لا أعلم أصدق أم كذب، فغررت بجند من المسلمين؛ فارتحل في أثرهم حتى نزل أشرؤسنة فصالهم بشيء يسير.

فبينما هو يتعشى إذ أقبل له هذا عطاء الدبوسي، وكان مع عبد الرحمن، فسقطت اللقمة من يده، ودعا بعطاء فقال: ويلك قاتلتهم أحداً؟ قال: لا. قال: لله الحمد! وتعشى وأخبره بما قدم له، فسار مسرعاً حتى لحق القشيري بعد (١٠٨/٥) ثلاثة أيام، وسار فلماً انتهى إلى خُجَنْدَة قال له بعض أصحابه: ما ترى؟ قال: أرى المعالجة. قال: لا أرى ذلك، إن جرح رجل فإلى أين يرجع، أو قُتل قتيل فإلى مَنْ يُخَفَّل؟ ولكني أرى النزول والتأني والاستعداد للحرب. فنزل فاخذ في التأهب، فلم يخرج أحد من العدو، فجئى الناس الحَرْشِيَّ وقالوا: كان يُذَكَّر بشجاعة وديانة، فلماً صار بخراسان ماق. فحمل رجل من العرب فضرب باب خُجَنْدَة بعمود ففتَح الباب، وكانوا حفرُوا في ربضهم وراء الباب الخارج خندقاً وغطوه بقصب وتراب مكيدة، وأرادوا إذا التقوا إن انهزموا كانوا قد عرفوا الطريق ويشكل على المسلمين ويسقطون في الخندق، فلما خرجوا قاتلهم فانهزموا، وأخطأهم الطريق فسقطوا في الخندق، وأخرج منهم المسلمون أربعين رجلاً. وحصرهم الحَرْشِيَّ ونصب عليهم المجانيق. فأرسلوا إلى ملك فرغانة: إنك غدرت بنا، وسألوه أن ينصرهم، فقال: قد أتوكم قبل انقضاء الأجل، ولستم في جوارى. فطلبوا الصلح وسألو الأمان وأن يردهم إلى الصُّغْدِ، واشترط عليهم أن يردوا ما في أيديهم من نساء العرب وذرائعهم وأن يؤدوا ما كسروا من الخراج ولا يقتالوا أحداً ولا يتخلف منهم بخجندة أحد، فإن أخذوا حدثاً حلت دماؤهم.

فخرج إليهم الملوك والتجار من الصُّغْدِ، وترك أهل خجندة على حالهم، ونزل عظماء الصُّغْدِ على الجند الذين يعرفونهم، ونزل

كارزنج على أيوب بن أبي حسان. وبلغ الحَرْشِيَّ أنهم قتلوا امرأة ممن كان في أيديهم، فقالوا: بلغني أن ثابتاً قتل امرأة ودفنها، فجحد، فسأل فإذا الخير صحيح، فدعا ب ثابت إلى خيمته فقتله، فلماً سمع كارزنج بقتله خاف أن يُقْتَلَ وأرسل إلى ابن أخيه ليأتيه بسراويل، وكان قد قال لابن أخيه: إذا طلبت سراويل فاعلم أنه (١٠٩/٥) القتل، فبعث به إليه وخرج واعترض الناس فقتل ناساً، وتضعض العسكر ولقوا منه شراً، وانتهى إلى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت.

وقتل الصُّغْدِ أسرى عندهم من المسلمين مائة وخمسين رجلاً، فأخبر الحَرْشِيَّ بذلك، فسأل فرأى الخير صحيحاً، فأمر بقتلهم وعزل التجار عنهم، فقاتلهم الصُّغْدِ بالخشب، ولم يكن لهم سلاح، فقتلوا عن آخرهم، وكانوا ثلاثة آلاف، وقيل سبعة آلاف، واصطفى أموال الصُّغْدِ وذرائعهم، وأخذ منها ما أعجبه، ثم دعا مسلم بن بُذَيْل العدويّ عديّ الرباب وقال: وليتك المقسم. فقال: بعدما عمل فيه عمالك ليلة! ولو غيري، فولاه غيره، وكتب الحَرْشِيَّ إلى يزيد بن عبد الملك ولم يكتب إلى عمر بن هُبَيْرَة، فكان هذا ممّا أوغر صدره عليه، قال ثابت قُتِلَ يَذكر ما أصابوا من عظمائهم:

أُتِرَ العَيْنَ مَصْرُغَ كَارزنج وكشكر ومالاقى ياباذ وديوشتي ومالاقى خلنج بحصن خجندة إذ دمروا فبادوا يقال: إن ديوشتي دهقان سَمَرَقَنْد، واسمه ديو أشنچ فأعربوه، وقيل: كان على أقباض خُجَنْدَة علباء بن أحمر البشكري، فاشترى رجل منهم جُونة بدرهمين فوجد فيها سبائك ذهب فرجع وقد وضع يده على وجهه كأنه رمد فرد الجُونة وأخذ الدرهمين، فطلب فلم يُعرف.

وسرح الحَرْشِيَّ سليمان بن أبي السريّ إلى حصن يطيف به وادي الصُّغْدِ إلا من وجه واحد ومعه خوارزمشاه وصاحب آخرون وشومان، فسير سليمان على مقدّمته المسيّب بن بشر الرياحي، فتلّقوه على فرسخ، فهزمهم حتى (١١٠/٥) ودّهم إلى حصنهم فحصرهم، فطلب الديوشتي أن ينزل على حكم الحَرْشِيَّ فسيره إليه فأكرمه، وطلب أهل القلعة الصلح على أن لا يتعرض لنسائهم وذرائعهم ويُسلمون القلعة. فبعث سليمان إلى الحَرْشِيَّ ليبعث الأمان لقبض ما في القلعة، فبعث من قبضه وباعوه وقسموه.

وسار الحَرْشِيَّ إلى كِشَ وصالحوه على عشرة آلاف رأس، وقيل ستة آلاف رأس. وسار إلى زرنج، فوفاه كتاب ابن هُبَيْرَة بإطلاق ديوشتي، فقتله وصلبه وولى نصر بن سيار قبض صلح كِشَ، واستعمل سليمان بن أبي السريّ على كِشَ ونسّف حربها وخراجها. وكانت خزائن منيعة، فقال المجشّر للحَرْشِيَّ: الا أدلك على مَنْ يفتحها لك بغير قتال؟ قال: بلى. قال: المُسَرَّبَل بن

ثم سار إلى مدينة يقال لها يرغوا، فأقام عليها ستة أيام، وهو مجذ في قتالهم، فطلبوا الأمان، فآمنهم، وتسلم حصنهم ونقلهم منه.

ثم سار الجراح إلى بَلَنْجَر، وهو حصن مشهور من حصونهم، فنزله، وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة فشدوا بعضها إلى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها وتمنع المسلمين من الوصول إلى الحصن، وكانت تلك العجلة أشد شيء على المسلمين في قتالهم. فلما رأوا الضرر الذي عليهم منها انتدب جماعة منهم نحو ثلاثين رجلاً وتعاهدوا على الموت وكسروا جفون سيوفهم وحملوا حملة رجل واحد وتقدموا نحو العجلة، وجد الكفار في قتالهم ورموا من النشاب ما كان يحجب الشمس فلم يرجع أولئك حتى وصلوا إلى العجلة وتعلقوا ببعضها وقطعوا الجبل الذي يمسكها وجذبوها فانحدرت، وتبعها سائر العجلة لأن بعضها كان مشدوداً إلى بعض وانحدر الجميع إلى المسلمين والتحم القتال واشتد وعظم الأمر على الجميع حتى بلغت القلوب الحناجر.

ثم إنَّ الخزر انهزموا واستولى المسلمون على الحصن عنوةً وغنموا جميع ما فيه في ربيع الأول فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً.

ثم إنَّ الجراح أخذ أولاد صاحب بَلَنْجَر وأهله وأرسل إليه فأحضره وردَّ إليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عيناً لهم يُخبرهم بما يفعله الكفار.

ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوندرة، وبه نحو أربعين ألف بيت (١١٣/٥) من الترك، فصالحوا الجراح على ما يؤذونه. ثم إنَّ أهل تلك البلاد تجمَّعوا وأخذوا الطرق على المسلمين، فكتب صاحب بلنجر إلى الجراح يُعلمه بذلك. فعاد مجدداً حتى وصل إلى رستاق ملَى وأدركهم الشتاء، فأقام المسلمون به، وكتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك يُخبره بما فتح الله عليه وبما اجتمع من الكفار ويسأله المدد. فوعده إنفاذ العساكر إليه، فأدركه أجله قبل إنفاذ الجيش، فأرسل هشام بن عبد الملك إلى الجراح فأقره على عمله ووعده المدد.

ذكر عزل عبد الرحمن بن الضحَّاك عن المدينة ومكة

وفي هذه السنة عزل يزيد بن عبد الملك عبد الرحمن بن الضحَّاك عن المدينة ومكة، وكان عامله عليهما ثلاث سنين، ورأى عبد الواحد النضري.

وكان سبب ذلك أنَّ عبد الرحمن خطب فاطمة بنت الحسين بن عليٍّ فقالت: ما أريد النكاح ولقد معدتُ على بني هؤلاء. فألحَّ

الخزيت بن راشد الناجي، فوجَّه إليها، وكان صديقاً لملكها، واسم الملك سُبُغرى، فأخبر الملك بما صنع الخزيتُ بأهل خُجَنْدَة وخوفه، قال: فما ترى؟ قال: أن تنزل بأمان. قال: فما أصنع بمنَّ لحق بي؟ قال: تجعلهم في أمانك؛ فصالحهم فأمنوه وبلاده ورجع الخزيتُ إلى بلاده ومعه سُبُغرى، فقتل سُبُغرى وصلب ومعه الأمان.

ذكر ظفر الخزر بالمسلمين

في هذه السنة دخل جيش للمسلمين بلادَ الخزر من أرمينية وعليهم ثيبتُ النهراني، فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم فقجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين في مكان يُعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً، فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما (١١١/٥) فيه، وأقبل المنهزمون إلى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثيبتُ، فوبَّخهم يزيد على الهزيمة فقال: يا أمير المؤمنين ما جئتُ ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيال والرجل بالرجل، ولقد طاعنتُ حتى انقصف رمحي، وضاربتُ حتى انقطع سيفي، غير أنَّ الله، تبارك وتعالى، يفعل ما يريد.

ذكر ولاية الجراح أرمينية وفتح بَلَنْجَر وغيرها

لما تمت الهزيمة المذكورة على المسلمين طمع الخزر في البلاد فجمعوا وحشدوا، واستعمل يزيد بن عبد الملك الجراح بن عبد الله الحَكَميَّ حينئذ على أرمينية وأمدّه بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الأعداء ويقصد بلاده. فسار الجراح، وتسامع الخزيرة فعادوا حتى نزلوا بالباب والأبواب، ووصل الجراح إلى بَرْدُعة فأقام حتى استراح هو ومن معه وسار نحو الخزر فعبر نهر الكر، فسمع بأنَّ بعض من معه أهل تلك الجبال قد كاتب ملك الخزر يُخبره بمسير الجراح إليه، فحينئذ أمر الجراح مناديه فننادى في الناس: إنَّ الأمير مقيم هاهنا عِدَّة أيام فاستكثروا من الميرة؛ فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخزر يُخبره أنَّ الجراح مقيم ويشير عليه بترك الحركة لئلا يطعم المسلمون فيه.

فلما كان الليل أمر الجراح بالرحيل، فسار مجدداً حتى انتهى إلى مدينة الباب والأبواب فلم ير الخزر، فدخل البلد فبث سراياه في النهب والغارة على ما يجاوره، فغنموا وعادوا من الغد، وسار الخزر إليه وعليهم ابن ملكهم فالتقوا (١١٢/٥) عند نهر الران واقتتلوا قتالاً شديداً، وحرَّض الجراح أصحابه، واشتدَّ اقتتالُ، فظفروا بالخزر وهزموهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقتل منهم خلق كثير، وغنم المسلمون جميع ما معهم وساروا حتى نزلوا على حصن يُعرف بالحصين، فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه، فأجابهم ونقلهم عنها.

خراسان وولّاها مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرْعَةَ الكلابي.

وكان السبب في ذلك ما كان كتبه ابن هُبَيْرَةَ إلى الحَرْشِيِّ بإطلاق الديوشى فقتله، وكان يستخفّ بابن هُبَيْرَةَ وَيَذْكُرُهُ بأبي المثنى [ولا يقول الأمير] فيقول: [قال] أبو المثنى، وفعل أبو المثنى، فبلغ ذلك ابن هُبَيْرَةَ فأرسل جميل بن عمران ليعلم حال الحَرْشِيِّ، وأظهر أنّه ينظر في الدواوين، فلمّا قدم على الحَرْشِيِّ قال: كيف أبو المثنى؟ فقبل له: إنّ جُمَيْلًا لم يقدم إلّا ليعلم علمك، فسَمّ بطيخة وبعث بها إليه فاكلها ومريض وسقط شعره، ورجع إلى ابن هُبَيْرَةَ وقد عولج فصَحّ، فقال له: الأمر أعظم ممّا بلغك، ما يرى الحَرْشِيِّ إلّا أنّك عامل له؛ فغضب وعزله ونفخ في بطنه النمل وعذّبه حتّى أدّى الأموال.

وسمر ليلة ابن هُبَيْرَةَ فقال: مَنْ سَيِّد قيس؟ فقالوا: الأمير. قال: دَعُوا هَذَا، سَيِّد قيس الكوثر بن زُرْعَةَ، لو ثَوَّرَ بلبيل لوفاة عشرون ألفاً لا يقولون لِمَ دعوتنا، وفارسها هذا الحمار الذي في الحيس وقد أمرتُ بقتله، يعني الحَرْشِيِّ، فاما خير قيس لها فعسى أن أكونه. فقال له أعرابيٌّ من بني (١١٦/٥) فزارة: لو كنتُ كما تقول ما أمرتُ بقتل فارسها. فأرسل إلى مَعْقِل بن عُرْوَةَ أنّ كَفَّ عن قتله، وكان قد سلّمه إليه ليقّته، وكان ابن هُبَيْرَةَ لَمّا ولى مسلم بن سعيد خراسان أمره بأخذ الحَرْشِيِّ وتقييده وانفاذه إليه، فقدم مسلم دار الإمارة فرأى الباب مغلّقاً، فقبل للحَرْشِيِّ: قدم مسلم، فأرسل إليه: أقدمتُ أميراً أو وزيراً أو زائرًا؟ فقال: مثلي لا يقدم زائرًا ولا وزيراً. فاتاه الحَرْشِيُّ فشتته وقبّده وأمر بحبسه، ثمّ أمر صاحب الحيس أن يزيدَه قيداً، فأخبر الحَرْشِيِّ بذلك فقال لكتابه: اكتبْ إليه إنّ صاحب سجنك ذكر أنّك أمرتُه أن يزيديني قيداً، فإن كان أمراً ممّن فوقك فسمّعاً وطاعة، وإن كان رايّاً رأيته فسيرك الحققة! وهي أشدّ السير؛ وتمثّل:

فلمّا تقفونسي فاقفلوني ومن يقف فليس له خلود
هُمُ الأعداء إن شهدوا وغابوا أولو الأحقاد والأكبَادُ سُرود
فلمّا هرب ابن هُبَيْرَةَ عن العراق أرسل خالد القسريّ في طلب الحَرْشِيِّ فأدركه على الفرات، فقال: ما ظنك بي؟ قال: ظني بك أنّك لا تدفع رجلاً من قومك إلى رجل من قيس. فقال: هو ذاك.

ذكر عدّة حوادث

وحجّ بالناس هذه السنة عبد الواحد بن عبد الله النضريّ، وعلى العراق والمشرق عمر بن هُبَيْرَةَ. وعلى قضاء الكوفة حسين بن حسن الكنديّ. وعلى قضاء البصرة عبد الملك بن يعلّى.

وفيهما مات أبو قلابة الجَرَميّ، وقيل سنة (١١٧/٥) سبع ومائة. وعبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاريّ.

وفيهما توفّي يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلّعة.

عليها وقال: لئن لم تفعلني لأجلدنّ أكبر بنيك في الخمر، يعني عبد الله بن الحسن بن الحسين بن عليّ، وكان على الديوان بالمدينة ابن هُرْمَز، رجل من أهل الشام، وقد رفع حسابه ويريد أن يسير إلى يزيد، فدخل على فاطمة يودّعها [فقال: هل من حاجة؟] فقالت: تُخبر أمير المؤمنين بما ألقى من ابن الضحّاك وما يتعرّض مِنّي؛ وبعثتُ رسولاً بكتاب إلى يزيد يُخبره بذلك.

وقدم ابن هُرْمَز على يزيد، فاستخبره عن المدينة وقال: هل مُغرّبة خير؟ فلم يذكر شأن فاطمة. فقال الحاجب ليزيد: بالباب رسول من فاطمة بنت الحسين. فقال ابن هُرْمَز: إنّها حملتني رسالة. وأخبره بالخبر. (١١٤/٥) فتزل من فراشه وقال: لا أم لك! عندك هذا ولا تخبرني؟ فاعتذر بالنسيان؛ وأذن لرسولها فأدخله وأخذ الكتاب فقرأه وجعل يضرب بخيزران في يده ويقول: لقد اجترأ ابن الضحّاك، هل من رجل يُسمّني صوته في العذاب؟ قيل له: عبد الواحد بن عبد الله النضريّ. فكتب بيده إلى عبد الواحد: قد وليتُ المدينة فاهبطْ إليها واعزلْ عنها ابنَ الضحّاك، وأغرّمه أربعين ألف دينار وعذّبه حتّى أسمع صوته وأنا على فراشي.

وسار البريد بالكتاب ولم يدخل على ابن الضحّاك، فأخبر ابنُ الضحّاك، فأحضر البريد وأعطاه ألف دينار ليُخبره خبره، فأخبره، فسار ابنُ الضحّاك مجدّاً فنزل على مسلمة بن عبد الملك فاستجاره، فحضر مسلمة عند يزيد فطلب إليه حاجة خاله، فقال: كلّ حاجة فهي لك إلّا ابن الضحّاك. فقال: هي والله ابن الضحّاك. فقال: والله لا أعفيه أبداً. وردّه إلى المدينة إلى عبد الواحد، فعذّبه ولقي شراً، ثمّ لبس جبّة صوف يسأل الناس.

وكان قدوم النضريّ في شوال سنة أربع ومائة. وكان ابن الضحّاك قد أدّى الأنصار طرّاً، فهجّاه الشعراء وذمّه الصالحون، ولَمّا وليهم النضريّ أحسن السيرة فأحبّوه، وكان خيراً يستشير فيما يريد فعلة القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر.

ذكر ولادة أبي العباس السفّاح

وقيل: وفيها وُلِدَ أبو العباس عبد الله بن محمد بن عليّ بن محمد بن عليّ في ربيع الآخر، وهو السفّاح، ووصل إلى أبيه محمد بن عليّ أبو محمد الصادق من خراسان في عدّة من أصحابه، فأخرج إليهم أبا العباس في خرقه (١١٥/٥) وله خمسة عشر يوماً وقال لهم: هذا صاحبكم الذي يَتَمّ الأمر على يده فقبّلوا أطرافه، وقال لهم: والله ليَتَمّنَ الله هذا الأمر حتّى تدركوا ثأركم من عدوكم.

ذكر عزل سعيد الحَرْشِيِّ

وفي هذه السنة عزل عمر بن هُبَيْرَةَ سعيداً الحَرْشِيِّ عن

وفيها مات عامر بن سعد بن أبي وقاص.

وفيها توفي موسى بن طلحة بن عبيد الله. وعُمَيْر مولى ابن عباس يَكْنَى أبا عبد الله. وخالد بن معدان بن أبي كَرِب الكلاعي سكن الشام. (١١٨/٥)

سنة خمس ومائة

ذكر خروج عُفْغان

في أيام يزيد بن عبد الملك خرج حُرُورِي اسمه عُفْغان في ثمانين رجلاً، فأراد يزيد أن يرسل إليه جنداً يقاتلونه، فقبل له: إن قُتل بهذه البلاد اتَّخَذَهَا الخوارج دار هجرة، والرأي أن تبعث إلى كل رجل من أصحابه رجلاً من قومه يكلمه ويرده. ففعل ذلك. فقال لهم أهلوه: إنا نخاف أن نؤخذ بكم. وأومروا وبقي عُفْغان وحده، فبعث إليه يزيد أخاه فاستعطفه فردّه، فلمّا ولي هشام بن عبد الملك ولأه أمر العَصاة، فقدم ابنه من خراسان غاضباً، فشده وثاقاً وبعث به إلى هشام، فاطلقه لأبيه وقال: لو خاننا عُفْغان لكتم أمر ابنه. واستعمل عُفْغان على الصدقة، فبقي عليها إلى أن توفي هشام.

ذكر خروج مسعود العبدي

وخرج مسعود بن أبي زينب العبديّ بالبحرَيْن على الأشعث بن عبد الله بن الجارود، ففازق الأشعث البحرين، وسار مسعود إلى اليمامة وعليها سفيان (١١٩/٥) ابن عمرو المُقْبِلِي، ولأه إِيَّاهَا عمر بن هُبَيْرَة، فخرج إليه سفيان، فاقتلوا بالخِزْمَة قتالاً شديداً، فقتل مسعود، وقام بأمر الخوارج بعده هلال بن مُذْلَج فقاتلهم يومه كله، فقتل ناس من الخوارج وقتلت زينب أخت مسعود، فلمّا أُمِسَ هلال تفرّق عنه أصحابه وبقي في نفر يسير، فدخل قصرًا فتحصّن به، فنصبوا عليه السلايل وصعدوا إليه فقتلوه واستامن أصحابه فأمنهم؛ وقال الفرزدق في هذا اليوم:

لعمري لقد سلّت حنيفَة سلّةً سيرةً أبست يوم الوغى أن تغيرا
تركن لمسعود وزينب أخته رداءً وسيرالاً من الموت أحمرًا
أربن الخُرُورِيّين يوم لقائهم بيرقان يوماً يجعل الموت أشقرا
وقيل: إن مسعوداً غلب على البحرَيْن واليمامة تسع عشرة سنة حتّى قتله سفيان بن عمرو العبليّ.

(الخِزْمَة بكسر الخاء وسكون الضاد المعجمتين، وكسر الراء).

ذكر مُصْعَب بن محمّد الوالبي

كان مصعب من رؤساء الخوارج، وطلبه عمر بن هُبَيْرَة وطلب معه مالك بن الصعب وجابر بن سعد، فخرجوا واجتمعوا بالخَزَرْقَة وأمروا عليهم مصعباً ومعه أخته أمنة وساروا عنه. فلمّا

ولي هشام بن عبد الملك واستعمل على العراق خالدًا القسريّ سيّر إليهم جيشاً، وكانوا قد صاروا بخزّة من أعمال الموصل، فالتقوا واقتلوا، فقتل الخوارج، وقيل كان قتلهم آخر (١٢٠/٥) أيام يزيد بن عبد الملك، فقال فيهم بعض الشعراء:

فتية تعرف النخش فيهم كلهم أحكم القرآن إماما
قد يرى لحمه التهجُّد حتّى عاد جلساً مصفراً وعظاما
غادرهم بقاع خزّة صرعى فبقى الغيث أرضهم يا إماما

ذكر موت يزيد بن عبد الملك

في هذه السنة توفي يزيد بن عبد الملك لخمس بقين من شعبان وله أربعون سنة، وقيل خمس وثلاثون سنة، وقيل غير ذلك، وكانت ولايته أربع سنين وشهراً وإياماً وكنيته أبو خالد، وكان مرضه السلّ.

وقيل: كان سبب موته أنّ حَبَابَة لَمَّا ماتت وجد عليها وجداً شديداً، على ما تذكره إن شاء الله تعالى، فخرج مشياً لجنّازتها ومعه أخوه مُسْلَمَة بن عبد الملك ليسلّيه ويعزيه، فلم يجبه بكلمة، وقيل إنّ يزيد لم يطق الركوب من الجزع وعجز عن المشي فأمر مُسْلَمَة فصلّى عليها، وقيل: منعه مُسْلَمَة عن ذلك لئلا يرى الناس منه ما يميمونه به. فلمّا دُفِنَتْ بقي بعدها خمسة عشر يوماً ومات ودُفِنَ إلى جانبها، وقيل بقي بعدها أربعين يوماً لم يدخل عليه أحد إلا مرة واحدة، ولمّا مات صلّى عليه أخوه مُسْلَمَة، وقيل: ابنه الوليد، وكان هشام بن عبد الملك بجمنص. (١٢١/٥)

ذكر بعض سيرته

كان يزيد من فتیانهم، فقال يوماً وقد طرب وعنده حَبَابَة وسلامة القسّ: دعوني أطير. قالت حَبَابَة: على من تدع الأتة؟ قال: عليك؛ قيل وغتته يوماً:

ويسن السراقي واللّهاة خسارةً ساططن وماتسرع تُفَرِّدا
فأهوى لطير، فقالت: يا أمير المؤمنين إن لنا فيك حاجة.
فقال: واللّه لأطيرن! فقالت: على من تخلف الأتة والملك؟ قال: عليك واللّه! وقيل يدها؛ فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك!

وخرجت معه إلى ناحية الأردنّ يتنزهان، فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت، فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتّى أنتت وهو يشمّها ويقبّلها وينظر إليها ويكي، فكلم في أمرها حتّى أذن في دفنها، وعاد إلى قصره كئيباً حزينا، وسمع جارية له تتمثل بعدها:

كفى حزناً بالهائم الصب أن يرى منازل من يهوى مُعْطَلَة قسرا
فيكي، وبقي يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس، أشار

عليه سَلَمَةٌ بذلك وخاف أن يظهر منه ما يَسْفُهه عندهم. إذا أخذت في الصوت كاد جليشها يطير إليها قلبه حين ينظرُ

فقيل لها سَلَامَةُ القسِّ لذلك.

(سَلَامَةُ بتشديد اللام، وحبابة بتخفيف الباء الموحدة).

ذكر خلافة هشام بن عبد الملك

في هذه السنة استخلف هشام بن عبد الملك لليال بقين من شعبان، وكان عمره يوم استخلف أربعاً وثلاثين سنة وأشهرًا، وكانت ولادته عام قُتل مُصَنَّب بن الرَّبِيع سنة اثنتين وسبعين، فسماه عبد الملك منصوراً، وسَمَّته أُمَّة (١٢٤/٥) باسم أبيها هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فلم ينكر عبد الملك ذلك. وكانت أُمَّة عائشة بنت هشام حمقاء فطلقها عبدُ الملك، وكانت كنية هشام أبا الوليد، وأتته الخلافة وهو بالرُصافة، أتاه البريد بالخاتم والقضيب وسُلم عليه بالخلافة، فركب منها حتى أتى دمشق.

ذكر ولاية خالد القسريّ العراق

فيها عزل هشامُ عمر بن هُبَيْرَةَ عن العراق واستعمل خالد بن عبدالله القسريّ في شِوَال.

قال عمر بن يزيد بن عُمَيْرِ الأَسَدِيِّ: دخلتُ على هشام وخالد عنده وهو يذكر طاعة أهل اليمن، فقلتُ: واللّه ما رأيت هكذا خطأ وخطلاً، واللّه ما فُتحت فتنة في الاسلام إلا بأهل اليمن، هم قتلوا عثمان، وهم خلَعوا عبد الملك، وإن سيوفنا لتقطر من دماء أهل المهلب. قال: فلمّا قمتُ تبعتني رجل من آل مروان فقال: يا أخا بني تميم ورت بك زنادي، قد سمعتُ مقاتلك وأمير المؤمنين قد ولّى خالداً العراق وليست لك بدار! فسار خالد إلى العراق من يومه.

(الأَسَدِيُّ بضم الهمزة، وتشديد الباء، هكذا يقوله المحدثون، وأما النُحَاة فإنهم يخفّفون الباء، وهي عند الجميع نسبة إلى أَسَدِ بن عمرو بن تميم، بضم الهمزة، وتشديد الباء). (١٢٥/٥)

ذكر دُعاة بني العباس

قيل: وفي هذه السنة قدم بُكَيْر بن ماهان من السند، كان بها مع الجُنَيْد بن عبد الرحمن. فلمّا عزل الجُنَيْد قدم بُكَيْر الكوفة ومعه أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب، فلقني أبا عكرمة الصادق وميسرة ومحمد بن حُثَيْبٍ وسالماً الأغوين وأبا يحيى مولى بني سلمة، فذكروا له أمر دعوة بني هاشم، فقبل ذلك ورضيه وأنفق ما معه عليهم ودخل إلى محمد بن علي، ومات ميسرة فأقامه مقامه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا الجراحُ الحَكَمِيُّ اللّانَ حتى حاز ذلك إلى

وكان يزيد قد حجَّ أيام أخيه سليمان فاشترى حبابة بأربعة آلاف دينار، وكان اسمها العالية، وقال سليمان: لقد هممتُ أن أحجر على يزيد فردّها يزيد فاشتراها رجل من أهل مصر، فلمّا أنضت الخلافة إلى يزيد قالت امرأته (١٢٢/٥) سَعْدَةُ: هل بقي من الدنيا شيء تسمّناه؟ قال: نعم، حبابة. فأرسلت فاشترتها ثم صيغتها وأنت بها يزيد فأجلستها من وراء الستر وقالت: يا أمير المؤمنين هل بقي من الدنيا شيء تسمّناه؟ قال: قد أعلمتك. فرفعت الستر وقالت: هذه حبابة، وقامت وتركها عنده، فحظيت سَعْدَةُ عنده وأكرمها. وسعدَةُ بنت عبدالله بن عمرو بن عثمان. ولمّا مات يزيد لم يُعلم بموته حتى ناحت سَلَامَةُ فقالت:

لَا تَلْمِزُنَا إِن خَشِينَا أَوْ مَعَمَّنَا بِخُشُوعٍ
فَدَلْعَمَرِي بِتَّ لِيَلِي كَأَنِّي الدَّاءُ الْوَجِيعُ
ثُمَّ بَاتَ الْهَمُّ مِنِّي دُونَ مَنْ لِي بِضَجِيعٍ
لِلَّذِي حَلَّ بِنَا الْيَزُ مِمَّنِ الْأَمْرُ الْفَظِيعُ
كَلَّمَا أَبْصَرْتُ رَيْعاً خَالِياً فَاضَتْ دُمُوعِي
فَدَخَلَا مِنْ سَيْلِكَا نُنَاغِيرُ مُضِيعُ
ثُمَّ نَادَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَعَلِمُوا بِمَوْتِهِ. والشعر لبعض الأنصار.

وأخبار يزيد مع سَلَامَةَ وحبابة كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

وإنما قيل لسَلَامَةَ [سَلَامَةُ] القسِّ لأنَّ عبد الرحمن بن عبدالله بن أبي عَمَّار أحد بني جُشَم بن معاوية بن بُكَيْر كان فقيهاً عابداً مجتهداً في العبادة، وكان يسمّى القسِّ لعبادته، مر يوماً بمنزل مولاها فسمع غناءها فوقف يسمعه، قرأه مولاها فقال له: هل لك أن تنظر وتسمع؟ فأبى، فقال: أنا أقعدها بمكان لا تراها وتسمع غناءها، فدخل معه ففتته، فأعجبه غناؤها، ثم أخرجها مولاها إليه فشغف بها وأحبها وأحبته هي أيضاً، وكان شاباً جميلاً. فقالت له يوماً (١٢٣/٥) على خلوة: أنا واللّه أحبك! قال: وأنا واللّه أحبك! قالت: وأحب أن أضع بطني على بطنك! قال: وأنا واللّه! قالت: فما يمنحك؟ قال: قول الله تعالى ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وأنا أكره أن تؤول خلتي إلى عداوة؛ ثم قام وانصرف عنها وعاد إلى عبادته، وله فيها أشعار، منها

أَلَمْ تَرَهَا لَا يُعْبِدُ اللَّهَ دَارَهَا إِنْ طُرِفَتْ فِي صَوْتِهَا كَيْفَ تَصْنَعُ
تَعْدُ نِظَامَ الْقَوْلِ ثُمَّ تَرْقَهُ إِلَى صَلَاحٍ مِنْ صَوْتِهَا يَتَرَجَّعُ
وَلَهُ فِيهَا:

أَلَا قُلْ لِهَذَا الْقَلْبِ هَلْ أَنتَ مُبْصِرٌ وَهَلْ أَنتَ عَنْ سَلَامَةِ الْيَوْمِ مُفْضِرٌ
أَلَا لَيْتَ أَتَى حَيْثُ صَارَتْ بِهَا السَّوَى جَلِيسٌ لِسَلْمَى كَلَّمَا عَجَّ مِرْزَهْرُ

ومولده سنة خمس وعشرين، سكن الشام، (الْجُنْدَعِيُّ بضم الجيم، والدال المهملة المفتوحة، والنون). وعراك بن مالك الْفَارِيُّ والد خَيْثَم بن عِرَاك. ومورق الْعِجْلِيُّ. (١٢٧/٥)

سنة ست ومائة

ذكر الوقعة بين مُضَرَّ واليمن بخراسان

قيل: وفي هذه السنة كانت الوقعة بين المضربة والبماينة بالبروقان من أرض بَلْخ.

وكان سبب ذلك أنَّ مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرعة غزا فقبلاً النَّاسُ عنه، وكان مَنَّ بَطْناً عنه الْبَخْتَرِيُّ بن درهم، فردَّ مسلمٌ نصرَ بن سَيَّار وبلغَاءَ بن مُجَاهِد وغيرهما إلى بلخ فأمرهما أن يُخرجوا النَّاسَ، فأحرق نصر باب الْبَخْتَرِيِّ وزِيَاد بن طَرْيف الْبَاهَلِيُّ، فمتنعهم عمرو بن مسلم؟ أخو قُتَيْبَةَ دخول بلخ وكان عليها، وقطع مسلم بن سعيد النهر، ونزل نصر بن سَيَّار الْبَرُوقَانَ، وأنه أهل الصَّغَانِيَّانِ ومُسْلِمَةَ التَّمِيمِيِّ وحَسَّانَ بن خَالِدِ الْأَسَدِيِّ وغيرهما، وتجمعت ربيعة والأزد بالبروقان على نصف فرسخ من نصر، وخرجت مُضَرَّ إلى نصر، وخرجت ربيعة والأزد إلى عمرو بن مسلم بن عمرو، وأرسلت تغلب إلى عمرو بن مسلم: إنك منَّا، وأنشدوه شعراً قال رجل غزا باهلة إلى تغلب، وكان بنو قُتَيْبَةَ من باهلة، فلم يقبل عمرو ذلك، وسفر الضَّحَّاك بن مزاحم ويزيد بن الْمُفَضَّلِ الْحَذَانِيِّ في الصلح وكلما نصراً، فأنصرف، فحصل أصحابُ عمرو بن مسلم والْبَخْتَرِيُّ على نصر، وكرَّ نصر (١٢٨/٥) عليهم، فكان أول قتيل رجل من باهلة من أصحاب عمرو بن مسلم في ثمانية عشر رجلاً، وإنهزم عمرو وأرسل يطلب الأمان من نصر، فأمنه، وقيل: أصابوا عَمراً في طاحونة فأتوا به نصراً وفي عنقه جيل، فأمنه وضربه مائة وضرب الْبَخْتَرِيُّ وزِيَاد بن طَرْيف مائة مائة وحلق رؤوسهم ولحاهم والبسهم المسوح.

وقيل إنَّ الهزيمة كانت أولاً على نصر ومن معه من مُضَرَّ، فقال عمرو بن مسلم لرجل معه من تميم: كيف ترى أستاذ قومك يا أخا تميم؟ يغيره بذلك. ثم كرَّت تميم فهزمت أصحاب عمرو، فقال التميميُ لعمرو: هذه أستاذة قومي. وقيل: كان سبب انهزام عمرو أنَّ ربيعة كانت مع عمرو فقتل منهم ومن الأزد جماعة، فقالت ربيعة: علام نقاتل إخواننا وأمرنا وقد تقرَّبنا إلى عمرو فأنكر قرباننا؟ فاعتزلوا، فانهزمت الأزد وعمرو ثم آمنهم نصر وأمرهم أن يلحقوا مسلم بن سعيد.

ذكر غزو مسلم الترك

ثم قطع مسلم النهر ولحق به مَنْ لحق من أصحابه، فلمَّا بلغ بخارى أنه كتاب خالد بن عبدالله بولايته العراق وبأمره بإتمام

مدائن وحصون وراء بَلَنْجَر ففتح بعض ذلك وأصاب غنائم كثيرة. وفيها كانت غزوة سعيد بن عبد الملك أرض الروم، فبعث سرية في نحو ألف مقاتل فأصيبوا جميعاً.

وفيها غزا مسلم بن سعيد الْكَلَابِيَّ أميرُ خراسان الترك بما وراء النهر، فلم يفتح شيئاً وقفل، فتبعه الترك فلحقوه والناس يعبرون جَبَّيْحُونَ، وعلى الساقة عبدالله بن زُهَيْر بن حَيَّان على خيل تميم، فحاموا حتى عبر الناس. وغزا مسلم أفشين فصالح أهلها على ستة آلاف رأس ودفع إليه القلعة، وذلك لتمام خمس ومائة بعد موت يزيد بن عبد الملك.

وفيها غزا مروان بن محمد الصائفة اليمنى فافتتح قونية من أرض الروم وكمخ. (١٢٦/٥).

وحجَّ بالناس هذه السنة إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك، فأرسل إلى عطاء: متى أحطب؟ قال: بعد الظهر قبل التروية بيوم، فخطب قبل الظهر وقال: أخبرني رسولي عن عطاء، فقال عطاء: ما أمرته إلا بعد الظهر، فاستحيا.

وكان هذه السنة على المدينة ومكة والطائف عبد الواحد النضري. وكان على العراق وخراسان عمر بن هُبَيْرَة. وكان على قضاء الكوفة حسين بن حسن الكندي. وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس.

في هذه السنة مات كثير غزاة. وعكرمة مولى ابن عباس، وكان عكرمة زوج أم سعيد بنت جُبَيْر. وفيها مات حُثَيْد بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل سنة خمس وتسعين، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة. وفيها توفي الضَّحَّاك بن مزاحم.

وفيها توفي عبيد بن حسين وهو ابن خمس وسبعين سنة. وأبو رَجَاءَ الْمُطَارِدِيُّ، وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ، وله تسعون سنة، واسمه عبدالله بن حبيب بن ربيعة.

وفيها توفي عبدالله بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أمه صفية أخت المختار، وأوصى إليه أبوه.

وفيها توفي أخوه عبدالله بن عبدالله بن عمر، وهو أخو سالم لأمه، أمهما أم ولد. في أيام يزيد بن عبد الملك توفي أبان بن عثمان بن عفان، وكان قد فليج.

وفيها توفي عُمارة بن خُزَيْمَة بن ثابت الأنصاري، وله خمس وسبعون سنة.

وفي أيام يزيد بن عبد الملك مات المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. وعطاء بن يزيد الْجُنْدَعِيُّ اللَّيْثِيُّ،

غزاته. فسار إلى فرغانة، فلمّا وصلها بلغه أنّ خاقان قد أقبل إليه وأنّه في موضع ذكره، فارتحل، فسار ثلاث مراحل في يوم، وأقبل إليهم خاقان فلقى طائفة من المسلمين وأصاب دوابّ لمسلم وقتل جماعة من المسلمين، وقتل المسيب بن بشر الرياحي (١٢٩/٥) والبراء، وكان من فرسان المهلب، وقتل أخوه غوزك وثار الناس في وجوههم فأخرجوهم من العسكر، ورحل مسلم بالناس، فسار ثمانية أيام وهم مطيفون بهم، فلمّا كانت التاسعة أرادوا النزول فشاوروا الناس، فأشاروا به وقالوا: إذا أصبحنا وردنا الماء [والماء] منّا غير بعيد، فنزلوا ولم يرفعوا بناء في العسكر، وأحرق الناس ما تُقَل من الآتية والأمتعة، فحرقوا ما قيمته ألف ألف، وأصبح الناس فساروا فورداو النهر وأهل فرغانة والشاش دونه، فقال مسلم بن سعيد: أعزم على كلّ رجل إلا اخترط سيفه، ففعلوا وصارت الدنيا كلّها سيوفاً، فتركوا الماء وعبروا.

فأقام يوماً ثمّ قطع من غد واتبعهم ابن لخاقان، فأرسل إليه حميد بن عبدالله، وهو على الساقة: قف لي فإنّ خلفي ماتني رجل من الترك حتّى أقاتلهم، وهو مقتل جراحة، فوقف الناس وعطف على الترك فقاتلهم وأسر أهل الصغد وقائدهم وقائد الترك في سبعة ومضى البقية، ورجع حميد فرمى بنشاب في ركبه فمات.

وعطش الناس، وكان عبد الرحمن العامري حمل عشرين قرية على إبله فسقاها الناس جرّعاً جرّعاً، واستسقى مسلم بن سعيد، فأخذه جابر أو حارثة بن كثير أخو سليمان بن كثير من فيه، فقال مسلم: دعوه فما نازعني شربي إلا من حرّ دخله. وأتوا خجندة، وقد أصابهم مجاعة وجهد، فانتشر الناس، فإذا فارسان يسألان عن عبد الرحمن بن نعيم، فأتياه بعهد (١٣٠/٥) على خراسان من أسد بن عبدالله أخيه خالد، فأقرأه عبد الرحمن مسلماً، فقال: سمعاً وطاعة. وكان عبد الرحمن أوّل من اتخذ الخيام في مفازة أمل.

قال الخنزرج التغلبي: قاتلنا الترك فأحاطوا بنا حتّى أبقنا بالهلاك، فحمل خوثره بن يزيد بن الحرّ بن الحثيف على الترك في أربعة آلاف فقاتلهم ساعة ثمّ رجع، وأقبل نصر بن سيار في ثلاثين فارساً فقاتلهم حتّى أزالهم عن مواضعهم فحمل عليهم الناس فانهزم الترك وخوثره، وهو ابن أخي رقة بن الحرّ.

قيل: وكان عمر بن هبيرة قال لمسلم بن سعيد حين ولّاه: ليكنّ حاجبك من صالح مواليك، فإنّه لسانك والمعبر عنك، وعليك بعمال العذر. قال: وما عمال العذر؟ قال: تأمر أهل كلّ بلد أن يختاروا لأنفسهم، فإن كان خيراً كان لك وإن كان شراً كان لهم دونك وكنت معذوراً.

وكان على خاتم مسلم بن سعيد توبة بن أبي سعيد، فلمّا ولي

أسد بن عبد الله خراسان جعله على خاتمه أيضاً.

ذكر حجّ هشام بن عبد الملك

وحجّ بالناس هذه السنة هشام بن عبد الملك، وكتب له أبو الزناد سنن الحجّ.

قال أبو الزناد: لقيتُ هشاماً، فإني لفي الموكب إذ لقيه سعيد بن عبدالله بن الوليد بن عثمان بن عفان، فسار إلى جنبه فسمعه يقول: يا أمير المؤمنين إنّ الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر على خليفته المظلوم، ولم يزلوا (١٣١/٥) يلعنون في هذه المواطن أبا تراب! فإنّها مواطن صالحه وأمير المؤمنين ينبغي له أن يلعنه فيها.

فشقّ على هشام قوله وقال له: ما قدما لستم أحد ولا للعه، قدما حجاجاً، ثمّ قطع كلامه وأقبل عليّ فسألني عن الحجّ، فأخبرته بما كتبت له، قال: وشقّ على سعيد أي سمعته تكلم بذلك وكان منكسراً كلّما رأيته.

ذكر ولاية أسد خراسان

قيل: وفي هذه السنة استعمل خالد بن عبدالله أخاه أسداً على خراسان فقدمها ومسلم بن سعيد [غاز] بفرغانة، فلمّا أتى أسد النهر ليقطعه منعه الأشهب بن عبيد التميمي، وكان على السفن بأمل، وقال: قد نهيت عن ذلك، فاعطاه ولاطفه، فأبى، قال: فإني أمير، فأذن له، فقال أسد: اعرفوا هذا حتّى نشكره في أمانتنا.

وأتى الصغد فنزل بالمرج، وعلى سمرقند هاني بن هاني، فخرج في الناس يلقي أسداً، فأراه على حجر فتفاهل الناس وقالوا: ما عند هذا خير، أسد على حجر. ودخل سمرقند وبعث رجلين معهما عهد عبد الرحمن بن نعيم على الجند، فقدموا وسألا عنه وسلمّا إليه العهد، فأتى به مسلماً فقال: سمعاً وطاعة. وقتل عبد الرحمن بالناس ومعه مسلم، فقدموا على أسد بسمرقند، فعزل هانئاً عنها واستعمل عليها الحسن بن أبي العمرة الكندي.

وقيل للحسن: إنّ الأتراك قد أتوك في سبعة آلاف. فقال: ما أثونا، (١٣٢/٥) نحن أتيناهم وغليناهم على بلادهم واستبعدناهم ومع هذا فلأدنين بعضكم من بعض ولأقرنن نواصي خيلكم بخيلهم، ثمّ سيهم ودعا عليهم، ثمّ خرج إليهم متباطئاً، فأغاروا ورجعوا سالمين. واستخلف على سمرقند ثابت قطنة، فخطب الناس، فأرتج عليه وقال: ومن يطع الله ورسوله فقد ضلّ؛ فسكت ولم ينطق بكلمة، وقال:

إن لم أكن فيكم خطيباً فإني بسيفي إذا جدد الرغى لخطيب

ف قيل له: لو قلت هذا على المنبر لكنت أخطب الناس؛ فقال حاجب القيل الإشكري يعبر حصرة:

وكان العامل على مكة والمدينة والطائف إبراهيم بن هشام المخزومي، وكان على العراق وخراسان خالد بن عبدالله القسريّ البجليّ، وكان عامل خالد على صلاة البصرة عُقبة بن عبد الأعلى، وعلى شرطتها مالك بن المنذر بن الجارود، وعلى قضائها ثُمّامة بن عبدالله بن أنس.

وحجّ بالناس هشام بن عبد الملك.

وفيها مات يوسف بن مالك مولى الحضرميين، وبكر بن عبدالله المُرَنيّ. (١٣٥/٥)

سنة سبع ومائة

ذكر ملك الجُنَيْد بعض بلاد السند وقتل صاحبه جيشه

في هذه السنة استعمل خالد القسريّ الجُنَيْد بن عبد الرحمن على السند، فنزل شطّ مهرا، فمنعه جيشه بن زاهر العبور وقال: إنّنا مسلمون، فقد استعملني الرجل الصالح، يعني عمر بن عبد العزيز، على بلادي ولست أملك، فأعطاها رهناً وأخذ منه رهناً بما على بلاده من الخراج، ثمّ أتتهما تارداً الرهن وكفر جيشه وحاربه، وقيل: لم يحاربه ولكنّ الجُنَيْد تجنّى عليه فأتى الهند فجمع وأخذ السفن، واستعدّ للحرب، فسار الجُنَيْد إليه في السفن أيضاً، فالتقوا، فأخذ جيشه أسيراً وقد جنحت سفينة قتله، وهرب أخوه صصّه إلى العراق ليشكو غدر الجُنَيْد، فخذعه الجُنَيْد حتّى جاء إليه فقتله.

وغزا الجُنَيْد الكيرج، وكانوا قد نقضوا، ففتحها عنوة وفتح أذربين والمالبة وغيرهما من ذلك الثغر. (١٣٦/٥)

ذكر غزوة عُثْبَةَ الفرنج بالأندلس

في هذه السنة غزا عُثْبَةُ بن سُحَيْم الكلبيّ عامل الأندلس بلد الفرنج في جمع كثير ونازل مدينة قَرْقُونة وحصر أهلها، فصالحوه على نصف أعمالها وعلى جميع ما في المدينة من أسرى المسلمين وأسلامهم وأن يعطوا الجزية ويلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه، فعاد عنهم عُثْبَةُ وتوفّي في شعبان سنة سبع ومائة أيضاً، وكانت ولايته أربع سنين وأربعة أشهر، ولما مات استعمل عليهم بشر بن صفوان يحيى بن سلمة الكلبيّ في ذي القعدة سنة سبع أيضاً.

ذكر حال الدعاة لبني العباس

قيل: وفيها وجّه بُكَيْر بن ماهان أبا عكرمة وأبا محمّد الصادق ومحمّد بن خنيس وعمّاراً العباديّ وزيّاداً خال الوليد الأزرق في عدّة من شيعتهم دعاةً إلى خراسان، فجاء رجل من كِنْدَةَ إلى أسد بن عبدالله فوشى بهم إليه، فأتى بأبي عكرمة ومحمّد بن خنيس وعمامة أصحابه، ونجا عمّار، فقطع أسد أيدي من ظفر به منهم

أيام العلاء لقد لاقيت مُعضلةً يوم العروبة من كرب وخنق كما هوى زلس من شاقّ النيق. لمارشك عُيُورُ الناس صاحبةً انشأت تجرّس لَمَاقِمتَ بالريق أما القرآن فلا تُهدى لِمُحْكَمَةٍ من القرآن ولا تُهدى لتوفيق

ذكر استعمال الحرّ على الموصل

في هذه السنة استعمل هشام الحرّ بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة على الموصل، وهو الذي بنى المقوشة داراً يسكنها، وإنّما سُمّيت المقوشة لأنّها كانت منقوشة بالساج والرخام والفصوص الملونة وما (١٣٣/٥) شاكلها، وكانت عند سوق القتّابين والشعّارين وسوق الأربعاء، وأمّا الآن فهي خربة تجاور سوق الأربعاء. وهذا الحرّ الذي عمل النهر الذي كان بالموصل. وسبب ذلك أنّه رأى امرأة تحمل جرّة ماء وهي تحملها قليلاً ثمّ تستريح قليلاً لُبعد الماء، فكتب إلى هشام بذلك، فأمر بحفر نهر إلى البلد، فحفروه، فكان أكثر شرب أهل البلد منه، وعليه كان الشارع المعروف بشارع النهر، وبقي العمل فيه عدّة سنين، ومات الحرّ سنة ثلاث عشرة ومائة.

ذكر عدة حوادث

في هذا السنة كلّ إبراهيم بن محمّد بن طلحة هشام بن عبد الملك وهو في الجحرج فقال له: أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظماً له إلا رددت عليّ ظلامي. قال: أي ظلامه؟ قال: داري. قال: فإين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: ظلمي. قال: فالوليد وسليمان؟ قال: ظلماني. قال: فعمرو؟ قال: يرحمه الله ردّها عليّ. قال: فيزيد بن عبد الملك؟ قال: ظلمني وقبضها مني بعد قبضي لها، وهي في يدك. فقال هشام: لو كان فيك ضرب لضربك. قال: في والله ضرب بالسيف والسيوط. فانصرف هشام [والأبرش خلفه] فقال: [أبا مجاشع] كيف سمعت هذا الإنسان؟ قال: ما أجوده! قال: هي قريش والسّتها، ولا يزال في الناس بقايا ما رأيت مثل هذا.

وفيها عزل هشام عبد الواحد النضريّ عن مكة والمدينة والطائف وولّى ذلك خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فقدم المدينة في جمادى الآخرة، فكانت ولاية النضريّ سنة وثمانية أشهر (١٣٤/٥).

وفيها غزا سعيد بن عبد الملك الصّافقة.

وفيها غزا الجراح بن عبدالله اللّان فصالح أهلها فأدوا الجزية.

وفيها ولّد عبد الصمد بن عليّ بن عبدالله بن عباس في رجب.

وفيها استقضى إبراهيم بن هشام على المدينة محمّد بن صفوان الجُمحيّ ثمّ عزله واستقضى الصلّت الكندي.

وصلبهم، وأقبل عَمَّارٌ إلى بُكَيْرِ بْنِ مَاهَانَ فَأَخْبِرَهُ [الخبر]، فكتب إلى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بِذَلِكَ، فَأَجَابَهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَّقَ دَعْوَتَكُمْ وَمَقَالَتَكُمْ وَقَدْ بَقِيَتْ مِنْكُمْ قَتْلَى سَقَتَل. (١٣٧/٥).

وفيهما قدم مسلم بن سعيد إلى خالد بن عبد الله، فكان أسد يكرمه بخراسان ولم يعرض له، فقدم مسلم وابن هُبَيْرَةَ يريد الهرب، فنهاه عن ذلك وقال: إن القوم فينا أحسن رأياً منكم فيهم.

وفيهما غزا أسد جبال نَمْرُونَ ملك غَرْثِيسْتَانَ ممَّا يلي جبال الطَّلَاقَان، فصالحه نمرون وأسلم على يده، وهم يتولَّون [اليوم] اليمن.

ذكر الخبر عن غزوة الغُور

قيل: وفي هذه السنة غزا أسد الغُور، وهي جبال هراة، فعمد أهلها إلى انقائهم فصيروها في كهف ليس إليه طريق، فأمر أسد باتخاذ توابيت ووضع فيها الرجال ودلَّاهُ بِسِلَاسِلٍ، فاستخرجوا ما قدروا عليه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل هشام الجراح بن عبد الله الحَكَمِيَّ عن أرمينية وأذربيجان واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك، فاستعمل عليها مسلمة الحارث (١٣٨/٥) ابن عمرو الطائي، فافتتح من بلد الترك رستاقاً وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً.

وفيهما نقل أسد مَنْ كَانَ بِالْبَرْوَقَانِ إِلَى بَلْخٍ مِنَ الْجَنْدِ وَأَقْطَعَ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ بِالْبَرْوَقَانِ بِقَدْرِ مَسْكَنِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ أَقْطَعَهُ مَسْكناً، وَأَرَادَ أَنْ يُنْزِلَهُمْ عَلَى الْأَخْمَاسِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّهُمْ يَتَعْصَبُونَ فَخَلَطَ بَيْنَهُمْ. وَتَوَلَّى بِنَاءَ مَدِينَةِ بَلْخِ بَرْمَكُ أَبُو خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ، وَبَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْبَرْوَقَانِ فَرَسَخَان.

وحجَّ بالناس هذه السنة إبراهيم بن هشام، وكان عمَّال الأمصار مَنْ تَقَدَّمَ ذَكَرَهُمْ فِي السَّنَةِ قَبْلُهَا.

وفيهما مات سليمان بن يسار وعمره ثلاث وسبعون سنة، وعطاء بن يزيد الليثي وله ثمان وتسعون سنة، وقد تقدَّم ذكر وفاته سنة خمس ومائة. (يسار بالياء المثناة من تحت وبالسین المهملة) (١٣٩/٥)

سنة ثمان ومائة

ذكر غزوة الختل والغُور

قيل: وفي هذه السنة قطع أسد النهر وأتاه خاقان فلم يكن بينهما قتال في هذه الغزوة، وقيل: عاد مهزوماً من الختل، وكان أسد قد أظهر أنه يريد أن يشتري سُرخَ ذَرَّةٍ، فأمر الناس فارتحلوا،

ثُمَّ عَادُوا مِنَ الْغَدِ فَاقْتَلُوا وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ وَحَوَى الْمُسْلِمُونَ عَسْكَرَهُمْ وَظَهَرُوا عَلَى الْبِلَادِ وَأَسْرَوْا وَسَبَوْا وَغَنِمُوا. وَقَدْ كَانَ أَصَابَ النَّاسَ جَوْعٌ شَدِيدٌ بِالْخَتْلِ، فَبِعَثَ اسْدُ بَكِشْتِينَ مَعَ غِلَامٍ لَهُ وَقَالَ: بَغْتُهُمَا بِخَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ. فَلَمَّا مَضَى الْغِلَامُ قَالَ اسْدُ: لَا يَشْتَرِيهِمَا إِلَّا ابْنُ الشُّخَيْرِ، وَكَانَ فِي الْمَسْلُحَةِ، فَدَخَلَ حِينَ أَمْسَى فَرَأَى الشَّائِئِينَ فِي السُّوقِ فَاشْتَرَاهُمَا بِخَمْسَمِائَةِ، فَذَبَحَ إِحْدَاهُمَا وَبِعَثَ بِالْأُخْرَى إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ، فَلَمَّا أَخْبَرَ الْغِلَامُ اسْدًا بِالْقِصَّةِ بَعَثَ إِلَى ابْنِ الشُّخَيْرِ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، وَهُوَ عَثَمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشُّخَيْرِ أَبُو مَعْرُوفٍ.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم ممَّا يلي الجزيرة ففتح قيسارية، وهي مدينة مشهورة.

وفيهما أيضاً غزا إبراهيم بن هشام ففتح حصناً من حصون الروم.

وفيهما وجَّه بُكَيْرُ بْنُ مَاهَانَ إِلَى خُرَاسَانَ جَمَاعَةً مِنْ شِيعَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ، مِنْهُمْ عَمَّارُ الْعِبَادِي، فَسَعَى بِهِمْ رَجُلٌ إِلَى اسْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرِ خُرَاسَانَ، فَأَخَذَ عَمَّاراً فَقَطَعَ يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ وَنَجَّى أَصْحَابَهُ فَوَصَلُوا إِلَى بُكَيْرٍ فَأَخْبِرُوهُ بِذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، فَأَجَابَهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَّقَ دَعْوَتَكُمْ وَنَجَّى شِيعَتَكُمْ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ سَنَةَ سَبْعٍ وَمِائَةٍ ذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ.

وفيهما: أَنَّ عَمَّاراً نَجَّى؛ وَفِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ: أَنَّ عَمَّاراً قُطِعَ، فَلِهَذَا أَعَدْنَا ذِكْرَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفيهما وقع الحريق بدابق فاحترق المرعى والدواب والرحال.

وفيهما سار (١٤١/٥) ابن خاقان ملك الترك إلى أذربيجان فحصر بعض مدنها، فسار إليه الحارث بن عمرو الطائي فالتقوا فاقتلوا

فانهزم الترك وتبعهم الحارث حتى عبر نهر أرس، فعاد إليه ابن خاقان فعادوا الحرب أيضاً، فانهزم ابن خاقان وقُتل من الترك خلق كثير. وفيها خرج عباد الرُّعَيْنِي باليمن محكماً، فقتله أميرها يوسف بن عمر وقتل أصحابه. وكانوا ثلاثمائة.

وفيها غزا معاوية بن هشام بن عبد الملك ومعه مَيْمُون بن مِهْرَان على أهل الشام فقطعوا البحر إلى قُبَرس، وغزا في البَرِّ مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان. وفيها كان بالشام طاعون شديد.

وحجَّ بالناس هذه السنة إبراهيم بن هشام وهو على المدينة ومكة والطائف. وكان العمال من تقدم ذكرهم في السنة قبلها.

وفيها مات محمد بن كعب القُرْظِي، وقيل سنة سبع عشرة، وقيل: إنه وُلد على عهد رسول الله، ﷺ.

وفيها مات موسى بن محمد بن علي بن عبد الله والد عيسى ببلاد الروم غازياً، وكان عمره سبعاً وسبعين سنة.

وفيها مات القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وكان عمره سبعين سنة، وقيل: اثنتين وسبعين سنة، وكان قد عمي، وقيل: مات سنة إحدى ومائة.

وفيها توفي أبو المتوكل علي بن داود الناجي. وأبو الصديق الناجي أيضاً، واسمه بكر بن قيس الناجي؛ (الناجي بالنون والجيم). وأبو نُضْرَة المنذر بن مالك بن قطعة النضري؛ (نضرة بالنون والضاد المعجمة). ومحارب بن دثار الكوفي قاضياً؛ (دثار بكسر الدال المهملة، والثاء المثناة). (١٤٢/٥)

سنة تسع ومائة

ذكر عزل خالد وأخيه أسد عن خراسان وولاية أشرس

قيل: وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله وأخاه عن خراسان.

وسبب ذلك أن أسداً تعصب حتى أسد الناس وضرب نصر بن سيار ونفراً معه بالسياط، منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحرّ والبخري بن أبي درهم وعامر بن مالك الجُماني، وحلقهم وسبهم إلى أخيه خالد وكتب إليهم أرادوا الوثوب بي. فلما قدموا على خالد لام أسداً وعنفه وقال: ألا بعث إلي برؤوسهم؟ فقال نصر:

بعثت بالعتاب في غير فنيرو في كساب تلوم أم تميم إن أكن موقناً أسيراً لنبيهم في موم وكربة وسبهم رهن قسر فما وجدت بلاء كإسار الكرام عبد اللئيم أبلغ المدعين قسراً وقسراً أهل عود القنلة ذات الرصوم

هل فطمت عن الخيانة والفد رَام اتسم كالحاكر المستنم (١٤٣/٥) وقال الفرزدق:

أخالد لولا الله لم تُعط طاعة ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصراً إذا للقيتم عند شد وثاقه بني الحرب لا كُشف اللقاء ولا ضجراً

وخطب يوماً أسد فقال: قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد اللهم فَرِّق بيني وبينهم وأخرجني إلى مهاجري ووطني.

فبلغ فعله هشام بن عبد الملك، فكتب إلى خالد: اعزل أخاك، فعزله، فرجع إلى العراق في رمضان سنة تسع ومائة، واستخلف على خراسان الحكم بن عروانة الكلبي، فأقام الحكم صيفية فلم يغز، ثم استعمل هشاماً أشرس بن عبد الله السلمي على خراسان وأمره أن يكتب خالد. وكان أشرس فاضلاً خيراً، وكانوا يسمونه الكامل لفضله، فلما قدم خراسان فرحوا به، واستقضى إبا المنازل الكندي ثم عزله واستقضى محمد بن زيد.

ذكر دُعاة بني العباس

قيل: أوّل من قدم خراسان من دُعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى همدان في ولاية أسد، فبعثه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وقال له: انزل في اليمن والطف مضراً، ونهاه عن رجل من نيسابور يقال له غالب لأنه كان مفرطاً في حبّ بني فاطمة، ويقال: أوّل من أتى خراسان بكتاب محمد بن علي خرب بن عثمان مولى بني قيس بن ثعلبة من أهل بلخ، فلما قدم زياد (١٤٤/٥) دعا إلى بني العباس وذكر سيرة بني أمية وظلمهم، وأطعم الناس الطعام، وقدم عليه غالب وتناظرا في تفضيل آل علي وآل العباس، وافترقا؛ وأقام زياد بمرور شتوة [وكان] يختلف إليه من أهلها يحيى بن عقيل الخزاعي وغيره.

فأخبر به أسد، فدعاه وقال له: ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: الباطل، إنما قدمت إلى تجارة وقد فرقت مالي على الناس، فإذا اجتمع خرجت. فقال له أسد: اخرج عن بلادي. فانصرف فعاد إلى أمره، فرفع أمره إلى أسد وخوف من جانبه، فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة ولم ينبج منهم إلا غلامان استصفرهما، وقيل: بل أمر بزياد أن يُوسَّط بالسيف، فضربوه بالسيف فلم يعمل فيه، فكبر الناس فقال أسد: ما هذا؟ قيل: نبا السيف عنه، ثم ضرب أخرى فبنا السيف عنه، ثم ضربه الثالثة فقطعه باثنتين، وعرض البراءة على أصحابه، فمَن تبرأ خلى سبيله، فتراثا اثنا فتركا وأبى البراءة ثمانية فقتلوا.

فلما كان الغد أقبل أحدهما إلى أسد فقال: أسألك أن تلحقني بأصحابي، فقتله، وذلك قبل الأضحى بأربعة أيام، ثم قدم بعدهم

سنة عشر ومائة

ذكر ما جرى لأشروس مع أهل سمرقند وغيرها

رجل من أهل الكوفة يسمّى كثيراً فنزل على أبي النجم، وكان يأتيه الذين لقوا زياداً، فكان على ذلك سنة أو سنتين، وكان أُمياً، فقدم عليه خدّاش، واسمه عمارة غلب عليه خدّاش، فغلب كثيراً على أمره.

وقيل في أمر الدعاة ما تقدّم. (١٤٥/٥)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا عبدالله بن عُقبة الفهريّ في البحر، وغزا معاوية بن هشام أرض الروم ففتح حصناً يقال له طيبة، فأصيب معه قوم من أهل أنطاكية.

وفيها قُتل عمر بن يزيد الأسديّ، قتله مالك بن المنذر بن الجارود، وسبب قتله أنه أبلى في قتال يزيد بن المهلب، فقال يزيد بن عبد الملك: هذا رجل العراق. فغاض ذلك خالد بن عبدالله وأمر مالك بن المنذر، وهو على شرط البصرة، أن يعظمه ولا يعصي له أمراً، وأقبل يطلب له عثرة يقتله بها، فذكر مالك بن المنذر عبد الأعلى بن عبدالله بن عامر فافتري عليه، فقال عمر بن يزيد: لا تغتر على مثل عبد الأعلى. فأغلظ له مالك وضربه بالسياط حتى قتله.

(الأسديّ بضمّ الهمزة، وتشديد الياء تحتها نقطتان).

وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك التّرك من ناحية أذربيجان فغنم وسبى وعاد سالماً.

وحجّ بالناس هذه السنة إبراهيم بن هشام، فخطب الناس فقال: اسألوني فإنكم لا تسألون أحداً أعلم مني. فسأله رجل من أهل العراق عن الأضحى أواجبة هي، فما درى ما يقول، فنزل، وكان هو العامل على المدينة ومكة والطائف، وكان على البصرة والكوفة خالد بن عبدالله القسريّ، وكان قد استخلف على الصلاة بالبصرة أبان بن صبرة اليثربيّ، وعلى الشرطة بها بلال (١٤٦/٥) ابن أبي بُرّة، وعلى قضائها ثمامة بن عبدالله بن أنس، وعلى خراسان أشروس.

وفي هذه السنة مات أبو ميّزلز لاحق بن حُميد البصريّ.

وفيها غزا بشر بن صفوان عامل إفريقية جزيرة صقلية فغنم شيئاً كثيراً ثم رجع من غزاته إلى القيروان وتوفى بها من سنتها، فاستعمل هشام بعده عبيدة بن عبد الرحمن بن أبي الأغر السلميّ، فعزل عبيدة يحيى بن سلمة الكلبيّ عن الأندلس واستعمل خذيفة بن الأخوص الأشجعيّ، فقدم الأندلس في ربيع الأول سنة عشر ومائة، فبقي والياً عليها ستة أشهر ثم عُزل، ووليها عثمان بن أبي نسعة الخثعميّ. (١٤٧/٥)

في هذه السنة أرسل أشروس إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية، وأرسل في ذلك أبا الصيّداء صالح بن طريف مولى بني ضبّة والربيع بن عمران التميمي. فقال أبو الصيّداء: إنّما أخرج على شريطة أنّ من أسلم لا تؤخذ منه الجزية، وإنّما أخرج خراسان على رؤوس الرجال. فقال أشروس: نعم. فقال أبو الصيّداء لأصحابه: فإنّي أخرج، فإن لم يغب العمال أعتمونني عليهم؟ قالوا: نعم. فشخص إلى سمرقند وعليها الحسن بن العمرّة الكنديّ على حريها وخراجها، فدعا أبو الصيّداء أهل سمرقند ومن حولها إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية، فسارع الناس، فكتب غوزك إلى أشروس أنّ الخراج قد انكسر. فكتب أشروس إلى ابن العمرّة: إنّ في الخراج قوة للمسلمين، وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة إنّما أسلموا تروّذاً من الجزية، فانظر، من اختنن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارع خراجهم.

ثم عزل أشروس بن العمرّة عن الخراج وصيّره إلى هانئ بن هانئ، فمنعهم أبو الصيّداء من أخذ الجزية ممّن أسلم فكتب هانئ إلى أشروس: (١٤٨/٥) إنّ الناس قد أسلموا وبنوا المساجد، فكتب أشروس إليه وإلى العمال: خذوا الخراج ممّن كنتم تأخذونه منه. فأعادوا الجزية على من أسلم. فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند، وخرج إليهم أبو الصيّداء وربيع بن عمران التميمي والهيثم الشيباني وأبو فاطمة الأزديّ وعامر بن قشير ويحيى الخجنديّ وبنان العنبري وإسماعيل بن عُقبة لينصروهم، فعزل أشروس ابن العمرّة عن الحرب واستعمل مكانه المجشّر بن مزاحم السلميّ على الحرب وضمّ إليه عميرة بن سعد الشيبانيّ.

فلما قدم المجشّر كتب إلى أبي الصيّداء يسأله أن يقدم عليه هو وأصحابه، فقدم أبو الصيّداء وثابت فُطنة، فحبسهما، فقال أبو الصيّداء: غدرتم ورجعتم عمّا قلتم. فقال هانئ: ليس بغدر ما كان فيه حقن الدماء؛ ثم سيّروه إلى أشروس، واجتمع أصحابه وولّوا أمرهم أبا فاطمة ليقاتلوا هانئاً، فقال لهم: كفّوا حتّى نكتب إلى أشروس، فكتبوا إليه، فكتب أشروس: ضعوا عليهم الخراج، فرجع أصحاب أبي الصيّداء وضعف أمرهم، فتبّع الرؤساء، فأخذوا وحملوا إلى مرو، وبقي ثابت محبوساً، فآلح هانئ في الخراج واستخفوا بعظماء العجم والدهاقين وأقيموا وخرقت نيابهم وألّفت مناطقهم في أعناقهم، وأخذوا الجزية ممّن أسلم [من الضّعفاء] فكفرت الصغد وبخارى واستجاشوا التّرك.

بنو أمية مشدوداً في الحديد. فحمل وحمل أصحابه، فرجع أصحابه وثبت هو، فرمي برذونه فشب، وضربه فاقدم، وضرب ثابت فارتث فقال وهو صريع: اللهم إني أصبحت ضيقاً لابن (١٥١/٥) بسطام وأمسيت ضيفك! فاجعل قراي منك الجنة! فقتلوه وقتلوا معه عدة من المسلمين، منهم: صخر بن مسلم بن النعمان العبدى، وعبد الملك بن دثار الباهلي، وغيرهما؛ وجمع قطن وإسحاق بن محمد بن حيان خيلاً من المسلمين تباعوا على الموت، فحملوا على العدو فقاتلهم فكشفوهم وركبهم المسلمون يقتلونهم حتى حجزهم الليل وتفرق العدو، وأتى أشرس بخارى فحصر أهلها.

(الحارث بن سريج بالسين المهملة والجيم)

ذكر وقعة كمرجة

ثم إن خاقان حصر كمرجة، وهي من أعظم بلدان خراسان، وبها جمع من المسلمين، ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطواف من أهل بخارى، فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي على الخندق. فأتاهم ابن خسروا بن يزدجرد فقال: يا معشر العرب لم تقتلون أنفسكم؟ أنا الذي جئت بخاقان ليرد علي مملكتي وأنا أخذ لكم الأمان. فشتموه. وأتاهم بازغرى في مائتين، وكان داهية، وكان خاقان لا يخالفه، فدنا من المسلمين بأمان وقال: لينزل إلي رجل منكم أكلّمه بما أرسلني به خاقان. فأحذروا يزيد بن سعيد الباهلي، وكان يفهم بالتركية سيرا، فقال له: إن خاقان أرسلني وهو يقول إني أجعل من عطاؤه منكم ستمائة ألفاً، ومن عطاؤه ثلاثمائة ستمائة، وهو (١٥٢/٥) يُحسن إليكم. فقال [له] يزيد: كيف تكون العرب وهم ذئاب مع الترك وهم شاء! لا يكون بيننا وبينهم صلح. فغضب بازغرى، وكان معه تركيان، فقالا: ألا تضرب عنقه؟ فقال: إنه نزل بأمان. وفهم يزيد ما قالاً فخاف فقال: بلى إنما تجعلونا نصفين فيكون نصفنا مع أئقنا ويسير النصف معكم، فإن ظفرتم فنحن معكم، وإن كان غير ذلك كنا كسائر مدائن الصغد. فرفضوا بذلك، وقال: أعرض على أصحابي هذا. وصعد في الحبل، فلما صار على السور نادى: يا أهل كمرجة اجتمعوا فقد جاءكم قوم يدعونكم إلى الكفر بعد الإيمان، فما ترون؟ قالوا: لا نجيب ولا نرضى. قال: يدعونكم إلى قتال المسلمين مع المشركين. قالوا: نموت قبل ذلك. فرد بازغرى.

ثم أمر خاقان بقطع الخندق، فجعلوا يلقون الحطب الرطب ويلقي المسلمون الحطب اليابس حتى سوي الخندق فأشعلوا فيه النيران وهاجت ريح شديدة صنعاً من الله فاحترق الحطب، وكانوا جموعه في سبعة أيام، في ساعة واحدة.

ثم فرق خاقان على الترك أغناماً وأمرهم أن يأكلوا لحماً ويحشوا جلودها تراباً ويكبسوا خندقها، ففعلوا ذلك، فأرسل الله

(١٤٩/٥) ولم يزل ثابت قنطة في حبس المجشّر حتى قدم نصر بن سيار إلى المجشّر والياً فحمّله إلى أشرس فحبسه، وكان نصر قد أحسن إليه؛ فقال ثابت يمدحه [بأبيات] يقول فيها:

ما هاج شوقك من نؤي وأحجار
إن كان ظني بصير صادقاً أبداً
لا يصرف الجند حتى يستغي بهم
إني وإن كنت من جند النبي نصرت
لذاكر منك أمراً قد سبقت به
ناضلت عني نضال الحر إذ قصر
وصار كل صديق كنت أمله
وما تلبست بالأمر الذي وقعوا
ولا عصيت إماماً كان طاعتك
وخرج أشرس غازياً فنزل أمل فأقام ثلاثة أشهر. وقدم قطن بن قتيبة بن مسلم فعبر النهر في عشرة آلاف، فأقبل أهل الصغد وبخارى معهم خاقان والترك، فحاصروا قطناً في خندقه، فأرسل خاقان من أغار على مسرح الناس، فأخرج أشرس ثابت قنطة بكفالة عبدالله بن بسطام بن مسعود بن عمرو، فوجهه مع عبدالله بن بسطام في خيل، فقاتلوا الترك بأمل حتى استنفذوا ما بأيديهم ورجع الترك (١٥٠/٥).

ثم عبر أشرس بالناس إلى قطن، وبعث أشرس سرية مع مسعود أحد بني حيان، فلقبهم العدو فقاتلهم، فقتل رجال من المسلمين وهزم مسعود فرجع إلى أشرس، وأقبل العدو، فلقبهم المسلمون فجالوا جولة فقتل رجال من المسلمين، ثم رجع المسلمون وصبروا فانهزم المشركون، وسار أشرس بالناس حتى نزل بيكند، فقطع العدو عنهم الماء وأقام المسلمون يوماً وليلة وعطشوا فرحلوا إلى المدينة التي قطع العدو [المياه] منها، وعلى المقدمة قطن بن قتيبة، فلقبهم العدو فقاتلهم فجهدوا من العطش، فمات منهم سبعمائة، فعجز الناس عن القتال، فحرض الحارث بن سريج الناس فقال: القتل بالسيف أكرم في الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً. وتقدم الحارث وقطن في فوارس من تميم فقاتلوا حتى أزالوا الترك عن الماء، فابتدته الناس فشبروا واستقوا.

ثم مر ثابت قنطة بعبد الملك بن دثار الباهلي فقال: هل لك في الجهاد؟ فقال: أمهلني حتى أغتسل وأتخط فوقف له حتى اغتسل ثم مضى، وقال ثابت لأصحابه: أنا أعلم بقتال هؤلاء منكم؛ وحرّضهم، فحملوا، واشتد القتال، فقال ثابت قنطة: اللهم إني كنت ضيف ابن بسطام البارحة فاجعلني ضيفك الليلة، والله لا ينظر إلي

وكانت مدة حصار كمرجه ثمانية وخمسين يوماً، فيقال: إنهم لم يسقوا إليهم خمسة وثلاثين يوماً.

ذكر ردة أهل كُرْدَر

في هذه السنة ارتد أهل كُرْدَر، فأرسل إليهم أشروس جنداً فظفروا بهم؛ فقال عَرْفَجَة:

ونحن كفينا أهل مرو وغيرهم ونحن نفينا الترك عن أهل كُرْدَر
فإن تجعلوا ما قد عننا لغيرنا فقد يظلم المرء الكريم فيصير
(١٥٥/٥)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة جمع خالد القسري الصلاة والأحداث والشُرط والقضاء بالبصرة لبلال بن أبي بكر وعزل ثمانية عن القضاء.

وفيها غزا مسلمة الترك من باب اللان، فلقى خاقان في جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر وأصابهم مطر شديد، فانهزم خاقان وانصرف ورجع مسلمة فسلك على مسلك ذي القرنين.

وفيها غزا معاوية الروم ففتح صملة.

وفيها غزا الصائفة عبد الله بن عقبة الفهري، وكان على جيش البحر عبد الرحمن بن معاوية بن حذئج، (بضم الحاء وفتح الدال المهملتين).

وحج بالناس إبراهيم بن إسماعيل. فكان العمال على البلاد هذه السنة من تقدم ذكرهم في السنة التي قبلها.

وفيها مات الحسن البصري وله سبع وثمانون سنة. ومحمد بن سيرين وهو ابن إحدى وثمانين سنة.

وفيها، أعني سنة عشر ومائة، مات الفرزدق الشاعر وله إحدى وتسعون سنة. وجريز [بن] الخطفي الشاعر. (١٥٦/٥)

سنة إحدى عشرة ومائة

ذكر عزل أشروس عن خراسان واستعمال الجُنَيْد

في هذه السنة عزل هشام أشروس بن عبد الله عن خراسان.

وكان سبب ذلك أن شداد بن خديج الباهلي شكاه إلى هشام، فعزله واستعمل الجُنَيْد بن عبد الرحمن على خراسان، وهو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة المرمي. وكان سبب استعماله أنه أهدى لأم حكيم بنت يحيى بن الحكم امرأة هشام قلادة في جوهر، فاعجبت هشاماً، فأهدى لهشام قلادة أخرى، فاستعمله وحمله على ثمانية من البريد، فقدم خراسان في خمسمائة وسار إلى ما وراء النهر وسار معه حطاب بن

سحابة فمطرت مطراً شديداً، فاحتمل السيل ما في الخندق وألقاه في النهر الأعظم. ورماهم المسلمون بالسهم فأصابت بازغرى نشابة في سرتة فمات في ليلته، فدخل عليهم بموته أمر عظيم. فلما امتد النهر جاؤوا بالأسرى الذين عندهم، وهم مائة، فيهم أبو العوجاء القنكي والحجاج بن حُمَيْد النضري، فقتلهم ورموا برأس الحجاج، وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلهم واستماتوا، واشتد القتال.

ولم يزل أهل كمرجه كذلك حتى أقبلت جنود العرب فنزلت فرغانة، (١٥٣/٥) فعبر خاقان أهل الصغد وفرغانة والشاش والداهقين وقال: زعمتم أن في هذه خمسين حماراً وأنا نفتحها في خمسة أيام فصارت الخمسة شهرين. وأمرهم بالرحيل وشتهم، فقالوا: ما ندع جهداً، فأحضرنا غداً وانظر ما نصنع. فلما كان الغد وقف خاقان وتقدم ملك الطارند فقاتل المسلمين فقتل منهم ثمانية، وجاء حتى وقف على ثلثة إلى جنب بيت فيه مريض من تميم، فرماه التميمي بكُلوْب، فتعلق بدرعه، ثم نادى النساء والصبيان فجدوه فسقط لوجهه، ورماه رجل بحجر فأصاب أصل أذنه فصرع، وطعمه آخر فقتله، فاشتد قتله على الترك.

وأرسل خاقان إلى المسلمين: إنه ليس من رأينا أن نرحل عن مدينه نحاصرها دون افتتاحها أو نرحلهم عنها. فقالوا له: ليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم. فأعطاهم الترك الأمان أن يرحل خاقان عنهم ويرحلوا هم عنها إلى سمرقند أو الدبوسية، فرأى أهل كمرجة ما هم فيه من الحصار فأجابوا إلى ذلك، فأخذوا من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وطلبوا أن كورصول التركي يكون معهم في جماعة ليمنعهم إلى الدبوسية، فسلموا إليهم الرهائن وأخذوا أيضاً هم من المسلمين رهائن، وارتحل خاقان عنهم، ثم رحلوا هم بعده، فقال الأتراك الذين مع كورصول: إن بالدبوسية عشرة آلاف مقاتل ولا نأمن أن يخرجوا علينا. فقال لهم المسلمون: إن قاتلوكم قاتلناهم معكم.

فساروا، فلما صار بينهم وبين الدبوسية فرسخ نظر أهلها إلى الفرسان فظنوا (١٥٤/٥) أن كمرجه فتحت وأن خاقان قد قصدهم فتنابها للحرب، فأرسل المسلمون إليهم يخبرونهم خبرهم، فالتقوهم وحملوا من كان يضعف عن المشي ومن كان مجروحاً. فلما بلغ المسلمون الدبوسية أرسلوا إلى من عنده الرهائن يعلمونه بوصولهم ويأمرونه بإطلاقهم، فجعلت العرب تطلق رجلاً من الرهن والترك رجلاً حتى بقي سباع بن النعمان مع الترك ورجل من الترك عند العرب، وجعل كل فريق يخاف من صاحبه الغدر، فقال سباع: خلوا رهينة الترك، فخلوه، وبقي سباع مع الترك، فقال له كورصول: ما حملك على هذا؟ قال: وثقت بك وقلت ترفع نفسك عن الغدر، فوصله كورصول وأعطاه سلاحه ويزوداً وأطلقه.

وفيها استعمل هشام الجراح بن عبد الله الحكمي على أرمينية وعزل أخاه مسلمة بن عبد الملك، فدخل بلاد الخزر من ناحية نغليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالماً، فجمعت الخزر وحشدت وسارت إلى بلاد الإسلام، وكان ذلك سبب قتل الجراح، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها عزل عبيدة بن عبد الرحمن، عامل إفريقية عثمان بن نسة عن الأندلس واستعمل بعده الهيثم بن عبيد الكناني، وقدمها في المحرم سنة إحدى عشرة ومائة، وتوفي في ذي الحجة من السنة، فكانت ولايته عشرة أشهر.

وحج بالناس هذه السنة إبراهيم بن هشام المخزومي، فكان العمال من تقدم ذكرهم إلا خراسان كان بها الجعيد، وكان بأرمينية الجراح بن عبد الله. (١٥٩/٥)

سنة اثني عشرة ومائة

ذكر قتل الجراح الحكمي

في هذه السنة قُتل الجراح بن عبد الله الحكمي. وسبب ذلك ما ذكرناه قبل من دخوله بلاد الخزر وانهزامهم، فلما هزمهم اجتمع الخزر والترك من ناحية اللان، فلقبهم الجراح بن عبد الله فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس، ففسر الفريقان، وتكاثر الخزر والترك على المسلمين، فاستشهد الجراح ومن كان معه بمرج أزدبيل، وكان استخلف أخاه الحجاج بن عبد الله على أرمينية.

ولما قُتل الجراح طمع الخزر وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل، وعظم الخطب على المسلمين.

وكان الجراح خيراً فاضلاً من عمال عمر بن عبد العزيز، ورثاه كثير من الشعراء. وقيل: كان قتله بيلنجر.

ولما بلغ هشاماً خبره دعا سعيداً الحرشي فقال له: بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركون. قال: كلاً يا أمير المؤمنين، الجراح أعرف بالله من أن يهزم ولكنه قُتل. قال: فما رأيك؟ قال: تبعني على أربعين دابة من دواب البريد، ثم تبعني إلى كل يوم أربعين رجلاً، ثم اكتب إلى أمراء (١٦٠/٥) الأجناد يوافقوني.

ف فعل ذلك هشام، وسار الحرشي، فكان لا يمر بمدينة إلا يستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد، ولم يزل كذلك حتى وصل إلى مدينة أرزن، فلقبه جماعة من أصحاب الجراح وبكوا ويكي لبكائهم وفرق فيهم نفقة ورتهم معه، وجعل لا يلقاه أحد من أصحاب الجراح إلا رده معه، ووصل إلى خيلاط، وهي ممتعة عليه، فحصرها أيضاً وقتحها وقسم غنائمها في أصحابه. ثم سار

مُحَرِّز السلمي خليفة أشرس بخراسان وقطعا النهر. وأرسل الجعيد إلى أشرس وهو يقاتل أهل بخارى والصغد: أن أمدني بخيل، وخاف أن يقطع دونه فوجه إليه أشرس عامر بن مالك الجماني، فلما كان عامر ببعض الطريق عرض له الترك والصغد، فدخل حائطاً حصيناً وقاتلهم على الثلثة ومعه ورد بن زياد بن أدهم بن كلثوم ابن أخي الأسود بن كلثوم وواصل بن عمرو القيسي. فخرج واصل وعاصم بن عمير السمرقندي معهما غيرهما فاستداروا حتى صاروا من وراء الماء الذي هناك. ثم جمعوا قصباً وخشباً وعبروا عليه، (١٥٧/٥) فلم يشعر خاقان إلا والتكبير من خلفه، وحمل المسلمون على الترك، فقاتلهم فقتلوا عظيماً من عظمائهم وانهزم الترك وسار عامر إلى الجعيد، فلقبه وأقبل معه، وعلى مقدمة الجعيد عمارة بن خرّيم، فلما انتهى إلى فرسخين من بيكند تلقته خيل الترك فقاتلهم، فكاد الجعيد يهلك ومن معه، ثم أظهره الله وسار حتى قدم العسكر، فظفر الجعيد وقتل الترك، وزحف إليه خاقان، فالتقوا دون رزمان من بلاد سمرقند، وقطن بن قتيبة على ساقة الجعيد. فأسر الجعيد من الترك ابن أخي خاقان في هذه الغزاة فبعث به إلى هشام.

وكان الجعيد قد استخلف في غزوته هذه مجشّر بن مزاحم السلمي على مرو، وولى سورة بن الحر التميمي بلخ، وأوفد لهما أصاب في وجهه هذا وفداً إلى هشام، ورجع الجعيد إلى مرو وقد ظفر، فقال خاقان: هذا غلام مترف هزمي العام وأنا مهلكه في قابل.

واستعمل الجعيد عماله ولم يستعمل إلا مضرباً، استعمل قطن بن قتيبة على بخارى، والوليد بن القعقاع العبسي على هراة، وخبیب بن مرة العبسي على شرطه، وعلى بلخ مسلم بن عبد الرحمن الباهلي، وكان عليها نصر بن سيار، وكان ما بينه وبين الباهليين متباعداً لَمَّا كان بينهم بالبروقان، وأرسل مسلم إلى نصر فصادفوه نائماً، فجأؤوا به في قميص ليس عليه سراويل ملتباً، فقال شيخ من مضر: جئتم به على هذه الحال! فغزل الجعيد مسلماً عن بلخ واستعمل يحيى بن ضبيقة، واستعمل على خراج سمرقند شداد بن خلد الباهلي. (١٥٨/٥)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية وغزا في البحر عبد الله بن أبي مريم. واستعمل هشام على عامة الناس من الشام ومصر الحكم بن قيس بن مخزومة ابن عبد المطلب بن عبد مناف.

وفيها سارت الترك إلى أذربيجان فلقبهم الحارث ابن عمرو فهزمهم.

فعادوا إلى القتال وصدقوهم الحملة، واستغاث من مع الخزر من الأسارى ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء، فعندها حرّص المسلمون بعضهم بعضاً ولم يبق أحد إلا وبكى رحمة للأسرى، واشتدّت نكايتهم في العدو، فولّوا الأدبار. (١٦٢/٥) منهزمين، وتبعهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر أرس، وعادوا عنهم وحووا ما في عسكرهم من الأموال والغنائم، وأطلقوا الأسرى والسبائا وحملوا الجميع إلى باجروان.

ثم إنّ ابن ملك الخزر جمع من لحق به من عساكره وعاد بهم نحو الحرشي فنزل على نهر التيلقان، وبلغ الخبر إلى الحرشي فسار نحوه في عساكر المسلمين فوافاهم وهم على نهر التيلقان، فالتقوا هناك فصاح الحرشي بالناس، فحملوا حملة صادقة ضعضعوا صفوف الخزر، وتابع الحملات وصبر الخزر صبراً عظيماً ثم كانت الهزيمة عليهم، فولّوا الأدبار منهزمين وكان من غرق منهم في النهر أكثر ممّن قُتل.

وجمع الحرشي الغنائم وعاد إلى باجروان فقسمها، وأرسل الخمس إلى هشام بن عبد الملك وعرفه ما فتح الله على المسلمين، فكتب إليه هشام يشكره. وأقام يساجروان، فاتاه كتاب هشام يأمره بالمصير إليه، واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك على أرمينية وأذربيجان، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاز الباب في آثارهم.

ذكر وقعة الجنيّد بالشعب

في هذه السنة خرج الجنيّد غازياً يريد طخارستان، فوجّه عُمارة بن حُرَيْم إلى طخارستان في ثمانية عشر ألفاً، ووجّه إبراهيم بن بسّام الليثي في عشرة آلاف إلى وجه آخر، وجاشت الترك فأتوا سمرقند وغلّوها بسورة بن الحرّ، فكتب سورة إلى الجنيّد: إنّ خاقان جاش الترك فخرجت إليهم (١٦٣/٥) فلم أطق [أن] أمنع حائط سمرقند، فالغوث الغوث!

فأمر الجنيّد الناس بعبور النهر، فقام إليه المجشّر بن مُزاحم السلمي وابن بسطام الأزدي وغيرهما وقالوا: إنّ الترك ليسوا كغيرهم لا يلقونك صفّاً ولا زحفاً وقد فرقت جندك، فمسلم بن عبد الرحمن بالتيروز، والبختري بهراة، وعُمارة بن حُرَيْم غائب بطخارستان، وصاحب خراسان لا يعبر النهر في أقلّ من خمسين ألفاً، فكتب إلى عُمارة فليأتك وامهل ولا تعجل. قال: فكيف بسورة ومن معه من المسلمين؟ لو لم أكن إلا في بني مرة أو من طلع معي من الشام لعبرت؛ وقال شعراً:

ليس أحقّ الناس أن يشهد الوغى وإن يقتل الأبطال ضحماً على ضخم وقال:

عن خلاط وفتح الحصون والقلاع شيئاً بعد شيء إلى أن وصل إلى برّذعة فنزلها.

وكان ابن خاقان يومئذ بأذربيجان يُغيّر وينهب ويسبي ويقتل وهو محاصر مدينة ورشان، فخاف الحرشي أن يملكها، فأرسل بعض أصحابه إلى أهل ورشان سرّاً يعرفهم وصولهم ويأمرهم بالصبر، فسار القاصد، ولقيه بعض الخزر فأخذه وسأله عن حاله، فأخبرهم وصدقهم، فقالوا له: إنّ فعلت ما نأمرك به أحسنًا إليك وأطقتك وإلا قتلناك. قال: فما الذي تريدون؟ قالوا: تقول لأهل ورشان إنّكم ليس لكم مدد ولا من يكشف ما بكم، وتأمروهم بتسليم البلد إلينا. فأجابهم إلى ذلك.

فلما قارب المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه فقال لهم: اتعرفوني؟ قالوا: نعم أنت فلان. قال: فإنّ الحرشي قد وصل إلى مكان كذا في عساكر كثيرة، وهو يأمركم بحفظ البلد والصبر، فسي هذين اليومين يصل إليكم. فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل.

وقتل الخزر ذلك الرجل ورحلوا عن مدينة ورشان، فوصلها الحرشي في العساكر وليس عندها أحد. فارتحل يطلب الخزر إلى أردبيل، فسار الخزر (١٦١/٥) عنها ونزل الحرشي باجروان، فاتاه فارس على فرس أبيض فسلم عليه وقال له: هل لك أيها الأمير في الجهاد والغنيمة؟ قال: كيف لي ذلك؟ قال: هذا عسكر الخزر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت من المسلمين أسارى أو سبائا وقد نزلوا على أربعة فراسخ.

فسار الحرشي ليلاً فوافاهم آخر الليل وهم نيام، ففرّق أصحابه في أربع جهات فكبسهم مع الفجر ووضع المسلمون فيهم السيف، فما بزغت الشمس حتى قتلوا أجمعون غير رجل واحد، وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان، فلما دخلها أتاه ذلك الرجل صاحب الفرس الأبيض فسلم وقال: هذا جيش للخزر ومعهم أموال للمسلمين وحرم الجراح وأولاده مكان كذا. فسار الحرشي إليهم، فما شعروا إلا والمسلمون معهم فوضعوا فيهم السيف فقتلوه كيف شاؤوا، ولم يفلت من الخزر إلا الشريد، واستنقذوا من معهم من المسلمين والمسلمات وغنما أموالهم، وأخذ أولاد الجراح فأكرمهم وأحسن إليهم، وحمل الجميع إلى باجروان.

وبلغ خبر ما فعله الحرشي بعساكر الخزر إبن ملكهم، فوئخ عساكره وذمهم ونسبهم إلى العجز والوهن، فحرّض بعضهم بعضاً وأشاروا عليه بجمع أصحابه والعود إلى قتال الحرشي. فجمع أصحابه من نواحي أذربيجان، فاجتمع معه عساكر كثيرة، وسار الحرشي إليه فالتقيا بأرض برزند، واقتل الناس أشدّ قتال وأعظمه، فأنحاز المسلمون يسيراً، فحرّضهم الحرشي وأمرهم بالصبر،

والناس يقتلون فقال لها: كيف أنت إذا أتيت [بأبي ضمرَةً] في لبد مضرَجاً بالدم؟ فسُتت جيبها ودعت بالويل؛ فقال لها: حسبك، لو أعولت عليّ كل أنثى لعصبتها شوقاً إلى الحور العين! فرجع وقاتل حتى استشهد، رحمه الله.

فبينما الناس كذلك إذ أقبل رَهَجٌ وطلعت فرسان، فنادى منادي الجنيّد: الأرضُ الأرضُ! فترجّل وترجّل الناس، ثم نادى: ليخسّدق كلّ قائد على حياله، فخذقوا وتحاجزوا، وقد أصيب من الأزد مائة وتسعون رجلاً. وكان قتالهم يوم الجمعة، فلمّا كان يوم السبت قصدهم خاقان وقت الظهر فلم ير موضعاً للقتال أسهل من موضع بكر بن وائل، وعليهم زياد بن الحارث، فقصدهم، فلمّا قربوا حملت بكر عليهم فأفرجوا لهم، فسجد الجنيّد واشتدّ القتال بينهم.

ذكر مقتل سورة بن الحرّ

فلمّا اشتدّ القتال ورأى الجنيّد شدّة الأمر استشار أصحابه، فقال له عبيد الله بن حبيب: اختر إمّا أن تهلك أنت أو سورة بن الحرّ. قال: هلاك سورة أهون عليّ. قال: فاكبت إليه فليأتك في أهل سمرقند، فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجّهوا إليه فقاتلوه. فكتب إليه الجنيّد يأمره بالقدوم. وقال خلّيس بن غالب الشيباني: إنّ الترك بينك وبين الجنيّد، فإن خرجت كروا (١٦٦/٥) عليك فاختطفوك. فكتب إلى الجنيّد: إني لا أقدر على الخروج. فكتب إليه الجنيّد: يا ابن اللخنة اخرج وإلا وجهت إليك شذاد بن خلّيد الباهلي، وكان عدوه، فاخرج الزم الماء ولا تفارقه، فأجمع على المسير وقال: إذا سرت على النهر لا أصل في يومئذٍ وبينه وفي هذا الوجه ليلة، فإذا سكت الرجل سرت.

فجاءت عيود الأتراك فأخبروهم بمقالة سورة، ورحل سورة واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الخطلي، وسار في اثني عشر ألفاً، فأصبح على رأس جبل، فلقاه خاقان حين أصبح وقد سار ثلاثة فراسخ بينه وبين الجنيّد فرسخ فقاتلهم، فاشتدّ القتال وصبروا. فقال غوزك لخاقان: اليوم حارٌّ فلا نقاتلهم حتى يحمى عليهم السلاح، فوافقهم وأشعل النار في الحشيش وحال بينهم وبين الماء، فقال سورة لعباده ما ترى يا أبا سليم؟ فقال: أرى أنّ الترك يريدون النغمة فاعقر الدواب واحرق المتاع وجرد السيف، فإنهم يخلون لنا الطريق، وإن منعونا شرعنا الرماح ونزحف زحفاً، وإتّما هو فرسخ حتى نصل إلى العسكر. فقال: لا أقوى على هذا ولا فلان وفلان، وعدّ رجالاً، ولكن أجمع الخيل فاصكهم بها سلمت أم غطيت.

وجمع الناس وحملوا، فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا ومن وراء الترك لهيب فسقطوا فيه، وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذة وتفرّق الناس، فقتلهم الترك ولم ينج

ما عتسي ما عتسي إن لم أقتلهم فجزوا المتسي وعبر الجنيّد فنزل كثر وتألّب للمسير، وبلغ الترك فغزروا الآبار التي في طريق كثر، فقال الجنيّد: أيّ طريق إلى سمرقند أصح؟ فقالوا: طريق المحترقة. فقال المجشّر: القتل بالسيف أصح من القتل بالنار، طريق المحترقة كثير الشجر والحشيش ولم يُززع منذ سنين، فإن لقينا خاقان أحرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان، ولكن خذ طريق العقبة فهو بيننا وبينهم سواء. فأخذ الجنيّد طريق العقبة فارتقى في الجبل، فأخذ المجشّر بعنان دابته وقال: إنه كان يقال إنّ رجلاً مترقاً من قيس يهلك على يديّ جند من جنود خراسان وقد خفنا أن تكونه. قال: يُفرج روعك. قال: أمّا ما كان بيننا مثلك فلا. فبات في أصل العقبة ثم سار بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربعة فراسخ (١٦٤/٥) ودخل الشعب، فصاحبه خاقان في جمع عظيم، وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك، فحمل خاقان على المقدمة، وعليها عثمان بن عبد الله بن الشخير، فرجعوا إلى العسكر والترك تبعهم وجاؤوهم من كلّ وجه، فجعل الجنيّد تيمماً والأزد في الميمنة، وربيعة في الميسرة ممّا يلي الجبل، وعلى مجففة خيل بني تميم عبيد الله بن زهير بن حيّان، وعلى المجردة عمرو بن جرقاش المؤنقري، وعلى جماعة بني تميم عامر بن مالك الجماني، وعلى الأزد عبد الله بن بسطام بن مسعود بن عمرو، وعلى المجففة والمجرّة فضيل بن هناد وعبد الله بن حوذان.

فالتقوا، وقصد العدو الميمنة لضيق الميسرة، فترجّل حسّان بن عبيد الله بن زهير بين يديّ أبيه، فأمره أبوه بالركوب، فركب، وأحاط العدو بالميمنة، فأمدّهم الجنيّد بنصر بن سيار، فشدّ هو ومن معه على العدو فكشفوهم، ثم كروا عليهم وقتلوا عبيد الله بن زهير وابن جرقاش والفضيل بن هناد، وجالت الميمنة والجنيّد واقف في القلب، فأقبل إلى الميمنة ووقف تحت راية الأزد، وكان قد جفاهم، فقال له صاحب الراية: ما هلكنا لتركنا ولكنك علمت أنه لا يوصل إليك ومنا رجل حيّ، فإن ظفرنا كان لك، وإن هلكنا لم تلبك علينا. وتقدّم فقتل، وأخذ الراية ابن مُجاعة فقتل، وتداولها ثمانية عشر رجلاً فقتلوا، وقتل يومئذ من الأزد ثمانون رجلاً.

وصبر الناس يقاتلون حتى أعيوا، فكانت السيوف لا تقطع شيئاً، فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به حتى ملّ الفريقان، فكانت المعانقة ثم تحاجزوا. وقتل من الأزد عبد الله بن بسطام، ومحمد بن عبد الله بن حوذان، والحسن بن شيخ، والفضيل صاحب الخيل، ويزيد بن الفضل الحداني، وكان قد حجّ فائق في حجّته ثمانين ومائة ألف، وقال لأمه: ادعي الله أن يرزقني الشهادة، فدعت له وغشي عليها، فاستشهد بعد مقدمه من الحجّ بثلاثة عشر (١٦٥/٥) يوماً، وقتل النضر بن راشد العبدّي، وكان قد دخل على أمراته

فلما سمع هشام مصاب سَورَة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مصاب سَورَة بخراسان ومصاب الجراح بالباب.

وابلى نصر بن سيار يومئذ بلاء حسناً. وأرسل الجنيد ليلة بالشعب رجلاً وقال [له]: تسمع ما يقول الناس وكيف حالهم. ففعل ثم رجع إليه فقال: رأيتهم طيبة أنفسهم، يتناشدون الأشعار ويقرأون القرآن. فسرّه ذلك.

قال عبيد بن حاتم بن النعمان: رأيت فساطيط بين السماء والأرض فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعبد الله بن بسطام وأصحابه، فقتلوا في غد، فقال رجل: مررت في ذلك الموضع بعد ذلك بحين فشمنت رائحة المسك.

وأقام الجنيد بسمرقند وتوجه خاقان إلى بخارى وعليها قطن بن قتيبة بن مسلم، فخاف الجنيد الترك على قطن بن قتيبة فشاوَر أصحابه فقال قوم: نلزم سمرقند. وقال قوم: نسير منها فنأتي رينجن، ثم كيش، ثم إلى نَسَف فتتصل منها إلى أرض رَم ونقطع النهر وننزل أمل فنأخذ عليه بالطريق.

فاستشار عبد الله بن أبي عبد الله مولى بني سُليم وأخبره بما قالوا فاشتراط (١٦٩/٥) عليه أن لا يخالفه فيما يشير به عليه من إرتحال ونزول وقتال، قال: نعم. قال: فإني أطلب إليك خصلاً. قال: وما هي؟ قال: تخذق حيث ما نزلت، فلا يفوتك حمل الماء ولو كنت على شاطئ نهر، وأن تطيعني في نزولك وإرتحالك. قال: نعم. قال: أما ما أشاروا عليك في مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث فالغياث يطعك، وأما ما أشاروا من طريق كيش ونَسَف فإنك إن سرت بالناس في غير الطريق فتت في أعضادهم وانكسروا عن عدوهم واجترأ عليك خاقان، وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له، فإن أخذت غير الطريق بلغ أهل بخارى ما فعلت فيستسلموا لعدوهم، وإن أخذت الطريق الأعظم هابك العدو، والرأي عندي أن تأخذ عيال من قتل مع سَورَة فتقسمهم على عاشورهم وتحملهم معك، فإني أرجو بذلك أن ينصرك الله على عدوك وتعطي كل رجل تخلف بسمرقند ألف درهم وفرساً.

فأخذ برأيه وخلف بسمرقند عثمان بن عبد الله بن الشخير في أربعمائة فارس وأربعمائة رجل. فشتم الناس عبد الله بن أبي عبد الله وقالوا: ما أراد إلا هلاكنا. فخرج الجنيد وحمل العيال معه وسرح الأشعث بن عبيد الحنظلي ومعه عشرة من الطلائع وقال: كلما مضت مرحلة تسرح إلي رجلاً يُعلمني الخبر. وسار الجنيد فأسرع السير، فقال له عطاء الدبوسي: انظر أضعف شيخ في العسكر فسألحه سلاحاً تاماً بسيفه ورمحه وترسه وجعبته ثم سرح على قدر مشيه، فإنا لا نقدر على سرعة المسير والقتال [ونحن رجالة]. ففعل الجنيد ذلك، ولم يعرض للناس عارض حتى خرجوا

منهم غير ألفين، ويقال ألف، وكان ممن نجا منهم عاصم بن غمير السمرقندي، واستشهد حُكيس بن غالب الشيباني، واتحاز المهلب بن زياد العجلي في سبعمائة إلى رستاق يسمى المرغاب فنزلوا قصرًا هناك، فاتاهم الأشكد صاحب نَسَف [في خيل] ومعه غوزك، فأعطاهم غوزك الأمان. فقال قريش بن عبد الله العبدي: لا تتقوا بهم، ولكن إذا جئنا الليل خرجنا عليهم حتى نأتي سمرقند. فعضوه فنزلوا بالأمان، فساقهم إلى خاقان فقال: لا أجزر أمان غوزك، فقاتلهم الوجد بن خالد والمسلمون فأصيبوا غير سبعة عشر رجلاً فقتلوا غير ثلاثة.

وقُتل سَورَة في اللَّهَب، فلما قُتل خرج الجنيد من الشعب يريد سمرقند مبادراً، فقال له خالد بن عبيد الله: سرح وأسرع. فقال له المجشر: انزل وخذ بلجام دابته، فنزل ونزل الناس معه، فلم يستم نزولهم حتى طلع الترك، فقال المجشر له: لو لقونا ونحن نسير ألم يهلكونا؟ فلما أصبحوا تناهضوا فجاء الناس، فقال الجنيد: أيها الناس إنها النار، فرجعوا، ونادى الجنيد: أي عبد قاتل فهو حر. فقاتل العبيد قتالاً عجب منه الناس، فسُروا بما رأوا من صبرهم وصبر الناس حتى انهزم العدو ومضوا، فقال موسى بن التمرء [للنَّاس]: تفرحون بما رأيتم من العبيد! إن لكم منهم ليوماً أروزيان.

ومضى الجنيد إلى سمرقند فحمل عيال من كان مع سَورَة إلى مرو وأقام بالصُّنْد أربعة أشهر. وكان صاحب رأي خراسان في الحرب المجشر بن مراحم وعبد الرحمن بن صبيح الخزقي وعبيد الله بن حبيب الهجري، وكان المجشر يُنزل الناس على أريائهم ويضع المسالحي ليس لأحد مثل رأيه في ذلك، وكان عبد الرحمن إذا نزل الأمر العظيم في الحرب لم يكن لأحد مثل رأيه، وكان عبيد الله على تعبية القتال. وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الرأي والمشورة والعلم بالحرب، فمنهم: الفضل بن بسام، مولى ليث، وعبد الله بن أبي عبد الله، مولى سُليم، والبختري بن مُجاهد، مولى شيبان.

فلما انصرف الترك بعث الجنيد نَهْز بن تَوْسعة، أحد بني تميم اللات، (١٦٨/٥) وزيل بن سُؤيد المري إلى هشام، وكتب إليه: إن سَورَة عصاني، أمرته بلزوم الماء فلم يفعل فضرقت عنه أصحابه فأتني طائفة [إلى كيش] وطائفة إلى نَسَف وطائفة إلى سمرقند وأصيب سَورَة في بقيّة أصحابه.

فسأل هشام نَهْز بن تَوْسعة عن الخبر فأخبره بما شهد، فكتب هشام إلى الجنيد: قد وجهت إليك عشرة آلاف من أهل البصرة، وعشرة آلاف من أهل الكوفة، ومن السلاح ثلاثين ألف رمح، ومثلها زينة، فأفرض فلا غاية لك في الفريضة لخمسة عشر ألفاً.

وحجَّ بالناس هذه السنة إبراهيم بن هشام المخزومي، وقيل: سليمان بن هشام بن عبد الملك.

وفيهما استعمل أهل الأندلس على أنفسهم بعد موت الهيثم أميرهم محمد بن (١٧٢/٥) عبد الملك الأشجعي، فبقي شهرين، وولي بعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وكان عمال الأمصار هذه السنة من ذكرناهم في السنة قبلها.

وفيهما مات رجاء بن حيوة بقسنين؛ (حيوة بالحاء المهملة المفتوحة، وسكون الياء المثناة من تحت).

وفيهما توفي مكحول أبو عبد الله الشامي الفقيه. وعبد الجبار بن وائل بن حُجر الحضرمي، ومات أبوه وأمه حامل به، فكل ما يروونه عن أبيه فهو منقطع. (١٧٣/٥)

سنة ثلاث عشرة ومائة

ذكر قتل عبد الوهاب

في هذه السنة قُتل عبد الوهاب بن بُخت، وكان قد غزا مع عبد الله البطال أرض الروم، فانهزم الناس عن البطال، فحمل عبد الوهاب وهو يقول: ما رأيتُ فرساً أجبن منك، سفك الله دمي إن لم أسفك دمك! ثم ألقى بيضته عن رأسه وصاح: أنا عبد الوهاب بن بُخت! أمن الجنة تغرون؟ ثم تقدم في نحر العدو، فمر برجل يقول: واعطشاه! فقال: تقدم، الري أمامك. فخالط القوم فقتل وقُتل فرسه.

ذكر غزوة مسلمة وعوده

وفيهما فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مدائن وحصون على يديه وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من وراء جبال بلنجر، وقتل ابن خاقان، فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وقد جاز مسلمة بلنجر فلما بلغه خبرهم أمر (١٧٤/٥) أصحابه فأوقدوا النيران ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة، وقدم الضعفاء وآخر الشجعان، وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل إلى الباب والأبواب في آخر رمق.

ذكر قتل عبد الرحمن أمير الأندلس

وولاية عبد الملك بن قطن

في هذه السنة، وهي سنة ثلاث عشرة ومائة، غزا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أمير الأندلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، وكان هشام بن عبد الملك قد استعمل عبيدة على إفريقية والأندلس سنة عشر ومائة، فلما قدم إفريقية رأى المستنير بن

من الأماكن المخوفة، ودنا من الطواويس، وأقبل إليه خاقان بكرمينيه أول يوم من رمضان واقتلوا، فأتاه عبد الله بن أبي عبد الله وهو يضحك، فقال الجنيذ: ليس هذا يوم ضحك. قال: الحمد لله الذي لم يلقك هؤلاء في جبال معطشة وعلى ظهر إنماتوك وأنت مخندق آخر النهار كآلين وأنت معك الزاد، فقاتلوا قليلاً ثم رجعوا. ثم قال للجنيذ: ارتحل (١٧٠/٥) فإن خاقان ود أنك تقيم فينطوي عليك إذا شاء.

فسار وعبد الله على الساقة، ثم أمره بالنزول فنزل، واستقى الناس وياتوا، فلما أصبحوا ارتحلوا، فقال عبد الله: إني أتوقع أن خاقان يصدم الساقة اليوم فشدوها بالرجال، فقوهم الجنيذ، وجاءت الترك فمالت على الساقة فاقتلوا فاشتد القتال بينهم وقتل مسلم بن أخوز عظيمًا من عظماء الترك، فتطيروا من ذلك وانصرفوا من الطواويس. وسار المسلمون فدخلوا بخارى يوم المهرجان فتلقوهم بالدرهم البخارية، فأعطاهم عشرة عشرة.

قال عبد المؤمن بن خالد: رأيتُ عبد الله بن أبي عبد الله في المنام بعد موته، فقال: حدثني الناس عني برأيي يوم الشعب.

وكان الجنيذ يذكر خالد بن عبد الله فيقول: زُبدة من الزيد، صُبُور من صُبُور، قُلْ من قُلْ، هيفة من الهيف. والهيفة: الضبيع، والقُل: الفرد، والصنبور: الذي لا أخ له، وقيل الملقق.

وقدمت الجنود من الكوفة على الجنيذ، فسرَّح معهم خُوْثرة بن زُيد العبيري فيمن انتدب معه. وقيل: إن وقعة الشعب كانت سنة ثلاث عشرة؛ وقال نصر بن سيار يذكر يوم الشعب:

إني نشأت وحُسادِي ذوو عُدُو يا ذا المعراج لا تنقص لهم عُدُو
إن تحصنوني على مثل البلاء لكم يوماً فمُتِلْ بلاتي جرّ لي الحسدا
يا أيُّ الإله الذي يقدرته كعبي عليكم وأعطى فوقكم عُدُو
كعبي عليكم وأعطى فوقكم عُدُو (١٧١/٥)

أرسي السُلْداء بأفراس مكلّمة حتى اتّخذن على حُسادهن يدا
من ذا الذي منكم في الشعب إذ وردوا لم يتخذ خومة الأتقال مُعتسدا
هلاً شهدتم دفاعي عن جديكم وقع القنا وشهاب الحرب قد وقدا
وقال ابن عرس يمدح نصرًا:

يا نصرُ أنت قنَى نزار كلّها قَلَك الماتر والقَمال الأرفع
فرجّت عن كلّ القبائل كزبة بالشعب حين تخاضعوا وتضععوا
يوم الجنيذ إذ القنا مشاجر والنحر دام والخوافس تلمس
مازلت ترميهم بنفس خورة حتى تَصْرَج جمهم وتصدعوا
فالناس كلُّ بعدما عتلاؤكم ولك المكارم والمعالي أجمع

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح خرّشنة.

بالموصل، وكانت بإزاء داره المعروفة بالمنقوشة، في ذي الحجة، واستعمل هشام مكانه الوليد بن تليد العسي، وأمره بالجد في إتمام حفر النهر في البلد، فشرع فيه واهتم بعمله.

وفيها غزا معاوية بن هشام أرض الروم فربط من ناحية مَرَعَش ثم رجع.

وفي هذه السنة سار جماعة من دُعاة بني العباس إلى خراسان، فأخذ الجُنْد رجالاً منهم فقتله وقال: مَنْ أصبَتْ منهم قدمه هدر.

وحجَّ بالناس هذه السنة سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقيل: إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، وكان العمال من تقدّم ذكرهم (١٧٧/٥)

سنة أربع عشرة ومائة

ذكر ولاية مروان بن محمد أرمينية وأذربيجان

في هذه السنة استعمل هشام بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان، وهو ابن عمّه، على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية.

وكان سبب ذلك أنه كان في عسكر مُسلمة بأرمينية حين غزا الخزر، فلما عاد مُسلمة سار مروان إلى هشام فلم يشعر به حتى دخل عليه، فسأله عن سبب قدومه فقال: ضيقتُ ذرعاً بما أذكره ولم أرَ من يحمله غيري! قال: وما هو؟ قال مروان: قد كان من دخول الخزر إلى بلاد الإسلام وقتل الجراح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين، ثم رأى أمير المؤمنين أن يوجّه أخاه مُسلمة بن عبد الملك إليهم، فوالله ما وطئ من بلادهم إلا أدناها، ثم إنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك فكتب إلى الخزر يؤذنههم بالحرب وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر، فاستعدّ القوم وحشدوا، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكايّة، وكان قصاره السلامة، وقد أردتُ أن تأذن لي في غزوة أذهب بها عنّا العار وأنقم من العدو. قال: قد أذنتُ لك. قال: وتمدّني بمائة وعشرين ألف مقاتل؟ قال: قد فعلتُ. قال: وتكتم هذا الأمر عن كلّ واحد؟ قال: قد فعلتُ، وقد استعملتك على أرمينية.

(١٧٨/٥) فودّعه وسار إلى أرمينية والياً عليها، وسيّر هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة، فاجتمع عنده من الجنود والمتطوعة مائة وعشرون ألفاً، فأظهر أنه يريد غزو اللان وقصد بلادهم، وأرسل إلى ملك الخزر يطلب منه المهادنة، فأجابه إلى ذلك وأرسل إليه من يقرّر الصلح، فأسك الرسول عنده إلى أن فرغ من جهازه وما يريد، ثم أغلظ لهم القول وأذنههم بالحرب، وسيّر الرسول إلى صاحبه بذلك ووكل به من يُسيّره على طريق فيه بُعد، وسار هو في أقرب الطرق، فما وصل الرسول إلى صاحبه إلا ومروان قد وافاهم، فأعلم صاحبه الخبر وأخبره بما قد جمع له

الحارث الحُرثي غازیاً بصقليّة، وأقام هناك حتّى هجم عليه الشتاء ثم قفل راجعاً، ففرق من معه وسلم المستنير في مركبه، فحبسه عبيدة عقوبة له وجلده وشهره بالقيروان.

ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله، فغزا إفرنجة وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة، وكان فيما أصاب رجلاً من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزمرد، فكسرها وقسمها في الناس. فبلغ ذلك عبيدة، فغضب غضباً شديداً، فكتب إليه يتهذّده، فأجابه عبد الرحمن، وكان رجلاً صالحاً: أما بعد فإنّ السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الله للمؤمنين منها مخرجاً. ثم خرج غازیاً ببلاد الفرنج هذه السنة، وقيل: سنة أربع عشرة، (١٧٥/٥) وهو الصحيح، فقتل هو ومن معه شهداء.

ثم إن عبيدة سار من إفريقية إلى الشام ومعه من الهدايا والإماء والعبيد والدواب وغير ذلك شيء كثير، واستغنى هشاماً، فأجابه إلى ذلك وعزله، وكان قد استعمل على الأندلس بعد قتل عبد الرحمن عبد الملك بن قطن.

ثم إن هشاماً استعمل على إفريقية بعد عبيدة عبيد الله بن الخثّاب، وكان على مصر، فسار عبيد الله إلى إفريقية سنة ست عشرة ومائة فأخرج المستنير من الحبس وولاه تونس.

ثم إن عبيد الله جهّز جيشاً مع حبيب بن أبي عبيدة وسيّره إلى أرض السودان فظفر بهم ظفراً لم يظفر أحد مثله وأصاب ما شاء، ثم غزا البحر ثم انصرف.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات عدي بن ثابت الأنصاري. ومعاوية بن قُرة بن إياس المُزني، والد إياس قاضي البصرة الذي يضرب بذكائه المثل.

وفيها توفي خرام بن سعيد بن مُحَيصة أبو سعيد، وعمره سبعون سنة.

(حرام بفتح الحاء المهملة، وبالراء المهملة ومُحَيصة بضم الميم، وفتح الحاء المهملة، وتشديد الياء المثناة من تحت، وبالصاد المهملة).

وفيها توفي طلحة بن مُصرّف الإيامي. وعبد الله بن عبيد الله بن غمير الليثي وعبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدري، (١٧٩/٥) ويكنى أبا جعفر، وعمره سبع وسبعون سنة. ووهب بن منبه الصنعاني، وكان أصغر [من] أخيه همام، وكانوا خمسة إخوة: همام ووهب وعيّلان وعقيل ومُعقل، وقيل: مات سنة عشر ومائة.

وفيها توفي الحرّ بن يوسف أمير الموصل ودُفن بمقابر قريش

مروان وحشد واستعدّ. فاستشار ملك الخزر أصحابه، فقالوا: إنّ هذا قد اغترّك ودخل بلادك، فإن أقمّت إلى أن تجمع لم يجتمع عندك إلى مدة فيبلغ منك ما يريد، وإن أنت لقيته على حالك هذه هزمك وظفر بك، والرأى أن تأخّر إلى أقصى بلادك وتدّعه وما يريد. فقبل رأيهم وسار حيث أمروه.

ودخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبى وانتهى إلى آخرها وأقام فيها عدة أيام حتّى أذلّهم وانتقم منهم، ودخل بلاد ملك السرير فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ودان له الملك وصالحه على ألف رأس وخمسمائة غلام وخمسمائة جارية سُود الشعور ومائة ألف مِذْي تحمّل إلى الباب، وصالح مروان أهل تومان على مائة رأس نصفين، وعشرين ألف مدي، ثمّ دخل أرض زريكيران، فصالحه ملكها، ثمّ أتى إلى أرض حمزين، فأبى حمزين أن يصالحه، فحصرهم فافتتح حصنهم، ثمّ أتى سُغْدَان فافتتحها صلحاً ووُظِف على طيرشانشاه عشرة آلاف مدي كلّ سنة تحمّل إلى الباب، (١٧٩/٥) ثمّ نزل على قلعة صاحب اللكّز، وقد امتنع من أداء الوظيفة، فخرج ملك اللكّز يريد ملك الخزر، فقتله راعٍ بسهم وهو لا يعرفه، فصالح أهل اللكّز مروان، واستعمل عليهم عاملاً، وسار إلى قلعة شُرْوان، وهي على البحر، فأذعن بالطاعة، وسار إلى الدودانية فأوقع بهم ثمّ عاد.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، فأصاب ريش أقرن، وأنّ عبد الله البطال التقى هو وقسطنطين في جمع، فهزمهم البطال وأسر قسطنطين.

وفيها غزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى، فبلغ قيسارية. وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك إبراهيم بن هشام المخزومي عن المدينة واستعمل عليها خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحَكَم في ربيع الأول، وكانت إمرة إبراهيم على المدينة ثمانية سنين، وعزل أيضاً إبراهيم عن مكة والطائف واستعمل عليها محمد بن هشام المخزومي، وقيل: بل ولّى محمداً سنة ثلاث عشرة، فلمّا عزل إبراهيم أقرّ محمد عليها.

وفيها وقع الطاعون بواسط. وفيها أقبل مسلمة بن عبد الملك بعدما هزم خاقان وأحكم ما هناك وبنى الباب.

وحجّ بالناس خالد بن عبد الملك بن الحارث، وقيل محمد بن هشام. وكان العمال من تقدّم ذكرهم في السنة قبلها، غير أنّ المدينة كان عاملها خالد بن عبد الملك، وعامل مكة والطائف محمد بن هشام، وعامل أرمينية وأذربيجان مروان بن محمد.

وفيها مات عطاء بن أبي رباح، وقيل سنة خمس عشرة، وعمره

ثمان (١٨٠/٥) وثمانون سنة، وقيل مائة سنة. وفيها توفي محمد بن عليّ بن الحسين الباقر، وقيل سنة خمس عشرة، وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة، وقيل ثمانياً وخمسين سنة. والحَكَم بن عُثَيِّب بن النّحاس أبو محمد، وهو مولى امرأة من كندة، ومولده سنة خمسين.

وفيها توفي عبد الله بن بُزَيْدَة بن الحُصَيْن الأسلمي قاضي مرو، وكان مولده لثلاث سنين مضت من خلافة عمر بن الخطّاب. (عُثَيِّب بضم العين، وفتح التاء فوقها نقطتان، وبعدها ياء مشاة من تحتها، وآخره باءٌ موحدّة. وبُزَيْدَة بضمّ الباء الموحّدة، وفتح الراء. والحُصَيْن بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين، وآخره باءٌ موحدّة.) (١٨١/٥)

سنة خمس عشرة ومائة

في هذه السنة غزا معاوية بن هشام أرض الروم. وفيها وقع الطاعون بالشام. وفيها وقع بخراسان قحط شديد، فكتب الجنيد إلى الكُوز بحمل الطعام إلى مرو، فأعطى الجنيد رجلاً درهماً فاشترى به رغيفاً، فقال لهم: أنشكون الجوع ورغيف بدرهم؟ لقد رأيتني بالهند وإنّ الحبة من الجوب لتباع عدداً بدرهم.

قال: وحجّ بالناس هذه السنة محمد بن هشام المخزومي. وكان الأمير بخراسان الجنيد، وقيل: بل كان قد مات الجنيد واستحلف عمارة بن حُرَيْم المَرِّي، وقيل: بل كان موت الجنيد سنة ست عشرة ومائة.

وفيها غزا عبد الملك بن قطن عامل الأندلس أرض البشكنس وعاد سالماً. (١٨٢/٥)

سنة ست عشرة ومائة

في هذه السنة غزا معاوية بن عبد الملك أرض الروم الصائفة. وفيها كان طاعون شديد بالعراق والشام، وكان أشدّ بواسط.

ذكر عزل الجنيد ووفاته وولاية عاصم خراسان

وفيها عزل هشام بن عبد الملك الجنيد بن عبد الرحمن المَرِّي عن خراسان. واستعمل عليها عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي.

وسبب ذلك أنّ الجنيد تزوّج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، ففضب هشام فولّى عاصماً خراسان، وكان الجنيد قد سقى بطنه، فقال هشام لعاصم: ان أدركته وبه رمق فأزق نفسه. فقدم عاصم وقد مات الجنيد، وكان بينهما عداوة، فأخذ عمارة بن حُرَيْم، وكان الجنيد قد استخلفه، وهو ابن عمّه، فعذب عاصم وعذب عمّال

الجندي.

وعُمارة هذا جد أبي الهيثم صاحب العصية بالشام، وسيأتي ذكرها إن شاء الله.

وكان موت الجند بمرور، وكان من الأجواد المعدوحين غير محمود في حروبه. (١٨٣/٥)

ذكر خلع بن سُرَيْج بنخراسان

وفي هذه السنة خلع الحارث بن سُرَيْج وأقبل إلى الفارياب، فأرسل إليه عاصم بن عبد الله رسلاً فيهم فقاتل بن حيان النبطي وحطاب بن مُخْرَز السُّلَمي فقالا لَمَنْ مَعهما: لانتلقى الحارث إلا بأمان. فأبى القوم عليها، فأخذهم الحارث وحبسهم ووكل بهم رجلاً، فأوثقوه وخرجوا من السجن فركبوا وعادوا إلى عاصم، فأمرهم، فخطبوا وذموا الحارث وذكروا خيبت سيرته وغدره. وكان الحارث قد لبس السواد ودعا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا، فسار من الفارياب فأتى بَلَخَ وعليها نصر بن سَيَّار [و] الشَّجِيبي [ابن ضُبَيْحَة السُّري]، فلحقها الحارث في عشرة آلاف والحارث في أربعة آلاف فقاتلها ومن مَعهما، فانهزم أهل بلخ وتبعهم الحارث، فدخل مدينة بلخ، وخرج نصر بن سَيَّار منها، وأمر الحارث بالكف عنهم واستعمل عليها رجلاً من ولد عبد الله بن خازم وسار إلى الجوزجان فغلب عليها وعلى الطالقان ومرو الروذ.

فلما كان بالجوزجان استشار أصحابه في أي بلد يقصد، ف قيل له: مرو بيضة خراسان وفرسانهم كثير ولو لم يلقوك إلا ببيدهم لانتصفوا منك، فأقم فإن أتوك قاتلتهم، وإن أقاموا قطعت المادة عنهم. قال: لا أرى ذلك، وسار إلى مرو فقال لأهل الرأي من مرو: إن أتى نيسابور فرّق جماعتنا، وإن أتانا نُكَب.

وبلغ عاصماً أنّ أهل مرو يكتبون الحارث فقال: يا أهل مرو قد (١٨٤/٥) كاتبتم الحارث لا يقصد المدينة إلا تركتموها له، وإنّي لاحق بنيسابور وأكاتب أمير المؤمنين حتى يمدني بعشرة آلاف من أهل الشام. فقال له المجشّر بن مزاحم: إن أعطوك بيعتهم بالطلاق والعناق على القتال معك والمناصحة لك فلا تفارقهم.

وأقبل الحارث إلى مرو يقال في سَتين ألفاً ومعه فرسان الأزد وتميم: منهم: محمد بن المشي، وحماد بن عامر الجماني، وداود الأعسر، وبشر بن أَيْف الرياحي، وعطاء الدبوسي، ومن الدهاقين دهقان الجوزجان ودهقان الفارياب وملك الطالقان ودهقان مرو الروذ في أشباههم، وخرج عاصم في أهل مرو وغيرهم فعسكر، وقطع عاصم القناطر، وأقبل أصحاب الحارث فاصلحوا القناطر،

فقال محمد بن المشي الفراهيدي الأزدي إلى عاصم في ألفين فأتى الأزد، ومال حماد بن عامر الجماني إلى عاصم فأتى بني تميم، والتقى الحارث وعاصم، وعلى ميمنة الحارث وابض بن عبد الله بن زارة التغلبي، فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أصحاب الحارث ففرق منهم بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الأعظم ومضت الدهاقين إلى بلادهم، وغرق خازم بن عبد الله بن الخازم، وكان مع الحارث، وقتل أصحاب الحارث قتلاً ذريعاً، وقطع الحارث وادي مرو فضرب رواقاً عند منازل الرهبان، وكف عنه عاصم، واجتمع إلى الحارث زهاء ثلاثة آلاف. (١٨٥/٥)

ذكر عدة حوادث

وفيها عزل هشام عبيد الله بن الحنّاب الموصلي عن ولاية مصر واستعمله على إفريقية، فسار إليها.

وفيها سار ابن الحنّاب جيشاً إلى صقلية، فلحقهم مراكب الروم فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الروم، وكانوا قد أسروا جماعة من المسلمين، منهم عبدالرحمن بن زياد، فبقي أسيراً إلى سنة إحدى وعشرين ومائة.

وفيها سار ابن الحنّاب أيضاً جيشاً إلى السوس وأرض السودان، فغنموا وظفروا وعادوا.

وفيها استعمل عبد الله بن الحنّاب عطية بن الحجاج القيسي على الأندلس، فسار إليها ووليها في شوال من هذه السنة وعزل عبدالملك بن قطن، وكان له كل سنة غزاة، وهو [الذي] افتتح جليقية والبتة وغيرهما، وقيل: بل ولي عبد الله بن الحنّاب إفريقية سنة سبع عشرة، وسترّد أخباره هناك، وهذا أصح.

وحجّ بالناس هذه السنة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان ولي عهد. وكان العمال على الأمصار من تقدّم ذكرهم إلا خراسان فكان عاملها عاصم بن عبد الله. (١٨٦/٥)

سنة سبع عشرة ومائة

في هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى من نحو الجزيرة، وفرّق سراياه في أرض الروم. وفيها بعث مروان بن محمد، وهو على أرمينية، بعثين، وافتتح أحدهما حصوناً ثلاثة من اللان، ونزل الآخر على تومانشاه فنزل أهلها على الصلح.

ذكر عزل عاصم عن خراسان وولاية أسد

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبدالملك عاصم بن عبد الله

عليهم زياد القرشي مولى حيّان النبطي وغيره فهزموا حتى رجعوا إلى المدينة، فحصرهم أسد ونصب عليهم المجانيق وعليهم الهجري من أصحاب الحارث، فطلبوا الأمان، فأرسل إليهم أسد: ما تطلبون؟ قالوا: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإن لا تأخذ أهل المدن بجنايتنا. فأجابهم إلى ذلك، فاستعمل عليهم يحيى بن نعيم بن هُبيرة الشيباني وسار يريد بلخ، فأخبر أن أهلها قد بايعوا سليمان بن عبد الله بن خازم، فسار حتى قدمها وأخذ سفناً وسار منها إلى يرمذ، فوجد الحارث محاصراً لها وبها سنان الأعرابي، فنزل أسد دون النهر ولم يطق العبور إليهم ولا يمدّهم، وخرج أهل ترمذ من المدينة فقاتلوا الحارث قتالاً شديداً، واستطرد الحارث لهم، وكان قد وضع كميناً (١٨٩/٥) فتبعوه، ونصر بن سيار مع أسد جالس ينظر، فأظهر الكراهية، وعرف أن الحارث قد كادهم، وظن أسد أنما ذلك شفقة على الحارث حين ولي، وأراد معاتبة نصر، وإذا الكمين قد خرج عليهم فانهمزموا.

ثم ارتحل أسد إلى بلخ، وخرج أهل ترمذ إلى الحارث فهزموه وقتلوا جماعة من أهل البصائر، منهم: عكرمة وأبو فاطمة. ثم سار أسد إلى سمرقند في طريق رَمَ، فلما قدم رَمَ بعث إلى الهيثم الشيباني، وهو في حصن من حصونها، وهو من أصحاب الحارث، فقال له أسد: إنما أنكرتم [على قومكم] ما كان من سوء السيرة ولم يبلغ ذلك السبي واستحلال الفروج ولا غلبة المشركين على مثل سمرقند، وأنا أريد سمرقند ولك عهد الله وذمته أن لا ينالك مني شرٌّ، ولك المواساة والكرامة والأمان ولنّ معك، وإن أبيست ما دعوتك إليّ فعليّ عهد الله إن أنت رميت بسهم أن لا أؤمنك بعده، وإن جعلت لك ألف أمان لا أفي لك به. فخرج إليه على الأمان وسار معه إلى سمرقند، ثم ارتفع إلى ورغسر، وماء سمرقند منها، فسكروا وادي وصفروه عن سمرقند، ثم رجع إلى بلخ.

وقيل: إن أمر أسد وأصحاب الحارث كان سنة ثمان عشرة.

ذكر حال دُعاة العبّاس

قيل: وفي هذه السنة أخذ أسد بن عبد الله جماعة من دُعاة بني العبّاس بخراسان فقتل بعضهم ومثّل ببعضهم وحبس بعضهم، وكان فيمن أخذ: (١٩٠/٥) سليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم، وموسى بن كعب، ولاهز بن قُرَيْظ، وخالد بن إبراهيم، وظلمة بن زُرَيْق، فأُتي بهم، فقال [لهم]: يا فسقة ألم يقل الله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ [المائدة: ٩٥] فقال له سليمان: نحن والله كما قال الشاعر:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري
صيدت والله العقارب بيدك! إننا ناس من قومك! وإن
المُضْترية رفعوا إليك هذا لأننا كنا أشد الناس على قُتَيْبَة بن مسلم

عن خراسان وولّاهما خالد بن عبد الله القسري، فاستخلف خالد عليها أخاه أسد بن عبد الله.

وكان سبب ذلك أن عاصماً كتب إلى هشام: أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله، وإن خراسان لا تصلح إلا [أن] تضمّ إلى [أصحاب العراق فتكون موطأها ومعونتها من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها] وتباطؤ غيائه. فضمّ هشام خراسان إلى خالد بن عبد الله القسري، وكتب إليه: ابعث أخاك (١٨٧/٥) يصلح ما أفسد، فإن كان رجّة كانت به. فسير خالد إليها أخاه أسد. فلما بلغ عاصماً إقبال أسد وأنه قد سير على مقدّمته محمد بن مالك الهمداني صالح الحارث بن سُرَيْج وكتباً بينهما كتاباً على أن ينزل الحارث أي كور خراسان شاء وأن يكتباً جميعاً إلى هشام يسألانه بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن أبي اجتماعاً عليه، فختم الكتاب بعض الرؤساء، وأبى يحيى بن حُصَيْن بن المنذر أن يختم وقال: هذا خلع لأمر المؤمنين، فانفسخ ذلك.

وكان عاصم بقرية بأعلى مرو، وأتاه الحارث بن سُرَيْج فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الحارث وأسر من أصحابه أسرى كثيرة، منهم عبد الله بن عمرو المازني رأس أهل مرو الروذ، فقتل عاصم الأسرى، وكان فرس الحارث قد رمي بسهم فنزعه الحارث وألح على الفرس بالضرب والحضر ليشغله عن أثر الجراحة، وحمل عليه رجل من أهل الشام، فلما قرب منه مال الحارث عن فرسه ثم اتبع الشامي فقال له: أسالك بحرمة الإسلام في دمي! فقال: انزل عن فرسك. فنزل عن فرسه، فركبه الحارث؛ فقال رجل من عبد القيس في ذلك:

تولّت قريش لذة العيش واتقت بنا كلّ فجّ من خراسان أغبراً
فليت قريشاً أصبحوا ذات ليلة يعومون في لُجّ من البحر
وعظم أهل الشام يحيى بن حُصَيْن لما صنع في نقض الكتاب وكتبوا كتاباً (١٨٨/٥) بما كان وبهزيمة الحارث مع محمد بن مسلم العنبري. فلقي أسد بن عبد الله بالري، وقيل ببهبهق، فكتب إلى أخيه خالد ينتحل أنه هزم الحارث ويؤخّره بأمر يحيى، فأجاز خالد يحيى بعشرة آلاف دينار و[كساه] مائة خُلة. وكانت ولاية عاصم أقل من سنة، فحبسه أسد وحاسبه وطلب منه مائة ألف درهم وقال: إنك لم تفز، وأطلق عُمارة بن خرّتم وعمّال الجند.

فلما قدم أسد لم يكن لعاصم إلا مَرُو ونيسابور والحارث بمرور الروذ وخالد بن عبد الله الهجري بأمل موافق للحارث، فخاف أسد إن قصد الحارث بمرور الروذ أن يأتي الهجري من قِبَل أَمَل، وإن قصد الهجري قصد الحارث مَرُو من قبل مرو الروذ. فأجمع على توجيه عبد الرحمن بن نعيم في أهل الكوفة والشام إلى الحارث بمرور الروذ، وسار أسد بالناس إلى أَمَل، فلقيه خيل أَمَل

إليه لقتال ميسرة السقاء لأن (١٩٢/٥) أمره كان قد عظم، فعاد إلى إفريقية.

وكان ابن الحبحاب قد سير خالد بن حبيب في جيش إلى ميسرة، فلما وصل حبيب بن أبي عبيدة سيره في أثره، والتقى خالد وميسرة بنواحي طنجة، واقتلوا قتالاً شديداً لم يُسمع بمثله، وعاد ميسرة إلى طنجة، فأنكرت البربر سيرته، وكانوا يبايعوه بالخلافة، فقتلوه وولوا أمرهم خالد بن حُمَيْد الزناتى، ثم التقى خالد بن حُمَيْد ومعه البربر بخالد بن حبيب ومعه العرب وعسكر هشام، وكان بينهم قتال شديد صبرت فيه العرب، وظهر عليهم كمين من البربر فانهزموا، وكره خالد بن حبيب أن ينهزم من البربر فصبروا معه فقتلوا جميعهم.

وقتل في هذه الرقعة حُماة العرب وفرسانها، فسُميت غزوة الأشراف، وانتقضت البلادُ وخرج أمر الناس، وبلغ أهل الأندلس الخبر فثاروا بأمرهم عُقْبَةُ بن الحجاج فعزلوه وولوا عبد الملك بن قُطْن، فاختلطت الأمور على ابن الحبحاب، وبلغ الخبر إلى هشام بن عبد الملك، فقال: لأغضبَنَّ للعرب غصبة وأسيرَ جيشاً يكون أولهم عندهم وآخرهم عندي؛ ثم كتب إلى ابن الحبحاب يأمره بالحضور، فسار إليه في جمادى سنة ثلاث وعشرين ومائة، واستعمل هشام عوضه كلثوم بن عياض القُشيري وسير معه جيشاً كثيفاً، وكتب إلى سائر البلاد التي على طريقه بالمسير معه، فوصل إفريقية وعلى مقدمته بلج بن بشر، فوصل إلى القيروان ولقي أهلها بالجفاء والتكبر عليهم، وأراد أن يُنزل العسكر الذي معه في منازلهم، فكتب أهلها إلى حبيب بن أبي عبيدة، وهو بتلمسان موافق البربر، يشكون إليه بلجاً وكلثوماً، فكتب حبيب إلى كلثوم يقول له: إن بلجاً فعل كيت وكيت فارحل عن البلد وإلا ردنا أئنة الخيل إليك.

فاعتذر كلثوم وسار إلى حبيب وعلى مقدمته بلج بن بشر، فاستخف حبيب (١٩٣/٥) وسبه وجرى بينهما منازعة ثم اصطلحوا واجتمعوا على قتال البربر، وتقدم إليهم البربر من طنجة، فقال لهم حبيب: اجمعوا الرجال للرجال والخيالة للخيالة، فلم يقبلوا منه، وتقدم كلثوم بالخيال، فقاتله رجال البربر فهزموه، فعاد إلى كلثوم منهزماً، وهن الناس ذلك ونشب القتال، وانكشفت خيالة البربر وثبت رجالها واشتد القتال وكثر البربر عليهم، فقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة ووجوه العرب، وانهزمت العرب وتفرقوا. فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر وعبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، وعاد بعضهم إلى القيروان.

فلما ضعفت العرب بهذه الرقعة ظهر إنسان يقال له عكاشة بن

فطلبوا بثأرهم. فبعث بهم إلى الحبس، ثم قال لعبد الرحمن بن نُعَيْم: ما ترى؟ قال: أرى أن تمن بهم على عشائهم قال: لا أفعل، فاطلق من كان فيهم من أهل اليمن لأنه منهم ومن كان من ربيعة أطلقه أيضاً لحلفهم مع اليمن، وأراد قتل من كان من مُصَر، فدعا موسى بن كعب وألجمه بلجم حمار وجذب اللجم فتحطمت أسنانه ودق وجهه وأنفه، ودعا لاهز بن قُرَيْظ فقال له: ماهذا بحق، تصنع بنا هذا وترك اليمانيين والريعيين؟ فضربه ثلاثمائة سوط، فشهد له الحسن بن زيد الأزدي بالبراءة ولأصحابه فتركهم.

ذكر ولاية عبد الله بن الحبحاب إفريقية والأندلس

في هذه السنة استعمل هشام بن عبد الملك على إفريقية والأندلس عبيد الله بن الحبحاب وأمره بالميسر إليها، وكان والياً على مصر، فاستخلف عليها ولده وسار إلى إفريقية، واستعمل على الأندلس عُقْبَةُ بن الحجاج، واستعمل على طنجة ابنه إسماعيل، وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً (١٩١/٥) إلى المغرب، فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان فلم يقاتله أحد إلا ظهر عليه، وأصاب من الغنائم والسبي أمراً عظيماً، فملىء أهل المغرب منة رعباً، وأصاب في السبي جاريين من البربر ليس لكل واحدة منهما غير ثدي واحد، ورجع سالماً. وسير جيشاً في البحر سنة سبع عشرة إلى جزيرة السردانية، ففتحوا منها ونهبوا وغنموا وعادوا. ثم سيره غازياً إلى جزيرة صقلية سنة اثنين وعشرين ومائة ومعه ابنه عبد الرحمن بن حبيب، فلما نزل بأرضها وجّه عبد الرحمن على الخيل فلم يلقه أحد إلا هزمه عبد الرحمن، فظفر ظفراً لم يُر مثله، حتى نزل على مدينة سرقوسة، وهي من أعظم مدن صقلية، فقاتلوه فهزمهم وحصرهم، فصالحوه على الجزية، وعاد إلى أبيه، وعزم حبيب على المقام بصقلية إلى أن يملكها جميعاً، فأناه كتاب ابن الحبحاب يستدعيه إلى إفريقية.

وكان سبب ذلك أنه استعمل على طنجة ابنه إسماعيل وجعل معه عمر بن عبد الله الحُرادي، فأساء السيرة وتعذّى وأراد أن يخمس مسلمي البربر، وزعم أنهم فيه للمسلمين، وذلك شيء لم يرتكبه أحد قبله، فلما سمع البربر بمسير حبيب بن عبيدة إلى صقلية بالعساكر طمعوا ونقضوا الصلح على ابن الحبحاب وتداعت عليه بأسرها مسلمها وكافرها، وعظم البلاء، وقدم من بطنجة من البربر على أنفسهم ميسرة السقاء ثم المدغوري، وكان خارجياً صُفْراً وسقاء، وقصدوا طنجة، فقاتلهم عمر بن عبد الله فقتلوه واستولوا على طنجة وبايعوا ميسرة بالخلافة وخطب بأمر المؤمنين وكثر جمعه من البربر وقوي أمره بنواحي طنجة.

وظهر في ذلك الوقت جماعة بإفريقية فأظهروا مقالة الخوارج، فأرسل ابن الحبحاب إلى حبيب وهو بصقلية يستدعيه

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى من نحو الجزيرة وفرق سراياه في أرض الروم.

وحج بالناس هذه السنة خالد بن عبد الملك. وكان العامل على مكة والمدينة والطائف محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي، وعلى أرمينية وأذربيجان مروان بن محمد.

وفيهما توفيت فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب. وسكينة بنت الحسين.

وفيهما مات عبد الرحمن بن هرمز الأعرج بالإسكندرية.

وفيهما توفي ابن أبي مليكة، واسمه عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة. وأبو رجاء الطاطري. وأبو شاعر مسلمة بن هشام بن عبد الملك.

وفيهما توفي يمين بن مهران الفقيه، وقيل سنة ثمانى عشرة.

وفيهما توفي نافع مولى ابن عمر، وقيل سنة عشرين وفيها توفي أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم وقيل سنة عشرين، وقيل سنة ست وعشرين، وقيل سنة ثلاثين.

وفيهما ماتت عائشة بنت سعد بن أبي وقاص. وسعيد بن يسار. وقتادة بن دعامه البصري، وكان ضريراً، مولده سنة ستين (١٩٦/٥).

سنة ثمانى عشرة ومائة

في هذه السنة غزا معاوية وسليمان ابنا هشام بن عبد الملك أرض الروم.

ذكر دعاة بني العباس

في هذه السنة وجه بكير بن ماهان عمارة بن يزيد إلى خراسان والياً على شيعة بني العباس، فنزل مرو وغير اسمه وتسمى بخدش، ودعا إلى محمد بن علي، فسارع إليه الناس وأطاعوه، ثم غير ما دعاهم إليه وتكذب وأظهر دين الخرمية [ودعا إليه] ورخص لبعضهم في نساء بعض، وقال لهم: إنه لا صوم ولا صلاة ولا حج، وإن تأويل الصوم أن يصام عن ذكر الإمام فلا يباح باسمه، والصلاة الدعاء له، والحج القصد إليه، وكان يتأول من القرآن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩٣]. وكان خدش نصرانياً بالكوفة فأسلم ولحق بخراسان.

أيوب الفزاري بمدينة قابس، وهو على رأي الخوارج الصفرية، فسار إليه جيش من القيروان فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عسكر القيروان، فخرج إليه عسكر آخر فانهزم عكاشة بعد قتال شديد وقتل كثير من أصحابه، ولحق عكاشة ببلاد الرمل.

فلما بلغ هشام بن عبد الملك قتل كلثوم بعث أميراً على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي، فوصلها في ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة، فلم يمكث بالقيروان إلا يسيراً حتى زحف إليه عكاشة الخارجي في جمع عظيم من البربر، وكان حين انهزم حشدهم ليأخذ بشاره وأعانه عبد الواحد بن يزيد الهواري ثم المدغمي، وكان صفرانياً، في عدد كثير وافترقا ليقصدا القيروان من جهتين، فلما قرب عكاشة خرج إليه حنظلة ولقيه منفرداً واقتلوا قتالاً شديداً، وانهزم عكاشة وقتل من البربر ما لا يحصى، وعاد حنظلة إلى القيروان خوفاً عليها من عبد الواحد، وسير إليه جيشاً كثيفاً عدتهم أربعون ألفاً، فساروا إليه، فلما قاربوه لم يجدوا شعيراً يطعمونه ودأبهم فاطعموها حنظلة (١٩٤/٥) ثم لقوه من الغد فانهزموا من عبد الواحد وعادوا إلى القيروان، وهلك دوابهم بسبب الحنظلة.

فلما وصلوها نظروا وإذا قد هلك منهم عشرون ألف فرس، وسار عبد الواحد فنزل على ثلاثة أميال من القيروان بموضع يعرف بالأصنام، وقد اجتمع معه ثلاثمائة ألف مقاتل، فحشد حنظلة كل من بالقيروان وفرق فيهم السلاح والمال، فكثر جمعه، فلما دنا الخوارج من عبد الواحد خرج إليهم حنظلة من القيروان واصطفوا للقتال، وقام العلماء في أهل القيروان يحثونهم على الجهاد وقتال الخوارج ويذكرونهم ما يفعلونه بالنساء من السبي وبالآبناء من الاسترقاق وبالرجال من القتل، فكسر الناس أجفان سيوفهم، وخرج إليهم نساؤهم يحرضنهم، فحمي الناس وحملوا على الخوارج حملة واحدة وثبت بعضهم لبعض، فاشتد الزمام وكثر الزحام وصبر الفريقان، ثم إن الله تعالى هزم الخوارج والبربر ونصر العرب، وكثر القتل في البربر وتبعوهم إلى جلولا يقتلون، ولم يعلموا أن عبد الواحد قد قتل حتى حمل رأسه إلى حنظلة، فخر الناس لله سجداً.

فقيل: لم يقتل بالمغرب أكثر من هذه القتلة، فإن حنظلة أمر بإحصاء القتلى، فعجز الناس عن ذلك حتى عدوهم بالقصب، فكانت عدة القتلى مائة ألف وثمانين ألفاً، ثم أسر عكاشة مع طائفة أخرى بمكان آخر وحمل إلى حنظلة فقتله، وكتب حنظلة إلى هشام بن عبد الملك بالفتح، وكان الليث بن سعد يقول: ما غزوة إلى الآن أشد بعد غزوة بدر من غزوة العرب بالأصنام. (١٩٥/٥)

وفي هذه السنة مات علي بن عبد الله بن عباس، وكان موته بالْحَمِيمَةِ من أرض الشام وهو ابن سبع أو ثمان وسبعين سنة، وقيل: إنه وُلِدَ في الليلة التي قُتِلَ فيها علي بن أبي طالب فسَمَّاهُ أبوه عليًّا وقال: سَمَّيْتُهُ باسم أحبِّ الناس إليَّ، وكناه أبا الحسن، فلمَّا قدم على عبد الملك بن مروان أكرمه وأجلسه معه على سريره وسأله عن كنيته، فأخبره، فقال: لا يجتمع في عسكري هذا الاسم والكنية لأحد، وسأله: هل وُلِدَ لك ولد؟ قال: نعم (١٩٩/٥) وقد سَمَّيْتُهُ مُحَمَّدًا. قال: فانت أبو محمد.

وحجَّ الناس هذه السنة مُحَمَّد بن هشام بن إسماعيل، وكان أمير المدينة، وقيل: كان هذه السنة على المدينة خالد بن عبد الملك، وكان على العراق والمشرق كله خالد القسري، وعامله على خراسان أخوه أسد، وعامله على البصرة بلال بن أبي بُرْدَةَ، وكان على أرمينية مروان بن مُحَمَّد بن مروان.

وفي هذه السنة مات عُبادَة بن نُسَيٍّ قاضي الأردن. وعمرو بن شُعَيْب بن مُحَمَّد بن عبد الله بن عمرو بن العباس، ومات بالطائف. وأبو صَخْرَة جامع بن شداد. وأبو عشابة المعافري. وعبد الرحمن بن سليط. (٢٠٠/٥)

سنة تسع عشرة ومائة

ذكر قتل خاقان

لمَّا دخل أسد الختل كتب ابن السايجي إلى خاقان، وهو بنواكت، يُعلمه دخول أسد الختل وتفرُّق جنوده فيها وأنَّه بحال مضية، فلمَّا أتاه كتابه أمر أصحابه بالجهاز وسار، فلمَّا أحسَّ ابن السايجي بمجيء خاقان بعث إلى أسد: اخرج عن الختل فإنَّ خاقان قد أظلك. فشم الرسول ولم يصدقه.

فبعث ابن السايجي: إنِّي لم أكذبك وأنا الذي أعلمته دخولك وتفرُّق عسكري، وأنَّها فرصة له، وسألته المدد، فإن لقيك على هذه الحال ظفرك وعادنتي العرب أبدًا ما بقيت واستطال على خاقان واشتدَّت مؤونته، وقال: أخرجت العرب من بلادك ورددت عليك ملكك.

فعرف أسد أنَّه قد صدقه فأمر بالأقوال أن تُقدَّم وجعل عليها إبراهيم بن عاصم المُقْبِلِي وأخرج معه المشيخة، فسارت الأقوال ومعها أهل الصَّغَانِيَانِ وصَخَّان خذاه، وأقبل أسد من الختل نحو جبل الملح يريد [أن] يخوض نهر بلخ، وقد قطع إبراهيم بن عاصم بالسبي وما أصابوا، وأشرف أسد على النهر (٢٠١/٥) فأقام يومه، فلمَّا كان الغد عبر النهر في مخاضة، وجعل الناس يعبرون، فأدركهم خاقان فقتل مَنْ لم يقطع النهر، وكانت المسلحة على الأزد وتميم، فقاتلوا خاقان وانكشفوا.

وكان مَنْ اتبعه على مقاتله مالك بن الهيثم، والحريش بن سُلَيْم الأعجمي وغيرهما، وأخبرهم أنَّ مُحَمَّد بن علي أمر بذلك. (١٩٧/٥)

فبلغ خبره أسد بن عبد الله، فظفر به، فأغلظ القول لأسد، فقطع لسانه وسمل عينيه وقال: الحمد لله الذي انتقم لأبي بكر وعمر منك! وأمر يحيى بن نُعَيْم الشيباني فقتله وصلبه بأمل، وأُتِيَ أسد بجزور مولى المهاجر بن دارة الضبِّي فضرب عنقه بشاطئ النهر.

ذكر ما كان من الحارث وأصحابه

وفي هذه السنة نزل أسد بَلْخَ وسَرَحَ جُدَيْعًا الكرمانِي إلى القلعة التي فيها أهل الحارث وأصحابه، وأسماها التبوشكان من طَخَارِسْتَان العلباء، وفيها بنو بَرَزَى التغلبيون أصحاب الحارث، فحصرهم الكرمانِي حتَّى فتحها فقتل بني برزى وسبى عاتة أهلها من العرب والموالي والذراري وباعهم فيمن يزيد في سوق بلخ، ونقم على الحارث أربعمئة وخمسون رجلاً من أصحابه، وكان رئيسهم جَرِير بن مَيْمُون القاضي، فقال لهم الحارث: إن كنتم لا بَدَّ مفارقي فاطلبوا الأمان وأنا شاهد فإنهم يجيبونكم، وإن ارتحلتم قبل ذلك لم يعطوا الأمان. فقالوا: ارتحل أنت وختنا. وأرسلوا يطلبون الأمان، فأخبر أسد أنَّ القوم ليس لهم طعام ولا ماء، فسرح إليهم أسد جُدَيْعًا الكرمانِي في سِتَّة آلاف، فحصرهم في القلعة وقد عطش أهلها وجاعوا، فسألوا أن ينزلوا على الحكم ويترك لهم نساءهم وأولادهم، فأجابهم، فنزلوا على حكم (١٩٨/٥) أسد فأرسل إلى الكرمانِي يأمره أن يحمل إليه خمسين رجلاً من وجوهم فيهم المُهاجر بن ميمون، فحملوا إليه، فقتلهم، وكتب إلى الكرمانِي أن يجعل الذين بقوا عنده أثلاثًا، ثلث يقتلهم، وثلث يقطع أيديهم وأرجلهم، وثلث يقطع أيديهم، ففعل ذلك الكرمانِي وأخرج أثقالهم فباعها. واتخذ أسد مدينة بلخ دارًا، ونقل إليها الدواوين، ثم غزا طَخَارِسْتَان ثم أرض جبوية فنقم وسبى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل هشام خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحَكَم عن المدينة واستعمل عليها خاله مُحَمَّد بن هشام بن إسماعيل.

وفيها غزا مروان بن مُحَمَّد بن مروان من أرمينية ودخل أرض ورنيس من ثلاثة أبواب، فهرب منه ورنيس إلى الخَزَر ونزل حصنه، فحصره مروان ونصب عليه المجانيق، فقتل ورنيس قتله بعض مَنْ اجتاز به وأرسل رأسه إلى مروان، فنصبه لأهل حصنه، فنزلوا على حكمه، فقتل المقاتله وسبى الذرية.

قد كان لك فيما وراء النهر مغزى، إنك لشديد الحرص، وقد كان عن الختل مندوحة وهي أرض آبائي وأجدادي. فقال أسد: لعل الله أن يتقم منك. (٢٠٣/٥)

وسار أسد إلى بلخ فعسكر في مرجها حتى أتى الشتاء، ثم فرق الناس في الدور ودخل المدينة، وكان الحارث بن سُرَيْج بناحية طخارستان فانضم إلى خاقان. فلما كان وسط الشتاء أقبل خاقان، وكان لما فارق أسد أتى طخارستان فأقام عند جبوية، فأقبل فأتى الجوزجان وبث الغارات.

وسبب مجيئه أن الحارث أخبره أنه لا نهوض بأسد فلم يبق معه كثير جند ونزل جزة، فأتى الخير إلى أسد بنزل خاقان بجزة، فأمر بالتران فرفعت بالمدينة، فجاء الناس من الرساتيق إليها، فأصبح أسد وصلى صلاة العيد، عيد الأضحى، وخطب الناس، وقال: إن عدو الله الحارث استجلب الطاغية ليطغى نور الله ويدل دينه والله مذل إن شاء الله، وإن عدوكم قد أصاب من إخوانكم من أصاب، وإن يرد الله نصركم لم يضركم فلتكم وكثرتهم، فاستصروا الله، وإن أقرب ما يكون العيد من ربّه إذا وضع جهته له، وإني نازل وواضع جهتي، فاسجدوا له وادعوا مخلصين. ففعلوا ورفعوا رؤوسهم ولا يشكون في الفتح، ثم نزل وضحي وشاروا الناس في المسير إلى خاقان، قال قوم: تحفظ مدينة بلخ وتكتب إلى خالد والخليفة تستمدّه. وقال قوم: تأخذ في طريق رُم فتسبق خاقان إلى مرو. وقال قوم: بل تخرج إليهم. فوافق هذا رأي أسد، وكان عزم على لقائهم، فخرج بالناس وهو في سبعة آلاف من أهل خراسان والشام، واستخلف على بلخ الكرماني بن علي، وأمره أن لا يدع أحدا يخرج من مدينتها وإن ضرب الترك بابها. ونزل باباً من أبواب بلخ وصلى بالناس ركعتين طولهما، ثم استقبل القيلة ونادى في الناس: ادعوا لله تعالى، وأطال الدعاء، فلما فرغ قال: (٢٠٤/٥) نصرتم ورب الكعبة إن شاء الله تعالى! ثم سار، فلما جاز قنطرة عطاء نزل وأراد المقام حتى يتلاحق به الناس، ثم أمر بالرحيل وقال: لا حاجة بنا إلى المتخلفين.

ثم ارتحل وعلى مقدّمته سالم بن منصور البجلي في ثلاثمائة، فلقى ثلاثمائة من الترك طليعة لخاقان، فأسر قائدهم وسبعة معه، وهرب بقيتهم، فأتى به أسد فبكى التركي، فقال: ما يُكيك؟ قال: لست أبكي لنفسى ولكنني أبكي لهلاك خاقان، إنه قد فرق جنوده بينه وبين مرو.

فسار أسد حتى شارف مدينة الجوزجان فنزل عليها على فرسخين من خاقان، وكان قد استباحها خاقان، فلما أصبحوا تراءى العسكران، فقال خاقان للحارث بن سُرَيْج: ألم تكن أخبرتي أن أسداً لا حراك به وهذه العساكر قد أقبلت من هذا؟ قال: هذا محمد

وأقبل خاقان وظن المسلمون أنه لا يعبر إليهم النهر، فلما نظر خاقان إلى النهر أمر الترك بعبوره، فعبروه، ودخل المسلمون عسكرهم وأخذ الترك ما راوه خارجاً، وخرج الغلمان فصار يهيم بالعمد فعادوا، وبات أسد والمسلمون وعبا أصحابه من الليل، فلما أصبح لم ير خاقان، فاستشار أصحابه، فقالوا له: أقبل العافية. قال: ما هذه عافية! هذه بليّة! إن خاقان أصاب أمس من الجند والسلاح وما منعه اليوم منّا إلا أنه قد أخبره بعض من أخذه من الأسرى بموضع الأتقال أمامنا فسار طمعا فيها.

فارتحل وبعث الطلائع، فلما أمسى استشار الناس في النزول أو المسير، فقال الناس: أقبل العافية، وما عسى أن يكون ذهاب الأموال بعافيتنا وعافية أهل خراسان! ونصر بن سيار مطرق. فقال له أسد: ما لك لا تتكلم؟ قال أيها الأمير خلتان كلناهما لك، إن تسرّ ثبّت من مع الأتقال وتخلصهم، فإن انتهيت إليهم وقد هلكوا فقد قطعت مشقة لا بد من قطعها. فقبل رأيهم وسار بقية يومه، ودعا أسد سعيداً الصغير مولى باهلة، وكان فارساً بأرض الختل، وكتب معه كتاباً إلى إبراهيم يأمره بالاستعداد ويخبره بمسير خاقان إليه وقال له: لتجد السير. فطلب منه فرسه الذبوب، فقال أسد: لعمرى لئن جدت بنفسك وبخلت عليك إني إذا للثيم. فدفعه إليه فأخذ معه جنيابوسار.

(٢٠٢/٥) فلما حاذى الترك وقد ساروا نحو الأتقال طلبته طلائعهم فركب الذبوب فلم يلحقوه، فأتى إبراهيم بالكتاب. وسار خاقان إلى الأتقال، وقد خندق إبراهيم خندقاً، فأتاهم وهم قيام عليه، فأمر الصغد بقتالهم فهزّمهم المسلمون، وصعد خاقان تلاً فجعل ينظر ليرى عورة يأتي منها، وهكذا كان يفعل، فلما صعد التل رأى خلف العسكر جزيرة دونها مخاضة فدعا بعض قواد الترك فأمرهم أن يقطعوا فوق العسكر حتى يصيروا إلى الجزيرة ثم ينحدروا حتى يأتوا عسكر المسلمين من خلفهم وأن يسدوا بالأعاجم وأهل الصغانيان، وقال لهم: إن رجعوا إليكم دخلنا نحن. ففعلوا ودخلوا من ناحية الأعاجم فقتلوا صغان خذاه وعامة أصحابه وأخذوا أموالهم، ودخلوا عسكر إبراهيم فأخذوا جميع ما فيه، وترك المسلمون التعبية واجتمعوا في موضع وأحسوا بالهلاك، وإذا رهج قد ارتفع، وإذا أسد في جنده قد أتاهم، فارتفعت الترك عنهم إلى الموضع الذي كان فيه خاقان، وإبراهيم يعجب من كفهم وقد ظفروا وقتلوا من قتلوا وهو لا يطعم في أسد، وكان أسد قد أخذ المسير وأقبل حتى وقف على التل الذي كان عليه خاقان، وتنحى خاقان إلى ناحية الجبل، فخرج إلى أسد من كان بقي من الأتقال وقد قتل منهم بشراً كثيراً.

ومضى خاقان بالأسرى والجمال الموقرة والجواري، وأمر خاقان رجلاً كان معه من أصحاب الحارث بن سُرَيْج فنادى أسداً:

بن المثنى ورايته.

الرجعة إليها.

فبعث خاقان طليعة وقال: انظروا هل ترون على الإبل سريراً وكراسي؟ فعادوا إليه فأخبروه أنهم رأوها، فقال خاقان: هذا أسد.

وسار أسد قدر غلوة، فلقيه سالم بن جناح فقال: ابشر أيها الأمير قد حزرتم ولا يبلغون أربعة آلاف، وأرجو أن يكون خاقان عقيرة الله. فصفت أسد أصحابه، وعصى خاقان أصحابه، فلما التقوا حمل الحارث ومن معه من الصعد وغيرهم، وكانوا ميمنة خاقان على مسيره أسد، فهزمهم فلم يردعهم شيء دون رواق أسد، وحملت ميمنة أسد وهم الجوزجان والأزد وتميم عليهم، فانهزم الحارث ومن معه وانهزمت الترك جميعها، وحمل الناس جميعاً فنشروا الترك في الأرض لا يلوون على أحد، فتبعهم الناس مقدار ثلاثة فراسخ (٢٠٥/٥) يقتلون [من يقتلون عليه] حتى انتهوا إلى أغنامهم وأخذوا منها أكثر من مائة ألف وخمسين ألف رأس ودواب كثيرة.

وأخذ خاقان طريقاً في الجبل والحارث يحميه وسار منهزماً، فقال الجوزجاني لعثمان بن عبد الله بن الشخير: إني لأعلم بيلادي وبطوقها فهل تتبعني لعلمنا نهلك خاقان؟ قال: نعم، فأخذوا طريقاً وساروا ومن معهما حتى أشرفوا على خاقان فأوقعوا به، فولى منهزماً، فحوى المسلمون عسكر الترك وما فيه من الأموال، ووجدوا فيه من نساء العرب والمولات من نساء الترك من كل شيء. ووحل بخاقان برذونه فحماء الحارث بن سرتيج، ولم يعلم الناس أنه خاقان، وأراد الخصي الذي لخاقان أن يحمل امرأة خاقان فأعجلوه فقتلها، واستنقذوا من كان مع خاقان من المسلمين.

وتتبع أسد خيل الترك التي فرقتها في الغارة إلى مرو الرود وغيرها فقتل من قدر عليه منهم ولم ينج منهم غير القليل، ورجع إلى بلخ. وكان بشر الكرمان في السرايا فيصيون من الترك الرجل والرجلين وأكثر.

ومضى خاقان إلى طخارستان وأقام عند جبوية الخزلجي، ثم ارتحل إلى بلاده، فلما ورد أشروسنة تلقاه خرابغره أبو خاناجزة جد كاووس أبي أفشين بكل ما قدر عليه، وكان ما بينهما متباعداً، إلا أنه أحب أن يتخذ عنده بداً. ثم أتى خاقان بلاده واستعد للحرب ومحاصرة سمرقند، وحمل الحارث وأصحابه على خمسة آلاف برذون. فلاعب خاقان يوماً كورصول بالتدري على خطر، فتنازعا، فغضب كورصول يد خاقان وكسرها وتنحى وجمع جمعاً، وبلغه أن خاقان قد حلف ليكسرن يده، فبيت خاقان فقتله، وتفرقت الترك وتركوه مجزأ، فأتاه نفر من الترك فدفنوه. واشتغلت الترك بغير (٢٠٦/٥) بعضها على بعض، فعند ذلك طمع أهل الصعد في

وأرسل أسد مبشراً إلى هشام بن عبد الملك بما فتح الله عليهم ويقتل خاقان، فلم يصدقهم وقال للربيع حاجبه: لا أضن هذا صادقاً، اذهب فعده ثم سلّه عما يقول، ففعل ما أمره به، فأخبره بما أخبر به هشاماً، ثم أرسل أسد مبشراً آخر فوقف على باب هشام وكبر، فأجابه هشام بالتكبير، فلما انتهى إليه أخبره بالفتح، فسجد شكراً لله تعالى، فحصدت القيسية أسداً وقالوا لهشام: اكتب بطلب مقاتل بن حيان النبطي، ففعل، فسيرة أسد إلى هشام، فلما دخل عليه أخبره بما كان، فقال له هشام: حاجتك؟ قال: إن يزيد بن المهلب أخذ من أبي مائة ألف درهم بغير حق فاستحلّفه على ذلك. فكتب إلى أسد، فردّها عليه، وقسمها مقاتل بين ورثة حيان على كتاب الله تعالى.

قال أبو الهندي يذكر هذه الواقعة:

أبى منفر رُمّت الأمور وقسّمها
فما كان ذوّاري من الناس قسّمه
أبى منفر لولا مسيرك لم يكن
عراق ولا انقادات ملوك الأعاجم
ولا حج بيت الله من حج ركباً
ولا عمر البطحاء بعد المواسم
وكم بين قتل بين سان وجزة
كسر الأيادي من ملوك قماقم
تركت بارض الجوزجان تزوره
سباغ وعقبان لحز الغلاصم
وفي سوقه فيه من السيف خبطة
به رمق ملقى لحز الحوائس
(٢٠٧/٥)

فمن هارب منا ومن فائز لنا
أسير يقاسي مهمات الأدهم
فنل قسوس من تميم وعسام
ومن مفسر الحمراء عند المآزم
هم أطمعوا خاقان فينا فاصبحت
حلابه ترجو خلوص المغانم

وكان ابن السايجي الذي أخبر أسد بمجيء خاقان قد استخلفه السبل على مملكته عند موته وأوصاه بثلاث خصال، قال: لا تستطل على أهل الختل استطلتي عليهم، فإني ملك وأنت لست بملك إنما أنت رجل منهم، وقال له: اطلب الحنيش حتى ترده إلى بلادكم، فإنه الملك بعدي، وكان الحنيش قد هرب إلى الصين؛ وقال له: لا تحاربوا العرب وادفعوها عنكم بكل حيلة. فقال له ابن السايجي: أما تركي الاستطالة عليه وردّي الحنيش فهو الرأي، وأما قولك لا تحاربوا العرب، فكيف وقد كنت أكثر الملوك محاربة لهم؟ قال السبل: قد جرّبت قوتكم بقوتي فما رأيكم تقعون مني موقعاً، وكنت إذا حاربهم لم أفلت [منهم] إلا جريضاً، وإنكم إذا حاربتموهم هلكتم. فهذا الذي كره إلى ابن السايجي محاربة العرب.

ذكر قتل المغيرة بن سعيد وبيان

في هذه السنة خرج المغيرة بن سعيد وبيان في سنة نفر، وكانوا

ذكر خبر الخوارج هذه السنة

وفي هذه السنة خرج بهلول بن بشر الملقب كثارة، وهو من الموصل من شتيان.

فقيل: وكان سبب خروجه أنه خرج يريد الحج، فأمر غلامه بيتاع له (٢١٠/٥) خلا بدرهم، فأتاه بخمر، فأمره بردها وأخذ الدرهم، فلم يجبه صاحب الخمر إلى ذلك، فجاء بهلول إلى عامل القرية، وهي من السواد، فكلّمه، فقال العامل: الخمر خير منك ومن قولك. فمضى في حجه وقد عزم على الخروج، فلقي بمكة من كان على مثل رأيه، فأتعدوا قرية من قرى الموصل، فاجتمعوا بها، وهم أربعون رجلاً، وأمرؤا عليهم بهلولاً، وكنتموا أمرهم وجعلوا لا يملكون بعمال إلا أخبروه أنهم قدموا من عند هشام على بعض الأعمال وأخذوا دواب البريد، فلما انتهوا إلى القرية التي ابتاع الغلام بها الخمر قال بهلول: نبدأ بهذا العامل فنقتله. فقال أصحابه: نحن نريد قتل خالد، فإن بدأنا بهذا شهر أمرنا وحذرنا خالد وغيره، فنشدناك الله أن تقتل هذا فيفعل منا خالد الذي يهدم المساجد ويبيي البيع والكنائس ويولي المجوس على المسلمين ويكبح أهل الذمة المسلمات لعلنا نقتله فيريح الله منه. قال: والله لا أذع ما يلزمني لما بعده وأرجو أن أقتل هذا وخالدًا، فقتله، فعلم بهم الناس أنهم خوارج، وهربوا، وخرجت البريد إلى خالد فأعلموه بهم ولا يدرون من رئيسهم.

فخرج خالد من واسط وأتى الحيرة، وكان بها جند قد قدموا من الشام مدداً لعامل الهند، فأمرهم خالد بقتاله وقال: من قتل منهم رجلاً أعطيتُه عطاء سوى ما أخذ في الشام وأعفيتُه من الخروج إلى الهند. فسارعوا إلى ذلك، فتوجه مقدمهم، وهو من بني القين، ومعه ستمائة منهم، فضم إليه خالد مائتين من الشرط، فالتقوا على الفرات، فقال القيني لمن معه من الشرط: لا تكونوا معنا ليكون الظفر له ولأصحابه. وخرج إليهم بهلول فحمل على القيني فطعنه فأنفذه، وانهزم أهل الشام والشرط، وتبعهم بهلول وأصحابه يقتلونهم حتى بلغوا الكوفة.

فأما أهل الشام فكانوا على خيل جياد فساتوره، وأما شرط الكوفة (٢١١/٥) فآذروهم، فقالوا: اتى الله فينا فأنا مكرهون مقهرون، فجعل يقرع رؤوسهم بالرمح ويقول: النجاء النجاء. فوجد بهلول مع القيني بكرة فأخذها.

وكان في بالكوفة ستة يرون رأي بهلول فخرجوا إليه فقتلوا بصريين فخرج بهلول ومعه البكرة قال: من قتل هؤلاء حتى أعطيه هذه البكرة؟ فجاء قوم فقالوا: نحن قتلناهم، وهم يظنون أنه عند خالد، فقال بهلول لأهل القرية: أصدق هؤلاء؟ قالوا: نعم، فقتلهم وترك أهل القرية.

يسمون الوصفاء، وكان المغيرة ساحراً، وكان يقول: لو أردت أن أحيي عاداً وثموداً (٢٠٨/٥) وقروناً بين ذلك كثيراً لفعلت. وبلغ خالد بن عبد الله القسري خروجهم يظهر الكوفة وهو يخطب فقال: أطمعوني ماء، فقال يحيى بن نوفل في ذلك:

أخالد لا جزاك الله خيراً وإير في جبرائك من أمير
وكنيت لذي المغيرة عبداً سوء تبسول من المخافة للزبير
وقلت لهما أصابك أطمعوني شرباً ثم بليت على السري
لا علاج ثعالبه وشيخ كبير السن ليس يلقي نصير
فأرسل خالد فأخذهم وأمر بسريره فأخرج إلى المسجد الجامع وأمر بالقصب والنطف فأحرقهم، وأرسل إلى مالك بن أعين الجرمي فسأله، فصدقه، فتركه.

وكان رأي المغيرة التجسيم، يقول: إن الله على صورة رجل على رأسه تاج، وإن أعضائه على عدد حروف الهجاء ويقول ما لا ينطق به لسان؛ تعالى الله عن ذلك، يقول: إن الله تعالى لما أراد أن يخلق تكلم باسمه الأعظم فطار فوقه على تاجه، ثم كسب بإصبعه على كتفه أعمال عباده من المعاصي والطاعات، فلما رأى المعاصي أرفض عرقاً، فاجتمع من عرقه بحران أحدهما ملح مظلم والآخر عذب نير، ثم أطلع في البحر فرأى ظله فذهب لياخذه فطار فادركه فقلع عينه ذلك الظل ومحقه فخلق من عينه الشمس وسماه أخرى، وخلق من البحر الملح الكفار، ومن البحر العذب المؤمنين، وكان يقول بالهبة علي وتكفير أبي بكر وعمر وسائر الصحابة إلا من ثبت مع (٢٠٩/٥) علي، وكان يقول: إن الأنبياء لم يختلفوا في شيء من الشرائع، وكان يقول بتحريم ماء الفرات وكل نهر أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسة، وكان يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى أمثال الجراد على القبور.

وجاء المغيرة إلى محمد الباقر فقال له: أقرر أنك تعلم الغيب حتى أجبي لك العراق. فنهز وطرده. وجاء إلى ابنه جعفر بن محمد الصادق فقال له مثل ذلك، فقال: أعوذ بالله! وكان الشعبي يقول للمغيرة: ما فعل الإمام؟ فيقول: انتهزأ به؟ فيقول: لا إنما انتهزأ بك.

وأما بيان فإنه يقول بالهبة علي وأن الحسن والحسين إلهان، ومحمد بن الحنفية بعدهم، ثم بعده ابنه أبو هاشم بن محمد بنوع من التناسخ، وكان يقول: إن الله تعالى يقضى جميعه إلا وجهه، ويحتج بقوله: ﴿وَيَقْضَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. وأدعى النبوة، وزعم أنه المراد بقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

جَهَنَّمَ أَشَدَّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١] (٢١٣/٥)

ذكر خروج الصحاري بن شبيب

وفي هذه السنة خرج الصحاري بن شبيب بن يزيد بناحية حُبْل، وكان قد أتى خالداً يسأله الفريضة، فقال خالد: وما يصنع ابن شبيب بالفريضة؟ فمضى، وندم خالد وخاف أن يفتق عليه [فتقاً]، فطلبه فلم يرجع إليه وسار حتى أتى حُبْل، وبها نفر من بني تميم اللات بن ثعلبة، فأخبرهم، فقالوا: وما ترجو من ابن النصرانية؟ كنت أولى أن تسير إليه بالسيف فنضربه به. فقال: والله ما أردت الفريضة، وما أردت إلا التوصل إليه لئلا يُنكرني ثم أقتله بفلان، يعني بفلان رجلاً من عقدة الصُفْرة، وكان خالد قتله صبراً، ثم دعاهم إلى الخروج معه، فتبعه منهم ثلاثون رجلاً وخرج بهم، فبلغ خبره خالداً وقال: قد كنتُ خفتها منه؛ ثم وجّه إليه خالد جنداً، فلقوه بناحية المناذر، فقاتلهم قتالاً شديداً فقتلوه وجميع أصحابه.

ذكر غزوة أسد الخُتَل

وفيها غزا أسد الخُتَل، فوجّه مُصْعَب بن عمرو الخُزاعي إليها، فسار فنزل بقرب بدرطرخان فطلب الأمان ليخرج إلى أسد، فأمنه مصعب، فسيره إلى أسد، فسأله أن يقبل منه ألف ألف درهم فأبى أسد وقال: إنك دخلتها وأنت غريب من أهل الباميان، اخرج من الخُتَل كما دخلت. قال بدرطرخان: فأنت دخلت إلى خُراسان على عشرة من الدواب ولو خرجت منها لم تحتمل على (٢١٤/٥) خمسمائة بعير وغير ذلك، إنني دخلت الخُتَل شاباً فاردد عليّ شبابي وخذ ما كسبت منها.

فغضب أسد وردّه إلى مصعب ليمكنه من العود إلى حصنه، فوصل بدرطرخان مع مولى لأسد إلى مصعب، فأخذه سلمة بن عبيد الله، وهو من الموالي، وقال: إن الأمير يندم على تركه وحبه عنده.

وأقبل أسد بالناس، فقال لمجشّر بن مُزاحم: كيف أنت؟ قال مجشّر: كنتُ أمس أحسن حالاً مني اليوم، كان بدرطرخان في أيدينا وعرض ما عرض، فلا الأمير قبل منه ما عرض عليه ولا هو شدّ يده عليه ولكنه خلى سبيله وأمر بإدخاله حصنه. فندم أسد عند ذلك وأرسل إلى مصعب يسأله: هل دخل بدرطرخان حصنه أم لا؟ فجاء الرسول فوجده عند سلمة بن عبيد الله، فحوّله أسد إليه وأمر به فقطعت يده، وقال: من هاهنا من أولياء أبي فذّيك رجل من الأزد كان بدرطرخان قد قتله؟ فقام رجل من الأزد فقال: أنا. فقال: اضرب عنقه، ففعل. وغلب أسد على القلعة العظمى وبقيت قلعة فوقها صغيرة وفيها ولده وأمواله فلم يوصل إليها. وفرق أسد العسكر في أودية الخُتَل فعلا أيديهم من الغنائم والسبي، وهرب أهله إلى الصين.

وبلغت الهزيمة خالداً وما فعل بصرفين، فوجّه إليه قائداً من شُتبان أحد بني حَوْشَب بن زُؤَيْم، فلقيه فيما بين الموصل والكوفة، فانهزم أهل الكوفة فأتوا خالداً. فارتحل بهلول من يومه يريد الموصل، فكتب عامل الموصل إلى هشام بن عبد الملك يُخبره بهم ويسأله جنداً، فكتب إليه هشام: وجّه إليه كثارة بن بشر. وكان هشام لا يعرف بهلولاً إلا بلقبه، فكتب إليه العامل أن الخارج هو كثارة. ثم قال بهلول لأصحابه: إنا والله ما نصنع بابن النصرانية شيئاً. يعني خالداً، فلم لا نطلب الرأس الذي سلط خالداً؟ فسار يريد هشاماً بالشام، فخاف عمالُ هشام من هشام إن تركوه يجوز إلى بلادهم، فسير خالد جنداً من العراق، وسير عامل الجزيرة جنداً من الجزيرة، ووجّه هشام جنداً من الشام واجتمعوا بدّير بين الجزيرة والموصل، وأقبل بهلول إليهم، وقيل التقوا بكحّيل دون الموصل، فنزل بهلول على باب الديار وهو في سبعين وحمل عليهم فقتل منهم نفراً وقاتلهم عامّة نهاره، وكانوا عشرين ألفاً، فأكثر فيهم القتل والجراح، ثم إن بهلولاً وأصحابه عقروا دوابهم وترجلوا فقاتلوا قتالاً شديداً، فقتل كثير من أصحاب بهلول، فطمعن بهلول فصّرع، فقال له أصحابه: ولّ أمرنا. فقال: إن هلكت فأمير المؤمنين دعامّة الشيباني، وإن هلك فأمروا اليشكري. ومات بهلول من ليلته، فلمّا أصبحوا (٢١٢/٥) هرب دعامّة وخلصهم. فقال الضحّاك بن قيس يرثي بهلولاً:

بُكِّتْ بعد أبي بشرٍ وصحبته قوماً عليّ مع الأحزاب أعوانا
كانهم لم يكونوا من صحابتنا ولم يكونوا لنا بالأسم خلّانا
يا عينُ أذري دموماً منك تهاننا وإبكي لنا صعبةً بانوا وإخواننا
خلّونا ظاهراً الدنيا وباطنها وأصبحوا في جنان الخلد جيراننا
فلما قُتل بهلول خرج عمرو اليشكري فلم يلبث أن قُتل.

وخرج البُخْترى صاحب الأشهب، وبهذا كان يُعرّف، على خالد في ستين، فوجّه إليه خالد السَّمط بن مسلم التَّيجَلِيّ في أربعة آلاف، فالتقوا بناحية الفرات، فانهزمت الخوارج، فتلّقاهم عبيد أهل الكوفة وسفلتهم فرمواهم بالحجارة حتى قتلوهم.

ثم خرج وزير السخثانيّ على خالد بالحيوة في نفر، فجعل لا يمرّ بقرية إلا أحرقتها، ولا يلقى أحداً إلا قتله، وغلب على ما هنالك وعلى بيبيّ المال، فوجّه إليه خالد جنداً فقاتلوا عامّة أصحابه وأنّخن بالجراح، وأتى به خالد، وأقبل على خالد فوعظته، فأعجب خالداً ما سمع منه فلم يقتله وحبه عنده، وكان يؤتى به في الليل فيحاده. فسُعي بخالد إلى هشام وقيل: أخذ خروياً قد قتل وحرّق وأباح الأموال فجعله سميراً، فغضب هشام وكتب إليه يأمره بقتله، وكان خالد يقول: إني أنفس به عن الموت، فأخّر قتله، فكتب إليه هشام نائياً يذمه ويسأله بقتله وإحراقه، فقتله وأحرقه ونفراً معه، ولم يزل يتلو القرآن حتى مات وهو يقرأ: ﴿قُلْ نَارُ

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا الوليد بن القعقاع أرض الروم. وحج بالناس هذه السنة أبو شاعر مسلمة بن هشام بن عبد الملك وحج معه ابن شهاب [الزهرى] (٢١٥/٥) وكان العامل على مكة والمدينة والطائف محمد بن هشام المخزومي، وعلى العراق والمشرق كله خالد القسري، وعلى خراسان أخوه أسد، وقيل: كان أسد قد هلك في هذه السنة واستخلف عليها جعفر بن خنظلة البهراني. وقيل: إنما هلك أسد سنة عشرين ومائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها غزا مروان بن محمد أرمينية فدخل بلاد اللان وسار فيها حتى خرج منها إلى بلاد الخزر فمر بيلنجر ومسندر وانتهى إلى البيضاء التي يكون فيها خاقان، فهرب خاقان منه.

وفيها توفي حبيب بن أبي ثابت. وعبد الرحمن بن سعيد بن يربوع المخزومي. وقيس بن سعد المكي. وسليمان بن موسى الأشدق. وإياس بن مسلمة بن الأكوخ. (٢١٦/٥)

سنة عشرين ومائة

ذكر وفاة أسد بن عبد الله

في هذه السنة في ربيع الأول توفي أسد بن عبد الله القسري بمدينة بلخ.

وكان سبب موته أنه كان به دُبيلة [في جوفه] فأصابه مرض ثم أفاق منه فخرج يوماً فأتى بكمثرى أول ما جاء فأطعم الناس منه واحدة واحدة وأخذ كمثرأة فرمى بها إلى خراسان دهقان هراة فانقطعت الدبيلة فهلك، واستخلف جعفر بن خنظلة البهراني، فعمل أربعة أشهر ثم جاء عهد نصر بن سيار بالعمل في رجب.

وكان هذا خراسان دهقان هراة خصيصاً بأسد، فقدم عليه في المهرجان ومعه من الهدايا والتحف ما لم يحمل غيره مثله، وكانت قيمة الهدية ألف ألف. وقال لأسد: إنما معشر العجم أكلنا الدنيا أربعمئة سنة بالحلم والعقل والوقار، وكان الرجال فينا ثلاثة: ميمون النقية، أين ما توجه فتح الله عليه، والذي يليه رجل تمت مروته في بيت، فإن كان كذلك رَحِبَ وحيا، ورجل رَحِبَ صدره وبسط يده فإن كان كذلك قَدَمَ وقَدَر، وقد جعل الله صفات هؤلاء فيك فما نعلم [أحد] هو أتم كُتُخْدَانِيَةِ منك، إنك عزيز ضابط أهل بيتك (٢١٧/٥) وحشمك ومواليك فليس منهم من يستطيع أن يعتدي على صغير ولا كبير، ثم نبئت الإيوانات في المفاز من أحسن ما عمل، ومن يُعْنِ نقيبتك إنك لقيت خاقان وهو في مائة ألف ومعه الحارث بن سريج فهزمته وقتلته وأصلته أصحابه وأباحت عسكره، وأما رَحِبَ صدرك وبسط يدك فلأننا لا ندرى أي المالكين

أحب إليك، أما قدم عليك أم مال خرج من عندك، بل أنت بما خرج أقر عيناً. فضحك أسد وقال: أنت خير دهاقيننا، وفرق جميع الهدية بين أصحابه. ولما مات أسد رثاه ابن عرس العبدى فقال:

نسى أسد بن عبد الله ناع فربح القلب للملك المطاع
يلسخ وافق المقدل يسري وما لفضاء رثك بين دفاع
فجودي عين بالعرات سحاً ألم يُخزلك تريق الجماع
في أبيات غيرها. ولما مات أسد كتب مسلمة بن هشام بن عبد الملك، وهو أبو شاعر، إلى خالد القسري:

أراح من خالد فاهلكه رب أراح العباد من أسد
أما أبوه فكان مؤثماً عبداً لئيماً لأعشى ققيد
يرى الزنى والصليب والخمر والخنزير جلاً والنسي كالرشد
واقم منها وبغيتها هم الإماء العوامر الشرد
كافرة بالنبي مؤمنة بفسها والصليب والمعد

(٢١٨/٥) يعني المعمودية. فلما قرأ خالد الكتاب قال: يا عبد الله من رأى كهذه تعزية رجل من أخيه؟ وكان ما بين خالد وأبي شاعر مباعدة؛ وسببها أن هشاماً يروح ابنه أبا شاعر للخلافة؛ فقال الكمي:

إن الخلافة كانت أوتادها بعد الوليد إلى ابن أم حكيم
يعني أبا شاعر، وأمه أم حكيم، فبلغ الشعر خالداً فقال: أنا كافر بكل خليفة يكتي أبا شاعر؛ فسمعها أبو شاعر فحقدها عليه.

ذكر شيعة بني العباس بخراسان

وفي هذه السنة وجهت شيعة بني العباس بخراسان إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس سليمان بن كثير ليعلمه أمرهم وما هم عليه.

وكان سبب ذلك أن محمداً ترك مكاتبتهم ومراسلتهم بطاعتهم التي كانت لخدش الذي تقدم ذكره وقبولهم منه ما روي عنه من الكذب. فلما أبطأت كتبه ورسله عليهم أرسلوا سليمان ليعلم الخبر، فقدم عليه فعنه محمد في ذلك، ثم صرف سليمان إلى خراسان ومعه كتاب مختروم، فقصوه فلم ير فيه إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فعظم ذلك عليهم وعلموا مخالفة خدش لأمره، ثم وجه محمد بن علي إليهم بكبير بن ماهان بعد عود سليمان من عنده وكتب معه إليهم ليعلمهم كذب خدش، فلم يصدقوه واستخفوا به، فانصرف بكبير إلى محمد، فبعث معه بعضي مضيبة بعضها بحديد وبعضها بنحاس، (٢١٩/٥) فجمع بكبير النقباء والشيعة ودفع إلى كل واحد منهم عصاً، فعملوا أنهم مخالفون لسيرته فتابوا ورجعوا.

ولم يزل يبلغه عنه ما يكره، فعزم على عزله، فكتب ذلك وكتب إلى يوسف بن عمر، وهو باليمن، يأمره أن يقدم في ثلاثين من أصحابه إلى العراق فقد ولّاه ذلك، فسار يوسف إلى الكوفة فعرّس قريباً منها، وقد ختن طارق خليفة خالد بالكوفة ولده فأهدى إليه ألف ووصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب، فمرّ بيوسف بعض أهل العراق فسألوه: ما أنتم وأين تريدون؟ قالوا: بعض المواضع. فأتوا طارقاً فأخبروه خبرهم وأمره وقتلهم وقالوا: إنهم خوارج. فسار يوسف إلى دور ثقيف، فقيل لهم: ما أنتم؟ فكتبوا حالهم وأمر يوسف، فجمع إليه من هناك من مضر، فلما اجتمعوا دخل المسجد مع الفجر وأمر المؤذن وأقام الصلاة فصلّى، وأرسل إلى طارق وخالد فأخذهما وإنّ القدور لتغلي.

وقيل: لما أراد هشام أن يولّي يوسف بن عمر العراق كتب ذلك، فقدم جندب مولي يوسف بكتاب يوسف إلى هشام، فقرأه ثم قال لسالم بن عتبة وهو على الديوان: أن أجبه عن لسانك وأتني بالكتاب. وكتب هشام بخطه كتاباً صغيراً إلى يوسف يأمره بالمسير إلى العراق، فكتب سالم الكتاب وأتى به هشاماً، فجعل كتابه في وسطه وختمه، ثم دعا رسول يوسف فأمر به فضرب ومزق ثيابه، ودفع الكتاب إليه فسار. فارتاب بشير بن أبي طلحة، وكان (٢٢٢/٥) خليفة سالم، فقال: هذه حيلة، وقد ولّي يوسف العراق، فكتب إلى عياض، وهو نائب سالم بالعراق: إنّ أهلك قد بعثوا إليك بالثوب اليماني فإذا أتاك فالبسه واحمد الله تعالى وأعلم ذلك طارقاً. فاعلم عياض طارق بن أبي زياد بالكتاب له.

ثم ندم بشير على كتابه، فكتب إلى عياض: إنّ أهلك قد بدا لهم في إمساك الثوب. فأتى عياض بالكتاب الثاني إلى طارق، فقال طارق: الخبر في الكتاب الأوّل، ولكن بشيراً ندم وخاف أن يظهر الخبر.

وركب طارق من الكوفة إلى خالد وهو بواسط، فرآه داود البريدي، وكان على حجابة خالد وديوانه، فاعلم خالد، فأذن له، فلما رآه قال: ما أقدمك بغير إذن؟ قال: أمر كنت أخطأت فيه، كنت قد كتبت إلى الأمير أعزّيه بأخيه أسد، وإنما كان يجب أن آتيه ماشياً. فرق خالد ودمعت عيناه وقال: ارجع إلى عملك، فأخبره الخبر لما غاب داود، قال: فما الرأي؟ قال تركب إلى أمير المؤمنين فتعترز إليه ممّا بلغه عنك. قال: لا أفعل ذلك بغير إذن. قال: فترسلني إليه حتّى آتيك بإذنه. قال: ولا هذا. قال: فأذهب فأضمن لأمر المؤمنين جميع ما أتكسر في هذه السنين وآتيك بعده. قال: وكم مبلغه؟ قال: مائة ألف ألف. قال: ومن أين أخذهما؟ واللّه ما أجد عشرة آلاف ألف درهم! قال: اتحمّل أنا وفلان وفلان. قال: إني إذا للتّيم إن كنت أعطيتهم شيئاً وأعود فيه. فقال طارق: إنّما نفيك ونفي أنفسنا بأموالنا وتستأنف الدنيا وتبقى النعمة عليك

ذكر عزل خالد بن عبد الله القسري وولاية يوسف بن عمر الثقفي وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالداً عن أعمال جميعها، وقد اختلفوا في ذلك وسببه.

قيل: إن فروخ أبا المثنى كان على ضياع هشام بنهر الرّمان، فنقل مكانه على خالد، فقال خالد لحيان النبطي: اخرج إلى هشام وزد على فروخ، ففعل حيان ذلك وتولّاهما، فصار حيان أثقل على خالد من فروخ، فجعل يؤذيه، فيقول حيان: لا تؤذني وأنا صنيعتك، فأبى إلا أذاه. فلما قدم عليه بئق البثوق على الضياع، ثم خرج إلى هشام فقال له: إنّ خالداً بئق البثوق على ضياعك. فوجه هشام من ينظر إليها. فقال حيان لخدام من خدم هشام: إنّ تكلمت بكلمة أقولها لك حيث يسمع هشام فلك ألف دينار. قال: فعجلها [واقول ما شئت]، فأعطاه ألفاً وقال له: تبكي صبيّاً من صبيان هشام، فإذا بكى فقل له: اسكت! واللّه لكأنك ابن خالد القسري (٢٢٠/٥) الذي غلته ثلاثة عشر ألف ألف. ففعل الخادم، فسمعها هشام، فسأل حيان عن غلة خالد، فقال: ثلاثة عشر ألف ألف، فوقرت في نفس هشام.

وقيل: كانت غلته عشرين ألفاً، وإنه حفر بالعراق الأنهار، منها نهر خالد وباجري وتارمانا والمبارك والجامع وكورة سببور والصلح، وكان كثيراً ما يقول: إني مظلوم، ما تحت قدمي شيء إلا هو لي، يعني أنّ عمر جعل لبجيلة ربع السواد.

وأشار عليه العريان بن الهيثم وبلال بن أبي بردة بعرض أملاكه على هشام ليأخذ منها ما أراد ويضمنان له الرضا فإنهما قد بلغهما تغير هشام عليه، فلم يفعل ولم يجبهما إلى شيء. وقيل لهشام: إنّ خالداً قال لولده: ما أنت بدون مسلمة بن هشام!

ودخل رجل من آل عمرو بن سعيد بن العاص على خالد في مجلسه، فأغلظ له في القول، فكتب إلى هشام يشكو خالداً، فكتب هشام إلى خالد يذمه ويلومه ويؤنبه ويأمره أن يمشي راجلاً إلى بابه ويترضاه، فقد جعل عزله وولايته إليه، وكان يذكر هشاماً فيقول: ابن الحمقاء، وكان خالد يخطب فيقول: زعمت أنسي أغلي أسعاركم، فعلى من يغلبها لعنة الله!

وكان هشام كتب إليه ألا تبين من الغلات شيئاً حتّى تباع غلات أمير المؤمنين، فبلغت كيلها دراهم. وكان يقول لابنه: كيف أنت إذا احتاج إليك أمير المؤمنين؟ (٢٢١/٥) فبلغ هذا جميعه أمير المؤمنين هشاماً فتكرّر له. وبلغه أيضاً أنّه يستقل ولاية العراق، فكتب إليه هشام: يابن أم خالد بلغني أنّك تقول: ما ولاية العراق لي بشرف. يابن اللخناء، كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفاً وأنت من بجيلة القليلة الذليلة؟ أما واللّه إني لأظن أنّ أول من يأتيتك صغير من قريش يشدّ يديك إلى عتقك.

وعليها خير من أن يجيء مَنْ يطالبنا بالأموال وهي عند أهل الكوفة فيترصّون فنقتل ويأكلون تلك (٢٢٣/٥) الأموال. فأبى خالد. فودّعه طارق وبكى وقال: هذا آخر ما نلتقي في الدنيا. ومضى إلى الكوفة وخرج خالد إلى الجَمَّة.

وقدم رسولُ يوسف عليه اليَمَنَ فقال: أمير المؤمنين صاحب، وقد ضربني ولم يكتب جواب كتابك، وهذا كتاب سالم صاحب الديوان.

فقرأه، فلَمَّا انتهى إلى آخره قرأ كتاب هشام بخطه وولاية العراق ويأمره أن يأخذ ابن النصرانية، يعني خالدًا، وعُمَّاله ويعذبهم حتّى يشتفي. فأخذ دليلاً وسار من يومه واستخلف على اليمن ابنه الصلت، فقدم الكوفة في جمادى الآخرة سنة عشرين ومائة فنزل النَجَفَ، وأرسل مولاة كَيْسَانَ وقال: انطلقْ فأتني بطارق، فإن أقبل فاحمله على إكاف، وإن لم يقبل فات. به سحبا.

فأتى كَيْسَانُ الحيرةَ فأخذ معه عبدَ المسيح سيّد أهلها إلى طارق، فقال له: إن يوسف قد قدم على العراق وهو يستدعيك. فقال طارق لكَيْسَانَ: إن أراد الأميرُ المالَ أعطيتُ ما سأل. وأقبل به إلى يوسف بن عمر فتوافوا بالحيرة، فضربه ضرباً مبرحاً يقال خمسمائة سوط، ودخل الكوفة وأرسل عطاء بن مقدّم إلى خالد بالجَمَّة، فأتى الرسولَ حاجبُهُ وقال: استأذن [لي] على أبي الهيثم، فدخل على خالد متغيّر اللون، فقال خالد: ما لك؟ قال: خير. قال: ما عندك خير! قال عطاء [قال]: استأذن لي على أبي الهيثم. فقال: ايدنْ له، فدخل عليه، فقال: ويل أمها سخطة! ثم أخذَه فحبسه، وصالحه عنه أبان بن الوليد وأصحابه على تسعة آلاف ألف، فقيل ليوسف: لو لم تفعل (٢٢٤/٥) لأخذت منه مائة ألف ألف، فندم وقال: قد رهنْتُ لساني معه ولا آمن ولا أرجع.

وأخبر أصحابُ خالد خالدًا فقال: قد أخطأتم ولا آمن أن يأخذها ثم يعود، أرجعوا، فرجعوا فأخبروه أنّ خالدًا لم يرض، فقال: قد رجعتُم؟ قالوا: نعم. قال: واللّه لا أرضى بمثلها ولا مثليها، فأخذ أكثر من ذلك، وقيل: أخذ مائة ألف. فأرسل يوسف إلى بلال بن أبي بُرْدَة، فقبضه، وكان قد اتخذ بلال بالكوفة داراً لم ينزلها، فأحضره يوسف مقيداً فأنزله الدار، ثم جعلتُ سجنًا. وكان خالد يصل الهاشميين ويبرهم، فأتاه محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان ليستمحه فلم ير منه ما يحب، فقال: أمّا الصلة فلهاشميين وليس لنا منه إلاّ أنّه يلعن علياً، فبلغت خالدًا فقال: إن أحببنا لثنا عثمان بشيء.

وكان خالد مع هذا يبالي في سبِّ علي، فقيل: كان يفعل ذلك نفياً للتهمة وتقريباً إلى القوم.

وكانت ولاية خالد العراق في شوال سنة خمس ومائة، وعُزل

في جمادى الأولى سنة عشرين ومائة، ولمّا ولي يوسف العراق كان الإسلام ذليلاً والحكم فيه إلى أهل الذمّة، وقال يحيى بن نوفل فيه:

أثنا وأهلُ الشُّركِ أهلُ زُكَّاتنا وحُكَّانَا فيما نُسيّر ونجهُرُ
فلَمَّا أثنا يوسفُ الخيرِ اشترقتْ له الأرضُ حتّى كلَّ وادٍ منوّرُ
وحَتَّى رأينا العدةَ في الناس ظاهراً وما كان قبل العُقُليّ يظهرُ
في أبيات. ثم قال بعد ذلك: (٢٢٥/٥)

أرانا والخليفة إذ مرّنا مع الإخلاص بالرجل الجديد
كأهل النـار حين دعوا أنْشروا جميعاً بالحميم وبالصليد
وكان في يوسف أشياء متباينة متناقضة، كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ضابطاً لحشمه وأهله عن الناس، لئِن الكلام، متواضعاً، حسن الملكة، كثير التضرّع والدعاء، فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحداً حتّى يصلي الضحى، يقرأ القرآن ويتضرّع، وكان بصيراً بالشعر والأدب، وكان شديد العقوبة مسرفاً في ضرب الأشرار، فكان يأخذ الثوب الجديد فيمرّ ظفره عليه، فإن تعلق به طاقه ضرب صاحبه وربما قطع يده. وكان أحقق، أتى يوماً بثوب فقال لكاتبه: ما تقول في هذا الثوب، فقال: كان ينبغي أن تكون بيوته أصغر ممّا هي. فقال للحائك: صدق يابن اللخناء! فقال الحائك: نحن أعلم بهذا. فقال لكاتبه: صدق يابن اللخناء. فقال الكاتب: هذا يعمل في السنة ثوباً أو ثوبين، وأنا يمرّ على يديّ في كل سنة مائة ثوب مثل هذا. فقال للحائك: صدق يابن اللخناء! فلم يزل يكذب هذا مرّة وهذا مرّة حتّى عدّ أبيات الثوب فوجدها تنقص بيتاً من أحد جانبي الثوب، فضرب الحائك مائة سوط.

وقيل: إن يوسف أراد السفر فدعا جواريه فقال لإحدهم: تخرجين معي؟ قالت: نعم. قال: يا خبيثة كلّ هذا من حبّ النكاح، يا خادم اضرب رأسها. وقال لأخرى: ما تقولين؟ أقيم على ولدي. فقال: يا خبيثة أكلّ هذا زهادة في؟ اضرب رأسها. وقال لثالثة: ما تقولين: ما ادري ما أقول، إن قلتُ ما قالت إحداهما، لم آمن عقوبتك. فقال: يا لئنا أو تناقضين وتحتجّين؟ اضرب رأسها. فضرب الجميع.

وكان قصيراً عظيم اللحية، وكان يُخضّر الثوب الطويل ليفصله ليلبه، (٢٢٦/٥) فإن قال الخياط أنّه يفضل منه ضربه، فإن قال له الخياط: لا يكفيني إلّا بعد التصرّف في التفصيل، سرّه، فكانوا يفصلون له ثياباً طوالاً ويأخذون ما ينبغي من الثوب يوهونه أنّ الثوب لم يكفه فيرضى بذلك. وله في هذا الباب أشياء نوادر، منها أنّه قال يوماً لكاتب له: ما حبسك؟ فقال: اشتكيتُ ضرسى، فدعاه بحجّام يقلعه ومعه ضرس آخر.

ذكر ولاية نصر بن سيار الكنائي خراسان

وأتى نصرأ عهده في رجب سنة عشرين ومائة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك الصائفة وافتتح سندرة.

وفيه غزا إسحاق بن سلم العُقيلي تومانشاه وافتتح قلاعها وخرب أرضها.

وحج بالناس هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي، وقيل: حج بهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقيل: أخوه يزيد بن هشام. وكان العامل على المدينة ومكة والطائف محمد بن هشام المخزومي، وعلى العراق والمشرق يوسف بن عمر، وعلى خراسان نصر بن سيار، وقد أمره هشام أن يكتب يوسف بن عمر، وقيل: كان عليها جعفر بن حنظلة، وعلى البصرة كثير بن عبدالله السلمي، استعمله يوسف، وعلى قضائها عامر بن عبيدة، وعلى أرمينية وأذربيجان مروان بن محمد، وعلى قضاء الكوفة ابن شبرمة.

وفيه مات عاصم بن عمر بن قتادة في أصح الأقوال.

وفيه مات مسلمة بن عبد الملك بن مروان، وقيل سنة إحدى وعشرين بالشام.

وفيه مات قيس بن مسلم. ومحمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي. وحماد بن سليمان الفقيه. وواقد بن عمرو بن سعد بن معاذ. وعلي بن مذك النخعي الكوفي. والقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الكوفي. (٢٢٩/٥)

سنة إحدى وعشرين ومائة

في هذه السنة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير.

ذكر ظهور زيد بن علي بن الحسين

قيل: إن زيد بن علي بن الحسين قتل هذه السنة، وقيل: سنة اثنتين وعشرين ومائة، ونحن نذكر الآن سبب خلافه على هشام وبيعه، ونذكر قتله سنة اثنتين وعشرين.

قد اختلفوا في سبب خلافه، فقيل: إن زيدا وداود بن علي بن عبد الله ابن عباس ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب قدموا على خالد بن عبدالله القسري بالعراق فأجازهم ورجعوا إلى المدينة، فلما ولي يوسف بن عمر كتب إلى هشام بذلك وذكر له أن خالداً ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار، ثم رد الأرض عليه، فكتب هشام إلى عامل المدينة أن يسيرهم إليه، ففعل، فسألهم هشام عن ذلك فأقروا بالجائزة وأنكروا ما سري

لما مات أسد بن عبدالله استشار هشام بن عبد الملك عبد الكريم بن سليل الحنفي، وكان عالماً بخراسان، فيمن يوليه، فقال عبد الكريم: يا أمير المؤمنين أما رجل خراسان حزمًا ونجدةً فالكرواني. فأعرض عنه وقال: ما اسمه؟ قال: جندب بن علي. قال: لا حاجة لي فيه، وتطير، قال: فالمسن المجرب يحيى بن نعيم بن هيرة الشيباني. قال: ربيعة لا تسد بها الثغور. قال عبد الكريم: فقلت في نفسي: كره ربيعة واليمن فأرميه بضرب، فقلت: عقيل بن معقل الليثي إن غفرت هنة. قال: ما هي؟ قلت: ليس بالعفيف. قال: لا حاجة لي فيه. قلت: منصور بن أبي الخرقاء السلمي إن غفرت نكره فإنه مشؤوم. قال: غيره. قلت: فالمجشتر بن مزاحم السلمي عاقل شجاع له رأي مع كذب فيه. قال: لا خير في الكذب. قلت: يحيى بن الحضين. (٢٢٧/٥) قال: ألم أخبرك أن ربيعة لا تسد به الثغور؟ قال: فقلت نصر بن سيار. قال: هو لها. قلت: إن غفرت واحدة، فإنه عفيف مجرب عاقل. قال: ما هي؟ قلت: عشيرته به قليله. قال: لا أبا لك! [أتريد عشيرة] أكثر مني؟ أنا عشيرته. فكتب عهده وبعثه مع عبد الكريم.

وقد قيل: عرض عليه عثمان بن الشخير، وقيل له: إنه صاحب شراب، وقيل له عن يحيى بن الحضين: إنه كثير التيه، وقيل له عن قطن بن قتيبة: أنه موتور، فلم يولهم فاستعمل نصرأ.

وكان جعفر بن حنظلة الذي استخلفه أسد على خراسان عند موته قد عرض على نصر أن يوليه بخاري، فاستشار البخاري بن مجاهد مولى بني شيبان، فقال له: لا تقبلها لأنك شيخ مضر بخراسان وكأنك بعدك قد جاء على خراسان كلها. فلما أتاه عهده بعث إلى البخاري ليأنيه، فقال البخاري لأصحابه: قد ولي نصرأ خراسان، فلما أتاه سلم عليه بالإمرة، فقال له: من أين علمت؟ قال: كنت تأتيني فلما بعث إلي علمت أنك قد وليت.

وأعطى نصرأ عبد الكريم لما أتاه بعده عشرة آلاف درهم، واستعمل على بلخ مسلم بن عبد الرحمن بن مسلم، واستعمل على مرو الروذ وساج بن بكير بن وساج، وعلى هراة الحارث بن عبدالله بن الحشرج، وعلى نيسابور زياد بن عبد الرحمن القشيري، وعلى خوارزم أبا حفص بن علي ختنه، وعلى الصغد قطن بن قتيبة. قال رجل من اليمانية: ما رأيت عصبية مثل هذا. قال: بلى، التي كانت قبلها، فلم يستعمل أربع سنين إلا مضرباً، وعمرت خراسان عمارة لم تعمر قبلها، وأحسن الولاية والجبابة؛ فقال سوار بن الأشعر: (٢٢٨/٥)

أضحت خراسان بعد الخوف أمانة من ظلم كل غشوم الحكم جبار لما أتى يوسفأ أخباراً ما لقيت اختار نصرأ لها نصرأ بن سيار

ذلك وحلفوا، فصدّقهم وأمرهم بالمسير إلى العراق ليقابلوا خالدًا، فساروا على كره وقابلوا خالدًا، فصدّقهم، فعادوا نحو المدينة. فلما نزلوا القادسيّة راسل أهل الكوفة زيدًا فعاد إليهم.

عبد الله كذا.

فلما كان الغد جلس خالد في المسجد واجتمع الناس فمن بين شامت ومهموم، فدعا بهما خالد وهو يحب أن يتشامتا، فذهب عبد الله يتكلم، فقال زيد: لا تعجل يا أبا محمد، أعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدًا. ثم أقبل على خالد فقال: جمعت ذريرة رسول الله ﷺ لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر! فقال خالد: أما لهذا السفيه أحد؟ فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حزم فقال: يا ابن أبي تراب وابن حسين السفيه! أما ترى للوالي عليك حقًا ولا طاعة؟ فقال زيد: أسكت أيها القحطاني فإنا لا نجيب مثلك. قال: ولم ترغب عني؟ فوالله إني لخير منك، وأبي خير من أبيك، وأمي خير من أمك. فتضاحك زيد وقال: يا معشر قريش هذا الدين قد ذهب فذهبت الأحساب، فوالله ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم. فتكلم عبد الله بن واد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب (٢٣٢/٥) فقال: كذبت والله أيها القحطاني! فوالله لهر خير منك نفسًا وأماً وأباً ومحتدًا! وتناوله بكلام كثير، وأخذ كفًا من حصباء وضرب بها الأرض ثم قال: إنه والله ما لنا على هذا من صبر.

وشخص زيد إلى هشام بن عبد الملك، فجعل هشام لا يأذن له، فيفرع إليه القصص، فكلما رفع قصة يكتب هشام في أسفلها: أرجع إلى أميرك. فيقول زيد: والله لا أرجع إلى خالد أبدًا. ثم أذن له يوماً بعد طول حبس ورقي عليّة طويلة وأمر خادماً أن يتبعه بحيث لا يراه زيد ويسمع ما يقول، فصعد زيد، وكان بدينًا، فوقف في بعض الدرجة، فسمعه يقول: والله لا يحب الدنيا أحد إلا ذل. ثم صعد إلى هشام فحلف له على شيء، فقال: لا أصدقك. فقال: يا أمير المؤمنين إن الله لم يرفع أحدًا عن أن يرضى بالله، ولم يضع أحدًا عن ألا يرضى بذلك منه. فقال هشام: لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك وأنت ابن أمة. قال زيد: إن لك جواباً. قال: فتكلم. قال: إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع درجة عنده من نبيّ ابنته، وقد كان إسماعيل ابن أمة وأخوه ابن صريحة فاختره الله عليه وأخرج منه خير البشر، وما على أحد من ذلك إذ كان جدّه رسول الله وأبوه عليّ بن أبي طالب ما كانت أمّه. قال له هشام: اخرج. قال: أخرج ثم لا أكون إلا بحيث تكره. فقال له سالم: يا أبا الحسين لا تظهرن هذا منك.

فخرج من عنده وسار إلى الكوفة، فقال له محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب: أدركك الله يا زيد لما لحقت بأهلك ولا تأت أهل الكوفة، (٢٣٣/٥) فإنهم لا يفون لك؛ فلم يقبل. فقال له:

وقيل: بل ادّعى خالد القسريّ أنه أودع زيدًا وداود بن عليّ ونفراً (٢٣٠/٥) من قريش مالا، فكتب يوسف بذلك إلى هشام، فأحضرهم هشام من المدينة وسيرهم إلى يوسف ليجمع بينهم وبين خالد فقدموا عليه، فقال يوسف لزيد: إن خالدًا زعم أنه أودعك مالا. قال: كيف يودعني وهو يشتم آبائي على منبره! فأرسل إلى خالد فأحضره في عباءة، فقال: هذا زيد قد أنكر أنك قد أودعته شيئاً. فنظر خالد إليه وإلى داود وقال ليوسف: أتريد أن تجمع مع إنك في إثماً في هذا؟ كيف أودعه وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر! فقالوا لخالد: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قال: شدّد عليّ العذاب فأدعيت ذلك وأملت أن يأتي الله بفرج قبل قدومكم. فرجعوا وأقام زيد وداود بالكوفة.

قيل: إن يزيد بن خالد القسريّ هو الذي ادّعى المال وديعة عند زيد. فلما أمرهم هشام بالمسير إلى العراق إلى يوسف استقالوه خوفاً من شرّ يوسف وظلمه، فقال: أنا أكتب إليه بالكف عنكم، والزهم بذلك، فساروا على كره.

وجمع يوسف بينهم وبين يزيد، فقال يزيد: [ما] لي عندهم قليل ولا كثير. قال يوسف: أيّ تهرأ أم بأمير المؤمنين؟ فعذبه يومئذ عذاباً كاد يهلكه، ثم أمر بالفراشين ففرضوا وترك زيداً. ثم استحلّهم وأطلقهم، فلحقوا بالمدينة، وأقام زيد بالكوفة، وكان زيد قد قال لهشام لما أمره بالمسير إلى يوسف: ما آمن إن بعثني إليه أن لا نجتمع أنا وأنت حينئذ أبدًا. قال: لا بد من المسير إليه، فساروا إليه.

وقيل: كان السبب في ذلك أن زيداً كان يخاصم ابن عمّه جعفر بن الحسن بن الحسن بن عليّ في [ولاية] وقوف عليّ، [وكان] زيد يخاصم عن بني الحسين، وجعفر يخاصم عن بني الحسن، فكانا يتالغان [بين يدي الوالي إلى] كلّ غاية ويقومان فلا يعيدان ممّا كان بينهما حرفاً. (٢٣١/٥)

فلما مات جعفر نازعه عبد الله بن الحسن بن الحسن، فتنازعا يوماً بين يديّ خالد بن عبد الملك بن الحارث بالمدينة، فأغلظ عبد الله لزيد وقال: يابن السنتيّة! فضحك زيد وقال: قد كان إسماعيل لأمة ومع ذلك فقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم يصبر غيرها، يعني فاطمة ابنة الحسين أم عبد الله، فإنها تزوجت بعد أبيه الحسن بن الحسن، ثم ندم زيد واستحيا من فاطمة، وهي عمته، فلم يدخل عليها زماناً، فأرسلت إليه: يابن أخي إني لأعلم أن أمك عندك كام عبد الله عنده. وقالت لعبد الله: بش ما قلت لأم زيد!

خرج بنا أسراء على غير ذنب من الحجاز إلى الشام ثم إلى الجزيرة ثم إلى العراق إلى قيس ثقيف يلعب بنا؛ وقال:

بكرت تخوفني الحُوفَ كائنِي
أصبحتُ عن عرض الحيلة بمَنزِلِ
فاجتَبِهَا: إِنَّ المَيْتَةَ مَنهَلٌ
لَا بَدَانَ أَسْقَى بِكأسِ المَنهَلِ
إِنَّ المَيْتَةَ لَو تَمَثَّلَ مُثَلَّتْ
مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضَيْقِ المَنزِلِ
فَأَقْنِي حِيَاثَكَ لَا إِلَهَ لَكَ وَأَعْلَمِي
أَنِّي أَمْرٌ سَامُوتُ إِنْ لَمْ أَقْصَلِ

استودعك الله وإني أعطي الله عهداً إن دخلت يد في طاعة هؤلاء ما عشت. وفارقه وأقبل إلى الكوفة، فأقام بها مستخفياً ينتقل في المنازل، وأقبلت الشيعة تختلف إليه تباعه، فباعه جماعة منهم: سلمة بن كهيل، ونصر بن خزيمة العسبي، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري، وناس من وجوه أهل الكوفة، وكانت بيعته: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، وردّ المظالم، ونصر أهل البيت، أتباعون على ذلك؟ فإذا قالوا: نعم، وضع يده على أيديهم ويقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله ﷺ لتفني بيعتي ولتقاتلن عدوي ولتنصحن لي في السر والعلانية، فإذا قال: نعم، مسح يده على يده ثم قال: اللهم اشهد. فباعه خمسة عشر ألفاً وقيل: أربعون ألفاً، فأمر أصحابه بالاستعداد، (٢٣٤/٥) فأقبل من يزيد أن يفني له ويخرج معه ويستعدّ ونهتياً، فشاع أمره في الناس.

هذا على قول من زعم أنه أتى الكوفة من الشام واختفى بها يبايع الناس، وأما على قول من زعم أنه أتى إلى يوسف بن عمر لموافقة خالد بن عبد الله القسري أو ابنه يزيد بن خالد فإن زيدا أقام بالكوفة ظاهراً ومعه داود بن علي بن عبد الله بن عباس، وأقبلت الشيعة تختلف إلى زيد وتأمّره بالخروج ويقولون: إنا نلرجو أن تكون أنت المنصور، وأن هذا الزمان هو الذي تهلك فيه بنو أمية. فأقام بالكوفة، وجعل يوسف بن عمر يسأل عنه فيقال هو هاهنا، ويبعث إليه ليسير فيقول: نعم، ويعتل بالرجوع فمكث ما شاء الله.

ثم أرسل إليه يوسف ليسير، فاحتجّ بأنه يحتاج أشياء يريدّها. ثم أرسل إليه يوسف بالمسير عن الكوفة، فاحتجّ بأنه يحاكم بعض آل طلحة بن عبيد الله بملك بينهما بالمدينة، فأرسل إليه ليوكل وكيلاً ويرحل عنها. فلما رأى جدّ يوسف في أمره سار حتى أتى القادسية، وقيل الثعلبية، فتبعه أهل الكوفة وقالوا له: نحن أربعون ألفاً لم يختلف عنك أحد نضرب عنك بأسافنا، وليس هاهنا من أهل الشام إلا عدة يسيرة بعض قبائلنا يكفيهم بإذن الله تعالى، وحلفوا له بالإيمان المغلظة، فجعل يقول: إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلكم بأبي وجدي، فيحلفون له. فقال له داود بن علي: يابن عمّ إن هؤلاء يغرونك من نفسك، ليس قد خذلوا من كان أعزّ عليهم

منك جدّك علي بن أبي طالب حتى قتل؟ والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه وجرحوه؟ أوليس قد أخرجوا جدّك الحسين وحلفوا له وخذلوه وأسلموه ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟ فلا ترجع معهم. فقالوا: إن هذا لا يريد أن تظهر أنت ويزعم أنه وأهل بيته أولى بهذا الأمر منكم. فقال زيد لداود: إن علياً [كان] يقاتله معاوية بدهانه ونكراته [بأهل الشام] وإن الحسين (٢٣٥/٥) قاتله يزيد والأمر مقبل عليهم. فقال داود: إنني خائف إن رجعت معهم أن لا يكون أحد أشدّ عليك منهم، وأنت أعلم.

ومضى داود إلى المدينة، ورجع زيد إلى الكوفة، فلما رجع زيد أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من رسول الله ﷺ وحقّه، فأحسن ثم قال له: نشدك الله كم بايعك؟ قال: أربعون ألفاً. قال: فكم بايع جدّك؟ قال: ثمانون ألفاً. قال: فكم حصل معه؟ قال: ثلاثمائة. قال: نشدك الله أنت خير أم جدّك؟ قال: جدي. قال: فهذا القرن خير أم ذلك القرن؟ قال: ذلك القرن. قال: أفتطمع أن يفني لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدّك؟ قال: قد بايعوني ووجبت البيعة في عني وأعانهم. قال: أفتأذن لي أن أخرج من هذا البلد؟ فلا آمن أن يحدث حدث فلا أملك نفسي. فأذن له فخرج إلى اليمامة، وقد تقدّم ذكر مبايعة سلمة.

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن إلى زيد: أما بعد فإن أهل الكوفة نفّخ العلانية خور السرية هرج في الرخاء جزع في اللقاء، تقدمهم الستهم ولا تشايهم قلوبهم، ولقد توارث إليّ كتبهم بدعوتهم، فصممت عن ندائهم والبست قلبي غشاء عن ذكرهم ياساً منهم وأطراحاً لهم، وما لهم مثل إلا ما قال علي بن أبي طالب: إن أهملتم خضتم، وإن حوربتم خرتم وإن اجتمع الناس على إمام طعتم، وإن أجبتم إلى مشاققة نكصتم. فلم يصغ زيد إلى شيء من ذلك، فأقام على حاله يبايع الناس ويتجهز للخروج، وتزوّج بالكوفة ابنة يعقوب بن عبد الله السلمي، وتزوّج أيضاً ابنة عبد الله بن أبي العنسي الأزدي.

وكان سبب تزوّجه إياها أن أمها أم عمرو بنت الصلت كانت تشيع، فأتت زيدا تسلّم عليه، وكانت جميلة حسناء قد دخلت في السن ولم يظهر (٢٣٦/٥) عليها، فخطبها زيد إلى نفسها فاعتذرت بالسن وقالت له: لسي ابنة هي أجمل مني وأبيض وأحسن ذلاً وشكلاً. فضحك زيد ثم تزوّجها. وكان يتنقل بالكوفة تارة عنده وتارة عند زوجه الأخرى وتارة في بني عيس وتارة في بني هند وتارة في بني تغلب وغيرهم إلى أن ظهر.

ذكر غزوات نصر بن سيار ما وراء النهر

وفي هذه السنة غزا نصر بن سيار ما وراء النهر مرتين، إحداهما من نحو الباب الجديد، فسار من بلخ من تلك الناحية ثم

الدرجة الرفيعة، فقلت أقول مثلها، سر يا يحيى فقد وليتك مقدّمتي. فلأمّ الناس يحيى، فسار إلى الشاش، فأتاهم الحارث فنصب عليهم عرّادتين، وأغار الآخرم، وهو فارس الترك، على المسلمين فقتلوه وألقوا رأسه إلى الترك، فصاحوا وانهزموا.

وسار نصر إلى الشاش، فتلّقاها ملكها بالصلح والهدية والرهن، واشترط عليه نصر إخراج الحارث بن سُرّيج عن بلده، فأخرجه إلى فاراب، واستعمل على الشاش نيزك بن صالح مولى عمرو بن العاص، ثم سار حتى نزل قبا من أرض فرغانة، وكانوا أحسّوا بمجيئه فأحرقوا الحشيش وقطعوا الميرة، فوجّه نصر إلى وليّ [عهد] صاحب فرغانة فحاصره في حصن، وغفلوا عنه فخرج وغنم دوابّ المسلمين، فوجّه إليهم نصر رجالاً من تميم ومعهم محمد بن المثنى، وكان المسلمون ودوأنهم كمنوا لهم، فخرجوا واستاقوا بعضها، وخرج عليهم المسلمون فهزمهم وقتلوا الدهقان وأسروا منهم وأسروا ابن الدهقان فقتله نصر، وأرسل نصر سليمان بن صول بكتاب الصلح إلى صاحب فرغانة، فأمر به فأدخل الخزان ليرأها ثم رجع إليه، فقال: كيف رأيت الطريق فيما بيننا وبينكم؟ قال: سهلاً كثير الماء والمرعى، فكره ذلك وقال: ما [٢٣٩/٥] علمك؟ فقال سليمان: قد غزوت غرّستان وغور والخلّ وطبرستان فكيف لا أعلم؟ قال: فكيف رأيت ما أعددنا؟ قال: عدّة حسنة، ولكن أما علمت أنّ [صاحب] الحصار لا يسلم من خصال، لا يأمن أقرب الناس إليه وأوثقهم في نفسه [أن يشب به يطلب مرتبته ويتقرّب بذلك] أو يفتى ما [قد] جمع فيسلم برمته أو يصيبه داء فيموت. فكره ما قال له وأمر فأحضر كتاب الصلح، فأجاب إليه وسير أمه معه، وكانت صاحبة أمره، فقدمت على نصر، فأذن لها وجعل يكلمها، وكان ممّا قالت له: كلّ ملك لا يكون عنده ستّة أشياء فليس بملك، وزير يبيّث إليه ما في نفسه ويشاوره ويثق بنصيحته، وطباخ إذا لم يشته الطعام اتّخذ له ما يشتهي وزوجة إذا دخل عليها فتنمّتاً فنظر إلى وجهها زال غمّه، وحصن إذا فزع أثناء فأنجاه، تعني البرذون، وسيف إذا قاتل لا يخشى خيافته، وذخيرة إذا حملها عاش بها أين كان من الأرض.

ثم دخل تميم بن نصر في جماعة فقالت: من هذا؟ قالوا: هذا فتى خراسان تميم بن نصر. قالت: ماله نبل الكبير ولا حلاوة الصغير؛ ثم دخل الحجاج بن قتيبة فقالت: من هذا؟ فقالوا: الحجاج بن قتيبة، فحيّته وسألت عنه وقالت: يا معشر العرب ما لكم وفاء ولا يصلح بعضكم بعضاً، قتيبة الذي ذلّل لكم ما رأى وهذا ابنه تفعده دونك فحقه أن تجلسه أنت هذا المجلس وتجلس أنت مجلسه. [٢٤٠/٥]

رجع إلى مرو فخطب الناس وأخبرهم أنّه قد أقام منصور بن عمر بن أبي الخرقاء على كشف المظالم وأنّه قد وضع الجزية عمّن قد أسلم وجعلها على من كان يخفّ عنه من المشركين. فلم تمض جُمعة حتّى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدّون الجزية عن رؤوسهم، وثمانون ألفاً من المشركين كانت قد ألقيت عنهم، فحوّل ما كان على المسلمين إليهم ووضعه عن المسلمين ثمّ صنّف الخراج ووضعه مواضعه. ثمّ غزا الثانية إلى وزغسر وسمرقند ثمّ رجع. ثمّ غزا الثالثة إلى الشاش من مرو، فحال بينه وبين عبور نهر الشاش كورصول في خمسة عشر ألفاً. وكان معهم الحارث بن سُرّيج، وعبر كورصول في أربعين رجلاً، فبيّت أهل العسكر في ليلة مظلمة ومع نصر بخاراخذاه في أهل بخاري ومعه أهل سمرقند [٢٣٧/٥] وكيش ونسّف، وهم عشرون ألفاً، فنادى نصر: ألا يخرجن أحد واثبتوا على مواضعكم. فخرج عاصم بن عمير، وهو على جند سمرقند، فمرت به خيل الترك، فحمل على رجل في آخرهم فأسره، فإذا هو ملك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة، فأتى به إلى نصر، فقال له نصر: من أنت؟ قال: كورصول. فقال نصر: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدوّ الله. قال: ما ترجو من قتل شيخ؟ وأنا أعطيك أربعة آلاف بعير من إبل الترك وألف برذون تقوي بها جندك وتطلق سبيلي. فاستشار نصر أصحابه، فاشاروا بإطلاقه، فسأله عن عمره، قال: لا أدري. قال: كم غزوت؟ قال: اثنتين وسبعين غزوة. قال: أشهدت يوم العطش؟ قال: نعم. قال: لو أعطيتني ما طلعت عليه الشمس ما أفلت من يدي بعد ما ذكرت من مشاهدك. وقال لعاصم بن عمير السعدي: قم إلى سلّبه فخذّه. فقال: من أسرني؟ قال نصر، وهو يضحك: أسرك يزيد بن قران الحنظلي، وأشار إليه. قال: هذا لا يستطيع أن يغسل أسته أو لا يستطيع أن يتمّ له بوله فكيف يأسرني؟ أخبرني من أسرني؟ قال: أسرك عاصم بن عُمَيْر. قال: لست أجد ألمّ القتل إذا كان أسرني فارس من فرسان العرب. فقتله وصلبه على شاطئ النهر.

وعاصم بن عمير هو الهزارمرد، قُتل بهّاوند أيام قحطية.

فلما قُتل كورصول أحرق الترك أبيته وقطعوا آذانهم وقصّوا شعورهم وأذئاب خيلهم. فلما أراد نصر الرجوع أحرقه لئلا يحملوا عظامه، فكان ذلك أشدّ عليهم من قتله، وارتفع إلى فرغانة فسبى بها ألف رأس.

وكتب يوسف بن عمر إلى نصر: سرّ إلى هذا الفارز ذنبه في الشاش، يعني [٢٣٨/٥] الحارث بن سُرّيج، فإن أظفرك الله به وبأهل الشاش فخرّب بلادهم واسبّ ذراريهم، وإياك وورطة المسلمين، فقرأ الكتاب على الناس واستشارهم، فقال يحيى بن الحُضَيْن: امض لأمر أمير المؤمنين وأمر الأمير. فقال نصر: يا يحيى تكلمت بكلمة أيام عاصم بلغت الخليفة فحطيت بها وبلغت

ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان

وفي سنة إحدى وعشرين غزا مروان بن محمد من أرمينية وهو واليها فأتى قلعة بيت السرير فقتل وسبى، ثم أتى قلعة ثانية فقتل وسبى ودخل غوميك وهو حصن في بيت الملك وسريه، فهرب الملك منه حتى أتى حصناً يقال له خيزج فيه السرير الذهب، فسار إليه مروان ونازله صيفيته وشتوته، فصالح الملك على ألف رأس كل سنة ومائة ألف مذي، وسار مروان فدخل أرض ازروبطران، فصالحه ملكها، ثم سار في أرض ترومان فصالحه، وسار حتى أتى حمزين فأخرب بلاده وحصر حصناً له شهراً فصالحه، ثم أتى مروان أرض مسداز فافتحها على صلح، ثم نزل مروان كيران فصالحه طبرسران وفيلان، وكل هذه الولايات على شاطئ البحر من أرمينية إلى طبرستان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير.

وحج بالناس هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي، وهو كان عامل المدينة ومكة (٢٤١/٥) والطائف. وعلى العراق يوسف بن عمر وعلى خراسان نصر بن سيار، وعلى أرمينية وأذربيجان مروان بن محمد، وعلى قضاء البصرة عامر بن عبيدة، وعلى قضاء الكوفة ابن شبرمة.

وفيها فرغ الوليد بن بكير عامل الموصل من حفر النهر الذي أدخله البلد، وكان مبلغ النفقة عليه ثمانية آلاف ألف درهم، وجعل عليه ثمانية أحجار تطحن، ووقف هشام هذه الأرحاء على عمل النهر.

وفيها مات سلمة بن سهيل، وقيل سنة اثنين وعشرين وفيها مات عامر بن عبد الله بن الزبير، وقيل سنة اثنين وعشرين، وقيل سنة أربع وعشرين بالشام.

وفيها مات محمد بن يحيى بن حبان وهو ابن أربع وسبعين سنة بالمدينة (حبان بفتح الحاء، وبالياء الموحدة). وقتل يعقوب بن عبد الله ابن الأشج شهيداً بأرض الروم. (٢٤٢/٥)

سنة اثنين وعشرين ومائة

ذكر مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

في هذه السنة قُتل زيد ابن علي بن الحسين، قد ذكر سبب مقامه بالكوفة وبيعته بها.

فلما أمر أصحابه بالاستعداد للخروج وأخذ من كان يريد الوفاء له بالبيعة يتجهز انطلق سليمان بن سراقه البارقى إلى يوسف

بن عمر فأخبره، فبعث يوسف في طلب زيد، فلم يوجده، وخاف زيد أن يؤخذ فيتعجل قبل الأجل الذي جعله بينه وبين أهل الكوفة، وعلى الكوفة يومئذ الحكم بن الصلت، وعلى شرطته عمرو بن عبد الرحمن من القارة ومعه عبيد الله بن العباس الكندي في ناس من أهل الشام، ويوسف بن عمر بالحيرة، قال: فلما رأى أصحاب زيد بن علي من يوسف بن عمر أنه قد بلغه أمره وأنه يبحث عن أمره اجتمع إليه جماعة من رؤوسهم وقالوا: رحمك الله، ما قولك في أبي بكر وعمر؟ قال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يقول فيها إلا خيراً، وإن أشد ما أقول فيما ذكرت أن كنا أحق بسلطان ما ذكرت من رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، فدفعونا عنه ولم يبلغ (٢٤٣/٥) ذلك عندنا بهم كفراً، وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة. قالوا: فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك، فلم تدعو إلى قتالهم؟ فقال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإلى السنن أن تحبوا وإلى البدع أن تطغوا، فإن أجبتمونا سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: سبق الإمام، يعنون محمداً الباقر، وكان قد مات، وقالوا: جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه، فسمّاهم زيد الرافضة، وهم يزعمون أن المغيرة سمّاهم الرافضة حيث فارقوه.

وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد، فأخبروه ببعية زيد، فقال: بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا، فعادوا وكنمو ذلك. وكان زيد واعد أصحابه أول ليلة من صفر، وبلغ ذلك يوسف بن عمر، فبعث إلى الحكم يأمره أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم يحصرهم فيه، فجمعهم فيه، وطلبوا زيدا في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن الحارثة الأنصاري، فخرج منها ليلاً، ورفعوا الهراذي. فيها التيران ونادوا: يا منصور [أمت أمت]، حتى طلع الفجر، فلما أصبحوا بعث زيد القاسم التبّعي ثم الحضرمي وآخر من أصحابه يتاديان بشعارهما، فلما كانا بصحراء عبد القيس لقيهما جعفر ابن العباس الكندي فحملا عليه وعلى أصحابه، فقتل الذي كان مع القاسم التبّعي وأرث القاسم وأُتي به الحكم، ف ضرب عنقه، فكانا أول من قُتل من أصحاب زيد. وأغلق الحكم دروب السوق وأبواب المسجد على الناس.

وبعث الحكم إلى يوسف بالحيرة فأخبره الخبر، فأرسل جعفر بن العباس ليأتيه بالخبر، فسار في خمسين فارساً حتى بلغ جبانة سالم فسأل ثم رجع إلى (٢٤٤/٥) يوسف فأخبره، فسار يوسف إلى تلّ قريب من الحيرة فنزل عليه ومعه أشرف الناس، فبعث الريان بن سلمة الأرازي في ألفين ومعه ثلاثمائة من القبياتية رجاله معهم النشاب.

وأصبح زيد فكان جميع من وافاه تلك الليلة ماتت رجل وثمانية عشر رجلاً، فقال زيد: سبحان الله أين الناس؟ فقيل: إنهم في المسجد الأعظم محصورون. فقال: والله ما هذا بعذر لمن يابعدنا! وسمع نصر بن خزيمة العبيسي النداء فأقبل إليه، فلقي عمرو بن عبد الرحمن صاحب شرطة الحكم في خيله من جهينة في الطريق، فحمل عليه نصر وأصحابه فقتل عمرو وانهزم من كان معه، وأقبل زيد على جبانة سالم حتى انتهى إلى جبانة الصائدين وبها خمسمائة من أهل الشام، فحمل عليهم زيد في من معه وهزمهم، فأنتهى زيد إلى دار أنس بن عمرو الأزدي، وكان في من بايعه وهو في الدار، فنودي فلم يجبه، وناداه زيد فلم يخرج إليه، فقال زيد: ما أخلفكم؟ قد فعلتموها، الله حسيكم، ثم انتهى زيد إلى الكناسة فحمل على من بها من أهل الشام فهزمهم، ثم سار زيد ويوسف ينظر إليه في مأتي رجل، فلو قصده لقتله، والريان يتبع أثر زيد بن علي بالكوفة في أهل الشام، فأخذ زيد على مصلّى خالد حتى دخل الكوفة، وسار بعض أصحابه نحو جبانة مخنف بن سُلَيْم فلحقوا أهل الشام فقاتلوه، فسار أهل الشام منهم رجلاً، فأمر به يوسف بن عمر فقتل.

فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال: يا نصر بن خزيمة أنا أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسبيّة. قال: أمّا أنا والله لأقاتلن معك حتى أموت، وإنّ الناس في المسجد فامضي بنا نحوهم. فلقبهم عبيد الله بن العباس الكنديّ عند (٢٤٥/٥) دار عمر بن سعد، فاقتتلوا، فانهزم عبيد الله وأصحابه، وجاء زيد حتى انتهى إلى باب المسجد، فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الأبواب ويقولون: يا أهل المسجد أخرجوا من الدّلّ إلى العزّ، أخرجوا إلى الدين والدنيا فإنكم لستم في دين ولا دنيا. فرماهم أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد.

وانصرف الريان عند المساء إلى الحيرة، وانصرف زيد في من معه، وخرج إليه ناس من أهل الكوفة فنزل دار الرزق، فأثاء الريان بن سَلَمَة فقاتله عند دار الرزق وجرح أهل الشام ومعهم ناس كثير، ورجع أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شيء ظناً.

فلما كان الغد أرسل يوسف بن عمر العباس بن سعيد المُرّسي في أهل الشام فأنتهى إلى زيد في دار الرزق، فلقبه زيد وعلى مجنبته نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن ثابت فاقتتلوا قتالاً شديداً، وحمل نابل بن فروة العبيسي من أهل الشام على نصر بن خزيمة فضربه بالسيف فقطع فخذه، وضربه نصر فقتله، ولم يلبث نصر أن مات واشتد قتالهم، فانهزم أصحاب العباس وقتل منهم نحو من سبعين رجلاً.

فلما كان الغد أرسل يوسف بن عمر العباس بن سعيد المُرّسي في أهل الشام فأنتهى إلى زيد في دار الرزق، فلقبه زيد وعلى مجنبته نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن ثابت فاقتتلوا قتالاً شديداً، وحمل نابل بن فروة العبيسي من أهل الشام على نصر بن خزيمة فضربه بالسيف فقطع فخذه، وضربه نصر فقتله، ولم يلبث نصر أن مات واشتد قتالهم، فانهزم أصحاب العباس وقتل منهم نحو من سبعين رجلاً.

فلما كان الغد أرسل يوسف بن عمر المُرّسي في أهل الشام فأنتهى إلى زيد في دار الرزق، فلقبه زيد وعلى مجنبته نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن ثابت فاقتتلوا قتالاً شديداً، وحمل نابل بن فروة العبيسي من أهل الشام على نصر بن خزيمة فضربه بالسيف فقطع فخذه، وضربه نصر فقتله، ولم يلبث نصر أن مات واشتد قتالهم، فانهزم أصحاب العباس وقتل منهم نحو من سبعين رجلاً.

فلما كان العشاء عبّاهم يوسف بن عمر ثم سرحهم، فالتقوا هم

ثم إنّ يوسف بن عمر تبع الجرحى في الدور، فدلّه السنديّ مولى زيد يوم الجمعة على زيد، فاستخرجه من قبره وقطع رأسه وسير إلى يوسف بن عمر وهو بالحيرة، سيره الحكم بن الصلت، فأمر يوسف أن يصلب زيد بالكناسة هو ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق وزيد التهدي، وأمر بحراستهم، وبعث الرأس إلى هشام، فصلب على باب مدينة دمشق، ثم أرسل إلى المدينة وبقي البدن مصلوباً إلى أن مات هشام وولي الوليد فأمر بإزالته وإحراقه. وقيل: كان خراش بن حوشب بن يزيد الشيباني على شرطة زيد، وهو الذي نبش زيدا وصلبه؛ فقال السيد الحموي:

بَشَّ لَيْلًا مُشْهُدًا سَاهَرُ الْعَيْنِ مُقْضًى
وَلَقَدْ قَلْبُ قَوْلَةٍ وَأَطْلَسْتُ التَّلْهُدًا
لَمَنْ لَلَّهْ حَوْشِبًا وَخِرَاشًا وَمَزْرُودًا

(٢٤٧/٥)

وَزَيْدًا فَتَنَّهُ كَمَا أَنَّ أَعْيَى وَاعْتَدَا
الْفَرْقَ وَالْفَرْقَ الْفَرْقَ مِنَ اللَّعْنِ سَرْمَا
إِيَّاهُمْ حَارِبُوا الْإِلَاحَ سَهْ وَأَفْوَ مَحْمَدًا
شَرِكُوا فِي دَمِ الْمُطَهِّ رِزِيدًا تَعْنِي
ثُمَّ عَالَوْهُ فَوْقَ جَنْدِ عَصْرِي مَجْرُودًا
يَا خِرَاشَ بْنَ حَوْشِبٍ أَتَيْتَ أَشَقَى الْوَرَى غَسَا

وقيل في أمر يحيى بن زيد غير ما تقدّم، وذلك أنّ أباه زيداً لما قُتل قال له رجل من بني أمد: إنّ أهل خراسان لكم شيعة، والرأي

وفيها وُلد المفضل بن صالح ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي.

وفيها وجّه يوسف بن عمر بن سُئُرمة على سجستان فاستقضى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

وحجّ بالناس هذه السنة محمد بن هشام المخزومي، وكان عمّال الأمصار من تقدّم ذكرهم، قيل: وكان على الموصل أبر قحافة ابن أخي الوليد بن تليد العباسي.

وفيها مات إياس بن معاوية بن قُرة قاضي البصرة، وهو الموصوف بالذكاء. وزيد بن الحارث الياامي. ومحمد بن المنكدر بن عبدالله أبو بكر التيمي تيم قريش، وقيل: مات سنة ثلاثين، وقيل: إحدى وثلاثين، وكنيته أبو بكر، وزيد بن عبدالله بن قسط، ويعقوب بن عبدالله بن الأشج. (٢٥٠/٥)

سنة ثلاث وعشرين ومائة

ذكر صلح نصر بن سيار مع الصغد

في هذه السنة صالح نصر بن سيار الصغد.

وسبب ذلك أنّ خاقان لما قُتل في ولاية أسد تفرقت الترك في غارة بعضها على بعض، فطمع أهل الصغد في الرجعة إليها، وانحاز قوم منهم إلى الشاش، فلمّا ولي نصر بن سيار أرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع إلى بلادهم وأعطاهم ما أرادوا، وكانوا ينالون شروطاً أنكرها أمراء خراسان، منها: أن لا يعاقب من كان مسلماً فارتدّ عن الإسلام، ولا يُعدي عليهم في دين لأحد من الناس، ولا يؤخذ أسراء المسلمين من أيديهم إلاّ بفضية قاض وشهادة عدول. فعاب الناس ذلك على نصر بن سيار وقالوا له فيه، فقال: لو عايتم شوكتهم في المسلمين مثلما عايتم ما أنكرتم ذلك. وأرسل رسولا إلى هشام بن عبد الملك في ذلك، فأجابه إليه.

ذكر وفاة عُقبة بن الحجاج ودخول بلج الأندلس

في هذه السنة توفي عُقبة بن الحجاج السلولي أمير الأندلس، فقيل: بل ثار به أهل الأندلس فخلعوه وولّوا بعده عبد الملك بن قطن، وهي ولايته (٢٥١/٥) الثانية، وكانت ولايته في صفر من هذه السنة، وكانت البربر قد فعلت بإفريقية ما ذكرناه سنة سبع عشرة ومائة، وقد حصروا بلج بن بشر العباسي حتّى ضاق عليه وعلى من معه الأمر واشتدّ الحصر، وهم صابرون على هذه السنة، فأرسل إلى عبد الملك بن قطن يطلب منه أن يرسل إليه مراكب يجوز فيها هو ومن معه إلى الأندلس، وذكر ما أنزل عليه من الشدة وأنهم أكلوا دوابهم. فامتنع عبد الملك من إدخالهم الأندلس ووعدهم بإرسال المدد إليهم، فلم يفعل.

أن تخرج إليها. قال: وكيف لي بذلك؟ قال: تسواري حتّى يسكن [عنك] الطلب ثمّ تخرج. فواراه عنده [ليلة]، ثمّ خاف فأتى به عبد الملك بن بشر بن مروان فقال له: إنّ قرابة زيد بك قريبة وحقه عليك واجب. قال: أجل ولقد كان العفو عنه أقرب للتقوى. قال: فقد قُتل وهذا ابنه غلام حدّث لا ذنب له، فإن علم يوسف به قتله، أفْتَجِرْه؟ قال: نعم، فأتاه به فأقام عنده، فلمّا سكن الطلب سار في نفر من الزيدية إلى خراسان. فغضب يوسف بن عمر بعد قتل زيد فقال: يا أهل العراق، إنّ يحيى بن زيد يقتل في جبال نساكم كما كان يفعل أبوه، والله لو بدا لي لعرقته خصييه كما عرقتُ خصييه أبيه! وتهذّبهم وذمّهم وترك. (٢٤٨/٥)

ذكر قتل البطال

في هذه السنة قُتل البطال، واسمه عبد الله أبو الحسين الأنطائي، في جماعة من المسلمين ببلاد الروم، وقيل: سنة ثلاث وعشرين ومائة، وكان كثير الغزاة إلى الروم والإغارة على بلادهم، وله عندهم ذكر عظيم وخوف شديد.

حكى أنّه دخل بلادهم في بعض غزواته هو وأصحابه، فدخل قرية لهم ليلاً وامرأة تقول لصغير لها يكي: تسكت وإلاّ سلّمتك إلى البطال! ثمّ رفعته بيدها وقالت: خذْه يا بطل فتناوله من يدها.

وسيره عبد الملك مع ابنه مسلّم إلى بلاد الروم وأمره على رؤساء أهل الجزيرة والشام، وأمر ابنه أن يجعله على مقدّمته وطلّاعه، وقال: إنّهُ ثقة شجاع يقdam، فجعله مسلّم على عشرة آلاف فارس، فكان بينه وبين الروم، وكان العلاقة والسبالة يسيرون آمنين، وسار مرة مع عسكر للمسلمين، فلمّا صار بأطراف الروم سار وحده فدخل بلادهم، فرأى مبقلة فنزل فأكّل من ذلك البقل، فجاءت جوفه وكثر إسهاله، فخاف أن يضعف عند الركوب فركب وصار تحي جوفه في سرجه ولا يجسر ينزل لثلاً يضعف عن الركوب، فاستولى عليه الضعف فاعتق رقبة فرسه وسار عليه ولا يعلم أين هو، ففتح عينه فإذا هو في دير فيه نساء، فاجتمعن عليه وأنزلته إحداهنّ عن فرسه وغسلته وسقته دواء فانقطع عنه ما به، وأقام في الدير ثلاثة أيام، ثمّ إنّ بطريقاً حضر الدير فخطب تلك المرأة وبلغه خبر البطال، وكانت المرأة قد جعلته في بيت مخفياً فمعتته منه، ثمّ سار البطريق عن الدير، فركب البطال وتبعه فقتله وانهزم أصحاب البطريق وعاد إلى الدير وألقى الرأس إلى النساء وأخذهنّ وساقهنّ إلى العسكر، فنقل أمير العسكر تلك المرأة، فهي أم أولاد البطال. (٢٤٩/٥)

ذكر عدة حوادث

قيل: وفي هذه السنة قُتل كلثوم بن عياض القُشيريّ الذي كان هشام بعثه في أهل الشام إلى إفريقية حيث وقعت الفتنة بالبربر.

يُمنّ نقيته أو سياسته؟ قال: عيّه بالكبير.

فلَمَّا دخل على هشام ذكر جند خراسان ونجدتهم وطاعتهم، فقال: **إِلَّا أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ قَائِدٌ**. قال: ويحك! فما فعل الكنانيّ؟ يعني نصرًا. قال: له بأس ورأي إلاّ أنّه لا يعرف الرجل ولا يسمع صوته حتّى يُدْثِنِي منه، وما يكاد يُفْهَمُ منه من الضعف لأجل كِبَرِهِ، فقال شَيْبَلُ بن عبد الرحمن المازني: كذب والله، إنّهُ لَيْسَ بِالشَّيْخِ يُخْشَى خَرَفَهُ، ولا الشابُّ يُخْشَى سَفَهَهُ، [بل هو] المجرب وقد وليّ عامّة ثغور خراسان وحروبها قبل ولايته. فعلم هشام أنّ قول مَعْنٍ بوضع يوسف، فلم يلتفت إلى قوله.

فرجع مَعْنٍ إلى يوسف، فسأله أن يحول ابنه من خراسان، ففعل، فأرسل فأحضر أهله، وكان نصر لما قدم خراسان قد أثر مَعْنًا وأعلى منزلته وشفعه في حوائجه، فلَمَّا فعل هذا أجفى القيسيّة فحضرُوا عنده واعتدروا إليه.

وحجّ بالناس هذه السنة يزيد بن هشام بن عبد الملك. وكان العُمَالُ في الأمصار هم العُمَالُ في السنة التي قبلها.

وفيها مات محمد بن واسع الأزديّ البصريّ، وقيل: سنة سبع وعشرين. وفيها توفي جعفر بن إياس.

وفيها مات ثابت البُنانيّ، وقيل: سنة سبع وعشرين، وله ست وثمانون سنة.

وفيها توفي سعيد بن أبي سعيد المقبريّ، واسم أبي سعيد كيسان، وقيل: مات سنة خمس وعشرين، وقيل ستّ وعشرين. ومالك ابن دينار الزاهد. (٢٥٤/٥)

سنة أربع وعشرين ومائة

ذكر ابتداء أمر أبي مُسلم الخراسانيّ

قد اختلف الناسُ في أبي مسلم، فقيل: كان حُرًّا، واسمه إبراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جودزده من ولد بُزْرَجْجَهْر، ويكنّى [أبا] إسحاق، وُلِدَ بأصبهان، ونشأ بالكوفة، وكان أبوه أوصى إلى عيسى بن موسى السراج فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين، فلَمَّا اتَّصَلَ بإبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس الإمام قال له: غيّر اسمك فإنّه لا يتمّ لنا الأمر إلّا بتغيير اسمك على ما وجدته في الكتب؛ فسَمَّى نفسه عبد الرحمن بن مسلم، ويكنّى أبا مسلم، فمضى لشأنه وله ذؤابة وهو على حمار بإكاف وله تسع عشرة سنة، وزوّجه إبراهيم الإمام ابنة عمران بن إسماعيل الطائيّ المعروف بابي النجم، وهي بخراسان مع أبيها، فبنى بها أبو مسلم بخراسان، وزوّج أبو مسلم ابنته فاطمة من مُحْرَز بن إبراهيم، وابنته الأخرى أسماء من فهم بن مُحْرَز، فأعقبت أسماء

فَاتَّقَى أنّ البربر قويت بالأندلس، فاضطرّ عبد الملك إلى إدخال بلج ومَنْ معه، وقيل: إنّ عبد الملك استشار أصحابه في جواز بلج فخوفوه من ذلك، فقال: أخاف أمير المؤمنين أن يقول: أهلكت جندي، فأجازهم وشرط عليهم أن يقيموا سنة ويرجعوا إلى إفريقية، فأجابوه إلى ذلك، وأخذ رهائهم وأجازهم.

فلَمَّا وصلوا إليه رأى هو والمسلمون ما بهم من سوء الحال والفقر والعري لشدة الحصار عليهم، فكسّوهم وأحسنوا إليهم، وقصدوا جمعاً من البربر بشدونة فقاتلوهم فظفروا بالبربر فأهلكوهم وغنموا مالهم ودوابهم وسلاحهم، فصلحت أحوال أصحاب بلج وصار لهم دوابٌ يركبونها.

ورجع عبد الملك بن قُطْنٍ إلى قرطبة وقال لبلج ومَنْ معه ليخرجوا من الأندلس، فأجابوه إلى ذلك، فطلبوا منه مراكب يسرون فيها من غير الجزيرة الخضراء لئلاّ يلقوا البرابر الذين حصروهم. فامتنع عبد الملك وقال: ليس لي مراكب إلّا في الجزيرة. فقالوا: إنّنا لا نرجع نتعرّض إلى البربر ولا نقصد الجهة التي هم فيها لأننا نخاف أن يقتلونا في بلادهم. فآلح عليهم في العود (٢٥٢/٥) فلَمَّا رأوا ذلك ثاروا به وقتلوه، فظفروا به وأخرجوه من القصر، وذلك أوائل ذي القعدة من هذه السنة.

فلَمَّا ظفر بلج بعبد الملك أشار عليه أصحابه بقتل عبد الملك، فأخرجه من داره وكأنّه فرخ لكبير سنة فقتله وصلبه، وولّى الأندلس، وكان عمر عبد الملك تسعين سنة، وهرب ابنه قُطْنٍ وأُمَيّة، فلحق أحدهما بماردة والأخر بسرقسطة، وكان هرّيهما قبل قتل أبيهما، فلَمَّا قُتِلَ فعلا ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أوفد يوسف بن عمر الحَكَمَ بن الصُّلْتِ إلى هشام يطلب إليه أن يستعمله على خراسان ويذكر أنّه خير بها وأنّه عمل بها الأعمال الكثيرة ويقع في نصر بن سيار، فوجّه هشام إلى دار الضيافة فأحضر مُقاتِل بن عليّ السعديّ وقد قدم من خراسان ومعه مائة وخمسون من الترك، فسأله عن الحَكَمَ وما وليّ بخراسان، فقال: وليّ قرية يقال لها الفازياب سبعون ألفاً خراجها، فأمره الحارث بن سُرَيْج ففرك أذنه وأطلقه وقال: أنت أهون من أن أقتلك. فلم يعزل هشام نصر بن سيار عن خراسان.

وفي هذه السنة غزا نصر بن سيار قَرْغَاة غَزَوَتِ البُثَيْنَةَ، فأوفد وفداً إلى العراق عليهم مَعْنُ بن أحمر التُمَيْرِيّ، ثمّ إلى هشام، فاجتاز بيوسف بن عمر وقال له: يا بن أحمر أيغلبكم الأقطع على سلطانكم يا معشر قيس! قال: قد (٢٥٣/٥) كان ذاك، فأمره أن يعيه عند هشام، فقال له: كيف أعيه مع بلاته وآثاره الجميلة عندى وعند قومي؟ فلم يزل به، قال: فبِمَ أعيه؟ أعيب تجربته أم طاعته أم

ولم تُعقَب فاطمة، وفاطمة هي التي تذكرها الحُرُمِيَّة.

لَأَقْتُلَنَّ هَذَا الْكَلْبَ وَأَرْحِكُ مِنْهُ، فَهَاجَ عَلَيَّ عَنْ ذَلِكَ وَتَهَدَّدَهُ بِالْقَطِيعَةِ وَرَفَقَ عَلَيَّ سَلِيطَ حَتَّى كَفَّ عَنْهُ.

ثُمَّ إِنَّ سَلِيطاً دَخَلَ مَعَ عَلِيٍّ بَسْتَاناً لَهُ بِظَاهِرِ دِمَشْقَ، فَنَامَ عَلِيٌّ فَجَرَى بَيْنَ عَمْرِ الدَّنِّ وَسَلِيطَ كَلَامَ، فَقَتَلَهُ عَمْرٌ وَدَفَنَهُ فِي الْبَسْتَانِ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ مَوْلَى لِعَلِيٍّ وَهَرَبَا، وَكَانَ لِسَلِيطَ صَاحِبٌ قَدْ عَرَفَ دَخُولَهُ الْبَسْتَانِ فَقَدَّهُ فَأَتَى أُمَّ سَلِيطَ فَأَخْبَرَهَا، وَقَدَّ عَلِيٌّ أَيْضاً عَمْرَ الدَّنِّ وَمَوْلَاهُ، فَسَأَلَ عَنْهُمَا وَعَنْ سَلِيطَ فَلَمْ يُخْبِرْهُ أَحَدٌ، وَغَدَتِ أُمُّ سَلِيطَ إِلَى بَابِ الْوَلِيدِ فَاسْتَاغَتْ عَلَى عَلِيٍّ، فَأَتَى (٢٥٧/٥) الْوَلِيدُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ، فَاحْضَرُ عَلِيّاً وَسَأَلَهُ عَنْ سَلِيطَ، فَحَلَفَ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ خَبْرَهُ وَأَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ فِيهِ بِأَمْرٍ، فَأَمَرَهُ بِإِحْضَارِ عَمْرِ الدَّنِّ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ مَوْضِعَهُ، فَأَمَرَ الْوَلِيدُ بِإِرْسَالِ الْمَاءِ فِي أَرْضِ الْبَسْتَانِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى مَوْضِعِ الْحُفْرَةِ الَّتِي فِيهَا سَلِيطُ انْخَسَفَتْ وَأَخْرَجَ مِنْهَا سَلِيطَ، فَأَمَرَ الْوَلِيدُ بِلْعَلِيٍّ فَضْرَبَ وَأَقِيمَ فِي الشَّمْسِ وَأَلْبَسَ جَبَّةً صَوْفَ لِيُخْبِرَهُ خَبْرَ سَلِيطَ وَيَدْلَهُ عَلَى عَمْرِ الدَّنِّ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ، ثُمَّ شَفَعَ فِيهِ عَبَّاسُ بْنُ زِيَادٍ فَأَخْرَجَ إِلَى الْحُرَمِيَّةِ، وَقِيلَ إِلَى الْحَجَرِ، فَأَقَامَ بِهِ حَتَّى هَلَكَ الْوَلِيدُ وَوَلِيَ سَلِيمَانُ فَرَدَّهُ إِلَى دِمَشْقَ.

وَكَانَ هَذَا مِمَّا عَدَّهُ الْمَنْصُورُ عَلَى أَبِي مُسْلِمٍ حِينَ قَتَلَهُ، وَقَالَ لَهُ: زَعَمْتَ أَنَّ ابْنَ سَلِيطَ وَلَمْ تَرْضَ حَتَّى نَسَبْتَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ غَيْرَ وَلَدِهِ، لَقَدْ ارْتَقَيْتَ مَرْتَقَى صَعْباً.

وَكَانَ سَبَبُ مَوْجِدَةِ الْوَلِيدِ عَلَى عَلِيٍّ بَنَ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ أَبَاهُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ أُمَّ ابْنَتِهَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، فَتَزَوَّجَهَا عَلِيٌّ، فَتَغَيَّرَ لَهُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ وَقَالَ: إِنَّمَا صَلَاتُهُ رِيَاءٌ، وَسَمِعَ الْوَلِيدُ ذَلِكَ مِنْ أَبِيهِ بَقِيَ فِي نَفْسِهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ كَانَ عَبْدًا، وَكَانَ سَبَبُ انْتِقَالِهِ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ أَنَّ بُكَيْرَ بْنَ مَاهَانَ كَانَ كَاتِبًا لِبَعْضِ عَمَّالِ السِّنْدِ فَقَدِمَ الْكُوفَةَ، فَاجْتَمَعَ هُوَ وَشِيعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ فَغَمَزَ بِهِمْ، فَأَخَذُوا، فَجُبَسَ بُكَيْرٌ وَخَلِيَ عَنِ الْبَاقِينَ، وَكَانَ فِي الْحِجْسِ يُونُسُ أَبُو عَاصِمٍ وَعِيسَى بْنُ مَعْقِلٍ الْعِجْلِيُّ وَمَعَهُ أَبُو مُسْلِمٍ يَخْدُمُهُ، فَدَعَاهُمْ بُكَيْرٌ إِلَى رَأْيِهِ، فَاجَابُوهُ، فَقَالَ لِعِيسَى بْنُ مَعْقِلٍ: مَا هَذَا الْغِلَامُ مِنْكَ؟ (٢٥٨/٥) قَالَ: مَمْلُوكٌ. قَالَ: أَتَبِيعُهُ؟ قَالَ: هُوَ لَكَ. قَالَ: أَحَبُّ أَنْ تَأْخُذَ ثَمَنَهُ. قَالَ: هُوَ لَكَ بِمَا شِئْتَ، فَأَعْطَاهُ أَرْبَعَمِائَةَ دِرْهَمٍ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ السِّجْنِ، فَبِعَتْ بِهِ بُكَيْرٌ إِلَى إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ، فَدَفَعَهُ إِبْرَاهِيمُ إِلَى [أَبِي] مُوسَى السَّرَّاجِ، فَسَمِعَ مِنْهُ وَحَفِظَ ثُمَّ سَارَ مُتَرَدِّداً إِلَى خُرَّاسَانَ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ لِبَعْضِ أَهْلِ هَرَاةٍ أَوْ بُوشَنَجٍ قَدِمَ مَوْلَاهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ وَأَبُو مُسْلِمٍ مَعَهُ، فَأَعَجِبَهُ عَقْلُهُ فَاتَّبَعَهُ مِنْهُ وَأَعْتَقَهُ وَمَكَثَ عِنْدَهُ عِدَّةَ سَنِينَ، وَكَانَ يَتَرَدَّدُ بِكُتُبٍ إِلَى خُرَّاسَانَ عَلَى حِمَارٍ لَهُ، ثُمَّ وَجَّهَهُ أَمِيرًا عَلَى شِيعَتِهِمْ بِخُرَّاسَانَ وَكُتِبَ إِلَى مَنْ بَهَا مِنْهُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَكُتِبَ إِلَى أَبِي سَلَمَةَ الْخَلَّالِ دَاعِيَتِهِمْ وَوَزِيرِهِمْ

ثُمَّ إِنَّ سَلِيمَانَ بْنَ كَثِيرٍ وَمَالِكَ بْنَ الْهَيْثَمِ وَلاَهَزَ بَنَ قُرَيْظَ وَقَحْطَبَةَ بْنَ شَيْبٍ (٢٥٥/٥) تَوَجَّهُوا مِنْ خُرَّاسَانَ يَرِيدُونَ مَكَّةَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ وَمِائَةً، فَلَمَّا دَخَلُوا الْكُوفَةَ أَتَوْا عَاصِمَ بْنَ يُونُسَ الْعِجْلِيَّ وَهُوَ فِي الْحِجْسِ قَدْ أَتَاهُمُ بِالْإِعْدَاءِ إِلَى وَلَدِ الْعَبَّاسِ وَمَعَهُ عِيسَى وَإِدْرِيسُ ابْنَا مَعْقِلٍ الْعِجْلِيَّانِ، وَهَذَا إِدْرِيسُ هُوَ جَدُّ أَبِي ذُلْفٍ الْعِجْلِيُّ، وَكَانَ حِسْهُمَا يَوْسُفُ بْنُ عَمْرِ مَعَ مَنْ حِجْسٍ مِنْ عُمَّالِ خَالِدِ الْقَسْرِيِّ وَمَعَهُمَا أَبُو مُسْلِمٍ يَخْدُمُهُمَا قَدْ اتَّصَلَ بِهِمَا، فَرَأَوْا فِيهِ الْعَلَامَاتِ فَقَالُوا: لِمَنْ هَذَا الْفَتَى؟ فَقَالَا: غِلَامٌ مَعَنَا مِنَ السَّرَّاجِينَ يَخْدُمُنَا، وَكَانَ أَبُو مُسْلِمٍ يَسْمَعُ عِيسَى وَإِدْرِيسَ يَتَكَلَّمَانِ فِي هَذَا الرَّأْيِ، فَإِذَا سَمِعَهُمَا بِكَيٍّْ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ مِنْهُ دَعَوْهُ إِلَى رَأْيِهِمْ فَأَجَابَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ ضِيَاعِ بَنِي مَعْقِلٍ الْعِجْلِيَّةِ بِأَصْبَهَانَ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْجِبَلِ، وَكَانَ اسْمُهُ إِبْرَاهِيمَ وَيُلَقَّبُ حَيْكَانَ، وَإِنَّمَا سَمَّاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَكَتَبَهُ أَبَا مُسْلِمٍ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامَ، وَكَانَ مَعَ أَبِي مُوسَى السَّرَّاجِ صَاحِبُهُ يَخْرُزُ الْأَعْنَةَ وَيَعْمَلُ السَّرُوجَ، وَلَهُ [مَعْرِفَةٌ] بِصَنَاعَةِ الْأَدَمِ وَالسَّرُوجِ، فَكَانَ يَحْمِلُهَا إِلَى أَصْبَهَانَ وَالْجِبَالِ وَالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ وَنَصِيبِينَ وَأَمَدَ وَغَيْرِهَا يَتَجَرَّ فِيهَا.

وَكَانَ عَاصِمُ بْنُ يُونُسَ الْعِجْلِيُّ وَإِدْرِيسُ وَعِيسَى ابْنَا مَعْقِلٍ مَحْبُوسِينَ، فَكَانَ أَبُو مُسْلِمٍ يَخْدُمُهُمْ فِي الْحِجْسِ بِتِلْكَ الْعَلَامَةِ، فَقَدِمَ سَلِيمَانُ بْنُ كَثِيرٍ وَلاَهَزَ وَقَحْطَبَةُ الْكُوفَةَ فَدَخَلُوا عَلَى عَاصِمٍ، فَرَأَوْا أَبَا مُسْلِمٍ عِنْدَهُ، فَأَعَجِبَهُمْ، فَأَخَذُوهُ، وَكُتِبَ أَبُو مُوسَى السَّرَّاجِ مَعَهُ كِتَابًا إِلَى إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ، فَلَقُوهُ بِمَكَّةَ، فَأَخَذَ أَبَا مُسْلِمٍ فَكَانَ يَخْدُمُهُ.

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ النُّبَّاءَ قَدِمُوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ مَرَّةً أُخْرَى يَطْلُبُونَ رَجُلًا (٢٥٩/٥) يَتَوَجَّهَ مَعَهُمْ إِلَى خُرَّاسَانَ. فَكَانَ هَذَا نَسَبُ أَبِي مُسْلِمٍ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ حُرٌّ، فَلَمَّا تِمَكَّنَ وَقَوِيَ أَمْرُهُ ادَّعَى أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ سَلِيطَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ سَلِيطَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ مَوْلُودَةٌ صَفْرَاءُ تَخْدُمُهُ، فَوَاقَعَهَا مَرَّةً وَلَمْ يَطْلُبْ وَلَدَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا دَهْرًا، فَاسْتَغْنَمَتْ ذَلِكَ فَاسْتَنْكَحَتْ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِ الْمَدِينَةِ فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَجَلَبَتْ وَوَلَدَتْ غِلَامًا، فَحَدَّثَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَاسْتَعِيدَ وَلَدُهَا وَسَمَّاهُ سَلِيطاً، فَنَشَأَ جَلْدًا ظَرِيفاً يَخْدُمُ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَكَانَ لَهُ مِنَ الْوَلِيدِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مِثْلُهُ، فَادَّعَى أَنَّهُ وَلَدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَوَضَعَهُ عَلَى أَمْرِ الْوَلِيدِ لَمَّا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَمْرِهِ بِمَخَاصِمَةِ عَلِيٍّ، فَخَاصَمَهُ وَاحْتَالَ فِي شُهُودٍ عَلَى إِقْرَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ بِأَنَّهُ ابْنُهُ، فَشَهِدُوا بِذَلِكَ عِنْدَ قَاضِي دِمَشْقَ، فَتَحَامَلَ الْقَاضِي اتِّبَاعاً لِرَأْيِ الْوَلِيدِ فَأَثْبَتَ نَسَبَهُ.

ثُمَّ إِنَّ سَلِيطاً خَاصَمَ عَلِيَّ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي الْمِيرَاثِ حَتَّى لَقِيَ مِنْهُ عَلِيٌّ أَذَى شَدِيدًا، وَكَانَ مَعَ عَلِيٍّ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْقُطَعًا إِلَيْهِ يُقَالُ لَهُ عَمْرُ الدَّنِّ، فَقَالَ لِعَلِيٍّ يَوْمًا:

سنة خمس وعشرين ومائة

ذكر وفاة هشام بن عبد الملك

وفيها مات هشام بن عبد الملك بالرُصافة لست خلون من شهر ربيع الآخر، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وواحدًا وعشرين يومًا، وقيل: وثمانية أشهر ونصفًا، وكان مرضه الذُّبْحَة، وعمره خمس وخمسون سنة، وقيل ست وخمسون سنة، فلَمَّا مات طلبوا قمقمًا من بعض الخَزَانِ يسخن فيه الماء لغسله، فما أعطاهم عِياضُ كَاتِبِ الْوَلِيدِ، على ما نذكره، فاستعاروا قمقمًا، وصلى عليه ابنه مَسْلَمَةُ ودُفِنَ بالرُصافة.

ذكر بعض سيرته

قال عَقَالُ بْنُ شَيْبَةَ: دخلتُ على هشام وعليه قَبَاءٌ فَتَكَ أخضر، فوجهني إلى خُرَاسَانَ وجعل يوصيني وأنا أنظر إلى القباء، ففطن فقال: ما لك؟ فقلتُ: رأيتُ عليك قبل أن تلي الخلافة قَبَاءٌ مثل هذا فجعلتُ أتأملُ أهو هذا أم غيره فقال: هو والله ذاك، وأما ما ترون من جمعي المال وصونه فهو لكم. قال: وكان محشورًا عقلاً. وقيل: وضرب رجل نصراني غلاماً لمحمد بن هشام فشجّه، فذهب خصمي لمحمد فضرب النصراني، وبلغ هشاماً الخبر وطلب الخصمي (٢٦٢/٥) فعاذ بمحمد، فقال له محمد: ألم أملك؟ فقال: الخصمي: بلى والله قد أمرتني. فضرب هشام الخصمي وشتم ابنه.

قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس: جمعتُ دواوين بني أمية فلم أرَ ديواناً أصحَّ ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام. وقيل: وأتى هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط، فقال: اكسروا الطنبور على رأسه. فبكي الشيخ لما ضربه. فقال: عليك بالصبر. فقال: أتراني أبكي للضرب؟ إنما أبكي لاحتقاره البربط إذ سمّاه طنبوراً! قال: وأغلظ رجل لهشام، فقال له: ليس لك أن تغلظ لإمامك. قيل: وتفقد هشام بعض ولده فلم يحضر الجمعة، فقال: ما منعك من الصلاة؟ قال: نفقت دابتي. قال: أفعجزت عن المشي؟ فمنعه الدابة سنة. قيل: وكتب إليه بعض عماله: قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين رسالةً درأقن، وكتب إليه: قد وصل الدراقن فأعجب أمير المؤمنين، فرّد منه واستوثق من الدعاء. وكتب إلى عامل له قد بعث بكماة: قد وصلت الكماة وهي أربعون، وقد تغير بعضها من حشوها، فإذا بعثت شيئاً فأجذ حشوها في الطُرفِ [الذي تجعله فيه] بالرمل حتى لا تضطرب ولا يصيب بعضها بعضاً. وقيل له: أتطمع في الخلافة؟ فأتت بخيل جيان! قال: ولم لا أطمع فيها وأنا حليم عفيف؟

قيل: وكان هشام يزل الرُصافة وهي من أعمال قيسرين، وكان الخلفاء قبله وأبناء الخلفاء يتبذلون هرباً من الطاعون فينزلون

بالكوفة يُعلمه أنه قد أرسل أبا مسلم ويأمره بإنقاضه إلى خراسان. فسار إليها فنزل على سليمان بن كثير، وكان من أمره ما نذكره سنة سبع وعشرين ومائة إن شاء الله تعالى.

وقد كان أبو مسلم رأى رؤيا قبل ذلك استدلت بها على ملك خُرَاسَانَ فظهر أمرها، فلَمَّا ورد نيسابور نزل بوناباذ، وكانت عامرة، فتحدث صاحب الخان الذي نزله أبو مسلم بذلك وقال: إن هذا يزعم أنه يلي خُرَاسَانَ. فخرج أبو مسلم لبعض حاجته، فعهد بعض المُجَانِ فقطع ذنب حماره، فلَمَّا عاد قال لصاحب الخان: مَنْ فعل هذا بحماري؟ قال: لا أدري! قال: ما اسم هذه المحلة؟ قال: بوناباذ. قال: إن لم أصيرها كنداباذ فلست بأبي مسلم. فلَمَّا ولي خُرَاسَانَ أخربها. (٢٥٩/٥)

ذكر الحرب بين بلج وابني عبد الملك ووفاة بلج وولاية ثعلبة بن سلامة الأندلس

في هذه السنة كان بالأندلس حرب شديدة بين بلج وأمّية وقطن ابني عبد الملك بن قطن، وكان سببها أنهما لما هربا من قرطبة، كما ذكرناه، فلَمَّا قُتِلَ أبوهما استنجدا بأهل البلاد والبربر، فاجتمع معهما جمع كثير قيل كانوا مائة ألف مقاتل، فسمع بهم بلج والذين معه فسار إليهم، والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وجرح بلج جراحات، ثم ظفر بابني عبد الملك والبربر ومن معهم وقتل منهم فأكثر وعاد إلى قرطبة مظفراً منصوراً، فبقي سبعة أيام، ومات من الجراحات التي فيه، وكانت وفاته في شوال من هذه السنة وكانت ولايته أحد عشر شهراً.

فلَمَّا مات قدّم أصحابه عليهم ثعلبة بن سلامة الجعلي، لأن هشام بن عبد الملك عهد إليهم: إن حدث بلج وكثُوم حدث فالأمير ثعلبة، فقام بالأمر، وثارت في أيامه البربر بناحية ماردة، فغزاهم فقتل فيهم فأكثر وأسّر منهم ألف رجل وأتى بهم إلى قرطبة.

ذكر عدة حوادث

وفيها غزا سليمان بن هشام الصائفة، فلقي أليون ملك الروم فغنم.

وفيها مات محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في قول بعضهم، ووصى إلى ابنه (٢٦٠/٥) إبراهيم بالقيام بأمر الدعوة إليهم.

وحج بالناس هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل.

وفيها مات محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهري، وكان مولده سنة ثمان وخمسين، وقيل سنة خمسين. (٢٦١/٥)

تأمن الناس عليك وعلينا معك. فلم يفعل.

وظهر للناس منه تهاؤن بالدين واستخفاف، فطمع هشام في البيعة لابنه مسلمة وخلع الوليد، وأراد الوليد على ذلك، فأبى، فقال له: اجعله بعدك، فأبى، فتكر له هشام وأضر به وعمل سراً في البيعة لابنه مسلمة، فأجابه قوم، وكان ممن أجابه خاله محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل، وبنو الققعاق بن خليد العبسي، وغيرهم من خاصته، فأفرط الوليد في الشراب وطلب اللذات، فقال له هشام: [ويحك] يا وليد، والله ما أدري (٢٦٥/٥) أعلى الإسلام أنت أم لا! ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيت غير متحاش؛ فكتب إليه الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكِر
نشرها صرفاً ومزوجة بالسخن أحياناً وبالفسخ

فغضب هشام على ابنه مسلمة، وكان يكنى أبا شاكِر، وقال له: يعيرني الوليد بك وأنا أرشحك للخلافة! فالزمه الأدب وأحضره الجماعة وولاه الموسم سنة تسع عشرة ومائة، فأظهر النسل واللين، ثم إنه قسم بمكة والمدينة أموالاً؛ فقال مولى لأهل المدينة:

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكِر
الواهب الجرد بارسانها ليس بزنديق ولا كافِر
يعرض بالوليد.

وكان هشام يعيب الوليد ويتقصه ويقصر به، فخرج الوليد ومعه ناس من خاصته ومواليه فنزل بالأزرق على ماء له بالأردن وخلف كاتبه عياض بن مسلم عند هشام ليكاتبه بما عندهم، وقطع هشام عن الوليد ما كان يُجرى عليه، وكاتبه الوليد فلم يجبه إلى رده، وأمره بإخراج عبد الصمد من عنده، وأخرجه، وسأله أن يأذن لابن سَهيل في الخروج إليه، فضرب هشام ابن سَهيل وسيره، وأخذ عياض بن مسلم كاتب الوليد فضربه وحبسه، فقال الوليد: مَنْ يشق بالناس وَمَنْ يصنع المعروف! هذا الأحوال المشؤوم قدّمه أبي على أهل بيته وصيره وليّ عهده ثم يصنع بي ما ترون؟ لا يعلم أنّ (٢٦٦/٥) لي في أحد هوى إلا عث به؛ وكتب إلى هشام في ذلك يعاتبه ويسأله أن يرده عليه كاتبه، فلم يرده، فكتب إليه الوليد:

رايتك تبني دائماً فسي قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهمت ما تبني
تسير على الباقي من جنى ضيغتي فويل لهم إن مُت من شر ما تبني
كأني بهم والليت أفضل قولهم الا ليتنا والليت إذ ذاك لا يُغني
كفرت يداً من مُعتمٍ لو شكرتها جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
فلم يزل الوليد مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام، فلما كان صبيحة اليوم الذي جاءت فيه الخلافة قال لأبي الزبير المنذر بن أبي عمرو: ما أنت عليّ ليلة منذ غقلت عقلي أطول من هذه الليلة!

البرية، فلما أراد هشام (٢٦٣/٥) أن ينزل الرضاة قبل له: لا تخرج فإن الخلفاء لا يُطعنون ولم ير خليفة طعن. قال: أتريدون أن تجربوا في؟ فنزلها، وهي مدينة رومية.

قيل: إن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام بن عبد الملك، فأخذه هشام وأرسله إلى خالد القسري، وهو أمير العراق، وأمره بقتله، فحبسه خالد ولم يقتله، فبلغ الخبر هشاماً، فكتب إلى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله، فأخرجه خالد من الحبس في وثاق، فلما صلى العيد يوم الأضحى قال في آخر خطبته: انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم، فلما أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم، فإنه يقول: ما كلم الله موسى ولا اتخذ إبراهيم خليلاً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً. ثم نزل وذبحه.

قيل: إن غيلان بن يونس، وقيل ابن مسلم، أبا مروان أظهر القول بالقدر في أيام عمر بن عبد العزيز، فأحضره عمر واستأبه، فتاب ثم عاد إلى الكلام فيه أيام هشام، فأحضره من ناصرة ثم أمر به فقطعت يده ورجلاه، ثم أمر به فصلب.

قيل: وجاء محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى هشام، فقال: ليس لك عندي صلة، ثم قال: إياك أن يفرّك أحد فيقول لم يعرفك أمير المؤمنين، إني قد عرفتك، انت محمد بن زيد فلا تقيمن وتنفق ما معك، فليس لك عندي صلة، الحق بأهلك.

قال مُجمّع بن يعقوب الأنصاري: شتم هشام رجلاً من الأشراف، فوبّخه الرجل وقال: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاستحيا منه وقال: اقتص مني. قال: إذا أنا سفيه مثلك. قال: فخذ مني (٢٦٤/٥) عوضاً من المال. قال: ما كنت لأفعل. قال: فهبها لله. قال: هي لله ثم لك. فنكس هشام رأسه واستحيا وقال: والله لا أعود إلى مثلها أبداً.

ذكر بيعة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

قيل: وكانت بيعته لست مضين من شهر ربيع الآخر من السنة، وقد تقدّم عقد أبيه ولاية العهد له بعد أخيه هشام بن عبد الملك؛ وكان الوليد حين جعل وليّ عهد بعد هشام [ابن] إحدى عشرة سنة، ثم عاش من بعد ذلك فبلغ الوليد خمس عشرة [سنة]، فكان يزيد يقول: الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك. فلما ولي هشام أكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب، وكان يحمله على ذلك عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّبه، واتخذ له ندماً، فأراد هشام أن يقطعهم عنه فولاه الحج سنة ست عشرة ومائة، فحمل معه كلاباً في صناديق وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه الخمر، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر، فخوف أصحابه وقالوا لا

شيء يسأله إلا وقال:

ضمت لكم إن لم تغني عوائق
سروشك إلحاقاً معاً وزادة
محرّمكم ديوانكم وعطاؤكم
قال حلم الوادي المغني: كنّا مع الوليد وأناه خبر موت هشام
وهنيء (٢٦٩/٥) بولاية الخلافة، وأناه القضيب والخاتم، ثم قال:
فامسكنا ساعة ونظرنا إليه بعين الخلافة، فقال: غنوني:

طاب يومي ولذّ شرب السلافة
وأنا ناعني من الرُصافة
وأنا البريد ناعني هشاماً
وأنا بخاتم الخلافة
فاصطبنا من حمر عانة صرفاً
ولهنّا بقينّة عرافة
وحلف أن لا يرح من موضعه حتّى يغني في هذا الشعر
ويشرب عليه، ففعلنا ذلك، ولم نزل نغني إلى الليل.

ثم إن الوليد هذه السنة عقد لابنّه الحكّم وعثمان البيعة من
بعده وجعلهما وليّ عهده، أحدهما بعد الآخر، وجعل الحكّم
مقدّمًا، وكتب بذلك إلى الأمصار العراق وخراسان.

ذكر ولاية نصر بن سيار خراسان للوليد

في هذه السنة وليّ الوليد نصر بن سيار خراسان كلّها وأفرده
بها، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فاشتري منه نصراً وعمّاله،
فرّد إليه الوليد ولاية خراسان، وكتب يوسف إلى نصر يأمره
بالقدوم ويحمل معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال، وأن يقدم
معه بعياله أجمعين، وكتب الوليد إلى نصر يأمره أن يتخذ له برابط
وطناير وأباريق ذهب وفضّة، وأن يجمع له كلّ (٢٧٠/٥) صنّاجة
بخراسان، وكلّ بازي ويرذون فاره، ثم يسير بكلّ ذلك بنفسه في
وجوه أهل خراسان.

وكان المنجمون قد أخبروا نصراً بفتنة تكون، والحق يوسف
على نصر بالقدوم وأرسل إليه رسلاً في ذلك، وأمره أن يستحثّه أو
ينادي في الناس أنّه قد خلع، فأرضى نصر الرسول وأجازه، فلم
يمض لذلك إلا يسير حتّى وقعت الفتنة. فتحول إلى قصره بما جان
واستخلف عصمة بن عبد الله الأسديّ على خراسان، وموسى بن
ورقاء بالشاش، وحسان من أهل الصّغانيان بسمرقند، ومقاتل بن
عليّ السعديّ بآمل، وأمرهم إذا بلغهم خروجه من مرو أن
يستجلبوا الترك ليعبروا على ما وراء النهر ليرجع إليهم. وسار إلى
العراق.

فبينما هو يسير إلى العراق طرقة مولى لبني ليث وأعلمه بقتل
الوليد، فلمّا أصبح أذن للناس وأحضر رسل الوليد وقال لهم: قد
كان من مسيري ما علمتم، ويعني بالهدايا ما رأيتم، وكان قد قدّم
الهدايا فبلغت بيته، وطرقتي فلان ليلاً فأخبرني أنّ الوليد قد قُتل
ووقعت الفتنة بالشام، وقدم منصور بن جمهور العراق، وهرب

عرضت لي همومٌ وحدّثت نفسي فيها بأمر [من] أمر هذا الرجل،
يعني هشاماً، قد أُولع بي، فأركب بنا تنفّس. فركبا وسارا ميلين،
ووقف على كتيب فنظر إلى رهج فقال: هؤلاء رسل هشام، نسأل
الله من خيرهم، إذ بدا رجلان على البريد أحدهما مولى لأبي
محمّد السفيناني [والآخر جرّدة]، فلمّا قربا نزلا يعدوان حتّى دنوا
منه فسلمّا عليه بالخلافة، فوجم ثمّ قال: أمات هشام؟ قالوا: نعم،
والكتاب معنا من سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل.
فقرأه وسأل مولى أبي محمّد السفيناني عن كتابه عياض، فقال: لم
يزل محبوباً حتّى نزل بهشام الموت فأرسل إلى الخزّان وقال:
احتفظوا بما في أيديكم، فأفاق هشام فطلب شيئاً فمعه، فقال: إنّنا
لله، كنّا خزّاناً للوليد! ومات من ساعته، وخرج (٢٦٧/٥) عياض
من السجن ففتح أبواب الخزائن وأنزل هشاماً عن فرشه وما
وجدوا له قمقمًا يسخن له فيه الماء حتّى استعاروه، ولا وجدوا
كفنًا من الخزائن فكفنه غالب مولا؛ فقال:

هلك الأخوّل المشوّر
مُقدّر أرسل المطّوّر
وملكتنا من تدوينا
كفّ قد أوق الشّوّر
فأنكروا الله إنّه
زائد كلّ من شكّر

وقيل: إنّ هذا الشعر لغير الوليد.

فلما سمع الوليد موته كتب إلى العباس [بن الوليد] بن عبد
الملك بن مروان أن يأتي الرُصافة فيحصي ما فيها من أموال هشام
وولده [ويأخذ] عمّاله وحشمه [لأتمّله] بن هشام فإنّه كلّ أباه في
الرفق بالوليد. فقدم العباس الرُصافة ففعل ما كتب به الوليد إليه،
وكتب به إلى الوليد، فقال الوليد:

ليث هشاماً كان حيّاً يرى
محبّه الأوفر قد أفرعا
[ويروى: (٢٦٨/٥)]

ليث هشاماً عاش حتّى يرى
مكياله الأوفر قد طبعها
كلّناه بالصاع الذي كاله
وما ظلمناه به إصبعا
وما أتينا ذاك عن بدعة
أحلّه الفرقان لي أجمعا
وضيق على أهل هشام وأصحابه، فجاء خادم لهشام فوقف
عند قبره وبكى وقال: يا أمير المؤمنين لو رأيت ما يصنع بنا الوليد.
فقال بعض من هناك: لو رأيت ما صنع بهشام لعلمت أنّك في نعمة
لا تقوم بشكرها! إنّ هشاماً في شغل ممّا هو فيه عنكم.

واستعمل الوليد العمّال، وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة، فجاءته
بيعتهم، وكتب إليه مروان بن محمّد ببيعتهم واستأذنه في القدوم
عليه. فلمّا وليّ الوليد أجرى على زمني أهل الشام وعثمهم
وكساهم وأمر لكلّ إنسان منهم بخادم، وأخرج لعيالات الناس
الطيب والكسوة وزادهم وزاد الناس في العطاء عشرات، ثمّ زاد
أهل الشام بعد العشرات عشرة عشرة، وزاد الوفود، ولم يقلّ في

يوسف بن عمر، ونحن بالبلاد التي قد علمتم حالها وكثرة عدونا. فقال سالم بن أخوز: أيها الأمير إنّه بعض مكاييد قريش، أرادوا تهجين طاعتك، فسير ولا تمتحنّا. فقال: يا سالم أنت رجل لك علم بالحرب وحسن طاعة لبني أمية، فأما مثل هذه الأمور فأريك فيها رأي أمّة [هتّماء]. ورجع بالناس. (٢٧١/٥)

ذكر ولاية حنظلة الإفريقية وأبي الخطار الأندلس

في هذه السنة قدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي الأندلس أميراً في رجب، وكان أبو الخطار لما تابع ولاية الأندلس من قيس قد قال شعراً وعرض فيه بيوم مرج راهط وما كان من بلاء كلب فيه مع مروان بن الحكم وقيام القيسيين مع الضحّاك بن قيس الفهري على مروان، ومن الشعر:

أقادت بنو مروان قيساً دماناً وفي الله إن لم يعدلوا حكمَ عدل
(٢٧٣/٥)

كأنكم لم تشهدوا سرج راهط ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقينكم خسر القنا بنحورنا وليس لكم خيل تُعد ولا زجل
فلما بلغ شعره هشام بن عبد الملك سأل عنه فأعلم أنه رجل من كلب، وكان هشام قد استعمل على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي سنة أربع وعشرين ومائة، فكتب إليه هشام أن يولي أبا الخطار الأندلس، فولاه وسيّره إليها، فدخل قرطبة يوم جمعة فرأى ثعلبة بن سلامة أميرها قد أحضر الأسارى الألف من البربر، الذين تقدّم ذكر أسره، ليقتلهم، فلما دخل أبو الخطار دفع الأسرى إليه، فكانت ولايته سبباً لحياتهم؛ وكان أهل الشام الذين بالأندلس قد أرادوا الخروج مع ثعلبة بن سلامة إلى الشام، فلم يزل أبو الخطار يُحسن إليهم ويستميلهم حتى أقاموا، فأنزل كل قوم على شبه منازلهم بالشام، فلما رأوا بلداً يشبه بلدانهم أقاموا. وقيل: إن أهل الشام إنما فرّقهم في البلاد لأن قرطبة ضاقت عليهم ففرّقهم؛ وقد ذكرنا بعض أخباره سنة تسع وثلاثين ومائة.

ذكر عدة حوادث

قيل: وفي هذه السنة وجّه الوليد بن يزيد خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي والياً على المدينة ومكة والطائف، ودفع إليه محمداً وإبراهيم ابني هشام بن إسماعيل المخزومي مؤثّقين في عباةين، فقدم بهما المدينة في شعبان فأقامهما للناس، ثم حمّلا إلى الشام فأخضرا عند الوليد، فأمر (٢٧٤/٥) بجلدهما، فقال محمد: أسألك بالقرابة! قال: وأي قرابة بيننا؟ قال: فقد نهى رسول الله ﷺ بضرب بسوط إلا في حدّ. قال: فني حدّ اضربك وقوّد، أنت أول من فعل بالعرجي، وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان؛ وكان محمد قد أخذه وقبّده وأقامه للناس وجلده وسجنه إلى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجي إياه، ثم أمر به الوليد فجُلّد هو وأخوه إبراهيم، ثم أوثقهما حديدًا وأمر أن يُنْعَثَ بهما إلى يوسف بن عمر وهو على العراق، فلما قدّم بهما عليه عذّبهما حتى

ذكر قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين

في هذه السنة قُتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بخراسان.

وسبب قتله أنه سار بعد قتل أبيه إلى خراسان، كما سبق ذكره، فأتى بلخ فأقام بها عند الحرّيش بن عمرو بن داود حتى هلك هشام ولي الوليد ابن يزيد. فكتب يوسف بن عمر إلى نصر بمسير يحيى بن زيد وبمنزله عند الحرّيش، وقال له: خذْ أَشَدَّ الْأَخْذِ، فَأَخْذُ نَصْرِ الْحَرِّشِ، فَطَالِبُهُ يَحْيَى، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهِ. فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ سِتْمَائَةَ سَوْط. فَقَالَ الْحَرِّشُ: وَاللَّهِ لَوْ أَنَّهُ تَحْتَ قَدَمِي مَسَا رَفَعْتُهُمَا عَنْهُ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَرِيشُ بْنُ الْحَرِّشِ قَالَ: لَا تَقْتُلْ أَبِي وَأَنَا أَذْكَكَ عَلَى يَحْيَى، فَلَدَّهُ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ نَصْر وَكَبَّ إِلَى الْوَلِيدِ يُخْبِرُهُ، فَكَتَبَ الْوَلِيدُ يَأْمُرُهُ أَنْ يُؤْمِنَهُ وَيُخْلِي سَبِيلَهُ وَسَبِيلَ أَصْحَابِهِ. فَاطْلَقَهُ نَصْر وَأَمَرَ أَنْ يَلْحَقَ بِالْوَلِيدِ وَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِي دِرْهَمٍ، فَسَارَ إِلَى سَرْخَسٍ فَأَقَامَ بِهَا، فَكَتَبَ نَصْرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بْنِ عُبَادٍ يَأْمُرُهُ أَنْ يَسِيرَهُ عَنْهَا، فَسِيرَهُ عَنْهَا، فَسَارَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَيْهَقٍ، وَخَافَ أَنْ يَفْتَالَهُ يَوْسُفُ بْنُ عَمْرِو فَعَادَ إِلَى نَيْسَابُورٍ، وَبِهَا عَمْرُو بْنُ زُرَّارَةَ، وَكَانَ مَعَ يَحْيَى سَبْعُونَ رَجُلًا، فَرَأَى يَحْيَى تِجَارًا، فَأَخَذَهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ دَوَابَّهُمْ وَقَالُوا: عَلَيْنَا أَمَانُهَا، فَكَتَبَ عَمْرُو بْنُ زُرَّارَةَ إِلَى نَصْرِ يُخْبِرُهُ، فَكَتَبَ نَصْرُ يَأْمُرُهُ بِمَحَارِبَتِهِ، فَقَاتَلَهُمْ عَمْرُو، وَهُوَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ وَيَحْيَى فِي سَبْعِينَ رَجُلًا، فَهَزَمَهُمْ يَحْيَى وَقَتْلَ عَمْرُو وَأَصَابَ دَوَابَّ كَثِيرَةً وَسَارَ حَتَّى مَرَّ بِهَرَاةَ، فَلَمْ يَعْرِضْ لِمَنْ بِهَا وَسَارَ عَنْهَا.

وسرح نصر بن سيار سالم بن أخوز في طلب يحيى، فلحقه بالجوزجان فقاتله قتالا شديداً، فرمى يحيى بسهم فأصاب جبهته، رماه رجل من غزّة (٢٧٢/٥) يقال له عيسى، فقتل أصحاب يحيى من عند آخرهم وأخذوا رأس يحيى وسلبوه قميصه.

فلما بلغ الوليد قتل يحيى كتب إلى يوسف بن عمر: خذْ عَجَلًا أَهْلَ الْعِرَاقِ فَأَنْزِلْهُ مِنْ جَذْعِهِ، يَعْنِي زَيْدًا، وَأَحْرِقْهُ بِالنَّارِ ثُمَّ انْسِفْهُ بِالْمِمْ سَفَاً، فَأَمَرَ يَوْسُفُ بِهِ فَأَحْرَقَ، ثُمَّ رَضَّ وَحَمَلَهُ فِي سَفِينَةٍ ثُمَّ ذَرَاهُ فِي الْفَرَاتِ.

وأما يحيى فإنه لما قُتل صُلِبَ بِالْجُوزْجَانِ، فَلَمْ يَزَلْ مَصْلُوبًا حَتَّى ظَهَرَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيَّ وَاسْتَوَلَى عَلَى خُرَاسَانَ فَأَنْزَلَهُ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَدَفَنَهُ وَأَمَرَ بِالنَّيْحَةِ عَلَيْهِ فِي خُرَاسَانَ، وَأَخَذَ أَبُو مُسْلِمٍ دِيوَانَ بَنِي أُمِيَّةَ وَعَرَفَ مِنْهُ أَسْمَاءَ مَنْ حَضَرَ قَتْلَ يَحْيَى، فَمَنْ كَانَ

ماتا.

وفي أيام هشام مات العرجي الشاعر في حبس محمد بن هشام المخزومي، عامل هشام بن عبد الملك على المدينة ومكة، وكان سبب حبسه أنه هجاه ففتحه حتى بلغه أنه أخذ مولى له فضربه وقتله وأمر عبيده أن يطأوا امرأة المولى المقتول، فأخذه محمد فضربه وأقامه للناس وحبه تسع سنين فمات في السجن. (العرجي يفتح العين المهملة، وسكون الراء، وآخره جيم)

وكان عمال الأمصار من تقدم ذكرهم. (٢٧٦/٥)

سنة ست وعشرين ومائة

ذكر قتل خالد بن عبد الله القسري

في هذه السنة قُتل خالد بن عبد الله، وقد تقدم ذكر عزله عن العراق وخراسان، وكان عمله خمس عشرة سنة فيما قيل، ولما عزله هشام قدم عليه يوسف بن عمر واسطاً فحبسه بها، ثم سار يوسف إلى الحيرة وأخذ خالدًا فحبسه بها تمام ثمانية عشر شهراً مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد، استأذن يوسف هشاماً في تعذيبه فأذن له مرة واحدة، وأقسم لئن هلك ليقتلنه، فعذبه يوسف ثم رده إلى حبسه. وقيل: بل عذبه عذاباً كثيراً، وكتب هشام إلى يوسف يأمره بإطلاقه في شوال سنة إحدى وعشرين، فأطلقه، فسار فأتى القرية التي بإزاء الرصافة فأقام بها إلى صفر سنة اثنتين وعشرين، وخرج زيد فقتل، فكتب يوسف بن عمر: إن بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً فكانت همّة أحدهم قوت عياله، فلما ولي خالد العراق أعطاهم الأموال، فتأقت أنفسهم إلى الخلافة، وما خرج زيد إلا عن رأي خالد.

فقال هشام: كذب يوسف! وضرب رسوله وقال: لسنّا نتهم خالدًا في طاعة.

وسمع خالد فسار حتى نزل دمشق وسار إلى الصائفة. وكان على دمشق يومئذ كلثوم بن عياض القشيري، وكان يغيض خالدًا، فظهر في دور (٢٧٧/٥) دمشق حريق كل ليلة يفعله رجل من أهل العراق يقال له ابن العمرس، فإذا وقع الحريق يسرقون، وكان أولاد خالد وإخوته بالساحل لحدث كان من الروم، فكتب كلثوم إلى هشام يُخبره أن موالى خالد يريدون الوثوب على بيت المال وأنهم يحرقون البلد كل ليلة لهذا الفعل.

فكتب إليه هشام يأمره أن يحبس آل خالد الصغير منهم والكبير ومواليهم، فأنفذ وأحضر أولاد خالد وإخوته من الساحل في الجوامع ومعهم مواليهم، وحبس بنات خالد والنساء والصبيان، ثم ظهر علي بن العمرس ومن كان معه، فكتب الوليد بن عبد الرحمن عامل الخراج إلى هشام يُخبره بأخذ ابن العمرس وأصحابه بأسمائهم وقيائلهم، ولم يذكر فيهم أحدًا من موالى خالد.

وفي هذه السنة عزل الوليد سعد بن إبراهيم عن قضاء المدينة وولاه يحيى بن سعيد الأنصاري. وفيها خرجت الروم إلى زبطرة، وهو حصن قديم كان افتتحه حبيب بن مسلمة القهري، فأخبرته الروم الآن، فبني بناء غير محكم، فعاد الروم وأخبروه أيام مروان بن محمد الحمار، ثم بنى الرشيد وشحنه بالرجال، فلما كانت خلافة المأمون طرده الروم فشقته، فأمر المأمون بمرمته وتحصينه، ثم قصده الروم أيام المعتصم، على ما ذكره إن شاء الله تعالى. فإنما سقت خبره هاهنا لأنني لم أعلم تواريخ حوادثه.

وفيها أغزى الوليد أخاه الغمر بن يزيد، وأمر على جيوش البحر الأسود بن بلال المحاذي وسيّره إلى قبرس ليخبر أهلها بين المسير إلى الشام أو إلى الروم، فاختارت طائفة جوار المسلمين، فسيرهم إلى الشام، واختار آخرون الروم، فسيرهم إليهم.

وفيها قدم سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاه بن قريظ وقحطبة بن شبيب مكة، فلحقوا، في قول بعض أهل السير، محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فأخبروه بقصة أبي مسلم وما راوا منه، فقال: أحرّ هو أم عبد؟ قالوا: أما عيسى فيزعم أنه عبد، وأما هو فيزعم أنه حرّ. قال: فاشتروه واعتقوه وأعطوا محمد بن علي مائتي ألف درهم وكسوة بثلثين ألف درهم. (٢٧٥/٥)

فقال لهم: ما أظنكم تلقوني بعد عامي هذا، فإن حدث بي حدث فصاحيكم ابني إبراهيم فيأتي أثق به وأوصيكم به خيراً. فرجعوا من عنده.

وقال بعضهم: في هذه السنة توفي محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في شهر ذي القعدة وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وكان بين موته وموت أبيه سبع سنين.

وحج بالناس هذه السنة يوسف بن محمد بن يوسف. وفيها غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفة.

وفي هذه السنة مات أبو حازم الأعرج، وقيل سنة أربعين، وقيل سنة أربع وأربعين ومائة.

وفي آخر أيام هشام بن عبد الملك توفي ميمالك بن حرب.

وفي هذه السنة توفي القاسم بن أبي بزة، واسم أبي بزة يسار، وهو من المشهورين بالقراءة. واشتد بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي. وسيد بن أبي أنيسة الجزري، مولى بني كلاب، وقيل مولى يزيد بن الخطاب، وقيل مولى غني، وكان عمره ستاً وأربعين سنة، وكان فقيهاً عابداً، وكان له أخ اسمه يحيى، كان ضعيفاً في الحديث.

فكتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويأمره بإطلاق آل خالد، فأطلقهم وترك الموالي رجاء أن يشفع فيهم خالد إذا قدم من الصائفة.

ثم قدم خالد فنزل منزله في دمشق فأذن للناس، فقام بناته يحتجين، فقال: لا تحتجين فإن هشاماً كل يوم يسوقكن إلى الحبس، فدخل الناس، فقام أولاده يسترون النساء، فقال خالد: خرجت غازياً سامعاً مطيعاً فخلقت في عقبى وأخذ حُرْمِي وأهل بيتي فحبسوا مع أهل الجرائم كما يفعل بالمشرِكين، فما منع عصابة منكم أن تقولوا علامَ حبس حُرْم هذا السامع المطيع؟ أخفتم أن تقتلوا جميعاً؟ أخافكم الله؟ ثم قال: مالي ولهشام؟ ليكنن عني أو لأدعون إلى عراقِي الهوى، شامي الدار، حجازي الأصل، يعني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وقد أذنت لكم أن تلغوا هشاماً، فلمَّا بلغه قال: قد خرف أبو الهيثم. (٢٧٨/٥)

وتابعت كتب يوسف بن عمر إلى هشام يطلب منه يزيد بن خالد بن عبد الله، فأرسل هشام إلى كلثوم يأمره بإنفاذ يزيد بن خالد بن عبد الله إلى يوسف ابن عمر، فطلبه، فهرب، فاستدعى خالدًا فحضر عنده، فحبسه، فسمع هشام فكتب إلى كلثوم يلومه ويأمره بتخليته، فأطلقه.

وكان هشام إذا أراد أمراً أمر الأبرش الكلبى فكتب به إلى خالد، فكتب إليه الأبرش: إنه بلغ أمير المؤمنين أن رجلاً قال لك يا خالد إنني لأحبك لعشر خصال: إن الله كريم وأنت كريم، والله جواد وأنت جواد، والله رحيم وأنت رحيم، حتى عدَّ عشراً، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن تحقق ذلك عنده ليقبلك.

فكتب إليه خالد: إن ذلك المجلس كان أكثر أهلاً من أن يجوز لأحد من أهل البغي والفجور أن يحرف ما كان فيه، وإنما قال لي: يا خالد إنني لأحبك لعشر خصال: إن الله كريم يحب كل كريم، والله يحب فانا أحبك، حتى عدَّ عشر خصال، ولكن أعظم من ذلك قيام ابن شقي الجُميري إلى أمير المؤمنين وقوله: يا أمير المؤمنين خليفتك في أهلِكَ أكرم عليك أم رسولك في حاجتك؟ فقال: بل خيلتي في أهلي. فقال ابن شقي: فأنت خليفة الله ومحمد رسول، وضلال رجل من بجيله، يعني نفسه، أهون على العامة من ضلال أمير المؤمنين. فلمَّا قرأ هشام كتابه قال: خرف أبو الهيثم!

فأقام خالد بدمشق حتى هلك هشام وقام الوليد، فكتب إليه الوليد: ما حال الخمسين ألف ألف التي تعلم؟ فأقدم على أمير المؤمنين، فقدم عليه، فأرسل إليه الوليد وهو واقف بباب السراشق فقال: يقول أمير المؤمنين أين ابنك يزيد؟ فقال: كان هرب من هشام وكنا نراه عند أمير المؤمنين حتى استخلفه الله، فلمَّا لم نره ظنناه ببلاد قومه من السراة. ورجع الرسول وقال: لا ولكنك خلفته طالباً

للفتنة. فقال: قد علم أمير المؤمنين أنا أهل بيت طاعة. (٢٧٩/٥)

فرجع الرسول فقال: يقول لك أمير المؤمنين لستين به أو لأرهقن نفسك. فرجع خالد صوته وقال: قل له: هذا أردت، والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه. فأمر الوليد بضربه، فضرب، فلم يتكلم، فحبسه حتى قدم يوسف بن عمر من العراق بالأموال فاشتراه من الوليد بخمسين ألف ألف فأرسل الوليد إلى خالد: إن يوسف يشريك بخمسين ألف ألف، فإن كنت تضمها وإلا دفعتك إليه. فقال خالد: ما عهدت العرب بُياع، والله لو سألتني أن أضمن عوداً ما ضمته. فدفعه إلى يوسف، فترج ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً، وهو لا يكلمه كلمة، ثم حمله إلى الكوفة فعذبه ثم وضع المضرس على صدره فقتله من الليل ودفنه من وقته بالحيرة في عباءته التي كان فيها، وذلك في المحرم سنة ست وعشرين. وقيل: بل أمر يوسف فوضع على رجليه عود وقام عليه الرجال حتى تكسرت قدماه وما تكلم ولا عبس.

وكانت أم خالد نصرانية رومية، ابنتى بها أبوه في بعض أعيادهم فأولدها خالدًا وأسدًا ولم تسلم، وبنى لها خالد بيعة، فذمه الناس والشعراء؛ فمن ذلك قول الفرزدق:

ألا قطع الرحمن ظهر مطية أتت نهادي من دمشق بخالد
كيف يؤم الناس من كانت أمه تدين بأن الله ليس بواحد
بنى بيعة فيها النصارى لأته ويهدم من كفر منار المساجد
وكان خالد قد أمر بهدم منار المساجد لأنه بلغه أن شاعراً قال:

ليتني فسي المؤذنين حياتي إتهم يصرون من في السطوح
فيشيرون أو تشير إليهم بالهوى كل ذات ذل ملىح
(٢٨٠/٥) فلمَّا سمع هذا الشعر أمر بهدمها، ولما بلغه أن الناس يذمون لبنائه البيعة لأنه قام يعتذر إليهم فقال: لعن الله دينهم إن كان شرًا من دينكم. وكان يقول: إن خليفة الرجل في أهله أفضل من رسوله في حاجته، يعني أن الخليفة هشاماً أفضل من رسول الله ﷺ نبراً إلى الله من هذه المقالة.

ذكر قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك

في هذه السنة قُتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي يقال له الناقص في جمادى الآخرة.

وكان سبب قتله ما تقدم ذكره من خلاعته ومجانبته، فلمَّا ولي الخلافة لم يزد من الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الساق إلا تمادياً. فنقل ذلك على رعيته وجنده وكرهوا أمره، وكان أعظمه ما جنى على نفسه إفساده بني عمه هشام والوليد، فإنه أخذ سليمان بن هشام فضربه مائة سوط

وحلق رأسه ولحيته وغرّبه إلى عَمَّان من أرض الشام فحبسه بها، فلم يزل محبوباً حتى قُتل الوليد، فأخذ جارية كانت لآل الوليد، فكلّمه عثمان بن الوليد في ردها، فقال: لا أردها. فقال: إذن تكثر الصواهل حول عسكرك! وحبس الأقمم يزيد بن هشام وفرّق بين روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عذّة من ولد الوليد فرماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر وغشيان أمّهات أولاد أبيه وقالوا: قد اتخذ مائة جامعة لبني أميّة.

وكان أشدهم فيه يزيد بن الوليد، وكان الناس إلى قوله أميل لأنّه كان (٢٨١/٥) يُظهر النُكس ويتواضع، وكان قد نهاه سعيد بن يونس بن صُهَيْب عن البيعة لابنّه الحكم وعثمان لصغرهما، فحبسه حتى مات في الحبس.

وأراد خالد بن عبد الله القسريّ على البيعة لابنّه فأبى، فغضب عليه، فقيل له: لا تخالف أمير المؤمنين. كيف أباع من لا أصلي خلفه ولا أقبل شهادته؟ قالوا: فتقبل شهادة الوليد مع فسقه! قال: أمير المؤمنين غائب عني وإنّما هي أخبار الناس ففسدت اليمانيّة عليه وفسدت عليه فضاة، وهم واليمن أكثر جند الشام، فأتى حرّيث وشيب بن أبي مالك الغسانيّ ومنصور بن جمهور الكلبيّ وابن عمّه حبال بن عمرو ويعقوب بن عبد الرحمن وحُميد بن منصور اللخميّ والأصمعيّ بن ذؤالة والطّفيّل بن حارثة والسرّيّ بن زياد إلى خالد بن عبد الله القسريّ فدعوه إلى أمره، فلم يجبههم.

وأراد الوليد الحجّ فخاف خالد أن يقتلوه في الطريق فنهاه عن الحجّ، فقال: ولم؟ فأخبره فحبسه وأمر أن يطالب بأموال العراق، ثمّ استقدم يوسف بن عمر من العراق وطلب منه أن يخضّر معه الأموال، وأراد عزله وتولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف. فقدم يوسف بأموال لم يحتمل من العراق مثلها، فلقبه حسان النبطيّ فأخبره أنّ الوليد يريد أن يولّي عبد الملك بن محمد، وأشار إليه أن يحمل الرُشى إلى وزرائه، ففرّق فيهم خمسمائة ألف، وقال له حسان: اكتب على لسان خليفتك بالعراق كتاباً: إني كتبت إليك ولا أملك إلا القصر، وادخل على الوليد والكتاب معك مختم واشتر منه خالد، ففعل؛ فأمره الوليد بالعود إلى العراق، واشترى منه خالد القسريّ بخمسين ألف فدفعه إليه، فأخذه معه في محمل بغير وطاء إلى (٢٨٢/٥) العراق. فقال بعض أهل اليمن شعراً على لسان الوليد يحرض عليه اليمانيّة، وقيل: إنّها للوليد يوتّج اليمن على ترك نصر خالد:

ألم نهتج فتذكّر الرّصا لا وجلاً كان متصلاً فزالا
بلى فالدمع منك إلى انسجام كماء المزن يسجل انسجالا
فدغ عسك اذ كارك آل سُغدي فنحن الأكثرون حصي ومالا
ونحن المالكون الناس قسراً نسومهم المنلّة والنكالا
وطنتا الأشعرين بعزّ قيس فيالك وطاة لن نقتالا

وهنا خالد فنيا أسير عظيمهم وسليهم قديماً
فلو كانت قبائل ذات عز ولا تركوه مسلوا أسيراً
وكسدة والشكون فما استقالوا بها سمننا البريّة كلّ خسف
ولكنّ الوقائع ضعفتهم ولكنّ السوا لنا أبداً عيداً
ألا منعوه إن كانوا رجلاً جعلنا المخزيات له ضلّالا
لما ذهبنا صانعه ضلّالا يُعالج من سلامنا الضالا
ولا برحت خيولهم الرّحالا وهننا السهولة والجيالا
وجنّتهم وردنّهم شلالا ونومهم المنلّة والشغالا
(٢٨٣/٥)

فأصبحت الفداة عليّ تاج فاعظم ذلك عليهم وسعوا في قتله وازدادوا حقناً؛ وقال حمزة بن يبيض في الوليد:

وصلت سماء الضّر بالضرّ بعدما زعمت سماء الضّر عنا سخلج
فليت مثلاً كان حياً يسومنا وكنا كما كنا نرجي ونطمع
وقال أيضاً:

يا وليد الخنا تركت الطريفا واضحاً وارتيكت فجاً عميقاً
وتمايت واعتديت وأسرقت وأغريت وأتبعشت فسوقاً
أبداً هاتنم هات هاتي ثم هاتي حتى تخسر صعيقاً
أنت سكران ما تيقن فماتر تُق قضا وقد فتقت فُتوقاً

فأتت اليمانيّة يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادوه على البيعة، فشاور عمرو بن يزيد الحَكَمي، فقال له: لا يبايعك الناس على هذا وشاور أخاك العباس فإن يبايعك لم يخالفك أحد، وإن أبى كان الناس له أطوع، فإن أبيت إلّا المضيّ على رأيك فإظهر أنّ أخاك العباس قد يبايعك. وكان الشام وياً، فخرجوا إلى البوادي، وكان العباس بالقسطل ويزيد بالبادية أيضاً بينهما أميال يسيرة، فأتى يزيد أخاه العباس فاستشاره، فنهاه عن ذلك، فرجع وباع الناس سرّاً وبثّ دُعائه، فدعوا الناس، ثمّ عاود أخاه العباس فاستشاره ودعاه إلى نفسه، فزيره وقال: إن عدت لمثل هذا لأشدنك وثاقاً وأحملنك إلى أمير المؤمنين. فخرج من عنده. فقال العباس: إني لأظنه أشأم مولود في بني مروان. (٢٨٤/٥)

وبلغ الخبر مروان بن محمد بآرمينية، فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الأمر عنهم، فأعظم سعيد ذلك وبعث بالكتاب إلى العباس بن الوليد، فاستدعى العباس يزيد وتهذّده، فكنمه يزيد أمره، فصدقه، وقال العباس لأخيه بشر بن الوليد: إني أظن أنّ الله قد أذن في هلاككم يا بني مروان؛ ثمّ تمثّل:

إني أعيدكم بالله من فتن مثل الجبال تسمى ثم تندفع
إلى البريّة قد ملئت سياستكم فاستمكوا بعمود الدين وارندعوا

الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق، فسار بعض الطريق فأقام، فأرسل إليه يزيد بن الوليد عبد الرحمن بن مصاد، فسأله أبو محمد ثم بايع ليزيد بن الوليد.

ولما أتى الخبر إلى الوليد قال له يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: سر حتى تنزل جنص فإنها حصينة، ووجه الخيول إلى يزيد فيقتل أو يؤسر. فقال عبد الله بن عتبة بن مسعود بن العاص: ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره ونسائه قبل أن يقاتل، والله يؤيد أمير المؤمنين وينصره. فقال يزيد بن خالد: وما نخاف على حرمة، وإنما أتاه عبد العزيز وهو ابن عمه.

فأخذ يقول ابن عتبة وسار حتى أتى البهراء قصر النعمان بن بشير، وسار معه من ولد الضحاك بن قيس أربعون رجلاً فقالوا له: ليس لنا سلاح، فلو أمرت لنا سلاح. فما أعطاهم شيئاً. وناله عبد العزيز، وكتب العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى الوليد: إني أتيتك. فقال الوليد: أخرجوا سريراً، فأخرجوه، فجلس عليه وانتظر العباس. فقاتلهم عبد العزيز ومعه منصور بن جهمور، فبعث إليهم عبد العزيز زياد بن حصين الكلبي يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فقتله أصحاب الوليد، واقتلوا قتلاً شديداً، وكان الوليد قد أخرج لواء مروان بن الحكم الذي كان عقده بالجابية.

وبلغ عبد العزيز مسير العباس إلى الوليد، فأرسل منصور بن جهمور إلى (٢٨٧/٥) طريقه فأخذه قهراً وأتى به عبد العزيز فقال له: بايع لأخيك يزيد. فبايع ووقف، ونصبوا راية وقالوا: هذه راية العباس قد بايع لأمر المؤمنين يزيد. فقال العباس: إنا لله، خذعة من خدع الشيطان، هلك بنو مروان. ففترق الناس عن الوليد وأتوا العباس وعبد العزيز. وأرسل الوليد إلى عبد العزيز يذلل له خمسين ألف دينار ولولاية حمص ما بقي ويؤمنه من كل حدث على أن ينصرف عن قتاله. فأبى ولم يجبه. فظاهر الوليد بين درعين، وأتوه بفرسيه السندي والراية فقاتلهم قتلاً شديداً، فناداهم رجل: اقتلوا عدو الله قتله قوم لوط! ارجموه بالحجارة! فلما سمع ذلك دخل القصر وأغلق عليه الباب وقال:

دَعُوا لِي سُلْمِي وَالطَّلَاةَ وَقِنَةُ وَكَلَا أَلَا حَسْبِي بِنْتُكَ مَا لَا إِذَا مَا صَفَا عَيْشِي بِرِمْلَةِ عَالِجٍ وَعَاتَقْتُ سُلْمِي مَا أُرِيدُ بَدَالَا خَذُوا مَلِكَكُمْ لَا بُدَّ لِلَّهِ مَلِكُكُمْ ثَبَاتًا يَسَاوِي مَا حَيَّتْ عَقَالَا وَخَلُّوا عَنِّي قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى وَلَا تَحْصِدُونِي أَنْ أَمُوتَ فُرْزَالَا

فلما دخل القصر وأغلق الباب أحاط به عبد العزيز، فدنا الوليد من الباب وقال: أما فيكم رجل شريف له حسب وحياه أكلمه؟ قال يزيد بن عتبة السكسكي: كلمني. قال: يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤن عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخدم زمانكم؟ فقال: إنا ما ننقم عليك في أنفسنا إنما ننقم عليك في

لَا تَلْجُمُنْ ذُنُوبَ النَّاسِ أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الذَّنْبَ إِذَا مَا أَلْحَمْتَ رَتَعُوا لَا تَفْرَزَنَّ بِلَايِدِكُمْ بَطُونَكُمْ ثُمَّ لَا حَسْرَةَ تَفْنِي وَلَا جَزَعٌ

فلما اجتمع ليزيد أمره وهو متبذراً إلى دمشق، وبينه وبين دمشق أربع ليال، متكرراً في سبعة نفر على حمير، فتنزلوا بجرود على مرحلة من دمشق، ثم سار فدخل دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سرّاً، وبايع أهل المزة، وكان على دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج، فخاف الوباء فخرج منها فتنزل قفلاً واستخلف ابنه على دمشق، وعلى شرطته أبو العجاج كثير بن عبد الله السلماني، فأجمع يزيد على الظهور، فقبل للعامل: إن يزيد خارج، فلم يصدق.

وراسل يزيد أصحابه بعد المغرب ليلة الجمعة، فكمنوا عند باب الفراديس حتى أذن العشاء فدخلوا فصلوا وللمسجد حرس وقد وكلوا بإخراج الناس (٢٨٥/٥) منه بالليل، فلما صلى الناس أخرجهم الحرس، وتباطأ أصحاب يزيد حتى لم يبق في المسجد غير الحرس وأصحاب يزيد، فأخذوا الحرس، ومضى يزيد بن عتبة إلى يزيد بن الوليد فأعلمه وأخذ بيده فقال: قم يا أمير المؤمنين وأبشّر بنصر الله وعونه. فقام وأقبل في اثني عشر رجلاً، فلما كان عند سوق الحمر لقوا أربعين رجلاً من أصحابهم ولقيهم زهاء مائتي رجل، فمضوا إلى المسجد فدخلوه وأخذوا باب المقصورة ففصبوه فقالوا: رسل الوليد، ففتح لهم الباب خادماً، فأخذوه ودخلوا فأخذوا أبا العجاج وهو سكران، وأخذوا خزائن بيت المال وأرسل إلى كل من كان يحذره فأخذ، وقبض [على] محمد بن عبيدة، وهو على يعلبك، وأرسل [بني عذرة] إلى محمد بن عبد الملك بن محمد بن الحجاج فأخذوه.

وكان بالمسجد سلاح كثير فأخذوه، فلما أصبحوا جاء أهل المزة وتتابع الناس وجاءت السكاسك وأقبل أهل دارياً ويعقوب بن محمد بن هانيء العبيسي وأقبل عيسى بن شبيب التغلبي في أهل دومة وخزستا، وأقبل حميد بن حبيب النخعي في أهل ذير مهران والأرزة وسطرا، وأقبل أهل جرش وأهل الحديثة ودير زكا، وأقبل رباعي بن هاشم الحارثي في الجماعة من بني عذرة وسلامان، وأقبلت جهينة ومن والاهم. ثم وجه يزيد بن الوليد بن عبد الملك عبد الرحمن بن مصاد في مائتي فارس ليأخذوا عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف من قصره، فأخذوه بأمان، وأصاب عبد الرحمن خرجين في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار، فقبل له: خذ أحد هذين (٢٨٦/٥) الخرجين. فقال: لا تتحدث العرب عني إني أول من خان في هذا الأمر. ثم جهز يزيد جيشاً وسيّره إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك وجعل عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

وكان يزيد لما ظهر بدمشق سار مولى للوليد إليه فأعلمه الخبر وهو بالأعنف من عمان، فضره الوليد وحسه وسيّر أبا محمد عبد

انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله! قال: حسبك يا أبا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله سعة عما ذكرت.

ورجع (٢٨٨/٥) إلى الدار وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه وقال: يوم كيوم عثمان.

فصعدوا على الحائط، وكان أول من علاه يزيد بن عنبسة فنزل إليه فأخذ يده وهو يريد أن يجبسه ويؤامر فيه، فنزلوا من الحائط عشرة منهم: منصور بن جهمور، وعبد السلام اللخمي، فضربه عبد السلام على رأسه، وضربه السندي بن زياد بن أبي كبشة في وجهه واحتزوا رأسه وسبروه إلى يزيد.

فأناه الرأس وهو يتغذى، فسجد، وحكى له يزيد بن عنبسة ما قاله للوليد، قال آخر كلامه: الله لا يرتق فتكم ولا يلتم شعركم ولا تجتمع كلمتكم، فأمر يزيد بنصب رأسه. فقال له يزيد بن فروة مولى بني مرة: إنما تنصب رؤوس الخوارج وهذا ابن عمك وخليفة ولا آمن إن نصبت أن ترق له قلوب الناس ويغضب له أهل بيته. فلم يسمع منه ونصبه على رمح فطاف به بدمشق، ثم أمر به أن يُدفع إلى أخيه سليمان بن يزيد، فلما نظر إليه سليمان قال: بُعداً له! أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد أرداني في نفسي الفاسق. وكان سليمان ممن سعى في أمره.

وكان مع الوليد مالك بن أبي السنج المغنسي وعمرو الوادي المغنسي أيضاً، فلما تفرق عن الوليد أصحابه وحضر قال مالك لعمرو: اذهب بنا. فقال عمرو: ليس هذا من الوفاء، نحن لا نعرض لنا لأننا لسنا ممن يقاتل. فقال مالك: والله لئن ظفروا بك وبني لا يُقتل أحد قبلي وقبلك فيوضع رأسه بين رأسي ويقال للناس: انظروا من كان معه في هذه الحال، فلا يعيونه بشيء أشد من هذا. فهربا.

وكان قتله لليلتين بقينا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين، وكانت (٢٨٩/٥) مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر، وقيل سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وقيل: قُتل وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، وقيل إحدى وأربعين سنة، وقيل ست وأربعين سنة.

ذكر نسب الوليد وبعض سيرته

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص ابن عبد شمس بن عبد مناف الأموي، يكنى أبا العباس، وأمّه أمّ الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي، وهي بنت أخي الحجاج بن يوسف، وأمّ أبيه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وأمّها أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر من كُرَيْز، وأمّ عامر بن

كُرَيْز أمّ حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، فلذلك يقول الوليد: نبي الهدي خالي ومن يك خالتي نبي الهدي يُقهر به من يفاخره وكان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم، منهمكاً في اللهو والشرب وسماع الغناء فظهر ذلك من أمره قُتل. ومن جيد شعره ما قاله لما بلغه أن هشام يريد خلعه:

كفرت يدا من مُنعم لو شكرتها جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
وقد تقدّمت الأبيات الأربعة، وأشعاره حسنة في الغزل والعتاب ووصف الخمر وغير ذلك، وقد أخذ الشعراء معانيه في وصف الخمر فسرقوها وادخلوها في أشعارهم وخاصة أبو نواس فإنه أكثرهم أخذاً لها.

قال الوليد: المحبة للغناء تزيد في الشهوة، وتهدم المروءة، وتنوب عن (٢٩٠/٥) الخمر، وتفضل ما يفعل السكر، فإن كنتم لابد فاعلين فجنّبوا النساء، فإن الغناء رقية الزنا، وإنّي لأقول ذلك عليّ وإنه أحب إليّ من كلّ لذة، وأشهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغلة، ولكن الحق أحق أن يُتبع. قيل: إن يزيد بن منبه مولى ثقف مدح الوليد وهناه بالخلافة، فأمر أن تُعدّ الأبيات ويعطى لكل بيت ألف درهم، فعُدّت فكانت خمسين بيتاً فأعطى خمسين ألف درهم وهو أول خليفة عدّ الشعر وأعطى بكل بيت ألف درهم.

ومما شُهر عنه إنه فتح المصحف فخرج: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، فألقاه ورماه بالسهام وقال: تهكّني بـجبار عنيـد فها أنا ذا جبار عنيـد إذا ما جئت ربك يوم حشر. قُتل [أي: ربّ مزقني الوليد] فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى قُتل.

ومن حسن الكلام ما قاله الوليد لما مات مسلمة بن عبد الملك، فإنّ هشاماً قعد للعرزاء، فأناه الوليد وهو نشوان يجزّ مطرف خزّ عليه، فوقف على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، إن عقبى من بقي لحوق من مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختلّ الثغر فهوى، وعلى أثر من سلف يمضي من خلف ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]. فأعرض هشام ولم يجزّ جواباً، وسكت القوم فلم ينطقوا.

وقد نزه قوم الوليد ممّا قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه وقالوا: إنّه قيل عنه (٢٩١/٥) وألصق به وليس بصحيح. قال المدائني: دخل ابن للغم بن يزيد أخي الوليد على الرشيد، فقال له: ممن أنت؟ قال: من قرش. قال: من أيها؟ فأمسك، فقال: قل وأنت آمن ولو أنك مروان. فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد. فقال: رحم الله عمك الوليد ولعن يزيد الناقص، فإنه قتل خليفة مجتمعا عليه! ارفع حوائجك. فرفعها فقضاها.

وقال شبيب بن ثنية: كنّا جلوساً عند المهديّ فذكروا الوليد، فقال المهديّ: كان زنديقاً، فقام أبو عُلّانة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الله، عز وجل، أعدل من أن يولّي خلافة النبوة وأمّر الأئمة زنديقاً، لقد أخبرني مَنْ كان يشهده في ملاعبه وشربه عنه بمرءة في طهارته وصلاته، فكان إذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التي عليه المطايب المصبغة ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب نظاف بيض فيلبسها ويصلي فيها، فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب فلبسها واشتغل بشربه ولهوه، فهذا فعال مَنْ لا يؤمن بالله! فقال المهديّ: بارك الله عليك يا أبا عُلّانة!

ذكر بيعة يزيد بن الوليد الناقص

في هذه السنة بوع يزيد بن الوليد الذي يقال له الناقص، وإنّما سُمّي الناقص لأنّه نقص الزيادة التي كان الوليد زادها في عطيات الناس، وهي عشرة عشرة، وردّ العطاء إلى ما كان أيام هشام، وقيل: أوّل من سمّاه بهذا الاسم مروان بن محمد.

ولما قُتل الوليد خطب يزيدُ الناس فذمّه وذكر الحاحه وأنّه قتله لفعله (٢٩٢/٥) الخبيث وقال: أيّها الناس إن لكم عليّ أن لا أضع حجراً على حجر ولا لبنة ولا أكرّي نهراً ولا أكثر مالاً ولا أعطيه زوجة وولداً ولا أنقل مالاً عن بلد حتّى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم، فما فضل نقلته إلى البلد الذي يليه، ولا أجمركم في ثغوركم فافتنكم، ولا أغلق بابي دونكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم، ولكم أعطيّاكم كلّ سنة وأرزاقكم في كلّ شهر حتّى يكون أقصاكم كادناكم، فإن وفيت لكم بما قلّت فعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة، وإن لم أفد فلکم أن تخلعوني إلّا أن أثوب، وإن علمتم أحداً ممّن يُعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم وأردتم أن تبايعوه فأنّا أوّل من يبايعه. أيّها الناس لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ذكر اضطراب أمر بني أمية

في هذه السنة اضطرب أمر بني أمية وهاجت الفتنة، فكان من ذلك وثوب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد قتل الوليد بعمّان، وكان قد حبسه الوليدُ بها، فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الأموال وأقبل إلى دمشق وجعل يلعن الوليدَ ويعيبه بالكفر.

ذكر خلاف أهل حمص

لما قُتل الوليد أغلق أهل حمص أبوابها وأقاموا النوائح والبواكي عليه، وقيل لهم: إنّ العباس بن الوليد بن عبد الملك أعان عبد العزيز على قتله، فهدموا داره وأنهوها وسلبوا حرّته وطلبوه، فسار إلى أخيه يزيد، فكتبوا (٢٩٣/٥) الأجناد ودعوه إلى الطلب بدم الوليد، فاجابوهم وأنفقوا أن لا يطيعوا يزيد، وأمروا

عليهم معاوية بن يزيد بن الحُصَيْن بن ثُمَيْر، ووافقهم مروان بن عبد الله بن عبد الملك على ذلك.

فراسلهم يزيد فلم يسمعوا وجرحوا رسله. فسير إليهم أخاه مسروراً في جمع كثير، فنزلوا حوَّارين، ثمّ قدم على يزيد سليمان بن هشام، فردّ عليه يزيد ما كان الوليد أخذه من أمواله وسيره إلى أخيه مسرور ومَنْ معه وأمرهم بالسمع والطاعة له.

وكان أهل حمص يريدون المسير إلى دمشق، فقال لهم مروان بن عبد الملك: أرى أن تسيروا إلى هذا الجيش فتقاتلوهم فإن ظفرتم بهم كان من بعدهم أهون عليكم، ولست أرى المسير إلى دمشق وترك هؤلاء خلفكم. فقال السُّمَط بن ثابت: إنّما يريد خلافتكم وهو مامليل ليزيد والقدرية. فقتلوه وقتلوا ابنه وولّوا أبا محمّد السفيناني وتركو عسكر سليمان ذات اليسار وساروا إلى دمشق.

فخرج سليمان مجدداً فلحقهم بالسليمانية، مزرعة كانت لسليمان بن عبد الملك خلف عذراء، وأرسل يزيدُ بن الوليد عبد العزيز بن الحجّاج في ثلاثة آلاف إلى ثنية العُقَاب، وأرسل هشام بن مصاد في ألف وخمسمائة إلى عقبة السلامية، وأمرهم أن يمدّ بعضهم بعضاً. ولحقهم سليمان ومَنْ معه على تعب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت ميمنة سليمان وميسرته وثبت هو في القلب، ثمّ حمل أصحابه على أهل حمص حتّى ردّوهم إلى موضعهم وحمل بعضهم [على] بعض مراراً. (٢٩٤/٥)

فبينما هم كذلك إذا أقبل عبد العزيز بن الحجّاج من ثنية العُقَاب فحمل على أهل حمص حتّى دخل عسكرهم وقتل فيه مَنْ عرض له، فانهزموا، ونادى يزيدُ بن خالد بن عبد الله القسريّ: الله في قومك! فكفّ الناس، ودعاهم سليمان بن هشام إلى بيعة يزيد بن الوليد، وأخذ أبو محمّد السفيناني أسيراً، ويزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية أيضاً، فأثي بهما سليمان، فسيرهما إلى يزيد فحبسهما، واجتمع أمر أهل دمشق ليزيد بن الوليد، وبايعه أهل حمص، فأعطاهم يزيدُ العطاء وأجاز الأشراف؛ واستعمل عليهم يزيدُ بن الوليد معاوية بن يزيد بن الحُصَيْن.

ذكر خلاف أهل فلسطين

وفي هذه السنة وثب أهل فلسطين على عاملهم سعيد بن عبد الملك فطردوه، وكان قد استعمله عليهم الوليد، وأحضروا يزيد بن سليمان بن عبد الملك فجعلوه عليهم وقالوا له: إنّ أمير المؤمنين قد قتل فتولّ أمرنا. فوليه ودعا الناس إلى قتال يزيد، فأجابوه.

وكان ولد سليمان يتزلون فلسطين، وبلغ أهل الأردن أمر أهل فلسطين فولّوا عليهم محمّد بن عبد الملك واجتمعوا معهم على

قتال يزيد بن الوليد، وكان أمر أهل فلسطين إلى سعيد بن رَوْح ويؤي يوسف بن عمر عنده، ففعل، فانتقل يوسف إليه، قال: فلم يرَ وضعبان بن رَوْح.

وقدم منصور الكوفة فخطبهم وذمَّ الوليد ويوسف، وقامت الخطباء فذمَّوهما معه، فأتى عمرو بن محمد إلى يوسف فأخبره، فجعل لا يذكر رجلاً ممن ذكره بسوء إلا قال: لله علي أن أضربه كذا وكذا سوطاً! فجعل عمرو يتعجب من طمعه في الولاية وتهذبه الناس.

وسار يوسف من الكوفة سراً إلى الشام فنزل البلقاء، فلما بلغ خيره يزيد بن الوليد وجهه إليه خمسين فارساً، فعرض رجل من بني تمير ليوسف فقال: يا بن عمر أنت والله مقتول فاطعني وامتنع. قال: لا. قال: فدعني أقتلك أنا ولا تقتلك هذه اليمانية فتغيظنا بقتلك. قال: ما لي فيما عرضت جنان. قال: فانت أعلم.

فطلبه المسيرون لأخذه فلم يروه، فهددوا ابنه له، فقال: إنَّه انطلق إلى مزرعة له؛ فساروا في طلبه، فلما أحسَّ بهم هرب وترك نعليه، ففتشوا (٢٩٧/٥) عنه فوجدوه بين نسوة قد ألقين عليه قطيفة خزّ وجلسن على حواشيه حاسرات، فجروا برجله وأخذوه وأقبلوا به إلى يزيد، فوثب عليه بعض الحرس فاخذ بلحيته ونف بعضهما، وكان من أعظم الناس لحيةً وأصغرهم قاماً، فلما أُدخل على يزيد قبض على لحية نفسه، وهي إلى سرته، فجعل يقول: يا أمير المؤمنين تنف والله لحيتي فما أبقى فيها شعرة! فأمر به فحبس بالخضراء، فأتاه إنسان فقال له: أما تخاف أن يطلع عليك بعض من قد وترت فيلقي عليك حجراً فيقتلك؟ فقال: ما فطنت لهذا. فأرسل إلى يزيد يطلب منه أن يُحوَّل إلى حبس غير الخضراء وإن كان أصيب منه. فعجب من حمقه، فنقله وحبسه مع ابني الوليد، فبقي في الحبس ولاية يزيد وشهرين وعشرة أيام من ولاية إبراهيم فلما قرب مروان من دمشق ولَّى قتلهم يزيد بن خالد القسري مولى لآبيه خالد يقال له أبو الأسد.

ودخل منصور بن جمهور لأَيام خلت من رجب فاخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء والأرزاق وأطلق من كان في السجون من العمَّال وأهل الخراج وباع يزيد بالعراق وأقام بقية رجب وشعبان ورمضان وانصرف لأَيام بقين منه.

ذكر امتناع نصر بن سيار على منصور

وفي هذه السنة امتنع نصر بن سيار بخراسان من تسليم عمله لعامل منصور بن جمهور، وكان يزيد ولأها منصوراً مع العراق، وقد ذكرنا فيما تقدَّم ما كان من كتاب يوسف بن عمر إلى نصر بالمسير إليه ومسير نصر وتباطئه وما (٢٩٨/٥) معه من الهدايا، فاتاه قتل الوليد، فرجع نصر وردَّ تلك الهدايا وأعتق الرقيق وقسم جسان الجوازي في ولده وخاصته، وقسم تلك الأنبة في عوام

وبلغ خبرهم يزيد بن الوليد فسار إليهم سليمان بن هشام بن عبد الملك في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفلياني، وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفاً، وأرسل يزيد بن الوليد إلى سعيد وضعبان ابني رَوْح فوعدهما (٢٩٥/٥) وبذل لهما الولاية والمال، فرحلا في أهل فلسطين وبقي أهل الأردن، فأرسل سليمان خمسة آلاف فنهروا القرى وساروا إلى طبرية، فقال أهل طبرية: ما نقيم والجنود تجوس منازلنا وتحكم في أهاليها، فانتهبوا يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك وأخذوا دوابهما وسلاحهما ولحقوا بمنازلهم. فلما تفرق أهل فلسطين والأردن سار سليمان حتى أتى الصَّيِّرة وأتاه أهل الأردن فبايعوا يزيد بن الوليد، وسار إلى طبرية فصلى بهم الجمعة، وباع من بها، وسار إلى الرملة فاخذ البيعة على من بها، واستعمل ضيَّبان بن رَوْح على فلسطين وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك على الأردن.

ذكر عزل يوسف بن عمر عن العراق

ولما قُتل الوليد استعمل يزيد على العراق منصور بن جمهور، وكان قد ندب قبله إلى ولاية العراق عبد العزيز بن هارون بن عبد الله بن ربيعة بن خليفة الكلبي، فقال: لو كان معي جُنْد لقبلت. فتركه واستعمل منصوراً، ولم يكن منصور من أهل الدين وإنما صار مع يزيد لرأيه في الغيلية وحمية لقتل يوسف خالداً القسري، فشهد لذلك قتل الوليد وقال له لما ولَّاه العراق: أتى الله واعلم أني إنما قتل الوليد لنفسه ولما أظهر من الجور، فلا تركب مثل ما قتلناه عليه.

ولما بلغ يوسف بن عمر قتل الوليد عمد إلى من بحضرته من اليمانية فسجنهم ثم جعل يخلو بالرجل بعد الرجل من المضربة فيقول: ما عندك إن اضطرب الحبل؟ فيقول المضري: أنا رجل من أهل الشام أباع من بايعوا وأفعل ما فعلوا فلم ير عندهم ما يحب فاطلق اليمانية. (٢٩٦/٥) وأقبل منصور، فلما كان بعين التمر كتب إلى من بالحيرة من قواد أهل الشام يخبرهم بقتل الوليد وتأمره على العراق ويأمرهم بأخذ يوسف وعمَّاله، ويعت الكتب كلها إلى سليمان بن سليم بن كيسان ليفرقها على القواد، فحبس الكتب وحمل كتابه فأقرأه يوسف بن عمر، فتحرَّي في أمره وقال لسليمان: ما الرأي؟ قال: ليس لك إمام تقااتل معه، ولا يقاتل أهل الشام معك، ولا آمن عليك منصوراً، وما الرأي إلا أن تلحق بشامك. قال: فكيف الحيلة؟ قال: تُظهر الطاعة ليزيد وتدعو له في خطبتك، فإذا قرب منصور تستخفي عندي وتدعه والعمل. ثم مضى سليمان إلى عمرو بن محمد بن سعيد بن العاص فأخبره بأمره وسأله أن

زيد بن حَيَّان الجَعْفَدِي قَالَ:

أَشْدَّ كَفّاً ذَعِبَتْ وَسَاعِدَا أَشْدَّهَا وَلَا أَرَانِسِي وَاجِدَا
ثُمَّ قُتِلَ. وَقَالَ بَعْضُ الرَّبْعِيِّينَ: (٣٠٠/٥)

سَمَوْنَا لَكُمبٍ بِالصَّفَائِحِ وَالْقَنَا وبِالْخَيْلِ شَعْنًا تُنَحْنِي فِي الشَّكَاثِمِ
فَمَا غَابَ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّى رَأَيْتَنَا نَسُوقُ بَنِي كَعْبٍ كَسُوقَ الْبَهَائِمِ
بِضَرْبِ بُزَيْلِ الْهَامِ عَنْ سَكَنَاتِهِ وَطَمَعِنَ بِأَفْوَاهِ الْمَزَادِ التَّوْاجِمِ
وَهَذَا الْيَوْمُ هُوَ يَوْمُ الْفَلَجِ الثَّانِي.

ثُمَّ إِنَّ بَنِي عَقِيلَ وَقُتِيرًا وَجَعْدَةً وَنُمَيْرًا تَجَمَّعُوا وَعَلَيْهِمْ أَبُو
سَهْلَةُ النُّمَيْرِيُّ قَتَلُوا مَنْ لَقُوا مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ بِمَعْدَنِ الصَّخْرَاءِ
وَسَلَبُوا نِسَاءَهُمْ، وَكَفَّتْ بَنُو نُمَيْرٍ عَنِ النِّسَاءِ.

ثُمَّ إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْوَازِعِ الْحَنْفِيَّ لَمَّا رَأَى مَا فَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ
النُّعْمَانِ يَوْمَ الْفَلَجِ الثَّانِي قَالَ: لَسْتُ بِدُونِ عَبْدِ اللَّهِ وَغَيْرِهِ مَمَّنْ
يَغِيرُ، وَهَذِهِ فِتْرَةٌ يُؤْمِنُ فِيهَا عَقُوبَةُ السُّلْطَانِ. فَجَمَعَ خَيْلَهُ وَأَتَى
الشَّرِيفَ وَبَيْتَ خَيْلِهِ، فَأَغَارَتْ وَأَغَارَ هُوَ، فَمَلَكْتَ يَدَاهُ مِنَ الْغَنَائِمِ
وَأَقْبَلَ وَمَنْ مَعَهُ حَتَّى أَتَى النَّشَاشَ، وَأَقْبَلَتْ بَنُو عَامِرٍ وَقَدْ حَشَدَتْ،
فَلَمْ يَشْعُرْ عَمْرُ بْنُ الْوَازِعِ إِلَّا بِرَعَاءِ الْإِبِلِ، فَجَمَعَ النِّسَاءَ فِي فُسْطَاطٍ
وَجَعَلَ عَلَيْهِنَّ حَرَسًا وَلَقِيَ الْقَوْمَ فَقَاتَلَهُمْ فَانْهَزَمَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ
وَهَرَبَ عَمْرُ بْنُ الْوَازِعِ فَلَحَقَ بِالْيَمَامَةِ، وَتَسَاقَطَ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ خَلْقٌ
كَثِيرٌ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْعَطَشِ وَشِدَّةِ الْحَرِّ، وَرَجَعَتْ بَنُو عَامِرٍ بِالْأَسْرَى
وَالنِّسَاءِ، وَقَالَ الْقُحَيْفِيُّ:

وَالنَّشَاشُ يَوْمَ طَارِفِهِ لَنَا ذِكْرٌ وَعُدْنَا فَعَالًا
وَقَالَ أَيْضًا:

فِدَاءُ خَالَتِي لِبَنِي عَقِيلٍ وَكَعْبٍ حِينَ تَزْدَحِمُ الْجُلُودُ
هَمَّ تَرَكَوْا عَلَى النَّشَاشِ صَرَعِي بِضَرْبِ رُئُوسِهِمْ أَوْ نُفُسِهِ شَدِيدُ
(٣٠١/٥) وَكَفَّتْ قَيْسُ يَوْمَ النَّشَاشِ عَنِ السَّلْبِ، فَجَاءَتْ عُكْلُ
فَسْلَبَتْهُمْ، وَهَذَا يَوْمُ النَّشَاشِ، وَلَمْ يَكُنْ لِحَنِيفَةَ بَعْدَهُ جَمْعٌ، غَيْرَ أَنَّ
عَبِيدَ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمِ الْحَنْفِيَّ جَمَعَ جَمْعًا وَأَغَارَ عَلَى مَاءِ لُقَشِيرٍ يُقَالُ
لَهُ حَلْبَانٌ، فَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَقَدْ لَاقَتْ قُتَيْرٌ يَوْمَ لَاقَتْ عَيْبَةَ اللَّهِ إِحْدَى الْمَكْسَرَاتِ
لَقَدْ لَاقَتْ عَلَى حَلْبَانٍ لَيْشًا هَزَّتْهَا لَا يَنَامُ عَلَى السَّرَاتِ
وَأَغَارَ عَلَى عُكْلٍ قَتَلَتْ مِنْهُمْ عَشْرِينَ أَلْفًا.

ثُمَّ قَدِمَ الْمُثَنَّى بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَمْرِ بْنِ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيِّ وَالْبَاءُ عَلَى
الْيَمَامَةِ مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرِ بْنِ هُبَيْرَةَ حِينَ وَلِيَ الْعِرَاقَ لِمُرْوَانَ
الْحِمَارِ، فَوَرَدَهَا وَهُمْ سَلَمٌ، فَلَمْ يَكُنْ حَرْبٌ، وَشَهِدَتْ بَنُو عَامِرٍ
عَلَى بَنِي حَنِيفَةَ، فَتَعَصَّبَ لَهُمُ الْمُثَنَّى لِأَنَّهُ قَيْسِيٌّ أَيْضًا فَضَرْبَ عَدَّةٍ
مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ وَحَلَقَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

فَلَنْ تَضْرِبُونَنَا بِالسَّيَاطِ فَإِنَّا ضَرْبَانُكُمْ بِالْمَرْفَعَاتِ الصَّوَارِمِ

النَّاسِ، وَوَجَّهَ الْعَمَّالَ وَأَمْرَهُمْ بِحَسَنِ السَّيْرَةِ، وَاسْتَعْمَلَ مَنْصُورَ أَخَاهُ
مَنْظُورًا عَلَى الرِّيِّ وَخُرَّاسَانَ، فَلَمْ يَمَكُنْهُ نَصْرٌ مِنْ ذَلِكَ وَحَفِظَ نَفْسَهُ
وَالْبِلَادَ مِنْهُ وَمَنْ أَخِيهِ.

ذِكْرُ الْحَرْبِ بَيْنَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَعَامِلِهِمْ

لَمَّا قُتِلَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ كَانَ عَلَى الْيَمَامَةِ عَلِيُّ بْنُ الْمُهَاجِرِ،
اسْتَعْمَلَهُ عَلَيْهَا يُوسُفُ بْنُ عَمْرِ، فَقَالَ لَهُ الْمُهَيْرُ بْنُ سَلْمَى بْنِ هَلَالٍ،
أَحَدُ بَنِي الدُّوَلِ بْنِ حَنِيفَةَ: أَتَرَكْنَا لَنَا بِلَادَنَا، فَأَبَى، فَجَمَعَ لَهُ الْمُهَيْرُ
وَسَارَ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي قَصْرِهِ بِقَاعِ هَجْرٍ، فَالْتَقَوْهُ بِالْقَاعِ، فَانْهَزَمَ عَلِيُّ
حَتَّى دَخَلَ قَصْرَهُ، ثُمَّ هَرَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَتَلَ الْمُهَيْرُ نَاسًا مِنْ
أَصْحَابِهِ، وَكَانَ بِحَيْثُ بْنُ أَبِي حَفْصٍ نَهَى ابْنَ الْمُهَاجِرِ عَنِ الْقِتَالِ،
فَعَصَاهُ، فَقَالَ:

بَنَلْتُ نَصِيحَتِي لِبَنِي كِلَابٍ فَلَمْ يَقْبَلْ مَشَاوِرِي وَنُصَحِي
فَدَا لِبَنِي حَنِيفَةَ مَنْ سَوَاهُمْ فَلَيْتَهُمْ فَوَارِسُ كُلِّ قَحِ
وَقَالَ شَقِيقُ بْنُ عَمْرِو السُّدُوسِيُّ:

إِذَا أَتَيْتَ سَالَمْتَ الْمُهَيْرَ وَرَهْطَهُ أَمِنْتَ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالْخُوفِ وَالذُّعْرِ
فَتَسَى رَاحَ يَوْمَ الْقَاعِ رُوحَهُ مَاجِدٍ أَرَادَ بِهَا حُسْنَ السَّمَاعِ مَعَ الْأَجْرِ
وَهَذَا يَوْمُ الْقَاعِ. (٢٩٩/٥)

وَتَأَمَّرَ الْمُهَيْرُ عَلَى الْيَمَامَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ مَاتَ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى
الْيَمَامَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ النُّعْمَانِ أَحَدُ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الدُّوَلِ،
فَاسْتَعْمَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ النُّعْمَانِ الْمُنْدَلِثَ ابْنَ إِدْرِيسَ الْحَنْفِيَّ عَلَى
الْفَلَجِ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى بَنِي عَامِرٍ مِنْ صَعْصَعَةٍ، وَقِيلَ: هِيَ لِبَنِي
تَمِيمٍ، فَجَمَعَ لَهُ بَنُو كَعْبٍ مِنْ رِبِيعَةِ بْنِ عَامِرٍ وَمَعَهُمْ بَنُو عَقِيلَ وَأَبُو
الْفَلَجِ الْمُنْدَلِثُ وَقَاتَلَهُمْ، فَقَتَلَ الْمُنْدَلِثُ أَكْثَرَ أَصْحَابِهِ وَلَمْ يُقْتَلْ مِنْ
أَصْحَابِهِ بَنُو عَامِرٍ كَثِيرٌ أَحَدٌ، وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ يَزِيدُ بْنُ الطُّثْرَةِ، وَهِيَ أُمُّهُ
نُسِبَتْ إِلَى طُثَرِ بْنِ عَمْرِ بْنِ وَاثِلٍ، وَهُوَ يَزِيدُ بْنُ الْمُنْتَشِرِ، فَرَنَاهُ أَخُوهُ
تُورُ بْنُ الطُّثْرَةِ:

أَرَى الْأَثْلَ مِنْ نَحْوِ الْعَقِيقِ مَجَاوِرِي مَقِيمًا وَقَدْ غَالَتْ يَزِيدُ غَوَائِلُهُ
وَقَدْ كَانَ يَحْمِي الْمَحْجَرِينَ سَبِيحَةً وَيَلْغِ أَقْصَى حَجَرَةِ الْحَيِّ نَافِلَتُهُ
وَهُوَ يَوْمُ الْفَلَجِ الْأَوَّلِ.

فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ النُّعْمَانِ قَتْلَ الْمُنْدَلِثِ جَمَعَ أَلْفًا مِنْ حَنِيفَةَ
وْغَيْرِهَا وَغَزَا الْفَلَجَ، فَلَمَّا تَصَافَى النَّاسُ انْهَزَمَ أَبُو لَطِيفَةَ بْنُ مُسْلِمِ
الْعَقِيلِيِّ، فَقَالَ الرَّاجِزُ:

فَرَّ ابْنُ لَطِيفَةَ الْمَنَافِقِ وَالْجَفَوْتِيَانِ وَفَرَّ طَلُوقُ
لَمَّا أَحَاطَتْ بِهِمُ الْبَوَارِقُ

طَارِقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقُشَيْرِيُّ، وَالْجَفَوْتِيَانِ مِنْ بَنِي قُشَيْرٍ.

وَتَحَلَّلَتْ بَنُو جَعْدَةَ الْبَرَادِغِ وَوَلَّوْا فَقَتَلَ أَكْثَرَهُمْ، وَقُطِعَتْ يَدُ

وإن تحلقوا منّا الرؤوس فإنّا قطعنا رؤوساً منكم بالغلاصم

ثم سكنت البلاد ولم يزل عبيد الله بن مسلم الحنفي مستخفياً حتى قدم السري بن عبد الله الهاشمي والياً على اليمامة لبني العباس، فذل عليه فقتله؛ فقال نوح بن جرير الخطفي:

فلولا السري الهاشمي وسيفه أعاد عبيد الله شراً على عكل
(٣٠٢/٥)

وإنما سمي الكرمانى لأنه ولد بكرمان، واسمه جُذْنَع بن عليّ الأزديّ المغني، فقالوا له: أنت لنا.

(٣٠٤/٥) وقالت المضريّة لنصر: إن الكرمانى يُفسد عليك الأمور فارسل إليه فاقتله أو أحسبه. قال: لا ولكن لى أولاد ذكور وإنات فازوج بني من بناته وبناتي من بنيه. قالوا: لا. قال: فابعث إليه بمائة ألف درهم وهو بخيل ولا يُعطي أصحابه شيئاً منها فيفترقون عنه. قالوا: لا، هذه قوة له؛ ولم يزالوا به حتى قالوا له: إن الكرمانى لو لم يقدر على السلطان والملك إلا بالنصرانية واليهودية لتنصر وتهود.

وكان نصر والكرمانى متصافين، وكان الكرمانى قد أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عبد الله، فلما ولي نصر عزل الكرمانى عن الرياسة ولأها غيره، فتباعد ما بينهما.

فلما أكثروا على نصر في أمر الكرمانى عزم على حبسه، فأرسل صاحب حرسه ليأتيه به، فأرادت الأزد أن تخلصه من يده، فمنعهم من ذلك وسار مع صاحب الحرس إلى نصر وهو يضحك، فلما دخل عليه قال له نصر: يا كرمانى ألم يأتيك كتاب يوسف بن عمر يقتلك فراجعه وقلت شيخ خراسان وفارسها فحققت دمك! قال: بلى. قال: ألم أغرم عنك ما كان لزمك من الغرم وقسمته في أعطيات الناس؟ قال: بلى. قال: ألم أُرْسِ ابنك عليّاً على كره من قومك؟ قال: بلى. قال: فبدلت ذلك إجماعاً على الفتنة! قال الكرمانى: لم يقل الأمير شيئاً إلا وقد كان أكثر منه، وأنا لذلك شاك، وقد (٣٠٥/٥) كان مني أيام أسد ما قد علمت فليتأن الأمير فلست أحب الفتنة. فقال سالم بن أخوز: اضرب عنقه أيها الأمير! فقال عصمة بن عبد الله الأسدي للكرمانى: إنك تريد الفتنة وما لا تناله. فقال المقدم وقدامة ابنسا عبد الرحمن بن نعيم العامري: لجلساء فرعون خير منكم إذ ﴿قَالُوا: أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]، والله لا يُقتل الكرمانى بقولكم! فأمر بضربه وحبس في القهندر ثلاث بقين من شهر رمضان سنة ست وعشرين ومائة.

فتكلمت الأزد، فقال نصر: إني حلفت أن أحسبه ولا يناله مني سوء، فإن خشيت عليه فاختاروا رجلاً يكون معه. فاختاروا يزيد التحوي، فكان معه.

فجاء رجل من أهل نَسَف فقال لآل الكرمانى: ما تجعلون لى

ذكر عزل منصور عن العراق وولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في هذه السنة عزل يزيد بن الوليد بن عبد الملك منصور بن جمهور عن العراق واستعمل عليه بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وقال له لما ولّاه: مير إلى العراق فإن أهله يميلون إلى أبيك. فقدم إلى العراق وقدم بين يديه رسلاً إلى من بالعراق من قواد الشام، وخاف أن لا يُسلم إليه منصور العمل. فانقاد له أهل الشام، وسلم إليه منصور العمل وانصرف إلى الشام ففرق عبد الله العمال وأعطى الناس أرزاقهم وأعطياتهم. فنازعه قواد أهل الشام وقالوا: تقسم على هؤلاء فيتنا وهم عدونا؟ فقال لأهل العراق: إني أريد أن أرد فينكم عليكم، وعلمت أنكم أحق به فنازعني هؤلاء. فاجتمع أهل الكوفة بالجبانة، فأرسل إليهم أهل الشام يعتذرون، وثار غوغاء الناس من الفريقين فأصيب منهم رهط لم يعرفوا. واستعمل عبد الله بن عمر على شرطته عمر بن الغضبان القبعتري، وعلى خراج السواد والمحاسبات أيضاً.

ذكر الاختلاف بين أهل خراسان

وفي هذه السنة وقع الاختلاف بخراسان بين الزاوية واليمانية وأظهر الكرمانى الخلاف لنصر بن سيار.

وكان السبب في ذلك أن نصرأ رأى الفتنة قد ثارت فرفع حاصل بيت المال وأعطى الناس بعض أعطياتهم ورقاً وذهباً من الأتية التي كان اتخذها للوليد، فطلب (٣٠٣/٥) الناس منه العطاء وهو يخطب، فقال نصر: إياي والمعصية! عليكم بالطاعة والجماعة فوثب أهل السوق إلى أسواقهم، فغضب نصر وقال: ما لكم عندي عطاء. ثم قال: كآني بكم وقد نبع من تحت أرجلكم شر لا يُطاق، وكآني بكم مطرّحين في الأسواق كالجزر المنحورة، إنه لن تظل ولاية رجل إلا ملوها، وأنتم يا أهل خراسان مسلحة في نحور العدو، فإياكم أن يختلف فيكم سيفان، إنكم ترشون أمراً تريدون به الفتنة، ولا أبقي الله عليكم! لقد نشرتكم وطويتكم، [وطويتكم ونشرتكم] فما عندي منكم عشرة! وإني وإياكم كما قيل:

استمبكوا أصحابنا نحلدو بكم فقد عرفنا خيركم وشركم
فاتقوا الله! فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليمتحن أحدكم أنه ينخلع من ماله وولده! يا أهل خراسان إنكم قد غمطتم الجماعة،

أردتُ بجبسك سوءاً ولكن خفتُ فساداً من الناس فأتيتي. فقال له: لولا أنك في منزلي لقتلتك، ارجعْ إلى ابن الأقطع وأبلغه ما شئتُ من خير أو شرٍّ. فرجع إلى نصر فأخبره، فلم يزل يرسل إليه مرةً بعد أخرى، فكان آخر ما قال له الكرمانى: إني لا آمن أن يحملك قومٌ على غير ما تريد فتربك منا ما لا يقيته بعده، فإن شئتُ خرجتُ عنك لا من هيبة لك ولكن أكره أن أشام أهل هذه البلدة وأسفك الدماء فيها. فنهيا للخروج إلى جرجان.

(المعنى يفتح الميم، وسكون العين المهملة، وبعدها نون: قبيلة من الأزد).

ذكر خبر الحارث بن سُرَيْج وأمانه

وفي هذه السنة أومن الحارث بن سُرَيْج وهو ببلاد الترك وكان مقامه عندهم اثنتي عشرة سنة، وأمر بالعود إلى خراسان.

وكان السبب في ذلك أن الفتنة لما وقعت بخراسان بين نصر والكرمانى خاف نصر قدوم الحارث عليه في أصحابه والترك فيكون أشدَّ عليه من الكرمانى (٣٠٨/٥) وغيره، وطمع أن يناصحه، فأرسل مقاتل بن حيان النبطي وغيره ليردوه عن بلاد الترك. وسار خالد بن زياد الترمذي وخالد بن عمرو مولى بني عامر إلى يزيد بن الوليد فأخذوا للحارث منه أماناً، فكتب له أمانته، وأمر نصر أن يرده عليه ما أخذ له، وأمر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عامل الكوفة بذلك أيضاً، فأخذوا الأمان وساروا إلى الكوفة ثم إلى خراسان، فأرسل نصر إليه، فلقية الرسول وقد رجع مع مقاتل بن حيان وأصحابه، فوصل إلى نصر وقام بمرور الرود، وردَّ نصر عليه ما أخذ له. وكان غوده سنة سبع وعشرين ومائة.

ذكر شيعة بني العباس

في هذه السنة وجّه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بُكَيْر بن ماهان إلى خراسان، وبعث معه بالسيرة والوصية، فقدم مرو وجمع النقاء والدعاة، فعنى إليهم محمد بن علي ودعاهم إلى ابنه إبراهيم ودفع إليهم كتابه، فقبلوه ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة، فقدم بها بُكَيْر على إبراهيم.

ذكر بيعة إبراهيم بن الوليد بالعهد

وفي هذه السنة أمر يزيد بن الوليد بالبيعة لأخيه إبراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك. وكان السبب في ذلك أن يزيد مرض سنة ست وعشرين ومائة، فقبل له لبياع لهما، ولم تزل القدرة بيزيد حتى أمر بالبيعة لهما. (٣٠٩/٥)

ذكر مخالفة مروان بن محمد

وفي هذه السنة أظهر مروان بن محمد الخلاف ليزيد بن

إن أخرجه؟ قالوا: كل ما سالت. فأتى مجرى الماء في القهنز فوسَّعه وقال لولد الكرمانى: اكتبوا إلى أبيكم يستعدّ الليلة للخروج. فكتبوا إليه، فادخلوا الكتاب في الطعام، فتعشى الكرمانى ويزيد التحوي وخضر بن حُكَيْم وخرجا من عنده، ودخل الكرمانى السَّرب فانطوت على بطنه حيّة فلم تضربه وخرج من السَّرب، وركب فرسه البشير والقيد في رجله فأتوا به عبد الملك بن حرملة فأطلق عنه.

وقيل: بل خلَّص الكرمانى مولى له رأى خرقاً في القهنز فوسَّعه وأخرجه، فلم يصل الصبح حتى اجتمع معه زهاء ألف، ولم يرتفع النهار حتى بلغوا ثلاثة آلاف، وكانت الأزد قد بايعوا عبد الملك بن حرملة على كتاب الله وسنة رسوله، فلما خرج الكرمانى قدَّمه عبد الملك.

(٣٠٦/٥) فلما هرب الكرمانى عسكر نصر بباب مَرَو الرُّود وخطب الناس فنال من الكرمانى، فقال: ولدت بكرمان فكان كرمانيّاً، ثم سقط إلى هرة فصار هروياً، والساقط بين الفرائسين لا أصل ثابت ولا فرع ثابت، ثم ذكر الأزد فقال: إن يتوسقوا فهم أذل قوم، وإن يابوا فهم كما قال الأخطل:

ضفادع نسي ظلماء ليل تجاوت فلدل عليها صوتها حيّة البحر ثم ندم على ما فرط منه فقال: اذكروا الله فإنه خير لا شر فيه.

ثم اجتمع إلى نصر بشر كثير، فوجه سالم بن أخوز في المجففة إلى الكرمانى، فسفر الناس بين نصر والكرمانى وسألوا نصراً أن يؤمنه ولا يجبسه، وجاء الكرمانى فوضع يده في يد نصر، فأمره بلزوم بيته.

ثم بلغ الكرمانى عن نصر شيء فخرج إلى قرية له، فخرج نصر فعسكر بباب مرو، فكلّموه فيه فأمنه، وكان رأي نصر إخراجهم من خراسان، فقال له سالم بن أخوز: إن أخرجه تؤقت باسمه؟ وقال الناس: إنما أخرجه لأنه هابه. فقال نصر: إن الذي أتخوفه منه إذا خرج أيسر ممّا أتخوفه منه وهو مقيم، والرجل إذا نفي عن بلده صغر أمره. فأبوا عليه، فأمنه وأعطى أصحابه عشرة عشرة، وأتى الكرمانى نصراً فأمنه.

فلما عزل ابن جمهور عن العراق وولي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في شوال سنة ست وعشرين خطب نصر وذكر ابن جمهور وقال: قد علمت أنه لم يكن من عمال العراق وقد عزله الله واستعمل الطيب ابن الطيب. (٣٠٧/٥) فغضب الكرمانى لابن جمهور وعاد في جمع الرجال واتخاذ السلاح، فكان يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة وأكثر وأقل فيصلي خارج المقصورة، ثم يدخل فيسلم على نصر ولا يجلس. ثم ترك إتيان نصر وأظهر الخلاف، فأرسل إليه نصر مع سالم بن أخوز يقول له: إني والله ما

الوليد.

إنما جعل قيصر وخاقان جديّه لأنّ أمّ فيروز بن يزدجرد ابنة كسرى شيرويه بن كسرى، وأمّها ابنة قيصر، وأمّ شيرويه ابنة خاقان ملك الترك.

وكان آخر ما تكلم به: واحسرتاه وأسفاه! ونقش خاتمه: العظمة لله. وهو أول من خرج بالسلاح يوم العيد، خرج بين صفّين عليهم السلاح.

قيل: إنّه كان قدريّاً، وكان أسمر طويلاً صغير الرأس جميلاً. (٣١١/٥)

ذكر خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك

فلما مات يزيد بن الوليد قام بالأمر بعده أخوه إبراهيم، غير أنّه لم يتم له الأمر، فكان يُسلم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يُسلم عليه بواحدة منهما، فمكث أربعة أشهر، وقيل: سبعين يوماً، ثمّ سار إليه مروان بن محمد فخلعه، على ما ذكره، ثمّ لم يزل حيّاً حتّى أصيب سنة اثنتين [وثلاثين ومائة]، وكنيته أبو إسحاق، أمّه أم ولد.

ذكر استيلاء عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية

كان عبد الرحمن بن أبي عبيدة بن عُقبة بن نافع قد انهزم لما قُتل أبوه وكُثِّم بن عياض سنة اثنتين وعشرين ومائة، وسار إلى الأندلس، وقد ذكرناه، وأراد أن يتغلّب عليها فلم يمكنه ذلك، فلمّا وليّ حنظلة بن صفوان إفريقية، على ما ذكرناه، وجّه أبا الخطّار إلى الأندلس أميراً، فائس حينئذ عبد الرحمن ممّا كان يرجوه فعاد إلى إفريقية وهو خائف من أبي الخطّار، وخرج بتونس من إفريقية في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وقد وليّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة بالشام، فدعا الناس إلى نفسه، فأجابوه، فسار بهم إلى القيروان، فأراد من بها قتاله فمنعهم حنظلة، وكان لا يرى القتال إلّا لكافر أو خارجي، وأرسل إليه حنظلة رسالة مع جماعة من أعيان القيروان رؤساء القبائل يدعوه إلى مراجعة الطاعة، فقبضهم وأخذهم معه إلى القيروان وقال: إن رمى أحد من أهل القيروان بحجر قتلت من عندي أجمعين، فلم يقاتله أحد. فخرج حنظلة إلى الشام، واستولى عبد الرحمن على القيروان سنة (٣١٢/٥) سبع وعشرين ومائة وسائر إفريقية.

ولما خرج حنظلة إلى الشام دعا على أهل إفريقية وعبد الرحمن، فاستجيب له فيهم، فوقع الوباء والطاعون سبع سنين لم يفارقهم إلّا في أوقات متفرقة، وثار بعبد الرحمن جماعة من العرب والبربر ثمّ قُتل بعد ذلك.

فممنّ خرج عليه عروة بن الوليد الصّدفيّ واستولى على تونس، وقام أبو عطاء عمران بن عطاء الأزديّ فنزل بطيفاس،

وكان السبب في ذلك أنّ الوليد لما قُتل كان عبد الملك بن مروان بن محمد مع الغمر بن يزيد أخى الوليد بحران بعد انصرافه من الصائفة، وكان على الجزيرة عبدة بن الرياح الفسائيّ عاملاً للوليد، فلمّا قُتل الوليد سار عبدة عنها إلى الشام، فوثب عبدة الملك بن مروان بن محمد على حوران والجزيرة فضبطهما وكتب إلى أبيه بأرمينية يُعلمه بذلك ويشير عليه بتعجيل السير. فتهيّأ مروان للمسير وأنفذ إلى الثغور من يضبطها ويحفظها، وأظهر أنّه يطلب بدم الوليد، وسار معه الجنود ومعه ثابت بن نعيم الجذاميّ من أهل فلسطين.

وسبب صُحبته له أنّ هشاماً كان قد حبسه، وسبب حبسه أنّ هشاماً أرسله إلى إفريقية لما قتلوا عامله كُثِّوم بن عياض فافسد الجند، فحبسه هشام، وقدم مروان على هشام في بعض وفاداته فشفع فيه فأطلقه فاستصحبه معه.

فلما سار مروان مسيره هذا أمر ثابت بن نعيم من مع مروان من أهل الشام بالانضمام إليه ومفارقة مروان ليعودوا إلى الشام، فأجابوه إلى ذلك، فاجتمع معه ضعف من مع مروان وياتوا يتحارسون، فلمّا أصبحوا اصطَفَوْا للقتال، فأمر مروان منادين ينادون بين الصفّين: يا أهل الشام ما دعاكم إلى هذا؟ ألم أحسن فيكم السيرة؟ فأجابوه بأنّا كنّا نطيعك بطاعة الخليفة، وقد قُتل وبايع أهل الشام يزيد فوضعنا بولاية ثابت ليسير بنا إلى أجنادنا. فنادوهم: كذبتم فإنكم لا تريدون ما قلتم، وإنما تريدون أن تغصبوا من مررت به من أهل الدّمة أموالهم! وما بيني وبينكم إلّا السيف حتّى تنقادوا (٣١٠/٥) إليّ فأسير بكم إلى الغزاة ثمّ أترككم تلحقون بأجنادكم. فانقادوا له، فأخذ ثابت بن نعيم وأولاده وحبسهم وضبط الجند حتّى بلغ حوران وسيرهم إلى الشام ودعا أهل الجزيرة إلى الفرض ففرض لنيف وعشرين ألفاً وتجهّز للمسير إلى يزيد، وكتبه يزيد ليباع له ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان وليّ أباه محمد بن مروان من الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان، فبايع له مروان وأعطاه يزيد ولاية ما ذكر له.

ذكر وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

وفي هذه السنة توفيّ يزيد بن الوليد لعشر بقين من ذي الحجة، وكانت خلافته ستّة أشهر وليلتين، وقيل: كانت ستّة أشهر واثني عشر يوماً، وقيل: خمسة أشهر واثني عشر يوماً، وكان موته بدمشق، وكان عمره ستّاً وأربعين سنة، وقيل: سبعاً وثلاثين سنة؛ وكانت أمّه أم ولد اسمها شاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى، وهو القائل:

إنّا ابن كسرى وأبى مروان وقصر جدّي وجديّ خاقان

بإفريقية، فخطب للخلفاء العباسيين وأطاع السفاح. ثم قدم عليه جماعة من بني أمية فتزوج هو وإخوته منهم، وكان في من قدم عليه منهم: العاص وعبد المؤمن ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكانت ابنة عمهما تحت إلياس أخي عبد الرحمن، فبلغ عبد الرحمن عنهما السعي في الفساد عليه فقتلها، فقالت ابنة عمهما لزوجها إلياس: إن أخاك قد قتل أختانك ولم يراقبك فيهم وتهاون بك، وأنت (٣١٤/٥) سيفه الذي يضرب به، وكلما فتحت له فتحاً كتب إلى الخلفاء: إن ابني حبيباً فتحه، وقد جعل له العهد بعده وعزلك عنه. ولم تزل تغربه به. فتحرّك لقولها وأعمل الحيلة على أخيه.

ثم إن السفاح توفي وولي الخلافة بعده المنصور، فافترق عبد الرحمن على إفريقية، وأرسل إليه خلعة سوداء أول خلافته فلبسها، وهي أول سواد دخل إفريقية. فأرسل إليه عبد الرحمن هدية وكتب يقول: إن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السي منها والمال، فلا تطلب مني مالاً. فغضب المنصور وأرسل إليه بهتدده، فخلع المنصور بإفريقية ومزق خلعته وهو على المنبر، وكان خلع المنصور ممّا أعان أخاه إلياس عليه. فاتفق جماعة من وجوه القيروان معه على أن يقتلوا عبد الرحمن ويؤكّوه ويعيد الدعاء للمنصور. فبلغ عبد الرحمن فأمر أخاه إلياس بالمسير إلى تونس، فتجهّز ودخل إليه يودّعه ومعه أخوه عبد الوارث، فلما دخلا على عبد الرحمن قتلاه. وكان قتله في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين ومائة، وكانت إمارته على إفريقية عشر سنين وسبعة أشهر.

ولما قُتل ضبط إلياس أبواب الدار ليأخذ ابنه حبيباً، فلم يظفر به، وهرب حبيب إلى تونس واجتمع بعمه عمران بن حبيب وأخبره بقتل أبيه، وسار إلياس إليهما، واقتلوا قتلاً سيراً، ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قصّة وقسطيلة ونغزاة، ويكون لعمران تونس وصطفورة والجزيرة، ويكون سائر إفريقية لإلياس؛ وكان هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة، فلما اصطلحوا سار حبيب بن عبد الرحمن إلى عمله، ومضى إلياس مع أخيه عمران إلى تونس فغدر بعمران أخيه وقتله وأخذ تونس وقتل بها جماعة من أشراف العرب وعاد إلى القيروان. فلما استقرّ بها بعث بطاعته إلى المنصور مع وفد، (٣١٥/٥) منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية.

ثم سار حبيب إلى تونس فملكها، فسار إليه إلياس واقتلوا قتلاً ضعيفاً، فلما جثم الليل ترك حبيب خيامه وسار جريداً إلى القيروان فدخلها وأخرج من في السجن وكثر جمعه.

ورجع إلياس في طلبه ففارقه أكثر أصحابه وقصدوا حبيباً، فعظم جيشه، وخرج إليه فالتقى، فغدر أصحاب إلياس، وبرز حبيب بين الصفين، فقال له: ما لنا نقتل صناعتنا وموالينا؟ ولكن ابرز أنت

ونارت البربر بالجبال، وخرج عليه ثابت الصنهاجيّ بياجة فأخذها.

فأحضر عبد الرحمن أخاه إلياس وجعل معه ستمائة فارس وقال له: سير حتى تجتاز بعسكر أبي عطاف الأزدي، فإذا رآك عسكره فارقههم وسر عنهم كأنك تريد تونس إلى قتال عروة بن الوليد بها، فإذا أتيت موضع كذا فقف فيه حتى يأتبك فلان بكتابي فافعل بما فيه.

فسار إلياس ودعا عبد الرحمن إنساناً، وهو الرجل الذي قال لأخيه إلياس عنه، وأعطاه كتاباً وقال له: امض حتى تدخل عسكر أبي عطاف، فإذا أشرف عليهم إلياس ورأيهم يدعون السلاح والخيل فإذا فارقههم إلياس وضعوا السلاح عنهم وأمنوا فسار إليه وأوصل كتابي إليه. فمضى الرجل ودخل عسكر أبي عطاف، وقاربهم إلياس فتحرّكوا للركوب، ثم فارقههم إلياس نحو تونس فسكنوا وقالوا: قد دخل بين فكّي أسد، نحن من هاهنا وأهل تونس من هناك، وأمنوا وصمّموا العزم على المسير خلفه. فلما أمنوا سار ذلك الرجل إلى إلياس فأوصل إليه كتاب أخيه عبد الرحمن، فإذا فيه: إن القوم قد أمنوك فسار إليهم وهم في غفلتهم. فعاد إلياس إليهم وهم غارون فلم يلحقوا بلبسون سلاحهم حتى دهمهم فقتلهم وقتل أبا عطاف أميرهم سنة ثلاثين ومائة، (٣١٣/٥) وأرسل إلى أخيه عبد الرحمن يبشّره بذلك، فكتب إليه عبد الرحمن يأمره بالمسير إلى أهل تونس ويقول: إنهم إذا رأوك ظنّوك أبا عطاف فأمّنوك فظفرت بهم.

فسار إليهم، فكان كما قال عبد الرحمن، ووصل إليهما وصاحبها عروة بن الوليد في الحماّم فلم يلحق بلبس ثيابه حتى غشيه إلياس فالتحف بمنشفة ينشف بها بدنه وركب فرسه عرياناً وهرب، فصاح به إلياس: يا فارس العرب! فعاد إليه، فضربه إلياس واحتضنه عروة فسقطا إلى الأرض، وكاد عروة يظهر على إلياس فأتاه مولى لإلياس فقتله واحتز رأسه وسيره إلى عبد الرحمن.

وأقام إلياس بتونس وخرج عليه رجلان بطرابلس اسمهما عبد الجبار والحارث وقتلا من أهل البلد جماعة كثيرة، فسار إليهم عبد الرحمن سنة إحدى وثلاثين ومائة وقاتلها قتلًا، وكانا يدينان بمذهب الإباضية من الخوارج.

وجند عبد الرحمن في قتال البربر، وعمر عبد الرحمن سور طرابلس سنة اثنتين وثلاثين ومائة، ثم إنّه عاد إلى القيروان وغزا يلمسان وبها جمع كثير من البربر فظفر بهم، وذلك سنة خمس وثلاثين، وسير جيشاً إلى صقلية فظفروا وغنموا غنيمة كثيرة، وبعث جيشاً آخر إلى سردانية فغنموا وقتلوا في الروم، ودوخ المغرب جميعه ولم ينهزم له عسكر.

وقُتل مروان بن محمد وزالت دولة بني أمية وعبد الرحمن

إلى فأثنا قتل صاحبه استراح منه. فتوقف إلياس ثم برز إليه فاقتلا قتالاً شديداً تكسّر فيه رمحاهما ثم سيفاهما، ثم إن حبيباً عطف عليه فقتله ودخل القيروان، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين ومائة.

وكان قتل زرفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين.

ثم إن جماعة كثيرة من المَسوذة سبّروهم محمد بن الأشعث الخزاعي، أمير مصر للمنصور، إلى طرابلس لقتال أبي الخطاب، وعليهم أبو الأخوص عمر بن الأخوص العجلي، فخرج إليهم أبو الخطاب وقاتلهم وهزمهم سنة اثنين وأربعين، فعادوا إلى مصر، واستولى أبو الخطاب على سائر إفريقية. فسبّر إليه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي أميراً على إفريقية، فسار من مصر سنة ثلاث وأربعين فوصل إليها في خمسين ألفاً، ووجه معه الأغلب بن سالم التميمي، وبلغ أبا الخطاب مسيره فجمع أصحابه من كل ناحية، فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه.

فتنازعت زناته وهواة بسبب قتل من زناته، فاتهمت زناته أبا الخطاب بالميل إليهم، ففارقه جماعة منهم، فقوي جنان ابن الأشعث وسار سيراً رويداً، ثم أظهر أن المنصور قد أمره بالعود، وعاد إلى ورائه ثلاثة أيام سيراً بطيئاً، فوصلت عيون أبي الخطاب وأخبرته بعوده، فتفرّق عنه كثير من أصحابه وأمن الباقون، فعاد ابن الأشعث وشجعان عسكره مجدداً فصبّح أبا الخطاب وهو غير متأهب للحرب، فوضعوا السيوف في الخوارج، واشتد القتال، فقتل أبو الخطاب وعامة أصحابه في صفر سنة أربع وأربعين ومائة.

وظنّ ابن الأشعث أن مادة الخوارج قد انقطعت، وإذا [هم] قد أطلّ عليهم أبو هريرة الزناتي في ستة عشر ألفاً، فلقبهم ابن الأشعث وقتلهم جميعاً سنة أربع وأربعين، وكتب إلى المنصور بظفره، ورَتب الولاء في الأعمال كلها، (٣١٨/٥) وبنى سور القيروان فيها، وتمّ سنة ست وأربعين، وضبط إفريقية، وأمعن في طلب كل من خالفه من البربر وغيرهم، فسبّر جيشاً إلى زويلة ووران، فافتح ووران وقتل من بها من الإباضية، وافتح زويلة وقتل مقدمهم عبد الله بن ستان الإباضي وأجلى الباقين. فلما رأى البربر وغيرهم من أهل العبث والخلاف على الأمراء ذلك خافوه خوفاً شديداً وأذعنوا له بالطاعة. فثار عليه رجل من جنده يقال له هاشم بن الشاحج بقمونية وبعه كثير من الجند، فسبّر إليه ابن الأشعث قائداً في عسكره فقتله هاشم وانهزم أصحابه، وجعل المضربة من قواد ابن الأشعث يأمرهم أصحابهم بالحقق بهاشم كراهية لابن الأشعث لأنه تعصّب عليهم، فبعث إليه ابن الأشعث جيشاً آخر، فاقتلوا وانهزم هاشم ولحق بتاهرت وجمع طعام البربر، فبلغت عدة عسكره عشرين ألفاً، فسار بهم إلى تهودة، فسبّر إليه ابن الأشعث جيشاً، فانهزم هاشم وقتلوا كثيراً من أصحابه البربر

وهرب إخوة إلياس إلى بطن من البربر يقال لهم زرفجومة فاعتصموا بهم، فسار إليهم حبيب فقاتلهم فهزموه، فسار إلى قابس، وقوي أمر زرفجومة حينئذ وأقبلت البربر إليهم والخوارج، وكان مقدّم زرفجومة رجلاً اسمه عاصم بن جميل وكان قد ادّعى النبوة والكهانة، فبدّل الدين وزاد في الصلاة وأسقط ذكر النبي ﷺ من الأذان، فجهز عاصم من عنده من العرب على قصد القيروان وأتاه رسل جماعة من أهل القيروان يدعونه إليهم وأخذوا عليه العهد والمواثيق بالحماية والصيانة والدعاء للمنصور، فسار إليهم عاصم في البربر والعرب، فلما قاربوا القيروان خرج من بها لقتالهم فاقتلوا، وانهزم أهل القيروان، ودخل عاصم ومن معه القيروان، فاستحلت زرفجومة المحرّمات وسبوا النساء والصبيان وربطوا دوابهم في الجامع وأفسدوا فيه (٣١٦/٥) ثم سار عاصم يطلب حبيباً وهو بقابس فادركه واقتلوا، وانهزم حبيب إلى جبل أوزاس فاحتمى به، وقام بنصره من به، ولحق به عاصم فالتقوا واقتلوا، فانهزم عاصم وقتل هو وأكثر أصحابه، وسار حبيب إلى القيروان، فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد وقد قام بأمر زرفجومة بعد قتل عاصم، فاقتل هو وحبيب، فانهزم حبيب وقتل هو وجماعة من أصحابه في المحرم سنة أربعين ومائة.

وكانت إمارة عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية عشر سنين وأشهر، وإمارة أخيه إلياس سنة وستة أشهر، وإمارة ابنه حبيب ثلاث سنين.

ذكر إخراج زرفجومة من القيروان

ولما قتل حبيب بن عبد الرحمن عاد عبد الملك بن أبي الجعد إلى القيروان وفعل ما كان يفعله عاصم من الفساد والظلم وقلة الدين وغير ذلك، ففارق القيروان أهلها.

فاتفق أن رجلاً من الإباضية دخل القيروان لحاجة له فرأى ناساً من الوردفجوميين قد أخذوا امرأة فقراً والناس ينظرون فادخلوها الجامع، فترك الإباضي حاجته وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري فاعلمه ذلك، فخرج أبو الخطاب وهو يقول: يَبْتَكَ اللَّهُمَّ يَبْتَكَ! فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع عليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم، وسبّر إليهم عبد الملك، مقدّم زرفجومة، جيشاً فهزموه وساروا إلى القيروان، فخرجت إليهم زرفجومة واقتلوا واشتد (٣١٧/٥) القتال، فانهزم أهل القيروان الذين مع زرفجومة وخذلوا، فقتلهم فقتلهم زرفجومة في الهزيمة وكثر القتل فيهم وقتل عبد

وغيرهم، فسار إلى ناحية طرابلس.
وقدم رسول من المنصور إلى هاشم يلومه على مفارقة
الطاعة، فقال: ما خالفْتُ ولكنِّي دعوتُ للمهدي بعد أمير المؤمنين،
وأُنكر ابنُ الأشعث ذلك وأراد قتلي. فقال له الرسول: فإن كنتَ
على الطاعة فمدَّ عنقك. فضربه بالسيف فقتله سنة سبع وأربعين في
صفر، وبذل الأمان لأصحاب هاشم جميعهم فعادوا.

وتبعهم ابنُ الأشعث بعد ذلك فقتلهم، فغضب المُضَرِّيَّةُ
 واجتمعت على عداوته وخلافه، واجتمع رأيهم على إخراجِه. فلمَّا
 رأى ذلك سار عنهم ولقيته رسل المنصور بالبرِّ والإكرام، فقدم
 عليه، واستعمل المضريَّة على إفريقية (٣١٩/٥) بعده عيسى بن
 موسى الخراساني.

وكان [بعد] مسير ابن الأشعث تأميرُ الخراساني ثلاثة أشهر،
 واستعمل المنصور الأغلب التميمي، على ما نذكره، في ربيع الأوَّل
 سنة ثمان وأربعين ومائة.

وإنما أوردنا هذه الحوادث متتابعة لتعلُّق بعضها ببعض على ما
 شرطناه، وقد ذكرنا كلَّ حادثة في أيِّ سنة كانت فصل الغرضان.

ذكر عدَّة حوادث

في هذه السنة عزل يزيدُ بن الوليد يوسفَ بن محمَّد بن يوسف
 عن المدينة واستعمل عبد العزيز بن عمرو بن عثمان، فقدَّمها في
 ذي القعدة من السنة. وحجَّ بالناس عبد العزيز بن عمرو بن عبد
 العزيز، وقيل: عمر بن عبد الله بن عبد الملك.

وكان العامل على العراق عبد الله بن عمرو بن عبد العزيز،
 وعلى قضاء الكوفة ابن أبي ليلى، وعلى البصرة المُسَوَّر بن عمرو بن
 عبَّاد، وعلى قضائها عامر بن عبيدة، وعلى خراسان نصر بن سَبَّار
 الكناني.

وفيها كاتب مروان بن محمَّد بن مروان بن الحَكَم أمير الجزيرة
 الغمَر بن يزيد بن عبد الملك يحثُّه على الطلب بدم أخيه الوليد
 ويعده المساعدة له وإنجاده على ذلك.

وفيها مات سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عَوْف، وقيل:
 سنة (٣٢٠/٥) سبع وعشرين. وسعيد بن أبي سعيد المقبري.
 ومالك بن دينار الزاهد، وقيل مات سنة سبع وعشرين، وقيل سنة
 ثلاثين.

وفيها توفي الكُمَيْت بن زيد الشاعر الأسدي، وكان مولده سنة
 ستين.

وفيها توفي عبد الرحمن بن القاسم بن محمَّد بن أبي بكر
 الصديق، وقيل سنة إحدى وثلاثين.

سنة سبع وعشرين ومائة

ذكر مسير مروان إلى الشام وخلع إبراهيم

وفي هذه السنة سار مروان إلى الشام لمحاربة إبراهيم بن
 الوليد.

وكان السبب في ذلك ما قد ذكرنا بعضه من مسير مروان بعد
 مقتل الوليد وإنكاره قتله وغلبيته على الجزيرة ثم مبايعته ليزيد بن
 الوليد بعدما ولَّاه يزيد من عمل أبيه.

فلما مات يزيد بن الوليد سار مروان في جنود الجزيرة وخلف
 ابنه عبد الملك في جمع عظيم بالرقَّة، فلما انتهى مروان إلى
 قنسرين لقي بها بشر بن الوليد، كان ولَّاه أخوه يزيد قنسرين، ومعه
 أخوه مسرور بن الوليد، فتصافوا، ودعاهم مروان إلى بيعته، فمال
 إليه يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة في القيسية وأسلموا بشرًا وأخاه
 مسرورًا، فأخذهما مروان فحبسهما، وسار ومعه أهل قنسرين
 متوجِّهًا إلى حمص.

وكان أهل حمص قد امتنعوا [حين مات يزيد] من بيعة إبراهيم
 وعبد العزيز، فوجَّه إليهم إبراهيم عبد العزيز وجند أهل دمشق
 فحاصروهم في مدينتهم، وأسرع مروان السير، فلما دنا من حمص
 رحل عبد العزيز عنها وخرج أهلها إلى مروان فبايعوه وساروا معه.
 ووجَّه إبراهيم بن الوليد الجنود من دمشق مع سليمان بن هشام،
 فنزل عين الجَرِّ في مائة وعشرين (٣٢٢/٥) ألفًا، ونزلها مروان في
 ثمانين ألفًا، فدعاهم مروان إلى الكفِّ عن قتاله وإطلاق ابني الوليد
 الحَكَم وعثمان من السجن، وضمن لهم أنه لا يطلب أحدًا من قتلَّة
 الوليد. فلم يجيبوه وجدَّوا في قتاله، فاقتتلوا ما بين ارتفاع النهار
 إلى العصر، وكثر القتل بينهم.

وكان مروان ذا رأي ومكيده، فارسل ثلاثة آلاف فارس،
 فساروا خلف عسكره وقطعوا نهرًا كان هناك وقصدوا عسكر
 إبراهيم ليغيروا فيه، فلم يشعر سليمان ومنَّ معه وهم مشغولون
 بالقتال إلا بالخيَل والبارقة والتكبير في عسكرهم من خلفهم، فلما
 راوا ذلك انهزموا ووضع أهل حمص السلاح فيهم لحقتهم عليهم
 فقتلوا منهم سبعة عشر ألفًا، وكفَّ أهل الجزيرة وأهل قنسرين عن
 قتلهم وأتوا مروان من أسرائهم بمثل القتلى وأكثر، فأخذ مروان
 عليهم البيعة لولدي الوليد وخلَّى عنهم ولم يقتل منهم إلا رجلين،
 أحدهما يزيد بن المقَّار والوليد بن مُصَاد الكلياني، وكانا ممن وُلِّي
 قتل الوليد، فإنه حبسهما فهلكا في حبسه. وهرب يزيد بن خالد بن

عبدالله القسري فيمن هرب مع سليمان إلى دمشق واجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج، فقال بعضهم لبعض: إن بقي ولدا الوليد حتى يُخرجهما مروان ويصير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً من قتلتهما والراي قتلهما، فرأى ذلك يزيد بن خالد، فأمر أبا الأسد مولى خالد بقتلهما، وأخرج يوسف بن عمر فضرب رقبته، وأرادوا قتل أبي محمد السفيناني فدخل بيتاً من بيوت السجن وأغلقه فلم يقدروا على فتحه، فأرادوا إحراقه فلم يؤتوا بنار حتى قيل قد دخلت خيل مروان المدينة، فهربوا وهرب إبراهيم واختفى، واتهب سليمان ما في بيت المال فقسمه في أصحابه وخرج من المدينة. (٣٢٣/٥)

ذكر بيعة مروان بن محمد بن مروان

وفي هذه السنة بويع بدمشق لمروان بالخلافة.

وكان سبب ذلك أنه لما دخل دمشق وهرب إبراهيم بن الوليد وسليمان ثار من بدمشق من موالي الوليد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقتلوه ونشوا قبر يزيد بن الوليد فصلبوه على باب الجابية، وأتى مروان بالغلّامين الحكم وعثمان ابني الوليد مقتولين، ويوسف بن عمر، فدفعهم، وأتى بأبي محمد السفيناني في قيوده فسلم عليه بالخلافة، ومروان سلم عليه يومئذ بالأمرة، فقال له مروان: نأ! فقال: إنيهما جعلها لك بعدهما؛ وأنشده شعراً قاله الحكم في السجن، وكانا قد بلغا وُلد لأحدهما، وهو الحكم، فقال الحكم:

ألا من مبلغ مروان عني وعني الفمر طالع به خينا
بأني قد ظلمت وصار قومي على قتل الوليد مشايخنا
أينهب كلهم بدمي ومالي فلا غناً أصبت ولا مئينا
ومروان بارض بني يزار كلب الغاب ففترس عرينا
أنتكث يبعني من أجل أمي قد بايعت قلبي فجبنا
فإن أهلك أنا وولي عهدي فمروان أمير المؤمنين

ثم قال: أبسط يدك إيايكم. وسمعه من مع مروان، وكان أول من بايعه معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير ورووس أهل حمص والناس بعده، (٣٢٤/٥) فلما استقر له الأمر رجع إلى منزله بحران وطُلب منه الأمان لإبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام، فأمنتهما، فقدموا عليه، وكان سليمان يتنمر بمن معه من إخوته وأهل بيته ومواليه الذكوانية فبايعوا مروان بن محمد.

ذكر ظهور عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

وفي هذه السنة ظهر عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا إلى نفسه.

وكان سبب ذلك أنه قدم على عبدالله بن عمر بن عبد العزيز

إلى الكوفة فأكرمه وأجازه وأجرى عليه وعلى إخوته كل يوم ثلاثمائة درهم، فكانوا كذلك حتى هلك يزيد بن الوليد، وبايع الناس أخاه إبراهيم بن الوليد وبعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فلما بلغ خبر بيعتهما عبدالله بن عمر بالكوفة بايع الناس وزاد في العطاء وكتب ببيعتهما إلى الآفاق، فجاءته البيعة، ثم بلغه امتناع مروان بن محمد من البيعة ومسيره إليهما إلى الشام، فحبس عبدالله بن معاوية عنده وزاده فيما كان يُجري عليه وأعدّه لمروان بن محمد إن هو ظفر بإبراهيم بن الوليد ليبيع له ويقال به مروان، فمأج الناس.

وورد مروان الشام وظفر بإبراهيم، فانهزم إسماعيل بن عبدالله القسري إلى الكوفة مسرعاً، واقتل كتاباً على لسان إبراهيم بإمرة الكوفة، وجمع اليمانية وأعلمهم ذلك، فأجابوه، وامتنع عبدالله بن عمر عليه وقاتله.

فلما رأى الأمر كذلك خاف أن يظهر أمره فيفتضح ويُقتل فقال لأصحابه: إني أكره سفك الدماء فكفوا أيديكم، فكفوا. وظهر أمر إبراهيم وهربه، (٣٢٥/٥) ووقعت العصية بين الناس، وكان سببها أن عبدالله بن عمر كان أعطى مضر وريعة عطايا كثيرة ولم يُعط جعفر [ابن نافع] بن القعقاع بن شور الدهلي وعثمان بن الخبيري من تيم اللات بن ثعلبة شيئاً، وهما من ربيعة، فكانا مغضبين، وغضب لهما ثُمالة بن خُوشب بن رُويم الشيباني، وخرجوا من عند عبد الله بن عمر وهو بالحيرة إلى الكوفة فنادوا: يا آل ربيعة! فاجتمعت ربيعة وتنمروا.

وبلغ الخبر عبدالله بن عمر فأرسل إليهم أخاه عاصماً، فأتاهم وهم بذي هند، فألقى نفسه بينهم وقال: هذه يدي لكم فاحكموا. فاستحيوا ورجعوا وعظّموا عاصماً وشكروه. فلما كان المساء أرسل عبد الله بن عمر إلى عمر بن الغضبان بن القبعري بمائة ألف، فقسّمها في قومه بني هَمّام بن مرة بن ذهل الشيباني، وإلى ثُمالة بن خُوشب بمائة ألف قسّمها في قومه، وأرسل إلى جعفر بن نافع بمال، وإلى عثمان بن الخبيري بمال.

فلما رأت الشيعة ضعف عبد الله بن عمر طمعوا فيه ودعوا إلى عبدالله بن معاوية واجتمعوا في المسجد وثاروا وأتوا عبد الله بن معاوية وأخرجوه من داره وأدخلوه القصر ومنعوا عاصم بن عمر عن القصر فلحق بأخيه بالحيرة، وجاء ابن معاوية الكوفيون فبايعوه، فيهم: عمر بن الغضبان، ومنصور بن جُمهور، وإسماعيل بن عبدالله القسري أخو خالد، وأقام أياماً يبايعه الناس، وأتته البيعة من المدائن وفم النيل، واجتمع إليه الناس. فخرج إلى عبد الله بن عمر بالحيرة، فقيل لابن عمر: قد أقبل ابن معاوية في الخلق، فأطرق ملياً، وأتاه رئيس خبازيه فأعلمه بإدراك الطعام، فأمره

ذكر رجوع الحارث بن السُرَيْج إلى مرو

وفي هذه السنة رجع الحارث إلى مرو، وكان مقيماً عند المشركين مدة، وقد تقدّم سبب عودته؛ وكان قدومه مرو في جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين فلقبه الناس بكشمهين، فلمّا لقيهم قال: ما قرّرت عيني منذ خرجتُ إلى يومي هذا، وما قرّة عيني إلا أن يطاع الله. ولقيه نصر وأنزله وأجرى عليه كلّ يوم خمسين درهماً، فكان يقتصر على لون واحد، وأطلق نصر أهله (٣٢٨/٥) وأولاده، وعرض عليه نصر أن يولّيه ويعطيه مائة ألف دينار، فلم يقبل وأرسل إلى نصر: إني لست من الدنيا واللذات في شيء، إنّما أسالك كتاب الله والعمل بالسنة، واستعمال أهل الخير، فإن فعلت ساعدتك على عدوك.

وأرسل الحارث إلى الكرمانيّ: إن أعطاني نصر العمل بالكتاب وما سألته عضدته وقمته بأمر الله، وإن لم يفعل اعتك إن ضمنت لي القيام بالعدل والسنة. ودعا بني تميم إلى نفسه، فأجابهم ومن غيرهم جمع كثير، واجتمع إليه ثلاثة آلاف، وقال لنصر: إنّما خرجتُ من هذه البلدة منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجنور وأنت تريدني عليه.

ذكر انتقاض أهل حمص

وفي هذه السنة انتقض أهل حمص على مروان.

وكان سبب ذلك أنّ مروان لما عاد إلى حرّان بعد فراغه من أهل الشام أقام ثلاثة أشهر، فانتقض عليه أهل حمص، وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نعيم ورأسلهم، وأرسل أهل حمص من يتنمّر من كلب فاتاهم الأصبغ بن ذؤالة الكلبي وأولاده، ومعاوية السكسكي، وكان فارس أهل الشام، وغيرهما في نحو من ألف من فرسانهم، فدخلوا ليلة الفطر، فجدّ مروان في السير إليه ومعه إبراهيم المخلوع وسليمان بن هشام، وكان قد آمنهما، وكان يُكرهما، فبلغهما بعد الفطر يومين وقد سدّ أهلها أبوابها، فأحرق بالمدينة ووقف بإزاء باب من أبوابها، فنادى مناديه الذين عند الباب: ما دعاكم إلى النكت؟ (٣٢٩/٥) قالوا: إنّنا على طاعتك لم ننكت. قال: فافتحوا الباب. ففتحو الباب، فدخله عمر بن الوضّاح في الوضّاحيّة، وهم نحو من ثلاثة آلاف، فقاتلهم من في البلد، فكثرتهم خيل مروان، فخرج بها من بها من باب تدمر، فقاتلهم من عليه من أصحاب مروان فقتل عامّة من خرج منه وأفلت الأصبغ بن ذؤالة وابنه فرافصة، وقتل مروان جماعة من أسرائهم، وصلب خمسمائة من القتلى حول المدينة، وهدم من سورها نحو غلوة.

وقيل: إنّ فتح حمص وهدم سورها كان في سنة ثمان وعشرين.

بإحضاره، فأحضره، فأكل هو ومن معه وهو غير مكثرت والناس يتوقّعون أن يهجم (٣٢٦/٥) عليهم ابن معاوية، وقرغ من طعامه وأخرج المال ففرقه في قرّاده، ثمّ دعا مولى له كان يتبرّك به ويتفادى باسمه، كان اسمه إمّا ميمونا وإمّا رباحاً أو فتاحاً أو اسماً يُتبرّك به، فأعطاه اللّواء وقال له: امض به إلى موضع كذا فاركزه وادع أصحابك واقم حتّى آتيك. ففعل.

وخرج عبدالله فإذا الأرض بيضاء من أصحاب ابن معاوية، فأمر ابن عمر منادياً فنادى: من جاء برأس فله خمسمائة فأني برؤوس كثيرة وهو يُعطي ما ضمن.

وبرز رجل من أهل الشام، فبرز إليه القاسم بن عبد الغفار العجلّي، فسأله الشاميّ فعرّفه فقال: قد ظننت أنّه لا يخرج إليّ رجل من بكر بن وائل، والله ما أريد قتالك ولكن أحبيت أن ألقى إليك حديثاً، أخبرك أنّه ليس معكم رجل من أهل اليمن، لا إسماعيل ولا منصور ولا غيرهما، إلا وقد كاتب ابن عمر وكاتبته مُضَرّ، وما أرى لكم يا ربيعة كتاباً ولا رسلاً، وأنا رجل من قيس، فإن أردتم الكتاب أبلغتكم ونحن غداً بإزاتكم فإنهم اليوم لا يقاتلونكم. فبلغ الخبر ابن معاوية فأخبره عمر بن الغضبان، فأشار عليه أن يستوثق من إسماعيل ومنصور وغيرهما، فلم يفعل.

وأصبح الناس من الغد غادين على القتال، فحمل عمر بن الغضبان على ميمنة ابن عمر فانكشفوا، ومضى إسماعيل ومنصور من فورهما إلى الحيرة، فانهمز أصحاب ابن معاوية إلى الكوفة وابن معاوية معهم فدخلوا القصر، وبقي من بالميسرة من ربيعة ومُضَرّ ومن بإزاتهم من أصحاب ابن عمر، فقال لعمر بن الغضبان: ما كنّا نأمن عليكم ما صنع الناس بكم، فانسرفوا. فقال ابن الغضبان: لا أبرح حتّى أقتل. فأخذ أصحابه بمنان دابته فدخلوه الكوفة، فلمّا أمسوا قال لهم ابن معاوية: يا معشر ربيعة، قد رأيتم ما صنع الناس بنا، وقد أعلقنا دماءنا في أعناقكم، فإن قاتلتم قاتلنا معكم، وإن كنتم (٣٢٧/٥) ترون الناس يخذلوننا وإياكم فخذوا لنا ولكم أماناً. فقال له عمر بن الغضبان: ما نقاتل معكم وما نأخذ لكم أماناً كما نأخذ لأنفسنا. فأقاموا في القصر والزبدية على أفواه السكك يقاتلون أصحاب ابن عمر أيّاماً.

ثمّ إنّ ربيعة أخذت أماناً لابن معاوية ولأنفسهم وللزبدية ليذهبوا حيث شاؤوا، وسار ابن معاوية من الكوفة فنزل المدائن، فأتاه قوم من أهل الكوفة، فخرج بهم فغلب على خلوان والجبّال وهنّذان وأصبهان والريّ، وخرج إليه عبيد أهل الكوفة. وكان شاعراً مجيداً، فمن قوله:

ولا تركب الصنيع الذي تلبس أخاك على مثلي
ولا يعجبك قول امرئ يخالف ما قال في فعله

ذكر خلاف أهل الغوطة

في هذه السنة خالف أهل الغوطة وولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق، وأميرها زامل بن عمرو، فوجه إليهم مروان من حمص أبا الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث، وعمر بن الوضاح في عشرة آلاف، فلما دنوا من المدينة حملوا عليهم، وخرج عليهم من المدينة، فانهزموا، واستباح أهل مروان عسكرهم وأحرقوا المزة وقرى من اليمانية، وأخذ يزيد بن خالد قتل، وبعث زامل برأسه إلى مروان بحمص.

وممن قُتل في هذه الحرب عمر بن هاني العبسي مع يزيد، وكان عابداً كثير المجاهدة.

(٣٣٠/٥) ذكر خلاف أهل فلسطين

وفيهما خرج ثابت بن نعيم بعد أهل حمص والغوطة، وكان خروجه في أهل فلسطين، وانتفض على مروان أيضاً وأتى طبرية فحاصرها وعليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم ابن أخي عبد الملك، فقاتله أهلها أياماً.

فكتب مروان بن محمد إلى أبي الورد يأمره بالمسير إليهم، فسار إليهم، فلما قرب منهم خرج أهل طبرية على ثابت فهزموه واستباحوا عسكره، وانصرف إلى فلسطين منهزماً، وتبعه أبو الورد فالتقوا واقتتلوا، فهزمه أبو الورد ثانية وتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان، وتغيّب ثابت وولده رفاعه.

واستعمل مروان على فلسطين الرماحس بن عبد العزيز الكناني، فظفر بثابت وبعثه إلى مروان موقفاً بعد شهرين، فأمر به وبأولاده الثلاثة ففطعت أيديهم وأرجلهم وحملوا إلى دمشق فألقوا على باب المسجد، ثم صلبهم على أبواب دمشق.

وكان مروان يذير أيوب فبايع لابنائه عبيد الله وعبد الله وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك وجمع كذلك بني أمية، واستقام له الشام ما خلا تدمر، فسار إليها فنزل القسطنطينية وبين تدمر أيام، وكانوا قد عوروا المياه، فاستعمل المزداد والقرب والإبل، وكلمه الأبرش بن الوليد وسليمان (٣٣١/٥) ابن هشام وغيرهما وسأله أن يرسل إليهم، فأذن لهم في ذلك، وسار الأبرش وخوفهم وحذرهم، فاجابوا إلى الطاعة، وهرب نفر منهم إلى البرّ ممن لم يثق بمروان، ورجع الأبرش إلى مروان ومعه من أطاع بعد أن هدم سورها.

وكان مروان قد ستر يزيد بن عمرو بن هبيرة بين يديه إلى العراق لقتال الضحّاك الخارجي، وضرب على أهل الشام بعثاً وأمرهم باللاحاق بيزيد، وسار مروان إلى الرصافة، فاستاذنه سليمان بن هشام ليقم أياماً ليقوى من معه ويستريح ظهره. فأذن له؛ وتقدم

مروان إلى قرقيسيا وبها ابن هبيرة ليقدمه إلى الضحّاك، فرجع عشرة آلاف ممن كان مروان قد أخذه من أهل الشام لقتال الضحّاك، فأقاموا بالرصافة ودعوا سليمان إلى خلع مروان، فاجابهم.

ذكر خلع سليمان بن هشام ابن عبد الملك مروان بن محمد وفي هذه السنة خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد وحاربه.

وكان السبب في ذلك ما ذكرنا من قدوم الجنود عليه وتحسينهم له خلع مروان، وقالوا له: أنت أرضى عند الناس من مروان وأولى بالخلافة. فاجابهم إلى ذلك وسار بإخوته ومواليه معهم فعسكر بقنيسرين، وكتب أهل الشام، فأتوه من كل وجه، وبلغ الخبر مروان فرجع إليه من قرقيسيا وكتب إلى ابن هبيرة يأمره بالمقام، واجتاز مروان في رجوعه بحصن الكامل وفيه جماعة من موالي سليمان وأولاد هشام فتحصنوا منه، فأرسل إليهم: إني أحذركم أن تعرضوا لأحد ممن يتبعني من جندي بأذى، فإن فعلتم فلا أمان لكم عندي. (٣٣٢/٥) فأرسلوا إليه: إنا نستكف. ومضى مروان، فجعلوا يغيرون على من يتبعه من أخريات الناس، وبلغ ذلك فتغيظ عليهم.

واجتمع إلى سليمان نحو من سبعين ألفاً من أهل الشام والذكوانية وغيرهم، وعسكر بقرية خساف من أرض قنيسرين، وأتاه مروان فواقعه عند وصوله، فاشتد بينهم القتال، وانهزم سليمان ومن معه، واتبعهم خيل مروان تقتل وتأسر، واستباحوا عسكرهم، ووقف مروان موقفاً ووقف ابناء موقفين، ووقف كوثر صاحب شرطته موقفاً، وأمرهم أن لا يؤثروا بأسير إلا قتلوه إلا عبداً مملوكاً. فأحصى من قتلهم يومئذ [أما] ثيف على ثلاثين ألف قتيل، وقُتل إبراهيم بن سليمان أكبر ولده، وخالد بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك، وأدعى كثير من الأسراء للجنود أنهم عبيد، فكف عن قتلهم وأمر ببيعهم فيمن يزيد مع من أصيب من عسكرهم.

ومضى سليمان حتى انتهى إلى حمص، وانضم إليه من أفلست ممن كان معه، فعسكر بها وبني ما كان مروان أمر بهدمه من حيطانها. وسار مروان إلى حصن الكامل حقاً على من فيه فحصرهم وأنزلهم على حكمه، فمَثَل بهم وأخذهم أهل الرقة فداؤوا جراحاتهم، فهلك بعضهم وبقي أكثرهم، وكانت عدتهم نحواً من ثلاثمائة. ثم سار إلى سليمان ومن معه، فقال بعضهم لبعض: حتى متى نهزم من مروان؟ فتبايع سبعمائة من فرسانهم على الموت وساروا بأجمعهم مجتمعين على أن يبيتوه إن أصابوا منه غرة. وبلغه خبرهم فتحزز منهم وزحف إليهم في الخنادق على

وكان سبب ذلك أن الوليد حين قُتل خرج بالجزيرة حَرُورِيْ
يقال له سعيد بن بهدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة فيهم
الضَحَّاك، فاعتنم قتل الوليد واشتغال مروان بالشام فخرج بأرض
كَفَرْتُوْثَا، وخرج بِسَاطَمِ الْبَهْسي، وهو مفارق لربيه، وفي مثل
عَدَّتْهم من ربيعة، فسار كل واحد منهما إلى صاحبه، فلما تقاربا
أرسل سعيد بن بهدل الْخَبيري، وهو أحد قَوَّاده، في مائة وخمسين
فارساً، فأتاهم وهم غَارُونَ، فقتلوا فيهم وقتلوا بِسَاطَمًا وجميع من
معه إلا (٣٣٥/٥) أربعة عشر رجلاً، ثم مضى سعيد بن بهدل إلى
العراق لما بلغه أن الاختلاف بها، فمات سعيد بن بهدل في الطريق
وامتُخِلَ الضَّحَّاك بن قيس، فبايعه الشراة، فأتى أرض الموصل
ثم شهَرَزُور، واجتمعت إليه الصُّفَرِيَّة حَتَّى صار في أربعة آلاف.

وهلك يزيد بن الوليد وعامله على العراق عبد الله بن عمر بن
عبد العزيز ومروان بالحيرة، فكتب مروان إلى النضر بن سعد
الْحَرَشِي، وهو أحد قَوَّاد ابن عمر، بولاية العراق، فلم يسلم ابنُ
عمر إليه العمل، فشنَّ النضر إلى الكوفة وبقي ابن عمر بالحيرة،
فتحاربوا أربعة أشهر، وأمد مروان النضر بآبن الغزِيل، واجتمعت
المضريَّة مع النضر عصيَّة لمروان حيث طلب بدم الوليد، وكانت
أُم الوليد قيسية من مُضَر، وكان أهل اليمن مع ابن عمر عصيَّة له
حيث كانوا مع يزيد في قتل الوليد حين أسلم خالداً الْقَسْرِي إلى
يوسف فقتله.

فلما سمع الضَّحَّاك باختلافهم أقبل نحوهم وقصد العراق سنة
سبع وعشرين، فأرسل [ابن] عمر إلى النضر: إن هذا لا يريد غيري
وغيرك فهل تجتمع عليه. فتعاقدوا عليه واجتمعا بالكوفة، وكان كل
منهما يصلي بأصحابه. وأقبل الضَّحَّاك فنزل بالْخَيْلَة في رجب
واستراح، ثم اتعدوا للقتال يوم الخميس من غد يوم نزوله فاقتتلوا
قتالاً شديداً، فكشفوا ابن عمر وقتلوا أخاه عاصماً وجعفر بن
العباس الكِندي أخا عبيد الله، ودخل ابن عمر خندقه وبقي
الخوارج عليهم إلى الليل ثم انصرفوا ثم اقتتلوا يوم الجمعة،
فانهزم أصحاب ابن عمر فدخلوا خنادقهم، فلما أصبحوا يوم
السبت تسلل أصحابه نحو واسط ورأوا قوماً لم يروا أشد بأساً
منهم. (٣٣٦/٥)

وكان ممن لحق بواسط النضر بن سعيد الْحَرَشِي، وإسماعيل
بن عبد الله الْقَسْرِي أخو خالد، ومنصور بن جُمُهور، والأصبغ بن
ذؤالة، وغيرهم من الوجوه، وبقي ابن عمر فيمن عنده من أصحابه
لم يبرح، فقال له أصحابه: قد هرب الناس فعلام تقيم؟ فبقي يومين
لا يرى إلا هارباً، فرحل عند ذلك إلى واسط واستولى الضَّحَّاك
على الكوفة ودخلها، ولم يأمنه عبيد الله بن العباس الكِندي على
نفسه فصار مع الضَّحَّاك وبايعه وصار في عسكره؛ فقال أبو عطاء
السندي له، شعراً:

احتراس وتعبية، فلم يمكنهم أن يبتسوه، فكمنوا في زيتون على
طريقه فخرجوا عليه وهو يسير على تعبية فوضعوا السلاح فيمن
(٣٣٣/٥) معه، وانتبذ لهم ونادى خيوله، فرجعت إليه، فقاتلوه من
لدى ارتفاع النهار إلى بعد العصر، وانهزم أصحاب سليمان، وقُتل
منهم نحو من ستة آلاف.

فلما بلغ سليمان هزيمتهم خلف أخاه سعيداً بجمص ومضى
هو إلى تَدْر، فأقام بها، ونزل مروان على حمص فحضر أهلها
عشرة أشهر ونصب عليهم نيفاً وثمانين متجيقاً يرمى بها الليل
والنهار، وهم يخرجون إليه كل يوم فيقاتلونه، وربما يبتسوا نواحي
عسكره. فلما تتابع عليهم البلاء طلبوا الأمان على أن يمكنه من
سعيد بن هشام وابنيه عثمان ومروان ومن رجل كان يسمى
السكسكي كان يغير على عسكره ومن رجل حبشي كان يشتم
مروان، وكان يشد في ذكره ذكر حمار ثم يقول: يا بني سُلَيْم يا
أولاد كذا وكذا هذا لواؤكم. فأجابهم إلى ذلك، فاستوثق من سعيد
وابنيه وقتل السكسكي وسلم الحبشي إلى بني سُلَيْم فقطعوا ذكره
وأثفه ومثلوا به. فلما فرغ من جمص سار نحو الضَّحَّاك الخارجي.

وقيل: إن سليمان بن هشام لما انهزم بخُصاف أقبل هارباً حَتَّى
صار إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بالعراق فخرج معهم إلى
الضَّحَّاك فبايعه وحرَّض على مروان؛ فقال بعض شعرائهم:

ألم نر أن الله أظهر دينه وصلت قريش خلف بكر بن وائل
فلما رأى النضر بن سعيد الْحَرَشِي - وكان قد ولي العراق،
على ما نذكره إن شاء الله - ذلك علم أنه لا طاقة له بعبد الله بن
عمر، فسار إلى مروان، (٣٣٤/٥) فلما كان بالقادسية خرج إليه ابنُ
مُلْجَان، خليفة الضَّحَّاك بالكوفة، فقاتله، فقتله النضر، واستعمل
الضَّحَّاك على الكوفة المثنى بن عمران العائذي.

ثم سار الضَّحَّاك في ذي القعدة إلى الموصل، وأقبل ابن هُبَيْرَة
حَتَّى نزل بعين التمر، فسار إليه المثنى بن عمران فاقتلوا أياماً،
فقتل المثنى وعدة من قَوَّاد الضَّحَّاك وانهزمت الخوارج ومعهم
منصور بن جُمُهور وأتوا الكوفة فجمعوا من بها منهم وساروا نحو
ابن هُبَيْرَة فلقوه، فقاتلهم أياماً وانهزمت الخوارج، وأتى ابن هُبَيْرَة
إلى الكوفة وسار إلى واسط، ولما بلغ الضَّحَّاك ما لقي أصحابه
أرسل عبيدة بن سَوار التغلبي إليهم فتزل الصراة، فرجع ابن هُبَيْرَة
إليهم فالتقوا بالصراة؛ وسيرد خبر خروج الضَّحَّاك بعدها إن شاء
الله تعالى

(الْحَرَشِي بفتح الحاء المهملة، وبالشين المعجمة).

ذكر خروج الضَّحَّاك محكماً

وفي هذه السنة خرج الضَّحَّاك بن قيس الشيباني محكماً ودخل
الكوفة.

شرف فيها بنفسه وأوليته. فلَمَّا جرى له ما ذكرناه جمع قومه وأعلمهم، فقالوا له: نحن تبع لك. فقال: أريد أن أخرج أبا الخطَّار من الأندلس. فقال له بعض أصحابه: افعلْ واستعنْ بِمَنْ شِئْتَ ولا تستعنْ بأبي عطاء القيسي؟ وكان من أشرف قيس، وكان يناظر الصَّمِيل في الرياسة ويحسده. وقال له غيره: الراي أنك تأتي أبا عطاء وتشدُّ أملك به فإنَّه تحرَّك الحميَّة وينصرُك، وإن تركته مال إلى أبي الخطَّار وأعانه عليك ليلبغ فيك ما يريد، والراي أيضاً أن تستعين عليه بأهل اليمن فضلاً عن معد.

ففعل ذلك وسار من ليلته إلى أبي عطاء، وكان يسكن مدينة إستجة، فعظَّمه أبو عطاء وسأله عن سبب قدومه، فأعلمه، فلم يكلمه حتَّى قام فركب فرسه وليس سلاحه وقال له: انهض الآن حيث شئتُ فانا معك، وأمر أهله وأصحابه باتباعه، فساروا إلى مرو، وبها ثوبة بن سلامة الحداني، وكان مُطاعاً في قومه، وكان أبو الخطَّار قد استعمله على إشبيلية وغيرها، ثمَّ عزله ففسد عليه، فدعا الصَّمِيل إلى نصره ووعده أنه إذا أخرجوا أبا الخطَّار صار أميراً، فاجاب إلى نصره ودعا قومه فأجابوا فساروا إلى شدونة.

وسار إليهم أبا الخطَّار من قرطبة واستخلف فيها إنساناً، فالتقوا واقتتلوا في رجب في هذه السنة، وصبر الفريقان ثمَّ وقعت الهزيمة على أبي الخطَّار وقُتل أصحابه أشدَّ قتل وأسر أبو الخطَّار. وكان بقرطبة أمية بن عبد الملك بن قُطر، فأخرج منها خليفة أبي الخطَّار وانتهب ما وجد لهما فيها. (٣٣٩/٥)

ولمَّا انهزم أبو الخطَّار سار ثوبة بن سلامة والصَّمِيل إلى قرطبة فملكها، واستقر ثوبة في الإمارة فثار به عبد الرحمن بن حسان الكلبي وأخرج أبا الخطَّار من السجن، فاستجاش البيمانية، فاجتمع له خلق كثير، وأقبل بهم إلى قرطبة، وخرج إليه ثوبة فيمنَّ معه من البيمانية والمُضَرَّة مع الصَّمِيل. فلَمَّا تقاتل الطائفتان نادى رجل من مُضَر: يا معشر البيمانية! ما بالكم تعرَّضون للحرب علسي أبي الخطَّار وقد جعلنا الأمير منكم؟ يعني ثوبة، فإنَّه من اليمن، ولو أنَّ الأمير منَّا لقد كنتم تعتزون في قتالكم لنا، وما نقول هذا إلاَّ تحرُّجاً من الدماء ورغبة في العافية للعامة. فلَمَّا سمع الناس كلامه قالوا: صدق والله، الأمير منَّا فما بالنا نقاتل قومنا؟ فتركوا القتال واقترب الناس، فهرب أبو الخطَّار فلتحق بباجة، ورجع ثوبة إلى قرطبة، فسَمي ذلك العسكر عسكر العافية.

ذكر شيعة بني القباس

في هذه السنة توجه سليمان بن كثير ولاه بن قُريظ وقُحطبة إلى مكة فلقوا إبراهيم بن محمد الإمام بها وأوصلوا إلى موسى له عشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم ومسكاً ومتاعاً كثيراً، وكان معهم أبو مسلم، فقال سليمان لإبراهيم: هذا مولاك.

فقلْ لعبد الله لو كان جعفر هو الحي لم ينجح وأنت قتلٌ ولم يتبع المُراق والشَّاذَّ فيهم وفي كَه غَضَبُ الذباب صقيلٌ إلى معشر أزدوا أخاك وأكثروا أباك فماذا بعد ذلك تقول فلَمَّا بلغ عبيد الله هذا البيت من قول أبي عطاء قال: أقول اغضبك الله [يبيظ أمك]:

فلا وصلتك الرَّحْم من ذي قرابة وطالب وتر والذليل ذليلٌ تركت أخا شتيان يسلب بصره ونجاك خسوك العنان مقلون ووصل ابنُ عمر إلى واسط فنزل بدار الحجاج بن يوسف. وعادت الحرب بين عبد الله والنضر إلى ما كانت عليه قبل قدوم الضحَّاك إلى النضر يطلب أن يسلم إليه ابنُ عمر ولاية العراق بعهد مروان له، وابن عمر يمتنع، وسار (٣٣٧/٥) الضحَّاك من الكوفة إلى واسط واستخلف ملجأ الشيباني، ونزل الضحَّاك بساب المضمار.

فلَمَّا رأى ذلك ابن عمر والنضر تركا الحرب بينهما واتفقا على قتال الضحَّاك، فلم يزالوا على ذلك شعبان وشهر رمضان وشوال والقتال بينهم متواصل.

ثم إن منصور بن جُمهور قال لابن عمر: ما رأيتُ مثل هؤلاء! فلمَّ تحاربهم وتشغلهم عن مروان؟ أعطيتهم الرضا واجعلهم بينك وبين مروان فإنهم يرجعون عنا إليه ويوسعونه شراً، فإن ظفروا به كان ما أردت وكنت عندهم آمناً، وإن ظفروا بهم وأردت خلافة وقاتله قاتلتُ وأنت مستريح. فقال ابن عمر: لا تعجل حتَّى ننظر. فلتحق به منصور، وناداهم: إني أريد أن أسلم وأسمع كلام الله وهي حجتهم؛ فدخل إليهم وبايعهم.

ثم إن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز خرج إليهم في شوال فصالحهم وبايع الضحَّاك ومن معه سليمان بن هشام بن عبد الملك.

ذكر خلع أبي الخطَّار أمير الأندلس وإمارة ثوبة

وفي هذه السنة خلع أهل الأندلس أبا الخطَّار الحسام بن ضرار أميرهم.

وسبب ذلك أنه لما قدم الأندلس أميراً أظهر العصبيَّة للبيمانية على المُضَرَّة، فاتَّفَق في بعض الأيام أنه اختصم رجلٌ من كنانة ورجل من غسان، فاستعان الكناني بالصَّمِيل بن حاتم بن ذي الجَوْشَن الضبابي، فكلم فيه أبا الخطَّار، (٣٣٨/٥) فاستغلظ له أبو الخطَّار، فأجابه الصَّمِيل، فأمر به فأقيم وضرب قتاه، فمالت عمامته، فلَمَّا خرج قيل له: نرى عمامتك مالت! فقال: إن كان لي قوم فسقيموها.

وكان الصَّمِيل من أشرف مُضَر، فلَمَّا دخل الأندلس مع بلج

وفيهما كتب بُكَيْرُ بن ماهان إلى إبراهيم الإمام أنه في الموت وأنه قد استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان، وهو رضى للأمر، فكتب إبراهيم لأبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد (٣٤٠/٥) أسند أمرهم إليه، ومضى أبو سلمة إلى خراسان، فصدّقه وقبلوا أمره ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة وخُمس أموالهم.

ذكر عدة حوادث

وحجَّ بالناس هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وهو عامل مروان على مكة والمدينة والطائف، وكان العامل على العراق النضر ابن الحرثي، وكان من أمره وأمر ابن عمر والضحاك الخارجي ما ذكرنا. وكان بخراسان نصر بن سيار، وبها من ينازعه فيها الكرمانى والحارث بن سُرَيْج.

وفيهما مات سُؤَيْد بن غَفَلَة، وقيل سنة إحدى وثلاثين، وقيل سنة اثنتين وثلاثين، وعمره مائة وعشرون سنة، وعبد الكريم بن مالك الجزري، وقيل غير ذلك.

وفيهما مات أبو حصين عثمان بن حصين الأسدي الكوفي؛ (حصين بفتح الحاء، وكسر الصاد).

وفيهما مات أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني، وقيل سنة ثمان وعشرين، وعمره مائة سنة؛ (السبيعي بفتح السين، وكسر الباء).

وفيهما توفي عبد الله بن دينار، وقيل سنة ست وثلاثين.

وفيهما مات محمد بن واسع الأزدي البصري، وكنيته أبو بكر. وداود بن أبي هند، واسم أبي هند دينار مولى بني قُشَيْرِ أبو محمد.

وفيهما توفي أبو بحر عبد الله بن إسحاق (٣٤١/٥) مولى الخضر، وكان إماماً في النحو واللغة، تعلّم ذلك من يحيى بن النعمان، وكان يعيب الفرزدق في شعره وينسبه إلى اللحن، فهجاه الفرزدق يقول:

فلو كان عبد الله مولى مَجْرُوتَه ولكن عبد الله مولى مواليا فقال له أبو عبد الله: لقد لحتت أيضاً في قولك مواليا، ينبغي أن تقول: مولى موالٍ. (٣٤٢/٥)

سنة ثمان وعشرين ومائة

ذكر قتل الحارث بن سُرَيْج وغلبة الكرمانى على مرو

قد تقدّم ذكر أمان يزيد بن الوليد للحارث بن سُرَيْج وعوده من بلاد المشركين إلى بلاد الإسلام وما كان بينه وبين نصر من الاختلاف.

فلما ولي ابن هُبَيْرَة العراق كتب إلى نصر بعده على خراسان فبايع لمروان بن محمد، فقال الحارث: إنما أمتني يزيد ولم يؤمني مروان، ولا يجيز مروان أمان يزيد، فلا أمته. فخالف نصرأ. فأرسل إليه نصر يدعو إلى الجماعة وينهاه عن الفرقة وإطماع العدو، فلم يجبه إلى ما أراد وخرج فمسكر، وأرسل إلى نصر: اجعل الأمر شورى، فأبى نصر، وأمر الحارث جَهْم بن صفوان، رأس الجهمية، وهو مولى راسب، أن يقرأ سيرته وما يدعو إليه على الناس. فلما سمعوا ذلك كثروا وكثر جمعه، وأرسل الحارث إلى نصر ليعزل سالم بن أخوز عن شرطته ويغير عماله ويقر الأمر بينهما أن يختاروا رجلاً يسمون لهم قوماً يعملون بكتاب الله، فاختار نصر مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان، واختار الحارث الثغفيرة بن شعبة الجهمي ومعاذ بن جبلة، وأمر نصر كاتبه أن يكتب ما يرضي هؤلاء الأربعة من السنن وما يختارونه من العمال فيولّهم ثمر سمّرقند وطخارستان، وكان الحارث يُظهر أنه صاحب (٣٤٣/٥) الرايات السود، فأرسل إليه نصر: إن كنت تزعم أنك تهدمون سور دمشق وتزيلون ملك بني أمية فخذ مني خمسمائة رأس ومائتي بعير واحمل من الأموال ما شئت وآلة الحرب وسير، فلعمري لئن كنت صاحب ما ذكرت إني لفي يدك، وإن كنت لست ذلك فقد أهلكت عشيرتك.

فقال الحارث: قد علمت أن هذا حق ولكن لا يبايعني عليه من صحبني. فقال نصر: فقد ظهر أنهم ليسوا على رأيك، فاذكر الله في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن يهلكون فيما بينكم. وعرض عليه نصر أن يولّيه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف، فلم يقبل، فقال له نصر: فابدأ بالكرمانى فإن قتلته فانا في طاعتك. فلم يقبل.

ثم تراضيا بأن حكمًا جَهْم بن صفوان ومقاتل بن حيان، فحكمًا بأن يعتزل نصر وأن يكون الأمر شورى، فلم يقبل نصر. فخالفه الحارث واتهم نصر قوماً من أصحابه أنهم كاتبوا الحارث فاعتذروا إليه فقبل عذرهم.

وقدم عليه جمع من أهل خراسان حين سمعوا بالفتنة، منهم: عاصم بن عُثَيْر الصُرَيْمي، وأبو الذيبال الناجي، ومسلم بن عبد الرحمن وغيرهم، وأمر الحارث أن تقرأ سيرته في الأسواق والمساجد وعلى باب نصر، فقرئت، فأتاه خلق كثير، وقرأها رجل على باب نصر، فضربه غلمان نصر، فنادبهم الحارث وتجهّزوا للحرب، ودلّ رجل من أهل مرو الحارث على نقب في سورها، فمضى الحارث إليه فقبه ودخل المدينة من ناحية باب بالين، فقاتلهم جَهْم بن مسعود الناجي فقتل جَهْم وانهبوا منزل سالم بن أخوز وقتلوا من كان يحرس باب بالين، وذلك يوم الاثنين لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة. وعدل الحارث في سكة السعد فرأى أعين مولى حيان، فقتله فقتل أعين.

فأَمَنَهُمْ وَهَدَمَ الدَّوْرَ وَنَهَبَ الْأَمْوَالَ، فَأَنْكَرَ الْحَارِثُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَهَمَّ الْكَرْمَانِي بِهِ ثُمَّ تَرَكَهُ.

واعتزل بشر بن جُرْمُوز الضَّبِّي فِي خَمْسَةِ آلَافٍ وَقَالَ لِلْحَارِثِ: إِنَّمَا قَاتَلْتُ مَعَكَ طَلَبَ الْعَدْلِ، فَأَمَا إِذْ كُنْتُ مَعَ الْكَرْمَانِي فَمَا تَقَاتَلْتَ إِلَّا لِيَقَالَ غَلِبَ الْحَارِثُ، وَهَؤُلَاءِ يِقَاتِلُونَ عَصِيَّةً، فَلَسْتُ مَقَاتِلًا مَعَكَ، فَنَحْنُ الْفَتَى الْعَادِلَةُ لَا نَقَاتِلُ إِلَّا مَنْ يِقَاتِلُنَا.

وَأَتَى الْحَارِثُ مَسْجِدَ عِيَاضٍ وَأَرْسَلَ [إِلَى] الْكَرْمَانِي بِدَعْوِهِ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ شُورَى، فَأَبَى الْكَرْمَانِي، فَانْتَقَلَ الْحَارِثُ عَنْهُ وَأَقَامُوا أَيَّامًا.

ثُمَّ إِنَّ الْحَارِثَ أَتَى السُّورَ فَتَلَمَّ فِيهِ ثَلَاثَةً وَدَخَلَ الْبَلَدَ، وَأَتَى الْكَرْمَانِي فَاقْتُلُوا (٣٤٦/٥) فَاشْتَدَّ الْقِتَالُ بَيْنَهُمْ، فَانْهَزَمَ الْحَارِثُ وَقَتَلُوا مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ وَعَسْكَرَهُمْ وَالْحَارِثُ عَلَى بَغْلٍ، فَنَزَلَ عَنْهُ وَرَكِبَ فَرَسًا وَبَقِيَ فِي مَائَةٍ، فَقُتِلَ عِنْدَ شَجَرَةِ زَيْتُونٍ أَوْ غَيْرِهَا، وَقُتِلَ أَخُوهُ سَوَادَةُ وَغَيْرُهُمَا.

وَقِيلَ: كَانَ سَبَبُ قَتْلِهِ أَنَّ الْكَرْمَانِي خَرَجَ إِلَى بَشْرِ بْنِ جُرْمُوزَ، الَّذِي ذَكَرْنَا اعْتَزَالَهُ، وَمَعَهُ الْحَارِثُ بْنُ سُرَيْجٍ، فَأَقَامَ الْكَرْمَانِي أَيَّامًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَسْكَرِ بَشْرِ فَرَسَخَانٍ، ثُمَّ قَرَّبَ مِنْهُ لِيَقَاتِلَهُ، فَندَمَ الْحَارِثُ عَلَى اتِّبَاعِ الْكَرْمَانِي وَقَالَ: لَا تَعَجَلْ إِلَى قِتَالِهِمْ فَإِنَّا أَرَدْنَاهُمْ عَلَيْكَ. فَخَرَجَ فِي عَشْرَةِ فَوَارِسَ، فَأَتَى عَسْكَرَ بَشْرِ فَأَقَامَ مَعَهُمْ، وَخَرَجَ الْمَضْرِيَّةُ أَصْحَابُ الْحَارِثِ مِنْ عَسْكَرِ الْكَرْمَانِي إِلَيْهِ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ الْكَرْمَانِي مُضَرِّيٌ غَيْرُ سَلَمَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ قَالَ: لَمْ أَرِ الْحَارِثَ إِلَّا غَادِرًا. وَغَيْرُ الْمَهْلَبِ بْنِ إِيَّاسٍ فَإِنَّهُ قَالَ: لَمْ أَرِ الْحَارِثَ قَطُّ إِلَّا فِي خَيْلٍ تُطْرَدُ، فَقَاتَلَهُمُ الْكَرْمَانِي مَرَارًا يَقْتُلُونَ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى خَنَادِقِهِمْ مَرَّةً لِهَؤُلَاءِ وَمَرَّةً لِهَؤُلَاءِ.

ثُمَّ إِنَّ الْحَارِثَ ارْتَحَلَ بَعْدَ أَيَّامٍ فَتَقَبَّ سُوْرَ مَرَوْ وَدَخَلَهَا وَتَبِعَهُ الْكَرْمَانِي فَدَخَلَهَا أَيْضًا، فَقَالَتِ الْمَضْرِيَّةُ لِلْحَارِثِ: تَرَكْنَا الْخَنَادِقَ فَهَرِ يَوْمَنَا وَقَدْ فُورَتْ غَيْرَ مَرَّةٍ فَتَرْجَلْ. فَقَالَ: أَنَا لَكُمْ فَارِسًا خَيْرَ مَنِي لَكُمْ رَاجِلًا. فَقَالُوا: لَا نَرْضَى إِلَّا أَنْ تَرْجَلَ، وَتَرْجَلَ، فَاقْتُلُوا هُمُ وَالْكَرْمَانِي، فَقُتِلَ الْحَارِثُ وَأَخُوهُ وَبَشْرِ بْنُ جُرْمُوزَ وَعَدَّةٌ مِنْ فُورَسَانِ تَمِيمٍ وَانْهَزَمَ الْبَاقُونَ وَصَفَتْ مَرَوْ لِلْتَمِيمِ، فَهَدَمُوا دُورَ الْمَضْرِيَّةِ، فَقَالَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ لِلْحَارِثِ حِينَ قُتِلَ، شَعْرُ:

يَا مُدْخِلَ السِّلَاحِ عَلَى قَوْمِهِ بُنْدًا وَسُخْفًا لَكَ مِنْ هَالِكِ
شَوْكُكَ لَرَى مُضَرًّا كُلَّهَا وَحَزَنُ مَنْ قَوْمَكَ بِالْحَارِكِ
(٣٤٧/٥)

مَا كَانَتْ الْأَزْدُ وَاشْيَاعُهَا تَطْمَعُ فِي عَمْرِو وَلَا مَالِكَ
وَلَا بَنِي سَعْدٍ إِلَّا الْجَمْعُ كُلُّ طَوْرٍ لَوْنُهُ حَالِكِ

عَمَرُو وَمَالِكُ وَسَعْدُ بَطُونُ مِنْ تَمِيمٍ. وَقِيلَ: بَلْ قَالَ هَذِهِ الْأَيَّاتُ نَصْرَ لِعُثْمَانَ بْنِ صَدَقَةَ؛ وَقَالَتْ أُمُّ كَثِيرِ الضَّبِّيَّةِ، شَعْرُ:

(٣٤٤/٥) وَرَكِبَ سَالِمٌ حِينَ أَصْبَحَ وَأَمَرَ مَنَادِيًّا فَنَادَى: مَنْ جَاءَ بِرَأْسِ فَلِهِ ثَلَاثُمِائَةٍ. فَلَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ حَتَّى انْهَزَمَ الْحَارِثُ وَقَاتَلَهُمُ اللَّيْلُ كُلَّهُ، وَأَتَى سَالِمٌ عَسْكَرَ الْحَارِثِ فَقَتَلَ كَاتِبَهُ، وَاسْمُهُ يَزِيدُ بْنُ دَاوُدَ، وَقَتَلَ الرَّجُلَ الَّذِي دَلَّ الْحَارِثَ عَلَى الثَّقَبِ.

وَأَرْسَلَ نَصْرُ إِلَى الْكَرْمَانِي فَأَنَاهُ عَلَى عَهْدٍ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ، فَوَقَعَ بَيْنَ سَالِمِ بْنِ أَخُوْرَ وَمُقَدَّامِ بْنِ نَعِيمٍ كَلَامٌ، فَأَغْلَظَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَصَاحِبِهِ، فَأَعَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا نَفَرًا مِنَ الْحَاضِرِينَ، فَخَافَ الْكَرْمَانِي أَنْ يَكُونَ مَكْرًا مِنْ نَصْرِ فَقَامَ وَتَعَلَّقُوا بِهِ فَلَمْ يَجْلِسْ وَرَكِبَ فَرَسَهُ وَرَجَعَ وَقَالَ: أَرَادَ نَصْرُ الْغَدْرَ بِي.

وَأَسْرَ يَوْمَئِذٍ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ، وَكَانَ مَعَ الْكَرْمَانِي، فَقُتِلَ، وَأَرْسَلَ الْحَارِثُ ابْنَهُ حَاتِمًا إِلَى الْكَرْمَانِي، فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: هُمَا عَدَاوُكَ دُخُمًا يَضْطَرِبَانِ. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَكِبَ الْكَرْمَانِي إِلَى بَابِ مِيدَانٍ يَزِيدُ فِقَاتِلَ أَصْحَابِ نَصْرِ، وَأَقْبَلَ الْكَرْمَانِي إِلَى بَابِ حَرْبِ بْنِ عَامِرٍ وَوَجَّهَ أَصْحَابَهُ إِلَى نَصْرِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَتَرَامَوْا ثُمَّ تَحَاجَزَوْا، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْخَمِيسِ قِتَالٌ، وَالتَفُّوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَانْهَزَمَتِ الْأَزْدُ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْكَرْمَانِي، فَأَخَذَ اللَّوَاءُ بِيَدِهِ فِقَاتِلَ بِهِ، وَانْهَزَمَ أَصْحَابُ نَصْرِ وَأَخَذُوا لَهُمْ ثَمَانِينَ فَرَسًا، وَصَرَّحَ تَمِيمُ بْنُ نَصْرِ وَأَخَذُوا لَهُ بَرْدَوَتَيْنِ، وَسَقَطَ سَالِمُ بْنُ أَخُوْرَ فُحْمًا إِلَى عَسْكَرِ نَصْرِ. فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ خَرَجَ نَصْرُ مِنْ مَرَوْ، وَقِيلَ عَصْمَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَسَدِيُّ، فَكَانَ يَحْمِي أَصْحَابَ نَصْرِ، وَاقْتُلُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَانْهَزَمَ أَصْحَابُ الْكَرْمَانِي فِي آخِرِ يَوْمٍ، وَهُمْ الْأَزْدُ وَرَبِيعَةُ، فَنَادَى الْخَلِيلُ بْنُ غَزْوَانَ: يَا مَعْشَرَ رَبِيعَةَ وَالْيَمَنِ قَدْ دَخَلَ الْحَارِثُ السُّوْقَ وَقَتَلَ ابْنَ الْأَفْطَحِ! يَعْنِي نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ، فَتَفَّتْ فِي أَعْضَادِ الْمَضْرِيَّةِ، وَهُمْ أَصْحَابُ نَصْرِ، فَانْهَزَمُوا، وَتَرْجَلُ تَمِيمُ بْنُ نَصْرِ فِقَاتِلَ.

فَلَمَّا هَزَمَتِ الْيَمَانِيَّةُ مُضَرًّا أَرْسَلَ الْحَارِثُ إِلَى نَصْرِ: إِنَّ الْيَمَانِيَّةَ يَعْزِرُونِي بِانْهَزَامِكُمْ وَأَنَا كَافٌّ، فَاجْعَلْ حُصَاةَ أَصْحَابِكَ بِإِزَاءِ الْكَرْمَانِي. فَأَخَذَ عَلَيْهِ نَصْرُ (٣٤٥/٥) الْمَهْدُ بِذَلِكَ. وَقَدَّمَ عَلَى نَصْرِ عَبْدِ الْحَكِيمِ بْنِ سَعِيدِ الْعَوْدِيِّ وَأَبُو جَعْفَرِ عَيْسَى بْنُ جَرَزٍ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَ نَصْرُ لِعَبْدِ الْحَكِيمِ الْعَوْدِيِّ، وَهُمْ بَطْنُ مِنَ الْأَزْدِ: أَمَا تَرَى مَا فَعَلَ سَفَهَاءُ قَوْمِكَ؟ فَقَالَ: بَلْ سَفَهَاءُ قَوْمِكَ طَالَتْ وَلَا يَتَهَا بُولَايَتِكَ [وَصَيَّرَتِ الْوَلَايَةَ لِقَوْمِكَ] دُونَ رَبِيعَةَ وَالْيَمَنِ فَيُطْرَوْنَ، وَفِي رَبِيعَةَ وَالْيَمَنِ عُلَمَاءُ وَسَفَهَاءُ، فَغَلَبَ السَفَهَاءُ الْعُلَمَاءَ. فَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ عَيْسَى لِنَصْرِ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ حَسِبُكَ مِنَ الْوَلَايَةِ وَهَذِهِ الْأُمُورُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَظْلَمَكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، سَيَقُومُ رَجُلٌ مَجْهُولُ النَّسَبِ يُظْهِرُ السَّوَادَ وَيَدْعُو إِلَى دَوْلَةٍ تَكُونُ فِيغْلِبُ عَلَى الْأَمْرِ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. فَقَالَ نَصْرُ: مَا أَشْبَهَ أَنْ يَكُونَ كَمَا تَقُولُ لِقَلَّةِ الْوَفَاءِ وَسُوءِ ذَاتِ الْبَيْنِ! فَقَالَ: إِنَّ الْحَارِثَ مَقْتُولٌ مَصْلُوبٌ، وَمَا الْكَرْمَانِي مِنْ ذَلِكَ بَعِيدٌ.

فَلَمَّا خَرَجَ نَصْرُ مِنْ مَرَوْ غَلِبَ عَلَيْهَا الْكَرْمَانِي وَخَطَبَ النَّاسَ

لا بارك الله في أنسى وعذبها تزوجت مُضَرَّأً آخرَ الدهرِ
أبلغ رجال تميم قولَ موجبة أحلتهموها بدار السدِّ والفقرِ
إن أنتم لم تكروا بعد جولتكم حتى تعيدوا رجال الأزد في الظهرِ
إني استحيت لكم من بعد طاعتكم هذا المزوني ينجيكم على قهرِ

ذكر شيعة بني العباس

وفي هذه السنة وجَّه إبراهيمُ الإمامُ أبا مسلم الخراساني واسمه عبد الرحمن بن مسلم، إلى خراسان، وعمره تسع عشرة سنة، وكتب إلى أصحابه: إني قد أمرته بأمرٍ فاسمعوا له وأطيعوا، فإني قد أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك. فاتاهم، فلم يقبلوا قوله وخرجوا من قابل فالتقوا بمكة عند إبراهيم (٣٤٨/٥) فأعلمه أبو مسلم أنهم لم يُنفذوا كتابه وأمره. فقال إبراهيم: قد عرضتُ هذا الأمر على غير واحد وأبوه عليّ.

وكان قد عرضه على سليمان بن كثير، فقال: لا آلي على اثنين أبداً. ثم عرضه على إبراهيم بن سلمة فأبى، فأعلمهم أنه قد أجمع رأيهُ على أبي مسلم، وأمرهم بالسمع والطاعة له، ثم قال له: إنك رجل منا أهل البيت، احفظ وصيتي، انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يثم هذا الأمر إلا بهم، فاتهم ربيعة في أمرهم وأما مضر فأنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتل، ولا تخالف هذا الشيخ، يعني سليمان بن كثير، ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني.

وسيرد من خبر أبي مسلم غير هذا إن شاء الله تعالى.

ذكر قتل الضحّاك الخارجي

قد ذكرنا محاصرة الضحّاك بن قيس الخارجي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بواسط، فلما طال عليه الحصار أشير عليه بأن يدفعه عن نفسه إلى مروان، فارسل ابن عمر إليه: إن مقامكم عليّ ليس بشيء، هذا مروان فيرّ إليه فإن قاتلته فأنا معك. فصالحه وخرج إليه وصلى خلفه، فانصرف إلى الكوفة (٣٤٩/٥) وأقام ابن عمر بواسط، وكانت أهل الموصل الضحّاك ليقدم عليهم ليمكنوه منها، فسار في جماعة من جنوده بعد عشرين شهراً حتى انتهى إليها، وعليها يومئذ لمروان رجل من بني شيان يقال له القطران بن أكمه، ففتح أهل الموصل البلدة، فدخله الضحّاك وقاتلهم القطران بن ومن معه من أهله وهم عدّة يسيرة حتى قتلوا، واستولى الضحّاك على الموصل وكورها.

وبلغ مروان خبره وهو محاصر حصن مشتغل بقتال أهلها، فكتب إلى ابنه عبد الله، وهو خليفته بالجزيرة، يأمره أن يسير إلى نصيبين في من معه يمنع الضحّاك عن توسط الجزيرة، فسار إليها

في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف، وسار الضحّاك إلى نصيبين فحصر عبد الله فيها، وكان مع الضحّاك ما يزيد على مائة ألف، ووجّه قائلين من قواده إلى الرقة في أربعة آلاف أو خمسة آلاف، فقاتله من بها، فوجّه إليهم مروان من رحلهم عنها.

ثم إن مروان سار إلى الضحّاك فالتقوا بنواحي كفرنوت من أعمال ماردين فقاتله يومه أجمع، فلما كان عند المساء ترجل الضحّاك ومعه من ذوي الثبات وأرباب البصائر نحو من ستة آلاف، ولم يعلم أكثر أهل عسكره بما كان، فأحدثت بهم خيول مروان والحوا عليهم في القتال حتى قتلوهم عند العتمة، وانصرف من بقي من أصحاب الضحّاك عند العتمة إلى عسكرهم ولم يعلموا بقتل الضحّاك ولم يعلم به مروان أيضاً. وجاء بعض من عاينه إلى أصحابه فأخبرهم، فبكوا وناحوا عليه، وخرج قائد من قواده إلى مروان فأخبره، فأرسل معه النيران والشمع فطافوا عليه فوجدوه قتيلاً وفي وجهه وفي رأسه أكثر من عشرين ضربة، فكبروا، فعرف عسكر الضحّاك أنهم قد علموا بقتله، وبعث مروان رأسه إلى مدائن الجزيرة طيف به فيها.

وقيل: إن الضحّاك والخيري إنما قُتلا سنة تسع وعشرين.

(٣٥٠/٥)

ذكر قتل الخيري وولاية شيان

ولما قُتل الضحّاك أصبح أهل عسكره فبايعوا الخيري وأقاموا يومئذ وغادوه القتال من بعد الغد وصافوه وصافهم، وكان سليمان بن هشام بن عبد الملك مع الخيري، وكان قبله مع الضحّاك. وقد ذكرنا سبب قدومه.

وقيل: بل قدم على الضحّاك وهو بنصيبين في أكثر من ثلاثة آلاف من أهل بيته ومواليه، فتزوج أخت شيان الحُروري الذي بوع بعد قتل الخيري، فحمل الخيري على مروان في نحو من أربعمئة فارس من السراة، فهزم مروان، وهو في القلب، وخرج مروان من العسكر منهزماً، ودخل الخيري ومن معه عسكره ينادون بشعارهم ويقتلون من أدركوا حتى انتهوا إلى خيمة مروان نفسه فقطعوا أطناها، وجلس الخيري على فرسه. وميمنة مروان وعليها ابنة عبد الله ثابتة، وميسرة ثابتة، وعليها إسحاق بن مسلم العقيلي، فلما رأى أهل العسكر قلة من مع الخيري نار إليه عبيدهم بعمد الخيم فقتلوا الخيري وأصحابه جميعاً في خيمة مروان وحولها.

وبلغ مروان الخبر وقد جاز العسكر بخمسة أميال أو ستة منهزماً، فانصرف إلى عسكره وردّ خيوله عن مواقعها وبات ليلته في عسكره، وانصرف أهل عسكر الخيري فولّوا عليهم شيان وبايعوه، فقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف منذ يومئذ. (٣٥١/٥)

ذكر خبر أبي حمزة الخارجي مع طالب الحق

كان اسم أبي حمزة الخارجي المُختار بن عَزَف الأزدي السُّلَمي البصري، وكان أول أمره أنه كان من الخوارج الإباضية، يوافي كل سنة مكة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد، فلم يزل كذلك حتى وافى عبدالله بن يحيى المعروف بطالب الحق في آخر سنة ثمان وعشرين، فقال له: يا رجل أسمع كلاماً حسناً وأراك تدعو إلى حق، فانطلق معي فلأتي رجل مطاع في قومه.

فخرج حتى ورد حضرموت، فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآله مروان. وكان أبو حمزة اجتاز مرة بمعدن بني سُلَيْم، والعامل عليه كثير بن عبد الله، فسمع كلام أبي حمزة فجلده أربعين سوطاً، فلما ملك أبو حمزة المدينة وافتتحها تغيب كثير حتى كان من أمرهما ما كان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار مروان يزيد بن هُبيرة إلى العراق لقتال مَنْ به من الخوارج في قول.

وحج بالناس في هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وهو عامل مكة والمدينة.

وكان بالعراق عمال الضحّاك الخارجي وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز وعلى قضاء البصرة ثُمّامة بن عبد الله بن أنس، وبخراسان نصر بن سيار والفتنة بها قائمة. (٣٥٢/٥)

وفيها مات عاصم بن أبي النجود صاحب القراءات. ويعقوب بن عُتبة بن المُغيرة بن الأخنس الثقفي المدني.

وفيها توفي جابر بن يزيد الجعفي، وكان من غلاة الشيعة يقول بالرجعة.

وفيها مات محمد بن مسلم بن تدرس أبو الزبير المكي. وجامع بن شدّاد. وأبو قبيل المصافري، واسمه حيي بن هانئ المصري؛ (قبيل بفتح القاف، وكسر الباء الموحدة).

وسعيد بن مسروق الثوري والد سفیان، وكان ثقة في الحديث. (٣٥٣/٥)

سنة تسع وعشرين ومائة

ذكر شيان الحروري إلى أن قُتل

وهو شيان بن عبد العزيز أبو الدلف الإشكري.

وكان سبب هلاكه أن الخوارج لما بايعوه بعد قتل الخبيري أقام بقاتل مروان، وتفرّق عن شيان كثير من أصحاب الطمع، فبقي

في نحو أربعين ألفاً فأشار عليهم سليمان بن هشام أن ينصرفوا إلى الموصل فيجعلوها ظهرهم، فارتحلوا وتبعهم مروان حتى انتهوا إلى الموصل، فعسكروا شرقي دجلة وعقدوا جسوراً عليها من عسكرهم إلى المدينة، فكانت ميرتهم ومرافقهم منها، وخندق مروان بإزائهم، وكان الخوارج قد نزلوا بالكار ومروان بخصّة وكان أهل الموصل يقاتلون مع الخوارج، فأقام مروان سنة أشهر يقاتلهم، وقيل تسعة أشهر.

وأُتي مروان بابن أخ لسليمان بن هشام يقال له أمية بن معاوية بن هشام، وكان مع عمه سليمان في عسكر شيان أسيراً، فقطع يديه وضرب عنقه، وعمه ينظر إليه. (٣٥٤/٥)

وكتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هُبيرة بأمره بالمسير من قُريسيا بجميع مَنْ معه إلى العراق، وعلى الكوفة المثنى بن عمران العائذي، عائذة قرش، وهو خليفة للخوارج بالعراق، فلقي ابن هبيرة بعين التمر فاقتلوا قتلاً شديداً وانصرفت الخوارج ثم اجتمعوا بالكوفة بالخيلة، فhezهم ابن هبيرة. ثم اجتمعوا بالبصرة، فأرسل شيان إليهم عُبيدة بن سوار في خيل عظيمة، فالتقوا بالبصرة، فانهزمت الخوارج وقُتل عبيدة، واستباح ابن هبيرة عسكرهم فلم يكن لهم همّة بالعراق، واستولى ابن هبيرة على العراق.

وكان منصور بن جُمهور مع الخوارج فانهزم وغلب على الماهين وعلى الجبل أجمع، وسار ابن هبيرة إلى واسط فأخذ ابن عمر فحبسه، وجه نباتة بن حنظلة إلى سليمان بن حبيب، وهو على كُور الأهواز، فسمع سليمان الخبر فأرسل إلى نباتة داود بن حاتم، فالتقوا بالمرتان على شاطئ دُجَيْل، فانهزم الناس وقُتل داود بن حاتم.

وكتب مروان إلى ابن هبيرة لما استولى على العراق بأمره بإرسال عامر بن ضُبارة المُرّي إليه، فسيره في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف، فبلغ شيان خبره فأرسل الجُؤن بن كلاب الخارجي في جمع، فلقوا عامراً بالسّن فهزموه ومَنْ معه، فدخل السّن وتحصّن فيه، وجعل مروان يمدّه بالجنود على طريق السّر حتى ينتهوا إلى السّن، فكثر جمع عامر.

وكان منصور بن جُمهور يمدّ شيان من الجبل بالأموال، فلما كثر مَنْ مع عامر نهض إلى الجُؤن والخوارج فقاتلهم فهزمهم، وقُتل الجون، وسار ابن ضُبارة مصعداً إلى الموصل. (٣٥٥/٥)

فمّا انتهى خبر قتل الجون إلى شيان ومسير عامر نحوه كره أن يقيم بين العسكرين فارتحل بمنّ معه من الخوارج، وقدم عامر على مروان بالموصل، فسيره في جمع كثير في أثر شيان، فإن أقام أقام وإن سار سار، وإن لا يبداه بقتال، فإن قاتله شيان قاتله، وإن

وأرسل طرخان الحمّال يستدعي أسيداً ومَنْ قدر عليه من الشيعة، فدعا له أسيداً، فأتاه، فسأله عن الأخبار، فقال: قدم (٣٥٧/٥) الأزهر بن شبيب وعبد الملك بن سعد بكتب الإمام إليك فخلّفا الكتب عندي وخرجا فأخذوا فلا أدري مَنْ سعى بهما. قال: فإين الكتب؟ فأتاه بها.

ثم سار حتّى أتى قُوميس وعليها يَتهس بن بُذَيْل العِجْلِيّ، فاتاهم يهس فقال: أين تريدون؟ قالوا: الحجّ، وأناه وهو بقوميس كتاب إبراهيم الإمام إليه وإلى سليمان بن كثير يقول لأبي مسلم فيه: إني قد بعثت إليك براءة النصر، فارجعْ من حيث لقيك كتابي ووجهَ إليّ قُحطبة بما معك يوافيني به في الموسم.

فانصرف أبو مسلم إلى خراسان ووجهَ قُحطبةً إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض، فلمّا كانوا بنيسابور عرض لهم صاحبُ المسلحة فسألهم عن حالهم، فقالوا: أردنا الحجّ فبلغنا عن الطريق شيء خفناه. فأمر المفضل بن السريّ السُلمي بإزاجهم، فخلا به أبو مسلم وعرض عليه أمرهم، فأجابه، وأقام عندهم حتّى ارتحلوا على مهل.

فقدم أبو مسلم مروَ فدفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير يأمره فيه بإظهار الدعوة، فنصبوا أبا مسلم وقالوا: رجل من أهل البيت، ودعوا إلى طاعة بني العباس، وأرسلوا إلى مَنْ قُرِبَ منهم أو بُعدَ مَنْ أجابهم، فأمروه بإظهار أمرهم والدعاء إليهم.

فنزّل أبو مسلم قرية من قرى مرو يقال لها فَيّين على أبي الحكم عيسى ابن أعين النقيب، ووجهَ منها أبا داود النقيب ومعه عمرو بن أعين إلى طُخارستان فما دون بَلْخ فأمرهما بإظهار الدعوة في شهر رمضان، وكان نزوله في هذه القرية في شعبان ووجهَ النُضَرَ بن صَبيح التميم وشريك بن غُضى التميمي (٣٥٨/٥) إلى مرو الرُّود بإظهار الدعوة في رمضان. ووجهَ أبا عاصم عبد الرحمن بن سليم إلى الطالقان. ووجهَ الجُهم بن عطية إلى العلاء بن حُرَيْث بخوارزم بإظهار الدعوة في رمضان لخمس بقين منه، فإن أعجلهم عدوهم دون الوقت بالأذى والمكروه فقد حلّ لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ويجردوا السيوف ويجهادوا أعداء الله، ومَنْ شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرجَ عليهم أن يظهروا بعد الوقت.

ثم تحوّل أبو مسلم من عند أبي الحكم فنزل قرية سَفِيذَنْج، فنزل على سليمان بن كثير الخُزاعيّ لليلتين خلتا من رمضان، والكرمانيّ وشيخان يقاتلان نصر بن سيار، فبثّ أبو مسلم دُعاه في الناس وأظهر أمره، فأتاه في ليلة واحدة أهل ستين قرية، فلمّا كان ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من السنة عقد اللواء الذي بعث به الإمام الذي يُدعى الظلّ على رمح طوله أربع عشرة ذراعاً، وعقد الراية التي بعث بها إليه، وهي التي تدعى السُحاب، على

أمسك أمسك عنه، وإن ارتحل اتبعه. فكان على ذلك حتّى مرّ على الجبل وخرج على بيضاء فارس وبها عبد الله بن معاوية بن حبيب بن جعفر في جموع كثيرة، فلم يتهبّا الأمر بينهما، فسار حتّى نزل جِيرَت من كerman، وأقبل عامر بن ضَبارة حتّى نزل بلِزاة ابن معاوية أياماً، ثمّ ناهضه وقتلته، فانهزم ابن معاوية فلاحق بهراة، وسار ابنُ ضَبارة بمن معه فلقى شيخان بجيرَت فاقتلوا قتلاً شديداً فانهزمت الخوارج واستبيح عسكرهم، ومضى شيخان إلى سجستان فهلك بها، وذلك في سنة ثلاثين ومائة.

وقيل: بل كان قتال مروان وشيخان على الموصل مقدار شهر ثمّ انهزم شيخان حتّى لحق بفارس وعامر بن ضَبارة يتبعه، وسار شيخان إلى جزيرة ابن كاوان، ثمّ خرج منها إلى عُمان، فقتله جُلندي بن مسعود بن جُفَر بن جُلندي الأزديّ سنة أربع وثلاثين ومائة؛ ونذكره هناك إن شاء الله تعالى. وركب سليمان ومَنْ معه من أهله ومواليه السفن إلى السند.

ولما وليّ السُفاح الخلافة حضر عنده سليمان، فأكرمه وأعطاه يده فقبلها؛ فلمّا رأى ذلك سديف مولى السُفاح أقبل عليه وقال:

لا يغرنك ما ترى من رجالٍ إنّ تحت الضُّلوع داءً قوياً
فضع السيف وارفع السوط حتّى لا ترى فوق ظهرك أمويّاً
فأقبل عليه سليمان، وقال: قتلتي أيها الشيخ! وقام السُفاح فدخل، (٣٥٦/٥) فأخذ سليمان فقبّل.

وانصرف مروان بعد مسير شيخان عن الموصل إلى منزله بخران فأقام بها حتّى سار إلى الزّواب.

ذكر إظهار الدعوة العبّاسيّة بخراسان

وفي هذه السنة شخص أبو مسلم الخراسانيّ من خراسان إلى إبراهيم الإمام، وكان يختلف منه إلى خراسان ويعود إليه.

فلما كانت هذه السنة كتب إبراهيم إلى أبي مسلم يستدعيه ليسأله عن أخبار الناس، فسار نحوه في النصف من جمادى الآخرة مع سبعين نفساً من النقباء، فلمّا صاروا بالثُدَاتقان من أرض خراسان عرض له كامل [أو أبو كامل]، فسأل عن مقصده، فقال: الحجّ، ثمّ خلا به أبو مسلم فدعاه فأجابه؛ ثمّ سار أبو مسلم إلى نسا، وعاملها سليمان بن قيس السُلميّ لنصر بن سيار، فلمّا قرب منها أرسل المفضل بن سليمان الطوسيّ إلى أسيد بن عبد الله الخُزاعيّ ليُعلمه قدومه، فدخل قرية من قرى نسا فلقى رجلاً من الشيعة فسأله عن أسيد، فأنهزه وقال له: إنّه كان في هذه القرية شراً، سعى إلى العامل برجلين قبل إنهما داعيان؛ فأخذهما وأخذ الأخجم بن عبد الله وعُيْلان بن قُصالة وغالب بن سعيد ومُهاجر بن عثمان، فانصرف المفضل إلى أبي مسلم وأخبره، فتنبّك الطريق،

رمح طوله ثلاث عشرة ذراعاً، وهو يتلو: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَكُونُوا رُءُوفًا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحج: ٣٩]، ولبسوا السواد هو سليمان بن كثير وإخوة سليمان ومواليه ومن كان أجاب الدعوة من أهل سفينذج، وأوقدوا النيران لليلتهم لشيعةهم من سكان ريع خرقان، وكانت علامتهم، فتجمعوا إليه حين أصبحوا مُعَذِّين، وتناول الظل والسحاب أن السحاب يطبق الأرض وأن الأرض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي إلى آخر الدهر.

وقدم على أبي مسلم الدعاة بمن أجاب الدعوة، فكان أول من قدم عليه أهل (٣٥٩/٥) التقادم مع أبي الوضاح في تسعمائة راجل وأربعة فرسان، ومن أهل هُرمُز قره جماعة، وقدم أهل التقادم مع أبي القاسم مُحَرِّز بن إبراهيم الجوباني في ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارساً، فيهم من الدعاة أبو العباس المروزي. فجعل أهل التقادم يكبرون من ناحيتهم ويحييهم أهل التقادم بالتكبير، فدخلوا عسكر أبي مسلم بسفينذج بعد ظهوره بيومين. وحصن أبو مسلم حصن سفينذج ورمه وسد دروبها.

فلما حضر عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعية، ونصب له منبراً بالعسكر، وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة وبالأذان والإقامة، وأمر أبو مسلم أيضاً سليمان بن كثير بست تكبيرات تباغاً، ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباغاً، ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن.

وكان بنو أمية يكبرون في الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات.

فلما قضى سليمان الصلاة انصرف أبو مسلم والشيعية إلى طعام قد أعد لهم، فأكلوا مستبشرين.

وكان أبو مسلم وهو في الخندق إذا كتب إلى نصر بن سيار كتاباً يكتب للأمير نصر، فلما قوي أبو مسلم بمن اجتمع إليه بدأ بنفسه، فكتب إلى نصر: أما بعد فإن الله تباركت أسماؤه غير أقواماً في القرآن فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا يَكُونُوا مِنْهُ قَدْغِي﴾ [٣٦٠/٥]، الأمم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً. استنكبوا في الأرض وتمكر السني، ولا يبيح المكر السني إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً [فاطر: ٤٢، ٤٣]. فتعاضم نصر الكتاب وكسر له إحدى عينيه وقال: هذا كتاب ما له جواب.

وقد قيل في أمر أبي مسلم غير ما ذكرنا، والذي قيل: إن إبراهيم الإمام زوج أبا مسلم لما توجه إلى خراسان ابنة أبي النجم وساق عنه صداقها، وكتب إلى النقباء بالسمع والطاعة، وكان أبو مسلم من أهل خطرنية من سواد الكوفة، وكان قهرماناً لإدريس بن معقل العجلي، فصار أمره ومتى ولاته لمحمد بن علي، ثم لابنه إبراهيم بن محمد، ثم للأئمة من ولد محمد، فقدم (٣٦٢/٥)

وكان بنو أمية يكبرون في الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات.

فلما قضى سليمان الصلاة انصرف أبو مسلم والشيعية إلى طعام قد أعد لهم، فأكلوا مستبشرين.

وكان أبو مسلم وهو في الخندق إذا كتب إلى نصر بن سيار كتاباً يكتب للأمير نصر، فلما قوي أبو مسلم بمن اجتمع إليه بدأ بنفسه، فكتب إلى نصر: أما بعد فإن الله تباركت أسماؤه غير أقواماً في القرآن فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا يَكُونُوا مِنْهُ قَدْغِي﴾ [٣٦٠/٥]، الأمم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً. استنكبوا في الأرض وتمكر السني، ولا يبيح المكر السني إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً [فاطر: ٤٢، ٤٣]. فتعاضم نصر الكتاب وكسر له إحدى عينيه وقال: هذا كتاب ما له جواب.

وكان من الأحداث وأبو مسلم بسفينذج أن نصرأ وجه مولى له يقال له يزيد لمحاربة أبي مسلم بعد ثمانية عشر شهراً من ظهوره،

خراسان وهو حديث السنن، فلم يقبله سليمان بن كثير وخاف أن لا يقوى على أمرهم فردّه.

وكان أبو داود خالد بن إبراهيم غائباً خلف نهر بلخ، فلما رجع إلى مرو أقرأوه كتاب الإمام إبراهيم، فسأل عن أبي مسلم، فأخبروه أن سليمان بن كثير ردّه، فجمع النقباء وقال لهم: أتاكم كتاب الإمام فيمن بعثه إليكم فرددتموه، فما حُجَّتكم؟ فقال سليمان: حدثنا سنّة وتخوفاً لا يُقدَّر على هذا الأمر ففخنا على من دعونا وعلى أنفسنا. فقال أبو داود: هل فيكم أحد ينكر أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ واصطفاه وبعثه إلى جميع خلقه؟ قالوا: لا. قال: أفنشكون أن الله أنزل عليه كتابه فيه حلاله وحرامه وشرائعه وأنبأه وأخبر بما كان قبله وبما يكون بعده؟ قالوا: لا. قال: أفنشكون أن الله قبضه إليه بعد أن أدى ما عليه من رسالة ربّه؟ قالوا: لا. قال: أفنظنون أن العلم الذي أنزل إليه رُفِعَ معه أو خلقه؟ قالوا: بل خلقه. قال: أفنظنونه خلقه عند غير عترته وأهل بيته الأقرب فالأقرب؟ قالوا: لا. قال: أفنشكون أن أهل هذا البيت معدين العلم وأصحاب ميراث رسول الله ﷺ الذي علّمه الله؟ قالوا: اللهم لا. قال: فأراكم قد شككتكم في أمركم ورددتهم عليهم علمهم، ولو لم يعملوا أن هذا الرجل الذي ينبغي له أن يقوم بأمرهم لم يعثوه إليكم. وهو لا يُتهم في نصرهم ومولاتهم والقيام بحقهم.

ثم أرسل نصر مالك بن عمرو التميمي في أصحابه، فنأدى: يا ابن المثنى ابرز إليّ! فبرز إليه، فضربه مالك على جيل عاتقه فلم يصنع شيئاً، وضربه محمد بن عمرو فشدخ رأسه، و التحم القتال فاقتلوا قتالاً شديداً، وانهزم أصحاب نصر وقد قُتل منهم سبعائة، ومن أصحاب الكرمانى ثلاثمائة، ولم يزل الشر بينهم حتى خرجوا إلى الخندقين فاقتلوا قتالاً شديداً.

فلما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد اتحن صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب إلى شيبان ثم يقول للرسول: اجعل طريقك على مضر فإنهم سيأخذون كتبك، فكانوا يأخذونها فيقرأون فيها: **إني رأيت [أهل] اليمن لا وفاء لهم ولا خير فيهم فلا تثق بهم ولا تطمئنن إليهم، فإني أرجو أن يترك الله في اليمانية ما تحب، ولكن بقيت لا أدع لها شعراً ولا ظفراً، ويرسل رسولاً آخر بكتاب فيه ذكر مضر بمثل ذلك ويأمر الرسول أن يجعل طريقه على اليمانية، حتى صار هوى الفريقين معه، ثم جعل يكتب إلى نصر بن سيار وإلى الكرمانى: إن الإمام أوصاني بكم ولست أعدو رأيه فيكم. وكتب إلى الكوز بإظهار الأمر؛ فكان أول من سود أسيد بن عبد الله الخزاعي بنسا، ومقاتل بن حكيم، وابن غزوان، ونادوا: يا محمداً يا منصور وسود أهل أيورود وأهل مرو الرؤد وقرى مرو.**

(٣٦٥/٥) وأقبل أبو مسلم حتى نزل بين خندق الكرمانى وخندق نصر، وهابه الفريقان، وبعث إلى الكرمانى: إني معك. فقبل ذلك الكرمانى، فانضم أبو مسلم إليه، فاشتد ذلك على نصر بن سيار، فأرسل إلى الكرمانى: ويحك لا تتغتر! فوالله إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه، فادخل مرو وكتب كتاباً بيننا بالصلح. وهو يريد أن يفرق بينه وبين أبي مسلم. فدخل الكرمانى منزله، وأقام أبو مسلم في العسكر، وخرج الكرمانى حتى وقف في الرجة

فبعثوا إلى أبي مسلم فردّوه من قوميس بقول أبي داود وولّوه أمرهم وأطاعوه، فلم تزل في نفس أبي مسلم على سليمان بن كثير، ولم يزل يعرفها لأبي داود.

ويث الدعاة في أقطار خراسان، فدخل الناس أفواجاً وكثروا، وفشت الدعاة بخراسان كلها، وكتب إليه إبراهيم الإمام أن يوافيه في موسم سنة تسع (٣٦٣/٥) وعشرين ليأمره بأمره في إظهار دعوته وأن يقدم معه قحطبة بن شبيب ويحمل إليه ما اجتمع عنده من الأموال. ففعل ذلك وسار في جماعة من النقباء والشيعة، فلقبه كتاب الإمام بأمره بالرجوع إلى خراسان وإظهار الدعوة بها؛ وذكر قريباً ممّا تقدّم من تسيير المال مع قحطبة وأن قحطبة سار فنزل بنواحي جرجان، فاستدعى خالد بن برمك وأبى عون فقدموا عليه ومعهما ما اجتمع عندهما من مال الشيعة، فأخذ منهما وسار نحو إبراهيم الإمام.

ذكر مقتل الكرمانى

قد ذكرنا مقتل الحارث بن سُرّيج وأن الكرمانى قتله؛ ولما قتله خلصت له مرو ونجى نصر عنها، فأرسل نصر إليه سالم بن أخوَز في رابطته وفرسانه، فوجد يحيى بن نعيم الشيباني واقفاً في ألف رجل من ربيعة، ومحمد بن المثنى في سبعائة من فرسان الأزد، وابن الحسن بن الشيخ في ألف من فتيانهم، والجزمى السعدي في

في مائة فارس وعليه قُرْطُق، وأرسل إلى نصر: اخرجْ لنكتب بيننا ذلك الكتاب. فابصر نصر منه غيرةً، فوجه إليه ابن الحارث بن سُرَيْج في نحو من ثلاثمائة فارس في الرّحبة، فالتقوا بها طويلاً، ثُمَّ إِنَّ الكُرْمَانِيَّ طَعَنَ فِي خَاصِرَتِهِ فَخَرَّ عَنْ دَابَّتِهِ وَحَمَاهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى جَاءَهُمْ مَا لَا يَبِيلُ لَهُمْ بِهِ، فَقَتَلَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارِ الكُرْمَانِيَّ وَصَلَبَهُ وَصَلَبَ مَعَهُ سَمَكَةً.

وأقبل ابنه عليّ وقد جمع جمعاً كثيراً، فصار إلى أبي مسلم واستصحبه معه فقاتلوا نصر بن سيّار حتّى أخرجه من دار الإمارة، فمال إلى بعض دور مرو، وأقبل أبو مسلم حتّى دخل مرو، وأتاه عليّ بن الكُرْمَانِيَّ وأعلمه أنّه معه وسلّم عليه بالإمرة وقال له: مُرْنِي بِأَمْرِكَ فَإِنِّي مُسَاعِدُكَ عَلَى مَا تَرِيدُ. فقال: أَقْسَمُ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ حَتَّى أَمْرُكَ بِأَمْرِي. ولما نزل أبو مسلم بين خندق الكُرْمَانِيَّ ونصر ورأى نصر قوّته كتب إلى مروان بن محمّد يُعلمه حال أبي مسلم وخروجه وكثرة مَنْ مَعَهُ، فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَكُتِبَ بِأَيَّاتٍ، شعر:

أرى بين الروماد وميض نـصارٍ وأخشى أن يكون له ضرامُ
فإن النصار بالعُوقين تذكى وإن الحرب بمبدأها كلامُ
(٣٦٦/٥)

قلتُ من التَّعْجُبِ لَيْتَ شِعْرِي الْيَقَاطُ أَتَيْتُهُ أَمْ نِيَامُ
فكتب إليه مروان: إِنَّ الشَّاهِدَ يَرَى مَا لَا يَرَى الْغَائِبَ، فَاحْسِمِ التَّوَلُّولَ قَبْلَكَ. فقال نصر: أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ أَعْلَمَكُمْ أَنَّهُ لَا نَصْرَ عِنْدَهُ، فَكُتِبَ إِلَى يَزِيدَ [بْنِ عُمَرَ] بِنِ هُبَيْرَةَ يَسْتَمْدُهُ، وَكُتِبَ لَهُ بِأَيَّاتٍ، شعر:

أبلغ يزيد وخير القول أصدفُ وقد تفتّت أن لا خير في الكذبِ
أن خراسان أرض قد رايتُ بها أيضاً لو افترج قد خلّكتُ بالعجبِ
فراخُ عامين إلا أنّها كبرت لما يطرن وقد سُرِلن بالزُّعْبِ
إلا لتدارك بخيل الله معلمةً الهبن نيران حروب أيسا لهبِ
فقال يزيد: لَا تَكْثُرْ فَيْلَسَ لَهُ عِنْدِي رَجُلٌ.

فلما قرأ مروان كتاب نصر تصادف وصول كتابه وصول رسول لأبي مسلم إلى إبراهيم، وقد عاد من عند إبراهيم ومعه جواب أبي مسلم يلعبه إبراهيم ويسبّه حيث لم يتنهز الفرصة من نصر والكرماني إذ أمكنه، ويأمره أن لا يدع بخراسان متكلماً بالعربية إلا قتله. فلما قرأ الكتاب كتب إلى عامله بالبقاء ليسير إلى الحُمَيْمَةِ وليأخذ إبراهيم بن محمّد فيشدّه وثاقاً ويبعث به إليه، ففعل ذلك، فاخذه مروان وحبسه.

ذكر تعاقب أهل خراسان على أبي مسلم

وفي هذه السنة تعاقبت عامّة قبائل العرب بخراسان على قتال أبي مسلم، وفيها تحوّل أبو مسلم من معسكره بسفيذنج إلى

الماخوان. (٣٦٧/٥) وكان سبب ذلك أن أبا مسلم لما ظهر أمره سارع إليه الناس، وجعل أهل مرو يأتونه ولا يعرض لهم نصر ولا يمنهم، وكان الكُرْمَانِيَّ وشيئان لا يكرهان أمر أبي مسلم لأنّه دعا إلى خلع مروان، وأبو مسلم في خباء ليس له حرس ولا حُجَاب، وعظم أمره عند الناس وقالوا: ظهر رجل من بني هاشم له حلم ووقار وسكينة. فانطلق فتية من أهل مرو نسّاك يطلبون الفقه إلى أبي مسلم فسألوه عن نسبه، فقال: خيري خير لكم من نسيي؛ وسألوه أشياء من الفقه فقال: أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا، ونحن إلى عونكم أحوج منّا إلى مسألتكم فاعفونا. فقالوا: ما نعرف لك نسباً ولا نظنك تبقى إلا قليلاً حتّى تُقْتَلَ، وما بينك وبين ذلك إلا أن يتفرّغ أحد هذين الأمرين. فقال أبو مسلم: أنا أقتلهم إن شاء الله. فأتوا نصرأ فاحبروه، فقال: جزاكم الله خيراً، مثلكم من يفتقد هذا ويعرفه. وأتوا شيبان فأعلموه فأرسل إليه نصر: إنا قد أشجى بعضنا بعضاً، فاكفّف عني حتّى أقاتله، وإن شئت فجامعني إلى حربه حتّى أقتله أو أنفيه ثُمَّ نعود إلى أمرنا الذي نحن عليه. فهم شيبان أن يفعل ذلك، فأتى الخبر أبا مسلم، فكتب إلى عليّ بن الكُرْمَانِيَّ: إِنَّكَ مَوْتُورٌ قَتَلَ أَبُوكَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَسْتَ عَلَى رَأْيِ شِيْبَانٍ، وَإِنَّمَا تَقَاتِلُ لِثَارِكٍ. فامتنع شيبان من صلح نصر. فدخل على شيبان فثناه عن رأيه، فأرسل نصر إلى شيبان: إِنَّكَ لَمَغْرُورٌ، وَاللّهِ لَيَتَفَاقَمُنْ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسْتَصْغِرْنِي فِي جَنْبِهِ كُلِّ كَبِيرٍ؛ وَقَالَ شِعْرًا بِخَاطِبٍ بِهِ رُبِيعَةٌ وَالْيَمَنُ وَيَحْتُمُّ عَلَى الْإِتِّفَاقِ مَعَهُ عَلَى حَرْبِ أَبِي مُسْلِمٍ:

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن أن اغضبوا قبل أن لا ينفع الغضبُ
(٣٦٨/٥)

ما بالكم تشيرون الحرب بينكم كأن أهل الحجى عن رأيكم غيبُ
وتتركون عدواً قد أحاط بكم ممن تائب لا دين ولا حسبُ
لا عَرَبٌ مثلكم في الناس نعرفهم ولا صريح موال إن مُمَّ نُسُروا
مَنْ كَانَ يَسْأَلُنِي عَنْ أَصْلِ دِيْنِهِمْ فإن دينهم أن تهلك العربُ
قوم يقولون قولاً ما سمعتُ به عن النسي ولا جاءت به الكتبُ

فبينما هم كذلك إذ بعث أبو مسلم النضر بن نعيم الضبّي إلى هرة وعليها عيسى بن عقيل بن معقل اللبشي، فطرده عنها، فقدم على نصر منهزماً وغلب النضر على هرة.

فقال يحيى بن نعيم بن هُبَيْرَةَ الشيباني لابن الكُرْمَانِيَّ وشييان: اختاروا إمّا أنكم تهلكون أتمّ قبل مُضَرٍّ أو مضر قبلكم. قالوا: كيف ذلك؟ قال: إن هذا الرجل إنّما ظهر أمره منذ شهر وقد صار في عسكره مثل عسكركم. قالوا: فما الرأي؟ قال: صالحو نصرأ، فإنكم إن صالحتموه قاتلوا نصرأ وتركوكم لأنّ الأمر في مضر، وإن لم تصالحو نصرأ صالحوه وقاتلوكم، فقدّموا مضر قبلكم ولو

طوسان وعسفوهم وسير إليهم أبو مسلم جنداً، فلقوا أبا الذئبال ساعة من نهار فتفرّ أعينكم بقتلهم.

فأرسل شيبان إلى نصر يدعوه إلى المودعة، فأجابه وأرسل سالم بن أخوز بكتاب المودعة، فأتى شيبان وعنده ابن الكرمانى ويحيى بن نعيم، فقال سالم لابن الكرمانى: يا أعور! ما أخلقك أن تكون الأعور الذي يكون هلاك مضر على يده! ثم توادعوا سنة وكتبوا كتاباً.

فلما استقرّ بابي مسلم معسكره بالكن بأمر مُحَرِّز بن إبراهيم أن يسير في جماعة يخندق بجيرنج ويجمع عنده جمع من الشيعة ليقطع مائة نصر من مرو الروذ وبلغ وطخارستان، ففعل ذلك، واجتمع عنده نحو من ألف رجل، قطع المائة عن نصر.

ذكر غلبة عبد الله بن معاوية على فارس وقتله

وفي هذه السنة غلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على فارس وكورها، وقد تقدّم ذكر ظهوره بالكوفة وانتهزاه وخروجه من الكوفة نحو المدائن.

فلما وصل إليها أتاه ناس من أهل الكوفة وغيرها، فسار إلى الجبال وغلب عليها وعلى خلوان وقومس وأصبهان والري، وخرج إليه عبيد أهل الكوفة وأقام بأصبهان.

وكان مُحارب بن موسى مولى بني يشكر عظيم القدر بفارس، فجاء (٣٧١/٥) إلى دار الإمارة بإصطخر فطرد عامل ابن عمر عنها وبايع الناس لعبد الله بن معاوية، وخرج محارب إلى كرمان فأغار عليها، وانضمّ إلى محارب قواد من أهل الشام، فسار إلى مسلم بن المسيّب، وهو عامل ابن عمر بشيراز، فقتله في سنة ثمان وعشرين، ثم خرج محارب إلى أصبهان إلى عبد الله بن معاوية فحوّله إلى إصطخر، فأقام بها، وأتاه الناس بنو هاشم وغيرهم، وجبا المال وبعث العمال، وكان معه منصور بن جُمهور وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وأتاه شيبان بن عبد العزيز الخارجي، على ما تقدّم، وأتاه أبو جعفر المنصور، وأتاه عبد الله وعيسى ابنا عليّ بن عبد الله بن عباس.

ولما قدم ابن هُبيرة على العراق أرسل نُبّانة بن حنظلة الكلّابي إلى عبد الله بن معاوية، وبلغ سليمان بن حبيب أنّ ابن هُبيرة استعمل نُبّانة على الأهواز فسرح داود بن حاتم، فأقام بكرخ دينار يمنع نُبّانة من الأهواز، فقاتله فقتل داود وهرب سليمان من الأهواز إلى سابور وكتب إلى ابن معاوية بالبيعة.

ثم إنّ مُحارب بن موسى الشكريّ نافر ابن معاوية وفارقه وجمع جمعاً فأتى سابور فقاتله يزيد بن معاوية أخو عبد الله، فانهزم محارب وأتى كرمان فأقام بها حتّى قدم محمد بن الأشعث فصار معه، ثم نافره فقتله ابن الأشعث وأربعة وعشرين ابناً له، ولم يزل عبد الله بن معاوية بإصطخر حتّى أتاه ابن ضبارة مع داود بن يزيد بن عمر بن هُبيرة، وسير ابن هُبيرة أيضاً معن بن زائدة من وجه آخر، فقاتلهم معن عند مرو شاذان؛ ومعن يقول:

فأرسل شيبان إلى نصر يدعوه إلى المودعة، فأجابه وأرسل سالم بن أخوز بكتاب المودعة، فأتى شيبان وعنده ابن الكرمانى ويحيى بن نعيم، فقال سالم لابن الكرمانى: يا أعور! ما أخلقك أن تكون الأعور الذي يكون هلاك مضر على يده! ثم توادعوا سنة وكتبوا كتاباً.

فلما غلب على شيبان: إنّنا نوادعك أشهراً فوادعنا ثلاثة أشهر. فقال ابن الكرمانى: إنّني ما صالحتُ نصرًا إنّما صالحه شيبان، وأنا (٣٦٩/٥) لذلك كاره، وأنا مودع بقتله أبي ولا أدع قتاله. فعادوا القتال، ولم يُعنه شيبان وقال: لا يحلّ الغدر.

فأرسل ابن الكرمانى إلى أبي مسلم يستنصره، فأقبل حتّى نزل الماخوان، وكان مقامه بسفينج اثنين وأربعين يوماً، ولما نزل الماخوان حفر بها خندقاً وجعل للخندق بايّن فعسكر به، واستعمل على الشرط أبا نصر مالك بن النّيسم، وعلى الحرس أبا إسحاق خالد بن عثمان، وعلى ديوان الجند كامل بن مظفر أبا صالح، وعلى الرسائل أسلم بن صبيح، وعلى القضاء القاسم بن مُجاشع النقيب، وكان القاسم يصليّ بابي مسلم فيقصّ القصص بعد العصر فيذكر فضل بني هاشم ومعالي بني أمية.

ولما نزل أبو مسلم الماخوان أرسل إلى ابن الكرمانى: إنّني معك على نصر. فقال ابن الكرمانى: إنّني أحبّ أن يلقاني أبو مسلم. فاتاه أبو مسلم فأقام عنده يومين ثمّ رجع إلى الماخوان، وذلك لخمس خلوان من المحرم سنة ثلاثين ومائة.

وكان أوّل عامل استعمله أبو مسلم على شيء من العمل داود بن كرار، فردّ أبو مسلم العبيد عنه واحتفر لهم خندقاً في قرية شوال وولّى الخندق داود بن كرار، فلما اجتمعت للعبيد جماعة وجّههم إلى موسى بن كعب بآبيورد.

وأمر أبو مسلم كامل بن مظفر أن يعرض الجند ويكتب أسماءهم وأسماء آبائهم ونسبتهم إلى القرى، ويجعل ذلك في دفتر، فبلغت عدّتهم سبعة آلاف رجل.

ثم إنّ القبائل من مضر وربيعة واليمن توادعوا على وضع الحرب وأن (٣٧٠/٥) تجتمع كلمتهم على [محاربة] أبي مسلم. وبلغ أبا مسلم الخبر فعظم عليه وناظر فإذا الماخوان ساقلة الماء، فتخوّف أن يقطع نصر عنه الماء فتحول إلى الكين، وكان مقامه بالماخوان أربعة أشهر، فنزل الكين وخندق بها.

وعسكر نصر بن سيار على نهر عيباض، وجعل عاصم بن عمرو بيلاش جرد، وأبا الذئبال بطوسان، فأنزل أبو الذئبال جنده على أهلها، وكان عامّة أهلها مع أبي مسلم في الخندق، فأدوا أهل

وقد طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح وهم سبعمائة، ففرغ الناس حين راوهم وسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بخلافهم مروان وأكل مروان. فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وهو يومئذ على مكة والمدينة، وطلب منهم الهدنة، فقالوا: نحن بحجتنا أضنّ وعليه أشحّ. فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس الأخير، فوقفوا بعرفة على جلة.

فدفع بالناس عبد الواحد فنزل بمنى في منزل السلطان، ونزل أبو حمزة (٣٧٤/٥) بقرن الثعالب. فارسل عبد الواحد إلى أبي حمزة الخارجي عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، وربيعة بن أبي عبد الرحمن في رجال أمثالهم، فدخلوا على أبي حمزة وعليه إزار قطن غليظ، فتقدمهم إليه عبد الله بن الحسن ومحمد بن عبد الله فانسبهما فانتسبا له، فعبس في وجوههما وأظهر الكراهة لهما ثم سأل عبد الرحمن بن القاسم وعبيد الله بن عمر فانتسبا له، فهش إليهما وتبسّم في وجوههما وقال: واللّه ما خرجنا لنسير بسيرة أبويكما. فقال له عبد الله بن الحسن: واللّه ما خرجنا لتفضل بين آبائنا، ولكن بعثنا إليك الأمير برسالة، وهذا ربيعة يُخبركها.

فلما ذكر له ربيعة نقض العهد قال أبو حمزة: معاذ الله أن نقض العهد أو نخيس به، لا والله لا أفعل ولو قُطعت رقبتي هذه ولكن تنقضي الهدنة بيننا وبينكم. فرجعوا إلى عبد الواحد فأبلغوه. فلما كان النفر الأوّل نفر عبد الواحد فيه وخلّى مكة، فدخلها أبو حمزة بغير قتال؛ فقال بعضهم في عبد الواحد:

زار الحبيج عصابة قد خالفوا حين الإنه ففرّ عبد الواحد
ترك الحلال والإمارة هارباً ومضى يخبّط كالبعير الشارد
ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها
البعث وزادهم (٣٧٥/٥) في العطاء عشرة عشرة، واستعمل عليهم
عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، فخرجوا، فلما كانوا
بالحرة تلقّتهم جُزُر منحورة فمضوا.

ذكر ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالأندلس

وفي هذه السنة توفي ثوبة بن سلامة أمير الأندلس، وكانت ولايته سنتين وشهوراً، فلما توفي اختلف الناس، فالمُضَرِّيَّة أرادب أن يكون الأمير منهم، واليُمانيَّة أرادت كذلك أن يكون الأمير منهم، فبقوا بغير أمير، فخاف الصمّئيل الفتنه فأشار بأن يكون الوالي من قريش، فرضوا كلّهم بذلك، فاختر لهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وكان يومئذ بالبيرة، فكتبوا إليه بما اجتمع عليه الناس من

ليس أمير القوم بالخبة الخدغ فر من الموت وفي الموت وقّع (٣٧٢/٥)

وانهزم ابن معاوية فكفّ معن عنهم، وقُتل في المعركة رجل من آل أبي لهب، وكان يقال: يُقتل رجل من بني هاشم بمرو الشاذان، وأسروا أسرى كثيرة، فقتل ابن ضبارة منهم عدّة كثيرة، وهرب منصور بن جُمهور إلى السند، وعبد الرحمن بن يزيد إلى عُمان، وعمرو بن سَهْل بن عبد العزيز بن مروان إلى مصر، ويعث ببقية الأسرى إلى ابن هُبيرة فأطلقهم، ومضى ابن معاوية إلى خراسان. فسار معن بن زائدة يطلب منصور بن جُمهور فلم يدركه، فرجع.

وكان مع ابن معاوية من الخوارج وغيرهم خلق كثير، فأسر منهم أربعون ألفاً، فيهم: عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، فسبّه ابن ضبارة وقال له: ما جاء بك إلى ابن معاوية وقد عرفت خلافة لأمر المؤمنين؟ فقال: كان عليّ ذين فادّيته. فشفع فيه حرب بن قطن الهلالي وقال: هو ابن اختنا، فوهبه له.

فغاب عبد الله بن علي عبد الله بن معاوية ورمى أصحابه بالواط، فسبّه ابن ضبارة إلى ابن هبيرة ليُخبره أخبار ابن معاوية، وسار في طلب عبد الله بن معاوية إلى شيراز فحصره، فخرج عبد الله بن معاوية منها هارباً ومعه أخواه الحسن ويزيد ابنا معاوية وجماعة من أصحابه، وسلك المفازة على كرّمان وقصد خراسان طمعاً في أبي مسلم لأنه يدعو إلى الرضاء من آل محمد وقد استولى على خراسان، فوصل إلى نواحي هراة وعليها أبو نصر مالك بن الهيثم الخزاعي، فأرسل إلى ابن معاوية يسأله عن قدمه، فقال: بلغني أنكم تدعون إلى الرضاء من آل محمد فأتيتكم. فأرسل إليه مالك: انتسب نعرفك. فانتسب (٣٧٣/٥) له فقال: أمّا عبد الله وجعفر فمن أسماء آل رسول الله ﷺ وأمّا معاوية فلا نعرفه في أسمائهم، فقال: إنّ جدّي كان عند معاوية لما ولد له أبي، فطلب إليه أن يسمّي ابنه باسم ففعل، فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم. فأرسل إليه مالك: لقد اشتريتم الاسم الخبيث بالثمن اليسير ولا نرى لك حقاً فيما تدعو إليه. ثم أرسل إلى أبي مسلم يعرفه خبره، فأمره بالقبض عليه وعلى من معه، فقبض عليهم وحبسهم، ثم ورد عليه كتاب أبي مسلم يأمره بإطلاق الحسن ويزيد ابني معاوية وقتل عبد الله بن معاوية، فأمر من وضع فراشاً على وجهه فمات، وأخرج فضلي عليه ودفن؛ وقره بهراة معروف يزار، رحمة الله.

ذكر أبي حمزة الخارجي وطالب الحق

وفي هذه السنة قدم أبو حمزة ويُلج بن عتبة الأزدي الخارجي من الحج من قبل عبد الله بن يحيى الحضرمي طالب الحق محكماً للخلاف على مروان بن محمد، فبينما الناس بعرفة ما شعروا إلا

زاذان مولى عبد الرحمن بن أبي عقيل الثقفي، وشهد جنازته المسلمون واليهود والنصارى والمجوس لاتفاقهم على صلاحه، وقيل: مات سنة إحدى وثلاثين. (٣٧٨/٥)

سنة ثلاثين ومائة

ذكر دخول أبي مسلم مرو والبيعة بها

وفي هذه السنة دخل أبو مسلم مدينة مرو في ربيع الآخر، وقيل في جمادى الأولى.

وكان السبب في ذلك اتفاق ابن الكرمانى معه. إن ابن الكرمانى ومن معه وسائر القبائل بخراسان لما عاقدوا نصراً على أبي مسلم عظم عليه وجمع أصحابه لحربهم، فكان سلمان بن كثير بإزاء ابن الكرمانى، فقال له سليمان: إن أبا مسلم يقول لك: أما تأنف من مصالحة نصر وقد قتل بالأمس أباك وصلبه؟ وما كنت أحسبك تجامع نصراً في مسجد تصليان فيه! فاحفظه هذا الكلام، فرجع عن رأيه وانتقض صلح العرب.

فلما انتقض صلحهم بعث نصر إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر، وبعث أصحاب ابن الكرمانى، وهم ربيعة واليمن، إلى أبي مسلم بمثل ذلك، فراسلوه بذلك أياماً، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين حتى يختار أحدهما، ففعلوا، وأمر أبو مسلم الشيعة أن تختار ربيعة واليمن، فإن الشيطان في مضر، وهم أصحاب مروان وعماله وقتلة يحيى ابن زيد.

فقدم الوفدان، فجلس أبو مسلم وأجلسهم وجمع عنده من الشيعة سبعين رجلاً فقال لهم ليختاروا أحد الفريقين. فقام سليمان بن كثير من الشيعة (٣٧٩/٥) فتكلم، وكان خطيباً مفوهاً، فاختار ابن الكرمانى وأصحابه، ثم قام أبو منصور طلحة بن زُرَيْق النقيب فاختارهم أيضاً، ثم قام مُرَيْد بن شَيْقِ السُّلَمي فقال: إن مضر قتلة آل النبي ﷺ وأعوان بني أمية وشيعة مروان الجعدي وعماله ودماؤنا في أعناقهم وأموالنا في أيديهم، ونصر بن سيّار عامل مروان ينقذ أموره ويدعو له على منبره ويسميه أمير المؤمنين، ونحن نبرأ إلى الله، عز وجل، من أن يكون نصر على هدى، وقد اخترنا علي بن الكرمانى وأصحابه. فقال السبعون: القول ما قال مرثد بن شقيق. فنهض وفد نصر عليهم الكآبة والذلة، ورجع وفد ابن الكرمانى منصورين. ورجع أبو مسلم من آيسن إلى الماخوان وأمر الشيعة أن يبنوا المساكن فقد أغناهم الله من اجتماع كلمة العرب عليهم.

ثم أرسل إلى [أبي مسلم] علي بن الكرمانى ليدخل مدينة مرو من ناحيته وليدخل هو وعشيرته من الناحية الأخرى، فأرسل إليه أبو مسلم: إني لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على محاربتى،

تأميره، فامتنع. فقالوا له: إن لم تفعل وقعت الفتنة ويكون إثم ذلك عليك. فأجاب حيثنذ وسار إلى قرطبة فدخلها وأطاعه الناس.

فلما انتهى إلى أبي الخطار موت ثوابه وولاية يوسف قال: إنما أراد الصمّيل أن يصير الأمر إلى مضر؛ وسعى في الناس حتى ثارت الفتنة بين اليمن ومضر.

فلما رأى يوسف ذلك فارق قصر الإمارة بقرطبة وعاد إلى منزله، وسار أبو الخطار إلى شقندة، فاجتمعت إليه اليمانية، واجتمعت المضرية إلى الصمّيل وتراحفوا واقتلوا أياماً كثيرة قتالاً لم يكن بالأندلس أعظم منه، ثم أجلت الحرب عن هزيمة اليمانية، ومضى أبو الخطار منهزماً فاستتر في رحى كانت للصمّيل، فذلل عليه، فاخذه الصمّيل وقتله، ورجع يوسف (٣٧٦/٥) ابن عبد الرحمن إلى القصر، وازداد الصمّيل شرفاً، وكان اسم الإمارة ليوسف والحكم إلى الصمّيل.

ثم خرج على يوسف بن عبد الرحمن بن علقمة اللخمي بمدينة أربونة، فلم يلبث إلا قليلاً حتى قتل وحُمل رأسه إلى يوسف.

وخرج عليه عُذرة المعروف بالذمي؛ فإنما قيل له ذلك لأنه استعان بأهل الذمة؛ فوجه إليه يوسف عامر بن عمرو، وهو الذي تُنسب إليه مقبرة عامر من أبواب قرطبة، فلم يظفر به وعاد مفلولاً، فسار إليه يوسف بن عبد الرحمن فقاتله فقتله واستباح عسكره.

وقد وردت هذه الحادثة من جهة أخرى وفيها بعض الخلاف، وسنذكرها سنة تسع وثلاثين ومائة عند دخول عبد الرحمن الأموي الأندلس.

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس عبد الواحد، وهو كان العامل على مكة والمدينة والطائف.

وكان على العراق يزيد [بن عمر] بن هُبيرة، وعلى قضاء الكوفة الحجاج بن عاصم المُحاربي، وعلى قضاء البصرة عباد بن منصور، وكان على خراسان نصر بن سيّار والفتنة بها.

وفيها مات سالم أبو نصر. وفيها مات يحيى بن يغمّر العدوي بخراسان، وكان قد تعلّم النحو من أبي الأسود الدؤلي، وكان من فصحاء التابعين.

وفيها مات أبو الزناد عبد الله بن ذكوان.

وفيها مات وهب بن كيسان. ويحيى بن (٣٧٧/٥) أبي كثير اليماني أبو نصر. وسعيد بن أبي صالح. وأبو إسحاق الشيباني. والحاتر بن عبد الرحمن. ورّبة بن مصقلة الكوفي. ومنصور بن

ولكن ادخل أنت فأنشِب الحربَ مع أصحاب نصر.
فدخل ابنُ الكرمانِي فأنشِب الحربَ، وبعث أبو مسلم شَيْلَ بنَ

طهمانَ القَيْبِ في خَيْلٍ فدخلوها، ونزل شَيْلُ بقصر بخاراخذاه، وبعث إلى أبي مسلم ليدخل إليهم، فسار من الماخوان وعلى مقدمته أسيد بن عبد الله الخُزاعي، وعلى ميمته مالك بن الهيثم الخُزاعي، وعلى مسيرته القاسم بن مُجاشع التميمي. فدخل مرو والفريقان يقتلان، فأمرهما بالكف وهو يتلو من كتاب الله، عز وجل: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ (٣٨٠/٥) فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ غَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥] الآية. ومضى أبو مسلم إلى قصر الإمارة، وأرسل إلى الفريقين أن كفوا ولينصرف كل فريق إلى عسكره، ففعلوا وصفت مرو لأبي مسلم، فأمر بأخذ البيعة من الجند، وكان الذي يأخذها أبو منصور طلحة بن رُزَيْق، وكان أحد النقباء عالماً بحجج الهاشمية ومعائب الأموية. وكان النقباء اثني عشر رجلاً اختارهم محمد بن علي من السبعين الذين كانوا استجابوا له حيث بعث رسوله إلى خراسان سنة ثلاث ومائة أو أربع ومائة، ووصف له من العدل صفة، وكان منهم من خُزاعة: سليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم، وزباد بن صالح، وطلحة بن رُزَيْق، وعمرو بن أعين؛ ومن طيء: قُطَيْبَةُ بن شَيْبِ بن خالد بن معدان؛ ومن تميم: موسى بن كعب أبو عُبَيْنة، ولاهز بن قُريظ، والقاسم بن مجاشع، وأسلم بن سلام؛ ومن بكر بن وائل: أبو داود بن إبراهيم الشيباني، وأبو علي الهروي، ويقال شَيْلُ بن طهمان مكان عمرو بن أعين، وعيسى بن كعب، وأبو النجم إسماعيل بن عمران مكان أبي علي الهروي، وهو ختن أبي مسلم؛ ولم يكن في النقباء أحد والده حي غير أبي منصور طلحة بن رُزَيْق بن سعد، وهو أبو زَيْب الخُزاعي، وكان قد شهد حرب ابن الأشعث وصحب المهلب وغزا معه، وكان أبو مسلم يشاوره في الأمور ويسأله عنها وعمّا شهد من الحروب.

وكانت البيعة: أبايعكم [على] كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعناق والمشي إلى بيت الله الحرام، وعلى أن لا تسألوا رزقاً ولا طعاماً حتى يبدئكم به ولأنكم.

(رُزَيْقُ بتقديم الرأى على الزاي). (٣٨١/٥)

ذكر هرب نصر بن سيار من مرو

فلما كان الغد عيّا أبو مسلم أصحابه وكتائبه إلى بعد الظهر وأعاد إلى نصر لاهز بن قُريظ وجماعة معه، فدخلوا على نصر، فقال: ما أسرع ما عدتُم! فقال له لاهز بن قُريظ: لا بد لك من ذلك. فقال نصر: إذا كان لا بد من ذلك فإني أتوضأ وأخرج إليه، وأرسل إلى أبي مسلم، فإن كان هذا رايه وأمره أتيت، وأنهياً إلى أن يجيء رسولي. فقال نصر، فلما قام قرأ لاهز بن قُريظ: ﴿إِنَّ الْمَلَائِقَةَ يُتَوَرَّونَ بِكَ لَيَقْتُلَنَّكَ فَخَرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]. فدخل نصر منزله وأعلمهم أنه ينتظر انصراف رسوله من عند أبي مسلم. فلما جئ الليل خرج من خلف حجرته ومعه تميم ابنه والحكم بن نميلة النُميري وأمراته المرزبانية وانطلقوا هرباً، فلما استبطاه لاهز وأصحابه دخلوا منزله فوجدوه قد هرب.

فلما بلغ ذلك أبا مسلم سار إلى معسكر نصر وأخذ ثقات أصحابه وصناديدهم (٣٨٢/٥) فكشفهم، وكان فيهم سالم بن أخوز صاحب شرطة نصر، والبختري كاتبه، وابنان له، ويونس بن عبدويه، ومحمد بن قُطن، ومجاهد بن يحيى بن خُصَيْن، وغيرهم، فاستوثق منهم بالحديد، وكانوا في الحبس عنده، وسار أبو مسلم وابن الكرمانِي في طلب نصر ليلتهما، فادركا امرأته قد خلفها وسار، فرجع أبو مسلم وابن الكرمانِي إلى مرو، وسار نصر إلى سَرَخَس، اجتمع معه ثلاثة آلاف رجل، ولما رجع أبو مسلم سأل من كان أرسله إلى نصر: ما الذي ارتاب به نصر حتى هرب؟ قالوا: لا ندرى. قال: فهل تكلم أحد منكم بشيء؟ قالوا: تلا لاهز هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمَلَائِقَةَ يُتَوَرَّونَ بِكَ﴾ [القصص: ٢٠]. قال: هذا الذي دعاه إلى الهرب. ثم قال: يا لاهز تدغل في الدين! ثم قتله.

واستشار أبو مسلم أبا طلحة في أصحاب نصر فقال: اجعل سوطك السيف وسجنتك القبر. فقتلهم أبو مسلم، وكان عدتهم أربعة وعشرين رجلاً.

وأما نصر فإنه سار من سَرَخَس إلى طوش فأقام بها خمسة عشر يوماً، ويسرخص يوماً، ثم سار إلى نيسابور فأقام بها، ودخل ابن الكرمانِي مرو مع أبي مسلم وتابعه على رأي وعاقده عليه.

(يحيى بن خُصَيْن بضم الحاء المهملة، وفتح الضاد المعجمة، وآخره نون).

ذكر قتل شَيْبَانَ الخُرَوْرِي

وفي هذه السنة قُتل شَيْبَان بن سَلَمَةَ الخُرَوْرِي.

وكان سبب قتله أنه كان هو وعلي بن الكرمانِي مجتمعين على قتال نصر (٣٨٣/٥) لمخالفة شَيْبَانَ نصراً لأنّه من عمّال مروان،

ثم أرسل أبو مسلم لاهز بن قُريظ في جماعة إلى نصر بن سيار يدعوه إلى كتاب الله، عز وجل، والرضا من آل محمد، فلما رأى ما جاءه من اليمانية والربيعية والعجم وأنه لا طاقة له بهم أظهر قبول ما أتاه به وأنه يأتيه ويبيعه، وجعل يزبهم لما هم [به] من الغدر والهرب، إلى أن أسوا، وأمر أصحابه أن يخرجوا من

وشيبان يرى رأي الخوارج، ومخالفة ابن الكرمانيّ نصرّاً لأنّ نصرّاً قتل أباه الكرمانيّ، وأنّ نصرّاً مُضَرّي وابن الكرمانيّ يمانيّ، وبين الفريقين من العصبيّة ما هو مشهور، فلمّا صالح ابن الكرمانيّ أبا مسلم على ما تقدّم وفارق شيبان تحي شيبان عن مرو إذ علم أنّه لا يقوى لحربهما، وقد هرب نصر إلى سرخس.

ولما استقام الأمر لأبي مسلم أرسل إلى شيبان يدعوّه إلى البيعة، فقال شيبان: أنا أدعوك إلى بيعتي. فأرسل إليه أبو مسلم: إن لم تدخل في أمرنا فارتحل عن منزلك الذي أنت به. فأرسل شيبان إلى ابن الكرمانيّ يستنصره، فأبى، فسار شيبان إلى سرخس واجتمع إليه جمع كثير من بكر من وائل، فأرسل إليه أبو مسلم تسعة من الأزد يدعوّه ويسأله أن يكفّ، فأخذ الرسل فسجنهم. فكتب أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث بأبيورد يأمره أن يسير إلى شيبان فيقاتله، فسار إليه فقاتله، فانهزم شيبان واتبه بسام حتّى دخل المدينة فقتل شيبان وعدّة من بكر بن وائل. فقبل لأبي مسلم: إن بساماً ارتدّ ثانية وهو يقتل البريء بالسقيم؛ فاستقدمه، فقدم عليه، واستخلف على عسكره رجلاً. فلمّا قتل شيبان مرّ رجل من بكر بن وائل برسل أبي مسلم فقتلهم.

وكتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم عليه، ووجّه النضر بن صبيح المريّ (٣٨٥/٥) على بلخ. وقدم أبو داود على أبي مسلم واتّفقا على أن يفرقا بين عليّ وعثمان ابني الكرمانيّ، فبعث أبو مسلم عثمان عاملاً على بلخ، فلمّا قدمها استخلف الفرافصة بن ظهير العبسيّ على بلخ.

وأقبلت المضريّة من ترمذ عليهم مسلم بن عبد الرحمن الباهليّ، فالتقوا هم وأصحاب عثمان فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أصحاب عثمان، وغلب مسلم على بلخ، وبلغ عثمان والنضر بن صبيح الخير وهما بمرور الرود، فأقبلوا نحوهم، فهرب أصحاب عبد الرحمن من ليلتهم، فلم يمعن النضر في طلبهم رجاء أن يفوتوا، ولقيهم أصحاب عثمان فاقتلوا قتالاً شديداً، ولم يكن النضر معهم، فانهزم أصحاب عثمان وقُتل منهم خلق كثير. ورجع أبو داود من مرو إلى بلخ، وسار أبو مسلم ومعه عليّ بن الكرمانيّ إلى نيسابور، واتّفق رأي أبي مسلم ورأي أبي داود على أن يقتل أبو مسلم عليّاً ويقتل أبو داود عثمان، فلمّا قدم أبو داود بلخ بعث عثمان عاملاً على الجبل فيمنّ معه من أهل مرو، فلمّا خرج من بلخ تبعه أبو داود فأخذه وأصحابه فحبسهم جميعاً، ثمّ ضرب أعناقهم صبراً، وقتل أبو مسلم في ذلك اليوم عليّ بن الكرمانيّ، وقد كان أبو مسلم أمره أن يستمي له خاصّته ليوليهم ويأمر لهم بجوائز وكسوات، فسأهم له، فقتلهم جميعاً.

ذكر قدوم قحطبة من عند الإمام إبراهيم

وفي هذه السنة قدم قحطبة بن شبيب على أبي مسلم من عند إبراهيم الإمام ومعه لواءه الذي عقد له إبراهيم، فوجّهه أبو مسلم في مقدّمته وضمّ إليه الجيوش وجعل إليه العزل والاستعمال وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له. (٣٨٦/٥)

ذكر مسير قحطبة إلى نيسابور

لمّا قتل شيبان الخارجيّ وابنا الكرمانيّ، على ما تقدّم، وهرب نصر بن سيار من مرو، وغلب أبو مسلم على خراسان، بعث

وشيبان يرى رأي الخوارج، ومخالفة ابن الكرمانيّ نصرّاً لأنّ نصرّاً قتل أباه الكرمانيّ، وأنّ نصرّاً مُضَرّي وابن الكرمانيّ يمانيّ، وبين الفريقين من العصبيّة ما هو مشهور، فلمّا صالح ابن الكرمانيّ أبا مسلم على ما تقدّم وفارق شيبان تحي شيبان عن مرو إذ علم أنّه لا يقوى لحربهما، وقد هرب نصر إلى سرخس.

ولما استقام الأمر لأبي مسلم أرسل إلى شيبان يدعوّه إلى البيعة، فقال شيبان: أنا أدعوك إلى بيعتي. فأرسل إليه أبو مسلم: إن لم تدخل في أمرنا فارتحل عن منزلك الذي أنت به. فأرسل شيبان إلى ابن الكرمانيّ يستنصره، فأبى، فسار شيبان إلى سرخس واجتمع إليه جمع كثير من بكر من وائل، فأرسل إليه أبو مسلم تسعة من الأزد يدعوّه ويسأله أن يكفّ، فأخذ الرسل فسجنهم. فكتب أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث بأبيورد يأمره أن يسير إلى شيبان فيقاتله، فسار إليه فقاتله، فانهزم شيبان واتبه بسام حتّى دخل المدينة فقتل شيبان وعدّة من بكر بن وائل. فقبل لأبي مسلم: إن بساماً ارتدّ ثانية وهو يقتل البريء بالسقيم؛ فاستقدمه، فقدم عليه، واستخلف على عسكره رجلاً. فلمّا قتل شيبان مرّ رجل من بكر بن وائل برسل أبي مسلم فقتلهم.

وقيل: إنّ أبا مسلم وجّه إلى شيبان عسكراً ممن عنده عليهم خزّيمة بن خازم وبسام بن إبراهيم.

ذكر قتل ابني الكرمانيّ

وفي هذه السنة قتل أبو مسلم عليّاً وعثمان ابني الكرمانيّ.

وكان سبب ذلك أنّ أبا مسلم كان وجّه موسى بن كعب إلى أبيورد فافتتحها (٣٨٤/٥) وكتب إلى أبي مسلم بذلك، ووجّه أبا داود إلى بلخ، وبها زياد بن عبد الرحمن القشيريّ، فلمّا بلغه قصص أبي داود بلخ خرج في أهل بلخ وترمذ وغيرهما من كُور طخارستان إلى الجوزجان، فلمّا دنا أبو داود منهم انصرفوا منهزمين إلى ترمذ، ودخل أبو داود مدينة بلخ، فكتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم عليه، ووجّه مكانه يحيى بن نعيم أبا الميلاء على بلخ، فلمّا قدم يحيى مدينة بلخ كاتبه زياد بن عبد الرحمن أن يرجع وتصير أيديهم واحدة، فأجاب، فرجع زياد ومسلم بن عبد الرحمن بن مسلم الباهليّ وعيسى بن زرعة السلميّ وأهل بلخ وترمذ وملوك طخارستان وما وراء النهر ودونه فنزلوا على فرسخ من بلخ وخرج إليهم يحيى بن نعيم بمنّ معه، فصارت كلمتهم واحدة مُضَرّ وربيعة واليمن ومنّ معهم من العجم على قتال المسوّد، وجعلوا الولاية عليهم لمقاتل بن حيان النبطيّ كراهة أن يكون من واحد من الفرق الثلاثة.

وأمر أبو مسلم أبا داود بالعود، فأقبل بمنّ معه حتّى اجتمعوا على نهر السرجنان، وكان زياد وأصحابه قد وجّهوا أبا سعيد

مثلها، فلما رآهم أهل خراسان هابوهم حتى تكلموا بذلك وأظهروه، فبلغ قطبة قولهم، فقام فيهم فقال: يا أهل خراسان هذه البلاد كانت لأبائكم وكانوا ينصرون (٣٨٨/٥) على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم حتى بذلوا وظلموا فسخط الله، عز وجل، عليهم فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم فغلبوهم على بلادهم، وكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم، ثم بذلوا وغيروا وجاروا في الحكم وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم لتكونوا أشد عقوبة لأنكم طلبتهم بالشار، وقد عهد إلي الإمام أنكم تلقونهم في مثل هذه العدة فينصركم الله، عز وجل، عليهم فهزمونهم وتقتلونهم. فالتقوا في مستهل ذي الحجة سنة ثلاثين يوم الجمعة، فقال لهم قطبة قبل القتال: إن الإمام أخيراً أنكم تنصرون على عدوكم هذا اليوم من هذا الشهر، وكان على ميمته ابنه الحسن، فساقتلوا قتالاً شديداً، فقتل نبأته، وانهزم أهل الشام فقتل منهم عشرة آلاف، ويعث إلى أبي مسلم برأس نبأته.

ذكر وقعة أبي حمزة الخارجي بقندي

في هذه السنة لسبع بقين من صفر كانت الوقعة بقندي بين أهل المدينة وأبي حمزة الخارجي.

قد ذكرنا أن عبد الواحد بن سليمان ضرب البعث على أهل المدينة واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله، فخرجوا، فلما كانوا بالحرّة لقيتهم جُزُرٌ منحورة فتقدموا، فلما كانوا بالعقيق تعلق لؤاؤهم بسمرّة فانكسر الرمح، فتشام الناس بالخروج وأتاهم رسل أبي حمزة يقولون: إنا والله ما لنا بقتالكم حاجة، دعونا نمض إلى عدونا. فأبى أهل المدينة ولم يجيبوه إلى ذلك وساروا حتى نزلوا قندياً، وكانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب، فلم يشعروا إلا (٣٨٩/٥) وقد خرج عليهم أصحاب أبي حمزة من الفضاض فقتلوهم، وكانت المقتلة بقريش، وفيهم كانت الشوكة، فأصيب منهم عدد كثير؛ وقدم المنهزمون المدينة فكانت المرأة تقيم النوائح على حميمها ومعها النساء، فما تبرح النساء حتى تأتتهن الأخبار عن رجالهن فيخرجن امرأة امرأة كل واحدة منهن تذهب لقتل رجلها فلا تبقى عندها امرأة لكثرة من قتل.

وقيل: إن خُزاعة دلت أبا حمزة على أصحاب قندي، وقيل: كان عدة القتلى سبعمائة.

ذكر دخول أبي حمزة المدينة

وفي هذه السنة دخل أبو حمزة المدينة ثالث عشر صفر، ومضى عبد الواحد منها إلى الشام، وكان أبو حمزة قد أعذر إليهم وقال لهم: ما لنا بقتالكم حاجة، دعونا نمض إلى عدونا. فأبى أهل

العمّال على البلاد، فاستعمل ميساغ بن النعمان الأزدي على سمرقند، وأبا داود خالد بن إبراهيم على طخارستان، ومحمد بن الأشعث على الطبستين، وجعل مالك بن الهيثم على شرطه، ووجه قطبة إلى طوس ومعه عدة من القواد، منهم: أبو عون عبد الملك بن يزيد، وخالد بن برمك، وعثمان بن نهيك، وخازم ابن خزيمه، وغيرهم؛ فلقى قطبة من بطوس فهزمهم، وكان من مات منهم في الزحام أكثر ممن قتل فبلغ عدة القتلى بضعة عشر ألفاً.

ووجه أبو مسلم القاسم بن مجاشع إلى نيسابور على طريق المحجة، وكتب إلى قطبة يأمره بقتال تميم بن نصر بن سيار والنائب بن سويد ومن لجأ إليهما من أهل خراسان، وكان أصحاب شيبان بن سلمة الخارجي قد لحقوا بنصر، ووجه أبو مسلم علي بن مقيّل في عشرة آلاف رجل إلى تميم بن نصر، وأمره أن يكون مع قطبة، وسار قطبة إلى السوذقان، وهو معسكر تميم بن نصر والنائب، وقد عبأ أصحابه وزحف إليهم، فدعاهم إلى كتاب الله، عز وجل، وسنة نبيه ﷺ وإلى الرضاء من آل محمد، فلم يجيبوه، فقاتلهم قتالاً شديداً، فقتل تميم بن نصر في المعركة، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم، وكان عدة من معه ثلاثين ألفاً، (٣٨٧/٥) وهرب النائب بن سويد فتحصن بالمدينة، فحصره قطبة ونقبوا سورها ودخلوا المدينة، فقتلوا النائب ومن كان معه، وبلغ الخبر بنصر بن سيار بنيسابور بقتل ابنه.

ولما استولى قطبة على عسكرهم سار إلى خالد بن برمك ما قبض فيه، وسار هو إلى نيسابور، وبلغ ذلك نصر بن سيار فهرب منها فيمنّ معه فنزل قومس، وتفرق عنه أصحابه فسار إلى نبأته بن حنظلة بجرجان، وقدم قطبة نيسابور بجنوده فأقام بها رمضان وشوال.

ذكر قتل نبأته بن حنظلة

وفي هذه السنة قتل نبأته بن حنظلة عامل يزيد بن هبيرة على جرجان، وكان يزيد بن هبيرة بعثه إلى نصر، فأتى فارس وأصبهان ثم سار إلى الري ومضى إلى جرجان، وكان نصر بقومس على ما تقدم، ف قيل له: إن قومس لا تحملنا، فسار إلى جرجان فنزلها مع نبأته وخذلوا عليهم.

وأقبل قطبة إلى جرجان في ذي القعدة، فقال قطبة: يا أهل خراسان أتدرون إلى من تسبرون ومن تقاتلون؟ إنما تقاتلون بقية قوم حرقوا بيت الله تعالى! وكان الحسن بن قطبة على مقدمة أبيه، فوجه جمعاً إلى مسلحة نبأته وعليها رجل يقال له ذؤيب، فبيّتهم فقتلوا ذؤيباً ومسيعين رجلاً من أصحابه فرجعوا إلى الحسن.

وقدم قطبة فنزل بإزاء نبأته وأهل الشام في عدة لم ير الناس

المدينة، فلقبهم فقتل منهم خلقاً كثيراً، ودخل المدينة فرقي المنبر وخطبهم وقال لهم:

يا أهل المدينة! مررت زمان الأحول، يعني هشام بن عبد الملك، وقد أصاب نماركم عاهة فكنتم إليه تسألونه أن يضع عنكم خراجكم ففعل، فزاد الغني غنى والفقير فقراً، فقلتم له: جزاك الله خيراً، فلا جزاكم الله خيراً ولا جزاه خيراً! واعلموا يا أهل المدينة أننا لم نخرج من ديارنا أشرأ ولا بطراً ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا، ولكننا لما رأينا مصاييح الحق قد غطلت، وغُت القاتل بالحق، وقُتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، فأجبنا داعي الله، ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي (٣٩٠/٥) الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٣٢]، فأقبلنا من قبائل شتى ونحن قليلون مستضعفون في الأرض فأوانا وآيدنا بنصره فأصبحنا بنعمته إخواناً، ثم لقينا رجالكم [بقتيد] فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فدعونا إلى طاعة الشيطان وحكم بني مروان، فشتان لعمر الله ما بين الغي والرشد، ثم أقبلوا يهرعون وقد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلّت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه، وأقبل أنصار الله، عز وجل، عصائب وكثائب بكل مهتد ذي روثق، فدارت رحانا واستدارات رحاهم بضرب يرتاب به المبتطلون، وأنتم يا أهل المدينة إن تصرخوا مروان وآل مروان يستحكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]. يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر! يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله، عز وجل، في كتابه على القوي والضعيف فجاء تاسع ليس له فيها سهم فأخذها لنفسه مكابراً محارباً ربه.

وفيمَن قُتل مع أبي حمزة عبد العزيز القارئ المدني المعروف بيشكست النحوي، وكان من أهل المدينة، يكتم مذهب الخوارج، فلما دخل أبو حمزة المدينة انضم إليه، فلما قتل الخوارج قتل معهم. (٣٩٢/٥)

ذكر قتل عبد الله بن يحيى

ولما أقام ابن عطية بالمدينة شهراً سار نحو اليمن واستخلف على المدينة الوليد بن عروة بن محمد بن عطية، واستخلف على مكة رجلاً من أهل الشام، وقصد اليمن، وبلغ عبد الله بن يحيى طالب الحق مسيره وهو بصنعاء، فأقبل إليه بمن معه، فالتقى هو وابن عطية فاقتلوا، فقتل ابن يحيى وحمل رأسه إلى مروان بالشام، ومضى ابن عطية إلى صنعاء.

ذكر قتل ابن عطية

ولما سار ابن عطية إلى صنعاء دخلها وأقام بها، فكتب إليه مروان يأمره أن يسرع إليه السير ليحج بالناس؛ فسار في اثني عشر رجلاً يهتد مروان على الحج ومعه أربعون ألفاً، وسار وخلف عسكره وخيله بصنعاء ونزل الجُرف، فأتاه ابن جهمانة المُرادِيَان في جمع كثير وقالوا له ولأصحابه: أنتم لصصوص! فأخرج ابن عطية عهده على الحج وقال: هذا عهد أمير المؤمنين بالحج، وأنا ابن عطية. قالوا: هذا باطل، فأنتم لصصوص. فقاتلهم ابن عطية قتالاً شديداً حتى قتل.

ذكر إيقاع قحطبة بأهل جُرجان

وفي هذه السنة قتل قحطبة بن شبيب من أهل جُرجان ما يزيد على ثلاثين ألفاً. (٣٩٣/٥) وسبب ذلك أنه بلغه عنهم بعد قتل نبأته بن حنظلة أنهم يريدون الخروج عليه، فلما بلغه ذلك دخل إليهم

يا أهل المدينة بلغني أنكم تنقصون أصحابي! قلتم شباب أحداث وأعراب خفاة! ويحكم! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً أحداثاً وأعراباً خفاة؟ [هم] والله مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم. وأحسن السيرة مع أهل المدينة واستمال حتى سمعوه يقول: مَنْ زنى فهو كافر، وَمَنْ سرق فهو كافر، وَمَنْ شك في كفرهما فهو كافر.

وأقام أبو حمزة بالمدينة ثلاثة أشهر. (٣٩١/٥)

ذكر قتل أبي حمزة الغارحي

ثم إن أبا حمزة ودع أهل المدينة وقال لهم: يا أهل المدينة إننا خارجون إلى مروان، فإن نظفرت نعدل في إخوانكم ونحملكم على سنة نبيكم، وإن يكن ما تمنون فـ ﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ثم سار نحو الشام، وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة

والهمداني. ويزيد بن رومان. وعكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد العزيز بن ربيع (بضم الراء المهملة، وفتح الفاء، وباليين المهملة) وهو أبو عبد الله المكي الفقيه، وكان قد قارب مائة سنة، وكان لا يثبت معه امرأة لكثرة نكاحه. وإسماعيل بن أبي حكيم كاتب عمر بن عبد العزيز. ويزيد بن أبان، وهو المعروف بيزيد الرشك، وكان قسماً بالبصرة. وحفص بن سليمان بن المغيرة، وكان مولده سنة ثمانين، يروى قراءة عاصم عنه. (٣٩٥/٥)

سنة إحدى وثلاثين ومائة

ذكر موت نصر بن سيار

وفي هذه السنة مات نصر بن سيار بساوة قرب الري.

وكان سبب مسيره إليها أن نصراً سار بعد قتل نبأته إلى خوار الري، وأميرها أبو بكر العقيلي، ووجه قحطية ابنه الحسن إلى نصر في المحرم من سنة إحدى وثلاثين ومائة، ثم وجه أبا كامل وأبا القاسم مخزوم بن إبراهيم وأبا العباس المروزي إلى الحسن ابنه، فلما كانوا قريباً من الحسن انحاز أبو كامل وترك عسكره وأتى نصراً فصار معه وأعلمه مكان الجند الذين فارقه.

فوجه إليهم نصر جنداً، فهرب جند قحطية منهم وخلفوا شيئاً من متاعهم، فأخذه أصحاب نصر، فبعث نصر إلى ابن هبيرة، فعرض له ابن غطيف بالري فأخذ الكتاب من رسول نصر والمتاع وبعث به إلى ابن هبيرة، فغضب نصر وقال: أما والله لأدعن ابن هبيرة فليعرفن أنه ليس بشيء ولا ابنه.

وكان ابن غطيف في ثلاثة آلاف قد سيره ابن هبيرة إلى نصر، فأقام بالري فلم يأت نصراً، وسار نصر حتى نزل الري وعليها حبيب بن يزيد النهشلي، فلما قدمها نصر سار ابن غطيف إليها فمعدان، وفيها مالك ابن أذهم بن محرز الباهلي، فعدل ابن غطيف عنها إلى أصبهان إلى عامر ابن ضبارة، فلما قدم نصر الري أقام بها يومين ثم مرض، وكان يُحْمَل (٣٩٦/٥) حملاً، فلما بلغ ساوة مات، فلما مات بها دخل أصحابه همذان.

وكانت وفاته لمضي اثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول، وكان عمره خمساً وثمانين سنة، وقيل: إن نصراً لما سار من خوار الري متوجهاً نحو الري لم يدخل الري ولكنه سلك المفازة التي بين الري وهمذان فمات بها.

ذكر دخول قحطية الري

ولما مات نصر بن سيار بعث الحسن بن قحطية خزيمه بن خازم إلى سمنان، وأقبل قحطية من جرجان وقدم أمامه زياد بن

واستعرضهم فقتل منهم من ذكرنا، وسار نصر، وكان بقويس، حتى نزل خوار الري، وكاتب ابن هبيرة يستمده، وهو بواسط، مع ناس من وجوه أهل خراسان، وعظم الأمر عليه وقال له إنني قد كذبت أهل خراسان حتى ما أحد منهم يصدقني، فأمدني بعشرة آلاف قبل أن تملني بمائة ألف لا تغني شيئاً. فحبس ابن هبيرة رسل نصر، فأرسل نصر إلى مروان: إنني وجهت قوماً من أهل خراسان إلى ابن هبيرة ليُغْلِمُوهُ أمر الناس قبلنا وسالته المصد فاحتبس رسلي ولم يمدني بأحد، وإنما أنا بمنزلة من أخرج من بيته إلى حجرته، ثم أخرج من حجرته إلى داره، ثم من داره إلى فناء داره، فإن أدركه من يعينه فعسى أن يعود إلى داره وتبقى له، وإن أخرج إلى الطريق فلا دار له ولا فناء.

فكتب مروان إلى ابن هبيرة يأمره أن يمد نصراً، وكتب إلى نصر يُعلمه ذلك، وجهز ابن هبيرة جيشاً كثيراً وجعل عليهم ابن غطيف وسيروهم إلى نصر.

ذكر عدة حوادث

غزا الصائفة هذه السنة الوليد بن هشام فتزل العمق بنى حصن مزعرش.

وفيها وقع الطاعون بالبصرة.

وحج بالناس هذه السنة محمد بن عبد الملك بن مروان، وكان هو أمير مكة والمدينة والطائف، وكان بالعراق يزيد بن عمر بن هبيرة، وكان على قضاء الكوفة الحجاج بن عاصم المحاربي، وعلى قضاء البصرة عباد بن منصور، وكان الأمير بخراسان على ما وصفت.

قلت: قد ذكر أبو جعفر هاهنا أن محمد بن عبد الملك حج بالناس، وكان أمير مكة والمدينة، وذكر فيما تقدم أن عروة بن الوليد كان على المدينة، وذكر في آخر سنة إحدى وثلاثين أن عروة أيضاً كان على المدينة ومكة والطائف وأنه حج بالناس تلك السنة.

في هذه السنة مات أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارئ مولى عبد الله بن عباس المخزومي بالمدينة، وقيل: سمي مولى أبي بكر بن عبد الرحمن بقذيد.

وفيها توفي أيوب بن أبي تيمعة السخيتاني، وقيل: سنة تسع وعشرين، وعمره ثلاث وستون سنة. وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، وقيل: سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقيل: سنة أربع وثلاثين ومائة، ويكنى أبا نجيع.

وفيها توفي محمد بن مخزوم بن سليمان وله سبعون سنة. وأبو وجرة السعدي يزيد بن عبيد. وأبو الحويرث. ويزيد بن أبي مالك

مسلم، فيما ذكر، عن مرو فتزل نيسابور.

وأما قحطبة فإنه سار ابنه الحسن بعد نزوله الري بثلاث ليالٍ إلى همدان، فلما توجه إليها سار عنها مالك بن أذهم ومن كان بها من أهل الشام وأهل (٣٩٨/٥) خراسان إلى نهاوند فأقام بها، وفارقه ناس كثير، ودخل الحسن همدان وسار منها إلى نهاوند فتزل على أربعة فراسخ من المدينة، فأمدته قحطبة بأبي الجهم ابن عطية مولى باهلة في سبعمائة وأطال حتى أطاف بالمدينة وحصرهم.

ذكر قتل عامر بن ضبارة ودخول قحطبة أصبهان

وكان سبب قتله أن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر لما هزمه ابن ضبارة مضى هارباً نحو خراسان وسلك إليها طريق كرمان وسار عامر في أثره. وبلغ ابن هبيرة مقتل نباتة بن حنظلة بجرجان، فلما بلغه خبره كتب إلى ابن ضبارة وإلى ابنه داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أن يسيرا إلى قحطبة، وكانا بكرمان، فسارا في خمسين ألفاً، فنزلوا بأصبهان، وكان يقال لعسكر ابن ضبارة عسكر الساکر.

فبعث قحطبة إليهم جماعة من القواد، وعليهم جميعاً مقاتل بن حكيم العكي، فساروا حتى نزلوا قم.

وبلغ ابن ضبارة نزول الحسن بن قحطبة بنهاوند فسار ليعين من بها من أصحاب مروان، فأرسل العكي من قم إلى قحطبة يُعلمه بذلك، فأقبل قحطبة من الري حتى لحق مقاتل بن حكيم العكي، ثم سار فالتقوا هم وابن ضبارة وداود بن يزيد بن هبيرة؛ وكان عسكر قحطبة عشرين ألفاً، فيهم خالد بن برمك! وكان عسكر ابن ضبارة مائة ألف، وقيل: خمسين ومائة ألف؛ فأمر قحطبة بمصحف تُصَب على رمح، ونادى: يا أهل الشام! إننا ندعوكم إلى ما في هذا المصحف! فشموه وأفضوه في القول.

فأرسل قحطبة إلى أصحابه يأمرهم بالحملة، فحمل عليهم العكي، (٣٩٩/٥) وتهايج الناس، ولم يكن بينهم كثير قتال، حتى انهزم أهل الشام وقتلوا قتلاً ذريعاً، وانهزم ابن ضبارة حتى دخل عسكره وتبعه قحطبة، فنزل ابن ضبارة ونادى: إليّ إليّ! فانهزم الناس عنه وانهزم داود بن هبيرة، فسأل عن ابن ضبارة فقيل: انهزم. فقال: لعن الله شرنا متقلباً! وقاتل حتى قتل.

وأصابوا عسكره وأخذوا منه ما لا يُعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والخيل وما رُئي عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء ما في هذا العسكر كأنه مدينة. وكان فيه من البرابيط والطناوير والمزامير والخمر ما لا يُحصى.

وأرسل قحطبة بالظفر إلى ابنه الحسن وهو بنهاوند، وكانت الوقعة بتواحي أصبهان في رجب.

زُرارة القُشيري، وكان قد ندم على اتباع أبي مسلم، فانهخذل عن قحطبة فأخذ طريق أصبهان يريد أن يأتي عامر بن ضبارة، فوجه قحطبة المُسيب بن زهير الضبي، فلحقه من غدٍ بعد العصر فقاتله، فانهزم زياد وقتل عامة من معه، ورجع المسيب بن زهير إلى قحطبة.

ثم سار قحطبة إلى قومس، وبها ابنه الحسن، قدم خزيمة بن خازم سمنان، فقدم قحطبة ابنه الحسن إلى الري.

وبلغ حبيب بن بُذيل النهشلي ومن معه من أهل الشام مسير الحسن، فخرجوا عن الري، ودخل الحسن في صفر فأقام حتى قدم أبوه، ولما قدم قحطبة الري كتب إلى أبي مسلم يُعلمه بذلك.

ولما استقر أمر بني العباس بالري هرب أكثر أهلها لميلهم إلى بني أمية لأنهم كانوا سفيانية، فأمر أبو مسلم بأخذ أملاكهم وأموالهم، ولما عادوا من الحج أقاموا بالكوفة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ثم كتبوا إلى السفاح يتظلمون من أبي مسلم، فأمر بردة أملاكهم فأعاد أبو مسلم الجواب يعرف حالهم وأنهم (٣٩٧/٥) أشد الأعداء، فلم يسمع قوله وعزم على أبي مسلم بردة أملاكهم، ففعل.

ولما دخل قحطبة الري وأقام بها أخذ أمره بالحزم والاحتياط والحفظ وضبط الطرق، وكان لا يسلكها أحد إلا بجواز منه، فأقام بالري، وبلغه أن بدستبي قوماً من الخوارج وصعاليك تجمعوا بها، فوجه إليهم أبا عون في عسكر كثيف، فأنزلهم ودعاهم إلى كتاب الله وسنة رسوله وإلى الرضاء من آل رسول الله ﷺ فلم يجيبوه، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ظفر بهم؛ فتحصن عدة منهم حتى آمنهم أبو عون، فخرجوا إليه، وأقام معه بعضهم وتفرق بعضهم.

وكتب أبو مسلم إلى أصبهان طبرستان يدعوهم إلى الطاعة وأداء الخراج، فأجابه إلى ذلك؛ وكتب إلى المصمغان صاحب دُنبانود بمثل ذلك، فأجابته: إنما أنت خارجي وإن أمرك سيقتضي.

فغضب أبو مسلم وكتب إلى موسى بن كعب، وهو بالري، يأمره بالمسير إليه وقاتله إلى أن يذعن بالطاعة، فسار إليه وراسله، فامتنع من الطاعة وأداء الخراج، فأقام موسى ولم يتمكن من المصمغان لضيق بلاده، وكان المصمغان يرسل إليه كل يوم عدة كثيرة من الديلم يقاتله في عسكره، وأخذ عليه الطرق، ومنع الميرة، وكثرت في أصحاب موسى الجراح والقتل.

فلما رأى أنه لا يبلغ غرضاً عاد إلى الري، ولم يزل المصمغان ممتنعاً إلى أيام المنصور، فأغراه جيشاً كثيفاً عليهم حماد بن عمرو، ففتح دُنبانود على يده.

ولما ورد كتاب قحطبة على أبي مسلم بنزوله الري ارتحل أبو

ذكر محاربة قحطبة أهل نهاوند ودخولها

ولما قُتل ابن ضُبارة كتب قحطبة بذلك إلى ابنه الحسن وهو يحاصر نهاوند، فلما أتاه الكتاب كبر هو وجنده ونادوا بقتله، فقال عاصم بن عُمَيْر السعدي: ما نادى هؤلاء بقتله إلا وهو حق! فآخروا إلى الحسن بن قحطبة فإنكم لا تقومون له فتذهبون حيث شئتم قبل أن يأتيه أبوه أو مدد من عنده.

فقال الرجل: تخرجون وأنتم فرسان على خيول وتتركونا؟ وقال له مالك بن أُنهم الباهلي: لا أبرح حتى يقدم عليّ قحطبة.

وأقام قحطبة على أصبهان عشرين يوماً، ثم سار فقدم على ابنه بنهاوند فحصرهم ثلاثة أشهر: شعبان ورمضان وشوال، ووضع عليهم المجانيق، (٤٠٠/٥) وأرسل إلى مَنْ بنهاوند من أهل خراسان يدعوهم إليه وأعطاهم الأمان، فأبوا ذلك.

ثم أرسل إلى أهل الشام بمثل ذلك فأجابوه وقبلوا أمانه وبعثوا إليه يسألونه أن يشغل عنهم أهل المدينة بالقتال ليفتحوا له الباب الذي يليهم، ففعل ذلك قحطبة وقتلهم، ففتح أهل الشام الباب، فخرجوا، فلما رأى أهل خراسان ذلك سألهم عن خروجهم، فقالوا: أخذنا الأمان لنا ولكم. فخرج رؤساء أهل خراسان، فدفع قحطبة كل رجل منهم إلى قائد من قواده ثم أمر فنودي: مَنْ كان بيده أمير ممّن خرج إلينا فليضرب عنقه وليأتنا برأسه! ففعلوا ذلك؛ فلم يبق أحد ممّن كان قد هرب من أبي مسلم إلا قُتل إلا أهل الشام، فإنه وفي لهم وخلى سبيلهم وأخذ عليهم أن لا يمالئوا عليه عدوًّا، ولم يقتل منهم أحدًا.

وكان ممّن قُتل من أهل خراسان: أبو كامل، وحاتم بن الحارث بن سُرَيْج، وابن نصر بن سَيَّار، وعاصم بن عُمَيْر، وعلي بن عقيل، وتَيْبَس.

ولما حاصر قحطبة نهاوند أرسل ابنه الحسن إلى مرج القلعة، فقدم الحسن خازم بن خزيمة إلى خُلُوان وعليها عبد الله بن العلاء الكندي، فهرب من خُلُوان وخلصاها.

ذكر فتح شهرزُور

ثم إن قحطبة وجّه أبا عَونَ عبد الملك بن يزيد الخراساني ومالك بن طرافة الخراساني في أربعة آلاف إلى شهرزُور وبها عثمان بن سفيان على مقدمة عبد الله بن مروان بن محمد، فنزلوا على فرسخين من شهرزُور في العشرين (٤٠١/٥) من ذي الحجة وقتلوا عثمان بعد يوم وليلة من نزولهم، فانهزم أصحاب عثمان وقُتل، وأقام أبو عَون في بلاد الموصل.

وقيل: إن عثمان لم يُقتل ولكنه هرب إلى عبد الله بن مروان، وغنم أبو عَون عسكره وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة؛ وسير

قحطبة العساكر إلى أبي عَون فاجتمع معه ثلاثون ألفاً.

ولما بلغ خبر أبي عَون مروان بن محمد، وهو بخران، سار منها ومعه جنود أهل الشام والجزيرة والموصل، وحشر معه بنو أمية أبناءهم، وأقبل نحو أبي عَون حتى نزل الزَّاب الأكبر، وأقام أبو عَون بشهرزُور بقية ذي الحجة والمحرم من سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفرض بها بخمسة آلاف.

ذكر مسير قحطبة إلى ابن هُبيرة بالعراق

ولما قدم على يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق ابنه داود منهزماً من خُلُوان خرج يزيد نحو قحطبة في عدد كثير لا يُحصى ومعه خوثة بن سُهَيْل الباهلي، وكان مروان أمد به ابن هبيرة، وسار ابن هبيرة حتى نزل جلولا الواقعة واحتفر الخندق الذي كانت العجم احتفرت أيام وقعة جلولا، وأقام به، وأقبل قحطبة حتى نزل قمراسين، ثم سار إلى خُلُوان، ثم إلى خانقين، وأتى عكبراء وعبر دجلة ومضى حتى نزل ديمًا دون الأنبار، وارتحل ابن هبيرة بمن معه منصرفاً مبادراً إلى الكوفة لقحطبة، وقدم خوثة في خمسة عشر ألفاً إلى الكوفة.

وقيل: إن خوثة لم يفارق ابن هبيرة.

وأرسل قحطبة طائفة من أصحابه إلى الأنبار وغيرها وأمرهم بإحذار ما (٤٠٢/٥) فيها من السفن إلى ديمًا ليعبروا الفرات، فحملوا إليه كل سفينة هناك، فقطع قحطبة الفرات من ديمًا حتى صار في غريته، ثم سار يريد الكوفة حتى انتهى إلى الموضع الذي فيه ابن هبيرة، وخرجت السنة.

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعدي، وهو ابن أخي عبد الملك بن محمد الذي قتل أبا حمزة، وكان هو على الحجاز. ولما بلغ الوليد قتل عمه عبد الملك مضى إلى الذين قتلوه فقتل منهم مقتلة عظيمة وبقر بطون نسايمهم وقتل الصبيان وحرق بالنار مَنْ قدر عليه منهم.

وكان على العراق يزيد [بن عمر] بن هُبيرة، وعلى قضاء الكوفة الحجاج بن عصام المحاربي، وعلى قضاء البصرة عباد بن منصور الناجي.

وفيهما توفي منصور بن المعمر السلمي أبو عتاب الكوفي.

وفيهما قتل أبو مسلم الخراساني جيلة بن ذواد العتكي مولاهاهم أخا عبد العزيز بن ذواد، ويكنى أبا مروان. (٤٠٣/٥)

سنة اثنتين وثلاثين ومائة

ذكر هلاك قحطبة وهزيمة ابن هُبيرة

وفي هذه السنة هلك قحطبة بن شبيب.

وكان سبب ذلك أنَّ قحطبة لما عبر الفرات وصار في غربيته، وذلك في المحرم لثمان مضين منه، كان ابن هُبيرة قد عسكر على فم الفرات من أرض القلوجة العليا على رأس ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة، وقد اجتمع إليه فلّ ابن ضبارة، فأمدّه مروان بخوثة الباهلي، فقال خوثة وغيره لابن هُبيرة: إنّ قحطبة قد مضى يريد الكوفة فاقصد أنت خراسان وذعه ومروان فإنك تكسره وبالحري أن يتبعك، قال: ما كان ليبتغي ويدع الكوفة، ولكن الرأي أن أبادره إلى الكوفة؛ فعبر دجلة من المدائن يريد الكوفة، فاستعمل على مقدمته خوثة وأمره بالمسير إلى الكوفة، والفريقان يسيران على جانبي الفرات. وقال قحطبة: إنّ الإمام أخبرني أنّ [لي] في هذا المكان وقعة يكون النصر [فيها] لنا.

ونزل قحطبة الجبارية، وقد دلّوه على مخاضة، فعبر منها وقاتل خوثة ومحمّد بن بُناة، فانهزم أهل الشام وقعدوا قحطبة، فقال أصحابه: من كان عنده عهد من قحطبة فليخبرنا به. فقال مقاتل بن مالك العتكي: سمعت قحطبة يقول: إن حدث بي حدث فالحسن ابني أمير الناس.

فبايع الناس حُمَيد بن قحطبة لأخيه الحسن، وكان قد سيرة أبوه في (٤٠٤/٥) سرية فارسوا إليه فأحضره وسلّموا إليه الأمر. ولما فقدوا قحطبة بحثوا عنه فوجدوه في جدول وحرب بن سالم بن أخوز قتييلين، فظنّوا أن كل واحد منهما قتل صاحبه.

وقيل: إنّ معن بن زائدة ضرب قحطبة لما عبر الفرات على جبل عاتقه فسقط في الماء فأخرجه، فقال: شدّوا يدي إذا أنا مُت والقوني في الماء لئلا يعلم الناس بقتلي.

وقاتل أهل خراسان فانهزم محمّد بن بُناة وأهل الشام، ومات قحطبة، وقال قبل موته: إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمّد أبو سلمة الخلاّل فسلّموا هذا الأمر إليه.

وقيل: بل غرق قحطبة.

ولما انهزم ابن بُناة وخوثة لحقوا بابن هُبيرة، فانهزم ابن هُبيرة بهزيمتهم، ولحقوا بواسط وتركوا عسكرهم وما فيه من الأموال والسلاح وغير ذلك. ولما قام الحسن بن قحطبة بالأمر أمر بإحصاء ما في العسكر.

وقيل: إنّ خوثة كان بالكوفة فبلغه هزيمة ابن هُبيرة فسار إليه

فيمنّ معه.

ذكر خروج محمّد بن خالد بالكوفة مسوّدأ

وفي هذه السنة خرج محمّد بن خالد بن عبد الله القسري بالكوفة وسوّد قبل أن يدخلها الحسن بن قحطبة وأخرج عنها عامل ابن هُبيرة ثمّ دخلها الحسن. (٤٠٥/٥)

وكان من خبره أنّ محمّدأ خرج بالكوفة ليلة عاشوراء مسوّدأ وعلى الكوفة زياد بن صالح الحارثي، وعلى شُرطه عبد الرحمن بن بشير الجبلي، وسار محمّد إلى القصر، فارتحل زياد ومنّ معه من أهل الشام، ودخل محمّد القصر، وسمع خوثة الخبر فسار نحو الكوفة، فتفرّق عن محمّد عامة منّ معه لما بلغهم الخبر وبقي في نفر يسير من أهل الشام ومن اليمانيّين منّ كان هرب من مروان، وكان معه مواليه، وأرسل أبو سلمة الخلاّل، ولم يظهر بعد، إلى محمّد يأمره بالخروج من القصر تخوفاً عليه من خوثة ومنّ معه، ولم يبلغ أحداً من الفريقين هلاك قحطبة، فأبى محمّد أن يخرج، وبلغ خوثة تفرّق أصحاب محمّد عنه فتهدّى للمسير نحوه.

فبينما محمّد في القصر إذ أتاه بعض طلابه فقال له: قد جاءت خيل من أهل الشام، فوجّه إليهم عدّة من مواليه، فساداهم الشاميون: نحن بجيلة وفيما مليح بن خالد الجبلي جثا لدخول في طاعة الأمير، فدخلوا؛ ثمّ جاءت خيل أعظم من تلك فيها جهم بن الأصصح الكنائي؛ ثمّ جاءت خيل أعظم منها مع رجل من آل بَحْدَل؛ فلمّا رأى ذلك خوثة من صنع أصحابه ارتحل نحو واسط. وكتب محمّد بن خالد من ليلته إلى قحطبة، وهو لا يعلم بهلاكه، يُعلم أنّه قد ظفر بالكوفة.

فقدم القاصد على الحسن بن قحطبة، فلمّا دفع إليه كتاب محمّد بن خالد قرأه على الناس ثمّ ارتحل نحو الكوفة، فأقام محمّد بالكوفة يوم الجمعة ويوم السبت والأحد وصبحه الحسن يوم الاثنين.

وقد قيل: إنّ الحسن بن قحطبة أقبل نحو الكوفة بعد هزيمة ابن هُبيرة وعليها عبد الرحمن بن بشير الجبلي فهرب عنها، فسوّد محمّد بن خالد وخرج (٤٠٦/٥) في أحد عشر رجلاً وبايع الناس، ودخلها الحسن من الغد، فلمّا دخلها الحسن هو وأصحابه أتوا أبا سلمة، وهو في بني سلمة، فاستخرجوه، فعسكر بالبخيلة يومئذ ثمّ ارتحل إلى حمّام أعين، ووجّه الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هُبيرة، وبايع الناس أبا سلمة حفص بن سليمان مولى السبيّ، وكان يقال له وزير آل محمّد، واستعمل محمّد بن خالد بن عبد الله على الكوفة، وكان يقال له الأمير، حتّى ظهر أبو العباس السفاح.

ووجّه حُمَيد بن قحطبة إلى المدائن في قوادر، وبعث المُسَيّب

ثم إنَّ أبا هاشم بن الحنفية خرج إلى الشام فلقي محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فقال له: [يا ابن عمِّ إنَّ عندي علماً أنبذه إليك فلا تطلعنَّ عليه أحداً] إنَّ هذا الأمر الذي يرتجيه الناس فيكم. قال: قد علمتُ! فلا يسمعه منكم أحد.

وقد تقدَّم في خبر ابن الأشعث قول خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان: أما إذ كان الفتق من سجستان فليس عليك منه بأس، إنما كنَّا نتخوَّف لو كان من خراسان.

وقال محمد بن علي بن عبد الله: لنا ثلاثة أوقات: موت الطاغية يزيد بن معاوية، ورأس المائة، وفتق إفريقية، فعند ذلك يدعو لنا دُعاة ثُمَّ تُقبِل أنصارنا من المشرق حتَّى ترد خيلهم [المغرب] ويستخرجوا ما كثر الجبارون.

فلما قُتل يزيد بن أبي مسلم بإفريقية ونقضت البربر بعث محمد بن علي إلى خراسان داعياً وأمره أن يدعو إلى الرضا ولا يسمي أحداً؛ وقد ذكرنا فيما (٤٠٩/٥) تقدَّم خبر الدعاة وخبر أبي مسلم وقبض مروان على إبراهيم بن محمد، وكان مروان لما أرسل المقبوض عليه وصف للرسول صفة أبي العباس، لأنَّه كان يجد في الكتب: إنَّ من هذه صفته يقتلهم ويسلبهم ملكهم! وقال له لياثيه بإبراهيم بن محمد.

فقدم الرسول فاخذ أبا العباس بالصفة، فلما ظهر إبراهيم وأمن قيل للرسول: إنما أمرت بإبراهيم وهذا عبد الله. فترك أبا العباس وأخذ إبراهيم فانطلق به إلى مروان، فلما رآه قال: ليس هذه الصفة التي وصفتُ لك. فقالوا: قد رأينا الصفة التي وصفت وإِنَّمَا سَمَّيْتَ إبراهيم فهذا إبراهيم. فأمر به فحبس وأعاد الرسل في طلب أبي العباس فلم يروه.

وكان سبب مسيره من الحُمَيْمَةِ أنَّ إبراهيم لما أخذه الرسول نعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وبالسَّمْع له وبالطاعة، وأوصى إلى أبي العباس وجعله الخليفة بعده، فسار أبو العباس ومن معه من أهل بيته، منهم: أخوه أبو جعفر المنصور، وعبد الوهاب ومحمد ابنا أخيه إبراهيم، وأعمامه داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس، وابن عمِّه داود، وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي، ويحيى بن جعفر بن تمام بن عباس، حتَّى قدموا الكوفة في صفر، وشيعتهم من أهل خراسان، بظاهر الكوفة بحمَّام أعين، فأنزلهم أبو سلَمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني داود وكنم أمرهم نحواً من أربعين ليلة من جميع القواد والشيعَة.

واراد فيما ذكر أن يحول الأمر إلى آل أبي طالب لما بلغه الخبر عن موت (٤١٠/٥) إبراهيم الإمام، فقال له إسمو الجَهْم: ما

بن زُهَيْر وخالد بن برمك إلى ذَرِ قَتَى، وبعث المهلبِي وشراحيل إلى عين التمر، وبسَّام بن إبراهيم بن بسَّام إلى الأهواز، وبها عبد الواحد بن عمر بن هبيرة. فلما أتى بسَّام الأهواز خرج عنها عبد الواحد إلى البصرة بعد أن قاتله وهزمه بسَّام، وبعث إلى البصرة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب عاملاً عليها، فقدمها وكان عليها سلم بن قتيبة الباهلي عاملاً لابن هبيرة، وقد لحق به عبد الواحد بن هبيرة، كما تقدَّم ذكره.

فأرسل سفيان بن معاوية إلى سلم يأمره بالتحوُّل من دار الإمارة ويُعلِّمه ما أتاه من رأي أبي سلَمة، وامتنع وجمع معه قيساً ومُضَرَ ومنَّ بالبصرة من بني أمية، وجمع سفيان جميع اليمانية وحلفاءهم من ربيعة وغيرهم، وأتاهم قائد من قواد ابن هبيرة كان بعثه مدداً لسلم في ألقي رجل من كلب، فأتى سلم سوق الإبل ووجَّه الخيول في سكك البصرة ونادى: مَنْ جاء برأس فله خمسمائة، ومنَّ جاء بأسير فله ألف درهم.

ومضى معاوية بن سفيان بن معاوية في ربيعة وخاصَّته، فلقبه خيل تميم، فقتل معاوية وأتى برأسه إلى سلم، فأعطى قاتله عشرة آلاف، وانكسر سفيان بقتل ابنه فانهزم، وقدم على سلم بعد ذلك أربعة آلاف من عند مروان فأرادوا نهب مَنْ بقي من الأزد، فقاتلهم قتالاً شديداً، وكثرت القتلَى بينهم، وانهزمت (٤٠٧/٥) الأزد، ونُهبت دورهم، وسُبيت نساؤهم، وهدموا البيوت ثلاثة أيام، ولم يزل سلم بالبصرة حتَّى أتاه قتل ابن هبيرة، فشخص عنها، واجتمع مَنْ بالبصرة من ولد الحارث بن عبد المطلب إلى محمد بن جعفر فولوه أمرهم، فوليهم أياماً يسيرة حتَّى قدم البصرة أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي من قبل أبي مسلم. فلما قدم أبو العباس ولأها سفيان بن معاوية.

وكان حرب سفيان وسلم بالبصرة في صفر.

وفيها عزل مروان عن المدينة الوليد بن عُروَة واستعمل أخاه يوسف بن عُروَة في شهر ربيع الأوَّل.

انقضت الدولة الأموية. (٤٠٨/٥)

ذكر ابتداء الدولة العباسية وبيعة أبي العباس

في هذه السنة بويح أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة في شهر ربيع الأوَّل، وقيل: في ربيع الآخر لثلاث عشرة مضت منه، وقيل في جمادى الأولى.

وكان بدء ذلك وأوَّلُه أنَّ رسول الله ﷺ أعلم العباس بن عبد المطلب أنَّ الخلافة تزول إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقَّعون ذلك ويتحدَّثون به بينهم.

فعل الإمام؟ قال: لم يقدم [بعداً]. فآلَح عليه. فقال: ليس هذا وقت خروجه لأنَّ واسطاً لم تُفَتَّح بعد.

وأصبح الناس يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول فلبسوا السلاح واصطفوا لخروج أبي العباس وأتوا بالدواب، فركب برذونا أبلق، وركب مَنْ معه من أهل بيته فدخلوا دار الإمارة، ثم خرج إلى المسجد فخطب وصلى بالناس، ثم صعد المنبر حين بويح له بالخلافة فقام في أعلاه، وصعد عَمَهُ داود بن عليّ فقام دونه، فتكلّم أبو العباس فقال:

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه وكرّمه وشرفه وعظّمه واختاره لنا فأيّده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصله والقوام به والذابين عنه والناصرين له، فالزّمتنا كلمة التّقى وجعلنا أحقّ بها وأهلها، وخصّنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته، وأنشأنا من آبائنا، وأنبتنا من شجرته، (٤١٢/٥) واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما غيّتنا حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يُتلى عليهم، تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، [الأحزاب: ٣٣]، وقال تعالى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَزُودَةَ فَنَفِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]؛ وقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ وقال ﴿مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ [الحشر: ٧]؛ وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِوِ حُصْنَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ [الأنفال: ٤١]؛ فأعلمهم جلّ ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودّتنا، وأجزل من النّبيّ والغنيمة نصيبنا تكملة لنا وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السّبيّة الضّلال أنّ غيرنا أحقّ بالرياسة والسياسة والخلافة منّا، فشاغت وجوههم ولمّا أيّها الناس وبنا هدى الله النّاس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحقّ، ودحض الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيّة، وتّم بنا النقيصة، وجمع الفرقة حتّى عاد النّاس بعد العداوة أهل التعاطف والبرّ والمواساة في دنياهم، وإخواناً على سرور متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك بينةً وبيّنةً لمحمّد، ﷺ. فلمّا قبضه الله إليه قام بالأمر (٤١٣/٥) من بعده أصحابه وأمّهم شوريّ بينهم فحوا مواريت الأسم فعدّلوا فيها ووضعوا مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خصاصاً منها. ثمّ وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزّوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما أملى الله لهم حيناً حتّى آسفوه، فلمّا آسفوه انتقم منهم بأيدينا وردّ علينا حقنا وتدارك بنا أمّتنا ووليّنا نصرنا والقيام بأمرنا ليمنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا.

وكان أبو سلمة إذا سُئل عن الإمام يقول: لا تعجلوا. فلم يزل ذلك من أمره حتّى دخل أبو حمّيد محمّد بن إبراهيم الجعفريّ من حمّام عين يريد الكناسة، فلقي خادماً لإبراهيم الإمام يقال له سابق الخوارزمي، فعرفه، فقال له: ما فعل إبراهيم الإمام؟ فأخبره أنّ مروان قتله، وأنّ إبراهيم أوصى إلى أخيه أبي العباس واستخلفه من بعده، وأنّه قدّم الكوفة ومعه عمّة أهل بيته، فسأله أبو حمّيد أن ينطلق به إليهم، فقال له سابق: الموعد بيني وبينك غدّاً في هذا الموضع؛ وكره سابق أن يدلّه عليهم إلاّ بإذنهم.

فرجع أبو حميد إلى أبي الجهم فأخبره وهو في عسكر أبي سلمة، فأمره أن يلطف للقائه، فرجع أبو حميد من الغد إلى الموضع الذي واعد فيه سابقاً فلقاه، فانطلق به إلى أبي العباس وأهل بيته، فلمّا دخل عليهم سأل أبو حمّيد من الخليفة منهم. فقال داود بن عليّ: هذا إمامكم وخليفتم. وأشار إلى أبي العباس، فسلم عليه بالخلافة وقبّل يديه ورجليه وقال: مرّنا بامرك. وعزّاه بإبراهيم الإمام.

ثمّ رجع وصحبه إبراهيم بن سلّمة، رجل كان يخدم بني العباس، إلى أبي الجهم فأخبره عن منزلهم وأنّ الإمام أرسل إلى أبي سلمة يسأله مائة دينار يُعطِيها الجمال كراء الجمال التي حملتهم، فلم يبعث بها إليهم، فمضى أبو الجهم وأبو حمّيد وإبراهيم بن سلّمة إلى موسى بن كعب وقصّوا عليه القصّة، وبعثوا إلى الإمام بمائتي دينار مع إبراهيم بن سلّمة، واتفق رأي جماعته من (٤١٤/٥) القوّاد على أن يلقوا الإمام؛ فمضى موسى بن كعب، وأبو الجهم، وعبد الحميد بن ربيّعي، وسلّمة بن محمّد، وإبراهيم بن سلّمة، وعبد الله الطائي، وإسحاق ابن إبراهيم، وشراحيل، وعبد الله بن بسّام، وأبو حمّيد محمّد بن إبراهيم، وسليمان بن الأسود، ومحمّد بن الحُصَيْن إلى الإمام أبي العباس.

وبلغ ذلك أبا سلّمة فسأل عنهم، فقيل: إنهم دخلوا الكوفة في حاجة لهم؛ وأتى القوم أبا العباس، فقال: وأيّكم عبد الله بن محمّد بن الحارثيّة؟ فقالوا: هذا، فسلموا عليه بالخلافة وعزّوه في إبراهيم، ورجع موسى بن كعب وأبو الجهم، وأمر أبو الجهم الباقيين فتخلّفوا عند الإمام، فأرسل أبو سلّمة إلى أبي الجهم: أين كنت؟ قال: ركبْتُ إلى إمامي، فركب أبو سلّمة إلى الإمام، فأرسل أبو الجهم إلى أبي حمّيد: إن أبا سلّمة قد أتاكم فلا يدخلنّ على الإمام إلاّ وحده، فلمّا انتهى إليهم أبو سلّمة منعوه أن يدخل معه أحد، فدخل وحده فسلم بالخلافة على أبي العباس. فقال له أبو حمّيد: على رغم أنفك يا ماصّ بظر أمّه! فقال له أبو العباس: مَهْ!

المؤمنين بالعاقبة، فقد بذلكم الله بمرؤان عدو الرحمن وخليفة الشيطان، المتبع السفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومنهج التقوى.

فجع الناس له بالدعاء، ثم قال :

يا أهل الكوفة! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أباح الله شيعتنا أهل خراسان، فأحبنا بهم حقنا، وأبلغ بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله بهم ما لستم تتظنون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ويبيض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان، وأعز الإسلام، ومن عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة، فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزمو طاعتنا، ولا تأخذوا عن أنفسكم، فإن الأمر أمركم، وإن لكل أهل بيت مصراً وإنكم مصرنا، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد، وأشار بيده إلى أبي العباس السفاح.

واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلّمه إلى عيسى بن مريم، عليه السلام، والحمد لله على ما أبلانا وأولانا. (٤١٦/٥)

ثم نزل أبو العباس وداود بن عليّ أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر المتصور يأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم المغرب وجنهم الليل فدخل.

وقيل: إن داود بن عليّ لما تكلم قال في آخر كلامه: أيها الناس إنه والله ما كان بينكم وبين رسول الله ﷺ خليفة إلا علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين الذي خلفي.

ثم نزل. وخرج أبو العباس يعسكر بحمام أعين في عسكر أبي سلمة ونزل معه في حجرته بينهما ستر وحاجب السفاح يومئذ عبد الله بن بسام. واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن عليّ، وبعث عمه عبد الله ابن عليّ إلى أبي عؤن بن يزيد بشهزور، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قطيبة، وهو يومئذ يحاصر ابن هُبيرة بواسط، وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس إلى حُمَيد بن قطيبة بالمدائن، وبعث أبا القِظان عثمان بن عُرْوة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز، وبعث سلمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن الطواف.

وأقام السفاح بالعسكر أشهراً ثم ارتحل فتزل المدينة الهاشمية

وإني لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

يا أهل الكوفة أنتم محلّ محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يشك منه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدرتكم زماننا، وأناكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدّكم في أعطيائكم مائة درهم، فاستعدوا فانا السفاح المبيح، والناشر المبير.

وكان موعوكاً فاشتد عليه الوعك. فجلس على المنبر وقام عمه داود على مراقبي المنبر فقال: الحمد لله، شكرًا للذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد، ﷺ.

أيها الناس! الآن أفتحت حنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها، ويزغ القمر من ميزغه، (٤١٤/٥) وأخذ القوم باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم، أهل الرافة والرحمة بكم والعطف عليكم.

أيها الناس! إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لكثير لجبننا ولا عقيانا، ولا نحفر نهراً، ولا نبني قصراً؛ وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرهنا من أموركم، فلقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشدّ علينا سوء سيرة بني أمية فيكم واستنزاهم لكم واستثأروهم بفيتكم وصدقائكم ومغانمكم عليكم، لكم ذمة الله، تبارك وتعالى، وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس، رحمة الله، علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ تَبّاً لَبّاً لبني حرب بن أمية وبني مروان! أتروا في مدّتهم العاجلة على الأجلة، والدار الآتية على الدار الباقية، فركبو الأثام، وظلموا الأثام، وانتهكوا المحارم، وغشوا بالجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسبّهم في البلاد، ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميدان الغي جهلاً باستدراج الله وأمناً لمكر الله، فأناهم بأس الله بيئاتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل ممزق، فبدأ للقوم الظالمين، وأدانا الله من مروان، وقد غره بالله القرو، أرسل لعدو الله في عنائه حتى عثر في فضل خطاه، أظنّ عدو الله أن لن تقدر عليه فنادى حزبه وجمع مكابده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله (٤١٥/٥) وبأسه ونقمته ما أمات باطله، ومحا ضلاله، وجعل جائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا وردّ إلينا حقنا وإرثنا.

أيها الناس! إن أمير المؤمنين، نصره الله نصراً عزيزاً، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة لأنه كاره أن يخلط بكلام الجُمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك، فادعوا الله لأمر

بقصر الإمارة، وكان تنكر لأبي سلمة قبل تحوله حتى عرف ذلك.

وقد قيل: إن داود بن عليّ وابنه موسى لم يكونا بالشام عند مسير بني العباس إلى العراق، إنما كانا بالعراق أو بغيره يريدان الشام، فلقبهما أبو العباس وأهل بيته يريدون الكوفة بدومة الجندل، فسألهم داود عن خبرهم، فقصّ عليه أبو العباس قصّتهم وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم. فقال له داود: يا أبا العباس تأتني الكوفة وشيخ بني أمية مروان بن محمد بحرّان مطّل على العراق في أهل الشام والجزيرة، وشيخ العرب يزيد بن هبيرة بالعراق في جند العرب! وقال: يا عمّي من أحبّ الحياة ذلّ؟ (٤١٧/٥) ثمّ تمثّل بقول الأعشى:

فما مية إن منها غير عاجزٍ بعار إذا ما غالت النفس قولها
فالتفت داود إلى ابنه موسى فقال: صدق واللّه ابن عمك، فارجع بنا معه نعيش أعزّاء أو نموت كرماء. فرجعوا جميعاً.

فكان عيسى بن موسى يقول إذا ذكر خروجهم من الحُمَيمة يريدون الكوفة: إنّ نفرًا أربعة عشر رجلاً خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة همّتهم، كبيرة أنفسهم، شديدة قلوبهم.

ذكر هزيمة مروان بالزّاب

قد ذكرنا أنّ قحطبة أرسل أبا عوّن عبد الملك بن يزيد الأزديّ إلى شهزور، وأنه قتل عثمان بن سفيان وأقام بناحية الموصل، وأنّ مروان بن محمد سار إليه من حرّان حتى بلغ الزّاب وحضر خندقاً وكان في عشرين ومائة ألف، وسار أبو عوّن إلى الزّاب، فوجّه أبو سلّمة إلى أبي عوّن عيّنة بن موسى، والجنّهال بن قنّان، وإسحاق بن طلحة، كلّ واحد في ثلاثة آلاف.

فلما ظهر أبو العباس بعث سلمة بن محمد في الفئتين، وعبد الله الطائيّ في (٤١٨/٥) ألف وخمسمائة، وعبد الحميد بن ربيعة الطائيّ في الفئتين، ووداس بن نضلة في خمسمائة إلى أبي عوّن، ثمّ قال: من يسير إلى مروان من أهل بيتي؟ فقال عبد الله بن عليّ: أنا. فسبّره إلى أبي عوّن، فقدم عليه، فتحول أبو عوّن عن سرادقة وخلاه له وما فيه.

فلما كان لليلتين خلّتا من جمادى الآخرة سنة اثنين وثلاثين ومائة سأل عبد الله بن عليّ عن مخاضة فدلّ عليها بالزّاب، فأمر عيّنة بن موسى، فعبّر في خمسة آلاف، فأتته إلى عسكر مروان، فقاتلهم حتى أمسوا، ورجع إلى عبد الله بن عليّ.

وأصبح مروان فعقد الجسر وعبر عليه، فنهاه وزرّاه عن ذلك، فلم يقبل وسيّر ابنه عبد الله، فنزل أسفل من عسكر عبد الله بن عليّ، فبعث عبد الله بن عليّ المخارق في أربعة آلاف نحو عبد الله بن مروان، فسرح إليه ابن مروان الوليد بن معاوية بن مروان بن

الحكم، فالتقى، فانهزم أصحاب المخارق وثبت هو فأسر هو وجماعة وسيّروهم إلى مروان مع رؤوس القتلى، فقال مروان: أدخلوا عليّ رجلاً من الأسرى. فاتوه بالمخارق، وكان نحيفاً. فقال: أنت المخارق؟ قال: لا، أنا عبد من عبيد أهل العسكر. قال: فتعرف المخازن؟ قال: نعم. قال: فانظر هل تراه في هذه الرؤوس. فنظر إلى رأس منها فقال: هو هذا. فخلّى سبيله، فقال رجل مع مروان حين نظر المخارق وهو لا يعرفه: لعن الله أبا مسلم حين جاءنا بهؤلاء يقاتلنا بهم.

وقيل: إنّ المخارق لما نظر إلى الرؤوس قال: ما أرى رأسه فيها ولا أراه إلّا قد ذهب. فخلّى سبيله.

ولما بلغت الهزيمة عبد الله بن عليّ أرسل إلى طريق المنهزمين من يمنهم من دخول العسكر لئلاّ ينكر قومهم، وأشار عليه أبو عوّن أن يبادر مروان بالقتال قبل أن يظهر أمر المخارق فيفت ذلك في أعضاء الناس، فنادى فيهم (٤١٩/٥) بلبس السلاح والخروج إلى الحرب، فركبوا، واستخلف على عسكره محمد بن صوّل وسار نحو مروان، وجعل على ميمته أبا عوّن، وعلى مسيرته الوليد بن معاوية، وكان عسكره عشرين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً وقيل غير ذلك.

فلما التقى العسكران قال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: إن زالت اليوم الشمس ولم يقاتلونا كنا الذين ندفعها إلى المسيح، عليه السلام، وإن قاتلونا فاقبل الزوال فإننا لله وإنّا إليه راجعون.

وأرسل مروان إلى عبد الله يسأله المواعدة، فقال عبد الله: كذب ابن زريق، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله. فقال مروان لأهل الشام: قفوا لا نبذهم بالقتال، وجعل ينظر إلى الشمس، فحمل الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، وهو ختن مروان بن محمد على ابنته، فغضب وشتمه، وقاتل ابن معاوية أبا عوّن، فانهز أبو عوّن إلى عبد الله بن عليّ، فقال لموسى بن كعب: يا عبد الله مر الناس فليزولوا. فنودي: الأرض، فنزل الناس وأشرعوا الرماح وجنّوا على الركب فقاتلوهم، وجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يذفعون، ومشى عبد الله بن عليّ قدماً وهو يقول: يا ربّ حتى متى تقتل فيك؟ ونادى: يا أهل خراسان! يا لشارت إبراهيم! يا محمداً! يا منصور! واشتدّ بينهم القتال. فقال مروان لقضاة: انزلوا. فقالوا: قلّ لبني سليم فليزولوا. فأرسل إلى السكاسك أن احمّلوا، فقالوا: قلّ لبني عامر فليحمّلوا. فأرسل إلى السكون أن احمّلوا، فقالوا: قلّ لعطفان فليحمّلوا. فقال لصاحب شرطته: انزل. فقال: واللّه ما كنت لأجعل نفسي غرضاً. قال: أما واللّه لأسؤنك! (٤٢٠/٥) فقال: وددت واللّه أنك قدرت على

ذلك.

ثم قاتل حتى قُتل، فإذا هو مُسلمة بن عبد الملك. (٤٢٢/٥)

ذكر قتل إبراهيم بن محمد بن علي الإمام

قد ذكرنا سبب حبسه. واختلف الناس في موته، فقيل: إن مروان حبسه بخران، وحبس سعيد بن هشام بن عبد الملك وابنيه عثمان ومروان، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز، والعباس بن الوليد بن عبد الملك، وأبا محمد السفيناني، هلك منهم في وباء وقع بخران العباس بن الوليد، وإبراهيم بن محمد بن علي الإمام، وعبد الله بن عمر.

فلما كان قبل هزيمة مروان من الزُباب بجمعة خرج سعيد بن هشام وابن عمه ومن معه من المحبوسين فقتلوا صاحب السجن وخرجوا، فقتلهم أهل حران ومن فيها من الغوغاء، وكان فيمن قتلهم أهل حران شراحيل بن مسلمة بن عبد الملك، وعبد الملك بن بشر التغلبي، وبطريق أرمينية الرابعة واسمه كوشان، وتخلّف أبو محمد السفيناني في الحبس فلم يخرج فيمن خرج ومعه غيره لم يستحلوا الخروج من الحبس، فقدم مروان منهزماً من الزُباب فجاء فخلّى عنهم.

وقيل: إن مروان هدم على إبراهيم بيتاً فقتله.

وقد قيل: إن شراحيل بن مسلمة بن عبد الملك كان محبوساً مع إبراهيم فكانا يتزاوران، فصار بينهما مودة، فأتى رسول من شراحيل إلى إبراهيم يوماً بلبن فقال: يقول لك أخوك إنني شربت من هذا اللبن فاستطيت فأحييت أن تشرب منه؛ فشرب منه فتكسر جسده من ساعته، وكان يوماً يزور فيه شراحيل فأبطل عليه فأرسل إليه شراحيل: إنك قد أبطلت فما حبسك؟ فأعاد إبراهيم: إنني لما شربت اللبن الذي أرسلت به قد أسهلني. فأناه شراحيل فقال: والله الذي لا إله إلا هو ما شربت اليوم لبناً ولا أرسلت به إليك! فإننا لله وإنا (٤٢٣/٥) إليه راجعون! احتيل والله عليك. فبات إبراهيم ليلته وأصبح ميتاً؛ فقال إبراهيم بن هرثمة يرثيه:

قد كنتُ أحسبني جلدأ فضعفني قبر بخران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخسر الناس كلهم بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذي عمت مصيئته وعملت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة لكن عفا الله عمن قال آيين
وكان إبراهيم خيراً فاضلاً كريماً، قدم المدينة مرة ففرق في أهلها مالا جليلاً، وبعث إلى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن يخمسة دينار، وبعث إلى جعفر بن محمد بألف دينار، فبعث إلى جماعة العلويين بمال كثير، فأناه الحسين بن زيد بن علي وهو صغير فأجلسه في حجره قال: من أنت؟ قال: أنا الحسين بن زيد بن علي. فبكي حتى بل رداءه وأمر وكيله بإحضار ما بقي من المال، فأحضر أربعمائة دينار، فسلمها إليه وقال: لو كان عندنا

وكان مروان ذلك اليوم لا يدبر شيئاً إلا كان في الخلل، فأمر بالأموال فأخرجت، وقال للناس: اصبروا وقاتلوا فهذه الأموال لكم. فجعل ناس من الناس يصيبون من ذلك، فقيل له: إن الناس قد مالوا على هذا المال ولا نامنهم أن يذهبوا به. فأرسل إلى ابنه عبد الله: أن سر في أصحابك إلى مؤخر عسكريك فاقتل من أخذ من المال وامنعهم.

فمال عبد الله برأيه وأصحابه، فقال الناس: الهزيمة الهزيمة! فانهزم مروان وانهزموا وقطع الجسر؛ وكان من غرق يومئذ أكثر ممن قُتل.

فكان ممن غرق يومئذ: إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن المخلوع، فاستخرجوه في الغرق، فقرأ عبد الله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]. وقيل: بل قتله عبد الله بن علي بالشام.

وقُتل في هذه الوقعة سعيد بن هشام بن عبد الملك. قيل: بل قتله عبد الله بالشام.

وأقام عبد الله بن علي في عسكره سبعة أيام، فقال رجل من ولد سعيد العاص يغير مروان:

لجُ الفرار بمسروان فقلت له: عاد الظلوم ظليماً هم الهرب
أين الفرار وترك الملك إذ دعبت عنك الهزينا فلا يبين ولا حسب (٤٢١/٥)

فراشة الجلم فرعون العقاب وإن تطلب نداء فكلب دونه كلب
وكتب يومئذ عبد الله بن علي إلى السفاح بالفتح، وحوى عسكر مروان بما فيه فوجد سلاحاً كثيراً وأموالاً، ولم يجد فيه امرأة إلا جارية كانت لعبد الله بن مروان.

فلما أتى الكتاب السفاح صلى ركعتين وأمر لمن شهد الوقعة بخمسة مائة دينار، ورفع أرزاقهم إلى ثمانين.

وكانت هزيمة مروان بالزُباب يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة؛ وكان فيمن قُتل معه يحيى بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، وهو أخو عبد الرحمن صاحب الأندلس، فلما تقدّم إلى القتال رأى عبد الله بن علي قتي عليه أئمة الشرف يقاتل مستقلاً فناداه: يا فتى لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد! فقال: إن أكنه فليست بدونه. قال: فلك الأمان ولو كنت. فأطرق ثم قال:

أذل الحياة وكره الممات وكلا أراه طعاماً وبيلا
فلن لم يكن غير إحداهما فسفر إلى الموت سيراً جميلاً

وكان السفاح قد كتب إلى عبد الله بن علي يأمره باتباع مروان، فسار حتى أتى الموصل، فتلقاه من بها مسودين وفتحوا له المدينة؛ ثم سار إلى حران، فتلقاه أبان بن يزيد مسوداً، كما تقدم، فأمنه وهدم عبد الله الدار التي حُبس فيها إبراهيم. ثم سار من حران إلى منبج، وقد سودوا، فأقام بها، وبعث إليه أهل قنسرين يبيعهم، وقدم عليه أخوه عبد الصمد بن علي، أرسله السفاح مدداً له في أربعة آلاف، فسار بعد قدوم عبد الصمد بيومين إلى قنسرين، وكانوا قد سودوا، فأقام يومين ثم سار إلى حمص وبيع أهلها وأقام بها أياماً، ثم سار إلى بعلبك فأقام يومين، ثم سار فنزل مرّة دمشق، وهي قرية من قرى الغوطة؛ وقدم عليه أخوه صالح بن علي مدداً فنزل مرج عذراء في ثمانية آلاف؛ ثم تقدم عبد الله فنزل على الباب الشرقي، ونزل صالح على باب الجابية، ونزل أبو عؤن على باب كيسان، ونزل بسام بن إبراهيم على باب الصغير؛ ونزل حميد بن قحطبة على باب توما، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفرائيس، وفي دمشق الوليد بن معاوية، فحصره ودخلوها عنوة يوم الأربعاء لخمس مضي من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وكان أول من صعد سور المدينة من باب شرقي عبد الله الطائي، ومن (٤٢٦/٥) ناحية باب الصغير بسام بن إبراهيم، فقاتلوا بها ثلاث ساعات، وقُتل الوليد بن معاوية فيمن قُتل.

وأقام عبد الله بن علي في دمشق خمسة عشر يوماً، ثم سار يريد فلسطين، فلقه أهل الأردن وقد سودوا، وأتى نهر أبي فطرس وقد ذهب مروان، فأقام عبد الله بفلسطين، ونزل بالمدينة يحيى بن جعفر الهاشمي، فأناه كتاب السفاح يأمره بإرسال صالح بن علي في طلب مروان. فسار صالح من نهر أبي فطرس في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ومعه ابن قتات وعامر بن إسماعيل، فقدم صالح أبا عؤن وعامر بن إسماعيل الحارثي، فساروا حتى بلغوا العريش. فأحرق مروان ما كان حوله من علف وطعام.

وسار صالح فنزل النيل، ثم سار حتى أتى الصعيد، وبلغه أن خيلاً لمروان يحرقون الأعلاف فوجه إليهم فأخذوا وقدم بهم على صالح وهو بالفسطاط، وسار فنزل موضعاً يقال له ذات السلاسل، وقدم أبو عؤن وعامر بن إسماعيل الحارثي وشعبة بن كثير المازني في خيل أهل الموصل فلقوا خيلاً لمروان فهزمهم وأسروا منهم رجالاً فقتلوا بعضاً واستحبوا بعضاً، فسألهم عن مروان فأخبرهم بمكانه على أن يؤمنهم، وساروا فوجدوه نازلاً في كنيسة في بؤصير، فوافوه ليلاً، وكان أصحاب أبي عؤن قليلين، فقال لهم عامر بن إسماعيل: إن أصبحنا وراوا قتلنا أهلكونا ولم ينبج منا أحد. وكسر جفن سيفه وفعل أصحابه مثله وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا، وحمل رجل على مروان قطعه وهو لا يعرفه،

شيء آخر لسلمته إليك. وسير معه بعض مواليه إلى أمه ربيعة بنت عبد الملك بن محمد بن الحنفية يعتذر إليها.

وكان مولده سنة اثنتين وثلاثين، وأمه أم ولد بربرية اسمها سلمى.

وكان ينبغي أن يقدم ذكر قتله على هزيمة مروان، وإنما قدمنا ذلك لتبع الحادثة بعضها بعضاً. (٤٢٤/٥)

ذكر قتل مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

وفي هذه السنة قُتل مروان بن محمد، وكان قتله ببؤصير، من أعمال مصر، لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وكان مروان لما هزمه عبد الله بن علي بالزأب أتى مدينة الموصل وعليها هشام بن عمرو التغلبي ويشتر بن خزيمية الأسدي فقطعوا الجسر، فناداهم أهل الشام: هذا أمير المؤمنين مروان! فقالوا: كذبتم، أمير المؤمنين لا يفر! وسبه أهل الموصل، وقالوا: يا جعدي! يا معطل الحمد لله الذي أزال سلطانكم وذهب بدولتكم! الحمد لله الذي أتناها بأهل بيت نبينا! فلما سمع ذلك سار إلى بلد فعب دجلة وأتى حران، وبها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن مروان عامله عليها، فأقام بها يوماً وعشرين يوماً.

وسار عبد الله بن علي حتى أتى الموصل فدخلها وعزل عنها هشاماً واستعمل عليها محمد بن صول، ثم سار في أثر مروان بن محمد، فلما دنا منه عبد الله حمل مروان أهله وعياله ومضى منهزماً وخلف بمدينة حران ابن أخيه أبان بن يزيد وتحت أم عثمان ابنة مروان.

وقدم عبد الله بن علي حران، فلقه أبان مسوداً مبايعاً له، فبايعه ودخل في طاعته، فأمنه ومن كان بحرّان والجزيرة.

ومضى مروان إلى حمص، فلقه أهلها بالسمع والطاعة، فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم سار منها. فلما راوا قلة من معه طمعوا فيه وقالوا: مرعوب منهزم؛ فاتبعوه بعدما رحل عنهم فلحقوه على أميال. فلما رأى غيرة الخيل كمن لهم، فلما جاوزوا الكمين صافهم مروان فيمن معه وناشدهم، فأبوا إلا قتاله، فقاتلهم وأتاهم الكمين من خلفهم، فانهزم أهل حمص (٤٢٥/٥) وقتلوا حتى انتهبوا إلى قريب المدينة.

وأتى مروان دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، فخلّقه بها وقال: قاتلهم حتى يجتمع أهل الشام. ومضى مروان حتى أتى فلسطين فنزل نهر أبي فطرس، وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجُدامي، فأرسل مروان إلى عبد الله بن يزيد بن روح بن زبناج الجُدامي فأجاره، وكان بيت المال في يد الحكم.

وصاح صائح: صُرِعَ أمير المؤمنين! فابتدروه فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز (٤٢٧/٥) رأسه، فأخذه عامر فبعث به إلى أبي عؤن، وبعثه أبو عؤن إلى صالح.

فلما وصل إليه أمر أن يقصّ لسانه، فانقطع لسانه، فأخذه هير، فقال صالح: ماذا تُرينا الأيام من العجائب والعبر! هذا لسان مروان قد أخذه هير! وقال شاعر:

قد فتح الله بصراً غسوة لكم وأهلك الفاجر الجعدي إذ ظلمنا
فلأنا بقوله هير جبره وكان ربك من ذي الكفر متجماً
وسيره صالح إلى أبي العباس السفاح.

وكان قتله للثلاثين بقينا من ذي الحجة، ورجع صالح إلى الشام وخلف أبا عؤن بمصر وسلم إليه السلاح والأموال والرفيق.

ولما وصل الرأس إلى السفاح كان بالكوفة، فلما رآه سجد ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي أظهرني عليك أظفري بك ولم يبق ثأري قبلك وقيل رهطك أعداء الدين! وتمثل:

لويشرون دمي لم يرو شأريهم ولا دماؤهم للثقيظ تزويني
ولما قتل مروان هرب ابنه عبد الله وعبيد الله إلى أرض الحيشة، فلقوا من الحيشة بلاء، قاتلهم الحيشة فقتل عبيد الله ونجا عبد الله في عدة ممن معه، بقي إلى خلافة المهدي، فأخذه نصر بن محمد بن الأشعث، عامل فلسطين، فبعث به إلى المهدي.

ولما قتل مروان قصد عامر الكنيسة التي فيها حرم مروان، وكان قد وكل بهن خادماً وأمره أن يقتله بعد، فأخذه عامر وأخذ نساء مروان وبناته فسيرهن إلى صالح بن علي بن عبد الله بن عباس. فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت: يا عم أمير المؤمنين! حفظ الله لك من أمرك ما (٤٢٨/٥) تحب حفظه، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك فليسمعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا.

قال: والله لا استبقي منكم واحداً! ألم يقتل أبوك ابن أخي إبراهيم الإمام؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وصلبه في الكوفة؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل ابن زياد الدعي مسلم بن عقيل؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي وأهل بيته؟ ألم يخرج إليه بحرم رسول الله ﷺ سبايا فوقفهن موقف السبي؟ ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه؟ فما الذي يحملني على الإبقاء عليكن؟! قالت: فليسمعنا عفوك! فقال: أما هذا فنعم، وإن أحيت زوجتك ابني الفضل! فقالت: وأي عز خير من هذا! بل تلحقنا بحران. فحملهن إليها، فلما دخلنها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهن بالبكاء.

قيل: كان يوماً بكير بن ماهان مع أصحابه قبل أن يقتل مروان يتحدث إذ مر به عامر بن إسماعيل وهو لا يعرفه فأتى دجلة واستقى من مائها ثم رجع، فدعاه بكير فقال ما اسمك يا فتى؟ قال: عامر بن إسماعيل بن الحارث. قال: فكن [مين] بنسي مُسْلِيَة. قال: فانا منهم. قال: أنت والله تقتل مروان! فكان هذا القول هو الذي قوى طمع عامر في قتل مروان.

ولما قتل مروان كان عمره اثنتين وستين سنة، وقيل: تسعاً وستين سنة؛ وكانت ولايته من حين بويج إلى أن قتل خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوماً؛ وكان يكنى أبا عبد الملك؛ وكانت أمه أم ولد كردية، كانت لإبراهيم بن الأشتر، أخذها محمد بن مروان يوم قتل إبراهيم فولدت مروان (٤٢٩/٥) فلها قال عبد الله بن عياش المشرف للسفاح: الحمد لله الذي أبدلنا بحمار الجزيرة وابن أمة النخع ابن عم رسول الله ﷺ ابن عبد المطلب.

وكان مروان يلقب بالحمار والجعدي لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك، وقيل: إن الجعد كان زنديقاً، وعظه ميمون بن مهران فقال: لشاء فباذ أحب إلي مما تدين به. فقال له: قتلك الله، وهو قاتلك، وشهد عليه ميمون، وطلبه هشام فظفر به وسيره إلى خالد القسري فقتله، فكان الناس يذمون مروان بنسبه إليه.

وكان مروان أبيض أشهل شديد الشبهة، ضخم الهامة، كث اللحية أبيضها، ربعة؛ وكان شجاعاً حازماً إلا أن مدته انقضت فلم ينفعه حزمه ولا شجاعته.

* (عياش بالياء تحتها نقطتان، والشين المعجمة).

ذكر من قتل من بني أمية

دخل سُديف على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه، فقال سُديف:

لا يغترك ما ترى من الرجال إن تحت الضلوع داءً ذوياً
فقصع السيف وأرفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمراً
فقال سليمان: قتلتي يا شيخ! ودخل السفاح، وأخذ سليمان فقتل. (٤٣٠/٥)

ودخل شَيْبَل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلاً على الطعام، فأقبل عليه شَيْبَل فقال:

أصبح الملك ثابت الأساس بالهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فقتلوا بعد ميل من الزمان وباس
لا تقبلن عيشة شمس عشاراً واقطنن كل رقعة وغراس
فلها أظهر التوردة منها وبها منكم كحر المواسي

ولقد غاظني وغاز سوائي
فَرُبُّهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَاسِي
أَنْزَلُوهَا بَيْحَتْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ
سَهْ بَدَارِ الْهَوَانِ وَالْإِتِّعَاسِ
وَأَذْكُرُوا مَصْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدًا
وَقِتْلًا بِجَلَاتِيْبِ الْهَوَاسِ
وَالْقِتْلَ الَّذِي بَحَرَانَ أَصْحَى
ثَلَاثًا يَنْزِلُ غُرَّةً وَتَلَاثًا

فأمر بهم عبد الله فضرُّوا بالعمد حتَّى قتلوا، ويسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتَّى ماتوا جميعاً، وأمر عبد الله ابن علي بنش قبور بني أمية بدمشق، فنُش قبر معاوية بن أبي سفيان، فلم يجدوا فيه إلَّا خيطاً مثل الهباء، ونُش قبر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد، ونُش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته، وكان لا يوجد في القبر [إلَّا] العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وُجد صحيحاً لم يبل منه إلَّا أرنبة أنفه، فضره بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح.

وتتبع بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم، ولم يفلت منهم إلَّا رضيع أو من هرب إلى الأندلس، فقتلهم بنهر أبي فطرُس، وكان فيمن قُتل: محمد بن عبد الملك بن مروان، والغُمر بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وسعيد بن عبد الملك، وقيل: إنه مات قبل (٤٣١/٥) ذلك، وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك، وقيل: إن إبراهيم بن يزيد المخلوع قُتل معهم، واستصفى كل شيء لهم من مال وغير ذلك؛ فلما فرغ منهم قال:

بني أمية قد أفنيْتُ جمعَكُم
فكيف لي منكم بالأوَّل الماضي
يُطِيبُ النَّفْسُ أَنْ النَّارَ تَجْمَعَكُم
عُرُضْتُمْ [بِ] لَظَاهَا شَرُّ مُتَاصِرٍ
منينم، لا أقال الله عثرَكم،
بليد غاب إلى الأعداء نهاضٍ
إن كان غِيظي لَفُوتَ منكم فلفد
ميت منكم بما رسي به راضٍ
وقيل: إن سُدَيْفًا أنشد هذا الشعر للسفاح ومعه كانت الحادثة، وهو الذي قتلهم.

وقتل سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة أيضاً جماعة من بني أمية عليهم الثياب الموشية المرتفعة وأمر بهم فجروا بأرجلهم فألقوا على الطريق فاكلتهم الكلاب.

فلما رأى بنو أمية ذلك اشتد خوفهم وتشت شملهم واختفى من قدر على الاختفاء، وكان ممن اختفى منهم عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان ابن عتبة بن أبي سفيان. قال: وكنت لا آتي مكاناً إلَّا عرفت فيه، فضاقت علي الأرض، فقدمت [على] سليمان بن علي، وهو لا يعرفني، فقلت: لفقتني البلاد إليك، ودلني فضلك عليك، فإما تلتني فاسترحت، وإما رددتني سالماً فأمنت. فقال: ومن أنت؟ فعرفته نفسي، فقال: مرحباً بك، ما حاجتك؟ فقلت: إن الحرم اللواتي أنت أولى الناس بهن وأقربهم إليهن قد خفن لخوفنا

ومن خاف خيف عليه. قال: فبكى كثيراً ثم قال: يحقن الله (٤٣٢/٥) دمك ويوفر مالك ويحفظ حرمك. ثم كتب إلى السفاح: يا أمير المؤمنين إنه قد وفد وفد من بني أمية علينا، وإننا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم، فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقتل وترفع ولا ترضع، فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل، وإن فعل فليجعل كتاباً عاماً إلى البلدان تشكر الله تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا. فأجابته إلى ما سأل، فكان هذا أول أمان بني أمية.

ذكر خلع حبيب بن مرة المري

وفي هذه السنة بيض حبيب بن مرة وخلع هو ومن معه من أهل البثينة وخوزان، وكان خلعهم قبل خلع أبي الورد، فسار إليه عبد الله وقتله دفعات، وكان حبيب من قواد مروان وفرسانه.

وكان سبب تبييضه الخوف على نفسه وقومه، فبايعته قيس وغيرهم ممن يليهم. فلما بلغ عبد الله خروج أبي الورد وتبييضه دعا حبيباً إلى الصلح، فصالحه وأمنه ومن معه وسار نحو أبي الورد.

ذكر خلع أبي الورد وأهل دمشق

وفيهما خلع أبو الورد مجزة بن الكواثر بن زفر بن الحارث الكلابي، وكان من أصحاب مروان وقواده. (٤٣٣/٥) وكان سبب ذلك أن مروان لما انهزم قام أبو الورد بفئسرين، فقدمها عبد الله بن علي فبايعه أبو الورد ودخل فيما دخل فيه جند، وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالس والناعورة، فقدم بالبس قائد من قواد عبد الله بن علي فبعث بولد مسلمة ونسائهم، فشكا بعضهم ذلك إلى أبي الورد، فخرج من مزرعة [له] يقال لها خُساف فقتل ذلك القائد ومن معه وأظهر التبييض والخلع لعبد الله، ودعا أهل قسرين إلى ذلك، فبيضوا أجمعهم، والسفاح يومئذ بالحيرة، وعبد الله بن علي مشغل بحرب حبيب بن مرة المري بأرض البلقاء وحوارن والبثينة، على ما ذكرناه.

فلما بلغ عبد الله تبييض أهل قسرين وخلعهم صالح حبيب بن مرة وسار نحو قسرين للقاء أبي الورد، فمر بدمشق فخلع بها أبا غانم عبد الحميد بن ربيع الطائي في أربعة آلاف، وكان بدمشق أهل عبد الله وأمهات أولاده ونقله، فلما قدم جُمُص انتقض له أهل دمشق وبيضوا وقاموا مع عثمان بن عبد الأعلى بن سُرقة الأزدي فلحقوا أبا غانم ومن معه فهزموه وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة واتهبوا ما كان عبد الله خلف من نقله ولم يعرضوا لأهله واجتمعوا على الخلاف. وسار عبد الله، وكان قد اجتمع مع أبي الورد جماعة [من] أهل قسرين وكتبوا من يليهم من أهل حمص وتدمر، فقدم منهم الوفاء عليهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن

معاوية، ودعوا إليه، وقالوا: هذا السفيناني الذي كان يُذكر، وهم في نحو من أربعين ألفاً، فعسكروا بمرج الأخرم، ودنا منهم عبد الله بن عليّ ووجه إليهم أخاه عبد الصمد بن عليّ في عشرة آلاف، وكان أبو الورد هو المدير لعسكر قنسرين وصاحب القتال، فناهضهم القتال، وكثر القتل في الفريقين، وانكشف عبد الصمد ومن معه، وقتل منهم ألوف ولحق بأخيه عبد الله. (٤٣٤/٥)

وكتب السفاح إلى عبد الله بن عليّ يأمره أن يسير في جنوده إلى سميساط، فسار حتى نزل بإزاء إسحاق بسميساط، وإسحاق في ستين ألفاً وبينهم الفرات، وأقبل أبو جعفر من الرهاء وحاصر إسحاق بسميساط سبعة أشهر، وكان إسحاق يقول: في عني بيعة، فانا لا أدعها حتى أعلم أنّ صاحبها مات أو قُتل.

فارس إلى أبي جعفر: إنّ مروان قد قُتل. فقال: حتى أتيت. فلما تبين قتل طلب الصلح والأسان، فكتبوا إلى السفاح بذلك وأمرهم أن يؤمنوه ومن معه، فكتبوا بينهم كتاباً بذلك، وخرج إسحاق إلى أبي جعفر، وكان عنده من أثر صحابته، واستقام أهل الجزيرة والشام، وولى أبو العباس أخاه أبا جعفر الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، فلم يزل عليها حتى استخلف.

وقد قيل: إنّ عبيد الله بن عليّ هو الذي آمن إسحاق بن سلم.

(٤٣٦/٥)

ذكر قتل أبي سَلَمَةَ الخلال وسليمان بن كثير

قد ذكرنا ما كان من أبي سَلَمَةَ في أمر أبي العباس السفاح ومن كان معه من بني هاشم عند قدومهم الكوفة بحيث صار عندهم منهم، وتغير السفاح عليه وهو بعسكره بحمام أعين، ثم تحول عنه إلى المدينة الهاشمية فنزل قصر الإمارة بها وهو متكر لأبي سلمة. وكتب إلى أبي مسلم يُعلمه رأيه فيه وما كان همّ به من الغش، وكتب إليه أبو مسلم: إن كان أمير المؤمنين اطلع على ذلك منه فليقتله.

فقال داود بن عليّ للسفاح: لا تفعل يا أمير المؤمنين فيحتج بها أبو مسلم عليك وأهل خراسان الذين معك أصحابه، وحاله فيهم حاله، ولكن اكتب إلى أبي مسلم فليبعث إليه من يقتله.

فكتب إليه، فبعث أبو مسلم مرار بن أنس الضبي لقتله، فقدم على السفاح فأعلمه بسبب قدومه، فأمر السفاح منادياً فنادى: إنّ أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سَلَمَةَ ودعاه فكساه، ثم دخل عليه بعد ذلك ليلة فلم يزل عنده حتى ذهب عامة الليل، ثم انصرف إلى منزله وحده، فعرض له مرار بن أنس ومن معه من أعوانه فقتلوه وقالوا: قتله الخوارج، ثم أخرج من الغد فصلّى عليه يحيى بن محمد بن عليّ ودُفن بالمدينة الهاشمية عند الكوفة، فقال سليمان بن المهاجر البجلي.

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشاك صار وزيراً وكان يقال لأبي سَلَمَةَ: وزير آل محمد، ولأبي مسلم: أمير آل محمد.

فأقبل عبد الله معه وجماعة القواد فالتقوا ثانية بمرج الأخرم فاقتلوا قتلاً شديداً، وثبت عبد الله، فانهزم أصحاب أبي الورد وثبت هو في نحو من خمسمائة من قومه وأصحابه فقتلوا جميعاً، وهرب أبو محمد ومن معه حتى لحقوا بتدمر، وأمن عبد الله أهل قنسرين وسودوا وباعوه ودخلوا في طاعته.

ثم انصرف راجعاً إلى أهل دمشق لما كان من تبييضهم [عليه]، فلما دنا منهم هرب الناس ولم يكن منهم قتال، وأمن عبد الله أهلها وباعوه ولم يأخذهم بما كان منهم.

ولم يزل أبو محمد السفيناني متغيّباً هارباً ولحق بأرض الحجاز وبقي كذلك إلى أيام المنصور، فبلغ زياد بن عبد الله الحارثي عامل المنصور مكانه، فبعث إليه خيلاً فقاتلوه وقتلوه وأخذوا أبيّس له أسيرين، فبعث زياد برأس أبي محمد بن عبد الله السفيناني وبأبيه، فأطلقهما المنصور وأمنهما.

وقيل: إنّ حرب عبد الله وأبي الورد كانت سُلخ ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة.

ذكر تبييض أهل الجزيرة وخلقهم

وفي هذه السنة بيّض أهل الجزيرة وخلقوا أبا العباس السفاح وساروا إلى حران وبها موسى بن كعب في ثلاثة آلاف من جند السفاح فحاصروه بها وليس على أهل الجزيرة رأس يجمعهم، فقدم عليهم إسحاق سلم المُقيليّ من أرمينية، وكان سار عنها حين بلغه هزيمة مروان، فاجتمع عليه أهل الجزيرة وحاصر موسى بن كعب نحواً من الشهرين. (٤٣٥/٥)

ووجه أبو العباس السفاح أخاه أبا جعفر فيمن كان معه من الجنود بواسط محاصرين ابن هُبَيْرَةَ، فسار فاجتاز بقرقيسيا والرقة وأهلها قد تبيّضوا، وسار نحو حران، فرحل إسحاق بن مسلم إلى الرهاء، وذلك سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وخرج موسى بن كعب من حران فلقي أبا جعفر.

ووجه إسحاق بن سلم أخاه بكّار بن سلم إلى ربيعة بدارا وماردين، ورئيس ربيعة يومئذ رجل من الخوارج يقال له بُرَيْكَةَ، فعمد إليهم أبو جعفر فلقهم، فقاتلوه قتلاً شديداً، وقتل بُرَيْكَةَ في المعركة، وانصرف بكّار إلى أخيه إسحاق بالرهاء، فخلّفه إسحاق

فلما قُتل أبو سلمة وجّه السّفاح أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم، فلما قدم على أبي مسلم سايه عبيد الله بن الحسن الأخرج وسليمان بن كثير، فقال (٤٣٧/٥) سليمان بن كثير لعبيد الله: يا هذا إنّنا كنّا نرجو أن يتمّ أمركم، فإذا شتمّ فادعونا إلى ما تريدون. فظنّ عبيد الله أنّه دسيس من أبي مسلم، فأتى أبا مسلم فأخبره وخاف أن يُعلمه أن يقتله، فأحضر أبو مسلم سليمان بن كثير وقال له: اتّحفظ قول الإمام لي من اتهمته فاقته؟ قال: نعم. قال: فإني قد اتهمتك. قال: أشدك الله! قال: لا تناشدني، فأنت منطوي على غشّ الإمام، وأمر بضرب عنقه.

ورجع أبو جعفر إلى السّفاح فقال: لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله. قال: وكيف؟ قال: والله ما يصنع إلا ما أراد. قال أبو العباس: فاكتمها.

وقد قيل: إنّ أبا جعفر إنّما سار إلى أبي مسلم قبل أن يُقتل أبو سلّمة.

وكان سبب ذلك أنّ السّفاح لما ظهر تذاكروا ما صنع أبو سلّمة فقال بعض من هناك: لعلّ ما صنع كان من رأي أبي مسلم. فقال السّفاح: لئن كان هذا عن رأيي إنّنا لنعرفنّ بلاء إلا أن يدفعه الله عنا. وأرسل أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم ليعلم رأيّه. فسار إليه وأعلمه ما كان من أبي سلمة، فأرسل مرار بن أنس فقتله.

ذكر محاضرة ابن هبيرة بواسط

قد ذكرنا ما كان من أمر يزيد بن هبيرة والجيش الذي لقوه من أهل خراسان مع قحطبة، ثمّ مع ابنه الحسن، وانهزماه إلى واسط وتحصّنه بها، وكان (٤٣٨/٥) لما انهزم قد وكلّ بالأقوال قوماً، فذهبوا بها، فقال له خوثرّة: أين تذهب وقد قُتل صاحبهم؟ يعني قحطبة، امض إلى الكوفة ومعك جند كثير، فقاتلهم حتّى تقتل أو تظفر. قال: بل ناتي واسطاً فننظر. قال: ما تزيد على أن تمكّنه من نفسك وتقتل.

وقال يحيى بن خضّين: إنّك لو تأتي مروان بشيء أحبّ إليه من هذه الجنود، فالزم الفرات حتّى تأتيه، وإيّاك وواسطاً فتصير في حصار وليس بعد الحصر إلاّ القتل. فأبى.

وكان يخاف مروان لأنّه كان يكتب إليه بالأمر فيخالفه، فخاف أن يقتله، فأتى واسطاً فتحصّن بها؛ وسير أبو سلّمة إليه الحسن بن قحطبة فحصره، وأولّ وقعة كانت بينهم يوم الأربعاء. قال أهل الشام لابن هبيرة: ايذن لنا في قتالهم. فأذن لهم، فخرجوا وخرج ابن هبيرة وعلى ميمته ابنه داود، فالتقوا وعلى ميمته الحسن خازم بن خزّيمة، فحمل خازم على ابن هبيرة، فانهزم هو ومنّ معه وغصّ الباب بالناس، ورمى أصحابه بالعرادات، ورجع أهل الشام، فكرر

عليهم الحسن واضطّروهم إلى دجلة، ففرق منهم ناس كثير، فتلقّوهم بالسفن وتجاوزوا، فمكثوا سبعة أيّام ثمّ خرجوا إليهم فاقتلوا وانهزم أهل الشام هزيمة قبيحة، فدخلوا المدينة، فمكثوا ما شاء الله لا يقاتلون إلاّ رمياً.

وبلغ ابن هبيرة، وهو في الحصار، أنّ أبا أميّة التغلبيّ قد سوّد فآخذه وحبسه، فتكلّم ناس من ربيعة في ذلك ومعن بن زائدة الشيباني وأخذوا ثلاثة (٤٣٩/٥) نفر من فزارة رهط ابن هبيرة فحبسوهم. وشتّموا ابن هبيرة وقالوا: لا نترك ما في أيدينا حتّى يترك ابن هبيرة صاحبنا. وأبى ابن هبيرة أن يطلقه، فاعتزل معن وعبد الرحمن بن بشير العجلبيّ فيمنّ معهما. فقبل لابن هبيرة: هؤلاء فرسانك قد أسدّتهم، وإنّ تماديت في ذلك كانوا أشدّ عليك ممّن حصرك. فدعا أبا أميّة فكساه وخلّى سبيله، فاصطلحوا وعادوا إلى ما كانوا عليه.

وقدم أبو نصر مالك بن الهيثم من ناحية سيجستان إلى الحسن، فأوفد الحسن وفداً إلى السّفاح يقدم أبي نصر عليه، وجعل على الوفد غيلان بن عبد الله الخزاعي، وكان غيلان واجداً على الحسن لأنّه سرّحه إلى رَوْح بن حاتم مدداً له، فلما قدم على السّفاح وقال: أشهد أنّك أمير المؤمنين، وأنك حبل الله المتين، وأنك إمام المتقين. قال: حاجتك يا غيلان؟ قال: استغفرك. قال: غفر الله لك. قال غيلان: يا أمير المؤمنين منّ علينا برجل من [أهل] بيتك. قال: أوليس عليكم رجل من أهل بيتي الحسن بن قحطبة؟ قال: يا أمير المؤمنين منّ علينا برجل من أهل بيتك ننظر إلى وجهه ونقرّ عيننا به. فبعث أخاه أبا جعفر لقتال ابن هبيرة عند رجوعه من خراسان. وكتب إلى الحسن: إنّ العسكر عسكرك، والقواد قوادك، ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً، فاسمع له وأطع وأحسن موازرتة. وكتب إلى مالك بن الهيثم بمثل ذلك. وكان الحسن هو المدبّر لأمر ذلك العسكر.

فلما قدم أبو جعفر المنصور على الحسن تحول الحسن عن خيمته وأنزله فيها، وجعل الحسن على حرس المنصور عثمان بن نهيك.

وقاتلهم مالك بن الهيثم يوماً فانهزم أهل الشام إلى خنادقهم وقد كمن لهم (٤٤٠/٥) معن وأبو يحيى الجذامي. فلما جازهم أصحاب مالك خرجوا عليهم فقاتلوهم حتّى جاء الليل، وابن هبيرة على برج الخلائين، فاقتلوا ما شاء الله من الليل، وسرّح ابن هبيرة إلى معن يأمره بالانصراف، فانصرف، فمكثوا أيّاماً، وخرج أهل واسط أيضاً مع معن ومحمّد بن نبّاسة، فقاتلهم أصحاب الحسن فهزموهم إلى دجلة حتّى تساقطوا فيها ورجعوا وقد قُتل ولد مالك بن الهيثم، فلما رآه أبوه قتيلاً قال: لعن الله الحياة بعدك! ثمّ حملوا

على أهل واسط فقاتلهم حتى أدخلوهم المدينة.

قلته.

فغزم على قتله، فبعث خازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة بن ظهير وأمرهما بختم بيوت الأموال، ثم بعث إلى وجهه من مع ابن هيرة من القيسية والمضاربة فاحضرهم، فاقبل محمد بن نبانة وخوثره بن سهيل في اثنين وعشرين رجلاً، فخرج سلام بن سليم فقال: أين ابن نبانة وخوثره؟ (٤٤٢/٥) فدخلا وقد اجلس أبو جعفر عثمان بن نهيك وغيره في مائة في حجرة دون حجرته، فترعت سيوفهما وكفأ، واستدعى رجلين رجلين يفعل بهما مثل ذلك، فقال بعضهم: أعطينا عهد الله ثم غدرتم بنا! إنا لنرجو أن يذركم الله! وجعل ابن نبانة يضرب في لحية نفسه وقال: كأي كنت أنظر إلى هذا؟.

وانطلق خازم والهيثم بن شعبة في نحو من مائة إلى ابن هيرة فقالوا: نريد حمل المال. فقال لحاجبه: دلهم على الخزان. فأقاموا عند كل بيت نفراً، وأقبلوا نحوه وعنده ابنه داود وعدة من مواليه وبني له صغير في حجره. فلما أقبلوا نحوه قام حاجبه في وجوههم، فضربه الهيثم بن شعبة على حبل عاتقه فصرعه، وقاتل ابنه داود، وأقبل هو إليه ونحى ابنه من حجره فقال: دونكم هذا الصبي، وخر ساجداً فقتل؛ وحملت رؤوسهم إلى أبي جعفر، ونادى بالأمان للناس إلا الحكم بن عبد الملك بن بشر، وخالد بن سلمة المخزومي، وعمر بن ذر، فاستأمن زياد بن عبد الله لابن ذر، فأمنه، وهرب الحكم، وأمن أبو جعفر خالداً فقتله السفاح ولم يجز أمان أبي جعفر، فقال أبو العطاء السدي يري ابن هيرة:

الا إن عينا لم تجد يروم واسط عليك بجاري دمعها لجمود
عشية قام الناححات وشفقت اكف بايدي ماتم وخذود
فإن تمس مهجور الفناء فرمسا أقام به بعد الوفود وفرد
فذلك لم تبعذ على متهدب بلى كل من تحت التراب بعيد
(٤٤٣/٥)

ذكر قتل عمال أبي سلمة بفارس

وفي هذه السنة وجه أبو مسلم الخراساني محمد بن الأشعث على فارس وأمره أن يقتل عمال أبي سلمة، ففعل ذلك، فوجه السفاح عمه عيسى بن علي إلى فارس، وعليها محمد بن الأشعث، فأراد محمد قتل عيسى، فقبل له: إن هذا لا يسوغ لك. فقال: بلى أمرني أبو مسلم أن لا يقدم أحد علي يدعي الولاية من غيره إلا ضربت عنقه؛ ثم ترك عيسى خوفاً من عاقبة قتله واستحلف عيسى بالأيمان المحرجة أن لا يعلو متبراً ولا يتقلد سيفاً إلا في جهاد، فلم يل عيسى بعد ذلك ولاية ولا تقلد سيفاً إلا في غزو، ثم وجه السفاح بعد ذلك إسماعيل بن علي والياً على فارس.

وكان مالك يملأ السفن خطباً ثم يضرها ناراً لتتحرق ما سرت به، فكان ابن هيرة يجز تلك السفن بكلايب، فمكثوا كذلك أحد عشر شهراً.

فلما طال عليهم الحصار طلبوا الصلح، ولم يطلبوه حتى جاءهم خير قتل مروان، أنأهم به إسماعيل بن عبد الله القسري وقال لهم: علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان؟ وتجتى أصحاب ابن هيرة عليه، فقالت اليمانية: لا نعين مروان وآثاره فينا. وقالت النزارية: لا نقاتل حتى نقاتل معنا اليمانية، وكان يقاتل معه صعاليك الناس وفتيانهم.

وهم ابن هيرة بأن يدعو إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي، فكتب إليه، فأبطأ جوابه، وكتب السفاح اليمانية من أصحاب ابن هيرة وأطعمهم، فخرج إليه زياد بن صالح وزيد بن عبد الله الحارثيان ووعدا ابن هيرة أن يصلح له ناحية ابن العباس، فلم يفعل، وجرت السفراء بين أبي جعفر وابن هيرة حتى جعل له أماناً وكتب به كتاباً مكث ابن هيرة يشار فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه فانفذه إلى أبي جعفر إلى أخيه السفاح فأمره بإمضائه.

وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه، وكان السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم، وكان أبو الجهم عينا لأبي مسلم على السفاح، فكتب السفاح (٤٤١/٥) إلى أبي مسلم يخبره أمر ابن هيرة، فكتب أبو مسلم إليه: إن الطريق السهل إذا لقيت فيه الحجارة فسد، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هيرة.

ولما تم الكتاب خرج ابن هيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة [من البخارية]، وأراد أن يدخل على دابته، فقام إليه الحاجب سلام بن سليم فقال: مرحباً [بك] أبا خالد، انزل راشداً وقد أطاف بحجرة المنصور عشرة آلاف من أهل خراسان، فنزل، ودعا له بوسادة ليجلس عليها، وأدخل القواد ثم أذن لابن هيرة وحده، فدخل وحادثه ساعة ثم قام ثم مكث يأتيه يوماً ويتركة يوماً، فكان يأتيه في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل. فقبل لأبي جعفر: إن ابن هيرة ليأتي فيضعضع له العسكر وما نقص من سلطانه شيء. فأمره أبو جعفر: إن ابن هيرة ليأتي فيضعضع له العسكر وما نقص من سلطانه شيء. فأمره أبو جعفر أن لا يأتي إلا في حاشيته، فكان يأتي في ثلاثين، ثم صار يأتي في ثلاثة أو أربعة.

وكلم ابن هيرة المنصور يوماً، فقال له ابن هيرة: يا هناء! أو: يا أيها المرء! ثم رجع فقال: أيها الأمير إن عهدي بكلام الناس بمثل ما خاطبتك به لأقرب فسبقتي لسانني إلى ما لم أرد. فالح السفاح على أبي جعفر يأمره بقتل ابن هيرة وهو يراجع حتى كتب إليه: والله لتقتله أو لأرسلن إليه من يخرججه من حجرتك ثم يتولى

ذكر ولاية يحيى بن محمد الموصل وما قيل فيها

وفي هذه السنة استعمل السفاح أخاه يحيى بن محمد على الموصل عوض محمد بن صول.

وكان سبب ذلك أن أهل الموصل امتنعوا من طاعة محمد بن صول، وقالوا: يلي علينا مولى الخثعم، وأخرجوه عنهم. فكتب إلى السفاح بذلك واستعمل عليهم أخاه يحيى بن محمد وسيّره إليها في اثني عشر ألف رجل، فنزل قصر الإمارة بجانب مسجد الجامع، ولم يظهر لأهل الموصل شيئاً يتكرونها. (٤٤٤/٥)

ولم يعترضهم فيما يفعلونه، ثم دعاهم فقتل منهم اثني عشر رجلاً، فنفر أهل البلد وحملوا السلاح، فأعطاهم الأمان، وأمر فنودي: من دخل الجامع فهو آمن؛ فأتاه الناس يهرعون إليه، فأقام يحيى الرجال على أبواب الجامع، فقتلوا الناس قتلاً ذريعاً أسرفوا فيه، فقيل: إنه قتل فيه أحد عشر ألفاً ممن له خاتم وممن ليس له خاتم خلقاً كثيراً.

فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قُتل رجالهنّ، فسأل عن ذلك الصوت، فأخبر به، فقال: إذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان. ففعلوا ذلك، وقتل منهم ثلاثة أيام، وكان في عسكره قائد معه أربعة آلاف زنيجي، فأخذوا النساء قهراً.

فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل في اليوم الثالث ركب اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلوّة، فاعترضته امرأة وأخذت بعتان دابته، فأراد أصحابه قتلها فنهاهم عن ذلك، فقالت له: ألسنت من بني هاشم؟ ألسنت ابن عم رسول الله، ﷺ؟ أما تأنف للعربيات المسلمات أن ينكحهنّ الزنج؟ فأمسك عن جوابها وسيّر معها من يبلغها مأمنها، وقد عمل كلاهما فيه. فلما كان الغد جمع الزنج للعتاء، فاجتمعوا، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم.

وقيل: كان السبب في قتل أهل الموصل ما ظهر منهم من محبة بني أمية وكراهة بني العباس، وأن امرأة غسلت رأسها وألقت الخطمي من السطح فوقع على رأس بعض الخراسانية فظنّها فعلت ذلك تعمداً، فهاجم الدار، وقتل أهلها، فثار أهل البلد وقتلوه، وثار الفتنه.

وفيمت قتل معروف بن أبي معروف، وكان زاهداً عابداً، وقد أدرك كثيراً من الصحابة وروى عنهم. (٤٤٥/٥)

ذكر عدة حوادث

وفيهما وجه السفاح أخاه المنصور والياً على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، وفيها عزل عمه داود بن علي عن الكوفة وسوداها وولاه المدينة ومكة واليمن واليمامة، وولى موضعه من عمل الكوفة ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد، فاستقضى عيسى على الكوفة ابن أبي ليلي.

وكان العامل على البصرة هذه السنة مفيان بن عثينة المهلبّي، وعلى قضائها الحجاج بن أوطاة، وعلى السند منصور بن جهمور، وعلى فارس محمد بن الأشعث، وعلى الجزيرة وأرمينية وأذربيجان أبو جعفر بن محمد بن علي، وعلى الموصل يحيى بن محمد بن علي، وعلى الشام عبد الله بن علي، وعلى مصر أبو عون عبد الملك بن يزيد، وعلى خراسان والجبّال أبو مسلم، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك.

وحج بالناس هذه السنة داود بن علي.

وفيهما مات عبد الله بن أبي نجیح، وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري.

وفيهما قتل يحيى بن معاوية بن هشام بن عبد الملك مع مروان بن محمد بالزّباب، ويحيى أخو عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس.

وفيهما قتل يونس مغيرة بن حلين بدمشق لما دخلها عبد الله بن علي، وكان عمره عشرين ومائة سنة، قتله رجلان من خراسان ولم يعرفاه، فلما عرفاه بكيا عليه، وقيل: بل عضته دابة من دوابه فقتلته، وكان ضريباً.

وفيهما مات صفوان بن سليم مولى حميد بن عبد الرحمن.

وفيهما توفي محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بالمدينة، وكان قاضياً.

وفيهما مات همام بن مئنه. وعبد الله (٤٤٦/٥) ابن عوف. وسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت الأنصاري. وخبيب بن عبد الرحمن بن خبيب بن يسار الأنصاري، وهو خال عبيد الله بن عمر العمري؛ (خبيب بضم الخاء المعجمة، وفتح الباء الموحدة).

وعمارة بن أبي حفصة، واسم أبي حفصة ثابت مولى العتيك بن الأزد، وهو والد حرمي، كنيته أبو روح؛ (حرمي بفتح الحاء والراء المهملتين).

وفيهما توفي عبد الله بن طاووس بن كيسان الهمداني من عباد أهل اليمن وفقهائهم. (٤٤٧/٥)

سنة ثلاث وثلاثين ومائة

ذكر مالك الروم ملطية

في هذه السنة أقبل قسطنطين، ملك الروم، إلى ملطية وكمنخ، فنازل كمنخ، فأرسل أهلها إلى أهل ملطية يستجدونهم، فصار إليهم منها ثمانمائة مقاتل، فقاتلهم الروم، فانهزم المسلمون، ونازل الروم ملطية وحصروها، والجزيرة يومئذ مفتونة بما ذكرناه، وعاملها موسى بن كعب بخران.

دخلوا بلد الترك وانتهوا إلى ملك الصين، وأخذ أبو داود مَنْ ظفر به منهم فبعث بهم إلى أبي مسلم.

وفيها قُتل عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب بالموصل، قتله سليمان الذي يقال له الأسود بأمان كتبه له.

وفيها وجّه صالح بن عليّ سعيد بن عبد الله ليغزو الصائفة وراء الدروب.

وفيها غُزل يحيى بن محمد عن الموصل واستعمل مكانه إسماعيل بن عليّ. وإنما غُزل يحيى لقتله أهل الموصل وسوء أثره فيهم.

وحجّ بالناس هذه السنة زياد بن عبد الله الحارثي. وكان العمالُ مَنْ ذكرنا إلّا الحجاز واليمن والموصل فقد ذكرنا مَنْ استعمل عليها.

وفيها تخالف إخشيد فرغانة وملك الشاش، فاستمدّ إخشيد ملك الصين فأمده بمائة ألف مقاتل، فحاصروا ملك الشاش، فنزل على حكم ملك الصين، فلم يتعرّض له ولأصحابه بما يسوءهم، وبلغ الخبر أبا مسلم فوجه إلى حربهم زياد بن صالح، فالتقوا على نهر طراز فظفر بهم المسلمون وقتلوا منهم زهاء خمسين ألفاً وأسروا نحو عشرين ألفاً وهرب الباقيون إلى الصين؛ وكانت الواقعة في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين.

وفيها توفي مروان بن أبي سعيد. وابن المعلّى الزُّرقانيّ الأنصاريّ. وعليّ بن بذيمة مولى جابر بن سمرة السَّوَّائيّ.

(بذيمة بفتح الباء الموحدة، وكسر الذال المعجمة). (٤٥٠/٥)

سنة أربع وثلاثين ومائة

[ذكر خلع بسام بن إبراهيم]

وفي هذه السنة خلع بسام بن إبراهيم بن بسام، وكان من فرسان أهل خراسان، وسار من عسكر السفّاح هو وجماعة على رايه سرّاً إلى المدائن، فوجه إليه السفّاح خازم بن خزّيمة، فاقتلوا، فانهزم بسام وأصحابه وقتل أكثرهم وقتل كلٌّ من لحقه منهزماً؛ ثمّ انصرف فمرّ بذات المطامير، وبها أخوال السفّاح من بني عبد المدان، وهم خمسة وثلاثون رجلاً، ومن غيرهم ثمانية عشر رجلاً، ومن موالهم سبعة عشر، فلم يسلم عليهم؛ فلما جازهم شتموه، وكان في قلبه عليهم [ما كان] لما بلغه [عنهم] من حال المغيرة بن الفزّع وأنه لجأ إليهم، وكان من أصحاب بسام، فرجع إليهم وسألهم عن المغيرة، فقالوا: مرّ بنا رجل مجتاز لا نعرفه فأقام في قريتنا ليلة ثمّ خرج عنا. فقال لهم: أنتم أخوال أمير

فأرسل قسطنطين إلى أهل ملطية: إنّي لم أحصركم إلّا على علم من المسلمين واختلافهم، فلکم الأمان وتعودون إلى بلاد المسلمين حتّى أحترت ملطية. فلم يجيبوه إلى ذلك، فنصب المجانيق، فأذعنوا وسلّموا البلاد على الأمان وانتقلوا إلى بلاد الإسلام وحملوا ما أمكنهم حملة، وما لم يقدروا على حملة القوه في الآبار والمجاري.

فلما ساروا عنها أخربها الرومُ ورحلوا عنها عائدتين، وتفرّق أهلها في بلاد الجزيرة، وسار ملك الروم إلى قايقلّا فنزل مرجّ الخصي، وأرسل كوشان الأرمنيّ فحصرها، فنقب إخوان من الأرمن من أهل المدينة ردماً كان في سورها، فدخل كوشان ومن معه المدينة وغلّبوا عليها وقتلوا رجالها وسبوا النساء وساق القنائم إلى ملك الروم. (٤٤٨/٥)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وجّه السفّاح عمّه سليمان بن عليّ والياً على البصرة وأعمالها وكُوِّر دجلة والبحرين وعمان ويهرجاندق، واستعمل عمّه إسماعيل عليّ على الأهواز.

وفيها قتل داود بن عليّ من ظفر به من بني أمية بمكة والمدينة، ولما أراد قتلهم قال له عبد الله بن الحسن بن الحسن: يا أخي إذا قتل هؤلاء فمنّ تباهي بملكه؟ أما يكفيك أن يروك غادياً ورائحاً فيما يذلّهم ويسوءهم؟ فلم يقبل منه وقتلهم.

وفيها مات داود بن عليّ بالمدينة في شهر ربيع الأول، واستخلف حين حضرته الوفاة ابنه موسى، ولما بلغت السفّاح وفاته استعمل على مكة والمدينة والطائف واليمامة خاله زياد بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي، ووجه محمد بن يزيد بن عبد الله بن عبد المدان على اليمن. فلما قدم زياد المدينة وجّه إبراهيم بن حسان السلمي، هو أبو حماد الأبرص بن المشي، إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، وهو باليمامة، فقتله وقتل أصحابه.

وفيها توجه محمد بن الأشعث إلى إفريقية فقاتل أهلها قتالاً شديداً حتّى فتحها. وفيها خرج شريك بن شيخ المهريّ ببخارى على أبي مسلم ونقم عليه وقال: ما على هذا اتبعنا آل محمد، أن تُسفك الدماء وأن يُعمل بغير الحقّ؟ وتبعه على رايه أكثر من ثلاثين ألفاً، فوجه إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله، وقتله زياد.

وفيها توجه أبو داود خالد بن إبراهيم إلى الختل فدخلها، ولم يمتنع (٤٤٩/٥) عليه خبيش بن الشبل ملكها بل تحصّن منه هو وأناس من الدهاقين، فلما ألح عليه أبو داود خرج من الحصن هو ومن معه من دهاقينه وشاكرته حتّى انتهوا إلى أرض فرغانة، ثمّ

المؤمنين يأتيتكم عدوه ويأمن في قريبتكم! فهلاً اجتمعتم فأخذتموها فأغلظوا له في الجواب، فأمر بهم ففُصِّرَتْ أعناقهم جميعاً وهدم دورهم ونهب أموالهم ثم انصرف.

فبلغ ذلك اليمانية فاجتمعوا، ودخل زياد بن عبد الله الحارثي معهم على السفاح، فقالوا: له إن خازماً اجترأ عليك واستخف بحقك وقاتل أخوالك (٤٥١/٥) الذين قطعوا البلاد وأتوك معتزّين بك طالبين معروفك حتى صاروا في جوارك، قتلهم خازم وهدم دورهم ونهب أموالهم بلا حدث أحدثوه. فهم يقتل خازم فبلغ ذلك موسى بن كعب وأبا الجهم بن عطية، فدخلوا على السفاح وقالوا: يا أمير المؤمنين بلغنا ما كان من هؤلاء وأنتك هممت بقتل خازم، وإننا نعيذك بالله من ذلك، فإن له طاعة وسابقة وهو يحتمل له ما صنع، فإن شيعتكم من أهل خراسان قد أتوكم على الأقارب والأولاد وقتلوا من خالفكم، وأنت أحق من تغدب إساءة مسيئهم، فإن كنت لا بد مجعماً على قتله فلا تتول ذلك بنفسك وإبعثه لأمير إن قتل فيه كنت قد بلغت الذي تريد، وإن ظفر كان ظفروه لك.

وأشاروا عليه بتوجيهه إلى من يعمان من الخوارج وإلى الخوارج الذين بجزيرة ابن كاوان مع شيان بن عبد العزيز الشكري، فأمر السفاح بتوجيهه مع سبعمئة رجل، وكتب إلى سليمان بن علي، وهو على البصرة، بحملهم إلى جزيرة ابن كاوان وعُمان، فصار خازم.

ذكر أمر الخوارج وقتل شيان بن عبد العزيز

فلما سار خازم إلى البصرة في الجند الذين معه، وكان قد انتخب من أهله وعشيرته ومواليه ومن أهل مرو الرُؤد من يشق به، فلما وصل البصرة حملهم (٤٥٢/٥) سليمان في السفن وانضم إليه بالبصرة أيضاً عدة من بني تميم، فساروا في البحر حتى أرسوا بجزيرة ابن كاوان، فوجه خازم فضلة بن نعيم النهشلي في خمسمئة إلى شيان، فالتقوا فاقتلوا قتالاً شديداً، فركب شيان وأصحابه السفن وساروا إلى عُمان، وهم صُغرّة. فلما صاروا إلى عُمان قاتلهم الجُلندي أصحابه، وهم إياضية، واشتد القتال بينهم، فقتل شيان ومن معه، وقد تقدّم سنة تسع وعشرين ومائة قتل شيان على هذا السياق.

ثم سار خازم في البحر بمن معه حتى أرسوا إلى ساحل عُمان، فخرجوا إلى الصحراء، فلقيهم الجُلندي وأصحابه واقتتلوا قتالاً شديداً وكثر القتل يومئذ في أصحاب خازم، وقتل منهم أخ له من أمه في تسعين رجلاً، ثم اقتتلوا من الغد قتالاً شديداً، فقتل يومئذ من الخوارج تسعمائة وأحرق منهم نحو من تسعين رجلاً، ثم التقوا بعد سبعة أيام من مقدم خازم على رأي أشار به بعض أصحاب خازم، أشار عليه أن يأمر أصحابه فيجعلوا على أطراف أسنتهم

وفي هذه السنة غزا أبو داود خالد بن إبراهيم أهل كَشْ قُتْل الاخيريد ملكها، وهو سامع مطيع، وقتل أصحابه وأخذ منهم من الأواني الصينية المنقوشة المنقبة ما لم ير مثله، ومن السروج ومتاع الصين كله من الديباج والطرف شيئاً كثيراً فحملة إلى أبي مسلم وهو بسمرقند، وقتل عدة من دهاقينهم، واستحيا طاران أخا الاخيريد وملكه على كَشْ؛ وانصرف أبو مسلم إلى مرو بعد أن قتل في أهل الصفد وبخارى؛ وأمر ببناء سور سمرقند، واستخلف زياد بن صالح عليها وعلى بخارى، ورجع أبو داود إلى بلخ.

ذكر حال منصور بن جُمهور

وفي هذه السنة وجه السفاح موسى بن كعب إلى السُّند لقتال منصور بن جُمهور، فسار واستخلف مكانه على شرط السفاح المُسيب بن زُهَيْر، وقدم موسى السُّند فلقي منصوراً في اثني عشر ألفاً، فانهزم منصور ومن معه ومضى فمات عطشاً في الرمال، وقد قيل أصابه بطنه فمات. وسمع خليفته على السُّند بهزيمة فرحل بعيال منصور ونقله فدخل بهم بلاد الخزَر. (٤٥٤/٥)

ذكر عدة حوادث

وفيها توفي محمد بن يزيد بن عبد الله وهو على اليمن، فاستعمل السفاح مكانه علي بن الربيع بن عبيد الله.

وفيها تحول السفاح من الحيرة إلى الأنبار في ذي الحجة. وفيها ضرب المنار من الكوفة إلى مكة والأُميال.

وحج بالناس هذه السنة عيسى بن موسى وهو على الكوفة.

وكان على قضاء الكوفة ابن أبي ليلى، وعلى المدينة ومكة والطائف واليمامة زياد بن عبد الله، وعلى اليمن علي بن الربيع الحارثي، وعلى البصرة وأعمالها وكُور دجلة وعُمان سليمان بن علي، وعلى قضائهما عباد بن منصور، وعلى السُّند موسى بن كعب، وعلى خراسان والجبال أبو مسلم، وعلى فلسطين صالح بن علي، وعلى مصر أبو عَوْن، وعلى الموصل إسماعيل بن علي، وعلى أرمينية يزيد بن أسيد، وعلى أذربيجان محمد بن صُول، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك، وعلى الجزيرة أبو جعفر

المنصور.

وكان عامله على أذربيجان وأرمينية مَنْ ذكّرنا، وعلى الشام عبد الله بن عليّ.

وفيها توفي محمد بن إسماعيل بن سعد بن أبي وقاص. وسعد بن عمر بن سليم الرُّزقيّ. (٤٥٥/٥)

سنة خمس وثلاثين ومائة

ذكر خروج زياد بن صالح

في هذه السنة خرج زياد بن صالح وراء النهر، فسار أبو مسلم من مرو مستعدّاً للقاءه، وبعث أبو داود خالد بن إبراهيم نصر بن راشد إلى ترمذ مخافة أن يبعث زياد بن صالح إلى الحصن والسفن فيأخذها، ففعل ذلك نصر وأقام بها، فخرج عليه ناس من الطالْقان مع رجل يكنى أبا إسحاق فقتلوا نصراً. فلماً بلغ ذلك أبا داود بعث عيسى بن ماهان في تتبع قتل نصر، فتبعهم فقتلهم.

ومضى أبو مسلم مسرعاً حتّى انتهى إلى أمل ومعه سباع بن النُعمان الأزديّ، وهو الذي كان قد أرسله السّفاح إلى زياد بن صالح وأمره إن رأى فرصة أن يثب على أبي مسلم فيقتله.

فأخبر أبو مسلم بذلك، فحبس سباعاً بأمل، وعبر أبو مسلم إلى بخارى، فلماً نزلها أتاه عدّة من قوَاد زياد قد خلعوا زياداً فآخبروا أبا مسلم أن سباع بن النُعمان هو الذي أفسد زياداً، فكتب إلى عامله بأمل أن يقتله، ولما أسلم زياداً قوّاده ولحقوا بأبي مسلم لجا إلى دهقان هناك، فقتله وحمل رأسه إلى أبي مسلم.

وتأخّر أبو داود عن أبي مسلم لحال أهل الطالْقان، فكتب إليه أبو مسلم يخبره بقتل زياد، فأتى كُشّ وأرسل عيسى بن ماهان إلى بسّام وبعث جنداً (٤٥٦/٥) إلى ساعر فطلبوا الصلح، فأجيبوا إلى ذلك.

وأما بسّام فلم يصل عيسى إلى شيء منه، وكتب عيسى إلى كامل بن مظفر صاحب أبي مسلم يعتب أبا داود وينسبه إلى العصبيّة، فبعث أبو مسلم بالكتب إلى أبي داود، وكتب إليه: إنّ هذه كتب العليج الذي صيرته عدل نفسك فشأنك به. فكتب أبو داود إلى عيسى يستدعيه، فلماً حضر عنده حبسه وضربه ثمّ أخرجه، فوثب عليه الجنّد فقتلوه، ورجع أبو مسلم إلى مرو.

ذكر غزو جزيرة صقلية

وفي هذه السنة غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم بها وسبى وظفر بها ما لم يظفره أحد قبله بعد أن غزا يلمسان، واشتغل ولاة إفريقية بالفتنة مع البربر، فأمن الصقلية وعمرها الروم من

جميع الجهات وعمرها فيها الحصون والمعازل وصاروا يُخرجون كلّ عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذبّ عنها، وربّما طارقوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم.

ذكر عدّة حوادث

حجّ بالناس هذه السنة سليمان بن عليّ، وهو على البصرة وأعمالها، وكان العمّال مَنْ تقدّم ذكرهم.

وفيها مات أبو خازم الأخرج، وقيل: سنة أربعين، وقيل سنة أربع (٤٥٧/٥) وأربعين.

وفيها مات عطاء بن عبد الله مولى المطلب، وقيل: مولى المهلب، وقيل: هو عطاء بن ميسرة، ويكنى أبا عثمان الخراسانيّ، وقيل سنة أربع وثلاثين.

وفيها مات يحيى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس بفارس، وكان أميراً، عليها، وكان قبل ذلك أميراً على الموصل.

وفيها توفي ثور بن زيد الدثليّ، وكان ثقة. وزياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزوميّ، وكان من الأبطال.

(عياش بالياء المثناة من تحت، وبالشين المعجمة). (٤٥٨/٥)

سنة ست وثلاثين ومائة

ذكر حجّ أبي جعفر وأبي مسلم

وفي هذه السنة كتب أبو مسلم إلى السّفاح يستأذنه في القدوم عليه والحجّ، وكان مذكّر ملك خراسان لم يفارقها إلى هذه السنة. فكتب إليه السّفاح يأمره بالقدوم عليه في خمسمائة من الجنّد، فكتب أبو مسلم إليه: إنّني قد تترتّ الناس ولست آمن على نفسي. فكتب إليه: أن أقبّل في ألف، فإنما أنت في سلطان أهلك ودولتك وطريق مكّة لا يتحمل العسكر.

فسار في ثمانية آلاف فرقة فيما بين نيسابور والريّ، وقدم بالأموال والخزائن فخلفها بالريّ، وجمع أيضاً أموال الجبل، وقدم في ألف، فأمر السّفاح القوَاد وسائر الناس أن يتلقّوه، فدخل أبو مسلم على السّفاح، فأكرمه وأعظمه، ثمّ استأذن السّفاح في الحجّ، فأذن له وقال: لولا أنّ أبا جعفر، يعني أخاه المنصور، يريد الحجّ لاستعملتك على الموسم؛ وأنزله قريباً منه.

وكان ما بين أبي جعفر وأبي مسلم متباعداً لأنّ السّفاح كان بعث أبا جعفر إلى خراسان بعدما صفت الأمور له ومعه عهد أبي مسلم بخراسان وباليعة للسّفاح وأبي جعفر المنصور من بعده، فبايع لهما أبو مسلم وأهل خراسان، وكان أبو مسلم قد استخفّ

طاعتك ممّتعاً بالعافية. فما استمّ كلامه حتّى سمع غلاماً يقول لغلام آخر: الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيّام، فطَيرَ من كلامه وقال: حسبي الله لا قوة إلا بالله، عليك توكلت، وبك أستعين. فما مضت الأيّام حتّى أخذته الحمى واتّصل مرضه فمات بعد شهرين وخمسة أيّام. (٤٦١/٥)

ذكر خلافة المنصور

وفي هذه السنة عقد السّفاح عبد الله بن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عباس أخيه أبي جعفر عبد الله بن محمّد بالخلافة من بعده وجعله وليّ عهد المسلمين، ومن بعد أبي جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمّد بن عليّ، جعل العهد في ثوب وختمه بخاتمة وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى.

فلما توفّي السّفاح كان أبو جعفر بمكّة، فأخذ البيعة لأبي جعفر عيسى بن موسى وكتب إليه يُعلمه وفاة السّفاح والبيعة له، فلقبه الرسول بمنزّل صفة فقال: صفت لنا إن شاء الله. وكتب إلى أبي مسلم يستدعيه، وكان أبو جعفر قد تقدّم، فأقبل أبو مسلم إليه. فلما جلس والقي إليه كتابه قراه وبكر واسترجع ونظر إلى أبي جعفر وقد جزع جزعاً شديداً فقال: ما هذا الجزع وقد أثبتك الخلافة؟ قال: أتخوف شرّ عمّي عبد الله بن عليّ وشغبه عليّ. قال: لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله، إنّما عامّة جنده ومَن معه أهل خراسان وهم لا يعصوني. فسُرّي عنه. وباع له أبو مسلم والناس، وأقبلوا حتّى قدما الكوفة.

وقيل: إنّ أبا مسلم هو الذي كان تقدّم على أبي جعفر فعرف الخبر قبله فكتب إليه: عافاك الله ومتّع بك، إنه أتاني أمر أنظعنّي وبلغ منّي مبلغاً لم يبلغه منّي شيء قط، وفاءً أمير المؤمنين، فنسأل الله أن يُعظّم أجرك ويُحسن الخلافة عليك، إنه ليس من أهلك أحد أشدّ تعظيماً لحقك وأصفى (٤٦٢/٥) نصيحة [لك] وحرصاً على ما يسرّك منّي. ثمّ مكث يومين وكتب إلى أبي جعفر ببيعته، وإنّما أراد ترويب أبي جعفر.

قال: وردّ أبو جعفر زياد بن عبد الله إلى مكّة، وكان عاملاً عليها وعلى المدينة للسّفاح؛ وقيل: كان قد عزله قبل موته عن مكّة وولّاه العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس.

ولما بايع عيسى بن موسى الناس لأبي جعفر أرسل إلى عبد الله بن عليّ بالشام يُخبره بوفاة السّفاح وبيعه المنصور ويأمره بأخذ البيعة للمنصور، وكان قد قدم قبل ذلك على السّفاح فجعله على الصائفة وسيرّ معه أهل الشام وخراسان، فسار حتّى بلغ دُوك ولم يدرك فأناه موت السّفاح، فعاد بمنّ معه من الجيوش وقد بايع نفسه.

بأبي جعفر؛ فلما رجع أخبر السّفاح ما كان من أمر أبي مسلم، فلما قدم أبو مسلم هذه المرأة قال أبو جعفر للسّفاح: أطعني واقتل أبا مسلم، فوالله إنّ في رأسه لغدرة. فقال: قد عرفت بلائه وما كان منه.

(٤٥٩/٥) فقال أبو جعفر: إنّما كان بدولتنا، والله لو بعثت سنوراً لقام مقامه وبلغ ما بلغ. فقال: كيف تقتله؟ قال: [إذا] دخل عليك وحادثته ضربته أنا من خلفه ضربة قتلتها بها. قال: فكيف بأصحابه؟ قال أبو جعفر: لو قُتل لتفرّقوا وذلّوا. فأمره بقتله، وخرج أبو جعفر. ثمّ ندم السّفاح على ذلك فأمر أبا جعفر بالكفّ عنه.

وكان أبو جعفر قبل ذلك بحرّان وسار منها إلى الأنبار وبها السّفاح، واستخلف على حرّان مقاتل بن حكيم العمكيّ.

وحجّ أبو جعفر وأبو مسلم، وكان أبو جعفر على الموسم.

وفيها مات زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب.

ذكر موت السّفاح

في هذه السنة مات السّفاح بالأنبار لثلاث عشرة مضت من ذي الحجة، وقيل: لاثنتي عشرة مضت منه، بالجُدريّ؛ وكان له يوم مات ثلاث وثلاثون سنة، وقيل: ست وثلاثون، وقيل: ثمان وعشرون سنة. وكانت ولايته من لدن قتل مروان إلى أن توفّي أربع سنين. ومن لدن بويج له بالخلافة إلى (٤٦٠/٥) أن مات أربع سنين وثمانية أشهر، وقيل: وتسعة أشهر، منها ثمانية أشهر يقاتل مروان.

وكان جعداً، طويلاً، أبيض، أقرنى الأنف، حسن الوجه واللحية. وأمه ربيعة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المदान الحارثي، وكان وزيره أبا الجهم بن عطية.

وصلى عليه عمّه عيسى بن عليّ ودفنه بالأنبار العتيقة [في قصره]. وخلف تسع جباب، وأربعة أقمصة، وخمسة سراويلات، وأربعة طبايسة، وثلاثة مطارف خزّ.

قال ابن النّقا: بيّتن من الشعر، ووجه برجل إلى عسكر مروان ليقدّم على الخيل ليلاً، فصيح فيهما وشمس في الناس، ولا يوجد، وهما :

يا آل مروان إنّ الله مُهلككم ومبدّل بكمُ خروفاً وتشريدا
لا عسر الله من إنشائكم أحداً ويُنكم في بلاد الخوف تطريدا
قال: فعلت ذلك فدخلت قلوبهم مخافة.

قال جعفر بن يحيى: نظر السّفاح يوماً في المرأة، وكان أجمل الناس وجهاً، فقال: اللهمّ إني لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك: أنا الملك الشاب، ولكنّي [أقول]: اللهمّ عمّرني طويلاً في

ذكر الفتنة بالأندلس

وفي هذه السنة خرج في الأندلس الحُباب بن رواحة بن عبد الله الزُهريّ ودعا إلى نفسه واجتمع إليه جمعٌ من اليمانيّة، فسار إلى الصُمَيْل وهو أمير قرطبة، فحصره بها وضيّق عليه، فاستمَدَّ الصُمَيْلُ يوسفَ الفُهريّ أميرَ الأندلس، فلم يفعل لتوالي الغلاء والجوع على الأندلس ولأنَّ يوسف قد كره الصُمَيْل واختار هلاكه ليستريح منه.

وثار بها أيضاً عامر العبدريّ وجمع جمعاً واجتمع مع الحُباب على الصُمَيْل (٤٦٣/٥) وقاما بدعوة بني العباس.

فلما اشتدَّ الحصارُ على الصُمَيْل كتب إلى قومه يستمدّهم، فسارعوا إلى نصرته واجتمعوا وساروا إليه، فلما سمع الحُبابُ بقرّبهم سار الصُمَيْل عن سرّقسطة وفارقها، فعاد الحُبابُ إليها وملكها، واستعمل يوسفَ الفُهريّ الصُمَيْل على طليطلة.

ذكر عدّة حوادث

كان على الكوفة عيسى بن موسى، وعلى الشام عبد الله بن عليّ، وعلى مصر صالح بن عليّ، وعلى البصرة سليمان بن عليّ، وعلى المدينة زياد بن عبد الله الحارثي، وعلى مكّة العباس بن عبد الله بن معبد.

وفيها مات ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وهو ربيعة الرأي، وقيل: مات سنة خمس وثلاثين ومائة، وقيل: سنة اثنتين وأربعين ومائة. وفيها مات عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. وفيها توفي عبد الملك بن عمير بن سُؤَيْد اللخميّ الفُرسيّ، وإنّما قيل له الفُرسيّ، بالفناء، [نسبة إلى فرس له]. وعطاء بن السائب أبو زيد الثقفيّ. وعُروّة بن رُوَيْم.

وفي هذه السنة قدم أبو جعفر المنصورُ أمير المؤمنين من مكّة فدخل الكوفة فصلّى بأهلها الجمعة وخطبهم وسار إلى الأتبار فأقام بها وجمع إليه أطرافه، وكان عيسى بن موسى قد أحرز بيوت الأموال والخزائن والدواوين حتى قدم عليه أبو جعفر، فسلم الأمر إليه. (٤٦٤/٥)

سنة سبع وثلاثين ومائة

ذكر خروج عبد الله بن عليّ وهزيمته

قد ذكرنا مسير عبد الله بن عليّ إلى الصائفة في الجنود، وموت السفّاح، وإرسال عيسى بن موسى إلى عمّه عبد الله بن عليّ يُخبره بموته ويأمره بالبيعة لأبي جعفر المنصور، وكان السفّاح قد أمر بذلك قبل وفاته.

فلما قدم الرسول على عبد الله بذلك لحقه بدُلُوك، وهي بأفوار الدروب، فأمر منادياً فنادى: الصلاة جامعة! فاجتمعوا عليه، فقرأ عليهم الكتابُ ب وفاة السفّاح ودعا النَّاسَ إلى نفسه، وأعلمهم أنَّ السفّاح حين أراد أن يوجّه الجنودَ إلى مروان بن محمد دعا بني أبيه فأرادهم على المسير إليه فقال: مَنْ انتدب منكم فسار إليه فهو وليّ عهدي، فلم يتدب [له] غيري، وعلى هذا خرجتُ من عندهُ وقتلتُ مَنْ قُلت، وشهد له أبو غانم الطائيّ وخُفاف المَرُوزُويّ وغيرهما من القوادر، فبايعوه، وفيهم حُمَيد بن قُحطبة وغيرهم من أهل خراسان والشام والجزيرة، إلّا أنَّ حُمَيْداً فارقه، على ما نذكره.

ثم سار عبد الله حتّى نزل حرّان، وبها مُقاتل العكّيّ قد استخلفه أبو جعفر لما سار إلى مكّة، فتحصن منه مقاتل، فحصره أربعين يوماً.

وكان أبو مسلم قد عاد من الحجّ مع المنصور، كما ذكرناه، فقال للمنصور: إن شئتُ جمعتُ ثيابي في منطقتي وخدمتك، وإن شئتُ آتيتُ خراسان فأمددتك بالجنود، وإن شئتُ سرتُ إلى حرب عبد الله بن عليّ. فأمره بالمسير لحرب (٤٦٥/٥) عبد الله، فسار أبو مسلم في الجنود نحو عبد الله، فلم يتخلّف عنه أحد، وكان قد لحقه حُمَيد بن قُحطبة فسار معه، وجعل على مقدّمته مالك بن الهيثم الخزازي.

فلما بلغ عبد الله، وهو يحاصر حرّان، إقبالَ أبي مسلم خشي أن يهجم عليه عطاء العكّيّ أمّاماً، فنزل إليه فيمنّ معه وأقام معه أياماً، ثم وجّهه إلى عثمان بن عبد الأعلى بن سُراقَة الأزديّ بالرّقة ومعه ابناء وكتب معه كتاباً.

فلما قدموا على عثمان دفع العكّيّ الكتابَ إليه، فقتل العكّيّ واحتبس ابنه، فلما هزم عبد الله قتلهما.

وكان عبد الله بن عليّ قد خشي أن لا يناصحه أهلُ خراسان فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً واستعمل حُمَيد بن قُحطبة على حلب، وكتب معه كتاباً إلى رُفَر بن عاصم عاملها يأمره بقتل حُمَيد إذا قدم عليه، فسار حُمَيد والكتاب معه، فلما كان ببعض الطريق قال: إنّ ذهابي بكتاب لا أعلم ما فيه لغرر. فقرأه، فلما رأى ما فيه أعلم خاصّته ما في هذا الكتاب وقال: من أراد المسير معي منكم فليسر. فاتبعه ناسٌ كثير منهم، وسار على الرّصافة إلى العراق.

فأمر المنصورُ محمّد بن صُول بالمسير إلى عبد الله بن عليّ ليُمكر به، فلما أتاه قال له: إنّي سمعتُ أبا العباس يقول الخليفة بعدي عني عبد الله. فقال له: كذبت، إنّما وضعك أبو جعفر. فضرب عنقه.

ومحمّد بن صُول هو جدّ إبراهيم بن العباس الكاتب الصّوليّ.

ثم أقبل عبد الله بن عليّ حتّى نزل نصيبين وخذق عليه، وقدم أبو مسلم فيمنّ معه، وكان المنصور قد كتب إلى الحسن بن قحطبة، وكان خليفته بأرمينية، (٤٦٦/٥) يأمره أن يوافي أبا مسلم، فقدم على أبي مسلم بالموصل، وأقبل أبو مسلم فنزل ناحية نصيبين فأخذ طريق الشام، ولم يعرض لعبد الله، وكتب إليه: إني لم أومر بتالك، ولكن أمير المؤمنين ولأني الشام فانا أريدها. فقال من كان مع عبد الله من أهل الشام لعبد الله: كيف [تقيم] معك وهذا يأتي بلادنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذراريها؟ ولكن نخرج إلى بلادنا فنمنعه ونقاتله. فقال لهم عبد الله: إنه والله ما يريد الشام وما توجه إلا لقتالكم، وإن أقسمت ليأنيتكم. فأبوا إلا المسير إلى الشام، وأبو مسلم قريب منهم، فارتحل عبد الله نحو الشام، وتحول أبو مسلم فنزل في معسكر عبد الله بن عليّ في موضعه وعور ما حوله من المياه وألقى فيها الجيف.

وبلغ عبد الله ذلك فقال لأصحابه: ألم أقل لكم؟ ورجع فنزل في موضع عسكر أبي مسلم الذي كان به، فاقتتلوا خمسة أشهر وأهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدّة، وعلى ميمنة عبد الله بكّار بن سلم العقيلي، وعلى مسيرته خبيب بن سؤيد الأسدي، وعلى الخيل عبد الصمد بن عليّ أخو عبد الله، وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة، وعلى مسيرته خازم بن خزّيمة، فاقتتلوا شهراً.

ثم إن أصحاب عبد الله حملوا على عسكر أبي مسلم فازالوهم عن مواضعهم ورجعوا، ثم حمل عليهم عبد الصمد بن عليّ في خيل مجرّدة فقتل منهم ثمانية عشر رجلاً ورجع في أصحابه، ثم تجمعوا وحملوا ثانية على أصحاب أبي مسلم فازالوا صفهم وجالوا جولة، فقبل لأبي مسلم: لو حولت دابّتك إلى هذا التلّ ليراك الناس فيرجعوا فإنهم قد انهزموا. فقال: إن أهل الحجبى لا يعطفون دوابهم على هذه الحال. وأمر منادياً فنادى: يا أهل خراسان ارجعوا (٤٦٧/٥) فإنّ العاقبة لمن اتقى. فتراجع الناس. وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال:

بلغ عبد الله ذلك فقال لأصحابه: ألم أقل لكم؟ ورجع فنزل في موضع عسكر أبي مسلم الذي كان به، فاقتتلوا خمسة أشهر وأهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدّة، وعلى ميمنة عبد الله بكّار بن سلم العقيلي، وعلى مسيرته خبيب بن سؤيد الأسدي، وعلى الخيل عبد الصمد بن عليّ أخو عبد الله، وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة، وعلى مسيرته خازم بن خزّيمة، فاقتتلوا شهراً.

ثم إن أصحاب عبد الله حملوا على عسكر أبي مسلم فازالوهم عن مواضعهم ورجعوا، ثم حمل عليهم عبد الصمد بن عليّ في خيل مجرّدة فقتل منهم ثمانية عشر رجلاً ورجع في أصحابه، ثم تجمعوا وحملوا ثانية على أصحاب أبي مسلم فازالوا صفهم وجالوا جولة، فقبل لأبي مسلم: لو حولت دابّتك إلى هذا التلّ ليراك الناس فيرجعوا فإنهم قد انهزموا. فقال: إن أهل الحجبى لا يعطفون دوابهم على هذه الحال. وأمر منادياً فنادى: يا أهل خراسان ارجعوا (٤٦٧/٥) فإنّ العاقبة لمن اتقى. فتراجع الناس. وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال:

من كان ينوي أهله فلا يرجع فر من الموت وفي الموت وقع وكان قد عمل لأبي مسلم عرش، فكان يجلس عليه إذا التقى الناس فينظر إلى القتال، فإن رأى خلاً في الجيش سده وأمر مقدّم تلك الناحية بالاحتياط وبما يفعل، فلا تنزال رسله تختلف إليهم حتّى ينصرف الناس بعضهم عن بعض.

فلما كان يوم الثلاثاء والأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين التقوا فاقتتلوا، فمكر بهم أبو مسلم، وأمر الحسن بن قحطبة أن يعري الميمنة [ويضم] أكثرها إلى الميسرة وليترك في الميمنة جماعة أصحابه وأشداءهم، فلما رأى ذلك أهل الشام أعروا ميسرتهم وانضموا إلى ميمتهم بإزاء ميسرة أبي مسلم، وأمر أبو

ومضى عبد الله وعبد الصمد ابنا عليّ، فأما عبد الصمد فقدم الكوفة فاستأمن له عيسى بن موسى فأمنه المنصور، وقيل: بل أقام عبد الصمد بن عليّ بالرصافة حتّى قدمها جهمور بن مرار العجليّ في خيول أرسلها المنصور، فأخذه فبعث به إلى المنصور موثقاً مع أبي الخصب فأطلقه؛ وأما عبد الله بن عليّ فأتى أخاه سليمان بن عليّ بالبصرة فأقام عنده زماناً متوارياً.

ذكر قتل أبي مسلم الخراسانيّ

وفي هذه السنة قتل أبو مسلم الخراسانيّ، قتله المنصور.

وكان سبب ذلك أنّ أبا مسلم كتب إلى السفّاح يستأذنه في الحجّ، على ما تقدّم، وكتب السفّاح إلى المنصور وهو على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان: إنّ أبا مسلم كتب إليّ يستأذنني في الحجّ وقد أذنت له وهو يريد أن يسألني أن أولّيه الموسم، فاكبّ إليّ تستأذنني في الحجّ فأذن لك، فإنك إن كنت بمكة لم يطمع أن يتقدّمك.

فكتب المنصور إلى أخيه السفّاح يستأذنه في الحجّ، فأذن له، فقدم الأنبار، فقال أبو مسلم: أما وجد أبو جعفر عاماً حجّ فيه غير هذا؟ وحقدتها عليه، وحجاً معاً، فكان أبو مسلم يكسر الأعراب ويصلّح الآبار والطريق، وكان الذّكر له، وكان الأعراب يقولون: هذا المكذوب عليه. فلما قدم مكة ورأى أهل اليمن قال: أيّ جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة!

فلما صدر الناس عن الموسم تقدّم أبو مسلم في الطريق على أبي جعفر، فأناه خبر وفاة السفّاح، فكتب إلى أبي جعفر يعزّيه عن أخيه ولم يهتبه بالخلافة ولم يقيم حتّى يلحقه ولم يرجع. فغضب أبو جعفر وكتب إليه كتاباً غليظاً، فلما (٤٦٩/٥) أتاه الكتاب إليه يهتبه بالخلافة. وتقدّم أبو مسلم فأتى الأنبار فدعا عيسى بن موسى إلى أن يبايع له، فأتى عيسى، وقدم أبو جعفر وخلع عبد الله بن عليّ، فسير المنصور أبا مسلم إلى قتاله، كما تقدّم مكاناً، مع

وفي قرايته من رسول الله ﷺ قريباً، فاستجھلني بالقرآن فحرّفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد نعه الله إلى خلقه، فكان كالذي دلّى بغرور، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة ولا أقبل العثرة، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم ثم استقذني الله بالتوبة، فإن (٤٧١/٥) يعف عني فقدماً عُرِف به ونسب إليه، وإن يعاقبني فيما قدّمت يداي وما الله بظلام للعبيد.

وخرج أبو مسلم مُراعِماً مُشاقّاً، وسار المنصور من الأنبار إلى المدائن، وأخذ أبو مسلم طريقَ حُلوان، فقال المنصور لعمه عيسى بن عليٍّ ومَن حضر من بني هاشم: اكتبوا إلى أبيي مسلم، فكتبوا إليه يعظّمون أمره ويشكرونه ويسألونه أن يتمّ على ما كان منه وعليه من الطاعة ويحذّرونه عاقبة البغي ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور.

وبعث المنصورُ الكتابَ مع أبي حُمَيد المروروديّ وقال له: كلّم أبا مسلم بالين ما تكلم به أحد، فمَن وأعلمه أنّي رافعه وصانع به ما لم يصنعه به أحد إن هو صلّح وراجع ما أحبّ، فإن أبى أن يرجع فقلّ له: يقول لك أمير المؤمنين لست من العباس وإني بريء من محمّد إن مضيت مُشاقّاً ولم تاتني إن وكلت أمرك إلى أحد سواي، وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسي، ولو خُضّت البحر لخُضّته، ولو اتّحمت النار لا تَحْتُمها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك؛ ولا تقولنّ [له] هذا الكلام حتى تياس من رجوعه ولا تطمع منه في خير.

فسار أبو حُمَيد فقدم على أبي مسلم بخلوان فدفع إليه الكتاب وقال له: إنّ الناس يبلّغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله وخلاف ما عليه رأيُه منك حسداً وبغياً، يريدون إزالة النعمة وتغييرها، فلا تُفسد ما كان منك. وكلّمه وقال: يا أبا مسلم إنك لم تزل أمير آل محمّد يعرفك بذلك الناس، وما ذخر الله لك من الأجر عنده في ذلك أعظم ممّا أنت فيه من دنياك، فلا تُخبط أجرك ولا يستهوينك الشيطان. (٤٧٢/٥)

فقال له أبو مسلم: متى كنت تكلمني بهذا الكلام؟ فقال: إنك دعوتنا إلى هذا الأمر وإلى طاعة أهل بيت النبي ﷺ بني العباس، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة، فجمعنا الله على طاعتهم وآلف ما بين قلوبنا [بمحبّتهم] وأعرّنا بتصرنا لهم، ولم نلق منهم رجلاً إلّا بما قذف الله في قلوبنا حتى أتيناهم في بلادهم ببصائر نافذة، وطاعة خالصة، أفتريد حين بلغنا غاية منانا وامتّهي أملنا أن تُفسد أمرنا وتفرّق كلمتنا؟ وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وإن خالفكم فاقتلوني!

فاقبل أبو مسلم على أبي نصر مالك بن الهيثم فقال: أما تسمع ما يقول لي هذا؟ ما كان بكلامه يا مالك! قال: لا تسمع قوله ولا

الحسن بن قحطبة، فأرسل الحسن إلى أبي أيوب وزير المنصور: إنّي قد رأيت بأبي مسلم أنّه يأتيه كتاب أمير المؤمنين فيقرأه ثمّ يلقي الكتاب من يده إلى مالك بن الهيثم فيقرأه ويضحك كأن استهزاء، فلمّا ألقيت الرسالة إلى أبي أيوب ضحك وقال: نحن لأبي مسلم أشدّ تهمة منّا لعبد الله بن عليٍّ، إلّا أنّا نرجو واحدة، نعلم أنّ أهل خراسان لا يحبّون عبد الله وقد قتل منهم من قتل. وكان قتل منهم سبعة عشر ألفاً.

فلمّا انهزم عبد الله وجمع أبو مسلم ما غنم من عسكره بعث أبو جعفر أبا الخصب إلى أبي مسلم ليكتب [له] ما أصاب من الأموال، فأراد أبو جعفر قتله، فتكلّم فيه فخلّى سبيله وقال: أنا أمين على الدماء خائن في الأموال. وشمّت المنصور، فرجع أبو الخصب إلى المنصور فأخبره، فخاف أن يمضي أبو مسلم إلى خراسان، فكتب إليه: إنّي قد وليت مصر والشام فهي خير لك من خراسان، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين، فإن أحبّ لقاءك آتيتك من قريب.

فلمّا أتاه الكتاب غضب وقال: يوليّني الشام ومصر وخراسان لي! فكتب الرسول إلى المنصور بذلك. وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجعاً على الخلاف، وخرج عن وجهه يريد خراسان.

فسار المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه، فكتب إليه أبو مسلم وهو بالزباب: إنّه لم يبق لأمرير المؤمنين، أكرمه الله، (٤٧٠/٥) عدوّ إلّا أمكنه الله منه، وقد كتنا نروي عن ملوك آل ساسان أنّ أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نأفرون عن قريب، حريصون على الوفاء لك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنّها من بعيد حيث يقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك فإنّا كاحسن عبيدك، وإن أبيت إلّا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضاً بنفسي.

فلمّا وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم: قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشّة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حيل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة، فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشرطة التي أوجبت منك سمعاً ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك، فإنّه لم يجد باباً يُفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذي فتحه عليك.

وقيل: بل كتب إليه أبو مسلم: أمّا بعد فإنّي اتّخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلاً،

يهولنك هذا منه، فلعمري ما هذا كلامه ولما بعد هذا أشد منه، فامض لأمرك ولا ترجع، فوالله لئن أتيت ليقتلنك، ولقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك أبداً.

فقال: قوموا، فنهضوا، فأرسل أبو مسلم إلى نيزك فعرض عليه الكتب وما قالوا، فقال: ما أرى أن تأتيه وأرى أن تأتي الري فتقيم بها [فيسير] ما بين خراسان والري لك، وهم جنك لا يخالفك أحد، فإن استقام لك استقمته له، وإن أبى كنت في جنك وكانت خراسان وراءك ورأيت رأيك.

فدعا أبا حميد فقال: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن أتيه. قال: قد عزمت على خلافه؟ قال: نعم. قال: لا تفعل! قال: لا أعود إليه أبداً. فلما ينس من رجوعه معه قال له ما أمره به أبو جعفر، فوجم طويلاً ثم قال: قم. فكسره ذلك القول ورعبه.

وكان أبو جعفر المنصور قد كتب إلى أبي داود خليفة أبي مسلم بخراسان (٤٧٣/٥) حين أنهم أبا مسلم: إن لك إمرة خراسان ما بقيت. فكتب أبو داود إلى أبي مسلم: إننا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ فلا نخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه. فوافاه كتابه على تلك الحال، فزاده رعباً وهماً، فأرسل إلى أبي حميد فقال له: إني كنت عازماً على المضي إلى خراسان ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين فيأتي برأيه، فإنه ممن أثق به. فوجهه، فلما قدم تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب، وقال له المنصور: اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان؛ وأجازه.

فوجع أبو إسحاق وقال لأبي مسلم: ما أنكرت شيئاً رأيتهم معظمين لحقك يرون لك ما يرون لأنفسهم. وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان منه، فأجمع على ذلك. فقال له نيزك: قد أجمعت على الرجوع؟ قال: نعم؛ وتمثل:

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام
قال: إذا عزمت على هذا فخار الله لك. احفظ عني واحدة، إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت، فإن الناس لا يخالفونك.

وكتب أبو مسلم إلى المنصور يخبره أنه منصرف إليه، وسار نحوه، واستخلف أبا نصر على عسكره، وقال له: أقم حتى يأتيك كتابي، فإن أذاك مختوماً بنصف خاتم فأناك كتبه، وإن أذاك بالخاتم كله فلم أخته. وقدم المدائن في ثلاثة آلاف رجل وخلف الناس بخلوان.

لما ورد كتاب أبي مسلم على المنصور قرأه وألقاه إلى أبي أيوب وزيره، (٤٧٤/٥) فقرأه وقال له المنصور: والله لئن ملأت عيني منه لأقتله.

فخاف أبو أيوب من أصحاب أبي مسلم أن يقتلوا المنصور ويقتلوه معه، فدعا سلمة بن سعيد بن جابر وقال له: هل عندك شكر؟ فقال: نعم. قال: إن وليت ولاية نصيب منها مثل ما يصيب صاحب العراق تدخل معك أخي حاتماً - وأراد بإدخال أخيه معه أن يطمع ولا ينكر - وتجعل له النصف؟ قال: نعم. قال له: إن كسرك كالت عام أول كذا وكذا ومنها العام أضعاف ذلك، فإن دفعته إليك بما كالت أو بالأمانة أصبت ما تضيق به ذرعاً. قال: كيف لي بهذا المال؟ قال له أبو أيوب: تأتي أبا مسلم فتلقاه وتكلمه أن يجعل هذا فيما يرفع من حوائجه، فإن أمير المؤمنين يريد أن يوليّه إذا قدم ما وراء بابه ويربح نفسه، قال: فكيف لي أن يأذن لي أمير المؤمنين في لقائه؟ فاستأذن له أبو أيوب في ذلك، فأذن له المنصور وأمره أن يبلغ سلامه وشوقه إلى أبي مسلم، فلقبه سلمة بالطريق وأخبره الخبر وطابت نفسه، وكان قبل ذلك كئيهاً حزناً، ولم يزل مسروراً حتى قدم.

فلما دنا أبو مسلم من المنصور أمر الناس بتلقيه، فتلقاه بنو هاشم والناس، ثم قدم فدخل على المنصور فقبل يده، وأمره أن ينصرف ويروح نفسه لثلاثة ويدخل الحمام، فانصرف.

فلما كان الغد دعا المنصور عثمان بن نهيك وأربعة من الحرس، منهم: شبيب بن واثق، وأبو حنيفة حرب بن قيس، فأمرهم بقتل أبي مسلم إذا صفق بيديه، وتركهم خلف الرواق.

وأرسل إلى أبي مسلم يستدعيه، وكان عنده عيسى بن موسى يتغذى، (٤٧٥/٥) فدخل على المنصور، فقال له المنصور: أخبرني عن نصليين أصبتهما مع عبد الله بن علي. قال: هذا أحدهما. قال: أرتبه. فانتضاه وناولوه إياه، فوضعه المنصور تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه وقال له: أخبرني عن كتابك إلى السفاح تنهاه عن الموات، أردت أن نعلمنا الدين؟ قال: ظننت أخذه لا يحل، فلما أتاني كتابه علمت أنه وأهل بيته معدين العلم. قال: فأخبرني عن تقدمك إليّ بطريق مكة. قال: كرهت اجتماعنا على الماء فيضّر ذلك بالناس فتقدمت للرفق. قال: فقولك لمن أشار عليك بالانصراف إليّ بطريق مكة حين أنك موت أبي العباس إلى أن تقدم فنرى رأينا، ومضيت فلا أنت أمتت حتى الحقك ولا أنت رجعت إليّ؟ قال: معني من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس، وقلت تقدم الكوفة وليس عليك من خلاف. قال: فجارية عبد الله أردت أن تتخذها؟ قال: لا. ولكني خفت أن تضيع فحملتها في بقة ووكلت بها من يحفظها. قال: فمراغمتك وخروجك إلى خراسان؟ قال: خفت أن يكون قد دخلك مني شيء فقلت أتني خراسان فأكتب إليك بعذري فأذهب ما في نفسك. قال: فالمال الذي جمعته بخراسان؟ قال: أنفقته بالجدد تقوية لهم واستصلاحاً. قال: ألسنت الكاتب إليّ تبدأ بنفسك وتخطب عمتي أمة ابنة عليّ وتزعم أنك

ابن سَلِيط بن عبد الله بن عباس؟ لقد ارتقيت، لا أُم لك، مرتقى صعباً.

ثم قال: وما الذي دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا وهو أحد ثقياننا قبل أن يُدْخَلَ في هذا الأمر؟ قال: أراد الخلاف وعصاني فقتلته. (٤٧٦/٥)

فلما طال عتاب المنصور قال: لا يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني. قال: يا ابن الخبيث! والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت، إنما عملت في دولتنا وبيرحنا، فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً.

فاخذ أبو مسلم بيده يقبّله ويعتذر إليه، فقال له المنصور: ما رايت كالיום! والله ما زدني إلا غضباً! قال أبو مسلم: دَع هذا فقد أصبحت ما أخاف [إلا] الله تعالى. فغضب المنصور وشتمه وصفق بيده على الأخرى، فخرج عليه الحرس، فضره عثمان بن نَهيك فقطع حمائل سيفه، فقال: استقيني لعدوك يا أمير المؤمنين! فقال: لا أبقي الله إذا، أعدو أعدى لي منك؟ وأخذ الحرس بسيوفهم حتى قتلوه وهو يصيح العفو، فقال المنصور: يا ابن اللخاء العفو والسيوف قد اعتورتك! فقتلوه في شعبان لخمس بقين منه. فقال المنصور:

زعمت أن الثيسن لا يُقتضى فاستوفوا بالكليل أبا يخرزم سُقِيتَ كاساً كنت تقي بها امرؤني الحلق من القلقم وكان أبو مسلم قد قتل في دولته ستمائة ألف صبراً.

فلما قُتل أبو مسلم دخل أبو الجهم على المنصور فرأى أبا مسلم قتيلًا فقال: ألا أريد الناس؟ قال: بلى، فمر بمتاع يُحمل إلى رواق آخر.

وخرج أبو الجهم فقال: انصرفوا فإن الأمير يريد القائلة عند أمير المؤمنين. وراوا المتاع يُنقل فظنوه صادقاً فانصرفوا، وأمر لهم المنصور بالجوائز، فأعطى أبا إسحاق مائة ألف.

ودخل عيسى بن موسى على المنصور بعد قتل أبي مسلم فقال: يا أمير المؤمنين أين أبو مسلم؟ فقال: قد كان هاهنا [آنفاً]. فقال عيسى: قد عرفت نصيحته وطاعته ورأي الإمام إبراهيم كان فيه. فقال: يا أحمق والله ما أعلم في (٤٧٧/٥) الأرض عدوًّا أعدى لك منه! ها هوذا في البساط. فقال عيسى: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. وكان لعيسى فيه رأي. فقال له المنصور: خلع الله قلبك! وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم؟

ثم دعا المنصور بجعفر بن حنظلة فدخل عليه، فقال: ما تقول في أمر أبي مسلم؟ قال: يا أمير المؤمنين إن كنت أخذت من رأسه شجرة فاقتل ثم اقتل. فقال له المنصور: وفكك الله! فلما نظر إلى أبي مسلم مقتولاً قال: يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم لخلافتك.

ثم دعا المنصور بأبي إسحاق، فلما دخل عليه قال له: أنت المتابع عدو الله على ما أجمع عليه! وقد كان بلغه أنه أشار عليه بإتيان خراسان، قال: فكف أبو إسحاق وجعل يلتفت يمينا وشمالاً خوفاً من أبي مسلم، فقال له المنصور: تكلم بما أردت فقد قتل الله الفاسق، وأمر بإخراجه. فلما رآه أبو إسحاق خرّ ساجداً لله فأطال ورفع رأسه وهو يقول: الحمد لله الذي آمنني بك اليوم! والله ما أمته يوماً [واحدًا]، وما خفته يوماً [واحدًا]، وما جثته يوماً قط إلا وقد أوصيت وتكفنت وتحنطت. ثم رفع ثيابه الظاهرة فإذا تحتها ثياب كتان جدد وقد تحنطت.

فلما رأى أبو جعفر حاله رحمه وقال له: استقبل طاعة خليفتك واحمد الله الذي أراحك من الفاسق هذا. ثم قال له: فرق [عني] هذه الجماعة.

ثم كتب المنصور بعد قتل أبي مسلم إلى أبي نصر مالک بن الهيثم عن لسان أبي مسلم يأمره بحمل ثقله وما خلف عنده وأن يقدم، وختم الكتاب بخاتم أبي (٤٧٨/٥) مسلم، فلما رأى الخاتم تأملاً علم أن أبا مسلم لم يكتب، فقال: فعلتموها! وانحدر إلى همدان وهو يريد خراسان.

فكتب المنصور لأبي نصر عهده على شهرزور، وكتب إلى زهير بن التركي، وهو على همدان: إن مر بك أبو نصر فاجبسه. فسبق الكتاب إلى زهير وأبو نصر بهمدان، فقال له زهير: قد صنعت لك طعاماً فلو أكرمتني بدخول منزلي. فحضر عنده، فأخذه زهير فحبسه.

وكتب أبو جعفر إلى زهير كتاباً يأمره بقتل أبي نصر، وقدم صاحب العهد على أبي نصر بعهدته على شهرزور، فخلّى زهير سبيله لهواه فيه، فخرج ثم وصل بعد يوم الكتاب إلى زهير بقتل أبي نصر، فقال: جاءني كتاب بعهدته فخلّيت سبيله.

وقدم أبو نصر على المنصور فقال له: أشرت على أبي مسلم بالمضي إلى خراسان؟ قال: نعم، كانت له عندي أباد فنصحت له، وإن اصطنعني أمير المؤمنين نصحت له وشكرت. فغفا عنه.

فلما كان يوم الراوندية قام أبو نصر على باب القصر وقال: أنا الباطل اليوم لا يدخل أحد وأنا حي. فسأل عنه المنصور فأخبر به، فعلم أنه قد نصح له. وقيل: إن زهيراً سبر أبا نصر إلى المنصور مفقداً، فمن عليه واستعمله على الموصل.

ولما قتل المنصور أبا مسلم خطب الناس فقال: أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تمشوا في ظلمة الباطل بعد سعيكم في ضياء الحق، إن أبا مسلم أحسن مبتدأ وأسوأ معقباً، وأخذ من الناس بنا أكثر مما (٤٧٩/٥) أعطانا، ورجح قبيحاً باطنه على حسن ظاهره، وعلمنا من خبث سريره وفساد نيته ما لو

علمه اللائم لنا فيه لعذرنا في قتله وعنفنا في إمهالنا، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحلّ لنا عقوبته وأباحنا دمه، فحكمنا فيه حكمه لنا في غيره [ممن شقّ العصا]، ولم يمنعنا الحقّ له من إمضاء الحقّ فيه؛ وما أحسن ما قال النابتة الذنيانيّ للنعمان :

وفي هذه السنة استعمل المنصورُ أبا داود على خراسان وكتب

فمن أطاعك فانفضّ بطاغته كما أطاعك وادّلّه على الرئس
ومن عصاك فعاقبه معاقبة تهى القلوم ولا تعد على ضمّد
ثم نزل.

وفي هذه السنة خرج سنباد بخراسان يطلب بدم أبي مسلم، وكان مجوسياً من قرية من قرى نيسابور يقال لها أهروانه؛ كان ظهوره غضباً لقتل أبي مسلم لأنّه كان من صنائعه، وكثر أتباعه، وكان عاتتهم من أهل الجبال، وغلب على نيسابور وقومس والريّ، وتسمى فيروز أصبهذ. فلما صار بالريّ أخذ خزائن أبي مسلم، وكان أبو مسلم خلفها بالريّ حين شخص إلى أبي العباس، وسبى الخزّم، ونهب الأموال، ولم يعرض للتجار، وكان يُظهر أنّه يقصد الكعبة ويهدمها.

فوجّه إليه المنصورُ جُمهورَ بن مرّار العجليّ في عشرة آلاف فارس، فالتقوا بين همدان والريّ على طرف المفازة، وعزم جمهور على مطاولته، فلما التقوا قدّم سنباد السبايا من النساء المسلمات على الجمال، فلما راين عسكر المسلمين قمن في المحامل ونادين: وا محمّدا! ذهب الإسلام! ووقعت الريح في أثوابهنّ ففترت الإبل وعادت على عسكر سنباد، فتفرّق العسكرُ وكان ذلك سبب الهزيمة، وتبع المسلمون الإبل ووضعوا السيوف في المجوس ومنّ معهم فقتلوه كيف شاؤوا، وكان عدد القتلى نحواً من ستين ألفاً، وسبى ذراريهم ونساءهم، ثمّ قُتل سنباد بين طبرستان وقومس.

وكان بين مخرج سنباد وقتله سبعون ليلة، وكان سبب قتله أنّه قصد (٤٨٢/٥) طبرستان ملتجئاً إلى صاحبها، فأرسل إلى طريقه عاملاً له اسمه طوس، فتكبّر عليه سنباد، فضرب طوس عنقه وكتب إلى المنصور بقتله وأخذ ما معه من الأموال؛ وكتب المنصورُ إلى صاحب طبرستان يطلب منه الأموال، فأنكرها، فسبّر الجنود إليه، فهرب إلى الديلم.

ذكر خروج ملبد بن حرملة

وفي هذه السنة خرج ملبد بن حرملة الشيبانيّ، فحكم بناحية الجزيرة، فسارت إليه روابط الجزيرة، وهو في نحو ألف فارس، فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم. ثمّ سار إليه يزيد بن حاتم المهلبيّ، فهزمه ملبد وأخذ جارية له كان يطأها، فوجّه إليه المنصورُ مولاه مهلهل بن صفوان في ألفين من نخبة الجند، فهزمهم ملبد واستباح عسكرهم.

وكان أبو مسلم قد سمع الحديث من عكرمة، وأبي الزبير المكيّ، وثابت الثبانيّ، ومحمّد بن علي بن عبد الله بن عباس، والسدير (؟)؛ وروى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ، عبد الله بن المبارك، وغيرهما.

خطب يوماً فقام إليه رجل فقال: ما هذا السواد الذي أرى عليك؟ فقال: حدّثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أنّ النبيّ ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة، يا غلام اضرب عنقه.

قيل لعبد الله بن المبارك: أبو مسلم كان خيراً أو الحجاج؟ قال: لا أقول إنّ أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكنّ الحجاج كان شرّاً منه.

وكان أبو مسلم نازكاً شجاعاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ومروءة، وقيل (٤٨٠/٥) له: بم نلت ما أنت فيه من القهر للأعداء؟ فقال: ارتدّيت الصبر وآثرت الكتمان وحالفت الأحزان والأشجان وشامت المقادير والأحكام حتى بلغت غاية همّي وأدركت نهاية بغيتي؛ ثمّ قال :

قد نلت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني ساسان إذ خشدوا ما زلت أضربهم بالسيف فاتتوها
من رقدوا لم ينهها قبلهم أحد
طَفِقْتُ أَسْمِي عليهم في ديارهم
والقوم في مُلكهم بالشام [قد] ارقدوا
ومن رعى غنماً في أرض مسبوقة
ونام عنها تولّى رعيها الأسد

وقيل: إنّ أبا مسلم ورد نيسابور على حمارٍ بكافٍ وليس معه أدميّ، فقصد في بعض الليالي داراً لفادوسيان فدقّ عليه الباب، ففرّج أصحابه وخرجوا إليه، فقال لهم: قولوا للدهقان إنّ أبا مسلم بالباب يطلب منك ألف درهم ودابة. فقالوا للدهقان ذلك، فقال الدهقان: في أيّ زيّ هو وأيّ عدّة؟ فأخبروه أنّه وجده في أدون زيّ، فسكت ساعة ثمّ دعا بألف درهم ودابة من خواصّ دوابّه وأذن له وقال: يا أبا مسلم قد أسعفتك بما طلبت، وإن عرضت حاجةً أخرى فنحن بين يديك. فقال: ما نضع لك ما فعلته.

فلما ملك قال له بعض أقاربه: إن فتحت نيسابور أخذت كلّ ما تريده من مال الفادوسيان دهقانها المجوسيّ. فقال أبو مسلم: له عندنا يد. فلما ملك نيسابور أنّه هدايا الفادوسيان، فقيل له: لا

ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيْهِ نَزَارًا قَائِدًا مِنْ قَوَادِ خِرَاسَانَ، فَقَتَلَهُ مَلِيبْدُ وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ.

(٤٨٥/٥)

ذَكَرَ قَتْلَ مَلِيبْدِ الْخَارِجِيِّ

قَدْ ذَكَرْنَا خُرُوجَهُ فِي السَّنَةِ قَبْلَهَا، وَتَحَصَّنَ حُمَيْدٌ مِنْهُ، وَلَمَّا بَلَغَ الْمَنْصُورُ ظَفَرَ مَلِيبْدٍ، وَتَحَصَّنَ حُمَيْدٌ مِنْهُ، وَجَّهَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخَا عَبْدِ الْجَبَّارِ وَضَمَّ زِيَادُ بْنُ مَشْكَانٍ، فَكَمَنَ لَهُ مَلِيبْدُ مِائَةَ فَارَسٍ، فَلَمَّا لَقِيَ عَبْدُ الْعَزِيزِ خَرَجَ عَلَيْهِ الْكَمِينَ فَهَزَمُوهُ وَقَتَلُوا عَامَّةَ أَصْحَابِهِ.

فَوَجَّهَ [الْمَنْصُورُ] إِلَيْهِ خَازِمُ بْنُ خَزِيمَةَ فِي نَحْوِ ثَمَانِيَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُرُورِ وَدِيَّةٍ، فَسَارَ خَازِمٌ حَتَّى نَزَلَ الْمَوْصِلَ، وَبَعَثَ إِلَى مَلِيبْدٍ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، وَعَبَّرَ مَلِيبْدُ دَجْلَةَ مِنْ بَلَدٍ وَسَارَ نَحْوَ خَازِمٍ، وَسَارَ إِلَيْهِ خَازِمٌ وَعَلَى مَقْدَمَتِهِ وَطَلَانَعَةُ فَضَّلَةَ بْنِ نُعَيْمٍ بْنِ خَازِمٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّهَشَلِيِّ، وَعَلَى مِيمَتِهِ زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَامِرِيُّ، وَعَلَى مِيسِرَتِهِ أَبُو حَمَّادٍ الْأَبْرَصُ، وَخَازِمٌ فِي الْقَلْبِ، فَلَمَّ يَزِلُ يَسَائِرَ مَلِيبْدًا وَأَصْحَابَهُ إِلَى اللَّيْلِ وَتَوَاقَفُوا لِيَتْلَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ سَارَ مَلِيبْدُ نَحْوَ كُورَةِ حَزَّةَ، وَخَازِمٌ وَأَصْحَابُهُ يَسَائِرُونَهُمْ حَتَّى غَشِيَهُمُ اللَّيْلُ، وَأَصْبَحُوا مِنَ الْغَدِ فَسَارَ مَلِيبْدُ كَأَنَّهُ يَرِيدُ الْهَرَبَ، فَخَرَجَ خَازِمٌ فِي آثَرِهِ وَتَرَكَوْا خَنْدَقَهُمْ، وَكَانَ خَازِمٌ قَدْ خَنْدَقَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِالْحَسَكِ، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْهُ حَمَلَ عَلَيْهِمْ مَلِيبْدُ وَأَصْحَابُهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ خَازِمُ أَلْقَى الْحَسَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَدِي أَصْحَابِهِ، فَحَمَلُوا عَلَى مِيمَةِ خَازِمٍ فَطَوَوْهَا، ثُمَّ حَمَلُوا عَلَى الْمِيسِرَةِ وَطَوَوْهَا، ثُمَّ انْتَهَرُوا إِلَى الْقَلْبِ وَفِيهِ خَازِمٌ، فَنَادَى خَازِمٌ فِي أَصْحَابِهِ: الْأَرْضُ الْأَرْضُ! فَسَازَلُوا وَنَزَلَ مَلِيبْدُ وَأَصْحَابُهُ وَعَقَرُوا عَامَّةَ دَوَابِّهِمْ، ثُمَّ اضْطَرَبُوا بِالسَّيْفِ حَتَّى تَقَطَّعَتْ.

(٤٨٦/٥)

وَأَمَرَ خَازِمُ فَضَّلَةَ بْنَ نُعَيْمٍ أَنْ إِذَا سَطَعَ الْغَبَارُ وَلَمْ يَبْصُرْ بَعْضُنَا بَعْضًا فَارْجِعْ إِلَى خَيْلِكَ وَخَيْلِ أَصْحَابِكَ فَارْكَبُوهَا ثُمَّ ارْمُوهُمْ بِنَشَابٍ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَتَرَجَعَ أَصْحَابُ خَازِمٍ مِنَ الْمِيمَةِ إِلَى الْمِيسِرَةِ ثُمَّ رَشَقُوا مَلِيبْدًا وَأَصْحَابَهُ بِالنَّشَابِ، فَقَتَلَ مَلِيبْدٌ فِي ثَمَانِمِائَةِ رَجُلٍ مِمَّنْ تَرَجَّلَ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَرَجَّلُوا زَهَاءُ ثَلَاثِمِائَةٍ وَهَرَبَ الْبَاقُونَ، وَتَبِعَهُمْ فَضَّلَةُ قَتَلَ مِنْهُمْ مِائَةَ وَخَمْسِينَ رَجُلًا.

ذَكَرَ عَدَّةَ حَوَادِثَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ خَرَجَ قُسْطَنْطِينُ مَلِكُ الرُّومِ إِلَى بِلَدِ الْإِسْلَامِ فَدَخَلَ مَلْطِيَّةَ عَنُورَةً وَقَهْرًا وَغَلَبَ أَهْلَهَا وَهَدَمَ سُورَهَا وَعَفَا عَمَّنْ فِيهَا مِنَ الْمَقَاتِلَةِ وَالذَّرِيَّةِ.

وَفِيهَا غَزَا الْعَبَّاسُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ الصَّافِيَّةَ مَعَ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ وَعِيسَى بْنِ عَلِيٍّ، وَقِيلَ: كَانَتْ سَنَةُ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ، فَبَنَى صَالِحٌ مَا كَانَ مَلِكُ الرُّومِ أَخْبَرَهُ مِنْ سُورِ مَلْطِيَّةِ.

ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيْهِ زِيَادُ بْنُ مَشْكَانٍ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ، فَلَقِيَهُمْ مَلِيبْدُ فَهَزَمَهُمْ. ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيْهِ صَالِحُ بْنُ صَبِيحٍ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ وَخَيْلٍ كَثِيرَةٍ عَدَّةً، فَهَزَمَهُمْ مَلِيبْدٌ. ثُمَّ سَارَ إِلَيْهِ حُمَيْدُ بْنُ قَحْطَبَةَ وَهُوَ عَلَى الْجَزِيرَةِ يَوْمَئِذٍ، فَلَقِيَهِ مَلِيبْدُ فَهَزَمَهُ، وَتَحَصَّنَ مِنْهُ حَمِيدُ بْنُ قَحْطَبَةَ وَأَعْطَاهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى أَنْ يَكْفَى عَنْهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ خُرُوجَ مَلِيبْدٍ كَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةَ. (٤٨٣/٥)

ذَكَرَ عَدَّةَ حَوَادِثَ

وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ هَذِهِ السَّنَةُ صَافِيَّةً لَشُغْلِ السُّلْطَانِ بِحَرْبِ سِنْدَادٍ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ هَذِهِ السَّنَةَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ عَلَى الْمَوْصِلِ، وَكَانَ عَلَى الْمَدِينَةِ زِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَلَى مَكَّةَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْبُدٍ. وَمَاتَ الْعَبَّاسُ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْمَوْسِمِ، فَضَمَّ إِسْمَاعِيلُ عَمَلَهُ إِلَى زِيَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَقْرَبَهُ الْمَنْصُورُ عَلَيْهِ. وَكَانَ عَلَى الْكُوفَةِ عِيسَى بْنُ مُوسَى، وَعَلَى الْبَصْرَةِ وَأَعْمَالِهَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَلِيٍّ، وَعَلَى قَضَائِهَا عَمْرُ بْنُ عَامِرٍ السُّلَمِّيُّ، وَعَلَى خِرَاسَانَ أَبُو دَاوُدَ خَالِدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى مِصْرَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ، وَعَلَى الْجَزِيرَةِ حُمَيْدُ بْنُ قَحْطَبَةَ، وَعَلَى الْمَوْصِلِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَهِيَ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْاجْتِدَالِ. (٤٨٤/٥)

سَنَةُ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةَ

ذَكَرَ خَلْعَ جُمْهُورِ بَنِ مَرَّازِ الْمِجَلِّيِّ

وَفِيهَا خَلَعَ جُمْهُورُ بَنِ مَرَّازِ الْمَنْصُورُ بِالرِّيِّ.

وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ جُمْهُورًا لَمَّا هَزَمَ سِنْدَادَ حَوَى مَا فِي عَسْكَرِهِ، وَكَانَ فِيهِ خَزَائِنُ أَبِي مُسْلَمٍ، فَلَمَّ يُوَجِّهُهَا إِلَى الْمَنْصُورِ، فَخَافَ فَخَلَعَ وَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْمَنْصُورُ مُحَمَّدَ بْنَ الْأَشْثَعِ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ نَحْوَ الرِّيِّ، فَفَارَقَهَا جُمْهُورٌ نَحْوَ أَصْبَهَانَ، وَدَخَلَ مُحَمَّدٌ الرِّيَّ، وَمَلِكُ جُمْهُورِ أَصْبَهَانَ، فَارْسَلَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ عَسْكَرًا، وَبَقِيَ فِي الرِّيِّ، فَأَشَارَ عَلَى جُمْهُورٍ بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنْ يَسِيرَ فِي نَجْدَةِ عَسْكَرِهِ نَحْوَ مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ فِي قَلَّةٍ، فَإِنْ ظَفَرَ لَمْ يَكُنْ لَمَنْ يَبْعُدُهُ بَقِيَّةً، فَسَارَ إِلَيْهِ مُجَدًّا.

وَبَلَغَ خَبْرَهُ مُحَمَّدًا، فَحَذَرَ وَاحْتَاطَ، وَأَتَاهُ عَسْكَرٌ مِنْ خُرَاسَانَ فَقَرَى بِهِمْ، فَالْتَقُوا بِقَصْرِ الْغَيْرِزَانَ بَيْنَ الرِّيِّ وَأَصْبَهَانَ فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا عَظِيمًا، وَمَعَ جُمْهُورٍ نَجْدَةِ فَرَسَانَ الْعَجَمِ، فَهَزَمَ جُمْهُورٌ وَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَهَرَبَ جُمْهُورٌ فَلَحَقَ بِأَذْرَبِجَانَ، ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ

وفيها بايع عبد الله بن علي المنصور وهو مقيم بالبصرة مع أخيه سليمان بن علي. وفيها وسع المنصور المسجد الحرام.

وحج بالناس هذه السنة الفضل بن صالح بن علي، وكان على المدينة ومكة والطائف زياد بن عبد الله الحارثي، وعلى الكوفة وسوادها عيسى بن موسى، وعلى البصرة سليمان بن علي، وعلى قضائها سوار بن عبد الله، وعلى خراسان أبو داود، وعلى مصر صالح بن علي. (٤٨٧/٥)

وفيها توفي السواد بن رفاعه بن أبي مالك القرطبي. وسعيد بن جهمان أبو حفص الأسلمي، يروي عن سفينة حديث الخلافة ثلاثون. ويونس بن عبيد البصري، وقيل: توفي سنة تسع وثلاثين ومائة. (٤٨٨/٥)

سنة تسع وثلاثين ومائة

ذكر غزو الروم والفداء معهم

في هذه السنة فرغ صالح بن علي والعباس بن محمد من عمارة ما أخربه الروم من ملطية، ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا في أرض الروم، وغزا مع صالح أخاه أم عيسى ولبابة بنتا علي، وكانتا نذرنا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله. وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة المهراني.

وفي هذه السنة كان الفداء بين المنصور وملك الروم، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم، وبنها وعمارها ورد إليها أهلها، وندب إليها جنداً من أهل الجزيرة وغيرهم، فأقاموا بها وحموها، ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قبل إلا سنة ست وأربعين، لاشتغال المنصور بابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، إلا أن بعضهم قال: إن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام في سنة أربعين، وأقبل قسطنطين ملك الروم في مائة ألف فبلغ جيحان فسمع كثرة المسلمين فأحجم عنهم، ثم لم يكن بعدها صائفة إلى سنة ست وأربعين. (٤٨٩/٥)

ذكر دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس

قد ذكرنا في سنة اثنتين وتسعين فتح الأندلس وعزل موسى بن نصير عنها.

فلما عزل عنها وسار إلى الشام استخلف عليها ابنه عبد العزيز وضبطها وحمى ثغورها وافتتح في ولايته مدائن كثيرة، وكان خيراً فاضلاً، وبقي أميراً إلى سنة سبع وتسعين، وقيل: ثمان وتسعين، فقتل بها. وقد تقدم سبب قتله.

فلما قتل بقي أهل الأندلس ستة أشهر لا يجمعهم وال، ثم اتفقوا على أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير، فكان يصلي بهم لصلاحه، وتحول إلى قرطبة وجعلها دار إمارة في أول سنة تسع وتسعين، وقيل سنة ثمان وتسعين.

ثم إن سليمان بن عبد الملك استعمل بعده الحر بن عبد الرحمن الثقفي، فقدمها سنة ثمان وتسعين، فأقام والياً عليها سنتين وتسعة أشهر.

فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة استعمل على الأندلس السمع بن مالك الخولاني وأمره أن يميز أرضها ويخرج منها ما كان عنوة ويأخذ منه الخمس ويكتب إليه بصفه الأندلس، وكان رايه إقبال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين. فقدمها السمع سنة مائة في رمضان وفعل ما أمره عمر، وقتل عند انصرافه من دار الحرب سنة اثنتين ومائة، وكان قد بدا لعمر في نقل أهلها عنها وتركهم، ودعا لأهلها. (٤٩٠/٥)

ثم وليها بعد السمع غنيسة بن سحيم الكلبى سنة ثلاث ومائة، وتوفي في شعبان سنة سبع ومائة عند انصرافه من غزوة الإفرونج.

ثم وليها بعده يحيى بن سلمى الكلبى في ذي القعدة سنة سبع، فبقي عليها والياً سنتين وستة أشهر. ثم دخل الأندلس حذيفة بن الأبرص الأشجعي سنة عشر ومائة فبقي والياً عليها ستة أشهر، ثم عزل. ثم وليها عثمان بن أبي شعبة الخثعمي، فقدمها سنة عشر ومائة وعزل آخر سنة عشر ومائة أيضاً، كانت ولايته خمسة أشهر.

ثم وليها الهيثم بن عبيد الكتاني، فقدمها في المحرم سنة إحدى عشرة ومائة، فأقام والياً عليها عشرة أشهر وآبأما ثم توفي في ذي الحجة، فقدم أهل الأندلس على أنفسهم محمد بن عبد الله الأشجعي، وكانت ولايته شهرين، وولي بعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي في صفر سنة اثني عشرة ومائة، واستشهد في أرض العدو في رمضان سنة أربع عشرة ومائة.

ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهري، فأقام عليها سنتين وعزل. ثم وليها بعده عقبة بن الحجاج السلولي، دخلها سنة ست عشرة ومائة، فوليها خمس سنين، وثار أهل الأندلس به فخلعوه فولوا بعده عبد الملك بن قطن، وهي ولايته الثانية، وقد ذكر بعض مؤرخي الأندلس أنه توفي، فولى أهل الأندلس عبد الملك.

ثم وليها بلج بن بشر القشيري، بايعه أصحابه، فهرب عبد الملك ولحق بداره، وهرب ابنه قطن وأميه فلحق أحدهما بماردة والآخر بترقطة، ثم ثارت اليمى على بلج وسأله قتل عبد الملك بن قطن، فلما (٤٩١/٥) خشي فسادهم أمر به فقتل وصلب، وكان عمره تسعين سنة، فلما بلغ ابنه قتله حشداً من ماردة إلى أربونة، فاجتمع إليهما مائة ألف، وزحفوا إلى بلج ومن

معه بقرطة، فخرج إليهم بلج فلقبهم فيمن معه من أهل الشام بقرب قرطبة فهزمهما، ورجع إلى قرطبة فمات بعد أيام يسيرة.

وكان سبب قدوم بلج الأندلس أنه كان مع عمه كلثوم بن عياض في وقعة البربر سنة ثلاث وعشرين، وقد تقدم ذكرها، فلما قُتل عمه سار إلى الأندلس، فأجازه عبدُ الملك بن قُطن إليها، وكان سبب قتله.

ثم ولَّى أهلُ الشام على الأندلس مكانه ثعلبة بن سلامة العاملي فاقام إلى أن قدم أبو الخطار والياً على الأندلس، سنة خمس وعشرين ومائة فدان له أهل الأندلس وأقبل إليه ثعلبة وابن أبي نُسعة وابنا عبد الملك فآمنهم وأحسن إليهم واستقام أمره، وكان شجاعاً ذا رأي وكرم، وكثر أهلُ الشام عنده، فلم تحملهم قرطبة، ففرّتهم في البلاد، فأنزل أهلَ دمشق إلىبيرة لشبهها بها وسماها دمشق، وأنزل أهلَ حمص إشبيلية وسماها حمص، وأنزل أهلَ قنشرين بجزيرة وسماها قنشرين، وأنزل أهلَ الأزد بربّة وسماها الأزد، وأنزل أهلَ فلسطين بشذونة وسماها فلسطين، وأنزل أهلَ مصر ببنّامير وسماها مصر لشبهها بها، ثم تعصب اليمانية، وكان ذلك سبباً لتألب الصمّيل بن حاتم عليه مع مُضَر وحربه وخلعه. وقامت هذه الفتنة سنة سبع وعشرين ومائة.

وكان الصمّيل بن حاتم بن شير بن ذي الجوشن قد قدم الأندلس في أمداد الشام فرأس بها، فأراد أبو الخطار أن يضع منه فامر به يوماً وعنده الجند فشتم وأهين، فخرج وعمامته مائلة، فقال له بعضُ الحجاب: ما بال عمامتك (٤٩٢/٥) مائلة؟ فقال: إن كان لي قوم فسقيموها، وبعث إلى قومه فشكا إليهم ما لقي. فقالوا: نحن لك تبع، وكتبوا إلى ثوابة بن سلامة الجذاسي، هو من أهل فلسطين، فوفد عليهم وأجابهم وتبعهم لخم وجذام.

فبلغ ذلك إلى أبي الخطار فسار إليهم، فقاتلوه فانهم أصحابه وأسر أبو الخطار ودخل ثوابة قصر قرطبة وأبو الخطار في قيوده، فولّى ثوابة الأندلس ستينين ثم توفي، فأراد أهلُ اليمن إعادة أبي الخطار، وامتنعت مُضَر، ورأسهم الصمّيل، فافتقرت الكلمة، فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير. وقد تقدم أبسط من هذا سنة سبع وعشرين ومائة.

فلما بقوا بغير أمير قدّموا عبدَ الرحمن بن كثير اللخمي للأحكام. فلما تفاقم الأمر اتفق رأيهم على يوسف بن عبد الرحمن بن خبيب بن أبي عبيدة الفهري، فولّوها يوسف سنة تسع وعشرين، فاستقر الأمر أن يلي سنة ثم يرد الأمر إلى اليمن فيولّون من أحبوا من قومهم.

فلما انقضت السنة أقبل أهلُ اليمن بأسرهم يريدون أن يولّوا رجلاً منهم، فبيّتهم الصمّيل فقتل منهم خلقاً كثيراً، فهي وقعة

شقندة المشهورة، وفيها قُتل أبو الخطار واقتلوا بالرماح حتى تقطعت وبالسيف حتى تكسرت، ثم تجاذبوا بالشعور، وكان ذلك سنة ثلاثين، واجتمع الناس على يوسف ولم يعترضه أحد.

وقد قيل غير ما ذكرنا، وقد تقدم ذكره سنة سبع وعشرين ومائة.

ثم توالى القحط على الأندلس وجلا أهلها عنها وتضعفت إلى سنة ست وثلاثين ومائة، وفيها اجتمع تميم بن معبد الفهري وعامر العبدري بمدينة سرقسطة، وحاربهما الصمّيل، ثم سار إليهما يوسف الفهري فحاربهما (٤٩٣/٥) فقتلتهما، وبقي يوسف على الأندلس إلى أن غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام.

هذا ما ذكرناه من ولّاة الأندلس على الاختصار، وقد تقدم أبسط من هذا متفرقاً، وإنما أوردناه هاهنا متابعاً ليتصل بعض أخبار الأندلس ببعض لأنها وردت متفرقة. ونرجع إلى ذكر عبور عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إليها.

وأما سبب سير عبد الرحمن إلى الغرب فإنه يحكى عنه أنه لما ظهرت الدولة العباسية وقُتل من بني أمية من قُتل ومن شيعتهم فر منهم من نجا في الأرض، وكان عبد الرحمن بن معاوية بذات الزيتون، ففر منها إلى فلسطين وأقام هو ومولاه بدر يتجسس الأخبار، فحكى عنه أنه قال: لما أعطينا الأمان ثم نكث بنا بنهر أبي فطرس وأبيحت دماؤنا أئانا الخبر وكنت مُتنبذاً من الناس، فرجعتُ إلى منزلي آيساً ونظرت فيما يصلحني وأهلي وخرجت خائفاً حتى صرتُ إلى قرية على الفرات ذات شجر وغياض، فبينما أنا ذات يوم بها وولدي سليمان يلعب بين يدي، وهو يومئذ ابن أربع سنين، فخرج عني ثم دخل الصبي من باب البيت باكياً فرعاً فتعلق بي، وجعلت أدفعه وهو يتعلق بي، فخرجت لأنظر وإذا بالخوف قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود منقطعة عليها، وأخ لي حديث السن يقول لي: النجاة النجاة! فهذه رايات المسودة! فأخذتُ دنائير معي ونجوتُ بنفسي وأخي وأعلمت أخواتي بمتوجهي فامرتهن أن يلحقنني مولاي بدر، وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لي أثراً، فأتيت رجلاً من معارفي وأمرته فاشترى لي دواب وما يصلحني، فدلّ علي عبدُ له العامل، فأقبل في خيله يطلبني، فخرجنا على أرجلنا هرباً والخيول (٤٩٤/٥) تبصرنا فدخلنا في بساتين على الفرات فسبقنا الخيل إلى الفرات فسبحنا. فأما أنا فنجوتُ والخيول يتادوننا بالأمان ولا أرجع. وأما أخي فإنه عجز عن السباحة في نصف الفرات فرجع إليهم بالأمان وأخذوه فقتلوه وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه تكلاً ومضيت لوجهي فتواريت في غيضة أشبية حتى انقطع الطلب عني، وخرجتُ فقصدتُ المغرب فبلغت إفريقية.

ثم إن أخته أم الأصبع الحقته بدرأ مولاه ومعه نفقة له وجوهر،

فَلَمَّا بَلَغَ إِفْرِيْقِيَةَ لَحِقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنَ حَبِيبِ بْنِ أَبِي عَيْسَةَ الْفَهْرِيُّ، قِيلَ هُوَ وَالِدُ يُوسُفَ أَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَامِلَ إِفْرِيْقِيَةَ فِي طَلَبِهِ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، فَهَرَبَ مِنْهُ فَاتَى مَكْنَأَسَةَ، وَهَمَّ قَبِيلَ مِنَ الْبَرْبَرِ، فَلَقِيَ عَنْدهُمْ شِدَّةً يَطُولُ ذِكْرُهَا، ثُمَّ هَرَبَ مِنْ عَنْدهُمْ فَاتَى يَنْزَاوَةَ، وَهَمَّ أَخُوَالَهُ، وَيَدْرُ مَعَهُ.

وَقِيلَ: أَتَى قَوْمًا مِنَ الزَّنَاتِيَّينَ فَأَحْسَنُوا قَبُولَهُ وَأَطْمَأَنَّا فِيهِمْ وَأَخَذَ فِي تَدْبِيرِ الْمَكَاتِبَةِ إِلَى الْأُمَوِيِّينَ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ يُعْلِمُهُمْ بِقُدُومِهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى نَفْسِهِ، وَوَجَّهَ بِدَرٍّ مَوْلَاهُ إِلَيْهِمْ، وَأَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ حَيْثُ يُوسُفَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفَهْرِيِّ.

فَسَارَ بِدَرْ إِلَيْهِمْ وَأَعْلَمَهُمْ حَالَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَاجَابُوهُ وَوَجَّهُوا لَهُ مَرْكَبًا فِيهِ ثَمَامَةُ بْنُ عُلْقَمَةَ، وَوَهَبَ بْنِ الْأَصْفَرِ، وَشَاكِرَ بْنَ أَبِي الْأَشْمَطِ، فَوَصَلُوا إِلَيْهِ وَأَبْلَغُوهُ طَاعَتَهُمْ لَهُ وَأَخَذُوهُ وَرَجَعُوا إِلَى الْأَنْدَلُسِ، فَأَرَسَى فِي الْمُنْكَبِ فِي شَهْرِ رَيْبِعِ الْأَوَّلِ سَنَةَ ثَمَانَ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةَ، فَأَتَاهُ جَمَاعَةٌ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ إِيْشْبِيلَةَ، وَكَانَتْ أَيْضًا نَفُوسُ أَهْلِ الْيَمَنِ حَتْفَةً عَلَى الصُّمَيْلِ وَيُوسُفَ الْفَهْرِيِّ، فَاتَوْهُ. ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى كُورَةَ رِيَّةَ فَبَايَعَهُ عَامِلُهَا عَيْسَى بْنُ مُسَارٍ. ثُمَّ أَتَى شَذُونَةَ فَبَايَعَهُ غِيَاثُ بْنُ عُلْقَمَةَ اللَّخْمِيُّ. ثُمَّ أَتَى مُرُورَ فَبَايَعَهُ إِبْرَاهِيمَ شَجَرَةَ عَامِلَهَا. ثُمَّ أَتَى إِيْشْبِيلَةَ فَبَايَعَهُ أَبُو الصَّبَاحِ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، وَنَهَذَ إِلَى قَرْطَبَةَ.

فَبَلَغَ خَبْرَهُ إِلَى يُوسُفَ وَكَانَ غَائِبًا عَنْ قَرْطَبَةَ بِنَوَاحِي طُلَيْطُلَةَ، فَأَتَاهُ (٤٩٥/٥) الْخَبَرُ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى قَرْطَبَةَ، فَسَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ نَحْوَ قَرْطَبَةَ.

فَلَمَّا أَتَى قَرْطَبَةَ تَرَاوَعَا هُوَ وَيُوسُفَ فِي الصَّلْحِ، فَخَادَعَهُ نَحْوَ يَوْمَيْنِ، أَحَدُهُمَا يَوْمَ عَرَفَةَ، وَلَمْ يَشْكَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ يُوسُفَ أَنَّ الصَّلْحَ قَدْ أَبْرَمَ، وَأَقْبَلَ عَلَى إِعْدَادِ الطَّعَامِ لِيَاكُلَهُ النَّاسُ عَلَى السَّمَاطِ يَوْمَ الْأَضْحَى، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مَرَّتَبَ خِيَلِهِ وَرَجَلَهُ، وَعَبَّرَ النَّهْرَ فِي أَصْحَابِهِ لَيْلًا، وَنَشِبَ الْقِتَالُ لَيْلَةَ الْأَضْحَى، وَصَبَرَ الْفَرِيقَانِ إِلَى أَنْ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، وَرَكِبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى بَغْلٍ لِسَلَا يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّهُ يَهْرَبُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ كَذَلِكَ سَكَنَتْ نَفُوسُهُمْ، وَأَسْرَعَ الْقِتْلُ فَنَسَى أَصْحَابُ يُوسُفَ وَانْهَزَمُوا، وَبَقِيَ الصُّمَيْلُ يُقَاتِلُ مَعَ عَصَابَةِ مِنْ عَشِيرَتِهِ ثُمَّ انْهَزَمُوا، فَظَفَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَلَمَّا انْهَزَمَ يُوسُفَ أَتَى مَارِدَةَ، وَأَتَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَرْطَبَةَ فَأَخْرَجَ حَشَمَ يُوسُفَ مِنَ الْقَصْرِ عَلَى عَوْدَةِ وَدَخَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

ثُمَّ سَارَ فِي طَلَبِ يُوسُفَ، فَلَمَّا أَحْسَنَ بِهِ يُوسُفَ خَالَفَهُ إِلَى قَرْطَبَةَ فَدَخَلَهَا وَمَلَكَ قَصْرَهَا، فَأَخَذَ جَمِيعَ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَلَحِقَ بِمَدِينَةِ الْبَيْرَةِ، وَكَانَ الصُّمَيْلُ لَحِقَ بِمَدِينَةِ شَوَذَرٍ.

وَوَرَدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْخَبْرُ فَرَجَعَ إِلَى قَرْطَبَةَ طَعْمًا فِي لِحَاقِهِ بِهَا، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْهُ عَزَمَ عَلَى التَّهَوُّضِ إِلَيْهِ، فَسَارَ إِلَى الْبَيْرَةِ، وَكَانَ

وَقَدْ كَانَ خُفَافَ بْنَ مَنصُورٍ حَذَرَهُمْ ذَلِكَ، وَنَدِمَ عَلَى مَجِيئِهِ مَعَهُمْ، وَقَالَ: إِنْ أَطَعْتُمُونِي شَدَدْنَا شِدَّةً وَاحِدَةً عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ، فَوَاللَّهِ لَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَنَا حَائِلٌ حَتَّى نَأْتِيَ عَلَيْهِ! وَلَا يَعْزُضُ لَنَا أَحَدٌ إِلَّا قَتَلْنَاهُ وَنَجَّوْهُ بَأَنْفُسِنَا! فَعَصَوْهُ.

فَلَمَّا أَخَذَتْ سَيُوفُهُمْ وَحُسُوبُوا جَعَلَ خُفَافٌ يَضْرِبُ فِي لَحْيَةِ نَفْسِهِ وَيَقِفُ فِي وَجْهِ أَصْحَابِهِ؛ ثُمَّ أَمَرَ الْمَنصُورَ بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ بِحَضْرَتِهِ وَبَعَثَ الْبَاقِينَ إِلَى أَبِي دَاوُدَ خَالِدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بِخِرَاسَانَ فَقَتَلَهُمْ بِهَا.

ذكر عدة حوادث

عُزل سليمان بن عليّ عن إمارة البصرة، وقيل: سنة أربعين، واستعمل عليها سفيان بن معاوية في رمضان.

وحجّ بالناس هذه السنة العباس بن محمد بن عليّ، وكان على مكة والمدينة والطائف زياد بن عبد الله الحارثي، وعلى الكوفة عيسى بن موسى، وعلى البصرة سفيان بن معاوية، وعلى قضائها سوار بن عبد الله، وعلى خراسان أبو داود.

وفيها مات عبد ربّه سعيد بن قيس الأنصاري، وقيل: سنة إحدى وأربعين.

وفيها مات العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة، ومحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن أبي صغصعة المازني، ويزيد بن عبد الله بن شدّاد بن الهاد الليثي، وكان موته بالإسكندرية. (٤٩٨/٥)

سنة أربعين ومائة

ذكر هلاك أبي داود عامل خراسان وولاية عبد الجبار

وفي هذه السنة هلك أبو داود خالد بن إبراهيم الذُّهليّ عامل خراسان.

وكان سبب هلاكه أنّ ناساً من الجند ثاروا به وهو بكُشماقن ووصلوا إلى المنزل الذي هو فيه، فاشرف عليهم من الحائط ليلاً فوطئ حرفاً آجرة خارجة وجعل ينادي أصحابه ليعرفوا صوته، فانكسرت الآجرة تحته عند الصبح فسقط على الأرض فانكسر ظهره فمات عند صلاة العصر، فقام عصام صاحب شرطته بعده حتّى قدم عليه عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزديّ عاملاً على خراسان، فلمّا قدمها أخذ جماعة من القواد اتهمهم بالدعاه إلى ولد عليّ بن أبي طالب، منهم: مُجاشع بن حُرث الأنصاريّ عامل بخارى، وأبو المغيرة خالد بن كثير مولى بني تميم عامل قوهستان، والحريش بن محمد الذُّهليّ، وهو ابن عمّ أبي داود، فقتلهم وحبس جماعة غيرهم وألح على عمّ أبي داود في استخراج ما عندهم من الأموال.

ذكر قتل يوسف الفهريّ

في هذه السنة نكث يوسف الفهريّ، الذي كان أمير الأندلس، عهد عبد الرحمن الأمويّ. (٤٩٩/٥)

وكان سبب ذلك أنّ عبد الرحمن كان يضع عليه من يهينه وينازعه في أملاكه، فإذا أظهر حجة الشريعة لا يعمل بها، ففطن لما يُراد منه فقصّد ماردة واجتمع عليه عشرون ألفاً، فسار نحو عبد الرحمن، وخرج عبد الرحمن من قرطبة نحوه إلى حصن المدور.

ثمّ إن يوسف رأى أن يسير إلى عبد الملك بن عمر بن مروان، وكان والياً على إشبيلية، وإلى ابنه عمر بن عبد الملك، وكان على المدور، فسار نحوها؛ وخرجاً إليه فلقياه، فاقتلا قتالاً شديداً، فصر الفريقان وانهزم أصحاب يوسف وقتل منهم خلق كثير وهرب يوسف وبقي متردداً في البلاد، فقتله بعض أصحابه في رجب من سنة اثنتين وأربعين بنواحي طليطلة وحمل رأسه إلى عبد الرحمن، فنصبه بقرطبة وقتل ابنه عبد الرحمن بن يوسف الذي كان عنده رهينة، ونصب رأسه مع رأس أبيه، وبقي أبو الأسود بن يوسف عند عبد الرحمن الأمويّ رهينة، وسيأتي ذكره.

وأما الصمّيل فإنه لما فر يوسف من قرطبة لم يهرب معه، فدعاه الأمير عبد الرحمن وسأله عنه، فقال: لم يعلمني بأمره ولا أعرف خبره، فقال: لا بدّ أن تُخبر. فقال: لو كان تحت قدمي ما رفعتما عنه؛ فسجنه مع ابنيّ يوسف. فلمّا هربا من السجن أئنف من الهرب والفرار بقي في السجن، ثمّ أدخل إليه بعد ذلك مشيخة مُضّر فوجده ميتاً وعنده كأس وتقل فقالوا: يا أبا جوشن قد علمنا أنّك ما شربت ولكن سقيت! ودفع إلى أهله فدفنوه. (٥٠٠/٥)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة هلك أذفنش ملك جليقية وملك بعده ابنه تدويلية، وكان أشجع من أبيه وأحسن سياسة للملك وضبطاً له؛ وكان ملك أبيه ثمانين عشرة سنة. ولما ملك ابنه قوي أمره وعظم سلطانه وأخرج المسلمين من ثغور البلاد وملك مدينة لُك وُبرُطال وشلمنقة وشمورة وأيلة وشقوبية وفشتيالة؛ وكلّ هذه من الأندلس.

وفيها سار المنصور عبد الوهاب، ابن أخيه إبراهيم الإمام، والحسن بن قحطبة في سبعين ألفاً من المقاتلة إلى ملطية، فزولوا عليها وعمرها ما كان خبره الروم منها ففرغوا من العمارة في سنة أشهر، وكان للحسن في ذلك أثر عظيم، وأسكنها المنصور أربعة آلاف من الجند وأكثر فيها من السلاح والذخائر وبني حصن قلودية.

ولما سمع ملك الروم بمسير عبد الوهاب والحسن إلى ملطية سار إليهم في مائة ألف مقاتل فنزل جيحان، فبلغه كثرة المسلمين فعاد عنهم. ولما عُمرت ملطية عاد إليها من كان باقياً من أهلها.

وفيها حجّ المنصور فأحرم من الحيرة، فلمّا قضى حجة توجّه إلى بيت المقدس وسار منه إلى الرقة فقتل بها منصور بن جَعونة العامريّ وعاد إلى هاشمية الكوفة.

وفيها أمر المنصور بعمارة مدينة المصيصة على يد جبرائيل بن يحيى، وكان سورها قد تشعّت من الزلازل وأهلها قليل، فبنى

السورَ وسَمَّاهَا المَعْمُورَةَ، (٥٠١/٥) وبنى بها مسجداً جامعاً، وفرض فيها لألف رجل، وأسكنها كثيراً من أهلها.

وفيهما توفي سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْزَةَ. وعمر بن يحيى أبي حسن الأنصاري. وعُمارة بن غَزِيَّة الأنصاري، وكان ثقة. وأبو العلاء أيوب القصاب. وأبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي، وهو من متكلمي المعتزلة، وأئمتهم، وله طائفة تُنسب إليه. وأسماء بن عبيد بن مخارق، والدُ خُوَيزَةَ بن أسماء. (٥٠٢/٥)

سنة إحدى وأربعين ومائة

ذكر خروج الراوندية

وفي هذه السنة كان خروج الراوندية على المنصور؛ وهم قوم من أهل خراسان على رأي أبي مسلم صاحب الدعوة، يقولون بتناسخ الأرواح، يزعمون أنَّ روح آدم في عثمان بن نهيك، وأنَّ ربهم الذي يُطعمهم ويسقيهم هو المنصور، وأنَّ جبرائيل هو الهَيْثَم بن معاوية.

فلَمَّا ظهروا أتوا قصرَ المنصور فقالوا: هذا قصر ربنا. فأخذ المنصور رؤسائهم فحبس منهم مائتين، فغضب أصحابهم وأخذوا نعتاً وحملوا السريز، وليس في النعت أحد، ومرَّوا به حتَّى صاروا على باب السجن فرموا بالنعت، وحملوا على الناس ودخلوا السجن وأخرجوا أصحابهم، وقصدوا نحو المنصور، وهم يومئذ ستمائة رجل، فتنادى الناسُ وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد؛ فخرج المنصور من القصر ماشياً، ولم يكن في القصر دابة، فجعل بعد ذلك [اليوم] يرتبط دابةً معه في القصر.

فلَمَّا خرج المنصورُ أتى بدابةً فركبها وهو يريدهم، وتكاثروا عليه حتَّى كادوا يقتلونه، وجاء مَعْنُ بن زائدة الشيباني، وكان مُسْتَبْرأ من المنصور بقتاله مع ابن هُبَيْرَةَ، كما ذكرناه، والمنصور شديد الطلب له وقد (٥٠٣/٥) بذل فيه مالاً كثيراً، فلَمَّا كان هذا اليوم حضر عند المنصور متلثماً وترجل وقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاء حسناً، وكان المنصور راكباً على بغلة ولجامها بيد الريح حاجبه، فأتى مَعْنُ وقال: تنحْ فإنا أحقُّ بهذا اللجام منك في هذا الوقت وأعظمُ غناء. فقال المنصور: صدق فادفعه إليه. فلم يزل يقاتل حتَّى تكشفت الحال وظفر بالراوندية. فقال له المنصور: مَنْ أنت؟ قال: طَلَبْتُكَ يا أمير المؤمنين مَعْنُ بنُ زائدة. فقال: أَمَنَكَ اللَّهُ على نفسك ومالك وأهلك، مثلك يُصطنع.

وجاء أبو نصر مالك بن الهَيْثَم فوقف على باب المنصور وقال: أنا اليوم بَرَّاب. ونودي في أهل السوق فرمَوْهم وقاتلوهم وفتح بابَ المدينة فدخل الناس، فجاء خازم بن خُزَيْمة فحمل عليهم حتَّى ألجأهم إلى الحائط، ثم حملوا عليه فكشفوه مرتين، فقال خازم للهَيْثَم بن شُعْبَةَ: إذا كَرَّوا علينا فاستبقهم إلى الحائط،

فلَمَّا صَلَّى المنصور الظهر دعا بالعشاء وأحضر مَعْناً ورفع منزلته وقال لعنه عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس: يا أبا العباس اسمعت بأشدَّ رجل؟ (٥٠٤/٥) قال: نعم. قال: لو رأيت اليوم مَعْناً لعلمت أنه منهم. فقال مَعْنُ: والله يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وإنِّي لَوَجُلُ القلب، فلَمَّا رأيتُ ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الإقدام عليهم رأيتُ ما لم أَره من خلقٍ في حرب فشَدَّ ذلك من قلبي وحملني على ما رأيتُ مني.

وقيل: كان مَعْنُ متخفياً من المنصور لما كان منه من قتاله مع ابن هُبَيْرَةَ، كما ذكرناه، وكان اختفاؤه عند أبي الخصيب حاجب المنصور، وكان على أن يطلب [له] الأمان، فلَمَّا خرجت الراوندية جاء مَعْنُ فوقف بالباب، فسأل المنصورُ أبا الخصيب: مَنْ بالباب؟ فقال: مَعْنُ بن زائدة. فقال المنصورُ: رجل من العرب شديد النفس عالم بالحرب كريم الحسب، ادخله، فلَمَّا دخل قال: إيه يا مَعْنُ! ما الرأي؟ قال: الرأي أن تنادي في الناس فتأمر لهم بالأموال. فقال: وأين الناس والأموال؟ ومَنْ تَقْدِم على أن يعرض نفسه لهؤلاء العلوج! لم تصنع شيئاً يا مَعْنُ! الرأي أن أخرج فأقف للناس، فإذا رأوني قاتلوا وتراجعوا إليّ، وإن أقمتُ نهارونا وتخاذلوا. فأخذ مَعْنُ بيده وقال: لا أمير المؤمنين إذا، والله تُقتل الساعة، فأنشدك الله في نفسك! فقال له أبو الخصيب مثلها، فجذب ثوبه منها وركب دابته وخرج ومَعْنُ أخذ بلجام دابته وأبو الخصيب مع ركابه، وأثناء رجُلٍ فقتله مَعْنُ حتَّى قتل أربعة في تلك الحالة، حتَّى اجتمع إليه الناس فلم يكن إلا ساعة حتَّى أفنَوْهم، ثم تغيب مَعْنُ، فسأل المنصورُ عنه أبا الخصيب فقال: لا أعلم مكانه. فقال المنصور: أيقظ مَعْنُ أن لا أغفر ذنبه بعد بلاته؟ أعطيه الأمان وادخله عليّ، فأدخله إليه، فأمر له بعشرة آلاف درهم، ثم ولَّاه اليمن. (٥٠٥/٥)

ذكر خلع عبد الجبار بخراسان ومسير المهدي إليه

في هذه السنة خلع عبد الجبار بن عبد الرحمن عاملُ خراسان للمنصور.

وسبب ذلك أنَّ عبد الجبار لما استعمله المنصور على خراسان عمد إلى القواد قتل بعضهم وحبس بعضهم، فبلغ ذلك

الحروب، فوجه المنصور عمر بن العلاء إلى طبرستان؛ وهو الذي يقول فيه بشار :

إذا أيقظتك حروبُ العبدى فبنة لها عمرًا ثم نسم
وكان عالماً ببلاد طبرستان، فأخذ الجنود وقصد الرويان
وقتها، وأخذ قلعة الطاق وما فيها، وطالت الحرب، فالح خازم
على القتال ففتح طبرستان وقتل منهم فاكثراً، وسار الأصهب إلى
قلعته فطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من الذخائر،
وكتب المهدي بذلك إلى المنصور، فوجه المنصور صالحاً صاحب
المصلى، فأحصوا ما في الحصن وانصرفوا، ودخل الأصهب بلاد
جبلان من الديلم فمات بها، وأخذت ابنته، وهي أم إبراهيم بن
العباس بن محمد، وقصدت الجنود بلد المصمغان فظفروا به
وبالبحترية، أم منصور بن المهدي.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل زياد بن عبد الله الحارثي عن مكة والمدينة
والطائف، واستعمل على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله
القسري في رجب، وعلى الطائف ومكة الهيثم بن معاوية العنكي
من أهل خراسان. (٥٠٨/٥)

وفيها توفي موسى بن كعب وهو على شرط المنصور وعلى
مصر والهند، وخليفته على الهند عتيبة ابنه، وكان قد عزل موسى
عن مصر ووليها محمد بن الأشعث ثم عزل ووليها نوفل بن محمد
بن الفرات.

وحج بالناس هذه السنة صالح بن علي بن عبد الله بن عباس
وهو على الشام، وعلى الكوفة عيسى بن موسى، وعلى البصرة
سفيان بن معاوية، وعلى خراسان المهدي، وخليفته بها السري بن
عبد الله، وعلى الموصل إسماعيل بن علي.

وفيها مات سعد بن سعيد أخو يحيى بن سعيد الأنصاري.
وأبان بن تغلب القاري. (٥٠٩/٥)

سنة اثنتين وأربعين ومائة

ذكر خلع عتيبة بن موسى بن كعب

في هذه السنة خلع عتيبة بن موسى بالسند وكان عاملاً عليها.
وسبب خلعه أن أباه كان استخلف المسيب بن زهير على
الشرط، فلما مات موسى أقام المسيب على ما كان يلي من الشرط،
وخاف أن يحضر المنصور عينه فيوليها ما كان إلى أبيه، فكتب إليه
ببيت شعر، ولم ينسب الكتاب إلى نفسه :

فارضك أرضك إن تأتيك نسمة نومة ليس فيها خلص

المنصور وأناه من بعضهم كتاب: قد نيل الأديم. فقال لأبي أيوب:
إن عبد الجبار قد أفسى شيعتنا، وما فعل ذلك إلا وهو يريد أن
يخلع. فقال له: اكتب إليه أنك تريد غزو الروم فليوجه إليك الجنود
من خراسان وعليهم فرسانهم ووجوههم، فإذا خرجوا منها فابعث
إليه من شئت فلا تمنع.

فكتب المنصور إليه بذلك، وأجابه: إن الترك قد جاشت وإن
فرقت الجنود ذهبت خراسان. فالتقى الكتاب إلى أبي أيوب وقال
له: ما ترى؟ قال: قد أمكنك من قياده، اكتب إليه: إن خراسان أهم
إلي من غيرها وأنا موجه إليك الجنود، ثم وجه إليه الجنود ليكونوا
بخراسان، فإن هم بخلع أخذوا بعنقه.

فلما ورد الكتاب بهذا على عبد الجبار أجابه: إن خراسان لم
تكن قط أسوأ حالاً منها [في هذا] العام، وإن دخلها الجنود هلكوا
لضيق ما هم فيه من الغلاء. فلما أناه الكتاب ألقاه إلى أبي أيوب،
فقال له أبو أيوب: قد أبدى صفحته وقد خلع فلا تناظره. (٥٠٦/٥)

وجه المنصور ابنه المهدي وأمره بتزول الري، فسار إليها
المهدي، وجه خازم بن خزيمه بين يديه لحرب عبد الجبار، وسار
المهدي فنزل نيسابور، فلما بلغ ذلك أهل مرو الرود ساروا إلى عبد
الجبار وحاربوه وقتلوه قتلاً شديداً، فانهزم منهم ولجأ إلى معطنة
فتواري فيها، فغير إليه المجشر بن مزاحم، من أهل مرو الرود،
فأخذه أسيراً، فلما قدم خازم أناه به فألبسه جبة صرف وحمله على
بعير وجعل وجهه ممّا يلي عجز البعير وحمله إلى المنصور ومعه
ولده وأصحابه، فبسط عليهم العذاب حتى استخرج منهم الأموال،
ثم أمر فقطعت يدا عبد الجبار ورجلاه وضرب عنقه، وأمر بتسيير
ولده إلى دحلوك، وهي جزيرة باليمن، فلم يزالوا بها حتى أغار
عليهم الهند فسبوهم فيمن سبوا ثم قودوا بعد ذلك. وكان ممن نجا
منهم عبد الرحمن بن عبد الجبار، صاحب الخلفاء ومات أيام
الرشيد سنة سبعين ومائة.

قيل: وكان أمر عبد الجبار سنة اثنتين وأربعين في ربيع الأول،
وقيل: سنة أربعين.

ذكر فتح طبرستان

ولما ظفر المهدي بعبد الجبار بغير تعب ولا مباشرة قتال كره
المنصور أن تبطل تلك النفقات التي أنفق على المهدي، فكتب إليه
أن يغزو طبرستان ويتزل الري ويوجه أبا الخصيب وخازم بن
خزيمه والجنود إلى الأصهب، وكان الأصهب يومئذ محارباً
للمصمغان، ملك ديباوند، معسكراً بإزائه، فلما بلغه دخول الجنود
ببلاده ودخول أبي الخصيب سارية قال المصمغان (٥٠٧/٥)
للأصهب: متى قهروك صاروا إلي؛ فاجتمعا على حرب المسلمين.
فانصرف الأصهب إلى بلاده فحارب المسلمين، فطالت تلك

فخلع الطاعة.

فلَمَّا بلغ الخُبْرُ إلى المنصور سار بعسكره حتَّى نزل على جسر البصرة ووجَّه عمرَ بن حفص بن أبي صُفْرة العَتَكِيَّ عاملاً على السُّدِّ والهند، فحاربه عُنَيْتَةً، فسار حتَّى ورد السُّدُّ فغلب عليها.

ذكر نكت الأصبهيد

في هذه السنة نكت الأصبهيدُ بطَبْرستان العهدَ بينه وبين المسلمين وقتل مَنْ كان بيلاده منهم، فلَمَّا انتهى الخُبْرُ إلى المنصور سَيَّر مولاة أبا الخصب (٥١٠/٥) وخازم بن خَزَيْمَةَ وروَّح بن حاتم فأقاموا على الحصن يحاصرونه وهو فيه، فلَمَّا طال عليهم المقام احتال أبو الخصب في ذلك فقال لأصحابه: اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي. ففعلوا ذلك به. ولحق بالأصبهيد فقال له: فُعل بي هذا تهمةٌ منهم لي أن يكون هواي معك؛ وأخبره أَنه معه وَأَنه دليل على غورة عسكرهم. فقبل ذلك الأصبهيدُ وجعله في خاصته وألفقه.

وكان باب حصنهم من حجر يُلقى إلقاء، ترفعه الرجال وتضعه عند فتحه وإغلاقه، وكان الأصبهيدُ يوكل به فئات أصحابه نوباً بينهم، فلَمَّا وثق الأصبهيدُ بأبي الخصب وكله بالباب، فتولَّى فتحه وإغلاقه حتَّى أنس به.

ثم كتب أبو الخصب إلى رُوح وخازم وألقى الكتاب في سهم وأعلمهم أَنه قد ظفر بالحيلة، وواعدهم ليلةً في فتح الباب، فلَمَّا كان تلك الليلة فتح لهم، فقتلوا مَنْ في الحصن من المقاتلة وسبوا الذريةَ وأخذوا شكلاً، أم إبراهيم بن المهدي. وكان مع الأصبهيد سَمٌ فشربه فمات.

وقد قيل: إنَّ ذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة.

ذكر عذة حوادث

وفيها مات سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وهو على البصرة في جمادى الآخرة وعمره تسع وخمسون سنة، وصلى عليه أخوه عبد الصمد.

وفيها غُرل نُوْفَل بن الفرات عن مصر وولياها حُمَيْد بن قُحطبة.

وحجَّ بالناس إسماعيل بن علي بن عبد الله، وكان العمَّال مَنْ تقدَّم ذكرهم. (٥١١/٥)

وولَّى المنصور الجزيرةَ والثغورَ والعواصمَ أخاه العباس بن محمَّد، وعزل المنصورَ عمَّهُ إسماعيل بن عليَّ عن الموصل واستعمل عليها مالك ابن الهيثم الخُزَاعِيَّ جدَّ أحمد بن نصير الذي قتله الواثق، وكان خير أمير.

وفيها مات يحيى بن سعيد الأنصاري أبو سعيد قاضي المدينة، وقيل سنة ثلاث، وقيل سنة أربع وأربعين.

وفيها مات موسى بن عُقْبَةَ مولى آل الزبير.

وفيها توفِّي أيضاً عاصم بن سليمان الأخول، وقيل سنة ثلاث وأربعين.

وفيها مات حُمَيْد بن أبي حُمَيْد طرخان، وقيل مهران، مولى طلحة بن عبد الله الخُزَاعِيَّ، وهو حُمَيْد الطويل، يروي عن أنس بن مالك، وعمره خمس وسبعون سنة. (٥١٢/٥)

سنة ثلاث وأربعين ومائة

في هذه السنة ثار الديلم بالمسلمين فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، فبلغ ذلك المنصورَ فندب الناس إلى قتال الديلم وجهادهم.

وفيها غُرل الهَيْثَم بن معاوية عن مَكَّة والطائف، وولَّى ذلك السريَّ بن عبد الله بن الحارث بن العباس، وكان على اليمامة، فسار إلى مَكَّة واستعمل المنصورُ على اليمامة قُثَمَّ بن عباس بن عبد الله. وفيها غُرل حُمَيْد بن قُحطبة عن مصر، واستعمل عليها نُوْفَل بن الفرات، ثم غُرل نُوْفَل واستعمل عليها يزيد بن حاتم.

وحجَّ بالناس هذه السنة عيسى بن موسى بن محمَّد بن علي بن عبد الله، وكان إليه ولاية الكوفة.

وفيها ثار بالأندلس رزق بن النُعمان الغَسَّاني على عبد الرحمن، وكان رزق على الجزيرة الخضراء، فاجتمع إليه خلقٌ عظيم، فسار إلى شذونة فملكها ودخل مدينة إشبيلية، وعاجله عبد الرحمن فحصره فيها وضيق على مَنْ بها، فتقرَّبوا إليه بتسليم رزق إليه فقتله فأمنهم ورجع عنه.

وفيها مات عبد الرحمن بن عطاء صاحب الشارعة، وهي نخل. وسليمان بن طرخان التيمي. وأشعث بن سوار. ومُجالد بن سعيد. (٥١٣/٥)

سنة أربع وأربعين ومائة

في هذه السنة سَيَّر أبو جعفر الناس من الكوفة والبصرة والجزيرة والموصل إلى غزو الديلم واستعمل عليهم محمَّد بن أبي العباس السَّقَّاح.

وفيها رجع المهدي من خراسان إلى العراق وبني بَرِيظَةَ ابنة عمِّه السَّقَّاح.

وفيها حجَّ المنصورُ واستعمل على عسكره والميرة خازم بن

خزينة.

الأبر فهو يُرشدك؛ فأتاه فأرشده.

ذكر استعمال رباح بن عثمان المُرِّي على المدينة وأمر محمد بن عبد الله بن الحسن

وفيها استعمل المنصور على المدينة رباح بن عثمان المُرِّي وعزل محمد بن خالد بن عبد الله القسري عنها.

وكان سبب عزله وعزل زياد قبله أن المنصور أهمه أمر محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وتخلفهما عن الحضور عنده مع من حضره من بني هاشم عام حج أيام السفاح سنة ست وثلاثين، وذكر أن محمد بن عبد الله كان يزعم أن المنصور ممن بايعه ليلة تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعتقدون له الخلافة حين اضطرب أمر مروان بن محمد، (٥١٤/٥) فلما حج المنصور سنة ست وثلاثين سأل عنهما، فقال له زياد بن عبد الله الحارثي: ما يهملك من أمرهما؟ أنا أتيك بهما. وكان معه بمكة فردّه المنصور إلى المدينة.

فلما استخلف المنصور لم يكن همه إلا أمر محمد والمسألة عنه وما يريد، فدعا بني هاشم رجلاً رجلاً يسأله سرّاً عنه، فكلهم يقول: قد علم أنك عرفته يطلب هذا الأمر فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافاً، وما أشبه هذا الكلام، إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب فإنه أخبره خبره وقال له: والله ما آمن وثوبه عليه، فإنه لا ينام عنك؛ فأيقظ بكلامه من لا ينام، فكان موسى بن عبد الله بن الحسن يقول بعد ذلك: اللهم اطلب حسن بن زيد بدمائنا.

ثم ألح المنصور على عبد الله بن الحسن في إحضار ابنه محمد سنة حج، فقال عبد الله لسلیمان بن علي بن عبد الله بن عباس: يا أخي بيتنا من الصهر والرحم ما تعلم، فما ترى؟ فقال سليمان: والله لكانني أنظر إلى أخي عبد الله بن علي حين حال الستر بينه وبيننا وهو يشير إلينا: هذا الذي فعلتم بي؛ فلو كان عافياً عفا عن عمه. فقبل عبد الله رأي سليمان وعلم أنه قد صدقه ولم يُظهر ابنه.

ثم إن المنصور اشترى رقيقاً من رقيق الأعراب وأعطى الرجل منهم البعير والرجل البعيرين والرجل الذود وقرقه في طلب محمد في ظهر المدينة، وكان الرجل منهم يرد الماء كالमार وكالضال يسألون عنه، وبعث المنصور عينا آخر وكتب معه كتاباً على ألسن الشيعة إلى محمد يذكرون طاعتهم ومساعدتهم وبعث معه بمال والطاف، وقدم الرجل المدينة فدخل على عبد الله بن الحسن (٥١٥/٥) الحسن فسأله عن ابنه محمد، فذكر له، فكتب له خبره، فتردد الرجل إليه والحق في المسألة، فذكر أنه في جبل جهينة، فقال له: امرز بعلي ابن الرجل الصالح الذي يُدعى الأغر وهو بذی

وكان للمنصور كاتب على سرّه يتشيع، فكتب إلى عبد الله بن الحسن يُخبره بذلك العين، فلما قدم الكتاب ارتاعوا له وبعثوا أبا هبار إلى محمد وإلى علي بن الحسن يحذّرهما الرجل، فخرج أبو هبار فنزل بعلي بن الحسن وأخبره، ثم سار إلى محمد بن عبد الله في موضعه الذي هو به، فإذا هو جالس في كهف ومعه جماعة من أصحابه، وذلك العين معهم أعلاهم صوتاً وأشدّهم انبساطاً، فلما رأى أبا هبار خافه، فقال أبو هبار لمحمد: لي حاجة. فقام معه، فأخبره الخبر، قال: فما الرأي؟ قال: أرى إحدى ثلاث. قال: وما هي؟ قال: تدعني أقتل هذا الرجل. قال: ما أنا مقارف دماً إلا كرهاً. قال: أثقله حديداً وتنقله معك حيث تنقلب. قال: وهل لنا فرار مع الخوف والإعجال؟ قال: نشده ونودعه عند بعض أهلك من جهينة. قال: هذه إذاً.

فرجعا فلم يريا الرجل. فقال محمد: أين الرجل؟ قالوا: [قام] بركوة ماء وتوارى بهذا الطريق يتوضأ، فطلبوه ولم يجدوه فكان الأَرْضُ التامت عليه؛ وسعى على قدميه حتى اتصل بالطريق، فمرّ به الأعراب معهم حمولة إلى المدينة، فقال لبعضهم: فرغ هذا الغرارة وأدخلنيها أكن عدلاً لصاحبها ولك كذا وكذا. ففعل وحمله حتى أقدمه المدينة.

ثم قدم على المنصور وأخبره خبره كله ونسي اسم أبي هبار وكنيته وقال: وبار. فكتب أبو جعفر في طلب وبار المُرِّي، فحمل إليه رجل اسمه وبار، فسأله عن قصّة محمد فحلف له أنه لا يعرف من ذلك شيئاً، فأمر به وضرب سبعمائة سوط وخُبس حتى مات المنصور.

ثم إنه أحضر عُقبة بن سلم الأزدي فقال: أريدك لأمر أنا به معني لم أزل أرتاد له رجلاً عسى أن تكونه، وإن كفيته رفعتك. فقال: أرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين في. [قال]: فأخفي شخصك واستر أمرك وأتني يوم كذا في وقت كذا. فاتاه ذلك الوقت. فقال له: إن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيداً لملكنا واغتيالاً له، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم والطاف من الطاف بلادهم، فاخرج بكسى والطاف وعين حتى تأتيهم متكرراً بكتاب تكتبه عن أهل هذه القرية ثم تعلم حالهم، فإن كانوا نزعوا عن رأيهم فأحببهم والله بهم وأقرب، وإن كانوا على رأيهم عملت ذلك وكنت على حذر، فاشخص حتى تلقى عبد الله بن الحسن متخسباً ومتخسفاً، فإن جبهك، وهو فاعل، فاصبر وعاوله حتى يانس بك ويلين لك ناحيته، فإذا أظهر لك ما قبّله فاجعل علي.

فشخص حتى قدم على عبد الله فلقبه بالكتاب، فأنكره ونهره

ابنائه؛ فتخلصه [منه].

وكان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله قد تغيا حين حج المنصور سنة أربعين ومائة عن المدينة، وحج أيضاً فاجتمعوا بمكة وأرادوا اغتيال المنصور، فقال لهم الأشتر عبد الله بن محمد: انسا أكفيكموه! فقال محمد: لا والله لا أقتله أبداً غيلة حتى أدعوه. فتقض ما كانوا أجمعوا عليه. وكان قد دخل عليهم قائد من قواد المنصور من أهل خراسان اسمه خالد بن حسان يذعي أبا العساكر على ألف رجل، فتمى الخبر إلى المنصور فطلب، فلم يظفر به، فظفر بأصحابه فقتلهم، وأما القائد فإنه لحق بمحمد بن عبد الله بن محمد.

ثم إن المنصور حث زياد بن عبد الله على طلب محمد وإبراهيم، فضمن له ذلك ووعد به، فقدم محمد المدينة قدمة، فبلغ ذلك زياداً فتلف له وأعطاه الأمان على أن يظهر وجهه للناس، فوعده محمد ذلك، فركب زياد مع النساء وواعد محمداً سوق الظهر، وركب محمد، فتصايح الناس: يا أهل المدينة (٥١٩/٥) المهدي المهدي! فوقف هو وزياد، فقال زياد: يا أيها الناس هذا محمد بن عبد الله بن الحسن؛ ثم قال له: الحق بأي بلاد الله شئت. فتوارى محمد.

وسمع المنصور الخبر ف أرسل أبا الأزهر في جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين ومائة إلى المدينة، فأمره أن يستعمل على المدينة عبد العزيز بن المطلب وأن يقبض على زياد وأصحابه ويسير بهم إليه، فقدم أبو الأزهر المدينة ففعل ما أمره وأخذ زياداً وأصحابه وسار نحو المنصور، وخلف زياد في بيت مال المدينة ثمانين ألف دينار، فسجنهم المنصور ثم من عليهم بعد ذلك.

واستعمل المنصور على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري، وأمره بطلب محمد بن عبد الله وبسط يده في النفقة في طلبه. فقدم المدينة في رجب سنة إحدى وأربعين، فأخذ المال ورفع في محاسبته أموالاً كثيرة اتفقها في طلب محمد، فاستبطأه أبو جعفر واتهمه، فكتب إليه يأمره بكشف المدينة وأعراضها، فطاف بيوت الناس فلم يجد محمداً.

فلما رأى المنصور ما قد أخرج من الأموال ولم يظفر بمحمد استشار أبا العلاء، رجلاً من قيس غيلان، في أمر محمد بن عبد الله وأخيه، فقال: أرى أن تستعمل رجلاً من ولد الزبير أو طلحة فليتهم يطلبنهما بدخل ويخرجنهما إليك. فقال: قاتلك الله ما أجود ما رأيت! والله ما خفي علي هذا، ولكني أعاهد الله لا انتقم من بني عمي وأهل بيتي بعدوي وعدوهم، ولكني أبعث عليهم صعلوكاً من العرب يفعل بهم ما قلت.

فاستشار يزيد بن يزيد السلمي وقال له: دُني على فتى مُقل من

وقال: ما أعرف هؤلاء القوم. فلم يزل يتردد إليه حتى قبل كتابه والطاقه وأنس به، فسأله عقبه الجواب. فقال: أما الكتاب فإني لا أكتب إلى أحد ولكن أنت كتابي إليهم فأقرتهم السلام وأعلمهم أنني خارج لوقت كذا وكذا.

ورجع عقبه إلى المنصور فأعلمه الخبر، فأنشأ المنصور الحج وقال لعقبه: إذا لقيني بنو الحسن فيهم عبد الله بن الحسن فأنا مكرمهم ورافع مجلسه وداع (٥١٧/٥) بالغداء، فإذا فرغنا من طعامنا فلحظتك فامثل بين يديه قائماً، فإنه سيصرف عنك بصره، فاستدر حتى تغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينه منك ثم حسبك وإياك أن يراك ما دام يأكل.

فخرج إلى الحج، فلما لقيه بنو الحسن أجلس عبد الله إلى جانبه ثم دعا بالغداء فأصابوا منه، ثم رفع فأقبل على عبد الله بن الحسن فقال له: قد علمت ما أعطينتني من اليهود والموائيق ألا تبغيني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً؟ قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين. فلحظ المنصور عقبه بن سلم فاستدار حتى وقف بين يدي عبد الله فأعرض عنه، فاستدار حتى قام وراء ظهره فغمزه بإصبعه، فرفع رأسه فملأ عينه منه، فوثب حتى قعد بين يدي المنصور فقال: أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله! قال: لا أقلني الله إن أقتلك! ثم أمر بحبسه.

وكان محمد قد قدم قبل ذلك البصرة فنزلها في بني راسب يدعو إلى نفسه، وقيل: نزل على عبد الله بن شيان أحد بني مرة بن عبيد، ثم خرج منها، فبلغ المنصور مقدمه البصرة، فمار إليها مُغيذاً فنزل عند الحر الأكبر، فلقية عمرو بن عبيد فقال له: يا أبا عثمان هل بالبصرة أحد تخافه على أمرنا؟ قال: لا. قال: فاقصر على قولك وانصرف. قال: نعم.

وكان محمد قد سار عنها قبل مقدم المنصور، فرجع المنصور واشتد الخوف على محمد وإبراهيم ابني عبد الله فخرجوا حتى أتيا غدن، ثم سارا إلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة. (٥١٨/٥) وكان المنصور قد حج سنة أربعين ومائة فقسم أموالاً عظيمة في آل أبي طالب، فلم يظهر محمد وإبراهيم، فسأل أباهما عبد الله عنهما، فقال: لا علم لي بهما، فتغالظا، فأمصه أبو جعفر المنصور حتى قال له: امصص كذا وكذا من أمك! قال: يا أبا جعفر بأي أمهاتي تمصني؟ أباطمة بنت رسول الله، ﷺ؟ أم بباطمة بنت الحسين بن علي؟ أم بأم إسحاق بنت طلحة؟ أم بخديجة بنت خويلد؟ [قال]: لا بواحدة منهم ولكن بالحرباء بنت قسامة بن زهير! وهي امرأة من طيء، فقال المسيب بن زهير: يا أمير المؤمنين دعني أضرب عنق ابن الفاعلة! فقام زياد بن عبد الله فالتقى عليه رداءه وقال: هبه لي [يا] أمير المؤمنين فاستخرج لك

ذكر حبس أولاد الحسن

قد ذكرنا قبل أن المنصور حبسهم، وقد قيل أيضاً إن رياحاً هو الذي حبسهم.

قال علي بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي: حضرنا باب رياح في المقصورة، فقال الأذن: مَنْ كان هاهنا من بني الحسين فليدخل. فدخلوا من باب المقصورة وخرجوا من باب مروان. ثم قال: مَنْ هاهنا من بني الحسن فليدخل. فدخلوا من باب المقصورة ودخل الحدادون من بني مروان، فدعا (٥٢٢/٥) بالقيود فقيدهم وحبسهم، وكانوا: عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، والحسن وإبراهيم ابني الحسن بن الحسن، وجعفر بن الحسن بن الحسن، وسليمان وعبد الله ابني داود بن الحسن بن الحسن، ومحمد وإسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم بن الحسن بن الحسن، وعباس بن الحسن بن الحسن بن علي، وموسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن.

فلما حبسهم لم يكن فيهم علي بن الحسن بن الحسن بن علي العابد. فلما كان الغد بعد الصبح إذ قد أقبل رجل متلفف، فقال له رياح: مرحباً بك، ما حاجتك؟ قال: جئتك لتحبسني مع قومي، فإذا هو علي بن الحسن بن الحسن، فحبسه معهم.

وكان محمد قد أرسل ابنه علياً إلى مصر يدعو إليه، فبلغ خبره عامل مصر، وقيل: إنه على الوثوب بك والقيام عليك بمن شايعه، فقبضه وأرسله إلى المنصور، فاعترف له وسعى أصحاب أبيه، وكان فيمن سعى عبد الرحمن أبي الموالي، وأبو حنبل، فضر بهما المنصور وحبسهما وحبس علياً، فبقي محبوساً إلى أن مات.

وكتب المنصور إلى رياح أن يحبس معهم محمد بن عبد الله بن عمرو عثمان بن عفان المعروف بالذبيح، وكان أخا عبد الله بن الحسن بن الحسن، لأن أمهما جميعاً فاطمة بنت الحسين بن علي، فأخذه معهم.

وقيل: إن المنصور حبس عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وحده وترك باقي أولاد الحسن، فلم يزل محبوساً فبقي الحسن بن الحسن بن الحسن قد (٥٢٣/٥) نصل خضابه حزناً على أخيه عبد الله، وكان المنصور يقول: ما فعلت الحاذة؟ ومرة الحسن بن الحسن بن الحسن على إبراهيم بن الحسن وهو يعلف إيلاً له فقال: اتعلف إيلك وعبد الله محبوس! يا غلام أطلق عقلها! فاطلقها ثم صاح في أدبارها فلم يوجد منها بعير.

فلما طال حبس عبد الله بن الحسن قال عبد العزيز بن سعيد للمنصور: انطمع في خروج محمد وإبراهيم وبنو الحسن مخلون؟ والله للواحد منهم أهيب في صدور الناس من الأسد! فكان ذلك

قيس أغنية وأشرفه وأمكنه من سيّد اليمن، يعني ابن القسري، [قال]: (٥٢٠/٥) هو رياح بن عثمان بن حيان المري، فسيره أميراً على المدينة في رمضان سنة أربع وأربعين.

وقيل: إن رياحاً ضمن للمنصور أن يخرج محمداً وإبراهيم ابني عبد الله إن استعمله على المدينة، فاستعمله عليها، فسار حتى دخلها، فلما دخل دار مروان، وهي التي كان ينزلها الأمراء، قال لحاجب كان له يقال له أبو البخترى: هذه دار مروان؟ قال: نعم. قال: أما إنها محلل مظعان ونحن أول من يظعن منها. فلما تفرق الناس عنه قال لحاجبه: يا أبا البخترى خذ بيدي تدخل على هذا الشيخ، يعني عبد الله بن الحسن؛ فدخل عليه، وقال رياح: أيها الشيخ إن أمير المؤمنين والله ما استعملني لرحم قريبة ولا ليد سلفت إليه، والله لا لعبت في كما لعبت يزيد وابن القسري، والله لأزهرن نفسك أو لتأتينني بابيئك محمد وإبراهيم! فرفع رأسه إليه وقال: نعم، أما والله إنك لأزيرق قيس المذبوح فيها كما تذبج الشاة!

قال أبو البخترى: فانصرف والله رياح آخذاً بيدي أجد برد يده وإن رجلاه لتخطأن الأرض ممّا كلمه. قال: فقللت له: إن هذا ما اطلع على الغيب. قال: أيها ويحك! فوالله ما قال إلا [ما] سمع. فذبج كما تذبج الشاة.

ثم إنه دعا بالقسري وسأله عن الأموال، فضربه وسجنه وأخذ كاتبه رزماً وعاقبه فأكثر، وطلب إليه أن يذكر ما أخذ محمد بن خالد من الأموال، وهو لا يجيبه، فلما طال عليه العذاب أجابه إلى ذلك، فقال له رياح: احضر الرفيعة وقت اجتماع الناس، ففعل ذلك، فلما اجتمع الناس أحضره فقال: أيها الناس إن الأمير امرني أن أرفع على ابن خالد، وقد كتبت كتاباً لأنجو به وأنا لنشهدكم أن كل ما فيه باطل. فأمر رياح فضرب مائة سوط ورّد إلى السجن. (٥٢١/٥)

وجذ رياح في طلب محمد، فأخبر أنه في شيعب من شيعاب رضى، جبل جهنّة، وهو في عمل يتبع، فأمر عامله في طلب محمد، فهرب منه رجلاً فأفلت وله ابن صغير ولد في خوفه وهو مع جاريه له فسقط من الجبل فتقطع، فقال محمد:

منخرق السربال يشكو الوجى تتكّبه أطراف مسرّو جند
شره الخوف فأزرى به كذاك من يكره حرّ الجلال
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العباد

وبينا رياح يسير في الحرة إذ لقي محمداً، فعبدل محمد إلى بئر هناك فجعل يستقي، فقال رياح: قاتله الله أعرابياً ما أحسن ذراعه!

سبب حبس الباقيين.

ذكر حملهم إلى العراق

إزاره، فحكى أن عورته قد كشفت، ثم أمر به فضرب خمسين ومائة سوط، فبلغت منه كل مبلغ والمنصور يفتري عليه لا ينبي فأصاب سوط منها وجهه، فقال: ويحك اكفف عن وجهي! فإن له حرمة برسول الله ﷺ، فأغرى المنصور فقال للجلاذ، الرأس الرأس! فضرب على رأسه نحواً من ثلاثين سوطاً وأصاب إحدى عينيّه سوط فسالت، ثم أخرج وكأنه زنجي من الضرب، وكان من أحسن الناس، وكان يسمى الديباج لحسنه.

فلما أخرج وثب إليه مولى له فقال: ألا أطرح رداًني عليك؟ قال: بلى جزيت خيراً! والله إن لشفوف إزاري أشد علي من الضرب.

وكان سبب أخذه أن رياحاً قال للمنصور: يا أمير المؤمنين أما أهل خراسان فشيعةك، وأما أهل العراق فشيعة آل أبي طالب، وأما أهل الشام فوالله ما عليّ عندهم إلا كافر، ولكنّ محمّد بن عبد الله العثماني لو دعا أهل الشام ما تخلّف (٥٢٦/٥) عنه منهم أحد. ف وقعت في نفس المنصور، فأمر به فأخذ معهم، وكان حسن الرأي فيه قيل ذلك.

ثم إن أبا غوث كتب إلى المنصور: إن أهل خراسان قد تعاشوا عني وطال عليهم أمر محمّد بن عبد الله. فأمر المنصور بمحمّد بن عبد الله بن عمر العثماني قتل، وأرسل رأسه إلى خراسان، وأرسل معه من يحلف أنه رأس محمّد بن عبد الله وأن أمّه فاطمة بنت رسول الله ﷺ فلما قتل قال أخوه عبد الله بن الحسن: إنا لله وإنا إليه راجعون! إن كنا لنامن به في سلطانهم ثم قد قتل منا في سلطاننا!

ثم إن المنصور أخذهم وسار بهم من الرّيدة فمرّ بهم على بغلة شقراء، فناداه عبد الله بن الحسن: يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بأسرائكم يوم بدر! فأخسأه أبو جعفر ونقل عليه ومضى، فلما قدموا إلى الكوفة قال عبد الله لمن معه: أما ترون في هذه القرية من يمنعنا من هذا الطاغية؟ قال: فلقية الحسن وعليّ ابنا أخيه مشتملين على سيفين فقالا له: قد جئناك يابن رسول الله فمرنا بالذي تريد. قال: قد قضيتما ما عليكما ولن تغنيا في هؤلاء شيئاً، فانصرفا.

ثم إن المنصور أودعهم بقصر ابن هُبيرة شرقي الكوفة، وأحضر المنصور محمّد بن إبراهيم بن الحسن، وكان أحسن الناس صورة، فقال له: أنت الديباج الأصغر؟ قال: نعم. قال: لأقتلك قتلة لم أقتلها أحداً ثم أمر به فبني عليه أسطوانة وهو حيّ فمات فيها.

وكان إبراهيم بن الحسن أوّل من مات منهم، ثم عبد الله بن الحسن فدُفن قريباً من حيث مات، فإن يكن في القبر الذي يزعم الناس أنه قبره وإلا فهو (٥٢٧/٥) قريب منه. ثم مات عليّ بن الحسن.

ولما حجّ المنصور سنة أربع وأربعين ومائة أرسل محمّد بن عمران بن إبراهيم بن محمّد بن طلحة، ومالك بن أنس إلى بني الحسن، وهم في الحبس، يسألهم أن يدفعوا إليه محمّداً وإبراهيم ابني عبد الله، فدخلا عليهم وعبد الله قائم يصلي، فأبلغاهم الرسالة، فقال الحسن بن الحسن أخو عبد الله: هذا عمل ابني المشومة! أما والله ما هذا عن رأينا ولا عن ملا منا وفيه حكم. فقال له أخوه إبراهيم: علام تؤذي أخاك في ابنيّه وتؤذي ابن أخيك في أمّه؟ ثم فرغ عبد الله من صلاته فأبلغاه الرسالة، فقال: لا والله لا أردّ عليكما حرفاً، إن أحب أن ياذن لي فالفاء فليفعل. فانطلق الرسولان فأبلغا المنصور، فقال: (٥٢٤/٥) [أراد] أن يسحرني، لا والله لا ترى عينه عيني حتّى يأتيني بابنيّه.

وكان عبد الله لا يحدث أحداً قطّ إلا قتلته عن رأيه.

ثم سار المنصور لوجهه، فلما حجّ ورجع لم يدخل المدينة ومضى إلى الرّيدة، فخرج إليه رياح إلى الرّيدة فرّده إلى المدينة وأمره بإشخاص بني الحسن إليه ومعهم محمّد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أخو بني الحسن لأنهم، فرجع رياح فأخذهم وسار بهم إلى الرّيدة، وجعلت القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم، وجعلهم في محامل بغير وطاء؛ ولما خرج بهم رياح من المدينة وقف جعفر بن محمّد من وراء ستر يراهم ولا يرونها وهو يبكي ودموعه تجري على لحيته وهو يدعو الله، ثم قال: والله لا يحفظ الله حرّميّه بعد هؤلاء.

ولما ساروا كان محمّد وإبراهيم ابنا عبد الله يأتیان كهشة الأعراب فيسيران أباهما ويستأذنان بالخروج، ويقول: لا تعجلا حتّى يمكنكما ذلك. وقال: لهما: إن منعكما أبو جعفر، يعني المنصور، أن تعيشا كريمتين فلا يمتنعكما أن تموتا كريمتين.

فلما وصلوا إلى الرّيدة أدخل محمّد بن عبد الله العثماني على المنصور وعليه قميص وإزار رقيق، فلما وقف بين يديه قال: إيه يا ديوث! قال محمّد: سبحان الله! لقد عرفتنى بغير ذلك صغيراً وكبيراً! قال: فممن حملت ابنتك رقيّة؟ وكانت تحت إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، وقد أعطيتي الأيمان أن (٥٢٥/٥) لا تغشني ولا تمالي عليّ عدوّاً، [ثم] أنت ترى ابنتك حاملاً وزوجها غائب وأنت بين أن تكون حائناً أو ديوثاً! وإيم الله إني لأهم بجمعها! قال محمّد: أما إيماني فهي عليّ إن كنت دخلت لك في أمر غش علمته، وأما ما رميت به هذه الجارية فلان الله قد أكرمها بولادة رسول الله ﷺ إياها، ولكني ظننت حين ظهر حملها أن زوجها الم بها على حين غفلة. فاغتاظ المنصور من كلامه وأمر بشق ثيابه عن

فلمّا حملهم وسار بهم ردّ رياحاً إلى المدينة أميراً عليها، فالح في طلب محمد وضيق عليه وطلبه حتّى سقط ابنه فمات، وأرهقه الطلب يوماً فتدلى في بئر بالمدينة يتناول أصحابه الماء وانغمس في الماء إلى حلقه، وكان يذنه لا يخفى لعظمه، وبلغ رياحاً خبر محمد وأنه بالمدار، فركب نحوه في جنده، فتحتّى محمد عن طريقه واختفى في دار الجهّية، فحيث لم يره رياح رجع إلى دار مروان.

وكان الذي أعلم رياحاً سليمان بن عبد الله بن أبي سبرة.

فلما اشتدّ الطلب بمحمد خرج قبل وقته الذي واعد أخاه إبراهيم على الخروج فيه، وقيل: بل خرج محمد لميعاده مع أخيه، وإنما أخوه تأخر لجذري لحقه، وكان عبيد الله بن عمرو بن أبي ذئب وعبد الحميد بن جعفر يقولان لمحمد بن عبد الله: ما تنتظر بالخروج! فوالله ما على هذه الأنة أشام (٥٣٠/٥) منك. أخرج ولو وحده. فتحرّك بذلك أيضاً (١٢).

وأتى رياحاً الخبر أنّ محمدًا خارج الليلة، فأحضر محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة، والعبّاس بن عبد الله بن الحارث بن العبّاس وغيرهما عنده، فصمت طويلاً ثم قال لهم: يا أهل المدينة أمير المؤمنين يطلب محمدًا في شرق الأرض وغربها وهو بين أظهركم، وأقسم بالله لئن خرج لأقتلنكم أجمعين! وقال لمحمد بن عمران: أنت قاضي أمير المؤمنين فادعُ عشيرتك وأرسل لتجمع بني زُفره، فأرسل فجاءوا في جمع كثير فأجلسهم بالباب فأرسل فأخذ ثراً من العلويين وغيرهم، فيهم: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، والحسين بن علي بن الحسين بن علي، وعلي، والحسن بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي، ورجال من قريش فيهم إسماعيل بن أيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة وابنه خالد.

فبينما هم عنده إذ ظهر محمد، فسمعوا التكبير، فقال ابن مسلم بن عُقبة المُرّي: أطعني في هؤلاء واضرب أعناقهم. فقال له الحسين بن علي بن الحسين بن علي: والله ما ذاك إليك، إنا لعللى السمع والطاعة.

وأقبل محمد من المدار في مائة وخمسين رجلاً، فأتى في بني سلمة بهؤلاء تفاولاً بالسلامة، وقصد السجن فكسر يابه وأخرج من فيه، وكان فيهم محمد بن خالد بن عبد الله القسري، وابن أخي التّذير بن يزيد ورزّام، فأخرجهم وجعل على الرّجالة خوات بن بَكِير بن خوات بن جَبْرِ، وأتى دار الإمارة وهو يقول لأصحابه: لا تقتلوا إلا يقتلوا. (٥٣١/٥)

فامتنع منهم رياح، فدخلوا من باب المقصورة وأخذوا رياحاً أسيراً وأخاه عبّاساً وابن مسلم بن عُقبة المُرّي فحبسهم في دار الإمارة، ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر فخطب الناس فحمد

وقيل: إنّ المنصور أمر بهم فقتلوا، وقيل: بل أمر بهم فسقوا السم، وقيل: وضع المنصور على عبد الله من قال له إنّ ابنه محمداً قد خرج فقتل فانصدع قلبه فمات، والله أعلم.

ولم ينج منهم إلا سليمان وعبد الله ابنا داود بن الحسن بن الحسن بن علي، وإسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن الحسن بن الحسن، وجعفر بن الحسن، وانقضى أمرهم.

ذكر عدّة حوادث

كان على مكة هذه السنة السري بن عبد الله، وعلى المدينة رياح بن عثمان، وعلى الكوفة عيسى بن موسى، وعلى البصرة سفيان بن معاوية، وعلى مصر يزيد بن حاتم بن قتيبة بن المهلب بن أبي صفرة، وهو الذي قال فيه يزيد بن ثابت يمدحه ويهجو يزيد بن أسيد السلمي:

لشأن ما بين السزيدين في السدى يزيد سُلَيْمٍ والأغر بن حاتم في أبيات كثيرة. وكان ممّداً جواداً.

وفيهما ثار هشام بن عُذرة الفهري، وهو من بني عمرو، ويوسف بن عبد الرحمن الفهري بطليطلة على الأمير عبد الرحمن الأموي، فأتبعه من فيها، فسار إليه عبد الرحمن فحاصره وشدّد عليه الحصار، فمال إلى الصلح وأعطاه ابنه أفلح رهينة، فأخذه عبد الرحمن ورجع إلى قرطبة، فرجع (٥٢٨/٥) هشام وخلع عبد الرحمن، فعاد إليه عبد الرحمن وحاصره ونصب عليه المجانيق، فلم يؤثر فيها لحصانتها، فقتل أفلح ابنه ورمى رأسه في المنجنيق ورحل إلى قرطبة ولم يظفر بهشام.

وفيهما مات عبد الله بن شُبْرمة. وعمرو بن عبيد المعتزلي، وكان زاهداً. وبرّيد بن أبي مريم مولى سهل بن الحظليّة. وعُقَيْل بن خالد الأيلي صاحب الزُفري، وكان موته بمصر فجأة. ومحمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي أبو الحسن المدني. وهاشم بن هاشم بن عُقبة بن أبي وقاص المدني.

(برّيد بضمّ الباء الموحدة، وفتح الراء المهملة. وعُقَيْل بضمّ العين المهملة، وفتح القاف). (٥٢٩/٥)

سنة خمس وأربعين ومائة

ذكر ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن

في هذه السنة كان ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، وقيل: رابع عشر شهر رمضان. وقد ذكرنا فيما تقدّم أخباره وتبعته وحمل المنصور أهله إلى العراق.

الله وأنتى عليه ثم قال: أما بعدُ فإنه قد كان من أمر هذا الطاغية

وَلَمَّا ظَهَرَ مُحَمَّدٌ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ الْقَسْرِيِّ بِالْمَدِينَةِ فِي حَبْسِ رِيَا حَاطِلَةً.

وقال ابن خالد: فَلَمَّا سَمِعْتُ دَعْوَتَهُ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا عَلَى الْجَنْسِرِ قُلْتُ: هَذِهِ دَعْوَةُ حَقٍّ، وَاللَّهِ لَا بُلْبُلَيْنَ لَهُ فِيهَا بَلَاءٌ حَسَنًا. فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ قَدْ خَرَجْتَ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَاللَّهِ لَوْ وَقَفَ عَلَى نَقَبٍ مِنْ أَتْقَابِهِ أَحَدٌ لَمَاتَ أَهْلُهُ جَوْعًا (٥٣٢/٥) وَعَطَشًا، فَانْهَضَ مَعِيَ فَلَمَّا هِيَ عَشْرٌ حَتَّى أَضْرِبَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ سَيْفٍ. فَأَبَى عَلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا عَنْدهُ إِذْ قَالَ: مَا وَجَدْنَا مِنْ خَيْرِ الْمَتَاعِ شَيْئًا أَجْوَدَ مِنْ شَيْءٍ وَجَدْنَاهُ عِنْدَ ابْنِ أَبِي فُرُوَّةَ خَتَنِ أَبِي الْخَصِيبِ، وَكَانَ اتَّبَعَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: أَلَا أَرَاكَ قَدْ أَبْصَرْتَ خَيْرَ الْمَتَاعِ! فَكَتَبْتُ إِلَى الْمَنْصُورِ فَأَخْبَرْتُهُ بِقَوْلِهِ مَنْ مَعَهُ، فَأَخَذَنِي مُحَمَّدٌ فَحَبَسَنِي حَتَّى أَطْلُقَنِي عَيْسَى بْنُ مُوسَى بَعْدَ قَتْلِهِ بِأَيَّامٍ.

وكان رجل من آل أويس بن أبي سرح العامري، عامر بن لؤي، اسمه الحسين بن صخر بالمدينة لما ظهر محمد، فسار من ساعته إلى المنصور فبلغه في تسعة أيام، فقدم ليلاً فقام على أبواب المدينة فصاح حتى علموا به وأدخلوه، فقال الربيع: ما حاجتك هذه الساعة وأمير المؤمنين نائم؟ قال: لا بد لي منه. فدخل الربيع على المنصور فأخبره خبره وأنه قد طلب مشافهته، فأذن له، فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين خرج محمد بن عبد الله بالمدينة! قال: قتلته والله إن كنت صادقاً، أخبرني من معه. فسَمِي له من معه من وجوه أهل المدينة وأهل بيته. قال: أنت رأيته وعايته؟ قال: أنا رأيته وعايته وكلمته على منبر رسول الله ﷺ جالساً، فادخله أبو جعفر بيتاً، فلما أصبح جاء رسولٌ لسعيد بن دينار غلام عيسى بن موسى يلي أمواله بالمدينة فأخبره بأمر محمد، وتواترت عليه أخباره، فأخرج الأويسى، فقال: لأوطئن الرجال عقيقك ولأغنيك! فأمر له بتسعة آلاف درهم لكل ليلة ألف درهم.

وأشفق من محمد فقال له الحارثي المنجم: يا أمير المؤمنين ما يُخْرَجُكَ منه؟ والله لو ملك الأرض ما لبث إلا تسعين يوماً.

(٥٣٤/٥) فأرسل المنصور إلى عمه عبد الله بن علي، وهو محبوس: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ خَرَجَ فَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ رَأْيٌ فَاتَّخِذْ بِهِ عَلَيْنَا، وَكَانَ ذَا رَأْيٍ عِنْدَهُمْ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَحْبُوسَ مُحْبُوسُ الرَّأْيِ. فأرسل إليه المنصور: لَوْ جِئْتَنِي حَتَّى يَضْرِبَ بَابِي مَا أَخْرَجْتُكَ، وَأَنَا خَيْرُ لَكَ مِنْهُ، وَهُوَ مَلِكُ أَهْلِ بَيْتِكَ. فَأَعَادَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ: ارْتَجِلُ السَّاعَةَ حَتَّى تَأْتِيَ الْكُوفَةَ فَاجْمَعْ عَلَى أَكْبَادِهِمْ، فَإِنَّهُمْ شِيعَةُ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ وَأَنْصَارُهُمْ، ثُمَّ أَحْفَقْهَا بِالْمَسَالِحِ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْهَا إِلَى وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ أَوْ أَتَاهَا مِنْ وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، وَابْعَثْ إِلَى سَلَمِ بْنِ قُتَيْبَةَ يَنْحُدِرُ إِلَيْكَ، وَكَانَ بِالرِّيِّ، وَاكْتَسَبَ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ

عَدُوَّ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرٍ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَنَائِهِ الْقَبَّةَ الْخَضْرَاءَ الَّتِي بَنَاهَا مَعَانِدَةً لِلَّهِ فِي مَلِكِهِ وَتَصْغِيرًا لِلْكَبِيَةِ الْحَرَامِ، وَإِنَّمَا أَخَذَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، وَإِنْ أَحَقَّ النَّاسُ بِالْقِيَامِ فِي هَذَا الدِّينِ أَبْنَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الْمَوَاسِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ أَحْلَوْا حَرَامَكَ وَحَرَّمُوا حِلَالَكَ، وَأَمَنُوا مَنْ أَخَفَتْ وَأَخَافُوا مَنْ آمَنَتْ! اللَّهُمَّ فَاحْصِهِمْ عِدْدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَسَدًا، وَلَا تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا! أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَاللَّهِ مَا خَرَجْتُ [مِنْ] بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ وَأَنْتُمْ عِنْدِي أَهْلُ قُوَّةٍ وَلَا شُدَّةٍ، وَلَكِنِّي اخْتَرْتُكُمْ لِنَفْسِي! وَاللَّهِ مَا جُنْتُ هَذِهِ وَفِي الْأَرْضِ مَصْرُ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ لِي فِيهِ الْبَيْعَةَ!

وكان المنصور يكتب إلى محمد على السن قواده يدعونه إلى الظهور ويُخبرونه أنهم معه، فكان محمد يقول: لو التقينا مال إليّ القواد كلهم. واستولى محمد على المدينة واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير وعلى قضائها عبد العزيز بن المطالب بن عبد الله المخزومي، وعلى بيت السلاح عبد العزيز الدراوردي، وعلى الشرط أبا القلمس عثمان بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المنصور بن مخزومة؛ وقيل: كان على شرطة عبد الحميد بن جعفر فعزله.

وأرسل محمد إلى محمد بن عبد العزيز: إِنِّي كُنْتُ لِأُظْلَمَ سَتْنَصْرُنَا وَتَقُومُ (٥٣٢/٥) معنا. فاعتذر إليه وقال: أفعَلْ؛ ثُمَّ انْسَلْ مِنْهُ وَاتَى مَكَّةَ. وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ مُحَمَّدٍ أَحَدٌ مِنْ وَجُوهِ النَّاسِ إِلَّا نَفَرُ مِنْهُمْ: الضُّحَّاكُ بْنُ عَثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ حِزَامٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُنْذَرِ بْنِ الْمُغْبِرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدٍ، وَأَبُو سَلِيمَةَ ابْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَحَبِيبُ بْنُ ثَابِتٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ.

وكان أهل المدينة قد استفتوا مالك بن أنس في الخروج مع محمد وقالوا: إِنَّ فِي أَعْنَاقِنَا بَيْعَةَ لِأَبِي جَعْفَرٍ، فَقَالَ: إِنَّمَا بَايَعْتُمْ مَكْرَهِينَ وَلَيْسَ عَلَى مَكْرِهِ بَعِيْن. فَاسْرِعِ النَّاسُ إِلَى مُحَمَّدٍ وَلِزِمِ مَالِكَ بَيْتَهُ.

فأرسل محمد إلى إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكان شيخاً كبيراً، فدعاه إلى بيعته، فقال: يَا ابْنَ أَخِي أَنْتَ وَاللَّهِ مَقْتُولٌ فَكَيْفَ أَبَايَعُكَ؟ فَارْتَدَعَ النَّاسُ عَنْهُ قَلِيلًا.

وكان بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر قد أسرعوا إلى محمد، فأتت حمادة بنت معاوية إلى إسماعيل بن عبد الله وقالت له: يَا عَمُّ إِنَّ إِخْوَتِي قَدْ أَسْرَعُوا إِلَى ابْنِ خَالِهِمْ، وَإِنَّكَ إِنْ قُلْتَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ تَبَطَّتِ النَّاسُ عَنْهُ فَيَقْتُلُ ابْنَ خَالِي وَإِخْوَتِي. فَأَبَى إسماعيل إلا النهي عنه، فيقال: إِنَّ حَمَادَةَ عَدَتْ عَلَيْهِ فَقَتَلَتْهُ، فَأَرَادَ مُحَمَّدٌ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ فَمَنْعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ وَقَالَ: أَتَأْمُرُ بِقَتْلِ أَبِي

ذلك، فقال: إِنِّي خَفْتُ بِادْرَةِ الْجُنُودِ. قال: وكيف خفت البصرة؟ قال: لِأَنَّ مُحَمَّدًا ظَهَرَ بِالْمَدِينَةِ وَلَيْسُوا أَهْلَ الْحَرْبِ، بِحَسْبِهِمْ أَنْ يَقِيمُوا شَأْنَ أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلَ الْكُوفَةِ تَحْتَ قَدَمِكَ، وَأَهْلَ الشَّامِ أَعْدَاءُ آلِ أَبِي طَالِبٍ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْبَصْرَةُ.

ثُمَّ إِنَّ الْمَنْصُورَ كَتَبَ إِلَى مُحَمَّدٍ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَرُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣] الْآيَتِينَ؛ وَلَكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ أَنْ أَوْثَمَكَ وَجَمِيعَ وَلَدِكَ وَإِخْوَتِكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ وَنَنْ أَتَبِعْكُمْ عَلَى دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَأَسْوِغُكَ مَا أَصَبْتَ مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ، وَأَعْطِيكَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمَا سَأَلْتَ مِنَ الْحَوَائِجِ، وَأَنْزَلُكَ مِنَ الْبِلَادِ حَيْثُ شِئْتَ، وَأَنْ أَطْلُقَ مَنْ فِي حَبْسِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، وَأَنْ أَوْثَمَ مِنْ كُلِّ مَنْ جَاءَكَ وَبَابِعَكَ وَاتَّبَعَكَ أَوْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ ثُمَّ لَا أَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ بِشَيْءٍ كَانَ مِنْهُ أَبَدًا، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَتَوَقَّعَ لِنَفْسِكَ فَوْجَةً إِلَيَّ مَنْ أَحْبَبْتَ يَأْخُذُ لَكَ مِنَ الْأَمَانِ وَالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ مَا تَتَوَقَّعُ بِهِ، وَالسَّلَامَ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ: ﴿طَسْمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ تَنُتَلُّوْا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إِلَى: ﴿يُخَذَّرُونَ﴾ [القصص: ١-٦] وَأَنَا أَعْرَضُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَمَانِ مِثْلَ مَا عَرَضْتُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ الْحَقَّ حَقُّنَا وَإِنَّمَا أَدْعَيْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ بِنَا وَخَرَجْتُمْ لَهُ بِشِيعَتِنَا وَحَظِيمَتِهِمْ بِفَضْلِهِ، (٥٣٧/٥) فَإِنَّ أَبَانَا عَلِيًّا كَانَ الْوَصِيَّ وَكَانَ الْإِمَامُ، فَكَيْفَ وَرِثْتُمْ وَلايَتَهُ وَوَلَدَهُ أَحْيَاءَ؟

ثُمَّ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَطْلُبِ الْأَمْرَ أَحَدٌ [لَهُ] مِثْلَ نَسَبِنَا وَشَرَفِنَا وَحَالِنَا وَشَرَفِ آبَائِنَا، لَسْنَا مِنْ أَبْنَاءِ اللَّعْنَةِ وَلَا الطُّرْدَاءِ وَلَا الطَّلْقَاءِ، وَلَيْسَ يَمْتَّ أَحَدٌ مِنْ بَيْنِ هَاشِمٍ بِمِثْلِ الَّذِي نَمْتُّ بِهِ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالسَّابِقَةِ وَالْفَضْلِ، وَإِنَّا بَنُو أُمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرٍو فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَبَنُو بِنْتِهِ فَاطِمَةَ فِي الْإِسْلَامِ دُونَكُمْ. إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَنَا وَاخْتَارَ لَنَا، فَوَالِدَنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدَ أَفْضَلَهُمْ، وَمَنِ السَّلَفِ أَوْلَهُمْ إِسْلَامًا عَلَيَّ، وَمَنِ الْأَزْوَاجِ أَفْضَلَهُنَّ خَدِيجَةَ الطَّاهِرَةَ وَأَوَّلَ مَنْ صَلَّى [إِلَى] الْقَبِيلَةِ، وَمَنِ الْبَنَاتِ خَيْرَهُنَّ فَاطِمَةَ سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَأَهْلَ الْجَنَّةِ، وَمَنِ الْمَوْلُودِينَ فِي الْإِسْلَامِ حَسَنَ وَحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ هَاشِمًا وَلَدَ عَلِيًّا مَرَّتَيْنِ وَإِنَّ عَبْدِ الْمُطَّلِبَ وَلَدَ حَسَنًا مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَدَنِي مَرَّتَيْنِ مِنْ قَبْلِ حَسَنِ وَحُسَيْنٍ، وَإِنِّي أَوْسَطُ بَنِي هَاشِمٍ نَسَبًا وَأَصْرَحُهُمْ أَبًا، لَمْ تَعْرِقْ فِيَّ الْعَجَمَ، وَلَمْ تَنَازَعْ فِيَّ أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ، فَمَا زَالَ [اللَّهُ] يَخْتَارُ لِي الْآبَاءَ وَالْأُمَّهَاتِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى اخْتَارَ لِي فِي الْأَشْرَارِ، فَأَنَا ابْنُ أَرْفَعِ النَّاسِ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا فِي النَّارِ، وَلَكِ اللَّهُ عَلَيَّ إِنْ دَخَلْتُ فِي طَاعَتِي وَأَجَبْتُ دَعْوَتِي أَنْ أَوْثَمَكَ عَلَى نَفْسِكَ وَمَالِكَ وَعَلَى كُلِّ أَمْرٍ أَحْدَثْتَهُ إِلَّا حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ أَوْ حَقًّا

فَمَرْهُمُ أَنْ يَحْمِلُوا إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْبِاسِ وَالنَّجْدَةِ مَا حَمَلَ الْبَرِيدُ فَأَحْسَنُ جَوَائِزِهِمْ وَوَجْهَهُمْ مَعَ سَلَمٍ. ففعل.

وقيل: أُرْسِلَ الْمَنْصُورُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ مَعَ أَخُوتهِ يَسْتَشِيرُونَهُ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ، وَقَالَ لَهُمْ: لَا يَعْلَمُ عَبْدُ اللَّهِ أَنِّي أُرْسَلْتُكُمْ إِلَيْهِ. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ: لِأَمْرِ مَا جِئْتُمْ، مَا جَاءَ بِكُمْ جَمِيعًا وَقَدْ هَجَرْتُمُونِي مَذْ دَهْرًا؟ قَالُوا: إِنَّا اسْتَأْذَنَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَآذَنَ لَنَا. قَالَ: لَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ، فَمَا الْخَيْرُ؟ قَالُوا: خَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ: فَمَا تَرَوْنَ ابْنَ سَلَامَةَ صَانِعًا؟ يَعْنِي الْمَنْصُورَ. قَالُوا: لَا نَدْرِي وَاللَّهِ. قَالَ: إِنَّ الْبِخْلَ قَدْ قَتَلَهُ، فَمَرُوهُ فَلْيُخْرِجِ الْأَمْوَالَ وَلْيَعْطِ الْأَجْنَازَ، فَإِنَّ غُلْبَ فَمَا أَسْرَعَ مَا يَعُودُ إِلَيْهِ مَالُهُ، وَإِنْ غُلِبَ لَمْ يَقْدَمْ صَاحِبُهُ عَلَى دِينَارٍ وَلَا دِرْهَمٍ.

ولما ورد الخبرُ على المنصورِ بِخُرُوجِ مُحَمَّدٍ كَانَ الْمَنْصُورُ قَدْ خَطَّ مَدِينَةَ

(٥٣٥/٥) بَغْدَادَ بِالْقَصَبِ، فَسَارَ إِلَى الْكُوفَةِ وَمَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيعِ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَدَادِ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ خَرَجَ بِالْمَدِينَةِ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَلْكَ وَأَهْلُكَ، خَرَجَ فِي غَيْرِ عَدَدٍ وَلَا رِجَالٍ.

حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ جَعْدَةَ الْمَخْزُومِيَّ قَالَ: كُنْتُ مَعَ مَرْوَانَ يَوْمَ الزَّوَابِ وَأَقْفًا فَقَالَ لِي مَرْوَانُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَقَاتِلُنِي؟ قُلْتُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ. قَالَ: وَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ عَلِيَّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَقَاتِلُنِي مَكَانَهُ، إِنَّ عَلِيًّا وَلَدَهُ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ مَعَهُ رِيحُ الشَّامِ وَنَصْرُ الشَّامِ؟ يَا ابْنَ جَعْدَةَ أَتَدْرِي مَا حَمَلْنِي أَنْ عَقَدْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ وَعُبَيْدِ اللَّهِ بَعْدِي وَتَرَكْتُ عَبْدَ الْمَلِكِ وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ عُبَيْدِ اللَّهِ؟ قَالَ ابْنُ جَعْدَةَ: لَا. قَالَ: وَجَدْتُ الَّذِي يَلِي هَذَا الْأَمْرَ عَبْدُ اللَّهِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ، وَكَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ أَقْرَبَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَعَقَدْتُ لَهُ، فَاسْتَخْلَفَهُ الْمَنْصُورُ عَلَى صَحَّةِ ذَلِكَ، فَحَلَفَ لَهُ، فَسَرَّيْ عَنْهُ.

ولما بلغ المنصورُ خَيْرُ ظُهُورِ مُحَمَّدٍ قَالَ لِأَبِي أَيُّوبَ وَعُبَيْدِ الْمَلِكِ: هَلْ مِنْ رَجُلٍ تَعْرِفَانَهُ بِالرَّأْيِ يَجْمَعُ رَأْيَهُ إِلَيَّ رَأْيَانَا؟ قَالَا: بِالْكُوفَةِ بُدَيْلُ بْنُ بَحَّى، وَكَانَ السَّفَاحُ يَشَاوَرُهُ، فَأُرْسِلَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ ظَهَرَ بِالْمَدِينَةِ. قَالَ: فَاشْجِرِ الْأَهْوَازَ بِالْجُنُودِ. قَالَ: إِنَّهُ ظَهَرَ بِالْمَدِينَةِ! قَالَ: قَدْ فَهَمْتُ وَإِنَّمَا الْأَهْوَازُ الْبَابُ الَّذِي تَوْتُونَ مِنْهُ. فَلَمَّا ظَهَرَ إِبْرَاهِيمُ بِالْبَصْرَةِ قَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ ذَلِكَ، قَالَ: فَعَاجَلْهُ بِالْجُنُودِ وَاشْغَلِ الْأَهْوَازَ عَلَيْهِ.

وَشَاوَرَ الْمَنْصُورُ أَيْضًا جَعْفَرَ بْنَ حَنْظَلَةَ الْبَهْرَانِيَّ عِنْدَ ظُهُورِ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: وَجَّهَ الْجُنُودَ إِلَى الْبَصْرَةِ. قَالَ: أَنْصَرَفَ حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكَ. فَلَمَّا صَارَ إِبْرَاهِيمُ (٥٣٦/٥) إِلَى الْبَصْرَةِ أُرْسِلَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ

لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمني من ذلك.

وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد، لأنك أعطيتني من الأمان والعهد ما أعطيتَه رجلاً قبلي، فسأى الأمانات تعطيني؟ أمان ابن هُبَيْرَة أم أمان عمك (٥٣٨/٥) عبد الله بن عليّ أم أمان أبي مسلم؟

فلما ورد كتابه على المنصور قال له أبو أيوب الورداني: دَغْنِي أَجْبِهْ عَلَيْهِ. قال: لا إذا تقارعنا على الأحساب، فدَغْنِي وإِيَّاه. ثم كتب إليه المنصور:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك، فإذا جُلَّ فخرُك بقرابة النساء لُصِّلَ به الجُفَاء والغِوَاء، ولم يجعل الله النساء كالعُمومة والآباء، ولا كالعَصْبَة والأولياء، لأن الله جعل العمَّ أباً، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كان اختيار الله لهنَّ على قدر قرابتهنَّ كانت أمانة أقربهنَّ رحماً، وأعظمهنَّ حقاً، وأوَّل مَنْ يدخل الجنة، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه فيما مضى منهم واصطفائه لهم.

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها فإنَّ الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بتأً ولا ابناً، ولو أنَّ رجلاً رَزَقَ الإسلام بالقرابة رَزَقَه عبد الله ولكان أولاهم بكلِّ خير في الدنيا والآخرة، ولكن الأمر لله يختار لدينه مَنْ يشاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة القصص ٢٨، الآية ٥٦] ولقد بعث الله محمداً ﷺ وله عُمومة أربعة، فأنزل الله، عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ غَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فأنذرهم ودعاهم، فأجاب اثنان، أحدهما أبي، وأبى اثنان، أحدهما أبوك، فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً.

وزعمت أنَّ ابن أخفَّ أهل النار عذاباً وابن خير الأشرار، وليس في (٥٣٩/٥) الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس في الشر خيار، ولا ينفي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧] الآية.

وأما أمر حسن وأنَّ عبد المطلب ولده مرتين وأن النبي ﷺ ولدك مرتين، فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلد هاشم إلا مرة، ولا عبد المطلب إلا مرة. وزعمت أنَّ أوسط بني هاشم وأصرحهم أمًّا وأباً، وأنه لم يلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرأ، فانظر، ويحك، أين أنت من الله غداً! فإنك قد تعديت طورك وفخرت على مَنْ هو خير منك نفساً وأباً وأولاداً وأخاً إبراهيم بن رسول الله ﷺ وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات الأولاد، وما وُلد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من عليّ بن الحسين،

وهو لأم ولد، ولهو خير من جدك حسن بن حسين، وما كان فيكم بعده مثل محمد بن عليّ، وجدته أم ولد، ولهو خير من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد، وهو خير منك.

وأما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ولكنكم بنو بنته، وإنها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا تراث الولاية، ولا يجوز لها الإمامة، فكيف تورث بها؟ ولقد طلبها أبوك بكلِّ وجه فأخرج فاطمة نهاراً ومرضها سرّاً ودفنها ليلاً، فسأى الناس إلا الشيعين، ولقد جاءت السنة (٥٤٠/٥) التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أنَّ الجدَّ أبا الأم والخال والخالة لا يُورثون.

وأما ما فخرت به من عليّ وسابقته فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ولم يروا له حقاً فيها.

وأما عبد الرحمن فقدَّم عليه عثمان وهو له متهم، وقاتله طلحة والزبير وأبى سعد بيعته فأغلق بابَه دونه، ثم بايع معاوية بعده، ثم طلبها بكلِّ وجه وقاتل عليها وتفرَّق عنه أصحابه وشكَّ فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حكم حكمتين رضي بهما وأعطاهما عهد الله وميثاقه فاجتمعا على خلعه، ثم كان حسن فباعها من معاوية بخيرٍ ودرهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير ولائه ولا حلّه، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم منه، ثم خرج عمك حسين على ابن مَرْجَانَة فكان الناس معه عليه حتَّى قتلوه وأثروا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتَّى قتل يحيى بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم بلا وطء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام حتَّى خرجنا عليهم فطلبنا بشاركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم وسيننا سلفكم وفضلنا، فاتخذت ذلك علينا حُجَّة وظننت أنا إنما ذكرنا أباك للتعدي منَّا له على حمزة والعبَّاس وجعفر، وليس ذلك كما ظننت، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلماً منهم مجتمعاً عليهم بالفضل، وإبتي أبوك بالقتال والحرب، (٥٤١/٥) وكانت بنو أمية تلعن كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا [له] وذكرناهم فضله وعفناهم وظلمناهم بما نالوا منه.

فلقد علمت أنَّ مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية زمزم، فصارت للعبَّاس من بين إخوته، فنازعنا فيها أبوك ففُضِيَ لنا عليه عُمر، فلم نزل نلها في الجاهلية والإسلام، ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسَّل عمر إلى ربِّه ولم يتقرَّب إليه إلا بأبينا

حتى نعيشهم الله وسقاهم الغيث وأبوك حاضر لم يتوسل به، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي ﷺ غيره فكانت وراثته من عمومته، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده، فالساقية سقايته، وميراث النبي له، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في الدنيا والآخرة إلا والعباس وارثه مورثه.

وأما ما ذكرت من بدر فإن الإسلام جاء والعباس يمشون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التي أصابته، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كارهاً لemat طالب وعقيل جوعاً وللحسا جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطعمين فاذهب عنكم العار والسب وكفاكم النفقة والمؤونة، ثم فدى عقيلاً يوم بدر، فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر وفديناكم [من الأسر] وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وطلبنا بئاركم فادركنا منه ما (٥٤٢/٥) عجزتم عنه، ولم تدرکوا لأنفسكم! والسلام عليكم ورحمة الله.

فكان محمد قد استعمل محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على مكة، والقاسم بن إسحاق على اليمن، وموسى بن عبد الله على الشام؛ فأما محمد بن الحسن والقاسم فسارا إلى مكة، فخرج إليهما السري بن عبد الله عامل المنصور على مكة فلقبهما ببطن أذاخر فهزما.

ودخل محمد مكة وأقام بها يسيراً، فأتاه كتاب محمد بن عبد الله يأمره بالمسير إليه فيمن معه ويخبره بمسير عيسى بن موسى إليه ليحاربه، فسار إليه من مكة هو والقاسم، فبلغه بنواحي قنيد قتل محمد، فهرب هو وأصحابه وتفرقوا، فلحق محمد بن الحسن بإبراهيم فأقام عنده حتى قتل إبراهيم واختفى القاسم بالمدينة حتى أخذت له ابنة عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر، امرأة عيسى، الأمان له ولإخوته معاوية وغيره.

وأما موسى بن عبد الله فسار نحو الشام ومعه رزام مولى محمد بن خالد القسري، فأنسل منه رزام وسار إلى المنصور برسالة من مولاة محمد القسري، فظهر محمد بن عبد الله على ذلك، فحبس محمداً القسري، ووصل موسى إلى الشام فرأى منهم سوء ردّ عليه وغلظة، فكتب إلى محمد: أخبرك أنني لقيت الشام وأهله، فكان أحسنهم قولاً الذي قال: والله لقد مللنا البلاء وضقنا حتى ما فينا لهذا الأمر موضع ولا لنا به حاجة، ومنهم طائفة تحلف لئن أصبحنا من ليلتنا وأمسينا من غدٍ ليرفعن أمرنا، فكتب إليك وقد غيبت وجهي وخفت على نفسي. ثم رجع إلى المدينة. (٥٤٣/٥)

وقيل: أتى البصرة وأرسل صاحباً له يشتري له طعاماً، فاشتراه وجاء به على حمال أسود فأدخله الدار التي سكنها وخرج، فلم

يكن بأسرع من أن كُست الدار وأخذ موسى وابنه عبد الله وغلماهم، فأخذوا وحملوا إلى محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، فلما رأى موسى قال: لا قرب الله قرايتكم ولا حيا وجوهكم! تركت البلاد كلها إلا بلداً أنا فيه، فإن وصلت أرحامكم أغضبت أمير المؤمنين، وإن أطعته قطعت أرحامكم. ثم أرسلهم إلى المنصور، فأمر فضرَب موسى وابنه كل واحد خمسمائة سوط، فلم يتأوهوا. فقال المنصور: أعذرت أهل الباطل في صبرهم، فما بال هؤلاء؟ فقال موسى: أهل الحق أولى بالصبر. ثم أخرجهم وأمر بهم فسُجّروا.

(خبيب بن ثابت بالخاء المعجمة المضمومة، وبياتين موحدتين وبينهما ياء مثناة من تحتها).

ذكر مسير عيسى بن موسى إلى محمد بن عبد الله وقتله

ثم إن المنصور أحضر ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمد. فقال: شاؤوا عموماً يا أمير المؤمنين. ثم قال: فأين قول ابن هرثمة:

نزور أسراً لا يمحض القرم سره ولا يتجس الأذنين عما يحاول إذا ما أتى شيئاً مضى كالذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل فقال المنصور: امض أيها الرجل، فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما (٥٤٤/٥) هو إلا أن تشخص أنت أو أشخص أنا. فسار وسير معه الجنود. وقال المنصور لما سار عيسى: لا أبالي أيهما قتل صاحبه. ويعث معه محمد بن أبي العباس السفاح، وكثير بن حصين العبدي، وابن قحطبة، وهزارمرد وغيرهم، وقال له حين ودّعه: يا عيسى إني أبعثك إلى ما بين هذين، وأشار إلى جنبه، فإن ظفرت بالرجل فاغمد سيفك وابدل الأمان، وإن تغيب فضمنهم ليّاه فإنهم يعرفون مذاهبه، ومنّ لقيك من آل أبي طالب فاكتب إلي باسمه، ومنّ لم يلقك فاقبض ماله.

وكان جعفر الصادق تغيب عنه قبض ماله، فلما قدم المنصور المدينة قال له جعفر في معنى ماله، فقال: قبضه مهديكم.

فلما وصل عيسى إلى قيد كتب إلى الناس في خرق حرير، منهم: عبد العزيز بن المطلب المخزومي، وعبيد الله بن محمد بن صفوان الجُمحي، وكتب إلى عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب يأمره بالخروج من المدينة فيمن أطاعه، فخرج هو وعمر بن محمد بن عمر، وأبو عقيل محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل، وأبو عيسى.

ولما بلغ محمداً قرب عيسى من المدينة استشار أصحابه في الخروج من المدينة أو المقام بها، فأشار بعضهم بالخروج عنها، وأشار بعضهم بالمقام بها لقول رسول الله ﷺ: رأيتني في درع

من أن يُقتل؟ قال: القوم يدعونك إلى الأمان، فإن أبيتَ إلا قتالهم قاتلوك على ما قاتل عليه خير آبائك [عليّ] طلحة والزبير على نكت بيعتهم وكيد ملكهم. فلما سمع المنصور قوله قال: ما سرّني أنه قال غير ذلك.

ونزل عيسى بالجُرف لاثنتي عشرة من رمضان يوم السبت، فأقام السبت والأحد وغدا يوم الاثنين فوقف على سَمْلَع فنظر إلى المدينة ومَن فيها: يا أهل المدينة إن الله حرّم دماء بعضنا على بعض فهلموا إلى الأمان! فَمَن قام تحت رايتنا فهو آمن، ومَن دخل داره فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن، ومَن ألقى سلاحه فهو آمن، ومَن خرج من المدينة فهو آمن، خلّوا (٥٤٧/٥) بيننا وبين صاحبنا فأما لنا وإمّا له! فشمّوه. وانصرف من يومه وعاد من الغد وقد فرّق القوادم من سائر جهات المدينة وأخلى ناحية مسجد أبي الجراح، وهو على بُطحان، فإنه أخلى تلك الناحية لخروج مَن ينهزم، وبرز محمد في أصحابه، وكانت رايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وكان شعاره: أحد أحد. فبرز أبو القلمس، وهو من أصحاب محمد، فبرز إليه أخو أسد واقتتلوا طويلاً، فقتله أبو القلمس، وبرز إليه آخر فقتله، فقال حين ضربه: خذها وأنا ابن الفاروق. فقال رجل من أصحاب عيسى: قتلْتَ خيراً من ألف فاروق.

وقاتل محمد بن عبد الله يومئذ قتالاً عظيماً فقتل بيده سبعين رجلاً، وأمر عيسى حُمَيْد بن قُحطبة فتقدّم في مائة كلهم راجل سواه فزحفوا حتّى بلغوا جداراً دون الخندق عليه ناس من أصحاب محمد، فهدم حُميد الحائط وانتهى إلى الخندق ونصب عليه أبواباً وعبر هو وأصحابه عليها فجازوا الخندق وقاتلوا مَن ورائه أشد قتال من بُكرة إلى العصر، وأمر عيسى أصحابه فآلقوا الحقائق وغيرها في الخندق وجعل الأبواب عليها وجازت الخيل فاقتلوا قتالاً شديداً، فانصرف محمد قبل الظهر فاغتسل وتحنّط ثم رجع، فقال له عبد الله بن جعفر: بابي أنت وأمّي! والله ما لك بما ترى طاقة! فلو أتيت الحسن بن معاوية بمكة فإنّ معه جُلّ أصحابك. فقال: لو خرجتُ لقتل أهل المدينة، والله لا أرجع حتّى أقتل أو أقتل، وأنت منّي في سعة فاذهب حيث شئت.

فمشى معه قليلاً ثم رجع عنه، وتفرّق عنه جلّ أصحابه حتّى بقي في ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً، فقال لبعض أصحابه: نحن اليوم بعدة أهل بدر. وصلى محمد الظهر والعصر، وكان معه عيسى بن خضير وهو يناشده إلا ذهبَ إلى البصرة أو غيرها، ومحمد يقول: والله لا تبتلون بي مرتين، ولكن اذهب أنت حيث شئت. فقال ابن خضير: وأين المذهب عنك؟ ثم مضى فأحرق (٥٤٨/٥) الديوان الذي فيه أسماء مَن بايعه، وقتل رباح بن عثمان وأخاه عباس بن عثمان وقتل ابن مسلم بن عَفْبَة المَرِّي ومضى إلى محمد

حصينة فأولتها المدينة، فأقام ثم استشارهم في حفر خندق رسول الله ﷺ فقال له جابر بن أنس، رئيس سَلَمَة: يا أمير المؤمنين نحن أحوالك وجيرانك وفينا السلاح والكراع، فلا تخندق الخندق، فإنّ رسول الله، صلى الله عليه (٥٤٥/٥) وسلم، خندقه لما الله أعلم به، وإن خندقته لم يحسن القتال رجالة ولم توجّه لنا الخيل بين الأزقة، وإن الذين تخندق دونهم هم الذين يحول الخندق دونهم. فقال أحد بني شجاع: خندق، خندق! رسول الله ﷺ فاقتل به، وتريد أنت أن تدع أثر رسول الله ﷺ لرأيك! قال: إنه والله يا ابن شجاع ما شيء أثقل عليك وعلى أصحابك من لقاءهم، وما شيء أحب إلينا من مُناجرتهم. فقال محمد: إمّا اتبعنا في الخندق أثر رسول الله ﷺ فلا يرُدّني أحد عنه فلست بتاركه. وأمر به فحفر، وبدأ هو فحفر بنفسه الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ للأحزاب.

وسار عيسى حتّى نزل الأغوص، وكان محمد قد جمع الناس وأخذ عليهم الميثاق وحصرهم فلا يخرجون، وخطبهم محمد بن عبد الله فقال لهم: إن عدوّ الله وعدوكم قد نزل الأغوص، وإنّ أحقّ الناس بالقيام بهذا الأمر لأبناء المهاجرين والأنصار، ألا وإنّا قد جمعناكم وأخذنا عليكم الميثاق، وعدوكم عدد كثير والنصر من الله والأمر بيده، وإنّه قد بدا لي أن أذن لكم، فمن أحبّ منكم أن يقيم أقام، ومَن أحبّ أن يظعن ظعن.

فخرج عالم كثير، وخرج ناسٌ من أهل المدينة بذرايرهم وأهليهم إلى الأعراض والجبال، وبقي محمد في شيرذمة يسيرة، فأمر أبا القلمس برء مَن قدر عليه، فأعجزه كثير منهم، فتركهم.

وكان المنصور قد أرسل ابن الأصمّ مع عيسى يُنزله المنازل، فلما قدما نزلا على ميل من المدينة، فقال ابن الأصمّ: إنّ الخيل لا عمل لها مع الرُجالة، (٥٤٦/٥) وإنّي أخاف إن كشفوكم كشفة أن يدخلوا عسكريكم. فتأخروا إلى سقاية سليمان بن عبد الملك بالجُرف، وهي على أربعة أميال من المدينة، وقال: لا يهرول الراجل أكثر من ميلين أو ثلاثة حتّى تأخذه الخيل. وأرسل عيسى خمسمائة رجل إلى بطحاء ابن أّزهر على ستة أميال من المدينة؛ فأقاموا بها، وقال: أخاف أن ينهزم محمد فيأتي مكة فيرده هؤلاء؛ فأقاموا بها حتّى قُتل.

وأرسل عيسى إلى محمد يُخبره أنّ المنصور قد آمنه وأهله، فأعاد الجواب: يا هذا إنّ لك برسول الله ﷺ قرابة قريبة، وإنّي أدعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه والعمل بطاعته، وأحذرك نعمته وعذابه، وإنّي والله ما أنا منصرف عن هذا الأمر حتّى ألقى الله عليه، وإياك أن يقتلك مَن يدعوك إلى الله فتكون شرّ قتل، أو تقتله فيكون أعظم لوزرك. فلما بلغته الرسالة قال عيسى: ليس بيننا وبينه إلا القتال. وقال محمد للرسول: علام تقتلونني وإنما أنا رجل فرّ

المدينة فَأَخْبِرَ به، فَأَخَذَ السَّيْفَ منه وأعطاه أربعمائة دينار ولم يزل معه حَتَّى أَخَذَهُ منه المَهْدِيَّ، ثُمَّ صار إلى الهادي، فَجَرَّبَهُ على كلب (٥٥٠/٥) فانقطع السيف، وقيل: بل بقي إلى أيام الرشيد، وكان يتقلده وكان به ثمان مائة عشرة فقرة.

ولما أتى عيسى برأس محمد قال لأصحابه: ما تقولون فيه؟ فوقعوا فيه، فقال بعضهم: كذبتم، ما لهذا قاتلناه، ولكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصا المسلمين وإن كان لصواباً قواماً! فسكتوا. فأرسل عيسى الرأس إلى المنصور مع محمد بن أبي الكرام بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وبالشارة مع القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فأرسل معه رؤوس بني شجاع، فأمر المنصور طفيف برأس محمد في الكوفة وسيره إلى الآفاق؛ ولما رأى المنصور رؤوس بني شجاع قال: هكذا فليكن الناس، طلبت محمداً فاشتعل عليه هؤلاء ثم نفلوه وانتقلوا معه، ثم قاتلوا معه حَتَّى قَتَلُوا.

وكان قتل محمد وأصحابه يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من شهر رمضان. وكان المنصور قد بلغه أن عيسى قد هُزِمَ فقال: كلاً، أين لعب أصحابنا وصبياننا بها على المنابر ومشورة النساء؟ ما أتى لذلك بعداً ثم بلغه أن محمداً هرب فقال: كلاً، إنا أهل بيت لا نفر. فجاءته بعد ذلك الرؤوس.

ولما وصل رأس محمد إلى المنصور كان الحسن بن زيد بن الحسن بن علي عنده، فلما رأى الرأس عظم عليه فتجلد خوفاً من المنصور، وقال لقيب المنصور: أهو؟ قال: هو فلذهم، وقال: لوددت أنا الرُّكَّانَةَ إلى طاعته وأنه لم يكن فعل ولا قال وإلا فأُم موسى طالق، وكانت غاية إيمانه، (٥٥١/٥) ولكنه أراد قتله، وكانت نفسه أكرم علينا من نفسه، فبصق بعض الغلمان في وجهه، فأمر المنصور بأنفه فكسر عقوبة له.

ولما ورد الخبر بقتل محمد على أخيه إبراهيم بالبصرة كان يوم العيد، فخرج فصلى بالناس ونعاه على المنبر وأظهر الجزع عليه، وتمثل على المنبر:

يا أبا المنازل يا خير القوارس مَنْ يَجْعُ بِمِثْلِكَ في الدنيا فقد فُجِعَا
الله يعلم أنني لو خشيتهم وأوجس القلب من خوف لهم فرعا
لم يقتلوه ولم أسلم أخي أبداً حتى نموت جميعاً أو نعيش معا

ولما قُتل محمد أرسل عيسى ألوية فنصبت في مواضع بالمدينة ونادى مناديه: مَنْ دخل تحت لواء منها فهو آمن. وأخذ أصحاب محمد فصلبهم ما بين ثنية الدواع إلى دار عمر بن عبد العزيز صفتين ووكل بخشبة ابن خضير مَنْ يحفظها، فاحتمله قوم من الليل فواروه سرّاً وبقي الأخزون ثلاثاً، فأمر بهم عيسى، فألقوا على مقابر اليهود، ثم ألقوا بعد ذلك في خندق في أصل ذباب،

بن القسري وهو محبوب ليقته، فعلم به فردم الأبواب دونه، فلم يقدر عليه ورجع إلى محمد فقاتل بين يديه [حتى قُتل].

وتقدم حميد بن قحطبة وتقدم محمد، فلما صار ينظر مسيل سلح عرق فرسه وعرق بنو شجاع الخميسون دوابهم ولم يبق أحد إلا كسر جفن سيفه، فقال لهم محمد: قد بايعتموني ولست بارحاً حَتَّى أَقْتَلَ، فمن أحب أن ينصرف فقد أذن له.

واشتد القتال فهزموا أصحاب عيسى مرتين وثلاثاً، وقال يزيد بن معاوية بن عباس بن جعفر: ويل أمه فتحاً لو كان له رجال! فصعد نفر من أصحاب عيسى على جبل سلح وانحدروا منه إلى المدينة، وأموت أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس بخمار أسود فرقع على منارة محمد رسول الله ﷺ فقال أصحاب محمد: دخلت المدينة، فهربوا، فقال يزيد: لكل قوم جبل يعصهم، ولنا لا نؤتى إلا منه، يعني سلحاً.

وفتح بنو أبي عمرو الغفاريون طريقاً في بني غفار لأصحاب عيسى ودخلوا منه أيضاً وجاؤوا من وراء أصحاب محمد، ونادى محمد حميد بن قحطبة: ابرز إلي فانا محمد بن عبد الله. فقال حميد: قد عرفتك وأنت الشريف ابن الشريف الكريم ابن الكريم، لا والله لا ابرز إليك وبين يدي من هؤلاء الأغمار أحد، فإذا فرغت منهم فسأبرز إليك. (٥٤٩/٥) وجعل حميد يدعو ابن خضير إلى الأمان ويشح به على الموت، وابن خضير يحمل على الناس راجلاً لا يصغي إلى أمانة وهو يأخذه بين يديه، فضربه رجل من أصحاب عيسى على ألتيه فحلها، فرجع إلى أصحابه فشدها بشوب ثم عاد إلى القتال، فضربه إنسان على عينه فغاص السيف وسقط، فابتدروه فقتلوه واحتزوا رأسه وكأنه باذنجانة مفلقة من كثرة الجراح فيه. فلما قُتل تقدم محمد فقاتل على جيفته، فجعل يهذ الناس هذا، وكان أشبه الناس بقتال حمزة. ولم يزل يقاتل حَتَّى ضربه رجل دون شحمة أذنه اليمنى فبرك لركبته وجعل يذب عن نفسه ويقول: ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم! قطعته ابن قحطبة في صدره فصعره، ثم نزل إليه فاحتز رأسه وأتى به عيسى، وهو لا يعترف من كثرة الدماء.

وقيل: إن عيسى أتهم ابن قحطبة، وكان في الخيل، فقال له: ما أراك تبالغ. فقال له: أنتهمني؟ فوالله لأضرين محمداً حين أراه بالسيف أو أقتل دونه. قال: فمر به وهو مقتول فضربه ليبر يمينه.

وقيل: بل رُمي بسهم وهو يقاتل فوقف إلى جدار فتحاماه الناس، فلما وجد الموت تحامل على سيفه فكسره، وهو ذو الفقار سيف علي، وقيل: بل أعطاه رجلاً من التجار كان معه وله عليه أربعمائة دينار وقال: خذ فانك لا تلقى أحداً من آل أبي طالب إلا أخذه وأعطاك حقاً؛ فلم يزل عنده حَتَّى ولي جعفر بن سليمان

ذكر صفة محمد والأخبار بقتله

كان محمد أسمر شديد السمرة، وكان المنصور يسميه محمماً، وكان سمياً شجاعاً كثير الصوم والصلاة، شديد القوة، وكان يخطب على المنبر فاعترض في حلقه بلغم فتفتح فذهب ثم عاد فتفتح فذهب ثم عاد فتفتح فنظر فلم ير موضعاً يبصق فيه فرمى بنخامته في سقف المسجد فالصقها فيه.

وسئل جعفر الصادق عن أمر محمد فقال: فتنة يقتل فيها محمد ويقتل أخوه لأبيه وأمّه بالعراق وحواضر فرسه في ماء.

فلما قُتل محمد قبض عيسى أموال بني الحسن كلها وأموال جعفر، فلقى جعفر المنصور فقال له: ردّ عليّ قطيعتي من أبي زياد. قال: إياي تكلم (٥٥٤/٥) بهذا؟ والله لأزهقن نفسك! قال: فلا تجعل عليّ، قد بلغت ثلاثاً وستين سنة وفيها مات أبي وجدي وعليّ بن أبي طالب، وعليّ كذا وكذا إن ربتك بشيء، وإن بقيت بعدك إن ربت الذي يقوم بعدك. فرق له المنصور ولم يردّ عليه قطيعته، فردّها المهديّ على ولده.

وقال محمد لعبد الله بن عامر الأسلمي: تغشانا سحابة فيان أمطرتنا ظفرنا، وإن تجاوزتنا إليهم فانظر إلى دمي عند أحجار الزيت. قال: فوالله لقد أظلتنا سحاب فلم تمطرنا، وتجاوزنا إلى عيسى وأصحابه فظفروا وقتلوا محمداً ورأيت دمه عند أحجار الزيت.

وكان قتله يوم الاثنين لأربع عشرة خلت من رمضان سنة خمس وأربعين ومائة.

وكان يلقب المهديّ والنفس الزكية.

ومما رُئي به هو وأخوه قول عبد الله بن مُصنّب بن ثابت:

يا صاحبي دعا الملامة واعلمنا أن لست في هذا بألوم منكمما
وقفا بقبر للنبي فلما لا بأس أن تقابله وتسلما
قبر تضن خير أهل زمانه حباً وطيب سجيّة وتكرماً
رجل نفي بالعدل جاوز بلادنا وغفا عظيمات الأمور وأنما
(٥٥٥/٥)

لم يجتب قصد السيل ولم يجز عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لو أعظم الحدثن شيئاً قبله بعد النبي به لكنك المعظم
أو كان اتع بالسلامة قبله أحداً لكان قصاره أن يسلم
ضحوا بإبراهيم خير ضحية فصرمت أيامه فصرما
بطلا يخوض بنفسه غمراته لا طائشاً زعماً ولا مُتسلماً
حتى مضت فيه السيوف ورمما كانت حوْفهم السيوف ورمما
اضحى بنو حسن أبيض حريمهم فينا وأصبح نههم مُتقشما
ونسأوهم في دورهن نوائج سجع الحمام إذا الحمام ترنما

فارسلت زينب بنت عبد الله أخت محمد وابنة فاطمة إلى عيسى: إنكم قد قتلتموه وقضيت حاجتكم منه، فلو أذنتم لنا في دفته؟ فأذن لها، فدفن بالقيع.

وقطع المنصور الميرة في البحر إلى المدينة ثم أذن فيها المهديّ. (٥٥٢/٥)

ذكر بعض المشهورين ممن كان معه

وكان فيمن معه من بني هاشم أخوه موسى بن عبد الله، وحسين وعليّ ابنا زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ. ولما بلغ المنصور أن ابني زيد أعانوا محمداً عليه قال: عجباً لهما قد خرجا عليّ وقد قتلنا قاتل أبيهما كما قتله، وصلبناه كما صلبه، وأحرقناه كما أحرقه!

وكان معه حمزة بن عبد الله بن محمد بن الحسين وعليّ وزيد ابنا الحسن بن زيد بن عليّ بن أبي طالب، وكان أبوهما مع المنصور، والحسن ويزيد وصالح بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والقاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر، والمرجى عليّ بن جعفر بن إسحاق بن عليّ بن عبد الله بن جعفر، وكان أبوه مع المنصور، ومن غيرهم: محمد بن عبد الله بن عمرو بن سعيد بن العباس، ومحمد بن عجلان، وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم، فأخذ أسيراً فأتي به المنصور، فقال له: أنت الخارج عليّ؟ قال: لم أجد إلا ذلك أو الكفر بما أنزل الله على محمد.

وكان معه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن [أبي] سيرة، وعبد الواحد بن أبي عون مولى الأزدي، وعبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المنصور بن مخزومة، وعبد العزيز بن محمد الدراوردي، وعبد الحميد بن جعفر، وعبد الله بن عطاء بن يعقوب مولى بني سبياع، وإبراهيم وإسحاق وربيعة وجعفر وعبد الله وعطاء ويعقوب وعثمان وعبد العزيز بنو عبد الله بن عطاء، وعيسى (٥٥٣/٥) ابن خضير، وعثمان بن خضير، وعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، هرب بعد قتل محمد فأتى البصرة، فأخذ منها وأتى به المنصور، فقال له: هيه يا عثمان! أنت الخارج عليّ مع محمد؟ قال: بآبعت أنا وأنت بمكة فوفيت ببيعتي وغدرت بيعتك! قال: يا ابن اللخنة! قال: ذاك من قامت عنه الإمام! يعني المنصور، فأمر به قتل.

وكان مع محمد عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأخذ أسيراً، فأطلقه المنصور، وعبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع، وعليّ بن عبد المطلب بن عبد الله بن خطب، وإبراهيم بن جعفر بن مُصنّب بن الزبير، وهشام بن عُمارة بن الوليد بن عديّ بن الخيار، وعبد الله بن يزيد بن هرمز، وغيرهم ممن تقدّم ذكرهم.

فخطبهم ابن أبي سبرة وحثهم على الطاعة، فتراجعوا، ولم يصل الناس يومئذ جماعة؛ فلما كان وقت العشاء الآخرة لم يجب المؤذن أحد إلى الصلاة بهم، فقدم الأصمغ ابن سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان، فلما وقف للصلاة واستوت الصفوف أقبل عليهم بوجهه ونادى بأعلى صوته: أنا فلان بن فلان أصلي بالناس على طاعة أمير المؤمنين، يقول ذلك مرتين وثلاثاً، ثم تقدم فصلى بهم، فلما كان الغد قال لهم ابن أبي سبرة: إنكم قد كان منكم بالأمس ما قد علمتم ونهيتم طعام أمير المؤمنين، فلا يبقين عند أحد منه شيء إلا رده، فردوه؛ ورجع ابن الربيع من بطن نخل فقطع يد وثيق ويعقل وغيرهما.

ذكر بناء مدينة بغداد

فيها ابتدا المنصور في بناء مدينة بغداد

وسبب ذلك أنه كان قد ابتنى الهاشمية بنواحي الكوفة، فلما ثارت الراوندية فيها كره سكانها لذلك ولجوار أهل الكوفة أيضاً، فإنه كان لا يأمن (٥٥٨/٥) أهلها على نفسه، وكانوا قد أفسدوا جنده. فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه هو وجنده، فأنحدر إلى جرجاريا، ثم أصدع إلى الموصل وسار نحو الجبل في طلب منزل يئني به. وكان قد تخلف بعض جنده بالمدائن لرمد لحقه، فسأله الطبيب الذي يعالجه عن سبب حركة المنصور، فأخبره، فقال: إنا نجد في كتاب عندنا أن رجلاً يدعى مقلصاً يئني مدينة بيسن دجلة والصرة تدعى الزوراء، فإذا أسسها وبني بعضها آناه فتق من الحجاز فقطع بناةا وأصلح ذلك الفتق، ثم آناه فتق من البصرة أعظم منه فلا يلبث الفتقان أن يلتما ثم يعود إلى بناةا فيتمة، ثم يعمر عمرأ طويلاً ويبقى الملك في عقبه.

فقدم ذلك الجندي إلى عسكر المنصور وهو بنواحي الجبل فأخبره الخبر، فرجع وقال: إني أنا والله كنت أدعى مقلصاً وأنا صبي ثم زال عني، وسار حتى نزل الدير الذي حذاء قصره المعروف بالخلد، ودعا بصاحب الدير وبالبطريق صاحب رحا البطريق وصاحب بغداد وصاحب المخرم وصاحب بستان النفس وصاحب العتيقة فسألهم عن مواضعهم وكيف هي في الحر والبرد والأمطار والحوال والبق والهوام، فأخبره كل منهم بما عنده، ووقع اختيارهم على صاحب بغداد، فأحضره وشاروه.

فقال: يا أمير المؤمنين سألتني عن هذه الأمكنة وما تختار منها، وإني أرى أن تنزل أربعة طساميج في الجانب الغربي طسوجين وهما بقطرل ويادوريا، وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهر بوق وكلاوي، فيكون بين نخل وقرب الماء، وإن أجذب طسوج وتآخرت عمارته كان في الطسوج الآخر العمارات، وأنت يا أمير المؤمنين على الصرة تجنك الميرة في السفن من الشام (٥٥٩/٥)

يتوصلون يقتل ويروونه شرفاً لهم عند الإمام ومنعماً والله لو شهد النبي محمد صلى الله على النبي وسلمما إشراع أمته الأسنة لآبته حتى تظفر بين ظبائهم وما حتى لايقن أنهم قد ضيعوا تلك القرابة واستحلوا المحرماً ولما قتل محمد قام عيسى بالمدينة أياماً ثم سار عنها صبح تسع عشرة خلت من رمضان يريد مكة معتمراً واستخلف على المدينة كثير بن حصين، فأقام بها شهراً ثم استعمل المنصور عليها عبد الله بن الربيع الحارثي. (٥٥٦/٥)

ذكر وثوب السودان بالمدينة

وفيها ثار السودان بالمدينة على عاملها عبد الله بن الربيع الحارثي فهرب منهم.

وسبب ذلك أن المنصور استعمل عبد الله بن الربيع على المدينة وقدمها لخمس يقين من شوال، فنازع جنده التجار في بعض ما يشترونه منهم، فشكا ذلك التجار إلى ابن الربيع، فأنتهروهم وشتهم، فتزايد طمع الجند فيهم فعدوا على رجل صيرفي فنازعوه كيه، فاستعان بالناس فخلص ماله منهم، وشكا أهل المدينة ذلك منهم، فلم ينكره ابن الربيع، ثم جاء رجل من الجند فاشتري من جزار لحماً يوم جمعة ولم يعطه ثمنه وشهر عليه السيف، فضربه الجزار بشفرة في خاصرته فقتله، واجتمع الجزارون وتنادى السودان على الجند وهم يروحون إلى الجمعة فقتلوهم بالعمد، ونفخوا في بوق لهم، فسمعه السودان من العالية والسافلة فاقبلوا واجتمعوا، وكان رؤساؤهم ثلاثة نفر: وثيق، ويعقل، وزمعة، ولم يزالوا على ذلك من قتل الجند حتى أمسوا.

فلما كان الغد قصدوا ابن الربيع فهرب منهم وأتى بطن نخل على ليلتين من المدينة فنزل به، فأنتهبوا طعاماً للمنصور وزياً وقسباً فباعوا حمل الدقيق بدرهمين، وراوية الزيت بأربعة دراهم.

وسار سليمان بن ملبح ذلك اليوم إلى المنصور فأخبره.

وكان أبو بكر بن أبي سبرة في الحبس قد أخذ مع محمد بن عبد الله فضرَب (٥٥٧/٥) وخُس مقيداً، فلما كان من السودان ما كان خرج في حليده من الحبس فأتى المسجد فأرسل إلى محمد بن عمران ومحمد بن عبد العزيز وغيرهما فأحضرهم عنده فقال: أشدكم الله وهذه البلية التي وقعت! فوالله إن ثبت علينا عند أمير المؤمنين بعد القعلة الأولى إنه لهلاك البلد وأهله والعيبد في السوق بأجمعهم، فاذهبوا إليهم فكلموهم في الرجعة والعود إلى رأيكم فإنهم أخرجتهم الحمية.

فذهبوا إلى العبيد فكلموهم، فقالوا: مرحباً بموالينا، والله ما قمنا إلا أنفة مما عمل بكم، فأمرونا إليكم؛ فاقبلوا بهم إلى المسجد.

خشب وساج وغير ذلك. واستخلف حين يشخص إلى الكوفة على إصلاح ما أعد أسلم مولاه، فبلغه أن إبراهيم قد هزم عسكر المنصور، فأحرق ما كان خلفه عليه المنصور، فبلغ المنصور ذلك فكتب إليه يلومه، فكتب إليه أسلم يُخبره أنه خاف أن يظفر بهم إبراهيم فيأخذه، فلم يقل له شيئاً.

وستذكر كيفية بنائها في سنة ست وأربعين إن شاء الله.

ذكر ظهور إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أخي محمد

فيها كان ظهور إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو أخو محمد، المقدم ذكره، وكان قبل ظهوره قد طلب أشد الطلب، فحكّت جارية له أنه لم تقرهم أرض خمس سنين، مرة بفارس ومرة بكرمان (٥٦١/٥) ومرة بالجبل ومرة بالحجاز ومرة باليمن، ومرة بالشام، ثم إنه قدم الموصل وقدمها المنصور في طلبه، فحكى إبراهيم قال: اضطررتي الطلب بالموصل حتى جلست على مائدة المنصور ثم خرجت وقد كف الطلب؛ وكان قوم من أهل العسكر يتشيّعون فكتبوا إلى إبراهيم يسألونه القدوم إليهم ليثبوا بالمنصور، فقدم عسكر أبي جعفر وهو بغداد وقد خطها، وكانت له امرأة ينظر فيها فبرى عدوه من صديقه، فنظر فيها فقال: يا مسيب قد رايت إبراهيم في عسكري وما في الأرض أعدى لي منه، فانظر أي رجل يكون.

والرقة، والغرب في طوائف مصر، وتحيثك الميرة من الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل وغيرها في دجلة، وتحيثك الميرة من أرمينية وما اتصل بها في تماراً حتى يتصل بالزاب، فانت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل إليك، ودجلة والفرات والصرة خنادق هذه المدينة، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد، وأنت قريب من البر والبحر والجبل.

فازداد المنصور عزماً على النزول في ذلك الموضع.

وقيل إن المنصور لما أراد أن يبنى مدينته بغداد رأى راهباً فناداه، فأجابته فقال: هل تجدون في كتبكم أنه بُنِيَ هاهنا مدينة؟ قال: نعم بينها مقلّاص. قال: فأنّا كنت أدعى مقلّاصاً في حدثي. قال: فإذا أنت صاحبها.

فابتدأ المنصور بعملها سنة خمس وأربعين، وكتب إلى الشام والجبل والكوفة وواسط والبصرة في معنى إنفاذ الصنّاع والفعلّة، وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقّه، وأمر باختيار قوم من ذوي الأمانة والمعرفة بالهندسة، فكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن أرطاة، وأبو حنيفة، وأمر فخطت المدينة وحفر الأساس وضرب اللبن وطبخ الآجر، فكان أول ما ابتدأ به منها أمر بخططها بالرماد، فدخلها من أبوابها وفصلاتها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد، ثم أمر أن يُجعل على الرماد حب القطن ويُشعل بالنار، ففعلوا، فنظر إليها وهي تشتعل ففهمها وعرف رسمها وأمر أن يحفر الأساس على ذلك الرسم، ووكل بها أربعة من القواد، كلّ قائد بربع، ووكل أبا حنيفة بعدد الآجر واللبن، وكان قبل ذلك قد أراد أبا حنيفة أن يتولّى القضاء والمظالم فلم يُجب، فحلف المنصور أنه لا يقلع عنه أو يعمل له. فأجابته إلى أن ينظر في (٥٦٠/٥) عمارة بغداد ويعدّ اللبن والآجر بالقصب، وهو أول من فعل ذلك.

وجعل المنصور عرض أساس السور من أسفله خمسين ذراعاً، ومن أعلاه عشرين ذراعاً، وجعل في البناء القصب والخشب، ووضع بيده أول لبنة، وقال: بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ثم قال: ابنوا على بركة الله.

فلما بلغ السور مقدار قامه جاء الخبر بظهور محمد بن عبد الله، فقطع البناء ثم أقام بالكوفة حتى فرغ من حرب محمد وأخيه إبراهيم ثم رجع إلى بغداد فأمم بناءها وأقطع فيها القطائع لأصحابه.

وكان المنصور قد أعد جميع ما يحتاج إليه من بناء المدينة من

ثم إن المنصور أمر ببناء قنطرة الصرة العتيقة، فخرج إبراهيم ينظر إليها مع الناس، فوقعت عليه عين المنصور، فخنس إبراهيم وذهب في الناس فأتى قامياً فلجأ إليه، فأصعده غرفة له، وجد المنصور في طلبه ووضع الرصد بكل مكان، فنشب إبراهيم مكانه، فقال له صاحبه سفيان بن حيّان القمي: قد نزل بنا ما ترى ولا بد من المخاطرة. قال: فانت وذلك. فاقبل سفيان إلى الربيع فسأله الإذن على المنصور، فادخله عليه، فلما رآه شتمه، فقال: يا أمير المؤمنين أنا أهل لما تقول، غير أنني أتيتك تائباً ولك عندي كلّ ما تحب، وأنا أتيتك بإبراهيم بن عبد الله، إني قد بلوتهم فلم أجد فيهم خيراً، فاكذب لي جوازاً ولغلام معي يحملني على البريد ووجه معي جنداً. فكتب له جوازاً ودفع إليه جنداً وقال: هذه ألف دينار فاستعن بها. قال: لا حاجة لي فيها، وأخذ منها ثلاثمائة دينار وأقبل والجند معه فدخل البيت، وعلى إبراهيم جبة صوف وقبّاء كآقية الغلمان، فصاح به، فوثب وجعل يأمره وينهاه، وسار على البريد.

(٥٦٢/٥)

وقيل: لم يركب البريد.

وسار حتى قدم المدائن، فمنعه صاحب القنطرة بها، فدفع جوازه إليه، فلما جازها قال له الموكل بالقنطرة: ما هذا غلام وإنه لإبراهيم بن عبد الله، اذهب راشداً، فأطلقهما، فركبا سفينة حتى

قدما البصرة، فجعل يأتي بالجند الدار لها بابان فيقعد البعض منهم على أحد البابين ويقول: لا تبرحوا حتى آتيكم، فيخرج من الباب الآخر ويتركهم، حتى فرّق الجند عن نفسه وبقي وحده.

وبلغ الخبر سفيان بن معاوية أمير البصرة، فأرسل إليهم فجمعهم، وطلب القمي فأعجزه، وكان إبراهيم قد قدم الأهواز قبل ذلك واختفى عند الحسن بن خبيب، وكان محمد بن الحصين يطلبه، فقال يوماً: إن أمير المؤمنين كتب إلي يخبرني أن المنجمين أخبروه أن إبراهيم نازل بالأهواز في جزيرة بين نهريْن، وقد طلبته في الجزيرة وليس هناك، وقد عزم أن أطلبه غداً بالمدينة، لعل أمير المؤمنين يعني بقوله بين نهريْن بين دجل والمسرّقان. فرجع الحسن بن خبيب إلى إبراهيم فأخبره وأخرجته إلى ظاهر البلد، ولم يطلبه محمد ذلك اليوم.

فلما كان آخر النهار خرج الحسن إلى إبراهيم فأدخله البلد، وهما على حمازين، وقت العشاء الآخرة، فلقية أوائل خيل ابن الحصين، فنزل إبراهيم عن حماره كأنه يقول، فسأل ابن الحصين الحسن بن خبيب عن مجيئه، فقال: من عند بعض أهلي. فمضى وتركه. ورجع الحسن إلى إبراهيم فأركبه وأدخله إلى منزله، فقال له إبراهيم: والله لقد بُلّت دماً. قال: فأتيت الموضع فرأيت قد بال دماً.

ثم إن إبراهيم قدم البصرة، فقيل: قدمها سنة خمس وأربعين بعد ظهور (٥٦٣/٥) أخيه محمد بالمدينة، وقيل: قدمها سنة ثلاث وأربعين ومائة، وكان الذي أقدمه وتولّى كراه، في قول بعضهم، يحيى بن زياد بن حيّان النبطي وأنزله في داره في بني ليث، وقيل: نزل في دار أبي فروة، ودعا الناس إلى بيعة أخيه، وكان أول من بايعه نُمَيْلة بن مرة العبّاسي، وعفوالله بن سفيان، وعبد الواحد بن زياد، وعمرو بن سلمة الهجيمي، وعبد الله بن يحيى بن حصين الرقاشي، وندبوا الناس، فأجابهم المغيرة بن الفزّع وأشباهه له، وأجابه أيضاً عيسى بن يونس، ومُعاذ بن مُعاذ، وعبيد بن العوام، وإسحاق بن يوسف الأزرق، وهشيم بن بشير، وجماعة كثيرة من الفقهاء وأهل العلم، حتى أحصى ديوانه أربعة آلاف، وشهر أمره، فقالوا له: لو تحولت إلى وسط البصرة أتاك الناس وهم مستريحون. فتحول فنزل دار أبي مروان مولى بني سُلَيْم في مقبرة بني يشكر، وكان سفيان بن معاوية قد مالا على أمره.

ولما ظهر أخوه محمد كتب إليه يأمره بالظهور، فوجم لذلك واغتم، فجعل بعض أصحابه يسهّل عليه ذلك وقال له: قد اجتمع لك أمر فتخرج إلى السجن فتكسره من الليل فتصبح وقد اجتمع لك عالم من الناس. وطابت نفسه، وكان المنصور بظاهر الكوفة، كما تقدّم، في قلّة من العساكر، وقد أرسل ثلاثة من القواد إلى

سفيان بن معاوية بالبصرة مدّداً له ليكونوا عوناً له على إبراهيم إن ظهر.

فلما أراد إبراهيم الظهور أرسل إلى سفيان فأعلمه، فجمع القواد عنده، وظهر إبراهيم أول شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة فغنم دواب أولئك الجند وصلى بالناس الصبح في الجامع وقصد دار الإمارة وبها سفيان متحصناً في جماعة فحصره، وطلب سفيان منه الأمان فأمنه إبراهيم ودخل الدار ففرشوا له حصيراً، فبغت الريح قلبته قبل أن يجلس، فتطير الناس بذلك، فقال (٥٦٤/٥) إبراهيم: إننا لا نتطير. وجلس عليه مقلوباً وحس القواد وحس أيضاً سفيان بن معاوية في القصر وقبده بقيد خفيف ليعلم المنصور أنه محبوس.

وبلغ جعفرًا ومحمدًا ابني سليمان بن عليّ ظهور إبراهيم، فأتيا في ستمائة رجل، فأرسل إليهما إبراهيم المضاء بن القاسم الجزري في خمسين رجلاً، فزهما، ونادى منادي إبراهيم: لا يتبع مهزوم ولا يُدْفَق على جريح.

ومضى إبراهيم بنفسه إلى باب زينب بنت سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وإليها يُنسب الزينبيون من العبّاسيين، فنادى بالأمان وأن لا يعرض لهم أحد، فصفت له البصرة، ووجد في بيت مالها ألفي ألف درهم، فقوي بذلك وفرض لأصحابه لكل رجل خمسين خمسين.

فلما استقرت له البصرة أرسل المغيرة إلى الأهواز، فبلغها في مائتي رجل، وكان بها محمد بن الحصين عاملاً للمنصور، فخرج إليه في أربعة آلاف فالتقوا، فسانهزم ابن الحصين ودخل المغيرة الأهواز، وقيل: إنما وجه المغيرة بعد مسيره إلى باخثري، وسير إبراهيم إلى فارس عمرو بن شدّاد، فقدمها وبها إسماعيل وعبد الصمد ابنا عليّ بن عبد الله بن عباس، فبلغهما دنو عمرو وهما بإصطخر، فقصدا دارا جرد فتحصنا بها، فصارت فارس في يد عمرو، وأرسل إبراهيم مروان بن سعيد العجليّ في سبعة عشر ألفاً إلى واسط، وبها هارون بن حُمَيْد الإياديّ من قبل المنصور، فملكها العجليّ، وأرسل المنصور لحربه عامر بن إسماعيل المُسَلِّيّ في خمسة آلاف، وقيل: في عشرين ألفاً فكانت بينهم وقعات ثم تهادنوا على ترك الحرب حتى ينظروا ما يكون من إبراهيم والمنصور. فلما قتل إبراهيم هرب مروان ابن سعيد عنهما فاختفى حتى مات. (٥٦٥/٥)

فلم يزل إبراهيم بالبصرة يفرّق العمّال والجيش حتى أئاه نعي أخيه محمد قبل عيد الفطر بثلاثة أيام، فخرج بالناس يوم العيد وفيه الانكسار فصلّى بهم وأخبرهم بقتل محمد، فازدادوا في قتال المنصور بصيرة، وأصبح من الغد فعسكر واستخلف على البصرة

نَمِيلَةً وَخَلَفَ ابْنَهُ حَسَنًا مَعَهُ.

الزَّوَابِ يَعْرِكُهَا فِقَامُ بِهَا وَلَمْ تَقْعُدْ بِهِ نَفْسَهُ، وَإِنَّهُ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

(٥٦٧/٥)

نَفْسُ عَصَامٍ سَوَدَتْ عَصَامًا وَعَلَّمَتْهُ الْكَسْرُ وَالْإِقْلَامُ
وَصَيَّرَتْهُ مَيْلًا مُعَامًا

ثُمَّ وَجَّهَ الْمَنْصُورُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَيْسَى بْنِ مُوسَى فِي خَمْسَةِ عَشَرَ
أَلْفًا، وَعَلَى مَقْدَمَتِهِ حَمِيدٌ بْنُ قَحْطَبَةَ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَقَالَ لَهُ لَمَّا
وَدَّعَهُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْخَبَاءُ، يَعْنِي الْمَنْجَمِينَ، يَزْعُمُونَ أَنَّكَ إِذَا لَاقَيْتَ
إِبْرَاهِيمَ يَجُولُ أَصْحَابُكَ جَوْلَةً حَتَّى تَلْقَاهُ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَيْكَ وَتَكُونُ
الْعَاقِبَةُ لَكَ.

وَلَمَّا سَارَ إِبْرَاهِيمُ عَنِ الْبَصْرَةِ مَشَى لَيْلَتَهُ فِي عَسْكَرِهِ سِرًّا فَسَمِعَ
أَصْوَاتَ الطَّيَابِيرِ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَسَمِعَهَا أَيْضًا، فَقَالَ: مَا
أَطْمَعُ فِي نَصْرِ عَسْكَرٍ فِيهِ مِثْلُ هَذَا! وَسَمِعَ يَنْشُدُ فِي طَرِيقِهِ آيَاتِ
الْقَطَامِيِّ:

أَمْرٌ لَوْ يَدْبُرُهَا حَالِيْمٌ إِذَا لَنَهَى وَهَيْبٌ مِمَّا اسْتَطَاعَا
وَمَعْصِيَةُ الشَّقِيقِ عَلَيْكَ مِمَّا يَزِيدُكَ مَرَّةً مِنْهُ اسْتِمَاعَا
وَحَيْرٌ الْأَمْرِ مِمَّا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ وَلَيْسَ بِبَانٍ تَتَّبِعُهُ أَتَابِعَا
وَلَكِنَّ الْأَدِيمَ إِذَا تَغَرَّى بِلِسَى وَتَغَيَّبَا غَلَبَ الصَّنَاعَا
فَعَلِمُوا أَنَّهُ نَادِمٌ عَلَى مَسِيرِهِ.

وَكَانَ دِيْوَانُهُ قَدْ أَحْصَى مِائَةَ أَلْفٍ، وَقِيلَ: كَانَ مَعَهُ فِي طَرِيقِهِ
عَشْرَةُ آلَافٍ، وَقِيلَ لَهُ فِي طَرِيقِهِ لِيَأْخُذَ غَيْرَ الْوَجْهِ الَّذِي فِيهِ عَيْسَى
وَيَقْصِدَ الْكُوفَةَ فَإِنَّ الْمَنْصُورَ لَا يَقُومُ لَهُ وَيُضَافُ أَهْلُ الْكُوفَةِ إِلَيْهِ
وَلَا يَبْقَى لِلْمَنْصُورِ مَرْجِعٌ دُونَ حُلُوَانٍ، فَلَمْ يَفْعَلْ، فَقِيلَ لَهُ لِيَبَيِّتْ
عَيْسَى. فَقَالَ: أَكْرَهُ الْبَيَاتَ إِلَّا بَعْدَ الْإِنْذَارِ. (٥٦٨/٥)

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِأَمْرِهِ بِالْمَسِيرِ إِلَيْهَا لِيَدْعُو إِلَيْهِ النَّاسَ
وَقَالَ: أَدْعُوهُمْ سِرًّا ثُمَّ أَجْهَرُ، فِإِذَا سَمِعَ الْمَنْصُورُ الْهَيْعَةَ بِأَرْجَاءِ
الْكُوفَةِ لَمْ يَرِدْ وَجْهَهُ شَيْءٌ دُونَ حُلُوَانٍ. فَاسْتَشَارَ بَشِيرًا الرَّحَالَ
فَقَالَ: لَوْ وَثَقْنَا بِالَّذِي تَقُولُ لَكَانَ رَأْيًا، وَلَكِنَّا لَا نَأْمَنُ أَنْ تَجِيَنَّكَ
مِنْهُمْ طَائِفَةٌ فَيُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ الْخَيْلَ فَيَأْخُذَ الْبَرِيَّ وَالصَّغِيرَ
وَالْمَرْأَةَ فَيَكُونُ ذَلِكَ تَعَرُّضًا لِلْمَائِمْ. فَقَالَ الْكُوفِيُّ: كَأَنَّكُمْ خَرَجْتُمْ
لِقِتَالِ الْمَنْصُورِ وَأَنْتُمْ تَتَرَقَّوْنَ قَتْلَ الضَّعِيفِ وَالْمَرْأَةِ وَالصَّغِيرِ! أَوَلَمْ
يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ لِيَقَاتِلَ وَيَكُونُ نَحْوُ هَذَا؟ فَقَالَ
بَشِيرٌ: أَوْلَيْكَ كَفَّارٌ وَهَؤُلَاءِ مُسْلِمُونَ.

وَاتَّبَعَ إِبْرَاهِيمُ رَأْيَهُ وَسَارَ حَتَّى نَزَلَ بِأَخْمَرَى، وَهِيَ مِنَ الْكُوفَةِ
عَلَى سِتَّةِ عَشَرَ فَرَسَخًا، مُقَابِلَ عَيْسَى بْنِ مُوسَى، فَارْسَلُ إِلَى سَلْمَ
بْنِ قُتَيْبَةَ: إِنَّكَ قَدْ أَصْحَرْتَ وَمِثْلُكَ أَنْفُسٌ بِهِ عَنِ الْمَوْتِ، فَخَنَدَقُ
عَلَى نَفْسِكَ حَتَّى تَلْتَوِي إِلَّا مِنْ مَاتِي وَاحِدٍ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَقَدْ
أَغْرَى أَبُو جَعْفَرٍ عَسْكَرَهُ، فَتَخَنَّفُ فِي طَائِفَةٍ حَتَّى تَأْتِيَهُ فِتْنَةٌ بِقَفَاءِ.
فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ أَصْحَابَهُ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: نَخْنَدُقُ عَلَى

ذَكَرَ مَسِيرَ إِبْرَاهِيمَ وَقَتْلَهُ

ثُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَزَمَ عَلَى الْمَسِيرِ، فَأَشَارَ أَصْحَابُهُ الْبَصَرِيُّونَ أَنْ
تَقِيمَ وَتُرْسِلَ الْجُنُودَ، فَيَكُونُ إِذَا انْهَزَمَ لَكَ جُنْدٌ أَمَدَدْتَهُمْ بِغَيْرِهِمْ
فَخَفِيفَ مَكَانِكَ وَأَتَقَّكَ عَدُوَّكَ وَجِيَّتْ الْأَمْوَالُ وَثَبَّتْ وَطَانُكَ. فَقَالَ
مَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ: إِنَّ بِالْكُوفَةِ أَقْوَامًا لَوْ رَأَوْكَ مَاتُوا دُونَكَ،
وَإِنْ لَمْ يَرَوْكَ قَعَدَتْ بِهِمْ أَسْبَابُ شَتَّى. فَسَارَ عَنِ الْبَصْرَةِ إِلَى
الْكُوفَةِ.

وَكَانَ الْمَنْصُورُ لَمَّا بَلَغَهُ ظَهْرُ إِبْرَاهِيمَ فِي قَلَّةٍ مِنَ الْعَسْكَرِ قَالَ:
وَاللَّهِ مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ! مَا فِي عَسْكَرِي إِلَّا أَلْفَا رَجُلًا، فَزَعْتُ
جُنْدِي: مَعَ الْمَهْدِيِّ بِالرِّيِّ ثَلَاثُونَ أَلْفًا، وَمَعَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْثَمِ
بِإِفْرِيقِيَةِ أَرْبَعُونَ أَلْفًا، وَبِالْبَاقُونَ مَعَ عَيْسَى بْنِ مُوسَى، وَاللَّهِ لَشَنْ
سَلِمْتُ مِنْ هَذِهِ لَا يَفَارِقُ عَسْكَرِي ثَلَاثُونَ أَلْفًا.

ثُمَّ كَتَبَ إِلَى عَيْسَى بْنِ مُوسَى بِأَمْرِهِ بِالْعُودِ مَسْرِعًا، فَأَتَاهُ
الْكِتَابُ وَقَدْ أَحْرَمَ بِعَمْرٍو، فَتَرَكَهَا وَعَادَ. وَكَتَبَ إِلَى سَلْمَ بْنِ قُتَيْبَةَ
فَقَدِمَ عَلَيْهِ مِنَ الرِّيِّ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ: اعْمُدْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَلَا
يُرْوِعَنَّكَ جَمْعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُمَا جَمَلَا بَنِي هَاشِمٍ الْمَقْتُولَانِ! فَتَقَّ بِمَا
أَقُولُ. وَضَمَّ إِلَيْهِ غَيْرَهُ مِنَ الْقَوَادِ. وَكَتَبَ إِلَى الْمَهْدِيِّ بِأَمْرِهِ بِإِنْفَازِ
خُزَيْمَةَ بْنِ خَازِمٍ إِلَى الْأَهْوَازِ، فَسَيَّرَهُ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ (٥٦٦/٥)
فَارْسَ، فَوَصَلَهَا وَقَاتَلَ الْمُغِيرَةَ، فَزَجَعَ الْمُغِيرَةَ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَاسْتَبَاحَ
خُزَيْمَةُ الْأَهْوَازَ ثَلَاثًا.

وَتَوَالَتْ عَلَى الْمَنْصُورِ الْفُتُوحُ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْأَهْوَازِ وَفَارْسَ
وَوَاسِطَ وَالْمَدَائِنِ وَالسَّوَادِ، وَإِلَى جَانِبِهِ أَهْلُ الْكُوفَةِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ
مُقَاتِلٍ يَنْتَظِرُونَ بِهِ صَبِيحَةً، فَلَمَّا تَوَالَتْ الْأَخْبَارُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ أَشْدَّ:

وَجَعَلْتُ نَفْسِي لِلرَّمَاكِ دَرِيْسَةً إِنَّ الرَّئِيسَ لَمِثْلُكَ فَعْمُولُ
ثُمَّ إِنَّهُ رَمَى كُلَّ نَاحِيَةٍ بِحِجَرِهَا، وَبَقِيَ الْمَنْصُورُ عَلَى مَصَلَاهُ
خَمْسِينَ يَوْمًا يَنَامُ عَلَيْهِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ جَبَّةٌ مَلُونَةٌ قَدْ اتَّسَخَ
جِبَّهَا لَا غَيْرَهَا وَلَا هَجَرَ الْمَصْلَى، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ إِذَا ظَهَرَ لِلنَّاسِ لَبَسَ
السَّوَادَ فَإِذَا فَارَقَهُمْ رَجَعَ إِلَى هَيْبَتِهِ. وَأُعْدِيَتْ إِلَيْهِ امْرَأَتَانِ مِنَ
الْمَدِينَةِ، إِحْدَاهُمَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَيْسَى بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ
اللَّهِ، وَالْأُخْرَى أُمُّ الْكَرِيمِ ابْنَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَلَدِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ، فَلَمْ
يَنْظُرْ إِلَيْهِمَا، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمَا قَدْ سَاءَتْ ظُنُونُهُمَا. فَقَالَ: لَيْسَتْ هَذِهِ
أَيَّامُ نِسَاءٍ وَلَا سَبِيلُ إِلَيْهِمَا حَتَّى أَنْظُرَ رَأْسَ إِبْرَاهِيمَ لِي أَوْ رَأْسِي لَهُ.

قَالَ الْحِجَّاجُ بْنُ قُتَيْبَةَ: لَمَّا تَابَعَتْ الْفُتُوحُ عَلَى الْمَنْصُورِ دَخَلَتْ
مَسْلَمًا عَلَيْهِ وَقَدْ أَتَاهُ خَبَرُ الْبَصْرَةِ وَالْأَهْوَازِ وَفَارْسَ، وَعَسَاكِرُ إِبْرَاهِيمَ
قَدْ عَظُمَتْ، وَبِالْكُوفَةِ مِائَةُ أَلْفٍ سَيْفٍ بِإِزَاءِ عَسْكَرِهِ يَنْتَظِرُ صَبِيحَةً
وَاحِدَةً فَيُثْبِتُونَ بِهِ، فَرَأَيْتُهُ أَحْزَنًا مَشْرَمًا قَدْ قَامَ إِلَى مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ

أنفسنا ونحن الظاهرون عليهم! لا والله لا تفعل. قال: فنأتى أبا جعفر. قالوا: ولم وهو في أيدينا متى أردناه؟ فقال إبراهيم للرسول: أسمع؟ فأرجع راشداً.

ثم إنهم تصافوا، فصنف إبراهيم أصحابه صفاً واحداً، فأشار عليه بعض أصحابه بأن يجعلهم كراديس، فإذا انهزم كردوس ثبت كردوس، فإن الصف إذا انهزم بعضه تداعى سائره. فقال الباقر: لا نصف إلا صف أهل الإسلام، يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُجِبُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] الآية. (٥٦٩/٥)

فاقتتل الناس قتالاً شديداً وانهزم حميد بن قحطبة وانهزم الناس معه، فعرض لهم عيسى يناديه الله والطاعة فلا يلون عليه. فأقبل حميد منهزماً، فقال له عيسى: الله الله والطاعة! فقال: لا طاعة في الهزيمة! ومز الناس فلم يبق مع عيسى إلا نفر يسير، فقبل له: لو تنحيت عن مكانك حتى تؤوب إليك الناس فتكبر بهم. فقال: لا أزول عن مكاني هذا أبداً حتى أقتل أو يفتح الله على يدي، والله لا ينظر أهل بيتي إلى وجهي أبداً وقد انهزمت عن عدوهم! وجعل يقول لمن يمر به: أفرئ أهل بيتي السلام وقل لهم لم أجد فداً أفديكم به أعز من نفسي وقد بلثتها دونكم!

فبينما هم على ذلك لا يلوي أحد على أحد إذ أتى جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي من ظهور أصحاب إبراهيم، ولا يشعر باقي أصحابه الذين يتبعون المهزمين حتى نظر بعضهم فرأى القتال من ورائهم فعطفوا نحوه، ورجع أصحاب المنصور يتبعونهم، فكانت الهزيمة على أصحاب إبراهيم، فلولاً جعفر ومحمد لتثبت الهزيمة، وكان من صنع الله للمنصور أن أصحابه لقيهم نهر في طريقهم فلم يقدروا على الثوب ولم يجدوا مخاضة، فعادوا بأجمعهم، وكان أصحاب إبراهيم قد مخروا الماء ليكون قتالهم من وجه واحد، فلما انهزموا منهم الماء من الفرار، وثبت إبراهيم في نفر من أصحابه يبلغون ستمائة، وقيل أربعمائة، وقاتلهم حميد وجعل يرسل بالروس إلى عيسى، وجاء إبراهيم سهم عائر فوقع في حلقه فنحره، فتنحى عن موقفه وقال: أنزلوني، فأنزلوه (٥٧٠/٥) عن مركبه وهو يقول: ﴿وَكَيْفَ أَمَرَ اللَّهُ قَدْراً مَقْدوراً﴾ [الأحزاب: ٣٨]، أردنا أمراً وأراد الله غيره.

واجتمع عليه أصحابه وخاصته يحمونه ويقاتلون دونه، فقال حميد بن قحطبة لأصحابه: شدوا على تلك الجماعة حتى تزيلوهم عن موضعهم وتعلموا ما اجتماعوا عليه؛ فشدوا عليهم فقاتلوهم أشد قتال حتى أفرجهم عن إبراهيم وخلصوا إليه وحزوا رأسه فأتوا به عيسى، فأراه ابن أبي الكرام الجعفري فقال: نعم هذا رأسه. فنزل عيسى إلى الأرض فسجد وبعث برأسه إلى المنصور.

وكان قتله يوم الاثنين لخمس ليالٍ بقرين من ذي القعدة سنة

خمس وأربعين ومائة، وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة، ومكث منذ خرج إلى أن قُتل ثلاثة أشهر إلا خمسة أيام.

وقيل: كان سبب انهزام أصحابه أنهم لما هزموا أصحاب المنصور وتبعوهم نادى منادي إبراهيم: ألا لا تتبعوا مدبراً! فرجعوا، فلما رآهم أصحاب المنصور راجعين ظنهم منهزمين فعطفوا في آثارهم، وكانت الهزيمة.

وبلغ المنصور الخبر بهزيمة أصحابه أولاً فعزم على إتيان الري، فأتاه نوبخت المنجم وقال: يا أمير المؤمنين الظفر لك وسيفقتل إبراهيم! فلم يقبل منه. فبينما هو كذلك إذ جاءه الخبر بقتل إبراهيم، فتمثل:

فألت عصاه واستعز بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر
(٥٧١/٥) فأتعق المنصور نوبخت ألقى جريب بنهر خويزة.

وحمل رأس إبراهيم إلى المنصور فوضع بين يديه، فلما رآه بكى حتى خرجت دموعه على خد إبراهيم ثم قال: أما والله إني كنت لهذا كارهاً ولكنك أثبتت بي وأثبتت بك! ثم جلس مجلساً وأذن للناس. فكان الداخل يدخل فيتناول إبراهيم ويسىء القول فيه ويذكر فيه القبيح التماساً لرضاء المنصور، والمنصور مُنميك متغير لونه، حتى دخل جعفر بن خنظلة الدارمي فوقف فسلم ثم قال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك، وغفر له ما فرط فيه من حَقِّك! فاسفر لون المنصور وأقبل عليه وقال: يا أبا خالد مرحباً [وأهلاً] ها هنا! فعلم الناس أن ذلك يرضيه، فقالوا مثل قوله.

وقيل: لما وُضع الرأس بصق في وجهه رجل من الحرس، فأمر به المنصور فضرب بالعمد فهشمت أنفه ووجهه، وضرب حتى خمد، وأمر به فجزوا رجله فألقوه خارج الباب.

وقيل: ونظر المنصور إلى سفيان بن معاوية بعد مدة ركباً فقال: لله العجب كيف يفلتنى ابن الفاعلة!

انقضى أمر إبراهيم رضي الله عنه.

ذكر عدة حوادث

وفيها خرجت الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة (٥٧٢/٥)

وحج بالناس هذه السنة السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس، وكان على مكة، وكان على المدينة عبد الله بن الربيع، وعلى الكوفة عيسى بن موسى، وعلى البصرة سلم بن قتبية الباهلي، وعلى قضائها عباد بن منصور وعلى مصر يزيد بن حاتم.

وفيها عزل المنصور مالك بن الهيثم عن الموصل بانه جعفر بن أبي جعفر المنصور وسيّر معه حرب بن عبد الله، وهو من أكابر

قواده، وهو صاحب الحرّبة ببغداد، وبنى بأسفل الموصل قصراً

وسكنه، فهو يُعرَف إلى اليوم بقصر حرب، وفيه وُلدت زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد، وعنده يومنا هذا قرية كانت ملكاً لنا فبنينا فيها رباطاً للصوفيّة وقفنا القرية عليه، قد جمعت كثيراً من هذا الكتاب في هذه القرية في دار لنا بها وهي من أنزه المواضع وأحسنها وأثر القصر باقٍ بها إلى الآن. سبحان مَنْ لا يزول ولا تغيّره الدهور.

وفيها مات عمرو بن ميمون بن مهران. والحسن بن الحسن بن عليّ ابن أبي طالب، وكان موته في حبس المنصور، لأنّه أخذه من المدينة، كما ذكرناه، وهو عمّ محمّد وإبراهيم.

وفيها مات عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي، ويحيى بن الحارث الذّمّاري، وله سبعون سنة. وإسماعيل بن أبي خالد البجلي، وخبيب بن الشهيد مولى الأزدي، وكنيته أبو شهيد (٥٧٣/٥).

سنة ست وأربعين ومائة

ذكر انتقال المنصور إلى بغداد وكيفية بنائها

وفيها، في صفر، تحوّل المنصور من مدينة ابن هُبيرة إلى بغداد وبنى مدينتها، وقد ذكرنا في سنة خمس وأربعين ومائة السبب الباعث للمنصور على بناء مدينة بغداد، ونذكر الآن بناءها.

ولما عزم المنصور على بناء بغداد شاور أصحابه، وكان فيهم خالد بن برمك فأشار أيضاً بذلك، وهو خطّها، فاستشاره في نقص المدن وإنّ كان كسرى ونقل نقضها إلى بغداد، فقال: لا أرى ذلك، لأنّه علّم من أعلام الإسلام يستدلّ به الناظر على أنّه لم يكن ليُزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا، وإنّما هو على أمر دين، ومع هذا ففيه مصلى عليّ بن أبي طالب. قال المنصور: لا، أبيت يا خالد إلّا الميل إلى أصحابك العجم! وأمر بنقض القصر الأبيض فنقضت ناحية منه وحُمِل نقضه، فنظر، فكان مقدّار ما يلزمهم له أكثر من ثمن الحديد. فدعا خالد بن برمك فأعلمه ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين قد كنت أرى أن لا تفعل، فأما إذ فعلت فإني أرى أن تهدم لئلا يقال إنّك عجزت عن هدم ما بناه غيرك. فأعرض عنه وترك هدمه.

ونقل أبواب مدينة واسط فجعلها على بغداد، وباباً جيء به من الشام، (٥٧٤/٥) وباباً آخر جيء به من الكوفة كان عمله خالد بن عبد الله القسريّ، وجعل المدينة مدوّرة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض، وعمل لها سورين، سور الداخل أعلى من الخارج، وبنى قصره في وسطها، والمسجد الجامع بجانب القصر، وكان الحجّاج بن أرطاة هو الذي خطّ المسجد وقبلته غير مستقيمة يحتاج المصلّي أن ينحرف إلى باب البصرة

لأنّه وُضع بعد القصر، وكان القصر غير مستقيم على القبلة. وكان اللّبن يُبنى به ذراعاً في ذراع، ووُزن بعضها لما تُقَضّ، وكان وزن لبنة منه مائة رطل وستة عشر رطلاً، وكانت مقاصير جماعة من قواد المنصور وكتّابة تشرع أبوابها إلى رجة الجامع، فطلب إليه عمّه عيسى بن عليّ أن يأذن له في الركوب من باب الرجة إلى القصر لضعفه فلم يأذن له، قال: فاحسبني راوية، فأمر الناس بإخراج أبوابهم من الرجة إلى فصلان الطاقات.

وكانت الأسواق في المدينة، فجاء رسول لملك الروم، فأمر الربيع فطاف به في المدينة، فقال: كيف رأيت. قال: رأيت بناء حسناً إلّا أنّي رأيت أعداءك معك وهم السوقة. فلمّا عاد الرسول عنه أمر بإخراجهم إلى ناحية الكرخ.

وقيل: إنّما أخرجهم لأنّ الغرباء يطرقونها ويبتون فيها وربما كان فيهم الجاسوس.

وقيل أنّ المنصور كان يتبع من خرج مع إبراهيم بن عبد الله، وكان أبو زكريّا يحيى بن عبد الله، محتسب ببغداد، له مع إبراهيم مئيل، فجمع جماعة من السفلة فشغبوا على المنصور، فسكّنهم وأخذ أبا زكريّا فقتله وأخرج (٥٧٥/٥) الأسواق، فكلم في بقال فأمر أن يجعل في كلّ ريع بقال يبيع البقل والخلّ حسب، وجعل الطريق أربعين ذراعاً.

وكان مقدار النفقة على بنائها وبناء المسجد والقصر والأسواق والفصلان والخنادق وأبوابها أربعة آلاف الف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً.

وكان الأستاذ من البنّائين يعمل يومه بغيراط فضّة، والروزكاريّ بختين، وحاسب القواد عند الفراغ منها فالزم كلّاً منهم بما بقي عنده فأخذه، حتّى إنّ خالد بن الصلّت بقي عليه خمسة عشر درهماً فحبسه وأخفها منه.

ذكر خروج العلّاء بالأندلس

وفيها سار العلّاء بن مغيث البحصبيّ من إفريقية إلى مدينة بناحية من الأندلس ولبس السواد وقام بالدولة العباسية وخطب للمنصور، واجتمع إليه خلق كثير، فخرج إليه الأمير عبد الرحمن الأمويّ، فالتقى بتواحي إشبيلية، ثمّ تحاربا أياماً، فانهزم العلّاء وأصحابه، وقُتل منهم في المعركة سبعة آلاف، وقُتل العلّاء، وأمر بعض التجار بحمل رأسه ورؤوس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان وإلقائها بالسوق سرّاً، ففعل ذلك، ثمّ حُمِل منها شيء إلى مكّة، فوصلت وكان بها المنصور، وكان مع الرؤوس لواء أسود

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عُزل سَلَم بن قُتَيْبَة عن البصرة.

وكان سبب عزله أنَّ المنصور كتب إليه يأمره بهدم دُور مَنْ خرج مع إبراهيم ويعقر نخلهم؛ فكتب سلم: بأيّ ذلك أبداً بالدُور أم بالنخل؟ فانكر المنصور ذلك عليه وعزله واستعمل محمّد بن سليمان، فعاش بالبصرة وهدم دار أبي مروان، ودار عَزَن بن مالك، ودار عبد الواحد بن زياد وغيرهم.

وغزا الصائفة هذه السنة جعفر بن حَنْظَلَة البهراني.

وفيها عُزل عن المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي، وولي مكانه جعفر بن سليمان، فقدمها في ربيع الأول.

وفيها عُزل عن مكّة السريّ بن عبد الله وولياها عبد الصمد بن عليّ.

وحجّ بالناس هذه السنة عبد الوهّاب بن إبراهيم الإمام.

وفيها مات هشام بن عُرْوَة بن الرُّبَيْر، قيل سنة سبع وأربعين في شعبان. وعُوف الأعرابي. وطلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التميمي الكوفي.

وفيها غزا مالك بن عبد الله الحُفَيْمِيّ، الذي يقال له مالك الصوائف، وهو من أهل فلسطين، بلاد الروم فغنم غنائم كثيرة ثم قتل، فلمّا كان من درب الحدث على خمسة عشر ميلاً بموضع يُدعى الرهوة نزل بها ثلاثاً وباع الغنائم وقسم سيّهاًم الغنيمة، فسُميت تلك الرهوة رهوة مالك.

وفيها توفي ابنُ السائب الكلبيّ النَّسَابَة (٥٧٧/٥).

سنة سبع وأربعين ومائة

ذكر قتل حرب بن عبد الله

فيها اغار أسترخان الخوارزمي في جمع من الشُّرك على المسلمين بناحية أرمينية وسعى من المسلمين وأهل الذِّمّة خلفاً ودخلوا قنّيس، وكان حرب مقيماً بالموصل في القيس من الجند لمكان الخوارج الذين بالجزيرة، وسير المنصور إلى محاربة الشُّرك جبرائيل بن يحيى وحرب بن عبد الله، فقاتلهم، فهزّم جبرائيل وقتل حرب، وقتل من أصحاب جبرائيل خلق كثير.

ذكر البيعة للمهديّ وخلع عيسى بن موسى

وفيها خلّع عيسى بن موسى بن محمّد بن عليّ من ولاية العهد ويوبع للمهديّ محمّد بن المنصور.

وقد اختلف في السبب الذي خلّع لأجله نفسه، فقيل: إنّ

عيسى لم يزل على ولاية العهد وإمارة الكوفة من أيام السّفاح إلى الآن، فلمّا كبر المهديّ وعزم المنصورُ على البيعة به كلّم عيسى بن موسى في ذلك، وكان يُكرّمه ويَجْلِسُه عن يمينه ويَجْلِسُ المهديّ عن يساره، فلمّا قال له المنصورُ في معنى خلّع نفسه وتقديم المهديّ عليه أبى وقال: يا أمير المؤمنين كيف بالأيّمان عليّ (٥٧٨/٥) وعلى المسلمين من العتق والطلاق وغير ذلك؟ ليس إلى الخلع سبيل! فتغيّر المنصورُ عليه وباعده بعض المبادعة وصار يأذن للمهديّ قبله، وكان يجلس عن يمينه في مجلس عيسى ثم يؤذن لعيسى فيدخل فيجلس إلى جانب المهديّ، ولم يجلس عن يسار المنصور، فاغتاظ منه ثم صار يأذن للمهديّ ولعمّه عيسى بن عليّ، ثم لعبد الصمد بن عليّ، ثم لعيسى بن موسى، وربما قدّم وأخر إلاّ أنّه يبدأ بالأذن للمهديّ على كل حال.

وتوهم عيسى أنّه يقدّم إذنه لحاجة له إليهم، وعيسى صامت لا يشكو ثم صار حالّ عيسى إلى أعظم من ذلك، فكان يكون في المجلس معه بعض ولده فيسمع الحفر في أصل الحائط ويثر عليه التراب وينظر إلى الخشبة من السقف قد حفر عن أحد طرفيها لئتنقل فيسقط التراب على قنّسوته وثيابه فيأمر مَنْ معه من ولده بالتحول ويقوم هو يصليّ ثم يؤذن له فيدخل بهيئته والتراب على رأسه وثيابه لا ينفضه، فيقول له المنصور: يا عيسى ما يدخل عليّ أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار والتراب! أفكلّ هذا من الشارع؟ فيقول: أحسب ذلك يا أمير المؤمنين، ولا يشكو شيئاً.

وكان المنصور يرسل إليه عمّه عيسى بن عليّ في ذلك، فكان عيسى بن موسى لا يؤثّره ويتهمه. فقيل: إنّ المنصور أمر أن يُسقى عيسى بن موسى بعض ما يُثْلِفُه فوجد الماء في بطنه فاستأذن في العود إلى بيته بالكوفة، فأذن له، فمرض من ذلك واشتدّ مرضه ثم عوفي بعد أن اشفى.

وقال عيسى بن عليّ للمنصور: إنّ ابن موسى إنّما يترىص بالخلافة لابنه موسى فإنه الذي يمنعه، فقال له: خوُفُه وتهذُّدُه، فكلمه عيسى بن عليّ في ذلك وخوُفُه، فخاف موسى بن عيسى وأبى العيّاس بن محمّد فقال: يا (٥٧٩/٥) عمّ إنّى أرى ما يُسام أبى من إخراج هذا الأمر من عتقه وهو يؤذى بضنوف الأذى والمكروه، فهو يُهدّد مرّة، ويؤخّر إذنه مرّة، ويُهدم عليه الحيطان مرّة، وتُدسّ إليه الحتوف مرّة، وأبى لا يعطي على ذلك شيئاً ولا يكون ذلك أبداً، ولكن هاهنا طريق لعلّه يعطي عليها وإلاّ فلا، قال: وما هو؟ قال: يُقبل عليه أمير المؤمنين وأنا شاهد فيقول له: إنّى أعلم أنّك لا تبخل بهذا الأمر [عن المهديّ] لنفسك لكبر سنّك وأنّه لا تطول مدّتك فيه، وإنّما تبخل به لابنك، أفراني أدعُ ابنك يبقى بعدك حتّى يلي على ابني؟ كلا والله لا يكون ذلك أبداً، ولأبّين على ابنك وأنت تنظر حتّى تياس منه. فإن فعل ذلك فعله أن يجيب إلى ما

يُرَاد منه.

وكانت مدة ولاية عيسى بن موسى الكوفة ثلاث عشرة سنة، وعزله المنصور واستعمل محمد بن سليمان بن عليّ عليها ليؤذي عيسى ويستخفّ به، فلم يفعل ولم يزل معظماً له مبعلاً.

ذكر موت عبد الله بن عليّ

وكان المنصور قد أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه وسلم إليه عمّه عبد الله بن عليّ وأمره بقتله، وقال له: إنّ الخلافة صائرة إليك بعد المهديّ فاضرب عنقه، وإياك أن تضعف فتقضى عليّ أمري الذي ذبّرت؛ ثمّ مضى إلى مكّة وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه ما فعل في الأمر الذي أمره، فكتب عيسى في الجواب: قد انفذت ما أمرت به؛ فلم يشكّ أنّه قتله.

وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دعا كاتبه يونس بن قروة وأخبره الخبر، فقال: أراد أن يقتله ثمّ يقتلك لأنّه أمر بقتله سرّاً ثمّ يدعيه عليك علانية، فلا تقتله ولا تدفعه إليه سرّاً أبداً واكتم أمره. ففعل ذلك عيسى.

فلما قدم المنصور وضع على أعمامه من يحركهم على الشفاعة في أخيه عبد الله، ففعلوا وشفعوا، فشفّعهم وقال لعيسى: إنّني كنت دفعت إليك عمّي وعمك عبد الله ليكون في منزلك، وقد كلمني عمومك فيه، وقد صفحت عنه فأبّنا به.

قال: يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله؟ فقتلته! قال: ما أمرتك! قال: بلى أمرتني. قال: ما أمرتك إلا بحبسه وقد كذبت! ثمّ قال المنصور (٥٨٢/٥) لمومته: إنّ هذا قد أقرّ لكم بقتل أخيكم! قالوا: فادفعه إلينا نقيده به. فسلمه إليهم، وخرجوا به إلى الرحبة، واجتمع الناس وشهر الأمر، وقام أحدهم ليقتله، فقال له عيسى: أفاعل أنت. قال: إي والله! قال: ردوني إلى أمير المؤمنين. فردّوه إليه. فقال له: إنّما أردت بقتله أن تقتلني. هذا عمك حيّ سويّ. قال: اتّينا به. فأتاه به. قال: يدخل حتّى أرى رأيي؛ ثمّ انصرفوا، ثمّ أمر به فجعل في بيت أساسه ملح وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه، فمات دفن في مقابر باب الشام، فكان أول من دفن فيها؛ وكان عمره اثنتين وخمسين سنة.

قيل: ركب المنصور يوماً ومعه ابن عياش المتشوف، فقال له المنصور: تعرف ثلاثة خلفاء أسماؤهم على العين قتلت ثلاثة خوارج مبداً أسماؤهم على العين؟ قال: لا أعرف إلا ما يقول العامة: إنّ عليّاً قتل عثمان، وكذبوا؛ وعبد الملك قتل عبد الرحمن بن الأشعث؛ وعبد الله بن الزبير قتل عمرو بن سعيد؛ وعبد الله بن عليّ سقط عليه البيت. فقال المنصور: إذا سقط عليه فما ذنبى أنا؟ قال: ما قلت إنّ لك ذنباً.

قوله: ابن الزبير قتل عمرو بن سعيد ليس بصحيح، إنّما قتله

فجاء العباس إلى المنصور وأخبره بذلك، فلما اجتمعوا عنده قال ذلك، وكان عيسى بن عليّ حاضراً، فقام ليبول، فأمر عيسى بن موسى ابنه موسى ليقوم معه يجمع عليه ثيابه، فقام معه، فقال له عيسى بن عليّ: بأبي أنت وبأبي أبّ ولذّك! والله إنّني لأعلم أنّه لا خير في هذا الأمر بعدكم، وأنكما لاحق به، ولكنّ المرء مغرّى بما تعجل، فقال موسى [في نفسه]: أمكنتي هذا والله من مقاتله وهو الذي يغري بأبي، والله لأقتله! فلما رجعا قال موسى لأبيه ذلك سرّاً، فاستاذنه في أن يقول للمنصور ما سمع منه، فقال له أبوه: أفّ لهذا رايّاً ومذهباً! اتّمنك عمك على مقالة أراد أن يسرّك بها فجعلتها سبباً لمكروهه، لا يسمعن هذا أحد، ارجع إلى مكانك. (٥٨٠/٥)

فلما رجع إلى مكانه أمر المنصور الربيع فقام إلى موسى فخنقه بحمالته، وموسى يصيح: الله الله في دمي يا أمير المؤمنين! وما يبالي عيسى أن تقتلني وله بضعة عشر ذكراً، والمنصور يقول: يا ربيع أزهق نفسه، والربيع يوهّم أنّه يريد تلفة وهو يرفق به وموسى يصيح. فلما رأى ذلك أبوه قال: والله يا أمير المؤمنين ما كنت أظنّ أنّ الأمر يبلغ منك هذا كلّها فاكفّف عنه، فما أنا ذا أشهدك أنّ نسائي طالق، ومماليكي [أحرار] وما أملك في سبيل الله تصرف ذلك في من رأيت يا أمير المؤمنين! وهذه يدي بالبيعة للمهديّ. فبايعه للمهديّ. ثمّ جعل عيسى بن موسى بن المهديّ.

فقال بعض أهل الكوفة: هذا الذي كان غداً فصار بعد غد.

وقيل: إنّ المنصور وضع الجند وكانوا يُسمعون عيسى بن موسى ما يكره، فشكا ذلك من فعلهم، فنهاهم المنصور عنه، وكانوا يكفّون ثمّ يعودون، ثمّ أتتهما كتابات مكاتبات أغضبت المنصور، وعاد الجند معه لأشدّ ما كانوا، منهم: أسد بن المرزبان، وعقبة بن سلّم، ونصر بن حرب بن عبد الله، وغيرهم، فكانوا يمنعون من الدخول عليه ويُسمعون، فشكاهم إلى المنصور، فقال له: يا ابن أخي أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسي، فسلّتهم يجيئون هذا الفتى، فلو قدّمته بين يديك لكفّوا. فأجاب عيسى إلى ذلك.

وقيل: إنّ المنصور استشار خالد بن برمك في ذلك وبعثه إلى عيسى، فأخذ معه ثلاثين من كبار شيعة المنصور ممّن يختارهم وقال لعيسى في أمر البيعة، فامتنع، فرجعوا إلى المنصور وشهدوا على عيسى أنّه خلع نفسه فبايع للمهديّ، وجاء عيسى فأنكر ذلك فلم يُسمع منه، وشكر لخالد صنيعه.

وقيل: بل اشترى المنصور منه ذلك بمال قدره أحد عشر ألف ألف درهم (٥٨١/٥) له ولأولاده وأشهد على نفسه بالخلع.

عبد الملك.

(عياش بالياء المثةة من تحت، والشين المعجمة).

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ولّى المنصورُ محمدًا، ابن أخيه أبي العباس السفّاح، البصرة، فاستغنى منها، فأعفاه، فانصرف إلى بغداد واستخلف بها نخبة بن سالم، (٥٨٣/٥) فأقرّه المنصورُ عليها، فلمّا رجع إلى بغداد مات بها.

وحجّ بالناس هذه السنة المنصورُ، وكان عامله على مكة والطائف عمّه عبد الصمد بن عليّ، وعلى المدينة جعفر بن سليمان، وعلى مصر يزيد بن حاتم المهلبيّ.

وفيها أغزى عبد الرحمن الأمويّ صاحب الأندلس مولاة بدرًا، وتما ابن علقمة طليطلة، وبها هاشم بن عُذرة، وضيّفا عليه، ثمّ أسراه هو وحياة ابن الوليد الحصبّيّ وعثمان بن حمزة بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأتيا بهم إلى عبد الرحمن في جباب صوف وقد خلّقت رؤوسهم ولحاهم وقد أركبوا الحمير وهم في السلاسل، ثمّ صلّبوهم بقُرطبة.

وفيها قدم رسولُ عبد الرحمن الذي أرسله إلى الشام في إحضار ولده الأكبر سليمان فحضر سليمان معه، وكان قد وُلد لعبد الرحمن بالأندلس ولده هشام، فقدّمه الأميرُ عبد الرحمن على سليمان، فحصل بينهما حدّ وغلّ أوجبا ما نذكره فيما بعد.

وفيها تناثرت النجوم.

وفيها مات أشعث بن عبد الملك الحُخْرانيّ البصريّ. وهشام بن حسان مولى لغتيك، وقيل: مات سنة ثمان وأربعين. وعبد الرحمن بن زبيد بن الحارث الياميّ أبو الأشعث الكوفيّ. (٥٨٤/٥)

سنة ثمان وأربعين ومائة

ذكر خروج حسان بن مجالد

وفيها خرج حسان بن مجالد بن يحيى بن مالك بن الأجدع الهمدانيّ. ومالك هذا هو أخو مسروق بن الأجدع. وكان خروجه بناوحي الموصل بقرية تسمّى بافخاري قريب من الموصل على دجلة، فخرج إليه عسكر الموصل، وعليها الصقر بن نجدة، وكان قد وليها بعد حرب بن عبد الله، فالتقوا واقتتلوا وانهزم عسكر الموصل إلى الجسر، وأحرق الخوارج أصحاب حسان السوق هناك ونهبوه.

ثمّ إنّ حسان سار إلى الرقّة ومنها إلى البحر ودخل إلى بلد السند، وكانت الخوارج من أهل عمان يدخلونهم ويدعونهم،

فاستأذنهم في المصير إليهم، فلم يجيبوه، فعاد إلى الموصل، فخرج إليه الصقرُ أيضًا والحسنُ بن صالح بن حسان الهمدانيّ وبلال القيسيّ، فالتقوا فانهزم الصقرُ وأسر الحسن بن صالح وبلال، فقتل حسانَ بلالًا واستبقى الحسن لأنّه من همدان، ففارقه بعض أصحابه لهذا.

وكان حسان قد أخذ رأي الخوارج عن خاله حفص بن أشيم، وكان (٥٨٥/٥) من علماء الخوارج وفقهائهم.

ولما بلغ المنصورُ خروجَ حسان قال: خارجي من همدان؟ قالوا: إنّ ابن أخت حفص بن أشيم. فقال: فمن هناك؟ وإنّما أنكر المنصور ذلك لأنّ عامّة همدان شيعة لعليّ، وعزم المنصورُ على إنفاذ الجيوش إلى الموصل والفتك بأهلها، فاحضر أبا حنيفة، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، وقال لهم: إنّ أهل الموصل شرطوا إليّ أنّهم لا يخرجون عليّ، فإن فعلوا حلّلت دماؤهم وأموالهم، وقد خرجوا. فسكت أبو حنيفة وتكلّم الرجلان وقالوا: رعينك، فإن عفوت فأهل ذلك أنت، وإن عاقبت فبما يستحقّون. فقال لأبي حنيفة: أراك سكّيت يا شيخ؟ فقال: يا أمير المؤمنين أباحوك ما لا يملكون، أرايت لو أنّ امرأة أباحت فرجها بغير عقد نكاح وملك يمين أكان يجوز أن توطأ؟ قال: لا وكفّ عن أهل الموصل وأمر أبا حنيفة وصاحبيّه بالعود إلى الكوفة.

ذكر استعمال خالد بن برمك

وفيها استعمل المنصورُ على الموصل خالد بن برمك.

وسبب ذلك أنّه بلغه انتشار الأكراد بولايتها وإفسادهم، فقال: من لها؟ فقالوا: المصيّب بن زهير، فأشار غمارة بن غمرة بخالد بن برمك، فولّاه وسيّره إليها وأحسن إلى الناس وقهر المفسدين وكفّهم، وهابه أهل البلد هيبة شديدة مع إحسانه إليهم.

وفيها وُلد الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك لسبع بقين من ذي الحجة قبل (٥٨٦/٥) أن يولد الرشيد بن المهديّ بسبعة أيّام، فأرضعته الخزّيران أم الرشيد بلبن ابنها، فكان الفضل بن يحيى أخا الرشيد من الرضاعة؛ ولذلك يقول سلّم الخاسر:

أصبح الفضل والخليفة هارونَ رضيعي لبسان خير النساء
وقال أبو الجنوب:

كفى لك فضلًا لأنّ فضل حُرّة غنّتك بشذني والخليفة واجد

ذكر ولاية الأغلب بن سالم إفريقية

لما بلغ المنصورُ خروجَ محمد بن الأشعث من إفريقية بعث إلى الأغلب ابن سالم بن عقّال بن خفاجة التميميّ عهدًا بولاية إفريقية. وكان هذا الأغلب ممّن قام مع أبي مسلم الخراسانيّ وقدم إفريقية مع محمد بن الأشعث؛ فلمّا أتاه العهد قدم القيروان في

وجمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين ومائة وأخرج جماعة من قواد المضربة وسكن الناس.

وخرج عليه أبو قرة في جمع كثير من البربر، فسار إليه الأغلب، فهرب أبو قرة من غير قتال، وسار الأغلب يريد طنجة، فاشتد ذلك على الجند وكرهوا المسير وتسلبوا عنه إلى القيروان، فلم يبق معه إلا نفر يسير.

وكان الحسن بن حرب الكندي بمدينة تونس، وكاتب الجند ودعاهم إلى (٥٨٧/٥) نفسه، فأجابوه، فسار حتى دخل القيروان من غير مانع.

وبلغ الأغلب الخبر فعاد مجدداً، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تعدل [إلى] لقاء العدو في هذه العدة القليلة، ولكن الرأي أن تعدل إلى قابس، فإن أكثر من معه يجيء إليك لأنهم إنما كرهوا المسير إلى طنجة لا غير وتقوى بهم وتقاتل عدوك. ففعل ذلك وكثر جمعه وسار إلى الحسن بن حرب فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الحسن وقتل من أصحابه جمع كثير، ومضى الحسن إلى تونس في جمادى الآخرة سنة خمسين ومائة، ودخل الأغلب القيروان.

وحشد الحسن وجمع فصار في عدة عظيمة، فقصد الأغلب، فخرج إليه الأغلب من القيروان، فالتقوا واقتلوا، فأصاب الأغلب سهم فقتله، وثبت أصحابه، فتقدم عليهم المخارق بن غفار، فحمل المخارق على الحسن، وكان في ميمنة الأغلب، فهزمه، فمضى منهزماً إلى تونس في شعبان سنة خمسين ومائة، وولى المخارق إفريقية في رمضان، ووجه الخيل في طلب الحسن، فهرب الحسن من تونس إلى كناية فأقام شهرين، ثم رجع إلى تونس، فخرج إليه من بها من الجند فقتلوه.

وقد قيل: إن الحسن قُتل بعد قتل الأغلب، لأن أصحاب الأغلب ثبتوا بعد قتله في المعركة، فقتل الحسن بن حرب أيضاً وولى أصحابه منهزمين، وصلب الحسن، ودُفن الأغلب وسُمي الشهيد، وكانت هذه الواقعة في شعبان سنة خمسين ومائة. (٥٨٨/٥)

ذكر الفتن بالأندلس

في هذه السنة خرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بالأندلس بمدينة لبللة.

وسبب ذلك أنه سكر يوماً فتذكر من قُتل من أصحابه اليمانية مع العلاء، وقد ذكرناه، فعقد لواء، فلما صحا رآه معقوداً فسأل عنه فأخبر به، فأراد حله ثم قال: ما كنت لأعقد لواء ثم أحله بغير شيء! وشرع في الخلاف، فاجتمعت اليمانية إليه وقصد إشبيلية

وتغلب عليها وكثر جمعه، فبادره عبد الرحمن صاحب الأندلس في جموعه، فامتنع المطري في قلعة زعواق لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فحصره عبد الرحمن فيها وضيق عليه ومنع أهل الخلاف من الوصول إليه.

وكان قد واقفه على الخلاف غياث بن علقمة اللخمي، وكان بمدينة شذونة، وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل يريدون إمداد المطري، وهم في جمع كثيرة.

فلما سمع عبد الرحمن ذلك سبر إليهم بداراً مولاه في جيش، فحال بينهم وبين الوصول إلى المطري، فطال الحصار عليه وقلت رجائه بالقتل، ففارقه بعضهم، فخرج يوماً من القلعة وقاتل فقتل وحمل رأسه إلى عبد الرحمن. (٥٨٩/٥)

فقدم أهل القلعة عليهم خليفة بن مروان، فدام الحصار عليهم، فأرسل أهلها يطلبون الأمان من عبد الرحمن ليسلموا إليه خليفة، فاجابهم إلى ذلك وأمنهم، فسلموا إليه الحصن وخليفة، فخرّب الحصن وقتل خليفة ومن معه، ثم انتقل إلى غياث، وكان موافقاً للمطري على الخلاف، فحصرهم وضيق عليهم فطلبوا الأمان فأمنهم إلا نفرأ كان يعرف كراهم لدولته، فإنه قبض عليهم، وعاد إلى قرطبة، فلما عاد إليها خرج عليه عبد الله بن خراشة الأسدي بكورة جيان، فاجتمعت إليه جموع، فأغار على قرطبة، فسبر إليه عبد الرحمن جيشاً، فتفرق جمعه، فطلب الأمان فبذله له عبد الرحمن ووفى له.

ذكر عدة حوادث

وفيها عسكر صالح بن علي بدابق ولم يغز.

وحج بالناس أبو جعفر المنصور، وكان ولاية الأمصار من تقدم ذكرهم.

وفيها مات سليمان بن مهران الأغمش، وكان مولده سنة ستين.

وفيها مات جعفر بن محمد الصادق وقبره بالمدينة بزار، وهو وأبوه وجده في قبر واحد مع الحسن بن علي بن أبي طالب.

وفيها مات زكريا بن أبي زائدة. وأبو أمية عمرو بن الحارث بن يعقوب مولى قيس بن سعد بن عبادة، وقيل غير ذلك، وكان مولده سنة تسعين. وعبد الله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان، ويقال مولى تميم، وهو ثقة. ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي ومحمد بن الوليد الزبيدي ومحمد بن عجلان المدني. وعوام بن حوشب بن يزيد بن زوئم الشيباني الواسطي. ويحيى بن أبي عمرو السبتي، من أهل الرملة.

(سببان بالسبن المهمل، ثم بالياء المثناة من تحت، ثم بالياء

شُعْبَةَ بْنِ طَهْرٍ عَلَى مِيمَتِهِ، وَنَهَارُ بْنُ حُصَيْنٍ السَّعْدِيُّ عَلَى مِيسَرَتِهِ، وَبِكَارُ بْنُ سَلَمٍ الْعُقَيْلِيُّ فِي مَقْدَمَتِهِ، وَكَانَ لَوَاؤُهُ مَعَ الزَّيْرِقَانِ.

الموحدة: بطن من جُمَيْرٍ. (٥٩٠/٥)

سنة تسع وأربعين ومائة

فمكر بهم وراوغهم في أن ينقلهم من موضع إلى موضع وخندق إلى (٥٩٢/٥) خندق حتى قطعهم، وكان أكثرهم رجالة، ثم سار خازم إلى موضع قزله وخندق عليه وعلى جميع أصحابه، وجعل له أربعة أبواب، وجعل على كل باب ألفاً من أصحابه الذين انتخب. وأتى أصحاب الأستاذ سيس ومعهم الفؤوس والمرور والزبل ليطمئوا الخندق، فاتوا الخندق من الباب الذي عليه بكار بن سلم، فحملوا على أصحاب بكار حملة هزمهم بها، فرمى بكار بنفسه، فترجل على باب الخندق وقال لأصحابه: لا يؤتى المسلمون من ناحيتنا. فترجل معه من أهله وعشيرته نحو من خمسين رجلاً وقتلواهم حتى رذوهم من بابهم، ثم أقبل إلى الباب الذي عليه خازم رجلاً من أصحاب أستاذ سيس من أهل سجستان اسمه الحريش، وهو الذي كان يدبر أمره، فلما رآه خازم مقبلاً بعث إلى الهيثم بن شُعْبَةَ، وكان في الميمنة، يأمره أن يخرج من الباب الذي عليه بكار. فلما من يازانه قد شغلوا عنهم، وسير حتى يغيب عن أبصارهم، ثم يرجع من خلف العدو، وقد كانوا يتوقعون قدوم أبي عَوْنٍ وعمرو بن سَلَمٍ بن قُتَيْبَةَ من طَخَارِسْتَانَ.

وبعث خازم إلى بكار: إذا رأيت رايات الهيثم قد جاءت كبروا وقولوا: قد جاء أهل طَخَارِسْتَانَ. ففعل ذلك الهيثم، وخرج خازم في القلب على الحريش وشغلهم بالقتال وصبر بعضهم لبعض.

فبينما هم على ذلك نظروا إلى أعلام الهيثم فتنادوا بينهم جاء أهل طَخَارِسْتَانَ، فلما نظروا إليها حمل عليهم أصحاب خازم فكشفوهم، ولقيهم أصحاب الهيثم فطعنوهم بالرماح ورموهم بالنشاب.

وخرج [عليهم] نهار بن حُصَيْنٍ من ناحية الميسرة وبكار بن سلم وأصحابه من ناحيتهم فهزمهم ووضعوا فيهم السيوف، فقتلهم المسلمون فأكثروا، وكان عدد من قتل سبعين ألفاً، وأسروا أربعة عشر ألفاً، ونجا أستاذ سيس إلى جبل في نفر يسير، فحصرهم خازم وقتل الأسرى، ووافاه أبو عَوْنٍ وعمرو (٥٩٣/٥) ابن سَلَمٍ ومن معهم، فنزل أستاذ سيس على حكم أبي عَوْنٍ، فحكم أن يوثق أستاذ سيس وينسوه وأهل بيته بالحديد، وأن يعتق الباقيون وهم ثلاثون ألفاً، فأمضى خازم حكمه وكسا كل رجل ثوبين، وكتب إلى المهدي بذلك، فكتب المهدي إلى المنصور.

وقيل إن خروج أستاذ سيس كان سنة خمسين، وكانت هزيمته سنة إحدى وخمسين ومائة.

وقد قيل: إن أستاذ سيس ادعى النبوة وأظهر أصحابه الفسق وقطع السبيل.

وفيهما غزا العباس بن محمد الصائفة أرض الروم ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث، ومحمد بن الأشعث، فمات محمد في الطريق.

وفيهما استتم المنصور بناء سور بغداد وخندقها وفرغ من جميع أمورها وسار إلى حديثه الموصل ثم عاد.

وحج بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وفيها عزل عبد الصمد بن علي عن مكة في وقول بعضهم، واستعمل محمد بن إبراهيم. وكان عمال الأمصار من تقدم ذكرهم سوى مكة والطائف.

وفيهما أغزى عبد الرحمن صاحب الأندلس بدرأ مولاه إلى بلاد العدو فجاوز إليه وأخذ جزيتها. وكان أبو الصباح حي بن يحيى على إشبيلية فعزله فدعا إلى الخلاف، فأنفذ إليه عبد الرحمن وخدعه حتى حضر عنده فقتله.

وفيهما مات سَلَمٌ بن قُتَيْبَةَ الباهلي بالري، وكان مشهوراً عظيم القدر.

وكهمس بن الحسن أبو الحسن التميمي البصري. وفيها توفي عيسى بن عمر الثقفي النحوي المشهور، وعنه أخذ الخليل النحوي، وله فيه تصنيف. (٥٩١/٥)

سنة خمسين ومائة

ذكر خروج أستاذ سيس

وفيهما خرج أستاذ سيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من خراسان، وكان فيما قيل في ثلاثمائة ألف مقاتل، فغلبوا على عامة خراسان، وساروا حتى التقوا هم وأهل مرو الروذ، فخرج إليهم الأجنثم المرورودي في أهل مرو الروذ فقاتلوه قتالاً شديداً، فقتل الأجنثم وكثر القتل في أصحابه وهزم عدة من القواد، منهم: معاذ بن مسلم، وجبرائيل بن يحيى، وحمام بن عمرو، وأبو النجم السجستاني، وداد بن كرار.

ووجه المنصور، وهو بالراذان، خازم بن خزيمة إلى المهدي، فولاه المهدي محاربة أستاذ سيس وضم إليه القواد فسار خازم وأخذ معه من انهزم وجعلهم في أخريات الناس يكثر بهم من معه، وكان معه من هذه الطبقة اثنان وعشرون ألفاً. ثم انتخب منهم ستة آلاف رجل وضمهم إلى اثني عشر ألفاً كانوا معه من المستجيبين، وكان بكار بن سلم فيمن انتخب، وتبعاً للقتال، فجعل الهيثم بن

وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن، فوجه محمد ابنه عبد الله المعروف بالأشتر إلى البصرة، فاشترى منها خيلاً ليكون سبب وصولهم إلى عمر بن حفص لأنه كان فيمن يابعه من قواد المنصور، وكان يتشيع، وساروا في البحر إلى السند، فأمرهم عمر أن يحضروا خيلهم، فقال له بعضهم: إنا جنشاك بما هو خير من الخيل وبما لك فيه خير الدنيا والآخرة فأعطنا الأمان إنا قبلت منا وإنا سترت وأمسكت عن إيدائنا حتى نخرج عن بلادك راجعين. فأمنه.

فذكر له حالهم وحال عبد الله بن محمد بن عبد الله أرسله أبوه إليه، فرحب بهم وبإيعهم وأنزل الأشتر عنده مختفياً، ودعا كبار أهل البلد وقواده وأهل (٥٩٦/٥) بيته إلى البيعة، فأجابوه، فقطع الويثم البيض وهياً لبسه من البيض ليخطب فيه وتهدأ لذلك يوم الخميس، فوصله مركب لطيف فيه رسول من امرأة عمر بن حفص تخبره بقتل محمد بن عبد الله، فدخل على الأشتر فأخبره وعزاه، فقال له الأشتر: إن أمري قد ظهر ودمي في عنقك. قال عمر: قد رأيت رأياً، هاهنا ملك من ملوك السند عظيم الشأن كثير المملكة، وهو على شوكة، أشد الناس تعظيماً لرسول الله ﷺ وهو وفي، أرسل إليه فاعقد بينك وبينه عقداً فأوجهك إليه فلست تُرام معه. ففعل ذلك، وسار إليه الأشتر، فأكرمه وأظهر برّه، وتسللت إليه الزيدية حتى اجتمع معه أربعمئة إنسان من أهل البصرة، فكان يركب فيهم ويتصيد في هيئة الملوك وآلاتهم.

فلما انتهى [ذلك] إلى المنصور بلغ منه وكتب إلى عمر بن حفص يخبره ما بلغه، فقرأ الكتاب على أهله وقال لهم: إن أقررت بالقصة عزلني، وإن صرت إليه قتلني، وإن امتنعت حارمني. فقال له رجل منهم: ألق الذنب عليّ وخذني وقيدني، فإنه سيكتب في حملي إليه، فأحملني فإنه لا يقدم عليّ لمكانك في السند وحال أهل بيتك بالبصرة. فقال عمر: أخاف عليك خلاف ما تظن. قال: إن قتلت نفسي فدا لنفسك.

فقيده وجسه وكتب إلى المنصور بأمره، فكتب إليه المنصور يأمره بحمله، فلما صار إليه ضرب عنقه.

ثم استعمل على السند هشام بن عمرو التغلبي، وكان سبب استعماله أن المنصور كان تفكر فيمن يوليه السند، فبينما هو راكب فادخله، فقال: إني لما انتصرفت (٥٩٧/٥) من الموكب لقيتني أختي فلانة، فرأيت من جمالها وعقلها ودينها ما رضى بها لأمر المؤمنين. فأطرق ثم قال: اخرج بإتيك أمري. فلما خرج قال المنصور لحاجبه الربيع: لولا قول جرير:

لا تطلبن خولة فسي تغلبني فالزنج أكرم منهم أخوالا

وقيل: إنه جد المأمون أبو أمه مراجل، وابنة غالب خال المأمون، وهو الذي قتل ذا الرياستين الفضل بن سهل لمواطاة من المأمون، وسيرد ذكره إن شاء الله.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل المنصور جعفر بن سليمان عن المدينة وولاهما الحسن بن زيد بن الحسن بن علي.

وفيهما خرج بالأندلس غياث بن المسير الأسدي بناتحة فجمع العمال لعبد الرحمن جمعاً كثيراً وسار إلى غياث، فواقعه، فانهزم غياث ومن معه وقتل غياث وبعث برأسه إلى عبد الرحمن بقرطبة. وفيها مات جعفر بن أبي جعفر المنصور، وصلى عليه أبوه ودفن ليلاً (٥٩٤/٥) في مقابر قريش، ولم يكن للناس [في هذه السنة] صائفة.

وحج بالناس عبد الصمد بن علي، وكان هو العامل على مكة في قول بعضهم، وقال بعضهم: بل كان العامل محمد بن إبراهيم. وكان على الكوفة محمد بن سليمان بن علي، وعلى البصرة عقبة بن سلم، وعلى قضائهما سوار، وعلى مصر يزيد بن حاتم.

وفي هذه السنة مات الإسماعيل الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت. ومعمّر بن راشد. وعمر بن ذر، وقيل: مات عمر سنة خمس وخمسين ومائة وكان من الصالحين، يقول بالإرجاء.

وفي سنة خمسين مات عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح. ومحمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي، وقيل: مات سنة إحدى وخمسين. وفيها مات مقاتل بن سليمان البلخي المفسر، صاحب البلخي المفسر، وكان ضعيفاً في الحديث. وأبو جناب الكلبي. وعثمان بن الأسود. وسعيد بن أبي غروبة، واسم أبي غروبة يهران مولى بني يشكر، كنيته أبو النصر.

(يسار بالياء تحتها نقطتان، وبالسین المهملة). (٥٩٥/٥)

سنة إحدى وخمسين ومائة

فيها أغارت الكرك على جنة.

ذكر عزل عمر بن حفص عن السند وولاية هشام بن عمرو

وفيها عزل المنصور عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة المعروف بهزارمرد، يعني ألف رجل، عن السند، واستعمل عليها هشام بن عمرو التغلبي، واستعمل عمر بن حفص على إفريقية.

وكان سبب عزله عن السند أنه كان عليها لما ظهر محمد

لتزوّجت إليه، قلّ له لو كان لنا حاجة في النكاح لقبّلتُ، فجزاك الله خيراً وقد وليتكَ السند.

فتجنّز إليها، وأمره أن يكتاب ذلك الملك بتسليم عبد الله، فإن سلّمه وإلاّ حاربه، وكتب إلى عمر بن حفص بولايته إفريقية.

فسار هشام إلى السند فملكها، وسار عمر إلى إفريقية فولّوها، فلمّا صار هشام بالسند كره أخذ عبد الله الأشتر وأقبل يُري الناس أنّه يكتاب ذلك الملك، واتّصلت الأخبار بالمنصور بذلك، فجعل يكتب إليه يستحثّه، فيينا هو كذلك إذ خرجت خارجة ببلاد السند، فوجه هشام أخاه سَفَنَجًا، فخرج في جيشه وطريقه بجنبات ذلك الملك، فيينا هو يسير إذا غيرة قد ارتفعت، فظنّ أنّهم مقدّمه العدو الذي يقصده، فوجه طلائعه، فزحفت إليه، فقالوا: هذا عبد الله بن محمد العلوي يتنزه على شاطئ بهران. فغضى يريده، فقال نصحاؤه: هذا ابن رسول الله ﷺ وقد تركه أخوك متعمداً مخافة أن يبرء بدمه، فلم يقصده، فقال: ما كنت لأدع أخذه ولا أدع أحداً يحظى بأخذه أو قتله عند المنصور. وكان عبد الله في عشرة، فقصده فقاتله عبد الله وقاتل أصحابه حتّى قُتل وقتلوا جميعاً، فلم يفلت منهم مخبرٌ، وسقط عبد الله بين القتلى فلم يشعر به.

فلما رأى عمر بن حفص إحاطتهم به عزم على الخروج إلى قتلهم، فمنعه أصحابه، وقالوا: إن أصبت تلف العرب. فعدل إلى أعمال الحيلة، فأرسل إلى أبي قرّة مقدّم الصُفْريّة يبذل له ستين ألف درهم ليرجع عنه، فقال: بعد أن سلّم عليّ بالخلافة أربعين سنة أبيع حريكم بعرض قليل من الدنيا؟ فلم يجيبهم [إلى] ذلك.

فأرسل إلى أخي أبي قرّة فدفع إليه أربعة آلاف درهم وثياباً على أن يعمل في صرف أخيه الصُفْريّة، فأجابهم وارتحل من ليلته وتبعه العسكرُ منصرفين إلى بلادهم، فاضطرّ أبو قرّة إلى اتباعهم. فلمّا سارت الصُفْريّة سيرَ عمر جيشاً إلى ابن رستم وهو في تهوذا، قبيلة من البربر، فقاتلوه، فانهزم ابن رستم إلى تاهرت، فضعف أمر الإياضية عن مقاومة عمر، فساروا عن طَبْنَة إلى القيروان، فحصرها أبو حاتم وعمر بطَبْنَة يُصلحُ أمرها ويحفظها ممّن يجاوره من الخوارج، فلمّا علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها. ولما سار عمر بن حفص إلى القيروان استخلف على طَبْنَة عسكراً.

فلما سمع أبو قرّة بمسير عمر بن حفص سار هو إلى طَبْنَة فحصرها، فخرج إليه من بها من العساكر وقاتلوه، فانهزم منهم وقتل من عسكره خلق كثير. (٩٠٠/٥)

وأما أبو حاتم فإنّه لما حصر القيروان كثر جمعه ولازم حصارها وليس في بيت مالها دينار ولا في أهرانها شيء من الطعام، فدام الحصار ثمانية أشهر، وكان الجند يخرجون فيقاتلون الخوارج طرفي النهار حتّى جهدهم الجوع وأكلوا دوابهم وكلابهم ولحق كثيرٌ من أهلها بالبربر ولم يبق غير دخول الخوارج إليها، فأتاهم الخبرُ بوصول عمر بن حفص من طَبْنَة، فنزل الهريش، وهو في سبعمائة فارس، فزحف الخوارجُ إليه باجمعهم وتركوا القيروان، فلمّا فارقوها سار عمر إلى تونس، فتبعه البربرُ، فعاد إلى القيروان مجدداً وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وغير ذلك، ووصل أبو حاتم والبربر إليه فحصره، فطال الحصار حتّى أكلوا دوابهم، وفي كلّ يوم يكون بينهم قتال وحرب، فلمّا

وقيل: إنّ أصحابه قذفوه في مهران حتّى لا يحمل رأسه، فكتب هشام (٥٩٨/٥) بذلك إلى المنصور، فكتب إليه المنصور يشكره ويأمره بمحاربة ذلك الملك، فحاربه حتّى ظفر به وقتله وغلب على مملكته.

وكان عبد الله قد اتخذ سراري فأولد واحدة منهم ولداً، وهو محمد ابن عبد الله الذي يقال له ابن الأشتر، فأخذ هشام السراري والولد معهنّ فسيرهنّ إلى المنصور، فسير المنصور الولد إلى عامله بالمدينة وكتب معه بسخة نسبه وتسليمه إلى أهله.

ذكر ولاية أبي جعفر عمر بن حفص إفريقية

وفي هذه السنة استعمل المنصور على إفريقية أبا جعفر عمر بن حفص من ولد قَيْصَة بن أبي صُفْرة أخي المهلب، وإنما نسب [إلى] بيت المهلب لشهرته.

وكان سبب مسيره إليها أنّ المنصور لما بلغه قتل الأغلب بن سالم خاف على إفريقية، فوجه إليها عمر والياً، فقدم القيروان في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس، فاجتمع وجوه البلد فوصلهم وأحسن إليهم وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين.

فسار إلى الزاب لبناء مدينة طَبْنَة بأمر المنصور، واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبيّ، فخلت إفريقية من الجند، فنار بها البربر، فخرج إليهم حبيب فقتل، واجتمع البربر بطرابلس

البربر وظفروا بهم وقتلوا (٦٠٢/٥) منهم خلقاً كثيراً، وهرب عبد الرحمن وقُتل جميع مَنْ كان معه وصفت إفريقية، وأحسن يزيد السيرة وآمن الناس إلى أن انتقضت ورَفُجومة سنة أربع وستين ومائة بأرض الزاب وعليها أيوب الهواري، فسير إليهم عسكرياً كثيراً، واستعمل عليهم يزيد بن مجزاء المهلبى، فالتقوا وقتلوا، فانهزم يزيد وقُتل كثير من أصحابه، وقُتل المخارق بن غفار صاحب الزاب، فولى مكانه المهلب بن يزيد المهلبى وأمدّهم يزيد بن حاتم بجمع كثير، واستعمل عليهم العلاء بن سَعِيد المهلبى، وانضم إليهم المنهزمون ولقوا ورَفُجومة وقتلوا، واشتد القتال، فانهزمت البربر وآيُوب وقتلوا بكل مكان حتى أتى على آخرهم، ولم يُقتل من الجند أحد.

ثم مات يزيد في رمضان سنة سبعين ومائة، وكانت ولايته خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر، واستخلف ابنه داود على إفريقية.

ذكر بناء الرُصافة للمهديّ

وفي هذه السنة قدم المهديّ من خراسان في شوال، فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها فهنّأوه بمقدمه، فأجازهم وحملهم وكساهم، وفعل بهم المنصورُ مثل ذلك، وبنى له الرُصافة.

وكان سبب بنائها أنّ بعض الجند شغبوا على المنصور وحاربوه على باب الذهب، فدخل عليه قُثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس، وهو شيخهم، وله الحرمة والتقدّم عندهم، فقال له المنصور: أما ترى ما نحن فيه من النيات (٦٠٣/٥) الجند علينا وقد خفت أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا، فما ترى؟

قال: يا أمير المؤمنين عندي رأي إن أظهرته لك فسد، وإن تركته أمضيه صلحت [لك] خلافتك وهابك جندك. قال له: أقتضي في خلافتي شيئاً لا أعلمه؟ فقال له: إن كنت عندك مُتَهَمٌ فلا تشاورني، وإن كنت مأموناً عليها فدعني أفعل رأيي. قال له المنصور: فأمضِ.

فانصرف قُثم إلى منزله، فدعا غلاماً له فقال [له]: إذا كان غداً فتقدمني واجلس في دار أمير المؤمنين، فإذا رأيته قد دخلت وتوسّط أصحاب المراتب فخذ بيننا بغلتي فاستحلفني بحق رسول الله ﷺ وبحقّ العباس، وبحقّ أمير المؤمنين إلا ما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها، فيأتي سأنتهرك وأغلظ لك [القول] فلا تخفّ وعاود المسألة، فإنّي سأضربك فعاود وقال لسي: أيّ الحين أشرف، اليمن أم مضر؟ فإذا أجبتك فاترك البغلة وأنت حرّ.

ضاق الأمر بعمر وبمَنْ معه قال لهم: الرأي أن أخرج من الحصار وأغير على بلاد البربر وأحمل إليكم الميرة. قالوا: إنّنا نخاف بعدك، قال: فأرسل فلاناً وفلاناً يفعلان ذلك، فأجابوه، فلما قال للرجلين قال: لا تترك في الحصار ونسير عنك.

فعمز على إلقاء نفسه إلى الموت، فأتى الخير أنّ المنصور قد سير إليه يزيد حاتم بن قتيبة بن المهلب في ستين ألف مقاتل، وأشار عليه مَنْ عنده بالتوقّف عن القتال إلى أن يصل العسكر، فلم يفعل وخرج وقاتل، فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة، وقام بأمر الناس حُميد بن صخر، وهو أخو عمر لأمّه، فوَدع أبا حاتم وصالحه على أنّ حُميداً ومَنْ معه لا يخلعون المنصور ولا ينازعهم أبو حاتم في سوادهم وسلاحهم، وأجابهم إلى ذلك وفُتحت له القيروان، وخرج أكثر الجند إلى طَبْنة، وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وثلم سورها.

وبلغه وصول يزيد بن حاتم فسار إلى طرابلس وأمر صاحبه بالقيروان باخذ (٦٠١/٥) سلاح الجند وأن يفرّق بينهم، فخالف بعض أصحابه وقالوا: لا نغدر بهم، وكان المقدّم على المخالفين عمر بن عثمان الفهريّ، وقام في القيروان وقتل أصحاب أبي حاتم، فعاد أبو حاتم، فهرب عمر بن عثمان من بين يديه إلى تونس، وعاد أبو حاتم إلى طرابلس لقتال يزيد بن حاتم.

ف قيل: كان بين الخوارج والجند من لدن قاتلوا عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة.

ذكر ولاية يزيد بن حاتم إفريقية وقتال الخوارج

لما بلغ المنصور ما حلّ بعمر بن حفص من الخوارج جهّز يزيد بن حاتم بن قبيصة بن أبي صُفْرة في ستين ألف فارس وسيره إلى إفريقية، فوصلها سنة أربع وخمسين ومائة. فلما قاربها سار إليه بعض جندها واجتمعوا به وساروا معه إلى طرابلس، فسار أبو حاتم الخارجي إلى جبال نفوسة، وسير يزيد طائفة من العسكر إلى قابس، فلقبهم أبو حاتم فنهزمهم، فعادوا إلى يزيد، ونزل أبو حاتم في مكان وعر وخندق على عسكره، وعبّأ يزيد أصحابه وسار إليه، فالتقوا في ربيع الأول سنة خمس وخمسين، فالتقوا أشد قتال، فانهزمت البربر وقُتل أبو حاتم وأهل نجدته، وطلبهم يزيد في كلّ سهل وجبل فقتلهم قتلاً ذريعاً، وكان عدّة مَنْ قُتل في المعركة ثلاثين ألفاً.

وجعل آل المهلب يقتلون الخوارج ويقولون: يا لشارات عمر بن حفص! وأقام شهراً يقتل الخوارج، ثمّ رحل إلى القيروان.

فكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهريّ مع أبي حاتم، فهرب إلى كتامة، فسير إليهم يزيد بن حاتم جيشاً فحاصروا

فاستعمل عبد الرحمن على طَلَيْطَلَة حَيَّيْب بن عبد الملك،
فاستعمل حَيَّيْب على شَنْتَ بَرِيَّةَ سُلَيْمَانَ بن عثمان بن مروان بن
أَبان بن عثمان بن عَفَّان، وأمره بطلب شقنا. فنزل شقنا إلى شَنْتَ
بَرِيَّةَ وأخذ سليمان قتلته، واشتد أمره، وطار ذكره وغلب على ناحية
قورية وأفسد في الأرض.

ففعل الغلام ما أمره، وفعل قَسَم به ما قاله، ثم قال: مضر
أشرف لأن منها رسول الله ﷺ وفيها كتابُ الله، وفيها بيتُ الله،
ومنها خليفةُ الله.

فامتعضت لذلك اليمَنُ إذ لم يذكر لهم شيئاً [من شرفهم]،
وقال بعض قوادهم: ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير فضيلة لليمن؛ ثم
قال للغلام له: قم إلى بغلة الشيخ فأكبحها، ففعل حتى كاد يقعها،
فامتعضت مَضَرُ وقالوا: أبغض هذا بشيخنا فأمر بعضهم
غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها، فنفر الحيان.

ودخل قَسَم على المنصور فافترق الجند، فصارت مَضَرُ فرقة،
وربيعة فرقة، والخراسانية فرقة. فقال قَسَمُ للمنصور: قد فرقتُ بين
جندك وجعلتهم أحزاباً كلَّ حزب منهم يخاف أن يُحَدَّثَ [عليك]
حدثاً فتَضَرُّعُ بالحزب الآخر، وقد بقي عليك في التدبير بقية، وهي
أن تعبر ببابك فتنزله في ذلك الجانب وتحول معه قطعة من جيشك
فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً، فإن فسد عليك أولئك ضربتهم بهؤلاء،
وإن فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك، وإن فسد عليك بعضُ
القبائل ضربتهم بالقبيلة الأخرى. فقبل رأيه واستقام ملكه وبنى
الرُصَافَة، وتولى صالح صاحب المصلى ذلك.

فعاد عبد الرحمن الأموي فغزاه في سنة اثنتين وخمسين ومائة
بنفسه، فلم يثبت له فأعياه أمره، فعاد عنه ومسير إليه سنة ثلاث
 وخمسين بَدْرًا مولاة، فهرب شقنا وأخلى حصنه شطران، ثم غزاه
عبد الرحمن الأموي بنفسه سنة أربع وخمسين ومائة، فلم يثبت له
شقنا، ثم سار إليه سنة خمس وخمسين أبا عثمان عبيد الله بن
عثمان، فخدعه شقنا وأفسد عليه جنده، فهرب عبيدُ الله، وغنم
شقنا عسكره وقتل جماعةً من بني أمية كانوا في العسكر.

وفي سنة خمس وخمسين أيضاً سار شقنا بعد أن غنم عسكرَ
عبيد الله إلى (٦٠٦/٥) حصن الهواريين المعروف بمداين، وبه
عامل لعبد الرحمن، فمكر به شقنا حتى خرج إليه، فقتله شقنا وأخذ
خيله وسلاحه وجميع ما كان معه.

ذكر قتل معن بن زائدة

في هذه السنة قُتل معن بن زائدة الشيباني بسجستان، وكان
المنصور قد استعمله عليها، فلما وصلها أرسل إلى رُتَيْيل يأمره
بحمل القرار الذي عليه كل سنة، فبعث إليه عروضاً وزاد في ثمنها،
فغضب معن وسار إلى الرُخْج وعلى مقدّمته ابن أخيه مزيد بن
زائدة، فوجد رُتَيْيل قد خرج عنها إلى زابلستان ليصيف بها، ففتحها
وأصاب سبيّاً كثيراً، وكان في السبي فَرَجُ الرُخْجِي، وهو صبي،
وأبوه زياد، فرأى معن غباراً ساطعاً أثارته حمراً الوحش، فظن أنه
جيش أقبل نحوه ليخلص السبي والأسرى، فأمر بوضع السيف
فيهم، فقتل منهم عدّة كثيرة، ثم ظهر له أمر الغبار فأمسك.

فخاف معن الشتاء وهجومه فانصرف إلى بُسْت، وأنكر قومُ
من الخوارج سيرته فاندسوا مع قَعْلَة كانوا يبنون في منزله، فلما
بلغوا التسقيف أخفوا سيوفهم في القصب ثم دخلوا عليه بيته وهو
يحتجم ففتكوا به، وشق بعضهم بطنه بخنجر كان معه، وقال
أحدهم لما ضربه: أنا الغلام الطاق! والطاق رستاق بقرب زَرْنج،
فقتلهم يزيد بن مزيد، فلم ينجُ منهم أحد.

ثم إن يزيد قام بأمر سجستان واشتدت على العرب والمعجم
من أهلها وطأته، فاحتال بعضُ العرب فكتب على لسانه إلى
المنصور كتاباً يُخْبِرُه فيه (٦٠٧/٥) أن كتب المهدي إليه قد حيرته
وأدهشته، ويسأل أن يعفيه من معاملته، فأغضب ذلك المنصورُ
وشتمه وأقر المهدي كتابه، فعزله وأمر بحبسه وبيع كل شيء له، ثم
إنه كَلَّم فيه فأشخص إلى مدينة السلام، فلم يزل بها مجفراً حتى

ذكر قتل سليمان بن حكيم العبدي

في هذه السنة سار عُقْبَة بن سَلَم من البصرة -واستخلف عليها
نافع بن عُقْبَة- إلى البحرين، فقتل سليمان بن حكيم وسبى أهلَ
البحرين وأخذ بعض السبي والأسارى إلى المنصور، فقتل بعضهم
ووهب الباقيين للمهدي، فأطلقهم وكساهم، ثم عزل عُقْبَة عن
البصرة لأنه لم يستقص على أهل البحرين.

وزعم بعضهم أن المنصور استعمل معن بن زائدة الشيباني
على سجستان هذه السنة.

وحج بالناس هذه السنة محمد بن إبراهيم الإمام، وكان هو
العامل بمكة (٦٠٥/٥) والطائف؛ وعلى المدينة الحسن بن زيد،
وعلى البصرة جابر بن تَوْمة الكلابي، وعلى الكوفة محمد بن
سليمان، وعلى مصر يزيد بن حاتم.

ذكر ابتداء أمر شقنا وخروجه بالأندلس

وفيها ثار في الشرق من الأندلس رجل من بربر يكنى كنانة كان
يعلم الصبيان، وكان اسمه شقنا بن عبد الواحد، وكانت أمه تسمى
فاطمة وادعى أنه من ولد فاطمة، عليها السلام، ثم من ولد
الحسين، عليه السلام، وتسمى بعبد الله بن محمد، وسكن شَنْتَ
بَرِيَّةَ، واجتمع عليه خلق كثير من البربر، وعظم أمره، وسار إليه عبدُ
الرحمن الأموي فلم يقف له وراغ في الجبال، فكان إذا أمن
انبط، وإذا خاف صعد الجبال بحيث يصعب طلبه.

وفيها قبض المنصور على أبي أيوب المورياتي وعلى أخيه وبني أخيه، وكانت منازلهم، المنادر، وكان قد سعى به كاتبه أبيان بن صدقة.

وقيل: كان سبب قبضه أن المنصور في دولة بني أمية ورد على الموصل وأقام بها مستراً وتزوج امرأة من الأزدي، فحملت منه، ثم فارق الموصل وأعطاهما تذكرة وقال لها: إذا سمعت بدولة لبني هاشم فأرسلني هذه التذكرة إلى صاحب الأمر فهو يعرفها، فوضعت المرأة ولداً سمته جعفرأ، فنشأ وتعلم الكتابة وما يحتاج إليه الكاتب.

ولمّا كان المنصور الخلافة، فقدم جعفر إلى بغداد واتصل بأبي أيوب فجعله كاتباً بالديوان، فطلب المنصور يوماً من أبي أيوب كاتباً يكتب له شيئاً، فأرسل جعفرأ إليه، فلمّا رآه المنصور مال إليه وأحبه، فلمّا أمره بالكتابة رآه حاذقاً ماهراً، فسأله من أين هو ومن أبوه، فذكر له الحل وأراه التذكرة، وكانت معه، فعرفه المنصور وصار يطلبه كلّ وقت بحجّة الكتابة، فخافه أبو أيوب.

ثم إن المنصور أحضره يوماً وأعطاه مالاً وأمر أن يصعد إلى الموصل ويخضر والدته، فسار من بغداد، وكان أبو أيوب قد وضع عليه العيون (٦١٠/٥) يأتونه بأخباره، فلمّا علم مسيره سير وراءه من غتاله في الطريق فقتله، فلمّا أبطأ على المنصور أرسل إلى [أمه] بالموصل من يسألها عنه، فذكرت له أنها لا علم لها به إلا أنه ببغداد يكتب في ديوان الخليفة، فلمّا علم المنصور ذلك أرسل من يقص أثره، فانتهى إلى موضع وانقطع خبره، فعلم أنه قُتل هناك، وكشف الخبر فرأى أن قتله من يد أبي أيوب، فنكبه وفعل به ما فعل.

وقبض المنصور أيضاً على عباد مولا، وعلى هرثمة بن أعين بخراسان وأحضرا مقيّدين لتعصّبهما لعيسى بن موسى.

وفيها أخذ المنصور الناس بتلبيس القلائس الطوال المفروطة الطول، فقال أبو دلامة:

وكنا نرجي من إمام زيادة فزاد الإمام المصطفى في القلائس
وفيها توفي عبيد ابن بنت ابن أبي ليلى قاضي الكوفة، فاستقضى [مكانه] شريك بن عبد الله النخعي.

وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجوري فوصل إلى حصن من حصون الروم ليلاً وأهله نيام، فسبى وأسر من كان فيه، ثم قصد اللاذقية الخراب فسبى منها ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين.

وحج بالناس هذه السنة المهدي، وكان أمير مكنة محمد بن إبراهيم، وأمير المدينة الحسن بن زيد، وأمير مصر محمد بن سعيد،

لقبه الخوارج على الجسر فقاتلهم، فتحرك أمره قليلاً، ثم وجه إلى يوسف البرم بخراسان فلم يزل في ارتفاع إلى أن مات.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة غزا الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام. وفيها استعمل المنصور على الموصل إسماعيل بن خالد بن عبد الله القسري.

وفيها مات عبد الله بن عون، وكان مولده سنة ست وستين.

وفيها مات أسيد بن عبد الله في ذي الحجة، وهو أمير خراسان. وحفظته بن أبي سفيان الجمحي. وعلي بن صالح بن حبي أخو الحسن بن صالح، وكانا قتيين، فيهما تشيع. (٦٠٨/٥)

سنة اثنتين وخمسين ومائة

وفيها غزا حميد بن قحطبة كابل، وكان قد استعمله المنصور على خراسان سنة إحدى وخمسين.

وغزا الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم، وقيل أخوه محمد بن إبراهيم الإمام، ولم يدر.

وفيها عزل المنصور جابر بن ثوبة عن البصرة واستعمل عليها يزيد بن منصور.

وفيها قتل المنصور هاشم بن الأساجيج، وكان قد خالف وعصى بإفريقية، فحمل إليه فقتله.

وحج بالناس هذه السنة المنصور.

وفيها عزل يزيد بن حاتم عن مصر واستعمل عليها محمد بن سعيد، وكان عمال الأمصار سوى ما ذكرنا الذين تقدّم ذكرهم.

وفيها مات محمد بن عبد الله بن مسلم بن عبد الله بن شهاب، وهو ابن أخي محمد بن شهاب الزهري، روى عنه عمه.

وفيها مات يونس بن يزيد الأيلي، روى عن الزهري أيضاً.

وفيها مات طلحة بن عمر الحضرمي. وإبراهيم بن أبي عتبة، وأسم أبي عتبة شمر بن يقظان بن عامر العُقيلي.

(الأيلي بفتح الهمزة، وبالياء تحتها نقطتان. والعُقيلي بضم العين، وفتح القاف). (٦٠٩/٥)

سنة ثلاث وخمسين ومائة

فيها عاد المنصور من مكنة إلى البصرة فجهّز جيشاً في البحر إلى الكرك الذين تقدّم ذكر إغارتهم على جنة.

وكان يزيد بن منصور على اليمن في قول بعضهم، وعلى الموصل إسماعيل بن خالد بن عبد الله بن خالد. (٦١١/٥)

وفيه مات هشام بن الغاز بن ربيعة الجُرشي، وقيل: سنة ست وخمسين، وقيل: تسع وخمسين. والحسن بن عمار. وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر. وثور بن يزيد. وعبد الحميد بن جعفر بن عبد الله الأنصاري. والضحاك بن عثمان بن عبد الله بن خالد بن حزام من ولد أخي حكيم بن حزام، وفطر بن خليفة الكوفي.

(فطر بالفاء والراء المهملة. والجُرشي بضم الجيم، وبالشين المعجمة). (٦١٢/٥)

سنة أربع وخمسين ومائة

في هذه السنة سار المنصور إلى الشام وبيت المقدس وسير يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة إلى إفريقية في خمسين ألفاً لحرب الخوارج الذين قتلوا عمر بن حفص، وأراد المنصور بناء الرافقة فمنعه أهل الرقة، فهم لمحاربتهم.

وسقطت في هذه السنة الصاعقة فقتلت بالمسجد خمسة نفر.

وفيه هلك أبو أيوب المورياني، وأخوه خالد، وأمر المنصور بقطع أيدي بني أخيه وأرجلهم [وضرب أعناقهم].

وفيه استعمل على البصرة عبد الملك بن ظبيان التميمي، وغزا الصافقة زفر بن عاصم الهلالي فبلغ الفرات.

وحج بالناس محمد بن إبراهيم وهو على مكة.

وكان على إفريقية يزيد بن حاتم، وكان الشمال من تقدم ذكرهم.

وفيه مات أبو عمرو بن العلاء، وقيل: مات سنة سبع وخمسين، وكان عمره ستاً وثمانين سنة. ومحمد بن عبد الله الشُعَيْثِي النَّصْرِي (بالنون). وفيه مات عثمان بن عطاء. وجعفر بن بران الجزري. وأشعب الطامع. (٦١٣/٥) وعلي بن صالح بن حي. وعمر بن إسحاق بن يسار أخو محمد بن إسحاق. ووثيب بن الورد المكي الزاهد. وقرّة بن خالد أبو خالد السُدُوسي البصري. وهشام الدستوائي، وهو هشام بن أبي عبد الله البصري.

(الشُعَيْثِي بضم الشين المعجمة، وفي آخره ثاء مثناة). (٥/٦)

سنة خمس وخمسين ومائة

فيها دخل يزيد بن حاتم إفريقية، وقتل أبا حاتم، وملك الفَيَرَوَان وسائر الغرب. وقد تقدم ذكر مسيره وحروبه مستقصى.

وفيه سير المنصور المهدي لبناء الرافقة، فسار إليها، فبناها على بناء مدينة بغداد، وعمل للكوفة والبصرة سوراً وخندقاً، وجعل ما أتفق فيه من الأموال على أهلها. ولما أراد المنصور معرفة عددهم أمر أن يُقسم فيهم خمسة دراهم خمسة دراهم، فلما علم عددهم، أمر بجبايتهم أربعين درهماً لكل واحد، فقال الشاعر:

يَا لِقَوْمِي مَا لَقَيْنَا مِنْ أَمِيرٍ مُؤْمِنًا
فَنَسِمُ الْخَمْسَةَ فَنَا وَجَبْنَا الْأَرْبَعِينَ

وفيه طلب ملك الروم الصلح إلى المنصور على أن يؤدى [إليه] الجزية. (٦/٦)

وفيه غزا الصافقة يزيد بن أسيد السلمي. وعزل عبد الملك بن أيوب بن ظبيان عن البصرة، واستعمل عليها الهيثم بن معاوية العنكي.

ذكر عزل العباس بن محمد عن الجزيرة واستعمال موسى بن كعب وفيها عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة، وغضب عليه، وغرمه مالا فلم يزل ساخطاً عليه، حتى غضب على عمه إسماعيل بن علي، فشفع فيه عموه المنصور، وضيقوا عليه، حتى رضي عنه، فقال عيسى بن موسى للمنصور: يا أمير المؤمنين، أرى آل علي بن عبد الله، وإن كانت نعمك عليهم سابقة، فإنهم يرجعون إلى الحسد لنا، فمن ذلك أنك غضبت على إسماعيل بن علي، منذ أيام، فضيقوا عليك، حتى رضيت عنه، وأنت غضبان على أخيك العباس منذ كذا وكذا، فما كلمك فيه أحد منهم؟ فرضي عنه.

وكان المنصور قد استعمل العباس على الجزيرة بعد يزيد بن أسيد، فشكا يزيد منه وقال: إنه أساء عزلي، وشم عرضي. فقال له المنصور: اجمع بين إحساني وإساءته يعتدلا. فقال له يزيد بن أسيد: إذا كان إحسانكم جزاء لإساءتكم كانت طاعتنا تفضلاً منا عليكم.

ولما عزل المنصور أخاه عن الجزيرة استعمل عليها موسى بن كعب. (٧/٦)

ذكر عزل محمد بن سليمان عن الكوفة واستعمال عمرو بن زهير وفيها عزل [المنصور] محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عن الكوفة، واستعمل عليها عمرو بن زهير الضبي أخا المسيب بن زهير؛ وقيل: إنما عزل سنة ثلاث وخمسين، وكان عزله لأسباب بلغت عنه، منها أنه قتل عبد الكريم بن أبي العوجاء، وكان قد حبسه على الزندقة، وهو خال معن بن زائدة الشيباني، فكثر شفاؤه عند المنصور، ولم يتكلم فيه إلا ظنين منهم، فكتب إلى محمد بن سليمان بالكف عنه إلى أن يأتيه رأيه.

فلما قارب عبدُ الملك أهلَ إشبيلية قدّم ابنُهُ أُمَيَّةَ ليعرف حالهم، فرأهم مستيقظين، فرجع إلى أبيه، فلامه أبوه على إظهار الوهن، وضرب عنقه، وجمع أهل بيته وخاصته، وقال لهم: طردنا من المشرق إلى أقصى هذا الصقع، ونُحْضد على لُقْمَةِ تَبْقَى الرَّمَقُ؛ اكسروا جفون السيوف، فالموت أو الظفر.

ففعّلوا، وحمل بين أيديهم، فهزم اليمانية وأهل إشبيلية، فلم تقم (١٠/٦) بعدها لليمانية قائمة، وجرح عبدُ الملك.

وبلغ الخبرُ إلى عبد الرحمن، فأتاه وجرحه يجري دماً، وسيفه يقطر دماً، وقد لصقت يده بقسام سيفه، فقبله بين عينيه، وجزاه خيراً، وقال: يا ابن عمّ قد أنكحتُ ابني وولّي عهدي هشاماً ابنتك فلانة، وأعطيتها كذا وكذا، وأعطيتك كذا، وأولادك كذا، وأقطعتك وأياهم، ووليّتك الوزارة.

وهذا عبد الملك هو الذي ألزم عبد الرحمن بقطع خطبة المنصور، وقال له: تقطعها وإلاّ قتلْتُ نفسي! وكان قد خطب له عشرة أشهر، فقطعها.

وكان عبد الغفار وحيوة بن مُلابس قد سلما من القتل. فلما كانت سنة سبع وخمسين ومائة سار عبد الرحمن إلى إشبيلية، فقتل خلقاً كثيراً ممّن كان مع عبد الغفار وحيوة ورجع. وبسبب هذه الواقعة وغشّ العرب مال عبد الرحمن إلى اقتناء العبيد.

ذكر الفتنة بإفريقية مع الخوارج

قد ذكرنا هرب عبد الرحمن بن حبيب، الذي كان أبوه أمير إفريقية، مع الخوارج، واتّصاله بكثامة، فسير يزيد بن حاتم أمير إفريقية العسكر في أثره، وقتلوا كثامة.

فلما كانت هذه السنة سير يزيدُ عسكراً آخر مدداً للذين يقاتلون عبد (١١/٦) الرحمن، فاشتدّ الحصار على عبد الرحمن، فمضى هارباً، وفارق مكانه، فعادت العساكر عنه.

ثم ثار في هذه السنة على يزيد بن حاتم أبو يحيى بن فانوس الهوّاريّ بناحية طرابلس، فاجتمع عليه كثير من البربر، وكان بها عسكر ليزيد بن حاتم مع عامل البلد، فخرج العامل والجيش معه، فالتقوا على شاطئ البحر من أرض هوارة، فافقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أبو يحيى بن فانوس وقُتل عامة أصحابه، وسكن الناس بإفريقية، وصفت ليزيد بن حاتم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ظفر الهيثم بن معاوية، عاملُ البصرة، بعمرو بن شدّاد الذي كان عامل إبراهيم بن عبد الله على فارس؛ وسبب ظفّره به أنّه ضرب غلاماً له، فأثى الهيثم، فدلّه عليه، فأخذه فقتله، وصلبه

وكان ابن أبي العوّاء قد أرسل إلى محمّد بن سليمان يسأله أن يؤخر ثلاثة أيّام، ويعطيه مائة ألف، فلما ذكر لمحمّد أمر بقتله، فلما أيقن أنّه مقتول قال: واللّهِ لقد وضعتُ أربعة آلاف حديثٍ حللتُ فيها الحرام، وحرمتُ فيها الحلال، واللّهِ لقد فطرتكم يوم صومكم، وصومتكم يوم فطركم؛ فقتل.

وورّد كتاب المنصور إلى محمّد يأمره بالكفّ عنه، فوصل وقد قتله، فلما بلغ قتله المنصور غضب، وقال: واللّهِ لقد هممتُ أن أقيّذه به! ثم أحضر عمّه عيسى بن عليّ وقال له: هذا عملك؛ أنستُ أشربتُ بتوليه هذا الغلام الغيّر؟ قتل فلاناً بغير أمري، وقد كتبتُ بعزله، وتهدّدته؛ فقال له عيسى: إنّ محمّداً إنّما قتله على الزندقة، فإن كان أصاب فهو لك، وإن أخطأ (٨/٦) فعليه، ولئن عزلته على أثر ذلك ليذهبن بالثناء والذكر، ولترجعن بالمقالة من العامة عليك؛ فمزّق الكتاب.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انكثرت الخوارجُ الصُفْريّةُ المجتمعة بمدينة سيّلماسة على أميرهم عيسى بن جريس أشياء، فشدّوه وثاقاً، وجعلوه على رأس الجبل، فلم يزل كذلك حتى مات، وقدموا على أنفسهم أبا القاسم سمكو بن واسول بن المكناسي جدّ يذرار.

وفيها وُلد أبو سنان الفقيه المالكيّ بمدينة القيروان من إفريقية. وفيها عُزل الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ عن المدينة، واستعمل عليها عمّه عبد الصمد بن عليّ، وكان على مكّة والطائف محمد بن إبراهيم؛ وعلى الكوفة عمرو بن زهير؛ وعلى البصرة الهيثم بن معاوية؛ وعلى مصر محمّد بن سعيد؛ وعلى إفريقية يزيد بن حاتم؛ وعلى الموصل خالد بن برمك، وقيل: موسى بن كعب بن سفيان الخثعميّ.

وفي هذه السنة مات وسّتر بن كدام الكوفيّ الهلاليّ. (٩/٦)

سنة ستة وخمسين ومائة

ذكر عصيان أهل إشبيلية على عبد الرحمن الأمويّ

في هذه السنة سار عبد الرحمن الأمويّ، صاحب الأندلس، إلى حرب شقنا، وقصد حصن شيطران، فحصره، وضيق عليه، فهرب إلى المفازة كعادته، وكان قد استخلف على قرطبة ابنه سليمان، فأتاه كتابه يُخبره بخروج أهل إشبيلية مع عبد الغفار وحيوة بن مُلابس عن طاعته، وعصيانهم عليه، واتّفق ممّن بها من اليمانية معهما، فرجع عبد الرحمن ولم يدخل قرطبة، وهاله ما سمع من اجتماعهم وكثرتهم، فقدّم ابن عمّه عبد الملك بن عمرو، وكان شهاب آل مروان، وبقي عبد الرحمن خلفه كالممدّد له.

بالجربيد.

وحج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وكان على مكة، وقيل كان عليها عبد الصمد بن علي، وعلى الأنصار من ذكرنا.

وفيهما قتل المنصور يحيى بن زكريا المحتسب، وكان يطعن على المنصور ويجمع الجماعات فيما قيل.

وفيهما مات عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، وقيل: سنة ثمان وخمسين: (١٢/٦) وفي سنة سبع وخمسين مات الأوزاعي الفقيه، واسمه عبد الرحمن بن عمرو، وله سبعون سنة؛ ومُصَنَّب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، جد الزبير بن بكار.

وفيهما أخرج سليمان بن يقطان الكلبي قازله ملك الإفرنج إلى بلاد المسلمين، من الأندلس، ولقيه بالطريق، وسار معه إلى سرقسطة، فسبقه إليها الحسين بن يحيى الأنصاري من ولد سعد بن عبادة، وامتنع بها، فاتهم قازله ملك الإفرنج سليمان، فقبض عليه، وأخذ معه إلى بلاده، فلما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن هجم عليه مطروح وعيَّشون ابنا سليمان في أصحابهما، فاستنقذا أباهما، ورجعا به إلى سرقسطة، ودخلوا مع الحسين، ووافقوا على خلاف عبد الرحمن. (١٥/٦)

سنة ثمان وخمسين ومائة

ذكر عزل موسى عن الموصل وولاية خالد بن برمك

في هذه السنة عزل المنصور موسى بن كعب عن الموصل، وكان قد بلغه عنه ما أسخطه عليه، فأمر ابنه المهدي أن يسير إلى الرقة، وأظهر أنه يريد بيت المقدس، وأمره أن يجعل طريقه على الموصل، فإذا صار بالبلد أخذ موسى وقبده واستعمل خالده بن برمك.

وكان المنصور قد ألزم خالد بن برمك ثلاثة آلاف ألف درهم، وأجله ثلاثة أيام، فإن أحضر المال وجَّهه المال [سراً إلي]. قال: فأتيت عمارة بن حمزة ووجهه إلى الحافظ، فما أقبل به علي، فسلمت، فرد رداً ضعيفاً، وقال: كيف أبوك؟ فعرفته الحال، وطلبت قرض مائة ألف، فقال: إن أمكنتي شيء فسيأتيك، فانصرفت وأنا ألغته من يديه، وحدثت أبي بحدثه، وإذ قد أنفذ المال، قال: فجمعنا في يومين ألفي ألف وسبعمئة ألف، وبقي (١٦/٦) ثلاثمائة ألف تبطل الجميع بتعذرها.

وفيهما عزل الهيثم عن البصرة، واستعمل سوار القاضي على الصلاة مع القضاء، واستعمل سعيد بن دعلج على شرط البصرة وأحداثها، ولما وصل الهيثم إلى بغداد مات بها، وصلى عليه المنصور.

وفيهما غزا الصائفة زُفر بن عاصم الهلالي؛ وحج بالناس العباس بن محمد بن علي، وكان على مكة محمد بن إبراهيم الإمام، وعلى الكوفة عمرو ابن زهير، وعلى الأحداث والجوالي والشرط بالبصرة سعيد بن دعلج، وعلى الصلاة والقضاء سوار بن عبد الله، وعلى كور دجلة والأهواز وفارس (١٢/٦) عمارة بن حمزة، وعلى كرمان والسند هشام بن عمرو، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم، وعلى مصر محمد بن سعيد.

وفيهما سخط عبد الرحمن الأموي على مولاة بذو لفرط إدلاله عليه، ولم يرع حق خدمته وطول صحبته، وصدق مُناصحته، فأخذ ماله، وسلبه نعمته، ونفاه إلى الثغر، فبقي به إلى أن هلك.

وفيهما مات عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، قاضي إفريقية وقد تكلم الناس في حديثه.

وفيهما توفي حمزة بن حبيب الزيات المقرئ، أحد القراء السبعة. (١٣/٦)

سنة سبع وخمسين ومائة

في هذه السنة بنى المنصور قصره الذي يُدعى الخلد.

وفيهما حول المنصور الأسواق إلى الكرخ وغيره، وقد تقدّم سبب ذلك. واستعمل سعيد بن دعلج على البحرين، فأنفذ إليها ابنه تميماً؛ وعرض المنصور جُنْدَه في السلاح، وجلس لذلك، وخرج هو لابساً درعاً وبيضة.

وفيهما مات عامر بن إسماعيل المسلمي، وصلى عليه المنصور. وتوفي سوار بن عبد الله، قاضي البصرة.

واستعمل مكانه عبيد الله بن الحسن بن الخصين العنبري.

وعزل محمد بن سليمان الكاتب عن مصر، واستعمل مولاة مطر.

واستعمل معبد بن الخليل على السند وعزل هشام بن عمرو.

وغزا الصائفة يزيد بن أسيد السلميّ، فوجه سيناً مولى البطال إلى حصن، فسبى وغنم؛ وقيل: إنما غزا الصائفة زُفر بن عاصم.

قال: فعبثت على الجسر وأنا مهموم، فوثب إليّ زاجرٌ فقال: فرخ الطائر أخبرك، فطوبته، فلحقني، وأخذ بلجام دابتي، وقال لي: أنت مهموم، والله لتفرحنّ وتفرغن غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك. فعميت من قوله، فقال: إن كان ذلك فلي عليك خمسة آلاف درهم. فقلت: نعم! وأنا أستبعد ذلك.

وورد على المنصور انتقاض الموصل والجزيرة، وانتشار الأكراد بها، فقال: من لها؟ فقال المسيّب بن زهير: عندي رأي أعلم أنّك لا تقبله مني، وأعلم أنّك تردّه عليّ، ولكني لا أدعُ نصحك. قال: قل! قلت: ما لها مثل خالد بن برمك. قال: فكيف يصلح لنا بعدما فعلنا؟ قال: إنّما قوّمت بذلك، وأنا الضامن له. قال: فليحضرنني غداً، فأحضره، فصنع له عن الثلاثمائة ألف الباقية، وعقد له، وعقد لابنه يحيى على أذربيجان، فاجتاز يحيى بالزاجر، فأخذه معه، وأعطاه خمسين ألف درهم، وأنفذ خالد إلى عمارة بالمائة ألف التي أخذها منه مع ابنه يحيى، فقال له: صبريًّا كنت لأبيك؟ قم عني، لا قمّت! فعاد بالمال، وسار مع المهديّ فعزل موسى بن كعب وولاهما.

فلم يزل خالد على الموصل وابنه يحيى على أذربيجان إلى أن توفي المنصور، فذكر أحمد بن محمد بن سوار الموصليّ [قال]: ما هيّأ أميراً قط هيّأنا خالداً، من غير أن يشتهد علينا، ولكن هيّئة كانت له في صدورنا. (١٧/٦)

ذكر موت المنصور ووصيته

وفي هذه السنة توفي المنصور لست خلون من ذي الحجة بيشر ميمون، وكان على ما قيل قد هتف به هاتف من قصره، فسمعه يقول:

أما زوّب السُكون والحَرَكَ
إِنَّ الْعَالِيَا كَثِيرَةُ الثَّرَا
عليك، يا نفس، إن أسأت، وإن
أحسنْتَ بالقصدِ كُلَّ ذَاكَ لَكَ
ما اختلفَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ، وَلَا
هَارَتْ نَجُومُ السَّمَاءِ فِي الْفَلَا
إِلَّا تَقَلَّ السُّلْطَانُ عَن مَلِكِهِ
إِذَا تَنَهَّى مُلْكُهُ إِلَى مَلِكِهِ
حَتَّى يَصِيرَ بِهِ إِلَى مَلِكِهِ
مَا عِزُّ مُلْكِهِ بِشُكْرِهِ
ذَاكَ بَنِيخِ السَّمَاءِ والأَرْضِ وَالْمُد
عُرْسِي الْجِبَالِ المُسَخَّرِ الْفَلَا
فقال المنصور: هذا أوان أجلي. قال الطبري: وقد حكى عبد العزيز ابن مُسلم أنّه قال: دخلت على المنصور يوماً أسلم عليه، فإذا هو باهت لا يُحير جواباً، فوثبت لما أرى منه لأنصرف، فقال [لي] بعد ساعة: إنني رايتُ في المنام كأن رجلاً يُشلدني هذه [الآيات]:

أَخْبَى خَفَضَ مِنْ مُنَاكَ فَكَانَ يَوْمَكَ قَدْ أَتَاكَ
وَلَقَدْ أَرَاكَ الدَّغْرُ مِنْ تَصْرِيفِهِ مَا قَدْ أَزَاكَ
فَإِذَا أَرَدْتَ النَّاقِصَ الْعَبْدَ ذَاكَ الْفَلِيلَ، فَانْتَ ذَاكَ

(١٨/٦)

مُلْكْتَ مَا مُلْكْتُ وَالْأَنْزُفُ إِلَى سَوَاكَ
هذا الذي ترى من قلقي وعمي لما سمعتُ ورايتُ؛ فقلت: خيراً رايتُ يا أمير المؤمنين؛ فلم يلبث أن خرج إلى مكّة، فلمّا سار من بغداد ليحجّ نزل قصر عبدوّه، فانقضّ في مقامه هنالك كوكبٌ لثلاث بقين من شوال، بعد إضاءة الفجر، فبقي أثره بيّناً إلى طلوع الشمس، فأحضر المهديّ وكان قد صحبه ليودّعه، فوصّاه بالمال والسلطان، يفعل ذلك كلّ يوم من أيام مقامه، بكرة وعشيّة، فلمّا كان اليوم الثاني الذي ارتحل فيه قال له: إنني لم أدع شيئاً إلّا وقد تقدّمت فيه، وسأوصيك بخصال ما أظنك تفعل واحدة منها.

وكان له سَقَطٌ فيه دفاتر علمه، وعليه قفل لا يفتحه غيره، فقال للمهديّ: انظر إلى هذا السَقَطِ فاحتفظ به، فإن فيه علم آباءك، ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن أحزنك أمر فانظر في دفتر الكبير، فإن أصبت فيه ما تريد، وإلّا ففي الثاني والثالث، حتى بلغ سبعة، فإن ثقل عليك، فالكراسة الصغيرة، فإنك واجد فيها ما تريد، وما أظنك تفعل.

وانظر هذه المدينة، وإياك أن تستبدل بها غيرها، وقد جمعت لك فيها، من الأموال ما إن كُسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند، والنفقات، والذرية، ومصلحة البعوث، فاحتفظ بها. فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً، وما أظنك تفعل.

وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم، وتُحسن إليهم، وتقدّمهم، وتوطئ الناس أعقابهم، وتوليهم المناابر، فإن عزك عزهم، وذكرهم (١٩/٦) لك، وما أظنك تفعل.

وانظر مواليك فأحسن إليهم، وقربهم، واستكثر منهم، فإنهم ما ذكّك لشدة إن نزلت بك، وما أظنك تفعل.

وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم، أن تُحسن إليهم، وتتجاوز عن مُسيئتهم، وتكافئهم عمّا كان منهم، وتُخلف من مات منهم في أهله وولده، وما أظنك تفعل.

وإياك أن تبني مدينة الشرقية، فإنك لا تُسمّ بناءها، وأظنك ستفعل.

وإياك أن تستعين برجل من بني سُليم، وأظنك ستفعل.

وإياك أن تدخل النساء في أمرك، وأظنك ستفعل.

وقيل: قال له: إنني ولدتُ في ذي الحجة ووليتُ في ذي الحجة، وقد هجس في نفسي أنّي أموت في ذي الحجة من هذه السنة، وإنما حداني على الحجّ ذلك، فاتتِ الله فيما أعهد إليك من

بادرنى خَرَمَ رَبِّي هارياً من ذنوبي؛ وكان الربيع عديله؛ ووَصَّاه بما أراد، فلَمَّا وصل إلى بئر مَيْمُون مات بها مع السَّحَر لَسَتْ خَلُون من ذي الحجة، ولم يحضره عند وفاته إلا خَدَمُهُ، والربيع مولاه، فكنتم الربيع موته، ومنع من البكاء عليه، ثم أصبح، فحضر أهل بيته كما كانوا يحضرون، وكان أول مَنْ دعا عَمَّهُ عيسى بن علي، فمكث ساعة، ثم أذن لابن أخيه عيسى بن موسى، وكان فيما خلا يقدِّم على عيسى بن علي، ثم أذن للاكابر وذوي الأسنان منهم، ثم لعائتهم، فبايعهم الربيع للمهدي، ولعيسى بن موسى بعده على يدي موسى الهادي بن المهدي.

فلَمَّا فرغ من نَيْعة بني هاشم بايع القَوَاد، وبايع عامة النَّاس، وسار العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مكة ليبايعا النَّاس، فبايعوا بين الركن والمقام، واشتغلوا بتجهيز المنصور، ففرغوا منه العصر، وكَفَّن، وغطَّى وجهه وبدنه، وجُعِل رأسه مكشوفاً لأجل إحرامه، وصلى عليه عيسى بن موسى، وقيل إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ودُفِن في مقبرة المُعَلَّاة، وحفروا له مائة قبر ليُغَمَّوا على النَّاس، (٢٢/٦) ودُفِن في غيرها، ونزل في قبره عيسى بن علي، وعيسى بن محمد، والعباس ابن محمد، والربيع والريان مولياه، ويقطين، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة، وقيل أربعاً وستين، وقيل ثمانياً وستين سنة، فكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة وعشرين يوماً، وقيل إلا ثلاثة أيام، وقيل إلا يومين؛ وقيل في موته: إنه لما نزل آخر منزل بطريق مكة نظر في صدر البيت، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم.

أَبَا جَعْفَرٍ حَاتَتْ وَفَاتَكَ وَاقْتَضَتْ سَيِّوَتُكَ، وَأَمَرَ اللَّهُ لَابُدَّ وَاقْعُ
أَبَا جَعْفَرٍ هَلْ كَسَمْنَا أَوْ مَنُجَسَّمْ لَكَ الْيَوْمَ مِنْ حَرِّ الْمَنِيَةِ مَاتُ

فأحضر متوَلَّى المنازل، وقال له: ألم أمرَك أن لا يدخل المنازل أحد من النَّاس؟ قال: والله ما دخلها أحد منذ فُرِغَ [منها]. فقال: اقرأ ما في صدر البيت! فقال: ما أرى شيئاً، فأحضر غيره. فلم يَر شيئاً، فأملى البيتين، ثم قال لحاجبه: اقرأ آية، فقرأ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، فامر به فغضب، ورحل من المنزل ظميراً، فسقط عن دابته، فاندق ظهره ومات، فدُفِن ببئر مَيْمُون. والصحيح ما تقدَّم.

ذكر صفة المنصور وأولاده

كان أسمر نحيفاً، خفيف العارضين، وُلِدَ بِالْمُعَمِّسَةِ من أرض الشَّوْء. وأما أولاده فالمهدي محمد، وجعفر محمد، وجعفر الأكبر، وأمهما أروى بنت منصور (٢٣/٦) أخت يزيد بن منصور الجيمري، وكانت تكتنى أم موسى؛ ومات جعفر قبل المنصور؛ ومنهم سليمان، وعيسى، ويعقوب، أمهم فاطمة بنت محمد من ولد طَلْحَةَ بن عبيد الله؛ وجعفر الأصغر، أمه أم ولد، كُرْدِيَّة، وكان يقال له:

أمور المسلمين بعدي، يجعل لك فيها كَرَمَكَ وَخَزَنَكَ فَرجلاً ومخرجاً، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحسب.

يا بني احفظ محمداً ﷺ في أمته، يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حوبٌ عند الله عظيم، وعارٌ في الدنيا لازم مقيم، والزِّم الحدود، فإن فيها خلاصك في الأجل وصلاحك في العاجل، ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله تعالى لو علم أن شيئاً أصْلَح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به في كتابه. (٢٠/٦)

واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه [أنه] أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على مَنْ سعى في الأرض فساداً مع ما ذخر له من العذاب العظيم، فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [المائدة: ٣٣]. فالسلطان، يا بني، حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودينه القيم، فاحفظه، وحسنه، وذُب عنه، وأوقِع بالمُحْدِلين فيه، واقمع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب، ولا تجاوز ما أمر الله به في مُحْكَم القرآن، واحكم بالعدل، ولا تشطط، فإن ذلك أقطع للشغب، وأجسم للعدو، وأنجع في الدواء.

وعف عن الفَيء، فليس بك إليه حاجة مع ما خلفه الله لك، وافتح [عملك] بصيلة الرِّحْم وبرِّ القراصة، وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية، وأحسن الثغور، واضبط الأطراف، وأمن السبل، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم، وادفع المكارِه عنهم، وأعد الأموال، واخزنها، وإياك والتبذير، فإن التواب غير مأمونة، وهي من شيم الزمان.

وأعد الكُراع والرجال والجنود ما استطعت؛ وإياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد، فتتدارك عليك الأمور وتضيق جدٌ في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً [فأولاً] واجتهد وشمر فيها؛ وأعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل، وباشر الأمور بنفسك، ولا تضجر، ولا تكسل، واستعمل حسن الظن [بربكك]، وأسى الظن بعمالك وكتابك، وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد مَنْ تثبت على بابك، وسهل (٢١/٦) إذْنك للنَّاس، وانظر في أمر النِّزاع إليك، وكلَّ بهم عيناً غير نائمة، ونفساً غير لاهية، ولا تنم، وإياك فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة، ولا دخل عينه الغمض إلا وقلبه مستيقظ. هذه وصيتي إليك، والله خليفتي عليك.

ثم ودَّه وبكى كل واحد منهما إلى صاحبه، ثم سار إلى الكوفة، وجمع بين الحجِّ والعُمرة، وساق الهذلي، وأشعره، وقلَّده لأيام خلت من ذي القعدة. فلَمَّا سار منازل الكوفة عرض له وجعٌ الذي مات به، وهو القيام، فلَمَّا اشتدَّ وجعه جعل يقول للربيع:

ابن الكردية؛ وصالح المسكين، أمه أم ولد رومية؛ والقاسم، مات قبل المنصور وله عشر سنين، أمه أم ولد تُعرف بأم القاسم، ولها بباب الشام بستان أم القاسم؛ والعالية، أمها امرأة من بني أمية.

ذكر بعض سيرة المنصور

قال سلام الأبرش: كنت أخدم المنصور داخلًا [في منزله]، وكان من أحسن الناس خلقًا، ما لم يخرج إلى الناس، واشد احتمالًا لما يكون من عبث الصبيان، فإذا لبس ثوبه اربد لونه، واحمرت عيناه فيخرج منه ما يكون.

وقال لي يوماً: يا بني! إذا رأيته قد لبست ثيابي، أو رجعت من مجلسي فلا يدنُون مني منكم أحد مخافة أن أغره بشيء.

قال: ولم يُرَ في دار المنصور لهو، ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث، إلا مرة واحدة، روي بعض أولاده وقد ركب راحلة، وهو صبي، وتكب قوساً في هيئة الغلام الأعرابي، بين جوالقين فيهما قفل ومساويك وما (٢٤/٦) يهديه الأعراب، فعجب الناس من ذلك، وأنكروه، فعبر إلى المهدي بالرفافة فأهداه له، فقبله وملأ الجوالقين دراهم، فعاد بينهما، فعلم أنه ضرب من عبث الملوك.

قال حماد التركي: كنت واقفاً على رأس المنصور، فسمع جلبة، فقال: انظروا ما هذا! فذهبت، فإذا خادم له قد جلس حوله الجواري، وهو يضرب لهنّ بالطنبور، وهنّ يضحكن، فأخبرته، فقال: وأي شيء الطنبور؟ فوصفته له، فقال: ما يدريك أنت ما الطنبور؟ قلت: رأيته بخراسان. فقام ومشى إليهنّ، فلما رأيته تفرقن، فامر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور، حتى تكسر الطنبور، وأخرج الخادم فباعه.

قال حماد التركي: كنت واقفاً على رأس المنصور، فسمع جلبة، فقال: انظروا ما هذا! فذهبت، فإذا خادم له قد جلس حوله الجواري، وهو يضرب لهنّ بالطنبور، وهنّ يضحكن، فأخبرته، فقال: وأي شيء الطنبور؟ فوصفته له، فقال: ما يدريك أنت ما الطنبور؟ قلت: رأيته بخراسان. فقام ومشى إليهنّ، فلما رأيته تفرقن، فامر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور، حتى تكسر الطنبور، وأخرج الخادم فباعه.

قال: وكان المنصور قد استعمل معن بن زائدة على اليمن، لما بلغه من الاختلاف هناك، فسار إليه وأصلحه، وقصده الناس من أقطار الأرض لاشتهار جوده، ففرق فيهم الأموال، فسخط عليه المنصور، فأرسل إليه معن بن زائدة وفداً من قومه، فيهم مُجاعة بن الأزهر، وسيرهم إلى المنصور ليزيلوا غظبه وغضبه، فلما دخل على المنصور ابتدأ مُجاعة بحمد الله والثناء عليه، وذكر النبي ﷺ فأطرب في ذلك حتى عجب القوم، ثم ذكر المنصور وما شرفه الله به، وذكر بعد ذلك صاحبه. فلما انقضى كلامه قال: أما ذكرت من حمد الله، فأنه أجل من أن تبلغه الصفات؛ وأما ما ذكرت من النبي ﷺ فقد فضله الله تعالى بأكثر مما قلت؛ وأما ما وصفت به أمير المؤمنين، فإنه فضله الله بذلك، وهو معينه على طاعته، إن شاء الله تعالى؛ وأما ما ذكرت من صاحبك، فكذبت ولومت؛ أخرج، فلا يقبل ما ذكرت.

قال: وكان المنصور قد استعمل معن بن زائدة على اليمن، لما بلغه من الاختلاف هناك، فسار إليه وأصلحه، وقصده الناس من أقطار الأرض لاشتهار جوده، ففرق فيهم الأموال، فسخط عليه المنصور، فأرسل إليه معن بن زائدة وفداً من قومه، فيهم مُجاعة بن الأزهر، وسيرهم إلى المنصور ليزيلوا غظبه وغضبه، فلما دخل على المنصور ابتدأ مُجاعة بحمد الله والثناء عليه، وذكر النبي ﷺ فأطرب في ذلك حتى عجب القوم، ثم ذكر المنصور وما شرفه الله به، وذكر بعد ذلك صاحبه. فلما انقضى كلامه قال: أما ذكرت من حمد الله، فأنه أجل من أن تبلغه الصفات؛ وأما ما ذكرت من النبي ﷺ فقد فضله الله تعالى بأكثر مما قلت؛ وأما ما وصفت به أمير المؤمنين، فإنه فضله الله بذلك، وهو معينه على طاعته، إن شاء الله تعالى؛ وأما ما ذكرت من صاحبك، فكذبت ولومت؛ أخرج، فلا يقبل ما ذكرت.

قال: وكان المنصور يقول: ما أحوذجي أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم، هم أركان الدولة ولا يصلح المُلْك إلا بهم؛ أما أحدهم: قاضي لا تأخذه في الله لومة لائم؛ والآخر صاحب شرطة يُصَف الضعيف من القوي؛ والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية.

ثم عضّ على إصبعه السبابة ثلاث مرّات، يقول في كل مرّة: آو آو. قيل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة.

وقيل: دعا المنصور بعامل قد كسر خراجه، فقال له: أذ ما عليك! فقال: والله ما أملك شيئاً. وأذن مؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله! فقال: يا أمير المؤمنين هب ما عليّ لله وشهادة أن لا إله إلا

الله. فخلّى سبيله.

وقيل: وأني بعامل، فحسبه وطالبه، فقال العامل: عبدك يا أمير المؤمنين؟ فقال: بنس العبد أنت! فقال: لكنت نعم المولى. قال: أما لك فلا.

قيل: وأني بخارجي قد هزم له جيوشاً، فأراد ضرب رقبته، ثم ازدراه فقال: يا ابن الفاعلة! مثلك يهزم الجيوش؟ فقال له: ويلك وسؤأة لك أمس، بيني وبينك السيف، واليوم القذف والسب، وما كان يؤمنك أن أرد عليك وقد يست من الحياة فلا تستقبلها أبداً؟ فاستحيًا منه المنصور وأطلقه.

قيل: وكان شغل المنصور، في صدر نهاره، بالأمر والنهي، والولايات، (٢٧/٦) والعزل، وشحن الثغور والأطراف، وأمن السبل، والنظر في الخراج والنفقات، ومصلحة معاش الرعية، والتلطف بسكونهم وهذبهم، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته؛ فإذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والأفاق، وشاور سماره؛ فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه، وانصرف سماره؛ فإذا مضى الثلث الثاني قام قنوصاً وصلى، حتى يطلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

قيل: وقال للمهدي: لا تُبَرِّم أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكر العاقل مِرَاتَهُ تَرْبِيَهُ حَسَنَةً وَسَيِّئَةً. يا بني! لا يصلح السلطان إلا بالقوى، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة، ولا تعمر البلاد بمثل العدل، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره.

يا أبا عبد الله! لا تجلس مجلساً إلا ومعك من [أهل العلم من يحدثك] ومن أحب أن يُحمد أحسن السيرة، ومن أبغض الحمد أساءها، وما أبغض الحمد أحد إلا استندم، وما استندم إلا مكره.

يا أبا عبد الله! ليس العاقل الذي يحتال للأمر الذي غشيه، بل العاقل الذي يحتال للأمر حتى لا يقع فيه.

وقال للمهدي يوماً: كم رأيته عندك؟ قال: لا أدري. قال: هذا والله الضييع، وأنت لأمر الخلافة أشدّ تضيقاً، ولكن قد جمعت لك ما (٢٨/٦) لا يضرّك معه ما ضيعت، فاتّق الله فيما حوّلَكَ.

قيل: وقال إسحاق بن عيسى: لم يكن أحد من بني العباس يتكلّم فيبلغ حاجته على البديهة، غير المنصور، وأخيه العباس بن محمد، وعمّهما داود بن علي؛ قيل: وخطب المنصور يوماً، فقال: الحمد لله أحمدّه وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكّل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فاعترضه إنسان فقال: أيها الإنسان

أذكرك من ذكرت به! فقطع الخطبة، ثم قال: سمعاً، سمعاً لمن حفظ عن الله، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً، أو تاخذني العزة بالإثم، لقد ضللت، إذا، وما أنا من المهتدين. وأنت أيها القاتل، فوالله ما أردت بهذا القول الله، ولكنك أردت أن يقال قام، فقال، فغروب، فصبّر، وأهون بها، ويلك، لقد هممت، واغتنمها إذ عفوت، وإياك، وإياكم معاشر المسلمين اختها، فإن الحكمة علينا نزلت، ومن عندنا فصلت، فردوا الأمر إلى أهله، تورّدوه موارد، وتصدروه مصادره.

ثم عاد إلى خطبته، كأنما يقرأها، فقال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وقال عبد الله بن صاعد: خطب المنصور بمكة، بعد بناء بغداد، فكان ممّا قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أمر مبرم، وقول عدل، وقضاء فصل، والحمد لله الذي أفلج حجبته، وبُعِدَا للقوم الظالمين الذي اتَّخَذُوا الكعبة غرضاً، والفى إرثاً و﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ﴾، لقد ﴿حَاقَ بِهِمْ﴾ (٢٩/٦) مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [النحل: ٣٤]، فكم من بثر معطلة، وقصر مشيد، أهملهم الله حين بدلوا السنة، واضطهدوا العترة، وعدوا، واعتدوا، واستكبروا وخاب كل جبار عنيد؛ ف﴿هَلْ نَجِسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ [مريم: ٩٨]

قال: وكتب إليه رجل يشكو بعض عمّاله، فوقع إلى العامل في الرقعة: إن أثرت العدل صحتك السلامة؛ وإن أثرت الجور فما أقربك من الندامة، فأنصف هذا المتظلم من الظلامة.

قيل: وكتب إلى [المنصور] صاحب أرمينية يُخبره أن الجند قد شغبوا عليه، ونهبوا ما في بيت المال، فوقع في كتابه: اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، فلو عقلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينهبوا.

وهذا وما تقدّم من كلامه ووصاياه يدلّ على فصاحته وبلاغته، وقد تقدّم له أيضاً من الكتب وغيرها ما يدلّ على أنه كان واحد زمانه، إلا أنه كان ييخل، وممّا نقل عنه من ذلك قول الوضيين بن عطاء: استزاني المنصور، وكان بيني وبينه خلة قبل الخلافه، فخلونا يوماً، فقال: يا أبا عبد الله! ما لك؟ قلت: الخبر الذي تعرفه. قال: وما عيالك؟ قلت: ثلاث بنات، والمرأة، وخادم لهنّ. فقال: أربع في بيتك؟ قلت: نعم! فردّها، حتى ظننت أنه سيعينني، ثم قال: أنت أيسر العرب، أربعة مغازل يدرن في بيتك. (٣٠/٦)

قيل: رفع غلام لأبي عطاء الخراساني أن له عشرة آلاف درهم، فأخذها منه وقال: هذا مالي. قال: من أين يكون مالك، والله ما وليتُك عملاً قط، ولا بيني وبينك رحم ولا قرابة! قال: بلى! [كنت] تزوّجت امرأة لعينة ابن موسى بن كعب، فوزّعتك مالاً، وكان قد

شيء كان سببه عليّ. فقال الخنزير: إن لم تفعل أعلمتُ السباع أنك نكلت عني؛ فقال الأسد: احتمال عار كذبك عليّ أيسر من لَطْخ شرابي بدمك.

قيل: وكان المنصور أول من عمل الخيش، فإن الأكاسرة كانوا يطيتون كل يوم بيتاً يسكنونه في الصيف. وكذلك بنو أمية. (٣٢/٦)

قيل: وأتى برجل من بني أمية، فقال: إني أسألك عن أشياء، فاصدقني ولك الأمان. قال: نعم! قال: من أين أتى بنو أمية؟ قال: من تضييع الأخبار. قال: فأَيُّ الأموال وجدوها أنفع؟ قال: الجوهر. قال: فعند من وجدوا الوفاء؟ قال: عند مواليتهم؛ فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته، فقال: اضعُ منهم، فاستعان بمواليه.

ذكر خلافة المهدي والبيعة له

ذكر عليّ بن محمد التّوّفليّ عن أبيه قال: خرجتُ من البصرة حاجاً، فاجتمعتُ بالمنصور بذات عِرْق، فكنتُ أسلمُ عليه كلما ركب، وقد أشفى على الموت، فلما صار يبشر ميمون نزل به، ودخلنا مكة، فقصيتُ عَمْرَتِي، وكنتُ أختلف إلى المنصور، فلما كان في الليلة التي مات فيها، ولم نعلم، صلبتُ الصبح بمكة، وركبتُ أنا ومحمد بن عَوْن بن عبد الله ابن الحارث، وكان من مشايخ بني هاشم وساداتهم، فلما صرنا بالأبطح لقينا العيس بن محمد ومحمد بن سليمان في خيل إلى مكة، فسلمنا عليهما ومضينا، فقلتُ لمحمد: أحسب الرجل قد مات، فكان كذلك.

ثم أتينا العسكر، فإذا موسى بن المهدي قد صدر عند عمود السّرادق، والقاسم بن المنصور في ناحية من السّرادق، وقد كان قبل ذلك يسير بين المنصور وبين صاحب الشرطة، ورفع الناس إليه القصص، فلما رأيته علمتُ أنّ (٣٣/٦) المنصور قد مات.

واقبل الحسن بن زيد العلويّ، وجاء الناس حتى ملؤوا السّرادق، وسمعتنا همساً من بكاء، وخرج أبو العنبر، خدام المنصور، مشقّق الأقيّة، وعلى رأسه التراب، وصالح: وا أمير المؤمنين! فما بقي أحد إلا قام، ثم تقدّموا ليدخلوا عليه، فنعمهم الخدم، وقال ابن عيَّاش المتوف: سبحان الله! أما شهدتم موت خليفة قط؟ اجلسوا، فجلسوا، وقام القاسم فشقّ ثيابه، ووضع التراب على رأسه، وموسى على حاله.

ثم خرج الربيع وفي يده قرطاس، ففتحته، فقراه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله المنصور، أمير المؤمنين، إلى من خلف من بني هاشم، وشيعته من أهل خراسان، وعامة المسلمين؛ ثم بكى، وبكى الناس، ثم قال: قد أمكنكم البكاء، فأنصتوا، رحمكم الله؛ ثم قرأ: أما بعد، فإني كتبتُ كتابي هذا، وأنا حيّ في آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، اقرأ عليكم

عصى بالسند، [وهو وال على السند]، وأخذ مالي فهذا المال من ذاك.

وقيل لجعفر الصادق: إنّ المنصور يُكثر من لبس جبة هروية، وإنه يرقع قميصه. فقال جعفر: الحمد لله الذي لطف به، حتى ابتلاه بفقر نفسه في ملكه.

قيل: وكان المنصور إذا عزل عاملاً أخذ ماله وتركه في بيت مال مفرد سمّاه بيت مال المظالم، وكتب عليه اسم صاحبه، وقال للمهدي: قد هيأت لك شيئاً فإذا أنا مت فادعُ من أخذتُ ماله فأردّه عليه، فإنك تستحمد بذلك إليهم وإلى العامة؛ ففعل المهدي ذلك.

وله في ضد ذلك أشياء كثيرة.

قيل: وذكر زيد مولى عيسى بن نهيك قال: دعاني المنصور، بعد موت مولاي فسألني: كم خلف من مال؟ قلت: ألف دينار، وأنفقتُ امرأته في مائمه. قال: كم خلف من البنات؟ قلتُ: ستاً؛ فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: اغدُ إلى المهديّ، فغدوتُ إليه، فأعطاني مائة ألف وثمانين ألف دينار، لكل واحدٍ منهم ثلاثين ألفاً، ثم دعاني المنصور فقال: عذ عليّ بأكضائهم حتى أزوجهنّ، ففعلتُ، فزوجهنّ، وأمر أن تحمل إليهنّ صدقاتهنّ من ماله، لكل واحدٍ منهم ثلاثون ألف درهم، وأمرني أن أشتري بمالهنّ ضياعاً لهنّ يكون معاشهنّ منها. (٣١/٦)

قيل: وفرّق المنصور على جماعة من أهل بيته في يوم واحد، عشرة آلاف ألف درهم، وأمر لجماعة من أعمامه منهم: سليمان وعيسى، وصالح، وإسماعيل، لكل رجل منهم بألف ألف، وهو أول من وصل بها.

وله في ذلك أيضاً أخبار كثيرة، وأما غير ذلك، قال يزيد بن عمر بن هُبيرة: ما رأيْتُ رجلاً قط في حرب، ولا سمعتُ به في سلم أنكر، ولا أمكر، ولا أشدّ تيقظاً من المنصور. لقد حصرتني تسعة أشهر، ومعني فرسان العرب، فجهننا بكلّ الجهد أن ننال من عسكره شيئاً، فما تهياً، ولقد حصرتني وما في رأسي شعره بيضاء، فخرجتُ إليه وما في رأسي شعره سوداء.

قيل: وأرسل ابن هُبيرة إلى المنصور، وهو محاصره، يدعوه إلى المبارزة؛ فكتب إليه: إنك متعدّ طورك، جبار في عنان غيِّك، يعذك الله ما هو مصدّقه، ويُمَيِّك الشيطان ما هو مكذبه، ويقرب ما الله مباعده، فريداً يتم الكتاب أجله، وقد ضربتُ مثلي ومثلك: بلغني أنّ أسداً لقي خنزيراً، فقال له الخنزير: قاتلني! فقال الأسد: إنّما أنت خنزير، ولست بكفو لي ولا نظير، ومتى قاتلتك فقتلتك قيل لي: قتل خنزيراً، فلا اعتقد فخراً، ولا ذكراً؛ وإن نالني منك

السلام وأسأل الله أن لا يقتكم بعدي ولا يلبسكم شيعاً، ولا يُذيق بعضكم بأس بعض.

ثم أخذ في وصيتهم بالمهدي، وإذكارهم البيعة له، وحثهم

على الوفاء بعهد، ثم تناول يد الحسن بن زيد وقال: قم فبايع! فقام إلى موسى فبايعه، ثم بايعه الناس الأول فالأول، ثم أدخل بنو هاشم على المنصور وهو في أكفانه، مكشوف الرأس، فحملناه، حتى أتينا به مكة ثلاثة أميال، فكأنني أنظر إليه والريح تحرك شعر صدغيه، وذلك أنه كان وثقُ شعره للخلق، وقد نصل خضابه، حتى أتينا به حفرته. (٣٤/٦)

وفيها شخص المنصور من بغداد إلى مكة، فمات في الطريق قبل أن يبلغها.

وفي هذه السنة غزا عبد الرحمن، صاحب الأندلس، مدينة قورية، وقصد البربر الذين كانوا أسلموا عامله إلى شقنا فقتل منهم خلقاً من أعيانهم، وأتبع شقنا، حتى جاوز القصر الأبيض والدرب، فقاته.

وفيها مات أورالي ملك جليقية، وكان ملكه ست سنين، وملك بعده شيالون.

وفيها توفي مالك بن مغول، الفقيه الجلي بالكوفة، وحيوة بن شريح (٣٦/٦) ابن مسلم الحضرمي المصري، وكان العامل على مكة والطائف إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله، وعلى المدينة عبد الصمد بن علي، وعلى الكوفة عمرو بن زهير الضبي، وقيل إسماعيل بن إسماعيل الثقفي، وعلى قضائها شريك بن عبد الله النخعي، وعلى خراجها ثابت بن موسى، وعلى خراسان حنيد بن قحطبة، وعلى قضاء بغداد عبد الله بن محمد بن صفوان، وعلى الشرطة بها عمر بن عبد الرحمن أخو عبد الجبار بن عبد الرحمن، وقيل موسى بن كعب، وعلى خراج البصرة وأرضها غمار بن حمزة، وعلى قضائها والصلاة عبيد الله بن الحسن العنبري.

وأصاب الناس هذه السنة وباء عظيم. (٣٧/٦)

سنة تسع وخمسين ومائة

ذكر الحسن بن إبراهيم بن عبد الله

في هذه السنة حول المهدي الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي من محبسه.

وسبب ذلك أنه كان محبوساً مع يعقوب بن داود في موضع واحد، فلما أطلق يعقوب وبقي هو ساء ظنه، فالتمس مخرجاً، فأرسل إلى بعض من يثق به، فحفر سراً إلى الموضع الذي هو فيه،

وكان أول شيء ارتفع به علي بن عيسى بن ماهان أن عيسى بن موسى أبى البيعة، فقال علي بن عيسى بن ماهان: والله لتبايعن أو لأضربن عنقك! فبايع، ثم وجه موسى بن المهدي والربيع إلى المهدي بخير وفاة المنصور، وبالبيعة له مع منارة موسى المنصور، وبعثنا أيضاً بالقضيب، وبردة النبي ﷺ وبخاتم الخلافة، وخرجوا من مكة، فقدم الخبر على المهدي مع منارة، متصف ذي الحجة، فبايعه أهل بغداد.

وقيل: إن الربيع كتم موت المنصور، وألبسه، وسنّده، وجعل على وجهه كلة خفيفة يرى شخصه منها، ولا يفهم أمره، وأدنى أهله منه، ثم قرب منه الربيع كأنه يخاطبه، ثم رجع إليهم، وأمرهم عنه بتجديد البيعة للمهدي، فبايعوا، ثم أخرجهم، وخرج إليهم باكية مشق الجيب، لاطماً رأسه. فلما بلغ ذلك المهدي أنكره على الربيع، وقال: أما منعك جلالة أمير المؤمنين أن فعلت به ما فعلت؟ وقيل ضربه، ولم يضح ضربه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل المنصور المسيب بن زهير عن شرطته، وحسبه مقيداً؛ وسبب ذلك أنه ضرب أبا بن بشير الكاتب بالسياط، حتى قتله، لأنه كان شريك أخيه عمرو بن زهير في ولاية الكوفة، واستعمل على شرطته الحكم بن يوسف، صاحب الحراب، ثم كلم المهدي أباه في المسيب، فرضي عنه، وأعادته إلى شرطته.

وفيها استعمل المنصور نصر بن حرب بن عبد الله على فارس. (٣٥/٦)

وفيها عاد المهدي من الرقة في شهر رمضان.

وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى من درب الحدث، فلقى العدو، فاقتتلوا، ثم تجاوزوا.

وفيها حبس محمد بن إبراهيم الإمام، وهو أمير مكة، جماعة

واجتمعوا بكيش، وغلبوا على بعض قصورها، وعلى قلعة نواكث، وحاربهم أبو النعمان، والجَيْد، وليث بن نصر، مرة بعد مرة، وقتلوا حسان بن تميم بن نصر بن سيار، ومحمد بن نصر وغيرهما.

وانفذ إليهم جبرائيل بن يحيى وأخاه يزيد، فاشتغلوا بالمبيضة الذين كانوا ببخارى، فقاتلهم أربعة أشهر في مدينة بويجكت، ونقبا عليهم، فقتل منهم سبعمائة، وقتل الحكم، ولحق منهزمهم بالمتنق، تبعهم جبرائيل، وحاربهم؛ ثم سار المهدي أبا عون لمحاربة المتنق، فلم يبالغ في قتاله، واستعمل مُعَاذَ بْنَ مُسْلِمٍ. (٤٠/٦)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل المهدي إسماعيل عن الكوفة، واستعمل عليها إسحاق ابن الصباح الكندي، ثم الأشعني، وقيل عيسى بن لقمان بن محمد بن حاطب الجُمَحِي.

وفيهما عزل سعيد بن ذُخْلَج عن أحداث البصرة، وعبيد الله بن الحسن عن الصلاة، واستعمل مكانهما عبد الملك بن أيوب بن طيَّان التُمَيْرِي، وأمره بإنصاف مَنْ تظلم من سعيد بن ذُخْلَج، ثم صُرف الأحداث فيها إلى عُمارة بن حمزة فولاهما اليُسُورَ بن عبد الله الباهلي.

وفيهما عزل قُتَمُّ بْنُ الْعَبَّاس عن البمامة، فوصل كتاب عزله وقد مات، واستعمل مكانه بشر بن المنذر البجلي.

وفيهما عزل الهيثم بن سعيد عن الجزيرة، واستعمل عليها الفضل بن صالح.

وفيهما اعتق المهدي الخيزران أم ولده، وتزوجها وتزوج أم عبد الله بنت صالح بن علي أخت الفضل وعبد الملك.

وفيهما احترقت السفن عند قصر عيسى ببغداد بما فيها واحترق ناس كثير.

وفيهما عزل مَطَرُ مولى المنصور عن مصر، واستعمل عليها أبو ضمرة محمد بن سليمان.

وفيهما غزا العباس بن محمد الصائفة الرومية، وعلى المقدمة الحسن (٤١/٦) الرصيف، فبلغوا أنقرة، وفتحوا مدينة للروم، ومطمورة، ولم يصب من المسلمين أحد ورجعوا سالمين.

وفيهما ولي حمزة بن يحيى سجستان، وجبرائيل بن يحيى سمرقند، فبنى سورها، وحفر خندقها.

وفيهما عزل عبد الصمد بن علي عن المدينة، واستعمل عليها محمد بن عبد الله الكثيري، ثم عزله واستعمل مكانه محمد بن

فبلغ ذلك يعقوب فأتى ابن عُلَاشَةَ القاضي، وكان قد اتصل به، فقال: عندي نصيحة للمهدي، وطلب إليه إيصاله إلى أبي عبيد الله وزيره، ليرفعها إليه، فأحضره عنده، فلما سأله فأعلمه المهدي ثقته بوزيره وابن عُلَاشَةَ، فلم يقل شيئاً، حتى قاما، فأخبره خبر الحسن، فأنفذ مَنْ يثق به، فأناه بتحقيق الحال، فأمر بتحويل الحسن، فحوّل، ثم احتيل له فيما بعد، فهرب وطلب، فلم يُظفر به، فأحضر المهدي يعقوب وسأله عنه، فأخبره أنه لا يعلم مكانه، وأنه إن أعطاه الأمان أتاه به فأمنه وضمن له الإحسان، فقال له: اترك طلبه، فإن ذلك يوحشه، فترك طلبه، ثم أن يعقوب تقدّم عند المهدي، فأحضر الحسن بن إبراهيم عنده. (٣٨/٦)

ذكر تقدّم يعقوب عند المهدي

قد تقدّم ذكر وصوله إليه، فلما أحضره المهدي عنده في أمر الحسن بن إبراهيم، كما تقدّم، قال له: يا أمير المؤمنين إنك قد بسطت عدلك لرعيّتك، وأنصفتهم، وأحسنّت إليهم، فعظم رجاءهم، وقد بقيت أشياء لو ذكرتها [لك] لم تدع النظر فيها، وأشياء خلف بابك تعمل فيها ولا تعلم بها، فإن جعلت إلي السبيل إليك رفعتها.

فأمر بذلك. فكان يدخل عليه كلما أراد، ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة، من أمر الثغور، وبناء الحصون، وتقوية الغزاة وتزويج العزّاب، وفكّك الأسرى والمحبوسين، والقضاء عن الغارمين، والصدقة على المتعفّفين، فحظي عنده بذلك، وعلت منزلته، حتى سقطت منزلة أبي عبيد الله، وحُبس، وكتب المهدي توقيعاً بأنه قد اتخذ أخاً في الله ووصله بمائة ألف.

ذكر ظهور المتنق ببخراسان

وفي هذه السنة قبل موت حُمَيْدِ بْنِ قُحْطَبَةَ، ظهر المتنق ببخراسان، وكان رجلاً أعور، قصيراً، من أهل مرو، ويسمى حكيماً، وكان اتّخذ وجهاً من ذهب فجعله على وجهه لثلاثي، فسُمي المتنق وادّعى الألوهية، ولم يُظهر ذلك إلى جميع أصحابه، وكان يقول: إن الله خلق (٣٩/٦) آدم، فتحوّل في صورته، ثم في صورة نوح، وهكذا هلُمّ جراً إلى أبي مُسلم الخراساني، ثم تحوّل إلى هاشم، وهاشم، في دعواه، هو المتنق، ويقول بالتناسخ؛ وتابعه خلق من ضلال الناس وكانوا يسجدون له من أي النواحي كانوا، وكانوا يقولون في الحرب: يا هاشم أعنا.

واجتمع إليه خلق كثير، وتحصّنوا في قلعة بسنام، وسنجدرة، وهي من رساتيق كيش، وظهرت المبيضة ببخارى والصغد معاوين له، وأعانهم كفار الأتراك، وأغاروا على أموال المسلمين.

وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبي ﷺ وكان ينكر قلت يحيى بن زيد، وادّعى أنه يقتل قاتليه.

عبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان الجُمَحِيّ.

سنة ستين ومائة

ذكر خروج يوسف البرم

في هذه السنة خرج يوسف بن إبراهيم، المعروف بالبرم، بخراسان، مُكْرَماً هو وقَمَنَ معه على المهديّ سيرته التي يسير بها، واجتمع معه بشر كثير، فتوجّه إليه يزيد بن مَزَيْد الثُّبَيْيانيّ، وهو ابن أخي معن بن زائدة، فلقبه، فاقتلا، حتى صارا إلى المُعَاقفة، فأسره يزيد بن مَزَيْد وبعث به إلى المهديّ، وبعث معه وجوه أصحابه، فلمّا بلغوا النهر وانحدر يوسف على بعير، قد حُوّل وجهه إلى ذنبيه، وأصحابه مثله، فأدخلوهم الرُصَافَة على تلك الحال، وقُطعت يدا يوسف ورجلاه، وقُتل هو وأصحابه، وصُلِبوا على الجسر.

وقد قيل إنّه كان حُرُورِيّاً، وتغلّب على بُوشَنج، وعليها مُضَعَب بن رُزَيْق، جدّ طاهر بن الحسين، فهرب منه، وتغلّب أيضاً على مرو الرُّوذ والطالْقان والجُورْجان، وقد كان من جملة أصحابه أبو مُعَاذ الفريابي، فقبض معه. (٤٤/٦)

ذكر خلع عيسى بن موسى وبيعة موسى الهادي

كان جماعة من بني هاشم وشيعة المهديّ قد خاضوا في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، والبيعة لموسى الهادي بن المهديّ، فلمّا علم المهديّ بذلك سرّه، وكتب إلى عيسى بن موسى بالقدوم عليه، وهو بقرية الرَحْبَة، من أعمال الكوفة، فأحسن عيسى بالذي يُراد منه، فامتنع من القدوم، فاستعمل المهديّ على الكوفة رُوح بن حاتم، للإضرار به، فلم يجد رُوح إلى الإضرار به سبيلاً، لأنّه كان لا يقرب البلد إلّا كلّ جُمُعة أو يوم عيد.

واللّح المهديّ عليه وقال له: إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع من ولاية العهد لموسى وهارون استحللت منك، بمعصيتك، ما يُستحلّ من أهل المعاصي، وإن أجبتني عوضتُك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً، فلم يقدم عليه، وخيف انتقاضه، فوجّه إليه المهديّ عمّه العباس بن محمد برسالة وكتاب يستدعيه، فلم يحضر معه، فلمّا عاد العباس، وجّه المهديّ إليه أبا هُرَيْرَة محمد بن فُرُوخ القائد في ألف من أصحابه ذوي البصائر في التشيع للمهديّ، وجعل مع كلّ واحد منهم طيلاً، وأمرهم أن يضربوا طبولهم جميعاً عند قدومهم إليه، فوصلوا سَحَرًا، وضربوا طبولهم، فارتاع عيسى روعاً شديداً، ودخل عليه أبو هريرة، وأمره بالشخص معه، فاعتلّ بالشكوى، فلم يقبل منه وأخذته معه.

فلمّا قدم عيسى بن موسى نزل دار محمد بن سليمان في عسكر المهديّ، فأقام أياماً يختلف إلى المهديّ ولا يكلم بشيء، ولا يرى مكروهاً، فحضر الدار يوماً قبل جلوس المهديّ فجلس في مقصورة للربيع، وقد اجتمع شيعة (٤٥/٦) رؤساء المهديّ على

وفيها بنى المهديّ سور الرُصَافَة ومسجدها، وحفر خندقها.

وفيها توفيّ مَعْبُد بن الخليل بالسند، وهو عامل المهديّ عليها، واستعمل مكانه رُوح بن حاتم، أشار به أبو عبيد الله وزير المهديّ.

وفيها أطلق المهديّ مَنْ كان في حبوس المنصور، إلّا مَنْ كان عنده بُعَة من دم أو مال، أو مَنْ يسعى في الأرض بالفساد، وكان فيمن أطلق يعقوب بن داود، مولى بني سُلَيْم.

وفيها توفيّ حُمَيْد بن قُحْطَبَة وهو على خراسان، واستعمل المهديّ بعده عليها أبا عَوْن عبد الملك بن يزيد.

وحجّ بالنّاس هذه السنة يزيد بن منصور خال المهديّ، عند قدومه من اليمن، وكان المهديّ قد كتب إليه بالقدوم عليه وتوليته الموسم.

وكان أمير المدينة عبد الله بن صفوان الجُمَحِيّ، وعلى أحداث الكوفة إسحاق بن الصَّبَّاح الكِنْدِيّ، وعلى خراجها ثابت بن موسى، وعلى قضائها شريك، وعلى صلاة البصرة عبد الملك بن أيوب، وعلى أحداثها عُمارة بن حمزة، وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن، وعلى كُور دجلة وكور الأهواز (٤٢/٦) وكور فارس، عُمارة بن حمزة، وعلى السند بسطام بن عمرو، وعلى اليمن رَجَاء بن رُوح، وعلى اليمامة بشر بن المنذر، وعلى خراسان أبو عَوْن عبد الملك بن يزيد، وكان حُمَيْد بن قُحْطَبَة قد مات فيها، فولّى المهديّ أبا عَوْن.

وكان على الجزيرة الفضل بن صالح، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم، وعلى مصر أبو ضَمْرَة محمد بن سليمان.

وفيها كان شقنا قد انتشر في نواحي شَنَتْ بَرِيّة، فسير إليه عبد الرّحمن، صاحب الأندلس، جيشاً، ففارق مكانه، وصعد الجبال كعادته فعاد الجيش عنه.

وفيها مات محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، الفقيه، بالكوفة، وهو مدَنِيّ، وعمره تسع وسبعون سنة.

وفيها توفيّ عبد العزيز بن أبي رَوَاد مولى المُغِيرَة بن المُهَلَّب، ويونس ابن أبي إسحاق السَّبْعِيّ الهَمْدَانِيّ، ومُخَرَّمَة بن بكير بن عبد الله بن الأشجّ المصريّ، وحسين بن واقد مولى ابن عامر، وكان على قضاء مَرَو، وكان يشتري الشيء من السوق فيحمله إلى عياله. (٤٣/٦)

ذكر رد نسب آل أبي بكره وآل زياد

وفي هذه السنة أمر المهدي برد نسب آل أبي بكره من ثقيف إلى ولاء رسول الله ﷺ. وسبب ذلك أن رجلاً منهم رفع ظلامته إلى المهدي، وتقرب إليه [فيها] بولاء رسول الله ﷺ فقال له المهدي: إن هذا نسب ما يقرؤون به إلا عند الحاجة، والاضطرار إلى التقرب إلينا. فقال له: من جحد ذلك، يا أمير المؤمنين، فإننا ستقر، وأنا أسألك أن تردني ومعرش آل أبي بكره إلى نسبنا من ولاء رسول الله ﷺ وتأمرك بالزياد فيخرجوا من نسبهم الذي ألحقوا به، ورغبوا عن قضاء رسول الله ﷺ: أن الولد للفراش، وللعمار الحجر، ويردوا إلى عبيد في موالى ثقيف.

فأمر المهدي برد آل أبي بكره إلى ولاء رسول الله ﷺ وكتب فيه إلى محمد بن موسى بذلك، وأن من أقر منهم بذلك ترك ماله بيده، ومن أباه اصطفى ماله.

فعرضهم، فأجابوا جميعاً إلا ثلاثة نفر، وكذلك أيضاً أمر برد نسب آل زياد إلى عبيد وأخرجهم من قرينش.

فكان الذي حمل المهدي على ذلك، مع الذي ذكرناه، أن رجلاً من آل زياد قدم عليه يقال له الصغدني بن سلم بن حرب بن زياد، فقال له المهدي: من أنت؟ فقال: ابن عمك. فقال: أي بني عمي أنت؟ فذكر (٤٨/٦) نسبه؛ فقال المهدي: يا ابن سميّة الزانية! متى كنت ابن عمي؟ وغضب وأمر به، فوجيء في عنقه وأخرج، وسأل عن استلحاق زياد، ثم كتب إلى العامل بالبصرة بإخراج آل زياد من ديوان قرينش والعرب، وردهم إلى ثقيف؛ وكتب في ذلك كتاباً بالغا، يذكر فيه استلحاق زياد، ومخالفة حكم رسول الله ﷺ فيه، فأسفطوا من ديوان قرينش، ثم إنهم بعد ذلك رثسوا العمال، حتى ردّهم إلى ما كانوا عليه، فقال خالد النجار:

إِنْ زَيْدًا وَنَافِعًا وَأَبَا بَكْرَةَ عِنْدِي مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ
ذَا قُرَيْشِي كَمَا يُقُولُونَ وَفَا مَوْلَى وَهَذَا بِزَعْمِهِ عَزِي

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة توفي عبد الله بن صفوان الجُمَحِي، أمير المدينة، واستعمل عليها مكانه محمد بن عبد الله الكثيري، ثم عزل واستعمل مكانه زُفَر بن عاصم الهلالي، وجعل على القضاء عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي.

وفيهما خرج عبد السلام الخارجي بنواحي الموصل.

وفيهما عزل بسطام بن عمرو عن السند، واستعمل عليها رُوح بن حاتم؛ وحج بالناس، هذه السنة، المهدي، واستخلف على بغداد ابنه موسى وخاله يزيد بن منصور، واستصحب معه جماعة من أهل بيته، وابنه هارون الرشيد، (٤٩/٦) وكان معه يعقوب بن داود، فاتاه

خلعه، فناروا به وهو في المقصورة، فأغلق الباب دونهم، فضربوا الباب بالعمد حتى هشموه، وشتموا عيسى أقبح الشتم، وأظهر المهدي إنكاراً لما فعلوه، فلم يرجعوا، فبقوا في ذلك أياماً إلى أن كاشفه أكابر أهل بيته، وكان أشدهم عليه محمد بن سليمان.

والتح عليه المهدي، فأبى، وذكر أن عليه إيماناً في أهله وماله، فأحضر له من القضاة والفقهاء عدة، منهم: محمد بن عبد الله بن علانة، ومسلم بن خالد الزنجي، فافتوه بما رأوا، فأجاب إلى خلع نفسه، فأعطاه المهدي عشرة آلاف ألف درهم، وضياًعاً بالزّاب وكُنُكراً، وخلع نفسه لأربع بقين من المحرم، وبايع للمهدي ولابنه موسى الهادي.

ثم جلس المهدي من الغد، وأحضر أهل بيته، وأخذ بيعتهم، ثم خرج إلى الجامع، وعيسى معه، فخطب الناس، وأعلمهم بخلع عيسى والبيعة للهادي، ودعاهم إلى البيعة، فسارع الناس إليها، وأشهد على عيسى بالخلع، فقال بعض الشعراء:

كِرَّةُ الْمَوْتِ أَبُو مُوسَى وَقَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ نَجَاةً وَكَرَمَ
خَلَعَ الْمَلِكُ وَأَضْحَى مُلْبَساً ثَوْبَ لَوْحٍ مَا تَرَى مِنْهُ الْقَتَمَ
(الرُّحْبَةُ بضم الراء قرية عند الكوفة، وصُبح بضم الصاد المهملة، وكسر الباء الموحدة). (٤٦/٦)

ذكر فتح مدينة بارتد

كان المهدي قد سير، سنة تسع وخمسين ومائة، جيشاً في البحر، وعليهم عبد الملك بن شهاب المسمعي إلى بلاد الهند في جمع كثير من الجند والمتطوعة، وفيهم الربيع بن صبيح، فساروا حتى نزلوا على بارتد، فلما نالوها حصروها من نواحيها، وحرّض الناس بعضهم بعضاً على الجهاد، وضابقوا أهلها، ففتحها الله عليهم هذه السنة عنوة واحتسّى أهلها بالبد الذي لهم، فأحرقه المسلمون عليهم، فأحرق بعضهم، وقتل الباقيون، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً، وأقامها الله عليهم، فهاج عليهم البحر، فأقاموا إلى أن طيب، فأصابهم مرض في أفواههم، فمات منهم نحو من ألف رجل فيها الربيع بن صبيح، ثم رجعوا.

فلما بلغوا ساحلاً من فارس يقال له بحر حمران عصفت بهم الرياح ليلاً، فانكسر عامة مراكبهم، ففرق البعض، ونجا البعض.

قيل: وفيها جعل أبان بن صدقة كاتباً لهارون الرشيد ووزيراً له.

وفيهما عزل أبو غزن عن خراسان عن سخطه، واستعمل عليها معاذ ابن مسلم.

وفيهما غزا ثُمَامَةُ بن [الوليد] العبسي الصائفة، وغزا الغمر بن العباس الخثعمي بحر الشام. (٤٧/٦)

بمكة بالحسن بن إبراهيم بن عبد الله العلوي الذي كان استأمن له، الإمام المشهور في النحو، أستاذ سيوفه. (٥١/٦)
فوصله المهدي وأقطعه.

سنة إحدى وستين ومائة

ذكر هلاك المقتنع

في هذه السنة سار مُعَاذ بن مُسْلِم وجماعة من القواد والعساكر إلى المقتنع، وعلى مقدمته سعيد الحرشي، وأتاه عتبة بن مُسْلِم بن زَمٍّ، فاجتمع به بالطواويس، وأوقعوا بأصحاب المقتنع، فهزمهم، فقصده المنهزمون إلى المقتنع يستام فعمل خندقها وحصنها، وأتاهم مُعَاذ فحاربهم، فجرى بينه وبين الحرشي تفرقة، فكتب الحرشي إلى المهدي يقع في مُعَاذ، ويضمن له الكفاية إن أفرد به حرب المقتنع، فأجابته المهدي إلى ذلك، فانفرد الحرشي بحربه، وأمدّه مُعَاذ بابنه رَجَاء في جيش، وبكل ما التمس منه، وطال الحصار على المقتنع، فطلب أصحابه الأمان سراً منه، فأجابهم الحرشي إلى ذلك، فخرج نحو ثلاثين ألفاً، وبقي معه زهاء ألفين من أرباب البصائر. وتحول رَجَاء بن مُعَاذ وغيره فنزلوا خندق المقتنع في أصل القلعة، وضيقوه.

فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله، وسقاهم السم، فأتى عليهم، (٥٢/٦) وأمر أن يُحْرَق هو بالنار لئلا يُقدَّر على جيشه؛ وقيل: بل أحرق كل ما في قلعة من دابة وثوب وغير ذلك، ثم قال: مَنْ أحب أن يرتفع معي إلى السماء فليلق نفسه معي في هذه النار! وألقى بنفسه مع أهله، ونسائه، وخواصه، فاحترقوا، ودخل العسكر القلعة، فوجدوها خالية خاوية.

وكان ذلك ممّا زاد في افتتان مَنْ بقي من أصحابه، والذين يسمّون الميضة بما وراء النهر من أصحابه، لأنهم يسرون اعتقادهم؛ وقيل: بل شرب هو أيضاً من السم، فمات، فأنفذ الحرشي رأسه إلى المهدي، فوصل إليه وهو بحلب سنة ثلاث وستين ومائة، في غزواته.

ذكر تغير حال أبي عبيد الله

في هذه السنة تغيرت حال أبي عبيد الله وزير المهدي، وقد ذكرنا فيما تقدّم سبب اتصاله به أيام المنصور، ومسيره معه إلى خراسان؛ فحكى الفضل بن الربيع أن الموالي كانوا يقعون في أبي عبيد الله عند المهدي ويحرضونه عليه؛ وكانت كتب أبي عبيد الله ترد على المنصور بما يفعل، ويعرضها على الربيع، ويكتب الكتب إلى المهدي بالوصاية به، وترك القول فيه.

ثم إن الربيع حجّ مع المنصور حين مات، وفعل في بيعه المهدي ما ذكرناه، فلما قدم جاء إلى باب أبي عبيد الله، قبل المهدي، وقيل أن يأتي أهله، فقال له ابنه الفضل: تترك أمير المؤمنين ومنزلك وتأتيه! قال: هو صاحب الرجل، (٥٣/٦) وينبغي

وفيها نزع المهدي كسوة الكعبة وكساها كسوة جديدة، وكان سبب نزعه أن حبيبة الكعبة ذكروا له أنهم يخافون على الكعبة أن تهتدم لكثرة ما عليها من الكسوة، فنزعها، وكانت كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخين، وما قبلها من عمل اليمن؛ وقسم مالا عظيماً، وكان معه من العراق ثلاثون ألف ألف درهم، ووصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار، ففرّق ذلك كله، وفرّق مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، ووسّع مسجد رسول الله ﷺ وأخذ خمسمائة من الأنصار يكونون حرساً بالعراق، وأقطعهم بالعراق، وأجرى عليهم الأرزاق.

وحمل إليه محمد بن سليمان الثلج إلى مكة، وكان أول خليفة حمل إليه الثلج إلى مكة، وردّ المهدي على أهل بيته وغيرهم وظائفهم التي كانت مقبوضة عنهم.

وكان على البصرة، وكور دجلة، والبحرين، وعمان، وكور الأهواز، وفارس، ومحمد بن سليمان، وعلى خراسان مُعَاذ بن مسلم، وباقي الأمصار على ما تقدّم ذكره.

وفيها أرسل عبد الرحمن الأموي بالأندلس أبا عثمان عبيد الله بن عثمان، وتما بن علقمة، إلى شقنا، فحاصراه شهوراً بحصن شبطران، وأعياهما أمره، ففلا عنه، ثم إن شقنا، بعد عودهما عنه، خرج من شبطران إلى قرية من قرى شنت بركة ركباً على بغلته التي تسمى الخلاصة، فاغتناله (٥٠/٦) أبو معن وأبو خزيم، وهما من أصحابه، فقتلاه، ولحقا بعبد الرحمن، ومعهما رأسه، فاستراح الناس من شره.

وفيها مات داود بن نصير الطائي الزاهد، وكان من أصحاب أبي حنيفة؛ وعبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود المسعودي أيضاً؛ وشعبة بن الحجاج أبو بسطام، وكان عمره سبعاً وسبعين سنة؛ وإسرائيل ابن يونس بن أبي إسحاق السبيعي، وقيل توفي سنة أربع وستين.

وفيها توفي الربيع بن مالك بن أبي عامر، عم مالك بن أنس النقي، كنيته أبو مالك، وكانوا أربعة إخوة أكبرهم أنس والد مالك، ثم أوس جد إسماعيل بن أوس، ثم نافع، ثم الربيع.

وفيها توفي خليفة بن خياط العصفري اللبني، وهو جد خليفة بن خياط.

(خياط بالخاء المعجمة، وبالياء المثناة من تحت)

وفيها توفي الخليل ابن أحمد البصري القرهودي النحوي،

بالشام، فأخذه، وقدم به على المهديّ، فحبسه في المَظْبِيقِ، وجاء عمرو بن سَهْلَةَ الأشعريّ، فأدعى أنّ عبد الله قتل أباه، وحاكمه عند عافية القاضي فترجّحه الحكم على (٥٥/٦) عبد الله فجاء عبد العزيز بن مسلم المُعَلِّيّ إلى القاضي فقال: زعم عمرو ابن سَهْلَةَ أنّ عبد الله قتل أباه، وكذب، والله، ما قتل أباه غيري؛ أنا قتلته بأمر مروان، وعبد الله بريء من دمه؛ فترك عبد الله، ولم يعرض المهديّ لعبد العزيز، لأنّه قتله بأمر مروان.

وفيها غزا الصائفة ثُمَامَةُ بن الوليد، فنزل بدابق، وجاشت الروم مع ميخائيل في ثمانين ألفاً، فأثنى عُمُق مَرَعَش، فقتل، وسبى، وغنم، وأثنى مَرَعَش فحاصرهما، فقاتلهم، فقتل من المسلمين عدّة كثيرة. وكان عيسى ابن عليّ مرابطاً بحصن مَرَعَش فانصرف الروم إلى جَيْحَان، وبلغ الخبر المهديّ، فعظم عليه، وتجهّز لغزو الروم، على ما سنذكره سنة اثنتين وستين ومائة، فلم يكن للمسلمين صائفة من أجل ذلك.

وفيها أمر المهديّ ببناء القصور بطريق مَكّة، أوسع من القصور التي بناها السّفاح من القادسيّة إلى رُبَالَة، وأمر باتخاذ المصانع في كلّ منهل منها، وتجديد الأميال والبُرك، ويحفر الركايا، ووليّ ذلك يقطين بن موسى، وأمر بالزيادة في مسجد البصرة، وتقصير المنابر في البلاد، وجعلها بمقدار منبر النبي ﷺ إلى اليوم.

وفيها أمر المهديّ يعقوب بن داود بتوجيه الأمان في جميع الأفاق، ففعل، فكان لا يُنْفَذ المهديّ كتاباً إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب إلى أمينه بإفناذ ذلك.

وفيها غزا العُمُرُ بن العبّاس في البحر.

وفيها ولي نصر بن محمّد بن الأشعث السّند، ثمّ عُزل بعبد الملك بن شهاب، فبقي عبد الملك ثمانية عشر يوماً ثمّ عُزل وأعيد نصر من الطريق. (٥٦/٦)

وفيها استقضى المهديّ عافية القاضي مع ابن عُلاثة بالرُصافة.

وفيها عزل الفضل بن صالح عن الجزيرة، واستعمل عليها عبد الصمد بن عليّ، واستعمل عيسى بن لُقمان على مصر، ويزيد بن منصور على سواد الكوفة، وحسّان الشّروبي على الموصل، وبسطام بن عمرو التغلبي على أذربيجان.

وفيها توفي نصر بن مالك من فالج أصابه، وولى المهديّ بعده شُرطته حمزة بن مالك، وصرف إبان بن صدقة عن هارون الرشيد، وجعل مع موسى الهادي، وجعل مع هارون يحيى بن خالد بن برمك.

وفيها عُزل محمد بن سليمان أبو ضَمْرَة عن مصر في ذي

أن نعامله غير ما كنّا نعامله به، وترك ذكر نصرتنا له.

فوقف على باب من المغرب إلى أن صُلّيت العشاء الآخرة، ثمّ أذن له، فدخل فلم يقم له وكان متكئاً، فلم يجلس، ولا أقبل عليه، وأراد الربيع أن يذكر له ما كان منه في أمر البيعة، فقال: قد بلغنا أمركم؛ فأوغر صدر الربيع، فلمّا خرج من عنده قال له ابنه الفضل: لقد بلغ فعل هذا بك ما فعل، وكان الرأي أن لا تأتيه، وحيث أتيتّه وحجب: أن تعود، وحيث دخلت عليه فلم يقم لك أن تعود.

فقال لابنه: أنت أحمق حيث تقول: كان ينبغي أن لا تجي، وحيث جئت وحجب أن تعود، ولما دخلت فلم يقم لك كان ينبغي أن تعود؛ ولم يكن الصواب إلّا ما عملته، ولكن والله، وأكّد اليمين، لأخلعن جاهي، ولأنفقن مالي حتى أبلغ مكروهه.

وسعى في أمره، فلم يجد عليه طريقاً لاحتياطه في أمر دينه وأعماله، فأتاه من قِبَل ابنه محمّد، فلم يزل يحتال ويدسّ إلى المهديّ، ويتهمه ببعض خُرمه، وبأنّه زنديق، حتى استحكمت التهمة عند المهديّ بابنه، فأمر به فأحضر، وأخرج أبوه، ثمّ قال له: يا محمّد! اقرأ، فلم يُحَسِّن يقرأ شيئاً، فقال لأبيه: ألم تُعلمني أنّ ابنك يحفظ القرآن؟ قال: بلى ولكنه فارقت منذ سنين، وقد نسي. قال: فقم فتقرّب إلى الله بدمه، فقام ليقتل ولده، فعثر فوقع، فقال العبّاس بن محمّد: إن رأيت أن يُعفي الشيخ، فافعل. فأمر بابنه فضربت عنقه، وقال له الربيع: يا أمير المؤمنين! تقتل ابنه وتثبّ إليه! لا ينبغي ذلك. فاستوحش منه، وكان من أمره ما نذكره. (٥٤/٦)

ذكر عبور الصقليّ إلى الأندلس وقتله

وفي هذه السنة، وقيل سنة ستين، عبر عبد الرحمن بن حبيب الفهريّ، المعروف بالصقليّ، وإنّما سُمّي به لطوله وزرقته وشقرته، من إفريقية إلى الأندلس محارباً لهم، ليدخلوا في الطاعة للدولة العبّاسيّة، وكان عبوره في ساحل تَدْمِير، وكاتب سليمان بن يقظان بالدخول في أمره، ومحاربة عبد الرّحمن الأمويّ، والدعاء إلى طاعة المهديّ.

وكان سليمان بَبرشُلُونَة، فلم يجبه، فاغتاظ عليه، وقصد بلده فيمنّ معه من البربر، فهزمه سليمان، فعاد الصقليّ إلى تَدْمِير، وسار عبد الرّحمن الأمويّ نحوه في العدد والعدّة، وأحرق السفن تضييقاً على الصقليّ في الهرب، فقصد الصقليّ جبلاً منيعاً بناحية بَلَنْسِيَة، فبذل الأمويّ ألف دينار لمن أتاه برأسه، فاغتاله رجل من البربر، فقتله، وحمل رأسه إلى عبد الرحمن، فأعطاه ألف دينار، وكان قتله سنة اثنتين وستين ومائة.

ذكر عدّة حوادث

وفيها ظفر نصر بن محمّد بن الأشعث بعبد الله بن مروان

فكانت الجزيرة مع عبد الصمد بن علي، وطبرستان والرويان مع سعيد بن دعلج، وجرجان مع مهلهل بن صفوان.

وفيها أرسل عبد الرحمن، صاحب الأندلس، شهيد بن عيسى إلى دحية الغساني، وكان عاصياً في بعض حصون البيرة، فقتله، وسير بداراً مولاه إلى إبراهيم بن شجرة البرلسي، وكان قد عصى، فقتله، وسير أيضاً ثمانية بن علقمة إلى العباس البربري، وهو في جمع من البربر، وقد أظهر (٥٩/٦) العصيان، فقتله أيضاً وفرق جموعه.

وفيها سير جيشاً مع حبيب بن عبد الملك القرشي إلى القائد السلمي، وكان حسن المنزلة عند عبد الرحمن أمير الأندلس، فشرّب ليلة، وقصد باب القنطرة ليفتحه على شكر منه، فمنعه الحرس، فعاد، فلما صحا خاف، فهرب إلى طليطلة، فاجتمع إليه كثير ممن يريد الخلاف والشّر، فعاجله عبد الرحمن بإفخاذ الجيوش إليه، فنازله في موضع قد تحصّن فيه، وحصره، ثم أنّ السلمي طلب البراز، فبرز إليه مملوك أسود، فاختلفا ضربتين فوقهما صريعين، ثم ماتا جميعاً.

وفيها توفي عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، قاضي إفريقية، وقد جاوز تسعين سنة، وسبب موته أنه أكل عند يزيد بن حاتم سمكاً، ثم شرب لبناً، وكان يحثي بن ماسويه الطبيب حاضراً، فقال: إن كان الطبّ صحيحاً، مات الشيخ الليلة، فتوفي من ليلته تلك، واللّه أعلم. (٦٠/٦)

سنة ثلاث وستين ومائة

ذكر غزو الروم

في هذه السنة تجهّز المهدي لغزو الروم، فخرج وعسكر بالبردان، وجمع الأجناد من خراسان وغيرها، وسار عنها، وكان قد توفي عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس في جمادى الآخرة، وسار المهدي من الغد، واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد، وسار على الموصل والجزيرة، وعزل عنها عبد الصمد بن علي في مسيره ذلك.

ولما حاذى قصر مسلمة بن عبد الملك قال العباس بن محمد بن علي للمهدي: إنّ لمسلمة في أعناقنا بئنة، كان محمد بن علي مرّ به، فأعطاه أربعة آلاف دينار، وقال له: إذا نفدت فلا تحتشمنا! فأحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه، وأمر لهم بعشرين ألف دينار، وأجرى عليهم الأرزاق، وعبر الفرات إلى حلب، وأرسل، وهو بحلب، فجمع من تلك الناحية من الزنادقة، فجمعوا، فقتلهم، وقطع كبهم بالسكاكين، وسار عنها مشياً لابنه هارون الرشيد، حتى جاز الدرب وبلغ جيحان، فسار هارون، ومعه عيسى بن

الحجة، ووليها سلمة بن رجاء؛ وحج بالنّاس موسى الهادي وهو ولي عهد؛ وكان عامل مكة والطائف واليمامة جعفر بن سليمان؛ وعامل اليمن علي بن سليمان؛ وكان على سواد الكوفة يزيد بن منصور، وعلى أحداثها إسحاق بن منصور.

وفيها توفي سفيان الثوري، وكان مولده سنة سبع وتسعين؛ وزائدة ابن قدامة أبو الصلت التقي الكوفي؛ وإبراهيم بن أدهم بن منصور أبو إسحاق الزاهد، وكان مولده يبلخ، وانتقل إلى الشام فأقام به مرابطاً، وهو من بكر بن وائل، ذكره أبو حاتم البستي. (٥٧/٦)

سنة الثنتين وستين ومائة

ذكر قتل عبد السلام الخارجي

وفي هذه السنة قتل عبد السلام بن هاشم اليشكري بقتلرين، وكان قد خرج بالجزيرة، فاشتدت شوكته، وكثر أتباعه، فلقبه عدّة من قواد المهدي فيهم: عيسى بن موسى، القائد، فقتله في عدّة من معه، وهزم جماعة من القواد فيهم شبيب بن واج المروزي، فندب المهدي إلى شبيب ألف فارس، وأعطى كلّ رجل منهم ألف درهم معونة، فوافوا شبيباً فخرج بهم في طلب عبد السلام، فهرب منه، فأدركه بقتلرين، فقاتله، فقتله بها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وضع المهدي دواوين الأزمة، وولى عليها عمرو بن مربيعة مولاه، وأجرى المهدي على المجتمعين وأهل السجون [الأرزاق] في جميع الأفاق. (٥٨/٦)

وفيها خرجت الروم إلى الحدّث، فهدموا سورها؛ وغزا الصائفة الحسن ابن قحطبة في ثمانين ألف مرتزق سوى المتطوعة، فبلغ حمة أدرولية، وأكثر التحريق والتخريب في بلاد الروم، ولم يفتح حصناً، ولا لقي جمعاً، وسبّه الروم الثنتين، وقالوا: إنّما أتى الحمة ليغتسل من مائها للوضّح الذي به، ورجع الناس سالمين.

وفيها غزا يزيد بن أسيد السلمي من ناحية قاليقلا، فغنم، وافتتح ثلاثة حصون، وسبى.

وفيها عزل علي بن سليمان عن اليمن، واستعمل مكانه عبد الله بن سليمان، وعزل سلمة بن رجاء عن مصر، ووليها عيسى بن لقمان في المحرم، وعزل عنها في جمادى الآخرة، ووليها واضح مولى المهدي، ثم عزل في ذي القعدة، ووليها يحيى الخرشبي.

وفيها خرجت المحمرة بجرجان، عليهم رجل اسمه عبد القهار، فغلب عليها، وقتل بشراً كثيراً، فغزاه عمر بن العلاء من طبرستان، فقتله عمر وأصحابه، وكان العمال من تقدّم ذكرهم،

وموسى، وعبد الملك بن صالح، والربيع، والحسن بن قحطبة،
والحسن وسليمان ابنا برمك، ويحيى بن خالد بن برمك، وكان إليه
أمر (٦١/٦) العسكر، والتفقات، والكتابة وغير ذلك، فساروا فنزلوا
على حصن سَمالوا، فحصره هارون ثمانية وثلاثين يوماً ونصب
عليه المجانيق، ففتحه الله عليهم بالأمان، ووفى لهم، وفتحوا
فتوحاً كثيرة.

ولما عاد المهدي من الغزاة زار بيت المقدس، ومعه يزيد بن
منصور والعباس ابن محمد بن علي والفضل بن صالح بن علي
وعلي بن سليمان بن علي، وقفل المسلمون سالمين، إلا سَن قُتل
منهم؛ وعزل المهدي إبراهيم بن صالح عن فلسطين، ثم رده.

سنة أربع وستين ومائة

في هذه السنة غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن
بن زيد بن الخطّاب من دَرَب الحَدَث، فأتاه ميخائيل البطريرق،
وطاراذ الأرمني البطريرق في تسعين ألفاً، فخاف عبد الكبير، ومنع
الناس من القتال، ورجع بهم، فأراد المهدي قتله، فشنع فيه فحبسه.
وفيها عزل المهدي محمد بن سليمان عن البصرة، وسائر
أعماله، واستعمل صالح بن داود مكانه.

ذكر عدة حوادث

وفيها سار المهدي ليحج، فلما بلغ العقبة رأى قلة الماء
خاف أن الماء لا يحمل للناس، وأخذته أيضاً حمى، وصر
أخاه صالحاً ليحج بالناس، ولحق الناس عطشاً شديداً حتى كادوا
يهلكون، وغضب المهدي على يقطين لأنه صاحب المصانع.

في هذه السنة ولّى المهدي ابنه هارون المغرب كله،
وأذربيجان، وأرمينية، وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى،
وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك.

وفيها عزل زُفر بن عاصم عن الجزيرة، واستعمل عليها عبد
الله بن صالح.

وفيها عزل عبد الله بن سليمان عن اليمن عن سخطه، ووجه
من يستقبله، ويفتش متاعه، [ويحصى ما معه]، واستعمل على
اليمن منصور بن يزيد بن منصور، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم،
وكان العمال من تقدم ذكرهم، وعلى الموصل محمد ابن الفضل.

وفيها عزل المهدي مُعَاذَ بن مُسلم عن خراسان واستعمل
عليها المسبّب بن زهير الضبي، وعزل يحيى الخزني عن أصبهان،
وولّى مكانه الحكم بن سعيد، وعزل سعيد بن دعلج عن طبرستان
والرويان، وولاهما عمر بن العلاء، وعزل مهلهل بن صفوان عن
جرجان، وولاهما هشام بن سعيد.

وفيها سار عبد الرحمن الأموي إلى سرقسطة، بعد أن كان قد
سير إليها ثعلبة بن عبيد في عسكر كثيف، وكان سليمان بن يقظان،
والحسين ابن يحيى قد اجتمعا على خلع طاعة عبد الرحمن، كما
ذكرنا، وهما بها، فقاتلها ثعلبة قتالاً شديداً، وفي بعض الأيام عاد
إلى مخيمه، فاغتمت سليمان (٦٤/٦) غرته، فخرج إليه، وقبض
عليه، وأخذه، وتفرّق عسكره، واستدعى سليمان قارله ملك
الإفرنج، ووعده بتسليم البلد وثعلبة إليه، فلما وصل إليه لم يصبَح
بيده غير ثعلبة، فأخذه وعاد إلى بلاده، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم
الفداء، فأهمله عبد الرحمن مدة، ثم وضع سن طلبه من الفرنج،
فاطلقوه.

وكان على مكة والمدينة والطائف واليامة جعفر بن سليمان؛
وكان (٦٢/٦) على الكوفة إسحاق بن الصباح؛ وعلى البصرة
وفارس والبحرين والأهواز محمد بن سليمان؛ وعلى السند نصر
بن محمد بن الأشعث؛ وعلى الموصل محمد بن الفضل.

وحج بالناس هذه السنة علي بن المهدي.

فلما كان هذه السنة سار عبد الرحمن إلى سرقسطة، وفرّق
أولاده في الجهات ليدفعوا كلّ مخالف، ثم يجتمعون بسرقسطة،
فسبقهم عبد الرحمن إليها، وكان الحسين بن يحيى قد قتل سليمان
بن يقظان، وانفرد بسرقسطة، فوفاه عبد الرحمن على أثر ذلك،
فضيّق على أهلها تضيقاً شديداً.

وفيها أظهر عبد الرحمن الأموي، صاحب الأندلس، التجهّز
للخروج إلى الشام بزعمه لمحو الدولة العباسية، وأخذ ثاره منهم،
فعصى عليه سليمان ابن يقظان، والحسين بن يحيى بن سعيد بن
سعد بن عثمان الأضاري بسرقسطة، واشتد أمرهما، فترك ما كان
عزم عليه.

وفيها مات موسى بن علي بن رباح اللخمي (بضم العين
مُصَغَّرًا ورياح بالياء الموحدة).

وأتاه أولاده من النواحي، ومعهم كل من كان خالفهم،
وأخبروه عن طاعة غيرهم، فرغب الحسين في الصلح، وأذن
للطاعة، فأجابه عبد الرحمن، وصالحه، وأخذ ابنه سعيداً رهينة،

وفيها مات إبراهيم بن طهمان، وكان عالماً فاضلاً، وكان
مرجئاً من أهل نيسابور، ومات بمكة.

وفيها توفي أبو الأشهب جعفر بن حيّان بالبصرة.

ورجع عنه، وغزا بلاد الفرنج، فدوَّخها، ونهب وسبى وبلغ قَلْمُهرَة، وفتح مدينة فكيرة، وهدم قلاع تلك الناحية، وسار إلى بلاد البشكنس، ونزل على حصن مشمين الأقرع، فاقتحه، ثم تقدَّم إلى ملدوثون بن اطلال، وحصر قلعته، وقصد النَّاسُ جبلها، وقتلوه فيها، فملكوها عنوةً وخربها ثم رجع إلى قُرْبَة.

وفيها ثارت فتنة بين بربر بَلَنْسِيَة وبربر شَنْت بَرِيَة من الأندلس، وجري بينهم حروب كثيرة قُتل فيها خلق كثير من الطائفتين، وكانت وقائعهم مشهورة. (٦٥/٦)

وفيها مات شَيْبَان بن عبد الرحمن أبو معاوية التميمي النحوي البصري، وعبد العزيز بن عبد الله بن أبي سَلَمَة الماجشون؛ وعيسى بن علي بن عبد الله ابن عباس عم المنصور، وقيل: مات سنة ثلاث وستين، وكان عمره ثمانياً وسبعين سنة، وقيل ثمانين سنة؛ وسعيد بن عبد العزيز الدمشقي، وسلام بن يسكين النمرى الأزدي، أبو رُوح، والمبارك بن فضالة بن أبي أمية القرشي، مولى عمر بن الخطاب. (٦٦/٦)

سنة خمس وستين ومائة

ذكر غزو الروم

في هذه السنة سَير المهديّ ابنه الرشيد لغزو الروم صائفة، في جمادى الآخرة، في خمسة وتسعين ألفاً وتسعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً، ومعه الربيع، فوغَلَ هارون في بلاد الروم، ولقيه عسكر نقيطا قَوْمَس القواسمة، فبارزه يزيد بن مَزِيد الشيبانيّ فائتخه يزيد وانهمزت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم.

وساروا إلى الدُّمَشْق، وهو صاحب المسالح، فحمل لهم مائة ألف دينار وثلاثة وتسعين ألفاً وأربعمائة وخمسين ديناراً، ومن الورق أحدىً وعشرين ألف ألف درهم وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم.

وسار الرشيد حتى بلغ خليج القسطنطينية، وصاحبُ الروم يومئذ عطسه امرأة اليون، وذلك أنَّ ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها، فجرى الصلح بينها وبين الرشيد على الفدية، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في الطريق، وذلك أنه دخل مدخلاً ضيقاً مخوفاً، فاجابته إلى ذلك، ومقدار الفدية سبعون ألف دينار كل سنة، ورجع عنها.

وكانت الهدنة ثلاث سنين، وكان مقدار ما غنم المسلمون إلى أن اصطلحوا (٦٧/٦) خمسة آلاف رأس سبي وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً؛ ومن الدوابِّ الذَّلُّل بأدواتها عشرين ألف رأس، وذُبَح من البقر والغنم مائة ألف رأس، وقُتل من الروم، في الوقائع،

أربعة وخمسون ألفاً، وقُتل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً. ذكر عدة حوادث في هذه السنة عَزَل خَلَف بن عبد الله عن الري، ووليها عيسى مولى جعفر.

وحجَّ بالنَّاس هذه السنة صالح بن المنصور، وكان الْعَمَال مَنْ تقدَّم ذكرهم، غير أنَّ البصرة كان على أجدانها والصلاة بها رُوح بن حاتم؛ وكان على كُور دجلة، والبحرين، وعُمان، وكُنُكُر، والأهواز، وفارس، وكُرْمان الْمُعَلَّى مولى المهدي، وكان على الموصل أحمد بن إسماعيل بن عليّ ابن عبد الله بن عباس.

وفيها غدر الحسين بن يحيى سَرَقُسطَة، فنكث مع عبد الرحمن، فسَير إليه عبد الرحمن غالب بن ثُمالة بن علقمة في جند كثيف، فاقتلوا، فأسر جماعة من أصحاب الحسين فيهم ابنه يحيى، فسَيرهم إلى الأمير عبد الرحمن، فقتلهم، وأقام ثُمالة بن علقمة على الحسين يحصره؛ ثم إنَّ الأمير عبد الرحمن سار سنة ست وستين ومائة إلى سَرَقُسطَة بنفسه، فحصرها، (٦٨/٦) وضايقها، ونصب عليها المجانيق سنةً وثلاثين منجنيقاً، فملكها عنوة، وقتل الحسين أقبج قتلة، ونفى أهل سَرَقُسطَة منها ليمين تقدَّمت منه، ثم رَدَّعهم إليها.

وفيها مات يزيد بن منصور بن عبد الله بن يزيد بن شهر بن مَثُوب، وهو من ولد شهر ذي الجناح الجُمَيْرِيّ، خال المهدي، وقد كان ولي اليمن والبصرة والحج.

وفيها توفي فتح بن الوشاح الموصلِي الزاهد. (٦٩/٦)

سنة ست وستين ومائة

في هذه السنة أخذ المهديّ البيعة لولده هارون الرشيد بولاية العهد، بعد أخيه موسى الهادي، ولقبه الرشيد. وفيها عَزَل عُبيد الله بن الحسن العنبري عن قضاء البصرة، واستعفى خالد بن طَلَيْق بن عمران بن حُصَيْن، فاستعفى أهل البصرة منه.

ذكر القبض على يعقوب بن داود

وفي هذه السنة سخط المهديّ على وزيره يعقوب بن داود بن طَهْمَان؛ وكان أوَّل أمرهم أنَّ داود بن طَهْمَان، وهو أبو يعقوب، كان يكتب لنصر بن سَيَّار، هو وإخوته، فلَمَّا كان أيام يحيى بن زيد كان داود يعلمه ما يسمعه من نصر، فلَمَّا طلب أبو مسلم الخراساني بدم يحيى بن زيد أتاها داود، لما كان بينه وبين يحيى، فأمنه أبو مُسلم في نفسه، وأخذ ماله الذي استفاد أيام نصر.

فلَمَّا مات داود خرج أولاده أهل أدب وعلم، ولم يكن لهم

مجلسنا هذا؟ قلتُ: على غاية الحسن، فَمَتَّعَ اللَّهُ أمير المؤمنين به؛ قال: هو لك بما فيه وهذه الجارية لِيَتِمَّ سرورك به. قال: فدعوت له ثم قال لي: يا يعقوب، ولي إليك حاجة أحب أن تضمن لي قضاؤها؛ قلتُ: الأمر لأمير المؤمنين، وعليَّ السمع والطاعة؛ فاستحلفني بالله وبرأسه، فحلفتُ لأعملنَ بما قال، فقال: هذا فلان بن فلان من ولد علي بن أبي طالب، وأحب أن تكفيني مؤونته وتريحني منه وتعجل ذلك؛ قلتُ: أفعل؛ فأخذته وأخذتُ الجارية وجميع ما في المجلس، وأمر لي بمائة ألف درهم، فشدته سروري بالجارية صيرتها في مجلس بيني وبينها ستر، وأدخلتُ العلوي إليَّ وسألته عن حاله، فأخبرني، وإذا هو أعقل الناس وأحسنهم إبانة عن نفسه؛ ثم قال: ويحك يا يعقوب، تلقى الله بدمي، وأنا رجل من ولد فاطمة بنت (٧٢/٦) محمد، ﷺ!

قلتُ: لا والله، فهل فيك أنت خير؟ قال: إن فعلتُ خيراً شكرتُ، ولك عندي دعاء واستغفار.

فقلتُ: أي الطرق أحب إليك؟ قال: كذا وكذا، فأرسلتُ إلى من يثق إليه العلوي، فأخذه وأعطيته مالاً، وأرسلتُ الجارية إلى المهدي تُعلمه الحال، فأرسل إلى الطريق، فأخذ العلوي وصاحبه والمال.

فلما كان الغد استحضرنِي المهديَّ وسألني عن العلوي، فأخبرته أنني قتلته، فاستحلفني بالله وبرأسه، فحلفتُ له، فقال: يا غلام أخرج إلينا ما في هذا البيت، فأخرج العلوي وصاحبه والمال، فبقيتُ متحيراً، وامتنع مني الكلام فما أدري ما أقول، فقال المهدي: قد حلَّ لي دمك، ولكن احبسوه في المُطْبِق ولا أذكر به.

فحبستُ في المُطْبِق، واتخذ لي فيه بئر، فذليتُ فيها، فبقيتُ مدة لا أعرف عددها، وأصبحتُ بيصري.

قال: فإني لكذلك إذ دُعِي بي، وقيل لي: سلَّم على أمير المؤمنين! فسلمتُ؛ قال: أي أمير المؤمنين أنا؟ قلتُ: المهدي، قال: رحم الله المهدي. قلتُ: فالهادي، قال: رحم الله الهادي. قلتُ: فالرشيد، قال: نعم! سل حاجتك. قلتُ: المقام بمكة، فما بقي في مستمتعٍ لشيء ولا بلاغ، فأذن لي، فسيرتُ إلى مكة، قال: فلم تطلَّ أيامه بها حتى مات.

وكان يعقوب قد ضجر بموضعه قبل حبسه، وكان أصحاب المهدي يشربون عنده، فكان يعقوب ينهائهم عن ذلك، ويعظه، ويقول: ليس على هذا استوزرتني، ولا عليه صحبتك، أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ؟ فضيق على المهدي حتى قيل: (٧٣/٦)

فدَعَّ عنك يعقوب بن داود جانباً وأقبل على صُهْبَاء طَيِّبَةِ النَّشْرِ

عند بني العباس منزلة، فلم يطعموا في خدمتهم لحال أيهم من كتابة نصر، وأظهروا مقالة الزيدية، ودنوا من آل الحسين، وطمعوا أن تكون لهم دولة، فكان (٧٠/٦) داود يصحب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أحياناً، وخرج معه هو وعدة من إخوته، فلما قُتِل إبراهيم طلبهم المنصور، فأخذ يعقوب وعلياً وحبسهما، فلما تَوَقَّي المنصور أطلقهما المهدي مع من أطلقه، وكان معهما الحسن بن إبراهيم، فأتصل إلى المهدي بسببه، كما تقدَّم ذكره، وقيل: أتصل به بالسعاية بآل علي، ولم يزل أمره يرتفع، حتى استوزره.

وكان المهدي يقول: وُصف لي يعقوب في منامي، فقبل لي: استوزره، فلما رأيته رأيتُ الخلفة التي وُصفت لي، فاتخذته وزيراً؛ فلما ولي الوزارة أرسل إلى الزيدية، فجمعهم وولاهم أمور الخلافة في المشرق والمغرب، ولذلك قال بشار بن بُرد:

بني أُمَيَّة مُهَبَّو طَالِ نَوْمُكُمْ
إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمُ فَاتَّسَوْا
خَلِيفَةَ اللَّهِ يَنْتَابِي وَالْمَوْدُ

فحسده موالِي المهدي، وسَخَّوْا به، وقيل له: إنَّ المشرق والغرب في يد يعقوب وأصحابه، وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا في يوم واحد فيأخذوا الدنيا [لإسحاق بن الفضل].

فملاً ذلك قلب المهدي، ولما بنى المهدي عيساباذ أتاه خادم من خدمه فقال له: إنَّ أحمد بن إسماعيل بن علي قال لي: أبنى منزهاً أنفق عليه خمسين ألف ألف من بيت المال؟ فحفظها المهدي، ونسي أحمد بن إسماعيل، وظنَّ أنَّ يعقوب قالها، فبينما يعقوب بين يديه إذ لَبَّيه فضرب به الأرض، وقال: ألسن القائل كيت وكيت؟ فقال: والله ما قلته ولا سمعته! قال: وكان السُّعَا يسعون بيعقوب ليلاً، ويتفرقون وهم يعتقدون أنه يقبضه بكرة، فإذا أصبح غدا عليه، فإذا نظر إليه تبسَّم وسأله عن مبيته. (٧١/٦)

وكان المهدي مستهتراً بالنساء، فيخوض يعقوب معه في ذلك فيفترقان عن رضى، ثم إنه كان ليعقوب برؤؤن كان يركبه، فخرج يوماً من عند المهدي وعليه طيلسان يتقعقع من كثرة دَقِّه والبرذون مع الغلام، وقد نام الغلام، فركب يعقوب، وأراد تسوية الطيلسان، فنفر من قعقعه، فسقط، فلنا من دابته، فرفسه، فانكسر ساقه، فانقطع عن الركوب، فعاده المهدي من الغد، ثم انقطع عنه، فتمكَّن السُّعَا منه، فآظهر المهدي السُّخْط عليه، ثم أمر به فُسْجَن في سجن نصر، وأخذ عُمَاله وأصحابه فحبسوا.

وقال يعقوب بن داود: بعث إليَّ المهدي يوماً، فدخلتُ عليه وهو في مجلس مفروش بفروش مورّد على بستان فيه شجر، ورؤوس الشجر مع صحن المجلس، وقد اكسى ذلك الشجر بالأزهار، فما رأيتُ شيئاً أحسن منه، وعنده جارية عليها نحو ذلك الفرش ما رأيتُ أحسن منها، فقال لي: يا يعقوب! كيف ترى

وقال يعقوب يوماً للمهدي في أمر أراده: هذا، والله، السرف! فقال المهدي: ويحك يا يعقوب، إنما يحسن السرف بأهل الشرف، ولولا السرف لم يُعرف المكثرون من المقلّين.

سنة سبع وستين ومائة

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار موسى الهادي إلى جرجان في جمع كثيف وجهاز لم يتجهز أحد بمثله لمحاربة ونذاد هُرْمُز، وشروين، صاحبَي طبرستان، وجعل المهدي على رسائل موسى أبا بن صدقة، ومحمد بن جُمَيْل على جنده، ونُفَيْعاً مولى المنصور على حجابته، وعلي بن عيسى بن ماهان على حرسه، فسير الهادي الجنود إليهما، وأمر عليهم يزيد بن مَزِيد، فحاصرهما.

وفيها توفي عيسى بن موسى بالكوفة، فاشهد رُوح بن حاتم على وفاته القاضي وجماعة من الوجوه، ودُفن، وكان عمره خمساً وستين سنة، ومدة ولايته العهد ثلاثاً وعشرين سنة، وقد تقدّم ذكر ولايته العهد وعزله عنه.

وفيها جدّ المهدي في طلب الزنادقة، فاخذ يزيد بن الفيض، فأقرّ، فحُسي، فهرب، فلم يقدر عليه. وكان المتوكلّي لأمر الزنادقة [عمر] الكلؤذاني.

وفيها عزل المهدي أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل وولاه الربيع.

وفيها كان الوباء ببغداد والبصرة، وفشا في الناس سعال شديد.

وفيها توفي أبان بن صدقة، كاتب الهادي، فوجّه المهدي مكانه أبا (٧٦/٦) خالد الأحول.

وفيها أمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ فدخلت فيه دور كثيرة، وكان المتوكلّي لبنائه يقطّين بن موسى، فبقي البناء فيه إلى أن توفي المهدي؛ وكذلك أمر بالزيادة في المسجد الجامع بالموصل، ورأيت لوحاً فيه ذكر ذلك، وهو في حائط الجامع، سنة ثلاث وستمئة وهو باقٍ.

وفيها عزل يحيى الحرشي عن طبرستان والرؤيان، وما كان إليه، ووليه عمر بن العلاء، وولي جرجان قراشة مولى المهدي.

وفيها أظلمت الدنيا ثلاث مضي من ذي الحجة، حتى تعالي النهار، ولم يكن صائفة، للهدنة؛ وحج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس، وهو على المدينة، ثم توفي بعد فراغه من الحج بأيام، وتولى مكانه إسحاق بن عيسى بن علي.

وفيها طعن عُقبة بن سلّم الهنائي، اغتاله بخنجر، فمات ببغداد.

وكان على اليمن سليمان بن يزيد الحارثي؛ وعلى اليمامة عبد الله بن مُصعب الزبيري؛ وكان على البصرة محمد بن سليمان؛

وفي هذه السنة سار المهدي إلى جرجان، وجعل على قضائه أبا يوسف [يعقوب بن إبراهيم].

وفيها أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن، ببغال وإبل، ولم يكن هنالك بريد قبل ذلك.

وفيها اضطربت خراسان على المُسَيَّب بن هُثَيْر، فولأها الفضل بن سليمان الطوسي أبا العباس، وأضاف إليه سيجستان، فاستخلف على سيجستان تميم بن سعيد بن دَعْلَج.

وفيها أخذ المهدي داود بن رُوح بن حاتم، وإسماعيل بن مُجالد، ومحمد ابن أبي أيوب المكي، ومحمد بن طَيِّفُور، في الزندقة، فاستتابهم، وخطى سيبلهم، وبعث داود إلى أبيه، وهو على البصرة، وأمره بتأديبه.

وفيها استعمل إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله على المدينة، وكان على مكة والطائف عبيد الله بن قُثم.

وفيها عزل منصور بن يزيد بن منصور عن اليمن، واستعمل [مكانه] (٧٤/٦) عبد الله بن سليمان الربيعي.

وفيها أطلق المهدي عبد الصمد بن علي من حبسه؛ وحج بالناس إبراهيم بن يحيى، وكان على الكوفة هاشم بن سعيد، وعلى البصرة رُوح بن حاتم؛ وعلى قضائهما خالد بن طَلَيْق؛ وعلى كُور دجلة، وكُسْكُر، وأعمال البصرة والبحرين، والأهواز، وفارس، وكُرْمَان، المعلّى مولى المهدي؛ وعلى مصر إبراهيم بن صالح؛ وعلى إفريقية يزيد بن حاتم؛ وعلى طبرستان، والرؤيان، وجرجان يحيى الحرشي؛ وعلى دُنيابند وقُومس قراشة مولى المهدي؛ وعلى الري سعد مولاة؛ وعلى الموصل أحمد بن إسماعيل الهاشمي، وقيل موسى بن كعب الخثعمي؛ وعلى قضائهما علي بن مشهور بن عُمَيْر، ولم يكن في هذه السنة صائفة، للهدنة [التي كانت فيها].

وفيها قُتل بشار بن بُرد الشاعر الأعمى على الزندقة، وكان خلقٌ ممسوح العينين.

وفيها توفي الجراح بن مُلَيْح الرُؤاسي، وهو والد وكيع.

وفيها توفي المبارك بن فضالة، وحماد بن سَلَمَة البصري.

وفيها قتل عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس ابن أخيه المُغيرة بن الوليد ابن معاوية بن هشام، وهُدَيْل بن الصُمَيْل، وسَمْرَة

النهر سباحةً، وركب الخيل، ولحق بطليطلة، فاجتمع له خلق كثير، فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمن الأموي، فالتقى على الوادي الأحمر بقسطلونة، واشتد القتال، ثم انهزم أبو الأسود، وقتل من أصحابه أربعة آلاف سوى من تردى في النهر، واتباع الأموي يقتل من لحق، حتى جاوز قلعة الرباح، ثم جمع، وعاد إلى قتال الأموي، في سنة تسع وستين، فلما أحسن بمقدمة الأموي انهزم أصحابه، وهو معهم، فأخذ عياله، وقتل أكثر رجاله، وبقي إلى سنة سبعين، فهلك بقرية من أعمال طليطلة.

وقام بعده أخوه قاسم، وجمع جمعاً، فغزاه الأمير، فجاء إليه بغير أمان فقتله.

ذكر عدة حوادث

وفيها هلك شيلون ملك جليقية، فولوا مكانه اذفونش، فوثب عليه مورقاط، فقتله، فاختل أمرهم، فدخل عليهم نائب عبد الرحمن (٨٠/٦) بطليطلة في عساكره، فقتل، وغنم، وسبى ثم عاد سالماً.

وفيها توفي أبو القاسم بن واسول مقدم الخوارج الصفرية بسجلماسة فجاءه في صلاة العشاء الآخرة، وكانت إمارته اثنتي عشرة سنة وشهراً، وولي بعده ابنه إلياس.

وفيها سبى المهدي سعيداً الحرشي في أربعين ألفاً إلى طبرستان.

وفيها مات عمر الكلؤذاني، صاحب الزنادقة، وولي مكانه محمد بن عيسى بن حمدويه، فقتل من الزنادقة خلقاً كثيراً.

وحج بالناس علي بن المهدي الذي يقال له: ابن ربطة.

وفيها توفي يحيى بن سلمة بن كهيل، وعبيد الله بن الحسن العنبري، قاضي البصرة، ومندل بن علي، ومحمد بن عبد الله بن علاثة بن علقمة القاضي، والحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان قد استعمله المنصور على المدينة خمس سنين، ثم عزله، وحسبه ببغداد، وأخذ ماله. فلما ولي المهدي أخرجه ورد عليه ماله، وكان جواداً إلا أنه كان منحرفاً عن أهل بيته، مائلاً إلى المنصور.

وفيها توفي بشر بن الربيع، وعثر بن القاسم.

(عثر بنفتح العين المهملة، وبالباء الموحدة، والشاء المثناة).

(٨١/٦)

وعلى قضائها عمر بن عثمان التيمي؛ وعلى الموصل أحمد بن إسماعيل الهاشمي، وقيل موسى بن كعب، وبأقي الأمصار كما تقدم.

وفي هذه السنة توفي جعفر الأحمر أبو شيبه؛ والحسن بن صالح بن حني وكان شيعياً عابداً؛ وسعيد بن عبد الله بن عامر التنوخي؛ وحماد بن سلمة؛ وعبد العزيز بن مسلم. (٧٧/٦)

وفيها أسد العرب في بادية البصرة بين اليمامة والبحرين، وقطعوا الطريق، وانتهكوا المحارم، وتركوا الصلاة، فأرسل المهدي إليهم جيشاً، فقاتلهم، واشتد القتال، وصبر العرب، فظفروا، وقتلوا عامة العسكر المنفذ إليهم، ففويت شوكتهم وزاد شرهم. (٧٨/٦)

سنة ثمان وستين ومائة

في هذه السنة، في رمضان، نقض الروم الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين، وكان من أوله إلى أن نقضوه اثنان وثلاثون شهراً، فوجه علي بن سليمان، وهو على الجزيرة وقنشرين، يزيد بن البدر بن البطال في خيل، فغنموا وظفروا.

ذكر الخوارج بالموصل

وفيها خرج بأرض الموصل خارجي اسمه ياسين بن بني تميم، فخرج إليه عسكر الموصل، فهزمهم، وغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة، وكان يميل إلى مقالة صالح بن مسروح الخارجي، فوجه إليه المهدي أبا هريرة محمد بن فروخ القائد وهرثمة بن أعين مولى بني ضبة، فحارباه، فصر لهماء، حتى قتل وعدة من أصحابه، وانهزم الباقيون.

ذكر مخالفة أبي الأسود بالاندلس

في هذه السنة ثار أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالاندلس، وكان من حديثه: أنه كان في سجن عبد الرحمن بقرطبة من (٧٩/٦) حين هرب أبوه، وقتل أخوه عبد الرحمن، على ما تقدم، وحبس أبو الأسود، وتعمى في الحبس، فصار يحاكي العميان، ولا يطرف عينه لشيء، وبقي دهنراً طويلاً، حتى صح عند الأمير عبد الرحمن الأموي ذلك.

وكان في أقصى السجن سرداب يفضي إلى النهر الأعظم يخرج منه المسجونون، فيقضون حوائجهم من غسل وغيره، وكان الموكلون يهملون أبا الأسود لعماه، فإذا رجع من النهر يقول: من يدل الأعمى على موضعه؟

وكان مولى له يحادثه على شاطئ النهر، ولا ينكر عليه، فواعده أن يأتيه بخيل يحمله عليها، فخرج يوماً ومولاه ينتظره، فغير

سنة تسع وستين ومائة

عينه نكتة بياض. (٨٣/٦)

ذكر موت المهدي

ذكر بعض سيرته

كان المهدي، إذا جلس للمظالم، قال: أدخلوا عليّ القضاة، فلو لم يكن رديّ المظالم إلاّ للحياء منهم [لكفي].

وعتب المهديّ على بعض القواد غير مرة وقال له في آخر ذلك: إلى متى تُذنب [إليّ] وأعفو؟ قال: إلى أبد نسيء وبيّبيك الله، فتعفو عنا. فاستحيا منه ورضي عنه.

وقال مسور بن مساور: ظلمي وكبل المهديّ، وغصني ضيبة لي، فكتبته إلى المهديّ أنظّم، فوصلت الرقعة وعنده عمّه العباس، ومحمد بن علاثة، وعافية القاضي، فاستدناي المهديّ، وسألني عن حالي، فذكرته، فقال: أترضى بأحد هذين؟ قلت: نعم! فاستدناي حتى التزقت بالفراش، وحاكمني، فقال له القاضي: أطلقها له يا أمير المؤمنين! قال: قد فعلت؛ فقال عمّه العباس: والله لهذا المجلس أحبّ إليّ من عشرين ألف ألف درهم.

وخرج المهديّ متزهماً، ومعه عمر بن ربيع مولاه، فانقطعوا في الصيد من العسكر، وأصاب المهديّ جوع، فقال: هل من شيء؟ فقيل له: نرى كوخاً، فقصده، فإذا فيه بُطّي، وعنده مبقلة، فسلموا عليه، فرد السلام، فقالوا: هل من طعام؟ فقال: عندي ريشاء وهو نوع من الصحناء، وعندي خبز شعير. فقال المهديّ: إن كان عندك زيت، فقد (٨٤/٦) أكملت. قال: نعم، وكُرات، فأتاها بهذا، فأكلها حتى شبع. فقال المهديّ لعمر بن ربيع: قل في هذا شعراً؛ فقال:

إِنَّ مَنْ يَطْعِمُ الرِّيشَاءَ بِالزَّيْتِ — وَوَحْشَ الشَّعِيرِ بِالْكُرَاتِ
لَحَقِيقٌ بِفَقْرِهِ أَوْ بِشَيْءٍ — مِنْ لُشْوَةِ الصَّنِيعِ أَوْ بِلَاثِ

فقال المهديّ: بش ما قلت! إنما هو:

لَحَقِيقٌ بِبَذَرٍ أَوْ بِشَيْءٍ — مِنْ لُحْسَنِ الصَّنِيعِ أَوْ بِلَاثِ
قال: ووافاهم العسكر، والخزائن، والخدم، فأمر للبُطّي بثلاث بدرٍ وانصرف.

وقال الحسن الوصيف: أصابتنا ريح شديدة أيام المهديّ، حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر، فخرجت أطلب المهديّ، فوجدته واضعاً يده على الأرض وهو يقول: اللهم احفظ محمداً في أمته اللهم لا تشمت بنا أعدائنا من الأمم! اللهم إن كنت أخذت هذا العالم بذنبي، فهذه ناصيتي بين يديك. قال: فما لبثنا إلاّ يسيراً حتى انكشفت الريح وزال عنا ما كنا فيه.

ولما حضرت القاسم بن مجاشع التميمي المروزيّ الوفاة أوصى إلى المهديّ، فكتب: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ

في هذه [السنة] مات المهديّ أبو عبد الله محمد بن عبد الله المنصور بماسبدان؛ وسبب خروجه إليها أنه قد عزم على خلع ابنه موسى الهادي والبيعة للرشد بولاية العهد وتقديمه على الهادي، فبعث إليه، وهو بجرجان، في المعنى، فلم يفعل. فبعث إليه في القدوم عليه، فضرب الرسول، وامتنع من القدوم عليه، فسار المهديّ يريد، فلما بلغ ماسبدان أكل طعاماً، ثم قال إني داخل إلى البهو أنام، فلا توقظوني، حتى أكون أنا الذي أنتبه؛ فدخله، فنام ونام أصحابه، فاستيقظوا ببيكاته، فأتوه مسرعين، فقال: وقف على الباب رجل فقال:

كَأَنِّي بِهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَأْتُ أَهْلَهُ وَأَوْخَشْتُ مِنْهُ رُبْعَهُ وَمَنَازِلَهُ
وَصَارَ عَمِيدَ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ بَهْجَةٍ وَمُنْكَرٍ إِلَى قَبْرِ عَلِيٍّ جَنَازِلَهُ
فَلَمْ يَسْكُنْ إِلَّا ذِكْرَهُ وَحَدِيثَهُ تُسَادِي عَلَيْهِ مُمُولَاتُ خَلَايِلِهِ
فبقي بعد ذلك عشرة أيام ومات.

وقد اختلف في سبب موته فقيل إنه كان يتصيد، فطردت الكلاب ظلياً، وتبعته، فدخل باب خربة، ودخلت الكلاب خلفه، ثم تبعها فرس المهديّ، (٨٢/٦) فدخلها فذق الباب ظهره، فمات من ساعته.

وقيل: بل بعثت جارية من جواريه إلى ضرة لها بلباء فيه سم، فدعا به المهديّ، فأكل منه، فخافت الجارية أن تقول إنه مسموم، فمات من ساعته.

وقيل: بل عمدت حسنة جارية له إلى كُمثرى فأهدته إلى جارية أخرى كان المهديّ يتخطأها، وسَمَتْ منه كُمثرأة هي أحسن الكُمثرى، فاجتاز بالمهديّ، فدعا به وكان يحبّ الكُمثرى، فأخذ تلك الكُمثرأة المسمومة، فأكلها، فلما وصلت إلى جوفه صاح: جوفي جوفي! فسمعت صوته، فجاءت تلطم وجهها وتبكي وتقول: أردت أن أشرد بك، فقتلتك! فمات من يومه، ورجعت حسنة وعلى قُبَّتِها المَسُوح، فقال أبو العتاهية في ذلك:

رُحْنٌ فِي الْوَحْشِيِّ وَأَقْبَلُ — مِنْ عَلَيْهِنَ الْمُسُوحُ
كُلُّ نَطَاحٍ مِنَ الثُّنَى — جَانَةٌ بِمَوْتِ نَطَاحِ
لَسْتُ بِالْبَاقِي وَلَسَوْعَةً — رَزَتْ مَاعْمَرَ نَوْحُ
فَعَلَى نَفْسِكَ نَحْ إِنْ — كُنْتُ لَا بُدَّ تَنُوحُ

وكان موته في المحرم لثمان بقين منه، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً، وقبل عشر سنين وتسعة وأربعين يوماً، وتوفي وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، ودفن تحت جوزة كان يجلس تحته، وصلى عليه ابنه الرشيد؛ وكان أبيض طويلاً، وقيل أسمر بلحدي

وَأَوَّلُو الْعِلْمَ ﴿آل عمران: ١٨﴾؛ ثُمَّ كَتَبَ: وَالْقَاسِمُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ،

وَيَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَصِيَّ رَسُولِ اللَّهِ وَوَارِثُ الْإِمَامَةِ مِنْ بَعْدِهِ. فَعَرَضْتُ الرِّسَالَةَ عَلَى الْمَهْدِيِّ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ رَمَى بِهَا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِيهَا.

(٨٥/٦)

وقال الرِّبِيعُ: رَأَيْتُ الْمَهْدِيَّ يَصَلِّيَ فِي بَهْرٍ لَهُ فِي لَيْلَةِ مُقَمَّرَةٍ، فَمَا أَدْرِي أَمُورُ أَحْسَنَ أَمْ الْبُهْرُ أَمْ الْقَمَرُ أَمْ نَيَّابُهُ؟ فَقَرَأَ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. [محمد: ٢٢]

قال: فَتَمَّ صَلَاتُهُ، ثُمَّ التَفَتَ وَقَالَ: يَا رِبِيعُ! قُلْتُ: لَيْكَ! قَالَ: [علي] بِمُوسَى؛ قُلْتُ فِي نَفْسِي: مَنْ مُوسَى؟ ابْنُهُ أَمْ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، وَكَانَ مَحْبُوساً عِنْدِي؟ فَجَعَلْتُ أَفْكَرُ، فَقُلْتُ: مَا هُوَ إِلَّا مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، فَأَحْضَرْتُهُ، فَقَطَعَ صَلَاتَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُوسَى! إِنِّي قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَخَفْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ قَطَعْتُ رَحِمَكَ، فَوَثَّقُ لِي أَنْكَ لَا تَخْرُجَ [علي]. قال: نَعَمْ، فَوَثَّقُ لَهُ فَخَلَاهُ.

وقال مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ، فِي آخِرِ سُلْطَانِ بَنِي أُمَيَّةٍ، كَأَنِّي دَخَلْتُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَنَظَرْتُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي فِي الْمَسْجِدِ بِالْفُسَيْفِيسَاءِ، فَإِذَا فِيهِ: مِمَّا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَإِذَا قَائِلٌ يَقُولُ: يَمْحُورُ هَذَا الْكِتَابُ وَيُكْتَبُ مَكَانَهُ اسْمُهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدٌ. قُلْتُ: فَأَنَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَاسْمِي مُحَمَّدٌ، فَابِنٌ مَنْ؟ قَالَ: ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ: قُلْتُ: فَأَنَا ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَابِنٌ مَنْ؟ قَالَ: ابْنُ مُحَمَّدٍ. قُلْتُ: فَأَنَا ابْنُ مُحَمَّدٍ، فَابِنٌ مَنْ؟ قَالَ: ابْنُ عَلِيٍّ. قُلْتُ: فَأَنَا ابْنُ عَلِيٍّ، فَابِنٌ مَنْ؟ قَالَ: ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ. قُلْتُ: فَأَنَا ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَابِنٌ مَنْ؟ قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ، فَلَوْ لَمْ يَبْلُغِ الْعَبَّاسُ مَا شَكَّكَتُ أَنِّي صَاحِبُ الْأَمْرِ.

قال: فَتَحَدَّثْتُ بِهَا ذَلِكَ الزَّمَانَ، وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ الْمَهْدِيَّ، حَتَّى وَلِيَ الْمَهْدِيَّ، فَدَخَلَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَرَأَى اسْمَ الْوَلِيدِ، فَقَالَ: أَرَى اسْمَ الْوَلِيدِ إِلَى الْيَوْمِ؛ فَعَدَا بِكَرْسِيٍّ، فَالْقَى فِي صَحْنِ الْمَسْجِدِ، وَقَالَ: مَا أَنَا بِبَارِحٍ حَتَّى يُمَحَى وَيُكْتَبَ اسْمِي مَكَانَهُ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَهُوَ جَالِسٌ.

وَخَرَجَ الْمَهْدِيَّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ لَيْلاً، فَسَمِعَ أَعْرَابِيَّةً تَقُولُ: قَوْمِي مُقْتَرُونَ، نَبَتْ عَنْهُمْ الْعَيُونُ، وَقَدَحَتْهُمْ الدِّيُونُ، وَعَضَّتْهُمْ السَّنُونُ؛ بَادَتْ رِجَالَهُمْ، وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَكَثُرَتْ عِيَالُهُمْ؛ أَبْنَاءُ سَبِيلٍ وَأَنْصَاءُ طَرِيقٍ؛ وَصِيَّةُ اللَّهِ، وَوَصِيَّةُ الرَّسُولِ، فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ لِي بِخَيْرٍ، كَلَاهُ اللَّهُ فِي سَفَرِهِ، وَخَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ! قَالَ: فَأَمَرَ لَهَا بِخَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ.

وقال الْمَهْدِيَّ: مَا تَوْسَّلَ أَحَدٌ إِلَيَّ بِوَسِيلَةٍ هِيَ أَقْرَبُ مِنْ تَذْكِرِي يَدَا سَلَفَتِ مِنِّي إِلَيْهِ أَتْبَعُهَا اخْتِئَاءً، وَأَحْسَنُ رُبَّهَا، فَإِنَّ مَنَعَ

الْأَوَاخِرَ يَقْطَعُ شُكْرَ الْأَوَائِلِ.

وَكَانَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ قَدْ هَجَا صَالِحَ بْنَ دَاوُدَ، أَخَا يَعْقُوبَ، حِينَ وَلِيَ، فَقَالَ:

هُمْ حَمَلُوا غُرُقَ الْمَنَابِرِ صَالِحاً أَخَاكَ فَضَجَّتْ مِنْ أَخِيكَ الْمَنَابِرُ

فَبَلَغَ يَعْقُوبَ هَجَاؤُهُ، فَدَخَلَ عَلَى الْمَهْدِيِّ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذَا الْأَعْمَى الْمَشْرُكَ قَدْ هَجَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: يَعْنِينِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِنْشَادِهِ. فَأَبَى أَنْ يَفِيحَهُ، فَانْشَدَهُ:

خَلِيفَةُ زَنْبِي بِعَمَّاؤٍ يَلْعَبُ بِالْثَوْبِ وَالْمَوْلِجَانِ (٨٧/٦)

إِبْدَنْكَ اللَّهُ بِوَعَايَةٍ وَنَسَّ مُوسَى فِي جِرِّ الْخَيْرِ زَانَ فَوَجَّهَ فِي حَمَلِهِ، فَخَافَ يَعْقُوبُ أَنْ يَقْدِمَ عَلَى الْمَهْدِيِّ فَيَمْدَحَهُ فَيَعْفُو عَنْهُ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَنْ يَلْقَاهُ فِي الْبُطِيحَةِ فِي الْخُرَّارَةِ.

وَمَاتَتِ الْبَاقُوَّةُ بِنْتُ الْمَهْدِيِّ، وَكَانَ مَعْجَباً بِهَا لَا يُطِيقُ الصَّبْرَ عَنْهَا، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُلْبِسُهَا لِبْسَةَ الْغُلَّامَانِ، وَيُرْكِبُهَا مَعَهُ، فَلَمَّا مَاتَتْ وَجَدَ عَلَيْهَا، وَأَمَرَ أَنْ لَا يُحْجَبَ عَنْهُ أَحَدٌ، فَدَخَلَ النَّاسُ يَعْزُونَهُ وَاجْتَمَعُوا عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا تَعْزِيَةً أَبْلَغَ وَلَا أَوْجَزَ مِنْ تَعْزِيَةِ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ، فَإِنَّهُ قَالَ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهَا مِنْكَ، وَثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْهَا، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ لَا يُخْزِنَكَ، وَلَا يَفْتِنَكَ، وَأَنْ يُعْطِيكَ عَلَى مَا رَزَقْتَ أَجْراً، وَيَعْقِبَكَ صَبْراً، وَلَا يَجْهَدَ لَكَ بِلَاءً، وَلَا يَنْزِعَ مِنْكَ نِعْمَةً، وَأَحَقُّ مَا صَبِرَ عَلَيْهِ مَا لَا سَبِيلَ إِلَى رَدِّهِ.

ذِكْرُ خِلَافَةِ الْهَادِي

وَبِوَعٍ لِابْنِهِ مُوسَى الْهَادِي فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ الْمَهْدِيُّ، وَهُوَ مَقِيمٌ بِجَرْجَانَ، بِحَارِبِ أَهْلِ طَبْرِسْتَانَ؛ لَمَّا تَوَفَّى الْمَهْدِيَّ كَانَ الرَّشِيدُ مَعَهُ بِمَاسَبَذَانَ، فَأَتَاهُ الْمَوَالِيُّ وَالْقَوَادُ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّ عِلْمَ الْجَنْدِ بِوَفَاةِ الْمَهْدِيِّ لَمْ تَأْمَنِ الشُّعْبُ، وَالرَّأْيُ أَنْ تَتَنَادَى فِيهِمْ بِالرُّجُوعِ، حَتَّى تَوَارِيَهُ بِبَغْدَادَ. (٨٨/٦)

فَقَالَ هَارُونَ: ادْعُوا إِلَيَّ أَبِي يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ، وَكَانَ يَحْيَى يَتَوَلَّى مَا كَانَ إِلَى الرَّشِيدِ مِنْ أَعْمَالِ الْمَغْرِبِ، مِنَ الْأَنْبَارِ إِلَى الْإِفْرِيقِيَّةِ، فَاسْتَدْعَى يَحْيَى إِلَى الرَّشِيدِ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِيمَا رَأَى هَؤُلَاءُ؟ وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ. قَالَ: لَا أَرَى ذَلِكَ، لِأَنَّ هَذَا لَا يَخْفَى، وَلَا أَمْنٌ، إِذَا عِلِمَ الْجَنْدُ، أَنْ يَتَعَلَّقُوا بِمَحْمَلِهِ وَيَقُولُوا: لَا نَخْلَعُ حَتَّى نَعْطَى لثَلَاثَ سَنِينَ وَكَأْثَرَ، وَتَحْكُمُوا وَيَسْطَوْا، وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّ يَوَارِي، رَحِمَهُ اللَّهُ، هَاهُنَا، وَتَوَجَّهَ نَصِيراً إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْهَادِي بِالْخَاتَمِ وَالْقَضِيبِ، وَالتَّعْزِيَةِ، وَالتَّهْنِئَةِ، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَنْتَكِرُونَ خُرُوجَهُ، إِذْ هُوَ عَلَى بَرِيدِ النَّاحِيَةِ، وَأَنْ تَأْمُرَ لِمَنْ تَبْعَكَ مِنَ الْجَنْدِ بِجَوَازِ مَاتَتَيْنِ مَاتَتَيْنِ، وَتَتَنَادَى فِيهِمْ بِالرُّجُوعِ فَلَا تَكُونَ لَهُمْ هِمَّةٌ سِوَى أَهْلِهِمْ.

الشاعر الهذلي، وعمر بن سلام، مولى آل عمر، على شراب لهم، فأمر بهم، ففُضِّروا جميعاً وجُعِلَ في أعناقهم حبال، وطيف بهم في المدينة، فجاء الحسين بن علي إلى العُمري وقال له: قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأساً، فلم تطوف بهم؟ فأمر بهم ففُذِّوا، وحبسهم.

ثم إن الحسين بن علي، ويحيى بن عبد الله بن الحسن، كفلا الحسن بن محمد، فأخرجوه العُمري من الحبس، وكان قد ضمن بعض آل أبي طالب بعضاً، وكانوا يُعرضون، فغاب الحسن بن محمد عن القرض يومين، فأحضر الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله، وسألها عنه، وأغلظ لهما، فحلف له يحيى أنه لا ينأى حتى يأتيه به، أو يدق عليه باب داره، حتى يعلم أنه جاءه به.

فلما خرجا قال له الحسين: سبحان الله! ما دعاك إلى هذا؟ ومن أين تجد حسناً؟ حلفت له بشيء لا تقدر عليه. فقال: والله لا نمتُ حتى أضرب عليه باب داره بالسيف. فقال له الحسين: إن هذا ينقص ما كان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد. (٩١/٦)

وكانوا قد تواعدوا على أن يظهروا بمنى وبمكة في الموسم، فقال يحيى: قد كان ذلك؛ فانطلقا وعملا في ذلك من ليلتهم، وخرجوا آخر الليل، وجاء يحيى حتى ضرب على العُمري باب داره، فلم يجده، وجاؤوا فاستحموا المسجد وقت الصباح. فلما صلى الحسين الصبح أتاه الناس، فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد؛ وجاء خالد البريدي في مائتين من الجند، وجاء العُمري، ووزير بن إسحاق الأزرق، ومحمد بن واقد الشؤري، ومعهم ناس كثير، فدنا خالد منهم، فقام إليه يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن، فضربه يحيى على أنفه فقطعه، ودار له إدريس من خلفه، فضربه فصرعه، ثم قتلاه، فانهزم أصحابه ودخل العُمري في المُسودة، فحمل عليهم أصحاب الحسين، فهزمهم من المسجد، واتهبوا بيت المال، وكان فيه بضعة عشر ألف دينار، وقيل سبعون ألفاً، وتفرق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم.

فلما كان الغد اجتمع عليهم شيعة بني العباس فقاتلوهم، وفشت الجراحات في الفريقين، واقتتلوا إلى الظهر، ثم افرقوا؛ ثم إن مباركا التركي أتى شيعة بني العباس من الغد، وكان قدم حاجباً، فقاتل معهم، فاقتلوا أشد قتال إلى منتصف النهار، ثم تفرقوا، ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد، ووعد مبارك الناس الرواح إلى القتال؛ فلما غفلوا عنه ركب رواحله وانطلق، وراح الناس فلم يجده، فقاتلوا شيئاً من قتال إلى المغرب، ثم تفرقوا.

وقيل إن مباركا أرسل إلى الحسين يقول له: والله لأن أسقط من السماء فتخطفني الطير أيسر علي من أن تشوكك شوكه، أو

ففعِل ذلك، فلما قبض الجند الدراهم تنادوا: بغداد بغداد! وأسرعوا إليها، فلما بلغوها وعلموا خبر المهدي أتوا باب الربيع، وأحرقوه، وأخرجوا من كان في الحبوس، وطالبوا بالأرزاق.

فلما قدم الرشيد بغداد أرسلت الخيزران إلى الربيع وإلى يحيى بن خالد تستدعيهما لتشاورهما في ذلك، فأما الربيع فدخل عليها؛ وأما يحيى فامتنع لما يعلم من غيرة الهادي؛ وجمع الأموال حتى أعطى الجند لستين فسكتوا.

وكتب الهادي إلى الربيع كتاباً يتهذه بالقتل؛ وكتب إلى يحيى يشكره، ويأمره بأن يقوم بأمر الرشيد. (٨٩/٦)

وكان الربيع يودّ يحيى ويثق به، فاستشاره فيما يفعل خوفاً من الهادي، فأشار عليه بأن يرسل ولده الفضل إلى طريق الهادي بالهدايا والتحف، ويعتذر إليه، ففعل، ورضي الهادي عنه.

وكان الربيع قد أوصى إلى يحيى بن خالد، وأخذت البيعة للهادي ببغداد، وكتب الرشيد إلى الآفاق بوفاة المهدي، وأخذ البيعة للهادي، وسار نصير الوصف إلى الهادي بخرجان، فلم يوفاة المهدي والبيعة له، فنادى بالرحيل وركب على البريد مجداً، فبلغ بغداد في عشرين يوماً، ولما قدمها استوزر الربيع.

وفي هذه السنة أيضاً هلك الربيع.

وفيها اشتد طلب المهدي للزنادقة، فقتل منهم جماعة منهم علي بن يقطين، وقتل أيضاً يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب؛ وكان سبب قتله أنه أتى به إلى المهدي، فأقر بالزنادقة، فقال: لو كان ما تقول حقاً لكنت حقيقاً أن تعصّب لمحمد، ولولا محمد [من] كنت أما والله لولا أنني جعلت على نفسي أن لا أقتل هاشمياً لقتلتك.

ثم قال للهادي: أقسمت عليك إن وليت هذا الأمر لقتلته! ثم حبسه، فلما مات المهدي قتله الهادي؛ وكذلك أيضاً كان عهد إليه بقتل ولد لداود ابن علي بن عبد الله بن عباس كان زنديقاً، فمات في الحبس قبل المهدي.

ولما قُتل يعقوب أدخل أولاده على الهادي، فأقرت ابنته فاطمة أنها حبلى من أبيها، فخوفت، فماتت من الفزع. (٩٠/٦)

ذكر ظهور الحسين بن علي بن الحسن

وفي هذه السنة ظهر الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المدينة، وهو المقتول بفخ عند مكة.

وكان سبب ذلك أن الهادي استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فلما وليها أخذ أبا الزفت الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن، ومسلم بن جندب،

أقطع من رأسك شجرة (٩٢/٦) ولكن لا بد من الإعذار، فتيتني، فأني منهزم عنك. فوجه إليه الحسن، وخرج إليه في نفر، فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبروا، فانهزم هو وأصحابه.

وأقام الحسين وأصحابه أياماً يتجهزون، فكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوماً، ثم خرجوا لست بقين من ذي القعدة، فلما خرجوا عاد الناس إلى المسجد، فوجدوا فيه العظام التي كانوا يأكلون وأثأروهم فدعوا عليهم.

ولما فارق المدينة قال: يا أهل المدينة! لا خلف الله عليكم بخير. فقالوا: بل أنت لا خلف الله عليك ولا ردك علينا! وكان أصحابه يُخبرون في المسجد، ففلسه أهل المدينة.

ولما أتى الحسين مكة أمر فتودي: أيما عبد أتاناً فهو حر. فأتاه العبيد، فأنتهى الخبر إلى الهادي، وكان قد حج تلك السنة رجال من أهل بيته، منهم: سليمان بن المنصور، ومحمد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمد بن علي، وموسى وإسماعيل ابنا عيسى بن موسى، فكتب الهادي إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب، وكان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة لخوف الطريق، فاجتمعوا بذي طوى، وكانوا قد أحرموا بعمرة، فلما قدموا مكة طافوا وسعوا، وحلوا من العمرة، وعسكروا بذي طوى، وانضم إليه من حج من شيعتهم ومواليهم وقوادهم.

ثم إنهم اقتتلوا يوم التروية، فانهزم أصحاب الحسين، وقتل منهم، وجرح، وانصرف محمد بن سليمان ومن معه إلى مكة، ولا يعلمون ما حال (٩٢/٦) الحسين، فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول: البشري، البشري، هذا رأس الحسين! فأخرجه، وبجبهته ضربة طولى، وعلى فقه ضربة أخرى، وكانوا قد نادوا الأمان، فجاء الحسن بن محمد بن عبد الله، أبو الزفت، فوقف خلف محمد بن سليمان، والعباس بن محمد، فأخذه موسى بن عيسى، وعبد الله بن العباس بن محمد، فقتلاه، فغضب محمد ابن سليمان غضباً شديداً، وأخذ رؤوس القتلى، فكانت مائة رأس ونيفاً، وفيها رأس [الحسن بن محمد] بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وأخذت أخت الحسين، فتركت عند زينب بنت سليمان؛ واختلط المنهزمون بالحاج، وأتى الهادي بستة أسرى، فقتل بعضهم، واستبقى بعضهم، وغضب على موسى بن عيسى كيف قتل الحسن بن محمد، وقبض أمواله، فلم تنزل بيده حتى مات؛ وغضب على مبارك التركي، وأخذ ماله، وجعله سائس الدواب، فبقي كذلك حتى مات الهادي.

وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، فأتى مصر وعلى يريدها واضح مولى صالح بن منصور، وكان شيعياً لعلي، فحملة على البريد إلى أرض المغرب،

وقيل: إن الرشيد هو الذي قتله. وإن الرشيد دس إلى إدريس الشماع اليمامي، مولى المهدي، فأتاه وأظهر أنه من شيعتهم، وعظمه، وأثره على نفسه، فمال إليه إدريس، وأنزله عنده، ثم إن إدريس شكاً إليه مرضاً في أسنانه، فوصف له دواء، وجعل فيه سمّاً، وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر، فأخذه منه، وهرب الشماع؛ ثم استعمل إدريس الدواء، فمات منه، فولّى الرشيد الشماع يريد مصر. (٩٤/٦)

ولما مات إدريس بن عبد الله خلف مكانه ابنه إدريس بن إدريس وأعقب بها، وملكوها، ونازعوا بني أمية في إمارة الأندلس، على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وحملت الرؤوس إلى الهادي، فلما وضع رأس الحسين بين يدي الهادي قال: كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت! إن أقل ما أجزىكم به أن أحرمتكم جوازكم، فلم يُعظم شيئاً.

وكان الحسين شجاعاً، كريماً، قدم على المهدي، فأعطاه أربعين ألف دينار، ففرقها في الناس ببغداد والكوفة، وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه إلا فرواً ليس تحته قميص.

ذكر عدة حوادث

وغزا الصائفة هذه السنة معيوف بن يحيى من درب الراهب، وقد كانت الروم قبل ذلك جاؤوا مع بطريقهم إلى الحدث، فهرب الوالي وأهل السوق، فدخلها الروم، فقصدهم معيوف فبلغ مدينة أشنة، فغنم وسبى.

وحج بالناس هذه السنة سليمان بن منصور؛ وكان على المدينة عمر بن عبد العزيز الغُمري؛ وعلى مكة والطائف عبيد الله بن قثم؛ وعلى اليمن إبراهيم بن سلم بن قتيبة؛ وعلى اليمامة والبحرين سويد بن أبي سويد القائد الخراساني؛ وعلى عُمان الحسن بن نسيم الحواري؛ وعلى الكوفة موسى بن (٩٥/٦) عيسى؛ وعلى البصرة محمد بن سليمان، وعلى جرجان الحجاج مولى الهادي؛ وعلى قُومس زياد بن حسان؛ وعلى طبرستان والرُويان صالح بن شيخ بن عُميرة الأسدي؛ وعلى أصبهان طيفور مولى الهادي؛ وعلى الموصل هاشم بن سعيد بن خالد، فأساء السيرة في أهلها، فعزله الهادي ولأها عبد الملك بن صالح الهاشمي.

وفيهما خرج بالجزيرة حمزة بن مالك الخُزاعي، وعلى خراجها منصور ابن زياد، فسير جيشاً إلى الخارجي، فالتقوا ببغربايا، من بلد الموصل، فهزمهم الخارجي وغنم أموالهم، وقوي أمره، فأتى رجلاً، وصحبه، ثم اغتاله فقتله.

وفيهما مات مُطيع بن إلياس اللَّيْثي الكِنَاني الشاعر وأبو عبيد

الله معاوية بن عبد الله بن بشار الأشعري، مولاهم، وكان وزير المهدي، وقيل مات سنة سبعين ومائة.

وفيها توفي نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المقرئ، صاحب القراءة، أحد القراء السبعة؛ والربيع بن يونس، حاجب المنصور، مولا. (٩٦/٦)

سنة سبعين ومائة

ذكر ما جرى للهادي في خلع الرشيد

كان الهادي قد جدّ في خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر، وكان السبب في ذلك أنّ الهادي لما عزم على خلعه ذكره لقواده، فأجابه إليه يزيد بن مزيد الشيباني، وعبد الله بن مالك، وعلي بن عيسى وغيرهم، فخلعوا هارون، وبايعوا لجعفر، ووضعوا الشيعة، فتكلموا في ذلك، وتنقصوا بالرشيد في مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصعب أمرهم، وأمر الهادي أن لا يسار بين يدي هارون بالحرية، فاجتنبه الناس، وتركوا السلام عليه.

وكان يحيى بن خالد بن برمك يتولى أمر الرشيد بأمر الهادي، فقبل للهادي: ليس عليك من أخيك خلاف إنّما يحيى يُفسده؛ فبعث إليه، وتهذبه، ورماه بالكفر، ثمّ إنّه استدعاه ليلة، فخاف، وأوصى، وتحنّن، وحضر عنده، فقال له: يا يحيى! ما لي ولك؟ قال: ما يكون من العبد إلى مولا إلاّ طاعته. قال: لمّ تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليّ؟ قال: سنّ أنا حتى أدخل بينكما؟ إنّما صيرني المهديّ معه، ثمّ أمرتني أنت بالقيام بأمره، فانتهيت إلى أمرك. فسكن غضبه.

وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع، فمنعه يحيى عنه. فلمّا أحضره الهادي، وقال له في ذلك، قال يحيى: يا أمير المؤمنين! إنّك إن حملت (٩٧/٦) الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثمّ بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوكد للبيعة. قال: صدقت، وسكت عنه.

فعاد أولئك الذين بايعوه من القواد والشيعة، فحملوه على معاودة الرشيد بالخلع، فأحضر يحيى وحبيه، فكتب إليه: إنّ عندي نصيحة؛ فأحضره، فقال له: يا أمير المؤمنين! أرايت إن كان الأمر الذي لا تبلغه، ونسال الله أن يُقدّمنا قبله، يعني موت الهادي، أنظنّ الناس يُسلمون الخلافة لجعفر، وهو لم يبلغ الجنّة، أو يرضون به لصلاتهم، وحجّهم، وغزوهم؟ قال: ما أظنّ ذلك! قال: يا أمير المؤمنين! أفأمن أن يسموا إليها أكابر أهلكت، مثل فلان، ويطمع فيها غيرهم، فتخرج من ولد أبيك؟ والله لو أنّ هذا الأمر لم يعقده المهديّ لأخيك، لقد كان ينبغي أن تعقده أنت له، فكيف بأن تحلّه عنه وقد عقده المهديّ [له]! ولكني أرى أن تقرّ الأمر على حاله،

فإذا بلغ جعفر أتيت به بالرشيد، فخلع نفسه له وبايعه. فقبل قوله، وقال: تبهتني على أمر لم أتيت به. وأطلقه.

ثمّ إنّ أولئك القواد عاودوا القول فيه، فأرسل الهادي إلى الرشيد في ذلك، وصيّى عليه؛ فقال له يحيى: استأذنه في الصيد، فإذا خرجت فأبعده، ودافع الأيام! ففعل ذلك وأذن له، فمضى إلى قصر بني مقاتل، فأقام [به] أربعين يوماً، فأنكر الهادي أمره، وخافه، فكتب إليه بالعود، فتعلّل عليه، فأظهر الهادي شتمه، وبسط موابيه وقواده فيه الستهم؛ فلمّا طال الأمر عاد الرشيد، وقد كان الهادي في أوّل خلافته جلس، وعنده نفر من قواده، وعنده (٩٨/٦) الرشيد، وهو ينظر إليه، ثمّ قال له: يا هارون! كآتي بك وأنت تحدّث نفسك بتعام الرؤيا، ودون ذلك خرط القناد.

فقال له هارون: يا موسى إنّك إن تجبّرت وضعت، وإن تواضعت رفعت، وإن ظلمت قُلت، وإن انصفت سلّمت، وإنّي لأرجو أن يفضي الأمر إليّ، فأُنصف من ظلمت، وأصل من قُطعت، وأجعل أولادك أعلى من أولادي، وأزوجهن بناتي، وأبلغ ما يجب من حقّ الإمام المهديّ.

فقال له الهادي: ذلك الظنّ بك يا أبا جعفر، ادنّ مني! فدنا منه، وقبل يده، ثمّ أراد العود إلى مكانه، فقال: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل، أعني المنصور، لا جلست إلاّ معي؛ فأجلسه في صدر مجلسه، ثمّ أمر أن يُحمّل إليه ألف ألف دينار، وأن يُحمّل إليه نصف الخراج، وقال لإبراهيم الحرّاني: اعرض عليه ما في الخزائن من مالنا، وما أخذ من أهل بيت اللعنة، يعني بني أمية، فليأخذ منه ما أراد. ففعل ذلك. فقام عنه.

وسئل الرشيد عن الرؤيا، فقال: قال المهديّ: رأيت في منامي كآتي فدعيت إلى موسى وإلى هارون قضيباً، فأورق من قضيب موسى أعلاه، وأورق قضيب هارون من أوّله إلى آخره، فعبرتُ لهما أنّهما يملكان معاً، فأما موسى فقتل أيامه، وأما هارون فبلغ آخر ما عاش خليفة، وتكون أيامه أحسن أيام، ودهره أحسن دهر؛ فكان كذلك.

وذكر أنّ الهادي خرج إلى حديقة الموصل، فمرض بها، واشتدّ مرضه، وانصرف، وكتب إلى جميع عمّاله شرقاً وغرباً بالقدوم عليه، فلمّا نقل (٩٩/٦) أجمع القواد الذين كانوا بايعوا جعفر، وتأمروا في قتل يحيى بن خالد، وقالوا: إنّ صار الأمر إليه قُتلنا، وعزموا على ذلك، ثمّ قالوا: لعلّ الهادي يُفني، فما عُذرنا عنده؟ فامسكوا، ولما اشتدّ مرض الهادي أرسلت الخيزران إلى يحيى تأمره بالاستعداد، فأحضر يحيى كتاباً، فكتبوا الكتب من الرشيد إلى العمّال بوفاة الهادي، وأنّه قد ولّاهم ما كان ويكون، فلمّا مات الهادي سيّرت الكتب.

وقيل إنّ يحيى كان محبوباً. وكان الهادي قد عزم على قتله تلك الليلة، وإنّ خُرَمة بن أعين هو [الذي] أقعد الرشيد، على ما سنذكره.

ولما مات الهادي قالت الخيزران: قد كنّا نتحدّث أنّه يموت في هذه الليلة خليفة، ويملك خليفة، ويُولد خليفة، فمات الهادي، وولي الرشيد، وُولد المأمون. وكانت الخيزران قد أخذت العلم من الأوزاعي، وكان موت الهادي بيعساباً.

ذكر وفاة الهادي

وفي هذه السنة توفّي الهادي موسى بن المهديّ محمّد بن المنصور عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس في شهر ربيع الأوّل.

واختلف في سبب وفاته، ف قيل كان سببها قرحة كانت في جوفه؛ وقيل مرض بخديّة الموصلي، وعاد مريضاً فتوفّي، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وقيل إنّ وفاته كانت من قبل جوار أمّه الخيزران كانت أمرتهنّ (١٠٠/٦) بقتله، وكان سبب أمرها بذلك أنّه لما ولي الخلافة كانت تستبدّ بالأمور دونه، وتسلك به مسلك المهديّ، حتى مضى أربعة أشهر، فاثّال الناس إلى بابها، وكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها، فكلمته يوماً في أمر لم يجدّ إلى إيجابتها سيلاً، فقالت: لا بدّ من إجابتي إليه، فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك. فغضب الهادي، وقال: ويلي على ابن الفاعلة! قد علمت أنّه صاحبها، والله لا قضيتها لك. قالت: إذا والله لا أسألك حاجة أبداً؛ قال: لا أبالي والله، وغضبت فقامت مغضبة، فقال: مكانك والله، ولأنا نفي من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنّه وقف ببابك أحد من قوّادي وخاصّتي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك يغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ إياك وإياك! لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذميّ. فانصرفت وهي لا تعقل، فلم تنطق عنده بعدها.

ثمّ إنّ قال لأصحابه: أيما خير أنا أم أنتم، وأمّي أم أمهاتكم؟ قالوا: بل أنت وأمك خير. قال: فايكم يحبّ أن يتحدّث الرجال بخبر أمّه، فيقال: فعلت أمّ فلان، وصنعت؟ قالوا: لا نحبّ ذلك. قال: فما بالكم تاتون أمّي، فتحدّثون بحديثها؟ فلمّا سمعوا ذلك انقطعوا عنها.

ثمّ بعث بأرز، وقال: قد استطبتها، فكُلّي منها. فقيل لها: امسكي حتى تنظري! فجاءوا بكلب، فاطعموه، فسقط لحمه لوقته، فأرسل إليها: كيف رايت الأرز؟ قالت: طيباً. قال: ما أكلت منها،

ولو أكلت منها لاسترحّ منك، متى أفلح خليفة له أمّ!.

وقيل: كان سبب أمرها بذلك أنّ الهادي لما جدّ في خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر خافت الخيزران على الرشيد، فوضعت جواربها عليه لما مرض، فقتلته بالغم والجلوس على وجهه، فمات، فأرسلت إلى يحيى بن خالد تعلّم بموته. (١٠١/٦)

ذكر وفاته ومبلغ سنّه وصفته وأولاد

كانت وفاته ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأوّل، وقيل لأربع عشرة خلت من ربيع الأوّل؛ وقيل لستّ عشرة منه؛ وقيل كانت خلافته سنة وثلاثة أشهر؛ وقيل كانت أربعة عشر شهراً؛ وكان عمره ستّاً وعشرين سنة، وقيل ثلاثاً وعشرين سنة، وصلى عليه الرشيد.

وكانت كنيته أبا محمّد، وأمّه الخيزران، أم ولد، ودُفن ببيساباذ الكبرى في بستانه.

وكان طويلاً، جسيماً، أبيض، مُشرباً حُمرة، وكان بشفته العليا نقص وتقلص.

وكان المهديّ قد وكل به خادماً يقول له: موسى أطبق، فيضمّ شفته، فلقّب: موسى أطبق.

وكان له من الأولاد تسعة: سبعة ذكور، وابتان، فمن الذكور جعفر، وهو الذي كان يريد البيعة له، والعبّاس، وعبد الله، وإسحاق، وإسماعيل، وسليمان، وموسى بن موسى الأعشى، كلّهم لأمهات أولاد، والابتان أمّ عيسى كانت عند المأمون، وأمّ العبّاس وكانت تلقّب نونة.

ذكر بعض سيرته

تأخّر الهادي عن المظالم ثلاثة أيّام، فقال له الحرّانيّ: يا أمير المؤمنين! إنّ العامّة لا تحتل هذا. فقال لعليّ بن صالح: إيسذن للنّاس عليّ بالجفلى، (١٠٢/٦) لا بالقريّ، فخرج من عنده ولم يفهم قوله، ولم يجسر على مراجعته، فأحضر أعرابياً، فسأله عن ذلك، فقال: الجفلى أن تأذن لعامّة النّاس، فاذن لهم، فدخل النّاس عن آخرهم، ونظر في أمورهم إلى اللّيل، فلمّا تقوّض المجلس قال له عليّ بن صالح ما جرى له، وسأله مُجازاه الأعرابيّ، فأمر له بمائة ألف درهم؛ فقال عليّ: يا أمير المؤمنين! إنّ أعرابيّ، ويغنيه عشرة آلاف. فقال: يا عليّ أجود أنا، وتبخّل أنت!

وقيل: خرج يوماً إلى عيادة أمّه الخيزران، وكانت مريضة، فقال له عمر ابن ربيع: يا أمير المؤمنين! ألا أدلك على ما هو أنفع لك من هذا؟ تنظر في المظالم. فرجع إلى دار المظالم، وأذن للنّاس، وأرسل إلى أمّه يتعرّف أخبارها.

وقيل: كان عبد الله بن مالك يتولّى شرطة المهديّ؛ قال: فكان

الله على ذلك.

وقيل: كان إبراهيم بن مسلم بن قتيبة من الهادي بمنزلة عظيمة، فمات له ولد، فأتاه الهادي يعزيه، فقال له: يا إبراهيم! سرّك وهو عدوّ وقتنة، وحزنك وهو صلاة ورحمة. فقال: يا أمير المؤمنين! ما بقي مني جزء فيه حزن، إلا وقد امتلأ عزاء.

فلما مات إبراهيم صارت منزلته لسعيد بن سلّم، قيل: كان عليّ بن الحسين بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب الذي يلقب الجزري قد تزوّج رقيّة بنت عمرو العثمانية، وكانت قبله تحت المهديّ، فبلغ ذلك الهادي، فأرسل إليه، وحُمل إليه، وقال له: أعيالك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين؟ قال: ما حرّم الله على خلقه إلا نساء جدّي ﷺ فأما غيرهنّ فلا، ولا كرامة، فشجّه بمنصورة كانت في يده، وجلده خمسمائة سوط، وأراده أن يطلقها، فلم يفعل، وكان قد غشي عليه من الضرب، وكان في يده خاتم نفيس، فأهوى بعض الخدم على الخاتم ليأخذه، فقبض على يده فدقّها، فصاح: وأنى الهادي، فأراه يده، فغضب، وقال: تفعل هذا بخادمي مع استخفافك بأبي وقولك لي ما قلت؟ قال: سلّه، واستحلفه أن يصدقك؛ ففعل. فأخبره الخادم وصدقه، فقال: أحسن والله، أشهد أنّه ابن عمّي، ولو لم يفعل ذلك لانتفيت منه. وأمر بإطلاقه.

قيل: وكان المهديّ قد قال للهادي يوماً، وقد قدم إليه زنديق، فقتله، وأمر بصلبه: يا بُنيّ، إذا صار الأمر إليك فتجرّد لهذه العصاية، يعني أصحاب (١٠٥/٦) ماني، فإنّها تدعو النّاس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة، ثمّ تخرجها من هذا إلى تحريم اللّحوم، ومنّ الماء الطهور، وترك قتل الهوامّ تحرّجاً، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين: أحدهما النور، والآخر الظلمة، ثمّ تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاختسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق، لتتقدّم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها، وتقرب بامرأها إلى الله، فلنرى رأيت جدّي العبّاس، رضي الله عنه، في المنام قلّدتني سيفين لقتل أصحاب الاثنين.

فلما ولي الهادي قال: لأقتلنّ هذه الفرقة. وأمر أن يهتأ له ألف جذع. فمات بعد هذا القول بشهرين.

قيل: وكان عيسى بن داب من أكثر أهل الحجاز أدباً، وأعذبهم ألفاظاً، وكان قد حظي عند الهادي حظوة لم تكن لأحد قبله، وكان يدعو له بما يتكئ عليه في مجلسه، وما كان يفعل ذلك بغيره، وكان يقول له: ما استطلت بك يوماً ولا ليلاً، ولا غبت عن عيني إلاّ تميت أن لا أرى غيرك؛ وأمر له بثلاثين ألف دينار في دفعة واحدة، فلما أصبح ابن داب أرسل قهرمانة إلى الحاجب في

المهديّ يأمرني بضرب ندماء الهادي ومغنيّه، وجسهم صيانة له عنهم، فكنت أفعل، وكان الهادي يرسل إليّ بالتخفيف عنهم، ولا أفعل، فلما ولي الهادي أيقنت بالتلف، فاستحضرني يوماً، فدخلتُ إليه متحنطاً متكفناً وهو على كرسيّ، والسيف والنطح بين يديه، فسلمتُ، فقال: لا سلّم الله عليك! أتذكر يوم بعثتُ إليك في أمر الحرانيّ وضربه، فلم تجبني، وفي فلان وفلان، فعذد ندماء؛ فلم تلثمتُ إلى قولي. قلتُ: نعم! أتناذّن في ذكر الحجة؟ قال: نعم. قلتُ: نشدتك الله أيسرّك أنّك وليّتي ما ولّاني المهديّ وأمرتني بما أمر فبعثتُ إليّ بعض بنيك بما يخالف أمرك، فاتبعتُ أمره وخالفْتُ أمرك؟ قال: لا! قلتُ: فكذلك أنا لك، وكذا كنتُ لأبيك.

فاستدنانني، فقيلتُ يده، ثم أمر لي بالخلع، وقال: وليّتك ما كنتُ تتولّاه، فامض راشداً! فصيرتُ إلى منزلي مفكراً في أمري وأمره، وقلتُ: (١٠٣/٦) حدّث يشرب، والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماءؤه، ووزراءؤه، وكتّابه، فكأنّي بهم حين يغلب عليه الشراب قد أزالوه عن رأيه. قال: فإني لجالس، وعندني بُنية لي، والكانون بين يدي، ورُقاق أشطره بكامخ، وأسخته، وأطعم الصبية، وأكل، وإذا بوقع الحوافر، فظننتُ أنّ الدنيا قد زُلزلت لوقعها، ولكثرة الضروءاء، فقلتُ: هذا ما كنتُ أخافه.

وإذا الباب قد فُتح، وإذا الخدم قد دخلوا، وإذا الهادي في وسطهم على دابته، فلما رأيته وثبت، فقيلتُ يده ورجله، وحافر دابته، فقال لي: يا أبا عبد الله! إني فكرتُ في أمرك، فقلتُ يسبق إلى وهمك أنّي، إذا شربتُ وخولي أصدائك، أزالوا حُسن رأيي فيك، فيقلقك ذلك، فصرتُ إلى منزلك لأونسك، وأعلمك أنّ ما كان عندي لك من الحقد قد زال، فهات وأطعمني ممّا كنتُ تأكل لتعلم أنّي قد تحرّمت بطعامك، فيزول خوفك.

فأدبنيّ إليه من ذلك الرُقاق والكامخ، فأكل، ثمّ قال: هاتوا الرُّؤلة التي أزلتها لعبد الله من مجلسي، فأدخلتُ إليّ أربعمائة بغل مُوقرة دراهم وغيرها، فقال: هذه لك، فاستعن بها على أمرك، واحفظ هذه البغال عندك لعلّي احتاج إليها لبعض أسفاري؛ ثمّ انصرف.

قيل: وكان يعقوب بن داود يقول: ما لعربيّ ولا لعجميّ عندي ما لعلّي ابن عيسى بن ماهان، فإنّه دخل إليّ الحبس، وقال لي: أمرني أمير المؤمنين الهادي أن أضربك مائة سوط. فأقبل يضع السوط على يديّ ومنكبي يمستّ به مسّاً إلى أن عدّ مائة سوط، ثمّ خرج، فقال له الهادي: ما صنعتُ به؟ قال: صنعتُ الذي أمرتني به، وقد مات الرجل. فقال الهادي: إنّ الله وإنّا إليه راجعون، فضحتني، والله، عند النّاس، يقولون: قتل يعقوب بن (١٠٤/٦) داود؛ فلما رأى شدّة جزعه قال: هو، والله، حيّ يا أمير المؤمنين. قال: الحمد

وقال: كان المهدي قد وهب لسي خاتماً شراؤه مائة ألف دينار، يسمّى الجبل، فأتاني رسول الهادي يطلب الخاتم وأنا هاهنا، فآلقته في الماء؛ فغاصوا عليه وأخرجوه، فسُرّ به.

ولما مات الهادي هجم خزيمة بن خازم تلك الليلة على جعفر بن الهادي فأخذه من فراشه، وقال له: لتخلعنّها أو لأضربنّ عنقك؛ فأجاب إلى الخلع وركب من الغد خزيمة، وأظهر جعفرًا للناس فأشهدهم بالخلع، وأحلّ الناس من بيعتهم، فحظي بها خزيمة.

ذكر عدة حوادث

وفيهما وُلد الأمين، واسمه محمد، في سؤال، فكان المأمون أكبر منه.

وفيهما استوزر الرشيد يحيى بن خالد، وقال له: قد قلّدتك أمر الرعيّة، (١٠٨/٦) فاحكمّ فيها بما ترى، واعزل مَنْ رأيت، واستعمل مَنْ رأيت. ودفع إليه خاتمه، فقال إبراهيم الموصلي في ذلك:

ألم ترّ الشمسَ كانتْ سَقِيمَةً فَلَمَّا وَلِيَ هَارُونُ أَشْرَقَ نُورُهَا
يُؤْمِنُ آمِينَ اللَّهُ هَارُونُ ذِي السُّدَى فَهَارُونُ وَلِيَهَا وَيَحْيَى وَزِيرُهَا
وكان يحيى يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد.

وفيهما توفي يزيد بن حاتم المهلبى، والي إفريقية، واستخلف عليها ابنه داود، وانتقضت جبال باجة، وخرج فيها الإباضية، فسير إليهم داود جيشاً، فظفر بهم الإباضية، وهزمهم، فجهز إليهم جيشاً آخر، فهزمت الإباضية، فتبعهم الجيش، فقتلوا منهم، فأكثروا، وبقي داود أميراً إلى أن استعمل الرشيد عمه روح بن حاتم المهلبى أميراً على إفريقية؛ وكانت إمارة داود تسعة أشهر.

وفيهما عزل الرشيد عمر بن عبد العزيز العمري عن المدينة، على ساكنها السلام، واستعمل عليها إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس.

وفيهما ظهر مَنْ كان مستخفياً، منهم طباطبأ العلوي، وهو إبراهيم بن إسماعيل، وعلي بن الحسين بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، وبقي نفر من الزنادقة لم يظهروا؛ منهم: يونس بن قروة، ويزيد بن القيص.

وفيهما عزل الرشيد الثغور كلّها عن الجزيرة وقُسرّين، وجعلها حِزّاً واحداً، وسُمّيت العواصم، وأمر بعمارة طرسوس على يدي فرج الخادم (١٠٩/٦) التركي ونزلها الناس.

وحجّ بالناس الرشيد، وقسم بالحرّمين عطاء كثيراً؛ وقيل إنّه غزا الصائفة بنفسه، وغزا الصائفة سليمان بن عبد الله البكائي.

وكان على مكة والطائف عبد الله بن قُثم، وعلى الكوفة

قبضها، فقال الحاجب: هذا ليس إليّ، فانطلق إلى صاحب التوقيع، وإلى الديوان، فعاد إلى ابن داب فأخبره، فقال: اتركها.

فبينما الهادي في مستشف له ببغداد رأى ابن داب وليس معه إلا غلام واحد، فقال للحُرّاني: ألا ترى ابن داب ما غيّر حاله، وقد وصلناه ليرى (١٠٦/٦) أثراً عليه؟ فقال: إن أمرتني عرضت له بالحال. فقال: لا، هو أعلم بحاله. ودخل ابن داب، وأخذ في حديثه، فعرض له الهادي بشيء. وقال: أرى ثوبك غسلاً، وهذا شتاء يُحتاج فيه إلى الجديد. فقال: باعي قصير! فقال: وكيف، وقد صرفنا إليك ما فيه صلاح شأنك؟ فقال: ما وصل إليّ [شيء]. فدعا صاحب بيت مال الخاصة فقال: عجل الساعة ثلاثين ألف دينار؛ فأحضرت وحملت بين يديه.

ذكر خلافة الرشيد بن المهدي

وفي هذه السنة بويع للرشيد هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة في الليلة التي مات فيها الهادي، وكان عمره، حين وُلّي، اثنتين وعشرين سنة، وأمه الخيزران أم ولد، يمانية، حرسية؛ وكان مولده بالري في آخر ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة؛ وقيل: وُلد مستهلّ محرّم سنة تسع وأربعين. وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكي قبله بسبعة أيام، وأرضعت أم ابن يحيى الرشيد، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد.

ولما مات الهادي كان يحيى بن خالد البرمكي محبوساً، في قول بعضهم، وكان الهادي عازماً على قتله، فجاء هرثمة بن أغشين إلى الرشيد فأخرجه وأجلسه للخلافة، فأرسل الرشيد إلى يحيى، فأخرجه من الحبس، واستوزره، وأمر بإنشاء الكتب إلى الأطراف بجلوسه للخلافة وموت الهادي.

وقيل: لما مات الهادي جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد، وهو نائم في فراشه، فقال له: قم يا أمير المؤمنين! فقال: كم تروعنني إعجاباً منك بخلافتي، فكيف يكون حالي مع الهادي إن بلغه هذا؟ فأعلمه بموته، وأعطاه خاتمه، (١٠٧/٦) فبينما هو يكلمه إذ أتاه رسول آخر يبشّره بدولود، فسماه عبد الله، وهو المأمون؛ ولبس ثيابه وخرج، فصلى على الهادي ببغداد، وقتل أبا عصمة وسار إلى بغداد.

وكان سبب قتل أبي عصمة أنّ الرشيد كان سائراً هو وجعفر بن الهادي، فبلغا قطرة من قناطر عيساباذ، فقال له أبو عصمة: مكانك حتى يجوز وليّ العهد! فقال الرشيد: السمع والطاعة للأمير! ووقف حتى جاز جعفر، فكان هذا سبب قتله.

ولما وصل الرشيد إلى بغداد، وبلغ الجسر، دعا الغواصين،

عمر بن مروان، وهو قَعْدُدُ بني أُمَيَّة، وهو الذي كان سبب قطع الدعوة العباسية بالأندلس، على ما تقدّم، وكان معه أحد عشر ولداً له. (١١٢/٦)

ذكر إمارة ابنه هشام

كان عبد الرحمن قد عهد إلى ابنه هشام، ولم يكن أكبر ولده، فإن سليمان كان أكبر منه، وإنما كان يتوسّم فيه الشبهة والاضطلاع بهذا الأمر، فلهذا عهد إليه.

ولما توفي أبوه كان هو بماردة متولياً لها، وناظراً في أمرها، وكان أخوه سليمان، وهو أكبر منه، بمدينة طليطلة، وكان يروم الأمر لنفسه، ويحسد أخاه هشاماً على تقديم والده له عليه، وأضمر له الغش والعصيان؛ وكان أخوه عبد الله المعروف بالبلنسي حاضراً بقرطبة عند والده. فلما توفي جدّد عبد الله البيعة لأخيه هشام، بعد أن صلى على والده، وكتب إلى أخيه هشام يعرفه موت والده، والبيعة له، فسار من ساعته إلى قرطبة، فدخلها في ستة أيام، واستولى على الملك، وخرج عبد الله إلى داره، مظهرًا لطاعته، وفي نفسه غير هذا، وستذكر ما كان منه إن شاء الله تعالى.

ذكر الصّحّاح الخارجي

وفيها خرج الصّحّاح الخارجي بالجزيرة، وكان عليها أبو هريرة، فوجهه عسكرياً إلى الصّحّاح، فلقوه، فهزمهم، وسار الصّحّاح إلى الموصل، فلقه عسكرها بباخرمي، فقتل منهم كثيراً، ورجع إلى الجزيرة، فغلب على ديار ربيعة، فسير الرشيد إليه جيشاً فلقوه بدورين، فقتلوه، وعزل الرشيد أبا هريرة عن الجزيرة. (١١٣/٦)

ذكر قتل رُوح بن صالح

وفيها استعمل الرشيد على صدقات بني تغلب رُوح بن صالح الهمداني، وهو من قوّاد الموصل، فجری بينه وبين تغلب خلاف، فجمع جمعاً، وقصدهم، فبلغهم الخبر، فاجتمعوا، وساروا إلى رُوح، فقتل هو وجماعة من أصحابه، فسمع حاتم بن صالح، وهو بالسّكير، فجمع جمعاً كثيراً، وسار إلى تغلب، فبیتهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر مثلهم.

وفيها عزل الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمي عن الموصل، واستعمل عليها إسحاق بن محمد.

ذكر استعمال رُوح بن حاتم على إفريقية

وفيها استعمل الرشيد على إفريقية رُوح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، لما بلغه وفاة أخيه يزيد بن حاتم بها، على ما ذكرناه، فقدمها في رجب، وكان داود بن يزيد أخيه على إفريقية، فلما وصل عمّه رُوح سار داود إلى الرشيد، فاستعمله.

موسى بن عيسى؛ وعلى البصرة والبحرين واليمامة وعُثمان والأهواز وفارس محمد بن سليمان بن علي؛ وكان على خراسان الفضل بن سليمان الطوسي، وعلى الموصل عبد الملك.

وفيها أوقع عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس بربابر نفزة، فأذلهم، وقتل فيهم.

وفيها أمر عبد الرحمن ببناء جامع قرطبة، وكان موضعه كنيسة، وأخرج عليه مائة ألف دينار. (١١٠/٦)

سنة إحدى وسبعين ومائة

ذكر وفاة عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس

وفيها مات عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، صاحب الأندلس، في ربيع الآخر، وقبل سنة اثنتين وسبعين ومائة، وهو أصح، وكان مولده بأرض دمشق، وقيل بالعلاء من ناحية تدور، سنة ثلاث عشرة ومائة، وكان موته بقرطبة، وصلى عليه ابنه عبد الله، وكان عهد إلى ابنه هشام، وكان هشام بمدينة ماردة والياً عليها، وكان ابنه سليمان بن عبد الرحمن، وهو الأكبر، بطليطلة والياً عليها، فلم يحضرا موت أبيهما، وحضره عبد الله المعروف بالبلنسي، وأخذ البيعة لأخيه هشام، وكتب إليه بنعي أبيه وبالإمارة، فسار إلى قرطبة.

وكانت دولة عبد الرحمن ثلاثاً وثلاثين سنة وأشهرًا، وكانت كنيته أبا المطرف، وقيل: أبا سليمان، وقيل: أبا زيد، وكان له من الولد: أحد عشر ذكراً، وتسع بنات، وكانت أمه بربرية من سبي إفريقية.

وكان أصهب، خفيف العارضين، طويل القامة، نحيف الجسم، أعور، له ضغيرتان، وكان فصيحاً لساناً، شاعراً، حلماً، عالمًا، حازماً، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى ذعة، (١١١/٦) ولا يكل الأمور إلى غيره، ولا ينفرد في الأمور برأيه، شجاعاً مقداماً بعيد الغور، شديد الحذر، سخياً، جواداً، يكثر لبس البياض، وكان يقاس بالمنصور في حزمه وشدة، وضبط المملكة.

وبنى الرصافة بقرطبة تشبهاً بجده هشام حيث بنى الرصافة بالشام، ولما سكنها رأى فيها نخلة منفردة، فقال:

بَسَدَتْ لَنَا وَسَطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَهَامَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ فَقُلْتُ: شَبِيهِي فِي التَّغَرُّبِ وَالنَّسْوَى وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَغْنِ أَهْلِي نَشَاتٍ بِأَرْضِ أَسْتَبِيهَا غَرْبِيَّةً فَمَثَلْتُ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمَشَاقِي مِثْلِي سَقَتُ غَوَادِي الْفَزْنِ مِنْ ضَوْئِهَا الَّذِي

وقصده بنو أُمَيَّة من المشرق، فمن المشهورين: عبد الملك بن

الله إلا بالمشاركة في أمره.

ثم إنه خاف من أخيه هشام، فمضى هارباً إلى أخيه سليمان، وهو بطليطلة، فلما خرج من قرطبة أرسل هشام جمعاً في أثره ليردوه فلم يلحقوه، فجمع هشام عساكره، وسار إلى طليطلة، فحصر أخوته بها، وكان سليمان قد جمع وحشد خلقاً كثيراً، فلما حصرهما هشام سار سليمان من طليطلة وترك ابنه وأخاه عبد الله يحفظان البلد، وسار هو إلى قرطبة ليملكها، فعلم هشام الحال، فلم يتحرك، ولا فارق طليطلة بل أقام يحصرها.

وسار سليمان، فوصل إلى شقنّة، فدخلها، وخرج إليه أهل قرطبة (١١٧/٦) مقاتلين ودافعين عن أنفسهم.

ثم إن هشاماً سار في أثره ابنه عميد الملك، في قطعة من الجيش، فلما قاربه مضى سليمان هارباً، فقصده مدينة ماردة، فخرج إليه الوالي بها لهشام، فانهزم سليمان، وبقي هشام على طليطلة شهرين وأياماً محاصراً لها ثم عاد عنها، وقد قطع أشجارها وسار إلى قرطبة، فأتاه أخوه عبد الله بغير أمان، فأكرمه وأحسن إليه.

فلما دخلت أربع وسبعين سار هشام ابنه معاوية في جيش كثيف إلى تدمير، وبها سليمان، فحاربه، وخربوا أعمال تدمير، ودوخوا أهلها ومن بها، وبلغوا البحر، فخرج سليمان من تدمير هارباً، فلجأ إلى البرابر بناحية بلنسية، فاعتصم بتلك الناحية الوعرة المسلك، فعاد معاوية إلى قرطبة.

ثم إن الحال استقر بين هشام وسليمان أن يأخذ سليمان أهله وأولاده وأمواله ويفارق الأندلس، وأعطاه هشام ستين ألف دينار مصالحة عن تركه أبيه عبد الرحمن، فسار إلى بلد البرابر فأقام به.

ذكر خروج جماعة على هشام أيضاً

وفيهما خرج بالأندلس أيضاً سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري بشاغنت، من أقاليم طرطوشة، في شرق الأندلس، وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه، كما تقدم، ودعا إلى اليمانية، وتعصب لهم، فاجتمع له خلق كثير وملك مدينة طرطوشة، وأخرج عامله يوسف القيسي، فعارضه موسى بن فرتون، وقام بدعوة هشام، ووافقه مضر، فاقتلا، فانهزم سعيد (١١٨/٦) وقتل، وسار موسى إلى سرقة فملكها، فخرج عليه مولى للحسين بن يحيى اسمه جحدر في جمع كثير فقاتله وقتل موسى.

وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقطان بمدينة برشلونة، وخرج معه جمع كثير، فملك مدينة سرقة ومدينة وثقة، وتغلب على تلك الناحية، وقوي أمره، وكان هشام مشغولاً بمحاربة أخوته سليمان وعبد الله.

قال روح: كنت عاملاً على فلسطين، فأحضرني الرشيد، فوصلت وقد بلغه موت أخي يزيد، فقال: أحسن الله عزاءك في أخيك، وقد وليت مكانه لتحفظ صنائعهم ومواليه.

فسار إليها، ولم تزل البلاد معه آمنة، ساكنة من فتنة، لأن أخاه يزيد (١١٤/٦) كان قد أكثر القتل في الخوارج بإفريقية فذلوا.

ثم توفي روح بالقيروان، ودُفن إلى جانب قبر أخيه يزيد، وكانت وفاته في رمضان سنة أربع وسبعين ومائة؛ ولما استعمل المنصور يزيد بن حاتم على إفريقية، استعمل أخاه روحاً على السند فقبل له: يا أمير المؤمنين لقد باعدت ما بين قريهنا؛ فتوفي يزيد بالقيروان، ثم وليها روح، فتوفي بها ودُفن إلى جانب أخيه يزيد.

وكان روح أشهر بالشرق من يزيد، ويزيد أشهر بالغرب من روح لطول مدة ولايته، وكثرة خروجه فيها والخارجين عليه.

ذكر عدة حوادث

ففيها قدم أبو العباس الفضل بن سليمان الطوسي من خراسان، واستعمل الرشيد عليها جعفر بن محمد بن الأشعث، فلما قدم خراسان سار ابنه العباس إلى كابل، فقاتل أهلها حتى افتتحها، ثم افتتح سانهار، وغنم ما كان بها.

وفيهما قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن فروخ، وكان على الجزيرة فوجه إليه الرشيد أبا خنيفة حرب بن قيس، فأحضره إلى بغداد وقتله.

وفيهما أمر الرشيد بإخراج الطالبين من بغداد إلى مدينة النبي ﷺ خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن [علي بن (١١٥/٦) أبي طالب].

وفيهما خرج الفضل بن سعيد الحروري فقتله أبو خالد المروزي.

وفيهما قدم روح بن حاتم إفريقية. وحج بالناس هذه السنة عبد الصمد ابن علي بن عبد الله بن عباس. (١١٦/٦)

سنة اثنين وسبعين ومائة

ذكر خروج سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن علي أخيهما هشام في هذه السنة، وقبل سنة ثلاث وسبعين ومائة، وهو الصحيح، خرج سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، أمير الأندلس، عن طاعة أخيهما هشام بالأندلس، وكان هشام قد ملك بعد أبيه، كما ذكرناه، فلما استقر له الملك كان معه أخوه عبد الله المعروف بالبلنسي، وكان هشام يؤثره ويبره ويقدمه، فلم يرض عبد

ذكر عدة حوادث

ابن أخيه في الملك، وكان ملك ابن أخيه سنة خمس وسبعين ومائة.

وفيها عزل الرشيدُ إسحاق بن محمد عن الموصل، واستعمل سعيد بن سلم الباهلي، وعزل الرشيدُ يزيد بن مزيد بن زائدة، وهو ابن أخي معن بن زائدة، عن أرمينية، واستعمل عليها أخاه عبيد الله بن المهدي.

وفيها غزا الصائفةُ إسحاق بن سليمان بن علي.

وفيها وضع الرشيد على أهل السواد العُشْر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف.

وحجَّ بالنَّاس يعقوب بن المنصور.

وفيها مات الفضل بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو أخو عبد الملك؛ وتوفي سليمان بن بلال مولى ابن أبي عتيق؛ وتوفي أبو يزيد رباح بن يزيد اللخمي الزاهد، بمدينة القيروان، وكان مجاب الدعوة. (١١٩/٦)

سنة ثلاث وسبعين ومائة

فيها توفي محمد بن سليمان بن علي بالبصرة، فأرسل الرشيد من قبض تركته، وكانت عظمى من المال، والمتاع، والدواب، فحملوا منه ما يصلح للخلافة، وتركوا ما لا يصلح.

وكان من جملة ما أخذوا ستون ألف ألف، فلما قدموا بذلك عليه أطلق منه للندماء والمغتنيين شيئاً كثيراً، ورفع الباقي إلى خزانته.

وكان سبب أخذ الرشيد تركته أن أخاه جعفر بن سليمان كان يسعى به إلى الرشيد حسداً له، ويقول: إنه لا مال له، ولا ضيعة إلا وقد أخذ أكثر من ثمنه ليتقوى به على ما تحدث به نفسه، يعني الخلافة، وإن أمواله حلَّ طلق لأمر المؤمنين؛ وكان الرشيد يأمر بالاحتفاظ بكتبه، فلما توفي محمد بن سليمان أخرجت كتبه إلى جعفر أخيه، واحتج عليه بها، ولم يكن له أخ لأبيه وأمه غير جعفر، فأقر بها، فلها فُبِضَت أمواله.

وفيها ماتت الخيزران أم الرشيد، فحمل الرشيد جنازتها، ودفنها في مقابر قريش، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم الفضل بن الربيع، وأخذه من جعفر بن يحيى بن خالد. (١٢٠/٦)

وفيها استقدم الرشيدُ جعفر بن محمد بن الأشعث من خراسان، واستعمل عليها ابنه العباس بن جعفر؛ وحجَّ بالنَّاس الرشيد، أحرَم من بغداد.

وفيها مات مورقاط ملك جليقية، من بلاد الأندلس، وولي بعده برمند بن قلورية القس، ثم تبرأ من الملك، وترهب، وجعل

سنة أربع وسبعين ومائة

فيها استعمل الرشيد إسحاق بن سليمان على السند ومكران.

وفيها استقضى الرشيد يوسف بن أبي يوسف، وأبوه حي.

وفيها هلك روح بن حاتم، وسار الرشيد آل الجودي، ونزل بقردي ويازيدي من أعمال جزيرة ابن عمر، فابتنى بها قصراً.

وغزا الصائفة عبد الملك بن صالح.

وحجَّ بالنَّاس الرشيد، فقسم في النَّاس مالا كثيراً.

وفيها عزل علي بن مسهر عن قضاء الموصل، وولي القضاء بها إسماعيل بن زياد الدولابي. (١٢٢/٦)

سنة خمس وسبعين ومائة

في هذه السنة عقد الرشيد لابنه محمد بن زبيدة بولاية العهد، ولقبه الأمين، وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين.

وكان سبب البيعة أن خاله عيسى بن جعفر بن المنصور جاء إلى الفضل بن يحيى بن خالد، فسأله في ذلك، وقال له: إنه ولدك، وخلافته لك. فوعده بذلك، وسعى فيها، حتى بايع النَّاس له بولاية العهد.

وفيها عزل الرشيد عن خراسان العباس بن جعفر، وولَّاهَا خالد الفطريف بن عطاء.

وغزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ أقرطية؛ وقيل غزاها عبد الملك نفسه، فأصابهم برد شديد سقط منه كثير [من] أيدي الجند وأرجلهم.

وفيها سار يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي إلى الديلم، فتحرك هناك؛ وحجَّ بالنَّاس هذه السنة هارون الرشيد. (١٢٣/٦)

ذكر ظفر هشام بأخوته ومطروح

وفيها فرغ هشام بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، من أخوته سليمان وعبد الله، وأجلاهما عن الأندلس، فلما خلا سره منهما انتدب لمطروح بن سليمان بن يقظان، فسير إليه جيشاً كثيفاً، وجعل

سنة ست وسبعين ومائة

ذكر ظهور يحيى بن عبد الله بالدَّيْلَم

في هذه السنة ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بالدَّيْلَم واشتدَّت شوكتُه، وكثُر جموعه، وأتاه النَّاسُ مِنَ الْأَمْصَارِ، فَاغْتَمَّ الرُّشِيدُ لذلِكَ، فَنَدَبَ إِلَيْهِ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى فِي خَمْسِينَ أَلْفًا، وَوَلَّاهُ جُرْجَانَ وَطَبْرِسْتَانَ وَالرَّيَّ وَغَيْرَهَا، وَحَمَلَ مَعَهُ الْأَمْوَالَ، فَكَاتَبَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَلَطَفَ بِهِ، وَحَذَّرَهُ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ، وَبَسَطَ أَمَلَهُ.

ونزل الْفَضْلُ بِالطَّالِقَانِ، بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ أَشْب، وَوَالَى كَتَبَهُ إِلَى يَحْيَى، وَكَاتَبَ صَاحِبَ الدَّيْلَمِ، وَبَذَلَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى أَنْ يَسْهَلَ لَهُ خُرُوجُ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَجَابَ يَحْيَى إِلَى الصَّلْحِ، عَلَى أَنْ يَكْتَبَ لَهُ الرُّشِيدُ أَمَانًا يَخْطُهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهِ الْقَضَاءُ، وَالْفَقْهَاءُ، وَجَلَّةُ بَنِي هَاشِمٍ، وَمَشَايِخِهِمْ، مِنْهُمْ: عَبْدِ الصَّمَدِ بْنُ عَلِيٍّ، فَأَجَابَهُ الرُّشِيدُ إِلَى ذلِكَ، وَسَرَّ بِهِ، وَعَظَمَتْ مَنَزَلَةُ الْفَضْلِ عِنْدَهُ وَسِيرَ الْأَمَانُ مَعَ هَدَايَا وَتَحَفٍ، فَقَدَّمَ يَحْيَى مَعَ الْفَضْلِ بَغْدَادَ، فَلَقِيَهُ الرُّشِيدُ بِكُلِّ مَا أَحَبَّ، وَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ كَثِيرٍ.

ثمَّ إِنَّ الرُّشِيدَ حَبَسَهُ، فَمَاتَ فِي الْحَبْسِ، وَكَانَ الرُّشِيدُ قَدْ عَرَضَ كِتَابَ أَمَانِ يَحْيَى عَلَى مُحَمَّدَ بْنِ الْحَسَنِ الْفَقِيهِ، وَعَلَى أَبِي الْبَخْتَرِيِّ الْقَاضِي، فَقَالَ (١٢٦/٦) مُحَمَّدٌ: الْأَمَانُ صَحِيحٌ، فَحَاجَّهُ الرُّشِيدُ، فَقَالَ مُحَمَّدٌ: وَمَا يَصْنَعُ بِالْأَمَانِ لَوْ كَانَ مُحَارِبًا، ثُمَّ وَلِيَ وَكَانَ أَمْنًا؟ وَقَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ: هَذَا أَمَانٌ مُتَّقَضٌ مِنْ وَجْهِ كَذَا؛ فَمَزَقَهُ الرُّشِيدُ.

ذكر ولاية عمر بن مهران مصر

وفيها عزل الرُّشِيدُ مُوسَى بْنَ عِيسَى عَنْ مِصْرَ، وَرَدَّ أَمْرَهَا إِلَى جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ، فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا جَعْفَرَ عَمَرَ بْنَ مَهْرَانَ.

وَكَانَ سَبَبُ عِزْلِهِ أَنَّ الرُّشِيدَ بَلَغَهُ أَنَّ مُوسَى عَازِمٌ عَلَى الْخَلْعِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَعْزِلُهُ إِلَّا بِأَخْسَرِ مَنْ عَلَى بَابِي! فَأَمَرَ جَعْفَرَ، فَأَحْضَرَ عَمَرَ بْنَ مَهْرَانَ، وَكَانَ أَحْوَلُ، مَشَوْهُ الْخَلْقُ، وَكَانَ لِبَاسُهُ خَسِيسًا، وَكَانَ يُرَدِّدُ غَلَامَهُ خَلْفَهُ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ الرُّشِيدُ: أَسِيرِ إِلَى مِصْرَ أَمِيرًا؟ قَالَ: أَتَوَلَّاهَا عَلَى شُرَاطٍ، إِحْدَاهَا أَنْ يَكُونَ إِذْنِي إِلَى نَفْسِي، إِذَا أَصْلَحَتِ الْبِلَادُ انْصَرَفْتُ؛ فَأَجَابَهُ إِلَى ذلِكَ.

فسار، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا أَتَى دَارَ مُوسَى فَجَلَسَ فِي أَخْرِيَاتِ النَّاسِ، فَلَمَّا تَفَرَّقُوا قَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ! ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِ الْكُتُبَ، فَلَمَّا قَرَأَهَا قَالَ: هَلْ يَقْدَمُ أَبُو حَفْصٍ، أَبَقَاهُ اللَّهُ؟ قَالَ: أَنَا أَبُو حَفْصٍ. قَالَ مُوسَى: لَعَنَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ: «أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ؟» [الزخرف: ٥٠] ثُمَّ سَلَّمَ لَهُ الْعَمَلَ، فَتَقَدَّمَ عَمَرَ إِلَى كَاتِبِهِ أَنْ لَا يَقْبَلَ

عَلَيْهِمْ أَبَا عَثْمَانَ عِيْدَ اللَّهِ بْنِ عَثْمَانَ، فَسَارُوا إِلَى مَطْرُوحَ، وَهُوَ بِسَرَقُسْطَةَ، فَحَصَرُوهُ بِهَا، فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ، فَارْجَعَ أَبُو عَثْمَانَ عَنْهُ، وَنَزَلَ بِحَصْنِ طَرَسُوتَ، بِالْقَرْبِ مِنْ سَرَقُسْطَةَ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ عَلَى أَهْلِ سَرَقُسْطَةَ يَغِيرُونَ وَيَمْنَعُونَ عَنْهُمْ الْمِيرَةَ.

ثُمَّ إِنَّ مَطْرُوحًا خَرَجَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، آخِرَ النَّهَارِ، يَتَصَيَّدُ، فَأَرْسَلَ الْبَازِيَّ عَلَى طَائِرٍ، فَاقْتَنَصَهُ، فَنَزَلَ مَطْرُوحَ لِيَذْبَحَهُ بِيَدِهِ، وَمَعَهُ صَاحِبَانِ لَهُ قَدْ انْفَرَدَ بِهِمَا عَنْ أَصْحَابِهِ، فَقَتَلَاهُ وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ وَأَتَاهُ بِهِ أَبَا عَثْمَانَ، فَسَارَ إِلَى سَرَقُسْطَةَ، فَكَاتَبَهُ أَهْلُهَا بِالطَّاعَةِ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ، وَسَارَ إِلَيْهَا فَتَنَزَّلَهَا، وَأَرْسَلَ رَأْسَ مَطْرُوحَ إِلَى هِشَامٍ.

ذكر غزاة هشام بالأندلس

ثُمَّ إِنَّ أَبَا عَثْمَانَ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ مَطْرُوحَ أَخَذَ الْجِيْشَ، وَسَارَ بِهِمْ إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ، فَقَصَدَ آتِيَّةَ، وَالْقَلَاعَ، فَلَقِيَهُ الْعَدُوُّ، فَظَفَرَ بِهِمْ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا (١٢٤/٦) كَثِيرًا، وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَفِيهَا سِيرَ هِشَامُ أَيْضًا يَوْسُفَ بْنَ بَخْتٍ فِي جَيْشٍ إِلَى جَلِيْقِيَّةَ، فَلَقِيَ مُلْكَهُمْ وَهُوَ بِرَمَنْدِ الْكَبِيرِ، فَاقْتَلَوْا قِتَالًا شَدِيدًا، وَانْهَزَمَتْ الْجَلَالَةُ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ عَالِمٌ كَثِيرٌ.

وَفِيهَا انْقَادَ أَهْلُ طَلَيْطُلَةَ إِلَى طَاعَةِ الْأَمِيرِ هِشَامَ فَأَمْتَهُمْ.

وَفِيهَا سَجَنَ هِشَامُ أَيْضًا ابْنَهُ عَبْدِ الْمَلِكِ لَشَيْءٍ بَلَغَهُ عَنْهُ، فَبَقِيَ مَسْجُونًا حَيَاةَ أَبِيهِ وَبَعْضَ وِلَايَةِ أَخِيهِ، فَتَوَفَّى مَجْبُوسًا سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةً.

ذكر عذة حوادث

وَفِيهَا خَرَجَ بِخُرَّاسَانَ خُصَيْنَ الْخَارِجِيُّ، وَهُوَ مِنْ مَوَالِي قَيْسِ بْنِ نَعْلَةَ، مِنْ أَهْلِ أُرُوقَ، وَكَانَ عَلَى سِجِسْتَانَ عَثْمَانَ بْنَ عُمَارَةَ، فَأَرْسَلَ جَيْشًا، فَلَقِيَهُمْ حَصِينٌ، فَهَزَمَهُمْ، ثُمَّ أَتَى خُرَّاسَانَ وَقَصَدَ بِأَذْغَيْسَ، وَبُوشَنْجَ، وَهَرَاةَ، وَكَتَبَ الرُّشِيدُ إِلَى الْفُطْرَيْفِ فِي طَلْبِهِ، فَسِيرَ إِلَيْهِ الْفُطْرَيْفُ دَاوُدَ بْنَ يَزِيدَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، فَلَقِيَهُمْ حَصِينٌ فِي سِتْمَانَةَ، فَهَزَمَهُمْ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا.

ثُمَّ سَارَ فِي خُرَّاسَانَ إِلَى أَنْ قُتِلَ سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةً.

وَفِيهَا مَاتَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ الْفَقِيهُ بِمِصْرَ؛ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ أَبُو الْعَتَّيْنِ الشَّاعِرُ.

وَفِيهَا تَوَفَّى الْمُسْتَبِيبُ بْنُ زُهَيْرٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ مُسْلِمِ بْنِ الضَّبِّيِّ، وَقِيلَ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ، وَكَانَ عَلَى شُرْطِ الْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ، وَوَلَّاهُ الْمَهْدِيُّ خُرَّاسَانَ.

وَفِيهَا وُلِدَ إِدْرِيسُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. (١٢٥/٦)

فكلموهم، فقالوا: انصرفوا عنا حتى ننظر؛ ثم ساروا، فبيّسوا [بني] القين، فقتلوا منهم ستمائة، وقيل ثلاثمائة، فاستجدت القين قضاة وسليحا، فلم ينجدوهم، فاستجدت قيساً فأجابوهم، وساروا معهم إلى الصّوَالِيك من أرض البلقاء، فقتلوا من اليمانية ثمانمائة، وكثر القتال بينهم فالتقوا مرّات.

وعُزِلَ عبد الصمد عن دمشق، واستعمل عليها إبراهيم بن صالح بن علي، فدام ذلك الشرّ بينهم نحو ستين، والتقوا بالشيعة، فقتل من اليمانية نحو ثمان مائة، ثم اصطلحوا بعد شرّ طويل. (١٢٩/٦)

ووفد إبراهيم بن صالح على الرشيد، وكان ميله مع اليمانية، فوقع في قيس عند الرشيد، فاعتذر عنهم عبد الواحد بن بشر النصري من بني نصر، فقبل عذرهم، ورجعوا، واستخلف إبراهيم بن صالح على دمشق ابنه إسحاق، وكان ميله أيضاً مع اليمانية، فأخذ جماعة من قيس، فحبسهم، وضربهم وحلق لحاهم، فنفر الناس، ووثب غسان برجل من ولد قيس بن العيص فقتلوه، فجاء أخوه إلى ناس من الزواquil بخوزان، فاستجدهم فأنجدوه وقتلوا من اليمانية نفراً.

ثم ثارت اليمانية بكليب بن عمرو بن الجندب بن عبد الرحمن، وعنده ضعف له، فقتلوه، فجاءت أم الغلام بشيابه إلى أبي الهيثم، فالتفتها بين يديه، فقال: انصرفي حتى ننظر، فإني لا أحيط خطب العشواء، حتى يأتي الأمير ونرفع إليه دعاءنا، فإن نظر فيها وإلاً فأمر المؤمنين ينظر فيها.

ثم أرسل إسحاق فأحضر أبا الهيثم، فحضر، فلم يأذن له؛ ثم إن ناساً من الزواquil قتلوا رجلاً من اليمانية، وقتلت اليمانية رجلاً من سُلَيم، ونهبت أهل تَلْفِيائِنا، وهم جيران مُحارب، فجاءت مُحارب إلى أبي الهيثم، فركب معهم إلى إسحاق في ذلك، فوعدهم الجميل فوضى، فلما انصرف أرسل إسحاق إلى اليمانية يُغريهم بأبي الهيثم، فاجتمعوا، وأتوا أبا الهيثم من باب الجابية، فخرج إليهم في نفر يسير، فهزمهم، واستولى على دمشق، وأخرج أهل السجون عامة.

ثم إن أهل اليمانية استجمعت، واستجدت كليباً، وغيرهم، فأمدوهم، وبلغ الخبر أبا الهيثم، فأرسل إلى المُضَرِّية، فأنتهز الأمداد وهو يقاتل اليمانية عند باب توما، فانهزمت اليمانية. (١٣٠/٦)

ثم إن اليمانية أتت قرية لقيس عند دمشق، فأرسل أبو الهيثم إليهم الزواquil، فقاتلوهم، فانهزمت اليمانية أيضاً، ثم لقيهم جمع آخر، فانهزموا أيضاً، ثم أتاهم الصّريخ: أدركوا باب توما، فأتوه، فقاتلوا اليمانية، فانهزمت أيضاً، فهزمهم في يوم واحد أربع

هدية إلا ما يدخل في الكيس، فبعث الناس يهداياهم، فلم يقبل دابة، ولا جارية، ولم يقبل إلا المال والثياب، فأخذها، وكتب عليها أسماء أصحابها، وتركها. (١٢٧/٦)

وكان أهل مصر قد اعتادوا المظل بالخراج، وكسره، فبدأ عمر برجل منهم فطالبه بالخراج، فلوّاه، فأقسم أن لا يؤذيه إلا بمدينة السلام، فبذل الخراج، فلم يقبله منه، وحمله إلى بغداد فأدى الخراج بها؛ فلم يمله أحد، فأخذ النجم الأول، والنجم الثاني؛ فلما كان النجم الثالث وقعت المطاولة والمظل وشكوا الضيق، فأحضر تلك الهدايا وحسبها لأربابها، وأمرهم بتعجيل الباقي، فأسرعوا في ذلك، فاستوفى خراج مصر عن آخره، ولم يفعل ذلك غيره، ثم انصرف إلى بغداد.

ذكر الفتنة بدمشق

وفي هذه السنة هاجت الفتنة بدمشق بين المُضَرِّية واليمانية، وكان رأس المُضَرِّية أبو الهيثم، واسمه عامر بن عُمارة بن خُرَيْم التّاعم بن عمرو بن الحارث بن خارجة بن ستان بن أبي حارثة بن مُرة بن نُشْبَة بن عُيْظ بن مُرة بن عوف بن سعد بن ذُبَيان بن بَغِيض بن رَيْث بن غُظفان المُرِّي، أحد فرسان العرب المشهورين.

وكان سبب الفتنة أن عاملاً للرشيد بسجستان قتل أخاً لأبي الهيثم، فخرج أبو الهيثم بالشام، وجمع جمعاً عظيماً، وقال يرثي أخاه:

سَابِكِيكَ بِالْبَيْضِ الرَّسَاقِ وَيَالْقَسَا فَإِنَّ بَهَا مَا يُدْرِكُ الطَّالِبُ الْوَسَا
وَلَسْنَا كَمَنْ يَنْفَى أَخَاهُ بغيرِهِ يُعْصَرُهَا مِنْ مَاءِ مُقْلَتِهِ عَصَا

وَأَنَا أَنَاسُ مَا تَفِيضُ دُمُوعُهَا عَلَى هَالِكِ مَنْهَا وَإِنْ قَصَمَ الظُّهْرَا
وَلَكِنِّي أَنَسَفِي السُّوَادِ بِنَارَةِ الْهَبِّ فِي قَطْرِي كَتَابَهَا جَمَرَا

وقيل إن هذه الأبيات لغيره والصحيح أنها له، ثم إن الرشيد احتال عليه بأخ له كتب إليه فارغبه، ثم شدّ عليه فكشفه، وأتى به الرشيد فمنّ عليه وأطلقه.

وقيل: كان أول ما هاجت الفتنة في الشام أن رجلاً من [بني] القين خرج بطعام له يطحنه في الرّحا بالبلقاء، فمرّ بحائط رجل من لَحْمٍ أو جُذَام، وفيه بطيخ وقشّاء، فتناول منه، فشمته صاحبه، وتضاربا، وسار القيني؛ فجمع صاحب البطيخ قوماً من أهل اليمن ليضربوه إذا عاد، فلما عاد ضربوه وأعانته قوم آخرون، فقتل رجل من اليمانية، وطلبوا بدمه، فاجتمعوا لذلك.

وكان على دمشق حينئذ عبد الصمد بن علي، فلما خاف الناس أن يتفاقم ذلك اجتمع أهل الفضل والرؤساء ليصلحوا بينهم، فأتوا بني القين فكلموهم، فأجابوهم إلى ما طلبوا، فأتوا اليمانية

إسحاق في الجند، فقاتلهم عمّة اللّيل، وهم بالمدينة، واستمدّ أبو الهيثم أصحابه، (١٣٢/٦) وأصبحوا من الغد فاقتلوا والجند في اثني عشر ألفاً، وجاءتهم اليمانية، وخرج أبو الهيثم من المدينة، فقال لأصحابه، وهم قليلون: اتزلوا، فنزلوا، وقاتلوهم على باب الجابية، حتى أزالوهم عنه.

ثم إن جمعا من أهل حمص أغاروا على قرية لأبي الهيثم، فأرسل طائفة من أصحابه إليهم، فقاتلوهم، فانهزم أهل حمص، قُتل منهم بشر كثير، وأحرقوا قرى في العوطة لليمانية، وأحرقوا داريا، ثم بقوا نيّفاً وسبعين يوماً لم تكن حرب.

فقدم السديّ، مستهلّ ربيع الآخر، في الجنود من عند الرشيد فأتته اليمانية تُغرّيه بأبي الهيثم، وأرسل أبو الهيثم إليه يُخبره أنّه على الطاعة، فأقبل حتى دخل دمشق، وإسحاق بدار الحجاج، فلمّا كان الغد أرسل السديّ قائداً في ثلاثة آلاف، وأخرج إليهم أبو الهيثم ألفاً، فلمّا رآهم القائد رجع إلى السديّ، فقال: أعط هؤلاء ما أرادوا، فقد رايتُ قوماً الموت أحب إليهم من الحياة؛ فصالح أبو الهيثم، وأمن أهل دمشق والنّاس.

وسار أبو الهيثم إلى حوران، وأقام السديّ بدمشق ثلاثة أيام، وقدم موسى بن عيسى والياً عليها، فلمّا دخلها أقام بها عشرين يوماً، واغتنم غرة أبي الهيثم فأرسل من يأتيه به، فكبسوا داره، فخرج هو وابنه خزيّم وعبد له، فقاتلوهم، ونجا منهم وانهزم الجند.

وسمعت خيل أبي الهيثم، فجاءته من كلّ ناحية، وقصد بُصري، وقاتل جنود موسى بطرف اللّجاة، فقتل منهم، وانهزموا، ومضى أبو الهيثم، فلمّا أصبح أتاه خمسة فوارس فكلّموه، فأوصى أصحابه بما أراد، وتركهم ومضى، وذلك لعشر بقين من رمضان سنة سبع وسبعين ومائة.

وكان أولئك نفر قد أتوه من عند أخيه يأمره بالكفّ، ففعل، ومضى معهم، وأمر أصحابه بالتفرّق، وكان آخر الفتنة؛ ومات أبو الهيثم سنة (١٣٣/٦) اثنتين وثمانين ومائة.

هذا ما أردنا ذكره على سبيل الاختصار.

(خزيّم بضمّ الخاء المعجمة، وفتح الراء. وحارثة بالحاء المهملة، والثاء المثناة. ونُشبة بضمّ النون، وسكون الشين المعجمة، ويعدها باء موحدة. ويغيض بالياء الموحدة، وكسر الغين المعجمة، وآخره ضاد معجمة. وريث بالراء، والياء تحتها نقطتان، وآخره ثاء مثناة).

مرّات، ثم رجعوا إلى أبي الهيثم.

ثم أرسل إسحاق إلى أبي الهيثم يأمره بالكفّ، ففعل، وأرسل إلى اليمانية: قد كفّته عنكم، فدوّنكم من الرجل فهو غار؛ فأتوه من باب شرقيّ متسلّلين، فأتى الصرّيح أبا الهيثم، فركب في فوارس من أهله، فقاتلوهم، فهزموهم.

ثم بلغه خبر جمع آخر لهم على باب توما، فأتاهم، فهزموهم أيضاً؛ ثم جمعت اليمانية أهل الأردن، والخولان وكلباء وغيرهم، وأتى الخبر أبا الهيثم، فأرسل من يأتيه بخبرهم، فلم يقف لهم على خبر في ذلك، وجاؤوا من جهة أخرى كان أمناً منها لبناء فيها.

فلمّا انتصف النهار ولم ير شيئاً فرّق أصحابه، فدخلوا المدينة، ودخلها معهم، وخلف طليعة، فلمّا رآه إسحاق قد دخل أرسل إلى ذلك البناء فهدمه، وأمر اليمانية بالمبور، ففعلوا، فجاءت الطليعة إلى أبي الهيثم، فأخبروه الخبر، وهو عند باب الصغير، ودخلت اليمانية المدينة وحملوا على أبي الهيثم، فلم يبرح، وأمر بعض أصحابه أن يأتي اليمانية من ورائهم، ففعلوا، فلمّا رأتهم اليمانية نادوا: الكمين الكمين، وانهزموا، وأخذ منهم سلاحاً وخيلاً.

فلمّا كان مستهلّ صفر جمع إسحاق الجنود، فمسكروا عند قصر الحجاج، (١٣١/٦) وأعلم أبو الهيثم أصحابه، فجاءته القين وغيرهم، واجتمعت اليمن إلى إسحاق، فالتقى بعض العسكر فاقتلوا، فانهزمت اليمانية وقُتل منهم، ونهب أصحاب أبي الهيثم بعض داريا، وأحرقوا فيها ورجعوا، وأغار هؤلاء، فنهبوا وأحرقوا، واقتلوا غير مرّة، فانهزمت اليمانية أيضاً.

فأرسلت ابنة الضحاك بن زمل السكسكيّ، وهي يمانية، إلى أبي الهيثم تطلب منه الأمان، فأجابها، وكتب لها؛ ونهب القرى التي لليمانية بنواحي دمشق أحرقها، فلمّا رأت اليمانية ذلك أرسل إليه ابن خارجة الحرّشيّ وابن عزة الخُسنيّ، وأثناء الأوزاع والأوصاب، ومُقرّاء، وأهل كُفّر سُوسية، والجُمَيْرِيّون، وغيرهم يطلّبون الأمان، فأمنهم، فسكن النّاس وأمنوا.

وفرّق أبو الهيثم أصحابه، وبقي في نفر يسير من أهل دمشق، فطمع فيه إسحاق، فبذل الأموال للجنود ليواقع أبا الهيثم، فأرسل العُذافر السكسكيّ في جمع إلى أبي الهيثم، فقاتلوهم، فانهزم العُذافر.

ودامت الحرب بين أبي الهيثم وبين الجنود من الظهر إلى المساء؛ وحملت خيل أبي الهيثم على الجند، فجالوا ثم تراجعوا وانصرفوا، وقد جرح منهم أربعمائة، ولم يُقتل منهم أحد، وذلك نصف صفر.

فلمّا كان الغد لم يقتلوا إلى المساء، فلمّا كان آخر النهار تقدّم

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا عبد الملك بن عبد الواحد بجيش صاحب الأندلس، بلاد الفرنج، فبلغ آتية، والقلاع، فغنم، وسلم.

وفيهما استعمل هشام ابنه الحَكَم على طَلَيْطَلَة، وسَيَرِه إليها، فقبضها، وأقام بها، وولّد له بها ابنه عبد الرحمن بن الحَكَم، وهو الذي ولي الأندلس بعد أبيه.

وفيهما استعمل الرشيدُ على الموصل الحاكم بن سليمان.

وفيهما خرج الفضل الخارجي بنوحي نصيبين، فأخذ من أهلها مالا، وسار إلى دارا وأريد وأرزن، فأخذ منهم مالا، وكذلك فعل بخلاط، ثم رجع إلى نصيبين، وأتى الموصل، فخرج إليه عساكرها، فهزمهم على الزّاب، (١٣٤/٦) ثم عادوا لقتاله، فقتل الفضل وأصحابه.

وفيهما مات الفرج بن فضالة، وصالح بن بشر المُرِّي القاري، وكان ضعيفا في الحديث.

وفيهما توفي عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أبو طاهر الأنصاري، وكان قاضيا ببغداد.

وفيهما توفي نعيم بن ميسرة التحوي الكوفي، وأبو الأخص، وأبو عوانة، واسمه الوضاح مولى يزيد بن عطاء الليثي، وكان مولده سنة اثنتين وتسعين. (١٣٥/٦)

سنة سبع وسبعين ومائة

ذكر غزو الفرنج بالأندلس

وفيهما سَير هشام، صاحب الأندلس، جيشا كثيفا، واستعمل عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مُغيث، فدخلوا بلاد العدو، فبلغوا أربونة، وجَزَنْدَة، فبدأ بِجَزَنْدَة، وكان بها حامية الفرنج، فقتل رجالها، وهدم أسوارها وأبراجها، وأسرف على فتحها، فرحل عنها إلى أربونة ففعل مثل ذلك، وأوغل في بلادهم، ووطىء أرض شريطانية، فاستباح حريمها، وقتل مقاتليها، وجاس البلاد شهورا يخرّب الحصون، ويحرق ويغنم؛ قد أجفل العدو من بين يديه هاربا، وأوغل في بلادهم، ورجع سالما معه من الغنائم ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وهي من أشهر مغازي المسلمين بالأندلس.

ذكر استعمال الفضل بن رُوح بن حاتم على إفريقية

وفي هذه السنة، وهي سنة سبع وسبعين، استعمل الرشيدُ على إفريقية الفضل بن رُوح بن حاتم، وكان الرشيد لما توفي رُوح استعمل بعده حبيب ابن نصر المهلبّي، فسار الفضل إلى باب الرشيد، وخطب ولاية إفريقية، (١٣٦/٦) فولاه، فعاد إليها، فقدم

في المحرم سنة سبع وسبعين ومائة، فاستعمل على مدينة تونس ابن أخيه المُغيرة بن بشر بن رُوح، وكان غازرا، فاستخف بالجند.

وكان الفضل أيضا قد أوحشهم، وأساء السيرة معهم، بسبب ميلهم إلى نصر بن حبيب الوالي قبله، فاجتمع من بتونس، وكتبوا إلى الفضل يستعفون من ابن أخيه، فلم يجيبهم عن كتابهم، فاجتمعوا على ترك طاعته، فقال لهم قائد من الخُراسانية يقال له محمد بن الفارسي: كل جماعة لا رئيس لها فهي إلى الهلاك أقرب، فانظروا رجلا يدبّر أمركم. قالوا: صدقت؛ فانفقوا على تقديم قائد منهم يقال له عبد الله بن الجارود يُعرف بعيونته الأتباري، فقدموه عليهم، وبايعوه على السمع والطاعة، وأخرجوا المُغيرة عنهم، وكتبوا إلى الفضل يقولون: إننا لم نُخرج يدّا عن طاعة، ولكنّه أساء السيرة، فأخرجناه، فولّ عليها من نرضاه.

فاستعمل عليهم ابن عمه عبد الله بن يزيد بن حاتم وسَيَرِه إليهم. فلما كان على مرحلة من تونس أرسل إليه ابن الجارود جماعة لينظروا في أي شيء قدم ولا يُحدثوا حدثا إلا بأمره، فساروا إليه، وقال بعضهم لبعض: إن الفضل يخذلكم بولاية هذا، ثم يتقمم منكم بإخراجكم أخاه؛ فعذّوا على عبد الله بن يزيد فقتلوه، وأخذوا من معه من القواد أسارى، فاضطرّ حينئذ عبد الله بن الجارود ومن معه إلى القيام والجذ في إزالة الفضل، فتولّى ابن الفارسي الأمر، وصار يكتب إلى كلّ قائد بإفريقية ومتولي بالمدينة يقول له:

إننا نظننا في صنع الفضل في بلاد أمير المؤمنين، ومسوء سيرته، فلم (١٣٧/٦) يسعنا إلا الخروج عليه لنُخرجه عنا، ثم نظننا فلم نجد أحدا أولى بنصيحة أمير المؤمنين، لبعده صوته، وعطفه على جنده منك، فرأينا أن نجعل نفوسنا دونك، فإن ظفرتنا جعلناك أميرنا، وكتبنا إلى أمير المؤمنين نسأله ولايتك، وإن كانت الأخرى لم يعلم أحد أننا أردناك، والسلام.

فأفسد بهذا كافة الجند على الفضل، وكثر الجمع عندهم، فسَير إليهم الفضل عسكريا كثيرا، فخرجوا إليه، فقاتلوه، فانهزم عسكريه وعاد إلى القيروان منهزما، وتبعهم أصحاب ابن الجارود، فحاصروا القيروان يومهم ذلك، ثم فتح أهل القيروان الأبواب، ودخل ابن الجارود وعسكريه في جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين ومائة، وأخرج الفضل من القيروان، ووكل به ويمن معه من أهله أن يوصلهم إلى قابس، فساروا يومهم، ثم ردهم ابن الجارود، وقتل الفضل بن رُوح بن حاتم.

فلما قُتل الفضل غضب جماعة من الجند، واجتمعوا على قتال ابن الجارود، فسَير إليهم عسكريا، فانهزم عسكريه، وعاد إليه بعد قتال شديد واستولى أولئك الجند على القيروان، وكان ابن

العلاء إليه، فسيره، فلما وصل لقيه صلة كثيرة من الرشيد وخلع، فلم يلبث بمصر إلا قليلاً حتى توفي.

وأما ابن الجارود فإنه اعتقل ببغداد، وسار هُرْثَمَة إلى القَيروان فقدمها في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، فأمن الناس وسكنهم، وبني القصر الكبير بالمُنستير سنة ثمانين ومائة، وبني سور مدينة طرابلس ممّا يلي البحر.

وكان إبراهيم بن الأغلب بولاية الزّاب، فأكثر الهدية إلى هُرْثَمَة ولأطفه، فولّاه هُرْثَمَة ناحية من الزّاب فحسن أثره فيها.

ثم إن عياض بن وهب الهواريّ وكلّيب بن جُمَيْع الكلبيّ جمعا جموعاً، وأرادا قتال هُرْثَمَة، فسير إليهما يحيى بن موسى في جيش كثير، ففرّق جموعهما، وقتل كثيراً من أصحابهما، وعاد إلى القَيروان.

ولما رأى هُرْثَمَة ما يفرقية من الاختلاف واصل كتبه إلى الرشيد يستعفي، فأمره بالقدوم عليه إلى العراق، فسار عن إفريقية في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة، فكانت ولايته ستين ونصفاً. (١٤٠/٦)

ذكر الفتنة بالموصل

وفيها خالف العُطّاف بن سُفْيَان الأزدّيّ على الرشيد، وكان من فرسان أهل الموصل، واجتمع عليه أربعة آلاف رجل، وجبى الخراج، وكان عامل الرشيد على الموصل محمد بن العباس الهاشمي، وقيل عبد الملك بن صالح، والعُطّاف غالب على الأمر كله، وهو يجبي الخراج، وأقام على هذا ستين، حتى خرج الرشيد إلى الموصل فهدم سورها بسببه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل الرشيد جعفر بن يحيى عن مصر، واستعمل عليها إسحاق بن سليمان، وعزل حمزة بن مالك عن خراسان، واستعمل عليها الفضل بن يحيى اليرمكيّ مضافاً إلى ما كان إليه من الأعمال، وهي الرّيّ وسجستان وغيرها.

وفيها غزا الصائفة عبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي.

وفيها، في المحرم، هاجت ريح شديدة وظلمة، ثم عادت مرة ثانية في صفر. وحجّ بالناس الرشيد.

وفيها توفي عبد الواحد بن زيد، وقيل سنة ثمان وسبعين.

وفيها توفي شريك بن عبد الله النخعي، وجعفر بن سليمان. (١٤١/٦)

الجارود بمدينة تونس، فسار إليهم وقد تفرقوا بعد دخول القَيروان، فوصل إليهم ابن الجارود، فلقوه واقتتلوا فهزمهم ابن الجارود، وقتل جماعة من أعيانهم، فانهزموا، فلقوا بالأرّيس، وقدموا عليهم العلاء بن سعيد والي بلد الزّاب وساروا إلى القَيروان.

ذكر ولاية هُرْثَمَة بن أعين بلاد إفريقية

اتفق وصول يحيى بن موسى من عند الرشيد، لما قصد العلاء ومنّ معه القَيروان؛ وكان سبب وصوله أنّ الرشيد بلغه ما صنع ابن الجارود، (١٣٨/٦) وإفساده إفريقية، فوجه هُرْثَمَة بن أعين ومعه يحيى بن موسى، لمحله عند أهل خراسان، وأمر أن يتقدّم يحيى، ويلطف بابن الجارود، ويستميله ليعاود الطاعة قبل وصول هُرْثَمَة؛ فقدم يحيى القَيروان، فجرى بينه وبين ابن الجارود كلام كثير، ودفع إليه كتاب الرشيد، فقال: أنا على السمع والطاعة، وقد قرب مني العلاء بن سعيد ومعه البربر، فإن تركت القَيروان وثب البربر فملكوها، فأكون قد ضيعت بلاد أمير المؤمنين، ولكني أخرج إلى العلاء فإن ظفر بي فشأنكم والثغور، وإن ظفرت به انتظرت قدوم هُرْثَمَة فأسلم البلاد إليه، وأسير إلى أمير المؤمنين.

وكان قصده المغالطة، فإن ظفر بالعلاء منع هُرْثَمَة عن البلاد، فعلم يحيى ذلك، وخلا بابن الفارسي، وعاتبه على ترك الطاعة، فاعتذر، وحلف أنّه عليهما، وبذل من نفسه المساعدة على ابن الجارود، فسعى ابن الفارسي في إفساد حاله، واستمال جماعة من أجناده، فأجابوه، وكثر جمعه، وخرج إلى قتال ابن الجارود، فقال ابن الجارود لرجل من أصحابه اسمه طالب: إذا توافقنا فلأنتي سادع ابن الفارسي لأعابه فاقصده أنت وهو غافل فاقتله! فأجابه إلى ذلك، وتواقف العسكران، ودعا ابن الجارود محمد بن الفارسي وكلّمه، وحمل طالب عليه وهو غافل فقتله، وانهزم أصحابه، وتوجه يحيى بن موسى إلى هُرْثَمَة بطرابلس.

وأما العلاء بن سعيد فإنه لما علم الناس بقرب هُرْثَمَة منهم كثر جمعه، وأقبلوا إليه من كلّ ناحية، وسار إلى ابن الجارود، فعلم ابن الجارود أنّه لا قوة له به، فكتب إلى يحيى بن موسى يستدعيه ليُسلم إليه القَيروان، (١٣٩/٦) فسار إليه في جند طرابلس في المحرم سنة تسع وسبعين ومائة، فلما وصل قابساً تلقاه عامّة الجند، وخرج ابن الجارود من القَيروان مستهلاً صفر، وكانت ولايته سبعة أشهر.

وأقبل العلاء بن سعيد ويحيى بن موسى يستبقان إلى القَيروان، كلّ منهما يريد أن يكون الذكر له، فسبقه العلاء ودخلها، وقتل جماعة من أصحاب ابن الجارود، وسار إلى هُرْثَمَة وسار ابن الجارود أيضاً إلى هُرْثَمَة، فسيره هُرْثَمَة إلى الرشيد، وكتب إليه يُعلمه أنّ العلاء كان سبب خروجه، فكتب الرشيد يأمره بإرسال

سنة ثمان وسبعين ومائة

ذكر الفتنة بمصر

وفي هذه السنة وثبت الحوثة بمصر على عاملهم إسحاق بن سليمان، وقتلوه، وأمدّه الرشيد بهرثمة بن أعين، وكان عامل فلسطين، فقاتلوا الحوثة، وهم من قيس وقضاة، فاذعنوا بالطاعة، وأدوا ما عليهم للسلطان، فعزل الرشيد إسحاق عن مصر، واستعمل عليها هرثمة مقدار شهر، ثم عزله واستعمل عليها عبد الملك بن صالح.

ذكر خروج الوليد بن طريف الخارجي

وفيها خرج الوليد بن طريف التغلبي بالجزيرة، ففتك بإبراهيم بن خازم بن خزيمه بنصيين، ثم قويت شوكة الوليد، فدخل إلى أرمينية، وحصر خيلاط عشرين يوماً، فافتدوا منه أنفسهم بثلاثين ألفاً.

ثم سار إلى أذربيجان، ثم إلى خلوان وأرض السواد، ثم عبر إلى غرب دجلة، وقصد مدينة بلد، فافتدوا منه بمائة ألف، وعاث في أرض الجزيرة فسبر إليه الرشيد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، وهو ابن أخي معن بن زائدة، فقال الوليد:

سَتَعْلَمُ يَا يَزِيدُ إِذَا التَقَيْتَا بِشَطِّ الزَّوَابِ أَيَّ قَسِيٍّ يَكُونُ

(١٤٢/٦) فجعل يزيد يخاتله ويمكره، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد فقالوا للرشيد: إنما يتجافى يزيد عن الوليد للرحم، لأنهما كلاهما من وائل، وهونوا أمر الوليد، فكتب إليه الرشيد كتاب مغضب، وقال له: لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهن، متعصب، وأقسم بالله إن أخرت مناجزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك؛ فلقى الوليد عشية خميس في شهر رمضان سنة تسع وسبعين، فيقال: جهد عطشاً حتى رمى بخاتمه في فيه، وجعل يلوكه ويقول: اللهم إنها شدة شديدة، فاستزها وقال لأصحابه، فداكم أبي وأمي إنما هي الخوارج، ولهم حملة، فاثبتوا، فإذا انقضت حملتهم فاحملوا عليهم فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا.

فكان كما قال، حملوا عليهم حملة، فثبت يزيد ومن معه من عشيرته، ثم حمل عليهم فانكشفوا، فيقال: إن أسد بن يزيد كان شبيهاً بآبيه جداً لا يفصل بينهما إلا ضربة في وجه يزيد، تأخذ من قصاص شعره، منحرفة على جهته، فكان أسد يتمنى مثلها، فهوت إليه ضربة، فأخرج وجهه من الترس، فأصابته في ذلك الموضع، فيقال لو خطت على ضربة آبيه ما عدا.

واتبع يزيد بن الوليد بن طريف، فلحقه فاحتز رأسه، فقال بعض الشعراء:

وَاتَّبَعَ بَعْضُهُمْ يُقْتَلُ بَعْضاً لَا يُقْتَلُ الْحَلِيدُ إِلَّا الْحَلِيدُ
فَلَمَّا قُتِلَ الْوَلِيدُ صَبَحَتْهُمْ أُخْتُهُ لَيْلَى بِنْتُ طَرِيفٍ، مُسْتَعْدَّةٌ،
عَلَيْهَا الدَّرْعُ، فَجَعَلَتْ تَحْمِلُ عَلَى النَّاسِ، فَعُرِفَتْ، فَقَالَ يَزِيدُ:
دَعُوهَا! ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهَا فَضْرَبَ بِالرَّمْحِ قَطْعَةً فَرَسِهَا، ثُمَّ قَالَ: اعْزِبي
عَزَبَ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَقَدْ فَضَحْتَ الْعَشِيرَةَ؛ فَاسْتَحْيَتْ وَانصرفت وهي
تقول ترثي الوليد:

بَسَلْ بَنَاتُ زَنْمٍ قَبْرٍ كَأَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ فَرَّقَ الْجِبَالَ مُنِيفٍ
(١٤٣/٦)

فَضَمَّنَ جُوداً حَاتِماً وَنَافِلاً وَسُورَةً بِقَدَامٍ وَقَلْبَ حَصِيفٍ
أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْجَنَى كَيْفَ اضْطَرَّتْ قَتَى كَانَ بِالْمَعْرُوفِ غَيْرَ عَقِيفٍ
فَإِنْ يَسْكُ أَزْدَاهُ يَزِيدُ بْنُ مَزِيدٍ فَيَا رَبَّ خَيْلٍ فَضْهًا وَصُفُوفٍ
أَلَا يَا لَقَوْسِي لِلنَّوَابِ وَالرَّيْ وَدَعْرِ مُلْحٍ بِالْكَرَامِ غَنِيفٍ
وَلِلْبَدْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَوَاكِبِ قَدْ هَوَى وَلِلشَّمْسِ هَمَّتْ بِعَهْدِ بَكُوفٍ
فَيَا شَجَرَ الْخَابِرِ مَا لَكَ مُورِقاً كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
قَتَى لَا يُحِبُّ الرِّزَادُ إِلَّا مَنْ التَّقَى وَلَا الْمَالُ إِلَّا مَنْ قَنَأَ وَسُيُوفٍ
وَلَا الْخَيْلُ إِلَّا كَلَّ جَرْهَاءَ شَطِيطٍ وَكَلَّ حِصَانُ بِالْيَدَيْنِ عُرُوفٍ
فَلَا تَجْزَعَا يَا ابْنِي طَرِيفٍ فِلَانِي أَرَى الْمَوْتَ نَزْلاً بِكُلِّ شَرِيفٍ
فَقَنَّسَاكَ قُدَّانَ الرِّبْعِ فَلَيْتَا فَتَيْتَاكَ مِنْ دَعْمَاتِنَا بِالْوُفِ
وقال مسلم بن الوليد في قتل الوليد ورفق يزيد في قتاله من

قصيدة هذه الآيات:

يَسْتَرْ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مُتَبَيِّماً إِذَا تَغَيَّرَ زُجَّةُ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
مُوفٍ عَلَى مُهَجٍ فِي يَوْمٍ ذِي وَجْجٍ كَأَنَّهُ أَجَلَ يَسْمَى إِلَى أَسْلِ
يَسْأَلُ بِالرَّفَقِ مَا يَبْعَا الرِّجَالُ بِهِ كَالْمَوْتِ مُسْتَعْجِلاً يَأْتِي عَلَى مَهْلٍ
وهي حسنة جداً. (١٤٤/٦)

ذكر غزو الفرنج والجلالة بالأندلس

فيها سبر هشام صاحب الأندلس عسكراً مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مُغيث إلى بلاد الفرنج، فغزوا أليّة، والقلاع، فغنم وسلم.

وسبر أيضاً جيشاً آخر مع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد الجلالة، فخرّب دار ملكهم أدفثش وكناشه، وغنم. فلما قفل المسلمون ضلّ الدليل بهم، فبالهم مشقة شديدة، ومات منهم بشر كثير، ونفقت دوابهم، وتلفت آلاتهم، ثم سلموا وعادوا.

ذكر فتنة تآكرنّا

وفيها هاجت فتنة تآكرنّا بالأندلس، وخلع ببرها الطاعة، وأظهروا الفساد، وأغاروا على البلاد، وقطعوا الطريق، فسبر هشام إليهم جنداً كثيراً عليهم عبد القادر بن أبيان بن عبد الله، مولى معاوية بن أبي سفيان، فقصدها وتابعوا قتال من فيها إلى أن

أبادوهم قتلاً وسبيّاً، وفرّ مَنْ بقي منهم فدخل في سائر القبائل، وبقيت كورة تآكُرُنَا وجبالها خالية من الناس سبع سنين. (١٤٥/٦)

ذكر عِدَّة حوادث

وفيها غزا الصائفة معاوية بن زُفر بن عاصم، وغزا الشاتية سليمان بن راشد، ومعه البند بطريق صقلية. وحجّ بالنّاس هذه السنة محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ. وفيها فوّض الرشيد أمور دولته كلّها إلى يحيى بن خالد البرمكيّ.

وفيها وصل الفضل بن يحيى إلى خراسان، وغزا ما وراء النهر من بخارى فحضر عنده صاحب أُمُروُوسنة، وكان ممتنعاً؛ وبنى الفضلُ بخراسان المساجد والرباطات.

وفيها توفّي عبد الوارث بن سعيد، والمفضل بن يونس، وجعفر بن سليمان الضبيّ. (١٤٦/٦)

سنة تسع وسبعين ومائة

ذكر غزو الفرنج بالأندلس

وفيها سَير هشامُ صاحبُ الأندلس جيشاً كثيراً عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مُغيث، إلى جَلِيقية، فساروا حتى انتهوا إلى استرقة، وكان أذفونش، ملك الجلائقة، قد جمع وحشد، وأمّده ملك البشكنس، وهم جيرانه، ومَنْ يليهم من المجوس، وأهل تلك النواحي، فصار في جمع عظيم، فاقدم عليه عبد الملك، فرجع أذفونش هيباً له، وتبعهم عبد الملك يقفوا أثرهم، ويُهْلِك كلَّ مَنْ تخلف منهم، فدوَّخ بلادهم، وأوغل فيها، وأقام فيها يغم، ويقتل، ويخرّب، وهتك حرّيم أذفونش، ورجع سالماً.

وكا قد سَير هشامُ جيشاً آخر من ناحية أخرى، فدخلوا أيضاً على ميعاد من عبد الملك، فأخربوا، ونهبوا وغنموا، فلمّا أرادوا الخروج من بلاد العدو اعترضهم عسكر الفرنج فنال منهم، وقتل نفرّاً من المسلمين ثمّ تخلّصوا، وسلموا، وعادوا سالمين سوى مَنْ قُتل منهم.

ذكر عِدَّة حوادث

فيها عاد الفضل بن يحيى من خراسان، فاستعمل الرشيد منصور بن يزيد بن منصور الحميريّ، خال المهديّ؛ واعتمر الرشيد في شهر رمضان، (١٤٧/٦) شكراً لله تعالى على قتل الوليد بن طريف، وعاد إلى المدينة فأقام بها إلى وقت الحجّ، وحجّ بالنّاس، ومشى من مكّة إلى منى [ثمّ] إلى عرفات، وشهد المشاعر كلّها ماشياً، ورجع على طريق البصرة.

وفيها خرج بخراسان حمزة بن أترك السجستانيّ.

وفيها توفّي حماد بن زيد بن درهم الأزديّ، مولاهم أبو إسماعيل، ومالك بن أنس الأصبغيّ، الإمام أستاذ الشافعيّ.

وفيها توفّي مسلم بن خالد الزنجي أبو عبد الله الفقيه المكيّ، وصحبه الشافعيّ قبل مالك، وأخذ عنه الفقه، وإنّما قبل له الزنجي لأنّه كان أبيض مشرباً بحمرة، وعباد بن عباد بن حبيب بن المهلب بن أبي صُفرة المهلبيّ البصريّ، وأبو الأحوص سلام بن سليم الحنفيّ (سلام بتشديد [اللام]). (١٤٨/٦)

سنة ثمانين ومائة

ذكر وفاة هشام

وفيها مات هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، صاحب الأندلس، في صفر، وكانت إمارته سبع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيّام، وقيل تسعة أشهر، وقيل عشرة أشهر، وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وكنيته أبو الوليد؛ وكانت أمّه أم ولد.

كان أبيض أشهل، مشرباً بحمرة، بعينه حول، وخلف خمسة بنين؛ وكان عاملاً حازماً، ذا رأي وشجاعة وعدل، خيراً، محباً لأهل الخير والصلاح، شديداً على الأعداء، راغباً في الجهاد.

ومن أحسن عمله أنّه أخرج مُصَدِّقاً يأخذ الصدقة على كتاب الله وسنة نبيه أيّام ولايته، وهو الذي تمّم بناء الجامع بمدينة قرطبة، وكان أبوه قد مات قبل فراغه منه، وبنى عِدَّة مساجد معه، وبلغ من عزّ الإسلام في أيّامه وذُلّ الكفر أنّ رجلاً مات في أيّامه، فأوصى أن يُفك أسير من المسلمين من تركته، فطلب ذلك، فلم يوجد في دار الكفّار أسير يشتري ويُفك لضعف العدو وقوة المسلمين.

ومناقبه كثيرة قد ذكرها أهل الأندلس كثيراً، وبالغوا حتى قال، كان يشبه في سيرته بعمر بن عبد العزيز، رحمه الله. (١٤٩/٦)

ذكر ولاية ابنه الحكم ولقبه المنتصر

ولما مات استخلف بعده ابنه الحكم، وكان الحكم صارماً، حازماً وهو أوّل من استكثر من المماليك بالأندلس، وارتبط الخيل بياحه، وتشبه بالجابرة.

وكان يباشر الأمور بنفسه، وكان فصيحاً، شاعراً، ولما وليّ خرج عليه عمّه سليمان وعبد الله، وكانا في برّ العدة الغربية، فعبر عبد الله البليّسيّ إلى الأندلس، فتولّى بلنسية، وتبعه أخوه سليمان، وكان بطنجة، وأقبلا يؤلبان النّاس على الحكم، ويُشيران الفتنة، فتحاربوا مدة والظفر للحكم.

وخلّف بَزْرَج عبد الله بن العباس النُسَفيّ، فجبى الأموال وسار بها، فلقبه حمزة بأسفَرَار، فقاتله، فصر له عبد الله ومَن معه من الصُغد، فانهزم حمزة، وقُتل كثير من أصحابه، وجُرح في وجهه، واختفى هو ومَن سلم من أصحابه في الكروم، ثم خرج وسار في القرى يقتل، ولا يبقى على أحد.

وكان عليّ بن عيسى قد استعمل طاهر بن الحسين على بوشنج، فسار إليه حمزة، وانتهى إلى مكتب فيه ثلاثون غلاماً، فقتلهم؛ وقتل معلمهم، وبلغ طاهراً الخبر، فأتى قرية فيها قَعْدُ الخوارج، وهم الذين لا يقاتلون، ولا ديوان لهم، فقتلهم طاهر، وأخذ أموالهم؛ وكان يشدّ الرجل منهم في شجرتين، ثم يجمعهما، ثم يرسلهما، فتأخذ كل شجرة نصفه، فكتب القَعْدُ إلى حمزة بالكفّ، فكفّ وواعدهم، وأمن الناس مدةً، وكانت بينه وبين أصحاب عليّ بن عيسى حروب كثيرة.

ذكر عدة حوادث

وفيها سار جعفر بن يحيى بن خالد إلى الشام للصبية التي بها، ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال، فسكن الفتنة، وأطفا النافرة، وعاد الناس (١٥٢/٦) إلى الأمن والسكون.

وفيها أخذ الرشيد الخاتم من جعفر بن عيسى، فدفعه إلى أبيه يحيى بن خالد.

وفيها وليّ جعفرأ خراسان وميجستان، ثم عزله عنها بعد عشرين ليلة، واستعمل عليها عيسى بن جعفر، وولّى جعفر بن يحيى الحرس.

وفيها هدم الرشيد سور الموصل بسبب العطاف بن سفيان الأزديّ، سار إليها بنفسه، وهدم سورها، وأقسم ليقتلن من لقي من أهلها، فأفناه القاضي أبو يوسف، ومنعه من ذلك؛ وكان العطاف قد سار عنها نحو أرمينية فلم يظفر به الرشيد، ومضى إلى الرقة فاتخذها وطناً.

وفيها عزل هرثمة بن أعين عن إفريقية، واستقدمه إلى بغداد واستخلفه جعفر بن يحيى على الحرس.

وفيها كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس منارة الإسكندرية.

وفيها خرج حُرّاشة الشيبانيّ بالجزيرة، فقتله مُسلم بن بكار القُليّ.

وفيها خرجت المُحمّرة بجرجان.

وفيها عزل الفضل بن يحيى عن طبرستان، والرؤيان، وولياها عبد الله ابن خازم، ووليّ سعيد بن سلم الجزيرة، وغزا الصائفة

ثم إنّ الحكم ظفر بعنه سليمان، فقتله سنة أربع وثمانين ومائة، [وأما عبد الله] فأقام ببلنسية، وقد كفّ عن الفتنة، وخاف، فراسل الحكم في الصلح، فأجابته إلى ذلك، فوقع الصلح بينهما سنة ست وثمانين، وزوج أولاد عبد الله بأخواته، وسكنت الفتنة.

ولما اشتغل الحكم بالفتنة مع عمّه اغتتم الفرنج القرصة، فقصدوا بلاد الإسلام، وأخذوا مدينة بَزْملونة، واتخذوها داراً، ونقلوا أصحابهم إليها، وتأخّرت عساكر المسلمين عنها، وكان أخذها سنة خمس وثمانين ومائة.

ذكر غزو الفرنج بالأندلس.

في هذه السنة سَير الحكم، صاحب الأندلس، جيشاً مع عبد الكريم ابن مُغيث إلى بلاد الفرنج، فدخل البلاد، وبث السرايا ينهبون، ويقتلون، (١٥٠/٦) ويحرقون البلاد، وسير سرية، فجازوا خليجاً من البحر كان الماء قد جُز عنه، وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهلهم وراء ذلك الخليج، ظناً منهم أنّ أحداً لا يقدر أن يعبر إليهم، فجاءهم ما لم يمكن في حسابهم، فغشم المسلمون جميع مالهم، وأسروا الرجال وقتلوا منهم فأكثروا، وسبوا الحريم، وعادوا سالمين إلى عبد الكريم.

وسير طائفة أخرى، فغزبوا كثيراً من بلاد فرنسية، وغنم أموال أهلها، وأسروا الرجال، فأخبره بعض الأسرى أنّ جماعة من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين إلى وادٍ وعبر المسلك على طريقهم، فجمع عبد الكريم عساكره، وسار على تعبته، وجدّ السير، فلم يشعر الكفار إلا وقد خالطهم المسلمون، فوضعوا السيف فيهم، فانهزموا، وغنم ما معهم، وعاد سالماء هو ومَن معه.

ذكر ولاية عليّ بن عيسى خراسان

وفيها عزل الرشيد منصور بن يزيد عن خراسان، واستعمل عليها عليّ ابن عيسى بن ماهان، فولياها عشر سنين، وفي ولايته خرج حمزة بن أترك الخارجي أيضاً، فجاء إلى بوشنج، فخرج إليه عَمْرُو بن يزيد الأزديّ، وكان على هَرَاة، في سنة آلاف، فقاتله، فهزمه حمزة، وقتل من أصحابه جماعة، ومات عَمْرُو في الزحام، فوجه إليه عليّ بن عيسى ابنه الحسين في عشرة آلاف، فلم يحارب حمزة، فعزله، وسير عوضه ابنه عيسى بن (١٥١/٦) عليّ فقاتل حمزة، فهزمه حمزة، فرده أبوه إليه أيضاً، فقاتله بياخز، وكان حمزة بنيسابور، فانهزم حمزة، وقُتل أصحابه، وبقي في أربعين رجلاً، فقصد قَهستان.

وارسل عيسى أصحابه إلى أوق وجوئن، فقتلوا من بها من الخوارج، وقصد القرى التي كان أهلها يعينون حمزة، فأحرقها، وقتل من فيها، حتى [وصل] إلى رَنْج، فقتل ثلاثين ألفاً ورجع،

محمَّد بن معاوية بن زُفر بن عاصم.

القيروان، ظناً أنَّ النَّاسَ يَكْرَهُونَ مُحَمَّدًا وَيَسَاعِدُونَهُ عَلَيْهِ.

وفيها سار الرشيد إلى الحيرة، وابتنى بها المنازل، فأقطع أصحابه القطائع (١٥٣/٦) فثار بهم أهل الكوفة، وأساؤوا مجاورته، فعاد إلى بغداد.

وحجَّ بالنَّاس هذه السنة موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ.

وفيها استعمل الرشيدُ على الموصل يحيى بن سعيد الحرَّشيّ، فأساء السيرة في أهلها، وظلمهم، وطالبهم بخراج سنين مضت، فجلا أكثر أهل البلد.

وفي هذه السنة توفيَّ المبارك بن سعيد الثَّوريّ أخو سفيان؛ وسلمة الأحمر؛ وسعيد بن خثيم، وأبو عبيدة عبد الوارث بن سعيد؛ وعبد العزيز بن أبي حازم، توفيَّ وهو مساجد؛ وأبو ضَمْرَة أنس بن عياض اللَّيثي المدنيّ.

وفيها أمر الرشيد ببناء مدينة عين زُربى وحصنها، وسير إليها جنداً من أهل خراسان وغيرهم، فأقطعهم بها المنازل. (١٥٤/٦)

سنة إحدى وثمانين ومائة

ذكر ولاية محمد بن مقاتل إفريقية

وفي هذه السنة استعمل الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل بن حكيم العكبيّ، لما استعفى منها هُرْثمة بن أعين، على ما ذكرناه، سنة سبع وسبعين ومائة؛ وكان محمد هذا رضيع الرشيد، فقدم القيروان أوّل رمضان، فسلمها، وعاد هُرْثمة إلى الرشيد؛ فلمّا استقرّ فيها لم يكن بالمحمود السيرة، فاختلف الجند عليه واتَّفَقوا على تقديم مُخَلَّد بن مُرّة الأُرْدِيّ، واجتمع كثير من الحند والبربر وغيرهم، فسير إليه محمد بن مُقاتل جيشاً، فقاتلوه، فانهزم مُخَلَّد واختفى في مسجد، فأُخذ وذُبح.

وخرج عليه بتونس تَمَام بن تميم التميميّ في جمع كثير، وساروا إلى القيروان في رمضان سنة ثلاث وثمانين، وخرج إليه محمد بن مقاتل العكبيّ في الذين معه، فاقتلوا بئنيّة الخيل، فانهزم ابن العكبيّ إلى القيروان وسار تَمَام فدخل القيروان وأمن ابن العكبيّ، على أن يخرج عن إفريقية، فسار في رمضان إلى طرابلس.

فجمع إبراهيم بن الأغلب التميميّ جمعاً كثيراً، وسار إلى القيروان (١٥٥/٦) منكراً لما فعله تَمَام، فلمّا قاربها سار عنها إلى تونس، ودخل إبراهيم إلى القيروان، وكتب إلى محمد بن مقاتل يُعلمه الخبر، ويستدعيه إلى عمله، فعاد إلى القيروان، فنقل ذلك على أهل البلد، وبلغ الخبر إلى تَمَام، فجمع جمعاً وسار إلى

فلَمّا وصل قال ابن الأغلب لمحمد: إنَّ تَمَاماً انهزم مني وأنا في قَلّة، فلمّا وصلت إلى البلاد تجدد له طمع لعله أنَّ الجند يخذلونك، والرأي أن أسير أنا ومَن معي من أصحابي فنقاتله؛ ففعل ذلك، وسار إليه فقاتله، فانهزم تَمَام، وقتل جماعة من أصحابه، ولحق بمدينة تونس، فسار إبراهيم بن الأغلب إليه ليحصره، فطلب منه الأمان فأمنه.

ذكر ولاية إبراهيم بن الأغلب إفريقية

لما استقرَّ الأمر لمحمد بن مقاتل ببلاد إفريقية، وأطاعه تَمَام، كره أهل البلاد ذلك، وحملوا إبراهيم بن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية إفريقية، فكتب إليه في ذلك، وكان على ديار مصر، كلّ سنة مائة ألف دينار تُخَلَّل إلى إفريقية معونةً، فنزل إبراهيم عن ذلك، وبذل أن يحمل كلّ سنة أربعين ألف دينار، فأحضر الرشيد ثقافته واستشارهم فيمن يولّيه إفريقية، وذكر لهم كراهة أهلها ولاية محمد بن مقاتل، فأشار هُرْثمة بإبراهيم بن الأغلب، وذكر له ما رآه من عقله ودينه وكفايته، وأنّه قام بحفظ إفريقية على ابن مقاتل، فولاه الرشيد في المحرم سنة أربع وثمانين (١٥٦/٦) ومائة، فانقمع الشرّ، وضبط الأمر، وسير تَمَاماً، وكلّ من يتولّب على الولاة، إلى الرشيد، فسكنت البلاد، وابتنى مدينة سمّاهَا العباسيّة بقرب القيروان، وانتقل إليها بأهله وعبيده.

وخرج عليه، سنة ست وثمانين ومائة، رجل من أبناء العرب بمدينة تونس، اسمه حمديس، فنزع السواد، وكثر جمعه، فبعث إليه ابن الأغلب عمران بن مُخَلَّد في عساكر كثيرة، وأمره أن لا يُبْقِي على أحد منهم إن ظفر بهم. فسار عمران، والتقوا واقتتلوا، وصار أصحاب حمديس يقولون: بغداداً! بغداداً! وصبر الفريقان، فانهزم حمديس ومَن معه، وأخذهم السيف، فقتل منهم عشرة آلاف رجل، ودخل عمران تونس.

ثم بلغ ابن الأغلب أنَّ إدريس بن إدريس العلويّ قد كثر جمعه بأقاصي المغرب، فساراد قصده، فنهاه أصحابه وقالوا: تركه ما تركك؛ فأعمل الحيلة، وكتب القيم بأمرة من المغاربة، واسمه بَهْلُول بن عبد الواحد، وأهدى إليه، ولم يزل به حتى فارق إدريس وأطاع إبراهيم، وتفرّق جمع إدريس، فكتب إلى إبراهيم يستعطفه، ويسأله الكفّ عن ناحيته، ويذكر له قرابته من رسول الله ﷺ فكفّ عنه.

ثم إنَّ عمران بن مُخَلَّد، المقدم ذكره، وكان من بطانة إبراهيم بن الأغلب، وينزل معه في قصره، ركب يوماً مع إبراهيم وجعل يحدثه، فلم يفهم من حديثه شيئاً لاشتغال قلبه بهمهم كان له، فاستعاد الحديث من عمران فغضب وفارق إبراهيم، وجمع جمعاً

كثيراً، وثار عليه، فنزل بين القيروان والعبّاسية، وصارت القيروان وأكثر بلاد إفريقية معه.

فخندق إبراهيم على العباسية، وامتنع فيها، ودامت الحرب بينهما سنة كاملة، فسمع الرشيد الخبر، فأنفذ إلى إبراهيم خزانة مال، فلما صارت إليه الأموال أمر منادياً يتادي: مَنْ كَانَ مِنْ جُنْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَلْيَحْضُرْ لِأَخِي (١٥٧/٦) العطاء. ففارق عمران أصحابه وتفرقوا عنه، فوثب عليهم أصحاب إبراهيم، فانهزموا، فنادى إبراهيم بالأمان والحضور لقبض العطاء، فحضروا فأعطاهم، وقلع أبواب القيروان وهدم في سورها.

وأما عمران، فسار حتى لحق بالزّاب، فأقام به حتى مات إبراهيم، وولّى بعده ابنه عبد الله فأمّن عمران، فحضر عنده، وأسكنه معه، فقبل لعبد الله: إِنَّ هَذَا نَارُ بَأْبِيكَ، وَلَا تَأْمَنُ عَلَيْكَ؛ فقتله.

ولما انهزم عمران سكن الشرّ بإفريقية، وأمن الناس، فبقي كذلك إلى أن توفي إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين ومائة وعمره ست وخمسون سنة، وإمارته اثنتا عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام.

ذكر ولاية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب إفريقية

ولما توفي إبراهيم بن الأغلب وليّ بعده ابنه عبد الله، وكان عبد الله غائباً بطرابلس قد حصره البربر، على ما نذكره سنة ست وتسعين ومائة، فعهد إليه أبوه بالإمارة، وأمر ابنه زيادة الله بن إبراهيم أن يبيع لأخيه عبد الله بالإمارة، فكتب إلى أخيه بموت أبيه، وبالإمارة، ففارق طرابلس، ووصل إلى القيروان، فاستقامت الأمور، ولم يكن في أيامه شرّ، ولا حرب، وسكن الناس فعمرت البلاد وتوفي في ذي الحجة سنة إحدى ومائتين. (١٥٨/٦)

ذكر من خالف بالاندلس على صاحبها

وفي هذه السنة خالف يهلول بن مرزوق، المعروف بأبي الحجاج، في ناحية الثغر من بلاد الأندلس، ودخل سرّقسطة وملكها، فقدم على يهلول فيها عبد الله بن عبد الرحمن، عمّ صاحبها الحكم، ويُعرف بالبنسي، وكان متوجّهاً إلى الفرنج.

وخالف فيها عبيدة بن حميد بطليطلة، وأمر الحكم القائد عمرو بن يوسف، وهو بمدينة طليطلة، أن يحارب أهل طليطلة فكان يُكثر قتالهم، وضيّق عليهم؛ ثم إنّ عمرو بن يوسف كاتب رجلاً من أهل طليطلة يُعرفون ببني مخشي، واستمالهم، فوثبوا على عبيدة بن حميد وقتلوه، وحملوا رأسه إلى عمرو بن حنيفة، فسير الرأس إلى الحكم، وأنزل بني مخشي عنده، وكان بينهم وبين البربر الذين بمدينة طليطلة دُحُول، فسور البربر عليهم فقتلوه، فسير

ذكر عدة حوادث

فيها غزا الرشيد أرض الروم، فافتتح حصن الصّفاصاف.

وفيها غزا عبد الملك بن صالح أرض الروم، فبلغ أنقرة، وافتتح مطمورة. (١٥٩/٦)

وفيها توفي حمزة بن مالك.

وفيها غلبت المحمرة على خراسان.

وفيها أحدث الرشيد في صدر كتبه الصلاة على رسول الله، وحج بالناس الرشيد.

وفي هذه السنة كان الفداء بين الروم والمسلمين، وهو أوّل فداء كان أيام بني العبّاس، وكان القاسم بن الرشيد هو المتولّي له، وكان الملك فقفور، ففرح بذلك الناس، ففودي بكلّ أسير في بلاد الروم، وكان الفداء باللامس، على جانب البحر، بينه وبين طرسوس اثنا عشر فرسخاً، وحضر ثلاثون ألفاً من المرتزقة مع أبي سليمان، فخرج الخادم، متولّي طرسوس، وخلق كثير من أهل الثغور، وغيرهم من العلماء والأعيان، وكان عدة الأسرى ثلاثة آلاف وسبعمائة، وقيل أكثر من ذلك.

وفيها توفي الحسن بن قحطبة، وهو من قرّاد المنصور، هو وأبوه، وكان عمره أربعاً وثمانين سنة؛ وعبد الله بن المبارك المروزي، توفي في رمضان بهيت وعمره ثلاث وستون سنة؛ وعلي بن حمزة أبو الحسن الأزدي، المعروف بالكسائي المقرئ، النحوي، بالري، وقيل مات سنة ثلاث وثمانين.

وفيها توفي مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة الشاعر، وكان مولده سنة خمس ومائة.

وفيها توفي أبو يوسف القاضي، واسمه يعقوب بن إبراهيم، وهو أكبر أصحاب أبي حنيفة. (١٦٠/٦)

وفيها توفي يعقوب بن داود بن عمر بن طهمان، مولى عبد الله بن خازم السلمي، وكان يعقوب وزير المهدي؛ وهاشم بن البريد؛ ويزيد بن زريع؛ وحفص بن ميسرة الصنعاني من صنعاء دمشق.

(البريد بفتح الباء الموحدة، وكسر الراء، وبالياء تحتها نقطتان). (١٦١/٦)

سنة اثنتين وثمانين ومائة

في هذه السنة بايع الرشيد لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين، وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همدان، ولقبه المأمون، وسلمه إلى جعفر ابن يحيى.

وهذا من العجائب، فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجده المنصور يعيسى بن موسى، حتى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هو يبايع للمأمون بعد الأمين، وحك الشيء يعمي ويصم.

وفيهما حُملت ابنة خاقان ملك الخزر إلى الفضل بن يحيى، فماتت ببرذعة فرجع من معها إلى أبيها فأخبروه أنها قتلت غيلة، فتجهز إلى بلاد الإسلام.

وغزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح، فبلغ أفسوس، مدينة أصحاب الكهف.

وفيهما سلمت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن اليون، وأقرّوا أمه ريني وتلقب عطسة. وحج بالناس موسى بن عيسى بن موسى، وكان على الموصل هزيمة بن أعين.

وفيهما جاز سليمان بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، إلى بلاد الأندلس (١٦٢/٦) من الشرق، وتعرض لحرب ابن أخيه الحكم بن هشام بن عبد الرحمن، صاحب البلاد، فسار إليه الحكم في جيوش كثيرة، وقد اجتمع إلى سليمان كثير من أهل الشقاق ومن يريد الفتنة، فالتقيا واقتلا، واشتدت الحرب، فانهزم سليمان واتبعه عسكر الحكم، وعادت الحرب بينهم ثانية في ذي الحجة، فانهزم فيها سليمان، واعتصم بالوعر والجبال، فعاد الحكم.

ثم عاد سليمان فجمع براير، وأقبل إلى جانب إسججة، فسار إليهم الحكم، فالتقوا واقتلوا سنة ثلاث وثمانين ومائة، واشتد القتال، فانهزم سليمان، واحتسب بقرية، فحصره الحكم، وعاد سليمان منهزماً إلى ناحية فريش.

وفيهما كان بقرطبة سيل عظيم، فغرق كثير من ريعها القبلي، وخرب كثير منه، وبلغ السيل شققة.

وفي هذه السنة مات جعفر الطيالسي المحدث، وعمار بن محمد ابن أخت سفیان الثوري، وعبد العزيز بن محمد بن أبي عبيد الدراوردي، مولى جهينة، وكان أبوه من دار بجرّد، فاستقلوا نسبته إليها فقالوا دراوردي.

وفيهما توفي دراج أبو السمح، واسمه عبد الله بن السمح، وقيل عبد الرحمن بن السمح بن أسامة النجيب، المصري، وكان مولده

سنة خمس وعشرين ومائة؛ وعفيف بن سالم الموصلّي. (١٦٣/٦)

سنة ثلاث وثمانين ومائة

ذكر غزو الخزر بلاد الإسلام

وفيهما خرج الخزر بسبب ابنة خاقان من باب الأبواب، فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس، وانهكوا أمراً عظيماً لم يسمع بمثله في الأرض فولّى الرشيد أرمينية يزيد بن مزيد مضافاً إلى أذربيجان، ووجه إليهم، وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردهاً لأهل أرمينية.

وقيل أنّ سبب خروجهم أنّ سعيد بن سلم قتل المنجم السلمي، فدخل ابنه [بلاد] الخزر، واستجاشهم على سعيد، فخرجوا ودخلوا أرمينية من الثلثة، فانهزم سعيد، وأقاموا نحو سبعين يوماً، فوجه الرشيد خزيمة بن خازم، ويزيد بن مزيد، فاصلحا ما أفسد سعيد، وأخرجوا الخزر وسدوا الثلثة.

ذكر عدة حوادث

وفيهما استقدم الرشيد علي بن عيسى من خراسان، ثم رده عليها من قتل ابنه المأمون، وأمره بحرب أبي الخصيب. (١٦٤/٦)

وفيهما خرج بنسا من خراسان أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي.

وحج بالناس العباس بن الهادي.

وفيهما مات موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ببغداد في حبس الرشيد.

وكان سبب حبسه أنّ الرشيد اعتمر في شهر رمضان من سنة تسع وسبعين ومائة، فلما عاد إلى المدينة، على ساكنها السلام، دخل إلى قبر النبي ﷺ يزوره، ومعه الناس، فلما انتهى إلى القبر وقف فقال: السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عم، افتخاراً على من حوله، فدنا موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا أبا، فتغير وجه الرشيد وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن جداً؛ ثم أخذه معه إلى العراق، فحبسه عند السندي بن شاهر، وتولت حبسه أخت السندي بن شاهر، وكانت تتدين، فحكّت عنه أنه كان إذا صلى العتمة حمد الله ومجده ودعاه إلى أن يزول الليل، ثم يقوم فيصلّي، حتى يصلّي الصبح، ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يرقد، ويستيقظ قبل الزوال، ثم يتوضأ ويصلّي، حتى يصلّي العصر، ثم يذكر الله، حتى يصلّي المغرب، ثم يصلّي ما بين المغرب والعتمة، فكان هذا دأبه إلى أن مات.

وكانت إذا رآته قال: خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل الصالح!

وكان يلقب الكاظم لأنه كان يُخسَن إلى مَنْ يسيء إليه، كان هذا

عادته أبداً، ولما كان محبوباً بعث إلى الرشيد برسالة أنه لن تنقضي عني يوم من البلاء إلا ينقضي عنك ومعك يوم من الرخاء، حتى ينقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبتلون. (١٦٥/٦)

وفيها كانت بالأندلس فتنة وحرب بين قائد كبير يقال له أبو عمران وبين يَهْلُول بن مرزوق، وهو من أعيان الأندلس، وكان عبد الله البَلَنْسِي مع أبي عمران، فانهزم أصحاب يَهْلُول، وقُتل كثير منهم.

وفيها توفي يونس بن حبيب النحوي المشهور، أخذ العلم عن أبي عمرو ابن العلاء وغيره، وكان عمره قد زاد على مائة سنة.

وفيها مات موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس؛ ومحمد بن صبيح أبو العباس المذكور، المعروف بابن السَّمَاك؛ ومُثَيِّم بن بشير الواسطي توفي في شعبان، وكان ثقة إلا أنه كان يصحف؛ ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة، قاضي المدائن بها، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة؛ ويوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون.

(صَبِيح بفتح الصاد المهملة، وكسر الباء الموحدة، وبشِير بفتح الباء الموحدة، وكسر الشين المعجمة). (١٦٦/٦)

سنة أربع وثمانين ومائة

وفيها ولّى الرشيد حمّاداً البربري اليمن ومكة، وولّى داود بن يزيد بن حاتم المهلبّي السند، ويحيى الحرّشيّ الجبل ومَهْرَوَيْه الرازي طَبْرستان، وقام بأمر إفريقية إبراهيم بن الأغلب، فولّاه إياها الرشيد.

وفيها خرج أبو عمرو الشاري، فوجّه إليه رُهيماً القصاب فقتله بشَهْرَزُور.

وفيها طلب أبو الخَصِيب الأمان فأمّته علي بن عيسى بن ماهان، وحجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي؛ وكان علي الموصّل وأعمالها يزيد بن مزّيد بن زائدة الشيباني.

وفيها سار عبد الله بن عبد الرحمن البَلَنْسِي إلى مدينة أشبَقَة من الأندلس، فنزل بها مع أبي عمران، ومع العرب، فسار إليهم يَهْلُول بن مرزوق، وحاصرهم فيها، فتسرّع العرب عنهم، ودخل يَهْلُول مدينة أشبَقَة، وسار عبد الله إلى مدينة بَلَنْسِيه فأقام بها.

وفيها توفي المعافى بن عمران الموصلي، الأزدي، وقيل سنة

خمس وثمانين.

وفيها توفي عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن الخطّاب الذي يقال له (١٦٧/٦) العابد؛ وعبد السلام بن شُعَيْب بن الجحّاب الأزدي، وعبد الأعلى بن عبد الله الشاميّ المصريّ من بني شامة بن لُؤي؛ وعبد الوهّاب بن عبد المجيد الثقفيّ أبو محمّد. (١٦٨/٦)

سنة خمس وثمانين ومائة

في هذه السنة قتل أهل طَبْرستان مَهْرَوَيْه الرازي، وهو واليها، فولّى الرشيد مكانه عبد الله بن سعيد الحرّشي.

وفيها قتل عبد الرحمن الأنباري أبا بن قُحطَبَة الخارجي بمرج القلعة.

وفيها عاث حمزة الخارجيّ ببادغيس، فقتل عيسى بن علي بن عيسى من أصحابه عشرة آلاف، وبلغ عيسى كابل وزابلستان.

وفيها غدر أبو الخَصِيب ثانية، وغلب على أبيوزد، وطوس، ونيسابور، وحصر مَرَوْ، ثم انهزم عنها وعاد إلى سَرْخَس، وعاد أمره قوياً.

وفيها استأذن جعفر بن يحيى في الحجّ والمجاورة، فأذن له، فخرج في شعبان واعتمر في رمضان وأقام بجُدّة مرابطاً إلى أن حجّ.

وفيها جمع الحكم صاحب الأندلس عساكره، وسار إلى عمّه سليمان ابن عبد الرحمن، وهو بناحية فَرِيش، فقاتله، فانهزم سليمان، وقصد ماردة، فتبعه طائفة من عسكر الحكم فأسروه فلمّا حضر عند الحكم قتله، ويعت برأسه إلى قُرطبة، وكتب إلى أولاد سليمان وهم بَسْرَقُسطَة (١٦٩/٦) كتاب أمان، واستدعاهم، فحضروا عنده بقُرطبة.

وفيها وقعت في المسجد الحرام صاعقة قتلت رجلين. وحجّ بالناس فيها منصور بن محمد بن عبد الله [بن محمد] بن علي.

وفيها مات عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ولم يكن سقط له سنّ، وقيل كانت أسنانه قطعة واحدة من أسفل وقطعة واحدة من فوق، وهو قَعْدُ بني عبد مناف، لأنه كان في القرب إلى عبد مناف بمنزلة يزيد بن معاوية، وبين موتهما ما يزيد على مائة وعشرين سنة.

وفيها ملك الفرنج، لعنهم الله، مدينة بَرَشْلونة بالأندلس، وأخذوها من المسلمين، ونقلوا حُماة ثغورهم إليها، وتآخرو المسلمون إلى ورائهم.

وكان سبب ملكهم إياها اشتغال الحَكَم صاحب الأندلس،
بمحاربة عمِّه عبد الله وسلمان على ما تقدّم.

وفيهما سار الرشيد من الرِّقَّة إلى بغداد على طريق الموصل.

وفيهما مات يقطين بن موسى ببغداد.

سنة ست وثمانين ومائة

ذكر اتفاق الحَكَم صاحب الأندلس وعمِّه عبد الله

في هذه السنة اتَّفَق الحَكَم بن هشام بن عبد الرحمن، أمير
الأندلس، وعمِّه عبد الله بن عبد الرحمن البَلَنْسِي.

وسبب ذلك أنَّ عبد الله لما سمع بقتل أخيه سليمان عظم
عليه، وخاف على نفسه، ولزم بَلَنْسِيَّة، ولم يفارقها، ولم يتحرَّك
لإثارة فتنة، وأرسل إلى الحَكَم يطلب المسالمة، والدخول في
طاعته، وقيل بل الحَكَم أرسل إليه رسلاً، وكتب إليه يعرض عليه
المسالمة، ويؤمنه، ويذل له الأرزاق الواسعة، ولأولاده، فأجاب
عبد الله إلى الاتفاق، واستقرَّت القاعدة بينهم على يد يحيى بن
يحيى، صاحب مالک، وغيره من العلماء؛ وزوج الحكم أخواته من
أولاد عمِّه عبد الله، وسار إليه عبد الله، فأكرمه الحَكَم، وعظَّم
محلَّه، وأجرى له ولأولاده الأرزاق الواسعة والصلَّات السنيَّة.

وقيل إنَّ المراسلة في الصلح كانت هذه السنة، واستقرَّ الصلح
سنة سبع وثمانين ومائة. (١٧٣/٦)

ذكر حجَّ الرشيد وأمر كتاب ولاية العهد

في هذه السنة حجَّ بالنَّاس هارون الرشيد، سار إلى مكَّة من
الأبواب، بدأ بالمدينة، فأعطى فيها ثلاثة أعطية، أعطى هو عطاء،
ومحمَّد الأمين عطاء، وعبد الله المأمون عطاء، وسار إلى مكَّة
فأعطى أهلها، فبلغ ألف دينار وخمسين ألف دينار.

وكان الرشيد قد ولَّى الأمين العراق والشام، وولَّى آخرَ
المغرب، وضمَّ إلى المأمون من قَعْدَان إلى آخر المشرق، ثمَّ بايع
لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون، ولقَّبه المؤتمن، وضمَّ إليه
الجزيرة والثغور والعواصم، وكان في حجر عبد الملك بن صالح،
وجعل خلعه وإبائه إلى المأمون.

ولما وصل الرشيد إلى مكَّة، ومعه أولاده، والفقهاء والقضاة
والقَرَاد، كتب كتاباً أشهد فيه على محمَّد الأمين، وأشهد فيه من
حضر بالوفاء للمأمون، وكتب كتاباً للمأمون أشهدهم عليه فيه
بالوفاء للأمين، وعلَّق الكتابين في الكعبة، وجَدَّ المهود عليهما في
الكعبة؛ ولما فعل الرشيد ذلك قال النَّاس قد ألقى بينهم شراً
وحرباً، وخافوا عاقبة ذلك، فكان ما خافوه.

ثمَّ إنَّ الرشيد في سنة تسع وثمانين شخص إلى قَرْمَاسِين،
ومعه المأمون، وأشهد على نفسه من عنده من القضاء والفقهاء أنَّ

وفيهما أيضاً توفي يزيد بن مَزِيد بن زائدة الشيباني، وهو ابن
أخي معن ابن زائدة، بمدينة بَرْدَعَة، وولِّي مكانه أسد بن يزيد؛ وكان
يزيد ممدوحاً، جواداً، كريماً، شجاعاً، وأكثر الشعراء مراثيه، ومن
أحسن ما قيل في المراثي ما قاله أبو محمَّد التميمي رثاء له، فأثبته
لجودته:

أَخْبَأَ أَنَّهُ أَوْدَى يَزِيدُ تَيَّنَ إِهْمَا النَّعَامِي الثُّبَيْدُ
أَسْدَرِي مَنْ نَعَيْتَ وَكَيْفَ فَاهَتْ بِهِ شَتَاكَ كَانَ بِهَا الصَّيْدُ
(١٧٠/٦)

أحامي المجد والإسلام أودى فَمَا لِلأَرْضِ وَبِحَاك لَا تَصِيدُ
تَأْتَلُ هَلْ نَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ دَعَائِمُهُ وَقَلَّ شَابُ الْوَلِيدُ
وَهَلْ مَالَتْ سُيُوفُ بَنِي نِزَارٍ وَهَلْ وَضِعَتْ عَنِ الْغِيلِ الْبُودُ
وَهَلْ تَسْقِي الْبِلَادَ عِشَاءُ مُزَنٍ بَرَّتْهَا وَمَلَّ يَخْضَرُ عُودُ
أَمَا هَلَنْتَ لَمَضَرِّعِهِ نِزَارُ بَلَى! وَقَفَّضَ الْمَجْدُ الثُّبَيْدُ
لَوْحَلَّ ضَرْبِيحُهُ إِذْ خَلَّ فِيهِ طَرِفُ الْمَجْدِ وَالْحَسْبُ التَّلِيدُ
أَمَا وَاللَّهِ مَا تَفَنَّاكَ عَيْنِي عَلَيْكَ بَنَمْعَهَا أَبَدًا تُجُودُ
فَإِنْ تَجَنَّدَ مُوَعٍ لَيْسَ قَوْمُ فَلَيْسَ لِنَعْنَعِ ذِي حَسْبٍ جُمُودُ
أَبَدَ يَزِيدَ تَخَضَّرَ الْبَوَاكِي دَمُوعاً، أَوْ يَصَانُ لَهَا خُلُودُ
يُنَبِّكَ قُبَّةَ الْإِسْلَامِ لَهَا وَهَتْ أَطْبَاقُهَا وَوَقَّى الْعَمُودُ
وَيُنَبِّكَ شَاعِرٌ لَمْ يَتَّسِفْ ذَمَّرُ لَهُ نَسْباً وَقَدْ كَسَدَ الْقَصِيدُ
فَمَنْ يَدْعُرُ الْإِمَامَ لِكُلِّ حَلَبٍ يُتُوبُ وَكُلِّ مُعْضَلَةٍ نَوُودُ
وَمَنْ يَحْمِي الْخَمِيسَ إِنْ تَعَالَى بِحِلَّةٍ نَفْسِهِ الْبَطْلُ النَّجِيدُ
فَإِنْ يَهْلِكُ يَزِيدُ فَكُلِّ حَيٍّ فَرِسٌ لِلْمَعْرَِّةِ أَوْ طَرِيدُ
أَلَمْ تَعْجَبْ لَهُ! إِنْ التَّعَالَى فَكُنْ بَرٌّ وَمَنْ لَهُ جُنُودُ
فَقَسَدَتْ لَهُ وَكُنْ يَحْدَثُ عَنْهُ إِذَا مَا الْحَرْبُ شَبَّ لَهَا وَقُودُ
(١٧١/٦)

لَقَدْ عَزَى رِيحَةَ أَنْ يَوْمَا عَلَيْهَا وَشَلَّ يَوْمُكَ لَا يَمُودُ
وكان الرشيد إذا سمع هذه المَثَرِيَّة بكى، وكان يستجيدها
ويستحسنها.

وفيهما توفي محمَّد بن إبراهيم الإمام بن محمَّد بن علي بن عبد
الله بن عيَّاس ببغداد؛ وعبد الله بن مُصَنَّب بن ثابت بن عبد الله بن
الزَّيْبَر، والمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن عيَّاس المخزومي،
ويُعرف بالجزامي، وكان مولده سنة أربع وعشرين ومائة؛ وَحَجَّاج
الصَّوَّاف، وهو ابن أبي عثمان ميسرة.

فصنع ذلك، ودعاه فلم يحضر عنده، فكان ذلك أول تغير أمرهم.

وقيل كان سبب ذلك أن الرشيد دفع يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي إلى جعفر بن يحيى بن خالد، فحبسه، ثم دعا به ليلة، وسأله عنه بعض أمره، فقال له: اتق الله في أمري، ولا تتعرض أن يكون غداً خصمك (١٧٦/٦) محمد بن فوالله ما أحدثت حدثاً، ولا آويت مخبئاً.

فرق له، وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: فكيف اذهب ولا آمن أن أؤخذ؟ فوجه معه من آذاه إلى مأمته.

وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له من خواص جعفر، فرفعه إلى الرشيد، فقال: ما أنت وهذا؟ فعله عن أمري. ثم أحضر جعفرًا للطعام، فجعل يلقيه، ويحادثه، ثم سأله عن يحيى، فقال: هو بحاله في الحبس. فقال: بحياتي؟ ففطن جعفر، فقال: لا وحياتك! وقص عليه أمره، وقال: علمت أنه لا مكروه عنده. فقال: نعم ما فعلت! ما عدوت ما في نفسي. فلما قام عنه قال: قتلني الله إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان.

وقيل: كان من الأسباب أن جعفرًا ابنتي داراً غريم عليها عشرين ألف درهم، فرفع ذلك إلى الرشيد، وقيل هذه غرامته على دار، فما ظنك بنفقاته وصيالاته وغير ذلك؟ فاستعظمه.

وكان من الأسباب أيضاً ما لا تعدّه العامة سبباً، وهو أقوى الأسباب، ما سُمع من يحيى بن خالد وهو يقول، وقد تعلق بأستار الكعبة في حجته هذه: اللهم إن كان رضاك أن تسلبني نعمك عندي فاسلبني! اللهم إن كان رضاك أن تسلبني مالي وأهلي وولدي فاسلبني، إلا الفضل؛ ثم ولى، فلما كان عند باب المسجد رجع، فقال مثل ذلك، وجعل يقول: اللهم إنه سمع بمثلي أن يستنني عليك، اللهم والفضل.

وسُمع أيضاً يقول في ذلك المقام: اللهم إن ذنوبي جمّة عظيمة لا يحصيها غيرك. اللهم إن كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي بذلك في الدنيا، وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري وولدي ومالي، حتى يبلغ رضاك، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة. فاستجيب له.

فلما انصرفوا من الحج ونزلوا الأنبار، ونزل الرشيد العمر نكهم.

وكان أول ما ظهر من فساد حالهم أن علي بن عيسى بن ماهان سعى بموسى بن يحيى بن خالد، وأتهمه في أمر خراسان، وأعلم الرشيد أنه يكاتبهم ليسير إليهم، ويخرجهم عن الطاعة، فحبسه ثم أطلقه.

وكان يحيى بن خالد يدخل على الرشيد بغير إذن، فدخل عليه

جميع ما في عسكريه من الأموال والخزان والسلاح والكرام، وغير ذلك للمأمون، وجدّد له البيعة عليهم، وأرسل إلى بغداد فجسّد له البيعة على محمد الأمين. (١٧٤/٦)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار علي بن عيسى بن ماهان من مرو إلى نسا لحرب أبي الخصيب، فحاربه فقتله وسبى نساءه وذريته، واستقامت خراسان.

وفيها توفي خالد بن الحارث، ويشر بن المفضل، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري،

وفيها مات عبد الله بن صالح بن عبد الله بن عباس بسلمية في ربيع الأول.

وفيها توفي علي بن عباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في رجب وعمره خمس وستون سنة وستة أشهر، وهو ابن أخي السفاح والمنصور.

وفيها توفي عمر بن يونس منصرفه من الحج باليمامة.

وفيها توفي عباد بن عباد بن العوام الفقيه ببغداد؛ وتوفي شقران بن علي الزاهد بالاندلس، وكان فقيهاً.

وفيها توفي راشد مولى عيسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب، وكان قد دخل المغرب مع إدريس بن عبد الله بن الحسن؛ وقام بعده بأمر السيرير أبو خالد يزيد بن إلياس. (١٧٥/٦)

سنة سبع وثمانين ومائة

ذكر إيقاع الرشيد بالبرامكة

وفي هذه السنة أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى.

وكان سبب ذلك أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب، فقال لجعفر: أزوجهك ليحل لك النظر إليها ولا تقربها، فإنّي لا أطيق الصبر عنها؛ فأجابه إلى ذلك، فزوجهما منه، وكان يحضران معه، ثم يقوم عنهما، وهما شابان، فجامعها جعفر، فحملت منه، فولدت له غلاماً، فخافت الرشيد، فسبّوته مع حواضن له إلى مكة، فأعطته الجواهر والنفقات.

ثم إن عباسة وقع بينها وبين بعض جواريها شر، فأنهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد، فحجّ هارون هذه السنة، وبحث عن الأمر، فعلمه، وكان جعفر يصنع للرشيد طعاماً بفسقان، إذا حجّ،

يوماً وعنده جبرائيل بن بختيشوع الطيب، فسلم، فردّ الرشيد ردّاً ضعيفاً، ثمّ أقبل الرشيد على جبرائيل، فقال: أيدخل عليك منزلك أحدٌ بغير إذن؟ قال: لا! قال: فما بالنا يدخل علينا بغير إذن؟ فقال

يحيى: يا أمير المؤمنين ما ابتدأت ذلك الساعة، ولكنّ أمير المؤمنين خصني به، حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرداً، وما علمت أنّ أمير المؤمنين كره ما كان يحب، فإذا قد علمت فإني ساكن [عنده] في الطبقة التي تجعلني فيها؛ فاستحيا هارون، وقال: ما أردتُ ما تكره.

وكان يحيى إذا دخل على الرشيد قام له الغلمان، فقال الرشيد لمسور: مَرِّ الغلمان لا يقومون ليحيى إذا دخل الدار، فدخلها فلم يقوموا، فتغيّر لونه، وكانوا بعد ذلك إذا راوه أعرضوا عنه.

فلما رجع الرشيد من الحجّ نزل العُمُر الذي عند الأنبار، سلخ المحرم، وأرسل مسروراً الخادم ومعه جماعة من الجند إلى جعفر ليلاً، وعنده ابن بختيشوع المتطبّب، وأبو زَكَار المُغْنِي، وهو في لهوه وأبو زَكَار يَغْنِي:

فَلَا يُبْعَدُ فَكُلُّ نَفْسٍ سَيَّئِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُغَادِي (١٧٨/٦)

وكلّ ذُخَيْرَةٍ لَا بُدَّ يَوْمًا وَإِنْ كَرُمْتَ تَصِيرُ إِلَى نَفَادٍ قال مسرور: فقلت له: يا أبا الفضل، الذي جئتُ له هو والله ذاك، قد طرقت، أجب يا أمير المؤمنين، فوقع على رجلي يقبلها، وقال: حتى أدخل فأوصي، فقلت: أمّا الدخول فلا سبيل إليه، وأمّا الوصية فاصنع ما شئت. فأوصى بما أراد، وأعتق ممالিকে.

وأنتني رسل الرشيد تستحثني، فمضيتُ به إليه، فأعلمته وهو في فراشه، فقال: انتني برأسه. فأتيت جعفرًا فأخبرته، فقال: الله الله! والله ما أمرك [بما أمرك به] إلّا وهو سكران، فدافع حتى أصبح، أو راجعه في ثانية. فعدتُ لأراجعه، فلما سمع جسي قال: يا ماضٍ نَظَرُ أُمِّهِ، انتني برأسه! فرجعتُ إليه، فأخبرته، فقال: آمرة. فرجعتُ، فحذفتي بعمود كان في يده، وقال: نُفِيتُ من المهديّ، إن لم تأتني برأسه لأقتلك! قال: فخرجتُ فقتلته وحملتُ رأسه إليه، وأمر بتوجيه من أحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه، وحوّل الفضل بن يحيى ليلاً، فحُجِسَ في بعض منازل الرشيد، وحُجِسَ يحيى في منزله، وأخذ ما وُجد لهم من مال، وضياع، ومتاع، وغير ذلك، وأرسل من ليلته إلى سائر البلاد في قبض أموالهم ووكلائهم ورفيقهم وأسبابهم وكلّ ما لهم.

فلما أصبح أرسل جيفة جعفر إلى بغداد، وأمر أن يُنصب رأسه على جسر، ويُقطّع بدنه قطعتين، تُنصب كلّ قطعة على جسر؛ ولم يعرض الرشيد لمحمّد بن خالد بن برمك وولده وأسبابه، لأنّه علم براءته ممّا دخل فيه أهله؛ وقيل كان يسعى بهم؛ ثمّ حَسِبَ يحيى وبينه الفضل ومحمّداً وموسى مَجْبِساً سهلاً، ولم يفرّق بينهم وبين

عدة من خدمهم، ولا ما يحتاجون (١٧٩/٦) إليه من جارية وغيرها.

ولم تزل حالهم سهلة حتى قبض الرشيد على عبد الملك بن صالح، فعصمهم بسخطه، وجذّد له ولهم التهمة عند الرشيد، فضيق عليهم.

ولما قُتل جعفر بن يحيى قيل لأبيه: قتل الرشيد ابنك! قال: كذلك يُقَتَّلُ ابنه؛ قيل: وقد أخرب ديارك؛ قال: كذلك تخرب دياره؛ فلما بلغ ذلك الرشيد قال: قد خفتُ أن يكون ما قاله لأنّه ما قال شيئاً إلّا ورأيتُ تأويله.

قال سلام الأبرش: دخلتُ على يحيى بن خالد وقت قبضه، وقد هُتكت الستور، وجمع المتاع، فقال: هكذا تقوم القيامة؛ قال: فحدثتُ الرشيد فأطرق مفكراً.

وكان قُتل جعفر ليلة السبت مستهلّ صفر، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة، وكانت الوزارة إليهم سبع عشرة سنة، ولما نُكبوا قال الرقاشي، وقيل أبو نواس:

الآن اسرّخنا واستراحت ركائبنا وامسك من يخلو ومن كان يحندي
قُتِلَ لِلْمَطَايَا قَدْ أَيْتَمَ مِنَ السُّرَى وَطَيَّ الْفَيَّانِي فَتَغَدَّأَ بَعْدَ ذَفْنِهِ
وَقُتِلَ لِلتَّنَائِيَا قَدْ ظَفِرَتْ بِجَعْفَرٍ وَلَنْ تَظْفِرَ مِنْ بَعْدِهِ بِمُسَوِّدٍ
وَقُتِلَ لِلْمَطَايَا بَعْدَ فَضْلٍ تَغَطَّى وَقُتِلَ لِلرَّزَايَا كُلِّ يَوْمٍ تَجَنَّدِي
وَدُونَكَ سَيِّفًا بَرْمَكِيًّا مُهْنَدًا أَصِيبَ بِسَيْفٍ هَاشِمِيٍّ مُهْنَدٍ

وقال يحيى بن خالد لما نُكب: الدنيا دول، والمال عارية، ولنا بمن قبلنا أسوة، وفيها لمن بعدنا عبرة. (١٨٠/٦)

ووقع يحيى على قصة محبوبوس: المُدَوَّان أوبقه، والتوبة تُطلقه. وقال جعفر بن يحيى: الحظّ سيمط الحكمة به تُفْضَلُ شذورها ويُنظَمُ مثورها.

قال ثمامة: قلتُ لجعفر: ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم محيطاً بمعناك، مخبراً عن مغزائك، مخرجاً من الشركة، غير مستعان عليه بالفكرة.

ذكر القبض على عبد الملك بن صالح

وفي هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بن عليّ بن عبد الله بن عباس.

وكان سبب ذلك أنّه كان له ولد اسمه عبد الرحمن، وبه كان يكتي، وكان من رُحَالِ النَّاسِ، فمضى بأبيه هو وقُمامة كاتب أبيه، وقالا للرشيد: إنّه يطلب الخلافة، ويطمع فيها؛ فأخذه، وحسبه عند الفضل بن الربيع، وأحضره يوماً، حين سخط عليه، وقال له: أكفراً بالنعمة، وجحوداً لجليل المنّة والتكرمة؟

أفصح الكتاب [لي] ببعضه، أو يبغى باغ ينهس اللحم، ويلغ الدم، فقد والله سهّلت لك الوعور، ودلّلت لك الأمور، وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور، فكم ليل تمام فيك كابدته، ومقام ضيق [لك] قمته، كنت [فيه] كما قال أخو بني (١٨٣/٦) جعفر بن كلاب، يعني ليبدأ:

وَمَقَامٌ ضَيِّقٌ فَرَجُّهُ بَيَّانٌ وَلِسَانٌ وَجَدَنٌ
لَوْ يَقُومُ الْقِيَلُ أَوْ قِيلَالُهُ رَدَّ عَنْ مِثْلِ مَقَامِي وَخَسَلٌ
فقال له الرشيد: والله لولا إيقائي على بني هاشم لضربت عنقك؛ ثم أعاده إلى محبسه.

فدخل عبد الله بن مالك على الرشيد، وكان على شرطته، فقال له: والله العظيم، يا أمير المؤمنين، ما علمت عبد الملك إلا ناصحاً، فعلام حبسته؟ فقال: بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ابني هذين، يعني الأمين والمأمون، فإن كنت ترى أن تطلقه من الحبس أطلقناه. فقال: أما إذ حبسته، فلست أرى في قرب المدة أن تطلقه، ولكن تحبسه محبساً كريماً. قال: فإني أفعل؛ فأمر الفضل بن الربيع أن يمضي إليه، وينظر ما يحتاج إليه فيوظفه له، ففعل.

ولم يزل عبد الملك محبوساً، حتى مات الرشيد، فأخرجه الأمين واستعمله على الشام، فأقام بالرقّة، وجعل لمحمّد الأمين عهد الله لئن قُتل وهو حي لا يعطي المأمون طاعة أبداً، فمات قبل الأمين؛ وكان ما قال للأمين: إن خفت فالجأ إليّ فوالله لأصونك. وقال الرشيد يوماً لعبد الملك: ما أنت لصالح! قال: فلمن أنا؟ قال: لمروان الجعدي. قال: ما أبالي أي الفحلين غلب عليّ.

وأرسل الرشيد يوماً إلى يحيى بن برمك: إن عبد الملك أراد الخروج عليّ ومنازعتي في المُلْك. وعلمت ذلك، فأعلمني ما عندك فيه، فإنك إن صدقتني أعدتكَ إلى حالك. (١٨٤/٦) فقال: والله ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا، ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك، لأن ملكك كان ملكي، وسلطانك كان سلطاني، والخير والشر كان فيه عليّ [ولي]، وكيف يطمع عبد الملك في ذلك مني، وهل كان إذا فعلت به ذلك، يفعل معي أكثر من فعلك؟ وأعيذك بالله أن تظنّ بي هذا الظنّ، ولكنّه كان رجلاً محتملاً يسرّني أن يكون في أمك مثله، فوليته لما حمدت أثره ومذهبه، وملت إليه لأدبه واحتماله.

فلما أتاه الرسول بهذا أعاده عليه فقال له: إن أنت لم تقرّ عليه قتلت الفضل ابنك.

فقال له: أنت مُسلطٌ علينا، فافعل ما أردت. فأخذ الرسول الفضل فأقامه، فودّع أباه وقال له: ألست راضياً عني؟ قال: بلى، فرضي الله عنك. ففرق بينهما ثلاثة أيام، فلما لم يجد عندهما في

فقال: يا أمير المؤمنين! لقد بوّث إذا بالندم، وتعرّضت لاستحلال النقم، وما ذاك إلا بغي حاسداً، فسي فيك مودة القرابة وتقديم الولاية؛ إنك، يا أمير المؤمنين، خليفة رسول الله ﷺ على أمته، وأمينه على عترته، لك عليها فرض الطاعة، وأداء النصيحة، ولها عليك العدل (١٨١/٦) في حكمها، والغفران لذنوبها، والتبّيت في حادنها.

فقال له الرشيد: أنضع [لي] من لسانك، وترفع [لي] من جنانك؟ هذا كاتبك قُمامة يخبر بغلك وفساد نيتك، فاسمع كلامه.

فقال عبد الملك: أعطاك ما ليس في عقدة، ولعلّه لا يقدر أن يعضهني أو يبهتي، بما لن يعرفه مني.

فأحضر قمامة فقال له الرشيد: تكلمْ غير هائب ولا خائف! فقال: أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك. فقال عبد الملك: كيف لا يكذب عليّ من خلفي [من] يبهتي في وجهي؟

فقال الرشيد: فهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعثوك، وفساد نيتك، ولو أردت أن احتجّ عليك لم أجد أعدل من هذين الاثنين لك، فلم تدفعهما عنك؟

فقال عبد الملك: هو مأمور، أو عاق مجبور، فإن كان مأموراً فمعدور، وإن كان عاقاً ففاجر كفور، أخبر الله، عزّ وجلّ، بعداوته، وحذّر منه بقوله: ﴿إِنْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾. [التغابن: ١٤] فنهض الرشيد وهو يقول: ما أمرك إلا قد وضّح، ولكني لا أعجل، حتى أعلم الذي يرضي الله، عزّ وجلّ، فيك، فإنه الحكم بيني وبينك.

فقال عبد الملك: رضيتُ بالله حكماً، وبأمر المؤمنين حاكماً، فإني أعلم أنه لن يؤثر هواه على رضى ربّه. (١٨٢/٦)

وأحضره الرشيد يوماً آخر، فكان ممّا قال له:

أريدُ حياتَهُ ويريدُ قتلِي غنيرك من خليلك من مُرادٍ
ثم قال: أما والله لكانني أنظر إلى شؤيوبها قد همع، وعارضها قد بلع، وكأني بالوعيد قد أورى زناداً يسطع، فأقلع عن براجم بلا معاصم، ورؤوس بال غلاصم، فمهلاً مهلاً بني هاشم فبي والله سهل لكم الوعر، وصفاً لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أزمتهما، فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد ليوط بالرّجل.

فقال عبد الملك: اتق الله، يا أمير المؤمنين، فيما ولّاك من رعيته التي استرعاك، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضع الثواب، فقد نخلت لك النصيحة، ومحضت لك الطاعة، وشددت أواخي ملكك بأنقل من ركني يلمّكم، وتركت عدوك مشغلاً، فالله! الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن وصلته، بظنّ

ذلك شيئاً جمعهما.

يقفون؟ وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك، فرجع إلى بلاد الروم في أشدّ زمان وأعظم كلفة، حتى بلغ بلادهم، فأقام بها حتى شفى واشتفى وبلغ ما أراد.

ذكر غزو الروم

وفي هذه السنة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم في شعبان، فأنافخ على قرّة، وحصرها، ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، فحصر حصن ميثان، حتى جهد أهلها، فبعث إليه الروم ثلاثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم، فأجابهم ورحل عنهم صلحاً.

وقيل: كان فعل يقفور وهذه الأبيات سبباً لسير الرشيد وفتح هرقلة، على ما نذكره، سنة تسعين ومائة، إن شاء الله تعالى.

ذكر قتل إبراهيم بن عثمان بن نهيك

وفيها قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نهيك، وسبب قتله أنه كان كثيراً ما يذكر جعفر بن يحيى والبرامكة، ويكي عليهم إلى أن خرج من البكاء إلى حدّ طالبي الشار، فكان إذا شرب النبيذ مع جواربه أخذ سيفه، ويقول: واجعفر! واسيداه! والله لأقتلن قاتلك ولأثارتن بدمك.

ومات علي بن عيسى في هذه الغزاة بأرض الروم، وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها ريني، فخلعتها الروم وملكت يقفور، وتزعم الروم (١٨٥/٦) أنه من أولاد جفنة بن غسان، وكان، قبل أن يملك، يلي ديوان الخراج، وماتت ريني بعد خمسة أشهر من خلعتها.

فلما كثر هذا منه جاء ابنه فأعلم الرشيد هو وخصي كان لإبراهيم، فأحضر إبراهيم وسقاه نبيذاً، فلما أخذ منه النبيذ قال له: إني قد ندمت على قتل جعفر بن يحيى، وودت أني خرجت من ملكي وأنه كان بقي لي، فما وجدت طعم النوم مذ فارقته.

فلما استوثقت الروم ليقفور كتب إلى الرشيد: من يقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتكم مقام الرُخ، وأقامت نفسها مقام البيذق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافها إليها، لكن ذلك ضعف النساء، وحققهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردّد ما حصل لك من أموالها، واقتد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما سمعها إبراهيم أسبل دموعه وقال: رحم الله أبا الفضل! والله (١٨٧/٦) يا سيدي لقد أخطأت في قتله، وأوطئت العثوة في أمره، وأين يوجد في الدنيا مثله؟

فقال الرشيد: قم! عليك لعنة الله يا ابن اللّخاء؛ فقام وما يعقل [ما يظا]، فما كان بين هذا وبين أن دخل عليه ابنه فضربه بالسيف إلا ليالٍ قلائل.

فلما قرأ الرشيد الكتاب استغفّر الغضب، حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، وتفرّق جلساؤه، فدعا بدواة، وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى يقفور كلب الروم؛ قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام.

ذكر ملك الفرنج مدينة تُطيلة بالأندلس

في هذه السنة ملك الفرنج مدينة تُطيلة بالأندلس؛ وسبب ذلك أن الحكم صاحب الأندلس استعمل على ثغور الأندلس قائداً كبيراً من أجناده، اسمه عمرو بن يوسف، فاستعمل ابنه يوسف على تُطيلة، وكان قد انهزم من الحكم أهل بيت من الأندلس أولو قوة وبأس، لأنهم خرجوا عن طاعته، فالتحقوا بالمشركين، فقوي أمرهم، واشتدّت شوكتهم، وتقدّموا إلى مدينة تُطيلة فحاصروها، وملكوها من المسلمين، فأسروا أميرها يوسف ابن عمرو، وسجنوه بصخرة قيس.

ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة ففتح وغنم وأحرق وخرب، فسأله يقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك.

فلما رجع من غزوته وصار بالرّة نقض يقفور العهد، وكان البرد شديداً، فأمن رجعة الرشيد إليه، فلما جاء الخير بنقضه ما جسر أحد على إخبار الرشيد، خوفاً على أنفسهم من العود في مثل ذلك البرد، وإشفاقاً من الرشيد، فاحتيل له بشاعر من أهل جنده، وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف، وقيل هو الحجاج بن يوسف التيمي، فقال أبياتاً منها: (١٨٦/٦)

نَقَضَ الَّذِي اعْطَيْتَهُ يَقْفُورُ فَعَلَى دَائِرَةِ الْبَرْقِ تَدُورُ
أَبْنِزْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ تَنَحَّى تَنَالِكُ بِهِ إِلَهُ كَبِيرُ
فَنَحْ يَزِيدُ عَلَى التَّنَوُّحِ يَوْمَنَا بِالْأَنْصَرِ فِيهِ لَوَاكُ الْمَنْصُورُ
في أبيات غيرها. فلما سمع الرشيد ذلك قال: أوقد فعل ذلك

واستقر عمرو بن يوسف بمدينة سرقسطة ليحفظها من الكفار، وجمع العساكر، وسيّرها مع ابن عم له، فلقى المشركين، وقتلهم، ففرض جمعهم، وهزمهم، وقتل أكثرهم، ونجا الباقون منكوبين، وسار الجيش إلى صخرة قيس، فحاصروها وافتحوها، ولم يقدر المشركون على منعها منهم، لما نالهم من الزهن بالهزيمة؛ ولما فتحها المسلمون خلصوا يوسف بن (١٨٨/٦) عمرو بن أمير الثغر، وسيّروه إلى أبيه؛ وعظم أمر عمرو بن

المشركين، وبُعِدَ صوته فيهم، وأقام في الثغر أميراً عليه.

وانتقل إلى مكة فمات بها.

ذكر إيقاع الحكم بأهل قرطبة

كان الحكم في صدر ولايته تظاهر بشرب الخمر والانهماك في اللذات، وكانت قرطبة دار علم، وبها فضلاء في العلم والورع، منهم: يحيى بن يحيى الليثي، راوي موطئ مالك عنه، وغيره، فثار أهل قرطبة، واتفقوا فعله، ورجموه بالحجارة، وأرادوا قتله، فامتنع منهم بمن حضر من الجند وسكن الحال.

ثم بعد أيام اجتمع وجوه أهل قرطبة وفقهاؤها، وحضروا عند محمد ابن القاسم القرشي المرواني، ثم هشام بن حمزة، وأخذوا له البيعة على أهل البلد، وعرفوه أن الناس قد ارتضوه كافة، فاستنظر ليلة ليرى رايه، ويستخير الله، سبحانه وتعالى، فانصرفوا، فحضر عند الحكم، وأطلععه على الحال، وأعلمه أنه على بيعته، فطلب الحكم تصحيح الحال عنده، فأخذ معه بعض ثقات الحكم، وأجلسه في قبة في داره، وأخفى أمره، وحضر عنده القوم يستعلمون منه هل تقلد أمرهم أم لا، فأراهم المخافة على نفسه، وعظم الخطب عليهم، وسألهم تعداد أسمائهم ومن معهم، فذكروا له جميع من معهم من أعيان البلد، وصاحب الحكم يكتب أسماءهم؛ فقال لهم محمد بن القاسم: يكون هذا الأمر يوم الجمعة، إن شاء الله، في المسجد الجامع.

ومشى إلى الحكم مع صاحبه، فأعلماه جليلة الحال، وكان ذلك يوم (١٨٩/٦) الخميس، فما أتى عليه الليل حتى حبس الجماعة المذكورين عن آخرهم، ثم أمر بهم، بعد أيام، فصلبوا عند قصره، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً، منهم: أخو يحيى بن يحيى، وابن أبي كعب، وكان يومهم يوماً شنيعاً، فتمكنت عداوة الناس للحكم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة هاجت العصية بالشام بين المضربة واليمانية، فأرسل الرشيد فأصلح بينهم.

وفيها زلزلت المصيبة، فانهدم سورها، ونضب ماؤها ساعة من الليل.

وفيها خرج عبد السلام بأميد، فحكّم، فقتله يحيى بن سعيد العفيلي.

وفيها أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة، فوهبه لله، وجعله قرباناً له ولولاه العراصم. وحج بالناس هذه السنة عبد الله بن العباس بن محمد بن علي.

وفيها توفي الفضيل بن عياض الزاهد، وكان مولده بسمرقند،

وفيها توفي المعتمر بن سليمان بن طرخان التيمي أبو محمد البصري.

وكان مولده سنة ست أو سبع ومائة؛ وعمر بن عبيد الطنافسي الكوفي.

وفيها توفي أبو مسلم معاذ الهراء النحوي، وقيل كنيته أبو علي، وعنه أخذ الكسائي النحو، وولد أيام يزيد بن عبد الملك. (١٩٠/٦)

سنة ثمان وثمانين ومائة

في هذه السنة غزا إبراهيم بن جبرائيل الصائفة، فدخل أرض الروم من درب الصنصاف، فخرج إليه ينفور ملك الروم، فأنه من ورائه أمر صرفه عنه، ولقي جمعاً من المسلمين، ففجر ثلاث جراحات، وقتل من الروم، فيما قيل، أربعون ألفاً وسبعمئة.

وفيها رابط القاسم بن الرشيد بدابق، وحج بالناس فيها الرشيد، فقسم أموالاً كثيرة، وهي آخر حجة حجها في قول بعضهم.

وفيها توفي جرير بن عبد الحميد الضبي الرازي وله ثمان وسبعون سنة.

وفيها توفي العباس بن الأحنف الشاعر، وقيل سنة ثلاث وتسعين، ومات أبوه الأحنف سنة خمسين ومائة.

وفيها توفي شهيد بن عيسى بالأندلس وعمره ثلاث وتسعون سنة؛ وكان دخوله الأندلس مع عبد الرحمن بن معاوية.

(شهيد بضم الشين المعجمة، وفتح الهاء). (١٩١/٦)

سنة تسع وثمانين ومائة

ذكر مسير هارون الرشيد إلى الري

وفي هذه السنة سار الرشيد إلى الري؛ وسبب ذلك أن الرشيد لما استعمل علي بن عيسى بن ماهان على خراسان ظلم أهلها، وأساء السيرة فيها، فكتب كبار أهلها وأشرافها إلى الرشيد يشكون سوء سيرته وظلمه، واستخافه بهم، وأخذ أموالهم. وقيل للرشيد: إن علي بن عيسى قد أجمع على الخلاف، فسار إلى الري في جمادى الأولى، ومعه ابنه عبد الله المأمون والقاسم، وكان قد جعله ولي عهد بعد المأمون، وجعل أمره إلى المأمون إن شاء أقره، وإن شاء خلعه، وأحضر القضاة والشهود وأشهدهم أن جميع [ما] في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شيء.

وأقام الرشيد بالرِّي أربعة أشهر حتى أتاه علي بن عيسى من خُرَاسان، فلَمَّا قدم عليه أهدى له الهدايا الكثيرة، والأموال العظيمة، وأهدى لجميع مَنْ معه من أهل بيته، وولده، وكتبه، وقَوَّاده من الطَّرَف والجواهر، وغير ذلك، ورأى الرشيد خلاف ما كان يظنُّ، فردَّه إلى خراسان.

ولما أقام الرشيد بالرِّي سَرَّ حسيناَ الخادم إلى طَبَرستان، وكتب معه أماناً لشروين أبي قارن، وأماناً لَوَندا هُرْمُز، جَدَّ مازيار، وأماناً لمرزبان (١٩٢/٦) ابن جستان صاحب الديلم، فقدم جستان ووندنا هُرْمُز، فآكرهما، وأحسن إليهما، وضمن وندنا هُرْمُز السمع والطاعة، وأداء الخراج عن شروين.

ورجع الرشيد إلى العراق، ودخل بغداد في آخر ذي الحجة. فلَمَّا مرَّ بالجسر أمر بإحراق جَنَّة جعفر بن يحيى، ولم ينزل بغداد، ومضى من فورهِ إلى الرُّقَّة، ولما جاز بغداد قال: واللَّهِ إِنِّي لأَطْوي مدينة ما وُضِع بشرق ولا غرب مدينة أَيْمن ولا أيسر منها، وإِنِّها لدار مملكة بني العباس ما بقوا، وحافظوا عليها، ولا أرى أحد من آبائي سوءاً ولا نكبة منها، ولِيُغَمِّ الدار هي، ولكِنِّي أريد المُناخ على ناحية أهل الشَّقَّاق والنَّفَّاق، والبغض لأئمة الهدى، والحبُّ لشجرة اللُّعْنَة بني أُمِّية مع ما فيها من المارقة، والمسلطة، ومخيفي السبيل، ولولا ذلك ما فارقتُ بغداد [ما حييت]. فقال العباس بن الأحنف في طيِّ الرشيد بغداد:

ما أَنَحْنَا حَتَّى ارْتَحَلْنَا فَمَا نَفَدَ سِرْقَ يَنْ المُناخِ وَالْإِرْتِحَالِ
سَأَلُونَا عَنْ حَالِنَا إِذْ قَبِلْنَا قَرَرْنَا وَدَاعَهُمْ بِالسَّوَالِ

ذكر الفتنة بطرابلس الغرب

في هذه السنة كثر شغب أهل طرابلس الغرب على ولائهم، وكان إبراهيم بن الأغلب، أمير إفريقية، قد استعمل عليهم عدَّة وُلاة، فكانوا يشكون (١٩٣/٦) من ولائهم، فيعزلهم، ويولِّي غيرهم، فاستعمل عليهم هذه السنة سُفْيَان ابن المضاء، وهي ولايته الرابعة، فاتفق أهل البلد على إخراجهم عنهم، وإعادته إلى القُيُروان، فزحفوا إليه، فأخذ سلاحه، وقاتلهم هو وجماعة مَن معه، فأخرجوه من داره، فدخل المسجد الجامع، فقاتلهم فيه، فقتلوا أصحابه، ثُمَّ أُمْنُوهُ، فخرج عنهم في شعبان من هذه السنة، فكانت ولايته سبعة وعشرين يوماً.

واستعمل الجند الذين بطرابلس على البلد وأهله إبراهيم بن سُفْيَان التَّمِيمِي.

ثم وقع بين الأبناء بطرابلس أيضاً وبين قوم يُعرفون ببني أبي كنانة وبني يوسف حروب كثيرة، وقتال، حتى فسدت طرابلس، فبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب، فأرسل جمعاً من الجند، وأمرهم أن يُحضروا الأبناء وبني أبي كنانة، وبني يوسف، فأحضرهم عنده

بالقُيُروان في ذي الحجة، فلَمَّا قدموا عليه سأله العفو عنهم في الذي فعلوه، فعفا عنهم، فعادوا إلى بلدهم.

ذكر عدة حوادث

فيها كان الفداء بين المسلمين والروم، فلم يبقَ بأرض الروم مسلم إلا فودي به.

وحجَّ بالنَّاس العباس بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

وفيها ولي الرشيد عبد الله بن مالك طَبَرستان والرِّي وُدُبَاوند وقُومُس (١٩٤/٦) وهَمَذَان، وهو متوجَّه إلى الري، فقال أبو العتاهية في مسيره إليها، وكان الرشيد وُلد بها:

إِنَّمَا مِثْنُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَنَ بِي السَّيْرِ إِلَى قَوْلِيهِ
لِيُصْلِحَ الرِّي وَأَطْلَاهَا وَيُظْفِرَ الْخَيْرَ بِهَا مِنْ يَدِهِ
وفيها مات محمد بن الحسن الشيباني الفقيه، صاحب أبي حنيفة، وحميد بن عبد الرحمن بن حميد الرُّوَاسِي أبو عوف، وسابق بن عبد الله الموصلي، وكان من الصالحين البكائين من خشية الله تعالى. (١٩٥/٦)

سنة تسعين ومائة

ذكر خلع رافع بن الليث بن نصر بن سيار

وفي هذه السنة ظهر رافع بن الليث بن نصر بما وراء النهر مخالفاً للرشيد بسمرقند.

وكان سبب ذلك أَنَّ يَحْيَى بن الأشعث بن يحيى الطائي تزوج ابنة لعمه أبي النعمان، وكانت ذات يسار ولسان، ثُمَّ تركها بسمرقند، وأقام ببغداد، واتخذ السراري، فلَمَّا طال ذلك عليها، أرادت التخلص منه، وبلغ رافعاً خبرها، فطمع فيها وفي مالها، فدمس إليها مَنْ قال لها: إنه لا سبيل إلى الخلاص من زوجها إلا أن تُشهد عليها قوماً أَنَّها اشتركت بالله، ثُمَّ تتوب، فينسخ نكاحها، وتحلُّ للأزواج، ففعلت ذلك، وتزوجها رافع. فبلغ الخبر يحيى بن الأشعث، فشكا إلى الرشيد، فكتب إلي علي بن عيسى بن ماهان يأمره أن يفرق بينهما، وأن يعاقب رافعاً، ويجلده الحد، ويقبده ويطوف به في سمرقند على حمار ليكون عظةً لغيره، ففعل به ذلك، ولم يحده، وطلقها رافع وحبس بسمرقند، فهرب من الحبس، فلحق بعلي بن عيسى ببلغ، فأراد ضرب عنقه، فشفع فيه عيسى بن علي بن عيسى، وأمره بالإنصراف إلى سمرقند، فرجع إليها، ووثب بعامل علي بن عيسى عليها، فقتله، واستولى عليها فوجَّه إليه ابنه، فلقبه، فهزمه رافع، فأخذ علي بن عيسى في جمع الرجال والتأهب لمحاربتة، وانقضت السنة. (١٩٦/٦)

ذكر فتح هرقله

وفي هذه السنة فتح الرشيد هرقله، وأخربها؛ وكان سبب مسيره إليها ما ذكرناه سنة سبع وثمانين ومائة، من غدر ينفقور، وكان فتحها في شوال، وكان حصرها ثلاثين يوماً، وسبى أهلها، وكان قد دخل البلاد في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة، سوى الأتباع والمتطوعة، ومن لا ديوان له، وأنشأ عبد الله بن مالك على ذي الكلاع، ووجه داود بن عيسى بن موسى سائراً في أرض الروم في سبعين ألفاً يخرب وينهب، ففتح الله عليه، وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة، واقتح يزيد بن مخلد الصمصاف وملقونية، واستعمل حُمَيد بن معيوف على سواحل الشام ومصر، فبلغ قبرس، فهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفاً فأقدمهم الراققة، فبيعوا بها، وبلغ فداء أسقف قبرس ألفي دينار.

ثم سار الرشيد إلى طوانة، فنزل بها، ثم رحل عنها، وخلف عليها عقبة بن جعفر.

ويبعث ينفقور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير، وعن رأس ولده دينارين، وعن بطارقه كذلك، وكتب ينفقور إلى الرشيد في جارية من سبي هرقله كان خطبها لولده، فأرسلها إليه. (١٩٧/٦)

ذكر عذة حوادث

وخرج في هذه السنة خارجي من ناحية عبد القيس، يقال له سيف بن بكير، فوجه إليه الرشيد محمد بن يزيد بن مزيد، فقتله بعين الثورة.

وفيها نقض أهل قبرس العهد، فغزاهم معيوف بن يحيى، فسبى أهلها. وحج بالناس عيسى بن موسى الهادي.

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يد المأمون، وقيل بل أسلم أبوه سهل على يد المهدي، وكان محبوساً، وقيل أسلم الفضل وأخوه الحسن على يد يحيى بن خالد، فاختره يحيى لخدمة المأمون، فلهذا كان الفضل يرضى البرامكة، ويشي عليهم، ولقب بذي الراسين لأنه تقلد الوزارة والسيف، وكان يشيع، وهو السذي أشار على المأمون بالعهد لعلي بن موسى الرضى، عليه السلام.

وكان على الموصل هذه السنة خالد بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، ولما دخل الموصل انكسر لواءه في باب المدينة، فتطير منه، وكان معه أبو الشيبان الشاعر، فقال في ذلك:

ما كان منكبر اللواء لطيرة تخشى ولا أثر يكون مؤبلا
لكن هذا الرمح اضفرت ركة صغر الولاية فاستقل الموصل
فسرى عن خالد.

وفيها غزا الرشيد الصائفة، واستخلف المأمون بالرقعة، وفوض إليه (١٩٨/٦) الأمور، وكتب إلى الأفاق بذلك، ودفع إليه خاتم المنصور تيمناً به، ونقشه: الله يفتي أمنت به.

وفيها خرجت الروم إلى عين زربى، والكنيسة السوداء، وأغاروا، فاستنقذ أهل المصيصة ما كان معهم من الغنيمة.

وفيها توفي أسد بن عمرو بن عامر أبو المنذر البجلي الكوفي، صاحب أبي حنيفة.

وفيها توفي يحيى بن خالد بن برمك محبوساً بالراققة في المحرم وعمره سبعون سنة، وعمر بن علي بن عطاء بن مقدم المقدمي البصري. (١٩٩/٦)

سنة إحدى وتسعين ومائة

ذكر الفتنة من أهل طليطلة وهو وقعة الحفرة

في هذه السنة أوقع الأمير الحكم بن هشام الأموي، صاحب الأندلس، بأهل طليطلة، فقتل منهم ما يزيد على خمسة آلاف رجل من أعيان أهلها.

وسبب ذلك أن أهل طليطلة كانوا قد طمعوا في الأمراء، وخلعهم مرة بعد أخرى. وقويت نفوسهم بحصانة بلدهم وكثرة أموالهم، فلم يكونوا يطيعون أمراءهم طاعة مرضية، فلما أعيان الحكم شأنهم أعمل الحيلة في الظفر بهم، فاستعان في ذلك بعمروس بن يوسف المعروف بالمولد، وكان قد ظهر في هذا الوقت بالنفر الأعلى، فأظهر طاعة الحكم، ودعا إليه، فاطمان إليه بهذا السبب، وكان من أهل مدينة وثقة، فاستحضره فحضر عنده، فآكرمه الحكم، وبالغ في إكرامه، وأطلعته على عزمه في أهل طليطلة واطاء على التدبير عليهم، فولاه طليطلة، وكتب إلى أهلها يقول: إني قد اخترت لكم فلاناً، وهو منكم، لتطمئن قلوبكم إليه، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا ومواليها، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم.

فمضى عمروس إليهم، ودخل طليطلة، فأسس به أهلها، واطمانوا إليه، وأحسن عشرتهم، وكان أول ما عمل عليهم من الحيلة أن أظهر لهم موافقتهم على بغض بني أمية، وخلع طاعتهم، فقالوا إليه، ووثقوا بما (٢٠٠/٦) يفعله؛ ثم قال لهم: إن سبب الشر بينكم وبين أصحاب الأمير إنما هو اختلاطهم بكم، وقد رأيت أن أبنائي بناء أعزل فيه أنا وأصحاب السلطان رفقاً بكم؛ فاجابوه إلى ذلك، فبنى في وسط البلد ما أراد.

فلما مضى لذلك مدة كتب الأمير الحكم إلى عامل له على الثغر الأعلى سراً يأمره أن يرسل إليه يستغيث من جيوش الكفرة،

وطلب النجدة والعساكر، ففعل العامل ذلك فحشد الحَكَمَ الجيوشَ من كلِّ ناحية، واستعمل عليهم ابنه عبد الرحمن، وحشد معه قواده ووزرائه، فسار الجيش واجتاز بمدينة طَلَيْطَلَة، ولم يعرض عبد الرحمن لدخولها، فاتاه وهو عندها الخيرُ من ذلك العامل أنَّ عساكر الكفرة قد تفرقت، وكفى الله شرَّها، ففرَّق العسكر، وعزم عبد الرحمن على العود إلى قُرْبَة، فقال عمروس عند ذلك لأهل طَلَيْطَلَة: قد ترون نزول الحَكَم إلى جانبي، وإنه يلزمني الخروج إليه وقضاء حقِّه، فإن نشطتم لذلك ولا سِرْت إليه وحدي؛ فخرج معه وجوه طَلَيْطَلَة، فأكرمهم عبد الرحمن، وأحسن إليهم.

وكان الحَكَم قد أرسل مع ولده خادماً له، ومعه كتاب لطيف إلى عمروس، فاتاه الخادم، وصافحه، وسَلَّمَ الكتاب إليه من غير أن يحدثه، فلمَّا قرأ عمروس الكتاب رأى فيه كيف تكون الحيلة على أهل طَلَيْطَلَة، فإشار إلى أعيان أهلها بأن يسألوا عبد الرحمن الدخول إليهم ليرى هو وأهل عسكره كثرتهم، ومنعتهم، وقوتهم، فظنَّه ينصحهم، ففعلوا ذلك، وأدخلوا عبد الرحمن البلد، ونزل مع عمروس في داره، واتاه أهل طَلَيْطَلَة أرسالاً يَسْلُمون عليه.

وأشاع عمروس أنَّ عبد الرحمن يريد أن يتخذ لهم وليمة عظيمة، (٢٠١/٦) وشرع في الاستعداد لذلك، وواعدهم يوماً ذكره، وقرَّر معهم أنَّهم يدخلون من باب، ويخرجون من آخر ليقبَل الرِّحَام، ففعلوا ذلك.

ولمَّا كان اليوم المذكور أتاه النَّاس أفواجا، فكان كلِّما دخل فوج، أخذوا وحُمِلوا إلى جماعة من الجند على حفرة كبيرة في ذلك القصر، ففُضِرَت رقابهم عليها؛ فلمَّا تعالى النهار أُنْشِيَ بعضهم فلم يرَ أحداً، فقال: أين النَّاس؟ فقيل: إنَّهم يدخلون من هذا الباب، ويخرجون من الباب الآخر، فقال: ما لقيني منهم أحد؛ وعلم الحال، وصاح، وأعلم النَّاس هلاك أصحابهم، فكان سبب نجاة مَنْ بقي منهم، فذلَّت رقابهم بعدها، وحسنت طاعتهم بقيَّة أيام الحَكَم وآيام ولده عبد الرحمن، ثم انجبرت مصيبتهم، وكثروا، فلمَّا هلك عبد الرحمن ووليَّ ابنه محمد عاجلوه بالخلع على ما نذكره.

ذكر عصيان أهل ماردة على الحَكَم وما فعله بأهل قُرْبَة

وفيها عصى أَصْبَغ بن عبد الله، ووافقه أهل مدينة ماردة من الأندلس، على الحَكَم، وأخرجوا عامله، واتصل الخبز بالحكم، فسار إليها وحاصرها، فبينما هو مجذ في الحصار أتاه الخبر عن أهل قُرْبَة أنَّهم أعلنوا العصيان له، فرجع مبادراً، فوصل إلى قُرْبَة في ثلاثة أيام، وكشف عن الذين أثاروا الفتنة، فصلبهم متكسين، وضرب أعناق جماعة، فارتدع الباقون بذلك، واشتدَّت كراهيتهم له. (٢٠٢/٦)

ذكر غزو الفرنج بالأندلس

في هذه السنة تجهَّز لُدْرِيْق ملك الفرنج بالأندلس، وجمع جموعه ليسير إلى مدينة طَرُطُوشَة ليحصرها، فبلغ ذلك الحَكَم، فجمع العساكر وسيَّرها مع ولده عبد الرحمن فاجتمعوا في جيش عظيم، وتبعهم كثير من المتطوعة، فساروا، فلحقوا الفرنج في أطراف بلادهم قبل أن ينالوا من بلاد المسلمين شيئاً، فاقتلوا وبذل كلِّ من الطائفتين جهده، واستنفد وسعه، فانزل الله تعالى نصره على المسلمين، فانهزم الكفَّار، وكثر القتل فيهم، والأسر، ونُهبت أموالهم وأثقالهم، وعاد المسلمون ظافرين غانمين.

ذكر عصيان خَزَم على الحَكَم

في هذه السنة خالف خَزَم بن وهب بناحية باجَّة، ووافقه غيره، وقصدوا لَشْبُونَة، وكان الحَكَم يسمِّي خَزَمًا في كتبه، النَّبْطِي، فلمَّا سمع الحكم خبره سبَّه إليه ابنه هشاماً في جمع كثير، فأذله ومَن معه، وقطع الأشجار وضيق عليهم، حتى أذعنوا لطلب الأمان فأمنه. (٢٠٣/٦)

ذكر عزل علي بن عيسى بن ماهان عن خراسان وولاية هُرْمُتَة

وفيها عزل الرشيدُ علي بن عيسى بن ماهان عن خراسان؛ وكان سبب ذلك ما ذكرناه من قتل ابنه عيسى، فلمَّا قُتل جزع عليه أبوه، فخرج عن بَلْخ إلى مَرُو مخافة عليها أن يسير إليها رافع بن اللَّيْث ليأخذها، وكان ابنه عيسى قد دُفِن في بستان، في داره بَلْخ، أموالاً عظيمة قبل كانت ثلاثين ألف ألف، ولم يعلم بها أبوه ولم يُطلع عليها إلا جارية له، فلمَّا سار علي بن عيسى إلى مَرُو أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم، وتحدَّث به النَّاس، واجتمعوا، ودخلوا البستان، ونهبوا المال، وبلغ الرشيدُ الخبر، فقال: خرج عن بَلْخ عن غير أمري، وخلف مثل هذا المال، وهو يزعم أنَّه قد باع جلي نسائه، فيما أنفق على محاربة رافع! فعزله، واستعمل هُرْمُتَة بن أعين.

وكان قد نقم الرشيد عليه ما كان يبلغه من سوء سيرته وإهانته أعيان النَّاس واستخفافه بهم، فمن ذلك أنَّه دخل عليه يوماً الحسين بن مُصْعَب والد طاهر بن الحسين، وهشام بن فرخسرو، فسَلَّمَا عليه، فقال للحسين: لا سَلَّمَ الله عليك يا مُلحد ابن المُلحد، والله

وفيها خرج أبو النداء بالشام، فسير الرشيد في طلبه يحيى بن معاذ، وعقد له على الشام.

وفيها ظفر حماد البربري بهيصم اليماني.

وفيها أرسل أهل نَسَفَ إلى رافع بن الليث يسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن علي بن عيسى، وعلي بن عيسى، فأرسل إليهم جمعاً، فقتلوا عيسى وحده في ذي القعدة.

وفيها غزا يزيد بن مَخْلَد الهُبَيْري أرض الروم في عشرة آلاف، فأخذت الروم عليه المضيق، فقتلوه وخمسين رجلاً، وسلم الباكون، وكان ذلك على مرحلتين من طرسوس. (٢٠٦/٦)

وفيها استعمل الرشيد على الصائفة هَرُثْمَةَ بن أغين، قبل أن يوليه خراسان، وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان، ورتب الرشيد بدرب الحدّث عبد الله بن مالك، وبمَرْعَش سعيد بن سلم بن قتيبة، فأغارت الروم عليها، فأصابوا من المسلمين، وانصرفوا، ولم يتحرك سعيد من موضعه؛ وبعث محمد بن يزيد بن مَزِيد إلى طرسوس.

وأقام الرشيد بدرب الحدّث ثلاثة أيام من رمضان، وعاد إلى الرقة، وأمر الرشيد بهدم الكنائس بالغفور، وأخذ أهل الدّمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم، وركوبهم، وأمر هَرُثْمَةَ ببناء طرسوس وتمصيرها، ففعل، وتولّى ذلك فرخ الخادم بأمر الرشيد، وسير إليها جنداً من أهل خراسان ثلاثة آلاف، ثم أشخص إليهم ألفاً من أهل المصيصة، وألفاً من أهل انطاكية، وتم بناؤها سنة اثنين وتسعين ومائة، وبني مسجدًا.

وحجّ بالنّاس هذه السنة الفضل بن العباس بن محمد بن علي، وكان أميراً على مكة؛ وكان على الموصل محمد بن الفضل بن سليمان.

وفيها توفي الفضل بن موسى السّيناني أبو عبد الله المروزي، مولى بني قتيبة، وكان مولده سنة خمس عشرة ومائة.

(السّيناني بكسر السين المهملة، وبالياء المشددة من تحت، وبالتون قبل الألف، ثم بنون بعده، منسوب إلى سينان وهي قرية من قرى مرو). (٢٠٧/٦)

سنة اثنين وتسعين ومائة

ذكر مسير الرشيد إلى خراسان

فيها سار الرشيد من الرقة إلى بغداد يريد خراسان لحرب رافع بن الليث، وكان مريضاً، واستخلف على الرقة ابنه القاسم، وضم إليه خزيمة بن خازم، وسار من بغداد إلى النهروان لخمس خلون

إني لأعرف ما أنت عليه من عداوة الإسلام، والطعن في الدين، ولم أنتظر بقتلك إلا أمر الخليفة، السّت المُرَجَف [بي] في منزلي هذا بعد أن ثملت من الخمر، وزعمت أنك جاءتك كتب من بغداد بعزلي؟ أخرج إلى سخط الله لعنك الله، فعن قريب ما يكون منها، فاعتذر إليه، فلم يقبل عذره، وأمر بإخراجه فأخرج.

وقال لهشام بن فرخسرو: صارت دار الندوة، يجتمع إليك السفهاء تطعن على السّولة، سَفَكَ الله دمي إن لم أسفك دمك! فاعتذر إليه، فلن يعذره فأخرجه. (٢٠٤/٦)

فأما الحسين فسار إلى الرشيد، فاستجار به وشكا إليه فأجابه؛ وأما هشام فإنه قال لبنت له: إني إخاف الأمير على دمي وأنا مُقَضِّب إليك بأمر إن أنت أظهرته قُتِلْتُ، وإن أنت كتمته سلمت. قالت: وما هو؟ قال: قد عزمت على أن أظهر أن الفالج قد أصابني، فإذا كان في السحر، فاجمعي جواريك، واقصدي فراشي وحركيني، فإذا رأيت حركتي ثقلت فصيحي أنت وجواريك، واجمعي إختوك فأعلميهن عنتي. ففعلت ما أمرها، وكانت عاقلة، فأقام مطروحاً على فراشه حيناً لا يتحرك إلى أن جاء هَرُثْمَةَ والياً، فركب إلى لقائه، فرأه علي بن عيسى بن ماهان، فقال: إلى أين؟ فقال: أتلقى الأمير أبا حاتم. قال: ألم تكن عيسياً؟ فقال: وهب الله العافية، وعزل الطاغية في ليلة واحدة، فعلى هذا تكون ولاية هَرُثْمَةَ ظاهرة. وقيل: بل كانت ولايته سرراً، لم يُطلع الرشيد عليها أحداً، فقيل: إنه لما أراد عزل علي بن عيسى استدعى هَرُثْمَةَ، وأسر إليه ذلك، وقال له: إن علي بن عيسى قد كتب يستمدني بالعساكر والأموال، فأظهر للناس أنك تسير إليه نجدة له. وكتب له الرشيد كتاباً بولايته بخط يده، وأمر كتابه أن يكتبوا له إلى علي بن عيسى بأنه قد سير هَرُثْمَةَ نجدة له.

فسار هَرُثْمَةَ ولا يعلم بأمره أحد، حتى ورد نيسابور، فلما ورداها استعمل أصحابه على كورها، وسار مجدداً يسبق الخبر، فأتى مرو والتقاء علي بن عيسى، فاحترمه هَرُثْمَةَ، وعظمه، حتى دخل البلد، ثم قبض عليه وعلى أهله وأصحابه وأتباعه وأخذ أمواله فبلغت ثمانين ألف ألف؛ وكانت خزانته وأثاثه على ألف وخمسمائة بعير، فأخذ الرشيد ذلك كله؛ وكان وصول هَرُثْمَةَ إلى خراسان سنة اثنين وتسعين، فلما فرغ هَرُثْمَةَ من أخذ أموالهم أقامهم لمطالبة الناس، وكتب إلى الرشيد بذلك، وسير علي بن عيسى إليه على بعير بغير وطاء ولا غطاء.

ذكر عدة حوادث

فيها خرج خارجي يقال له ثروان بن سيف بناحية خولابا، وتنقل في السواد، فوجه إليه طروق بن مالك، فهزمه طوق، وجرحه وقتل عامة أصحابه.

دخلها، وصار يقتل، ويجمع الأموال، ويحملها إليه عُمال هَراة ببغداد. فقال الفضل بن سَهْل للمأمون، حين أراد الرشيد المسير إلى خُرَاسان: لست تدري ما يحدث بالرشيد، وخراسان ولايتك، ومحمد الأمين المقدم عليك، وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم، وزبيدة وأموالها [ردّة له]، فاطلب إلى أمير المؤمنين أن تسير معه؛ فطلب إليه ذلك، فأجابه بعد امتناع.

فلما سار الرشيد سايره الصباح الطبري، فقال له: يا صباح لا أظنك تراني أبداً، فدعا؛ فقال: ما أظنك تدري ما أجِد. قال الصباح: لا والله؛ فعدل عن الطريق، واستظلّ بشجرة، وأمر خواصه باللبث، فكشف عن بطنه، فإذا عليه عصابة حريز، فقال: هذه علّة أكتمها الناس كلّهم، ولكل واحد من ولدي عليّ رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبرائيل بن بَخَيْشوع (٢٠٨/٦) رقيب الأمين، وما منهم أحداً إلا وهو يحصي أنفاسي، ويستطيل دهري، وإن أردت أن تعلم ذلك، فالساعة أدعو بدابة فيأتوني بدابة أعجف قطوف لتزيد بي عِلتي، فآكتم عليّ ذلك. فدعا له بالبقاء، ثم طلب الرشيد دابةً، فجاؤا بها على ما وصف، فنظر إلى الصباح وركبها.

وفي هذه السنة توفي عبد الله بن إدريس بن يزيد الأودي الكوفي، ويوسف ابن أبي يوسف القاضي.

وفيهما كان الفداء الثاني بين المسلمين والروم، وكان القِيم به ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي، وكان عدّة الأسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير. (٢١٠/٦)

سنة ثلاث وتسعين ومائة

ذكر موت الفضل بن يحيى

في هذه السنة مات الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في الحبس بالرقة، وكانت علته أنه أصابه ثقل في لسانه وشيقه، فعولج أشهراً، فبرأ، وكان يقول: ما أحب أن يموت الرشيد لأنّ امرئ قريب من أمره.

فلما صحّ من علته، وتحذّث، عادته العلّة، واشتدّت عليه، وانعقد لسانه وطرفه، فمات في المحرّم، وصلّى عليه إخوانه في القصر الذي كانوا فيه، ثم أخرج فصلّى عليه الناس، وجزع الناس عليه. وكان موته قبل الرشيد بخمسة أشهر وهو ابن خمس وأربعين سنة وكان من محاسن الدنيا لم ير في العالم مثله؛ ولاشتهار أخباره، وأخبار أهله، وحسن سيرتهم لم نذكرها.

وفيهما مات سعيد الطبري المعروف بالجوهرى.

وفيهما كانت وقعة بين هرثمة وأصحاب رافع كان الظفر [فيها] لهرثمة، واقتتح بخارى، وأسر بشيراً أخا رافع، فبعث به إلى الرشيد. (٢١١/٦)

ذكر موت الرشيد

وفي هذه السنة مات الرشيد أول جمادى الآخرة لثلاث خلون منه، وكانت قد اشتدّت علته بالطريق بجرجان، فسار إلى طوس فمات بها.

قال جبرائيل بن بَخَيْشوع: كنت مع الرشيد بالرقة، وكنت أول من يدخل عليه في كلّ غداة، أتعرف حاله في ليلته، ثم يحدثني

من شعبان، واستخلف على بغداد ابنه الأمين، وأمر المأمون بالمقام ببغداد. فقال الفضل بن سَهْل للمأمون، حين أراد الرشيد المسير إلى خُرَاسان: لست تدري ما يحدث بالرشيد، وخراسان ولايتك، ومحمد الأمين المقدم عليك، وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم، وزبيدة وأموالها [ردّة له]، فاطلب إلى أمير المؤمنين أن تسير معه؛ فطلب إليه ذلك، فأجابه بعد امتناع.

فلما سار الرشيد سايره الصباح الطبري، فقال له: يا صباح لا أظنك تراني أبداً، فدعا؛ فقال: ما أظنك تدري ما أجِد. قال الصباح: لا والله؛ فعدل عن الطريق، واستظلّ بشجرة، وأمر خواصه باللبث، فكشف عن بطنه، فإذا عليه عصابة حريز، فقال: هذه علّة أكتمها الناس كلّهم، ولكل واحد من ولدي عليّ رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبرائيل بن بَخَيْشوع (٢٠٨/٦) رقيب الأمين، وما منهم أحداً إلا وهو يحصي أنفاسي، ويستطيل دهري، وإن أردت أن تعلم ذلك، فالساعة أدعو بدابة فيأتوني بدابة أعجف قطوف لتزيد بي عِلتي، فآكتم عليّ ذلك. فدعا له بالبقاء، ثم طلب الرشيد دابةً، فجاؤا بها على ما وصف، فنظر إلى الصباح وركبها.

ذكر عدّة حوادث

وفيهما تحرّكت الخرمية بناحية أذربيجان، فوجّه إليهم الرشيد عبد الله ابن مالك في عشرة آلاف، فقتل وسبى وأسّر، ووافاه بقرماسين، فأمره بقتل الأسرى، وبيع السبى.

وفيهما قدم يحيى بن مُعاذ على الرشيد بأبي النداء، فقتله.

وفيهما فارق جماعة من القواد رافع بن الليث، وصاروا إلى هرثمة، منهم عجيف بن عُبَيْسَة وغيره.

وفيهما استعمل الرشيد على الثغور ثابت بن نصر بن مالك، فافتتح مطمورة.

وفيهما كان الفداء بالبَلْدُودَن.

وفيهما خرج ثروان الحروري بطف البصرة، فقاتل عامل السلطان بها.

وفيهما مات عيسى بن جعفر بن المنصور بالدمشكة، وهو يريد اللحاق بالرشيد. (٢٠٩/٦)

وفيهما قتل الرشيد الهيصم اليماني وحج بالناس هذه السنة العباس بن عبد الله بن جعفر بن المنصور.

وفيهما كان وصول هرثمة إلى خُرَاسان، كما تقدّم، وحصر هرثمة رافع بن الليث بسمرقند، وضايقه، واستقدم طاهر بن الحسين فحضر عنده وخلت خراسان لحمزة الخارجي، حتى

وينبسط إليّ، ويسألني عن أخبار العامة، فدخلت عليه يوماً، فسلمت عليه، فلم يكذب يرفع طرفه، ورأيتُه عابساً مفكراً مهموماً، فوقفت ملياً من النهار، وهو على تلك الحال، فلما طال ذلك أقدمتُ فسألته عن حاله، وما سببه؟ فقال: إن فكركي وهمي لرؤيا رأيتها في ليلتي هذه قد أفزعني، وملاّت صدري. فقلت: فرجّت عني، يا أمير المؤمنين؛ ثم قبلت يده ورجله، وقلت: الرؤيا إنما تكون لخطر أو بخارات رديّة، وتهاويل السوداء، وهي أضغاث أحلام.

قال: فإنّي أقصّها عليك، رأيتُ كأنّي جالس على سريري هذا، إذ بدت من تحتي ذراع أعرفها، وكفّ أعرفها، لا أفهم اسم صاحبها، وفي الكفّ تربة حمراء. فقال لي قائل أسمعه ولا أرى شخصه: هذه التربة التي تُدفن فيها؛ فقلت: وأين هذه التربة؟ قال: طوس، وغابت اليد، وانقطع الكلام.

فقلت: أحسبك لما أخذت مضجعتك فكرت في خراسان، وما ورد عليك (٢١٢/٦) منها، وانتقاض بعضها، فذلك الفكر أوجب هذه الرؤيا.

فقال: كان ذلك؛ فأمرتُ باللهو والانسباط، ففعل، ونسينا الرؤيا، وطالت الأيام، ثم سار إلى خراسان لحرب رافع، فلما صار ببعض الطريق ابتدأت به العلة، فلم تزل تزيد، حتى دخلنا طوس، فبينما هو يمرض في بستان في ذلك القصر الذي هو فيه، إذ ذكر تلك الرؤيا، فوثب متحاملاً يقوم ويسقط، فاجتمعنا [إليه] نسأله، فقال: أتذكر رؤياي بالرقّة في طوس؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور فقال: جئني من تربة هذا البستان! فأناه بها في كفّه حاسراً عن ذراعه، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي، وهذه الكفّ بعينها، وهذه التربة الحمراء ما خرّمت شيئاً؛ وأقبل على البكاء والنحيب، ثم مات بعد ثلاثة.

قال أبو جعفر: لما سار الرشيد عن بغداد إلى خراسان بلغ جرجان في صفر، وقد اشتدّت علته، فسير ابنه المأمون إلى مرو، وسير معه من القوّاد عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وأسد بن يزيد، والعبّاس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، والسندنيّ الحرّشي، ونعيم بن حازم، وسار الرشيد إلى طوس واشتدّ به الوجع، حتى ضعف عن الحركة، فلما أثقل أرجف به الناس، فبلغه ذلك، فأمر بمركوب ليركبه ليراه الناس، فأتي يفرس فلم يقدر على النهوض، فأتي بيردّون فلم يطقّ النهوض، فأتي بحمار فلم ينهض، فقال: ردّوني! ردّوني! صدق والله الناس.

ووصل إليه، وهو بطوس، بشير بن الليث أخو رافع أسيراً، فقال الرشيد: والله لو لم يبق من أجلي إلا أن أحرّك شفتي بكلمة لقلت أقتلوه. ثم دعا بقصاب، فأمر به، ففصل أعضاءه، فلما فرغ

مني أعني عليه، وتفرّق الناس عنه. (٢١٣/٦).

فلما أيس من نفسه أمر بقبيره، فحفر في موضع من الدار التي كان فيها، وأنزل إليه قوماً فقرأوا فيه القرآن حتى ختموا، وهو في محفة على شفير القبر، يقول: ابن آدم تصير إلى هذا؛ وكان يقول في تلك الحال: واسواته من رسول الله، ﷺ.

وقال الهيثم بن عدي: لما حضرت الرشيد الوفاة غشي عليه، ففتح عينه منها فرأى الفضل بن الربيع على رأسه، فقال: يا فضل:

أحينّ كنا ما كنّا أزجودنوه؟ رمتني عيون الناس من كلّ جانب فأصبحت مزحوماً وكنّت محسداً فصبراً على مكروئ تلك العواقب سابكي على الوصل الذي كان بيننا واندب أيام السّرور النواهب قال سهل بن صاعد: كنّت عند الرشيد وهو يوجد بنفسه، فدعا بملحفة غليظة، فأحّتي بها، وجعل يقاسي ما يقاسي، فنهضت، فقال: اقعّد، فقعدت طويلاً لا يكلمني ولا أكلمه، فنهضت، فقال: سهل؟ فقلت: ما يسمع قلبي [أن أرى] أمير المؤمنين، يُعاني من المرض ما يُعاني، فلو اضطجعت، يا أمير المؤمنين [كان أروح]. فضحك ضحك صحيح، ثم قال: يا سهل! اذكر في هذه الحال قول الشاعر:

ولّني من قزم كرام يديّكم شماساً وصبراً شنة الخنثان
ثمّ مات، وصلى عليه ابنه صالح، وحضر وفاته الفضل بن الربيع، (٢١٤/٦) وإسماعيل بن صبيح، ومسرور وحسين ورشيد.

وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً، وقيل ملك ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وستّة عشر يوماً، وكان عمره سبعاً وأربعين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، وكان جميلاً، وسيماً أبيض، جعداً قد وخطه الشيب؛ قال: وكان في بيت المال لما توفي تسعمائة ألف ألف ونيّف.

ذكر ولاية الأمصار أيام الرشيد

ولاية المدينة: إسحاق [بن عيسى] بن عليّ، عبد الملك بن صالح بن عليّ، محمد بن عبد الله، موسى بن عيسى بن موسى، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، عليّ بن عيسى بن موسى، محمد بن إبراهيم، عبد الله بن مُصعب، بكّار بن عبد الله بن مُصعب، محمد بن عليّ، أبو البختريّ وهب بن مُنيّه.

ولاية مكّة: العباس بن محمد بن إبراهيم، سليمان بن جعفر بن سليمان، موسى بن عيسى بن موسى، وعبد الله بن محمد بن إبراهيم، عبد الله بن قُثم بن العباس، عبيد الله بن قُثم، عبد الله بن محمد بن عمران، عبيد الله بن محمد بن إبراهيم، العباس بن موسى بن عيسى، عليّ بن موسى بن عيسى، محمد بن عبد الله العثمانيّ، حماد البربريّ، سليمان بن جعفر بن سليمان، الفضل بن

وأبو العباس محمد، وأبو سليمان محمد، وأبو علي محمد، وأبو محمد، وهو اسمه، وأبو أحمد محمد، كلهم لأمهات أولاد.

وله من البنات سَكِينَة، وأم حبيب، وأروى، وأم الحسن، وأم محمد، وهي خمدونة، وفاطمة، وأم أبيها، وأم سلمة، وخديجة، (٢١٧/٦) وأم القاسم، وزميلة، وأم جعفر، وأم علي، والعالية، وزينة، كلهن لأمهات أولاد.

ذكر بعض سيرته

قيل: كان الرشيد يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا من مرض، وكان يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، فإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابعة، والكسوة الباهرة.

وكان يطلب العمل بآثار المنصور، إلا في بذل المال، فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال، وكان لا يضيع عنده إحسان مُحسن، ولا يؤخر ذلك.

وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره الجراء في الدين، وكان يحب المديح، لا سيما من شاعر فصيح، ويجزل العطاء عليه، ولما مدحه مروان بن أبي حفصة بقصديته التي منها:

وَسُئِلْتُ بِهَارُونَ الْقُصُورُ فَأُحْكَمْتُ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ الْمَرَاثِرُ
أَعْطَاهُ خَمْسَةَ آلَافٍ دِينَارٍ، وَخَلْعَةً، وَعَشْرَةَ مِنَ الرَّقِيقِ الرُّومِيِّ،
و [حملة على] بِرْدُونَ مِنْ خَاصِّ مَرْكَبِهِ.

وقيل: كان مع الرشيد ابن أبي مريم المديني، وكان مضحاكاً فكهاً، (٢١٨/٦) يعرف أخبار أهل الحجاز، والقباب الأشراف، ومكايد المُجَان، فكان الرشيد لا يصبر عنه، وأسكنه في قصره، فجاء ذات ليلة وهونائم، فقام الرشيد إلى صلاة الفجر، فكشف اللُحاف عنه وقال: كيف أصبحت؟ فقال: ما أصبحت بعد، اذهب إلى عملك. قال: قم إلى الصلاة! قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف. فمضى الرشيد يصلي، وقام ابن أبي مريم وأتى الرشيد فقرأ في الصلاة: ﴿وَمَا لِي لَا أُعْبِدُ الَّذِي فَطَرَنِي؟﴾ [يس: ٢٢] فقال: ما أدري والله! فما تمالك الرشيد أن ضحك، ثم قال له وهو مغضب: في الصلاة أيضاً! قال: يا هذا و! ما صنعت؟ قال: قطعت علي صلاتي. قال: والله ما فعلت، إنما سمعت منك كلاماً غمّني حين قلت: ﴿وَمَا لِي لَا أُعْبِدُ الَّذِي فَطَرَنِي؟﴾ فقلت: لا أدري! فعاد الرشيد فضحك ثم قال له: يَاكَ وَالْقُرْآنَ وَالدين، ولك ما شئت بعدهما.

وقيل: استعمل يحيى بن خالد رجلاً على بعض أعمال الخراج، فدخل على الرشيد يودّعه، وعنده يحيى وجعفر، فقال

العبّاس بن محمد، وأحمد بن إسماعيل بن علي. (٢١٥/٦)

ولاة الكوفة: موسى بن عيسى بن موسى، محمد بن إبراهيم، عبيد الله بن محمد بن إبراهيم، يعقوب بن أبي جعفر، موسى بن عيسى بن موسى، العبّاس بن عيسى بن موسى، إسحاق بن الصباح الكندي، موسى بن عيسى بن موسى، العبّاس بن عيسى بن موسى، موسى بن عيسى بن موسى، جعفر بن أبي جعفر.

ولاة البصرة: محمد بن سليمان بن علي، سليمان بن أبي جعفر، عيسى بن جعفر بن أبي جعفر، خزيمة بن خازم، عيسى بن جعفر، جرير بن يزيد، جعفر بن سليمان، جعفر بن أبي جعفر، عبد الصمد بن علي، مالك بن علي الخزاعي، إسحاق بن سليمان بن علي، سليمان بن أبي جعفر، عيسى بن جعفر، الحسن بن جميل مولى أمير المؤمنين، عيسى بن جعفر بن أبي جعفر، جرير بن يزيد، عبد الصمد بن علي، إسحاق بن عيسى بن علي.

ولاة خراسان: أبو العبّاس الطوسي، جعفر بن محمد بن الأشعث، العبّاس بن جعفر، الفطريف بن عطاب، سليمان بن راشد على الخراج، حمزة بن مالك، الفضل بن يحيى بن خالد، منصور بن يزيد بن منصور، جعفر بن يحيى، وخليفته بها علي بن عيسى بن ماهان، خزيمة بن عتب، العبّاس بن جعفر للمأمون بها، علي بن الحسن بن قحطبة. (٢١٦/٦)

ذكر نسائه وأولاده

قيل: تزوج زُبَيْدَة، وهي أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، وأعرس بها سنة خمس وستين ومائة، فولدت محمداً الأمين، وماتت سنة ست وعشرين ومائتين.

وتزوج أمة العزيز أم ولد الهادي، فولدت له علي بن الرشيد.

وتزوج أم محمد بنت صالح المسكين.

وتزوج العبّاسة بنت سليمان بن المنصور.

وتزوج عزيزة ابنة خال الفطريف.

وتزوج العثمانية، وهي ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان، وجدة أبيها فاطمة بنت الحسين بن علي.

ومات الرشيد على أربع مائة: زبيدة، وأم محمد بنت صالح، وعبّاسة، والعثمانية.

وكان قد ولد له من الذكور: محمد الأمين من زبيدة، وعبد الله المأمون، وأم ولد اسمها مارجل، والقاسم المؤتمن، وأبو إسحاق محمد المعتصم، وصالح، وأبو عيسى محمد، وأبو يعقوب محمد،

مجالسه، وأحضر أبا العتاهية، فقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا؟ فقال:

عِشْ مَا بَدَأَكَ سَالِمًا فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ
فَقَالَ: أَحْسَنْتَ! ثُمَّ قَالَ: مَاذَا؟ فَقَالَ:

يُسَمَّى عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتَ ثَلَاثِي الرِّوَاكِ وَفِي الْبُكُورِ
(٢٢١/٦) فَقَالَ: أَحْسَنْتَ! ثُمَّ مَاذَا؟ فَقَالَ:

فَإِذَا الْفُورُ تَقَفَّقَتْ فِي ظِلِّ خَشْرَجَةِ الصُّدُورِ
فَهَذَاكَ تَقْلَمُ مُوقِئًا مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ
فبكى الرشيد. وقال الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين
لتسره فحزنته. فقال: دعه، فإنه رآنا في عَمَى، فكره أن يريتنا.

خلافة الأمين

وفي هذه السنة بويح الأمين بالخلافة في عسكر الرشيد،
صبيحة الليلة التي توفي فيها؛ وكان المأمون حينئذ يَمْزُو، فكتب
حَمَوِيَه مولى المهدي، صاحب البريد، إلى نائبه ببغداد، وهو سلام
أبو مسلم، يُعلمه بوفاة الرشيد، فدخل أبو مسلم على الأمين فعزاه،
وهناه بالخلافة، فكان أول الناس فعل ذلك.

وكتب صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين يُخبره بوفاة الرشيد،
مع رجاء الخادم، وأرسل معه الخاتم، والقضيب، والبردة، فلما
وصل رجاء انتقل الأمين من قصره بالخلد إلى قصر الخلافة،
وصلى بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر فنعى الرشيد وعزى نفسه
والناس، ووعدهم الخير، وأمن الأبيض والأسود، وفرق في الجند
الذين ببغداد رزق أربعة وعشرين شهراً، ودعا إلى البيعة، فبايعه
جلة أهل بيته، ووكل عَمَ أبيه سليمان بن المنصور بأخذ البيعة على
القواد وغيرهم، وأمر السندي أيضاً بمبايعة من عداهم. (٢٢٢/٦)

ذكر ابتداء الاختلاف بين الأمين والمأمون

في هذه السنة ابتداء الاختلاف بين الأمين والمأمون ابني
الرشيد.

وكان سبب ذلك أن الرشيد لما سار نحو خراسان، وأخذ البيعة
للمأمون على جميع من في عسكره من القواد وغيرهم، وأقر له
بجميع ما معه من الأموال وغيرها، على ما سبق ذكره، عظم على
الأمين ذلك، ثم بلغه شدة مرض الرشيد، فأرسل بكر بن المعتمر،
وكتب معه كُتُباً، وجعلها في قوائم صناديق المطبخ، وكانت منقورة،
والبسها جلود البقر، وقال: لا تظهرن أمير المؤمنين، ولا غيره، على
ذلك، ولو قُلت، فإذا مات فادفعي إلى كل إنسان منهم ما معك.

فلما قدم بكر بن المعتمر طوس بلغ هارون قدومه، فدعا به،
وسأله عن سبب قدومه، فقال: بعثني الأمين لأتبه بخبرك؛ قال: فهل

لهما الرشيد: أوصياه! فقال يحيى: وفر وأمر! وقال جعفر: أنصف
وانتصف! فقال الرشيد: اعدل وأحسن.

وقيل: حج الرشيد مرة، فدخل الكعبة، فرآه بعض الحجة وهو
(٢١٩/٦) واقف على أصابعه يقول: يا مَنْ يملك حوائج السائلين،
ويعلم ضمير الصامتين، فإن لكل مسألة منك رداً حاضراً، وجواباً
عتيقداً، ولكل صامت منك علم محيط، ناطق بمواعيدك الصادقة،
وأيديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة، صل على محمد، وعلى آل
محمد، واغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا يا مَنْ لا تغفر الذنوب،
ولا تخفى عليه الغيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا، يا مَنْ كبس
الأرض على الماء، وسدّ الهواء بالسماء، واختار لنفسه أحسن
الأسماء، صل على محمد وعلى آل محمد، وخير لي في جميع
أموري يا مَنْ خشعت له الأصوات، بأنواع اللغات، يسألونه
الحاجات، إن من حاجتي إليك أن تغفر لي ذنوبي، إذ توفيتني
وصبرت في لحدي، وتفرقت عني أهلي وولدي، اللهم لك الحمد
حمداً يفضل كل حمد كفضلك على جميع الخلق؛ اللهم! صل
على محمد، وعلى آل محمد، صلاة تكون له رضى وصال عليه
صلاة تكون له ذخراً واجزه عنا الجزاء الأوفى؛ اللهم! أحيينا سعداء،
وتوفنا شهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء
محرومين.

وقيل: دخل ابن السمك على الرشيد، فيبينما هو عنده إذ طلب
ماء، فلما أراد شربه قال له ابن السمك: مهلاً، يا أمير المؤمنين،
بقربانتك من رسول الله ﷺ لو مُنعت هذه الشربة بكم كنت
تشرئبها؟ قال: بنصف ملكي. قال: اشرب؛ فلما شرب قال: أسالك
بقربانتك من رسول الله ﷺ لو مُنعت خروجها من بدنك بماذا كنت
تشرئبها؟ قال: بجمع ملكي. قال: إن ملكاً لا يساوي شربة ماء
(٢٢٠/٦) وخروج بولة لجدير أن لا ينافس فيه! فبكى الرشيد.

وقيل: كان الفضيل بن عياض يقول: ما من نفس أشد عليّ
موتاً من هارون الرشيد، ولوددت أن الله زاد من عمري في عمره؛
فعظم ذلك على أصحابه، فلما مات، وظهرت الفتن، وكان من
المأمون ما حمل الناس عليه من القول بخلق القرآن، قالوا: الشيخ
اعلم بما تكلم به.

وقال محمد بن منصور البغدادي: لما حبس الرشيد أبا العتاهية
جعل عليه عينا يأتيه بما يقول، فرآه يوماً قد كتب على الحائط:

إِنَّمَا وَاللَّهِ إِنِ الظُّلُمُ لُؤْمٌ وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هَرَا الظُّلُومِ
إِلَى دِيَارِ يَوْمِ الدِّينِ نَمُضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ
فأخبر بذلك الرشيد، فبكى، وأحضره، واستحلّه، وأعطاه ألف

دينار.

وقال الأصمعي: صنع الرشيد يوماً طعاماً كثيراً، وزخرف

ومعك كتاب؟ قال: لا؛ فأمر بما معه ففتش، فلم يُصيوا شيئاً، فأمر به فضرب، فلم يقر بشيء، فحبسه، وقيدته، ثم أمر الفضل بن الربيع بتقريره، فإن أقر وإلا ضرب عنقه؛ فقرره، فلم يقر بشيء، ثم غشي على الرشيد، فصاح النساء، فأمسك الفضل عن قتله، وحضر عند الرشيد، فافاق وهو ضعيف قد شغل عن بكر وغيره ثم مات.

وكان بكر قد كتب إلى الفضل يسأله أن لا يعجل في أمره بشيء، فإن عنده أشياء يحتاج إلى عملها، فأحضره الفضل، وأعلمه بموت الرشيد، وسأله عما عنده، فخاف أن يكون الرشيد حيّاً، فلمّا يتيقن موته أخرج الكتب (٢٢٣/٦) التي معه، وهي كتاب إلى أخيه المأمون يأمره بترك الجزء، وأخذ البيعة على الناس لهما ولأخيها المؤمن، ولم يكن المأمون حاضراً، كان بمرو؛ وكتاب إلى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه، وأن يتصرف هو من معه برأي الفضل؛ وكتاب إلى الفضل يأمره بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرّم والأموال وغير ذلك، وأقر كل من كان له عمل على عمله، كصاحب الشرطة والحرس والحجابة.

فلما قرؤوا الكتب تشاوروا هم والقواد في اللحاق بالأمين، فقال الفضل بن الربيع: لا أدع ملكاً حاضراً آخر ما أدري ما يكون من أمره. وأمر الناس بالرحيل، فرحلوا محبة منهم لأهلهم ووطنهم، وتركوا اليهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون.

فلما بلغ المأمون ذلك جمع من عنده من قواد أبيه، وهم: عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وشبيب بن حميد بنت قحطبة، والعلاء مولى هارون، وهو على حجابته، والعباس بن المسيب بن زهير، وهو على شرطته، وأيوب بن أبي سمير، وهو على كتابته، وعبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح، وذو الرّياستين، وهو أعظمهم عنده قدراً، وأخصهم به، واستشارهم، فأشاروا أن يلحقهم في ألفي فارس جديدة، فيردّهم، فخلا به ذو الرّياستين، وقال: إن فعلت ما أشار به هؤلاء جعلوك هدية إلى أخيك، ولكن الرأي أن تكتب إليهم كتاباً وتوجه رسولاً يذكرهم البيعة، ويسألهم الوفاء، ويحذرهم الحنث وما فيه دنيا وآخرة.

ففعل ذلك؛ وجه سهل بن صاعد، ونوفلاً الخادم، ومعهما كتاب، فلحقا الجند والفضل بنيسابور، فأوصلا إلى الفضل كتابه، فقال: إنما أنا واحد من الجند؛ وشد عبد الرحمن بن جبلة الأنباري على سهل بالرمح (٢٢٤/٦) ليطعنه، فأمره على جنبه، وقال له: قل لصاحبك: لو كنت حاضراً لوضعت [في] فيك. وسب المأمون.

فرجعاً إليه بالخبر، فقال ذو الرّياستين: أعداء استرحت منهم، ولكن أفهم عني أن هذه الدولة لم تكن قط أعزّ منها أيام المنصور. فخرج عليه المقنع وهو يدعي الربويّة، وقيل طلب بدم أبي مسلم، فضعض العسكر بخروجه بخراسان، وخرج بعده يوسف البرم،

قال المأمون: قد فعلتُ، وجعلتُ الأمر إليك، فقم به.

قال ذو الرّياستين: واللّه لأصدقك، إن عبد الله بن مالك ومن معه من القواد إن قاموا لك بالأمر كانوا أنفع لك مني برياستهم المشهورة، وبما عندهم من القوة [على الحرب]، فمن قام بالأمر كنتُ خادماً له، حتى تبلغ أملك وتري رأيك.

وقام ذو الرّياستين وأناسهم في منازلهم، وذكرهم ما يجب عليهم من الوفاء، قال: فكأنّي جتّهم بجيفة على طبق، فقال بعضهم: هذا لا يحلّ، أخرج! وقال بعضهم: من الذي يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه؟ فجئتُ وأخبرته، فقال: قم بالأمر! قال: قلتُ له: قرأت القرآن، وسمعت (٢٢٥/٦) الأحاديث، وتفقهت في الدين، فأرى أن تبعث إلى من بحضرتك من الفقهاء، فتدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنّة، وتعد على الصوف، وتردّ المظالم.

ففعل ذلك جميعه، وأكرم القواد والملوك، وأبناء الملوك، وكان يقول للتميمي: نقيمك مقام موسى بن كعب؛ ولزبيعي: نقيمك مقام أبي داود، وخالد بن إبراهيم؛ ولليمان: نقيمك مقام قحطبة، ومالك بن الهيثم؛ وكلّ هؤلاء نعباء الدولة العباسيّة. ووضع عن خراسان رُبع الخراج، فحسن ذلك عند أهلها، وقالوا: ابن اختنا، وابن عمّ نبيّنا. وأما الأمين، فلما سكن الناس ببغداد أمر ببناء مَيدان حول قصر المنصور، بعد بيعته بيوم، [للتصوّج واللعب]؛ فقال شاعرهم:

بَنَى أَمِينُ اللَّهِ مَيْدَانًا وَصَيَّرَ السَّاحَةَ بَسْتَانًا
وَكَانَتْهُ الْفِزْلَانُ فِيهِ بَنَانَا يُهْدَى إِلَيْهِ فِيهِ غِزْلَانَا
وَأَقَامَ الْمَأْمُونُ يَتَوَلَّى مَا كَانَ بِيَدِهِ مِنْ خِرَاسَانَ وَالرَّيَّ، وأهدى إلى الأمين، وكتب إليه وعظّمه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة دخل هرّثمة بن أعين حائط سمَرَقَنْد، فأرسل رافع بن الليث إلى الترك، فاتوه، وصار هرّثمة بين رافع والترك، ثم إن الترك انصرفوا، فضعف رافع.

وفيها قدمت زبيدة امرأة الرشيد من الرقّة إلى بغداد، فلقيها ابنها الأمين (٢٢٦/٦) بالأنبار، ومعه جمع من بغداد من الوجوه، وكان معه أخوه ابن الرشيد.

المؤمنين، أن تكون أول الخلفاء نكت عهده، ونقض ميثاقه، ورد رأي الخليفة قبله؛ فقال [الأمين]: اسكت! فبعد الملك كان أفضل منك رأياً، وأكمل نظراً، يقول: لا يجتمع فحلان في أجمه.

ثم جمع القواد وعرض عليهم خلع المأمون، فأبوا ذلك، وربما ساعده قوم حتى بلغ إلى خزيمة بن خازم فقال: يا أمير المؤمنين! لم ينصحك من كذبك، ولم يغشك من صدقك، لا تجزئ القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكت العهد فينكثوا عهدك ويعتلك، فإن الغادر مخذول، والنكث مغلول.

فأقبل الأمين على علي بن عيسى بن ماهان، فتبسم، وقال: لكن شيخ الدعوة، ونائب هذه الدولة لا يخالف على إمامه، ولا يهرن طاعته.

ثم رفعه إلى موضع لم يرفعه إليه قبلها، لأنه كان هو والفضل بن الربيع يعينانه على الخلع؛ ولجّ الأمين في خلع المأمون، حتى إنه قال يوماً للفضل بن الربيع: يا فضل! أحياء مع عبد الله؟ لا بد من خلعه، والفضل يعده، وهو يقول: فمتى ذلك؟ إذا غلب على خراسان وما فيها؛ فأول ما فعله أن كتب إلى جميع العمال بالدعاء لابنه موسى بالإمرة، بعد الدعاء للمأمون وللمؤمن. (٢٢٩/٦)

فلما بلغ ذلك المأمون، مع عزل المؤمن عما كان بيده، أسقط اسم الأمين من الطراز، وقطع البريد عنه.

وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيار، لما بلغه حسن سيرة المأمون، طلب الأمان، فأجابه إلى ذلك، فحضر عند المأمون، وأقام هزيمة بسمرقند، ومعه طاهر بن الحسين، ثم قدم هزيمة على المأمون، فأكرمه، وولاه الحرس، فانكر ذلك كله الأمين؛ فكان مما وتر عليه أن كتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك، وهو عامل المأمون على الري، يأمره أن ينفذ بغرائب غروس الري؛ يريد امتحانه، فبعث إليه بما أمره، وكتب ذلك عن المأمون وذو الرياستين فبلغ المأمون، فعزله بالحسن بن علي المأموني.

ثم وجه الأمين إلى المأمون أربعة أنفس، وهم: العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي، وعيسى بن جعفر بن المنصور، وصالح صاحب المصلّى، ومحمد بن عيسى بن نهيك، ويطلب إليه أن يقدم ابنه موسى على نفسه ويحضر عنده، فقد استوحش لبعده؛ فبلغ الخبر المأمون فكتب إلى عماله بالري، ونيسابور وغيرهما، يأمرهم بإظهار العدة والقوة، ففعلوا ذلك، وقدم الرسل على المأمون، وأبلغوه الرسالة؛ وكان ابن ماهان أشار بذلك، وأخبر الأمين أن أهل خراسان معه.

فلما سمع المأمون هذه الرسالة استشار الفضل بن سهل فقال له: أحضر هشاماً والد علي وأحمد ابني هشام، واستشره، فأحضره

وفيها قتل ينفور ملك الروم في حرب بُرجان، وكان ملك سبع سنين، وملك بعده ابنه استيراق، وكان مجروحاً، بقي شهرين، ومات فملك بعده ميخائيل بن جورجس، خنته على اخته.

وفيها عزل الأمين أخاه القاسم المؤمن عن الجزيرة، وأقره على قنسرين والعواصم، واستعمل على الجزيرة خزيمة بن خازم. وحج بالناس هذه السنة داود بن عيسى بن موسى بن محمد، وهو أمير مكة.

وفيها توفي صقلاب بن زياد الأندلسي وهو من أصحاب مالك. وكان فقيهاً زاهداً.

وفي هذه السنة مات مروان بن معاوية الفزاري، وقيل سنة أربع وتسعين [ومائة]، في ذي الحجة.

وفيها توفي إسماعيل بن علقمة، وأبو بكر بن عباس، وله ست وتسعون سنة.

(عبّاش بالياء المشناة من تحت، والشين المعجمة). (٢٢٧/٦)

سنة أربع وتسعين ومائة

ذكر خلاف أهل جنص على الأمين

في هذه السنة خالف أهل جنص على الأمين، وعلى عاملهم إسحاق بن سليمان، فانتقل عنهم إلى سلمية، فعزله الأمين واستعمل مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي، فقتل عدة من وجوههم، وحبس عدة، وألقى النار في نواحيها، فسألوا الأمان فأجابهم، ثم هاجوا بعد ذلك فقتل عدة منهم.

ذكر ظهور الخلاف بين الأمين والمأمون

وفي هذه السنة أمر الأمين بالدعاء على المنابر لابنه موسى.

وكان السبب في ذلك أن الفضل بن الربيع لما قدم العراق من طوس، ونكت عهد المأمون، أفكر في أمره، وعلم أن المأمون إن أفضت إليه الخلافة، وهو حي، لم يبق عليه، فسعى في إغراء الأمين، وحثه على خلع المأمون والبيعة لابنه موسى بولاية العهد، ولم يكن ذلك في عزم محمد الأمين، فلم يزل الفضل يصغر عنده أمر المأمون، ويزين له خلعه، وقال له: ما تنتظر بعيد الله والقاسم، فإن البيعة كانت لك قبلهما، وإنما أذخلا فيها بعدك.

ووافقه على هذا علي بن عيسى بن ماهان، والسندي وغيرهما، فرجع (٢٢٨/٦) الأمين إلى قولهم.

ثم إنه أحضر عبد الله بن خازم، فلم يزل في مناظرته، حتى انقضى الليل، وكان مما قال عبد الله: أتشدك الله، يا أمير

وقيل: لما أراد الأمين أن يكتب إلى المأمون يطلب بعض كور خراسان، قال له إسماعيل بن صبيح: يا أمير المؤمنين! إن هذا مما يقوّي التّهمة، ويَبْنِي على الحذر، ولكن اكتب إليه فأعلمه حاجتك، وما تحبّ من قربه والاستعانة به على ما ولّاك الله، وتسأله القدوم عليك، لترجع إلى رأيه فيما تفعل.

فكتب إليه بذلك، وسَيّر الكتاب مع نفر، وأمرهم أن يبلغوا الجهد في إحضاره، وسَيّر معهم الهدايا الكثيرة؛ فلمّا حضر الرّسل عنده، وقرأ الكتاب (٢٣٢/٦) أشاروا عليه بإجابة الأمين، وأعلموه ما في إجابته من المصلحة العامّة والخاصّة؛ فأحضر ذا الرّياستين، وأقراه الكتاب، واستشاره، فأشار عليه بملازمة خراسان، وخوفه من القرب من الأمين؛ فقال: لا يمكنني مخالفته وأكثر القوادر والأموال معه، والنّاس مائلون إلى الدرهم والدينار لا يرغبون في حفظ عهد ولا أمانة، ولست في قوّة حتى أمتنع، وقد فارق جيفويه الطاعة، والتوى خاقان ملك التّبت، وملك الكابل قد استعدّ للغارة على ما يليه، وملك اترابنده قد منع الضريبة، وما لي بواحد من هذه الأمور بدّ، ولا أرى إلّا تخلية ما أنا فيه، واللّحاق بخاقان ملك الترك، والاستجارة به لعلّي آمن على نفسي.

فقال ذو الرّياستين: إنّ عاقبة الغدر شديدة وتبعة البغي غير مأمونة، وربّ مقهور قد عاد قاهراً، وليس النصر بالكثرة والقلّة، والموت أيسر من الذلّ والضيّع، وما أرى أن تصير إلى أخيك متجرّداً من قوادرك وجندك، كالرأس الذي فارق بدنه، فتكون عنده كبعض رعيته، يجري عليك حكمه من غير أن تبليّ عذراً في قتال، وكتب إلى جيفويه وخاقان، فولّهما بلادهما، وابعث إلى ملك كابل ببعض هدايا خراسان، ووادعه، واترك لملك اترابنده ضريبته، ثمّ اجمع أطرافك، وضمّ جندك، واضرب الخيل بالخيّل، والرجال بالرجال، فإن ظفرت وإلّا لحقت بخاقان.

فعرف المأمون صدقه، ففعل ما أشار به، فرضي أولئك الملوك العصاة، (٢٣٣/٦) وضمّ جنده، وجمعهم عنده، وكتب إلى الأمين: أنا بعد، فقد وصل [إليّ] كتاب أمير المؤمنين، وإنّما أنا عامل من عمّاله، وعوّن من أهوانه، أمرني الرّشيد بلزوم [هذا] الثغر، ولعمري إنّ مقامي به أردّ على أمير المؤمنين، وأعظم غناء عن المسلمين من الشّخص إلى أمير المؤمنين، فإن كنت مغتبطاً بقربه، مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقرّني على عملي ويُعيني من الشّخص [إليه] فعل إن شاء الله.

فلمّا قرأ الأمين كتاب المأمون علم أنّه لا يتابعه على ما يريد، فكتب إليه يسأله أن ينزل عن بعض كور خراسان، كما تقدّم ذكره، فلمّا امتنع المأمون أيضاً من إجابته إلى ما طلب، أرسل جماعة لينظروه في منع ما طلب منه، فلمّا وصلوا إلى الرّي منعوا،

واستشاره، فقال له: إنّما أخذت البيعة علينا على أن لا تخرج من خراسان، فمتى فعل (٢٣٠/٦) محمّد ذلك، فلا نبيّة له في أعناقنا، والسلام عليك، يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته، ومتى هممت بالمسير إليه تعلّقت بك بيمينني، فإذا قطعت تعلّقت بيساري، فإذا قطعت تعلّقت بلساني، فإذا ضربت عتقي كنت أدبست ما عليّ.

فقوي عزم المأمون على الامتناع، فأحضر العباس، وأعلمه أنّه لا يحضر، وأنّه لا يقدّم موسى على نفسه؛ فقال العباس بن موسى: ما عليك أيّها الأمير من ذلك، فهذا جدّي عيسى بن موسى قد خلع فما ضرّه؛ فصاح به ذو الرّياستين: اسكت! إنّ جدك كان أسيراً في أيديهم، وهذا بين أخواله وشيعته.

ثمّ قاموا، فخلا ذو الرّياستين بالعباس بن موسى واستماله، ووعدّه إمرة الموسم، ومواضع من مصر، فأجاب إلى نبيّة المأمون، وسُمّي المأمون، ذلك الوقت، بالإمام، فكان العباس يكتب إليهم بالأخبار من بغداد.

ورجع الرّسل إلى الأمين، فأخبروه بامتناع المأمون، وألحّ الفضل وعليّ ابن عيسى على الأمين في خلع المأمون والبيعة لابنه موسى بن الأمين؛ وكان الأمين قد كتب إلى المأمون يطلب منه أن ينزل عن بعض كور خراسان، وأن يكون له عنده صاحب البريد يكتابه بالأخبار، فاستشار المأمون خواصّه وقوادره، فأشاروا باحتمال هذا الشرّ، والإجابة إليه، خوفاً من شرّ هو أعظم منه.

فقال لهم الحسن بن سهل: أتعلمون أنّ الأمين طلب ما ليس له؟ قالوا: نعم! ويحتمل ذلك لضرر منعه؛ قال: فهل تقنون بكفّه بعد إجابته، فلا يطلب غيرها؟ قالوا: لا! قال: فإن طلب غيرها، فما ترون؟ قالوا: (٢٣١/٦) نعمنه. فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء؛ قال: استصالح عاقبة أمرك باحتمال ما عرض من مكروهه في يومك، ولا تلتمس هدنة يومك بإخطار أدخلته على نفسك في غدك.

فقال المأمون لذي الرّياستين: ما تقول أنت؟ فقال: أسعدك الله، هل تؤمن أن يكون الأمين طالبة بفضّل قوتك ليستظهر بها عليك؟ بل إنّما أشار الحكماء بحمل ثقل ترجون به صلاح العاقبة.

فقال المأمون: بإيثار دعة العاجل صار إلى فساد العاقبة في دنياه وآخرته؛ فامتنع المأمون من إجابته إلى ما طلب؛ وأنفذ المأمون ثقتة إلى الحدّ، فلا يمكن أحداً من العبور إلى بلاده إلّا مع ثقة من ناحيته، فحظّر أهل خراسان أن يستمالوا برغبة أو رهبة، وضبط الطرق بثقات أصحابه، فلم يمتكّنوا من دخول خراسان إلّا من عرفوه، وأتى بجواز، أو [كان] تاجراً معروفاً، وفُتشت الكُتب.

خراسان:

رَمَى أَهْلَ الْجِرَاقِ وَمَنْ عَلَيْهَا إِسْمَ الْقَدَلِ وَالْمَلِكِ الرَّشِيدِ
بِأَحْزَمٍ مَنْ نَشَأَ زَالِيًا وَخَزْمًا وَكَيْدًا نَافِئًا مَسَايِكِيدَ
بِأَيْفَةٍ تَلَقَّى خَفَقَتِي يَشِيبُ لَهْوَلِ صَوْلَتِهَا الْوَلِيدُ
فَمَا الْأَمِينُ فَإِنَّهُ وَجَّهَ عِصْمَةَ بَنِ حَمَادٍ بَنِ سَالِمٍ إِلَى هَمْدَانَ فِي
أَلْفِ رَجُلٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُوَجِّهَ مَقْدَمَتَهُ إِلَى سَاوَةِ، وَيَقِيمَ بِهِمَا
وَجْعَلَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّيِّعِ، وَعَلِيُّ بْنُ عَيْسَى بَيْعُثَانَ الْأَمِينَ وَيُغْرِيَانَهُ
بِحَرْبِ الْمَامُونِ.

ووجدوا تدبيره محكمًا، وحفظوا في حال سفرهم وإقامتهم من أن
يخبروا، ويستخبروا، وكانوا معدّين لوضع الأخبار في العامة، فلم
يمكنهم ذلك؛ فلما رجعوا أخبروا الأمين بما رأوا.

وقيل إن الأمين لما عزم على خلع المأمون، وزين له ذلك
الفضل وابن ماهان، دعا يحيى بن سليم، وشاوره في ذلك، فقال: يا
أمير المؤمنين! كيف تفعل ذلك مع ما قد أكد الرشيد من بيعته،
وأخذ الشرائط والأيمان في الكتاب الذي كتبه؟ فقال الأمين: إن
رأي الرشيد كان فلتة شبهها عليه جعفر بن يحيى، فلا يفتننا ما نحن
فيه إلا بخلعه وقلعه واحتشاشه.

فقال يحيى: إذا كان رأي أمير المؤمنين خلعه، فلا تجاهره
فيستنكر الناس ذلك، ولكن تستدعي الجند بعد الجند، والقائد بعد
القائد، وتؤنسهما بالألطاف والهدايا، وتفرق قناته ومن معه،
وترغبهم بالأموال، فلذا وهنت قوته، واستفرغت رجاله، أمرته
بالقدوم عليك، فإن قدم صار إلى الذي تريد (٢٣٤/٦) منه، وإن
أبى كنت قد تناولته وقد كلّ حذّه وانقطع عزه.

فقال الأمين: أنت يهذار خطيب، ولست بذئ رأي مصيب، فم
فالحق بمدادك وأقلامك.

وكان ذو الرياستين الفضل بن سهل قد اتخذ قوماً يشق بهم
بيغداد، يكتبونه بالأخبار، وكان الفضل بن الربيع قد حفظ الطرق،
وكان أحد أولئك نفر إذا كاتب ذا الرياستين بما تجدد ببغداد،
سير الكتاب مع امرأة، وجعله في غود اكفاف، وتسير كالمجازة من
قرية إلى قرية، فلما ألح الفضل بن الربيع في خلع المأمون أجابه
الأمين إلى ذلك وبايع لولده موسى في صفر، وقيل في ربيع الأول،
سنة خمس وتسعين ومائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وسمّاه
الناطق بالحق، ونهى عن ذكر المأمون والمؤمن على المنابر،
وأرسل إلى الكعبة بعض الحجة، فأتاه بالكتابين اللذين وضعهما
الرشيد في الكعبة ببيعة الأمين والمأمون، فأحضرهما عنده فمزقهما
الفضل.

فلما أتت الأخبار إلى المأمون بذلك قال لذي الرياستين: هذه
أمور أخير الرأي عنها، وكفانا أن نكون مع الحق.

فكان أول ما دبّره ذو الرياستين، حين بلغه ترك الدعاء للمأمون
وصحّ عنده، أن جمع الأجناد الذين كان اتخذهم بجنيات الري مع
الأجناد الذين كانوا بها، وأمدّهم بالأقوات وغيرها؛ وكانت البلاد
عندهم قد أجدبت، فآثروا عندهم ما يريدونه، حتى صاروا في أرغد
عيش، وأقاموا بالحد لا يتجاوزونه، ثم أرسل إليهم طاهر بن
الحسين بن مضعب بن رزيق بن أسعد أبا العباس (٢٣٥/٦)
الخزاعي أميراً فيمن ضم إليه من قواده وأجناد، فسار مجدداً حتى
ورد الري، فنزلها، فوضع المسالح والمواصل، فقال بعض شعراء

ذكر خلاف أهل تونس على ابن الأغلب

في هذه السنة عصى عمران بن مجالد الربيعي، وقُرئش بن
التونسي بتونس على إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية واجتمع فيها
خلق كثير، وحضر إبراهيم بن الأغلب بالقصر، وجمع من أطاعه،
وخالف عليه أيضاً أهل (٢٣٦/٦) القيروان في جمادى الآخرة،
فكانت بينهم وقعة وحرب قتل فيها جماعة من رجال ابن الأغلب.

وقدم عمران بن مجالد فيمن معه، فدخل القيروان عاشر
رجب، وقدم قُرئش من تونس إليه، فكانت بينهم وبين ابن الأغلب
وقعة في رجب، فانهزم أصحاب ابن الأغلب، ثم التقوا في
العشرين منه، فانهزموا ثانية أيضاً، ثم التقوا ثالثة فيه أيضاً، فكان
الظفر لابن الأغلب، وأرسل عمران بن مجالد إلى أسد بن الفرات
الفقيه ليخرج معهم، فامتنع، فأعاد الرسول يقول له: تخرج معنا،
وإلا أرسلت إليك من يجز برجلك؛ فقال أسد للرسول: قل له:
والله إن خرجت لأقولن للناس إن القاتل والمقتول في النار.
فتركه.

ذكر عصيان أهل ماردة وغزو الحكم بلاد الفرنج

في هذه السنة عاود أهل ماردة الخلاف على الحكم بن هشام،
أمير الأندلس، وعصوا عليه، فسار بنفسه إليهم، وقتلهم، ولم تنزل
سراياه وجيوشه تتردد وتقاتلهم هذه السنة، وسنة خمس، وسنة ست
وتسعين ومائة.

وطمع الفرنج في ثغور المسلمين، وقصدوها بالغارة، والقتل،
والنهب والسبي، وكان الحكم مشغولاً بأهل ماردة، فلم يتفرغ
للفرنج، فأتاه الخبر بشدة الأمر على أهل الثغر، وما بلغ العدو
منهم، وسمع أن امرأة مسلمة (٢٣٧/٦) أخذت سيبة، فنادت:
واغوثاه، يا حكم! فعظم الأمر عليه، وجمع عسكره واستعد وحشد

ذكر محاربة علي بن عيسى وطاهر

ثم إن الأمين أمر علي بن عيسى ابن ماهان بالمسير لحرب المأمون.

وكان سبب مسيره، دون غيره، أن ذا الرياستين كان له عين عند الفضل ابن الربيع يرجع إلى قوله ورأيه، فكتب ذو الرياستين إلى ذلك الرجل يأمره أن يشير بإنفاذ ابن ماهان لحربهم، وكان مقصوده أن ابن ماهان لما ولي خراسان أيام الرشيد، أساء السيرة في أهلها، فظلمهم، فعزله الرشيد لذلك، ونفر أهل خراسان عنه، وأبغضوه، فأراد ذو الرياستين أن يزداد أهل خراسان جدًّا في محاربة الأمين وأصحابه. (٢٤٠/٦)

ففعل ذلك الرجل ما أمر ذو الرياستين، فأمر الأمين ابن ماهان بالمسير.

وقيل: كان سببه أن عليًّا قال للأمين إن أهل خراسان كتبوا إليه يذكرون أنه إن قصدهم هو أطاعوه، وانقادوا له، وإن كان غيره، فلا فأمره بالمسير، وأقطع كُورَ الجبل كلها: نهاوند، وهَمَذان، وُقْم، وأصبهان وغير ذلك، [وولاه] حربًا وخراجها، وأعطاه الأموال، وحكمه في الخزان، وجهَّز معه خمسين ألف فارس، وكتب إلى أبي دُلْف القاسم بن إدريس بن عيسى العجليّ. وهلال بن عبد الله الحَضْرَمي بالانضمام إليه، وأمدّه بالأموال والرجال شيئًا بعد شيء.

فلما عزم على المسير من بغداد ركب إلى باب زبيدة أم الأمين ليودّعها، فقال له: يا عليّ! إن أمير المؤمنين [و] إن كان ولدي وإليه انتهت شفتي، فأني على عبد الله منعطفة، ومشقة، لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ابني ملكٌ نأفَس أخاه في سلطانه [وغازاه على ما في يده]، والكريم يأكل لحمه، ويُمِيقه غيره، فأعرف لعبد الله حقَّ ولادته، وأخوته، ولا تجبهه بالكلام، فإنك لست [له] بنظير، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا توهنه بغيره، ولا غلّ، ولا تمنع عنه جارية، ولا خادمًا، ولا تعنف عليه في السير، ولا تساوره في المسير، ولا تركب قبله، وخذْ بركابه، وإن شتمك فاحتملْ منه.

ثم دفعت إليه قيدًا من فضة، وقال: إن صار إليك فقيدٌ بهذا القيد! فقال لها: سأفعل مثل ما أمرت.

ثم خرج علي بن عيسى في شعبان، وركب الأمين بشيعة، ومعه القواد والجنود، وذكر مشايخ بغداد أنهم لم يروا عسكريًا أكثر رجالاته، وأقره (٢٤١/٦) كُرَاعًا، وأتمَّ عدَّةً وسلاحًا من عسكريه، ووصاه الأمين، وأمره إن قاتله المأمون أن يحرص على أسره.

ثم سار فلقية القوافل عند جلولاء، فسألهم، فقالوا له: إن

وسار إلى بلد الفرنج سنة ست وتسعين ومائة، وأنخن في بلادهم، واقتنح عدَّة حصون، وخرب البلاد، ونهبها، وقتل الرجال، وسبى الحريم، ونهب الأموال، وقصد الناحية التي كانت بها تلك المرأة، فأمر لهم من الأسرى بما يقتدون به أسراهم، وبالع في الوصية في تخليص تلك المرأة فتخلّصت من الأسر، وقتل باقي الأسرى؛ فلما فرغ من غزاته قال لأهل الثغور: هل أغاثكم الحكم؟ فقال: نعم، ودعوا له، وأثنوا عليه خيرًا، وعاد إلى قُرْبَة مظفرًا.

ذكر عدّة حوادث

وفيها وثبت الروم على ملكهم ميخائيل، فهرب، وترهب، وكان ملك نحو ستين، وملك بعده أليون القائد.

وكان على الموصل إبراهيم بن العباس استعمله الأمين.

وفي هذه السنة قُتل شقيق البلخي الزاهد في غزاة كُولان من بلاد الترك.

وفيها مات الوليد بن مسلم صاحب الأوزاعي، وقيل خمس وتسعين [ومائة]، وكان مولده سنة عشر ومائة.

وفيها مات حفص بن غياث النخعي، قاضي الكوفة، وكان مولده سنة سبع عشرة ومائة. (غياث بالعين المعجمة). (٢٣٨/٦)

وفيها توفي عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، وكان مولده سنة ست عشرة ومائة، وكا قد اختلط في آخر عمره، وكان حديثه صحيحًا إلى أن اختلط.

وفيها توفي سيّوّه النحوي، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشير، وقيل: كان توفي سنة ثلاث وثمانين ومائة، وقيل: كان عمره قد زاد على أربعين سنة، وقيل كان عمره اثنتين وثلاثين سنة.

وفيها توفي يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص وعمره أربع وسبعون سنة. (٢٣٩/٦)

سنة خمس وتسعين ومائة

ذكر قطع خطبة المأمون

في هذه السنة أمر الأمين بإسقاط ما كان ضُرب لأخيه المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان، في سنة أربع وتسعين ومائة، لأنها لم يكن عليها اسم الأمين، وأمر فدعي لموسى بن الأمين على المنابر، ولقبه الناطق بالحق، وقطع ذكر المأمون لقول بعضهم، وكان موسى طفلًا صغيرًا، ولابنه الآخر عبد الله، ولقبه القناتم بالحق.

صبر محتسب للخير، حريص على الفوز بالشهادة، فإن نصرنا الله فذلك الذي نريده ونرجوه، وإن يكن الأخرى فلست بأول من قاتل وقتل، وما عند الله أجزل وأفضل.

وقال علي لأصحابه: بادروهم، فإنهم قليلون، ولو وجدوا حرارة السيوف، وطعن الرماح لم يصبروا عليها.

وعبى جنده ميمنة وميسرة وقلبا، وعبى عشر رايات مع كل راية مائة رجل، وقدمها راية راية، وجعل بين كل رايتين غلوة سهم، وأمر أمراءها إذا قاتلت الراية الأولى وطال قتالهم أن تتقدم التي تليها، وتأخر هي حتى تستريح، وجعل أصحاب الجواشن أمام الرايات، ووقف في شجعان أصحابه.

وعبى طاهر أصحابه كراديس، وسار بهم يحرصهم، ويوصيهم، ويرجيهم، وهرب من أصحاب طاهر نفر إلى علي، فجلب بعضهم، وأهان الباقيين، فكان ذلك ممّا ألّب الباقيين على قتاله، وزحف الناس بعضهم إلى بعض؛ فقال أحمد بن هشام لطاهر: ألا تذكر علي بن عيسى البيعة التي أخذها هو علينا للمأمون خاصة، معاشر أهل خراسان؟ قال: أفعل، فأخذ البيعة فعلقها على رمح، وقام بين الصفين، وطلب الأمان فأمنه علي بن (٢٤٤/٦) عيسى، فقال له: ألا تتقي الله، عز وجل، اليس هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت خاصة؟ أتى الله، فقد بلغت باب قبرك! فقال علي: من أتانى به فله ألف درهم؛ فشمته أصحاب أحمد، وخرج من أصحاب علي رجل يقال له حاتم الطائي، فحمل عليه طاهر، وأخذ السيف بيديه وضربه، فصرعه، فلذلك سمي طاهر ذا اليمينين.

ووثب أهل الري فأغلغوا باب المدينة، فقال طاهر لأصحابه: اشتغلوا بمن أمامكم عمن خلفكم، فإنه لا ينجيكم إلا الجد والصدق؛ ثم اقتتلوا قتالا شديداً، وحملت ميمنة على ميسرة طاهر، فانهزمت هزيمة منكرة، وميسرته على ميمنة طاهر، فازالتها أيضاً عن موضعها، فقال طاهر: اجعلوا جدكم وبأسكم على القلب، واحملوا حملة خارجية، فإنكم متى فضضتم منها راية واحدة رجعت أوائلها على أواخرها؛ فصبر أصحابه صبراً صادقا وحملوا على أول رايات القلب، فهزموهم، وأكثروا فيهم القتل، ورجعت الرايات بعضها على بعض، فانتقضت ميمنة علي.

ورأى ميمنة طاهر وميسرته ما فعل أصحابهم، فرجعوا على من بلائهم، فهزموهم، وانتهت الهزيمة إلى علي، فجعل ينادي أصحابه: أين أصحاب الخواص، والجواز، والأسورة، والأكالي، إلى الكزة بعد القرّة! فرماه رجل من أصحاب طاهر بسهم، فقتله، قيل كان داود سياه، وحمل رأسه إلى طاهر، وشدت يده إلى رجله، وحمل على خشبة إلى طاهر، فأمر به فألقي في بئر، فاعتق طاهر من كان عنده من غلمانته شكراً لله تعالى، وتمت الهزيمة،

طاهراً مقيم بالري يعرض أصحابه، ويرم آتته، والأمداد تأتيه من خراسان، وهو يستعد للقتال، فيقول: إنما طاهر شوكة من أغصاني، وما مثل طاهر يتولى الجيوش؛ ثم قال لأصحابه: ما بينكم وبين أن ينقص انقصاص الشجر من الريح، والريح العاصف، إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همدان، فإن السخال لا تقوى على الطّاح، والبغال لا صبر لها على لقاء الأسد، وإن أقام تعرض لحذ السيف وأسنه الرماح، وإذا قاربنا الري ودنونا منهم فت ذلك في أعضادهم.

ثم أنفذ الكتب إلى ملوك الديلم وطبرستان، وما والاها من الملوك، يعدم الصلات، وأهدى لهم التيجان والأسورة وغيرها، وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان، فأجابوه إلى ذلك؛ وسار حتى أتى أول أعمال الري، وهو قليل الاحتيا، فقال له جماعة من أصحابه: لو أركبت العيون وعملت خندقاً لأصحابك، وبعثت الطلائع لأمنت البيات، وفعلت الراي، فقال: مثل طاهر لا يستعد له، وإن حاله يؤول إلى أمرين: إمّا [أن] يتحصن بالري فيبيته أهلها، فيكفون أمره، وإمّا أن يرجع ويتركها، إذا قربت خيلنا منه، فقالوا له: لو كان عزمه تركها والرجوع لفعل، فإننا قد قربنا منه فلم يفعل.

ولما صار بينه وبين الري عشرة فراسخ استشار طاهر أصحابه، وأشاروا (٢٤٢/٦) عليه أن يقيم بالري، ويدافع القتال إلى أن يأتيه من خراسان المدد، وقائد يتولى الأمور دونه، وقالوا له: إن مقامك [بمدينة الري] أرفق بأصحابك [وبك]، وأقدر لهم على الميرة، وأكن من البرد، وتعتصم بالبيوت، وتقدر على المماطلة؛ فقال طاهر: إن الرأي ليس ما رأيتم، إن أهل الري لعملي هائبون، ومن سطوته مشفقون، ومعه من أعراب البوادي وصعاليك الجبال والقرايا كثير، ولست آمن، إن أقمت بالري، أن يشب أهلنا بنا خوفاً من علي، وما الرأي إلا أن نسير إليه، فإن ظفرتنا وإلا عولنا عليها، فقاتلناه فيها إلى أن يأتينا مدد.

فنادى طاهر في أصحابه فخرج من الري في أقل من أربعة آلاف فارس، وعسكر على خمسة فراسخ، فأتاه أحمد بن هشام، وكان على شرطة طاهر، فقال له: إن أتاننا علي بن عيسى فقبال أنا عامل أمير المؤمنين، وأقررنا له بذلك، فليس لنا أن نحاربه؛ فقال طاهر: لم يأتني في ذلك شيء. فقال: دعني وما أريد، فقال: افعل! فصعد المنبر، فخلع محمداً، ودعا للمأمون بالخلافة، وساروا عنها، وقال له بعض أصحابه: إن جندك قد هابوا هذا الجيش، فلو أخرت القتال إلى أن يشأمهم أصحابك، ويأسوا بهم، ويعرفوا وجه المأخذ في قتالهم، قال: إني لا أوتى من قلة تجربة وحزم، إن أصحابي قليل، والقوم عظيم سوادهم، كثير عددهم، فإن أخرت القتال اطلعوا على قلتنا، واستمالوا من معي برهبة أو رغبة، فيخذلني (٢٤٣/٦) أهل الصبر والحفاظ، ولكن ألف الرجال بالرجال، وأفحم الخيل على الخيل، واعتمد على الطاعة والوفاء، وأصبر

فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر الفريقان، وكثر القتل والجراح فيهم، ثم انهزم عبد الرحمن، ودخل همدان، فأقام بها أياماً، حتى قوي أصحابه، واندمل جراحهم، ثم خرج إلى طاهر، فلما رآهم قال لأصحابه: إن عبد الرحمن يريد أن يتراءى لكم، فإذا قربتم منه قاتلكم، فإن هزمتوه ودخل المدينة قاتلكم على خندقها، وإن هزمكم اتسع له المجال، ولكن قفوا قريباً من عسكرينا وخندقنا، فإن قرب منا قاتلناه.

فوقفوا فظن عبد الرحمن أن الهبة منعتهم، فتقدم إليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر الفريقان، وكثر القتل في أصحاب عبد الرحمن، وجعل (٢٤٧/٦) يطوف عليهم، ويحرضهم، ويأمرهم بالصبر، ثم إن رجلاً من أصحاب طاهر حمل على صاحب علم عبد الرحمن، فقتله، وزحهم أصحاب طاهر، فانهزموا، ووضع فيهم أصحاب طاهر السيوف يقتلونهم، حتى انتهوا إلى المدينة، وأقام طاهر على بابها محاصراً لها، فاشتد بهم الحصار، وضجر أهل المدينة، فخاف عبد الرحمن أن يثب به أهل المدينة مع ما فيه أصحابه من الجهد، فأرسل إلى طاهر يطلب الأمان لنفسه وللمن معه، فأمته، فخرج عن همدان.

ذكر اسبلاء طاهر على أعمال الجبل

لما نزل طاهر بباب همدان، وحصر عبد الرحمن بها، تخوف أن يأتيه كثير من قاذرة من ورائه، وكان بقزوين، فأمر أصحابه بالقيام، وسار في ألف فارس نحو قزوين، فلما سمع به كثير بن قاذرة، وكان في جيش كثيف، هرب من بين يديه وأخلى قزوين، وجعل طاهر فيها جنداً، واستعمل عليها رجلاً من أصحابه، وأمره أن يمنع من أراد دخولها، واستولى على سائر أعمال الجبل معها. (٢٤٨/٦)

ذكر قتل عبد الرحمن بن جبلة

في هذه السنة قُتل عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، وكان سبب قتله أنه لما خرج في أمان طاهر أقام يُري طاهراً وأصحابه أنه سالم لهم، راضٍ بأمانهم، ثم اغتروهم، وهم آمنون، فركب في أصحابه، وهجم على طاهر وأصحابه، ولم يشعروا، فثبت له رجالة طاهر، وقتلوه حتى أخذت الفرسان أهبتهما، واقتلوا أشد قتال رآه الناس، حتى تقطعت السيوف، وتكسرت الرماح، وانهزم عبد الرحمن، وبقي في نفر من أصحابه، فقاتل، وأصحابه يقولون له: قد أمكنك الهرب، فاهرب! فقال: لا يرى أمير المؤمنين وجهي منهزماً أبداً! ولم يزل يُقاتل حتى قُتل.

وانتهى من انهزم من أصحابه إلى عبد الله وأحمد ابني الحرشي، وكانا في جيش عظيم، بقصر اللصوص، قد سيره الأمين معونة لعبد الرحمن، فلما بلغ المنهزمون إليهما انهزما أيضاً في

وضع أصحاب طاهر فيهم السيوف، وتبعوهم فرسخين (٢٤٥/٦) واقعوهم فيها اثني عشرة مرة في كل ذلك ينهزم عسكري الأمين، وأصحاب طاهر يقتلون ويأسرون حتى حال الليل بينهم وغنموا غنيمة عظيمة.

ونادى طاهر: من ألقى سلاحه فهو آمن. وطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم، ورجع طاهر إلى الري، وكتب إلى المأمون وذوي الرياستين: بسم الله الرحمن الرحيم، كتابي إلى أمير المؤمنين، ورأس علي بن عيسى بين يدي، وخاتمه في إصبعي، وجنده مصرّفون تحت أمري، والسلام؛ فورد الكتاب مع البريد في ثلاثة أيام، وبينهما نحو من خمسين ومائتي فرسخ، فدخل ذو الرياستين على المأمون، فهناه بالفتح، وأمر الناس، فدخلوا عليه، فسلموا عليه بالخلافة، ثم وصل رأس علي بعد الكتاب بيومين، فطيف به في خراسان.

ولما وصل الكتاب الفتح كان المأمون قد جهز هرثمة في جيش كثير ليسيره نجدة لطاهر، فأتاه الخبر بالفتح.

وأما الأمين فإنه أتاه نعي علي بن عيسى وهو يصطاد السمك، فقال للذي أخبره: ويليكَ دُعني، فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين، وأنا ما صدت شيئاً بعد.

ثم بعث الفضل إلى نؤفل الخادم، وهو وكيل المأمون على ملكه بالسواد، والناظر في أمر أولاده ببغداد، وكان للمأمون معه ألف ألف درهم كان قد وصله بها الرشيد، فأخذ جميع ما عنده، وقبض ضياعه وغلاته، فقال بعض شعراء بغداد في ذلك:

اضاع الخِلافة غش الوزير وفسد الأمير وجهل الشير
ففضّل وزير وتكرّم مُشير يريدان ما فيه خُفّ الأمير
وما ذاك إلا طريق غرور وشُرّ السالك طريق الغرور

(٢٤٦/٦) في عدة إبيات تركتها لما فيها من القذف الفاحش، ولقد عجب لأبي جعفر حيث ذكرها مع ورعه، وندم الأمين على نكته وغدره، ومشى القواد بعضهم إلى بعض في النصف من شوال، فاتفقوا على طلب الأرزاق والشغب، ففعلوا ذلك، ففرق فيهم مالاً كثيراً، بعد أن قاتلهم عبد الله بن خازم، فمنعه الأمين.

ذكر توجيه عبد الرحمن بن جبلة

لما اتصل بالأمين قتل علي بن عيسى، وهزيمة عسكريه، وجّه عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في عشرين ألف رجل نحو همدان، واستعمله عليها، وعلى كل ما يفتح من أرض خراسان، وأمر بالجد، وأمدّه بالأموال، فسار حتى نزل همدان، وحصنها ورم سورها.

وأتاه طاهر إلى همدان، فخرج إليه عبد الرحمن على تعبته،

وجاد ابن يَهِيس إلى حُوران، واجتمعت نَمِير على مَسْلَمَة، وبذلوا له البَيْعَة، فقبل منهم، وجمع مواليه، ودخل على السُّفْيَانِي، فقبض عليه، وقبض على رؤساء بني أُمَيَّة فبايعوه، وأدنى قيساً، وجعلهم خاصته، فلَمَّا عرفني ابن يَهِيس عاد إلى دمشق فحصرها، فسلمها إليه القيسية وهرب مَسْلَمَة والسُّفْيَانِي في ثياب النساء إلى المِرَّة، وكان ذلك في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، ودخل ابن يَهِيس دمشق، وغلب عليها، وبقي بها إلى أن قدم عبد الله بن طاهر دمشق، ودخل إلى مصر، وعاد إلى دمشق، فأخذ ابن يَهِيس معه إلى العراق، فمات بها.

ذكر عذة حوادث

وكان العامل على مَكَّة والمدينة لمحمد الأمين داود بن عيسى بن موسى، وهو الذي حج بالناس سنة ثلاث وتسعين أيضاً، وكان على الكوفة العباس (٢٥١/٦) ابن الهادي للأمين، وعلى البصرة له أيضاً منصور بن المهدي.

وفيهما مات محمد بن خازم، أبو معاوية الضري، وكان بتشيع، وهو ثقة في الحديث.

وفيهما توفي أبو نواس الحسن بن هانيء الشاعر المشهور، وكان عمره تسعاً وخمسين سنة، ودُفن بالشويزي ببغداد، ومحمد بن فضيل بن غزوان ابن جرير الضبي مولاهم؛ ويوسف بن أسباط أبو يعقوب. (٢٥٢/٦)

سنة مِيت وتسعين ومائة

ذكر توجيه الأمين الجيوش إلى طاهر وعودهم من غير قتال

في هذه السنة سَير الأمين أسد بن يزيد بن مَرْزِد، وسَير عمه أحمد بن مَرْزِد، وعبد الله بن حُمَيْد بن قُحطبة، إلى حُلوان لحرب طاهر.

وكان سبب ذلك ما ذكره أسد قال: إنَّه لما قُتل عبد الرحمن أرسل إليَّ الفضل بن الربيع يستدعيني، فجتته، ودخلت عليه وهو قاعد بيده رقعة قد قرأها، وقد احمرت عيناه، فاشتد غضبه، وهو يقول: ينাম نوم الظُّربان ويتبته انتباه الذئب، همَّ بطنه، يخاتل الرعاة، والكلاب ترصده، لا يفكر في زوال نعمته، ولا يروى في إمضاء رأي، قد ألهاه كاسه، وشغله قدحه، فهو يجري في لهوه، والآيام تُوضع في هلاكه، قد شمر له عبد الله عن ساق، وفوق له أصوب أسهمه، يرميه على بُعد الدار بالحفت النافذة، والموت القاصد، وقد عني له المنايا على ظهور الخيل، وناط له البلاء في أسنة الرماح وشفار السيوف؛ ثم استرجع وتمثل بشعر البعيت: (٢٥٣/٦)

ومجدولة جسد الإنسان خريدة لها شتر جعد ووجه مُسَمَّم

جندهما من غير قتال، حتى دخلوا ببغداد، وخلت البلاد لطاهر، فأقبل يحوزها بلدةً ببلدة، وكورةً كورة، حتى انتهى إلى شلاشان من قُرى حُلوان، فخذق بها، وحصن عسكره وجمع أصحابه. (٢٤٩/٦)

ذكر خروج السُّفْيَانِي

في هذه السنة خرج السُّفْيَانِي، وهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية، وأمه نَفسَة بنت عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، وكان يقول: أنا من شَيْخِي صَفِيْن، يعني علياً ومعاوية، وكان يلقب بابي العُمَيْطِر، لأنَّه قال يوماً لجلسائه: أي شيء كنية الجرذون؟ قالوا: لا ندري. قال: هو أبو العُمَيْطِر، فلَقَّبوه به.

ولما خرج دعا لنفسه بالخلافة في ذي الحجة، وقوي على سليمان بن المنصور، عامل دمشق، فأخرجه عنها، وأعانه الخطاب بن وجه القُلس، مولى بني أُمَيَّة، وكان قد تغلب على صيدا؛ ولما خرج سَير إليه الأمين الحسين ابن علي بن عيسى بن ماهان، فبلغ الرقعة، ولم يسر إلى دمشق.

وكان عمر أبي العُمَيْطِر، حين خرج، تسعين سنة، وكان الناس قد أخذوا عنه علماً كثيراً، وكان حسن السيرة، فلَمَّا خرج ظلم وأساء السيرة، فتركوا ما نقلوا عنه.

وكان أكبر أصحابه من كلب، وكتب إلى محمد بن صالح بن يَهِيس الكلابي يدعوه إلى طاعته، ويتهدده إن لم يفعل، فلم يجبه إلى ذلك، فأقبل السُّفْيَانِي على قصد القيسية، فكتبوا إلى محمد بن صالح، فأقبل إليهم في ثلاثمائة فارس من الضباب ومواليه، واتصل الخبير بالسُّفْيَانِي، فوجه إليه يزيد بن هشام في اثني عشر ألفاً، فالتقوا، فانهمز يزيد ومن معه، وقُتل منهم إلى أن دخلوا أبواب دمشق زيادة على ألفي رجل، وأسر ثلاثة آلاف، فاطلقهم ابن يَهِيس، وحلق رؤوسهم ولحاهم. (٢٥٠/٦)

وضعف السُّفْيَانِي، وحُصر بدمشق، ثم جمع جمعاً، وجعل عليهم ابنه القاسم، وخرجوا إلى ابن يَهِيس، فالتقوا، فقتل القاسم وانهمز أصحاب السُّفْيَانِي، وتبع رأسه إلى الأمين، ثم جمع جمعاً آخر، وسيرهم مع مولاه المعتمر، فلقبهم ابن يَهِيس، فقتل المعتمر، وانهمز أصحابه، فوهن أمر أبي العُمَيْطِر، وطمع فيه قيس.

ثم مرض ابن يَهِيس، فجمع رؤساء بني نَمِير، فقال لهم: ترون ما أصابني من علتي هذه، فارقوا بني مروان، وعليكم بمَسْلَمَة بن يعقوب بن علي بن محمد بن سعيد بن مَسْلَمَة بن عبد الملك، فإنه ركيك، وهو ابن اختكم، وأعلموه أنكم لا تتبعون بني أبي سفیان، وبايعوه بالخلافة، وكيدوا به السُّفْيَانِي.

وكان ببغداد ابنان للمأمون مع أمهما أم عيسى ابنة الهادي، وقد طلبهما المأمون من أخيه في حال السلام، فمنعهما من المال الذي كان له، فلما حبس أسداً قال: هل في أهل بيته من يقوم مقامه، فأني أكره أن أفسدهم مع نباهتهم، وما تقدم من طاعتهم ونصيحتهم.

قالوا: نعم عمه أحمد بن مزيد، وهو أحسنهم طريقة، له بأس ونجدة، وبصر بسياسة الحرب، فأنفذ إليه أحضره، فأتي الفضل، فدخل عليه وعنده عبد الله بن حميد بن قحطبة، وهو يريد على المسير إلى طاهر وعبد الله يشط. قال أحمد: فلما رأني الفضل رحب بي، ورفعني إلى صدر المجلس، ثم أقبل على عبد الله يداعبه ثم قال:

إِنَّا وَجَدْنَا لَكُمْ إِذْ زَرْتُمْ جَلِكُمْ مِنْ آلِ شَيْبَانَ أُنْأَدُونَكُمْ وَأَبَا الْأَكْثَرُونَ إِذَا عُذِّ الْحَصَى عُدَاً وَالْأَقْرَبُونَ إِلَيْنَا مَتَكُمُ نَسْبَا
فقال عبد الله: أقسم لكذلك، وفيهم سذ الخلل، ونكء العدو، ودفع معرة أهل المعصية عن أهل الطاعة.

فقال له الفضل: إن أمير المؤمنين أجرى ذكرك، فوصفتك له، فأحب اصطناعك والتتويه باسمك، وأن يرفعك إلى منزلة لم يبلغها أحد من أهل بيتك.

ثم مضى ومضيت معه إلى الأمين، فدخلنا عليه، فقال لي في حبس أسد (٢٥٦/٦) واعتذر إلي، وأمرني بالمسير إلى حرب طاهر، فقلت: سأبذل في طاعة أمير المؤمنين مهجتي، وأبلغ في جهاد عدوه أفضل ما أمله عندي ورجاه من غنائي وكفائتي، إن شاء الله تعالى.

فأمر الفضل بأن يمكنه من العساكر يأخذ منهم من أراد، وأمره بالجد في المسير والتجهز، فأخذ من العسكر عشرين ألف فارس، وسار معه عبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً، وسار بهم إلى خلوان، وشفع في أسد ابن أخيه، فأطلقه، وأقام أحمد وعبد الله بخانقين، وأقام طاهر بموضعه، ودس الجواسيس والعيون، وكانوا يُرْجِفُونَ في عسكر أحمد وعبد الله أن الأمين قد وضع العطاء لأصحابه، وأمر لهم بالأرزاق الوافرة، ولم يزل يحتال في وقوع الاختلاف بينهم، حتى اختلفوا، وانتقض أمرهم، وقاتل بعضهم بعضاً، ورجعوا عن خانقين من غير أن يلقوا طاهر، وتقدم طاهر، فنزل خلوان. فلما نزلها لم يلبث إلا يسيراً حتى أتاه هَرْمُة في جيش من عند المأمون، ومعه كتاب إلى طاهر، يأمره بتسليم ما حوى من المدن والكور إلى هَرْمُة، ويتوجه هو إلى الأهواز، ففعل ذلك، وأقام هَرْمُة بخلوان، وحصنها، وسار طاهر إلى الأهواز.

ذكر الفضل بن سهل

في هذه السنة خطب للمأمون بإمرة المؤمنين، ورفع منزلة

وَقَفَرَتْ قِيُ السُّونِ عَذْبُ مَذَاقُهُ يُضِيءُ لَهُ الظُّلُمَةُ سَاعَةً تَبِينُمْ وَفَنِيَانِ كَالْحَقَيْنِ وَالْبَطْنِ ضَامِرٌ خَيَصَ وَجْهَهُمْ نِسَارُهُ تَضَرَّرُمْ لَهَوْتُ بِهَا لَيْلُ التَّامِ ابْنِ خَالِدٍ وَانْتِ بِمَرْوِ الرُّوْذِ غَيْطاً تَجَرَّرُمْ أَقْبَى نَهْدُ التَّرْكَلِينَ عَنَفَتُمْ أَظْلُ أَتَانِيهَا وَتَحْتَ ابْنِ خَالِدٍ لَهَا عَارِضٌ فِيهِ الْأَمِةُ تَرَزَّرُمْ طَوَّاهُ طَرَادُ الْخَيْلِ فِي كُلِّ غَارَةٍ إِلَى أَنْ يُرَى الْإِصْبَاحُ مَا يَتَلَفُّمْ يُصَارِعُ أَتْرَاكُ ابْنِ خَاقَانَ لَيْلُهُ نَحِيلٌ وَأَضْحَى فِي التَّمِيمِ أَمُتُمْ يُضْبَحُ مِنْ طُولِ الطَّرَادِ وَجِسْمُهُ لَهَا لَرَجٌ فِي نَفْسِهَا حِينَ تَرُتُمْ أَبَاكِهَا صَهَاءَ كَالْمِسْكِ رِيْحُهَا أُمِيَّةٌ فِي الرَّرَقِ الَّذِي اللَّهُ يَتِيمُ فَتَنَانٌ مَا يَنِي وَيَنْ ابْنِ خَالِدٍ

ثم التفت إلي فقال: أبا الحارث! أنا وإياك نجري إلى غاية إن قصرنا عنها دُيْمُنَا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل إن قوي قويتا، وإن ضعف ضعفتا، إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء، يشاور النساء، ويعتزم على الرِّبَاء، وقد أمكن ما معه من أهل اللُّهُو والجسارة، فهم يعدونه الظفر، ويمنونه عقب الأيام، والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الوحل، وقد خشيت، والله، أن تهلك بهلاكه، ونعطب بعطبه، وأنت فارس من العرب وابن فارسها، وقد فزع إليك في هذا الأمر (٢٥٤/٦) ولقاء هذا الرجل، وأطمعه فيما قيلك أمران: أحدهما صدق الطاعة، وفضل النصيحة، والثاني يُمن نقيبتك وشدة بأسك، وقد أمرني بإزاحة علم ما عليك، وبسط يدك فيما أحببت، غير أن الاقتصاد رأس النصيحة، ومفتاح اليمن والبركة، فأنجز حوائجك، وعجل المبادرة إلى عدوك، فأني أرجو أن يوليئك الله هذا الفتح، ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة.

فقلت: أنا لطاعة أمير المؤمنين وطاعتك مُقدِّم ولكل ما دخل فيه الوهن على عدوه وعدوك حريص، غير أن المحارب لا يعمل بالغدر، ولا يفتح أمره بالتقصير والخلل، وإنما ملاك المحارب الجنود، وملاك الجنود المال، والذي أسأل أن يؤمر لأصحابي برزق سنة، وتحمل معهم أرزاق سنة، ويخص أهل الغناء والبلاء، وأبدل من فيهم من الضعفى، وأحمل ألف رجل مثن معي على الخيل، ولا أسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن والكور. فقال: قد اشتطت، ولا بد من مناظرة أمير المؤمنين.

ثم ركب، ركب معي، فدخل قبلي على الأمين، وأذن لي فدخلت، فما كان إلا كلمتان حتى غضب وأمر بحبسي.

وقيل: إنه طلب أن يدفع ولدي المأمون، فإن أطاعه، وإلا قتلها، فقال الأمين: أنت أعرايي مجنون، أدعوك إلى ولاية أئمة العرب والعجم، وأطعمك خراج كور الجبال إلى خراسان، وأرفع منزلتك على نظرائك من أبناء القواد والملوك، وتدعوني إلى قتل ولدي، وسفك دماء أهل بيتي! إن (٢٥٥/٦) هذا للخرق والتخليط.

الفضل بن سهل.

وسبب ذلك أنه لما أتاه خبر قتل ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة، وصحّ عنده الخبر بذلك، أمر أن يُخطب له، ويخاطب بأمير المؤمنين، ودعا (٢٥٧/٦) الفضل بن سهل وعقد له على المشرق من جبل همدان إلى التبت طولاً، ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضاً، وجعل له عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم، وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين ولقبه ذا الرياستين رئاسة الحرب، والقلم، وحمل اللواء علي بن هشام، وحمل القلم نعيم بن حازم، ووُثِيَ الحسن بن سهل ديوان الخراج.

ذكر عبد الله بن صالح بن علي وموته

قد ذكرنا قبض الرشيد على عبد الملك بن صالح، وحسبه إيّاه، فلم يزل محبوباً حتى مات الرشيد، فأخرجته الأمين من الحبس في ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين [ومائة]، وأحسن إليه، فشكر عبد الملك ذلك له.

فلما كان من طاهر ما كان دخل عبد الملك على الأمين، فقال له: يا أمير المؤمنين! أرى الناس قد طمعوا فيك، وجندك قد اعتنهم الهوام، وأضعفهم الحرب، وامتلأت قلوبهم هبة لعدوهم، فإن سيرتهم إلى طاهر غلب بقليل من معه كثيرهم، وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم، وأهل الشام قوم قد ضرسهم الحرب، وأدبتهم الشدائد، وكلهم متنازع إليّ متنازع إلى طاعتي، وإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً يعظم نكايتهم في عدوه؛ فولاه الأمين الشام والجزيرة وقواه بمال ورجال، وسيره سيراً حثيثاً. (٢٥٨/٦)

فسار حتى نزل الرقعة، وكتب رؤساء أهل الشام، وأهل القوة، والجلد، والبأس، فأتوه ريثاً بعد رئيس، وجماعة بعد جماعة، فآكرمهم، ومنّاهم، وخلع عليهم، وكثر جمعه، فمرض واشتد مرضه.

وبلغ ذلك عبد الملك، فوجّه إليهم يأمرهم بالكف، فلم يفعلوا، واقتلوا يومهم ذلك قتالاً شديداً، وأكثر الأبناء القتل في الزواقل، فأخبر عبد الملك بذلك، وكان مريضاً مُتلفاً، فضرِب بيده على يد، وقال: وإذله! تستضام العرب في دورها وبلادها! فغضب من كان أمسك عن الشر من الأبناء، وتقاسم الأمر، وقام بأمر الأبناء الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، وأصبح الزواقل فاجتمعوا بالرقعة، واجتمع الأبناء وأهل خراسان بالرافقة، وقام رجل من أهل جَمُص فقال: يا أهل جَمُص! الهرب أهون من العطف، والموت أهون من الذل، إنكم قد بددتم عن بلادكم، ترجون الكثرة بعد القلة، والعزة بعد الذلة، ألا وفي الشر وقعتم، وفي حومة الموت أنخنتم؛ أن المنايا في شوارب المسوذة وقلانسهم، النفير

النفير، قبل أن يتقطع السبيل، وينزل الأمر الجليل، ويفوت المطلب، ويعسر المهرب.

وقام رجل من كلب في عَزَز ناقتة، فقال نحواً من ذلك، ثم قال: ألا وإني سائر، فمن أراد الانصراف فليصرف معي! ثم سار فسار معه عامة أهل الشام، وأحرقت الزواقل ما كان التجار قد جمعوهم من الأعلاف، (٢٥٩/٦) وأقبل نصر بن شبيب العقيلي، ثم حمل وأصحابه، فقاتل قتالاً شديداً، وصبر الجند لهم، وكان أكثر القتل في الزواقل لكثير بن قاذرة، وأبي الفيل، وداد بن موسى بن عيسى الخراساني، وانهزمت الزواقل، وكان على حاميتهم يومئذ نصر بن شبيب، وعمرو بن عبد العزيز السلمي، والعباس بن زُرَّير الكلابي، ثم توفي عبد الملك بن صالح بالرقعة في هذه السنة.

ذكر خلع الأمين والمبايعة للمأمون وعود الأمين إلى الخلافة

فلما مات عبد الملك بن صالح نادى الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان في الجند، فجعل الرجال في السفن، وسار الفرسان على الظهر في رجب، فلما قدم بغداد لقيه القواد وأهل بغداد، وعُلمت له القباب، ودخل منزله؛ فلما كان جوف الليل بعث إليه الأمين يأمره بالركوب إليه، فقال للرسول: ما أنا بمغتر، ولا مسامر، ولا مضحك، ولا وليت له عملاً ولا مالاً، فلأي شيء يريدني هذه الساعة؟ انصرف، فإذا أصبحت غدوت إليه، إن شاء الله.

وأصبح الحسين، فوافى باب الجسر، واجتمع إليه الناس فقال: يا معشر الأبناء! إن خلافة الله لا تجاوز بالظن، ونعمته لا تستصحب بالتجبر، وإن محمداً يريد أن يوقع أديانكم، وينقل عزكم إلى غيركم، وهو صاحب الزواقل، وبالله إن طالت به مدة ليرجعن ريباً ذلك عليكم، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم، وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم، فوالله لا ينصره (٢٦٠/٦) ناصر منكم إلا خذل، وما عند الله عز وجل، لأحد هودة، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده، والحنث بإيمانه.

ثم أمر الناس بعبور الجسر، فعبروا، وصاروا إلى سكة باب خراسان؛ وتسرع خيول الأمين إلى الحسين، فقاتلوه قتالاً شديداً، فانهزم أصحاب الأمين وتفرقوا، فخلع الحسين الأمين يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب، وأخذ البيعة للمأمون من الغد يوم الاثنين.

فلما كان يوم الثلاثاء وثب العباس بن موسى بن عيسى بن ماهان بالأمين، فأخرجه من قصر الخلد، وحسبه بقصر المنصور، وأخرج أمه زبيدة أيضاً، فجعلها مع ابنتها؛ فلما كان يوم الأربعاء طالب الناس الحسين بالأرزاق وماجوا بعضهم في بعض، فقام محمد بن خالد بباب الشام، فقال: أيها الناس! والله ما أدري بأي

محمد بن يزيد، فسار حتى نزل عسكر مُكْرَم، وصير العُمران والماء وراء ظهره، وتخوف طاهر أن يعجل إلى أصحابه، فأمدهم بقرش بن شبل، وتوجه هو بنفسه، حتى كان قريباً منهم، وسير الحسين بن عليّ المأمونيّ إلى قرش والرساميّ، فسارت تلك العساكر حتى أشرافوا على محمد بن يزيد بعسكر مُكْرَم، فاستشار أصحابه في المطاولة والمناجزة، فأشاروا عليه بالرجوع إلى الأهواز والتحصن بها، وأن يستدعي الجند من البصرة وقومه الأزدي، ففعل ذلك، فسير طاهر وراءه قرش بن شبل، وأمره بمبادرته قبل أن يتحصن بالأهواز، فسبقه محمد بن يزيد، ووصل بعده بيوم قرش، فاقتلوا قتالاً شديداً، فالتفت محمداً إلى مَنْ معه من مواليه، وكان أصحابه قد رجعوا عنه، فقال لمواليه: ما رأيكم؟ إني أرى مَنْ معي قد انهزم، ولست آمن خذلانهم ولا أرجو رجعتهم، وقد عزمْتُ على النزول والقتال بنفسي، حتى يقضي الله (٢٦٣/٦) بما أحب، فمن أراد الانصراف فليصرف، فوالله لئن تبقوا أحب إليّ من أن تموتوا.

فقالوا: والله ما أنصفناك إذا أن تكون قد اعتقنا من الرق، وورعنا من الضعة، وأغيتنا بعد القلة، ثم نخذلك على هذه الحال، فلعن الله الدنيا والعيش بعدك!

ثم نزلوا فعربوا دوابهم، وحملوا على أصحاب قرش حملة منكرة، فأكثروا فيهم القتل، وقتل محمد بن يزيد المهلبيّ، واستولى طاهر على الأهواز وأعمالها، واستعمل العمال على اليمامة والبحرين وعمان، وقال بعض المهالبة، وجرح في تلك الواقعة عدة جراحات، وقطعت يده:

فَمَا لُتْ نَفْسِي غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَطِئْ حَرَكَاءَ، وَأَنِّي كُنْتُ بِالضَرْبِ مُنْخَا
وَلَوْ سَلِطْتُ كَسَائِي قَاتَلْتُ دُونَهُ وَضَارَتْ عَنْهُ الطَّاهِرِيُّ الْمَلْعُوفُ
فَنِي لَا أَرَى أَن يَخْلُدَ السِّيفُ فِي الرُّغَى إِذَا ذَرَعَ الْهَيْجَةَ فِي النَّعْجِ وَكَتَبَتِي
ولما دخل ابن أبي عيّنة المهلبيّ على طاهر ومدحه، فحين انتهى إلى قوله:

مَا سَاءَ ظَنِّي إِلَّا بِوَجْدِي فِي الصَّدْرِ مَحْضُورَةً عَنِ الْكَلَمِ
تَبَسَّمَ طَاهِرٌ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ سَاءَنِي مِنْ ذَلِكَ مَا سَاءَكَ،
وَالْمَنِي مَا الْمَكِّ، وَلَقَدْ كُنْتُ كَارَهُاً لِمَا كَانَ، غَيْرَ أَنَّ الْحَتْفَ وَقَعَ،
وَالْمَنِيَا نَازِلَةً، وَلَا يَذُّ مِنْ قَطْعِ الْأَوَاصِرِ، وَالشُّكْرُ لِلْأَقَارِبِ فِي تَأْكِيدِ
الْخِلَافَةِ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّ الطَّاعَةِ؛ فَظَنُّ مَنْ حَضَرَ أَنَّهُ أَرَادَ مُحَمَّدَ بْنَ
يزيد بن حاتم. (٢٦٤/٦)

ذكر استيلاء طاهر على واسط وغيرها

ثم سار طاهر من الأهواز إلى واسط وبها السندي بن يحيى الحرشي، والهيثم بن شعبة، خليفة خزيمة بن خازم، فجعل طاهر كلما تقدّم نحوهم تقوّضت المسالِح والعمال بين يديه، حتى أتى

سبب يأمر الحسين بن عليّ علينا، ويتولّى هذا الأمر دوننا؟ ما هو باكيرنا سناً، وما هو باكيرنا حساباً، ولا باعظنا منزلةً وغنى، وإني أؤلّكم أنقض عهده، وأظهر الإنكار لفعله، فمن كان على رأيي فليعتزل معي.

وقال أسد الحربيّ: يا معشر الحريّة! هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نمّتم فطال نومكم، وتأخّرتم فتقدّم عليكم غيركم، وقد ذهب أقوام بخلع الأمين، فاذهبوا أنتم بذكر فكّه وإطلاقه.

وأقبل شيخ على فرس فقال: أيها الناس! هل تعتدون على محمد بقطع (٢٦١/٦) أرزاقهم؟ قالوا: لا! قال: فهل قصر بأحد من رؤسائكم، وعزل أحداً من قوادكم؟ قالوا: لا! قال: فما بالكم خذلتموه، وأعتمت عدوّه على أسره؟ وإيم الله ما قتل قوم خليفتهم إلّا سلّط الله عليهم السيف؛ انهضوا إلى خليفتم فقاتلوا عنه مَنْ أراد خلعه. فنهضوا، وتبعهم أهل الأرياض، فقاتلوا الحسين قتالاً شديداً، فأسر الحسين بن عليّ، ودخل أسد الحربيّ على الأمين، فكسر قيوده، وأقعده في مجلس الخلافة.

ورأى الأمين أقواماً ليس عليهم لباس الجند، وأمرهم بأخذ السلاح، فانتبهت الغوغاء، ونهبوا غيره، وحمل إلى الحسين أسيراً، فلامه، فاعتذر له الحسين، فأطلقه، وأمره بجمع الجند، ومحاربة أصحاب المأمون، وخلع عليه، وولّاه ما وراء بابه، وأمره بالمسير إلى حُلوان، فوقف الحسين بباب الجسر، والناس يهتفون، فلمّا خفّ عنه الناس قطع الجسر وهرب، فنادى الأمين في الجند يطلبه، فركبوا كلهم، فادركوه بمسجد كوثر على فرسخ من بغداد، فقاتلهم فغثر به فرسه، فسقط عنه، فقتل وأخذوا رأسه.

وقيل إن الأمين كان استوزره وسلّم إليه خاتمه، وجدد الجند البيعة للأمين، بعد قتل الحسين بيوم، وكان قتله خامس عشر رجب، فلمّا قتل الحسين بن عليّ هرب الفضل بن الربيع واختفى. (٢٦٢/٦)

ذكر ما فعله طاهر بالأهواز

لما نزل طاهر بشلالان وجه الحسين بن عمر الرساميّ إلى الأهواز وأمره بالحذر، فلمّا توجه أنت طاهراً عيونه، فأخبروه أنّ محمد بن يزيد بن حاتم المهلبيّ، وكان عاملاً للأمين على الأهواز، قد توجه في جمع عظيم يريد جنديسابور ليحتمي الأهواز من أصحاب طاهر، فدعا طاهر عدة من أصحابه، منهم: محمد بن طالوت، ومحمد بن العلاء، والعبّاس بن بخاراخذه وغيرهم، وأمرهم أن يجذّوا السير، حتى يتصل أولهم بآخر أصحاب الرساميّ فإن احتاج إلى مدد أمّنوه.

فساروا حتى شارفوا الأهواز ولم يلقوا أحداً. وبلغ خبرهم

واسطاً، فهرب السنديُّ والهَثم بن شُعْبَة عنها، واستولى طاهر على واسط، ووجّه قائداً من قوّاده إلى الكوفة عليها العباس بن موسى الهادي، فلمّا بلغه الخبر خلع الأمين، وباع للمأمون، وكتب بذلك إلى طاهر.

وفي هذه السنة خلع داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ الأمين، وهو عامله على مكّة والمدينة، وباع للمأمون.

وكان سبب ذلك أنّه لما بلغه ما كان من الأمين والمأمون وما فعل طاهر، وكان الأمين قد كتب إلى داود بن عيسى يأمره بخلع المأمون، وبعث أخذ الكتّابين من الكعبة، كما تقدّم، فلمّا فعل ذلك جمع داود وجوه النَّاس ومَن كان شهد في الكتّابين، وكان داود أحدهم، فقال لهم: قد علمتم ما أخذ الرشيد علينا وعليكم من العهد والميثاق، عند بيت الله الحرام، لا يَنْبَئُهُ لَنُكونَنَّ مع المظلوم منهما على الظالم ومع المقدور به على الغادر، وقد رأينا ورايتم أنّ محمداً قد بدأ بالظلم والبغي والغدر والنكث على أخوَيْه المأمون والمؤمن وخلعهما عاصيَّالله، وباع لابنه، طفل صغير، رضيع لم يُقطِع، وأخذ الكتّابين من الكعبة، فحرقهما ظالماً، فقد رأيتُ خلعه، والبيعة للمأمون، إذ كان مظلوماً مبيعاً عليه.

فأجابوه إلى ذلك، فنادى في شعاب مكّة، فاجتمع النَّاس فخطبهم بين الركن [والمقام]، وخلع محمداً، وباع للمأمون، وكتب إلى ابنه سليمان، وهو عامله على المدينة، يأمره أن يفعل مثل ما فعل، فخلع سليمان الأمين، وباع للمأمون.

فلمّا أتاه الخبر بذلك سار من مكّة على طريق البصرة، ثمّ إلى فارس، ثمّ إلى كرمان، حتى صار إلى المأمون بمرور، فأخبره بذلك، فسُرّ المأمون بذلك (٢٦٧/٦) سروراً شديداً، وتيسّن ببركة مكّة والمدينة.

وكانت البيعة بهما في رجب سنة مئتين وتسعين ومائة، واستعمل داود على مكّة والمدينة، وأضاف إليه ولاية عكّ، وأعطاه خمسمائة ألف درهم معونة، وسير معه ابن أخيه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى، وجعله على الموسم، فساروا حتى أتيا طاهراً ببغداد، فأكرمهما، وقربهما، ووجّه معهما يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القسريّ التجلّيّ عاملاً على اليمن، وبعث معه خيلاً كثيفة، فلمّا قدم اليمن دعا أهلها إلى خلع الأمين والبيعة للمأمون، ووعدهم العدل والإحسان، وأخبرهم بسيرة المأمون، فأجابوه إلى ما طلب، وخلعوا محمداً وباعوا للمأمون، وكتب بذلك إلى طاهر وإلى المأمون، وسار فيهم أحسن سيرة وأظهر العدل.

ذكر ما فعله الأمين

وفي هذه السنة عقد محمد الأمين، في رجب وشعبان، نحواً من أربعمائة لواء لقوّاد شتى، وأمر عليهم عليّ بن محمد بن عيسى

ونزلت خيل طاهر فم النيل، وغلب على ما بين واسط والكوفة، وكتب المنصور بن المهديّ، وكان عاملاً للأمين على البصرة، إلى طاهر ببيعته وطاعته، وأنّه بيعة المطلب بن عبد الله بن مالك بالموصل للمأمون، وخلّع الأمين، وكان هذا جميعه في رجب من هذه السنة، فأقرّهم طاهر على أعمالهم، ووَلَّى داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ الهاشميّ مكّة والمدينة، واستعمل يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القسريّ التجلّيّ على اليمن، ووجّه الحارث بن هشام وداود بن موسى إلى قصر ابن هُبيرة وأقام طاهر بجرجرايا.

فلمّا بلغ الأمين خبر عامله بالكوفة، وخلعه، والبيعة للمأمون، وجّه محمد بن سليمان القائد، ومحمد بن حمّاد البربري، وأمرهما أن يبيّتا الحارث ابن هشام وداود بالقصر، فبلغ الحارث الخبر، فركب هو وداود، فغبرا في مخاضة في سؤراء إليهم، فأوقعا بهم وقعة شديدة فاقتلوا قتلاً شديداً، وانهمز أهل بغداد. (٢٦٥/٦)

ووجّه الأمين أيضاً الفضل بن موسى بن عيسى الهاشميّ عاملاً على الكوفة في خيل، فبلغ طاهراً الخبر، فوجّه محمد بن العلاء في جيش إلى طريقه، فلقي الفضل بقرية الأعراب، فبعث إليه الفضل: إني سامع مطيع، وإنما كان مخرجي كيداً مني لمحمد الأمين، فقال له ابن العلاء: لستُ أعرف ما تقول، فإن أردت طاهراً فأرجع وراءك، فهو أسهل الطريق، فرجع الفضل، فقال محمد بن العلاء: كونوا على حذر، فلا آمن مكروه.

ثمّ إنّ الفضل رجع إلى ابن العلاء، وهو يظنّ أنّه على غير أهبة، فرآه متيقظاً حذراً، فاقتلوا قتلاً شديداً كأشدّ ما يكون من القتال، فانهزم الفضل وأصحابه.

ذكر استيلاء طاهر على المدائن ونزوله بصرصر

ثمّ إنّ طاهراً سار إلى المدائن، وبها جيش كثير للأمين، عليهم البرمكيّ قد تحصّن بها، والمدد يأتيه كلّ يوم والخلع، والصلات، فلمّا قرب طاهر منه وجّه قريش بن شبل، والحسين بن عليّ المامونيّ في مقدّمته، فلمّا سمع أصحاب البرمكيّ طبول طاهر أسرجوا، وركبوا، وأخذ البرمكيّ في التعيية، فكان كلّما سبّوا صفّاً انتفض، واضطرب، وانضمّ أولهم إلى آخرهم. فقال: اللهمّ إنا نعوذ بك من الخذلان! ثمّ قال لصاحب ساقته: خلّ سبيل النَّاس، فلا خير عندهم؛ فركب بعضهم بعضاً نحو بغداد، فنزل طاهر المدائن، واستولى على تلك النواحي، ثمّ سار إلى صرصر، فعقد بها جسراً

ذكر الفتنة بإفريقية مع أهل طرابلس

في هذه السنة ثار أبو عصام ومَنْ وافقه على إبراهيم بن الأغلب، أمير إفريقية، فحاربهم إبراهيم، فظفر بهم.

بن نهيك، وأمرهم بالمسير إلى هَرْتَمَة بن أعين، فساروا إليه، فالتقوا بناوحي النهروان في رمضان فانهزموا، وأسر علي بن محمد بن عيسى فسيرة هَرْتَمَة إلى المأمون، ورحل هَرْتَمَة فنزل النهروان. (٢٦٨/٦)

ذكر وثوب الجند بطاهر والأمين ونزوله ببغداد

وفيها استعمل ابن الأغلب عبد الله على طرابلس الغرب، فلما قدم إليها ثار عليه الجند، فحصره في داره، ثم اصطلحوا على أن يخرج عنهم، فخرج عنهم، فلم يبعد عن البلد حتى اجتمع إليه كثير من الناس، ووضع العطاء، فأناه البربر من كل ناحية، وكان يعطي الفارس كل يوم أربعة (٢٧٠/٦) دراهم، ويعطي الراجل في اليوم درهمين، فاجتمع له عدد كثير، فزحف بهم إلى طرابلس، فخرج إليه الجند، فاقتلوا، فانهزم جند طرابلس، ودخل عبد الله المدينة، وأمن الناس وأقام بها، ثم عزله أبوه، واستعمل بعده سفيان بن المضاء، فثارت هَوَارَة بطرابلس، فخرج الجند إليهم، والتقوا واقتلوا فهزم الجند إلى المدينة، فتبعهم هَوَارَة، فخرج الجند هاربين إلى الأمير إبراهيم بن الأغلب، ودخلوا المدينة، فهدموا أسوارها.

وبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب، فسير إليها ابنه أبا العباس عبد الله في ثلاثة عشر ألف فارس، فاقتل هو والبربر، فانهزم البربر، وقتل كثير منهم، ودخل طرابلس وبنى سورها.

وبلغ خبر هزيمة البربر إلى عبد الوهّاب بن عبد الرحمن بن رُسْتَم، وجمع البربر، وحرّضهم، وأقبل بهم إلى طرابلس، وهم جمع عظيم، غضباً للبربر ونصرة لهم، فنزلوا على طرابلس، وحصروها، فسد أبو العباس عبد الله بن إبراهيم باب رَنّانة، وكان يقاتل من باب هَوَارَة، ولم يزل كذلك إلى أن توفي أبوه إبراهيم بن الأغلب، وعهد بالإمارة لولده عبد الله، فأخذ أخوه زيادة الله بن إبراهيم له العهود على الجند، وسير الكتاب إلى أخيه عبد الله، يُخبره بموت أبيه، وبالإمارة له، فأخذ البربر الرسول والكتاب، ودفعوه إلى عبد الوهّاب بن عبد الرحمن بن رُسْتَم، فأمر بأن ينادي عبد الله بن إبراهيم بموت أبيه، [فصالحهم على أن يكون البلد] والبحر لعبد الله، وما كان خارجاً عن ذلك يكون لعبد الوهّاب، وسار عبد الله إلى القيروان، فلقية الناس، وتسلم الأمر، وكانت أيامه سكون ودعة. (٢٧١/٦)

سنة سبع وتسعين ومائة

ذكر حصار بغداد

في هذه السنة حاصر طاهر، وهَرْتَمَة، ورُفَير بن المُسيّب الأمين محمداً ببغداد، فنزل رُفَير بن المسيّب الضبّي بَرْقَة كَلْوَادِي، ونصب المجانيق والعرادات، وحفر الخنادق، وكان يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر، فيرمي بالعرادات، ويعشر

وأقام طاهر بصَرْصَر مشمراً في محاربة الأمين، وكان لا يأتيه جيش إلا هزمه، وبذل الأمين الأموال، فاشتد ذلك على أصحاب طاهر، فسار إليه منهم نحو خمسة آلاف، فسَر بهم الأمين، ووعدهم، ومَنّاهم، وفرّق فيها مالا عظيماً، وغلّف لحاهم بالغالية، فسَمُوا قَوَاد الغالية، وقوّد جماعة من الحرية، وجههم إلى دَسْكِرَة الملك والنهروان، فلم يكن بينهم قتال كثير، وندب جماعة من قَوَاد بغداد، وجههم إلى الياسرية، والكُورْتِيَة، وفرّق الجواسيس في أصحاب طاهر، ودس إلى رؤساء الجند، فاطمعمهم، ورغبهم، فشغبوا على طاهر، واستأمن كثير منهم إلى الأمين، فانضموا إلى عسكره، وساروا حتى أتوا صَرْصَرًا، فعبا طاهر أصحابه كراديس، وسار فيهم يمينهم، وحرّضهم، ويعددهم النصر، ثم تقدّم، فاقتلوا ملياً من النهار، ثم انهزم أصحاب الأمين، وغنم عسكر طاهر ما كان لهم من السلاح والدواب وغير ذلك.

وبلغ ذلك الأمين فأخرج الأموال وفرّقها، وجمع أهل الأرباض، وقوّد منهم جماعة، وفرّق فيهم الأموال، وأعطى كل قائد منهم قارورة غالية، ولم يفرق في أجناد القوَاد وأصحابهم شيئاً.

فبلغ ذلك طاهراً، فراسلهم، ووعدهم، واستمالهم، وأغرى أصاغهم بأكابرهم، فشغبوا على الأمين في ذي الحجة، فصعب الأمر عليه، فأشار عليه أصحابه باستمالتهم والإحسان إليهم، فلم يفعل، وأمر بقتالهم جماعة (٢٦٩/٦) من المستأمنة والمحدثين، فقاتلهم، ورأسلهم طاهر، ورأسلوه، وأخذ رهائنهم على بذل الطاعة، وأعطاهم الأموال.

ثم تقدّم، فصار إلى موضع البستان الذي على باب الأنبار، في ذي الحجة، فنزل بقواده وأصحابه ونزل من استأمن إليه من جند الأمين في البستان والأرباض، وأضعف للقوَاد، وأبنائهم، والخواص، العطاء، ونقب أهل السجون السجون، وخرجوا منها، وقتل الناس وماءت حالهم، ووثب الشُّطْران على أهل الصلاح، ولم يتغير بعسكر طاهر حال لتفقده حالهم، وأخذ على أيدي السفهاء، وغادى القتال، وراوحوه، حتى تواكل الفريقان وخربت الديار.

وحج بالناس هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى، ودعا للمأمون بالخلافة، وهو أول موسيم دُعي له فيه بالخلافة.

أموال التجار، فشكا الناس منه إلى طاهر، فنزل هَرْتَمَةُ نَهْرَ بَيْنَ، وعمل عليه خندقاً وسوراً، ونزل عبيد الله بن الوضاح بالشَّامِيَّةَ، ونزل طاهر البستان الذي بباب الأنبار.

فلما نزل شق ذلك على الأميين، وتفرق ما كان بيده من الأموال، فأمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة، وضرب آتية الذهب والفضة ليفرقها في أصحابه، وأمر بإحراق الحرثية، فرُميت بالنفط والتيران وقُتل بها خلق كثير.

واستأمن إلى طاهر بن سعيد بن مالك بن قادم، فولاه الأسواق، وشاطيه دجلة وما اتصل به، وأمره بحفر الخنادق، وبناء الحيطان في كل ما غلب عليه من الدروب، وأمدّه بالأموال والرجال، فكثر الخراب ببغداد والهدم، قدرست المنازل؛ ووكل الأميين علياً أفرهمرد بقصر صالح، وقصر سليمان بن المنصور إلى دجلة، فألح في إحراق الدور والدروب، والرمي بالمجانيق، وفعل طاهر مثل ذلك، فأرسل إلى أهل الأرباض من طريق الأنبار وباب الكوفة (٢٧٢/٦) وما يليها، فكلما أجابه أهل ناحية خندق عليهم، ومن أبى إجابته قاتله، وأحرق منزله؛ ووحشت ببغداد، وخربت، فقال حسين الخليلي:

أُسْرِعِ الرَّخْلَةَ إِغْنَانَا عَنْ جَانِبِي بَغْدَادَ أَمْ مَاذَا؟
أَمَا نَرَى الْوَيْتَةَ قَدْ أَلْقَتْ إِلَى أُولَى الْفِتَّةِ ثُنَانَا
وَاتَّقَفَتْ بَغْدَادَ عُمَرَانَهَا عَنْ رَأْيٍ لَا نَالَا وَلَا فَنَانَا
هَذَا وَهَذَا قَدْ أَبَادَ أَهْلَهَا عَوْنِيَّةً لَأَذَتْ بِمَنْ لَا نَانَا
مَا أَحْسَنَ الْحَالَاتِ إِنْ لَمْ تَعُدْ بَغْدَادَ فِي الْقَوْلَةِ بَغْدَانَا

وسمى طاهر الأرباض التي خالفه أهلها، ومدينة المنصور، وأسواق الكرخ والخلد، دار النكت، وقبض ضياع من لم يخرج إليه من بني هاشم والقواد وغيرهم، وأخذ أموالهم، فذلّوا، وانكسروا، وذلّ الأجناد، وضعفوا عن القتال، إلا باعة الطريق، والعُراة، وأهل السجون، والأوباش، والطرارين، وأهل السوق، فكانوا يذهبون أموال الناس.

وكان طاهر لا يفتري في قتالهم، فاستأمن إليه علي أفرهمرد، الموكل بقصر صالح، فأمنه، وسير إليه جنداً كثيراً، فسلم إليه ما كان بيده من تلك الناحية، في جمادى الآخرة؛ واستأمن إليه محمد بن عيسى، صاحب شرطة الأميين، وكان مجداً في نصرة الأميين، فلما استأمن هذان إلى طاهر أشقى الأميين على الهلاك وأقبلت الغواة من العيارين، وباعة الطريق، والأجناد، (٢٧٣/٦) فاقتتلوا داخل قصر صالح قتالاً عظيماً، قُتل فيه من أصحاب طاهر جماعة كثيرة، ومن قواد جماعة، ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها أشد على طاهر منها.

ثم إن طاهراً كاتب القواد الهاشميين وغيرهم، بعد أن أخذ

فلما طال ذلك بالناس خرج عن بغداد من كانت به قوة، وكان أحدهم إذا خرج أمن على ماله ونفسه، وكان مثلهم كما قال الله: ﴿فَضْرِبْ يَنْتَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾. [الحديد: ١٣] وخرج عنها قوم بعلّة الحج، ففي ذلك يقول شاعرهم:

انظُرُوا الْحَجَّ وَمَا يُؤْوَنُهُ بِلِ مِنَ الْهَرَشِ يُرِيدُونَ الْهَرَبَ
كَمْ أُنَاسٍ أَصْبَحُوا فِي غَيْطَةٍ وَكُلَّ الْهَرَشِ عَلَيْهِمُ بِالْعَطَبِ
وقال بعض فتيان بغداد:

بَكَيْتُ تَمّاً عَلَى بَغْدَادَ لِمَا قَدَّتْ غَضَبَةَ الْغَيْشِ الْإِنْيَتِي
بَلَّغْنَا هُمُوماً مِنْ سُورٍ وَمِنْ سَعَةِ بَلَّغْنَا بَضْرِي
أَصَابَتَا مِنَ الْخُتَاوِ عَيْنٌ فَانْتِ أَهْلَهَا بِالْمُجَنَّبِي
(٢٧٤/٦)

فَقَوْمٌ أَحْرَقُوا بِالنَّارِ قَسِراً وَبَاقِيَةٌ تُسْرَحُ عَلَى غَرِيبي
وَصَائِحَةٌ تُنَادِي: وَأَصْبَحَا وَخُزْرَاءُ الْمَدَامِيعِ ذَاتُ كُلِّ
تَقَرُّ مِنَ الْخَرِيقِ إِلَى انْتِهَابِ وَبِالْغَزَالَةِ مُقْلَتَهَا
حَيْرَانِي هَكَذَا وَمُكْتَفِرَاتِ يُبَادِينَ الشَّقِيقِ وَلَا شَفِيقِ
وَمُغْتَرِبَ قَرِيبَ الْبَدْرِ مُلْقَى بِلَا رَأْسٍ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
تَوَسَّطَ بَيْنَ قِتَالِهِمْ جَمِيعاً فَمَا يَدْرُونَ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقِ
فَمَا وَلَسْتُ يُقِيمُ عَلَى أَيِّهِ وَقَدْ فَرَّ الصَّنِيقُ عَنِ الصَّنِيقِ
وَفَهَمَا أَنْسَنَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى فَلِئِي ذَاكَ رَدَّ الرِّقِيقِ

وقال الجرّمي قصيدة نحو مائة وخمسين بيتاً أنى فيها على جميع الحوادث ببغداد، في هذه الحرب، تركتها لطولها.

وذكر أن قائداً من أهل خراسان، من أصحاب طاهر، من أهل النجدة والبأس، خرج يوماً إلى القتال، فنظر إلى عُراة لا سلاح معهم، فقال لأصحابه: ما يقاتلنا إلا من نرى استهانةً بأمرهم، واحتراراً لهم، فقبل (٢٧٥/٦) له: نعم! هؤلاء هم الآفة؛ فقال لهم: أف لكم حين تهزمون من هؤلاء، وأنتم في السلاح والعدة والقوة،

أصحابه إليهم، فقاتلوا أشد قتال، حتى ردّوا أصحاب الأمين، وأعاد أصحاب عبيد الله بن الوضّاح إلى مراكزهم، وأحرق منازل الأمين بالخيزرانيّة، وكانت التفقة عليها بلغت عشرين ألف درهم، وقُتل من العيّارين كثير، فضعف أمر الأمين، فابقن بالهلاك، وهرب منه عبد الله بن خازم بن خزّيمة (٢٧٧/٦) إلى المدائن، خوفاً من الأمين، لأنّه اتهمه، وتحامل عليه السّيلة والغوغاء، فأقام بها، وقيل بل كاتبه طاهر، وحذّره قبض ضياعه وأمواله.

ثم إنّه الهزّش خرج ومعه لفيقة وجماعة إلى جزيرة العباس، وكانت ناحية لم يقاتل فيها، فخرج إليه بعض أصحاب طاهر، فقاتلوه، فقوي عليهم، فأمدّهم طاهر بجند آخر، فأوقعوا بالهزّش وأصحابه وقعه شديدة، ففرق منهم بشر كثير.

وضجر الأمين وخاف حتى قال يوماً: وددت أنّ الله قتل الفريقين جميعاً فأراح الناس منهم، فما منهم إلّا عدوّ لي، أمّا هؤلاء فيريدون مالي، وأمّا أولئك فيريدون نفسي؛ وضعف أمره، وانتشر جنده، وأيقن بظفر طاهر به.

ذكر عدّة حوادث

وحجّ بالناس هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بتوجيه طاهر إياه على الموسم بأمر أمير المؤمنين المأمون.

وفيهما سار المؤتمن بن الرشيد، ومنصور بن المهديّ إلى المأمون بخراسان، فوجّه المأمون أخاه المؤتمن إلى جرجان.

وفيهما كان بالأندلس غلاء شديد، وكان الناس يطوون الأيام، ويتعلّلون بما يضبط النفس.

وفيهما مات وكيع بن الجراح الرّواسيّ ببغّذ، وقد عاد عن الحجّ؛ وبقيّة بن الوليد الجنصيّ، وكان مولده سنة عشر ومائة؛ ومحمّد بن مّليح بن سليمان الأسلميّ؛ ومعاذ بن معاذ أبو المثنى العنبريّ وله سبع وسبعون سنة. (٢٧٨/٦)

سنة ثمان وتسعين ومائة

ذكر استيلاء طاهر على بغداد

في هذه السنة لحق خزّيمة بن خازم بطاهر، وفارق الأمين، ودخل هَرّثمة إلى الجانب الشرقيّ.

وكان سبب ذلك أنّ طاهراً أرسل إلى خزّيمة أن انفصل الأمر بيني وبين محمّد، ولم يكن لك [أثر] في نصرتي، إلا أقصر في امركا فاجابه بالطاعة، وقال له: لو كنت أنت النازل الجانب الشرقيّ في مكان هَرّثمة لحمل نفسه إليه، وأخبره قلّة نفقه بهرّثمة، إلّا أنّ يضمن له القيام دونه لخوفه من العاصّة، فكتب طاهر إلى

وفيكم الشجاعة، وما عسى يبلغ كيد هؤلاء ولا سلاح معهم، ولا جنة تقبهم!

وتقدّم إلى بعضهم، وفي يديه بارية مقيرة، وتحت إيّطه مبخلة فيها حجارة، فجعل الخراسانيّ كلّما رمى بسهم استتر منه العيّار فوقع في باريته، أو قريباً منها، فباخذّه، ويتركه معه، وصاح: دابق، أي ثمن النّشابة دابق قد أحرزّه، فلم يزالا كذلك حتى فنيست سهام الخراسانيّ، ثم حمل عليه العيّار، ورمى بحجر من مخلاته في مقلّاع، فما أخطأ عينه، ثم آخر، فكاد يصصره، فانهزم وهو يقول: ليس هؤلاء بناس.

فلما سمع طاهر خبره ضحك منه، فلما طال ذلك على طاهر، وقُتل من أصحابه في قصر صالح من قُتل، أمر بالهدم والإحراق، فهدم دور من خلفه من بين دجلة ودار الرقيق، وباب الشام، وباب الكوفة، إلى الصّراة وريّض حُنيّد، ونهر كرخايا، فكان أصحابه إذا هدموا داراً أخذ أصحاب الأمين أبوابها وسقفوها، فيكونون أشدّ على أهلها، فقال شاعر منهم:

لنّا كلّ يسوم ثلثة لا نسلّها
إذا هدموا داراً أخذنا سقوفها
فإن حرّصوا يوماً على الشرّ جهدهم
فقد ضيّعوا من لرضينا كلّ واميح
يُسيرون بالطلّ القنيص، فإن بدا
لهم وجّه صيد من قريب تقتصوا
(٢٧٦/٦)

لقد أفسدوا شرق البلاد وغربها
عينا فما ندرى إلى أين تشخص
إذا خضّروا قالوا بما يعرفونّه
وإن لم يروا شيئاً قيحاً تخرّصوا
وما قُتل الأبطال مثل مجرّب
رسول النّيا ليلّة يتلّصص

في أبيات غيرها، فلما رأى طاهر أنّ هذا جميعه لا يُخلفون به، أمر بمنع التجار عنهم، ومنع من حمل الأقوات وغيرها، وشدّد في ذلك، وصرف السفن التي يحمل فيها إلى الفرات، فاشتدّ ذلك عليهم، وغلت الأسعار، وصاروا في أشدّ حصار؛ فأمر الأمين ببيع الأموال، وأخذها، ووكّل بها بعض أصحابه، فكان يهجم على الناس في منازلهم ليلاً ونهاراً، فاشتدّ ذلك على الناس، وأخذوا بالتهمة والظنة.

ثم كان بينهم وقعة بدرب الحجارة، قُتل فيها من أصحاب طاهر خلق كثير، ووقعة بالشّماميّة خرج فيها حاتم بن الصّقر في العيّارين وغيرهم إلى عبيد الله بن الوضّاح، فأوقعوا به، وهو لا يعلم، فانهزم عنهم، وغلبوه على الشّماميّة، فاتاه هَرّثمة يُعيّنه، فأسره بعض أصحاب الأمين، وهو لا يعرفه، فقاتل عليه بعض أصحابه، حتى خلّصه، وانهزم أصحاب هَرّثمة، فلم يرجعوا يومين. فلما بلغ طاهراً ما صنعوا عقد جسراً فوق الشّماميّة، وعبر

طاهر، قال: فخرج الأمين ذات ليلة يريد أن يتفرج من الضيق الذي هو فيه، فصار إلى قصر له بناحية الخلد، ثم أرسل إليّ فحضرت عنده، فقال: ترى طيب هذه الليلة، وحسن القمر في السماء، وضوءه في الماء على شاطئه دجلة، فهل لك في الشرب؟ فقلت: شأنك؛ فشرب رطلاً، وسقاني آخر، ثم غيبت ما كنت أعلم أنه يحبه، فقال لي: ما تقول فيمن يضرب عليك؟ فقلت: ما أحوجني إليه! فدعا بجارية متقدمة عنده، اسمها ضغف، فتطيرت من اسمها، ونحن في تلك الحال، فقال لها: غني، فغنت بشعر الجعدي:

كَلَيْبَ لَعْمَرِي كَانَ أَكْثَرَ نَاصِرًا وَأَيْسَرَ جُرمًا مِنْكَ ضَرْجٌ بِالْدَمِ
(٢٨١/٦)

فاشدت ذلك عليه، وتطير منه، وقال: غني غير ذلك، فغنت:

ابْكِي فِرَاقَهُمْ غَيْبِي فَارْتَهَا إِنَّ التَّسَرُّقَ لِلْأَخْبَابِ بَكَاءُ
مَا زَالَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ رَبِّ دَهْرِهِمْ حَتَّى تَفَاتُوا وَرَسَبَ الدَّعْرُ عَدَاةُ
فقال لها: لعنك الله! أما تعرفين من الغناء غير هذا؟ فقلت: ما تغنين إلا بما ظننت أنك تحبه، ثم غنت آخر:

أَمَا وَرَبِّ السَّكُونِ وَالْحَرَكِ إِنَّ الْمَنَابِيكَ كَثِيرَةُ الشَّرَكِ
مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا دَارَتْ نَجُومُ السَّمَاءِ فِي الْفَلَكَ
إِلَّا تَقْلَبُ التَّعِيمَ مِنْ مَلِكِهِ قَدْ زَالَ سُلْطَانُهُ إِلَى قَلْبِكَ
وَمَلِكُ نِي الْقَسْرِ دَائِمٌ أَبَدًا لَيْسَ بِفَانٍ وَلَا بِمُسْتَرْكٍ

فقال لها: قومي، غضب الله عليك ولعنك! [قال: فقامت، وكان له قرح من بلور، حسن الصنعة، كان يسميه رب رباح، وكان موضوعاً بين يديه، فعثرت الجارية به، فكسرتة، فقال: ويحك يا إبراهيم! ما ترى ما جاءت به هذه الجارية، ثم ما كان من كسر القدح؟ والله ما أظن أمري إلا وقد قرب! فقلت: يديم الله ملكك، ويعز سلطانك، ويكبت عدوك! فما استم الكلام حتى سمعنا صوتاً: ﴿فَقَصِي الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾. [يوسف: ٤١] فقال: (٢٨٢/٦) يا إبراهيم! أما سمعت ما سمعت؟ قلت: ما سمعت شيئاً، وكنت قد سمعت. قال: تسمع حساً، فدنوت من الشط، فلم أر شيئاً، ثم عاودنا الحديث، فعاد الصوت بمثله، فقام من مجلسه مغتماً إلى مجلسه بالمدينة، فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قُتل.

ذكر قتل الأمين

لما دخل محمد إلى مدينة المنصور، واستولى طاهر على أسواق الكرخ وغيرها، كما تقدم، وقر بالمدينة، علم قواده وأصحابه أنهم ليس لهم فيها عدة الحصر، وخافوا أن يظفر بهم طاهر، فاتاه محمد بن حاتم بن الصقر، ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقي، وغيرهما، فقالوا: قد ألت حالنا إلى ما ترى، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك، فانظر فيه واعتزم عليه، فإننا نرجو أن يجعل الله فيه الخير.

هرثمة يعجزه، ويلومه، ويقول: جمعت الأجناد، وأتلفت الأموال، وقد وقفت وقوف المحجم عمن يازا، فاستعد للدخول إليهم، فقد أحكمت الأمر على دفع العسكر، وقطع الجسور، وأرجو أن لا يختلف عليك اثنان.

فأجابه هرثمة بالسمع والطاعة، فكتب طاهر إلى خزيمه بذلك، وكتب إلى محمد بن علي بن عيسى بن ماهان يمثل ذلك؛ فلما كان ليلة الأربعاء لثمان بقين من المحرم، وثب خزيمه ومحمد بن علي بن عيسى على جسر دجلة فقطعاه، وخلعا محمدًا الأمين، وسكن أهل عسكر المهدي، ولم يدخل هرثمة حتى مضى إليه نفر من القواد وحلفوا له أنه لا يرى منهم مكروهاً، فدخل (٢٧٩/٦) إليهم، فقال الحسين الخليع في ذلك:

عَلَيْنَا جَمِيعاً مِنْ خُزَيْمَةَ مَنَةً بِهَا اخْتَفَذَ الرَّحْمَنُ نَائِزَةَ الْحَرْبِ
تَوَلَّى أُمُورَ الْمُتَسَلِّينَ بِنَفْسِهِ فَذَبَّ وَحَاشَى عَنْهُمْ أَشْرَفُ الذُّبِّ
وَلَوْ لَا إِبْرَاهِيمَ مَا أَتَيْتُكَ دَعْرًا يَبِيتُ عَلَى عَثَبٍ وَيَدْعُو عَلَى عَثَبِ
خُزَيْمَةَ لَمْ يَذْكُرْ لَهُ مِثْلُ هَلْوَ إِذَا ضَلَّطَّتْ شَرْقَ الْبِلَاوِغِ الْغَرْبِ
أَنَّا بِجِسْرِي دَجَلَةَ الْقَطْعِ وَالْقَنَا شَوَارِخُ وَالْأَرْوَاحُ فِي رَاحَةِ الْقَضْبِ

وهي عدة أبيات، فلما كان الغد تقدم طاهر إلى المدينة والكرخ، فقاتل هناك قتالاً شديداً، فهزم الناس، حتى ألحقهم بالكرخ، وقتلهم فيه، فهزمهم، فمروا لا يولون على شيء، فدخلها طاهر بالسيف، وأمر مناديه، فنادى: من لزم بيته فهو آمن؛ ووضع بسوق الكرخ وقصر الوضاح جنداً على قدر حاجته، وقصد إلى مدينة المنصور، وأحاط بها، وبقصر زبيدة، وقصر الخلد من باب الجسر إلى باب خراسان، وباب الشام، وباب الكوفة، وباب البصرة، وشاطئ الصراة إلى مصبها في دجلة.

وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهَرثُش، والأفارقة، فنصب (٢٨٠/٦) المجانيق بإزاء قصر زبيدة، وقصر الخلد، وأخذ الأمين أمه وأولاده إلى مدينة المنصور، وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه وجواريه في الطريق، لا يلوي أحد على أحد، وتفرق السبيلة والغزاه، وتحصن محمد بمدينة المنصور، وحصره طاهر، وأخذ عليه الأبواب.

وبلغ خبر هذه الواقعة عمر الوراق، فقال لمُخْبِرِهِ: ناولني قدحاً؛ ثم تمثل:

خَنَعْنَا فَلْيَخْمِرْهُ اسْمَاءُ لَهَا قَوَّةٌ وَلَهَا قَاةُ
يُضْلِكُهَا الْمَاءُ إِذَا أَصْفَقَتْ يَوْمًا وَقَدْ يَفْقِيئُهَا الْمَاءُ
وَقَالِلٌ كَانَتْ لَهُمْ وَقَعَةٌ فِي يَوْمِنَا قَدْ وَاشْتَبَاهُ
قُلْتُ لَهُ: أَنْتَ أَمْرٌ جَاهِلٌ فَبِكَ عَنْ الْخَيْرَاتِ لِيَطْلُعَ
إِشْرَبْ وَدَعَا بَيْنَ أَحَادِيثِهِمْ يَصْطَلِحُ النَّاسُ إِذَا شَالُوا

وحكى إبراهيم بن المهدي أنه كان مع الأمين لما حصره

قال: وما هو؟

خازم، وحضر طاهر وقواده، وحضر سليمان بن المنصور، والسندي، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وأداروا الرأي بينهم، وأخبروا طاهراً أنه لا يخرج إليه أبداً، وأنه إن لم يجب إلى ما سأل لم يؤمن إلا أن يكون الأمر مثله أيام الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان. وقالوا له: إنه إن يخرج إلى هُرْثمة يبدنه، ويدفع إليك الخاتم، والقضيب، والبردة، وذلك هو الخلافة، فاعتنم هذا الأمر ولا تُفسد! فاجاب إلى ذلك ورضي به.

ثم إن الهرش لما علم بالخبر أراد التقرب إلى طاهر، فأخبره أن الذي جرى بينهم مكر، وأن الخاتم والقضيب والبردة تحمل مع الأمين إلى هُرْثمة، فاعتنط منه، وجعل حول قصر أم الأمين، وقصور الخلد، قوماً معهم القتل، ولم يعلم بهم أحد؛ فلما نهياً الأمين للخروج إلى هُرْثمة، (٢٨٥/٦) عطش قبل خروجه عطشاً شديداً، فطلب له في خزانة الشراب ماء، فلم يوجد، فلما أسس، ليلة الأحد، لخمسين بقين من محرم سنة ثمان وتسعين ومائة، خرج بعد العشاء الأخيرة إلى صحن الدار، وعليه ثياب بيض، وطيلسان أسود، فأرسل إليه هُرْثمة: وافيت للميعاد لأحملك، ولكني أرى أن لا تخرج الليلة، فإني قد رأيت على الشطّ أمراً قد رابني، وأخاف أن أغلب، وتؤخذ من يدي، وتذهب نفسك ونفسي، فأقيم الليلة، حتى استعدّ وأتيك الليلة القابلة، فإن حُوربت حاربت دونك.

فقال الأمين للرسول: ارجع إليه، وقل له لا يبرح، فإني خارج إليه الساعة لا محالة، ولست أقيم إلى غد.

وقل، وقال: قد تفرّق عني الناس من الموالي والحرس وغيرهم، ولا آمن إن انتهى الخبر إلى طاهر أن يدخل عليّ فيأخذني؛ ثم دعا بابنيه، فضمهما إليه، وقللهما، وبكى، وقال: استودعكما الله، عز وجل، ودمعت عيناه، فمسح دموعه بكفه، ثم جاء راكباً إلى الشطّ، فإذا خراقة هُرْثمة، فصعد إليها.

فذكر أحمد بن سلام، صاحب المظالم، قال كنت مع هُرْثمة في الحراقة، فلما دخلها الأمين قُمنا له، وجثا هُرْثمة على ركبتيه، واعتذر إليه من يقرس به، ثم احتضنه، وضمه إليه، وجعله في حجره، وجعل يقبل يديه ورجليه وعينيه، وأمر هُرْثمة بالحراقة أن تدفع، إذ شد علينا أصحاب طاهر في الزوارق، وعطعطوا، ونبهوا الحراقة، ورموهم بالآجر والنشاب، فدخل الماء إلى الحراقة، ففرقت، وسقط هُرْثمة إلى الماء، وسقطنا، فتعلق الملاح بشعر هُرْثمة فأخرجه، وأما الأمين فإنه لما سقط إلى الماء شق ثيابه وخرج إلى الشطّ، فأخذني رجل من أصحاب (٢٨٦/٦) طاهر، وأتى بي رجلاً من أصحاب طاهر، وأعلمه أنني من الذين خرجوا من الحراقة، فسألني من أنا؟ فقلت: أنا أحمد بن سلام، صاحب المظالم، مولى أمير المؤمنين، قال: كذبت، فاصدقني! قلت: قد

قالوا: قد تفرّق عنك الناس، وأحاط بك عدوك، وقد بقي معك من خيلك سبعة آلاف فرس من خيارها، فترى أن تختار ممن عرفناه بمحبّتك من الأبناء سبعة آلاف، فتحملهم على هذه الخيل، وتخرج ليلاً على باب من هذه الأبواب، فإن الليل لأهلي، ولن يثبت لنا أحد إن شاء الله تعالى، (٢٨٣/٦) فنخرج، حتى نلحق بالجزيرة والشام، فنفرض الفروض، ونجسي الخراج، ونصير في مملكة واسعة ومُلك جديد، فيسارع إليك الناس، ويقطع عن طلبك الجند ويُحدث الله أموراً.

فقال لهم: نعم ما رأيتم! وعزم على ذلك، وبلغ الخبر إلى طاهر، فكتب إلى سليمان بن المنصور، ومحمد بن عيسى بن نهيك، والسندي بن شاك: والله لئن لم تردّوه عن هذا الرأي لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها، ولا يكون لي همة إلا أنفسكم.

فدخلوا على الأمين، فقالوا له: قد بلغنا الذي عزمتم عليه، فنحن نذكرك الله في نفسك، إن هؤلاء صعاليك، وقد بلغ بهم الحصار إلى ما ترى، فهم يرون أن لا أمان لهم عند أخيك، وعند طاهر، لجدهم في الحرب، ولسنا نأمن إذا خرجت معهم أن يأخذوك أسيراً، أو يأخذوا رأسك، فيتقربوا بك ويجعلوك سبب أمانهم، وضربوا فيه الأمثال؛ فرجع إلى قولهم، وأجاب إلى طلب الأمان والخروج، فقالوا له: إنما غايتك السلامة، واللهو، وأخوك يتركك، حيث أحببت، [ويُفردك في موضع] ويجعل لك فيه كل ما يُصلحك، وكل ما تحبّ وتهوى، وليس عليك منه بأس ولا مكروه. فركن إلى ذلك، وأجاب إلى الخروج إلى هُرْثمة بن أعين.

فدخل عليه أولئك نفر الذين أشاروا بقصد الشام، وقالوا: إذا لم تقبل ما أشرنا به عليك، وهو الصواب، وقبيلت من هؤلاء المدهانين، فالخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هُرْثمة؛ فقال: أنا أكره طاهراً، لأنني رأيت في منامي كأنني قائم على حائط من آجر شاهق في السماء، عريض الأساس، (٢٨٤/٦) لم أر مثله في الطول والعرض، وعليّ سوادي، وينطقي، وسيفي، وكان طاهر في أصل ذلك الحائط، فما زال يضربه حتى سقط، وسقطت، وطارت قلنسوتي عن رأسي، فانا أنطير منه، وأكرهه، وهُرْثمة مولانا، وهو بمنزلة الوالد، وأنا أشد أنسابه وثقة إليه.

فأرسل يطلب الأمان، فأجابه هُرْثمة إلى ذلك، وحلف له أنه يقاتل دونه إن همّ المأمون بقتله، فلما علم ذلك طاهر اشتدّ عليه، وأبى أن يدعه يخرج إلى هُرْثمة، وقال: هو في جندي والجانب الذي أنا فيه، وأنا أحرجه بالحصار، حتى طلب الأمان، فلا أرضى أن يخرج إلى هُرْثمة فيكون له الفتح دوني.

فلما بلغ ذلك هُرْثمة والقواد اجتمعوا في منزل خُرْثمة بن

مع ابن عمه محمد بن الحسين بن مُصَنَّب، وكتب معه بالفتح، فلما وصل أخذ الرأس ذو الرياستين فأدخله على ترس، فلما رآه المأمون سجد، وبعث معه طاهر بالبردة والفضيب والخاتم.

ولما بلغ أهل المدينة أن طاهراً أمر مولاه قريشاً بقتله، قال شيخ من أهل المدينة: سبحان الله! كنا نروي أنه يقتله قريش، فذهبنا إلى القبيلة فوافق الاسم [الاسم].

ولما قُتل الأمين نودي في الناس بالأمان، فأمن الناس كلهم، ودخل طاهر المدينة يوم الجمعة، فصلّى بالناس، وخطب للمأمون، وذمّ الأمين (٢٨٨/٦) وكتب إلى المعتصم، وقيل إلى ابن المهدي: أما بعد فإنه عزيز عليّ أن أكتب إلى رجل من أهل بيت الخلافة بغير التأمير، ولكنه بلغني أنك تميل بالرأي، وتصغي بالهوى إلى التاكث المخلوع، فإن كان كذلك، فكثير ما كتبت إليك، وإن كان غير ذلك، فالسلام عليك، أيها الأمير، ورحمة الله وبركاته.

ولما قُتل الأمين قال إبراهيم بن المهدي يرثيه:

عُوجًا بمغنى الطلل النائر بالخلد ذات الصخر والأجر
والزمر المنسوب يطلعي به والباب باب النقيب النافير
عُوجًا بها فاستيقنا عندها على يقين قدرة القادر
واليلفا عني مقالاً إلى القولى على المأمور والأبى
قولاً لئلا يابن أبى الناصر طهر بلاذ الله من طاهر
لم يكنه أن حرأوناجه تبج الهدايا بمضى الجار
حتى أنسى يحب أوداجه في شطن، هذا مدى السائر
قد بررة الموت على جنبه فطرقة منكبر النساير

فلما بلغ المأمون قوله اشتد عليه.

ذكر صفة الأمين وعمره وولايته

قيل إن محمداً ولي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة، وقُتل ليلة الأحد لست بدين من المحرم (٢٨٩/٦) سنة ثمان وتسعين ومائة؛ وكنيته أبو موسى، وقيل أبو عبد الله.

وهو ابن الرشيد هارون بن أبي عبد الله المهدي بن أبي جعفر المنصور، وأمه زبيدة ابنة جعفر الأكبر ابن المنصور؛ وكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام، وقيل كانت ولايته النصف من جمادى الآخرة، وكان عمره ثمانية وعشرين سنة. وكان سبطاً، أنزع، صغير القيتين، أقى، جميلاً، طويلاً، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، وكان مولده بالرصافة.

ولما وصل خبر قتله إلى المأمون أذن للقواد، وقرأ الفضل بن سهل الكتاب عليهم، فهتأوه بالظفر ودعوا له. وكتب إلى طاهر

صدقتك. قال: فما فعل المخلوع؟ قلت: رأيته وقد شق ثيابه؛ فركب، وأخذني معه أعدو، وفي عتقي جبل، فعجزت عن العدو، فأمر بضرب عتقي، فاشترت نفسي منه بعشرة آلاف درهم، فتركتني في بيت، حتى يقبض المال، وفي البيت بوارى وحُصر مدرجة ووساداتان.

فلما ذهب من الليل ساعة، وإذ قد فتحوا الباب، وأدخلوا الأمين، وهو عريان، وعليه سراويل، وعمامة، وعلى كتفه خرقه خلقة، فتركوه معي، فاسترجعت ويكيت فيما بيني وبين نفسي؛ فسألني عن اسمي فعرفته، فقال: ضمتي إليك، فلاني أجد وحشة شديدة. قال: فضمته إلي، وإذا قلبه يخفق خفقا شديداً؛ فقال: يا أحمدا ما فعل أخى؟ قلت: حي هو. قال: قبح الله بريدهم، كان يقول: قد مات شبه المعتذر من محاربه؛ فقلت: بل قبح الله وزراءك؛ فقال: ما تراهم يصنعون بي، أيقنونني أم يفنون لى بامانهم؟ فقلت: بل يفنون لك.

وجعل يضم الخرقه على كتفه، فنزعت مبطنة كانت عليّ، وقلت: ألي هذه عليك! فقال: دعني، فهذا من الله، عز وجل، في مثل هذا الموضع خير كثير.

فبينما نحن كذلك، إذ دخل علينا رجل، فنظر في وجوهنا، فاستبتهها، فلما عرفته أنصرف، وإذا هو محمد بن حميد الطاهري، فلما رأيته علمت أن الأمين مقتول؛ فلما انتصف الليل فتح الباب، ودخل الدار قوم من العجم معهم السيوف مسلولة، فلما رآهم قام قائماً وجعل يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب، والله، نفسي في سبيل الله. أما من مغيب، (٢٨٧/٦) أما من أحد من الأبناء؟

وجاؤوا، حتى وقفوا على باب البيت الذي نحن فيه، وجعل بعضهم يقول لبعض: تقدّم، ويدفع بعضهم بعضاً، وأخذ الأمين بيده وسادة، وجعل يقول: ويحكم! أنا ابن عم رسول الله، أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي.

فدخل عليه رجل منهم فضربه بالسيف وضرباً وقع في مقدم رأسه، وضربه الأمين بالسوادة على وجهه، وأراد [أن] يأخذ السيف منه، فصاح: قتلي! قتلي! فدخل منهم جماعة، فنخسه واحد منهم بالسيف في خاصرته، فركبوه، فذبحوه ذبحاً من قفاه، وأخذوا رأسه، ومضوا به إلى طاهر، وتركوا جثته.

فلما كان السحر أخذوا جثته، فأدجوها في جُلّ وحملوها، فنصب طاهر الرأس على برج، وخرج أهل بغداد للنظر، وطاهر يقول: هذا رأس المخلوع محمد.

فلما قُتل ندم جند بغداد وجند طاهر على قتله، لما كانوا يأخذون من الأموال، وبعث طاهر برأس محمد إلى أخيه المأمون

وهزئمة بخلع القاسم المؤتمن من ولاية العهد، فخلعاه في شهر ربيع الأول من هذه السنة.

وأكثر الشعراء في مراثي الأمين وهجائه، تركنا أكثره لأنه خارج عن التاريخ، فمما قيل في مراثيه قول الحسين بن الضحّاك، وكان من ندمائه، وكان لا يصدق بقتله، ويطمع في رجوعه:

يَا خَيْرَ أَسْرَرِيهِ وَإِنْ زَعَمُوا
اللَّهِ يَنْهَلُمُ أَنْ لِي كَيْدًا
وَأَيْسَرُ شَجِيحٍ بِمَا رَزَقْتُ بِهِ
هَلَا بَقِيَتْ لَنَا فَاثِقًا
قَدْ كَانَ فِيكَ لَنْسٍ مَقْصَى خَلْفٍ
لَا بَاتَ زَهْطُكَ بَعْدَ مَقَرِّهِمْ
هَتَكَرَا بِغَرَّتِكَ الَّتِي هَيَّكْتَ

(٢٩٠/٦)

وَبَيَّتْ أَقْبَارُكَ الَّتِي خُبِلَتْ
تَرَكَوْا حَرِيمَ إِيهِمْ نَقْلًا
أَبَدْتَ مَخْلُخَلَهَا عَلَى نَفْسٍ
سَلَيْتَ مَعَا جِرْمُومَ وَأَجَلَيْتَ
فَكَأَنَّهُمْ خِلَالِ مَتَّهِبٍ
مَلِكُ تَحْزُونٍ مُلْكُهُ قَدَرُ
فِيهِ بَاتَ بَعْدُ أَنْ يَلُومَ لَنَا
أَقْبَعَدَ عَهْدَ اللَّهِ تَقْلَةً
فَسَتَعْرِفُونُ غَدًا بِعَاقِبَةٍ
يَا مَنْ تَحْزُونُ نَوْمُهُ لَوْقُ
قَدْ كُنْتُ لِي أَتْلَا غَيْثَ بِهِ
مُزِجَ النِّظَامِ وَعَادَ مُكَرَّمَا
وَالشَّمْلُ مُتَشِيرٌ لِنَفْسِكَ وَالنَّدَا

وقال خزيمة بن الحسن يريته على لسان أمه زبيدة، وتخطب المأمون، وكنية زبيدة أم جعفر:

لَخَيْرِ إِسَامٍ قَامَ مِنْ خَيْرِ غَضَرٍ
إِسَارِثُ عِلْمِ الْأَوَّلِينَ وَفَهْمِهِمْ
كَبَيْتٍ وَعَيْنِي مُسْتَهْلٌ دَعْوَعُهَا
وَقَدْ مَسَّنِي ضُرٌّ وَذُلٌّ كَابَيْتٍ

(٢٩١/٦)

وَهَيْتُ لِمَا لَا يَتُّ بَعْدَ مُصَابِهِ
سَانِكُ الْبَنِي لَا يَتُّ بَعْدَ قَتْلِهِ
وَالرَّجُولُ مَا قَدْ مَرَّ بِسِي مُذْ قَدَّتُهُ
أَنْسَى طَاهِرًا لَا طَهَّرَ اللَّهُ طَاهِرًا
فَاخْرَجَنِي مَكْشُورَةً الْوَجْهِ حَامِرًا
يَبْرُ عَلَى هَارُونَ مَا قَدْ لَيْتُهُ

فَإِنْ كَانَ مَا أَبْنَى بِأَمْرِ أَمْرَتِهِ
تَذَكَّرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَرَابَتِي
فَلَمَّا قَرَأَهَا الْمَأْمُونُ يَكِي، وَقَالَ: أَنَا، وَاللَّهِ، الطَّالِبُ بِشَارِ أَخِي، قَتَلَ اللَّهُ قَتْلَهُ.

ولقد أسرف الحسين بن الضحّاك في مراثي الأمين، وذمّ المأمون، فلهذا حجب المأمون عنه، ولم يسمع مديحه منذئذ، ثم أحضره يوماً، فقال له: أخبرني! هل رأيت يوم قتل أخي هاشمية قُوتٌ ومُنْتَك؟ قال: لا! قال: فما قولك:

وَمَا شَجَا قَلْبِي وَتَكَفَّفَ عَيْرِي
وَمَهْرُكَةً بِالْخَلْدِ عَنْهَا سُجُوفُهَا
إِنَّا حَقَرْنَا رَوْعَةً مِنْ مُنَازِعٍ
وَسَرَّبَ ظِلَاهُ مِنْ ذُّبَابَةِ هَاشِمٍ
أَرُؤُ بَدَأَ مِنِّي إِذَا مَا ذَكَرْتُهُ

(٢٩٢/٦)

فَلَا بَاتَ لَيْلُ الشَّابِتِينَ يَغْطِيهِ
فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! لَوْعَةُ غَلْبَتِي، وَرَوْعَةُ فَاجَانَتِي، وَنِعْمَةُ سُلْبَتِيَا بَعْدَ أَنْ غَمَرْتَنِي، وَإِحْسَانُ شُكْرَتِيَا فَاَنْطَقَنِي، وَسَيِّدُ فَقْدَتِيَا فَاَقْلَقَنِي، فَإِنْ عَاقِبْتَ فَبِحَقِّكَ، وَإِنْ عَفَوْتَ فَبِفَضْلِكَ.

فدمعت عين المأمون وقال: قد عفوت عنك، وأمرت بإدراة أوزاقتك عليك، وعطائك ما فسانك متمماً، وجعلت عقوبة ذنبك امتناعي من استخدامك.

ثم إن المأمون رضي عنه وسمع مديحه، ومما قيل في هجائه:

لِمَ تَبْكِيكَ، لِمَاذَا؟ لِلطَّرَبِ،
وَلِتَزَلِ الْخَنَسُ فِي أَوْقَاتِهَا
وَشَيْفٌ أَنَا لَا أَكْسِي لَهْ
لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ مَا خَدُّ الرِّضَى
لَنْ تَكُنْ تَصْلُحُ لِلْمُلْكِ وَلَمْ
لِمَ تَبْكِيكَ؟ لِمَا عَرَضْنَا
فِي عَذَابٍ وَحَصَارٍ مُجْهِدٍ
زَعَمُوا أَنَّكَ خَشِيَ حَائِشِرُ

(٢٩٣/٦)

لَيْتَهُ قَدْ قَالَهُ فِي وَجْدَةٍ
أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا قَتْلَهُ
كَانَ وَاللَّهِ عَلَيْنَا يَتُّةً
وقيل فيه غير ذلك تركنا ذكره خوف الإطالة.

ذكر بعض سيرة الأمين

لما ملك الأمين وكتبه المأمون، وأعطاه بيعته، طلب الخصيان

كَلَيْبَ لَعْمَرِي كَانَ أَكْثَرَ نَاصِرًا وَلَيْسَ جُزْأً مِنْكَ ضَرْجٌ بِالدِّمِ
فَقَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَأَمَرَ بِهِدْمَ الدِّكَانِ، تَطْيِيرًا مِمَّا كَانَ.

قِيلَ وَذَكَرَ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ بِخُرَاسَانَ، فَقَالَ:
كَيفَ لَا يَسْتَحِلُّ قَتْلَ مُحَمَّدٍ وَشَاعِرِهِ يَقُولُ فِي مَجْلِسِهِ:
أَلَا فَاسْتَقْنِي خُمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخُمُرُ وَلَا تَسْقِنِي سِيرًا إِذَا امْكَنَ الْجَهْرُ
فَبَلَغَتْ الْقِصَّةُ الْأَمِينَ، فَجِيسَ أَبَا نَوَاسٍ، وَلَمْ نَجِدْ فِي سِيرَتِهِ مَا
يُسْتَحْسِنُ ذِكْرَهُ مِنْ حِلْمٍ، أَوْ مَعْدَلَةٍ، أَوْ تَجَرِبَةٍ، حَتَّى نَذْكُرَهَا، وَهَذَا
الْقَدَرُ كَافٍ. (٢٩٩/٦)

ذكر وثوب الجند بطاهر

فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَثِبَ الْجَنْدُ بِطَاهِرٍ بَعْدَ قَتْلِ الْأَمِينِ بِخَمْسَةِ أَيَّامٍ.
وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ مَالًا، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ،
فَنَارُوا بِهِ، فَضَاقَ بِهِ الْأَمْرُ، وَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَوَاطِئِهِ مِنَ الْجَنْدِ
وَأَهْلِ الْأَرِيَاضِ، وَأَنَّهُمْ مَعَهُمْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ تَحْرُكٌ مِنْ أَهْلِ
الْأَرِيَاضِ أَحَدٌ، فَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ، فَهَرَبَ، وَنَهَبُوا بَعْضَ مَتَاعِهِ،
وَمَضَى إِلَى عَقْرُوقُوفَ.

وَكَانَ لَمَّا قُتِلَ الْأَمِينُ أَمْرٌ بِحِفْظِ الْأَبْوَابِ، وَحَوْلِ زَيْدَةِ أُمِّ
الْأَمِينِ وَوَلَدَيْهِ مُوسَى وَعَبْدَ اللَّهِ مَعَهَا، وَحَمَلُهُمْ فِي خَرَّاقَةٍ إِلَى
هُمَيْيَا عَلَى الرَّابِ الْأَعْلَى، ثُمَّ أَمَرَ بِحَمْلِ مُوسَى وَعَبْدَ اللَّهِ إِلَى
عَمَهُمَا الْمَأْمُونِ بِخُرَاسَانَ.

فَلَمَّا ثَارَ بِهِ الْجَنْدُ نَادَاوُا مُوسَى يَا مَنْصُورَ، وَيَقُولُوا كَذَلِكَ يَوْمَهُمْ،
وَمِنْ الْغَدِ، فَصَوَّبَ النَّاسُ إِخْرَاجَ طَاهِرٍ وَلَدِي الْأَمِينِ؛ وَلَمَّا هَرَبَ
طَاهِرٌ إِلَى عَقْرُوقُوفَ خَرَجَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْقَوَادِ وَتَعَبًا لِقِتَالِ الْجَنْدِ،
وَأَهْلِ الْأَرِيَاضِ يَبْتَغِدَادَ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْقَوَادِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْهُ
وَالْأَعْيَانِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ خَرَجُوا وَاعْتَذَرُوا، وَأَحَالُوا عَلَى السَّفَهَاءِ
وَالْأَحْدَاثِ، وَسَلَّاهُ الصَّفْحَ عَنْهُمْ، وَقَبِلَ عَذْرَهُمْ.

فَقَالَ طَاهِرٌ: مَا خَرَجْتُ عَنْكُمْ إِلَّا لَوْضِعِ السِّيفِ فِيكُمْ، وَأَقْسَمُ
بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، عَزَّ وَجَلَّ، لَنْ عُدْتُمْ لِمُثْلِهَا لِأَعُودَنَّ إِلَى رَأْيِي فِيكُمْ،
وَلَا خَرَجَنْ إِلَى مَكْرُوهِكُمْ! فَكَسَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ لَهُمْ بِرِزْقِ أَرْبَعَةِ
أَشْهُرٍ.

وَخَرَجَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ مَشِيخَةِ أَهْلِ بَغْدَادَ، وَغَوِيْرَةُ أَبُو شَيْخٍ بْنُ
عَمِيْرَةِ الْأَسَدِيِّ، فَحَلَفُوا لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ وَلَا مِنْ
الْأَبْنَاءِ أَحَدٌ، وَضَمِنُوا (٢٩٧/٦) مِنْهُ مَنْ وَرَاءَهُمْ، فَسَكَنَ غَضَبَهُ،
وَعَفَا عَنْهُمْ، وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوَارِهَا، وَاسْتَوْسَقَ النَّاسُ فِي
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ عَلَى طَاعَةِ الْمَأْمُونِ وَالْإِقْيَادِ لِخِلَافَتِهِ.

(غَوِيْرَةُ يَفْتَحُ الْعَيْنَ وَكَسَرَ الْمِيمَ)

وَأَتْبَاعُهُمْ وَغَالِي فِيهِمْ، فَصَيَّرَهُمْ لَخْلُوتِهِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَقَوَّامَ طَعَامِهِ
وَشَرَابِهِ، وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَفَرَضَ لَهُمْ فَرَضًا سَمَّاهُمُ الْجَرَادِيَّةَ، وَفَرَضًا
مِنَ الْحِشْيَانِ سَمَّاهُمُ الْغَرَابِيَّةَ، وَفَرَضَ النِّسَاءَ الْحَرَاتِ وَالْإِمَاءَ، حَتَّى
رُمِيَ بِهِنَ، وَقِيلَ فِيهِ الْأَشْعَارُ، فَمِمَّا قِيلَ فِيهِ:

أَلَا يَا أَيُّهَا الشَّائِي بِطُوسٍ غَزِيْبًا مَا يَفْسَادُ بِالشَّقْوَسِ
لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِلْخَصِيْبَانِ هِقْلًا تَحْمَلُ مِنْهُمُ شَوْمَ الْبُيُوسِ
فَالْمَا نُوْقِلُ فَالْشَّائَانُ فِيهِ وَفِي بَلَدِي، فَيَا لَكَ مِنْ جَلِيْسِ
وَمَا لِلْمَغْمِيْمِ شَيْءٌ لَتَيْهِ إِذَا ذُكِرُوا بِبَنِي سَهْمِ خَبِيْسِ
وَمَا حَسَنُ الصَّنِيْرِ أَحْسَنُ حَالًا لَتَيْهِ عِنْدَ مُخْتَرِقِ الْكُيُوسِ
(٢٩٤/٦)

لَهُمْ مِنْ عُمْرِهِ شَطْرٌ وَشَطْرٌ يُعَاوِرِيهِ شَرْبُ الْخَنْدَرِيْسِ
وَمَا لِلْغَايِبَاتِ لَتَيْهِ حَظٌّ سَوَى التَّقْطِيْبِ بِالْوَجْهِ الْبُيُوسِ
إِذَا كَانَ الرَّئِيْسُ كُنْدًا سَقِيْمًا فَكَيْفَ صِلَاحًا بَعْدَ الرَّئِيْسِ
فَلَوْ عَلِمَ الْمُقِيْمُ بِدَارِ طُوسٍ لَعَزَّ عَلَى الْمُقِيْمِ بِدَارِ طُوسٍ
ثُمَّ وَجَّهَ إِلَى جَمِيْعِ الْبِلَادِ فِي طَلَبِ الْمُطْلَبِيْنَ، وَضَمَّهُمْ إِلَيْهِ،
وَأَجْرَى عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، وَاحْتَجَبَ عَنْ أُخْرَوَيْهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَاسْتَخَفَّ
بِهِمْ وَبِقَوَادِهِ، وَقَسَمَ مَا فِي بَيْوتِ الْأَمْوَالِ، وَمَا بِحَضْرَتِهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ
فِي خَصِيْبَانِهِ، وَجَلَسَاتِهِ، وَمَحْذَنِيهِ، وَأَمَرَ بِنَاءِ مَجَالِسٍ لِمَتَزَيَّهَاتِهِ،
وَمَوَاضِعِ خُلُوتِهِ وَلَهْوِهِ وَلَعْبِهِ، وَعَمِلَ خَمْسَ خَرَّاقَاتٍ فِي دَجَلَةٍ
عَلَى صُورَةِ الْأَسَدِ، وَالْفِيلِ، وَالْعُقَابِ، وَالْحَيَّةِ، وَالْفَرَسِ، وَأَنْفَقَ فِي
عَمَلِهَا مَالًا عَظِيْمًا، فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ فِي ذَلِكَ:

سَخَّرَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ طَلْبًا لَمْ تَسْخَرْ لَصَاحِبِ الْمِحْرَابِ
فَلِذَا مَا رَكِبَهُ سِرٌّ بَرًّا سَارَ فِي الْمَاءِ زَاكِيًا لَيْثُ غَابِ
عَجِبَ النَّاسُ إِذْ زَاوَلَهُ عَلَى صُوْرِ لَيْثٍ تَكَرَّرَ الْمَرْسَحَابِ
سَجَّهُوا إِذْ زَاوَلَهُ سِرَّتْ عَلَيْهِ كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُواكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتِ زَوْيٍ وَنَشْرٍ وَجَنَاحٍ مِنْ تَشَقُّقِ الْعَبَابِ بَعْدَ الْعَبَابِ
تَسْبِيحُ الطَّيْرِ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسْتَجْلَوْهَا بِجَنِيَّةٍ وَنَفَابِ

(٢٩٥/٦) قَالَ الْكُوْتَرُ: أَمَرَ الْأَمِينُ أَنْ يُفَرِّشَ لَهُ عَلَى دِكَانٍ فِي
الْخُلْدِ يَوْمًا، فُفَرِّشَ عَلَيْهَا بِسَاطُ زُرْعِيٍّ، وَنِمَارُوقٍ، وَفَرَشَ مِثْلَهُ،
وَهَيَّءَ مِنْ آتِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ أَمْرَ عَظِيْمٍ، وَأَمَرَ قِيَمَةَ
جَوَارِيهِ أَنْ تَهَيَّءَ لَهُ مَائَةُ جَارِيَةٍ صَانِعَةٍ، فَتَصْعَدَ إِلَيْهِ عَشْرًا عَشْرًا
بِأَيْدِيْهِنَّ الْعِبْدَانِ، يَغْنِيْنَ بِصَوْتِ وَاحِدٍ، فَاصْعَدَتْ إِلَيْهِ عَشْرًا فَانْدَفَعْنَ
يَغْنِيْنَ بِصَوْتِ وَاحِدٍ:

هُنَّ قَلْبُورَةٌ كَيْ يَكُونُوا مَكَائَةً كَمَا غَدَرَتْ يَوْمًا بِكِسْرَى مَرَّائِيَّةٍ
فَسَيَّهْنَ وَطَرَدَهُنَّ، ثُمَّ أَمَرَهَا فَاصْعَدَتْ عَشْرًا غَيْرَهُنَّ فَغَنَّتِيْهِنَّ:
مَنْ كَانَ مُسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَاتِ نِسْوَتًا بِرَجْوِ نَهَارٍ
فَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَهُ، وَأَطْرَقَ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: أَصْعَدِيْ عَشْرًا،
فَاصْعَدَتْهُنَّ فَغَنَّتِيْنَ:

ذكر خلاف نصر بن شَيْثِ الْعُقَيْلِيّ على المأمون

قُرْبَطَة، وتَيَقَّنُوا أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِلاتِقَامِ مِنْهُمْ.

وفي هذه السنة أظهر نصر بن سَيَّار بن شَيْثِ الْعُقَيْلِيّ الخلاف على المأمون؛ وكان نصر من بني عُقَيْل يسكن كَيْسُوم، ناحية شمالي حلب، وكان في عَهْهِ نَيْعَةً لِلأَمِينِ، وله فيه هوى؛ فَلَمَّا قُتِلَ الْأَمِينُ أظهر نصر الغضب لذلك، وتَغَلَّبَ على ما جاوره من البلاد، وملك مُنْبَسَاط، واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب، وأهل الطمع، وقويت نفسه، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي، وحدثته نفسه بالتغلب عليه، فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ منه كثرت جموعه وزادت عَمَّا كَانَتْ، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

(شَبِّثَ بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة والثاء المثناة).

ذكر ولاية الحسن بن سَهْلٍ العراق وغيره من البلاد

وفي هذه السنة استعمل المأمون الحسن بن سَهْلٍ، أخا الفضل، على كُلِّ ما كان افتتحه طاهر من كُور الجبال، والعراق، وفارس، والأهواز، (٢٩٨/٦) والجهاز، واليمن، بعد أن قتل الأمين، وكتب إلى طاهر بتسليم ذلك إليه، فَقَدَّمَ الحسَنُ بين يَدَيْهِ علي بن أبي طاهر سعيد، فدافعه طاهر بتسليم الخراج إليه، حتى وقى الجند أرزاقهم، وسلَّم إليه العمل.

وقدم الحسن سنة تسع وتسعين [ومائة]، وفرَّق الْعُمَال، وأمر طاهراً أن يسير إلى الرُّقَّة لمحاربة نصر بن شَيْثِ الْعُقَيْلِيّ، وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب، فسار طاهر إلى قتال نصر بن شَيْثِ، وأرسل إليه يدعو إلى الطاعة، وترك الخلاف، فلم يجبه إلى ذلك، فَقَدَّمَ إليه طاهر، والتقوا بنواحي كَيْسُوم، واقتتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه نصر بلاء عظيماً، وكان الظفر له، وعاد طاهر شبه المهزوم إلى الرُّقَّة.

وكان قصارى أمر طاهر حفظ تلك النواحي؛ وكتب المأمون إلى هُرَثْمَةَ يأمره بالمسير إلى خراسان؛ وحجَّ بالناس العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد.

ذكر وقعة الرِّبْضِ بِقُرْبَطَة

في هذه السنة كانت بِقُرْبَطَة الوقعة المعروفة بالرِّبْضِ؛ وسببها أَنَّ الحَكَمَ ابن هشام الأموي، صاحبها، كان كثير التشاغل باللُّهُو، والصيد، والشرب، وغير ذلك ممَّا يجانسه؛ وكان قد قتل جماعة من أعيان قُرْبَطَة، فكرهه أهلها، وصاروا يتعرَّضون لجنده بالأذى والسب، إلى أن بلغ الأمر بالغوغاء أَنَّهُم كانوا ينادون عند انقضاء الأذن: الصلاة يا مخمور، الصلاة؛ وشافهه بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف؛ فشرع في تحصين قُرْبَطَة وعمارة (٢٩٩/٦) أسوارها، وحفر خنادقها، وارتبط الخيل على بابها، واستكثر المماليك ورتَّب جمعاً لا يفارقون باب قصره بالسلاح، فزاد ذلك في حقد أهل

ثم وضع عليهم عشر الأطعمة، كل سنة، من غير حرص، فكرهوا ذلك، ثم عمد إلى عشرة من رؤساء سفهائهم فقتلهم، وصلبهم، فهاج لذلك أهل الرِّبْض، وانضاف إلى ذلك أَنَّ مملوكاً له سلَم سيقاً إلى صَبَقْل ليصلقه، فمطله، فأخذ المملوك السيف، فلم يزل يضرب الصبقل به إلى أن قتله، وذلك في رمضان من هذه السنة.

فكان أوَّل مَنْ شهر السلاح أهل الرِّبْض، واجتمع أهل الأرياض جميعهم بالسلاح، واجتمع الجند والأمويون والعبيد بالقصر، وفرَّق الحَكَمُ الخيل والأسلحة، وجعل أصحابه كتائب، ووقع القتال بين الطائفتين، فغلَّبهم أهل الرِّبْض، وأحاطوا بقصره، فنزل الحَكَمُ من أعلى القصر، وليس سلاحه، وركب وحرَّض النَّاسَ، فقاتلوا بين يديه قتالاً شديداً.

ثم أمر ابن عمه عبيد الله، فثلم في السور ثلثة، وخرج منها ومعه قطعة من الجيش، وأتى أهل الرِّبْض من وراء ظهورهم، ولم يعلموا بهم، فاضرموا النار في الرِّبْض، وانهزم أهله، وقتلوا مقتلة عظيمة، وأخرجوا مَنْ وجدوا في المنازل والدور، فأسروهم، فانتق من الأسرى ثلاثمائة من وجوههم، فقتلهم، وصلبهم منكسين، وأقام النهب والقتل والحريق والخراب في أرياض قُرْبَطَة ثلاثة أيام.

ثم استشار الحَكَمُ عبد الكريم بن عبد الواحد بن عبد المغيث، ولم يكن (٣٠٠/٦) عنده مَنْ يوازيه في قرب، فأشار عليه بالصنف عنهم، والعفو، وأشار غيره بالقتل، فقبل قوله، وأمر فنودي بالأمان، على أَنَّهُ مَنْ بقي من أهل الرِّبْض بعد ثلاثة أيام قتلناه وصلبناه؛ فخرج مَنْ بقي بعد ذلك منهم مستخفياً، وتحملوا على الصَّعْب والذلُّول خارجين من حضرة قُرْبَطَة بنسائهم وأولادهم، وما خفَّ من أموالهم، وقعد لهم الجند والفَسَقَة بالمرصد ينهبون، وَمَنْ امتنع عليهم قتلوه.

فلَمَّا انقضت الأيام الثلاثة أمر الحَكَمُ بكف الأيدي عن حَرَم النَّاسِ، وجمعهم إلى مكان، وأمر يهدم الرِّبْض القبلي.

وكان بزيع مولى أمية ابن الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام محبوساً في حبس الدم بِقُرْبَطَة، في رجليه قيد ثقيل، فَلَمَّا رأى أهل قُرْبَطَة قد غلبوا الجند سأل الحرس أن يُفَرِّجوا له، فأخذوا عليه العهود إن سلم أن يعود إليهم، وأطلقوه، فخرج فقاتل قتالاً شديداً لم يكن في الجيش مثله، فَلَمَّا انهزم أهل الرِّبْض عاد إلى السجن، فأنتهى خبره إلى الحَكَمِ، فأطلقه وأحسن إليه، وقد ذكر بعضهم هذه الوقعة سنة اثنتين ومائتين.

ذكر الوقعة بالموصل المعروفة بالميدان

كان يكرى الحمير، ثم قوي حاله، فجمع نفراً، فقتل رجلاً من بني تميم بالجزيرة، (٣٠٣/٦) وأخذ ما معه، فطلب، فاختفى، وعبر الفرات إلى الجانب الشامي، فكان يقطع الطريق في تلك النواحي، ثم لحق بيزيد بن مزيد الشيباني بأرمينية، ومعه ثلاثون فارساً، فقدمه، فجعل يقاتل معه الحرثية، وأثر فيهم، وقتل وأخذ منهم غلامه أبا الشوك.

فلما عزل أسد عن أرمينية صار أبو السرايا إلى أحمد بن مزيد، فوجه أحمد طليعة إلى عسكر هرثمة في فتنة الأمين والمأمون، وكانت شجاعته قد اشتهرت، فراسله هرثمة يستمليه، فقال إليه فانتقل إلى عسكره، وقصده العرب من الجزيرة، واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة، فصار معه نحو ألفي فارس وراجل، فصار يخاطب بالأمير.

فلما قتل الأمين نقصه هرثمة من أرزاقه وأرزاق أصحابه، فاستأذنه في الحج، فأذن له، وأعطاه عشرين ألف درهم، ففرقها في أصحابه ومضى، وقال لهم: اتبعوني متفرقين، ففعلوا، فاجتمع معه منهم نحو من مائتي فارس، فصار بهم إلى عين التمر، وحصر عاملها، وأخذ ما معه من المال وفرقه في أصحابه.

وسار، فلقي عاملاً آخر ومعه مال على ثلاثة بغال، فأخذها وسار، فلحقه عسكر كان قد سيروا هرثمة خلفه، فعاد إليهم، وقاتلهم، فهزمهم، ودخل البرية، وقسم المال بين أصحابه، وانتشر جنده، فلحق به من تخلف عنه من أصحابه وغيرهم، فكثر جمعه، فصار نحو دقوقا، وعليها أبو ضرغامه العجلي، في سبع مائة فارس، فخرج إليه، فلقية، فقاتلوا، فانهزم أبو ضرغامه، ودخل قصر دقوقا، فحصره أبو السرايا، وأخرجه من القصر بالآمان وأخذ (٣٠٤/٦) ما عنده من الأموال.

وسار إلى الأنبار، عليها إبراهيم الشروي، مولى المنصور، فقتله أبو السرايا، وأخذ ما فيها وسار عنها؛ ثم عاد إليها بعد إدراك الغلال، فاحتوى عليها، ثم صجر من طول السرى في البلاد، فقصد الرقة، فمر بطوق بن مالك التغلبي وهو يحارب القيسية، فأعانه عليهم، وأقام معه أربعة أشهر يقاتل على غير طمع إلا للمصيبة للربعية على المضربة، فظفر طوق وانقادت له قيس.

وسار عنه أبو السرايا إلى الرقة، فلما وصلها لقيه محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا، فبايعه، وقال له: انحدر أنت في الماء، وأسير أنا على البر، حتى نوافي الكوفة فدخلناها، وابتدأ أبو السرايا بقصر العباس بن موسى بن عيسى فأخذ ما فيه من الأموال والجواهر، وكان عظيماً لا يحصى، وبايعهم أهل الكوفة.

وقيل كان سبب خروجه أن أبا السرايا كان من رجال هرثمة، فمطله بأرزاقه، فغضب، ومضى إلى الكوفة فبايع ابن طباطبا، وأخذ

وفيهما كانت الوقعة المعروفة بالميدان بالموصل بين اليمانية والزارية؛ وكان سببها أن عثمان بن نعيم البرجمي صار إلى ديار مضر، فشكا الأزد واليمن، وقال: إنهم يتهمسوننا، ويغلبوننا على حقوقنا، واستنصرهم فصار معه إلى الموصل ما يقارب عشرين ألفاً، فأرسل إليهم علي بن الحسن الهمداني، (٣٠١/٦) وهو حيث شد متغلب على الموصل، فسألهم عن حالهم، فأخبروه، فأجابهم إلى ما يريدون، فلم يقبل عثمان ذلك، فخرج إليهم علي من البلد في نحو أربعة آلاف رجل، فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، وعدة وقائع فكانت الهزيمة على الزارية، وظفر بهم علي وقتل منهم خلقاً كثيراً وعاد إلى البلد.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة خرج الحسن الهرثي في جماعة من سفله الناس معه خلق كثير من الأعراب، ودعا إلى الرضى من آل محمد، وأتى النيل، فجبى الأموال ونهب القرى.

وفيهما مات سفيان بن عيينة الهلالي بمكة، وكان مولده سنة تسع ومائة.

وفيهما توفي عبدالرحمن بن المهدي وعمره ثلاث وستون سنة؛ ويحيى ابن سعيد القطان في صفر، ومولده سنة عشرين ومائة. (٣٠٢/٦)

سنة تسع وتسعين ومائة

ذكر ظهور ابن طباطبا القلوي

وفيهما ظهر أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، لعشر خلون من جمادى الآخرة، بالكوفة، يدعو إلى الرضى من آل محمد ﷺ والعمل بالكتاب والسنة، وهو الذي يُعرف بابن طباطبا، وكان القيم بأمره في الحرب أبو السرايا السري بن منصور، وكان يذكر أنه من ولد هاني بن قبيصة بن هاني بن مسعود الشيباني.

وكان سبب خروجه أن المأمون لما صرف طاهراً عما كان إليه من الأعمال التي افتتحها، ووجه الحسن بن سهل إليها، تحدث الناس بالبراق أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون، وأنه أنزله قصرأ حجب فيه عن أهل بيته وقواده، وأنه يستبد بالأمر دونه، فغضب لذلك بنو هاشم ووجوه الناس، واجتروا على الحسن بن سهل، وهاجت الفتن في الأمصار، فكان أول من ظهر ابن طباطبا بالكوفة.

وقيل كان سبب اجتماع ابن طباطبا بأبي السرايا أن أبا السرايا

وبلغ الخبر أبا السرايا، فرجع من نهر صَرْصَر إلى قصر ابن هيرة فنزل به؛ وسار هَرْتَمَةُ في طلبه فوجد جماعة من أصحابه، فقتلهم، ووجه رؤوسهم إلى الحسن بن سهل، ونازل هَرْتَمَةُ أبا السرايا، فكانت بينهما وقعة قُتل فيها جماعة من أصحاب أبي السرايا، فانهاز إلى الكوفة، ووثب من معه من الطالبيين على دور بني العباس ومواليهم وأتباعهم فهدموها، وانتهبوها، وخرّبوا ضياعهم، وأخرجوهم من الكوفة، وعملوا أعمالاً قبيحة، واستخرجوا الودائع التي كانت لهم عند الناس.

وكان هَرْتَمَةُ يُخبر الناس أنه يريد الحجّ، وحس من قدم للحجّ من خراسان وغيرها ليكون هو أمير الموسم، ووجه إلى مكة داود بن عيسى بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهم، وكان الذي وجهه أبو السرايا إلى مكة حسين بن حسن الأفطس بن علي بن علي بن الحسين بن علي؛ ووجه أيضاً إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن علي، فدخلها، ولم يقاتل بها أحد. (٣٠٧/٦)

ولما بلغ داود بن عيسى توجّه أبي السرايا حسين بن حسن إلى مكة لإقامة الموسم، جمع أصحاب بني العباس ومواليهم، وكان مسرور الكبير قد حجّ في مائتي فارس، فتعباً للحرب، وقال لداود: أقم إليّ شخصك، أو بعض ولدك، وأنا أكفيك، فقال: لا أستحل القتال في المحرم، والله لئن دخلوها من هذا الفجّ لأخرجن من غيره.

وانحاز داود إلى ناحية المُشاش، وافترق الجمع الذي كان معهم، وخاف مسرور أن يقاتلهم، فخرج في أثر داود راجعاً إلى العراق، وبقي الناس بقرعة، فصلّى بهم رجل من غرض الناس بغير خطبة، ودفعوا من عرفة بغير إمام.

وكان حسين بن حسن بشرف يخاف دخول مكة، حتى خرج إليه قوم أخبروه أنّ مكة قد دخلت من بني العباس، فدخلها في عشرة أنفس، فطافوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، ومضوا إلى عرفة، فوقفوا ليلاً ثم رجعوا إلى مُزْدَلِجَة، فصلّى بالناس الصبح، وأقام بيني أيام الحجّ، وبقي بمكة إلى أن انقضت السنة، وكذلك أيضاً أقام محمد بن سليمان بالمدينة، حتى انقضت السنة.

وأما هَرْتَمَةُ فإنه نزل بقرية شاهي، وردّ الحاجّ، واستدعى منصور ابن المهدي إليه، وكتب رؤساء أهل الكوفة.

وأما علي بن سعيد فإنه توجه من المدائن إلى واسط، فأخذها، وتوجه إلى البصرة، فلم يقدر على أخذها هذه السنة. (٣٠٨/٦)

ذكر قوة نصر بن شَيْث العُقَيْلي

فيها قوي أمر نصر بن شَيْث العُقَيْلي بالجزيرة، وكثر جمعه،

الكوفة، واستوسق له أهلها، وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب، فبايعوه، وكان العامل عليها للحسن بن سهل سليمان بن المنصور، فلامه الحسن، ووجه رُهيّر بن المسيب الضبي إلى الكوفة في عشرة آلاف فارس وراجل، فخرج إليه ابن طباطبأ وأبو السرايا، فواقعه في قرية شاهي، فهزموه، واستباحوا عسكره، وكانت الوقعة منلخ جمادى الآخرة. (٣٠٥/٦) فلما كان الغد، مستهلّ رجب، مات محمد بن إبراهيم بن طباطبأ فجأة، سمّه أبو السرايا؛ وكان سبب ذلك أنه لما غنم ما في عسكر رُهيّر منع عنه أبا السرايا، وكان الناس له مُطيعين، فعلم أبو السرايا أنه لا حكم له معه، فسمّه فمات، وأخذ مكانه غلاماً أمرد يقال له محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، فكان الحكم إلى أبي السرايا.

ورجع رُهيّر إلى قصر ابن هيرة، فأقام به، ووجه الحسن بن سهل عبدوس بن محمد بن أبي خالد المزورودي، في أربعة آلاف فارس، فخرج إليه أبو السرايا، فلقيه بالجامع لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب، فقتل عبدوساً، ولم يفلت من أصحابه أحد، كانوا بين قتيل وأسير.

وانتشر الطالبيون في البلاد، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة، وسير جيوشه إلى البصرة، وواسط، ونواحيهما، فولّى البصرة العباس بن محمد بن عيسى بن محمد الجعفري؛ وولّى مكة الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي الذي يقال له الأفطس، وجعل إليه الموسم؛ وولّى اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر؛ وولّى فارس إسماعيل بن موسى بن جعفر؛ وولّى الأهواز زيد بن موسى بن جعفر، فسار إلى البصرة، وغلب عليها، وأخرج عنها العباس بن محمد الجعفري، وولبها مع الأهواز، ووجه أبو السرايا محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي إلى المدائن، وأمره أن يأتي بغداد من الجانب الشرقي، فأتى المدائن، وأقام بها وسير عسكره إلى دِيَالِي.

وكان بواسط عبد الله بن سعيد الحرشي والياً عليها من قبل الحسن بن (٣٠٦/٦) سهل، فانهمز من أصحاب أبي السرايا إلى بغداد، فلما رأى الحسن أنّ أصحابه لا يلبثون لأصحاب أبي السرايا، أرسل إلى هَرْتَمَةُ يستدعيه لمحاربة أبي السرايا، وكان قد سار إلى خراسان مغاضباً للحسن، فحضر بعد امتناع، وسار إلى الكوفة في شعبان، وسير الحسن إلى المدائن وواسط علي بن سعيد، فبلغ الخبر أبا السرايا وهو ويقصر ابن هيرة، فوجه جيشاً إلى المدائن، فدخلها أصحابه في رمضان، وتقدّم حتى نزل بنهر صَرْصَر، وجاء هَرْتَمَةُ فعسكر بإزائه، بينهما النهر، وسار علي بن سعيد في شوال إلى المدائن، فقاتل بها أصحاب أبي السرايا، فهزمهم واستولى على المدائن.

وحصر حرّان، وأتاه نفر من شيعة الطالبين، فقالوا له: قد وترت بني العباس، وقتلت رجالهم، وأعلقت عنهم العرب، فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك.

فقال: من أي الناس؟ فقالوا: نبايع لبعض آل علي بن أبي طالب؛ فقال: أبايع [بعض] أولاد السوداوات فيقول إنّه هو خلقتني ورزقني؟ قالوا: فنبايع لبعض بني أمية؛ فقال: أولئك قد أدبر أمرهم، والمُذَبِّر لا يُقْبِل أبداً، ولو سلّم عليّ رجل مذبّر لأعداني إدباره، وإنّما هواي في بني العباس، وإنّما حاربتهُم محاماة على العرب لأنّهم يقدّمون عليهم المعجم.

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة توفي الحسين بن مُصْطَب بن زُرَيْق أبو طاهر بن الحسين بخراسان، وكان طاهر بالرقة، وحضر المأمون جنازته، ونزل الفضل بن سهل قبره، ووجه المأمون إلى طاهر يعزيه بآبيه.

وفيها توفي أبو عون معاوية بن أحمد الصمّادحي، مولى آل جعفر بن أبي طالب، الفقيه المغربي الزاهد.

وفيها توفي سهل بن شاذويه أبو هارون، وعبدالله بن نمير الهمداني الكوفي، وكنيته أبو هاشم، وهو والد محمد بن عبدالله بن نمير شيخ البخاري ومسلم. (٣٠٩/٦)

سنة مائتين

ذكر هرب أبي السرايا

في هذه السنة هرب أبو السرايا من الكوفة، وكان قد حصّره فيها ومن معه هرثمة، وجعل يلازم قتالهم، حتى ضجروا، وتركوا القتال؛ فلمّا رأى ذلك أبو السرايا، تهيّأ للخروج من الكوفة، فخرج في ثمانمائة فارس، ومعه محمد بن محمد بن زيد، ودخلها هرثمة فأمن أهلها، ولم يتعرّض إليهم؛ وكان هربه سادس عشر المحرم، وأتى القادسية وسار منها إلى السوس بخوزستان فلقي مالا قد حُمِل من الأهواز، فأخذه، وقسمه بين أصحابه.

وأثناء الحسن بن علي المأموني، فأمره بالخروج من عمله، وكره قتاله فأبى أبو السرايا إلا قتاله، فقاتله، فهزّمه المأموني وجرّحه، وتفرّق أصحابه، وسار هو ومحمد بن محمد وأبو الشوك نحو منزل أبي السرايا براس عين، فلمّا انتهوا إلى جلولاء ظفر بهم حماد الكندغوش، فأخذهم، وأتى بهم الحسن بن سهل، وهو بالتهران، فقتل أبا السرايا، وبعث رأسه إلى المأمون، ونُصِبَت جثته على جسر بغداد، وسير محمد بن محمد إلى المأمون. (٣١٠/٦)

وأما هرثمة فإنّه أقام بالكوفة يوماً واحداً وعاد، واستخلف بها

غسان ابن أبي الفرج أبا إبراهيم بن غسان، صاحب حرّس والي خراسان.

وسار علي بن سعيد إلى البصرة، فأخذها من العلويين. وكان بها زيد ابن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي، عليه السلام، وهو الذي يسمّى زيد النار، وإنّما سُمّي بها لكثرة ما أحرق بالبصرة من دور العباسيين وأتباعهم، وكان إذا أتى رجل من المُسوِّدة أحرقه؛ وأخذ أموالاً كثيرة من أموال التجار سوى أموال بني العباس؛ فلمّا وصل عليّ إلى البصرة استأمنه زيد فأمنه، وأخذه، وبعث إلى مكة، والمدينة، واليمن جيشاً، فأمرهم بمحاربة من بها من العلويين، وكان بين خروج أبي السرايا وقته عشرة أشهر.

ذكر ظهور إبراهيم بن موسى بن جعفر

في هذه السنة ظهر إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد، وكان بمكة، فلمّا بلغه خبر أبي السرايا وما كان منه سار إلى اليمن، وبها إسحاق بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عاملاً للمأمون، فلمّا بلغه قرب إبراهيم من صنعاء سار منها نحو مكة فاتى المشاش، فعسكر بها، (٣١١/٦) واجتمع بها إليه جماعة من أهل مكة هربوا من العلويين، واستولى إبراهيم على اليمن، وكان يسمّى الجزار لكثرة من قتل باليمن، وسبى، وأخذ الأموال.

ذكر ما فعله الحسين بن الحسن الأفلطس بمكة والبيعة لمحمد بن جعفر

وفي هذه السنة، في المحرم، نزع الحسين كسوة الكعبة، وكساها كسوة أخرى، أنفذها أبو السرايا من الكوفة، من القز، وتبيّع ودائع بني العباس وأتباعهم، وأخذ أموال الناس بحجة الدوائع، فهرب الناس منه، وتطرق أصحابه إلى قلع شبابيك الحرم، وأخذ ما على الأساطين من الذهب، وهو نزر حقيق، وأخذ ما في خزانة الكعبة، فقسمه مع كسوتها على أصحابه.

فلمّا بلغه قتل أبي السرايا، ورأى تغيير الناس لسوء سيرته وسيرة أصحابه، أتى هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي، عليه السلام، وكان شيخاً محبباً للناس، مفارقاً لما عليه كثير من أهل بيته من قبح السيرة، وكان يروي العلم عن أبيه جعفر، رضي الله عنه، وكان الناس يكتبون عنه، وكان يُظهر زهداً، فلمّا أتوه قالوا له: تعلم منزلتك من الناس، فهلّم نبايع لك بالخلافة، فإن فعلت لم يختلف عليك رجلان.

فاتمعت من ذلك، فلم يزل به ابنه عليّ والحسين بن الحسن الأفلطس، حتى غلباه على رايه، وأجابهم، وأقاموه في ربيع الأول، فبايعوه بالخلافة، وجمعوا (٣١٢/٦) له الناس، فبايعوه طوعاً

وكرها، وسموه أمير المؤمنين، فبقي شهوراً وليس له من الأمر شيء، وابنه عليّ والحسين بن الحسن وجماعتهم أسوأ ما كانوا سيرة وأقيح فعلاً؛ فوثب الحسين بن الحسن على امرأة من بني فهر كانت جميلة، وأرادها على نفسها، فامتعت منه، فأخاف زوجها، وهو من بني مخزوم، حتى توارى عنه، ثم كسر باب دارها، وأخذها إليه مدة ثم هرب منه.

ذكر ما فعله إبراهيم بن موسى

وفي هذه السنة وجّه إبراهيم بن موسى بن جعفر من اليمن رجلاً من ولد عقيل بن أبي طالب في جند ليحج بالناس، فسار العقيليّ حتى أتى (٣١٤/٦) بستان ابن عامر، فبلغه أنّ أبا إسحاق المعتصم قد حجّ في جماعة من القواد، فيهم حمّز بن عليّ بن عيسى بن ماهان، وقد استعمله الحسن بن سَهْل على اليمن، فعلم العقيليّ أنّه لا يقوى بهم، فأقام ببستان ابن عامر، فاجتاز قافلة من الحاج، ومعهم كسوة الكعبة وطبيّها، فأخذ أموال التجار، وكسوة الكعبة وطبيّها، وقدم الحجاج مكة عراً منهوبين.

فاستشار المعتصم أصحابه، فقال الجلوديّ: أنا أكفيك ذلك، فانتخب مائة رجل، وسار بهم إلى العقيليّ، فصحبهم، فقاتلهم، فانهزموا، وأسر أكثرهم، وأخذ كسوة الكعبة، وأموال التجار، إلّا ما كان مع من هرب قبل ذلك، فردّه وأخذ الأسرى، فضرب كلّ واحد منهم عشرة أسواط، وأطلقهم، فرجعوا إلى اليمن يستطعمون الناس، فهلك أكثرهم في الطريق.

ذكر مسير هرثمة إلى المأمون وقته

لما فرغ هرثمة من أبي السرايا رجع فلم يأت الحسن بن سَهْل، وكان بالمধান، بل سار على غفر قوف حتى أتى البزدان، والنهران، وأتى خراسان، فأثته كتب المأمون في غير موضع أن يأتي الشام والحجاز، فأبى، وقال: لا أرجع حتى ألقى أمير المؤمنين، إداًلاً منه عليه، ولما يعرف من نصيحته له ولآبائه، وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل (٣١٥/٦) ابن سَهْل، وما يكتن من الأخبار، وأنه لا يدعه حتى يرده إلى بغداد ليتوسط سلطانه.

فعلم الفضل بذلك، فقال للمأمون: إنّ هرثمة قد أثقل عليك البلاد والعباد، ودسّ أبا السرايا، وهو من جنده، ولو أراد لم يفعل ذلك، وقد كتب إليه عدّة كتب ليرجع إلى الشام والحجاز، فلم يفعل وقد جاء مشاقاً يظهر القول الشديد فإن أطلق هذا كان مفسدة لغيره.

فتغيّر قلب المأمون، وأبطأ هرثمة إلى ذي القعدة، فلما بلغ مرز خشي أن يكتن قدومه عن المأمون، فأمر بالطبول فضربت لكي يسمعه المأمون، فسمعها فقال: ما هذا؟ قالوا: هرثمة قد أقبل يرعد ويرق، فظنّ هرثمة أنّ قوله المقبول، فأمر المأمون بإدخاله، فلما دخل عليه قال له المأمون: مالأت أهل الكوفة العلويين، ووضعت أبا السرايا، ولو شئت أن تأخذهم جميعاً لفعلت.

ورثب عليّ بن محمد بن جعفر على غلام أمرد، وهو ابن قاضي مكة، يقال له إسحاق بن محمد، وكان جميلاً، فأخذه قهراً. فلما رأى ذلك أهل مكة ومن بها من المجاورين اجتمعوا بالحرم، واجتمع معهم جمع كثير، فأتوا محمد بن جعفر، فقالوا له: لنخلعنك، أو لنقتلنك، أو لتردّنّا إلينا هذا الغلام! فأغلق بابه وكلمهم من شباك، وطلب منهم الأمان ليركب إلى ابنه ويأخذ الغلام، وحلف لهم أنّه لم يعلم بذلك، فأمّنته، فركب إلى ابنه وأخذ الغلام منه وسلّمه إلى أهله.

ولم يلبثوا إلّا يسيراً حتى قدم إسحاق بن موسى العبّاسيّ من اليمن فنزل المشاش واجتمع الطالبيّون إلى محمد بن جعفر، وأعلموه، وحفروا خندقاً، وجمعوا الناس من الأعراب وغيرهم، فقاتلهم إسحاق، ثمّ كره القتال، فسار نحو العراق، فلقيه الجند الذين أنفذهم هرثمة إلى مكة، ومعهم الجلوديّ ورجاء بن جميل، فقالوا لإسحاق: أرجع معنا، ونحن نكفيك القتال، فرجع معهم، فقاتلوا الطالبيّين، فهزمهم، فأرسل محمد بن جعفر يطلب الأمان، فأمنوه، ودخل العبّاسيّون مكة في جمادى الآخرة وتفرّق الطالبيّون من مكة.

وأما محمد بن جعفر فسار نحو الجحفة، فأدركه بعض موالسي بني (٣١٣/٦) العبّاس، فأخذ جميع ما معه، وأعطاه دُرّهيمات يتوصل بها، فسار نحو بلاد جُهينة، فجمع بها، وقاتل هارون بن المسيّب والي المدينة، عند الشجرة وغيرها، عدّة دفعات، فانهزم محمد، وفقئت عينه بنشابة، وقُتل من أصحابه بشر كثير، ورجع إلى موضعه.

ولما انقضى الموسم طلب الأمان من الجلوديّ، ومن رجاء بن جميل، وهو ابن عمّة الفضل بن سهل، فأثمه، وضمن له رجاء عن المأمون وعن الفضل الوفاة بالأمان، فقبل ذلك، فأتى مكة لعشر بقين من ذي الحجة، فخطب الناس، وقال: إنّني بلغني أنّ المأمون مات، وكانت له في عنقي بيعة، وكانت فتنة عمّت الأرض فبايعني الناس، ثمّ إنّه صحّ عندي أنّ المأمون حيّ صحيح، وأنا أستغفر الله من البيعة، وقد خلعت نفسي من البيعة، التي بايعتموني عليها، كما خلعت خاتمي هذا من إصبعي، فلا بيعة لي في رقابكم.

ثمّ نزل وسار سنة إحدى ومائتين إلى العراق، فسيرّه الحسن

فاستجارت ثعلبة بمحمد بن الحسين الهمداني، وهو أخو علي بن الحسين، أمير لبلد، فأمرهم بالخروج إلى البرية، ففعلوا، فتبعهم بنو سامة في ألف رجل إلى العوجاء، وحصروهم فيها، فبلغ الخبر علياً ومحمداً ابني الحسين، فأرسلوا الرجال إليهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من بني سامة جماعة، وأسر جماعة منهم، ومن بني ثعلب، وكانوا معهم، فحبسوا في البلد.

ثم إن أحمد بن عمر بن الخطاب العدوي التغلبي أتى محمداً، وطلب إليه المسالمة، فأجابته إلى ذلك، وصلح الأمر، وسكنت الفتنة.

ذكر الغزاة إلى الفرنج

وفي هذه السنة جهز الحكيم أمير الأندلس جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج بالأندلس، فسار بالعساكر حتى دخل بأرضهم، وتوسط (٣١٨/٦) بلادهم، فخرّبها، ونهبها وهدم عدة من حصونها، [وكان] كلما أهلكت موضعاً وصل إلى غيره، فاستنفذ خزائن ملوكهم.

فلما رأى ملكهم فعل المسلمين ببلادهم كاتب ملوك جميع تلك النواحي مستنصراً بهم، فاجتمعت إليهم النصرانية من كل أوب، فأقبل في جموع عظيمة بإزاء عسكر المسلمين، بينهم نهر، فاقتلوا قتالاً شديداً عدة أيام، المسلمون يريدون يعبرون النهر، وهم يمنعون المسلمين من ذلك.

فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر، فعبر المشركون إليهم، فاقتتلوا أعظم قتال، فانهزم المشركون إلى النهر، فأخذهم السيف والأسر، فمن عبر النهر سلم، وأسر جماعة من كُودهم وملوكهم وقمامتهم، وعاد الفرنج يلزمون جانب النهر، يمنعون المسلمين من جوازه، فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوماً، يقتتلون كل يوم، فجاءت الأمطار، وزاد النهر، وتعدّر جوازه، فقفل عبد الكريم عنهم سابع ذي الحجة.

ذكر خروج البربر بناحية موزور

وفي هذه السنة خرج خارجي من البربر بناحية موزور، من الأندلس، ومعه جماعة، فوصل كتاب العامل إلى الحكيم يخبره، فأخفى الحكيم خبره، واستدعى من ساعته قائداً من قواده، فأخبره بذلك سرّاً، وقال له: مير من ساعتك إلى هذا الخارجي فأتني برأسه، وإلا فرأسك عوضه، وأنا قاعد (٣١٩/٦) مكاني هذا إلى أن تعود.

فسار القائد إلى الخارجي، فلما قاربه سأل عنه، فأخبر عنه باحتياط كثير، واحتراز شديد، ثم ذكر قول الحكيم: إن قتلته، وإلا فرأسك عوضه، فحمل نفسه على سلوك سبيل المخاطرة، فأعمل

فذهب هرثمة يتكلم ويعتذر، فلم يقبل منه، فأمر به فديس بطنه، وضرب أنفه، وسحب من بين يديه، وقد أمر الفضل الأعوان بالتشديد عليه، فحبس، فمكث في الحبس أياماً ثم دس إليه من قتله، وقالوا مات.

ذكر وثوب الحرية ببغداد

وفيها كان الشعب ببغداد بين الحرية والحسن بن مهمل، وكان سبب ذلك أن الحسن بن مهمل كان بالمندان حين شخص هرثمة إلى المأمون، فلما (٣١٦/٦) اتصل ببغداد، وسمع ما صنعه المأمون بهرثمة، بعث الحسن بن مهمل إلى علي بن هشام، وهو والي بغداد من قبله، أن ماطل الجند من الحرية أرزاقهم ولا تعطيهم.

وكانت الحرية قبل ذلك حين خرج هرثمة إلى خراسان قد وثوا، وقالوا: لا نرضى حتى نطرد الحسن وعُماله عن بغداد، فطردوهم، وصيروا إسحاق بن موسى الهادي خليفة المأمون ببغداد، واجتمع أهل الجانبين على ذلك ورضوا به.

فدس الحسن إليهم، وكاتب قواده حتى يعيشوا من جانب عسكر المهدي، فحوّل الحرية إسحاق إليهم، وأنزلوه على دُجَيْل، وجاء هُثَيْر بن المُسَيَّب، فنزل في عسكر المهدي، وبعث الحسن علي بن هشام في الجانب الآخر هو ومحمد بن أبي خالد، ودخلوا بغداد ليلاً في شعبان، وقاتل الحرية ثلاثة أيام على قنطرة الصُراة، ثم وعدهم رزق ستة أشهر، إذا أدركت الغلة، فسألوه تعجيل خمسين درهماً لكل رجل منهم يفتقونها في رمضان، فأجابهم إلى ذلك.

وجعل يعطيهم، فلم يتمّ العطاء حتى أتاهم خبر زيد بن موسى من البصرة، المعروف بزيد النار، وكان هرب من الحبس، وكان عند علي بن سعيد، فخرج بناحية الأنبار هو وأخو أبي السرايا في ذي القعدة سنة مائتين، فبعثوا إليه فأتى به إلى علي بن هشام، وهرب علي بن هشام بعد جمعة من الحرية، ونزل بصَرْصَر لأنه لم يبق لهم بإعطاه الخمسين إلى أن جاء الأضحى، وبلغهم خبر هرثمة وأخرجوه.

وكان القيم بامر هرثمة محمد بن أبي خالد لأن علي بن هشام كان يستخف به، فغضب من ذلك، وتحول إلى الحرية، فلم يقرّبهم علي، فهرب إلى صَرْصَر، ثم هزمه من صَرْصَر. (٣١٧/٦)

وقيل كان السبب في شغب الأبناء أن الحسن بن مهمل جلد عبد الله بن علي بن ماهان الحدّ، فغضب الأبناء، وخرجوا.

ذكر الفتنة بالموصل

وفيها وقعت الفتنة بالموصل بين بني سامة وبني ثعلبة،

ولما انتهى محمد إلى ذير العاقول أقام به ثلاثاً، وزُهِير بن المسيب مقيم بإسكاف بني الجُنَيْد، عاملاً للحسن على جُوحى، وهو يكتاب قواد بغداد، فركب إليه محمد، وأخذ أسيراً، وأخذ كل ماله، وسيره أسيراً إلى بغداد، وحبسه عند أبيه جعفر.

ثم تقدم محمد إلى واسط، ووجه محمد ابنه هارون من دير العاقول إلى النيل، وبها نائب للحسن، فهزمه هارون، وتبعه إلى الكوفة.

ثم سار المنهزمون من الكوفة إلى الحسن بواسط، ورجع هارون إلى أبيه وقد استولى على النيل، وسار محمد وهارون نحو واسط، فسار الحسن عنها، ونزل خلفها.

وكان الفضل بن الربيع مختفياً كما تقدم إلى الآن، فلما رأى أن محمداً قد بلغ واسطاً طلب منه الأمان فأمنه، وظهر، وسار محمد إلى الحسن على تعبئة فوجه إليه الحسن قواده وجنده، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهمز أصحاب محمد بعد العصر، وثبت محمد حتى جرح جراحات شديدة، وانهمزوا هزيمة قبيحة، وقُتل منهم خلق كثير، وغنموا ماله، وذلك لسبع بقين من شهر ربيع الأول.

ونزل محمد بقم الصلح، وأتاهم الحسن، فاقتتلوا، فلما جُهِم الليل رحل محمد وأصحابه، فنزلوا المنازل، فأتاهم الحسن، فاقتتلوا، فلما جُهِم الليل ارتحلوا، حتى أتوا جُبَل، فأقاموا بها، ووجه محمد ابنه عيسى إلى عُرنابا، فأقام بها، وأقام محمد بجرَجَرابا، فاشتدت جراحات محمد فحمله ابنه أبو زنبيل إلى بغداد، وخلف عسكره لست خلون من ربيع (٣٢٣/٦) الآخر، ومات محمد بن أبي خالد فدفن في داره سرّاً.

وأتى أبو زنبيل خزيمة بن خازم، فأعلمه حال أبيه، وأعلم خزيمة ذلك الناس، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن محمد إليه، يبذل فيه القيام بأمر الحرب مقام أبيه، فرضوا به، وصار مكان أبيه؛ وقتل أبو زنبيل زُهير بن المسيب من ليلته، ذبحه ذبحاً، وعلّق رأسه في عسكر أبيه.

وبلغ الحسن بن سهل موت محمد، فسار إلى المبارك، فأقام به، وبعث في جمادى الآخرة جيشاً له، فالتقوا بأبي زنبيل بقم الصرة، فهزموه، وانحاز إلى أخيه هارون بالنيل، فتقدم جيش الحسن إليهم، فلقوهم، فاقتتلوا ساعة، وانهمز هارون وأصحابه، فأتوا المدائن، ونهب أصحاب الحسن النيل، ثلاثة أيام، وما حولها من القرى.

وكان بنو هاشم والقواد، حين مات محمد بن أبي خالد، قالوا: نصير بعضنا خليفة ونخلع المأمون؛ فأتاهم خبر هارون وهزيمته، فجدوا في ذلك، وأرادوا منصور بن المهدي على الخلافة فأبى،

الحيلة، حتى دخل عليه، وقتله، وأحضر [رأسه] عند الحكم، فرآه بمكانه ذلك لم يتغير منه، وكانت غيبته أربعة أيام.

فلما رأى رأسه أحسن إلى ذلك القائد، ووصله وأعلى محلّه.

(مؤرور بفتح الميم وسكون الواو وضَمّ الراء وسكون الواو الثانية وآخره راء ثانية).

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وجه المأمون رجاء بن أبي الضحّاك لإحضار علي بن موسى بن جعفر بن محمد، وأحصي في هذه السنة ولد العباس فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأنثى، وفي هذه السنة قتلت الروم ملكها اليون وكان ملكه سبع سنين وستة أشهر وملكوا عليهم ميخائيل بن جورجيش ثانية، وفيها خالف علي بن أبي سعيد على الحسن بن سهل فبعث المأمون إليه سراج الخادم وقال له: إن وضع يده في يد الحسن بن سهل أو شخص إليّ يَمُرُّ وإلا (٣٢٠/٦) فاضرب عنقه، فسار إليه سراج فأطاع وتوجه إلى المأمون يَمُرُّ مع هزيمة، وفيها قتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل لأنه قال له يا أمير الكافرين، وحج بالناس هذه السنة المعتصم، وفيها توفي القاضي أبو البخترى وهب بن وهب، ومعروف الكرخي الزاهد، وصَفْوَان بن عيسى الفقيه، والمعافي بن داود الموصلِي وكان فاضلاً عابداً. (٣٢١/٦)

سنة إحدى ومائتين

ذكر ولاية منصور بن المهدي ببغداد

وفي هذه السنة أراد أهل بغداد أن يبايعوا لمنصور بن المهدي بالخلافة، فامتنع عن ذلك، فأرادوه على الإمرة عليهم، على أن يدعوا للمأمون بالخلافة، فأجابهم إليه.

وكان سبب ذلك ما ذكرناه قبل من إخراج أهل بغداد علي بن هشام من بغداد. فلما اتصل إخراجهم من بغداد بالحسن بن سهل سار من المدائن إلى واسط، وذلك أول سنة إحدى ومائتين، فلما هرب إلى واسط تبعه محمد ابن أبي خالد بن الهندوان، مخالفاً له، وقد تولّى القيام بأمر الناس، وولّى سعيد بن الحسن بن قحطبة الجانب الغربي، ونصر بن حمزة بن مالك الجانب الشرقي.

وكان ببغداد منصور بن المهدي، والفضل بن الربيع، وخزيمة بن خازم؛ وقدم عيسى بن محمد بن أبي خالد من الرقة من عند طاهر، في هذه الأيام، فوافق أباه على قتال الحسن بن سهل، فمضيا ومنّ معهما إلى قرية أبي فرسن قريب واسط، ولقيهما في طريقهما عساكر الحسن، في غير موضع، فهزماه. (٣٢٢/٦)

العشرة، وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم لقمعتم هؤلاء الفساق، ولعجزوا عن الذي يفعلونه؛ فقام رجل يقال له خالد الدريوش، فدعا جيرانه وأهل محلته، على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك، فشدّ على مَنْ بلبه من الفساق والشطّار، فمعتهم، وامتنعوا عليه، وأرادوا قتاله، فقاتلهم، فهزمهم وضرب مَنْ أخذه من الفساق، وجبسهم، ورفعهم إلى السلطان إلاّ أنّه كان لا يرى أن يغيّر على السلطان شيئاً.

ثمّ قام بعده رجل من الحرّبة يقال له سهل بن سلامة الأنصاريّ من أهل خراسان، ويكنّى أبا حاتم، فدعا النّاس إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل بالكتاب والسنة، وعلّق مُصحفاً في عنقه، وأمر أهل محلته ونهاهم، فقبلوا منه، ودعا النّاس جميعاً الشريف والوضيع من بني هاشم وغيرهم، فاتّاه خلق عظيم فيأيعوه على ذلك، وعلى القتال معه لمنْ خالفه، وطاف ببغداد وأسواقها؛ وكان قيام سهل لأربع خلون من رمضان، وقيام الدريوش قبله بيومين أو ثلاثة. (٣٢٦/٦)

ويبلغ خبر قيامهما إلى منصور بن المهديّ وعيسى بن محمّد بن أبي خالد، فكسرهما ذلك، لأنّ أكثر أصحابهما كان الشطّار ومَنْ لا خير فيه؛ ودخل منصور بغداد، وكان عيسى يكتّاب الحسن بن سَهْل في الأمان، فأجابه الحسن إلى الأمان له ولأهل بغداد، وأن يُعطي جنّده وأهل بغداد رزق سنّة أشهر إذا أدركت الغلّة؛ ورحل عيسى، فدخل بغداد ثلاث عشرة ليلة خلت من شوال وتفرّقت العساكر، فرضي أهل بغداد بما صالح عليه، وبقي سهل على ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ذكر البيعة لعليّ بن موسى، عليه السلام، بولاية العهد

في هذه السنة جعل المأمونُ عليّ بن موسى الرضّى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، عليه السلام، وليّ عهد المسلمين والخليفة من بعده، ولقّبهُ الرضّى من آل محمّد ﷺ وأمر جنده بطرح السواد ولبس الثياب الخضراء، وكتب بذلك إلى الآفاق، وكتب الحسن بن سَهْل إلى عيسى بن محمّد بن أبي خالد بعد عوده إلى بغداد يُعلمه أنّ المأمون قد جعل عليّ بن موسى وليّ عهده من بعده.

وذلك أنّه نظر في بني العبّاس وبني عليّ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أروع ولا أعلم منه، وأنّه سمّاه الرضّى من آل محمّد ﷺ وأمره بطرح السواد ولبس الخضراء، وذلك للبيتين خلّتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، وأمر محمّداً أن يأمر مَنْ عنده من أصحابه والجنّد، والقوّد وبني هاشم بالبيعة له، ولبس الخضراء، ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك؛ فدعاهم محمّد إلى ذلك، فأجاب بعضهم، وامتنع بعضهم وقال: لا تخرج الخلافة من ولد العبّاس، وإنّما هذا

فجعلوه خليفة للمأمون ببغداد والعسراق، وقالوا: لا نرضى بالمجوسيّ ابن المجوسيّ الحسن بن سَهْل.

وقيل إن عيسى لما ساعده أهل بغداد على حرب الحسن بن سهل علم الحسن أنّه لا طاقة له به، فبعث إليه، وبذل المصاهرة ومائة ألف دينار، والأمان له ولأهل بيته، ولأهل بغداد، وولاية أيّ النواحي أحبّ؛ فطلب كتاب المأمون بخطّه، وكتب عيسى إلى أهل بغداد: إنّني مشغول بالحرب عن جباية الخراج، فولّوا رجلاً من بني هاشم، فولّوا منصور بن المهديّ، وقال: أنا خليفة أمير المؤمنين المأمون حتى يقدم، أو يولّي مَنْ أحبّ، فرضي به النّاس. (٣٢٤/٦)

وعسكر منصور بكتّواذي، وبعث غسان بن عباد بن أبي الفرج إلى ناحية الكوفة، فنزل بقصر ابن هُبيرة، فلم يشعر غسان إلاّ وقد أحاط به حنيد الطوسيّ، فأخذه أسيراً، وقتل من أصحابه، وذلك لأربع خلون من رجب.

وسير منصور بن المهديّ محمّد بن يقطين في عسكر إلى حُمَيْد، فسار حتى أتى كوثى، فلم يشعر بشيء حتى هجم عليه حُمَيْد، وكان بالنّيل، فقاتله قتالاً شديداً وانهزم ابن يقطين، وقتل من أصحابه، وأسر، وغرق بشر كثير، ونهب حُمَيْد ما حول كوثى من القرى، ورجع حُمَيْد إلى النّيل، وابن يقطين أقام بنهر صرّصر؛ وأحصى عيسى بن محمّد بن أبي خالد مَنْ في عسكره، وكانوا مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً بين فارس وراجل، فأعطى الفارس أربعين درهماً والراجل عشرين درهماً.

ذكر أمر المتطوعة بالمعروف

وفي هذه السنة تجرّدت المتطوعة للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وكان سبب ذلك أنّ فساق بغداد والشطّار آذوا النّاس أذى شديداً، وأظهروا الفسق، وقطعوا الطريق، وأخذوا النساء والصبيان علانية، وكانوا يأخذون ولد الرجل وأهله، فلا يقدر أن يمتنع منهم، وكانوا يطلبون من الرجل أن يقرضهم، أو يصلهم، فلا يقدر على الامتناع، وكانوا ينهبون القرى (٤٢٥/٦) لا سلطان يمنعهم، ولا يقدر عليهم، لأنّه كان يفرّجهم، وهم بطانته، وكانوا يمسكون المجتازين في الطريق، ولا يُعدي عليهم أحد، وكان النّاس معهم في بلاء عظيم.

وأخر أمرهم أنّهم خرجوا إلى قُطْرُبُل، وانهبوا علانية، وأخذوا العين والمتاع والدواب، فباعوها ببغداد ظاهراً، واستعدى أهلها السلطان، فلم يعدهم، وكان ذلك آخر شعبان.

فلما رأى النّاس ذلك قام صلحاء كلّ ريف ودرّج، ومشى بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنّما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى

يَقُومُ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿الرعد: ١١﴾.

فلم يجيهم أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية المذكور إلى ما طلبوا، فخرجوا من عنده إلى القيروان، فقال لهم حفص: لو أننا نتوضأ للصلاة ونصلي، ونسال الله تعالى أن يخفف عن الناس؟ ففعلوا ذلك، فما لبث إلا خمسة أيام حتى خرجت قرحة تحت أذنه، فلم ينشب أن مات منها، وكان من أجمل أهل زمانه، ولما مات ولي بعده أخوه زيادة الله بن إبراهيم، وبقي أميراً رخي البال وادعاً، والدنيا عنده آمنة.

ثم جهز جيشاً في أسطول البحر، وكان مراكب كثيرة، إلى مدينة سُرْدَانِيَّة، وهي للروم، فغلب بعضها، بعد أن غنموا من الروم، وقتلوا كثيراً، فلما عاد مَنْ سلم منهم أحسن إليهم زيادة الله ووصلهم.

فلما كان سنة سبع ومائتين خرج عليه زياد بن سهل المعروف بابن الصَّقْلِيَّة، وجمع جمعاً كثيراً، وحصر مدينة بَاجَةَ، فسير إليه زيادة الله العساكر، فآزأوه عنها، وقتلوا مَنْ وافقه على المخالفة. (٣٣٠/٦)

وفي سنة ثمان ومائتين نُقل إلى زيادة الله أن منصور بن نصير الطَّبْطُبَيْيَّ يريد المخالفة عليه بتونس، وهو يسعى في ذلك، ويكاتب الجنْد، فلما تحقق سير إليه قائداً اسمه محمد بن حمزة في ثلاث مائة فارس، وأمره أن يخفي خبره، ويجد السير إلى تونس، فلا يشعر به منصور حتى يأخذه فيجمله إليه.

فسار محمد ودخل تونس، فلم يجد منصوراً بها، كان قد توجه إلى قصره بطنْبُذَة، فأرسل إليه محمد قاضي تونس، ومعه أربعون شيخاً، يفتحون له الخلاف، وينهونه عنه، ويأمرونه بالطاعة، فساروا إليه واجتمعوا به وذكروا له ذلك، فقال منصور: ما خالفت طاعة الأمير، وأنا سائر معكم إلى محمد، ومن معه إلى الأمير، ولكن أقيموا معي يوماً هذا، حتى نعمل له ولمن معه ضيافة.

فأقاموا عنده، وسير منصور لمحمد ولَمَنَ معه الإقامة الحسنة الكثيرة من الغنم والبق وغير ذلك من أنواع ما يؤكل، فكتب إليه يقول: إني صائر إليك مع القاضي والجماعة؛ فركن محمد إلى ذلك، وأمر بالغنم فذبحت، وأكل هو ومن معه، وشربوا الخمر.

فلما أمسى منصور سجن القاضي ومن معه وسار مجدداً فيمن عنده من أصحابه سراً إلى تونس فدخلوا دار الصناعة، وفيها محمد وأصحابه، فأمر بالطبول ففُضِّرت، وكبر هو وأصحابه، فوثب محمد وأصحابه إلى سلاحهم، وقد عمل فيهم الشراب، وأحاط بهم منصور ومن معه، وأقبلت العامة من كل مكان، فرجموهم بالحجارة، واقتلوا عامة الليل، فقتل مَنْ كان مع محمد، ولم يسلم

من الفضل بن سهل، فمكتوا (٣٢٧/٦) كذلك أياماً، وتكلم بعضهم وقالوا: نولي بعضنا، ونخلع المأمون، فكان أشلحهم فيه منصور وإبراهيم بن المهدي.

ذكر الباعث على البيعة لإبراهيم بن المهدي

وفي هذه السنة في ذي الحجة خاض الناس في البيعة لإبراهيم بن المهدي بالخلافة وخلع المأمون ببغداد.

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من إنكار الناس لولاية الحسن بن سهل والبيعة لعلي بن موسى، فأظهر العباسيون ببغداد أنهم قد كانوا بايعوا لإبراهيم ابن المهدي، لخمسة بقين من ذي الحجة، ووضعوا يوم الجمعة رجلاً يقول: إنا نريد أن ندعو للمأمون، ومن بعده لإبراهيم، ووضعوا مَنْ يجيبه بأننا لا نرضى إلا أن تبايعوا لإبراهيم بن المهدي بالخلافة، ومن بعده لإسحاق بن موسى الهادي، وتخلعوا المأمون، ففعلوا ما أمرهم به، فلم يصل الناس الجمعة، وتفرقوا، وكان ذلك لليلتين بقيتا من ذي الحجة من السنة.

ذكر فتح جبال طبرستان والذئلم

في هذه السنة افتتح عبد الله بن خُرداذبَه والي طبرستان البلاذر، والشَّيْزَر، من بلاد الذئلم، وافتتح جبال طبرستان، فأنزله شهریار بن (٣٢٨/٦) سُروين عنها، وأشخص مازيار بن قارن إلى المأمون وأمر أبا ليلى ملك الذئلم.

ذكر ابتداء أمر بابك الخرمي

وفيها تحرَّك بابك الخرمي في الجاويدانية، أصحاب جاويدان بن سهل، صاحب البذ، وأدعى أن روح جاويدان دخلت فيه، وأخذ في العيث والفساد، وتفسير جاويدان الدائمه الباقي، ومعنى خرم فرج، وهي مقالات المَجُوس، والرجل منهم ينكح أمه، وأخته وابنته، ولهذا يسمونه دين الفرج، ويعتقدون مذهب التناسخ، وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره.

ذكر ولاية زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إفريقية

وفي هذه السنة سادس ذي الحجة توفي أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب، أمير إفريقية، وكانت إمارته خمس سنين ونحو شهرين. (٣٢٩/٦)

وكان سبب موته أنه حدّد على كلِّ فدان في عمله ثمانية عشر ديناراً كل سنة، فضاق الناس لذلك وشكا بعضهم إلى بعض، فتقدّم إليه رجل من الصالحين، اسمه حفص بن عمر الجَزْري، مع رجال من الصالحين، فنهوه عن ذلك، ووعظوه، وخوفوه العذاب في الآخرة، وسوء الذكر في الدنيا، وزوال النعمة، فإن الله تعالى اسمه وجل ثناؤه ﴿لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بَأْتُسِهِمْ﴾، وإذا أَرَادَ اللَّهُ

منهم إلا مَنْ نجا إلى البحر ففسح حتى تخلص ذلك في صفر. الرجال، وبذل الأموال.

(٣٣١/٦)

وكان عيال الجند الذين مع منصور بالقيروان، فلم يعرض لهم زيادة الله، فقال الجند لمنصور: الرأي أن تحتل في نقل [العيال] من القيروان لنأمن عليهم، فسار بهم منصور إلى القيروان، وحصر زيادة الله ستة عشر يوماً، ولم يكن منهم قتال، وأخرج الجند تساعهم وأولادهم من القيروان، وانصرف منصور إلى تونس، ولم يبق بيد زيادة الله من إفريقية كلها إلا قبايس، والساحل، ونفزاوة، وطرابلس، فأنهم تمسكوا بطاعته.

وأرسل الجند إلى زيادة الله: إن ارحل عنا، وخلّ إفريقية، ولك (٣٣٣/٦) الأمان على نفسك ومالك، ومن ضمه قصرك فضاق به وغمه الأمر، فقال له سفيان بن سودة: مكّني من عسكري لأختار منهم ماتّي فارس وأسير بهم إلى نفزاوة، فقد بلغني أن عامر بن نافع يريد قصدهم، فإن ظفرت كان الذي تحب، وإن تكن الأخرى عملت برباك، فأمره بذلك فأخذ ماتّي فارس وسار إلى نفزاوة، فدعا برابرها إلى نصرته، فأجابوه، وسارعوا إليه، وأقبل عامر بن نافع في العسكر إليهم، فالتقوا، واقتتلوا، فانهزم عامر ومن معه، وكثر القتل فيهم، ورجع عامر إلى قسطنطينية، فجنّى أموالها ليلاً ونهاراً في ثلاثة أيام، وساروا عنها، واستخلف عليها من يضبطها، فهرب منها أيضاً خوفاً من أهلها، فأرسل أهل قسطنطينية إلى ابن سودة، وسألوه أن يجي إليهم، فسار إليهم، وملك قسطنطينية وضبطها.

وقد قيل إن هذه الحوادث المذكورة سنة ثمان وتسع ومائتين إنما كانت سنة تسع وعشر ومائتين.

(طَبَقَةُ بَضْمِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ النُّونِ وَضَمِّ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ) وبذل معجزة وآخره هاء، وصَطْفُورَةُ بفتح الصاد وسُكُونِ الطَّاءِ وَضَمِّ الْفَاءِ وَسُكُونِ الْوَاوِ وَآخِرُهُ هَاءٌ، وَسَبِيحَةُ بفتح السين الْمَهْمَلَةِ وَكسر الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَسُكُونِ الْيَاءِ تَحْتَهَا نَقَطَتَانِ وَفَتْحُ الْبَاءِ الثَّانِيَةِ الْمُوَحَّدَةِ وَآخِرُهُ هَاءٌ، وَنَفْزَاوَةُ بِالنُّونِ وَالْفَاءِ السَّاكِنَةِ وَفَتْحُ الزَّيِّ وَبَعْدَ الْأَلْفِ وَاوْ ثُمَّ هَاءٌ).

ذكر ما فتحه زيادة الله بن الأغلب من جزيرة صقلية وما كان فيها من الحروب إلى أن توفي

في سنة اثنتي عشرة ومائتين جهّز زيادة الله جيشاً في البحر، وسيّره إلى جزيرة صقلية، واستعمل عليهم أسد بن الفرات، قاضي القيروان، (٣٣٤/٦) وهو من أصحاب مالك، وهو مصنف الأندية في الفقه على مذهب مالك؛ فلما وصلوا إليها ملكوا كثيراً منها.

وكان سبب إنقاذ الجيش أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل

وأصبح منصور، فاجتمع عليه الجند وقالوا: نحن لا نشق بك، ولا نأمن أن يخلبك زيادة الله، ويستملك بدينه، فتميل إليه، فإن أحببت أن نكون معك فاقتل أحداً من أهله ممّن عندك! فاحضر إسماعيل بن سفيان بن سالم بن عقّال، وهو من أهل زيادة الله، فكان هو العامل على تونس، فلما حضر أمر بقتله.

فلما سمع زيادة الله الخبر سيّر جيشاً كثيراً، واستعمل عليهم غلبون، واسمه الأغلب بن عبد الله بن الأغلب، وهو وزير زيادة الله، إلى منصور الطنّيزي، فلما ودّعهم زيادة الله تهذّبهم بالقتل إن انهزموا؛ فلما وصلوا إلى تونس خرج إليهم منصور، فقاتلهم، فانهزم جيش زيادة الله عاشر ربيع الأول، فقال القواد الذين فيه لغلبون: لا نأمن زيادة الله على أنفسنا، فإن أخذت لنا أماناً حضرنا عنده، وفارقوه واستولوا على عدة مدن، فأخذوها، منها: باجة، والجزيرة، وصَطْفُورَةُ ومسر والأريّس وغيرها، فاضطربت إفريقية، واجتمع الجند كلّهم إلى منصور؛ أطاعوه لسوء سيرة زيادة الله معهم.

فلما كثر جمع منصور سار إلى القيروان فحصرها في جمادى الأولى، وخندق على نفسه، وكان بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة؛ وعمر منصور سور القيروان [قوالاه] أهلها، فبقي الحصار عليه أربعين يوماً.

ثم إن زيادة الله عبأ أصحابه، وجمعهم، وسار معهم الفارس والراجل، فكانوا خلقاً كثيراً، فلما رآهم منصور راعه ما رأى وهاله، ولم يكن يعرف (٣٣٢/٦) ذلك من زيادة الله، لما كان فيه من الوهن، فزحف منصور إليه بنفسه أيضاً، فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم منصور ومن معه، ومضوا هارين، وقُتل منهم خلق كثير، وذلك منتصف جمادى الآخرة، وأمر زيادة الله أن يُنتقم من أهل القيروان بما جناه من مساعدة منصور والقتال معه، بما تقدّم أولاً من مساعدة عمران بن مجالد لما قاتل أباه إبراهيم بن الأغلب، فمنعه أهل العلم والدين، فكف عنهم، وخرّب سور القيروان.

ولما انهزم منصور فارقه كثير من أصحابه الذين صاروا معه، منهم: عامر بن نافع، وعبد السلام بن المقرج، إلى البلاد التي تغلبوا عليها؛ ثم إن زيادة الله سيّر جيشاً، سنة تسع ومائتين، إلى مدينة سبيّة، واستعمل عليهم محمّد بن عبد الله بن الأغلب، وكان بها جمع من الجند الذين صاروا مع منصور، عليهم عمر بن نافع، فالتقوا في العشرين من المحرم، واقتتلوا، فانهزم ابن الأغلب، وعاد هو ومن معه إلى القيروان، فعظم الأمر على زيادة الله، وجمع

على جزيرة صقلية بطريقاً اسمه قسطنطين سنة إحدى عشرة ومائتين، فلما وصل إليها استعمل على جيش الأسطول إنساناً رومياً اسمه فيمي، كان حازماً، شجاعاً، فغزا إفريقية، وأخذ من سواحلها تجاراً، ونهب، وبقي هناك مُدَيِّدَةً.

فلما رأى المسلمون ذلك أحرقوا مراكبهم، وعادوا، ورحلوا إلى مدينة ميناو، فحاصروها ثلاثة أيام، وتسلموا الحصن، فسار طائفة منهم إلى حصن جرجنت، فقاتلوا أهله، وملكوه، وسكنوا فيه، واشتدَّت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا.

ثم ساروا إلى مدينة قَصْرِيَّانَة ومعهم فيمي، فخرج أهلها إليه، فقبلوا الأرض بين يديه، وأجابوه إلى أن يملكوه عليهم، وخدعوه، ثم قتلوه.

ووصل جيش كثير من القسطنطينية مدداً لمن في الجزيرة، فتصافوا هم والمسلمون، فانهزم الروم، وقُتل منهم خلق كثير، ودخل من سلم قَصْرِيَّانَة، وتوفي محمد بن أبي الجوارى أمير المسلمين، وولي بعده زهير بن غوث.

ثم إن سرية المسلمين سارت للغنمة، فخرج عليها طائفة من الروم، فاقتلوا، وانهزم المسلمون، وعادوا من الغد، ومعهم جمع العسكر، فخرج إليهم الروم، وقد اجتمعوا وحشدوا، وتصافوا مرة ثانية، فانهزم المسلمون أيضاً، وقُتل منهم نحو ألف قتيل، وعادوا إلى معسكرهم، وخندقوا عليهم، (٣٣٧/٦) فحصرهم الروم، ودام القتال بينهم، فضاقت الأقوات على المسلمين، فعزموا على بيات الروم، فعملوا بهم، ففارقوا الخيم، وكانوا بالقرب منها، فلما خرج المسلمون لم يروا أحداً.

وأقبل عليهم الروم من كل ناحية، فأكثروا القتل فيهم، وانهزم القانون، فدخلوا ميناو، ودام الحصار عليهم، حتى أكلوا الدواب والكلاب.

فلما سمع من في مدينة جُرْجَنْت من المسلمين ما هم عليه هدموا المدينة، وساروا إلى مازر، ولم يقدروا على نصره إخوانهم، ودام الحال كذلك إلى أن دخلت سنة أربع عشرة ومائتين، وقد أشرف المسلمون على الهلاك، وإذ قد أقبل أسطول كثير من الأندلس، خرجوا غزاة، ووصل في ذلك الوقت مراكب كثيرة من إفريقية مدداً للمسلمين، فبلغت عدّة الجميع ثلاثمائة مركب، فنزلوا إلى الجزيرة، فانهزم الروم عن حصار المسلمين، وفوجّ الله عنهم، وسار المسلمون إلى مدينة بَلَرَم، فحاصروها، وضيقوا على من بها، فطلب صاحبها الأمان لنفسه ولأهله ولماله، فأجيب إلى ذلك، وسار في البحر إلى بلاد الرّوم.

ودخل المسلمون البلد في رجب سنة ست عشرة ومائتين، فلم يروا فيه إلّا أقلّ من ثلاثة آلاف إنسان، وكان فيه، لما حصروه،

ثم إن ملك الروم كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي، مقدّم الأسطول، وتعذيبه فبلغ الخبر إلى فيمي، فأعلم أصحابه، فغضبوا له، وأعانوه على المخالفة، فسار في مراكبه إلى صقلية، واستولى على مدينة سَرْقُوسَة، فسار إليه قسطنطين فالتقوا، واقتلوا، فانهزم قسطنطين إلى مدينة قَطَانِيَة، فسار إليه فيمي جيشاً، فهرب منهم، فأخذ قُتل، وخوطب فيمي بالملك، واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلاً اسمه بلاطه، فخالف على فيمي، وعصى، واتّفق هو وابن عم له اسمه ميخائيل، وهو والي مدينة بَلَرَم، وجمعا عسكراً كثيراً، فقاتلا فيمي، وانهزم، فاستولى بلاطه على مدينة سَرْقُوسَة.

وركب فيمي ومن معه في مراكبهم إلى إفريقية، وأرسل إلى الأمير (٣٣٥/٦) زيادة الله يستجده، ويعدّه بملك جزيرة صقلية، فسار معه جيشاً في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين، فوصلوا إلى مدينة مَازَر من صقلية، فساروا إلى بلاطه الذي قاتل فيمي، فلتقيهم جمع للروم، فقاتلهم المسلمون، وأمروا فيمي ومن معه أن يعتزلوهم، واشتد القتال بين المسلمين والروم، فانهزمت الروم، وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم، وهرب بلاطه إلى قَلُورِيَة، فقتل بها.

واستولى المسلمون على عدّة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى قلعة تُغَرَّف بقلعة الكُرَّاث وقد اجتمع إليها خلق كثير، فخدعوا القاضي أسد بن الفرات أمير المسلمين، ودلّوا له، فلما رآهم فيمي مال إليهم، وراسلهم أن يثبتوا، ويحفظوا بلدهم، فبذلوا لأسد الجزية، وسألوه أن لا يقرب منهم، فأجابهم إلى ذلك، وتأخّر عنهم أياماً، فاستعدّوا للحصار، ودفعوا إليهم ما يحتاجون إليه، فامتنعوا عليه، وناصبهم الحرب، وبث السرايا في كل ناحية، فغنموا شيئاً كثيراً، وافتتحوا عمراناً كثيراً حول سَرْقُوسَة، وحاصروا سَرْقُوسَة براً وبحراً، ولحقته الأمداد من إفريقية، فسار إليهم والي بَلَرَم في عساكر كثيرة، فخندق المسلمون عليهم، وحفروا خارج الخندق حفراً كثيرة، فحمل الروم عليهم، فسقط في تلك الحفر كثير منهم، فقتلوا.

وضيّق المسلمون على سَرْقُوسَة، فوصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير، وكان قد حلّ بالمسلمين وباء شديد سنة ثلاث عشرة ومائتين، (٣٣٦/٦) هلك فيه كثير منهم، وهلك فيه أميرهم أسد بن الفرات، وولي الأمر على المسلمين بعده محمد بن

وسير سرية إلى مدينة قصرية، فخرج إليهم العدو، فاقتلوا، فانهزم المسلمون، وأصيب منهم جماعة.

ثم كانت وقعة أخرى بين الروم والمسلمين، فانهزم الروم، وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب كبار برجالها وشلندس. فلما جاء الشتاء وأظلم الليل رأى رجل من المسلمين غيرة من أهل قصرية، ففكر منه، ورأى طريقاً، فدخل منه، ولم يعلم به أحد، ثم انصرف إلى العسكر، فأخبرهم فجاؤوا معه، فدخلوا من ذلك الموضع، وكبروا، وملكوا ريفه، وتحصن (٣٤٠/٦) المشركون منهم بحصنه، فطلبوا الأمان، فأمنوهم، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وعادوا إلى بلزم.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين وصل كثير من الروم في البحر إلى صقلية، وكان المسلمون يحاصرون جلولوذي، وقد طال حصارها، فلما وصل الروم رحل المسلمون عنها، وجرى بينهم وبين الروم الواقيلين حروب كثيرة، ثم وصل الخبر بوفاة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، أمير إفريقية، فوهن المسلمون ثم تشجعوا، وضبطوا أنفسهم.

(سرقوسة بسين مفتوحة وقاف وواو وسين ثانية، ويسلزم بفتح الباء الموحدة واللام وتسكين الراء ويعدها ميم، وميناو بميم وياء تحتها نقطتان ونون وبعد الألف واو، وجرجت بجيم وراء وجيم ثانية مفتوحة [نون] وتام فوقها نقطتان، وقصرية بالقاف والصاد المهمل والراء والياء تحتها نقطتان وبعد الألف نون مشددة وهاء).

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات محمد بن محمد صاحب أبي السرايا. وفيها أصاب أهل خراسان وأصبهان والري مجاعة شديدة، وكثر الموت فيهم؛ وحج بالناس هذه السنة إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. (٣٤١/٦)

سنة اثنتين ومائتين

ذكر بيعة إبراهيم بن المهدي

في هذه السنة بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي بالخلافة، ولقبوه المبارك، وكانت بيعته أول يوم من المحرم، وقيل خامسه، وخلعوا المأمون، وبايعه سائر بني هشام، فكان المتولي لأخذ البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك، فكان الذي سعى في هذا الأمر السدي، وصالح صاحب المصلى، ونصير الوصيف، وغيرهم، غضباً على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس، وتركه لباس آباءه من السواد.

فلما فرغ من البيعة وعد الجند رزق سنة أشهر، ودافعهم بها، فشغبوا عليه، فأعطاهم لكل رجل مائتي درهم، وكتب لبعضهم إلى

سبعون ألفاً، وماتوا كلهم؛ وجرى بين المسلمين: أهل إفريقية، وأهل الأندلس، خلف ونزاع، ثم اتفقوا، وبقي المسلمون إلى سنة تسع عشرة ومائتين، وسار المسلمون إلى مدينة قصرية، فخرج من فيها من الروم، فاقتلوا أشد قتال، ففتح الله على المسلمين وانهزم الروم إلى معسكرهم؛ ثم رجعوا في الربيع، فقاتلوهم، فنصر المسلمون أيضاً، ثم ساروا سنة عشرين ومائتين وأميرهم (٣٣٨/٦) محمد بن عبد الله إلى قصرية، فقاتلهم الروم، فانهزموا، وأسرت امرأة لطريقهم وابنه، وغنموا ما كان في عسكرهم وعادوا إلى بلزم.

ثم سير محمد بن عبد الله عسكراً إلى ناحية طبرزين، عليهم محمد بن سالم، فغنم غنائم كثيرة، ثم عدا عليه بعض عسكره، فقتلوه، ولحقوا بالروم، فأرسل زيادة الله من إفريقية الفضل بن يعقوب عرضاً منه، فسار في سرية إلى ناحية سرقوسة، فأصابوا غنائم كثيرة وعادوا؛ ثم سارت سرية كبيرة، فغنمت وعادت، فعرض لهم البطريق ملك الروم بصقلية، وجمع كثير، فتحصنوا من الروم في أرض وعرة، وشجر كثيف، فلم يتمكن من قتالهم، ووافقهم إلى العصر، فلما رأى أنهم لا يقاتلونهم عاد عنهم، فتفرق أصحابه وتركوا التعبة.

فلما رأى المسلمون ذلك حملوا عليهم حملة صادقة، فانهزم الروم وطعن البطريق، وجرح عدة جراحات، وسقط عن فرسه، فأتاه حماة أصحابه، واستنقذوه جريحاً، وحملوه، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ومتاع ودواب فكانت وقعة عظيمة.

وسير زيادة الله من إفريقية إلى صقلية أبا الأغلب إبراهيم بن عبد الله أميراً عليها، فخرج إليها، فوصل إليها منتصف رمضان، فبعث أسطولاً، فلقوا جمعاً للروم في أسطول، فغنم المسلمون [ما فيه]، فضر أبو الأغلب رقاب كل من فيه. (٣٣٩/٦)

وبعث أسطولاً آخر إلى قوصرة، فظفر بحرقة فيها رجال من الروم، ورجل منتصر من أهل إفريقية، فأتى بهم فضر رقابهم.

وسارت سرية أخرى إلى جبل النار والحصون التي في تلك الناحية، فأحرقوا الزرع وغنموا وأكثروا القتل.

ثم سير أبو الأغلب سنة إحدى وعشرين ومائتين سرية إلى جبل النار أيضاً، فغنموا غنائم عظيمة، حتى بيع الرقيق بأبخس الأثمان، وعادوا سالمين.

وفيها جهز أسطولاً، فساروا نحو الجزائر، فغنموا غنائم عظيمة، وفتحوا مدناً ومعاقل، وعادوا سالمين.

وفيها سير أبو الأغلب أيضاً سرية إلى قسطنطينية فغنموا وسبوا، ولقيهم العدو، فكانت بينهم حرب استظهر فيها الروم.

السواد بقيمة [بقية] ما لهم حنطة وشعيراء، فخرجوا في قبضها، فانتبهوا الجميع، وأخذوا نصيب السلطان وأهل السواد، واستولى إبراهيم على الكوفة والسواد جميعه، وعسكر بالمدائن، واستعمل على الجانب الغربي من بغداد العباس بن موسى الهادي وعلى الجانب الشرقي منها إسحاق بن موسى الهادي.

وخرج عليه مهدي بن علوان الحروري، وغلب على طساسب نهر بوق والراذاتين، فوجه إليه إبراهيم أبا إسحاق بن الرشيد، وهو المعتصم، (٣٤٢/٦) في جماعة من القواد، فلقوه، فاقتلوا، فظعن رجل من أصحابه ابن الرشيد، فحامي عنه غلام تركي يقال له: اشناس، وهزم مهدي إلى حولايا.

وقيل كان خروج مهدي سنة ثلاث ومائتين.

ذكر استيلاء إبراهيم على قصر ابن هبيرة

وكان بقصر ابن هبيرة حميد بن عبد الحميد عاملاً للحسن بن سهل، ومعه من القواد سعيد بن الساجور، وأبو البط، وغسان بن أبي الفرج، ومحمد بن إبراهيم الإفريقي وغيرهم فكتبوا إبراهيم على أن يأخذوا له قصر ابن هبيرة، وكانوا قد تحرّفوا عن حميد، وكتبوا إلى الحسن بن سهل يُخبرونه أن حميداً يكتب لإبراهيم، وكان حميد يكتب فيهم بمثل ذلك، فكتب الحسن إلى حميد يستدعيه إليه، فلم يفعل، خاف أن يسير إليه، فيأخذ هؤلاء القواد ماله وعسكره، ويسلمونه إلى إبراهيم؛ فلما ألح الحسن عليه بالكتب سار إليه في ربيع الآخر، وكتب وألنك القواد إلى إبراهيم لينفذ إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد، فوجهه إليهم، فانتبهوا ما في عسكر حميد فكان مما أخذوا له مائة بدره، وأخذ ابن حميد جوارى أبيه، وسار إليه وهو بعسكر الحسن، ودخل عيسى القصور، وتسلمه لعشر خلون من ربيع الآخر، فقال حميد للحسن: ألم أعلمك؟ لكنك خدعت.

وعاد إلى الكوفة، فأخذ أمواله، واستعمل عليها العباس بن موسى بن جعفر العلوي، وأمره أن يدعو لأخيه علي بن موسى بعد المأمون، وأعانه بمائة (٣٤٣/٦) ألف درهم، وقال له: قاتل عن أخيك، فإن أهل الكوفة يجيبونك إلى ذلك وأنا معك.

فلما كان الليل خرج حميد إلى الحسن، وكان الحسن قد وجه حكيماً حارثي إلى النيل، فسار إليه عيسى بن محمد، فاقتلوا، فانهزم حكيماً، فدخل عيسى النيل، ووجه إبراهيم إلى الكوفة سعيداً، وأبا البط، لقتال العباس بن موسى، وكان العباس قد دعا أهل الكوفة، فأجابه بعضهم.

وأما الغلاة من الشيعة فيأنهم قالوا: إن كنت تدعوننا لأخيك وحده، فنحن معك، وأما المأمون فلا حاجة لنا فيه؛ فقال: إنما

أدعو للمأمون، وبعده لأخي، فقتلوه عنه. فلما أتاه سعيد وأبو البط ونزلوا قرية شامي بعث إليهم العباس ابن عمه علي بن محمد بن جعفر، وهو ابن الذي يبيع له بمكة، وبعث معه جماعة منهم آخر أبي السرايا، فاقتلوا ساعة، فانهزم علي بن محمد العلوي وأهل الكوفة، ونزل سعيد وأصحابه الحيرة، وكان ذلك ثاني جمادى الأولى؛ ثم تقدّموا، فقاتلوا أهل الكوفة، وخرج إلى شيعة بني العباس ومواليهم، فاقتلوا إلى الليل، وكان شعارهم: يا أبا إبراهيم، يا منصور، لا طاعة للمأمون، وعليهم السواد، وعلى أهل الكوفة الخضرة.

فلما كان الغد اقتتلوا، وكان كل فريق منهم إذا غلب على شيء أحرقه ونهبه؛ فلما رأى ذلك رؤساء أهل الكوفة خرجوا إلى سعيد فسألوه الأمان للعباس وأصحابه، فأمنهم على أن يخرجوا من الكوفة، فأجابوه إلى ذلك، ثم اتوا العباس فأعلموه ذلك، فقبل منهم، وتحول عن داره، (٣٤٤/٦) فشغب أصحاب العباس بن موسى على من بقي من أصحاب سعيد، وقاتلوه، فانهزم أصحاب سعيد إلى الخندق، ونهب أصحاب العباس دور عيسى بن موسى، وأحرقوا، وقتلوا من ظفروا به.

فأرسل العباسيون إلى سعيد، وهو بالحيرة، يُخبرونه أن العباس بن موسى قد رجس عن الأمان، فركب سعيد وأصحابه، وأتوا الكوفة عتمة، فقتلوا من ظفروا به ممن انتهب، وأحرقوا ما معهم من النهب، فمكثوا عامة الليل، فخرج إليهم رؤساء الكوفة، فأعلموهم أن هذا فعل الفوغاء، وأن العباس لم يرجع عن الأمان، فانصرفوا عنهم.

فلما كان الغد دخلها سعيد وأبو البط، وتادوا بالأمان، ولم يعرضوا إلى أحد، وولّوا على الكوفة الفضل بن محمد بن الصباح الكندي، ثم عزلوه لميله إلى أهل بلده؛ واستعملوا مكانه غسان بن أبي الفرج، ثم عزلوه بعدما قتل أبا عبد الله أخا أبي السرايا، واستعملوا الهول ابن أخي سعيد، فلم يزل عليها حتى قدمها حميد بن عبد الحميد فهرب الهول.

وأمر إبراهيم بن المهدي عيسى بن محمد أن يسير إلى ناحية واسط على طريق النيل، وأمر ابن عائشة الهاشمي، ونعيم بن حازم أن يسيرا جميعاً، ولحق بهما سعيد، وأبو البط، والإفريقي، وعسكروا جميعاً بالصيادة، قرب واسط، عليهم جميعاً عيسى بن محمد، فكانوا يركبون، ويأتون عسكر الحسن بواسط، فلا يخرج إليهم منهم أحد، وهم متحصّنون بالمدينة.

ثم إن الحسن أمر أصحابه بالخروج إليهم، فخرجوا إليهم لأربع بقين من رجب، فاقتلوا قتالاً شديداً إلى الظهر، وانهزم عيسى وأصحابه، حتى بلغوا طرنايا والنيل، وغنموا عسكر عيسى

وما فيه. (٣٤٥/٦)

فقال: ومن يعلم هذا؟ قال: يحيى بن مُعَاذ، وعبد العزيز بن عمران وغيرهما من وجوه العسكر؛ فأمر بإدخالهم، فدخلوا، فسألهم عما أخبره به علي بن موسى، ولم يُخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل أن لا يعرض إليهم. (٣٤٧/٦)

فضمن لهم ذلك، وكتب له خطه به، فأخبروه بالبيعة لإبراهيم بن المهدي، وأن أهل بغداد قد سمّوه الخليفة السنّي وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان علي بن موسى منه، وأعلموه بما فيه الناس، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة، وأن هرثمة إنما جاءه لينصحه، فقتله الفضل، وإن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة من يده، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما يعلمه، فأخرج من الأمر كله، وجعل في زاوية من الأرض بالرقّة لا يستعان به في شيء، حتى ضعف أمره، وشغب عليه جنده، وأنه لو كان ببغداد لضبط الملك، وأن الدنيا قد تفتّت من أنظارها، وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد، فإن أهلها لو راوكم لأطاعوك.

فلما تحقّق ذلك أمر بالرحيل، فعلم الفضل بالحال، فبغتهم، حتى ضرب بعضهم، وحبس بعضهم، ونسف لحى بعضهم، فقال علي بن موسى للمأمون في أمرهم، فقال: أنا أداري، ثم ارتحل، فلما أتى سرّخس وثب قوم بالفضل بن سهل، فقتلوه في الحمام، وكان قتله لليلتين خلتا من شعبان، وكان الذين قتلوه أربعة نفر أحدهم غالب المسعودي الأسود، وقسطنطين الرومي، وفرج الديلمي، وموفق الصقلي، وكان عمره ستين سنة، وهربوا، فجعل المأمون لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار، فجاء بهم العباس بن الهيثم الدنيوري، فقالوا للمأمون: أنت أمرتنا بقتله، فأمر بهم فضربت رقابهم.

وقيل إن المأمون لما سألهم، فمنهم من قال إن علي بن أبي سعيد ابن (٣٤٨/٦) أخت الفضل بن سهل وضعهم عليه؛ ومنهم من أنكر ذلك فقتلهم؛ ثم أحضر عبد العزيز بن عمران، وعلياً وموسى، وخلقا، فسألهم، فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك، فلم يقبل منهم، وقتلهم، وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وأنه قد صيرّه مكانه، فوصله الخبر في رمضان.

ورحل المأمون إلى العراق، فكان إبراهيم بن المهدي، وعيسى، وغيرهما بالمداين، وكان أبو البطّ وسعيد بالنيل يراوحوان القتال ويغادونه، وكان المطّلب بن عبد الله بن مالك قد عاد من المداين، فاعتلّ بأنّه مريض، فأتى بغداد وجعل يدعو في السرّ إلى المأمون، على أن منصور بن المهدي خليفة المأمون، ويخلصون إبراهيم، فأجابه منصور بن المهدي، وخزّيمة بن خازم، وغيرهما من القواد، وكتب المطّلب إلى علي بن هشام وخميد أن يتقدّما،

ذكر الظفر بسهل بن سلامة

وفي هذه السنة ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوّع، فحبسه، وعاقبه.

وكان سبب ظفّره به أن سهلاً كان مقيماً ببغداد يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاجتمع إليه عامّة أهل بغداد، فلما انهزم عيسى أقبل هو ومن معه نحو سهل بن سلامة، لأنّه كان يذكرهم بأقبح أعمالهم، ويستبهم الفساد، فقاتلوه أياماً، حتى صاروا إلى الدروب، وأعطوا أصحابه الدراهم الكثيرة، حتى تنحّوا عن الدروب، فأجابوا إلى ذلك.

فلما كان السبت لخمس بقين من شعبان، فقصدوه من كل وجه، وخذله أهل الدروب لأجل الدراهم التي أخذوها، حتى وصل عيسى وأصحابه إلى منزل سهل، فاخفى منه، واختلط بالنظارة، فلم يروه في منزله، فجعلوا عليه العيون فلما كان الليل أخذوه، وأتوا به إسحاق بن الهادي، فكلمه، فقال: إنما كانت دعوتي عباسية، وإنما كنت أدعو إلى العمل بالكتاب والسنة، وأنا على ما كنت عليه أدعوكم إليه الساعة؛ فقالوا له: اخرج إلى الناس فقلّ لهم إن ما كنت أدعوكم إليه باطل، فخرج فقال:

أيّها الناس! قد علمتم ما كنت أدعوكم إليه من العمل بالكتاب والسنة، وأنا أدعوكم إليه الساعة؛ فضربوه، وقيدوه، وشتموه، وسبّروه إلى إبراهيم بن المهدي بالمداين، فلما دخل عليه كلمه بما كلم به إسحاق بن (٣٤٦/٦) الهادي، فضربه، وحبسه، وأظهر أنّه قتل خوفاً من الناس، لئلا يعلموا مكانه فيخرجوه، وكان ما بين خروجه وقبضه اثنا عشر شهراً.

ذكر مسير المأمون إلى العراق وقتل ذي الرياستين

وفي هذه السنة سار المأمون من مرو إلى العراق، واستخلف على خراسان، غسان بن عبادة.

وكان سبب مسيره أن علي بن موسى الرضى أخير المأمون بما الناس فيه من الفتنة والقتال، مُدّ قتل الأمين، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من أخبار، وأن أهل بيته والناس قد نعموا عليه أشياء، وأنهم يقولون: مسحور، مجنون، وأنهم قد بايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة.

فقال له المأمون: لم يبايعوه بالخلافة، وإنما صيروه أميراً يقوم بأمرهم على ما أخبر به الفضل، فأعلمه أن الفضل قد كذبه، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وإبراهيم، والناس يتقمون عليك مكانه، ومكان أخيه الفضل، ومكاني، ومكان بيعتك لي من بعدك.

عشر ربيع الآخر، وبقيت إلى آخر الليل، وذهبت الحمرة، وبقي عمودان أحمران إلى الصبح.

وفيها توفي أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي اليزيدي المقرئ صاحب أبي عمرو بن العلاء، وإنما قيل اليزيدي لأنه صحب يزيد بن منصور خال المهدي وكان يعلم ولده.

وفيها توفي سهل والد ذي الرياستين، بعد قتل ابنه بستة أشهر، وعاشت أمه حتى أدركت عرس بوران ابنة ابنها. (٣٥١/٦)

سنة ثلاث ومائتين

ذكر موت علي بن موسى الرضى

في هذه السنة مات علي بن موسى الرضى، عليه السلام، وكان سبب موته أنه أكل عنياً فأكثر منه، فمات فجأة، وذلك في آخر صفر، وكان موته بمدينة طوس، فصلّى المأمون عليه، ودفنه عند قبر أبيه الرشيد.

وكان المأمون لما قدمها قد أقام عند قبر أبيه؛ وقيل إن المأمون سمه في عنب، وكان علي يحب العنب، وهذا عندي بعيد.

فلما توفي كتب المأمون إلى الحسن بن سهل يُعلمه موته علي، وما دخل عليه من المصيبة بموته، وكتب إلى أهل بغداد، وبني العباس والموالي يُعلمهم موته، وأنهم إنما تقموا ببيعته، وقد مات، ويسألهم الدخول في طاعته، فكتبوا إليه أغلظ جواب.

وكان مولد علي بن موسى بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة.

ذكر قبض إبراهيم بن المهدي على عيسى بن محمد

وفي هذه السنة، في آخر شوال، حبس إبراهيم بن المهدي عيسى بن محمد بن أبي خالد. (٣٥٢/٦)

وسبب ذلك أن عيسى كان يكاتب حُميداً، والحسن بن سهل، وكان يظهر لإبراهيم الطاعة، وكان كلما قال له إبراهيم ليخرج إلى قتال أحمد يعتبر بأن الجند يريدون أرزاقهم، ومرة يقول: حتى تدرك الغلة، فلما توثق عيسى بما يريد، فارقه على أن يدفع إليهم إبراهيم بن المهدي يوم الجمعة سلخ شوال.

وبلغ الخبر إبراهيم، أبلغه هارون بن محمد أخو عيسى، وجاء عيسى إلى باب الجسر، فقال للناس: إني قد سألت حُميداً ألا يدخل عملي، ولا أدخل عمله؛ ثم أمر بحفر خندق بباب الجسر، وباب الشام.

وبلغ إبراهيم قوله وفعله، وكان عيسى قد سأله إبراهيم أن يصلي الجمعة بالمدينة، فأجابه إلى ذلك، فلما تكلم عيسى بما

فينزل حُميد نهر صرصر، وينزل علي التهران.

فلما علم إبراهيم بن المهدي بذلك عاد عن المدائن نحو بغداد، فنزل زَنْدَوْرَدَ منتصف صفر، وبعث إلى المطلب ومنصور وخزيمة يدعوه، فاعتلوا عليه، فلما رأى ذلك بعث عيسى إليهم، فأمّا منصور وخزيمة فأعطوا بأيديهما؛ وأمّا المطلب فمنعه مواليه وأصحابه، فنادى منادي إبراهيم: مَنْ أراد النهب فليأت دار المطلب، فلما كان وقت الظهر وصلوا إلى داره فنهبوا، ونهبوا دور أهله، ولم يظفروا به، وذلك لثلاث عشرة بقيت من صفر، فلما بلغ حُميداً وعلي بن هشام الخبر أخذ حُميد المدائن ونزلها، وقطع الجسر، وأقاموا بها، وندم إبراهيم حيث صنع بالمطلب ما صنع، ثم لم يظفروا به. (٣٤٩/٦)

ذكر قتل علي بن الحسين الهمداني

في هذه السنة قُتل علي بن الحسين الهمداني وأخوه أحمد وجماعة من أهل بيته، وكان متغلباً على الموصل.

وسبب قتله أنه خرج ومعه جماعة من قومه ومن الأزد، فلما نظر إلى رُستاق نينوى والمرج قال: نعم البلاد لإنسان واحداً! فقال بغض الأزد: فما نصنع نحن؟ قال: تلحقون بعمان؛ فانتشر الخبر.

ثم إن علياً أخذ رجلاً من الأزد يقال له عَوْنُ بن جَبَلَة، فبنى عليه حائطاً، فمات فيه، وظهر خبره، فركبت الأزد، وعليهم السيد بن أنس، فاقتلوا، واستنصر علي بن الحسين بخارجي يقال له مهدي بن علوان، فأتاه، فدخل البلد، وصلى بالناس، ودعا لنفسه، واشتدّت الحرب، وكانت أخيراً على علي بن الحسين وأصحابه، فخرجوا عن البلد إلى الحديثة، فتبعهم الأزد إليها، فقتلوا علياً وأخاه أحمد وجماعة من أهلهم، وسار أخوهما محمد إلى بغداد، فتجا وعادت الأزد إلى الموصل، وغلب السيد عليها وخطب للمأمون وأطاعه.

(الهمداني هاهنا نسبة إلى همدان بسكون الميم وبالدال المهملة، وهي قبيلة من اليمن). (٣٥٠/٦)

ذكر عدة حوادث

وفيها تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل.

وفيها أيضاً زوّج المأمون ابنته أم حبيب من علي بن موسى الرضى، وزوّج ابنته أم الفضل من محمد بن علي الرضى بن موسى؛ وحج بالناس هذه السنة إبراهيم بن موسى بن جعفر ودعا لأخيه، بعد المأمون، بولاية العهد، ومضى إلى اليمن، وكان حَمْدَوْنُ بن علي بن عيسى بن ماهان قد غلب على اليمن.

وفيها في ربيع الآخر ظهرت حمرة في السماء ليلة السبت رابع

وكان المطلب بن عبد الله بن مالك قد اختفى من إبراهيم، كما ذكرنا، فلما قدم حميد أراد العبور إليه، فعلموا به، فأخذوه، وأحضره عند إبراهيم، فحبسه ثلاثة أيام، ثم خلى عنه ليلة خلت من ذي الحجة.

ذكر اختفاء إبراهيم بن المهدي

وفي هذه السنة اختفى إبراهيم بن المهدي؛ وكان سبب ذلك أن حميداً تحول فنزل عند أرحاء عبد الله بن مالك، فلما رأى أصحاب إبراهيم وقواده ذلك تسللوا إليه، فصار عامتهم عنده، وأخذوا له المدائن.

فلما رأى إبراهيم فعلهم أخرج جميع من بقي عنده حتى يقاتلوا، فالتقوا على جسر نهر ديبالي، فاقتتلوا، فهزمهم حميد، وتبعهم أصحابه، حتى دخلوا بغداد، وذلك سلبخ ذي القعدة.

فلما كان الأضحى اختفى الفضل بن الربيع، ثم تحول إلى حميد، وجعل الهاشميون والقواد يأتون حميداً واحداً بعد واحد، فلما رأى ذلك إبراهيم سقط في يديه، وشق عليه؛ وكانت المطلب حميداً ليسلم إليه (٣٥٥/٦) ذلك الجانب، وكان سعيد بن الساجور، وأبو البط وغيرهما، يكتابون علي بن هشام على أن يأخذوا له إبراهيم، فلما علم إبراهيم بأمرهم، وما اجتمع عليه كل قوم من أصحابه، جعل يداريهم، فلما جئته الليل اختفى ليلة الأربعاء ثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة.

وبعث المطلب إلى حميد يعلمه أنه قد أحرق بدار إبراهيم، وكتب ابن الساجور إلى علي بن هشام، فركب حميد من ساعته من أرحاء عبد الله، فأتى باب الجسر، وجاء علي بن هشام حتى نزل نهر بين، ثم تقدم إلى مسجد كوثر، وأقبل حميد إلى دار إبراهيم فطلبوه فلم يجدوه فيها؛ فلم يزل إبراهيم متوارياً حتى جاء المأمون، وبعد ما قدم، حتى كان من أمره ما كان.

وكانت أيام إبراهيم سنة واحد عشر شهراً وإثني عشر يوماً، وكان بعده علي بن هشام على شرقي بغداد، وحميد على غربيها، وكان إبراهيم قد أطلق سهل بن سلامة من الحبس، وكان الناس يظنون أنه قد قُتل، فكان يدعو في مسجد الرصافة إلى ما كان عليه، فإذا جاء الليل يرد إلى حيسه، ثم إنه أطلقه، وخلق سبيله ليلة خلت من ذي الحجة، فذهب، فاخفى، ثم ظهر بعد هرب إبراهيم، ففر به حميد، وأحسن إليه، وردّه إلى أهله، فلما جاء المأمون أجازاه ووصله. (٣٥٦/٦)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انكسفت الشمس لليلتين بقيتا من ذي الحجة، حتى ذهب ضوءها، وغاب أكثر من ثلثيها. ووصل المأمون إلى

تكم، حذر إبراهيم، وأرسل إلى عيسى يستدعيه، فاعتل عليه، فتابع الرسل بذلك، فحضر عنده بالرصافة، فلما دخل عليه عاتبه ساعة، وعيسى يعتذر إليه، وينكر بعضه، فأمر به إبراهيم فضرب، وحبس، وأخذ عدة من قواده وأهله، فحبسهم ونجا بعضهم، وفيمن نجا خليفته العباس.

ومشى بعض أهله إلى بعض، وحرّضوا الناس على إبراهيم، وكان أشدهم العباس خليفه عيسى، وكان هو رأسهم، فاجتمعوا، وطرّدوا عامل إبراهيم على الجسر، والكرخ وغيره، وظهر الفساق والشطار، وكتب العباس إلى حميد يسأله أن يقدم عليهم حتى يسلموا إليه بغداد. (٣٥٣/٦)

ذكر خلع إبراهيم بن المهدي

وفي هذه السنة خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي؛ وكان سبب ذلك ما ذكرنا من قبضه على عيسى بن محمد، على ما تقدّم، فلما كاتب أصحابه، ومنهم العباس، حميداً بالقدوم عليهم، سار حتى أتى نهر صرصر فنزل عنده.

وخرج إليه العباس وقواد أهل بغداد، فلقوه، وكانوا قد شرطوا عليه أن يعطي كل جندي خمسين درهماً، فأجابهم إلى ذلك، ووعدهم أن يصنع لهم العطاء يوم السبت في الياسرية على أن يدعو للمأمون بالخلافة يوم الجمعة، ويخلعوا إبراهيم، فأجابوه إلى ذلك.

ولما بلغ إبراهيم الخبر أخرج عيسى ومن معه من إخوته من الحبس، وسأله أن يرجع إلى منزله، ويكفيه أمر هذا الجانب، فأبى عليه.

فلما كان يوم الجمعة أحضر العباس بن محمد بن أبي رجاء الفقيه، فصلى بالناس الجمعة، ودعا للمأمون بالخلافة، وجاء حميد إلى الياسرية، فعرض جند بغداد، وأعطاهم الخمسين التي وعدهم، فسألوه أن ينقصهم عشرة عشرة لما تشاءوا به من علي بن هشام حين أعطاهم الخمسين وقطع العطاء عنهم، فقال حميد: بل أزيدكم عشرة وأعطيتكم ستين درهماً لكل رجل.

فلما بلغ ذلك إبراهيم دعا عيسى وسأله أن يقاتل حميداً، فأجابه إلى ذلك، فخلق سبيله، وأخذ منه كفلاً، وكلّم عيسى الجند، ووعدهم أن (٣٥٤/٦) يعطيهم مثل ما أعطاهم حميد، فأبوا ذلك، فعبر إليهم عيسى وقواد الجانب الشرقي، ووعد أولئك الجند أن يزيدهم على الستين، فشتموه وأصحابه، وقالوا: لا نريد إبراهيم، فقاتلهم ساعة، ثم ألقي نفسه في وسطهم، حتى أخذه شبه الأسير، فأخذه بعض قواده، فأتى به منزله، ورجع الباقيون إلى إبراهيم، فأخبروه الخبر، فأغتم لذلك.

ولما كان سائراً قال له أحمد بن أبي خالد الأحول: يا أمير المؤمنين، فكرت في هجومتنا على أهل بغداد وليس معنا إلا خمسون ألف درهم مع (٣٥٨/٦) فتنة غلبت قلوب الناس، فكيف يكون حالنا إذا هاج هائج، أو تحركت متحركة؟ فقال: يا أحمد صدقت، ولكن أخبرك أنّ الناس على طبقات ثلاث في هذه المدينة: ظالم، ومظلوم، ولا ظالم ولا مظلوم، فأما الظالم فلا يتوقع إلا عفونا؛ وأما المظلوم فلا يتوقع إلا أن ينتصف بنا؛ وأما الذي ليس بظالم ولا مظلوم فينتصه؛ وكان الأمر على ما قال.

ذكر عدة حوادث

وفيها أمر المأمون بمقاسمة أهل السواد على الخمسين، وكانوا يقاسمون على النصف، واتخذ القفيز الملح، وهو عشرة مكايك بالموك الهاروني، كيلاً مرسلًا.

وفيها واقع يحيى بن معاذ بابك، فلم يظفر واحد منهما بصاحبه؛ وولى المأمون أبا عيسى أخاه الكوفة، وصالحاً أخاه البصرة، واستعمل عبيد الله ابن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب [على] الحرّين؛ وحجّ بالنّاس عبيد الله [بن الحسن].

وفيها انحدر السيّد بن أنس الأزدي من الموصل إلى المأمون فتظلم منه (٣٥٩/٦) محمد بن الحسن بن صالح الهمداني، وذكر أنّه قتل إخوته وأهل بيته، فأحضره المأمون، فلمّا حضر قال: أنت السيّد؟ قال: أنت السيّد، يا أمير المؤمنين، وأنا ابن أنس، فاستحسن ذلك، فقال: أنت قتلت إخوة هذا؟ قال: نعم، ولو كان معهم لقتلته لأنهم أدخلوا الخارجي بلدك، وأعلوه على منبرك، وأبطلوا دعوتك. فعفا عنه، واستعمله على الموصل، وكان على القضاء بها الحسن بن موسى الأشيب.

وفي هذه السنة مات الإمام محمد بن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، وكان مولده سنة خمسين ومائة؛ والحسن بن زياد اللؤلؤي الفقيه، أحد أصحاب أبي حنيفة، وأبو داود سليمان بن داود الطيالسي، صاحب المسنّد، ومولده سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وهشام بن محمد السائب الكلبي السّابة، وقيل مات سنة ست ومائتين.

وفيها توفي محمد بن عبيد بن أبي أمية، المعروف بالطنافسي، وقيل سنة خمس ومائتين. (٣٦٠/٦)

سنة خمس ومائتين

ذكر ولاية طاهر خراسان

وفي هذه السنة استعمل المأمون طاهر بن الحسين على المشرق، من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق، وكان قبل

هذان في آخر ذي الحجة؛ وحجّ بالنّاس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي؛ وكانت بخراسان زلازل عظيمة، ودامت مقدار سبعين يوماً، وكان معظمها بيلسخ، والجوزجان، والفارياب، والطالقان، وما وراء النهر، فخرت البلاد، وتهدمت الدور، وهلك فيها خلق كثير.

وفيها غلبت السواد على الحسن بن سهل فتغيّر عقله حتى شدّ في الحديد وخبس، وكتب القواد إلى المأمون بذلك فجعل على عسكري دينار بن عبد الله، وأرسل إليهم يعرفهم أنّه واصل.

وفيها ظهر بالأندلس رجل يُعرف بالولد، وخالف على صاحبها، فسير إليه جيشاً، فحصره بمدينة باجة، وكان استولى عليها، فضيقوا عليه، فملكوها وقيد.

وفيها ولي أسد بن الفرات الفقيه القضاء بالقيروان.

وفيها توفي محمد بن جعفر الصادق بجرجان، وصلى عليه المأمون، وهو الذي بايعه الناس بالخلافة بالحجاز.

وفيها توفي خزّمة بن خازم التميمي في شعبان، وهو من القواد المشهورين وقد تقدّم من أخباره ما يُعرف به محلّه؛ ويحيى بن آدم بن سليمان؛ وأبو أحمد الزبيري؛ ومحمد بن بشير العبدّي الفقيه بالكوفة؛ والنضر بن شمّيل اللّغوي المحدث وكان ثقة. (٣٥٧/٦)

سنة أربع ومائتين

ذكر قدوم المأمون بغداد

في هذه السنة قدم المأمون بغداد، وانقطعت الفتن، وكان قد أقام بجرجان شهراً، وجعل يقيم بالمنزل اليوم واليومين والثلاثة؛ وأقام بالنهر وآن ثمانية أيام، فخرج إليه أهل بيته والقواد، ووجوه النّاس، وسلّموا عليه.

وكان قد كتب إلى طاهر، وهو بالرّقة، ليوافيه بالنّهر وآن، فأتاه بها، ودخل بغداد منتصف صفر، ولباسه ولباس أصحابه الخضرة، فلمّا قدم بغداد نزل الرّصافة، ثم تحوّل ونزل قصره على شاطئ دجلة، وأمر القواد أن يقيموا في معسكرهم.

وكان النّاس يدخلون عليه في الثياب الخضرة، وكانوا يخرقون كلّ ملبوس يرونه من السواد على إنسان، فمكثوا بذلك ثمانية أيام، فتكلّم بنو العباس وقواد أهل خراسان، وقيل إنّه أمر طاهر بن الحسين أن يسأله حوائجه، فكان أوّل حاجة سأله أن يلبس السواد، فأجابته إلى ذلك، وجلس للنّاس، وأحضر سواداً فلبسه، ودعا بخلعة سوداء، فألبسها طاهراً، وخلع على قواده السواد، فعاد النّاس إليه، وذلك لسبع بقين من صفر.

ذلك يتولى الشُرط بجائني بغداد ومعاون السواد.

ذكر عدة حوادث

وكان سبب ولايته خراسان أن طاهراً دخل على المأمون وهو يشرب النبيذ، وحسين الخادم يسقيه، فلما دخل طاهر سقاه رطلين، وأمره بالجلوس، فقال: ليس لصاحب الشرطة أن يجلس عند سيده، فقال المأمون: ذلك في مجلس العامة، وأما في مجلس الخاصة فله ذلك؛ فبكى المأمون وتغرغت عيناه بالدموع، فقال طاهر: يا أمير المؤمنين! لم تبكي، لا أبكي الله عينك؟ والله لقد دانت لك البلاد، وأذن لك العباد، وصرت إلى المحبة في كل أمر! قال: أبكي لأمر ذكره ذلك، وستره حزناً، ولن يخلو أحد من شجن.

وانصرف طاهر، فدعا هارون بن جيعونة وقال له: إن أهل خراسان يتعصب بعضهم لبعض، فخذ منك ثلاثمائة ألف درهم، فأعط حسينا الخادم مائتي ألف، وكاتبه محمد بن هارون مائة ألف، وسأله أن يسأل المأمون (٣٦١/٦) لم بكى؟ ففعل ذلك، فلما تغذى المأمون قال: اسقني يا حسين، قال: لا والله، حتى تقول لي لم بكيت حين دخل عليك طاهر، قال: وكيف عُيِّيت بهذا الأمر، حتى سألتني عنه؟ قال: لغني لذلك. قال: هو أمر إن خرج من رأسك قتلتك، قال: يا سيدي ومتى أخرجت لك سرّاً؟ قال: إنني ذكرت محمداً أخي، وما ناله من ذلك، فخنقنني العبرة، فاسترحمت إلى الإفاضة، ولن يفوت طاهراً مني ما يكره.

فأخبر حسين طاهراً بذلك، فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد، فقال له: إن الثناء مني ليس برخيص، وإن المعروف عندي ليس بضائع، فعيّيتني عن عينه! فقال له: سأفعل ذلك. وركب أحمد إلى المأمون، فلما دخل عليه قال له: ما نمت البارحة. قال: ولم؟ قال: لأنك وليت غسان خراسان، وهو ومن معه أكلة رأس، وأخاف أن تخرج عليه خراجة من الترك فتهلكه؛ فقال: لقد فكّرت فيما فكّرت فيه، فمن ترى؟ قال: طاهر بن الحسين. قال: وليك! هو والله خالع؛ قال: أنا الضامن له؛ قال: فوّلّه، فدعا طاهراً من ساعته، فعقد له، فشحخص في يومه، فنزل طاهر البلد، فأقام شهراً، فحمل إليه عشرة آلاف درهم التي تحمل لصاحب خراسان، وسار عن بغداد لليلة بقيت من ذي القعدة.

وقيل كان سبب ولايته أن عبد الرحمن المطوّعي جمع جمعاً كثيرة بنيسابور ليقاتل بهم الخووية بغير أمر والي خراسان، فتخوفوا أن يكون ذلك لأصل عمل عليه، وكان غسان بن عباد يتولى خراسان من قبل الحسن ابن سهل، وهو ابن عمه، فلما استعمل طاهر على خراسان كان صارماً للحسن بن سهل، وسبب ذلك أن الحسن نذبه لمحاربة نصر بن شبيب، (٣٦٢/٦) قال: حاربت خليفة، وسُئلت الخلافة إلى خليفة، وأومر بمثل هذا؟ إنما كان ينبغي أن يتوجّه إليه قائد من قوّادي، وصارم.

وفيها قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين بغداداً من الرقة، وكان أبوه استخلفه بها، وأمره بقتال نصر بن شبيب، فلما قدم إلى بغداد جعله المأمون على الشرطة بعد مسير أبيه، وولى المأمون يحيى بن مُعاذ الجزيرة، وولى عيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك.

وفيها مات السري بن الحكم بمصر، وكان والياً.

وفيها مات داود بن يزيد عامل السند، فولّاه المأمون بشير بن داود على أن يحمل كل سنة ألف ألف درهم.

وفيها ولى المأمون عيسى بن يزيد الجلودي محاربة الرُط؛ وحج بالناس عبيد الله بن الحسن أمير مكة والمدينة.

وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة، فتهدمت المنازل ببغداد، وكثر الخراب بها.

وفي هذه السنة توفي يزيد بن هارون الواسطي، ومولده سنة تسع عشرة ومائة؛ والحجاج بن محمد الأعور الفقيه؛ وشبابه بن سوار الفزاري الفقيه؛ وعبد الله بن نافع الصائغ؛ ومحاضر بن المورّع؛ وأبو يحيى إبراهيم بن موسى الزيات الموصللي، سمع هشام بن عروة وغيره. (٣٦٣/٦)

سنة ست ومائتين

ذكر ولاية عبد الله بن طاهر الرقة

وفي هذه السنة ولى المأمون عبد الله بن طاهر من الرقة إلى مصر، وأمره بحرب نصر بن شبيب.

وكان سبب ذلك أن يحيى بن مُعاذ الذي كان المأمون ولّاه الجزيرة مات في هذه السنة، واستخلف ابنه أحمد، فاستعمل المأمون عبد الله مكانه، فلما أراد توليته أحضره وقال له: يا عبد الله استخير الله، تعالى، منذ شهر وأكثر، وأرجو أن يكون قد خار لي، ورأيت الرجل يصف ابنه [ليطويه] لرايه فيه، ورأيتك فوق ما قال أبوك فيك، وقد مات يحيى، واستخلف ابنه، وليس بشيء، وقد رأيت توليتك مصر ومحاربة نصر بن شبيب.

فقال: السمع والطاعة، وأرجو أن يجعل الله لأمير المؤمنين الخيرة وللمسلمين؛ فعقد له، وقيل كانت ولايته سنة خمس ومائتين، وقيل سبع ومائتين.

ولما سار استخلف على الشرطة إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مُصعب، (٣٦٤/٦) وهو ابن عمه، ولما استعمله المأمون كتب إليه أبوه طاهر كتاباً جمع فيه كل ما يحتاج إليه

المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك، والهيبة لسلطانك، والأنسة بك، والثقة بعدلك.

وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء آيين نفعاً، ولا أخص مناً، ولا أجمع فضلاً منه، والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق قائد إلى السعادة، وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد، وأكثره في دنياك كلها، ولا تقصّر في طلب الآخرة، والأجر، والأعمال الصالحة، والسنن المعروفة، ومعالم الرشد، ولا غاية للاستكثار في البرّ والسعي له، إذا كان يُطلب به وجه الله، تعالى، ومرضاته ومراقبة أوليائه في دار كرامته.

واعلم أنّ القصد في شأن الدنيا يُورث العزّ، ويحصّن من الذنوب، وأنّه لن تحوط لنفسك ومنّ يليك، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه، فأتوه واحتسبوا به تتمّ أمورك، وتزد مقدرتك، وتصلح خاصّتك وعامّتك.

واحسين الظنّ بالله، عزّ وجلّ، تستقمّ لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدّم به النعمة عليك.

ولا تتهنّ أحداً من الناس فيما تولّيه من عملك، قبل أن تكشف أمره، (٣٦٧/٦) فإنّ إيقاع التهم بالبراء، والظنون السيئة بهم مائم، فاجعل من شأنك حسن الظنّ بأصحابك، واطرد عنك سوء الظنّ بهم، وارفضه فيهم يُعينك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم، ولا يجدنّ عدوّ الله الشيطان في أمرك مغمراً، فإنّه إنّما يكتفي بالقليل من وهنك، ويدخل عليك من الغمّ في سوء الظنّ ما ينقصك لذادة عيشك.

واعلم أنّك تجد بحسن الظنّ قوة وراحة، وتكتفي به ما أحبيت كفايته من أمورك، وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها لك، ولا يمنعنك حسن الظنّ بأصحابك، والرافة برعيتك، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك، ولتكن المباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرعية، والنظر فيما يُقيمها ويصلحها، والنظر في حوائجهم، وحمل مؤناتهم. أثر عندك ممّا سوى ذلك، فإنّه أقوم للدين، وأخيا للسنة.

وأخلص نيتك في جميع هذا، وتفردّ بتقويم نفسك، تفردّ من يعلم أنّه مسؤول عمّا صنع، ومجزى بما أحسن، وماخوذ بما أساء، فإنّ الله، عزّ وجلّ، جعل الدين حوزاً وعزّاً، ورفع من اتبعه وعزّه، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين، وطريقة الهدى.

واقم حدود الله، عزّ وجلّ، في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم، وما استحقّوه، ولا تعطلّ ذلك، ولا تهاون به، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإنّ في تفریطك في ذلك ما يُفسد عليك حسن ظنّك، واعتزم (٣٦٨/٦) على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة،

الأمراء من الآداب والسياسة وغير ذلك، وقد أثبتّ منه أحسنه لما فيه من الآداب والحثّ على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، لأنّه لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة، وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته، ومراقبته، عزّ وجلّ، ومزايلة سخطه، وحفظ رعيتك في الليل والنهار، والزّم ما ألبسك من العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه، وموقوف عليه، ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كلّه بما يعصمك الله، عزّ وجلّ، وينجّيك يوم القيامة من عقابه، وأليم عذابه، فإنّ الله، سبحانه وتعالى، قد أحسن إليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباد، والزّمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم، والذبّ عنه، والدفع عن حريمهم وبيضتهم، والحقق لدعائهم، والأمن لسييلهم، وإدخال الراحة عليهم، ومؤاخذه بما فرض عليك، وموقفك عليه، ومساثلك عنه، ومثيبك عليه بما قدّمت وأخّرت، ففرّغ لذلك فهمك، وعقلك، ونظرك، ولا يشغلك عنه شاغل، وإنّه رأس أمرك، وملاك شأنك، وأول ما يوقفك الله، عزّ وجلّ، به لرشدك. (٣٦٥/٦)

وليكنّ أوّل ما تلزم نفسك، وتسبب إليه أفعالك، المواظبة على ما افترض الله، عزّ وجلّ، عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس، فأت بها في مواقيتها على سننها وفي إصباح الوضوء لها وافتتاح ذكر الله، عزّ وجلّ، [فيها]، وترتل في قراءتك، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهّدك، وليصدق فيه رأيك، ونيتك، واحضض عليها جماعة من معك، وتحت يدك، وادأب عليها فإنّها كما قال الله، عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ثمّ اتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ والمشاورة على خلافته، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعنّ عليه باستخارة الله، عزّ وجلّ، وتقواه، ولزوم ما أنزل الله، عزّ وجلّ، في كتابه من أمره ونهيّه، وحلاله وحرامه، وإتمام ما جاء به الآثار عن رسول الله ﷺ ثمّ قم فيه بما يحقّ لله، عزّ وجلّ، عليك، ولا تملّ من العدل في ما أحبيت أو كرهت لقريب من الناس، أو بعيد.

وآثر الفقه وأهله والدين وحملتته، وكتاب الله، عزّ وجلّ، والعاملين به، فإنّ أفضل ما تزين به المرء الفقه في الدين، والطلب له، والحثّ عليه، والمعرفة بما يتقرّب به إلى الله، عزّ وجلّ، فإنّه الدليل على الخير كلّ، (٣٦٦/٦) والقائد له، والأمر به، والنّهاي عن المعاصي والموبقات كلها، ومع توفيق الله، عزّ وجلّ، يزداد العبد معرفة لله، عزّ وجلّ، وإجلالاً له، ذكراً للدرجات العلى في

وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتقم لك مروءتك. ولتعظم حستك فيه، وإتّما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله، واعرف للشاركين شكرهم، وإثيبهم عليه.

وإذا عاهدت عهداً فف به، وإذا وعدت خيراً فأنجزه، وأقبل الحسنة، وادفع بها، وأغضض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهله، وأقص أهل النعمة، فإن أول فساد أمورك، في عاجلها وآجلها، تقريب الكذوب، والجرأة على الكذب، لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمتها، لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها، ولا يسلم له صاحب، ولا يستتم لمطيعها أمر.

وأحب أهل الصلاح والصدق، وأعين الأشراف بالحق، وآسى الضعفاء، وصلى الرحم، وابتغ بذلك وجه الله، تعالى، وإعزاز أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة، واجتنب سوء الأهواء والجور، وأصرف عنهما رأيك، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك، وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحق فيهم والمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى.

واملك نفسك عند الغضب، وآثر الوقار والحلم، وإياك والجدّة، والطيرة، والغرور فيما أنت بسبيله، وإياك أن تقول: أنا مسلط أفعّل ما أشاء، فإن ذلك سريع [فيك] إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله، عز وجل.

وأخلص لله وحده، لا شريك له، النية فيه، واليقين به، واعلم أنّ الملك لله، سبحانه وتعالى، يؤتيه من يشاء وينزع ممّن يشاء، ولن تجد تغيّر (٣٦٩/٦) النعمة، وحلول النعمة إلى أحد أسرع منه إلى حمله النعمة من أصحاب السلطان، والمبسوط لهم في الدولة، إذا كفروا بنعم الله، عز وجل، وإحسانه، واستطالوا بما آتاهم الله، عز وجل، من فضله.

ودع عنك شرّ نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك، التي تدخر وتكنز، البر، والتقوى، والمعدلة، واستصلاح الرعية، وعمارة بلادهم، والتفقد لأمرهم، والحفظ لدمائهم، والإغاثة لملهوفهم؛ واعلم أنّ الأموال إذا كثرت، وذخرت في الخزائن لا تنمو، وإذا كانت في صلاح الرعية، وإعطاء حقوقهم، وكف مؤونة عنهم، سمّت، وزكت، ونمت، وصلحت به العامة، وتزيّنت به الولاية، وطاب به الزمان، واعتقد فيه العزّ والمنعة، فليكن كثر خزانك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله، ووفرّ منه على أولياء أمير المؤمنين، فذلك حقوقهم، وأوفر رعيتك من ذلك حصصهم، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم، فإنك إذا فعلت ذلك قرّرت النعمة عليك، واستوجبت المزيد من الله، عز وجل، وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك، وعملك أقدر، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك، وأطيب نفساً بكل ما أردت، واجهد نفسك فيما حدّدت لك في هذا الباب،

واجعل للمسلمين كلّهم من نيتك حظاً ونصيباً، وأيقن أنّ الجود من أفضل أعمال العباد، فاعده نفسك خلقاً، وسهّل طريق الجود بالحق، وارض به عملاً ومذهباً، وتفقد أمور الجند في دواوينهم، ومكاتبتهم، وادرر عليهم أرزاقهم، ووسّع عليهم في معاشهم يُذهب الله، عز وجل، بذلك فاقتهم، فيقوى لك أمرهم، وتزيد به قلوبهم في طاعتك في أمرك خلوصاً وانسراحاً.

وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله، وحيطة، وإنصافه، وعنايته، وشفقته، وبرّه، وتوسيعه، فزائل مكروه إحدى البليتين باستشعار فضيلة الباب الآخر، ولزوم العمل به تلق، إن شاء الله تعالى، نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً.

شاء الله تعالى.

واجعل في كل كورة من عملك أميناً يُخبرك أخبار عمالك، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كل عامل في عمله معين لأموره كلها، فإن أردت أن تامرهم بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه، والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع، والصنع، فامضيه، وإلا فتوقف عنه، وراجع أهل البصر والعلم به، ثم خذ فيه (٣٧٤/٦) عدته، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أموره قد اتاه على ما يهوى، فأغواه ذلك، وأعجبه، فإن لم ينظر في عواقبه أهلكه، ونقض عليه أمره، فاستعمل الحزم في كل ما أردت، وباشره بعد عون الله، عز وجل، بالقوة، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك، وافرغ من عمل يومك، ولا تؤخره لغيرك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لغير أموراً وحوادث تلهمك عن عمل يومك الذي أخرت.

واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمور يومين، فيشغلك ذلك، حتى تعرض عنه، وإذا أمضيت لكل يوم عمله، أرحت نفسك وبدنك، وأحكمت أمور سلطانك.

وانظر أحرار الناس وذوي السن منهم ممن تستيقن صفاء طوبتهم، وشهدت مودتهم لك، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك، فاستخلصهم واحسن إليهم.

وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤونتهم، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لختهم مسأً وافرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فسل عنه أحسن مسأله، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم.

وتعاهد ذوي البأساء وأيتامهم، وأراملهم، واجعل لهم أرزاقاً من بيت (٣٧٥/٦) المال اقتداء بأمير المؤمنين، أعزه الله، في العطف عليهم، والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشتهم، ويرزقك به بركة وزيادة، وأجر للأضراب من بيت المال، وقدم حكمة القرآن منهم، والحافظين لأكثره في الجرائد على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم، وقواماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، واسعهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال.

واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيتهم لم يرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم، طمعاً في نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما تبرم المتصفح لأمر الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل فكره وذهنه منها ما يناله به من مؤونة

واعلم أن القضاء [العدل] من الله تعالى بالمكان الذي ليس [يعدل] به شيء من الأمور لأنه ميزان الله الذي يعدل عليه أحوال الناس في الأرض، وبإقامة العدل في القضاء، والعمل، تصلح أحوال الرعية، وتامن السبل، ويتصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدى حق الطاعة، ويرزق الله (٣٧٢/٦) العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع على مجاريها.

واشتد في أمر الله، عز وجل، وتورع عن التطلف، وامض لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وابعذ عن الضجر والقلق، واقنع بالقسم، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، واسدد في منطقك، وأنصف الخصم، وقف عند الشبهة، وابلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة، ولا محاماة، ولا لوم لائم، وتثبت، وتأن، وراقب، وانظر الحق على نفسك، فتدبر، وتفكر، واعتبر، وتواضع لربك، وارؤف بجميع الرعية، وسلط الحق على نفسك.

ولا تسرعن إلى سفك دم، فإن الدماء من الله، عز وجل، بمكان عظيم، انتهاك لها بغير حقها، وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله توسعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معانديهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابك بالحق، والعدل، والتسوية، والعموم فيه، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، ولا عن غني لغناه، ولا عن كاتب، ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له، ولا تكلف أمراً فيه شطط، واحمل الناس كلهم على مرق الحق، فإن ذلك أجمع لأفئدتهم والسرور لرضاء العامة.

واعلم أنك جعلت، بولايتك، خزاناً، وحافظاً، وراعياً، وإنما (٣٧٢/٦) سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم، وقيهم، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفع في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم، فاستعمل عليهم ذوي الرأي والتدبير، والتجربة والخبرة بالعمل، والعلم بالسياسة والعفاف، ووسع عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت، وأسند إليك، ولا يشغلك عنه شاغل، ولا يصرفك عنه صارف، فإنك متى أترته، وامت فيه بالواجب، استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الاحدوث في عملك، واحترزت به المحبة من رعيتك، وأعنت على الصلاح، وقدرت الخيرات في بلدك، وفشت العمارة بنايتك، وظهر الخصب في كورك، وكثر خراجك، وتوقرت أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة، بإفاضة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها ذا عدل، وآلة، وقوة، وعدة، فنافس في ذلك ولا تقدم عليه شيئاً تخمد مغبة أمرك، إن

وبلغ المأمون خبره، فدعا به فقرأ عليه، فقال: ما بقى أبو الطيب، يعني طاهرًا، شيئاً من أمر الدنيا والدين، والتدبير، والرأي، والسياسة، وإصلاح الملك والرعية، وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة، إلا وقد أحكمه وأوصى به. وأمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي؛ فسار عبد الله إلى عمله، فاتبع ما أمر به، وعُهد إليه، وسار بسيرته.

ذكر موت الحكم بن هشام

وفي هذه السنة مات الحكم به هشام بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، لأربع بقين من ذي الحجة، وكانت بيعته في صفر سنة ثمانين ومائة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة، وكنيته أبو العاص، وهو لأم ولد، وكان طويلًا أسمر، نحيفًا، وكان له تسعة عشر ذكرًا، وله شعر جيد، وهو أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقين، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، وتشبه بالجارية في أحواله، واتخذ المماليك، وجعلهم في المرتزقة، فبلغت عدتهم خمسة آلاف مملوك، وكانوا يسمون الخرس لعجمة السنتهم، وكانوا يومًا على باب قصره.

وكان يطلع على الأمور بنفسه، ما قرب منها وبعد، وكان له نفر من ثقات أصحابه يطالعونه بأحوال الناس، فيرد عنهم المظالم، وينصف المظلوم، وكان شجاعًا، مقدامًا، مهيأً، وهو الذي وطأ لعقبه الملك بالأندلس، وكان يقرب الفقهاء وأهل العلم.

ذكر ولاية ابنه عبد الرحمن

لما مات الحكم بن هشام قام بالملك بعده ابنه عبد الرحمن ويكنى أبا المطرف، واسم أمه خلوة، وكان يكنى والده، ولُد بطلطة، أيام كان أبوه الحكم يتولاهما لأبيه هشام، ولُد لسبعة أشهر، وجَد ذلك بخط أبيه.

وكان جسيمًا، وسميًا، حسن الوجه، فلما ولي خرج عليه عم أبيه عبد الله البلنسي، وطمع بموت الحكم، وخرج من بلنسية يريد قرطبة، (٣٧٩/٦) فتجهز له عبد الرحمن، فلما بلغ ذلك عبد الله خاف، وضعت نفسه، فرجع إلى بلنسية، ثم مات في أثناء ذلك سريعًا ووفى الله ذلك الطرف شره.

فلما مات نقل عبد الرحمن أولاده وأهله إليه بقرطبة، وخلصت الإمارة بالأندلس لولد هشام بن عبد الرحمن.

ذكر عدة حوادث

وفيها عزل الحسن بن موسى الأشنبي عن قضاء الموصل، فأنحدر إلى بغداد، وتولى القضاء بها علي بن أبي طالب الموصل.

ومشقة، وليس من يرغب في العدل، ويعرف محاسن أمره في العاجل وفصل ثواب الأجل كالذي يستقل بما يقربه إلى الله تعالى ويلتئم رحمة.

وأكثر الإذن للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وسكن لهم حواسك، وخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بشرتك، ولن لهم في المسألة والمنطق، واعطف عليهم بجودك وفضلك.

وإذا أعطيت فأعط بسماحة، وطيب نفس، والتماس للصنعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان، فإن العطية على ذلك تجارة مريحة، إن شاء الله تعالى. (٣٧٦/٦)

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية، والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته، وإقامة دينه، وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالف ما دعا إلى سخط الله، عز وجل.

واعرف ما يجمع عمالك من الأموال، ويُنفقون منها، ولا تجمع حرامًا، ولا تنفق إسرافًا.

وأكثر مجالسة العلماء، ومشاورتهم، ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيبًا فيك لم تمتنع هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سرّك، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك، وانظر عمالك الذين بحضرتك، وكتبك، فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتًا يدخل فيه عليك بكتبه ومؤمراته، وما عنده من حوائج عمالك، وأمر كورك ورعيك، ثم فرغ لما يسورده عليك من ذلك سمعك، وبصرك، وفهمك، وعقلك، وكرّر النظر فيه والتدبر له، فما كان موافقًا للحق والحزم فأمضه، واستخير الله، عز وجل، فيه، وما كان مخالفًا لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه.

ولا تمتن على رعيك، ولا غيرهم، بمعروف تأتيه إليهم، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة، والعون في أمور أمير المؤمنين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك؛ وتفهم كتابي إليك، وأكثر النظر فيه والعمل به، (٣٧٧/٦) واستعن بالله على جميع أمورك، واستخِرْه، فإن الله، عز وجل، مع الصلاح وأهله، وليكن أعظم سيرتك، وأفضل عيشك ما كان لله، عز وجل، رضى، ولدينه نظامًا، ولأهله عزًا وتمكينًا، وللدعة وللملة عدلاً وصلاحًا، وأنا أسأل الله أن يحسن عونك، وتوفيقك، ورشدك، وكلاءك، والسلام.

فلما رأى الناس هذا الكتاب تنازعوه، وكتبوه، وشاع أمره،

فخطب، فلماً بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له، وقال: اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أوليائك، واكفنا مؤونة من بغى علينا، وحشد فيها، بلم الشعث، وحقن الدماء، وإصلاح ذات البين.

قال: قللت في نفسي: أنا أول مقتول لأنني لا اكتم الخبر. قال: فانصرفت، فاغتسلت غسل الموتى، وتكفنت، وكتبت إلى المأمون، فلماً كان العصر دعاني، وحدث به حادث في جفن عينه، وسقط ميتاً، فخرج إليّ ابنه طلحة، قال: هل كتبت بما كان؟ قلت: نعم! قال: فاكبت بوفاته! فكتبت بوفاته، ويقام طلحة بأمر الجيش، فوردت الخريطة على المأمون بخلعه، فدعا أحمد بن أبي خالد، فقال: مير فأت بطاهر كما زعمت وضمنت، فقال: أبيت الليلة؟ فقال: لا، فلم يزل حتى أذن له في المبيت.

ووافقت الخريطة الأخرى ليلاً بموته، فدعاه، فقال: قد مات طاهر، فمن ترى؟ قال: ابنه طلحة، قال: اكتب بتوليته! فكتب بذلك، فأقام طلحة والياً على خراسان في أيام المأمون سبع سنين، ثم توفي، وولّى عبد الله خراسان.

ولما ورد موت طاهر على المأمون قال: لليذين وللمم والحمد لله الذي قدّمه وأخرنا! وكان طاهر أعور وفيه يقول بعضهم:

يا ذا اليمينين وعين واجدة تقصان عين زعيم زائلة

(٣٨٣/٦) يعني أنّ لقبه كان ذا اليمينين، وكانت كنيته أبا الطيب، وقد قيل إنّ طاهراً لما مات انتهب الجند بعض خزانته، فقام بأمرهم سلام الأبرش الخصي، وأعطاهم رزق سنة أشهر.

وقيل استعمل المأمون على عمله جميعه ابنه عبد الله بن طاهر، فسير إلى خراسان أخاه طلحة، وكان عبد الله بالرقة على حرب نصر بن شيب، فلماً توجه طلحة إلى خراسان سير المأمون إليه أحمد بن أبي خالد ليقوم بأمره، فعبّر أحمد إلى ما وراء النهر، وافتتح أشروسنة، وأسر كاوس بن صارخره، وابنه الفضل، وبعث بهما إلى المأمون، ووهب طلحة لأحمد ابن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم، وعروضاً بالقي ألف درهم، ووهب لإبراهيم بن العباس كاتب أحمد خمسمائة ألف درهم.

ذكر ما كان بالأندلس في هذه السنة

وفي هذه السنة وقع عبد الرحمن بن الحكم، صاحب الأندلس، بجند البصرة وأهلها، وهي الوقعة [المعروفة] بوقعة بالس.

وكان سببها أنّ الحكم كان قد بلغه عن عامل اسمه ربيع أنّه ظلم الأبناء أهل الدمة، فقبض عليه، وصلبه قبل وفاته، فلماً توفي ووليّ ابنه عبد الرحمن سمع الناس بصلب ربيع، فأقبلوا إلى قرطبة

وفيها ولّى المأمون داود بن ماسحور محاربة الرط، وأعمال البصرة، وكور دجلة، واليمامة، والبحرين.

وفيها كان المدّ عظيماً غرق فيه السواد، وكسّكر، وقطيعه أم جعفر، وهلك فيه من الغلات كثيرة.

وفيها نكب بابك الخرمي عيسى بن محمد بن أبي خالد؛ وحجّ بالناس هذه السنة عبيد الله بن الحسن العلوي، وهو أمير الحرمين.

وفيها غزا المسلمون من إفريقية جزيرة سردانية، فغنموا، وأصابوا من الكفار، وأصيب منهم، ثم عادوا.

وفيها توفي الهيثم بن عدي الطائي الإخباري، وكان عابداً، ضعيفاً في (٣٨٠/٦) الحديث؛ وعبد الله بن عمرو بن عثمان بن أبي أمية الموصلّي، وهو من أصحاب سفیان الثوري.

وفيها توفي محمد بن المستنير، المعروف بقطرب، النحوي، أخذ النحو من سيويه.

وفيها توفي أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني اللّغوي.

(مرار بكسر الميم وبراثن مخففتين). (٣٨١/٦)

سنة سبع ومائتين

ذكر خروج عبد الرحمن بن أحمد باليمن

في هذه السنة خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر ابن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنهم، ببلاذ عك، في اليمن، يدعو إلى الرضى من آل محمد، عليه السلام.

وكان سبب خروجه أنّ العمّال باليمن أساءوا السيرة فيهم، فبايعوا عبد الرحمن هذا، فلماً بلغ المأمون ذلك وجه إليه دينار بن عبد الله في عسكر كثيف، وكتب معه بأمانه، فحضر دينار الموسم، وحجّ.

ثم سار إلى اليمن، فبعث إلى عبد الرحمن بأمانه، فقبله، ودخل في طاعة المأمون، ووضع يده في يد دينار، فخرج به إلى المأمون، فمنع المأمون عند ذلك الطالبين من الدخول عليه، وأمرهم بلبس السواد، وذلك لليلتين بقيتا من ذي القعدة.

ذكر وفاة طاهر بن الحسين

وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، مات طاهر بن الحسين من حمى أصابته، وإنّه وُجد في فراشه ميتاً. (٣٨٢/٦)

وقال كلثوم بن ثابت بن أبي سعيد: كنت على بريد خراسان، فلماً كان سنة سبع ومائتين حضرت الجمعة، فصعد طاهر المنبر،

وفيهما توفي محمد بن أبي عبد الله بن عبد الأعلى المعروف بابن كناسة، وهو ابن أخت إبراهيم بن أدهم، وكان عالماً بالعربية والشعر وآيام الناس.

وفيهما توفي يحيى بن زياد، وأبو زكريا الفراء النحوي الكوفي، وأبو غانم الموصلي، وزيد بن علي بن أبي خداس الموصلي، وهو من أصحاب المَعافى، كثير الرواية عنه. (٣٨٦/٦)

سنة ثمان ومائتين

في هذه السنة سار الحسن بن الحسين بن مُصْغَب من خُرَاسان إلى كِرمَان، فعصى بها، فسار إليه أحمد بن أبي خالد، فأخذه، وأتى به المأمون فغفا عنه.

وفيهما استقضى إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، وفيها عُزل محمد بن عبد الرحمن المخزومي عن قضاء عسكر المهدي، وولي به بشر بن الوليد الكندي، فقال بعضهم:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُؤَخَّرُ قَضَيْكَ بَشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ جِمَارُ
يَنْفِي شَهَادَةَ مَنْ يَدِينُ بِمَا بِهِ تَقَلُّبُ الْكِبَابِ وَجَاءَتِ الْأَثَارُ
وَيَعْدُ غَدَاً مَنْ يَقُولُ بَأْسُهُ شَيْخٌ يُحِيطُ بِجَنَائِهِ الْأَفْطَارُ

وفيهما مات موسى بن الأمين، والفضل بن الربيع في ذي القعدة، وحج بالناس صالح بن الرشيد.

وفيهما هلك اليسع بن أبي القاسم، صاحب مِيجْلَمَاسَة، فولى أهلها على أنفسهم أخاه المتصر بن أبي القاسم واسول، المعروف ببلنزار، وقد تقدّم ذكرهم.

وفيهما سار عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى بلاد المشركين، واستعمل عليه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مُغِيث، فساروا [إلى] البَتَّة (٣٨٧/٦) والقلاع، فنهبوا بلاد البَتَّة وأحرقوها، وحصروا عدّة من الحصون، ففتحو بعضها، وصالحه بعضها على مال وإطلاق الأسرى من المسلمين، فغنم أموالاً جليّة القدر، واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبيهم كثيراً، فكان ذلك في جمادى الآخرة، وعادوا سالمين.

وفيهما توفي عبد الله بن عبد الرحمن الأموي المعروف بالبلنسي صاحب بلنسية من الأندلس، وقد تقدّم من أخباره مع أخبار هشام ابن أخيه الحكم بن هشام كثير.

وفيهما توفي عبد الله بن أبي بكر بن حبيب السهمي الباهلي، ويونس بن محمد المؤدّب، والقاسم بن الرشيد، وسعيد بن تمام بالبصرة، وعبد الله بن جعفر بن سليمان بن علي، والحسن بن موسى الأثيب، وقد كان سار ليتولّى قضاء طَبْرِسْتَان، فمات بالرّي.

وتوفي علي بن المبارك الأحمر النحوي، صاحب الكساني،

من النواحي يطلبون الأموال التي (٣٨٤/٦) كان ظلمهم بها، ظناً منهم أنها تَرَدُّ إليهم، وكان أهل البيرة أكثرهم طلباً وإلحاحاً فيه، وتألّبوا، فبعث إليهم عبد الرحمن من يفرقهم ويسكنهم، فلم يقبلوا، ودفعوا من أتاها، فخرج إليهم جمع من الجند، وأصحاب عبد الرحمن، فقاتلهم، فانهزم جند البيرة ومن معهم، وقتلوا قتلاً ذريعاً، ونجا الباقون منهزمين، ثم طلبوا بعد ذلك، فقتلوا كثيراً منهم.

وفيهما ثارت بمدينة تدمير فتنة بن المُصَرِّفَة واليمانية، فاقتلوا بلورقة، وكان بينهم وقعة تُعرَف يوم المضارة، قُتل منهم ثلاثة آلاف رجل، ودامت الحرب بينهم سبع سنين، فوكل بكفهم، ومنعهم، يحيى بن عبد الله بن خالد، وسيره في جميع الجيش، فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى تفرقوا وتركوا القتال، وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والقتال حتى عبي أمرهم.

وفيهما كان بالأندلس مجاعة شديدة ذهب فيها خلق كثير، وبلغ المدّ في بعض البلاد ثلاثين ديناراً.

(تدمير بالناء فوقها نقطتان والذال المهملة والياء تحتها نقطتان ثم راء).

ذكر عدة حوادث

وفيهما غلا السعر بالعراق، حتى بلغ القفيز من الحنطة بالهاروني أربعين درهماً إلى الخمسين. (٣٨٥/٦)

وفيهما ولي محمد بن حفص طَبْرِسْتَان، والرّويان، ودُبَاوند؛ وحج بالناس أبو عيسى بن الرشيد.

وفيهما أمر المأمون السيّد بن أنس، والي الموصل، بقصد بني شُتَيان وغيرهم من العرب لإفسادهم في البلاد، فسار إليهم، وكبسهم بالأسكرة، فقتلهم ونهب أموالهم وعاد.

وفيهما توفي وهب بن جرير الفقيه، وعمر بن حبيب العدوي القاضي، وعبد الصمد بن عبد الوارث بن سعيد، وعبد العزيز بن أبان القُرشي، قاضي واسط، وجعفر بن عَوْن بن جعفر بن عمرو بن حريث المخزومي الفقيه، وبشر بن عمر الزاهد الفقيه، وكثير بن هشام، وأزهر بن سعيد السَّمَان، وأبو النضر هشام بن القاسم الكنانيّ.

وفيهما توفي محمد بن عمر بن واقد الواقدي، وكان عمره ثمانياً وسبعين سنة، وكان عالماً بالمغازي واختلاف العلماء، وكان يضعف في الحديث.

وفيهما توفي محمد بن أبي رجاء القاضي، وهو من أصحاب أبي يوسف صاحب أبي حنيفة.

وقيل توفي في سنة ست وثمانين [ومائة]. (٣٨٨/٦)

ذكر عدة حوادث

وفيها ولّى المأمون عليّ بن صدقة، المعروف بزرّيق، على أرمينية، وأذربيجان، وأمره بمحاربة بابك، وأقام بأمره أحمد بن الجيّد الإسكافي، فأسره بابك، فولّى إبراهيم بن الليث بن الفضل أذربيجان.

وحجّ بالنّاس صالح بن العباس بن محمد بن عليّ.

وفيها مات ميخائيل بن جورجيس ملك الروم، وكان ملكه تسع سنين، وملك ابنه توفيل.

وفيها خرج منصور بن نصير بإفريقية عن طاعة الأمير زيادة الله، وكان منه ما ذكرناه سنة اثنتين ومائتين.

وفيها توفي أبو عبيدة مَعمر بن المُثنى اللّغوي، وقيل سنة عشر، وكان يميل إلى مقالة الخوارج، وكان عمره ثلاثاً وتسعين سنة. وقيل مات سنة ثلاث عشرة وعمره ثمان وتسعون سنة.

وفيها توفي يعلّى بن عبيد الطيالسيّ أبو يوسف، والفضل بن عبد الحميد الموصليّ المحدث. (٣٩١/٦)

سنة عشر ومائتين

ذكر ظفر المأمون بابن عائشة

وفيها ظفر المأمون بإبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم، الإمام المعروف بابن عائشة، ومحمد بن إبراهيم الإفريقي، ومالك بن شاهي، ومن كان معهم ممن كان يسعى في البيعة لإبراهيم بن المهديّ.

وكان الذي أطلعهم عليهم وعلى صنيعهم عمران القطرليّ، وكانوا اتّعدوا أن يقطعوا الجسر إذا خرج الجند يتلقّون نصر بن شَبّث فنمّ عليهم عمران، فأخذوا في صفر، ودخل نصر بن شَبّث بغداد ولم يلقه أحد من الجند، فأخذ ابن عائشة، فأقيم على باب المأمون ثلاثة أيام في الشمس، ثمّ ضربه بالسياط، وحسبه وضرب مالك بن شاهي وأصحابه، فكتبوا للمأمون بأسماء من دخل معهم في هذا الأمر من سائر النّاس فلم يعرض لهم المأمون، وقال: لا آمن أن يكون هؤلاء قدفوا قوماً براء.

ثمّ إنّه قتل ابن عائشة وابن شاهي ورجلين من أصحابهما، وكان سبب (٣٩٢/٦) قتلهم أنّ المأمون بلغه أنّهم يريدون أن يقتلوا السجن، وكانوا قبل ذلك يوم قد سدّوا باب السجن، فلم يدعوا أحداً يدخل عليهم، فلمّا بلغ المأمون خبرهم ركب إليهم بنفسه، فأخضعهم، فقتلهم صبراً، وصلب ابن عائشة، وهو أوّل عباسيّ صلب في الإسلام؛ ثمّ أنزل وكفن وصليّ عليه ودُفن في مقابر قريش.

سنة تسع ومائتين

ذكر الظفر بنصر بن شَبّث

وفي هذه السنة حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شَبّث بكيسوم، وضيق عليه، حتى طلب الأمان، فقال محمد بن جعفر العامريّ: قال المأمون لثمامة بن أثنرس: ألا تدلّني على رجل من أهل الجزيرة له عقل وبيان يؤدّي عني ما أوجبه إلى نصر؟

قال: بلى يا أمير المؤمنين، محمد بن جعفر العامريّ؛ فأمر بإحضاري، فحضرت، فكلمني بكلام أمرني أن أبلغه نصراً، وهو بكفر غزّون، بسرّوج، فأبلغته نصراً، فأذعن، وشرط شروطاً منها أن لا يبطأ بساطه، فلم يجبه المأمون إلى ذلك، وقال: ما باله ينفر مني؟ قلت: لجُرمه، وما تقدّم من ذنبه.

قال: افتراه أعظمُ جرماً من الفضل بن الربيع، ومن عيسى بن محمد ابن أبي خالد؟

أمّا الفضل فأخذ قوادي، وأموالي، وسلاحي، وجميع ما أوصى به (٣٨٩/٦) الرشيد لي، فذهب به إلى محمد أخي، وتركني بمرو فريداً وحيداً، وسلمني، وأفسد عليّ أخي حتى كان من أمره ما كان، فكان أشدّ عليّ من كلّ شيء. وأمّا عيسى بن أبي خالد فإنه طرد خليفتي من مدينتي ومدينة آبائي، وذهب بخراجي وفيشي، وأخرب داري، وأقعد إبراهيم خليفة دوني.

قال قلت: يا أمير المؤمنين! أتأذن لي في الكلام؟

قال: تكلم. قال قلت: أمّا الفضل بن الربيع فإنه صنيعكم ومولاكم، وحال سلفه حالهم، فترجع إليه بضروب كلّها تردّك إليه. وأمّا عيسى فرجل من دولتك وسابقته وسابقة من مضى من سلفه معروفة يرجع عليه بذلك.

وأما نصر فرجل لم يكن له يد قطّ فيحتمل كهؤلاء لمن مضى من سلفه وإنما كانوا من جند بني أميّة.

قال: إنّه كما تقول، ولست أقلع عنه حتى يبطأ بساطي.

قال: فأبلغت نصراً ذلك، فصاح بالخيّل، فجالت إليه، فقال: ويلي عليه، هو لم يقرّ على أربعمائة ضفدع تحت جناحه، يعني الرُّط، يقوى عليّ بحلّة العرب؟ فجاءه عبد الله بن طاهر القتال، وضيق عليه، فطلب الأمان، فأجابه إليه، وتحوّل من معسكره إلى الرُّقّة [وصار] إلى عبد الله، وكانت مدّة حصاره محاربتة خمس سنين، فلمّا خرج إليه أخرب عبد الله حصن كيسوم، وسير نصراً إلى المأمون فوصل إليه في صفر سنة عشر ومائتين.

ذكر الظفر بإبراهيم بن المهدي

وفي هذه السنة، في ربيع الأول، أخذ إبراهيم بن المهدي، وهو متنبّ مع امرأتين، وهو في زي امرأة، أخذه حارس أسود ليلاً، فقال: من أين أنتن، وأين تردن هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت كان في يده له قدر عظيم ليخليهنّ ولا يسألهنّ، فلما نظر الحارس إلى الخاتم استرا بهنّ، وقال: خاتم رجل له شأن، ورفعهنّ إلى صاحب المصلحة، فأمرهنّ أن يسفرن، فامتنع إبراهيم، فجذبه، فبذت لحيته، فدفعه إلى صاحب الجسر، ففرقه، فذهب به إلى باب المأمون وأعلمه به، فأمر بالاحتفاظ به إلى بكرة.

فلما كان الغد أقعد إبراهيم في دار المأمون والمقعة التي تقنع بها في عنقه، والملحفة على صدره ليراه بنو هاشم والناس، ويعلموا كيف أخذ، ثم حوّلته إلى أحمد بن أبي خالد، فحبسه عنده؛ ثم أخرجه معه، لما سار إلى قم الصلح، إلى الحسن بن سهل، فنشفع فيه الحسن، وقيل ابنته بوران.

وقيل إنّ إبراهيم لما أخذ حُمل إلى دار أبي إسحاق المعتصم، وكان المعتصم عند المأمون، فحُمل رديفاً لفرح التركي، فلما دخل على المأمون قال: (٣٩٣/٦) هيه يا إبراهيم! فقال: يا أمير المؤمنين! وليّ الثأر مُحكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الاغترار بما مَدَّ له من أسباب الشقاء، أمكن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله فوق كلّ ذي ذنب، كما جعل كلّ ذي ذنب دونك، فإن تعاقب فيحكّك، وإن تعفّ فيفضلك.

قال: بل اعفو، يا إبراهيم، فكبر وسجد؛ وقيل بل كتب إبراهيم هذا الكلام إلى المأمون وهو متخفّ، فوقع المأمون في رقعته: القدرة تُذهب الحفيظة، والندم توبة، وبينهما عفو الله، عزّ وجلّ، وهو أكبر ما يسأله، فقال إبراهيم يمدح المأمون:

يَاخَيْرَ مَنْ قَدَّمَتْ بِمَانِيَةِ يَدِهِ
وَابْرَ مَنْ عَدَّ إِلَهَهُ عَلَى التَّقَى
عَلَى الصَّوَارِعِ مَا أَطَعَتْ فَلَيْنَ تَهْجِ
مَقْفُظاً خَذِرًا وَمَا تَخْشَى الْعَيْتَى
مُلَّتْ قُلُوبُ النَّاسِ مِنْكَ مُخَافَةً
بِأَيِّ وَأَتْسَى فَيْتَةً وَابِيهَا
مَا أَلَيْسَ الْكَتَفُ الَّذِي يَوَاتَسِي
لِلصَّاحَاتِ إِخَا جُعِلَتْ وَلِلتَّقَى

نَفْسِي فِدَاؤُكَ إِذْ تَصَلَّ مَعَاذِي
أَمَلًا لِقَضَايِكَ، وَالْفَوَاضِلُ شَرِيمةٌ
فَبَذَلْتَ أَفْضَلَ مَا يَفِيقُ بَذْلِهِ
وَعَفَرْتَ عَمَّنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مِثْلِهِ

إِلَّا الْغُلُوبَ عَنِ الْمُقَوِّيةِ بَعْدَمَا
فَرَحِمْتَ أَطْفَالَ كَافِرَاخِ الْقَطَا
وَعَفَفْتَ أَمِيرَةً عَلَيَّ كَمَا وَفَى
اللَّهُ يَعْطِي مَا أَتَوَلَّى كَأَنَّمَا
مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالْعَوَاةُ تَقَوَّنِي
حَتَّى إِذَا عَلِقْتَ خَبَائِلَ شَقَوَّتِي
لَمْ أَتِرْ أَنْ لَوْحِلَ جُرْمِي غَايِرًا
رَدَّ الْحَيَاةَ عَلَيَّ بَعْدَ ذَعَابِهَا
أَخِيكَ مَنْ وَلَاكَ أَفْضَلَ مُدَّةً
كَمْ مَنْ يَدُلُّكَ لَمْ تُحَدِّثْنِي بِهَا
اسْتَنْجَيْهَا عَفَوًا إِلَيَّ هَيْئَةً
إِلَّا يَسِيرًا عَنْتَمَا أَوَّلَيْتَنِي
ظَفَرْتُ بِدَاكِ بِسُكْنَيْنِ خَاضِعٍ
وَعَوِلَ عَانِسَةً كَقُوسِ النَّازِعِ
بَعْدَ انْهِيَاضِ الْوَتَنِ عَظُمَ الظَّالِعِ
جَهْدُ الْإِيْتَةِ مِنْ خَيْفِ رَاكِعِ
اسْتَبَاهَا إِلَّا بِنَيْتِ طَالِبِ
بَرْدِي إِلَى خَفَرِ الْمَهَالِكِ هَائِعِ
فَوَقَفْتُ أَنْظُرَ أَيَّ خَنْفٍ صَارِعِي
وَرَعَ الْإِمَامُ الْقَابِرِ الْمُتَوَاضِعِ
وَرَسَى عَدُوُّكَ فِي الْوَتَنِ بِقَاطِعِ
نَفْسِي إِذَا آلَتْ إِلَيَّ مُطَامِعِي
وَشَكَرْتُ مُصْطَفَا لَأَكْرَمِ صَانِعِ
وَهُوَ الْكَبِيرُ لَدَيَّ غَيْرِ الضَّائِعِ
(٣٩٥/٦)

إِنَّ أَنْتَ جُدْتَ بِهَا عَلَيَّ تَكُنْ لَهَا
إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْخِلَافَةَ حَلَاها
جَمَعَ الْقُلُوبَ عَلَيْكَ جَامِعِ أَمْرِهَا
فَذَكَرَ أَنَّ الْمَأمُونَ قَالَ، حِينَ أَنْشَدَهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ: أَقُولُ كَمَا قَالَ
يُوسُفُ لِأَخَوْتِهِ: ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

ذكر بناء المأمون ببوران

وفي هذه السنة بنى المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل في رمضان، وكان المأمون سار من بغداد إلى قم الصلح إلى معسكر الحسن بن سهل، فنزله، وودّعت إليه ببوران، فلما دخل إليها المأمون كان عندها حادثة بنت الرشيد وأم جعفر زبيدة أم الأمين، وجذبتها أم الفضل، والحسن بن سهل.

فلما دخل نثرت عليه جذبتها ألف لؤلؤة من أنفيس ما يكون، فأمر المأمون بجمعه، فجمع، فأعطاه ببوران: سلمي حوائجك، فأمسكت، فقالت جذبتها: سلمي سيدك، فقد أمرك، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدي، فقال: قد فعلت؛ وسألته الإذن لأم جعفر في الحج، فأذن لها، وألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية الأموية، وابتنى بها في ليلته وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منّا. (٣٩٦/٦)

وأقام المأمون عند الحسن سبعة عشر يوماً، يعدّ له كلّ يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه، وخلع الحسن على القواد على مراتبهم، وحملهم، ووصلهم، وكان مبلغ ما لزمه خمسين ألف ألف درهم، وكتب الحسن أسماء ضياعه في رقايع، ونثرها على القواد فمن وقعت بيده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فسلّمها.

وَأَلُوذُ مِنْكَ بِفَضْلِ جِلْمٍ وَاسِعٍ
رَفَعْتَ بِبَنَاتِكَ لِلْمَحَلِّ الْيَافِعِ
وُسْعُ الْقُوسِ مِنَ الْفَعَالِ الْبَلَرِ
عَفَوْتُ لَكُمْ يَسْتَفْعُ إِلَيْكَ بِشَافِعِ

ذكر مسير عبد الله بن طاهر إلى مصر

في هذه السنة سار عبد الله بن طاهر إلى مصر، وافتتحها، واستأمن إليه عبيد الله بن السري.

وكان سبب مسيره أن عبيد الله قد كان تغلب على مصر، وخلع الطاعة، وخرج جمع من الأندلس، فتغلبوا على الإسكندرية، واشتغل عبد الله بن طاهر عنهم بمحاربة نصر بن شبيب، فلما فرغ منه سار نحو مصر، فلما قرب منها على مرحلة قدم قائداً من قواده إليها لينظر موضعاً يعسكر فيه، وكان ابن السري قد خندق على مصر خندقاً، فاتصل الخبر به من وصول القائد إلى ما قرب منه، فخرج إليه في أصحابه، فالتقى هو والقائد، فاقتلوا قتالاً شديداً، وكان القائد في قلة، فجال أصحابه، وسير يريدوا إلى عبد الله بن طاهر بخبره، فحمل عبد الله الرجال على البغال، وجنّبوا الخيل، وأسرعوا السير، فلحقوا بالقائد وهو يقاتل ابن السري، فلما رأى ابن السري ذلك لم يصبر بين أيديهم، وانهزم عنهم، وتساقط أكثر أصحابه في (٣٩٧/٦) الخندق، فمن هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض كان أكثر ممن قتلته الجند بالسيف.

ودخل ابن السري مصر، وأغلق الباب عليه وعلى أصحابه، وحاصره عبد الله، فلم يعد ابن السري يخرج إليه، وأنفذ إليه ألف وصيف ووصيفة مع كل واحد منهم ألف دينار، فسيرهم ليلاً، فردّهم ابن طاهر وكتب إليه: لو قبلت هديتك نهراً لقبلتها ليلاً ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦-٣٧]. قال: فحينئذ طلب الأمان. وقيل: كان سنة إحدى عشرة.

وذكر أحمد بن حفص بن أبي الشماس قال: خرجنا مع عبد الله بن طاهر إلى مصر، حتى إذا كنا بين الرملة ودمشق إذ نحن بأعرابي قد اعترض، فإذا شيخ على بعير له، فسلم علينا، فرددنا عليه السلام، قال: وكنت أنا، وإسحاق بن إبراهيم الرافقي، وإسحاق بن أبي ريم، ونحن نساير الأمير وكنا أفره منه دابة، وأجود كسوة، قال: فجعل الأعرابي ينظر إلى وجوهنا، قال فقلت: يا شيخ قد الححت في النظر، أعرفت شيئاً أنكرته؟ قال: لا والله، ما عرفتمكم قبل يومي هذا، ولكني رجل حسن الفراسة في الناس، قال: فاشرت إلى إسحاق بن أبي ريم، وقلت: ما تقول في هذا؟ فقال: أرى كاتباً دامسي الكتابة يسير عليه، وتدابير العراق مُسِيرُ لهُ حركات قد يشاهد أنه عليم بتسليط الخراج بصير

ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقي، فقال: (٣٩٨/٦)

وَمُظْهِرٌ تُسَلِّكُ مَا عَلَيْهِ ضَمِيرُهُ يُحِبُّ الْهَدْيَا بِالْجَالِ مَكْشُورُ إِحْسَالٍ بِهِ جُنْبٌ وَخُضْلٌ وَشِمَّةٌ تَخْبِرُ عَنْهُ أَنَّهُ لَوْزِيرُ

ثم نظر إليّ وقال:

وهذا نديمٌ للأمير ومونسٌ
واحسبهُ للشعر والعلم زوايياً
يكونُ لَهُ بالقرب منه سُرُورُ
فبعضُ نديمٍ مرةً وسَمِيرُ
ثم نظر إلى الأمير، وقال:

وهذا الأميرُ المُرتجى سببُ كُفِّهِ
عليه ردةٌ من جمالٍ وَغِيَّةِ
لقد عظم الإسلامُ منه بني يدُ
ألا إماماً عبدُ الإلهِ ابنُ طاهرٍ
قال: فرجع ذلك من عبد الله أحسن موقع، وأعجبه، وأمر للشيخ بخمسمائة دينار، وأمره أن يصحبه.

ذكر فتح عبد الله الإسكندرية

وفي هذه السنة أخرج عبد الله من كان تغلب على الإسكندرية من أهل الأندلس بأمان، وكانوا قد أقبلوا في مراكب من الأندلس في جمع، (٣٩٩/٦) والناس في فتنة ابن السري وغيره، فأرسوا بالإسكندرية، ورئيسهم يُدعى أبا حفص، فلم يزالوا بها حتى قدم ابن طاهر، فأرسل يؤذنه بالحرب إن هم لم يدخلوا في الطاعة، فأجابوه، وسألوه الأمان على أن يرتحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام، فأعطاهم الأمان على ذلك، فرحلوا، ونزلوا بجزيرة إفريطش، واستوطنوها، وأقاموا بها، فأعقبوا وتناسلوا.

قال يونس بن عبد الأعلى: أقبل إلينا فتى حدث من المشرق، يعني ابن طاهر، والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب، والناس في بلاد، فأصلح الدنيا، وأمن البريء، وأخاف السقيم، واستوسقت له الرعية بالطاعة.

ذكر خلع أهل قم

في هذه السنة خلع أهل قم المأمون، ومنعوا الخراج؛ فكان سببه أن المأمون لما سار من خراسان إلى العراق أقام بالري عدة أيام وأسقط عنهم شيئاً من خراجهم، فطمع أهل قم أن يصنع بهم كذلك، فكتبوا إليه يسألونه الحطية، وكان خراجهم ألفي ألف درهم، فلم يجبه المأمون إلى ما سألوا، فامتنعوا من أدائه، فوجه المأمون إليهم علي بن هشام، وعجيف بن عتبة، فحاربهم، فظفروا بهم، وقتل يحيى بن عمران، وهدم سور المدينة، وجباها على سبعة آلاف ألف درهم، وكانوا يتظلمون من ألفي ألف. (٤٠/٦)

ذكر ما كان بالأندلس من الحوادث

وفي هذه السنة سار عبد الرحمن بن الحكم سرية كبيرة إلى بلاد الفرنج واستعمل عليها عبيد الله المعروف بابن البُنْسِي، فسار ودخل بلاد العدو، وتردد فيها بالغارات، والسبي، والقتل، والأسر، ولقي الجيوش الأعداء في ربيع الأول، فاقتتلوا، فانهزم المشركون،

وكثر القتل فيهم، وكان فتحاً عظيماً.

وعلمه.

فقال عبد الله: أتصنفي؟ قال: نعم! قال: هل يجب شكر الله على العباد؟ قال: نعم! قال: فتجيء إلي وأنا في هذه الحال لي خاتم في المشرق جائز، وخاتم في المغرب جائز، وفيما بينهما أمري مطاع، ثم ما التفت عن يميني ولا شمالي، وورائي وأمامي إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها علي، ومنة ختم بها رقبتي، وبدأ لائحة بيضاء ابتداني بها تفضلاً وكرماً، تدعوني إلى أن (٤٠٣/٦) أكفر بهذه النعم، وهذا الإحسان، وتقول: اغدر بمن كان أولى لهذا وأحرى، واسع في إزالة خيط عنقه، وسفك دمه، تراك لو دعوتني إلى الجنة عياناً أكان الله يحب أن اغدر به، وأكفر إحسانه، وأنكث بيعته؟

فسكت الرجل، فقال له عبد الله: ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذا البلد، فإن السلطان الأعظم إن بلغه ذلك كنت العجاني على نفسك ونفس غيرك.

فلما آيس منه جاء إلى المأمون فأخبره، فاستبشر، وقال: ذلك غرس يدي، وإلف أدبي، وترب تلقيني، ولم يظهر ذلك، ولا علمه ابن طاهر إلا بعد موت المأمون، وكان هذا القاتل للمأمون المعتصم، فإنه كان منحرفاً عن عبد الله.

ذكر قتل السيد بن أنس

وفيها قُتل السيد بن أنس الأزدي أمير الموصل؛ وسبب قتله أن رُزق ابن علي بن صدقة الأزدي الموصلّي كان قد تغلب على الجبال ما بين الموصل وأذربيجان، وجرى بينه وبين السيد حروب كثيرة، فلما كان هذه السنة جمع رُزق جمعاً كثيراً، قيل: كانوا أربعين ألفاً، وسبّروهم إلى الموصل لحرب السيد، فخرج إليهم في أربعة آلاف، فالتقوا بسوق الأحد، فحين رآهم السيد حمل عليهم وحده، وهذه كانت عادته أن يحمل وحده بنفسه، (٤٠٤/٦) وحمل عليه رجل من أصحاب رُزق، فاقتلا، فقتل كل واحد منهما صاحبه لم يُقتل غيرهما.

وكان هذا الرجل قد حلف بالطلاق إن رأى السيد أن يحمل عليه فيقتله أو يُقتل دونه، لأنه كان له على رُزق كل سنة مائة ألف درهم، فقيل له: بأي سبب تأخذ هذا المال؟ فقال: لأنني متى رأيت السيد قتلته، وحلف على ذلك فوقى به.

فلما بلغ المأمون قتله غضب لذلك، وولى محمد بن حميد الطوسي حرب رُزق وبابك الخرمي، واستعمله على الموصل.

ذكر الفتنة بين عامر ومنصور وقتل منصور بإفريقية

وفي هذه السنة وقع الاختلاف بين عامر بن نافع وبين منصور بن نصر بإفريقية، وسبب ذلك أن منصوراً كان كثير الحسد ...

وفيها افتتح عسكر، سيّره عبد الرحمن أيضاً، حصن القلعة من أرض العدو، وتردّد فيها بالغارات منتصف شهر رمضان.

وفيها أمر عبد الرحمن ببناء المسجد الجامع بجيآن.

وفيها أخذ عبد الرحمن رهائن أبي الشماخ محمد بن إبراهيم مقدّم اليمانية بتدمير، ليسكن الفتنة بين المضربة واليمانية، فلم ينزجروا، ودامت الفتنة، فلما رأى عبد الرحمن ذلك أمر العامل بتدمير أن ينقل منها ويجعل مرسية منزلاً ينزل العمال، ففعل ذلك، وصارت مرسية هي قاعدة تلك البلاد من ذلك الوقت؛ ودامت الفتنة بينهم إلى سنة ثلاث عشرة ومائتين، فسير عبد الرحمن إليهم جيشاً، فأذعن أبو الشماخ، وأطاع عبد الرحمن، وسار إليه، وصار من جملة قواده وأصحابه، وانقطعت الفتنة من ناحية تدمير. (٤٠١/٦)

ذكر عذّة حوادث

مات في هذه السنة شهريار بن شروين صاحب جبال طبرستان، وصار في موضعه ابنه سابور، فقاتله مازيار بن قارن، فأسره وقتله، وصارت الجبال في يد مازيار.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد، وهو والي مكة.

وفيها توفيت عليّة بنت المهدي، مولدها سنة ستين ومائة، وكان زوجها موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فولدت منه. (٤٠٢/٦)

سنة إحدى عشرة ومائتين

في هذه السنة أدخل عبيد الله بن السري بغداداً، وأنزل مدينة المنصور، وأقام ابن طاهر بمصر والياً عليها وعلى الشام والجزيرة، وقال للمأمون بعض إخوته إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد علي بن أبي طالب، وكذا كان أبوه قبله، فأنكر المأمون ذلك، فعاوده أخوه، فوضع المأمون رجلاً قال له: امش في هيئة القراء والنساء إلى مصر، فادع جماعة من كبارها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، ثم صير إلى عبد الله بن طاهر فادع إليه، واذكر له مناقبه، ورغبه فيه وابحث عن باطنه وأتني بما تسمع.

ففعل الرجل ذلك فاستجاب له جماعة من أعيانه، فقعد بباب عبد الله بن طاهر، فلما ركب قام إليه فأعطاه رقعة، فلما عاد إلى منزله أحضره، قال: قد فهمت ما في رقتك فهات ما عندك! فقال: ولي أمانك؟ قال: نعم! فدعاه إلى القاسم، وذكر فضله وزهده

وسار بهم من تونس إلى [منصور] وهو بقصره بطَبْنَة، فحصره، حتى فني ما كان عنده من الماء، فراسله منصور، وطلب منه الأمان على أن يركب سفينة ويتوجه إلى المشرق، فأجابته إلى ذلك، فخرج منصور أول الليل مختفياً يريد الأريس، فلما أصبح عامر ولم يرَ لمنصور أثراً طلبه حتى أدركه، فاقتلوا (٤٠٥/٦) وانهزم منصور، ودخل الأريس فتحصن بها، وحصره عامر، ونصب عليه منجنيقاً.

فلما اشتد الحصار على أهل الأريس قالوا لمنصور: إمّا أن تخرج عنا، وإلاّ سلّمناك إلى عامر، فقد أضرب بنا الحصار؛ فاستسلمهم حتى يصلح أمره، فامهلوه، وأرسل إلى عبد السلام بن المفرج، وهو من قوّد الجيش، يسأله الاجتماع به، فاتاه، فكلّمه منصور من فوق السور، واعتذر، وطلب منه أن يأخذ له أماناً من عامر حتى يسير إلى المشرق، فأجابته عبد السلام إلى ذلك، واستعطف له عامراً، فأمنه على أن يسير إلى تونس، ويأخذ أهله وحاشيته ويسير بهم إلى الشرق.

فخرج عنّا، وإلاّ سلّمناك إلى عامر، فقد أضرب بنا الحصار؛ فاستسلمهم حتى يصلح أمره، فامهلوه، وأرسل إلى عبد السلام بن المفرج، وهو من قوّد الجيش، يسأله الاجتماع به، فاتاه، فكلّمه منصور من فوق السور، واعتذر، وطلب منه أن يأخذ له أماناً من عامر حتى يسير إلى المشرق، فأجابته عبد السلام إلى ذلك، واستعطف له عامراً، فأمنه على أن يسير إلى تونس، ويأخذ أهله وحاشيته ويسير بهم إلى الشرق.

فلما علم عبد السلام ذلك عظم عليه، وكتب عامر إلى أخيه، وهو عامله على جربة، يأمره بقتل منصور وأخيه حمدون، ولا يراجع فيهما، فحضر عندهما، وأقرأهما الكتاب، فطلب منصور منه دواة وقرطاساً ليكتب وصيته لله فأمر له بذلك، فلم يقدر [أن] يكتب، وقال: فاز المقتول بخير الدنيا والآخرة، ثمّ قتلها، وبعث برأسيهما إلى أخيه، واستقامت الأمور لعامر بن نافع، ورجع عبد السلام بن المفرج إلى مدينة باجة، وبقي عامر بن نافع بمدينة تونس وتوفي سلخ ربيع الآخر سنة أربع عشرة ومائتين؛ فلما وصل خبره إلى زيادة الله قال: الآن وضعت الحرب أوزارها، وأرسل بنوه إلى زيادة الله يطلبون الأمان، فأمنهم، وأحسن إليهم. (٤٠٦/٦)

ذكر عدة حوادث

وفيها قدم عبد الله بن طاهر مدينة السلام، فتلّقاه العباس بن المأمون، والمعتصم، وسائر الناس.

وفيها مات موسى بن حفص فولّي ابنه طبرستان، وولّي حاجب بن صالح السند، فهزمه بشر بن داود، فانهز إلى كرمان.

وفيها أمر المأمون منادياً، فنادى: برئت الذمّة ممّن ذكر معاوية بخير، أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله، ﷺ.

وفيها مات أبو العتاهية الشاعر، وحجّ بالناس صالح بن العباس وهو والي مكة.

سنة اثنتي عشرة ومائتين

ذكر استيلاء محمد بن حُميد على الموصل

في هذه السنة وجّه المأمون محمد بن حُميد الطوسي إلى بابك الخرمي لمحاربته، وأمره أن يجعل طريقه على الموصل ليصلح أمرها، ويحارب زُرّيق ابن عليّ، فسار محمد إلى الموصل، ومعه جيشه، وجمع ما فيها من الرجال من اليمن وربيعة، وسار لحرب زُرّيق، ومعه محمد بن السيّد بن أنس الأزديّ، فبلغ الخبر إلى زُرّيق، فسار نحوهم، فالتقوا على الزاب، فراسله محمد بن حُميد يدعو إلى الطاعة، فامتنع، فناجزه محمد، واقتلوا واشتدّ قتال الأزديّ مع محمد بن السيّد طلباً بشار السيّد، فانهزم زُرّيق وأصحابه، ثمّ أرسل يطلب الأمان فأمنه محمد، فنزل إليه، فسيّره إلى المأمون.

وكتب المأمون إلى محمد بأمره بأخذ جميع مال زُرّيق من قرى ورساق، ومال، وغيره، فأخذ ذلك لنفسه، فجمع محمد أولاد زُرّيق وإخوته، وأخبرهم بما أمر به المأمون فأطاعوا لذلك فقال لهم: إنّ أمير المؤمنين قد أمرني به، وقد قبلت ما حباني منه، ورددته عليكم؛ فشكروه على ذلك.

ثمّ سار إلى أذربيجان، واستخلف على الموصل محمد بن السيّد، وقصد المخالفين المتغلّبين على أذربيجان فأخذهم، منهم يعلى بن مرّة ونظراؤه، وسبّهم إلى المأمون وسار نحو بابك الخرمي لمحاربته. (٤٠٨/٦)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خلع أحمد بن محمد العمريّ، المعروف بالأخمر العين، المأمون باليمن، فاستعمل المأمون على اليمن محمد بن عبد الحميد المعروف بأبي الرازيّ وسيّره إليها.

قال: لأنني كما قال الشاعر:

كفى شكرًا لما استسيت أنسي صدقتك في الصديق وفي عناتي
وذلك في ربيع الأول.

وحج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

وفيها كانت باليمن زلزلة شديدة، فكان أشدّها بعدن، فتهدمت
المنازل، وخرت القرى، وهلك فيها خلق كثير.

وفيها سبّ عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشاً إلى بلد
المشركين، فوصلوا إلى برشلونة، ثم ساروا إلى جرندة، وقاتل
أهلها في ربيع الأول، فأقام الجيش شهرين يهبون ويخربون.

وفيها كانت سيول عظيمة، وأمطار متتابعة بالأندلس، فخرت
أكثر الأسوار بمدائن ثغر الأندلس، وخرت قطرة سرقسطة، ثم
جُدّت عمارتها وأحكمت.

(برشلونة بالباء الموحدة، والراء والشين المعجمة واللام
والواو والنون والهاء).

وفيها توفي محمد بن يوسف بن واقد بن عبد الله الضبيّ،
المعروف بالفريابي، وهو من مشايخ البخاري. (٤٠٩/٦)

سنة ثلاث عشرة ومائتين

وفيها ولّى المأمون ابنه العباس الجزيرة، والثغور، والعواصم؛
وولّى أخاه أبا إسحاق المعتصم الشام ومصر، وأمر لكل واحد
منهما ولعيده الله بن طاهر بخسمائة ألف درهم، فقبل: لم يفرّق
في يوم من المال مثل ذلك.

وفي هذه السنة خلع عبد السلام وابن جليس المأمون بمصر
في القيسية واليمانية، وظهر بها، ثم وثباً بعامل المعتصم، وهو ابن
عميرة بن الوليد الباذغيسي، فقتله في ربيع الأول سنة أربع عشرة
ومائتين، فسار المعتصم إلى مصر، وقاتلها، فقتلها وافتتح مصر،
فاستقامت أمورها، واستعمل عليها عماله.

وفيها مات طلحة بن طاهر بخراسان.

وفيها استعمل المأمون غسان بن عبّاد على السند؛ وسبب ذلك

أن بشر ابن داود خالف المأمون، وجبى الخراج فلم يحمل منه
شيئاً، فعزم على تولية غسان، فقال لأصحابه: أخبروني عن غسان،
فإني أريده لأمر عظيم، فاطنوا في مدحه، فنظر المأمون إلى أحمد
بن يوسف، وهو ساكت، فقال: ما تقول يا أحمد؟ فقال: يا أمير
المؤمنين! ذلك رجل محاسنه أكثر من مساوئه لا يُصرف به إلى
طبقة إلا انتصف منهم، فهما تخوّفت عليه فإنه لن (٤١٠/٦) يأتي
أمراً يعتذر منه، فاطن به، فقال: لقد مدحته على سوء رأيك فيه؛

وسار حتى أتى مدينة مينة، فهجم عليها وملكها، وأخذ ما فيها
من دواب، وطعام، وفارقوها، فوصلوا إلى بلاد المشركين،
فاستولوا على قلعة لهم، فأقاموا بها خمسة أعوام وثلاثة أشهر،
فحصروهم أذفونس ملك الفرنج، فملك الحصن، وقتل محموداً
وقن معه، وذلك سنة خمس وعشرين ومائتين في رجب، وانصرف
من فيها.

ذكر حال أبي دُلف مع المأمون

كان أبو دُلف من أصحاب محمد الأمين، وسار مع علي بن عيسى بن ماهان إلى حرب طاهر بن الحسين، فلما قُتل علي عاد أبو دُلف إلى همدان، فراسله طاهر يستميله، ويدعوه إلى بيعه المأمون، فلم يفعل، وقال: إن في عتقي بيعه لا أجد إلى فسحها سبيلاً، ولكني ساقم مكاني لا أكون مع أحد الفريقين إن كفت عني، فأجابه إلى ذلك، فأقام بكرج.

فلما خرج المأمون إلى الري راسل أبا دُلف يدعوه إليه، فسار نحوه (٤١٤/٦) مجدداً، وهو خائف، شديد الوجيل، فقال له أهله وقومه وأصحابه: أنت سيد العرب، وكلها تطيعك، فإن كنت خائفاً فأقم، ونحن نمنعك، فلم يفعل، وسار وهو يقول:

أجودُ بنفسِي دونَ قومي دافعاً لِمَا نالهم قديماً وأغشى الثَّوَاهِيَا
وأَتَجَمُّ الأمرَ المخوفَ أتعاضةً لأدركَ مجدداً أو أعاودَ ثأوينَا
وهي أبيات حسنة؛ فلما وصل إلى المأمون أكرمه، وأحسن إليه وأمنه، وأعلى منزلته.

ذكر استعمال عبد الله بن طاهر على خراسان

في هذه السنة استعمل المأمون عبد الله بن طاهر على خراسان فسار إليها.

وكان سبب مسيره إليها أن أخاه طلحة لما مات ولي خراسان علي بن طاهر، خليفة لأخيه عبد الله، وكان عبد الله بالدينور يجهز العساكر إلى بابل، وأوقع الخوارج بخراسان بأهل قرية الحمراء من نيسابور، فآثروا فيه القتل، واتصل ذلك بالمأمون، فأمر عبد الله بن طاهر بالمسير إلى خراسان، فسار إليها، فلما قدم نيسابور كان أهلها قد قُطعوا، فمطروا قبل وصوله إليها بيوم واحد، فلما دخلها قام إليه رجل برّاز فقال:

قد قُجِطَ النَّاسُ فِي زَمَانِهِمْ حَتَّى إِذَا جِئْتَ جِئْتَ بِاللُّدْرِ
غِيَانٍ فِي سَاعَةِ لَنَا قَدِيمَا فَرَجاً بِالْأَمِيرِ وَالْمَطَرِ
(٤١٥/٦) فأحضره عبد الله وقال له: أشاعر أنت؟ قال: لا! ولكني سمعتها بالرقعة فحفظتها، فأحسن إليه، وجعل إليه أن لا يُشترى له شيء من الثياب إلا بأمره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرج بلال الغساني الشّاري، فوجه إليه المأمون ابنه العباس في جماعة من القواد، فقتل بلال.

وفيا قُتل أبو الرازي باليمن.

وفيا تحرك جعفر بن داود القمي، فظفر به عزيز مولى عبد الله بن طاهر، وكان هرب من مصر فردّها إليها.

وفيا توفي إبراهيم الموصلي المغني، وهو إبراهيم بن ماهان، والد إسحاق بن إبراهيم، وكان كوفياً، وسار إلى الموصل، فلما عاد قيل له الموصلي، فلزمه؛ وعلي بن جبلة بن مسلم أبو الحسن الشاعر، وكان مولده سنة ستين ومائة، وكان قد أضر؛ ومحمد بن عرعة بن الينود؛ وأبو عبد الرحمن المقرئ المحدث؛ وعبد الله بن موسى العباسي الفقيه، وكان شيعياً، وهو من مشايخ البخاري في صحيحه.

(الينود بكسر الباء الموحدة والواو وتسكين النون وآخره ذال مهملة). (٤١٢/٦)

سنة أربع عشرة ومائتين

ذكر قتل محمد الطوسي

فيها قُتل محمد بن حميد الطوسي، قتله بآبك الخرمي، وسبب ذلك أنه لما فرغ من أمر المتغلبين على طريقه إلى بابل سار نحوه وقد جمع العساكر، والآلات، والميرة، فاجتمع معه عالم كثير من المتطوعة من سائر الأمصار، فسلك المضائق إلى بابل، وكان كلما جاوز مضيقاً أو عقبة ترك عليه من يحفظه من أصحابه إلى أن نزل بهشتادسر، وحفر خندقاً، وشارو في دخول بلد بابل، فأشاروا عليه بدخوله من وجه ذكروه له، فقبل رأيهم، وعسى أصحابه، وجعل على القلب محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الطائي، المعروف بأبي سعيد، وعلى المينة السعدي بن أصرم، وعلى الميسرة العباس بن عبد الجبار البقطيني، ووقف محمد بن حميد خلفهم في جماعة ينظر إليهم، ويأمرهم بسدّ خلل إن رآه، فكان بآبك يشرف عليهم من الجبل، وقد كمن لهم الرجال تحت كل صخرة.

فلما تقدم أصحاب محمد، وصعدوا في الجبل مقدار ثلاثة فراسخ، خرج عليهم الكمناء وانحدر بآبك إليهم فيمن معه، وانهزم الناس، فأمرهم (٤١٣/٦) أبو سعيد ومحمد بن حميد بالصبر، فلم يفعلوا، ومروا على وجوههم، والقتل يأخذهم، وصبر محمد بن حميد مكانه، وفرّ من كان معه غير رجل واحد، وسارا يطلبان الخلاص، فرأى جماعة وقتلاً، فقصدهم، فرأى الخرمية يقتلون طائفة من أصحابه، فحين رآه الخرمية فصدوه لما رأوا من حسن هيئته، فقاتلهم، وقتلوه، وضربوا فرسه بمزراق، فسقط إلى الأرض، وأكبوا على محمد بن حميد فقتلوه.

وكان محمد ممدحاً جواداً، فرثاه الشعراء وأكثروا، منهم الطائي، فلما وصل خبر قتله إلى المأمون عظم ذلك عنده، واستعمل عبد الله بن طاهر على قتال بآبك فسار نحوه.

وفيهما ولي علي بن هشام الجبل، وقم، وأصبهان، وأذربيجان. وفيها توفي إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، بالمغرب، وقام بعده ابنه محمد بامر مدينة فاس، فولّى أخاه القاسم البصرة وطنجة وما يليهما، واستعمل باقي إخوته على مدن البريرة. وفيها سار عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس إلى مدينة باجة، وكانت عاصية عليه من حين فتنة منصور إلى الآن، فملكها عنوة.

وفيهما خالف هاشم الضراب بمدينة طليطلة، من الأندلس، على صاحبها (٤١٦/٦) عبد الرحمن، وكان هاشم ممن خرج من طليطلة [لما] أوقع الحكم بأهلها، فسار إلى قرطبة، فلما كان الآن سار إلى طليطلة، فاجتمع إليه أهل الشر وغيرهم فسار بهم إلى وادي نحويه وأغار على البربر وغيرهم، فطار اسمه، واشتدت شوكته، واجتمع له جمع عظيم، وأوقع بأهل شنت برية.

وفيهما عاد المعتصم من مصر، فلقى المأمون قبل دخوله الموصل، ولقيه منويل، وعباس بن المأمون برأس عين. وفيها توجه المأمون بعد خروجه من بلاد الروم إلى دمشق؛ وحج بالناس عبد الله بن عبد الله بن العباس بن محمد.

وفيهما توفي قبيصة بن عقبة السوائي، وأبو يعقوب إسحاق بن الطباخ الفقيه، وعلي بن الحسن بن شقيق صاحب ابن المبارك، وثابت بن محمد الكندي العابد المحدث، وهوذة بن خليفة بن عبد الله بن عبيد الله بن أبي بكر أبو الأشهب، وأبو جعفر محمد بن الحارث الموصلي، وأبو سليمان الداراني الزاهد توفي بداريا، ومكي بن إبراهيم التيمي البلخي ببلخ، وهو من مشايخ البخاري في صحيحه، وقد قارب مائة سنة، وأبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري اللغوي النحوي، وكان عمره ثلاثاً وتسعين سنة.

وفيهما توفي عبد الملك بن قريب بن عبد الملك أبو سعيد الأصمعي اللغوي البصري، وقيل سنة ست عشرة، ومحمد بن عبد الله بن المثنى بن عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري قاضي البصرة. (٤١٩/٦)

سنة ست عشرة ومائتين

ذكر فتح هرقلة

في هذه السنة عاد المأمون إلى بلاد الروم؛ وسبب ذلك أنه بلغه أن ملك الروم قتل ألفاً وستمائة من أهل طرسوس والمصيصة، فسار حتى دخل أرض الروم في جمادى الأولى، فأقام إلى منتصف شعبان.

وقيل كان سبب دخوله إليها أن ملك الروم كتب إليه وبدأ بنفسه، فسار إليه، ولم يقرأ كتابه، فلما دخل أرض الروم أناخ على أنطيفوا، فخرجوا على صلح؛ ثم سار إلى هرقلة، فخرج أهلها على صلح، ووجه أخاه أبا إسحاق المعتصم، فافتتح ثلاثين حصناً، ومطمورة، ووجه يحيى بن أكرم من طرانة، فأغار، وقتل، وأحرق، فأصاب سيياً، ورجع؛ ثم سار المأمون إلى كيسوم، فأقام بها يومين،

وحج بالناس إسحاق بن العباس بن محمد.

وفيهما توفي أبو عاصم النبيل واسمه الضحاك بن محمد الشيباني، وهو إمام في الحديث.

وفيهما توفي أبو أحمد حسين بن محمد البغدادي. (٤١٧/٦)

سنة خمس عشرة ومائتين

ذكر غزوة المأمون إلى الروم

في هذه السنة سار المأمون إلى الروم في المحرم، فلما سار استخلف على بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وولاه مع ذلك السواد، وخلوان، وكوز دجلة، فلما صار المأمون بتكرت قدم عليه محمد بن علي بن موسى ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، فلقيه بها، فأجاره، وأمره بالدخول بابنته أم الفضل، وكان زوجها منه، فأدخلت عليه، فلما كان أيام الحج سار بأهله إلى المدينة فأقام بها.

ثم ارتحل إلى دمشق. وطيف برأس علي في العراق، وخراسان، والشام، ومصر، ثم ألقى في البحر.

ذكر عدة حوادث

وفيها ظهر عبدوس الفهري بمصر، فوثب على عمال المعتصم، فقتل بعضهم في شعبان، فسار المأمون من دمشق إلى مصر منتصف ذي الحجة. (٤٢٠/٦)

وفيها قدم الأفشين من بَرَقَة، فأقام بمصر.

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره بأخذ الجند بالتكبير إذا صلوا، فبدأ بذلك منتصف رمضان، فقاموا قياماً، وكبروا ثلاثاً، ثم فعلوا ذلك في كل صلاة مكتوبة.

وفيها غضب المأمون على علي بن هاشم ووجهه عَجِيفاً وأحمد بن هاشم، وأمر بقبض أمواله وسلاحه.

وفيها ماتت أم جعفر زَيْنَةُ أم الأمين ببغداد.

وفيها تقدّم غسان بن عباد من السند، ومعه بشر بن داود، مستأمناً، وأصلح السند، واستعمل عليها عمران بن موسى العتكي.

وفيها هرب جعفر بن داود القمي إلى قُمّ وخلع الطاعة بها، وحج بالناس، في قول بعضهم، سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس؛ وقيل حج بهم عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهم، وكان المأمون ولاء اليمن، وجعل إليه ولاية كل بلد يدخله، فسار من دمشق، فقدم بغداد فصلى بالناس يوم الفطر، وسار عنها، فحج بالناس.

وفيها توفي أبو مُسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني ببغداد، ومحمد ابن عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب المهلب، أمير البصرة بها، ويحيى بن يعلى المحاربي، وإسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي. (٤٢١/٦)

سنة سبع عشرة ومائتين

في هذه السنة ظفر الأفشين بالفرما من أرض مصر، ونزل أهلها بأمان على حكم المأمون، ووصل المأمون إلى مصر في المحرم من هذه السنة، فأتي عبدوس الفهري، فضرب عنقه، وعاد إلى الشام.

وفيها توفي أبو مُسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني ببغداد، ومحمد ابن عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب المهلب، أمير البصرة بها، ويحيى بن يعلى المحاربي، وإسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي. (٤٢١/٦)

في هذه السنة ظفر الأفشين بالفرما من أرض مصر، ونزل أهلها بأمان على حكم المأمون، ووصل المأمون إلى مصر في المحرم من هذه السنة، فأتي عبدوس الفهري، فضرب عنقه، وعاد إلى الشام.

وفيها قتل المأمون علي بن هشام، وكان سبب ذلك أن المأمون كان استعمله على أذربيجان وغيرها، كما تقدّم ذكره، فبلغه ظلمه، وأخذ الأموال، وقتله الرجال، فوجه إليه عَجِيف بن عَنبَسَة، فثار به علي بن هشام، وأراد قتله واللاحق ببابك، وظفر به عَجِيف، وقدم به على المأمون، فقتله، وقتل أخاه حبيباً في جمادى الأولى،

ورود كتاب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم بامتحان القضاة والفقهاء، فأحضر إسحاق بن إبراهيم أبا حسان الزياتي، وبشر بن الوليد (٤٢٤/٦) الكندي، وعلي بن أبي مُقاتل، والنفل بن غانم، والذّبال بن الهيثم، وسجادة، والقواريري، وأحمد بن حنبل، وقتيبة، وسعدويه الواسطي، وعلي بن جعد، وإسحاق بن

سنة ثمانى عشرة ومائتين

ذكر المحنة بالقرآن المجيد

وفي هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد في امتحان القضاة والشهود والمحدثين بالقرآن، فمن أقر أنه مخلوق مُحدّث خلّى سبيله، ومن أبى أعلمه به ليأمره فيه برأيه؛ وطول كتابه بإقامة الدليل على خلق القرآن وترك الاستعانة بمن امتنع عن القول بذلك، وكان الكتاب في ربيع الأول، وأمره بإنفاذ سبعة نفر منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدُّورقي، فأشخصوا إليه، فسألهم، وامتحنهم عن القرآن، فأجابوا جميعاً: إن القرآن مخلوق، فأعادهم إلى بغداد، فأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، وشهر قولهم بحضرة المشايخ من أهل الحدث، فأقرّوا بذلك، فخلّى سبيلهم.

ثم قال لأحمد بن حنبل: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله. قال: (٥٢٦/٦) أمخلوق هو؟ قال: كلام الله ما أزيد عليها، فامتحنه بما في الرقعة، فلما أتى إلى ليس كمثله شيء [اقرأ]: وهو السميع البصير، وأمسك عن: ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر فقال: أصلحك الله! إنه يقول: سميع من أذن وبصير من عين، فقال إسحاق لأحمد: ما معنى قولك: سميع بصير؟ قال: هو كما وصف نفسه. قال: فما معناه؟ قال: لا أدري أهو هو كما وصف نفسه.

ثم دعا بهم رجلاً رجلاً كلهم يقول القرآن كلام الله إلا قتيبة وعبيد الله بن محمد بن الحسن وابن عُلَيَّة الأكبر وابن البكاء وعبد المنعم بن إدريس ابن بيت، ووهب بن مثنى، والمظفر بن مَرْجَى، ورجلاً من ولد عُمر بن الخطاب قاضي الرقعة، وابن الأحمر، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله، عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] والقرآن مُحدث لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢].

قال إسحاق: فالمجعول مخلوق، قال: نعم. قال: والقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق، ولكنه مجعول، فكتب مقالته، ومقالات القوم رجلاً رجلاً، ووجهت إلى المأمون، فأجاب المأمون يذمهم، ويذكر كلاً منهم، ويعيبه ويقع فيه بشيء، وأمره أن يحضر بشر بن الوليد وإبراهيم (٤٢٧/٦) ابن المهدي ويمتحنهما، فإن أجابا، وإلا فاضرب أعناقهما، وأما من سواهما، فإن أجاب إلى القول بخلق القرآن، وإلا حملهم موثقين بالحديد إلى عسكره مع نفر يحفظونهم.

فأحضرهم إسحاق، وأعلمهم بما أمر به المأمون، فأجاب القوم أجمعون إلا أربعة نفر، وهم أحمد بن حنبل، وسجادة، والقواريري، ومحمد بن نوح المصروب، فأمر بهم إسحاق فشُدوا في الحديد، فلما كان الغد دعاهم في الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابهم سجادة والقواريري فأطلقهما وأصر أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح على قولهما، فشدا في الحديد، ووجهًا إلى طرسوس، وكتب إلى المأمون بتأويل القوم فيما أجابوا إليه، فأجاب المأمون: إني بلغني عن بشر بن الوليد بتأويل الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر: ﴿لَا مَنْ أَكْبَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقد أخطأ التأويل إنما عنى الله سبحانه وتعالى بهذه الآية من كان معتقداً للإيمان، مظهرًا للشرك، فأما من كان معتقداً للشرك، مظهرًا للإيمان، فليس هذا له.

فاشخصهم جميعاً إلى طرسوس ليقبوا بها إلى أن يخرج أمير المؤمنين من بلاد الروم، فأحضرهم إسحاق، وسيرهم جميعاً إلى العسكر، وهم: أبو حسان الزيايدي، وبشر بن الوليد، والفضل بن

أبي إسرائيل، وابن الهَرْش، وابن عُلَيَّة الأكبر، ويعجى بن عبد الرحمن العمري، وشيخاً آخر من ولد عمر بن الخطاب كان قاضي الرقعة، وأبا نصر التمار، وأبا معمر القطيعي، ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المصروب، وابن الفرخان، وجماعة منهم: النضر بن شَمِيل، وابن علي بن عاصم، وأبو العوام البيزاني، وابن شجاع، وعبد الرحمن بن إسحاق، فأدخلوا جميعاً على إسحاق، فقرأ عليهم كتاب المأمون مرتين، حتى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: قد عرفت مقالتي أمير المؤمنين غير مرة، قال: فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما ترى؟ فقال: أقول القرآن كلام الله. قال: لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كل شيء، قال: فالقرآن شيء؟ قال: نعم؛ قال: فمخلوق هو؟ قال: ليس بخالق. قال: ليس [أسألك] عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك.

فأخذ إسحاق رقعة، فقرأها عليه، ووقف عليها، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء [ولا بعده شيء] ولا يشبهه شيء من (٤٢٥/٦) خلقه في معنى من المعاني، ووجه من الوجوه، قال: نعم؛ وقال للكاتب: اكتب ما قال.

ثم قال لعلي بن أبي مقاتل: ما تقول؟ قال: قد سمعتُ كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة، وما عندي غيره، فامتحنه بالرقعة، فأقر بما فيها، ثم قال له: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا. قال: القرآن كلام الله، فإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا. فقال للكاتب: اكتب مقالته.

ثم قال للذيال نحواً من مقالته لعلي بن أبي مقاتل، فقال مثل ذلك.

ثم قال لأبي حسان الزيايدي: ما عندك؟ قال: سل عما شئت؛ فقرأ عليه الرقعة، فأقر بما فيها، ثم قال: ومن لم يقل هذا القول فهو كافر، فقال: القرآن مخلوق هو؟ قال: القرآن كلام الله، والله خالق كل شيء، وأمر المؤمنين إيماناً، وبه سمعنا عامة العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلده الله أمرنا، فصار يقيم حجتنا، وصلاتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، ونجاهد معه، ونرى إمامته فإن أمرنا اتهمنا وإن نهانا انتهينا.

قال: فالقرآن مخلوق؟ فأعاد مقالته. قال إسحاق: فإن هذه مقالة أمير المؤمنين. قال: قد تكون مقالته ولا يأمر بها الناس، وإن خبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلتُ ما أمرتني به، فإنك الثقة فيما أبلغتني عنه. قال: ما أمرني أن أبلغك شيئاً. قال أبو حسان: وما عندي إلا السمع والطاعة، فأمرني أأتمر، قال: ما أمرني أن آمركم وإنما أمرني أن أمتحنكم.

غانم، وعلي بن مُقاتل، والذِيَال بن الهيثم، ويحيى بن عبد الرحمن العمري، وعلي بن الجعد، وأبو العوام، وسجادة، والقواريري، وابن الحسن بن علي بن عاصم، وإسحاق ابن أبي إسرائيل، والنضر بن شَمِيل، وأبو نصر التَّمَار، وسعدويه الواسطي، ومحمد بن حاتم بن ميمون، وأبو معمر بن الهرْش، وابن الفرْخان، وأحمد بن شجاع، وأبو هارون بن البَكاء، فلما صاروا إلى الرُّقَة بلغهم موت المأمون فرجعوا إلى بغداد. (٤٢٨/٦)

ذكر مرض المأمون ووصيته

وفي هذه السنة مرض المأمون مرضه الذي مات فيه لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة.

وكان سبب مرضه ما ذكره سعد بن العلاف القاري قال: دعاني المأمون يوماً، فوجدته جالساً على جانب اليزندن، والمعتصم عن يمينه، وهما قد دُلِّيا أرجلهما في الماء، فامرني أن أضع رجلي في الماء، وقال: ذُقْ! فهل رأيت أَعَذَبَ منه، أو أصفى صفاء، أو أشدَّ برداً، ففعلتُ، وقلتُ: يا أمير المؤمنين! ما رأيت مثله قط؛ فقال: أي شيء يطيب أن يؤكل ويُشرب عليه هذا الماء؟ فقلتُ: أمير المؤمنين أعلم، فقال: الرُّطَبُ الأزاد.

فبينما هو يقول [هذا] إذ سمع وقع لُجُم البريد، فالتفت، فإذا بغال البريد عليها الحقايب فيها الألفاظ، فقال لخادم [له]: انظر إن كان في هذه الألفاظ رُطَبُ آزاد فات به! فمضى، وعاد معه سَلْتَان فيهما آزاد كأنما جُني تلك الساعة، فأظهر شكراً لله تعالى، وتعجبنا جميعاً، وأكلنا، وشربنا من ذلك الماء، فما قام منا أحد إلا وهو محموم، وكانت منية المأمون من تلك العلّة، ولم يزل المعتصم مريضاً حتى دخل العراق، وبقيت أنا مريضاً مُدَّة.

فلما مرض المأمون أمر أن يُكتب إلى البلاد الكتب من عبد الله المأمون أمير المؤمنين، وأخيه الخليفة من بعده أبي إسحاق بن هارون الرشيد؛ وأوصى (٤٢٩/٦) إلى المعتصم بحضرة ابنه العباس، وبحضرة الفقهاء، والقضاة، والقواد، وكانت وصيته، بعد الشهادة، والإقرار بالوحدانية، والبعث، والجنة، والنار، والصلاة على النبي ﷺ والأنبياء: إني مقرٌ مذنب، أرجو، وأخاف إلا أني إذا ذكرت عفو الله رجوتُ، وإذا مُت فوجهوني، وغمضوني، وأسبغوا وضوئي وطهورتي، وأجيدوا كفني، ثم أكثروا حمد الله على الإسلام، ومعرفة حقّه عليكم في محمد ﷺ إذ جعلنا من أمته المحرومة، ثم أضعفوني على سريري، ثم عجلوا بي، ولِصَلِّ عليّ أقربكم نسباً وأكرمكم سناً، وليكبِّر خمساً، ثم احملوني، وابلغوا بي حفرتي، ولينزل بي أقربكم قرابة، وأودكم محبةً.

وأكثروا من حمد الله وذكره، ثم ضعوني على شقي الأيمن، واستقبلوا بي القبلة ثم حلّوا كفني عن رأسي ورجلي، ثم سدّوا

اللحد، وأخرجوا عني، وخلّوني وعملي، وكلّمكم لا يغني عني شيئاً، ولا يدفع عني مكروهاً، ثم قفوا بأجمعكم، فقولوا خيراً إن علمتم، وأمسكوا عن ذكر شرٍّ إن كنتم عرقتُم، فإني مأخوذ من بينكم بما تقولون، ولا تدعوا باكية عندي فإنَّ المَعُول عليه يعذَّب، رحم الله عبداً اتَّعَطَّ، وفكّر فيما حتم الله على خلقه من الفناء، وقضى عليهم من الموت الذي لا بدّ منه، فالحمد لله الذي توحّد بالبقاء، وقضى على جميع خلقه الفناء.

[ثم] لِنَظَر ما كنْتُ فيه من عَزِّ الخلافة، هل أغني عني ذلك شيئاً إذ جاء أمر الله؟ لا والله، ولكن أضعف عليّ به الحساب، فيا ليت عبد الله بن هارون (٤٣٠/٦) لم يكن بشراً، بل ليته لم يكن خلقاً.

يا أبا إسحاق اذُدْني، وأتَّعَطْ بما ترى، وخذْ بسيرة أخيك في القرآن والإسلام، واعملْ في الخلافة، إذا طوَّقَكها الله، عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغترَّ بالله ومهلته فكان قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعيّة والعوام، فإنَّ المُلْك بهم ويتعهّدك لهم، الله الله فيهم، وفي غيرهم من المسلمين، ولا يتبين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدّمته، وآثرتُه على غيره من هواك.

وخذْ من أقويّاتهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم في شيء، وأنصف بعضهم من بعض بالحقّ بينهم، وقرّبهم، وتأثّر بهم، وعجل الرحلة عني، والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم، فلا تغفل عنهم في كلِّ وقت، والخزينة فأغزهم ذا حزمة، وصرامة، وجلد، واكفهم بالأموال والجنود، فإن طالت مدّتهم فتجدّ لهم يَمَن. معك [من] أنصارك وأوليائك، واعملْ في ذلك عمل مقدّم النية فيه، راجياً ثواب الله عليه.

ثم دعا المعتصم، بعد ساعة، حين اشتدَّ الوجع، وأحسن بمجيء أمر الله، (٤٣١/٦) فقال: يا أبا إسحاق! عليك عهد الله وميثاقه، وذمة رسول الله ﷺ لتقومن بحقّ الله في عبادته، ولتؤثرن طاعة الله على معصيته، إذ أنا نقلتها من غيرك إليك، قال: اللهم نعم! قال: هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين عليّ، صلوات الله عليه، فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مُسيئتهم، واقبل من محسنهم، ولا تغفل صلاتهم في كلِّ سنة عند محلّها، فإنَّ حقوقهم تجب من وجوه شتى، اتقوا الله ربكم حقّ تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، اتقوا الله، واعملوا له، اتقوا الله في أموركم كلّها، استودعكم الله ونفسي، واستغفر الله ما سلف مني إنّه كان غفّاراً، فإنّه ليعلم كيف ندمي على ذنوبي، فعليه توكلت من عظيمها، وإليه أُنِيب، ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل. وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة.

ذكر وفاة المأمون وعمره وصفته

وفي هذه السنة توفي المأمون لانتسي عشرة ليلة بقيت من رجب، فلما اشتد مرضه، وحضره الموت، كان عنده من يلقنه، فعرض عليه الشهادة، وعنده ابن ماسويه الطبيب، فقال لذلك الرجل: دعه، فإنه لا يفرق في هذه الحال بين ربه وماني؛ ففتح المأمون عينيه، وأراد أن يبطش به، فعجز عن ذلك، وأراد الكلام، فعجز عنه، ثم إنه تكلم فقال: يا من لا يموت (٤٣٢/٦) ارحم من يموت، ثم توفي من ساعته.

ولما توفي حمله ابنه العباس، وأخوه المعتصم إلى طرسوس، فدفناه بدار خاقان خادم الرشيد، وصلى عليه المعتصم، ووكّلوا به حرساً من أبناء أهل طرسوس، وغيرهم، مائة رجل، وأجري على كل رجل منهم تسعون درهماً.

وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، سوى سنين كان دعي له فيها بمكة، وأخوه الأمين محصور ببغداد، وكان مولده للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وكانت كنيته أبا العباس، وكان ربعة، أبيض، جميلاً، طويل اللحية رقيقها، قد وخطها الشيب؛ وقيل كان أسمر تعلوه صفرة، أجنى، أعين، ضيق البلجوة، بخده خال أسود.

ذكر بعض سيرته وأخباره

وقال محمد بن صالح السرخسي: تعرّض رجل للمأمون، بالشام، مراراً، وقال: يا أمير المؤمنين! انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان! فقال له: أكثر علي؛ والله ما أنزلت قيساً من ظهور خيولها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، يعني فتنة ابن شتت العامري؛ وأما اليمن فوالله ما أحببتها، ولا أحبتي قط؛ وأما قضاة فساداتها تنتظر السفاني، حتى تكون من أشياعه، وأما ربعة فساخطة على ربها مذ (٤٣٣/٦) بعث الله نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا وخرج أحدهما شارباً، اعزب فعل الله بك.

وذكر سعيد بن زياد أنه لما دخل على المأمون بدمشق قال له: أرني الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ قال: فأرته، قال فقال: إني لأشتهي أن أدري إيش هذا الغشاء على هذا الخاتم؟ قال: فقال له المعتصم: حل العقد حتى تدري ما هو! قال: ما أشك أن النبي، صل الله عليه وسلم، عقد هذا العقد، وما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله، ﷺ؛ ثم قال للواثق: خذه وضعه على عينك، لعل الله أن يشفيك! وجعل المأمون يضعه على عينيه ويكي.

وقال العيشي صاحب إسحاق بن إبراهيم: كنت مع المأمون بدمشق، وكان قد قل المال عنده، حتى أضاق، وشكا ذلك إلى

المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين! كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة، وكان قد حمل إليه ثلاثون ألف ألف درهم من خراج ما يتولاه له، فلما ورد عليه المال قال المأمون ليحيى بن أكرم: اخرج بنا ننظر هذا المال، فخرجا ينظرانه، وكان قد هيى بأحسن هيئة، وحليت أباعره، فنظر المأمون إلى شيء حسن، واستكثر ذلك واستبشر به، والناس ينظرون ويعجبون، فقال المأمون: يا أبا محمد، تنصرف بالمال، وأصحابنا يرجعون خائبين، إن هذا للؤم! ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له: وقع لال فلان بآلف ألف، ولال فلان بمثلها، ولال فلان بمثلها، فما زال كذلك حتى فرّق أربعة (٤٣٤/٦) وعشرين ألف ألف، ورجله في الركاب، ثم قال: ادفع الباقي إلى المعلّى يعطيه جندنا.

قال العيشي: فمتمت نصيب عيني أنظر إليهما، فلما رأي كذلك قال: وقع لهذا بخمسين ألفاً، فقبضتها.

وذكر عن محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان أنه كان بالبصرة رجل من بني تميم بن سعد، وكان شاعراً طريفاً خبيثاً منكراً، وكنت آنس به، وأستحليه، فقلت له: أنت شاعر وأنت ظريف، والمأمون أجود من السحاب الحافل، فما يمنعك منه؟ فقال: ما عندي ما يحملني. فقلت: أنا أعطيك راحلة ونفقة، فأعطيته راحلة نجية، وثلاثمائة درهم، فعمل أرجوزة ليست بالطويلة، ثم سار إلى المأمون.

قال: فبحث إليه وهو بسلفوس، قال: فلبست ثيابي، وأنا أروم بالعسكر، وإذا بكهل على بغل فار، فتلقاني مواجهة، وأنا أردّد نشيد أرجوزتي، فقال: السلام عليك. فقلت: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قال: قف، إن شئت! فوقفت فتضوّعت منه رائحة المسك والعنبر، فقال: ما أولئك؟ قلت: رجل من مضر. قال: وتحن من مضر، ثم قال: ماذا؟ قلت: من بني تميم، قال: وما بعد تميم؟ قلت: من بني سعد، قال: وما أقدمك؟ قلت: قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أندى رائحة، ولا أوسع راحة، قال: فما الذي قصدته به؟ قلت: شعر طيب يلد على الأفواه ويحل في آذان السامعين، قال: فأنشدني! فقبضت، وقلت: يا ريك، أخبرك أني قصدت الخليفة بمديح تقول: أنشدني؟ فتغافل عنها وألغى عن جوابها، فقال: فما الذي تأمل منه؟ قلت: إن كان على ما ذكر لي، فألف دينار، قال: أنا أعطيك ألف دينار، إن رأيت الشعر جيداً، والكلام (٤٣٥/٦) عذبا، وأضع عنك العناء، وطول الترداد حتى تصل إلى الخليفة، وبينك وبينه عشرة آلاف رامع ونابل، قلت: فلي عليك الله أن تفعل! قال: نعم، لك الله علي أن أفعل، فأنشدته:

مأمون يا ذا الجَنِّ الشَّريفة وصاحب العَرَبِة المُنيفة
وقائد الكَيِّفة الكَيِّفة هل لك في أرجوزة طريفة
انظر مَنْ يَفْهَمُ أَبِي حَنيفة لا والذي أنت له خليفة

فدفع إلى الخادم رقعته، فإذا فيها:

يا خَيْرَ إِخْوَانِي وَأَصْحَابِي! هَذَا الطَّقِيلِيُّ عَلَى الْبَابِ
خَيْرٌ أَنْ الْقَوْمَ فِي لَذَّةٍ يَصْبَوْنَ إِلَيْهَا كُلُّ أَوَّابٍ
فَصَيَّرُونِي وَاحِدًا مِنْكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا لِي بَعْضَ أَتْرَابِي

فقرأها المأمون عليهم، وقالوا: ما ينبغي أن يدخل علينا على
مثل هذه الحال، فأرسل إليه المأمون: دخولك في هذا الوقت
متعذر، فاختَر لنفسك مَنْ أَحْبَبْتَ! فقال: ما أريد إلا عبد الله بن
طاهر، فقال له المأمون: قد اختارك فصرَّ إليه! قال: يا أمير
المؤمنين، وأكون شريك الطَّقِيلِيِّ؟ فقال: ما يمكن (٤٣٦/٦) ردَّ
أبي محمد عن أمرين، فإن أَحْبَبْتَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ، وَإِلَّا فَأَتِدْ نَفْسَكَ
منه! فقال: عليَّ عشرة آلاف، قال: لا يقنعه، فما زال يزيد عشرة
عشرة، والمأمون يقول لا يقنعه، حتى بلغ مائة ألف، فقال له
المأمون: فعجَّلْها، فكتب بها إلى وكيله، ووجَّه معه رسولاً، وأرسل
إليه المأمون: قبض هذه الدراهم في هذه الساعة أصلح من منادمتي،
وأنتفع لك.

وقال عمار بن عقيل: قال لي عبد الله بن أبي السمط: أعلمت
أَنَّ المأمون لا يبصر الشعر؟ قلت: وَمَنْ يَكُون أَعْلَمُ منه؟ فوالله إنا
لنشهد أولَّ البيت فيسبقنا إلى آخره. قال: إني أنشدته بيتاً أجَدْتُ
فيه، فلم يتحرك له، قلت: وما هو؟ قال:

أَضْحَى إِسْمَ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُتَخَلِّلاً بِالْدينِ وَالنَّاسِ بِالنِّسَا شَاغِلٍ
قال فقلت: والله ما صنعت شيئاً، وهل زدَّتْ على أن جعلته
عجوزاً في محرابها، فمن الذي يقوم بأمر الدنيا، إذا تشاغل عنها،
وهو المطوق بها؟ هَلَا قلتُ كما قال جدي جرير في عبد العزيز بن
الوليد:

فَلَا هُوَ فِي الثُّبَا يُفْبِغُ نَعِيَّتَهُ وَلَا عَرَضُ الثُّبَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ

فقال: الآن علمتُ أَنِّي قد أخطأتُ. قال أبو العباس أحمد بن
عبد الله ابن عمار: كان المأمون شديد الميل إلى العلويين
والإحسان إليهم، وخبره مشهور معهم، وكان يفعل ذلك طبعاً لا
تكلفاً، فمن ذلك أَنَّهُ تَوَفَّى فِي أَيَّامِهِ (٤٣٩/٦) يحيى بن الحسين بن
زيد بن علي بن الحسين العلوي، فحضر الصلاة عليه بنفسه، ورأى
الناس عليه من الحزن والكتابة ما تعجَّبوا منه، ثُمَّ إِنَّ وَلَدًا لَزَيْبِ
بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، وهي ابنة عمِّ
المنصور، توفى بعده، فأرسل له المأمون كفنًا، وسرَّ أخاه صالحاً
ليصلي عليه، ويعزي أمه، فإنَّها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة،
فأتاها، وعزَّأها عنه، واعتذر عن تخلفه عن الصلاة عليه، فظهر
غضبها، وقالت لابن ابنها: تقدِّم فصل على أبيك، وتمثلت:

سَبَّكَاهُ وَنَحَسَّاهُ لَيْتِنَا فُلَانِي الْكَبِيرَ عَنْ خَبَثِ الْحَبِيدِ

ثُمَّ قَالَتْ لِصَالِحٍ: قُلْ لَهُ، يَا ابْنَ مَرَايِلَ! أَمَا لَوْ كَانَ يَحْيَى بْنُ

مَا ظَلَمْتُ فِي أَرْضِنَا ضَعِيفَةً أَمِيرُنَا مُؤْتَنَةً خَفِيفَةً
وَمَا أَتَيْتُ شَيْئاً سِوَى الْوُظَيْفَةِ فَالذُّبُ وَالنَّعْجَةُ فِي مَسْقِيفَةٍ
وَاللَّسُّ وَالنَّاجِرُ فِي قَطِيفَةٍ

قال: فوالله ما عدا أن بلغت هاهنا، فإذا رُءَاءَ عَشْرَةِ آلَافٍ
فارس، قد سدَّوا الأفق، يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين
ورحمة الله وبركاته. قال: فأخذتني رعدة، فنظر إليَّ بتلك الحال،
فقال: لا بأس عليك أي أخي، قلتُ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، جعلني الله
فداك، مَنْ جَعَلَ الْكَافَ مَكَانَ الْقَافِ مِنَ الْعَرَبِ؟ قال: جيمير؟ قلتُ:
لعن الله جيمير، ولعن مَنْ اسْتَعْمَلَ هَذِهِ اللَّغَةَ بَعْدَ الْيَوْمِ. (٤٣٦/٦)

وضحك المأمون، وقال لخادم معه: أعطه ما معك، فآخِرج
كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار، فأخذتها ومضيَّت.

ومعنى سؤاله عن وضع الكاف موضع القاف أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ:
يا رقيق، فقال: يا ريك.

وقال عُمارة بن عقيل: أنشدتُ المأمون قصيدة مائة بيت،
فأبتدئ بصدر البيت، فيبادرني إلى قافيته كما قفيته، فقلتُ: والله، يا
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ما سمعها مني أحد قطُّ؟ فقال: هكذا ينبغي أن
يكون، ثُمَّ قَالَ لِي: أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ أَنشَدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ
عَبَّاسٍ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

تَشْطُ غَدَاً دَارُ جَبْرِائِلَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلِلدَّارِ بَعْدُ غَدَاً أَبَعْدُ
حَتَّى أَنشَدَهُ الْقَصِيدَةَ يَقْفِيهَا ابْنُ عَبَّاسٍ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا ابْنُ ذَلِكَ. وَذَكَرَ
أَنَّ الْمَأْمُونُ قَالَ:

بِعَشْكَ مُرْتَاداً فَفُزْتُ بِظَرِّهِ وَأَغْفَلْتَنِي حَتَّى اسْتُكَّ بِكَ الظَّنَا
فَنَاجَيْتُ مَنْ أَمَرَنِي وَكُنْتُ مُبَاغِداً فَيَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ دَنُوكَ مَا أَغْنَى
أَرَى أَتَرَاهُ مِنْهُ بَعِيْنُكَ يَتَبَا لَقَدْ أَخَذْتُ عَيْنَكَ مِنْ غِيَا حُنَا

قيل: وإنما أخذ المأمون هذا المعنى من العباس بن الأحنف،
فإنَّه أَخْرَجَ هَذَا الْمَعْنَى، فَقَالَ: (٤٣٧/٦)

إِنْ تَشَقَّ عَيْنِي بِهَا فَقَدْ سَعِدْتُ غَيْرَ رُسُولِي وَفُزْتُ بِالْخَيْرِ
وَكَلَّمَا جِئَانِي الرُّسُولُ لَهَا رَدُّتُ عَمداً فِي غِيَا نَظَرِي
خَذْتُ مَقَلَّتِي بِأَرْسُولِ عَارِيَةٍ فَانْظُرْ بِهَا وَاحْكُمْ عَلَى بَصَرِي
قيل: وشكا اليزيدي يوماً إلى المأمون دِيناً لحقه، فقال: ما

عندي في هذه الأيام ما إن أعطيتك بلغت به ما تريد، فقال: يا أمير
المؤمنين، إن غرَّمتني قد أهرقوني: قال: انظر لنفسك أمراً تنال به
نفعاً، قال: إِنَّ لَكَ نِدْمَاءَ فِيهِمْ إِنْ حَرَكْتُ نَلْتُ بِهِ نَفْعاً. قال: أفعُلْ،
قال: إذا حضروا عندك فَمُرْ فَلَانَا الْخَادِمَ يوصل رقعتي إليك، فإذا
قرأتها فأرسل إليَّ: دخولك في هذا الوقت متعذر، ولكن اختر
لنفسك مَنْ أَحْبَبْتَ؟ قال: أفعُلْ، فلمَّا علم اليزيدي جلوس المأمون
مع ندمائه، وتيقَّن أَنَّهُمْ قَدْ أَخَذُوا الشَّرَابَ مِنْهُمْ، أَتَى الْبَابَ، فَدَخَلَ،

الحسين بن زيد لوضعت ذلك على فيك وعَدَوْتَ خَلْفَ جَنَازَتِهِ.

ذكر خلافة المعتصم

هَمَذَان، فوجّه إليهم المعتصم العساكر، وكان فيهم إسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب، وعقد له على الجبال في شِوَال، فسار إليهم، فأوقع بهم في أعمال هَمَذَان، فقتل منهم ستين ألفاً، وهرب الباقيون إلى بلد الروم، وقرئ كتابه بالفتح يوم التروية، وحجّ بالناس هذه السنة صالح بن العباس بن محمد. (٤٤٢/٦)

سنة تسع عشرة ومائتين

ذكر خلاف محمد بن القاسم العلوي

في هذه السنة ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، بالطالقان من خراسان، يدعو إلى الرضى من آل محمد، ﷺ.

وكان ابتداء أمره أنه كان ملازماً لمسجد النبي ﷺ حسن السيرة، فأتاه إنسان من خراسان اسمه أبو محمد كان مجاوراً، فلما رآه أعجبه طريقه، فقال له: أنت أحقّ بالإمامة من كلّ أحد، وحسنّ له ذلك، وبإيعه، وصار الخراساني يأتيه بالنفر بعد النفر من حجاج خراسان يبايعونه، فعل ذلك مدة.

فلما رأى كثرة من بايعه من خراسان ساراً جميعاً إلى الجوزجان، واختفى هناك، وجعل أبو محمد يدعو الناس إليه، فعظم أصحابه، وحمله أبو محمد على إظهار أمره، فأظهره بالطالقان، فاجتمع إليه بها ناس كثير، وكانت بينه وبين قواد عبد الله بن طاهر وقعات بناحية الطالقان وجبالها، فانهمز هو وأصحابه، وخرج هارباً يريد بعض كُور خراسان، وكان أهلها كاتبوه. (٤٤٣/٦)

فلما صار بنساً، وبها والد بعض من معه فلما بصر به سأل عن الخبر فأخبره، فمضى الأب إلى عامل نسا، فأخبره بأمر محمد بن القاسم، فأعطاه العامل عشرة آلاف درهم على دلالته، وجاء العامل إلى محمد، فأخذه واستوثق منه، وبعثه إلى عبد الله بن طاهر، فسيّره إلى المعتصم، فورد إليه منتصف شهر ربيع الأول، فحبس عند مسرور الخادم الكبير، وأجرى عليه الطعام، ووكل به قوماً يحفظونه، فلما كان ليلة الفطر اشتغل الناس بالعيد، فهرب من الحبس، دُلي إليه جبل من كوة كانت [في أعلي البيت] يدخل [عليه] منها الضوء، فلما أصبحوا أتوه بالطعام، فلم يروه، فجعلوا لمن دلّ عليه مائة ألف، فلم يُعرف له خبر.

ذكر محاربة الزط

وفيها وجّه المعتصم عَجَيف بن عُبَيْسَة في جمادى الآخرة لحرب الزط الذين كانوا غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا، وأخذوا الغلات من البيادر بكسكرو وما يليها من البصرة، وأخافوا السبيل،

ذكر خلاف فضل على زيادة الله

وفي هذه السنة وجّه زيادة الله بن الأغلب، صاحب إفريقية، جيشاً لمحاربة فضل بن أبي العنبر بالجزيرة، وكان مخالفاً لزيادة الله، فاستمد فضل بعبد السلام بن المفرج الرُبَيْعِي، وكان أيضاً مخالفاً من عهد فتنة منصور، كما ذكرنا، فسار إليه، فالتقوا مع عسكر زيادة الله، وجرى بين الطائفتين قتال شديد عند مدينة اليهود بالجزيرة، فقتل عبد السلام، وحُمل رأسه إلى زيادة الله.

وسار فضل بن أبي العنبر إلى مدينة تونس، فدخلها، وامتنع بها، فسيّر زيادة الله إليه جيشاً، فحاصروا فضلاً بها، وضيقوا عليه حتى فتحوها منه، وقتل وقت دخول العسكر كثير من أهلها، منهم: عباس بن الوليد، الفقيه، وكان دخل في بيته لم يقاتل، فدخل عليه بعض الجند، فأخذ سيفه وخرج وهو يصيح: الجهاد، فقتل، وبقي ملقى في خربة سبعة أيام لم يقربه ذو ناب ولا مخلص، وكان قد سمع الحديث من ابن عُبَيْسَة وغيره، وكان من الصالحين، وهرب كثير من أهل تونس لما مُلِكت، ثم آمنهم زيادة الله، فعادوا إليها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عاد المأمون إلى سَلْعُوس، ووجّه ابنه العباس إلى طُوانة، وأمره ببنائها، وكان قد وجّه الفعلة، فسابتداوا في بنائها ميلاً في ميل، وجعل (٤٤١/٦) سورها على ثلاثة فراسخ، وجعل لها أربعة أبواب، وجعل على كل باب حصناً، وكتب إلى البلدان ليفرضوا على كل بلد جماعة يتقلون إلى طُوانة، وأجرى لهم لكل فارس مائة درهم، ولكل راجل أربعين درهماً.

وفيها توفي بشر بن غياث المرُسي، وكان يقول بخلق القرآن والإرجاء وغيرهما من البدع.

وفيها دخل كثير من أهل الجبال، وهَمَذَان، وأصهبان، وماسَبَذَان، وغيرها في دين الخُرُمِيَّة، وتجمعوا، فعسكروا في عمل

وَرَبَّ عُجَيْفٍ الْخَيْلِ فِي كُلِّ سَكَّةٍ مِنْ سَكِّكَ الْبَرِيدِ، تَرْكُضُ
بِالْأَخْبَارِ، فَكَانَ يَأْتِي بِالْأَخْبَارِ مِنْ عُجَيْفٍ فِي يَوْمٍ، فَسَارَ حَتَّى نَزَلَ
تَحْتَ وَاسِطٍ، وَأَقَامَ عَلَى نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ بَرْدُودَا، حَتَّى سَدَّهَ وَأَنهَارَهُ أُخْرَ
كَانُوا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَدْخُلُونَ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الطُّرُقَ، ثُمَّ حَارَبَهُمْ،
فَأَسْرَ مِنْهُمْ فِي مَعْرَكَةٍ وَاحِدَةٍ خَمْسَمِائَةَ رَجُلٍ، وَقَتَلَ فِي الْمَعْرَكَةِ
ثَلَاثَمِائَةَ رَجُلٍ، فَضَرَبَ أَعْنَاقَ الْأَسْرَى، وَبَعَثَ الرُّؤُوسَ إِلَى بَابِ
الْمَعْتَصِمِ. (٤٤٤/٦)

ثُمَّ أَقَامَ عُجَيْفٌ بِإِزَاءِ الرُّطِّ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فَظَفَرَ مِنْهُمْ فِيهَا
بِخَلْقٍ كَثِيرٍ، وَكَانَ رَئِيسَ الرُّطِّ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَثْمَانَ، وَكَانَ
صَاحِبَ أَمْرِهِ إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ سَمَاقٌ، ثُمَّ اسْتَوَطَنَ عُجَيْفٌ، وَأَقَامَ
بِإِزَائِهِمْ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ.

ذِكْرُ مُحَاصَرَةِ طَلَيْطَلَةَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ سَيَّرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَكَمِ الْأُمَوِيُّ، صَاحِبُ
الْأَنْدَلُسِ، جَيْشًا مَعَ أَمِيَّةَ بْنِ الْحَكَمِ إِلَى مَدِينَةِ طَلَيْطَلَةَ، فَحَصَرَهَا،
وَكَانُوا قَدْ خَالَفُوا الْحَكَمَ، وَخَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ، وَاشْتَدَّ فِيهِ
حَصْرُهُمْ، وَقَطَعَ أَشْجَارَهُمْ، وَأَهْلَكَ زُرُوعَهُمْ، فَلَمْ يَذْهَبُوا إِلَى
الطَّاعَةِ، فَرحَلَ عَنْهُمْ، وَأَنْزَلَ بِقَلْعَةٍ رَّيَاحَ جَيْشًا عَلَيْهِمْ مَيَّسَرَةً،
الْمَعْرُوفُ بِفَتَى أَبِي أَيُّوبَ، فَلَمَّا أَبْعَدُوا مِنْهُ خَرَجَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ
طَلَيْطَلَةَ، لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ فُرْصَةً وَغَفْلَةً مِنْ مَيَّسَرَةِ فَيَنْالُوا مِنْهُ وَمِنْ
أَصْحَابِهِ غَرْضًا، وَكَانَ مَيَّسَرَةُ قَدْ بَلَغَهُ الْخَبِيرُ، فَجَعَلَ الْكَمِينَ فِي
مَوَاضِعٍ، فَلَمَّا وَصَلَ أَهْلُ طَلَيْطَلَةَ إِلَى قَلْعَةِ رَّيَاحٍ، لِلْغَارَةِ، خَرَجَ
الْكَمِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ، وَوَضَعُوا السِّيفَ فِيهِمْ، وَكَثُرُوا الْقَتْلَ،
وَعَادَ مَنْ سَلِمَ مِنْهُمْ مِنْهُمْ إِلَى طَلَيْطَلَةَ، وَجُمِعَتِ رُؤُوسُ الْقَتْلَى،
وَحُمِلَتْ إِلَى مَيَّسَرَةٍ، فَلَمَّا رَأَى كَثْرَتَهَا عَظُمَتْ عَلَيْهِ، وَارْتَاعَ لِذَلِكَ،
وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ غَمًّا شَدِيدًا، فَمَاتَ بَعْدَ أَيَّامٍ بِسِيرَةٍ. (٤٤٥/٦)

وَفِيهَا أَيْضًا كَانَ بِطَلَيْطَلَةَ فِتْنَةٌ كَبِيرَةٌ، تُعْرَفُ بِمِلْحَمَةِ الْعِرَاسِ،
قُتِلَ مِنْ أَهْلِهَا كَثِيرَةٌ.

ذِكْرُ عَدَّةِ حَوَادِثَ

وَفِيهَا أَحْضَرَ الْمَعْتَصِمُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَامْتَحَنَهُ بِالْقُرْآنِ، فَلَمْ
يَجِبْ إِلَى الْقَوْلِ بِخَلْقِهِ، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ جُلْدًا عَظِيمًا حَتَّى غَابَ عَقْلُهُ،
وَتَقَطَّعَ جُلْدُهُ، وَحُبِسَ مَقِيدًا.

وَفِيهَا قَدِمَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى بَغْدَادَ فِي جَمَادَى الْأُولَى،
وَمَعَهُ مِنْ أَسْرِ الْخُرَّمِيَّةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَقِيلَ إِنَّهُ قَتَلَ مِنْهُمْ نَحْوَ مِائَةِ أَلْفٍ
سُورَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

وَفِيهَا تَوَفَّى أَبُو نُعَيْمٍ الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنِ الْمَلَاثِيُّ، مَوْلَى طَلْحَةَ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ التَّيْمِيِّ، فِي شَعْبَانَ، وَهُوَ مِنْ مَشَايِخِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، كَانَ
مَوْلَاهُ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ، وَكَانَ شَيْعِيًّا؛ وَلَهُ طَائِفَةٌ تُنْسَبُ إِلَيْهِ يُقَالُ لَهَا

الدُّكَيْنِيَّةُ. (٤٤٦/٦)

سنة عشرين ومائتين

ذِكْرُ ظَفَرِ عُجَيْفٍ بِالرُّطِّ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ دَخَلَ عُجَيْفٌ بِالرُّطِّ بَغْدَادَ، بَعْدَ أَنْ ضَيَّقَ
عَلَيْهِمْ، وَقَاتَلَهُمْ، وَطَلَبُوا مِنْهُ الْأَمَانَ، فَأَمَّنَهُمْ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ فِي ذِي
الْحِجَّةِ سَنَةَ تِسْعِ عَشْرَةٍ وَمِائَتَيْنِ، وَكَانَتْ عَدَّتُهُمْ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ
سَبْعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا، وَالْمَقَاتِلَةُ مِنْهُمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَيْهِ
جَعَلَهُمْ فِي السَّفَنِ، وَعَبَّاهُمْ فِي سَفْنِهِمْ عَلَى هَيْئَتِهِمْ فِي الْحَرْبِ
مَعَهُمُ الْبُوقَاتُ، حَتَّى دَخَلَ بِهِمْ بَغْدَادَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ.

وَخَرَجَ الْمَعْتَصِمُ إِلَى الشَّمَاسِيَّةِ فِي سَفِينَةٍ يُقَالُ لَهَا الزُّو، حَتَّى
يَمُرَّ بِهِ الرُّطُّ عَلَى تَعَبَتِهِمْ وَهُمْ يَنْفَخُونَ فِي الْبُوقَاتِ، وَأَعْطَى
عُجَيْفٌ أَصْحَابَهُ كُلَّ رَجُلٍ دِينَارَيْنِ دِينَارَيْنِ، وَأَقَامَ الرُّطُّ فِي سَفْنِهِمْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ نَقَلُوا إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ، وَسَلَّمُوا إِلَى بَشَرَ بْنِ
السَّمِيدَعِ، فَذَهَبَ بِهِمْ إِلَى خَائِزِقِينَ، ثُمَّ نَقَلُوا إِلَى الثُّغْرِ، إِلَى عَيْنِ
زُرِّيَّةٍ، فَأَغَارَتِ الرُّومُ عَلَيْهِمْ، فَاجْتَاوَهُمْ، فَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ.
(٤٤٧/٦)

ذِكْرُ مَسِيرِ الْأَفْشِينِ لِحَرْبِ بَابِكَ الْخُرَّمِيِّ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَقَدَ الْمَعْتَصِمُ لِلْأَفْشِينِ خَيْدَرَ بْنَ كَاوُسَ عَلَى
الْجِبَالِ، وَوَجَّهَهُ لِحَرْبِ بَابِكَ فَسَارَ إِلَيْهِ.

وَكَانَ ابْتِدَاءَ خُرُوجِ بَابِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ، فَكَانَتْ مَدِينَتُهُ
الْبَدَّ، وَهَزَمَ مِنْ جِيوشِ السُّلْطَانِ عِدَّةً، وَقَتَلَ مِنْ قَوَّادِهِ جَمَاعَةً، فَلَمَّا
أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى الْمَعْتَصِمِ، وَجَّهَ أَبَا سَعِيدٍ مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ إِلَى
أَرْدَبِيلَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَبْنِيَ الْحِصُونَ الَّتِي أَخْرَبَهَا بَابِكَ فِيمَا بَيْنَ رَنْجَانٍ
وَأَرْدَبِيلَ، وَيَجْعَلَ فِيهَا الرِّجَالَ تَحْفَظُ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَجْلِبُ الْمِيرَةَ إِلَى
أَرْدَبِيلَ، فَتَوَجَّهَ أَبُو سَعِيدٍ لِذَلِكَ، وَبَنَى الْحِصُونَ.

وَوَجَّهَ بَابِكَ سَرِيَّةً فِي بَعْضِ غَزَاتِهِ، فَأَغَارَتِ عَلَى بَعْضِ
النَّوَاحِي وَرَجَعَتْ مُنْصَرَفَةً؛ وَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا سَعِيدٍ، فَجَمَعَ النَّاسَ،
وَخَرَجَ فِي طَلَبِ السَّرِيَّةِ، فَاعْتَرَضَهَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا
شَدِيدًا، فَقَتَلَ أَبُو سَعِيدٍ مِنْ أَصْحَابِ بَابِكَ جَمَاعَةً، وَأَسْرَ جَمَاعَةً،
وَاسْتَقْدَمَ مَا كَانُوا أَخَذُوهُ، وَسَيَّرَ الرُّؤُوسَ وَالْأَسْرَى إِلَى الْمَعْتَصِمِ،
فَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ هَزِيمَةٍ عَلَى أَصْحَابِ بَابِكَ.

ثُمَّ كَانَتْ الْأُخْرَى لِمُحَمَّدَ بْنِ الْبَغِيثِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ
فِي قَلْعَةٍ لَهُ حَصِينَةٌ تُمَسَّى الشَّاهِي، كَانَ ابْنُ الْبَغِيثِ قَدْ أَخَذَهَا مِنْ
ابْنِ الرُّوَادِ، وَهِيَ مِنْ كُورَةِ أَذْرَبِيجَانَ، وَلَهُ حِصْنٌ آخَرُ مِنْ أَذْرَبِيجَانَ
يُسَمَّى تَبْرِيزَ، وَكَانَ مَصَالِحًا لِبَابِكَ، تَنْزِلُ سَرَايَاتُهُ عَنْدهُ، فَبِضْيَفَتِهِمْ
حَتَّى أَنْسَاوْهُ، ثُمَّ إِنَّ بَابِكَ وَجَّهَ قَائِدًا اسْمُهُ عَصْمَةُ مِنْ أَصْبَهَانِيَّةٍ

الذي واعد فيه بُغا، عند العصر، من برزند، فوافى خُش مع غروب الشمس، فنزل خارج خندق أبي سعيد، فلَمَّا أصبح ركب سرّاً، ولم يضرب طبلًا، ولم ينشر علماً، (٤٥٠/٦) وأمر النَّاس بالسكوت وجدّ في السَّير، ورحلت القافلة التي كانت توجّهت ذلك اليوم من النهر إلى ناحية الهِشم، وتعبى بآبَك في أصحابه، وسار على طريق النهر، وهو يظنّ أنّ المال يصادفه، فخرجت خيل بآبَك على القافلة، ومعها صاحب النهر، فقاتلهم صاحب النهر، فقتلوه، وقتلوا مَنْ كان معه من الجند، وأخذوا جميع ما كان معهم، وعلموا أنّ المال قد فاتهم، وأخذوا علّمه ولباس أصحابه، فلبسوها وتنكروا ليأخذوا الهِشم الغنويّ ومن معه أيضاً، ولا يعلمون بخروج الأفشين، وجاؤوا كأنهم أصحاب النهر، فلم يعرفوا الموضع الذي يقف فيه علّم صاحب النهر، فوقفوا في غيره.

وجاء الهِشم فوقف في موضعه وأنكر ما رأى، فوجّه ابن عم له، فقال له: اذهب إلى هذا البغيض، فقلّ له لأيّ شيء وقوفك، فجاء إليهم، فسأكرهم، فرجع إليه فأخبره، فانفذ جماعة غيره، فأنكروهم أيضاً، وأخبروه أنّ بآبَك قد قتل علّويه، صاحب النهر، وأصحابه، وأخذ أعلامهم ولباسهم، فرحل الهِشم راجعاً، ونجى القافلة التي كانت معه، وبقي هو وأصحابه في أعقابهم حامية لهم حتى وصلت القافلة إلى الحصن، وهو أرششق، وسيّر رجلين من أصحابه إلى الأفشين وإلى أبي سعيد يُعرفهما الخبر، فخرجا يركضان، ودخل الهِشم الحصن، ونزل بآبَك عليه، ووضع له كرسيّاً بحيال الحصن، وأرسل إلى الهِشم أن خلّ الحصن وانصرف، فأبى الهِشم ذلك، فحاربه بآبَك وهو يشرب الخمر على عادته والحرب مشتبكة.

وسار الفارسان، فلقيا الأفشين على أقلّ من فرسخ، فقال لصاحب مقدّمته: (٤٥١/٦) أرى فارسين يركضان ركضاً شديداً، ثم قال: اضربوا الطبل، وانشروا الأعلام، واركضوا نحوهما وصيحوا ليبيكما ليبيكما! ففعلوا ذلك، وأجرى النَّاس خيلهم طلقاً واحداً، حتى لحقوا بآبَك وهو جالس، فلم يطق أن يركب، حتى وافته الخيل، فاشتبكت الحرب، فلم يُقتل من رجالة بآبَك أحد، وأفلت هو في نفر يسير من خيالاته، ودخل مُوقان وقد تقطّع عنه أصحابه، ورجع عنه الأفشين إلى برزند.

وأقام بآبَك بمُوقان، وأرسل إلى البَذّ، فجاءه عسكر، فرحل بهم من مُوقان، حتى دخل البَذّ، ولم يزل الأفشين معسكراً ببرزند، فلَمَّا كان في بعض الأيام مرّت قافلة، فخرج عليها أصبهُد بآبَك، فأخذها وقتل مَنْ فيها، فقُحط عسكر الأفشين لذلك، فكتب الأفشين إلى صاحب مُراغة بحمل الميرة وتعييلها، فوجّه إليه قافلة عظيمة، فيها قريب من ألف ثور، سوى غيرها من الدواب، تحمل الميرة، ومعها جند يسيرون بها، فخرج عليهم سرّيةً لبآبَك،

في سرّية، فنزل بابن البُعيث، (٤٤٨/٦) فانزل له الضيافة على عادتها، واستدعاه له في خاصّته ووجوه أصحابه، فصعد فغذّاهم، وسقاهم الخمر حتى سكروا، ثم وثب على عصمة، فاستوثق منه، وقتل مَنْ كان معه من أصحابه، وأمره أن يسمّي رجلاً رجلاً من أصحابه، فكان يدعو الرجل باسمه، فيصعد، فيضرب عنقه، حتى علموا بذلك فهربوا. وسيّر عصمة إلى المعتصم، فسأل المعتصم عصمة عن بلاد بآبَك، فأعلمه طرقه ووجوه القتال فيها، ثم ترك عصمة محبوباً، فبقي إلى أيام الواصل.

ثم إنَّ الأفشين سار إلى بلاد بآبَك، فنزل ببرزند، وعسكر بها، وضبط الطرق والحصون فيما بينه وبين أردبيل، وأنزل محمد بن يوسف بموضع يقال له خُش، فحفر خندقاً، وأنزل الهِشم الغنويّ برُستاق أرششق، فأصلح حصنه، وحفر خندقه، وأنزل علّويه الأعور، من قوّة الأبناء، في حصن النهر ممّا يلي أردبيل، فكانت السابلة والقوافل تخرج من أردبيل ومعها من يحميها، حتى تنزل بحصن النهر، ثم يسيّرهما صاحب حصن النهر إلى الهِشم الغنويّ، فيلقاه الهِشم بمن جاء إليه من ناحية في موضع معروف لا يتعدّاه أحدهم إذا وصل إليه، فإذا لقيه أخذ ما معه، وسلّم إليه ما معه، ثم يسيّر الهِشم بمن معه إلى أصحاب أبي سعيد، فيلقونه بمنتصف الطريق، ومعهم مَنْ خرج من العسكر، فيتسلّمون ما مع الهِشم ويتسلّمون إليه ما معهم، وإذا سبق أحدهم إلى المنتصف لا يتعدّاه، وسيّر أبو سعيد بمن معه إلى عسكر الأفشين فيلقاه صاحب سيرة الأفشين، فيتسلّمهم منه، ويتسلّم إليه من (٤٤٩/٦) صحبه من العسكر، فلم يزل الأمر على هذا.

وكانوا إذا ظفروا بأحد من الجواسيس حملوه إلى الأفشين، فكان يحسن إليهم، ويهب لهم، ويسألهم عن الذي يعطيهم بآبَك، فيضعفه لهم، ويقول لهم: كونوا جواسيس لنا، فكان يتفح بهم.

ذكر وقعة الأفشين مع بآبَك

وفيهما كانت وقعة الأفشين مع بآبَك، قُتل من أصحاب بآبَك خلق كثير.

وكان سببها أنّ المعتصم وجّه بُغا الكبير إلى الأفشين، ومعه مال للجند، والنفقات، فوصل أردبيل، فبلغ بآبَك الخبر، فتهاهى هو وأصحابه ليقطعوا عليه قبل وصوله إلى الأفشين، فجاء جاسوس إلى الأفشين، فأخبره بذلك فلَمَّا صحّ الخبر عند الأفشين كتب إلى بُغا أن يُظهر أنه يريد الرحيل، ويحمل المال على الإبل، وسيّر نحوه، حتى يبلغ حصن النهر، فيحبس الذي معه، حتى يجوز مَنْ صحبه من القافلة، فإذا جازوا رجع بالمال إلى أردبيل.

ففعل بُغا ذلك، وسارت القافلة، وجاءت جواسيس بآبَك إليه، فأخبروه أنّ المال قد سار فبلغ النهر، وركب الأفشين في اليوم

وكان المعتصم يأمره بإعطاء المغني والنديم، فلا ينفذ الفضل ذلك، فنقل على المعتصم، وكان له مضجك اسمه إبراهيم، يُعرف بالهفتي، فأمر له المعتصم بمال، وتقدم إلى الفضل بإعطائه، فلم يعطه شيئاً، فبينما الهفتي يوماً عند المعتصم، يمشي معه في بستان له، وكان الهفتي يصحبه قبل الخلافة، ويقول له فيما يداعبه: واللّه لا تفلح أبداً؛ وكان مربوطاً بديناً، وكان المعتصم خفيف اللّحم، فكان يسبقه، ويلتفت إليه ويقول: ما لك لا تسرع المشي؟ فلمّا أكثر عليه من ذلك قال الهفتي مداعباً له: كنت أراني أماشي خليفة، ولم [أكن] أراني أماشي قبيحاً، واللّه لا أفلحت أبداً! فضحك المعتصم وقال: وهل بقي من الفلاح شيء لم أدركه بعد الخلافة؟ فقال: اتظنّ أنّك أفلحت؟ لا والله، ما لك من الخلافة إلا اسمها، ما يتجاوز أملك أذنّيك، إنّما الخليفة الفضل؛ فقال: وأي أمر لي لم ينفذ؟ فقال الهفتي: أمرت لي بكذا وكذا منذ شهرين، فما أعطيت حبة؛ فحقدها على الفضل.

فقيل: أوّل ما أحدثه في أمره أن جعل زمناً في نفقات الخاصة، وفي (٤٥٤/٦) الخراج، وجميع الأعمال، ثمّ نكبه وأهل بيته في صفر، وأمرهم بعمل حسابهم، وصيّر مكانه محمد بن عبد الملك الزيات، فنفى الفضل إلى قرية في طريق الموصل تُعرف بالسّن، وصار محمد وزيراً كاتباً.

وكان الفضل شرس الأخلاق، ضيّق العطن، كربه اللّقاء، بخيلاً، مستطيلاً، فلمّا نُكِب شمت به الناس، حتى قال بعضهم فيه: ليكنّ على الفضل بن مروان نفسه فليس له بالك من الناس يُعرفُ لقد صجبت الدنيا مؤعاً لخيرها وفلّتها وهو الظلوم المَعْتَفُ إلى النار فلينهب، ومن كان مثله على أي شيء فأتنا منه نأسف؟

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة سبّر عبد الرحمن ملك الأندلس جيشاً إلى طليطلة، فقاتلوه، فلم يظفروا بها. وحجّ بالناس صالح بن العباس بن محمد.

وفيها توفي سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس بن أيوب الهاشمي، وعفان بن مسلم أبو عثمان الصفار البصري، وكان موته ببغداد وله خمس وثمانون سنة، وهو من مشايخ البخاري؛ وتوفي فتح الموصلي (٤٥٥/٦) الزاهد، وكان من الأولياء والأجواد؛ ومحمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، عليه السلام، توفي ببغداد، وكان قدمها ومعه امرأته أم الفضل ابنة المأمون، فدُفن بها عند جدّه موسى بن جعفر، وهو أحد الأئمة عند الإماميّة، وصلى عليه الواثق، وكان عمره خمساً وعشرين سنة، وكانت وفاته في ذي الحجة، وقيل في سبب موته غير ذلك. (٤٥٦/٦)

فأخذوها عن آخرها، وأصاب العسكر ضيق شديد، فكتب الأفسشين إلى صاحب شيراز يأمره أن يحمل إليه طعاماً، فحمل إليه طعاماً كثيراً، وأغاث الناس، وقدم بغاً على الأفسشين بما معه.

ذكر بناء سامرا

وفي هذه السنة خرج المعتصم إلى سامرا لبنائها، وكان سبب ذلك أنه قال: إني أخوف هؤلاء الحرّية أن يصيحوا صيحة فيقتلوا غلماني، فأريد أن أكون فوقهم، فإن رأيت منهم شيء أتيتهم في البرّ والماء، حتى أتني عليهم، فخرج إليها، فأعجبه مكانها. (٤٥٢/٦)

وقيل كان سبب ذلك أنّ المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك فكانوا لا يزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلاً، وذلك أنهم كانوا جفاة، يركبون الدواب، فيركضونها إلى الشوارع، فيصدمون الرجل والمرأة والصبي، فيأخذهم الأبناء عن دوابهم، ويضربونهم، وربّما هلك أحدهم فتأذى بهم الناس.

ثم إنّ المعتصم ركب يوم عيد، فقام إليه شيخ فقال له: يا أبا إسحاق! فأراد الجند ضربه، فمنعهم وقال: يا شيخ ما لك، ما لك؟ قال: لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك، فاسكتهم بيننا، فأيتمت صبياننا، وأرملت بهم نسواننا، وقتلت رجالنا؛ والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله، ولم يُر راكباً إلى مثل ذلك اليوم، فخرج، فصلّى بالناس العيد، ولم يدخل بغداد، بل سار إلى ناحية القاطول، ولم يرجع إلى بغداد.

قال مسرور الكبير: سألتني المعتصم أين كان الرشيد يشترّه إذا سحر ببغداد، قلت: بالقاطول، وكان قد بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم، وكان قد خاف من الجند ما خاف المعتصم، فلمّا وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج إلى الرقة فأقام بها، وبقيت مدينة القاطول لم تستمر.

ولما خرج المعتصم إلى القاطول استخلف ببغداد ابنه الواثق، وكان المعتصم قد اصطنع قوماً من أهل الحوف بمصر، واستخدمهم، وسماهم المغاربة، وجمع خلقاً من سمرقند، وأشروسنة، وفرغانة، وسماهم الفرائغة، فكانوا من أصحابه، ويقروا بعده. وكان ابتداء العمارة بسامرا سنة إحدى وعشرين ومائتين. (٤٥٣/٦)

ذكر قبض الفضل بن مروان

وكان الفضل بن مروان من البردان، وكان حسن الخط، فاتصل ببعض الجرمقاني، كاتب المعتصم، قبل خلافته، فكان يكتب بين يديه، فلمّا هلك الجرمقاني صار موضعه، وسار مع المعتصم إلى الشام، ومصر، فأخذ من الأموال الكثير، فلمّا صار المعتصم خليفة كان اسمها له، وكان معناها للفضل، واستولى على الدواوين كلّها، وكثر الأموال.

سنة إحدى وعشرين ومائتين

ذكر محاربة بابك في هذه السنة

في هذه السنة واقع بابك بُغا الكبير، فهزمه، وواقع الأفشين، فهزم بابك.

يقدر أحد منهم [أن] ينزل فيأخذ ماء، ولا يسقي دابته من شدة البرد، واشتد عليه الثلج والضبَاب، فلمَّا كان اليوم الثالث قال النَّاس لبُغا: قد فني ما معنا من الزاد، (٤٥٨/٦) وقد أضرب بنا البرد، فانزل على أيِّ حالة كانت إمَّا راجعين وإمَّا إلى الكافر.

وكان بابك في أيام الضباب والثلج قد بيست الأفشين وبعض عسكره، وانصرف الأفشين إلى عسكره، فضرب بُغا الطبل، وانحدر يريد البَدْ، ولا يعلم بما تمَّ على الأفشين بل يظنه في موضع عسكره، فلمَّا نزل إلى بطن الوادي رأى السماء منجلية، والدنيا طيبة، غير رأس الجبل الذي كان عليه، فعبأ أصحابه، وتقدَّم إلى البَدْ، حتى صار بحيث يلزق جبل البَدْ، ولم يبقَ بينه وبين أن يشرف على أبيات البَدْ إلاَّ صعود نصف ميل.

وكان على مقدَّمته جماعة فيهم غلام لابن البُعَيْث، له قرابة بالبَدْ، فلقيهم طلائع بابك، فعرف بعضهم الغلام، فسأله عمُّ له عنَّ معه من أهله، فأخبره، فقال له: ارجع وقلْ لمنْ تعنى به يتسحَّ، فإنَّا قد هزمتا الأفشين، ومضى إلى خندق، وتهيَّأنا لكم عسكرين، فعجَّل الانصراف لعلَّك تفلت.

فرجع الغلام فأخبر ابن البُعَيْث، فأخبر بُغا بذلك، فشاور أصحابه، فقال بعضهم: هذا باطل، هذه خدعة. وقال بعضهم: هذا رأس جبل ينظر إلى عسكر الأفشين، فصعد بُغا، ومعه نفر، إلى رأس الجبل، فلم يروا عسكر الأفشين، فتيقَّن أنه مضى، وتشاوروا، فأروا أن ينصرف الناس قبل أن يجيئهم الليل، فانصرفوا، وجدُّوا في السير، ولم يقصد الطريق الذي دخل منه لكثرة مضايقه، بل أخذ طريقاً يدور حول هشتادسر ليس فيه غير مضيق واحد، فطرح الرجالة سلاحهم في الطريق، وخافوا، وصار بُغا وجماعة القوَّاد في السَّاقَة، وطلائع بابك تتبعهم، وهم قدر عشرة فرسان، فشاور بُغا (٤٥٩/٦) أصحابه، وقال: لا آمن أن يكون هؤلاء مشغلة لنا عن السير، وتقدَّم أصحابهم ليأخذوا المضيق علينا، فقال له الفضل: إن هؤلاء أصحاب الليل، فأسرع السير، ولا تنزل حتى تجاوز المضيق. وقال غيره: إنَّ العسكر قد تقطَّع، وقد رموا سلاحهم، وقد بقي المال والسلاح على البغال ليس معه أحد، ولا نأمن أن يؤخذ، ويؤخذ الأسير الذي معهم.

وكان ابن جويدان معهم أسيراً يريدون أن ينادوا به، فعسكر على رأس جبل حصين، ونزل النَّاس وقد كلَّوا وتعبوا، وفنيَتْ أزوادهم، فباتوا يتحارسون من ناحية المصعد فأناء بابك من الناحية الأخرى، فكبسوا بُغا والعسكر، وخرج بُغا راجلاً، فرأى دابة فركبها، وجُرح الفضل بن كاوس، وقُتل جناح السكري وابن جوشن، وأخذ [أحد] الأخوين قرابة الفضل بن سهل، ونجا بُغا والناس ولم تتبعهم الحرَّمية، وأخذوا المال والسلاح والأسير،

وكان سبب ذلك أن بُغا الكبير كان قد قدم بالمال الذي كان معه إلى الأفشين، ففرقه في أصحابه، وتجهَّز بعد التَّيروز، ووجَّه إلى بُغا فيعسكر ليدور حول هشتادسر، وينزل في خندق محمَّد بن حُميد، ويحفره، ويحكمه، فسار بُغا إلى الخندق، ورحل الأفشين من برزند، ورحل أبو سعيد من خَشْ يريدان بابك، فتوافوا بمكان يقال له: دَرُوْد، فحفر الأفشين خندقاً، وبنى عليه سوراً، وكان بينه وبين البَدْ سِتَّة أميال.

ثم إنَّ بُغا تجهَّز بغير أمر الأفشين، وحمل معه الزاد، ودار حول هشتادسر، حتى دخل قرية البَدْ، فنزلها فأقام بها؛ ثم وجَّه ألف رجل في علافة له، فخرج عليهم بعض عساكر بابك، فأخذ العلافة، وقتل كلَّ مَنْ كان قاتله، وأسر مَنْ قدر عليه وأخذ بعضهم، فأرسل منهم رجلين إلى الأفشين يُعلمانه ما نزل بهم.

ورجع بُغا إلى خندق محمَّد بن حُميد تشبيهاً بالمنهزم، وكتب إلى الأفشين (٤٥٧/٦) يُعلمه ذلك، ويسأله المدد، فوجَّه إليه الأفشين أخاه الفضل، وأحمد بن الخليل بن هشام، وابن جوشن، وجناحاً الأعور، صاحب شرطة الحسن بن سهل، وأحد الأخوين قرابة الفضل بن سهل، فأتوا بُغا، وكتب الأفشين إلى بُغا يُعلمه أن يغزو بابك في يوم عيَّنه له، ويأمره أن يغزو في ذلك اليوم يعينه فيحاربه من الوجهين، فخرج الأفشين ذلك اليوم من دَرُوْد يريد بابك، وخرج بُغا من خندقه، فخرج إلى هشتادسر، فلم يكن للنَّاس صبر لشدة البرد والريح، فانصرف إلى عسكره، فعسكر على دعوة، وهاجت ريح باردة ومطر شديد، فرجع بُغا، فهزم أصحاب بابك، وأخذ عسكره وخيمته وامرأة كانت معه، ونزل الأفشين في معسكر بابك.

ثم تجهَّز بُغا من الغد، وصعد إلى هشتادسر، فأصاب العسكر [الذي] كان بإزائه قد انصرف إلى بابك، فأصاب من أثاثهم ورحلهم شيئاً، وانحدر من هشتادسر يريد البَدْ، وعلى مقدَّمته داود سياه، فأرسل إليه بُغا: إنَّ المساء قد أدركنا، وقد تعب الرجالة، وتوسَّطنا المكان الذي قد نعرفه، فانظر جبلاً حصيناً حتى نعسكر فيه ليلتنا هذه؛ فصعد بهم إلى جبل أشرفوا منه على عسكر الأفشين، فقالوا: نبيت هاهنا إلى غدوة، وننحدر إلى الكافر إن شاء الله تعالى.

فجاءهم تلك الليلة سحاب ويرد، وثلج كثير، فأصبحوا ولا

نهر كبير، فاحتفر عنده خندقاً، وكتب إلى أبي سعيد ليرح من برزند إلى طرف رستاق كلان روز، وبينهما قدر ثلاثة أميال، فأقام الأفشين بكلان روز خمسة أيام، فاتاه من أخبره أن قائداً لبابك اسمه آذين قد عسكر بإزائه، وأنه قد صير عياله في خيل، فقال له بابك: ليجعلهم في الحصن، فقال: لا اتحصن من اليهود، يعني المسلمين، والله لا أدخلهم حصناً أبداً.

فوجه الأفشين ظفر بن العلاء السعدي في جماعة من الفرسان والرجال، فساروا ليلتهم، فوصلوا إلى مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد، وأكثر (٤٦٢/٦) الناس قادوا دوابهم، وتسلقوا في الجبل، وأخذوا عيال آذين وبعض ولده.

وبلغ الخبر آذين، وكان الأفشين قد خاف أن يؤخذ عليهم الطريق، فأمرهم أن يجعلوا على رأس كل جبل رجالاً معهم الأعلام السود، فإن رأوا شيئاً يخافونه حركوا الأعلام، ففعلوا ذلك، فلما أخذوا عيال آذين ورجعوا إلى بعض الطريق قبل المضيق، اتاهم آذين في أصحابه، فحاربهم فقتل منهم قتلى، واستنقذوا بعض النساء، فنظر الرجال المرتبون برؤوس الجبال، فحركوا الأعلام، وكان آذين قد أنفذ من يمسك عليهم المضيق، فلما رأى الأفشين تحريك العلم الذي بإزائه سير جماعة من الجند مع مظفر بن كيزر، فأسرع نحوهم، ووجه أبا سعيد بعدهم وبخاراخذه، فلما نظر إليهم رجال آذين الذين على المضيق تركوه، وقصدوا أصحابهم، فنتج ظفر بن العلاء ومن معه، ومعهم بعض عيال آذين.

ذكر فتح البذ وأسر بابك

وفي هذه السنة فتحت البذ، مدينة بابك، ودخلها المسلمون وخربوها، واستباحوها، وذلك لعشر يقين من شهر رمضان.

وكان سبب ذلك أن الأفشين لما عزم على الدنو من البذ، والرجل من كلان روز، جعل يتقدم قليلاً قليلاً خلاف ما تقدم، وكتب إليه المعتصم يأمره أن يجعل الناس نواب، يقفون على ظهور الخيل نواباً في الليل، مخافة البيات، فضج الناس من التعب، وقالوا: بيتنا وبين العدو أربعة فراسخ، (٤٦٣/٦) ونحن نفعل أفعالاً كان العدو بإزائنا، قد استحيينا من الناس، أقدم بنا، فإما لنا وإما علينا.

فقال: أعلم أن قولكم حق، ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا، فلم يلبث أن جاءه كتاب المعتصم يأمره أن يفعل كما كان يفعل، فلم يزل كذلك أياماً، ثم اتحد حتى نزل روز الروذ، وتقدم حتى شارف الموضع الذي كانت به الوقعة في العام الماضي، فوجد عليه كردوساً من الخرمية، فلم يحاربهم، ولم يزل إلى الظهر، ثم رجع إلى معسكره فمكث يومين، ثم عاد في أكثر من الذين كانوا معهم، ولم يقاتلهم، وأقام الأفشين بروز الروذ، وأمر الكوهبانية،

فوصل الناس معسكرهم منقطعين إلى خندقهم، فأقام بغا به خمسة عشر يوماً، وكتب إليه الأفشين يأمره بالرجوع إلى مراغة، وأن يرسل إليه المدد، فمضى بغا إلى مراغة، وفرق الأفشين الناس في مشاتهم تلك السنة، حتى جاء الربيع.

وفيها قتل طرخان، وهو من أكبر قواد بابك، وكان سبب قتله أنه طلب من بابك إذناً حتى يشي في قريته، وهي بناحية مراغة، وكان الأفشين يرصده، فلما علم خبره أرسل إلى ترك مولى إسحاق بن إبراهيم، وهو بمراغة، يأمره أن يسري إليه في قريته حتى يقتله، أو يأخذه أسيراً، ففعل ترك ذلك وأسرى إليه وقلته، وأخذ رأسه فبعثه إلى الأفشين. (٤٦٠/٦)

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة قدم صول أرنيكين وأهل بلاده في القيود، فنزعت قيودهم، وحمل على الدواب نحو مائتين.

وفيها غضب الأفشين على رجاء الحضاري، وبعث به مقيداً، وحجج بالناس هذه السنة محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله، وهو والي مكة.

(الحضاري بكسر الحاء المهملة وبالفصاد المعجمة وبعد الألف راء وياء).

وفيها توفي القاضي أحمد بن محرز، قاضي القيروان، وكان من العلماء العاملين، الزاهدين في الدنيا.

وفيها توفي آدم بن أبي إياس السقلائي، وهو من مشايخ البخاري في صحيحه، وعيسى بن أبان بن صدقة أبو موسى، قاضي البصرة، وهو من أصحاب أبي الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة، وعبد الله بن مسلمة ابن قعنت الحارثي صاحب مالك، وعبد الكبير بن المعافي بن عمران الموصلي، وكان فاضلاً، والعباس بن سليم بن جميل الأزدي الموصلي. (٤٦١/٦)

سنة اثنتين وعشرين ومائتين

ذكر محاربة بابك أيضاً

في هذه السنة وجه المعتصم إلى الأفشين جعفر الخياط مدداً له، ووجه إليه إنتاجاً معه ثلاثون ألف ألف درهم للجند وللنفقات، فأوصل ذلك إلى الأفشين وعاد.

وفيها كانت وقعة بين أصحاب الأفشين وقائد لبابك اسمه آذين، وكان سببها أن الشتاء لما انقضى سنة إحدى وعشرين ومائتين، وجاء الربيع، ودخلت سنة اثنتين وعشرين، رحل الأفشين عند إمكان الزمان، فصار إلى موضع يقال له كلان روز، وتفسيره

وكان الأفشين يجلس على تل مشرف ينظر إلى قصر بابك، والناس كراديس، فمن كان معه من هذا الجانب من الوادي نزل عن دابته، ومن كان من ذلك الجانب مع أبي سعيد وجعفر وأحمد بن الخليل لم ينزل لقربه من العدو؛ وكان بابك وأصحابه يشربون الخمر، ويضربون بالسرنائي، فإذا صلى الأفشين الظهر رجع إلى خندقه بروذ الروذ، فكان يرجع أولاً أقربهم إلى العدو، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، فكان آخر من يرجع بخاراخذاه لأنه كان أبعدهم عن العدو، فإذا رجعوا صاح بهم الخرمية.

فلما كان في بعض الأيام ضجرت الخرمية من المطاولة، وانصرف الأفشين كعادته، وعادت الكراديس التي بذلك الجانب من الوادي؛ ولم يبق إلا جعفر الخياط، ففتش الخرمية باب البذ، وخرج منهم جماعة على أصحاب جعفر، وارتفعت الصيحة فتقدم جعفر بنفسه، فرد أولئك الخرمية إلى باب البذ، ووقعت الصيحة في العسكر، فرجع الأفشين فرأى جعفر وأصحابه يقتلون، وخرج من الفريقين جماعة، وجلس الأفشين في مكانه، وهو يتلظى على جعفر، ويقول: أفسد عليّ تعبتي. (٤٦٦/٦)

وارتفعت الصيحة، فكان مع أبي دُلف قوم من المتطوعة، فعبروا إلى جعفر بغير أمر الأفشين، وتعلقوا بالبذ، وأثروا فيه أثراً، وكادوا يصعدونه فيدخلون البذ، ووجه جعفر إلى الأفشين أن أمّني بخمس مائة راجل من الناشبة، فإني أرجو أن أدخل البذ إن شاء الله تعالى؛ فيحث إليه الأفشين: إنك أفسدت عليّ أمري، فتخلص قليلاً قليلاً، وخلّص أصحابك وانصرف؛ وارتفعت الصيحة من المتطوعة، حتى تعلقوا بالبذ، وظن الكمناء الذين لبابك أن الحرب قد اشتبكت، فوثب بعضهم من تحت بخاراخذاه، ووثب بعضهم من ناحية أخرى، فتحركت الكمناء من الخرمية، والناس على رؤوسهم، فلم يزل منهم أحد، فقال الأفشين: الحمد لله الذي بين مواضع هؤلاء.

ورجع جعفر وأصحابه والمتطوعة، فجاء جعفر إلى الأفشين، فأنكر عليه حيث لم يمدّه، وجرى بينهما نفرة شديدة، وجاء رجل من المتطوعة، ومعه صخرة، فقال للأفشين: أتردنا وهذا الحجر أخذته من السور؟ فقال: إذا انصرفت عرفت من على طريقك، يعني الكمين الذي عند بخاراخذاه. وقال لجعفر: لو ثار هذا الكمين الذي تحتك كيف كنت ترى هؤلاء المتطوعة؟

ثم رجع هو وأصحابه على عادتهم، فلما رأى هؤلاء الكمين الذي عند بخاراخذاه علماً ما كان وراءهم، فإن بخاراخذاه لو تحرك نحو القتال، لملكوا ذلك الموضع، وهلك المسلمون عن آخرهم؛ فأقام الأفشين بخندقه أياماً، فشكا المتطوعة إليه ضيق العلوفة، والزد، والنفقة، فقال: من صبر فليصبر، (٤٦٧/٦) ومن لم

وهم أصحاب الأخبار، أن ينظروا له في رؤوس الجبال مواضع يتحصن فيها الرُجالة.

فأختاروا له ثلاثة أجبل كان عليها حصون فخرت، فأخذ معه الفعلة، وسار نحو هذه الجبال، وأخذ معه الكعك والسويق، وأمر الفعلة بنقل الحجارة، وسد الطريق إلى تلك الجبال، حتى صارت كالحصون، وأمر بجفر [خندق] على كل طريق وراء تلك الحجارة، ولم يترك مسلماً إلى الجبال منها إلى مسلماً واحداً، ففرغ من الذي أراد من حفر الخنادق في عشرة أيام، وهو والناس يحرسون الفعلة والرُجالة ليلاً ونهاراً.

فلما فرغ منها أدخل الرُجالة إليها، وأنفذ إليه بابك رسلاً ومعه قنّاء، وبطيخ، وخيار، ويُعلمه أنه قد تعب وشقي من أكل الكعك، وأنا في عيش رغد، فقبل ذلك منه، وقال: قد عرفت ما أراد أخي، وأصعد الرسول، (٤٦٤/٦) فأراه ما عمل، وأطاف به خنادقه كلها، وقال: اذهب فعرفه ما رأيت.

وكان جماعة من الخرمية يأتون إلى قرب خندق الأفشين، فيصيحون، فلم يترك الأفشين أحداً يخرج إليهم، فعلموا ذلك ثلاثة أيام؛ ثم إن الأفشين كمن لهم كميناً، فلما جاؤوا ثاروا عليهم، فهربوا ولم يعودوا.

وعباً الأفشين أصحابه، وأمر كلّا منهم بلزوم موضعه، وكان يركب، والناس في مواقعهم، فكان يصلي الصبح بغلس، ثم يضرب الطبول ويسير زحفاً، وكانت علامته في المسير والوقوف ضرب الطبول لكثرة الناس، ومسيرهم في الجبال والأودية على مصافهم، فإذا سار ضربها، وإذا وقف أمسك عن ضربها، فيقف الناس جميعاً، ويسرون جميعاً.

وكان يسير قليلاً قليلاً كلما جاءه كوهاني بخير سار، أو وقف؛ وكان إذا أراد أن يتقدم إلى المكان الذي كانت به الوقعة عام أول، خلّف بخاراخذاه على رأس العقبة في ألف فارس، وستمائة راجل، يحفظون الطريق لئلا يأخذ الخرمية عليهم.

وكان بابك إذا أحس بمجيئهم وجه جمعاً من أصحابه، فيكمنون في وادٍ تحت تلك العقبة، تحت بخاراخذاه، واجتهد الأفشين أن يعرف مكان كمين بابك، فلم يعلم بهم، وكان يأمر أبا سعيد أن يعبر الوادي في كردوس، ويأمر جعفر الخياط أن يعبر في كردوس، ويأمر أحمد بن الخليل بن هشام أن يعبر في كردوس آخر، فيصير في ذلك الجانب ثلاثة كراديس في طرف أبياتهم؛ وكان بابك يخرج عسكره فيقف بلزاء هذه الكراديس، لئلا (٤٦٥/٦) يتقدم منهم أحد إلى باب البذ، وكان يفرق عساكره كميناً، ولم يبق إلا في نفر يسير.

[يَصْبِر] فالطريق واسع فلينصرف، وفي جند أمير المؤمنين كفاية. فانصرف المتطوعة يقولون: لو ترك الأفشين جعفرًا وتركنا لأخذنا البذ، لكنه يشتهي المطاولة، فبلغه ذلك وما تتاوله المتطوعة بالسنتهم حتى قال بعضهم: إني رأيت رسول الله في المنام قال لي: قل للأفشين إن أنت حاربت هذا وجددت في أمره وإلا أمرت الجبال أن ترجمك بالحجارة، فتحدث الناس بذلك فبلغ الأفشين، فأحضره وسأله عن المنام، فقصّه عليه فقال: الله يعلم نيتي وما أريد بهذا الخلق، وإن الله لو أمر الجبال برجم أحد لرجم هذا الكافر فكفانا مؤنته. فقال رجل من المتطوعة: أيها الأمير لا تحرمنا شهادة إن كانت حضرت، وإنما قصدنا ثواب الله ووجهه، فدعنا وحدنا حتى نتقدم بعد أن يكون بلإذنك لعل الله أن يفتح علينا.

فقال الأفشين: إني أرى نيّاتكم حاضرة، وأحسب هذا الأمر يريد الله تعالى، وهو خير إن شاء الله، وقد نشطتم ونشط الناس، وما كان هذا رأيي وقد حدث الساعة لما سمعت من كلامكم، اعزموا على بركة الله أي يوم أردتم حتى نناهضه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فخرجوا مستبشرين فتأخروا من أراد الانصراف ووعده الأفشين الناس ليوم ذكره لهم، وأمر الناس بالتجهز وحمل المال والزاد والماء، وجعل المحامل على البغال تحمل الجرحى، وزحف بالناس ذلك اليوم وجعل بخاراخذاه بمكانه على العقبة، وجلس الأفشين بالمكان الذي كان يجلس فيه، وقال لأبي دُلْف: قل للمتطوعة أي ناحية أسهل عليكم فائقصروا عليها. (٤٦٨/٦) فقال لجعفر: العسكر كله بين يديك والنشابة والتفاطون، فإن أردت فخذ منهم ما تريد واعزم على بركة الله، وتقدم من أي موضع تريد.

فسار إلى الموضع الذي كان به ذلك اليوم، وقال لأبي سعيد: قف عندي أنت وأصحابك، وقال لجعفر: قف أنت هاهنا، لمكان عينه له، فإن أراد جعفر رجالاً أو فرساناً أمددناه.

وتقدم جعفر والمتطوعة فقاتلوا وتعلقوا بسور البذ، وضرب جعفر باب البذ ووقف عنده يقاتل عليه، ووجه الأفشين إليه وإلى المتطوعة بالأموال لتفرق فيهم ويعطى من تقدم، وأمدّهم بالقلة معهم الفؤوس، وبعث إليهم بالمياه لئلا يعطشوا وبالكعك والسويق، فاشتبكت الحرب على الباب طويلاً ففتحت الخرمية الباب وخرجوا على أصحاب جعفر فتحوهم عن الباب وشدوا على المتطوعة من الناحية الأخرى، فطرحوهم عن السور، ورموهم بالصخر، وأثروا فيهم، وضعفوا عن الحرب، وأخذ جعفر من أصحابه نحو مائة رجل، فوقفوا خلف تراسهم متحاجزين لا يقدم أحد على الآخر، فلم يزالوا كذلك حتى ضلّت الظهر فتحاجزوا.

وبعث الأفشين الرّجال الذين كانوا عنده نحو المطوعة، وبعث إلى جعفر بعضهم، خوفاً أن يطمع العدو، فقال جعفر: لست أوتى من قلة ولكني لا أرى للحرب موضعاً يتقدمون فيه، فأمره بالانصراف فانصرف.

وحمل الأفشين الجرحى ومن به وهن من الحجارة فحملوا في المحامل على البغال وانصرفوا عنهم، وأيس الناس من الفتح تلك السنة وانصرف أكثر المطوعة. (٤٦٩/٦)

ثم إن الأفشين تجهّز بعد جُمعتين، فلما كان جوف الليل بعث الرّجال الناشبة، وهم ألف رجل، وأعطى كل واحد منهم شكوّة وكعكاً، وأعطاهم أعلاماً غير مركبة وبعث معهم أدلاء، فساروا في جبال مكرّة صعبة في غير طريق، حتى صاروا خلف التل الذي يقف آذنين عليه، وهو جبل شاهق، وأمهم أن لا يعلم بهم أحد، حتى إذا راوا أعلام الأفشين وصلوا الغداة وراوا الوقعة ركبوا تلك الأعلام في الرماح وضربوا الطبول وانحدروا من فوق الجبل، ورموا بالنشاب والصخر على الخرمية، وإن هم لم يروا الأعلام لم يتحركوا حتى يأتيهم خبره، ففعلوا ذلك فوصلوا إلى رأس الجبل عند السّحر، فلما كان في بعض الليل وجّه الأفشين إلى الجند، وأمهم بالتجهّز للحرب.

فلما كان في بعض الليل وجّه بشيراً التركي وقواداً من الفراغنة كانوا معه، فأمهم أن يسيروا حتى يصيروا تحت التل الذي عليه آذنين، وكان يعلم أن بابك يكمن تحت ذلك الجبل، فساروا ليلاً، ولا يلم بهم أكثر أهل العسكر، ثم ركب هو والعسكر مع السّحر، فصلى الغداة، وضرب الطبل، وركب فأتى الموضع الذي كان يقف فيه، فقعده على عادته، وأمر بخاراخذاه أن يقف مع جعفر الخياط وأبي سعيد وأحمد بن الخليل بن هشام، ونزل الموضع الذي كان يقف فيه، فانكر الناس ذلك، وأمهم أن يقيموا من التل الذي عليه آذنين فيحدثوا به، وكان قبل ينهاتهم عنه.

ومضى الناس مع هؤلاء القواد الأربعة، فكان جعفر مما يلي الباب، وإلى جانبه أبو سعيد، وإلى جانب أبي سعيد بخاراخذاه، وكان أحمد مما يلي (٤٧٠/٦) بخاراخذاه، فصاروا جميعاً حول التل وارتفعت الضجة من أسفل الوادي، فوثب كمين بابك ببشير التركي والفراغنة، فحاربوهم، وسمع أهل العسكر صيحتهم، فأرادوا الحركة، فأمر الأفشين منادياً ينادي فيهم أن بشيراً قد أثار كميناً، فلا يتحركن أحد، فسكنوا، ولما سمع الرجال الذين كان سيّروهم حتى صاروا في أعلى الجبل ضجة العسكر ركبوا الأعلام على الرماح، فنظر الناس إلى الأعلام تتحدّر من الجبل على خيل آذنين، فوجّه آذنين إليهم بعض أصحابه.

وحمل جعفر وأصحابه على آذنين وأصحابه، حتى صعدوا إليه،

وورد كتاب المعتصم فيه أمان بابك، فدعا الأفشين مَنْ كان استأمن إليه من أصحابه، فأعلمهم ذلك، وأمرهم بالمسير إليه بالكتاب، وفيهم ابنه، فلم يجسر [على ذلك] أحد منهم خوفاً منه، فقال إنه يفرح بهذا الأمان، فقالوا: نحن أعرف به منك، فقام رجلان فقالا: اضمن لنا أنك تُجري على عيالنا، فضمن لهما، فسارا بالكتاب، فلما رآياه أعلماه ما قدما له، فقتل أحدهما وأمر الآخر أن يعود بالكتاب إلى الأفشين.

وكان ابنه قد كتب إليه معهما كتاباً، فقال لذلك الرجل: قل لابن الفاعلة: لو كنت ابني للحققت بي ولكنك لست ابني ولأن تعيش يوماً واحداً وأنت رئيس خير من أن تعيش أربعين سنة عبداً ذليلاً وقعد في موضعه فلم يزل في تلك الغيصة حتى فني زاده، وخرج من بعض تلك الطرق، وكان مَنْ عليه من الجند قد تنحوا قريباً منه، وتركوا عليه أربعة نفر يحرسونه.

فبينما هم ذات يوم، نصف النهار، إذ خرج بابك وأصحابه، فلم يرَ العسكر، ولا أولئك الذين يحرسون المكان، فظن أن ليس هناك أحد، فخرج هو وعبد الله أخوه، ومعاوية، وأمه، وامرأة أخرى، وساروا يريدون أرمينية، فرأهم الحراس، فأرسلوا إلى أصحابهم: إننا قد رأينا فرساناً لا ندري مَنْ هم، وكان أبو الساج هو المقدم عليهم، فركب الناس وساروا نحوهم، (٤٧٣/٦) فرأوا بابك وأصحابه قد نزلوا على ماء يتغدون، فلما رأى العساكر ركب هو ومَنْ معه، فنجا هو، وأخذ معاوية، وأم بابك والمرأة الأخرى، فأرسلهم أبو الساج إلى الأفشين.

وسار بابك في جبال أرمينية مستخفياً، فاحتاج إلى طعام، وكان بطارقة أرمينية قد تحفظوا بنواحيهم، وأوصوا أن لا يجتاز بهم أحد إلا أخذه حتى يعرفوه، وأصاب بابك الجوع، فرأى حراً في بعض الأودية، فقال لغلامه: انزل إلى هذا الحراث، وأخذ معك دنائير ودراهم، فإن كان معه خبزٌ فاشتر منه.

وكان للحراث شريك قد ذهب لحاجة، فنزل الغلام إلى الحراث ليأخذ منه الطعام، فرآه رفيق الحراث، فظن أنه يأخذ ما معه غضباً، فعدا إلى المسلحة، وأعلمهم أن رجلاً عليه سيف وسلاح قد أخذ خبز شريكه، فركب صاحب المسلحة، وكان في جبال ابن سنباط، فوجه إلى سهل بن سنباط بالخبر، فركب في جماعة فوافي الحراث والغلام عنده، فسأل عنه فأخبره الحراث خبره، فأخبره الغلام عن مولاه، ودله عليه، فلما رأى وجه بابك عرفه فترجّل له، وأخذ يده فقبلها، وقال: أين تريد؟ قال: بلاد الروم، قال: لا تجد أحداً أعرف بحقك مني، وليس بيني وبين السلطان عمل، وكل مَنْ هاتنا من البطارقة إنما هم أهل بيتك، قد صار لك منهم أولاد، وذلك أن بابك كان إذا علم أن عند بعضهم

فحملوا عليه حملة منكرة، فأنحدر إلى الوادي، وحمل عليه جماعة من أصحاب أبي سعيد، فإذا تحت دوابهم آبار محفورة، فتساقطت الفرسان فيها، فوجه الأفشين الفعلة يطمسون تلك الآبار، ففعلوا، وحمل الناس عليهم حملة شديدة.

وكان آذين قد جعل فوق الجبل عَجَلاً عليها صخر، فلما حمل الناس عليه دفع تلك العَجَل عليهم، فأفرج الناس منها حتى تدرجت، ثم حمل الناس من كل وجه، فلما نظر بابك إلى أصحابه قد أحدق بهم خرج من طرف البذ، مما يلي الأفشين، فأقبل نحوه، فقيل للأفشين: إن هذا بابك يريدك، فتقدم إليه، حتى سمع كلامه، وكلام أصحابه، والحرب مستبكة في ناحية آذين، فقال: أريد الأمان من أمير المؤمنين، فقال له الأفشين: قد عرضت هذا عليك، وهو لك مبذول متى شئت، فقال: قد شئت الآن على أن تؤخرني حتى أحمل عيالي وأتجهز، فقال له الأفشين: أنا أنصحك، خروجه اليوم خير من غد، قال: قد قبلتُ هذا، قال الأفشين: فابعث (٤٧١/٦) بالرهائن! فقال: نعم، أما فلان وفلان فهم على ذلك التل، فمر أصحابك بالتوقف.

فجاء رسول الأفشين ليرد الناس، فقيل له إن أعلام الفراغة قد دخلت البذ، وصعدوا بها القصور، فركب وصاح بالناس، فدخل، ودخلوا، وصعد الناس بالأعلام فوق قصور بابك، وكان قد كمن في قصوره، وهي أربعة، ستمائة رجل، فخرجوا على الناس، فقاتلهم، ومرّ بابك، حتى دخل الوادي الذي يلي هشتادسر، واشتغل الأفشين ومَنْ معه بالحرب على أبواب القصور، فأحضر النفاطين فأحرقوها، وهدم الناس القصور، فقتلوا الخرمية عن آخرهم، وأخذ الأفشين أولاد بابك وعيالاته، وبقي هناك حتى أدركه المساء، فأمر الناس بالانصراف، فرجعوا إلى الخندق بروذ الروذ.

وأما بابك فإنه سار فيمن معه، وكانوا قد عادوا إلى البذ، بعد رجوع الأفشين، فأخذوا ما أمكنهم من الطعام والأموال، ولما كان الغد رجع الأفشين إلى البذ، وأمر بهدم القصور وإحراقها، ففعلوا، فلم يدع منها بيتاً، وكتب إلى ملوك أرمينية وبطارقتهم، يُعلمهم أن بابك قد هرب وعدة معه، وهو ماز بك، وأمرهم بحفظ نواحيهم، ولا يمرّ بهم أحد إلا أخذه، حتى يعرفوه.

وجاءت جواسيس الأفشين إليه فأعلموه بموضع بابك، وكان في واد كثير الشجر والعشب، طرفه بأذربيجان وطرفه الآخر بأرمينية، ولم يكن الخيل نزوله، ولا يرى مَنْ يستخفي فيه لكثرة شجره ومياهه، ويسمى هذا الوادي غيضة؛ فوجه الأفشين إلى كل موضع فيه طريق إلى الوادي جماعة من أصحابه (٤٧٢/٦) يحفظونه، وكانوا خمس عشرة جماعة.

من النساء امرأة جميلة طلبها، فإن بعث بها إليه، وإلا أسرى إليه فأخذها ونهب ماله وعاد، فخذعه ابن سنباط، حتى صار إلى حصنه. (٤٧٤/٦)

وأرسل بابك أخاه عبد الله إلى حصن اصطفانوس، فأرسل ابن سنباط إلى الأفشين يُعلمه بذلك، فكتب إليه الأفشين يعدده ويمنيه، ووجه إليه أبا سعيد وبورماه، وأمرهما بطاعته، وأمرهما ابن سنباط بالمقام في مكان سماه، وقال: لا تبرحا حتى يأتكما رسولي، فيكون العمل بما يقول لكما.

ثم إنه قال لبابك: قد ضجرت من هذا الحصن، فلو نزلت إلى الصيد، ففعل، فلما نزل من الحصن أرسل ابن سنباط إلى أبي سعيد وبورماه، فأمرهما أن يوفياه: أحدهما من جانب وادٍ هناك: والثاني من الجانب الآخر، ففعل، فلم يحب أن يدفعه إليهما.

فبينما بابك وابن سنباط يتصيدان إذ خرج عليهما أبو سعيد وبورماه في أصحابهما، وعلى بابك دراعة بيضاء، فأخذوهما، وأمروا بابك بالنزول، فقال: من أنتم؟ فقال: أنا أبو سعيد، وهذا فلان، فنزل ثم قال لابن سنباط القبيح، وشتمه، وقال: إنما بعثني لليهود بشيء يسير، لو أردت المال لأعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء؛ فأركبه أبو سعيد، وساروا به إلى الأفشين، فلما قرب من العسكر صعد الأفشين وجلس ينظر عليه، وصف عسكره صفين، وأمر بإنزال بابك عن دابته، ومشى بين الصفين، وأدخله الأفشين بيتاً، ووكل به من يحفظه، وسير معه سهل بن سنباط ابنه معاوية، فأمر له الأفشين بمائة ألف درهم، وأمر لسهل بألف ألف درهم، ومنطقة مخرقة بالجوهر وتاج البقرة.

وأرسل الأفشين إلى عيسى بن يونس بن اصطفانوس يطلب منه عبد الله أخا بابك، فأنفذه إليه، فحبسه مع أخيه، وكتب إلى المعتصم بذلك، فأمره بالقدوم بهما عليه. (٤٧٥/٦)

وكان وصول بابك إلى الأفشين ببرزند لعشر خلون من شوال، وكان الأفشين قد أخذ نساء كثيرة وصبياناً كثيراً ذكروا أن بابك أسرهم، وأنهم أحرار من العرب والهاقين، فأمر بهم فجعلوا في حظيرة كبيرة، وأمرهم أن يكتبوا إلى أوليائهم، فكل من جاء يعرف امرأة، أو صبيّاً، أو جارية، وأقام شاهدين أخذه، فأخذ الناس منهم خلقاً كثيراً، وبقي كثير منهم.

ذكر استيلاء عبد الرحمن على طليطلة

قد ذكرنا عصيان أهل طليطلة على عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي، صاحب الأندلس، وإنقاذ الجيوش إلى محاصرتهما مرة بعد مرة، فلما كان سنة إحدى وعشرين ومائتين خرج جماعة من أهلها إلى قلعة رباح، وبها عسكر لعبد الرحمن، فاجتمعوا كلهم

على حصر طليطلة، وضيّقوا عليها، وعلى أهلها، وقطعوا عنهم باقي مراقبهم واشتدوا في محاصرتهم، فبقوا كذلك إلى أن دخلت سنة اثنتين وعشرين.

فسير عبد الرحمن أخاه الوليد بن الحكم إليها أيضاً، فرأى أهلها وقد بلغ بهم الجهد كل مبلغ، واشتد عليهم طول الحصار، وضعفوا عن القتال والدفع، فافتحها قهراً وعتوة يوم السبت لثمان خلون من رجب، وأمر بتجديد القصر على باب الحصن الذي كان هُدم أيام الحكم، وأقام بها إلى آخر شعبان من سنة ثلاث وعشرين ومائتين، حتى استقرت قواعد أهلها وسكنوا. (٤٧٦/٦)

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس هذه السنة محمد بن داود.

وفيها ظهر عن يسار القيلة كوكب، فبقي يرى نحواً من أربعين ليلة، وله شبه الذنب، وكان أول ما طلع نحو المغرب، ثم رُئي بعد ذلك نحو المشرق، وكان طويلاً جداً، فهال الناس ذلك، وعظم عليهم. ذكره ابن أبي أسامة في تاريخه وهو من الثقات الأثبات.

وفيها توفي يحيى بن صالح أبو زكريا الوحاظي، وهو دمشقي، وقيل حمصي.

وفيها توفي أبو هاشم محمد بن علي بن أبي خدّاش الموصلي؛ وكان كثير الرواية من المعافى بن عمران. (٤٧٧/٦)

سنة ثلاث وعشرين ومائتين

ذكر قدوم الأفشين ببابك

في هذه السنة قدم الأفشين إلى سامراء، ومعه بابك الخرمي وأخوه عبد الله، في صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وكان المعتصم يوجه إلى الأفشين في كل يوم، من حين سار من برزند إلى أن وافى سامراء، خلعة وفساً، فلما صار الأفشين بقناطر خديفة تلقاه هارون الواثق بن المعتصم، وأهل بيت المعتصم، وأنزل الأفشين بابك عنده في قصره بالمطيرة، فأتاه أحمد بن أبي ذؤاد متكرراً، فنظر إلى بابك، وكنّاه، ورجع إلى المعتصم فوصفه له، فأتاه المعتصم أيضاً متكرراً فرآه.

فلما كان الغد قد المعتصم واصطف الناس من باب العامة إلى المطيرة، فشهره المعتصم، وأمر أن يركب على الفيل، فركب عليه، واستشرفه الناس إلى باب العامة، فقال محمد بن عبد الملك الزيات:

قد خُصِبَ الفيلُ كعادته
يحملُ شيطانَ خراسانِ
والفيلُ لا تُخَصَّبُ أعضاؤه
إلا لشيءٍ شأنٍ من الشأنِ

صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم، وقطع أنوفهم وآذانهم، فخرج إليهم أهل الثغور من الشام والجزيرة، إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح. (٤٨٠/٦)

ذكر فتح عُمُورِيَّة

لما خرج ملك الروم، وفعل في بلاد الإسلام ما فعل، بلغ الخبر إلى المعتصم، فلما بلغه ذلك استعظمه، وكبر لديه، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت، وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه! فأجابها وهو جالس على سريره: ليك ليك! ونهض من ساعته، وصاح في قصره: التفير التفير، ثم ركب دابته، وسقط خلفه شكلاً، وسكة حديد، وحقية فيها زاده، فلم يمكنه المسير إلا بعد التعبشة، وجمع العساكر، فجلس في دار العامة، وأحضر قاضي بغداد وهو عبد الرحمن بن إسحاق، وشعبة بن سهل، ومعهما ثلاثمائة وثمانية وعشرون رجلاً من أهل العدالة، فأنشدهم على ما وقف من الضياع، فجعل ثلثاً لولده، وثلثاً لله تعالى، وثلثاً لمواليه.

ثم سار فعسكر بغربي دجلة لليلتين خلتا من جمادى الأولى، ووجه عَجَيف بن عَنبَسَةَ، وعمر الفرغاني، ومحمد كوتاه، وجماعة من القواد إلى زَبَطَرَة معونة لأهلها، فوجدوا ملك الروم قد انصرف عنها إلى بلاده، بعدما فعل ما ذكرناه، فوقفوا حتى تراجع الناس إلى قراهم وأطمأنوا.

فلما ظفر المعتصم ببابك قال: أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عُمُورِيَّة لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية. فسار المعتصم من سَرَمَنْ رَأى، وقيل كان مسيره سنة اثنتين وعشرين، وقيل سنة أربع وعشرين، وتجهز جهازاً (٤٨١/٦) لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح، والعُدَد، والآلة، وحياض الأَدم، والروايا، والقُرب، وغير ذلك، وجعل على مقدمته أشناس، وبتلوه محمد بن إبراهيم بن مصعب، وعلى ميمته إيتاخ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط، وعلى القلب عَجَيف بن عَنبَسَةَ، فلما دخل بلاد الروم نزل على نهر السن، وهو على سلوقية، قريباً من البحر، بينه وبين طرسوس مسيرة يوم، وعليه يكون الفداء.

وأضى المعتصم الأفشين إلى سَرُوج، وأمره بالدخول من درب الحدث، وسمى له يوماً يكون دخوله فيه، ويوماً يكون اجتماعهم فيه، وسير أشناس من درب طرسوس، وأمره بانتظاره بالصفصاف، فكان مسير أشناس لثمان بقين من رجب، وقدم المعتصم وصيفاً في أثر أشناس ورجل المعتصم لست بقين من رجب.

فلما صار أشناس يمرج أسقف ورد عليه كتاب المعتصم من المطامير يُعلمه أن ملك الروم بين يديه، وأنه يريد [أن] يكبسهم،

(٤٧٨/٦)

ثم أدخل دار المعتصم، فأمر بإحضار سيف بابك، فحضر، فأمره المعتصم أن يقطع يديه ورجليه، فقطعها، فسقط، فأمره بذبحه، ففعل، وشق بطنه، وأنفذ رأسه إلى خراسان، وصلب بدنه بسامراً، وأمر بحمل أخيه عبد الله إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد، وأمره أن يفعل به ما فعل بأخيه بابك، ففعل به ذلك، وضرب عنقه، وصلبه في الجانب الشرقي بين الجسرين.

قيل فكان الذي أخرج الأفشين من المال مدة مقامه بإزاء بابك، سوى الأرزاق والأنزال والمعارف، في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وفي [كل] يوم لا يركب فيه خمسة آلاف، فكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مئتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان، وغلب من القواد يحيى بن معاذ، وعيسى بن محمد بن أبي خالد، وأحمد بن الجند فأسره، وزريق بن علي بن صدقة، ومحمد بن حميد الطوسي، وإبراهيم بن الليث.

وكان الذين أسروا مع بابك ثلاثة آلاف وثلثمائة وتسعة أناسي، واستنفذ ممن كان في يده من المسملمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة إنسان، وصار في يد الأفشين من بني بابك سبعة عشر رجلاً، ومن البنات والنساء ثلاث وعشرون امرأة.

ولما وصل الأفشين توجه المعتصم والبسه وشاحين بالجواهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم وعشرة آلاف ألف يفرقها في عسكره، وعقد له على السند، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه. (٤٧٩/٦)

ذكر خروج الروم إلى زَبَطَرَة

وفي هذه السنة خرج توفيل بن ميخائيل ملك الروم إلى بلاد الإسلام، وأوقع بأهل زَبَطَرَة وغيرها.

وكان سبب ذلك أن بابك لما ضيق الأفشين عليه، وأشرف على الهلاك، كتب إلى ملك الروم توفيل يُعلمه أن المعتصم قد وجه عساكره ومقاتلته إليه، حتى وجه خياطه، يعني جعفر بن دينار الخياط، وطباخه، يعني إيتاخ، ولم يبق على بابه أحد، فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك.

وظن بابك أن ملك الروم إن تحرك يكشف عنه بعض ما هو فيه بإفناذ العساكر إلى مقاتلة الروم، فخرج توفيل في مائة ألف، وقيل أكثر، منهم من الجند ثيف وسبعون ألفاً، وبقيتهم أتباع، ومعهم من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجيال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب جماعة، فبلغ زَبَطَرَة، فقتل من بها من الرجال، وسبى الذرية، وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين، وسبى المسملمات، ومثل بمن

الأرميناي، واستخلف على عسكره بعض أقربائه، وسار إليهم، فواقعتهم صلاة الغداة، فهزمتهم وقتلنا رجالهم كلهم، وتقطعت عساكرنا في طلبهم، فلما كان الظهر رجع فرسانهم، فقاتلونا قتالاً شديداً حتى خرقوا عسكرنا، واختلطوا بنا، فلم ندر أين الملك، وانهزمنا منهم، ورجعنا إلى معسكر الملك الذي خلفه، فوجدنا العسكر قد انتفض، وانصرفوا عن قرابة الملك.

فلما كان الغد جاء الملك في جماعة يسيرة فرأى عسكره قد اختل، وأخذ الذي كان استخلفه عليهم، فضرب عنقه، وكتب إلى المدن والحصون أن لا يأخذوا أحداً انصرف من العسكر إلا ضربه بالسياط، وردوه إلى مكان سمّاه لهم الملك، ليجتمع إليه الناس، ويلقى المسلمين، وأن الملك وجّه خصياً له إلى أنقرة ليحفظ أهلها، فرآهم قد أجلّوا عنها، فكتب إلى الملك بذلك، فأمره بالمسير إلى عمورية، فرجع مالك بن كيدر بما معهم من الغنيمة والأسرى إلى عسكر أشناس، وغنموا في طريقهم بقرأ، وغنموا كثيراً، وأطلق (٤٨٤/٦) الشيخ، فلما بلغ مالك بن كيدر عسكر أشناس أخبره بما سمع، فأعلم المعتصم بذلك، فسُرّ به.

فلما كان بعد ثلاثة أيام جاء البشير من ناحية الأفشين بخير السلامة، وكانت الوقعة لخمس بقين من شعبان. فلما كان الغد قدم الأفشين على المعتصم وهو بأنقرة، فأقاموا ثلاثة أيام، ثم جعل المعتصم العسكر ثلاثة عساكر: عسكر فيه أشناس في الميسرة، والمعتصم في القلب، وعسكر الأفشين في الميمنة، وبين كل عسكر وعسكر فرسخان، وأمر كل عسكر أن يكون له ميمنة وميسرة، وأمرهم أن يحرقوا القرى، ويحرقوها، ويأخذوا من لحقوا فيها، ثم ترجع كل طائفة إلى صاحبها، يفعلون ذلك في ما بين أنقرة وعمورية، وبينهما سبع مراحل، ففعلوا ذلك حتى وافوا عمورية.

وكان أول من ردها أشناس، ثم المعتصم، ثم الأفشين، فداروا حولها، وقسمها بين القواد، وجعل لكل واحد منهم أبراجاً منها على قدر أصحابه. وكان رجل من المسلمين قد أسره الروم بعمورية فتتصر، فلما رأى المسلمين خرج إليهم، فأخبر المعتصم أن موضعاً من المدينة وقع سوره من سيل أتاه، فكتب الملك إلى عامل عمورية ليعمره، فتوانى، فلما خرج الملك من القسطنطينية خاف العامل أن يرى السور خراباً، فبنى وجهه حجراً حجراً، وعمل الشرف على جسر خشب، فرأى المعتصم ذلك المكان، فأمر بضرب (٤٨٥/٦) خيمته هناك، ونصب المجانيق على ذلك الموضع، فانفجر السور من ذلك الموضع.

فلما رأى الروم ذلك جعلوا عليه خشباً كبيراً كل عود يلزق الآخر، وكان المنجنيق يكسر الخشب، فجعلوا عليه براذع، فلما ألحّت المجانيق على ذلك الموضع تصدّع السور، وكتب الخصي،

ويأمر بالمقام إلى أن يصل إليه، فأقام ثلاثة أيام، فورد عليه كتاب المعتصم يأمره أن يوجه قائداً من قواده [في] سرية يلتصقون رجلاً من الروم يسألونه عن خبر الملك، فوجه أشناس عمر الفرغاني في مائتي فارس، فدخل حتى بلغ أنقرة، وفرّق أصحابه في طلب رجل رومي، فأتوه بجماعة بعضهم من عسكر الملك، وبعضهم من السواد، فأحضرهم عند أشناس، فسألهم عن الخبر، فأخبروه أن الملك مقيم أكثر من ثلاثين يوماً ينتظر مقدّمة المعتصم ليوافقهم، فأتاه الخبر بأن عسكراً عظيماً قد دخل بلادهم من ناحية الأرميناي، يعني عسكر (٤٨٢/٦) الأفشين، قالوا: فلما أخبر استخلف ابن خاله على عسكره، وسار يريد ناحية الأفشين، فوجه أشناس بهم إلى المعتصم، فأخبروه الخبر، فكتب المعتصم كتاباً إلى الأفشين يُعلمه أن ملك الروم قد توجه إليه، ويأمره أن يقيم مكانه، خوفاً عليه من الروم، إلى أن يرد عليه كتابه، وضمن لمن يوصل كتابه إلى الأفشين عشرة آلاف درهم.

فسارت الرسل بالكتاب إلى الأفشين، فلم يروه لأنه أوغل في بلاد الروم، وكتب المعتصم إلى أشناس يأمره بالتقدّم، فتقدم والمعتصم من ورائه، فلما رحل أشناس نزل المعتصم مكانه، حتى صار بينه وبين أنقرة ثلاث مراحل، فضاق عسكر المعتصم ضيقاً شديداً من الماء والعلف.

وكان أشناس قد أسر في طريقه عدة أسرى، فضرب أعناقهم، حتى بقي منهم شيخ كبير، فقال له: ما تنتفع بقتلي، وأنت وعسكرك في ضيق، وهاننا قوم قد هربوا من أنقرة خوفاً منكم، وهم بالقرب منا، معهم الطعام والشعير وغيرهما، فوجه معي قوماً لأسلمهم إليهم، وخلّ سبيلي! فسّر معه خمسمائة فارس، ودفع الشيخ إلى مالك بن كيدر، وقال له: متى أراك هذا الشيخ سيئاً كثيراً، أو غنيمة كثيرة، فخلّ سبيله.

فسار بهم الشيخ، فأوردهم على وادٍ وحشيش، فأمرجوا دوابهم، وشربوا، وأكلوا، وساروا حتى خرجوا من الغيضة، وسار بهم الشيخ حتى أتى جبلاً، فنزله ليلاً، فلما أصبحوا قال الشيخ: وجهوا رجلين يصعدان هذا الجبل، فينظران ما فوق، فيأخذان من أدركا! فصعد أربعة، (٤٨٣/٦) فأخذوا رجلاً وامرأة، فسألهم الشيخ عن أهل أنقرة، فدلاه عليهم، فسار بالناس حتى أشرف على أهل أنقرة، وهم في طرف ملاحه، فلما رأوا العسكر أدخلوا النساء والصبيان الملاحه، وقاتلوه على طرفها، وغنم المسلمون منهم وأخذوا من الروم عدة أسرى وفيهم من فيه جراحات عتق مقدّمة، فسألوه عن تلك الجراحات، فقالوا:

كنا في وقعة الملك مع الأفشين، وذلك أن الملك لما كان معسكراً أتاه الخبر بوصول الأفشين في عسكر ضخم من ناحية

أمر أظنه لا يتم، قال الفرغاني: (٤٨٧/٦) قد تم، وأرشدته إلى الحارث السمرقندي فأتاه، فرفع الحارث خبره إلى العباس، فكرهه العباس أن يعلم بشيء من أمره، فأمسكوا عنه.

فلما كان اليوم الثالث كان الحرب على أصحاب المعتصم، ومعهم المغاربة والأتراك، وكان القيم بذلك إيتاخ، فقاتلوا، وأحسنوا، واتسع لهم هدم السور، فلم تنزل الحرب كذلك حتى كثرت الجراحات في الروم.

وكان بطارقة الروم قد اقتسموا أبراج السور، وكان البطريق الموكل بهذه الناحية وندوا، وتفسيره ثور، فقاتل ذلك اليوم قتالاً شديداً، وفي الأيام قبله، ولم يمهده ناطس، ولا غيره بأحد، فلما كان الليل مشى وندوا إلى الروم فقال: إن الحرب علي وعلى أصحابي، ولم يبق معي أحد إلى جرح، فصيروا أصحابكم على الثلثة يرمون قليلاً، وإلا ذهبت المدينة؛ فلم يمهده بأحد، وقالوا: لا نمذك ولا تمذننا، فعزم هو وأصحابه على الخروج إلى المعتصم يسألونه الأمان على الذرّة، ويسلمون إليه الحصن بما فيه.

فلما أصبح وكل أصحابه بجانيي الثلثة وأمرهم أن لا يحاربوا، وقال: أريد الخروج إلى المعتصم، فخرج إليه فصار بين يديه، والناس يتقدمون إلى الثلثة، وقد أمسك الروم عن القتال، حتى وصلوا إلى السور، والروم يقولون: لا تخشوا، وهم يتقدمون، وندو جالس عند المعتصم، فأركبه فرساً، وتقدم الناس حتى صاروا في الثلثة وعبد الوهاب بن علي بين يدي المعتصم يومئذ إلى المسلمين بالدخول، فدخل الناس المدينة، فالتفت وندو (٤٨٨/٦) وضرب بيده على لحيته، فقال له المعتصم: ما لك؟ قال: جئت أسمع كلامك، فغدرت بي، قال المعتصم: كل شيء تريده فهو لك، ولست أخالفك؛ قال: ايش تخالفني، وقد دخل الناس المدينة.

وصار طائفة كبيرة من الروم إلى كنيسة كبيرة لهم، فأحرقها المسلمون عليهم، فهلكوا كلهم؛ وكان ناطس في برجه، حوله أصحابه، فركب المعتصم ووقف مقابل ناطس، فقيل له: يا ناطس! هذا أمير المؤمنين، وظهر من البرج وعليه سيف، فنحاه عنه، ونزل حتى وقف بين يديه، فضره سوطاً، وسار المعتصم إلى مضربه، وقال: هاتوه! فمشى قليلاً، فأمر المعتصم بحمله، وأخذ السيف الروم، وأقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه، فأمر المعتصم أن يُعزل منهم أهل الشرف، ونقل من سواهم، وأمر ببيع المغنم في عدة مواضع، فبيع منها في أكثر من خمسة أيام، وأمر بالباقي فأحرق.

وكان لا ينادى على شيء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب بيعه، طلباً للسرعة؛ وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة [و]

وبطريق عمورية، واسمه ناطس، كتاباً إلى ملك الروم يُعلمه أمر السور، وسيّره مع رجلين، فأخذهما المسلمون، وسألهما المعتصم، وفتشهما، فرأى الكتاب وفيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة، وقد كان دخوله إليها خطأ، وأن ناطس عازم على أن يركب في خاصته ليلاً، ويحمل على العسكر كائناً ما كان، حتى يخلص ويسير إلى الملك؛ فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر لهما ببدرة، وهي عشرة آلاف درهم، وخلع، فأسلما، فأمر بهما، فطافا حول عمورية، وأن يقفا مقابل البرج الذي فيه ناطس، فوقفا وعليهما الخلع، والأموال بين أيديهما، فعرفهما ناطس ومن معه من الروم، فشتموهما.

وأمر المعتصم بالاحتياط في الحراسة ليلاً ونهاراً، فلم يزالوا كذلك حتى انهدم السور ما بين برجين من ذلك الموضع، وكان المعتصم أمر أن يُطمّ خندق عمورية بجلود الغنم المملوءة تراباً، فطمّوه، وعمل دبابات كباراً تسع كل دبابة عشرة رجال ليخرجوها على الجلود إلى السور، فخرجوا واحدة منها، فلما صارت في نصف الخندق تعلقت بتلك الجلود، فما تخلص من (٤٨٦/٦) فيها إلا بعد شدة وجهد، وعمل سلايل ومنجنيقات.

فلما كان الغد من يوم انهدم السور قاتلهم على الثلثة، فكان أول من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه، وكان الموضع ضيقاً، فلم يمكنهم الحرب فيه، فأملهم المعتصم بالمنجنيقات التي حول السور، فجمع بعضها إلى بعض حول الثلثة، وأمر أن يرمى ذلك الموضع.

وكانت الحرب في اليوم الثاني عشر على الأفشين وأصحابه، وأجادوا الحرب، وتقدموا، والمعتصم على دابته بلزاء الثلثة، وأشناس، والأفشين، وخواص القواد معه، فقال المعتصم: ما أحسن ما كان الحرب اليوم! وقال عمر الفرغاني: الحرب اليوم أجود منها أمس، فأمسك أشناس.

فلما انتصف النهار، وانصرف المعتصم والناس، وقرب أشناس من مضربه، ترجل له القواد، كما كانوا يفعلون، وفيهم الفرغاني، وأحمد بن الخليل بن هشام، فقال لهم أشناس: يا أولاد الزنا! ايش تمشون بين يدي، كان ينبغي أن تقاتلوا أمس حيث تقفون بين يدي أمير المؤمنين، فتقولون الحرب اليوم أجود منها أمس؛ كان يقاتل أمس غيركم، انصرفوا إلى مضاريكم. فلما انصرف الفرغاني، وأحمد بن الخليل، قال أحدهما للآخر: ألا ترى إلى هذا العبد ابن الفاعلة، يعني أشناس، ما صنع اليوم؟ اليس الدخول إلى الروم أهون من هذا؟

فقال الفرغاني لأحمد، وكان عنده علم من العباس بن المأمون: سيكفيك الله أمره عن قريب، فالح أحمد عليه، فأخبره، فآشار عليه أن يأتي العباس فيكون في أصحابه، فقال أحمد: هذا

عشرة عشرة، طلباً للسرعة، ولما كان، في بعض الأيام، بيع المغانم، وهو الذي كان عَجِيفٌ وعد الناس أن يثور فيه بالمتعصم على ما تذكره، وثب الناس على المغانم، فركب المتعصم، والسيف في يده، وسار ركضاً نحوهم، فتَنَحَّوْا عنها، وكَفَرُوا عن النهب، فرجع إلى مضربه، وأمر بمعمورية فُهْدِمت وأُحْرِقت، وكان نزوله عليها لست خلون من شهر رمضان، وأقام عليها خمسة وخمسين يوماً، وفرَّق الأسرى على القواد، وسار نحو طرسوس. (٤٨٩/٦)

ذكر حبس العباس بن المأمون

في هذه السنة حبس المتعصم العباس بن المأمون، وأمر بلعنه. وكان سبب ذلك أن عَجِيفَ بن عُثْبَةَ لما وَجَّهَ المتعصم إلى بلاد الروم لما كان ملك الروم بزينة، مع عمر الفرغاني ومحمد كوتاه، لم يطلق يد عَجِيفَ في التَّفَقَّات، كما أطلقست يد الأفشين، واستقصر المتعصم أمر عَجِيفَ وأفعاله، وظهر ذلك لعجيف، فوَيْخَ العباس بن المأمون على ما تقدم من فعله عند وفاة المأمون، حتى بايع المتعصم، وشجَّعه على أن يتلافى ما كان منه.

فقبل العباس قوله، ودسَّ رجلاً يقال له الحارث السمرقندي، قرابة عبيد الله بن الوضَّاح، وكان العباس يأنس به، وكان الحارث أديباً له عقل ومدارة، فجعله العباس رسوله، وسَفَرَهُ إلى القواد، وكان يدور في العسكر، حتى استمال له جماعة من القواد، وبايعوه، وجماعة من خواص المتعصم، وقال لكل من بايعه: إذا أظهرنا أمرنا فليشب كل منكم بالقاتل الذي هو معه، فوكل من بايعه من خواص المتعصم بقتله، ومن بايعه من خاصة الأفشين بقتله، ومن بايعه من خاصة أشناس بقتله، وكذلك غيرهم، فضمَّنوا له ذلك.

فلما دخل الدرب، وهم يريدون أنقرة وعمورية، دخل الأفشين من ناحية ملطية، فأشار عجيف على العباس أن يثب بالمتعصم في الدرب، وهو في قلة من الناس، فيقتله ويرجع إلى بغداد، فإن الناس يفرحون بانصرافهم (٤٩٠/٦) إلى بغداد من الغزو، فأبى العباس ذلك، وقال: لا أفسد هذه الغزاة، حتى دخلوا بلاد الروم، وافتتحوا عمورية، فقال عَجِيفَ للعباس: يا نائماً! قد فُتِحَت عمورية، والرجل ممكن، تضع قوماً ينهبون بعض الغنائم، فإذا بلغه ذلك ركب في سرعة، فتأمر بقتله هناك؛ فأبى عليه، وقال: انتظر حتى يصير إلى الدروب، ويخلو كما كان أول مرة، وهو أمكن منه هاهنا.

وكان عَجِيفَ قد أمر من ينهب المتاع، ففعلوا، وركب المتعصم، وجاء ركضاً، وسكن الناس، ولم يطلق العباس أحداً من أولئك الذين واعدتهم، وكرهوا قتله بغير أمر العباس.

وكان الفرغاني قد بلغه الخبر ذلك اليوم، وله قرابة غلامٌ أُمرد في خاصة المتعصم، فجاء الغلام إلى ولد عمر الفرغاني، وشرب عندهم تلك الليلة، فأخبرهم خبر ركوب المتعصم، وأنه كان معه، وأمره أن يسَلَّ سيفه ويضرب كل من لقيه، فسمع عمر ذلك من الغلام، فاشفق عليه من أن يُصاب، فقال: يا بني! أقلل من المُقام عند أمير المؤمنين، والزم خيمتك، وإن سمعت صيحة وشغباً فلا تبرح فإنك غلام غر، ولا تعرف العساكر، فعرف مقالة عمر.

وارتحل المتعصم إلى الثغور، ووجَّه الأفشين ابن الأقطع، وأمره أن يُغيِّر على بعض المواضع، ويوافيه في الطريق، فمضى وأغار، وعاد إلى العسكر في بعض المنازل ومعه الغنائم، فنزل بعسكر الأفشين، وكان كل عسكر على حدة، فتوجَّه عمر الفرغاني، وأحمد بن الخليل من عسكر أشناس إلى عسكر الأفشين ليشتريا من السبي شيئاً، فلقىهما الأفشين فترجلاً، وسلماً عليه، وتوجها إلى الغنيمة، فرأهما صاحب أشناس، فأعلمه بهما، فارسل (٤٩١/٦) أشناس إليهما بعض أصحابه لينظر ما يصنعان، فجاء فرأهما وهما ينتظران بيع السبي، فرجع فأخبر أشناس الخبر، فقال أشناس لحاجبه: قل لهما يلزما العسكر، وهو خير لهما، فقال لهما، فاغتمتا لذلك، واتفقا على أن يذهبا إلى صاحب خبر العسكر، فيستعفيا من أشناس، فأتياها وقالوا: نحن عبيد أمير المؤمنين، فضمنا إلى من شاء، فإن هذا الرجل يستخف بنا، قد شتمنا، وتوعدنا، ونحن نخاف أن يقدم علينا، فلبضنا أمير المؤمنين إلى من أراد.

فأنهى ذلك إلى المتعصم، واتفق الرحيل، وسار أشناس والأفشين مع المتعصم، فقال لأشناس: أحسن أدب عمر وأحمد، فإنهما قد حمقا أنفسهما! فجاء أشناس إلى عسكره، فأخذهما، وحبسهما، وحملهما على بغل، حتى صارا بالصفصاف، فجاء ذلك الغلام، وحكى للمتعصم ما سمع من عمر الفرغاني في تلك الليلة، فأنفذ المتعصم بغاً، وأخذ عمر من عند أشناس، وسأله عن الذي قاله للغلام، فأنكر ذلك، وقال: إنه كان سكران، ولم يعلم ما قلت، فدفعه إلى إيتاخ؛ وسار المتعصم، فأنفذ أحمد بن الخليل إلى أشناس يقول له: إن عندي نصيحة لأمر المؤمنين، فيعت إليه يسأله عنها، فقال: لا أخبر بها إلا أمير المؤمنين، فحلف أشناس: إن هو لم يخبرني بهذه النصيحة لأضرته بالسياط حتى يموت.

فلما سمع ذلك أحمد حضر عند أشناس، وأخبره خبر العباس بن المأمون، والقواد، والحارث السمرقندي، فأنفذ أشناس، وأخذ الحارث وقيدته وسيَّره إلى المتعصم، وكان قد تقدم، فلما دخل على المتعصم أخبره بالحال جميعه، وجميع من بايعهم من القواد وغيرهم، فأطلقه المتعصم، وخلع عليه، ولم يصدق على أولئك القواد لكثرتهم. (٤٩٢/٦)

أيديهم عن الرعية، وقطع النبيذ والخمر عن القيروان، وسير سرية سنة أربع وعشرين ومائتين إلى صقلية فغنمت وسلمت. (٤٩٤/٦)

وفي سنة خمس وعشرين ومائتين استأمن عدة حصون من جزيرة صقلية إلى المسلمين، منها: حصن البلوط، وإبلاطنو، وقرلون، ومرو، وسار أسطول المسلمين إلى قلورية ففتحها، ولقوا أسطول صاحب القسطنطينية، فهزموه بعد قتال، فعاد الأسطول إلى القسطنطينية مهزوماً، فكان فتحاً عظيماً.

وفي سنة ست وعشرين ومائتين سارت سرية للمسلمين بصقلية إلى قصر يانة، فغنمت، وأحرقت، وسبت، فلم يخرج إليها أحد، فسارت إلى حصن الغيران، وهو أربعون غاراً، فغنمت جميعها، وتوفي الأمير أبو عفان فيها على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

وجرح في هذه السنة، في شوال، إسحاق بن إبراهيم، جرحه خادم له. وحج بالناس هذه السنة محمد بن داود.

في هذه السنة سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى آية، والقلاع، فزلوا حصن الغرات، وحصلوه، وغنموا ما فيه، وقتلوا أهله، وسبوا النساء والذرية وعادوا. (٤٩٥/٦)

سنة أربع وعشرين ومائتين

ذكر مخالفة مازيار بطبرستان

في هذه السنة أظهر مازيار بن قارن بن وندادهرمز الخلاف على المعتصم بطبرستان، وعصى وقاتل عساكره.

وكان سببه أن مازيار كان منافراً عبد الله بن طاهر لا يحمل إليه خراجه، وكان المعتصم يأمره بحمله إلى عبد الله، فيقول: لا أحمله إلا إليك، وكان المعتصم ينفذ من يقيضه من أصحاب مازيار بهمدان، ويسلمه إلى وكيل عبد الله بن طاهر يرده إلى خراسان.

وعظم الشر بين مازيار وعبد الله، وكان عبد الله يكتب إلى المعتصم، حتى استوحش من مازيار، فلما ظفر الأفشين ببابك، وعظ محله عند المعتصم، طمع في ولاية خراسان، فكتب إلى مازيار يستميله، ويظهر له المودة، وتعلمه أن المعتصم قد وعده ولاية خراسان، ورجا أنه إذا خالف مازيار سيره المعتصم إلى حربه، وولاه خراسان، فحمل ذلك مازيار على الخلاف، وترك الطاعة، ومنع جبال طبرستان، فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر يأمره بمحاربته، وكتب الأفشين إلى مازيار يأمره بمحاربة عبد الله، وأعلمه أنه يكون له عند المعتصم كما يحب، ولا يشك

وأحضر المعتصم العباس بن المأمون وسقاه حتى سكر، وحلفه أن لا يكتمه من أمره شيئاً، فشرح له أمره كله مثل ما شرح الحارث، فأخذه وقيدته وسلمه إلى الأفشين، فحبسه عنده.

وتبع المعتصم أولئك القواد، وكانوا يحملوا في الطريق إلى بغال بأفك بلا وطاء، وأخذ أيضاً الشاه بن سهل، وهو من أهل خراسان، فقال له المعتصم: يا ابن الزانية! أحسنت إليك فلم تشكر؛ فقال: ابن الزانية هذا، وأوماً إلى العباس، وكان حاضراً، لو تركني ما كنت الساعة تقدر أن تجلس هذا المجلس، وتقول هذا الكلام! فأمر به فضربت عنقه، وهو أول من قُتل منهم، ودفع العباس إلى الأفشين.

فلما نزل منبج طلب العباس بن المأمون الطعام، فقُدّم إليه طعام كثير، فأكّل ومُنِع الماء، وأدحر في مسح، فمات بمنبج، وصلى عليه بعض إخوته.

وأما عمر الفرغاني فلما وصل المعتصم إلى نصيبين حضر له بئراً، وألقاه فيها وطمها عليه.

وأما عجيف فمات بباعيناثا من بلد الموصل، وقيل بل أطعم طعاماً كثيراً، ومُنِع الماء، حتى مات بباعيناثا.

وتبع جميعهم، فلم يعض عليهم إلا أيام قلائل حتى ماتوا جميعاً، ووصل المعتصم إلى سامرا سالماً، فسمى العباس يومئذٍ اللعين، وأخذ أولاد المأمون من سندس، فحبسهم في داره حتى ماتوا بعد.

ومن أحسن ما يُذكر أن محمد بن علي الإسكافي كان يتولى إقطاع عجيف، فرفع أهله عليه إلى عجيف، فأخذه، وأراد قتله، فبال في (٤٩٣/٦) ثيابه خوفاً من عجيف، ثم شفع فيه، فقيده وحبسه، ثم سار إلى الروم، وأخذه المعتصم، كما ذكرنا، وأطلق من كان في حبسه، وكانوا جماعة منهم الإسكافي، ثم استعمل على نواح الجزيرة، ومن جعلتها باعيناثا. قال: فخرجت يوماً إلى تل باعيناثا، فاحتجت إلى الوضوء، فجلت إلى تل فبلت عليه، ثم توضأت ونزلت، وشيخ باعيناثا يتظرني، فقال لي: في هذا التل قبر عجيف، وأرائيه، فإذا قد بلت عليه، وكان بين الأمرين سنة لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً.

ذكر وفاة زيادة الله بن الأغلب وابتداء ولاية أخيه الأغلب

في هذه السنة رابع عشر رجب توفي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، أمير إفريقية، وكان عمره إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام، وكانت إمارته إحدى وعشرين سنة وسبعة أشهر، وولي بعده أخوه أبو عفان الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب، فأحسن إلى الجند، وأزال مظالم كثيرة، وزاد العمال في أرزاقهم، وكف

الأفشين أن مازيار يقوم في (٤٩٦/٦) مقابلة ابن طاهر، وأن المعتصم يحتاج إلى إنفاذه وإنفاذ عساكر غيره.

قال جعفر: واجتمع إليّ عدة من أصحابي، فقلت لهم: هذا الشيطان قد أهلكنا، فلم لا نتقرب إلى السلطان به، ونأخذ لأنفسنا الأمان؟ فتاورنا، وكشفناه، فقال لهم: خذوا مني مائة ألف درهم واتركوني، فإن العرب لا تعطيكُم شيئاً؛ فقالوا: احضرها! فقال: سيروا معي إلى المنزل لتقبضوها، وأعطيكُم الموائيق على الوفاء، فلم يفعلوا، وساروا به نحو عسكر المعتصم، ولقيتهم خيل الحسن بن الحسين، فضربوهم، وأخذوه منهم، وأتوا به الحسن، فأمر به فقتل. (٤٩٨/٦)

وكان مازيار أيضاً يكتب بابك، واهتم مازيار بجمع الأموال من تعجيل الخراج وغيره، فجي في شهرين ما كان يؤخذ في سنة، ثم أمر قائداً له يقال له سرخاستان، فأخذ أهل آمل، وأهل سارية جميعهم، فنقلهم إلى جبل على النصف ما بين سارية وآمل، يقال له هُرمُزآباد، فحبسهم فيه، وكانت عدّتهم عشرين ألفاً، فلما فعل ذلك تمكن من أمره، وأمر بتخريب سور آمل، وسور سارية، وسور طميس، فخرت الأسوار.

وبنى سرخاستان سوراً من طميس إلى البحر، مقدار ثلاثة أميال، كانت الأكامرة يتنه لثمنع الترك من الغارة على طبرستان، وجعل له خندقاً، ففرج أهل جرجان، وخافوا، فهرب بعضهم إلى نيسابور، فأنفذ عبد الله بن طاهر عمه الحسن بن الحسين بن مصعب في جيش كثيف لحفظ جرجان، وأمره أن ينزل على الخندق الذي عمله سرخاستان، فسار حتى نزل، وصار بينه وبين سرخاستان صاحب الخندق، ووجه أيضاً ابن طاهر حيان بن جبلة في أربعة آلاف إلى قومس، فعسكر على حد جبال شروين، ووجه المعتصم من عنده محمد بن إبراهيم بن مصعب أخا إسحاق بن إبراهيم، ومعه الحسن بن قارن الطبري، ومن كان عنده من الطبرية، ووجه المنصور بن الحسن صاحب دُيَاوند إلى الرزي ليدخل طبرستان من ناحية الري، ووجه أبا الساج إلى اللارز ودُنباند.

فلما أحدثت الخيل بمازيار من كل جانب كان أصحاب سرخستان (٤٩٧/٦) يتحدثون مع أصحاب الحسن بن الحسين، حتى استأنس بعضهم ببعض، فتوأم بعض أصحاب الحسن في دخول السور، فدخلوه إلى أصحاب سرخستان على غفلة من الحسن، ونظر الناس بعضهم إلى بعض، فتأروا، وبلغ الخبر إلى الحسن، فجعل يصيح بالقوم، ويمتهم خوفاً عليهم، فلم يقفوا، ونصبوا علمه على معسكر سرخستان؛ وانتهى الخبر إلى سرخستان، وهو في الحمام، فهرب في غلالة، وحيث رأى الحسن أن أصحابه قد دخلوا السور قال: اللهم إنيهم عصوني وأطاعوك، فأنصرهم.

وبلغ الخبر مازيار فاعتم لذلك، فقال له القوهيار: في حبسك عشرون ألفاً من بين حائك، وإسكاف، وحداد، وقد شغلت نفسك بهم، وإنما أتيت من مأمك وأهل بيتك، فما تصنع بهؤلاء المحبسين عندك؟ قال: فأطلق مازيار جميع من في حبسه، ودعا جماعة من أعيان أصحابه، وقال لهم: إن بيوتكم في السهل، وأخاف أن يؤخذ حرمكم وأموالكم، فانطلقوا وخذوا لأنفسكم أماناً، ففعلوا ذلك.

ولما بلغ أهل سارية أخذ سرخستان ودخل حيان جبل

وتبعهم أصحابه حتى دخلوا إلى الدرب من غير مانع، واستولى على عسكر سرخستان، وأسر أخوه شهریار، ورجع الناس عن الطلب لما أدرکہم الليل، فقتل الحسن شهریار، وسار سرخستان حافياً فجهده العطش، فنزل عن دابته وشدها، فبصر به رجل من أصحابه، وغلّام اسمه جعفر، وقال سرخستان: يا جعفر!

بن الحسين بن مُصعب، وسار الحسن بن الحسين إلى خُرُماباذ، فاتاه محمد بن موسى بن حفص، وأحمد بن الصقر، فشكرهما وكتب إلى قوهيار، فاتاه، فأحسن إليه الحسن، وأكرمه، وأجابه إلى جميع ما طلب إليه منه لنفسه وتواعدا يوماً يحضر مازيار عنده.

ورجع قوهيار إلى مازيار، فأعلمه أنه قد أخذ له الأمان، واسترتق له. وركب الحسن يوم الميعاد وقت الظهر، ومعه ثلاثة غلمان أتراك، وأخذ إبراهيم بن مهران يذله على الطريق إلى أرم، فلما قاربها خاف إبراهيم، وقال: هذا موضع لا يسلكه إلا ألف فارس، فصاح به: امض! قال: فمضيتُ وأنا طائش العقل، حتى وافيت أرم، فقال: أين طريق هُرْمُزبَاد؟ قلتُ: على هذا الجبل في هذا الطريق، فقال: سير إليها! فقلتُ: الله الله في نفسك وفيتنا، وفي هذا الخلق الذين فعلك، فصاح: امض يا ابن اللخشاء! فقلتُ: اضرب عنقي أحب إلي من أن يقبَلَنِي مازيار، هُرْمُزبَاد ويلزمني الأمير عبد الله الذئب، فانتهرني حتى ظننتُ أنه يبطش بي، فسرت وأنا خائف فأتيتا هُرْمُزبَاد مع اصفرار الشمس، فنزل فجلس ونحن صيام.

وكانت الخيل قد تقطعت لأنه ركب بغير علم الناس، فعلموا بعد مسيره قال: وصلينا المغرب، وأقبل الليل، وإذا بفارسان بين أيديهم الشمع مشتعلاً، مقبلين من طريق لبورة، فقال الحسن: أين طريق لبورة؟ فقلتُ: أرى عليه فرساناً ونيراناً، وأنا داهش لا أقف على حقيقة الأمر، حتى قريت النيران، فنظرتُ، فإذا المازيار مع القوهيار، فتزلا، وتقدم مازيار فسلم على الحسن، فلم يرد عليه السلام، وقال لرجلين من أصحابه: خذاه (٥٠٢/٦) إليكما، فأخذه، فلما كان السحر وجّه الحسن مازيار معهما إلى سارية، وسار الحسن إلى هُرْمُزبَاد، فأحرق قصر مازيار، وأذهب ماله وسار إلى خُرْمَابَاد، وأخذ إخوة مازيار فحبسوا هنالك، ووكّلوا بهم، وسار إلى مدينة سارية، فأقام بها، وحُيِسَ مازيار.

ووصل محمد بن إبراهيم بن مصعب إلى الحسن بن الحسين، فسار به لينظره في معنى المال الذي لمازيار وأهله، فكتب إلى عبد الله بن طاهر، فأمر الحسن بتسليم مازيار وأهله إلى محمد بن إبراهيم ليسير بهم إلى المعتصم، وأمره أن يستقضي على أموالهم ويحرزها، فأحضر مازيار وسأله عن أمواله، فذكر أنها عند خزانة، وضمن قوهيار ذلك، وأشهد على نفسه، وقال مازيار: أشهدوا عليّ أن جميع ما أخذت من أموالي ستة وتسعون ألف دينار، وسبع عشرة قطعة زمرّد، وست عشرة قطعة ياقوت، وثمانية أحمال من ألوان الثياب، وتاج، وسيف مذهب مجوهر، وخنجر من ذهب مكمل بالجوهر، وحق كبير مملوء جوهرًا، قيمته ثمانية عشر ألف ألف درهم، وقد سلّمت ذلك إلى خازن عبد الله بن طاهر، وصاحب خبره على العسكر.

شروين وثبوا على عامل مازيار بسارية، فهرب منه وفتح الناس السجن، وأخرجوا مَنْ فيه؛ وأتى حيان إلى مدينة سارية، وبلغ قوهيار أخا مازيار الخبر، فأرسل إلى حيان مع محمد بن موسى بن حفص يطلب الأمان، وأن يملك على جبال أبيه وجده ليسلم إليه مازيار، فحضر عند حيان ومعه أحمد بن الصقر، وأبلغاه الرسالة، فأجاب إلى ذلك.

فلما رجعا رأى حيان تحت أحمد فرساً حسناً، فأرسل إليه وأخذه منه، فغضب أحمد من ذلك وقال: هذا الحائك العبد يفعل بشيخ مثلي ما فعل! ثم كتب إلى قوهيار: ويحك! لِمَ تغلّط في أمرك وتترك مثل الحسن بن الحسين عم الأمير عبد الله بن طاهر، وتدخل في أمان هذا العبد الحائك، وتدفع إليه أخاك، وتضع قدرك، وتحقق عليك الحسن بتركك إياه، وبمهلك إلى عبد من عبيده؟

فكتب إليه قوهيار: أراني قد غلّطت في أول الأمر، ووعدت الرجل أن (٥٠٠/٦) أصير إليه بعد غد، ولا آمن إن خالفته أن يناهضني ويستبيح دمي ومنزلي وأموالي، وإن قاتلته فقلتُ من أصحابه، وجرت الدماء فسد كل ما عملناه، ووقعت الشحنة.

فكتب إليه أحمد: إذا كان يوم الميعاد فابعث إليه رجلاً من أهلك، وكتب إليه أنه قد عرضت علة منعتي عن الحركة، وأنتك تتعالم ثلاثة أيام، فإن عوفيت، وإلا سرتُ إليك في محمل، وسنحمله نحن على قبول ذلك، فأجابه إليه، وكتب أحمد بن الصقر، ومحمد بن موسى بن حفص إلى الحسن بن الحسين، وهو بطميس: أن أقدم علينا لنُدفع إليك مازيار والخيل، وإلا فاتك؛ ووجّهها الكتاب إليه مع مَنْ يستحقّه.

فلما وصل الكتاب ركب من ساعته، وسار مسيرة ثلاثة أيام في ليلة، وانتهى إلى سارية، فلما أصبح تقدم إلى خُرْمَابَاد، وهو الموعد بين قوهيار وحيان، وسمع حيان وقع طبول الحسن، فتلّقه على فرسخ، فقال له الحسن: ما تصنع هاهنا؟ ولم توجه إلى هذا الموضوع؟ وقد فتحت جبال شروين وتركتها، فما يؤمنك أن يغدر أهلها، فينتقض جميع ما عملنا؟ أرجع إليهم حتى لا يمكنهم الغدر إن هموا به. فقال حيان: أريد أن أحمل أقتالي وأخذ أصحابي؛ فقال له الحسن: سير أنت، فأنا باعث بأثقالك وأصحابك. فخرج حيان من فورهِ، كما أمره، وأتاه كتاب عبد الله بن طاهر أن يعسكر بكور، وهي من جبال ونداهرمز، وهي أحصنها، وكانت أموال مازيار بها، فأمر عبد الله أن لا يُمنع قارن مما يريد من الأموال والجبال، فاحتمل قارن مما كان بها وبغيرها من أموال مازيار وسرخستان، وانتفض (٥٠١/٦) على حيان ما كان عمله بسبب شرهه إلى ذلك الفرس، وتوفي بعد ذلك حيان، فوجّه عبد الله مكانه عمه محمد

فلما جاء الميعاد تقدم الحسن فحارب دري، وأرسل عبد الله بن طاهر جيشاً كثيفاً، فوافوا قوهيار، فسلم إليهم الجبل، فدخلوه، ودري يحارب الحسن ومازيار في قصره، فلم يشعر مازيار إلا والخيال على باب قصره، فأخذوه أسيراً.

وقيل إن مازيار كان يتصيد، فأخذوه وقصدوا به نحو دري وهو يقاتل، فلم يشعر هو وأصحابه إلا وعسكر عبد الله من ورائهم، ومعهم مازيار، فاندفع دري وعسكره، واتبعوه، وقتلوه، وأخذوا رأسه وحملوه إلى عبد الله بن طاهر، وحملوا إليه مازيار، فوعده عبد الله بن طاهر إن هو أظهره على كتب الأفشين أن يسأل فيه المعتصم ليصفح عنه، فأقر مازيار بذلك، وأظهر الكتب عند عبد الله بن طاهر، فسيّرهما إلى إسحاق بن إبراهيم، وسيّر مازيار، وأمره أن لا يسلمها إلا من يده إلى يد المعتصم، ففعل إسحاق ذلك، فسأل المعتصم مازيار عن الكتب، فأنكرها، فغضبه حتى مات، وصلبه إلى جانب بابك. (٥٠٥/٦)

وقيل إن مخالفة مازيار كانت سنة خمس وعشرين، والأول أصح، لأن قتله كان في سنة خمس وعشرين وقيل إنه اعترف بالكتب على ما تذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عصيان منكجور قزاة الأفشين

لما فرغ الأفشين من بابك وعاد إلى سامراء، استعمل على أذربيجان، وكان في عمله منكجور، وهو من أقاربه، فوجد في بعض قرى بابك مالا عظيماً، ولم يعلم به المعتصم، ولا الأفشين، فكتب صاحب البريد إلى المعتصم، وكتب منكجور يكتّبه، فتناظروا، فهم منكجور ليقبله، فتمنع أهل أردبيل، فقاتلهم منكجور.

وبلغ ذلك المعتصم، فأمر الأفشين بعزل منكجور، فوجه قائداً في عسكر ضخم، فلما بلغ منكجور الخبر خلع الطاعة، وجمع الصعاليك، وخرج من أردبيل، فواقعه القائد، فهزمه، وسار إلى حصن من حصون أذربيجان التي كان بابك خربها، فبناه، وأصلحه، وتحصن فيه، فبقي به شهراً.

ثم وثب به أصحابه، فأسلموه إلى ذلك القائد، فقدم به إلى سامراء، فحبسه المعتصم، واتهم الأفشين في أمره؛ وكان قدومه سنة خمس وعشرين ومائتين؛ وقيل إن ذلك القائد الذي أنفذ إلى منكجور كان بعا الكبير، وإن منكجور خرج إليه بأمان. (٥٠٦/٦)

ذكر ولاية عبد الله الموصل وقتله

في هذه السنة عصى بأعمال الموصل إنسان من مفدومي الأكراد اسمه جعفر بن فهرجس، وتبعه خلق كثير من الأكراد وغيرهم ممن يريد الفساد، فاستعمل المعتصم عبد الله بن السيد بن أنس الأزدي على الموصل، وأمره بقتال جعفر، فسار عبد الله إلى

وكان مازيار قد استخلف هذا ليوصله إلى الحسن بن الحسين ليظهر للناس والمعتصم أنه آمنه على نفسه، وماله، وولده، وأنه جعل له جبال أبيه، فامتنع الحسن من قبوله، وكان أعف الناس.

فلما كان الغد أنفذ الحسن مازيار إلى المعتصم مع يعقوب بن المنصور، ثم أمر الحسن قوهيار أن يأخذ بغاله ليحمل عليها مال مازيار، فأخذها، وأراد الحسن أن ينفذ معه جيشاً، فقال: لا حاجة لي بهم. (٥٠٣/٦)

وسار هو وغلماؤه، فلما فتح الخزائن، وأخرج الأموال وعبأها ليحملها، وثب عليه مماليك المرزبان، وكانوا دياملة، وقالوا: غدرت بصاحبنا، وأسلمته إلى العرب، وجئت لتحمل أمواله! وكانوا ألفاً ومائتين، فأخذوه، وقيدوه، فلما جنهم الليل قتلوه، وانتهبوا الأموال والبغال؛ فأنتهى الخبر إلى الحسن بن الحسين، فوجه جيشاً، ووجه قارن جيشاً، فأخذ أصحاب قارن منهم عدة منهم ابن عم مازيار يقال له: شهریار بن المضمغان، وكان هو يحرضهم، فوجه قارن إلى عبد الله بن طاهر فمات بقومس.

وعلم محمد بن إبراهيم خبرهم، فأرسل في أثرهم، فأخذوا، وبعث بهم إلى مدينة سارية.

وقيل: إن السبب في أخذ مازيار كان ابن عم له اسمه قوهيار كان له جبال طبرستان وكان لمازيار السهل؛ وجبال طبرستان ثلاثة أجبل: جبل ننداهرمز، وجبل أخيه ونداستجان، والثالث جبل شروين بن سرخاب، فقوي مازيار، وبعث [إلى] ابن عمه قوهيار، وقيل هو أخوه، فالزمه بابه، وولى الجبل والياً من قبله يقال له دري، فلما خالف مازيار واحتاج إلى الرجال دعا قوهيار، وقال له: أنت أعرف ببجلك من غيرك، وأظهره على أمر الأفشين، ومكاتبته، وأمره بالعود إلى جبله، وحفظه، وأمر الدري بالمجيء إليه، فأتاه فضم إليه العساكر، ووجهه إلى محاربة الحسن بن الحسين، عم عبد الله بن طاهر.

وظن مازيار أنه قد استوثق من الجبل بقوهيار، وتوثق من المواضع المخوفة بدري وعساكره، واجتمعت العساكر عليه، كما تقدم ذكره، وقربت منه. (٥٠٤/٦)

وكان مازيار، في مدينته، في نهر يسير، فدعا قوهيار الحقد الذي في قلبه على مازيار وما صنع به إلى أن كاتب الحسن بن الحسين، وأعلمه جميع ما في عسكره ومكاتبته الأفشين، فأنفذ الحسن كتاب قوهيار إلى عبد الله بن طاهر، فأنفذه عبد الله إلى المعتصم، وكاتب عبد الله والحسن قوهيار، وضمننا له جميع ما يريد، وأن يعيد إليه جبله، وما كان بيده لا يتازعه في أحد، ففرضي بذلك، وواعدهم يوماً يسلم فيه الجبل.

الموصل، وكان جعفر بمانعيس قد استولى عليها، فتوجه عبد الله إليه، وقتلته وأخرجه من مانعيس.

وقاتله، فانهزم لندريق (٥٠٨/٦) وكثر القتل في عسكره، وسار فرتون إلى الحصن الذي كان بناء أهل آلبه بإزاء تغور المسلمين، فحصره، وافتتحه وهدمه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة تولى جعفر بن دينار اليمن. وفيها تزوج الحسين بن الأفشين أترجة ابنة أشناس، ودخل بها في قصر المعتصم في جمادى الآخرة، وأحضر عرسها عامة أهل سامراء، وكانوا يغلقون العامة بالغالية، وهي في تيفار من فضة. وفيها امتنع محمد بن عبد الله الورداني بوزنان، ثم عاود الطاعة، وقدم على المعتصم بأمان سنة خمس وعشرين ومائتين. وفيها مات ناطس الرومي وصلب بسامراء.

وفيها مات إبراهيم بن المهدي في رمضان، وصلى عليه المعتصم؛ وحج بالناس محمد بن داود. وفيها وقع بإفريقية فتنة كان فيها حرب بين عيسى بن ريعان الأزدي وبين لواتة وزواغة ومكناسة، فكانت الحرب بين قفصة وقسطيلية، فقتلهم عيسى عن آخرهم.

وفيها اجتمع أهل سبجلماسة مع مدرار بن أليسع على تقديم ميمون بن (٥٠٩/٦) مدرار في الإمارة على سبجلماسة وإخراج أخيه المعروف بابن نقية، فلما استقر الأمر لميمون أخرج أباه وأمه إلى بعض قرى سبجلماسة.

وفيها فتح نوح بن أسد كاسان وأورشث، بما وراء النهر، وكانت قد نقضتا الصلح، وافتتح أيضاً أسيجاب، وبني حوله سوراً يحيط بكروم أهله ومزارعهم.

وفيها مات أبو عبيد القاسم بن سلام الإمام اللغوي، وكان عمره سبعاً وستين سنة كانت وفاته بمكة.

(سلام بتشديد اللام). (٥١٠/٦)

سنة خمس وعشرين ومائتين

ذكر وصول مازيار إلى سامراء

في هذه السنة كان وصول مازيار إلى سامراء، فخرج إسحاق بن إبراهيم، فأخذه من الدسكرة وأدخله سامراء على بغل بأكاف، لأنه امتنع من ركوب الفيل، فأمر المعتصم أن يجمع بينه وبين الأفشين.

وكان الأفشين قد حُس قبل ذلك يوم، فأقر مازيار أن الأفشين كان يكتبه، ويحسن له الخلاف والمغصية، فأمر برد الأفشين إلى محبسه وضرب مازيار أربعمائة وخمسين سوطاً، وطلب ماء

فقصد جبل داسين، وامتنع بموضع عال فيه لا يرام، والطريق إليه ضيق، فقصد عبد الله إلى هناك، وتوغل في تلك المضائق، حتى وصل إليه وقتلته، فاستظهر جعفر ومن معه من الأكرداء على عبد الله لمعرفتهم بتلك المواضع، وقوتهم على القتال بها رجالة، فانهزم عبد الله وقتل أكثر من معه.

ومن ظهر منهم إنسان اسمه رباح حمل على الأكرداء، فخرق صفهم، وطعن فيهم، وقتل، وصار وراء ظهورهم، وشغلهم عن أصحابه، حتى نجا منهم من أمكنه النجاة، فتكاثر الأكرداء عليه، فالتقى نفسه من رأس الجبل على فرسه، وكان تحته نهر، فسقط الفرس في الماء ونجا رباح.

وكان فيمن أسره جعفر رجلا أحدهما اسمه إسماعيل والآخر إسحاق بن أنس، وهو عم عبد الله بن السيد، وكان إسحاق صهر جعفر، فقدّمهما جعفر إليه، فظن إسماعيل أنه يقتله، ولا يقتل إسحاق للصهر الذي بينهما، (٥٠٧/٦) فقال: يا إسحاق أوصيك بأولادي؛ فقال له إسحاق: أنظن أنك تقتل وأبقى بعدك؟ ثم التفت إلى جعفر فقال: أسألك أن تقتلني قبله لتطيب نفسه؛ فبدأ به فقتله، وقتل إسماعيل بعده.

فلما بلغ ذلك المعتصم أمر بإتخاذ بالمسير إلى جعفر وقتالته، فتجهز، وسار إلى الموصل سنة خمس وعشرين، وقصد جبل داسين، وجعل طريقه على سوق الأحد، فالتقاء جعفر، فقاتله قتالاً شديداً، فقتل جعفر، وتفرق أصحابه، فانكشف شره وأذاه عن الناس.

وقيل إن جعفرأ شرب سماً كان معه فمات، وأوقع إيتاخ بالأكرداء، فأكثر القتل فيهم، واستباح أموالهم، وحشر الأسرى والنساء والأموال إلى تكريت.

وقيل: إن إيقاع إيتاخ بجعفر كان سنة ست وعشرين، والله أعلم.

ذكر غزاة المسلمين بالأندلس

وفي هذه السنة سير عبيد الرحمن عبد الله المعروف بابن البلنسي إلى بلاد العدو، فوصلوا إلى آلبه والقلاع، فخرج المشركون إليه في جمعهم، وكان بينهم حرب شديدة، وقتال عظيم، فانهزم المشركون وقتل منهم ما لا يحصى، وجمعت الرؤوس أكداً، حتى كان الفارس لا يرى من يقابله.

وفيها خرج لندريق في عسكره، وأراد الغارة على مدينة سالم من الأندلس، فسار إليه فرتون بن موسى في عسكر جرار، فلقبه

للشرب، فسُقي، فمات من ساعته.

وقيل ما تقدّم ذكره، وقد تقدم من اعتراف مازيار بكتب الأفشين في غير موضع ما يخالف هذا، وسببه اختلاف الناقلين.

ذكر غضب المعتصم على الأفشين وحبه

وفي هذه السنة غضب المعتصم على الأفشين وحبه.

وكان سبب ذلك أن الأفشين كان أيام محاربة بابك لا تأتيه هدية من أهل (٥١١/٦) أرمينية وأذربيجان إلا وجه بها إلى أشروسنة، فيجتاز ذلك بعد الله بن طاهر، فيكتب عبد الله إلى المعتصم يُعَرِّفه الخبر، فكتب إليه المعتصم يأمره بإعلامه بجميع ما يوجه به الأفشين، ففعل عبد الله ذلك، فكان الأفشين كلما اجتمع عنده مال يجعله على أوساط أصحابه في الهمايين ويسيره إلى أشروسنة.

فأنفذ مرة ملاً كثيراً، فبلغ أصحابه إلى نيسابور، فوجه عبد الله بن طاهر، ففتشهم، فوجد المال في أوساطهم، فقال: من أين لكم هذا المال؟ فقالوا: للأفشين؛ فقال: كذبتُم، لو أراد أخي الأفشين أن يرسل مثل هذه الهدايا والأموال لكتب يُعلمني ذلك الأمر بتسييره، وإنما أنتم لصوص.

وأخذ عبد الله المال فأعطاه الجند، وكتب إلى الأفشين يذكر له ما قال القوم، وقال: أنا أنكر أن تكون وجهت بمثل هذا المال ولم تعلمني، وقد أعطيت الجند عوض المال الذي يوجهه أمير المؤمنين، فإن كان المال لك كما زعموا فإذا جاء المال من عند أمير المؤمنين رددته عليك، وإن يكن غير هذا، فأمر المؤمنين أحق بهذا المال، وإنما دفعته إلى الجند لأنّي أريد [أن] أوجههم إلى بلاد الترك.

فكتب إليه الأفشين: إن مالي ومال أمير المؤمنين واحد، وسأله إطلاق القوم، فأطلقهم، فكان ذلك سبب الوحشة بينهما.

وجعل عبد الله يتبعه، وكان الأفشين يسمع من المعتصم ما يدل على أنه يريد عزل عبد الله عن خراسان، فطمع في ولايته، فكانت مازيار يحسن له الخلاف ظناً منه أنه إذا خالف عزل المعتصم عبد الله عن خراسان واستعمله عليها، وأمره بمحاربة مازيار، فكان من أمر مازيار ما تقدّم؛ وكان من عصيان منكجور ما ذكرناه أيضاً، فتحقق المعتصم أمر الأفشين، فتغير عليه. (٥١٢/٦)

وأحسن الأفشين بذلك، فلم يدر ما يصنع، فعزم على أن يهبي أطرافاً في قصره، ويحتال في يوم شغل المعتصم وقواده أن يأخذ طريق الموصل، ويعبر الزاب على تلك الأطراف، ويصير إلى أرمينية، وكانت ولاية أرمينية إليه، ثم يصير إلى بلاد الخزر، ثم

يدور في بلاد الترك، ويرجع إلى أشروسنة، أو يستميل الخزر على المسلمين، فلم يمكنه ذلك، فعزم على أن يعمل طعماً كثيراً، ويدعو المعتصم والقواد، ويعمل فيه سماً، فإن لم يجزِ المعتصم عمل ذلك بالقواد مثل أشناس وإيتاخ وغيرهما، يوم تشاغل المعتصم، فإذا خرجوا من عنده سار في أول الليل، فكان في تهينة ذلك.

فكان قواده ينوبون في دار المعتصم، كما يفعل القواد، فكان أواجن الأشروسي قد جرى بينه وبين من قد أطلع على أمر الأفشين حديث، فقال أواجن: لا يتم هذا الأمر، فذهب ذلك الرجل إلى الأفشين فأعلمه، فتهذّب أواجن، فسمعه بعض من يميل إلى أواجن من خدم الأفشين، فأناه ذلك الخادم فأعلمه الحال بعد عوده من التوبة، فخاف على نفسه، فخرج إلى دار المعتصم، فقال لإيتاخ: إن لأمر المؤمنين عندي نصيحة؛ قال: قد نام أمير المؤمنين، فقال أواجن: لا يمكنني أن أصبر إلى غد، فددق إيتاخ الباب على بعض من يُخبر المعتصم بذلك، فقال المعتصم: قل له ينصرف الليلة إلى غدا فقال: إن انصرفت ذهبت نفسي، فأرسل المعتصم إلى إيتاخ: بيته عندك الليلة.

فبيته عنده، فلما أصبح الصباح بكر به على باب المعتصم، فأخبره بجميع ما كان عنده، فأمر المعتصم بإحضار الأفشين، فجاء في سواده، فأمر بأخذ سواده وحبه في الجرسق، وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر في الاحتيال على الحسين بن الأفشين، وكان الحسين قد كثرت كتبه إلى عبد الله، فشكا (٥١٣/٦) من نوح بن الأسد الأمير بما وراء النهر، وتحامله على ضياعه، وناحيته، فكتب عبد الله إلى نوح يُعلمه ما كتب به المعتصم في أمر الحسين، ويأمره أن يجمع أصحابه ويتأهب، فإذا قدم عليه الحسين بكتاب ولايته فخذ، واستوثق منه، وأحمله إلي.

وكتب عبد الله إلى الحسين يُعلمه أنه قد عزل نوحاً، وأنه قد ولاه ناحيته، ووجه إليه بكتاب عزل نوح وولايته، فخرج ابن الأفشين في قلبه من أصحابه وسلاحه، حتى ورد على نوح، وهو يظن أنه والي الناحية، فأخذه نوح وقبده، ووجهه إلى عبد الله بن طاهر، فوجه به عبد الله إلى المعتصم، فأمر المعتصم بإحضار الأفشين ليقابل على ما قيل عنه، فأحضر عند محمد بن عبد الملك الزيات، وزير المعتصم، وعنده ابن أبي دؤاد وإسحاق بن إبراهيم، وغيرهما من الأعيان، وكان المناظر له ابن الزيات، فأمر بإحضار مازيار، والموبذ، والمرزيان بن بركش، وهو أحد ملوك السُغد، ورجلين من أهل السُغد، فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين، وعليهما ثياب رثة، فقال لهما: ما شأنكما؟ فكشفا عن ظهورهما، وهي عارية من اللحم، فقال للأفشين: أتعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا مؤذن وهذا إمام بنينا مسجداً بأشروسنة، فضربت كل واحد

فقال الأفشين: هذا يدعي أن أخي كتب إلى أخيه: لا يجب عليّ، ولو كتبت هذا الكتاب إليه لأستميله إليّ ويثق بي، ثم أخذه بقاءه، وأحظى به عند الخليفة، كما حظي عبد الله بن طاهر، فزجره ابن أبي دؤاد، فقال الأفشين: يا أبا عبد الله، أنت ترفع طيلسانك فلا تضعه حتى تقتل جماعة.

فقال له ابن أبي دؤاد: أمظهر أنت؟ قال: لا! قال: فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام، والطهور من النجاسة؟ فقال: أوليس في الإسلام استعمال التقيّة؟ قال: بلى! قال: خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدي فأموت؟ فقال: أنت تطعن بالرمح، وتضرب بالسيف، فلا يمنعك ذلك أن يكون ذلك في الحرب، وتجنّز من قطع قلعة؟ قال: تلك ضرورة تصيبني (٥١٦/٦) فأصبر عليها، وهذا شيء أستجلبه.

فقال ابن أبي دؤاد: قد بان لكم امره، فقال لبغا الكبير: عليك به! فضرب بيده على منقطة، فجذبها، وأخذ بمجامع القباء عند عنقه، وردّه إلى محبسه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غضب المعتصم على جعفر بن دينار لأجل وثوبه على من كان معه من الأصحاب، وحبسه عند أثناس خمسة عشر يوماً، ثم رضي عنه، وعزله عن اليمن، واستعمل عليها إيتاخ. وفيها عزل الأفشين عن الحرس، وولاه إسحاق بن يحيى بن معاذ.

وفيها سار عبد الرحمن صاحب الأندلس في جيش كثير إلى بلاد المشركين في شعبان، فدخل بلاد جليقية، فافتتح منها عدة حصون، وجال في أرضهم يخرب، ويغنم، ويقتل، ويسبي، وأطال المقام في هذه الغزاة، ثم عاد إلى قرطبة. وحج بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

وفيها توفي أبو دلف العجلي، واسمه القاسم بن عيسى، وأبو عمرو الجرمي النحوي، واسمه صالح بن إسحاق، وكان من الصالحين.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني وله ثلاث وتسعون سنة، وله كتب في المغازي وأيام العرب، وكان بصرياً، فأقام بالمدائن فُسب إليها. (٥١٧/٦)

سنة ست وعشرين ومائتين

فيها وثب علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ، وكان على المعونة بدمشق من قبل صول أرتكين علي بن رجاء، وكان على الخراج، فقتله وأظهر الوسواس، ثم تكلم فيه أحمد بن أبي دؤاد،

منهما ألف سوط، وذلك أن بيني و بين ملك السُعد عهداً وشرطاً أن أترك كل قوم على دينهم، فوثب هذان على بيت كان فيه أصنام من أهل أشروسنة، فأخرجوا الأصنام وجعلاه مسجداً، ففرضتهما على هذا. (٥١٤/٦)

قال ابن الزيات: ما كتاب عندك قد حليته بالذهب والجوهر فيه الكفر بالله تعالى؟

قال: كتاب ورثته عن أبي فيه من آداب العجم وكفرهم، فكنت أخذ الآداب وأترك الكفر، ووجدته محلّس، فلم أحتج إلى أخذ الحلية منه، وما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام.

ثم تقدم الموبذ فقال: إن هذا يأكل لحم المخلوقة، ويحملني على أكلها، ويزعم أنها أرطب من المذبوحة. وقال لي يوماً: قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه، حتى أكلت الزيت، وركبت الجمل، والبغل، غير أنني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شعرة، يعني أخذ شعر العانة، ولم أختن.

فقال الأفشين: أخبروني عن هذا أنفة هو في دينه؟ وكان مجوسياً، وإنما أسلم أيام المتوكل، فقالوا: لا! فقال: فما معنى قبول شهادته؟ ثم قال للموبذ: أليس كنت أدخلك عليّ وأطلعك على سرّي؟ قال: بلى! قال: لست بالثقة في دينك، ولا بالكريم في عهدك، إذا أفشيت سرّاً أسرته إليك.

ثم تقدّم المرزبان فقال: كيف يكتب إليك أهل بلدك؟ قال: لا أقول! قال: أليس يكتبون بكذا بالأشروسنية؟ قال: بلى! قال: أليس تفسره بالعربية: إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان؟ قال: بلى! قال محمد بن عبد الملك الزيات: المسلمون لا يحتملون هذا، فما أبقيت لفرعون؟ قال: (٥١٥/٦) هذه كانت عاداتهم لأبي وجدي ولي قبل أن أدخل في الإسلام، فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد عليّ طاعتهم.

ثم تقدم مازيار فقالوا للأفشين: هل كاتب هذا؟ قال: لا! قالوا لمازيار: هل كتب إليك؟ قال: نعم، كتب أخوه إلى أخي قوهيار أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك، فأما يابك فإنه لحقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت، فأبى لحقه إلا أن أوقعه، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري، ومعني الفرسان، وأهل النجدة، فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب، والمغاربة، والأتراك، والعربي بمنزلة الكلب أطرح له كسرة واضرب رأسه، والمغاربة أكلة رأس، والأتراك، فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم، ويعود الدين إلى ما يزل عليه أيام العجم.

فأطلق من محبسه.

وفيها مات محمد بن عبد الله بن طاهر فصلّى عليه المعتصم.

ذكر موت الأفشين

وفيها مات الأفشين، وكان قد أنفذ إلى المعتصم يطلب أن يُنفذ إليه من يتو به، وأنفذ إليه حمدون بن إسماعيل، فأخذ يعتذر عما قيل فيه، وقال: قل لأمر المؤمنين إنما مثلني ومثلك كرجل ربي عاجلاً حتى أسمنه، وكبر، وكان له أصحاب يشبهون أن يأكلوا من لحمه، فعرضوا بذبحه، فلم يجبه، فاتفقوا جميعاً على أن قالوا: لِمَ تربي هذا الأسد، فإنه إذا كبر رجع إلى جنسه فقال لهم: إنما هو عجل، فقالوا: هذا أسد، فسل من شئت. (٥١٨/٦) وتقدموا إلى جميع من يعرفونه، وقالوا لهم: إن سالكم عن العجل فقولوا له: إنه أسد، وكلما سأل إنساناً قال: هو سبع، فأمر بالعجل فذبح، ولكني أنا ذلك العجل كيف أقدر أن أكون أسداً؟ الله الله في أمري.

قال حمدون: فقمْتُ عنه، وبين يديه طبق فيه فاكهة قد أرسله المعتصم مع ابنه الوائق، وهو على حاله، فلم ألث إلا قليلاً حتى قيل إنه يموت، أو قد مات، فحُمل إلى دار إيتاخ، فمات بها، وأخرجوه، وصلبوه على باب العامة ليراه الناس، ثم أُلقي وأحرق بالنار، وكان موته في شعبان.

قال حمدون: وسألته هل هو مطهر أم لا؟ فقال: إلى مثل هذا الموضع إنما قال لي هذا، والناس مجتمعون، ليفضحني إن قلت نعم، قال: تكشف، والموت كان أحب إلي من أن أتكشف بين يدي الناس، ولكن إن شئت أتكشف بين يديك حتى تراني؛ فقلت له: أنت صادق، فلما انصرف حمدون وبلغ المعتصم رسالته أمر بقطع الطعام والشراب عنه، إلا القليل، حتى مات.

قال: ولما أخذ ماله رأى في داره بيت تمثال إنسان من خشب عليه حلية كثيرة وجوهر، وفي أذنيه حجران مشبك، عليهما ذهب، فأخذ بعض من كان مع سليمان أحد الحجرين وظنه جوهرًا، وكان ذلك ليلاً، فلما أصبح نزع عنه الذهب، ووجده شيئاً شبيهاً بالصدف يسمى الحبرون، ووجدوا أصناماً وغير ذلك، والأطواف الخشب التي كان أعدها، ووجدوا له كتاباً من كتب المجوس، وكتباً غيره فيها ديانته. (٥١٩/٦)

ذكر وفاة الأغلب وولاية أبي العباس محمد بن الأغلب إفريقية وما كان منه

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفي الأغلب بن إبراهيم يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر من هذه السنة، وكانت ولايته ستين وسبعة أشهر وسبعة أيام.

ولما توفي ولي أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية بعد وفاة والده، ودانت له إفريقية، وابتنى مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية في سنع تسع وثلاثين ومائتين، فأحرقها أفلح بن عبد الوهاب الإياضي، وكتب إلى الأموي، صاحب الأندلس، يُعلمه ذلك، فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم جزاء له على فعله.

وتوفي محمد بن الأغلب يوم الاثنين غرة المحرم من سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وكانت ولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وعشرة أيام.

ذكر ولاية ابنه أبي إبراهيم أحمد

لما توفي أبو العباس محمد بن الأغلب ولي الأمر بعده ابنه أبو إبراهيم أحمد، وأحسن السيرة مع الرعية، وأكثر العطاء للجند، وبنى بارض إفريقية عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس، وأبواب الحديد، واشترى العبيد، ولم يكن في أيامه ثائر يزعمه؛ ثم توفي، رحمه الله، يوم الثلاثاء لثلاث عشرة (٥٢٠/٦) بقيت من ذي القعدة سنة تسع وأربعين ومائتين، وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر واثني عشر يوماً، وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة.

ذكر ولاية أخيه أبي محمد زيادة الله

ولما توفي أحمد ولي أخوه زيادة الله وجرى على منن سلفه، ولم تطل أيامه، فتوفي يوم السبت لإحدى عشرة بقيت من ذي القعدة سنة خمسين ومائتين، وكانت ولايته سنة واحدة وستة أيام.

ذكر ولاية محمد بن أحمد بن الأغلب

ولما توفي زيادة الله ولي بعده أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب، وجرى على منن أسلافه، وكان أدبياً، عاقلاً، حسن السيرة، غير أن جزيرة صقلية تغلب الروم على مواضع منها؛ وبنى أيضاً حصوناً ومحارس على ساحل البحر.

وبالمغرب أرض تُعرف بالأرض الكبيرة بينها وبين بركة مسيرة خمسة عشر يوماً، وبها مدينة على ساحل البحر تدعى بارة، وكان أهلها نصارى ليسوا بروم، فغزاها حياة مولى الأغلب، فلم يقدر عليها، ثم غزاها خلفون البربري، ويقال إنه مولى لربيعة، ففتحها في خلافة المتوكل، وقام بعده (٥٢١/٦) رجل يسمى المفرج بن سالم، ففتح أربعة وعشرين حصناً، واستولى عليها، فكتب إلى والي مصر يُعلمه خبره، وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحيته، ويوليها إياها، ليخرج من حد المتغلبين، وبنى مسجداً جامعاً.

ثم إن أصحابه شغبوا عليه، ثم قتلوه: ثم توفى أبو عبد الله محمد، رحمه الله، سنة إحدى وستين ومائتين، إنما ذكرنا ولاية

هؤلاء متتابعة لقلّة ما لكل واحد منهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة زلزلت الأهواز زلزلة شديدة، خمسة أيام، وكان مع الزلزلة ريح شديدة، فخرج الناس عن منازلهم، وخرب كثير منها.

وفيهما حج بالناس محمد بن داود، أمره أشناس بذلك، وكان أشناس حاجاً، وقد جعل إليه ولاية كل بلد يدخله، وخطب له على منابر مكة والمدينة وغيرهما من البلاد التي اجتاز بها بالإمرة إلى أن عاد إلى سامرا.

وفيهما توفي أبو الهذيل بن عبد الله بن العلاف البصري، شيخ المعتزلة في زمانه، وزاد عمره على مائة سنة، وله مسائل في الأصول قبيحة نفرد بها، ويحيى بن يحيى بن بكر بن عبد الرحمن التميمي الحنظلي النيسابوري أبو زكريا، توفي في صفر بنيسابور؛ وسليمان بن حرب الواشجي القاضي، وأبو الهيثم الرازي النحوي، وكان عالماً بنحو الكوفيين. (٥٢٢/٦)

سنة سبع وعشرين ومائتين

ذكر خروج المبرقع

في هذه السنة خرج أبو المبرقع اليماني بفلسطين، وخالف على المعتصم.

وكان سبب خروجه أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب، فمنعه بعض نسائه، فضربها الجندي بسوط، فأصاب ذراعها، فأثر فيها، فلما رجع إلى منزله شكت إليه ما فعل بها الجندي، فأخذ سيفه وسار نحوه فقتله، ثم هرب، وأليس وجهه برقعاً، وقصد بعض جبال الأردن، فأقام به، وكان يظهر بالنهار متبرقعاً، فإذا جاءه أحد ذكره، وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر الخليفة وما يأتي، ويعيبه، فاستجاب له قوم من فلاحي تلك الناحية.

وكان يزعم أنه أموي، فقال أصحابه: هذا السُفْياني، فلما كثر أتباعه من هذه الصفة دعا أهل البيوتات، فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية، منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعاً في أهل اليمن، ورجلان من أهل دمشق.

واتصل الخبر بالمعتصم في مرضه الذي مات فيه، فسير إليه رجاء بن أيوب (٥٢٣/٦) الحضاري في زهاء ألف رجل من الجند، فراه في عالم كثير يبلغون مائة ألف، فكره رجاء مواقفته، وعسكر في مقابلته، حتى كان أوان الزراعة وعمل الأرض، فانصرف من كان مع المبرقع إلى عملهم، وبقي في زهاء ألف أو ألفين.

وتوفي المعتصم ووليّ الوائق، واثارت الفتنة بدمشق على ما نذكره، فأمر الوائق رجاء بقتال من أراد الفتنة والعود إلى المبرقع، ففعل ذلك، وعاد إلى المبرقع، فسأجه رجاء، فالتقى العسكران، فقال رجاء لأصحابه: ما أرى في عسكره رجلاً له شجاعة غيره، وإنه سيظهر لأصحابه ما عنده، فإذا حمل عليكم فأفروا له، فما لبث أن حمل المبرقع، فأفزع له أصحاب رجاء، حتى جاوزهم، ثم رجع فأفروا له، حتى أتى أصحابه، ثم حمل مرة أخرى، فلما أراد الرجوع أحاطوا به وأخذوه أسيراً.

وقيل: كان خروجه سنة ست وعشرين ومائتين، وإنه خرج بنواحي الرملة، وصار في خمسين ألفاً، فوجه إليه المعتصم رجاء الحضاري، فقاتله، وأخذ ابن بيهس أسيراً، وقتل من أصحاب المبرقع نحواً من عشرين ألفاً، وأسر المبرقع وحمله إلى سامرا.

ذكر وفاة المعتصم

وفي هذه السنة توفي المعتصم أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، (٥٢٤/٦) يوم الخميس لثمانية عشرة مضت من ربيع الأول، وكان بدء علته أنه احتجم أول يوم في المحرم، واعتلّ عندها.

قال زمام الزامر: أفاق المعتصم في علته التي مات فيها، فركب في الزلّال في دجلة، وأنا معه، فمرّ بإزاء منزله، فقال: يا زمام ازمري لي:

يَا مَرْتَلًا لَمْ تَبَلْ اِطْلَافُ حَاشَا لِاطْلَالِكَ أَنْ تَبْلَى
لَمْ أَبْلِكَ اِطْلَالُكَ لَكْتَسِي بَكَيْتْ عَيْشِي فَيْكَ إِذْ وَلَّى
وَالْعَيْشُ أَوَّلِي مَا بَكَتْ الْفَتَى لَا بَدْءَ لِلْمَحْزُونِ أَنْ يَسْلَى
قال: فما زلتُ أزمُرُ له هذا الصوت، وأكرّره، وقد تناول منديلاً بين يديه، فما زال يبكي فيه، ويتحب، حتى رجع إلى منزله.

ولما احتضر المعتصم جعل يقول: ذهبَتِ الحِيلُ، ليست حيلة، حتى صمت، ثم مات ودُفن بامرا.

وكانت خلافته ثمانين سنين وثمانية أشهر ويومين، وكان مولده سنة تسع وسبعين ومائة، وقيل: سنة ثمانين ومائة، في الشهر الثامن، وهو ثامن الخلفاء والثامن من ولد العباس، ومات عن ثمانية وبين ثمانين بنات وملك ثمانين سنين وثمانية أشهر، فعلى القول الأول يكون عمره سبعاً وأربعين سنة وثمانية عشر يوماً، وعلى القول الثاني يكون عمره سبعاً وأربعين سنة وسبعة أشهر.

وكان أبيض، أصهب اللحية، طويلها، مربوعاً، مشرب اللون حمرة، (٥٢٥/٦) حسن العينين، وكان مولده بالخلدقار؛ وقال

مني مثل ذلك فاستغفنيته، فأبى عليّ، ثم خرجنا، ومشى وأنا معه، حتى صار إلى مجلسه، فنام، وأمرني فتمتّ حذاءه بعد الامتناع، ثم قال لي: يا إسحاق إن في قلبي أمراً أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة، وإنما بسطتك في هذا الوقت لأقشيه إليك، فقلت: قل (٥٢٧/٦) يا أمير المؤمنين، فإنما أنا عبدك وابن عبدك.

قال: نظرتُ إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة، فلم يُفلح أحد منهم، قلتُ: ومن الذين اصطنعهم المأمون؟ قال: طاهر بن الحسين، فقد رأيتُ وسمعتُ، وابنه عبد الله بن طاهر، فهو الرجل الذي لم يُر مثله، وأنت، فأنت والله الرجل الذي لا يعتاض السلطان عنك أبداً، وأخوك محمد بن إبراهيم، وأين مثل محمد؟ وأنا فاصطنعتُ الأفشين، فقد رأيتُ إلى ما صار أمره، وأشناس فشلت، وإيتاخ فلا شيء، ووصيفاً فلا معنى فيه.

فقلتُ: أجيب على أمان من غضبك؟ قال: نعم! قلتُ له: يا أمير المؤمنين، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها، فأنجبت، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً، فلم تنجب إذ لا أصول لها، فقال: يا إسحاق، لَمَقَاسَة ما مرّ بي طول هذه المدة أيسر عليّ من هذا الجواب.

وقال ابن أبي دؤاد: تصدّق المعتصم، ووهب على يديّ مائة ألف ألف درهم.

وحُكي أنّ المعتصم قد انقطع عن أصحابه في يوم مطر، فبينما هو يسير رحله إذ رأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك، وقد زلق الحمار، وسقط، والشيخ قائم ينتظر من يمرّ به فيعينه على حمله، فسأله المعتصم عن حاله، فأخبره، فنزل عن دابته ليخلص الحمار عن الوحل، ويرفع عليه حمله، فقال له الشيخ: بأبي أنت وأمي لا تبُل ثيابك وطيبك! فقال: لا عليك، ثم إنه خلّص الحمار، وجعل الشوك عليه، وغسل يديه، ثم ركب، فقال (٥٢٨/٦) الشيخ: غفر الله لك يا شاب! ثم لحقه أصحابه، فأمر له بأربعة آلاف درهم، ووكل به من يسير معه إلى بيته.

ذكر خلافة الواثق بالله

وفيهما يبيع الواثق بالله هارون بن المعتصم في اليوم الذي توفي فيه أبوه، وذلك يوم الخميس لثمانية عشرة مضت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين، وكان يكنى أبا جعفر، وأمه أم ولد رومية، تسمى قراطيس.

وفيهما هلك توفيل ملك الروم، وكان ملكه اثنتي عشرة سنة، وملكته بعده امرأته تدوّرة، وابنها ميخائيل بن توفيل صبي، وحجّ بالناس جعفر بن المعتصم، وحجّت معه أم الواثق، فماتت بالحيرة في ذي الحجة، ودُفنت بالكوفة.

محمد بن عبد الملك الزيات يريته:

قد قلتُ إذ غيوك واصطفقت عليك أيدياً بالترتيب والطيب انعب فيعم الحفيظ كنت على الـ ثنيا ونعم المعين للذين لا يجبر الله أئمة فقدت منك إلا ينبل هارون وكانت أمه ماردة من مولدات الكوفة، وكانت أمها صغديّة، وكان أبوها نشأ بالبندنجين.

ذكر بعض سيرته

ذكر عن أحمد بن أبي دؤاد أنه ذكر المعتصم فأسهب في ذكره، وأكثر في وصفه، وذكر من طيب أعراقه، وسعة أخلاقه، وكريم عشرته، قال: وقال يوماً، ونحن بعمورية: ما تقول في البسر يا عبد الله؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، نحن ببلاد الروم، والبسر بالعراق، فقال: قد جاؤوا منه بشيء من بغداد، وعلمت أنك تشتبه؛ ثم أحضره، فمدّ يده، فأخذ العذق فارغاً، قال: وكنت أزاله كثيراً في سفره ذلك.

ذكر باقي الخبر قال: وأخذتُ لأهل الشاش منه ألفي ألف درهم لعمل (٥٢٦/٦) نهر كان لهم اندفن في صدر الإسلام، فأضرّ بهم.

وقال غيره: إنه كان لا يبالي إذا غضب من قتل، وما فعل، ولم يكن له لذة في تزيين البناء، ولم يكن بالنفقة أسمح منه بها في الحرب.

قال أحمد بن سليمان بن أبي شيخ: قدم الزبير بن بكار العراق هارباً من العلويين، لأنه كان ينال منهم، فتهدّدوه، فهرب منهم، وقدم على عمه مُصعب بن عبد الله بن الزبير، وشكا إليه حاله، وخوفه من العلويين، وسأله إنهاء حاله إلى المعتصم، فلم يجد عنده ما أراد، وأنكر عليه حاله ولاه.

قال أحمد: فشكا ذلك إليّ وسألني مخاطبة عمه في أمره، فقلتُ له في ذلك، وأنكرتُ عليه إعراضه عنه، فقال لي: إن الزبير فيه جهل وتسرع فأثير عليه أن يستعطف العلويين، ويُزيل ما في نفوسهم منه، أما رأيتُ المأمون ورفقه بهم، وعفوه عنهم، وميله إليهم؟ قلتُ: بلى؛ فهذا أمير المؤمنين، والله، على مثل ذلك، أو فوقه، ولا أقدر أذكرهم عنده بقبّيح، فقل له ذلك حتى يرجع عن الذي هو عليه من ذمهم.

قال إسحاق بن إبراهيم المصغبي: دعاني المعتصم يوماً، فدخلتُ عليه، فقال: أحببتُ أن أضرب معك بالصوالجة، فلعبنا بها ساعة، ثم نزل وأخذ بيدي نمشي إلى أن صار إلى حجرة الحمام، فقال: خذ ثيابي، فأخذتها، ثم أمرني بنزع ثيابي، ففعلتُ، ودخلتُ، وليس معنا غلام، فقمّتُ إليه فخدمته، ودلّكته، وتولى المعتصم

ذكر الفتنة بدمشق

لما مات المعتصم ثارت القيسية بدمشق، وعاثوا، وفسدوا، وحاصروا أميرهم، فبعث الواثق إليهم رجاء بن أيوب الحضاري، وكانوا معسكرين بمرج راهط، فنزل رجاء بدير مران، ودعاهم إلى الطاعة، فلم يرجعوا، فواعدهم الحرب بدومة يوم الاثنين.

فلما كان يوم الأحد، وقد تفرقت، سار رجاء إليهم، فوافاهم وقد (٥٢٩/٦) سار بعضهم إلى دومة، وبعضهم في حوائجه، فقاتلهم، فهزمهم، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة، وقتل من أصحابه نحو ثلاثمائة وهرب مقدمهم ابن يهيس وصلح أمر دمشق. وسار رجاء إلى فلسطين إلى قتال أبي حرب المبرقع الخارج بها، فقاتله، فانهزم المبرقع وأخذ أسيراً على ما ذكرناه.

ذكر عدة حوادث

وفيها توفي بشر بن الحارث الزاهد المعروف بالحافي في ربيع الأول، وعبد الرحمن بن عبيد الله بن محمد بن حفص بن عمر بن موسى بن عبيد الله بن مَعْمَر التيمي، المعروف بابن عائشة البصري، وإنما قيل له ابن عائشة لأنه من ولد عائشة بنت طلحة، وتوفي أبوه عبيد الله بعده لسنة؛ وإسماعيل ابن أبي أويس، ومولده سنة تسع وثلاثين ومائة؛ وأحمد بن عبد الله بن يونس، وأبو الوليد الطيالسي، والهشيم بن خارجة.

وفيها سار عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشاً إلى أرض العدو، فلما كانوا بين أربونة وشرطانية تجمعت الروم عليهم، وأحاطوا بالعسكر، وقتلوه بالليل كله، فلما أصبحوا أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وهزم عدوهم، وأبلى موسى بن موسى في هذه العدو بلاء عظيم، وكان على مقدمة العسكر، وجرى بينه وبين جرير بن موفّق، وهو من أكابر الدولة أيضاً، شرٌّ، فكان سبباً لخروج موسى عن طاعة عبد الرحمن. (٥٣٠/٦)

وفيها توفي أذفونس ملك الروم بالأندلس، وكانت إمارته اثنتين وستين سنة.

وفيها توفي محمد [بن] عبد الله بن حسان اليحصبي الفقيه المالكي، وهو من أهل إفريقية.

(شرطانية بفتح الشين المعجمة وسكون الراء وفتح الطاء المهملة ويعدها نون ثم ياء تحتانية ثم هاء). (٥/٧)

سنة ثمان وعشرين ومائتين

ذكر غزوات المسلمين في جزيرة صقلية

في هذه السنة سار الفضل بن جعفر الهمداني في البحر، فنزل

مرسى مسيني، وبث السرايا، فغنموا غنائم كثيرة، واستأمن إليه أهل نابل وصاروا معه، وقاتل الفضل مدة سنتين واشتد القتال، فلم يقدر على أخذها، فمضى طائفة من العسكر، واستداروا خلف جبل مطل على المدينة فصعدوا إليه، ونزلوا إلى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال جعفر ومن معه، فلمّا رأى أهل البلد أنّ المسلمين دخلوا عليهم من خلفهم، انهزموا وفتح البلد.

وفيها فتحت مدينة مسكان.

وفي سنة تسع وعشرين ومائتين خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل في (٦/٧) سرية، فبلغ شرة، فقاتله أهلها قتالاً شديداً، فانهزمت الروم، وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف رجل، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر، ولم يكن بصقلية قبلها مثله.

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين حصر الفضل بن جعفر مدينة لتيني فأخبر الفضل أنّ أهل لتيني كاتبوا البطريرق الذي بصقلية لينصرهم، فأجابهم، وقال لهم: إنّ العلامة عند وصولي أن تؤد النار ثلاث ليال على الجبل الفلاني، فإذا رأيت ذلك، ففي اليوم الرابع أصل إليكم، فتجتمع أنا وأنتم على المسلمين بفتح.

فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال، فلمّا رأى أهل لتيني النار أخذوا في أمرهم، وأعدّ الفضل ما ينبغي أن يستعدّ به وكمن الكمناء، وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا إلى جهة الكمين، فإذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم، فإذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم.

فلما كان اليوم الرابع خرج أهل لتيني، وقاتلوا المسلمين وهم يتظرون وصول البطريرق، فانهزم المسلمون، واستجروا الروم حتى جاوزوا الكمين، ولم يبق بالبلد أحد إلا خرج؛ فلمّا جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم، وخرج الكمين من خلفهم، ووضعوا فيهم السيف، فلم ينسج منهم إلا القليل، فسألو الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا المدينة، فأجابهم المسلمون إلى ذلك وأمنوهم فسلموا المدينة.

وفيها أقام المسلمون بمدينة طازت من أرض أنكبردة وسكنوها. (٧/٧)

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وصل عشر شلنديات من الروم، فأرسوا بمرسى الطين، وخرجوا ليغيروا، فضلوا الطريق، فرجعوا خائين، وركبوا البحر راجعين، فغرق منها سبع قطع.

وفي سنة أربع وثلاثين صالح أهل رغوس، وسلموا المدينة إلى المسلمين بما فيها، فهدمها المسلمون، وأخذوا منها ما أمكن حملة.

وفيها مات أبو تَمَام حبيب بن أوس الطائي الشاعر.

وفيها غلا السعر بطريق مكة، فبلغ الخبز كل رطل بدرهم، ورواية الماء بأربعين درهماً، وأصاب الناس في الموقف حرّ شديد، ثم أصابهم مطر فيه برد، واشتد البرد عليهم بعد ساعة من ذلك الحرّ وسقطت قطعة من الجبل عند جُمرة العقبة، فقتلت عدة من الحجاج.

وحجّ بالناس محمد بن داود.

وفيها توفي عبد الملك بن مالك بن عبد العزيز أبو نصر التمار الزاهد، وكان عمره إحدى وتسعين سنة، وكان قد أضرّ، ومحمد بن عبد الله بن عمر بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان العُتَيْبِيُّ الأمويُّ البصريُّ أبو عبد الرحمن، وكان عالماً بالأخبار والآداب، وأبو سليمان داود الأشقر السمسار المحدث. (١٠/٧)

سنة تسع وعشرين ومائتين

في هذه السنة حبس الوراق الكتاب، والزهم أموالاً عظيمة، وأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه، ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربع مائة ألف دينار، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار، ومن إبراهيم بن رباح وكتابه مائة ألف دينار، ومن أحمد بن الخصيب وكتابه ألف دينار، ومن نجاح ستين ألف دينار، ومن أبي الوزير مائة ألف وأربعين ألف دينار.

وكان سبب ذلك أنه جلس ليلة مع أصحابه، فسألهم عن سبب نكبة البرامكة، فحكى له عروود بن عبد العزيز الأنصاري أن جارية لعدول الخياط أراد الرشيد شراؤها، فاشتراها بمائة ألف دينار، وأرسل إلى يحيى بن خالد أن يعطيه ذلك، فقال يحيى: هذا مفتاح سوء، إذا أخذ ثمن جارية بمائة ألف دينار، فهو أحرى أن يطلب المال على قدر ذلك، فأرسل يحيى إليه: إنني لا أقدر على هذا المال، فغضب الرشيد، وأعاد: لا بدّ منها، فأرسل يحيى قيمتها دراهم، فأمر أن تُجعل على طريق الرشيد ليستكثرها، ففعل ذلك، فاجتاز الرشيد بها، فسأل عنها، فقيل: هذا ثمن الجارية، فاستكثرها فأمر بردّ الجارية، وقال لخدام له: اضمّم إليك هذا المال، واجعل لي بيت مال (١١/٧) لأضمّم إليه ما أريد، وسمّاه بيت مال العروس، وأخذ في التفتيش عن الأموال، فوجد البرامكة قد فرطوا فيها.

وكان يحضر عنده مع سمّاره رجل يعرف بأبي العود له أدب، فأمر ليلة له بثلاثين ألف درهم، فمطله بها يحيى، فاحتال أبو العود في تحريض الرشيد على البرامكة وكان قد شاع تغيير الرشيد عليهم، فبينما هو ليلة عند الرشيد يحدثه، وساق الحديث إلى أن أنشده قول عمر بن أبي ربيعة:

وفي سنة خمس وثلاثين مار طائفة من المسلمين إلى مدينة قَصْرِيَّاتَة، فغنموا وسلبوا وأحرقوا وقتلوا في أهلها، وكان الأمير على صِقْلِيَّة للمسلمين محمد بن عبد الله بن الأغلب، فتوفّي في رجب من سنة ست وثلاثين ومائتين، فكان مقيماً بمدينة بَلَرَم لم يخرج منها، وإنما كان يخرج الجيوش والسرايا فتفتح، فتغنم، فكانت إمارته عليها تسع عشرة سنة، والله سبحانه أعلم.

ذكر الحرب بين موسى بن موسى والحارث بن يزيغ

في هذه السنة كانت حرب بين موسى عامل تُطَيْلَة وبين عسكر عبد الرحمن أمير الأندلس، والمقدّم عليهم الحارث بن يزيغ.

وسبب ذلك أن موسى بن موسى كان من أعيان قوَاد عبد الرحمن، وهو العامل على مدينة تُطَيْلَة، فجرى بينه وبين القوَاد تحاسد سنة سبع وعشرين، (٨/٧) وقد ذكرناه، فعصى موسى بن موسى على عبد الرحمن، فسير إليه جيشاً، واستعمل عليهم الحارث بن يزيغ والقوَاد، فاقتلوا عند بَرْجَة، فقتل كثير من أصحاب موسى، وقتل ابن عمّ له، وعاد الحارث إلى سَرْقَسْطَة، فسير موسى ابنه ألب بن موسى إلى بَرْجَة، فعاد الحارث إليها، وحصرها فملكها، وقتل ابن موسى، وتقدّم إلى أبيه فطلبه، فحضر، فصالحه موسى على أن يخرج عنها، فانتقل موسى إلى أَرْنَيْط.

وبقي الحارث يطلبه آباءاً، ثم سار إلى أَرْنَيْط، فحصر موسى بها، فأرسل موسى إلى غرسية، وهو من ملوك الأندلسيين المشرّكين، واتّفقا على الحارث، واجتمعا وجعلا له كميناً في طريقه، واتّخذ له الخيل والرجال بموضع يقال له بلمة على نهر هناك، فلما جاء الحارث النهر خرج الكميناء عليه، وأحذقوا به، وجرى معه قتال شديد، وكانت وقعة عظيمة، وأصابه ضربة في وجهه فلقّت عينه، ثم أسر في هذه الوقعة.

فلما سمع عبد الرحمن خبر هذه الوقعة عظم عليه، فجهّز عسكراً كبيراً، واستعمل عليه ابنه محمداً، وسيره إلى موسى في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائتين، وتقدّم محمد إلى بَنْبُلُونَة، فأوقع عندها بجمع كثير من المشرّكين، وقتل فيها غرسية وكثير من المشرّكين.

ثم عاد موسى إلى الخلاف على عبد الرحمن، فجهّز جيشاً كبيراً وسيره إلى موسى، فلما رأى ذلك طلب المسالمة، فأجيب إليها، وأعطى ابنه إسماعيل (٩/٧) رهينة، ولأه عبد الرحمن مدينة تُطَيْلَة، فسار موسى إليها فوصلها، وأخرج كلّ مَنْ يخافه، واستقرّ فيها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أعطى الوراق أشناس تاجاً ووشاحين.

وَعَدَتْ هُنْدًا، وَمَا كَانَتْ تَعِدُ لَيْسَتْ هُنْدًا لَمْ تَجْزُ مَا تَعِدُ سبيل الباقيين، وعاد بالأسرى إلى المدينة في ذي القعدة سنة ثلاثين، فحبسهم، ثم سار إلى مكة.

فقال الرشيد: أجل إنما العاجز من لا يستبد.

وكان يحيى قد اتخذ من خدام الرشيد خادماً يأتيه بأخباره، فعرفه ذلك، فأحضر أبا العود، وأعطاه ثلاثين ألف درهم، وبعث عنده عشرين ألف درهم، وأرسل إلى ابنته الفضل وجعفر، فأعطاه كل واحد منهما عشرين ألفاً؛ وجد الرشيد في أمرهم حتى أخذهم، فقال الواثق: صدق والله جدي، إنما العاجز من لا يستبد، وأخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها، فلم يمض غير أسبوع حتى نكبهم.

وفيها ولي شير باسبان لإيتاخ اليمن، وسار إليها.

وفيها تولى محمد بن صالح بن العباس المدينة، وحج بالناس محمد بن داود.

وفيها توفي خلف بن هشام البزار المقرئ في جمادى الأولى. البزار بالزاي المعجمة والراء المهملة. (١٢/٧)

سنة ثلاثين ومائتين

ذكر مسير بها إلى الأعراب بالمدينة

وفي هذه السنة وجه الواثق بغا الكبير إلى الأعراب الذين أغاروا بنواحي المدينة.

وكان سبب ذلك أن بني سُلَيْم كانت تفسد حول المدينة بالشر، ويأخذون مهما أرادوا من الأسواق بالحجاز بأي سيف أرادوا، وزاد الأمر بهم إلى أن وقعوا بناس من بني كنانة وباهلة، فأصابوهم وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة من سنة ثلاثين ومائتين، فوجه محمد بن صالح عامل المدينة إليهم حمّاد بن جرير الطبري، وكان مسلحة لأهل المدينة، في ماتى فارس، وأضاف إليهم جنداً غيرهم، وتبعهم متطوعة، فسار إليهم حمّاد، فلقيهم بالروشة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت سودان المدينة بالناس، وثبت حمّاد وأصحابه، وقرش والأنصار، وقتلوا قتالاً عظيماً، فقتل حمّاد وعامة أصحابه وعدد صالح من قرش والأنصار، وأخذ بنو سُلَيْم الكراع، والسلاح، والثياب، فطمعوا، ونهبوا القرى والمناهل ما بين مكة والمدينة، وانقطع الطريق.

فوجه إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسى في جمع من الجند، فقدم المدينة (١٣/٧) في شعبان، فلقيهم ببعض مياه الجرة من وراء السوارقية قريبهم التي يأوون إليها، وبها حصون، فقتل بغا منهم نحواً من خمسين رجلاً، وأسر مثلهم، وانهزم الباقون، وأقام بغا بالسوارقية، ودعاهم إلى الأمان على حكم الواثق، فأتوه متفرقين، فجمعهم، وترك من يعرف بالفساد، وهم زهاء ألف رجل، وخلص

سبيل الباقيين، وعاد بالأسرى إلى المدينة في ذي القعدة سنة ثلاثين، فحبسهم، ثم سار إلى مكة.

فلما قضى حجه سار إلى ذات عرق بعد انقضاء الموسم، وعرض على بني هلال مثل الذي عرض على بني سُلَيْم، فأقبلوا، وأخذ من المفسدين نحواً من ثلاثمائة رجل، وأطلق الباقيين، ورجع إلى المدينة، فحبسهم.

ذكر وفاة عبد الله بن طاهر

وفيها مات عبد الله بن طاهر بنيسابور في ربيع الأول، وهو أمير خراسان، وكان إليه الحرب، والشرطة، والسواد، والري، وطبرستان، وكرمان، وخراسان، وما يتصل بها؛ وكان خراج هذه الأعمال، يوم مات، (١٤/٧) ثمانية وأربعين ألف ألف درهم، وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة، وكذلك عمر والده طاهر، واستعمل الواثق على أعماله كلها ابنه طاهر بن عبد الله.

ذكر شيء من سيرة عبد الله بن طاهر

لما ولي عبد الله خراسان استناب بنيسابور محمد بن حميد الطاهري، فبنى داراً، وخرج بحائطا في الطريق، فلما قدمها عبد الله جمع الناس، وسألهم عن سيرة محمد، فسكتوا، فقال بعض الحاضرين: سكونهم يدل على سوء سيرته، فعزله عنهم، وأمره بهدم ما بنى في الطريق.

وكان يقول: ينبغي أن ينزل العلم لأهله وغير أهله، فإن العلم أمتع لنفسه من أن يصير إلى غير أهله.

وكان يقول: ميمَنُ الكيس، وتَبَلُّ الذُكْر لا يجتمعان أبداً.

وكان له جلساء منهم الفضل بن محمد بن منصور، فاستحضرهم يوماً، فحضروا، وتأخر الفضل، ثم حضر، فقال له: أبطأت عني، فقال: كان عندي أصحاب حوائج وأردت دخول الحمام، فأمره عبد الله بدخول حمامه، وأحضر عبد الله الرقاع التي في حقه، فوقع فيها كلها بالإجابة، وأعادها، ولم يعلم الفضل.

وخرج من الحمام، واشتغلوا يومهم، وكر أصحاب الرقاع إليه، فاعتذر إليهم، فقال بعضهم: أريد رقتي، فأخرجها ونظر فيها، فرأى خط عبد الله فيها، فنظر في الجميع، فرأى خطه فيها، فقال لأصحابه: خذوا (١٥/٧) رقاعكم، فقد قضيت حاجتكم، واشكروا الأمير دوني، فما كان لي فيها سبب. وكان عبد الله أديباً شاعراً، فمن شعره:

إِسْمٌ مِّنْ أَهْوَاهِ إِسْمٌ حَسَنٌ فَإِذَا صَحَّتْهُ فَهَوَ حَسَنٌ
فَإِذَا اسْقَطَتْ مِنْهُ فَاسَمٌ كَانَ نَعَا لَهْوَاهِ الْمُخْتَرَنُ
فَإِذَا اسْقَطَتْ مِنْهُ يَسَاءٌ صَلَوَ فِيهِ بَعْضُ أَسْبَابِ الْفِتَنِ

فإذا أسقطت منه راعه، صار شيئاً يعتري عند الوَمن
فإذا أسقطت منه طامه، صار منه عيش سَكَّان المَدُن
فَسَرُوا هَذَا فَلَنْ يَعْرِفَهُ غَيْرُ مَنْ يَسِجُ فِي بَحْرِ الْفُطُن
وهذا الاسم هو اسم طريف غلامه.

وكان من أكثر الناس بذلاً للمال مع علم، ومعرفة، وتجربة،
وأكثر الشعراء في مراثيه، فمن أحسن ما قيل فيه، وفي ولاية أبيه
طاهر، قول أبي الغمر الطبري:

فَأَيُّهَاكَ الْأَعْيَادُ صَارَتْ مَمَاتاً وَمَاعَاتِكَ الصَّبَاتُ صَارَتْ خَوَاشِئاً
عَلَى أَنَا لَمْ نَعْمَلْكَ بِطَاهِرٍ وَإِنْ كَانَ خُطْبُ الْقَلْبِ رَاتِقاً
وَمَا كُنْتُ إِلَّا الشَّمْسُ غَابَتْ وَأُطْلِقَتْ عَلَى إِرْهَابِهَا بَدْرُ عَلَى النَّاسِ طَالِقاً

وما كنت إلا الطُّورُ زَالَ مَكَائُهُ وَأَبَتْ فِي شَوَاهِ رُكْنِا مُدَافِعَا
فَلَوْلَا التَّقَى قُلْنَا تَنَاسَخْتُمَا بَلِيغِي مَعَانٍ يَهْضُلَانِ الْبَهَائِقَا
وهي طويلة.

ذكر خروج المشركون إلى بلاد المسلمين بالأندلس

في هذه السنة خرج المَجُوس من أقاصي بلاد الأندلس في
البحر إلى بلاد المسلمين، وكان ظهورهم في ذي الحجة سنة تسع
وعشرين، عند أشبونة، فأقاموا ثلاثة عشر يوماً، بينهم وبين
المسلمين بها وقائع، ثم ساروا إلى قَادِس ثم إلى شَدُونَة، فكان
بينهم وبين المسلمين بها وقائع.

ثم ساروا إلى إشبيلية ثامن المحرم، فنزلوا على اثني عشر
فرسخاً منها، فخرج إليهم كثير من المسلمين، فالتقوا، فانهزم
المسلمون ثاني عشر المحرم، وقُتل كثير منهم. ثم نزلوا على ميلين
من إشبيلية، فخرج أهلها إليهم، وقاتلوهم، فانهزم المسلمون رابع
عشر المحرم، وكثر القتل والأسر فيهم، ولم ترفع المَجُوس السيف
عن أحد، ولا عن دابة، ودخلوا حاجر إشبيلية وأقاموا به يوماً وليلة
وعادوا إلى مراكبهم.

وأقام عسكر عبد الرحمن؛ صاحب البلاد، مع عدة من القواد،
(١٧/٧) فتبادر إليهم المَجُوس، فثبت المسلمون، وقاتلوهم، فقتل
من المشركين سبعون رجلاً وانهزموا، حتَّى دخلوا مراكبهم،
وأحجم المسلمون عنهم؛ فسمع عبد الرحمن، فسير جيشاً آخر
غيرهم، فقاتلوا المَجُوس قتالاً شديداً، فرجع المَجُوس عنهم،
فتبعهم العسكر ثاني ربيع الأول، وقاتلوهم، وأتاهم المدد من كل
ناحية، ونهضوا لقتال المَجُوس من كل جانب، فخرج إليهم
المَجُوس وقاتلوهم، فكاد المسلمون يهزمون، ثم ثبتوا، فترجل
كثير منهم فانهزم المَجُوس، وقُتل نحو خمس مائة رجل، وأخذوا
منهم أربعة مراكب، فأخذوا ما فيها، وأحرقوها، وبقي آيَاماً لا

يصلون إلى المَجُوس، لأنهم في مراكبهم.
ثم خرج المَجُوس إلى لَبْلَة، فأصابوا سبياً، ثم نزل المَجُوس
إلى جزيرة قريب قوريس، فنزلوها، وقسموا ما كان معهم من
الغنيمة، فحصى المسلمون، ودخلوا إليهم في النهر، فقتلوا من
المَجُوس رجلين، ثم رحل المَجُوس، فطرقوا شَدُونَة فغنموا طعمة
وسبياً، وأقاموا يومين.

ثم وصلت مراكب لعبد الرحمن، صاحب الأندلس، إلى
إشبيلية، فلما أحسن بها المَجُوس لحقوا بلَبْلَة، فأغاروا، وسبوا، ثم
لحقوا بأكشونية. ثم مضوا إلى باجة، ثم انتقلوا إلى مدينة أشبونة،
ثم ساروا، فانقطع خبرهم عن البلاد فسكن الناس.

وقد ذكر بعض مؤرخي العرب سنة ست وأربعين خروج
المَجُوس إلى (١٨/٧) إشبيلية أيضاً، وهي شبيهة بهذه ثم فلا أعلمه
أمر هذه، وقد اختلفوا في وقتها، أم هي غيرها، وما أقرب أن تكون
هي إياها، وقد ذكرتها هناك لأن في كل واحدة منهما شيئاً ليس في
الأخرى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله، كاتب
الواقدي، صاحب الطبقات، ومحمد بن يزيد بن سُوَيْد المَرْزُوقِي،
كاتب المأمون، وعلي بن الجعد أبو الحسن الجوهري، وكان عمره
ستاً وتسعين سنة، وهو من مشايخ البخاري، وكان يتشيع.

وفيها مات أثناس التركي، بعد موت عبد الله بن طاهر بتسعة
آيَّام، وحجَّ هذه السنة إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب، وإليه أحداث
الموسم، وحجَّ بالناس هذه السنة محمد بن داود. (١٩/٧)

سنة إحدى وثلاثين ومائتين

ذكر ما فعله بُغا بالأعراب

في هذه السنة قتل أهل المدينة من كان في حبس بُغا من بني
سُلَيْم وبني هلال.

وكان سبب ذلك أَنَّ بُغَا لَمَّا حَبَسَ مَنْ أَخَذَهُ مِنْ بَنِي سُلَيْمَ وَبَنِي
هَلَالِ بِالْمَدِينَةِ، وَهَمَّ أَلْفٌ وَثَلَاثُمِائَةٍ، وَكَانَ سَارَ عَنِ الْمَدِينَةِ إِلَى بَنِي
مُرَّة، فَتَقَبَّلَ الْأَسْرَى الْحَبْسَ لِيُخْرِجُوهُ، فَرَأَتْ أَمْرًا نَقِيبَ،
فَصَرَخَتْ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَجَاؤُوا، فَجُودَهُمْ قَدْ قَتَلُوا الْمُتَوَكِّلِينَ،
وَأَخَذُوا سِلَاحَهُمْ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَمَنْعُوهُمْ الْخُرُوجَ،
وَبَاتُوا حَوْلَ الدَّارِ، فَقَاتَلُوهُمْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَتَلَهُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ،
وَقَتَلَ سُودَانُ الْمَدِينَةِ كُلَّ مَنْ لَقَوْهُ بِهَا مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَرِيدُ
الْجَبَرَةَ، فَلَمَّا قَدَّمَ بُغَا وَعَلِمَ بِقَتْلِهِمْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

العين، يُعرف بعيسى الأعور، فأحضره وقرّره، فأقرّ على بني الأشرس، وعلى أحمد بن نصر، وغيرهما، فأخذ بعض من سُمّي، وفيهم طالب، وأبو هارون، ورأى في منزل بني الأشرس عَلمَين أخضرين، ثم أخذ خادماً لأحمد بن نصر، فقرّره، فأقرّ بمثل ما قال عيسى، فأرسل إلى أحمد بن نصر فأخذه وهو في الحمام، وحُمِلَ إليه، وقتل بيته، فلم يُوجد فيه سلاح، ولا شيء من الآلات، فسيرهم محمد بن إبراهيم إلى الوراق مقيدين على أكف بغال ليس تحتهم وطاء إلى سامراء.

فلما علم الوراق بوصولهم جلس لهم مجلساً عامّاً فيه أحمد بن أبي دؤاد، (٢٢/٧) وكان كارهاً لقتل أحمد بن نصر، فلما حضر أحمد عند الوراق، لم يذكر له شيئاً من فعله والخروج عليه، ولكنّه قال له: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، وكان أحمد قد استقل، فتطبّب، وتنوّر؛ وقال الوراق: أمخلوق هو؟ قال: كلام الله. قال: فما تقول في ربك أترأه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين! قد جاءت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنّه قال: ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر، قال: لا تُصامون في رؤيته، فنحن على الخبر، وحديثي سُفَيان بحديث رفعه أن قلب ابن آدم المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقبّله، وكان النبي ﷺ يدعو: يا مُقَلِّبَ القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك.

قال إسحاق بن إبراهيم: انظر ما يقول. قال: أنت أمرتني بذلك، فخاف إسحاق، وقال: أنا أمرتك؟ قال: نعم، أمرتني أن أنصح له، ونصيحتي له أن لا يخالف حديث رسول الله ﷺ فقال الوراق لمن حوله: ما تقولون فيه؟ فقال عبد الرحمن بن إسحاق، وكان قاضياً على الجانب الغربي: وعزّك يا أمير المؤمنين هو حلال الدم.

وقال بعض أصحاب ابن أبي دؤاد: استقني دمه، وقال ابن أبي دؤاد: هو كافر يُستتاب لعلّ به عامة ونقص عقل، كأنه كره أن يُقتل بسببه، فقال الوراق: إذا رأيتموني قد قمتُ إليه فلا يقومن أحد، فإنّي أحسب خطأي إليه.

ودعا بالصمصامة سيف عمرو بن مغدي كرب الزبيدي، ومشى إليه، (٢٣/٧) وهو في وسط الدار على نطح، فضربه على خبل عاتقه، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم ضرب سيما الدمشقي رقبته، وحزّ رأسه، وطعنه الوراق بطرف الصمصامة في بطنه، وحُمِلَ حَتَّى صُلِبَ عند بابك، وحُمِلَ رأسه إلى بغداد، فنُصِبَ بها، وأقيم عليه الحرس، وكُتِبَ في أذنه رقعة: هذا رأس الكافر، المشرك، الضال، أحمد بن نصر؛ وتبيّع أصحابه، فجعلوا في الجبوس.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أراد الوراق الحج، فوجّه عمر بن فرج لإصلاح

وقبل إنّ السجّان كان قد ارتشى منهم ليفتح لهم الباب، فعجلوا قبل ميّعاده، وكانوا يرتجزون:

الموت خيرٌ للفنّى مِنَ القلْبِ قد أخذَ البوابُ السّفَ دِينُنا
وكان سبب غيبة بُغا عنهم أنّ قزّارة ومُرّة تغلبوا على فذّك، فلما (٢٠/٧) قاربهم أرسل إليهم رجلاً من قوّاده يعرض عليهم الأمان، ويأتيه بأخبارهم، فلما اتاهم القزاري حذرهم سطرته، فهربوا، وخلّوا فذّك، وقصدوا الشام.

وأقام بُغا بخيْفاً، وهي قرية من حدّ عمل الشام ممّا يلي الحجاز، نحواً من أربعين ليلة، ثمّ رجع إلى المدينة بمن ظفّر [به] من بني مُرّة وقزّارة.

وفيها سار إلى بُغا من بطون غطفان، وقزّارة، وأشجع، وتعلبة، جماعة، وكان أرسل إليهم، فلما أتوه استحلّفهم الأيمان المؤكّدة أن لا يتخلّفوا عنه متى دعاهم، فحلّفوا، ثمّ سار إلى ضريبة لطلب بني كلاب، فأثاء منهم نحو من ثلاثة آلاف رجل، فحبس من أهل الفساد نحواً من ألف رجل، وخلّى سائرهم، ثمّ قدّم بهم المدينة في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائتين، فحبسهم، ثمّ سار إلى مكة فحجّ، ثمّ رجع إلى المدينة.

ذكر أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي

وفي هذه السنة تحرّك ببغداد قوم مع أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، وجده مالك أحد نقيّاء بني العباس، وقد تقدّم ذكره.

وكان سبب هذه الحركة أنّ أحمد بن نصر كان يغشاه أصحاب الحديث كابن معين، وابن الدُّورقي، وأبي زهير، وكان يخالف مَنْ يقول القرآن (٢١/٧) مخلوق، ويطلق لسانه فيه، مع غلظة بالوائق، وكان يقول، إذا ذكر الوراق: فعل هذا الخنزير، وقال هذا الكافر، وفشا ذلك؛ فكان يغشاه رجل يُعرف بأبي هارون الشدّاخ وآخر يقال له طالب، وغيرهما، ودعوا الناس إليه، فبايعوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفرّق أبو هارون وطالب في الناس مالا فاعطيا كلّ رجل ديناراً، وأتعدوا ليلة الخميس ثلاث خلت من شعبان ليضربوا بالطليل فيها، ويثوروا على السلطان.

وكان أحدهما في الجانب الشرقيّ من بغداد والآخر في الجانب الغربي، فاتفق أنّ مَن بايعهم رجلين من بني الأشرس شرباً نيذاً ليلة الأربعاء، قبل الموعد بليلة، فلما أخذ منهم ضربوا الطبل فلم يجبه أحد.

وكان إسحاق بن إبراهيم صاحب الشرطة غائباً عن بغداد، وخليفته أخوه محمد بن إبراهيم، فأرسل إليهم محمد يسألهم عن قصّتهم، فلم يظهر أحد، فدلّ على رجل يكون في الحمام مُصاب

الطريق، فرجع وأخبره بقلة الماء فبدا له.

الأسرى، وقيل بل كان عليه جسر.

وفيهما ولي جعفر بن دينار اليمن، فسار في شعبان، وحيج في طريقه، وكان معه أربعة آلاف فارس وألفا راجل.

وفيهما نقيب للصمص بيت المال الذي في دار العامة، وأخذوا اثنين وأربعين ألف درهم وشيئاً يسيراً من الدنانير، ثم تَبَعُوا وأخذوا بعد ذلك.

وفيهما خرج محمد بن عبد الله الخارجي الثعلبي في ثلاثة عشر رجلاً في ديار ربيعة، فخرج إليه غانم بن أبي مسلم بن أحمد الطوسي، وكان على حرب الموصل، في مثل عدته، فقتل من الخوارج أربعة، وأخذ محمد بن عبد الله أسيراً، فبعث به إلى سامراً فحُبِسَ.

وفيهما قدم وصيف التركي من ناحية أصبهان والجبال، وفارس، وكان قد سار في طلب الأكراد لأنهم كانوا قد أفسدوا بهذه النواحي، وقدم معه بنحو من خمس مائة نفس فيهم غلمان صغار، فحُبِسُوا، وأُجِيزَ وصيف (٢٤/٧) بخمسة وسبعين ألف دينار وقُلْدَ سيفاً.

وفيهما سار جيش للمسلمين إلى بلاد المشركين، فقصدوا جَلِيقَةَ وقتلوا، وأسروا، وسبوا، وغنموا، ووصلوا إلى مدينة لِسُون، فحَصَرُوا ورموها بالمجانيق، فخاف أهلها، فتركوها بما فيها وخرجوا هاربين، فغنم المسلمون منهم ما أرادوا، وأخبروا الباقي، ولم يقدروا على هدم سورها، فتركوها ومضوا، لأنَّ عرضه سبع عشرة ذراعاً، وقد ثلَمُوا فيه ثُلماً كثيرة.

وفيهما كان الفداء بين المسلمين والروم، واجتمع المسلمون فيها على نهر اللامس، على مسيرة يوم من طَرَسُوس، واشترى الوراق مَنْ يَبْغِدَادَ وغيرها من الروم، وعقد الوراق لأحمد بن سعيد بن مُسْلِمَ بن قُتَيْبَةَ الباهلي على الثغور والعواصم، وأمره بحضور الفداء هو وخاقان الخادم، وأمرهما أن يمتحن أسرى المسلمين، فمن قال: القرآن مخلوق، وإنَّ الله لا يرى في الآخرة، فودي به، وأعطى ديناراً، ومن لم يقل ذلك تُرِكَ في أيدي الروم.

فلما كان في عاشوراء سنة إحدى وثلاثين اجتمع المسلمون ومن معهم من الأسرى على النهر، وأنت الروم ومن معهم من الأسرى، وكان النهر بين الطائفتين، فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيلتقيان في وسط النهر، ويأتي هذا أصحابه، فإذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا، وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا، حتى فرغوا، وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربع مائة وستين نفساً، والنساء والصبيان ثمان مائة، وأهل ذمة المسلمين مائة نفس، وكان النهر مخاضة تعبيرة (٢٥/٧)

ولما فرغوا من الفداء غزا أحمد بن سعيد بن مسلم الباهلي شتاءً، فأصاب الناس ثلج ومطر، فمات منهم ماتاً نفس، وأسر نحوهم، وغرق بالبلندون خلق كثير، فوجد الوراق على أحمد، وكان قد جاء إلى أحمد بطريق من الروم، فقال وجوه الناس لأحمد: إنَّ عسكرياً فيه سبعة آلاف لا تتخوف عليه، فإن كنت كذلك فواجه القوم واطرق بلادهم، ففعل، وغنم نحواً من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة وخرج، فعزله الوراق، واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعي في جمادى الأولى.

وفيهما مات الحسن بن الحسين بطبرستان.

وفيهما كان بإفريقية حرب بن أحمد بن الأغلب وأخيه محمد بن الأغلب، وكان مع أحمد جماعة، فهجموا على محمد في قصره، وأغلق أصحاب محمد بن الأغلب [الباب]، واقتلوا ثم كفوا عن القتال، واصطلحوا، وعظم أمر أحمد، ونقل الدواوين إليه، ولم يبق لمحمد من الإمارة إلا اسمها، ومعناها لأحمد أخيه، فبقي كذلك إلى سنة اثنين وثلاثين ومائتين، فاتفق مع محمد من بني عمه ومواليه جماعة، وقاتل أخاه أحمد فظفر به ونفاه إلى الشرق، واستقام أمر محمد بإفريقية، ومات أخوه أحمد بالعراق.

وفيهما مات أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي الراوي في شعبان وهو ابن ثمانين سنة. (٢٦/٧) وفيها ماتت أم أيها بنت موسى بن جعفر، أخت علي بن الرضا، عليه السلام.

وفيهما مات مخارق المغني، وأبو نصر أحمد بن حاتم راوية الأصمعي، وعمرو بن أبي عمرو الشيباني، ومحمد بن سعدان النحوي الضير توفي في ذي الحجة.

وفيهما توفي إبراهيم بن عرعة، وعاصم بن علي بن عاصم بن صهيب الواسطي، ومحمد بن سلام بن عبد الله الجُمَحِي البصري، وكان عالماً بالأخبار وآيام الناس، سلاماً بالتشديد، وعاصم بن عمرو بن علي بن مقدم أبوبشر المقدمي، وأبو يعقوب يوسف بن يحيى البُوَيْطِي الفقيه، صاحب الشافعي، وكان قد حُبِسَ في محنة الناس بخلق القرآن، فلم يجب، وكان من الصالحين، وهارون بن معروف البغدادي وكان حافظاً للحديث. (٢٧/٧)

سنة اثنين وثلاثين ومائتين

ذكر الحرب مع بني نمير

في هذه السنة سار بُغا الكبير إلى بني نمير، فأوقع بهم.

وكان سبب ذلك أنَّ عُمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي

ذكر موت أبي جعفر الوائقي

في هذه السنة توفي الوائقي بالله أبو جعفر هارون بن محمد المعتصم في ذي الحجة لست بيقين منه، وكانت علته الاستسقاء، وعولج بالإقعاد في تور مسخن، فوجد لذلك خفة، فأمرهم من الغد بالزيادة في إسخانه، ففعل ذلك، وقعد فيه أكثر من اليوم الأول، فحمي عليه، فأخرج منه في محفة، وحضر عنده أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن عبد الملك الزياني، وعمر بن فرج، فمات فيها، فلم يشعروا بموته، حتى ضرب بوجهه المحفة، فعلموا.

وقيل إن أحمد بن أبي دؤاد حضره عند موته، وغمضه، وقيل إنه لما حضرته الوفاة جعل يردد هذين البيتين:

الموت في جميع الناس مشترك لا سوقة بينهم تبقى ولا تملك
ما ضر أهل قليل في تقايرهم وليس يني عن الأمل ما ملكوا
وامر باليسط فطويت، وألصق خده بالأرض، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه، أرحم من زال ملكه. (٣٠/٧)

وقال أحمد بن محمد الوائقي: كنت فيمن يمرض الوائقي، فلققه غشية، وأنا وجماعة من أصحابه قيام، فقلنا: لو عرفنا خبره، فتقدمت إليه، فلما صرت عند رأسه فتح عينية فكادت أموت من الخوف، فرجعت إلى خلف، وتعلقت قنعة سيفي في عتبة المجلس، فاندقت، وسلمت من جراحه، ووقفت في موقعي.

ثم إن الوائقي مات، وسجّناه، وجاء الفراشون وأخذوا ما تحته في المجلس، ورفعوه لأنه مكتوب عليهم، واشتغلوا بأخذ البيعة، وجلس على باب المجلس لحفظ الميت ورددت الباب، فسمعت حساً، ففتحت الباب، وإذا جرد قد دخل من بستان هناك، فأكل إحدى عيني الوائقي، فقلت: لا إله إلا الله، هذه العين التي فتحها من ساعة، فاندق سيفي هببة لها صارت طعمة لدابة ضعيفة.

وجاؤوا ففصلوه، فسألني أحمد بن أبي دؤاد عن عينه، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها فعجب منها.

ولما مات صلى عليه أحمد، وأنزله في قبره، وقيل صلى عليه أخوه المتوكل، ودفن بالهاروني بطريق مكة.

وكان مولده بطريق مكة، وأمّه أم ولد اسمها قراطيس، ولما اشتد مرضه أحضر المتجنين منهم الحسن بن سهل، فظفروا في مولده، فقتلوا (٣١/٧) له أن يعيش خمسين سنة، مستأنفة من ذلك اليوم، فلم يعيش بعد قولهم إلا عشرة أيام ومات.

وكان أبيض، مشرباً بحمرة، جميلاً، ربعة، حسن الجسم، قائم العين اليسرى، فيها نكته بياض، وكانت خلافة خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام، وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وقيل ستاً

امتدح الواثق بقصيدة، فدخل عليه، وأنشده، فأمر له بثلاثين ألف درهم، فأخبر الواثق بإفساد بني نمير في الأرض، وإغارتهم على الناس وعلى اليمامة وما قرب منها، وكتب الواثق إلى بغا يأمره بحربهم وهو بالمدينة، فسار نحو اليمامة، فلقي من بني نمير جماعة بالرّيف فحاربهم، فقتل منهم نيماً وخمسين رجلاً، وأسر أربعين رجلاً.

ثم سار حتى نزل امرأة، وأرسل إليهم يدعوهم إلى السمع والطاعة، فامتنعوا، وسار بعضهم إلى نحو جبال السؤد، وهي خلف اليمامة، وبث بغا سراياه فيهم، فأصاب منهم، ثم سار بجماعة من معه، وهم نحو من ألف رجل، سوى من تخلف في العسكر من الضعفاء والأتباع، فلقبهم وقد جمعوا لهم وهم نحو من ثلاثة آلاف بموضع يقال له روضة الأمان على مرحلة من أضاخ، فهزموا مقدمته، وكشفوا ميسرته، وقتلوا من أصحابه نحواً من (٢٨/٧) مائة رجل وعشرين رجلاً وعفروا من إبل عسكره نحو سبع مائة بعير، ومائة دابة، وانتهبوا الأقال، وبعض الأموال، ثم أدرّكهم الليل، وجعل بغا يدعوهم إلى الطاعة.

فلما طلع الصبح ورأوا قلة من مع بغا عثوا، وجعلوا رجالتهم أمامهم، ونعمهم ومواسيهم وراهم، وحملوا على بغا، فهزموه، حتى بلغ معسكره، وأيقن من معه بالهلكة.

وكان بغا قد أرسل من أصحابه مائتي فارس إلى طائفة منهم، فيبنا هو قد أشرف على العطب، إذ وصل أصحابه إليه منصرفين من وجوههم، فلما نظر بنو نمير ورأوهم قد أقبلوا من خلفهم وآوا هارين، وأسلموا رجالتهم، وأموالهم، فلم يفلت من الرجالة إلا اليسير، وأما الفرسان فنجوا على خيلهم.

وقيل إن الهزيمة كانت على بغا مذ غدوة إلى انتصاف النهار، ثم تشاغلو بالنهب، فرجع إلى بغا من كان انهزم من أصحابه، فرجع بهم، فهزم بني نمير، وقتل فيهم من زوال الشمس إلى آخر وقت العصر زهاء ألف وخمس مائة راجل، وأقام بموضع الوقعة، فأرسل أمراء العرب يطلبون الأمان، فأئنتهم، فأتوه فقيدهم، وأخذهم معه إلى البصرة، وكانت الوقعة في جمادى الآخرة. ثم قدم واجن الأشرسني على بغا في سبع مائة مقاتل، مدداً له، فسيره بغا في آثارهم، حتى بلغ تبالة من أعمال اليمن، ورجع، وكان بغا قد كتب إلى صالح أمير المدينة ليؤاقيه ببغداد بمن عنده من فزارة، ومرة، وتعلبة، وكلاب، ففعل، فلقية ببغداد، فسارا جميعاً، وقدم بغا سائراً بمن بقي معه منهم، وسوى من هرب ومات وقتل في الحروب فكانوا يزيدون على (٢٩/٧) ألفي رجل، ومائتي رجل من نمير، وكلاب، ومرة، وفزارة، وتعلبة، وطية.

وثلاثين سنة.

ذكر بعض صورة الواثق بالله

لَمَّا تَوَفَّى الْمُعْتَصِمَ، وَجَلَسَ الْوَائِقُ فِي الْخِلَافَةِ أَحْسَنَ إِلَى النَّاسِ، وَاشْتَمَلَ عَلَى الْعُلُوِّينَ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِمُ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ، وَالتَّعَهُدَ لَهُمْ بِالْأَمْوَالِ، وَفَرَّقَ فِي أَهْلِ الْحَرَمَيْنِ أَمْوَالاً لَا تُحْصَى، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ فِي أَيَّامِهِ بِالْحَرَمَيْنِ سَائِلٌ.

وَلَمَّا تَوَفَّى الْوَائِقُ كَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ تَخْرُجُ مِنْ نِسَائِهِمْ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى الْبَقِيعِ، فَيَبْكِينَ عَلَيْهِ، وَيَنْدُبْنَهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ بَيْنَهُمْ مَنَاوِيَةً حَزْناً عَلَيْهِ، لَمَّا كَانَ يَكْثُرُ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ؛ وَأَطْلَقَ فِي خِلَافَتِهِ أَعْشَارَ سَفَنِ الْبَحْرِ، وَكَانَ مَالاً عَظِيماً.

قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ: شَهِدْتُ الْوَائِقَ بَعْدَ أَنْ مَاتَ الْمُعْتَصِمُ بِأَيَّامِ، أَوَّلِ مَجْلِسِ جُلُوسِهِ، فَفَتَحَتْ جَارِيَةُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ.

مَا دَرَى الْحَامِلُونَ، يَوْمَ اسْتَظَلُّوا نَعْمَتَهُ، لِلشَّوَاهِدِ أَمَّ الْبَقَاءِ (٣٢/٧)

فَتَقَبَّلَ فِيكَ بِأَيْمَانِكَ مَا شِئْتَ مِنْ، صَبَاحاً، وَعِنْدَ كُلِّ مَسَاءٍ فَبَكَى، وَبَكَينَا مَعَهُ حَتَّى شَغَلْنَا الْبَكَاءَ عَنْ جَمِيعِ مَا كُنَّا فِيهِ، قَالَ: ثُمَّ تَغْنَى بَعْضُهُمْ فَقَالَ:

وَدَعِ هَرَبَةَ إِنْ الرُّكْبَ مُرْتَجِلُ، وَقُلْ تَطِيقُ وَدَاعَا إِيَّاهَا الرُّجُلُ فَازْدَادَ الْوَائِقُ بِكَاءٍ، وَقَالَ: مَا سَمِعْتُ كَالْيَوْمِ تَعْزِيَةً بِأَبِي وَتَغْنَى نَفْسِي؛ ثُمَّ تَفَرَّقَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ. قَالَ: وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي الْوَائِقِ:

أَبَتْ دَارُ الْأَيَّامِ أَنْ تَبْنِيَا أَجَلُكَ مَا رَأَيْتُ لَهَا مَعْنِيَا تَقَطَّعَ حَسْرَةً مِنْ حُبِّ لَيْلَى نَفْسُ مَا أَتَيْتُ وَلَا جُرَيْيَا

فَصَنَعَتْ فِيهِ عِلْمَ جَارِيَةِ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ، فَغَنَاهُ زُرَّزَرُ الْكَبِيرُ لِلْوَائِقِ، فَسَأَلَهُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: لَقَلَّمُ، فَأَحْضَرَ صَالِحاً وَطَلَبَ مِنْهُ شِرَاهَا، فَأَهْدَاهَا لَهُ، فَمَوْضِعُهُ خَمْسَةُ آلَافِ دِينَارٍ، فَمَطَّلَهُ بِهَا ابْنُ الزِّيَّاتِ، فَأَعَادَتِ الصُّورَ، فَقَالَ الْوَائِقُ: بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَعَلَى مَنْ رَبَّكَ! فَقَالَتْ: وَمَا يَنْفَعُ مِنْ رَبَّانِي؟ أَمَرْتُ لَهُ بِشَيْءٍ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ! فَكُتِبَ إِلَى ابْنِ الزِّيَّاتِ بِأَمْرِهِ بِإِصْلَاحِ الْمَالِ إِلَيْهِ، وَأَضْعَفَهُ لَهُ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ، وَتَرَكَ صَالِحَ عَمَلِ السُّلْطَانِ، وَاتَّجَرَ فِي الْمَالِ. (٣٣/٧)

وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ الْمَازِنِيُّ النَّحْوِيُّ: اسْتَحْضَرَنِي الْوَائِقُ مِنَ الْبَصْرَةِ، فَلَمَّا حَضَرْتُ عَنْده قَالَ: مَنْ خَلَّفْتُ بِالْبَصْرَةِ؟ قُلْتُ: أَخْتاً لِي صَغِيرَةً. قَالَ: فَمَا قَالَتِ الْمَسْكِينَةُ؟ قُلْتُ: مَا قَالَتِ ابْنَةُ الْأَعْشى:

تَقُولُ ابْنَتِي، حِينَ جَدَّ الرَّحِيلُ: أَزَانَا سَوَاءَ وَمَنْ قَدْ تَيْتُمْ فَيَا ابْنَا لَا تَنْزِلْ عَيْنَنَا فَإِنَّا نَخَافُ بِأَنْ تُخْزَيْتُمْ

أَزَانَا إِذَا أَضْمَرْتُكَ الْبِسْلَا دُنْجَمَى وَتَقَطَّعُ مِنَّا الرَّحِمَ قَالَ: فَمَا رَدَدَتْ عَلَيْهَا؟ قُلْتُ: مَا قَالَ جَرِيرُ لَابِتَتِهِ:

يَقِيحُ بِاللَّهِ لَيْسَ لَكَ شَرِيكَ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالْتَّجَاحِ فَضْحَكَ، وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةِ سَنِيَّةٍ.

ذكر خلافة المتوكل

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ بَويعَ الْمُتَوَكِّلَ عَلَى اللَّهِ جَعْفَرُ بْنُ الْمُعْتَصِمِ، بَعْدَ مَوْتِ الْوَائِقِ.

وَسَبَبُ خِلَافَتِهِ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ الْوَائِقُ حَضَرَ الدَّارَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادٍ وَإِنَّاخَ وَوَصِيفَ وَعَمَرَ بْنِ فَرْجٍ وَابْنَ الزِّيَّاتِ وَأَبُو الْوَزِيرِ أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ، وَعَزَمُوا عَلَى الْبَيْعَةِ لِمُحَمَّدَ بْنِ الْوَائِقِ، وَهُوَ غُلَامٌ أَمْرَدٌ، قَصِيرٌ، فَالْبِسُوهُ ذُرَّاعَةَ سُودَاءِ (٣٤/٧) وَقَلَسُوهُ، فَإِذَا هُوَ قَصِيرٌ، فَقَالَ وَصِيفٌ: أَمَا تَتَّقُونَ اللَّهَ؟ تَوَلَّوْنَ هَذَا الْخِلَافَةَ! فَتَنَازَرُوا فِيمَنْ تَوَلَّوْنَهُ. فَذَكَرُوا عِدَّةً، ثُمَّ أَحْضَرَ الْمُتَوَكِّلَ، فَلَمَّا حَضَرَ أَلْبَسَهُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادٍ الطَّوِيلَةَ، وَعَمَّمَهُ وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَحِمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ! ثُمَّ غُسِّلَ الْوَائِقُ، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ وَدُفِنَ.

وَكَانَ عُمُرُ الْمُتَوَكِّلِ، يَوْمَ بَوَيْعِهِ، سِتّاً وَعَشْرِينَ سَنَةً، وَوَضَعَ الْعِطَاءَ لِلْجُنْدِ لثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ، وَأَرَادَ ابْنُ الزِّيَّاتِ [أَنْ] يَلْقَاهُ الْمُنْتَصِرَ، فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادٍ: قَدْ رَأَيْتُ لِقَاءَ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ مُوَافِقاً، وَهُوَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ، فَأَمَرَ بِإِمْرَأَتِهِ، فَكُتِبَ بِهِ إِلَى الْأَقَافِ.

وَقِيلَ بَلْ رَأَى الْمُتَوَكِّلُ فِي مَنَامِهِ، قَبْلَ أَنْ يُسْتَخْلَفَ، كَأَنَّهُ سَكَّرَا يَنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ، فَقَصَّهَا [عَلَى] أَصْحَابِهِ، فَقَالُوا: هِيَ وَاللَّهِ الْخِلَافَةُ؛ فَبَلَغَ ذَلِكَ الْوَائِقَ، فَحَبَسَهُ وَضَيَّقَ عَلَيْهِ. وَحَجَّ بِالنَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ دَاوُدَ.

ذكر عِدَّةُ حَوَادِثَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَصَابَ الْحُجَّاجَ فِي الْعَوْدِ عَطَشٌ عَظِيمٌ، فَلَبِثَتْ الشَّرْبَةُ عِدَّةَ ذُنَانِيرٍ، وَمَاتَ مِنْهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ.

وَفِيهَا غَدَرُ مُوسَى بِالْأَنْدَلُسِ، وَخَالَفَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ أَمِيرُ (٣٥/٧) الْأَنْدَلُسِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ وَافَقَهُ، وَأَطَاعَهُ، وَسَيَّرَ إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ جَيْشاً مَعَ ابْنَةِ مُحَمَّدٍ.

وَفِيهَا كَانَ بِالْأَنْدَلُسِ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ، وَقَحَطٌ عَظِيمٌ، وَكَانَ ابْتِدَآءُهُ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ، فَهَلَكَ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ وَالْدُّوَابِّ، وَبَسَتْ الْأَشْجَارُ، وَلَمْ يَزِرْعِ النَّاسُ شَيْئاً، فَخَرَجَ النَّاسُ هَذِهِ السَّنَةَ يَسْتَسْقُونَ، فَسَقَوْا، وَزَرَعُوا وَزَالَ عَنِ النَّاسِ الْقَحَطُ.

وَفِيهَا وَلِيَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ مُصْعَبٍ بِلَادَ فَارَسَ.

قال المتوكل: لَمَّا أَتَانِي رَسُولُهُ لِبَسْتُ سَوَاداً جَدِيداً، وَأَتَيْتُهُ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ قَدْ أَتَاهُ الرُّضَى عَنِّي، فَاسْتَدْعَى حِجَاماً، فَأَخَذَ شَعْرِي عَلَى السَّوَادِ الْجَدِيدِ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ وَجْهِي؛ فَلَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ الْمَتَوَكِّلُ أَهْلَ حَتَّى كَانَ صَفَرٌ، فَأَمَرَ إِيْتَاخَ بِأَخَذِ ابْنِ الزِّيَّاتِ وَتَعْذِيبِهِ، فَاسْتَحْضَرَ، فَكَبَّ يَظُنُّ أَنَّ الْخَلِيفَةَ يَسْتَدْعِيهِ، فَلَمَّا حَاضَى مَنْزِلَ إِيْتَاخَ عُدَّ بِهِ إِلَيْهِ، فَخَافَ، فَادْخَلَهُ حِجْرَةً، وَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ هَجَمَ عَلَيْهَا، وَأَخَذَ كُلَّ مَا فِيهَا، وَاسْتَصَفَى أَمْوَالَهُ وَأَمْلَاكَه فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ.

وكان شديد الجزع، كثير البكاء والفكر، ثم سُوهر، وكان يُخَسِّسُ بِمَسَلَّةٍ لثَلَاثَ يَنَامٍ، ثُمَّ تَرَكَ فَنَامَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، ثُمَّ جُعِلَ فِي تَنُورٍ عَمَلُهُ هُوَ، وَعَذَّبَ بِهِ ابْنُ أَسْمَاطِ الْمَصْرِيِّ، وَأَخَذَ مَالَهُ، فَكَانَ مِنْ خَشَبٍ فِيهِ مَسَامِيرُ مِنْ حَدِيدٍ أَطْرَافُهَا إِلَى دَاخِلِ التَّنُورِ، وَتَمْنَعُ مَنْ يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْحَرَكَةِ، وَكَانَ ضَيْقًا بَحِثَ إِنْ الْإِنْسَانُ كَانَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى فَوْقِ رَأْسِهِ لِيَقْدِرَ عَلَى دُخُولِهِ لَضِيْقِهِ، (٣٨/٧) وَلَا يَقْدِرُ مِنْ يَكُونُ فِيهِ لِيَجْلِسَ، فَبَقِيَ أَيَّامًا، فَمَاتَ.

وكان حبسه لسبع خلون من صفر وموته لإحدى عشرة بقيت من ربيع الأول، واختلف في سبب موته، فقيل كما ذكرناه، وقيل بل ضُربَ فمات وهو يُضْرَبُ، وقيل مات بغير ضرب، وهو أصح.

فلَمَّا مَاتَ حَضَرَهُ ابْنَاهُ سَلِيمَانُ وَعَبِيدُ اللَّهِ، وَكَانَا مَحْبُوسَيْنِ، وَطُرِحَ عَلَى الْبَابِ فِي قَمِيصِهِ الَّذِي حُسِبَ فِيهِ، فَقَالَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرَاخَ مِنْ هَذَا الْفَاسِقِ! وَغَسَلَاهُ عَلَى الْبَابِ وَدَفَنَاهُ، فَقِيلَ إِنْ الْكَلَابُ نَبِشَتْهُ وَأَكَلَتْ لَحْمَهُ.

قال: وَسَمِعْتُ قَبْلَ مَوْتِهِ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: يَا مُحَمَّدُ لِمَ تَقْنَعُكَ النِّعْمَةُ، وَالِدَوَابُّ، وَالِدَارُ النَّظِيفَةُ، وَالْكِسْوَةُ الْفَاخِرَةُ، وَأَنْتَ فِي عَاقِبَةٍ، حَتَّى طَلَبْتَ الْوِزَارَةَ، ذُقْ مَا عَمَلْتَ بِنَفْسِكَ. ثُمَّ سَكَتَ عَنْ ذَلِكَ، وَكَانَ لَا يَزِيدُ عَلَى التَّشَهُّدِ، وَذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وكان ابن الزِّيَّاتِ صَدِيقًا لِإِبْرَاهِيمَ الصُّوْلِيِّ، فَلَمَّا وَلِيَ الْوِزَارَةَ صَادَرَهُ بِأَلْفٍ وَخَمْسِ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ، فَقَالَ الصُّوْلِيُّ:

وَكُنْتُ أَخِي بِرَحْمَةِ الزَّمَانِ فَلَمَّا بَايَعْتُ حَرًّا غَوَانَا
وَكُنْتُ أَدَمُ إِلَيْكَ الزَّمَانِ فَاصْبَحْتُ مِنْكَ أَدَمُ الزَّمَانَا
وَكُنْتُ أَعْيُنُكَ لِلنَّجَاتِ فَهَذَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْأَمَانَا
وقال أيضًا:

أَصْبَحْتُ مِنْ رَأْيِ أَبِي جَعْفَرٍ فِي هَيْئَةٍ تُسَلِّزُ بِالصَّيْلَمِ
مِنْ غَيْرِ مَا قَنِيْبٍ، وَلَكِنَّهَا عِلَاوَةُ الزَّنْدِيقِ لِلْمُسْلِمِ

ذَكَرَ عِدَّةُ حَوَادِثَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ حُسِبَ عَمْرُ بَنِ الْفَرَجِ الرُّخْجِيِّ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَتَوَكِّلَ أَتَاهُ لَمَّا كَانَ أَخُوهُ الْوَائِقُ سَاخِطًا عَلَيْهِ، وَمَعَهُ صَكٌّ

وَفِيهَا غَرَقَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُوَصِّلِ [وَهَلْكَ] فِيهَا خَلْقٌ قَلِيلٌ كَانُوا نَحْوَ مِائَةِ أَلْفٍ إِنْسَانٍ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَطَرُ جَاءَ بِهَا عَظِيمًا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ بَحِثٌ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِهَا جَعَلَ سَطْلًا عَمِيقَهُ ذِرَاعٌ فِي سَعَةِ ذِرَاعٍ، فَامْتَلَأَ ثَلَاثَ دَفْعَاتٍ فِي نَحْوِ سَاعَةٍ، وَزَادَتْ دَجَلَةٌ زِيَادَةً عَظِيمَةً فَكَرَبَ الْمَاءُ الرِّضَى الْأَسْفَلَ، وَشَاطَأَ نَهْرُ سَوَاقِ الْأَرْبَعَاءِ، فَدَخَلَ كَثِيرًا مِنَ الْأَسْوَاقِ، فَقِيلَ إِنَّ أَمِيرَ الْمُوَصِّلِ، وَهُوَ غَانِمٌ بِنِ حَمِيدِ الطُّوسِيِّ، كَفَنَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَبَقِيَ تَحْتَ الْهَدْمِ خَلْقٌ كَثِيرٌ لَمْ يُحْمَلُوا سِوَى مِنْ حَمَلِهِ الْمَاءِ.

وَفِيهَا أَمَرَ الْوَائِقُ بَرَكَ أَشْجَارَ سَفْنِ الْبَحْرِ.

وَفِيهَا تَوَفَّى الْحَكَمُ بْنُ مُوسَى، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَامِرِ الْقُرَشِيِّ مُصَنَّفُ الصَّوَايفِ وَغَيْرِهَا، وَيَحْيَى بْنُ يَحْيَى الْغَسَّانِيُّ الدِّمَشْقِيُّ، وَقِيلَ سَنَةُ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَأَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْأَثَرَمُ النَّحْوِيُّ اللَّغْوِيُّ، وَأَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ أَبِي عَيْبَةَ وَالْأَصْمَعِيِّ.

وَفِيهَا تَوَفَّى عَمْرُو النَّاقِدِ. (٣٦/٧)

سَنَةُ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ

ذَكَرَ الْقَبِيضُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قَبِضَ الْمَتَوَكِّلُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ وَحَبَسَهُ لِسَبْعِ خُلُونٍ مِنْ صَفَرٍ.

وَكَانَ سَبَبُهُ أَنَّ الْوَائِقَ اسْتَوَزَرَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَفَوَّضَ الْأُمُورَ كُلَّهَا إِلَيْهِ، وَكَانَ الْوَائِقُ قَدْ غَضِبَ عَلَى أَخِيهِ جَعْفَرِ الْمَتَوَكِّلِ، وَوَكَّلَ عَلَيْهِ مِنْ يَحْفَظُهُ وَيَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ، فَأَتَى الْمَتَوَكِّلَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ يَسْأَلُهُ أَنْ يَكَلِّمَ الْوَائِقَ لِيَرْضَى عَنْهُ، فَوَقَّفَ بَيْنَ يَدَيْهِ لَا يَكَلِّمُهُ، ثُمَّ أَشَارَ عَلَيْهِ بِالْقُعُودِ فَقَعَدَ، فَلَمَّا فَرِغَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ التَفَتَ إِلَيْهِ كَالْمَهْتَدِّ وَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الرُّضَى عَنِّي، فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: انظُرُوا، يُغَضِبُ أَخَاهُ ثُمَّ يَسْأَلُنِي أَنْ أَسْتَرْضِيَهُ لَهَا! أَذْهَبَ، فَإِذَا صَلَحَتْ رُضَى عَنْكَ.

فَقَامَ مِنْ عِنْدِهِ حَزِينًا، فَأَتَى أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادٍ، فَقَامَ إِلَيْهِ أَحْمَدُ، وَاسْتَقْبَلَهُ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ، وَقَبْلَهُ، وَقَالَ: مَا حَاجَتُكَ؟ جُعِلَتْ فِدَاكَ! قَالَ: جِئْتُ لَتَسْتَرْضِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِي؟ قَالَ: أَفْعَلُ، وَنِعْمَةٌ عَيْنٌ وَكَرَامَةٌ! فَكَلَّمَ أَحْمَدُ (٣٧/٧) الْوَائِقَ بِهِ، فَوَعَدَهُ وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ، ثُمَّ كَلَّمَهُ فِيهِ ثَانِيَةً فَرْضَى عَنْهُ وَكَسَاهُ.

وَلَمَّا خَرَجَ الْمَتَوَكِّلُ مِنْ عِنْدِ ابْنِ الزِّيَّاتِ كَسَبَ إِلَى الْوَائِقِ: إِنَّ جَعْفَرَ أَتَانِي فِي زِيٍّ الْمَخْتَبِينَ، لَهُ شَعْرٌ قَفَاءٌ، يَسْأَلُنِي أَنْ أَسْأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الرُّضَى عَنْهُ؛ فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْوَائِقُ: ابْعَثْ إِلَيْهِ فَأَحْضَرَهُ، وَمُرَّ مَنْ يَجِزُ شَعْرَ قَفَاءٍ فَيَضْرِبُ بِهِ وَجْهَهُ.

ليختمه عمر له ليقبض أرزاقه من بيت المال، فلقبه عمر بالخبيثة، وأخذ صكه فرمى به إلى صحن المسجد، وكان حبسه في شهر رمضان، وأخذ ماله، وأثاث بيته، وأصحابه، ثم صولح على أحد عشر ألف ألف على أن يرد عليه ما حيز من ضياع الأهواز حسب، فكان قد أيس في حبسه جثة صوف. قال علي بن الجهم يهجو:

جمعت أمرين ضاع الخزم بينهما: نية الملوكة وأعمال الصناليك
أردت شكراً بلا يسر ومزنة لقد سلكت سبيلاً غير مسلول
وفيها غضب المتوكل على سليمان بن إبراهيم بن الجند
النصراني كاتب سمائه، وضربه، وأخذ ماله، وغضب أيضاً على أبي
الوزير، وأخذ ماله ومال أخيه وكاتبه.

وفيها أيضاً عزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج، وولاه
يحيى بن خاقان الخراساني مولى الأزدي، وولى إبراهيم بن العباس
بن محمد بن صول ديوان زمام النفقات.

وفيها ولى المتوكل ابنه المتصّر الحرّمين واليمن والطائف في
رمضان. (٤٠/٧)

وفيها قُلب أحمد بن أبي دؤاد في جمادى الآخرة.

وفيها وثب ميخائيل بن توفيل بأمة تدورة، فآلزمها الديار، وقتل
اللقط لأنه كان اتهمها به، فكان ملكها ست سنين، وحج بالناس في
هذه السنة محمد بن داود.

وفيها عزل محمد بن الأغلب أمير إفريقية عامله على الزاب،
واسمه سالم بن غلبون، فأقبل يريد القيروان، فلما صار بقلعة
يلبسير أضمر الخلاف وسار إلى الأربس، فمنعه أهلها من الدخول
إليها، فسار إلى باجة، فدخلها، واحتوى بها، فسار إليه ابن الأغلب
جيشاً عليهم خفاجة بن سفيان، فنزل عليه وقاتله، فهرب سالم ليلاً،
فاتبعه خفاجة، فلحقه وقتله، وحمل رأسه إلى ابن الأغلب، وكان
أزهر بن سالم عند ابن الأغلب محبوباً فقتله.

وفيها توفي يحيى بن معين البغدادي بالمدينة، وكان مولده سنة
ثمان وخمسين ومائة، وهو صاحب الجرح والتعديل، ومحمد بن
سماعة القاضي، صاحب محمد بن الحسن، وقد بلغ مائة سنة وهو
صحيح الحواس. (٤١/٧)

سنة أربع وثلاثين ومائتين

ذكر حرب محمد بن البغيث

في هذه السنة حرب محمد بن البغيث بن الجليس، وكان سبب
حربه أنه جيء به أسيراً من أذربيجان إلى سامراء، وكان له رجل
يخدمه يُسمى خليفة، وكان المتوكل مريضاً، فأخبر خليفة ابن

البغيث أن المتوكل مات، ولم يكن مات، وإنما أراد إطماع ابن
البغيث في الهرب، فوافقه على الهرب، وأعد له دواب، فهربا إلى
موضعه من أذربيجان، وهو مرند، وقيل كان له قلعة شاهی، وقلعة
يكدرد.

وقيل إن ابن البغيث كان في حبس إسحاق بن إبراهيم بن
مُصعب، فتكلم فيه بُغا الشراي، فأخذ منه الكفلاء نحواً من ثلاثين
كفيلاً منهم محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني فكان يتردد
بسامراء، فهرب إلى مرند، وجمع بها الطعام، وهي مدينة حصينة،
وفيها عيون ماء ولها بساتين كثيرة داخل البلد.

وأثناء من أراد الفتنة من ربيعة وغيرهم، فصار في نحو من
الْفَيْن ومائتي (٤٢/٧) رجل، وكان الوالي بأذربيجان محمد بن حاتم
بن هرثمة، فقصر في طلبه فولى المتوكل حَمْدُوته بن علي بن
الفضل السعدي أذربيجان وسيّره على البريد، وجمع الناس، وسار
إلى ابن البغيث، فحصره في مرند، فلما طال مدة الحصار بعث
المتوكل زيرك التركي في مائتي فارس من الأتراك، فلم يصنع شيئاً،
فوجه إليه المتوكل عمر بن سَيْسِيل بن كال في تسع مائة فارس،
فلم يغن شيئاً، فوجه بُغا الشراي في ألفي فارس.

وكان حَمْدُوته وابن سَيْسِيل وزيرك قد قطعوا من الشجر الذي
حول مرند نحو مائة ألف شجرة، ونصبوا عليها عشرين ومنجنيقاً،
ونصب ابن البغيث عليهم مثل ذلك، فلم يقدروا على الدنو من
سور المدينة، فقتل من أصحاب المتوكل في حربه، في ثمانية
أشهر، نحو من مائة رجل، وجرح نحو أربع مائة، وأصاب أصحابه
مثل ذلك، وكان حَمْدُوته وعمر وزيرك يغادونه القتال ويراوحونه،
وكان أصحابه يتدلون بالبحال من السور معهم الرماح، فيقاتلون،
فإذا حمل عليهم أصحاب الخليفة تجاروا إلى السور، وحموا
نفوسهم، فكانوا يفتحون الباب، فيخرجون فيقاتلون، ثم يرجعون.

ولما قرب بُغا الشراي من مرند بعث عيسى بن الشيخ بن
الشليل، ومعه أمان لوجوه أصحاب ابن البغيث أن ينزلوا، وأمان
لابن البغيث أن ينزل على حكم المتوكل، فنزل من أصحابه خلق
كثير بالأمان، ثم فتحوا باب المدينة، فدخل أصحاب المتوكل،
وخرج ابن البغيث هارباً، فلحقه قوم من الجند، فآخذوه أسيراً،
وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه، وبعض منازل أهل المدينة،
ثم نودي بالأمان، وأخذوا لابن البغيث أختين وثلاث بنات وعدة
(٤٣/٧) من السراي، ثم وافاهم بُغا الشراي من غدي، فأمر فنودي
بالمنع من النهب، وكتب بالفتح لنفسه، وأخذ ابن البغيث إليه.

ذكر إيتاخ وما صار إليه أمره

كان إيتاخ غلاماً حورياً، طبّاحاً لسلام الأبرش، فاشتره منه
المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة، وكان فيه شجاعة، وفرعه

المعتصم والوائق وضم إليه أعمالاً كثيرة منها المعونة بسامراً مع الزهراني. (٤٦/٧) إسحاق بن إبراهيم.

سنة خمس وثلاثين ومائتين

ذكر قتل إيتاخ

قد ذكرنا ما كان منه مع المتوكل وسبب حجته؛ فلما عاد من مكة كتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد يأمره بحبسه، وأنفذ المتوكل كسوة وهدايا إلى طريق إيتاخ، فلما قرب إيتاخ من بغداد خرج إسحاق بن إبراهيم إلى لقائه، وكان إيتاخ أراد المسير على الأنبار إلى سامراء، فكتب إليه إسحاق: إن أمير المؤمنين قد أمر أن تدخل بغداد، وأن يلقاك بنو هاشم، ووجوه الناس، وأن تقعد لهم في دار خزيمة بن خازم، وتامر لهم بالجواز.

فجاء إلى بغداد، فلقى إسحاق بن إبراهيم، فلما رآه إسحاق أراد النزول له، فحلف عليه إيتاخ أن لا يفعل، وكان في ثلاثمائة من غلمانه وأصحابه، فلما صار بباب دار خزيمة وقف إسحاق، وقال له: أصلى الله الأمير؛ ليدخل! فدخل إيتاخ، ووقف إسحاق على الباب، فمنع أصحابه من الدخول عليه، ووكل بالأبواب، وأقام عليها الحرس، فحين رأى إيتاخ ذلك قال: قد فعلوها، ولو لم يفعلوا ذلك ببغداد ما قدروا عليه؛ وأخذوا معه ولذته منصوراً ومظفراً، وكاتبته سليمان بن وهب وقدامة بن زياد، فحبسوا ببغداد أيضاً.

وأرسل إيتاخ إلى إسحاق: قد علمت ما أمرني به المعتصم والوائق في أمرك، (٤٧/٧) وكنت أدافع عنك، فليشفعني ذلك عندك في ولدي، فأما أنا فقد مررت بشدة ورخاء، فما أبالي ما أكلت وما شربت، وأما هذان الغلامان فلم يعرفا البؤس، فاجعل لهما طعاماً يصلحهما.

ففعل إسحاق ذلك، وقيد إيتاخ، وجعل في عنقه ثمانين رطلاً، فمات في جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين ومائتين، وأشهد إسحاق جماعة من الأعيان أنه لا ضرب به ولا أثر.

وقيل كان سبب موته أنهم أطعموه ومنعوه الماء حتى مات عطشاً؛ وأما ولدها فإنهما بقيا محبوبين حياة المتوكل، فلما ولي المتصنر أخرجهما، فأما مظفر فبقي بعد أن خرج من السجن ثلاثة أشهر ومات، وأما منصور فعاش بعده.

ذكر أسر ابن البغيث وموته

في هذه السنة قدم بعا الشرايبي بابن البغيث في سؤال، وبخليفته أبي الأغر، وبأخويه صقر وخالد، وكاتبه العلاء، وجماعة من أصحابه، فلما قربوا من سامراء حملوا على الجمال ليأمرهم الناس، فلما أضر ابن البغيث بين يدي المتوكل أمر بضرب عنقه،

وكان المعتصم، إذا أراد قتل أحد، فعند إيتاخ يقتل، ويديه فحبس منهم أولاً المأمون بن سندس، وابن الزيات، وصالح بن عفيف وغيرهم؛ وكان مع المتوكل في مرتبته، وإليه الجيش، والمغاربة، والأترك، والأموال، والبريد، والحجابة، ودار الخلافة.

فلما تمكن المتوكل من الخلافة شرب فعريد على إيتاخ، فهمم إيتاخ بقتله، فلما أصبح المتوكل قيل له، فاعتذر إليه، وقال: أنت أبي، وأنت ربيتي، ثم وضع عليه من يحسن له الحج، فاستأذن فيه المتوكل، فأذن له، وصيره أمير كل بلد يدخله، وخلع عليه، وسار العسكر جميعه بين يديه، فلما فارق جعلت الحجابة إلى وصيف في ذي القعدة، وقيل إن هذه القصّة كانت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين. (٤٤/٧)

ذكر الخلف بإفريقية

في هذه السنة خرج عمرو بن سلّيم التميمي المعروف بالقويح على محمد بن الأغلب أمير إفريقية، فسير إليه جيشاً، فحصره بمدينة تونس هذه السنة، فلم يبلغوا منه غرضاً، فعادوا عنه.

فلما دخلت سنة خمس وثلاثين سير إليه ابن الأغلب جيشاً، فالتقوا بالقرب من تونس، ففارق جيش ابن الأغلب جمع كثير، وقصدوا القويح فصاروا معه، فانهزم جيش ابن الأغلب وقوي القويح؛ فلما دخلت سنة ست وثلاثين سير محمد بن الأغلب إليه جيشاً، فاقتلوا، فانهزم القويح، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة، وأدرك القويح إنساناً، فضرب عنقه، ودخل جيش ابن الأغلب مدينة تونس بالسيف في جمادى الأولى.

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

وفيها توفي جعفر بن ميشر بن أحمد الثقفي المتكلم، أحد المعتزلة البغداديين، وله مقالة يتفرد بها. (٤٥/٧)

وفيها توفي أبو خزيمة زهير بن حرب في شعبان، وكان حافظاً للحديث؛ وأبو أيوب سليمان بن داود بن بشر المقرئ البصري المعروف بالشاذكوني بأصبهان.

وفيها توفي علي بن عبد الله بن جعفر المعروف بابن المديني الحافظ، وقبل سنة خمس وثلاثين [ومائتين]، وهو إمام ثقة، وكان والده ضعيفاً في الحديث؛ وإسحاق ابن إسماعيل الطالقاني، ويحيى بن أيوب المقابري، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأبو الريح

ذكر ظهور رجل ادعى النبوة

وفيهما ظهر بسمراً رجل يقال له محمود بن الفرج النيسابوري، فزعم أنه نبي، وأنه ذو القرنين، وتبعه سبعة وعشرون رجلاً، وخرج من أصحابه ببغداد رجلان بباب العامة، وآخران بالجانب الغربي، فأثني به ويأصحابه المتوكل، فأمر به فضرب ضرباً شديداً، وحُمل إلى باب العامة، فأكذب نفسه، وأمر أصحابه أن يضربوه كل رجل منهم عشر صفعات، ففعلوا، وأخذوا له مُصْحَفًا فيه كلام قد جمعه، وذكر أنه قرآن، وأن جبرائيل نزل به، ثم مات من الضرب في ذي الحجة وحُبس أصحابه، وكان فيهم شيخ يزعم أنه نبي، وأن الوحي يأتيه. (٥١/٧)

ذكر ما كان بالأندلس من الحوادث

وفي هذه السنة خرج عباس بن وليد المعروف بالطليبي، بنواحي تذاير، لمحاربة جمع اجتمعوا، وقدموا على أنفسهم رجلاً اسمه محمد بن عيسى بن سابق، فوطئ عباس بلدهم، وأوقع بهم، وأصلحهم وعاد.

وفيهما ثار أهل تاكرنا ومن يليهم من البربر، فسار إليهم جيش عبد الرحمن، صاحب الأندلس، فقاتلهم، وأوقع بهم، وأعظم النكايه فيهم.

وفيهما سير عبد الرحمن ابنه المنذر في جيش كثيف لغزو الروم، فبلغوا إليه.

وفيهما كان سيل عظيم في رجب، في بلاد الأندلس، فخرّب جسر استجة، وخرّب الأرحاء، وغرق نهر إشبيلية ست عشرة قرية، وخرّب نهر تاجة ثمانين عشرة قرية، وصار عرضه ثلاثين ميلاً، وكان هذا حدثاً عظيماً وقع في جميع البلاد في شهر واحد.

وفيهما هلك زعيم بن أذفونس في رجب، وكانت ولايته ثمانية أعوام.

وفيهما هلك أبو السول الشاعر سعيد بن يعمر بن عليّ بسرّ قسطة. (٥٢/٧)

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة أمر المتوكل أهل الذمة بلبس الطبالسة العسليّة، وشدّ الزناني، وركوب السروج بالركب الخشب، وعمل كرتين في مؤخر السروج، وعمل رقعتين على لباس معاليكهم مخالفتين لون الثوب، كلّ واحدة منهما قدر أربع أصابع، ولون كلّ واحدة منهما غير لون الأخرى، ومن خرج من نسائهم تلبس إزاراً عسلياً، ومنعهم من لباس المناطق، وأمر بهدم بيّعتهم المحدثه، وبأخذ العشر من منازلهم، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب، ونهى أن يُستعان بهم في أعمال السلطان، ولا

فجاء السياف، وسبه المتوكل، وقال: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قال: الشقوة، وأنت الجبل الممدود بين الله وبين (٤٨/٧) خلقه، وإن لي فيك لظنّين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك، وهو العفو؛ ثم قال بلا فصل:

أبى الناس إلا أنك اليوم قتالي
إسم الهدى والصفح بالمرء أجمل
وهل أنا إلا جلّة من خطيئة
وعفوك من نور النبوة يُجمل
فإنك خير السابقين إلى العلى
ولا شك أن خير الفعّالين فعّل
فقال المتوكل لبعض أصحابه: إن عنده لأدباً، فقال: بل يفعل أمير المؤمنين ويمنّ عليه، فأمر برده، فحُبس مقيداً، وقيل إن المعتز شفع فيه إلى أبيه فأطلقه، وكان ابن البغيث قد قال حين هرب:

كم قد قضيت أموراً كان أهملها
غيري وقد أخذ الإنفلاس بالكظم
لا تمليني فمالي ليس يفعني
إليك عني جرى الوقيل بالقلّم
سألف المال في عسر وفي يسر
إن الجواد الذي يعطي على السهم
ومات ابن البغيث بعد دخوله سامراً بشهر، قيل كان قد جُعل في عقه مائة رطل، فلم يزل على وجهه حتّى مات، وجُعل بنوه: جليس، وصقر، والبغيث، في عداد الشاكرية مع عبيد الله بن يحيى بن خاقان. (٤٩/٧)

ذكر البيعة لأولاد المتوكل بولاية العهد

في هذه السنة عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهم: محمد، ولقبه المنتصر بالله، وأبو عبد الله محمد؛ وقيل طلحة، وقيل الزبير، ولقبه المعتز بالله، وإبراهيم، ولقبه المؤيد بالله، وعقد لكل واحد منهم لواة: أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل، فأعطى كلّ واحد منهم ما نذكره.

فأمّا المنتصر فأقطعه إفريقية والمغرب كلّه، والعواصم، وقُسرين، والثغور جميعها، الشامية والجزيرة، وديار مصر، وديار ربيعة، والموصل، وهيت، وعانة، والأنبار، والخابور، وكُور باجرمي، وكُور دجلة، وطسابع السواد جميعها، والحرثين، واليمن، وخضرموت، واليمامة، والبحرين، والسند، ومكران، وقنابيل، وفرج بيت الذهب، وكُور الأهواز، والمستغلات بسمراء، وماء الكوفة، وماء البصرة، وماسبدان، ومهرجانتقذ، وشهرزور، والصامغان، وأصبهان، وقم، وقاشان، والجبل جميعه، وصدقات العرب بالبصرة.

وأما المعتز فأقطعه خراسان وما يُضاف إليها، وطبرستان، والريّ، (٥٠/٧) وأرمينية، وأذربيجان، وكُور فارس، ثم أضاف إليه في سنة أربعين [ومائتين] خزن الأموال في جميع الآفاق، ودور الضرب، وأمر أن يُضرب اسمه على الدراهم.

وأما المؤيد فأقطعه جُند دمشق، وجند فلسطين.

يَعْلَمُهُمْ مُسْلِمٌ، وَأَنْ يَظْهَرُوا فِي شَعَائِنِهِمْ صَليَاءً، وَأَنْ يَسْتَعْمَلُوهُ فِي الطَّرِيقِ، وَأَمْرٌ بِتَسْوِيَةِ قُبُورِهِمْ مَعَ الْأَرْضِ، وَكُتِبَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْأَفَاقِ.

وَفِيهَا تَوَفَّى إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُصْعَبٍ الْمَصْعَبِيِّ، وَهُوَ ابْنُ أَخِي طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَكَانَ صَاحِبَ الشَّرْطَةِ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ الْمَأمُونِ، وَالْمُعْتَصِمِ، وَالْوَاتِقِ، وَالْمُتَوَكِّلِ، وَلَمَّا مَرَضَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمُتَوَكِّلُ ابْنَهُ الْمُعْتَزَّ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْقَوَادِ يَعُودُونَهُ، وَجَزَعَ الْمُتَوَكِّلُ لِمَوْتِهِ.

وَفِيهَا مَاتَ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ، كَانَ شَرِبَ دَوَاءً، فَأَفْرَطَ عَلَيْهِ، فَجَبَسَ (٥٣/٧) الطَّيْعَ، فَمَاتَ، وَكَانَ مَوْتُهُ، وَمَوْتَ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ فِي ذِي الْحِجَّةِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؛ وَقِيلَ مَاتَ الْحَسَنُ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ.

وَفِيهَا فِي ذِي الْحِجَّةِ تَغَيَّرَ مَاءُ دَجَلَةَ إِلَى الصُّفْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَفَزَعَ النَّاسُ، ثُمَّ صَارَ فِي لَوْنِ مَاءِ الدُّودِ.

وَفِيهَا أَتَى الْمُتَوَكِّلُ يَحْيَى بْنَ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَكَانَ قَدْ جَمَعَ جَمْعاً بَعْضُ النَّوَاحِي، فَأَخَذَ، وَخَبَسَ، وَضَرَبَ. وَحُجَّ بِالنَّاسِ هَذِهِ السَّنَةَ مُحَمَّدُ بْنُ دَاوُدَ.

وَفِيهَا مَاتَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمُوصِلِيُّ، صَاحِبُ الْأَلْحَانِ وَالْغَنَاءِ، وَكَانَ فِيهِ عِلْمٌ وَأَدَبٌ، وَلَهُ شِعْرٌ جَيِّدٌ؛ وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ مَيْسَرَةَ الْجُسَمِيِّ الْقَوَارِيرِيُّ فِي ذِي الْحِجَّةِ؛ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَلِيٍّ؛ وَمَنْصُورُ بْنُ أَبِي مُزَاحِمٍ؛ وَسُرَيْجُ بْنُ يُونُسَ أَبُو الْحَارِثِ.

(سُرَيْجُ بِالسَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَالْجِيمِ). (٥٤/٧)

سنة ست وثلاثين ومائتين

ذكر مقتل محمد بن إبراهيم

فِي هَذِهِ السَّنَةِ قُتِلَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُصْعَبٍ أَخُو إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ.

وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ إِسْحَاقَ أَرْسَلَ وَلَدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى بَابِ الْخَلِيفَةِ لِيَكُونَ نَائِباً عَنْهُ بِبَابِهِ، فَلَمَّا مَاتَ إِسْحَاقُ عَقَدَ الْمُعْتَزُّ لَابْنِهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَلَى فَارَسٍ، وَعَقَدَ لَهُ الْمُتَمَتِّعُ عَلَى الْيَمَامَةِ وَالْبَحْرَيْنِ وَطَرِيقَ مَكَّةَ فِي الْمَحْرَمِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَضَمَّ إِلَيْهِ الْمُتَوَكِّلُ أَعْمَالَ أَبِيهِ كُلَّهَا، وَحَمَلَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ وَأَوْلَادَهُ مِنَ الْجَوَاهِرِ الَّتِي كَانَتْ لِأَبِيهِ، وَالْأَشْيَاءَ النَّفِيسَةَ كَثِيراً.

وَكَانَ عَنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى فَارَسٍ، فَلَمَّا بَلَغَهُ مَا صَنَعَ الْمُتَوَكِّلُ وَأَوْلَادُهُ بِابْنِ أَخِيهِ سَاءَهُ ذَلِكَ، وَتَنَكَّرَ لِلْخَلِيفَةِ وَلَابْنِ أَخِيهِ،

فَشَكَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ذَلِكَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ، فَأَطْلَقَهُ فِي عَمِّهِ لِيَفْعَلَ بِهِ مَا يَشَاءُ، فَعَزَلَهُ عَنْ فَارَسٍ، وَاسْتَعْمَلَ مَكَانَهُ ابْنُ عَمِّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُصْعَبٍ، وَأَمْرُهُ بِقَتْلِ عَمِّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ.

فَلَمَّا سَارَ الْحُسَيْنُ إِلَى فَارَسٍ أَهْدَى إِلَى عَمِّهِ يَوْمَ النَّبَرِوزِ هَدَايَا، وَفِيهَا حُلُوفُ فَائِلٍ مُحَمَّدُ مِنْهَا، وَأَدْخَلَهُ الْحُسَيْنُ بَيْتاً، وَوَكَّلَ عَلَيْهِ، فَطَلَبَ الْمَاءَ لِيَشْرَبَ فَمُنِعَ مِنْهُ، فَمَاتَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ. (٥٥/٧)

ذَكَرَ مَا فَعَلَهُ الْمُتَوَكِّلُ بِمَشْهَدِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ بِهَدْمِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَدَمَ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْمَنَازِلِ وَالْأُتُورِ، وَأَنْ يُبْنَى وَيُسْقَى مَوْضِعُ قَبْرِهِ، وَأَنْ يُنْعَمَ النَّاسُ مِنْ إِيْتَانِهِ، فَنَادَى [عَامِلُ صَاحِبِ الشَّرْطَةِ] بِالنَّاسِ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ: مَنْ وَجَدَنَاهُ عِنْدَ قَبْرِهِ، بَعْدَ ثَلَاثَةِ حِجْسِنَاهُ فِي الْمَطْبَعِ! فَهَرَبَ النَّاسُ، وَتَرَكُوا زِيَارَتَهُ، وَخَرَّتْ وَرُجِعَ.

وَكَانَ الْمُتَوَكِّلُ شَدِيدَ الْبَغْضِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ، وَكَانَ يَقْصِدُ مِنْ يَبْلُغُهُ عَنْهُ أَنَّهُ يَتَوَلَّى عَلِيّاً وَأَهْلَهُ بِأَخْذِ الْمَالِ وَالْأَدَمِ؛ وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ نَدَمَائِهِ عِبَادَةُ الْمُخَنَّثِ، وَكَانَ يَشُدُّ عَلَى بَطْنِهِ، تَحْتَ ثِيَابِهِ، مِخْذَةً، وَيَكْشِفُ رَأْسَهُ، وَهُوَ أَصْلَعُ، وَيَرْقُصُ بَيْنَ يَدَيْ الْمُتَوَكِّلِ، وَالْمَغْنُونُ يَغْتَنُّ: قَدْ أَقْبَلَ الْأَصْلَحُ الْبَطِينُ، خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ، يَحْكِي بِذَلِكَ عَلِيّاً، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمُتَوَكِّلُ يَشْرَبُ، وَيَضْحَكُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ يَوْماً، وَالْمُتَمَتِّعُ حَاضِرٌ، فَأَوْسَا إِلَى عِبَادَةِ يَتَهَدَّدُ، فَسَكَتَ خَوْفاً مِنْهُ، فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ: مَا حَالُكَ؟ فَقَامَ وَأَخْبِرَهُ، فَقَالَ الْمُتَمَتِّعُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ الَّذِي يَحْكِيهِ هَذَا الْكَاتِبُ، وَيَضْحَكُ مِنْهُ النَّاسُ، هُوَ ابْنُ عَمِّكَ، وَشَيْخُ أَهْلِ بَيْتِكَ، وَبِهِ فَخْرُكَ، فَكُلُّ أَنْتَ لَحْمِهِ، إِذَا شِئْتَ، وَلَا تُطْعَمَ هَذَا الْكَلْبُ وَأَمْثَالُهُ مِنْهُ! فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ لِلْمَغْنُونِ: غَنُوا جَمِيعاً:

غَارَ الْفَتَى لَابْنِ عَمِّهِ رَأْسَ الْفَتَى فِي جِرِّائِهِ
(٥٦/٧) فَكَانَ هَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي اسْتَحْلُ بِهَا الْمُتَمَتِّعُ قَتْلَ الْمُتَوَكِّلِ.

وَقِيلَ إِنَّ الْمُتَوَكِّلَ كَانَ يَبْغِضُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْخُلَفَاءِ: الْمَأمُونُ، وَالْمُعْتَصِمُ، وَالْوَاتِقُ فِي مَحَبَّةِ عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ؛ وَإِنَّمَا كَانَ يُنَادِمُهُ وَيَجَالِسُهُ جَمَاعَةٌ قَدْ اشْتَهَرُوا بِالنَّصَبِ، وَالْبَغْضِ لِعَلِيٍّ، مِنْهُمْ: عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ، الشَّاعِرُ الشَّامِيُّ، مِنْ بَنِي شَامَةَ ابْنِ لُؤْيٍ؛ وَعُمَرُ بْنُ فَرَحِ الرَّحْجِيِّ؛ وَأَبُو السَّمَطِ مِنْ وَلَدِ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ، مِنْ مَوَالِي بَنِي أُمَيَّةَ؛ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ دَاوُدَ الْهَاشِمِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ أَتْرَجَةَ.

وَكَانُوا يَخْرُقُونَهُ مِنَ الْعُلَيَّيْنِ، وَيَشِيرُونَ عَلَيْهِ بِأَيْدِيهِمْ،

بَطْرِيْق يُقال له بُقْراط بن أشوط، ويقال له بطريق البطارقة، يطلب الأمان، فأخذه يوسف وابنه نعمة، فسَيَّرهما إلى باب الخليفة، فاجتمع بطارقة أرمينية مع ابن أخي بقراط بن أشوط، وتحالفوا على قتل يوسف، ووافقه على ذلك موسى بن زُرارة، وهو صهر بقراط على ابنته، فأتى الخبر يوسف، ونهاه أصحابه عن المقام بمكانه، فلم يقبل، فلَمَّا جاء الشتاء، ونزل الثلج، مكثوا حتى سكن الثلج، ثُمَّ أتوه وهو بمدينة طرون، فحصره بها، فخرج إليهم من المدينة فقاتلهم، فقتلوه وكل من قاتل معه، وأما من لم يقاتل معه فقالوا له: انزع ثيابك، وانج بنفسك عرياناً، ففعلوا، ومشوا حفاة عراة، فهلك أكثرهم من البرد، وسقطت أصابع كثير منهم، ونجوا، وكان ذلك في رمضان.

وكان يوسف قبل ذلك قد فرَّق أصحابه في رسائيق عمله، فوجه إلى كل طائفة منهم طائفة من البطارقة، فقتلوه في يوم واحد.

فلَمَّا بلغ المتوكِّل خبره وجهه بغيا الكبير إليهم، طالباً بدم يوسف، (٥٩/٧) فسار إليهم على الموصل والجزيرة، فبدأ بأرز، وبها موسى بن زُرارة، وله إخوة: إسماعيل، وسليمان، وحمد، وعيسى، ومحمد، وهارون، فحمل بغيا موسى بن زُرارة إلى المتوكِّل، وأباح قتل يوسف، فقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً، وسبى منهم خلقاً كثيراً، فباعهم وسار إلى بلاد الباق، فأسر أشوط بن حمزة أبا العباس، صاحب الباق، والباقي من كورة البسفرجان، ثُمَّ سار إلى مدينة ذبيل من أرمينية فأقام بها شهراً، ثُمَّ سار إلى تفليس فحصرها.

ذكر غضب المتوكِّل على ابن أبي دؤاد وولاية ابن أكتم القضاء وفيها غضب المتوكِّل على أحمد بن أبي دؤاد، وقبض ضياعه وأملاكه، وحبس ابنه أبا الوليد، وسائر أولاده، فحمل أبو الوليد مائة ألف وعشرين ألف دينار، وجواهر قيمتها عشرون ألف دينار، ثُمَّ صولح بعد ذلك على ستّة عشر ألف ألف درهم، وأشهد عليهم جميعاً ببيع أملاكهم.

وكان أبوه أحمد بن أبي دؤاد قد قُتل، وأحضر المتوكِّل يحيى بن أكتم (٦٠/٧) من بغداد إلى سامرا، ورضي عنه، وولاه قضاء القضاة، ثُمَّ ولاه المظالم، فولّى يحيى بن أكتم قضاء الشرقيّة حيّان بن بشر، وولّى سوار بن عبد الله العنبري قضاء الجانب الغربي، وكلاهما أعور، فقال الجمّاز:

رأيت من الكبار قاضين هما أحلوثة في الخافقين
هما اقتسما القمى نصفين قدراً كما اقتسما قضاء الجانبين
وتحبيبتنهما من هز رأساً ليظرف في مواريتن ودينين
كأنك قد وضعت عليه دنأ فتحت بزأسه من فرد عيسين

والإعراض عنهم، والإساءة إليهم، ثُمَّ حسّنوا له الوقعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين، ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان، فغطّت هذه السيئة جميع حسناته، وكان من أحسن الناس سيرة، ومنع الناس من القول بخلق القرآن إلى غير ذلك من المحاسن.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة استكتب المتوكِّل عبيد الله بن يحيى بن خاقان. وفيها حج المتصر بالله، وحجّت معه جدّته أم المتوكِّل.

وفيها هلك أبو سعيد محمد بن يوسف المَرّوزي فجأة، وكان عقد (٥٧/٧) له على أرمينية، وأذربيجان، فلبس أحد خفيّه، ومدّ الآخر ليلبسه، فمات، فولّى المتوكِّل ابنه يوسف ما كان إلى أبيه من الحرب؛ وولاه خراج الناحية، فسار إليها وضبطها، وحج بالناس هذه السنة المتصر.

وفيها خرج حبيب البربري بالأندلس بجال الجزيرة، واجتمع إليه جمع كثير، فأغاروا، واستطالوا، فسار إليهم جيش من عبد الرحمن، فقاتلهم، فهزمهم، ففترقوا.

وفيها غزا جيش بالأندلس بلاد برشلونة، فقتلوا من أهلها، فأكثروا، وأسروا جمّاً غفيراً، وغنموا، وعادوا سالمين.

وفيها توفي هُدبة بن خالد، وسنان الأبلّي، وإبراهيم بن محمد الشافعي.

وفيها توفي مُصنّب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام أبو عبد الله المدني، وكان عمره ثمانين سنة، وهو عمّ الزبير بن بكار، وكان عالماً فقيهاً، إلّا أنّه كان منحرفاً عن عليّ، عليه السلام.

وفيها أيضاً توفي منصور بن المهدي، ومحمد بن إسحاق بن محمد المخزومي المَسبيّ البغدادي، وكان ثقة.

وفيها توفي جعفر بن حرب الهَمذاني أحد أئمة المعتزلة البغداديين، وعمره تسع وخمسون سنة، وأخذ الكلام عن ابن أبي الهذيل العلاف البصري. (٥٨/٧)

سنة سبع وثلاثين ومائتين

ذكر وثوب أهل أرمينية بعالمهم

في هذه السنة وثب أهل أرمينية بعالمهم يوسف بن محمد فقتلوه.

وكان سبب ذلك أنّ يوسف لمّا سار إلى أرمينية خرج إليه

أملكك قَصْرِيَّانَةً؛ والطريق في ذلك أَنَّ القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم إليهم، فهم غير محترسين، ترسل معي طائفة من عسكركم حَتَّى أَدْخُلَكُمْ المدينة.

فاتَّخَبَ العَبَّاسُ الْفَيَّ فارِسَ أنْجَادِ أَبْطَالٍ، وسارَ إلى أن قاربها، وكمن هناك مستتراً، وسَيَّرَ عَمَّهُ رِيَّاحاً في شُجْعَانِهِمْ، فساروا مستخفين في الليل، والروميَّ معهم مَقِيدَ يَدَي رِيَّاحٍ، فأراهم الموضع الذي ينبغي أن يُمْلِكَ منه، فنصبوا السلايلم، وصعدوا الجبل، ثُمَّ وصلوا إلى سور المدينة، قريباً (٦٣/٧) من الصبح، والحرس نيام، فدخلوا من نحو باب صغير فيه، يدخل منه الماء وتلقى فيه الأقدار، فدخل المسلمون كلَّهم، فوضعوا السيف في الروم، وفتحوا الأبواب.

وجاء العَبَّاسُ في باقي العسكر، فدخلوا المدينة وصلَّوا الصبح يوم الخميس متصفين شوالاً، وبنى فيها في الحال مسجداً، ونصب فيه منبراً، وخطب فيه يوم الجمعة، وقتل من وجد فيها من المقاتلة، وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة يَحْلِيهِنَّ، وأبناء الملوك، وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه، وذَلَّ الشوك يومئذ بصِيقِلِيَّةٍ ذَلاً عظيماً.

ولَمَّا سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقاً من القُسْطَنْطِينِيَّةِ في ثلاثمائة شلندي وعسكر كثير، فوصلوا إلى سَرَقُوسَةَ، فخرج إليهم العَبَّاسُ من المدينة، ولَقِيَ الروم، وقاتلهم، فهزَمَهُمْ، فركبوا في مراكبهم هاربين، وغنم المسلمون منهم مائة شلندي، وكثر القتل فيهم، ولم يُصَبَّ من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشأ.

وفي سنة ست وأربعين ومائتين نكث كثير من قلاع صِيقِلِيَّةٍ وهي: سطر، وابلا، وابلاطنوا، وقلعة عبد المؤمن، وقلعة البلوط، وقلعة أبي ثور، وغيرها من القلاع، فخرج العَبَّاسُ إليهم، فلقيهم عساكر الروم، فاقتتلوا، فانهزم الروم، وقُتِلَ منهم كثير. (٦٤/٧)

وسار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة ابلاطنوا، فحصرها، فأتاه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت، فرحل إليهم، فالتقوا بجفلودي، وجري بينهم قتال شديد، فانهزمت الروم، وعادوا إلى سَرَقُوسَةَ، وعاد العَبَّاسُ إلى المدينة، وعمر قَصْرِيَّانَةً، وحصَّنها، وشحنها بالعساكر.

وفي سنة سبع وأربعين ومائتين سار العَبَّاسُ إلى سَرَقُوسَةَ، فغنم وسار إلى غيران قرنة، فاعتَلَّ ذلك اليوم، ومات بعد ثلاثة أيام، ثالث جمادى الآخرة، فذُفِنَ هناك فنبشه الروم، وأحرقوه، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة، وأدام الجهاد شتاءً وصيفاً، وغزا أرض قَلَوْرِيَّةٍ وانكبدة وأسكنها المسلمين.

مما فآلَ الزمان بَهْلُكِيَّيْهِ إِذْ افْتَحَ الْقَضَاةَ بِأَعْوَرَيْنِ

ذكر ولاية العَبَّاسِ بن الفضل صِيقِلِيَّةٍ وما فتح فيها

قد ذكرنا سنة ثمان وعشرين ومائتين أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، أمير صِيقِلِيَّةٍ، توفِّي سنة ست وثلاثين ومائتين، فَلَمَّا مات اجتمع المسلمون بها على ولاية العَبَّاسِ بن الفضل بن يعقوب، فولَّوه أمرهم، فكتبوا بذلك إلى مُحَمَّدَ بن الأغلِبِ أمير إفريقية فأرسل إليه عهداً بولايته، فكان العَبَّاسُ إلى أن وصل عهده بغير، ويرسل السرايا، وتأتيه الغنائم. (٦١/٧)

فَلَمَّا قدم إليه عهده بولايته خرج بنفسه وعلى مقدمته عَمَّهُ رِيَّاحٌ، فأرسل في سرِّيَّةٍ إلى قلعة أبي ثور، فغنم، وأسر وعاد، فقتل الأسرى، وتوجَّهَ إلى مدينة قَصْرِيَّانَةَ، فنهَبَ، وأحرق، وخرَّبَ ليخرج إليه الطريق، فلم يفعل، فعاد العَبَّاسُ.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين خرج حَتَّى بلغ قَصْرِيَّانَةَ ومعه جمع عظيم، فغنم، وخرَّبَ وأتَى قَطَّانَةَ، وسَرَقُوسَةَ، ونوطس، ورغوس، فغنم من جميع هذه البلاد، وخرَّبَ وأحرق، ونزل على بيرة، وحصرها خمسة أشهر، فصالحه أهلها على خمسة آلاف رأس.

وفي سنة اثنتين وأربعين سار العَبَّاسُ في جيش كثير، ففتح حصونا خمسة؛ وفي سنة ثلاث وأربعين سار إلى قَصْرِيَّانَةَ، فخرج أهلها، فلقوه، فهزَمَهُمْ، وقتل فيهم فأكثروا، وقصد سَرَقُوسَةَ وطَبْرَمِينَ وغيرهما، فنهَبَ، وخرَّبَ، وأحرق، ونزل على القصر الجديد وحصره، وضيَّقَ على من به من الروم، فبذلوا له خمسة عشر ألف دينار، فلم يقبل منهم، وأطال الحصر، فسَلَمُوا إليه الحصن على شرط أن يطلق مائتي نفس، فأجابهم إلى ذلك، وملكه، وباع كلَّ من فيه سوى مائتي نفس، وهدم الحصن. (٦٢/٧)

ذكر فتح قَصْرِيَّانَةَ

في سنة أربع وأربعين ومائتين فتح المسلمون مدينة قَصْرِيَّانَةَ، وهي المدينة التي بها دار الملك بصِيقِلِيَّةٍ، وكان الملك قبلها يسكن سَرَقُوسَةَ، فَلَمَّا ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك إلى قَصْرِيَّانَةَ لحصانتها.

وسبب فتحها أَنَّ العَبَّاسَ سار في جيوش المسلمين إلى مدينة قَصْرِيَّانَةَ، وسَرَقُوسَةَ، وسَيَّرَ جيشاً في البحر، فلقبهم أربعون شلندي للروم، فاقتتلوا أشدَّ قتال، فانهزم الروم، وأخذ منهم المسلمون عشر شلنديات برجالها، وعاد العَبَّاسُ إلى مدينته.

فَلَمَّا كان الشتاء سَيَّرَ سرِّيَّةً، فبلغت قَصْرِيَّانَةَ، فنهَبوا، وخرَّبوا، وعادوا ومعهم رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة، فأمر العَبَّاسُ بقتله، فقال: استبقني، ولك عندي نصيحة! قال: وما هي؟ قال:

ذكر ابتداء أمر يعقوب بن الليث

وفيهما تغلب إنسان من أهل بُست، اسمه صالح بن النضر الكِنَانيُّ، على سِجِسْتان، ومعه يعقوب بن الليث، فعاد طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان واستنقذها من يده.

ثم ظهر بها إنسان اسمه درهم بن الحسين، من المتطوعة، فتغلب عليها، وكان غير ضابط لعسكره، وكان يعقوب بن الليث هو قائد عسكره، فلما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه، اجتمعوا على يعقوب بن الليث، وملّكوهُ (٦٥/٧) أمرهم، لما رأوا من تدبيره، وحسن سياسته، وقيامه بأمورهم، فلما تبين ذلك لدرهم لم ينازعه في الأمر، وسلمه إليه، واعتزل عنه، فاستبدَّ يعقوب بالأمر، وضبط البلاد، وقويت شوكته وقصدته العساكر من كل ناحية، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وليَّ عُبيد الله بن إسحاق بن إبراهيم بغداد ومعاون السواد.

وفيهما قدم محمد بن عبد الله بن طاهر من خراسان في ربيع الأول فولّي الحربة، والشرطة، وخلافة المتوكل ببغداد، وأعمال السواد وأقام بها.

وفيهما عزل أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد عن المظالم، وولّاه محمد بن يعقوب المعروف بابن الربيع.

وفيهما أمر المتوكل بانزال جثة أحمد بن نصر الخراساني، ودفعه إلى أوليائه، فحُمِلَ إلى بغداد، وضُمَّ رأسه إلى بدنه، وغُسل، وكُفّن، ودُفِن، واجتمع عليه من العامة ما لا يحصى يتمسحون به؛ وكان المتوكل لَمَّا وليَّ نهى عن الجدل في القرآن وغيره، وكتب إلى الآفاق بذلك.

وغزا الصائفة في هذه السنة علي بن يحيى الأرمني، وحجَّ بالناس فيه علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور وكان والي مَكَّة. (٦٦/٧)

وفيهما قام رجل بالأندلس بناحية الثغور وادّعى النبوة، وتأوّل القرآن على غير تأويله، فتبعه قوم من الغوغاء، فكان من شرائعه أنّه كان ينهى عن قص الشعر وتقليم الأظفار، فبعث إليه عامل ذلك البلد، فأُتي به، وكان أوّل ما خاطبه به أن دعاه إلى أتباعه، فأمره العامل بالتوبة، فامتنع فصلبه.

وفيهما سارت جيوش المسلمين إلى بلاد المشركين، فكانت بينهم وقعة عظيمة كان الظفر فيها للمسلمين، وهي الوقعة المعروفة بوقعة البيضاء، وهي مشهورة بالأندلس.

وفيهما توفيَّ العباس بن الوليد المدنيُّ بالبصرة، وعبد الأعلى بن حماد الترسّي، وعُبيد الله بن مُعَاذ الغنبري.

(الترسّي بالنون والراء والسين المهملة). (٦٧/٧)

سنة ثمان وثلاثين ومائتين

ذكر ما فعله بُغا بتفليس

قد ذكرنا مسير بُغا إلى تفليس ومحاصرتها؛ وكان بُغا لَمَّا سار إليها وجّه زيرك التركي، فجاز نهر الكرّ، وهو نهر كبير، ومدينة تفليس على حافته، وصُعْدِيل على جانبه الشرقي، فلَمَّا عبر النهر نزل بميدان تفليس، ووجّه بُغا أيضاً أبا العباس الوارثي النصراني إلى أهل أرمينية عربها وعجمها، فأُتي تفليس ممّا يلي باب المرفص، فخرج إسحاق بن إسماعيل مولى بني أمية من تفليس إلى زيرك، فقابلته عند الميدان، ووقف بُغا على تل مشرف ينظر ما يصنع زيرك وأبو العباس، فدعا بُغا النُفّاطين، فضربوا المدينة بالنار، فأحرقوها وهي من خشب الصنوبر.

وأقبل إسحاق بن إسماعيل إلى المدينة، فرأى النار قد أحرقت قصره وجواريه وأحاطت به، فأناه الأتراك، والمغاربة، فأخذوه أسيراً، وأخذوا ابنه عمراً، فأثوا بهما بُغا، فأمر بإسحاق فُضِرَتْ عنقه، وصُلِبَتْ جثته على نهر الكرّ، وكان شيخاً محدوراً، ضخم الرأس، أحول، واحترق بالمدينة نحو خمسين ألف إنسان، وأُسروا من سلم من النار، وسلبوا الموتى. (٦٨/٧)

وأخذ أهل إسحاق ما سلم من ماله بصُعْدِيل، وهي مدينة حصينة حذا تفليس بناها كسرى أنوشروان، وحصنها إسحاق، وجعل أمواله فيها مع امرأته ابنة صاحب السريز.

ثم إن بُغا وجّه زيرك إلى قلعة الحرزسان، وهي بين برّذعة وتفليس، في جماعة من جنده، ففتحها، وأخذ بطريقها أسيراً؛ ثم سار بُغا إلى عيسى ابن يوسف، وهو في قلعة كُبَيْش، في كورة التيلقان، ففتحها وأخذه فحمله، وحمل معه أبا العباس الوارثي، واسمه سنباط بن أشوط، وحمل معاوية بن سهل بن سنباط بطريق أَران.

ذكر مسير الروم إلى ديار مصر

في هذه السنة جاء ثلاثمائة مركب للروم مع ثلاثة رؤساء فأنّاح أحدهم في مائة مركب بدمياط، وبينها وبين الشطّ شبيهة بالبحيرة، يكون ماؤها إلى صدر الرجل، فمن جازها إلى الأرض آمن من مراكب البحر، فجازها قوم فسلموا، وغرق كثير من نساء وصبيان، ومن كان به قوّة سار إلى مصر.

وكان على معونة مصر عنبسة بن إسحاق الضبي، فلَمَّا حضر

سنة تسع وثلاثين ومائتين

في هذه السنة أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس ذراعين عسليتين على الأقيسة والدرايع، وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين.

وفيهما نفى المتوكل علي بن الجهم إلى خراسان.

وفيهما أمر المتوكل بهدم البيع المحدث في الإسلام.

وفيهما سير محمد بن عبد الرحمن جيشاً مع أخيه الحكم إلى قلعة رباح، وكان أهل طليطلة قد خربوا سورها، وقتلوا كثيراً من أهلها، وأصلح الحكم سورها، وأعاد من فارقتها من أهلها إليها، وأصلح حالها، وتقدم إلى طليطلة فأفسد في نواحيها وشعثها، وسير محمد أيضاً جيشاً آخر إلى طليطلة، فلما قاربوها خرجت عليهم الجنود من المكامن، فانهزم العسكر، وأصيب أكثر من فيه.

وفيهما مات أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد القاضي ببغداد في ذي الحجة، وغزا الصافقة علي بن يحيى الأرمني.

وفيهما حج جعفر بن دينار على الأحداث بطريق مكة والموسم، وحج بالناس (٧٢/٧) هذه السنة عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى وكان والي مكة.

وفيهما اتفق الشعانين للنصارى ويوم النوروز، وذلك يوم الأحد لعشرين ليلة خلت من ذي القعدة، فزعمت النصارى أنهما لم يجتمعا في الإسلام قط.

وفيهما توفي محمود بن غيلان المروزي أبو أحمد، وهو من مشايخ البخاري ومسلم والترمذي. (٧٣/٧)

سنة أربعين ومائتين

ذكر وثوب أهل حمص بعاملهم

في هذه السنة وثب أهل حمص بعاملهم أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافعي، وكان قتل رجلاً من رؤسائهم، فقتلوا جماعة من أصحابه، وأخرجوه، وأخرجوا عامل الخراج، فبعث المتوكل إليهم عتاب بن عتاب، ومحمد بن عبدويه الأنباري، وقال لعتاب: قل لهم إن أمير المؤمنين قد بذلكم بعاملكم، فإن أطاعوا قول عليهم محمد بن عبدويه، فإن أبوا فاقموا وأعلمني، حتى أمدك برجال وفرسان.

فساروا إليهم، فوصلوا في ربيع الآخر، فرضوا بمحمد بن عبدويه، فعمل فيهم الأعاجيب، حتى أحوجهم إلى محاربتهم، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

العبد أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا مصر، فساروا منها، فاتفق وصول الروم وهي فارغة من الجند فنهبوا، وأحرقوا، وسبوا، وأحرقوا جامعها، وأخذوا (٦٩/٧) ما بها من سلاح ومتاع، وقند، وغير ذلك، وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمائة امرأة، وأوقروا سفنهم من ذلك.

وكان عنبسة قد حبس بسر بن الأكشف بدمياط، فكسر قيده، وخرج يقاتلهم، وتبعه جماعة، وقتل من الروم جماعة، وسارت الروم إلى أشنوم يتيس، وكان عليه سور وبابان من حديد قد عمله المعتمصم، فنهبوا ما فيه من سلاح، وأخذوا البائين، ورجعوا ولم يعرض لهم أحد.

ذكر وفاة عبد الرحمن بن الحكم وولايته ابنه محمد

وفيهما توفي عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي، صاحب الأندلس، في ربيع الآخر، وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة، وولايته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر.

وكان أسمر طويلاً، أفتى، أعين، عظيم اللحية، مخضباً بالحناء، وخلف خمسة وأربعين ولداً ذكوراً، وكان أديباً، شاعراً، وهو معدود في جملة من عشق جواريه، وكان يعشق جارية له اسمها طروب، وشهر بها، وكان عالماً بعلم الشريعة وغيرها من علوم الفلاسفة وغيرهم، وكانت أيامه أيام عافية وسكون، وكثرت الأموال عنده، وكان بعيد الهمة واخترع قصوراً، ومتزهات كثيرة، وبنى الطرق، وزاد في الجامع بقربة رواقين، (٧٠/٧) وتوفي قبل أن يستم زخرفته، وأتمه ابنه، وبنى جوامع كثيرة بالأندلس.

ولما مات ملك ابنه محمد، فجرى على سيرة والده في العدل، وأتم بناء الجامع بقربة، وأمه تسمى بهتر، وولد له مائة ولد كلهم ذكور، وهو أول من أقام أبهة الملك بالأندلس، ورتب رسوم المملكة، وعلا عن التبذل للعامة، فكان يشبه بالوليد بن عبد الملك في أبهة الملك، وهو أول من جلب الماء العذب إلى قرطبة، وأدخله إليها، وجعل لفصل الماء مصنعاً كبيراً يرده الناس.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار المتوكل نحو المدائن، فدخل بغداد، وسار منها إلى المدائن، وغزا الصافقة علي بن يحيى الأرمني.

وفيهما مات إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، المعروف بابن راهويه، وكان إماماً عالمياً، وجرى له مع الشافعي مناظرة في يسوت مكة، وكان عمره سبعاً وسبعين سنة، ومحمد بن بكار المحدث.

ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج بالأندلس

وفي هذه السنة، في المحرم، كان بين المسلمين والفرنج حرب شديدة بالأندلس. (٧٤/٧)

وسبب ذلك أنّ أهل طليطلة كانوا على ما ذكرنا من الخلاف على محمد بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، وعلى أبيه من قبله، فلما كان الآن سار محمد في جيوشه إلى طليطلة، فلما سمع أهلها بذلك أرسلوا إلى ملك جليقية يستمدونه وإلى ملك بشكنس فامدّاهم بالساكنة الكثيرة.

فلما سمع محمد بذلك، وكان قد قارب طليطلة، عبّأ أصحابه، وقد كمن لهم الكمناء بناحية وادي سليط، وتقدّم هو إليهم في قلعة من العسكر، فلما رأى أهل طليطلة ذلك أعلموا الفرنج بقلعة عددهم، فسارعوا إلى قتالهم، وطمعوا فيهم، فلما تراءى الجمعان، وانتشبت القتال، خرجت الكمناء من كلّ جهة على المشركين وأهل طليطلة، فقتل منهم ما لا يحصى، وجمع من الرؤوس ثمانية آلاف رأس فرقت في البلاد، فذكر أهل طليطلة أنّ عدّة القتلى من الطائفين عشرون ألف قتيل، وبقيت جثث القتلى على وادي سليط دهرًا طويلاً.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عزل يحيى بن أكثم عن القضاء، وقُبض منه ما مبلغه خمسة وسبعون ألف دينار، وأربعة آلاف جريب بالبصرة. (٧٥/٧)

وفيها وليّ جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن عليّ قضاء القضاء؛ وحجّ بالناس هذه السنة عبد الله بن محمد بن داود، وكان على أحداث الموسم جعفر بن دينار.

وفيها توفي القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد في المحرم بعد ابنه أبي الوليد بعشرين يوماً، وكان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة، وأخذ ذلك عن بشر المريسي، وأخذه بشر من الجهم بن صفوان، وأخذه جهم من الجعد بن أدهم، وأخذه الجعد من أبان بن سمعان، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت ليبد الأعصم وختنه، وأخذه طالوت من ليبد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ وكان ليبد يقول بخلق التوراة، وأوّل من صنّف في ذلك طالوت، وكان زنديقاً، فأفشى الزندقة.

وفيها توفي قتيبة بن سعيد بن حميد أبو رجاء الثقفي وله تسعون سنة، وهو خراسانيّ من مشايخ البخاريّ، ومسلم، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من الأئمة، وتوفيّ أبو نور إبراهيم بن خالد البغداديّ الكلبيّ الفقيه، وهو من أصحاب الشافعيّ، وأبو عثمان محمد بن الشافعيّ، وكان قاضي الجزيرة جميعها، وروى عن أبيه،

وعن ابن عتبة، وقيل مات بعد سنة أربعين [ومائتين]. وكان للشافعيّ ولد آخر اسمه محمد مات بمصر سنة إحدى وثلاثين ومائتين. (٧٦/٧)

سنة إحدى وأربعين ومائتين

ذكر وثوب أهل جنص بماملهم

في هذه السنة وثب أهل جنص بماملهم محمد بن عبدوثة، وأعانهم عليه قوم من نصارى حمص، فكتب إلى المتوكّل بذلك، فكتب إليه يأمره بمناقضتهم، وأمدّه بجند من دمشق والرملة، فظفر بهم، فضرب منهم رجلين من رؤسائهم حتّى ماتا وصلبهما على باب حمص وسير ثمانية رجال من أشرافهم إلى المتوكّل، وظفر بعد ذلك بعشرة رجال من أعيانهم، فضرب أعناقهم، وأمره المتوكّل بإخراج النصارى منها، وهذم كنائسهم، وبإدخال البيعة التي إلى جانب الجامع إلى الجامع، ففعل ذلك.

ذكر الفداء بين المسلمين والروم

وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم، بعد أن قتلت تدورة ملكة الروم، من أسرى المسلمين اثني عشر ألفاً، فإنّها عرضت النصرانية على الأسرى، فمن تنصّر جعلته أسوة من قبله من المنتصرة، ومن أبى عقلته، وأرسلت (٧٧/٧) تطلب المفاداة لمن بقي منهم، فأرسل المتوكّل شنيفاً الخادم على الفداء، وطلب قاضي القضاء جعفر بن عبد الواحد أن يحضر الفداء، ويستخلف على القضاء من يقوم مقامه، فأذن له فحضره واستخلف على القضاء ابن أبي الشوارب، وهو شاب، ووقع الفداء على نهر اللامس، فكان أسرى المسلمين من الرجال سبع مائة وخمسة وثمانين رجلاً، ومن النساء مائة وخمسة وعشرين امرأة.

وفيها جعل المتوكّل كلّ كورة شمشاط عشريّة وكانت خراجيّة.

ذكر غارات البجاة بمصر

وفيها أغارت البجاة على أرض مصر، وكانت قبل ذلك لا تغزو بلاد الإسلام لهذه قديمة، وقد ذكرناها فيما مضى، وفي بلادهم معادن يقاسمون المسلمين عليها، ويؤدّون إلى عمال مصر نحو الخمس.

فلما كانت أيام المتوكّل امتنعت عن أداء ذلك، فكتب صاحب البريد بمصر بخبرهم، وأنهم قتلوا عدّة من المسلمين ممّن يعمل في المعادن، فهرب المسلمون منها خوفاً على أنفسهم، فأنكر المتوكّل ذلك، فشاور في أمرهم، فذكر له أنّهم أهل يادية، أصحاب إبل وماشية، وأنّ الوصول إلى بلادهم صعب لأنّها مفاز، وبين أرض الإسلام وبينها مسيرة شهر في أرض قفر وجبال وعرة، وأن

ذكر عدة حوادث

وفيهما مَطَرُ الناسِ بَسَامَراً مطراً شديداً في آب.

وقيل فيها: إنه أنهى إلى المتوكل أن عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم، صاحب خان عاصم ببغداد، يشتم أبا بكر، وعمر، وعائشة، وحَفْصَةَ، فكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أن يضربه بالسياط، فإذا مات رمى به في دجلة، ففعل ذلك وألقي في دجلة. (٨٠/٧)

وفيهما وقع بها الصدام فنفتت الدواب والبقر.

وفيهما أغارت الروم على عين زرية، فأخذت من كان بها أسيراً من الرُّطَّ مع نسايتهم وذرايعهم ودوابهم.

وفيهما أكثر محمد، صاحب الأندلس، من الرجال بقلعة رباح، وتلك النواحي، ليقفوا على أهل طليطلة، وسير الجيوش إلى غزو الفرنج مع موسى، فدخلوا بلادهم، ووصلوا إلى ألبنة والقلاع، وافتتحوا بعض حصونها وعادوا.

ومات في هذه السنة يعقوب بن إبراهيم، المعروف بقوصرة، صاحب بريد مصر والغرب، وحج بالناس عبد الله بن محمد بن داود؛ وحج جعفر ابن دينار، وهو والي الطريق وأحداث الموسم.

وفيهما كثر انقضاض النجوم، فكانت كثيرة لا تحصى، فبقيت ليلة من العشاء الآخرة إلى الصبح.

وفيهما كانت بالري زلزلة شديدة هدمت المساكن، ومات تحتها خلق كثير لا يحصون، وبقيت تردد فيها أربعين يوماً.

وفيهما خرجت ريح من بلاد الترك، فقتلت خلقاً كثيراً، وكان يصيهم بردها فيزكمون، فبلغت سرخس، ونيسابور، وقمذان، والري، فانتهدت إلى خلوان.

وفيهما توفي الإمام أحمد بن حنبل الشيباني الفقيه المحدث في شهر ربيع الأول. (٨١/٧)

سنة اثنتين وأربعين ومائتين

في هذه السنة كانت زلازل هائلة بقومس ورساتيقها في شعبان، فهدمت الدور، وهلك تحت الهدم بشر كثير، قيل كانت عدتهم خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً، وكان أكثر ذلك بالدامغان، وكان بالشام، وفارس، وخراسان في هذه السنة زلازل، وأصوات منكرة، وكان باليمن مثل ذلك مع خسف.

وفيهما خرجت الروم من ناحية سُمَيْسَاط بعد خروج علي بن يحيى الأرمني من الصائفة، حتى قاربوا أيد، وخرجوا من الثغور

كل من يدخلها من الجيوش يحتاج أن يتزوّد لمدة يتوهم أنه يقيمها إلى أن يخرج إلى بلاد الإسلام، فإن جاوز تلك المدة هلك، وأخذتهم البجاة باليد، وأن أرضهم لا ترد على سلطان شيئاً. (٧٨/٧)

فأمسك المتوكل عنهم، فطمعوا وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم منهم، فولّى المتوكل محمد بن عبد الله القمي محاربتهم، وولاه معونة تلك الكور، وهي قنط والأقصر وأسنا وأرمند وأسوان، وأمره بمحاربة البجاة، وكتب إلى عنبسة بن إسحاق الضبي، عامل حرب مصر، بإزاحة علته وإعطائه من الجند ما يحتاج إليه، ففعل ذلك.

وسار محمد إلى أرض البجاة وتبعه من يعمل في المعادن والمتطورة عالم كثير، فبلغت عدتهم نحواً من عشرين ألفاً بين فارس وراجل، ووجه إلى القلزم، فحمل في البحر سبعة مراكب موقورة بالدقيق، والزيت، والتمر، والشعير، والسويق، وأمر أصحابه أن يوافوه بها في ساحل البحر ممّا يلي بلاد البجاة وسار حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذهب، وسار إلى حصونهم وقلاعهم، وخرج إليه ملكهم، واسمه علي بابا، في جيش كثير أضعاف من مع القمي، فكانت البجاة على الإبل، وهي إبل فرّة تشبه المهاري، فتحاربوا أياماً، ولم يصدقهم علي بابا القتال لتطول الأيام، وتفتنى أزواد المسلمين وعلوفاتهم، فياخذهم بغير حرب، فأقبلت تلك المراكب التي فيها الأقوات في البحر، ففرّق القمي ما كان فيها في أصحابه فامتنعوا فيها.

فلما رأى علي بابا ذلك صدقهم القتال، وجمع لهم، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت إبلهم ذعرة تنفر من كل شيء، فلما رأى القمي ذلك جمع كل جرس في معسكره وجعلها في أعناق خيله، ثم حملوا على البجاة، فنشرت إبلهم لأصوات الأجراس، فحملتهم على الجبال والأودية، وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً، حتى أدركهم الليل، وذلك أول سنة إحدى وأربعين (٧٩/٧) ومائتين، ثم رجع إلى معسكره ولم يقدر على إحصاء القتلى لكثرتهم.

ثم إن ملكهم علي بابا طلب الأمان فأمته على أن يرد مملكته وبلاده، فأدى إليهم الخراج للمدة التي كان منعها، وهي أربع سنين، وسار مع القمي إلى المتوكل، واستخلف على مملكته ابنه بغش، فلما وصل إلى المتوكل خلع عليه وعلى أصحابه، وكسا جملة رجلاً مليحاً وجلال ديباج، وولّى المتوكل البجاة طريق مصر، ما بين مصر ومكة، سعداً الخادم الإيتاخي، فولّى الإيتاخي محمداً القمي، فرجع إليها ومعه علي بابا وهو على دينه، وكان معه صنم من حجارة كهينة الصبي يسجد له.

مائة رأس.

وفيها توفي شهيد بن عيسى بن مهيد الأندلسي، وكان من العلماء. (٨٤/٧)

وفيها توفي يعقوب بن إسحاق بن يوسف المعروف بابن السكيت، النحوي اللغوي، وقيل سنة أربع، وقيل خمس، وقيل ست وأربعين؛ والحاتر بن أسد المحاسبي أبو عبد الله الزاهد، وكان قد هجره الإمام أحمد بن حنبل لأجل الكلام، فاختفى لتعصب العامة لأحمد، فلم يصل عليه إلا أربعة نفر. (٨٥/٧)

سنة أربع وأربعين ومائتين

في هذه السنة دخل المتوكل مدينة دمشق في صفر. وعزم على المقام بها، ونقل دواوين الملك إليها، وأمر بالبناء بها، ثم استوبا بالبلد وذلك بأن هواء بارد ندي، والماء ثقیل، والريح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل، وهي كثيرة البراغيث؛ وغلت الأسعار، وحال الثلج بين السابلة والميرة، فرجع إلى سامراء، وكان مقامه بدمشق شهرين وآياماً، فلما كان بها وجه بُعا الكبير لغزو الروم، فغزا الصائفة فافتح صملة.

وفيها عقد المتوكل لأبي الساج على طريق مكة مكان جعفر بن دينار، وقيل عقد له سنة اثنتين وأربعين وهو الصواب.

وفيها أتي المتوكل بحرية كانت للنبي ﷺ تسمى العزرة، فكانت للنجاشي، فأهداها للزبير بن العوام، وأهداها الزبير للنبي ﷺ وهي التي كانت تركب بين يدي النبي ﷺ في العيدين، فكان يحملها بين يديه صاحب الشرطة.

وفيها غضب المتوكل على بخيششوع الطيب، وقبض ماله، ونفاه إلى البحرين.

وفيها اتفق عيد الأضحى والشعانين للنصارى، وعيد الفطر لليهود، في يوم واحد. وحج بالناس فيها عبد الصمد بن موسى. (٨٦/٧)

وفيها توفي إسحاق بن موسى بن عبد الله بن موسى الأنصاري؛ وعلي بن حجر السعدي المروزي وهما إمامان في الحديث؛ ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب؛ ومحمد بن عبد الله بن أبي عثمان بن عبد الله بن خالد بن أسيد ابن أبي العيص بن أمية القاضي في جمادى الأولى.

(أسيد بفتح الهزة). (٨٧/٧)

والجزرية فانتهبوا، وأسروا نحواً من عشرة آلاف، وكان دخولهم من ناحية أرين قرية قريباً من رجوعهم فخرج قريباً، وعمر بن عبد الله الأقطع، وقوم من المتطوعة في آثارهم، فلم يلحقهم، فكتب المتوكل إلى علي بن يحيى الأرمني أن يسير إلى بلادهم شاتياً.

وفيها قتل المتوكل رجلاً عطاراً، وكان نصرانياً فأسلم، فمكث مسلماً سنين كثيرة، ثم ارتد، واستيب، فأبى الرجوع إلى الإسلام، فقتل وأحرق.

وفيها سار محمد بن عبد الرحمن بالأندلس جيشاً إلى بلد المشركين، (٨٢/٧) فدخلوا إلى برشلونة، وحارب قلاعها وجازها إلى ما وراء أعمالها، فغنموا كثيراً، وافتتحوا حصناً من أعمال برشلونة يسمى طراجة، وهو من آخر حصون برشلونة.

وفيها مات أبو العباس محمد بن الأغلب، أمير إفريقية، عاشر المحرم، كان عمره ستاً وثلاثين سنة، وولي بعده ابنه أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، وقد ذكرنا ذلك سنة ست وعشرين ومائتين.

وفيها مات أبو حسان الزياتي قاضي الشرقية؛ ومات الحسن بن علي بن الجعيد قاضي مدينة المنصور، وحج بالناس عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام، وهو على مكة؛ وحج جعفر بن دينار على الطريق وأحداث الموسم؛ وتوفي القاضي يحيى بن أكرم التميمي بالرطنة عائد من الحج؛ ومحمد بن مقاتل الرازي، وأبو حصين يحيى بن سليم الرازي المحدث. (٨٣/٧)

سنة ثلاث وأربعين ومائتين

وفي هذه السنة سار المتوكل إلى دمشق في ذي القعدة على طريق الموصل، فضحى ببئذ فقال يزيد بن محمد المهلب:

أظن الشام تشمت بالعراق إذا عزم الإمام على انطلاق
فلأن يدع العراق وساكبه فقد تلى التليحة بالطلاق

وفيها مات إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي، وكان أديباً شاعراً، فولي ديوان الضياع الحسن بن مخلد بن الجراح، خليفة إبراهيم.

ومات عاصم بن منجور، وحج بالناس عبد الصمد بن موسى؛ وحج جعفر بن دينار وهو والي الطريق وأحداث الموسم.

وفيها خرج أهل طليطلة بجمعهم إلى طليطلة وعليها مسعود بن عبد الله العريف، فخرج إليهم فيمن معه من الجنود، فلقبهم فقاتلهم، فانهزم أهل طليطلة، وقتل أكثرهم، وحمل إلى قرطبة سبع

سنة خمس وأربعين ومائتين

نجاح عما قال، وهذه رقعة موسى والحسن يتقبلان بما كتبنا، فتأخذ ما ضمننا عليه، ثم تعطف عليهما فتأخذ منهما قريباً منه.

فَسَرَّ المتوكل بذلك، وأمر بدفعه إليهما، فأخذهما وأولاده، فأقروا بنحو (٨٩/٧) مائة وأربعين ألف دينار سوى الغلات، والغرس، والضياح، وغير ذلك، فقبض ذلك أجمع، وضرب، ثم عَصَرَت خَصِيَّتَاهُ حَتَّى مَاتَ، وأقر أولاده بعد الضرب بسبعين ألف دينار، سوى ما لهما من ملك وغيره، فأخذ الجميع وأخذ من وكلائه في جميع البلاد مال جزيل.

وفيهما أغارت الروم على سُمِيساط، فقتلوا، وسبوا، وأسروا خلقاً كثيراً، وغزا علي بن يحيى الأرميني الصائفة، ومنع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود إليها، فبعث إليهم ملك الروم بطريقاً يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على أن يسلموا إليه لؤلؤة، فأصعدوا البطريق إليهم، ثم أعطوا أرزاقهم الفاتية وما أرادوا، فسلموا لؤلؤة والبطريق إلى بلكا جور، فسيره إلى المتوكل فبذل ملك الروم في فدائه ألف مُسلم.

وحجَّ بالناس محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام يُعرف بالزيني وهو والي مكة.

وكان نيروز المتوكل الذي أرق أهل الخراج بتأخيره إياه عنهم لإحدى عشرة خلت من شهر ربيع الأول، ولسع عشرة خلت من حَزِيران، ولثمان وعشرين من أربيهشت، فقال البُخْترِي: إِنَّ يَوْمَ التَّيْرُوزِ عَادَ إِلَى الْعَهْدِ — لِذَلِكَ كَانَ سَنَةً أَزْفَتِيْرُ (٩٠/٧)

ذكر خروج الكفار بالأندلس إلى بلاد الإسلام

في هذه السنة خرج المَجُوس من بلاد الأندلس، في مراكب، إلى بلاد الإسلام، فأمر محمد بن عبد الرحمن، صاحب بلاد الإسلام، بإخراج العساكر إلى قتالهم، فوصلت مراكب المَجُوس إلى إشبيلية، فحلَّت بالجزيرة. ودخلت الحاضر إلى قتالهم، وأحرقَت المسجد الجامع، ثم جازت إلى العدو، فحلَّت بِنَاكُور، ثم عادت إلى الأندلس، فانهزم أهل تَدْيِير، ودخلوا حصن أريواله.

ثم تقدَّموا إلى حائط إفرنجة، وأغاروا، وأصابوا من النهب والسبي كثيراً ثم انصرفوا، فلقبتهم مراكب مجمَّد، فقاتلوهم، فأحرقوا مركبتين من مراكب الكفار، وأخذوا مركبتين آخريْن، فغنموا ما فيهما، فحَمِي الكفرة عند ذلك، وجدَّوا في القتال، فاستشهد جماعة من المسلمين، ومضت مراكب المَجُوس حَتَّى وصلت إلى مدينة بَنِيْلُونَة، فأصابوا صاحبها غرسة الفرنجي، فاقتدى نفسه منهم بسبعين ألف دينار.

وفها غزا عامل طَرَسُونَة إلى بَنِيْلُونَة، فاقتح حصن بيلسان

في هذه السنة أمر المتوكل ببناء الماخورة، وسماها الجعفرية، وأقطع القواد وأصحابه فيها، وجدَّ في بنائها، وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفي ألف دينار، وجمع فيها القراء، فقرؤوا، وحضرها أصحاب الملاهي، فوهب أكثر من ألفي ألف درهم، وكان يُسمِّيها هو وأصحابه المتوكلية، وبنى فيها قصراً سماه لؤلؤة لم يَر مثله في علوه، وحفر لها نهراً يسقي ما حولها، فقتل المتوكل، فبطل حفر النهر، وأُخْرِيت الجعفرية.

وفيهما زلزلت بلاد المغرب، فخربت الحصون، والمنازل، والقناطر، ففرَّق المتوكل ثلاثة آلاف ألف درهم فيمن أصيب بمنزله، وزلزل عسكر المهدي، والمدائن، وزلزل أنطاكية فقتل بها خلق كثير، فسقط منها ألف وخمس مائة دار، وسقط من سورها ثَيْف وتسعون برجاً، وسمعوا أصواتاً هائلة لا يحسنون وصفها، وتقطع جبلها الأقرع وسقط في البحر.

وهاج البحر ذلك اليوم، وارتفع منه دخان أسود مظلم متن، وغار منها نهر على فوسخ لا يُدرى أين ذهب، وسمع أهل ميسس، فيما قيل، صيحة دائمة هائلة، فمات منها خلق كثير، فترزلت ديار الجزيرة، والثغور، وطَرَسُوس وأذنة، وزلزلت الشام، فلم يسلم من أهل اللاذقية إلا اليسير، وهلك أهل جبلة. (٨٨/٧)

وفيهما غارت مُسَيَّاتُ عين مكة، فبلغ ثمن القرية درهماً، فبعث المتوكل مالاً، وأنفق عليها.

وفيهما مات إسحاق بن أبي إسرائيل، وهلال الرازي.

وفيهما هلك نجاح بن سلمة، وكان سبب هلاكه أنه كان على ديوان التوقيع، وتبَّع العمال، وكان على الضياح، فكان جميع العمال يتوقونه، ويقضون حوائجه، وكان المتوكل ربما ناداه، وكان الحسن بن مخلد، وموسى بن عبد الملك قد انقطعوا إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وزير المتوكل، وكان الحسن على ديوان الضياح، وموسى على ديوان الخراج، فكذب نجاح بن سلمة فيهما رقعة إلى المتوكل أنهما خانا وقصرا، وأنه يستخرج منهما أربعين ألف ألف؛ فقال له المتوكل: بَكَرْ غداً حَتَّى أدفعهما إليك. فقدا وقد رتب أصحابه لأخذهما، فلقبه عبيد الله بن يحيى الوزير، فقال له: أنا أشير عليك بمصالحتهما، وتكتب رقعة أنك كنت شارباً، وتكلَّمت ناسياً، وأنا أصليح بينكما، وأصلح الحال عند أمير المؤمنين. ولم يزل يخدعه حتى كتب خطه بذلك.

فلما كتب خطه صرفه، وأحضر الحسن وموسى، وعرفهما الحال، وأمرهما أن يكتبتا في نجاح وأصحابه بالقي ألف دينار، ففعلا، وأخذ الرقعتين وأدخلهما على المتوكل، وقال: قد رجع

وحج بالناس هذه السنة محمد بن سليمان الزبني، وضحى أهل سامراً يوم الاثنين على الرقبة، وأهل مكة يوم الثلاثاء. (٩٤/٧)

وفيها سار محمد بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، في جيوش عظيمة، وأهبة كثيرة إلى بلد بَنبُلونة فوطى بلادها، ودوخها، وخزبها، ونهبها، وقتل فيها فأكث، وافتتح حصن فيروس، وحصن فالحسن (?)، وحصن القشتل، وأصاب فيه فرتون بن غرسية، فحبسه بقرطبة عشرين سنة، ثم أطلقه إلى بلده، وكان عمره لما مات ستاً وتسعين سنة، وكان مقام محمد بأرض بَنبُلونة اثنين وثلاثين يوماً.

وفيها توفي وعُيِّل بن علي الخُزاعي الشاعر، وكان مولده سنة ثمان وأربعين ومائة، وكان يتشيع.

وفيها توفي السري بن مُعاذ الشيباني البلي، وكان أميراً عليها، حسن السيرة، من أهل الفضل؛ وتوفي أحمد بن إبراهيم الدُّورقي [ببغداد]، ومحمد بن سليمان الأسدي الملقَّب بكوين. (٩٥/٧)

سنة سبع وأربعين ومائتين

ذكر مقتل المتوكل

وفي هذه السنة قُتل المتوكل، وكان سبب قتله أنه أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصيف بأصبهان والجبل، وإقطاعها الفتح بن خاقان، فكتب وصارت إلى الخاتم، فبلغ ذلك وصيفاً، وكان المتوكل أراد أن يصلي بالناس أول جمعة في رمضان، وشاع في الناس واجتمعوا لذلك، وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القصص وكلامه إذا ركب.

فلما كان يوم الجمعة، وأراد الركوب للصلاة، قال له عُبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان: إنَّ الناس قد كثروا من أهل بيتك ومن غيرهم، فبعض متظلم، وبعض طالب حاجة، وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر، وعلَّة به، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمُر بعض ولاة المهود بالصلاة، وتكون معه، فليقبل.

فأمر المنتصر بالصلاة، فلما نهض للركوب قال له: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تأمر المعتز بالصلاة، فقد اجتمع الناس لتشرُفه بذلك، وقد بلغ الله به؛ وكان قد وُلد للمعتز قبل ذلك ولد، فأمر المعتز، فركب فصلَّى بالناس، وأقام المنتصر في داره بالجعفرية، فزاد ذلك في إغرائه. (٩٦/٧)

فلما فرغ المعتز من خطبته قام إليه عُبيد الله والفتح بن خاقان فقَبَلَا يديه ورجليه، فلما فرغ من الصلاة انصرف ومعه الناس في موكب الخلافة، حتَّى دخل على أبيه، فأنشأوا عليه عنده، فسره ذلك.

وسبى أهله، ثم كانت على المسلمين في اليوم الثاني وقعة استشهد فيها جماعة. (٩١/٧)

ذكر الحرب بين البربر وابن الأغلب بإفريقية

في هذه السنة كانت بين البربر وعسكر أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب وقعة عظيمة في جمادى الآخرة.

وسببها أن بربر لحيان امتنعوا على عامل طرابلس من أداء عُشورهم وصدقاتهم، وحاربوه فهزموه، فقصد لَبْدَة فحَصَّنْها، وسار إلى طرابلس، فسير إليه أحمد بن محمد الأمير جيشاً مع أخيه زيادة الله، فانهمز البربر، وقتل منهم خلق كثير، وسير زيادة الله الخيل في آثارهم، فقتل من أدرك منهم، وأسر جماعة، ففُزِرَتْ أعناقهم، وأُحرق ما كان في عسكرهم، فأذعن البربر بعدها، وأعطوا الرهن، وأدوا طاعتهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي يعقوب بن إسحاق النحوي المعروف بابن السكيت، وكان سبب موته أنه اتصل بالمتوكل، فقال له: أيما أحب إليك المعتز والمؤيد، أو الحسن والحسين؟ فتقصَّ ابنه، وذكر الحسن والحسين، عليهما السلام، بما هما أهل له، فأمر الأتراك فداسوا بطنه، فحُمِل إلى داره فمات.

وفيها توفي ذو النون المصري في ذي القعدة؛ وأبو تراب النخشي الصوفي، نهشته السباع فمات بالبادية؛ وأبو علي الحسين بن علي، المعروف بالكرايسي، صاحب الشافعي، وقيل مات سنة ثمان وأربعين [ومائتين]؛ وسوار بن عبد الله القاضي العنبري، وكان قد عمي. (٩٣/٧)

سنة سبت وأربعين ومائتين

وفيها غزا عمرو بن عبد الله الأقطع الصائفة، فأخرج سبعة عشر ألف رأس، وغزا قَرَبَاس، وأخرج خمسة آلاف رأس، وغزا الفضل بن قارن بحراً في عشرين مركباً، فافتتح حصن أنطاكية، وغزا بلكاجور، فغنم، وسبى، وغزا علي بن يحيى الأرمني، فأخرج خمسة آلاف رأس، ومن الدواب، والرَّمَك، والحمير، نحواً من عشرة آلاف رأس.

وفيها تحول المتوكل إلى الجعفرية.

وفيها كان الفداء على يد علي بن يحيى الأرمني، فقُودِي بِالْقَيْنِ وثلاثمائة وسبعة وستين نفساً.

وفيها مُطِر أهل بغداد نيفاً وعشرين يوماً، حتَّى نبت العشب فوق الأجاجير؛ وصلى المتوكل صلاة الفطر بالجعفرية، وورد الخبر أن سكة بناحية بلخ تُعرف بسكة الدهاقين مُطِرت دماً عبيطاً؛

قال: أعظم الله أجرك في سيدنا أمير المؤمنين، كان عبد الله دعاه فأجابه.

فجلس المتصر، وأمر بيباب البيت الذي قُتل فيه المتوكل فأُغلق، وأُغلقَت الأبواب كلها، وبعث إلى وصيف يأمره بإحضار المعتز والمؤيد عن رسالة المتوكل.

وأما كيفية قتل المتوكل، فإنه لما خرج المتصر دعا المتوكل بالمائدة، وكان بُغا الصغير المعروف بالشرابي قائماً عند السترة، وذلك اليوم كان نوبة بُغا الكبير، وكان خليفته في الدار ابنه موسى، وموسى هو ابن خالة المتوكل، وكان أبوه يومئذ بسميساط، فدخل بُغا الصغير إلى المجلس، فأمر الندماء بالانصراف إلى حجرهم، فقال له الفتح: ليس هذا وقت انصرافهم، وأمير المؤمنين لم يرتفع؛ فقال بُغا: إن أمير المؤمنين أمرني أنه إذا جاوز السبحة لا أترك أحداً، وقد شرب أربعة عشر رطلاً، وحرم أمير المؤمنين خلف الستارة. وأخرجهم، فلم يبق إلا الفتح وعتث، وأربعة من خدم الخاصة، وأبو أحمد بن المتوكل، وهو أخو المؤيد لأمه.

وكان بُغا الشرابي أغلق الأبواب كلها، إلا باب الشط، ومنه دخل القوم الذين قتلوه، فبصر بهم أبو أحمد، فقال: ما هذا يا سفل! وإذا سيوف مسللة، فلما سمع المتوكل صوت أبي أحمد رفع رأسه، فرأهم فقال: ما هذا يا بُغا؟ فقال: هؤلاء رجال النوبة؛ فرجعوا إلى ورائهم عند كلامه، ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف حضروا معهم، فقال لهم بُغا: يا سفل! أنتم مقتولون لا محالة، فموتوا كراماً! فرجعوا، فابندره بغلون فضربه على كتفه وأذنه فقتله، فقال: مهلاً! قطع الله يدك؛ وأراد الوثوب به، واستقبله بيده، فضره فأبانها، وشاركه باغر، فقال الفتح: ويلكم! أمير المؤمنين... روى (٩٧/٧) بنفسه على المتوكل، فبعجوه بسيوفهم، فصاح: الموت! وتنحى، فقتلوه.

وكانوا قالوا لوصيف ليحضر معهم، وقالوا: إنا نخاف؛ فقال: لا بأس عليكم، فقالوا له: أرسل معنا بعض ولدك، فأرسل معهم خمسة من ولده: صالحاً، وأحمد، وعبد الله، ونصرأ، وعبيد الله.

وقيل إن القوم لما دخلوا نظر إليهم عتث، فقال للمتوكل: قد فرغنا من الأسد، والحيات، والعقارب، وصبرنا إلى السيوف، وذلك أنه ربما أسلى الحية والعقرب والأسد، فلما ذكر عتث السيوف قال: يا ويلك! أي سيوف؟ فما استتم كلامه حتى دخلوا عليه وقتلوه، وقتلوا الفتح، وخرجوا إلى المتصر، فسلموا عليه بالخلافة، وقالوا: مات أمير المؤمنين، وقاموا على رأس زرافة بالسيوف، وقالوا: بايع، فبايع.

وأرسل المتصر إلى وصيف: إن الفتح قد قتل أبي فقتلته، فاحضر في وجه أصحابك! فحضر هو وأصحابه، فبايعوا. وكان

فلما كان عيد الفطر قال: مرؤا المتصر يصلي بالناس! فقال له عبيد الله: قد كان الناس يتظلمون إلى رؤية أمير المؤمنين، واحتشدوا لذلك؛ فلم يركب؛ ولا يأمن إن هو لم يركب اليوم، أن يُرجف الناس بعلته، فإذا رأى أمير المؤمنين أن يسر الأولياء، ويكب الأعداء بركوبه فليفعل.

فركب وقد صف له الناس نحو أربعة أميال، وترجلوا بين يديه، فصلى، ورجع، فأخذ حفنة من التراب، فوضعها على رأسه وقال: إني رأيت كثرة هذا الجمع، ورأيتهم تحت يدي، فأحببت أن أتواضع لله؛ فلما كان اليوم الثالث اقتصد، واشتهى لحم جَزور، فأكله، وكان قد حضر عنده ابن الحفصي وغيره، فأكلوا يسر يديه. قال: ولم يكن يوم أسر من ذلك اليوم، ودعا الندماء والمغنين، فحضرُوا، وأهدت له أم المعتز مطرف خز أخضر، لم ير الناس مثله، فنظر إليه، فأطال، وأكثر تعجبه منه، وأمر فقطع نصفين ورده عليها، وقال لرسولها: والله إن نفسي لتحدثني أني لا ألبسه، وما أحب أن يلبسه أحد بعدي، ولهذا أمرت بشقه.

قال فقلنا: نعيذك بالله أن تقول مثل هذا؛ قال: وأخذ في الشرب واللهو. ولج بأن يقول: أنا والله مفارقم عن قليل! ولم يزل في لهوه وسروره إلى الليل. (٩٧/٧)

وكان قد عزم هو والفتح أن يفتكا بكرة غد بالمتصر ووصيف وبُغا وغيرهم من قواد الأتراك، وقد كان المتصر واعد الأتراك ووصيفاً وغيره على قتل المتوكل.

وكثر عتب المتوكل، قبل ذلك يوم، بابنه المتصر، مرة يشتمه، ومرة يسقيه فوق طاقته، ومرة يأمر بصفه، ومرة يتهذه بالقتل، ثم قال للفتح: برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله ﷺ إن لم تلطمه، يعني المتصر، فقام إليه فطمه مرتين، ثم أمر يده على قفاه، ثم قال لمن حضره: اشهدوا علي جميعاً أنني قد خلعت المستعجل، يعني المتصر، ثم التفت إليه فقال: سميتك المتصر، فسماك الناس، ليحملك، المنتظر، ثم صرت الآن المستعجل.

فقال المتصر: لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل علي مما تفعله بي؛ فقال: اسقوه، ثم أمر بالعشاء فأحضر، وذلك في جوف الليل، فخرج المتصر من عنده، وأمر بُناناً غلام أحمد بن يحيى أن يلحقه، وأخذ بيد زرافة الحاجب، وقال له: امضي معي! فقال: إن أمير المؤمنين لم ينم، فقال: إنه قد أخذ منه النبيذ، والساعة يخرج بُغا والندماء، وقد أحببت أن تجعل أمر ولدك إلي، فإن أوتامش سألني أن أزوج ولده من ابنتك، وابنتك من ابنته؛ فقال: نحن عبيدك فمر بأمرك! فسار معه إلى حجرة هناك، وأكل طعاماً، فسمعما الضجة والصراخ، فقاما، وإذا بُغا قد لقي المتصر، فقال المتصر: (٩٨/٧) ما هذا؟ فقال: خير يا أمير المؤمنين، قال: ما تقول ويلك؟

عبيد الله بن يحيى في حجرته ينفذ الأمور ولا يعلم، وبين يديه جعفر بن حامد، إذ طلع عليه بعض الخدم فقال: ما يحبسك والدار سيف واحد؟ فأمر جعفرًا بالنظر، فخرج، وعاد وأخبره أنَّ المتوكل والفتح قتلا، فخرج فيمن عنده من خدمه وخاصته، فأخبر أنَّ الأبواب مغلقة، وأخذ نحو الشط، فإذا أبوابه مغلقة، فأمر بكسر ثلاث أبواب، وخرج إلى الشط، وركب في زورق، فأتى منزل المعتز، فسأل عنه، فلم يصادفه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قتل نفسه وقتلني.

واجتمع إلى عبيد الله أصحابه غداة يوم الأربعاء، من الأبناء والعجم، والأرمن والزواقل، وغيرهم، فكانوا زهاء عشرة آلاف، وقيل كانوا ثلاثة عشر ألفاً، وقيل ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف، فقالوا: ما اصطنعتنا إلا لهذا اليوم، فمَرْنَا بأمرك، وأذن لنا نَحِلَ على القوم ونَقْتُلَ المتصر ومن (١٠٠/٧) معه! فأبى ذلك، وقال: المعتز في أيديهم.

وذكر عن علي بن يحيى المنجم أنه قال: كنت أقرأ على المتوكل، قبل قتله بأيام، كتاباً من كتب الملاحم، فوقفت على موضع فيه أنَّ الخليفة العاشر يُقتل في مجلسه، فتوقفت عن قراءته، فقال: ما لك؟ فقلت: خيراً! قال: لا بُدَّ من أن نقرأه، فقرأته، وحدث عن ذكر الخلفاء، فقال: ليت شعري من هذا الشقيِّ المقتول؟ فقال أبو الوارث، قاضي نصيبين: رأيت في النوم آتياً وهو يقول:

يا نائِمَ العَيْنِ فِي جُثْمَانٍ يَقْظَانِ مَا بَالُ عَيْسِكَ لَا تَكْبِي بَهْشَانِ
أَمَا رَأَيْتَ صُرُوفَ الدَّعْرِ مَا فَعَلْتُ بِالْهَاشِمِيِّ وَالْفَتْحِ بَنِ خَاقَانِ؟
فأتى البريد بعد أيام بقتلهما.

وكان قتله ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال، وقيل ليلة الخميس؛ وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام، وكان مولده بضم الصلح في شوال سنة ست ومائتين، وكان عمره نحو أربعين سنة.

وكان أسمر، حسن العينين، نحيفاً، خفيف العارضتين، ورشاه الشعراء فأكثروا، ومما قيل فيه قول علي بن الجهم:

عبيد أمير المؤمنين قتلته وأعظم آفات الملوك عيبتها
بني هاشم صبراً، فكل مُصيبة سبلى على وجه الزمان جديتها

(١٠١/٧) ذكر بعض سيرته

ذكر أنَّ أبا الشمط مروان بن أبي الجنوب قال: أنشدت المتوكل شعراً ذكرت فيه الرافضة فقد لي على البحرين واليمامة، وخلع علي أربع خلع، وخلع علي المتصر، وأمر لي المتوكل بثلاثة آلاف دينار، فنشرت علي، وأمر ابنه المتصر وسعدا الإياخي أن يلقطاهما لي، ففعلا، والشعر الذي قلته:

وقدم في هذه السنة محمد بن عبد الله بن طاهر من مكة في صفر فشكا ما ناله من الغم بما وقع من الخلاف في يوم النحر، فأمر المتوكل بإفناذ خريطة من الباب إلى أهل الموسم بروية هلال ذي الحجة، وأمر أن يقام على المشعر الحرام، وسائر المشاعر، الشمع مكان الزيت والنقطة.

لأحضر الأمير المعتز ليبايع.

فدخل، ثم خرج، فادخلني على المعتز، فقال لي: ويلك ما الخير؟ فأخبرته، وعزّيته ويكيّت وقلت: تحضر، وتكون في أوّل من يبايع، وتأخذ بقلب أخيك، فقال: حتّى يصبح، فما زلتُ به أنا ويبدون حتّى ركب، ومرنا وأنا أحدثه، فسألني عن عُبيد الله بن يحيى، فقلت: هو يأخذ البيعة على الناس، والفتح قد بايع، فأيس، وأتينا باب الخير، ففتح لنا، وصرنا إلى المنتصر، فلمّا رآه قرّبه، وعانقه، وعزّاه، وأخذ البيعة عليه.

ثم وافى سعيد الكبير بالمؤيد، ففعل به مثل ذلك، فأصبح الناس، وأمر المنتصر بدفن المتوكل والفتح.

ولمّا أصبح الناس شاع الخبر في الماخورة، وهي المدينة التي كان بناها المتوكل، وفي أهل سامراء، بقتل المتوكل، فتوافى الجند والشافعية باب العامة والجعفرية، وغيرهم من الفوغاء والعامة، وكثر الناس، وتسامعوا، وركب بعضهم بعضاً، وتكلّموا في أمر البيعة، فخرج إليهم عتاب بن عتاب، وقيل زرافة، فوعدهم عن أمير المؤمنين المنتصر، فاسمعوه، فدخل عليه فاعلمه، فخرج المنتصر وبين يديه جماعة من المغاربة، فصاح بهم وقال: خذوهم! فدفعوهم إلى الأبواب، فازدحم الناس وركب بعضهم بعضاً، ففرّقوا وقد مات منهم ستّة أنفس. (١٠٦/٧)

ذكر ولاية خفاجة بن سفيان صقلية وابنه محمد وغزواتهما

قد ذكرنا سنة ست وثلاثين ومائتين أنّ أمير صقلية العباس توفي سنة سبع وأربعين، فلمّا توفى ولّى الناس عليهم ابنه عبد الله بن العباس، وكتبوا إلى الأمير إفريقية بذلك، وأخرج عبد الله السرايا، ففتح قلاعاً متعدّدة منها: جبل أبي مالك وقلعة الأرمنين وقلعة المشاعة، فبقي كذلك خمسة أشهر.

ووصل من إفريقية خفاجة بن سفيان أميراً على صقلية، فوصل في جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين ومائتين، فأول سرية أخرجها سرية فيها ولده محمود، فقصده سرقوسة فغنم، وخرب وأحرق، وخرجوا إليه فقاتلهم فظفر، وعاد فاستأمن إليه أهل رغوس؛ وقد جاء سنة اثنتين وخمسين أن أهل رغوس استأمنوا فيها، على ما نذكره، ولا نعلم أهذا اختلاف من المؤرخين أم هما غزاتان، ويكون أهلها قد غدروا بعد هذه الدفعة، والله أعلم.

وفي سنة خمسين ومائتين قُتحت مدينة نوطس، وسبب ذلك أنّ بعض أهلها أخبر المسلمين بموضع دخلوا إلى البلد في المحرم، فغنموا منها أموالاً (١٠٧/٧) جليلة، ثم فتحوا شكلة بعد حصار.

وفي سنة اثنتين وخمسين ومائتين سار خفاجة إلى سرقوسة،

وفيهما ماتت أم المتوكل في شهر ربيع الآخر، وصلى عليها المنتصر، ودُفنت عند المسجد الجامع، وكان موتها قبل المتوكل بستّة أشهر.

ذكر بيعة المنتصر

قد ذكرنا قتل المتوكل، ومن بايع المنتصر أبا جعفر محمد بن جعفر المتوكل تلك الليلة، فلمّا أصبح يوم الأربعاء حضر الناس الجعفرية من القواد، والكتاب، والوجوه والشافعية، والجند، وغيرهم، فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب كتاباً يخبر فيه عن المنتصر أنّ الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتله به، فبايع الناس، وحضر عُبيد الله بن يحيى بن خاقان، فبايع وانصرف.

قيل وذكر عن أبي عثمان سعيد الصغير أنّه قال: لمّا كانت الليلة التي قُتل فيها المتوكل، كنّا في الدار مع المنتصر، فكان كلّما خرج الفتح خرج (١٠٤/٧) معه، وإذا رجع قام لقيامه، وإذا ركب أخذ بركابه، وسوى عليه ثيابه في سرجه.

وكان اتصل بنا الخبر أنّ عُبيد الله بن يحيى قد أعدّ قوماً في طريق المنتصر، ليغتالوه عند انصرافه، وكان المتوكل قد أسمعه، وأحفظه، ووثب عليه، وانصرف غضبان، وانصرفنا معه إلى داره، وكان واعد الأتراك على قتل المتوكل إذا ثمل من النيد، قال: فلم ألبث أن جاءني رسوله أن احضر، فقد جاءت رسل أمير المؤمنين إلى الأمير ليركب. قال: فوقع في نفسي ما كنّا سمعنا من اغتيال المنتصر، فركبت في سلاح وعدة، وجئتُ باب المنتصر، فإذا هم يمجون، وإذا واجن قد جاءه فأخبره أنّهم قد فرغوا من المتوكل، فركب فلحقته في بعض الطريق وأنا مرعوب، فرأى ما بي، فقال: ليس عليك بأس؛ أمير المؤمنين قد شرب بقدر شربه فمات، رحمه الله تعالى.

فشقّ عليّ، ومضينا معنا أحمد بن الخصيب وجماعة من القواد حتّى دخلنا القصر، ووكل بالأبواب، فقلتُ له: يا أمير المؤمنين! لا ينبغي أن تفارقك موابك في هذا الوقت. قال: أجل، وكُنْ أنت خلف ظهري، فاحطنا به، وبايعه من حضر، وكلّ من جاء يؤقّف، حتّى جاء سعيد الكبير، فأرسله خلف المؤيد، وقال لي: امض أنت إلى المعتز حتّى يحضر، فأرسلني، فمضيتُ وأنا آيس من نفسي، ومعى غلامان لي، فلمّا صرْتُ إلى باب المعتز لم أجد به أحداً من الحرس والبوابين، فصرْتُ إلى الباب (١٠٥/٧) الكبير، فدققتُه دقّاً عنيقاً، فأجبتُ بعد مدة: من أنت؟ فقلتُ: رسول أمير المؤمنين المنتصر؛ فمضى الرسول، وأبطأ، وخفتُ، وضائق عليّ الأرض، ثم فتح الباب، وخرج يبدون الخادم، وأغلق الباب، ثم سألني عن الخبر، فأخبرته أنّ المتوكل شرب بكاس شربه، فمات من ساعته، وأنّ الناس قد اجتمعوا، وبايعوا المنتصر، وقد أرسلني

ثم إلى جبل النار، فاتاه رُسُل أهل طَبَرِيَّين يطلبون الأمان، فأرسل إليهم امرأته وولده في ذلك، فتم الأمر، ثم غدروا، فأرسل خفاجة محمداً في جيش إليها، ففتحها وسبى أهلها.

وفيها أيضاً سار خفاجة إلى رغوس، فطلب أهلها الأمان ليطلق رجل من أهلها بأموالهم، ودوابهم، ويغتم الباقي، ففعل وأخذ جميع ما في الحصن من مال، ورقيق، ودواب، وغير ذلك، وهادنه أهل الغيران وغيرهم، وافتتح حصوناً كثيرة، ثم مرض، فعاد إلى بَلَرَم.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين سار خفاجة من بَلَرَم إلى مدينة سَرَقُوسَة وقطانية، وخرب بلادها، وأهلك زروعها، وعاد وسارت سراياه إلى أرض صِقْلِيَّة، فغنموا غنائم كثيرة.

وفي سنة أربع وخمسين ومائتين سار خفاجة في العشرين من ربيع الأول، وسير ابنه محمداً على الحَرَاقَات، وسير سرية إلى سَرَقُوسَة فغنموا، وأتاهم الخبر أن بطريقاً قد سار من القُسْطَنْطِينِيَّة في جمع كثير، فوصل إلى صِقْلِيَّة، فلقية جمع من المسلمين فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الروم، وقُتل منهم خلق كثير، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة؛ ورحل خفاجة إلى سَرَقُوسَة فأفسد زرعها، وغنم منها، وعاد إلى بَلَرَم، وسير ابنه محمداً في البحر، مستهل رجب، إلى مدينة غَيْطَة، فحصرها، وبث العساكر في نواحيها، فغنم (١٠٨/٧) وشنحن مراكبه بالغنائم، وانصرف إلى بَلَرَم في شوال.

وفي سنة خمس وخمسين ومائتين سير خفاجة ابنه محمداً إلى مدينة طَبَرِيَّين، وهي من أحسن مدن صِقْلِيَّة، فسار في صفَر إليها، وكان قد أتاهم من وعدهم أن يُدخلهم إليها من طريق يعرفه، فسيّره مع ولده، فلما قربوا منها تأخر محمداً، وتقدّم بعض عسكره رجالة مع الدليل، فأدخلهم المدينة، وملكوا بابها وسورها، وشرعوا في السبي والغنائم، وتأخر محمداً بن خفاجة فيمن معه من العسكر عن الوقت الذي وعدهم أنه يأتيهم فيه، فلما تأخر عنهم ظنوا أن العدو قد أوقع بهم فمنعهم من السبي، فخرجوا عنها منهزمين، ووصل محمداً إلى باب المدينة ومن معه من العسكر، فرأى المسلمين قد خرجوا منها، فعاد راجعاً.

وفيها سنة خمس وخمسين ومائتين سير خفاجة ابنه محمداً إلى مدينة طَبَرِيَّين، وهي من أحسن مدن صِقْلِيَّة، فسار في صفَر إليها، وكان قد أتاهم من وعدهم أن يُدخلهم إليها من طريق يعرفه، فسيّره مع ولده، فلما قربوا منها تأخر محمداً، وتقدّم بعض عسكره رجالة مع الدليل، فأدخلهم المدينة، وملكوا بابها وسورها، وشرعوا في السبي والغنائم، وتأخر محمداً بن خفاجة فيمن معه من العسكر عن الوقت الذي وعدهم أنه يأتيهم فيه، فلما تأخر عنهم ظنوا أن العدو قد أوقع بهم فمنعهم من السبي، فخرجوا عنها منهزمين، ووصل محمداً إلى باب المدينة ومن معه من العسكر، فرأى المسلمين قد خرجوا منها، فعاد راجعاً.

سنة ثمان وأربعين ومائتين

ذكر غزاة وصيف الروم

في هذه السنة أغزى المتصرف وصيفاً تركي إلى بلاد الروم؛ وكان سبب ذلك أنه كان بينه وبين أحمد بن الخَصِيب شحنة وتباغض، فحرّض أحمد بن الخَصِيب المتصرف على وصيف، وأشار عليه بإخراجه من عسكره للغزاة، فأمر المتصرف بإحضار وصيف، فلما حضر قال له: قد أتانا عن طاغية الروم أنه أقبل يريد الثغر، وهذا أمر لا يمكن الإمساك عنه، ولست آمنه أن يهلك كل ما مر به من بلاد الإسلام، ويقتل ويسبي، فأنا شخصت أنت، وإنا شخصت أنا.

وفي سنة أربع وخمسين ومائتين سار خفاجة في العشرين من ربيع الأول، وسير ابنه محمداً على الحَرَاقَات، وسير سرية إلى سَرَقُوسَة فغنموا، وأتاهم الخبر أن بطريقاً قد سار من القُسْطَنْطِينِيَّة في جمع كثير، فوصل إلى صِقْلِيَّة، فلقية جمع من المسلمين فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الروم، وقُتل منهم خلق كثير، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة؛ ورحل خفاجة إلى سَرَقُوسَة فأفسد زرعها، وغنم منها، وعاد إلى بَلَرَم، وسير ابنه محمداً في البحر، مستهل رجب، إلى مدينة غَيْطَة، فحصرها، وبث العساكر في نواحيها، فغنم (١٠٨/٧) وشنحن مراكبه بالغنائم، وانصرف إلى بَلَرَم في شوال.

وفي سنة خمس وخمسين ومائتين سير خفاجة ابنه محمداً إلى مدينة طَبَرِيَّين، وهي من أحسن مدن صِقْلِيَّة، فسار في صفَر إليها، وكان قد أتاهم من وعدهم أن يُدخلهم إليها من طريق يعرفه، فسيّره مع ولده، فلما قربوا منها تأخر محمداً، وتقدّم بعض عسكره رجالة مع الدليل، فأدخلهم المدينة، وملكوا بابها وسورها، وشرعوا في السبي والغنائم، وتأخر محمداً بن خفاجة فيمن معه من العسكر عن الوقت الذي وعدهم أنه يأتيهم فيه، فلما تأخر عنهم ظنوا أن العدو قد أوقع بهم فمنعهم من السبي، فخرجوا عنها منهزمين، ووصل محمداً إلى باب المدينة ومن معه من العسكر، فرأى المسلمين قد خرجوا منها، فعاد راجعاً.

وفيها في ربيع الأول خرج خفاجة وسار إلى مرسة، وسير ابنه في جماعة كثيرة إلى سَرَقُوسَة، فلقية العدو في جمع كثير فاقتتلوا، فوهن المسلمون، وقُتل منهم، ورجعوا إلى خفاجة، فسار إلى سَرَقُوسَة فحصرها، وأقام عليها، وضيق على أهلها، وأفسد بلادها، وأهلك زرعهم، وعاد عنها يريد بَلَرَم، فنزل بوادي الطّين وسار منه ليلاً، فاغتاله رجل من عسكره، فطعنه طعنة فقتله، وذلك مستهل رجب، وهرب الذي قتله إلى سَرَقُوسَة، وحُمل خفاجة إلى بَلَرَم،

اكتب بخطك خلعتك! فامتنع، فقال المؤيد للكتاب: هات قرطاسك! أملى علي ما شئت، فأملى عليه كتاباً إلى المتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الأمر، وأن لا يحلّ له أن يتقلده، وكره أن يائمه المتوكل بسببه، إذ لم يكن موضعاً له، ويسأله الخلع، ويعلمه أنه قد خلع نفسه، وأحلّ الناس من بيعته، فكتب ذلك، وقال للمعتز: اكتب! فأبى، فقال: اكتب ويحك! [فكتب] وأخرج الكتاب عنهما، ثم دعهما، فدخل على المتصر، فأجلسهما وقال: هذا كتابكما؟ فقالا: نعم يا أمير المؤمنين. فقال لهما، والأترك وقوف: أتراني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبابع له؟ واللّه ما طمعت في ذلك ساعة قط، وإذا لم يكن [لي] في ذلك طمع فواللّه لأن يليها بنو أبي أحبّ إليّ من أن يليها بنو عمّي، ولكنّ هؤلاء، وأوماً إلى سائر الموالى ممّن هو قائم عنده وقاعد، ألحوا عليّ فسي خلعتكما، فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما، فما ترياني صانعاً [إذن]؟ أقتله! فواللّه ما نفي دماؤهم (١١٤/٧) كلهم بدم بعضكم. فكانت إجابتهما إلى ما سألوا أسهل عليّ.

فقبلاً يده وضمّهما، ثمّ إنهما أشهدا على أنفسهما القضاة، وبني هاشم، والقواد، ووجوه الناس، وغيرهم، بالخلع، وكتب بذلك المتصر إلى محمّد بن عبد الله بن طاهر وإلى غيره.

ذكر موت المتصر

في هذه السنة توفي المتصر في يوم الأحد لخمس خلون من ربيع الآخر وقيل يوم السبت وكنيته أبو جعفر أحمد بن المتوكل على الله، وقيل كنيته أبو العباس، وقيل أبو عبد الله.

وكانت علته الذبحة في حلقه أخذته يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول؛ وقيل كانت علته من ورم في معدته، ثم صعد إلى فؤاده فمات، وكانت علته ثلاثة أيام.

وقيل إنّه وجد حرارة، فدعا بعض أطبائه، فقصده بمبضع مسموم، فمات منه، وانصرف الطبيب إلى منزله وقد وجد حرارة، فدعا تلميذاً ليفصده، ووضع مباضعه بين يديه ليستخير أجودها، فاختار ذلك المبضع المسموم، وقد نسيه الطبيب، فقصده به، فلمّا فرغ نظر إليه فعرّفه، فأيقن بالهلاك، ووصّى من ساعته.

وقيل إنّه كان وجد في رأسه علة، فقطر ابن الطيفوري في أذنه دهناً، فورم رأسه، فمات. (١١٥/٧)

وقيل: بل سمّه ابن الطيفوري في محاجمه فمات.

وقيل: كان كثير من الناس حين أقضت الخلافة إليه إلى أن مات يقولون: إنّما ملّة حياته ستّة أشهر، مُدّة شيرويه بن كسرى، قاتل أبيه؛ يقولها الخاصّة والعامة.

فقال: بل أشخص أنا، يا أمير المؤمنين. فقال لأحمد بن الخصيب: انظر إلى ما يحتاج إليه وصيف فاتمه له. فقال: نعم، يا أمير المؤمنين! قال: ما نعم؟ قم الساعة! وقال لوصيف: مرّ كتابك أن يوافقه على ما يحتاج إليه ويلزمه حتى يفرغ منه. فقاما.

ولم يزل أحمد بن الخصيب في جهازه، حتى خرج، وانتخب له الرجال، فكان معه اثنا عشر ألف رجل، وكان على مقدّمته مراحم بن خاقان، أخو الفتح، وكتب المتصر إلى محمّد بن عبد الله بن طاهر ببغداد يعلمه ذلك، ويسأله (١١٢/٧) أن يشتدب الناس إلى الغزاة، ويرغبهم فيها، وأمر وصيفاً أن يوافي نجر مغلّطية، وجعل على نفقات العسكر، والمغانم، والمقاسم أبا الوليد الحريريّ البجليّ؛ ولمّا سار وصيف كتب إليه المتصر يأمره بالمقام بالثغر أربع سنين يغزو في أوقات الغزو منها إلى أن يأتيه رايه.

ذكر خلع المعتز والمؤيد

وفي هذه السنة خلع المعتز والمؤيد ابنا المتوكل من ولاية العهد؛ وكان سبب خلعهما أنّ المتصر لمّا استقامت له الأمور، قال أحمد بن الخصيب لوصيف: إنّنا لا نأمن الحذّان، وأن يموت أمير المؤمنين، فيلي المعتز الخلافة، فيبيد خضرأنا، ولا يبقى منا باقية؛ والآن الراي أن نعمل في خلع المعتز والمؤيد.

فجدّ الأتراك في ذلك، وألحوا على المتصر، وقالوا: نخلعهما من الخلافة، ونبايع لابنك عبد الوهاب؛ فلم يزالوا به حتى أجابهم، وأحضر المعتز والمؤيد، بعد أربعين يوماً من خلافته، وجعلا في دار، فقال المعتز للمؤيد: يا أخي، قد أحضرنا للخلع؛ فقال: لا أظنه يفعل ذلك.

فبينما هما كذلك إذ جاءت الرسل بالخلع، فقال المؤيد: السمع والطاعة؛ فقال المعتز: ما كنت لأفعل، فإن أردتم القتل فشانكم؛ فأعلموا المتصر، ثمّ عادوا بغلظة وشدة، وأخذوا المعتز بعنّف، وأدخلوه بيتاً، وأغلّقوا عليه الباب، فلمّا رأى المؤيد ذلك قال لهم بجرأة واستطالة: ما هذا يا كلاب؟ قد ضربتم على دمائنا، تثبون على مولاكم هذا الوثوب، دعوني وإياه حتى أكلّمه! (١١٣/٧) فسكتوا عنه، وأذنوا له في الاجتماع به بعد إذن من المتصر بذلك.

فدخل عليه المؤيد وقال: يا جاهل تراهم نالوا من أهلك، وهو هو، ما نالوا، ثمّ تمتنع عليهم؟ اخلع ويحك، لا تراجعهم! فقال: وكيف أخلع وقد جرى في الآفاق؟ فقال: هذا الأمر قتل أباك، وهو يقتلك، وإن كان في سابق علم الله أن تلي لتلين. فقال: أفعل.

فخرج المؤيد وقال: قد أجاب إلى الخلع، ففضوا، وأعلموا المتصر، وعادوا فشكروه، ومعهم كاتب، فجلس، فقال للمعتز:

ذكر خلافة المستعين

وفي هذه السنة بويح أحمد بن محمد بن المعتصم بالخلافة؛ وكان سبب ذلك أنَّ المتتصر لما توفي اجتمع الموالي على الهارونية من الغد، وفيها بُعَا الكبير، وبُعَا الصغير، وأتامش، وغيرهم، فاستحلوا قَوَاد الأتراك، والمغاربة، والأشروسنية على أن يرضوا بمن رضي به بُعَا الكبير، وبُعَا الصغير، وأتامش، وذلك بتدبير أحمد بن الخصيب، فحلّوا، وتشاوروا، وكرهوا أن يتولّى الخلافة أحد من ولد المتوكل لئلا يفتالهم، وأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم، وقالوا: لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم، فبايعوه ليلة الاثنين لستَ خلون من ربيع الآخر وهو ابن ثمان وعشرين سنة، ويكنى أبا العباس، فاستكتب أحمد بن الخصيب، واستوزر أتامش.

فلما كان يوم الاثنين سار المستعين إلى دار العامة في زِيّ الخلافة، وحمل إبراهيم بن إسحاق بين يديه الحرية، وصفّ واجن الأشروسني أصحابه صفين، وقام هو وعدة من وجوه أصحابه، وحضر الدار أصحاب المراتب من العباسيين والطلبين وغيرهم.

فبينما هم كذلك إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق، وإذا نحو من خمسين فارساً ذكروا أنهم من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر، ومعهم غيرهم من أخلاط الناس والغوغاء والسوق، فشهروا السلاح، وصاحوا: فخير، يا منصور! وشدّوا على أصحاب الأشروسني فتضعضوا، وانضمّ بعضهم إلى بعض، وتحرك مَنْ على باب العامة من البيضة والشاركية، (١١٨/٧) وكثروا، فحمل عليهم المغاربة، وبعض الأشروسنية، فهزمهم حتى أدخلوهم درب زرافة؛ ثم نشبت الحرب بينهم، فقتل جماعة، وانصرف الأتراك بعد ثلاث ساعات وقد بايعوا المستعين هم ومن حضر من الهاشميين وغيرهم.

ودخل الغوغاء والمنتبهة دار العامة، فانتهبوا الخزانة التي فيها السلاح، والدروع، والجواشن، والسيوف، والستراس، وغير ذلك؛ وكان الذين نهبوا ذلك الغوغاء، وأصحاب الحمامات، وغلّمان أصحاب الباقلي، وأصحاب الفُقاع، فأتاهم بُعَا الكبير في جماعة فأجلوهم عن الخزانة، وقتلوا منهم عدة، وكثر القتل من الفريقين، وتحرك أهل السجن بسامراً، وهرب منهم جماعة، ثم وضع العطاء على البيعة، وبعث بكتاب البيعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، فبايع له هو والناس ببغداد.

ذكر ابن مسكويه في كتاب تجارب الأمم أنَّ المستعين أخو المتوكل لأبيه، وليس هو كذلك، إنما هو ولد أخيه محمد بن المعتصم، والله أعلم.

وقيل إنَّ المتتصر كان نائماً في بعض الأيام، فانتبه وهو يبكي ويتحب، فسمعه عبد الله بن عمر البازيار، فاتاه، فسأله عن سبب بكائه، فقال: كنت نائماً، فرأيت فيما يرى النائم كأنَّ المتوكل قد جاءني فقال: ويحك يا محمد! قتلتي، وظلمتني، وغبتني خلافتي، والله لا مُتعت بها بعدي إلا أياماً يسيرة، ثم مصيرك إلى النار؛ فقال عبد الله: هذه رؤيا، وهي تصدق وتكذب، بل يعمرك الله، ويسرك، ادعُ بالنبيذ وخذ في اللهو لا تعباً بها. ففعل ذلك ولم يزل منكسراً إلى أن توفي.

قال بعضهم: وذُكر أنَّ المتتصر كان شاور في قتل أبيه جماعة من الفقهاء، وأعلمهم بمذاهبه، وحكى عن أموراً قبيحة كرهت ذكراً، فأشاروا بقتله، فكان كما ذكرنا بعضه.

وكان عمره خمساً وعشرين سنة وستة أشهر، وقيل أربعاً وعشرين سنة، وكانت خلافته ستة أشهر ويومين، وقيل كانت ستة أشهر سواء، وكانت وفاته بسامراً، فلما حضرته الوفاة أنشد: وما فرحت نفسي بثنيا اخترتها ولكن إلى الرب الكريم أصير وصلى عليه أحمد بن محمد بن المعتصم بسامراً، وبها كان مولده، وكان أعين، أقنى، قصيراً، مهيباً، وهو أوّل خليفة من بني العباس عُرف قبره، وذلك أنَّ أمّه طلبت إظهار قبره، وكانت أمّه أم ولد رومية. (١١٦/٧)

ذكر بعض سيرته

كان المتتصر عظيمَ الجلم، راجحَ العقل، غزيرَ المعروف، راغباً في الخير، جواداً، كثيرَ الإنصاف، حسنَ العشرة، وأمر الناس بزيارة قبر عليّ والحسين عليهما السلام، فأمن العلويين، وكانوا خائفين أيام أبيه، وأطلق وقوفهم، وأمر برّد فدك إلى ولد الحسين والحسن ابني عليّ بن أبي طالب، عليه السلام.

وذُكر أنَّ المتتصر لما وليّ الخلافة كان أوّل ما أحدث أن عزل صالح بن عليّ عن المدينة واستعمل عليها عليّ بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد.

قال عليّ فلما دخلتُ أودعه قال لي: يا عليّ! إنّي أوجهك إلى لحمي ودمي، ومدّ ساعده وقال: إلى هذا أوجه بك، فانظر كيف تكون للقرم، وكيف تعاملهم، يعني إلى آل أبي طالب. فقال: أرجو أن امثل أمر أمير المؤمنين، إن شاء الله تعالى، فقال: إذا تسعد عندي.

ومن كلامه: والله ما عزّ ذو باطل ولو طلع القمر من جيبيه، ولا ذلّ ذو حقّ ولو أصفق العالم عليه. (١١٧/٧)

ذكر عدة حوادث

وفيها رد على المستعين وفاة طاهر بن عبد الله بن طاهر بخراسان في رجب، فعقد المستعين لابنه محمد بن طاهر على خراسان، فلمحمد بن عبد الله بن طاهر على العراق، وجعل إليه الحرمين، والشرطة، ومعاون السواد، وأفرده به.

وفيها مات بُغا الكبير، فعقد لابنه موسى على أعمال أبيه كلها، وولي ديوان البريد. (١١٩/٧)

وفيها وجّه أنوجور التركي إلى أبي العمود الثعلبي، فقتله بكفرتوتى لخمس بقين من ربيع الآخر.

وفيها خرج عُبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى الحج، فوجّه خلفه رسول ينفية إلى بركة، ويمنعه من الحج.

وفيها ابتاع المستعين من المعتز والمؤيد جميع مالهما وأشهدا عليهما القضاة والفقهاء، وكان الشراء باسم الحسن بن المخلد للمستعين، وترك للمعتز ما يتحصل منه في السنة عشرون ألف دينار، وللمؤيد ما يتحصل منه في السنة خمسة آلاف دينار، وجُعلا في حجرة في الجوسق، ووُكِّلَ بهما، وكان الأتراك حين شغب الفوغاء أرادوا قتلهم، فمنعهم أحمد بن الخصيب وقال: لا ذنب لهما، ولكن احبسوهما، فحبسوهما.

وفيها غضب الموالي على أحمد بن الخصيب في جمادى الآخرة، واستصفي ماله ومال ولده، ونُفي إلى إربيطش.

وفيها صُرف علي بن يحيى الأرمني عن الثغور الشامية، وعُقد له على أرمينية وأذربيجان في شهر رمضان.

وفيها شغب أهل جمص على كيدر عايلهم فأخرجوه، فوجّه إليهم المستعين الفضل بن قارن، فأخذهم، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وحمل منهم مائة من أعيانهم إلى سامرا.

وفيها غزا الصائفة وصيف، وكان مقيماً بالثغر الشامي، فدخل بلاد الروم، فافتتح حصن فرورية.

وفيها عقد المستعين لأنامش على مصر والمغرب، واتخذ وزيراً. (١٢٠/٧)

وفيها عقد بُغا الشرايبي على خلوان وماسبذان ومهرجانقذق، وجعل المستعين شاهك الخادم على داره وكراعه، وخرّسه، وخرّسه، وخاصّ أموره، وقدمه وأتامش على جميع الناس.

وحجّ بالناس هذه السنة محمد بن سليمان الزينبي.

وفيها حكم محمد بن عمرو أيام المتنصر، وخرج بناحية الموصل خارجي، فوجّه إليه المتنصر إسحاق بن ثابت الفرغاني،

فأسره مع عدة من أصحابه، فقتلوا وصلبوا.

وفيها تحرّك يعقوب بن الليث الصنّار من سجستان نحو هراة.

وفيها توفي عبد الرحمن بن عدويه أبو محمد الرافعي الزاهد، وكان مستجاب الدعوة، وهو من أهل إفرقية.

وفيها سارت سرية في الأندلس إلى ذي تروجة، وكان المشركون قد تطاولوا إلى ذلك الجانب، فلقيتهم السرية، فأصابوا من المشركين، وقتلوا كثيراً منهم.

وفيها كان بصقلية سرايا للمسلمين، فغنمت وعادت، ولم يكن حرب بينهم تذكر.

وفيها توفي أبو كرب محمد بن العلاء الهمداني الكوفي في جمادى الآخرة، وكان من مشايخ البخاري ومسلم، ومحمد بن حميد الرازي المحدث. (١٢١/٧)

سنة تسع وأربعين ومائتين

ذكر غزو الروم وقتل علي بن يحيى الأرمني

في هذه السنة غزا جعفر بن دينار الصائفة، فافتتح حصناً، ومطامير، واستأذنه عمر بن عُبيد الله الأقطع في المسير إلى بلاد الروم، فأذن له، فسار في خلق كثير من أهل ملطية، فلقه الملك في جمع عظيم من الروم بمرج الأسقف، فحاربه محاربة شديدة قُتل فيها من الفريقين خلق كثير.

ثم أحاطت به الروم، وهم خمسون ألفاً، وقتل عمر ومعه ألفان من المسلمين في منتصف رجب، فلما قُتل عمر بن عُبيد الله خرج الروم إلى الثغور الجزرية، وكتبوا عليها وعلى أموال المسلمين وخرّمهم، فبلغ ذلك علي بن يحيى وهو قافل من أرمينية إلى ميافارقين في جماعة من أهلها، ومن أهل السلسلة، ففر إليهم، فقتل في نحو من أربع مائة رجل وذلك في شهر رمضان.

ذكر الفتنة ببغداد

وفيها شغب الجند والساكرية ببغداد؛ وكان سبب ذلك أن الخبر لما اتصل بهم وبسامراً وما قرب منها بقتل عمر بن عُبيد الله وعلي بن يحيى، وكانا من (١٢٢/٧) شجعان الإسلام، شديداً بأسهما، عظيماً غناؤهما عن المسلمين في الثغور، شق ذلك عليهم مع قرب مقتل أحدهما من الآخر، وما لحقهم من استعظامهم قتل الأتراك للمتوكل، واستيلائهم على أمور المسلمين يقتلون من يريدون من الخلفاء، ويستخلفون من أحبوا من غير ديانة، ولا نظر للمسلمين.

فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ، والنداء بالنفير، وانضم إليها

ذكر عدة حوادث

فيها قُتل علي بن الجهم بن بدر الشاعر بقرب حلب، كان توجه إلى الثغر، فلقبه خيل للكلب، فقتلوه وأخذوا ما معه، فقال وهو في السّياق:

أزِيدَ فسي الليل ليلٌ أم سالَ في الصُّبح سَيلٌ
ذكرتُ أهلَ دُجَيْلٍ وإيسَ مني دُجَيْلٌ
وكان منزله بشارع دُجَيْل.

وفيها عَزَلَ جعفر بن عبد الواحد عن القضاء، وولَّيه جعفر بن محمد ابن عثمان البرجمي الكوفي، وقيل كان ذلك سنة خمسين ومائتين.

وفيها أصاب أهل الري زلزلة شديدة ورجفة تهدمت [منها] الدور، ومات خلق من أهلها، وهرب الباقون فزلوا ظاهر المدينة، وحج بالناس هذه (١٢٥/٧) السنة عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام، وهو والي مكة.

وفيها سَيرَ محمد، صاحب الأندلس، جيشاً مع ابنه إلى مدينة ألبه والقلاع من بلد الفرنج، فجالت الخيل في ذلك الثغر، وغنمت، وافتتحت بها حصوناً منيعة.

وفيها توفي أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، صاحب إفريقية، ثالث عشر ذي القعدة، فلما مات ولي أخوه زيادة الله بن محمد بن الأغلب، فلما ولي زيادة الله أرسل إلى خفاجة بن سُفْيَان، أمير صِقْلِيَّة، يعرفه موت أخيه، وأمره أن يقيم على ولايته. (١٢٦/٧)

سنة خمسين ومائتين

ذكر ظهور يحيى بن عمر الطالبي ومقتله

في هذه السنة ظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المكنى بأبي الحسين، عليه السلام، بالكوفة، وكانت أمه فاطمة بنت الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنهم.

وكان سبب ذلك أن أبا الحسين نالته ضيقة، ولزمه دَيْن ضاق به ذرعاً، فلقي عمر بن فرج، وهو يتولى أمر الطالبين، عند مقدمه من خراسان، أيام المتوكل، فكلّمه في صيلته، فأغلظ له عمر القول، وحيسه، فلم يزل مجبوساً حتى كفله أهله، فأطلق، فسار إلى بغداد، فأقام بها بحال سيّئة، ثم رجع إلى سامرا، فلقي وصيفاً في رزق يُجرى له، فأغلظ له وصيف وقال: لأي شيء يُجرى على مثلك؟ فانصرف عنه إلى الكوفة، وبها أيوب بن الحسن بن موسى بن

الأنباء، والشاكرية تُظهر أنها تطلب الأرزاق، وكان ذلك أول صفر، ففتحوا السجون، وأخرجوا من فيها، وأحرقوا أحد الجسرَيْن وقطعوا الآخر، وانتهبوا دار بشر وإبراهيم ابني هارون، كاتب محمد بن عبد الله، ثم أخرج أهل اليسار من بغداد سامراً أموالاً كثيرة، ففرّقوها فيمن نهض إلى الثغور، وأقبلت العامة من نواحي الجبال، وفارس، والأهواز، وغيرها لغزو الروم، فلم يأمر الخليفة في ذلك بشيء، ولم يوجهه عسكره.

ذكر الفتنة بسامرا

وفيها في ربيع الأول وثب نفر من الناس لا يُدرى مَنْ هم بسامراً، ففتحوا السجن، وأخرجوا من فيه، فبعث في طلبهم جماعة من الموالي، فوثب العامة بهم فهزموهم، فركب بغاً وأتاش ووصيف وعامة الأتراك، فقتلوا من (١٢٣/٧) العامة جماعة، فرمى وصيف بحجر، فأمر بإحراق ذلك المكان، وانتهب المغاربة، ثم سكن ذلك آخر النهار.

ذكر قتل أتايش

في هذه السنة قُتل أتايش وكاتبه شجاع، وكان سبب ذلك أن المستعين أطلق يد والدته، ويد أتايش، وشاهك الخادم في بيوت الأموال، وأباحهم فعل ما أرادوا، فكانت الأموال التي ترد من الأفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة، فأخذ أتايش أكثر ما في بيوت الأموال، وكان في حجره العباس بن المستعين، وكان ما فضل من هؤلاء الثلاثة أخذه أتايش للعباس فصرفه في نفقاته، وكانت الموالي تنظر إلى الأموال تؤخذ وهم في ضيقة، ووصيف وبُغا بمعزل من ذلك، فأغريا الموالي بأتايش، وأحكموا أمره، فاجتمعت الأتراك والفراغنة عليه، وخرج إليه منهم أهل الدور والكرخ، فعسكروا في ربيع الآخر، وزحفوا إليه وهو في الجوسق مع المستعين، وبلغه الخبر، فأراد الهرب، فلم يمكنه، واستجار بالمستعين فلم يجزه، فأقاموا على ذلك يومين ثم دخلوا الجوسق، وأخذوا أتايش فقتلوه، وقتلوا كاتبه شجاعاً، ونهبت دور أتايش، فأخذوا منه أموالاً جمّة وغير ذلك.

فلما قُتل استوزر المستعين أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، وعزل (١٢٤/٧) الفضل بن مروان عن ديوان الخراج، وولاه عيسى بن فرخان شاه، وولي وصيف الأهواز، وبُغا الصغير فلسطين، ثم غضب بُغا الصغير على أبي صالح، فهرب إلى بغداد، فاستوزر المستعين محمد بن الفضل الجرجاني، فجعل على ديوان الرسائل سعيد بن حميد، فقال الحمدوني:

لَيْسَ السِّيفُ سَعِيدٌ بَعْتَمَا كَانَ ذَا طِفْرَيْنِ لَا تَوْسَةَ لَكِ
إِنَّ لِلَّهِ لَا يَبْنَاهُ وَفَا آيَةً لِلَّهِ فِينَا مَرْكَلَةً

إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، وأدعى قتله غير واحد، فسبر محمد الرأس إلى المستعين، فنصب بسامراً لحظة، ثم حطه، وردّه إلى بغداد لينصب بها، فلم يقدر محمد على ذلك لكثرة من اجتمع من الناس، فخاف أن يأخذه فلم ينصبه، وجعله في صندوق في بيت السلاح.

ووجه الحسين بن إسماعيل برؤوس من قُتل، وبالأسرى فحسبوا ببغداد، وكتب محمد بن عبد الله يسأل العفو عنهم، فأمر بتخليتهم، وأن تُدْفَن الرؤوس ولا تُنصَّب، ففعل ذلك. (١٢٩/٧)، ولما وصل الخبر بقتل يحيى جلس محمد بن عبد الله يهنأ بذلك، فدخل عليه داود بن الهيثم أبو هاشم الجعفري، فقال: أيها الأمير! إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله ﷺ حيّاً لعزّي به. فما ردّ عليه محمد شيئاً، فخرج داود وهو يقول:

يا بني طاهر كلوه وينا
إن لحم النبي غير مري
إن وتراً يكون طاب له الله
لو تترنجاه بالحرى
وأكثر الشعراء مراثي يحيى لما كان عليه من حسن السيرة والديانة، فمن ذلك قول بعضهم:

بكت الخيل شجوها بعد يحيى
وبكاه الكتاب والتزييل
والمصلّى واليت والركن والجند
وكلاه المهنت المصقول
وكبته العراق شرقاً وغرباً
رُجيماً له عليه غريب
كيف لم تسقط السماء علينا
يوم قالوا: أبو الحسين قتل
وينبات النبي يتيين شجراً
موجعات دموعهن فمقول
فقطعت وجهه سيوف الأعداء
بلمي وجهه الوسيم الجميل
إن يحيى أبقى بقلبي غليلاً
سوف يؤدي بالجسم ذاك الغليل
(١٣٠/٧)

قلته تذكر لقتل علي
وحنين، ويوم أودى الرسول
صنوات الإله وقفاً عليهم
ما بكى موجع وخنت تكول

ذكر ظهور الحسن بن زيد العلوي

وفيهما ظهر الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، بطبرستان.

وكان سبب ظهوره أن محمد بن عبد الله بن طاهر لما ظفر بيحيى بن عمر أقطعه المستعين من ضواحي السلطان بطبرستان قطائع منها قطعة قرب نهر النيل، وهما كلار وشالوس، وكان يحاذيها أرض يحطب منها أهل تلك الناحية، وترعى فيها مواشيهم، ليس لأحد عليها ملك، إنما هي موات، وهي ذات غياض، وأشجار، وكلا، فوجه محمد بن عبد الله نائبه لحيازة ما أقطع، واسمه جابر بن هارون النصراني، وعامل طبرستان يومئذ سليمان بن عبد الله بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، وكان الغالب على أمر سليمان محمد بن أوس البلخي، وقد فرق محمد هذا

جعفر بن سليمان الهاشمي، عامل محمد بن عبد الله بن طاهر، فجمع أبو الحسين جمعاً كثيراً من الأعراب وأهل الكوفة وأتى الفلوجة، فكتب صاحب البريد (١٢٧/٧) بخبره إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، فكتب محمد إلى أيوب وعبد الله بن محمود السرخسي، عامله على معاوية السواد، يأمرهما بالاجتماع على محاربة يحيى بن عمر، فمضى يحيى بن عمر إلى بيت مال الكوفة يأخذ الذي فيه، وكان فيما قيل الفتي دينار وسبعين ألف درهم، وأظهر أمره بالكوفة، وفتح السجون وأخرج من فيها، وأخرج العمال عنها، فلقبه عبد الله بن محمود السرخسي، فيمن معه، فضربه يحيى بن عمر ضربة على وجهه أثخنه بها، فانهزم عبد الله، وأخذ أصحاب يحيى ما كان معهم من الدواب والمال.

وخرج يحيى إلى سواد الكوفة، وتبعه جماعة من الزيدية، وجماعة من أهل تلك النواحي إلى ظهر واسط، وأقام بالبستان، فكثر جمعه، فوجه محمد بن عبد الله إلى محاربه الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن مضعب في جمع من أهل النجدة والقوة، فسار إليه فنزل في وجهه لم يقدم عليه، فسار يحيى والحسين في أثره، حتى نزل الكوفة ولقيه عبد الرحمن بن الخطاب المعروف بوجه الفلّس، قبل دخولها، فقاتله، وانهزم عبد الرحمن إلى ناحية شاهي، ووافاه الحسين، فنزلا بشاهي.

واجتمعت الزيدية إلى يحيى بن عمر، ودعا بالكوفة إلى الرضى من آل محمد، فاجتمع الناس إليه، وأحبوه، وتولاه العامة من أهل بغداد، ولا يعلم أنهم يكون أحداً من بيته سواه، ويأيمه جماعة من أهل الكوفة ممن له تدبير وبصيرة في تشيعهم، ودخل فيهم أخلاط لا ديانة لهم.

وأقام الحسين بن إسماعيل بشاهي، واستراح، واتصلت بهم الأمداد، (١٢٨/٧) وأقام يحيى بالكوفة بعد العدد، ويصلح السلاح، فأشار عليه جماعة من الزيدية، ممن لا علم لهم بالحرب، بمعاجلة الحسين بن إسماعيل، وألحوا عليه، فزحف إليه ليلة الاثنين لثلاث عشرة خلت من رجب، ومعه الهيصم العجلي وغيره، ورجالة من أهل الكوفة ليس لهم علم ولا شجاعة، وأشرروا ليلتهم، وصبحوا الحسين وهو مستريح، فناروا بهم في الفلّس، وحمل عليهم أصحاب الحسين فانهزموا، ووضعوا فيهم السيف، وكان أول أسير الهيصم العجلي، وانهزم رجالة أهل الكوفة، وأكثرهم بغير سلاح، فداستهم الخيل.

وانكشف العسكر عن يحيى بن عمر، وعليه جوشن، قد تقطر به فرسه، فوقف عليه ابن لخالد بن عمران، فقال له: خير، فلم يعرفه، وظنه رجلاً من أهل خراسان لما رأى عليه الجوشن، فأمر رجلاً، فنزل إليه، فأخذ رأسه، وعرفه رجل كان معه، وسير الرأس

وأصحابه على ذلك جميعه، فأما المُرّم والأولاد فجعلهم الحسن في مركب وسيّرهم إلى سليمان بجرجان، وأما المال فكان قد نُهب وتفرّق.

وقيل إنّ سليمان انهزم اختياراً لأنّ الطاهرية كلّها كانت تشيّع، فلمّا أقبل الحسن بن زيد إلى طبرستان تأثّم سليمان من قتاله لشدة في التشيّع، (١٣٣/٧) وقال:

بُكْتُ خَيْلَ ابْنِ زَيْدٍ أَقْبَلْتُ خَيْباً تَرَيْنَا لِنُحَسِّنَا الْأُمُورَ
يَا قَوْمُ إِنْ كَانَتِ الْأَبَاءُ صَادِقَةً فَالْوَلِ لِي وَلِجَمِيعِ الطَّاهِرِينَ
أَنَا إِنَّمَا أَصْطَفْتُ كَثَائِباً أَكُونُ مِنْ بَيْنِهِمْ رَأْسَ الْمُوَالِينَ
فَالْمُرَّ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مُبْسِطٌ إِذَا احْتَبْتُ دِمَاءَ الْفَاطِمِيْنَ

فلمّا التقوا انهزم سليمان؛ فلمّا اجتمعت طبرستان للحسن وجّه إلى الرّيّ جنداً مع رجل من أهله، يقال له الحسن بن زيد أيضاً، فملكها، وطردها عنها عامل الطاهرية، فاستخلف بها رجلاً من العلويّين يقال له محمّد بن جعفر، وانصرف عنها.

وورد الخبر على المستعين، ومدبر أمره يومئذٍ وصيف، وكتبه أحمد بن صالح بن شيرزاد، فوجّه إسماعيل بن فراشة في جند إلى همدان، وأمره بالمقام بها ليمنع خيل الحسن عنها، وأما ما عداها فإلى محمّد بن عبد الله بن طاهر وعليه الذّب عنه.

فلمّا استقرّ محمّد بن جعفر الطالبيّ بالرّيّ ظهرت منه أمور كرهها أهل الرّيّ، وجّه محمّد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر قائداً من عنده يقال له محمّد بن ميكال في جمع من الجند إلى الرّيّ، وهو أخو الشاه بن ميكال، فالتقى هو ومحمّد بن جعفر الطالبيّ خارج الرّيّ، فأمر محمّد بن جعفر، وانهزم (١٣٤/٧) جيشه، ودخل ابن ميكال الرّيّ، فأقام بها، فوجّه الحسن بن زيد عسكرياً عليه قائداً يقال له واجن، فلمّا صار إلى الرّيّ خرج إليه محمّد بن ميكال، فالتقوا، فاقتلوا، فانهزم ابن ميكال، والتجأ إلى الرّيّ معتمداً بها، فاتبعه واجن وأصحابه حتّى قتلوه، وصارت الرّيّ إلى أصحاب الحسن بن زيد.

فلمّا كان هذه السنة يوم عرفة ظهر بالرّيّ أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه وإدريس ابن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فضلّى أحمد بن عيسى بأهل الرّيّ صلاة العيد، ودعا للرضى من آل محمّد، فحاربه محمّد بن عليّ بن طاهر، فانهزم محمّد بن عليّ وسار إلى قزوین.

ذكر عدة حوادث

وفيها غضب المستعين على جعفر بن عبد الواحد لأنّه [كان] بعث إلى الشاكرية، فزعم وصيف أنّه أفسدهم، فنفي إلى البصرة في ربيع الأوّل.

أولاده في مدن طبرستان، وهم أحداث، سفهاء، فتأدّى بهم الرعيّة (١٣١/٧) وشكّوا منهم، ومن أبيهم، ومن سليمان سوء السيرة.

ثم إنّ محمّد بن أوس دخل بلاد الديلم، وهم مسالمون لأهل طبرستان، فسبى منهم وقتل، فساء ذلك أهل طبرستان، فلمّا قدم جابر بن هارون لحيازة ما أقطعه محمّد بن عبد الله، عمد فحاز فيه ما اتّصل به من أرض موات يرتفق بها الناس، وفيها حاز كُلال وشالوس.

وكان في تلك الناحية يومئذ أخوان لهما بأوس ونجدة يضبطانها ممن رامها من الديلم، مذكوران بإطعام الطعام وبالإفضال، يقال لأحدهما محمّد، وللآخر جعفر، وهما ابنا رستم، فأنكروا ما فعل جابر من حيازة الموات، وكانا مطاعين في تلك الناحية، فاستنهضا من أطاعهما لمنع جابر من حيازة ذلك الموات، فخافهما جابر، فهرب منهما، فلحق بسليمان بن عبد الله، وخاف محمّد وجعفر ومن معهما من عامل طبرستان، فراسلوا جيرانهم من الديلم يذكرونهم العهد الذي بينهم ويعتذرون فيما فعله محمّد بن أوس بهم من السبي والقتل، فاتفقوا على المعاونة والمساعدة على حرب سليمان بن عبد الله وغيره.

ثم أرسل ابنا رستم ومن [واقفهما] إلى رجل من الطالبيين اسمه محمّد بن إبراهيم، كان بطبرستان، يدعونه إلى البيعة له، فامتنع عليهم، وقال: لكنّي أدلّكم على رجل منّا هو أقوم بهذا الأمر منّي، فدلّهم على الحسن بن زيد، وهو (١٣٢/٧) بالرّيّ، فوجهوا إليه، عن رسالة محمّد بن إبراهيم، يدعونه إلى طبرستان، فشخص إليها، فأتاهم وقد صارت كلمة الديلم وأهل كُلال وشالوس والرويان على بيعته، فبايعوه كلّهم، وطرّدوا عمّال ابن أوس عنهم، فلهحقوا بسليمان بن عبد الله، وانضمّ إلى الحسن بن زيد أيضاً جبال طبرستان كأصمغان، وقادوسيان، وليث بن قتاد، وجماعة من أهل السفح.

ثم تقدّم الحسن ومن معه نحو مدينة أمل، وهي أقرب المدن إليهم، وأقبل ابن أوس من سارية ليدفعه عنها، فاقتلوا قتالاً شديداً، وخالف الحسن بن زيد في جماعة إلى أمل فدخلها.

فلمّا سمع ابن أوس الخبر، وهو مشغول بحرب من يقاتله من أصحاب الحسن بن زيد، لم يكن له همّة إلاّ النجاء بنفسه، فهرب، ولحق بسليمان إلى سارية، فلمّا استولى الحسن على أمل كثير جمعه، وأتاه كلّ طالب نهب وقتنة، وأقام بأمل أياماً، ثم سار نحو سارية لحرب سليمان بن عبد الله، فخرج إليه سليمان، فالتقوا خارج مدينة سارية، ونشبت الحرب بينهم، فسار بعض قوّد الحسن نحو سارية فدخلها، فلمّا سمع سليمان الخبر انهزم هو ومن معه، وترك أهله وعياله وثقله وكل ما له بسارية، واستولى الحسن

سنة إحدى وخمسين ومائتين

ذكر قتل باغر التركي

وفي هذه السنة قُتل باغر التركي، قتله وصيف وبُغا.

وكان سبب ذلك أن باغراً كان أحد قتلة المتوكّل، فزيد في أرزاقه، فأقطع قطائع، فكان ممّا أقطع قرى بسواد الكوفة، فنضمها رجل من أهل باروسما بالفّي دينار، فوثب رجل من أهل تلك الناحية، يقال له ابن مارمة، بوكيل لباجر، وتناوله، فحُبس ابن مارمة، وقيد، ثمّ تخلص، وسار إلى سامرا، فلقي دليل بن يعقوب النصراني، وهو يومئذ صاحب أمر بُغا الشرابي والحاكم في الدولة، وكان ابن مارمة صديقاً له، وكان باغر أحد قواد بُغا، فمعه دليل من ظلم أحمد بن مارمة، فانتصف له منه، فغضب باغر وبابن دليلًا.

وكان باغر شجاعاً يتقيّه بُغا وغيره، فحضر عند بُغا في ذي الحجة من سنة خمسين [ومائتين] وهو سكران، وبُغاه في الحمام، فدخل إليه وقال: (١٣٨/٧) من قتل دليلًا يُقتل به؛ فقال له بُغا: لو أردت ولدي ما منعك منه. ولكن اصبر، فإن أمور الخلافة بيد دليل، وأقيم غيره، ثمّ افعل به ما تريد.

وأرسل بُغا إلى دليل يأمره ألا يركب، وعرفه الخبر، وأقام في كتابته غيره، وتوهم باغر أنه قد عزل، فسكن باغر، ثمّ أصلح بينهما بُغا، وباغر يتهدده، ولزم باغر خدمة المستعين، فقبل ذلك للمستعين.

فلما كان يوم نوبة بُغا في منزله قال المستعين: أي شيء كان إلى إيتاخ من الخدمة؟ فأخبره وصيف، فقال: ينبغي أن تجعل هذه الأعمال إلى باغر. وسمع دليل ذلك، فركب إلى بُغا فقال له: أنت في بيتك، وهم في تدبير عزلك، فإذا عُرِلت قُلت.

فركب بُغا إلى دار الخليفة في يومه، وقال لوصيف: أردت أن تعزلي؟ فحلف أنه ما علم ما أراد الخليفة، فتعاقد على تنحية باغر من الدار والحيلة عليه، فأرجفوا أنه يؤمر، ويُخلع عليه، ويكون موضع بُغا ووصيف؛ فأحسن باغر ومن معه بالشر، فجمع إليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكّل، ومعهم غيرهم، فجعل العهد عليهم في قتل المستعين وبُغا ووصيف، وقال: نبيع على ابن المعتصم، أو ابن الواثق، ويكون الأمر لنا كما هو لهذين، (١٣٩/٧) فأجابوه إلى ذلك.

وانتهى الخبر إلى المستعين، فبعث إلى بُغا ووصيف، وقال لهما: أنتما جعلتماني خليفة، ثمّ تريدان قتلي؟ فحلفا أنهما ما علما بذلك، فأعلمهما الخبر، فاتفق رايهم على أخذ باغر ورجلين من الأتراك معه، وحبسهم، فأحضروا باغراً فأقبل في عدة، فعُدل به إلى حمام وحُبس فيه.

وفيها أسقطت مرتبة من كانت له مرتبة في دار العامة من بني أمية كابي الشوارب والعثمانيين، وأخرج الحسن بن الأفشين من الحبس.

وفيها عُقد لجعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى المعروف ببشاشات على مكة.

وفيها وثب أهل حمص، وقوم من كلب، بعاملهم، وهو الفضل بن (١٣٥/٧) قارن أخو مازيار بن قارن، فقتلوه، فوجّه المستعين إلى حمص موسى بن بُغا في رمضان، فلقبه أهلها فيما بين حمص والرستين، وحاربوه، فهزمهم، وافتتح حمص، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، وأحرقها وأسر جماعة من أهلها الأعيان.

وفيها مات جعفر بن أحمد بن عمّار القاضي، وأحمد بن عبد الكريم الحوراني التيمي، قاضي البصرة.

وفيها ولي أحمد بن الوزير قضاء سامرا.

وفيها وثب الشاكرية والجند بفارس بعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم، فأنهبوا منزله، وقتلوا محمد بن الحسن بن قارن، وهرب عبد الله بن إسحاق.

وفيها وجّه محمد بن طاهر [من خراسان] بفيلين وأصنام أتى بها من كابل، وحج بالناس جعفر بن الفضل بشاشات، وهو والي مكة.

وفيها توفي زيادة الله بن محمد بن الأغلب، أمير إفريقية، وكانت ولايته سنة واحدة وستة أيام، ولما مات ملك بعده ابن أخيه محمد بن أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب.

وفيها توفي محمد بن الفضل الجرجاني، وزير المتوكّل، والفضل بن مروان، وزير المعتصم، وكان موته يسر من رأى؛ والخليفة الشاعر الحسين (١٣٦/٧) بن الضحّاك، وكان مولده سنة اثنتين وستين ومائة، وهو مشهور الأخبار والأشعار.

وفيها توفي الحارث بن مسكين قاضي مصر في ربيع الأول، وهو من ولد أبي بكر الثّقفي؛ ونصر بن علي بن نصر بن علي الجهمضي الحافظ.

وفيها توفي أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني اللغوي، روى عن أبي زيد، والأصمعي، وأبي عبيدة، وقيل توفي قبل سنة خمسين [ومائتين]، والله تعالى بالغيب أعلم. (١٣٧/٧)

ذكر البيعة للمعتز بالله

وفي هذه السنة يوبع للمعتز بالله؛ وكان سبب البيعة له أنه لما استقر المستعين ببغداد أثناء جماعة من قواد الأتراك المشغيين، فدخلوا عليه، وألقوا أنفسهم بين يديه، وجعلوا مناطقهم في أعناقهم تذلاً وخضوعاً، وسألوه الصّح عنهم والرضا. (١٤٢/٧)

قال لهم: أنتم أهل بغي وفساد، واستقلال للنعم، ألم ترفعوا إليّ في أولادكم فألحقهم بكم، وهم نحو من ألفي غلام، وفي بناتكم فأمرت بتصييرهنّ في عداد المتزوجات، وهنّ نحو من أربعة آلاف، وغير ذلك كله أجبتكم إليه، وأدرت عليكم الأرزاق، فعملتم آتية الذهب والفضة، ومنعت نفسي لذتها وشهوئها إرادة لصلاحكم ورضاكم، وأنتم تزدادون بغياً وفساداً؛ فعادوا وتضرّعوا، وسألوه العفو، فقال المستعين: قد عفوت عنكم ورضيت.

فقال له أحدهم، واسمه بابي بك: فإن كنت قد رضيت فقم فأركب معنا إلى سامراء، فإن الأتراك ينتظرونك. فأمر محمد بن عبد الله بعض أصحابه فقام إليه فضربه، وقال محمد: هكذا يقال لأمر المؤمنين قم فأركب معنا فضحك المستعين وقال: هؤلاء قوم عجم لا يعرفون حدود الكلام؛ وقال لهم المستعين: ترجعوا إلى سامراء، فإن أرزاقكم دارة عليكم، وأنظر أنا في أمري. فانصرفوا آيسين منه، وأغضبهم ما كان من محمد بن عبد الله إلى بابي بك، وأخبروا من وراءهم خبرهم، وزادوا، وحرّفوا تحريضاً لهم على خلعه، فاجتمع رأيهم على إخراج المعتز، وكان هو والمؤيد في حبس الجوسق، وعليهما من يحفظهما، فأخرجوا المعتز من الحبس، وأخذوا من شعره، وكان قد كثر، وباعوا له بالخلافة، وأمر للناس برزق عشرة أشهر (١٤٣/٧) للبيعة، فلم يتمّ المال، فأعطوا شهرين قلّة المال عندهم.

وكان المستعين خلف بيت المال بسامراء فيه نحو خمس مائة ألف دينار، وفي بيت مال أمّ المستعين قيمة ألف ألف دينار، وفي بيت مال العباس قيمة ستمائة ألف دينار. وكان فيمن أحضر للبيعة أبو أحمد بن الرشيد وبه يقرّس، في محفة محمولاً، فأمر بالبيعة فامتنع، وقال للمعتز: خرجت إلينا طائعا، فخلعتنا وزعمت أنك لا تقوم بها؛ فقال المعتز: أكرهت على ذلك، وخفتُ السيف. فقال أبو أحمد: ما علمنا أنك أكرهت، وقد بايعنا هذا الرجل، فريد أن تطلق نساءنا، وتخرج عن أموالنا، ولا نسدري ما يكون إن تركتني على أمري حتى يجتمع الناس، وإلا فهذا السيف. فتركه المعتز.

وكان ممن بايع إبراهيم الديرج، وعتاب بن عتاب، فأما عتاب فهرب إلى بغداد، وأما الديرج فأقرّ على الشرط، واستعمل على الدواوين وبيت المال والكتابة وغير ذلك.

ولما اتصل بمحمد بن عبد الله خبر بيعة المعتز وتوجيه العمال

وبلغ الخبر الأتراك، فوثبوا على إصطبل الخليفة، فانتهبوه وركبوا ما فيه، وحصروا الجوسق بالسلاح، فأمر بغا ووصيف بقتل باغر فقتل.

ذكر مسير المستعين إلى بغداد

فلما قُتل باغر وانتهى خبر قتله إلى الأتراك المشغيين أقاموا على ما هم عليه، فأنحدر المستعين وبغا ووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد ودليل إلى بغداد في حرّاقة؛ فركب جماعة من قواد الأتراك إلى هؤلاء المشغيين فسألوهم الانصراف، فلم يفعلوا، فلما علموا بانحدر المستعين وبغا ووصيف ندموا، ثمّ قصدوا دار دليل، ودور أهله وجيرانه، فنهبوا، حتى صاروا إلى أخذ الخشب وعليق الدواب؛ فلما قدموا بغداد مرض ابن مارثة، فعاده دليل وقال له: ما سبب علّتك؟ قال: انتفض عقر القيد؛ فقال دليل: لئن عقرك القيد لقد نقصت الخلافة، وبغيت الفتنة؛ ومات ابن مارثة في تلك (١٤٠/٧) الأيام، وقال بعض الشعراء في ذلك:

لَعَنَرِي لَيْسَن قَتَلُوا بِاغْرًا لَقَدْ هَاجَ بِاغْرُ حَرْبًا طَحُونَا
وَقَرَّ الْخَلِيفَةُ وَالْقَائِدَا نَ بِاللَّيْلِ يَلْتَسُونَ الشُّفِينَا
وَصَاحُوا بِمَشَارِقَ أَجْهِهِمْ فَجَاءَهُمْ يَنْبِئُ النَّاطِقِينَا
فَالزَّمَهُمْ بَطْنُ حَرَّاقَةٍ وَصَوْتُ مَجَافِيهِمْ سَائِرِينَا
وَمَا كَانَ قَدَرُ ابْنِ مَارْثَةٍ فَكَيْسَبَ فِيهِ الْحُرُوبُ الزُّبُونَا
وَلَكِنْ دَلِيلٌ سَعَى سَعِيَةً فَاخْزَى إِلَهُهَا الْعَالَمِينَا
فَحُلَّ بِبَغْدَادَ قَبْلَ الشُّرُوفِ فَحُلَّ بِهَا مِنْهُ مَا يَكْرَهُونَا
فَلَيْتَ الشُّفِينَةَ لَمْ تَأْتِنَا وَغَرَّقَهَا اللَّهُ وَالرَّاكِبِينَا
وَأَقْبَلَتِ التُّرُكُ وَالْمَغْرِبُونَ وَجَاءَ الْفَرَاغَةُ الدَّرْعُونَا
تَسِيرُ كَرَادِسُهُمْ فِي السَّلَاحِ يَرْجُونَ خَيْلاً وَزَجَلًا يَنِينَا
فَقَامَ بِحَرِيهِمْ عَالِمٌ بِأَمْرِ الْخُرُوبِ تَوَلَّاهُ حِينَا
فَجَسَدَ سُورًا عَلَى الْجَانِبِ مِنْ حَتَّى أَحَاطَهُمْ أَجْمَعِينَا

(١٤١/٧)

وأحكم أبوابها المصنعات؛ على السور بحمي بها المستين؛ فبثّ القوس وتحمي العرينا؛ ومنع الأتراك الناس من الانحدر إلى بغداد، وأخذوا ملاحاً قد أكرى سفينته، فضربوه، وصلبوه على دقلها، فامتنع أصحاب السفن من الانحدر إلا سراً.

وكان وصول المستعين إلى بغداد لخمس خلون من المحرم من هذه السنة، فنزل على محمد بن عبد الله بن طاهر في داره، ثمّ وافى بغداد القواد، سوى جعفر الخياط، وسليمان بن يحيى بن معاذ، وقدمها جلّة الكتاب والعمال وبني هاشم، وجماعة من أصحاب بغا ووصيف.

ولآء ذلك، وضَمَّ إليه الجيش، وجعل إليه الأمور كلها، وجعل التمييز إلى كلباتكين التركي، فسار في خمسين ألفاً من الأتراك والقراعة، والفقين من المغاربة، فلما بلغ عكبرا صلى بها، وخطب للمعتز، وكتب بذلك إلى المعتز، فذكر أهل عكبرا أنهم كانوا على خوف شديد من مسير محمد بن عبد الله إليهم، ومحاربتهم، فانتهبوا القرى ما بين عكبرا وبغداد، فخربت الضياع، وأخذ الناس في الطريق.

ولما وصل أبو أحمد إلى عكبرا هرب إليه جماعة كبيرة من أصحاب بغا الصغير، ووصل أبو أحمد وعسكره باب الشَّامِسيَّة لبيع خلون من صفر، فقال بعض البصريين، يُعرف بباذنجانة:

يا بني طاهر اترككم جنود الله والموت بينهما مشهور
وجيوش إسماعيل أبرأهم منكم التولى ونعم النصير

ولما نزل أبو أحمد بباب الشَّامِسيَّة ولَّى المستعين باب الشَّامِسيَّة الحسين (١٤٦/٧) ابن إسماعيل، وجعل من هناك من القواد تحت يده، فلم يزل هناك مدة الحرب إلى أن ساروا إلى الأنبار، فلما كان عاشر صفر وافت طلائع الأتراك إلى باب الشَّامِسيَّة، فوقفوا بالقرب منه، فوجه محمد بن عبد الله: الحسين بن إسماعيل، والشاه بن ميكال، وبنار الطُّبْرِي، فيمن معهم، وعزم على الركوب لقتالهم، فأتاه الشاه فأعلمه أن الأتراك لما عاينوا الأعلام والرايات قد أقبلت نحوهم رجعوا إلى معسكرهم، فترك محمد الركوب.

فلما كان الغد عزم محمد على توجيه الجيوش إلى القُفص ليعرضهم هناك، وليرهب الأتراك، وركب معه وصيف وبُغا في الدروع، ومضى معه الفقهاء والقضاة، وبعث إليهم يدعوهم إلى الرجوع عما هم عليه من الطغيان والعصيان، ويبذل لهم الأمان على أن يكون المعتز ولي العهد بعد المستعين، فلم يجيبوا، ومضى نحو باب قُطْرَيْل، فنزل على شاطئ دجلة هو ووصيف وبُغا، ولم يمكنه التقدم لكثرة الناس فانصرف.

فلما كان من الغد أتاه رسل وجه الفلس، وغيره من القواد، يعلمونه أن الترك قد دنوا، وضربوا مضاربهم برقة الشَّامِسيَّة، وأرسل إليهم: لا تبدؤوهم بقتال، وإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم، وادفعوهم اليوم؛ فوافى باب الشَّامِسيَّة منهم اثنا عشر فارساً فرموا بالسهم، ولم يُقاتلهم أحد، فلما طال مُقامهم رماهم المِجَنجِقيُّ بحجر، فقتل منهم رجلاً، فأخذوه ورجعوا.

وقد عُيِّد الله بن سليمان خليفة وصيف التركي من مكة في ثلاثمائة رجل، فخلع عليه محمد بن عبد الله، ووافى الأتراك في هذا اليوم باب الشَّامِسيَّة، فخرج الحسين بن إسماعيل ومن معه من القواد لمحاربتهم، فاقتتلوا وقتل من (١٤٧/٧) الفريقيين، وجرح،

أمر بقطع الجيرة عن أهل سامرا، وكتب إلى مالك بن طوق في المسير إلى بغداد هو وأهل بيته وجنده، وكتب إلى نجوبة بن قيس وهو على الأنبار في الاحتشاد والجمع، وإلى سليمان بن عمران الموصلي في منع السفن والميرة عن سامرا، فأخذت سفينة ببغداد فيها أرز وغيره، فهرب الملاح وبقيت السفينة حتى غرقت.

وأمر المستعين محمد بن عبد الله بتحسين بغداد، فتقدم في ذلك، فأدير عليها السور من دجلة من باب الشَّامِسيَّة إلى سوق الثلاثاء، حتى أوردته دجلة، وأمر بحفر الخنادق من الجانبين جميعاً، وجعل على كل باب قائداً، فبلغت النفقة على ذلك جميعه ثلاثمائة ألف وثلاثين ألف ديناراً ونصب على الأبواب (١٤٤/٧) المِجَنجِقات والقِرَادات وشحن الأسوار، وفرض فرضاً للعيارين وجعل عليهم عريفاً اسمه يَنْوِيه، وعمل لهم تراساً من البواري المُقَيَّر، وأعطاهم المخالي ليجمعوا فيها الحجارة للرمي، وفرض أيضاً لقوم من خراسان قدوماً حجاجاً فسُئِلوا المعونة فأعانوا.

وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلدة أن يكون حملهم الخراج والأموال إلى بغداد، لا يُحمل منها إلى سامرا شيء، وكتب إلى الأتراك، والجند الذين بسامرا، يأمرهم بنقض بيعة المعتز، ومراجعة الوفاء له، ويذكروهم أياديه عندهم، وينهاهم عن المعصية والنكث.

ثم جرت بين المعتز ومحمد بن عبد الله مكاتبات ومراسلات يدعو المعتز محمداً إلى المبايعة ويذكره ما كان المتوكل أخذ له عليه من البيعة بعد المنتصر، ومحمد يدعو المعتز إلى الرجوع إلى طاعة المستعين، واحتج كل واحد منهما على صاحبه.

وأمر محمد بكسر القناطر، وشق المياه بسطوح الأنبار وبادوريا ليقطع الأتراك عن الأنبار، وكتب المستعين والمعتز إلى موسى بن بُغا، كل واحد منهما يدعو إلى نفسه، وكان بأطراف الشام، كان خرج لقتال أهل حمص، فانصرف إلى المعتز، وصار معه، وقدم عبد الله بن بغا الصغير من سامرا إلى المستعين، وكان قد تخلف بعد أبيه، فاعتذر، وقال لأبيه: إنما قدمت لأموت تحت ركابك. فأقام ببغداد أياماً، ثم هرب إلى سامرا، فاعتذر إلى المعتز، وقال: إنما سرت إلى بغداد لأعلم أخبارهم وأتيك بها. فقبله المعتز، وردّه إلى خدمته. (١٤٥/٧)

وورد الحسن بن الأفشين ببغداد، فخلع عليه المستعين، وضَمَّ إليه جمعاً من الأمروسيَّة وغيرهم.

ذكر حصار المستعين ببغداد

ثم إن المعتز عقد لأخيه أبي أحمد بن المتوكل، وهو الموفق، لبيع بقين من المحرم، على حرب المستعين، ومحمد بن عبد الله،

مائه، فخلع عليه محمد بن عبد الله خمس خلع، ثم وجهه في جيش كثيف لمحاربة أيوب بن أحمد، فأخذ على طريق الفرات، فحاربه في نفر يسير، فهزم محمد وصار إلى ضيعته بالسواد، فلما سمع محمد بهزيمته قال: لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به.

وكانت للأتراك وقعة بباب الشَّامِسيَّة، فقاتلوا عليه قتالاً شديداً، حتى كشفوا من عليه ورموا به المِنْجَنِيْق بالنار والنَّطَط، فلم يحرقه، ثم كثر الجند على الباب، فأزالهم عن موقعهم بعد قتلى وجرحى؛ ووجه محمد القَرَادَات في السفن فرموهم بها رمياً شديداً، فقتلوا منهم نحو مائة؛ وكان بعض المغاربة قد صار إلى السور، فرمى بكلاب، فتعلَّق به، فأخذه الموكلون (١٤٩/٧) بالسور ورفعوه فقتلوه، وألقوا رأسه إلى الأتراك، فرجعوا إلى معسكرهم.

وأراد بعض الموكلين بالسور أن يصيح: يا مستعين، يا منصور، فصاح: يا معتز، يا منصور، فظنوه من المغاربة فقتلوه.

وتقدَّم الأتراك، في بعض الأيام، إلى باب الشَّامِسيَّة، فرمى الدرغمان، مقدَّم المغاربة، بحجر مِنْجَنِيْق فقتله، وكان شجاعاً، وكان بعض المغاربة يجيء فيكشف استه، ويصيح، ويضطر، ثم يرجع، فرماه بعض أصحاب محمد بسهم في دبره، فجرح من خلفه فخر ميتاً.

واجتمعت العامة بسامراً ونهبوا سوقي الجوهريين والصارفة وغيرهما، فشكا التجار ذلك إلى إبراهيم المؤيد، فقال لهم: كان ينبغي أن تحولوا متاعكم إلى منازلكم. ولم يصنع شيئاً، ولا أنكر ذلك.

وقدم لثمان بقين من صفر جماعة من أهل الثغور يشكون بلكاجور، ويزعمون أن بيعة المعتز وردت عليه، فدعا الناس إلى بيعته، وأخذ الناس بذلك، فمن امتنع ضربه وجسه، وأنهم امتنعوا وهربوا، فقال وصيف: ما أظنه إلا ظن أن المستعين مات وقام المعتز؟ فقالوا: ما فعله إلا عن عمد؛ فورد كتاب بلكاجور لأربع بقين من صفر يذكر أنه كان بايع المعتز، فلما ورد كتاب المستعين بصحة الأمر جدد له البيعة، وأنه على السمع والطاعة، فأراد موسى بن بَغَا أن يسير إلى المستعين، فامتنع أصحابه الأتراك من موافقته على ذلك، وحاربوه، فقتل بينهم قتلى.

وقدم من البصرة عشر سفائن بحريَّة، في كل سفينة خمسة وأربعون رجلاً ما بين نَقَاط وغيره، فمرت إلى ناحية الشَّامِسيَّة، فرمى من فيها بالتيارن إلى عسكر أبي أحمد، فانتقلوا إلى موضع لا ينالهم شيء من النار. (١٥٠/٧).

وليلة بقيت من صفر تقدَّم الأتراك إلى أبواب بغداد، فقاتلوا عليها، فقتل من الفريقين جماعة كثيرة، ودام القتال إلى العصر.

وكانوا في القتلى والجرحى على السواء، وانهزم أهل بغداد، وثبت أصحاب البواري ثم انصرفوا، وأحضر الأتراك منجنيقاً، فغلبهم عليه العامة، فأخذوه.

ثم سار جماعة من الأتراك إلى ناحية النهروان، فوجه محمد بن عبد الله قائدين من أصحابه في جماعة، وأمرهما بالمقام بتلك الناحية، وحفظها من الأتراك، فسار إليهم الأتراك، فقاتلوه، فانهزم أصحاب محمد إلى بغداد، وأخذت دوابهم، فدخلوا بغداد منهزمين، ووجه الأتراك برؤوس القتلى إلى سامرا، واستولوا على طريق خراسان، وانقطع الطريق عن بغداد.

ووجه المعتز عسكراً في الجانب الغربي فساروا إلى بغداد، وجازوا قَطْرِبُل، فضربوا عسكرهم هناك، وذلك لاثنتي عشرة خلت من صفر؛ فلما كان من الغد وجه محمد بن عبد الله عسكراً إليهم، فلقبهم الشاه بن ميكال، فتحاربوا فانهزم أصحاب المعتز، خرج عليهم كمين لمحمد بن عبد الله، فانهزموا ووضع أصحاب محمد فيهم السيف، فقتلوه أكثر قتل، ولم يفلت منهم إلا القليل، ونهب عسكرهم جميعه، ومن سلم من القتل ألقى نفسه في دجلة ليعبر إلى عسكر أبي أحمد، فأخذه أصحاب السفن، وحملوا الأسرى والرووس في الزواريق، فنصب بعضها ببغداد.

وأمر محمد لمن أبلى في هذا اليوم بالأسورة، والخلع، والأموال، وطُلبت المنهزمة، فبلغ بعضهم أوانا، وبعضهم بلغ سامرا، وكان عسكر المعتز أربعة آلاف، فقتل منهم ألفان، وغرق منهم جماعة، وأسر جماعة، فخلع محمد على جميع القواد، على كل قائد أربع خلع، وطوقاً ومبوراً من ذهب، (١٤٨/٧) وكان عود أهل بغداد عنهم مع المغرب، وكان أكثر العمل في هذا اليوم للعيارين.

وركب محمد بن عبد الله بن طاهر لاثنتي عشرة بقيت من صفر إلى الشَّامِسيَّة، فأمر بهدم ما وراء سورها من السدور، والحوانيت، والبساتين، من باب الشَّامِسيَّة إلى ثلاثة أبواب، ليتسع على من يحارب.

وقدم مال من فارس والأهواز مع منكجور الأشرومسي، فوجه أبو أحمد الأتراك لأخذه، فوجه محمد بن عبد الله جماعة لحفظ المال، فعدلوا به عن الأتراك فقدموا به بغداد، فلما علم الأتراك بذلك عدلوا نحو النهروان، فقتلوا وأحرقوا سفن الجسر، وهي عشرون سفينة، ورجعوا إلى سامرا.

وقدم محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد، وكان المستعين قلده إمرة الثغور الجزرية، كان بمدينة بَلَد ينتظر الجنود والمال ليسير إلى الثغور، فلما كان من أمر المستعين والأتراك ما ذكرنا، سار من بلد إلى بغداد على طريق الرُّقَّة في أصحابه وخاصته، وهم رُهاء أربع

وفي ربيع الأول عمل محمد بن عبد الله كافر كونات وفرقها على العيارين، فخرجوا بها إلى أبواب بغداد، وقتلوا من الأتراك نحواً من خمسين رجلاً، وأربع عشرة خلت من ربيع الأول قدم مزاحم بن خاقان من ناحية الرقة، فتلّفاه الناس ومعه زهاء ألف رجل، فلما وصل خلّع عليه سبع خلع، وقُدّ سيفاً.

ووجه المعتزّ عسكرياً يبلغون ثلاثة آلاف، فعسكروا بإزاء عسكر أبي أحمد بباب قُطْرُبُل، وركب محمد بن عبد الله في عسكره، وخرج من النظارة خلق كثير، فحاذى عسكر أبي أحمد، فكانت بينهم في الماء جولة، وقُتل من أصحاب أبي أحمد أكثر من خمسين رجلاً، ومضى النظارة فجازوا العسكر بنصف فرسخ، فعبث إليهم سفن لأبي أحمد، فالت منهم، ورجع محمد بن عبد الله، وأمر ابن أبي عون برّد الناس، فأمرهم بالعود، فأغلظوا له، فشتّمهم وشتّموه، وضرب رجلاً منهم فقتله، فحملت عليه العامة، فانكشف من بين أيديهم، فأخذ أصحاب أبي أحمد أربع سفائن، وأحرقوا سفينة فيها عرّادة لأهل بغداد.

وسار العامة إلى دار ابن أبي عون لينهبوها، وقالوا ما لبث الأتراك، فانهزم أصحابه، وكلّموا محمداً في صرفه، فصرفه، ومنعهم من أخذ ماله.

ولإحدى عشرة خلت من ربيع الأول وصل عسكر المعتزّ الذي سيّره إلى مقابل عسكر أخيه أبي أحمد عند عُكْبَرَا، فأخرج إليهم ابن طاهر عسكراً، فمضوا حتى بلغوا قُطْرُبُل وبها كمين الأتراك، فأوقع بهم، ونشبت (١٥١/٧) الحرب بينهم، وقُتل بينهم جماعة، واندفع أصحاب محمد قليلاً إلى باب قُطْرُبُل، والأتراك معهم، فخرج الناس إليهم، فدفعوا الأتراك حتى نحوهم، ثم رجعوا إلى أهل بغداد فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وقُتل من الأتراك أيضاً خلق كثير، ثم تقدّم الأتراك إلى باب القطيعة، فنقبوا السور، فقتل أهل بغداد أول خارج منه، وكان القتل ذلك اليوم أكثره في الأتراك، والجراح بالسهم في أهل بغداد.

ونذب عبد الله بن عبد الله بن طاهر الناس، فخرجوا معه، وأمر الموكل بباب قُطْرُبُل الأيديع منهزماً يدخله، ونشبت الحرب، فانهزم أصحاب عبد الله، وثبت أسد بن داود حتى قُتل، وكان إغلاق الباب على المنهزمين أشدّ من الأتراك، فأخذوا منهم الأسرى، وقتلوا فأكثروا، وحملوا الأسرى والرؤوس إلى سامرا، فلما قربوا منها غطوا رؤوس الأسرى، فلما رآهم أهل سامرا بكوا وضجّروا، وارتفعت أصواتهم، وأصوات نسايتهم، فبلغ ذلك المعتزّ فكره أن تغلظ قلوب الناس عليه، فأمر لكل أسير بدينار، وأمر بالرؤوس فدُفنت.

وقدم أبو الساج من طريق مكة لأربع بقين من ربيع الأول، فخلع عليه؛ وفي سلخ ربيع الأول جاء نفر من الأتراك إلى باب الشّمامية، ومعهم كتاب من المعتزّ إلى محمد بن عبد الله، فاستأذنه أصحابه في أخذه، فأذن لهم، فإذا فيه تذكير محمد بما يجب عليه من حفظ العهد القديم، وأن الواجب (١٥٢/٧) كان عليه أن يكون أول من يسعى في أمره ويؤكد خلافته. فما ردّ عليه محمد جواب الكتاب، وكانت وقعة بينهم لسبع خلون من ربيع الآخر، قُتل من الأتراك سبع مائة ومن أصحاب محمد ثلاثمائة.

وفي منتصف ربيع الآخر أمر أبو الساج، وعليّ بن فراشة، وعليّ بن حفص، بالمسير إلى المدائن، فقال أبو الساج لمحمد بن عبد الله: إن كنت تريد الجدّ مع هؤلاء القوم فلا تفرّق قوّادك، واجمعهم، حتى تهزم هذا العسكر المقيم بإزاءك، فإذا فرغت منهم فما أقدرك على من بعدهم؛ فقال: إن لي تدبيراً، ويكفي الله إن شاء الله؛ فقال أبو الساج: السمع والطاعة وسار إلى المدائن وحفر خندقها، وأمدّه محمد بثلاثة آلاف فارس وألفي راجل، وكتب المعتزّ إلى أخيه أبي أحمد يلومه للتقصير في قتال أهل بغداد، فكتب إليه في الجواب:

وكان نجويةً بالأنبار لم يخرج منها، فلما بلغه هزيمة مدده،

وقدم أبو الساج من طريق مكة لأربع بقين من ربيع الأول،

والمنهزمين من دخول بغداد، ونادي: من وجدناه ببغداد من عسكر الحسين، بعد ثلاثة أيام، وضرب ثلاثمائة سوط، وأسقط من الديوان؛ فخرج الناس إلى الحسين بالياسرية، وأخرج إليهم [ابن] عبد الله جنداً آخر، وأعطاهم الأرزاق، وأمر بعض الناس ليعلم من قُتل، ومن غرق، ومن سلم، ففعلوا ذلك.

وأناهم كتاب بعض عيونهم من الأنبار يخبرهم أن القتلى كانت من الترك أكثر من مائتين، والجرحى نحو أربع مائة، وأن جميع من أسره الأتراك مائتان وعشرون رجلاً، وأنه عدّ رؤوس القتلى فكانت سبعين رأساً، وكانوا (١٥٦/٧) أخذوا جماعة من أهل الأسواق فأطلقوهم؛ فرحل الحسين لاثني عشرة بقيت من جمادى الآخرة، وسار حتى عبر نهر أربق، فلما كان السبت لثمان خلون من رجب أتاه إنسان فأعلمه أن الأتراك يريدون العبور إليه في عدة مخاضات، فصره، ووكل بمواضع المخاض رجلاً من قواده يقال له الحسين بن علي بن يحيى الأرمني في مائتي رجل، فأتى الأتراك المخاضة، فرأوا الموكل بها، فتركوها إلى مخاضة أخرى، فقاتلوهم، وصبر الحسين بن علي ويعد إلى الحسين بن إسماعيل أن الأتراك قد وافوا المخاضة، فقبل للرسول: الأمير ناظم، فأرسل آخر، فقبل له: الأمير في المخرج، فأرسل آخر، فقبل [له]: الأمير قد عاد فنام، فغير الأتراك، ففقد الحسين بن علي في زورق وانحدر، وهرب أصحابه منهزمين، وقتل الأتراك منهم وأسروا نحو مائتين، وانحدرت عامة السفن فسلمت، ووضع الأتراك السيف، وغرق خلق كثير من الناس، فوصل المنهزمون بغداد نصف الليل، ووافى بقيتهم في النهار، واستولى الأتراك على أنفسهم وأموالهم، وقتل عدة من قواد الحسين، فقال الهذؤاني في الحسين:

يَا أَحْزَمَ النَّاسِ رَأْيًا فِي تَخَلُّفِهِ عَنِ الْقِتَالِ خَلَّطْتَ الصَّفْوَ بِالْكَثَرِ
لَمَّا رَأَيْتَ سَيْفَ الثُّرَايَا مُصْطَنَةً عَلِمْتَ مَا فِي سَيْفِ الثُّرَايَا مِنْ قُدْرِ
فَصِرْتَ مُضْجِرًا ذُلًّا وَمَقْصَةً وَالنُّجْعُ يَنْعَبُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالضُّجْبِ
ولحق فيها جماعة من الكتاب والقواد وبنو هاشم بالمعتز، فمن بني هاشم علي ومحمد ابنا الوائقي وغيرهما، ثم كانت بينهم عدة وقعات، وقتل فيها من الفريقين جماعة، ودخل الأتراك في بعض تلك الحروب إلى بغداد، ثم (١٥٧/٧) تكاثرت الناس عليهم فأخرجوهم منها.

وجرى بين أبي الساج وجماعة من الأتراك وقعة فهزمهم أبو الساج، ثم واقعوه أخرى فتحلّى عنه بعض أصحابه فانهمز، ودخل الأتراك المدائن؛ وخرجت الأتراك الذين بالأنبار في سواد بغداد من الجانب الغربي، حتى بلغوا صرصر وقصر ابن هبيرة.

وفي ذي القعدة كانت وقعة عظيمة، خرج محمد بن عبد الله بن طاهر في جميع القواد والعسكر، ونصب له قبة وجلس فيها،

ومسير الأتراك إليه، عبر إلى الجانب الغربي، وقطع الجسر وسار نحو بغداد، فاختر محمد بن عبد الله إنفاذ الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم إلى الأنبار في جماعة من القواد والجند، فجهزهم، وأخرج لهم رزق أربعة أشهر، وخرج الجند، (١٥٤/٧) وعرضهم الحسين، وسار عن بغداد يوم الخميس لسبع بقين من جمادى الأولى، وتبعه الناس، والقواد، وبنو هاشم إلى الياسرية.

وكان أهل الأنبار لما دخلها الأتراك قد آمنوهم، ففتحوا دكاكينهم، وأسواقهم، ووافاهم سفن من الرقة تحمل الدقيق والزيت وغير ذلك، فأتتها الأتراك وحملوها إلى منازلهم بسامراء، ووجهوا بالأسرى وباريوس معها.

وسار الحسين حتى نزل ديمًا، ووافته طلائع الأتراك فوق ديمًا، فصف أصحابه مقابل الأتراك، بينهما نهر، وكان عسكره عشرة آلاف رجل، وكان الأتراك فوق ديمًا، فصف أصحابه؛ وكان الأتراك زهاء ألف رجل، فتراموا بالسهم، فجرح بينهم عدد، وعاد الأتراك إلى الأنبار، وتقدم الحسين فنزل بمكان يُعرف بالقطيعة، واسع يحمل العسكر، فأقام فيه يومه، ثم عزم على الرحيل إلى قرب الأنبار، فأشار عليه القواد أن ينزل عسكره بهذا المكان بالقطيعة لسعته وحصانته، ويسير هو وجنده جريدة، فإن كان الأمر له كان قادرًا على نقل عسكره، وإن كان عليه رجع إلى عسكره وعاود عدوه، فلم يقبل منهم وسار من مكانه.

فلما بلغ المكان الذي يريد النزول به أمر الناس بالنزول، فأتت الأتراك جواسيسهم، وأعلموهم بمسيره وضيق مكانه، فأتاهم الأتراك والناس يحيطون أنفالههم، فثار أهل العسكر وقاتلوهم فقتل بينهم قتلى من الفريقين، وحمل أصحاب الحسين عليهم فكشفوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغرق (١٥٥/٧) منهم خلق كثير. وكان الأتراك قد كمنوا لهم كمينًا، فخرج الكمين على بقية العسكر، فلم يكن لهم ملجأ إلا الفرات، وغرق من أصحابه خلق كثير، وقتل جماعة وأسروا جماعة.

وأما الفرسان فهربوا لا يلون على شيء، والقواد ينادونهم: الرجعة، فلم يرجع أحد، فخافوا على نفوسهم، فرجعوا يحمون أصحابهم، وأخذ الأتراك عسكر الحسين بما فيه من الأموال والخلع التي كانت معه، وميل ما كان معه من سلاح في السفن، لأن الملاحين حذروا السفن، فسلم ما معهم من سلاح وغير ذلك، ووصل المنهزمون إلى الياسرية لست خلون من جمادى الآخرة، ولقي الحسين رجل من التجار ممن ذهب أموالهم، فقال: الحمد لله الذي بيض وجهك، أصعدت في اثني عشر يومًا، وانصرف في يوم واحد! فتغافل عنه.

ولما اتصل خبر الهزيمة بمحمد بن عبد الله بن طاهر منع

واقْتل الناس قتلاً شديداً، فانهزمت الأتراك، ودخل أهل بغداد عسكرهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وهربوا على وجوههم لا يلون على شيء؛ فكلّمنا جيء برأس يقول بُغا: ذهبت الموالى، وساء ذلك من مع بُغا ووصيف من الأتراك.

ووقف أبو أحمد بن المتوكل يرّد الأتراك، ويخبرهم أنّهم إن لم يرجعوا لم يبق لهم بقية، وتبعهم أهل بغداد إلى سامرا، فتراجعوا إليه، وإن بعض أهل بغداد رجعوا عن المهزمين، فرأى أصحابهم أعلامهم، فظنوها أعلام الأتراك قد عادت، فانهزموا نحو بغداد مزدحمين، وتراجع الأتراك إلى عسكرهم، ولم يعلموا بهزيمة أهل بغداد، فتحملوا عليهم.

وفي ذي الحجة وجّه أبو أحمد خمس سفائن مملوءة طعاماً ودقيقاً إلى ابن طاهر؛ وفي ذي الحجة علم الناس بما عليه ابن طاهر من خلع المستعين والبيعة للمعتز، ووجّه قوّاده إلى أبي أحمد، فبايعوه للمعتز، وكانت العامة تظن أنّ الصلح جرى على أنّ الخليفة المستعين والمعتز وليّ عهده. (١٥٨/٧)

وفي ذي الحجة أيضاً خرج رشيد بن كاوس أخو الأفشين، وكان موثقاً بباب السلامة، إلى الأتراك، وسار معهم إلى أبي أحمد، ثم عاد إلى أبواب بغداد يقول للناس: إنّ أمير المؤمنين المعتز، وأبا أحمد يقرآن عليكم السلام، ويقولان: من أطاعنا وصلناه، ومن أبى فهو أعلم.

فشتمه الناس، وعلموا بما عليه محمد بن عبد الله بن طاهر، فعبرت العامة إلى الجزيرة التي جِذاء داره، فشتموه أقيح شتم، ثم ساروا إلى باب داره ففعلوا به مثل ذلك، وقتلوا من على بابه حتى كشفوهم، ودخلوا دهليز داره، وأرادوا إحراق داره فلم يجدوا ناراً، وبات منهم بالجزيرة جماعة يشتُمونه وهو يسمع، فلما ذكروا اسم أمّه ضحك وقال: ما أدري كيف عرفوه وقد كان أكثر جوارى أبي لا يعرفون اسمها. فلما كان الغد فعلوا مثل ذلك، فسار محمد إلى المستعين وسأله أن يطلع إليهم ويسكنهم، ففعل، وقال لهم: إنّ محمداً لم يخلع ولم أنهمه، ووعدهم أن يصلّي بهم الجمعة، فانصرفوا.

ثم ترددت الرسل بين محمد بن عبد الله وبين أبي أحمد مع حماد بن إسحاق بن حماد بن يزيد، وثار قوم من رجالة الجند، وكثير من العامة، فطلب الجند أرزاقهم، وشكت العامة سوء الحال، وغلاء السعر، وقالوا: إما خرجت فقابلت، وإما تركتنا؛ فوعدهم الخروج، أو فتح باب الصلح، ثم جعل على الجسور وبالجزيرة وبياب داره الرجال والخيل، فحضر الجزيرة بشر كثير، فطردوا من كان به، وقتلوا الناس.

وأرسل محمد بن عبد الله إلى الجند يعدهم رزق شهرتين،

وأمرهم بالزول، (١٥٩/٧) فأبوا وقالوا: لا نفعل حتى نعلم نحن والعامة على أي شيء نحن؛ فخرج إليهم بنفسه، فقالوا له: إنّ العامة قد اتهموك في خلع المستعين، والبيعة للمعتز، وتوجيهك القوّاد بعد القوّاد، ويخافون دخول الأتراك والمغاربة إليهم، فإن يفعلوا بهم كما عملوا في المدائن والأنبار، فهم يخافون على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وسألوا إخراج الخليفة إليهم ليزوّه ويكذبوا ما بلغهم، فلما رأى محمد ذلك سأل المستعين الخروج إليهم، فخرج إلى دار العامة، ودخل إليه جماعة من الناس، فنظروا إليه وخرجوا فأعلموا الناس الخبر، فلم يتفعلوا بذلك، فأمر المستعين بإغلاق الأبواب، وصعد سطح دار العامة، ومحمد بن عبد الله معه، فرآه الناس وعليه البردة وبيده القضيب، فكلّم الناس وأقسم عليهم بحقّ صاحب البردة إلا أنصرفوا فإنه أمين لا بأس عليه من محمد، فسألوه الركوب معهم والخروج من دار محمد لأنهم لا يأمّنونه عليه، فوعدهم ذلك.

فلما رأى ابن طاهر فعلهم عزم على النقلة عن بغداد إلى المدائن، فثابه وجوه الناس، وسألوه الصّفح، واعتذروا بأنّ ذلك فعل الغوغاء والسفهاء، فردّ عليهم ردّاً جميلاً، وانتقل المستعين عن داره في ذي الحجة، وأقام بدار رزق الخادم بالرّصافة، وسار بين يديه محمد بن عبد الله بالحرية، فلما كان من الغد اجتمع الناس بالرّصافة وأمروا القوّاد وبني هاشم بالمسير إلى دار محمد بن عبد الله والعود منه إذا ركب، ففعلوا ذلك، فركب محمد في جمع وتعبئة، ووقف للناس وعابتهم، وحلف أنه ما يريد للمستعين، (١٦٠/٧) ولا لولي له، ولا لأحد من الناس سوءاً، وأنه ما يريد إلا إصلاح أحوالهم، حتى يبكى الناس ودعوا له.

وسار إلى المستعين، وكان ابن طاهر مجتهداً في أمر المستعين، حتى غيّر عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وقال له: إنّ هذا الذي تنصّره، وتجدّ في أمره، من أشدّ الناس نفاقاً، وأخبثهم ديناً، والله لقد أمر وصيفاً وبُغا بقتلك، فاستعظما ذلك ولم يفعلاه، وإن كنت شاكاً في قولِي فسلّ تخيره، وإن من ظاهر نفاقه أنه كان بسامراً لا يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم في صلاته، فلما صار إليك جهر بها مُراءاة لك، وترك نصرة وليك، وصهرك، وتربيتك، ونحو ذلك من كلام كلّمه به، فقال محمد: أخزى الله هذا، ما يصلح لدين ولا لدنيا! ثم ظاهر عبيد الله بن يحيى بأحمد بن إسرائيل، والحسن بن مخلد.

فلما كان يوم الأضحى صلّى المستعين بالناس، ثم حضر محمد بن عبد الله عند المستعين وعنده الفقهاء والقضاة، فقال له: قد كنت فارتقتي على أن تنفذ أمري في كلّ ما أعزم عليه، وخطّك عندي بذلك؛ فقال المستعين: أحضر الرقعة، فأحضرها، فإذا فيها ذكر الصلح، وليس فيها ذكر الخلع، فقال: نعم أمضِ الصلح،

وحملوا عليهم، واشتد القتال، فولى الفرنج منهزمين لا يلون على شيء. وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

وكانت هذه الواقعة ثاني عشر رجب، وكان عدد ما أخذ من رؤوس (١٦٣/٧) المشركين ألفين وأربع مائة واثنين وتسعين رأساً، وكان فتحاً عظيماً وعاد المسلمون.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة رجع سليمان بن محمد، صرفه عبد الله بن طاهر، إلى طبرستان من جرجان بجمع كثير، وخيل وسلاح، فتنحى الحسن بن زيد عن طبرستان، ولحق بالديلم، ودخلها سليمان، وقصد سارية، أناه ابنان لقارن بن شهریار، وأناه أهل أمل وغيرهم، فنبهين مظهرين الدم، يسألون الصفح، فلقبهم بما أرادوا، ونهى أصحابه عن القتل والنهب والأذى.

وورد كتاب اسد بن جندان إلى محمد بن عبد الله يخبره أنه لقي علي بن عبد الله الطالبي المسمى بالمرعشي، فيمن معه من رؤساء الجبل، فهزمه ودخل مدينة أمل.

وفيها ظهر بأرمينية رجلان، فقاتلها العلاء، بن أحمد عامل بغا الشراي، فهزما، فصعدا قلعة هناك، فحصرهما، ونصب عليها المجانيق، فهزما منها، وخفي أمرهما عليه وملك القلعة.

وفيها حارب عيسى بن الشيخ الموفق الخارجي فهزمه وأسر الموفق.

وفيها ورد كتاب محمد بن طاهر بن عبد الله بخبر الطالبي الذي ظهر بالري، وما أعد له من العساكر المسيرة إليه، وظفر به، واسمه محمد بن جعفر، (١٦٤/٧) فأخذه أسيراً، ثم سار إلى الري بعد أسر محمد بن جعفر بن أحمد بن عيسى بن الحسين الصغير ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، وإدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عليه السلام.

وفيها انهزم الحسن بن زيد من محمد بن طاهر، وكان لقيه في ثلاثين ألفاً، وقتل من أصحابه أعيان الحسن ثلاثمائة رجل وأربعون رجلاً.

وفيها خرج إسماعيل بن يوسف العلوي ابن أخت موسى بن عبد الله الحسني.

وفيها كانت وقعة بين محمد بن خالد بن يزيد، وأحمد المولّد، وأيوب ابن أحمد بالسلي من أرض بني تغلب، فقتل بينهما جماعة كثيرة، فانهزم محمد ونهب متاعه.

وفيها غزا بلكا جور الروم، ففتح مطمورة، وغنم غنيمة كثيرة،

فخرج محمد إلى ظاهر باب الشّمسية، فضرب له مضرب فنزل إليه ومعه جماعة من أصحابه، وجاء أبو أحمد في سحيرية، (١٦١/٧) فصعد إليه، فتناظرا طويلاً، ثم خرجا، فجاء ابن طاهر إلى المستعين فأخبره أنه بذل له خمسين ألف دينار، يقطع عليه ثلاثين ألف دينار، وعلى أن يكون مقامه بالمدينة، يتردد منها إلى مكة، ويخلع نفسه من الخلافة، وأن يعطى بغيا ولاية الحجاز جميعه، ويولى وصيف الجبل وما والاها، ويكون ثلث ما يجبي من المال لمحمد بن عبد الله وجند بغداد، والثلاثان للموالي والأتراك، فامتنع المستعين من الإجابة إلى الخلع، وظن أن وصيفاً وبغياً معه يكاشفانه، فقال: النطع والسيف؛ فقال له ابن طاهر: أما أنا فأقعد، ولا بد لك من خلعتها طائعاً أو مكراً، فأجاب إلى الخلع.

وكان سبب إجابته إلى الخلع أن محمداً وبغياً ووصيفاً لما ناظروه في الخلع أغلظ عليهم فقال وصيف: أنت أمرتنا بقتل باغر، فصرنا إلى ما نحن فيه، وأنت أمرتنا بقتل أتامش، وقلت إن محمداً ليس بناصح؛ وما زالوا يفرعوناه؛ وقال محمد: وقد قلت لي إن أمرنا لا يصلح إلا باستراحتنا من هذين الاثنين؛ فلما رأى ذلك أذهن بالخلع، وكتب بما أراد لنفسه من الشروط، وذلك لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة، وجمع محمد الفقهاء والقضاة، وأدخلهم على المستعين، وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره إلى محمد بن عبد الله، ثم أخذ منه جوهر الخلافة.

وبعث ابن طاهر إلى قواده ليوافوه، ومع كل قائد عشرة نفر من وجوه أصحابه، فأثرو فمناهم، وقال لهم: ما أردت بما فعلت إلا صلاحكم وحقن (١٦٢/٧) الدماء. وأمرهم بالخروج إلى المعتز في الشروط التي شرطها المستعين لنفسه ولقواده، ليوقع المعتز عليها بخطه، ثم أخرجهم إلى المعتز، فمضوا إليه، فأجاب إلى ما طلبوا، ووقع عليه بخطه، وشهدوا على إقراره، وخلع عليهم، ووجه معهم من يأخذ البيعة على المستعين، وحمل إلى المستعين أمه وعياله، بعدما فتشوا، وأخذوا ما معهم. وكان دخول الرسل بغداد من عند المعتز لست خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

ذكر غزو الفرنج بالاندلس

في هذه السنة سبر محمد بن عبد الرحمن الأموي، صاحب الأندلس، جيشاً مع ابنه المنذر إلى بلاد المشركين في جمادى الآخرة، فساروا، وقصدوا الملاحة، وكانت أموال لذريق بناحية آية والقلاع، فلما عم المسلمون بلدهم بالخراب والنهب، جمع لذريق عساكره، وسار يريدهم، فالتقوا بموضع يقال له فحج المركوين، وبه تعرف هذه الغزاة، فاقتلوا، فانهزم المشركون، إلا أنهم لم يبعدوا، واجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة، فتبعهم المسلمون،

وأسر جماعة من الروم.

وفيهما ظهر بالكوفة رجل من الطالبين اسمه الحسين بن أحمد بن حمزة ابن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، واستخلف بها محمد بن جعفر بن حسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، يكنى أبا أحمد، فوجه إليه المستعين مزاحم بن خاقان، وكان العلوي بسواد الكوفة في جماعة من بني أسد ومن الزيدية، وأجلى عنها عامل الخليفة وهو أحمد بن نصير بن حمزة بن مالك الخزاعي إلى قصر ابن هبيرة، واجتمع مزاحم وهشام بن أبي دلف العجلي، فسار مزاحم إلى الكوفة، فحمل أهل الكوفة العلوية على قتالهما، ووعدهم النصرة، فقدم مزاحم (١٦٥/٧) وقتلهم، وكان قد سار قائداً معه جماعة، فأتى أهل الكوفة من ورائهم، فاطبقوا عليهم، فلم يفلت منهم واحد، ودخل الكوفة، فرماه أهلها بالحجارة، فأحرقها بالنار، فأحرق منها سبعة أسواق حتى خرجت النار إلى السبيح، ثم هجم على الدار التي فيها العلوي، فهرب، وأقام مزاحم بالكوفة، فاتاه كتاب المعتز يدعو إليه، فسار إليه.

وفيهما ظهر إنسان علوي بناحية نينوى من أرض العراق، فلقبه هشام بن أبي دلف في شهر رمضان، فقتل من أصحاب العلوي جماعة وهرب فدخل الكوفة.

وفيهما ظهر الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، المعروف بالكركي، بناحية قزوين، وزنجان، فطرد عمال طاهر عنها.

وفيهما قطعت بنو عُقَيْل طريق جُدَّة، فحاربهم جعفر بشاشات فقتل من أهل مكة نحو ثلاثمائة رجل، فغلت الأسعار بمكة، وأغارت الأعراب على القرى.

وفيهما ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بمكة، فهرب جعفر بشاشات، وانتهب إسماعيل منزله ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة، وأخذ ما كان حُمْل لإصلاح القبر من المال وما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة وغير ذلك، وأخذ كسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحواً من مائتي ألف دينار، وخرج منها بعد أن نهبا، وأحرق بعضها في ربيع الأول بعد خمسين يوماً (١٦٦/٧) وسار إلى المدينة، فتوارى عاملها، ثم رجع إسماعيل إلى مكة في رجب فحصرهم حتى تماوت أهلها جوعاً وعطشاً، وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم، واللحم رطل بأربعة دراهم، وشربة ماء بثلاثة دراهم، ولقي أهل مكة منه كل بلاء.

ثم سار إلى جُدَّة بعد مقام سبعة وخمسين يوماً، فحبس عن الناس الطعام وأخذ الأموال التي للتجار وأصحاب المراكب، ثم

وافى إسماعيل عرفة وبها محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور الملقب بكعب البقر، وعيسى بن محمد المخزومي صاحب جيش مكة، كان المعتز وجههما إليها، فقاتلها إسماعيل، وقتل من الحاج نحو ألف ومائة، وسلب الناس، وهربوا إلى مكة لم يبقوا بعرفة ليلاً ولا نهاراً، ووقف إسماعيل وأصحابه، ثم رجع إلى جُدَّة فأنقذ أموالها.

وفيهما مات سري السقطي الزاهد، وإسحاق بن منصور بن بهرام أبو يعقوب الكوشج، الحافظ النيسابوري، توفي في جمادى الأولى، وله مُسند يُروى عنه. (١٦٧/٧)

سنة الثنتين وخمسين ومائتين

ذكر خلع المستعين

في هذه السنة خلع المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم نفسه من الخلافة، وبايع للمعتز بالله بن المتوكل، وخطب للمعتز ببغداد يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم، وأخذ له البيعة على كل من بها من الجند.

وكان ابن طاهر قد دخل على المستعين ومعه سعيد بن حفيد، وقد كتب شروط الأمان، فقال له: يا أمير المؤمنين! قد كتب سعيد كتاب الشروط، فأكد غاية التوكيد، فنقرأه عليك لتسمعه. فقال المستعين: لا حاجة لي إلى توكيدها، فما القوم بأعلم بالله منك، ولقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما علمت. فما رد عليه محمد شيئاً.

فلما بايع المستعين للمعتز، وأشهد عليه بذلك، نُقل من الرُصافة إلى قصر الحسن بن سهل بالمحرم ومعه عياله وأهله جميعاً، ووكل بهم، وأخذ منه البردة، والقضيب، والخاتم، ووجه مع عبد الله بن طاهر، ومنع المستعين من الخروج إلى مكة، فاختر المَقَام بالبصرة، فقيل له: إن البصرة وبيّة، فقال: هي أوبا أو ترك الخلافة!

ولست خلون من المحرم دخل بغداد أكثر من مائتي سفينة فيها صنوف (١٦٨/٧) التجارات وغنم كثير.

وفيهما سار المستعين إلى واسط، واستوزر المعتز أحمد بن أبي إسرائيل، وخلع عليه، ورجع أبو أحمد إلى سامرا لاثنتي عشرة خلت من المحرم، فقال بعض الشعراء في خلع المستعين:

خَلَعَ الخليفة أحمدُ بنَ مُحَمَّدٍ وَسَقَطَ السَّيْلُ لَهْ أَوْ خَلَعَ
ويزولُ مُلْكُ بني إِيسَى وَلَا يُسرى أَحَدٌ تَمَلَّكَ مِنْهُمْ يَسْتَتِجُ
لِيهَا بني العباسِ إِنْ سَيلَكُم فِي قَتْلِ أَهْلِكُم سَيلٌ مَهَيَّجُ
رَقَعْتُمُ قَتِيلَكُمُ قَتَرَقَت بِكُمُ الحِياةَ تَمَرَقَتُ لَا يَرَقُ

وقال الشعراء في خلعه كالبحتري، ومحمد بن مروان بن أبي الجنوب وغيرهما فأكثرُوا.

وفيها لسبع بقين من المحرم انصرف أبو الساج ديوداد بن ديودست إلى بغداد، فقلده محمد بن عبد الله معاون ما سقى الفرات من السواد، فسير نوابه إليها لطرق الأتراك والمغاربة عنها، ثم سار أبو الساج إلى الكوفة.

ذكر حال وصيف وبغا

وفيها كتب المعتز إلى محمد بن عبد الله في إسقاط اسم وصيف وبغا ومن معهما من الدواوين؛ وكان محمد بن أبي عون، وهو أحد قواد محمد بن عبد الله، قد وعد أبا أحمد أن يقتل بغا ووصيفاً، فعقد له المعتز على اليمامة، والبحرين، والبصرة، فكتب قوم من أصحاب بغا ووصيف إليهما بذلك، (١٦٩/٧) وحذروهما محمد بن عبد الله، فركبا إلى محمد، وعرفاه ما ضمنه ابن أبي عون من قتلهما، وقال بغا: إن القوم قد غدروا، وخالفوا ما فارقونا عليه، والله لو أرادوا أن يقتلونا ما قدروا عليه.

فكفّه وصيف وقال: نحن نقعد في بيوتنا حتى يجيء من يقتلنا! ورجعا إلى منازلهما، وجمعا جندهما، ووجه وصيف أخته سعاد إلى المؤيد، وكان في حجرها، فكلم المؤيد المعتز في الرضاء عنه، فرفض عن وصيف، وكتب إليه بذلك؛ وتكلم أبو أحمد بن المتوكل في بغا، فكتب إليه بالرضاء عنه، وهما ببغداد، ثم تكلم الأتراك بإحضارهما إلى سامرا، فكتب إليهما بذلك، وكتب إلى محمد بن عبد الله ليعتصما من ذلك، فأتاهما كتاب إحضارهما، فأرسلاه إلى محمد بن عبد الله يستأذنانه، وخرج وصيف وبغا وفرنسبانهما وأولادهما في نحو أربع مائة إنسان، وخلفا الثقل والعيال، فوجه ابن طاهر إلى باب الشمامسة من يمتنعهم، فمضوا إلى باب خراسان، وخرجوا منه، ووصلا سامرا، ورجعا إلى منزلهما من الخدمة، وخلع عليهما، وعقد لهما على أعمالهما، وردّ البريد إلى موسى بن بغا الكبير.

ذكر الفتنة بين جند بغداد ومحمد بن عبد الله

وفي هذه السنة كانت وقعة بين جند بغداد وأصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر.

وكان سبب ذلك أن الشاكرية وأصحاب الفروض اجتمعوا إلى دار محمد يطلبون أرزاقهم في رمضان، فقال لهم: إني كتبت إلى أمير المؤمنين (١٧٠/٧) في إطلاق أرزاقكم، فكتب في الجواب: إن كنت تريد الجند لنفسك فأعطهم أرزاقهم، وإن كنت تريد لهم لنا فلا حاجة لنا فيهم؛ فشغبوا عليه، وأخرج لهم ألفي دينار، ففرقت فيهم، فسكتوا.

ثم اجتمعوا في رمضان أيضاً، ومعهم الأعلام والطبول، وضربوا الخيام على باب حرب، وعلى باب الشمامسة وغيرهما، وبنوا بيوتاً من بوارى وقصب، وساتوا ليلتهم، فلما أصبحوا كثر جمعهم، وأحضر محمد أصحابه، فباتوا في داره، وشحن داره بالرجال، واجتمع إلى أولئك الشغبين خلق كثير، بباب حرب، بالسلاح والأعلام والطبول، ورئيسهم أبو القاسم عبدون بن الموقف، وكان من نواب عبيد الله بن يحيى بن خاقان، فحثهم على طلب أرزاقهم وفاتتهم.

فلما كان يوم الجمعة أرادوا أن يمتنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز، فعلم الخطيب بذلك، فاعتذر بمرض لحقه، ولم يخطب، فمضوا يريدون الجسر، فوجه إليهم ابن طاهر عدّة من قواده في جماعة من الفرسان والرجال، فاقتلوا، فقتل بينهم قتلى، ودفعوا أصحاب ابن طاهر عن الجسر؛ فلما رأى الذين بالجانب الشرقي أن أصحابهم أزالوا أصحاب ابن طاهر عن الجسر حملوا يريدون العبور إلى أصحابهم، وكان ابن طاهر قد أعد سفينة فيها شوك وقصب، فألقى فيها النار، وأرسلها إلى الجسر الأعلى فأحرقت سفينته، وقطعته، وصارت إلى الجسر الآخر، فأدركها أهل الجانب الغربي، فغرقوها، وعبر من [في] الجانب الشرقي إلى الغربي، ودفعوا أصحاب ابن طاهر إلى باب داره، وقتل بينهم نحو (١٧١/٧) عشرة أنفس، ونهب العامة مجلس الشرط، وأخذوا منه شيئاً كثيراً من أصناف المتاع.

ولما رأى ابن طاهر أن الجند قد ظهروا على أصحابه أمر بالحوانيت التي على باب الجسر أن تحرق، فاحترق للتجار متاع كثير، فحالت النار بين الفريقين، ورجع الجند إلى معسكرهم بباب حرب، وجمع ابن طاهر عامة أصحابه، وعيّنهم تعبئة الحرب خوفاً من رجعة الجند، فلم يكن لهم عودة. فاتاه في بعض الأيام رجلان من الجند، فدلاه على عورة القوم، فأمر لهما بمائتي دينار، وأمر الشاه بن ميكال وغيره من القواد في جماعة بالمسير إليهم، فسار إلى تلك الناحية، وكان أبو القاسم، وابن الخليل، وهما المقدّمان على الجند، قد خافا بمضي دينك الرجلين، وقد تفرق الناس عنهما، فسار كل واحد منهما إلى ناحية؛ وأمّا ابن الخليل فإنه لقي الشاه بن ميكال ومن معه، فصاح بهم، وصالح به أصحاب محمد، وصار في وسطهم، فقتل؛ وأمّا أبو القاسم فإنه اختفى، فذلّ عليه فأخذ وحمل إلى ابن طاهر، وتفرق الجند من باب حرب، ورجعوا إلى منازلهم، وقيد أبو القاسم وضرب ضرباً مبرحاً، فمات منه في رمضان.

ذكر خلع المؤيد وموته

في رجب خلع المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد بعده كان

وصار الجوسق وبيت المال في أيدي المغاربة، وأخذوا الدواب التي كان تركها الأتراك، فاجتمع الأتراك وأرسلوا إلى من بالكرخ والدور منهم، فاجتمعوا (١٧٤/٧)، وتلاقوا هم والمغاربة، وأعان الغوغاء والشاكرية المغاربة، فضعف الأتراك وانقادوا، فأصلح جعفر بن عبد الواحد بينهم؛ على أن لا يُحدثوا شيئاً، وكل موضع يكون فيه رجل من الفريقين يكون فيه رجل من الفريق الآخر؛ فمكثوا مُدْبِدَةً، ثُمَّ اجتمع الأتراك وقالوا: نطلب هذين الراسين، فإن ظفركنا بهما فلا أحد ينطق، فبلغ الخبر باجتماع الأتراك إلى محمد بن راشد ونصر بن سعد، فخرجوا إلى منزل محمد بن غرون ليكونا عنده حتى يسكن الأتراك ثُمَّ يرجعا إلى جمعهما، فغمز بهما إلى الأتراك، فأخذوهما فقتلوهما، فبلغ ذلك المعتز، فأراد قتل ابن غرون، فكلم في فناه إلى بغداد.

ذكر خروج مُساور بالبوازيح

في هذه السنة في رجب خرج مُساور بن عبد الحميد بن مُساور الشاري البجلي الموصلي بالبوازيح، وإلى جده يُنسب فندق مساور بالموصل.

وكان سبب خروجه أن شُرطة الموصل، وكان يتولأها لبني عمران، وامراء الموصل، لزموا إنساناً اسمه حسين بن بكير، فأخذ ابناً لِمُساور هذا اسمه حوثرة، فحبسه بالحليّة، وكان حوثرة جميلاً، فكان حسين هذا يُخرجه من الحبس ليلاً ويُحضره عنده، ويرده إلى الحبس نهائياً، فكتب حوثرة إلى أبيه مُساور، وهو بالبوازيح، يقول له: أنا بالنهار محبوب وبالليل عروس، فغضب لذلك، وقلق، وخرج وباعه جماعة، وقصد الحديثة، فاختفى حسين بن بكير، وأخرج مساور ابنه حوثرة من الحبس، وكثر جمعه من الأكراد والأعراب، وصار إلى الموصل فنزل بالجانب الشرقي.

وكان الوالي عليها عُقبه بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث بن أهبان الخزاعي، وأهبان يقال إنه مكلم الذئب، وله صحبة، فوافقه عُقبه من الجانب الغربي، فعبّر دجلة رجلاً من أهل الموصل إلى مُساور، فقاتلا، فقتلوا، وعاد مساور، وكره القتال؛ وكان حوثرة بن مُساور معهم فسمع يقول:

أنا الغلامُ البجليُّ الشاري أخرجني جورُكمُ من داري

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة حُمل محمد بن علي بن خلف المطّار، وجماعة من الطالبين، إلى سامراء، فيهم: أبو أحمد محمد بن جعفر بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأبو هاشم داود بن القاسم الجعفري في شعبان.

وكان سبب ذلك أن رجلاً من الطالبين سار من بغداد في

سببه أن العلاء بن أحمد، عامل أرمينية، بعث إلى المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها (١٧٢/٧) أمره، فبعث عيسى بن فرخان شاه إليها فأخذها، فأغرى المؤيد الأتراك بعيسى، وخالفهم المغاربة، فبعث المعتز إلى المؤيد وأبي أحمد، فأخذهما وحبسهما، وقيد المؤيد، وأدر العطاء للأتراك والمغاربة.

وقيل إنه ضربه أربعين مفرقة، وخلعه بسامراً، وأخذ خطه بخلع نفسه، وكانت وفاته أيضاً في رجب لثمان بقين من الشهر.

وكان سبب موته أن امرأة من نساء الأتراك أعلمت محمد بن راشد أن الأتراك يريدون إخراج المؤيد من الحبس، فأنهى ذلك إلى المعتز، فذكر موسى ابن بُغا عنه فقال: ما أرادوه، إنما أرادوا أن يُخرجوا أبا أحمد بن المتوكل لأنهم به وكان في الحرب التي كانت؛ فلما كان من الغد دعا بالقضاة والفقهاء والوجوه، فأخرج المؤيد إليهم ميتاً لا أثر به، ولا جرح، وحُمل إلى أمه، ومعه كنفه، وأمرت بدفنه؛ فقيل إنه أدرج في لحاف سَمُور ومُسك طرفاه حتى مات؛ وقيل إنه أُقعد في الثلج، وجُعل على رأسه منه كثير، فجمد برداً؛ ولما مات المؤيد نُقل أخوه أبو أحمد إلى محبسه، وكانا لأب وأم.

ذكر قتل المستعين

ولما أراد المعتز قتل المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم، كتب إلى محمد ابن عبد الله يأمره بتسليم المستعين إلى سيما الخادم، فكتب محمد إلى الموكّلين (١٧٣/٧) بالمستعين بواسط في تسليمه إليه، وأرسل أحمد بن طولون في تسليمه، فأخذه أحمد وسار به إلى القاطول، فسلمه إلى سعيد بن صالح، فأدخله سعيد منزله، وضربه حتى مات.

وقيل: بل جعل في رجله حجراً وألفاه في دجلة؛ وقيل: كان قد حمل معه دابة له تعادله، فلما أخذه سعيد ضربه بالسيف، فصاح، وصاحت دابته، ثُمَّ قُتل وقُتلت المرأة معه، وحُمل رأسه إلى المعتز، وهو يلعب بالشطرنج، فقيل: هذا رأس المخلوع! فقال: ضعه حتى أفرغ من الدُست! فلما فرغ نظر إليه، وأمر بدفنه، وأمر لسعيد بخمسين ألف درهم، وولاه معونة البصرة.

ذكر الفتنة بين الأتراك والمغاربة

وفي هذه السنة مستهل رجب كانت الفتنة بين الأتراك والمغاربة.

وسببها أن الأتراك وثبوا بعيسى بن فرخان شاه، فضربوه، وأخذوا دابته، واجتمعت المغاربة مع محمد بن راشد، ونصر بن سعد، وغلبوا الأتراك على الجوسق، وأخرجوهم منه، وقالوا لهم: كل يوم تقتلون خليفة، وتخلعون آخر، وتعملون وزيراً.

وفيها سَيَّرَ مُحَمَّدُ بْنُ [عبد الرحمن] صاحب الأندلس جيشاً إلى بلاد العدو، فقصدوا آلبه، والقلاع، ومدينة مايه وقتلوا من أهلها عدداً كثيراً، ثُمَّ قَتَلَ الجيشُ سالمين.

وفيها تَوَفَّى مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارِ بَنْدَارٍ، وَأَبُو مُوسَى مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى الزَّمَنِيُّ البَصْرِيَّانِ، وهما من مشايخ البخاري، ومسلم، في الصحيح، وكان مولد بNDAR سنة سبع وستين ومائة. (١٧٨/٧)

سنة ثلاث وخمسين ومائتين

ذكر اخذ كَرْجٍ من أَبِي دُلْفٍ

فيها عقد المعتز لموسى بن بُغَا الكبير في رجب على الجبل، فسار على مَقْدَمَتِهِ مُفْلِحٌ، فلقيه عبد العزيز بن أَبِي دُلْفٍ خارج هَمْدَانَ، فتحاربوا، وكان مع عبد العزيز أكثر من عشرين ألفاً من الصعاليك وغيرهم، فانهزم عبد العزيز وقُتِلَ أصحابه.

فلَمَّا كَانَ فِي رَمَضَانَ سَارَ مُفْلِحٌ نَحْوَ كَرْجٍ، وجعل له كمينين، ووجَّهَ عبد العزيز عسكراً فيه أربعة آلاف، فقاتلهم مُفْلِحٌ، وخرج الكمينان على أصحاب عبد العزيز، فانهزموا، وقُتِلُوا، وأسروا، وأقبل عبد العزيز لِيُعَيِّنَ أصحابه، فانهزم بانهمامهم، وترك كَرْجٍ، ومضى إلى قلعة له يقال لها رُزٌّ، فتحصَّنَ بها، ودخل مُفْلِحٌ كَرْجٍ فأخذ أهلَ عبد العزيز وفيهم والدته.

ذكر قتل وصيف

وفيها قُتِلَ وصيف؛ وكان سبب قتله أَنَّ الأتراك والفراغنة والأشروسِيَّةَ شغبوا، وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر، فخرَجَ إليهم بُغَا ووصيف ومسيما، (١٧٩/٧) فكلَّمَهُم وصيف فقال لهم: خذوا التراب، ليس عندنا مال. وقال بُغَا: نعم! نسأل أمير المؤمنين ونتناظر في دار أشتاس. فدخلوا دار أشتاس.

ومضى سيما وبُغَا إلى المعتز، وبقي وصيف في أيديهم، فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف، ووجه آخر بسكين، ثُمَّ ضربه بالطبرزنات حتى قتله، وأخذوا رأسه ونصبوه على مِخْرَاقِ تَنُورٍ؛ وجعل المعتز ما كان إلى وصيف إلى بُغَا الشرايبي، وهو بُغَا الصغير، وألبسه التاج والوشاحين.

ذكر قتل بُنْدَارِ الطَّبْرِيِّ

وفيها قُتِلَ بُنْدَارُ الطَّبْرِيُّ، وكان سبب قتله أَنَّ مُسَاوِرَ بْنَ عَبْدِ الحميد الموصليَّ الخارجيَّ لَمَّا خَرَجَ بِالْبَوَازِجِ، كما ذكرنا، وكان طريق خُرَّاسَانَ إِلَى بُنْدَارٍ، ومظفر بن سبيل، وكانا بالدمسكرة، أتى الخبر إلى بُنْدَارٍ بمسير مُسَاوِرٍ إِلَى كَرْخِ حِدَانَ، فقال المظفر في المسير إليه: فقال للمظفر: قد أَمْسَيْنَا، وغداً العيد، فإذا قضينا العيد سرنا إليه. فسار بُنْدَارٌ طمعاً في أن يكون الظفر له، فسار ليلاً، حَتَّى

جماعة من الشاكزية إلى ناحية الكوفة، وكانت من أعمال أبي الساج، وكان مقيماً ببغداد، فأمر مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بِالمسير إِلَى الكوفة، فَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ خَلِيفَتَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِلَى الكوفة، فَلَمَّا صَارَ إِلَيْهَا رَمَى بِالحجارة، وظنَّه جَاءَ لِحَرْبِ العلوِيَّ، (١٧٦/٧) فقال: لستُ بعامل، إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَجَّهْتُ لِحَرْبِ الْأَعْرَابِ؛ فَكَفَّوا عَنْهُ.

وكان أبو أحمد الطالبيُّ المذكور قد ولَّاهُ المعتز الكوفة، بعدما هزم مزاحم بن خاقان العلوِيَّ الذي كان وَجَّهَ لِقِتَالِهِ بِهَا، وقد تقدَّم ذكره، فعاث أبو أحمد فيها، وأدَّى الناس، وأخذ أموالهم وضياعهم، فلَمَّا أَقَامَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بِالْكُوفَةِ لاطفه واستماله، حَتَّى خالطه أَبُو أحمد، وأكله وشاربه، حَتَّى سَارَ بِهِ ثُمَّ خَرَجَ مَتَتَّهِماً إِلَى بَسْتَانَ، فأمسى وقد عبَّأَ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَصْحَابَهُ، فَقَبَّضَهُ، وسَيَّرَهُ إِلَى بَغْدَادِ فِي ربيع الآخر، ووُجِدَتْ مَعَ ابْنِ أَخٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ خَلْقِ الْعَطَّارِ كُتُبٌ مِنَ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدٍ، فَكُتِبَ بِخَبَرِهِ إِلَى الْمُعْتَزِّ، فَكُتِبَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بِحَمْلِهِ وَحَمْلِ الطَّالِبِيِّينَ الْمَذْكُورِينَ إِلَى سَامَرَا، فَحُمِلُوا جَمِيعاً.

وفيها وَلِيَ الْحُسَيْنُ بْنُ أَبِي الشَّوَّارِبِ قِضَاءَ الْقَضَاءِ.

وفيها تَوَجَّهَ أَبُو السَّاجِ إِلَى طَرِيقِ خُرَّاسَانَ مِنْ قِبَلِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

وفيها عَقَّدَ لِعِيسَى بْنِ الشَّيْخِ عَلَى الرَّمْلَةِ وَأَنْفَذَ خَلِيفَتَهُ أَبَا الْمَغْرَا إِلَيْهَا، وَعِيسَى هَذَا شَيْبَانِيٌّ، وَهُوَ عِيسَى بْنُ الشَّيْخِ بْنِ السَّلِيلِ، مِنْ وَلَدِ جَسَّاسٍ بْنِ مَرْثَةَ بْنِ ذُهَلِ بْنِ شَيْبَانَ، وَاسْتَوْلَى عَلَى فَلَاسْطِينَ جَمِيعَهَا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْأَتْرَاقِ بِالْعِرَاقِ مَا ذَكَرْنَاهُ تَغَلَّبَ عَلَى دِمَشْقَ وَأَعْمَالِهَا، وَقَطَعَ مَا كَانَ يُحْمَلُ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْخَلِيفَةِ، وَاسْتَبَدَّ بِالْأُمُوالِ.

وفيها كُتِبَ وَصِيفٌ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي دُلْفٍ الْعِجْلِيَّ بِتَوَلِيَةِ الْجَبَلِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِخَلْعٍ، فَتَوَلَّى ذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِ.

وفيها قُتِلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الشَّارِي بِدِيَارِ رِبِيعَةٍ، قَتَلَهُ خَلِيفَةُ لَأَيُّوبِ بْنِ (١٧٧/٧) أَحْمَدَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ.

وفيها أَغَارَ جِسْتَانُ صَاحِبُ الدَّيْلَمِ مَعَ أَحْمَدَ بْنِ عِيسَى بْنِ أَحْمَدَ الْعَلَوِيِّ، وَالْحُسَيْنِ بْنِ أَحْمَدَ الْكُوكَبِيِّ، عَلَى الرَّيِّ فَقَتَلُوا وَسَبَوْا، وَكَانَ بِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَزَّيْرٍ، فَهَرَبَ مِنْهَا، فَصَالَحَهُمْ أَهْلُ الرَّيِّ عَلَى أَلْفِيٍّ دَرَاهِمٍ، فَارْتَحَلُوا عَنْهَا، وَعَادَ ابْنُ عَزَّيْرٍ فَأَخَذَ أَحْمَدُ بْنُ عِيسَى وَبَعَثَ بِهِ إِلَى نِيسَابُورَ.

وفيها مَاتَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ يَوْسَافَ الطَّالِبِيُّ الَّذِي كَانَ فَعَلَ بِمَكَّةَ مَا فَعَلَ.

وفيها حَجَّ بِالنَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عِيسَى بْنِ الْمَنْصُورِ.

واشرف على عسكر مساور، فأشار عليه بعض أصحابه أن يبيتهم، فأبى وقال: حتى أراهم ويروني، فأحسن به الخوارج، فركبوا، واقتلوا.

وكان مع بُندار ثلاثمائة فارس، ومع الخوارج سبع مائة فاشتد القتال بينهم، وحمل الخوارج حملة اقتطعوا من أصحاب بُندار أكثر من مائة، (١٨٠/٧) فصبروا لهم، وقتلواهم، حتى قتلوا جميعاً، فانهزم بُندار وأصحابه، وجعل الخوارج يقطعونهم قطعة بعد قطعة، فقتلوه.

وشهنت مواقفنا نزاراً فاحمكت كرات كل سبتدع فمقام جلاوا وجتلا فقيهم صلنا ضريباً يطيح جماجم الأجسام وهي طويلة.

وفيهما كان أيضاً بأعمال الموصل فتنة وحرب قُتل فيها الحباب بن بكير التليدي؛ وسبب ذلك أن محمد بن عبد الله بن السيد بن أنس التليدي الأزدي كان اشترى قرينين [كان] رهنهما محمد بن علي التليدي عنده، وكره صاحبهما أن يشتريهما، فشكا ذلك إلى الحباب بن بكير، فقال الحباب له: اتني بكتاب من بُغا لأمنع عنهما؛ وأعطاه دوابً ونفقة، وانحدر إلى سُر من رأى، وأحضر كتاباً من بُغا إلى الحباب يأمره بكف يد محمد بن عبد الله بن السيد عن القرينين، ففعل ذلك، وأرسل إليهما من منع عنهما محمدًا، ففجرت بينهما مراسلات واصطحلحا.

فبينما محمد بن عبد الله بن السيد والحباب بالبستان على شراب لهما، ومعهما قينة، قال لها الحباب غني بهذا الشعر:

متى تجمع القلب الزكي وصارماً وانفأ حمياً تجتبيك المظالم
فغنت الجارية، فغضب محمد بن عبد الله، وقال لها بل غني:

(١٨٣/٧)

كذبتم ويس الله لا تأخزنوها مُراغمة ما دام لل سيف قائم
ولا صلح حتى ترقع البيض بالقنا ويضرب بالبيض الخفاف الجماجم
وافترقا وقد حقد كل واحد منهما على صاحبه، وأعاد الحباب التوكيل بالقرينين، فجمع محمد جمعاً، وترددت الرسل في الصلح، وأجابا إلى ذلك، وفرق محمد جمعه، فأبلغ محمد أن الحباب قال: لو كان مع محمد أربعة لما أجاب إلى الصلح، فغضب لذلك، وجمع جمعاً كثيراً، وسار مبادراً إلى الحباب، فخرج إليه الحباب غير مستعد، فاقتلوا قتل الحباب ومعه ابن له وجمع من أصحابه، وكان ذلك في ذي القعدة من هذه السنة.

ذكر عدة حوادث

ففيها نفى أبو أحمد بن المتوكل إلى البصرة، ثم رُد إلى بغداد، فأُنزل في الجانب الشرقي بقصر دينار، ونفى أيضاً علي بن المعتصم إلى واسط، ثم رُد إلى بغداد.

وفيهما مات مزاحم بن خاقان بمصر في ذي الحجة؛ وحج بالناس عبد الله بن محمد بن سليمان الزينبي.

واشرف على عسكر مساور، فأشار عليه بعض أصحابه أن يبيتهم، فأبى وقال: حتى أراهم ويروني، فأحسن به الخوارج، فركبوا، واقتلوا.

وكان مع بُندار ثلاثمائة فارس، ومع الخوارج سبع مائة فاشتد القتال بينهم، وحمل الخوارج حملة اقتطعوا من أصحاب بُندار أكثر من مائة، (١٨٠/٧) فصبروا لهم، وقتلواهم، حتى قتلوا جميعاً، فانهزم بُندار وأصحابه، وجعل الخوارج يقطعونهم قطعة بعد قطعة، فقتلوه.

وأمن بُندار في الهرب، فظليوه، فلحقوه، فقتلوه، ونصبوا رأسه ونجا من أصحابه نحو من خمسين رجلاً وقُتل مائة.

وأتى الخبر إلى المظفر، فرحل نحو بغداد، وسار مساور نحو خلوان، فقاتله أهلها، فقتل منهم أربع مائة إنسان، وقتلوا من أصحابه جماعة، وقُتل عدة من حجاج خراسان كانوا بخلوان، وأعانوا أهلها، ثم انصرفوا عنه. وقال ابن مساور في ذلك:

فجئت العراق بُندارها وحزت البلاد بأطلرها
وخلوان صبحتها غارة فقتلت أغرار غرارها
وعقبه بالموصل أخبرته وطوقته الثلث في كاربها

ذكر موت محمد بن عبد الله بن طاهر

وفي ليلة أربع عشرة من ذي الحجة انخسف القمر جميعه، ومع انتهاء خسوفه مات محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، وكانت علته التي مات بها قروحاً أصابته في حلقه ورأسه فذبحته، وكانت تدخل فيها القتال.

ولما اشتد مرضه كتب إلى عماله وأصحابه بتفويض ما إليه من الولاية إلى (١٨١/٧) أخيه عبيد الله بن طاهر، فلما مات تنازع ابنه طاهر وأخوه عبيد الله الصلاة عليه، فصلى عليه ابنه، وتنازع عبيد الله وأصحاب طاهر، حتى سلوا السيوف، ورموا بالحجارة، ومال العامة مع أصحاب طاهر، وعبر عبيد الله إلى داره بالجانب الشرقي، فغبر معه القواد لاستخلاف محمد، فكان أوصاه على أعماله، ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع إلى عبيد الله، فأمر عبيد الله للذي أتاه بالخلع بخمسين ألف درهم.

ذكر الفتنة بأعمال الموصل

في هذه السنة كانت حرب بين سليمان بن عمران الأزدي وبين عتزة.

وسببها أن سليمان اشترى ناحية من المرح، فطلب منه إنسان من عتزة اسمه برهونة الشفعة، فلم يجبه إليها، فسار برهونة إلى عتزة، وهم بين الزائين، فاستجار بهم وبين شيان، واجتمع معه جمع كثير، ونهبوا الأعمال فأسرفوا.

بن الحسين، وعامله على هراة محمد بن أوس الأنباري، فخرج منها لمحاربة يعقوب في تعبته حسنة، وبأس شديد، وزيّ جميل، فتحاربوا واقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم ابن أوس، وملك يعقوب هراة وبوشنج، وصارت المدينتان في يده، فعظم أمره حينئذ، وهابه أمير خراسان وغيره من أصحاب الأطراف. (١٨٦/٧)

سنة أربع وخمسين ومائتين

ذكر مقتل بُغا الشرايبي

وفيها قُتل بُغا الشرايبي، وكان سبب قتله أنه كان يحرض المعتز على المسير إلى بغداد، والمعتز يأبى ذلك ويكرهه، فاتفق أن يُغا اشتغل بتزويج ابنته من صالح بن وصيف، فركب المعتز ومعه أحمد بن إسرائيل إلى كرخ سامراً، إلى بابكial التركي ومن معه من المنحرفين عن بُغا.

وكان سبب انحرافه عنه أنهم كانوا على شراب لهما، فغريد أحدهما على الآخر، فاخفى بابكial من بُغا، فلمّا أثار المعتز اجتمع معه أهل الكرخ وأهل الدور ثمّ أقبلوا مع المعتز إلى الجوسق بسامراً، وبلغ ذلك بُغا، فخرج في غلمانته وهم زهاء خمس مائة إنسان من ولده وقواده، فسار إلى السنّ، فشكا أصحابه بعضهم إلى بعض ما هم فيه من العسف، وأنهم خرجوا بغير مضارب ولا ما يلبسونه في البرد، وأنهم في شتاء، فأتاه بعض أصحابه وأخبره بقولهم، فقال: دعني حتّى أنظر الليلة.

فلمّا جنّ عليه الليل ركب في زورق، ومعه خادمان، وشيء من المال الذي صحبه، وكان قد صحبه تسع عشرة بدرّة دناسير، ومائة بدرّة دراهم، ولم يحمل معه سلاحاً، ولا سكيناً، ولا شيئاً، ولم يعلم به أحد من عسكره. (١٨٧/٧) وكان المعتز، في غيبة بُغا، لا ينأى إلا في ثيابه وعليه السلاح، فسار بُغا إلى الجسر في الثلث الأوّل من الليل، فبعث الموكلون بالجسر ينظرون من هو، فصاح بالغلام فرجع، وخرج بُغا في البستان الخاقاني، فلحقه عدّة من الموكلين، فوقف لهم بُغا وقال: أنا بُغا، إمّا أن تذهبوا معي إلى صالح بن وصيف، وإمّا أن تصيروا معي حتّى أحسن إليكم. فتوكلّ به بعضهم، وأرسلوا إلى المعتز بالخبر، فأمر بقتله، فقتل، وحُمل رأسه إلى المعتز، ونُصب بسامراً، وبيّغداد، وأحرقت المغاربة جسده؛ وكان أراد أن يختفي عند صالح بن وصيف، فإذا اشتغل الناس بالعيد، وكان قد قرب، خرج هو وصالح ووثبوا بالمعتز.

ذكر ابتداء حال أحمد بن طولون

كانت ديار مصر قد أقطعتها بابكial، وهو من أكابر قواد الأتراك، وكان مقيماً بالحضرة، واستخلف بها من ينوب عنه بها.

وفيها غزا محمد بن مُعاذ من ناحية مَلَطِيّة، فانهزم وأسر. (١٨٤/٧)

وفيها التقى موسى بن بُغا والكوكبي العلويّ عند قزوين، فانهزم الكوكبيّ ولحق بالذيلم، وكان سبب الهزيمة أنهم لمّا اصطفوا للقتال جعل أصحاب الكوكبيّ تروسهم في وجوههم، فيتقون بها سهام أصحاب موسى، فلمّا رأى موسى أن سهام أصحابه لا تصل إليهم مع فعلهم، أمر بما معه من النفط أن يُصبّ في الأرض، ثمّ أمر أصحابه بالاستطردا لهم، ففعلوا ذلك، فظنّ الكوكبيّ وأصحابه أنهم قد انهزموا، فتبعهم، فلمّا توسّطوا النفط أمر موسى بالنار فألقيت فيه، فالتهب من تحت أقدامهم، فجعلت تحرقهم، فانهزموا، فتبعهم موسى، ودخل قزوين.

وفيها في ذي الحجة لقي مُساوور الخارجيّ عسكراً للخليفة مقدّمهم حطرس بناحية جلولا، فهزّمه مساوور.

وفيها سار جيش المسلمين من الأندلس إلى بلاد المشركين، فافتتحوا حصون جرنيق، وحاصروا فوتب (?) وغلب على أكثر أسوارها.

ذكر ابتداء دولة يعقوب الصفّار وملكه هراة وبوشنج

وكان يعقوب بن الليث وأخوه عمرو يعملان الصُّفّر بسجستان، ويظهران الزهد والتقشّف. وكان في أيامهما رجل من أهل سجستان يُظهر التطوُّع بقتال الخوارج، يقال له: صالح المطوُّعيّ، فصحبه يعقوب، وقاتل معه، فحظي عنده، فجعله صالح مقام الخليفة عنه، ثمّ هلك صالح، وقام مقامه (١٨٥/٧) إنسان آخر اسمه درهم، فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح قبله.

ثمّ إنّ صاحب خراسان احتال لدرهم لمّا عظم شأنه وكثر أتباعه، حتّى ظفر به وحمله إلى بغداد فحبسه بها، ثمّ أطلق، وخدم الخليفة ببغداد.

وعظم أمر يعقوب بعد أخذ درهم، وصار متولّي أمر المتطوِّعة مكان درهم، وقام لمحاربة الشراة، فظفر بهم، وأكثر القتل فيهم، حتّى كاد يفتنيهم، وخرّب قراهم، وأطاعه أصحابه بمكره، وحُسن حاله، ورأيه، طاعة لم يطيعوها أحداً كان قبله، واشتدّت شوكته، فغلب على سجستان، وأظهر التمسك بطاعة الخليفة، وكتبه، وصدر عن أمره، وأظهر أنه هو أمره بقتال الشراة؛ وملك سجستان، وضبط الطرق وحفظها، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فكثر أتباعه، فخرج عن حدّ طلب الشراة، وصار يتناول أصحاب أمير خراسان للخليفة.

ثمّ سار من سجستان إلى هراة، من خراسان، هذه السنة، ليملكها، وكان أمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر

والعواصم.

وفيها أوقع مُفلج بأهل قُم، فقتل منهم مقتلة عظيمة.

وفيها عاود أهلُ ماردة من بلاد الأندلس الخلافَ على محمد بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، وسبب ذلك أنهم خالفوا قديماً على أبيه، فظفر بهم، وتفرق كثير من أهلها، فلمَّا كان الآن تجتمع إليهم من كان فارقتها، فعادوا إلى الخلاف والعصيان، فسار محمد إليهم، وحصرهم، وضيق عليهم، فانقادوا إلى التسليم والطاعة، فقتلهم وأموالهم إلى قرطبة، وهدم سور ماردة، وحصن بها الموضع الذي كان يسكنه العُمال دون غيرهم. (١٩٠/٧)

وفيها هلك أردون بن رُمير، صاحب جليقية من الأندلس، وولي مكانه أدفونش، وهو ابن اثني عشرة سنة.

وفيها انكشف القمر كسوفاً كلياً لم يبق منه شيء ظاهر.

وفيها كان ببلاد الأندلس قحط شديد، تتابع عليهم من سنة إحدى وخمسين [ومائتين] إلى سنة خمس وخمسين [ومائتين]، وكشف الله عنهم.

وفيها وصل دُلف بن عبد العزيز بن أبي دُلف العجلي إلى الأهواز، وجُنْدِسَابُور، وتستر، فجى بها مائتي ألف دينار، ثم انصرف، وكان والده أمره بذلك.

وفي رمضان مار نوشرى إلى مُساوَر الشاري، فلقبه، فهزمه، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة.

وحجَّ بالناس عليُّ بن الحسين بن إسماعيل بن عباس بن محمد.

وفيها توفي أبو الوليد بن عبد الملك بن قطن النحوي القيرواني بها، وكان إماماً في النحو واللغة، وإماماً بالعربية، قيل مات سنة خمس وخمسين [ومائتين] وهو أصح. (١٩١/٧)

سنة خمس وخمسين ومائتين

ذكر استيلاء يعقوب بن الليث الصفار على كرمان

وفيها استولى يعقوب بن الليث الصفار على كرمان؛ وسبب ذلك أنَّ عليَّ بن الحسين بن شبل كان على فارس، فكتب إلى المعتز يطلب كرمان، ويذكر عجز الطاهرية، وأنَّ يعقوب قد غلبهم على ميجستان، وكان عليُّ بن الحسين قد تباطأ بحمل خراج فارس، فكتب إليه المعتز بولاية كرمان، وكتب إلى يعقوب بن الليث بولايتها أيضاً، يلتمس إغراء كل واحد منهما بصاحبه ليسقط مؤونة الهالك عنه، ويتفرد بالآخر.

وكان طولون والد أحمد بن طولون أيضاً من الأتراك، وقد نشأ هو، بعد والده، على طريقة مستقيمة، وصيرة حسنة، فالتمس بابكial من يستخلفه بمصر، فأشير عليه بأحمد بن طولون، لما ظهر عنه من حسن السيرة، فولاه وسمَّيه إليها.

وكان بها ابن المُدَبِّر على الخراج، وقد تحكَّم في البلد، فلمَّا قدمها أحمد كفَّ يد ابن المُدَبِّر، واستولى على البلد؛ وكان بابكial قد استعمل أحمد بن طولون على مصر وحدها سوى باقي الأعمال كالإسكندرية وغيرها، فلمَّا قتل المهتدي بابكial وصارت مصر لياركوج التركي، وكان بينه وبين أحمد (١٨٨/٧) ابن طولون مودة متأكدة، استعمله على ديار مصر جميعها، فقوي أمره، وعلا شأنه ودامت أيامه، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]

ذكر وقعة بين مُساوَر الخارجي وبين عسكر الموصل

كان مُساوَر بن عبد الحميد قد استولى على أكثر أعمال الموصل وقوي أمره، فجمع له الحسن بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب العدوي التغلبي، وكان خليفة أبيه بالموصل، عسكرياً كثيراً منهم حمدان بن حمدون، جدُّ الأمراء الحمدانية، وغيره، وسار إلى مُساوَر وعبر إليه نهر الزاب، فتأخَّر عنه مُساوَر عن موضعه، ونزل بموضع يقال له وادي الذيات وهو واد عميق فسار الحسن في طلبه فالتقوا في جمادى الأولى، وأقتلوا، واشتدَّ القتال، فانهزم عسكر الموصل، وكثر القتل فيهم، وسقط كثير منهم في الوادي فهلك فيه أكثر من القتلى، ونجا الحسن فوصل إلى حرَّة من أعمال إربل اليوم، ونجا محمد بن علي بن السيّد، فظنَّ الخوارج أنَّه الحسن فتبعوه، وكان فارساً شجاعاً، فقاتلهم، فقتل، واشتدَّ أمر مُساوَر وعظم شأنه وخافه الناس. (١٨٩/٧)

ذكر عدَّة حوادث

في هذه السنة توفي أبو أحمد بن الرشيد، وهو عمَّ الواثق والمتوكل، وعمَّ أبي المتصنِّع والمستعين والمعتز، وكان معه من الخلفاء إخوته الأمين، والمأمون، والمعتصم، وابنا أخيه الواثق والمتوكل ابنا المعتصم، وأبناء ابنَيْ أخيه، وهم المتصنِّع والمستعين، والمعتز.

وفيها في جمادى الآخرة توفي عليُّ بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، بسامراء، وهو أحد من يعتقد الإمامية إمامته، وصلى عليه أبو أحمد بن المتوكل، وكان مولده سنة اثنتي عشرة ومائتين.

وفيها عقد صالح بن وصيف لديوداد على ديار مصر، وقُتْسِرِين

فجعل يسبح إلى جانب عسكر [علي بن] الحسين، وكان علي بن الحسين وأصحابه قد ركبوا ينظرون إلى فعله، ويضحكون منه.

والتقى يعقوب نفسه وأصحابه في الماء على خيلهم، وبأيديهم الرماح، يسرون خلف الكلب، فلما رأى علي بن الحسين أن يعقوب قد قطع عامة النهر تحير في أمره، وانتقض عليه تدبيره، وخرج أصحاب يعقوب من وراء أصحاب علي، فلما خرج أولاهم هرب أصحابه إلى مدينة شيراز، لأنهم كانوا يصيرون، إذا خرج يعقوب وأصحابه، بين جيش يعقوب والمضيق، ولا يجدون ملجأ، فانهمزوا، فسقط علي بن الحسين عن دابته، كبا به الفرس، فأخذ أسيراً، وأتى به إلى يعقوب، فقيده، وأخذ كل ما في عسكره، ثم رحل من موضعه، ودخل شيراز ليلاً، فلم يتحرك أحد، فلما أصبح نهب أصحابه دار علي ودور أصحابه، وأخذ ما في بيوت الأموال، وجبى الخراج ورجع إلى سيجستان.

وقيل إنه جرى بين يعقوب الصفار وبين علي بن الحسين، بعد عبوره (١٩٤/٧) النهر، حرب شديدة، وذلك أن علياً كان قد جمع عنده جمعاً كثيراً من الموالى والأكراد وغيرهم، بلغت عدتهم خمسة عشر ألفاً بين فارس وراجل، فعبا أصحابه ميمنة، وميسرة، وقلبا، ووقف هو في القلب، وأقبل الصفار فعب النهر، فلما صار مع علي على أرض واحدة حمل هو وعسكره حملة واحدة على عسكر علي، فثبتوا لهم، ثم حمل ثانية فأزالهم عن مواقعهم، وصدقهم في الحرب، فانهمزوا على وجوههم لا يلوي أحد على أحد.

وتبعهم علي يصبح بهم، ويناشدهم الله ليرجعوا، أو ليقفوا، فلم يلتفت إليه أحد، وقتل الرجال قتلاً ذريعاً، وأقبل المنهزمون إلى باب شيراز مع العسكر، فازدحموا في الأبواب، فتفرقوا في نواحي فارس، وبلغ بعضهم في هزيمته إلى الأهواز.

فلما رأى الصفار ما لقوا من القتل أمر بالكف عنهم، ولولا ذلك لقتلوا عن آخرهم. وكان القتلى خمسة آلاف قتيل، وأصاب علي بن الحسين ثلاث جراحات، ثم أخذ أسيراً لما عرفوه، ودخل الصفار إلى شيراز، وطاف بالمدينة، ونادى بالأمان فاطمأن الناس، وعذب علياً بأنواع العذاب، وأخذ من أمواله ألف بكرة، وقيل أربع مائة بكرة؛ ومن السلاح والأفراس، وغير ذلك ما لا يحصى، وكتب إلى الخليفة بطاعته، وأهدى له هدية جليلة منها عشرة بيزان بيض، وباز أبلق صيني، ومائة من مسك وغيرها من الطرائف، (١٩٥/٧) وعاد إلى سيجستان ومعه علي، وطوق، تحت الاستظهار، فلما فارق بلاد فارس أرسل الخليفة عماله إليها.

ذكر خلع المعتز وموته

وفيها، في يوم الأربعاء، لثلاث بقتين من رجب، خلع المعتز،

وكان كل واحد منهما يظهر طاعة لا حقيقة لها، والمعتز يعلم ذلك منهما، فأرسل علي بن الحسين طوق بن المغلس إلى كرمان، وسار يعقوب إليها، فسبقة طوق واستولى عليها، وأقبل يعقوب حتى بقي بينه وبين كرمان مرحلة، فأقام بها شهرين لا يتقدم إلى طوق، ولا طوق يخرج إليه، فلما طال ذلك عليه أظهر الارتحال إلى سيجستان، فارتحل مرحلتين، وبلغ طوقاً ارتحاله فظن أنه قد بدا له في حربه، وترك كرمان، فوضع آلة الحرب، وقعد للأكل والشرب والملاهي.

وانصل يعقوب إقبال طوق على الشرب، ففكر راجعاً، فطوى المرتحلين (١٩٢/٧) في يوم واحد، فلم يشعر طوق إلا بغيرة عسكره، فقال: ما هذا؟ فقيل: غيرة المواشي، فلم يكن بأسرع من موافاة يعقوب، فأحاط به وأصحابه، فذهب أصحابه يريدون المناهضة والدفع عن أنفسهم، فقال يعقوب لأصحابه: أفرجوا للقوم! فمروا هاربين، وخلصوا كل ما لهم، وأسر يعقوب طوقاً.

وكان علي بن الحسين قد سير مع طوق في صناديق قيوداً ليقيد بها من يأخذه من أصحاب يعقوب، وفي صناديق أطوقه وأسورة ليعطيها أهل البلاد من أصحاب نفسه، فلما غنم يعقوب عسكرهم رأى ذلك، فقال: ما هذا يا طوق؟ فأخبره، فأخذ الأطوقه والأسورة فأعطاهما أصحابه، وأخذ القيود والأغلال فقيدها بها أصحاب علي، ولما أخرج يد طوق ليضع فيها الغل رآها يعقوب وعليها عصاية، فسأله عنها، فقال: أصابتي حرارة ففصدتها، فأمر بتزج خف نفسه، فتساقط منه كسر خبز يابسة، فقال: يا طوق! هذا خفي لم أنزعه منذ شهرين من رجلي، وخبزي في خفي منه أكل، وأنت جالس في الشرب؟ ثم دخل كرمان وملكها مع سيجستان.

ذكر ملك يعقوب فارس

وفيها، رابع جمادى الأولى، ملك يعقوب بن الليث فارس، ولما بلغ علي بن الحسين بن شبل بفارس ما فعله يعقوب بطوق أيقن بمجيئه إليه، وكان علي بشيراز، فجمع جيشه وسار إلى مضيق خارج شيراز، من أحد جانيه (١٩٣/٧) جبل لا يسلك، ومن الجانب الآخر نهر لا يخاص، فأقام على رأس المضيق، وهو ضيق ممره لا يسلكه إلا واحد بعد واحد، وهو على طرف البر، وقال: إن يعقوب لا يقدر على الجواز إلينا. فرجع.

وأقبل يعقوب حتى دنا من ذلك المضيق فنزل على ميل منه، وسار وحده ومعه رجل آخر، فنظر إلى ذلك المضيق والعسكر وأصحاب [علي بن] الحسين يسبونه وهو ساكت، ثم رجع إلى أصحابه، فلما كان الغد الظهر سار بأصحابه حتى صار إلى طرف المضيق مما يلي كرمان، فأمر أصحابه بالنزول وحط الأثقال، ففعلوا، وركبوا دوابهم عرباً، وأخذ كل ما كان معه فالتقه في الماء،

وللبليتين خلثا من شعبان ظهر موته. والملمات مع تواتر حوائجها، وجود يهون تبذير الأموال عند سؤالها، وسُرعة مكافأة الإحسان، إلى صالح الأعوان، ونقل الوطاة على أهل الزيغ والعدوان، والاستعداد للحوادث إذ لا تؤمن حوادث الزمان.

وأما الاثنان فإسقاط الحجاب عن الرعية، والحكم بين القري والضعيف بالسوية.

وأما الواحدة فالتيقظ للأمور، وقد اخترت لهم رجلاً من موالى أحدهم شديد الشكيمة، ماضي العزيمة، لا تبطره السراء، ولا تدهشه الضراء، ولا يهاب ما وراءه، ولا يهوله ما يلقاه، فهو كالحرش في أصل الإسلام إن حرك حمل، وإن نهش قتل؛ عدته عتيقة، ونعمته شديدة، يلقى الجيش في نفر القليل العديد، بقلب أشد من الحديد؛ طالب للنار لا تغله العساكر، باسل البأس، ومقتضب الأنفاس، لا يعوزه ما طلب، ولا يفوته من هرب؛ واري الزناد مضطلع العماد، لا تشرهه الرغائب، ولا تعجزه النوايب؛ وإن ولي كفى، وإن قال وفى؛ وإن نازل قبطل، وإن قال فقل؛ (١٩٨/٧) ظله لوليه ظليل، وبأسه في الهياج عليه دليل، يفوق من ساماه، ويُعجز من ناواه، ويتعب من جراه، وينعش من والاه.

ذكر خلافة المهدي

وفي يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب بويج لمحمد بن الواثق، ولُقّب بالمهتدي بالله؛ وكان يكتئب أبا عبد الله، وأمه رومية، وكانت تسمى قرب، ولم يقبل بيعة أحد، فأثي بالمعتز فخلع نفسه، وأقر بالعجز عما أسند إليه، وبالرغبة في تسليمها إلى ابن الواثق، فبايعه الخاصة والعامة.

ذكر الشغب ببغداد

وفي هذه السنة شغبت العامة ببغداد سلخ رجب، ووثبوا بسليمان بن عبد الله.

وكان سببه أن كتاب المهتدي ورد سلخ رجب إلى سليمان يأمره بأخذ البيعة له؛ وكان أبو أحمد بن المتوكل ببغداد، كان المعتز قد سيره إليها، كما تقدّم، فأرسل سليمان إليه، فأخذه إلى داره. (١٩٩/٧)

وسمع من ببغداد من الجند والعامة بأمر المعتز، فاجتمعوا إلى باب دار سليمان، فقاتلهم أصحابه، وقيل لهم: ما يرد علينا من سامراً خبر، فانصرفوا.

ورجعوا الغد، وهو يوم الجمعة، على ذلك، وخطب للمعتز ببغداد، فانصرفوا، وبكروا يوم السبت، فهجموا على دار سليمان، ونادوا باسم أبي أحمد، ودعوا إلى بيعته، وسألوا سليمان أن يرهبهم أبا أحمد، فأظهره لهم، ووعدهم أن يصير إلى محبتهم إن تأخر

فلما رأى الأتراك أنهم لا يحصل لهم من المعتز شيء، ولا من أمه، وليس في بيت المال شيء، اتفقت كلمتهم، وكلمة المغاربة، والفراغة، على خلع المعتز، فساروا إليه وصاحوا، فدخل إليه صالح، ومحمد بن بغا المعروف بأبي نصر، وبابكيال في السلاح، فجلسوا على باب، وبعثوا إليه أن اخرج إلينا، فقال: قد شربت أمس دواء، وقد أفرط في العمل، فإن كان أمر لا بد منه فليدخل بعضكم! وهو يظن أن أمره واقف على حاله، فدخل إليه جماعة منهم، فجرّوه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس، وخرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس في الدار فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى (١٩٦/٧) لشدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي يده، وأدخلوه حجرة، وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز أمه وولده وأخته الأمان.

وكانت أمه قد اتخذت في دارها سريراً، فخرجت منه هي وأخت المعتز، وكانوا أخذوا عليها الطريق، ومنعوا أحداً يجوز إليها، وسلموا المعتز إلى من يعتبه، فتمتعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة من ماء البئر، فمعه، ثم أدخلوه سرداباً، وجصّصوا عليه فمات، فلما مات أشهدوا على موته بني هاشم والقواد، وأنه لا أثر فيه، ودفنوه مع المتصتر.

وكانت خلافته من لدن بويج إلى أن خلع أربع سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، وكان عمره كلّ أربعاً وعشرين سنة؛ وكان أبيض، أسود الشعر، كثيف، حسن العينين والوجه، أحمر الوجنتين، حسن الجسم طويلاً؛ وكان مولده بسر من رأى، وكان فصيحاً، فمن كلامه لما سار المستعين إلى بغداد، وقد أحضر جماعة للرأي، فقال لهم: أما تنظرون إلى هذه العصابة التي ذاع نفاقها؟ الهمج، العصاة، الأوغاد الذين لا مسكة بهم، ولا اختيار لهم، ولا تمييز معهم، قد زين لهم تقحم الخطأ سوء أعمالهم، فهم الأقلون وإن كثرُوا، والمذمومون إذا ذكروا، وقد علمت أنه لا يصلح لقود الجيوش، وسدّ الثغور، وإيرام الأمور، وتدبير الأقاليم، إلّا رجل قد تكاملت فيه خصال أربع: حزم يتقي به عند موارد الأمور حقائق مصادرها، (١٩٧/٧) وعلم يحجزه عن التهور والتغريز في الأشياء إلّا مع إمكان فرصتها، وشجاعة لا تفقها

ذكر قتل أحمد بن إسرائيل وأبي نوح

وفيها قُتل أحمد بن إسرائيل، وكان صالح قد عذبه بعد أن أخذه وأخذ ماله ومال الحسن بن مخلد، ثم أمر بضربه وضرب أبي نوح ضرب التلف، كل واحد منهما خمس مائة سوط، فماتا ودُفنا، وبقي الحسن بن مخلد [في الحبس].

ولما بلغ المهدي ضربهما قال: أما عقوبة إلا السوط والقتل، أما يكفي الحبس؟ إنا لله وإنا إليه راجعون! يكرّر ذلك مراراً.

ذكر ولاية سليمان بن عبد الله بن طاهر بغداد

وشغب الجند والعامة بها

وفي رمضان وثب عامة بغداد وجُندُها بمحمد بن أوس البلخي.

وكان السبب في ذلك أن محمد بن أوس قدم من خراسان مع سليمان بن عبد الله بن طاهر على الجيش القادمين من خراسان، وعلى الصعاليك الذين معهم، ولم تكن أسماؤهم في ديوان العراق؛ وكانت العادة أن يقام لمن يقدم من خراسان بالعراق ما كان لهم بخراسان، ويكون وجه ذلك من دخل ضياع (٢٠٠/٧) ورثة طاهر بن الحسين، ويكتب إلى خراسان ليعطى الورثة من بيت المال عوضه.

فلما سمع عبيد الله بن عبد الله بقدم سليمان إلى العراق، ومصير الأمر إليه، أخذ ما في بيت مال الورثة، وأخذ نجوماً لم تحل، وسار، فأقام بالجويب، في شرقي دجلة، ثم انتقل إلى غربيها؛ فقدم سليمان فرأى بيت مال الورثة فارغاً، فضاقت عليه الدنيا، وأعطى أصحابه من أموال جُند بغداد، وتحرك الجند والشاكرية في طلب الأرزاق.

وكان الذين قدموا مع محمد بن أوس من خراسان قد أساءوا مجاورة أهل بغداد، وجأهروا بالفاحشة، وتعرضوا للحرم والغلمان بالقهر، فامتثلوا عليهم غيظاً وحقناً، فاتفق العامة مع الجند، وثاروا، وأثروا سجن بغداد، عند باب الشام، فكسروا بابه، وأطلقوا من فيه، جرت حرب بين القادمين مع ابن أوس وبين أهل بغداد، فعبر ابن أوس وأصحابه وأولاده إلى الجزيرة، وتصابيح الناس: من أراد النهب فليلحق بنا! فليل إنه عبر إلى الجزيرة من العامة أكثر من مائة ألف نفس، وأتاهم الجند في السلاح، فهرب ابن أوس إلى منزله، فتبعه الناس، فتحاربوا نصف نهار حرباً شديدة، وجرح ابن أوس، وإنهزم هو وأصحابه، وتبعهم الناس حتى أخرجوهم من باب الشَّامِسيَّة، وانتهبوا منزله وجميع ما كان فيه، فليل: كان قيمة ذلك ألفي ألف درهم، وأخذوا له من الأمتعة ما لا حدَّ عليه، ونهب أهل بغداد منازل الصعاليك من أصحابه.

عنهم ما يحبون، فانصرفوا بعد أن أكدوا عليه في حفظ أبي أحمد.

ثم أرسل إليهم من سامراً مال ففرق فيهم، فرضوا، وباعوا للمهدي لسبع خلون من شعبان وسكنت الفتنة.

ذكر ظهور قبيحة أم المعتز

قد ذكرنا استارها عند قتل ابنها؛ وكان السبب في هربها وظهورها أنها كانت قد واطأت النفر من الكتاب الذين أوقع بهم صالح على الفتك بصالح، فلما أوقع بهم، وعذبهم، علمت أنهم لا يكتمون عنه شيئاً، فأيقنت بالهلاك، فعملت في الخلاص، وأخرجت ما في الخزانين إلى خارج الجوسق من الأموال، والجواهر، وغيرها، فأودعته، واحتالت، فحُفرت سرّاً في حُجرة لها إلى موضع يفوت التفتيش، فلما خرجت الحادثة على المعتز بادرت فخرجت في ذلك السرب، فلما فرغوا من المعتز طلبوها فلم يجدوها، ورأوا السرب، فخرجوا منه، فلم يقفوا على خبرها، وبحوثاً عنها فلم يظفروا بها.

ثم إنها فكرت فترأت أن ابنها قُتل، وأن الذي تختفي عنده يطعم في (٢٠٠/٧) ماله وفي نفسها، ويتقرب بها إلى صالح، فأرسلت امرأة عطارة إلى صالح بن وصيف، فتوسطت الحال بينهما، ظهرت في رمضان، وكانت لها أموال ببغداد، فأحضرتها، وهي مقدار خمسمائة ألف دينار وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة، ومن جعلتها دار تحت الأرض، وجدوا فيها ألف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، ووجدوا، في سبط، قدر مكوك زمرّد لم ير الناس مثله؛ وفي سبط آخر مقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار؛ وفي سبط مقدار كيلة من الياقوت الأحمر الذي لم يوجد مثله، فحمل الجميع إلى صالح، فسبها، وقال: عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار، وعندها هذه الأموال كلها!

ثم سارت قبيحة إلى مكة، فسمعت وهي تدعو بصوت عال على صالح بن وصيف، وتقول: اللهم أخزِ صالحاً كما هتك ستري، وقتل ولدي، وشتت شملتي، وأخذ مالي، وغرّني عن بلدي، وركب الفاحشة مني؛ وأقامت بمكة.

وكان المتوكل سمّاها قبيحة لحسنها وجمالها، كما يسمى الأسود كافوراً. قال: وكانت أم المهدي قد ماتت قبل استخلافه، وكانت تحت المستعين، فلما قُتل جعلها المعتز في قصر الرصافة، فماتت، فلما ولي المهدي قال: أما أنا فليس لي أم أحتاج لها غلّة عشرة آلاف دينار في كل سنة لجواربها، وخدمها، والمتصلين بها، وما أريد إلا القوت لنفسي ولولدي، وما أريد فضلاً إلا لإخوتي، فإن الضائقة قد مستهم. (٢٠١/٧)

باب أمير المؤمنين، ويحتج بما عاين الرسل، وأنه إن تخلف عنهم قتلوه، وسير مع الرسل جماعة من أصحابه، فقدّموا سامراً سنة ست وخمسين ومائتين. (٢٠٥/٧)

ذكر استيلاء مُساور على الموصل

لَمَّا انهزم عسكر الموصل من مُساور الخارجي، كما ذكرناه، قوي أمره، وكثر أتباعه، فسار من موضعه وقصد الموصل، فنزل بظاهرها عند الدير الأعلى، فاستمر أمير البلد منه، وهو عبد الله بن سليمان، لضعفه عن مقاتلته، ولم يدفعه أهل الموصل أيضاً لميلهم إلى الخلاف، فوجه مُساور جمعاً إلى دار عبد الله أمير البلد، فأحرقها، ودخل مُساور الموصل بغير حرب، فلم يعرض لأحد.

فأرسل سليمان بن عبد الله إلى ابن أوس يأمره بالمسير إلى خراسان، ويعلمه (٢٠٣/٧) أنه لا طريق له إلى العود إلى بغداد، فرحل إلى النهروان، فنهب وأفسد، ثم أتى بابكسال التركي، كتب إليه ولادة طريق خراسان في ذي القعدة، وكان مُساور بن عبد الحميد قد استخلف رجلاً اسمه موسى بالأسكرة ونواحيها، في ثلاثمائة رجل، وإليه ما بين حُلوان والسوس على طريق خراسان ويطن جُوحى.

وفيها أمر المهدي بإخراج القيان والمعتين من سامراً، ونفاهم عنها، وأمر أيضاً بقتل السباع التي كانت بدار السلطان، وطرد الكلاب؛ وردّ المظالم، وجلس للعامة، ولَمَّا ولي كانت الدنيا كلها بالفتن منسوخة.

ذكر استيلاء مُفلح على طبرستان وعوده عنها

في هذه السنة سار مُفلح إلى طبرستان، فحارب الحسن بن زيد العلوي، فانهزم الحسن ولحق بالذيلم، ودخل مُفلح البلد، وأحرق منازل الحسن، وسار إلى الذيلم في طلبه، ثم عاد عن طبرستان بعد أن دخلها، وهزم الحسن بن زيد العلوي، وعاد موسى بن بُغا من الرّي.

وسبب ذلك أن قبيلة أمّ المعتز لَمَّا رأت اضطراب الأتراك كتبت إلى موسى تسأله القدوم عليهم، وأُملت أن يصل قبل أن يفرط في ولدها فارط، فعزم موسى على الانصراف، وكتب إلى مُفلح يأمره بالانصراف عن طبرستان (٢٠٤/٧) إليه بالرّي، فورد كتابه إلى مُفلح وهو قد توجه إلى أرض الذيلم في طلب الحسن بن زيد العلوي، فلَمَّا أتاه الكتاب رجع، فأتاه من كان هرب من الحسن من أهل طبرستان، ورجوا العود إلى بيوتهم، وقالوا له: ما سبب عودك؟ فأخبرهم بكتاب الأمير إليه يعزم عليه، ولم يتهيأ لموسى المسير عن الرّي حتى أتاه خبر قتل المعتز والبيعة للمهدي، فبايعوا المهدي.

ثم إن الموالي الذين مع موسى بلغهم ما أخذ صالح بن وصيف من أموال الكتاب وأسلاب المعتز، فحبسوا المقيمين بسامراً، فدفعوا موسى بن بُغا بالانصراف، وقدم عليهم مُفلح وهو بالرّي فسار نحو سامراً، فكتب إليه المهدي يأمره بالعود إلى الرّي ولزوم ذلك الثغر، فلم يفعل، فأرسل إليه رجلين من بني هاشم يعرفانه ضيق الأموال عنده، ويحذرنه غلبة العلويين على ما يجعله خلفه، فلم يسمع ذلك.

وكان صالح بن وصيف يعظم على المهدي انصرافه، وينسبه إلى المعصية والخلاف، ويتبرأ إلى المهدي من فعله، ولَمَّا أتى الرسل موسى ضيق الموالي، وكادوا أن يشوا بالرسل، وردّ موسى الجواب يعتذر بتخلف من معه عن الرجوع إلى قوله دون ورود

وحضرت الجمعة، فدخل المسجد الجامع، وحضر الناس، أو من حضر منهم، فصعد المنبر وخطب عليه، فقال في خطبته: اللهم أصلحنا، وأصلح ولاتنا! ولَمَّا دخل في الصلاة جعل إبهاميه في أذنيه، ثم كبر ست تكبيرات، ثم قرأ بعد ذلك، ولَمَّا خطب جعل على درج المنبر من أصحابه من يحرسه بالسيوف، وكذلك في الصلاة، لأنه خاف من أهل الموصل، ثم فارق الموصل، ولم يقدم على المقام بها لكثرة أهلها، وسار إلى الحديثة لأنه كان اتخذها دار هجرته.

ذكر أول خروج صاحب الزنج

وفي شوال خرج في فُرات البصرة رجل، وزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، وجمع الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ، وعبر دجلة، فنزل الدنباري. (٢٠٦/٧)

قال أبو جعفر: وكان اسمه، فيما ذكر، علي بن محمد بن عبد الرحيم، ونسبه في عبد القيس، وأمّه ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة من قُرى الرّي، وكان يقول: جدّي محمد بن حكيم من أهل الكوفة أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين، فلَمَّا قُتل زيد هرب فلحق بالرّي، فجاء إلى قرية ورزتين وأقام بها. وإن أبا أبيه عبد الرحيم رجل من عبد القيس، كان مولده بالطالقان، وقدم العراق، واشترى جارية مبنديّة، وأولدها محمداً أباه، وكان متصلاً قبل بجماعة من حاشية المنتصر، منهم غانم الشطرنجي، وسعيد الصغير، وكان معاشه منهم ومن أصحاب السلطان، وكان يمدحهم ويستمحيهم بشعره، منهم، ومن غيرهم.

ثم إنّه شخص من سامرا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين، فأدعى بها أنه علي بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، ودعا الناس

والسعدية، فأخرجوا من في الحبوس، فخلص أهله فيهم؛ فلما بلغه خلاص أهله رجع إلى البصرة، وكان رجوعه في رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه علي بن أبان، ويحيى بن محمد، وسليمان، ومشرق، وريق، فوافوا البصرة، فنزل بقصر القرشي على نهر يُعرف بعمود ابن المنجم، وأظهر أنه وكيل لولد الوائى في تباع السباخ، فأقام هناك.

وذكر زبحان أحد غلمان السورجيين، وهو أول من صحبه منهم، أنه قال: كنت موثقاً بغلمان مولاي أنقل لهم الدقيق، فأخذني أصحابه، فساروا بي إليه، وأمروني أن أسلم عليه بالإمرة، ففعلت، فسألني عن الموضوع الذي جئت منه، فأخبرته، وسألني عن أخبار البصرة، فقلت: لا علم لي؛ وسألني عن غلمان السورجيين، وعن أحوالهم، وما يجري لهم، فأعلمته، فدعاني إلى ما هو عليه، فأجبته، فقال: احتلّ فيمن قدرت عليه من الغلمان، وأقبل بهم إليّ، ووعدني أن يقودني على من آتبه به، واستحلفني أن لا أعلم (٢٠٩/٧) أحداً بموضعه، وأن أرجع إليه، وخلقى سيلي.

وغدث إليه من الغداة، وقد أتاه جماعة من غلمان الدباشين، فكتب في حريرة: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ» [التوبة: ١١١] الآية؛ وجعلها في رأس مُردِيٍّ، وما زال يدعو غلمان أهل البصرة، ويُقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب، فاجتمع عنده منهم خلق كثير، فخطبهم، ووعدهم أن يرددهم ويملكهم الأموال، وحلف لهم بالإيمان أن لا يخدر بهم، ولا يخذلهم، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم؛ فاتاه مواليتهم، وذلوا له على كلِّ عيد خمسة دنانير ليسلم إليه عبده، فبطح أصحابهم، وأمر كلَّ من عنده من العبيد، فضربوا مواليتهم، أو وكيلهم، كلِّ سيّد خمسمائة سوط، ثم أطلقهم فمضوا نحو البصرة.

ثم ركب في سفن هناك، فغبر دُجَيْلاً إلى نهر ميمون، فأقام هناك، ولم يزل هذا دأبه يتجمع إليه السودان إلى يوم الفطر، فخطبهم، وصلى بهم، وذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال، وأنَّ اللَّهَ تعالى أبعدهم من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال.

فلما كان بعد يومين رأى أصحابه الحمري، فقاتلوه حتّى أخرجوه من دجلة، واستأمن إلى صاحب الزنج رجل من رؤساء الزنج يكتى بأبي (٢١٠/٧) صالح، ويُعرف بالقصير، في ثلاثمائة من الزنج، فلما كثروا جعل القزّاد فيهم منهم، وقال لهم: كلّ من أتى منكم برجل فهو مضموم إليه.

وكان ابن أبي عون قد نقل من واسط إلى ولاية الأبلّة وكور دجلة، وسار قائد الزنج إلى المحمدية، فلما نزلها وافاه أصحاب ابن أبي عون، فصاح الزنج: السلاخ، وقاموا، وكان فيهم فتع

بهجر إلى طاعته، فأتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم، فجرى بين الطائفتين عصبية قتل فيها جماعة.

وكان أهل البحرين قد أحلّوه بمحلّ نبيّ، وجبى الخراج، ونفذ فيهم حكمه، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه، فوتر منهم جماعة، فتذكروا له، فانتقل عنهم إلى الأحساء، ونزل على قوم من بني سعد بن تميم يقال لهم: بنو الشّمس، وأقام فيهم، وفي صحبته جماعة من البحرين منهم: يحيى بن محمد الأزرق البخرانيّ، وسليمان بن جامع، وهو قائد جيشه.

وكان يتنقل بالبادية، فذكر عنه أنه قال: أوتيت في تلك الأيام بالبادية آيات من آيات إمامتي ظاهرة للناس، منها أنّي لَقَنْتُ سُوراً من القرآن، (٢٠٧/٧) فجرى بها لساني في ساعة، وحفظتها في دفعة واحدة، منها: سبحان والكهف، وصاد، ومنها أنّي فكرت في الموضوع الذي أقصده حيث أتيت في البلاد، فأظلمتني غمامة، وخوطبت منها، فقبل لي: اقصد البصرة.

وقيل عنه إنه قال لأهل البادية: إنّه يحيا به عمر العلويّ، أبو الحسن، المقتول بناحية الكوفة، فخدع أهلها، فاتاه منهم جماعة كثيرة، فزحف بهم إلى الروم، من البحرين، كانت بينهم وقعة عظيمة، وكانت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، قتلوا قتلاً كثيراً، فتفرقت العرب عنه.

فلما تفرقت عنه سار فنزل البصرة في بني ضبيعة، فأتبعه منهم جماعة كبيرة منهم: علي بن أبان المهلبيّ، وكان قدومه البصرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ومحمد بن رجاء الحضاريّ عاملها، ووافق ذلك فتنة أهل البصرة بالبلاكية، والسعدية. وطمع في إحدى الطائفتين أن تميل إليه، فأرسل إليهم يدعوهم، فلم يجبه أحد من أهل البلد، وطلبه ابن رجاء، فهرب، فحبس جماعة ممن كانوا يميلون إليه، منهم: ابنه، وزوجته، وابنة له، وجارية حامل منه.

وسار يريد بغداد، ومعه من أصحابه محمد بن سلم، ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، ومرقس القرينيّ؛ فلما صار بالبطيحة نذر بهم (٢٠٨/٧) رجل كان يلي أمرها، اسمه عمير بن عمار، فحملهم إلى محمد بن عوف، عامل واسط، فخلص منه هر وأصحابه، فدخل بغداد، فأقام بها حولاً، فانتسب إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد، فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائهم، وما يفعل كلُّ واحد منهم، فاستمال جماعة من أهل بغداد منهم: جعفر بن محمد الصّوحانيّ من ولد يزيد بن صّوحان، ومحمد بن القاسم، ومشرق، وريق، غلاماً يحيى بن عبد الرحمن، فسعى مُشْرِقاً حمزة، وكناه أبا أحمد، وسعى رقيقاً جعفرأ، وكناه أبا الفضل.

وغزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثب رؤساء البلاكية

الحجّام، فقام وأخذ طبقاً كان بين يديه، فلقى رجل من السورجيين يقال له بُلْبُل، فلَمَّا رآه فتحَ حمل عليه، وحذفه بالطبق الذي بيده، فرمى سلاحه وولّى هارباً، وانهزم أصحابه، وكانوا أربعة آلاف، وقُتل منهم جماعة، ومات بعضهم عطشاً، وأسر منهم، وأمر بضرب أعناقهم.

ثم سار إلى القادسيّة، فنهبها أصحابه بأمره، وما زال يتردّد إلى أنهار البصرة، فوجد بعض السودان داراً لبعض بني هاشم، فيها

سلاح بالسبب، فانتهبوه، فصار معهم ما يقاتلون به، فاتاه، وهو بالسبب، جماعة من أهل البصرة يقاتلونه، فوجّه يحيى بن محمّد في خمسمائة رجل، فلقوا البصريّين، فانهزم البصريّون منهم، وأخذوا سلاحهم، ثم قاتل طائفة أخرى عند قرية تُعرف بقرية اليهود، فهزمهم أيضاً، وأثبت أصحابه في الصحراء.

ثم أسرى إلى الجعفرية، فوضع في أهلها السيف، فقتل أكثرهم، وأتى منهم بأسرى فأطلقهم، ولقي جيشاً كبيراً للبصريّين مع رئيس اسمه عَظِيل، فهزّمهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وكان معهم سُنَن، فهبّت عليها ريح فألقتها إلى الشطّ، فنزل الزنج وقتلوا من وجدوا فيها، وغنموا ما فيها، وكان مع الرئيس سفن، فركبها ونجا، فأنفذ صاحب الزنج فأخذها (٢١١/٧) ونهب ما فيها، ثم نهب القرية المعروفة بالمُهَلِّيَّة وأحرقها، وأفسد في الأرض وعاث.

ثم لقيه قائد من قوّد الأتراك يقال له: أبو هلال في أربعة آلاف مقاتل على نهر الرّيان، فاقتلوا، وحمل السودان عليه حملة صادقة، فقتلوا صاحب علمه، فانهزم هو وأصحابه، وتبعهم السودان، فقتلوا من أصحاب أبي هلال أكثر من ألف وخمسمائة رجل، وأخذوا منهم أسرى فأمر بقتلهم.

ثم إنّه أتاه من أخبره أنّ الزّينبيّ قد أعدّ له الخيول، والمتطوعة، والبلاليّة، والسعدية، وهم خلق كثير، وقد أعدوا الجبال ليكتف من يأخذونه من السودان، والمقدّم عليهم أبو منصور، وأخذ موالى الهاشميين، فأرسل عليّ بن أبان في مائة أسود ليأتيه بخبرهم، فلقى طائفة منهم، فهزمهم، وصار من معهم من العبيد إلى عليّ بن أبان.

وأرسل طائفة أخرى من أصحابه، فأتوا إلى موضع فيه ألف وتسع مائة سفينة، ومعها من يحفظها، فلَمَّا رأوا الزّنج هربوا عنها، فأخذ الزنج السفن وأتوا بها إلى أصحابهم، فلَمَّا أتوه قعد على نشز من الأرض.

وكان في السفن قوم حجاج أرادوا أن يسلكوا طريق البصرة، فناظرهم، فصدقه على قوله، وقالوا له: لو كان معنا فضل نفقة لأقمنا معك؛ فأطلقهم، وأرسل طليعة تأتيه بخبر ذلك العسكر، فاتاه خبرهم أنّهم قد أتوه في خلق كثير، فأمر محمّد بن سالم، وعليّ بن أبان أن يقعدا لهم بالنخل، وقعد هو على جبل مشرف، فلم يلبث

أن طلعت الأعلام والرجال، فأمر الزّنج فكبروا، (٢١٢/٧) وحملوا عليهم، وحملت الخيول، فتراجع الزنج حتّى بلغوا الجبل الذي هو عليه، ثم حملوا، فقتلوا لهم، وقُتل من الزنج فتحَ الحجّام، وصدق الزنج الحملة، فأخذهم بين أيديهم، وخرج محمّد بن سالم، وعليّ بن أبان، وحملوا عليهم فقتلوا منهم، وانهزم الناس، وذهبوا كلّ مذهب، وتبعهم السودان إلى نهر بيان، فوقعوا في الوحل، فقتلهم السودان، وغرق كثير منهم.

وأتى الخبر إلى الزّوج بأنّ لهم كميناً، فساروا إليه، فإذا الكمين في أكثر من ألف من المغاربة، فقاتلهم قتالاً شديداً، ثم حمل السودان عليهم، فقتلهم أجمعين وأخذوا سلاحهم.

ثم وجّه أصحابه فراوا ما أتى سفينة فيها دقيق فأخذوه، ومتاعاً فنهبوه، ونهب المعلّى بن أيّوب ثم سار، فرأى مسلحة الزّينبيّ فقاتلوه، فقاتلهم، فقتلهم أجمعين، فكانوا مائتين؛ ثم سار فنهب قرية ميزران، ورأى فيها جمعاً من الزنج ففرّقهم على قوّاده؛ ثم سار، فلقى ستمائة فارس مع سليمان ابن أخي الزّينبيّ، ولم يقاتله، فأرسل من ينهب، فاتوه بغنم وبقر، فذبحوا وأكلوا، وفرّق أصحابه في انتهاب ما هناك.

ثم إنّ صاحب الزنج سار يريد البصرة، حتّى إذا قابل النهر المعروف بالرياحي أتاه قوم من السودان فأعلموه أنّهم رأوا في الرياحي بارقة، فلم يلبث إلا يسيراً حتّى نادى السودان: السلاح السلاح. وأمر عليّ بن أبان بالعبور إليهم، فعبّر في ثلاثمائة رجل، وقال له: إن احتججت إلى مدد (٢١٣/٧) فاستمذني، فلَمَّا مضى عليّ صاح الزنج: السلاح السلاح، لحركة رأوها في جهة أخرى، فوجّه محمّد بن سالم، فرأى جمعاً، فقاتلهم من وقت الظهر إلى آخر وقت العصر، ثم حمل الزّوج حملة صادقة، فهزمهم، وقتلوا من أهل البصرة والأعراب زهاء خمس مائة، ورجعوا إلى صاحبهم.

ثم أقبل عليّ بن أبان في أصحابه، وقد هزموا من بلائهم، وقتلوا منهم، ومعه رأس ابن أبي الليث البلاليّ القواريريّ من أعيان البلاليّة، ثم سار من الغد عن ذلك المكان، ونهى أصحابه عن دخول البصرة، فتسرّع بعضهم، فلقىهم أهل البصرة في جمع عظيم، وانتهى الخبر إليه، فوجّه محمّد بن سالم، وعليّ بن أبان، ومشركاً، وخلقاً كثيراً، وجاء هو يسايرهم فلقوا البصريّين، فأرسل إلى أصحابه ليتأخروا عن المكان الذي هم فيه، فتراجعوا، فأكبّ عليهم أهل البصرة فانهمزوا، وذلك عند العصر، ووقع الزّوج في نهر كبير، ونهر شيطان، وقُتل منهم جماعة، وغرق جماعة، وتفرّق الباقيون، وتخلّف صاحبهم عنهم، وبقي في نفر يسير، فنجّاه الله تعالى.

قُرّة، ويث أصحابه يميناً وشمالاً للغارة والنهب، فهذا ما كان منه في هذه السنة.

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة كانت وقعة بين عسكر الخليفة وبين مُساور الشاري، فانهزم عسكر الخليفة.

وفيها مات المُعلّي بن أيوب.

وفيها وليّ سليمان بن عبد الله بن طاهر بغداد والسواد في ربيع الأوّل، وكان قدومه من خراسان فيه أيضاً، فسار إلى المعتزّ، فخلع عليه، وسار إلى بغداد، فقال ابن الروميّ:

مَنْ غَيَّرَ مِنَ الْخَلَائِقِ ضَلُّوا فِي سُلَيْمَانَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ
(٢١٦/٧)

عُوضوه، بعد الهزيمة، بغداداً ذكاً قد أتى بفتح جليلٍ
من يخوض الردى إذا كان من فرسانائيه بالجزء الجميل
يعني هزيمة سليمان من الحسن بن زيد العلويّ.

وفيها أخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل، والحسن بن مخلّد، وأبا نوح عيسى بن إبراهيم، فقيدهم، وطالبهم بالأموال.

وكان سببه أنّ الأتراك طلبوا أرزاقهم، فقال صالح للمعتزّ: هؤلاء يطلبون أرزاقهم، وليس في بيت المال شيء، وقد ذهب هؤلاء الكتاب بالأموال، وكان أحمد وزير المعتزّ، والحسين وزير أمّ المعتزّ، وقال له أحمد بن إسرائيل: يا عاصي ابن العاصي، فتراجعا الكلام، فسقط صالح مغشياً عليه، فرش على وجهه الماء.

وبلغ ذلك أصحابه، وهم بالباب، فصاحوا صيحة واحدة، واختلطوا سيوفهم، ودخلوا على المعتزّ، فدخل وتركهم، وأخذ صالح أحمد بن إسرائيل، وابن مخلّد، وعيسى، فأتقلمهم بالحديد، وحملهم إلى داره، فقال المعتزّ لصالِح، قبل أن يحملهم: حبّ لي أحمد، فإنّه كاتب، فلم يفعل، ثمّ ضربهم، وأخذ خطوطهم بمال جزيل فسقط عليهم، ولم يحصل منهم شيء، وقام جعفر بن محمود بالأمر والنهي.

وفيها، في رجب، ظهر عيسى بن جعفر وعليّ بن زيد الحسينان بالكوفة، فقتلا بها عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى.
(٢١٧/٧)

وفيها، في ذي القعدة، حبس الحسن بن محمد بن أبي الشوارب القاضي، ووليّ عبد الرحمن بن نائل البصريّ قضاء سامراً في ذي الحجّة، وحجّ بالناس عليّ بن الحسين بن العباس بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس.

وفيها ظهر بمصر إنسان علويّ ذكر أنّه أحمد بن محمد بن عبد

ثمّ لقيهم وهم متحيرون لفقدته، وسأل عن أصحابه، فإذا ليس معه إلا خمس مائة رجل، فأمر بالنفخ في البوق الذي يجتمعون لصوته، فلم يأت أحد، وكان أهل البصرة قد اتهبوا السفن التي كانت للزنج، وبها متاعهم، فلمّا أصبح رأى أصحابه في ألف رجل، وأرسل محمد بن سالم إلى أهل البصرة يعظّمهم، ويعلمهم ما الذي دعاه إلى الخروج، فقتلوه.

فلما كان يوم الاثنين لأربع خلون من ذي القعدة جمع أهل البصرة (٢١٤/٧) وحشدوا لما راوا من ظهورهم عليه، وانتدب لذلك رجل يُعرف بحماز الساجي، وكان من غزاة البحر، وله علم في ركوب السفن، فجمع المتطوعة، ورماة الأهداف، وأهل المسجد الجامع، ومن خفّ معه من البلالية والسعدية، ومن أحبّ النظر من غيرهم، وشحن ثلاثة مراكب، وشذوات مقابلة، وجعلوا يزدحمون، ومضى جمهور الناس رجالة، منهم من معه سلاح، ومنهم نظارة، فدخلت المراكب في المدّ، والرجالة على شاطئ النهر.

فلما علم صاحب الزنج بذلك وجّه طائفة من أصحابه مع زريق الأصهبانيّ، في شرقيّ النهر، كميناً، وطائفة مع شبل، وحسين الحماميّ، في غربيّه، كميناً، وأمر عليّ بن إبان أن يلقي أهل البصرة، وأن يستتر هو ومن معه بتراسهم، ولا يقاتل حتّى تظهر أصحابه، وتقدّم إلى الكمينين، إذ جاوزههم أهل البصرة، أن يخرجوا، ويصيحوا بالناس، وبقي هو في نفر يسير من أصحابه، وقد هاله ما رأى من كثرة الجمع، فسار أصحابه إليهم، وظهر الكمينان من جانبيّ النهر ومن وراء السفن، والرجالة، فضربوا من ولّى من الرجالة والنظارة، فغرقت طائفة، وقتلت طائفة، وهرب الباقيون إلى الشطّ، فأدركهم السيف، فمن ثبت قتل ومن ألقى نفسه في الماء غرق، فهلك أكثر ذلك الجمع، فلم ينج إلا الشريد، وكثر المفقودون من أهل البصرة، وعلا العويل من نساءهم، وهذا يوم البيداء الذي أعظمه الناس. (٢١٥/٧)

وكان يمين قتل جماعة من بني هاشم وغيرهم في خلق كثير لا يُحصى، وجمعت للخبث الرؤوس، فأناء جماعة من أولياء المقتولين، فأعاطهم ما عرفوا، وجمع الرؤوس التي لم تطلب، وجعلها في خزينة، فأطلقها قواف البصرة، فجاء الناس وأخذوا كلّ ما عرفوه منها، وقوي بعد هذا اليوم، وتمكّن الرعب في قلوب أهل البصرة منه، وأمسكوا عن حربه.

وكتب الناس إلى الخليفة يخبر ما كان، فوجّه إليهم جعلانً التركيّ مدداً، وأمر أبا الأحوص الباهليّ بالمسير إلى الأبلّة والبيّ، وأمدّه بقائد من الأتراك يقال له جريح؛ وأمّا الخبيث صاحب الزنج فإنه انصرف بأصحابه إلى سبخة في آخر النهار، وهي سبخة أبي

اللّه بن إبراهيم بن طباطبا، وكان ظهوره بين برقة والإسكندرية، وسار إلى الصعيد، وكثر أتباعه، وأدعى الخلافة، فسير إليه أحمد بن طولون جيشاً، فقاتلوه، وانهزم أصحابه عنه، وثبت هو قُتِل، وحُمِل رأسه إلى مصر.

وفيهما توفي خفاجة بن سُفيان أمير صِيقَلِيَّة في رجب، وولي بعده ابنه محمد، وتقدّم ذكر ذلك سنة سبع وأربعين ومائتين؛ ولَمَّا وليَ محمد سيرَ عمّه عبد الله بن سُفيان إلى سَرَاقُوسَة فأهلك زرعها وعاد.

وفيهما توفي أبو أحمد عمر بن شمر بن حمدويه الهَرَوِيّ اللغوي، وكان إماماً في الأشعار، وروى عن ابن الأعرابي والرياشي وغيرهما.

وفيهما توفي محمد بن كرام بن عراف بن خزانه بن البراء، صاحب المقالة المشهورة في التشبيه، وكان موته بالشام، وهو من سِجِسْتَان.

وفيهما توفي الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قاضي مكة، وكان سقط من سطح، فمكث يومين ومات وكان عمره أربعاً وثمانين سنة؛ وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، صاحب المسند، توفي في ذي الحجة وعمره خمس وسبعون سنة، وأبو عمران عمرو بن بحر الجاحظ، وهو من متكلمي المعتزلة، وعليّ بن المثنى بن يحيى بن عيسى الموصلي، والد أبي يعلى، صاحب المسند.

وفيهما توفي محمد سُحنون الفقيه المالكي القيرواني بها. (٢١٨/٧)

سنة ميت وخمسين ومائتين

ذكر وصول موسى بن بُغا إلى سامرا واختفاء صالح

وفيهما في ثاني عشر المحرم دخل موسى بن بُغا إلى سامرا وقد عبأ أصحابه، واختفى صالح بن وصيف، وسار موسى إلى الجوسق، والمهتدي جالس للمظالم، فأعلم بمكان موسى، فأمسك ساعة عن الإذن له، ثم أذن له ولمن معه، فدخلوا، فتناظروا، وأقاموا المهتدي من مجلسه، وحملوه على دابة من دواب الشاكزية، وانتهبوا ما كان في الجوسق، وأدخلوا المهتدي دار ياجور. وكان سبب أخذه أن بعضهم قال: إنما سبب هذه المطالبة حيلة عليكم حتى يكسبكم صالح بغيشه؛ فخانوا من ذلك، فاخذوه، فلَمَّا أخذوه قال لموسى بن بُغا: اتق الله، ويحك، فإنك قد ركبت أمراً عظيماً؛ فقال له موسى: وتربة المتوكل ما نريد إلا خيراً؛ ولو أراد به خيراً لقال وتربة المعتصم والواثق؛ ثم أخذوا

عليه اليهود أن لا يمايل صالحاً، ولا يضر لهم إلا مثل ما يظهر؛ ثم جدّوا له البيعة، ثم أصبحوا، وأرسلوا إلى صالح ليحضر (٢١٩/٧) ويطلبوه بدماء الكتاب، والأموال التي للمعتز وأسلابه، فوعدهم؛ فلَمَّا كان الليل رأى أن أصحابه قد تفرّقوا ولم يبق إلا بعضهم، فهرب واختفى.

ذكر قتل صالح بن وصيف

وفيهما قتل صالح بن وصيف لثمان بقين من صفر؛ وكان سببه أن المهتدي لَمَّا كان ثلاث بقين من المحرم أظهر كتاباً زعم أن امرأة دفعته إلى سيماء الشرايبي، وقالت: إن فيه نصيحة، وإن منزلها بمكان كذا، فإن طلبوني فانا فيه. وطلبت المرأة فلم توجد، وقيل إنه لم يُدْرَ من ألقى الكتاب.

ودعا المهتدي القواد، وسليمان بن وهب، فأراهم الكتاب، فزعم سليمان أنه خطّ صالح، فقرأه على القواد، فإذا فيه أنه مستخف بسامراً، وإنما استر طلباً للسلامة وإبقاء الموالي، وطلباً لاقطاع الفتن، وذكر ما صار إليه من أموال الكتاب، وأمّ المعتز، وجهة خروجها، ويدل فيه على قوة نفسه؛ فلَمَّا فرغوا من قراءته وصله المهتدي بالحث على الصلح، والاتفاق، والنهي عن التباغض والتباين، فاتهمه الأتراك بأنه يعرف مكان صالح ويميل إليه، وطال الكلام بينهم في ذلك.

فلَمَّا كان الغد اجتمعوا بدارموسى بن بُغا داخل الجوسق، واتفقوا على خلع المهتدي، فقال لهم بابكيال: إنكم قتلتم ابن المتوكل، وهو حسن (٢٢٠/٧) الوجه، سخي الكف، فاضل النفس، وتريدون قتل هذا، وهو مسلم يصوم ولا يشرب النبيذ، من غير ذنب! والله لئن قتلتم هذا لألحقن بخراسان لأشيع أمركم هناك.

فأفصل الخبر بالمهتدي، فتحوّل من مجلسه متقلداً سيفاً، وقد لبس ثياباً نظافاً وتطيّب، ثم أمر بإدخالهم عليه، فدخلوا فقال لهم: بلغني ما أنتم عليه، ولست كمن تقدمني، مثل المستعين والمعتز، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط، وقد أوصيت إلى أخي بولدي، وهذا سيفي والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدي، والله لئن سقط مني شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم.

كم هذا الخلاف على الخلفاء، والإقدام، والجراة على الله! سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم، ومن كان إذا بلغه هذا منكم دعا بالنبيذ فشربه مسروراً بمكروهمكم، حتى تعلموا أنه وصل إلى شيء من دنياكم، أما إنكم لتعلمون أن بعض المتصلين بكم أيسر من جماعة من أهلي وولدي سواة لكم، يقولون: إني أعلم بمكان صالح، وهل هو إلا رجل من الموالي؟ فكيف الإقامة معه إذا ساء رأيكم فيه؟ وإذا أبرمتم الصلح فيه كان ذلك ما أنفذه لجميعكم،

وإن أيتم فشانكم، واطلبوا صالحاً، وأما أنا (٢٢١/٧) فما أعلم مكانه.

قالوا: فاحلف لنا على ذلك! قال: أما اليمين فنعم، ولكنها تكون بحضرة بني هاشم والقضاة غداً إذا صليت الجمعة؛ ثم قال لبابكيال ولمحمد بن بُغا: قد حضرتما ما عمله صالح في أموال الكتاب وأمّ المعتز، فإن أخذ منه شيئاً فقد أخذتما مثله. فاحفظهما ذلك؛ ثم أرادوا خلعه، وإنما منعهم خوف الاضطراب وقلّة الأموال، فاتاهم مال من فارس عشرة آلاف ألف درهم وخمس مائة ألف درهم، فلما كان سلخ المحرم انتشر الخبر في العامة أنّ القوم قد اتفقوا على خلع المهدي والفك به، وأنهم قد أرفعوه، وكتبوا الرقاع ورموها في الطريق والمساجد، مكتوب فيها: يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل، الرضا، المضاهي لعمر بن الخطاب، أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤونة ظالمه، وتتمّ النعمة عليه، وعلى هذه الأمة، ببقائه، فإنّ الأتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه، وهو يُعَذَّب منذ أيام، وصلى الله على محمد.

فلما كان يوم الأربعاء لأربع خلون من صفر تحرّك الموالي بالكرخ والدور، وبعثوا إلى المهدي، وسألوه أن يرسل إليهم بعض إخوته ليحملوه رسالة، فوجّه إليهم أخاه أبا القاسم عبد الله، فذكروا له أنهم سامعون مطيعون وأنهم بلغهم أنّ موسى، وبابكيال، وجماعة معهما، يريدونه على الخلع، وأنهم يبذلون دماءهم دون ذلك وما هم دون ذلك، وشكوا تأخر أرزاقهم، وما صار من الأقطاع، والزيادات، والرسوم إلى قوادهم التي قد أجهت بالخراج والضياغ، وما قد أخذوا النساء والدخلاء، فكتبوا بذلك كتاباً، فحمّله إلى المهدي وكتب جوابه بخطه: قد فهمت كتابكم، وسرتي ما ذكرت من طاعتكم، فأحسن الله جزاءكم، وأما ما ذكرت من خلعتكم وحاجتكم (٢٢٢/٧) فعزّيز عليّ ذلك، ولوددت، والله، أن صلاحكم يهيباً بأن لا أكل ولا أشرب ولا أطعم ولدي إلا الوقت، ولا أكسوه إلا ستر العورة، وأنتم تعلمون ما صر إليّ من الأموال، وأما ما ذكرت من الإقطاعات وغيرها فانا أنظر في ذلك وأصرفه إلى محبتكم إن شاء الله تعالى.

فقرؤوا الكتاب وكتبوا، بعد الدعاء، يسألون أن يرّد الأمور في الخاصّ والعامّ إلى أمير المؤمنين، لا يعترض عليه معترض، وأن يرّد رسومهم إلى ما كانت عليه أيام المستعين، وهو أن يكون على كلّ تسعة عريف، وعلى كلّ خمسين خليفة، وعلى كلّ مائة قائد، وأن يسقط النساء والزيادات، ولا يدخل مولى في ماله ولا غيره، وأن يوضع لهم العطاء كلّ شهرتين، وأن تبطل الإقطاعات؛ وذكروا أنهم سائرون إلى بابيه ليقضي حوائجهم، وإن بلغهم أنّ أحداً اعترض عليه أخذوا رأسه، وإن سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا بها موسى بن بُغا وبابكيال وياجور وغيرهم.

وأرسلوا الكتاب مع أبي القاسم، وتحولوا إلى سامرا، فاضطرب القواد جدّاً؛ وقد كان المهدي قعد للمظالم، وعنده الفقهاء والقضاة، وقام القواد في مراتبهم، فدخل أبو القاسم إليه بالكتاب، فقرأه للقواد قراءة ظاهرة، وفيهم موسى، وكتب جوابه بخطه، فأجابهم إلى ما سألوا، ودفعه إلى أبي القاسم، فقال أبو القاسم لموسى بن بُغا وبابكيال ومحمد بن بُغا: وجهوا معي رسلاً يعتذرون إليهم عنكم؛ فوجهوا معه رسلاً، فوصلوا إلى الأتراك، وهم زهاء ألف فارس، وثلاثة آلاف راجل، وذلك لخمس خلون من صفر، (٢٢٣/٧) فأوصل الكتاب، وقال: إن أمير المؤمنين قد أجابكم إلى ما سألتم، وقال لهم: هؤلاء رسل القواد إليكم، يعتذرون من شيء إن كان بلغكم عنهم، وهم يقولون إنّ أتمّ إخوة، وأنتم منا وإلينا، واعتذر عنهم.

فكتبوا إلى المهدي يطلبون خمسة توقيعات، توقيعات بخطّ الزيادات، وتوقيعاً برّد الإقطاعات، وتوقيعاً بإخراج الموالي البرانيين من الخاصة إلى البرانيين، وتوقيعاً برّد الرسوم إلى ما كانت عليه أيام المستعين، وتوقيعاً برّد البلاجي، ثم يجعل أمير المؤمنين الجيش إلى أحد إخوته أو غيرهم ممّن يرى ليرفع إليه أمورهم، ولا يكون رجلاً من الموالي، وأن يحاسب صالح بن وصيف، وموسى بن بُغا عمّا عندهما من الأموال ويجعل لهم العطاء كلّ شهرتين، لا يرضيهم إلاّ ذلك، ودفعوا الكتاب إلى أبي القاسم، وكتبوا كتاباً آخر إلى القواد موسى وغيره [ذكروا فيه] أنهم كتبوا إلى أمير المؤمنين بما كتبوا، وأنه لا يمنعهم شيئاً ممّا طلبوا إلاّ أن يعترضوا عليه، وأنهم إن فعلوا ذلك لم يوافقوهم، وأنّ أمير المؤمنين إن شاكه شوكه، وأخذ من رأسه شعرة، أخذوا رؤوسهم جميعاً، ولا يقنعهم إلاّ أن يظهر صالح، ويجتمع هو وموسى ابن بُغا حتى ينظر أين الأموال.

فلما قرأ المهدي الكتاب أمر بإنشاء التوقيعات الخمسة على ما سألوا، وسيّرها إليهم مع أبي القاسم وقت المغرب، وكتب إليهم بإجابتهم إلى ما طلبوا، وكتب إليهم موسى بن بُغا كذلك، وأذن في ظهور صالح، (٢٢٤/٧) وذكر أنّه أخوه وابن عمّه، وأنه ما أراد ما يكرهون، فلما قرؤوا الكتابين قالوا: قد أمسينا، وغداً نعرفكم رأينا، فافترقوا.

فلما كان الغد ركب موسى من دار الخليفة، ومعه من عسكره ألف وخمس مائة رجل، فوقف على طريقهم، وأتاهم أبو القاسم، فلم يعقل منهم جواباً إلاّ كلّ طائفة يقولون شيئاً، فلما طال الكلام انصرف أبو القاسم، فاجتاز بموسى بن بُغا وهو في أصحابه، فانصرف معه.

ثم أمر المهدي محمد بن بُغا أن يسير إليهم مع أخيه أبي

القاسم، فسار في خمس مائة فارس، ورجع موسى إلى مكانه بكرة،

وسبب ذلك أنه خالفه في توبة المخطئ؛ فقال مساور: نقبل توبته؛ وقال عبيدة: لا نقبل، فجمع عبيدة جمعاً كثيراً وسار إلى مساور، وتقدم إليه مساور من الحديثة، فالتقوا بنواحي جُهينة، بالقرب من الموصل، في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين [ومائتين]، واقتتلوا أشد قتال، فترجل من عنده، ومعه جماعة من أصحابه، وهرقوا دوابهم، فقتل عبيدة وإنهزم جمعه، فقتل أكثرهم، واستولى مساور على كثير من العراق، ومنع الأموال عن الخليفة، فضاعت على الجند أرزاقهم، فاضطربهم ذلك إلى أن سار إليه موسى بن بَغَا وبابكيال وغيرهما في عسكر عظيم، فوصلوا إلى السِّنْ فأقاموا به، ثم عادوا إلى سامرا، لما تذكره من خلع المهدي.

فلما ولي المعتمد الخلافة سَير مفلحاً إلى قتال مساور في عسكر كبير، حسن العدة، فلما قارب الحديثة فارقه مساور وقصد جبلين يقال لأحدهما زيني، وللآخر عامر، وهما بالقرب من الحديثة، فتبعه مُفلح، فعطف عليه مساور وهو في أربعة آلاف فارس، فاقتل هو ومُفلح.

وكان مساور قد انصرف عن حرب عبيدة وقد جمع كثيراً من أصحابه، (٢٢٧/٧) فلقوا مفلحاً بجبل زيني، فلم يصل مُفلح منه إلى ما يريد، فصعد رأس الجبل فاحتى به، ونزل مُفلح في أصل الجبل، وجري بينهما وقعات كثيرة، ثم أصبحوا يوماً، وطلبوا مساوراً، فلم يجدوه، وكان قد نزل ليلاً من غير الوجه الذي فيه مُفلح، لما أيس من الظفر لضعف أصحابه من الجراح، فحيث لم يره مُفلح سار إلى الموصل، فسار منها إلى ديار ربيعة سينجار، ونصيبين، والخابور، فنظر في أمرها ثم عاد إلى الموصل، فأحسن السيرة في أهلها، ورجع عنها في رجب متأهباً للقاء مساور.

فلما قارب الحديثة فارقه مساور، وكان قد عاد إليها عند غيبة مُفلح، فتبعه مُفلح، فكان مساور يرحل عن المنزل، فينزلهُ مُفلح، فلما طال الأمر على مُفلح وتوغل في الجبال والشعاب والمضائق وراء مساور، ولحق الجيش الذي معه مشقة ونصب، عاد عنه، فتبعه مساور يفتق أثره، ويأخذ كل من يقطع عن ساقه العسكر، فرجع إليه طائفة منهم فقاتلوه، ثم عادوا ولحقوا مفلحاً، ووصلوا الحديثة، فأقام بها مُفلح أياماً، وانحدر أول شهر رمضان إلى سامرا، فاستولى حيثئذ مساور على البلاد، وجبى خراجها، وقويت شوكرته، واشتد أمره. (٢٢٨/٧)

ذكر خلع المهدي وموته

في رجب، الخامس عشر منه، خلع المهدي، وتوفي لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه.

وتقدم أبو القاسم ومحمد بن بَغَا فوجداهم عن المهدي، وأعطاهم توقيعاً فيه أمان صالح بن وصيف، مؤكداً غاية التوكيد، فطلبوا أن يكون موسى في مرتبة بَغَا الكبير، وصالح في مرتبة أبيه، ويكون الجيش في يد من هو في يده، وأن يظهر صالح ابن وصيف، ويوضع لهم العطاء، ثم اختلفوا، فقال قوم: قد رضينا؛ وقال قوم: لم نرض؛ فانصرف أبو القاسم ومحمد بن بَغَا على ذلك، وتفرق الناس إلى الكرخ والدور وسامرا.

فلما كان الغد ركب بنو وصيف في جماعة معهم، وتنادوا: السلاح، ونهبوا دواب العامة، وعسكروا بسامرا، وتعلقوا بأبي القاسم، وقالوا: نريد صالحاً؛ وبلغ ذلك المهدي، فقال لموسى: يطلبون صالحاً مني كأنني أنا أخفيته، إن كان عندهم فينبغي لهم أن يُظهروه.

ثم ركب موسى ومن معه من القواد، فاجتمع الناس إليه، قبلخ عسكره أربعة آلاف فارس، وعسكروا، وتفرق الأتراك ومن معهم، ولم يكن للكرخيين (٢٢٥/٧) ولا للدوريين في هذا اليوم حركة، وجدَّ موسى ومن معه في طلب ابن وصيف، واتهموا جماعة به، فلم يكن عندهم، ثم إن غلاماً دخل داراً وطلب ماء لشربه، فسمع قائلاً يقول: أيها الأمير تنح، فإن غلاماً يطلب ماء، فسمع الغلام الكلام، فجاء إلى عيار فأخبره، فأخذ معه ثلاثة نفر، وجاء إلى صالح، ويده امرأة مشط، وهو يسرح لحيته، فأخذه، فنضَّع إليه، فقال: لا يمكنني تركك ولكني أمر بك على ديار أهلك وقوادك وأصحابك، فإن اعترضك منهم اثنان أطلقك.

فأخرج حافياً ليس على رأسه شيء، والعامة تعدو خلفه، وهو على بردون بأكاف، فاتوا به نحو الجوسق، فضربه بعض أصحاب موسى على عاتقه، ثم قتلوه، وأخذوا رأسه، وتركوا جُثته، ووافوا به دار المهدي قبل المغرب، فقالوا له في ذلك، فقال: واروه، ثم حُمل رأسه وطيف به على قناة، ونودي عليه: هذا جزاء من قتل مولاه.

ولما قُتل أنزل رأس بَغَا الصغير، وسُلم إلى أهله ليدفنوه، ولما قُتل صالح قال السلوي لموسى بن بَغَا:

أخذت وترك من فرعون حين طفى
وجئت إذ جئت يا موسى على قفر
ثلاثة كلهم باع أخو حسد
يرميك بالظلم والسدوان عن وتر
وصيف في الكرخ مشول به، وثُغَا
بالجسر محترق بالنار والشرر
وصالح بن وصيف بعد مُعْفَر
بالجير جُثته والروح في سقر
(٢٢٦/٧)

ذكر اختلاف الخوارج على مساور

في هذه السنة خالف إنسان من الخوارج اسمه عبيدة من بني

وكان السبب في ذلك أنَّ أهل الكَرْخ والدُّور من الأتراك، الذين تقدَّم ذكرهم، تحرَّكوا في أوَّل رجب لطلب أرزاقهم، فوجَّه المهدي إليهم أخاه أبا القاسم، وكَيْفَلَخ وغيرهما، فسكَنوهم، فرجعوا، وبلغ أبا نصر محمد بن بُغا أنَّ المهدي قال للأتراك: إن الأموال عند محمد وموسى ابني بُغا، فهرب إلى أخيه وهو بالسَّن مقابل مُساور الشاري، فكتب المهدي إليه أربعة كتب يُعطيه الأمان، فرجع هو وأخوه حيسون، فحبسهما، ومعهما كَيْفَلَخ، وطُولِب أبو نصر محمد بن بُغا بالأموال، فقبُض من وكيله خمسة عشر ألف دينار، وقُتل لثلاث خلون من رجب، ورُمي به في بئر فائِثَن، فأخرجوه إلى منزله، وصلى عليه الحسن بن مأمون.

وكتب المهدي إلى موسى بن بُغا، لَمَّا حبس أخاه، أن يسلمَ العسكر إلى بابكيال، ويرجع إليه، وكتب إلى بابكيال أن يسلمَ العسكر، ويقوم بحرب مُساور الشاري، وقُتل موسى بن بُغا ومُفلح، فسار بابكيال بالكتاب إلى موسى، فقرأه عليه وقال: لست أفرح بهذا، فإنه تدبير علينا جميعنا، فما ترى؟ فقال موسى: أرى أن تسير إلى سامراء، وتخبره أنك في طاعته ونصرتك (٢٢٩/٧) عليّ وعلى مُفلح، فهو يطمئن إليك، ثم تدبر في قتله.

فأقبل إلى سامراء، فوصلها معه ياركوج، وأسارتكين، وسيما الطويل، وغيرهم، فدخلوا دار الخلافة لاثنتي عشرة مضت من رجب، فحبس بابكيال وصرف الباقيين، فاجتمع أصحاب بابكيال وغيرهم من الأتراك، وقالوا: لِمَ حبس قائدنا، ولم يُقتل أبو نصر بن بُغا؟

وكان عند المهدي صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور، فشاوره فيه، فقال له: إنه لم يبلغ أحد من أبنائك ما بلغت من الشجاعة، وقد كان أبو مسلم أعظم شأنًا عند أهل خراسان من هذا عند أصحابه، وقد كان فيهم من يعيده، فما كان إلا أن طُرح رأسه حتَّى سكتوا، فلو فعلت مثل ذلك سكتوا.

فركب المهدي، وقد جمع له جميع المغاربة، والأتراك، والفراخنة، فصير في الميمنة مسروراً البلخي، وفي الميسرة ياركوج، ووقف هو في القلب مع أسارتكين وطباغوا، وغيرهما من القواد، فأمر بقتل بابكيال، وألقى رأسه إليهم عتاب بن عتاب، فحملوا على عتاب فقتلوه، وعظفت ميمنة المهدي وميسرته بمن فيها من الأتراك، فصاروا مع إخوانهم الأتراك، فانهزم الباقون عن المهدي، وقُتل جماعة من الفريقين، فقتل: سبيع مائة وثمانون رجلاً، وقيل: قُتل من الأتراك نحو أربعة آلاف، وقيل: ألفان، وقيل: ألف.

وقُتل من أصحاب المهدي خلق كثير، وولَّى مُنهزماً، ويده السيف، (٢٣٠/٧) وهو ينادي: يا معشر المسلمين! أنا أمير

المؤمنين، قاتلوا عن خليفتمكم! فلم يجبه أحد من العامة إلى ذلك، فسار إلى باب السجن، فأطلق مَنْ فيه وهو يظن أنهم يعينونه، فهربوا ولم يعنه أحد، فسار إلى دار أحمد بن جميل، صاحب الشرطة، فدخلها وهم في أثره، فدخلوا عليه وأخرجوه، وساروا به إلى الجوسق على بغل، فحبس عند أحمد بن خاقان، وقبِل المهدي يده، فيما قيل، مراراً عديدة، وجرى بينهم وبينه، وهو محبوس، كلام كثير أرادوه فيه على الخلع، فأبى واستسلم للقتل، فقالوا: إنه كتب بخطه رقعة لموسى بن بُغا، وبابكيال، وجماعة من القواد، أنه لا يغدر بهم، ولا يقتالهم، ولا يفتك بهم، ولا يهزم بذلك، وأنه متى فعل ذلك فهم في حلٍّ من بيعته، والأمر إليهم يُقعدون من شأؤوا.

فاستحلَّوا بذلك تفضي أمره، فداوسوا خُصيتيه، وصفقوه فمات، واشهدوا على موته أنه سليم ليس به أثر، ودُفن بمقبرة المتنصر.

وقيل: كان سبب خلعه وموته أنَّ أهل الكَرْخ والدُّور اجتمعوا وطلبوا أن يدخلوا إلى المهدي، ويكلموه بحاجاتهم، فدخلوا الدار، وفيها أبو نصر محمد بن بُغا وغيره من القواد، فخرج أبو نصر منها، ودخل أهل الكرخ والدُّور، وشكوا حالهم إلى المهدي، وهم في أربعة آلاف، وطلبوا منه أن (٢٣١/٧) يعزل منهم أمراءهم، وأن يصير الأمر إلى إخوته، وأن يأخذ القواد وكتابهم بالمال الذي صار إليهم، فوعدهم بإجابتهم إلى ما سألوه، فأقاموا يومهم في الدار، فحمل المهدي إليهم ما ياكلون.

وسار محمد بن بُغا إلى المحمديَّة، وأصبحوا من الغد يطلبون ما سألوه، فقتل لهم: إن هذا أمر صعب، وإخراج الأمر عن يد هؤلاء القواد ليس سهول، فكيف إذا جمع إليه مطالبتهم بالأموال؟ فانظروا في أموركم، فإن كنتم تصيرون على هذا الأمر إلى أن تبلغ غايته، وإلا فأمر المؤمنين بحسن لكم النظر؛ فأبوا إلا ما سألوه، فدعوا إلى إيمان البيعة على أن يقيموا على هذا القول، وأن يقتاتلوا مَنْ قاتلهم، وينصحو أمير المؤمنين، فأجابوا إلى ذلك، فأخذت عليهم إيمان البيعة.

ثم كتبوا إلى أبي نصر عن أنفسهم، وعن المهدي ينكرون خروجه عن الدار بغير سبب، وأنهم إنما قصدوا ليشكوا حالهم، ولمَّا رأوا الدار فارغة أقاموا فيها، فرجع فحضر عند المهدي، فقتل رجله ويده ووقف، فسأله عن الأموال وما يقوله الأتراك، فقال: وما أنا والأموال؟ قال: وهل هي إلَّا عندك وعند أخيك وأصحابك؟ ثم أخذوا بيد محمد وحبسوه، وكتبوا إلى موسى بن بُغا ومُفلح بالانصراف إلى سامراء، وتسليم العسكر إلى قواد ذكرهم، وكتبوا إلى الأتراك الصغار في تسلُّم العسكر منهم، وذكروا ما جرى لهم، وقالوا: إن أجاب موسى ومُفلح إلى ما أمرا

به من الإقبال إلى سامراً وتسليم العسكر، وإلا فشدوهما وثاقاً، رقيقاً، أشهل، جهّم الوجه، عريض البطن، عريض المنكبين، قصيراً، طويل الحية، ومولده بالقاطول. واحملوهما إلى الباب. (٢٣٢/٧)

ذكر بعض سيرة المهدي

كان المهدي بالله من أحسن الخلفاء مذهباً، وأجملهم طريقة، وأظهرهم ورعاً، وأكثرهم عبادة.

قال عبد الله بن إبراهيم الإسكافي: جلس المهدي للمظالم، فاستعداه رجل على ابن له، فأمر بإحضاره، فأحضر وأقامه إلى جانب خصمه ليحكم بينهما، فقال الرجل للمهدي: والله يا أمير المؤمنين ما أنت إلا كما قيل: (٢٣٤/٧)

حَكَمْتُمُوهُ قَضَى بَيْنَكُمْ أَلْبَحُ مِثْلُ الْقَمَرِ الزَّاهِرِ لَا يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ فِي حُكْمِهِ وَلَا يَالِي غَبْنِ الْخَاسِرِ
فقال المهدي: أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك، وأما أنا فما جلستُ حتى قرأتُ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقُسْطَ لَنُوزِمَ الْقِيَّاسَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] الآية، قال: فما رأيتُ باكياً أكثر من ذلك اليوم.

قال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمي: كنتُ عند المهدي بعض عشايا شهر رمضان، فقامتُ لأنصرف، فأمرني بالجلوس، فجلستُ حتى صلى المهدي بنا المغرب، وأمر بالطعام فأحضر، وأحضر طبق خيلاف عليه رغيفان، وفي إناء ملح، وفي آخر زيت، وفي آخر خل، فدعاني إلى أكل، وأكلتُ مقتصرأً ظناً مني أنه يحضر طعاماً جيداً، فلما رأى أكلي كذلك قال: أما كنتُ صائماً؟ قلتُ: بلى. قال أفلمستُ تريد الصوم غداً؟ قلتُ: وكيف لا وهو شهر رمضان؟ فقال: كُلْ واستوف عشاءك، فليس ها هنا غير ما ترى. فعجبتُ من قوله، قلتُ: ولم يا أمير المؤمنين؟ قد أسبغ الله عليك النعمة ووسّع رزقه! فقال: إن الأمر على ما وصفتُ، والحمد لله، ولكنّي فكرتُ في أنّه كان من بني أمية عمر بن عبد العزيز، ففكرتُ لبني هاشم أن لا يكون في خلفائهم مثله وأخذتُ نفسي بما رأيتُ.

قال إبراهيم بن مخلّد بن محمد بن عرفة عن بعض الهاشميين: إن المهدي وجدوا له سقفاً فيه جبة صوف، وكساء، وبرنس كان يلبسه (٢٣٥/٧) بالليل ويصلي فيه، ويقول: أما يستحي بنو العباس أن لا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز؟ وكان قد أطرح الملاهي، وحرّم الغناء والشراب، ومنع أصحاب السلطان عن الظلم، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ذكر خلافة المحدث على الله

لما أخذ المهدي بالله وحبس أحضر أبو العباس أحمد بن المتوكل، وهو المعروف بابن قتيان، وكان محبوباً بالجوسق،

وأجرى المهدي على من أخذت عليه البيعة كل رجل درهمين، فلما وصلت الكتب إلى عسكر موسى أخذها موسى، وقرئت عليه وعلى الناس، وأخذوا عليهم البيعة بالنصرة لهم، وساروا نحو سامراً، فزلوا عند قنطرة الرقيق لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب، وخرج المهدي وعرض الناس. وعاد من يومه، وأصبح الناس من الغد وقد دخل من أصحاب موسى زهاء ألف فارس، منهم كويكبن وغيره، وعاد وخرج المهدي فصفت أصحابه، وفيهم من أتى من أصحاب موسى، وترددت الرسل بينهم وبين موسى يريد أن يولي ناحية ينصرف إليها، وأصحاب المهدي يريدون أن يجيء إليهم لينظرهم على الأموال، فلم يتفقوا على شيء.

وانصرف عن موسى خلق كثير من أصحابه، فعُدل هو ومفلح يريدان طريق خراسان، وأقبل بابكيال وجماعة من القواد، فوصلوا إلى المهدي، فسلموا، وأمرهم بالانصراف، وحبس بابكيال وقتله، ولم يتحرك أحد، ولا تغير شيء إلا تغيراً يسيراً، وكان ذلك يوم السبت.

فلما كان الأحد أنكر الأتراك مساواة الفراغة لهم في الدار، ودخولهم معهم، ورفّع أنّ الفراغة إنما تمّ لهم هذا بعدم رؤساء الأتراك، فخرجوا من الدار بأجمعهم، وبقيت الدار على الفراغة، والمغاربة، فانكر الأتراك ذلك، وأضافوا إليه طلب بابكيال، فقال المهدي للفراغة والمغاربة ما جرى من الأتراك، وقال لهم: إن كنتم تظنون فيكم قوة فما أكره قريبكم، وإلا أرضيناكم من قبل تفاقم الأمر! فذكروا أنهم يقومون به، فخرج بهم المهدي وهم في ستة آلاف، منهم من الأتراك نحو ألف وهم أصحاب صالح بن وصيف، وكان الأتراك في عشرة آلاف، فلما التقوا انهزم أصحاب (٢٣٣/٧) صالح، وخرج عليهم كمين للأتراك، فانهزم أصحاب المهدي، وذكر نحو ما تقدّم إلا أنه قال إنهم رأوا المهدي بدار أحمد بن جُمَيْل قاتلهم، فأخرجوه، وكان به أثر طعنة، فلما رأى الجرح ألقى بيده إليهم، وأرادوه على الخلع، فأبى أن يجيهم، فمات يوم الأربعاء وأظهروه للناس يوم الخميس، وصلى عليه جعفر بن عبد الواحد.

وكانوا قد خلعوا أصابع يديه ورجليه من كعبيته، وفعلوا به غير شيء حتى مات، وطلبوا محمد بن يُغا، فوجدوه ميتاً، فكسروا على قبره ألف سيف.

وكانت مدة خلافة المهدي أحد عشر شهراً وخميس عشرة ليلة، وكان عمره ثمانية وثلاثين سنة، وكان واسع الجبهة، أسمر،

فبايعه الناس، فبايعه الأتراك، وكتبوا بذلك إلى موسى بن يُنْغا وهو بخانقين، فحضر إلى سامراً فبايعه، وَلَقَّبَ المعتمد على الله؛ ثُمَّ إِنَّ المهتدي مات ثاني يوم بُيْعَةَ المعتمد، وسكن الناس، واستوزر عَيْدُ الله بن يحيى بن خاقان.

خاف أهل عبادان على أنفسهم، وأهلهم، وأموالهم، فكتبوا إليه يطلبون الأمان على أن يسلّموا إليه البلد، فأمّنتهم، وسلّموه إليه، فأنفذ أصحابه إليهم، وأخذوا ما فيه من العبيد والسلاح، وفرّقه في أصحابه.

ذكر أخبار صاحب الزنج

في هذه السنة سَير جَعْلان لحرب صاحب الزنج بالبصرة، فلمّا وصل إلى البصرة نزل بمكان بينه وبين صاحب الزنج فرسخ، وخندق عليه وعلى أصحابه، وأقام ستّة أشهر في خندقه، وجعل يوجّه الزينبيّ وبني هاشم ومن خفّ لحربهم هذا اليوم الذي تواعدهم جَعْلان للقاءه، فلم يكن بينهم إلّا الرمي بالحجارة والنشّاب، ولا يجد جَعْلان إلى لقاءه سبيلاً، لضيق المكان عن مجال الخيل، وكان أكثر أصحاب جَعْلان خيالة. (٢٣٦/٧)

فلمّا طال مُقامه في خندقه أرسل صاحب الزنج أصحابه إلى مسالك الخندق، فبيّتوا جَعْلان، وقتلوا من أصحابه جماعة، وخاف الباقون خوفاً شديداً.

وكان الزينبيّ قد جمع البلايّة والسعديّة ووجّه بهم من مكائنين، وقتلوا الخبيث، فظفر بهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، فترك جَعْلان خندقه وانصرف إلى البصرة، وظهر عجزه للسلطان، فصرّفه عن حرب الزنج، وأمر سعيداً الحاجب بمحاربتهم.

وتحوّل صاحب الزنج، بعد ذلك، من السبخة التي كان فيها، ونزل بنهر أبي الخصيب، وأخذ أربعة وعشرين مركباً من مراكب البحر، وأخذوا منها أموالاً كثيرة لا تحصى، وقتل من فيها، ونهبها أصحابه ثلاثة أيام، وأخذ لنفسه بعد ذلك من النهب.

ذكر دخول الزنج الأبلّة

وفيها دخل الزنج الأبلّة، فقتلوا فيها خلقاً كثيراً وأحرقوها.

وكان سبب ذلك أنّ جَعْلان لمّا تنحّى عن خندقه إلى البصرة ألحّ شتاً صاحب الزنج بالغارات على الأبلّة، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر معقل، ولم يزل يحارب إلى يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب، فافتتحها، وقتل أبو الأحوص وعبيد الله بن حميد بن الطّوسيّ، وأضرّمها ناراً، (٢٣٧/٧) وكانت مبنية بالساج، فأسرعت النار فيها، وقتل من أهلها خلق كثير، وحووا الأموال العظيمة، وكان ما أحرقت النار أكثر من الذي نهب.

ذكر أخذ الزنج عبادان

وفيها أرسل أهل عبادان إلى صاحب الزنج فسلّموا إليه حصنهم.

وكان الذي حملهم على ذلك أنّه لمّا فعل بأهل الأبلّة ما فعل

ذكر أخذهم الأهواز

ولمّا فرغ العلويّ البصريّ من الأبلّة وعبّادان طمع في الأهواز، فاستنهض أصحابه نحو جيّ، فلم يلبث أهلها، وهربوا منهم، فدخلها الزنج، وقتلوا من راوا بها، وأحرقوا ونهبوا، وأخربوا ما وراءها إلى الأهواز، فلمّا بلغوا الأهواز هرب من فيها من الجند ومن أهلها، ولم يبق إلّا القليل، فدخلوها وأخربوها، وكان بها إبراهيم بن المدبر، متولّي الخراج، فأخذوه أسيراً بعد أن جرح، ونهب جميع ماله، وذلك لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، فلمّا فعل ذلك بالأهواز، وعبّادان، والأبلّة، خافه أهل البصرة، وانتقل كثير من أهلها في البلدان. (٢٣٨/٧)

ذكر عزل عيسى بن الشيخ عن الشام وولايته أرمينية

لمّا استولى ابن الشيخ على دمشق، وقطع الحمل عن بغداد، اتّفق أنّ ابن المدبر حمل مالا من مصر إلى بغداد، مقدار سبعمائة ألف دينار، فأخذها عيسى بن الشيخ.

فأرسل من بغداد إليه حسين الخادم يطالبه بالمال، فذكر أنّه أخرجه على الجند، فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقسم الدعوة للمعتمد، وكان قد امتنع من ذلك، فأخذ العهد، وأقام الدعوة للمعتمد، وليس السواد، ظلّاً منه أنّ الشام تكون بيده.

فأنفذ المعتمد أمّاجور، وقلّده دمشق وأعمالها، فسار إليها في ألف رجل، فلمّا قرب منها أنهض عيسى إليه ولده منصوراً في عشرين ألف مقاتل، فلمّا التقوا انهزم عسكر منصور وقتل منصور، فوهن عيسى، وسار إلى أرمينية على طريق الساحل ووليّ أمّاجور دمشق.

ذكر ابن الصوفيّ العلويّ وخروجه بمصر

وفيها ظهر بصعيد مصر إنسان علويّ، ذكر أنّه إبراهيم بن محمّد بن يحيى بن عبد الله بن محمّد بن عليّ بن أبي طالب، عليه السلام، ويُعرّف بابن الصوفيّ، وملك مدينة أسنّاء، ونهبها، وعمّ شرّه البلاد.

فسير إليه أحمد بن طولون جيشاً، فهزمه العلويّ، وأسر المقدّم على (٢٣٩/٧) الجيش، فقطع يديّه ورجليّه وصلبه؛ فسير إليه ابن طولون جيشاً آخر، فالتقوا بنواحي إخيّم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم العلويّ، وقتل كثير من رجاله، وسار هو حتّى دخل الواحات، وسيرد ذكره سنة تسع وخمسين ومائتين، إن شاء الله

تعالى.

سنة سبع وخمسين ومائتين

ذكر ظهور علي بن زيد على الكوفة وخروجه عنها

في هذه السنة ظهر علي بن زيد العلوي بالكوفة، واستولى عليها، وأزال عنها نائب الخليفة، واستقر بها.

فسير إليه الشاه بن مكيال في جيش كثيف، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم الشاه، وقُتل جماعة كثيرة من أصحابه، ونجا الشاه.

ثم وجه المعتمد إلى محاربه كيجور التركي، وأمره أن يدعوه إلى الطاعة، ويبدل له الأمان، فسار كيجور فنزل بشاهي، وأرسل إلى علي بن زيد يدعوه إلى الطاعة، وبذل له الأمان، فطلب علي أموراً لم يجبه إليها كيجور، ففتح علي بن زيد عن الكوفة إلى القادسية، فمسكر بها، ودخل كيجور إلى الكوفة ثالث شوال من السنة، ومضى علي بن زيد إلى خفان، ودخل بلاد بني أسد، وكان قد صاهرهم، وأقام هناك، ثم سار إلى جبّلاء.

وبلغ كيجور خبره، فأسرى إليه من الكوفة سلخ ذي الحجة من السنة، فواقعه، فانهزم علي بن زيد، وطلبه كيجور فقاته، وقتل نفراً من (٢٤٠/٧) أصحابه، وأسر آخرين، وعاد كيجور إلى الكوفة، فلما استقامت أمورها عاد إلى سر من رأى بغير أمر الخليفة، فوجه إليه الخليفة نفراً من القواد، فقتلوه بعكسراً في ربيع الأول سنة سبع وخمسين ومائتين.

ذكر عدة حوادث

وفيها تقدّم سعيد بن صالح الحاجب لحرب صاحب الزنج قتل السلطان.

وفيها تحارب مساور الخارجي وأصحاب موسى بن بُغا بناحية خاتقين، وكان مساور في جمع كثير، وكان أصحاب موسى بن بُغا نحو مائتين، فالتقوا بمساور، وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة.

وفيها وثب محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي، وهو من أهل فارس، ورجل من أكرادها يقال له أحمد بن الليث، بالمحارث بن سيما، عامل فارس، فحارباة وقتلاه، وغلب محمد بن واصل على فارس.

وفيها وجه مُفلح لحرب مساور.

وفيها غلب الحسن بن زيد الطالبي على الرّي في رمضان، فسار موسى بن بُغا إلى الرّي في شوال وشيعة المعتمد.

وفيها توفي الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي صاحب المسند الصحيح، وكان مولده سنة أربع وتسعين ومائة. (٢٤١/٧)

ذكر عود أبي أحمد الموفق من مكة إلى سر من رأى

لما اشتد أمر الزنج، وعظم شرهم، وأفسدوا في البلاد، أرسل المعتمد على الله إلى أخيه أبي أحمد الموفق، فأحضره من مكة، فلما حضر عقد له على الكوفة، وطريق مكة، والحرثين، واليمن، ثم عقد له على بغداد، والسواد، واسط، وكور دجلة، والبصرة، والأهواز، وفارس، وأمر أن يعقد لياركوج على البصرة، وكور دجلة، والبحرين، واليمامة، مكان سعيد ابن صالح، فاستعمل ياركوج منصور بن جعفر الخياط على البصرة وكور دجلة إلى ما يلي الأهواز.

ذكر انهزام الزنج من سعيد الحاجب

وفيها في رجب أوقع سعيد الحاجب بجماعة من الزنج، فهزهم، واستنقذ ما معهم من النساء، والنهب، وجرح سعيد عدة جراحات.

وبلغه الخبر بجمع آخر منهم، فسار إليهم، فلقبهم، فهزهم أيضاً، واستنقذ (٢٤٢/٧) ما معهم، فكانت المرأة من تلك الناحية تأخذ الزنجي فتأتي به عسكر سعيد، فلا يمتنع عليها.

وعسكر سعيد بهطة، ثم عبر إلى غرب دجلة، فأوقع بصاحب الزنج عدة وقعات، ثم عاد إلى معسكره بهطة، فأقام إلى ثاني رجب، وعامة شعبان.

ذكر خلاص ابن المدبر من الزنج

وفيها تخلف إبراهيم بن محمد بن المدبر من حبس الزنج، وكان سبب خلاصه أنه كان مجبوساً في بيت يحيى بن محمد البخاري، ووكل به رجلين، منزلهما ملاصق المنزل الذي فيه إبراهيم، فضمن لهما مالاً، ورغبهما، فعملا سراً إلى البيت الذي فيه إبراهيم، فخرج هو وابن أخ له يقال له أبو غالب ورجل هاشمي.

ذكر انهزام سعيد من الزنج وولاية منصور بن جعفر البصرة

وفيها أوقع العلوي صاحب الزنج بسعيد، وكان يسير إليه جيشاً، فأوقعوا به ليلاً، وأصابوا مقتلة من أصحاب سعيد، فقتلوا خلقاً كثيراً، وأحرقوا عسكره، فضعف هو ومن معه، فأمر بالمسير إلى باب الخليفة. (٢٤٣/٧)

ونزل بفراج البصرة، فسار سعيد عن البصرة، وأقام بها بفراج يحمي أهلها، فرد السلطان أمرها إلى منصور بن جعفر الخياط، بعد سعيد الحاجب، وكان منصور يذرق السفن، ويحميها، وسيورها إلى

بإتيان البصرة من ناحية بني سعيد، وأمر يحيى بن محمد (٢٤٥/٧) البُحراني بإتيانها ممّا يلي نهر عدي، وضمّ إليه سائر الأعراب، فكان أول من واقع أهل البصرة عليّ بن أبان، وبُفراج يومئذ بالبصرة، في جماعة من الجند، فأقام يقاتلهم يومين ومال الناس نحوه.

وأقبل يحيى بن محمد فيمن معه نحو الجسر، فدخل عليّ بن أبان وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شوال، فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة، وليلة السبت، ويوم السبت، وغادى يحيى البصرة يوم الأحد، فتلّقاه بُفراج وبرية في جمع فردّوه، فرجع يومه ذلك.

ثمّ غاداهم اليوم الآخر، فدخل وقد تفرّق الجند، وهرب بريّة، وانحاز بُفراج ومن معه، ولقيه إبراهيم بن يحيى المهلبسي، فاستأمنه لأهل البصرة، فأمّتهم، فنادى منادي إبراهيم: من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم فحضر أهل البصرة قاطبة، حتّى ملّؤوا الرحاب، فلمّا رأى اجتماعهم انتهز الفرصة لثلاً يتفرّقوا، فغدر بهم، وأمر أصحابه بقتلهم، فكان السيف يعمل فيهم، وأصواتهم مرتفعة بالشهادة، فقتل ذلك الجمع كلّهُ، ولم يسلم إلا النادر منهم، ثمّ انصرف يومه ذلك إلى الحرية.

ودخل عليّ بن أبان الجامع فأحرقه، وأحرق البصرة في عدّة مواضع، منها المويّد، وزهران، وغيرهما، واتّسع الحريق من الجبل إلى الجبل، وعظم الخطب، وعمّها القتل والنهب والإحراق، وقتلوا كلّ من راوه بها، فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه؛ ومن كان فقيراً قتلوه (٢٤٦/٧) لوقته، بقوا كذلك عدّة أيام.

ثمّ أمر يحيى أن ينادى بالأمان ليظهروا، فلم يظهر أحد؛ ثمّ انتهى الخبر إلى الخيث، فصرف عليّ بن أبان عنها، وأقرّ يحيى عليها لموافقته هواه في كثرة القتل، وصرف عليّاً لإبقائه على أهلها، فهرب الناس على وجوههم وصرف الخيث جيشه عن البصرة.

فلما أخبر البصرة انتسب إلى يحيى بن زيد، وذلك لمصير جماعة من العلويين إليه، وكان فيهم عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد وجماعة من نسايتهم، فترك الانتساب إلى عيسى بن زيد وانتسب إلى يحيى بن زيد، قال القاسم بن الحسن التوفلي: كذب، ابن يحيى لم يُعقب غير بنت ماتت وهي ترضع.

ذكر مسير المولّد لحرب الزنج

وفيها، في ذي القعدة، أمر المعتمد أحمد المولّد بالمسير إلى البصرة لحرب الزنج، فسار، فنزل الأُبلة، وجاء برية فنزل البصرة، واجتمع إليه من أهلها خلق كثير، فسَير العلوي إلى حرب المولّد يحيى بن محمد، فسار إليه فقاتله عشرة أيام، ثمّ وطّن المولّد نفسه على المقام، فكتب العلوي إلى يحيى يأمره بتبيت المولّد، ووجّه

البصرة، فضاقت الميرة على الزنج، فجمع منصور الشذا فأكثر منها، وسار نحو صاحب الزنج، فكمن له صاحب الزنج، فلمّا أقبل خرجوا عليه، فقتلوا في أصحابه مقتلة عظيمة، وغرق منهم خلق كثير، وحملوا من رؤوس أصحابه إلى البحرانيّ ومن معه من الزنوج بنهر معقل.

ذكر انهزام جيش الزنج بالأهواز

وفيها أرسل صاحب الزنج جيشاً مع عليّ بن أبان لقطع قنطرة أربك، فلقبهم إبراهيم بن سببا منصوراً من فارس، فأوقع بجيش العلويّ فهزمهم، وقتل منهم، وجرح عليّ بن أبان.

ثمّ إنّ إبراهيم سار قاصداً نهر جيّ، فأمر كاتبه شاهين بن بسطام بالمسير على طريق آخر ليوافيه بنهر جيّ، بعد الوقعة مع عليّ بن أبان؛ وكان عليّ بن أبان قد سار من الوقعة فنزل بالخيزرانيّة، فأتاه رجل فأخبره بإقبال شاهين إليه، فسار نحوه، فالتقيا وقت العصر بموضع بين جيّ ونهر موسى، واقتتلوا قتالاً شديداً، ثمّ صدمهم الزنج صدمة صادقة فهزموهم، وقتلوا شاهين وابن عمّ له، وقتل معه خلق كثير.

فلما فرغ الزنج منهم أتاها الخبر بقرب إبراهيم بن سببا منهم، فسار (٢٤٤/٧) عليّ نحوه، فوافاه وقت العشاء الأخيرة، فأوقع بإبراهيم دفعة أخرى شديدة قتل فيها جمعاً كثيراً.

قال عليّ بن أبان: وكان أصحابي قد تفرّقوا بعد الوقعة مع شاهين، ولم يشهد معي حرب إبراهيم غير خمسين رجلاً، وانصرف عليّ إلى جيّ.

ذكر أخذ الزنج البصرة وتخريبها

لمّا سار سعيد عن البصرة ضمّ السلطان عمله إلى منصور بن جعفر الخياط، وكان منه ما ذكرنا، ولم يُعدّ منصور لقتاله، واقتصر على تحفير القِروانات والسفن، فامتنع أهل البصرة، فعظم ذلك على العلوي، فتقدّم إلى عليّ بن أبان بالمقام بالخيزرانيّة ليشغل منصوراً عن تسيير القِروانات، فكان بنواحي جيّ والخيزرانيّة، وشغل منصوراً، فعاد أهل البصرة إلى الضيق، وألح أصحاب الخيث عليهم بالحرب صباحاً ومساءً.

فلما كان في شوال أزمع الخيث على جَمْع أصحابه لدخول البصرة، والجّد في إخراجها لضعف أهلها وتفرّقهم، وخراب ما حولهم من القرى، ثمّ أمر محمد بن يزيد الدارميّ، وهو أحد من صحبه بالبحرين، أن يخرج إلى الأعراب ليجمعهم، فأتاه منهم خلق كثير، فأتاها بالبَندَل، ووجّه إليهم العلويّ سليمان بن موسى الشعرائيّ، وأمرهم بتطرق البصرة والإيقاع بها ليتمرّن الأعراب على ذلك، ثمّ انهض عليّ بن أبان، وضمّ إليه طائفة من الأعراب، وأمره

إليه الشذا مع أبي الليث الأصفهاني، فيتته (٢٤٧/٧) ونهض المولّد فقاتله تلك الليلة، ومن الغد إلى العصر، ثم انهزم عنه.

ودخل الزنج عسكره فغنموا ما فيه، فأتبعه يحيى إلى الجامة، فأوقع بأهلها، ونهب تلك القرى جميعها، وسفك ما قدر عليه من الدماء، ثم رجع إلى نهر معقل.

ذكر قصد يعقوب فارس ومملكه بلخ وغيرها

وفي هذه السنة سار يعقوب بن الليث إلى فارس، فأرسل إليه المعتمد ينكر ذلك عليه، فكتب إليه الموقن بولاية بلخ، وطخارستان، وسيجستان، والسند، فقبل ذلك وعاد، وسار إلى بلخ وطخارستان، فلما وصل إلى بلخ نزل بظاهرها، وخرب نوשא، وهي أبنية كان بناها داود بن العباس بن مابنجور خارج بلخ.

ثم سار يعقوب من بلخ إلى كابل، واستولى عليها، وقبض على زنبيل، وأرسل رسولاً إلى الخليفة، ومعه هدية جلية المقدار، وفيها أصنام أخذها من كابل وتلك البلاد، وسار إلى بسنت فأقام بها سنة.

وسبب إقامته أنه أراد الرحيل، فرأى بعض قواده قد حمل بعض أثقاله، فغضب وقال: أترحلون قبلي؟ وأقام سنة، ثم رجع إلى سيجستان، ثم عاد إلى هراة، وحاصر مدينة كروخ حتى أخذها، ثم سار إلى بوشنج، وقبض على الحسين بن طاهر بن الحسين الكبير، وأنفذ إليه محمد بن طاهر بن عبد الله، فسأله إطلاقه وهو عم أبيه الحسين بن طاهر، فلم يفعل وبقي في يده. (٢٤٨/٧)

ذكر ملك الحسن بن زيد العلوي جرجان

وفي هذه السنة قصد الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان جرجان واستولى عليها، وكان محمد بن طاهر، أمير خراسان، لما بلغه ذلك من عزم الحسن على قصد جرجان قد جهّز العساكر فأنفق عليها أموالاً كثيرة، وسيرها إلى جرجان لحفظها، فلما قصدتها الحسن لم يقوموا له، وظفر بهم، وملك البلد، وقتل كثيراً من العساكر، وغنم هو وأصحابه ما عندهم.

وضعف حينئذ محمد بن طاهر، وانتفض عليه كثير من الأعمال التي كان يجيء خراجها إليه، فلم يسق في يده إلا بعض خراسان، وأكثر ذلك مفتون متقصص بالمتغلّين في نواحيها، والشرأة الذين يعيشون في عمله، فلا يمكنه دفعهم، فكان ذلك سبب تغلب يعقوب الصفار على خراسان، كما نذكره سنة تسع وستين ومائتين، إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

وفيها أخذ أحمد المولّد سعد بن أحمد بن سعد الباهلي، وكان قد تغلب على البطائح، وأفسد الطريق، وحمل إلى سامراء، ففُسرَب

سبع مائة سوط فمات، وصُلب ميتاً.

وحجّ بالناس الفضل بن إسحاق بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي.

وفيها وثب بسيل المعروف بالصقلبي، وإنما قيل الصقلبي، وهو من (٥٤٩/٧) بيت المملكة، لأن أمه صقلية، على ميخائيل بن توفيل ملك الروم، وقتله، وكان مُلك ميخائيل أربعاً وعشرين سنة، وملك بسيل الروم.

وفيها أقطع المعتمد مصر وأعمالها لياركوج التركي، فأقر عليها أحمد بن طولون.

وفيها فاروق عبد العزيز بن أبي دلف الري من غير خوف، وأخلاه، فأرسل إليها الحسن بن زيد العلوي، صاحب طبرستان، القاسم بن علي بن القاسم بن علي العلوي، المعروف بدليس، فغلب عليها، فأساء السيرة في أهلها جدّاً، وقلعوا أبواب المدينة، وكانت من حديد، وسيرها إلى الحسن بن زيد، وبقي كذلك نحو ثلاث سنين.

وفيها خرج علي بن مساور الخارجي، وخارجي آخر اسمه طوق من بني زهير، فاجتمع إليه أربعة آلاف، فسار إلى أذرمة، فحاربه أهلها، فظفر بهم، فدخلها بالسيف، وأخذ جارية بكراً فجعلها فينا، واقتضها في المسجد، فجمع عليه الحسن بن أيوب بن أحمد الغدوي جمعاً كثيراً، فحاربه فقتله، وقطع رأسه وأنفذه إلى سامراء.

وفيها قُتل محمد بن خفاجة، أمير صقلية، قتله خدمه نهاراً، وكنمو قتل، فلم يُعرف إلا من الغد. وكان الخدم الذين قتلوه قد هربوا، فطلبوا فأخذوا، وقُتل بعضهم، ولما قُتل استعمل محمد بن أحمد بن الأغلب على صقلية أحمد بن يعقوب بن المضاء بن سلمة فلم تطل أيامه، ومات سنة ثمان وخمسين ومائتين. (٢٥٠/٧)

وفيها توفي الحسن بن عمر العبيدي، وكان مولده سنة خمسین ومائة بسر من رأى.

وفيها توفي أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي اللغوي، من كبارهم، وروى عن الأصمعي وغيره.

وفيها توفي محمد بن الخطّاب الموصلّي، وكان من أهل العلم والزهد. (٢٥١/٧)

سنة ثمان وخمسين ومائتين

ذكر قتل منصور بن جعفر الخياط

في هذه السنة قُتل منصور بن جعفر الخياط، وكان سبب قتله

أن العلوي البصري لما فرغ من أمر البصرة أمر علي بن أبان بالسير إلى جبي لحرب منصور بن جعفر، وهو يلي يومئذ الأهواز، وأقام بإزائه شهراً، وكان منصور في قلعة من الرجال، فأتى عسكر علي وهو بالخيزارانية.

ثم إن الخبيث، صاحب الزنج، وجّه إلى علي باثني عشرة شذاة مشحونة بجلّة أصحابه، وولى أمرهم أبا الليث الأصهباني، وأمره بطاعة علي، فلما صار إليه خالفه، واستبذ عليه، وجاء منصور كما كان يجيء للحرب، فتقدم إليه أبو الليث، عن غير إذن علي، فظفر به منصور، وبالشذوات التي معه، وقتل فيها من البيض والزنج خلقاً كثيراً، وأفلت أبو الليث، ورجع إلى الخبيث.

(٢٥٢/٧)

ثم إن علياً وجّه طلائع يأتونه بخبر منصور، وأسرى إلى والٍ كان لمنصور على كرتباً، فقتله وقتل أكثر أصحابه، وغنم ما كان معهم ورجع.

وبلغ الخبر منصوراً، فأسرى إلى الخيزارانية، وخرج إليه علي، فتحاربوا إلى الظهر، ثم انهزم منصور، وتفرق عنه أصحابه، وانقطع عنهم، وأدركته طائفة من الزنج، فحمل عليهم، وقتلهم حتى تكسر رمحه، وفني نشابه، ثم حمل حصانه ليعبر النهر، فوقع في النهر، ولم يعبره.

وكان سبب وقوعه أن بعض الزنج رآه حين أراد أن يعبر النهر، فألقى نفسه في النهر قبل منصور وتلقى الفرس حين وثب فنكص، فلما سقط في النهر قتله الأسود، وأخذ سلبه، وقتل معه أخوه خلف بن جعفر وغيره، فولّى ياركوج ما كان إلى منصور بن جعفر من العمل.

ذكر مسير أبي أحمد إلى الزنج وقتل مُفلح

وفيها، في ربيع الأول، عقد المعتمد لأخيه أبي أحمد على ديار مصر، وقُسرين، والعواصم، وخلع عليه وعلى مُفلح في ربيع الآخر، وسبّهما إلى حرب الزنج بالبصرة، وركب المعتمد معه يشيعه، وسار نحو البصرة، ونازل العلوي وقتلته.

وكان مسبب تسييره ما فعله بالبصرة، وأكبر الناس ذلك، وتجهزوا إليه وساروا في عدّة حسنة كاملة، وصحبه من سوقة بغداد خلق كثير. (٢٥٣/٧)

وكان علي بن أبان بجي، على ما ذكرنا، وسار يحيى بن محمد البخراني إلى نهر العباس، ومعه أكثر الزنج، فبقي صاحبهم في قلعة من الناس، وأصحابه يغادون البصرة، ويراوحونها لنقل ما نالوه منها؛ فلما نزل عسكر أبي أحمد بنهر معقل، احتفل من فيه من الزنج إلى صاحبهم مرعوبين، وأخبروه بعظم الجيش وأنهم لم يرد عليهم

مثله، وأحضر رئيسين من أصحابه، فسألهما عن قائد الجيش فلم يعرفاه، فجزع، وارتاع.

ثم أرسل إلى علي بن أبان يأمره بالسير إليه فيمن معه، فلما كان يوم الأربعاء اثني عشرة بقيت من جمادى الأولى أتاه بعض قواده، فأخبره بمجيء العسكر وتقدّمهم، وأنهم ليس في وجوههم من يردّهم من الزنج، وكذبته، وسبّه، وأمر فنودي في الزنج بالخروج إلى الحرب، فخرجوا، فأروا مُفلحاً قد أتاهم في عسكر لحربهم، فقاتلهم، فبينما مُفلح يقاتلهم إذ أتاه سهم غرب لا يُعرف من رمى به، فأصابه، فرجع وانهزم أصحابه، وقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً، وحملوا الرؤوس إلى العلوي، واقتسم الزنج لحوم القتلى.

وأُتي بالأسرى، فسألهم عن قائد الجيش، فأخبروه أنه أبو أحمد. ومات مُفلح من ذلك السهم، فلم يلبث العلوي إلا يسيراً حتى وافاه علي بن أبان.

ثم إن أبا أحمد رحل نحو الأبلّة ليجمع ما فرقته الهزيمة، ثم سار إلى نهر أبي الأسد، ولما علم الخبيث كيف قُتل مُفلح، ولم ير أحداً يدّعي قتله، زعم أنه هو الذي قتله، وكذب فإنه لم يحضره. (٢٥٤/٧)

ذكر قتل يحيى بن محمد البخراني

وفيها أسر يحيى بن محمد البخراني قائد صاحب الزنج، وكان سبب ذلك أنه لما سار نحو نهر العباس لقيه عسكر أصعبجور، عامل الأهواز بعد منصور، وقتلهم، وكان أكثر منهم عدداً، فنال ذلك العسكر من الزنج بالنشأب، وجرحوهم، فعبّر يحيى النهر إليهم، فانحازوا عنه، وغنم سفناً كانت مع العسكر، فيها الميرة، وساروا بها إلى عسكر صاحب الزنج على غير الوجه الذي فيه علي بن أبان، لتحاسد كان بينه وبين يحيى.

وجّه يحيى طلائعه إلى دجلة، فلقبهم جيش أبي أحمد الموقّ سائرين إلى نهر أبي الأسد، فرجعوا إلى علي، فأخبروه بمجيء الجيش، فرجع من الطريق الذي كان سلكه، وسلك نهر العباس، وعلى فم النهر شذوات لحمية من عسكر الخليفة، فلما رآهم يحيى راعه ذلك، وخاف أصحابه فنزلوا السفن وعبروا النهر، ولقي يحيى ومن معه بضعة عشر رجلاً، فقاتلهم هو وذلك النفر اليسير، فرموهم بالسهم، فجرح ثلاث جراحات، فلما جرح تفرّق أصحابه عنه، ولم يُعرف حتى يؤخذ، فرجع حتى دخل بعض السفن وهو مثنخ بالجراح.

وأخذ أصحاب السلطان الغنائم، وأخذوا السفن، وعبروا إلى سفن كانت للزنج فأحرقوها، وتفرّق الزنج عن يحيى بقية نهارهم، فلما رأى تفرّقهم (٢٥٥/٧) ركب سُمَيْرِيَّة، وأخذ معه طبيباً لأجل

اليوم هذه أعظم من الأولى، فانهزم أكثر المدينة، وتساقتط الحيطان، وهلك من (٢٥٧/٧) أهلها زهاء عشرين ألفاً.

وفيهما مات ياركوج التركي في رمضان، وصلى عليه أبو عيسى بن المتوكل، وكان صاحب مصر ومقطعهما، ودُعي له فيها قبل أحمد بن طولون، فلما استقل أحمد بمصر.

وفيهما كانت وقعة بين أصحاب موسى بن يُغا وأصحاب الحسن بن زيد العلوي، فانهزم أصحاب الحسن.

وفيهما أسر مسرور البلخي جماعة من أصحاب مُساور الشاري، وسار مسرور إلى البوازيج، فلقى مُساوراً هناك، فكان فيها بينهما وقعة أسر فيها من أصحاب مسرور جماعة، ثم انصرف في ذي الحجة إلى سامراء، واستخلف على عسكره بحريشة الموصل جعلان.

وفيهما رجع أكثر الناس من القرعاء خوف العطش، وسلم من سار إلى مكة، وحج بالناس الفضل بن إسحاق بن الحسن.

وفيهما أوقع مسرور البلخي بالأكردايعقوبية، فهزمهم وأصاب فيها.

وفيهما صار محمد بن واصل في طاعة السلطان، وسلم فارس إلى محمد بن الحسن بن أبي الفياض.

وفيهما أسر جماعة من الزنج كان فيهم قاض كان لهم بعبادان، فحملوا إلى سامراء، فضربت أعناقهم. (٢٥٨/٧)

وفيهما توفي محمد بن يحيى بن عبد الله بن خالد الذهلي النيسابوري، وله مع البخاري حادثة ظلمه بها حسداً له، ليس هذا مكان ذكرها.

وفيهما توفي يحيى بن مُعاذ الرازي الواعظ في جمادى الأولى، وكان عابداً صالحاً صاحب أبا يزيد وغيره. (٢٥٩/٧)

سنة تسع وخمسين ومائتين

ذكر دخول الزنج الأهواز

وفيهما، في رجب، دخلت الزنج الأهواز، وكان سببه أن العلوي أنفذ علي بن أبان المهلي، وضم إليه الجيش الذي كان مع يحيى بن محمد البحراني، وسليمان بن موسي الشُعْراني، وسيّره إلى الأهواز.

وكان المتولي لها بعد منصور بن جعفر رجل يقال له أصعجور، فبلغه خبر الزنج، فخرج إليهم، والتقى العسكران بدشت ميسان، فانهزم أصعجور، وقُتل معه ثيرك، وجرح خلق كثير من

الجراح، وسار فيها، فرأى الملاحون سُميريات السلطان، فخافوا، فالتقوا يحيى ومن معه على الأرض، فمشى وهو مثقل، وقام الطبيب الذي معه فأتى أصحاب السلطان فأخبرهم خبره، فأخذوه وحملوه إلى أبي أحمد، فحملة أبو أحمد إلى سامراء، قُطعت يده ورجلاه ثم قُتل، فجنح الخبيث والزنوج عليه جزءاً كبيراً، وقال لهم: لِمَا قُتل يحيى اشتد جزعي عليه، فخطبت أن قُتله كان خيراً لك، إنه كان شرهاً.

ذكر عود أبي أحمد إلى واسط

وفيهما انحاز أبو أحمد من موضعه إلى واسط؛ وكان سبب ذلك أنه لما سار إلى نهر أبي الأسد كثرت الأمراض في أصحابه، وكثر فيهم الموت، فرجع إلى باذورد فأقام به، وأمر بتجديد الآلات، وإعطاء الجند أرزاقهم، وإصلاح السُميريات والشذا، وشحنها بالقواد، وعاد إلى عسكر صاحب الزنج، وأمر جماعة من قواده بقصد مواضع سَماها من نهر أبي الخصيب وغيره، وبقي معه جماعة، فمال أكثر الخلق، حين التقى الناس ونشبت الحرب، إلى نهر أبي الخصيب، وبقي أبو أحمد في قلعة من أصحابه، فلم يزل عن موضعه خوفاً أن يطعم الزنج.

ولمّا رأى الزنج قلعة من معه طمعوا فيه، وكثروا عليه، واشتدّت الحرب عنده، وكثر القتل والجراح، وأحرق أصحاب أبي أحمد منازل الزنوج، واستنقذوا من النساء جمعاً كثيراً، ثم التقى الزنج جدهم نحوه، فلما رأى أبو أحمد ذلك علم أن الحزم في المحاجزة، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على مهل وتؤدة.

واقطع الزنج طائفة من أصحابه، فقاتلوه، فقتلوا من الزنج خلقاً كثيراً، ثم قتلوا جميعهم، وحملت رؤوسهم إلى قائد الزنج، وهي مائة رأس وعشرة أرؤس، فزاد ذلك في غتوه.

ونزل أبو أحمد في عسكره ببازورد، فأقام يعبى أصحابه للرجوع إلى الزنج، فوقعت نار في أطراف عسكره، في يوم ريح عاصف، فاحترق كثير منه، فرحل منه إلى واسط، فلما نزل واسط تفرق عنه عامة أصحابه، فسار منها إلى سامراء، واستخلف على واسط، لحرب العلوي، محمد بن المولّد.

ذكر عدة حوادث

وفيهما وقع الوباء في كُور دجلة، فهلك منها خلق كثير يبعداد، وواسط، وسامراء، وغيرها.

وفيهما قُتل سرسجارس ببلاد الروم مع جماعة كثيرة من أصحابه.

وفيهما كانت هذه عظيمة هائلة بالصيمرة، ثم سُمع من ذلك

كنداجيق بالبصرة، وقد قطع الميرة عن الزنج، فكان صاحبهم يجمع أصحابه يوم محاربة عبد الرحمن وإبراهيم، فإذا انقضت الحرب سَير طائفة منهم إلى البصرة، يقاتل بهم إسحاق، فأقاموا كذلك بضعة عشر شهراً إلى أن صُرف موسى بن بُغا عن حرب الزنج، ووليها مسرور البلخي، فأنتهى الخبر بذلك إلى الخبيث.

ذكر ملك يعقوب نيسابور

وفيها، في شوال، دخل يعقوب بن الليث نيسابور، وكان سبب مسيره إليها أن عبد الله السَّجْزِيَّ كان ينازع يعقوب بسجستان، فلما قوي عليه يعقوب هرب منه إلى محمد بن طاهر، فأرسل يعقوب يطلب من ابن طاهر أن يسلمه إليه فلم يفعل، فسار نحوه إلى نيسابور، فلما قرب منها، وأراد دخولها، (٢٦٢/٧) وجّه محمد بن طاهر يستأذنه في تلقّيه، فلم يأذن له، فبعث بعُثمته وأهل بيته فتلّقوه.

ثم دخل نيسابور في شوال، فركب محمد بن طاهر، فدخل إليه في مضربه، فسأله، ثم وبخه على تفرطه في عمله، وقبض على محمد بن طاهر وأهل بيته، واستعمل على نيسابور، وأرسل إلى الخليفة يذكر تفرط محمد ابن طاهر في عمله، وأن أهل خراسان سألوه المسير إليهم، ويذكر غلبة العلويين على طبرستان، وبالحق في هذا المعنى، فأُنكر عليه ذلك، وأمر بالانقصار على ما أُسند إليه، وإلا يسلك معه مسلك المخالفين.

وقيل كان سبب مُلك يعقوب نيسابور ما ذكرناه سنة سبع وخمسين [ومائتين] من ضعف محمد بن طاهر أمير خراسان، فلما تحقق يعقوب ذلك، وأنه لا يقدر على الدفع، سار إلى نيسابور، وكتب إلى محمد بن طاهر يُعلمه أنه قد عزم على قصد طبرستان ليُضي ما أمره الخليفة في الحسن بن زيد المتغلب عليها، وأنه لا يعرض لشيء من عمله، ولا لأحد من أسبابه.

وكان بعض خاصّة محمد بن طاهر وبعض أهله لما رأوا إدبار أمره مالوا إلى يعقوب، فكاتبوه، واستدعوه، وهوتوا على محمد أمر يعقوب، من نيسابور، فأعلموه أنه لا خوف عليه منه، وثبطوه عن التحرّز منه، فركن محمد إلى قولهم، حتّى قرب يعقوب من نيسابور، فوجّه إليه قائداً من قوّاده بطيّب قلبه، وأمره بمنعه عن الانتزاع عن نيسابور إن أراد ذلك.

ثم وصل يعقوب إلى نيسابور رابع شوال وأرسل أخاه عمرو بن الليث (٢٦٣/٧) إلى محمد بن طاهر، فأحضره عنده، فقبض عليه وقيّده، وعفّه على إهماله عمله، وعجزه عن حفظه، ثم قبض على جميع أهل بيته، وكانوا نحواً من مائة وستين رجلاً، وحملهم إلى سجستان، واستولى على خراسان، ورتب في الأعمال نوابه.

أصحابه، وغرق أصعجور، وأسر خلق كثير، فبهم الحسن بن هرثمة، والحسن بن جعفر، وحملت الرؤوس والأعلام والأسرى إلى الخبيث، فأمر بحبس الأسرى، ودخل الزنج الأهواز، فأقاموا يفسدون فيها، ويعيثون إلى أن قدم موسى بن بُغا.

ذكر مسير موسى بن بُغا لحرب الزنج

وفيها، في ذي القعدة، أمر المعتمد موسى بن بُغا بالمسير إلى حرب صاحب الزنج، فسَير إلى الأهواز عبد الرحمن بن مُفلح، وإلى البصرة إسحاق بن (٢٦٠/٧) كنداجيق، وإلى بادآورد إبراهيم بن سبما، وأمرهم بمحاربة صاحب الزنج.

فلما ولي عبد الرحمن الأهواز سار إلى محاربة علي بن أبان، فتواقعا، فانهزم عبد الرحمن؛ ثم استعدّ، وعاد إلى علي فأوقع به وقعة عظيمة قتل فيها من الزنج قتلاً ذريعاً، وأسر خلقاً كثيراً، وانهزم علي بن أبان والزنج، ثم أراد ردهم فلم يرجعوا من الخوف الذي دخلهم من عبد الرحمن؛ فلما رأى ذلك أذن لهم بالانصراف، فانصرفوا إلى مدينة صاحبهم.

ووافى عبد الرحمن حصن مهدي ليعسكر به، فوجّه إليه صاحب الزنج علي بن أبان، فواقعه، فلم يقدر عليه، ومضى يريد الموضوع المعروف بالذُكَّة، وكان إبراهيم بن سبما بالبادورد، فواقعه علي بن أبان، فهزمه علي بن أبان، ثم واقعه ثانية، فهزمه إبراهيم، فمضى علي في الليل ومعه الأدلاء في الأجام، حتّى انتهى إلى نهر يحيى.

وانتهى خبره إلى عبد الرحمن، فوجّه إليه طاشتمر في جمع من الموالي، فلم يصل إليه لامتاعه بالقبض والحلافي، فأضر بها عليه ناراً، فخرجوا منها هارين، فأسر منهم أسرى، وانصرف أصحاب عبد الرحمن بالأسرى والظفر.

ثم سار عبد الرحمن نحو علي بن أبان بمكان نزل فيه، فكتب علي إلى صاحب الزنج يستدّعه، فأمدّه بثلاث عشرة شذاة، ووافاه عبد الرحمن، فتواقعا يومهما، فلما كان الليل انتخب علي من أصحابه جماعة ممّن يثق بهم وسار، وترك عسكره ليخفي أمره، وأتى عبد الرحمن من ورائه (٢٦١/٧) فيبيته، فنال منه شيئاً يسيراً، وانحاز عبد الرحمن، فأخذ علي منهم أربع شذوات، وأتى عبد الرحمن دُولاب فأقام به.

وسار طاشتمر إلى علي فوافاه وقتله، فانهزم علي إلى نهر السُدرة، وكتب يستمدّ عبد الرحمن، فأخبره بانهزام علي عنه، فأتاه عبد الرحمن، وواقع علياً بنهر السُدرة وقعة عظيمة، فانهزم علي إلى الخبيث، وعسكر عبد الرحمن بلبان، فكان هو وإبراهيم بن سبما يتناوبان المسير إلى عسكر الخبيث فيوقعان به، وإسحاق بن

فلَمَّا كَانَ بعد مُدَّة وثب على العُمَرِيُّ غلاماً له فقتلاه، وحملوا رأسه إلى أحمد بن طولون، فلَمَّا حضروا عنده سألها عن سبب قتله، فقالوا: أردنا التقرب إليك بذلك، فقتلها، وأمر برأس العُمَرِيِّ فُتْسِلَ، وكُفِّنَ، ودُفِنَ.

ذكر ما كان هذه السنة بالأندلس

في هذه السنة سار محمد بن عبد الرحمن الأمري، صاحب الأندلس، إلى طُلَيْطَلَة فنازلها وحصرها، وكان أهلها قد خالفوا عليه، وطلبوا الأمان فأمّتهم، وأخذ رهائهم.

وفيها خرج أهل طُلَيْطَلَة إلى حصن سكيان، وكان فيه سبع مائة رجل من البربر، وكان أهل طُلَيْطَلَة في عشرة آلاف، فلَمَّا التحمت بينهم الحرب انهزم أحد مقدّمي أهلها، وهو عبد الرحمن بن حبيب، فتبعه أهل طُلَيْطَلَة في الهزيمة، وإنما انهزم لعداوة كانت بينه وبين مقدّم آخر اسمه طريشة من أهل طُلَيْطَلَة، فأراد أن يوهنه بذلك، فلَمَّا انهزموا قتلوا البرقيل (؟).

وفيها عاد عمرو بن عمرو إلى طاعة محمد بن عبد الرحمن، وكان مخالفاً عليه عدّة سنين، فولاه مدينة أمشقة وحصر محمد حصون بني موسى ثم تقدّم إلى بَنُبُلُونَة فوطى أرضها وعاد. (٢٦٦/٧)

ذكر عدّة حوادث

وفيها سارت سرية للمسلمين إلى مدينة سَرْقُوسَة فصالحها أهلها على أن أطلقوا الأسرى الذين كانوا عندهم من المسلمين، ثلاثمائة وستين أسيراً، فلَمَّا أطلقوهم غادت عنهم.

وفيها قُتل كيجور، وكان سبب قتله أنه كان على الكوفة، فسار عنها إلى سامراً بغير إذن، فأمر بالرجوع فأبى، فحُمِلَ إليه مال ليُفرّقه في أصحابه فلم يقنع به، وسار حتى أتى عَكْبَرًا، فوجّه إليه من سامراً عدّة من القواد فقتلوه، وحملوا رأسه إلى سامراً.

وفيها غلب شرّك الحمار على مَرُو وناحيتها ونهبها.

وفيها انصرف يعقوب بن الليث عن بلخ، فأقام بفُهْستان، وولّى عمّاله هراة، وبوشنج، وباذغيس، وانصرف إلى سِجِسْتان.

وفيها فارق عبد الله السجزيّ يعقوب، وحاصر نيسابور وبها محمد بن طاهر قبل أن يملكها يعقوب بن الليث، فوجّه محمد بن طاهر إليه الرسل والفقهاء، فاختلفوا بينهما، ثم ولّاه الطَّبْسَيْن، وقُهْسْتان، وفيها غلب الحسن بن زيد على قُومِس ودخلها أصحابه. (٢٦٧/٧)

وفيها كانت وقعة بين محمد بن الفضل بن بيان وهسودان بن جستان الديلمي، وانهزم وهسودان.

وكانت ولاية محمد بن طاهر إحدى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام.

ذكر ظهور ابن الصوفي بمصر ثانياً

وفيها عاد ابن الصوفي العلوي بمصر، وقد ذكرنا سنة ست وخمسين [ومائتين] ظهوره وهربه إلى الواحات، فأحم نفسه، ودعا الناس إلى نفسه، فتبعه خلق كثير، وسار بهم إلى الأشمونين، فوجّه إليه جيش عليهم قائد يُعْرَف بابن أبي الغيث، فوجده قد أصعد إلى لقاء أبي عبد الرحمن العُمَرِيّ، وسنذكر بعد هذا.

فلَمَّا وصل العلوي إلى العُمَرِيّ التقياً، فكان بينهما قتال شديد، أجلت الوقعة عن انهزام العلوي، فولّى منهزماً إلى أسوان، فعاث فيها، وقطع كثيراً من نخله.

فسير إليه ابن طولون جيشاً، وأمرهم بطلبه أين كان، فسار الجيش في

(٢٦٤/٧) طلبه، فولّى هارباً إلى عَيْذَاب، وعبر البحر إلى مكّة، وتفرّق أصحابه، فلَمَّا وصل إلى مكّة بلغ خبره إلى واليها، فقبض عليه وحبسه، ثم سيّره إلى ابن طولون، فلَمَّا وصل إلى مصر أمر به بطيف به في البلد، ثم سجنه مُدّة وأطلقه، ثم رجع إلى المدينة فأقام بها إلى أن مات.

ذكر حال أبي عبد الرحمن العُمَرِيّ

قد تقدّم ذكر أبي عبد الرحمن العُمَرِيّ، واسمه عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب.

وكان سبب ظهوره بمصر أنّ البجاة أقبلت يوم العيد، فنهبوا وقتلوا وعادوا غانمين، وفعلوا ذلك مرات، فخرج هذا العُمَرِيّ غضباً لله وللمسلمين، وكمن لهم في طريقهم، فلَمَّا عادوا خرج عليهم، وقتل مقدّمهم ومن معه، ودخل بلادهم فنهبها، وقتل فيهم فأكثر، ونهبوا وسبوا ما لا يحصى، وتابع عليهم الغارات حتى أدوا إليه الجزية، ولم يفعلوها قبل ذلك.

واشتدت شوكة العُمَرِيّ، وكثر أتباعه؛ فلَمَّا بلغ خبره ابن طولون سير إليه جيشاً كثيفاً، فلَمَّا التقوا تقدّم العُمَرِيّ وقال لمقدّم الجيش: إنّ ابن طولون لا يعرف خبري، لا شك، على حقيقته، فإنّي لم أخرج للفساد، ولم يتأذّ بي مسلم ولا ذميّ، وإنما خرجت طلباً للجهاد، فأكتب إلى الأمير أحمد عرفه كيف حالي، فإن أمرك بالانصراف فانصرف، وإلاّ فإن أمرك بغير ذلك كنت معدّوراً، فلم يجبه إلى ذلك، وقاتله، فانهزم جيش ابن طولون، فلَمَّا وصلوا إليه أخبروه بحال العُمَرِيّ فقال: كتمت أنهيتهم حاله إليّ، فإنّه نصير (٢٦٥/٧) عليكم ببغيتكم، وتركه.

سار إليها بعد هزيمة الحسن، فلما قاربها يعقوب كتب إلى الصلاني وإليها يختاره بين تسليم عبد الله إليه وينصرف عنه، وبين المحاربة، فسلم إلى عبد الله فرحل عنه، وقتل عبد الله.

ذكر الفتنة بالموصل وإخراج عاملهم

كان الخليفة المعتمد على الله قد استعمل على الموصل أساتكين، وهو من أكابر قواد الأتراك، فسار إليها ابنه أذكو تكين في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين ومائتين؛ فلما كان يوم النيروز من هذه السنة، وهو الثالث عشر من نيسان، غيّر المعتضد بالله، ودعا أذكو تكين ووجوه أهل الموصل إلى قبة في الميدان، وأحضر أنواع الملاحى، وأكثر الخمر، وشرب ظاهراً، وتجاهر أصحابه بالفسوق، وفعل المنكرات، وأساء السيرة في الناس.

وكان تلك السنة برد شديد أهلكت الأشجار، والثمار، والحنطة، والشعير، (٢٧٠/٧) وطالب الناس بالخراج على الغلات التي هلكت، فاشتد ذلك عليهم، وكان لا يسمع بفرس جيد عند أحد إلا أخذ، وأهل الموصل صابرون، إلى أن وثب رجل من أصحابه على امرأة فأخذها في الطريق، فامتعت، واستغاثت، فقام رجل اسمه إدريس الجميري، وهو من أهل القرآن والصلاح، فخلصها من يده، فعاد الجندي إلى أذكو تكين فشكا من الرجل، فأحضره وضربه ضرباً شديداً من غير أن يكشف الأمر، فاجتمع وجوه أهل الموصل إلى الجامع وقالوا: قد صبرنا على أخذ الأموال، وشمم الأعراض، وإبطال السنن والعسف، وقد أفضى الأمر إلى أخذ الحريم، فأجمع رأيهم على إخراجهم، والشكوى منه إلى الخليفة.

وبلغه الخبر، فركب إليهم في جنده، وأخذ معه النفاطين، فخرجوا إليه وقاتلوه قتالاً شديداً، حتى أخرجوه عن الموصل، ونهبوا داره، وأصابه حجر فأتخته، ومضى من يومه إلى بلده، وسار منه إلى سامراً.

واجتمع الناس إلى يحيى بن سليمان، وقلدوه أمرهم، ففعل، فبقي كذلك إلى أن انقضت سنة ستين؛ فلما دخلت سنة إحدى وستين [ومائتين] كتب أساتكين إلى الهيثم بن عبد الله بن المعمر التغلبي، ثم العدوي، في أن يتقلد الموصل، وأرسل إليه الخلع واللواء، وكان بديار ربيعة، فجمع جُموعاً كثيرة، وسار إلى الموصل، ونزل بالجانب الشرقي، وبينه وبين البلد دجلة، فقاتلوه، فغبر إلى الجانب الغربي وزحف إلى باب البلد، فخرج إليه يحيى بن سليمان في أهل الموصل، فقاتلوه قتل بينهم قتلى كثيرة، وكثرت الجراحات وعاد الهيثم عنهم.

فاستعمل أساتكين على الموصل إسحاق بن أيوب التغلبي فخرج في جمع (٢٧١/٧) يبلغون عشرين ألفاً، منهم خمدان بن حمدون التغلبي وغيره، فنزل عند الدبر الأعلى، فقاتله أهل

وفيها نزلت الروم على سُميساط، ثم نزلوا على مَلطية وقاتلهم أهلها، فانهزمت الروم، وقتل بطريق البطارقة.

وحج بالناس العباس بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس المعروف ببيروية.

وفيها مات محمد بن يحيى بن موسى أبو عبد الله بن أبي زكريا الأسفرائيني المعروف بابن حيوية، ومحمد بن عمرو بن يونس بن عمران بن دينار الكوفي الثعلبي، وكان شيعياً ضعيف الحديث.

وفيها توفي أبو الحسن بن علي بن حرب الطائي الموصلي، وكان محدثاً، وممن روى عنه أبوه علي بن حرب. (٢٦٨/٧)

سنة ستين ومائتين

ذكر دخول يعقوب طبرستان

وفيها واقع يعقوب بن الليث الحسن بن زيد العلوي، فهزمه، ودخل طبرستان.

وكان سبب ذلك أن عبد الله السجزي [كان] ينازع يعقوب الرئاسة بسجستان، فقهروه يعقوب، فهرب منه عبد الله إلى نيسابور، فلما سار يعقوب إلى نيسابور، كما ذكرنا، هرب عبد الله إلى الحسن بن زيد بطبرستان، فسار يعقوب في أثره، فلقى الحسن بن زيد بقرية سارية.

وكان يعقوب قد أرسل إلى الحسن يسأله أن يبعث إليه عبد الله ويرجع عنه، فإنه إنما جاء لذلك لا لحربه، فلم يسلمه الحسن، فحاربه يعقوب، فانهزم الحسن، ومضى نحو السمر وأرض الذيلم، ودخل يعقوب سارية، وأمل، وجبى أهلها خراج سنة، ثم سار في طلب الحسن، فسار إلى بعض جبال طبرستان، وتابعت عليه الأمطار نحواً من أربعين يوماً، فلم يتخلص إلا بمشقة شديدة، وهلك عامة ما معه من الظهر.

ثم أراد الدخول خلف الحسن، فوقف على الطريق الذي يريد [أن] يسلكه، وأمر أصحابه بالوقوف، ثم تقدّم وحده، وتأمل الطريق، ثم رجع (٢٦٩/٧) إليهم فأمرهم بالانصراف، وقال لهم: إن لم يكن طريق غير هذا، وإلا لا طريق إليه.

وكان نساء أهل تلك الناحية قلن للرجال: دعوه يدخل، فإنه إن دخل كفيناكم أمره، وعلينا أمره لكم. فلما خرج من طبرستان عرض رجاله، ففقد منهم أربعون ألفاً، وذهب أكثر ما كان معه من الخيل، والإبل، والبغال والأقتال، وكتب إلى الخليفة بما فعله مع الحسن من الهزيمة، وسار إلى الرمي في طلب عبد الله لأنه كان قد

ألف درهم.

وحجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل المعروف ببرية، وهو أمير مكة. (٢٧٣/٧)

وفيهما ظهر بمصر إنسان يكنى أبا روح، واسمه سكن، وكان من أصحاب ابن الصوفي، واجتمع له جماعة، فقطع الطريق، وأخاف السبيل، فوجه إليه ابن طولون جيشاً، فوقف أبو روح في أرض كثيرة الشقوق، وقد كان بها قمح فحصد، وبقي من تبنه على الأرض ما يستر الشقوق، وقد ألفوا المشي على مثل هذه الأرض. فلما جاءهم الجيش لقوهم، ثم انهزم أصحاب أبي روح، فتبعهم عسكر ابن طولون، فوقعت حوافر خيولهم في تلك الشقوق، فسقط كثير من فرسانها عنها، وتراجع أصحاب أبي روح عليهم، فقتلوهما شر قتلة وانهزم الباقون أسوأ هزيمة.

فسير أحمد جيشاً إلى طريقهم إلى الواحات، وجيشاً في طلبه، فلقى الجيش الذي في طلبه وقد تحصن في مثل تلك الأرض فحذرهما عسكر أحمد، فحين بطلت حيلهم انهزموا، وتبعهم العسكر، فلما خرجوا إلى طريق الواحات رأى أبو روح الطريق قد ملكت عليه، فراسل يطلب الأمان، فبذل له، وبطلت الحرب، وكفي المسلمون شره.

وفيهما توفي علي بن محمد بن جعفر العلوي الخماني، وكان يسكن الخمان، فنسب إليها.

وفيهما قتل علي بن يزيد صاحب الكوفة، قتله صاحب الزنج. وفيها كان بإفريقية وبلاد المغرب والأندلس غلاء شديد، وعم غيرها من البلاد، وتبعه وباء وطاعون عظيم هلك فيه كثير من الناس.

وفيهما توفي محمد بن إبراهيم بن عبدوس، الفقيه المالكي، صاحب المجموعة (٢٧٤/٧) في الفقه، وهو من أهل إفريقية.

وفيهما مات مالك بن طوق التغلبي بالرحبة، وهو بناها، وإليه تنسب.

وفيهما توفي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام.

وفيهما توفي أبو محمد العلوي العسكري، وهو أحد الأئمة الاثني عشر، على مذهب الإمامية، وهو والد محمد الذي يعتقدونه المنتظر بسرداب سامراء، وكان مولده سنة اثنتين وثلاثين ومائتين.

وفيهما توفي أبو علي الحسن بن محمد بن الصبيح الزعفراني، الفقيه الشافعي، وهو من أصحاب الشافعي البغداديين.

الموصل ومنعوه، فبقوا كذلك مدة، فمرض يحيى بن سليمان الأمير، فطمع إسحاق في البلد، وجد في الحرب فانكشف الناس بين يديه، فدخل إسحاق البلد، ووصل إلى سوق الأربعاء، وأحرق سوق الحشيش، فخرج بعض العدول، اسمه زياد بن عبد الواحد، وعلق في عنقه مصحفاً، واستغاث بالمسلمين فأجابوه، وعادوا إلى الحرب، وحملوا على إسحاق وأصحابه، وأخرجوه من المدينة.

وبلغ يحيى بن سليمان الخبر، فأمر فحمل في محفة، وجعل أمام الصف، فلما رآه أهل الموصل قويت نفوسهم، واشتد قتالهم، ولم يزل الأمر كذلك وإسحاق يرأسل أهل الموصل، ويعدهم الأمان وحسن السيرة، فأجابوه إلى أن يدخل البلد، ويقسم بالريض الأعلى، فدخل وأقام سبعة أيام.

ثم وقع بين بعض أصحابه وبين قوم من أهل الموصل شر، فوجعوا إلى الحرب، وأخرجوه عنها، واستقر يحيى بن سليمان بالموصل.

ذكر الحرب بين أهل طليطلة وهوارة

وفي هذه السنة ظهر موسى بن ذي النون الهواري بشت برية، وأغار على أهل طليطلة، ودخل حصن ولید من شنت برية، فخرج أهل طليطلة إليه في نحو عشرين ألفاً، فلما التقوا بموسى واقتلوا انهزم محمد بن طريشة في أصحابه، وهو من أهل طليطلة، فتبعه أهل طليطلة في الهزيمة، وانهزم (٢٧٢/٧) معهم مطرف بن عبد الرحمن، فعمل ذلك محمد مكافأة لمطرف حين انهزم بالناس في العام الماضي، فقتل من أهل طليطلة خلق كثير، وقوي موسى ابن ذي النون، وهابه من حاذره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قتل رجل من أصحاب مساور الشاري محمد بن هارون ابن المعتمر، رآه وهو يريد سامراء، فقتله، وحمل رأسه إلى مساور، فطلبت ربيعة بثاره، فندب مساور البلخي وغيره إلى أخذ الطرق على مساور.

وفيهما اشتد الغلاء في عامة بلاد الإسلام، فانجلى من أهل مكة كثير، ورحل عنها عاملها، وهو برية، وبلغ الكر [من] الحنطة ببغداد عشرين ومائة دينار، ودام ذلك شهراً.

وفيهما قتل الأعراب منجوراً والي حمص، واستعمل عليها بكتمر.

وفيهما قتل العلاء بن أحمد الأزدي عامل أذربيجان، وكان سبب قتله أنه فليح، فاستعمل الخليفة مكانه أبا الرديني عمر بن علي، فلما قاربها خرج إليه العلاء، فتحاربوا، فقتل العلاء، وانهزم أصحابه، وأخذ أبو الرديني ما خلفه العلاء وكان مبلغه ألفي ألف وسبع مائة

وفيهما توفي حسين بن إسحاق الحكيم الطبيب، وهو الذي نقل كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية، وكان عالماً بها. (٢٧٥/٧)

سنة إحدى وستين ومائتين

ذكر الحرب بين محمد بن واصل وابن مُفلح

وفيهما تحارب ابن واصل وعبد الرحمن بن مُفلح وطاشتمر.

وكان سبب ذلك أن ابن واصل كان قتل الحارث بن سيماء، وتغلب على فارس، فأضاف المعتمد فارس إلى موسى بن بُغَا، والأهواز، والبصرة، واليهرين، واليمامة، مع ما كان إليه؛ فوجه موسى عبد الرحمن بن مُفلح، وهو شاب عمره إحدى وعشرون سنة، إلى الأهواز، وولاه إياها مع فارس، وأضاف إليه طاشتمر؛ فلما علم ذلك ابن واصل، وأن ابن مُفلح قد سار نحوه من الأهواز، زحف إليه من فارس، فالتقيا بَرَاهْمَرْمَزَ. وانضم أبو داود الصعلوك إلى ابن واصل، فاقتلوا، فانهزم عبد الرحمن وأخذ أسيراً، وقتل طاشتمر، واصطلم عسكرهما، وغنم ما فيه من الأموال والعدة وغير ذلك.

وأرسل الخليفة إلى ابن واصل في إطلاق عبد الرحمن، فلم يفعل، وقتله وأظهر أنه مات، وسار ابن واصل من رَاهْمَرْمَزَ، من بعد هذه الواقعة، مظهراً أنه يريد واسط لحرب موسى بن بُغَا، فأنتهى إلى الأهواز وفيها إبراهيم بن سيماء في جمع كثير، فلما رأى موسى شدة الأمر بهذه الناحية، وكثرة المتغلبين عليها، وأنه يعجز عنهم، سأل أن يُعفى، فأجيب إلى ذلك. (٢٧٦/٧)

ذكر ولاية أبي الساج الأهواز

وفيهما ولي أبو الساج الأهواز، بعد مسير عبد الرحمن عنها إلى فارس، وأمر بمحاربة الزنج، فسير صهره عبد الرحمن لمحاربة الزنج، فلقى علي بن أبا نباحية دولا، فقتل عبد الرحمن، وانحاز أبو الساج إلى ناحية عسكر مُكْرَمَ، ودخل الزنج الأهواز، فقتلوا أهلها، وسبوا وأحرقوا.

ثم انصرف أبو الساج عما كان إليه من الأهواز، وحرب الزنج، وولاه إبراهيم بن سيماء، فلم يزل بها حتى انصرف عنها مع موسى بن بُغَا.

وفيهما ولي محمد بن أوس البلخي طريق خراسان.

ذكر عود الصفار إلى فارس والحرب بينه وبين ابن واصل

لما كان من الوقعة بين عبد الرحمن بن مُفلح وبين ابن واصل ما ذكرناه، اتصل خبرهما إلى يعقوب الصفار وهو بسجستان، فتجدد طمعه في ملك بلاد فارس، وأخذ الأموال والخزائن

والسلاح التي غنمها ابن واصل من ابن مُفلح، فسار مجدداً. وبلغ ابن واصل خبر قريبه منه وأنه نزل البيضاء من أرض فارس، وهو بالأهواز، فعاد عنها لا يلوي على شيء، وأرسل خاله أبا بلال مرداساً، إلى الصفار، فوصل إليه، وضمن له طاعة ابن واصل، فأرسل يعقوب الصفار إلى ابن واصل كتاباً ورسلاً في المعنى، فحبسهم ابن واصل، وسار يطلب (٢٧٧/٧) الصفار والرسل معه يريد أن يخفي خبره، وأن يصل إلى الصفار بغتة لم يعلم به، فينال منه غرضه، ويوقع به.

فسار في يوم شديد الحر، في أرض صعبة المسلك، وهو يظن أن خبره قد خفي عن الصفار، فلما كان الظهر تعبت دوابهم، فنزلوا ليستريحوا، فمات من أصحاب ابن واصل من الرجال كثير جوعاً وعطشاً، وبلغ خبرهم الصفار، فجمع أصحابه وأعلمهم الخبر، وسار، وقال لأبي بلال: إن ابن واصل قد غدر بنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل! ومضى الصفار إلى ابن واصل، فلما قاربهم وعلموا به انخدلوا وضعت نفوسهم عن مقاومته ومقاتلته، ولم يتقدموا خطوة، فلما صار بين الفريقين رمية سهم انهزم أصحاب ابن واصل من غير قتال، وتبعهم عسكر الصفار، وأخذوا منهم جميع ما غنموه من ابن مُفلح، واستولى على بلاد فارس، ورتب بها أصحابه وأصلح أحوالها.

ومضى ابن واصل منهزماً، فأخذ أمواله من قلعته، وكانت أربعين ألف ألف درهم، وأوقع يعقوب بأهل رَمَ لأنهم أمانوا ابن واصل، وحدث نفسه بالاستيلاء على الأهواز وغيرها.

ذكر تجهز أبي أحمد للمسير إلى البصرة

وفيهما، في شوال، جلس المعتمد في دار العامة، فولى ابنه جعفرًا العهد، ولقبه المفوض إلى الله، وضم إليه موسى بن بُغَا، فولاه إفريقية، ومصر (٢٧٨/٧) والشام، والجزيرة، والموصل، وأرمينية، وطريق خراسان ومِهْرَجَانْقَذَفَ، وولى أخاه أبا أحمد العهد بعد جعفر، ولقبه الناصر لدين الله الموفق. وولاه المشرق، وبغداد، والسواد، والكوفة، وطريق مكة والمدينة، واليمن. وكسكر، وكور دجلة، والأهواز، وفارس، وأصبهان، وقسم، وكرج. ودينور، والرّي، وزنجان، والسند، وعقد لكل واحد منهما لواءين: أسود وأبيض، وشرط إن حدث به الموت، وجعفر لم يبلغ، أن يكون الأمر للموفق، ثم لجعفر بعده، وأخذت البيعة بذلك.

فعد جعفر لموسى على المغرب، وأمر الموفق أن يسير إلى حرب الزنج، فولى الموفق الأهواز والبصرة وكور دجلة مسروراً البلخي، وسيره في مقدمته في ذي الحجة، وعزم على المسير بعده، فحدث من أمر يعقوب الصفار ما منعه عن المسير، ومنذكره أول سنة اثنتين وستين ومائتين.

وفيهما فارق محمد بن زيدونه يعقوب بن الليث، وصار إلى أبي الساج، وأقام معه بالأهواز، وخلع عليه المعتمد وسأل أن يوجه الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر إلى خراسان.

وكان سبب استعماله إسماعيل أنه لما استولى يعقوب بن الليث على خراسان أنفذ نصر جيشاً إلى شط جیحون ليأمن عبور يعقوب، فقتلوا مقدمهم، ورجعوا إلى بخارى، فخافهم أحمد بن عمر، نائب نصر، على نفسه، فتغيب عنهم، فأمرُوا عليهم أبا هاشم محمد بن المبشر بن رافع بن الليث بن نصر بن سيار، (٢٨١/٧) ثم عزلوه وولوا أحمد بن محمد بن ليث والد أبي عبد الله بن جنيد، ثم صرفوه وولوا الحسن بن محمد بن ولد عبدة بن حديد؛ ثم صرفوه، وبقيت بخارى بغير أمير، فكتب رئيسها وقيدها أبو عبد الله بن أبي حفص إلى نصر يسأله توجيه من يضبط بخارى، فوجه أخا إسماعيل، ثم إن إسماعيل كاتب رافع بن هرثمة حين ولي خراسان، فتعاقدوا على التعاون والتعاوض، فطلب منه إسماعيل أعمال خوارزم فولاه إياها.

وكان إسماعيل يؤامره في المكاتب، ثم سعت السعاة بين نصر وإسماعيل فأفسدوا ما بينهما، فقصده نصر سنة اثنين وسبعين ومائتين، فأرسل إسماعيل حمّونه بن علي إلى رافع بن هرثمة يستجده، فسار إليه في جيش كثيف، فوافى بخارى، قال حمّونه: تفكرت في نفسي، وقلت: إن ظفر إسماعيل بأخيه فما يؤمنني أن يقبض رافع على إسماعيل، ويتغلب على ما وراء النهر؟ وإن لم يفعل ذلك، ووفى لإسماعيل، فلا يزال إسماعيل معترفاً بأنه فقيد رافع وجريحه، ويحتاج [أن] يتصرف على أمره ونهيه، فاجتمعت برافع خلوة، وقلت له: نصيحتك واجبة عليّ، وقد ظهر لي من نصر وإسماعيل ما كان خفياً عني، ولست آمنهما عليك، والرأي أن لا تشاهد الحرب، وتحملهما على الصلح؛ فقبل ذلك، فتصالحا، وانصرف عنهما.

قال حمّونه: ثم إنني أعلمت إسماعيل، بعد ذلك، الحال كيف كان، (٢٨٢/٧) فعذر رافعاً في إلزامه بالصلح، واستصوب فعل حمّونه، وبقي نصر وإسماعيل مدة، ثم عادت السعاة، ففسد ما بينهما، حتى تحاربا سنة خمس وسبعين ومائتين، فظفر إسماعيل بأخيه نصر، فلما حمل إليه ترجل له إسماعيل، وقبل يديه، وردّه من موضعه إلى سمرقند، وتصرّف على النجاة عنه ببخارى.

وكان إسماعيل خيراً، يحب أهل العلم والدين، ويكرمهم، ويبركهم دم ملكه وملك أولاده وطالت أيامهم.

حكى أبو الفضل محمد بن عبد الله البلعمي قال: سمعت الأمير أبا إبراهيم إسماعيل بن أحمد يقول: كنت بسمرقند، فجلست يوماً للمظالم، وجلس أخي إسحاق إلى جانبي، فدخل أبو عبد الله

وحجّ بالناس فيها الفضل بن إسحاق بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس؛ ومات الحسين بن أبي الشوارب بمكة بعدما حجّ. (٢٧٩/٧)

ذكر ولاية نصر بن أحمد الساماني ما وراء النهر

في هذه السنة استعمل نصر بن أحمد بن أسد بن سامان خذاه بن جثمان بن طمغات بن نوشرد بن بهرام جويين بن بهرام خشنش؛ وكان بهرام خشنش من الرّي، فجعله كسرى هرمز بن أنوشروان مرزبان أذربيجان، وقد تقدّم ذكر بهرام جويين عند ذكر كسرى هرمز.

ولما ولي المأمون خراسان، واصطلح أولاد أسد بن سامان، وهم: نوح، وأحمد، ويحيى، وإلياس، بنو أسد بن سامان، قريتهم ورفع منهم واستعملهم ورعى حقّ سلفهم؛ فلما رجع المأمون إلى العراق استخلف على خراسان غسان بن عبّاد، فولّى غسان نوح بن أسد، في سنة أربع ومائتين، سمرقند، وأحمد بن أسد فرغانة، ويحيى بن أسد الشاش وأشروسنة، وإلياس بن أسد هراة.

فلما ولي طاهر بن الحسين خراسان ولأهم هذه الأعمال، ثم توفي نوح ابن أسد، وأقر طاهر بن عبد الله أخوته على عمله: يحيى، وأحمد، وكان أحمد بن أسد غفيف الطعمة، مرضي السيرة، لا يأخذ رشوة، ولا أحد من أصحابه، فبهِ قيل، أو في ابنه نصر: نؤى ثلاثين خولاً في ولايته فجاج يوم نؤى في قبره خشمه (٢٨٠/٧)

وكان إلياس يلي هراة، وله بها عقب وأثار كثيرة، فاستقدمه عبد الله ابن طاهر، وكان رسمه فيمن يستقدمه أن يعد أيامه، فأبطأ إلياس، فكتب إليه بالمقام حيث يلقاه كتابه، فبلغه الكتاب وقد سار عن بوشنج، فأقام بها سنة تأدياً له، ثم أذن له في القدوم عليه.

فلما مات إلياس بهراة أقر عبد الله ابنه أبا إسحاق محمد بن إلياس على عمله، فأقام بهراة؛ وكان لأحمد بن أسد سبعة بنين، وهم: نصر، وأبو يوسف ويعقوب، وأبو زكريا يحيى، وأبو الأشعث أسد، وإسماعيل، وإسحاق، وأبو غانم حميد، ولما توفي أحمد بن أسد استخلف ابنه نصر على أعماله بسمرقند وما وراءها، فبقي عاملاً عليها إلى آخر أيام الطاهرية، وبعد زوال أمرهم إلى أن مضى لسبيله.

وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصر، فولاه نصر بخارى سنة إحدى وستين ومائتين، ومعنى قول أبي جعفر: وفي سنة إحدى

المحمّد بن نصر الفقيه الشافعي، فقامت له إجلالاً لعلمه ودينه، فلمّا خرج عاتبني أخي إسحاق، وقال: أنت أمير خراسان، يدخل عليك رجل من رعيتك فتقوم له، فتذهب السياسة بهذا.

وكان عادلاً، حازماً في أموره، أثنى البلاد، وقتل أهل البغي والفساد، وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين، يسمع شكوى الخصوم، ويصبر عليهم، وينصف بينهم. وكان القوافل والتجار يسرون في الطرق آمنين.

وبنى الحصون والمحارس على سواحل البحر، حتّى كان يوقد النار من سبّة فيصل الخير إلى الإسكندرية في الليلة الواحدة، وبني على سوسة سوراً، وعزم على الحجّ، فردّ المظالم، وأظهر الزهد والنسك، وعلم أنّه إن جعل طريقه إلى مكّة على مصرّ منعه صاحبها ابن طولون، فتجري بينهما حرب، فيقتل المسلمون، فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجمع بين الحجّ والجهاد، ويفتح ما بقي من حصونها، فأخرج جميع ما أذخره من المال والسلاح وغير ذلك، وسار إلى سوسة فدخلها وعليه فرو مرقع في زيّ الزهاد، أوّل سنة تسع وثمانين ومائتين، وسار منها، في الأسطول، إلى صقلية. (٢٨٥/٧)

وسار إلى مدينة يوطينا فملكها سليخ رجب، وأظهر العدل، وأحسن إلى الرعيّة، وسار إلى طبرمين، فاستعدّ أهلها لقتاله، فلمّا وصل خرجوا إليه والتقوا، فقرأ القاري: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] فقال الأمير اقرأ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتُصِمَا فِي رُبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، فقرأ، فقال: اللهم إني أختصم أنا والكفار إليك في هذا اليوم! وحمل، ومعه أهل البصائر، فهزم الكفار، وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، ودخلوا معهم المدينة عنوة، فركب بعض من بها من الروم مراكب فهربوا فيها.

والتجأ بعضهم إلى الحصن وأحاط بهم المسلمون وقتلواهم، فاستنزلوهم قهراً، وغنموا أموالهم، وسبوا ذراريهم، وذلك لسبع بقين من شعبان، وأمر بقتل المقاتلة، وبيع السبي والغنيمة.

ولمّا اتصل الخبر بفتح طبرمين إلى ملك الروم عظم عليه، وبقي سبعة أيام لا يلبس التاج، وقال: لا يلبس التاج محزون. وتحركت الروم، وعزموا على المسير إلى صقلية لمنعها من المسلمين، فبلغهم أنّه سائر إلى القسطنطينية، فترك الملك بها عسكرياً عظيماً، وسير جيشاً كثيراً إلى صقلية.

وأما الأمير إبراهيم فإنّه لمّا ملك طبرمين بثّ السرايا في مدن صقلية التي بيد الروم، وبعث سرية إلى ميقش، وسرية إلى ذمنش، فوجدوا أهلها قد أجلاوا عنها، فغنموا ما وجدوا بها.

وبعث طائفة إلى رمة، وطائفة إلى الباج، فاذعن القوم جميعاً

قال: فبت تلك الليلة، فرأيت النبي ﷺ في المنام وكأني واقف وأخي إسحاق؛ فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ بعضدي فقال لي: يا إسماعيل! ثبت ملكك وملك بيتك لإجلالك لمحمّد بن نصر. ثمّ التفت إلى إسحاق وقال: ذهب ملك إسحاق وملك بيته باستخفافه بمحمّد بن نصر.

وكان محمّد بن نصر هذا من العلماء بالفقه على مذهب الشافعي، العاملين بعلمه، المصنّفين فيه، وسافر إلى البلاد في طلب العلم، وأخذ العلم بمصر من أصحاب الشافعيّ يؤنس بن عبد الأعلى، والربيع بن سليمان، ومحمّد بن عبد الله بن الحكم، وصحب الحارث المحاسبي وأخذ عنه علم المعاملة، وبرز فيه أيضاً. (٢٨٣/٧)

ذكر عصيان أهل برقة

وفي هذه السنة عصى أهل برقة على أحمد بن طولون، وأخرجوا أميرهم محمّد بن الفرّج الفرّغاني، فبعث ابن طولون جيشاً عليهم غلامه لؤلؤ، وأمره بالرفق بهم، واستعمال اللين، فإنّ انقادوا وإلاّ السيف.

فسار العسكر حتّى نزلوا على برقة، وحصروا أهلها، وفعلوا ما أمرهم من اللين، فطمع أهل برقة، وخرجوا يوماً على بعض العسكر، وهم نازلون على باب البلد، فأوقعوا بهم وقتلوا منهم.

فأرسل لؤلؤ إلى صاحبه أحمد يعرفه الخبر، فأمره بالجدّ في قتالهم، فنصب عليهم المجانيق، وجدّ في قتالهم، وطلبوا الأمان، فأئتمهم، ففتحوا له الباب، فدخل البلد، وقبض على جماعة من رؤسائهم، وضربهم بالسياط، وقطع أيدي بعضهم، وأخذ معه جماعة منهم وعاد إلى مصر، واستعمل على برقة عاملاً.

ولمّا وصل لؤلؤ إلى مصر خلع عليه أحمد خلعة فيها طوقان، فوضعا في رقبة، وطيف بالأسرى في البلد.

ذكر ولاية إبراهيم بن أحمد إفريقية

في هذه السنة توفي محمّد بن أحمد بن الأغلب، صاحب إفريقية، سادس جمادى الأولى، وكانت ولايته عشر سنين، وخمسة أشهر وستة عشر يوماً. (٢٨٤/٧)

ولمّا حضره الموت عقد لابنه أبي عقاب العهد واستخلف أخاه إبراهيم لثلاثين يوماً، وأشهد عليه آل الأغلب ومشايخ القيروان، وأمره أن يتولّى الأمر إلى أن يكبر ولده، فلمّا مات أتى أهل

إلى أداء الجزية، فلم يجيبهم إلى ذلك، ولم يقبل منهم غير تسليم الحصون، ففعلوا (٢٨٦/٧) فهدمها، وسار إلى كستة، فجاءته الرسل منها يطلبون الأمان فلم يجيبهم.

وكان قد ابتدأ به المرض، وهو علة الذرب، فنزلت العساكر على المدينة، فلم يجدوا في قتالها لغية الأمير عنهم، فإنه نزل منفرداً لشدة مرضه، وامتنع منه النوم، وحدث به الفواق، وتوفي ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين، فاجتمع أهل الرأي من العسكر أن يولوا أمرهم أبا مضر بن أبي العباس عبد الله ليحفظ العساكر، والأموال، والخزائن، إلى أن يصل إلى ابنه بإفريقية، وجعلوا الأمير إبراهيم في تابوت، وحملوه إلى إفريقية، ودفنوه بالقبروان، رحمه الله.

وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة، وكان عاقلاً، حسن السيرة، محباً للخير والإحسان، تصدق بجميع ما يملك، ووقف أملاكه جميعها؛ وكان له فطنة عظيمة بإظهار خفايا العملات، فمن ذلك أن تاجرأ من أهل القبروان كانت له امرأة جميلة صالحة عفيفة، فاتصل خبرها بوزير الأمير إبراهيم، فأرسل إليها، فلم تجبه، فاشتد غرامه بها، وشكا حاله إلى عجوز كانت تغشاه، وكانت أيضاً لها من الأمير منزلة، ومن والدته منزلة كبيرة، وهي موصوفة عندهم بالصلاح، يتبركون بها، ويسألونها الدعاء، فقالت للوزير: أنا أتلف بها، وأجمع بينكما.

وراحت إلى بيت المرأة، فقرعت الباب وقالت: قد أصاب ثوبي نجاسة أريد تطهيرها؛ فخرجت المرأة ولقيتها فرحبت بها، وأدخلتها، وطهرت ثوبها، وقامت العجوز تصلي، فعرضت المرأة عليها طعام، فقالت: (٢٨٧/٧) إني صائمة، ولا بد من التردد إليك؛ ثم صارت تغشاه، ثم قالت لها: عندي يتيمة أريد أن أحملها إلى زوجها، فإن خف عليك إعاره خليك أجملها به فقلت.

وأحضرت جميع حليها وسلّمته إليها، فأخذته العجوز وانصرفت، وغابت أياماً، وجاءت إليها، فقالت لها: أين الحلي؟ فقالت: هو عند الوزير عبرت عليه وهو معي فأخذه مني، وقال لا يسلمه إلا إليك. فتنازعتا، وخرجت العجوز، وجاء التاجر زوج المرأة، فأخبرته الخبر، فحضر دار الأمير إبراهيم وأخبره بالخبر، فدخل الأمير إلى والدته، وسأله عن العجوز، فقالت: هي تدعو لك؛ فأمر بإحضارها ليترك بها، فأحضرتها والدته، فلما رآها أكرمها وأقبل عليها وانبسط معها.

ثم إنه أخذ خاتماً من إصبعها وجعل يقلبه ويعيث به، ثم إنه أحضر خصياً له وقال له: انطلق إلى بيت العجوز، وقل لابنتها تسلّم الحق الذي فيه الحلي، وصفته كذا، وهو كذا وكذا، وهذا الخاتم علامة منها.

فمضى الخادم وأحضر الحق، فقال للعجوز: ما هذا؟ فلما رأت الحق سقط في يدها، وقتلها، ودفنها في الدار، وأعطى الحق لصاحبه، وأضاف إليه شيئاً آخر، وقال له: أما الوزير فإن انتقم من الآن ينكشف الأمر، ولكن ساجل له ذنباً أخذه به؛ فتركه مدة يسيرة، وجعل له جرماً أخذه به قتله. (٢٨٨/٧)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة استعمل المعتمد على الله، الخليفة على أذربيجان، محمد بن عمر بن علي بن مرا الطائي الموصلّي، فسار إليها، وجمع معه جموعاً كثيرة من خوارج وغيرهم، وكان على أذربيجان العلاء بن أحمد الأزدّي، وهو مفلوج فخرج في محفة ليمنع محمد بن عمر، فقاتله، فانهزم عسكر العلاء، وأخذ أسيراً، واستوى محمد بن عمر بن علي على قلعة العلاء، وأخذ منها ثلاثة آلاف ألف درهم، ومات العلاء في يده.

وفيهما استعمل المعتمد على الله على الموصل الخضر بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبي الموصلّي.

وفيهما رجع الحسن بن زيد إلى طبرستان، وأحرق شالوس لمالأة أهلها ليعقوب، وأقطع ضياعهم للديالمة.

وفيهما أمر المعتمد بجمع حاج خراسان، والرّي، وطبرستان، وجرجان، وأعلمهم أنه لم يول يعقوب خراسان، ولم يكن دخوله خراسان وأسرهم محمد ابن طاهر بأمرة.

وفيهما قتل مساور الشاري يحيى بن جعفر الذي كان يلي خراسان، فسار مساور البلخي في طلبه، وتبعه أبو أحمد، وهو الموقف بن المتوكل، فسار مساور من بين أيديهما فلم يدركاه.

وفيهما هرب ابن مروان الجليقي من قرطبة، فقصده قلعة الخشن، فملكها وامتنع بها، فسار إليه محمد، صاحب الأندلس، فحصره ثلاثة أشهر، (٢٨٩/٧) فضاق به الأمر، حتى أكل دوابه، فطلب الأمان، فأمته محمد، فسار إلى مدينة بطلبوس.

وفيهما عصى أهل تآكرتا مع أسد بن الحارث بن رافع، فغزاهم جيش محمد، صاحب الأندلس، وقتلهم، فعادوا إلى الطاعة.

وفيهما توفي أبو هاشم داود بن سليمان الجعفري؛ والحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، قاضي القضاة، وكان موته في رمضان؛ وأبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صاحب الصحيح؛ وعبد العزيز بن حيان الموصلّي، وكان كثير الحديث؛ والنظر بن الحسن الفقيه الحنفي، وكان من الموصل أيضاً. (٢٩٠/٧)

سنة الثنتين وستين ومائتين

ذكر الحرب بين الموفق والصفار

في هذه السنة، في المحرم، سار الصفار من فارس إلى الأهواز، فلما بلغ المعتمد إقباله أرسل إليه إسماعيل بن إسحاق ويُفراج، وأطلق من كان في جيشه من أصحاب يعقوب، فإنه كان جيشهم لما أخذ يعقوب محمد بن طاهر بن الحسين. وعاد إسماعيل برسالة من عند يعقوب، فجلس أبو أحمد ببغداد، وكان قد أخرج مسيره إلى الزنج لما بلغه من خبر يعقوب، وأحضر التجار، وأخبرهم بتولية يعقوب خراسان، وجرجان، وطبرستان، والرّي، وفارس، والشرطة ببغداد، وكان بمحضر من ذرهم، صاحب يعقوب كان يعقوب قد أرسله يطلب لنفسه ما ذكرنا، وأعاد أبو أحمد إلى يعقوب ومعه عمر بن سيماء، بما أضيف إليه من الولايات.

فعاد الرسل من عند يعقوب يقولون: إنه لا يرضيه ما كتب به دون أن يسير إلى باب المعتمد! وارتحل يعقوب من عسكر مُكرّم، وسار إليه أبو الساج، وصار معه، فأكرمه، وأحسن إليه ووصله.

فلما سمع المعتمد رسالة يعقوب خرج من سامرا في عساكره، وسار إلى بغداد، ثم إلى الزعفرانية، فنزلها، وقدم أخاه الموفق، وسار يعقوب من (٢٩١/٧) عسكر مُكرّم إلى واسط، فدخلها لست بقين من جمادى الآخرة، وارتحل المعتمد من الزعفرانية إلى سيب بني كوما، فوفاه هناك مسرور البلخي عائداً من الوجه الذي كان فيه، وسار يعقوب من واسط إلى دير العاقول، وسير المعتمد أخاه الموفق في العساكر لمحاربة يعقوب، فجعل الموفق على ميمته موسى بن بُغا، وعلى مسيرته مسرور البلخي، وقام هو في القلب.

والتقيا، فحملت مسيرة يعقوب على ميمنة الموفق فهزمتها، وقتلت منها جماعة من قوادهم، منهم إبراهيم بن سيماء وغيره، ثم تراجع المنهزمون، وكشف أبو أحمد الموفق رأسه وقال: أنا الغلام الهاشمي! وحمل، وحمل معه سائر عسكره على عسكر يعقوب، فقتلوا، وتحاربوا حرباً شديدة، وقتل من أصحاب يعقوب جماعة منهم الحسن الدرهمي، وأصاب يعقوب ثلاثة أسهم في حلقه ويديه، ولم تزل الحرب إلى آخر وقت العصر، ثم وافى أبا أحمد الموفق الديرياني، ومحمد بن أوس، فاجتمع جميع من بقي في عسكره، وقد ظهر من أصحاب يعقوب كراهة للقتال معه، إذ راوا الخليفة يُقاتله، فحملوا على يعقوب ومن قد ثبت معه للقتال، فانهزم أصحاب يعقوب، وثبت يعقوب في خاصّة أصحابه، حتى مضوا، وفارقوا موضع الحرب، وتبعهم أصحاب الموفق، فغنموا ما في عسكرهم، وكان فيه من الدواب والبالغ أكثر من عشرة آلاف، ومن الأموال ما يكلّ عن حمله، ومن جُرب المسك أمر عظيم،

وتخلّص محمد بن طاهر، وكان مثقلاً بالحديد، وخلع عليه الموفق، وولاه الشرطة ببغداد بعد ذلك.

وسار يعقوب من الهزيمة إلى خوزستان، فنزل جُنْدِسَابُور، وراسله العلوي البصري يحثه على الرجوع إلى بغداد، ويعدّه المساعدة، فقال لكتابه: (٢٩٢/٧) اكتب إليه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢] السورة، وسير الكتاب إليه.

وكانت الوقعة لإحدى عشرة خلت من رجب، وكتب المعتمد إلى ابن واصل بتوليته فارس، وكان قد سار إليها وجمع جماعة فغلب عليها، فسير إليه يعقوب عسكراً عظيماً عليهم ابن عزيز بن السريّ إلى فارس، واستولى عليها، ورجع المعتمد إلى سامرا.

وأما أبو أحمد الموفق فإنه سار إلى واسط ليتبع الصفار، وأمر أصحابه بالتجهز لذلك، فأصابه مرض، فعاد إلى بغداد ومعه مسرور، وقبض ما لأبي الساج من الضياع والمنازل، وأقطعها مسروراً البلخي، وقدم محمد بن طاهر ببغداد.

ذكر أخبار الزنج

وفيها نفذ قائد الزنج جيوشه إلى ناحية البطيحة وذست ميسان.

وكان سبب ذلك أن تلك النواحي، لما خلت من العساكر السلطانية بسبب عود مسرور لحرب يعقوب، بث صاحب الزنج سراياه فيها، تنهب، وتخرب.

وأنته الأخبار بخلو البطيحة من جند السلطان، فأمر سليمان بن جامع وجماعة من أصحابه بالمسير إلى الحوانيت، وسليمان بن موسى بالمسير إلى القادسية. (٢٩٣/٧) وقدم ابن التركي في ثلاثين شذاة يريد عسكر الزنج، فنهب، وأحرق، فكتب الخبيث إلى سليمان بن موسى يأمره بمنعه من العبور، فأخذ سليمان عليه الطريق، فقاتلهم شهراً حتى تخلّص، وانحاز إلى سليمان بن جامع من مذكوري البلاية، وأنجاهم، جمع كثير في خمسين ومائة سُنِّيَّة، وكان مسرور قد وجه قبل مسيره عن واسط إلى المعتمد جماعة من أصحابه إلى سليمان في شذوات، فظفر بهم سليمان، وهزمهم، وأخذ منهم سبع شذوات وقتل من أسر منهم.

وأشار الباهليّون على سليمان أن يتحصن في غفر، ما وراء طهشا، والأدغال التي فيها، وكرهوا خروجه عنهم لموافقة في فعله، وخافوا السلطان، فسار إليه، فنزل بقرية مروان، بالجانب الشرقي من نهر طهشا، وجمع إليه رؤساء الباهليّين، وكتب إلى الخبيث يعلمه بما صنع، فكتب إليه يصوب رأيه، ويأمره بإنفاذ ما عنده من ميرة ونعم، فأنفذ ذلك إليه.

ورود على سليمان أن أغرتمش وحشيشاً قد أقبلا في الخيل والرجال، والسُميريات والشذا، يريدون حربه، فجزع جزءاً شديداً؛ فلما أشرقوا عليه ورأهم أخذ جمعاً من أصحابه وسار راجلاً، واستدبر أغرتمش، وجد أغرتمش في المسير إلى عسكر سليمان، وكان سليمان قد أمر الذي استخلفه من جيشه أن لا يظهر منهم أحد لأصحاب أغرتمش، وأن يخفوا أنفسهم ما قدروا إلى أن يسموا أصوات طبولهم، فإذا سمعوا خرجوا عليه.

وأقبل أغرتمش إليهم، فجزع أصحاب سليمان جزءاً عظيماً، ففترقوا، ونهضت شيرضة منهم، فواقوهم، وشغلوهم عن دخول العسكر، وعاد (٢٩٤/٧) سليمان من خلفهم، وضرب طبله، وألقوا أنفسهم في الماء للعبور إليهم، فانهزم أغرتمش وظهر من كان من السودان بطهشا، ووضعوا السيوف فيهم وقتل حشيش، وانهزم أغرتمش، وتبعه الزنوج إلى عسكره، فنالوا حاجاتهم منه، وأخذوا منهم شذوات فيها مال وغيره، فعاد أغرتمش فانتزعها من أيديهم، فعاد سليمان وقد ظفر وغض، وكتب إلى صاحب الزنج بالخبر، وسير إليه رأس حشيش، فسيره إلى علي بن أبيان، وهو بنواحي الأهواز، وسير سليمان سريته، فظفروا بإحدى عشرة شذاة، وقتلوا أصحابها.

ذكر وقعة للزنج عظيمة انهزموا فيها

وفيهما كانت وقعة للزنوج مع أحمد بن ليثويه؛ وكان سببها أن مسروراً البلخي وجّه أحمد بن ليثويه إلى كور الأهواز، فتل السوس، وكان يعقوب الصفار قد قلد محمد بن عبيد الله بن هزارمرد الكردي كور الأهواز، فكتب محمد قائد الزنج يطعمه في المئيل إليه، وأومعه أنه يتولى له كور الأهواز.

وكان محمد يكتبه قديماً، وعزم على مُدارة الصفار، وقائد الزنج، حتى يستقيم له الأمر فيها، فكتبه صاحب الزنج يجيبه إلى ما طلب على أن يكون علي بن أبيان المتولي للبلاد، ومحمد بن عبيد الله يخلفه عليها، فقبل محمد ذلك، فوجه إليه علي بن أبيان جيشاً كثيراً، وأمدّهم محمد بن عبيد الله، فساروا نحو السوس، فمنعهم أحمد بن ليثويه ومن معه من جند الخليفة عنها، وقتلهم (٢٩٥/٧) فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر جماعة.

وسار أحمد حتى نزل سابور، وسار علي بن أبيان من الأهواز ممداً محمد بن عبيد الله على أحمد بن ليثويه، فلقبه محمد في جيش كثير من الأكراد والصعاليك، ودخل محمد تستر، فانهى إلى أحمد بن ليثويه الخبر بتضافرهما على قتاله، فخرج عن جند نيسابور إلى السوس.

وكان محمد قد وعد علي بن أبيان أن يخاطب لصاحبه قائد الزنج، يوم الجمعة، على منبر تستر، فلما كان يوم الجمعة خطب

للمعتمد وللصفار، فلما علم علي بن أبيان ذلك انصرف إلى الأهواز، وهدم قطرة كانت هناك لثلاثا تلحقه الخيل، فانهى أصحاب علي إلى عسكر مكرم فنهبوا، وكانت داخله في سلم الخيخ، فغدروا بها وساروا إلى الأهواز.

فلما علم أحمد ذلك أقبل إلى تستر، فواقع محمد بن عبيد الله ومن معه، فانهزم محمد بن عبيد الله، ودخل أحمد تستر، وأنت الأخبار علي بن أبيان بأن أحمد على قصدك، فسار إلى لقائه ومحاربه، فالتقى، واقتل العسكران، فاستامن إلى أحمد جماعة من الأعراب الذين مع علي بن أبيان، فانهزم باقي أصحاب علي، وثبت معه جماعة يسيرة، واشتد القتال، وترجل علي بن أبيان وياشر القتال راجلاً، فعرفه بعض أصحاب أحمد فأندز الناس به، فلما عرفوه انصرف هارباً، وألقى نفسه في المسرقان، فاتاه بعض أصحابه بسُميرية، فركب فيها ونجا مجروحاً، وقتل من أبطال أصحابه جماعة كثيرة. (٢٩٦/٧)

ذكر أخبار أحمد بن عبد الله الخجستاني

كان أحمد بن عبد الله الخجستاني من خجستان، وهي من جبال هراة من أعمال بادغيس، وكان من أصحاب محمد بن طاهر، فلما استولى يعقوب بن الليث على نيسابور، على ما ذكرناه، ضم أحمد إليه وإلى أخيه علي بن الليث، وكان بنو شركب ثلاثة إخوة: إبراهيم، وأبو حفص يغمر، وأبو طلحة منصور، بنو مسلم، وكان أسنهم إبراهيم، وكان قد أبلى بين يدي يعقوب عند واقعة الحسن بن زيد بجرجان، فقدمه، فدخل عليه يوماً نيسابور، وهو يوم فيه برد شديد، فخلع عليه يعقوب وبر سمور كان على كتفه، فحسده عليه الخجستاني فقال له: إن يعقوب يريد الغدر بك، لأنه لا يخلع على أحد من خاصته خلعة إلا غدر به.

فغم ذلك إبراهيم، وقال: كيف الحيلة في الخلاص؟ قال: الحيلة أن نهرب جميعاً إلى أخيك يغمر، فإني خائف عليه أيضاً. وكان يعمر قد حاصر أبا داود الناهجوزي ببلخ، ومعه نحو من خمسة آلاف رجل، فاتفقا على الخروج ليلتهم، فسبقه إبراهيم إلى الموعد، فانتظره ساعة فلم يره، فسار نحو سرخس، وذهب الخجستاني إلى يعقوب فاعلمه، فأرسله في أثره، فلحقه بسرخس فقتلوه، ومال يعقوب إلى الخجستاني. (٢٩٧/٧)

فلما أراد يعقوب العود إلى ميجستان استخلف على نيسابور عزيز بن السري، وولى أخاه عمرو بن الليث هراة، فاستخلف عمرو عليها طاهر بن حفص البادغيسي، وسار يعقوب إلى ميجستان سنة إحدى وستين ومائتين، وأحب الخجستاني التخلف لما كان يحدث به نفسه، فقال لعلي بن الليث: إن أخويك قد اقتسما خراسان، وليس لك بها من يقوم بشغلك، فيجب أن تردني

إليها لأقوم بأمورك؛ فاستأذن أخاه يعقوب في ذلك، فأذن له، فلما حضر أحمد يودع يعقوب أحسن له القول، وردّه وخلع عليه، فلما ولّى عنه قال يعقوب: أشهد أنّ قفاه قفا مستعص، وأنّ هذا آخر عهدنا بطاعته، فلما فارقه جمع نحواً من مائة رجل فوردهم ببشت نيسابور، فحارب عاملها، وأخرجه عنها، وجابها، ثم خرج إلى قومس، فقتل ببسّطام مقتله عظيمة، وتغلّب عليها وذلك سنة إحدى وستين ومائتين.

ثم وجه أبو طلحة جيشاً إلى جرجان، وبها ثابت بن الحسن بن زيد، ومعه الدّيلم، وكان على جيش أبي طلحة إسحاق الشاري، فحاربوا الدّيلم بجرجان، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأجلوهم عنها، وذلك في رجب سنة ثلاث وستين ومائتين.

ثم عصى إسحاق على أبي طلحة، فصار إليه أبو طلحة، واشتغل في طريقه باللّهو والصيد، فكسبه إسحاق وقتل أصحابه، وانهزم أبو طلحة إلى نيسابور، فاستضعفه أهلها، فأخرجوه منها، فنزل على فرسخ عنها، وجمع جمعاً وحاربهم، ثم افتعل كتاباً عن أهل نيسابور إلى إسحاق، يستقدمونه إليهم، ويعيدونه المساعدة على أبي طلحة، فآغترّ إسحاق بذلك، وكتب أبو طلحة عن إسحاق كتاباً إلى أهل نيسابور يعدهم أنّه يساعدهم على أبي طلحة، ويأمرهم بحفظ الدروب، وترك مقاربة البلد إلى أن يوافيهم، فآغترّوا بذلك، وظنّوه كتابه، ففعلوا ما أمرهم.

وسار إسحاق مجدداً، فلما قارب نيسابور لقيه أبو طلحة، ففافصه، فطعنه أبو طلحة، فآلقاه عن فرسه في بئر هناك، فلم يعلم له خبر، وانهزم أصحابه، ودخل بعضهم إلى نيسابور، وضيّق عليهم أبو طلحة، فكاتبتوا الخُجّستانيّ واستقدموه من هراة، فأتاهم في يومين وليّتين، وورد عليهم ليلاً، ففتحوا له الأبواب، ودخلها وسار عنها أبو طلحة إلى الحسن بن زيد، فأمّده (٣٠٠/٧) بجنود، فعاد إلى نيسابور، فلم يظفر بشيء، فصار إلى بلخ، وحصر أبا داود الناهجوزيّ، واجتمع معه خلق كثير، وذلك سنة خمس وقيل ست وستين ومائتين.

وسار الخُجّستانيّ إلى محاربة الحسن بن زيد لمساعدته أبا طلحة، فاستعان الحسن بأهل جرجان، فأعانوه، فحاربهم الخُجّستانيّ فهزمهم، وأغار عليهم، وجابهم أربعة آلاف ألف درهم، وذلك في رمضان سنة خمس وستين ومائتين.

واتفق أنّ يعقوب بن الليث توفيّ سنة خمس وستين ومائتين أيضاً، وولّى مكانه أخوه عمرو، فعاد إلى سيستان وقصد هراة، فعاد الخُجّستانيّ من جرجان إلى نيسابور، ووفّاه عمرو بن الليث، فاقتتلا، وانهزم عمرو ورجع إلى هراة، وأقام أحمد بنيسابور، وكان كيكان، وهو يحيى بن محمد بن يحيى الدّهليّ، وجماعة من المتطوعة والفقهاء بنيسابور يميلون إلى عمرو لتولية السلطان إياه، فرأى الخُجّستانيّ أنّ يوقع بينهم ليشتغل بعضهم ببعض، وأحضر منهم جماعة من الفقهاء القائلين بمناهب أهل العراق، فأحسن إليهم، وقرّبهم، وأكرمهم، وأظهروا الخلاف على كيكان، ونابدوه.

وسار إلى نيسابور، وبها عزيز بن السريّ، فهرب عزيز، وأخذ أحمد أثقاله، واستولى على نيسابور يدعو إلى الطاهريّة، وذلك أول سنة اثنتين وستين ومائتين، وكتب إلى رافع بن هرثمة يستقدمه، فقدم عليه، فجعله صاحب جيشه، وكتب إلى يغمّر بن شريك، وهو يحاصر بلخ، يستقدمه ليتفقا على تلك البلاد، فلم يثق إليه يغمّر لفعله بأخيه، وسار يعمر إلى هراة، فحارب طاهر بن حفص فقتله، واستولى على أعمال طاهر، فصار إليه أحمد، فكانت بينهما مناوشات. (٢٩٨/٧)

وكان أبو طلحة بن شريك غلاماً من أحسن الغلمان، وكان عبد الله ابن بلال يميل إليه، وهو أحد قوادر يعمر، فراسل الخُجّستانيّ، وأعلمه أنّه يعمل ضيافة ليعمر وقواده، ويدعوهم إليه يوماً ذكره، ويأمره بالنهوض إليهم فيه، فأنه يساعده، وشرط عليه أن يسلم إليه أبا طلحة، فأجابته أحمد إلى ذلك، فصنع ابن بلال طعاماً، ودعا يعمر وأصحابه، وكسبهم أحمد، وقبض على يعمر، وسيره إلى نائبه بنيسابور فقتله، واجتمع إلى أبي طلحة جماعة من أصحاب أخيه فقتلوا ابن بلال وساروا إلى نيسابور وكان بها الحسين بن طاهر أخو محمد بن طاهر قد ورداها من أصبهان، طمعاً أن يخطب لهم أحمد كما كان يظهره من نفسه، فلم يفعل، فخطب له أبو طلحة بها، وأقام معه، فصار إليه الخُجّستانيّ، من هراة في اثني عشر ألف عنان، فأقام على ثلاث مراحل من نيسابور، ووجه أخاه العباس إليها، فخرج إليه أبو طلحة، فقاتله، فقتل العباس وانهزم أصحابه.

فلما بلغ خبرهم إلى أحمد عاد إلى هراة، ولم يعلم لأخيه خبراً، فبذل الأموال لمن يأتيه بخبره، فلم يقدم أحد على ذلك، وأجابه رافع بن هرثمة إليه، فاستأمن إلى أبي طلحة فأمنه وقرّبه ووثق إليه، وتحقّق رافع خبر العباس، فأنه إلى أخيه أحمد، وأنفذه أبو طلحة إلى بيهق وبُست ليحبي أموالها لنفسه، وضمّ إليه قائدَيْن، فحبّى رافع الأموال، وقبض على القائدين، وسار إلى الخُجّستانيّ، إلى قرية من قرى خواف، فنزلها وبها خلّي بن يحيى الخارجيّ، (٢٩٩/٧) فنزل ناحية عنه.

فبلغ الخبر إلى أبي طلحة، فركب مجدداً، فوصل إليهم ليلاً،

بما أمرت؟ فقال النوفلي: أخطأت؛ فقال: لكنني سأصيب في أمرك! ثم أمر به فقتل.

وبلغه أن إبراهيم بن محمد بن طلحة بمرؤ قد جى أهلها في ستين خمسة عشر خراجاً، فسار إليه في أيوزة في يوم وليلة، فأخذه من على فراشه، وأقام بمرؤ، فجبى خراجها، ثم ولأها موسى البلخي، ثم وافاها الحسين بن طاهر، فأحسن فيهم السيرة، ووصل إليه نحو عشرين ألف ألف درهم. (٣٠٣/٧)

ذكر قتل الخجستاني

لما كان الخجستاني بطخارستان وفاء خبر أخذ والدته من نيسابور، وسار مجذاً، فلما قارب هراة أتاه غلام لأبي طلحة، يُعرف بينال ده هزار، مستأناً، فأثابه خبره قبل وصوله، وكان للخجستاني غلام اسمه رامجور على خزانته، فقال له الكالماسخ له: إن سيدك ينال ده هزار قد استأمن إليّ، كما علمت، فانظر كيف يكون برك به. فحقدها عليه رامجور، وخاف أن يقدم ذلك الغلام عليه، ويطلب الفرصة ليقتله.

وكان لأحمد غلام [يُدعى] قتلغ، وهو على شرايه، فسقاه يوماً، فرأى في الكوز شيئاً، فأمر به فقلعت إحدى عينيّه، فتواطأ قتلغ ورامجور على قتله، فشرب يوماً نيسابور عند وصوله من طايكان، فسكر ونام، فتفرق عنه أصحابه، فقتله رامجور وقتلغ، وكان قتله في شوال سنة ثمان وستين ومائتين، وأخذ رامجور خاتمه فأرسله إلى الإصطبل يأمرهم بإسراج عدّة دواب، ففعلوا، فسير عليها جماعة إلى أبي طلحة وهو بجرجان يعلمه الحال، ويأمره بالقدوم، ثم أغلق رامجور الباب على أحمد واختفى.

ويكرّ القوّاد إلى باب أحمد، فوجدوا باب حجرته مغلقاً، فانتظروه ساعة طويلة، فراهم الأمر، ففتحو الباب فأروه مقتولاً، فيحثوا عن الحال، وأخبرهم صاحب الإصطبل خبر رامجور في إنفاذ الخاتم، فطلبوه فلم يجدوه، ثم وجدوه بعد مدّة.

وكان سبب اطلاعهم عليه أن صبيّاً من أهل تلك الدار التي هو بها طلب (٣٠٤/٧) نأراً، فقيل له: ما تعملون بالنار في اليوم الحار؟ فقيل: نتخذ طعاماً للقائد؛ قيل: ومن القائد؟ قال: رامجور؛ فأثبوا خبره إلى بعض القوّاد، فأخذوه وقتلوه.

واجتمع أصحاب أحمد بعد قتله على رافع بن هرّمة، وسنذكر أخبار رافع سنة ثمان وستين ومائتين.

وكان أحمد بن عبد الله، لما عاد من طايكان بعد قتل والدته، نصب رمحاً طويلاً في صحن داره وقال: يحتاج أهل نيسابور أن يضعوا الدُرّ حتى يغمروا هذا الرمح. فخافوا منه، واستخفى جمع من الرؤساء والتجار، وقرع الناس إلى الدُّعاء، وسألوا أبا عثمان

وكان كيكان يقول بمذهب أهل المدينة، فكفّي شرهم، وسار إلى هراة فحصر بها عمرو بن الليث سنة سبع وستين ومائتين، فلم يظفر بشيء، فسار نحو ميجستان فحصر في طريقه ورسى سي فلم يظفر بشيء منها، فاحتال حتى استمال رجلاً قاتناً كانت داره إلى جانب السور، ووعد أنه ينقب من العسكر إلى داره، ويخرج أصحابه إلى البلد، فاستأمن رجلان إلى البلد من أصحاب الخجستاني وذكرنا الخبر لصاحبه، فأخذ القطان وأخبرت داره، وبطل ما كان الخجستاني عزم عليه.

وكان خليفة الخجستاني بنيسابور قد أساء السيرة وقوى العيرين أهل الفساد، فاجتمع الناس إلى كيكان، فثار على نائبه، وأعانهم عمرو بن الليث بجنده، فقبضوا على خليفة الخجستاني، وأقام أصحاب عمرو بنيسابور، فبلغ الخبر إلى أحمد، فوافى نيسابور، فخرج عنها كيكان وغيره، فردّهم أصحاب أحمد الخجستاني، فقتل منهم جماعة، وغيب كيكان، فلم يظهر إلا بعد مدّة ميّتا، وقد بنى عليه حائطاً فمات فيه.

وأقام أحمد بنيسابور تمام سنة سبع وستين ومائتين؛ ثم إن عمراً كاتب أبا طلحة، وهو يحاصر بلخ، يستقدمه إلى هراة، فأثابه، فأكرمه وأعطاه مالاً عظيماً، ووعد أنه وتركه بخراسان، وعاد إلى ميجستان؛ فسار أحمد إلى سَرَخس، وبها عامل عمرو، فأثابه أبو طلحة، فقاتله، فانهزم أبو طلحة، ومزّ على وجهه، وسار أحمد خلفه، فلحقه بخلم فحاربه، فهزمه أيضاً وسار نحو ميجستان، وأقام أحمد بطخارستان.

وكان ناسر عيّاس القطان قد أتى طلحة، فسار نحو نيسابور، فأثابه أهلها، فأخذوا والدته الخجستاني وما كان معها؛ وأقام بنيسابور، ولحق به أبو طلحة، فمنعه أهل نيسابور من دخولها. (٣٠٢/٧)

واتصل الخبر بالخجستاني وهو بطايكان من طخارستان، فسار مجذاً نحو نيسابور.

ولما أيس الطاهريّة من الخجستاني، وكان أحمد بن محمد بن طاهر بخوارزم والياً عليها، أنفذ أبا العباس النوفلي في خمسة آلاف رجل ليُخرج أحمد من نيسابور، فبلغ خبره أحمد، فأرسل إليه ينهاه عن سفك الدماء، فأخذ النوفلي الرسل، فأمر بضربهم، وحلق لحاهم، وأراد قتلهم، فبينما هم يطلبون الجلادين، والحجّامين ليحلّقوا لحاهم، أتاها الخبر بقرب جيش أحمد منهم، فاشتغلوا، وتركوا الرسل، فهربوا إلى أحمد وأعلموه الخبر، فعبّ أصحابه، وحملوا على النوفلي حملة رجل واحد، فأكثروا فيهم القتل، وقبضوا على النوفلي وأحضره عنده، فقال له: إن الرسل لتختلف إلى بلاد الكفار، فلا تعرض لهم، أفلا استحييت أن تأمر في رسلي

وفيهما سَيرَ مُحَمَّدٌ صاحب الأندلس ابنه المنذر في جيش إلى الجليقي، وكان بمدينة بَطْلُوس، فلَمَّا سَمِعَ خبرهم فارقها، ودخل حصن كَرْكُرَ، فحوصر فيه، وكثر القتل في أصحابه في شَوال.

وفيهما مات عمر بن شَبَّة النخيريُّ الأخباريُّ، وكان مولده سنة ثلاث وسبعين ومائة. (٣٠٧/٧)

سنة ثلاث وستين ومائتين

ذكر وقعة الزنج

لَمَّا انهزم عليُّ بن أَبان جريحاً، كما ذكرناه، وعاد إلى الأهواز لم يُقَمَّ بها، ومضى إلى عسكر صاحبه يداوي جراحه، واستخلف على عسكره بالأهواز، فلَمَّا برا جرحه عاد إلى الأهواز، ووجَّه أخاه الخليل بن أَبان في جيش كثيف إلى أحمد بن ليثويه، وكان أحمد بعسكر مُكْرَم، فكَثِنَ لهم أحمد، وخرج إلى قتالهم، فالتقى الجمعان، واقتتلوا أشدَّ قتال، وخرج الكمين على الزنج فانهزموا، وتفرَّقوا، وقُتِلُوا، ووصل المنهزمون إلى عليِّ بن أَبان، فوجَّه مسلحة إلى المَسْرُقَان، فوجَّه إليهم أحمد ثلاثين فارساً من أصحابه، من أعيانهم، فقتلهم الزنج جميعهم.

ذكر استيلاء يعقوب على الأهواز وغيرها

وفيهما أقبل يعقوب بن الليث من فارس، فلَمَّا بلغ التُوْبَنْدَجَان انصرف أحمد بن الليث عن تَسْتَر، فلَمَّا بلغ يعقوب جُنْدِسَابُور ونزلها، ارتحل عن تلك الناحية كُلِّ من بها من عسكر الخليفة، ووجَّه إلى الأهواز رجلاً من (٣٠٨/٧) أصحابه يقال [له] الخضر بن العنبر، فلَمَّا قاربها خرج عنها عليُّ بن أَبان ومن معه من الزنج، فنزل نهر السُدرة، ودخل الخضر الأهواز، وجعل أصحابه وأصحاب عليِّ بن أَبان يغيرون بعضهم على بعض، ويصيب بعضهم من بعض، إلى أن استعدَّ عليُّ بن أَبان ومارس إلى الأهواز، فأوقع بالخضر ومَن معه وقعة قتل فيها من أصحاب الخضر خلقاً كثيراً، وأصاب الغنائم الكثيرة، وهرب الخضر ومن معه إلى عسكر مُكْرَم.

وأقام عليُّ بالأهواز ليستخرج ما كان فيها، ورجع إلى نهر السُدرة، وسَيرَ طائفة إلى دُورَق، وأوقعوا بمن كان هناك من أصحاب يعقوب، وأنفذ يعقوب إلى الخضر مدداً، وأمره بالكفِّ عن قتال الزنج والاعتصام على المقام بالأهواز فلم يجبهم عليُّ إلى ذلك دون نقل طعام كان هناك، فأجابه يعقوب إليه، فنقله وترك العلف الذي كان بالأهواز وكفَّ بعضهم عن بعض.

ذكر ملك الروم لؤلؤة

وفيهما سلَّمت الصَّقَالِبَةُ لؤلؤة إلى الروم؛ وكان سبب ذلك أنَّ أحمد بن طولون قد أدمن الغزو بِطَرَسُوس قبل أن يلي مصر، فلَمَّا

وغيره من أصحاب أبي حفص الزاهد أن يتضرَّعوا إلى الله تعالى ليُفَرِّجَ عنهم، وفعلوا، فتداركهم الله برحمته، فقتل تلك الليلة، وفَرَّجَ الله عنهم.

وكان أحمد كريماً، جواداً، شجاعاً، حسن العشرة، كثير البرِّ لإخوانه الذين صحبوه قبل إمارته، والإحسان إليهم، ولم يتغيَّر لهم عمَّا كان يفعله من التواضع والأدب.

ذكر عدَّة حوادث

ففيهما ولي القضاء عليُّ بن مُحَمَّد [بن] أبي الشوارب.

وفيهما سار الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر إلى الجبل في صفر. (٣٠٥/٧)

وفيهما مات الصلانيُّ والي الرُّيِّ ووليها كَيْعَلَخ.

وفيهما نُهب ابن زيدويه الطيب؛ ومات صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور، ووليَّ إسماعيل بن إسحاق قضاء الجانب الشرقي من بغداد، فصار له قضاء الجانبين.

وفيهما تنافر أبو أحمد الموقِّ وأحمد بن طولون، أمير ديار مصر، وصار به بينهما وحشة مستحكمة، وتطلَّب الموقِّ من يتولَّى الديار المصرية، فلم يجد أحداً لَّا ابن طولون كانت خدمه وهداياهِ متصلة إلى القواد بالعراق وأرباب المناصب، فلهذا لم يجد من يتولاها، فكتب إلى ابن طولون يهذِّده بال عزل، فأجابه جواباً فيه بعض الغلظة، فسَيرَ إليه الموقِّ موسى بن بُغا في جيش كثيف، فسار إلى الرُّقَّة.

وبلغ الخبر ابن طولون، فحصن الديار المصرية، وأقام ابن بُغا عشرة أشهر بالرُّقَّة، لم يُمكنه المسير لقلة الأموال معه، وطالبه الأجناد بالبقاء، فلم يكن معه ما يعطيهم، فاختلقوا عليه، وثاروا بوزيره عبد الله بن سليمان، فاستر، واضطُرَّ ابن بُغا إلى العود إلى العراق، وكفى الله أحمد بن طولون شرَّه فتصدَّق بأموال كثيرة.

وفيهما قُتل مُحَمَّد بن عتاب وكان سائراً إلى السيين، وهي في ولايته، فقتله الأعراب. (٣٠٦/٧)

وفيهما قُتل القَطَّان صاحب مُفلح، وكان عاملاً بالموصل، فانصرف عنها، فقتل بالرُّقَّة.

وفيهما عقد لكفتمر عليُّ بن الحسين بن داود على طريق مكة.

وفيهما وقع بين النخاطين والجزارين بمكة قتال يوم التروية، حتَّى خاف الناس أن يبطل الحجَّ، ثمَّ تحاجزوا إلى أن يحجَّ الناس، وقد قُتل منهم سبعة عشر رجلاً؛ وحجَّ بالناس الفضل بن إسحاق بن الحسن بن العباس بن مُحَمَّد.

بالميدان من صدمة خادم له، فسال دماغه من منخريه وأذنه، فمات لوقته، وصلى عليه الموقق، ومشى في جنازته، واستوزر من الغد الحسن بن مخلد، فقدم موسى بن بُغا سامراً، فاخفى الحسن، واستوزر مكانه سليمان بن وهب ودُفعت دار عبيد الله إلى كَيْفَلْغ.

وفيهما أخرج أخو شركب الحسين بن طاهر عن نيسابور، وغلب عليها، وأخذ أهله بإعطائه ثلث أموالهم، وسار الحسين إلى مرو وبها ابن خوارزم شاه يدعو لمحمد بن طاهر.

وفيهما سير محمد، صاحب الأندلس، ابنه المنذر في جيش كثير، وجعل طريقه على ماردة، فلما جاز ماردة إلى أرض العدو تبعه تسع مائة فارس من العسكر، فخرج عليهم جمع كثير من المشركين قد استظفروا، فاقتتلوا قتالاً (٣١١/٧) كثيراً صبروا فيه، وقتل من المشركين عدد كثير، ثم استظفروا ابن الجليقي ومن معه من المشركين على السبعماعة، فوضعوا السيف فيهم فقتلوه من آخرهم، أكرمهم الله بالشهادة.

وفيهما ابتدأ إبراهيم أمير إفريقية ببناء مدينة رقادة.

وفيهما توفي أحمد بن حرب الطائي الموصلية أخو علي بن حرب، توفي بأذنة من بلد الثغر. (٣١٢/٧)

سنة أربع وستين ومائتين

ذكر أسر عبد الله بن كاوس

في هذه السنة أسرت الروم عبد الله بن رشيد بن كاوس.

وكان سبب ذلك أنه دخل بلد الروم في أربعة آلاف من أهل الثغور الشامية، فغنم وقتل، فلما رحل عن البلد دون خرج عليه بطريق سلوقية، وبطريق قرة كوكب، وخرشنة، فأحرقوا بالمسلمين، فزحل المسلمون وعرقوا دوابهم وقتلوا، فقتلوا إلا خمس مائة، فإنهم حملوا حملة رجل واحد، ونجوا على دوابهم، وقتل الروم من قتلوا، وأسروا عبد الله بن رشيد بعد ضربات أصابته، وحُمل إلى ملك الروم.

ذكر أخبار الزنج هذه السنة ودخولهم واسط

قد ذكرنا سنة اثنتين وستين ومائتين مسير سليمان بن جامع إلى البطائع، وما كان منه مع أغرتمش، فلما أوقع به كتب إلى صاحبه يستأذنه في المسير إليه ليحدث به عهداً، ويصلح أمور منزله، فأذن له في ذلك، فأشار عليه (٣١٣/٧) الحياتي أن يتطرق إلى عسكر تكين البخاري، وهو ييزدود، فقبل قوله، وسار إلى تكين، فلما كان على فرسخ منه قال له الحياتي: الرأي أن تقيم أنت ها هنا، وأمضي أنا في السُميريات، وأجر القوم إليك، فيأتونك وقد تعبوا، فتقال

ولي مصر كان يؤثر أن يلي طرسوس ليغزو منها أميراً، فكتب إلى أبي أحمد الموقق يطلب ولايتها، فلم يجبه إلى ذلك، واستعمل عليها محمد بن هارون التغلبي، فركب في سفينة في دجلة فالتفتها الريح إلى الشاطئ، فأخذه أصحاب مُساور الشاري فقتلوه، واستعمل عوضه محمد بن علي الأرمني، وأضيف إليه أنطاكية فوثب به أهل طرسوس فقتلوه، فاستعمل عليها أرخوز بن يولغ بن (٣٠٩/٧) طرخان التركي، فسار إليها، وكان غيراً جاهلاً، فأساء السيرة، وأخر عن أهل لؤلؤة أرزاقهم وميرتهم، فضجوا من ذلك، وكتبوا إلى أهل طرسوس يشكون منه ويقولون: إن لم ترسلوا إلينا أرزاقنا وميرتنا وإلا سلمنا القلعة إلى الروم.

فأعظم ذلك أهل طرسوس وجمعوا من بينهم خمسة عشر ألف دينار ليحملوها إليهم، فأخذها أرخوز ليحملها إلى أهل لؤلؤة، فأخذها لنفسه.

فلما أبطأ عليهم المال سلموا القلعة إلى الروم، فقامت على أهل طرسوس القيامة، لأنها كانت شجاً في حلق العدو، ولم يكن يخرج للروم في بحر إلا راوه وأنذروا به، وأتصل الخبر بالمعتمد، فقلدها أحمد بن طولون، واستعمل عليها من يقوم بغزو الروم ويحفظ ذلك الثغر.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة مات مُساور الشاري، وكان قد رحل من البوازيج يريد لقاء عسكر قد سار إليه من عند الخليفة، فكتب أصحابه إلى محمد بن خرزاد وهو بشهرزور ليوثه أمرهم فامتنع، وكان كثير العبادة، فبايعوا أيوب بن حيّان الوارقي البجلي، فأرسل إليهم محمد بن خرزاد ليذكر لهم أنه نظر في أمره، فلم يسهه إهمال الأمر لأن مُساوراً عهد إليه، فقالوا له: قد بايعنا هذا الرجل ولا نغدر به؛ فسار إليهم فيمن بايعه فقاتلهم، فقتل أيوب بن حيّان، فبايعوا بعده محمد بن عبد الله بن يحيى الوارقي المعروف بالغلام، فقتل أيضاً، (٣١٠/٧) فبايع أصحابه هارون بن عبد الله البجلي، فكثر أتباعه، وعاد عنه ابن خرزاد، واستولى هارون على أعمال الموصل، وجبى خراجها.

وفيهما كانت وقعة بين موسى والأعراب، فوجّه الموقق ابنه أبا العباس المعتضد في جماعة من قواده في طلب الأعراب.

وفيهما وثب الذيراني بابن أوس، فكبسه ليلاً، ففترق عسكره، ونهبه، ومضى ابن أوس إلى واسط.

وفيهما ظفر أصحاب يعقوب بن الليث بمحمد بن واصل، فأسروه.

وفيهما مات عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وزير المعتمد، سقط

منهم حاجتك. ليتها، فصادفهم جعلان، فأخذ سفنهم، وغنم منهم، فأتاه سليمان في البر، فهزمه، واستنقذ سفنهم، وغنم شيئاً آخر وعاد.

ثم سار سليمان إلى الرصافة في ذي القعدة، فأوقع بمطر بن جامع وهو بها، فغنم غنائم كثيرة، وأحرق الرصافة واستباحها، وحمل أعلاماً (٣١٥/٧) واتحدر إلى مدينة الخبيث، وأقام ليُعيد هناك بمنزله، فسار مطر إلى الحجاجية، فأوقع بأهلها، وأسر جماعة، وكان بها قاض لسليمان، فأسره مطر وحمله إلى واسط، وسار مطر إلى قريب طهشا ورجع، فكتب الحياتي إلى سليمان بذلك، فسار نحوه فوفاه لليلتين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين [ومائتين]، ثم صرف جعلان ووافى أحمد بن ليثويه فأقام بالشديدة.

ومضى سليمان إلى نهر أبان، وبه قائد من قواد أحمد، فأوقع به فقتله، ثم سار سليمان إلى تكين في خمس شذوات سنة أربع وستين [ومائتين]، فواقعه تكين بالشديدة.

وكان أحمد بن ليثويه حينئذ قد سار إلى الكوفة وجنلاء، فظهر تكين على سليمان، وأخذ الشذوات بما فيها، وكان بها صناديد سليمان وقواده فقتلهم، ثم إن أحمد عاد إلى الشديدة، وضبط تلك الأعمال، حتى وافاه محمد بن المولّد، وقد ولّاه الموقّ مدينة واسط، فكتب سليمان إلى الخبيث يستمده فأمدّه بالخليل بن أبان في زهاء ألف وخمسمائة فارس، فلما أتاه المدد قصد إلى محاربة محمد بن المولّد، ودخل سليمان مدينة واسط، فقتل فيها خلقاً كثيراً، ونهب وأحرق، وكان بها ابن منكجور البخاري، فقاتله يومه إلى العصر، ثم قُتل، وانصرف سليمان عن واسط إلى جنلاء ليعيث ويخرب، فأقام هناك تسعين ليلة، وعسكرهم بنهر الأمير (٣١٦/٧).

ذكر وزارة سليمان بن وهب للخليفة ووزارة الحسن بن مخلّد

وعزله

وفيها خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامراً وشيعة الموقّ والقواد، فلما صار إلى سامراً غضب عليه المعتمد وحجسه وقيدّه واتهب داره، واستوزر الحسن بن مخلّد في ذي القعدة، فسار الموقّ من بغداد إلى سامراً ومعه عبيد الله بن سليمان بن وهب، فلما قرب من سامراً تحوّل المعتمد إلى الجانب الغربي فعسكر به مغاضباً للموقّ، واختلفت الرسل بينه وبين الموقّ واتّفق، وخلع على الموقّ ومسرور وكَيْغَلغ وأحمد بن موسى بن بُغا وأطلق سليمان بن وهب وعاد إلى الجوسق، وهرب الحسن بن مخلّد وأحمد بن صالح بن شيرزاد فكتب بقبض أموالهما وقبض أحمد بن أبي الأصغ، وهرب القواد الذين كانوا بسامراً مع المعتمد خوفاً من الموقّ، فوصلوا إلى الموصل وجبوا الخراج.

ف فعل سليمان ذلك، وجعل بعض أصحابه كميناً، ومضى الحياتي إلى تكين، فقاتله ساعة، ثم تطارد لهم، فارتسل إلى سليمان يُعلمه ذلك، وقال لأصحابه، وهو بين يدي أصحاب تكين شبه المنهزم، ليسمع أصحاب تكين قوله فيطمعوا فيه: غرّتموني وأهلكتموني، وكنت نهيتمكم عن الدخول ها هنا، فأبيت، ولا أرانا ننجو منه.

وطمع أصحاب تكين وجذّوا في طلبه، وجعلوا ينادون: بلبل في قصص فما زالوا كذلك حتى جازوا موضع الكمين، وقاربوا عسكر سليمان، وقد كمن أيضاً خلف جذر هناك، فخرج سليمان إليهم في أصحاب فقاتلهم، وخرج الكمين من خلفهم، وعطف الحياتي على من في النهر، فاشتد القتال فانهم أصحاب تكين من الوجوه كلّها، وركبهم الزنج يقتلونهم ويسلبونهم أكثر من ثلاثة فراسخ، وعادوا عنهم.

فلما كان الليل عاد الزنج إليهم وهم في معسكرهم، فكبسوهم، فقاتلهم تكين وأصحابه، فأنكشف سليمان، ثم عبأ أصحابه، فأمر طائفة أن تأتيهم من جهة ذكرها لهم، وطائفة في الماء، وأتى هو في الباقيين، فقصّدا تكين من جهاته كلّها، فلم يقف من أصحابه أحد، وانهزموا، وتركوا عسكرهم، فغنم الزنج ما فيه، وعادوا بالغنيمة، واستخلف سليمان الحياتي على عسكره، (٣١٤/٧) وسار إلى صاحبه، وكان ذلك سنة ثلاث وستين ومائتين.

فلما سار سليمان إلى الخبيث خرج الحياتي بالعسكر الذي خلفه سليمان معه إلى مازوران لطلب الميرة، فاعترضه جعلان، فقاتله، فانهمز الحياتي، وأخذت سفنه، وأتته الأخبار أنّ منجوراً ومحمد بن علي بن حبيب الشكرّي قد بلغا الحجاجية، فكتب إلى صاحبه بذلك، فسار إليه سليمان، فوصل إلى طهشا مجدداً، وأظهر أنّه يريد قصد جعلان، وقدم الحياتي، وأمره أن يأتي جعلان ويقف بحيث يراه ولا يقاتله.

ثم سار سليمان نحو محمد بن علي بن حبيب مجدداً، فأوقع به وقعة عظيمة، وغنم غنائم كثيرة، وقتل أخاً لمحمد بن علي ورجع، وكان ذلك في رجب من هذه السنة أيضاً.

ثم سار في شعبان إلى قرية حسان وبها قائد يقال له حسن بن خمار تكين، فأوقع به، فهزمه، ونهب القرية وأحرقها وعاد.

ثم سار في شعبان أيضاً إلى مواضع، فنهباها وعاد؛ ثم سار في رمضان وأظهر أنّه يريد جعلان بمازوران، فبلغت الأخبار إلى جعلان بذلك، فضبّط عسكره، فتركه سليمان وعدل إلى أبا فأوقع به وهو غار، وغنم منه ست شذوات، ثم أرسل الحياتي في جماعة

أخترهم؛ قال: اقبل، فاختار عشرين رجلاً وسار بهم إلى عسكر موسى، فلَمَّا قاربهم كَمَنَ بعضهم، وجعل بينه وبينهم علامة إذا سمعوها ظهرُوا.

ثم دخل العسكر في الباقيين في زِيِّ الأعراب، وقارب مضارب موسى، وقصد خيلاً مربوطة فأطلقها، وصاح هو وأصحابه فيها ففترت، وصاح هو ومن معه من الأعراب، وأصحاب موسى غارُون، وقد تفرَّق بعضهم في حوائجهم، وانزعج العسكر، وركبُوا، وركب موسى، فانهمز أبو الأغر من بين يديه، فتبعه حتَّى أخرجه من العسكر، وجاز به الكمين، فنادى أبو الأغر بالعلامة التي بينهم، فثاروا من النواحي، وعطف أبو الأغر على موسى فأسروه، فأخذوه وساروا حتَّى وصلوا إلى ابن جيعو، فعجب الناس من ذلك، وحاروا، فسيرَه ابن جيعو إلى ابن طولون، فاعتقله وعاد إلى مصر، وكان ذلك في سنة خمس وستين ومائتين. (٣١٩/٧)

ذكر الفتنة ببلاد الصين

وفي هذه السنة ظهر ببلاد الصين إنسان لا يُعرَف، فجمع جمعاً كثيراً من أهل الفساد والعمالة، فأهمل الملك أمره استصغاراً لشأنه، فقوي، وظهر حاله، وكثف جمعه، وقصد أهل الشر من كل ناحية، فأغار على البلاد وأخربها، ونزل على مدينة خانقوا وحصرها، وهي حصينة، ولها نهر عظيم، وبها عالم كثير من المسلمين، والنصارى، واليهود، والمجوس، وغيرهم من أهل الصين، فلَمَّا حصر البلد اجتمعت عساكر الملك وقصدته، فهزمها، واقتح المدينة عنوة، وبذل السيف، فقتل منهم مالا يحصى كثرة.

ثم سار إلى المدينة التي فيها الملك، وأراد حصرها، فالتقاه ملك الصين، ودامت الحرب بينهم نحو سنة، ثم انهزم الملك، وتبعه الخارجي إلى أن تحصن منه في مدينة من أطراف بلاده، واستولى الخارجي على أكثر البلاد والخزائن، وعلم أنه لا بقاء له في الملك إذ ليس هو من أهله، فأخرب البلاد، ونهب الأموال، وسفك الدماء.

فكاتب ملك الصين ملوك الهند يستمدّهم، فأمدّوه بالعساكر، فسار إلى الخارجي، فالتقوا نحو سنة أيضاً، وصبر الفريقان، ثم إنَّ الخارجي عدم، فقتل إنّه قُتل، وقيل بل غرق، وظفر الملك بأصحابه وعاد إلى مملكته، ولقب ملوك الصين يعفور، ومعناه ابن السماء تعظيماً لشأنه؛ وتفرَّق الملك عليه، وتغلّبت كل طائفة على طرف من البلاد، وصار الصين على ما كان عليه ملوك الطوائف يظهرون له الطاعة، وقنع منهم بذلك، وبقي على ذلك مدّة طويلة. (٣٢٠/٧)

ذكر وفاة أماجور وملك ابن طولون الشام وطرسوس وقتل سيما الطويل

وفي هذه السنة توفي أماجور مُقَطَّع دمشق، وولي ابنه مكانه، فتجهّز ابن طولون ليسيّر إلى الشام فيملكه، فكتب إلى ابن أماجور يذكر له أنّ الخليفة قد أقطعته الشام والثغور، فأجابه بالسمع والطاعة، وسار أحمد، واستخلف بمصر ابنه العباس، فلقبه ابن أماجور بالرملة فأقره عليها، وسار إلى دمشق فملكها وأقر قوَّاد أماجور على أقطاعهم، وسار إلى حمص فملكها، (٣١٧/٧) وكذلك حماة، وحلب.

وراسل سيما الطويل بأنطاكية يدعوه إلى طاعته ليقرّه على ولايته، فامتنع فعاوده فلم يطمعه، فسار إليه أحمد بن طولون، فحصره بأنطاكية، وكان سيء السيرة مع أهل البلد، فكاتبوا أحمد بن طولون، ودلّوه على عورة البلد، فنصب عليه المجانيق وقاتله، فملك البلد عنوة، والحصن الذي له، وركب سيما وقاتل قتالاً شديداً حتَّى قُتل ولم يعلم به أحد، فاجتاز به بعض قوَّاده فرأه قتيلاً، فحمل رأسه إلى أحمد، فساءه قتله.

ورحل عن أنطاكية إلى طرسوس، فدخلها وعزم على المقام بها، وملازمة الغزاة، فغلا السعر بها، وضائق عنه وعن عساكره، فركب أهلها إليه بالمخيم وقالوا له: قد ضيّقت بلدنا، وأغليت أسعارنا، فإمّا أمتت في عدد يسير، وإمّا ارتحلت عنّا، وأغلظوا له في القبول، وشغبوا عليه، فقال أحمد لأصحابه: لتتهزموا من الطرسوسيين، وترحلوا عن البلد، ليظهر للناس وخاصّة العدو أنّ ابن طولون على بُعد صيته وكثرة عساكره لم يقدر على أهل طرسوس؛ وانهزم عنهم ليكون أهيّب لهم في قلب العدو وعاد إلى الشام.

فأتاه خبر ولده العباس، وهو الذي استخلفه بمصر، أنّه قد عصى عليه، وأخذ الأموال وسار إلى بَرْقة مُشاقاً لأبيه، فلم يكثرث لذلك، ولم ينزعج له، وثبت، وقضى أشغاله، وحفظ أطراف بلاده، وترك بحران عسكراً، وبالبرقة (٣١٨/٧) عسكراً مع غلامه لؤلؤ، وكانت حران لمحمّد بن أتامش، وكان شجاعاً فأخرجه عنها وهزّمه هزيمة قبيحة.

واتّصل خبره بأخيه موسى بن أتامش، وكان شجاعاً بطلاً، فجمع عسكراً كثيراً وسار نحو حران، وبها عسكر ابن طولون، ومقدّمهم أحمد ابن جيعو، فلَمَّا اتّصل به خبر مسير موسى أقلّقه ذلك وأزعجه، ففطن له رجل من الأعراب يقال له أبو الأغر، فقال له: أيها الأمير أراك مفكراً منذ أتاك خبر ابن أتامش، وما هذا محلّه، فإنّه طيّاش قلق، ولو شاء الأمير أن أتبه به أسيراً لفعلت. فغاظه قوله وقال: قد شئت أن تأتي به أسيراً؛ قال: فاضمم إليّ عشرين رجلاً

ذكر ملك المسلمين مدينة سَرَقُوسَة

وفي هذه السنة، رابع عشر رمضان، ملك المسلمون سَرَقُوسَة، وهي من أعظم [مُدُن] صِقْلِيَة.

سنة خمس وستين ومائتين

ذكر أخبار الزنج

في هذه السنة كانت وقعة بين أحمد بن لِيثَوَيْه وبين سليمان بن جامع والزنج بتاحية جَنْبَلَاء.

وكان سببها أن سليمان كتب إلى الخبيث يخبره بحال نهر يسمّى الزُّهْرِي، ويسأله أن يأذن في عمله، فإنه متى أنفذه تهيأ له حمل ما في جَنْبَلَاء وسواد الكوفة، فأنفذ إليه نكروته لذلك، وأمره بمساعدته، والنفقة على عمل النهر، فمضى سليمان فيمن معه، وأقام بالشرطة نحواً من شهر، وشرعوا في عمل النهر.

وكان أصحاب سليمان، في أثناء ذلك، يتطرقون ما حولهم، فواقعه أحمد بن لِيثَوَيْه، وهو عامل الموقف بجَنْبَلَاء، فقتل من الزنوج نَيْفًا وأربعين قائداً، ومن عامتهم مالا يحصى كثرة، وأحرق سفنهم، فمضى سليمان مهزوماً إلى طهنا.

وفيها سار جماعة من الزُّنُوج في ثلاثين سُخَيْرِيَة إلى حُبَل، فأخذوا أربع سُفُن فيها طعام وانصرفوا.

وفيها دخل الزنج النُعمانية فأحرقوها، وسبوا، وساروا إلى جَرْجَرَا، ودخل أهل السواد بغداد. (٣٢٣/٧)

ذكر استعمال مسرور البلخي على الأهواز وانهزام الزنج منه

وفيها استعمل الموقف مسروراً البلخي على كُوز الأهواز، فولّى مسرور ذلك تَكِينُ الْبُخَارِي، فسار إليها تكين، وكان عليّ بن أبان والزنج قد أحاطوا بِتُسْتَر، فخاف أهلها، وعزموا على تسليمها إليهم، فوافهم في تلك الحال تكين البخاري، فواقع عليّ بن أبان قبل أن ينزع ثيابه، فانهزم عليّ والزنج، وقتل منهم كثير، وتفرقوا، ونزل تكين بِتُسْتَر، وهذه الوقعة تعرف بوقعة باب كورك، وهي مشهورة.

ثم إنَّ عليّاً قدّم عليه جماعة من قوَاد الزنج، فأمرهم بالمقام بقطرة فارس، فهرب منهم غلام روميّ إلى تكين، وأخبره بمقامهم بالقطرة، وتشاغلهم بالنبيذ، وتفرقهم في جمع الطعام، فسار تكين إليهم ليلاً، فأوقع بهم، وقتل من قوَادهم جماعة، فانهزم الباقيون.

وسار تكين إلى عليّ بن أبان، فلم يقف له عليّ، وانهزم وأسر غلام له يُعرف بجعفر وُتَيْه، ورجع عليّ إلى الأهواز، ورجع تكين إلى تُسْتَر، وكتب عليّ إلى تكين يسأله الكفّ عن قتل غلامه، فحبسه، ثم ترأس عليّ وتكين وتهاديا، فبلغ الخبر مسروراً بميل

وكان سبب ملكها أن جعفر بن محمّد أمير صِقْلِيَة غزاها، فأفسد زرعها وزرع قَطَانِيَة، وَطَبَرِيْمِيْن، وَرَمْطَة، وغيرها من بلاد صِقْلِيَة التي بيد الروم، ونازل سَرَقُوسَة، وحصرها برأً وبحراً وملك بعض أرباضها ووصلت مراكب الروم نجدة لها، فسير إليها أسطولاً، فأصابوها، فتمكّنوا حيثذ من حصرها، فأقام العسكر محاصراً لها تسعة أشهر، وفتحت، وقتل من أهلها عدّة ألوف، وأصيب فيها من الغنائم مالم يُصَبِّ بمدينة أخرى، ولم ينج من رجالها إلا الشاذّ الفذّ.

وأقاموا فيها بعد فتحها بشهرين، ثم هدموها، ثم وصل بعد هدمها من القُسطنطينيّة أسطول، فالتقوا هم والمسلمون، فظفر بهم المسلمون، وأخذوا منهم أربع قطع، فقتلوا مَنْ فيها، وانصرف المسلمون إلى بلدهم آخر ذي القعدة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة سَيرَ مُحَمَّد بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، ابنه المنذر في جيش إلى مدينة بَنْبُلُونَة، وجعل طريقه على سَرَقُوسَة، فقاتل أهلها، (٣٢١/٧)

ثم انتقل إلى تَطِيلَة، وجال في مواضع بني موسى، ثم دخل بَنْبُلُونَة، فخرّب كثيراً من حصونها وأذهب زروعها وعاد سالماً.

وفيها سار جمع من العرب إلى مدينة جَلِيْقِيَة، فكان بينهم وقعة عظيمة قُتل فيها من الطائفتين كثير.

وفيها فرغ إبراهيم بن محمّد بن الأغلب، صاحب إفريقية، من بناء رَقَادَة، وكان ابتداء عمارتها سنة ثلاث وستين ومائتين، ولَمَّا فرغت انتقل إبراهيم إليها.

وفيها وجّه يعقوب بن الليث جيشاً إلى الصَّيْمَرَة، مقدّمة إليها، وأخذوا صعون فأحضره عنده، فمات.

وفيها ماتت قبيحة أم المعتزّ.

وفيها وقع الطاعون بخراسان جميعها وقُومِس، فأفنى خلقاً كثيراً وحجّ بالناس هذه السنة هارون بن محمّد بن إسحاق بن موسى الهاشمي.

وفيها توفي أبو زرة الرازي، واسمه عيد الله بن عبد الكريم، وكان حافظاً للحديث ثقة، ومحمّد بن إسماعيل بن عُليّة، وكان موته بدمشق.

تكنين إلى الزنج، فسار حتى وافى تكنين وقبض عليه، وحجسه عند إبراهيم بن جعلان، حتى مات وتفرق أصحاب تكنين، ففرقة سارت إلى الزنج، وفرقة إلى محمد بن عبيد الله الكردي، فبلغ ذلك مسروراً، فأمّتهم، فجاءه منهم الباؤون؛ وكان بعض ما ذكرناه من أمر مسرور سنة خمس وستين، وبعضه سنة ست وستين ومائتين. (٣٢٤/٧)

ذكر عصيان العباس بن أحمد بن طولون على أبيه

وفيها عصى العباس بن أحمد بن طولون على أبيه؛ وسبب ذلك أن أباه كان قد خرج إلى الشام، واستخلف ابنه العباس، كما ذكرناه، فلما أبعد عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والانشراح إلى بركة، ففعل ذلك، وأتى بركة في ربيع الأول.

وبلغ الخبر أباه، فعاد إلى مصر، وأرسل إلى ابنه ولاطفه واستعطفه، فلم يرجع إليه، وخاف سنّ معه فاشاروا عليه بقصد إفريقية، فسار إليها، وكتب وجوه البربر، فأتاه بعضهم، وامتنع بعضهم، وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يقول: إن أمير المؤمنين قد قلّدي أمر إفريقية وأعمالها، ورحل، حتى أتى حصن لبدة، ففتح أهله له، فعاملهم أسوأ معاملة، ونهبهم، فمضى أهل الحصن إلى إلياس بن منصور النفوسي، رئيس الإباضية هناك، فاستعانوا به، فغضب لذلك، وسار إلى العباس ليقاتله.

وكان إبراهيم بن الأغلب قد أرسل إلى عامل طرابلس جيشاً، وأمره بقتال العباس، فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً قاتل العباس فيه بيده، فلما كان الغد وافاهم إلياس بن منصور الإباضي في اثني عشر ألفاً من الإباضية، فاجتمع هو وعامل طرابلس على قتال العباس، فقتل من أصحابه خلق كثير، وانهزم أتبع هزيمة، وكاد يوسر، فخلصه مولى له، ونهبوا سواده وأكثر ما حملة (٣٢٥/٧) من مصر، وعاد إلى بركة أقيح عود.

وشاع بمصر أن العباس انهزم، فاغتم والده حتى ظهر عليه، وسير إليه العساكر لما علم سلامته، فقاتلوه قتالاً صبر فيه الفريقان، فانهزم العباس ومن معه، وكثر القتلى في أصحابه، وأخذ العباس أسيراً، وحمل إلى أبيه، فحجسه في حجرة في داره إلى أن قدم باقي الأسرى من أصحابه، فلما قدموا أحضرهم أحمد عنده، والعباس معهم، فأمره أبوه أن يقطع أيدي أعيانهم وأرجلهم، ففعل، فلما فرغ منه وبخه أبوه وذمه وقال له: هكذا يكون الرئيس والمقدم؟ كان الأحسن أنك كنت القيت نفسك بين يدي، وسألت الصفح عنك وعنتهم، فكان أعلى لمحكك، وكنت قضيت حقوقهم فيما ساعدوك وفارقوا أوطانهم لأجلك، ثم أمر به فضرب مائة مقرعة، ودموعه تجري على خديه رقة لولده، ثم رده إلى الحجرة واعتقله وذلك

سنة ثمان وستين ومائتين.

ذكر موت يعقوب وولاية أخيه عمرو

وفيها مات يعقوب بن الليث الصّفّار تاسع شوال بجند نسابور من كور الأهواز، وكانت علته القولنج، فأمره الأطباء بالاحتقان بالدواء، فلم يفعل، واختار الموت.

وكان المعتمد قد أنفذ إليه رسولاً وكتاباً يستميله ويترضاه، ويقبله أعمال فارس، فوصل الرسول ويعقوب مريض، فجلس له، وجعل عنده سيفاً، ورغيفاً من الخبز الخشكار، ومعه بصل، وأحضر الرسول، فأدّى الرسالة، فقال له: قل للخليفة إنني لعليل، فإن مثي فقد استرحت منك (٣٢٦/٧) واسترحت مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف، حتى آخذ بثأري، أو تكسرني وتعفوني، وأعود إلى هذا الخبز والبصل، وأعاد الرسول، فلم يلبث يعقوب أن مات.

وكان الحسن بن زيد العلوي يسمّى يعقوب بن الليث السندان لثباته؛ وكان يعقوب قد افتتح الرّحج، وقتل ملكها، وأسلم أهلها على يده، وكانت مملكته واسعة الحدود، وكان اسم ملكها كثير، وكان يحمل على سرير من ذهب يحمله اثنا عشر رجلاً، وابتنى على جبل عال بيتاً، وسمّاه مكة، وكان يدعي الإلهية، فقتله يعقوب، وافتتح الخلجيّة وزابل وغير ذلك، ولم أعلم أي سنة كان ذلك حتى أذكره فيها.

وكان يعقوب عاقلاً، حازماً، وكان يقول: من جاشرته أربعين يوماً فلم تعرف أخلاقه، فلا تعرفها في أربعين سنة؛ وقد تقدّم من سيرته ما يدلّ على عقله.

ولما مات قام بالأمر بعده أخوه عمرو بن الليث، وكتب إلى الخليفة بطاعته، فولاه الموقّ خراسان، وفارس، وأصبهان، وسجستان، والسند، وكرمان، والشرطة ببغداد، وأشهد بذلك، وسيره إليه مع الخلع. (٣٢٧/٧)

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة وثب القاسم بن مهابة بذلف بن عبد العزيز بن أبي ذلف بأصبهان، فقتله، ووثب جماعة من أصحاب أبي ذلف بالقاسم، فقتلوه ورسوا عليهم أحمد بن عبد العزيز.

وفيها لحق محمد المولّد يعقوب بن الليث، فأكرمه يعقوب، وأحسن إليه، فأمر الخليفة بقبض أمواله وعقاره.

وفيها قتل الأعراب جعلان، المعروف بالعبّار، بلوياً، وكان خرج يسير قافلة فقتلوه، فوجّه في طلبهم، فلم يلحقوا.

وفيها حبس الموقّ سليمان بن وهب، وابنه عبيد الله، وعدة

وقتل مطر بن جامع جعفر بن غلام علي بن أبان، وجماعة معه كانوا مأسورين، وساروا إلى عسكر مكرم، وأنهم الزنج هناك مع علي بن أبان، فاقتلوا، فلما رأوا كثرة الزنج قطعوا الجسر وتحاجزوا، ورجع علي إلى الأهواز، وأقام أخوه الخليل بالمسرقان في جماعة كثيرة من الزنج.

وسار أغرتمش ومن معه نحو الخليل ليعبروا إليه من قطرة أرك، فكتب إلى أخيه علي، فوافاه في النهر، وأخاف أصحابه الذين خلفهم بالأهواز، فارتحلوا إلى نهر السدرة، وتحارب علي وأغرتمش يومهم، ثم انصرف علي إلى الأهواز، فلم يجد أصحابه الذين خلفهم بالأهواز، فوجه من يردهم من نهر السدرة، فعرس عليهم ذلك، فتبعهم وأقام معهم، ورجع أغرتمش فنزل عسكر مكرم، واستعد علي لقتالهم.

وبلغ ذلك أغرتمش ومن معه من عسكر الخليفة، فساروا إليه، فكتب لهم علي، وقدم الخليل إلى قتالهم، فاقتلوا، فكان أول النهار لأصحاب الخليفة، (٣٣٠/٧) ثم خرج عليهم الكمين، فانهزموا وأسر مطر بن جامع وعدة من القواد، فقتله علي بغلامه جعفر بن غلامه، وعاد إلى الأهواز، وأرسل رؤوس القتلى إلى الخبيث العلوي.

وكان علي وأغرتمش بعد ذلك في حروبهم على السواء، وصرف صاحب الزنج أكثر جنوده إلى علي بن أبان، فلما رأى ذلك أغرتمش وادعه، وجعل علي يغير على النواحي، فمن ذلك أنه أغار على قرية يبروذ فنهبا، ووجه الغنائم إلى صاحبه.

ذكر دخول الزنج رامهرمز

وفيها دخل علي بن أبان والزنج رامهرمز؛ وسبب ذلك أن محمد بن عبيد الله كان يخاف علي بن أبان لما في نفس علي منه، لما ذكرناه، فكتب إلى انكلاي بن العلوي وسأله أن يسأل أباه ليرفع يد علي عنه ويضمه إلى نفسه، فزاد ذلك غيظ علي منه، وكتب إلى الخبيث بالإيقاع بمحمد، ويجعل ذلك الطريق إلى مطالبته بالخراج، فأذن له، فكتب إلى محمد يطلب منه حمل الخراج، فمطله ودافعه، فسار إليه علي وهو برامهرمز، فهرب محمد عنها، ودخلها علي والزنج فاستباحها، ولحق محمد بأقصى معاقله، وانصرف علي غانماً.

وخاف محمد فكتب إليه يطلب المسالمة، فأجابه إلى ذلك على مال يؤديه إليه، فحمل إليه مائتي ألف درهم، فأنفذها إلى صاحب الزنج، وأمسك عن محمد بن عبيد الله، وأعماله.

(٣٣١/٧)

وفيها كانت وقعة للزنج انهزموا فيها، وكان سببها أن محمد بن عبيد الله كتب إلى علي بن أبان، بعد الصلح، يسأله المعونة على

من أصحابها، وقبض أموالهم وضياعهم، خلا أحمد بن سليمان، ثم صالح سليمان وابنه عبيد الله على تسع مائة ألف دينار، وجعلوا في موضع يصل إليهما من أرداو، وعسكر موسى بن أتمامش، وإسحاق بن كنداجيق، والفضل بن موسى بن بفسا، وعبروا جسر بغداد، ومنعهم الموفق، فلم يرجعوا، ونزلوا صرصر، فاستكتب أبو أحمد الموفق صاعد بن مخلد، فمضى إلى أولئك القواد، فردهم من صرصر فخلع عليهم.

وفيها خرج خمسة بطارقة [من] الروم إلى أذنة فقتلوا وأسروا، وكان أرجوز والي الثغور، ففُزل عنها، فأقام مرابطاً، وأسروا نحواً من أربع مائة، وقتلوا نحواً من ألف وأربع مائة، وذلك في جمادى الأولى. (٣٢٨/٧)

وفيها غلب أحمد بن عبد الله الخجستاني على نيسابور، وسار الحسين بن طاهر بن عبد الله إلى مرو، وهو عامل أخيه محمد بن طاهر، وأخربت طوس.

وفيها استوزر أبو الصقر إسماعيل بن بلبل.

وفيها وثب جماعة من الأعراب، من بني أسد، على علي بن مسرور البلخي قبل وصوله إلى المغيثة بطريق مكة، وكان الموفق ولأه الطريق.

وفيها بعث ملك الروم إلى أحمد بن طولون بعبد الله بن رشيد بن كاوس وعدة أسرى، وأنفذ معهم عدة مصاحف منه هدية إليه، وحج بالناس هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي.

وفيها كانت موافاة أبي المغيرة عيسى بن محمد المخزومي إلى مكة لصاحب الزنج.

وفيها توفي أبو بكر أحمد بن منصور الزنادي وعمره ثلاث وثمانون سنة؛ وإبراهيم بن هاني أبو إسحاق النيسابوري، وكان من الأبدال قد صحب أحمد بن حنبل؛ وعلي بن حرب بن محمد الطائي الموصل، ومولده سنة خمس وسبعين ومائة وقيل غير ذلك، وقد تقدم؛ وعلي بن موفق الزاهد.

وفيها قُتل أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي، قتله الزنج بالبصرة، أخذ العلم عن أبي عبيدة والأصمعي. (٣٢٩/٧)

سنة ست وستين ومائتين

ذكر أخبار الفرنج مع أغرتمش

في هذه السنة ولي أغرتمش ما كان يتولاه تكين البخاري من أعمال الأهواز، فدخل تستر في رمضان، ومعه أنا، ومطر بن جامع،

الأكراد الدارنان، على أن يجعل له ولأصحابه غنائمهم، فكتب علي إلى صاحبه يستأذنه، فكتب إليه أن وجه إليه جيشاً، وأقم أنت، ولا تنفذ أحداً حتى تستوثق منه بالرهائن، ولا يأمن غزوه والطلب بثأره.

فكتب علي إلى محمد يطلب منه اليمين والرهائن، فبذل له اليمين، ومطله بالرهائن، فلجّزص علي على الغنائم أفنذ إليه جيشاً، فسير محمد معهم طائفة من أصحابه إلى الأكراد، فخرج إليهم الأكراد فقاتلهم، ونشبت الحرب، فتخلّس أصحاب محمد عن الزنج، فانهزموا وقتل الأكراد منهم خلقاً كثيراً.

وكان محمد قد أعد لهم من يتعرّضهم إذا انهزموا، فصادفهم، وأوقعوا بهم، وسلبوهم، وأخذوا دوابهم، ورجعوا بأسوأ حال، فكتب علي إلى الخبيث بذلك فعنفه وقال: ضيعت أمري في ترك الرهائن؛ وكتب إلى محمد يتهدده، فخاف محمد وكتب [إليه] يخضع ويذل، وردّ بعض الدواب وقال: إنني كبست من كانت عندهم، وخلصت هذه منهم. فأظهر الخبيث الغضب عليه، فأرسل محمد إلى يهود، ومحمد بن يحيى الكرمانى، وكانا أقرب الناس إلى علي، فضمن لهما مالاً إن أصلحا له علياً وصاحبه، ففعل ذلك، فأجابهما الخبيث إلى الرضى عن محمد على أن يخطب له على منابر بلاده، وأعلمنا محمداً ذلك، فأجابهما إلى كل ما طلبا، وجعل يراوغ في الدّعاء له على المنابر.

ثم إن علياً استعدّ لِمُتَوَت، وسار إليها، فلم يظفر بها، فرجع، وعمل السلايم والآلات التي يصعد بها إلى السور، واستعدّ لقصدها، فعرف (٣٣٢/٧) ذلك منصور البلخي، وهو يومئذ بكور الأهواز، فلما سار علي إليها سار إليه مسرور، فوافاه قبل المغرب، وهو نازل عليها، فلما عاين الزنج أوائل خيل مسرور، انهزموا أقبح هزيمة، وتركوا جميع ما كانوا أعدوه، وقتل منهم خلق كثير، وانصرف علي مهزوماً، فلم يلبث إلا يسيراً حتى أتته الأخبار بإقبال الموفق، ولم يكن لعلني بعد متوث وقعة، حتى فتحت سوق الخميس وطهنا على الموفق، فكتب إليه صاحبه يأمره بالعود إليه، ويستحثه حثاً شديداً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ولّى عمرو بن الليث عبيد الله بن عبد الله بن طاهر خلافة على الشرطة ببغداد وسر من رأى في صفر، وخلع عليه الموفق، وعمرو بن الليث.

وفيهما، في صفر، غلب أساتكين على الشرطة وهي الآن من أعمال سيجستان، وعلى الرّي، وأخرج منها خطلخنجور العامل عليها، ثم مضى إلى قزوین وعليها أخو كيغلغ، فصالحه، ودخل أساتكين قزوین، ثم رجع إلى الرّي.

وفيهما وردت سرية من سرايا الروم إلى تلّ يسهى، من ديار

ربيعه، فأسرت نحواً من مائتين وخمسين إنساناً، ومثلت بالمسلمين، ففر إليهم (٣٣٢/٧) أهل الموصل ونصيبين، فرجعت الروم.

وفيهما مات أبو الساج بجنديسابور، منصراً من عسكر عمرو بن الليث إلى بغداد؛ ومات قبله سليمان بن عبد الله بن طاهر، وولّى عمرو بن الليث فيها أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف أصبها؛ وولّى محمد ابن أبي الساج طريق مكة والحرثين.

وفيهما فارق إسحاق بن كنداج أحمد بن موسى بن بغا، وكان سبب ذلك أن أحمد لما سار إلى الجزيرة، وولّى موسى بن أمامش ديار ربيعة، أنكر ذلك إسحاق بن كنداج، وفارق عسكره، وسار إلى بلد، فوقع بالأكراد اليعقوبية فهزمهم، وأخذ أموالهم، ثم لقي ابن مساور الخارجي فقتله، وسار إلى الموصل فقاطع أهلها على مال قد أعدوه.

وكان قائد كبير بمغلثايا، اسمه علي بن داود، وهو المخاطب له عن أهل الموصل، والمدافع فزار ابن كنداج إليه، فلما بلغه الخبر فارق مغلثايا، وعبر دجلة، ومعه حمدان بن حمدون، إلى إسحاق بن أيوب بن أحمد التغلبي العدوي، فاجتمعوا كلهم فبلغت عدتهم نحو خمسة عشر ألفاً، وسمع ابن كنداج باجتماعهم، فعبر إلى بلد، وعبر دجلة إليه وهو في ثلاثة آلاف، وسار إلى نهر أيوب، فالتقوا بكرة، وهي التي تعرف اليوم بتل موسى، وتضافوا للحرب، فأرسل مقدم ميسرة بن أيوب إلى ابن كنداج يقول (٣٣٤/٧) له: إنني في الميسرة، فاحمل عليّ لانهزم، ففعل ذلك، فانهزمت ميسرة ابن أيوب، وتبعها الباؤون، فزار حمدان بن حمدون، وعلي بن داود إلى نيسابور وأخذ ابن أيوب نحو نصيبين، فابعه ابن كنداج، فزار ابن أيوب عن نصيبين إلى آبد، واستولى ابن كنداج على نصيبين وديار ربيعة، واستجار ابن أيوب بعيسى بن الشيخ الشيباني، وهو بأبد، فأنجده، وطلب النجدة من أبي المعز بن موسى بن زرار، وهو بأرز، فأنجده أيضاً، وعاد ابن كنداج إلى الموصل، ووصل إليه من الخليفة المعتمد عهد بولاية الموصل، فعاد إليها، فأرسل إليه ابن الشيخ وابن زرار وغيرهما بذلوا له مائتي ألف دينار ليقرهم على أعمالهم، فلم يجبه، فاجتمعوا على حربه، فلما رأى ذلك أجابه إلى ما طلبوا وعاد عنهم وقصدوا بلادهم.

وفيهما أمر محمد بن عبد الرحمن بإنشاء مراكب بنهر قرطبة، وحملها إلى البحر المحيط، وكان سبب عملها أنه قيل له إن جليقية ليس لها مانع من جهة البحر المحيط، إن ملكها من هناك سهل، فامر بعمل المراكب، فلما فرغت، وكملت برجالها وعدتها، سيرها إلى البحر المحيط، فلما دخلته المراكب تقطعت، ولم يجتمع منها مركبان، ولم يرجع منها إلا اليسير.

وفيها التقى أسطول المسلمين وأسطول الروم عند صقلية، فجری بينهم قتال شديد، فظفر الروم بالمسلمين، وأخذوا مراكبهم، وانهزم من سلم منهم إلى مدينة بلّرم بصقلية.

وفيها كان بإفريقية غلاء شديد وقحط عظيم، كادت الأقوات تعدم. (٣٣٥/٧)

وفيها كان الناس في البلاد التي تحت حكم الخليفة جميعها في شدة عظيمة بتغلب القواد وأمراء الأجناد على الأمر وقلة المراقبة والأمن من إنكار ما يأتونه ويفعلونه، لاشتغال الموفق بقتال صاحب الزنج، ولعجز الخليفة المعتمد، واشتغاله بغير ذلك.

وفيها اشتد الحر في تشرين الثاني، ثم اشتد فيه البرد حتى جمد الماء.

وفيها قدم محمد بن أبي الساج مكة، فحاربه المخزومي، فهزمه محمد، واستباح ماله، وذلك يوم التروية.

وفيها سار كيخلف إلى الجبل ويكتمر راجعاً إلى الدينور. وحج بالناس (٣٣٧/٧) في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي.

وفيها توفي محمد بن شجاع أبو بكر الثلجي، وكان من أصحاب الحسن بن زياد اللؤلؤي صاحب أبي حنيفة. الثلجي بالثاء المعجمة بثلاث والجيم.

وفيها توفي صالح بن أحمد بن حنبل، وكان مولده سنة ثلاث وثلاثين ومائتين. (٣٣٨/٧)

سنة سبع وستين ومائتين

ذكر أخبار الزنج

وفيها غلب أبو العباس بن الموفق على غامة ما كان بيد سليمان بن جامع والزنج من أعمال دجلة، وأبو العباس هذا هو الذي صار خليفة بعد المعتمد، فلقب المعتمد بالله.

وكان سبب مسيره أن الزنج لما دخلوا واسط، وعملوا بأهلها ما ذكرنا، بلغ ذلك الموفق، فأمر ابنه بتعجيل المسير بين يديه إليهم، فسار في ربيع الآخر سنة ست وستين ومائتين، وشيعة أبوه، وسير معه عشرة آلاف من الرجال والخيالة في العدة الكاملة، وأخذ معه الشنوات، والسُميريات، والمعابر للرجالة، فسار حتى وافى دير العاقول.

وكان على مقدمته في الشنوات نصير، المعروف بأبي حمزة، فكتب إليه نصير يخبره أن سليمان بن جامع قد وافى بخياله في شذوات وسُميريات، والحياتي على مقدمته، حتى نزل الجزيرة بحضرة بردرويا، وأن سليمان بن موسى الشعراني قد وافى معربان بخياله ورجله في سُميريات، (٣٣٩/٧) فركب أبو العباس حتى

وفيها التقى أسطول المسلمين وأسطول الروم عند صقلية، فجری بينهم قتال شديد، فظفر الروم بالمسلمين، وأخذوا مراكبهم، وانهزم من سلم منهم إلى مدينة بلّرم بصقلية.

وفيها كان بإفريقية غلاء شديد وقحط عظيم، كادت الأقوات تعدم. (٣٣٥/٧)

وفيها قتل أهل جمص عاملهم عيسى الكرخي.

وفيها أسرى لؤلؤ غلام أحمد بن طولون من رابية بني تميم إلى موسى بن أتماش، وهو برأس عين، فأخذه أسيراً، وسيره إلى الرقة، ثم لقي لؤلؤ أحمد بن موسى بن أتماش ومن معه من الأعراب، فانهزم لؤلؤ، ورجع الأعراب إلى عسكر أحمد لينهبوه، فعطف عليهم لؤلؤ وأصحابه، فانهزموا، فبلغت هزيمتهم قرقيسيا، ثم ساروا إلى بغداد وسامراً، وقد ذكرت فيما تقدم أن الذي أسر موسى غير لؤلؤ على ما ذكره مؤرخو مصر.

وفيها كانت بين أحمد بن عبد العزيز ويكتمر وقعة، فانهزم بكتمر، وسار إلى بغداد.

وفيها أوقع الخُجستاني بالحسن بن زيد بجرجان، وهو غار، فلهق بأمل، وغلب الخُجستاني على جرجان وأطراف طبرستان، فكان الحسن لما سار عن طبرستان إلى جرجان استخلف بسارية الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن حسين الأصغر العقيقي، فلما انهزم الحسن بن زيد أظهر العقيقي بسارية أنه قتل، ودعا إلى البيعة لنفسه، فبايعه قوم، ووافاه الحسن بن زيد، فحاربه، ثم ظفر به فقتله.

وفيها كانت وقعة بين الخُجستاني وعمرو بن الليث انهزم فيها عمرو، ودخل الخُجستاني نيسابور، وأخرج منها عامل عمرو ومن كان يميل إليه.

وفيها كانت فتنة بالمدينة ونواحيها بين العلويين والجعفرية.

وفيها وثب الأعراب على كسوة الكعبة فانهبوا، وصار بعضها إلى صاحب الزنج، وأصاب الحجاج فيها شدة شديدة. (٣٣٦/٧)

وفيها خرجت الروم على ديار ربيعة، فاستنفر الناس، فنفروا في برد شديد لا يمكن فيه دخول الدرب.

وفيها غزا سيما خليفة أحمد بن طولون على الثغور الشامية في ثلاثمائة رجل من أهل طرسوس، فخرج عليهم نحو من أربعة آلاف من بلاد هرقلة، فاقتلوا قتلاً شديداً، وقتل المسلمون خلقاً كثيراً من العدو، وأصيب من المسلمين جماعة.

وفيها كانت بمدينة النبي ﷺ حرب بين العلويين والجعفرين،

وافى الصَّلْحَ، وَجَّهَ طلائعَهُ ليعرف أخبارهم، فعادوا وأعلموه بموافاة الزنج وجيشهم، وأن أولهم بالصَّلْحِ، وآخرهم بستان موسى بن بُغَا، أسفل واسط.

وكان سبب جمع الزنج وحشدهم أنهم قالوا: إن أبا العباس قُتِلَ حدث، غُرِّ بالحرب، والرأي لنا أن نرديه يحدنا كلَّه، ونجبه في أول مرة لنقاه في إزالته، فلعلَّ ذلك يروعه فينصرف عنا؛ فجمعوا، وحشدوا، فلمَّا علم أبو العباس قريهم عدل عن سنن الطريق، واعترض في مسيره، ولقي أصحابه أوائل الزنج، فطاردوا لهم، حتَّى طمعوا فيهم، واغترَّوا وتبعوهم، وجعلوا يقولون: اطلبوا أميراً للحرب، فإنَّ أميركم قد اشتغل بالصيد.

ثمَّ إنَّ أبا العباس رأى أن يتوغَّل [في] مازروان حتَّى يصير إلى (٣٤١/٧) الحجَّاجيَّة ونهر الأمير، ويعرف ما هناك، فقدم نصيراً في أول السُّميريَّات وركب أبو العباس في سُميريَّة ومعه محمَّد بن شُعَيْب، ودخل مازروان وهو يظنُّ أنَّ نصيراً أمامه، فلم يقف له على خبر، وكان قد سار على غير طريق أبي العباس، وخرج من مع أبي العباس من الملاحين إلى غنم راوها ليأخذوها، فبقي هو ومحمَّد بن شعيب، فاتَّبعهما جمع من الزنج من جاني النهر، فقاتلهم أبو العباس بالثَّشاب، ووافاه زيرك في باقي الشدوات، فسلم أبو العباس وعاد إلى عسكره.

فلمَّا قربوا منه خرج عليهم فيمن معه من الخيل والرُّجل، وصاح بنصير: إلى أين تتأخَّر عن هذه الأكلب! فرجع نصير، وركب أبو العباس سُميريَّة وحفَّ به أصحابه من جميع الجهات، فانهزمت الزنج، وكثر القتل فيهم، وتبعوهم إلى أن وصلوا قرية عبد الله، وهي على سِتَّة فراسخ من الموضع الذي لقوهم به، وأخذوا منهم خمس شدوات، وعدَّة سُميريَّات، وأسر جماعة، واستامن جماعة، فكان هذا أول الفتح، فسار سليمان بن جامع إلى نهر الأمير، وسار سليمان بن موسى الشعراني إلى سوق الخميس، وانحدر أبو العباس فأقام بالعمر وهو على فرسخ من واسط، وأصلح شدواته، وجعل يراوح القوم القتال ويغاديه.

ثمَّ إنَّ سليمان استعدَّ وحشد، وجعل أصحابه في ثلاثة أوجه، وقالوا: إنَّه (٣٤٠/٧) حدَّث، غُرِّ غُرَّرَ بنفسه، وكمَّنوا كمناء، فبلغ الخبر أبا العباس، فحذروا وأقبلوا وقد كمَّنوا الكمناء ليغترَّ باتِّباعهم فيخرج الكمين عليه، فمتَّع أبو العباس أصحابه أن يتبعوهم، فلمَّا علموا أنَّ كيدهم لم يتمَّ خرج سليمان في الشدوات والسُّميريَّات، فأمر أبو العباس نصيراً أن يبرز إليهم، وركب هو شذاته، سمَّاهم الغزال، ومعه جماعة من خاصَّته، وأمر الخيالة بالمسير بإزائه على شاطئ النهر إلى أن ينقطع، فعبروا دوابَّهم، ونشبت الحرب بين الفريقين، فوقعت الهزيمة على الزنج، وغنم أبو العباس منهم أربع عشرة شذاة، وأفلت سليمان والحياتيُّ بعد أن أشفيا على الهلاك، وبلغوا طهنا، وأسلموا ما كان معهم.

ورجع أبو العباس إلى معسكره، وأمر بإصلاح ما أخذ منهم من الشدوات والسُّميريَّات، وأقام الزنج عشرين يوماً لا يظهر منهم أحد، وجعلوا على طريق الخيل آباراً، وجعلوا فيها سفايد حديد، وجعلوا على رؤوسها البواري والستراب ليسقط فيها المجتازون، فاتَّفَق أنه سقط فيها رجل من الفراغة، فقطنوا لها، وتركوا ذلك الطريق.

ورجع أبو العباس إلى معسكره، وأمر بإصلاح ما أخذ منهم من الشدوات والسُّميريَّات، وأقام الزنج عشرين يوماً لا يظهر منهم أحد، وجعلوا على طريق الخيل آباراً، وجعلوا فيها سفايد حديد، وجعلوا على رؤوسها البواري والستراب ليسقط فيها المجتازون، فاتَّفَق أنه سقط فيها رجل من الفراغة، فقطنوا لها، وتركوا ذلك الطريق.

ورجع أبو العباس إلى معسكره، وأمر بإصلاح ما أخذ منهم من الشدوات والسُّميريَّات، وأقام الزنج عشرين يوماً لا يظهر منهم أحد، وجعلوا على طريق الخيل آباراً، وجعلوا فيها سفايد حديد، وجعلوا على رؤوسها البواري والستراب ليسقط فيها المجتازون، فاتَّفَق أنه سقط فيها رجل من الفراغة، فقطنوا لها، وتركوا ذلك الطريق.

واستمدَّ سليمان صاحب الزنج، فأمدَّه بأربعين سُميريَّة بالأنها

وبلغه أنَّ جيشاً عظيماً للزنج مع ثابت بن أبي دُلْف ولؤلؤ الزنجيين، فسار إليهم، وأوقع بهم وقعة عظيمة وقت السُّحر، فقتل منهم خلقاً كثيراً، منهم لؤلؤ، وأسر ثابِتاً، فمَنَّ عليه، وجعله مع بعض قواده، واستنقذ من النساء خلقاً كثيراً، فأمر بإطلاقهنَّ وردَّهنَّ إلى أهلنَّ، وأخذ كلَّ ما كان الزنج جمعوه، وأمر أصحابه أن يستريحوا للمسير إلى سوق الخميس، وأمر نصيراً بتعبئة أصحابه للمسير، فقال له: إنَّ نهر سوق الخميس ضيِّق، فأقم أنت ونسير نحن؛ فأبى عليه، فقال له محمَّد بن شعيب: إن كنت لا بد فاعلاً

فلا تكثر من الشذا، ولا من الرجال، فإنَّ النهر ضيق.

فسار إليه، ونصير بين يديه، إلى فم نهر مساور، فوقف أبو العباس، وتقدّمه نصير في خمس عشرة شذاة في نهر براطق، وهو الذي يؤدي إلى مدينة الشعراني التي سمّاها المنيعه في سوق الخميس، فلما غاب عنه نصير خرج جماعة كبيرة في البرّ على أبي العباس، فمتعوه من الوصول إلى المدينة، وقاتلوه قتالاً شديداً من أوّل النهار إلى الظهر، وخفي عليه خبر نصير، وجعل الزنج يقولون: قد قتلنا نصيراً. واغتمّ أبو العباس لذلك، وأمر محمّد بن شعيب بتعرّف خبره، فسار، فأراه عند عسكر الزنج وقد أحرقه وأضرم النّار في مدينتهم، وهو يقاتلهم قتالاً شديداً، فعاد إلى أبي العباس فأخبره، فسُرّ بذلك.

وأمر نصير من الزنج جماعة كثيرة، ورجع حتّى وافى أبا العباس (٣٤٣/٧) فأخبره، ووقف أبو العباس يقاتلهم، فرجعوا عنه، وكمنّ بعض شذواته، وأمر أن يظهر واحدة منها، فطمعوا فيها وتبعوها حتّى أدركوها فعلقوا بسكّانها، فخرجت عليهم السفن المكنّمة وفيها أبو العباس، فانهزم الزنج، وغنم أبو العباس منهم ستّ سُميريّات، وانهزموا لا يلوون على شيء من الخوف، ورجع إلى عسكره سالماً، وخلع على الملاحين وأحسن إليهم.

ذكر وصول الموقّ إلى قال الزنج وفتح المنيعه

وفيها، في صفر، سار الموقّ عن بغداد إلى واسط لحرب الزنج؛ وكان سبب تأخّره عن ابنه أبي العباس هذه المنة أنّه [كان] يجمع ويحشد الفرسان والرّجاله، ويستكثر من العدة التي يقوى بها على حرب الزنج، ويسدّ الجهات التي يخاف فيها لئلاّ يبقى له ما يشغل قلبه.

إلاّ أنّ الخبيث رئيس الزنج قد أرسل إلى عليّ بن أبان المهلبيّ يأمره بالاجتماع مع سليمان بن جامع على حرب أبي العباس، فخاف وهناً يطرّق إلى ابنه أبي العباس، فسار عن بغداد في صفر، فوصل إلى واسط في ربيع الأوّل، فلقية ابنه، وأخبره بحال جنده وقوّاده، فخلع عليه وعليهم، ورجع أبو العباس إلى معسكره بالعمر، ثمّ نزل الموقّ على نهر شداد بإزاء قرية عبد الله، وأمر ابنه فنزل شرقيّ دجلة بإزاء فوهة بردودا، وولّاه مقدّمته، وأعطى (٣٤٤/٧) الجيش أرازمهم، وأمر ابنه أن يسير بما معه من آلات الحرب إلى فوهة نهر مُساور، فرحل في نخبة أصحابه، ورحل الموقّ بعده، فنزل فوهة نهر مُساور فأقام يومين.

ثمّ رحل إلى المدينة التي سمّاها صاحب الزنج المنيعه من سوق الخميس يوم الثلاثاء لثمان خلون من ربيع الآخر من هذه السنة، وسلك بالسفن في نهر مُساور، وسارت الخيل بإزائه شرقيّ نهر مُساور، حتّى جاوزوا براطق الذي يوصل إلى المنيعه، وأمر

بتعبير الخيل، وتصييرها من الجانبين، وأمر ابنه أبا العباس بالتقدّم بالشذا بعمامة الجيش، ففعل، فلقية الزنج، فحاربوه حرباً شديدة، ووافاهم أبو أحمد الموقّ والخيل من جانبيّ النهر، فلما رأوا ذلك انهزموا وتفرّقوا، وعلا أصحاب أبي العباس السور، ووضعوا السيوف فيمن لقيهم، ودخلوا المدينة فقتلوا فيها خلقاً كثيراً، وأسروا عالماً عظيماً، وغنموا ما كان فيها، وهرب الشعرانيّ ومن معه، وتبعه أصحاب الموقّ إلى البطائح، ففرق منهم خلق كثير، ولجأ الباقون إلى الآجام.

ورجع أبو أحمد إلى معسكره من يومه، وقد استنقذ من المسلمين رُهاء خمسة آلاف امرأة سوى من ظفر به من الزنجيّات، وأمر أبو أحمد بحفظ النساء وحملهنّ إلى واسط ليُدفعن إلى أهلنّ، ثمّ بكر إلى المدينة، فأمر الناس بأخذ ما فيها، فأخذ جميعه، وأمر بهدم سورها، وطمّ خندقها، وإحراق ما بقي فيها من السفن، وأخذوا من الطعام والشعير، والأرز، وغير ذلك، ما لا حدّ عليه، فأمر ببيع ذلك وصرفه إلى الجند. (٣٤٥/٧)

ولما انهزم سليمان لحق بالمرّاز، وكتب إلى الخائن، صاحب الزنج، بذلك، فورد الكتاب عليه وهو يتحدث، فأنحلّ بطنه، فقام إلى الخلاه دفعا، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذي نزل بالشعراني، ويأمره بالتيقّظ.

وأقام الموقّ بنهر مُساور يومين يتعرّف أخبار الشعرانيّ وسليمان بن جامع، فأثناء منّ أخبره أنّ سليمان بن جامع بالجوانيت، فسار حتّى وافى الصيّته، وأمر ابنه أبا العباس بالتقدّم بالشذا والسُميريّات إلى الجوانيت مخفياً، فسار أبو العباس إليها، فلم ير سليمان بها، ورأى هناك جمعاً من الزنج مع قائدتين لهم خلفهم سليمان بن جامع هناك لحفظ غلات كثيرة لهم فيها، فحاربهم أبو العباس، ودامت الحرب إلى أن حجز بينهم الليل، واستامن إلى أبي العباس رجل، فسأله عن سليمان بن جامع، وأخبره أنّه مقيم بطهّا، بمدينة التي سمّاها المنصورة، فعاد أبو العباس إلى أبيه بالخبر، فأمره بالمسير إليه، فسار حتّى نزل بردودا، فأقام بها لإصلاح ما يحتاج إليه، واستكثر من الآلات التي يسدّ بها الأنهار، ويصلح بها الطرق للخيل، وخلف بيردودا بُفّراج التركيّ.

ذكر استيلاء الموقّ على طهّا

لما فرغ الموقّ من الذي يحتاج إليه سار عن بردودا إلى طهّا لعشر بقين من ربيع الآخر سنة سبع وستين ومائتين، وكان مسيره على الظهر في خيله، وانحدرت السفن والآلات، فنزل بقرية الجوزية، وعقد جسراً، ثمّ غدا فعبر خيله عليه، ثمّ عبر بعد ذلك، فسار حتّى نزل معسكرًا على ميلين من (٣٤٦/٧) طهّا، فأقام هنالك يومين.

ومطرت السماء مطراً شديداً، فشغل عن القتال، ثم ركب لينظر موضعاً للحرب، فانتهى إلى قريب من سور مدينة سليمان بطهشا، وهي التي سماها المنصورة، فلقاه خلق كثير، وخرج عليهم كمناء من مواضع شتى، اشتدت الحرب، وترجل جماعة من الفرسان، وقتلوا حتى خرجوا عن المضيق الذي كانوا فيه، وأسروا من غلمان الموفق جماعة.

ورمى أبو العباس بن الموفق أحمد بن هنديّ الحياميّ بسهم خالط دماغه، فسقط وحمل إلى العلويّ، صاحب الزنج، فلم يلبث أن مات، فحضره الخبيث، وصلى عليه، وعظمت لذنبه المصيبة بموته، إذا كان أعظم أصحابه غنا عنه.

ذكر مسير الموفق إلى الأهواز وإجلاء الزنج عنها

فلما فرغ أبو أحمد الموفق من المنصورة رحل نحو الأهواز لإصلاحها وإجلاء الزنج عنها، فأمر ابنه أبا العباس أن يتقدمه، فأمر بإصلاح الطريق للجيش، واستخلف على من ترك من عسكره بواسط ابنه هارون، ولحقه زيرك فأخبره بعود أهل طهشا إليها، وأمن الناس، فأمره الموفق بالانحدار في الشذا والسُميريّات مع نصير، وتبع المنهزمين، والإيقاع بهم ويمن ظفروا به من الزنج، حتى ينتهي إلى مدينة الخبيث بنهر أبي الخصيب، وسار.

وارتحل الموفق مستهلاً جمادى الآخرة من واسط حتى أتى السوس، وأمر مسروراً بالقدوم عليه، وهو عامله هناك، فأتاه.

وكان الخبيث لما بلغه ما عمل الموفق بسليمان بن جامع والزنج خاف أن يأتيه وهو على حال تفرق أصحابه عنه، وكتب إلى عليّ بن أبان بالقدوم عليه، وكان بالأهواز في ثلاثين ألفاً، فترك جميع ما كان عنده من طعام ودواب وأغنام وغير ذلك، واستخلف عليه محمد بن يحيى الكرنباقيّ، فلم يقيم، وأتبع عليّاً.

وكتب صاحب الزنج أيضاً إلى بهبود بن عبد الوهاب، وهو بالقيدم والباسيان، وما اتصل بهما، يأمره بالقدوم عليه، فترك ما كان عنده من الذخائر وسار نحوه، فحوى ذلك جميعه الموفق، وقوى به على حرب الخبيث. (٣٤٩/٧)

ولما سار عليّ بن أبان عن الأهواز تخلف بها جمع من أصحابه، رُهاه ألف رجل، فأرسلوا إلى الموفق يطلبون الأمان فأتهم، فقدموا عليه، فأجرى عليهم الأرزاق، ثم رحل عن السوس إلى جند يسابور، وتستر، وجبى الأموال، ووجه إلى محمد بن عبيد الله الكرديّ، وكان خائفاً منه، فأمنه وعفا عنه، فطلب منه الأموال والعساكر، فحضر عنده فأحسن إليه.

ثم رحل إلى عسكر مكرم ووافى الأهواز، ثم رحل عنها إلى نهر المبارك من فرات البصرة، وكتب إلى ابنه هارون ليوافيه بجمع الجيش إلى نهر المبارك، فلقية الجيش بالمبارك منتصف رجب.

وكان زيرك ونصير لما خلفهما الموفق ليتبعها الزنج انحذرا حتى وافيا الأبلّة، فاستأمن إليهما رجل أخبرهما أنّ الخبيث قد أنفذ إليهما عدداً كثيراً في الشذا والسُميريّات إلى دجلة ليمنع عنها من يريدها، فإنهم يريدون عسكر نصير، وكان عسكره بنهر المَرَاة، فرجع نصير إلى عسكره من الأبلّة لما بلغه ذلك، وسار زيرك من طريق آخر، لأنّه قدّر أنّ الزنج يأتون عسكر نصير من ذلك الوجه،

وانصرف الموفق إلى عسكره وقت المغرب وأمر أصحابه بالتحارس ليلتهم والتأهب للحرب، فلما أصبحوا، وذلك يوم السبت ثلاث بقين من ربيع الآخر، عبأ الموفق أصحابه، وجعلهم كتائب يتلو بعضهم بعضاً، فرساناً ورجالة، وأمر بالشذا والسُميريّات أن يسار بها إلى النهر الذي يشقّ مدينة سليمان، وهو النهر المعروف بنهر المُنذر، ورتب أصحابه في المواضع التي يخاف منها، ثم نزل فصلى أربع ركعات، وابتهل إلى الله تعالى في النصر، ثم لبس سلاحه، وأمر ابنه أبا العباس أن يتقدم إلى السور، فتقدم إليه، فرأى خندقاً، فأحجم الناس عنه، فحرّضهم قوادهم وترجلوا معهم، فاقتحموه وعبروه، وانتهوا إلى الزنج وهم على سورهم.

(٣٤٧/٧)

فلما رأى الزنج تسرعهم إليهم ولؤوا منهزمين، وأتبعهم أصحاب أبي العباس، فدخلوا المدينة، وكان الزنج قد حصنوها بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كلّ خندق سوراً، فجعلوا يقفون عند كل سور وخندق، فكشفهم أصحاب أبي العباس، ودخلت الشذا والسُميريّات المدينة من النهر، فجعلت تغرق كلّ ما مرت لهم به من سُميريّة وشذا، وقتلوا من بجاني النهر وأسروا حتى أجلوهم عن المدينة وعمّا اتصل بها، وكان مقدار العمارة فيها فرسخاً.

وحوى الموفق ذلك كلّ، وأفلت سليمان بن جامع ونفر من أصحابه، وكثر القتل فيهم والأسر، واستنفذ أبو أحمد من نساء أهل واسط، والكوفة، والقرى، وغيرها، وصبيانهم أكثر من عشرين ألفاً، فأمر أبو أحمد بحملهم إلى واسط، ودفعهم إلى أهلهم؛ وأخذ ما كان فيها من الذخائر والأموال، وأمر بصرفه إلى الأجناد، وأسر من نساء سليمان وأولاده عدّة، وتخلّص من كان أخذ من أصحاب الموفق، ونجا جمع كثير إلى الأجام فأمر أصحابه بطلبهم، فأقام سبعة عشر يوماً، وهدم سور المدينة، وطعم خنادقها، وجعل لكل من أتاه برجل منهم جعلاً، فكان إذا أتى بالواحد منهم عفا عنه وضّمه إلى قواده وغلمان، لما كان دبره من استمالتهم.

فكان كذلك، فلقبهم في طريقهم، فظفر بهم، وانهزموا منه، وكانوا قد جعلوا كميناً، فدلّ زيرك عليه، فتوغّل حتّى أتاه، فقتل من الكميناء جماعة وأسر جماعة.

وكان ممّن ظفر به مقدّم الزنج، وهو أبو عيسى محمد بن إبراهيم البصري، وهو من أكابر قوّادهم، وأخذ منهم ما يزيد على ثلاثين سُميريّة، فجزع لذلك جميع الزنج، فاستأمن إلى نصير منهم زهاء ألفي رجل، فكتب بذلك إلى الموقّ، فأمره بقبولهم والإقبال إليه بالنهر المبارك، فوافاه هناك. (٣٥٠/٧)

وأمر الموقّ ابنه أبا العباس بالمسير إلى محاربة العلويّ بنهر أبي الخصب، فسار إليه، فحاربه من بُكرة إلى الظُهر، فاستأمن إليه قائد من قوّاد العلويّ ومعه جماعة، فكسر ذلك الخيـث، وعاد أبو العباس بالظفر، وكتب الموقّ إلى العلويّ كتاباً يدعوه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى ممّا ركب من سفك الدماء، وانتهاك المحارم، وإخواب البلدان، واستحلال الفروج والأموال، وأذعاء النبوة والرسالة، ويذلل له الأمان، فوصل الكتاب إليه، فقرأه، ولم يكتب جوابه.

ذكر محاصرة مدينة صاحب الزنج

لَمَّا انفذ الموقّ الكتاب إلى العلويّ، ولم يرّد جوابه، عرض عسكره، وأصلح آلاته، ورَتب قوّاده، ثمّ سار هو وابنه أبو العباس في العشرين من رجب إلى مدينة الخبيث التي سمّاها المختارة، وأشرف عليها، وتأمّلها ورأى حصانتها بالأسوار والخنادق، وغور الطريق إليها، وما أعدّه من المجانيق والعرادات والقسيّ وسائر الآلات على سورها، ممّا لم ير مثله لمن تقدّم من منازعي السلطان، ورأى من كثرة عدد المقاتلة ما استعظمه.

فلَمَّا عابن الزنج أصحاب الموقّ ارتفعت أصواتهم حتّى ارتجّت الأرض، فأمر الموقّ ابنه بالتقدّم إلى سور المدينة والرمي لمن عليه بالسهم، فتقدّم حتّى ألصق شذواته بمُسنّاو قصر الخبيث، فكثّر الزنج وأصحابهم على أبي العباس ومن معه، وتتابعت سهامهم وحجارة مجانيقهم ومقاليقهم، (٣٥١/٧) ورمى عوامهم بالحجارة عن أيديهم، حتّى ما يقع الطرف إلّا على سهم أو حجر.

وثبت أبو العباس، فرأى العلويّ من صبره وثبات أصحابه ما لم ير مثله من أحد [ممّن] حاربهم، ثمّ أمرهم الموقّ بالرجوع ففعلوا، واستأمن إلى الموقّ مقاتلة في سُميريتين، فأمنّهم، فخلع على من فيهما من المقاتلة والملاحين على أقدارهم ووصلهم وأمر بإدائهم إلى موضع يراهم فيه نظراً لهم، وكان ذلك من أنجع المكايـد، فلَمَّا رآهم الباقون رغبوا في الأمان، وتنافسوا فيه، وابتدروا إليه، فصار إلى الموقّ عدد كثير ذلك اليوم من أصحاب السُميريّات، فعمّمهم بالخلع والصلّات.

فلَمَّا رأى صاحب الزنج ذلك أمر برّد أصحاب السُميريّات إلى نهر أبي الخصب، ووكل بفوهة النهر من يمنعهم من الخروج، وأمر يهود، وهو من شرّ قوّاده، أن يخرج في الشذوات، فخرج ويرز إليه أبو العباس في شذواته، وقتلته، واشتدّت الحرب، فانهزم يهود إلى فناء قصر الخبيث، وأصابته طعنتان، وجرح بالسهم، وأوهنت أعضاؤه بالحجارة، فأولجوه نهر أبي الخصب وقد أشفى على الموت، فقتل ممّن كان معه قائد ذو بأس يقال له عُـميرة، وظفر أبو العباس بشذاة قتل أهلها، ورجع هو ومن معه سالمين، فاستأمن إلى أبي العباس أهل شذاة منهم، فأمنّهم، وأحسن إليهم، وخلع عليهم.

ورجع الموقّ ومّن معه إلى عسكره بالنهر المبارك، واستأمن إليه عند (٣٥٢/٧) منصرفه خلق كثير، فأمنّهم، وخلع عليهم، ووصلهم، وثبت أسماءهم مع أبي العباس، وأقام في عسكره يومين، ثمّ نقل عسكره لستّ يقين من رجب إلى نهر جطّي فنزله، وأقام به إلى منتصف شعبان لم يقاتل.

ثمّ ركب منتصف شعبان في الخيل والرجال وأعدّ الشذاة والسُميريّات، وكان من معه من الجند والمتطوعة زهاء خمسين ألفاً، وكان من مع الخبيث أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان، كلّمهم ممّن يقاتل بسيف، أو رمح، أو قوس، أو مقلع، أو منجنيق، وأضعفهم رُماة الحجارة من أيديهم، وهم النظارة، والنساء تشرّكهم في ذلك، فأقام أبو أحمد ذلك اليوم، ونودي بالأمان للناس كافّة إلّا الخبيث، وكتب الأمان في رقا، ورماها في السهام، ووعد فيها الإحسان، فمالت قلوب أصحاب الخبيث، واستأمن ذلك اليوم خلق كثير، فخلع عليهم ووصلهم، ولم يكن ذلك اليوم حرب.

ثمّ رحل من نهر جطّي من الغد، فمسكر قرب مدينة الخبيث، ورَتب قوّاده وأجناده، وعيّن لكلّ طائفة موضعاً يحافظون عليه ويضبطونه، وكتب الموقّ إلى البلاد في عمل السُميريّات، والشذوات، والزوارق، والإكثار منها ليضبط بها الأنهار، ليقطع الميرة عن الخبيث، وأسّس في منزله مدينة سمّاها الموقّية، وكتب إلى عُـمّاله في النواحي بحمل الأموال والميرة في البرّ والبحر إلى مدينته، وأمرهم بأنفاذ من يصلح للإثبات في الديوان، وأقام ينتظر ذلك شهراً، فوردت عليه الميرة متباعدة، وجهزّ التجار صنوف التجارات إلى (٣٥٣/٧) الموقّية، وأتخذت فيها الأسواق، ووردتها مراكب البحر، وبني الموقّ بها المسجد الجامع، وأمر الناس بالصلاة فيه، فجمعت هذه المدينة من المرافق، وسبق إليها من صنوف الأشياء ما لم يكن في مصر من الأمصار القديمة، وشملت الأموال، وأدرّت الأرزاق.

وعبرت طائفة من الزنج، فنهروا أطراف عسكر نصير، وأوقعوا

به، فأمر الموفق نصيراً بجمع عسكره وضبطهم، وأمر الموفق ابنه أبا العباس بالمسير إلى طائفة من الزنج كانوا خارج المدينة، فقاتلهم، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وغنم ما كان معهم، فصار إليه طائفة منهم في الأمان، فأمنهم، وخلع عليهم ووصلهم، وأقام أبو أحمد يكايد الخبيث ببذل الأموال لمن صار إليه، ومحاصرة الباقيين، والتضييق عليهم.

وكانت قافلة قد أتت من الأهواز، وأسرى إليها يهود في سُميريات فأخذها، وعظم ذلك على الموفق، وغرم لأهلها ما أخذ منهم، وأمر بترتيب الشذوات على مخارج الأنهار، وقُلب ابنه أبا العباس الشذا، وحفظ الأنهار بها من البحر إلى المكان الذي هم به.

وفي رمضان عبر طائفة من أصحاب الخبيث يريدون الإيقاع بنصير، فنذر بهم الناس، فخرجوا إليهم فردّوهم خائنين، وظفروا بصندل الزنجي، وكان يكشف رؤوس المسلمين، ويقلبهن تقليب الإمام، فلما أتى به أمر الموفق أن يُرمى بالسهم ثم قتل.

واستأمن إلى الموفق من الزنج خلق كثير، فبلغت عدة من استأمن إليه (٣٥٤/٧) في آخر رمضان خمسين ألفاً.

وفي شوال انتخب صاحب الزنج من عسكره خمسة آلاف من شجعانهم وقوادهم، وأمر علي بن أبان المهلبى بالعبور لكبس عسكر الموفق، فكان فيهم أكثر من مائتي قائد، فعبروا ليلاً، واختفوا في آخر النخل، وأمرهم، إذا ظهر أصحابهم، وقاتلوا الموفق من بين يديه، ظهروا، وحملوا على عسكره وهم غارون، مشاغبل بحرب من أمامهم، فاستأمن منهم إنسان من الملاحين، فأخبر الموفق، فسير ابنه أبا العباس لقتالهم وضبط الطرق التي يسلكونها، فقاتلوا قتالاً شديداً، وأسر أكثرهم، وغرق منهم خلق كثير، وقتل بعضهم، ونجا بعضهم، فأمر أبو العباس أن يُحمل الأسرى والرؤوس والسُميريات ويُعبر بهم على مدينة الخبيث، ففعلوا ذلك.

وبلغ الموفق أن الخبيث قال لأصحابه: إن الأسرى من المستأمنة، وإن الرؤوس تمويه عليهم، فأمر بإلقاء الرؤوس في منجنيق إليهم، فلما رأوها عرفوها، فاطهروا الجزع والبكاء، وظهر لهم كذب الخبيث.

وفها أمر الخبيث باتخاذ شذوات، فعلمت له، فكانت له خمسون شذاً، فقسّمها بين ثلاثة من قواده، وأمرهم بالتعرض لعسكر الموفق، وكانت شذوات الموفق يومئذ قليلة لأنه لم يصل إليه ما أمر بعمله، والتي كانت عنده منها فرقها على أفواه الأنهار لقطع الميرة عن الخبيث، فخافهم أصحاب الموفق، فورد عليهم شذوات كان الموفق أمر بعملها، فسير ابنه أبا العباس ليوردها خوفاً

عليها من الزنج، فلما أقبل بها رأها الزنج فعارضوها بشذواتهم، فقصدهم غلام لأبي العباس ليمنعهم، وقاتلهم، فانكشفوا بين يديه، وتبعهم حتى أدخلهم نهر أبي الخصيب، وانقطع عن أصحابه، فمطفوا عليه، فاخذوه ومن (٣٥٥/٧) معه بعد حرب شديدة، فقتلوا، وسلمت الشذوات مع أبي العباس، وأصلحها، ورتب فيها من يقاتل.

ثم أقبلت شذوات العلوي على عاذنها، فخرج إليهم أبو العباس في أصحابه، فقاتلهم فهزمهم، وظفر منهم بعدة شذوات، فقتل منهم من ظفر به فيها، فمنع الخبيث أصحابه من الخروج عن فناء قصره، وقطع أبو العباس الميرة عنهم، فاشتد جزع الزنج، وطلب جماعة من وجوه أصحابه الأمان، فأمنوا، وكان منهم محمد بن الحارث القمي، وكان إليه ضبط السور مما يلي عسكر الموفق، فخرج ليلاً، فأمنه الموفق، ووصله بصلات كثيرة له ولمن خرج معه، وحمله على عدة دواب بالآلتها وحليتها، وأراد إخراج زوجته فلم يقدر، فأخذها الخبيث فباعها؛ ومنهم أحمد اليربوعي، وكان من أشجع رجال العلوي، وغيرهما، فخلع عليهم، ووصلهم بصلات كثيرة.

ولما انقطعت الميرة والمواد عن العلوي أمر شبلاً وأبا البدي، وهما من رؤساء قواده [الذين] يثق بهم، بالخروج إلى البطيحة في عشرة آلاف من ثلاثة وجوه للغارة على المسلمين، وقطع الميرة عن الموفق، فسير الموفق إليهم زيرك في جمع من أصحابه، فلقبهم بنهر ابن عمر، فرأى كثرتهم، فراعه ذلك، ثم استخار الله تعالى في قتالهم، فحمل عليهم وقاتلهم، فغذف الله تعالى الرعب في قلوبهم فانهزموا، ووضع فيهم السيف، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم مثل ذلك، وأسر خلقاً كثيراً، وأخذ من سفنهم ما أمكنه أخذه، وغرق ما أمكنه تغريقه، وكان ما أخذه من سفنهم نحو أربع مائة سفينة، وأقبل بالأسارى والرؤوس إلى مدينة الموفق. (٣٥٦/٧)

ذكر عبور الموفق إلى مدينة صاحب الزنج

وفها عبر الموفق إلى مدينة الخبيث لست بقتين من ذي الحجة؛ وكان سبب ذلك أن جماعة من قواد الخبيث لما رأوا ما حلّ بهم من البلاء من قتل من يظهر منهم، وشدة الحصار على من لزم المدينة، وحال من خرج بالأمان، جعلوا يهربون من كل وجه، ويخرجون إلى الموفق بالأمان.

فلما رأى الخبيث ذلك جعل على الطرق التي يمكنهم الهرب منها من يحفظها؛ فأرسل جماعة من القواد إلى الموفق يطلبون الأمان، وأن يوجه لمحاربة الخبيث جيشاً ليجدوا طريقاً إلى المعصير إليه، فأمر ابنه أبا العباس بالمسير إلى النهر الغربي، وبه علي بن أبان يحميه فهض أبو العباس ومعه الشذوات، والسُميريات،

والمعابر، فقصده، وتحارب هو وعليُّ بن أبان واشتدَّت الحرب، واستظهر أبو العباس على الزنج، وأمدَّ الخبيث أصحابه بسليمان بن جامع في جمع كثير، فأتصلت الحرب من بُكرة إلى العصر، وكان الظفر لأبي العباس، وصار إليه القوم الذين كانوا طلبوا الأمان.

واجتاز أبو العباس بمدينة الخبيث عند نهر الأتراك، فرأى قلعة الزنج هناك، فطعم فيهم، فقصدهم أصحابه وقد انصرف أكثرهم إلى الموقفة، فدخلوا ذلك المسلك، وصعد جماعة منهم السور وعليه فريق من الزنج، فقتلوه، وسمع العلويُّ فجهز أصحابه لحربهم، فلما رأى أبو العباس اجتماعهم وحشدتهم لحربه مع قلعة أصحابه، رحل فارسل إلى الموقف يستمده، فأتاه من خف من الغلمان، فظهروا على الزنج فهزمهم. (٣٥٧/٧)

وكان سليمان بن جامع لما رأى ظهور أبي العباس سار في النهر مصعداً في جمع كبير، ثم أتى أصحاب أبي العباس من خلفهم، وهم يحاربون من بيازاتهم، وخفقت طبوله، فأنكشف أصحاب أبي العباس، ورجع عليهم من كان انهزم عنهم من الزنج، فأصيب جماعة من غلمان الموقف وغيرهم، فأخذ الزنج عدة أعلام، وحامى أبو العباس عن أصحابه، فلم أكثرهم ثم انصرف.

وطمع الزنج بهذه الواقعة، وشدَّت قلوبهم، فاجتمع الموقف على العبور إلى مدينتهم بجيوشه أجمع، وأمر الناس بالتأهب، وجمع المعابر والسفن وفرَّقها عليهم، وعبر يوم الأربعاء لست يقين من ذي الحجة، وفرَّق أصحابه على المدينة ليضطرَّ الخبيث إلى تفرقة أصحابه، وقصد الموقف إلى ركن من أركان المدينة، وهو أحصن ما فيها، وقد أنزله الخبيث ابنه، وهو انكلاي، وسليمان بن جامع، وعليُّ بن أبان وغيرهم، وعليه من المجانيق والآلات للقتال ما لا حدَّ [له].

فلما التقى الجمعان أمر الموقف غلمانه بالدنو من ذلك الركن،

وبينهم وبين ذلك السور نهر الأتراك، وهو نهر عريض كثير الماء، فأحجموا عنه، فصاح بهم الموقف، وحرَّضهم على العبور، فعبروا سباحة، والزنج ترميهم بالمجانيق، والمقاليع، والحجارة، والسهام، فصبروا حتى جاوزوا النهر وانتهوا إلى السور، ولم يكن عبر معهم من القلعة من كان أعدَّ لهمد السور، فتولَّى الغلمان تشييع السور بما كان معهم من السلاح، وسهَّل الله تعالى ذلك، وكان معهم بعض السلاطين، فصعدوا على ذلك الركن، ونصبوا علماً من أعلام الموقف، فانهزم الزنج عنه، وأسلموه بعد قتال شديد، وقتل من الفريقين خلق كثير؛ ولما علا أصحاب الموقف السور أحرقوا ما كان عليه من منجنيق وقوس وغير ذلك. (٣٥٨/٧)

وكان أبو العباس قصد ناحية أخرى، فمضى عليُّ بن أبان إلى مقاتلته، فهزمه أبو العباس، وقتل جمعاً كثيراً من أصحابه ونجا

عليُّ، ووصل أصحاب أبي العباس إلى السور، فظلموا فيه ثلثة ودخلوه، فلقبهم سليمان ابن جامع، فقاتلهم حتى ردهم إلى مواضعهم؛ ثم إن القلعة وافوا السور فهدموه في عدة مواضع، فعملوا على الخندق جسراً، فعبّر عليه الناس من ناحية الموقف، فانهزم الزنج عن سور باب كانوا قد اعتصموا به، وانهزم الناس معهم، وأصحاب الموقف يقتلونهم، حتى انتهوا إلى نهر ابن سمعان، وقد صارت دار ابن سمعان في أيدي أصحاب الموقف، فأحرقوها، وقاتلهم الزنج هناك، ثم انهزموا حتى بلغوا ميدان الخبيث، فركب في جمع من أصحابه، فانهزم أصحابه عنه، وقرب منه بعض رجالة الموقف، فضرب وجه فرسه بترسه، وكان ذلك مع مغيب الشمس، فأمر الموقف الناس بالرجوع، فرجعوا ومعهم من رؤوس أصحاب الخبيث شيء كثير.

وكان قد استأمن إلى أبي العباس أول النهار نفر من قواد الخبيث، فتوقَّف عليهم حتى حملهم في السفن، وأظلم الليل، وهبَّ ريح عاصف، وقوي الجزر، فلصق أكثر السفن بالطين، فخرج جماعة من الزنج فنالوا منها، وقتلوا فيها نفراً، وكان يهود بيازاء مسرور البلخي، فوقع بأصحاب مسرور، وقتل منهم جماعة، وأسر جماعة، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموقف.

وكان بعض أصحاب الخبيث قد انهزم على وجهه نحو نهر الأمير، والقنذل، وعبادان، وهرب جماعة من الأعراب إلى البصرة، وأرسلوا يطلبون الأمان (٣٥٩/٧) فأمَّتهم الموقف، وخلع عليهم، وأجرى الأرزاق عليهم، وكان ممن رغب في الأمان من قواد الفاجر ربحان بن صالح المغربي، وكان من رؤساء أصحابه، أرسل يطلب الأمان، وأن يرسل جماعة إلى مكان ذكره ليخرج إليهم، ففعل الموقف، فصار إليه فخلع عليه، وأحسن إليه ووصله، وضَّمه إلى أبي العباس، واستأمن من بعده جماعة من أصحابه؛ وكان خروج ربحان لليلة بقيت من ذي الحجة من السنة.

ذكر الحرب بين الخوارج ببلد الموصل

في هذه السنة كان بين هارون الخارجي وبين محمد بن خرزاد، وهو من الخوارج أيضاً، وقعة يبعدري من أعمال الموصل.

وسبب ذلك أننا قد ذكرنا سنة ثلاث وستين ومائتين، الحرب الحادثة بين هارون ومحمد بعد موت مساور، فلما كان الآن جمع محمد بن خرزاد أصحابه وسار إلى هارون محارباً له، فنزل واسط، وهي محلة بالقرب من الموصل، وكان يركب البقر لثلا يفر من القتال، ويلبس الصوف الغليظ، ويرقع ثيابه، وكان كثير العبادة والنسك، ويجلس على الأرض ليس بينها وبينه حائل.

فلما نزل واسط خرج إليه وجوه أهل الموصل، وكان هارون بمقلنايا (٣٦٠/٧) يجمع لحرب محمد، فلما سمع بنزول محمد

العزیز (٣٦٢/٧) ابن أبي دُلْف حرب انهزم فيها أصحاب أحمد، وسار كَيْغَلغ إلى هَمْدَان، فوفاه أحمد بن عبد العزيز فيمن اجتمع إليه من أصحابه، فانهزم كيغَلغ وانحاز إلى الصَّيْمرة.

وفيهما في ربيع الآخر ماتت أم حبيب بنت الرشيد.

وفيهما كانت وقعة بين إسحاق بن كنداجيق، وإسحاق بن أيوب، وعيسى ابن الشيخ، وأبي المغراء، وحمدان بن حمدون، ومن اجتمع إليهم من ربيعة، وتغلب، وبكر، واليمن، فهزمهم ابن كنداجيق إلى نَصَبِين، وتبعهم إلى آيد، وخلف على آيد من حصر عيسى، فكانت بينهم وقعات عند آيد.

وفيهما دخل الخُجُستاني نيسابور، وانهزم عمرو بن الليث وأصحابه، فأساء السيرة في أهلها، وهدم دور مُعَاذ بن مسلم، وضرب من قدر عليه منهم وترك ذكر محمد بن طاهر، ودعا للمعتمد لنفسه.

وفيهما في شوال كانت لأصحاب أبي الساج وقعة بالهيصم العجلي قتلوا فيها مقدّمته، وغنموا عسكره.

وفيهما أقبل أحمد بن عبد الله الخُجُستاني يريد العراق، فبلغ سَمَنَانَ، وتحصّن منه أهل الرِّي، فرجع إلى خراسان.

وفيهما رجع خلق كثير من الحِجَّاج من طريق مَكَّة لشدة الحرّ، ومضى خلق كثير، فمات منهم عالم عظيم من الحرّ والعطش، وذلك كله في البيداء، (٣٦٣/٧) وأوقعت فزارة فيها بالتجّار، فأخذ فيما قيل قبل سبع مائة حمل بَرّ.

وفيهما نفى الطُّبَّاع من سامرا. وفيها ضُرب الخُجُستاني لنفسه دنائير ودراهم، وحجّ بالناس هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي.

وفيهما توفّي محمد بن حمّاد بن بكر بن حمّاد أبو بكر المقرئ، صاحب خلف بن هاشم، في ربيع الآخر، ببغداد. (٣٦٤/٧)

سنة ثمان وستين ومائتين

ذكر أخبار الزنج

في هذه السنة في المحرم خرج إلى الموقّ من قوَاد الخبيث جعفر بن إبراهيم المعروف بالسحان، وكان من ثقات الخبيث، فارتاع لذلك، وخلع عليه الموقّ، وأحسن إليه، وحمله في سُميرة إلى إزاء قصر الخبيث، فكلم الناس من أصحابه، وأخبرهم أنهم في غرور، وأعلمهم بما وقف عليه من كذب الخبيث وفجوره، فاستأمن في ذلك اليوم خلق كثير من قوَاد الزنج وغيرهم، فأحسن إليهم الموقّ، وتتابع الناس في طلب الأمان.

عند الموصل سار إليه ورحل ابن خرزاد نحوه، فالتقوا بالقرب من قرية شمرخ، واقتتلوا قتالاً شديداً كان فيه مبارزة وحملات كثيرة، فانهزم هارون، وقُتل من أصحابه نحو مائتي رجل، منهم جماعة من الفرسان المشهورين، ومضى هارون منهزماً، فعبر دجلة إلى العرب قاصداً بني تغلب، فنصروه واجتمعوا إليه، ورجع ابن خرزاد من حيث أقبل، وعاد هارون إلى الحديث، فاجتمع عليه خلق كثير، وكاتب أصحاب ابن خرزاد، واستمالهم، فأثاء منهم الكثير، ولم يبق مع ابن خرزاد إلا عشرين من الشُرذلة، وهم من أهل شَهْرزُور، وإنما فارق أصحابه لأنّه كان خشن العيش، وهو ببلد شَهْرزُور، وهو بلد كثير الأعداء، من الأكراد وغيرهم.

وكان هارون ببلد الموصل قد صلح حاله وحال أصحابه، فلمّا رأى أصحاب ابن خرزاد ذلك مالوا إليه وقصدوه، وواقع ابن خرزاد بنواحي شَهْرزُور الأكراد الجَلالِيّة وغيرهم، فقتل، تفرّد هارون بالرتاسة على الخوارج، وقوي وكثر أتباعه، وغلبوا على القرى والرساتيق، وجعلوا على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المنحدرة والمصعدة، وبثوا نوابهم في الرساتيق يأخذون الأعشار من الغلات. (٣٦١/٧)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ابتدر ابن حفصون بالأندلس بالخلاف على محمد بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، بناحية رَيّة، فخرج إليه جيش من تلك الناحية مع عاملها، فقاتله، فانهزم الجيش، وقوي أمر عمر بن حفصون، وشاع ذكره، وأثاء من يريد الشرّ والفساد، فسبّ محمد، صاحب الأندلس، عاملاً آخر في جيش، فصالحه عمر، فطلب العامل كلّ من كان له أثر في مساعدة عمر، فأهلكه، وفيهم من أبعد، فاستقامت تلك الناحية.

وفيهما كانت زلزلة عظيمة بالشام، ومصر، وبلاد الجزيرة، وإفريقية، والأندلس، وكان قبلها هذه عظيمة قوية.

وفيهما ولي جزيرة صقلية الحسن بن العباس، فبث السرايا إلى كلّ ناحية، وخرج إلى قطنية فأفسد زرعها وزرع طَبَرِين، وقطع أشجارها، وسار إلى بقارة فأفسد زرعها، وانصرف إلى بَلَرَم، وأخرجت الروم سرايا فاصابوا من المسلمين كثيراً، وذلك أيام الحسن بن العباس.

وفيهما حبس السلطان محمد بن عبد الله بن طاهر وعدة من أهل بيته، بعد ظفر الخُجُستاني بعمرو بن الليث، وكان عمرو اتهمه بمكاتبة الخُجُستاني والحسين بن طاهر، حيث كان يذكر أنّه على منابر خراسان.

وفيهما كانت بين كَيْغَلغ التركي وبين أصحاب أحمد بن عبد

ثُمَّ أَقَامَ الْمَوْقِفَ لَا يَحَارِبُ لِيَرِيحَ أَصْحَابَهُ إِلَى شَهْرِ ربيع الآخر ، فَلَمَّا انْتَصَفَ ربيع الآخر قصد الموقِفَ إلى مدينة الخبيث، وفرّق قوّاده على جهاتها، وجعل مع كلّ طائفة منهم من الثّقابين جماعة لهدم السور، وتقدّم إلى جميعهم أن لا يزيدوا على هدم السور، ولا يدخلوا المدينة، وتقدّم إلى الرماة أن يحموا بالسهم من يهدم السور وينقبه، فتقدّموا إلى المدينة من جهاتها وقابلوها، فوصلوا إلى السور، وثلموه في مواضع كثيرة.

وجعل الموقِفَ وابنه أبو العبّاس يلازمان قتال الخبيث تارة هذا وتارة هذا، وجرح أبو العبّاس ثمّ برأ. (٣٦٧/٧) وكان من جملة من قُتل من أعيان قوّاد الخبيث بهّود بن عبد الوهّاب، وكان كثير الخروج في السُميريّات، وكان ينصب عليها أعلاماً تشبه أعلام الموقِف، فإذا رأى من يستضعفه أخذه، وأخذ من ذلك مالاً جزيلاً، فواقعه في بعض خرجاته أبو العبّاس، فألفت بعد أن أشفي على الهلاك، ثمّ إنّ خرج مرّة أخرى فرأى سميريّة فيها بعض أصحاب أبي العبّاس، فقصدها طامعاً في أخذها، فحاربه أهلها، فطعنه غلام من غلمان أبي العبّاس في بطنه فسقط في الماء، فأخذه أصحابه، فحملوه إلى عسكر الخبيث، فمات قبل وصوله، فأراح الله المسلمين من شرّه.

وكان قتله من أعظم الفتح، وعظمت الفجعة على الخبيث وأصحابه، واشتدّ جزعهم عليه، وبلغ الخبر الموقِفَ بقتله، فأحضر ذلك الغلام، فوصله، وكساه، وطوّقه، وزاد في أرزاقه، وفعل بكلّ من كان معه في تلك السُميريّة نحو ذلك؛ ثمّ ظفر الموقِفَ بالدوابنيّ وكان ممالئاً لصاحب الزنج.

ذكر أخبار رافع بن هرثمة

لَمَّا قُتِلَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخُجُسْتَانِيّ، على ما ذكرناه، وكان قتله هذه السنة، اتّفق أصحابه على رافع بن هرثمة فولّوه أمرهم.

وكان رافع هذا من أصحاب محمّد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، فلَمَّا استولى يعقوب بن الليث على نيسابور، وأزال الطاهريّة، وصار رافع في جملته؛ (٣٦٨/٧) فلَمَّا عاد يعقوب إلى سيستان صاحبه رافع؛ وكان طويل اللحية، كربه الوجه، قليل الطلاقة، فدخل يوماً على يعقوب، فلَمَّا خرج من عنده قال: أنا لا أميل إلى هذا الرجل، فليلحق بما شاء من البلاد؛ فقبل له ذلك، ففارقه وعاد إلى منزله بتامين، وهي من بادغيس، وأقام به إلى أن استقدمه الخُجُسْتَانِيّ، على ما ذكرناه، وجعله صاحب جيشه.

فلَمَّا قُتِلَ الْخُجُسْتَانِيّ اجتمع الجيش عليه، وهو بهراة، فأمرّوه كما ذكرناه، وسار رافع من هراة إلى نيسابور، وكان أبو طلحة بن شرّكب قد وردّها من جرجان، فحصره فيها رافع وقطع الميرة عنه وعن نيسابور، فاشتدّ الغلاء بها، ففارقها أبو طلحة، ودخلها رافع فأقام بها وذلك سنة تسع وستين ومائتين، فسار أبو طلحة إلى مرو،

ودخل أصحاب الموقِفَ من جميع تلك الثلم، وجاء أصحاب الخبيث (٣٦٥/٧) يحاربونهم، فهزمهم أصحاب الموقِفَ وتبعوهم حتّى أوغلو في طلبهم، فاختلفت بهم طرق المدينة، فبلغوا أبعاد من الموضع الذي وصلوا إليه في المرّة الأولى، وأحرقوا، وأسروا، وتراجع الزنج عليهم، وخرج الكمناء من مواضع يعرفونها ويجهلها الآخرون، فتحيروا، ودافعوا عن أنفسهم، وتراجعوا نحو دجلة بعد أن قُتل منهم جماعة، وأخذ الزنج أسلابهم.

ورجع الموقِفَ إلى مدينته، وأمر بجمعهم، فلامهم على مخالفة أمره، والإنساد عليه من رأيه وتديبره، وأمر بإحصاء من قُتِل، وأقرّ ما كان لهم من رزق على أولادهم وأهلهم، فحسن ذلك عندهم وزاد في صحّة نياتهم.

ذكر الوقعة بين المعتضد والأعراب

وفي هذه السنة أوقع أبو العبّاس أحمد بن الموقِفَ، وهو المعتضد بالله، يقوم من الأعراب كانوا يحملون الميرة إلى عسكر الخبيث، فقتل منهم جماعة، وأسّر الباقين، وغنم ما كان معهم، وأرسل إلى البصرة من أقام بها لأجل قطع الميرة.

وسير الموقِفَ رشيقاً، مولى أبي العبّاس، فأوقع بقوم من بني تميم كانوا يجلبون الميرة إلى الخبيث، فقتل أكثرهم، وأسّر جماعة منهم، فحمل الأسرى والرؤوس إلى الموقِية، فامر بهم الموقِفَ، فوقفوا بإزاء عسكر الزنج، وكان فيهم رجل يسفر بين صاحب الزنج والأعراب بجلب الميرة، فقطعت (٣٦٦/٧) يده ورجله، وألقي في عسكر الخبيث، وأمر بضرب أعناق الأسارى، وانقطعت الميرة بذلك عن الخبيث بالكلية، فأضرّ بهم الحصار، وأضعف أبدانهم، فكان يُسأل الأسير والمستامن عن عهده بالخبز فيقول: عهدي به مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ.

فلَمَّا وصلوا إلى هذا الحال رأى الموقِفَ أن يتابع عليهم الحرب ليزيدهم ضرراً وجهداً، فكثّر المستامنون في هذا الوقت، وخرج كثير من أصحاب الخبيث، فتفرّقوا في القرى والأنهار البعيدة في طلب القوت، فبلغ ذلك الموقِفَ، فأمر جماعة من قوّاد غلمانه السودان بقصد تلك المواضع ودعوة من بها إليه، فمن أبى قتلوه، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأتاه أكثر منهم.

وفيها سارت سرية بصقالية مقدمها رجل يُعرف بأبي الشور، فلقبهم جيش الروم، فأصيب المسلمون كلهم غير سبعة نفر، وعُزل الحسن بن العباس عن صقالية، وولّيتها محمد بن الفضل، فبث السرايا في كل ناحية من صقالية وخرج هو في حشد وجمع عظيم، فسار إلى مدينة قطنية فأهلك زرعها، ثم رحل إلى أصحاب الشلندية فقاتلهم، فأصاب فيهم فأكثر القتل، ثم رحل إلى طبرمين فأفسد زرعها، ثم رحل فلقى عساكر الروم، فاقتتلوا، فانهزم الروم، وقُتل أكثرهم فكانت عدة القتلى ثلاثة آلاف قتيل، ووصلت رؤوسهم إلى بلرم.

ثم سار المسلمون إلى قلعة كان الروم بنوها عن قريب، وسبوا مدينة الملك، فملكها المسلمون عنوة، وقتلوا مقاتلتها، وسبوا من فيها.

ذكر عدة حوادث

فيها سار عمرو بن الليث إلى فارس لحرب عاملها محمد بن الليث عليها، فهزمه عمرو، واستباح عسكره، ونجا محمد، ودخل عمرو إصطخر، فنهبا وأصحابه، ووجه في طلب محمد، فظفر به، وأخذه أسيراً، ثم سار إلى شيراز فأقام بها. (٣٧١/٧)

وفيها زلزلت بغداد في ربيع الأول، ووقع بها أربع صواعق.

وفيها زحف العباس بن أحمد بن طولون لحرب أبيه، فخرج إليه أبوه إلى الإسكندرية، فظفر به، وردّه إلى مصر، فرجع معه إليها، وقد تقدّم خبره سابقاً.

وفيها أوقع أخو شركب بالخجستاني وأخذ أمه.

وفيها وثب ابن شيب بن الحسين، فأسر عمر بن سبيما عامل حلوان.

وفيها انصرف أحمد بن أبي الأصيح من عند عمرو بن الليث، وكان عمرو قد أنفذه إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، فقدم معه بمال، فأرسل عمرو إلى الموفق من المال ثلاثمائة دينار، وخمسين مئاً مسكاً، وخمسين مئاً عنبراً، ومائتي من غود، وثلاثمائة ثوب وشي، وآنية ذهب وفضة، ودواب، وغلماً با بقمه مائتي ألف دينار.

وفيها ولي كَيْغَلُ الخليل بن رمال حلوان، فنالهم بالماره بسبب عمر ابن سيماء وأخذهم بجريرة ابن شيب، وضمنوا له خلاص عمر وإصلاح ابن شيب.

وفيها كانت وقعة بين أذوتكين بن أساتكين وبين أحمد بن عبد العزيز ابن أبي دلف، فهزمه أذوتكين، وغلّبه على قم. (٣٧٢/٧)

وروى محمد بن مهدي هرة، وخطب لمحمد بن طاهر بمرور هرة، فقصد عمرو بن الليث، فحاربه، فهزمه، واستخلف عمرو بمرور محمد بن سهل بن هاشم، وعاد عنها، وخرج شركب إلى بيكنة، واستعان بإسماعيل بن أحمد الساماني، فأمدّه بعسكره، فعاد إلى مرو، فأخرج عنها محمد بن سهل، وأغار على أهل البلد، وخطب لعمرو بن الليث، وذلك في شعبان سنة إحدى وسبعين [ومائتين].

وقد الموفق تلك السنة أعمال خراسان محمد بن طاهر، وكان ببغداد، فاستخلف محمد على أعماله رافع بن هرثمة، ما خلا ما وراء النهر فإنه أقر عليه نصر بن أحمد، ووردت كتب الموفق إلى خراسان بذلك، وبغزو عمرو بن الليث ولعنه، فسار رافع إلى هرة وبها محمد بن مهدي، خليفة أبي طلحة شركب، فقتله يوسف بن معبد وأقام بهرة، فلما وافاه رافع استأمن إليه يوسف فأمنه وعفا عنه، فاستعمل على هرة مهدي بن محسن، (٣٦٩/٧) فاستمد رافع إسماعيل بن أحمد، فسار إليه بنفسه في أربعة آلاف فارس، واستقدم رافع أيضاً علي بن الحسين التروزي، فقدم عليه، فساروا باجمعهم إلى شركب، وهو بمرور، فحاربوه فهزموه، وعاد إسماعيل إلى محازل (٩) وذلك سنة اثنتين وسبعين ومائتين، فسار شركب إلى هرة، فطابقه مهدي وخالف رافعاً، فقصدتهما رافع فهزمهما.

وأما شركب فإنه لحق بعمرو بن الليث؛ وأما مهدي فإنه اختفى في سرب، فذل عليه رافع، فأخذه وقال له: تبا لك يا قليل الوفاء! ثم عفا عنه وخلص سبيله، وسار رافع إلى خوارزم سنة اثنتين وسبعين [ومائتين]، فجبي أموالها ورجع إلى نيسابور.

ذكر الحوادث بالأندلس وإفريقية

في هذه السنة سار محمد بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، جيشاً مع ابنه المنذر إلى المخالفين عليه، فقصد مدينة سرقسطة، فأهلك زرعها، وخرّب بلدها، وافتتح حصن روطه، فأخذ منه عبد الواحد الروطي، وهو من أشجع أهل زمانه، وتقدّم إلى دير تروجة، وبلد محمد بن مركب بن موسى، فهتكهما بالفارّة، وقصد مدينة لاردة وقُرطاجنة فكان فيها إسماعيل بن موسى، فحاربه، فأذعن إسماعيل بالطاعة، وترك الخلاف وأعطى رهايته على ذلك، (٣٧٠/٧) وقصد مدينة أنقرة (٩) وهي للمشركين، فافتتح هنالك حصوناً وعاد.

وفيها أوقع إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بأهل بلد الزاب، وكان قد حضر وجوههم عنده، فأحسن إليهم، ووصلهم، وكساهم، وحملهم، ثم قتل أكثرهم، حتى الأطفال، وحملهم على الغجل إلى حفرة فالقاهم فيها.

وفيها وجّه عمرو بن الليث قائداً بأمر أبي أحمد إلى محمد بن عبيد الله الكردي، فأسره القائد وحمله إليه.

ورأى الموقّ ما كان يتعدّر عليه من العبور إلى الزنج في الأوقات التي تهبّ فيها الرياح لتحرك الأمواج، فعزم على أن يوسّع لنفسه ولأصحابه موضعاً في الجانب الغربي، فأمر بقطع النخل وإصلاح المكان وأن يعمل له الخنادق والسور ليأمن التّيات، وجعل حماية العاملين فيه نوباً على قوّاده.

وفيها، في ذي القعدة، خرج بالشام رجل من ولد عبد الملك بن صالح الهاشمي يقال له بكّار بين سلميّة وحلب وجمص، فدعا لأبي أحمد، فحاربه ابن عباس الكلابي، فانهزم الكلابي، فوجّه إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون قائداً يقال له يوذر في عسكر، فرجع وليس معه كبير أمر.

وفيها أظهر لؤلؤ الخلاف على مولاة أحمد بن طولون.

وفيها قُتل أحمد بن عبد الله الخُجّستاني في ذي الحجّة، قتله غلام له.

وفيها قتل أصحاب أبي الساج محمد بن علي بن حبيب اليشكري بالقرية، بناحية واسط، ونُصب رأسه ببغداد.

وفيها حارب محمد بن كيجور علي بن الحسين كفتمر، فأسر كفتمر ثم أطلقه، وذلك في ذي الحجّة.

وفيها سار أبو المغيرة المخزومي إلى مكّة، وعاملها هارون بن محمد الهاشمي، فجمع هارون جمعاً احتمى بهم، فسار المخزومي إلى سُماش فغور ماءه، وإلى جُدّة فنهب الطعام، وأحرق بيوت أهلها، فصار الخبز بمكّة أوقيان بدرهم.

وفيها خرج ملك الروم المعروف بابن الصّقلبيّة، فتنازل ملطّية، فأعانهم أهل مرّعش والحدّث، فانهزم ملك الروم. (٣٧٣/٧)

وغزا الصّافّة، من ناحية الثغور الشاميّة، الفرغاني، عامل ابن طولون فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً، وغنم الناس، فبلغ السهم أربعين ديناراً.

وحجّ بالناس فيها هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمي، وابن أبي الساج على الأحداث والطريق.

وفيها مات محمد بن عبد الله بن عبد الحكم البصري، الفقيه المالكي وكان قد صحب الشافعي، وأخذ عنه العلم. (٣٧٤/٧)

سنة تسع وستين ومائتين

ذكر أخيار الزنج

وفي هذه السنة رُمي الموقّ بسهم في صدره؛ وكان سبب ذلك أن يهود لما هلك طمع العلوي في ما له من الأموال، وكان قد صحّ عنده أن ملكه قد حوى مائتي ألف دينار، وجوهرًا، وقصّة، فطلب ذلك، وأخذ أهله وأصحابه فضربهم، وهدم أبيته طمعاً في المال، فلم يجد شيئاً، فكان فعله ممّا أفسد قلوب أصحاب عليه،

والحّ الموقّ على الخبيث بالحرب، وهدم أصحابه من السور ما أمكنهم، ودخلوا المدينة وقتلوا فيها، وانتهبوا إلى داري ابن سمعان وسليمان بن جامع، (٣٧٦/٧) فهدموا ونهبوا ما فيها، وانتهبوا إلى سوقيّة للخبيث، سمّاها الميمونة فهدمت وأُخربت، وهدموا دار الحيّاتي، وانتهبوا ما كان فيها من خزائن الفاسق، سهم في صدره فقتله، وقطع أصحاب الموقّ القنطريّين ورجعوا.

ونظر الموقّ فرأى أن نزوله بالجانب الغربي لا يأمن عليه حيلة الزنج وصاحبهم، وانتهاز فرصة، لكثرة الأدغال، وصعوبة المسالك، وأن الزنج أعرف بتلك المضائق وأجرأ عليها من أصحابه، فترك ذلك، وجعل قصده إلى هدم سور الفاسق وتوسعة الطريق والمسالك، فأمر بهدم السور من ناحية النهر المعروف بمكني، وباشر الحرب بنفسه، واشتدّ القتال، وكثر القتل والجراح من الجانبين، ودام ذلك أياماً عدّة.

وكان أصحاب الموقّ لا يستطيعون الولوج لقنطريّين كانتا في نهر مكني، كان الزنج يعبرون عليهما وقت القتال، فيأتون أصحاب الموقّ من وراء ظهورهم فينالون منهم، فعمل الحيلة في إزالتها، فأمر أصحابه بقصدهما عند اشتغال الزنج وغفلتهم عن حراستهما، وأمرهم أن يُعدّوا الفؤوس والمناشير، وما يحتاجون إليه من الآلات، فقصدوا القنطرة الأولى نصف النهار، فأتاهم الزنج لمنعهم، فاقتلوا، فانهزم الزنج، وكان مقدّمهم أبو الندى، فأصابه سهم في صدره فقتله، وقطع أصحاب الموقّ القنطريّين ورجعوا.

ختادق في مواضع عدّة تمنعهم عن دخول المدينة، ففعل ذلك؛ فرأى الموفق أن يجعل قصده لطم الخنادق، والأنهار، والمواضع المغوّرة، فدام ذلك، فحامى عنه الخيباء، ودامت الحرب، ووصل إلى الفريقين من القتل والجراح أمر عظيم، وذلك لتقارب ما بين الفريقين.

فلما رأى شدة الأمر من هذه الناحية قصد لإحراق دار الخبيث، والهجوم عليها من دجلة، فكان يعوق عن ذلك كثرة ما أعد الخبيث لها من المقاتلة والحصاة عن داره، فكانت الشدا إذا قربت من قصره رُميت من فوق القصر بالسهام، والحجارة من المنجنيق والمقلاع، وأذيب الرصاص وأفزع عليهم، فتعذّر إحراقها لذلك، فأمر الموفق أن تُسقف الشدا بالأخشاب، ويُعمل عليها الجبس ويُطلى بالأدوية التي تمنع النار من إحراقها، ففرغ منها، ورتّب فيها أنجاد أصحابه، ومن التفاطين جمعاً كثيراً.

واستأمن إلى الموفق محمد بن سميان، كاتب الخبيث، وكان أوثق أصحابه في نفسه، وكان سبب استئمانه أن الخبيث أطلعه على أنه عازم على الخلاص وحده بغير أهل ولا مال، فلما رأى ذلك من عزمه أرسل يطلب الأمان، فأمنه الموفق وأحسن إليه، وقيل: كان سبب خروجه أنه كان كارهاً لصحبة الخبيث، مُطعلاً على كضره وسوء باطنه، ولم يمكنه التخلص منه إلى الآن ففارقه، وكان خروجه عاشر شعبان.

فلما كان الغد بكرّ الموفق إلى محاربة الخيباء، فأمر أبا العباس بقصد دار محمد الكرنابي، وهي بإزاء دار الخبيث، وإحراقها وما يليها من منازل قواد الزنج، ليشغلهم بذلك عن حماية دار الخبيث، وأمر المرتبين في الشدا المطلية (٣٧٩/٧) بقصد دار الخبيث وإحراقها، ففعلوا ذلك، وألصقوا شذواتهم بسور قصره، وحاربهم الفجرة أشدّ حرب، ونضحوهم بالنيران، فلم تعمل شيئاً، وأحرق من القصر الرواشين والأبنية الخارجية، وعملت النار فيها، وسلم الذين كانوا في الشدا مما كان الخيباء يرسلونه عليهم بالظلال التي كانت في الشدا، وكان ذلك سبباً لتمكيثهم من قصره.

وأمر الموفق الذين في الشدا بالرجوع، فرجعوا، فأخرج من كان فيها ورتّب غيرهم، وانتظر إقبال المدّ وعلوه، فلما أقبل عادت الشدا إلى قصره، وأحرقوا بيوتاً منه كانت تنشر على دجلة، وأضرمت النار فيها، واتصلت، وقويت، فأعجلت الخبيث ومن كان معه عن التوقّف على شيء مما كان له من الأموال والذخائر وغير ذلك، فخرج هارباً وتركه كلّ.

وعلا غلمان الموفق قصره مع أصحابهم، فانتهبوا مالم تأت النار عليه من الذهب والفضة والحلي وغير ذلك، واستنقذوا جماعة من النساء اللواتي كان الخبيث يأنس بهنّ ممّن كان استرقهنّ، ودخلوا دوره ودور ابنه النكلاي، فأحرقوها جميعاً، وفرح

وتقدّموا إلى الجامع ليهدموه، فاشتدّت محاماة الزنج عنه، فلم يصل إليه أصحاب الموفق لأنّه كان قد خلص مع الخبيث نخبة أصحابه وأرباب البصائر، فكان أحدهم يُقتل، أو يُجرح، فيجذبه الذي إلى جنبه ويقف مكانه.

فلما رأى الموفق ذلك أمر أبا العباس بقصد الجامع من أحد أركانه بشجعان أصحابه، وأضاف إليهم الفعلة للهدم، ونصب السلايم، ففعل ذلك، وقاتل عليه أشدّ قتال، فوصلوا إليه، فهدموه، فأخذ منبره، فأثني به الموفق؛ ثمّ عاد الموفق لهدم السور فأكثر منه، وأخذ أصحاب دواوين الخبيث وبعض خزائنه، فظهر للموفق أمارات الفتح، فإنهم لعلّ ذلك إذ وصل سهم إلى الموفق فأصابه في صدره، رماه به روميّ كان مع صاحب الزنج، اسمه قرطاس، وذلك لخمس بقين من جمادي الأولى، فستر الموفق ذلك، وعاد إلى مدينته وبات، ثمّ عاد إلى الحرب على ما به من ألم الجراح ليستند بذلك قلوب أصحابه، فزاد في علته، وعظم أمرها، حتّى خيف عليه.

واضطرب العسكر والرعيّة وخافوا، فخرج من مدينته جماعة، وأتاه الخبر، وهو في هذه الحال، بحادث في سلطانه، فأشار عليه أصحابه ونفاته بأن يعود إلى بغداد ويخلف من يقوم مقامه، فأبى ذلك، وخاف أن يستقيم (٣٧٧/٧) من حال الخبيث ما فسد، واحتجب عن الناس مدّة، ثمّ برأ من علته، وظهر لهم، ونهض لحرب الخبيث، وكان ظهوره في شعبان من هذه السنة.

ذكر إحراق قصر صاحب الزنج

لما صحّ الموفق من جراحه عاد إلى ما كان عليه من محاربة العلوي، وكان قد أعاد [بناء] بعض الثلّم في السور، فأمر الموفق بهدم ذلك، وهدم ما يتصل به.

وركب في بعض العشايا، وكان القتال، ذلك اليوم، متصلاً ممّا يلي نهر منكي، والزنج مجتمعون فيه قد شغلوا بتلك الجهة، وظنّوا أنّهم لا يؤتون إلّا منها، فأثني الموفق ومعه الفعلة، وقرب من نهر منكي وقاتلهم، فلما اشتدّت الحرب أمر الذين بالشذوات بالمسير إلى أسفل نهر أبي الخصيب، وهو فارغ من المقاتلة والرجالة، فقدم أصحاب الموفق، وأخرجوا الفعلة، فهدموا السور من تلك الناحية، وصعد المقاتلة قتلوا في النهر مقتلة عظيمة، وانتهوا إلى قصور من قصور الزنج فأحرقوها، وانتهوا ما فيها، واستنقذوا عدداً كثيراً من النساء اللواتي كنّ فيها، وغنموها منها.

وانصرف الموفق، عند غروب الشمس، بالظفر والسلامة، وبكر إلى حربهم، وهدم السور، فأسرّع الهدم حتّى اتصل بدار الكلالي، وهي متصلة بدار الخبيث، فلما أعيت الخبيث الحيل أشار عليه عليّ بن أبان بإجراء الماء (٣٧٨/٧) على السباخ، وأن يحضر

طائفة من شرقي نهر أبي الخصيب، وطائفة من غربيّه، وأرسل معهما النجّارين والفُعلة لقطع القنطرة وما جُعِل (٣٨٢/٧) أمامها، وأمر بسفن مملوءة من القصب أن يُصَبَّ عليها النَّفط، وتدخل النهر، ويلقى فيها النار ليحترق الجسر، وفرّق جنده على الخبثاء ليمنعوهم عن معاونته من عند القنطرة.

فسار الناس إلى ما أمرهم به عاشر شوال، وتقدّمت الطائفتان إلى الجسر، فلقبهما انكلاي ابن الخبيث، وعليُّ بن أبان، وسليمان بن جامع، واشتبكت الحرب ودامت، وحامى أولئك عن القنطرة لعلهم يمسّ عليهم في قطعها من المضرة، وأنّ الوصول إلى الجسرين العظيمين اللذين يأتي ذكرهما سهل.

ودامت الحرب على القنطرة إلى العصر، ثم إن غلمان الموقّ أزالوا الخبثاء عنها، وقطعها النجّارون ونقضوها وما كان عمل من الأدقال الساج، وكان قطعها قد تعذّر عليهم، فادخلوا تلك السفن التي فيها القصب والنَّفط وأضرموها نارا، فوافقت القنطرة، فأحرقوها، فوصل النجّارون بذلك إلى ما أرادوا، وأمكن أصحاب الشذا دخول النهر، فدخلوا وقتلوا الزنج حتّى أجلوهم عن مواقفهم إلى الجسر الأوّل الذي يتلو هذه القنطرة، وقُتل من الزنج خلق كثير واستأمن بشر كثير، ووصل أصحاب الموقّ إلى الجسر المغرب، ففكره أن يدركهم الليل، فأمرهم بالرجوع فرجعوا، وكتب إلى البلدان أن يُقرأ على المنابر أن يؤتى المحسن على قدر إحسانه ليزدادوا جدّاً في حرب عدوّه، وأخرب من الغد برجين من حجارة كانوا عملوها ليمنعوا (٣٨٣/٧) الشذا من الخروج منه إذا دخلته، فلمّا أخربها سهل له ما أراد من دخول النهر والخروج منه.

ذكر انتقال صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي وإحراق سوفه
لمّا أحرقت دوره ومساكن أصحابه، ونُهبت أموالهم، انتقلوا إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، وجمع عياله حوله، ونقل أسواقه إليه، فضعف أمره بذلك ضعفاً شديداً ظهر للناس، فامتنعوا من جلب الميرة إليه، فانقطعت عنه كلّ مادة، وبلغ الرطل من خبز البرّ عشرة دراهم، فأكلوا الشعير وأصناف الحبوب.
ثم لم يزل بهم إلى أن كان أحدهم يأكل صاحبه إذا انفرد به، والقوي يأكل الضعيف، ثم أكلوا أولادهم.

ورأى الموقّ أن يُخرب الجانب الشرقي كما أخرب الغربي، فأمر أصحابه بقصد دار الهمدانيّ ومعهم الفُعلة، وكان هذا الموضع محصناً بجمع كثير، وعليه عرّادات ومِنْجنيقات وقسي، فاشتبكت الحرب، وكثرت القتل فانتصر أصحاب الموقّ عليهم، وقتلوهم وهزمهم، وانتهوا إلى السدار، فتعذّر عليهم الصعود إليها لعلو سورها، فلم تبلغه السلايل الطوال، فرمى بعض غلمان الموقّ بكلايب كانت معهم، فعلقوها في أعلام الخبيث وجذبوها،

الناس بذلك، وتحاربوا هم وأصحاب الخبيث على باب قصره، فكثرت القتل في أصحابه، والجراح والأسر، وفعل أبو العباس في دار الكرناي من النهب والهدم والإحراق مثل ذلك، وقطع أبو العباس، يومئذ، سلسلة عظيمة كان الخبيث قطع بها نهر أبي الخصيب ليمنع الشذا من دخوله، فحازها أبو العباس وأخذها معه. (٣٨٠/٧) وعاد الموقّ بالناس مع المغرب مظفراً، وأصيب الفاسق في ماله ونفسه وولده، ومن كان عنده من نساء المسلمين، مثل الذي أصاب المسلمين منه من الذعر والجلاء وتشتت الشمل والمصيبة، وجرح ابنه انكلاي في بطنه جراحة أشفى منها على الهلاك.

ذكر غرق نصير

وفي يوم الأحد لعشر بقين من شعبان غرق أبو حمزة نصير، وهو صاحب الشذوات.

وكان سبب غرقه أنّ الموقّ بكّر إلى القتال، وأمر نصيراً بقصد قنطرة كان الخبيث عملها في نهر أبي الخصيب، دون الجسرين اللذين كان اتّخذهما على النهر، وفرّق أصحابه من الجهات، فعجل نصير فدخل نهر أبي الخصيب، في أوّل المدّ، في عدّة من شذواته، فحملها الماء فالتصقها بالقنطرة، ودخلت عدّة من شذوات الموقّ مع غلمانهم [ممن] لم يأمرهم بالدخول، فصكّت شذوات نصير، وصكّت بعضها بعضاً، ولم يبق للملاحين فيها عمل.

ورأى الزنج ذلك فاجتمعوا على جانبي النهر، وألقى الملاحون أنفسهم في الماء خوفاً من الزنج، ودخل الزنج الشذوات، وقتلوا بعض المقاتلة، وغرق (٣٨١/٧) أكثرهم، وصابهم نصير، حتّى خاف الأسر، فخذف نفسه في الماء فغرق، وأقام الموقّ يومه يحاربهم، وينهبهم، ويحرق منازلهم، ولم يزل يومه مستعلياً عليهم.

وكان سليمان بن جامع ذلك اليوم من أشدّ الناس قتالاً لأصحاب الموقّ، وثبت مكانه، حتّى خرج عليه كمين للموقّ، فانهزم أصحابه، وجرح سليمان جراحة في ساقه، وسقط لوجه في موضع كان فيه حريق، وفيه بعض الجمر، فاحترق بعض جسده، وحمله أصحابه بعد أن كاد يؤمّر، وانصرف الموقّ سالماً ظافراً؛ وأصاب الموقّ مرضاً المفاسل، فبقي به شهر شعبان، وشهر رمضان، وإياماً من شوال، وأمسك عن حرب الزنج، ثم براً وتماثل فامر بإعداد آلة الحرب.

ذكر إحراق قنطرة العلوي صاحب الزنج

ولمّا اشتغل الموقّ بعلته أعاد الخبيث القنطرة التي غرق عندها نصير وزاد فيها وأحكمها، ونصب دونها أدقال ساج، والبسها الحديد، وسكر أمام ذلك سيكراً من حجارة ليضيق المدخل على الشذا وتحثّ جرية الماء في النهر، فندب الموقّ أصحابه، وسير

الوقعة آيماً، ثم رأى معاودة هذا الموضع لما رأى من حصاته وشجاعة من فيه وأنه لا يقدر على ما بينه وبين حرى كور إلا بعد إزالة هؤلاء، فأعد الآلات، ورتب أصحابه، وقصده وقاتل من فيه، وأخلت الشذوات النهر واشتدت الحرب ودامت.

وأمد الخبيث أصحابه بالمهليّ وسليمان بن جامع فسي جيشهما، فحملوا على أصحاب الموفق حتى الحقوهم بسفنههم، وقتلوا منهم جماعة، فرجع الموفق ولم يبلغ منهم ما أراد، وتبين له أنه كان ينبغي أن يقاتلهم من عدة وجوه لتخف وطأتهم على من يقصد هذا الموضع، ففعل ذلك، وفرق أصحابه على جهات أصحاب الخبيث، وسار هو إلى جهة النهر الغربي، وقاتل من فيه.

وطمع الزنج بما تقدّم من تلك الوقعة، فصدّقهم أصحاب الموفق القتال، (٣٨٦/٧) فهزموهم، فولّوا منهزمين وتركوا حصنهم في أيدي أصحاب الموفق، فهدموا، وغنموا ما فيه، وأسروا، وقتلوا خلقاً لا يحصى، وخلصوا من هذا الحصن خلقاً كثيراً من النساء والصبيان، ورجع الموفق إلى عسكره بما أراد.

ذكر استيلاء الموفق على مدينة صاحب الزنج الغربية

لما هدم الموفق دور الخبيث أمر بإصلاح المسالك لتتسع على المقاتلة الطريق للحرب، ثم رأى قلع الجسر الأوّل الذي على نهر أبي الخصيب، لما في ذلك من منع معاونة بعضهم بعضاً، وأمر بسفينة كبيرة أن تملأ قصباً ويجعل فيه النفط، ويوضع في وسطها دقل طويل يمنعها من مجاوزة الجسر إذا التصقت به، ثم أرسلها عند غفلة الزنج وقوة المد، فوافت الجسر، وعلم بها الزنج، فأثرتها وطموها بالحجارة والتراب، ونزل بعضهم في الماء فنفقها فغرقت وكان قد احترق من الجسر شيء يسير، فأطفأه الزنج.

فبعد ذلك اهتم الموفق بالجسر، فندب أصحابه، وأعدّ النفاطين والفعلة والنفوس، وأمرهم بقصده من غربيّ النهر وشرقيّه، وركب الموفق في أصحابه، وقصد فوهة نهر أبي الخصيب، وذلك منتصف شوال سنة تسع وستين [ومائتين]. فسبق الطائفة التي في غرب النهر، فهزم الموكلين على الجسر، وهما سليمان بن جامع وانكلاي، ولد الخبيث، وأحرقوه. (٣٨٧/٧)

وأتى بعد ذلك الطائفة الأخرى، ففعلوا بالجانب الشرقيّ مثل ذلك، وأحرقوا الجسر، وتجاوزوه إلى جانب حظيرة كانت تعمل فيها سُميريّات الخبيث وآلاته، واحترق ذلك عن آخره، إلا شيئاً يسيراً من الشذوات والسُميريّات كانت في النهر، وقصدوا سجناً للخبيث، فقاتلهم الزنج عليه ساعة من النهار، ثم غلبهم أصحاب الموفق عليه، فأطلقوا من فيه، وأحرقوا كل ما مروا به إلى دار مُصلح، وهو من قدماء أصحابه، فدخلوها، فنهبوا وما فيها، وسبوا نساءه وولده، واستنقذوا خلقاً كثيراً، وعاد الموفق وأصحابه

تساقطت الأعلام منكوسة، فلم يشكّ المقاتلة عن الدار في أن أصحاب الموفق قد ملكوها، فانهزموا لا يلوي أحد منهم على صاحبه، فأخذها أصحاب الموفق، وصعد النفاطون وأحرقوها وما كان عليها من المجانيق والعرادات، ونهبوا ما كان فيها من المتاع والآلات، وأحرقوا ما كان حولها (٣٨٤/٧) من الدور، واستنقذوا ما كان فيها من النساء، وكنّ عالماً كثيراً من المسلمات، فحملن إلى الموقفة، وأمر الموفق بالاحسان إليهن.

واستأن يومئذ من أصحاب الخبيث، وخاصته الذي يلون خدمته، جماعة كثيرة، فأمنهم الموفق، وأحسن إليهم، ودلت جماعة من المستأمنة الموفق على سوق عظيمة كانت للخبيث، متصلة بالجسر الأوّل، تُسعى المباركة، وأعلموه إن أحرقها لم يبق لهم سوق غيرها، وخرج عنهم تجارهم الذي كان بهم قوامهم، فعزم الموفق على إحراقها، وأمر أصحابه بقصد السوق من جانبيها، فقصدها، وأقبلت الزنج إليهم، فتحاربوا أشدّ حرب تكون، واتصلت أصحاب الموفق إلى طرف من أطراف السوق وألقوا فيه النار فاحترق واتصلت النار.

وكان الناس يقتلون، والنار محيطه بهم، واتصلت النار بظلال السوق فاحترقت وسقطت على المقاتلة، واحترق بعضهم، فكانت هذه حالهم إلى مغيب الشمس، ثم تحاجزوا، ورجع أصحاب الموفق إلى عسكرهم، وانتقل تجار السوق إلى أعلى المدينة، وكانوا قد نقلوا معظم أمتعتهم وأموالهم من هذه السوق خوفاً من مثل هذه.

ثم إن الخبيث فعل بالجانب الشرقيّ من حفر الخنادق، وتغوير الطرق، مثل ما كان فعل بالجانب الغربيّ، بعد هذه الوقعة، واحترق خندقاً عريضاً حصّن به منازل أصحابه التي على النهر الغربيّ، فرأى الموفق أن يخرب باقي السور إلى النهر الغربيّ، ففعل ذلك بعد حرب طويلة في مدة بعيدة. (٣٨٥/٧)

وكان للخبيث في الجانب الغربيّ جمع من الزنج قد تحصنوا بالسور وهو منبع، وهم أشجع أصحابه، فكانوا يحامون عنه، وكانوا يخرجون على أصحاب الموفق، عند محاربتهم، على حرى كور وما يليه. وأمر الموفق أن يقصد هذا الموضع، ويخرب سور، ويخرج من فيه، فأمر أبا العباس والقواد بالتأهب لذلك، وتقدّم إليهم، وأمر بالشذا أن تقرب من السور، ونشبت الحرب، ودامت إلى بعد الظهر، وهدم مواضع، وأحرق ما كان عليه من العرادات، وتحاجز الفريقان، وهما على السور، سوى هدم السور، وإحراق عرادات كانت عليه، فنال الفريقين من الجراح أمر عظيم.

وعاد الموفق، فوصل أهل البلاء والمجروحين على قدر بلائهم، وهكذا كان عمله في محاربته، وأقام الموفق بعد هذه

سالمين.

واستنفد في هذا اليوم نسوة من العلويات كنّ محبّسات في موضع قريب من داره التي كان يسكنها، فأحسن الموقّ إليهنّ، وحملهنّ، وفتح سجنًا (٣٨٩/٧) كان له وأخرج منه خلقاً كثيراً معنّ كان يحارب الخبيث، ففكّ الموقّ عنهم الحديد، وأخرج ذلك اليوم كلّ ما كان في نهر أبي الخصب من شذا، ومراكب بحريّة، وسفن صغار وكبار، وحراقات وغير ذلك من اصناف السفن إلى دجلة، فأباحها الموقّ أصحابه مع ما فيها من السلب، وكانت له قيمة عظيمة.

وأرسل انكلياي ابن الخبيث يطلب الأمان، وسأل أشياء، فأجابه الموقّ إليها، فعلم أبوه بذلك فعدله، وردّه عمّا عزم عليه، فعاد إلى الحرب ومباشرة القتال.

ووجّه سليمان بن موسى الشعرانيّ، وهو أحد رؤساء الخبيث، يطلب الأمان، فلم يجبه الموقّ إلى ذلك، لما كان قد تقدّم منه من سفك الدماء والفساد، فأصل به أنّ جماعة من رؤساء أصحاب الخبيث قد استرحشوا المنعة، فأجابه إلى الأمان، فأرسل الشذا إلى موضع ذكره، فخرج هو وأخوه وأهله وجماعة من قوّاده، فزاد الخبيث من يمنعه عن ذلك، فقاتلهم، ووصل إلى الموقّ، فزاد في الإحسان إليه وخلع عليه وعلى من معه، وأمر بإظهاره لأصحاب الخبيث ليزدادوا ثقة، فلم يرح من مكانه، حتى استأمن جماعة من قوّاد الزنج منهم، شبل بن سالم، فأجابه الموقّ، وأرسل إليه شذوات، فركب فيها هو وعياله وولده وجماعة من قوّاده، فلقبهم قوم من الزنج، فقاتلهم ونجا ووصل إلى الموقّ، فأحسن إليه ووصله بصلة جلييلة، وهو من قدماء أصحاب الخبيث، فعظم ذلك عليه وعلى أوليائه لما رأوا من رغبة (٣٩٠/٧) رؤسائهم في الأمان.

ولمّا رأى الموقّ مناصحة شبل، وجودة فهمه، أمره أن يكفيه بعض الأمور، فسار ليلاً في جمع من الزنج، لم يخالطهم غيرهم، إلى عسكر الخبيث يعرف مكانهم، وأوقع بهم، وأسر منهم وقتل وعاد، فأحسن إليه الموقّ وإلى أصحابه.

وصار الزنج بعد هذه الوقعة لا ينامون الليل، ولا يزالون يتحارسون للرعب الذي دخلهم، وأقام الموقّ ينفذ السرايا إلى الخبيث ويكيده، ويحول بينه وبين القوت، وأصحاب الموقّ يتدربون في سلوك تلك المضايق التي في أرضه ويوسعونها.

ذكر استيلاء الموقّ على مدينة الخبيث الشرقية

لمّا علم الموقّ أنّ أصحابه قد تمرّنوا على سلوك تلك الأرض وعرفوها، صمّم العزم على العبور إلى محاربة الخبيث من الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصب، فجلس مجلساً عامّاً، وأحضر قوّاد المستأينة وفرسانهم، فوقفوا بحيث يسمعون كلامه،

وانحاز الخبيث وأصحابه من هذا الجانب إلى الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصب، واستولى الموقّ على الجانب الغربيّ، غير طريق يسير على الجسر الثاني، فأصلحو الطريق، فزاد ذلك في رعب الخبيث وأصحابه، فاجتمع كثير من أصحابه وقوّاده، وأصحابه الذين كان يرى أنّهم لا يفارقونه، على طلب الأمان، فبذل لهم، فخرجوا أرسالاً، فأحسن الموقّ إليهم، وألحقهم بأمثالهم.

ثمّ إنّ الموقّ أحبّ أن يتمرّن أصحابه بسلوك النهر ليحرق الجسر الثاني، فكان يأمرهم بإدخال الشذا فيه وإحراق ما على جانبه من المنازل، فهرب إليه بعض الأيّام قائد للزنج، ومعه قاض كان لهم، ومبر، فقتل ذلك في أعضاد الخبيث، ثمّ إنّ الخبيث وكلّ بالجسر الثاني من يحفظه، وشحنه بالرجال، فأمر الموقّ بعض أصحابه بإحراق ما عند الجسر من سفن، ففعلوا حتّى أحرقوها، فزاد ذلك في احتياط الخبيث، وفي حراسته للجسر لئلاّ يحرق ويستولي الموقّ على الجانب الغربيّ فيهلك.

وكان قد تخلف من أصحابه جمع في منازلهم المقاربة للجسر الثاني، وكان أصحاب الموقّ يأتونهم ويقفون على الطريق الخفية، فلمّا عرفوا ذلك عزموا (٣٨٨/٧) على إحراق الجسر الثاني، فأمر الموقّ ابنه أبا العباس والقوّاد بالتجهّز لذلك وأمرهم أن يأتوا من عدّة جهات ليؤافوا الجسر، وأعدّ معهم الفؤوس والنقطة والآلات، ودخل هو في النهر بالشذوات، ومعه أنجاد غلمان، ومعه الآلات أيضاً، واشتبكت الحرب في الجانبين جميعاً بين الفريقين، واشتدّ القتال.

وكان في الجانب الغربيّ بإزاء أبي العباس ومن معه انكلياي ابن الخبيث وسليمان بن جامع، وفي الجانب الشرقيّ بإزاء راشد مولى الموقّ، ومنّ معه، الخبيث، والمهلبيّ في باقي الجيش، فدامت الحرب مقدار ثلاث ساعات، ثمّ انهزم الخبيث لا يلوون على شيء، وأخذت السيوف منهم، ودخل أصحاب الشذا النهر، ودنوا من الجسر فقاتلوا من يحميهم بالسهم، وأضرّموا ناراً.

وكان من المنهزمين سليمان وانكلياي، وكانا قد أُنخِذا بالجراح، فوافيا الجسر والنار فيه، فحالت بينهما وبين العبور، وألقيا أنفسهما في النهر ومنّ معهما، فغرق منهم خلق كثير، وأفلت انكلياي وسليمان بعد أن أشفيا على الهلاك، وقطع الجسر وأحرق، وتفرّق الجيش في مدينة الخبيث في الجانبين، فأحرقوا من دورهم وقصورهم وأسواقهم شيئاً كثيراً، واستنقذوا من النساء والصبيان ما لا يحصى، ودخلوا الدار التي كان الخبيث يسكنها بعد إحراق قصره، وأحرقوها ونهبوا ما كان فيها ممّا كان سلم معه، وهرب الخبيث ولم يقف ذلك اليوم على مواضع أمواله.

وأثاته، فنهبوا ذلك أجمع، وأخذوا حُرْمَهُ وأولاده، وكانوا عشرين ما بين صبيّة وصبي، وسار الخبيث هارباً نحو دار المهلبّي لا يلوي على أهل ولا مال، وأحرق داره، وأتّى الموقّق بأهل الخبيث وأولاده، فسبّهم إلى بغداد.

وكان أصحاب أبي العباس قد قصدوا دار المهلبّي، وقد لجأ إليها خلق كثير من المنهزمين، فغلبوهم عليها، واشتغلوا بنهبها، وأخذوا ما فيها من حُرْم المسلمين وأولادهم، وجعل من ظفر منهم بشيء حمله إلى سفينته، ففعلوا في الدار ونواحيها، فلمّا رأهم الزنج كذلك رجعوا إليهم فقتلوا فيهم مقتلة يسيرة.

وكان جماعة من غلمان الموقّق الذين قصدوا دار الخبيث تشاغلو بحمل الغنائم إلى السفن أيضاً، فأطمع ذلك الزنج فيهم، فأكبوا عليهم فكشفوهم، (٣٩٣/٧) وأتبعوا آثارهم، وثبت جماعة من أبطال الموقّق، فردّوا الزنج حتّى تراجع الناس إلى موافقهم، ودامت الحرب إلى العصر، فأمر الموقّق غلمانه بصدق الحملة عليهم، ففعلوا، فانهزم الخبيث وأصحابه، وأخذتهم السيوف حتّى انتهوا إلى داره أيضاً، فرأى الموقّق عند ذلك أن يصرف أصحابه إلى إحسانهم، فردّهم وقد غنموا، واستنقذوا جمعاً من النساء المأسورات كنّ يخرجن ذلك اليوم أرسالاً فيحملن إلى الموقّية.

وكان أبو العباس قد أرسل في ذلك اليوم قائداً، فأحرق ثمّ يبادر كانت ذخيرة للخبيث، وكان ذلك ممّا أضعف به الخبيث وأصحابه، ثمّ وصل إلى الموقّق كتاب لؤلؤ غلام ابن طولون في القدوم عليه، فأمره بذلك، وأخّر القتال إلى أن يحضر.

ذكر خلاف لؤلؤ علي مولا أحمد بن طولون

وفيها خالف لؤلؤ غلام أحمد بن طولون، صاحب مصر، على مولا أحمد بن طولون، وفي يده حمص، وقُسرين، وحلب، وديار مصر، من الجزيرة وسار إلى بّاليس فنهبها، وكتب الموقّق في المسير إليه، واشترط شروطاً، فأجابه أبو أحمد إليها، وكان بالرّقة، فسار إلى الموقّق فنزل قرقسيا، وبها ابن صفوان العُقيليّ، فحاربه، وأخذها منه، وسلّمها إلى أحمد بن مالك ابن طُوق، وسار إلى الموقّق، فوصل إليه وهو يقاتل الخبيث العلويّ. (٣٩٤/٧)

ذكر مسير المعتمد إلى الشام وعوده من الطريق

وفيها سار المعتمد نحو مصر، وكان سبب ذلك أنّه لم يكن له من الخلافة غير اسمها، ولا ينفد له توقّع لا في قليل ولا كثير، وكان الحكم كلّهُ للموقّق، والأموال تجبى إليه، فضجر المعتمد من ذلك، وأنف منه، فكتب إلى أحمد بن طولون يشكو إليه حاله سراً من أخيه الموقّق، فأشار عليه أحمد باللاحاق به بمصر، ووعده النصرة، وسبّر عسكرياً إلى الرّقة ينتظر وصول المعتمد إليهم، فاغتنم

ثمّ كلّهم فعرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل، وانتهاك المحارم، ومعصية الله، عزّ وجلّ، وأنّ ذلك قد أحلّ له دماءهم، وأنّه غفر لهم زلّتهم ووصلهم، وأنّ ذلك يوجب عليهم حقّه وطاعته، وأنهم لن يُرضوا ربّهم وسلطانهم بأكثر من الجّد في مجاهدة الخبيث، وأنهم ليعرفون مسالك العسكر، ومضايق مدينته، ومعاقبها التي أعدّها، فهم أولى (٣٩١/٧) أن يجتهدوا في الوُلُوج على الخبيث، والوغل إلى حصونه، حتّى يمكنهم الله منه، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد، ومن قصّر منهم فقد أسقط منزلته وحاله.

فارتفعت أصواتهم بالدعاء له، والاعتراف بإحسانه، وبما هم عليه من المناصحة والطاعة، وأنهم يبذلون دماءهم في كلّ ما يقرّبهم منه، وسأله أن يفردهم بناحية ليظهر من نكايتهم في العدو ما يعرف به إخلاصهم وطاعتهم، فأجابهم إلى ذلك، وأثنى عليهم ووعدهم، وكتب في جمع السفن والمعابر من دجلة والبطيحة ونواحيها لبضيّفها إلى ما في عسكره، إذ كان ما عنده يقصر عن الجيش لكثرتّه، وأحصى ما في الشذا، والسُميريّات، وأنواع السفن، فكانوا زهاء عشرة آلاف ملاح ممّن يُجرى عليه الرزق من بيت المال مشاهرة، سوى سفن أهل العسكر التي يُحمل فيها الميرة، ويركبها الناس في حوائجهم، وسوى ما كان لكلّ قائد من السُميريّات، والحربيّات، والزواريق.

فلمّا تكاملت السفن تقدّم إلى ابنه أبي العباس، وقوّاده بقصد مدينة الخبيث الشرقيّة من جهاتها، فسبّر ابنه أبا العباس إلى ناحية دار المهلبّي، أسفل العسكر، وكان قد شحنها بالرجال والمقاتلين، وأمر جميع أصحابه بقصد دار الخبيث وإحراقها، فإن عجزوا عنها اجتمعوا على دار المهلبّي، وسار هو في الشذا، وهي مائة وخمسون قطعة، فيها أنجاد غلمانه، وانتخب من الفرسان والرّجاله عشرة آلاف، وأمرهم أن يسيروا على جانبيّ النهر معه إذا سار، وأن يبقوا معه إذا وقف، ليتصرّفوا بأمره.

وبكر الموقّق لقتال الفاسقين يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذي القعدة (٣٩٢/٧) سنة تسع وستين ومائتين، وكانوا قد تقدّموا إليهم يوم الاثنين وواقعوهم، وتقدّم كلّ طائفة إلى الجهة التي أمرهم بها، فلقبهم الزنج، واشتدّت الحرب، وكثر القتل والجراح في الفريقين، وحامى السّقّة عن الذي اقتصروا عليه من مدينتهم واستماتوا، وصبروا، فنصر الله أصحاب الموقّق، فانهزم الزنج، وقُتل منهم خلق كثير، وأسر من أنجادهم وشجعانهم جمع كثير، فأمر الموقّق فضربت أعناق الأسرى في المعركة، وقصد بجمع الدار التي يسكنها الخبيث، وكان قد لجأ إليها، وجمع أبطال أصحابه للمدافعة عنها، فلم يُغنوا عنها شيئاً، وانهزموا عنها وأسلموها، ودخلها أصحاب الموقّق وفيها بقايا ما كان سلم للخبيث من ماله وولده

ذكر عدة حوادث

في المحرم من هذه السنة قطع الأعراب الطريق على قافلة من الحاج بين نَوْر وسَمِيرَاء، فسلبوهم، وساقوا نحواً من خمسة آلاف بعير بأحمالها وأناساً كثيراً.

وفيها انخسف القمر، وغاب منخفضاً، وانكسفت الشمس فيه أيضاً آخر النهار، وغابت منكسفة، فاجتمع في المحرم كسوفان.

وفيها، فسي صفر، وثبت العامة ببغداد بإبراهيم الخليلي، فانتهبوا داره، وكان سبب ذلك أنَّ غلاماً له رمى امرأة بسهم فقتلها، فاستعدى السلطان عليه، فامتنع، ورمى غلامه الناس، فقتلوا جماعة، وجرحوا، فشارت بهم العامة، فقتلوا فيهم رجلين من أصحاب السلطان، ونهبوا منزله ودوابه، وخرج هارباً، فجمع محمد بن عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وكان نائب أبيه، دواب إبراهيم، وما أخذ له، فردّه عليه.

وفيها وجّه إلى أبي الساج جيش بعدما انصرف من مكة، فسيره إلى جُدّة، فأخذ للمخزومي مركبتين فيهما مال وسلاح.

وفيها وثب خلف صاحب أحمد بن طولون بالثغور الشامية وعامله عليها بازمار الخادم، مولى مُقلح بن خاقان، فحبسه، فوثب به جماعة فاستنقذوا بازمار، وهرب خلف، وتركوا الدُّعاء لابن طولون، فسار إليهم ابن طولون، ونزل أذنة، فاعتصم أهل طَرَسُوس بها، ومعهم بازمار، فرجع عنهم ابن طولون إلى حمص، ثم إلى دمشق، فأقام بها. (٣٩٧/٧)

وفيها قام رافع بن هرثمة بما كان الخُجُستاني غلب عليه من مدن خراسان، فاجتنبى عدة من كُور خراسان خراجها لبضع عشرة سنة، فأفقر أهلها وأخربها.

وفيها كانت وقعة بين الحسينيين والحسينيين بالحجاز، والجعفرين، فقتل من الجعفرين ثمانية نفر، وخلصوا الفضل بن العباس العباسي عامل المدينة.

وفيها، في جمادى الآخرة، عقد هارون بن الموفق لابن أبي الساج على الأتبار وطريق الفرات والرحبة، ووَلَّى محمد بن أحمد الكوفة وسوادها، فلقى محمد الهيصم العجلي، فانهزم الهيصم.

ومنها توفي عيسى بن الشيخ بن الشليل الشيباني، ويده أرمينية، وديار بكر.

وفيها لعن المعتقد أحمد بن طولون في دار العامة وأمر بلعنه على المنابر، ووَلَّى إسحاق بن كنداجيق على أعمال ابن طولون، وفوّض إليه من باب الشَّمسِيّة إلى إفريقية، ووَلَّى شرطة الخاصة.

وكان سبب هذا اللعن أنَّ ابن طولون قطع خطبة الموفق،

المعتمد غيبة الموفق عنه، فسار في جمادى الأولى، ومعه جماعة من القواد، فأقام بالكُحَيْل يتصيد.

فلَمَّا سار إلى عمل إسحاق بن كنداجيق، وكان عامل الموصل وعامة الجزيرة، وثب ابن كنداجيق بمن مع المعتمد من القواد، فقبضهم، وهم نيزك، وأحمد بن خاقان، وخطارمش، فقيدهم، وأخذ أموالهم ودوابهم، وكان قد كتب إليه صاعد بن مخلد وزير الموفق عن الموفق، وكان سبب وصوله إلى قبضهم أنه أظهر أنه معهم في طاعة المعتمد، إذ هو الخليفة، ولقيهم لَمَّا صاروا إلى عمله، وسار معهم عدة مراحل، فلَمَّا قارب عمل ابن طولون ارتحل الأتباع والغلمان الذين مع المعتمد، وقواده، ولم يترك ابن كنداجيق أصحابه يرحلون، ثم خلا بالقواد عند المعتمد، وقال لهم: إنكم قاربتم عمل ابن طولون والأمر أمره، وتصيرون من جنده، وتحت يده، أفترضون بذلك، وقد علمتم أنه كواحد منكم؟

وجرت بينهم في ذلك مناظرة، حتّى تعالى النهار، ولم يرحل المعتمد ومن معه، فقال ابن كنداجيق: قوموا بنا تتناظر في غير حضرة أمير المؤمنين؛ فأخذ (٣٩٥/٧) بأيديهم إلى خيمته لأنّ مضاربهم كانت قد سارت، فلَمَّا دخلوا خيمته قبض عليهم وقيدهم، وأخذ سائر من مع المعتمد من القواد فقيدهم، فلَمَّا فرغ من أمورهم مضى إلى المعتمد فعدله في مسيره من دار ملكه وملك آبائه، وفراق أخيه الموفق على الحال التي هو بها من حرب من يريد قتله، وقتل أهل بيته، وزوال ملكهم، ثمّ حمله والذين كانوا معه حتّى أدخلهم سامراً.

ذكر الحرب بين عسكر ابن طولون وعسكر الموفق بمكة

وفيها كانت وقعة مكة بين جيش لأحمد بن طولون وبين عسكر الموفق في ذي القعدة.

وكان سببها أنَّ أحمد بن طولون سَير جيشاً مع قائدين إلى مكة، فوصلوا إليها، وجمعوا الحنّاطين، والجزّارين، وفرّقوا فيهم مالا؛ وكان عامل مكة هارون بن محمد إذ ذاك بستان ابن عامر قد فارقه خوفاً منهم، فوافى مكة جعفر الناعودي في ذي الحجة في عسكر، وتلقاه هارون بن محمد في جماعة، فقوي بهم جعفر، والتقوا هم وأصحاب ابن طولون فاقتلوا، وأعان أهل خراسان جعفرًا، فقتل من أصحاب ابن طولون مائتي رجل، وانهزم الباقيون وسُلبوا وأخذت أموالهم، وأخذ جعفر من القائدين نحو مائتي ألف دينار، وأمن المصريين، والجزّارين، والحنّاطين، وقُرئ كتاب في المسجد الجامع بلعن ابن طولون، وسلم الناس وأموال التجار.

وأسقط اسمه من الطراز، فتقدم الموفق إلى المعتمد بلغه، ففعل
مكرهاً، لأن هوى المعتمد كان مع ابن طولون. (٣٩٨/٧)

وفيها كانت وقعة بين ابن أبي الساج والأعراب، فهزموه، ثم
بيّتهم فقتل منهم وأسر، ووجه بالرووس والأسرى إلى بغداد.

وفيها، في شوال، دخل ابن أبي الساج رجة مالك بن طوق،
بعد أن قاتله أهلها [فغلبهم] وقتلهم، وهرب أحمد بن مالك بن
طوق إلى الشام، ثم سار ابن أبي الساج إلى قريسييا فدخلها. وحج
بالتاس هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمي.

وفيها خرج محمد بن الفضل أمير صقلية في عسكر إلى ناحية
زُمطة، وبلغ العسكر إلى قطانية، فقتل كثيراً من الروم، وسبى وغنم،
ثم انصرف إلى بلّرم في ذي الحجة.

وفيها توفي أحمد بن محالد، مولى المعتصم، وهو من دُعاة
المعتزلة، وأخذ الكلام عن جعفر بن مبشر.

وفيها توفي سليمان بن حفص بن أبي عصفور الإفريقي، وكان
معتزلياً يقول بخلق القرآن، وأراد أهل القيروان، فسلم لذلك،
وصحب بشراً المرسي، وأبا الهذيل وغيرهما من المعتزلة. (٣٩٩/٧)

سنة سبعين ومائتين

ذكر قتل الخبيث صاحب الزنج

قد ذكرنا من حرب الزنج، وعود الموفق عنهم مؤيداً بالظفر،
فلما عاد عن قتالهم إلى مدينة الموفقية عزم على مناجزة الخبيث،
فأثابه كتاب لؤلؤ غلام ابن طولون يستأذنه في السير إليه، فأذن له
وترك القتال ينتظره ليحضر القتال، فوصل إليه ثالث المحرم من
هذه السنة في جيش عظيم، فأكرمه الموفق، وأنزله وخلع عليه
وعلى أصحابه ووصلهم، وأحسن إليهم، وأمر لهم بالأرزاق على
قدر مراتبهم، وأضعف ما كان لهم، ثم تقدم إلى لؤلؤ بالتأهب
لحرب الخبيث.

وكان الخبيث لما غلب على نهر أبي الخصيب، وقطعت
القناطر والجسور التي عليه، أحدث سكرًا في النهر من جانيه،
وجعل في وسط النهر باباً ضيقاً لئخذ جرية الماء فيه، فتمتّع الشذا
من دخوله في الجزر، ويتعذر خروجها منه في المد، فرأى الموفق
أن جريه لا يتهيأ إلا بقلع هذا السكر، فحاول ذلك، فاشتدت
محاربة الخبيث عليه، وجعلوا يزيدون كل يوم فيه، وهو متوسط
دورهم، والمروية تسهل عليهم، وتعظم على من أراد قلعه، فشرع
في محاربتهم بفرق بعد فريق من أصحاب لؤلؤ ليمترنوا على
قتالهم، ويقفوا على (٤٠٠/٧) المسالك والطرق في مدينتهم، فأمر

لؤلؤ أن يحضر في جماعة من أصحابه للحرب على هذا السكر،
ف فعل، فرأى الموفق من شجاعة لؤلؤ وإقدامه وشجاعة أصحابه ما
سرّه، فأمر لؤلؤ بصرفهم إشفاقاً عليهم، ووصلهم الموفق وأحسن
إليهم.

والج الموفق على هذا السكر، وكان يحارب المحامين عليه
بأصحابه وأصحاب لؤلؤ وغيرهم، والفعلة يعملون في قلعة،
ويحارب الخبيث وأصحابه في عدة وجوه، فيحرق مساكنهم،
ويقتل مقاتليهم، واستأمن إليه الجماعة، وكان قد بقي للخبيث
وأصحابه بقية من أرضين بناحية النهر الغربي، لهم فيها مزارع
وحصون وقنطرات، وبه جماعة يحفظونه، فسار إليهم أبو العباس،
وفرق أصحابه من جهاتهم، وجعل كميناً، ثم أوقع بهم فانهزموا،
فكلما قصدوا جهة خرج عليهم من يقاتلهم فيها، فقتلوا عن آخرهم
لم يسلم منهم إلا الشريد، فأخذوا من أسلحتهم ما أثقلهم حملة،
وقطع القنطرتين، ولم يزل الموفق على سيكرهم، حتى تهيأ له فيه ما
أحبّه في خرقه.

فلما فرغ منه عزم على لقاء الخبيث، فأمر بإصلاح السفن
والآلات للماء والظفر، وتقدم إلى أبي العباس ابنه أن يأتي الخبيث
من ناحية دار المهلب، وفرق العساكر من جميع جهاته، وأضاف
المستأمنة إلى شبل، وأمره بالجذب في قتال الخبيث، وأمر الناس أن
لا يزحف أحد حتى يحرك علماً أسود كان نصبه على دار الكرمانى
وحتى ينفخ في بوق بعيد الصوت.

وكان عبوره يوم الاثنين لثلاث بقين من المحرم، فاجعل بعض
الناس، وزحف نحوهم، فلقيه الزنج، فقتلوا منهم، وردّوهم إلى
مواقفهم، ولم (٤٠١/٧) يعلم سائر العسكر بذلك لكثرتهم، وتبعد
المسافة فيما بين بعضهم وبعض، وأمر الموفق بتحريك العلم
الأسود، والنفخ في البوق، فزحف الناس في البر والماء يتلو
بعضهم بعضاً، فلقيهم الزنج وقد حشدوا واجتروا، بما تهيأ لهم،
على من كان يسرع إليهم، فلقيهم الجيش بنيات صادقة، وبصائر
نافذة، واشتد القتال، وقتل من الفريقين جمع كثير، فانهزم أصحاب
الخبيث، وتبعهم أصحاب الموفق يقتلون ويأسرون، واختلط بهم
ذلك اليوم أصحاب الموفق، فقتل منهم ما لا يحصى عدداً، وغرق
منهم مثل ذلك، وحوى الموفق المدينة بأسرها، فغنمها أصحابه،
واستقذوا من كان بقي من الأسرى من الرجال، والنساء،
والصبيان، وظفروا بجمع عيال علي بن أبان المهلبى، وبأخويه :
الخليل، ومحمد، وأولادهما، وغير بهم إلى مدينة الموفقية.

ومضى الخبيث في أصحابه، ومعه ابنه اتكلاي، وسليمان بن
جامع، وقواد من الزنج وغيرهم، هارين، عامدين إلى موضع كان
الخبيث قد أعدّه ملجأ إذا غلب على مدينته، وذلك المكان على

النهر المعروف بالسفنياني، وكان أصحاب الموقف قد اشتغلوا بالنهب والإحراق، وتقدم الموقف في الشذا نحو نهر السفنياني، ومعه لؤلؤ وأصحابه، فظن أصحاب الموقف أنه رجع إلى مدينتهم الموقفية، فانصرفوا إلى سفنهم بما قد حووا، وانتهى الموقف ومن معه إلى عسكر الخبيث وهم منهزمون، وأتبعهم لؤلؤ في أصحابه، حتى عبر السفنياني فاقترح لؤلؤ بفرسه، وأتبعه أصحابه، حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقرنبري فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه فأوقعوا به وبين معه، (٤٠٢/٧) فهزمهم حتى عبر نهر السفنياني، ولؤلؤ في أثرهم، فاعتصموا بجبل وراءه، وانفرد لؤلؤ وأصحابه باتباعهم إلى هذا المكان في آخر النهار، فأمر الموقف بالانصراف فساد مشكوراً محموداً لفعله، فحملة الموقف معه، وجسد له من البر والكرامة ورفعة المنزلة ما كان مستحقاً له، ورجع الموقف فلم ير أحداً من أصحابه بمدينة الزنج، فرجع إلى مدينته واستبشر الناس بالفتح وهزيمة الزنج وصاحبهم.

ثم إن الزنج الذين انفردوا مع الخبيث حملوا على الناس حملة أزالوهم عن مواقعهم، ففتروا، فأحسن الموقف بفتورهم، فجد في طلب الخبيث وأمن، فتبعه أصحابه، وانتهى الموقف إلى آخر نهر أبي الخصيب، فلقىه البشير بقتل الخبيث، وأناه بشير آخر ومعه كف ذكر أنها كفه، فقوي الخبر عنده، ثم أناه غلام من أصحاب لؤلؤ يركض ومعه رأس الخبيث، فأدناه منه، وعرضه على جماعة من المستأينة فعرفوه، فخر لله ساجداً، وسجد معه الناس، وأمر الموقف برفع رأسه على قناة، فتأمله الناس، فعرفوه، وكثر الضجيج بالتحميد.

وكان مع الخبيث، لما أحيط به، المهلبى وحده، فولى عنه هارباً، وقصد (٤٠٤/٧) نهر الأمير فسألنى نفسه فيه يريد النجاة. وكان انكلياي قد فارق أباه قبل ذلك وسار نحو الديناري.

ورجع الموقف ورأس الخبيث بين يديه، وسليمان معه، وأصحابه إلى مدينته، وأناه من الزنج عالم كبير يطلبون الأمان فأمنهم، وانتهى إليه خير انكلياي والمهلبى، ومكانهما، ومن معهما من مقدمي الزنج، فبث الموقف أصحابه في طلبهم، وأمرهم بالتضييق عليهم، فلما أيقنوا أن لا ملجأ أعطوا بأيديهم، فظفر بهم وبين معهم، وكانوا زهاء خمسة آلاف، فأمر بالاستيثاق من المهلبى وانكلياي، وكان ممن هرب قرطاس الرومي الذي رمى الموقف بالسهم في صدره، فانتهى إلى رامهرمز، فعرفه رجل، فدل عليه عامل البلد، فأخذه وسيّره إلى الموقف فقتله أبو العباس.

وفيها أستاذن ذرمويه الزنجي إلى أبي أحمد، وكان ذرمويه من أنجاد الزنج وأبطالهم، وكان الخبيث قد وجه قبل هلاكه بمدة إلى موضع كثير الشجر والأدغال والأجام، متصل بالطيحة، وكان هو ومن معه يقطعون الطريق هنالك على السابلة في زواريق خفاف، فإذا طلبوا دخلوا الأنهار الصغار الضيقة واعتصموا بالأدغال، وإذا تعذر عليهم مسلك لضيقة حملوا سفنهم ولجؤوا إلى الأمكنة الوسيعة، ويعبرون على قرى الطيحة، ويقطعون الطريق، فظفر بجماعة من عسكر الموقف معهم نساء قد عادوا إلى منازلهم، فقتل الرجال، وأخذ النساء، فسألن عن الخبر، فأخبرته بقتل الخبيث وأسر أصحابه وقواده، ومصير كثير منهم إلى الموقف بالأمان، وإحسانه إليهم، فسقط في يده، ولم ير لنفسه ملجأ إلا طلب الأمان

وكان الموقف قد غضب على أصحابه بمخالفتهم أمره، وتركهم الوقوف حيث أمرهم، فجمعهم جميعاً، ووبخهم على ذلك، وأغلظ لهم، فاعتذروا بما ظنوه من انصرافه، وأنهم لم يعلموا بمسيره، ولو علموا ذلك لأسرعوا نحوه، ثم تعافدوا، وتحالفوا بمكانهم على أن لا ينصرف منهم أحد إذا توجهوا نحو الخبيث حتى يظفروا به، فإن أعيانهم أقاموا بمكانه حتى يحكم الله بينهم وبينه. وسألو الموقف أن يرّد السفن التي يعبرون فيها إلى الخبيث، لينقطع الناس عن الرجوع، فشكرهم وأثنى عليهم وأمرهم بالتأهب.

وأقام الموقف بعد ذلك إلى الجمعة يصلح ما يحتاج الناس إليه، وأمر الناس عشية الجمعة بالمسير إلى حرب الخشاء بكرة السبت، وطاف عليهم هو بنفسه يعرف كل قائد مركزه، والمكان الذي يقصده، وغدا الموقف يوم السبت للثلاثين خلثا من صفر، فعبر بالناس، وأمر برّد السفن، فردّت وسار يقدمهم إلى المكان الذي قدر أن يلقاهم فيه.

وكان الخبيث وأصحابه قد رجعوا إلى مدينتهم بعد انصراف الجيش عنهم، (٤٠٣/٧) وأملوا أن تطاول بهم الأيام وتندفع عنهم المناجزة، فوجد الموقف المتسرعين من فرسان غلمانه والرّجال قد سبقوا الجيش فأوقعوا بالخبيث وأصحابه وقعة هزموهم بها، وتفرقوا لا يلوي بعضهم على بعض، وتبعهم أصحاب الموقف يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم، وانقطع الخبيث في جماعة من حمة أصحابه وفيهم المهلبى، وفارقه ابنه انكلياي، وسليمان بن جامع، فقصد كل فريق منهم جمعاً كثيفاً من الجيش.

وكان أبو العباس قد تقدم، فلقى المنهزمين في الموضع المعروف بعسكر ربحان، فوضع أصحابه فيهم السلاح، ولقيهم

والصفحة عن جرمه، فارسل (٤٠٥/٧) يطلب الأمان، فاجابه الموفق إليه، فخرج وجميع من معه، حتى وافى عسكر الموفق، فأحسن إليهم وأمنهم.

فلما اطمان ذمومته اظهر ما كان في يده من الأموال والأمتعة، وردّها إلى أربابها ردّاً ظاهراً، فعلم بذلك حسن نيّته، فازداد إحسان الموفق إليه، وأمر أن يكتب إلى أمصار المسلمين بالنداء في أهل النواحي التي دخلها الزنج بالرجوع إلى أوطانهم، فصار الناس إلى ذلك، وأقام الموفق بالمدينة الموقفة ليأمن الناس بمقامه، وولّى البصرة، والأبلة، وكُور دجلة، رجلاً من قواده قد حمد مذهبه، وعلم حسن سيرته، يقال له العباس بن تركس، وأمره بالمقام بالبصرة، وولّى قضاء البصرة والأبلة وكُور دجلة محمد بن حماد.

وقدّم ابنه أبا العباس إلى بغداد، ومعه رأس الخيث لبراه الناس، فبلغها لأثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة.

وكان خروج صاحب الزنج يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقُتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين، وكانت أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وقيل في أمر الموفق وأصحاب الزنج أشعار كثيرة، فمن ذلك قول يحيى بن محمد الأسلمي:

أقول وقد جاء البشير بوقعة
جزى الله خير الناس للناس بعدما
أعزّت من الإسلام ما كان وأما
أبيح جملهم خير ما كان جزيا

تفرّد، إذ لم ينصر الله، ناصر
وتجلبد ملوك قد وهى بعد جزوه
وردة عمارات أزيلت وأخرست
وترجع أمصار أحييت وأخرقت
ويشفي صدور المسلمين بوقعة
ويُلى كتاب الله في كل مسجد
فأعرض عن أحبابه ونعيمه
وهي قصيدة طويلة، وقال غيره في هذا المعنى أيضاً شعراً كثيراً؛ انتضى أمر الزنج.

ذكر الظفر بالروم

وفي هذه السنة خرجت الروم في مائة ألف، فنزلوا على قلعة، وهي على ستة أميال من طرسوس، فخرج إليهم بازمار ليلاً، فبيتهم في ربيع الأول، فقتل منهم، فيما يقال، سبعين ألفاً، وقتل مقدمهم، وهو بطريق (٤٠٧/٧) البطارقة، وقتل أيضاً بطريق الفندين، وبطريق الناطليق، وأفلت بطريق فرّة وبه عدة جراحات، وأخذ لهم سبعة صلبان من ذهب وفضة؛ وصليهم الأعظم من ذهب مكمل

ذكر وفاة الحسن بن زيد وولاية أخيه محمد

وفيها توفي الحسن بن زيد العلوي، صاحب طبرستان، في رجب، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام، وولّى مكانه أخوه محمد بن زيد.

وكان الحسن جواداً امتدحه رجل فأعطاه عشرة آلاف درهم، وكان متواضعاً لله تعالى.

حكى عنه أنه مدحه شاعراً فقال: الله فرد، وابن زيد فرد، فقال: بفيك الحجر، يا كذاب، هلا قلت الله فرد، وابن زيد عبداً ثم نزل عن مكانه، وخرّ ساجداً لله تعالى، وألصق خدّه بالتراب، وحرّم الشاعر.

وكان عالماً باللقية والعريّة، مدحه شاعر فقال: (٤٠٨/٧)

لا تقل بُشري، ولكن بُشريان
فقال له: كان الواجد أن تفتح الأبيات بغير لا، فإن الشاعر المجيد تخير لأول القصيدة ما يعجب السامع، وبترك به، ولو ابتدأت بالمصرع الثاني لكان أحسن؛ فقال له الشاعر: ليس في الدنيا كلمة أجلّ من قول: لا إله إلا الله، وأولها لا؛ فقال: أصبت! وأجازه.

وحكى عنه أنه غنى عنده مغنّ بأبيات الفضل بن العباس في عتبة بن أبي لهب التي أولها:
وإنّا الأخضر من يفرّني؟ أخضر الجلدة من بيت العرب
فلما وصل إلى قوله:

برسول الله وابني عمي
غير البيت فقال: لا عباس بن عبد المطلب، فغضب الحسن وقال يا ابن اللّخاء، تهجو بني عمنا بين يدي، وتحرف ما مدحوا به؟ لأن فعلتها مرة ثانية لأجعلها آخر غنائك.

ذكر وفاة أحمد بن طولون وولاية ابنه حماروته

في هذه السنة توفي أحمد بن طولون، صاحب مصر، والشام، والثغور الشامية.

وكان سبب موته أن نائبه بطرسوس وثب عليه بازمار الخادم، وقبض (٤٠٩/٧) عليه، وعصى على أحمد، وأظهر الخلاف، فجمع أحمد العساكر وسار إليه، فلما وصل أدّته كاتبه وراسله

ويستميله، فلم يلتفت إلى رسالته، فسار إليه أحمد، ونازله وحصره، فخرق بازمار نهر البلد على منزلة العسكر، فكاد الناس يهلكون، فرحل أحمد مغضطاً خجلاً وكان الزمان شتاءً، وأرسل إلى بازمار: إنني لم أرحل إلا خوفاً أن تنخرق حرمة هذا الثغر فيقطع فيه العدو.

ذكر عدة حوادث

وفيهما، في جمادى الأولى، توفي هارون بن الموفق ببغداد.

وفيهما كان فداء أهل سندية على يد بازمار.

وفيهما، في شعبان، شغب أصحاب أبي العباس بن الموفق على صاعد بن مخلد، وهو وزير الموفق، وطلبوا الأرزاق، وقتلهم أصحاب صاعد، وكان بينهم حرب شديدة قُتل فيها جماعة، وأسر من أصحاب أبي العباس جماعة، ولم يكن أبو العباس حاضراً، كان قد خرج متصيداً، ودامت الحرب إلى بعد المغرب، ثم كف بعضهم عن بعض، ثم وضع العطاء من الغد، واصطلحوا.

وفيهما كانت وقعة بين إسحاق بن كنداجيق وبين ابن دعباش وكان ابن دعباش بالرقة عاملاً عليها، وعلى الثغور والعوامم، لابن طولون، وابن كنداجيق على الموصل للخليفة.

وفيهما ابتداء إسماعيل بن موسى ببناء مدينة لاردة من الأندلس، وكان مخالفاً لمحمد صاحب الأندلس، ثم صالحه في العام الماضي، فلما سمع صاحب بوشلونة الفرنجي جمع وحشد وسار يريد منه من ذلك، فسمع به إسماعيل، فقصده وقاتله، فانهزم المشركون، وقُتل أكثرهم، وبقي أكثر القتلى في تلك الأرض دهرًا طويلاً.

وفيهما توفي محمد بن إسحاق بن جعفر الصاغاني الحافظ، ومحمد بن مسلم بن عثمان، المعروف بابن واره الرازي، وكان إماماً في الحديث، وله فيه مصنفات. (٤١٢/٧)

وفيهما توفي داود بن علي الأصهباني الفقيه، إمام أصحاب الظاهر، وكان مولده سنة اثنتين ومائتين.

وفيهما توفي مصعب بن أحمد بن مصعب أبو أحمد الصوفي الزاهد، وهو من أقران الجيّد.

وفيهما مات ملك الروم، وهو ابن الصقلية، وحج بالناس هارون بن محمد بن محمد بن إسحاق بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

وفيهما توفي خالد بن أحمد بن خالد السدوسي الدهلي الذي كان أمير خراسان ببغداد، وكان قد قصد الحج فقبض عليه الخليفة المعتمد وحبسه، فمات بالحبس، وهو الذي أخرج البخاري، صاحب الصحيح، من بخارى، وخبره معه مشهور، فدعا عليه البخاري فأدركته الدعوة. (٤١٣/٧)

فلما عاد إلى أنطاكية أكل لبن الجواميس، فأكثر منه، فأصابه منه هبضة، واتصلت حتى صار منها ذرّب، وكان الأطباء يعالجونه، وهو يأكل سرّاً، فلم ينجع الدواء، فتوفي رحمه الله.

وكانت إمارته نحو ست وعشرين سنة، وكان عاقلاً، حازماً، كثير المعروف والصدقة، متديناً، يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين، وهو الذي بنى قلعة يافا، وكانت المدينة بغير قلعة، وكان يميل إلى مذهب الشافعي، ويكرم أصحابه.

وولي بعده ابنه خمارويه، وأطاعه القواد، وعصى عليه نائب أبيه بدمشق، فسير إليه العساكر فاجلوه، وساروا من دمشق إلى شيزر.

ذكر مسير إسحاق بن كنداجيق إلى الشام

لما توفي أحمد بن طولون كان إسحاق بن كنداجيق على الموصل والجزيرة، فطمع هو وابن أبي الساج في الشام، واستخفرا أولاد أحمد، وكاتبوا الموفق (٤١٠/٧) بالله في ذلك، واستمداه، فأمرهما بقصد البلاد، ووعدهما إنفاذ الجيوش، فجمعا، وقصدا ما يجاورهما من البلاد، فاستوليا عليه، وأعانهما النائب بدمشق لأحمد بن طولون، ووعدهما الانحياز إليهما، فتراجع من الشام من نواب أحمد بأنطاكية، وحلب، وحمص، وعصى متولي دمشق، واستولى إسحاق على ذلك.

وبلغ الخبر إلى أبي الجيش خمارويه بن أحمد، فسير الجيوش إلى الشام فملكوا دمشق، وهرب النائب الذي كان بها، وسار عسكر خمارويه من دمشق إلى شيزر لقتال إسحاق بن كنداجيق وابن أبي الساج، فطاولهم إسحاق ينتظر المدد من العراق، وهجم الشتاء على الطائفتين، وأضر بأصحاب ابن طولون، ففرقوا في المنازل بشيزر.

ووصل العسكر العراقي إلى كنداجيق وعليهم أبو العباس أحمد بن الموفق وهو المعتضد بالله، فلما وصل سار مجدداً إلى عسكر خمارويه بشيزر، فلم يشعروا حتى كبسهم في المساكن، ووضع السيف فيهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وسار من سلم إلى دمشق، على أقبح صورة، فسار المعتضد إليهم، فجلوا عن دمشق إلى الرملة، وملك هو دمشق، ودخلها في شعبان سنة إحدى

سنة إحدى وسبعين ومائتين

ذكر خلاف محمد وعلي العلويين

في هذه السنة دخل محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المدينة، وقتلا جماعة من أهلها، وأخذوا من قوم مالا، ولم يصل أهل المدينة في مسجد رسول الله ﷺ أربع جمع، لا جُمعة، ولا جماعة، فقال الفضل بن العباس العلوي في ذلك:

أَخْرَجْتَ دَارَ هِجْرَةِ الْمُصْطَفَى الْبِ — رَفَاكِ خُرَابَهَا الْمُسْلِمِينَ
عَيْنَ فَاكِ مَقَامِ جَبْرِيلَ وَالْقَبِ — رَفَاكِ وَالْوَيْزَرَ الْقِيَمُونَ
وَعَلَى الْمَسْجِدِ الَّذِي أَسَّسَهُ النَّبِ — سَوَى خِلَاةِ أَمْسَى مِنَ الْعَابِدِينَ
وَعَلَى طَيْبَةِ الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ — سَ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ الرُّسُلَيْنَا (٤١٤/٧)

ذكر عزل عمرو بن الليث عن خراسان

وفيها أدخل المعتضد إليه حاج خراسان، وأعلمهم أنه قد عزل عمرو بن الليث عما قد قلده، ولعنه يحضرتهم، وأخبرهم أنه قلده خراسان محمد ابن طاهر، وأمر أيضاً بلعن عمرو على المنابر، فلعن، فسار صاعد بن مخلد إلى فارس لحرب عمرو، فاستخلف محمد بن طاهر رافع بن هرثمة على خراسان، فلم يغير السامانية عما وراء النهر.

ذكر وقعة الطواحين

وفي هذه السنة كانت وقعة الطواحين بين أبي العباس المعتضد وبين خمارويه بن أحمد بن طولون.

وسبب ذلك أن المعتضد سار من دمشق، بعد أن ملكها، نحو الرملة إلى عساكر خمارويه، فأتاه الخبر بوصول خمارويه إلى عساكره، وكثرة من معه من الجموع، فهم بالعود، فلم يمكنه من معه من أصحاب خمارويه الذين صاروا معه؛ وكان المعتضد قد أوحش ابن كنداجيق، وابن أبي الساج، ونسبهما إلى الجبن، حيث انتظراه ليصل إليهما، ففسدت نيتهما معه.

ولما وصل خمارويه إلى الرملة نزل على الماء الذي عليه الطواحين، فملكه، فنسبت الوقعة إليه، ووصل المعتضد وقد عبأ أصحابه، وكذلك أيضاً فعل خمارويه، وجعل له كميناً عليهم سعيداً الأيسر، وحملت مسيرة المعتضد على (٤١٥/٧) ميمنة خمارويه، فانهزمت، فلما رأى ذلك خمارويه، ولم يكن رأى مصافاً قبله، ولّى منهزماً في نفر من الأحداث الذين لا علم لهم بالحرب، ولم يقف دون مصر.

ونزل المعتضد إلى خيام خمارويه، وهو لا يشك في تمام

النصر، فخرج الذين عليهم سعيد الأيسر، وانضاف إليه من بقي من جيش خمارويه، ونادوا بشعارهم، وحملوا على عسكر المعتضد، وهم مشغولون بنهب السواد، ووضع المصريون السيف فيهم، وظن المعتضد أن خمارويه قد عاد، فركب فانهزم ولم يلو على شيء، فوصل إلى دمشق، ولم يفتح له أهلها بابها، فمضى منهزماً حتى بلغ طرسوس، وبقي العسكران يضطربان بالسيوف، وليس لواحد منهما أمير.

وطلب سعيد الأيسر خمارويه فلم يجده، فأقام أخاه أبا العشار، وتمت الهزيمة على العراقيين، وقتل منهم خلق كثير وأسر كثير.

وقال سعيد للعساكر: إن هذا أخو صاحبكم، وهذه الأموال تُنقذ فيكم؛ ووضع العطاء، فاشتغل الجند عن الشغب بالأموال، وسيرت الإشارة إلى مصر، ففرح خمارويه بالظفر، وخجل للهزيمة، غير أنه أكثر الصدقة، وفعل مع الأسرى فعلة لم يسبق إلى مثلها أحد قبله، فقال لأصحابه: إن هؤلاء أضيافكم فأكرموهم؛ ثم أحضرهم بعد ذلك وقال لهم: من اختار المقام عندي فله الإكرام والمواساة، ومن أراد الرجوع جهزناه وسيرناه؛ فممنهم من أقام ومنهم من سار مكرماً؛ وعادت عساكر خمارويه إلى الشام ففتحتة أجمع، فاستقر ملك خمارويه له. (٤١٦/٧)

ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وعمرو الصفار

في هذه السنة عاشر ربيع الأول كانت وقعة بين عساكر الخليفة وفيها أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلف، وبين عمرو بن الليث الصفار، ودامت الحرب من أول النهار إلى الظهر، فانهزم عمرو وعساكره وكانوا خمسة عشر ألفاً بين فارس وراجل، وجرح الدرهمي مقدّم جيش عمرو بن الليث، وقتل مائة رجل من حمانهم، وأسر ثلاثة آلاف أسير، واستأمن منهم ألف رجل، وغنموا من معسكر عمرو من الدواب والبقر والحُمير ثلاثين ألف رأس، وما سوى ذلك فخارج عن الحد.

ذكر حروب الأندلس والغريقية

في هذه السنة سير محمد، صاحب الأندلس، جيشاً مع ابنه المنذر إلى مدينة بطليوس، فزال عنها ابن مروان الجليقي، وكان مخالفاً، كما ذكرنا، وقصد حصن أشير غرة فتحصن به، فأحرق المنذر بطليوس، وسير محمد أيضاً جيشاً مع هاشم بن عبد العزيز إلى مدينة سرقسطة، وبها محمد بن لب بن موسى، فملكها هاشم وأخرج منها محمداً، وكان معه عمر بن حفصون الذي ذكرنا خروجه على صاحب الأندلس فصالحه. (٤١٧/٧)

فلما عادوا إلى قرطبة هرب عمر بن حفصون، وقصد بربشتر

مخالفاً، فاهتمَّ صاحب الأندلس به، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها سارت سرية للمسلمين عظيمة بصقليّة إلى رَمْطَة، فخرّبت وغنمت وسبت، وأسرت كثيراً وعادت.

وتوفي أمير صقلية، وهو الحسين بن أحمد، فوُلّي بعده سَوَادَة بن محمد بن خَفَاجَة التميمي، وقدم إليها، فسار عسكر كبير إلى مدينة طَاطَنَة فأهلك ما فيها، وسار إلى طَبْرَيْن فقاتل أهلها، وأسند زرعها، وتقدّم فيها، فاتاه رسول بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة، فهادنه ثلاثة أشهر، وفاداه ثلاثمائة أسير من المسلمين، فرجع سَوَادَة إلى بَلَرَم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عُقد لأحمد بن محمد الطائي على المدينة وطريق مكّة، فوثب يوسف بن أبي الساج، وهو والي مكّة، على بدر غلام الطائي، وكان أميراً على الحاجّ، فحاربه وأسره، فثار الجند والحاجّ بيوسف، فقاتلوه، واستنقذوا بدرأ، وأسروا يوسف وحملوه إلى بغداد، وكانت الحرب بينهم على أبواب المسجد الحرام.

وفيها خرّبت العامّة الدير العتيق الذي وراء نهر عيسى وانتهبوا ما فيه، وقلعوا أبوابه، فسار إليهم الحسين بن إسماعيل، صاحب شُرْطَة بغداد من قِبَل مُحَمَّد بن طاهر، فمَنَعهم من هدم ما بقي منه، وكان يتردّد هو والعامّة إليه أيّاماً، حتّى كاد أن يكون بينهم حرب، ثمّ بُني ما هُدم بعد أيّام، وكانت إعادة بناءه بقوّة عبدون أخي صاعد بن مخلّد. وحجّ بالناس هارون بن إسحاق.

وفيها توفي عبد الرحمن بن محمد بن منصور البصري.

(٤١٨/٧)

سنة اثنتين وسبعين ومائتين

ذكر الحرب بين أذكونكين ومحمد بن زيد العلويّ

في هذه السنة، منتصف جُمادى الأولى، كانت حرب شديدة بين أذكونكين وبين محمد بن زيد العلويّ، صاحب طَبْرِسْتان، ثمّ سار أذكونكين من قَرْوِين إلى الرّيّ ومعه أربعة آلاف فارس، وكان مع محمد بن زيد من الذُيْلَم والطَبْرِبَة والخُرَاسَانِيَة عالم كبير، فاقتلوا، فانهزم عسكر محمد بن زيد وتفرّقوا، وقُتل منهم ستّة آلاف وأسر ألفان، وغنم أذكونكين وعسكره من أثقالهم وأموالهم ودوابهم شيئاً لم يروا مثله، ودخل أذكونكين الرّيّ فأقام بها، وأخذ من أهلها مائة ألف دينار، وفرّق عمّاله في أعمال الرّيّ.

ذكر عدّة حوادث

فيها وقع بين أبي العباس بن الموفق وبين بازمار بطرسوس، فثار أهل طرسوس بأبي العباس فأخرجوه، فسار إلى بغداد في النصف من المحرم.

وفيها توفي سليمان بن وهب في جيش الموفق في صفر. (٤١٩/٧)

وفيها خرج خارجي بطريق خراسان، وسار إلى دسكرة الملك فقتل.

وفيها دخل حمدان بن حمدون، وهارون الشاري مدينة الموصل، وصلى بهم الشاري في جامعها.

وفيها نُقِب المُطَبّق من داخله، وأُخرج منه الدويانيّ العلويّ، وفتيان معه، فركبوا دوابّ أعدت لهم وهربوا، فأغلقت أبواب بغداد، فأخذ الدويانيّ ومن معه، فأمر الموفق، وهو بواسط، أن تُقَطع يده ورجله من خلاف، فُطِع.

وفيها قدم صاعد بن مخلّد من فارس إلى واسط، فأمر الموفق جميع القوّاد أن يستقبلوه، فاستقبلوه، وترجّلوا له، وقبّلوا يده، وهو لا يكلمهم كبراً وتبهاً، ثمّ قبض الموفق عليه وعلى جميع أهله وأصحابه، ونهب منازلهم بعد أيّام، وكان قبضه في رجب، وقبض ابنه أبو عيسى وصالح، وأخوه عبدون ببغداد، واستكتب مكانه أبا الصقر إسماعيل بن بلبل، واقتصر به على الكتابة دون غيرها.

وفيها نزل بنو شيبان ومن معهم بين الزانين من أعمال الموصل، وعاثوا في البلد وأفسدوا، وجمع هارون الخارجي على قصدهم، وكتب إلى حمدان بن حمدون التغلبيّ في المجيء إليه، إلى الموصل، فسار هارون نحو الموصل، وسار حمدان ومن معه إليه، فعبروا إليه بالجانب الشرقيّ من دجلة، وساروا جميعاً إلى نهر الخازر، وقاربوا حلل بني شيبان، فواقعتهم طليعة لبني شيبان على طليعة هارون، فانهزمت طليعة هارون، وانهزم هارون، وجلا أهل نينوى (٤٢٠/٧) عنها، إلّا من تحصّن بالقصور.

وفيها زلزلت مصر، في جُمادى الآخرة، زلزلة شديدة أخرجت الدور والمسجد الجامع، وأحصى بها، في يوم واحد، ألف جنازة.

وفيها غلا السعر ببغداد، وكان سببه أن أهل سامراً منعوا من انحدار السفن بالطعام، ومنع الطائيّ أرباب الضياع من الدياس ليُغْلوا الأسعار، ومنع أهل بغداد عن سامراً الزيت والصابون وغير ذلك، واجتمعت العامّة ووثبوا بالطائيّ، فجمع أصحابه وقاتلهم، فجرح بينهم جماعة، وركب محمد بن طاهر وسكّن الناس، وصرّفهم عنه.

التقدم، وامتنع عليه إسحاق، فأرسل ابن أبي الساج إلى خماروته بن أحمد بن طولون، صاحب مصر، وأطاعه، وصار معه وخطب له بأعماله، وهي قنسرين، وسير ولده ديوداد إلى خماروته رهينة، فأرسل إليه خماروته مالا جزيلا له ولقواده.

وسار خماروته إلى الشام، فاجتمع هو وابن أبي الساج ببالس، وعبر ابن أبي الساج الفرات إلى الرقة، فلقبه ابن كنداج، وجرى بينهما حرب انهزم فيها ابن كنداج، واستولى ابن أبي الساج على ما كان لابن كنداج، وعبر خماروته الفرات ونزل الرافقة، ومضى إسحاق منهزماً إلى قلعة ماردین، فحصره ابن أبي الساج، وسار عنها إلى سنجار، فأوقع بها بقوم من الأعراب، وسار ابن كنداج من ماردین نحو الموصل، فلقبه ابن أبي الساج بـ"برقيد" (٤٢٣/٧) فكمن كميناً، فخرجوا عن ابن كنداج وقت القتال، فانهمز عنها، وعاد إلى ماردین فكان فيها؛ وقوي ابن أبي الساج، وظهر أمره، واستولى على الجزيرة والموصل، وخطب لخماروته فيها ثم لنفسه بعده.

ذكر وقعة بين عسكر ابن أبي الساج والشراة

لما استولى ابن أبي الساج على الموصل أرسل طائفة من عسكره مع غلامه فتح، وكان شجاعاً مقدماً عنده، إلى المرج من أعمال الموصل، فساروا إليها، وجبوا الخراج منها.

وكان اليعقوبية الشراة بالقرب منه، فأرسل إليهم فهادنهم، وقال: إنما مقامي بالمرج مدة يسيرة ثم أرحل عنه. فسكنوا إلى قوله وتفرقوا، فنزل بعضهم بالقرب من سوق الأحد، فأسرى إليهم فتح في السحر، فكسبهم وأخذ أموالهم، وانهزم الرجال عنهم.

وكان باقي اليعقوبية قد خرجوا إلى أصحابهم الذين أوقع بهم فتح من غير أن يعلموا بالوقعة، فلقبهم المنهزمون من أصحابهم، فاجتمعوا، وعادوا إلى فتح فقاتلوه، وحملوا حملة رجل واحد، فهزموه وقتلوا من أصحابه ثمان مائة رجل، وكان أصحابه ألف رجل، فافلت في نحو مائة رجل، وتفرق مائة في القرى واختفوا، وعادوا إلى الموصل متفرقين، وأقاموا بها. (٤٢٤/٧)

ذكر وفاة محمد بن عبد الرحمن وولاية ابنه المنذر

في هذه السنة توفي محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي، صاحب الأندلس، سَلَخَ صفر، وكان عمره نحواً من خمس وستين سنة، وكانت ولايته أربعاً وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً، وكان أبيض، مُشْرِباً بحمرة، ربة، أوقص، يخضب بالحناء والكنم، وخلف ثلاثة وثلاثين ولداً ذكوراً، وكان ذكياً، فظناً بالأمر المُشْتَبِه متعانياً منها.

ولما مات ولي بعده ابنه المنذر بن محمد، بويع له بعد موت

وفيهما توفي إسماعيل بن بركة الهاشمي في شوال، وعيبد الله بن عبد الله الهاشمي.

وفيهما تحركت الزنج بواسط، وصاحوا: انكلاي، يا منصور، وكان هو والمهلب، وسليمان بن جامع، وجماعة من قوادهم في حبس الموفق ببغداد، وكتب الموفق بقتلهم، فقتلوا، وأرسلت رؤوسهم إليه، وصُلِبَتْ أبدانهم ببغداد.

وفيهما صلح أمر مدينة رسول الله ﷺ وتراجع الناس إليها.

وفيهما غزا الصائفة بأزمارة، وحج بالناس هارون بن محمد بن إسحاق.

وفيهما سير صاحب الأندلس إلى ابن مروان الجليقي، وهو يحصن اثير غرة، فحصره وضيّقوا عليه، وسير جيشاً آخر إلى محاربة عمر بن (٤٢١/٧) فحاصروا يحصن بـ"برقيد".

وفيهما انقضت الهدنة بين سودة أمير صقلية والروم، فأخرج سودة السرايا إلى بلد الروم بصقلية، فغنمت وعادت.

وفيهما قدم من القسطنطينية بطريق، يقال له انجفور، في عسكر كبير، فنزل على مدينة سيرة فحصرها، وضيّق على من بها من المسلمين، فسلموها على أمان ولحقوا بأرض صقلية، ثم وجهه انجفور عسكراً إلى مدينة متية، فحاصروها، حتى سلمها أهلها بأمان إلى بلرم من صقلية.

وفيهما مات أبو بكر محمد بن صالح بن عبد الرحمن الأنماطي، المعروف بكنجلة، وهو من أصحاب يحيى بن معين، وهو لقبه.

وفيهما توفي أحمد بن عبد الجبار بن محمد بن عطارد العطاردي التميمي، وهو يروي مغازي ابن إسحاق عن يونس عن ابن إسحاق، ومن طريقه سمعناه.

وفيهما توفي إبراهيم بن الوليد بن الجخشاش.

وفيهما توفي شعيب بن بكسار الكاتب، وله حديث عن أبي عاصم النبيل. (٤٢٢/٧)

سنة ثلاث وسبعين ومائتين

ذكر الاختلاف بين ابن أبي الساج وابن كنداج والخطبة بالجزيرة لابن طولون

في هذه السنة فسد الحال بين محمد بن أبي الساج وإسحاق بن كنداج، وكانا متفقين في الجزيرة.

وسبب ذلك أن ابن أبي الساج نافر إسحاق في الأعمال، وأراد

أبيه بثلاث ليالٍ، وأطاعه الناس، وأحسن إليهم.

ذكر عدة حوادث

وفيها أيضاً كانت وقعة بالرقّة في جمادى الأولى بين إسحاق بن كنداجيق وبين محمد بن أبي الساج، فانهزم إسحاق، ثم كانت بينهما وقعة أخرى في ذي الحجة فانهزم إسحاق أيضاً.

وفي هذه السنة وثب أولاد ملك الروم على أبيهم فقتلوه، وملك أحدهم بعده. (٤٢٥/٧)

وفيها قبض الموفق على لؤلؤ غلام ابن طولون الذي كان قدم عليه بالأمان حين كان يقاتل الزنج بالبصرة، ولما قبضه قيده، وضيق عليه، وأخذ منه أربع مائة ألف دينار، فكان لؤلؤ يقول: ليس لي ذنب إلا كثرة مالي؛ ولم تزل أموره في إدار إلى أن افتقر ولم يبق له شيء، ثم عاد إلى مصر في آخر أيام هارون بن خمارويه، فريداً وحيداً، بغلام واحد، فكان هذا ثمرة العقل السخيف وكفر الإحسان.

وحج بالناس فيها هارون بن محمد بن إسحاق.

وفيها ثار السودان بمصر، وحصروا صاحب الشرطة، فسمع خمارويه ابن أحمد بن طولون الخبر، فركب، وفي يده سيف مسلول، وقصد دار صاحب الشرطة، وقتل كل من لقيه من السودان، فانهزموا منه، وأكثر القتل فيهم، وسكنت مصر وأمن الناس.

وفيها مات أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، صاحب كتاب السنن، ومحمد بن زيد بن ماجة القزويني، وله أيضاً كتاب السنن، وكان عاقلاً، إماماً عالماً، وتوفي الفتح بن شحرق أبو داود الكشي الصوفي، وكان موته ببغداد، وهو من أصحاب الأحوال الشريفة، وتوفي حنبل بن إسحاق. (٤٢٦/٧)

سنة أربع وسبعين ومائتين

ذكر الحرب بين عسكر عمرو بن الليث وبين عسكر الموفق

في هذه السنة سار الموفق إلى فارس لحرب عمرو بن الليث الصفار، فبلغ الخبر إلى عمرو، فسار العباس بن إسحاق في جمع كبير من العسكر إلى سيراف، وأنفذ ابنه محمد بن عمرو إلى أرجان، وسير أبا طلحة شركب، صاحب جيشه، على مقدمته، فاستأمن أبو طلحة إلى الموفق، وسمع عمرو ذلك، فتوقف عن قصد الموفق.

ثم إن أبا طلحة عزم على العود إلى عمرو، فبلغ الموفق خبره فقبض عليه بقرب شيراز، وجعل ماله لابنه المعتضد أبي العباس،

وسار يطلب عمرو، فعاد عمرو إلى كرمان، ومنها إلى سبستان على المفازة، فتوفي ابنه محمد بالمفازة، ولم يقدر الموفق على أخذ كرمان وسبستان من عمرو فعاد عنه. (٤٢٧/٧)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا بازمار، فأولغ في أرض الروم فأوقع فيها بكثير من أهلها، وقتل وغنم، وسبي وأسر، وعاد سالماً إلى طرسوس.

وفيها دخل صديق الفرغاني دور سامراً فنهبها، وأخذ أموال التجار منها وأفسد؛ وكان صديق هذا يخفر الطريق ويحميه، ثم صار يقطعه.

وحج بالناس هارون بن محمد.

وفيها توفي أبو العباس بن الكشي بن المتوكل، وكان قد حبسه أخوه المعتمد ثم أطلقه.

وفيها توفي الحسن بن مكرم، وعلي بن عبد الحميد الواسطي.

وفيها جمع إسحاق بن كنداج جمعاً كثيراً وسار نحو الشام، فبلغ الخبر خمارويه، فسار إليه وقد عبر الفرات، فالتقيا، وجرى بين الطائفتين قتال شديد، انهزم فيه إسحاق هزيمة عظيمة لم يردّه شيء، حتى عبر الفرات وتحصن بها، وسار خمارويه إلى الفرات، فعمل جسراً، فلما علم إسحاق بذلك سار من هناك إلى قلاع له قد أعدّها وحصنها، وأرسل إلى خمارويه يخضع له، ويذل له الطاعة في جميع ولايته، وهي الجزيرة وما والاها، فأجابته إلى ذلك. (٤٢٨/٧)

وصالحه ابن أبي الساج، وجمع جمعاً كثيراً، وسار نحو الشام فأصدأ منازعة خمارويه حيث كان أبعد إلى مصر، فبلغ الخبر خمارويه، فخرج عن مصر في عساكره، فالتقيا في البنية من أعمال دمشق، فاقتلا قتالاً عظيماً، فانهزم ابن أبي الساج، وعاد منهزماً حتى عبر الفرات، فأحضر خمارويه ولد ابن أبي الساج، وكان رهينة عنده، فخلع عليه، وأطلقه، وسيره إلى أبيه، وعاد إلى مصر. (٤٢٩/٧)

سنة خمس وسبعين ومائتين

ذكر الاختلاف بين خمارويه وابن أبي الساج

قد ذكرنا اتفاق ابن أبي الساج وخمارويه بن طولون، وطاعة ابن أبي الساج له، فلما كان الآن خالف ابن أبي الساج على خمارويه، فسمع خمارويه الخبر، فسار عن مصر في عساكره نحو

وأما ابن كنداج فإنه سار إلى خُماروته، فسير معه جيشاً، فوصلوا إلى الفرات، فكان إسحاق بن كنداج على الشام، وابن أبي الساج بالرقّة، ووكل بالفرات من يمنع من عبورها، فبقوا كذلك مدة.

ثم إن ابن كنداج سير طائفة من عسكره، فعبروا الفرات في غير ذلك الموضع، وساروا، فلم تشعر طائفة عسكر ابن أبي الساج، وكانوا طليعة، إلا وقد أوقعوا بهم، فانهزموا من عسكر إسحاق إلى الرقّة، فلما رأى ابن أبي الساج ذلك سار عن الرقّة إلى الموصل، فلما وصل إليه طلب من أهلها المساعدة بالمال، وقال لهم: ليس بالمضطر مروءة؛ فأقام بها نحو شهر، وانحدر إلى بغداد، فالتصل بابي أحمد الموفق في ربيع الأول من سنة ست وسبعين (٤٣١/٧) ومائتين، فاستصحبه معه إلى الجبل، وخلع عليه، ووصله بمال، وأقام ابن كنداج بديار ريعة وديار مضر من أرض الجزيرة.

ذكر الحرب بين الطائي وفارس العبدية

وفيها ظهر فارس العبدية في جمع، فأخاف السيل، وسار إلى دور سامراً ونهب، فسار إليه الطائي مقاتلاً، فهزمه الطائي، وأخذ سواده، ثم سار الطائي إلى دجلة ليعبرها، فدخل طيارة له، فأدركه بعض أصحاب فارس، فتعلّقوا بكثرة الطيارة، فرمى الطائي نفسه في الماء وسبح، فلمّا خرج منه نفخ لحيته وقال: أيش ظنّ العبدية؟ ليس أنا أسبح من سمكة؟ ثم نزل الطائي السن، والعبدية يازانه، وقال علي بن بسام في الطائي:

قد أقبل الطائي ما أقبلًا يفتح في الأفعال ما أجملاً
كأنه من لين الفاظه صيعة تمضغ جهنم البلاء
وجهد البلا ضرب من النافط يتعلك.

وفيها قبض الموفق على الطائي وقبده، وختم على كل شيء له، وكان يلي الكوفة وسوادها، وطريق خراسان، وسامراء، والشرطة ببغداد، وخراج بادوريا، وقطربل، ومسكن. (٤٣٣/٧)

ذكر قبض الموفق على ابنه المعتضد بالله

في هذه السنة، في شوال، قبض الموفق على ابنه المعتضد بالله أبي العباس أحمد.

وسبب ذلك أن الموفق دخل إلى واسط ونزل بها، ثم عاد إلى بغداد، وتخلّف المعتمد على الله بالمدان، وأمر الموفق ابنه أن يسير إلى بعض الوجه، فقال: لا أخرج إلا إلى الشام لأنها الولاية التي ولّيتها أمير المؤمنين. فلما امتنع عليه أمر بإحضاره، فلما حضر أمر بعض خدمه أن يجسه في حجرة في داره، فلما قام المعتضد تقدّم إليه الخادم وأمره بدخول تلك الدار، فدخل ووكل به فيها.

الشام، فقدم إليه آخر سنة أربع وسبعين [ومائتين]، فسار ابن أبي الساج إليه، فالتقوا عند ثنية العقاب بقرب دمشق، واقتتلوا في المحرّم من هذه السنة، وكان القتال بينهما، فانهزمت ميمنة خُماروته، وأحاط باقي عسكره بابن أبي الساج ومن معه، فمضى منهزماً واستبيح معسكره، وأخذت الأتقال والدوابّ وجميع ما فيه.

وكان قد خلف بحمص شيئاً كثيراً، فسير إليه خُماروته قائداً في طائفة من العسكر جريدة، فسبقوا ابن أبي الساج إليها، ومنعوه من دخولها والاعتصام بها، واستولوا على ما له فيها، فمضى ابن أبي الساج منهزماً إلى حلب، ثم منها إلى الرقّة، فبعه خُماروته، ففارق الرقّة، فعبّر خُماروته الفرات، وسار في أثر ابن أبي الساج، فوصل خُماروته إلى مدينة بلد، وكان قد سبقه ابن (٤٣٠/٧) أبي الساج إلى الموصل.

فلما سمع ابن أبي الساج بوصله إلى بلد سار عن الموصل إلى الحديثة، وأقام خُماروته ببلد، وعمل له سريراً طويلاً الأرجل، فكان يجلس عليه في دجلة، هكذا ذكر أبو زكريا يزيد بن إلياس الأزدی الموصلي صاحب تاريخ الموصل: أن خُماروته وصل إلى بلد، وكان إماماً فاضلاً عالماً بما يقول وهو يشاهد الحال.

ذكر الحرب بين ابن كنداج وابن أبي الساج

لما انهزم ابن كنداج من ابن أبي الساج، كما ذكرناه، أقام إلى أن انهزم ابن أبي الساج من خُماروته، فلما وافى خُماروته بلداً أقام بها، وسير مع إسحاق بن كنداج جيشاً كثيراً، وجماعة من القواد، ورحل يطلب ابن أبي الساج، فمضى بين يديه وابن كنداج يتبعه إلى تكريت، فعبّر ابن أبي الساج دجلة، وأقام ابن كنداج، وجمع السفن ليعمل جسراً يعبر عليه، وكان يجري بين الطائفتين مُراماة.

وكان ابن أبي الساج في نحو ألفي فارس، وابن كنداج في عشرين ألفاً، فلما رأى ابن أبي الساج اجتماع السفن سار عن تكريت إلى الموصل ليلاً، فوصل إليها في اليوم الرابع، فنزل بظاهرها عند الدبر الأعلى، وسار ابن كنداج يتبعه، فوصل إلى العزيز، فلما سمع ابن أبي الساج خبره سار إليه، فالتقوا، (٤٣١/٧) واقتتلوا عند قصر حرب، فاشتد القتال بينهما، وصبر محمد بن أبي الساج صبراً عظيماً، لأنه كان في قلّة، فنصره الله، وانهزم ابن كنداج وجميع عسكره، ومضى منهزماً.

وكان أعظم الأسباب في هزيمته بغية له: إن ابن أبي الساج قد أقبل نحوك من الموصل ليقااتلك، قال: استقبل الكلب! فعذ الناس هذا بغياً وخافوا منه، فلما انهزم، وسار إلى الرقّة، تبعه محمد إليها، وكتب إلى أبي أحمد الموفق يعرفه ما كان منه، ويستأذنه في عبور الفرات إلى الشام، فبلاذ خُماروته، فكتب إليه الموفق يشكره، ويأمره بالتوقّف إلى أن تصله الأمداد من عنده.

أخيه، وكنيته أبو محمد، أمه أم ولد اسمها عشار توفيت قبل ابنها بسنة، وفي أيامه امتلأت الأندلس بالفتن، وصار في كل جهة متغلب، ولم تزل كذلك طول ولايته.

ذكر عدة حوادث

وفيها توفي أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروزي، وهو صاحب أحمد بن حنبل؛ وعبد الله بن يعقوب بن إسحاق العطار الموصلية التميمي، وكان كثير الحديث والرواية، وكان مُعَدِّلاً عند الحكام.

وفيها توفي أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الله البكري النحوي اللغوي المشهور، صاحب التصانيف، وقيل توفي سنة سبعين ومائتين، والأول أصح. (٤٣٦/٧)

سنة ست وسبعين ومائتين

في هذه السنة جعلت شرطة بغداد إلى عمرو بن الليث، وكتب اسمه على الأعلام والرسمة وغيرها، وكان ذلك في شوال، ثم ترتب في الشرطة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر من قبل عمرو، ثم أمره بطرح اسم عمرو عن الأعلام وغيرها في شوال من هذه السنة.

وفيها، في منتصف ربيع الأول، سار الموفق إلى بلاد الجبل، وسبب مسيره أن الماذراني، كاتب أذكتكين، أخبره أن له هناك مالا عظيما، وأنه إن سار معه أخذه جميعه، فسار إليه، فلم يجد المال، فلما لم يجد شيئا سار إلى الكرج، ثم إلى أصبهان يريد أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، فتنحى أحمد عن البلد بجيشه وعياله، وترك داره بفرشها لينزلها الموفق إذا قدم.

وفيها استعمل الموفق بالله على أذربيجان ابن أبي الساج، فسار إليها، فخرج إليه عبد الله بن الحسن الهمداني، صاحب مراغة، ليصده عنها، فحاربه، فانهزم عبد الله وحضر، وأخذت منه سنة ثمانين ومائتين، كما نذكره، واستقر ابن أبي الساج لعمله. (٤٣٧/٧)

وفيها توفي محمد بن حماد بن إسحاق بن حماد بن يزيد القاضي.

وفيها قتل عامل الموصل لابن كنداج إنسانا من الخوارج اسمه نعيم، فسمع هارون مقدم الخوارج بذلك وهو بحديثة الموصل، فجمع أصحابه وسار إلى الموصل يريد حرب أهلها، فنزل شرقي دجلة، فأرسل إليه أعيانهم ومقدموهم يسألونه ما الذي أقدمه؟ فذكر قتل نعيم، فقالوا: إنما قتله عامل السلطان من غير اختيار منا. وطلبوا منه الأمان ليحضروا عنده يعتذرون، ويتبرؤوا من قتله، فأمّنهم، فخرج إليه جماعة من أهل الموصل وأعيانهم، وتبرؤوا من

وثار القواد من أصحابه ومن تبعهم وركبوا، واضطربت بغداد لما رأوا السلاح والقواد، فركب الموفق إلى الميدان وقال لهم: ما شأنكم؟ أترون أنكم أشفق على ولدي مني، وقد احتجت إلى تقويمه! فانصرفوا.

في هذه السنة سار الطائي إلى سامرا بسبب صديق، فراسله وأمنه، ودخل سامرا في جماعة من أصحابه، فأخذهم الطائي وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وحملهم إلى بغداد.

وفيها غزا بازمار في البحر، فغنم من الروم أربعة مراكب. (٤٣٤/٧)

ذكر استيلاء رافع بن هرثمة على جرجان

في هذه السنة سار رافع بن هرثمة إلى جرجان، فأزال عنها محمد بن زيد، وسار محمد إلى استرabad، فحصره فيها رافع، وأقام عليه نحو سنتين، فغلت الأسعار بحيث لم يوجد ما يؤكل، وبيع وزن درهم ملح بدرهمين فضة، وفارقها محمد بن زيد ليلا في نفر يسير إلى سارية، فسير إليه رافع عسكريا، فحاربا، وسار محمد عن سارية وعن طبرستان، وذلك في ربيع الأول سنة سبع وسبعين ومائتين، واستأمن رستم بن قارن إلى رافع بطبرستان، فصاهره ابن قوله.

وقدم على رافع، وهو بطبرستان، علي بن الليث، وكان قد حبسه أخوه عمرو بكرمان، فاحتال حتى تخلص هو وابناه المعدل والليث، وأنفذ رافع إلى شالوس محمد بن هارون نائبا عنه، فأتاه بها علي بن كالي مستأمنا، فأتاهما محمد بن زيد وحضرهما بالشوس، وأخذ الطريق عليهما، فلم يصل منهما إلى رافع خبر، فلما تأخر خبرهما عنه أرسل جاسوسا يأتيه بأخبارهما، فعاد إليه فأخبره بحضر محمد بن زيد إليهما بالشوس، فعظم عليه، وسار إليهما، فرحل عنهما محمد بن زيد إلى أرض الديلم، فدخل رافع خلفه أرض الديلم فخرقها حتى اتصل بحدود قزوین، وعاد إلى الرّي، وأقام بها إلى أن توفي الموفق في رجب سنة ست وسبعين ومائتين. (٤٣٥/٧)

ذكر وفاة المنذر بن محمد الأموي

وفيها في المحرم توفي المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي، صاحب الأندلس، وقيل في صفر، وكانت ولايته سنة واحدة وأحد عشر شهرا وعشرة أيام، وكان عمره نحواً من ست وأربعين سنة.

وكان أسمر طويلاً بوجهه أثر جذري، جعداً، كث اللحية، وخلف سنة ذكور، وكان جواداً يصل الشعراء ويحب الشعر.

ولما توفي ببيع أخوه عبد الله بن محمد، ببيع له يوم موت

قتله، فرحل عنهم.
 وفيها عاد حُجَّاجُ اليمن عن مكة، فنزلوا وادياً، فأتاهم السَّيْلُ
 فحملهم جميعهم والقاهم في البحر.
 وفيها توفي أبو قلابه عبد الملك بن محمد الرقاشي البصري،
 وكان يسكن بغداد.

وفيها ورد الخبر بانفراج تلٍّ من نهر البصرة، يُعرف بتلٍّ شقيق،
 عن سبعة أقر فيها سبعة أبدان صحيحة، والقبور في شبه الحوض
 من حجر في لون المسن، عليه كتاب لا يُدري ما هو، وعليهم
 أكفان جدد ويفوح منها ريح المسك، أحدهم شاب له جمّة، وعلى
 شفّته بلل كأنه قد شرب ماء، وكأنه قد كُحِّل، وبه ضربة في
 خصرته.

وحجّ بالناس هارون بن محمد الهاشمي. (٤٣٨/٧)

سنة ثمان وسبعين ومائتين

ذكر الفتنة ببغداد

فيها كانت الحرب ببغداد بين أصحاب وصيف الخادم والبربر،
 وأصحاب موسى ابن أخت مُفلح، أربعة أيام من المحرم، ثم
 اصطلحوا، وقد قُتل بينهم جماعة، ثم وقع بالجانب الشرقي وقعة
 بين أصحاب يونس قُتل فيها رجل، ثم انصرفوا.
 وفيها توفي محمد بن عليّ أبو جعفر القصاب الصوفي، وهو
 من أقران السري، وصحبه الجند كثيراً. (٤٣٩/٧)

ذكر وفاة الموفق

وفيها توفي أبو أحمد الموفق بالله بن المتوكل، وكان قد
 مرض في بلاد الجبل، فانصرف وقد اشتدّ به وجع الثَّقرس، فلم
 يقدر على الركوب، فعُمل له سرير عليه قبة، فكان يقعد عليه [هو]
 وخادم له يبرّد رجليه بالأشياء الباردة، حتّى إنّه يضع عليها الثلج، ثم
 صارت علّة برجله، داء الفيل، وهو ورم عظيم يكون في الساق،
 يسيل منه ماء، وكان يحمل سريره أربعون رجلاً بالنوبة، فقال لهم
 يوماً: قد ضجرت من حملي، بوذي أن أكون كواحد منكم أحمل
 على رأسي، وأكل، وأنا في عافية.

وقال في مرضه: أطبق ديواني على مائة ألف مرتزق، ما أصبح
 فيهم (٤٤٢/٧) أسوأ حالاً منّي؛ فوصل إلى داره لليلتين خلّتا من
 صفر، وشاع موته بعد انصراف أبي الصقر من داره، وكان تقدّم
 بحفظ أبي العباس، فأغلقت عليه أبواب دون أبواب، وقوي
 الإرجاف بموته، وكان قد اعترته غشية، فوجّه أبو الصقر إلى
 المدائن، فحمل منها المعتمد وأولاده، فجاء بهم إلى داره، ولم
 يسر أبو الصقر إلى دار الموفق.

فلما رأى غلمان الموفق المائلون إلى أبي العباس والرؤساء
 من غلمان أبي العباس ما نزل بالموفق، كسّروا الأقفال والأبواب

سنة سبع وسبعين ومائتين

في هذه السنة دعا بازمار بطرْمُسوس لخُمارويّه بن أحمد بن
 طولون.

وسبب ذلك أنّ خُمارويّه أنفذ إليه ثلاثين ألف دينار،
 وخمسمائة ثوب، وخمسمائة مطرف، وسلاحاً كثيراً، فلمّا وصل
 إليه دعا له، ثم وجّه إليه بخمسين ألف دينار.

وفيها، في ربيع الآخر، كان بين وصيف خادم ابن أبي الساج
 والبرابرة أصحاب أبي الصقر، فتنة، فاقتلوا، فقتل بينهم جماعة؛
 كان ذلك بباب الشام، فركب أبو الصقر فرّقهم.

وفيها ولي يوسف بن يعقوب المظالم، وأمر من ينادي: من
 كانت له مظلمة قبل الأمير الناصر لدين الله الموفق، أو أحد من
 الناس، فليحضر.

وفيها، في شعبان، قدم بغداد قائد عظيم من قوّاد خُمارويّه بن
 أحمد بن طولون في جيش عظيم؛ وحجّ بالناس هارون بن محمد
 بن عيسى الهاشمي.

ليس هذا موضع ذكرها.

ذكر البيعة للمعتضد بولاية العهد

لَمَّا مات الموفق اجتمع القواد وباعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض ابن المعتمد، ولَقِبَ المعتضد بالله، وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض، وذلك لسبع ليال بقين من صفر، واجتمع عليه أصحاب أبيه، وتولى ما كان أبوه يتولاه.

وفيها قبض المعتمد على أبي الصقر وأصحابه، وانتهب منازلهم، وطلب بني الفرات فاختفوا، وخلع على عبيد الله بن سليمان بن وهب، وولاه الوزارة، وسير محمد بن أبي الساج إلى واسط ليرد غلامه وصيفاً إلى بغداد، فمضى وصيف إلى السوس فعاث بها ونهب الطيب، وأبى الرجوع إلى بغداد.

وفيها قُتل عليُّ بن الليث أخو الصفار، قتله رافع بن هرثمة، وكان قد يحق به، وترك أخاه.

وفيها غار ماء النيل، فغلت الأسعار بمصر.

ذكر ابتداء أمر القرامطة

وفيها تحرك بسواد الكوفة قوم يُعرفون بالقرامطة، وكان ابتداء أمرهم، فيما ذكر؛ أن رجلاً منهم قدم من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة، فكان بموضع يقال له النهرين، يظهر الزهد والتقشف، ويسف الخواص، ويأكل (٤٤٥/٧) من كسب يده، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة، فكان إذا قعد إليه رجل ذاكره أمر الدين وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك [عنه] بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من آل بيت الرسول، فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير.

وكان يقعد إلى بقال هناك. فجاء قوم إلى البقال يطلبون منه رجلاً يحفظ عليهم ما صرّوا من نخلهم، فدلّهم عليه وقال لهم: إن أجابكم إلى حفظ ترمكم فإنه بحيث تجربون؛ فكلّموه في ذلك، فأجابهم على أجرة معلومة، فكان يحفظ لهم، ويصلي أكثر نهاره، ويصوم، ويأخذ عند إفطاره من البقال رطل تمر فيفطر عليه، ويجمع نوى ذلك التمر ويعطيه البقال، فلما حمل التجار ترمهم حاسبوا أجيرهم عند البقال، ودفعوا إليه أجرته، وحاسب الأجير البقال على ما أخذ منه من التمر وحط ثمن النوى، فسمع أصحاب التمر محاسبته للبقال بثمان النوى فغضبوه وقالوا له: ألم ترض بأكل تمرنا، حتى بعت النوى؟ فقال لهم البقال: لا تفعلوا! وقص عليهم القصة، فقدموا على ضربه، واستحلّوا منه ففعل، وازداد بذلك عند أهل القرية لما وقفوا عليه من زهده.

ثم مرض، فمكث على الطريق مطروحاً، وكان في القرية رجل

المغلقة على أبي العباس، فلما سمع أبو العباس ذلك ظنّ أنهم يريدون قتله، وأخذ سيفه بيده، وقال لغلام عنده: والله لا يصلون إليّ وفي شيء من الروح! فلما وصلوا إليه رأى في أولهم غلامه وصيفاً موشكير، فلما رآه ألقى السيف من يده، وعلم أنهم ما يريدون إلا الخير، فأخرجوه وأقعدوا عند أبيه، فلما فتح عينه رآه، ففرّبه وأدناه إليه.

وجمع أبو الصقر عنده القواد والجند، وقطع الجسرَيْن، وحاربه قوم من الجانب الشرقي، فقتل بينهم قتلى، فلما بلغ الناس أن الموفق حيّ حضر عنده محمد بن أبي الساج، وفارق أبا الصقر، وتسلّل القواد والناس عن أبي الصقر؛ فلما رأى أبو الصقر ذلك حضر هو وابنه دار الموفق، فما قال له الموفق شيئاً ممّا جرى، فأقام في دار الموفق، فلما رأى المعتمد أنه بقي في الدار نزل هو وينوه ويكثر، فركبوا زورقاً، فلقّتهم طيار لأبي ليلى بن عبد العزيز بن أبي دُلف، فحمله فيه إلى دار عليّ بن جهشيار. (٤٤٣/٧)

ذكر أعداء أبي الصقر أنه أراد أن يتقرّب إلى المعتمد بمال الموفق وأسبابه، وأشاعوا ذلك عنه عند أصحاب الموفق، فنهت دار أبي الصقر، حتى أخرجت نساؤه منها حُفاة بغير أزر، ونهب ما يجاورها من الدور، وكسّرت أبواب السجون وخرج من كان فيها.

وخلع الموفق على ابنه أبي العباس، وعلى أبي الصقر، وركبا جميعاً، فمضى أبو العباس إلى منزله، وأبو الصقر إلى منزله وقد نهب، فطلب حصيرة يقعد عليها عارية؛ فولى أبو العباس غلامه بدرًا الشرطه، واستخلف محمد بن غانم بن الشاة على الجانب الشرقي.

ومات الموفق يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر من هذه السنة، ودُفن ليلة الخميس بالرُصافة، وجلس أبو العباس للتعزية.

وكان الموفق عادلاً، حسن السيرة، يجلس للمظالم وعنده القضاة وغيرهم، فينتصف الناس بعضهم من بعض، وكان عالماً بالأدب، والنسب، والفقه، وسياسة الملك، وغير ذلك. قال يوماً: إن جدّي عبد الله بن العباس قال: إن الذباب ليقع على جليسي فيؤذني ذلك؛ وهذا نهاية الكرم، وأنا والله أرى جليسي بالعين التي أرى بها إخواني، والله لو تهيا لي أن أغير أسماءهم لقلتها من الجلساء إلى الأصدقاء والإخوان.

وقال يحيى بن عليّ: دعا الموفق يوماً جلساءه، فسبّحهم وحدي، فلما رأيته وحدي أنشد يقول:

واستصحب الأصحاب حتى إذا نوا وملوا من الإدلاج جتكم وخدي (٤٤٤/٧)

فدعوت له، واستحسنّت إنشاده في موضعه، وله محاسن كثيرة

أحمر العينين، يحمل على أثوار له، يسمونه كرميثة لحمرة عينيه، وهو بالنبطية أحمر العين، فكلم البقال الكرميثة في حمل المريض إلى منزله والعناية به، ففعل، وأقام عنده حتى برأ، ودعا أهل تلك الناحية إلى مذهبه، فاجابوه، وكان يأخذ من الرجل إذا أجابه ديناراً، ويزعم أنه للإمام، وتأخذ منهم (٤٤٦/٧) اثني عشر نقيماً أمرهم أن يدعوا الناس إلى مذهبهم، وقال: أتمم كحواريي عيسى بن مريم، فاشتغل أهل كُور تلك الناحية عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات.

وكان للهيصم في تلك الناحية ضياع، فرأى تقصير الأكرة في عمارتها، فسأل عن ذلك، فأخبر بخبر الرجل، فأخذه وجبسه، وحلف أن يقتله لما أطلع على مذهبه، وأغلق باب البيت عليه، وجعل مفتاح البيت تحت وسادته، واشتغل بالشرب، فسمع بعض من في الدار من الجوّاري بمساوته، فرقت للرجل، فلما نام الهيصم أخذت المفتاح وفتحت الباب وأخرجته، ثم أعادت المفتاح إلى مكانه، فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقته فلم يجده.

وشاع ذلك في الناس، فافتتن أهل تلك الناحية، وقالوا: رُفِعَ، ثم ظهر في ناحية أخرى، ولقي جماعة من أصحابه وغيرهم، وسألوه عن قصته فقال: لا يمكن أحداً أن ينالني بسوء! أعظم في أعينهم، ثم خاف على نفسه، فخرج إلى ناحية الشام، فلم يوقف له على خبر، وسُمّي باسم الرجل الذي كان في داره كرميثة صاحب الأثوار، ثم خُفّف قليل قرمط، (٤٤٧/٧) هكذا ذكره بعض أصحاب زكرويه عنه.

وقيل إن قرمط لقب رجل كان بسواد الكوفة يحمل غلة السواد على أثوار له، واسمه حمدان؛ ثم فشا مذهب القرامطة بسواد الكوفة، ووقف الطائي أحمد بن محمد على أمرهم، فجعل على الرجل منهم في السنة ديناراً، فقدم قوم من الكوفة، فرفعوا أمر القرامطة والطائي إلى السلطان، وأخبروه أنهم قد أخذوا ديناً غير دين الإسلام، وأنهم يرون السيف على أمة محمد ﷺ إلا من بايعهم، فلم يلتفت إليهم ولم يسمع قولهم.

وكان فيما حكى عن القرامطة من مذهبهم أنهم جاؤوا بكتساب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم! يقول الفرج بن عثمان، وهو من قرية يقال لها نصرانة، داعية المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل، وذكر أن المسيح تصور له في جسم إنسان، وقال له: إنك الداعية، وإنك الحجة، وإنك الناقة، وإنك الدابة، وإنك يحيى بن زكريا، وإنك روح القدس.

وعرفه أن الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان بعد غروبها، وأن الأذان في كل صلاة أن يقول المؤذن:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، مرتين، أشهد أن آدم رسول الله، أشهد أن نوحاً رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن موسى رسول الله، أشهد أن عيسى رسول الله؛ أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح، وهي من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية، والقبلة إلى بيت المقدس، [والحج (٤٤٨/٧) إلى بيت المقدس]، وأن الجمعة يوم الاثنين لا يُعمل فيه شيء، والسورة: الحمد لله بكلمته، وتعالى باسمه، المتخذ لأوليائه بأوليائه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ظاهرها يُعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي اتقوني يا أولي الألباب، وأنا الذي لا أسأل عما أفعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي، وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي، ومحتي، واختباري ألقيته في جنتي، وأخلدته في نعمتي، ومن زال عن أمري، وكذب رُسلي أخذته مُهاناً في عذابي، وأتممت أجلي، وأظهرت أمري على السنة رسلي.

وأنا الذي لم يعمل عليّ جبار إلا وضعته، ولا عزيز إلا أذلته، وليس أصّر على أمره، ودام على جهاته، وقالوا: لن نبرح عليه عاكفين، وبه موقنين، أولئك هم الكافرون.

ثم يركع، ويقول في ركوعه: سبحان ربّي ربّ العزة وتعالى عما يصف الظالمون، يقول مرتين، فإذا سجد قال: الله أعلى، الله أعلى، الله أعظم، الله أعظم.

ومن شريعته أن يصوم يومين في السنة، وهما الیهرجان والثیروز، وأن النيذ حرام، والخمر حلال، ولا غسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة، وأن من حاربه وجب قتله، ومن لم يحاربه ممن يخالفه أخذ منه (٤٤٩/٧) الجزية، ولا يؤكل كل ذي ناب، ولا كل ذي مخلب.

وكان مسير قرمط إلى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزنج، فسار قرمط إليه وقال له: إني على مذهب ورائي، ومعني مائة ألف ضارب سيف، فتناظرني، فإن اتفقتا على المذهب ملئت إليك بمن معي، وإن تكن الأخرى انصرفتُ عنك، فتناظرا، فاختلفت آراؤهما، فانصرف قرمط عنه.

ذكر غزو الروم وولادة بازمار

فيها، في جمادى الآخرة، دخل أحمد العتيفي طرسوس، وغزا مع بازمار الصائفة، فبلغوا شكنة، فأصاب بازمار شظية من حجر منجنيق في أضلاعه، فارتحل عنها بعد أن أشرف على

سنة تسع وسبعين ومائتين

أخذها، فتوفي في الطريق منتصف رجب، وحُمل إلى طرسوس فدُفن بها.

ذكر خلع جعفر بن المعتمد وولاية المعتمد

في هذه السنة، في المحرم، خرج المعتمد على الله، وجلس للقراد والقضاة ووجوه الناس، وأعلمهم أنه خلع ابنه المفوض إلى الله جعفرًا من ولاية العهد، وجعل ولاية العهد للمعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق، وشهدوا على المفوض أنه قد تبرأ من العهد، وأسقط اسمه من السكّة، والخطبة، والطرز، وغير ذلك، وخطب للمعتضد، وكان يوماً مشهوداً، فقال يحيى بن علي يهنئ المعتمد:

لَتَبْنِكَ عَقَدْتُ فِيهِ الْمَقْدُمَ حَبَاكَ بِوَرَبِّ فَضْلِكَ أَعْلَمُ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ وَالْيَ عَهْدَنَا فَاتَتْ غَدًا فِينَا الْإِمَامُ الْمُعْظَمُ
وَلَا زَالَ تَنْ وَلَاكَ فِينَا مَبْلَغًا مُنَاهُ، وَمَنْ عَادَاكَ يَشْجَى وَيُرْغَمُ
وَكُنْ عَمُودَ الْبَيْتِ فِيهِ تَأَوَّدُ فَعَادَ بِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ مُقَرَّمُ
وَأَصْبَحَ وَجْهَ الْمُلْكِ جَذْلَانِ ضَاكِحًا يُضِيءُ لَنَا مِنْهُ الَّذِي كَانَ يُظْلِمُ
(٤٥٣/٧)

فلو نك فاشدق عقد ما قد حوته فلذلك دون الناس فيه الحكم
وفيها نودي بمدينة السلام أن لا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاضي، ولا منجم، ولا زاجر، وحلف الوراقون أن لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة.

وفيها قبض على جرّاد كاتب أبي الصقر إسماعيل بن بلبل.

وفيها انصرف أبو طلحة منصور بن مسلم من شهرزور، وكانت له، فقبض عليه.

ذكر الحرب بين الخوارج وأهل الموصل والأعراب

في هذه السنة اجتمعت الخوارج، ومقدمهم هارون، ومعهم متطوعة أهل الموصل وغيرهم، وحمدان بن حمدون التغلبي، على قتال بني شيان.

وسبب ذلك أن جمعاً كثيراً من بني شيان عبروا الزاب، وقصدوا زينوى من أعمال الموصل، للإغارة عليها وعلى البلد، فاجتمع هارون الشاري، وحمدان بن حمدون، وكثير من المتطوعة المواصل، وأعيان أهلها، على قتالهم ودفعهم.

وكان بنو شيان نزلوا على باعشيقا، ومعهم هارون بن سليمان، مولى أحمد بن عيسى بن الشيخ الشيباني، صاحب ديار بكر، وكان قد أنفذه محمد ابن إسحاق بن كنداج والياً على الموصل، فلم يمكنه أهلها من المقام عندهم، فطردوه، فقصد بني شيان معاونا على الخوارج وأهل الموصل، فالتقوا، (٤٥٤/٧) وتصافوا، واقتلوا، فانهزمت بنو شيان، وتبعهم حمدان والخوارج، وملكوا

وكان قد أطاع خمارويه بن أحمد بن طولون، فلما توفي خلفه ابن عجيف، وكتب إلى خمارويه يخبره بموته، فأقره على ولاية طرسوس، وأمدّه بالخيّل والسلاح والذخائر وغيرها، ثم عزله، واستعمل عليها ابن عمه محمد بن موسى بن طولون. (٥٥٠/٧)

ذكر الفتنة بطرسوس

وفيها ثار الناس، بطرسوس، بالأمير محمد بن موسى، فقبضوا عليه،

وسبب ذلك أن الموفق لما توفي كان له خادم من خواصه يقال له: راغب، فاختر الجهاد، فسار إلى طرسوس على عزم المقام بها، فلما وصل إلى الشام سير ما معه من دواب وآلات وخيام وغير ذلك إلى طرسوس، وسار هو جريدة إلى خمارويه ليزوره، ويُعرفه عزمه، فلما لقيه بدمشق أكرمه خمارويه، وأحبّه، وأنس به، واستحيا راغب أن يطلب منه المسير إلى طرسوس، فطال مقامه عنده، فظن أصحابه أن خمارويه قبض عليه، فادّاعوا ذلك، فاستعظمه الناس، وقالوا: يعتمد إلى رجل قصد الجهاد في سبيل الله فيقبض عليه! ثم شغبوا على أميرهم محمد ابن عم خمارويه، وقبضوا عليه، وقالوا: لا يزال في الحبس إلى أن يطلق ابن عمك راغباً ونهبوا داره، وهتكوا حرّمه.

وبلغ الخبر إلى خمارويه، فاطلع راغباً عليه، وأذن له في المسير إلى طرسوس، فلما بلغ إليها أطلق أهلها أميرهم، فلما أطلقوه قال لهم: قبح الله جواركم! وسار عنهم إلى البيت المقدس، فأقام به، ولما سار عن طرسوس عاد العجيفي إلى ولايتها.

ذكر عدة حوادث

وفيها ظهر كوكب ذو جُمة، وصارت الجُمة ذؤابة.

وحجّ بالناس هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمي. (٤٥١/٧)

وتوفي فيها عبد الكريم الدير عاقولي.

وفيها توفي إسحاق بن كنداج، وولي ما كان إليه من أعمال الموصل وديار ربيعة ابنه محمد.

وتوفي إدريس بن سليم الفَقَّسي الموصلي، وكان كثير الحديث والصلاح. (٤٥٢/٧)

بيوتهم، واشتغلوا بالنهب.

وكان الزاب لماً عبره بنو شيبان [زائدأ]، فلماً انهزموا علموا أن لا ملجأ ولا منجى غير الصبر، فعادوا إلى القتال، والناس مشغولون بالنهب، فأرقعوا بهم، وقُتل كثير من أهل الموصل ومن معهم وعاد الظفر للأعراب.

وكتب هارون بن سببا إلى محمد بن إسحاق بن كنداج يُعرفه أن البلد خارج عن يده إن لم يحضر هو بنفسه، فسار في جيش كثيف يريد الموصل، فخافه أهلها، فانهلر بعضهم إلى بغداد يطلبون إرسال وال إليهم، وإزالة ابن كنداج عنهم، فاجتازوا في طريقهم بالحديثة، وبها محمد بن يحيى المجروح يحفظ الطريق، قد ولّاه المعتضد ذلك، وقد وصل إليه عهد بولايته الموصل، فحثّوه على تعجيل السير وأن يسبق محمد بن كنداج إليها، وخوّفوه من ابن كنداج إن دخل الموصل قبله، فسار، فسبق محمد إليها، ووصل محمد بن كنداج إلى بلد، فبلغه دخول المجروح الموصل، فندم على التباطؤ وكتب إلى خماروته بن طولون يخبره الخبر، فأرسل أبا عبد الله بن الجصاص بهدايا كثيرة إلى المعتضد، ويطلب أموراً، منها امرأة الموصل كما كانت له قبل، فلم يجب إلى ذلك، وأخبره كراهة أهل الموصل من عمّاله، فأعرض عن ذكرها.

وبقي المجروح بالموصل يسيراً، وعزله المعتضد، واستعمل بعده عليّ ابن داود بن رهباز الكردي، فقال شاعر يقال له العُجيني:

(٤٥٥/٧)

ما رأى الناسُ لهذا الدهرُ مذكَ كانوا شبيهاً
ذَلَّتْ الموصلُ حَتَّى أَمَرَ الْأَكْرَادُ فِيهَا
(العُجيني بالنون).

ذكر وفاة المعتضد

وفيها توفي المعتضد على الله ليلة الاثنين لإحدى عشرة بقيت من رجب ببغداد، وكان قد شرب على الشط في الحسيني ببغداد، يوم الأحد، شرباً كثيراً، وتعثى فأكثرت، فمات ليلاً، وأحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس، فنظروا إليه، وحُمل إلى سامراً فدُفن بها، وكان عمره خمسين سنة وستة أشهر، وكان أسن من الموفق بستة أشهر، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر.

وكان في خلافته محكوماً عليه، قد تحكّم عليه أخوه أبو أحمد الموفق، وضيّق عليه، حتّى إنّه احتاج، في بعض الأوقات، إلى ثلاثمائة دينار، فلم يجدها ذلك الوقت، فقال :

الْبِسْ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَنْطَلِي
وَيَتَوَخَّذَ بِاسْمِهِ النَّبِيَّ جَمِيعاً
وَمَا مِنْ ذَاكِ شَيْءٍ فِي يَدَيْهِ
وَيُتَمَنَّى بَعْضُ مَا يُجْبَى إِلَيْهِ

وكان أوّل الخلفاء انتقل من سرّ من رأى، مُد بُنيت، ثم لم يُعد إليها أحد منهم. (٤٥٦/٧).

ذكر خلافة أبي العباس المعتضد

وفي صبيحة الليلة التي مات فيها المعتضد بوبع لأبي العباس المعتضد بالله أحمد بن الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل بالخلافة، فولّى غلامه بدرأ الشُرطة، وعيّد الله بن سليمان الوزارة، ومحمد بن الشاه بن مالك الحرّمي، ووصله في شوال رسول عمرو بن الليث ومعه هدايا كثيرة، وسأله أن يولّيه خراسان، فعقد له عليها، وسيّر إليه الخلع واللواء والعهد، فنصب اللواء في داره ثلاثة أيام.

ذكر وفاة نصر السامانيّ

وفيها مات نصر بن أحمد السامانيّ، وقام بما كان إليه من العمل بما وراء النهر، أخوه إسماعيل بن أحمد، وكان نصر ديناً، عاقلاً، له شعر حسن، منه ما قاله في رافع بن هرثمة :

أَحْرَكَ نِيكَ عَلَى خَيْرٍ وَمَعْرِفَةٍ
إِنَّ الْفَيْلَ ذَلِيلٌ خَيْثَا كَانَا
لَوْلَا زَمَانٌ خَوْزُونَ فَيَ تَصْرَفُوهُ
وَدَوْلَةٌ ظَلَمَتْ مَا كُنْتُ إِنْسَانَا
(٤٥٧/٧)

ذكر عزل رافع بن هرثمة من خراسان وقته

وفيها عزل المعتضد رافع بن هرثمة عن خراسان.

وسبب ذلك أن المعتضد كتب إلى رافع بتخيلة قرى السلطان بالرّي، فلم يقبل، فأشار على رافع أصحابه برّد القرى لئلا يفسد حاله بكتاب، فلم يقبل أيضاً، وكتب المعتضد إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف يأمره بمحاربة رافع وإخراجه عن الرّي، وكتب إلى عمرو بن الليث بتوليته خراسان.

ثم إن أحمد بن عبد العزيز لقي رافعاً فقاتله، فانهزم رافع عن الرّي وسار إلى جرجان، ومات أحمد بن عبد العزيز سنة ثمانين ومائتين، فعاد رافع إلى الرّي، فلاقاه عمرو ويكر ابنسا عبد العزيز، فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عمرو ويكر، وقُتل من أصحابهما مقتلة عظيمة، ووصلوا إلى أصبهان، وذلك في جمادى الأولى سنة ثمانين [ومائتين].

وأقام رافع بالرّي باقي سته، ومات عليّ بن الليث معه في الرّي، ثم إن عمرو بن الليث وافى نيسابور في جمادى الأولى سنة ثمانين [ومائتين] واستولى عليها وعلى خراسان، فبلغ الخبر إلى رافع، فجمع أصحابه واستشارهم فيما يفعل، وقال لهم : إن الأعداء قد احدثوا بنا، ولا آمن أن يتفقوا علينا، هذا محمد بن زيد بالذيلم ينتظر فرصة لينهزها، وهذا عمرو بن عبد العزيز قد فعلت به ما فعلت، فهو يترصّ الدوائر، وهذا عمرو بن الليث قد وافى

خُرَاسان بجموعه؛ وقد رأيتُ أن أصلح محمد بن زيد وأعيد إليه طَبَرِستان، (٤٥٨/٧) وأصلح ابن عبد العزيز، ثم أسير إلى عمرو فأخرجه عن خُرَاسان، فوافقه على ذلك، وأرسل إلى ابن عبد العزيز فصالحه، واستقرَّ الأمر بينهما في شعبان سنة ثمانين [ومائتين].

(٤٦٠/٧)

ذكر عدة حوادث

وفيها قدم الحسين بن عبد الله، المعروف بابن الجصاص، من مصر بهدايا عظيمة من خماروته، فتزوج المعتضد ابنة خماروته. وفيها ملك أحمد بن عيسى بن الشيخ قلعة ماردین، وكانت بيد محمد بن إسحاق بن كنداجیق.

وحجَّ بالناس هذه السنة هارون بن محمد، وهي آخر حجة حجها، وأول حجة حجها بالناس، سنة أربع وستين ومائتين إلى هذه السنة.

وفيها توفي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوزة الترمذي السلمي بترمذ في رجب، وكان إماماً حافظاً له تصانيف حسنة، منها: الجامع الكبير في الحديث، وهو أحسن الكتب، وكان ضريعاً، وتوفي إبراهيم بن محمد المدبر في شوال [وكان يلي ديوان الضياع]. (٤٦١/٧)

سنة ثمانين ومائتين

ذكر حبس عبد الله بن المهدي

في هذه السنة أخذ المعتضد عبد الله بن المهدي، ومحمد بن الحسين المعروف بشميلة، وكان شميلة هذا مع صاحب الزنج إلى آخر أيامه، ثم لحق بالموفق في الأمان، فأمنه.

وكان سبب أخذه إياه أن بعض المستأينة سعى به إلى المعتضد، وأنه يدعو لرجل لا يعرف اسمه، وأنه قد أفسد جماعة من الجند وغيرهم، فأخذه المعتضد فقرره، فلم يقر بشيء وقال: لو كان الرجل تحت قدمي ما رفعتما عنه! فأمر به فشُدَّ على خشبة من خشب الخيم، ثم أوقدت نار عظيمة، وأدبر على النار حتى تقطع جلده، ثم ضربت عنقه، وصلب عند الجسر، وحبس عبد الله بن المهدي إلى أن علم براءته، وأطلقه، وكان المعتضد قال لشميلة: بلغني أنك تدعو إلى ابن المهدي؟ فقال: المشهور عني أنني أتولى آل أبي طالب. (٤٦٢/٧)

ذكر قصد المعتضد بني شيان وصلحه معهم

وفيها، في أول صفر، سار المعتضد من بغداد يريد بني شيان بالموضع الذي يجتمعون به من أرض الجزيرة، فلما بلغهم قصدوا جمعوا إليهم أموالهم، وأغار المعتضد على أعراب عند السن، فنهب أموالهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم في الزاب مثل ذلك، وعجز الناس عن حمل ما غنموه، فبيعت الشاة بدرهم،

ثم سار إلى طَبَرِستان، فوردها في شعبان سنة إحدى وثمانين [ومائتين]. وكان قد أقام بجرجان، فأحكم أمورها، ولما استقرَّ بطَبَرِستان راسل محمد بن زيد وصالحه، وعده محمد بن زيد أن ينجده بأربعة آلاف رجل من شجعان الديلم، وخطب لمحمد بطَبَرِستان وجرجان في ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين ومائتين.

وبلغ خبر مصالحة محمد بن زيد ورافع إلى عمرو بن الليث، فأرسل إلى محمد يُذكره ما فعل به، ويُحذره منه و [من] غدره إن استقام أمره، فعاد عن إنجاده بمسكر.

فلما قوي عمرو عرف لمحمد بن زيد ذلك، وخلص عليه طَبَرِستان؛ ولما أحكم رافع أمر محمد بن زيد سار إلى خُرَاسان، فورد نيسابور في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وجرى بينه وبين عمرو حرب شديدة انهزم فيها رافع إلى أيسور، وأخذ عمرو منه المعدل والليث ولذي أخيه علي بن الليث، وكانا عنده بعد موت أخيه علي.

ولما ورد رافع أيسور أراد المسير إلى هراة أو مرو، فعلم عمرو بذلك، فأخذ عليه الطريق سَرَّخَس، فلما علم رافع بمسير عمرو عن نيسابور سار على مضايق وطرق غامضة غير طريق الجيش إلى نيسابور، فدخلها، وعاد إليه عمرو من سَرَّخَس فحصره فيها، وتلاقيا، واستأمن بعض قواد (٤٥٩/٧) رافع إلى عمرو، فانهمز رافع وأصحابه، وسير أخاه محمد بن هرْزَمَة إلى محمد بن زيد يستمده، ويطلب ما وعده من الرجال، فلم يفعل، ولم يمده برجل واحد، وتفرق عن رافع أصحابه وغلماؤه، وكان له أربعة آلاف غلام، ولم يملك أحد من ولادة خُرَاسان قبله مثله، وفارقه محمد بن هارون إلى إسماعيل بن أحمد الساماني ببخارى، وخرج رافع منهزماً إلى خوارزم على الجمّازات، وحمل ما بقي معه من مال وآلة، وهو في شيرْزَمَة قليلة، وذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائتين.

فلما بلغ رباط جيوه وجّه إليه خوارزمشاه أبا سعيد الدرعاني ليقبض له الأتزال، ويخدمه إلى خوارزم، فرأه أبو سعيد في قلعة من رجالة، وغدر به وقتله لسبب خلون من شوال سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث، وهو بنيسابور، وأنفذ عمرو الرأس إلى المعتضد بالله، فوصل إليه سنة أربع وثمانين [ومائتين]. فنصب ببغداد، وصفت خُرَاسان، إلى شاطيء جيحون،

وحصار عظيم، أخذ عبد الله بن الحسن، بعد أن أمّنه وأصحابه، وقيدته وجسسه، وقرّره بجميع أمواله ثم قتل.

وفيها مات أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلف، وقام بعده أخوه عمر بن عبد العزيز.

وفيها افتتح محمد بن ثور عُمان ويعث برؤوس جماعة من أهلها.

وفيها توفي جعفر بن المعتمد في ربيع الآخر، وكان يُنادم المعتضد.

وفيها دخل عمرو بن الليث نيسابور في جمادى الأولى.

وفيها وجّه محمد بن أبي الساج ثلاثين نفساً من الخوارج من طريق الموصل فضرّبت أعناق أكثرهم، وحُبس الباقيون.

وفيها دخل أحمد بن أبا طرسوس للغزاة من قبل خُمارويه بن أحمد بن طولون، ودخل بعده بدر الحماسي، وفزّو جميعاً مع العُجَيفي أمير طرسوس حتى بلغوا البلقسون.

وفيها غزا إسماعيل بن أحمد الساماني بلاد الترك، وافتتح مدينة ملكهم، (٤٦٥/٧) وأسر أباه وأمرأته خاتون ونحواً من عشرة آلاف، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وغنم من الدواب ما لا يُعلم عدداً، وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم.

وفيها توفي راشد مولى الموفق بالدينور، وحُمِل إلى بغداد في رمضان.

وفي شوال مات مسرور البلخي.

وفيها غارت المياه بالرّيّ وطبرستان، حتّى بلغ الماء ثلاثة أرباط بدرهم، وغلت الأسعار.

وفي شوال انكسف القمر، وأصبح أهل ديبيل والدنيا مظلمة، ودامت الظلمة عليهم، فلمّا كان عند العصر هبّت ريح سوداء فدامت إلى ثلث الليل، فلمّا كان ثلث الليل زلزلوا فخرّبت المدينة، ولم يبق من منازلهم إلّا قدر مائة دار، وزلزلوا بعد ذلك خمس مرار، وكان جملة من أخرج من تحت الردم مائة ألف وخمسين ألفاً كلّهم موتى.

وحجّ بالناس هذه السنة أبو بكر محمد بن هارون بن إسحاق المعروف بابن تُرنجة.

وفيها توفي محمد بن إسماعيل بن يوسف أبو إسماعيل الترمذي في رمضان، وله تصانيف حسنة؛ وأحمد بن سيار بن أيوب الفقيه المروزي، وكان زاهداً عالماً؛ وأبو جعفر أحمد بن أبي عمران الفقيه الحنفي بمصر. (٤٦٦/٧)

والبعير بخمسة دراهم.

وسار إلى الموصل وتلّد، فلقبه بنو شيان يسألونه العفو، ويذلّوا له رهائن، فأجابهم إلى ما طلبوا، وعاد إلى بغداد، وأرسل إلى أحمد بن عيسى بن الشيخ يطلب منه ما أخذه من أموال ابن كنداجيق بأبد، فبعثه إليه ومعه هدايا كثيرة.

ذكر خروج محمد بن عبادة على هارون وكلاهما خارجيّان

في هذه السنة خرج محمد بن عبادة، ويُعرف بأبي جَوْزة، وهو من بني زهير من أهل قُبرائنا، من البقعاء، على هارون، وكلاهما من الخوارج، وكان أوّل أمره فقيراً، وكان هو وابنان له يلتقطون الكساة ويبيعونها، إلى غير ذلك من الأعمال، ثمّ إنّه جمع جماعة، وحكّم، فاجتمع إليه أهل تلك النواحي من الأعراب، وقوي أمره، وأخذ عُشر الغلات، وقبض الزكاة، (٤٦٣/٧) وسار إلى مغلّثايا، فقاطعه أهلها على خمسمائة دينار، وجبى تلك الأعمال، وعاد وبني عند سينجار حصناً، وحمل إليه الأمتعة والميرة، وجعل فيه ابنه أبا هلال ومعه مائة وخمسون رجلاً من وجوه بني زهير وغيرهم.

ووصل خبرهم إلى هارون الشاري فاجتمع رأيهم ورأي وجوه أصحابه على قصد الحصن أولاً، فإذا فرغوا منه ساروا إلى محمد بن عبادة، فجمع أصحابه، فبلغوا مائة راجل ألفاً ومائتي فارس، وسار إليه بمادرا، وأحْدق به وحصره؛ ومحمد بن عبادة في قُبرائنا لا يعلم بذلك.

وجدّ هارون في قتال الحصن، وكان معه سلاليم قد أخذها، وزحف إليه، وكان أصحابه قد منعوا أحداً يُخرج رأسه من أعلى السور، فلمّا رأى من معه من بني تغلب تغلبه على الحصن أعطوا من فيه من بني زهير الأمان بغير أمر هارون، فسقّ عليه، ولم يقدر على تغيير ذلك، إلّا أنّه قتل أبا هلال بن محمد بن عبادة ونفروا معه قبل الأمان، وفتحوا الحصن وملكوا ما فيه.

وساروا إلى محمد، وهو بقُبرائنا، فلقوه وهو في أربعة آلاف رجل، فاقتلوا، فانهزم هارون ومن معه، فوقف بعض أصحابه ونادى رجالاً بأسمائهم فاجتمعوا نحو أربعين رجلاً، وحملوا على ميمنة محمد بن عبادة، فانهزمت الميمنة، وعادت الحرب، فانهزم محمد ومن معه، ووضعوا السيف فيهم، فقتلوا منهم ألفاً وأربع مائة رجل، وحجز بينهم الليل، وجمع هارون (٤٦٤/٧) مالهم فقسّمه بين أصحابه، وانهزم محمد إلى أباد، فأخذه صاحبها أحمد بن عيسى بن الشيخ، بعد حرب، فظفر به، فأخذه أسيراً، وسيّره إلى المعتضد، فسُلخ جلده كما يسُلخ الشاة.

ذكر عدة حوادث

لما افتتح محمد بن أبي الساج مراغة، بعد حرب شديدة

سنة إحدى وثمانين ومائتين

ذكر مسير المعتضد إلى ماردین وملكه إياها

وفيها خرج المعتضد الخرجة الثانية إلى الموصل، قاصداً لخمداً بن حمدون، لأنه بلغه أن خمداً مال إلى هارون الشاري، ودعا له، فلما بلغ الأعراب والأكراد مسير المعتضد تحالفوا أنهم يقتلون على دم واحد، واجتمعوا، وعبوا عسكرهم، وسار المعتضد إليهم في خيلة جريدة، فأوقع بهم، وقتل منهم، وغرق منهم في الزاب خلق كثير.

وسار المعتضد إلى الموصل يريد قلعة ماردین، وكانت لخمداً بن حمدون، فهرب خمداً منها وخلف ابنه بها، فنازلها المعتضد، وقاتل من فيها يومه ذلك، فلما كان من الغد ركب المعتضد فصعد إلى باب القلعة، وصاح: يا ابن خمداً! فأجابته فقال: افتح الباب، ففتحه، ففقد المعتضد في الباب، وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها، ثم وجه خلف بن حمدون، وطلب أشد الطلب، وأخذت أموال له، ثم ظفر به المعتضد بعد عوده إلى بغداد.

وفي عوده قصد الحسينية وبها رجل كردي يقال له شداد، في جيش كثير، قيل كانوا عشرة آلاف رجل، وكان له قلعة، فظفر به المعتضد وهدم قلعته. (٤٦٧/٧)

ذكر عدة حوادث

وفيها ورد ترك بن العباس، عامل المعتضد على ديار مصر، من الجزيرة إلى بغداد، ومعه ثيف وأربعون من أصحاب ابن الأغر، صاحب سُميساط، على جمال، عليهم برانس وذرايع حرير، فمضى بهم إلى الحبس، وعاد إلى داره.

وفيها كانت وقعة لوصيف خادم ابن أبي الساج لعمر بن عبد العزيز، فهزمه، ثم سار وصيف إلى مولاه محمد بن أبي الساج.

وفيها دخل طنج بن جُف طرسوس لغزو الصائفة من قبل خمارويه ابن أحمد بن طولون ببلغ طرابزون، وفتح بلودية في جمادى الآخرة.

وفيها مات أحمد بن محمد الطائي بالكوفة في جمادى.

وفيها غارت المياه بالرّي وطبرستان.

وفيها سار المعتضد إلى ناحية الجبل، وقصد الديّنور، وولّى ابنه عليّاً، وهو المكتفي، الرّي، وقزوین، ورتجان، وأبهر، وقم، وهمدان، والديّنور، وجعل على كتابته أحمد بن الأصمّ، ولقد عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف أصبهان، ونهاوند، والكرج، وعاد إلى بغداد لأجل غلاء السعر.

وفيها استأمن الحسن بن عليّ كورة، عامل رافع على الرّي، إلى عليّ بن المعتضد [في زهاء ألف رجل]، فوجهه ومن معه إلى أبيه. (٤٦٨/٧)

وفيها دخل الأعراب سامراً، فقتلوا ابن سيماء في ذي القعدة. وفيها غزا المسلمون الروم، فدامت الحرب بينهم اثني عشر يوماً، فظفر المسلمون وغنموا غنيمة كثيرة وعادوا. وفيها توفي عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا، صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة. (٤٦٩/٧)

سنة اثنتين وثمانين ومائتين

ذكر النيروز المعتضديّ

فيها أمر المعتضد بالكتابة إلى الأعمال كلّها والبلاد جميعها بترك افتتاح الخراج في النيروز العجمي، وتأخير ذلك إلى الحادي عشر من حزيران، وسماه النيروز المعتضديّ، وأنشئت الكتب بذلك من الموصل، والمعتضد بها، وأراد بذلك الترفيه عن الناس، والرفق بهم.

ذكر قصد خمداً وانهزامه وعوده إلى الطاعة

في هذه السنة كتب المعتضد إلى إسحاق بن أيوب، وخمداً بن حمدون، بالمسير إليه، وهو في الموصل، فبادر إسحاق، وتحصّن خمداً بقلاعه، وأودع أمواله وخزّنه، فسير المعتضد الجيوش نحوه مع وصيف موشكير، ونصر القشوري، وغيرهما، فصادفوا الحسن بن عليّ كورة وأصحابه متحصنين بموضع يُعرف بدير الزعفران، من أرض الموصل. (٤٧٠/٧)

وفيها وصل الحسين بن خمداً بن حمدون، فلمّا رأى الحسين أوائل العسكر طلب الأمان، فأمن، وسير إلى المعتضد، وسلم القلعة، فأمر المعتضد بهدمها، وسار وصيف في طلب خمداً، وكان بياسورين، فواقعه وصيف، وقتل من أصحابه جمعة، وانهزم خمداً في زورق كان له في دجلة، وحمل معه ما لا كان له، وعبر إلى الجانب الغربيّ من دجلة، فصار في ديار ريعة.

وعبر نفر من الجند، فاقتصوا أثره، حتّى أشفروا على دير قد نزل، فلمّا رأوه هرب، وترك ماله، فأخذ وأتى به المعتضد، وسار أولئك في طلب خمداً، فصاقت عليه الأرض، فقصد خيمة إسحاق بن أيوب، وهو مع المعتضد، واستجار به، فأحضره إسحاق عند المعتضد، فأمر بالاحتفاظ به، وتابع رؤوساء الأكراد في طلب الأمان، وكان ذلك في المحرم.

ذكر انهزام هارون الخارجي من عسكر الموصل

كان المعتضد بالله قد خلف بالموصل نصراً القشوري ينجي الأموال ويعين العمال على جبايتها، فخرج عامل مغلّايا إليها ومعه جماعة من أصحاب نصر، فوقع عليهم طائفة من الخوارج، فاقتتلوا إلى أن أدركهم الليل وفرق بينهم، وقتل من الخوارج إنسان اسمه جعفر، وهو من أعيان أصحاب هارون، فعظم عليه قتله، وأمر أصحابه بالإفساد في البلاد.

فكتب نصر القشوري إلى هارون الخارجي كتاباً يتهذبه بقرب الخليفة، (٤٧١/٧) وأنه إن هم به أهلكه وأهلك أصحابه، وأنه لا يغرّ بمن سار إلى حربه، فعاد عنه بمكر وخديعة، فكتب إليه هارون كتاباً، منه: أما ما ذكرت ممن أراد قصدي، ورجع عني، فلأنهم لما رأوا جدنا واجتهادنا كانوا بإذن الله فراشاً متتابعاً، وقصباً أجوف، ومن صبر لنا منهم ما زاد على الاستار بالحيطان، ونحن على فرسخ منهم، وما غرك إلا ما أصبت به صاحبنا، فظننت أن دمه مطلول أو أن وتره متروك لك، كلاً إن الله تعالى من ورائك، وآخذ بناصيتك، ومعين على إدراك الحق منك، ولم تعبرنا بغيرك وتدع أن يكون مكان ذلك إبداء صفحتك، وإظهار عداوتك؟ وإنا وإياك كما قيل:

فلا تودعونا بالقضاء وإبرؤوا إلينا سواداً نلقاه بسواد
ولعمر الله ما ندعو إلى البراز ثقة بأنفسنا، ولا عن ظن أن
الحول والقوة لنا، ولكن ثقة برئيسنا، واعتماداً على جميل عوائده
عندنا.

وأما ما ذكرت من أمر سلطانك، فإن سلطانك لا يزال منا قريباً، وبحالنا عالماً، فلا قدم أجلاً ولا أخره، ولا بسط رزقاً ولا قبضه، قد بعثنا على مقابلتك، وستعلم عن قريب إن شاء الله تعالى.

فعرض نصر كتاب هارون على المعتضد، فجده في قصده، وولى الحسن بن علي كورة الموصل، وأمره بقصد الخوارج، وأمر مقدمي الولايات والأعمال كافة بطاعته، فجمعهم، وسار إلى أعمال الموصل، وخذق على نفسه، (٤٧٢/٧) وأقام إلى أن رقع الناس غلاتهم، ثم سار إلى الخوارج، وعبر الزاب إليهم، فلقبهم قريباً من المغلة، وتصافوا للحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانكشف الخوارج عنه ليفرقوا جمعته ثم يعطفوا عليه، فأمر الحسن أصحابه بلزوم مواقفهم، ففعلوا، فرجع الخوارج وحملوا عليهم سبع عشرة حملة، فانكشفت ميمنة الحسن، وقتل من أصحابه، وثبت هو، فحمل الخوارج عليه حملة رجل واحد، فثبت لهم وضرب على رأسه عدة ضربات فلم تؤثر فيه.

فلما رأى أصحابه ثباته تراجعوا إليه وصبروا، فانهزم الخوارج

أصبح هزيمة وقتل منهم خلق كثير، وفارقوا موضع المعركة، ودخلوا أذربيجان.

وأما هارون فإنه تحيّر في أمره، وقصد البرية، ونزل عند بني تغلب، ثم عاد إلى مغلّايا، ثم عاد إلى البرية، ثم رجع عبر دجلة إلى حرّة، وعاد إلى البرية.

وأما وجوه أصحابه، فلأنهم لما رأوا إقبال دولة المعتضد وقوته، وما لحقهم في هذه الواقعة، راسلوا المعتضد يطلبون الأمان فأمنهم، فأتاه كثير منهم، يبلغون ثلاثمائة وستين رجلاً، وبقي معهم بعضهم يجول بهم في البلاد، إلى أن قتل سنة ثلاث وثمانين [وماتين] على ما نذكره. (٤٧٣/٧)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول قبض على تكتمر بن طاشتمر، وقيد وأخذ ماله؛ وكان أميراً على الموصل، واستعمل بعده عليها الحسن بن علي الخراساني، ويعرف بكورة.

وفيها قدم ابن الجصاص بابنة خمارويه، زوجة المعتضد، معها أحد عمومتها، وكان المعتضد بالموصل.

وفيها عاد المعتضد إلى بغداد، ووفدت إليه ابنة خمارويه في ربيع الآخر.

وفيها سار المعتضد إلى الجبل، فبلغ الكرج، وأخذ أموالاً لابن أبي دلف، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز يطلب منه جوهرًا كان عنده، فوجه به إليه، وتنحى من بين يديه.

وفيها أطلق لؤلؤ غلام ابن طولون، وحمل على دواب وبغال.

وفيها وجه يوسف بن أبي الساج إلى الصيمرة مدداً لفتح القلابسي، غلام الموفق، فهرب يوسف فيمن أطاعه إلى أخيه محمد بمرآغة، ولقي مالا للمعتضد فأخذه، فقال في ذلك غيب الله بن عبد الله بن طاهر:

إسم الهللى أنصاركسم آل طاهر بلا سب نخفون والدهر ينهب
وقد خلطوا شكرياً بصبر وابطوا وغيرهم يطوي ويحسي ويهرب

(٤٧٤/٧) وفيها وجه المعتضد وزيره غيب الله بن سليمان إلى ابنه بالرّي وعاد منه.

وفيها وجه محمد بن زيد العلوي من طبرستان إلى محمد بن ورد المطار باثنين وثلاثين ألف دينار ليفرقها على أهل بيته ببغداد، والكوفة، والمدينة، فسعى به إلى المعتضد، فأحضر محمد عند بدر، وسئل عن ذلك، فأقر أنه يؤجّه إليه كل سنة مثل ذلك، ففرقه، وأنهى بدر إلى المعتضد ذلك، فقال له المعتضد: أما تذكر الرؤيا التي خبرتك بها؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين؛ قال: رأيت في النوم

سنة ثلاث وثمانين ومائتين

ذكر الظفر بهارون الخارجي

في هذه السنة سار المعتضد إلى الموصل بسبب هارون الشاري وظفر به.

وسبب الظفر به أنه وصل إلى تكريت وأقام بها، وأحضر الحسين بن حمدان التغلبي وسيره في طلب هارون بن عبد الله الخارجي في جماعة من الفرسان والرُجالة، فقال له الحسين: إن أنا جئتُ به ففي ثلاث حوائج عند أمير المؤمنين؛ قال: أذكرها! قال: إحداهن إطلاق أبي، وحاجتان أذكرهما بعد مجيئي به، فقال له المعتضد: لك ذلك. فانتخب ثلاثمائة فارس، وسار بهم، ومعهم وصيف بن موشكير، فقال له الحسين: تأمره بطاعتي، يا أمير المؤمنين، فأمره بذلك.

وسار بهم الحسين حتى انتهى إلى مخاضة في دجلة، فقال الحسين لوصيف ولمن معه ليقفوا هناك، فإنه ليس له طريق إن هرب غير هذا، فلا ترحن من هذا الموضع حتى يمر بكم فتمنعوه عن العبور، وأجيء أنا، أو يبلغكم أنني قُلت.

ومضى حسين في طلب هارون، فلقبه، وواقعه وقُتل بينهما قتلى، وانهمز (٤٧٧/٧) هارون، وأقام وصيف على المخاضة ثلاثة أيام، فقال له أصحابه: قد طال مقامنا، ولستنا نأمن أن يأخذ حسين الشاري، فيكون له الفتح دوننا، والصواب أن نمضي في آثارهم. فاطاعهم ومضى.

وجاء هارون منهزماً إلى موضع المخاضة فعب، وجاء حسين في أثره، فلم ير وصيفاً وأصحابه في الموضع الذي تركهم فيه، ولا عرف لهم خبراً، فعب في أثر هارون، وجاء إلى حيٍّ من أحياء العرب، فسأل عنه، فكتموه، فتهذّبهم، فأعلموه أنه اجتاز بهم، فنتبعه حتى لحقه بعد أيام، وهارون في نحو مائة رجل، فنأشده الشاري ووعده، وأبى حسين إلا محاربته، فحاربه، فالقى الحسين نفسه عليه، فأخذه أسيراً وجاء به إلى المعتضد، فأنصرف المعتضد إلى بغداد فوصلها لثمان بقين من ربيع الأول.

وخلع المعتضد على الحسين بن حمدان وطوقه، وخلع على إخوته، وأدخل هارون على القيل، وأمر المعتضد بحل قيود حمدان بن حمدون والتوسعة عليه والإحسان إليه، ووعده بإطلاقه.

ولما أركبوا هارون على القيل أرادوا أن يلبسوه ديباجاً مشهراً، فامتنع وقال: هذا لا يحل؛ فالبسوه كارهاً، ولما صُلب نادى بأعلى صوته: لا حكيم إلا لله، ولو كره المشركون؛ وكان هارون صُغْراً.

كأنّي أريد ناحية النهران، وأنا في جيشي، إذ مررتُ برجل واقف على تلّ يصلي ولا يلتفت إليّ، فعجبتُ، فلما فرغ من صلاته قال لي: أقبل، فأقبلتُ إليه، فقال لي: أتعرفني؟ قلت: لا! قال أنا عليّ بن أبي طالب، أخذ هذه فاضرب بها الأرض، بمسحاة بين يديه، فأخذتها، ضربتُ بها ضربات، فقال لي: إنه سيلي من ولدك هذا الأمر بعدد الضربات، فأوصهم بولدي خيراً.

وأمر بداراً بإطلاق المال والرجل، وأمره أن يكتب إلى صاحبه بطبرستان أن يوجّه ما يريد ظاهراً، وأن يفرّق ما يأتيه ظاهراً، وتقدّم بمعوته على ذلك.

وفيها توفي أبو طلحة منصور بن مُسلم في حبس المعتضد. وفيها ولدت جارية اسمها شُعب للمعتضد، ولداً سمّاه جعفرأ، وهو المقندر.

وفيها قُتل خُمارويه بن أحمد بن طولون، ذبحه بعضُ خدمه على فراشه في ذي الحجة بدمشق، وقُتل من خدمه الذين اتّهموا نيّف وعشرون نفساً. (٤٧٥/٧)

وكان سبب قتله أنه سعى إليه بعض الناس وقال له إنّ جَواري داره قد اتّخذت كلّ واحدة منهنّ حصيّاً، من خصيان دازه، لها كالزوج، وقال: إن شئت أن تعلم صحّة ذلك فأحضّر بعض الجواري فاضربها، وقرّرها، حتى تعلم صحّة ذلك، فبعث من وقته إلى نائبه بمصر يأمره بإحضار عدّة من الجواري ليعلم الحال منهنّ، فاجتمع جماعة من الخدم، وقرّروا بينهم الاتفاق على قتله، خوفاً من ظهور ما قيل له، وكانوا خاصّته، فذبحوه ليلاً وهربوا.

فلما قُتل اجتمع القوَاد وأجلسوا ابنه جيش بن خُمارويه في الإمارة، وكان معه بدمشق، وهو أكبر ولده، فبايعوه ففرّقت فيهم الأموال، وكان صبيّاً غُراً.

وفيها توفي عثمان بن سعيد بن خالد أبو سعيد الداري، الفقيه الشافعي، أخذ الفقه عن البويطي صاحب الشافعي، والأدب عن ابن الأعرابي.

وفيها توفي أبو حنيفة أحمد بن داود الدِّيَنُوري اللغوي صاحب كتاب النبات وغيره.

وفيها توفي الحارث بن أبي أسامة، وله مسند يُروى غالباً في زماننا هذا؛ وأبو العيناء محمّد بن القاسم وكان يروي عن الأصمعي. (٤٧٦/٧)

ذكر عصيان دمشق على جيش بن خمارويه

وخلاف جنده عليه وقتله

في هذه السنة خرج جماعة من قواد جيش بن خمارويه عليه، وجاهروا بالمخالفة، وقالوا: لا نرضى بك أميراً، فاعتزلنا حتى نزلنا عمك الإمارة. (٤٧٨/٧)

وكان سبب ذلك أنه لما ولي وكان صبيّاً قرب الأحداث والسُّقُل، وأُخْلِدت إلى استماع أقوالهم، فغَيَّرُوا نَيْتَهُ على قواده وأصحابه، وصار يقع فيهم ويذمهم، ويظهر العزم على الاستبدال بهم، وأخذ نعمهم وأموالهم؛ فَاتَّقَوْا عليه ليقْتُلُوهُ ويقيموا عَمَهُ، فبلغه ذلك، فلم يكتمه بل أطلق لسانه فيهم، ففارقه بعضهم، وخلع طُغْج بن جُفٍّ أمير دمشق.

وسار القواد الذين فارقوه إلى بغداد، وهم محمد بن إسحاق بن كنداجيق، وخاقان المُفْلِحِي، وبدر بن جُفٍّ، أخو طُغْج، وغيرهم من قواد مصر، فسلكوا البرية، وتركوا أهاليهم وأموالهم، فتاهوا أياماً، ومات من أصحابهم جماعة من العطش، وخرجوا فوق الكوفة بمرحلتين، وقدموا على المعتضد، فخلع عليهم، وأحسن إليهم، وبقي سائر الجنود بمصر على خلافهم إبن خمارويه، فسألهم كاتبه علي بن أحمد الماذرائي أن ينصرفوا يومهم ذلك، فرجعوا، فقتل جيش عَمِينَ له، وبكر الجند إليه، فرمى بالراسمين إليهم، فهجم الجند عليه فقتلوه ونهبوا داره، ونهبوا مصر وأحرقوها، وأقعدوا أخاه هارون في الإمرة بعده، فكانت ولايته تسعة أشهر.

ذكر حصر الصقلية القسطنطينية

وفي هذه السنة سارت الصقلية إلى الروم، فحاصروا القسطنطينية، وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً، وخربوا البلاد، فلما لم يجد ملك الروم منهم خلاصاً (٤٧٩/٧) جمع من عنده من أسارى المسلمين، وأعطاهم السلاح، وسألهم معوته على الصقلية، ففعلوا وكشفوا الصقلية وأزاحوهم عن القسطنطينية؛ ولما رأى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسه، فردّهم، وأخذ السلاح منهم، وفردّهم في البلاد حذراً من جنابهم عليه.

ذكر الفداء بين المسلمين والروم

في هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم، فكان جملة من فدى به من المسلمين الرجال، والنساء، والصبيان، ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس.

ذكر الحرب بين عسكر المعتضد وأولاد أبي دلف

وفيها سار عبيد الله بن سليمان إلى عمر بن عبد العزيز بن أبي

دلف بالجبل، فسار عمر إليه بالأمان في شعبان، فأذعن بالطاعة، فخلع عليه وعلى أهل بيته.

وكان قبل ذلك قد دخل بكر بن عبد العزيز بالأمان إلى عبيد الله بن سليمان، وبدر، فولّياه عمل أخيه على أن يسير إليه فيحاربه، فلما دخل عمر في الأمان قال لبكر: إن أخاك قد دخل في الطاعة، وإنما وليناك عمله على أنه عاصٍ، والمعتضد يفعل في أمركما ما يراه، فامضيا إلى بابه.

وليّ النُوشريّ أصبهان، وأظهر أنه من قبيل عمر بن عبد العزيز، فهرب (٤٨٠/٧) بكر بن عبد العزيز، فكتب عبيد الله إلى المعتضد بذلك، فكتب إلى بدر ليقم بمكانه إلى أن يعرف حال بكر.

وسار الوزير إلى علي بن المعتضد بالرّي، ولحق بكر بن عبد العزيز بالأهواز، فسير المعتضد إليه وصيف بن موشكير، فسار إليه، فلحقه بحدود فارس، وباتا متقابلين، وارتحل بكر إلى أصبهان ليلاً، فلم يتبعه وصيف، بل رجع إلى بغداد، وسار بكر إلى أصبهان، فكتب المعتضد إلى بدر يأمره بطلب بكر وحره، فأمر بدر عيسى النُوشريّ بذلك، فقال بكر:

هيات اجذب زائد الأيام
ومضى أوّل شراستي وغرامي
وقيث نصّب حوادث الأيام
رمي القيد قطيعة الأرحام
فرعاً يُهزّز رواسي الأعلام
ضرب القلدار بقية القلّام
بقرارة لمواطسي الأقدام
والموت يلحظ والسيوف دوامي
ولصاق ذرّعك في أطراح ذمامي
(٤٨١/٧)

حركت من حصن جبال نهام
خشين المناكب كل يوم زحام
يجلبو بضرته دجى الإغلام
في عيشة رغيد وعزّ نام
نوب أنت وتكسرت أيامي
ما غرّدت في الأيك وورق ختام
للتائبات وغتسي وسنامي
فهزّزت حد الصّارم الصّمام
أو يستكين يروم غير نرام
والبيض فضلة لضرب الهام
ثم إن النُوشريّ انهزم عن بكر، فقال بكر يذكر هربه، ويعير

عني ملائك ليس حين سلام
ظارت عنايت الصبا عن مفرقي
القي الأحبة بالعراق عصيهم
وتفاقت باخي النوى ودمت به
فلأفرعن صفاة دهر نايهم
ولأضربن الهام دون حريمهم
ولأتركن الواردين حياضهم
يا بدر إنك لو شهدت مواقفي
لنمت رأيك في إضاعة حرمتي

خركتني بعد السكون وإنما
وعجتني فجمعت مني من حنى
قل للأمير أبي محمد الذي
أسكتني ظلّ الملافسكة
حتى إذا خلّيت عني نايي
فلاشكرن جميل ما أوليتني
هذا أبو حصص يدي وذخيري
ناديّه فاجلّبي وعزّزته
من رام أن يفضي الجفون على القذى
ويخيم حين يزي الأسمه شرعاً

وصيفاً بالإحجام عنه، ويتهدّد بداراً [في آيات] منها: (٤٨٢/٧)

وبين دميانة.

وكان سبب ذلك أنّ راغباً ترك الدعاء لهارون بن خُمَارُوته بن أحمد بن طولون، ودعا ليدر مولى المعتضد، واختلف هو وأحمد بن طوغان، فلمّا انصرف أحمد بن طوغان من الفداء سنة ثلاث وثمانين [ومائتين] ركب البحر ومضى، ولم يدخل طَرَسُوسَ، وخلف دميانة بها للقيام بأمرها، وأمدّه ابن طوغان، فقوي بذلك، وأنكر ما كان يفعله راغب، ف وقعت الفتنة، فظفر بهم راغب، فحمل دميانة إلى بغداد.

قد رأي التُّشَرِّيَّ حين التقيَا من إذا أشرع الرِّمَاحُ يفرُّ جاء في قسطلٍ لهما ففُتِنَا صولةً دونها الكُفَّةُ تَهَرُّ ولواءُ التُّشَرِّيِّ أَتَارُ نَارٍ رَويت عند ذاك يهضرُ وشُغِرْ غرّ بداراً حلُمِيَّ وفضلُ أَتَلِيَّ واحتمالي لِلْوَيْبِ مَتَا يَغُرُّ سوف يأتِيهِ من خيولي قُبُّ لاحقاتُ البطون جُودٌ وشُغِرْ يتتافون كالسَّعَالِي عليها من بني وائلِ أَسْوَدٌ نَكُرُّ لستُ بكراً إن لم أَدْعُهُمْ حديثاً ما سَرَى كوكبٌ وما كَرَّ نَعُرُ

ذكر عدة حوادث

وفيها أوقع عيسى بن التُّشَرِّيَّ ب بكر بن عبد العزيز بن أبي دُؤْلَفٍ بنواحي أصبهان، فقتل رجاله، واستباح عسكره، ونجا بكر في نفر يسيرٍ من أصحابه، فمضى إلى محمّد بن زيد العلويّ بطبرستان، وأقام عنده إلى سنة خمس وثمانين [ومائتين] ومات، ولمّا وصل خبر موته إلى المعتضد أعطى القاصد به ألف دينار.

وفيها، في ربيع الأول، قُلِّدَ أبو عمر يوسف بن يعقوب القضاء بمدينة المنصور مكان عليّ بن محمّد بن أبي الشوارب.

وفيها أخذ خادم نصرانيّ لغالِبِ النصرانيّ وشُهِدَ عليه أنّه شتم النبيّ، صَلَّى (٤٨٥/٧) اللَّهُ عليه وسلّم، فاجتمع أهل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عُبَيْدِ اللَّهِ، وطالبوه بإقامة الحدّ عليه، فلم يفعل، فاجتمعوا على ذلك إلى دار المعتضد، فسُئِلُوا عن حالهم، فذكروه للمعتضد، فأرسل معهم إلى القاضي أبي عمر، فكادوا يقتلونه من كثرة ازدحامهم، فدخل باباً وأغلقه، ولم يكن بعد ذلك للخادم ذكر، ولا للعامة ذكر اجتماع في أمره.

وفيها قدم قوم من أهل طَرَسُوسَ على المعتضد يسألونه أن يُؤلِّيَ عليهم والياً، وكانوا قد أخرجوا عامل ابن طولون، فسَيَّرَ إليهم المعتضدُ بنَ الإخشيد أميراً.

وفيها، في ربيع الآخر، ظهرت بمصر ظلمة وحمرة في السماء شديدة، حتّى كان الرجل ينظر إلى وجه الآخر فيراه أحمر، فمكثوا كذلك من العصر إلى العشاء الآخرة، وخرج الناس من منازلهم يدعون الله تعالى، ويتضرعون إليه.

وفيها عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب يُقرأ على الناس، وهو كتاب طويل قد أحسن كتابته، إلّا أنّه قد استدلّ فيه بأحاديث كثيرة على وجوب لعنه عن النبيّ ﷺ لا تصح، وذكر في الكتاب يزيد وغيره من بني أميّة، وعُملت به نسخ قرئت بجائتي بغداد، ومنع القضاة والعامة من القعود بالجامعين ورحابهما، ونهى عن الاجتماع على قاضٍ لمناظرة، أو جدل في أمر الدين، ونهى الذين (٤٨٦/٧) يسقون الماء في الجامعين أن يترحموا على معاوية أو يذكروه، فقال له عبيد الله بن سليمان: إنّنا نخاف اضطراب العامة وإثارة الفتنة، فلم

في هذه السنة أمر المعتضد بالكتابة إلى جميع البلدان أن يُردّ الفاضل من سهام الموارث إلى ذوي الأرحام، وأبطل ديوان الموارث.

وفيها، في شوال، مات محمّد بن أبي الشوارب القاضي، وكانت ولايته للقضاء بمدينة المنصور سنة أشهر. (٤٨٣/٧)

وفيها قدم عمر بن عبد العزيز بن أبي دُؤْلَفٍ بغداد، فأمر المعتضد الناس والقوّد باستقباله، وقعد له المعتضد، فدخل عليه، وأكرمه وخلع عليه.

وفيها، في رمضان، تحارب عمرو بن الليث الصُّمَّار ورافع بن هَرْمُة، فانهزم رافع، وكان سبب ذلك أنّ عُمراً فارق نيسابور، فخالفه إليها رافع وملكها وخطب فيها لمحمّد بن زيد العلويّ، فرجع عمرو من مرو إلى نيسابور فحصرها، فانهزم رافع منها، ووجّه عمرو في طلبه عسكراً فلحقوه بطرس، فانهزم منهم إلى خوارزم، فلحقوه بها، فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى المعتضد، فوصله سنة أربع وثمانين [ومائتين] في المحرم، فأمر بنصبه ببغداد وخلع على القاصد به.

وفيها مات البُخْريّ الشاعر، واسمه الوليد أبو عبادة، ببسج، أبو حلب، وكان مولده سنة ستّ ومائتين.

وفيها توفّي محمّد بن سليمان أبو بكر المعروف بابن الباغنديّ، وأبو الحسن عليّ بن العباس بن جريج الشاعر المعروف بابن الروميّ، وقيل: توفّي سنة أربع وثمانين [ومائتين]، وديوانه معروف، رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي سهل بن عبد الله بن يونس بن رُفيع السريّ، ومولده سنة مائتين، وقيل [إحدى] ومائتين. (٤٨٤/٧)

سنة أربع وثمانين ومائتين

في هذه السنة كان فتنة بطَرَسُوسَ بين راغب مولى الموقّ

يسمع منه، فقال عُبيد الله للقاضي يوسف بن يعقوب ليحتال في منعه عن ذلك، فكلّم يوسف المعتضد، وحذّره اضطراب العامة، فلم يلبثت، فقال: يا أمير المؤمنين! فما نصنع بالطالبيين الذين يخرجون من كل ناحية، ويميل إليهم خلق كثير من الناس لقربانهم من رسول الله ﷺ؟ فإذا سمع الناس ما في هذا الكتاب من إطرانهم كانوا إليهم أميل، وكانوا هم أبسط ألبنة وأظهر حجّة فيهم اليوم. فامسك المعتضد، ولم يأمر في الكتاب بعد ذلك بشيء، وكان عُبيد الله من المنحرفة عن علي، عليه السلام.

وفيها سيّر المعتضد إلى عمرو بن الليث الخَلَع واللواء بولاية الرُّيِّ وهديا.

وفيها فُتحت قرّة من بلد الروم على يد راغب مولى الموفق وابن كلوب في رجب.

وفيها، في شعبان، ظهر بدار المعتضد إنسان بيده سيف، فمضى إليه بعض الخدم لينظر ما هو، فضربه بالسيف فجرحه، وهرب الخادم، ودخل الشخص في زرع في البستان فتوارى فيه، فطلب باقي ليلته، ومن الغد، فلم يُعرف له خبر، فاستوحش المعتضد، وكثر الناس في أمره بالظنون حتّى قالوا: إنه من الجنّ، وظهر مراراً كثيرة، حتّى وكّل المعتضد بسور داره، وأحكمه ضبطاً، ثمّ أحضر المجانين والمعزّمين بسبب ذلك الشخص، فسألهم عنه فقال (٤٨٧/٧) المعزّمون: نحن نعرّض على بعض المجانين، فإذا سقط سأل الجنّي عنه فأخبره خبره؛ فعزموا على امرأة مجنونة فصرّعت والمعتضد ينظر إليهم، فلمّا صرّعت أمرهم بالانصراف.

وفيها وجّه كرامة بن مرّ من الكوفة بقوم مقبّدين ذكر أنّهم من القرامطة، فقرّروا بالضرب فأقروا على أبي هاشم بن صدقة الكاتب أنّه منهم، فقبض عليه وحبسه.

وفيها وثب الحارث بن عبد العزيز بن أبي دَلَف المعروف بأبي ليلي بشفيغ الخادم فقتله، وكان أخوه عمر بن عبد العزيز قد أخذه وقبّده وحبسه في قلعة زر، ووكّل به شفيغاً الخادم، ومعه جماعة من غلمان عمر، فلمّا استأمن عمر إلى المعتضد وهرب بكر بقيت القلعة بما فيها من الأموال بيد شفيغ، فكلّمه أبو ليلي في إطلاقه، فلم يفعل، وطلب من غلام كان يخدمه مبرداً، فأدخله في الطعام، فبرّد يسمار قيده.

وكان شفيغ في كلّ ليلة يأتي إلى أبي ليلي يفتقه ويمضي ينام وتحت رأسه سيف مسلول، فجاء شفيغ في ليلة إليه، فحادثه، فطلب منه أن يشرب معه أقداحاً، ففعل، وقام الخادم لحاجته، فجعل أبو ليلي في فراشه ثياباً تشبه إنساناً نائماً، وغطّاه بالحاف، وقال لجارية كانت تخدمه: إذا عاد شفيغ قولني له هو نائم. ومضى

ولمّا خرج أبو ليلي على السلطان قصده عيسى التّوشري، فاقتلوا، فأصاب أبا ليلي في حلقه سهم فحره، فسقط عن دابّته، وانتهز أصحابه، وحمل رأسه إلى أصبهان ثمّ إلى بغداد.

وفيها كان المنجّمون يُوعدون بغرق أكثر الأقاليم إلّا إقليم بابل فإنّه يسلم منه اليسير، وأنّ ذلك يكون بكثرة الأمطار، وزيادة الأنهار والعيون.

فقط الناس، وقلّت الأمطار، وغارت المياه حتّى احتاج الناس إلى الاستسقاء، فاستسقوا ببغداد مرّات، [وحيج بالناس محمد بن عبد الله بن داود الهاشمي المعروفه بأترنجة].

وفيها ظهر اختلال حال هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون بمصر، واختلفت القوادر، وطمعوا فانحلّ النظام، وتفرّقت الكلمة، ثمّ اتّفقوا على أن جعلوا مُدبّر دولته أبا جعفر بن أبا، وكان عند والده وجهه مقدّم، كبير القدر، فأصلح من الأحوال ما استطاع، وكم جهد الصنّاع إذا اتّسع الخرق، وكان [من] بدمشق من الجند قد خالفوا على أخيه جيش كما ذكرنا، فلمّا تولّى أبو جعفر الأمور سيّر جيشاً إلى دمشق عليهم بدير الحمامي، والحسين بن أحمد الماذرائي، فأصلحوا حالها وقرّروا أمور الشام، واستعملا على دمشق طُغج بن جُفّ واستعملا على سائر الأعمال، ورجعا إلى مصر والأمور فيها اختلال، (٤٨٩/٧) والقوادر قد استولى كلّ واحد منهم على طائفة من الجند واخذهم إليه، وهكذا يكون انتقاض الدول، وإذا أراد الله أمراً فلا مردّ لحكمه وهو سريع الحساب.

وفيها توفي إسحاق بن موسى بن عمران أبو يعقوب الأسفرائيني، الفقيه الشافعي، والقياني واسمه عبد العزيز بن معاوية من ولد غياث بن أمييد، بفتح الهزعة وكسر السين.

وفيها أيضاً توفي أبو عبد الله محمد بن الوضاح بن ربيع الأندلسي، وكان من العلماء المشهورين. (٤٩٠/٧)

سنة خمس وثمانين ومائتين

فيها قطع صالح بن مُدرك الطائي الطريق على الحاجّ بالأجنف في المحرم، فحاربته حتّى الكبير، وهو أمير القافلة، فلم يقو به وبمن

فأجابه إلى ذلك، وسار من آيد، واستخلف فيها ابنه المكتفي، ووصل إلى قنشرين والعواصم فتسلمها من أصحاب هارون، وكان ذلك سنة ست وثمانين ومائتين.

وفيهما غزا ابن الإخشيد بأهل طرسوس، ففتح الله على يديه، وبلغ إسكندرون؛ وحج بالناس محمد بن عبد الله بن داود الهاشمي. (٤٩٢/٧)

وفيهما توفي إبراهيم بن إسحاق الحربي ببغداد، وهو من أعيان المحدثين، وإسحاق بن إبراهيم الدبري صاحب عبد الرزاق بصنعاء، وهو آخر من روى عن عبد الرزاق.

(الدبري يفتح الدال المهملة والياء الموحدة وبعدها راء).

وفيهما توفي أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي اليماني الخوي، المعروف بالمبرد، وكان قد أخذ النحو عن أبي عثمان المازني. (٤٩٣/٧)

سنة ست وثمانين ومائتين

وفي هذه السنة وجّه محمد بن أبي الساج المعروف بابي المسافرين إلى بغداد برهينة بما ضمن من الطاعة والمناصحة، ومعه هدايا جليلة.

وفيهما أرسل عمرو بن الليث هدية إلى المعتضد من نيسابور، فكان قيمتها أربعة آلاف [ألف] درهم.

ذكر ابتداء أمر القرامطة بالبحرين

وفيهما ظهر رجل من القرامطة يُعرف بابي سعيد الجنابي بالبحرين، فاجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة، وقوي أمره، فقتل ما حوله من أهل القرى، ثم سار إلى القطيف فقتل [مَن] بها، وأظهر أنه يريد البصرة، فكتب أحمد بن محمد بن يحيى الوائقي، وكان متولي البصرة، إلى المعتضد بذلك، فأمره بعمل سور على البصرة، وكان مبلغ الخرج عليه أربعة عشر ألف دينار.

وكان ابتداء القرامطة بناحية البحرين أن رجلاً يُعرف بيحيى بن المهدي (٤٩٤/٧) قصد القطيف فنزل على رجل يُعرف بعلي بن المعلّى بن حمدان، مولى الزبائدين، وكان مغالياً في التشيع، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي، وكان ذلك سنة إحدى وثمانين ومائتين، وذكر أنه خرج إلى شيعته في البلاد يدعوهم إلى أمره، وأن ظهوره قد قرب؛ فوجه علي بن المعلّى إلى الشيعة من أهل القطيف فجمعهم، وأقرأهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي إليهم من المهدي، فأجابوه، وأنهم خارجون معه إذا أظهر أمره، ووجه إلى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فأجابوه.

معه من الأعراب، وظفر بالحجّ ومن معه بالقافلة، فأخذوا ما كان فيها من الأموال والتجارات، وأخذوا جماعة من النساء، والجواري، والمماليك، فكانت قيمة ما أخذوه ألفي ألف دينار.

وفيهما ولي عمرو بن الليث ما وراء النهر، وغزل إسماعيل بن أحمد.

وفيهما كان بالكوفة ريح صفراء، فبقيت إلى المغرب ثم اسودّت، فتصرّع الناس، ثم مطروا مطراً شديداً برعود هائلة ووبرق متصلة، ثم سقط بعد ساعة بقرية تُعرف بأحداباذ ونواحيها أحجار بيض وسود مختلفة الألوان، في أوساطها طبق، وحُمِل منها إلى بغداد، فرآه الناس.

وفيهما سار فاتك مولى المعتضد إلى الموصل لينظر في أعمالها وأعمال الجزيرة.

والثغور الشامية والجزيرة وإصلاحها، مُضافاً إلى ما كان يتقلّده من البريد بها.

وفيهما كان بالبصرة ريح صفراء، ثم عادت خضراء، ثم سوداء، ثم تتابعت الأمطار بما لم يروا مثله، ثم وقع برد كبير، وزن البردة مائة وخمسون درهماً فيما قيل. (٤٩١/٧) وفيها مات الخليل بن رمال بخلوان.

وفيهما ولي المعتضد محمد بن أبي الساج أعمال أذربيجان وأرمينية، وكان قد تغلب عليها وخالف؛ وبعث إليه بخلع.

وفيهما غزا راغب مولى الموفق في البحر، فغنم مراكب كثيرة، فغضب أحناف ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها، وأحرق المراكب، وفتح حصوناً كثيرة، وعاد سالماً ومن معه.

وفيهما توفي أحمد بن عيسى بن الشيخ، وقام بعده ابنه محمد بآيد وما يليها، على سبيل التغلب، فسار المعتضد إلى آيد بالعاكر، ومعه ابنه أبو محمد عليّ المكتفي في ذي الحجة، وجعل طريقه على الموصل، فوصل آيد، وحصرها إلى ربيع الآخر من سنة ست وثمانين ومائتين، ونصب عليها المجانيق، فأرسل محمد بن أحمد بن عيسى يطلب الأمان لنفسه، ولمن معه، ولأهل البلد، فأمنّهم المعتضد، فخرج إليه وسلم البلد، فخلع عليه المعتضد، وأكرمه، وهدم سورها.

ثم بلغه أن محمد بن الشيخ يريد الهرب، فقبض عليه وعلى آله.

وفيهما وجّه هارون بن خُمارويه إلى المعتضد ليسأله أن يقاطعه على ما في يده ويدنوّه من مصر والشام، ويسلم أعمال قنشرين إلى المعتضد، ويحمل كلّ سنة أربع مائة ألف وخمسين ألف دينار،

وقدّم عليه وهو بالرّقة، فحبسه وأخذ جميع ما كان له، فمات بعد أيام من حبسه، وكان ذلك في شعبان، وقبض على بكنون غلام راغب، وأخذ ما له بطرسوس.

وفيهما قلّد المعتضد ديوان المشرق محمّد بن داود بن الجراح، وعزل عنه أحمد بن محمّد بن القرات، وقلّد ديوان المغرب عليّ بن عيسى بن داود بن الجراح.

وفيهما توفّي أبو جعفر محمّد بن إبراهيم الأنماطي، المعروف بمرّيع، صاحب يحيى بن مُعين، وكان حافظاً للحديث؛ ومحمّد بن يونس الكديمي البصري. (٤٩٧/٧)

سنة سبع وثمانين ومائتين

ذكر قتل أبي ثابت أمير طرسوس وولاية ابن الأعرابي

في هذه السنة اجتمعت الروم، وحشدت في ربيع الآخر، ووافّت باب قلّية من طرسوس، ففر أبو ثابت أمير طرسوس بعد موت ابن الإخشيد، وكان استخلفه عند موته، فبلغ أبو ثابت في نفيه إلى نهر الرّجّان في طلبهم، فأسر أبو ثابت، وأصيب الناس معه.

وكان ابن كلوب غازياً في درب السلامة، فلمّا عاد جمع مشايخ الثغر ليراضوا بأمير، فأجمعوا رأيهم على ابن الأعرابي، فولّوه أمرهم، وذلك في ربيع الآخر من هذه السنة.

ذكر ظفر المعتضد بصيف ومن معه

في هذه السنة هرب وصيف خادم محمّد بن أبي السّاج من برّدة إلى ملطية من أعمال مولا، وكتب إلى المعتضد يسأله أن يولّيه الثغور، فأخذ رسله وقرّره عن سبب مفارقة وصيف مولا، فذكروا له أنه فارقه على (٤٩٨/٧) مواطأة منهما أنه متى ولي وصيف الثغور سار إليه مولا، وقصدا ديار مضر وتغلّب عليها.

فسار المعتضد نحوه، فنزل العين السوداء وأراد الرحيل في طريق المصيصة، فأثته العيون فأخبروه أنّ وصيفاً يريد عين رزبة، فسأل أهل المعرفة بذلك الطريق، وسألهم عن أقرب الطّرق إلى لقاء وصيف، فأخذوه وساروا به نحوه، وقدم جمعاً من عسكره بين يديه، فلقوا وصيفاً فقاتلوه، وأخذوه أسيراً، فأحضره عند المعتضد فحبسه، وأمر فنودي في أصحاب وصيف بالأمان، وأمر العسكر برّدة ما نهبه منهم، ففعلوا ذلك.

وكانت الوقعة ثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة، فلمّا فرغ منه رحل إلى المصيصة، وأحضر رؤساء طرسوس فقبض عليهم لأنهم كاتبوا وصيفاً، وأمر بإحراق مراكب طرسوس التي كانوا يغزون

وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي، وكان يبيع للناس الطعام، ويحسب لهم بيعهم، ثمّ غاب عنهم يحيى بن المهديّ مدّة، ثمّ رجع ومعه كتاب يزعم أنّه من المهديّ إلى شيعته؛ فيه: قد عزّفتي رسولي يحيى بن المهديّ مسارعكم إلى أمري، فليدفع إليه كلّ رجل منكم ستّة دنانير وتلّتين؛ ففعلوا ذلك.

ثمّ غاب عنهم وعاد ومعه كتاب فيه أن ادفعوا إلى يحيى خمس أموالكم، فدفعوا إليه الخمس، وكان يحيى يتردد في قبائل قيس ويورد إليهم كتباً يزعم أنّها من المهديّ، وأنّه ظاهر، فكونوا على أمانة.

وحكى إنسان منهم يقال له إبراهيم الصّانع أنّه كان عند أبي سعيد الجنابي، وأتاه يحيى، فأكلوا طعاماً، فلمّا فرغوا خرج أبو سعيد من بيته، وأمر امرأته أن تدخل إلى يحيى وأن لا تمنعه إن أراد، فأتته هذا الخبر إلى الوالي، فأخذ (٤٩٥/٧) يحيى فضربه، وحلق رأسه ولحيته، وهرب أبو سعيد الجنابي إلى جنابا، وسار يحيى بن المهديّ إلى بني كلاب وعقيل والخريس، فاجتمعوا معه ومع أبي سعيد، فعظم أمر أبي سعيد وكان منه ما يأتي ذكره.

ذكر عدّة حوادث

وفيهما سار المعتضد من آمد بعد أن ملكها، كما ذكرناه، إلى الرّقة، فولّى ابنه عليّاً المكتفي قنّسرين، والعواصم، والجزيرة، وكاتبه النصرانيّ واسمه الحسين بن عمر، فكان ينظر في الأموال، فقال الخليفة في ذلك:

حين بن عمرو غلبوا القرآن يصنع في العُرب ما يصنع
يقوم لهيبه المسلمون صفواً لفرود إذا يطلّع
فلان قيل قد أقبل الجليليّ تحصى له ومنى يطلّع

وفيهما توفّي ابن الإخشيد أمير طرسوس واستخلف أبا ثابت على طرسوس.

وفيهما سار إلى الأنبار جماعة أعراب من بني شيان، وأغاروا على القرى، وقتلوا من لحقوا من الناس، وأخذوا المواشي، فخرج إليهم أحمد بن محمّد بن كمشجور متولّيها، فلم يطقهم، فكتب إلى المعتضد بذلك، فأمدّه بجيش، فأدركوا الأعراب وقاتلوه، فهزمهم الأعراب، وقتلوا فيهم، وغرق (٤٩٦/٧) أكثرهم، وتفرّقوا، وعاث الأعراب في تلك الناحية.

وبلغ خبر الهزيمة إلى المعتضد، فسير جيشاً آخر، فرحل الأعراب إلى عين التمر فافسدوا وعاثوا، وذلك في شعبان ورمضان، فوجّه إليهم عسكراً آخر إلى عين التمر، فسلّكوا البرية إلى نواحي الشام، فعاد العسكر إلى بغداد ولم يلقهم.

وفيهما استدعى المعتضد راغباً مولى الموفق من طرسوس،

بلغني أَنَّ عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال: عجائب الدنيا ثلاث: جيش العباس بن عمرو يؤسر وحده، وينجو وحده، ويُقتل جميع جيشه؛ وجيش عمرو بن الصَّفَّار يؤسر وحده، ويسلم جميع جيشه؛ وأنا أنزل في بيتي، وتولَّى ابني أبو العباس الجسرَيْن ببغداد.

ولمَّا أطلق أبو سعيد العباسَ أعطاه دُرْجاً ملصقاً وقال له: أوصله إلى المعتضد فإنَّ لي فيه أسراراً، فلمَّا دخل العباس على المعتضد عاتبه المعتضد، فأوصل إليه العباس الكتاب، فقال: واللَّه ليس فيه شيء، وإنَّما أراد أن يُعلمني أنِّي أنفذتُك إليه في العدد الكثير، فردَّكَ فرداً؛ وفتح الكتاب وإذ ليس فيه شيء.

وفيهما، في ذي القعدة، أوقع بدر غلام الطائيِّ بالقرامطة، على غرّة منهم، بنواحي ميسان وغيرهما، وقتل منهم مقتلة، ثُمَّ تركهم خوفاً أن تخرب السواد، وكانوا فلاحية، وطلب رؤساءهم فقتل من ظفر به منهم.

ذكر أسر عمرو الصَّفَّار وملك إسماعيل خراسان في هذه السنة، في ربيع الأول، أسر عمرو بن الليث الصَّفَّار؛ وكان سبب ذلك أنَّ عَمْرًا أرسل إلى المعتضد برأس رافع بن هرثمة، وطلب منه أن (٥٠١/٧) يولِّيه ما وراء النهر، فوجَّه إليه الخلع واللواء بذلك، وهو بنيسابور، فوجَّه لمحاربة إسماعيل بن أحمد الساماني، صاحب ما وراء النهر، محمد بن بشير، وكان خليفته وحاجبه، وأخصَّ أصحابه بخدمته، وأكبرهم عنده، وغيره من قواده إلى آمل، فعبر إليهم إسماعيل جيحون، فحاربهم، فهزموهم، وقتل محمد بن بشير في نحو ستَّة آلاف رجل.

ويلغ المنهزمون إلى عمرو، وهو بنيسابور، وعاد إسماعيل إلى بخارى فتجهَّز عمرو لقصد إسماعيل، فأشار عليه أصحابه بإفناد الجيوش، ولا يخطر بنفسه، فلم يقبل منهم، وسار عن نيسابور نحو بلخ، فأرسل إليه إسماعيل: إنَّك قد وليت دنيا عريضة، وإنَّما في يدي ما وراء النهر، وأنا في ثغر، فاتفق بما في يدك، واطركني في هذا الثغر. فأبى، فذكر لعمرو وأصحابه شدَّة العبور بنهر بلخ، فقال: لو شئتُ أن أسكرَّه ببذر الأموال وأعبره لفعلت.

فسار إسماعيل نحوه وعبر النهر إلى الجانب الغربي، وجاء عمرو فنزل بلخ، وأخذ إسماعيل عليه النواحي لكثرة جمعه، وصار عمرو كالمحاصر، وندم على ما فعل، وطلب المحاجزة، فأبى إسماعيل عليه، فاقتتلوا، فلم يكن بينهم كثير قتال حتَّى انتهزم عمرو فولَّى هارباً، ومَرَّ بأجمة في طريقه، فقيل له: إنَّها أقرب الطرق، فقال لعامة من معه: امضوا في الطريق الواضح؛ وسار هو في نفر يسير، فدخل الأجمة، فوَحلت به دابَّته فلم يكن له في (٥٠٢/٧) نفسه حيلة، ومضى من معه ولم يعرجوا عليه، وجاء أصحاب

فيها، وجميع آلاتها، وكان من جملتها نحو من خمسين مركباً قديمة قد أنفق عليها من الأموال ما لا يحصى، ولا يمكن عمل مثلها، فاضرَّ ذلك بالمسلمين، وقتَ في أعضادهم، وأمر الروم أن يغزوا في البحر، وكان إحراقها بإشارة دميانة غلام بازمار لشيء كان في نفسه على أهل طرسوس، واستعمل على أهل الثغور الحسن بن علي كورة، وسار المعتضد إلى أنطاكية وحلب وغيرهما، وعاد إلى بغداد.

وفيهما توفيت ابنة خُمارويه زوج المعتضد.

ذكر أمر القرامطة وانتهزام العباس الغنوي منهم

في هذه السنة، في ربيع الآخر، عظم أمر القرامطة بالبحرين، وأغاروا على نواحي حَجَر، وقرب بعضهم من نواحي البصرة، فكتب أحمد الواثقُ يسأل (٤٩٩/٧) المدد، فسير إليه مُميريَّات فيها ثلاثمائة رجل، وأمر المعتضد باختيار رجل ينفذه إلى البصرة، وعزل العباس بن عمرو الغنوي عن بلاد فارس، وأقطعه اليمامة والبحرين، وأمره بمحاربة القرامطة وضمَّ إليه زهاء ألفي رجل، فسار إلى البصرة، واجتمع إليه جمع كثير من المتطوعة والجند والخدم.

ثم سار منها إلى أبي سعيد الجنابي، فلقوه مساءً، وتناوشوا القتال، وحجز بينهم الليل، فلمَّا كان الليل انصرف عن العباس من كان معه من أعراب بني ضَبَّة، وكانوا ثلاثمائة، إلى البصرة، وتبعهم مطوعة البصرة، فلمَّا أصبح العباس باكر الحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثُمَّ حمل نجاح غلام أحمد بن عيسى بن الشيخ بن ميسرة العباس في مائة رجل على ميمنة أبي سعيد، فوغلوا فيهم، فقتلوا عن آخرهم، وحمل الجنابي ومن معه على أصحاب العباس، فانهزموا وأسر العباس، واحتوى الجنابي على ما كان في عسكره، فلمَّا كان من الغد أحضر الجنابي الأسرى فقتلهم جميعاً وحرَقهم، وكانت الواقعة آخر شعبان.

ثم سار الجنابي إلى حَجَر بعد الوقعة، فدخلها وأثن أهلها، وانصرف من سلم من المنهزمين، وهم قليل، نحو البصرة بغير زاد، فخرج إليهم من البصرة نحو أربعمائة رجل على الرواحل، ومعهم الطعام والكسوة والماء، فلقوا بها المنهزمين، فخرج عليهم بنو أسد وأخذوا الرواحل وما عليها، وقتلوا من سلم من المعركة، فاضطربت البصرة لذلك، وعزم أهلها على الانتقال منها، فمَنعهم الواثقُ. (٥٠٠/٧)

وبقي العباس عند الجنابي أياماً ثُمَّ أطلقه، وقال له: امض إلى صاحبك وعرفه ما رأيت؛ وحمله على رواحل، فوصل إلى بعض السواحل وركب البحر فوافى الأبلَّة، ثُمَّ سار منها إلى بغداد فوصلها في رمضان، فدخل على المعتضد فخلع عليه.

إسماعيل فأخذوه أسيراً، فسيره إسماعيل إلى سمرقند.
ولمّا وصل الخبر إلى المعتضد ذمّ عمرًا ومدح إسماعيل، ثمّ إن إسماعيل خيّر عمرًا بين مقامه عنده، أو إنفاذه إلى المعتضد، فاختار المقام عند المعتضد، فسيره إليه، فوصل إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائتين، فلمّا وصل ركب على جمل وأدخل بغداد، ثمّ حبس، فبقي محبوساً حتى قُتل سنة تسع وثمانين [ومائتين] على ما نذكره.

ذكر قتل محمد بن زيد العلويّ

في هذه السنة قُتل محمد بن زيد العلويّ، صاحب طبرستان والدّيلم.

وكان سبب قتله أنّه لمّا اتصل به أسر عمرو بن الليث الصّغار خرج من طبرستان نحو خراسان ظنّاً منه أنّ إسماعيل السامانيّ لا يتجاوز عمله، ولا يقصد خراسان، وأنّه لا دافع له عنها.

فلمّا سار إلى جرجان أرسل إليه إسماعيل، وقد استولى على خراسان، يقول له: الزمّ عملك، ولا تتجاوز عمله، ولا تقصد خراسان، وترك جرجان له، فأبى ذلك محمد، فندب إليه إسماعيل بن أحمد محمد بن هارون، ومحمد هذا كان يخلّف رافع بن هرثمة وسار نحو محمد بن زيد، فالتقوا على باب جرجان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم محمد بن هارون أولاً ثمّ رجع وقد تفرّق أصحاب محمد بن زيد في الطلب، فلمّا راوه قد رجع إليهم ولّوا هاروبين، وقُتل منهم بشر كثير، وأصاب ابن زيد ضربات، وأسر ابنه زيد، وغنم ابن هارون عسكره وما فيه، ثمّ مات محمد بن زيد بعد أيام من جراحاته التي أصابته، فدفن على باب جرجان.

وحمل ابنه زيد بن محمد إلى إسماعيل بن أحمد، فأكرمه ووسّع في الإنزال عليه، وأنزل به بخاري، وسار محمد بن هارون إلى طبرستان.

وكان محمد بن زيد فاضلاً، أديباً، شاعراً، عارفاً، حسن السيرة، قال أبو عمر الأسترباذي: كنتُ أورد على محمد بن زيد أخبار العباسيّين، (٥٠٥/٧) فقلتُ له: إنهم قد لقبوا أنفسهم، فإذا ذكرتهم عندك أسميتهم أو لقبهم؟ فقال: الأمر موسّع عليك، سمّهم ولقبهم بأحسن القابهم وأسمائهم، وأحبّها إليهم.

وقيل: حضر عنده خصمان أحدهما اسمه معاوية والآخر اسمه عليّ، فقال: الحكم بينكما ظاهر، فقال معاوية: إنّ تحت هذين الاسمين خبراً، قال محمد: وما هو؟ إنّ أبي كان من صادقي الشيعة، فسمّاني معاوية لينفي شرّ النواصب، وإنّ أبا هذا كان ناصبياً، فسمّاه عليّاً خوفاً من العلويّة والشيعة. فتبسّم إليه محمد، وأحسن إليه وقربه.

وقيل: استأذن عليه جماعة من أضرّاء الشيعة وقُرّائهم، فقال: ادخلوا، فإنّه لا يحبّنا إلا كلّ كبير وأعور.

وأرسل المعتضد إلى إسماعيل بالخلع، وولّاه ما كان بيد عمرو، وخلع على نائبه بالحضرة المعروف بالمرزبانيّ، واستولى إسماعيل على خراسان وصارت بيده.

وكان عمرو أعور شديد السُمرّة، عظيم السياسة، قد منع أصحابه وقوّاده أن يضرب أحد منهم غلاماً إلا بأمره، أو يتولّى عقوبة الغلام نائبه، أو أحد حجّابه، وكان يشتري الممالك الصغار، ويُرثيهم، ويهبهم لقوّاده ويجري عليهم الجرايات الحسنة سرّاً ليطالعه بأحوال قوّاده، ولا ينكتهم عنه من أخبارهم شيء، ولم يكونوا يعلمون من ينقل إليه عنهم، فكان أحدهم يحذره وهو وحده.

حكى عنه أنّه كان له عامل بفارس يقال له أبو حُصين، فسخط عليه عمرو، والزمه أن يبيع أملاكه، ويوصل ثمنها إليه، ففعل ذلك، ثمّ طلب منه مائة (٥٠٣/٧) ألف درهم، فإنّ أداها في ثلاثة أيام وإلاّ قتله، فلم يقدر على شيء منها، فأرسل إلى أبي سعيد الكاتب يطلب منه أن يجتمع به، فأذن له، فاجتمع به، وعرفه ضيق يده وسأله أن يضمّنه ليخرج من محبسه ويسمى في تحصيل المبلغ المطلوب منه، ففعل وأخرجه، فلم يُفتح عليه شيء، فعاد إلى أبي سعيد الكاتب، فبلغ خبره عمرًا، فقال: واللّه ما أدري من أيّهما أعجب، من أبي سعيد فيما فعل من بذل مائة ألف درهم، أم من أبي حُصين كيف عاد وقد علم أنّه القتل! ثمّ أمر بإطلاق ما عليه وردّه إلى منزله.

وحكى عنه أنّه كان يحمل أحمالاً كثيرة من الجُرب، ولا يعلم أحد ما مراده، فاتفق في بعض السنين أنّه قصد طائفة من العصابة عليه للإيقاع بهم، فسلك طريقاً لا تظنّ العصابة أنّهم يؤثرون منه، وكان في طريقه وادٍ، فأمر بتسلك الجرب فملئت تراباً وأحجاراً، ونصد بعضها إلى بعض، وجعلها طريقاً في الوادي، فعبر أصحابه عليه، وأنّاهم وهم آمنون فأنخن فيهم وبلغ منهم ما أراد.

وحكى أيضاً أنّ أكبر حجّابه كان اسمه محمد بن بشير، وكان يخلفه في كثير من أموره العظام، فدخل عليه يوماً، وأخذ يعدّد عليه ذنوبه، فحلف محمد باللّه والطلاق والعتق أنّه لا يملك إلاّ خمسين بكرة، وهو يحملها إلى الخزانة، ولا يجعل له ذنباً لم يعلمه، فقال

ذكر ولاية أبي العباس صقلية

كان إبراهيم ابن الأمير أحمد أمير إفريقية قد استعمل على صقلية أبا مالك أحمد بن عمر بن عبد الله، فاستضعفه، فولّى بعده ابنه أبا العباس بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فوصل إليها غرة شعبان من هذه السنة في مائة وعشرين مركباً وأربعين حربى، وحصر طرابلس.

واتصل خبره بمسكر المسلمين بمدينة بلّزم [وهم] يقاتلون أهل جرجنت، (٥٠٦/٧) فعادوا إلى بلّزم، وأرسلوا جماعة من شيوخهم إليه بطاعتهم، واعتذروا من قصدهم جرجنت، ووصل إليه جماعة من أهل جرجنت، وشكوا منهم وأخبروه أنهم مخالفون عليه، وأنهم إنما سيروا مشايخهم خديعة ومكرًا، وأنهم لا إيمان لهم ولا عهد؛ وإن شئت أن تعلم مصداق هذا فاطلب إليك منهم فلاناً وفلاناً.

فأرسل إليهم يطلبهم فامتنعوا من الحضور عنده، وخالفوا عليه، وأظهروا ذلك، فاعتقل الشيوخ الواصلين إليه منهم، واجتمع أهل بلّزم وساروا إليه متصّفين شعبان، ومقدّمهم مسعود الباجي، وأمير السفهاء منهم ركمويه، وصحبهم ثم أسطول في البحر نحو ثلاثين قطعة، فهاج البحر على الأسطول، فغطب أكثره، وعاد الباقي إلى بلّزم.

وأما العسكر الذين في البرّ فلإنهم وصلوا إليه وهو على طرابلس، فاقتتلوا أشدّ القتال، فقتل من الفريقين جماعة وافترقوا، ثم عاودوا القتال في الثاني والعشرين، فانهزم أهل بلّزم وقت العصر، وتبعهم أبو العباس إلى بلّزم برّاً وبحراً فعاودوا قتاله عاشر رمضان من بكرة إلى العصر، فانهزم أهل البلد، ووقع القتل فيهم إلى المغرب، واستعمل [أبو] العباس على أرباضها، ونهبت الأموال، وهرب كثير من الرجال والنساء إلى طبريين، وهرب ركمويه وأمثاله من رجال الحرب إلى بلاد النصرانية، كالقُسطنطينية وغيرها، وملك أبو العباس المدينة، ودخلها، وأمن أهلها، وأخذ جماعة من وجوه أهلها فوجههم إلى أبيه بإفريقية. (٥٠٧/٧)

ثم رحل إلى طبريين، فقطع كرومها وقتلهم، ثم رحل إلى قطنانية فحصرها، فلم ينل منها غرضاً، فرجع إلى المدينة وأقام إلى أن دخلت سنة ثمان وثمانين ومائتين فتجهّز للغزو، وطاب الزمان، وعمر الأسطول وسيّره أول ربيع الآخر ونزل على دمنش، ونصب عليها المجانيق، وأقام أياماً.

ثم انصرف إلى مَسِيني، وجاز في الحرية إلى ريو، وقد اجتمع بها كثير من الروم، فقاتلهم على باب المدينة، وهزمهم، وملك المدينة بالسيف في رجب، وغنم من الذهب والفضّة ما لا يُحَدّ، وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة، ورجع إلى مَسِيني وهدم

سورها، ووجد بها مراكب قد وصلت من القُسطنطينية، فأخذ منها ثلاثين مركباً ورجع إلى المدينة، وأقام إلى سنة تسع وثمانين [ومائتين]، فأنّاه كتاب أبيه إبراهيم يأمره بالعود إلى إفريقية، فرجع إليها جريدة في خمس قطع شواني، وترك العسكر مع ولديه أبي مضر وأبي معد.

فلما وصل إلى إفريقية استخلفه أبوه بها، وسار هو إلى صقلية مجاهداً، عازماً على الحجّ بعد الجهاد، فوصلها في رجب سنة سبع وثمانين ومائتين، وقد ذكرنا خبره سنة إحدى وستين ومائتين. (٥٠٨/٧)

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة جمعت طي من قدرت عليه من الأعراب، وخرجوا على قتل الحاجّ، فواقعهم بالمعّدين، وقاتلهم يوثين بين الخميس والجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة، فانهزم العرب وقتل كثير وسلم الحاجّ.

وفيها مات إسحاق بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطّاب العدوي، عدّي ربيعة، أمير ديار ربيعة من بلاد الجزيرة، فولّى مكانه عبد الله بن الهيثم ابن عبد الله بن المعتمر.

وفيها توفيت قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون، صاحب مصر، وهي امرأة المعتضد. وحجّ بالناس هذه السنة محمد بن عبد الله بن داود.

وفيها استعمل المعتضد عيسى النّوشري، وهو أمير أصبهان، على بلاد فارس، وأمره بالمسير إليه.

وفيها توفي فهد بن أحمد بن فهد الأزدي الموصلي، وكان من الأعيان، وعليّ بن عبد العزيز البغوي، توفي بمكة، وهو صاحب أبي عبيد القاسم ابن سلام، بالتشديد. (٥٠٩/٧)

سنة ثمان وثمانين ومائتين

في هذه السنة وقع الوباء بأذربيجان فمات منه خلق كثير إلى أن فقد الناس ما يكفون به الموتى، وكانوا يتركونهم على الطرق غير مكفّين ولا مدفّنين.

وفيها توفي محمد بن أبي الساج بأذربيجان في الوفاء الكثير المذكور، فاجتمع أصحابه، فولّوا ابنه ديوداد، واعتزلهم عمّه يوسف بن أبي الساج مخالفاً لهم، فاجتمع إليه نفر يسير، فأوقع بابان أخيه ديوداد وهو في عسكر أبيه فهزمه، وعرض عليه يوسف المّقام معه فأبى، وسلك طريق الموصل إلى بغداد، وكان ذلك في رمضان.

وفيها، في صفر، دخل ظاهر بن محمد بن عمرو بن الليث بلاد

متابعة إلى من يسود الكوفة من القرامطة، فلما قُتل قد أبادهم، سعى في استغواء من قرب من الكوفة من الأعراب : أسد وطي وغيرهم، فلم يجبه منهم أحد، فأرسل أولاده إلى كلب بن وبرة فاستغفروهم، فلم يجبههم منهم إلا الفخذ المعروف ببني الغليص بن ضمضم بن عدي بن خباب ومواليهم خاصة، فبايعوا في سنة تسع وثمانين ومائتين، بناحية السماوة، ابن زكرويه، المسمي بيحيى، المكنى أبا القاسم، فلقبوه الشيخ، وزعم أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، (٥١٢/٧) وقيل : لم يكن لمحمد بن إسماعيل ولد اسمه عبد الله، وزعم أن له بالبلاد مائة ألف تابع، وأن ناقته التي يركبها مأمورة، فإذا تتبعوها في مسيرها نصروا، وأظهر عضداً له ناقصة وذكر آيته، وأثناء جماعة من بني الأصبح، وسُموا الفاطميين، ودانوا بدينه، فقصدهم شبيل غلام المعتضد من ناحية الرصافة فاغترزوه فقتلوه، وأحرقوا مسجد الرصافة، واعترضوا كل قرية اجتازوا بها، حتى بلغوا ولاية هارون بن خمارويه التي قوطع عليها طنج بن جف، فأكثروا القتل بها والإغارة، فقاتلهم طنج، فهزموه غير مرة.

ذكر أخبار القرامطة بالعراق

وفيها انتشر القرامطة بسواد الكوفة، فوجه المعتضد إليهم شبلاً غلام أحمد بن محمد الطائي، وظفر بهم، وأخذ رئيساً لهم يعرف بابي الفوارس، فسيره إلى المعتضد، فأحضره بين يديه وقال له : أخبرني ! هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم فتصممكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال له : يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك؟ وإن حلت روح إبليس فما ينفعك؟ فلا تسأل عما لا يعينك وسل عما يخصك. (٥١٣/٧)

فقال : ما تقول فيما يخصني؟ قال أقول : إن رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حي، فهل طالب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثم مات أبو بكر فانتخلف عمر، وهو يرى موضع العباس، ولم يوص إليه، ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس، ولم يوص إليه، ولا أدخله فيهم، فيما إذا تستحقون أنتم الخلافة؟ وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها.

فأمر به المعتضد فعُذِّب، وخُلعت عظامه، ثم قُطعت يده ورجلاه، ثم قُتل.

ذكر وفاة المعتضد

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفي المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل ليلة الاثنين لثمان بقين منه، وكان مولده في ذي الحجة من سنة اثنين وأربعين ومائتين.

فارس في عسكره وأخرجوا عنها عامل الخليفة، فكتب الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني إلى طاهر يذكر له أن الخليفة المعتضد قد ولّاه سيجستان، وأنه سائر إليها، فعاد طاهر لذلك.

وفيها ولي المعتضد مولاه بدرأ فارس، وأمره بالشخوص إليها لمّا بلغه أن طاهراً تغلب عليها، فسار إليها في جيش عظيم في جمادى الآخرة، فلما قرب من فارس تنحى عنها من كان بها من أصحاب طاهر، فدخلها بدر، وجبى خراجها، وعاد طاهر إلى سيجستان، كما ذكرناه من مراسلة إسماعيل الساماني إليه بأنّه يريد [أن] يقصد سيجستان. (٥١٠/٧)

وفيها تغلب بعض العلويين على صنعاء، فقصده بنو يعفر في جمع كثير، فقاتلوه، فهزموه، نجا هارباً في نحو خمسين فارساً، وأسروا ابناً له، ودخلها بنو يعفر، وخطبوا فيها للمعتضد.

وفيها سیر الحسين بن علي كورة صاحبه نزار بن محمد إلى صائفة الروم، فغزا، وفتح حصوناً كثيرة للروم، وعاد ومعه الأسرى؛ ثم إن الروم ساروا في البر والبحر إلى ناحية كيسوم، فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألفاً وعادوا.

وفيها قرب أصحاب أبي سعيد الجنابي من البصرة، فخاف أهلها، وهَمُّوا بالهرب منهم، فمتعهم من ذلك واليه.

وفيها، في ذي الحجة، قُتل وصيف خادم ابن أبي الساج، وصُلِبَ جثته ببغداد، وقيل إنه مات ولم يُقتل. وحج بالناس هذه السنة هارون بن محمد المكنى أبا بكر.

وفيها، في ربيع الآخر، توفي عبيد الله بن سليمان الوزير، فغظم موته على المعتضد، وجعل ابنه أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بعد أبيه في الوزارة.

وفيها توفي إبراهيم الحربي^(٩)، وبشر بن موسى الأسدي، وهو من الحفاظ للحديث.

وفيها، في صفر، توفي ثابت بن قرّة بن سنان الصابي الطيب المشهور، ومُعَاذ بن المثنى. (٥١١/٧)

سنة تسع وثمانين ومائتين

ذكر أخبار القرامطة بالشام

في هذه السنة ظهر بالشام رجل من القرامطة، وجمع جمعوا من الأعراب، وأتى دمشق، وأميرها طنج بن جف من قبل هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، وكان بينهما وقعات.

وكان ابتداء حال هذا القُرْمُطِيّ أن زكرويه بن مهرويه الذي ذكرنا أنه داعية قُرْمُط هذا، لمّا رأى أن الجيوش من المعتضد

إلهم، فلما قمتُ أمرني بالعود فجلستُ، فلما تفرق الناس قال: يا قاضي، والله ما حلتُ سراويلي على غير حلال قط.
وكان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه. (٥١٦/٧)

ذكر خلافة المكنتي بالله

ولما توفي المعتضد كتب الوزير إلى أبي محمد علي بن المعتضد، وهو المكنتي بالله، يُعرفه بذلك وبأخذ البيعة له، وكان بالرقّة، فلما وصله الخبر أخذ البيعة على من عنده من الأجناد، ووضع لهم العطاء وسار إلى بغداد، ووجه إلى النواحي من ديار ربيعة ومضر ونواحي العرب من يحفظها، ودخل بغداد لثمان خلون من جمادى الأولى، فلما سار إلى منزله أمر بهدم المطامير التي كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم.

ذكر قتل عمرو بن الليث الصفار

وفي هذا اليوم الذي دخل فيه المكنتي بغداد قُتل عمرو بن الليث الصفار، ودُفن من الغد.

وكان المعتضد، بعدما امتنع من الكلام، أمر صافياً الخرمي بقتل عمرو بن الليث بالإيماء والإشارة، ووضع يده على رقبته وعلى عينه بأن اذبح الأعور، وكان عمرو أعور، فلم يفعل ذلك صافي لعلمه بقرب وفاة المعتضد، وكره قتل عمرو، فلما وصل المكنتي بغداد سأل الوزير عنه، فقال: هو حي، فُسِر بذلك، وأراد الإحسان إليه لأنه كان يُكثر من الهدية إليه لِمَا كان بالرّي، فكره الوزير ذلك، فبعث إليه من قتله. (٥١٧/٧)

ذكر استيلاء محمد بن هارون على الرّي

وفي هذه السنة كاتب أهل الرّي محمد بن هارون الذي كان حارب محمد بن زيد العلوي، وتولى طبرستان لإسماعيل بن أحمد، وكان محمد بن هارون قد خلع طاعة إسماعيل، فسأله أهل الرّي المسير إليهم ليسلموها إليه.

وكان سبب ذلك أن الوالي عليهم كان قد أساء السيرة فيهم، فسار محمد بن هارون إليهم فحاربه واليهما وهو الدتمش التركي، فقتله محمد وقتل ابنين له وأخا كَيْتَلَنْغ، وهو من قواد الخليفة، ودخل محمد بن هارون الرّي، واستولى عليها في رجب.

ذكر قتل بدر

وفيها قُتل بدر غلام المعتضد؛ وكان سبب ذلك أن القاسم الوزير كان قد همّ بنقل الخلافة عن ولد المعتضد بعده، فقال لبدر في ذلك في حياة المعتضد بعد أن استخلفه واستكتمه، فقال بدر: ما كنت لأصرفها عن ولد مولاي وولي نعمتي؛ فلم يمكنه مخالفة

ولما اشتد مرضه اجتمع القواد منهم يونس الخادم، وموشكير وغيرهما، وقالوا للوزير القاسم بن عبيد الله ليجلد البيعة للمكنتي، وقالوا: إننا لا نأمن فتنة، فقال: إن هذا المال لأمر المؤمنين ولولده من بعده، وأخاف [أن] أطلق المال فييرا من علته فينكر عليّ ذلك.

فقال: إن برىء من مرضه فنحن المحتجون، والمناظرون، وإن صار الأمر إلى ولده فلا يلومنا، ونحن نطلب الأمر له. (٥١٤/٧)

فاطلق المال، وجدّد عليه البيعة، وأحضر عبيد الواحد بن الموفق وأخذ عليه البيعة فوكل به وأحضر ابن المعتز، ومضى ابن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد ووكل بهم.

فلما توفي أحضر يوسف بن يعقوب وأبا حازم وأبا عمر بن يوسف بن يعقوب، فتولّى غسله محمد بن يوسف، وصلى عليه الوزير، ودُفن ليلاً في دار محمد بن طاهر، وجلس الوزير في دار الخلافة للعزاء، وجدّد البيعة للمكنتي.

وكانت أمّ المعتضد، واسمها ضرار، قد توفيت قبل خلافته، وكانت خلافته سبع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً؛ وخلف من الولد الذكور: علياً وهو المكنتي، وجعفر وأبو المقدر، وهارون، ومن البنات إحدى عشرة بنتاً، وقيل سبع عشرة، ولما حضرته الوفاة أنشد:

تمنّع من الدنيا فلنك لا تَبَسَى وخذ صفوها ما إن صنت ودع الرقا
ولا تأسن الدهر أنسى قد أمستُ فلم يُبق لي حالاً ولم يبق لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع عدواً ولم أهمل على طفيف خلفا
وأخليت دار الملك من كل نازع فشرتهم غريباً ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزّاً ورفعةً وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا

(٥١٥/٧)

رماني الردى سهماً فأحمد جمرتي فها أنا ذا في خرتي عاجلاً ألقى
ولم يُغن عني ما جمعت ولم أجد لذي المُلْك والأحياء في حسنها رقا
فيا ليت شعري بعد موتي ما ألقى؟ إلى ينس الرحمن أم نلره ألقى

ذكر صفته وسيرته

كان المعتضد أسمر، نحيف الجسم، معتدل الخلق، قد خطه الشيب، وكان شهماً، شجاعاً، مقداماً؛ وكان ذا عزم، وكان فيه شج؛ بلغه خبر وصيف خادم ابن أبي الساج وعليه قيّاه أصفر، فسار من ساعته وظفر بوصيف وعاد، فدخل أنطاكية وعليه القيّاه، فقال بعض أهلها: الخليفة بغير سواد؛ فقال بعض أصحابه: إنه سار فيه، ولم ينزعه عنه إلى الآن وكان عفيفاً.

حكى القاضي إسماعيل بن إسحاق قال: دخلتُ على المعتضد وعلى رأسه أحداث روم صياح الوجوه، فأطلتُ النظر

بدر، إذ كان صاحب الجيش، وحقدها على بدر، فلمّا مات
المعتضد كان بدر بفارس، فعقد القاسم البيعة (٥١٨/٧) للمكتفي،
وهو بالرقّة.

ذكر ولاية أبي العباس عبد الله بن إبراهيم إفريقية

قد ذكرنا سنة إحدى وستين ومائتين أنّ إبراهيم بن أحمد، أمير
إفريقية، عهد إلى ولده أبي العباس عبد الله سنة تسع وثمانين
ومائتين، وتوفي فيها، فلمّا توفي والده قام بالملك بعده، وكان
أديباً، لبيباً شجاعاً، أحد الفرسان المذكورين، مع علمه بالحرب
وتصرّفها.

وكان عاقلاً، عالمًا، له نظر حسن في الجدل، وفي آيامه عظم
أمر أبي عبد الله الشيعي فآرسل أخاه الأحول، ولم يكن أحول،
ولمّا لُقّب بذلك لأنّه كان إذا نظر دائماً ربّما كسر جفنه، فلُقّب
بالأحول، إلى قتال أبي عبد الله الشيعي، فلمّا بلغه حركته خرج
إليهم في جموع كثيرة، والتقوا عند كموشة، فقتل بينهم خلق عظيم
وانتهزم الأحول، إلّا أنّه أقام في مقابلة أبي عبد الله.

وكان أبو العباس آيام أبيه على خوف شديد منه لسوء أخلاقه،
واستعمله أبوه على صقيّة، ففتح فيها مواضع متعدّدة، وقد تقدّم
ذكر ذلك آيام والده، ولمّا وليّ أبو العباس إفريقية كتب إلى العمّال
كتاباً يُقرأ على العامّة، يعدمهم فيه الإحسان، والعدل، والرفق،
والجهاد، ففعل ما وعد من نفسه، وأحضر جماعة من العلماء
ليعيّنوه على أمر الرعيّة.

وله شعر، فمن ذلك قوله بصقيّة، وقد شرب دواء :

شربت الدواء على غربة بعيداً من الأهل والمزل
(٥٢١/٧)

وكنّت إذا ما شربت الدوا أُنْثِبُ بالمسك والمنديل
وقد صار شرابي بحر الدما وتَقَعُ العجاجة والقنطل

واتّصل بأبي العباس عن ولده أبي مضر زيادة الله والي صقيّة
له اعتكافه على الله، وإدمانه شرب الخمر، فعزله وولّى محمّد بن
السرقوسي، وحبس ولده، فلمّا كان ليلة الأربعاء آخر شعبان من
سنة تسعين ومائتين قُتل أبو العباس، قتله ثلاثة نفر من خدمة
الصنّالة بوضع من ولده، وحملوا رأسه إلى ولده أبي مضر، وهو
في الحبس، فقتل الخدم وصلبهم، وكان هو الذي وضعهم، فكانت
إمارته سنة واثنين وخمسين يوماً، وكان سكناه وقتله، رحمة الله،
بمدينة تونس.

وكان كثير العدل، أحضر جماعة كثيرة عنده ليعينوه على
العدل، ويُعرفوه من أحوال الناس ما يفعل فيه على سبيل الإنصاف،
وأمر الحاكم في بلده أن يقضي عليه، وعلى جميع أهله، وخوَصَّ
أصحابه، ففعل ذلك، ولمّا قُتل وليّ ابنه أبو مضر، وكان من أمره

وكان المكتفي أيضاً مباحداً لبدر في حياة أبيه، وعمل القاسم
في هلاك بدر خوفاً على نفسه أن يذكر ما كان منه للمكتفي، فوجّه
المكتفي محمّد بن كشمير برسائل إلى القوّاد الذين مع بدر يأمرهم
بالمسير إليه ومفارقة بدر، ففارقه جماعة منهم العباس بن عمرو
الغنوي، ومحمّد بن إسحاق بن كنداج، وخاقان المُفلّحي وغيرهم،
فأحسن إليهم المكتفي، وسار بدر إلى واسط، فوكّل المكتفي
بداره، وقبض على أصحابه وقوّاده وحبسهم، وأمر بمحو اسم بدر
من التراس والأعلام، وسير الحسين بن عليّ كورة في جيش إلى
واسط.

وأرسل إلى بدر يعرض عليه أيّ النواحي شاء، فأبى ذلك،
وقال : لا بدّ لي من المسير إلى باب مولاي؛ فوجد القاسم مساعداً
للقول، وخوفاً المكتفي غائلته، وبلغ بدر ما فعل بأهله وأصحابه،
وأرسل من يأتيه بولده هلال سراً، فعلم الوزير بذلك، فاحتاط عليه،
ودعا أبا حازم، قاضي الشريّة، وأمره بالمسير إلى بدر، وتطيّب
نفسه عن المكتفي، وأعطاه الأمان عنه لنفسه وولده وماله، فقال
أبو حازم : احتاج إلى سماع ذلك من أمير المؤمنين؛ فصرفه ودعا
أبا عُمر القاضي، وأمره بمثل ذلك فأجابته، وسار معه كتب الأمان،
فسار بدر عن واسط نحو بغداد، فأرسل إليه الوزير من قتله، فلمّا
أيقن بالقتل سأل أن يُمهّل حتّى يصلّي ركعتين، فصلاهما، ثمّ
ضربت عنقه يوم الجمعة لسنة خلون من شهر رمضان، ثمّ أخذ
رأسه وتركته جثته هنالك، فوجّه عياله من أخذها سراً وجعلوها في
تابوت، فلمّا كان وقت الحجّ حملوها إلى مكّة فدفنوها بها، وكان
أوصى بذلك واعتق قبل أن يُقتل كلّ مملوك كان له.

ورجع أبو عمر إلى داره كثيراً لم يكن منه، وقال الناس
فيه أشعاراً (٥١٩/٧) وتكلّموا فيه، ممّا قيل فيه :

قلّ لقاضي مدينة المنصور بَمَ احلّلت أخذ راس الأمير
عند إعطائه المواثيق والعهد وذو عقد الأيمان في منشور
أين أيمانك الشهي شهد الله ع على أنها يعين فصور
إن كقبك لا تغارق كقبه إلى أن ترى عليل السري
يا قليل الحياء يا أكذب الأمّة يا شاهدا شهادة زور
ليس هذا قبل القضاء ولا يح سن أمثلك ولا الجصور
أي أمر ركبتي في الجمعة الزهراء منه في خير هذي الشهور
قد مضى من قتلت في رمضا ن صائماً بعد سجلة التعفير
يا بني يوسف بن يعقوب أضحي أهل بغداد منكّم في غرور
بند الله شملكم وأرتسي دلكم في حيلة هذا الوزير
فاعتدوا الجواب للحكم القد ل ومن بعد مكبر وتكبر

ما نذكره سنة ست وتسعين ومائتين.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، منتصف رمضان، قُتل عبد الواحد بن الموفق، وكانت والدته إذا سألت عنه قيل لها إنه في دار المكنتي، فلما مات المكنتي أيس (٥٢٢/٧) منه، فأقامت عليه مأتماً.

وفيهما كانت وقعة بين أصحاب إسماعيل بن أحمد وبين ابن جستان الدليمي بطبرستان، فانهزم ابن جستان.

وفيهما لحق إسحاق الفرغاني، وهو من أصحاب بدر، بالبادية، وأظهر الخلاف على الخليفة المكنتي، فحاربه أبو الأغر، فهزمه إسحاق، وقتل من أصحابه جماعة.

وفيهما سار خاقان المفلحي إلى الري في جيش كثيف ليتولاهما. وفيها صلى الناس العصر بحمص وبغداد في الصيف، ثم هب هواء من ناحية الشمال، فبرد الوقت، واشتد البرد حتى احتاج الناس إلى النار وليس الجباب، وجعل البرد يزداد حتى جمد الماء.

وفيهما كانت وقعة بين إسماعيل بن أحمد وبين محمد بن هارون بالري، فانهزم محمد، ولحق بالديلم مستجيراً بهم، ودخل إسماعيل الري.

وفيهما زادت دجلة قدر خمسة عشر ذراعاً.

وفيهما خلع المكنتي على هلال بن بدر وغيره من أصحاب أبيه في جمادى الأولى.

وفيهما هبت ريح عاصف بالبصرة، فقلعت كثيراً من نخلهما، وخُسف بموضع منها هلك فيه ستة آلاف نفس، وزلزلت بغداد، في رجب، عدة مرات، فتضرع أهلها في الجامع فكشف عنهم.

وفيهما مات أبو حمزة بن محمد بن إبراهيم الصوفي، وهو من أفراد سري السقطي. (٥٢٣/٧)

سنة تسعين ومائتين

ذكر اخبار القرامطة

في هذه السنة، في ربيع الآخر، سار طعج بن جُفّ جيشاً من دمشق إلى القرمطي، عليهم غلام له اسمه بشير، فهزمهم القرمطي وقتل بشيراً.

وفيهما حصر القرمطي دمشق، وضيق على أهلها، وقتل أصحاب طعج، ولم يبق منهم إلا القليل، وأشرف أهلها على الهلكة، فاجتمع جماعة من أهل بغداد، وأنهبوا ذلك إلى الخليفة

فوعدهم النجدة، وأمدّ المصريون أهل دمشق ببدر وغيره من القواد، فقاتلوا الشيخ مقدّم القرامطة، فقتل على باب دمشق، رماه بعض المغاربة بمزراق، ورزقه نفاطاً بالنار فاحترق، وقتل منهم خلق كثير.

وكان هذا القرمطي يزعم أنه إذا أشار بيده إلى جهة من التي فيها محاربوه انهزموا، ولما قُتل يحيى المعروف بالشيخ، وقتل أصحابه، اجتمع من بقي منهم على أخيه الحسين، وسمى نفسه أحمد، وكناه أبا العباس. (٥٢٤/٧) ودعا الناس فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم، فاشتدت شوكته، وأظهر شامه في وجهه، وزعم أنها آيته، فسار إلى دمشق، فصالحه أهلها على خراج دفعوه إليه وانصرف عنهم.

ثم سار إلى أطراف حمص، فغلب عليها، وخطب له على منابرها، وتسمى المهدي أمير المؤمنين، وأتاه ابن عمه عيسى بن المهدي، المسمى عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل، فلقبه المذثر، وعهد إليه، وزعم أنه المذثر الذي في القرآن، ولقب غلاماً من أهله المطوق، وقتله قتل أسرى المسلمين.

ولما أطاعه أهل حمص، وفتحوا له بابها خوفاً منه، سار إلى حماة، ومعرة النعمان، وغيرهما، فقتل أهلها، وقتل النساء والصبيان، ثم سار إلى بعلبك فقتل عامة أهلها، ولم يبق منهم إلا اليسير، ثم سار إلى سلمية فمنعه أهلها، ثم صالحوهم وأعطاهم الأمان، ففتحوا له بابها، فبدأ بمن فيها من بني هاشم، وكانوا جماعة، فقتلهم أجمعين، ثم قتل البهائم، والصبيان بالمكاتب، ثم خرج منها وليس بها عين تطرف.

وسار فيما حولها من القرى يسبي، ويقتل، ويخيف السبيل، فذكر عن متطبب بباب المحول يدعى أبا الحسين قال: جاءني امرأة بعدما أدخل القرمطي صاحب الشامة بغداد، وقالت: أريد أن تعالج جرحاً في كفي؟ فقلت: ها هنا امرأة تعالج النساء، فانتظرتهما، فقعدت وهي باكية مكروبة، فسألتهما عن قصتها قالت: كان لي ولد طالت غيبته عني، فخرجت أطوف عليه البلاد فلم أراه، فخرجت من الرقة في طلبه، فوقعت في عسكر القرمطي أطلبه، فرايته، فشكوت إليه حالي وحال أخوانه، فقال: دعيني من هذا، (٥٢٥/٧) أخبريني ما دينك؟ فقلت: أما تعرف ما ديني؟ فقال: ما كنا فيه باطل، والدين ما نحن فيه اليوم؟ فعجبت من ذلك، وخرج وتركني، ووجهه بخير [ولحم]، فلم أمسه حتى عاد فاصلحه.

وأتاه رجل من أصحابه فسأله عني هل أحسن من أمر النساء شيئاً، فقلت: نعم، فأدخلني داراً، فإذا امرأة تطلق، فقعدت بين يديها، وجعلت أكلها ولا تكلمني، حتى ولدت غلاماً، فأصلحت من شأنه، وتلطفت بها حتى كلمتني، فسألته عن حالها،

ذكر أسر محمد بن هارون

وفيها أخذ محمد بن هارون أسيراً، وكان سبب ذلك أن المكثفي أنفذ عهداً إلى إسماعيل بن أحمد الساماني بولاية الري، فصار إليها، وبها محمد بن هارون، فصار عنها محمد إلى قروين وزنجان، ثم عاد إلى طبرستان، فاستعمل إسماعيل ابن أحمد على جرجان بارس الكبير، وألزمه بإحضار محمد بن هارون قسراً، أو صلحاً، وكاتبه بارس وضمن له إصلاح حاله مع الأمير إسماعيل، فقبل محمد قوله، وانصرف عن جستان الذيلمي، وقصد بخارى، فلما بلغ مرو قيد بها، وذلك في شعبان سنة تسعين ومائتين، ثم حُمل إلى بخارى فأدخلها على جمل وحُبس بها فمات بعد شهرين محبوساً.

وكان ابتداء أمره أنه كان خياطاً، ثم إنه جمع جمعاً من الرُعا وأهل الفساد، فقطع الطريق بمفازة سَرْخُس مدّة، ثم استأمن إلى رافع بن هرثمة، وبقي معه إلى أن انهزم عمرو الصفار، فاستأمن إلى إسماعيل بن أحمد الساماني، صاحب ما وراء النهر، بعد قتل رافع، فسيره إسماعيل إلى قتال محمد بن زيد، على ما تقدّم ذكره، وقد ذكره الخوافي في شعره فقال :

كان ابنُ هارونَ خياطاً له لِسَرُ روايةً سامهاً عشراً بغيراط
(٥٢٨/٧)

فانسلّ في الأرض يبغي المُلْكُ في زط ونُسوب وَاكْراد وَاْبْطاط
أُتِيَ نِبالُ الثِّيابِ كَفْ مَلْتَرِ بالتراب عن ذروة العلياء هَبْاط
صَبِراً اميرُك إسماعيلُ متَكَم منه ومن كل غدار وخياط
رايتُ عِتْراً سما جهلاً على أسدٍ يا عينُ ويحك ما أشغالُ من شاطي

ذكر عذّة حوادث

وفيها، في ربيع الآخر، خلع على أبي العشائر أحمد بن نصر وولّي طَرْسُوسَ، وعزل عنها مظفر بن حاج لشكوى أهل الثغور منه.

وفيها قوطع طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث على مال يحمله على بلاد فارس، وعقد له المكثفي عليها.

وفيها، في جمادى الأولى، هرب القائد أبو سعيد الخوارزمي الذي استأمن إلى الخليفة، وأخذ نحو طريق الموصل، فكتب إلى عبد الله المعروف بقلام نون بتكرت، وهو يتولّى تلك النواحي، فعارضه عبد الله، واجتمع به، (٥٢٩/٧) فخدعه أبو سعيد وقتله، وسار نحو شهرزور، واجتمع هو وابن الربيع الكردي على عصيان الخليفة.

وفيها أراد المكثفي البناء بسامراً، وخرج إليها ومعه الصُّناع، فقدّروا له ما يحتاج، وكان ملاً جليلاً، وطولوا له مدّة الفراغ، فعظم

فقال: أنا امرأة هاشمية، أخذنا هؤلاء الأقوام، فذبحوا أبي وأهلي جميعاً، وأخذني صاحبهم، فأقمتُ عنده خمسة أيام، ثم أمر بقتلي، فطلبني منه أربعة أنفس من قواده، فوهبني لهم، وكنت معهم، فولّاه ما أدري ممّن هذا الولد منهم.

قالت : فجاء رجل فقال لي: هنيه، فهنيه، فأعطاني سيكة فضّة؛ وجاء آخر، وآخر، أهني كل واحد منهم، ويعطيني سيكة فضّة، ثم جاء الرابع ومعه جماعة، فهنيه، فأعطاني ألف درهم، وبتنا، فلما أصبحنا قلت للمرأة: قد وجب حقّي عليك فالله الله خلّصيني ! قالت : ممّن أخلّصك ؟ فأخبرتها خبر ابني، فقالت : عليك بالرجل الذي جاء آخر القوم. فأقمتُ يومي، فلما أمسيتُ وجاء الرجل قمّتُ له، وقبّلتُ يده ورجله، ووعدته أنني أعود بعد أن أوصل ما معي إلى بناتي؛ فدعا قوماً من غلمانهم وأمرهم بحملي إلى مكان ذكره، وقال : اتركوها فيه وارجعوا؛ فساروا بي عشرة فراسخ، فلحقنا ابني، فضربني بالسيف فجرحتني، ومنعه القوم، (٥٢٦/٧) وساروا بي إلى المكان الذي سمّا لهم صاحبهم، وتركوني وجئت إلى هاهنا.

قالت : ولما قدم الأمير بالقرامطة وبالأسارى رأيتُ ابني فيهم على جمل عليه برنس، وهو ييكي، فقلتُ : لا خفّ الله عنك ولا خلّصك ! ثم إن كُتب أهل الشام ومصر وصلت إلى المكثفي يشكون ما يلقون من القرمطي من القتل، والسبي، وتخریب البلاد، فأمر الجند بالتأهب، وخرج من بغداد في رمضان، وسار إلى الشام وجعل طريقه على الموصل، وقَدَمَ بين يديه أبا الأغَر في عشرة آلاف رجل، فنزل قريباً من حلب، فكبسهم القرمطي، صاحب الشامة، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وسلم أبو الأغَر، فدخل حلب في ألف رجل، وكانت هذه الوقعة في رمضان، وسار القرمطي إلى باب حلب، فحاربه أبو الأغَر بمن بقي معه، وأهل البلد، فرجع عنه. وسار المكثفي حتّى نزل الرُّقّة، وسير الجيوش إليه، وجعل أمرهم إلى محمد بن سليمان الكاتب.

وفيها، في شوال، تحارب القرمطي صاحب الشامة ويدر مولى ابن طولون، فانهمز القرمطي وقتل من أصحابه خلق كثير، ومضى من سلم منهم نحو البادية، فوجّه المكثفي في أثرهم الحسين بن حمدان وغيره من القواد.

وفيها كبس ابن بانوا أمير البحرين حصناً للقرامطة، فظفر بمن فيه، وواقع قرابة أبي سعيد الجنابي، فهزمه ابن بانوا، وكان مقام هذا القرمطي بالقטיפ، وهو ولي عهد أبي سعيد، ثم إنه وجد بعدما انهزم أصحابه قتيلاً فأخذ رأسه، وسار ابن بانوا إلى القטיפ فافتتحها. (٥٢٧/٧)

الوزير ذلك عليه، وصرفه إلى بغداد.

وحجَّ بالناس هذه السنة الفضل بن عبد الملك بن عبد الواحد بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

وفيهما توفي محمد بن علي بن علوية بن عبد الله الفقيه الشافعي الجرجاني، وكان قد تفقه على المزنّي صاحب الشافعي.

وتوفي عبد الله بن أحمد بن حنبل في جمادى الآخرة، وكان مولده سنة ثلاث عشرة ومائتين. (٥٣٠/٧)

سنة إحدى وتسعين ومائتين

ذكر أخبار القرامطة وقتل صاحب الشامة

قد ذكرنا مسير المكتفي إلى الرقّة، وإرساله الجيوش إلى صاحب الشامة، وتولية حرب صاحب الشامة محمد بن سليمان الكاتب، فلما كانت هذه السنة أمر محمد بن سليمان بمناهضة صاحب الشامة، فسار إليه في عساكر الخليفة، حتى لقوه وأصحابه بمكان بينهم وبين حماة اثنا عشر ميلاً لست خلون من المحرم، فقدم القرمطي أصحابه إليهم، وبقي في جماعة من أصحابه، معه مال كان جمعه، وسواد عسكره، والتحمت الحرب بين أصحابه الخليفة والقرامطة، واشتدّت، وانهزمت القرامطة وقتلوا كل قتل وأسروا من رجالهم بشر كثير، وتفرق الباقون في البوادي، وتبعهم أصحاب الخليفة.

فلما رأى صاحب الشامة ما نزل بأصحابه حمل أخاً له يكنى أبا الفضل مالاً، وأمره أن يلحق بالبوادي إلى أن يظهر بمكان فيسير إليه، وركب هو وابن عمه المسمّى بالمذئذ، والمطروق صاحبه، وغلّام له رومي، [وأخذ دليلاً] وسار يريد الكوفة عرضاً في البريّة، فأنتهى إلى الدالية من أعمال الفرات وقد (٥٣١/٧) نفذ ما معهم من الزاد والعلف، فوجه بعض أصحابه إلى الدالية المعروفة بابن طوق ليشتري لهم ما يحتاجون إليه، فأنكروا رأيهم، فسألوه عن حاله فكتّمه، فرفعه إلى متولّي تلك الناحية خليفة أحمد بن محمد بن كشمرد، فسأله عن خبره، فأعلمه أنّ صاحب الشامة خلف رابية هناك مع ثلاثة نفر، فمضى إليهم وأخذهم، وأحضرهم عند ابن كشمرد، فوجه بهم إلى المكتفي بالرقّة، ورجعت الجيوش من الطلب بعد أن قتلوا وأسروا، وكان أكثر الناس أثراً في الحرب الحسين بن حمدان، وكتب محمد بن سليمان يثني عليه وعلى بني شيبان، فإنهم اصطَلوا الحرب، وهزموا القرامطة، وأكثر القتل فيهم والأسر، حتّى لم ينج منهم إلا قليل.

وفي يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم أدخل صاحب الشامة

الرقّة ظاهراً للناس على قالج، وهو الجمل ذو السنّتين، وبين يديه المذئذ والمطروق؛ وسار المكتفي إلى بغداد ومعه صاحب الشامة وأصحابه، وخلف العساكر مع محمد بن سليمان، وأدخل القرمطي بغداداً على فيل، وأصحابه على الجمل، ثم أمر المكتفي بحبسهم إلى أن يقدم محمد بن سليمان، فقدم بغداد، وقد استقصى في طلب القرامطة، فظفر بجماعة من أعيانهم ورؤوسهم، فأمر المكتفي بقطع أيديهم وأرجلهم، وضرب أعناقهم بعد ذلك، وأخرجوا من الحبس، وفعل بهم ذلك، وضرب صاحب الشامة مائتي سوط، وقطعت يده، وكوي، ففشي عليه، وأخذوا خشباً وجعلوا فيه ناراً، ووضعوه على خواصره، فجعل يفتح عينه ويغمضها، فلما خافوا موته ضربوا عنقه، ورفعوا رأسه على خشبة، فكبر الناس لذلك، ونُصب على الجسر.

وفيهما قدم رجل من بني العُلَيْص من وجوه القرامطة، يسمّى إسماعيل ابن النعمان، وكان نجا في جماعة لم ينج من رؤسائهم غيره، فكتابه المكتفي (٥٣٢/٧) وبذل له الأمان، فحضر في الأمان هو ونيّف ومائة وستون نفساً، فأمنوا وأحسن إليهم ووُصلوا بمال، وصاروا إلى رجة مالك بن طوق مع القاسم بن سيماء، وهي من عمله، فأقاموا معه مدّة، ثم أرادوا الغدر بالقاسم، وعزموا على أن يشبوا بالرجة يوم الفطر عند اشتغال الناس بالصلاة، وكان قد صار معهم جماعة كبيرة، فعلم بذلك، فقتلهم، فارتدع من كان بقي من موالي بني العُلَيْص، وذلّوا، وألزموا السماوة، حتّى جاءهم كتاب من الخيث زكرويه يعلمهم أنّه ممّا أوحى إليه أنّ صاحب الشامة وأخاه المعروف بالشيخ يقتلان، وأنّ إمامه الذي هو حيّ يظهر بهدما ويظفر.

ذكر عذّة حوادث

وفيهما جاءت أخبار أن حوى وما يليها جاءها سبل فغرق نحو من ثلاثين فرسخاً، وغرق خلق كثير، وغرقت المواشي والغلات وخربت القرى، وأخرج من الغرق ألف ومائتا نفس، سوى من لم يلحق منهم.

وفيهما خلع المكتفي على محمد بن سليمان، كاتب الجيش، وعلى جماعة من القواد، وأمرهم بالمسير إلى الشام ومصر لأخذ الأعمال من هارون بن خمارويه، لما ظهر من عجزه، وذهاب رجاله بقتل القرمطي، فسار عن بغداد في رجب وهو في عشرة آلاف رجل، وجدّ في السير. (٥٣٣/٧)

وفيهما خرجت الترك في خلق كثير لا يحصون إلى ما وراء النهر، وكان في عسكرهم سبع مائة قبة تركيّة، ولا يكون إلاّ للرؤساء منهم، فوجه إليهم إسماعيل بن أحمد جيشاً كثيراً، وتبعهم من المتطوعة خلق كثير، فساروا نحو الترك، فوصلوا إليهم وهم

وَرَحَفَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ فِي الْجَبُوشِ، فِي الْبَرِّ، حَتَّى دَنَا مِنْ مِصْرَ وَكَاتَبَ مِنْ بَها مِنَ الْقَوَادِ؛ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ إِلَيْهِ بِدَرِّ الْحَمَّامِيِّ، وَكَانَ رَئِيسُهُمْ، فَكَسَرَهُمْ ذَلِكَ، وَتَتَابَعَ الْمُسْتَأْمَنَةُ مِنْ قَوَادِ الْمَصْرِيِّينَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ هَارُونُ خَرَجَ فِيمَنْ مَعَهُ لِقَاتِلَ مُحَمَّدَ بْنِ سُلَيْمَانَ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَقَعَاتٌ، ثُمَّ وَقَعَ بَيْنَ أَصْحَابِ (٥٣٦/٧) هَارُونِ، فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، عَصِيَّةً، فَاقْتُلُوا، فَخَرَجَ هَارُونُ يَسْكُنُهُمْ، فَرَمَاهُ بَعْضُ الْمَغَارِبَةِ بِمِزْرَاقٍ مَعَهُ فَقَتَلَهُ، فَلَمَّا قُتِلَ قَامَ مَعَهُ شَيْبَانُ بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ، وَبِذَلِكَ الْمَالِ لِلْجَنْدِ، فَاطْلَقُوهُ وَقَاتَلُوا مَعَهُ، فَأَتَتْهُمْ كِتَابٌ بِدَرِّ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْأَمَانِ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ.

فَلَمَّا عَلِمَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْخَيْرَ سَارَ إِلَى مِصْرَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ شَيْبَانُ يَطْلُبُ الْأَمَانَ، فَأَجَابَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ لَيْلاً، وَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْجَنْدِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا قَصَدُوا دَارَهُ وَلَمْ يَجِدُوهُ، فَبُقُوا حَيَارَى، وَلَمَّا وَصَلَ مُحَمَّدُ مِصْرَ دَخَلَهَا، وَاسْتَوَلَى عَلَى دَوْرِ آلِ طُولُونَ وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَخَذَهُمْ جَمِيعاً، وَهُمْ بَضْعَةُ عَشْرِ رِجَالاً، فَقَبَضَهُمْ، وَجَسَّهُمْ وَاسْتَقْصَى أَمْوَالَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي صَفَرٍ، وَكُتِبَ بِالْفَتْحِ إِلَى الْمَكْتَفِيِّ، فَأَمَرَهُ بِأَشْخَاصِ آلِ طُولُونَ وَأَسْبَابِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَالشَّامِ إِلَى بَغْدَادَ، وَلَا يَتْرَكَ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَعَادَ إِلَى بَغْدَادَ، وَوَلَّى مَعُونَةَ مِصْرَ عِيْسَى التُّوشَرِيَّ.

ثُمَّ ظَهَرَ بِمِصْرَ إِنْسَانٌ يُعْرَفُ بِالْخَلَنْجِيِّ، وَهُوَ مِنْ قَوَادِمِهِمْ، وَكَانَ تَخَلَّفَ عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ سُلَيْمَانَ، فَاسْتَمَالَ جَمَاعَةً، وَخَالَفَ عَلَى السُّلْطَانِ، وَكَثُرَ جَمْعُهُ وَعِجْزُ التُّوشَرِيَّ عَنْهُ، فَسَارَ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَدَخَلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلَنْجِيَّ مِصْرَ، وَكُتِبَ التُّوشَرِيَّ إِلَى الْمَكْتَفِيِّ بِالْخَيْرِ، فَسِيرَ إِلَيْهَا الْجُنُودُ مَعَ فَاتِكٍ، مَوْلَى الْمُعْتَصِدِ، وَبَدَرَ الْحَمَّامِيُّ، فَسَارُوا فِي شَوَّالٍ نَحْوَ مِصْرَ. (٥٣٧/٧)

ذَكَرَ عِدَّةُ حَوَادِثَ

وَفِيهَا أَخَذَ بِالْبَصْرَةِ رَجُلٌ ذَكَرُوا أَنَّهُ أَرَادَ الْخُرُوجَ، وَأَخَذَ مَعَهُ وَالِدَهُ وَتِسْعَةَ وَثَلَاثُونَ رِجَالاً، وَحُمِلُوا إِلَى بَغْدَادَ، فَكَانُوا يَكُونُ، وَيَسْتَغِيثُونَ، وَيَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ بُرَاءٌ، فَأَمَرَ بِهِمُ الْمَكْتَفِيُّ فَجُبُّسُوا.

وَفِيهَا أَغَارَ أُنْدُرُونَقْسُ الرُّومِيُّ عَلَى مَرْعَشَ وَنَوَاحِيهَا، فَفَرَّ أَهْلُ الْمَصْبِيَّةِ وَأَهْلُ طَرَسُوسَ فَأُصِيبَ أَبُو الرِّجَالِ بْنُ أَبِي بَكَّارٍ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَعَزَلَ الْخَلِيفَةُ أَبَا الْعِشَائِرَ عَنِ الثُّغُورِ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رِسْتَمَ بْنَ بَرْدَا.

وَفِيهَا كَانَ الْقَدَاءُ عَلَى يَدِ رِسْتَمَ، فَكَانَ جُمْلَةً مِنْ فُودِيٍّ بِهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَلْفَ نَفْسٍ وَمِائَتَيْنِ نَفْسٍ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ الْفَضْلُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ،

وَفِيهَا زَادَتْ دَجْلَةُ زِيَادَةَ مَفْرَطَةَ، حَتَّى تَهَدَّمَتِ الدُّوْرُ الَّتِي عَلَى

غَارُونِ، فَكَبَسَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مَعَ الصَّبْحِ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا عَظِيمًا لَا يُحْصَوْنَ، وَانْهَزَمَ الْبَاقُونَ، وَاسْتَبِيحَ عَسْكَرُهُمْ، وَعَادَ الْمُسْلِمُونَ سَالِمِينَ غَانِمِينَ.

وَفِيهَا خَرَجَ مِنَ الرُّومِ عَشْرَةُ صُلْبَانٍ مَعَ كُلِّ صُلْبٍ عَشْرَةُ آلَافٍ إِلَى الثُّغُورِ، فَقَصَدَ جَمَاعَةً مِنْهُمْ إِلَى الْحَذَثِ، فَأَغَارُوا وَسَبَّوْا وَأَحْرَقُوا.

وَفِيهَا سَارَ الْمَعْرُوفُ بِغَلَامٍ زُرَافَةً مِنْ طَرَسُوسَ نَحْوَ بِلَادِ الرُّومِ، فَفَتَحَ مَدِينَةَ أَنْطَالِيَّةَ، وَهِيَ تَعَادِلُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَتَحَهَا بِالسَّيْفِ عُسْرَةً، فَقَتَلَ خَمْسَةَ آلَافٍ رِجُلًا، وَأَسَرَ مِثْلَهُمْ، وَاسْتَقْذَرَ مِنَ الْأَسَارَى خَمْسَةَ آلَافٍ، وَأَخَذَ لَهُمْ سِتِينَ مَرْكَبًا فَحَمَلَ فِيهَا مَا غَنِمَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَتَاعِ وَالرَّقِيقِ، وَقَدَّرَ نَصِيبَ كُلِّ رِجُلٍ أَلْفَ دِينَارٍ، وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَاسْتَبَشَرَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ الْفَضْلُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ.

وَفِيهَا تَوَفَّى الْقَاسِمُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَزَيْرُ الْخَلِيفَةِ، فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَكَانَ عُمُرُهُ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَاثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَلَمَّا مَاتَ قَالَ ابْنُ سَيَّارَ: (٥٣٤/٧)

أَمَاتَ لِيَحْيَا، فَمَا إِنْ حَيِيَ، وَائْتَنَى لِيَقَى، فَمَا إِنْ بَقِيَ وَمَا زَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَرَى أَمَارَةً خَفِيفَةً وَشَيْكًا وَجِوْشِي وَمَا زَالَ يَسْلُجُ مِنْ ثُبُرِهِ إِلَى أَنْ خَرِيَ النَّفْسُ فِيمَا خَرِيَ وَفِيهَا مَاتَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَاسْتَوَائِيُّ الْفَقِيهَ نَيْسَابُورَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْجَزَوْعِيُّ، قَاضِي الْمَوْصَلِ بِبَغْدَادَ.

وَفِيهَا تَوَفَّى أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الشَّيْبَانِيُّ النَّحْوِيُّ، وَكَانَ عَالِمًا بِنَحْوِ الْكُوفَتَيْنِ، وَكَانَ مَوْتُهُ بِبَغْدَادَ. (٥٣٥/٧)

سَنَةُ اثْنَيْنِ وَتِسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ

ذَكَرَ اسْتِیْلَاءُ الْمَكْتَفِيِّ عَلَى الشَّامِ وَمِصْرَ وَانْقِرَاضُ مُلْكِ الطُّولُونِيَّةِ وَفِي الْمَحْرَمِ مِنْهَا سَارَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ إِلَى حُدُودِ مِصْرَ لِحَرْبِ هَارُونِ بْنِ خُمَارَوِيهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سُلَيْمَانَ لَمَّا تَخَلَّفَ عَنِ الْمَكْتَفِيِّ، وَعَادَ عَنْ مُحَارَبَةِ الْقَرَامِطَةِ، وَاسْتَقْصَى مُحَمَّدٌ فِي طَلَبِهِمْ، فَلَمَّا بَلَغَ مَا أَرَادَ عَزَمَ عَلَى الْعُودِ إِلَى الْعِرَاقِ، فَاتَاهُ كِتَابٌ بِدَرِّ الْحَمَّامِيِّ غِلَامِ ابْنِ طُولُونَ، وَكِتَابٌ فَاتِقٌ، وَهُمَا بِدَمَشَقَ يَدْعُوَانِهِ إِلَى قَصْدِ الْبِلَادِ بِالْعَاسِكَارِ لِيَسَاعِدَاهُ عَلَى أَخْذِهَا، فَلَمَّا عَادَ إِلَى بَغْدَادَ أَنْهَى ذَلِكَ إِلَى الْمَكْتَفِيِّ، فَأَمَرَهُ بِالْعُودِ، وَسَيَّرَ مَعَهُ الْجُنُودَ، وَالْأَمْوَالُ، وَوَجَّهَهُ الْمَكْتَفِيُّ دِمْيَازَةَ غِلَامٍ بِازْمَارَ، وَأَمَرَهُ بِرُكُوبِ الْبَحْرِ إِلَى مِصْرَ، وَدَخَلَ النَّيْلَ، وَقَطَعَ الْمَوَادَّ عَنْ مِصْرَ، فَفَعَلَ، وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ.

شاطئها بالعراق. وأنهى ابن حمدان ما كان من حالهم إلى الخليفة والوزير فأنجدوه بجماعة صالحة وعاد إلى الموصل فجمع رجاله وسار إلى جبل السلق، وفيه محمد بن بلال ومعه الأكراد، فدخله ابن حمدان، والجواسيس بين يديه، خوفاً من كمين يكون فيه، وتقدم من بين يدي أصحابه، وهم يتبعونه، فلم يتخلف منهم أحد، وجاوزوا الجبل، وقاربوا الأكراد، وسقط عليهم الثلج، واشتد البرد، وقلت الميرة والعلف عندهم، وأقام على ذلك عشرة أيام، وبلغ الحمل [من] الثبن ثلاثين درهماً، ثم عدم عندهم وهو صابر. (٥٤٠/٧)

فلما رأى الأكراد صبرهم وأنهم لا حيلة لهم في دفعهم لجأ محمد بن بلال وأولاده ومن لحق به، واسترلى ابن حمدان على بيوتهم، وسوادهم، وأهلهم، وأموالهم، وطلبوا الأمان فأمّنهم، وأبقى عليهم، وردهم إلى بلد حزة، ورده عليهم أموالهم وأهلهم، ولم يقتل منهم غير رجل واحد، وهو الذي قتل صاحبه سيما الحمداني، وأمنت البلاد معه، وأحسن السيرة في أهلها.

ثم إن محمد بن بلال طلب الأمان من ابن حمدان فأمنه، وحضر عنده، وأقام بالموصل، وتتابع الأكراد الحديدية، وأهل جبل داسن إليه بالأمان، فأمنت البلاد واستقامت.

ذكر الظفر بالخلنجي

في هذه السنة، في صفر، وصل عسكر المكتفي إلى نواحي مصر، وتقدم أحمد بن كيغَلغ في جماعة من القواد، فلقبهم الخلنجي بالقرب من الغريش، فهزمهم أقيح هزيمة، فندب جماعة من القواد إليهم ببغداد، وفيهم إبراهيم بن كيغَلغ، فخرجوا في ربيع الأول وساروا نحو مصر.

واتصلت الأخبار بقوة الخلنجي، فبرز المكتفي إلى باب الشّمسية ليسير إلى مصر في رجب، فوصل إليه كتاب فاتك في شعبان يذكر أنه والقواد رجعوا إلى الخلنجي، وكانت بينهم حروب كثيرة قُتل بينهم فيها خلق كثير، فإن آخر حرب كانت بينهم قُتل فيها معظم أصحاب الخلنجي (٥٤١/٧). وانهزم الباقون، وظفروا بهم، وغنموا عسكرهم، وهرب الخلنجي، فدخل فسطاط مصر، فاستتر بها عند رجل من أهل البلد، فدخلنا المدينة، فدلّونا عليه، فأخذناه ومن استتر عنده، وهم في الحبس.

فكتب المكتفي إلى فاتك في حمل الخلنجي ومن معه إلى بغداد، وعاد المكتفي فدخل بغداد، وأمر بردة خزائنه، وكانت قد بلغت تكريت، فوجه فاتك الخلنجي إلى بغداد، فدخلها هو ومن معه في شهر رمضان، فأمر المكتفي بحبسهم.

ذكر أمر القرامطة

فيها أنفذ زكروته بن مهرته، بعد قتل صاحب الشامة، رجلاً

وفيها، في العشرين من أيار، طلع كوكب له ذنب عظيم جداً في برج الجوزاء.

وفيها وقع الحريق ببغداد بباب الطاق من الجانب الشرقي إلى طرق الصّغارين، فاحترق ألف دكان مملوءة متاعاً للتجار.

وفيها توفي أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله الكنجي، ويقال الكشي.

وفيها توفي القاضي عبد الحميد بن عبد العزيز أبو حازم، قاضي المعتض بالله، ببغداد، وكان من أفاضل القضاة. (٥٣٨/٧)

سنة ثلاث وتسعين ومائتين

ذكر أول إمارة بني حمدان بالموصل وما فعلوه بالأكراد

في هذه السنة ولّى المكتفي بالله الموصي وأعمالها أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبي العدوي، فسار إليها، فقدمها أول المحرم، فأقام بها يومه، وخرج من الغد لعرض الرجال الذين قدموا معه، والذين بالموصل، فأنه الصريخ من ينوي بأن الأكراد الهذليّة، ومقدمهم محمد بن بلال، قد أغاروا على البلد، وغنموا كثيراً منه، فسار من وقته وعبر الجسر إلى الجانب الشرقي، فالحق الأكراد المعروفة على الخازر، فقاتلوه، فقتل رجل من أصحابه اسمه سيما الحمداني، فعاد عنهم، وكتب إلى الخليفة يستدعي النجدة، فأنه النجدة بعد شهور كثيرة، وقد انقضت سنة ثلاث وتسعين ودخلت سنة أربع وتسعين.

ففي ربيع الأول منها سار فيمن معه إلى الهذليّة، وكانوا قد اجتمعوا في خمسة آلاف بيت، فلما رأوا جدّه في طلبهم ساروا إلى البابة التي في جبل السلق، وهو مضيق في جبل عال مشرف على شهزور، فامتنعوا (٥٣٩/٧) [بها] وأغار مقدمهم محمد بن بلال، وقرب من ابن حمدان، وراسله في أن يطيعه، ويحضر هو وأولاده، ويجعلهم عنده يكونون رهينة، وتركون الفساد، فقبل ابن حمدان ذلك، فرجع محمد ليأتي بمن ذكر، فحث أصحابه على المسير نحو أذربيجان، وإنما أراد في الذي فعله مع ابن حمدان أن يترك الجذ في الطلب لياخذ أصحابه أهبتهم ويسيروا آمنين.

فلما تأخر عود محمد عن ابن حمدان علم مراده، فجرد معه جماعة من جملتهم إخته سليمان، وداود، وسعيد وغيرهم ممن يثق به وبشجاعته، وأمر النجدة التي جاءته من الخليفة أن يسيروا معه، فتبسطوا، فتركهم وسار يقفوا أثرهم، فلحقهم وقد تعلّقوا بالجبل المعروف بالقنديل، فقتل منهم جماعة، وصعدوا ذروة الجبل، وانصرف ابن حمدان عنهم، ولحق الأكراد بأذربيجان،

الخليفة، فقبل عذرهم، وبقي على المائتين بقيتهم ممن له بصيرة في دينه، فكتب الخليفة إلى ابن حَمْدَانَ يأمره بمعاودتهم، واجتماع أصلهم، فأرسل إليهم زَكْرَوِيَّةَ بن مَهْرَوَيْه داعية له يسمي القاسم بن أحمد، ويُعرف بأبي مُحَمَّد، وأعلمهم أن فعل الذئب قد نَفَرَه منهم، وأنهم قد ارتدوا عن الدين، وأن وقت ظهوركم قد حضر، وقد بايع له من أهل الكوفة أربعون ألفاً، وأن يوم موعدهم الذي ذكره الله في شأن موسى ﷺ وعدوه فرعون إذ ﴿قَالَ مَزِعَكُم يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]، ويأمرهم أن يُخْفُوا أمرهم، وأن يسيروا حتى يصبحوا الكوفة يوم النحر سنة ثلاث وتسعين ومائتين، فإنهم لا يُنْعَمُونَ منها، وأنه يظهر لهم، وينجز لهم وعده الذي يعدهم إيَّاه، وأن يحملوا إليه القاسم بن أحمد.

فامتثلوا رأيه، ووافوا باب الكوفة وقد انصرف الناس عن مصالمتهم، وعاملهم إسحاق بن عمران، ووصلوها في ثمان مائة فارس عليهم الدروع، والجواشن، والآلات الحسنة، وقد ضربوا على القاسم بن أحمد قَبَّةً، وقالوا (٥٤٤/٧) هذا أثر رسول الله. ونادوا: يا لثارات الحسين، يعنون الحسين بن زَكْرَوَيْه المصلوب ببغداد، وشعارهم: يا أحمد، يا مُحَمَّد، يعنون ابني زَكْرَوَيْه المقتولين، فأظهروا الأعلام البيض، وأرادوا استمالة رُعَاعِ الناس بالكوفة بذلك، فلم يملُ إليهم أحد، فأوقع القرامطة بمن لحقوه من أهل الكوفة، وقتلوا نحواً من عشرين نفساً.

ويادر الناس الكوفة، وأخذوا السلاح، ونهض بهم إسحاق، ودخل مدينة الكوفة من القرامطة مائة فارس، فقتل منهم عشرون نفساً، وأخرجوا عنها، وظهر إسحاق، وحاربهم إلى العصر، ثم انصرفوا نحو القادسية، وكان فيمن يقاتلهم مع إسحاق جماعة من الطالبيَّة.

وكتب إسحاق إلى الخليفة يستمدّه، فأمدّه بجماعة من قوَّاده، منهم: وصيف بن صوارتكين التركي، والفضل بن موسى بن بُغَا، ويشر الخادم الأفشينِي، ورائق الحرري، مولى أمير المؤمنين، وغيرهم من الفلمان الحَجَرِيَّة، فساروا منتصف ذي الحِجَّة حتى قاربوا القادسية فترلوا بالصوان، فلقيهم زكرويه.

وأما القرامطة فإنهم أنفذوا واستخرجوا زكرويه من جُبِّ في الأرض كان منقطعاً فيه سنين كثيرة، بقرية الدرية، وكان على الجبِّ باب حديد محكم العمل، وكان زكرويه إذا خاف الطلب جعل تنوراً هناك على باب الجبِّ، وقامت امرأة تسجُرُه، فلا يُفْطِنُ إليه، وكان ربّما أخفي في بيت خلف باب الدار التي كان بها ساكناً، فإذا انتفع باب الدار انطبق على باب البيت، فيدخل (٥٤٥/٧) الداخل الدار فلا يرى شيئاً، فلما استخرجه حملوه على أيديهم، وسمّوه وليّ الله، ولما راوه سجدوا له، وحضر معه جماعة من دُعائه وخاصته،

كان يعلم الصبيان بالرأفة من الفلوجة يسمي عبد الله بن سعيد، ويكنى أبا غانم، فسمي نصراً، وقيل كان المنفذ ابن زكرويه، قدار على أحياء العرب من كلب وغيرهم يدعوهم إلى رأيه، فلم يقبله منهم أحد، إلا رجلاً من بني زياد يسمي مقدام بن الكيال، واستقوى بطوائف من الأصغين المتتمين إلى الغواطم، وغيرهم من العليصيين، وصعاليك من سائر بطون كلب، وقصد ناحية الشام، والعامل بدمشق والأردن أحمد بن كَيْغَلُغ، وهو بمصر يحارب الخلعجي، فاغتنم ذلك عبد الله بن سعيد، وسار إلى بصرى وأذرعاء والبثينة، فحارب أهلها، ثم أمّتهم، فلما استسلموا إليه قتل مقاتلتهم وسبى (٥٤٢/٧) ذراريهم وأخذ أموالهم.

ثم قصد دمشق، فخرج إليهم نائب ابن كَيْغَلُغ، وهو صالح بن الفضل فهزمه القرامطة، وأثخنوا فيهم، ثم [أمّتهم] وغدروهم بالأمان، وقتلوا صالحاً، وفضّوا عسكره، وساروا إلى دمشق، فمَنَعهم أهلها، فقصدا طَبْرِيَّةَ، وانضاف إليه جماعة من جند دمشق افتنوا به، فواقعهم يوسف بن إبراهيم بن بغامردي، وهو خليفة أحمد بن كَيْغَلُغ بالأردن، فهزموه، وبذلوا له الأمان، وغدروا به، وقتلوه، ونهبوا طَبْرِيَّةَ، وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها وسبوا النساء.

فأنفذ الخليفة الحسين بن حَمْدَانَ وجماعة من القوَّاد في طلبهم، فوردوا دمشق، فلما علم بهم القرامطة رجعوا نحو السماوة، وتبعهم الحسين في السماوة وهم يتنقلون في المياه ويغورونها، حتى لجؤوا إلى ماءين يُعرف أحدهما بالدعمانة، والآخر بالحبالَة، وانقطع ابن حَمْدَانَ عنهم لعدم الماء، وعاد إلى الرُّحبة، وأمرى القرامطة مع نصر إلى هَيْتِ وأهلها غافلون، فنهبوا ربضها، وامتنع أهل المدينة بسورهم، ونهبوا السفن، وقتلوا من أهل المدينة مائتي نفس، ونهبوا الأموال والمتاع، وأوقروا ثلاثة آلاف راحلة من الحنطة.

ويبلغ الخبر إلى المكثي فسير مُحَمَّد بن إسحاق بن كنداج، فلم يقيموا لمحمد، ورجعوا إلى المائتين فنهض مُحَمَّد خلفهم، فوجدتهم قد غَوَّروا المياه، فأنفذ إليه من بغداد الأزواد والدواب، وكتب إلى ابن حَمْدَانَ بالمسير إليهم (٥٤٣/٧) من جهة الرُّحبة ليجتمع هو ومحمد على الإيقاع بهم، ففعل ذلك.

فمّا أحسن الكليّون بإقبال الجيش إليهم وثبوا بنصر فقتلوه، قتله رجل منهم يقال له الذئب ابن القائم، وسار برأسه إلى المكثي متقرّباً بذلك، مستأمناً، فأجيب إلى ذلك، وأجيز بجائزة سنّية، وأمر بالكف عن قومه.

واقترنت القرامطة بعد نصر حتى صارت بينهم الدماء، وسارت فرقة كرهت أمورهم إلى بني أسد بنواحي عين التمر، واعتذروا إلى

وأعلمهم أنَّ القاسم بن أحمد من أعظم الناس عليهم ذمة ومنة، وأنه ردهم إلى الدين بعد خروجهم عنه، وأنهم إن امتثلوا أوامره أنجز موعدهم وبلغوا آمالهم، ورمز لهم رموزاً ذكر فيها آيات من القرآن نقلها عن الوجه الذي أنزلت فيه، فاعترف له من رسخ حب الكفر في قلبه أنه رئيسهم وكهفهم، وأيقنوا بالنصر وبلغوا الأمل.

وسار بهم وهو محبوب يدعونه السيد ولا يبرزونه، والقاسم يتولَّى الأمور، وأعلمهم أنَّ أهل السواد قاطبة خارجون إليه، فأقام بسقي الفرات عدة أيام، فلم يصل إليه منهم إلا خمس مائة رجل، ثم وافته الجنود المذكورة من عند الخليفة، فلقبهم زكرويه بالصوان، وقاتلهم واشتدت الحرب بينهم، وكانت الهزيمة أول النهار على القرامطة، وكان زكرويه قد كمن لهم كميناً من خلفهم، فلم يشعر أصحاب الخليفة إلا والسيف فيهم من ورائهم، فانهزموا أقبح هزيمة، ووضع القرامطة السيف فيهم، فقتلهم كيف شاؤوا، وغنموا سوادهم، ولم يسلم من أصحاب الخليفة إلا مَنْ دابته قوية، أو من أثنى بالجراح، فوضع نفسه بين القتلى، فتحاملوا بعد ذلك، وأخذ للخليفة في هذا العسكر أكثر من ثلاثمائة جمازة عليها المال والسلاح، وخمس مائة بغل، وقتل من أصحاب الخليفة، سوى الغلمان، ألف وخمس مائة رجلاً، وقوي القرامطة بما غنموا.

وفيها توفي نصر بن أحمد الحافظ في رمضان، وأبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ الشاعر الكاتب الأنباري. (٥٤٨/٧)

سنة أربع وتسعين ومائتين

ذكر أخبار القرامطة وأخذهم الحاج

في هذه السنة، في المحرم، ارتحل زكرويه من نهر المثنى يريد الحج، فبلغ السلّمان، وأقام ينتظرهم، فبلغت القافلة الأولى واقصة سابع المحرم، فأنذرهم أهلها وأخبروهم بقرب القرامطة، فارتحلوا لساعتهم.

وسار القرامطة إلى واقصة، فسألوا أهلها عن الحاج، فأخبروهم أنهم ساروا، فأتهمهم زكرويه، فقتل العلاف، وأحرق العلف، وتحصن أهل واقصة في حصنهم، فحصرهم أياماً ثم ارتحل عنهم نحو زباله، وأغار في طريقه على جماعة من بني أسد.

ووصلت العساكر المنفذة من بغداد إلى عيون الطّف، فبلغهم سير زكرويه من السلّمان، فانصرفوا، وسار علان بن كشمرد جريدة، فنزل واقصة بعد أن جازت القافلة الأولى، ولقي زكرويه القرمطي قافلة الخراسانية بعقبه الشيطان راجعين من مكة، فحاربهم حرباً شديدة، فلما رأى شدة حربهم سألهم: هل فيكم نائب للسلطان؟ فقالوا: ما معنا أحد. قال: فلست أريدكم؟ فاطمأنوا وساروا، فلما ساروا أوقع بهم، وقتلهم عن آخرهم، ولم ينج إلا الشريد، وسوا من النساء ما أرادوا، وقتلوا منهم. (٥٤٩/٧)

ولقي بعض المنهزمين علان بن كشمرد، فأخبروه خبرهم، وقالوا له: ما بينك وبينهم إلا القليل، ولو راوك لقويت نفوسهم، فالله الله فيهم! فقال: لا أعرض أصحاب السلطان للقتل، ورجع هو وأصحابه.

وكتب من نجا من الحجاج من هذه القافلة الثانية إلى رؤساء القافلة الثالثة من الحجاج يعلمونهم ما جرى من القرامطة، ويأمرهم بالتحرر، والعدول عن الجادة نحو واسط والبصرة،

ولما ورد خبر هذه الواقعة إلى بغداد أعظمها الخليفة والناس، وندب إلى (٥٤٦/٧) القرامطة محمد بن إسحاق بن كنداج، وضم إليه من الأعراب بني شيبان وغيرهم أكثر من ألفي رجل، وأعطاهم الأرزاق، ورحل زكرويه من مكانه إلى نهر المثنى لثنت القتلى.

ذكر عدة حوادث

وفيها، في ربيع الآخر، قدم إلى بغداد قائد من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث مستاناً، ويُعرف بأبي قابوس.

وسبب ذلك أنَّ طاهراً تشاغل باللّهو والصيد، ومضى إلى سيستان للصيد والتّزّه، فغلب على الأمر بفارس الليث بن علي بن الليث، وسبكرى مولى عمرو بن الليث، فوقع بينهما وبين هذا القائد تباعد، فسارهم، ووصل إلى بغداد، فخلع عليه الخليفة وأحسن إليه، فكتب طاهر بن محمد، يسأل رَدَّ أبي قابوس، ويذكر أنه جبي المال وأخذه، ويقول له: إِمّا أن تردّ إليه، أو تحتسب له بما ذهب معه من المال من جملة القرار الذي عليه، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك.

وفيها صارت الداعية التي للقرامطة باليمن إلى مدينة صنعاء، فحاربه أهلها، فظفر بهم وقتلهم، فلم يفلت إلا اليسير، وتغلّب على سائر مدن اليمن، ثمّ اجتمع أهل صنعاء وغيرها، فحاربوا الداعية، فهزموه، فأنحاز إلى موضع من نواحي اليمن، وبلغ الخبر الخليفة، فخلع على المظفر بن حاج في شوال، وسيرّه إلى عمله

والرجوع إلى فيذ والمدينة إلى أن تأتيهم جيوش السلطان، فلم يسمعوا، ولم يقيموا.

وسارت القرامطة من العقبة بعد أخذ الحاج، وقد طمّوا الآبار والبرك بالجيف، والتراب، والحجارة، بواقصة، والثعلبية، والعقبة، وغيرها من المناهل في جميع طريقهم، وأقام [زكرويه] بالهجير ينتظر القافلة الثالثة، فساروا فصادقوه هناك، فقاتلهم زكرويه ثلاث أيام، وهم على غير ماء، فاستسلموا لشدة العطش، فوضع فيهم السيف وقتلهم عن آخرهم، وجمع القتلى كالتل، وأرسل خلف المنهزمين من يبذل لهم الأمان، فلمّا رجعوا قتلهم، وكان في القتلى مبارك القمي، وولده أبو العشائر بن حمدان.

وكان نساء القرامطة يطفن بالماء بين القتلى يعرضن عليهم الماء، فمن كلمهن قتلته، فقيل إن عنة القتلى بلغت عشرين ألفاً، ولم ينج إلا من كان بين القتلى فلم يطفن له فنجا بعد ذلك، ومن هرب عند اشتغال القرامطة بالقتل والنهب، فكان من مات من هؤلاء أكثر ممن سلم ومن استعبده، وكان مبلغ ما أخذوه من هذه القافلة ألفي ألف دينار.

وكان في جملة ما أخذوا فيها أموال الطولونية وأسبابهم، فأتهم لمّا عزموا على الانتقال من مصر إلى بغداد خافوا أن يستصحبوها فتوخذ منهم، فعملوا الذهب والنقرة سبائك، وجعلوها في حدائق الجمال، وجميع ما لهم من الجلي والجوهر، وسيروا الجميع إلى مكة سرّاً، وسار من مكة في هذه (٥٥٠/٧) القافلة فأخذت.

وبث زكرويه الطلائع خوفاً من عسكر الخليفة الذي كان بالقادسية، وأقام ينتظر وصول من كان في الحج من عسكر الخليفة وأصحابه، فكانوا بغيذ ينتظرون هل تعرض القرامطة للحاج أم لا، فكان معهم جماعة من التجار أرباب الأموال، فلمّا بلغهم ما صنع القرامطة أقاموا ينتظرون وصول عسكر من عند الخليفة، فسار زكرويه إليهم، وغور الآبار، والمصانع، والمياه إلى فيذ، فاحتفى أهل فيذ بمن بها من الحجّاج بالحصنين اللذين بفيذ وحصرهم فيهما القرامطة، وأرسل زكرويه إلى أهل فيذ يأمرهم بإخراجهم أو بتسليم الحصنين إليه، وبذل لهم الأمان على ذلك، فلم يجيبوه، فهزّدهم بالنهب والقتل، فازداد امتناعهم، وأقام عليهم عنة أيام، ثم سار إلى الساج ثم إلى جعفر أبي موسى.

ذكر قتل زكرويه لعنه الله

لمّا فعل زكرويه بالحجّاج ما ذكرناه عظم ذلك على الخليفة خاصة، وعلى جميع المسلمين عامّة، فجهّز المكتفي الجيوش، فلمّا كان أول ربيع الأول سير (٥٥١/٧) وصيف بن صوارتكين مع جماعة من القواد والساكر إلى القرامطة، فساروا على طريق حيفان، فلقيهم زكرويه، ومن معه من القرامطة، ثامن ربيع الأول،

ووصل عسكر الخليفة إلى عدوّ الله زكرويه، فضربه بعض الجند وهو مؤلّ بالسيف على رأسه، فبلغت الضربة دماغه، وأخذه أسيراً، وأخذ خليفته وجماعة من خواصّه وأقربائه، وفيهم ابنه، وكتابه، وزوجته، واحتوى الجند على ما في العسكر.

وعاش زكرويه خمسة أيام ومات، فسبّرت جيفته والأسرى إلى بغداد، وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام، فأوقع بهم الحسين بن حمدان، فقتلهم جميعاً، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان، وحمل رأس زكرويه إلى خراسان، لئلا ينقطع الحجّاج، وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه يُعرف أحدهما بالحدّاد، والآخر بالمستقم، وهو أخو امرأة زكرويه، كانا قد سارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج معهم، فلمّا أخذوهما سيروهما إلى بغداد، وتبع الخليفة القرامطة بالعراق، فقتل بعضهم، وحبس بعضهم، ومات بعضهم في الحبس. (٥٥٢/٧)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا ابن كيغَلغ الروم من طرسوس، فأصاب من الروم أربعة آلاف رأس سبي ودوابّ ومتاعاً، ودخل بطريق من بطارقة الروم في الأمان وأسلم.

وفيها غزا ابن كيغَلغ فبلغ شكند، وافتتح الله عليه، وسار إلى الليس، فغنموا نحواً من خمسين ألف رأس، وقتلوا مقتلة عظيمة من الروم، وانصرفوا سالمين.

وكانت أندرونقس البطريق المكثفي بالله يطلب منه الأمان، وكان على حرب أهل الثغور من قتل ملك الروم، فأعطاه المكثفي ما طلب، فخرج معه مائتا أسير من المسلمين كانوا في حصنه، وكان ملك الروم قد أرسل للقبض عليه، فأعطى المسلمين سلاحاً وخرجوا معه، فقبضوا على الذي أرسله ملك الروم ليقبض عليه ليلاً، فقتلوا ممن معه خلقاً كثيراً، وغنموا ما في عسكرهم، فاجتمعت الروم على أندرونقس ليحاربوه، فسار إليهم جمع من المسلمين ليخلصوه ومن معه من أسرى المسلمين، فبلغوا قونية، فبلغ الخبر إلى الروم، فانصرفوا عنه، وسار جماعة من ذلك العسكر إلى أندرونقس، وهو بحصنه، فخرج معه أهله وماله إليهم، وسار معهم إلى بغداد، وأخرب المسلمون قونية، فأرسل ملك الروم إلى الخليفة المكثفي فطلب الفداء. (٥٥٣/٧)

وفيها ظهر بالشام رجل يدعي أنّه السّنياني، فأخذ وحمل إلى بغداد فقتل إنّه مؤسّوس.

وفيها كانت وقعة بين الحسين بن حمدان وبين أعراب من بني

كلب، وطى، واليمن، وأسد، وغيرهم. فقال إسماعيل: لله درك يا يحيى، فقد شفيت صدري! وأمر له بصلة.

ولما ولي بعد أخيه كان يكتب أصحابه وأصدقائه بما كان يكتبهم أولاً، فقبل له في ذلك، فقال: يجب علينا، إذا زادنا الله رفعة، أن لا ننقص إخواننا (٧/٨) بل نزيدهم رفعةً، وعلوً، وجاهاً، ليزيدوا لنا إخلاصاً وشكراً.

ولما ولي بعده ابنه أبو نصر أحمد، واستوثق أمره، أراد الخروج إلى الري، فأشار عليه إبراهيم بن زيدويه بالخروج إلى سمرقند والقبض على عمه إسحاق بن أحمد لئلا يخرج عليه ويشغله، ففعل ذلك، واستدعى عمه إلى بخارى، فحضر فاعتقله بها، ثم عبر إلى خراسان، فلما ورد نيسابور هرب بارس الكبير من جرجان إلى بغداد، خوفاً منه.

وكان سبب خوفه أن الأمير إسماعيل كان قد استعمل ابنه أحمد على جرجان لما أخذها من محمد بن زيد، ثم عزله عنها، واستعمل عليها بارس الكبير، على ما ذكرناه، فاجتمع عند بارس أموال جمعة من خراج الري، وطبرستان، وجرجان، فبلغت ثمانين قرأً، فحملها إلى إسماعيل، فلما سارت عنه بلغه خبر موت إسماعيل، فردّها وأخذها، فلما سار إليه أحمد خافه، وكتب إلى المكفي يستأذنه في المصير إليه، فأذن له في ذلك، فسار إليه في أربعة آلاف فارس، فأرسل أحمد خلفه عسكرياً، فلم يدركه، واجتاز الري، فتحصن بها نائب أحمد بن إسماعيل، فسار إلى بغداد، فوصلها وقد مات المكفي، وولي المقتدر بعده، فأعجبه المقتدر.

وكان وصوله بعد حادثة ابن المعتز، فسبّره المقتدر في عسكره إلى بني حمدان وولاه ديار ربيعة، فخافه أصحاب الخليفة أن يتقدم عليهم، فوضعوا عليه (٨/٨) غلاماً له فسمّاه فمات، واستولى غلامه على ماله، وتزوج امرأته، وكان موته بالموصل.

ذكر وفاة المكفي

في هذه السنة في ذي القعدة توفي أمير المؤمنين المكفي بالله أبو محمد علي ابن المعتض بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل، وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل اثنتين وثلاثين سنة، وكان ربيعاً جميلاً، رقيق البشرة، حسن الشعر، وافر اللحية، وكنيته أبو محمد، وأمّه أم ولد تركية، اسمها جيجك؛ وطال عليه مرضه عدة شهور، ولما مات دفن بدار محمد بن طاهر، رحمه الله.

ذكر خلافة المقتدر بالله

وكان السبب في ولاية المقتدر بالله الخلافة، وهو أبو الفضل

وفيهما حاصر أعراب طي وصيف بن صوارتكين بفيذ، وقد سبّره المكفي أميراً على الموسم، فحضره ثلاثة أيام، ثم خرج فواقهم، فقتل منهم قتلى، ثم انتهزت الأعراب ورحل وصيف بمن معه؛ وحج بالناس هذه السنة الفضل بن عبد الله الهاشمي.

وفيهما توفي صالح بن محمد الحافظ الملقب بجزرة البغدادي، وأبو عبيد الله محمد بن نصر المروزي، الفقيه الشافعي، وكان موته بسمرقند، وله تصانيف كثيرة.

وفيهما قتل محمد بن إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن راهويته بطريق مكة؛ قتله القرامطة حين أخذوا الحاج. (٥/٨)

سنة خمس وتسعين ومائتين

ذكر وفاة إسماعيل بن أحمد الساماني وولاية ابنه أحمد

في هذه السنة، منتصف صفر، توفي إسماعيل بن أحمد أمير خراسان وما وراء النهر، ببخارى، وكان يلقب بعد موته بالماضي، وولي بعده ابنه أبو نصر أحمد، وأرسل إليه المكفي عهده بالولاية، وعقد لواءه بيده.

وكان إسماعيل عاقلاً عادلاً، حسن السيرة في رعيته، حليماً؛ حكى عنه أنه كان لولده أحمد مؤدّب يؤدّبه، فمر به الأمير إسماعيل يوماً، والمؤدّب لا يعلم به، فسمعه وهو يسبّ ابنه، ويقول له: لا بارك الله فيك، ولا فيمن ولدك! فدخل إليه، وقال له: يا هذا، نحن لم نذنب ذنباً لتسبنا، فهل ترى أن تُغفينا من سيك، وتخصّ المذنب بشتمك وذمك؟ فارتاع المؤدّب، فخرج إسماعيل عنه، وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه. (٦/٨)

وقيل: جرى بين يديه ذكر الأنساب والأحساب فقال لبعض جلسائه: كن عصامياً ولا تكن عظامياً؛ فلم يفهم مراده، فذكر له معنى ذلك.

وسأل يوماً يحيى بن زكريا النيسابوري فقال له: ما السبب في أن آل معاذ لما زالت دولتهم بقيت عليهم نعمتهم بخراسان، مع سوء سيرتهم وظلمهم، وأن آل طاهر لما زالت دولتهم عن خراسان زالت معها نعمتهم مع عدلهم، وحسن سيرتهم، ونظرمهم لرعيّتهم؟ قال له يحيى: السبب في ذلك أن آل معاذ لما تغرّ أمرهم كان الذي ولي البلاد بعدهم آل طاهر في عدلهم، وإنصافهم، واستعفافهم عن أموال الناس، ورغبتهم في اصطناع أهل البيوتات، فقدّموا آل معاذ وأكرمهم، وأن آل طاهر لما زالت عنهم كان سلطان بلادهم آل الصفار في ظلمهم، وغشهم، ومعاداتهم لأهل البيوتات ومناصبهم لأهل الشرف والنعم، فأتوا عليهم وأزالوا نعمتهم.

ولمّا بويغ المقتدر كان في بيت المال، حين بويغ، خمسة عشر ألف ألف دينار، فأطلق يد الوزير في بيت المال فأخرج منه حق البيعة.

وكان مولد المقتدر ثامن رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وأمه أم (١١/٨) ولد يقال لها شغب، فلمّا بويغ استصغره الوزير، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، وكثر كلام الناس فيه، فعزم على خلعه، وتقليد الخلافة أبا عبد الله محمد بن المعتمد على الله، وكان حسن السيرة، جميل الوجه والفعل، فرأسله في ذلك، واستقرّ الحال، وانتظر الوزير قدوم يارس حاجب إسماعيل صاحب خراسان، وكان قد أذن له في القدوم، كما ذكرناه، وأراد الوزير [أن] يستعين به على ذلك، ويتقوى به على غلمان المعتمد، فتأخّر يارس.

واتفق أنّه وقع بين أبي عبد الله بن المعتمد وبين ابن عمرويه، صاحب الشرطة، منازعة في ضيعة مشتركة بينهما، فأغلظ له ابن عمرويه، فغضب ابن المعتمد غضباً شديداً، وأغمي عليه وفلج في المجلس، فحمل إلى ثيئه في محفة، فمات في اليوم الثاني، فأراد الوزير البيعة لأبي الحسين بن المتوكل، فمات أيضاً بعد خمسة أيام، وتمّ أمر المقتدر.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كانت وقعة بين نجح بن جاح وبين الأجناد بمنى، ثاني عشر ذي الحجة، فقتل منهم جماعة، لأنهم طلبوا جائزة بيعة المقتدر (١٢/٨) بالله، وهرب الناس إلى بستان ابن عامر، وأصاب الحجاج في عودهم عطش عظيم فمات منهم جماعة. وحكي أنّ أحدهم كان يبول في كفّه ثم يشربه.

وفيها خرج عبد الله بن إبراهيم المسمعي عن أصبهان إلى قرية من قراها مخالفاً للخليفة، واجتمع إليه نحو من عشرة آلاف من الأكراد وغيرهم، فأمر بدر الحمّامي بالمسير إليه، فسار في خمسة آلاف من الجند، وأرسل إليه منصور بن عبد الله بن منصور الكاتب يخوّفه عاقبة الخلاف، فسار إليه وأدّى إليه الرسالة، فرجع إلى الطاعة، وسار إلى بغداد، واستخلف على عمله بأصبهان، فرضي عنه المكنتي بالله.

وفيها كانت وقعة للحسين بن موسى على أعراب طيّ، الذين كانوا حصروا وصيفاً، على غرة منهم، فقتل فيهم كثيراً، وأسر.

وفيها أوقع الحسن بن أحمد بالأكراد الذين تغلبوا على نواحي الموصل، فظفر بهم، واستباحهم، ونهب أموالهم، وهرب رئيسهم إلى رؤوس الجبال، فلم يُدرَك. (١٣/٨)

جعفر بن المعتمد، أنّ المكنتي لمّا نقل في مرضه أفكر الوزير حينئذ، وهو العباس بن (٩/٨) الحسن، فيمن يصلح للخلافة، وكان عادته أن يسايره، إذا ركب إلى دار الخلافة، واحذّ من هؤلاء الأربعة الذين يتولّون الدواوين، وهم: أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح، وأبو الحسن محمد بن عبدان، وأبو الحسن عليّ بن محمد الفرات وأبو الحسن عليّ بن عيسى، فاستشار الوزير يوماً محمد بن داود بن الجراح في ذلك، فأشار بعيد الله بن المعتمد، ووصفه بالعقل والأدب والرأي، واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات، فقال: هذا شيء ما جرت به عادتي أشير فيه، وإنّما أشاور في العَمال لا في الخلفاء؛ فغضب الوزير وقال: هذه مقاطعة باردة، وليس يخفى عليك الصحيح.

والحّ عليه، فقال: إن كان رأي الوزير قد استقرّ على أحد يعينه فليفعل؛ فلمع أنّه عني ابن المعتمد لاستتار خبره، فقال الوزير: لا أفتع إلا أن تمحضني النصيحة. فقال ابن الفرات: فليقلّ الله الوزير، ولا ينصب إلا من قد عرفه، وأطلع على جميع أحواله، ولا ينصب بخيلاً فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم، ولا طماعاً فيشره في أموالهم، فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملأهم، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والأثام، ويرجو الثواب فيما يفعله، ولا يولّ من عرف نعمة هذا، وبستان هذا، وضيفة هذا، وفرس هذا، ومن قد لقي الناس لقوه، وعاملهم وعاملوه، ويتخيل، ويحسب حساب نعم الناس، وعرف وجوه دخلهم وخرجهم. فقال الوزير: صدقت ونصحت، فيمن تشير؟ (١٠/٨)

قال: أصلح الموجود جعفر بن المعتمد؛ قال: ويحك، هو صبي؛ قال ابن الفرات: إلا أنّه ابن المعتمد، ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه، غير محتاج إلينا.

ثم إنّ الوزير استشار عليّ بن عيسى، فلم يسمّ أحداً، وقال: لكن ينبغي أن يتقي الله، وينظر من يصلح للدين والدنيا؛ فمالت نفس الوزير إلى ما أشار به ابن الفرات، وانضاف إلى ذلك وصية المكنتي، فإنّه أوصى، لما اشتدّ مرضه، بتقليد أخيه جعفر الخلافة، فلمّا مات المكنتي نصب الوزير جعفرًا للخلافة، وعيّنه لها، وأرسل صافياً الحرّميّ إليه ليحذّره من دور آل طاهر بالجانب الغربي وكان يسكنها، فلما حطّه في الحرّاقة وحدره، وصارت الحرّاقة مقابل دار الوزير، صاح غلمان الوزير بالملاح ليدخل إلى دار الوزير، فظن صافي الحرّميّ أنّ الوزير يريد القبض على جعفر، وينصب في الخلافة غيره، فمنع الملاح من ذلك، وسار إلى دار الخلافة، وأخذ له صافي البيعة على الخدم، وحاشية الدار، ولقب نفسه المقتدر بالله، ولحق الوزير به وجماعة الكتاب فبايعوه، ثم جهّزوا المكنتي ودفنوه بدار محمد بن طاهر.

الدواوين، وكُتبت الكتب إلى البلاد من أمير المؤمنين المرتضى بالله أبي العباس عبد الله بن المعتز بالله، ووجه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى دار ابن طاهر التي كان مقيماً فيها، لينتقل هو إلى دار الخلافة، فأجابه بالسمع والطاعة، وسأل الإمهال إلى الليل.

وعاد الحسين بن حمدان بكرة غدٍ إلى دار الخلافة، فقاتله الخدم والغلمان والرجال من وراء الستور عامة النهار، فانصرف عنهم آخر النهار، فلما جئته الليل سار عن بغداد بأهله وماله وكل ما له إلى الموصل، لا يدرى لم فعل ذلك؛ ولم يكن بقي مع المقتدر من القواد غير مؤنس الخادم، ومؤنس الخازن، وغريب الخال وحاشية الدار.

فما هم المقتدر بالانتقال عن الدار قال بعضهم لبعض: لا نسلم الخلافة من غير أن نبلي عُذراً، ونجته في دفع ما أصابنا؛ فأجمع رأيهم على أن يصعدوا في الماء إلى الدار التي فيها ابن المعتز بالحرم يقتلونه، فأخرج لهم (١٦/٨) المقتدر السلاح والزديات وغير ذلك، وركبوا السُتريّات، وأصعدوا في الماء، فلما رأهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم، واضطربوا، وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم، وقال بعضهم لبعض: إن الحسين بن حمدان عرف ما يريد [أن] يجري فهرب من الليل، وهذه مواطاة بينه وبين المقتدر، وهذا كان سبب هربه.

ولما رأى ابن المعتز ذلك ركب معه وزيره محمد بن داود وهربا، وغلّام فل ينادي بين يديه: يا معشر العامة، ادعوا لخليفتمكم السنّي البريهاري، وإنما نسبت هذه النسبة لأن الحسين بن القاسم بن عبيد الله البريهاري كان مقدّم الحنابلة والسنة من العامة، ولهم فيه اعتقاد عظيم، فأراد استمالتهم بهذا القول.

ثم إن ابن المعتز ومن معه ساروا نحو الصحراء، ظناً منهم أن من بايعه من الجند يتبعونه، فلم يلحقه منهم أحد، فكانوا عزموا أن يسيروا إلى سُر من رأى بمن يتبعهم من الجند، فيشتد سلطانهم، فلما راوا أنهم لم يأتهم أحد رجعوا عن ذلك الرأي، واختفى محمد بن داود في داره ونزل ابن المعتز عن دابته، ومعه غلامه يمين، وانحدر إلى دار أبي عبد الله بن الجصاص، فاستجار به، واستتر أكثر من بايع ابن المعتز، ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد، وثار العيارون والسُّفّل يهبون الدور.

وكان ابن عمرويه، صاحب الشرطة، ممن بايع ابن المعتز، فلما هرب جمع ابن عمرويه أصحابه، ونادى بشعار المقتدر، يدّلس بذلك، (١٧/٨) فناداه العامة: يا مرثي، يا كذاب! وقاتلوه، فهرب واستتر، وتفرّق أصحابه، فهجاه يحيى بن علي بأبيات منها:

بأيامه فلم يكن عند الأئمة — سوك إلا التخيير والتخييط
رافضيون بأيامه أنصب الأمة هذا للعمري التخلييط

وفيهما فتح المظفر بن جاج بعض ما كان غلب عليه الخارجي باليمن، وأخذ رئيساً من رؤساء أصحابه، ويُعرف بالحكيمة.

وفيهما تمّ الفداء بين المسلمين والروم في ذي القعدة، وكان عدة من فودي به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس؛ وحجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

وفيهما توفي أبو بكر محمد بن إسماعيل بن مهران الجرجانيّ الإسماعيليّ، الفقيه الشافعيّ المحدث؛ ومحمد بن أحمد بن نصر أبو جعفر الترمذيّ، الفقيه الشافعيّ، توفي ببغداد؛ وأبو الحسين أحمد بن محمد الثوريّ شيخ الصوفيّة؛ وتوفي الحسين بن عبد الله بن أحمد أبو علي الخزقيّ، الفقيه الحنبليّ، يوم الفطر (الخزقيّ بالخاء المعجمة والقاف)؛ وعبد الله ابن أبي دارة. (١٤/٨)

سنة ست وتسعين ومائتين

ذكر خلع المقتدر وولاية ابن المعتز

وفي هذه السنة اجتمع القواد، والقضاة، والكتّاب، مع الوزير العباس بن الحسن، على خلع المقتدر، والبيعة لابن المعتز، وأرسلوا إلى ابن المعتز في ذلك، فأجابهم على أن لا يكون فيه سفك دم، ولا حرب، فأخبروه باجتماعهم عليه، وأنهم ليس لهم منازع ولا محارب.

وكان الرأس في ذلك العباس بن الحسن، ومحمد بن داود بن الجراح، وأبو المشي أحمد بن يعقوب القاضي؛ ومن القواد الحسين بن حمدان، وبدر الأعجمي، ووصيف بن صوارتكين.

ثم إن الوزير رأى أمره صالحاً مع المقتدر، وأنه على ما يحب، فبدا له في ذلك، فوثب به الآخرون فقتلوه، وكان الذي تولى قتله منهم الحسين بن حمدان، وبدر الأعجمي، ووصيف، ولحقوه، وهو سائر إلى بستان له، فقتلوه في طريقه، وقتلوا معه فائداً المعتضدي، وذلك في العشرين من ربيع الأول، وخلع المقتدر من الغد، وبايع الناس لابن المعتز.

ورفض الحسين بن حمدان إلى الحلبة ظناً منه أن المقتدر يلعب هناك (١٥/٨) بالكرة، فيقتله، فلم يصادفه، لأنه كان هناك، فبلغه قتل الوزير وفاتك، فركض دابته فدخل الدار، وغلّقت الأبواب، فندم الحسين حيث لم يبدأ بالمقتدر.

وأحضروا ابن المعتز وبايعوه بالخلافة، وكان الذي يتولى أخذ البيعة له محمد بن سعيد الأزرق، وحضر الناس، والقواد، وأصحاب الدواوين، سوى أبي الحسن بن الفرات، وخوَصّ المقتدر، فإنهم لم يحضروا، ولُقّب ابن المعتز المرتضى بالله، واستوزر محمد بن داود بن الجراح، وقُدّ علي بن عيسى

نَمَ وَلَّى مِنْ رَعَفَةٍ وَمَحَامُو . ومن خلفهم لهم تضربُ
وقلّد المقتدر، تلك الساعة، الشرطه مؤنساً الخازن، وهو غير
مونس الخادم، وخرج بالعسكر، وقبض على وصيف بن صوارتكين
وغيره، فقتلهم، وقبض على القاضي أبي عمر، وعلي بن عيسى،
والقاضي محمد ابن خلف وكيع، ثم أطلقهم، وقبض على القاضي
المثنى أحمد بن يعقوب، فقتله لأنه قيل له: بايع المقتدر، فقال: لا
أبايع صبيّاً، فذُبِحَ.

ذكر حادثة ينبغي أن يحاط من مثلها ويفعل فيها مثل فعل صاحبه

كان سليمان بن الحسن بن مغلّد متصلاً بابن الفرات، وبينهما
مودّة وصداقة، فوجد الوزير كتب البيعة لابن المعتز بخط سليمان
لأتصال كان لمحمد بن داود بن الجراح وقرابة بينهما، فلم يُظهر
عليها المقتدر، وأخفاها عنه، وأحسن ابن الفرات إلى سليمان،
وقلّد الأعمال، فسعى سليمان بابن (٢٠/٨) الفرات إلى المقتدر،
وكتب بخطّه مطالعة تتضمن ذكر أملاك الوزير وضياعه ومستغلاته
وما يتعلق بأسبابه، وأخذ الرقعة ليوصلها إلى المقتدر، فلم يتيها له
ذلك.

وحضر دار الوزير وهي معه، وسقطت من كمّه، فظفر بها
بعض الكتاب فأوصلها إلى الوزير، فلما قرأها قبض على سليمان،
وجعله في زورق، وأحضره إلى واسط، ووكّل به هناك، وصادّره،
ثم أراد العفو عنه، فكتب إليه: نظرتُ، أعزّك الله، في حقك عليّ
وجرمك إليّ، فرأيتُ الحق موفياً على الجرم، وتذكّرتُ من سالف
خدمتك ما عطفني عليك، وثناني إليك وأعادني لك إلى أفضل ما
عهدت، وأجمل ما ألفت؛ وأطلق له عشرة آلاف درهم، وعفا عنه،
واستعمله وأكرمه.

ذكر ولاية أبي مضر إفريقية وهره إلى العراق وما كان من أمره
في هذه السنة، مستهلّ شهر رمضان، ولّي أبو مضر زيادة الله
بن أبي العباس بن عبد الله إفريقية، بعد قتل أبيه، فعكف على
اللدات والشهوات (٢١/٨) وملامزة الندماء والمضحكين، وأهمّل
أمور المملكة وأحوال الرعيّة، وأرسل كتاباً يوم ولّي إلى عمّه
الأحول على لسان أبيه يستعجله في القدوم عليه، ويحثّه على
السرعة، فسار مجّداً ولم يعلم بقتل أبي العباس، فلماً وصل قتلّه،
وقتل من قدر عليه من أعمامه وإخوته.

واشدّت شوكة أبي عبد الله الشيعي في أيامه، وقوي أمره،
وكان الأحول قبائله، فلماً قُتل صفت له البلاد، ودانت له الأمصار
والعباد، فسير إليه زيادة الله جيشاً مع إبراهيم بن أبي الأغلب، وهو
من بني عمّه، بلغت عدّتهم أربعين ألفاً سوى من انضاف إليه،
فهزمه أبو عبد الله الشيعي على ما ذكرناه آنفاً؛ فلما اتصلت بزيادة
الله خبر الهزيمة علم أنه لا مقام له لأن هذا الجمع هو آخر ما
انتهت قدرته إليه، فجمع ما عزّ عليه من أهل ومال وغير ذلك،
وعزم على الهرب إلى بلاد الشرق، وأظهر للناس أنه قد جاءه خبرُ

وأرسل المقتدر إلى أبي الحسن بن الفرات، وكان مختفياً،
فأحضره، واستوزره، وخلع عليه.

وكان في هذه الحادثة عجائب منها: أنّ الناس كلهم أجمعوا
على خلع (١٨/٨) المقتدر والبيعة لابن المعتز، فلم يتم ذلك، بل
كان على العكس من إرادتهم، وكان أمر الله مفعولاً.

ومنها أن ابن حمدان، على شدّة تشيّعه وميله إلى علي، عليه
السلام، وأهل بيته، يسعى في البيعة لابن المعتز على انحرافه عن
علي وغلّوه في النصب إلى غير ذلك.

ثم إنّ خادماً لابن الجصاص، يُعرف بسوسن، أخبر صافياً
الحرمي بأنّ ابن المعتز عند مولاه، ومعه جماعة، فكُبِسَتْ دار ابن
الجصاص، وأخذ ابن المعتز منها، وحُبِسَ إلى الليل، وغُصِرَت
خصيته حتى مات، ولَفَّ في كساء، وسُكِّمَ إلى أهله.

وصودر ابن الجصاص على مال كثير، وأخذ محمد بن داود
وزير ابن المعتز، وكان مستتراً، فقتل، ونُفِي علي بن عيسى إلى
واسط، فأرسل إلى الوزير ابن الفرات يطلب منه أن يأذن له في
المسير إلى مكة، فأذن له في ذلك فسار إليها على طريق البصرة
وأقام بها.

وصودر القاضي أبو عمر على مائة ألف دينار، وسيرت
العساكر من بغداد في طلب الحسين بن حمدان فتبعوه إلى
الموصل، ثم إلى بلد فلم يظفروا به، فعادوا إلى بغداد فكتب الوزير
إلى أخيه أبي الهيجاء بن حمدان، وهو الأمير على الموصل، بإمره
بطلبه، فسار إليه في بلد، ففارقها الحسين إلى سينجار، (١٩/٨)
وأخّره في أثره، فدخل البريّة فتبعه أخوه عشرة أيام، فأدركه،
فاقتتلوا، فظفر أبو الهيجاء، وأسر بعض أصحابه، وأخذ منه عشرة
آلاف دينار، وعاد عنه إلى الموصل، ثم انحدر إلى بغداد، فلما كان
فوق تكريت أدركه أخوه الحسين، فيّته، فقتل منهم قتلى، وانحدر
أبو الهيجاء إلى بغداد.

وأرسل الحسين إلى ابن الفرات، وزير المقتدر، يسأله الرضى
عنه، فشفع فيه إلى المقتدر بالله ليرضى عنه، وعن إبراهيم بن
كَيْغَلْغ، وابن عمرويه صاحب الشرطه وغيرهم، فرضي عنهم،

هزيمة أبي عبد الله الشيعي، وأمر بإخراج رجال من الجبس، فقتلهم، وأعلم خاصته حقيقة الحال، وأمرهم بالخروج معه.

فأشار عليه بعض أهل دولته بأن لا يفعل ولا يترك ملكه. قال لهم: إن أبا عبد الله لا يجسر عليه، فشمته، وردّ عليه رأيه، وقال: أحب الأشياء إليك أن يأخذني بيدي. وانصرف كل واحد من خاصته وأهله يتجهّز للمسير معه، وأخذ ما أمكنه حمله.

وكانت دولة آل الأغلب بإفريقية قد طالّت مدتها، وكثرت عبيدها (٢٢/٨) وقوي سلطانها، وسار عن إفريقية إلى مصر في سنة ست وتسعين ومائتين، واجتمع معه خلق عظيم، فلم يزل سائراً حتى وصل طرابلس، فدخلها، فأقام بها تسعة عشر يوماً، ورأى بها أبا العباس أخا أبي عبد الله الشيعي، وكان محبوباً بالقيروان، حبسه زيادة الله، فهرب إلى طرابلس، فلما رآه أحضره وقرره: هل هو أخو أبي عبد الله؟ فأنكر وقال: أنا رجل تاجر قيل عني إنني أخو أبي عبد الله فحبستني. فقال له زيادة الله: أنا أطلقك، فإن كنت صادقاً في أنك تاجر فلا نائم فيك، وإن كنت كاذباً، وأنت أخو أبي عبد الله، فليكن للصنعة عندك موضع، وتحفظنا فيمن خلفناه. وأطلقه.

وكان من كبار أهله وأصحابه إبراهيم بن أبي الأغلب، فأراد قتله وقتل رجل آخر كانا قد عرضا أنفسهما على ولاية القيروان، فعلما ذلك، وهربا إلى مصر، وقدمّا على العامل بها وهو عيسى التوشري، فتحدثا معه، وسعيا بزيادة الله، وقالوا له: إنه يُمنّي نفسه بولاية مصر، فوقع ذلك في نفسه، وأراد منعه عن دخول مصر إلا بأمر الخليفة من بغداد، فوصل زيادة الله ليلاً، وعبر الجسر إلى الجزيرة قهراً، فلما رأى ذلك التوشري لم يمكنه منعه، فأنزله بدار ابن الجصاص، ونزل أصحابه في مواضع كثيرة، فأقام ثمانية أيام، ورحل يريد بغداد، فهرب عنه بعض أصحابه، وفيهم غلام له، وأخذ منه مائة (٢٣/٨) ألف دينار، فأقام عند التوشري، فأرسل التوشري إلى الخليفة، وهو المقتدر بالله، يعرفه حال زيادة الله وحال من تخلف عنه بمصر، فأمره برد من تخلف عنه إليه مع المال، ففعل.

وسار زيادة الله حتى بلغ الرقة وكتب إلى الوزير، وهو ابن الفرات، يسأله في الإذن له لدخول بغداد، فأمره بالتوقف، فبقي على ذلك سنة، فتفرق عنه أصحابه، وهو مع هذا مُدمن الخمر، واستماع الملاهي، وسُمّي به إلى المقتدر، وقيل له يُردّ إلى المغرب يطلب بثاره، فكتب إليه بذلك وكتب إلى التوشري بإنجاده بالرجال والعدد والأموال من مصر ليعود إلى المغرب، فعاد إلى مصر، فأمره التوشري بالخروج إلى ذات الحمّام ليكون هناك إلى أن يجتمع إليه ما يحتاج إليه من الرجال والمال، ففعل، ومطله، فطال مقامه، وتتابعت به الأمراض، وقيل بل سمّه بعض غلمانه، فسقط

شعر لحيته، فعاد إلى مصر، وقصد البيت المقدس، فتوفي بالرملة ودُفن بها.

فسبحان الحي الذي لا يموت، ولا يزول ملكه، ولم يبق بالمغرب من بني الأغلب أحد، وكانت مدة ملكهم مائة سنة واثنتي عشرة سنة، وكانوا يقولون: إننا نخرج إلى مصر والشام، ونربط خيلنا في زيتون فلسطين؛ فكان زيادة الله هو الخارج إلى فلسطين على هذه الحال لا على ما ظنّوه. (٢٤/٨)

ذكر ابتداء الدولة العلوية بإفريقية

هذه دولة اتسعت أكتاف مملكتها، وطالت مدتها، فإنها ملكت إفريقية هذه السنة، وانقرضت دولتهم بمصر سنة سبع وستين وخمسمائة، فنحتاج [أن] نستقصي ذكرها فنقول:

أول من ولي منهم أبو محمد عبيد الله، فقبل هو محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، ومن ينسب هذا النسب يجعله عبد الله بن ميمون القذّاح الذي يُنسب إليه القذاحية، وقيل هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم.

وقد اختلف العلماء في صحة نسبه، فقال هو وأصحابه القائلون بإمامته: إن نسبه صحيح على ما ذكرناه، ولم يرتابوا فيه، وذهب كثير من العلويين العالمين بالنسب إلى موافقتهم أيضاً، ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضي:

ما مُقامي على الهرّان وعندي يقول صارم، وأنف حمي
البسّ السّئل في بلاد الأعادي، وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي، ومولاه مولا إذا ضامني البعد القصي
(٢٥/٨)

لف عرقي بعرفه سيّدنا س جميعاً: محمد، وعلي
إنّ لّلي بذلك الجوّ عرّ وأوامي بذلك القع ري

ولإنما لم يودعها في بعض ديوانه خوفاً، ولا حجة بما كتبه في المحضر المتضمن القديح في أنسابهم، فإن الخوف يحمل على أكثر من هذا، على أنه قد ورد ما يصدق ما ذكرته، وهو أن القادر بالله لما بلغت هذه الأبيات أحضر القاضي أبا بكر بن الباقلاني، فأرسله إلى الشريف أبي أحمد الموسوي، والد الشريف الرضي، يقول له: قد عرفت منزلتك منّا، وما لا نزال عليه من الاعتداد بك بصدق الموالة منك، وما تقدّم لك في الدولة من مواقف محمودّة، ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه، ويكون ولدك على ما يضادّها، وقد بلغنا أنه قال شعراً، وهو كذا وكذا، فيها لبيت شعري على أي مقام ذلّ أقام، وهو ناظر في النقابة والحج، وهما من

عليهم، فأسلم منهم من هذه الله تعالى؛ فلما قبض ﷺ نجم النفاق، وارتدت العرب، وظنوا أن الصحابة يضعفون بعده، فجاهد أبو بكر، رضي الله عنه، في سبيل الله، فقتل مسيلمة، ورد الردة، وأذل الكفر، ووطأ جزيرة العرب، وغزا فارس والروم، فلما حضرته الوفاة ظنوا أن بوفاته يتقص الإسلام، فاستخلف عمر بن الخطاب، فأذل فارس والروم، وغلب على ممالكها، (٢٨/٨) فسدس عليه المنافقون أبا لؤلؤة فقتله، ظناً منهم أن بقتله ينطفئ نور الإسلام فولي بعده عثمان، فزاد في الفتوح، واتسعت مملكة الإسلام، فلما قُتل وولي بعده أمير المؤمنين علي قام بالأمر أحسن قيام، فلما ينش أعداء الإسلام من استتصاه بالقوة أخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة، وتشكيك ضعفة العقول في دينهم، بأمور قد ضبطها المحذوثون، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه.

فكان أول من فعل ذلك أبو الخطاب محمد بن أبي زينب مولى بني أسد، وأبو شاعر ميمون بن ديصان، صاحب كتاب الميزان في نصره الزندقة، وغيرهما، فآلقوا إلى من وثقوا به أن لكل شيء من العبادات باطلاً، وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه، ومن عرف الأئمة والأبواب، صلاة، ولا زكاة، ولا غير ذلك، ولا حرم عليهم شيئاً، وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات، وإنما هذه قيود للعامة ساقطة عن الخاصة.

وكانوا يظهرون التشيع لآل النبي ﷺ ليستروا أمرهم، ويستميلوا العامة، وتفرق أصحابهم في البلاد، وأظهروا الزهد والعبادة، ينزّون الناس بذلك وهم على خلافه، فقتل أبو الخطاب وجماعة من أصحابه بالكوفة، وكان أصحابه قالوا له: إننا نخاف الجند؛ فقال لهم: إن (٢٩/٨) أسلحتهم لاتعمل فيكم؛ فلما ابتدؤوا في ضرب أعناقهم قال له أصحابه: ألم تقل إن سيوفهم لا تعمل فينا؟ فقال: إذا كان قد أراد الله فما حيلتي؟

وتفرقت هذه الطائفة في البلاد وتعلموا الشبهة، والتارنجيات، والزرقي، والنجوم، والكيمياء، فهم يحتالون على كل قوم بما يتفق عليهم وعلى العامة بإظهار الزهد.

ونشأ لابن ديصان ابن يقال له عبد الله القداح، علمه الحيل، وأطلعه على أسرار هذه التحلة، فحذق وتقدم.

وكان بنواحي كرخ وأصبهان رجل يُعرف بمحمد بن الحسين ويلقب بدندان يتولى تلك المواضع، وله نيابة عظيمة، وكان يخض العرب، ويجمع مساويعهم، فسار إليه القداح، وعرفه من ذلك ما زاد به محله، وأشار عليه أن لا يظهر ما في نفسه، إنما يكتمه، ويُظهر التشيع والطعن على الصحابة، فإن الطعن فيهم طعن في الشريعة، فإن بطريقهم وصلت إلى من بعدهم. فاستحسن قوله وأعطاه مالا عظيماً ينقله على الدعاة إلى هذا المذهب، فسبّره إلى كور الأهواز،

أشرف الأعمال، ولو كان بمصر لكان كيعض الرعايا؛ وأطال القول، فحلف أبو أحمد أنه ما علم بذلك.

وأحضر ولده وقال له في المعنى فأنكر الشعر، فقال له: اكتب خطك إلى الخليفة بالاعتذار، وأذكر فيه أن نسب المصري مدخول، وأنه مدع في نسبه؛ فقال: لا أفعل! فقال أبوه: تكذبني في قولتي؟ فقال: ما أكذبك، (٣٠/٨) ولكني أخاف من الديلم، وأخاف من المصري ومن الدعاة في البلاد؛ فقال أبوه: أخاف ممن هو بعيد عنك، وترافقه، وتسخط من هو قريب، وأنت بمرأى منه ومسمع، وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك؟

وتردد القول بينهما، ولم يكتب الرضي خطه، فحرد عليه أبوه وغضب وحلف أنه لا يقيم معه في بلد، فآل الأمر إلى أن حلف الرضي أنه ما قال هذا الشعر واندرجت القصة على هذا.

ففي امتناع الرضي من الاعتذار، ومن أن يكتب طعناً في نسبهم مع الخوف، دليل قوي على صحة نسبهم.

وسألت أنا جماعة من أعيان العلويين في نسبه، فلم يرتابوا في صحته، وذهب غيرهم إلى أن نسبه مدخول ليس بصحيح، وعدا طائفة منهم إلى أن جعلوا نسبه يهودياً، وقد كتب في الأيام القادرية محضر يتضمن القدر في نسبه ونسب أولاده، وكتب فيه جماعة من العلويين وغيرهم أن نسبه إلى أمير المؤمنين علي غير صحيح.

فمن كتب فيه من العلويين المرتضي، وأخوه الرضي، وابن البطحاوي، وابن الأزرق العلويان، ومن غيرهم ابن الأكفاني وابن الخرزني، وأبو العباس الأبيوردي، وأبو حامد، والكشغلي، والقدوري، والصميمي، (٣١/٨) وأبو الفضل النسوي، وأبو جعفر النسفي، وأبو عبد الله بن النعمان، فقيه الشيعة.

وزعم القائلون بصحة نسبه أن العلماء ممن كتب في المحضر إنما كتبوا خوفاً وتقيةً، ومن لا علم عنده بالأنساب فلا احتجاج بقوله.

وزعم الأمير عبد العزيز، صاحب تاريخ إفريقية والمغرب، أن نسبه مُعَرِّق في اليهودية، ونقل فيه عن جماعة من العلماء، وقد استقصى ذكر ابتداء دولتهم، وبالف.

وأنا أذكر معنى ما قاله مع البراءة من عهدة طعنه في نسبه، وما عده فقد أحسن فيما ذكر، قال:

لما بعث الله تعالى سيد الأولين والآخرين محمداً ﷺ عظم ذلك على اليهود والنصارى والروم والفرس وقريش، وسائر العرب، لأنه سفه أحلامهم، وعاب أديانهم وآلهتهم، وفارق جمعهم، فاجتمعوا يداً واحدة عليه، فكفاه الله كيدهم، ونصره

حُجَّاج كُتَّامَةٌ فَأَرَشَدَ إِلَيْهِمْ، فَاجْتَمَعَ بِهِمْ، وَلَمْ يَعْرِفْهُمْ قَصْدَهُ، وَجَلَسَ قَرِيباً مِنْهُمْ، فَسَمِعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بِفَضَائِلِ أَهْلِ الْبَيْتِ، فَاظْهَرَ اسْتِحْسَانَ ذَلِكَ، وَحَدَّثَهُمْ بِمَا لَمْ يَعْلَمُوهُ، (٣٢/٨) فَلَمَّا أَرَادَ الْقِيَامَ سَأَلُوهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ فِي زيارته وَالِاتِّبَاسُاطِ مَعَهُ، فَآذَنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَسَأَلُوهُ أَيْنَ مَقْصِدُهُ، فَقَالَ: أُرِيدُ مِصْرَ؛ ففَرَحُوا بِصَحْبَتِهِ.

وَكَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكُتَّامِينَ بِمَكَّةَ رَجُلٌ اسْمُهُ خُرَيْثُ الْجُمَيْلِيُّ، وَآخِرُ اسْمِهِ مُوسَى بْنُ مَكَادٍ، فَرَحَلُوا، وَهُوَ لَا يَخْبِرُهُمْ بِغَرَضِهِ، وَأَظْهَرَ لَهُمُ الْعِبَادَةَ وَالزَّهْدَ، فَازْدَادُوا فِيهِ رَغْبَةً، وَخَدَمُوهُ، وَكَانَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَقِبَائِلِهِمْ، وَعَنْ طَاعَتِهِمْ لِسُلْطَانِ إِفْرِيقِيَّةٍ، فَقَالُوا: مَا لَهْ عَلَيْنَا طَاعَةٌ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهُ عَشْرَةُ أَيَّامٍ. قَالَ: أَتَحْتَمِلُونَ السَّلَاحَ؟ قَالُوا: هُوَ شَغْلُنَا؛ وَلَمْ يَزَلْ يَتَعَرَّفُ أَحْوَالَهُمْ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مِصْرَ، فَلَمَّا أَرَادَ وَدَاعِهِمْ قَالُوا لَهُ: أَيُّ شَيْءٍ تَطْلُبُ بِمِصْرَ؟ قَالَ: أَطْلُبُ التَّعْلِيمَ بِهَا، إِذَا كُنْتُ تَقْصِدُ هَذَا بِلَادَنَا أَنْفَعُ لَكَ، وَنَحْنُ أَعْرَفُ بِحَقِّكَ؛ وَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَجَابَهُمْ إِلَى الْمَسِيرِ مَعَهُمْ بَعْدَ الْخَضِرِ وَالسَّوَالِ، فَسَارَ مَعَهُمْ.

فَلَمَّا قَارَبُوا بِلَادَهُمْ لَقِيَهُمْ رِجَالٌ مِنَ الشَّيْعَةِ، فَأَخْبَرُوهُمْ بِخَبْرِهِ، فَرَغِبُوا فِي زَوَالِهِ عَنْهُمْ، وَاقْتَرَعُوا فِيمَنْ يَضِيفُهُ مِنْهُمْ ثُمَّ رَحَلُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَرْضِ كُتَّامَةٍ، مُتَّصِفٌ شَهْرَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ، فَسَأَلَ قَوْمَ مِنْهُمْ أَنْ يَنْزِلَ عَنْهُمْ حَتَّى يَقَاتِلُوا دُونَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: أَيُّ يَكُونُ فَجِ الْأَخْيَارِ؟ فَتَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُونُوا ذَكَرُوهُ لَهُ، فَقَالُوا لَهُ: عِنْدَ بَنِي سُلَيَّانَ فَقَالَ: إِلَيْهِ تَقْصِدُ، ثُمَّ نَأْتِي كُلَّ قَوْمٍ مِنْكُمْ فِي دِيَارِهِمْ، وَنَزُورُهُمْ فِي بَيْتِهِمْ؛ فَأَرْضَى بِذَلِكَ الْجَمِيعَ.

(٣٣/٨) وَسَارَ إِلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ إِنْكَجَانٍ، وَفِيهِ فَجٌّ الْأَخْيَارِ، فَقَالَ: هَذَا فَجُّ الْأَخْيَارِ، وَمَا سُمِّيَ إِلَّا بِكُمْ، وَلَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَارِ: إِنَّ لِلْمَهْدِيِّ هِجْرَةَ نَبِيٍّ عَنِ الْأَوْطَانِ، يَنْصَرُّ فِيهَا الْأَخْيَارُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، قَوْمٌ مُشْتَقُّ اسْمُهُمْ مِنَ الْكِتْمَانِ، فَإِنَّهُمْ كُتَّامَةٌ، وَيَخْرُجُوكُمْ مِنْ هَذَا الْفَجِّ يُسَمَّى فَجِّ الْأَخْيَارِ.

فَتَسَامَعَتِ الْقِبَائِلُ، وَصَنَعَ مِنَ الْحِيلِ، وَالْمَكِيدَاتِ وَالنَّارَنْجِيَّاتِ مَا أَذْهَلَ عَقُولَهُمْ، وَأَتَاهُ الْبَرِيرُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَعَظُمَ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ تَقَاتَلَتْ كُتَّامَةٌ عَلَيْهِ مَعَ قِبَائِلِ الْبَرِيرِ، وَسَلِمَ مِنَ الْقَتْلِ مَرَّاراً، وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ لَا يَذْكُرُ اسْمَ الْمَهْدِيِّ، فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى مَنَازِلَتِهِ وَقَتْلِهِ، فَلَمْ يَتْرَكْهُ الْكُتَّامِيُّونَ يَنْظُرُهُمْ، وَكَانَ اسْمُهُ عَنْدهُمْ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمَشْرِقِيِّ.

وَبَلَغَ خَبْرُهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْأَغْلَبِ أَمِيرِ إِفْرِيقِيَّةٍ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى مَدِينَةِ مَيْلَةَ يَسَّالُهُ عَنْ أَمْرِهِ، فَصَغَّرَهُ وَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ يَلْبِسُ الْخَشَنَ، وَيَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَالْعِبَادَةِ، فَسَكَتَ عَنْهُ.

ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ لِلْكُتَّامِيِّينَ: أَنَا صَاحِبُ الْبَدْرِ الَّذِي ذَكَرَ لَكُمْ أَبُو سَفْيَانَ وَالْحُلَوَانِيُّ؛ فَازْدَادَتْ مَحَبَّتُهُمْ لَهُ، وَتَعْظِيمُهُمْ لِأَمْرِهِ، وَتَفَرَّقَتْ

وَالْبَصْرَةَ، وَالْكُوفَةَ، وَطَالِقَانَ، وَخِرَاسَانَ، وَسَلْمِيَّةَ، مِنْ أَرْضِ حَمَصٍ، وَفَرَّقَهُ فِي دَعَاتِهِ؛ وَتَوَفَّى الْقَذَّاحَ، وَدَنْدَانَ.

(٣٠/٨) وَإِنَّمَا لَقِبَ الْقَذَّاحَ لِأَنَّهُ كَا يَعَالِجُ الْعْيُونَ وَيَقْدَحُهَا. فَلَمَّا تَوَفَّى الْقَذَّاحَ قَامَ بَعْدَهُ ابْنُهُ أَحْمَدُ مَقَامَهُ، وَصَحْبُهُ إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ رَسْتَمُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ حَوْشَبِ بْنِ دَاذَانَ النَّجَّارِ، مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، فَكَانَا يَقْصِدَانِ الْمَشَاهِدَ، وَكَانَ بِالْيَمَنِ رَجُلٌ اسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ كَثِيرُ الْمَالِ وَالْعَشِيرَةِ مِنْ أَهْلِ الْجَنْدِ، يَتَشَبَّعُ، فَجَاءَ إِلَى مَشْهَدِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ يَزُورُهُ، فَرَأَاهُ أَحْمَدُ وَرَسْتَمُ يَبْكِي كَثِيراً، فَلَمَّا خَرَجَ اجْتَمَعَ بِهِ أَحْمَدُ، وَطَمَعَ فِيهِ لَمَّا رَأَى مِنْ بَكَائِهِ، وَآلَقَى إِلَيْهِ مَذْهَبَهُ، فَقَبِلَهُ، وَسَيَّرَ مَعَهُ النَّجَّارَ إِلَى الْيَمَنِ، وَأَمَرَهُ بِالزُّورِ الْعِبَادَةِ وَالزَّهْدِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْمَهْدِيِّ وَأَنَّهُ خَارِجٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِالْيَمَنِ، فَسَارَ النَّجَّارُ إِلَى الْيَمَنِ، وَنَزَلَ بِعَدَنَ، بِقَرَبِ قَوْمٍ مِنَ الشَّيْعَةِ يُعْرِفُونَ بِبَنِي مُوسَى، وَأَخَذَ فِي بَيْعِ مَا مَعَهُ.

وَأَتَاهُ بَنُو مُوسَى، وَقَالُوا لَهُ: فِيمَ جِئْتَ؟ قَالَ: لِلتَّجَارَةِ. قَالُوا: لَسْتُ بِتَّاجِرٍ، وَإِنَّمَا أَنْتَ رَسُولُ الْمَهْدِيِّ، وَقَدْ بَلَّغْنَا خَبْرَكَ، وَنَحْنُ بَنُو مُوسَى، وَلَعَلَّكَ قَدْ سَمِعْتَ بِنَاءَ فَاَنْبَسَطُ، وَلَا تَحْتَشِمُ، فَإِنَّا إِخْوَانُكَ. فَاظْهَرَ أَمْرَهُ، وَقَوَّى عَزَائِمَهُمْ، وَقَرَّبَ أَمْرَ الْمَهْدِيِّ فَسَامَرَهُمْ بِالْاِسْتِكْثَارِ مِنَ الْخَيْلِ وَالسَّلَاحِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ هَذَا أَوَانُ ظَهْوَرِ الْمَهْدِيِّ، وَمِنْ عَنْدهُمْ يَظْهَرُ.

وَاتَّصَلْتُ أَخْبَارَهُ بِالشَّيْعَةِ الَّذِينَ بِالْعِرَاقِ، فَسَارُوا إِلَيْهِ، فَكَثُرَ جَمْعُهُمْ، وَعَظُمَ بِاسْمُهُمْ، وَأَغَارُوا عَلَى مَنْ جَاوَرَهُمْ، وَسَبَّوْا، وَجَبَّوْا الْأَمْوَالَ، وَأَرْسَلَ إِلَى مَنْ بِالْكُوفَةِ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَذَّاحِ هَدَايَا عَظِيمَةً، وَكَانُوا أَنْفَذُوا إِلَى الْمَغْرِبِ رَجُلَيْنِ أَحَدَهُمَا يُعْرِفُ بِالْحُلَوَانِيِّ، وَالْآخَرُ يُعْرِفُ بِأَبِي سَفْيَانَ، (٣١/٨) وَقَالُوا لَهُمَا: إِنَّ الْمَغْرِبَ أَرْضُ بَوْرٍ، فَاذْهَبَا فَاحْرَثَا حَتَّى يَجِيءَ صَاحِبُ الْبَدْرِ؛ فَسَارَا فَتَزَلَّ أَحَدُهُمَا بِأَرْضِ كُتَّامَةٍ بِلَدٍ يُسَمَّى مَرْمَجَنَةَ وَالْآخَرُ يَسُوقُ حِمَارًا، فَمَالَتْ قُلُوبُ أَهْلِ تِلْكَ النُّوَاحِي إِلَيْهِمَا، وَحَمَلُوا إِلَيْهِمَا الْأَمْوَالَ وَالتَّحَفَ، فَأَقَامَا سَنِينَ كَثِيرَةً، وَمَاتَا، وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَرِيبَ الْوَفَاةِ مِنَ الْآخَرِ.

ذَكَرَ إِسْمَاعِيلُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ إِلَى الْمَغْرِبِ

كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ زَكْرِيَا الشَّيْعِيُّ مِنْ أَهْلِ صَنْعَاءَ، وَقَدْ سَارَ إِلَى ابْنِ حَوْشَبِ النَّجَّارِ، وَصَحْبِهِ بَعْدَنَ، وَصَارَ مِنْ كِبَارِ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ لَهُ عِلْمٌ وَفَهْمٌ وَدَعَاءٌ وَمَكْرٌ، فَلَمَّا أَتَى خَبَرَ وَفَاةَ الْحُلَوَانِيِّ وَأَبِي سَفْيَانَ إِلَى ابْنِ حَوْشَبِ قَالَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ: إِنَّ أَرْضَ كُتَّامَةٍ مِنَ الْمَغْرِبِ قَدْ حَرَّثَهَا الْحُلَوَانِيُّ وَأَبُو سَفْيَانَ، وَقَدْ مَاتَا، وَلَيْسَ لَهَا غَيْرُكَ، فَبَادِرْ، فَإِنَّهَا مَوْطَأَةٌ مَهْدَةٌ لَكَ.

فَخَرَجَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِلَى مَكَّةَ، وَأَعْطَاهُ ابْنُ حَوْشَبِ مَالاً، وَسَيَّرَ مَعَهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي مَلَاَحَفٍ، فَلَمَّا قَدَّمَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مَكَّةَ سَأَلَ عَنْ

ذكر سبب اتصال المهدي عبيد الله بأبي عبد الله الشيعي ومسيره إلى مِجْلَسَامة

لما توفي عبد الله بن ميمون القَذَّاح ادعى ولده أنهم من ولد عقيل بن أبي طالب، وهم مع هذا يسترون، ويُسيرون أمرهم، ويُخفون أشخاصهم.

وكان ولده أحمد هو المشار إليه منهم، فتوفي وخلف ولده محمداً، وكان هو الذي يكتبه الدعاة في البلاد، وتوفي محمد وخلف أحمد والحسين، فسار الحسين إلى سَلَوِيَّة من أرض حمص، وله بها دائع وأموال من دائع جدّه عبد الله القَذَّاح، ووكلاء، وغللمان، وبقي ببغداد من أولاد القَذَّاح أبو الشَّلَغُغ.

وكان الحسين يدّعي أنه الوصي وصاحب الأمر، والدعاة باليمن والمغرب يكتابونه ويراسلونه؛ واتفق أنه جرى بحضرته حديث النساء بَسَلَمِيَّة، فوصفوا له امرأة رجل يهودي حداد، مات عنها زوجها، وهي في غاية الحسن، فتزوجها، ولها ولد من الحداد يماثلها في الجمال، فأحبها وحسن موقعها معه، وأحب ولدها، وأدبه، وعلمه، فتعلم العلم، وصارت له نفس عظيمة، وهمة كبيرة.

فمن العلماء من أهل هذه الدعوة من يقول: إن الإمام الذي كان بَسَلَمِيَّة، وهو الحسين، مات ولم يكن [له] ولد، فعهد إلى ابن اليهودي الحداد، وهو (٣٧/٨) عبيد الله، وعرفه أسرار الدعوة من قول وفعل، وأين الدعاة، وأعطاه الأموال والعلامات، وتقدم إلى أصحابه بطاعته وخدمته، وأنه الإمام والوصي، وزوجه ابنة عمه أبي الشَّلَغُغ. وهذا قول أبي القاسم الأبيض العلوي وغيره، وجعل لنفسه نسبا، وهو عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وبعض الناس يقولون، وهم قليل: إن عبيد الله هذا من ولد القَذَّاح، وهذه الأقوال فيها ما فيها، فإليت شعري ما الذي حمل أبا عبد الله الشيعي وغيره ممن قام بإظهار هذه الدعوة، حتى يخرجوا هذا الأمر من أنفسهم، ويسلموه إلى ولد يهودي، وهل يسامح نفسه بهذا الأمر من يعتقد ديناً يثاب عليه؟

قال: فلما عهد الحسين إلى عبيد الله قال له: إنك ستهاجر بعدي هجرة بعيدة، وتلقى محناً شديدة؛ فتوفي الحسين، وقام بعده عبيد الله، وانتشرت دعوته، وبذل الأموال خلاف من تقدم، وأرسل إليه أبو عبد الله رجلاً من كُثامة من المغرب ليخبروه بما فتح الله عليه، وأنهم ينتظرونه.

وشاع خبره عند الناس أيام المكتفي فطلب، فهرب هو وولده أبو القاسم نزار الذي ولي بعده، وتلقب بالقائم، وهو يومئذ غلام،

كلمة البربر وكُثامة بسية، فأراد بعضهم قتله، فاخفى، ووقع بينهم قتال شديد، واتصل الخبر بإنسان اسمه الحسن بن هارون، وهو من أكابر كُثامة، فأخذ أبا عبد (٣٤/٨) الله إليه، ودافع عنه، ومضيا إلى مدينة ناصرون، فاته القباثل من كل مكان وعظم شأنه، وصارت الرئاسة للحسن بن هارون، وسلم إليه أبو عبد الله أعنة الخيل، وظهر من الاستتار، وشهر الحروب، فكان الظفر له فيها، وغنم الأموال، وانتقل إلى مدينة ناصرون وخندق عليها، فزحفت قبائل البربر إليها، واقتتلوا، ثم اصطلحوا، ثم أعادوا القتال، وكان بينهم وقائع كثيرة، وظفر بهم، وصارت إليه أموالهم، فاستقام له أمر البربر وعامة كُثامة.

ذكر ملكة مدينة مِئَلَّة وانهازمه

فلما تم لأبي عبد الله ذلك زحف إلى مدينة مِئَلَّة، فجاءه منها رجل اسمه الحسن بن أحمد، فاطلعه على غرة البلد، فقاتل أهله قتالاً شديداً، وأخذ الأرباض، فطلبوا منه الأمان فأمتهم، ودخل مدينة مِئَلَّة، وبلغ الخبر أمير إفريقية، وهو حيتنلو إبراهيم بن أحمد، فنفذ ولده الأحول في اثني عشر ألفاً، وتبعه مثلهم، فالتقيا، فاقتتل العسكران، فانهزم أبو عبد الله، وكثر القتل في أصحابه، وتبعه الأحول، وسقط ثلج عظيم حال بينهم، وسار أبو عبد الله إلى جبل إنكيجان، فوصل الأحول إلى مدينة ناصرون، فأحرقها، وأحرق مدينة مِئَلَّة، ولم يجد بها أحداً.

وبنى أبو عبد الله بإنكيجان دار هجرة، فقصدها أصحابه، وعاد (٣٥/٨) الأحول إلى إفريقية، فسار أبو عبد الله بعد رحيلهم، فغنم ما رأى مما تخلف عنهم؛ وأثناء خبر وفاة إبراهيم، فسُر به، ثم أناه خبر قتل أبي العباس ولده، وولاية زيادة الله، واشتغاله باللّهو واللعب، فاشتد سروره.

وكان الأحول قد جمع جيشاً كثيراً أيام أخيه أبي العباس، ولقي أبا عبد الله، فانهزم الأحول.

وبقي الأحول قريباً منه يقاتله ويمنعه من التقدم، فلما ولي أبو مَضر زيادة الله إفريقية أحضر الأحول وقتله، كما ذكرناه؛ ولم يكن أحول، وإنما كان يكسر عينه إذا دام النظر فلُقِب به؛ فلما قُتل انتشرت حيتنلو جيوش أبي عبد الله في البلاد، وصار أبو عبد الله يقول: المهدي يخرج في هذه الأيام، ويملك الأرض، فيأطوي لمن هاجر إليّ وأطاعني! ويغري الناس بأبي مَضر، ويعيه.

وكان كل من عند زيادة الله من الوزراء شيعة، فلا يسوهم أن يظفر أبو عبد الله لا سيما مع ما كان يُذكر لهم من الكرامات التي للمهدي من إحياء الموتى، ورد الشمس من مغربها، وملكه الأرض بأسرها! وأبو عبد الله يرسل إليهم، ويسحرهم، ويعدهم. (٣٦/٨)

قَسْطِلِيَّة ترك قصد أبي عبد الله الشيعي، لأن أخاه أبا العباس كان قد أخذ، فعلم أنه إذا قصد أخاه تحقّقوا الأمر وقتلوه، فتركه وسار إلى سِجْلَمَاسَة، ولما سار من قَسْطِلِيَّة، وصل الرسل في طلبه فلم يوجد، ووصل إلى سِجْلَمَاسَة فأقام بها؛ وفي كل ذلك عليه العيون في طريقه.

وكان صاحب سِجْلَمَاسَة رجلاً يسمى اليُسْع بن مدرار، فأهدى له المهدي، وواصله، فقرّبه اليُسْع، وأحبه، فأنه كتاب زيادة الله يعرفه أنه الرجل الذي يدعو إليه أبو عبد الله الشيعي، فقبض عليه وحسبه، فلم يزل محبوساً حتى أخرجه أبو عبد الله على ما نذكره. (٤٠/٨)

ذكر استيلاء أبي عبد الله على إفريقية وهرب زيادة الله أميرها قد ذكرنا من حال أبي عبد الله ما تقدّم، ثم إن زيادة الله لما رأى استيلاء أبي عبد الله على البلاد، وأنه قد فتح مدينة مَيْلَة ومدينة سَطِيف، وغيرهما، أخذ في جمع العساكر، وبذل الأموال، فاجتمعت إليه عساكر عظيمة، فقدم عليهم إبراهيم بن خُنَيْش وهو من أقاربه، وكان لا يعرف الحرب، فبلغت عدة جيشه أربعين ألفاً، وسلم إليه الأموال والعُدَد، ولم يترك بإفريقية شجاعاً إلا أخرجه معه، وسار إليه، فانضاف إليه مثل جيشه، فلما وصل قسطنطينية الهواء، وهي مدينة قديمة حصينة، نزل بها، وأناه كثير من كُتامة الذين لم يطيعوا أبا عبد الله، فقتل في طريقه كثيراً من أصحاب أبي عبد الله، وخاف أبو عبد الله منه، وجميع كُتامة، وأقام بقسطنطينية ستة أشهر، وأبو عبد الله متحصن في الجبل.

فلما رأى إبراهيم أن أبا عبد الله لا يتقدّم إليه بادر وزحف بالعساكر المجتمعّة إلى بلد اسمه كرمَة، فأخرج إليه أبو عبد الله خيلاً اختارها ليختبر نزوله، فوافاها بالموضع المذكور، فلما رأى إبراهيم الخيل قصد إليها بنفسه، ولم يصحبه إليها أحدٌ من جيشه، وكانت أئقال العسكر على ظهور الدواب لم تحط، ونشبت الحرب، واقتلوا قتلاً شديداً.

واتصل الخبر بأبي عبد الله، فزحف بالعساكر، فوقعت الهزيمة على إبراهيم (٤١/٨) ومَن معه فجرح، وعُقر فرسه، وتمّت الهزيمة على الجيش جميعه، وأسلموا الأثقال بأسرها، فغنمها أبو عبد الله، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وتمّ [أمر] إبراهيم إلى القيروان، فشاشت بلاد إفريقية، وعظم أمر أبي عبد الله، واستقرّت دولته، وكتب أبو عبد الله كتاباً إلى المهدي، وهو في سجن سِجْلَمَاسَة، يشرّبه، وسير الكتاب مع بعض ثقاته، فدخل السجن في زي قصّاب يبيع اللحم، فاجتمع به وعرفه ذلك.

وسار أبو عبد الله إلى مدينة طُبْنَة، فحصرها، ونصب عليها الدبابات، وتقب برجاً ویدنة، فسقط السور بعد قتال شديد، وملك

وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب، وذلك أيام زيادة الله، فلما انتهى إلى مصر أقام مستتراً بزيّ التجار، وكان عامل مصر حينئذ عيسى النُشَري، فأتته الكتب من الخليفة بصفته وحليته، وأمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه.

(٣٨/٨) وكان بعض خاصّة عيسى متشيعاً، فأخبر المهدي وأشار عليه الانصراف، فخرج من مصر مع أصحابه، ومعه أموال كثيرة، فأوسع النفقة على من صحبه، فلما وصل الكتاب إلى النُشَري فرّق الرسل في طلب المهدي وخرج بنفسه فلحقه، فلما رآه لم يشك فيه، فقبض عليه، ونزل ببستان، ووكّل به، فلما حضر الطعام دعاه ليأكل، فأعلمه أنه صائم، فرّق له، وقال له: أعلمني بحقيقة حالك حتى أطلقك؛ فخوّفه بالله تعالى، وأنكر حاله، ولم يزل يخوّفه ويتلفّظه فأطلقه، وخلق سبيله، وأراد أن يرسل معه من يوصله إلى رفقة، فقال: لا حاجة بي إلى ذلك، ودعا له.

وقيل: إنه أعطاه في الباطن مالاً حتى أطلقه، فرجع بعض أصحاب النُشَري عليه باللوم، فندم على إطلاقه، وأراد إرسال الجيش وراءه ليردّه، وكان المهدي لما لحق أصحابه رأى ابنه أبا القاسم قد ضيّع كلباً كان له يصيد به، وهو يكي عليه، فعرفه عبيده أنهم تركوه في البستان الذي كانوا فيه، فرجع المهدي بسبب الكلب، حتى دخل البستان ومعه عبيده، فرأهم النُشَري فسأل عنهم فقيل: إنه فلان، وقد عاد بسبب كذا وكذا فقال النُشَري لأصحابه: قبحكم الله! أردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى آخذوه، فلو كان يطلب ما يقال أو كان مريباً لكان يطوي المراحل، ويخفي نفسه، وما كان رجع في طلب كلب؛ وتركه.

وجذّ المهدي في الهرب، فلحقه لصوصٌ بموضع يقال له الطاحونة، (٣٩/٨) فأخذوا بعض متاعه، وكانت عنده كتب وملاحم لأبائه، فأخذت، فغظم أمرها عليه، فيقال إنه لما خرج ابنه أبو القاسم في المرّة الأولى إلى الديار المصرية أخذها من ذلك المكان.

وانتهى المهدي وولده إلى مدينة طرابلس، وتفرّق من صحبه من التجار، وكان في صحبته أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي، فقدمه المهدي إلى القيروان ببعض ما معه، وأمره أن يلحق بكُتامة. فلما وصل أبو العباس إلى القيروان وجد الخير قد سبقه إلى زيادة الله بخبر المهدي، فسأل عنه رفقة، فأخبروا أنه تخلف بطرابلس، وأن صاحبه أبا العباس بالقيروان، فأخذ أبو العباس، وقرّر فأنكر وقال: إنما أنا رجل تاجر صحبْتُ رجلاً في القتل؛ فحبسه.

وسمع المهدي، فسار إلى قَسْطِلِيَّة، ووصل كتاب زيادة الله إلى عامل طرابلس بأخذه، وكان المهدي قد أهدى له واجتمع به، فكتب العامل يخبره أنه قد سار ولم يدركه، فلما وصل المهدي إلى

فوجد فيها أهل قصر الإفريقي ومدينة مَرَجَنَة، ومدينة مَجَانَة، وأخلاقاً من الناس قد التجؤوا إليها وتحصنوا فيها، وهي حصينة، فنزل عليها، وقتلها، فأصابه علّة الحصى، وكانت تعتاده، فشغل بنفسه، وطلب أهلها الأمان فأمّتهم بعض أهل العسكر، ففتحوا الحصن، فدخلها العسكر، ووضعوا السيف، وانتهبوا.

وبلغ ذلك أبا عبد الله، فعظم عليه، ورحل، فنزل على القصرين من قمودة وطلب أهلها الأمان فأمّتهم، وبلغ إبراهيم بن أبي الأغلب، أمير الجيش الذي سيّره زيادة الله، أن أبا عبد الله يريد [أن] يقصد زيادة الله بَرَقَادَة، ولم يكن مع زيادة الله كبير عسكر، فخرج من الأُرْس ونزل دردمين، وسيّر أبو عبد الله سرية إلى دردمين، فجرى بينهما وبين أصحاب زيادة الله قتال، فقتل من أصحاب أبي عبد الله جماعة، وانهمز الباكون.

واستبأ أبو عبد الله خبرهم، فسار في جميع عساكره، فلقي أصحابه منهمذين، فلما رآه قويت قلوبهم، ورجعوا، وكروا على أصحاب (٤٤/٨) إبراهيم، وقتلوا منهم جماعة، وحجز الليل بينهم.

ثم سار أبو عبد الله إلى قَسْطِلَة، فحصرها، فقاتله أهلها، ثم طلبوا الأمان فأمّتهم، وأخذ ما كان لزيادة الله فيها من الأموال والعُدَد، ورحل إلى قَقَصَة، فطلب أهلها الأمان فأمّتهم، ورجع إلى باغاية، فترك بها جيشاً، وعاد إلى جبل إنكيجان.

فسار إبراهيم بن أبي الأغلب في جيشه إلى باغاية وحصرها، فبلغ الخبر أبا عبد الله، فجمع عسكره وسار مجدداً إليها، ووجّه اثني عشر ألف فارس، وأمر مقدمهم أن يسير إلى باغاية، فلما كان إبراهيم قد رحل عنها فلا يجاوز فجّ القرعار، فمضى الجيش، وكان أصحاب أبي عبد الله الذين في باغاية قد قاتلوا عسكر إبراهيم قتالاً شديداً، فلما رأى صبرهم عجب هو وأصحابه منهم، فأرعب ذلك قلوبهم؛ ثم بلغهم قرب العسكر منهم، فعاد إبراهيم بعساكره، فوصل عسكر أبي عبد الله، فلم يرَ واحداً، فذهبوا ما وجدوا وعادوا.

ورجع إبراهيم إلى الأُرْس. ولما دخل فصل الربيع، وطاب الزمان، جمع أبو عبد الله عساكره، فبلغت مائتي ألف فارس وراجل، واجتمع من عساكر زيادة الله بالأُرْس مع إبراهيم ما لا يُحصى، وسار أبو عبد الله، أول جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ومائتين، فالتقوا، وقتلوا أشد قتال، (٤٥/٨) وطال زمانه، وظهر أصحاب زيادة الله، فلما رأى ذلك أبو عبد الله اختار من أصحابه ستمائة راجل، وأمرهم أن يأتوا عسكر زيادة الله من خلفهم، فمضوا لما أمرهم في الطريق الذي أمرهم بسلوكه.

واتّفق أن إبراهيم فعل مثل ذلك، فالتقى الطائفتان، فقاتلوا في مضيق هناك فانهزم أصحاب إبراهيم، ووقع الصوت في عسكره

البلد، فاحتفى المقدّمون بحصن البلد، فحصرهم، فطلبوا الأمان، فأمّتهم، وأمن أهل البلد، وسار إلى مدينة بلزمة، وكان قد حصرها مراراً كثيرة فلم يظفر بها، فلما حصرها الآن ضيق عليها، وجدّ في القتال، ونصب عليها الدبابات، ورامها بالنار، فأحرقها، وقتلها بالسيف وقتل الرجال، وهدم الأسوار.

واتصلت الأخبار بزيادة الله، فعظم عليه [ذلك]، وأخذ في الجمع والحشد، فجمع عسكراً عدّتهم اثنا عشر ألفاً، وأمر عليهم هارون بن الطُّنِّي، فسار، واجتمع معه خلق كثير، وقصد مدينة دار ملوك، وكان أهلها قد أطاعوا أبا عبد الله، فقتل هارون أهلها، وهدم الحصن، ولقيه في طريقه خيل أبي عبد الله كان قد أرسلها ليختبروا عسكره، فلما رآها العسكر اضطربوا، وصاحوا صيحة عظيمة، هربوا من غير قتال، فظن أصحاب أبي عبد الله (٤٦/٨) أنها مكيدة، فلما ظهر أنها هزيمة استدركوا الأمر، ووضعوا السيف، فما يحصى من قتلوا؛ وقتل هارون أمير العسكر، وفتح أبو عبد الله مدينة تيجس صلحاً، فاشتدّ الأمر حينئذ على زيادة الله، وأخرج الأموال، وجيش الجيوش، وخرج بنفسه إلى محاربة أبي عبد الله، فوصل إلى الأُرْس في سنة خمس وتسعين ومائتين، فقال له وجوه دولته: إنك تغرر بنفسك، فإن يكن عليك لا يبقى لنا ملجأ، والرأي أن ترجع إلى مستقر ملكك، وترسل الجيش مع من تشق به، فإن كان الفتح لنا فنصل إليك، وإن كان غير ذلك فتكون ملجأ لنا.

ورجع ففعل ذلك، وسيّر الجيش، وقدم عليه رجلاً من بني عمّه يقال له إبراهيم بن أبي الأغلب، وكان شجاعاً، وبلغ أبا عبد الله الخبر، وكان أهل باغاية قد كاتبوه بالطاعة، فسار إليهم فلما قرب منها هرب عاملها إلى الأُرْس، فدخلها أبو عبد الله، وترك بها جنداً، وعاد إلى إنكيجان، ووصل الخبر إلى زيادة الله، فزاده غمّاً وحزناً، فقال له إنسان كان يضحكه: يا مولانا لقد عملت بيت شعر، فعسى تجعل من يلحنه وتشرب عليه واطرّك هذا الحزن؛ فقال: ما هو؟ فقال المضحك للمغنين: غنوا شعراً كذا، وقولا بعد فراغ كل بيت:

اشرب واسقينا من القرن يكفينا

(٤٣/٨) فلما غنوا طرب زيادة الله، وشرب، وانهمك في الأكل والشرب والشهوات، فلما رأى ذلك أصحابه ساعدوه على مراده.

ثم إن أبا عبد الله أخرج خيلاً إلى مدينة مَجَانَة فافتتحها عنوة، وقتل عاملها، وسيّر عسكراً آخر إلى مدينة تيفاش، فملكها وأمن أهلها.

وقصد جماعة من رؤساء القبائل أبا عبد الله يطلبون منه الأمان فأمّتهم، وسار بنفسه إلى مسكيانة ثم إلى تَبَسَة، ثم إلى مدبرة،

ذلك، فاجتمع كثير منه، وفيه كثير من الجوارى لهنّ مقدار وحظّ من الجمال، فسأل عَمَن كان يكفلهنّ، فذكر له امرأة صالحة كانت لزيادة الله، فأحضرها، وأحسن إليها، وأمر بحفظهنّ، وأمر لهن بما يصلحهنّ ولم ينظر إلى واحدة منهن.

ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء بالقيروان ورَقادة، فخطبوا ولم يذكروا أحداً، وأمر بضرب السكّة، وأن لا يُنقش عليها اسمٌ، ولكنه جعل مكان الاسم من وجهه: بلغت حجة الله؛ ومن الوجه الآخر: تفرّق أعداء الله؛ ونقش على السلاح: غُدّة في سبيل الله؛ ووسم الخيل على أفضاخها: الملك لله؛ وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن، والقليل من الطعام الغليظ.

ذكر مسير أبي عبد الله إلى سِجْلَماسة وظهور المهدي

لَمَّا استقرت الأمور لأبي عبد الله في رَقادة وسائر بلاد إفريقية اتاه أخوه أبو العباس محمد، ففرح به، وكان هو الكبير، فسار أبو عبد الله في رمضان من السنة من رَقادة، واستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس، وأبا زاكى، وسار في جيوش عظيمة، فاهتز المغرب لخروجه، وخافته زَنّانة، وزالت القبائل عن طريقه، وجاءته رسلمهم ودخلوا في طاعته.

فلما قرب من سِجْلَماسة، وانتهى خبره إلى اليُسُع بن مِدرار، أمير سِجْلَماسة، أرسل إلى المهدي، وهو في حبسه، على ما ذكرناه، يسأله عن نسبه وحاله، وهل إليه قصد أبو عبد الله؟ فحلف له المهدي أنه ما رأى أبا (٤٨/٨) عبد الله، ولا عرفه، وإنما أنا رجل تاجر؛ فاعتقل في دار وحدة، وكذلك فعل بولده أبي القاسم، وجعل عليهما الحرس، وقرر ولده أيضاً، فما حال عن كلام أبيه، وقرر رجالاً كانوا معه، وضربهم، فلم يقرأوا بشيء.

وسمع أبو عبد الله ذلك، فشقّ عليه، فأرسل إلى اليُسُع يتلطّفه، وأنه لم يقصد الحرب، وإنما له حاجة مهمة عنده، ووعدّه الجميل، فرمى الكتاب، وقتل الرسل، فعاوده بالملاطفة خوفاً على المهدي، ولم يذكره له، فقتل الرسول أيضاً، فأسرع أبو عبد الله في السير، ونزل عليه، فخرج إليه اليُسُع، وقاتله يومه ذلك، وافترقوا، فلما جنّهم الليل هرب اليُسُع وأصحابه من أهله وبني عمّه، وبات أبو عبد الله ومَن معه في غمّ عظيم لا يعلمون ما صنع بالمهدي وولده، فلما أصبح خرج إليه أهل البلد، وأعلموه بهرب اليُسُع، فدخل هو وأصحابه البلد، وأتوا المكان الذي فيه المهدي، فاستخرجوه، واستخرج ولده، فكانت في الناس مسرة عظيمة كادت تذهب بقولهم، فأركبهما، ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقول للناس: هذا مولاكم، وهو يبكي من شدة الفرح، حتى وصل إلى فسطاط قد ضُرب له، فنزل فيه، وأمر بطلب اليُسُع، فطلب، فأدرك، فأخذ وضُرب بالسياط ثم قُتل.

بكمين أبي عبد الله وانهزموا، وتفرّقوا، وهرب كل قوم إلى جهة بلادهم، وهرب إبراهيم وبعض من معه إلى القيروان، وتبعهم أصحاب أبي عبد الله يقتلون ويأسرون، وغنموا الأموال والخيل والمُدّد، ودخل أصحابه مدينة الأُرُيس فقتلوا بها خلقاً عظيماً، ودخل كثير من أهلها الجامع قتل فيه أكثر من ثلاثة آلاف ونهبوا البلد، وكانت الواقعة أواخر جمادى الآخرة، وانصرف أبو عبد الله إلى قمودة.

فلما وصل خبر الهزيمة إلى زيادة الله هرب إلى الديار المصرية، وكان من أمره ما تقدم ذكره، ولما هرب زيادة الله هرب أهل مدينة رَقادة على وجوههم، في الليل، إلى القصر القديم، وإلى القيروان، وسوسة، ودخل أهل القيروان رَقادة ونهبوا ما فيها، وأخذ القويّ الضعيف، ونهبت قصور بني الأغلب، وبقي النهب ستة أيام.

ووصل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان، فقصّد قصر الإمارة، واجتمع إليه أهل القيروان، ونادى مناديه بالأمان، وتسكين الناس، وذكر لهم أحوال زيادة الله، وما كان عليه، حتى أفسد ملكه؛ وصغّر أمر أبي عبد الله الشيعي، (٤٦/٨) ووعدهم أن يقتال عنهم، ويحمي حريمهم وبلدهم، وطلب منهم المساعدة بالسمع والطاعة والأموال، فقالوا: إنما نحن فقهاء، وعامة، وتجار، وما في أموالنا ما يبلغ غرضك، وليس لنا بالقتال طاقة؛ فأمرهم بالانصراف، فلما خرجوا من عنده وأعلموا الناس بما قاله صاحوا به: اخرج عنّا، فما لك عندنا سمع ولا طاعة! وشتّموه، فخرج عنهم وهم يرمونهم.

ولما بلغ أبا عبد الله هرب زيادة الله كان بناحية سَبِيّة، ورحل فنزل بوادي النمل، وقَدّم بين يديه عروبة بن يوسف، وحسن بن أبي خنزير، في ألف فارس إلى رَقادة، فوجدوا الناس ينهبون ما بقي من الأمتعة والأثاث، فأمنّوهم ولم يتعرّضوا لأحد، وتركوا لكل واحد ما حمّله، فأتى الناس إلى القيروان، فأخبروه الخبر، ففرح أهلها.

وخرج الفقهاء ووجوه البلد إلى لقاء أبي عبد الله، فلقوه، وسلّموا عليه، وهنّأوه بالفتح، فردّ عليهم رداً حسناً، وحذّتهم، وأعطاهم الأمان، فأعجبهم ذلك وسرّهم، ودمّوا زيادة الله، وذكروا مساوئه، فقال لهم: ما كان إلا قوياً، وله منّة، ودولة شامخة، وما قصر في مدافعته، ولكنّ أمر الله لا يُعاند ولا يُدافع! فأمسكوا عن الكلام، ورجعوا إلى القيروان.

ودخل رَقادة يوم السبت، مستهلّ رجب من سنة ست وتسعين ومائتين، فنزل ببعض قصورها، وفَرّق دورها على كتّامة، ولم يكن بقي أحد من أهلها فيها، وأمر فتودي بالأمان، فرجع الناس إلى أوطانهم، وأخرج العمّال إلى البلاد، وطلب أهل الشرّ قتلهم، وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله (٤٧/٨) من الأموال، والسلاح، وغير

(٥١/٨) ثم إنه أظهر أبا عبد الله على ما في نفسه، وقال له: ملكت أمراً، فجئت بمن أزالك عنه، وكان الواجب عليه أن لا يسقط حَقُّك.

ولم يزل حتى أثر في قلب أخيه، فقال يوماً للمهدي: لو كنت تجلس في قصرِكَ، وتركني مع كُتَّابِهم وأنهاهم، لأنِّي عارفٌ بعاداتهم، لكان أهيب لك في أعين الناس.

وكان المهدي سمع شيئاً مما يجري بين أبي عبد الله وأخيه، فتحقق ذلك، غير أنه ردَّ ردّاً لطيفاً، فصار أبو العباس يشير إلى المقلِّدين بشيء من ذلك، فمن رأى منه قبولاً كشف له ما في نفسه، وقال: ما جازاكم على ما فعلتم، وذكر لهم الأموال التي أخذها المهدي من إنكجَان، وقال: هلا قسَّما فيكم!

وكل ذلك يتصل بالمهدي، وهو يتغافل، وأبو عبد الله يداري، ثم صار أبو العباس يقول: إن هذا ليس الذي كنا نعتقد طاعته، وتدعو إليه لأن المهدي يختم بالحجَّة، ويأتي بالآيات الباهرة، فأخذ قوله بقلوب كثير من الناس، منهم إنسان من كُتَّابِهم يقال له شيخ المشايخ، فواجه المهدي بذلك، وقال: إن كنت المهدي فأظهر لنا آيةً، قد شككتنا فيكَ؛ فقتله المهدي، فخافه أبو عبد الله، وعلم أن المهدي قد تغيَّر عليه، فاتفق هو وأخوه ومن معهما على الاجتماع عند أبي زاعي، وعزموا على قتل المهدي واجتمع معهم قبائل كُتَّابِهم إلا قليلاً منهم.

(٥٢/٨) وكان معهم رجل يُظهر أنه منهم، وينقل ما يجري إلى المهدي، ودخلوا عليه مراراً فلم يجسروا على قتله، فاتفق أنهم اجتمعوا ليلة عند أبي زاعي، فلما أصبحوا لبس أبو عبد الله ثوبه مقلوباً، ودخل على المهدي، فرأى ثوبه، فلم يعرفه به، ثم دخل عليه ثلاثة أيام والقميص بحاله، فقال له المهدي: ما هذا الأمر الذي أذهلك عن إصلاح ثوبك؟ فهو مقلوب منذ ثلاثة أيام فعلمتُ أنك ما نزعته؛ فقال: ما علمتُ بذلك إلا ساعتِي هذه؛ قال: أين كنت البارحة والليالي قبلها؟ فسكت أبو عبد الله؛ فقال: أليس بتَّ في دار أبي زاعي؟ قال: بلى. قال: وما الذي أخرجك من داركَ؟ قال: خفتُ. قال: وهل يخاف الإنسان إلا من عدوِّه؟ فعلم أن أمره ظهر للمهدي، فخرج وأخبر أصحابه، وخافوا، وتخلَّفوا عن الحضور.

فذكر ذلك للمهدي، وعنده رجل يقال له ابن القديم، كان من جملة القوم، وعنده أموال كثيرة، من أموال زيادة الله، فقال: يا مولاي إن شئت أتيتُك بهم، ومضى فجاء بهم، فعلم المهدي صحَّة ما قيل عنه، فلافطهم وفرَّقهم في البلاد، وجعل أبا زاعي والياً على طرابلس، وكتب إلى عاملها أن يقتله عند وصوله، فلما وصلها قتله عاملها، وأرسل رأسه إلى المهدي، فهرب ابن القديم، فأخذ، فأمر

فلما ظهر المهدي أقام بسجلماسة أربعين يوماً، وسار إلى إفريقية، وأحضر الأموال من إنكجَان، فجعلها أحمالاً وأخذها معه، ووصل إلى رقادة العشر الأخير من ربيع الآخر من سنة سبع وتسعين ومائتين، وزال (٤٩/٨) ملك بني الأغلب، وملك بني مدرار الذين منهم اليسع وكان لهم ثلاثون ومائة سنة متفردين بسجلماسة، وزال ملك بني رستم من تاهرت، ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت، وملك المهدي جميع ذلك. فلما قرب من رقادة تلقاه أهلها، وأهل القيروان، وأبو عبد الله، ورؤساء كُتَّابِ مشاة بين يديه، وولده خلفه، فسلموا عليه، فردَّ [ردّاً] جميلاً، وأمرهم بالانصراف، ونزل بقصر من قصور رقادة، وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين.

وجلس بعد الجمعة رجل يُعرف بالشريف، ومعه الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوه إلى مذهبهم فمن أجاب أحسن إليه، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس، وهم قليل وقتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم.

وعرض عليه أبو عبد الله جوارِي زيادة الله، فاختر منهم كثيراً لنفسه ولولده أيضاً، وفرَّق ما بقي على وجوه كُتَّابِهم، وقسَّم عليهم أعمال إفريقية، ودون الدواوين، وجبى الأموال، واستقرت قدمه، ودانت له أهل البلاد، واستعمل العمال عليها جميعها؛ فاستعمل على جزيرة صقلية الحسن بن أحمد بن أبي خنزير، فوصل إلى مازر عاشر ذي الحجة سنة سبع وتسعين ومائتين، فولى أخاه على جرجنت، وجعل قاضياً بصقلية إسحاق بن (٥٠/٨) المنهال، وهو أول قاضٍ تولى بها للمهدي العلوي.

وبقي ابن أبي خنزير إلى سنة ثمان وتسعين [ومائتين]، فسار في عسكره إلى دَمَنْشَ، فغنم، وسبى، وأحرق، وعاد فبقي مدة يسيرة، وأساء السيرة في أهلها، فثاروا به، وأخذوه وجسوه، وكتبوا إلى المهدي بذلك، واعتذروا، فقبل عذرهم، واستعمل عليهم علي بن عمر البُلُوِي، فوصل آخر ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين.

ذكر قتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس

في سنة ثمان وتسعين ومائتين قُتل أبو عبد الله الشيعي، قتله المهدي عبيد الله.

وسبب ذلك أن المهدي لما استقامت له البلاد، ودانت له العباد، وياشر الأمور بنفسه، وكفَّ يد أبي عبد الله، ويد أخيه أبي العباس، داخل أبا العباس الحسد، وعظَّم عليه القطام عن الأمر والنهي، والأخذ والعطاء، فأقبل يُزري على المهدي في مجلس أخيه، ويتكلم فيه، وأخوه ينهاه، ولا يرضى فعله، فلا يزيده ذلك إلا لجأجأ.

المهدي بقتله فقتل.

وأمر المهدي عُروبة ورجالاً معه أن يرصدوا أبا عبد الله وأخاه أبا العباس، ويقتلوهما، فلما وصلا إلى قرب القصر حمل عروبة على أبي عبد الله، فقال: لا تفعل يا بني! فقال: الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك، فقتل هو وأخوه، وكان قتلهم في اليوم الذي قُتل فيه أبو زاكى، فقيس: إن المهدي صلى على أبي عبد الله، وقال: رحمك الله، أبا عبد الله، وجزاك خيراً بجميل سعيك.

(٥٣/٨) وثارت فتنة بسبب قتلهم، وجرّد أصحابهما السيوف، فركب المهدي وأمن الناس، فسكنوا، ثم تَبَّعَهُمْ حتى قتلهم.

وثارت فتنة ثانية بين كُثَمَاء وأهل القبروان، قُتل فيها خلق كثير، فخرج المهدي وسكّن الفتنة، وكفّ الدعاة عن طلب التشييع من العامة.

ولما استقامت الدولة للمهدي عهد إلى ولده أبي القاسم نزار بالخلافة، ورجعت كُثَمَاء إلى بلادهم، فأقاموا طفلاً وقالوا: هذا هو المهدي، ثم زعموا أنه نبي يوحى إليه، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت، وزحفوا إلى مدينة ميّلة، فبلغ ذلك المهدي فأخرج ابنه أبا القاسم، فحصرهم، فقاتلوه فهزمهم وأتبعهم حتى أجلاهم إلى البحر، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وقتل الطفل الذي أقاموه.

وخالف عليه أهل صقلية مع ابن وهب، فأنفذ إليهم أسطولاً، ففتحها وأتى بابن وهب فقتله.

وخالف عليه أهل تاهرت، فزهاها، ففتحها، وقتل أهل الخلاف، وقتل جماعة من بني الأغلب برقادة كانوا قد رجعوا إليها بعد وفاة زيادة الله.

ذكر عدة حوادث

فيها سَيَّر القاسم بن سيما وجماعة من القوّاد في طلب الحسين بن حمدان، فساروا حتى بلغوا قَرْوَيْسياء والرَّحْبة، فلم يظفروا به، فكتب (٥٤/٨) المقتدر إلى أبي الهيثم عبد الله بن حمدان، وهو الأمير بالموصل، يأمره بطلب أخيه الحسين، فسار هو والقاسم بن سيما، فالتقوا عند تكريت، فانهزم الحسين، فأرسل أخاه إبراهيم بن حمدان يطلب الأمان، فأجيب إلى ذلك، ودخل بغداد، وخُلع عليه، وعُقد له على قَم وقاشان، فسار إليها وصرف عنها العباس بن عمرو.

وفيها وصل بارس غلام إسماعيل الساماني، وقُدِّد ديار ربيعة، وقد تقدّم ذكره.

وفيها كانت وقعة بين طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث وبين سُبُكْرَى غلام عمرو، فأسر طاهراً ووجَّهه وأخاه يعقوب بن محمد

بن عمرو إلى المقتدر مع كاتبه عبد الرحمن بن جعفر الشيرازي، فأدخل بغداد أسيرين، فحبسوا، وكان سُبُكْرَى قد تغلّب على فارس بغير أمر الخليفة، فلماً وصل كاتبه قرّر أمره على مال يحملها، وكان وصوله إلى بغداد سنة سبع وتسعين.

وفيها خُلع على مؤنس المظفر الخادم، وأمر بالمسير إلى غزو الروم، فسار في جمع كثيف، فغزا من ناحية مَلْطِيَّة، ومعه أبو الأعز السلمي، فظفر وغنم وأسر منهم جماعة وعاد.

وفيها قُدِّد يوسف بن أبي الساج أعمال أرمينية وأذربيجان، وضمنها بمائة ألف وعشرين ألف دينار، فسار إليها من الدُّبُور.

وفيها سقط ببغداد ثلج كثير من بُكْرَة إلى العصر، فصار على الأرض أربع أصابع، وكان معه برد شديد، وجمد الماء والخلّ والبيض والأدهان، (٥٥/٨) وهلك النخل، وكثير من الشجر؛ وحجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

وفيها توفي محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر.

وفيها قُتل سَوَسَن حاجب المقتدر، وسبب ذلك أنه كان له أثر في أمر ابن المعتز، فلما بويع ابن المعتز واستحجب غيره لزم المقتدر، فلما استوزر ابن الفرات تفرّد بالأمر، فعاداه سوسن، وسعى في فساد حاله، فأعلم ابن الفرات المقتدر بالله بحال سوسن، وأنه كان ممن أعان ابن المعتز، فقبض عليه وقتله.

وفيها توفي محمد بن داود بن الجراح عمّ علي بن عيسى الوزير، وكان عالماً بالكتابة.

وفيها توفي عبد الله بن جعفر بن خاقان، وأبو عبد الرحمن الدهماني. (٥٦/٨)

سنة سبع وتسعين ومائتين

ذكر استيلاء الليث على فارس وقتله

في هذه السنة سار الليث بن علي بن الليث من سيجستان إلى فارس [في جيش] وأخذها، واستولى عليها، وهرب سُبُكْرَى عنها إلى أَرْجَان، فلما بلغ الخبر المقتدر جهّز مؤنساً الخادم وسيّره إلى فارس، معونة لسُبُكْرَى، فاجتمعا بأَرْجَان.

وبلغ خبر اجتماعهما الليث، فسار إليهما، فأتاه الخبر بمسير الحسين ابن حمدان من قَم إلى البيضاء، معونة لمؤنس، فسير أخاه في بعض جيشه إلى شيراز ليحفظها، ثم سار في بعض جنده في طريق مختصر ليوافق الحسين بن حمدان، فأخذ به الدليل في طريق الرجالة، فهلك أكثر دوابّه، ولقي هو وأصحابه مشقة عظيمة، فقتل الدليل، وعدل عن ذلك الطريق، فأشرف على عسكر مؤنس، فظنّه هو وأصحابه أنه عسكره الذي سيّر مع أخيه إلى شيراز، فكبروا،

فثار إليهم مؤنس وسُبكرى في جندهما، فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهمز عسكر الليث، وأخذ هو أسيراً.

وفيهما توفي عيسى النُشَري في شعبان بمصر، بعد موت أبي العباس ابن بسطام بعشرة أيام، ودُفِنَ بالبيت المقدس، واستعمل المقتدر مكانه (٥٩/٨) تكين الخادم، وخلع عليه متصف شهر رمضان.

وفيهما توفي أبو عبد الله محمد بن سالم، صاحب سهل بن عبد الله التُستري.

وفيهما توفي الفيض بن الخضر، وقيل ابن محمد أبو الفيض الأولاشي الطُرسوسي، وأبو بكر محمد بن داود بن علي الأصفهاني الفقيه الظاهري، وموسى بن إسحاق القاضي، والقاضي أبو محمد يوسف بن يعقوب بن حماد وله تسع وثمانون سنة. (٦٠/٨)

سنة ثمان وتسعين ومائتين

ذكر استيلاء أحمد بن إسماعيل على سجستان

في هذه السنة، في رجب، استولى أبو نصر أحمد بن إسماعيل الساماني على سجستان.

وسبب ذلك أنه لما استقر أمره، وثبت ملكه، خرج في سنة سبع وتسعين ومائتين إلى الري، وكان يسكن بخارى، ثم سار إلى هراة، فسير منها جيشاً في المحرم سنة ثمان وتسعين إلى سجستان، وسير جماعة من أعيان قواده وأمرائه، منهم أحمد بن سهل، ومحمد بن المظفر، وسيمجور الدواتي، وهو والد آل سيمجور ولاية خراسان للسامانية، وسير ذكرهم، واستعمل أحمد على هذا الجيش الحسين بن علي التورودي، فساروا حتى أتوا سجستان، وبها المعدل بن علي بن الليث الصفار وهو صاحبها.

فلما بلغ المعدل خبرهم سير أخاه أبا علي محمد بن علي بن الليث إلى بُست والرخج ليحتمي أموالها، ويرسل منها الميرة إلى سجستان، فسار الأمير أحمد بن إسماعيل إلى أبي علي بُست، وجاذبه، وأخذه أسيراً، وعاد به إلى هراة.

وأما الجيش الذي بسجستان فإنهم حصروا المعدل، وضائقوه، فلما (٦١/٨) بلغه أن أخاه أبا علي محمد قد أخذ أسيراً، صالح الحسين بن علي، واستأمن إليه، فاستولى الحسين على سجستان، فاستعمل عليها الأمير أحمد أبا صالح منصور بن إسحاق، وهو ابن عمه، وانصرف الحسين عنها ومعه المعدل إلى بخارى؛ ثم إن سجستان خالفت أهلها سنة ثلاثمائة على ما نذكره.

ولما استولى السامانية على سجستان بلغهم خبر مسير سُبكرى

فلما أسره مؤنس قال له أصحابه: إن المصلحة أن نقبض على سُبكرى، (٥٧/٨) ونستولي على بلاد فارس، ونكتب إلى الخليفة ليقرّها عليك؛ فقال: سأفعل غداً، إذا صار إلينا على عادته. فلما جاء الليل أرسل مؤنس إلى سُبكرى سراً يعرفه ما أشار به أصحابه، وأمره بالمسير من ليلته إلى شيراز، ففعل، فلما أصبح مؤنس قال لأصحابه: أرى سُبكرى قد تأخر عنا، فتعرفوا خبره؛ فسار إليه بعضهم، وعاد فأخبره أن سُبكرى سار من ليلته إلى شيراز، فلام أصحابه، وقال: من جهنكم بلغه الخبر حتى استوحش؛ وعاد مؤنس ومعه الليث إلى بغداد، وعاد الحسين بن حمدان إلى قم.

ذكر أخذ فارس من سُبكرى

لما عاد مؤنس عن سُبكرى استولى كاتبه عبد الرحمن بن جعفر على الأمور، فحسده أصحاب سُبكرى، فنقلوا عنه أنه كاتب الخليفة، وأنه قد خلف أكثر القواد له، فقبض عليه وقبضه وحبسه، واستكتب مكانه إسماعيل ابن إبراهيم البُيَتي، فحملة على العصيان ومنع ما كان يحمله إلى الخليفة، ففعل ذلك.

فكتب عبد الرحمن بن جعفر إلى ابن الفرات، وزير الخليفة، يعرفه ذلك، وأنه لما نهى سُبكرى عن العصيان قبض عليه، فكتب ابن الفرات إلى مؤنس، وهو بواسط، يأمره بالعود إلى فارس، ويعجزه حيث لم يقبض على سُبكرى، ويحملة مع الليث إلى بغداد، فعاد مؤنس إلى الأهواز.

وأرسل سُبكرى مؤنساً، وهاداه، وسأله أن يتوسط حاله مع الخليفة، (٥٨/٨) فكتب في أمره، وبذل عنه مالاً، فلم يستقر بينهم شيء؛ وعلم ابن الفرات أن مؤنساً يميل إلى سُبكرى، فأنفذ وصيفاً كاتبه، وجماعة من القواد، ومحمد بن جعفر الفريابي، وعوّل عليه في فتح فارس، وكتب إلى مؤنس يأمره باستصحاب الليث معه إلى بغداد، فعاد مؤنس.

وسار محمد بن جعفر إلى فارس، وواقع سُبكرى على باب شيراز، فانهمز سُبكرى إلى بَم وتحصن بها، وتبعه محمد بن جعفر وحصره بها، فخرج إليه سُبكرى وحاربه مرة ثانية، فهزمه محمد ونهب ماله ودخل سُبكرى مفازة خراسان، فظفر به صاحب خراسان، على ما نذكره، واستولى محمد بن جعفر على فارس فاستعمل عليها قتيباً خادماً الأتشين، والصحيح أن فتح فارس كان سنة ثمان وتسعين [ومائتين].

ذكر عدة حوادث

فيها وجه المقتدر القاسم بن سيما لغزو الصائفة؛ وحج بالناس

سنة تسع وتسعين ومائتين

ذكر القبض على ابن الفرات ووزارة الخاقاني

في هذه السنة قبض المقتدر على الوزير أبي الحسن بن الفرات في ذي الحجة، وكان قد ظهر، قبل القبض عليه بمدة يسيرة، ثلاثة كواكب مذنبية، أحدها ظهر آخر رمضان في برج الأسد، والآخر ظهر في ذي القعدة في المشرق، والثالث ظهر في المغرب في ذي القعدة أيضاً في برج العقرب.

ولما قبض على الوزير وكلّ بداره، وهتك حرّمه، ونهب ماله، ونُهِيت دور أصحابه ومن يتعلّق به، وافتتنت بغداد لقبضه، ولقي الناس شدة ثلاثة أيام، ثم سكنوا.

وكانت مدة وزارته هذه، وهي الوزارة الأولى، ثلاث سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً، وقُدّ أبو علي محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الوزارة، فرتّب أصحاب الدواوين؛ وتولّى مناظرة ابن (٦٤/٨) الفرات أبو الحسين أحمد بن يحيى بن أبي البغل، وكان أخوه أبو الحسن بن أبي البغل مقيماً بأصبهان، فسعى أخوه له في الوزارة هو وأم موسى القهرمانة، فآذن المقتدر في حضوره ليتولّى الوزارة، فحضر، فلما بلغ ذلك الخاقاني انحلت أموره، فدخل على الخليفة وأخبره بذلك، فأمره بالقبض على أبي الحسن، وأبي الحسين أخيه، فقبض على أبي الحسن وكتب في القبض على أبي الحسين، فقبض أيضاً، ثم خاف القهرمانة، فأطلقهما واستعملهما.

ثم إن أمور الخاقاني انحلت لأنه كان ضجوراً، ضيّق الصدر، مهملًا لقراءة كتب العمال، وجباية الأموال، وكان يتقرّب إلى الخاصة والعامة، فمنع خدم السلطان وخواصّه أن يخاطبوه بالعبد، وكان إذا رأى جماعة من الملاحين والعامة يصلّون جماعة، ينزل ويصلّي معهم، وإذا سأله أحد حاجة دقّ صدره وقال: نعم وكرامة، فسُمي دقّ صدره، إلّا أنه قصّر في إطلاق الأموال للفرسان والفُزّاد، فنفروا عنه واتّضعت الوزارة بفعله ما تقدّم.

وكان أولاده قد تحكّموا عليه، فكل منهم يسعى لمن يرتشي منه، وكان يولي في الأيام القليلة عدة من العمال، حتى إنه ولّى بالكوفة، في مدة عشرين يوماً، سبعة من العمال، فاجتمعوا في الطريق، فعرضوا توقيعاتهم، فسار الأخير منهم، وعاد الباقرن يطلبون ما خدموا به أولاده، فقبل فيه:

وزير قد تكامل في الرقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشى اجتمعوا لديه فخير القوم أوفرهم بضاعة

(٦٥/٨)

وليس يُسَلِّم في هذا بحال لأن الشيخ أفلت من مجاعة

في المفازة من فارس إلى سجستان، فسبّروا إليه جيشاً، فلقوه وهو وعسكره قد أهلكهم التعب، فأخذوه أسيراً، واستولوا على عسكره، وكتب الأمير أحمد إلى المقتدر بذلك، وبالفتح، فكتب إليه يشكره على ذلك، ويأمره بحمل سبكرى، ومحمد بن علي بن الليث، إلى بغداد، فسبّرها، وأدخل بغداد مشهورين على فيلين، وأعاد المقتدر رسل أحمد، صاحب خراسان، ومعهم الهدايا والخلع.

ذكر عدة حوادث

فيها أطلق الأمير أحمد بن إسماعيل عمه إسحاق بن أحمد من مجبسه، وأعادَه إلى سمرقند وفرغانة.

وفيها توفي محمد بن جعفر الفريابي، وقنيج الخادم أمير فارس، فاستعمل عليها عبد الله بن إبراهيم المسمعي، وأضاف إليه كرمان.

(٦٢/٨) وفيها جعلت أم موسى الهاشمية قهرمانة دار المقتدر بالله، فكانت تؤدي الرسائل من المقتدر وأمه إلى الوزير، وإنما ذكرناها لأن لها فيما بعد من الحكم في الدولة ما أوجب ذكرها، وإلا كان الإضراب عنها أولى.

وفيها غزا القاسم بن سيما الصائفة.

وفيها، في رجب، توفي المظفر بن جاج، أمير اليمن، وحمل إلى مكة ودفن بها، واستعمل الخليفة على اليمن بعده ملاحظاً وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

وفيها، في شعبان، أخذ جماعة ببغداد، قيل إنهم أصحاب رجل يدعى الربوية، يُعرف بمحمد بن بشر.

وفيها هبّت ريح شديدة حارة صفراء بجديّة الموصل، فمات لشدة حرها جماعة كثيرة.

وفيها توفي أبو القاسم جُنيد بن محمد الصوفي، وكان إمام الدنيا في زمانه، وأخذ الفقه عن أبي ثور، صاحب الشافعي، والتصوف عن سري السقطي.

وفيها توفي أبو برزة الحاسب، واسمه الفضل بن محمد.

وفيها توفي القاسم بن العباس أبو محمد المعشري، وإنما قيل له المعشري لأنه ابن بنت أبي معشر نجيع المدني، وكان زاهداً فقيهاً.

وفيها توفي أحمد بن سعيد بن مسعود بن عصام أبو العباس، ومحمد بن إياس والد أبي زكريا، صاحب تاريخ الموصل، وكان خيراً فضلاً، وهو أزدي. (٦٣/٨)

ثم زاد الأمر، حتى تحكّم أصحابه، فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال، فأنحلت القواعد، وخبثت النيات، واشتغل الخليفة بعزل وزرائه والقبض عليهم، والرجوع إلى قول النساء والخدم، والتصرف على مقتضى آرائهم، فخرجت الممالك، وطمع العمال في الأطراف، وكان ما تذكره فيما بعد.

ثم إن الخليفة أحضر الوزير ابن الفرات من محبسه، فجعله عنده في بعض الحجر مكرماً، فكان يعرض عليه مطالعات العمال وغير ذلك، وأكرمه، وأحسن إليه، بعد أن أخذ أمواله.

ذكر عدة حوادث

فيها غزا رستم أمير الثغور الصائفة من ناحية طرسوس، ومعه دميانة، فحصر حصن ملبح الأرمني، ثم دخل بلده وأحرقه.

وفيها دخل بغداد العظيم والأغبير وهما من قواد زكرويه القرمطي، دخلاً بالأمان؛ وحجج بالناس الفضل بن عبد الملك.

وفيها جاء نفر من القرامطة من أصحاب أبي سعيد الجنابي إلى باب البصرة، وكان عليها محمد بن إسحاق بن كنداجيق، وكان وصولهم يوم (٦٦/٨) الجمعة، والناس في الصلاة، فوقع الصوت بمجيء القرامطة، فخرج إليهم الموكّلون يحفظ باب البصرة، فراوا رجلين منهم، فخرجوا إليهما، فقتل القرامطة منهم رجلاً وعادوا فخرج إليهم محمد بن إسحاق في جمع، فلم يرههم، فسير في أثرهم جماعة، فأدركوهم، وكانوا نحو ثلاثين رجلاً، فقاتلوهم، فقتل بينهم جماعة، وعاد ابن كنداجيق وأغلق أبواب البصرة، ظناً منه أن أولئك القرامطة كانوا مقدّمة لأصحابهم، وكاتب الوزير ببغداد يعرفه وصول القرامطة ويستمدّه، فلما أصبح ولم ير للقرامطة أثراً ندم على ما فعل، وسير إليه من بغداد عسكرياً مع بعض القواد.

وفيها خالف أهل طرابلس الغرب على المهدي، عبيد الله العلوي، فسير إليها عسكرياً فحاصرها، فلم يظفر بها، فسير إليها المهدي ابنه أبا القاسم في جمادى الآخرة سنة ثلاثمائة، فحاصرها، وصابرها، واشتد في القتال، فعدمت الأقوات في البلد حتى أكل أهل الميتة، ففتح البلد عنفاً، وعفا عن أهله، وأخذ أموالاً عظيمة من الذين أثاروا الخلاف وغرّم أهل البلد جميع ما أخرجه على عسكريه، وأخذ وجوه البلد رهائن عنده، واستعمل عليه عاملاً وانصرف.

وفيها كانت زلازل بالقيروان لم ير مثلاً شدة وعظمة، وثار أهل القيروان، فقتلوا من كتامة نحو ألف رجل. (٦٧/٨)

وفيها توفي محمد بن أحمد بن كيسان أبو الحسن النحوي، وكان عالماً بنحو البصريين والكوفيّين، لأنه أخذه عن ثعلب

وفيها توفي محمد بن السري القنطري، وأبو صالح الحافظ، وأبو علي ابن سيويه، وأبو يعقوب إسحاق بن خنيس الطيب. (٦٨/٨)

سنة ثلاثمائة

ذكر عزل الخاقاني عن الوزارة، ووزارة علي بن عيسى

في هذه السنة ظهر للمقتدر تخطيط الخاقاني، وعجز في الوزارة، فأراد عزله، وإعادة أبي الحسن بن الفرات إلى الوزارة، فمنعه مؤنس الخادم عن ابن الفرات لنفوره عنه لأمر، منها: إنفاذ الجيش إلى فارس مع غيره، وإعادته إلى بغداد، وقد ذكرناه، فقال للمقتدر: متى أعدته ظنّ الناس أنك إنما قبضت عليه شرباً في ماله، والمصلحة أن تستدعي علي بن عيسى من مكة وتجعله وزيراً، فهو الكافي الثقة، الصحيح العمل، المتين الدين.

فأمر المقتدر بإحضاره، فأفد من حضره، فوصل إلى بغداد أول سنة إحدى وثلاثمائة، وجلس في الوزارة، وقبض على الخاقاني وسلم إليه، فأحسن قبضه، ووسع عليه، وتولى علي بن عيسى، ولازم العمل والنظر في الأمور، ورد المظالم، وأطلق من المكوس شيئاً كثيراً بمكة وفارس، وأطلق المواخير والمفسدات بدويق، وأسقط زيادات كان الخاقاني قد زادها للجند، لأنه عمل الدخل والخرج، فرأى الخرج أكثر، فأسقط أولئك، وأمر بعمارة المساجد والجوامع، وتبييضها وفرشها بالحصر، وإشعال الأضواء (٦٩/٨) فيها، وأجرى للأئمة، والقراء، والمؤذنين، أرزاقاً، وأمر بإصلاح البيمارستانات، وعمل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية، وقرر فيها فضلاء الأطباء، وأنصف المظلومين، وأسقط ما زيد في خراج الضياع، ولما عزل الخاقاني أكثر الناس التزوير على خطه بمسامحات وإدرات، فنظر علي بن عيسى في تلك الخطوط، فأنكرها، وأراد إسقاطها، فخاف ذم الناس، ورأى أن ينقذها إلى الخاقاني ليميز الصحيح من المزور عليه، فيكون الذم له، فلما عُرِضت تلك الخطوط عليه قال: هذه جميعها خطي وأنا أمرت بها؛ فلما عاد الرسول إلى علي بن عيسى بذلك قال: والله لقد كذب، وقد علم المزور من غيره، ولكنه اعترف بها ليحمده الناس ويؤمنوني؛ وأمر بها فأجيزت.

وقال الخاقاني لولده: يا بني هذه ليست خطي، ولكنه أنقذها إلي وقد عرف الصحيح من السقيم، ولكنه أراد أن يأخذ الشوك بأيدينا، ويبيّضنا إلى الناس، وقد عكست مقصوده.

ذكر خلاف سجستان وعودها إلى طاعة أحمد بن إسماعيل

الساماني

وفي هذه السنة أنفذ الأمير أبو نصر أحمد بن إسماعيل الساماني عسكرياً إلى سِجِسْتَان لِيَفْتَحَهَا ثانياً، وكانت قد عصت عليه، وخالف مَنْ بها.

وسبب ذلك أن محمد بن هُرْمُز، المعروف بالمولى الصندلي، كان خارجيًّا (٧٠/٨) المذهب، وكان قد أقام ببخارى وهو من أهل سِجِسْتَان، وكان شيخاً كبيراً، فجاء يوماً إلى الحسين بن علي بن محمد العارض يطلب رزقه، فقال له: إن الأصلح لمثلك من الشيوخ أن يلزم رباطاً يعبد الله فيه، حتى يوافيه أهله؛ فغافله ذلك، فانصرف إلى سِجِسْتَان والوالي عليها منصور بن إسحاق، فاستمال جماعة من الخوارج، ودعا إلى الصُّفَّار، وباع في السر لعمر بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث، وكان رئيسهم محمد بن العباس، المعروف بابن الحفَّار، وكان شديد القوة، فخرجوا، وقبضوا على منصور بن إسحاق أميرهم وحبسوه في سجن أَرْزُكٍ وخطبوا لعمر بن يعقوب، وسَلَّمُوا إليه سجستان.

فلما بلغ الخبر إلى الأمير أحمد بن إسماعيل سَيَّرَ الجيوش مع الحسين ابن علي، مرة ثانية إلى زَرْنَج، في سنة ثلاثمائة، فحصرها تسعة أشهر، فصعد يوماً محمد بن هرمز الصندلي إلى السور، وقال: ما حاجتكم إلى أذى شيخ لا يصلح إلا للزوم رباط؟ يذكرهم بما قاله العارض ببخارى؛ واتَّفَقَ أن الصندلي مات، فاستأمن عمرو بن يعقوب الصُّفَّار وابن الحفَّار إلى الحسين بن علي، وأطلقوا عن منصور بن إسحاق، وكان الحسين بن علي يكرم ابن الحفَّار ويقرُّه، فواطأ ابن الحفَّار جماعة على الفتك بالحسين، ففعلم الحسين ذلك، وكان ابن الحفَّار يدخل على الحسين، لا يحجب عنه، فدخل إليه يوماً وهو مشتمل على سيف، فأمر الحسين بالقبض عليه، وأخذه معه إلى بخارى.

ولما انتهى خبر فتح سِجِسْتَان إلى الأمير أحمد استعمل عليها سيمجور الدواتي، وأمر الحسين بالرجوع إليه، فرجع ومعه عمرو بن يعقوب وابن الحفَّار وغيرهما، وكان عوده في ذي الحجة سنة ثلاثمائة، واستعمل الأمير أحمد منصوراً ابن عمِّه إسحاق على نيسابور وأنفذه إليها، وتوفي ابن الحفَّار. (٧١/٨)

ذكر طاعة أهل صقلية للمقتدر وعودهم إلى طاعة المهدي العلوي

قد ذكرنا سنة سبع وتسعين ومائتين استعمال المهدي علي بن عمر على صقلية، فلما وليها كان شيخاً لَيِّناً، فلم يرض أهل صقلية بسيرته، فعزلوه عنهم، ولوا على أنفسهم أحمد بن قهر، فلما ولي سَيَّرَ سريةً إلى أرض قُلُوبَرِيَّة، فغنموا منها، وأسروا من الروم وعادوا.

وأرسل سنة ثلاثمائة ابنه علياً إلى قلعة طَسَبَرْمِين المحدثه في جيش، وأمره بحصرها، وكان غرضه إذا ملكها أن يجعل بها ولده وأمواله وعبيده، فإذا رأى من أهل صقلية ما يكره امتنع بها، فحصرها ابنه ستة أشهر، ثم اختلف العسكر عليه، وكرهوا المَقَام، فأحرقوا خيمته، وسواد العسكر، وأرادوا قتله، فمنعهم العرب.

ودعا أحمد بن قهر بن الناس إلى طاعة المقتدر، فأجابوه إلى ذلك، فخطب له بصقلية، وقطع خطبة المهدي، وأخرج ابن قهر جيشاً في البحر إلى ساحل إفريقية، فلقوا هناك أسطول المهدي ومقدمه الحسن بن أبي خنزير، فأحرقوا الأسطول، وقتلوا الحسن، وحملوا رأسه إلى ابن قهر، وسار الأسطول الصقلي إلى مدينة سَفَاقُس، فخرَّبوها، وساروا إلى طرابلس، فوجدوا فيها القائم بن المهدي، فعادوا.

ووصلت الخلع السود والألوية إلى ابن قهر من المقتدر، ثم أخرج مراكب (٧٢/٨) فيها جيش إلى قُلُوبَرِيَّة، فغنم جيشه، وخرَّبوا وعادوا؛ وسَيَّرَ أيضاً أسطولاً إلى إفريقية، فخرج عليه أسطول المهدي، فظفروا بالذي لابن قهر وأخذه، ولم يستقم بعد ذلك لابن قهر حال، وأدبر أمره، وطمع فيه الناس، وكانوا يخافونه.

وخاف منه أهل جرجنت، وعصرو أمره، وكاتبوا المهدي، فلما رأى ذلك أهل البلاد كاتبوا المهدي أيضاً، وكرهوا الفتنة، وثاروا بابن قهر، وأخذه أسيراً سنة ثلاثمائة وحبسوه، وأرسلوه إلى المهدي مع جماعة من خاصته، فأمره بقتلهم على قبر ابن خنزير، ففعلوا، واستعمل على صقلية أبا سعيد موسى بن أحمد، وسَيَّرَ معه جماعة كثيرة من شيوخ كتامة، فوصلوا إلى طَرَابُش.

وسبب إرسال العسكر معه أن ابن قهر كان قد كتب إلى المهدي يقول له: إن أهل صقلية يكثرون الشغب على أمرائهم، ولا يطيعونهم، وينهبون أموالهم، ولا يزول ذلك إلا بعسكر يقرهم ويزيل الرئاسة عن رؤسائهم، ففعل المهدي ذلك، فلما وصل معه العسكر خاف منه أهل صقلية، فاجتمع عليه أهل جرجنت وأهل المدينة وغيرها، فتحصن منهم أبو سعيد وعمل على نفسه سوراً إلى البحر، وصار المرسي معه، فاقتتلوا، فانهزم أهل صقلية، وقُتِلَ جماعة من رؤسائهم، وأسر جماعة، وطلب أهل المدينة الأسان، فأنتهم إلا رجلين هما أثارا الفتنة، فرضوا بذلك وتسلم الرجلين، وسَيَّرَهما إلى (٧٣/٨) المهدي بإفريقية، وتسلم المدينة، وهدم أبوابها، وأثناء كتاب المهدي يأمره بالعفو عن العامة.

ذكر وفاة عبد الله بن محمد صاحب الأندلس وولاية عبد الرحمن

الناصر

وفيها توفي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحاكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الأموي، صاحب الأندلس، في

ربيع الأول، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وكان أبيض، أصهب، أزرق، ربعة، يخضب بالسواد، وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً، وخلف أحد عشر ولداً ذكراً، أحدهم محمد المقتول، قتله في حد من الحدود، وهو والد عبد الرحمن الناصر.

ولما توفي ولي بعده ابن ابنه هذا محمد، واسمه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحاكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، وأمه أم ولد تسمى مرتة، وكان عمره لما قُتل أبوه عشرين يوماً.

وكانت ولايته من المستطرف لأنه كان شاباً، وبالحضرة أعمامه وأعمام أبيه، فلم يختلفوا عليه، وولي الإمارة والبلاد كلها، وقد اختلف (٧٤/٨) عليهم قبله، وامتنع حصون بكورة ربة وحصن بيشتر، فحاربه، حتى صلحت البلاد بناحيته، وكان من بطلطة أيضاً قد خالفوا، فقاتلهم حتى عادوا إلى الطاعة، ولم يزل يقاتل المخالفين حتى أذعنوا له، وأطاعوه ثباً وعشرين سنة، فاستقامت البلاد، وأمنت في دولته، ومضى لحال سبيله.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غُزل عبد الله بن إبراهيم المسمعي عن فارس وكرمان واستعمل عليها بدر الحماشي، وكان بدر يقتل أصحابه، واستعمل بعده على أصحابه علي بن وهسودان الديلمي.

وفيها ورد الخبر إلى بغداد، ورسول من عامل برقة، وهي من عمل مصر وما بعدها بأربعة فراسخ لمصر وما وراء ذلك من عمل المغرب، بخبر خارجي خرج عليهم، وأنهم ظفروا به وبمسكره، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ووصل على يد الرسول من أنوفهم وأذنانهم شيء كثير.

وفيها كثرت الأمراض والعلل ببغداد.

وفيها كلبت الكلاب والذئاب بالبادية، فأهلكت خلقاً كثيراً.

وفيها ولّي بشر الأفشيني طرسوس.

(٧٥/٨) وفيها قُتل مؤنس المظفر الحرّمين والثغور.

وفيها انتفضت الكواكب انتفضاً كثيراً إلى جهة المشرق.

وفيها مات إسكندروس بن لاون ملك الروم، وملك بعده ابنه، واسمه قسطنطين، وعمره اثنتا عشرة سنة.

وفيها توفي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، وكان مولده سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

وفيها توفي أحمد بن علي الحدّاد، وقيل سنة تسع وتسعين

ومائتين، وهو الصحيح.

وفيها توفي أحمد بن يعقوب ابن أخي العرق المقرئ، والحسين بن عمر ابن أبي الأخوص، وعلي بن طيفور النشوي، وأبو عمر القنّات.

وفيها، في ربيع الآخر، توفي يحيى بن علي بن يحيى المنجم المعروف بالنديم. (٧٦/٨)

سنة إحدى وثلاثمائة

في هذه السنة خُلع على الأمير أبي العباس بن المقتدر بالله، وقُتل أعمال مصر والمغرب، وعمره أربع سنين، واستخلف له على مصر مؤنس الخادم، وأبو العباس هذا هو الذي ولي الخلافة بعد القاهرة بالله، ولقب الراضي بالله.

وخُلع أيضاً على الأمير علي بن المقتدر، وولي الرّي، ودناوند، وقزوين، وزنجان، وأهر.

وفيها أحضر بدار عيسى رجل يُعرف بالحلاج ويكنى أبا محمد، وكان مشعبداً في قول بعضهم، وصاحب حقيقة في قول بعضهم، ومعه صاحب له، وقيل: إنه يدعي الربوبية، وصُلب هو وصاحبه ثلاثة أيام، كل يوم من بكرة إلى انتصاف النهار، ثم يؤمر بهما إلى الحبس، ومُنذَر أخباره واختلاف الناس فيه عند صلبه.

وفيها، في صفر، غُزل أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان عن الموصل، وقُتل يمين الطولوني المعونة بالموصل، ثم صُرف عنها في هذه السنة، واستعمل عليها تحرير الخادم الصغير.

وفيها خالف أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان على المقتدر فسُير إليه مؤنس (٧٧/٨) المظفر، وعلى مقدّمه بني بن نفيس، خرج إلى الموصل متصفاً صفر ومعه جماعة من القواد، وخرج مؤنس في ربيع الأول، فلما علم أبو الهيجاء بذلك قصد مؤنساً مستأناً من تلقاء نفسه، وورد معه إلى بغداد، فخلع المقتدر عليه.

وفيها توفي دميانة أمير الثغور ويحمر الروم، وقُتل مكانه ابنه بلك.

ذكر قتل الأمير أبي نصر أحمد بن إسماعيل الساماني

وولاية ولده نصر

وفي هذه السنة قُتل الأمير أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان وما وراء النهر، وكان مؤلماً بالصيد، فخرج إلى فرير متصيداً، فلما انصرف أمر بإحراق ما اشتمل عليه عسكره، وانصرف، فورد عليه كتاب نائبه بطبرستان، وهو أبو العباس صلوك، وكان يليها بعد وفاة ابن نوح بها، يخبره بظهور

المروزي، وكان عُبيد الله بن أحمد الجبّهاني يُسَمَّى، والرُّخَّج، وسعد الطالقاني بَغَزَنَة من جهة السعيد نصر بن أحمد، فصدّهما الفضل وخالد، وانكشف عنهما عبيد الله، وقبضا على سعد الطالقاني وأنفذه إلى بغداد، واستولى الفضل وخالد على غزنة وُيُسَّت، ثم اعتل الفضل، وانفرد خالد بالأمور، وعصى على الخليفة، فانفذ إليه دركاً أُنجا نجح الطولوني، فقاتله فهزّمه خالد.

(٨٠/٨) وسار خالد إلى كَرْمان، فانفذ إليه بدر جيشاً، فقاتلهم خالد، ففُجِرِح، وانهزم أصحابه، وأُخذ هو أسيراً، فمات، فحُمِل رأسه إلى بغداد.

ذكر خروج إسحاق بن أحمد وابنه إلياس

وفي هذه السنة، وهي إحدى وثلاثمائة، خرج على السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل عم أبيه إسحاق بن أحمد بن أسد وابنه إلياس، وكان إسحاق بسمرقند لَمَّا قُتِل أحمد بن إسماعيل ووليّ ابنه نصر بن أحمد، فلمّا بلغه ذلك عصى بها، وقام ابنه إلياس يأمر الجيش، وقوي أمرهما، فساروا نحو بخارى، فسار إليه حموية بن علي في عسكر، وكان ذلك في شهر رمضان، فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهمز إسحاق إلى سمرقند، ثم جمع وعاد مرة ثانية، فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهمز إسحاق أيضاً، وتبعه حموية إلى سمرقند فملكها قهراً.

واختفى إسحاق، وطلبه حموية، ووضع عليه العيون والرصد، فضاقت بإسحاق مكانه، فظاهر نفسه، واستأمن إلى حموية فأمنته وحمله إلى بخارى فأقام بها إلى أن مات.

وأما ابنه إلياس فإنه سار إلى فرغانة، وبقي بها إلى أن خرج ثانياً. (٨١/٨)

ذكر ظهور الحسن بن علي الأطروش

وفيها استولى الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على طَبْرِستان، وكان يلقب بالناصر. وكان سبب ظهوره ما ذكره، وقد ذكرنا فيما تقدّم عصيان محمد بن هارون على أحمد بن إسماعيل، وهربه منه، وغير ذلك، ثم إن الأمير أحمد بن إسماعيل استعمل على طبرستان أبا العباس عبد الله بن محمد بن نوح، فأحسن فيهم السيرة، وعدل فيهم، وأكرم من بها من العلويين، وبالف في الإحسان إليهم، ورأسل رؤساء الديلم، وهاداهم، واستمالهم.

وكان الحسن بن علي الأطروش قد دخل الديلم بعد قتل محمد بن زيد، وأقام بينهم نحو ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم على العشر، ويدافع عنهم ابن حسان ملكهم، فأسلم منهم خلق كثير، واجتمعوا عليه، وبنى في بلادهم

الحسن بن علي العلوي الأطروش بها، وتغلّب عليها، وأنه أخرجها عنها، فعمّ ذلك أحمد، وعاد إلى معسكره الذي أحرقه فنزل عليه فتطير الناس من ذلك.

وكان له أسد يربطه كل ليلة على باب مبيته، فلا يجسر أحد [أن] يقربه، فأغفلوا إحضار الأسد تلك الليلة، فدخل إليه جماعة من غلمانه، فذبحوه على سريره وهربوا، وكان قتله ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة (٧٨/٨) سنة إحدى وثلاثمائة، فحُمِل إلى بخارى فدفن بها، ولُقب حينئذ بالشهيد، وطلب أولئك الغلمان، فأخذ بعضهم قتل.

وولي الأمر بعده ولده أبو الحسن نصر بن أحمد، وهو ابن ثمانين سنين، وكانت ولايته ثلاثين سنة وثلاثة وثلاثين يوماً، وكان موته في رجب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، ولقب بالسعيد، ويأبى أصحاب أبيه ببخارى بعد دفن أبيه، وكان الذي تولى ذلك أحمد بن محمد بن الليث، وكان متولي أمر بخارى، فحمله على عاتقه، ويأبى له الناس، ولما حمله خدم أبيه ليظهر للناس خافهم وقال: أتريدون أن تقتلوني كما قتلتم أبي؟ فقالوا: لا إنما نريد أن تكون موضع أبيك أميراً فسكن روعه.

واستصغر الناس نصراً، واستضعفوه، وظنوا أن أمره لا يتنظم مع قوة عم أبيه الأمير إسحاق بن أحمد، وهو شيخ السامانية، وهو صاحب سمرقند، وميل الناس بما وراء النهر سوى بخارى إليه وإلى أولاده، وتولى تدبير دولة السعيد نصر بن أحمد أبو عبد الله محمد بن أحمد الجبّهاني، فأمضى الأمور، وضبط المملكة، وأتفق هو وحشم نصر بن أحمد على تدبير الأمر فأحكموه، ومع هذا، فإن أصحاب الأطراف طمعوا في البلاد، فخرجوا من النواحي على ما نذكروه.

فممن خرج عن طاعته أهل سجستان، وعم أبيه إسحاق بن أحمد بن أسد بسمرقند، وإبناه منصور وإلياس ابنا إسحاق، ومحمد بن الحسين بن مت، وأبو الحسن بن يوسف، والحسين بن علي المَرُورودي، ومحمد بن (٧٩/٨) حيد، وأحمد بن سهل، ولبلى بن نعمان، صاحب العلويين بطبرستان، ووقعه سيمجور مع أبي الحسن بن الناصر، وقراتكين، وما كان بن كالي، وخرج عليه إخوته يحيى ومنصور وإبراهيم، أولاد أحمد بن إسماعيل، وجعفر بن أبي جعفر، وابن داود، ومحمد بن إلياس، ونصر بن محمد بن مت، ومرداويج ووشمكير ابنا زيار، وكان السعيد مظفراً منصوراً عليهم.

ذكر أمر سجستان

ولما قُتِل الأمير أحمد بن إسماعيل خالف أهل سجستان على ولده نصر، وانصرف عنها سيمجور الدواتي، فولأها المقتدر بالله بداراً الكبير، فانفذ إليها الفضل بن حميد، وأبا يزيد خالد بن محمد

مساجد.

أبو الحسن بابن أبي الساج، فخرج معه يوماً متصيّداً، فسقط عن دابّته فبقي راجلاً، فمرّ به ابن أبي الساج فقال له: اركب معي على دابّتي! فقال: أيها الأمير لا يصلح بطلان على دابة.

ذكر القرامطة وقتل الجنابي

في هذه السنة قُتل أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي كبير القرامطة، قتله خادم له صقليّ في الحمام، فلما قتله استدعى رجلاً من أكابر (٨٤/٨) رؤسائهم وقال له: السيّد يستدعيك، فلما دخل قتله، ففعل ذلك بأربعة نفر من رؤسائهم، واستدعى الخامس، فلما دخل فطن لذلك، فأمسك بيد الخادم وصاح، فدخل الناس، وصاح النساء، وجرى بينهم وبين الخادم مناظرات ثم قتلوه.

وكان أبو سعيد قد عهد إلى ابنه سعيد، وهو الأكبر، فعجز عن الأمر، فغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان، وكان شهماً شجاعاً، ويرد من أخباره ما يُعلم به محله.

ولمّا قُتل أبو سعيد كان قد استولى على حجر والإحساء والقُفّيف والطائف، وسائر بلاد البحرين؛ وكان المقتدر قد كتب إلى أبي سعيد كتاباً ليُنّا في معنى من عنده من أسرى المسلمين، وينظره، ويقيم الدليل على فساد مذهبه، ونفّذه مع الرسل، فلما وصلوا إلى البصرة بلغهم خبر موته، فأعلموا الخليفة بذلك، فأمرهم بالمسير إلى ولده، فأتوا أبا طاهر بالكتاب، فأكرم الرسل، وأطلق الأسرى، ونفّذهم إلى بغداد، وأجاب عن الكتاب.

ذكر مسير جيش المهدي إلى مصر

في هذه السنة جهّز المهدي العساكر من إفريقية، وسيرها مع ولده أبي القاسم إلى الديار المصرية، فساروا إلى برقة، واستولوا عليها في ذي الحجة، وساروا إلى مصر، فملك الإسكندرية والفيوم، وصار في يده أكثر البلاد، (٨٥/٨) وضيّق على أهلها، فسير إليها المقتدر بالله مؤنساً الخادم في جيش كثيف، فحاربهم وأجلاهم عن مصر، فعادوا إلى المغرب مهزومين.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة كثرت الأمراض الدموية بالعراق، ومات بها خلق كثير، وأكثرهم بالحريّة، فإنها أغلقت بها دور كثيرة لفساء أهلها.

وفيهما توفي جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي ببغداد، والقاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر المقدّمّي الثقفي. (٨٦/٨)

سنة اثنين وثلاثمائة

في هذه السنة أمر علي بن عيسى الوزير بالمسير إلى طرسوس

وكان للمسلمين بإزائهم ثغور مثل: قزوين، وسالوس، وغيرهما، وكان بمدينة سالوس حصن منيع قديم، فهدمه الأتروش حين أسلم الديلم والجيل، ثم إنه جعل يدعوهم إلى الخروج معه إلى طبرستان، فلا يجيبونه إلى ذلك لإحسان ابن نوح، فاتفق أن الأمير أحمد عزل ابن نوح عن طبرستان وولاهها سلاماً، فلم يحسن سياسة أهلها، وهاج عليه الديلم، فقاتلهم وهزمهم، (٨٢/٨) واستقال عن ولايتها، فعزله الأمير أحمد، وأعاد إليها ابن نوح، فصلحت البلاد معه.

ثم إنه مات بها، واستعمل عليها أبو العباس محمد بن إبراهيم صعلوك، فعير رسوم ابن نوح، وأساء السيرة، وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهديه إليهم ابن نوح، فانتهم الحسن بن علي الفرصة، وهيج الديلم عليه ودعاهم إلى الخروج معه، فأجابوه وخرجوا معه، وقصدهم صعلوك، فالتقوا بمكان يسمى نوزوز وهو على شاطئ البحر، على يوم من سالوس، فانتهم ابن صعلوك، وقتل من أصحابه نحو أربعة آلاف رجل، وحصر الأتروش الباقين ثم أمّتهم على أموالهم وأنفسهم وأهلهم، فخرجوا إليه، فأمّتهم وعاد عنهم إلى أمل، وانتهى إليهم الحسن بن القاسم الداعي العلوي، وكان ختن الأتروش، فقتلهم عن آخرهم لأنه لم يكن آمنهم، ولا عاهدهم، واستولى الأتروش على طبرستان.

وخرج صعلوك إلى الرّي، وذلك سنة إحدى وثلاثمائة، ثم سار منها إلى بغداد، وكان الأتروش قد أسلم على يده من الديلم الذين هم وراء أسفيدروذ إلى ناحية أمل، وهم يذهبون مذهب الشيعة.

وكان الأتروش زيديّ المذهب، شاعراً مقلّداً، ظريفاً، علامة، إماماً في الفقه والدين، كثير المُجون، حسن النادرة.

حكى عنه أنه استعمل عبد الله بن المبارك على جرجان، وكان يُرمي (٨٣/٨) بالأئمة، فاستعجزه الحسن يوماً في شغل له وأنكره عليه، فقال: أيها الأمير! أنا احتاج إلى رجال أجلاذ يعينوني؛ فقال: قد بلغني ذلك.

وكان سبب صممه أنه ضُرب على رأسه بسيف في حرب محمد بن زيد فطرش؛ وكان له من الأولاد أبو الحسن، وأبو القاسم، وأبو الحسين، فقال يوماً لابنه أبي الحسن: يا بني! ها هنا شيء من الغراء نلصق به كاغداً؟ فقال: لا، إنما ها هنا بالخاء، فحقدها عليه، ولم يولّه شيئاً، وولّى ابنه أبا القاسم وأبا الحسين، وكان أبو الحسن ينكر تركه معزولاً، ويقول: أنا أشرف منهما لأن أمي حسنيّة، وأمهما أمة.

وكان أبو الحسن شاعراً، وله مناقضات مع ابن المعتز، ولحق

إلى نيسابور، واستخلف بهرة أخاه منصور بن علي، واستولى على نيسابور، فسير من بخارى إليه أحمد بن سهل لمحاربتة، فابتدأ أحمد بهرة فحصرها وأخذها، واستأمن إليه منصور بن علي، وسار أحمد من هرة إلى نيسابور، وكان وصوله إليها في ربيع الأول سنة ست وثلاثمائة، فآزال الحسين، وحصره، وقاتله، فانهزم أصحاب الحسين، وأسر الحسين بن علي، وأقام أحمد بن سهل بنيسابور.

وكان ينبغي أن نذكر استيلاء أحمد على نيسابور، وأسر الحسين سنة ست وثلاثمائة، لكن رأينا أن نجتمع سياق الحادثة لئلا ينسى أولها.

وأما ابن حيد فإنه كان بمرور، فلما بلغه استيلاء أحمد بن سهل على نيسابور، وأمره الحسين بن علي، سار إليه، فقبض عليه أحمد وأخذ ماله وسواده، وسيره والحسين بن علي إلى بخارى، فإما ابن حيد فإنه سير إلى خوارزم فمات بها.

وأما الحسين بن علي فإنه حبس ببخارى إلى أن خلّصه أبو عبد الله الجيهاني، وعاد إلى خدمة الأمير نصر بن أحمد، فبينما هو يوماً عنده إذ طلب الأمير نصر (٨٩/٨) ماء، فأتي بماء في كوز غير حسن الصنعة، فقال الحسين بن علي لأحمد بن حموية، وكان حاضراً: ألا يهدي والدك [إلى] الأمير من نيسابور من هذه الكيزان اللطاف النظاف؟ فقال أحمد: إنما يهدي أبي إلى الأمير مثلك ومثلي أحمد بن سهل، ومثل ليلى الديلمي، لا الكيزان؛ فاطرق الحسين مُفحماً، وأعجب نصرأ قوله.

ذكر خبر مصر مع العلوي المهدي

وفيها أنفذ أبو محمد عبيد الله العلوي الملقب المهدي جيشاً من إفريقية مع قائد من قواده يقال له حُباسَة إلى الإسكندرية، فغلب عليها.

وكان مسيره في البحر، ثم سار منها إلى مصر، فنزل بين مصر والإسكندرية، فبلغ ذلك المقتدر، فأرسل مؤنساً الخادم في عسكر إلى مصر لمحاربة حُباسَة، وأمدّه بالسلح والمال، فسار إليها، فالتقى العسكران في جمادى الأولى، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل من الفريقين جمع كثير، وجرح مثلهم، ثم كان بينهم وقعة أخرى بنحوها، ثم وقعة ثالثة ورابعة، فانهزم فيها المغاربة أصحاب العلوي، وقتلوا، وأسرُوا، فكان مبلغ القتلى سبعة آلاف مع الأسرى وهرب الباقون.

وكانت هذه الوقعة سلخ جمادى الآخرة، وعادوا إلى الغرب، فلما وصلوا إلى الغرب قتل المهدي حُباسَة.

(٩٠/٨) وفيها خالف عروية بن يوسف الكتامي على المهدي بالقيروان، واجتمع إليه خلق كثير من كُتامة والبرابر، فأخرج

لغزو الصائفة، فسار في ألفي فارس معونةً لبشر الخادم والي طرسوس، فلم يتيسر لهم غزو الصائفة، فغزوها شاتية في برد شديد وثلج.

وفيها تنحى الحسن بن علي الأطروش العلوي عن أمل، بعد غلبته عليها، كما ذكرناه، وسار إلى سالوس، ووجه إليه صعلوك جيشاً من الرئي، فلقبهم الحسن، وهزمهم، وعاد إلى أمل.

وكان الحسن بن علي حسن السيرة، عادلاً، ولم ير الناس مثله في عدله، وحسن سيرته، وإقامته الحق، وقد ذكره ابن مسكويه في كتاب تجارب الأمم فقال: الحسن بن علي الداعي، وليس به، إنما الداعي علي بن القاسم، وهو ختن هذا علي ما ذكرناه.

وفيها قبض المقتدر على أبي عبد الله الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص الجوهري، وأخذ ما في بيته من صنوف الأموال، وكان قيمته أربعة آلاف ألف دينار، وكان هو يدعي أن قيمة ما أخذ منه عشرون ألف ألف دينار وأكثر من ذلك. (٨٧/٨)

ذكر مخالفة منصور بن إسحاق

وفي هذه السنة خالف منصور بن إسحاق بن أحمد بن أسد على الأمير نصر بن أحمد، ووافقه على المخالفة الحسين بن علي المروزي، ومحمد بن حيد.

وكان سبب ذلك أن الحسين بن علي لما افتتح سجستان، الدفعة الأولى على ما ذكرناه، للأمير أحمد بن إسماعيل طمع أن يتولاها، فوليا منصور بن إسحاق هذا، فخالف أهلها، وحبسوا منصوراً، فأنفذ الأمير أحمد علياً أيضاً، فافتتحها ثانياً، وطمع أن يتولاها فوليا سيمجور، وقد ذكرنا هذا جميعه.

فلما وليها سيمجور استوحش علي لذلك، ونفر منه، وتحدث مع منصور بن إسحاق في الموافقة والتعاقد بعد موت الأمير أحمد، وتكون إمارة خراسان لمنصور، ويكون الحسين بن علي خليفته على أعماله، فاتفقا على ذلك، فلما قُتل الأمير أحمد بن إسماعيل كان منصور بن إسحاق بنيسابور، والحسين بهرة، فأظهر الحسين العصيان، وسار إلى منصور يحته على ما كانا اتفقا عليه، فخالف أيضاً، وخطب لمنصور بنيسابور فتوجه إليها من بخارى حموية بن علي في عسكر ضخم لمحاربتهما، فاتفق أن منصوراً مات، فقبل (٨٨/٨) إن الحسين بن علي سمّه، فلما قاربته حموية سار الحسين بن علي عن نيسابور إلى هرة وأقام بها.

وكان محمد بن حيد على شرطة بخارى مدة طويلة، فسير من بخارى إلى نيسابور لشغل يقوم به، فوردتها، ثم عاد عنها بغير أمر، فكتب إليه من بخارى بالإنكار عليه، فخاف على نفسه، فعبدل عن الطريق إلى الحسين بن علي بهرة، فسار الحسين بن علي من هرة

ربيعة، وهو يتولاها، فدافعها، فأمره بتسليم البلاد إلى عمّال السلطان، فامتنع.

وكان مؤنس الخادم غائباً بمصر لمحاربة عسكر المهدي العلوي، صاحب إفريقية، فجهّز الوزير رافعاً الكبير في جيشه وسبّره إلى الحسين بن حمدان، وكتب إلى مؤنس يأمره بالمسير إلى ديار الجزيرة لقتال الحسين، بعد فراغه من أصحاب العلوي، فسار رافع إلى الحسين بن حمدان.

وجمع لهم الحسين نحو عشرين ألف فارس، وسار إليهم فوصل إلى الحبشة وهم قد قاربوها، فلما رأوا كثرة جيشه علموا عجزهم عنه لأنهم كانوا أربعة آلاف فارس، فانهزوا إلى جانب دجلة، ونزلوا بموضع ليس له طريق إلا من وجه واحد، وجاء الحسين فتزل عليهم وحصرهم، ومنع الميرة عنهم من فوق ومن أسفل، فضاقت عليهم الأقوات والعلوفات، فأرسلوا إليه يذلون له أن يؤليه الخليفة ما كان بيده ويعود عنهم، فلم يجب إلى ذلك.

(٩٢/٨) ولزم حصارهم، وأدام قتلاهم إلى أن عاد مؤنس من الشام، فلما سمع العسكر بقرية قويت نفوسهم وضعفت نفوس الحسين ومن معه، فخرج العسكر إليه ليلاً وكسوه، فانهزم وعاد إلى ديار ربيعة، وسار العسكر فنزلوا على الموصل.

وسمع مؤنس خبر الحسين، وجَدَّ مؤنس في المسير نحو الحسين، واستصحب معه أحمد بن كيغَلُغ، فلما قرب منه راسله الحسين يعتذر، وتردّت الرسل بينهما، فلم يستقر حال، فرحل مؤنس نحو الحسين حتى نزل بلإزاء جزيرة ابن عمر، ورحل الحسين نحو أرمينية مع ثقله وأولاده، وتفرّق عسكر الحسين عنه، وصاروا إلى مؤنس.

ثم إن مؤنساً جهّز جيشاً في أثر الحسين، مقدّمهم بُلَيْق ومعه سيما الجزري، وجنى الصّفّواني، فتبعوه إلى تل فافان، فأروها خاوية على عروشها، قد قتل أهلها وأحرقها، فجذبوا في أتباعه فادركوه فقاتلوه، فانهزم من بقي معه من أصحابه، وأسر هو ومعه ابنه عبد الوهاب وجميع أهله وأكثر من صحبه، وقبض أملاكه.

وعاد مؤنس إلى بغداد على [طريق] الموصل والحسين معه، فأركب على جمل هو وابنه وعليهما البرانس، واللبود الطوال، وقمصان من شعر أحمر، وخُبس الحسين وابنه عند زبدان القهرمانة، وقبض المقتدر على أبي الهيجاء بن (٩٤/٨) حمدان وعلى جميع إخوته وخُبسوا، وكان قد هرب بعض أولاد الحسين بن حمدان، فجمع جمعاً ومضى نحو آبد، فأوقع بهم مستحفظها، وقتل ابن الحسين وأنفذ رأسه إلى بغداد.

المهدي إليهم مولاة غالباً، فاقتلوا قتالاً شديداً في محضر القيروان فقتل عروبة وبنو عمّه، وقتل معهم عالم لا يحصون، وجمعت رؤوس مقدّمهم في قفّة وحملت إلى المهدي، فقال: ما أعجب أمور الدنيا! قد جمعت هذه القفّة رؤوس هؤلاء، وقد كان يضيّق بعساكرهم قضاء المغرب.

ذكر عدة حوادث

فيها غزا بشر الخادم والي طَرَسُوس بلاد الروم، ففتح فيها وغنم وسبي، وأسر مائة وخمسين بطريقاً، وكان السبي نحواً من ألفي رأس.

وفيها أوقع مؤنس الخادم بناحية وادي الذئاب بمن هنالك من الأعراب من بني شيبان، فقتل منهم خلقاً كثيراً، ونهب بيوتهم فأصاب فيها من أموال التجار التي كانوا أخذوها بقطع الطريق ما لا يحصى.

وفيها في ذي الحجة ماتت بدعة المغنية، مولاة غريب مولى المأمون.

وفيها، في ذي الحجة، خرجت الأعراب من الحاجر على الحجاج، فقطعوا (٩١/٨) عليهم الطريق، وأخذوا من العين وما معهم من الأمتعة والجمال ما أرادوا، وأخذوا مائتين وخمسين امرأة؛ وحجّ بالناس هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

وفيها قُتِلَ أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل.

وفيها مات الشاه بن ميكال.

وفيها، في ليلة الأضحى، انقضّ ثلاثة كواكب كبار اثنان أول الليل وواحد آخره سوى كواكب صغار كثيرة.

وإلى آخر هذه السنة انتهى تاريخ أبي جعفر الطبري، رحمه الله، ورأيت في بعض النسخ إلى آخر سنة ثلاث وثلاثمائة، وقيل إن سنة ثلاث هي زيادة فيه، وليس من تاريخ الطبري، والله أعلم.

وفيها توفي إسحاق بن أبي حسان الأنماطي، وإبراهيم بن شريك، وأبو عيسى بن القَرَاز، وأبو العباس البرّاني، وعلي بن محمد بن نصر بن بسام الشاعر وله نيف وسبعون سنة. (٩٢/٨)

سنة ثلاث وثلاثمائة

ذكر أمر الحسين بن حمدان

في هذه السنة خرج الحسين بن حمدان بالجزيرة عن طاعة المقتدر.

وسبب ذلك أن الوزير علي بن عيسى طالبه بمال عليه من ديار

ذكر بناء المهديّة

في هذه السنة خرج المهدي بنفسه إلى تونس وقرطاجنة وغيرهما يرتاد موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة.

وكان يجد في الكتب خروج أبي يزيد على دولته، ومن أجله بنى المهديّة، فلم يجد موضعاً أحسن ولا أحصن من موضع المهديّة، وهي جزيرة متصلة بالبرّ كهينة كصفّ متصلة بيزند، فبنّاها وجعلها دار ملكه، وجعل لها سوراً محكماً وأبواباً عظيمة وزّن كل مصراع مائة قطار.

وكان ابتداء بنائها يوم السبت لخمس خلون من ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثمائة، فلما ارتفع السور أمر راعياً [أن] يرسم بالقوس سهماً إلى ناحية الغرب، فرمى سهمه فانتهى إلى موضع المصلّى، فقال: إلى موضع هذا يصل صاحب الحمار، يعني أبا يزيد الخارجي، لأنه كان يركب حماراً.

وكان يأمر الصّاعق بما يعملون، ثم أمر أن ينقردار صناعة في الجبل (٩٥/٨) تسع مائة شيني، وعليها باب مغلق؛ ونقر في أرضها أهراء للطعام، ومصانع للماء، وبنى فيها القصور والدور، فلما فرغ منها قال: اليوم أمنت على الفاطميّات، يعني بناته، وارتحل عنها.

ولما رأى إعجاب الناس بها، وبحصانتها، كان يقول: هذا لساعة من نهار، وكان كذلك لأن أبا يزيد وصل إلى موضع السهم، ووقف فيه ساعة، وعاد ولم يظفر.

ذكر عدة حوادث

فيها أغارت الروم على الثغور الجزريّة، وقصدوا حصن منصور، وسبوا من فيه، وجسرى على الناس أمر عظيم، وكانت الجنود متشاغلة بأمر الحسين بن حمدان.

وفيها عاد الحُجاج وقد لقوا من العطش والخوف شدة، وخرج جماعة من العرب على أبي حامد ورفاء بن محمد المرتب على الثعلبيّة لحفظ الطريق، فقاتلهم، وظفر بهم، وقتل جماعة منهم، وأسر الباقيين وحملهم إلى بغداد، فأمر المقتدر بتسليمهم إلى صاحب الشرطة ليحبسهم، فثارت بهم العامة فقتلوهم وألقوهم في دجلة.

وفيها ظهر بالجامدة إنسان زعم أنه علوي فقتل العامل بها ونهبها، وأخذ (٩٦/٨) من دار الخراج أموالاً كثيرة، ثم قُتل بعد ظهوره بيسير، وقُتل معه جماعة من أصحابه، وأسر جماعة.

وفيها ظهرت الروم وعليهم الغنيط فأوقعوا بجماعة من مقاتلة طرسوس والغزاة، فقتلوا منهم نحو ستمائة فارس، ولم يكن للمسلمين صائفة.

وفيها خرج مليح الأرمني إلى مَرَعَش، فعات في بلدها، وأسر جماعة ممن حولها وعاد.

وفيها وقع الحريق ببغداد في عدة مواضع، فاحترق كثير منها.

وفيها توفي أبو عبد الرحمن أحمد بن شبيب النسائي، صاحب كتاب السنن، بمكة، ودفن بين الصفا والمروة؛ والحسن بن سفيان النسوي.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن عينونة بنصيين، وكان يتولى أعمال الخراج والضياع بديار ربيعة، ولما توفي وليّ ابنه الحسن مكانه.

وفيها توفي أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجُبائيّ المعتزلي.

وفيها توفي جُست بن المزرع العبدي، وهو ابن أخت الجاحظ، توفي بدشق. (٩٧/٨)

سنة أربع وثلاثمائة

ذكر عزل ابن وهسودان عن أصبهان

في هذه السنة، في المحرم، أرسل علي بن وهسودان، وهو متولّي الحرب بأصبهان، غلاماً كان رثاه وتبناه إلى أحمد بن شاه، متولّي الخراج، في حاجة فلقية ركباً فكلّمه في حاجة مولاه، ورفع صوته، فشمته أحمد وقال: يا مؤاجر تكلمني بهذا على الطريق! وحرد عليه، فعاد إلى مولاه باكياً، وعزّقه ذلك، فقال: صدق، لولا أنك مؤاجر لقتلت؛ فعاد الغلام فلقية وهو راكب فقتله، فأنكر الخليفة ذلك، وصرف علي بن وهسودان عن أصبهان، وولّى مكانه أحمد بن مسرور البلخي، وأقام ابن وهسودان بنواحي الجبل. (٩٨/٨)

ذكر وزارة ابن الفرات الثانية وعزل علي بن عيسى

في هذه السنة، في ذي الحجة، عُزل علي بن عيسى عن الوزارة، وأعيد إليها أبو الحسن علي بن الفرات.

وكان سبب ذلك أن أبا الحسن بن الفرات كان محبوساً، وكان المقتدر يشاوره وهو في محبسه، ويرجع إلى قوله؛ وكان علي بن عيسى يمضي أمر الوزارة، ولم يتبع أصحاب ابن الفرات وأسبابه ولا غيره، وكان جميل المحضر، قليل الشر، فبلغه أن أبا الحسن بن الفرات قد تحدّث له جماعة من أصحاب الخليفة في إعادته إلى الوزارة، فسارع واستعفى من الوزارة، وسأل في ذلك، فأنكر المقتدر عليه، ومنعه من ذلك، فسكن.

فلما كان آخر ذي القعدة جاءت أم موسى القهرمانة لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية التي للدار من الكسوات

أنفذ إليه بعهد على هذه الأماكن، وأنه افتتحها وطردها عنها المتغلبين عليها، ويعتذر بذلك، ويذكر كثرة ما أخرجه، فعظم ذلك على المقتدر، وأمر ابن الفرات أن يسأل علي بن عيسى عن الذي ذكره يوسف، فأحضره وسأله، فأنكر ذلك وقال: سلوا الكتاب وخاشية الخليفة، فإن العهد واللواء لا بد أن يسير بهما بعض خدم الخليفة، أو بعض قواده؛ فعلموا صدقه.

وكتب ابن الفرات إلى ابن أبي الساج ينكر عليه تعرضه لهذه البلاد، وكذبه على الوزير علي بن عيسى، وجَهَّز العساكر لمحاربتة، وكان مسير العساكر سنة خمس وثلاثمائة. (١٠١/٨)

وكان المقدّم على العسكر خاقان المُفْلحي، ومعه جماعة من القوّاد كأحمد بن مسرور البُلخي، وسيما الجزري، ونحير الصغير، فساروا، ولقوا يوسف، واقتلوا، فزهم يوسف، وأسر منهم جماعة، وأدخلهم الرّئي مشهورين على الجمال، فسبّر الخليفة مؤسّاً الخادم في جيش كثيف إلى محاربته، فسار، وانضم إليه العسكر الذي كان مع خاقان، فصُرف خاقان عن أعمال الجبل، ووليها نحير الصغير.

وسار مؤنس فاتاه أحمد بن علي، وهو أخو محمد بن علي بن صعلوك، مستأمناً، فآكرمه ووصله، وكتب ابن أبي الساج يسأل الرضى، وأن يقطع على أعمال الري وما يليها على سبعمائة ألف دينار لبيت المال، سوى ما يحتاج إليه الجند وغيرهم، فلم يجبه المقتدر إلى ذلك، ولو بذل ملء الأرض لما أقرّه على الري يوماً واحداً لإفدائه على التزوير، فلما عرف ابن أبي الساج ذلك سار عن الري بعد أن أخربها، وجبى خراجها في عشرة أيام.

وقلّد الخليفة الري وقزوین وأبهر وصيفاً البكتمري، وطلب ابن أبي الساج أن يقطع على ما كان بيده من الولاية، فأشار ابن الفرات بإجابه إلى ذلك، فعارضه نصر الحاجب، وابن الحواري، وقالوا: لا يجوز أن يجاب إلى ذلك إلا بعد أن يطأ البساط.

ونسب ابن الفرات إلى مواطاة ابن أبي الساج والميل معه، فحصل بينهما وبين ابن الفرات عداوة، فامتنع المقتدر من إجابه إلى ذلك إلى أن يحضر في (١٠٢/٨) خدمته بنفسه، فلما رأى يوسف أن دمه على خطر إن حضر لخدمته حارب مؤنسّاً، فانهزم مؤنس إلى زنجان، وقُتل من قوّاده سيما بن بويه، وأسر جماعة منهم، فيهم هلال بن بدر، فأدخلهم أردبيل مشتهرين على الجمال.

وأقام مؤنس بزنجان يجمع العساكر، ويستمد الخليفة، وكتبه ابن أبي الساج في الصلح، وتراسلاً في ذلك، وكتب مؤنس إلى الخليفة، فلم يجبه إلى ذلك، فلما كان في المحرم سنة سبع وثلاثمائة، والوزير يومئذ حامد بن العباس، اجتمع لمؤنس عسكر كبير، فسار إلى يوسف، فتواقعا على باب أردبيل، فانهزم عسكر

والنفقات، فوصلت إليه وهو نائم، فقال لها حاجبه: إنه نائم ولا أجسر [أن] أوقظه، فاجلسي في الدار ساعة حتى يستيقظ؛ فغضبت من هذا وعادت، واستيقظ علي بن عيسى في الحال، فأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر، فلم يُقبَل منه، ودخلت على المقتدر وتخرّصت على الوزير عنده وعند أمه، فعزله عن الوزارة، وقبض عليه ثامن ذي القعدة. (٩٩/٨)

وأعيد ابن الفرات إلى الوزارة، وضمن على نفسه أن يحمل كل يوم إلى بيت المال ألف دينار وخمسمائة دينار، فقبض على أصحاب الوزير علي بن عيسى وعاد قبض على الخاقاني الوزير وأصحابه، واعترض العمّال وغيرهم، وعاد عليهم بأموال عظيمة ليقوم بما ضمنه.

وكان علي بن عيسى قد تعجّل بمال من الخراج لينفقه في العيد، فأتبع به ابن الفرات.

وكان قد كاتب العمال بالبلاد كفارس، والأهواز، وبلاد الجبل، وغيرها في حمل المال، وحنهم على ذلك غاية الحث، فوصل بعد قبضه، فادّعى ابن الفرات الكفاية والنهضة في جمع المال.

وكان أبو علي بن مُقْلَة مستخفياً منذ قبض ابن الفرات إلى الآن، فلما عاد ابن الفرات إلى الوزارة ظهر، فأشخصه ابن الفرات وقربه.

ذكر أمر يوسف بن أبي الساج

كان يوسف بن أبي الساج على أذربيجان وأرمينية قد ولي الحرب، والصلاة، والأحكام، وغيرها، منذ أول وزارة ابن الفرات الأولى، وعليه مال يؤديه إلى ديوان الخلافة، فلما عَزَلَ ابن الفرات وولّى الخاقاني الوزارة، وبعده علي بن عيسى، طمع فأخّر حمل بعض المال، فاجتمع له ما قويت به نفسه على الامتناع، وبقي كذلك إلى هذه السنة. (١٠٠/٨)

فلما بلغه القبض على الوزير علي بن عيسى أظهر أن الخليفة أنفذ له عهداً بالرّئي، وأن الوزير علي بن عيسى سعى له في ذلك، فأنفذه إليه، وجمع العساكر وسار إلى الرّئي وبها محمد بن علي بن صعلوك يتولى أمرها لصاحب خراسان، وهو الأمير نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني، وكان صعلوك قد تغلب على الرّئي وما يليها، أيام وزارة علي بن عيسى، ثم أرسل إلى ديوان الخلافة فقاطع عليها بمال يحمله، فلما بلغه مسير يوسف بن أبي الساج نحوه سار إلى خراسان، فدخل يوسف الرّئي واستولى عليها وعلى قزوین وزنجان وأبهر، فلما بلغ المقتدر فعله، وقوله إن علي بن عيسى أنفذ له العهد واللواء بذلك، أنكره واستعظمه.

وكتب يوسف إلى الوزير ابن الفرات يعرفه أن علي بن عيسى

أمره وكادوا يملكون البلد، فبلغ أهل البلد أن زيداً معه قيود وأغلال لأعيانهم، فاجتمعوا مع كثير، وشدوا منه، وقاتلوا معه، فهزموا عسكر الخليفة، وأسروا زيداً، فوجدوا معه القيود والأغلال، فجمعوها في رجلية وعقته.

وكتب كثير إلى الخليفة يتبرأ من ذلك، ويجعل الذنب فيه لأهل البلد، فأرسل الخليفة إلى بدر الحمّامي يأمره أن يسير بنفسه إلى قتال كثير، فتجهّز (١٠٥/٨) بدر، فلما سمع كثير ذلك خاف، فأرسل يطلب المقاطعة على مال يحمل كل سنة، فأجيب إلى ذلك، وقوطع على خمسمائة ألف درهم، وقُررت البلاد عليه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في الصيف، خافت العامة ببغداد من حيوان كانوا يسمّونه الزبذب، ويقولون إنهم يرونه في الليل على سطوحهم، وإنه يأكل أطفالهم، وربما عض يد الرجل وتدي المرأة فقتعهما وهرب بهما، فكان الناس يتحارسون، ويستراعقون، ويضربون بالطشوش والصواني وغيرها ليفزعوه، فارتجّت بغداد لذلك. ثم إن أصحاب السلطان صادوا ليلة حيواناً أبلق بسواد، قصير اليدين والرجلين، فقالوا: هذا هو الزبذب، وصلبوه على الجسر، فسكن الناس، وهذه ذابة تسمى طبرة، وأصاب اللصوص حاجتهم لاشتغال الناس عنهم.

وفيها توفي الناصر العلوي، صاحب طبرستان، في شعبان وعمره تسع وسبعون سنة، وبقيت طبرستان في أيدي العلوية إلى أن قُتل الداعي، وهو الحسن بن القاسم، سنة ست عشرة وثلاثمائة على ما نذكره. (١٠٦/٨)

وفيها خالف أبو يزيد خالد بن محمد المادرائي على المقتدر بالله بكرمان، وكان يتولى الخراج، وسار منها إلى شيراز يريد التغلب على فارس، فخرج إليه بدر الحمّامي فحاربه وقتله، وحُمِل رأسه إلى بغداد وطيف به.

وفيها سار مؤنس المظفر إلى بلاد الروم لغزاة الصائفة، فلما صار بالموصل قلد سبّك المُلحمي بآزبَدِي وَقَرْدِي، وقُلّد عثمان العززي مدينة بلد، وباعيناثا، وسنجار، وقُلّد وصيفاً البكتمري باقي بلاد ريعة، وسار مؤنس إلى مَلْطِيَة وغزا فيها، وكتب إلى أبي القاسم علي بن أحمد بن بسطام أن يغزو من طُرسوس في أهلها، ففعل.

وفتح مؤنس حصوناً كثيرة من الروم، وأثر آثاراً جميلة، وعتب عليه أهل الثغور وتالوا: لو شاء لفعل أكثر من هذا؛ وعاد إلى بغداد، فأكرمه الخليفة وخلع عليه.

وفيها توفي بِمُوتُ بن المزرع العبدي، وهو ابن أخت

يوسف، وأسر يوسف وجماعة من أصحابه، وعاد بهم مؤنس إلى بغداد، فدخلها في المحرم أيضاً، وأدخل يوسف أيضاً ببغداد مشتهراً على جمل، وعليه برنس بأذناب الثعالب، فأدخل إلى المقتدر، ثم حبس بدار الخليفة عند زيدان القهرمان.

ولما ظفر مؤنس بابن أبي الساج قلد علي بن وهسودان أعمال الري، ودنباوند، وقزوین، وأبهر، وزنجان، وجعل أموالها لرجاله، وقُلّد أصبهان، ومَم، وقاشان، وسأوة لأحمد بن علي بن صعلوك، وسار عن أذربيجان. (١٠٣/٨)

ذكر حال هذه البلاد بعد مسير مؤنس

لما سار مؤنس عن أذربيجان إلى العراق وثب سبّك غلام يوسف بن أبي الساج على بلاد أذربيجان، فملكها، واجتمع إليه عسكر عظيم، فأنفذ إليه مؤنس محمد بن عبيد الله الفارقي، وقُلّدته البلاد، وسار إلى سبّك وحاربه، فانهزم الفارقي وسار إلى بغداد، وتمكّن سبّك من البلاد، ثم كتب إلى الخليفة يسأل أن يقاطع على أذربيجان، فأجيب إلى ذلك، وقُرر عليه كل سنة مائتان وعشرون ألف دينار، وأُنْفِذت إليه الخلع والعهد، فلم يقف على ما قرّره.

ثم وثب أحمد بن مسافر، صاحب الطرم، على ابن أخيه علي بن وهسودان وهو مقيم بناحية قزوین، فقتله على فراشه، وهرب إلى بلده، فاستعمل مكان علي بن وهسودان وصيفاً البكتمري، وقُلّد محمد بن سليمان صاحب الجيش أعمال الخراج بها.

وسار أحمد بن علي بن صعلوك من مَم إلى الري، فدخلها، فأنفذ الخليفة ينكر عليه ذلك ويأمره بالعود إلى قم فعاد، ثم إنه أظهر الخلاف، وصرف عمّال الخراج عن قم، واستعد للمسير إلى الري، فكتب تحريير الصغير، وهو على همذان، ليسير هو ووصيف إلى الري لمنع أحمد بن علي عنها، فساروا إليها، فلقبهم أحمد بن علي على باب الري، فهزمهم أحمد، وقُتل محمد (١٠٤/٨) ابن سليمان، واستولى أحمد على الري، وكتب نصراً الحاجب ليصلح أمره مع الخليفة، ففعل ذلك، وأصلح أمره، وقرر عليه عن الري ودنباوند وقزوین وزنجان وأبهر مائة وستين ألف دينار محمولة كل سنة إلى بغداد، فنزل أحمد عن قم، فاستعمل الخليفة عليها من ينظر فيها.

ذكر تغلب كثير بن أحمد على سجستان ومحاربته

كان كثير بن أحمد بن شهور قد تغلب على أعمال سجستان، فكتب الخليفة إلى بدر بن عبد الله الحمّامي، وهو متقلّد أعمال فارس، يأمره أن يرسل جيشاً يحاربون كثيراً، ويؤمر عليهم دردا، ويستعمل على الخراج بها زيد بن إبراهيم، فجهّز بدر جيشاً كثيراً وسيّره، فلما وصلوا قاتلهم كثير، فلم يكن له بهم قوة، وضعف

وفيها غزا جُنِّي الصفواني بلاد الروم، فغنم ونهب وسبى وعاد سالماً. (١٠٩/٨)

وفي هذه السنة مات أبو خليفة المحدث البصري.

وفيها، في جمادى الأولى، مات أبو جعفر بن محمد بن عثمان العسكري المعروف بالسَّمان، ويُعرف أيضاً بالعمري، رئيس الإنامية، وكان يدعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر، وأوصى إلى أبي القاسم بن الحسين بن روح.

وفي آخرها توفي أحمد بن محمد بن محمد بن شريح وكان عالماً بمذهب الشافعي. (١١٠/٨)

سنة ست وثلاثمائة

ذكر عزل ابن الفرات ووزارة حامد بن العباس

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، قُبض على الوزير أبي الحسن بن الفرات، وكانت مدة وزارته هذه، وهي الثانية، سنة واحدة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً.

وكان سبب ذلك أنه آخر إطلاق أرزاق الفرسان، واحتج عليهم بضيق الأموال، وأنها أخرجت في محاربة ابن أبي الساج، وأن الارتفاع نقص بأخذ يوسف أموال الري وأعمالها، فشغب الجند شغباً عظيماً، وخرجوا إلى المصلّى، والتمس ابن الفرات من المقتدر إطلاق مائتي ألف دينار من بيت المال الخاص ليضيف إليها مائتي ألف دينار يحصلها، ويصرف الجميع في أرزاق الجند، فاشتد ذلك على المقتدر، وأرسل إليه: إنك ضمنت أنك ترضي جميع الأجناد، وتقوم بجميع النفقات الراتبية على العادة الأولى وتحمل بعد ذلك ما ضمنت أنك تحمله يوماً بيوم، فأراك تطلب من بيت المال الخاص؛ فاحتج (١١١/٨) بقلّة الارتفاع، وما أخذه ابن أبي الساج من الارتفاع وما خرج على محاربه؛ فلم يسمع المقتدر حجته وتنكر له عليه.

وقيل: كان سبب قبضه أن المقتدر قيل له: إن ابن الفرات يريد إرسال الحسين بن حمدان إلى ابن أبي الساج ليحاربه، وإذا صار عنده اتفاقاً عليك؛ ثم إن ابن الفرات قال للمقتدر في إرسال الحسين إلى ابن أبي الساج، فقتل ابن حمدان في جمادى الأولى، وقبض على ابن الفرات في جمادى الآخرة.

ثم إن بعض العمال ذكر لابن الفرات ما يتحصل لحامد بن العباس من أعمال واسط زيادة على ضمانه، فاستكثره، وأمره أن يكتابه بذلك، فكتابه، فخاف حامد أن يؤخذ ويطلب بذلك المال، فكتب إلى نصر الحاجب وإلى والده المقتدر، وضمن لهما مالاً ليتحدثا له في الوزارة، فذكر للمقتدر حاله وسعة نفسه، وكثرة

الجاحظ، وسليمان بن محمد بن أحمد أبو موسى النحوي المعروف بالحامض؛ أخذ العلم عن ثعلب، وكانت وقاته في ذي الحجة، وكان من أصحاب ثعلب، ويوسف بن الحسين بن علي بن يعقوب الرازي، وهو من أصحاب ذي النون المصري، وهو صاحب قصة الفارة معه. (١٠٧/٨)

سنة خمس وثلاثمائة

في هذه السنة، في المحرم، وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء، فأكرماً كثيراً، وأدخلا على الوزير وهو في أكمل أهبة، وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة، وأدبا الرسالة إليه ثم دخلا على المقتدر، وقد جلس لهما، واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة، وأدبا الرسالة. فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الفداء، وسير مؤنس الخادم ليحضر الفداء، وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه، وسير معه جمعاً من الجنود، وأطلق لهم أرزاقاً واسعة، وأنفذ معه مائة ألف وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين، وسار مؤنس والرسول، وكان الفداء على يد مؤنس.

وفيها أطلق أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان، وإخوته، وأهل بيته من الحبس، وكانوا محبوسين بدار الخليفة، وقد تقدّم ذكر حبسهم وسببه.

وفيها مات العباس بن عمرو الغنوي وكان متقلداً أعمال الحرب بديار (١٠٨/٨) مصر، فجعل مكانه وصيف البكتري، فلم يقدر على ضبط العمل، فعزل، وجعل مكانه جُنِّي الصفواني، فضبطه أحسن ضبط.

وفي هذه السنة كانت بالبصرة فتنة عظيمة، وسببها أنه كان الحسن بن الخليل بن رمال متقلداً أعمال الحرب بالبصرة، وأقام بها سنين، وجرت بينه وبين العامة من مضر وريبعة فتن كثيرة، وسكنت، ثم ثارت بينهم فتنة اتصلت، فلم يمكنه الخروج من منزله برحبة بني نمير، واجتمع الجند كلهم معه، وكان لا يوجد أحد منهم في طريق الإقتل، حتى حوصرت، وغُورَت القناة التي يجري فيها الماء إلى بني نمير، فاضطر إلى الركوب إلى المسجد الجامع، فقتل من العامة خلقاً كثيراً.

فلما عجز عن إصلاحهم خرج هو ومعه الأعيان من أهل البصرة إلى واسط، فعزل عنها، واستعمل أبو دلف هاشم بن محمد الخزاعي عليها فبقي نحو سنة وصُرف عنها، ووليها سُبُك المفلحي نيابة عن شفيح المقتدري.

وفيها عُقد لشمال الخادم على الغزاة في بحر الروم، وسار.

اتباعه، وأنه له أربع مائة مملوك يحملون السلاح؛ واتفق ذلك عند نفرة المقتدر عن ابن الفرات، فأمره بالحضور من واسط، فحضر، وقبض على ابن الفرات وولده المحسن وأصحابهما وأتباعهما.

ذكر إرسال المهدي العلوي العساكر إلى مصر

وفي هذه السنة جهّز المهدي صاحب إفريقية جيشاً كثيفاً مع ابنه أبي القاسم، وسيّروهم إلى مصر، وهي المرة الثانية، فوصل إلى الإسكندرية في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثمائة، فخرج عامل المقتدر عنها، ودخلها القائم، ورحل إلى مصر، فدخل الجزيرة، وملك الأشمونين وكثيراً من الصعيد، وكتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى الدخول في طاعته فلم يقبلوا منه. (١١٢/٨)

ووردت بذلك الأخبار إلى بغداد، فبعث المقتدر بالله مؤنس الخادم في شعبان، وجد في السير فوصل إلى مصر، وكان بينه وبين القائم عدة وقعات، ووصل من إفريقية ثمانون مركباً نجدة للقائم، فارست بالإسكندرية، وعليها سليمان الخادم، ويعقوب الكتامي، وكانا شجاعين، فأمر المقتدر بالله أن يسيّر مراكب طرسوس إليهم، فسار خمسة وعشرون مركباً، وفيها النبط والغدد، ومقدمها أبو اليمن، فالتقت المراكب بالمراكب، واقتتلوا على رشيد، فظفر أصحاب مراكب المقتدر، وأحرقوا كثيراً من مراكب إفريقية، وهلك أكثر أهلها، وأسر منهم كثير، وفي الأسرى سليمان الخادم، ويعقوب، وقُتل من الأسرى كثير، وأطلق كثير، ومات سليمان في الحبس بمصر، وحُمِل يعقوب إلى بغداد، ثم هرب منها وعاد إلى إفريقية.

وأما عسكر القائم فكان بينه وبين مؤنس وقعات كثيرة، وكان الظفر لمؤنس فلقّب حينئذ بالمظفر.

ووقع الوياء في عسكر القائم، والغلاء، فمات منهم كثير من الناس والخيّل، فعاد من سلم إلى إفريقية، وسار عسكر مصر في أثرهم، حتى أبعدها، فوصل القائم إلى المهديّة في رجب من السنة. (١١٥/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة غزا بشر الأفشيني بلاد الروم، فافتتح عدة حصون، وغنم، وسلم؛ غزا ثمل في بحر الروم، فغنم، وسبى، وعاد؛ وكان على المرسل أبو أحمد بن حماد الموصلي.

وفيها دخل جنّي الصفواني بلاد الروم، فنهب، وخرب، وأحرق، وفتح وعاد، فقرئت الكتب على المنابر ببغداد بذلك.

وفيها وقعت فتنة ببغداد بين العامة والحنابلة، فأخذ الخليفة جماعة منهم وسيّروهم إلى البصرة فحبسوا.

وفيها أمر المقتدر ببناء يمارستان، فُبني، وأجري عليه النفقات الكثيرة، وكان يسمى اليمارستان المقتدري.

ولما وصل حامد إلى بغداد أقام ثلاثة أيام في دار الخليفة، فكان يتحدث مع الناس، ويصاحكهم، ويقوم لهم، فبان للخدم ولأبي القاسم بن الحواري وحاشية الدار قلّة معرفته بالوزارة، وقال له حاجبه: يا مولانا! الوزير يحتاج إلى لبّسه، وجلبّسه، وعبّسه؛ فقال له: تعني أن تلبس، وتقعد، فلا تقوم لأحد، ولا تضحك في وجه أحد، ولا تحدث أحداً؟ قال: نعم. (١١٢/٨)

قال حامد: إن الله أعطاني وجهاً طلقاً، وخلقاً حسناً، وما كنت بالذي أعبس وجهي، وأقبح خلقي لأجل الوزارة؛ فعابوه عند المقتدر، ونسبوه إلى الجهل بأمر الوزارة، فأمر المقتدر بإطلاق علي بن عيسى من محبسه، وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد، فكان يراجع في الأمور ويصدر عن رأيه، ثم إنه استبد بالأمور دون حامد، ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة ومعناه لعلّي، حتى قيل فيها:

هنا وزير بلا سواي وفاسواذ بلا وزير
ثم إن حامداً أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله، ووكل مناظرته علي بن أحمد المادرائي ليصحح عليه الأموال، فلم يقدر على إثبات الحجّة عليه، فانتدب له حامد، وسبّه، ونال منه، وقام إليه فلكنه.

وكان حامد سفيهاً فقال له ابن الفرات: أنت على بساط السلطان، وفي دار المملكة، وليس هذا الموضع مما تعرفه من يتّبر تقسمه، أو غلّة تستفضل في كيلها، ولا هو مثل آكار تشتمه؛ ثم قال لشفيح اللؤلؤي: قل لأمر المؤمنين عني إن حامداً إنما حمّله على الدخول في الوزارة، وليس من أهلها، إنني أوجبت عليه أكثر من ألفي ألف دينار من فضل ضمانه، وألححت في مطالبته بها، فظن أنها تندفع عنه بدخوله في الوزارة، وأنه يضيف إليها غيرها، فاستشاط حامد، وبالح في شتمه، فأنفذ المقتدر، فأقام ابن الفرات من مجلسه، وردّه إلى محبسه، وقال علي بن عيسى، ونصر الحاجب لحامد: قد جيئت (١١٣/٨) علينا وعلى نفسك جنابة عظيمة بما فعلته بابن الفرات، وأيقظت منه شيطاناً لا ينأى.

ثم إن ابن الفرات صودر على مال عظيم، وضرب ولده المحسن وأصحابه، وأخذ منهم أموالاً جمّة.

وفي هذه السنة غزل نزار عن شرطة بغداد، وجعل فيها نجح الطولوني، وجعل في الأرباع فقهاء يكون عمل أصحاب الشرطة بفتواهم، فضعفت هيئة السلطنة بذلك، وطمع للصوص والعيّارون، وكثرت الفتن، وكُبست دور التجار، وأخذت بنات الناس في

ذكر أمر أحمد بن سهل

في هذه السنة ظفر الأمير نصر بن أحمد صاحب خراسان ومراء النهر بأحمد بن سهل، ونحن نذكر حاله من أوله. (١١٨/٨)

كان أحمد بن سهل هذا من كبار قواد الأمير إسماعيل بن أحمد، وولده أحمد بن إسماعيل، وولده نصر بن أحمد، وقد تقدّم من ذكر تقدّمه على الجيوش في الحروب ما يدل على علو منزلته.

وهو أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن حبله بن كامكار بن يزدجرد بن شهریار الملك، وكان كامكار دهقاناً بنواحي مرو، وإليه يُنسب الورد الكامكاري، وهو الشديد الحمرة، وهو الذي يسمى بالرّي القصراني، وبالعراق والجزيرة والشام الجُوري، يُنسب إلى قصران، وهي قرية بالرّي، وإلى مدينة جور، وهي من مدن فارس.

وكان لأحمد إخوة يقال لهم محمد، والفضل، والحسين، قُتلوا في عصية العرب والعجم بمرو، وكان أحمد خليفة عمرو بن الليث على مرو، فقبض عليه عمرو، ونقله إلى سيجستان، فحبسه بها، فرأى وهو في السجن كان يوسف النبي، عليه السلام، على باب السجن، فقال له: ادعُ الله أن يخلصني ويولّني! فقال له: قد أذن الله في خلاصك، لكنك لا تلي عملاً برأسك.

ثم إن أحمد طلب الحَمَام فأدخل إليه، فأخذ النورة فطلى بها رأسه ولحيته فسقط شعره، وخرج من الحَمَام ولم يعرفه أحد، فاختفى، فطلبه عمرو فلم يظفر به، ثم خرج من سيجستان نحو مرو، فقبض على خليفة عمرو واستولى عليها، واستأمن إلى إسماعيل بن أحمد ببخارى، فأكرمه، وقدمه، ورفع قدره، وكان عاقلاً كتوماً لأسراره.

(١١٩/٨) فلما عصى الحسين بن علي سيّر إليه أحمد، فظفر به على ما ذكرناه، وضمن له الأمير نصر أشياء لم يفد له بها، فاستوحش من ذلك، فأتاه يوماً بعض أصحاب أبي جعفر صعلوك، فحادثه، فأنشده أحمد بن سهل، وقد ذكر حاله، وأنهم لم يفوا له بما وعدوه:

سقط في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك، فانتظر أيّ كَيْفِكَ بُدِّلُ
وفي الناس إن رُئتْ جبالُك وأصلُ وفي الأرض عن دار العلى متحوّلُ
إذا أتت لم تُصَفْ أخاك وجنته على طرف الهجران إن كان يعقلُ
وتركبُ حدّ السيف من أن تُصَيِّمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مرحلُ
إذا تصرفت نفسي عن شيء لم تكذ إليه بوجه، آخر الدهر، تُقبَلُ

قال: فعلمت أنه قد أضمر المخالفة، فلم تمض إلا أيام حتى خالقه نيسابور واستولى عليها وأسقط خطبة السعيد نصر بن أحمد، وأنفذ رسولا إلى بغداد يخطب له أعمال خراسان.

وسار من نيسابور إلى جرجان وبها قراتكين، فحاربه، واستولى

وفيها توفي القاضي محمد بن خلف بن حيان أبو بكر الضبيّ المعروف بوكيع، وكان عالماً بأخبار الناس وغيرها، وله تصانيف حسنة، والقاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن شريح الفقيه الشافعي وله سبع وخمسون سنة.

وفيها مات كُنَيْزُ المغنّي، وهو مشهور بالحدق في الغناء. (كُنَيْز بضم الكاف وفتح النون وآخرها زاي). (١١٦/٨)

سنة سبع وثلاثمائة

في هذه السنة ضمن حامد بن العباس أعمال الخراج، والضياغ الخاصة، والعامّة، والمستحدثة، والقراتية بسواد بغداد، والكوفة، وواسط، والبصرة، والأهواز، وأصبهان.

وسبب ذلك أنه لما رأى أنه قد تعطلّ عن الأمر والنهي وتفرد به عليّ ابن عيسى شرع في هذا ليصير له حديث وأمر ونهي، واستأذن المقتدر في الانحدار إلى واسط ليدبّر أمر ضمانه الأول، فأذن له في ذلك، فأنحدر إليها واسم الوزارة عليه، وعليّ بن عيسى يدبّر الأمور، وأظهر حامد زيادة ظاهرة في الأموال، وزاد زيادة متوفرة، فسّر المقتدر بذلك، وبسط يد حامد في الأعمال، حتى خافه علي بن عيسى.

ثم إن السعر تحرك ببغداد، فثارت العامة والخاصة لذلك، واستغاثوا، وكسروا المنابر، وكان حامد يخزن الغلال، وكذلك غيره من القواد، ونهبت عدة من دكاكين الدقّاقين، فأمر المقتدر بإحضار حامد بن العباس، فحضر من الأهواز، فعاد الناس إلى شغبهم، فأنفذ حامد لمنعهم، فقاتلوه، وأحرقوا الجسرين، وأخرجوا المحبسين من السجون، ونهبوا دار صاحب الشرطة، ولم يتركوا له شيئاً، فأنفذ المقتدر جيشاً مع غريب الخال، (١١٧/٨) فقاتل العامة، فهربوا من بين يديه، ودخلوا الجامع بباب الطاق، فوكل بابواب الجامع، وأخذ كل من فيه فحبسه، وضرب بعضهم، وقطع أيدي من يُعرف بالفساد.

ثم أمر المقتدر من الغد، فتودي في الناس بالأمان، فسكنت الفتنة، ثم إن حامداً ركب إلى دار المقتدر في الطيار، فرجسه العامة، ثم أمر المقتدر بتسكينهم فسكنوا، وأمر المقتدر بفتح مخازن الحنطة والشعير التي لحامد، ولأم المقتدر، وغيرهما، وبيع ما فيها، فرخصت الأسعار، وسكن الناس، فقال علي بن عيسى للمقتدر: إن سبب غلاء الأسعار إنما هو ضمان حامد لأنه منع من بيع الغلال في البيادر وخزنها، فأمر بفسخ الضمان عن حامد، وصرف عماله عن السواد، وأمر علي بن عيسى أن يتولى ذلك، فسكن الناس وأطمأنوا، وكان أصحاب حامد يقولون إن ذلك الشغب كان بوضع من علي بن عيسى.

عليها، وأخرج قراتكين عنها، ثم عاد إلى خراسان، وقصد مرو

فاستولى عليها، وبنى عليها سوراً وتحصّن بها، فأرسل إليه السعيد نصر الجيوش مع حموية بن علي من بخارى، فوافي مرو الرّوذ، فأقام بتواحيها ليخرج إليه أحمد بن سهل منها، فلم يفعل.

ودخل بعض أصحاب أحمد عليه يوماً، وهو يفكر بعد نزول حموية (١٢٠/٨) عليه، فقال له صاحبه: لا شك أن الأمير مشغول القلب لهذا الخطب، فما هو رأي الأمير؟ فقال: ليس بي ما تظن، ولكن ذكرت رؤيا رأيتها في حبس سجستان، وذكر قول يوسف الصّديق، عليه السلام: إنك لا تلي عملاً برأسك. قال: فقلت له: إن القوم يفتنمون سلمك، ويعطونك ما تريد، فإن رأيت أن يتوسط الحال فعلنا؛ فأنشد:

سأسلُ عني العارَ بالسيفِ جالباً عليّ قضاءَ الله ما كان جالباً

ولما رأى حموية أنه لا يخرج إليه من مرو عمل الحيلة في ذلك، فجعل يقول: قد أدخلتُ ابن سهل في جحر فار وسددتُ عليه وجوه الفراء؛ وأشباه هذا من الكلام ليغضب أحمد فيخرج، فلم يفعل ذلك، فحينئذ أمر حموية جماعة من ثقات قواده، فكاتبوا أحمد بن سهل سرّاً، وأظهروا له الميل، ودعوه إلى الخروج من مرو ليسلموا إليه حموية، فأجابهم إلى ذلك، لما في نفسه من الغيظ على حموية، فخرج عن مرو نحو حموية، فالتقوا على مرحلة من مرو الرّوذ في رجب سنة سبع وثلاثمائة، فانهزم أصحاب أحمد، وحارب هو إلى أن عمزت دابته، فنزل عنها واستأمن، فأخذه أسيراً، وأنفذه إلى بخارى، فمات بها في الحبس في ذي الحجة من سنة سبع وثلاثمائة.

وكان الأمير أحمد بن إسماعيل بن أحمد يقول: لا ينبغي لأحمد بن سهل أن يغيب عن باب السلطان، فإنه إن غاب عنه أثار شغلاً عظيماً، كأنه كان يتوسّم فيه ما فعل، فهكذا ينبغي أن تكون فراسة الملك. (١٢١/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وقع حريق بالكرخ من بغداد، فاحترق فيه كثير من الدور والناس.

وفيها قُتل إبراهيم بن حمدان ديار ربيعة، وقُتل بنّي بن نفيس شهرزور، فامتنت عليه، فاستمد المقتدر، فسير إليه جيشاً، فحصرها ولم يفتحها، وقُتل القتال بالموصل وأعمالها.

وفيها أوقع ثمل متولّي الغزو في البحر بمراكب للمهدي العلوي، صاحب إفريقية، وقتل جماعة ممن فيها، وأسر خادماً له.

وفيها انقضّ كوكب عظيم فاشتد ضوءه وعظم، وتفرق ثلاث فرق، وسمع عند انقضاؤه مثل صوت الرعد الشديد، ولم يكن في

وفيها كانت فتنة بالموصل بين أصحاب الطعام وبين الأساكفة، واحترق سوق الأساكفة وما فيه، وكان الوالي على الموصل وأعمالها العباس بن محمد بن إسحاق بن كنداج، وكان خارجاً عن البلد، فسمع بالفتنة، فرجع ليقوم بأهل الموصل، فعزموا على قتاله، وحصنوا البلد، وسدوا الدروب، فلما علم بذلك ترك قتالهم، وأمر الأعراب بتخريب الأعمال، فصاروا (١٢٢/٨) يقطعون الطريق على الجسر وفي الميدان، ويقاسمونه، فخرب البلد، فبلغ الخبر إلى الخليفة، فعزله سنة ثمان وثلاثمائة، واستعمل بعده عبد الله بن محمد الفتان، وكان عفيفاً، صارماً، كف الأعراب عن البلد.

وفيها توفي أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلية، صاحب المسند بها. (١٢٣/٨)

سنة ثمان وثلاثمائة

في هذه السنة خلف المقتدر على أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان، وقُتل طريق خراسان والذّينور، وخلع على أخويه أبي العلاء وأبي السرايا.

وفيها وصل رسول أخيه صعلوك بالمال، والهدايا، والتحف، ويخبر باستمراره على الطاعة للمقتدر بالله.

وفيها توفي إبراهيم بن حمدان في المحرم.

وفيها قُتل بدر الدرابي دقوقا، وعكبرا، وطريق الموصل.

وفيها توفي إبراهيم بن محمد بن سفيان صاحب مسلم بن الحجاج، ومن طريقه يُروى صحيح مسلم إلى اليوم. (١٢٤/٨)

سنة تسع وثلاثمائة

ذكر قتل ليلى بن النعمان الديلمي

في هذه السنة قُتل ليلى بن النعمان الديلمي، وكان ليلى هذا أحد قواد أولاد الأطروش العلوي، وكان إليه ولاية جرجان، وكان قد استعمله عليها الحسن بن القاسم الداعي سنة ثمان وثلاثمائة، وكان أولاد الأطروش يكتابونه: المؤيد لدين الله المنتصر لآل رسول الله ﷺ ليلى بن النعمان؛ وكان كريماً، بذالاً للأموال، شجاعاً، مقداماً على الأحوال.

وسار من جرجان إلى الدامغان، فحاربه أهلها، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وعاد إلى جرجان، فابتنى أهل الدامغان حصناً يحميهم، وسار قراتكين إليه بجرجان، فحاربه على نحو عشرة فراسخ من جرجان، فانهزم قراتكين، واستأمن غلامه بارس إلى

في الحجر لا يستظل تحت مسقف شتاء ولا صيفاً، وكان يصوم الدهر، فإذا جاء العشاء أحضر له القوام كوز ماء، وقرصاً، فيشره، ويعض من القرص ثلاث عضات من جوانبه، فياكلها ويترك الباقي فيأخذونه، ولا ياكل شيئاً آخر إلى الغد آخر النهار.

وكان شيخ الصوفية يومئذ بمكة عبد الله المغربي، فأخذ أصحابه ومشي (١٢٧/٨) إلى زيارة الحلاج، فلم يجده في الحجر، وقيل له: قد صعد إلى جبل أبي قيس؛ فصعد إليه، فرآه على صخرة حافياً، مكشوف الرأس، والعرق يجري منه إلى الأرض، فأخذ أصحابه وعاد ولم يكلمه، فقال: هذا يتصبر ويتقوى على قضاء الله، سوف ينليه الله بما يعجز عنه صبره وقدرته؛ وعاد الحسين إلى بغداد. وأما سبب قتله فإنه نُقل عنه عند عودته إلى بغداد إلى الوزير حامد بن العباس أنه أحيا جماعة، وأنه يحيي الموتى، وأن الجن يخدمونه، وأنهم يُحضرُونَ عنده ما يشتهي، وأنه قد موّه على جماعة من حواشي الخليفة، وأن نصراً الحاجب قد مال إليه وغيره، فالتمس حامد الوزير من المقتدر بالله أن يسلم إليه الحلاج وأصحابه، فدفع عنه نصر الحاجب، فالتحّ الوزير، فأمر المقتدر بتسليمه إليه، فأخذه، وأخذ معه إنسان يُعرف بالشمري، وغيره، قيل إنهم يعتقدون أنه إله، فقرّروهم، فاعترفوا أنهم قد صبح عندهم أنه إله، وأنه يحيي الموتى، وقابلوا الحلاج على ذلك، فأنكره وقال: أعوذ بالله أن أدعي الربوبية، أو النبوة، وإنما أنا رجل أعبد الله، عز وجل! فأحضر حامد القاضي أبا عمرو والقاضي أبا جعفر بن البهلول، وجماعة من وجوه الفقهاء والشهود، فاستفناهم، فقالوا: لا يفتي في أمره بشيء، إلا أن يصحّ عندنا ما يوجب قتله، ولا يجوز قبول قول من يدّعي عليه ما ادعاه إلا ببينة أو إقرار. (١٢٨/٨)

وكان حامد يخرج الحلاج إلى مجلسه، ويستنطقه، فلا يظهر منه ما تكرهه الشريعة المطهرة.

وطال الأمر على ذلك وحامد الوزير مجذّب في أمره، وجرى له معه قصص يطول شرحها، وفي آخرها أن الوزير رأى له كتاباً حكى فيه أن الإنسان إذا أراد الحج، ولم يمكنه، أفرد من داره بيتاً لا يلحقه شيء من النجاسات، ولا يدخله أحد، فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله، وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيماً، ويعمل أجود طعام يمكنه، ويُطعمهم في ذلك البيت، ويخذهم بنفسه، فإذا فرغوا كسبهم، وأعطى كل واحد منهم سبعة دراهم، فإذا فعل ذلك كان كمن حج.

فلما قرئ هذا على الوزير قال القاضي أبو عمرو للحلاج: من أين لك هذا؟ قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري؛ قال له القاضي: كذبت يا حلال الدم! قد سمعنا بمكة وليس فيه هذا؛ فلما قال له: يا حلال الدم، وسمعا الوزير قال له: اكتسب بهذا؛ فدافعه

ليلي ومعه ألف فارس، فأكرمه ليلي، وزوّجه أخته، واستأمن إليه أبو القاسم بن حفص ابن أخت أحمد بن سهل، فأكرمه ليلي.

ثم إن الأجناد كثروا على ليلي بن النعمان، فضاقت الأموال عليه، فسار نحو نيسابور بأمر الحسن بن القاسم الداعي، وتحريض أبي القاسم بن حفص، وكان بها قراتكين، فوردها في ذي الحجة سنة ثمان وثلاثمائة، وأقام بها (١٢٥/٨) الخطبة للداعي، وأنفذ السعيد نصر من بخارى إليه حموية بن علي، فالتقوا بطوس، واقتتلوا، فانهزم أكثر أصحاب حموية بن علي حتى بلغوا مرو، وثبت حموية، ومحمد بن عبد الله البلخي، وأبو جعفر صلوك، وخوارزم شاه، وسيمجور الدواتي، فاقتتلوا، فانهزم بعض أصحاب ليلي، ومضى ليلي منهزماً، فدخل ليلي سكة لم يكن له فيها مخرج، ولحقه بغرا فيها، فلم يقدر ليلي على الهرب، فنزل وتوارى في دار، فقبض عليه بغرا، وأنفذ إلى حموية فأعلمه بذلك، فأنفذ من قطع رأس ليلي، ونصبه على رمح، فلما رآه أصحابه طلبوا الأمان فأمنوا.

ثم قال حموية للجند: قد مكّنكم الله من شياطين الجبل والذئلي، فأبيدوهم واستريحوا منهم أبد الدهر؛ فلم يفعلوا، وحامى كل قائد جماعة، فخرج منهم من خرج بعد ذلك، وكان قتل ليلي في ربيع الأول سنة تسع وثلاثمائة، وحُمل رأسه إلى بغداد، وبقي بارس غلام قراتكين بجرجان.

وقيل إن حموية لما سار إلى قتال ليلي قيل له: إن ليلي يستبطنك في قصده؛ فقال: إني ألبس أحد خفي للحرب العام، والآخر في العام المقبل؛ فبلغ قوله ليلي، فقال: لكنني ألبس أحد خفي للحرب قاعداً، والثاني قائماً وراكباً؛ فلما قُتل قال حموية: هكذا من تعجّل إلى الحرب. (١٢٦/٨)

ذكر قتل الحسين الحلاج

في هذه السنة قُتل الحسين بن منصور الحلاج الصوفي وأحرق، وكان ابتداء حاله أنه كان يُظهر الزهد والتصوّف، ويُظهر الكرامات، ويخرج للناس فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، ويمد يده إلى الهواء فيعبد بها مملوءة دراهم عليها مكتوب: قل هو الله أحد، ويسميها دراهم القدرة، ويخبر الناس بما أكلوه، وما صنعوه في بيوتهم، ويتكلّم بما في ضمائرهم، فافتن به خلق كثير واعتقدوا فيه الحلول، وبالجملّة فإن الناس اختلقوا فيه اختلافهم في المسيح، عليه السلام، فمن قائل إنه حلّ فيه جزء إلهي، ويدّعي فيه الربوبية، ومن قائل إنه وليّ الله تعالى، وإن الذي يظهر منه من جملة كرامات الصالحين، ومن قائل إنه مشعبد، وممخورق، وساحر كذاب، ومتكهن، والجن تطيعه فتأتيه بالفاكهة في غير أوانها.

وكان قدم من خراسان إلى العراق وسار إلى مكة فأقام بها سنة

أبو عمرو، فألزمه حامد، فكتب بإباحة دمه، وكتب بعده من حضر المجلس.

ولما سمع الحلاج ذلك قال: ما يحلّ لكم دمي واعتقادي الإسلام (١٢٩/٨) ومذهبي السنة، ولي فيها كتب موجودة، فالله الله في دمي! وتفرّق الناس.

وكتب الوزير إلى الخليفة يستأذنه في قتله، وأرسل الفتاوى إليه، فأذن في قتله، فسلمه الوزير إلى صاحب الشرطة، فضربه ألف سوط فما تأوّه، ثم قطع يده، ثم رجله، ثم يده، ثم رجله، ثم قُتل وأُحرق بالنار، فلما صار رماداً أُلقي في دجلة، ونُصب الرأس ببغداد، وأرسل إلى خراسان لأنه كان له بها أصحاب، فأقبل بعض أصحابه يقولون: إنه لم يُقتل، وإنما أُلقي شبيهه على دابة، وإنه يحيى بعد أربعين يوماً؛ وبعضهم يقول: لقيته على حمار بطريق الثُهران، وإنه قال لهم: لا تكونوا مثل هؤلاء البقر الذين يظنون أنني ضُربت وقُلت.

ذكر عدة حوادث

وفيهما، في ربيع الأول، وقع حريق كبير في الكرخ، فاحترق فيه بشر كثير.

وفيهما استعمل المقتدر على حرب الموصل ومعونتها محمد بن نصر الحاجب، في جمادى الأولى، وسار إليها فيه، فلما وصل إليها أوقع بمن خالفه من الأكراد المارانية، فقتل، وأسر، وأرسل إلى بغداد تيقاً وثمانين أسيراً، فشهِروا. (١٣٠/٨)

وفيهما قُتل داود بن حمدان ديار ربيعة.

وفيهما توفي أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأديمي الصوفي من كبار مشايخهم وعلمائهم، وأبو إسحاق إبراهيم بن هارون الحرّاني الطيب، وأبو محمد عبد الله بن حمدون النديم. (١٣١/٨)

سنة عشر وثلاثمائة

ذكر حرب سيمجور مع أبي الحسين بن العلوي

قد ذكرنا قتل ليلى بن النعمان، وأن جرجان تخلف بها بارس غلام قراتكين، فلما قُتل ليلى بن النعمان عاد قراتكين إلى جرجان، فاستأمن إليه غلامه بارس، فقتله قراتكين، وانصرف عن جرجان، وقدمها أبو الحسين ابن الحسن بن علي الأطروش العلوي، الملقّب والده بالناصر، وأقام بها، فأنفذ إليه السعيد نصر بن أحمد سيمجور الدواني في أربعة آلاف فارس، فنزل على فرسخين من جرجان، وحاصر أبا الحسين نحو شهر من هذه السنة.

وخرج إليه أبو الحسين في ثمانية آلاف رجل من الديلم، والجرجانية، وصاحب جيشه سُرخاب بن وهسودان ابن عمّ ماكان بن كالي الديلمي، فتحاربوا حرباً عظيمة، وكان سيمجور قد جعل كميناً من أصحابه، فأبطؤوا عنه، فانهزم سيمجور، ووقع أصحاب أبي الحسين في عسكر سيمجور، واشتغلوا بالنهب والغارة، فخرج عليهم الكمين بعد الفجر، فقتلوا من الديلم والجرجانية نحو أربعة آلاف رجل، وانهزم أبو الحسين، وركب في البحر، ثم عاد إلى استراباذ، واجتمع إليه فلّ أصحابه. (١٣٢/٨)

وكان سُرخاب قد تبع سيمجور في هزيمته، فلما عاد رأى أصحابه مقتلين مشرّدين، فسار إلى استراباذ، واستصحب معه عيال أصحابه ومخلّقيهم، وأقام بها مع أبي الحسين بن الناصر، ثم سمع سيمجور بظفر أصحابه، فعاد إليهم، وأقام بجرجان، ثم اعتلّ سُرخاب ومات، ورجع ابن الناصر إلى سارية، واستخلف ما كان بن كالي على استراباذ، فاجتمع إليه الديلم، وقدموه، وأمروه على أنفسهم.

ثم سار محمد بن عبيد الله البلغمي وسيمجور إلى باب استراباذ، وحاربوا ما كان بن كالي، فلما طال مقامهم اتفقوا معه على أن يخرج عن استراباذ إلى سارية، وبذلوا له على هذا مالاً ليظهر للناس أنهم قد افتتحوها، ثم ينصرفون عنها ويعود إليها، فعل وسار إلى سارية، ثم رحلوا عن استراباذ إلى جرجان، ثم إلى نيسابور، وجعلوا بغراً باستراباذ، فلما ساروا عنها عاد إليها ما كان بن كالي، ففارقها بغراً إلى جرجان، وأساء السيرة في أهلها، وخرج إليه ما كان، فرجع بغراً إلى نيسابور، وأقام ما كان بجرجان؛ ونحن نذكر ابتداء حال ما كان، وننقلها عند قتله سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

ذكر خروج إلياس بن إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني

ثم خرج إلياس بن إسحاق بن أحمد، المقدم ذكره أنه خرج مع أبيه، وانهزم إلى فرغانة، فلما بلغ فرغانة أقام بها إلى أن خرج ثانياً، واستعان (١٣٣/٨) عند خروجه بمحمد بن الحسين بن متّ، وجمع من الترك، فاجتمع معه ثلاثون ألف عنان، فقصّد سمرقند مشاقاً للسعيد نصر بن أحمد، فسّير إليه نصر أبا عمرو محمد بن أسد وغيره في ألفين وخمسمائة رجل، فكمنا خارج سمرقند يوم ورود إلياس، فلما وردهما، واشتغل هو ومَن معه بالنزول، خرج الكمين عليه من بين الشجر، ووضعوا السيوف فيهم، فانهزم إلياس وأصحابه، فوصل إلياس إلى فرغانة، ووصل ابن متّ إلى اسبيجياب، ومنها إلى ناحية طراز، فكوتب دهقان الناحية التي نزلها، وأطعم، وقبض عليه، وقتله، وأنفذ رأسه إلى بخارى.

وكان ابن متّ شجاعاً، وكان قد سخرّ جمالاً عند خروجه،

والتابعين، ومن بعدهم في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأسم والملوك، والكتاب الذي في التفسير لم يصنف مثله، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، وأخبار من أقاويل الفقهاء؛ وتفرّد بمسائل حفظت عنه.

وقال أبو أحمد الحسين بن علي بن محمد الرازي: أول ما سألني الإمام أبو بكر بن خزيمة قال لي: كتبت عن محمد بن جرير الطبري؟ قلت: لا! قال: لم؟ قلت: لا يظهر، وكانت الحنابلة تمنع من الدخول عليه؛ فقال: بش ما فعلت! ليتك لم تكتب عن كل من كتبت عنه؛ وسمعت عن أبي جعفر، وقال حسين، واسمه الحسين بن علي التميمي، عن ابن خزيمة نحو ما تقدم. (١٣٦/٨)

وقال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبري: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من أبي جعفر، ولقد ظلمته الحنابلة.

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني، بعد أن ذكر تصانيفه: وكان أبو جعفر ممن لا يأخذه في الله لومة لائم، ولا يعدل، في علمه وتبينه، عن حق يلزمه لربه وللمسلمين، إلى باطل لرغبة ولا رهبة، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل، وحاسد، وملحد.

وأما أهل الدين والورع فغير منكرين علمه، وفضله، وزهده، وتركه الدنيا مع إقبالها عليه، وقناعته بما كان يرد عليه من قربة خلقتها له أبوه بطبرستان يسيرة؛ ومناقبه كثيرة لا يحتمل هاهنا أكثر من هذا.

ذكر عدة حوادث

فيها أطلق المقتدر يوسف بن أبي الساج من الحبس بشفاعة مؤنس الخادم وحُمل إليه، ودخل إلى المقتدر، وخلع عليه، ثم عقد له على الرّي، وقزوين، وأبهر، وزنجان، وأذربيجان، وقرر عليه خمسمائة ألف دينار محمولة كل سنة إلى بيت المال سوى أرزاق العساكر الذين بهذه البلاد.

وخلع في هذا اليوم على وصيف البكتري، وعلى طاهر ويعقوب ابني (١٣٧/٨) محمد بن عمرو بن الليث.

وتجهّز يوسف، وضم إليه المقتدر بالله العساكر مع وصيف البكتري، وسار عن بغداد في جمادى الآخرة إلى أذربيجان، وأمر أن يجعل طريقه على الموصل، وينظر في أمر ديار ربيعة، فقدم إلى الموصل، ونظر في الأعمال، وسار إلى أذربيجان، فرأى غلامه سبيكاً قد مات.

وفيها قُتل نازوك الشرطة ببغداد.

فجاء أصحابه يطلبونها منه، فقال: ساردها عليكم ببغداد، يعني أنه لا يرد شيئاً من بغداد، ثقة بكثرة جمعه وقوته، فجاءت الأقدار بما لم يكن في الحساب.

ثم عاد إلياس فخرج مرة ثالثة، وأعانه أبو الفضل بن أبي يوسف، صاحب الشاش، فسير إليه محمد بن اليتسج، فحاربهم، فانهزم إلياس إلى كاشغر، وأسر أبو الفضل، وحُمل إلى بخارى فمات بها.

وأما إلياس فصاهر دهقان كاشغر طغاتكين، واستقر بها، ثم ولي (١٣٤/٨) محمد بن المظفر قرغانة، فرجع إليها إلياس بن إسحاق معانداً، فحاربه محمد بن المظفر، فهزمه مرة أخرى فعاد، إلى كاشغر، فكاتبه محمد بن المظفر، واستماله، ولطف به، فأمن إلياس إليه، وحضر إلى بخارى، فأكرمه السعيد، وصاهره، وأقام معه.

ذكر وفاة محمد بن جرير الطبري

وفي هذه السنة توفي محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ، ببغداد، ومولده سنة أربع وعشرين ومائتين، ودفن ليلاً بداره، لأن العامة اجتمعت، ومنعت من دفنه نهاراً، وادعوا عليه الرقص، ثم ادعوا عليه الإلحاد؛ وكان علي بن عيسى يقول: والله لو سئل هؤلاء عن معنى الرقص والإلحاد ما عرفوه، ولا فهموه، هكذا ذكره ابن يسكويه صاحب تجارب الأمم، وحوشي ذلك الإمام عن مثل هذه الأشياء.

وأما ما ذكره عن تعصّب العامة، فليس الأمر كذلك، وإنما بعض الحنابلة تعصّبوا عليه، ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم، ولذلك سبب، وهو أن الطبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء، لم يصنف مثله، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقتل له في ذلك، فقال: لم يكن فقيهاً، وإنما كان محدثاً، فاشتد ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، فشغبوا عليه، وقالوا ما أرادوا:

حسدوا الغنى إذ لم ينالوا سعيه فأناس أعداء له وخُصوم (١٣٥/٨)

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً ونياً إنه لتميم وقد ذكرت شيئاً من كلام الأئمة في أبي جعفر يعلم [منه] محلّه في العلم، والثقة، وحسن الاعتقاد، فمن ذلك ما قاله الإمام أبو بكر الخطيب، بعد أن ذكر من روى الطبري عنه، ومن روى عن الطبري، فقال: وكان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقاويل الصحابة

وفيها وصلت هدية إلى أبي زبور الحسين بن أحمد المادراتي من مصر وفيها بغلة، ومعها فُلُو يتبعها، ويرضع منها، وغلّام طويل اللسان، يلحق لسانه أرنبة أنفه.

وكان إذا شكا إليه بعض نواب حامد يكتب على القصة: إنما عقد الضمان، (١٤٠/٨) على النائب الوزيري، عن الحقوق الواجة السلطانية، فيتقدم إلى عماله بكف الظلم عن الرعية. فاستأذن حامد، وسار إلى واسط لينظر في ضمانه، فأذن له، وجرى بين مفلح الأسود وبين حامد كلام، قال له حامد: لقد هممت أن أشتري مائة خادم أسود، واسمهم مُفلحاً، وأهمهم لغلماني؛ فحقدته مُفلح، وكان خصيصاً بالمقتدر، فسعى معه المحسن بن الفرات لوالده بالوزارة، وضمن أموالاً جليلة، وكتب على يده رقعة يقول: إن يُسلم الوزير، وعلي بن عيسى، وابن الحواري، وشفيع اللؤلؤي، ونصر الحاجب، وأم موسى القهرمانة، والمادراتيون يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار.

وكان المحسن مطلقاً، وكان يواصل السعاية بهؤلاء الجماعة، وذكر ابن الفرات للمقتدر ما كان يأخذه ابن الحواري كل سنة من المال، فاستكثره، فقبض على علي بن عيسى في ربيع الآخر، وسلم إلى زيدان القهرمانة، فحبسته في الحجر التي كان ابن الفرات محبوباً فيها، وأطلق ابن الفرات، وخلع عليه، وتولى الوزارة، وخلع على ابنه المحسن، وهذه الوزارة الثالثة لابن الفرات.

وكان أبو علي بن مقله قد سعى بابن الفرات، وكان يتقلد بعض الأعمال أيام حامد، فحضر عند ابن الفرات، وكان ابن الفرات هو الذي قدّم ابن مقله، وريّاه، وأحسن إليه، ولما قيل عنه إنه سعى به لم يصدق ذلك، حتى تكرر ذلك منه.

ثم إن حامداً صعد من واسط، فسير إليه ابن الفرات من يقبض عليه في الطريق وعلى أصحابه، فقبض على بعض أصحابه، وسمع حامد فهرب (١٤١/٨) واختفى ببغداد؛ ثم إن حامداً لبس زي راهب، وخرج من مكانه الذي اختفى فيه، ومشى إلى نصر الحاجب، فاستأذن عليه، فأذن له، فدخل عليه، وسأله إصصال حاله إلى الخليفة، فاستدعى نصر مفلحاً الخادم وقال: هذا يستأذن إلى الخليفة، إذا كان عند حرمه.

فلما حضر مُفلح فرأى حامداً قال: أهلاً بمولانا الوزير؛ أين ممالكك السودان الذين سميت كل واحد منهم مُفلحاً؟ فسأله نصر أن لا يؤاخذه، وقال له: حامد يسأل أن يكون محبسه في دار الخليفة، ولا يُسلم إلى ابن الفرات.

فدخل مُفلح، وقال ضد ما قيل له، فأمر المقتدر بتسليمه إلى ابن الفرات، فأرسل إليه، فحبسه في دار حسنة، وأجرى عليه من الطعام، والكسوة، والطيب، وغير ذلك ما كان له وهو وزير، ثم

وفيها قبض المقتدر على أم موسى القهرمانة، وكان سبب ذلك أنها زوجت ابنة أختها من أبي العباس أحمد بن محمد بن إسحاق بن المتوكل على الله، وكان محسناً، له نعمة ظاهرة، ومروءة حسنة، وكان يرشّح للخلافة، فلما صاهرت أكثرت من النشار والدعوات، وخسرت أموالاً جليلة، فتكلم أعداؤها، وسعوا بها إلى المقتدر، وقالوا إنها قد سعت لأبي العباس في الخلافة، وحلفت له القواد، وكثر القول عليها فقبض عليها، وأخذ منها أموالاً عظيمة وجواهر نفيسة.

وفيها غزا المسلمون في البر والبحر، فغنموا وسلموا. (١٣٨/٨)

وفيها كان بالموصل شغب من العامة، وقتلوا خليفة محمد بن نصر الحاجب بها، فتجهز العسكر من بغداد إلى الموصل.

وفيها، في جمادى الآخرة، انقضّ كوكب عظيم له ذنب في المشرق في برج السنبلة، طوله نحو ذراعين.

وفيها سار محمد بن نصر الحاجب من الموصل إلى الغزاة على قَالِقْلَا، فغزا الروم من تلك الناحية، ودخل أهل طَرَسُوس ملطية، فظفروا، وبلغوا من بلاد الروم والظفر بهم ما لم يظنوه وعادوا.

وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد اليزيدي الأديب، أخذ العلم عن ثعلب والرياسي. (١٣٩/٨)

سنة إحدى عشرة وثلاثمائة

ذكر عزل حامد وولاية ابن الفرات

في هذه السنة، في ربيع الآخر، عزل المقتدر حامد بن العباس عن الوزارة، وعلي بن عيسى عن الدواوين، وخلع على أبي الحسين بن الفرات، وأعيد إلى الوزارة.

وكان سبب ذلك أن المقتدر ضجر من استغاثة الأولاد، والحُرَم، والخدم والحاشية من تأخير أرزاقهم، فإن علي بن عيسى كان يؤخرها، فإذا اجتمع عدة شهور أعطاهم البعض، وأسقط البعض، وحطّ من أرزاق العمال في كل سنة شهرين، وغيرهم ممن له رزق، فزادت عداوة الناس له.

وكان حامد بن العباس قد ضجر من المُقام ببغداد، وليس إليه من الأمر شيء غير لبس السواد، وأُيف من أطراح علي بن عيسى

واحضره، وأحضر الفقهاء والعمال، وناظره على ما وصل إليه من المال، وطالبه به، فأقرّ بجهات تقارب ألف دينار وضمنه المحسن بن أبي الحسن بن الفرات من المقتدر بخمسمائة ألف دينار، فسلمه إليه، فعذبه بأنواع العذاب، وأنفذه إلى واسط مع بعض أصحابه ليبيع ما له بواسط، وأمرهم بأن يسقوه سمّاً، فسقوه سمّاً في بيض مشوي، وكان طلبه، فأصابه إسهال، فلما وصل إلى واسط أفرط الإغيام به، وكان قد تسلمه محمد بن علي البزّزفري، فلما (١٤٢/٨) رأى حاله أحضر القاضي واليهود ليشهدوا عليه أن ليس له في أمره صنع، فلما حضروا عند حامد قال لهم: إن أصحاب المحسن سقوني سمّاً في بيض مشوي، فأنسا أموت منه، وليس لمحمد في أمري صنع، لكنه قد أخذ قطعة من أموالي وأمتعتي، وجعل يحشوها في المساور، وتباع المُنورة في السوق بمحضر من أمين السلطان بخمسة دراهم، ووضع عليها من يشتريها ويحملها إليه، فيكون فيها أمتعة تساوي ثلاثة آلاف دينار، فاشهدوا على ذلك.

ذكر القرامطة

وفيها قصد أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الهجري البصرة، فوصلها ليلاً في ألف وسبعماية رجل، ومعه السلايليم الشعر، فوضعها على السور، وصعد أصحابه ففتحوا الباب، وقتلوا الموكلين به؛ وكان ذلك في ربيع الآخر.

وكان على البصرة سُبُك المُفلحي، فلم يشعر بهم إلا في السحر، ولم يعلم أنهم القرامطة بل اعتقد أنهم عرب تجمعوا، فركب إليهم، ولقيهم، وقتلوه (١٤٤/٨) ووضعوا السيف في أهل البصرة، وهرب الناس إلى الكلا وحاربوا القرامطة عشرة أيام، فظفر بهم القرامطة، وقتلوا خلقاً كثيراً وطرح الناس أنفسهم في الماء، فغرق أكثرهم.

وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة، والنساء والصبيان، فعاد إلى بلده؛ واستعمل المقتدر على البصرة محمد بن عبد الله الفارقي، فأنحدر إليها وقد سار الهجري عنها.

ذكر استيلاء ابن أبي الساج على الرّي

في هذه السنة سار يوسف بن أبي الساج من أذربيجان إلى الرّي، فحاربه أحمد بن علي أخو صلوك، فانهزم أصحاب أحمد وقُتل هو في المعركة، وأنفذ رأسه إلى بغداد؛ وكان أحمد بن علي قد فارق أخاه صلوكاً، وسار إلى المقتدر فأقطع الرّي كما ذكرناه، ثم عصى، وهادن ماكان بن كالي وأولاد الحسين بن علي الأطروش، وهم بطبرستان وجرجان وفارق طاعة المقتدر وعصى عليه؛ ووصل رأسه إلى بغداد.

وكان ابن الفرات يقع في نصر الحاجب، ويقول للمقتدر إنه هو الذي أمر أحمد بن علي بالعصيان لمودة بينهما. (١٤٥/٨)

وكان قتل أحمد بن علي آخر ذي القعدة، واستولى ابن أبي الساج على الرّي، ودخلها في ذي الحجة من السنة، ثم سار عنها في أول سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة إلى همدان، واستخلف بالري غلامه مُفلحاً، فأخرجه أهل الري عنهم، فلحق يوسف، وعاد يوسف إلى الري في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة واستولى عليها.

وكان صاحب الخبر حاضراً، فكتب ذلك، وسيّره، وندم البزّزفري على ما فعل، ثم مات حامد في رمضان من هذه السنة، ثم صودر علي بن عيسى بثلاثمائة ألف دينار، فأخذه المحسن بن الفرات ليستوفي منه المال، فعذبه وضعفه فلم يؤدّ إليه شيئاً.

وبلغ الخبر الوزير أبا الحسن بن الفرات، فأنكر على ابنه ذلك، لأن علياً كان محسناً عليهم أيام ولايته، وكان قد أعطى المحسن، وقت نكبته، عشرة آلاف درهم، وأدى علي بن عيسى مال المصادرة، وسيّره ابن الفرات إلى مكة وكتب إلى أمير مكة ليسيّره إلى صنعاء، ثم قبض ابن الفرات على أبي علي بن مقلّة، ثم أطلقه؛ وقبض على ابن الحواري، وكان خصيصاً بالمقتدر، وسلمه إلى ابنه المحسن، فعذبه عذاباً شديداً، وكان المحسن وقحاً، سيء الأدب، ظالماً، ذا قسوة شديدة، وكان الناس يسمونه الخيث بن الطيب؛ وسيّر ابن الحواري إلى الأهواز ليستخرج منه الأموال التي له، فضربه الموكل به حتى مات. (١٤٣/٨)

وقبض أيضاً على الحسين بن أحمد، ومحمد بن علي المادرائين، وكان الحسين قد تولى مصر والشام، فصادرها على ألف دينار وسبعماية ألف دينار، ثم صادر جماعة من الكتاب ونكّبهم.

ثم إن ابن الفرات خوّف المقتدر من مؤنس الخادم، وأشار عليه بأن يسيّره عن الحضرة إلى الشام ليكون هنالك، فسمع قوله، وأمره بالمسير، وكان قد عاد من الغزاة، فسأل أن يقيم عدة أيام بقيت من شهر رمضان، فأجيب إلى ذلك، وخرج في يوم شديد المطر.

فأقاموا بها حتى فني زادهم، فارتحلوا مسرعين.

ذكر عدة حوادث

وفيهما غزا مؤنس المظفر بلاد الروم، فغنم وفتح حصوناً؛ وغزا ثمل أيضاً في البحر، فغنم من السبي ألف رأس، ومن الدواب ثمانية آلاف رأس، ومن الغنم مائتي ألف رأس، ومن الذهب والفضة شيئاً كثيراً.

وفيهما ظهر جراد كثير بالعراق، فأضر بالغلات والشجر وعظم.

وفيهما استعمل بني بن نفيس على حرب أصبهان.

وفيهما توفي بدر المعتضدي بفارس، وهو أميرها، وولي ابنه محمد مكانه.

وفيهما توفي أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري الصوفي، وهو من مشاهير مشايخهم (الجريري بضم الجيم)؛ وأبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج النحوي، صاحب كتاب معاني القرآن. (١٤٦/٨)

سنة اثني عشرة وثلاثمائة

ذكر حادثة غريبة

في هذه السنة ظهر في دار كان يسكنها المقتدر بالله إنسان أعجمي، وعليه ثياب فاخرة، وتحتها مما يلي بدنه قميص صوف، ومعه بقدحة، وكبريت، ومُحَبْرَة، وأقلام، ومسكين، وكاغذ، وفي كيس سويق، وسكر، وحبل طويل من قنب، يقال إنه دخل مع الصنّاع، فبقي هناك، فغطش، فخرج يطلب الماء فأخذ، فأحضره عند ابن الفرات، فسأله عن حاله، فقال: لا أخبر إلا صاحب الدار، ففرق به، فلم يخبره بشيء، وقال: لا أخبر إلا صاحب الدار، فضرّبه ليقرّره، فقال: بسم الله بدائم بالشر؟ ولزم هذه اللفظة، ثم جعل يقول بالفارسية: ندانم معناه لا أدري، فأمر به فأُحرق.

وأنكر ابن الفرات على نصر الحاجب هذه الحال حيث هو الحاجب، وعظم الأمر بين يدي المقتدر، ونسبه إلى أنه أخفاه ليقتل المقتدر، فقال نصر: لِمَ أقتل أمير المؤمنين وقد رفعني من الشرى إلى الثريا؟ إنما يسعى في قتله من صادّره، وأخذ أمواله، وأطال حبسه هذه السنين، وأخذ ضياعه؛ وصار لابن الفرات بسبب هذا حديث في معنى نصر. (١٤٧/٨)

ذكر أخذ الحاج

في هذه السنة سار أبو طاهر القرمطي إلى الهنير في عسكر عظيم ليلقي الحاج سنة إحدى عشرة وثلاثمائة في رجوعهم من مكة، فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج، وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم، فنهبهم؛ واتصل الخبر بياقي الحاج وهي بَيْدَة،

وكان أبو الهيجاء بن حمدان قد أشار عليهم بالعود إلى وادي القري، وأنهم لا يقيمون بفيد، فاستطالوا الطريق، ولم يقبلوا منه، وكان إلى أبي الهيجاء طريق الكوفة وكثير الحاج، فلما فني زادهم ساروا على طريق الكوفة، فأوقع بهم القرامطة، وأخذوهم، وأسروا أبا الهيجاء، وأحمد بن كشمرد، ونحريز، وأحمد بن بدر عمّ والدة المقتدر، وأخذ أبو طاهر جمال الحجاج جميعها، وما أراد من الأمتعة والأموال، والنساء، والصبيان، وعاد إلى هَجَر وترك الحاج في مواضعهم، فمات أكثرهم جوعاً، وعطشاً، ومن حرّ الشمس.

وكان عمرُ أبي طاهر حينئذ سبع عشرة سنة، وانقلبت بغداد، واجتمع حُرَم المأخوذين إلى حُرَم المنكوبين الذين تكبهم ابن الفرات، وجعل بنادين: القُرْمَطي الصغير أبو طاهر قتل المسلمين في طريق مكة، والقُرْمَطي الكبير ابن الفرات قد قتل المسلمين ببغداد.

(١٤٨/٨) وكانت صورة فظيعة شنيعة، وكسر العامة منابر الجوامع، وسودوا المحارب يوم الجمعة لستَ خلون من صفر، وضعفت نفس ابن الفرات، وحضر عند المقتدر ليأخذ أمره فيما يفعله، وحضر نصر الحاجب المشورة، فانبسط لسانه على ابن الفرات، وقال له: الساعة تقول أي شيء نصنع، وما هو الرأي بعد أن زعزعت أركان الدولة، وعرضتها للزوال في الباطن بالميل مع كل عدو يظهر ومكاتبته، ومهادنته، وفي الظاهر بإبعادك مؤنساً ومن معه إلى الرقّة، وهم سيوف الدولة، فمن يدفع الآن هذا الرجل إن قصد الحضرة، أنت أو ولدك؟ وقد ظهر الآن أن مقصودك بإبعاد مؤنس وبالقُبض عليّ وعلى غيري أن تستضعف الدولة وتقوي أعداءها لتشفي غيظ قلبك ممن صادرك وأخذ أموالك، ومن السذي سلم الناس إلى القرمطي غيرك لما يجمع بينكما من التشيع والرفض؟ وقد ظهر أيضاً أن ذلك الرجل العجمي كان من أصحاب القرمطي، وأنت أوصلته.

فحلف ابن الفرات أنه ما كاتب القرمطي، ولا هاداه، ولا رأى ذلك الأعجمي إلا تلك الساعة؛ والمقتدر معرض عنه، وأشار نصر على المقتدر أن يحضر مؤنساً ومن معه، ففعل لك، وكتب إليه بالحضور فسار إلى ذلك، ونهض ابن الفرات، فركب في طيارة فرجه العامة حتى كاد يغرق.

(١٤٩/٨) وتقدّم المقتدر إلى ياقوت بالمسير إلى الكوفة ليمتنها من القرامطة، فخرج في جمع كثير، ومعه ولداه المظفر ومحمد، فخرج على ذلك العسكر مال عظيم، وورد الخبر بعود القرامطة، ففعل مسير ياقوت.

ووصل مؤنس بالمظفر إلى بغداد، ولما رأى المحسن ابن

ولما وُزِّر الخاقاني شفع إليه مؤنس الخادم في إعادة علي بن عيسى من صنعاء إلى مكة، فكتب إلى جعفر عامل اليمن في الإذن لعل بن عيسى في العود إلى مكة، ففعل ذلك، وأذن لعل في الاطلاع على أعمال مصر والشام.

ومات أبو علي الخاقاني في وزارة ولده هذه.

ذكر قتل ابن الفرات وولده المحسن

وكان المحسن ابن الوزير ابن الفرات مخفياً، كما ذكرنا، وكان عند حماته حزانة، وهي والددة الفضل بن جعفر بن الفرات، وكانت تأخذه كل يوم إلى المقبرة، وتعود به إلى المنازل التي يشق بأهلها عشاء وهو في زي امرأة، فمضت يوماً إلى مقابر قريش، وأدركها الليل، فبعد عليها الطريق، فأشارت عليها امرأة معها أن تقصد امرأة صالحة تعرفها بالخير، تخفي عندها، فأخذت المحسن وقصدت تلك المرأة وقالت لها: معنا صبية بكر نريد بيتاً نكون (١٥٢/٨) فيه؛ فأمرتهم بالدخول إلى دارها، وسلمت إليهم قبة في الدار، فأدخلن المحسن إليها، وجلست النساء اللاتي معه في صفة بين يدي باب القبة، فجاءت جارية سوداء، فرأت المحسن في القبة، فعادت إلى مولاتها، فأخبرتها أن في الدار رجلاً، فجاءت صاحبها، فلما رآته عرفته.

وكان المحسن قد أخذ زوجها ليصادره، فلما رأى الناس في داره يُجلدون، ويشقّصون، ويعذبون، مات فجأة، فلما رأت المرأة المحسن وعرفته ركبت في سفينته، وقصدت دار الخليفة، وصاحت: معي نصيحة لأمر المؤمنين! فأحضرها نصر الحاجب، فأخبرته بخبر المحسن، فأنتهى ذلك إلى المقتدر، فأمر نازوك، صاحب الشرطة، أن يسير معها ويحضره، فأخذها معه إلى منزلها، ودخل المنزل، وأخذ المحسن وعاد به إلى المقتدر، فردّه إلى دار الوزير، فعذب أنواع العذاب ليحبب إلى مصادرة بيذله، فلم يجبه إلى دينار واحد، وقال: لا أجمع لكم بين نفسي ومالي؛ واشتدّ العذاب عليه بحيث امتنع عن الطعام.

فلما علم ذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة، فقال الوزير أبو القاسم لمؤنس، وهارون بن غريب الخال، ونصر الحاجب: إن يُقلل ابن الفرات إلى دار الخلافة بذل أمواله، وأطمع المقتدر في أموالنا، وضمننا منه، وتسلمنا فأهلكنا؛ فوضعوا القواد والجند، حتى قالوا للخليفة: إنه لا بدّ (١٥٣/٨) من قتل ابن الفرات وولده، فإننا لا نأمن على أنفسنا ما دام في الحياة.

وترددت الرسائل في ذلك، وأشار مؤنس، وهارون بن غريب، ونصر الحاجب بموافقتهم وإجابتهم إلى ما طلبوا، فأمر نازوك بقتلها، فذبحهما كما ينبغ الغنم.

الوزير ابن الفرات انحلال أموره، أخذ كل من كان محبوباً عنده من المصادر، فقتلهم لأنه كان قد أخذ منهم أموالاً جلييلة، ولم يوصلها إلى المقتدر، فخاف أن يقرّوا عليه.

ذكر القبض على الوزير ابن الفرات وولده المحسن

ثم إن الإرجاف كثر على ابن الفرات، فكتب إلى المقتدر يعرفه ذلك، وأن الناس إنما عادوه لنصحته وشفقته، وأخذ حقوقه منهم، فأنفذ المقتدر إليه يسكّنه، ويطيّب قلبه، فركب هو وولده إلى المقتدر، فأدخلهما إليه، فطيّب قلوبهما فخرجا من عنده فمنعهما نصر الحاجب من الخروج ووكل بهما، فدخل مُفْلَح على المقتدر، وأشار عليه بتأخير عزله، فأمر بإطلاقهما، فخرج هو وابنه المحسن، فأما المحسن فإنه اختفى، وأما الوزير فإنه جلس عامة نهاره يمضي الأشغال إلى الليل، ثم بات (١٥٠/٨) مفكراً، فلما أصبح سمعه بعض خدمه ينشد:

وأصبح لا يدري، وإن كان حازماً، أقنأه خير لـه أم وراة
فلما أصبح الغد، وهو الثامن من ربيع الأول، وارتفع النهار أتاه نازوك، ويليقي في عدة من الجند، فدخلوا إلى الوزير، وهو عند الحرم، فأخرجوه حافياً مكشوف الرأس، وأخذ إلى دجلة، فألقى عليه بليق طيلساناً غطى به رأسه، وحُمِل إلى طيار فيه مؤنس المظفر، ومعه هلال بن بدر، فاعتذر إليه ابن الفرات، وألان كلامه، فقال له: أنا الآن الأستاذ، وكتبت بالأمس الخائن الساعي في فساد الدولة، وأخرجتني والمظفر على رأسي ورؤوس أصحابي، ولم تمهني.

ثم سلّم إلى شفيع اللؤلؤي، فحبس عنده، وكانت مدة وزارته هذه عشرة أشهر وثمانية عشر يوماً، وأخذ أصحابه وأولاده ولم ينج منهم إلا المحسن، فإنه اختفى؛ وصودر ابن الفرات على جملة من المال مبلغها ألف ألف دينار.

ذكر وزارة أبي القاسم الخاقاني

ولما تغير حال ابن الفرات سعى عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان أبو القاسم بن أبي علي الخاقاني في الوزارة، وكتب خطّه أنه يتكفل ابن الفرات وأصحابه بمصادرة ألفي ألف دينار، وسعى له مؤنس الخادم، (١٥١/٨) وهارون بن غريب الخال، ونصر الحاجب.

وكان أبو علي الخاقاني، والد أبي القاسم، مريضاً شديداً المرض، وقد تغير عليه لكبر سنه، فلم يعلم بشيء من حال ولده؛ وتولى أبو القاسم الوزارة تاسع ربيع الأول، وكان المقتدر يكرهه، فلما سمع ابن الفرات، وهو محبوب، بولايته قال: الخليفة هو الذي نُكِبَ لا أنا، يعني أن الوزير عاجز لا يعرف أمر الوزارة.

في ملك لها، فكتبت إليه تشكو منه غير مرة، وهو لا يرد لها جواباً، فلقيته يوماً، وقالت له: أسألك بالله أن تسمع مني كلمة! فوقف لها، فقالت: قد كتبتُ إليك في ظُلُماتي غير مرة، ولم تُجِبنِي، وقد تركتُ وكتبتها إلى الله تعالى. فلما كان بعد أيام، ورأى تغير حاله، قال لمن معه من أصحابه: ما أظن إلا جواب رقعة تلك المرأة المظلومة قد خرج؛ فكان كما قال.

ذكر دخول القرامطة الكوفة

وفي هذه السنة دخل أبو طاهر القرمطي إلى الكوفة، وكان سبب ذلك أن أبا طاهر أطلق مَنْ كان عنده من الأسرى الذين كان أسرهم من الحجاج، وفيهم ابن حمدان وغيره، وأرسل إلى المقتدر يطلب البصرة والأهواز، فلم يجبه إلى ذلك، فسار من هَجَرَ يريد الحجاج.

وكان جعفر بن ورقاء الشيباني متقلداً أعمال الكوفة وطريق مكة، فلما سار (١٥٦/٨) الحُجَّاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفاً من أبي طاهر، ومعه ألف رجل من بني شيبان، وسار مع الحُجَّاج من أصحاب السلطان تُمَلَّ صاحب البحر، وجُنَيُّ الصفواني، وطريف السبكري وغيرهم، في ستة آلاف رجل، فلقي أبو طاهر القرمطي جعفر الشيباني، فقاتله جعفر.

فبينما هو يقاتله إذا طلع جمع من القرامطة عن يمينه، فانهزم من بين أيديهم، فلقي القافلة الأولى وقد انحدرت من العقبة، فردَّهم إلى الكوفة ومعهم عسكر الخليفة، وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة، فقاتلهم، فانهزم عسكر الخليفة، وقتل منهم، وأسر جُنَيَّ الصفواني، وهرب الباقيون والحُجَّاج من الكوفة، ودخلها أبو طاهر، وأقام ستة أيام بظاهر الكوفة يدخل البلد نهراً فيقيم في الجامع إلى الليل، ثم يخرج بيت في عسكره، وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك، وعاد إلى هَجَرَ.

ودخل المنهزمون بغداد، فتقدم المقتدر إلى مؤنس المظفر بالخروج إلى الكوفة، فسار إليها، فبلغها وقد عاد القرامطة عنها، فاستخلف عليها ياقوتاً، وسار مؤنس إلى واسط خوفاً عليها من أبي طاهر، وخاف أهل بغداد، وانتقل الناس إلى الجانب الشرقي؛ ولم يَجْعَ في هذه السنة من الناس أحد. (١٥٧/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خلع المقتدر على نُجَاح الطولوني، ووليَ أصبهان.

وفيها ورد رسول ملك الروم بهدايا كثيرة، ومعه أبو عمر بن عبد الباقي، فطلباً من المقتدر الهدنة وتقرير الفداء، فأجيباً إلى ذلك بعد غزاة الصائفة.

وكان ابن الفرات قد أصبح يوم الأحد صائماً، فأُتي بطعام فلم يأكله، فأُتي أيضاً بطعام لِيُفْطِر عليه، فلم يَظْفِر، وقال: رأيتُ أخي العباس في النوم يقول لي: أنت وولدك عندنا يوم الاثنين؛ ولا شك أننا نُقتل؛ فقتل ابنه المحسن يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر، وحُمل رأسه إلى أبيه، فارتاع لذلك شديداً، ثم عُرِض أبوه على السيف فقال: ليس إلا السيف، راجعوا في أمري، فإن عندي أموالاً جمّة، وجواهر كثيرة، فقيل له: جَلَّ الأمر عن ذلك! وقُتل وكان عمره إحدى وسبعين سنة، وعمر ولده المحسن ثلاثاً وثلاثين سنة، فلما قُتلَا حُمِلَ رأساهما إلى المقتدر بالله، فأمر بتفريقهما.

وقد كان أبو الحسن بن الفرات يقول: إن المقتدر بالله يقتلني، فصح قوله، فمن ذلك أنه عاد من عنده يوماً، وهو مُفَكِّر كثير الهم، فقيل له في ذلك، فقال: كنتُ عند أمير المؤمنين فما خاطبته في شيء من الأشياء إلا قال لي نعم، فقلتُ له الشيء وضده، ففي كل ذلك يقول نعم؛ فقيل له: هذا لحسن ظنِّه بك، وثقت به بما تقول، واعتماده على شفقتك؛ فقال: لا والله، (١٥٤/٨) ولكنه أذن لكل قاتل، وما يؤمِّنِي أن يقال له بقتل الوزير، فيقول نعم؛ والله إنه قاتلي!

ولما قُتل ركب هارون بن غريب مسرعاً إلى الوزير الخاقاني، وهنأه بقتله، فأغمي عليه، حتى ظن هارون ومن هناك أنه قد مات، وصرخ أهله وأصحابه عليه، فلما أفاق من غشيته لم يفارقه هارون حتى أخذ منه ألفي دينار.

وأما أولاده سوى المحسن فإن مؤنساً المظفر شفع في ابنه عبد الله وأبي نصر، فأطلقا له، فخلع عليهما، ووصلهما بعشرين ألف دينار، وصودر ابنه الحسن على عشرين ألف دينار، وأطلق إلى منزله.

وكان الوزير أبو الحسن بن الفرات كريماً، ذا رئاسة وكفاية في عمله، حسن السؤال والجواب، ولم يكن له سيئة إلا ولده المحسن.

ومن محاسنه أنه جرى ذكر أصحاب الأدب، وطلبة الحديث، وما هم عليه من الفقر والتعفف، فقال: أنا أحقُّ من أعانهم؛ وأطلق لأصحاب الحديث عشرين ألف درهم، وللشعراء عشرين ألف درهم، ولأصحاب الأدب عشرين ألف درهم، وللفقهاء عشرين ألف درهم، وللصوفية عشرين ألف درهم، فذلك مائة ألف درهم.

وكان إذا ولي الوزارة ارتفعت أسعار الثلج، والشمع، والسكر، (١٥٥/٨) والقراطيس، لكثرة ما كان يستعملها ويخرج من داره للناس، ولم يكن فيه ما يعاب به إلا أن أصحابه كانوا يفعلون ما يريدون، ويظلمون، فلا يمنهم، فمن ذلك أن بعضهم ظلم امرأة

وفي هذه السنة خُلع على جَيِّ الصفواني بعد عوده من ديار مصر. وفيها استعمل سعيد بن حمدان على معاون والحرب بنهاوند.

وفيها دخل المسلمون بلاد الروم، فنهبوا، وسبوا، وعادوا.

وفيها ظهر عند الكوفة رجل ادعى أنه محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو رئيس الإسماعيلية، وجمع جمعاً عظيماً من الأعراب وأهل السواد، واستفحل أمره في شِوَال، فسُيِّر إليه جيش من بغداد، فقاتلوه، فظفروا به وانهزم، وقُتل كثير من أصحابه.

وفيها، في شهر ربيع الأول، توفي محمد بن نصر الحاجب، وقد كان استعمل على الموصل، وتقدّم ذلك.

وفيها توفي شفيح اللؤلؤي وكان على البريد وغيره من الأعمال، فولّي ما كان عليه شفيح المقتدري. (١٥٨/٨)

سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة

ذكر عزل الخاقاني عن الوزارة ووزارة الخصيي

في هذه السنة، في شهر رمضان، عَزَلَ أبو القاسم الخاقاني عن وزارة الخليفة.

وكان سبب ذلك أن أبا العباس الخصيي علم بمكان امرأة المحسن بن الفرات، فسأل أن يتولى النظر في أمرها، فأذن له المقتدر في ذلك، فاستخلص منها سبع مائة ألف دينار وحملها إلى المقتدر، فصار له معه حديث، فخافه الخاقاني، فوضع مَنْ وقع عليه وسعى به، فلم يصغ المقتدر إلى ذلك، فلما علم الخصيي بالحال كتب إلى المقتدر يذكر معائب الخاقاني وابنه عبد الوهاب وعجزهما، وضياح الأموال، وطمع العمال.

ثم إن الخاقاني مرض مرضاً شديداً، وطال به، فوفقت الأحوال، وطلب الجند أرزاقهم، وشغبوا، فأرسل المقتدر إليه في ذلك، فلم يقدر على شيء، فحيثُذَّ عزله، واستوزر أبا العباس الخصيي وخلع عليه، وكان يكتب لأم المقتدر، فلما ورَّز كتب لها بعده أبو يوسف عبد الرحمن بن محمد، وكان قد تزهد وترك عمل السلطان، وليس الصوف والفوط، فلما أُسند (١٥٩/٨) إليه هذا العمل ترك ماكان عليه من الزهد، فسَمَاهُ الناس المرتد.

فلما وَلِيَ الخصيي أقرَّ علي بن عيسى على الإشراف على أعمال مصر والشام، فكان يتردد من مكة إليها في الأوقات، واستعمل العمال في الأعمال، واستعمل أبا جعفر محمد بن القاسم

ذكر ما فتحه أهل صقلية

في هذه السنة مار جيش صقلية مع أميرهم سالم بن راشد وأرسل إليهم المهدي جيشاً من إفريقية، فسار إلى أرض انكبردة، ففتحوا غيران وأبرجة، وغنموا غنائم كثيرة، وعاد جيش صقلية، وساروا إلى أرض قَلُورِيَّة، وقصدوا مدينة طارنت، فحاصروها وفتحوها بالسيف في شهر رمضان ووصلوا إلى مدينة أدرنت، فحاصروها، وخربوا منازلها، فأصاب المسلمين مرض شديد كبير، فعادوا، ولم يزل أهل صقلية يغيرون على ما بأيدي الروم من جزيرة صقلية، وقَلُورِيَّة، وينهبون ويخربون. (١٦٠/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة فتح إبراهيم اليمسمعي ناحية القفص، وهي من حدود كرمان، وأسر منهم خمسة آلاف إنسان وحملهم إلى فارس وياعهم.

وفيها كثرت الأربطاب ببغداد، حتى عملوا منها التمور، وحُمِلَتْ إلى واسط والبصرة، فنُسِبَ أهل بغداد إلى البغي.

وفيها كتب ملك الروم إلى أهل الثغور يأمرهم بحمل الخراج إليه، فإن فعلوا، وإلا قصدهم قتل الرجال، وسبى الذرية، وقال: إنني صَحَّ عندي ضعف ولا تكم؛ فلم يفعلوا ذلك، فسار إليهم، وأخرب البلاد، ودخل مَلْطِيَّة في سنة أربع عشرة وثلاثمائة، فأخربوها، وسبوا منها، ونهبوا، وأقام فيها ستة عشر يوماً.

وفيها اعترض القرامطة الحاج بزبالة فقاتلهم أصحاب الخليفة، فانهزموا، ووضع القرامطة على الحاج قطيعة، فأخذوها، وكفَّوا عنهم، فساروا إلى مكة.

وفيها انقضَّ كوكب كبير وقت المغرب، له صوت مثل الرعد الشديد، وضوء عظيم أضاءت له الدنيا.

وفيها توفي محمد بن محمد بن سليمان الباغددي في ذي الحجة، وهو (١٦١/٨) من حَفَاط المحدثين، وأبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مهران السراج النيسابوري وعمره تسع وتسعون سنة، وكان من العلماء الصالحين، وعبد الله بن محمد بن عبد العزيز البَغَوِي، توفي ليلة الفطر، وكان عمره مائة سنة وستين، وهو ابن بنت أحمد بن منيع.

وفيها توفي علي بن محمد بن بشار أبو الحسن الزاهد. (١٦٢/٨)

سنة أربع عشرة وثلاثمائة

ذكر مسير ابن أبي الساج إلى واسط

وفي هذه السنة قلد المقتدر يوسف بن أبي الساج نواحي المشرق، وأذن له في أخذ أموالها وصرفها إلى قواده وأجناده، وأمره بالقدوم إلى بغداد من أذربيجان، والمسير إلى واسط، ليسير إلى حَبَرٍ لمحاربة أبي طاهر القرمطي، فسار إلى واسط، وكان بها مؤنس المظفر، فلما قاربها يوسف صعد مؤنس إلى بغداد ليقيم بها، وجعل له أموال الخراج بنواحي همدان، وساعة، وقم، وقاشان، وماء البصرة، وماء الكوفة، وماسَبَذان، ليفقهها على مائده، ويستعين بذلك على محاربة القرامطة؛ وكان هذا كله من تدبير الخصيصي. (١٦٣/٨)

ذكر الحرب بين عبد الله بن حمدان والأكراد والعرب

وفي هذه السنة أفسد الأكراد والعرب بأرض الموصل وطريق خراسان، وكان عبد الله بن حمدان يتولى الجميع وهو ببغداد، وابنه ناصر الدولة بالموصل، فكتب إليه أبوه يأمره بجمع الرجال والانحدار إلى تكريت ففعل وسار إليها، فوصل إليها في رمضان، واجتمع بأبيه، وأحضر العرب، وطالبهم بما أخذوا في عمله بعد أن قتل منهم، ونكّل ببعضهم، فردوا على الناس شيئاً كثيراً، ورحل بهم إلى شهرزور، فوطئ الأكراد الجلالية، فقاتلهم، وانضاف إليهم غيرهم، فاشتدت شوكتهم، ثم إنه انقادوا إليه لما رأوا قوته، وكفّوا عن الفساد والشر.

ذكر عزل الخصيصي ووزارة علي بن عيسى

في هذه السنة، في ذي القعدة، عزل المقتدر أبا العباس الخصيصي عن الوزارة.

وكان سبب ذلك أن الخصيصي أضاق إضاقه شديدة، ووقفت أمور السلطان (١٦٤/٨) لذلك، واضطرب أمر الخصيصي.

وكان حين ولي الوزارة قد اشتغل بالشرب كل ليلة؛ وكان يصبح سكران لا قصد فيه لعمل وسماع حديث؛ وكان يترك الكتب الواردة الدواوين لا يقرأها إلا بعد مدة، ويهمل الأجوبة عنها، فضاعت الأموال، وفاتت المصالح، ثم إنه لضجره وتبرُّمه بها وبغيرها من الأشغال، وكَلَّ الأمور إلى نوابه، وأهمل الإطلاع عليها، فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم.

فلما صار الأمر إلى هذه الصورة أشار مؤنس المظفر بعزله، وولاية علي بن عيسى، فقبض عليه، وكانت وزارته سنة وشهرين، وأخذ ابنه وأصحابه فحبسوا، وأرسل المقتدر بالله بالغد إلى دمشق يستدعي علي بن عيسى، وكان بها. وأمر المقتدر أبا القاسم عبيد

الله بن محمد الكلوزاني بالنيابة عن علي بن عيسى إلى أن يحضر، فسار علي بن عيسى إلى بغداد، فقدمها أوائل سنة خمس عشرة [وثلاثمائة]، واشتغل بأمور الوزارة، ولازم النظر فيها، فمشت الأمور، واستقامت الأحوال.

وكان من أقوم الأسباب في ذلك أن الخصيصي كان قد اجتمع عنده رقع المصادرين، وكفالات من كفل منهم، وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد، والأهواز، وفارس، والمغرب، فنظر فيها علي، وأرسل في طلب تلك الأموال، فأقبلت إليه شيئاً بعد شيء، فآدى الأرزاق، وأخرج العطاء، (١٦٥/٨) وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح، ومن أولاد المرتزقة من هو في المهدي، فلان أباهم أثبتوا أسماءهم، ومن أرزاق المغنين، والمساخرة، والندماء، والصفاعة، وغيرهم، مثل الشيخ الهرم، ومن ليس له سلاح، فإنه أسقطهم وتولّى الأعمال بنفسه ليلاً ونهاراً، واستعمل العمال في الولايات، واختار الكفاة.

وأمر المقتدر بالله بمناظرة أبي العباس الخصيصي، فأحضره، وأحضر الفقهاء والقضاة والكتّاب وغيرهم، وكان علي وقوراً لا يسفه، فسأله عما صح من الأموال من الخراج، والنواحي، والأصقاع والمصادرات والمتكلفين بها، ومن البواقي القديمة إلى غير ذلك، فقال: لا أعلمه.

وسأله عن الإخراجات، والواصل إلى المخزن، فقال: لا أعرفه؛ وقال له: لِمَ أحضرت يوسف بن أبي الساج، وسلّمت إليه أعمال المشرق، سوى أصبهان، وكيف تعتقد أنه يقدر هو وأصحابه، وهم قد أفوا البلاد الباردة الكثيرة المياه، على سلوك البرية الفقراء، والصبر على حرّ بلاد الإحساء والقطيف، ولم يسم تجعل معه منفقاً يخرج المال على الأجناد؟ فقال: ظننت أنه يقدر على قتال القرامطة، وامتنع من أن يكون معه منفق.

فقال له: كيف استجزت في الدين والمروءة ضرب حُرْم المصادرين وتسليمهن إلى أصحابك، كأمارة ابن الفرات وغيره، فإن كانوا فعلوا ما لا يجوز أَلَسْتَ أنت السبب في ذلك؟

(١٦٦/٨) ثم سأله عن الحاصل له، وعن إخراجاته، فخلط في ذلك، فقال له: غررت بنفسك، وغررت بأمير المؤمنين، ألا قلت له إنني لا أصالح للوزارة، فقد كان الفرس، إذا أرادوا أن يستوزروا وزيراً، فنظروا في تصرفه لنفسه فإن وجدوه حازماً، ضابطاً، ولؤه، وإلا قالوا: من لا يحسن يدبّر نفسه فهو عن غير ذلك أعجز، وتركوه؛ ثم أعاده إلى محبسه.

ذكر استيلاء السامانية على الري

لما استدعى المقتدر يوسف بن أبي الساج إلى واسط كتب إلى

سنة خمس عشرة وثلاثمائة

ذكر ابتداء الوحشة بين المقتدر ومؤنس

في هذه السنة هاجت الروم، وقصدوا الثغور، ودخلوا سُمِساط، وغنموا جميع ما فيها من مال وسلاح وغير ذلك، وضربوا في الجامع بالناقوس أوقات الصلوات.

ثم إن المسلمين خرجوا في أثر الروم، وقتلواهم، وغنموا منهم غنيمة عظيمة، فأمر المقتدر بالله بتجهيز العساكر مع مؤنس المظفر، وخلع المقتدر عليه، في ربيع الآخر، ليسير، فلما لم يبق إلا الوداع امتنع مؤنس من دخول دار الخليفة للوداع، واستوحش من المقتدر بالله وظهر ذلك.

وكان سببه أن خادماً من خدام المقتدر حكى لمؤنس أن المقتدر بالله أمر خواص خدمه أن يحضروا جِياً في دار الشجرة، ويغطوه ببراية وتراب، وذكر أنه يجلس فيه لوداع مؤنس، فإذا حضر وقاربها ألقاه الخدم فيها، وخنقوه، وأظهروه ميتاً، فامتنع مؤنس من دخول دار الخليفة، وركب إليه جميع الأجناد، وفيهم عبد الله بن حمدان وإخوته، وخلت دار الخليفة، (١٧٠/٨) وقالوا لمؤنس: نحن نقاتل بين يديك إلى أن تنبت لك لحية، فوجه إليه المقتدر رقعة بخطه يحلف له على بطلان ما بلغه، فصرف مؤنس الجيش، وكتب الجواب أنه العبد المملوك، وأن الذي أبلغه ذلك قد كان وضعه من يريد إباحته من مولاة، وأنه ما استدعى الجند، وإنما هم حضروا، وقد فرّقهم.

ثم إن مؤنساً قصد دار المقتدر في جمع من القواد، ودخل إليه، وقبل يده، وحلف المقتدر على صفاء نيّته له، وودعه وسار إلى الثغر في العشر الآخر من ربيع الآخر، وخرج لوداعه أبو العباس بن المقتدر، وهو الراضي بالله، والوزير علي بن عيسى.

ذكر وصول القرامطة إلى العراق وقتل يوسف بن أبي الساج

في هذه السنة وردت الأخبار بمسير أبي طاهر القرمطي من هَجَرَ نحو الكوفة، ثم وردت الأخبار من البصرة بأنه اجتاز قريباً منهم نحو الكوفة. فكتب المقتدر إلى يوسف بن أبي الساج يعرفه هذا الخبر، ويأمره بالمبادرة إلى الكوفة، فسار إليها عن واسط، آخر شهر رمضان، وقد أعد له بالكوفة الأنزال له ولعسكره، فلما وصلها أبو طاهر الهجري هرب نواب السلطان عنها، واستولى عليها أبو طاهر، (١٧١/٨) طاهر، وعلى تلك الأنزال والعلوفات، وكان فيها مائة كر دقيقاً، وألف كر شعيراً، وكان قد فني ما معه من الميرة والعلوفة، فبقوا بما أخذوه.

ووصل يوسف إلى الكوفة بعد وصول القرمطي بيوم واحد،

السعيد نصر بن أحمد الساماني بولاية الرّي، وأمره بقصدها، وأخذها من فاتك، غلام يوسف، فسار نصر بن أحمد إليها، وأائل سنة أربع عشرة وثلاثمائة، فوصل إلى جبل قارن، فمنعه أبو نصر الطبري من العبور، فأقام هناك، فراسله، وبذلك له ثلاثين ألف دينار حتى مكّنه من العبور، فسار حتى قارب الرّي، فخرج فاتك عنها، واستولى نصر بن أحمد عليها في جمادى الآخرة، وأقام بها شهرين، وولى عليها سيمجور الدواتي وعاد عنها.

ثم استعمل عليها محمد بن علي صعلوك، وسار نصر إلى بخارى، ودخل صعلوك الرّي، فأقام بها إلى أوائل شعبان سنة ست عشرة وثلاثمائة فمرض، فكتب الحسن الداعي، وماكان بن كالي في القدوم عليه ليسلم (١٦٧/٨) الرّي إليهما، فقدم عليه، فسلم الرّي إليهما وسار عنها، فلما بلغ الدامغان مات.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة ضمن أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان أعمال الخراج والضيايع بالموصل، وقرّدى، وبازيندى، وما يجري معها. وفيها سار ثمل إلى عمله بالثغور، وكان في بغداد.

وفيها، في ربيع الآخر، خرجت الروم إلى مَلَطِيّة وما يليها مع الدُؤْمَسْتَقْ، ومعه مليح الأرمني صاحب الدُؤُوب، فنزلوا على مَلَطِيّة، وحصروها، فحصر أهلها، ففتح الروم أبواباً من الرّيبض، فدخلوا، فقاتلهم أهلها، وأخرجوهم منه، ولم يظفروا من المدينة بشيء، وخرّبوا قرى كثيرة من قراها، ونشوا الموتى، ومثلوا بهم، ورحلوا عنهم؛ وقصد أهل مَلَطِيّة بغداد مستغيثين، في جمادى الأولى، فلم يعانون، فعادوا بغير فائدة وغزا أهل طَرْسُوس صائفة، فغنموا وعادوا.

وفيها جمدت دجلة عند الموصل من بلد إلى الحديثة، حتى عبر عليها الدواب لشدة البرد.

وفيها توفي الوزير أبو القاسم الخاقاني، وهرب ابنه عبد الوهاب، ولم (١٦٨/٨) يحضر غسل أبيه، ولا الصلاة عليه، وكان الوزير قد أطلق من محبسه قبل موته.

وفيها توجه أبو طاهر القرمطي نحو مكة، فبلغ خبره إلى أهلها، فنقلوا حُرْمَهُمْ وأموالهم إلى الطائف وغيره خوفاً منه.

وفيها كتب الكلّوذاني إلى الوزير الخصيبي، قبل عزله، بأن أبا طالب التوتندجاني قد صار يجري مجرى أصحاب الأطراف، وأنه قد تغلب على ضيايع السلطان، واستغل منها جملة عظيمة، فصورد أبو طالب على مائة ألف دينار. (١٦٩/٨)

مقطوعة، فعاد وهو مثل القنفذ.

وأراد القرامطة العبور فلم يمكنهم لأن النهر لم يكن فيه مخاضة، ولما أشرفوا على عسكر الخليفة هرب منهم خلق كثير إلى بغداد من غير أن يلقوهم، فلما رأى ابن حمدان ذلك قال لمؤنس: كيف رأيت ما أشرت به عليكم؟ فوالله لو عبر القرامطة النهر لانهزم كل من معك ولأخذوا بغداد؛ ولما رأى (١٧٣/٨) القرامطة ذلك عادوا إلى الأنبار، وسير مؤنس المظفر صاحبه بليقاً، في ستة آلاف مقاتل، إلى عسكر القرامطة، غربي الفرات، ليغنموه ويخلصوا ابن أبي الساج، فبلغوا إليهم، وقد عبر أبو طاهر الفرات في زورق صياد، وأعطاه ألف دينار، فلما رآه أصحابه قويت قلوبهم، ولما أتاهم عسكر مؤنس كان أبو طاهر عندهم، فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عسكر الخليفة.

ونظر أبو طاهر إلى ابن أبي الساج وهو قد خرج من الخيمة ينظر ويرجو الخلاص، وقد ناداه أصحابه: أبشر بالفرج! فلما انهزموا أحضره وقتله، وقتل جميع الأسرى من أصحابه. وسلمت بغداد من نهب العيارين، لأن نازوك كان يطوف هو وأصحابه ليلاً ونهاراً، ومن جوده بعد العتمة قتلوه، فامتنع العيارون، واكثرى كثير من أهل بغداد سفناً، ونقلوا إليها أموالهم، وربطوها لينحدروا إلى واسط، وفيهم من نقل متاعه إلى واسط وإلى حلوان ليسيروا إلى خراسان. وكان عدة القرامطة ألف رجل وخمسمائة رجل منهم سبعمائة فارس وثمانمائة راجل، وقيل كانوا ألفين وسبعمائة.

وقصد القرامطة مدينة هيت، وكان المقتدر قد سير إليها سعيد بن حمدان، وهارون بن غريب، فلما بلغها القرامطة رأوا عسكر الخليفة قد سبقهم، فقاتلوه على السور، فقتلوا من القرامطة جماعة كثيرة، فعادوا عنها.

ولما بلغ أهل بغداد عودهم من هيت سكنت قلوبهم؛ ولما علم المقتدر بعودة عسكره وعسكر القرامطة قال: لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة.

(١٧٤/٨) وجاء إنسان إلى علي بن عيسى، وأخبره أن في جبراته رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكتب أبا طاهر بالأخبار، فأحضره، وسأله واعترف، وقال: ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم، ولا بد لله من حجة في أرضه، وإمامنا المهدي محمد بن فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب، ولسنا كالرافضة والاثني عشرية الذين يقولون بجعلهم إن لهم إماماً يتظرونه، ويكذب بعضهم لبعض فيقول: قد رأيته وسمعته وهو يقرأ، ولا ينكرون بجعلهم وغبوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه، فقال له: قد خالطت عسكرنا

فحال بينه وبينها، وكان وصوله يوم الجمعة ثامن شوال، فلما وصل إليهم أرسل إليهم يدعوه إلى طاعة المقتدر، فإن أبوا فموعدهم الحرب يوم الأحد؛ فقالوا: لا طاعة علينا إلا لله تعالى، والموعد بيننا للحرب بكرة غد.

فلما كان الغد ابتدأ أوباش العسكر بالشتم ورمي الحجارة، ورأى يوسف قلة القرامطة، فاحترهم، وقال: إن هؤلاء الكلاب بعد ساعة في يدي! وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالمظفر قبل اللقاء تهاوناً بهم.

وزحف الناس بعضهم إلى بعض، فسمع أبو طاهر أصوات البوقات والزعقات، فقال لصاحب له: ما هذا؟ فقال: فشل! قال: أجل، لم يزد على هذا. فاقتلوا من ضحوة النهار، يوم السبت، إلى غروب الشمس، وصبر الفريقان، فلما رأى أبو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه، ومعه جماعة يثق بهم، وحمل بهم، فطحن أصحاب يوسف، ودقهم، فانهزموا بين يديه، وأسر يوسف وعدداً كثيراً من أصحابه، وكان أسره وقت المغرب، وحملوه إلى عسكرهم، ووكل به أبو طاهر طبيباً يعالج جراحه.

وورد الخبر إلى بغداد بذلك، فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً، وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمدان، ودخل المنهزمون بغداد، أكثرهم رجالة، حفاة، عراة، فبرز مؤنس المظفر ليسير إلى الكوفة، فاتاهم الخبر بأن القرامطة قد ساروا إلى عين التمر، فأنفذ من بغداد خمس مائة سُميرية فيها المقاتلة لتمكنهم من عبور الفرات، وسير جماعة من (١٧٢/٨) الجيش إلى الأنبار لحفظها، ومنع القرامطة من العبور هنالك.

ثم إن القرامطة قصدوا الأنبار، فقطع أهلها الجسر، ونزل القرامطة غرب الفرات، وأنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة، فأنوه بسفن، ولم يعلم أهل الأنبار بذلك، وعبر فيها ثلاثمائة رجل من القرامطة، فقاتلوا عسكر الخليفة، فهزمهم، وقتلوا منهم جماعة واستولى القرامطة على مدينة الأنبار، وعقدوا الجسر، وعبر أبو طاهر جريدة وخلّف سواده بالجانب الغربي.

ولما ورد الخبر بعبور أبي طاهر إلى الأنبار، خرج نصر الحاجب في عسكر جرار، فلحق بمؤنس المظفر، فاجتمعوا في نيف وأربعين ألف مقاتل، سوى الغلمان ومن يريد النهب، وكان ممن معه أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان، ومن إخوته أبو الوليد، وأبو السرايا في أصحابهم، وساروا حتى بلغوا نهر زبارا، على فرسخين من بغداد، عند عقرفوف، فآشار أبو الهيجاء بن حمدان بقطع القنطرة التي عليه، فقطعوها، وسار أبو طاهر ومن معه نحوهم، فبلغوا نهر زبارا، وفي أوتانهم رجل أوسد، فما زال الأسود يدنو من القنطرة، والنشاب يأخذه، ولا يمتنع، حتى أشرف عليها، فرأها

وعرفتهم، فمن فيهم على مذهبك؟ فقال: وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة، كيف تطمع مني أنني أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم؟ لا أفعل ذلك. فأمر به فضرب ضرباً شديداً، ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام.

وقد كان ابن أبي الساج قبل قتاله القرامطة قد قبض على وزيره محمد ابن خلف التيرماني وجعل مكانه أبا علي الحسن بن هارون، وصادر محمداً على خمسمائة ألف دينار، وكان سبب ذلك أن التيرماني عظم شأنه، وكثر ماله، فحدث نفسه بوزارة الخليفة، فكتب إلى نصر الحاجب يخطب الوزارة، ويسعى بآبني الساج، ويقول له: إنه قرمطي يعتقد إمامة العلوي الذي (١٧٥/٨) بإفريقية، وإنني ناظرته على ذلك، فلم يرجع عنه، وإنه لا يسير إلى قتال أبي طاهر القرمطي، وإنما يأخذ المال بهذا السبب، ويقوى به على قصد حضرة السلطان، وإزالة الخلافة عن بني العباس؛ وطول في ذلك وعرض.

وكان لمحمد بن خلف أعداء قد أساء إليهم من أصحاب ابن أبي الساج فسعوا به، فأعلموا يوسف بن أبي الساج ذلك، وأروه كتباً جاءته من بغداد في المعنى من نصر الحاجب، وفيها رموز إلى قواعد قد تقدمت وتقررت، وفيها الوعد له بالوزارة، وعزل علي بن عيسى الوزير، فلما علم ذلك ابن أبي الساج قبض عليه، فلما أسر ابن أبي الساج تخلص من الحبس؛ وكان ابن أبي الساج يسمى الشيخ الكريم لما جمع الله فيه من خلال الكمال والكرم.

ذكر استيلاء أسفار على جرجان

في هذه السنة استولى أسفار بن شيرويه الديلمي على جرجان، وكان ابتداء أمره أنه كان من أصحاب ماكان بن كالي الديلمي، وكان سيئ الخلق والعشرة، فأخرجه ماكان من عسكره، فانتقل بيكر بن محمد بن الأيسع، وهو بنيسابور، وخدمه، فسيّره بيكر بن محمد إلى جرجان ليفتحها.

وكان ماكان بن كالي، ذلك الوقت، بطبرستان، وأخوه أبو الحسن بن كالي بجرجان، وقد اعتقل أبا علي بن أبي الحسين الأطروش العلوي (١٧٦/٨) عنده، فشرب أبو الحسن بن كالي ليلة ومعه أصحابه ففرقهم، وبقي في بيت هو والعلوي، فقام إلى العلوي ليقتله، فظفر به العلوي وقتله، وخرج من الدار واخفى، فلما أصبح أرسل إلى جماعة من القواد يعرفهم الحال، ففرحوا بقتل أبي الحسن بن كالي، وأخرجوا العلوي، وألبسوه القلنسوة وبابعه، فأمسى أسيراً، وأصبح أميراً، وجعل مقدم جيشه علي بن خرشيد، ورضي به الجيش، وكتبوا أسفار بن شيرويه، وعرفوه الحال، واستقدموه إليهم، فاستأذن بيكر بن محمد ومسا إلى جرجان، واتفق مع علي بن خرشيد، وضبطوا تلك الناحية، فسار إليهم ماكان بن كالي، من طبرستان، في جيشه، فحاربوه وهزموه

وكان من جملة ما غنموا أنهم ذبحوا من الغنم في بلاد الروم ثلاثمائة ألف رأس، سوى ما سلم معهم، ولقيهم رجل يُعرف بابن الضحاك، وهو من رؤساء الأكراد، وكان له حصن يُعرف بالجعفري، فارتد عن الإسلام وصار إلى ملك الروم فأجزل له العطية، وأمره بالعود إلى حصنه، فلقيه المسلمون، فقاتلوه، فأسروه، وقتلوا كل من معه. (١٧٩/٨)

وأخرجوه عن طبرستان، وأقاموا بها ومعهم العلوي، فلعب يوماً بالكرة، فسقط عن دابته فمات.

ثم مات علي بن خرشيد صاحب الجيش، وعاد ماكان بن كالي إلى أسفار، فحاربه، فانهزم أسفار منه، ورجع إلى بيكر بن محمد بن الأيسع، وهو بجرجان، وأقام بها إلى أن توفي بيكر بها، فولاه الأمير السعيد نصر بن أحمد أسفار بن شيرويه، وذلك سنة خمس عشرة وثلاثمائة، وأرسل أسفار إلى مرداويج بن زيار الجيلي يستدعيه، فحضر عنده، وجعله أمير الجيش، وأحسن إليه، وقصدوا طبرستان واستولوا عليها.

ونحن نذكر حال ابتداء مرداويج وكيف تقلبت به الأحوال. (١٧٧/٨)

ذكر الحرب بين المسلمين والروم

في هذه السنة خرجت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم، فوقع عليها العدو، فاقتتلوا فاستظهر الروم وأسروا من المسلمين أربعمائة رجل، فقتلوا صبراً.

وفيها سار الدُّمُسْتُقُ في جيش عظيم من الروم إلى مدينة دَبِيل، وفيها نصر السَّيْكي في عسكر يحميها، وكان مع الدُّمُسْتُقُ دبابات ومجانيق ومعه مزارق يزرق بالنار عدة اثني عشر رجلاً، فلا يقر بين يديه أحد من شدة ناره واتصاله، فكان من أشد شيء على المسلمين.

وكان الرامي به، مباشر القتال، من أشجعهم، فرماه رجل من المسلمين بسهم فقتله، وأراح الله المسلمين من شره.

وكان الدُّمُسْتُقُ يجلس على كرسي عال يشرف على البلد وعلى عسكره، فأمرهم بالقتال على ما يراه، فصبر له أهل البلد، وهو ملازم القتال، حتى (١٧٨/٨) وصلوا إلى سور المدينة، فنقبوا فيه نقباً كثيرة، ودخلوا المدينة، فقاتلهم أهلها ومن فيها من العسكر قتلاً شديداً، فانتصر المسلمون، وأخرجوا الروم منها، وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل.

وفيها، في ذي القعدة، عاد ثمل إلى طرسوس من الغزاة الصائفة سالماً هو ومن معه فلقوا جمعاً كثيراً من الروم، فاقتتلوا فانتصر المسلمون عليهم وقتلوا من الروم كثيراً، وغنموا ما لا يحصى.

ذكر مسير جيش المهدي إلى المغرب

وفيها، في شعبان، توفي أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش فجأة. (١٨١/٨)

سنة مِيت عشرة وثلاثمائة

ذكر أخبار القرامطة

لما سار القرامطة من الأنبار عباد مؤنس الخادم إلى بغداد، فدخلها ثالث المحرم، وسار أبو طاهر القرمطي إلى الدالية من طريق الفرات، فلم يجد فيها شيئاً، فقتل من أهلها جماعة، ثم سار إلى الرجبة، فدخلها ثامن المحرم، بعد أن حاربه أهلها، فوضع فيهم السيف بعد أن ظفر بهم، فأمر مؤنس المظفر بالمسير إلى الرقة، فسار إليها في صفر، وجعل طريقه على الموصل، فوصل إليها في ربيع الأول، ونزل بها، وأرسل أهل قرقيسيا يطلبون من أبي طاهر الأمان، فأمّنهم وأمرهم أن لا يظهر أحد منهم بالنهار، فأجابوه إلى ذلك.

ذكر عدة حوادث

وسير أبو طاهر سرية إلى الأعراب بالجزيرة، فنهبهم، وأخذوا أموالهم، فخافه الأعراب خوفاً شديداً وهربوا من بين يديه، وقرر عليهم إتاوة على كل رأس دينار يحملونه إلى هجر، ثم أصدع أبو طاهر من الرجبة إلى الرقة، فدخل أصحابه الرضض وقتلوا منهم ثلاثين رجلاً، وأعان أهل الرقة أهل الرضض، وقتلوا من القرامطة جماعة، فقاتلهم ثلاثة أيام، ثم انصرفوا آخر ربيع الآخر.

(١٨٢/٨) وبثت القرامطة سرية إلى رأس عين، وكفرتوها، فطلب أهلها الأمان، فأمنوهم، وساروا أيضاً إلى سنجار، فنهبوا الجبال، ونازلوا سينجار، فطلب أهلها الأمان، فأمنوهم.

وكان مؤنس قد وصل إلى الموصل، فبلغه قصد القرامطة إلى الرقة فجد السير إليها، فسار أبو طاهر عنها، وعاد إلى الرجة، ووصل مؤنس إلى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها، ثم إن القرامطة ساروا إلى هيت، وكان أهلها قد أحكموا سورها، فقاتلوه، فعاد عنهم إلى الكوفة؛ فبلغ الخبر إلى بغداد، فأخرج هارون بن غريب، وبني بن نفيس ونصر الحاجب إليها، ووصلت خيل القرمطي إلى قصر ابن هبيرة، فقتلوا منه جماعة.

ثم إن نصراً الحاجب حُم في طريقه حمى حادة، فتجلد وسار، فلما قاربهم القرمطي لم يكن في نصر قوة على النهوض والمحاربة، فاستخلف أحمد بن كيغَلغ، واشتد مرض نصر، وأمسك لسانه لشدة مرضه، فردّوه إلى بغداد، فمات في الطريق أواخر شهر رمضان، فجعل مكانه على الجيش هارون بن غريب، ورتب ابنه أحمد بن نصر في الحجة للمقتدر مكان أبيه، فانصرف القرامطة إلى البرية، وعاد هارون إلى بغداد في الجيش، فدخلها

في هذه السنة سير المهدي العلوي، صاحب إفريقية، ابنه أبا القاسم من المهديّة إلى المغرب في جيش كثير، في صفر، لسبب محمد بن خرز الزناتي، وذلك أنه ظفر بعسكر من كتامة، فقتل منهم خلقاً كثيراً، فعظم ذلك على المهدي، فسير ولده، فلما خرج تفرّق الأعداء، وسار حتى وصل إلى ما وراء تاهرت، فلما عاد من سفرته هذه خط برمحه في الأرض صفة مدينة وسماها المحمدية، وهي المسيلة.

وكانت خطته لبني كملان، فأخرجهم منها، ونقلهم إلى فحوص القيروان، كالمعتوق منهم أمراً، فلذلك أحب أن يكونوا قريباً منه، وهم كانوا أصحاب أبي يزيد الخارجي، وانتقل خلق كثير إلى المحمدية، وأمر عاملها أن يكثر من الطعام ويخزنه ويحتفظ به ففعل ذلك، فلم يزل مخزوناً إلى أن خرج أبو يزيد ولقيه المنصور، ومن المحمدية كان يمتار ما يريد إذ ليس بالموضع مدينة سواها.

في هذه السنة مات إبراهيم بن المسمعي من حمى حادة، وكان موته بالثوبندجان، فاستعمل المقتدر مكانه على فارس ياقوتاً، واستعمل عوضه (١٨٠/٨) على كرمان أبا طاهر محمد بن عبد الصمد، وخلع عليهما.

وفيها شغب الفرسان ببغداد، وخرجوا إلى المصلى، ونهبوا القصر المعروف بالثريا، وذبحوا ما كان فيه من الوحش، فخرج إليهم مؤنس، وضمن لهم أرزاقهم، فرجعوا إلى منازلهم.

وفيها ظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر لدين الله الأموي، صاحب الأندلس، بأهل طليطلة وكان قد حصرها مدة لخلاف كان عليه فيها، فلما ظفر بهم أخرب كثيراً من عماراتها وشعثها، وكانت حينئذ دار إسلام.

وفيها قصد الأعراب سواد الكوفة فنهبوه وخربوه، ودخلوا الحيرة فنهبوا، فسير إليهم الخليفة جيشاً فدفعوهم عن البلاد.

وفيها، في ربيع الأول، انقض كوكب عظيم، وصار له صوت شديد على ساعتين بقيتا من النهار.

وفيها، في جمادى الآخرة، احترق كثير من الرُصافة ووصيف الجوهري ومُرتبة الخُرسى ببغداد.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن السري، المعروف بابن السراج النحوي، صاحب كتاب الأصول في النحو وقيل توفي سنة ست عشرة [وثلاثمائة].

لثمان بقين من شوال. (١٨٣/٨)

ذكر عزل علي بن عيسى ووزارة أبي علي بن مقله

في هذه السنة عزل علي بن عيسى عن وزارة الخليفة، ورتب فيها أبو علي بن مقله.

وكان سبب ذلك أن علياً لما رأى نقص الارتفاع، واختلال الأعمال بوزارة الخاقاني والخصيصي، وزيادة النفقات، وأن الجند لما عادوا من الأنبار زادهم المقتدر في أرزاقهم مائتي ألف وأربعين ألف دينار في السنة، ورأى أيضاً كثرة النفقات للخدم والحرم، لا سيما والده المقتدر، هاله ذلك، وعظم عليه.

ثم إنه رأى نصراً الحاجب يقصده، وينحرف عنه لميل مؤنس إليه، فإن نصراً كان يخالف مؤنساً في جميع ما يشير به، فلما تبين له ذلك استعفى من الوزارة، واحتج بالشيوخوخة وقلّة النهضة، فأمره المقتدر بالصبر، وقال له: أنت عندي بمنزلة والذي المعتضد؛ فألح عليه في الاستعفاء، فشاور مؤنساً في ذلك، وأعلمه أنه قد سُمي للوزارة ثلاثة نفر: الفضل بن جعفر بن الفرات الذي أمه حبرانة، وأخته زوجة المحسن بن الفرات، وأبو علي بن مقله، ومحمد بن خلف النيرماني الذي كان وزير ابن أبي الساج؛ فقال مؤنس: أما الفضل فقد قتلنا عمه الوزير أبا الحسن، وابن عمه زوج أخته المحسن بن الوزير، وصادرتنا أخته فلا نأمنه؛ وأما ابن مقله فحدثتُ غرّاً لا تجرّيه له بالوزارة، ولا يصلح لها؛ وأما محمد بن خلف فجاهل متهور لا يحسن شيئاً، والصواب مداواة علي بن عيسى.

ثم لقي مؤنس علي بن عيسى، وسكّنه، فقال علي: لو كنت مقيماً (١٨٤/٨) لاستعنتُ بك، ولكنك سائر إلى الرقة ثم إلى الشام.

وبلغ الخبر أبا علي بن مقله، فجدد في السعي، وضمن على نفسه الضمانات، وشاور المقتدر نصراً الحاجب في هؤلاء الثلاثة، فقال: أما الفضل بن الفرات فلا يدفع عن صناعة الكتابة، والمعرفة، والكفاية، ولكنك بالأمس قتلتَ عمه وابن عمه وصهره، وصادرت أخته وأمه؛ ثم إن بني الفرات يدينون بالرفض، ويُعرفون بولاء آل علي وولده، وأما أبو علي بن مقله فلا هبة له في قلوب الناس، ولا يُرجع إلى كفاية، ولا تجربة؛ وأشار بمحمد بن خلف لمودة كانت بينهما، ففر المقتدر من محمد بن خلف لما علمه من جهله ونهوره، وواصل ابن مقله بالهدية إلى نصر الحاجب، فأشار على المقتدر به، فاستوزره.

وكان ابن مقله لما قرب الهجري من الأنبار قد أنفذ صاحباً له معه خمسون طائراً، وأمره بالمقام بالأنبار، وإرسال الأخبار إليه وقتاً

بوقت، ففعل ذلك، فكانت الأخبار ترد من جهته إلى الخليفة على يد نصر الحاجب، فقال نصر: هذا فعله فيما لا يلزمه، فكيف يكون إذا اصطغته! فكان ذلك من أقوى الأسباب في وزارته.

وتقدّم المقتدر في منتصف ربيع الأول بالقبض على الوزير علي بن عيسى، وأخيه عبد الرحمن، وخلع على أبي علي بن مقله، وتولى الوزارة، وأعانه عليها أبو عبد الله البريدي لمودة كانت بينهما. (١٨٥/٨)

ذكر ابتداء حال أبي عبد الله البريدي وأخوته

لما ولي علي بن عيسى الوزارة كان أبو عبد الله بن البريدي قد ضمن الخاصة، وكان أخوه أبو يوسف على سرق، فلما استعمل علي بن عيسى العمال، ورتبهم في الأعمال، قال أبو عبد الله: تقلّد مثل هؤلاء على هذه الأعمال الجليلة، وتقتصر بي على ضمان الخاصة بالأهواز، وبأخي أبي يوسف على سرق! لعن الله من يقع بهذا منك، فإن لطبلي صوتاً سوف يُسمع بعد أيام.

فلما بلغه اضطراب أمر علي بن عيسى أرسل أخاه أبا الحسين إلى بغداد وأمره أن يخطب له أعمال الأهواز وما يجري معها إذا تجددت وزارة لمن يأخذ الرشي، ويرتقى؛ فلما ورر أبو علي بن مقله بذل له عشرين ألف دينار على ذلك، فقلّد أبا عبد الله الأهواز جميعها، سوى السوس وجندسابور، وقلّد أخاه أبا الحسين الفراتية، وقلّد أخاهما أبا يوسف الخاصة والأسافل، على أن يكون المال في ذمة أبي أيوب السمسار إلى أن يتصرفوا في الأعمال.

وكتب أبو علي بن مقله إلى أبي عبد الله في القبض على ابن أبي السلاسل، فسار بنفسه فقبض عليه بستّر، وأخذ منه عشرة آلاف دينار ولم يوصلها، وكان متهوراً لا يفكر في عاقبة أمر، وسيرد من أخباره ما يعلم به دهاؤه، ومكره، وقلته دينه، ونهوره.

ثم إن أبا علي بن مقله جعل أبا محمد الحسين بن أحمد المارداني مشرفاً على أبي عبد الله، فلم يلتفت إليه.

(البريدي) بالياء الموحدة والراء المهملة منسوب إلى البريدي، هكذا ذكره الأمير ابن مأكولا، وقد ذكره ابن مسكويه بالياء المعجمة باثنتين من تحت، والزاي، وقال: كان جده يخدم يزيد بن منصور الحميري، فنسب إليه، والأول أصح، وما ذكرنا قول ابن مسكويه إلا حتى لا يظن طان أننا لم نقف عليه، وأخطأنا الصواب).

ذكر من ظهر بسواد العراق من القرامطة

لما كان من أمر أبي طاهر القرمطي ما ذكرناه، اجتمع من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة فيكتم اعتقاده خوفاً، فأظهروا

والوزير ابن مقله، فأبلغاه سلام المقتدر واستباحشه له، وعاد فاستشعر كل واحد من المقتدر ومؤنس من صاحبه، وأحضر المقتدر هارون بن غريب، وهو ابن خاله، فجعله معه في داره، فلما علم مؤنس بذلك ازداد نفوراً واستيحاشاً، وأقبل أبو الهيجاء بن حمدان من بلاد الجبل، فنزل عند مؤنس ومعه عسكر كبير، وصارت المراسلات بين الخليفة ومؤنس تتردد، والأمراء يخرجون إلى مؤنس، وانقضت السنة وهم على ذلك. (١٨٩/٨)

ذكر قتل الحسن بن القاسم الداعي

في هذه السنة قُتل الحسن بن القاسم الداعي العلوي، وقد ذكرنا استيلاء أسفار بن شيرويه الديلمي على طبرستان، ومعه مرداويج، فلما استولوا عليها كان الحسن بن القاسم بالرّي، واستولى عليها، وأخرج منها أصحاب السعيد نصر بن أحمد، واستولى على قزوین، وزنجان، وأبهر، وقم، وكان معه ماكان بن كالي الديلمي، فسار نحو طبرستان، والتقوا هم وأسفار عند سارية، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الحسن وماكان بن كالي، فلقح الحسن فقتل، وكان انهزام معظم أصحاب الحسن على تعمّد منهم للهزيمة.

وسبب ذلك أنه كان يأمر أصحابه بالاستقامة، ومنعهم عن ظلم الرعية، وشرب الخمر، وكانوا يبعضونه لذلك، ثم اتفقوا على أن يستقدموا هروستدان وهو أحد رؤساء الجبل، وكان خال مرداويج ووشمكير، ليقبضوه عليهم، ويقبضوا على الحسن الداعي، وينصبوا أبا الحسين بن الأطروش، ويخطبوا له.

وكان هروستدان مع أحمد الطويل بالذامغان بعد موت صعلوك، فوقف أحمد على ذلك، فكتب إلى الحسن الداعي يعلمه، فأخذ حذره، فلما قدم هروستدان لقيه مع القواد، وأخذهم إلى قصره بجرجان ليأكلوا طعاماً، ولم يعلموا أنه قد اطلع على ما عزموا عليه، وكان قد وافق خواص أصحابه على (١٩٠/٨) قتلهم، وأمرهم بمنع أصحاب أولئك القواد من الدخول، فلما دخلوا داره قابلهم على ما يريدون [أن] يفعلوه، وما أقدموا عليه من المنكرات التي أحلت له دماءهم، ثم أمر بقتلهم عن آخرهم، وأخبر أصحابهم الذين يبابه بقتلهم، وأمرهم بنهب أموالهم، فاشتغلوا بالنهب، وتركوا أصحابهم، وعظم قتلهم على أقربائهم ونفروا عنه، فلما كانت هذه الحادثة تخلوا عنه حتى قُتل.

ولما قُتل استولى أسفار على بلاد طبرستان، والرّي، وجرجان، وقزوین، وزنجان، وأبهر، وقم، والكرخ، ودعا لصاحب خراسان وهو السعيد نصر بن أحمد، وأقام بسارية، واستعمل على أمل هارون بن بهرام، وكان هارون يحتاج [أن] يُخطب فيها لأبي جعفر العلوي، وخاف أسفار ناحية أبي جعفر أن يجدد له فتنة وحرباً، فاستدعى هارون إليه، وأمره أن يتزوج إلى أحد أعيان أمل، ويحضر

اعتقادهم، فاجتمع منهم بسواد واسط أكثر من عشرة آلاف رجل، وولوا أمرهم رجلاً يُعرف بخريث بن مسعود، واجتمع طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها في جمع كثير، وولوا أمرهم إنساناً يسمى عيسى بن موسى، وكانوا يدعون إلى المهدي.

وسار عيسى إلى الكوفة، ونزل بظاهرها، وجبى الخراج، وصرف العمال عن السواد.

(١٨٧/٨) وسار خريث بن مسعود إلى عمال الموفقى وبني بها داراً سماها دار الهجرة، واستولى على تلك الناحية، فكانوا ينجون، ويسبون، ويقتلون، وكان يتقلد الحرب بواسط بني بن نفيس، فقاتلهم، فهزموه فسار المقتدر بالله إلى خريث ابن مسعود ومن معه هارون بن غريب، وإلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافياً البصري، فأوقع بهم هارون، وأوقع صافي بمن سار إليهم، فانهزمت القرامطة، وأسر منهم كثير، وقتل أكثر ممن أسر، وأخذت أعلامهم، وكانت بيضاً، وعليها مكتوب: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] فأدخلت بغداد منكوسة، واضمحل أمر من بالسواد منهم، وكفى الله الناس شرهم.

ذكر الحرب بين نازوك وهارون بن غريب

وفيها وقعت الفتنة بين نازوك، صاحب الشرطة، وهارون بن غريب.

وسبب ذلك أن ساسة دواب هارون بن غريب وساسة نازوك تغايروا على غلام أمرد، وتضاربوا بالعصي، فحبس نازوك ساسة دواب (١٨٨/٨) هارون، بعد أن ضربهم، فسار أصحاب هارون إلى مجلس الشرطة، ووثبوا على نائب نازوك به، وانستزعوا أصحابهم من الحبس، فركب نازوك، وشكا إلى المقتدر، فقال: كلاكما عزيز علي، ولست أدخل بينكما؛ فعاد وجمع رجاله، وجمع هارون رجاله، وزحف أصحاب نازوك إلى دار هارون، فأغلق بابه، وبقي بعض أصحابه خارج الدار، فقتل منهم أصحاب نازوك، وجرحوا، ففتح هارون الباب، وأخرج أصحابه، فوضعوا السلاح في أصحاب نازوك فقتلوا منهم، وجرحوا، واشتبكت الحرب بينهم، فكف نازوك أصحابه.

وأرسل الخليفة إليهما ينكر عليهما ذلك، فكفّا، وسكنت الفتنة، واستوحش نازوك، واستدل بذلك على تغيير المقتدر، ثم ركب إليه هارون وصالحه، وأخرج بأصحابه، ونزل بالبستان النجمي ليعبد عن نازوك، فأكثر الناس الأراجيف وقالوا: قد صار هارون أمير الأمراء؛ فعظم ذلك على أصحاب مؤنس، وكتبوا إليه بذلك، وهو بالرقّة، فأسرع العود إلى بغداد فنزل بالشّماسية في أعلى بغداد، ولم يلق المقتدر، فصعد إليه الأمير أبو العباس ابن المقتدر،

عرسه أبا جعفر وغيره من رؤساء العلويين، ففعل ذلك في يوم ذكره أسفار، ثم سار أسفار من سارية مجدداً فوافى أمل وقت الموعد، وهجم [على] دار هارون على حين غفلة، وقبض على أبي جعفر وغيره من أعيان العلويين، وحملهم إلى بخارى، فاعتقلوا بها إلى أن خلصوا أيام فتنة أبي زكريا، على ما نذكره.

ولما فرغ أسفار من أمر طبرستان سار إلى الري، وبها مكاين بن كالي، فأخذها منه، واستولى عليها، وسار مكاين إلى طبرستان، فأقام هناك.

وأحب أسفار أن يستولي على قلعة الموت، وهي قلعة على جبل شاهق من (١٩١/٨) حدود الديلم، وكانت لسياه جشم بن مالك الديلمي، ومعناه الأسود العين لأنه كان على إحدى عينيه شامة سوداء، فراسله أسفار وهناه، فقدم عليه، فسأله أن يجعل عياله في قلعة الموت، وولاه قزوين، فأجابته إلى ذلك، فنقلهم إليها، ثم كان يرسل إليهم من يثق به من أصحابه، فلما حصل فيها مائة رجل استدعاه من قزوين، فلما حضر عنده قبض عليه، وقتله بعد أيام.

وكان أسفار لما اجتاز بسمنان استأمن إليه ابن أمير كان صاحب جبل ديباوند، وامتنع محمد بن جعفر السمناني من النزول إليه، وامتنع بحصن بقرية رأس الكلب، فحقداه عليه أسفار، فلما استولى على الري أنفذ إليه جيشاً يحصرونه، وعليهم إنسان يقال له عبد الملك الديلمي، فحصوره، ولم يمكنهم الوصول إليه، فوضع عليه عبد الملك سن يشير عليه بمصالحته، ففعل، وأجابه عبد الملك إلى المسألة، ثم وضع عليه من يحسن له أن يضيف عبد الملك، فأضافه، فحضر في جماعة من شجعان أصحابه، فتركهم تحت الحصن، وصعد وحده إلى محمد بن جعفر، فتحدثا ساعة، ثم استخلاه عبد الملك ليشير إليه شيئاً، ففعل ذلك، ولم يبق عندهما أحد غير غلام صغير، فوثب عليه عبد الملك فقتله، وكان محمد منكراً زمناً، وأخرج حبل إبريسم كان قد أعده فشده في نافذة في تلك الغرفة ونزل وتخلص.

(١٩٢/٨) واستغاث ذلك الغلام، فجاء أصحاب محمد بن جعفر وكسروا الباب، وكان عبد الملك قد أغلقه، فلما دخلوا رأوه مقتولاً، فقتلوا به كل من عندهم من الديلم، وحفظوا نفوسهم.

وعظمت جيوش أسفار، وجل قدره، فتجبر وعصى على الأمير السعيد، صاحب خراسان، وأراد أن يجعل على رأسه تاجاً وينصب بالري سرير ذهب للسلطنة، ويحارب الخليفة، وصاحب خراسان، فسير المقتدر إليه هارون بن غريب في عسكر نحو قزوين، فحاربه أصحاب أسفار بها، فانهزم هارون، وقتل من أصحابه جمع كثير بباب قزوين، وكان أهل قزوين قد ساعدوا أصحاب هارون، فحقداه عليهم أسفار.

ثم إن الأمير السعيد، صاحب خراسان، سار من بخارى قاصداً نحو أسفار ليأخذ بلاده، فبلغ نيسابور، فجمع أسفار عسكره وأشار على أسفار وزيره مطرف بن محمد الجرجاني بمراسلة صاحب خراسان، والدخول في طاعته، وبذل المال له، فإن أجاب، وإلا فالحرب بين يديه.

وكان في عسكره جماعة من أثراك صاحب خراسان قد ساروا معه، فخوفه وزيره منهم، فرجع إلى رأيهم وراسله، فأبى أن يجيبه إلى ذلك، وعزم على المسير إليه، فأشار عليه أصحابه أن يقبل الأموال، وإقامة الخطبة له، وخوفه الحرب وأنه لا يدرى لمن النصر، فرجع إلى قولهم، وأجاب أسفار إلى ما طلب، وشرط عليه شروطاً من حمل الأموال وغير ذلك، واتفقا، فشرع أسفار بعد إتمام الصلح، وقسط على الري وأعمالها، على كل رجل ديناراً، سواء كان من أهل البلاد أم من المجتازين، فحصل له مال عظيم أرضى صاحب خراسان ببعضه، ورجع عنه.

(١٩٣/٨) فعظم أمر أسفار خلاف ما كان، وزاد تجبره، وقصد قزوين لما في نفسه على أهلها، فأوقع بهم وقعة عظيمة أخذ فيها أموالهم، وعذبهم، وقتل كثيراً منهم، وعصفهم عسفاً شديداً، وسلط الديلم عليهم، فضاقت الأرض عليهم، وبلغت القلوب الحناجر، وسمع مؤذن الجامع يؤذن، فأمر به فألقى من المنارة إلى الأرض، فاستغاث الناس من شره وظلمه، وخرج أهل قزوين إلى الصحراء: الرجال، والنساء، والولدان يتضرعون ويدعون عليه ويسألون الله كشف ما هم فيه، فبلغه ذلك، فضحك منهم، وشتمهم استهزاء بالدعاء، فلما كان الغد انهزم على ما نذكره.

ذكر قتل أسفار

كان في أصحاب أسفار قائد من أكبر قواده يقال له مرداويج بن زيار الديلمي، فأرسله إلى سلار صاحب شيران الطرم يدعوه إلى طاعته، وسلار هذا هو الذي صار ولده فيما بعد صاحب أفريجان وغيرها، فلما وصل مرداويج إليه تشاكيا ما كان الناس فيه من الجهد والبلاء، فتحالفوا، وتعاقدا على قصده، والتساعدا على حربه.

وكان أسفار قد وصل إلى قزوين، وهو ينتظر وصول مرداويج بجوابه، فكتب مرداويج إلى جماعة من القواد يثق بهم يعرفهم ما اتفق هو وسلار عليه، فأجابوه إلى ذلك؛ وكان الجند قد سمعوا أسفار لسوء سيرته، وظلمه، وجوره، وكان في جملة من أجاب إلى مساعدة مرداويج مطرف بن محمد، (١٩٤/٨) وزير أسفار، وسار مرداويج وسلار نحو أسفار، وبلغه الخبر، وأن أصحابه قد بايعوا مرداويج، فأحسن بالشري، وكان ذلك عقيب حادثته مع أهل قزوين ودعائهم، وثار الجند بأسفار، فهرب منهم في جماعة من غلمانه

ذكر ملك مرداويج

ولما انهزم أسفار من مرداويج ابتداء في ملك البلاد، ثم إنه ظفر بأسفار فقتله فتمكن ملكه وثبت، وتنفّل في البلاد يملكها مدينةً مدينةً، وولايةً ولايةً، فملك قزوين، ووعدهم الجميل فأحبوه، ثم سار إلى الرّي فملكها، وملك همذان، وكنكسور، والذّينسور، وبروجرد، وقم، وقاشان، وأصبهان، وجرباذقان وغيرها.

ثم إنه أساء السيرة في أهل أصبهان خاصةً، وأخذ الأموال، وهتك المحارم، وطغى، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه، وسيراً من فضة يجلس عليه أكابر قوّاده، وإذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفاً بالبعد منه، ولا يخاطبه أحد إلا الحجاب الذين ربّهم لذلك، وخافه الناس خوفاً شديداً. (١٩٧/٨)

ذكر ملك مرداويج طبرستان

قد ذكرنا اتفاق ماكان بن كالي مع مرداويج، ومساعدته على أسفار، فلما استقر ملك مرداويج، وقوي أمره، وكثرت أمواله وعساكره، طمع في جرجان، وطبرستان، وكانتا مع ماكان بن كالي، فجمع عساكره وسار إلى طبرستان، فثبت له ماكان، فاستظهر عليه مرداويج، واستولى على طبرستان وربّ فيها بلقاسم بن بانجين، وهو اسفهلار، عسكره، وكان حازماً، شجاعاً، جيد الرأي.

ثم سار مرداويج نحو جرجان، وكان بها من قبل ماكان شيرزبل بن سلا، وأبو علي بن تركي، فهربا من مرداويج، وملكها مرداويج، وربّ فيها سرخاب بن باوس، خال ولد بلقاسم بن بانجين، خليفة عن بلقاسم، فجمع بلقاسم جرجان، وطبرستان، وعاد مرداويج إلى أصبهان ظافراً غانماً.

وسار ماكان إلى الديلم واستنجد أبا الفضل الثائر بها، فأكرمه، وسار معه إلى طبرستان فلقبها بلقاسم، وتحاربوا، فانهزم ماكان والثائر، فأما (١٩٨/٨) الثائر فقصده الديلم، وأما ماكان فسار إلى نيسابور، فدخل في طاعة السعيد نصر، واستنجد، فأمدّه بأكثر جيشه، وبألف في قوّيته، ووصل إليه ماكان وأبو علي، فاقتتلوا قتلاً شديداً، فانهزم أبو علي وماكان وعادا إلى نيسابور، ثم عاد ماكان بن كالي إلى الدأغغان ليملكها، فسار نحوه بلقاسم فصدّه عنها، فعاد إلى خراسان، وسنذكر باقي أخبار ماكان فيما بعد.

ذكر عدة حوادث

فيها كان ابتداء أمر أبي يزيد الخارجي بالمغرب، وسنذكر أمره سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مستقصى.

وفيها ظهر بسجستان خارجي، وسار في جمع إلى بلاد فارس يريد التغلب عليها، فقتله أصحابه قبل الوصول إليها، وتفرقوا.

وورد الري، فأراد أن يأخذ من مال كان عند نائبه بها شيئاً، فلم يعطه غير خمسة آلاف دينار، وقال له: أنت أمير ولا يعوزك مال؛ فتركه وانصرف إلى خراسان، فأقام بناحية بيهق.

وأما مرداويج فإنه عاد من قزوين نحو الري، وكتب إلى ماكان بن كالي، وهو بطبرستان، يستدعيه ليتساعدا ويتعاضدا، فسرى ماكان بن كالي إلى أسفار، وكان قد عسف أهل الناحية التي هو بها، فلما أحس بماكان سار إلى بّست، وركب المفازة نحو الري ليقصد قلعة المّوت التي بها أهله وأمواله، فانقطع عنه بعض أصحابه، وقصد مرداويج فأعلمه خبره، فخرج مرداويج من ساعته في أثره، وقدم بعض قوّاده بين يديه، فلحقه ذلك القائد وقد نزل يستريح، فسلم عليه بالإمرة، فقال له أسفار: لعلكم اتصل بكم خبري وبعثت في طلبي؟ قال: نعم! فيكي أصحابه، فأنكر عليهم أسفار ذلك، وقال: بمثل هذه القلوب تتجددون! أما علمتم أن الولايات مقرون بالبيّات.

ثم أقبل على ذلك القائد وهو يضحك، وسأله عن قوّاده الذين أسلموه (١٩٥/٨) وخذّلوه، فأخبره أن مرداويج قتلهم، فتهلّل وجهه وقال: كانت حياة هؤلاء غصّة في حلقي، وقد طابت الآن نفسي، فامض في ما أمرت به، وظن أنه أمر بقتله، فقال: ما أمرت فيك بسوء؛ وحمله إلى مرداويج، فسلمه إلى جماعة أصحابه ليحمله إلى الري، فقال له بعض أصحابه: إن أكثر من معك كانوا أصحاب هذا، فانحرفوا عنه إليك، وقد أوحشت أكثرهم بقتل قوّادهم فما يؤمنك أن يرجعوا إليه غداً ويقبضوا عليك؟ فحيثنذ أمر بقتله وانصرف إلى الري.

وقيل في قتله: إنه لما عاد نحو قلعة المّوت نزل في وادٍ هناك يستريح، فاتفق أن مرداويج خرج يتصيد، ويسأل عن أخباره، فرأى خيلاً يسيرة في وادٍ هناك، فأرسل بعض أصحابه ليأخذ خبرها، فرأوا أسفار بن شيرويه في عدة يسيرة من أصحابه، يريد الحصن ليأخذ ما له فيه ويستعين به على جمع الجيوش، ويعود إلى محاربة مرداويج، فأخذه ومن معه، وحملوه إلى مرداويج، فلما رآه نزل إليه فذبّحه.

واستقر أمر مرداويج في البلاد، وعاد إلى قزوين بعد قتل أسفار، فأحسن إلى أهلها، ووعدهم الجميل.

وقيل: بل دخل أسفار إلى رحي، وقد نال منه الجوع، فطلب من الطحّان شيئاً يأكله، فقدم له خبزاً ولبناً، فأكل منه هو وغلام له ليس معه غيره، (١٩٦/٨) فأقبل مرداويج إلى تلك الناحية، فأشرف على الرحي فرأى أثر حوافر الدواب، فسأل عنها، فقيل له: قد دخل فارسان إلى هذه الرحي؛ فكبس مرداويج الرحي، فرآه وقتله.

ولدخلوهم في الرأي وتدبير المملكة، ويطالبون بإخراجهم من الدار، وأخذ ما في أيديهم من الأموال والأموال، وإخراج هارون بن غريب من الدار.

(٢٠١/٨) فأجابه المقتدر أنه يفعل من ذلك ما يمكنه فعله، ويقتصر على ما لا بد له منه، واستعطفهم، وذكرهم ببعته في أعناقهم مرة بعد أخرى، وخوفهم عاقبة النكث، وأمر هارون بالخروج من بغداد، وأقطعته الثغور الشامية والجزيرة، وخرج من بغداد تاسع المحرم من هذه السنة، وراسلهم المقتدر، وذكرهم نعمة عليهم وإحسانه إليهم، وحذرهم كسر إحسانه، والسعي في الشر والفتنة.

فلما أجابهم إلى ذلك دخل مؤنس وابن حمدان ونازوك إلى بغداد، وأرجف الناس بأن مؤنساً ومن معه قد عزموا على خلع المقتدر وتولية غيره، فلما كان الثاني عشر من المحرم خرج مؤنس والجيش إلى باب الشَّامِسيَّة، فتشاوروا ساعة، ثم رجعوا إلى دار الخليفة بأسرهم، فلما زحفوا إليها، وقربوا منها، هرب المظفر بن ياقوت، وسائر الحجاب والخدم وغيرهم، والفراشون، وكل من في الدار؛ وكان الوزير أبو علي بن مقله حاضراً، فهرب ودخل مؤنس والجيش دار الخليفة، وأخرج المقتدر، والدته، وخلاته، وخواص جواريه، وأولاده، من دار الخلافة، وحملوا إلى دار مؤنس، فأعقلوا بها.

وبلغ الخبر هارون بن غريب، وهو بقطر بل، فدخل بغداد واستتر، ومضى ابن حمدان إلى دار ابن طاهر، فأحضر محمد بن المعتضد، وبايعوه بالخلافة، ولقبوه القاهر بالله، وأحضروا القاضي أبا عمر عند المقتدر ليشهد عليه بالخلع، وعنده مؤنس، ونازوك، وابن حمدان، وبني بن نفيس، (٢٠٢/٨) فقال مؤنس للمقتدر ليخلع نفسه من الخلافة، فأشهد عليه القاضي بالخلع، فقام ابن حمدان وقال للمقتدر: يا سيدي يعز على أن أراك على هذه الحال، وقد كنت أخافها عليك، وأحذرها، وأنصح لك، وأحذرك عاقبة القبول من الخدم، والنساء، فتؤثر أقوالهم على قولي، وكأنني كنت أرى هذا، وبعد، فنحن عبيدك وخدمك.

ودمعت عيناه وعينا المقتدر، وشهد الجماعة على المقتدر بالخلع، وأودعوا الكتاب بذلك عند القاضي أبي عمر، فكنتمه ولم يظهر عليه أحداً، فلما عاد المقتدر إلى الخلافة سلمه إليه، وأعلمه أنه لم يطلع عليه غيره، فاستحسن ذلك منه، وولاه قضاء القضاة.

ولما استقر الأمر للقاهر أخرج مؤنس المظفر علي بن عيسى من الحبس، ورتب أبا علي بن مقله في الوزارة، وأضاف إلى نازوك مع الشرطة حجة الخليفة، وكتب إلى البلاد بذلك، وأقطع ابن حمدان، مضافاً إلى ما بيده من أعمال طريق خراسان، خلوان،

وفيهما صُرف أحمد بن نصر العشوري عن حجة الخليفة وقلدها ياقوت، وكان يتولى الحرب بفارس، وهو بها، فاستخلف على الحجة ابنه أبا الفتح المظفر.

وفيهما وصل الدُّمُسْتُق في جيش كثير من الروم إلى أرمينية، فحاصروا خلاط، فصالحه أهلها، ورحل عنهم بعد أن أخرج المنبر من الجامع وجعل مكانه صلياً، وفعل ببذليس كذلك، وخافه أهل أرزن (١٩٩/٨) وغيرهم، ففارقوا بلادهم، وانحدر أعيانهم إلى بغداد، واستغاثوا إلى الخليفة، فلم يُغاثوا.

وفيهما وصل سبعمائة رجل من الروم والأرمن إلى مَلطِية ومعهم الفؤوس والمعاول، وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل، ثم ظهر أن مليحاً الأرمني، صاحب الدروب، وضعهم ليكونوا بها، فإذا حصرها سلموها إليه، فعلم بهم أهل مَلطِية، فقتلوهم وأخذوا ما معهم.

وفيهما، في منتصف ربيع الأول، قُلت مؤنس المؤنسي الموصل وأعمالها.

وفيهما مات أبو بكر بن أبي داود السُّجستاني، وأبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الإسفرايني، وله مسند مخرج على صحيح مسلم.

وفيهما توفي أبو بكر محمد بن السري النحوي المعروف بابن السراج، صاحب كتاب الأصول في النحو. (٢٠٠/٨)

سنة سبع عشرة وثلاثمائة

ذكر خلع المقتدر

في هذه السنة خُلع المقتدر بالله من الخلافة، وبويع أخوه القاهر بالله محمد بن المعتضد، بقي يومين ثم أعيد المقتدر.

وكان سبب ذلك ما ذكرنا في السنة التي قبلها من استباحش مؤنس ونزوله بالشَّامِسيَّة، وخرج إليه نازوك، صاحب الشرطة، في عسكره، وحضر عنده أبو الهيجاء بن حمدان في عسكره من بلد الجبل، وبني بن نفيس، وكان المقتدر قد أخذ منه الدِّيَّور، فأعادها إليه مؤنس عند مجيئه إليه.

وجمع المقتدر عنده، في داره، هارون بن غريب، وأحمد بن كَيْخَلَف، والغلمان الحجرية، والرجالة المصافيَّة، وغيرهم، فلما كان آخر النهار ذلك اليوم انفضَّ أكثر من عند المقتدر، وخرجوا إلى مؤنس، وكان ذلك أوائل المحرم.

ثم كتب مؤنس إلى المقتدر رقة يذكر فيها أن الجيش عاتب منكرٌ للسرف فيما يُطلق باسم الخدم والحُرَم من الأموال والضياع،

فقاما ليخرجها، فوجدوا الأبواب مغلقة، فتبعهما فائق وجه القصة يمشي مهمما، فأشرف القاهر من سطح، فرأى كثرة الجمع، فنزل هو وابن حمدان وفائق، فقال ابن حمدان للقاهر: قف حتى أعود إليك؛ ونزع سواده وثيابه، وأخذ جبة صوف لغلام هناك، فلبسها ومشى نحو باب النوبى، فرآه مغلقاً والناس من ورائه، فعاد إلى القاهر، وتأخر عنهما وجه القصة ومن معه من الخدم، فأمرهم وجه القصة بقتلها أخذاً بثار المقتدر وما صنعاً به، فعاد إليهما عشرة من الخدم بالسلاح، فعاد إليهم أبو الهيجاء وسيفه بيده، ونزع الجبة الصوف، وأخذها بيده الأخرى، وحمل عليهم، (٢٠٥/٨) فانجفلوا بين يديه، وغشيهم، فرموه بالشباب ضرورة، فعاد عنهم، وانفرد عنه القاهر ومشى إلى آخر البستان فاختفى فيه.

ودخل أبو الهيجاء إلى بيت من ساج، وتقدم الخدم إلى ذلك البيت، فخرج إليهم أبو الهيجاء، فولّوا هارين، ودخل إليهم بعض أكابر الغلمان الحجرية، ومعه أسودان سلاح، فقصدوا أبا الهيجاء، فخرج إليهم فرمى بالسهم فسقط، فقصد به بعضهم فضربه بالسيف فقطع يده اليمنى، وأخذ رأسه فحمله بعضهم ومشى وهو معه.

وأما الرّجالة فإنهم لما انتهوا إلى دار مؤنس وسمع زعقاتهم قال: ما الذي تريدون؟ ف قيل له: نريد المقتدر؛ فأمر بتسليمه إليهم، فلما قيل للمقتدر ليخرج خاف على نفسه أن تكون حيلة عليه، فامتنع، وحُمِل وأُخرج إليهم، فحمله الرّجالة على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة، فلما حصل في الصحن التسعيني اطمأن وقعد، فسأل عن أخيه القاهر، وعن ابن حمدان، ف قيل: هما حيّان؛ فكتب لهما أماناً بخطه، وأمر خادماً بالسّريّة بكتاب الأمان لثلاً يحدث عن أبي الهيجاء حادث، فمضى بالخط إليه، فلقيه الخادم الآخر ومعه رأسه، فعاد معه، فلما رآه المقتدر، وأخبره بقتله، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! من قتله؟ فقال الخدم: ما نعرف قاتله؛ وعظم عليه قتله، وقال: ما كان يدخل عليّ ويسليني، ويُذهب عني الغم هذه الأيام غيره.

(٢٠٦/٨) ثم أخذ القاهر وأحضر عند المقتدر، فاستدناه، فأجلسه عنده وقبّل جبينه وقال له: يا أخي قد علمتُ أنه لا ذنب لك، وأنتك قُهرت، ولو لَقَبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر؛ والقاهر يبكي ويقول: يا أمير المؤمنين! نفسي، نفسي، اذكر الرّحم التي بيني وبينك! فقال له المقتدر: وحقّ رسول الله لا جرى عليك سوء مني أبداً، ولا وصل أحد إلى مكروهك وأنا حي! فسكن، وأُخرج رأس نازوك، ورأس أبي الهيجاء، وشهرا، ونودي عليهما: هذا جزاء من عصى مولاه.

وأما بني بن نفيس فإنه كان من أشد القوم على المقتدر، فأتاه الخبر برجوعه إلى الخلافة، فركب جواداً وهرب عن بغداد، وغير

والدينور، وهمذان، وكنكور، وكرمان، وشاهان، والرّاذنات، ودقوقا، وخانيجار، ونهاوند، والصّيمرة، والسّيروان، والماسبذان وغيرها، ونهبت دار الخليفة، ومضى بني بن نفيس إلى تربة لوالدة المقتدر، فأخرج من قبر فيها ستمائة ألف دينار، وحملها إلى دار الخليفة.

وكان خلع المقتدر النصف من المحرم، ثم سكن النهب، وانقطعت الفتنة؛ ولما تقلّد نازوك حجة الخليفة أمر الرّجالة المصافيّة بقلع خيامهم من دار الخليفة، وأمر رجاله وأصحابه أن يقيموا بمكان المصافيّة، فعظم ذلك عليهم، وتقدّم (٢٠٣/٨) إلى خلفاء الحجاب أن لا يمكنوا أحداً من الدخول إلى دار الخليفة، إلا من له مرتبة، فاضطربت الحجة من ذلك.

ذكر عود المقتدر إلى الخلافة

لما كان يوم الاثنين سابع عشر المحرم بكرّ الناس إلى دار الخليفة لأنه يوم موكب دولة جديدة، فامتلات الممرات، والمراحات، والرّحاب، وشاطى دجلة من الناس، وحضر الرّجالة المصافيّة في السلاح الشاك، يطالبون بحق البيعة، ورزق سنة، وهم حنقون بما فعل بهم نازوك، ولم يحضر مؤنس المظفر ذلك اليوم.

وارتفعت زعقات الرّجالة، فسمع بها نازوك، فاشفق أن يجري بينهم وبين أصحابه فتنة وقتال، فتقدّم إلى أصحابه، وأمرهم أن لا يعرضوا لهم، ولا يقاتلوهم، وزاد شغب الرّجالة، وهجموا يريدون الصحن التسعيني، فلم يمتنعهم أصحاب نازوك، ودخل من كان على الشط بالسلاح، وقربت زعقاتهم من مجلس القاهر بالله، وعنده أبو علي بن مقلّة الوزير، ونازوك، وأبو الهيجاء بن حمدان، فقال القاهر لنازوك: اخرج إليهم فسكنهم، (٢٠٤/٨) وطيب قلوبهم! فخرج إليهم نازوك وهو مخمور، قد شرب طول ليلته، فلما رآه الرّجالة تقدّموا إليه ليشكوا حالهم إليه في معنى أرزاقهم، فلما رآهم بأيديهم السيوف يقصدونه خافهم على نفسه فهرب، فطمعوا فيه، فتبعوه، فأنهى به الهرب إلى باب كان هو سده أمس، فأدركوه عنده، فقتلوه عند ذلك الباب، وقتلوا قبله خادمه عجبياً، وصاحوا: يا مقتدر، يا منصور! فهرب كل من كان في الدار من الوزير، والحجاب، وسائر الطبقات وبقيت الدار فارغة، وصلبوا نازوك وعجبياً بحيث يراها من على شاطى دجلة.

ثم صار الرّجالة إلى دار مؤنس يصيحون، ويطلبونه بالمقتدر، وبادر الخدم فأغلّقوا أبواب دار الخليفة، وكانوا جميعهم خدم المقتدر، ومماليكه، وصناعه، وأراد أبو الهيجاء بن حمدان أن يخرج من الدار، فتعلّق به القاهر وقال: أنا في ذمامك؛ فقال: والله لا أسلمك أبداً؛ وأخذ بيد القاهر وقال: قم بنا نخرج جميعاً، وأدعو أصحابي وعشيرتي فيقاتلون معك ودونك.

أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه، وترد كسوة الكعبة، فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة.

فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود على ما تذكره، واستعاد ما أمكنه من الأموال من أهل مكة، فردّه، وقال: إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحُجَّاج، ولا أقدر على منعهم.

ذكر خروج أبي زكريا وإخوته بخراسان

في هذه السنة خرج أبو زكريا يحيى، وأبو صالح منصور، وأبو إسحاق إبراهيم، أولاد أحمد بن إسماعيل الساماني، على أخيهما السعيد نصر بن أحمد، وقيل كان ذلك سنة ثمانى عشرة [وثلاثمائة] وهو الصحيح. (٢٠٩/٨)

وكان سبب ذلك أن أخاهم نصرًا كان قد حبسهم في القَهْنَدز ببخارى، وكلّ بهم مَنْ يحفظهم، فتخلصوا منه؛ وكان سبب خلاصهم أن رجلاً يُعرف بأبي بكر الخبّاز الأصبهاني كان يقول إذا جرى ذكر السعيد نصر بن أحمد: إن له مني يوماً طويلاً البلاء والعناء، فكان الناس يضحكون منه، فخرج السعيد إلى نيسابور، واستخلف ببخارى أبا العباس الكوسج، وكانت وظيفة إخوته تُحمل إليهم من عند أبي بكر الخبّاز هذا وهم في السجن، فسعى لهم أبو بكر مع جماعة من أهل العسكر ليخرجوهم، فأجابوه إلى ذلك وأعلمهم ما سعى لهم فيه.

فلما سار السعيد عن بخارى تواعد هؤلاء للاجتماع بباب القَهْنَدز يوم الجمعة، وكان الرسم أن لا يفتح باب القَهْنَدز أيام الجمع إلا بعد العصر، فلما كان الخميس دخل أبو بكر الخبّاز إلى القَهْنَدز قبل الجمعة التي اتّعدوا الاجتماع فيها بيوم، فبات فيه، فلما كان الغد، وهو الجمعة، جاء الخبّاز إلى باب القَهْنَدز، وأظهر للبواب زهداً وديناً، وأعطاه خمسة دنانير ليفتح له الباب ليخرجه لتلا تقوته الصلاة، ففتح له الباب، فصاح أبو بكر الخبّاز بمن واقفه على إخراجهم، وكانوا على الباب، فأجابوه، وقبضوا على البواب، ودخلوا وأخرجوا يحيى، ومنصوراً، وإبراهيم بنى أحمد بن إسماعيل من الحبس، مع جميع مَنْ فيه من الديلم، والعلويسين والعيارين، فاجتمعوا واجتمع إليهم من كان واقفهم من العسكر، ورأسهم شروين الجيلي وغيره من القواد.

(٢١٠/٨) ثم إنهم عظمت شوكتهم، ونهبوا خزائن السعيد نصر بن أحمد ودوره وقصوره، واختص يحيى بن أحمد أبا بكر الخبّاز وقدمه وقوّده، وكان السعيد إذ ذاك بنيسابور، وكان أبو بكر محمد بن المظفر، صاحب جيش خراسان، بجرجان، فلما خرج يحيى وبلغ خبره السعيد، عاد من نيسابور إلى بخارى، وبلغ الخبر إلى محمد بن المظفر، فراسل ماكان بن كالي، وصاهره، وولاه نيسابور، وأمره بمنعها ممن يقصدها، فسار ماكان إليها، وكان

زيه، وسار حتى بلغ الموصل، وسار منها إلى أرمينية، وسار حتى دخل القسطنطينية وتصر.

وهرب أبو السريّا نصر بن حمدان أخو أبي الهيجاء إلى الموصل، وسكنت الفتنة، وأحضر المقتدر أبا علي بن مقلّة، وأعادته إلى وزارته، وكتب إلى البلاد بما تجدد له، وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم، وباع ما في الخزائن من الأمتعة والجواهر، وأذن في بيع الأملاك من الناس، فبيع ذلك بأرخص الأثمان، ليتسم أعطيات الجند.

وقد قيل إن مؤسساً المظفر لم يكن مؤثراً لما جرى على المقتدر من الخلع، وإنما وافق الجماعة مغلوباً على رأيه، ولعلمه أنه إن خالفهم لم يتفتح به المقتدر، (٢٠٧/٨) ووافقهم ليؤمنوه، وسعى مع الغلمان المصافيّة والحجريّة، ووضع قوّادهم على أن عملوا ما عملوا، وأعادوا المقتدر إلى الخلافة، وكان هو قد قال للمقتدر، لما كان في داره: ما تريدون أن نصنع؟ فلهذا آمنه المقتدر، ولما حملوه إلى دار الخلافة من دار مؤنس ورأى فيها كثرة الخلق والاختلاف عاد إلى دار مؤنس لثقتة به، واعتماده عليه، ولولا هوى مؤنس مع المقتدر لكان حضر عند القاهر مع الجماعة، فإنه لم يكن معهم كما ذكرناه، وكان أيضاً قتل المقتدر لما طُلب من داره ليعاد إلى الخلافة.

وأما القاهر فإن المقتدر حبسه عند والدته، فأحسنّت إليه، وأكرمته، ووسعت عليه النفقة، واشترت له السراي والجواري للخدمة، وبالغت في إكرامه والإحسان إليه بكل طريق.

ذكر مسير القرامطة إلى مكة وما فعلوه بأهلها وبالحجاج وأخذهم الحجر الأسود

حجّ بالناس في هذه السنة منصور الديلمي، وسار بهم من بغداد إلى مكة، فسلموا في الطريق، فوافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج، وقتلوه حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه، وقلع الحجر الأسود ونفّذه إلى حَبَر، فخرج إليه ابن محلب، أمير مكة، في جماعة من الأشراف، فسألوه في أموالهم، فلم يشفقهم، فقاتلوه، (٢٠٨/٨) فقتلهم أجمعين، وقلع باب البيت، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقيين في المسجد الحرام حيث قُتلوا بغير كفن، ولا غسل، ولا صُلّي على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة.

فلما بلغ ذلك المهدي أبا محمد عبيد الله العلوي بإفريقية كتب إليه ينكر عليه ذلك، ويلومه، ويلعنه، ويقيم عليه القيامة، ويقول: قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت، وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما

السعيد قد سار من نيسابور إلى بخارى، وكان يحيى وكلّ بالنهر أبا بكر الخباز، فأخذه السعيد أسيراً، وعبر النهر إلى بخارى فبالغ في تعذيب الخباز، ثم ألقاه في التّور الذي كان يخبر فيه، فاحترق.

وسار يحيى من بخارى إلى سمرقند، ثم خرج منها واجتاز بنواحي الصّغانيان وبها أبو علي بن أبي بكر محمد بن المظفر، وسار يحيى إلى ترمذ، فعبر النهر إلى بلخ وبها قراتكين، فوافقه قراتكين، وخرجا إلى مرو، ولما ورد محمد بن المظفر بنيسابور كاتبه يحيى، واستماله، فأظهر له محمد الميل إليه، ووعده المسير نحوه، ثم سار عن نيسابور، واستخلف بها ماكان بن كالي، وأظهر أنه يريد مرو، ثم عدل عن الطريق نحو بوشنج وهراة مسرعاً في سيره واستولى عليهما.

وسار محمد عن هراة نحو الصّغانيان على طريق غرّستان، فبلغ خبره يحيى فسار إلى طريقه عسكرياً فلقبهم محمد فهزمهم وسار عن غرّستان، واستمد ابنه أبا علي من الصّغانيان، فأمده بجيش، وسار محمد بن المظفر إلى بلخ، وبها منصور بن قراتكين، فالتقيا، واقتتلا قتالاً شديداً، (٢١١/٨) فانهزم منصور إلى الجوزجان، وسار محمد إلى الصّغانيان، فاجتمع بولده، وكتب إلى السعيد بخبره، فسره ذلك وولاه بلخ، وطُخارستان واستقدمه، فولاهما محمد ابنه أبا علي أحمد، وأنفذه إليهما، ولحق محمد بالسعيد، فاجتمع به ببلخ رستاق، وهو في أثر يحيى وهو بهراة.

وكان يحيى قد سار إلى نيسابور، وبها ماكان بن كالي، فمنعه عنها، ونزلوا عليها، فلم يظفروا بها، وكان مع يحيى محمد بن إلياس، فاستأمن إلى ماكان، واستأمن منصور وإبراهيم أخو يحيى إلى السعيد نصر، فما قارب السعيد هراة، وبها يحيى وقراتكين، سارا عن هراة إلى بلخ، فاحتال قراتكين ليصرف السعيد عن نفسه، فأنفذ يحيى من بلخ إلى بخارى، وأقام هو ببلخ، فعطف السعيد إلى بخارى، فلما عبر النهر هرب يحيى من بخارى إلى سمرقند، ثم عاد من سمرقند ثانياً، فلم يعاونه قراتكين، فسار إلى نيسابور، وبها محمد بن إلياس قد قوي أمره، وسار عنها ماكان إلى جرجان، ووافقه محمد بن إلياس، وخطب له، وأقاموا بنيسابور.

وكان السعيد في أثر يحيى لا يمكنه من الاستقرار، فلما بلغهم خبر مجيء السعيد إلى نيسابور تفرقوا، فخرج ابن إلياس إلى كرمان وأقام بها، وخرج قراتكين معه يحيى إلى بّست والرّخج، فأقاما بها، ووصل نصر بن أحمد نيسابور في سنة عشرين وثلاثمائة، فأنفذ إلى قراتكين، (٢١٢/٨) وولاه بلخ، وبذل الأمان ليحيى، فجاء إليه، وزالت الفتنة، وانقطع الشر وكان قد دام هذه المدة كلها.

وأقام السعيد بنيسابور إلى أن حضر عنده يحيى، فآكرمه، وأحسن إليه، ثم مضى بها لسيّله هو وأخوه أبو صالح منصور،

فلما رأى أخوهما إبراهيم ذلك هرب من عند السعيد إلى بغداد، ثم منها إلى الموصل، وسيأتي خبره إن شاء الله تعالى.

وأما قراتكين فإنه مات ببّست، ونُقل إلى اسيجاب، فدفن بها في رباطه المعروف برباط قراتكين، ولم يملك ضيعة قط، وكان يقول: ينبغي للجندي أن يصحبه كل ما ملك أين سار، حتى لا يعتقله شيء.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، منتصف المحرم، وقعت فتنة بالموصل بين أصحاب الطعام وبين أهل المربعة والبزازين، فظهر أصحاب الطعام عليهم أول النهار، فانضم الأساكفة إلى أهل المربعة والبزازين فاستظهروا بهم، وقهروا أصحاب الطعام وهزموهم وأحرقوا أسواقهم.

وتتابعت الفتنة بعد هذه الحادثة واجتراً أهل الشر، وتعاهد أصحاب الخلقان والأساكفة على أصحاب الطعام واقتتلوا قتالاً شديداً دام بينهم (٢١٣/٨) ثم ظفر أصحاب الطعام فهزموا الأساكفة ومن معهم، وأحرقوا سوقهم، وقتلوا منهم، وركب أمير الموصل وهو الحسن بن عبد الله بن حمدان الذي لُقّب بعد بناصر الدولة ليسكن الناس فلم يسكنوا ولا كفوا، ثم دخل بينهم ناس من العلماء وأهل الدين، فأصلحوا بينهم.

وفيها وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروزيّ الحنبليّ وبين غيرهم من العامة، ودخل كثير من الجند فيها؛ وسبب ذلك أن أصحاب المروزيّ قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّخْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩]؛ هو أن الله سبحانه يُعَدُّ النبي ﷺ، معه على العرش؛ وقالت الطائفة الأخرى: إنّما هو الشفاعة، ف وقعت الفتنة واقتتلوا، فقتل بينهم قتلى كثيرة.

وفيها ضعفت الثغور الجزرية عن دفع الروم عنهم، منها ملطية وميفارقين وأمد وأرزن وغيرها، وعزموا على طاعة ملك الروم والتسليم إليه لعجز الخليفة المقتدر بالله عن نصرهم، وأرسلوا إلى بغداد يستأذنون في التسليم، ويذكرون عجزهم، ويستمدون العساكر لتمنع عنهم، فلم يحصلوا على فائدة، فعادوا.

وفيها قلد القاضي أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن حماد بن زيد قضاء القضاة.

وفيها قلد ابن رائق شرطة بغداد مكان نازوك.

(٢١٤/٨) وفيها مات أحمد بن منيع، وكان مولده سنة أربع عشرة ومائتين.

وفيها أقر المقتدر بالله ناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجاء

عبد الله بن حمدان على ما بيده من أعمال قَرْدَى ويازِيدَى، وعلى أقطاع أبيه وضياعه.

وفيهما قُلْدَ تحرير الصغير أعمال الموصل، فسار إليها، فمات بها في هذه السنة، ووليها بعده ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان المحرّم من سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة.

وفيهما سار حاج العراق إلى مكة على طريق الشام فوصلوا إلى الموصل أول شهر رمضان، ثم منها إلى الشام، لانتقطاع الطريق بسبب القُرْمَطِي، وكانت كسوة الكعبة مع ابن عبدوس الجهشياري لأنه كان من أصحاب الوزير.

وفيهما، في شعبان، ظهر بالموصل خارجي يُعرف بابن مطر، وقصد نصيبين، فسار إليها ناصر الدولة بن حمدان فقاتله فأسره. وظهر فيها أيضاً خارجي اسمه محمد بن صالح بالابوازيح، فسار إليه أبو السرايا نصر بن حمدان، فأخذه أيضاً.

وفيهما التقى مفلح الساجي والدُمُستَقْ، فاقتلا، فانهزم الدمستق ودخل مفلح وراه إلى بلاد الروم.

وفيهما، آخر ذي القعدة، انقض كوكب عظيم، وصار له ضوء عظيم جداً.

وفيهما هبت ريح شديدة، وحملت رملأ أحمر شديد الحمرة، فعَمَ (٢١٥/٨) جانبي بغداد، وامتلاّت منه البيوت والدروب؛ يشبه رمل طريق مكة.

وفيهما توفّي أبو بكر أحمد بن الحسن بن الفرج بن سفير النحوي، كان عالماً بمذهب الكوفيّين، وله فيها تصانيف. (٢١٦/٨)

سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة

ذكر هلاك الرّجالة المصافيّة

في هذه السنة، في المحرم هلك الرّجالة المصافيّة، وأخرجوا من بغداد بعد ما عظم شرّهم وقوي أمرهم.

وكان سبب ذلك أنهم لما أعادوا المقتدر إلى الخلافة، على ما ذكرناه، زاد إدلالهم واستطالّتهم، وصاروا يقولون أشياء لا يحتملها الخلفاء، منها أنهم يقولون: من أعان ظالماً سلّطه الله عليه، ومن يُصعد الحمار إلى السطح يقدّر يحطه، وإن لم يفعل المقتدر معنا ما نستحقّه، فاتلناه بما يستحق، إلى غير ذلك.

وكثر شغبهم ومطالبتهم، وأدخلوا في الأرزاق أولادهم، وأهليهم، ومعارفهم، وأثبتوا أسماءهم فصار لهم في الشهر مائة ألف وثلاثون ألف دينار.

واتفق أن شغب الفرسان في طلب أرزاقهم، ف قيل لهم: إن بيت المال فارغ وقد انصرفت الأموال إلى الرّجالة، فثار بهم الفرسان، فاقتلوا، فقتل من الفرسان جماعة، واحتجّ المقتدر بقتلهم على الرّجالة، وأمر محمد بن ياقوت فركب، وكان قد استعمل على الشرطة، فطرد الرّجالة عن دار المقتدر، ونودي فيهم بخروجهم عن بغداد، ومن أقام قُبُض عليه وحُجِس، وهُدِمت دور زعمائهم، وقُبِضت أملاكهم، وظفّسر، بعد النداء، بجماعة منهم، (٢١٧/٨) فضربهم، وحلق لحاهم، وشهر بهم.

وهاج السردان تعصّباً للرّجالة، فركب محمد أيضاً في الحجرية، وأوقع بهم، وأحرق منازلهم، فاحترق فيها جماعة كثيرة منهم، ومن أولادهم، ومن نسائهم، فخرجوا إلى واسط، فاجتمع بها منهم جمع كثير، وتغلبوا عليها، وطرحوها عامل الخليفة، فسار إليهم مؤنس، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم، فلم تقم لهم بعدها راية.

ذكر عزل ناصر الدولة بن حمدان عن الموصل

ولاية عمّيه سعيد ونصر

في هذه السنة، في ربيع الأول، عزل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان عن الموصل، ووليها عمّاه سعيد ونصر ابنا حمدان، وولي ناصر الدولة ديار ربيعة، ونصيبين، وسنجار، والخابور، ورأس عين، ومعها، من ديار بكر، مَيّافارقين وأرزن، ضمن ذلك بمال مبلغه معلوم، فسار إليها، ووصل سعيد إلى الموصل في ربيع الآخر. (٢١٨/٨)

ذكر عزل ابن مقلّة ووزارة سليمان بن الحسن

وفي هذه السنة عُزل الوزير أبو علي محمد بن مقلّة من وزارة الخليفة.

وكان سبب عزله أن المقتدر كان يتهمه بالميل إلى مؤنس المظفر، وكان المقتدر مستوحشاً من مؤنس، ويظهر له الجميل، فاتفق أن مؤنساً خرج إلى أوانا، وعُكبرا، فركب ابن مقلّة إلى دار المقتدر آخر جمادى الأولى، فقُبِض عليه.

وكان بين محمد بن ياقوت وبين ابن مقلّة عداوة، فأنفذ إلى داره، بعد أن قبض عليه، وأحرقها ليلاً.

وأراد المقتدر أن يستوزر الحسين بن القاسم بن عبد الله، وكان مؤنس قد عاد فأنفذ إلى المقتدر مع علي بن عيسى يسأل أن يُعاد ابن مقلّة، فلم يجب المقتدر إلى ذلك، وأراد قتل ابن مقلّة، فردّه عن ذلك، فسأل مؤنس أن لا يستوزر الحسين، فتركه، واستوزر سليمان بن الحسن متّصف جمادى الأولى، وأمر المقتدر بالله علي بن عيسى بالاطلاع على الدواوين، وأن لا ينفرد سليمان

عنه بشيء، وصودر أبو علي بن مقلّة بمائتي ألف دينار، وكانت مدة وزارته سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام. (٢١٩/٨)

ذكر القبض على أولاد البريدي

كان أولاد البريدي، وهم أبو عبد الله، وأبو يوسف، وأبو الحسين، قد ضمنوا الأهواز، كما تقدم، فلما عُزل الوزير ابن مقلّة كتب المقتدر بخط يده إلى أحمد بن نصر القشوري الحاجب يأمره بالقبض عليهم، ففعل، وأودعهم عنده في داره. ففسي بعض الأيام سمع ضجة عظيمة، وأصواتاً هائلة، فسأل: ما الخير؟ فقيل: إن الوزير قد كتب بإطلاق بني البريدي، وأنفذ إليه أبو عبد الله كتاباً مژوراً يأمر فيه بإطلاقهم، وإعادتهم إلى أعمالهم، فقال لهم أحمد: هذا كتاب الخليفة بخطه، يقول فيه: لا تطلقهم حتى يأتيك كتاب آخر بخطي.

ثم ظهر أن الكتاب مژور، ثم أنفذ المقتدر فاستحضرهم إلى بغداد، وصودروا على أربعمائة ألف دينار، وكان لا يطمع فيها منهم، وإنما طلب منهم هذا القدر ليجبوا إلى بعضه، فأجابوا إليه جميعه ليخلصوا ويعودوا إلى عملهم. (٢٢٠/٨)

ذكر خروج صالح والأغر

وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، خرج خارجي من بجيلة، من أهل البوازيج، اسمه صالح بن محمود، وعبر إلى البرقة، واجتمع إليه جماعة من بني مالك، وسار إلى سنجار فأخذ من أهلها مالا، فلقبه قوافل، فأخذ عشرين، وخطب بسنجار، فذكر بأمر الله، وحذر، وأطال في هذا، ثم قال: تتولى الشيخين، ونبرأ من الخبيثين، ولا نرى المسح على الخفين.

وسار منها إلى الشجاعة، من أرض الموصل، فطالب أهلها وأهل أعمال الفرج بالعشر، وأقام أياماً، وانحدر إلى الحديثة، تحت الموصل، فطالب المسلمين بركة أموالهم، والنصارى بجزية رؤوسهم، فجرى بينهم حرب، فقتل من أصحابه جماعة، ومنعوه من دخولها، فأحرق لهم ست عروب، وعبر إلى الجانب الغربي، وأسر أهل الحديثة ابناً لصالح اسمه محمد، فأخذه نصر بن حمدان بن حمدون، وهو الأمير بالموصل، فأدخله إليها، ثم سار صالح إلى السن، فصالحه أهلها على مال أخذه منهم، وانصرف إلى البوازيج، وسار منها إلى تل خوسا، قرية من أعمال الموصل عند (٢٢١/٨) الزاب الأعلى، وكاتب أهل الموصل في أمر ولده، وتهدهم إن لم يردوه إليه، ثم رحل إلى السلامة، فسار إليه نصر بن حمدان لخمس خلون من شعبان من هذه السنة، ففارقها صالح إلى البروازيج، فطلبه نصر، فأدركه بها، فحاربه حرباً شديدة قُتل فيها من رجال صالح نحو مائة رجل، وقُتل من أصحاب نصر جماعة، وأسر صالح ومعه ابنان له، وأدخلوا إلى الموصل، وحملوا إلى بغداد

وفيهما، في شعبان، خرج بأرض الموصل خارجي اسمه الأغر بن مطرة الثعلبي، وكان يذكر أنه من ولد عتاب بن كلثوم الثعلبي أخي عمرو بن كلثوم الشاعر، وكان خروجه بنواحي رأس العين، وقصد كفرتوتا وقد اجتمع معه نحو ألفي رجل، فدخلها ونهبها وقتل فيها.

وسار إلى نصيبين، فنزل بالقرب منها، فخرج إليه وإليها ومعه جمع من الجند ومن العامة، فقاتلوه، فقتل الشاري منهم مائة رجل، وأسر ألف رجل، فباعهم نفوسهم، وصالحه أهل نصيبين على أربعمائة ألف درهم.

وبلغ خبره ناصر الدولة بن حمدان، وهو أمير ديار ربيعة، فسير إليه جيشاً، فقاتلوه، فظفروا به وأسروه، وسيره ناصر الدولة إلى بغداد. (٢٢٢/٨)

ذكر مخالفة جعفر بن أبي جعفر وعوده

كان جعفر بن أبي جعفر بن أبي داود مقيماً بالختل، والياً عليها للسامانية، فبدت منه أمور تُنسب بسببها إلى الاستعصاء، فكتب أبو علي أحمد بن محمد بن المظفر بقصده، فسار إليه، وحاربه، فقبض عليه، وحمله إلى بخارى، وذلك قبل مخالفة أبي زكريا يحيى فلماً حمل إلى بخارى حُسب فيها، فلماً خالف أبو زكريا يحيى أخرجه من الحبس وصحبه، ثم استأذنه في العود إلى ولاية الختل وجمع الجيوش له بها، فأذن له فسار إليها، وأقام بها، وتمسك بطاعة السعيد نصر بن أحمد، فصلح حاله، وذلك سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة.

(الختل بالخاء المعجمة والتاء فوقها نقطتان والخاء مضمومة والتاء مشددة مفتوحة).

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة شغب الفرسان، وتهددوا بخلع الطاعة، فأحضر المقتدر قوادهم بين يديه، ووعدهم الجميل، وأن يطلق أرزاقهم في الشهر المقبل، (٢٢٣/٨) فسكنوا ثم شغب الرجال، فأطلقت أرزاقهم.

وفيهما خلع المقتدر على ابنه هارون، وركب معه الوزير، والجيش، وأعطاه ولاية فارس وكرمان وسجستان ومكران.

وفيهما أيضاً خلع على ابنه أبي العباس، وأقطعته بلاد الغرب، ومصر، والشام، وجعل مؤنساً المظفر يخلفه فيها.

وفيهما صُرف ابن رائق عن الشرطة، وقلدها أبو بكر محمد بن ياقوت.

وفيهما وقعت فتنة بنصيين بين أهل باب الروم والباب الشرقي، واقتتلوا قتالاً شديداً، وأدخلوا إليهم قوماً من العرب والسواد، فقتل بينهم جماعة، وأحرقت المنازل والحوانيت، ونُهبت الأموال، ونزل بهم قافلة عظيمة تريد الشام، فتهبوا.

وفيهما توفي يحيى بن محمد بن صاعد البغدادي وكان عمره تسعين سنة، وهو من فضلاء المحدثين، والقاضي أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي الفقيه الحنفي، وكان عالماً بالأدب ونحو الكوفيين، وله شعر حسن. (٢٢٤/٨)

سنة تسع عشرة وثلاثمائة

ذكر تجدد الوحشة بين مؤنس والمقتدر

في هذه السنة تجددت الوحشة بين مؤنس المظفر وبين المقتدر بالله.

وكان سببها أن محمد بن ياقوت كان منحرفاً على الوزير سليمان، ومائلاً إلى الحسين بن القاسم، وكان مؤنس يعيل إلى سليمان، بسبب علي بن عيسى، وقتلهم به، وقوي أمر محمد بن ياقوت، وقلد، مع الشرطة، الحسبة، وضم إليهم رجالاً، ف قوي بهم، فعظم ذلك على مؤنس، وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة، وقال: هذا شغل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والمدول؛ فأجابه المقتدر.

وجمع مؤنس إليه أصحابه، فلما فعل ذلك جمع ياقوت وابنه الرجال في دار السلطان، وفي دار محمد بن ياقوت، وقيل لمؤنس: إن محمد بن ياقوت قد عزم على كبس دارك ليلاً؛ ولم يزل به أصحابه حتى أخرجه إلى باب الشَّامِية فضربوا مضاربهم هناك، وطالب المقتدر بصرف ياقوت عن الحسبة وصرف ابنه عن الشرطة، وإبعادهما عن الحضرة، فأخرجوا إلى المدائن. (٢٢٥/٨)

وقلد المقتدر ياقوتاً أعمال فارس وكرمان، وقلد ابنه المظفر بن ياقوت أصبهان، وقلد أبا بكر محمد بن ياقوت سيجستان، وتقلد ابنا رائق إبراهيم ومحمد مكان ياقوت وولده الحسبة والشرطة، وأقام ياقوت بشيراز مدة.

وكان علي بن خلف بن طياب ضامناً أموال الضياع والخراج بها، فتضايفراً، وتعاقدا، وقطعا الحمل على المقتدر، إلى أن ملك علي بن بُوَيْه الديلمي بلاد فارس سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ذكر قبض الوزير سليمان ووزارة أبي القاسم الكلوزاني

وفي هذه السنة قبض المقتدر على وزيره سليمان بن الحسن.

وكان سبب ذلك أن سليمان ضاقت الأموال عليه إضاقة

شديدة، وكثرت عليه المطالبات، ووقفت وظائف السلطان، واتصلت رقاع من يُرَشِّع نفسه للوزارة بالسعاية به، والضمان بالقيام بالوظائف، وأرزاق الجند، وغير ذلك، فقبض عليه، ونقله إلى داره.

وكان المقتدر كثير الشهوة لتقليد الحسين بن القاسم الوزارة، فامتنع مؤنس من ذلك، وأشار بوزارة أبي القاسم الكلوزاني، فاضطر المقتدر إلى ذلك، فاستوزره ثلاث بقين من رجب، فكانت وزارة سليمان سنة واحدة وشهرين، (٢٢٦/٨) وكانت وزارته غير متمكنة أيضاً، فإنه كان علي بن عيسى معه على الدواوين وسائر الأمور، وأفرد علي بن عيسى عنه بالنظر في المظالم، واستعمل على ديوان السواد غيره، فانقطعت مواد الوزير، فإنه كان يقيم من قبله من يشتري توبيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ما هم عليه بصدده من الخدمة، فكان يعطيهم نصف المبلغ، وكذلك إدارات الفقهاء وأرباب البيوت إلى غير ذلك.

وكان أبو بكر بن قرابة متمياً إلى مُفْلِح الخادم، فأوصله إلى المقتدر، فذكر له أنه يعرف وجوه مرافق الوزراء، فاستعمله عليها ليصلحها للخليفة، فسعى في تحصيل ذلك من العمال، والضَّمان، والتَّناء وغيرهم، فأخلق بذلك الخلاف، وفضح الديوان، ووقفت أحوال الناس، فإن الوزراء وأرباب الولايات لا يقومون بأشغال الرعايا والتعب معهم إلا لرفق يحصل لهم، وليس لهم من الدين ما يحملهم على النظر في أحوالهم، فإنه بعيد منهم، فإذا منعوا تلك المرافق تركوا الناس يضطربون، ولا يجدون من يأخذ بأيديهم، ولا يقضي حوائجهم، فإني قد رأيت هذا عياناً في زماننا هذا، وفات به من المصالح العامة والخاصة ما لا يحصى. (٢٢٧/٨)

ذكر الحرب بين هارون وعسكر مرداويج

قد ذكرنا فيما تقدم قتل أسفار وملك مرداويج، وأنه استولى على بلد الجبل والرِّي وغيرهما، وأقبلت الديلم إليه من كل ناحية لبذله وإحسانه إلى جنده، فعظمت جيوشه، وكثرت عساكره، وكثر الخرج عليه، فلم يكفه ما في يده، ففرق نوابه في النواحي المجاورة له.

فكان ممن سيَّره إلى همدان ابن أخت له في جيش كثير، وكان بها أبو عبد الله محمد بن خلف في عسكر الخليفة، فتحاربوا حروباً كثيرة، وأعان أهل همدان عسكر الخليفة، فظفروا بالديلم، وقتل ابن أخت مرداويج، فسار مرداويج من الرِّي إلى همدان، فلما سمع أصحاب الخليفة بمسيره انهزموا من همدان، فجاء إلى همدان، ونزل على باب الأسد، فتحصن منه أهلها، فقالتهم، فظفر بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأحرق وسي، ثم رفع السيف عنهم وأمن بقيتهم.

فأنفذ المقتدر هارون بن غريب الخال في عساكر كثيرة إلى

أصحابه، وجمع منها الكثير فاذخره.

ثم إنه أرسل إلى المقتدر رسلاً يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها، ونزل للمقتدر عن همدان وماء الكوفة، فأجابته المقتدر إلى ذلك، وقطع على ماتى ألف دينار كل سنة. (٢٣٠/٨)

ذكر عزل الكلوذاني ووزارة الحسين بن القاسم

في هذه السنة عزل أبو القاسم الكلوذاني عن وزارة الخليفة ووزر الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب.

وكان سبب ذلك أنه كان يبغداد إنسان يُعرف بالدانيالي، وكان زرقاً، ذكياً محتالاً، وكان يعتق الكاغد، ويكتب فيه بخطه ما يشبه الخط العتيق، ويذكر فيه إشارات ورموزاً يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة، فيحصل له بذلك رفق كثير.

فمن جملة ما فعله أنه وضع في جملة كتاب: ميم ميم ميم، يكون منه كذا وكذا، وأحضره عند مفلح، وقال: هذا كناية عنك، فإنك مفلح مولى المقتدر، وذكر له علامات تدل عليه، فأغناه، فتوصل الحسين بن القاسم معه، حتى جعل اسمه في كتاب وضعه، وعتقه، وذكر فيه علامة وجهه، وما فيه من الآثار، ويقول إنه يزر للخليفة الثامن عشر من خلفاء بني العباس، وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعادي، وتتمتع الدنيا في أيامه، وجعل هذا كله في جملة كتاب ذكر فيه حوادث قد وقعت، وأشياء لم تقع بعد، ونسب ذلك إلى دانيال، وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح، فلما رأى ذلك أخذ الكتاب وأحضره عند المقتدر وقال له: أتعرف في الكتاب (٢٣١/٨) من هو بهذه الصفة؟ فقال: ما أعرفه إلا الحسين بن القاسم؟ فقال: صدقت وإن قلبي ليميل إليه، فإنجاءك منه رسول برقة فاعرضها علي، واكتم حاله ولا تطلع على أمره أحداً.

وخرج مفلح إلى الدانيالي فسأله: هل تعرف أحداً من الكتاب بهذه الصفة؟ فقال: لا أعرف أحداً؟ قال: فمن أين وصل إليك هذا الكتاب؟ فقال: من أبي، وهو ورثه من آبائه، وهو من ملاحم دانيال، عليه السلام؛ فأعاد ذلك على المقتدر، فقبله، فعرف الدانيالي ذلك الحسين بن القاسم، فلما أعلمه كتب رقعة إلى مفلح، فأوصلها إلى المقتدر، ووعده الجميل، وأمره بطلب الوزارة وإصلاح مؤنس الخادم، فكان ذلك من أعظم الأسباب في وزارته مع كثرة الكارهين له.

ثم اتفق أن الكلوذاني عمل حبة بما يحتاج إليه من النفقات، وعليها خط أصحاب الديوان، فبقي محتاجاً إلى سبعمائة ألف دينار، وعرضها على المقتدر، وقال: ليس لهذه جهة إلا ما يطلقه أمير المؤمنين لأنفق؛ فعظم ذلك على المقتدر.

وكتب الحسين بن القاسم لما بلغه ذلك يضمن جميع النفقات، ولا يطالبه بشيء من بيت المال، وضمن أنه يستخرج

محاربه، فالتقوا بنواحي همدان، فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم هارون وعسكر الخليفة، واستولى مرداويج على بلاد الجبل جميعها، وما وراء همدان، وسير قائداً كبيراً من أصحابه يُعرف بابن علان القزويني إلى الدنور، ففتحها بالسيف، وقتل كثيراً من أهلها، وبلغت عساكره إلى نواحي حُلوان، فغتمت، ونهبت، وقتلت، وسبت الأولاد والنساء، وعادوا إليه. (٢٢٨/٨)

ذكر ما فعله لشكري من المخالفة

كان لشكري الديلمى من أصحاب أسفار، واستأمن إلى الخليفة، فلما انهزم هارون بن غريب من مرداويج سار معه إلى قرميسين، وأقام هارون بها، واستمد المقتدر ليعاود محاربة مرداويج، وسير هارون لشكري هذا إلى نهاوند لحمل مال بها إليه، فلما صار لشكري بنهاوند، ورأى غنى أهلها طمع فيهم، وصادهم على ثلاثة آلاف ألف درهم، واستخرجها في مدة أسبوع، وجند بها جنداً، ثم مضى إلى أصبهان هارباً من هارون في الجند الذين انضموا عليه في جمادى الآخرة.

وكان الوالي على أصبهان حينئذ أحمد بن كيغُلغ، وذلك قبل استيلاء مرداويج عليها، فخرج إليه أحمد فحاربه، فانهزم أحمد هزيمة قبيحة، وملك لشكري أصبهان، ودخل أصحابه إليها، فنزلوا في الدور والخانات وغيرها ولم يدخل لشكري معهم؛ ولما انهزم أحمد نجا إلى بعض قرى أصبهان في ثلاثين فارساً، وركب لشكري يطوف بسور أصبهان من ظاهره، فنظر إلى أحمد في جماعته، فسأل عنه فقيل: لا شك أنه من أصحاب أحمد بن كيغُلغ، فسار فيمن معه من أصحابه نحوهم، وكانوا عدة يسيرة، فلما (٢٢٩/٨) قرب منهم تعارفوا، فاقتتلوا، فقتل لشكري، قتله أحمد بن كيغُلغ، ضربه بالسيف على رأسه، فقد المغفر والخوذة، ونزل السيف حتى خالط دماغه، فسقط ميتاً.

وكان عمر أحمد إذ ذاك قد جاوز السبعين؛ فلما قتل لشكري انهزم من معه، فدخلوا أصبهان، وأعلموا أصحابهم، فهربوا على وجوههم، وتركوا أثقالهم وأكثر رجالهم، ودخل أحمد إلى أصبهان، وكان هذا قبل استيلاء مرداويج على أصبهان؛ وكان هذا من الفتح الطريف، وكان جزاؤه أن صُرف عن أصبهان، وولي عليها المظفر بن ياقوت.

ذكر ملك مرداويج أصبهان

ثم أنفذ مرداويج طائفة أخرى إلى أصبهان، فملكوها واستولوا عليها، وبنوا له بها مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلغ عليها، والبساتين، فسار مرداويج إليها ففتحها وهو في أربعين ألفاً، وقبل خمسين ألفاً، وأرسل جمعاً آخر إلى الأهواز، فاستولوا عليها وعلى خوزستان، وجبروا أموال هذه البلاد والنواحي، وقسمها في

كثيراً فأخذوه، وأحرقوا ما كانوا عمّروه منها، وأوغلوا في بلاد الروم يذهبون، ويقتلون، ويخربون، حتى بلغوا أنقرة، وهي التي تسمى الآن أنكورية، وعادوا سالمين لم يلقوا كيداً، فبلغت قيمة السبي مائة ألف دينار وستة وثلاثين ألف دينار، وكان وصولهم إلى طرسوس آخر رمضان.

وفيهما كاتب ابن الديارني وغيره من الأرمن، وهم بأطراف أرمينية، الروم، وحثوهم على قصد بلاد الإسلام، ووعدوهم النصر، فسارت الروم في خلق كثير، فخرّبوا بزرى وبلاد خلاط وما جاورها، وقتل من المسلمين خلق كثير، وأسروا كثيراً منهم، فبلغ خبرهم مُفْلِحاً، غلام يوسف بن أبي الساج، وهو والي أذربيجان، فسار في عسكر كبير، وتبعه كثير من المتطوعة إلى أرمينية، فوصلها في رمضان، وقصد بلد ابن الديارني ومن وافقه لحربه، وقتل أهله، ونهب أموالهم، وتحصن ابن الديارني بقلعة له، وبالغ الناس في كثرة القتل من الأرمن، حتى قيل إنهم كانوا مائة ألف قتل، والله أعلم.

وسار عساكر الروم إلى سُبيسط فحصروها، فاستصرخ أهلها (٢٣٥/٨) بسعيد بن حمدان، وكان المقتدر قد ولاء الموصل وديار ربيعة، وشرط عليه غزو الروم، وأن يستنقذ مَلَطِيَةَ منهم، وكان أهلها قد ضعفوا، فصالحو الروم، وسَلَمُوا مفاتيح البلد إليهم، فحكموا على المسلمين، فلما جاء رسول أهل سُبيسط إلى سعيد بن حمدان تجهز وسار إليهم مسرعاً، فوصل وقد كاد الروم يفتحونها، فلما قاربهم هربوا منه، وسار منها إلى مَلَطِيَةَ وبها جمع من الروم ومن عسكر مليح الأرمني ومعهم بني بن نفيس، صاحب المقتدر، وكان قد تنصر، وهو مع الروم، فلما أحسوا بإقبال سعيد خرجوا منها، وخافوا أن يأتيهم سعيد في عسكره من خارج المدينة، ويشور أهلها بهم فيهلكوا، ففارقوها.

ودخلها سعيد ثم استخلف عليها أميراً، وعاد عنها، فدخل بلد الروم غازياً في شوال، وقَدَمَ بين يديه سَرَيَتَيْنِ فقتلنا من الروم خلقاً كثيراً قبل دخوله إليها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في شوال، جاء إلى تكريت سيل كبير من المطر نزل في البر، ففرق منها أربعمائة دار ودكان، وارتفع الماء في أسواقها أربعة (٢٣٦/٨) عشر شبراً، وغرق خلق كثير من الناس ودفن المسلمون والنصارى مجتمعين لا يُعرف بعضهم من بعض.

وفيهما هاجت بالموصل ريح شديدة فيها حمرة شديدة، ثم اسودت حتى لا يعرف الإنسان صاحبه، وظن الناس أن القيامة قد قامت، ثم جاء الله تعالى بمطر فكشف ذلك.

سوى ذلك ألف دينار يكون في بيت المال، فَعُرِضَتْ رقعته على الكلوزاني فاستقال، وأذن في وزارة (٢٣٢/٨) الحسين، ومضى الحسين إلى بُلَيْق، وضمن له مالاً ليصلح له قلب مؤنس، ففعل، فَعَزَلَ الكلوزاني في رمضان، وتولى الحسين الوزارة لليلتين بقيتا من رمضان أيضاً، وكانت ولاية الكلوزاني شهرين وثلاثة أيام، واختص بالحسين بنو البريدي وابن قُرَابَةِ، وشرط أن لا يطلع معه علي بن عيسى، فأجيب إلى ذلك، وشرع في إخراجهم من بغداد، فأجيب إلى ذلك، فأخرج إلى الصافية.

ذكر تأكد الوحشة بين مؤنس والمقتدر

في هذه السنة، في ذي الحجة، تجددت الوحشة بين مؤنس والمقتدر، حتى آل ذلك إلى قتل المقتدر.

وكان سببها ما ذكرنا أولاً في غير موضع، فلما كان الآن بلغ مؤنس أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جماعة من القواد في التدبير عليه، فتنكر له مؤنس، وبلغ الحسين أن مؤنس قد تنكر له، وأنه يريد أن يكبس داره ليلاً ويقبض عليه، فتنقل في عدة مواضع، وكان لا يحضر داره إلا بُكْرَةً، ثم إنه انتقل إلى دار الخلافة، فطلب مؤنس من المقتدر عزل الحسين ومصادرته، فأجاب إلى عزله ولم يصادره، وأمر الحسين بلزوم بيته، فلم يقنع مؤنس بذلك فبقي في وزارته.

وأوقع الحسين عند المقتدر أن مؤنساً يريد أخذ ولده أبي العباس، وهو (٢٣٣/٨) الراضي، من داره بالمحرم، والمسير به إلى الشام، والبيعة له، فردّه المقتدر إلى دار الخلافة، فعلم ذلك أبو العباس، فلما أفضت الخلافة إليه فعل بالحسين ما نذكر.

وكتب الحسين إلى هارون، وهو بدير العاقول، بعد انهزامه من مرداويج، ليستقدمه إلى بغداد، وكتب إلى محمد بن ياقوت، وهو بالأهواز، يأمره بالإسراع إلى بغداد، فزاد استئثار مؤنس، وصح عنده أن الحسين يسعى في التدبير عليه، ومسند ذكر تمام أمره سنة عشرين وثلاثمائة.

ذكر الحروب بين المسلمين والروم

في هذه السنة، في ربيع الأول، غزا ثمل والي طرسوس بلاد الروم، فعبر نهراً، ونزل عليهم ثلج إلى صدور الخيل، وأتاهم جمع كثير من الروم، فواقعوهم، فنصر الله المسلمين، فقتلوا من الروم ستمائة، وأسروا نحواً من ثلاثة آلاف، وغنموا من الذهب والفضة والدباج وغيره شيئاً كثيراً.

وفيهما في رجب عاد ثمل إلى طرسوس، ودخل بلاد الروم صائفة في جمع كثير من الفارس والراجل، فبلغوا عمورية، وكان قد تجمّع إليها (٢٣٤/٨) كثير من الروم، ففارقوها لما سمعوا خبر ثمل، ودخلها المسلمون، فوجدوا فيها من الأطعمة والطعام شيئاً

ضافت عليه الأموال، وكثرت الإخراجات، فاستسلف في هذه السنة جملة وافرة أخرجها في سنة تسع عشرة [وثلاثمائة]، فأنهى هارون بن غريب ذلك إلى المقتدر، (٢٣٩/٨) فرتب معه الخصيي، فلما تولى معه نظر في أعماله، فرأه قد عمل حسبة إلى المقتدر ليس فيها عليه وجه، وموّه وأظهر ذلك للمقتدر، فأمر بجمع الكتاب وكشف الحال، فحضروا، واعترفوا بصدق الخصيي بذلك، وقابلوا الوزير بذلك، فقُبِض عليه في شهر ربيع الآخر، وكانت وزارته سبعة أشهر، واستوزر المقتدر أبا الفتح الفضل بن جعفر، وسلم إليه الحسين، فلم يؤاخذه بإساءته.

ذكر استيلاء مؤنس على الموصل

قد ذكرنا مسير مؤنس إلى الموصل، فلما سمع الحسين الوزير بمسيره كتب إلى سعيد وداود ابني حمدان، وإلى ابن أخيها ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان، يأمرهم بمحاربة مؤنس، وصده عن الموصل.

وكان مؤنس كتب في طريقه إلى رؤساء العرب يستدعيهم، ويذل لهم الأموال والخلع، ويقول لهم: إن الخليفة قد ولاه الموصل وديار ربيعة.

واجتمع بنو حمدان على محاربة مؤنس، إلا داود بن حمدان فإنه امتنع من ذلك لإحسان مؤنس إليه، فإنه كان قد أخذه بعد أبيه، ورآه في حجره، وأحسن إليه إحساناً عظيماً، فلما امتنع من محاربتهم لم يزل به إخوته حتى وافقهم على ذلك، وذكروا له إساءة الحسين وأبي الهيثم ابني حمدان (٢٤٠/٨) إلى المقتدر مرة بعد مرة، وأنهم يريدون أن يغسلوا تلك السيئة، ولما أجابهم قال لهم: والله إنكم لتحملوني على البغي وكفران الإحسان، وما آمن أن يجيئني سهم عائر فيقع في نحري فيقتلني؛ فلما التقوا أتاه سهم كما وصف قتله.

وكان مؤنس إذا قيل له: إن داود عازم على قتالك، ينكره ويقول: كيف يقاتلني وقد أخذته طفلاً وربيت في حجره! ولما قرب مؤنس من الموصل كان في ثمانمائة فارس، واجتمع بنو حمدان في ثلاثين ألفاً، والتقوا واقتتلوا، فانهزم بنو حمدان، ولم يُقتل منهم غير داود، وكان يلقب بالمجفجف وفيه يقول بعض الشعراء وقد هجا أميراً:

لو كنت في ألف ألف كلهم بطلٌ مثل المُجفجف داود بن حمدان
وتحتك الريح تجري حيث تأمرها، وفي يمينك سيف غير خروان
لكنك أول فرار إلى غدن إذا تحرك سيف من خراسان

وكان داود هذا من أشجع الناس، ودخل مؤنس الموصل ثالث صف، واستولى على أموال بني حمدان وديارهم، فخرج إليه كثير من العساكر من بغداد، والشام، ومصر، من أصناف الناس لإحسانه

وفيها توفي أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي في شعبان، وهو من متكلمي المعتزلة البغداديين. (٢٣٧/٨)

سنة عشرين وثلاثمائة

ذكر مسير مؤنس إلى الموصل

في هذه السنة، في المحرم، سار مؤنس المظفر إلى الموصل مغاضباً للمقتدر.

وسبب مسيره أنه لما صح عنه إرسال الوزير الحسين بن القاسم إلى هارون بن غريب ومحمد بن ياقوت يستحضرهما، زاد استيحاشه، ثم سمع بأن الحسين قد جمع الرجال والغلمان الحجرية في دار الخليفة، وقد اتفق فيهم، وأن هارون بن غريب قد قرب من بغداد، فأظهر الغضب، وسار نحو الموصل ووجه خادمه بُشْرى برسالة إلى المقتدر، فسأله الحسين عن الرسالة، فقال: لا أذكرها إلا لأمر المؤمنين؛ فأنفذ إليه المقتدر يأمره بذكر ما معه من الرسالة للوزير، فامتنع، وقال: ما أمرني صاحبي بهذا؛ فسبّه الوزير، وشتم صاحبه، وأمر بضربه، وصادره بثلاثمائة ألف دينار، وأخذ خطه بها، وحبسه ونهب داره.

فلما بلغ مؤنساً ما جرى على خادمه، وهو ينتظر أن يطيب المقتدر قلبه، (٢٣٨/٨) ويعيده، فلما علم ذلك سار نحو الموصل ومعه جميع قواده، فكتب الحسين إلى القواد والغلمان يأمرهم بالرجوع إلى بغداد، فعاد جماعة، وسار مؤنس نحو الموصل في أصحابه ومماليكه، ومعه من الساجية ثمان مائة رجل، وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه، فحصل من ذلك مال عظيم، وزاد ذلك في محل الوزير عند المقتدر، فلقبه عميد الدولة، وضرب اسمه على الدينار والدرهم، وتمكّن من الوزارة، وولى وعزل.

وكان فيمن تولى أبو يوسف يعقوب بن محمد البريدي، ولاه الوزير البصرة وجميع أعمالها بمبلغ لا يفي بالنفقات على البصرة وما يتعلق بها، بل فضل لأبي يوسف مقدار ثلاثين ألف دينار أحاله الوزير بها، فلما علم ذلك الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات استدرك على أبي يوسف، وأظهر له الغلط في الضمان، وأنه لا يمضيه، فأجاب إلى أن يقوم بنفقات البصرة، ويحمل إلى بيت المال كل سنة ثمانين ألف دينار، وانتهى ذلك إلى المقتدر، فحسن موقعه عنده، فقصده الوزير، فاستتر، وسعى بالوزير إلى المقتدر إلى أن أفسد حاله.

ذكر عزل الحسين عن الوزارة

وفيها عُزل الحسين بن القاسم عن الوزارة. وسبب ذلك أنه

عشرة دنانير! وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم، قليل إن علي بن بليق غمز بعضهم فقتله.

وكان المقتدر ثقیل البدن، عظیم الجثة، فلما قتلوه رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه، وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله، وتركوه مكشوف العورة إلى أن مر به رجل من الأكره، فستره بحشيش، ثم حفر (٢٤٣/٨) له موضعه، ودفن، وعفي قبره.

وكان مؤنس في الراشدية لم يشهد الحرب، فلما حُمل رأس المقتدر إليه بكى، ولطم وجهه ورأسه، وقال: يا مفسدون! ما هكذا أوصيتكم؛ وقال: قتلتموه، وكان هذا آخر أمره، واللّه لقتلن كلنا، وأقل ما في الأمر أنكم تظهرون أنكم قتلتموه خطأ، ولم تعرفوه.

وتقدم مؤنس إلى الشّمسية، وأنفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب، ومضى عبد الواحد بن المقتدر، وهارون بن غريب، ومحمد بن ياقوت، وأبنا رائق إلى المدائن، وكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يكن يخطر لهم على بال، وانخرقت الهيبة وضعف أمر الخلافة حتى صار الأمر إلى ما نحكيه.

على أن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيراً، وحكم فيها النساء والخدم، وفرط في الأموال، وعزل من الوزراء وولى مما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب، وخرجهم عن الطاعة.

وكان جملة ما أخرجه من الأموال، تبذيراً وتضييعاً في غير وجه، نبأً وسبعين ألف ألف دينار، سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة؛ وإذا اعتبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام أخيه المكتفي ووالده المعتضد، رأيت بينهم تفاوتاً بعيداً، وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً (٢٤٤/٨) وستة عشر يوماً، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة ونحواً من شهرين.

ذكر خلافة القاهرة باللّه

لما قتل المقتدر باللّه عظم قتله على مؤنس، وقال: الرأي أن نصب ولده أبا العباس أحمد في الخلافة، فإنه تربيتي، وهو صبي عاقل، وفيه دين وكرم، ووفاء بما يقول، فإذا جلس في الخلافة سمحت نفس جدته، والدة المقتدر، وإخوته، وغللمان أبيه ببذل الأموال، ولم يتطع في قتل المقتدر عزّاز؛ فاعترض عليه أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختي وقال: بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم، وخالقه، وخدم يدبرونه، فنعود إلى تلك الحال! واللّه لا نرضى إلا برجل كامل، يدبر نفسه، ويدبرنا. وما زال حتى رد مؤنساً عن رأيه، وذكر له أبو منصور محمد بن المعتضد، فأجابه مؤنس إلى ذلك، وكان النوبختي في ذلك كالباحث عن حفته بظلمه، فإن القاهرة قتله، كما نذكره «وعسى أن تُجيئوا شيئاً وهو شرّ لكم». [البقرة: ٢١٦]

[الذي] كان إليهم، وعاد إليه ناصر الدولة بن حمدان، فصار معه، وأقام بالموصل تسعة أشهر، وعزم على الانحدار إلى بغداد. (٢٤١/٨)

ذكر قتل المقتدر

لما اجتمعت العساكر على مؤنس بالموصل قالوا له: اذهب بنا إلى الخليفة، فإن أنصفنا، وأجرى أركاننا، وإلا قاتلناه؛ فانحدر مؤنس من الموصل في شوال، وبلغ خبره جند بغداد، فشغبوا وطلبوا أركانهم، ففرق المقتدر فيهم أموالاً كثيرة، إلا أنه لم يسعهم، وأنفذ أبا العلاء سعيد بن حمدان وصافياً البصري في خيل عظيمة إلى سُرّ من رأى، وأنفذ أبا بكر محمد بن ياقوت في ألفي فارس، ومعه الغلمان الحجرية، إلى المعشوق.

فلما وصل مؤنس إلى تكريت أنفذ طلائعهم، فلما قربوا من المعشوق جعل العسكر الذين مع ابن ياقوت يتسللون ويهرون إلى بغداد، فلما رأى ذلك رجع إلى عكبرا، وسار مؤنس، فتأخر ابن ياقوت وعسكره، وعادوا إلى بغداد، فنزل مؤنس بباب الشّمسية ونزل ابن ياقوت وغيره مقابلهم، واجتهد المقتدر بأبن خاله هارون بن غريب ليخرج، فلم يفعل، وقال: أخاف من عسكري، فإن بعضهم أصحاب مؤنس، وبعضهم قد انهزم أمس من مرداويع، فأخاف أن يسلموني وينهزموا عني؛ فأنفذ إليه الوزير، فلم يزل به حتى أخرجه، وأشاروا على المقتدر بإخراج المال منه ومن والدته ليرضى الجند، ومتى سمع أصحاب مؤنس بتفريق الأموال تفرقوا عنه واضطر إلى الهرب؛ فقال: لم يبق لي ولا لوالدتي جهة شيء.

وأراد المقتدر أن ينجح إلى واسط، ويكتب العساكر من جهة البصرة، (٢٤٢/٨) والأهواز، وفارس، وكرمان، وغيرها، ويترك بغداد لمؤنس إلى أن يجتمع عليه العساكر، ويعود إلى قتاله، فردّه ابن ياقوت عن ذلك، وزين له اللقاء، وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم إليه، فرجع إلى قوله وهو كاره.

ثم أشار عليه بحضور الحرب، فخرج وهو كاره، وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة، وعليه البردة، والناس حوله، فوقف على تل عال بعيد عن المعركة، فأرسل قواد أصحابه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى، وهو واقف، فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه، فانهزم أصحابه قبل وصوله إليهم، وكان قد أمر فنودي: من جاء بأسير فله عشرة دنانير، ومن جاء برأس فله خمسة دنانير، فلما انهزم أصحابه لقيه علي بن بليق، وهو من أصحاب مؤنس، فترجل وقبّل الأرض وقال له: إلى أين تمضي؟ ارجع، فلعن الله من أشار عليك بالحضور! فأراد الرجوع، فلقية قوم من المغاربة والبربر، فتركه علي معهم وسار عنه، فشبهوا عليه سيوفهم، فقال: ويحكم أنا الخليفة! فقالوا: قد عرفناك يا سيفلّه، أنت خليفة إبليس، تبذل في كل رأس خمسة دنانير، وفي كل أسير

ذكر وصول وشمكير إلى أخيه مرداويج

وفيها أرسل مرداويج إلى أخيه وشمكير، وهو ببلاد جيلان، يستدعيه إليه، وكان الرسول ابن الجعد، قال: أرسلني مرداويج، وأمرني بالتلطف لإخراج أخيه وشمكير إليه، فلما وصلتُ سألتُ عنه، فدللتُ عليه، فإذا هو مع جماعة يزرعون الأرز، فلما رأوني قصدوني وهم حفاة عراة، عليهم سراويلات ملونة الخرق، وأكسية ممزقة، فسلمتُ عليه، وأبلغته رسالة أخيه وأعلمته بما ملك من البلاد والأموال وغيرها ففُضِرَطَ بفمه في لحية أخيه وقال: إنه ليس السواد، وخدم المسودة، يعني الخلفاء من بني العباس.

فلم أزل أمنيّه وأطعمه حتى خرج معي، فلما بلغنا قزوين اجتهدتُ به (٢٤٧/٨) ليلبس السواد، فامتنع ثم لبس بعد الجهد. قال: فرأيت من جهله أشياء أستحي من ذكرها، ثم أعطته السعادة ما كان له في الغيب، فصار من أعرف الملوك بتدبير الممالك وسياسة الرعايا.

ذكر عدة حوادث

فيها توفي القاضي أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل ابن حمّاد بن زيد، وكان عالماً فاضلاً حليماً، وأبو علي الحسين بن صالح بن خيزران الفقيه الشافعي، وكان عابداً ورعاً، أريد على القضاء، فلم يفعل.

وفيها توفي أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي الفقيه الشافعي الجرجاني، المعروف بالاستراباذي. (٢٤٨/٨)

سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة

ذكر حال عبد الواحد بن المقتدر ومن معه

قد ذكرنا هرب عبد الواحد بن المقتدر، وهارون بن غريب، ومفلح، ومحمد بن ياقوت، وابني رائق، بعد قتل المقتدر، إلى المدائن، ثم إنهم انحدروا منها إلى واسط، وأقاموا بها، وخافهم الناس؛ فابتدأ هارون بن غريب وكتب إلى بغداد يطلب الأمان، ويذلل مصادرة ثلاثمائة ألف دينار على أن يطلق له أملاكه، ويسزل عن الأملاك التي استأجرها، ويؤدي من أملاكه حقوق بيت المال القديمة؛ فأجابه القاهر ومؤنس إلى ذلك، وكتب له كتاب أمان وقُلِّدَ أعمال ماه الكوفة، وماسبذان، ومهرجان قَذَقَ، وسار إلى بغداد.

وخرج عبد الواحد بن المقتدر من واسط فيمن بقي معه، ومضوا إلى السُّوس وسوق الأهواز، وجبوا المال، وطرّدوا العمال، وأقاموا بالأهواز، فجهز مؤنس إليهم جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم بُلَيْقاً.

وكان الذي حرضهم على إنفاذ الجيش أبو عبد الله البريدي،

وأمر مؤنس بإحضار محمد بن المعتضد، فبايعوه بالخلافة لليلتين بقيتا من شوال، ولقبوه القاهر بالله، وكان مؤنس كارهاً لخلافته، والبيعة له، (٢٤٥/٨) ويقول: إنني عارف بشره، وسوء نيته، ولكن لا حيلة.

ولما بويج استخلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بُلَيْقَ، ولعلي بن بليق، وأخذوا خطه بذلك، واستقرت الخلافة له، وبايعه الناس، واستوزر أبا علي بن مقلّة، وكان بفارس، فاستقدمه، ووزر له، واستحجب القاهر علي بن بُلَيْقَ، وتشاغل القاهر بالبحث عن استر من أولاد المقتدر وحُرّمه، ويمناظرة والدة المقتدر، وكانت مريضة قد ابتدأ بها الاستسقاء، وقد زاد مرضها بقتل ابنها، ولما سمعت أنه بقي مكشوف العورة جزعت جزعاً شديداً، وامتنعت عن المأكول والمشروب حتى كادت تهلك، فوعظها النساء حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح.

ثم أحضرها القاهر عنده، وسألها عن مالها، فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب، ولم تعترف بشيء من المال والجوهر، فضربها أشد ما يكون من الضرب، وعلقها برجلها، وضرب المواضع الغامضة من بدنّها، فحلّت أنّها لم تملك غير ما أطلعت عليه، وقالت: لو كان عندي مال لما أسلمتُ ولدي للقتل؛ ولم تعترف بشيء.

وصادر جميع حاشية المقتدر وأصحابه، وأخرج القاهر والدة المقتدر لتشهد على نفسها القضاء والعدول بأنها قد حلّت أوقافها، ووكلت في بيعها، فامتنعت عن ذلك، وقالت: قد أوقفها على أبواب البر والقرب بمكة والمدينة والثغور، وعلى الضعفى والمساكين، ولا أستحل حلّها ولا يبيعها وإنما أوكل على بيع أملاكي.

(٢٤٦/٨) فلما علم القاهر بذلك أحضر القاضي والعدول، وأشهدهم على نفسه أنه قد حل ووقفها جميعها، ووكل في بيعها، فبيع ذلك جميعه مع غيره، واشتره الجند من أرزاقهم؛ وتقدم القاهر بكس الدور التي سُمّي إليه أنه اختفى فيها ولد المقتدر، فلم يزل كذلك إلى أن وجدوا منهم أبا العباس الراضي، وهارون، وعلياً، والعباس، وإبراهيم، والفضل، فحملوا إلى دار الخليفة، فصوردوا على مال كثير، وسلمهم علي بن بُلَيْقَ إلى كاتبه الحسن بن هارون، فأحسن صحبتهم.

واستقر أبو علي بن مقلّة في الوزارة، وعزل وولّى، وقبض على جماعة من العمال، وقبض على بني البريدي، وعزلهم عن أعمالهم وصادرهم.

علي بن بُلَيْق في جنده ليكبسه، فوجده قد اختفى، فنهب أصحابه واستر محمد بن ياقوت.

(٢٥١/٨) ووكل علي بن بُلَيْق على دار الخليفة أحمد بن زيرك، وأمره بالتضييق على القاهر، وتفتيش كل من يدخل الدار ويخرج منها، وأن يكشف وجوه النساء المتنبئات، وإن وجد مع أحد رقعة دفعها إلى مؤنس، ففعل ذلك، وزاد عليه، حتى إنه حمل إلى دار الخليفة لبن، فأدخل يده فيه لئلا يكون فيه رقعة، ونقل بُلَيْق من كان بدار القاهر محبوساً إلى داره كوالدة المقتدر وغيرها، وقطع أرزاق حاشيته.

فأما والدة المقتدر فإنها كانت قد اشتدت عليها لشدة الضرب الذي ضربها القاهر، فأكرمها علي بن بُلَيْق وتركها عند والدته، فماتت في جمادى الآخرة، وكانت مكربة مرفهة، ودفنت بتربتها بالرصافة.

وضيق علي بن بُلَيْق على القاهر، فعلم القاهر أن العتاب لا يفيد، وأن ذلك برأي مؤنس وابن مقله، فأخذ في الحيلة والتدبير على جماعتهم.

وكان قد عرف فساد قلب طريف السبكري وبشرى خادم مؤنس لبليق وولده علي، وحسدهما على مراتبهما، فشرع في إغرائهما ببليق وابنه.

وعلم أيضاً أن مؤنساً وبُلَيْقاً أكثر اعتمادهما على الساجية، أصحاب يوسف بن أبي الساج وغلمانهم والمتقلبين إليهما بعده، وكانا قد وعدا الساجية بالموصل مواعيد أخلفاهما، فأرسل القاهر إليهم يغريهم بمؤنس وبُلَيْق، ويحلف لهم على الوفاء بما أخلفاهم، فتغيرت قلوب الساجية، ثم إنه راسل أبا جعفر (٢٥٢/٨) محمد بن القاسم بن غييد الله، وكان من أصحاب ابن مقله وصاحب مشورته، ووعده الوزارة، فكان يطالعه بالأخبار، وبلغ ابن مقله أن القاهر قد تغير عليه، وأنه مجتهد في التدبير عليه وعلى مؤنس، وبليق، وابنه علي، والحسن بن هارون، فأخبرهم ابن مقله بذلك.

ذكر القبض على مؤنس وبُلَيْق

في هذه السنة، أول شعبان، قبض القاهر بالله على بُلَيْق وابنه، ومؤنس المظفر.

وسبب ذلك أنه لما ذكر ابن مقله لمؤنس وبُلَيْق ما هو عليه القاهر من التدبير في استتصالهم خافوه، وحملهم الخوف على الجد في خلعه، واتفق رأيهم على استخلاف أبي أحمد بن المكتفي وعقدوا له الأمر سرّاً، وحلف له بُلَيْق وابنه علي، والوزير أبو علي بن مقله، والحسن بن هارون، وبياحوه، ثم كشفوا الأمر لمؤنس فقال لهم: لست أشك في شر القاهر وخبثه، ولقد كنتُ كارهاً

فإنه كان قد (٢٤٩/٨) خرج من الحبس فخورهم عاقبة إهمال عبد الواحد ومن معه، وبذل مساعدة معجلة خمسين ألف دينار على أن يتولى الأهواز، وعند استقراره بتلك البلاد يعجل باقي المال، وأمر مؤنس بالتجهز، وأنفق ذلك المال، وسار العسكر وفيهم أبو عبد الله.

وكان محمد بن ياقوت قد استبد بالأموال والأمر، فنشرت لذلك قلوب من معه من القواد والجند، فلما قرب العسكر من واسط أظهر من معه من القواد ما في نفوسهم، فارقه، ولما وصل بُلَيْق إلى السوس فارق عبد الواحد ومحمد بن ياقوت الأهواز وسارا إلى سُتْر، فعمل القرائطي، وكان مع العسكر، بأهل الأهواز ما لم يفعله أحد: نهب أموالهم، وصادرهم جميعهم، ولم يسلم منهم أحد.

ونزل عبد الواحد وابن ياقوت بَسْتَر، وفارقهما من معهما من القواد إلى بُلَيْق بأمان، وبقي مفلح وسرور الخادم مع عبد الواحد، فقالا لمحمد بن ياقوت: أنت معتصم بهذه المدينة، ويمالك ورجالك، ونحن فلا مال معنا، ولا رجال، ومقامنا معك يضرك ولا ينفعك، وقد عزمنا على أخذ الأمان لنا ولعبد الواحد بن المقتدر؛ فاذن لهما في ذلك، فكتبنا إلى بُلَيْق فأمّنهم، فعبروا إليه، وبقي محمد بن ياقوت منفرداً، فضعفت نفسه، وتحير، فتراسل هو وبليق، واستقر بينهما أنه يخرج إلى بُلَيْق على شرط أنه يؤمنه، ويضمن له أمان مؤنس والقاهر، ففعل ذلك وحلف له، وخرج محمد بن ياقوت معه إلى بغداد، واستولى أبو عبد الله البريدي على البلاد، وعسف أهلها، (٢٥٠/٨) وأخذ أموال التجار، وعمل بأهل البلاد ما لا يعملهم الفرنج، ولم يمنعه أحد عما يريد؛ ولم يكن عنده من الدين ما يزع عن ذلك، وعاد إخوته إلى أعمالهم؛ ولما عاد عبد الواحد ومحمد بن ياقوت وفي لهم القاهر، وأطلق لعبد الواحد أملاكه، وترك لوالدته المصادرة التي صادرها بها.

ذكر استيحاء مؤنس وأصحابه من القاهر

في هذه السنة استوحش مؤنس المظفر وبُلَيْق الحاجب وولده علي والوزير أبو علي بن مقله من القاهر، وضيقوا عليه وعلى أسبابه.

وكان سبب ذلك أن محمد بن ياقوت تقدم عند القاهر، وعلت منزلته، وصار يخلو به ويشاوره، فغلظ ذلك على ابن مقله لعداوة كانت بينه وبين محمد، فالتقى إلى مؤنس أن محمداً يسعى به عند القاهر، وأن عيسى الطبيب يسفر بينهما في التدبير عليه، فوجه مؤنس علي بن بُلَيْق لإحضار عيسى الطبيب، فوجده بين يدي القاهر، فأخذه وأحضره عند مؤنس، فسيّره من ساعته إلى الموصل، واجتمعوا على الإيقاع بمحمد بن ياقوت، وكان في الخيام، فركب

نفسه في الطائرة وعبر إلى الجانب الغربي واختفى من ساعته، فبلغ ابن مقلة الخير، فاستر واستر الحسن بن هارون أيضاً.

فلما سمع طريف الخير ركب في أصحابه، وعليهم السلاح، وحضروا (٢٥٥/٨) دار الخليفة، ووقف القاهر، فعظم الأمر حينئذٍ على ابن بليق وجماعتهم، وأنكر بليق ما جرى على ابنه، وسب الساجية، وقال: لا بد من المضي إلى دار الخليفة، فإن كان الساجية فعلوا هذا بغير تقدم قابلتهم بما يستحقونه، وإن كان بتقديم سألته عن سبب ذلك.

فحضر دار الخليفة ومعه جميع القواد الذين بدار مؤنس، فلهم يوصله القاهر إليه، وأمر بالقبض عليه وحبسه، وأمر بالقبض على أحمد بن زيرك، صاحب الشرطة، وحصل الجيش كلهم في الدار، فأنفذ القاهر وطيب نفوسهم، ووعدهم الزيادة، وأنه يوقف هؤلاء على ذنوبهم ثم يطلقهم ويحسن إليهم، فعادوا، وراسل القاهر مؤنساً يسأله الحضور عنده ليعرض عليه ما رفع عليهم ليفعل ما يراه، وقال: إنه عندي بمنزلة الوالد، وما أحب أن أعمل شيئاً إلا عن رأيه؛ فاعتذر مؤنس عن الحركة، ونهاه أصحابه عن الحضور عنده.

فلما كان الغد أحضر القاهر طريفاً السبكري وناولته خاتمه وقال له: قد فوضت إلى ولدي عبد الصمد ما كان المقتدر فوضه إلى ابنه محمد، وقلدتك خلافته، ورئاسة الجيش، وإمارة الأمراء، وبيوت الأموال، كما كان ذلك إلى مؤنس، ويجب أن تمضي إليه وتحمله إلى الدار، فإنه ما دام في منزله يجتمع إليه من يريد الشر ولا يأمن [أن] يولد شغل، فيكون هاهنا مرفهاً، ومعه من أصحابه من يخدمه على عادته.

فمضى إلى دار مؤنس، وعنده أصحابه في السلاح، وهو قد استولى عليه الكبر والضعف، فسأله أصحاب مؤنس عن الحال، فذكر سوء صنع بليق وابنه، فكلهم سبهما، وعزفهم ما أخذ لهم من الأمان والعهود، فسكتوا، (٢٥٦/٨) ودخل إلى مؤنس وأشار عليه بالحضور عند القاهر، وحمله عليه، وقال له: إن تأخرت طمع، ولو رأيك نائماً ما تجاسر أن يوقظك؛ وكان موافقاً على مؤنس وأصحابه لما نذروه، فسار مؤنس إليه، فلما دخل الدار قبض القاهر عليه وحبسه ولم يره.

قال طريف: لما أعلمت القاهر بمجيء مؤنس ارتعد، وتغيرت أحواله، وزحف من صدر فراشه، فخفته أن أكلمه في معناه، وعلمت أنني قد أخطأت، وندمت، وتيقنت أنني لاحق بالقوم عن قريب، وذكر قول مؤنس فيه إنه يعرفه بالهوج، والشر، والإقدام، والجهل؛ وكان أمر الله قدراً مقدوراً؛ وكانت وزارة ابن مقلة هذه تسعة أشهر وثلاثة أيام.

لخلافته، وأشرتُ بابن المقتدر، فخالقتم وقد بالغتم الآن في الاستهانة به، وما صبر على الهوان إلا من خبث طويته ليدبر عليكم، فلاتعجلوا على أمر حتى تؤنسوه وينسط إليكم، ثم قتشوا لتعرفوا من واطاه من القواد ومن الساجية والحجرية، ثم اعملوا على ذلك؛ فقال علي بن بليق، والحسن بن (٢٥٣/٨) هارون: ما يحتاج إلى هذا التطويل، فإن الحجة لنا، والدار في أيدينا، وما يحتاج أن نستعين في القبض عليه بأحد لأنه بمنزلة طائر في قفص.

وعملوا على معاجلته، فاتفق أن سقط بليق من الدابة، فاعتل ولزم منزله، واتفق ابنه علي وأبو علي بن مقلة وزينا لمؤنس خلع القاهر، وهوتا عليه الأمر، فأذن لهما، فاتفق رأيهما على أن يُظهروا أن أبا طاهر القرمطي قد ورد الكوفة في خلق كثير، وأن علي بن بليق سائر إليه في الجيش ليمنعه عن بغداد، فإذا دخل على القاهر ليودعه ويأخذ أمره فيما يفعل قبض عليه.

فلما اتفقا على ذلك جلس ابن مقلة، وعنده الناس، فقال لأبي بكر ابن قرابة: أعلمت أن القرمطي قد دخل الكوفة في ستة آلاف مقاتل بالسلاح التام؟ قال: لا! قال ابن مقلة: قد وصلنا كتب التواب بها بذلك؛ فقال ابن قرابة: هذا كذب ومحال، فإن في جورانا إنساناً من الكوفة، وقد أتاه اليوم كتاب على جناح طائر تاريخه اليوم يخبر فيه بسلامته، فقال له ابن مقلة: سبحان الله، أنتم أعرف منا بالأخبار؛ فسكت ابن قرابة، وكتب ابن مقلة إلى الخليفة يعرفه ذلك، ويقول له: إني قد جهزت جيشاً مع علي بن بليق ليسير يومنا هذا، والعصر يحضر إلى الخدمة ليأمره مولانا بما يراه؛ فكتب القاهر في جوابه يشكره، ويأذن له في حضور ابن بليق، فجاءت رقعة القاهر وابن مقلة نائم، فتركوها ولم يوصلوها إليه، فلما استيقظ عاد وكتب (٢٥٤/٨) رقعة أخرى في المعنى، فأنكر القاهر الحال، حيث قد كتب جوابه، وخاف أن يكون هناك مكراً.

وهو في هذا إذا وصلت رقعة طريف السبكري يذكر أن عنده نصيحة، وأنه قد حضر في زي امرأة لينهيها إليه، فاجتمع به القاهر، فذكر له جميع ما قد عزموا عليه، وما فعلوه من التدبير ليقبض ابن بليق عليه إذا اجتمع به، وأنهم قد بايعوا أبا أحمد بن المكتفي، فلما سمع القاهر ذلك أخذ حذره، وأنشد إلى الساجية فأحضرهم متفرقين، وكمنهم في الدهاليز، والممرات، والرواقات، وحضر علي بن بليق بعد العصر، وفي رأسه نبيذ، ومعه عدد يسير من غلمانهم بسلاح خفيف، في طائرة، وأمر جماعة من عسكريه بالركوب إلى أبواب دار الخليفة، وصعد من الطائرة، وطلب الإذن، فلم يأذن له القاهر، فغضب وأساء أدبه، وقال: لا بد من لقائه شاء أو أبى.

وكان القاهر قد أحضر الساجية، كما ذكرنا، وهم عنده في الدار، فأمرهم القاهر برده، فخرجوا إليه وشتموه وشتموا أبيه، وشهروا سلاحهم وتقدموا إليه جميعهم، ففر أصحابه عنه، وألقى

زوجة صندل، وقال له: تحمله إليها، وزوجها غائب عنها، وتقول لها: إن الخليفة قسم فينا شيئاً، وهذا من نصيبى أهديته إليكم؛ ففعل هذا، فقبلته، ثم عاد إليها من الغد وقال: أي شيء قال صندل لما رأى انبساطي عليكم؟ فقالت: اجتمع هو وفلان وفلان، وذكرت ستة نفر من أعيانهم، ورأوا ما أهديت إلينا فاستعملوا منه ودعوا للخليفة.

فبينما هو عندها إذ حضر زوجها، فشكر مؤتمناً، وسأله عن أحوال الخليفة، فأنشئ عليه، ووصفه بالكرم، وحسن الأخلاق، وصلابته في الدين، فقال صندل إن ابن بليق نسبه إلى قلّة الدين، ويريمه بأشياء قبيحة، فحلف مؤتمن على بطلان ذلك، وأن جميعه كذب.

ثم أمر القاهر مؤتمناً أن يقصد زوجة صندل، ويستدعيها إلى قهرمانه القاهرة، فتحضر متكررة على أنها قابلة يأنس بها من عند القاهر، لما كانوا بدار ابن طاهر، وقد حضرت لحاجة بعض أهل الدار إليها، ففعلت ذلك، ودخلت الدار وباتت عندهم، فحملها القاهر رسالة إلى زوجها ورفقائه، وكتب إليهم رقعة بخطه يعدمهم الزيادة في الأقطاع والجاري، وأعطاهم أنفسهم مالا، فعادت إلى زوجها وأخبرته بما كان جميعه، فوصل الخبر إلى ابن بليق أن امرأة من دار ابن طاهر دخلت إلى دار الخليفة، فلهمذا منع ابن بليق من دخول امرأة (٢٥٩/٨) حتى تبصر وتعرف.

وكان للساجية قائد كبير اسمه سيما، وكلهم يرجعون إلى قوله، فاتفق صندل ومن معه على إعلام سيما بذلك إذ لا بد لهم منه، وأعلموه برسالة القاهر إليهم، فقال: هذا صواب، والعاقبة فيه جميلة، ولكن لا بد من أن يدخلوا في الأمر بعض هؤلاء القوم، يعني أصحاب بليق ومؤنس، وليكن من أكابرهم، فاتفقوا على طريف السبكري، وقالوا: هو أيضاً متسخط؛ فحضره عنده وشكروا إليه ما هم فيه، وقالوا: لو كان الأستاذ، يعنون مؤنساً، يملك أمره لبلغنا مرادنا، ولكن قد عجز وضعف، واستبد عليه ابن بليق بالأمور؛ فوجدوا عنده من كراهتهم أضعاف ما أرادوا، فأعلموه حينئذ حالهم، فأجابهم إلى موافقتهم، واستحلفهم أنه لا يلحق مؤنساً وبليقاً وابنه مكروه وأذى في أنفسهم وأبدانهم وأموالهم، وإنما يلزم بليق وابنه بيوثهم، ويكون مؤنس على مرتبته لا يتغير، فحلفوا على ذلك، وحلف لهم على الموافقة، وطلب خط القاهر بما طلب، فأرسلوا إلى القاهر بما كان، فكتب إليهم بما أرادوا، وزاد بأن قال: إنه يصلي بالناس، ويخطب أيام الجمع، ويحج بهم، ويفزو معهم، ويقعد للناس، ويكشف مظالمهم إلى غير ذلك من حسن السيرة.

ثم إن طريفاً اجتمع بجماعة من رؤساء الحجريّة، وكان ابن

واستوزر القاهر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، مستهل شعبان، وخلع عليه، وأنفذ القاهر وختم على دور مؤنس، وبليق وابنه علي، وابن مقلّة، وأحمد بن زيرك، والحسن بن هارون، ونقل دوابهم، ووكل بحرمهم، وأنفذ فاستقدم عيسى المتطبب من الموصل، وأمر بنقل ما في دار ابن مقلّة وإحراقها، فنهبت وأحرقت، ونهبت دور المتعلّقين بهم، وظهر محمد بن ياقوت وقام الحجة، ثم رأى كراهية طريف السبكري والساجية له، فاخفى وهرب إلى أبيه الفارس، فكاتبه القاهر يلومه على عجلته بالهرب، وقلده كور الأهواز.

وكان السبب في ميل طريف السبكري، والساجية، والحجريّة، إلى القاهر، ومواطأتهم على مؤنس وبليق وابنه ما نذكره، وهو أن طريفاً كان قد أخذ قواد مؤنس وأعلامهم منزلة، وكان بليق وابنه ممن يقبل يده ويخدمه، (٢٥٧/٨) فلما استخلف القاهر بالله تقدم بليق وابنه، وحكما في الدولة كما ذكرناه، وأهمل ابن بليق جانب طريف، وقصده وعظله من أكثر أعماله، فلما طالت عطلته استحيا منه بليق، وخاف جانبه، فعزم على استعماله على ديار مصر ليقضي حقه، ويبعده، ومعه أعيان ورفقاء لياثمتهم، وقال ذلك للوزير أبي علي بن مقلّة، فأراه صواباً، فاعتذر بليق إلى طريف لسبب عطلته، وأعلمه بحديث مصر، فشكره، وشكر الوزير أيضاً، فمنع علي بن بليق من إتمامه، وتولى هو العمل، وأرسل إليه من يخلفه فيه، فصار طريف عدواً يترصص بهم الدوائر.

وأما الساجية فإنهم كانوا عُدّة مؤنس وعضده، وساروا معه إلى الموصل، وعادوا معه إلى قتال المقتدر، ووعدهم مؤنس المظفر بالزيادة؛ فلما قُتل المقتدر لم يروا لميعاده وفاء، ثناه عنه ابن بليق، وأطرحهم ابن بليق أيضاً، وأعرض عنهم.

وكان من جعلتهم خادم أسود اسمه صندل، وكان من أعيانهم، وكان له خادم اسمه مؤتمن، فباعه، فاتصل بالقاهر قبل خلافته، فلما استخلف قدّمه وجعله لرسائله، فلما بلي القاهر بابن بليق وسوء معاملته كان كالغريق يتمسك بكل شيء، وكان خبيراً بالدهاء والمكر، فأمر مؤتمناً أن يقصد صندلاً الساجي الذي باعه، ويشكو من القاهر، فإن رأى منه رداً لما يقوله أعلمه بحال القاهر وما يقاسي من ابن بليق وابنه، وإن رأى منه خلاف ذلك سكت، فجاء إليه وفعل ما أمره.

فلما شكّا قال له صندل: وفي أي شيء هو الخليفة حتى يعطيك، ويوسّع (٢٥٨/٨) عليك؟ إن فرج الله عنه من هذا المفسد احتجّت أنا وغيري عليك، والله علي صوم وصدقة إن ملك الخليفة أمره، واستراح، وأراحنا من هذا الملعون، فأعاد المؤتمن الحديث على القاهر، فأرسل على يده هدية جميلة من طيب وغيره إلى

بَلِّقَ قَدْ أَبْعَدَهُمْ عَنِ الدَّارِ وَأَقَامَ بِهَا أَصْحَابَهُ، فَهَمَّ حَقْنُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَعْلَمَهُمْ طَرِيفُ الْأَمْرِ أَجَابُوهُ إِلَيْهِ، فَظَهَرَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ إِلَى ابْنِ مَقْلَةٍ وَابْنِ بَلِّقٍ، وَلَمْ يَعْلَمُوا تَفْصِيلَهُ، فَاسْتَفْتَوْا عَلَى أَنْ يَقْبِضُوا عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ قَوَادِ السَّاجِيَةِ (٢٦٠/٨) وَالْحَجَرِيَّةِ، فَلَمْ يَقْدَمُوا عَلَيْهِمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ.

وَكَانَ الْقَاهِرُ قَدْ أَظْهَرَ مَرَضاً مِنْ دِمَائِهِمْ وَغَيْرِهَا، فَاحْتَجَبَ عَنِ النَّاسِ خَوْفاً مِنْهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا خَوَاصَّ خِدْمَةِ مِنَ الْأَوْقَاتِ النَّادِرَةِ، فَتَعَذَّرَ عَلَى ابْنِ مَقْلَةٍ وَابْنِ بَلِّقٍ الْاجْتِمَاعُ بِهِ لِيَلْفِخُوا مِنْهُ مَا يَرِيدُونَ، فَوْضَعَا مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ أَخْبَارِ الْقَرَامِطَةِ لِيُظْهِرَ لَهُمْ وَيَفْعَلُوا بِهِ مَا أَرَادُوا؛ وَلَمَّا قَبِضَ الْقَاهِرُ عَلَى مُؤَنَسَ وَجَمَاعَتِهِ اسْتَعْمَلَ الْقَاهِرُ عَلَى الْحُجْبَةِ سَلَامَةَ الطُّوْلُونِيِّ، وَعَلَى الشَّرْطَةِ أَبَا الْعَبَّاسَ أَحْمَدَ بْنَ خَاقَانَ، وَاسْتَوَزَرَ أَبَا جَعْفَرَ مُحَمَّدَ بْنَ الْقَاسِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَأَمَرَ بِالْإِدَاءِ عَلَى الْمُسْتَرْتِينَ، وَإِبَاحَةِ مَالٍ مِنْ أَخْصَاهُمْ وَهَدَمَ دَارَهُ، وَجَدَّ فِي طَلَبِ أَحْمَدَ بْنَ الْمَكْتَفِيِّ، فَظَفَرُ بِهِ، فَبَنَى عَلَيْهِ حَائِطًا وَهُوَ حَيٌّ فَمَاتَ، وَظَفَرَ بِعَلِيِّ بْنِ بَلِّقٍ فَقَتَلَهُ.

ذِكْرُ قَتْلِ مُؤَنَسَ وَبَلِّقٍ وَوُلْدِهِ عَلِيٍّ وَالتَّوْبِخَتِيِّ

وَفِيهَا، فِي شَعْبَانَ، قَتَلَ الْقَاهِرُ مُؤَنَسًا الْمَظْفَرُ، وَبَلِّقًا، وَعَلِيَّ بْنَ بَلِّقٍ.

وَكَانَ سَبَبُ قَتْلِهِمْ أَنَّ أَصْحَابَ مُؤَنَسَ شَتَبُوا وَثَارُوا، وَتَبِعَهُمْ سَائِرُ الْجَنْدِ، وَأَحْرَقُوا رَوْشَنَ دَارِ الْوَزِيرِ أَبِي جَعْفَرَ، وَنَادَاوُا بِشَعَارِ مُؤَنَسَ، وَقَالُوا: لَا نَرْضَى إِلَّا بِإِطْلَاقِ مُؤَنَسَ.

وَكَانَ الْقَاهِرُ قَدْ ظَفَرَ بِعَلِيِّ بْنِ بَلِّقٍ، وَأَفْرَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي مَنْزِلٍ، فَلَمَّا شَغِبَ الْجَنْدُ دَخَلَ الْقَاهِرُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ بَلِّقٍ، فَأَمَرَ بِهِ فَذُبِّحَ وَاحْتَزَّ (٢٦١/٨) رَأْسَهُ، فَوَضَعُوهُ فِي طُشْتٍ، ثُمَّ مَضَى الْقَاهِرُ وَالطُّشْتُ يُحْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى بَلِّقٍ فَوَضَعَ الطُّشْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَفِيهِ رَأْسُ ابْنِهِ، فَلَمَّا رَأَى بَكَّى، وَأَخَذَهُ يَقْبَلُهُ وَيَتَرَشَّقُهُ، فَأَمَرَ بِهِ الْقَاهِرُ فَذُبِّحَ أَيْضًا، وَجُعِلَ رَأْسُهُ فِي طُشْتٍ، وَحُمِلَ بَيْنَ يَدَيْ الْقَاهِرِ، وَمَضَى حَتَّى دَخَلَ عَلَى مُؤَنَسَ فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى الرُّاسَيْنِ تَشْهَدُ وَاسْتَرْجَعَ، وَلَعَنَ قَاتِلَهُمَا؛ فَقَالَ الْقَاهِرُ: جَرُوا بِرَجُلِ الْكَلْبِ الْمَلْعُونِ! فَجَرَّوهُ وَذَبَحُوهُ وَجَعَلُوا رَأْسَهُ فِي طُشْتٍ، وَأَمَرَ فَطِيفَ بِالرُّؤُوسِ فِي جَانِبِي بَغْدَادَ، وَنَسَوْدِي عَلَيْهِمَا: هَذَا جَزَاءُ مَنْ يَخُونُ الْإِمَامَ، وَيَسْعَى فِي فِسَادِ دَوْلَتِهِ؛ ثُمَّ أَعِيدَتْ وَنُظِفَتْ وَجُعِلَتْ فِي خِزَانَةِ الرُّؤُوسِ، كَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ.

وَقِيلَ إِنَّهُ قَتَلَ بَلِّقًا وَابْنَهُ مُسْتَخْفٍ، ثُمَّ ظَفَرَ بِابْنِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَأَمَرَ بِهِ فَضْرَبَ، فَاقْبَلَ ابْنُ بَلِّقٍ عَلَى الْقَاهِرِ، وَسَبَّهُ أَقْبَحَ سَبَبٍ، وَأَعْظَمَ شَتْمٍ، فَأَمَرَ بِهِ الْقَاهِرُ فَقَتَلَ، وَطِيفَ بِرَأْسِهِ فِي جَانِبِي بَغْدَادَ، ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى ابْنِ يَعْقُوبَ التَّوْبِخَتِيِّ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِ وَزِيرِهِ مُحَمَّدَ بْنَ الْقَاسِمِ، فَأَخَذَهُ وَجَسَّهُ؛ وَرَأَى النَّاسُ مِنْ شِدَّةِ الْقَاهِرِ مَا عَلِمُوا مَعَهُ

ذِكْرُ وَزَارَةِ أَبِي جَعْفَرَ مُحَمَّدَ بْنَ الْقَاسِمِ لِلْخُلَيْفَةِ

وَعَزْلُهُ وَوَزَارَةُ الْخَصِيِّ

لَمَّا قَبِضَ الْقَاهِرُ بِاللَّهِ عَلَى مُؤَنَسَ وَبَلِّقٍ وَابْنَهُ سَالَ عَمَّنْ يَصْلُحُ لِلْوَزَارَةِ، فَدَلَ عَلَى أَبِي جَعْفَرَ مُحَمَّدَ بْنَ الْقَاسِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَاسْتَوَزَرَهُ، فَبَقِيَ وَزِيرًا إِلَى يَوْمِ الثَّلَاثَةِ ثَلَاثَ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ، فَأَرْسَلَ الْقَاهِرُ قَبْضَ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَوْلَادِهِ، وَعَلَى أَخِيهِ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَحَرَمَهُ، وَكَانَ مَرِيضًا يَقُولُ: بَقُولُنَّجٍ، فَبَقِيَ مَحْبُوسًا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَمَاتَ، فَحُمِلَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَأُطْلِقَ أَوْلَادُهُ، وَاسْتَوَزَرَ أَبَا الْعَبَّاسَ أَحْمَدَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سَلِيمَانَ الْخَصِيَّ، وَكَانَتْ وَزَارَةُ أَبِي جَعْفَرَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاثْنِي عَشَرَ يَوْمًا.

ذِكْرُ الْقَبْضِ عَلَى طَرِيفِ السَّبْكَرِيِّ

لَمَّا تَمَكَّنَ الْقَاهِرُ، وَقَبِضَ عَلَى مُؤَنَسَ وَأَصْحَابِهِ، وَقَتْلَهُمْ، لَمْ يَقِفْ عَلَى الْيَمِينِ وَالْأَمَانِ اللَّذِينَ كَتَبَهُمَا لَطَرِيفَ، وَكَانَ الْقَاهِرُ يَسْمَعُ طَرِيفًا مَا يَكْرَهُ، وَيَسْتَخْفِ بِهِ، وَيَعْرِضُ لَهُ بِالْأَذَى، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ خَافَهُ وَتَيَقَّنَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ وَالْقَتْلَ، فَوَصَّى وَفَرَّغَ مِنْ جَمِيعِ مَا يَرِيدُهُ.

(٢٦٢/٨) وَاسْتَشْغَلَ الْقَاهِرُ عَنْهُ يَقْبِضُ مِنْ قَبْضِ عَلَيْهِ مِنْ وَزِيرٍ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ أَحْضَرَهُ بَعْدَ أَنْ قَبِضَ عَلَى وَزِيرِهِ أَبِي جَعْفَرَ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ، فَتَيَقَّنَ الْقَتْلَ أَسْوَةً بِمَنْ قَتَلَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَرَفَقَائِهِ، فَبَقِيَ مَحْبُوسًا يَتَوَقَّعُ الْقَتْلَ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى أَنْ خَلَعَ الْقَاهِرُ.

ذِكْرُ أَخْبَارِ خِرَاسَانَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ سَارَ مَرْدَاوِيحُ مِنَ الرِّيِّ إِلَى جَرَجَانَ، وَبِهَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَظْفَرِ مَرِيضًا فَلَمَّا قَصَدَهُ مَرْدَاوِيحُ عَادَ إِلَى نِيسَابُورَ، وَكَانَ السَّعِيدُ نَصَرَ بْنِ أَحْمَدَ بَنِيْسَابُورَ، فَلَمَّا يَلَفَّهَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَظْفَرِ سَارَ السَّعِيدُ نَحْوَ جَرَجَانَ، وَكَاتَبَ مُحَمَّدَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ الْبُلْغَمِيَّ مَطَرُفَ بْنِ مُحَمَّدَ وَزِيرَ مَرْدَاوِيحَ، وَاسْتَمَالَهُ، فَمَالَ إِلَيْهِ، فَانْتَهَى الْخَبَرُ بِذَلِكَ إِلَى مَرْدَاوِيحَ، فَقَبِضَ عَلَى مَطَرُفَ وَقَتَلَهُ.

وَأَرْسَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الْبُلْغَمِيَّ إِلَى مَرْدَاوِيحَ يَقُولُ لَهُ: أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَسْتَحْسِنُ كُفْرًا مَا يَفْعَلُهُ مَعَكَ الْأَمِيرُ السَّعِيدُ، وَأَنَّكَ إِنَّمَا حَمَلْتَكَ عَلَى قَصْدِ جَرَجَانَ وَزِيرِكَ مَطَرُفَ لِيَرَى أَهْلُهَا مَحَلَّهُ مِنْكَ، كَمَا فَعَلَهُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي رِبْعَةَ كَاتِبَ عَمْرُو بْنِ اللَّيْثِ، حَمَلَ عَمْرًا عَلَى قَصْدِ بَلْخٍ لِيَشَاهِدَ أَهْلُهَا مَنْزِلَتَهُ مِنْ عَمْرُو، فَكَانَ مِنْهُ مَا بَلَغَكَ وَأَنَا لَا أَرَى لَكَ مَنَاصِبَةَ مَلِكٍ يَطِيفُ بِهِ مِائَةُ أَلْفِ رَجُلٍ مِنْ غُلَمَانِهِ وَمَوَالِيهِ وَمَوَالِي أَيْهِنَ وَالصَّوَابِ أَنَّكَ تَتْرَكَ جَرَجَانَ لَهُ، وَتَبْذُلُ عَنْ الرِّيِّ مَا لَا تَصَالِحُهُ عَلَيْهِ؛ فَفَعَلَ مَرْدَاوِيحُ ذَلِكَ وَعَادَ عَنْ جَرَجَانَ،

وبذلك عن الري مالاً، وعاد إليها وصالحه السعيد عليها. (٢٦٤/٨) ففرّجته وأدخلته ومعه أولاده إلى منزلي ليأكلوا طعاماً، وشغلته عن حزنه.

ذكر ولاية محمد بن المظفر على خراسان

ولما فرغ السعيد من أمر جرجان، وأحكمه، استعمل أبا بكر محمد بن المظفر بن محتاج على جيوش خراسان، ورد إليه تدبير الأموي بنواحي خراسان جميعها، وعاد إلى بخارى مقر عزه، وكرسی ملكه.

وكان سبب تقدم محمد بن المظفر أنه كان يوماً عند السعيد، وهو يحدثه في بعض مهماته خالياً، فلسعته عقرب في إحدى رجله عدة لسعات، فلم يتحرك ولم يظهر عليه أثر ذلك، فلما فرغ من حديثه، وعاد محمد إلى منزله، نزع خفه فرأى العقرب فأخذها.

فانتهى خبر ذلك إلى السعيد، فأعجب به وقال: ما عجبت إلا من فراغ بالك لتدبير ما قلته لك، فهلا قتت وأزلتها! فقال: ما كنت لأقطع حديث الأمير بسبب عقرب، وإذا لم أصبر بين يديك على لسعة عقرب فكيف أصبر، وأنا بعيد منك، على حد سيوف أعداء دولتك إذا دفعتهم عن مملكتك؟ فعظم محله عنده وأعطاه مائتي ألف درهم.

ذكر ابتداء دولة بني بويه

وهم عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسن أحمد، أولاد أبي شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام بن (٢٦٥/٨) كوهي بن شرزبل الأصغر بن شير كنده بن شيرزبل الأكبر بن شيران شاه ابن شيرويه بن سستان شاه بن سيس فيروز بن شيروزيل بن سنباد بن بهرام جور الملك ابن يزدرج الملك ابن هرمز الملك ابن شابور الملك ابن شابور ذي الأكتاف، وباقي النسب قد تقدم في أول الكتاب عند ذكر ملوك الفرس؛ هكذا ساق نسبهم الأمير أبو نصر بن ماکولا، رحمه الله.

وأما ابن مسكويه فإنه قال إنهم يزعمون أنهم من ولد يزدرج بن شهريار، آخر ملوك الفرس، إلا أن النفس أكثر ثقة بنقل ابن ماکولا لأنه الإمام العالم بهذه الأمور، وهذا نسب عريق في الفرس، ولا شك أنهم نسبوا إلى الديلم حيث طال مقامهم ببلادهم.

وأما ابتداء أمرهم فإن والدهم أبا شجاع بويه كان متوسط الحال فماتت زوجته وخلّفت له ثلاثة بنين، وقد تقدم ذكرهم، فلما ماتت اشتد حزنه عليها، فحكي شهريار بن رستم الديلمي قال: كنت صديقاً لأبي شجاع بويه، فدخلتُ إليه يوماً فعذّلتُ على كثرة حزنه وقلت له: أنت رجلٌ يحتملُ الحزن، وهؤلاء المساكين أولادك يهلكهم الحزن، وربما مات أحدهم، فيجدد ذلك من الأحران ما ينسبك المرأة؟ وسلّيته بجهدِي، وأخذته (٢٦٦/٨)

فبينما هم كذلك اجتاز بنا رجل يقول عن نفسه: إنه منجم، ومعزّم، ومعبر للمنامات، ويكتب الرقي والطلسمات، وغير ذلك، فأحضره أبو شجاع وقال له: رأيت في منامي كأنني أبول، فخرج من ذكرتي نار عظيمة استطلت وعلت حتى كادت تبلغ السماء، ثم انفجرت فصارت ثلاث شعب، وتولّد من تلك الشعب عدة شعب، فاضاءت الدنيا بتلك النيران، ورأيت البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران.

فقال المنجم: هذا منام عظيم لا أفسره إلا بخلعة، وفرس، ومركب؛ فقال أبو شجاع: واللّه ما أملك إلا الثياب التي على جسدي، فإن أخذتها بقيت عرياناً؛ قال المنجم: فعشرة دنائير؛ قال: واللّه ما أملك ديناراً فكيف عشرة! فأعطاه شيئاً فقال المنجم: أعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها، ويعلمو ذكرهم في الأفاق كما علت تلك النار، ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب.

فقال أبو شجاع: أما تستحي تسخر منّا؟ أنا رجل فقير وأولادي هؤلاء فقراء مساكين كيف يصيرون ملوكاً؟

فقال المنجم: أخبرني بوقت ميلادهم؛ فأخبره، فجعل يحسب ثم قبض على يد أبي الحسن علي فقبّلها وقال: هذا واللّه الذي يملك البلاد (٢٦٧/٨) ثم هذا من بعده، وقبض على يد أخيه أبي علي الحسن، فاغتاظ منه أبو شجاع، وقال لأولاده: اصفعوا هذا الحكيم، فقد أفرط في السخرية بنا؛ فصفعوه، وهو يستغيث، ونحن نضحك منه، ثم أمسكوا فقال لهم: اذكروا لي هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك؛ فضحكنا منه وأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم.

ثم خرج من بلاد الديلم جماعة تقدم ذكرهم ليملك البلاد منهم ماكان بن كالي، وليلى بن النعمان، وأسفار بن شيرويه، ومرداويج بن زيار، وخرج مع كل واحد منهم خلق كثير من الديلم، وخرج أولاد أبي شجاع في جملة من خرج، وكانوا من جملة قواد ماكان بن كالي، فلما كان من أمر ماكان ما ذكرناه من الاتفاق ثم الاختلاف، بعد قتل أسفار، واستيلاء مرداويج على ما كان بيد ماكان من طبرستان وجرجان، وعود ماكان مرة أخرى إلى جرجان والدامغان، وعوده إلى نيسابور مهزوماً.

فلما رأى أولاد بويه ضعفه وعجزه قال له عماد الدولة وركن الدولة: نحن في جماعة وقد صرنا ثقلاً عليك وعيلاً، وأنت مضيق، والأصلح لك أن تفارقك لتخفف عنك مؤنتنا، فإذا صلح أمرنا عدنا إليك؛ فأذن لهما، فسارا إلى مرداويج، واقتدى بهما جماعة من قواد ماكان وتبعوهما، فلما صاروا إليه قبلهم أحسن

قبول، وخلع على ابني بويه، وأكرمهما، وقُدِّ كل واحد من قواد ماكان الواصلين إليه ناحية من نواحي الجبل، فأما علي بن بويه فإنه قلده كرج. (٢٦٨/٨)

ذكر سبب تقدم علي بن بويه

كان السبب في ارتفاع علي بن بويه من بينهم، بعد الأقدار، أنه كان سمحاً، حليماً، شجاعاً، فلما قلده مرداويج كرج، وقلد جماعة القواد المستأمنة معه الأعمال، وكتب لهم العهود، ساروا إلى الري، وبها وشمكير بن زيار أخو مرداويج، ومعه الحسين بن محمد الملقب بالعميد، وهو والد أبي الفضل الذي وزر لركن الدولة بن بويه، وكان العميد يومئذ وزير مرداويج.

وكان مع عماد الدولة بغلة شهباء من أحسن ما يكون، فعرضها للبيع، فبلغ ثمنها مائتي دينار، فعُرِضت على العميد فأخذها وأنفذ ثمنها، فلما حمل الثمن إلى عماد الدولة أخذ منه عشرة دنائير ورد الباقي، وجعل معه هدية جميلة.

ثم إن مرداويج ندم على ما فعل من تولية أولئك القواد البلاد، فكتب إلى أخيه وشمكير وإلى العميد يأمرهما بمنعهم من المسير إلى أعمالهم، وإن كان بعضهم قد خرج فيرد.

وكانت الكتب تصل إلى العميد قبل وشمكير، فيقرأها ثم يعرضها على وشمكير، فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ إلى عماد الدولة يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله، ويطوي المنازل، فسار من وقته، وكان المغرب، وأما العميد فلما أصبح عرض الكتاب على وشمكير، فمنع سائر القواد من (٢٦٩/٨) الخروج من الري، واستعاد التوقيعات التي معهم بالبلاد، وأراد وشمكير أن يُنفذ خلف عماد الدولة من يردّه، فقال العميد: إنه لا يرجع طوعاً، وربما قاتل من يقصده وخرج عن طاعته؛ فتركه.

وسار عماد الدولة إلى كرج، وأحسن إلى الناس، ولطف بعمال البلاد، فكتبوا إلى مرداويج يشكرونه، ويصفون ضبطه البلد، وسياسته، واقتح قلاعاً كانت للخزينة، وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعها إلى استمالة الرجال، والصلات، والهبات، فشاع ذكره، وقصده الناس وأحبوه.

وكان مرداويج ذلك الوقت بطبرستان، فلما عاد إلى الري أطلق مალأً لجماعة من قواده على كرج، فاستمالهم عماد الدولة، ووصلهم، وأحسن إليهم، حتى مالوا إليه، وأحبوا طاعته.

وبلغ ذلك مرداويج، فاستوحش وندم على إنفاذ أولئك القواد إلى الكرج، فكتب إلى عماد الدولة وأولئك يستدعيهم إليه، وتلطف بهم، فدافعه عماد الدولة، واشتغل بأخذ العهود عليهم، وخوفهم من سطوة مرداويج، فأجابوه جميعهم، فجبى مال كرج،

ذكر استيلاء ابن بويه على أرجان وغيرها وملك مرداويج أصبهان لما بلغ خبر الوقعة إلى مرداويج خاف عماد الدولة بن بويه، فشرع في إعمال الحيلة، فراسله يعاتبه ويستميله، ويطلب منه أن يُظهر طاعته حتى يمدّه بالساكنة الكثيرة ليفتح بها البلاد، ولا يكلفه سوى الخطبة له في البلاد التي يستولي عليها.

فلما سار الرسول جَهْزَ مرداويج أخاه وشمكير في جيش كثيف ليكبس ابن بويه، وهو مطمئن إلى الرسالة التي تقدمت، فعلم ابن بويه بذلك، فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين، وتوجه إلى أرجان، وبها أبو بكر بن ياقوت، فانهزم أبو بكر من غير قتال، وقصد رامهرمز، واستولى ابن بويه على أرجان في ذي الحجة؛ ولما سار عن أصبهان دخلها وشمكير وعسكر (٢٧١/٨) أخيه مرداويج وملكوها، فلما سمع القاهر أرسل إلى مرداويج قبل خلع له يمنع أخاه عن أصبهان ويسلمها إلى محمد بن ياقوت، ففعل ذلك ووليها محمد.

وأما ابن بويه فإنه لما ملك أرجان استخرج منها أموالاً فقوي بها، ووردت عليه كتب أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه، ويشير عليه بالمسير إلى شنراز، وبهون عليه أمر ياقوت وأصحابه، ويعرفه تهوره، واشتغاله بجباية الأموال، وكثرة مؤنثه ومؤونة أصحابه، وثقل وطأتهم على الناس، مع فشلهم وجُبْنهم، فخاف ابن بويه أن يقصد ياقوتاً مع كثرة عساكره وأمواله، ويحصل بين ياقوت وولده، فلم يقبل مشورته، ولم يبرح من مكانه، فعاد أبو طالب وكتب إليه يشجعه، ويعلمه أن مرداويج قد كتب إلى ياقوت يطلب مصالحته، فإن تم ذلك اجتماعاً على محاربتة، ولم يكن له

فاضطربت العامة، فأراد علي بن بليق أن يقبض على البرهاري رئيس الحنابلة، وكان يثير الفتن هو وأصحابه، فعلم بذلك فهرب، فأخذ جماعة من أعيان أصحابه وحُبسوا وجُعِلوا في زورق وأُحْدروا إلى عُمان.

وفيها أمر القاهر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة، ونفى بعض من كان يُعرف بذلك إلى البصرة والكوفة؛ وأما الجواري المغنيات فأمر ببيعهن على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء، ثم وضع من يشتري له كل حاذقة في صنعة الغناء، فاشترى منهن ما أراد بارخص الأثمان، وكان القاهر مشتهراً بالغناء والسماع، فجعل ذلك طريقاً إلى تحصيل غرضه رخيصةً، نعوذ بالله من هذه الأخلاق التي لا يرضاهَا عامة الناس.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد اللغوي في شعبان، وأبو (٢٧٤/٨) هاشم بن أبي علي الجبائي المتكلم المعتزلي في يوم واحد، ودُفنا بمقابر الخيزران.

وفيها توفي محمد بن يوسف بن مطر الفريسي، وكان مولده سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وهو الذي روي صحيح البخاري عنه، وكان قد سمعه عشرات ألوف من البخاري فلم يتشر إلا عنه، وهو منسوب إلى فريز بالفاء والزايين المهملتين وبينهما باء معجمة موحدة وهي من قرى بخارى. (٢٧٥/٨)

سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة

ذكر استيلاء ابن بويه على شيراز

في هذه السنة ظفر عماد الدولة بن بويه بياقوت، وملك شيراز، وقد ذكرنا مسير عماد الدولة بن بويه إلى القنطرة، وسبق ياقوت إليها، فلما وصلها ابن بويه وصده ياقوت عن عبورها اضطر إلى محاربتها، فتحاربوا في جمادى الآخرة، وأحضر علي بن بويه أصحابه، ووعدهم أنه يترجل معهم عند الحرب [ويقاتل كأحدهم]، ومثاهم ووعدهم الإحسان.

وكان من سعادته أن جماعة من أصحابه استامنوا إلى ياقوت، فحين رآهم ياقوت أمر بضرب رقابهم، فأيقن من مع ابن بويه أنهم لا أمان لهم عنده، فقاتلوا قتالاً مستقلاً.

ثم إن ياقوتاً قدم أمام أصحابه رجالة كثيرة يقاتلون بقوارير النفط، فانقلب الريح في وجوههم، واشتدت، فلما ألقوا النار عادت النار عليهم، فعلقت بوجوههم وثيابهم، فاختلفوا وأكب عليهم أصحاب ابن بويه، فقتلوا أكثر الرجالة، وخالطوا الفرسان فانهمزوا، فكانت الدائرة على ياقوت وأصحابه.

فلما انهزم صعد على نثر مرتفع، ونادى في أصحابه الرجعة، فاجتمع (٢٧٦/٨) إليه نحو أربعة آلاف فارس، فقال لهم: اثبتوا فإن

بهما طاقة، ويقول له إن الرأي لمن كان في مثل حاله أن يعاجل من بين يديه، ولا ينتظر بهم الاجتماع والكثرة وأن يحدقوا به من كل جانب، فإنه إذا هزم من بين يديه خافه الباقون ولم يقدموا عليه.

ولم يزل أبو طالب يرأسه إلى أن سار نحو التوبندجان في ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وقد سبقه إليهما مقدمة ياقوت في نحو ألفي فارس من شجعان أصحابه، فلما وافاهم ابن بويه لم يشتر له لما لقيهم، وانهزموا إلى كركان، وجاءهم ياقوت في جميع أصحابه إلى هذا الموضع، وتقدم أبو طالب إلى وكلائه بالتوبندجان بخدمة ابن بويه، والقيام بما يحتاج إليه، (٢٧٢/٨) وتنحى هو عن البلد إلى بعض القرى، حتى لا يعتقد فيه المواطاة له، فكان مبلغ ما خسر عليه في أربعين يوماً مقدار مائتي ألف دينار.

وأنفذ عماد الدولة أخاه ركن الدولة الحسن إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس، فاستخرج منها أموالاً جلية، فانفذ ياقوت عسكرياً إلى كازرون، فواقهم ركن الدولة، فهزمهم وهو في نفر يسير، وعاد غانماً سالماً إلى أخيه.

ثم إن عماد الدولة انتهى إليه مراسلة مرداويج وأخيه وشمكير إلى ياقوت ومراسلته إليهما، فخاف اجتماعهم، فسار من التوبندجان إلى إصطخر ثم إلى البيضاء وياقوت يتبعه، وانتهى إلى قنطرة على طريق كerman، فسبقه ياقوت إليها ومنعه من عبورها، واضطر إلى الحرب، وذلك في آخر سنة إحدى وعشرين [وثلاثمائة]، ودخلت سنة اثنين وعشرين [وثلاثمائة].

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اجتمعت بنو ثعلبة إلى بني أسد القاصدين إلى أرض الموصل ومن معهم من طي، فصاروا يداً واحدة على بني مالك ومن معهم من ثعلب، وقرب بعضهم من بعض للحرب، فركب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان في أهله ورجاله، ومعه أبو الأغر بن سعيد بن حمدان للصلح بينهم، فتكلم أبو الأغر، فطعنه رجل من حزب بني ثعلبة فقتله، فحمل عليهم ناصر الدولة ومن معه، فانهمزوا وقتل منهم، ومثلت بيوتهم، وأخذ حريمهم وأموالهم ونجوا على ظهور خيولهم، وتبعهم ناصر الدولة إلى الحديثة، فلما وصلوا إليها لقيهم يأس غلام مؤنس، وقد ولي الموصل، وهو مصعد إليها، (٢٧٣/٨) فانضم إليه بنو ثعلبة وبني أسد وعادوا إلى ديار ربيعة.

وفيها ورد الخبر إلى بغداد بوفاة تكين الخاصة بمصر، وكان أميراً عليها، فولّي مكانه ابنه محمد، وأرسل له القاهر بالله الخلع، وثار الجند بمصر، فقاتلهم محمد وظفر بهم.

وفيها أمر علي بن بليق، قبل قبضه، وكتبه الحسن بن هارون بلعن معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد على المنابر ببغداد،

البلاد، وبذل ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك، فأنفذوا له الخلع، وشرطوا على الرسول أن لا يسلم إليه الخلع إلا بعد قبض المال.

فلما وصل الرسول خرج عماد الدولة إلى لقائه، وطلب منه الخلع واللواء، فذكر له الشرط، فأخذهما منه قهراً، ولبس الخلع، ونشر اللواء بين يديه، ودخل البلد، وغالط الرسول بالمال، فمات الرسول عنده سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وعظم شأنه، وقصده الرجال من الأطراف.

ولمّا سمع مرداويج بما ناله من ابن بويه قام لذلك وقعد وسار إلى أصبهان (٢٧٨/٨) للتدبير عليه، وكان بها أخوه وشمكير لأنه لما خلع القاهرة، وتأخر محمد بن ياقوت عنها، عاد إليها وشمكير بعد أن بقيت تسعة عشر يوماً خالية من أمير، فلما وصلها مرداويج ردّ أخاه وشمكير إلى الري.

ذكر استيلاء نصر بن أحمد على كرمان

في هذه السنة خرج أبو علي محمد بن إلياس من ناحية كرمان إلى بلاد فارس، وبلغ [صطخر، فظهر لياقوت أنه يريد أن] يستأنم إليه حيلةً ومكرًا، فعلم ياقوت مكره، فعاد إلى كرمان، فسير إليه السعيد نصر بن أحمد، صاحب خراسان، ماكان بن كالي في جيش كثيف، فقاتله، فانهزم ابن إلياس، واستولى ماكان على كرمان، نبأه عن صاحب خراسان.

وكان محمد بن إلياس هذا من أصحاب نصر بن أحمد، فغضب عليه وحسبه، ثم شفع فيه محمد بن عبيد الله البلغسي، فأخرجه، وسيّره مع محمد ابن المظفر إلى جرجان، فلما خرج يحيى بن أحمد وإخوته ببخارى، على ما ذكرناه، سار محمد بن إلياس إليه فصار معه، فلما أدبر أمره سار محمد من نيسابور إلى كرمان فاستولى عليها إلى هذه الغاية، فأزاله ماكان (٢٧٩/٨) عنها، فسار إلى الدينور، وأقام ماكان بكرمان، فلما عاد عنها، على ما ذكره، رجع إليها محمد بن إلياس.

ذكر خلع القاهرة بالله

وفيها خلع القاهرة بالله في جمادى الأولى.

وكان سبب ذلك أن أبا علي بن مقله كان مستترًا من القاهرة، والقاهرة يطلبه، وكذلك الحسن بن هارون، فكانا يرسلان قواد الساجية، والحجرية، ويخونانهم من شره، ويذكران لهم غدره ونكته مرة بعد أخرى: قتل مؤنس، وبلق، وابنه علي بعد الأيمان لهم، وكبضه على طريف السبكري بعد اليمين له، مع نصح طريف له، إلى غير ذلك.

وكان ابن مقله يجتمع بالقواد ليلاً، تارة في زي أعمى، وتارة في زي مكّد، وتارة في زي امرأة وبغريهم به.

الدليم يشتغلون بالنهب، ويتفرقون، فنأخذهم، فثبتوا معه، فلما رأى ابن بويه ثباتهم نهى أصحابه عن النهب، وقال: إن عدوكم يرصدكم لتشتغلوا بالنهب، فيعطف عليكم ويكون هلاككم، فاتركوا هذا، وافرغوا من المنهزمين ثم عودوا إليه، ففعلوا ذلك، فلما رأى ياقوت أنهم على قصده ولسى منهزماً، وأتبعه أصحاب ابن بويه يقتلون ويأسرون ويغنمون الخيل والسلاح.

وكان معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه في ذلك اليوم من أحسن الناس أثراً، وكان صبيّاً لم تثبت لحيته، وكان عمره تسع عشرة سنة، ثم رجعوا إلى السواد، فغنموا ووجدوا في سواده برانس لبود عليها أذنان الثعالب، ووجدوا قيوداً وأغلالاً، فسألوا عنها، فقال أصحاب ياقوت: إن هذه أعدت لكم لتجعل عليكم، ويطاف بكم في البلاد؛ فأشار أصحاب ابن بويه أن يفعل بهم مثل ذلك، فامتنع وقال: إنه بغي، ولؤم ظفر، ولقد لقي ياقوت بغيه.

ثم أحسن إلى الأسارى وأطلقهم وقال: هذه نعمة والشكر عليها واجب يقتضي المزيد؛ وخيّر الأسارى بين المقام عنده والالحاق بياقوت، فاختاروا المقام عنده فخلع عليهم وأحسن إليهم.

وسار من موضع الرقعة حتى نزل بشيراز، ونادى في الناس بالأمان، وبث العدل، وأقام لهم شحنة يمنع من ظلمهم، واستولى على تلك البلاد، وطلب الجند أرزاقهم فلم يكن عنده ما يعطيهم، فكاد ينحل أمره، ففقد في غرفة في دار الإمارة بشيراز يفكر في أمره، فرأى حية خرجت من موضع في سقف تلك الغرفة ودخلت في ثقب هناك، فخاف أن تسقط عليه، فدعا (٢٧٧/٨) الفراشين، ففتحو الموضع، فرأوا وراءه باباً فدخلوه إلى غرفة أخرى، وفيها عشرة صناديق مملوءة مالاً ومصوغاً، وكان فيها ما قيمته خمس مائة ألف دينار، فأنفقها، وثبت ملكه بعد أن كان قد أشرف على الزوال.

وحكي أنه أراد أن يفصل ثياباً، فدلّوه على خياط كان لياقوت، فأحضره، فحضر خائفاً، وكان أصم، فقال له عماد الدولة: لا تخف، فإنما أحضرتك لتفصل ثياباً؛ فلم يعلم ما قال، فابتدأ وحلف بالطلاق والبراءة من دين الإسلام أن الصناديق التي عنده لياقوت ما فتحها، فتعجب الأمير من هذا الاتفاق، فأمره بإحضارها، فأحضر ثمانية صناديق فيها مال وثياب قيمته ثلاثمائة ألف دينار، ثم ظهر له من ودائع ياقوت وذخائر يعقوب وعمرو ابني الليث جملة كثيرة، فامتلات خزائنه وثبت ملكه.

فلما تمكّن من شيراز وفارس كتب إلى الرازي بالله، وكانت قد أفضت إليه الخلافة، على ما نذكره، وإلى وزيره أبي علي بن مقله بعرفهما أنه على الطاعة ويطلب منه أن يقاطع على ما بيده من

النوبة في داره، ويؤخر أعطياتهم، ويغلظ لمن يخاطبه منهم في أمر، ويجرمه، فأقبل بعضهم ينذر بعضاً، ويتشاكرون بينهم، ثم إنه كان يقول لسلامة حاجبه: يا سلامة! أنت بين يدي كثر مال بمشي، فأَي شيء يبين في مالك لو أعطيتني ألف ألف دينار؟ فيحمل ذلك منه على الهزل.

وكان وزيره الخصيي أيضاً خائفاً لما يرى منه، ثم إنه حفر في الدار نحو خمسين مطمورة تحت الأرض، وأحكم أبوابها، فكان يقال: إنه عملها لمقدمي الساجية والحجيرة فازداد نفورهم منه وخوفهم؛ ثم إن جماعة من القرامطة أخذوا بفارس وأرسلوا إلى بغداد، كما تقدم، فحُبسوا في تلك المطامير، ثم تقدم سراً بفتح الأبواب عليهم، والإحسان إليهم، وعزم على أن يقرى بهم على القبض على مقدمي الحجيرة والساجية، وبمن معه من غلمانها.

وانكر الحجيرة والساجية حال القرامطة، وكونهم معه في داره محسناً إليهم، وقالوا لوزيره الخصيي، وحاجبه سلامة، في ذلك، فقالوا له، فأخرجهم من الدار، فسلمهم إلى محمد بن ياقوت، وهو على شرطة بغداد، فانزلهم في دار، (٢٨٢/٨) وأحسن إليهم، وكان يدخل إليهم من يريد، فعظم استيحا شهم.

ثم صار يذمهم في مجلسه، ويُظهر كراهتهم، حتى تَبَيَّنوا ذلك في وجهه وحركاته معهم، فأظهروا أن لبعض قوادهم عرساً، فاجتمعوا بحجته، وقرروا بينهم ما أرادوا، وافترقوا، وأرسلوا إلى سابور خادم والدة المقتدر، فقالوا له: قد علمت ما فعله بمولاتك، وقد ركب في موافقته كل عظيم، فإن وافقتنا على ما نحن عليه، وتقدمت إلى الخدم بحفظه، فعفا الله عما سلف منك، وإلا فنحن نبدأ بك؛ فأعلمهم ما عنده من الخوف والكره للقاهر، وأنه موافقهم، وكان ابن مقله مع هذا يصنع عليه ويسعى فيه إلى أن خلع، كما ذكرنا، وكانت خلافته سنة واحدة وستة أشهر وثمانية أيام.

ذكر خلافة الراضي بالله

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله، ولما قبض القاهر سألوا الخدم عن المكان الذي فيه أبو العباس بن المقتدر، فدلّوهم عليه، وكان هو والدة محبوسين، فقصدوه، وفتحوا عليه ودخلوا، فسلموا عليه بالخلافة، وأخرجوه وأجلسوه على سرير القاهر يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى، ولقبوه بالراضي بالله، وبايعه القواد والناس، وأمر بإحضار علي بن عيسى وأخيه عبد الرحمن، وصدر عن رأيهما فيما يفعله، واستشارهما وأراد على بن عيسى على الوزارة، فامتنع لكبره، وعجزه، وضعفه، (٢٨٣/٨) وأشار بآبن مقله.

ثم إن سيما قال للراضي: إن الوقت لا يحتمل أخلاق علي،

ثم إنه أعطى منجماً كان لسيما مائتي دينار، وأعطاه الحسن مائة دينار، وكان يذكر لسيما أن طالعه يقتضي أن ينكبه القاهر ويقتله، وأعطى ابن مقله أيضاً لمعبر كان لسيما يعبر له المنامات، فكان يحذره أيضاً من القاهر، ويعبر له على ما يريد، فازداد نفوراً من القاهر.

ثم إن القاهر شرع في عمل مطامير في الدار، فقبل لسيما ولجماعة قواد الساجية والحجيرة: إنما عملها لأجلكم؛ فازدادوا نفوراً، ونقل إلى سيما أن القاهر يريد قتله، فجمع الساجية، وكان هو رئيسهم المقدم عليهم، وأعطاهم (٢٨٠/٨) السلاح، وأنشدوا إلى الحجيرة: إن كنتم موافقين لنا فجيئوا إلينا حتى نحلف بعضنا لبعض، وتكون كلمتنا واحدة؛ فاجتمعوا جميعهم وتحالفوا على اجتماع الكلمة وقتل من خالف منهم.

فاتصل ذلك بالقاهر ووزيره الخصيي، فأرسل إليهم الوزير: ما الذي حملكم على هذا؟ فقالوا: قد صحَّ عندنا أن القاهر يريد القبض على سيما، وقد عمل مطامير ليحبس فيها قوادنا ورؤسائنا. فلما كان يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى اجتمع الساجية والحجيرة عند سيما، وتحالفوا على الاجتماع على القبض على القاهر، فقال لهم سيما: قوموا بنا الساعة حتى نمضي هذا العزم، فإنه إن تأخر علم به، واحترز وأهلكنا.

وبلغ ذلك الوزير، فأرسل الحاجب سلامة وعيسى الطبيب ليعلماه بذلك، فوجداه نائماً قد شرب أكثر ليته، فلم يقدر على إعلامه بذلك.

وزحف الحجيرة والساجية إلى الدار، ووكل سيما بأبوابها من يحفظها، وبقي هو على باب العامة، وهجموا إلى الدار من سائر الأبواب، فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة استيقظ مخموراً، وطلب باباً يهرب منه، فقبل له إن الأبواب جميعها مشحونة بالرجال، فهرب إلى سطح حمام، فلما دخل القوم لم يجدوه، فأخذوا الخدم وسألوهم عنه، فدلّهم عليه خادم صغير، فقصدوه، فرأوه ويده السيف، فاجتهدوا به فلم ينزل لهم، فألأنا له القول، وقالوا: نحن عبيدك، وإنما نريد أن نأخذ عليك اليهود؛ فلم يقبل منهم وقال: من سعد إليّ قتلته! فأخذ بعضهم سهماً وقال: إن نزلت، وإلا وضعته (٢٨١/٨) في نحر! فنزل حيث شئ إليهم، فأخذوه وساروا به إلى الموضع الذي فيه طريف السكري، ففتحوه وأخرجوه منه وجسوا القاهر مكانه، ثم سملوه، وهرب وزيره الخصيي وسلامة حاجبه.

وقيل في سبب خلعه وقيام الساجية والحجيرة غير ما تقدم، وهو أن القاهر لما تمكّن من الخلافة أقبل ينقص الساجية والحجيرة على ممر الأيام، ولا يقضي لأكابريهم حاجة، ويُلمزهم

وابن مقلّة ألقى بالوقت؛ فكتب له أماناً وأحضره واستوزره، فلمّا وزر أحسن إلى كلّ مَنْ أساء إليه، وأحسن سيرته، وقال: عاهدت الله عند استتاري بذلك؛ فوفى به، وأحضر الشهود والقضاة وأرسلهم إلى القاهر ليشهدوا عليه بالخلع، فلم يفعل، فسُئل من ليلته، فبقي أعمى لا يبصر.

وأرسل ابن مقلّة إلى الخصيي وعيسى المتطبّب بالأمان فظهرا وأحسن إليهما واستعمل الخصيي وولاه، واستعمل الراضي بالله على الشرطة بدرّ الخرنثي، واستعمل ابن مقلّة أبا الفضل بن جعفر بن الفرات، في جمادى الأولى، نائباً عنه على سائر العمال بالموصل، وقرّدي، وبازندي، وماردين، وطور عبدين، وديار الجزيرة، وديار بكر، وطريق الفرات، والثغور الجزرية والشامية، وأجناد الشام، وديار مصر، يصرف من يرى، ويستعمل من يرى في الخراج، والمعاون، والنفقات، والبريد وغير ذلك.

وأرسل إلى محمد بن رائق يستدعيه ليوثيه الحجة، وكان قد استولى على الأهواز وأعمالها، ودفع عنها ابن ياقوت، ولم يبق بيد ابن ياقوت من تلك الولاية إلا السّوس، وجنديسابور، وهو يريد المسير إلى أصبهان أميراً عليها، على ما ذكرناه، وكان ذلك آخر أيام القاهر، فلمّا ولي الراضي، واستحضره، سار إلى واسط، وأرسل محمد بن ياقوت يخطب الحجة، فأجيب إليها، فسار (٢٨٤/٨) في أثر ابن رائق، وبلغ ابن رائق الخبر، فلم يقف، وسار من واسط مصعداً إلى بغداد يسابق ابن ياقوت، فلمّا وصل إلى المدائن لقيه توقيع الراضي يأمره بترك دخول بغداد، وتقليده الحرب، والمعاون بواسط، مضافاً إلى ما بيده من البصرة وغيرها، فعاد منحدرًا في دجلة، ولقية ابن ياقوت مصعداً فيها أيضاً، فسلم بعضهم على بعض، وأصعد ابن ياقوت إلى بغداد فتولّى الحجة على ما نذكره.

ذكر وفاة المهدي صاحب إفريقية وولاية ولده القائم

في هذه السنة، في شهر ربيع الأول، توفي المهدي أبو محمد عبيد الله العلوي بالمهديّة، وأخفى ولده أبو القاسم موته سنة لتدبير كان له، وكان يخاف أن يختلف الناس عليه إذا علموا بموته، وكان عمر المهدي لما توفي ثلاثاً وستين سنة، وكانت ولايته منذ دخل رقادة ودُعي له بالإمامة إلى أن توفي أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً.

ولما توفي ملك بعده ابنه أبو القاسم محمد، وكان أبوه قد عهد إليه، ولما أظهر وفاة والده كان قد تمكّن وفرغ من جميع ما أراد، وأتبع سُنّة أبيه، وثار عليه جماعة، فتمكّن منهم؛ وكان من أشدهم رجل يقال له ابن طالوت القرشي، في ناحية طرابلس، ويزعم أنه ولد المهدي، فقاموا معه، وزحف إلى مدينة طرابلس، فقاتله أهلها،

ثم تبين للبربر كذبه، فقتلوه وحملوا رأسه إلى القائم. وجَهَز القائم أيضاً جيشاً كثيفاً مع ميسور الفتى إلى المغرب، فانتهى إلى (٢٨٥/٨) فاس، وإلى تَكُرور، وهزم خارجياً هناك، وأخذ ولده أسيراً، وسير أيضاً جيشاً في البحر وقدم عليهم رجلاً اسمه يعقوب بن إسحاق إلى بلد الروم، فسبى، وغنم في بلد جَنوة؛ وسير جيشاً آخر مع خادمه زيدان، وبالغ في النفقة عليهم وتجهيزهم، إلى مصر، فدخلوا الإسكندرية، فأخرج إليهم محمد الإخشيد عسكرياً كثيفاً، فقاتلهم، وهزموا المغاربة، وقتلوا فيهم، وأسروا، وعاد المغاربة مفلولين.

ذكر استيلاء مرداويج على الأهواز

لما بلغ مرداويج استيلاء علي بن بويه على فارس اشتد ذلك عليه، فسار إلى أصبهان للتدبير على ابن بويه، فرأى أن ينفذ عسكرياً إلى الأهواز ليستولي عليها، ويسد الطريق على عماد الدولة بن بويه إذا قصده، فلا يبقى له طريق إلى الخليفة، ويقصده هو من ناحية أصبهان، ويقصده عسكريه من ناحية الأهواز، فلا يثبت لهم.

فسارت عساكر مرداويج في شهر رمضان، حتى بلغت إِيذَج، فخاف ياقوت أن يحصل بينهم وبين ابن بويه، فسار إلى الأهواز ومعه ابنه المظفر، وكتب إلى الراضي ليقلّده أعمال الأهواز، فقلّده ذلك، وصار أبو عبد الله (٢٨٦/٨) ابن البريدي كاتبه مضافاً إلى ما بيده من أعمال الخراج بالأهواز، وصار أخوه أبو الحسين يخلّف ياقوتاً ببغداد.

ثم استولى عسكر مرداويج على رامهرمز، أول شوال من هذه السنة، وساروا نحو الأهواز، فوقف لهم ياقوت على قنطرة أَرَبَق، فلم يمكنهم من العبور لشدة جرية الماء، فأقاموا بإزائه أربعين يوماً، ثم رحلوا فعبروا على الأطواف نهر المسرّقان، فبلغ الخبر إلى ياقوت، وقد أتاه مدد من بغداد قبل ذلك بيومين، فسار بهم إلى قرية الرّيح، وسار منها إلى واسط، وبها حيثنّ محمد بن رائق، فأخلى له غربي واسط، فنزل فيه ياقوت.

ولما بلغ عماد الدولة استيلاء مرداويج على الأهواز كاتب نائب مرداويج يستميله، ويطلب منه أن يتوسط الحال بينه وبين مرداويج، ففعل ذلك، وسعى فيه، فأجابه مرداويج إلى ذلك على أن يطيعه ويخطب له، فاستقر الحال بينهما، وأهدى له ابن بويه هدية جليّة، وأنفذ أخاه ركن الدولة رهينة، وخطب لمرداويج في بلاده، فرضي مرداويج منه، واتفق أنه قتل على ما نذكره، فقوي أمر ابن بويه.

ذكر عود ياقوت إلى الأهواز

ولمّا وصل ياقوت إلى واسط أقام بها إلى أن قُتل مرداويج،

ومعه أبو عبد الله البريدي يكتب له، فلما قُتل مرداويج عاد ياقوت إلى الأهواز، واستولى على تلك الولاية، ولما وصل ياقوت إلى عسكر مُكرَّم، بعد قتل مرداويج، (٢٨٧/٨) كانت عساكر ابن بويه قد سبقته، فالتقوا بنواحي أَرْجَان، وكان ابن بويه قد لحق بأصحابه، واشتد قتالهم بين يديه، فانهزم ياقوت، ولم يفلح بعدها.

وراسل أبو عبد الله البريدي ابن بُويَه في الصلح، فأجاب إلى ذلك، وكتب به إلى الراضي، فأجاب إلى ذلك، وقرر بلاد فارس على ابن بُويَه، واستقر بشيراز، واستقر ياقوت بالأهواز ومعه ابن البريدي.

وكان محمد بن ياقوت قد سار إلى بغداد وتولّى الحجة، وخلع الراضي عليه، وتولّى مع الحجة رئاسة الجيش، وأدخل يده في أمر الدواوين، وتقدّم إليهم بأن لا يقبلوا توقيعاً بولاية ولا عزل وإطلاق إلا إذا كان خطه عليه، وأمرهم بحضور مجلسه، فصر أبو علي بن مقله على ذلك، وألزم نفسه بالمصير إلى دار ابن ياقوت، في بعض الأوقات، وبقي كالمعتل.

ولقد كان في هذه الأيام القليلة حوادث عظيمة منها: انصراف وشمكير أخى مرداويج عن أصبهان بكتاب القاهر، بعد أن ملكها، واستعمال القاهر محمد بن ياقوت عليها، وخلع القاهر، وخلافة الراضي، وأمر الحجة لمحمد بن رائق، ثم انفساخه، ومسير محمد بن ياقوت من رامهرمز إلى بغداد، وولايته الحجة، بعد أن كان سائراً إلى أصبهان ليتولاها، وإعادة مرداويج أخاه وشمكير إليها، وملك علي بن بويه أَرْجَان؛ هذا جميعه في هذه اللحظة القريبة في سبعين يوماً، فتبارك الله الذي بيده الملك والملكوت يُصرفُ الأمور كيف يشاء، لا إله إلا هو. (٢٨٨/٨)

ذكر قتل هارون بن غريب

في هذه السنة قُتل هارون بن غريب، وكان سبب قتله أنه كان، كما ذكرنا، قد استعمله القاهر على ماه الكوفة، وقصبتها الدّينور، وعلى ماسبذان وغيرها، فلما خلّع القاهر واستخلف الراضي رأى هارون أنه أحق بالدولة من غيره لقربائه من الراضي، حيث هو ابن خال المقتدر، فكانت القوّاد ببغداد يعدهم الإحسان والزيادة في الأرزاق، ثم سار من الدّينور إلى خاتقين، فعظم ذلك على ابن مقله وابن ياقوت والحجرية والساجية واجتمعوا، وشكوه إلى الراضي، فأعلمهم أنه كاره له، وأذن لهم في منعه، فراسلوه أولاً، وبذلوا له طريق خراسان زيادة على ما في يده، فلم يقنع به، وتقدّم إلى النهران، وشرع في جباية الأموال، وظلم الناس، وعسفهم، وقويت شوكته.

فخرج إليه محمد بن ياقوت في سائر جيوش بغداد، ونزل قريباً منه، ووقت الطلائع بعضها على بعض، وهرب بعض أصحاب

فلما كان يوم الثلاثاء لستَ بقين من جمادى الآخرة تراحف العسكران، واشتد القتال، واستظهر أصحاب هارون لكثرتهم، فانهزم أكثر أصحاب ابن ياقوت ونهب أكثر سوادهم، وكثر فيهم الجراح والقتل، فسار محمد بن ياقوت حتى قطع قنطرة نهر بين، فبلغ ذلك هارون، فسار (٢/٨) نحو القنطرة منفرداً عن أصحابه، طمعاً في قتل محمد بن ياقوت، أو أسره، فتقنطر به فرسه، فسقط عنه في ساقية، فلحقه غلام له اسمه يُمن، فضربه بالطَّبْرَين حتى أثخنه، وكسر عظامه، ثم نزل إليه فذبحه ثم رفع رأسه وكبّر، فانهزم أصحابه وتفرّقوا، ودخل بعضهم بغداد سرّاً، ونهب سواد هارون، وقتل جماعة من قوّاده وأسَر جماعة.

وسار محمد إلى موضع جَنَّة هارون، فأمر بحملها إلى مضربه، وأمر بفسله وتكفينه، ثم صلى عليه ودفنه، وأنفذ إلى داره من يحفظها من النهب، ودخل بغداد ورأس هارون بين يديه ورؤوس جماعة من قوّاده، فنُصب ببغداد.

ذكر ظهور إنسان ادّعى النبوة

في هذه السنة ظهر بياسيند، من أعمال الصغانيان، رجل ادّعى النبوة، فقصده فوج بعد فوج، واتّبعه خلق كثير، وحارب من خالفه، فقتل خلقاً كثيراً ممن كذّبه، فكثُر أتباعه من أهل الشاش خصوصاً.

وكان صاحب حيل ومخاريق، وكان يدخل يده في حوض ملآن ماء، فيخرجها مملوءة دنائير، إلى غير ذلك من المخاريق، فكثُر جمعه، فأنفذ إليه أبو علي بن محمد بن المظفر جيشاً، فحاربوه، وضيقوا عليه، وهو فوق جبل عال، حتى قبضوا عليه وقتلوه وحملوا رأسه إلى أبي علي، وقتلوا (٢٩٠/٨) خلقاً كثيراً ممن اتّبعه وآمن به؛ وكان يدّعي أنه متى مات عاد إلى الدنيا، فبقي بتلك الناحية جماعة كثيرة على ما دعاهم إليه مدة طويلة ثم اضمحلوا وفنوا.

ذكر قتل الشلمغاني وحكاية مذهبه

وفي هذه السنة قُتل أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي القراق، وشلمغان التي يُنسب إليها قرية بنواحي واسط.

وسبب ذلك أنه قد أحدث مذهباً غالباً في التشيع، والتناسخ، وحلول الإلهية فيه، إلى غير ذلك مما يحكيه، وأظهر ذلك من فعله أبو القاسم الحسين ابن رَوْح، الذي تسمّيه الإمامية الباب، متداول وزارة حامد بن العباس، ثم اتصل أبو جعفر الشلمغاني بالمحسن بن أبي الحسن بن الفرات في وزارة أبيه الثالثة، ثم إنه طُلب في

صالح، عليه السلام، وإبليس عاقر الناقة، وتفرقت بعدهما، واجتمعت في إبراهيم، عليه السلام، وإبليس نمرود، وتفرقت لما غابا، واجتمعت في هارون وإبليس فرعون، وتفرقت بعدهما، واجتمعت في سليمان وإبليس، وتفرقت بعدهما، واجتمعت في عيسى وإبليس، فلما غابا تفرقت في تلاميذ عيسى وإبليس، ثم اجتمعت في علي ابن أبي طالب وإبليس.

(٢٩٣/٨) ثم إن الله يظهر في كل شيء، وكل معنى، وإنه في كل أحد بالخاطر الذي يخطر بقلبه، فيتصور له ما يغيب عنه، حتى كأنه يشاهده؛ وإن الله اسم لمعنى؛ وإن من احتاج الناس إليه فهو إله، ولهذا المعنى يستوجب كل أحد أن يسمى إلهاً، وإن كل أحد من أشياعه يقول: إنه رب لمن هو في دون درجته، وإن الرجل منهم يقول: أنا رب لفلان، وفلان رب لفلان، وفلان رب ربي، حتى يقع الانتهاء إلى ابن أبي القراقرق فيقول: أنا رب الأرباب، لا ربوبية بعده.

ولا ينسبون الحسن والحسين، رضي الله عنهما، إلى علي، كرم الله وجهه، لأن من اجتمعت له الربوبية لا يكون له ولد، ولا والد، وكانوا يسمون موسى ومحمد ﷺ الخائنين، لأنهم يدعون أن هارون أرسل موسى، وعلياً أرسل محمداً، فخاهاهما، ويزعمون أن علياً أمهل محمداً عدة سني أصحاب الكهف، فإذا انقضت هذه العدة، وهي ثلاثمائة وخمسون سنة، انتقلت الشريعة؛ ويقولون إن الملائكة كل من ملك نفسه، وعرف الحق، وإن الجنة معرفتهم وانتحال مذهبهم، والنار الجهل بهم، والعدول عن مذهبهم.

ويعتقدون ترك الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات، ولا يتناكبون بعقد، ويبيحون الفروج، ويقولون إن محمداً ﷺ بعث إلى كبراء قريش وجبابة العرب، ونفوسهم أبيّة، فأمرهم بالسجود، وإن الحكمة الآن أن يمتحن الناس بإباحة فروج نسايتهم، وإنه يجوز أن يجامع الإنسان من شاء من ذوي رحمته، وحرّم صديقه، وابنه، بعد أن يكون على مذهبه، وإنه لا بد للفاضل منهم أن ينكح المفضول ليولج النور فيه، ومن امتنع من ذلك قلب في الدور الذي يأتي بعد هذا العالم امرأة، إذ كان مذهبهم التناسخ، وكانوا يعتقدون إهلاك الطالبيين والعباسيين، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

وما أشبه هذه المقالة بمقالة النصيرية، ولعلها هي هي، فإن النصيرية يعتقدون في ابن القرات، ويجعلونه رأساً في مذهبهم.

وكان الحسين بن القاسم بالرقة، فأرسل الراضي بالله إليه، فقتل آخر ذي القعدة، وحمل رأسه إلى بغداد.

وزارة الخاقاني، فاستر وهرب إلى الموصل، فبقي سنين عند ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان في حياة أبيه عبد الله بن حمدان، ثم انحدر إلى بغداد واستتر، وظهر عنه ببغداد أنه يدعي لنفسه الربوبية، وقيل إنه أتبعه على ذلك الحسين بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب الذي وزر للمقتدر بالله، وأبو جعفر، وأبو علي ابن إسحاق، وإبراهيم بن محمد بن أبي عون، وابن شبيب الزيات، وأحمد بن محمد بن عبدوس، (٢٩١/٨) كانوا يعتقدون ذلك فيه، وظهر ذلك عنهم، وظلّوا أيام وزارة ابن مقلّة للمقتدر بالله، فلم يوجدوا.

فلما كان في شوال سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ظهر الشلمغاني، فقبض عليه الوزير ابن مقلّة وسجنه، وكبس داره فوجد فيها رقاعاً وكتباً ممن يدعي عليه أنه على مذهبه، يخاطبونه بما لا يخاطب به البشر بعضهم بعضاً، وفيها خطّ الحسين بن القاسم، فعرضت الخطوط لعرفها الناس، وعرضت على الشلمغاني فأقر أنها خطوطهم، وأنكر مذهبهم، وأظهر الإسلام، وتبرأ مما يقال فيه، وأخذ ابن أبي عون، وابن عبدوس معه، وأحضرا معه عند الخليفة، وأمرأ بصفه فامتنع، فلما أكرها مد ابن عبدوس يده وصفه، وأما ابن أبي عون فإنه مد يده إلى لحيته ورأسه، فارتعدت يده، فقيل لحيّة الشلمغاني ورأسه، ثم قال: إلهي، وسيدي ورازقي؛ فقال له الراضي: قد زعمت أنك لا تدعي الإلهية، فما هذا؟ فقال: وما علي من قول ابن أبي عون والله يعلم أنني ما قلتُ له إني إله قط!

فقال ابن عبدوس: إنه لم يدع الإلهية وإنما ادّعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر، مكان ابن روح، وكنتُ أظن أنه يقول ذلك تقيّة، ثم أحضروا عدة مرات، ومعهم الفقهاء والقضاة، والكتّاب، والقواد، وفي آخر الأيام أفتى الفقهاء بإباحة دمه، فصلب ابن الشلمغاني، وابن أبي عون، في (٢٩٢/٨) ذي القعدة فأحرقا بالنار.

وكان من مذهبه أنه إله الأكلهه يحق الحق، وأنه الأول القديم، الظاهر، الباطن، الرازق، التام، الموما إليه بكل معنى؛ وكان يقول: إن الله، سبحانه وتعالى يحل في كل شيء على قدر ما يحتمل، وإنه خلق الضد ليدل على المضدود، فمن ذلك إنه حلّ في آدم لما خلقه، وفي إبليس أيضاً، وكلاهما ضدّ لصاحبه لمضادته إياه في معناه، وإن الدليل على الحق أفضل من الحق، وإن الضد أقرب إلى الشيء من شبهه، وإن الله، عز وجل، إذا حلّ في جسد ناسوتي ظهر من القدرة والمعجزة ما يدل على أنه هو، وإنه لما غاب آدم ظهر اللاهوت في خمسة ناسوتية، كلما غاب منهم واحد ظهر مكانه آخر، وفي خمسة أبالسة أضداد لتلك الخمسة، ثم اجتمعت اللاهوتية في إدريس وإبليس، وتفرقت بعدهما كما تفرقت بعد آدم، واجتمعت في نوح، عليه السلام، وإبليس، وتفرقت عند غيبتهما، واجتمعت في هود وإبليس، وتفرقت بعدهما، واجتمعت في

ذكر عدة حوادث

المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب، طمعاً في أهلهم وأموالهم، وسير مع الباقيين بطريقاً يبلغهم مأمهم، وفتحها بالأسان، مستهل جمادى الآخرة، يوم الأحد، وملكوا سُميساط، وخرّبوا الأعمال، وأكثروا القتل، وقفلوا الأفاعيل الشنيعة، وصار أكثر البلاد في أيديهم.

وفيهما توفي عبد الملك بن محمد بن عدي أبو نعيم الفقيه الجرجاني الاسترأبادي، وأبو علي الروذباري الصوفي، واسمه محمد بن أحمد بن القاسم، وقيل توفي سنة ثلاث وعشرين [وثلاثمائة].

(٢٩٧/٨) وفيها توفي خير بن عبد الله النسّاج الصوفي من أهل سامراء، وكان من الأبدال، ومحمد بن علي بن جعفر أبو بكر الكنائي الصوفي المشهور، وهو من أصحاب الجُنَيْد، وأبو سعيد الخزاز (الخرّاز بالخاء المعجمة والراء والزاي). (٢٩٨/٨)

سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

ذكر قتل مرداويج

في هذه السنة قُتل مرداويج الديلمي صاحب بلاد الجبل وغيرها.

وكان سبب قتله أنه كان كثر الإساءة للأتراك، وكان يقول إن روح سليمان بن داود، عليه السلام، حلّت فيه، وإن الأتراك هم الشياطين والمرتدة، فإن قهرهم، وإلا أفسدوا؛ فنقلت وطأته عليهم وتمنوا هلاكه.

فلما كان ليلة الميلاد من هذه السنة، وهي ليلة الوقود، أمر بأن يُجمع الحطب من الجبال والنواحي، وأن يُجعل على جانبي الوادي المعروف بزندروذ كالمنابر والقباب العظيمة، ويُعمل مثل ذلك على الجبل المعروف بكريم كوه المشرف على أصبهان، من أسفل إلى أعلاه، بحيث إذا اشتعلت تلك الأحطاب يصير الجبل كله ناراً، وعمل مثل ذلك بجميع الجبال والتلال التي هناك، وأمر فُجِّع له النفط ومن يلعب به، وعمل من الشموع ما لا يحصى، وصيّد له من الغريبان والحداد زيادة على ألفي طائر ليجمع في أرجلها النفط وترسل لتطير بالنار في الهواء، وأمر بعمل سباط عظيم كان من جملة ما فيه: مائة قرس، ومائتان من البقر مشوية، صحاحاً، سوى ما شوي (٢٩٩/٨) من الغنم فإنها كانت ثلاثة آلاف رأس، سوى المطبوخ، وكان فيه من الدجاج وغيره من أنواع الطير زيادة على عشرة آلاف عدد، وعمل من ألوان الحلواء ما لا يُحَدِّد، وعزم على أن يجمع الناس على ذلك السباط، فإذا فرغوا قام إلى مجلس الشراب ويشعل النيران فيتفرّج.

في هذه السنة أرسل محمد بن ياقوت حاجب الخليفة رسولاً إلى أبي طاهر القُرْمُطِي يدعو إلى طاعة الخليفة، ليقرّه على ما بيده من البلاد، ويقلّده بعد ذلك ما شاء من البلدان، ويحسن إليه، ويلتمس منه أن يكفّ عن الحاجّ جميعهم، وأن يرّد الحجر الأسود إلى موضعه بمكة، فأجاب أبو طاهر إلى (٢٩٥/٨) أنه لا يتعرض للحاجّ، ولا يصيهم بمكرهه، ولم يجب إلى ردّ الحجر الأسود إلى مكة، وسأل أن يطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة في أعمال هجر، فسار الحاج إلى مكة وعاد ولم يتعرض لهم القرامطة.

وفيهما، في ذي القعدة، عزم محمد بن ياقوت على المسير إلى الأهواز لمحاربة عسكر مرداويج، فتقدّم إلى الجند الحجريّة والساجيّة بالتجهز للمسير معه، وبذل مالاّ يتجهزون به، فامتنعوا وتجمّعوا وقصدوا دار محمد بن ياقوت، فأغلظ لهم في الخطاب، فسبّوا، ورموا داره بالحجارة، ولما كان الغد قصدوا داره أيضاً، وأغلظوا له في الخطاب، وقتلوا من بداره من أصحابه، فرماهم أصحابه وغلماناه بالنشاب، فانصرفوا وبطلت الحركة إلى الأهواز.

وفيهما سار جماعة من أصحاب أبي طاهر القُرْمُطِي إلى نواحي تَوَجّ في مراكب وخرجوا منها إلى تلك الأعمال، فلما بعدوا عن المراكب أرسل الوالي في البلاد إلى المراكب وأحرقها، وجمع الناس وحارب القرامطة، فقتل بعضاً، وأسر بعضاً، فيهم ابن الغمر، وهو من أكابر دُعائهم، وسيرهم إلى بغداد، أيام القاهرة، فدخلوها مشهورين، وسُجنوا، وكان من أمرهم ما ذكرناه في خلع القاهرة.

وفيهما قتل القاهرة بالله إسحاق بن إسماعيل النويختي، وهو الذي أشار باستخلافه، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه، وقتل أيضاً أبا السرايين حمدان، وهو أصغر ولد أبيه؛ وسبب قتلها أنه أراد أن يشتري مغنيتين قبل أن (٢٩٦/٨) يلي الخلافة، فزاد عليه في ثمنهما، فحقد ذلك عليهما، فلما أراد قتلها استدعاهما للمنادمة، فترنّيا، وتطيّبا، وحضرا عنده، فأمر بالقاتل إلى بئر في الدار، وهو حاضر، فتضرّعا وبكيا، فلم يلتفت إليهما وألقاهما فيها وطمّهما عليهما.

وفيهما أحضر أبو بكر بن مُقسّم ببغداد في دار سلامة الحاجب، وقيل له إنه قد ابتدع قراءة لم تُعرف، وأحضر ابن مجاهد والقضاة والقراء وناظروه، فاعترف بالخطأ وتاب منه، وأُحرقت كتبه.

وفيهما سار الدُّمُسْتَقُ قرقاش في خمسين ألفاً من الروم، فنازل مَلْطِيَة وحصرها مدة طويلة، وهلك أكثر أهلها بالجوع، وضرب خميتين على إحداها صليب، وقال: من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليردّ عليه أهله وماله، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى، وله الأمان على نفسه ونبلغه مأمته؛ فانحاز أكثر

الخنجر وتركوا النصاب في الغلاف بغير حديد، فلفوه في المنديل كما جرت العادة لئلا ينكر الحال.

فلما دخل مرداويج الحمام فعل الخادم ما قيل له، وجاء خدام آخر، وهو أستاذ داره، فجلس على باب الحمام، فهجم الأتراك إلى الحمام، فقام أستاذ داره ليعنهم، وصاح بهم، فضربه بعضهم بالسيف فقطع يده، فصاح بالأسود وسقط، وسمع مرداويج الضجة، فبادر إلى الخنجر ليدفع به عن نفسه، فوجده مكسوراً، فأخذ سريراً من خشب كان يجلس عليه إذا اغتسل، فترس به باب الحمام من داخل، ودفع الأتراك الباب، فلم يقدروا على فتحه، فصعد بعضهم إلى السطح، وكسروا الجوامات، ورموه بالنشاب، فدخل البيت الحار، وجعل يتلففهم، ويحلف لهم على الإحسان، فسم يلتفتوا إليه، وكسروا باب الحمام ودخلوا عليه فقتلوه.

وكان الذين ألّبوا الناس عليه وشروعاً في قتله توزون، وهو الذي صار أمير العساكر ببغداد، وباروق، وابن بغراء، ومحمد بن ينال الترجمان، ووافقهم بحكم، وهو الذي ولي أمر العراق قبل توزون، وسيرد ذكر ذلك إن شاء الله تعالى. فلما قتلوه بادروا فاعلموا أصحابهم، فركبوا ونهبوا قصره وهربوا، ولم يعلم بهم الديلم لأن أكثرهم كانوا قد دخلوا المدينة ليلحق بهم وتخلّف الأتراك معه لهذا السبب.

فلما علم الديلم والجبل ركبوا في أثرهم، فلم يلحقوا منهم إلا نفرأ يسيراً وقت دوابهم، فقتلوه، وعادوا لينهبوا الخزائن، فرأوا العميد (٣٠٢/٨) قد ألقى النار فيها، فلم يصلوا إليها، فبقيت بحالها.

ومن عجب ما يحكى أن العساكر في ذلك اليوم لما رأوا غضب مرداويج قعدوا يتذكرون ما هم فيه معه من الجور، وشدة عتوه، وتمرده عليهم، ودخل بينهم رجل شيخ لا يعرفه منهم أحد، وهو راكب، فقال: قد زاد أمر هذا الكافر، واليوم تكفونوه ويأخذوه الله؛ ثم سار، فلحق الجماعة دهشة، ونظر بعضهم في وجوه بعض، ومرت الشيخ، فقالوا: المصلحة أننا نتبعه ونأخذ، ونستعيده الحديث، لئلا يسمع مرداويج ما جرى، فلا نلقى منه خيراً؛ فتهبوه فلم يروا أحداً.

وكان مرداويج قد تجرّب قبل أن يُقتل وعتا، وعمل له كرسياً من ذهب يجلس عليه، وعمل كراسي من فضة يجلس عليها أكابر قواده، وكان قد عمل تاجاً مرصعاً على صفة تاج كسرى، وقد عزم على قصد العراق والاستيلاء عليه، وبناء المدائن ودور كسرى ومسكنه، وأن يخاطب، إذا فعل ذلك بشاهنشاه، فأنه أمر الله وهو غافل عنه، واستراح الناس من شره، ونسأل الله تعالى أن يريح الناس من كل ظالم سريماً.

فلما كان آخر النهار ركب وحده، وغلمانته رجالة، وطاف بالسماط ونظر إليه وإلى تلك الأحطاب، فاستحقر الجميع لسعة الصحراء، فتضجّر وغضب، ولعن من صنعه ودبره، فخافه من حضر، فعاد ونزل ودخل خرّكة له فنام، فلم يجسر أحد [أن] يكلمه.

واجتمع الأمراء والقواد وغيرهم، وأرجفوا عليه، فمن قائل إنه غضب لكثرة لأنه كان خيلاً، ومن قائل إنه قد اعتراه جنون؛ وقيل بل أوجعه فؤاده؛ وقيل غير ذلك، وكادت الفتنة تتور.

وعرف العميد وزيره صورة الحال فأنه ولم يزل حتى استيقظ وعرفه ما الناس فيه، فخرج وجلس على الطعام، وأكل ثلاث لقم ثم قام ونهب الناس بالباقي، ولم يجلس للشراب، وعاد إلى مكانه، وبقي في معسكره بظاهر أصبهان ثلاثة أيام لا يظهر.

فلما كان اليوم الرابع تقدم بإسراج الدواب ليعود من منزله إلى داره بأصبهان، فاجتمع ببابه خلق كثير، وبقيت الدواب مع الغلمان، وكثر صهيلها ولعها، والغلمان يصيحون بها لتسكن من الشغب، وكانت مزدحمة فارفع من الجميع أصوات هائلة.

(٣٠٠/٨) وكان مرداويج نائماً، فاستيقظ، فصعد فنظر فرأى ذلك، فسأل فعرّف الحال، فآزاد غضباً، وقال: أما كفى من خرق الحرمة ما فعلوه في ذلك الطعام، وما أرجفوا به، حتى انتهى أمري إلى هؤلاء الكلاب؟ ثم سأل عن أصحاب الدواب، فقيل: إنها للغلمان الأتراك، وقد نزلوا إلى خدمتك، فأمر أن تحطّ السروج عن الدواب وتجعل على ظهور أصحابها الأتراك، ويأخذوا بأرسان الدواب إلى الأسطبلات، ومن امتنع من ذلك ضربه الديلم بالمقارع حتى يطيع، ففعلوا ذلك بهم وكانت صورة قيحة يأنف منها أحقر الناس.

ثم ركب هو بنفسه مع خاصته، وهو يتوعد الأتراك، حتى صار إلى داره قرب العشاء، وكان قد ضرب قبل ذلك جماعة من أكابر الغلمان الأتراك، فحقدوا عليه، وأرادوا قتله، فلم يجدوا أعواناً، فلما جرت هذه الحادثة انتهزوا الفرصة، وقال بعضهم: ما وجه صبرنا على هذا الشيطان؟ فانفقوا، وتحالفوا على القتل به، فدخل الحمام، وكان كورنكين يحرسه في خلواته وحمامه، فأمره ذلك اليوم أن لا يتبعه، فتأخر عنه مغضباً، وكان هو الذي يجمع الحرس، فلشدة غضبه لم يأمر أحداً أن يحضر حراسته؛ وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

وكان له أيضاً خادم أسود يتولى خدمته بالحمام، فاستمالوه، فمال إليهم، فقالوا للخادم ألا يحمل معه سلاحاً، وكانت العادة أن يحمل معه خنجراً طوله (٣٠١/٨) نحو ذراع ملفوفاً في منديل، فلما قالوا ذلك للخادم قال: ما أجسر؛ فانفقوا على أن كسروا حديد

ولما قُتل مرداويج اجتمع أصحابه الديلم والجيل وتشاوروا، وقالوا: إن بقينا بغير رأس هلكنا؛ فاجتمعوا على طاعة أخيه وشمكير بن زيار، وهو والد قابوس، وكان بالرّي، فحملوا تابوت مرداويج وساروا نحو الرّي، فخرج من بها من أصحابه مع أخيه وشمكير، فالتقوه على أربعة فراسخ مشاة، حفاة، وكان يوماً مشهوداً.

وأما أصحابه الذين كانوا بالأهواز وأعمالها فإنهم لما بلغهم الخبر كتموه، (٣٠٣/٨) وساروا نحو الرّي، فاطاعوا وشمكير أيضاً، واجتمعوا عليه.

ولما قُتل مرداويج كان ركن الدولة بن بويه رهينة عنده، كما ذكرناه، فبذل للموكلين مالاً فأطلقوه، فخرج إلى الصحراء ليفك قيوده، فأقبلت بغال عليها تسن، وعليها أصحابه وغلماؤه، فألقي التين، وكسر أصحابه قيوده، وركبوا الدواب، ونجوا إلى أخيه عماد الدولة بفارس.

ذكر ما فعله الأتراك بعد قتله

لما قتل الأتراك مرداويج هربوا واقتربوا فرقتين، ففرقة سارت إلى عماد الدولة بن بويه مع خُجج الذي سمله توزون فيما بعد، وسنذكره.

وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم، وهي أكثرها، فحبوا خراج الدّينور وغيرها، وساروا إلى النهروان، فكاتبوا الراضي في المسير إلى بغداد، فأذن لهم، فدخلوا بغداد، فظن الحجريّة أنها حيلة عليهم، فطلبوا رد الأتراك إلى بلد الجبل، فأمرهم ابن مقلّة بذلك، وأطلق لهم مالاً، فلم يرضوا به، وغضبوا، فكاتبهم ابن رائق، وهو بواسط، وله البصرة أيضاً، فاستدعاهم، فمضوا إليه، وقدم عليهم بجكم، وأمره بمكاتبة الأتراك والديلم من أصحاب مرداويج، فكاتبهم، فأتاه منهم عدة وافرة، فأحسن إليهم، وخلع عليهم، وإلى بجكم خاصة، وأمره أن يكتب إلى الناس بجكم الراضي، فأقام عنده، وكان من أمرها ما نذكره. (٣٠٤/٨)

ذكر حال وشمكير بعد قتل أخيه

وأما وشمكير فإنه لما قُتل أخوه، وقصدته العساكر التي كانت لأخيه، وأطاعته، أقام بالرّي، فكتب الأمير نصر بن أحمد الساماني إلى أمير جيشه بخراسان، محمد بن المظفر بن محتاج، بالمسير إلى قُوميس، وكتب إلى ماكان بن كالي، وهو بكرمان، بالمسير عنها إلى محمد بن المظفر، ليقتصدوا جُرجان والرّي.

فسار ماكان إلى الدامغان على المفازة، فتوجه إليه بانجين الديلمي، من أصحاب وشمكير، في جيش كثيف، واستمد ماكان محمد بن المظفر، وهو ببسطام، فأمدّه بجمع كثير أمرهم بترك

المحاربة إلى أن يصل إليهم، فخالقوه وحاربوا بانجين، فلم يتعاونوا، وتخاذلوا فهزمهم بانجين، فرجعوا إلى محمد بن المظفر، وخرجوا إلى جُرجان، فسار إليهم بانجين ليصدهم عنها، فأنصرفوا إلى نيسابور وأقاموا بها وجعلت ولايتها لماكان بن كالي وأقام بها، وكان ذلك آخر سنة ثلاث وعشرين وأول سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

ولما سار ماكان عن كرمان عاد إليها أبو علي محمد بن إلياس فاستولى عليها، وصفت له بعد حروب له مع جنود نصر بكرمان، وكان الظفر له أخيراً، وسنذكر باقي خبرهم سنة أربع وعشرين وثلاثمائة. (٣٠٥/٨)

ذكر القبض على ابني ياقوت

في هذه السنة، جمادى الأولى، قبض الراضي بالله على محمد والمظفر ابني ياقوت.

وكان سبب ذلك أن الوزير أبا علي بن مقلّة كان قد قلق لتحكم محمد ابن ياقوت في المملكة بأسرها، وأنه هو ليس له حكم في شيء، فسعى به إلى الراضي، وأدام السعاية، فبلغ ما أراه.

فلما كان خامس جمادى الأولى ركب جميع القواد إلى دار الخليفة على عادتهم، وحضر الوزير، وأظهر الراضي أنه يريد [أن] يقلّد جماعة من القواد أعمالاً، وحضر محمد بن ياقوت للحجبة، ومعه كاتبه أبو إسحاق القراريطي، فخرج الخدم إلى محمد بن ياقوت فاستدعوه إلى الخليفة، فدخل مبادراً، فعدلوا به إلى حجرة هناك، فحبسوه فيها، ثم استدعوا القراريطي فدخل فعدلوا به إلى حجرة أخرى، ثم استدعوا المظفر بن ياقوت من بيته، وكان مخموراً، فحضر، فحبسوه أيضاً.

وأنفذ الوزير أبو علي بن مقلّة إلى دار محمد يحفظها من النهب، وكان ياقوت حينئذ مقيماً بواسط، فلما بلغه القبض على ابنيه انحدر يطلب فارس ليحارب ابن بويه، وكتب إلى الراضي يستعطفه، ويسأله إنفاذ ابنيه ليساعده على حروبه، فاستبدّ ابن مقلّة بالأمر. (٣٠٦/٨)

ذكر حال البريدي

وفيها قوي أمر عبد الله البريدي، وعظم شأنه.

وسبب ذلك أنه كان ضامناً أعمال الأهواز، فلما استولى عليها عسكر مرداويج وانهمز ياقوت، كما ذكرناه، عاد البريدي إلى البصرة، وصار يتصرف في أسافل أعمال الأهواز، مضافاً إلى كتابة ياقوت، وسار إلى ياقوت فأقام معه بواسط.

وجوهم القيحة السمجة على مثال رب العالمين، وهيتكم الرذلة على هيته، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهين، والشعر القطط، والصعود إلى السماء، والنزول إلى الدنيا، تبارك الله عما يقول الظالمون والجاحدون، علواً كبيراً، ثم طعنكم على خيار الأئمة، ونسبتكم شيعة آل محمد ﷺ إلى الكفر والضلال، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة، وتشنيعكم على زوارها بالابتداع، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذي شرف، ولا نسب، ولا سبب برسول الله ﷺ، وتأمرون بزيارته، وتدعون له معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات، وما أغواه. (٣٠٩/٨)

وأمر المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً، وقتلاً وتبديداً، وليستعملن السيف في رقابكم، والنار في منازلكم ومحالكم.

ذكر قتل أبي العلاء بن حمدان

وفيها قتل ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان عمه أبا العلاء بن حمدان.

وسبب ذلك أن أبا العلاء سعيد بن حمدان ضمن الموصل وديار ربيعة سرّاً، وكان بها ناصر الدولة ابن أخيه أميراً، فسار عن بغداد في خمسين رجلاً، وأظهر أنه متوجه ليطلب مال الخليفة من ابن أخيه، فلما وصل إلى الموصل خرج ابن أخيه إلى تلقّيه، وقصد مخالفة طريقه، فوصل أبو العلاء، ودخل دار ابن أخيه، وسأل عنه فقيل: إنه خرج إلى لقائك، فقعد ينتظره، فلما علم ناصر الدولة بمقامه في الدار أنفذ جماعة من غلمان، فقبضوا عليه ثم أنفذ جماعة غيرهم فقتلوه.

ذكر مسير ابن مقلّة إلى الموصل وما كان بينه وبين ناصر الدولة

لما قتل ناصر الدولة عمه أبا العلاء واتصل خبره بالراضي عظم ذلك عليه وأنكره، وأمر ابن مقلّة بالمسير إلى الموصل، فسار إليها في العساكر (٣١٠/٨) في شعبان، فلما قاربها رحل عنها ناصر الدولة بن حمدان، ودخل الزوّزان، وتبعه الوزير إلى جبل التّنين، ثم عاد عنه وأقام بالموصل يجبي مالها.

ولما طال مقامه بالموصل احتال بعض أصحاب ابن حمدان على ولد الوزير، وكان ينوب عنه في الوزارة ببغداد، فبذل له عشرة آلاف دينار ليكتب إلى أبيه يستدعيه، فكتب إليه يقول إن الأمور بالحصرة قد اختلت، وإن تأخر لم يأمن حدوث ما يبطل به أمرهم،

فلما قبض على ابني ياقوت كتب ابن مقلّة إلى ابن البريدي يأمره أن يسكن ياقوتاً، ويعرفه أن الجند اجتمعوا وطلبوا القبض على ولديه، فقبضاً تسكيناً للجد، وأنهما يسيران إلى أيهما عن قريب، وأن الرأي أن يسير هو لفتح فارس، فسار ياقوت من واسط على طريق السّوس، وسار البريدي على طريق الماء إلى الأهواز، وكان إلى أخويه أبي الحسين وأبي يوسف ضمان السّوس وجنديسابور، وأدعيا أن دخل البلاد لسنة اثنتين وعشرين [وثلاثمائة] أخذ عسكر مرداويج، وأن دخل سنة ثلاث وعشرين [وثلاثمائة] لا يحصل منه شيء لأن نواب مرداويج، ظلموا الناس، فلم يبق لهم ما يزرعونه.

وكان الأمر بضد ذلك في الستين، فبلغ ذلك الوزير ابن مقلّة، فأنفذ نائباً له ليحقق الحال، فواطأ ابني البريدي، وكتب يصدقهم، فحصل لهم (٣٠٧/٨) بذلك مال عظيم، وقويت حالهم، وكان مبلغ ما أخذوه أربعة آلاف ألف دينار.

وأشار ابن البريدي على ياقوت بالمسير إلى أرجان لفتح فارس، وقام هو بجباية الأموال من البلاد، فحصل منها ما أراد.

فلما سار ياقوت إلى فارس في جموعه لقيه ابن بويه بباب أرجان، فانهزم أصحاب ياقوت، وبقي إلى آخرهم، ثم انهزم وسار ابن بويه خلفه إلى رامهرمز، وسار ياقوت إلى عسكر مكرم، وأقام ابن بويه برامهرمز إلى أن وقع الصلح بينهما.

ذكر فتنة الحنابلة ببغداد

وفيها عظم أمر الحنابلة، وقويت شوكتهم، وصاروا يكسبون من دور القواد العامة، وإن وجدوا نبذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، ومضى الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو، فأخبرهم، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة، فأرهبوا ببغداد.

فركب بدر الخرشني، وهو صاحب الشرطة، عاشر جمادى الآخرة، ونادى في جانبي بغداد، في أصحاب أبي محمد البريهاري الحنابلة، ألا يجتمع (٣٠٨/٨) منهم اثنان ولا تناظروا في مذهبهم ولا يصلي منهم إماماً إلا إذا جهر بيسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين، فلم يقد فيهم، وزاد شرهم وفتنتهم، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد، وكانوا إذا مرّ بهم شافعي المذهب أغروا به العميان، فيضربونه بعصيهم، حتى يكاد يموت.

فخرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم، ويوبّخهم باعتقاد التشبيه وغيره، فمنه تارة أنكم تزعمون أن صورة

وفيها جهز عماد الدولة بن بويه أخاه ركن الدولة الحسن إلى بلاد الجبل، وسير معه العساكر بعد عودته لما قُتل مرداويج، فسار إلى أصبهان، فاستولى عليها، وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير، وأقبل وشمكير وجهز العساكر نحوها، وبقي هو ووشمكير يتنازعان تلك البلاد، وهي أصبهان، وهمذان، وقم، وقاجان، وكرج، والرهي، وكنكور، وقزوين وغيرها.

وفيها، في آخر جمادى الآخرة، شغب الجند ببغداد، وقصدوا دار الوزير أبي علي بن مقله وابنه، وزاد شغبهم، فمنعهم أصحاب ابن مقله، فاحتال الجند ونقبوا دار الوزير من ظهرها، ودخلوها، وملكوها وهرب الوزير وابنه إلى الجانب الغربي، فلما سمع الساجية بذلك ركبوا إلى دار الوزير، ورفقوا بالجند فردّوهم، وعاد الوزير وابنه إلى منازلها.

وأتهم الوزير بإثارة هذه الفتنة بعض أصحاب ابن ياقوت، فأمر فتودي أن لا يقيم أحد منهم بمدينة السلام، ثم عاود الجند الشغب حادي عشر ذي الحجة، ونقبوا دار الوزير عدة نقوب، فقاتلهم غلمانهم ومنعهم، فركب صاحب الشرطة، وحفظ السجون حتى لا تفتح، ثم سكنوا من الشغب.

وفي هذه السنة أُطلق المظفر بن ياقوت من حبس الراضي بالله بشفاعه الوزير (٣١٣/٨) ابن مقله، وحلف للوزير أنه يواليه ولا ينحرف عنه، ولا يسعى له ولا لولده بمكره، فلم يفسله ولا لولده ووافق الحجرية عليه، فجرى في حقّه ما يكره.

وكان المظفر حقد على الوزير حين قُتل أخوه لأنه اتهمه أنه سمّه.

وفيها أرسل ابن مقله رسولا إلى محمد بن رائق بواسط، وكان قد قطع الحمل عن الخليفة، فطالبه بارتفاع البلاد واسط والبصرة وما بينهما، فأحسن إلى الرسل وردهم برسالة ظاهرة إلى ابن مقله مغالطة، وأخرى باطنة إلى الخليفة الراضي بالله وحده، مضمونها أنه إن استدعي إلى الحضرة وفوّضت إليه الأمور وتدير الدولة قام بكل ما يحتاج إليه من نفقات الخليفة وأرزاق الجند، فلما سمع الخليفة الرسالة لم يُعد إليه جوابها.

وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبدويه بن سدوس الهذلي من ولد عتبة بن مسعود بالكوفة، وهو من نيسابور، وإبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه النحوي، وله مصنفات، وهو من ولد المهلب بن أبي صفرة. (٣١٤/٨)

فانزعج الوزير لذلك، واستعمل على الموصل علي بن خلف بن طبّاب وماركرد الديلمي، وهو من الساجية، وانحدر إلى بغداد متصفا شوال.

فلما فارق الموصل عاد إليها ناصر الدولة بن حمدان فاقبل هو وماركرد الديلمي، فانهزم ابن حمدان، ثم عاد وجمع عسكرياً آخر، فالتقوا على نصيبين في ذي الحجة، فانهزم ماركرد إلى الرقة، وانحدر منها إلى بغداد، وانحدر أيضاً ابن طبّاب، واستولى ابن حمدان على الموصل والبلاد، وكتب إلى الخليفة يسأله الصفح، وأن يضمن البلاد، فأجيب إلى ذلك واستقرت البلاد عليه.

ذكر فتح جنوة وغيرها

في هذه السنة سَير القائم العلوي جيشاً من إفريقية في البحر إلى ناحية الفرنج، ففتحوا مدينة جنوة ومروا بسرذانية فأوقعوا بأهلها، وأحرقوا مراكب كثيرة، ومروا بقرقيسيا فأحرقوا مراكبها وعادوا سالمين. (٣١١/٨)

ذكر القرامطة

في هذه السنة خرج الناس إلى الحج، فلما بلغوا القادسية اعترضهم أبو ظاهر القرمطي ثاني عشر ذي القعدة، فلم يعرفوه، فقاتله أصحاب الخليفة، وأعانهم الحجاج، ثم التجؤوا إلى القادسية، فخرج جماعة من العلويين بالكوفة إلى أبي طاهر، فسألوه أن يكفّ عن الحجاج، فكفّ عنهم، وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد، فرجعوا، ولم يحجّ بهذه السنة من العراق أحد، وسار أبو طاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، قُتل الراضي بالله ولديه أبا جعفر وأبا الفضل ناحيتي المشرق والمغرب مما بيده، وكتب بذلك إلى البلاد.

وفيها، في ليلة الثاني عشر من ذي القعدة، وهي الليلة التي أوقع القرمطي بالحجاج، انقضت الكواكب من أول الليل إلى آخره انقضاضاً دائماً مسرفاً جداً لم يُعهد مثله.

وفيها مات أبو بكر محمد بن ياقوت، في الحبس، بثقت الدم، فأحضر القاضي والشهود، وعُرض عليهم، فلم يروا به أثر ضرب ولا خنق، (٣١٢/٨) وجذبوا شعره فلم يكن مسموماً، فسُلم إلى أهله، وأخذوا ماله وأملاكه ومعامله ووكلاءه وكل من يخالطه.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد، ومات من أهلها خلق كثير من الجوع، فعمز الناس عن دفنهم، فكانوا يجمعون الغرياء والفقراء في دار إلى أن يتهيأ لهم تكفينهم ودفنهم.

سنة أربع وعشرين وثلاثمائة

ذكر القبض على ابن مقلة ووزارة عبد الرحمن بن عيسى

لما عاد الرسل من عند ابن رائق بغير مال رأى الوزير أن يسير ابنه، فتجهّز، وأظهر أنه يريد الأهواز، فلما كان منتصف جمادى الأولى حضر الوزير دار الرازي لينفذ رسولا إلى ابن رائق يُعرفه عزمه على قصد الأهواز لئلا يستوحش لحركته فيحاط، فلما دخل الدار قبض عليه المظفر بن ياقوت والحجرية، وكان المظفر قد أطلق من محبسه على ما نذكره.

ووجهوا إلى الرازي يعرفونه ذلك، فاستحسن فعلهم، واختفى أبو الحسين بن أبي علي بن مقلة وسائر أولاده وحُرّمه وأصحابه، وطلب الحجرية والساجية من الرازي أن يستورز وزيراً، فردّ الاختيار إليهم، فأشاروا بوزارة علي بن عيسى، فأحضره الرازي للوزارة، فامتنع وأشار بأخيه عبد الرحمن فاستورزه، وسلم إليه ابن مقلة فصادره وصرف بدرأ الخُرشي عن الشرطة، ثم عجز عبد الرحمن عن تمشية الأمور وضاق عليه، فاستعفى [من] الوزارة. (٣١٥/٨)

ذكر القبض على عبد الرحمن ووزارة أبي جعفر الكرخي

لما ظهر عجز عبد الرحمن للرازي، ووقوف الأمور، قبض عليه وعلى أخيه علي بن عيسى، فصادره على مائة ألف دينار، وصادر أخاه عبد الرحمن بسبعين ألف دينار.

ذكر قتل ياقوت

وفي هذه السنة قُتل ياقوت بعسكر مُكرّم.

وكان سبب قتله ثقتّه بأبي عبد الله البريدي فخانه، وقابل إحسانه بالإساءة على ما نذكره.

وقد ذكرنا أن أبا عبد الله ارتسم بكتابة ياقوت مع ضمان الأهواز، فلما كتب إليه وثق به وعول على ما يقوله، وكان إذا قيل له شيء في أمره وخوف من شره يقول: إن أبا عبد الله ليس كما تظنون، لأنه لا يحدث نفسه بالإمرة، وقود المساك، وإنما غايته الكتابة. فاغتر بهذا منه.

وكان، رحمه الله، سليم القلب، حسن الاعتقاد، فلهذا لم يخرج عن طاعة الخليفة حين قبض على ولديه بل دام على الوفاء.

(٣١٦/٨) فأما حاله مع البريدي، فإنه لما عاد مهزوماً من عماد الدولة بن بويه إلى عسكر مُكرّم كتب إليه أبو عبد الله أن يقيم بعسكر مُكرّم ليستريح، ويقع التدبير بعد ذلك، وكان بالأهواز، وهو يكره الاجتماع معه في بلد واحد، فسمع ياقوت قوله وأقام، فأرسل إليه أخاه أبا يوسف البريدي يتوجّع له ويهتبه بالسلامة، وقرر

القاعدة على أن يحمل له أخوه من مال الأهواز خمسين ألف دينار، واحتج بأن عنده من الجند خلقاً كثيراً منهم البربر، والشفيعية، والنازوكية، والبلقية، والهارونية. كان ابن مقلة قد ميّز هذه الأصناف من عسكر بغداد وسيرهم إلى الأهواز ليخفّ عليهم مؤونتهم، فذكر أبو يوسف أن هؤلاء متى رأوا المال يخرج عنهم إليك شغبوا، ويحتاج أبو عبد الله إلى مفارقة الأهواز، ثم يصير أمرهم إلى أنهم يقصدونك ولا نعلم كيف يكون الحال؛ ثم قال له: إن رجالك مع سوء أثرهم يقنون بالقليل.

فصدقه ياقوت فيما قال: وأخذ ذلك المال وفرقه، وبقي عدة شهور لم يصله منه شيء، إلى أن دخلت سنة أربع وعشرين [وثلاثمائة] فضاقت الرزق على أصحاب ياقوت، واستغاثوا، وذكروا ما فيه أصحاب البريدي بالأهواز من السعة، وما هم فيه من الضيق.

وكان قد اتصل بياقوت طاهر الجيلي، وهو من كبار أصحاب ابن بويه، في ثمانمائة رجل، وهو من أرباب المراتب العالية، وممن يسمو إلى معالي الأمور.

وسبب اتصاله به خوفه من ابن بويه أن يقبض عليه خوفاً منه، فلما رأى حال ياقوت انصرف عنه إلى غربي تُستّر، وأراد أن يتغلّب على ماه البصرة، وكان معه أبو جعفر الصيمري، وهو كاتبه، فسمع به عماد الدولة بن بويه، فكبسه، فانهزم هو وأصحابه، واستولى ابن بويه على عسكره وغنمه، وأسر (٣١٧/٨) الصيمري، فأطلقه الخياط وزير عماد الدولة بن بويه، فمضى إلى كرمان، واتصل بالأمير معز الدولة أبي الحسن بن بويه وكان ذلك سبب إقباله.

فلما سار طاهر من عند ياقوت ضعفت نفسه، واستطال عليه أصحابه، فخافهم، وراسل البريدي، وعرفه ما هو فيه، وأعلمه أنَّ معوله على ما يدبره به، فأنفذ إليه البريدي يقول: إنَّ عسكرك قد فسدوا، وفيهم من ينبغي أن يخرج، والرأي أن يُنفذهم إليه ليستصلحهم، فإنه له أشغال تمنعه أن يحضر عنده، ولو حضر عنده، والجند مجتمعون، لم يتمكن من الانتصاف منهم لأنهم يظاهر بعضهم بعضاً، وإذا حضروا عنده بالأهواز متفرقين فعل بهم ما أراد ولا يمكنهم خلافه.

ففعل ذلك ياقوت، وأنفذ أصحابه إليه، فاختر منهم من أراد لنفسه، وردّ من لا خير فيه إلى ياقوت، بعد أن كسره وأسقط من أرزاقهم، فقبل ذلك لياقوت، فأشير عليه بمعالجة البريدي قبل أن يستفحل أمره، فلم يلتفت وقال: إنما جعلتهم عنده عدة لي.

وأحسن البريدي إلى من عنده من الجند، فقال أصحاب ياقوت له في ذلك، وطلبوا أرزاقهم التي قررها البريدي، فكتب إليه فلم ينفذ شيئاً، فراجع فلم ينفذ شيئاً، فسار ياقوت إليه جريداً لئلا يستوحش منه، فلما بلغه ذلك خرج إلى لقائه، وقبّل يده وقدمه،

وأنزله داره، وقام بين يديه، وقَدَمَ (٣١٨/٨) بنفسه الطعام ليأكل.

وكان قد وضع الجند على إثارة الفتنة، فحضرُوا الباب وشغبوا واستاثروا، فسأل ياقوت عن الخبر، فقبل له: إن الجند بالأبواب قد شغبوا، ويقولون قد اصطَلَحَ ياقوت والبريدي، ولا بد لنا من قتل ياقوت؛ فقال له البريدي: قد ترى ما دُفِعنا إليه، فأنجُ بنفسك وإلا قُتلنا جميعاً؛ فخرج من باب آخر خائفاً يترقب، ولم يفتح السريدي بكلمة واحدة، وعاد إلى عسكر مُكْرَمٍ؛ فكتب إليه البريدي يقول له: إن العسكر الذين شغبوا قد اجتهدتُ في إصلاحهم وعجزتُ عن ذلك، ولست أمتهم أن يقصدوك، ويبن عسكر مُكْرَمٍ والأهواز ثمانية فراسخ، والرأي أن تسأخِرَ إلى تسَترَ لتبعد عنهم، وهي حصينة؛ وكتب له على عامل تسَترَ بخمسين ألف دينار.

فسار ياقوت إليها، وكان له خادم اسمه مؤنس، فقال: أيها الأمير إن البريدي [يحزُّ مفاصلنا] ويفعل بنا ما ترى، وأنت مُعْتَر به، وهو الذي وضع الجند بالأهواز حتى فعلوا ذلك، وقد شرع في إبعادك بعد أن أخذ وجوه أصحابك، وقد أطلق لك ما لا يقوم بأود أصحابك الذين عندك، وما أعطاك ذلك أيضاً إلا حتى تتبَلَّغ به، وتضيق الأرزاق علينا، ويفنى ما لنا من دابة وُعْدَة فننصرف عنك على أقيح حال، فحينئذ يبلغ منك ما يريد، فاحفظ نفسك منه، ولا تأمنه، ولم يثق للجند الحجرية ببغداد شيخ غيرك، وقد كاتبوك فسير إليهم، فكل من ببغداد يسلم إليك الرئاسة، (٣١٩/٨) فإن فعلت، وإلا فسر بنا إلى الأهواز لتطرد البريدي عنها وإن كان أكثر منا، فانت أمير وهو كاتب.

فقال: لا تقل في أبي عبد الله هذا، فلو كان لي أخ ما زاد على محبته.

ثم إن ياقوتاً ظهر منه ما يدل على ضعفه وعجزه عن السريدي، فضعفت نفوس أصحابه، وصار كل ليلة يمضي منهم طائفة إلى البريدي، فإذا قيل ذلك لياقوت يقول: إلى كاتبي يمضون؛ فلم يزل كذلك حتى بقي في ثمانمائة رجل.

ثم إن الراضي قبض على المظفر بن ياقوت في جمادى الأولى، وسجنه أسبوعاً ثم أطلقه وسيره إلى أبيه، فلما اجتمع به بسَترَ أشار عليه بالمسير إلى بغداد، فإن دخلها فقد حصل له ما يريد، وإلا سار إلى الموصل وديار ربيعة فاستولى عليها، فلم يسمع منه، ففارقه ولده إلى البريدي، فأكرمه وجعل موكلين يحفظونه.

ثم إن البريدي خاف من عنده من أصحاب ياقوت أن يعاودوا الميل والعصية له، وينادوا بشعاره، فيهلك، فأرسل إلى ياقوت يقول له: إن كتاب الخليفة ورد علي يأمُرني أن لا أتركك تقيم بهذه البلاد، وما يمكنني مخالفة السلطان، وقد أمرني أن أخيرك إما أن تمضي إلى حضرته في خمسة عشر غلاماً، وإما إلى بلاد الجبل

(٣٢٠/٨) فلما وصل كتاب ياقوت يطلب المهلة أجابه أنه لا سبيل إلى المهلة، وسير العساكر من الأهواز إليه، فأرسل ياقوت الجواسيس لياتوه بالأخبار، فظفر البريدي بجاسوس، فأعطاه مالا على أن يعود إلى ياقوت ويخبره أن السريدي وأصحابه قد وافوا عسكر مُكْرَمٍ، ونزلوا في الدور متفرقين مطمئنين، فمضى الجاسوس وأخبر ياقوتاً بذلك، فأحضر مؤنساً وقال: قد ظفرنا بعدونا وكافر نعمتنا؛ وأخبره بما قال الجاسوس، وقال: نسير من تسَترَ العتمة، ونصبح عسكر مُكْرَمٍ وهم غارون، فنكسهم في الدور، فإن وقع البريدي فالله مشكور، وإن هرب اتبعناه.

فقال مؤنس: ما أحسن هذا إن صح وإن كان الجاسوس صادقاً! فقال ياقوت: إنه يحبني ويتولاني وهو صادق؛ فسار ياقوت فوصل إلى عسكر مُكْرَمٍ طلوع الشمس، فلم ير للعسكر أثراً، فغير البلد إلى نهر جارود، وخيم هناك، وبقي يومه ولا يرى لعسكر البريدي أثراً، فقال له مؤنس: إن الجاسوس كذبتا، وأنت تسمع كلام الكاذبين، وإنني خائف عليك.

فلما كان بعد العصر أقبلت عساكر البريدي، فنزلوا على فرسخ من ياقوت، وحجز بينهم الليل، وأصبحوا الغد، فكانت بينهم مناوشة، وأتعدوا للحرب الغد.

وكان البريدي قد سير عسكراً من طريق أخرى ليصيروا وراء ياقوت من حيث لا يشعر، فيكون كميناً يظهر عند القتال فهم ينتظرونه، فلما كان الموعد باكروا القتال، فاقتتلوا من بكرة إلى الظهر، وكان عسكر البريدي قد أشرف على الهزيمة مع كثرتهم، وكان مقدمهم أبا جعفر الحمائل. فلما جاء الظهر ظهر الكمين من وراء عسكر ياقوت، فردَّ إليهم مؤنساً في ثلاثمائة (٣٢١/٨) رجل، فقاتلهم وهم في ثلاثة آلاف رجل، فعاد مؤنس منهزماً، فحينئذ انتهزم أصحاب ياقوت، وكانوا سوى الثلاثمائة، خمسمائة، فلما رأى ياقوت ذلك نزل عن دابته، وألقى سلاحه، وجلس بقميص إلى جانب جدار رباط. ولو دخل الرباط واستتر فيه لخفي أمره، وكان أدركه الليل، فربما سلم، ولكن الله إذا أراد أمراً هياً أسبابه، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

فلما جلس مع الحائط غطى وجهه بكمه، ومد يده كأنه يتصدق ويستحيي [أن] يكشف وجهه، فمر به قوم من البربر من أصحاب البريدي فأنكروه، فأمروه بكشف وجهه فامتنع، فنخسه أحدهم

بمزراق معه، فكشف وجهه وقال: أنا ياقوت، فما تريدون مني؟ أحملوني إلى البريدي؛ فاجتمعوا عليه فقتلوه وحملوا رأسه إلى العسكر، وكتب أبو جعفر الحمّال كتاباً إلى البريدي على جناح طائر يستأذنه في حمل رأسه إلى العسكر، فأعاد الجواب بإعادة الرأس إلى الجثة وتكفينه ودفنه، وأسر غلامه مؤنس وغيره من قواده فقتلوا، وأرسل البريدي إلى تُسْتَر فحمل ما فيها لياقوت من جوار ومال وغير ذلك، فلم يظهر لياقوت غير اثني [عشر] ألف دينار، فحمل الجميع إليه، وقبض على المظفر بن ياقوت فبقي في حبس البريدي مدة ثم نفّذه إلى بغداد.

وتجبر البريدي بعد قتل ياقوت وعصى، وقد أطلنا في ذكر هذه الحادثة وإنما ذكرناها على طولها لما فيها من الأسباب المحرّضة على الاحتياط والاحتراز، فإنها من أولها إلى آخرها فيها تجارب وأمور يكثر وقوع مثلها. (٣٢٢/٨)

وبطلت الدواوين من ذلك الوقت، وبطلت الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور إنما كان ابن رائق وكتابه ينظران في الأمور جميعها، وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده، وصارت الأموال تحمّل إلى خزائهم فينصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون، وبطلت بيوت الأموال، وتغلب أصحاب الأطراف، وزالت عنهم الطاعة، ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم.

وأما باقي الأطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق؛ وخوزستان في يد البريدي؛ وفارس في يد عماد الدولة بن بويه؛ وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس؛ والرّي وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخيه مرداويج يتنازعان عليها؛ والموصل وديار بكر ومضرب وريجة في يد بني حمدان؛ ومصر والشام في يد محمد بن طُفّح؛ والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي، وهو الثاني منهم، ويلقب بأمر (٣٢٤/٨) المؤمنين؛ والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي؛ وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني؛ وطبرستان وخرّجّان في يد الدليم؛ والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القُرْمُطي.

ذكر مسير مُعز الدولة بن بويه إلى كرمان وما جرى عليه بها في هذه السنة سار أبو الحسين أحمد بن بويه، الملقب بمُعز الدولة، إلى كرمان.

وسبب ذلك أن عماد الدولة بن بويه وأخاه ركن الدولة لما تمكّنا من بلاد فارس وبلاد الجبل، وبقي أخوهما الأصغر أبو الحسين أحمد بغير ولاية يستبد بها، رأيا أن يسيراه إلى كرمان، ففعلاً ذلك، وسار إلى كرمان في عسكر ضخم شجعان، فلما بلغ السيرجان استولى عليها، وجبى أموالها وأنفقها في عسكره.

وكان إبراهيم بن سيمجور الدواني يحاصر محمد بن إلياس بن اليسع بقلعة هناك، بعساكر نصر بن أحمد صاحب خراسان، فلما بلغه إقبال معز الدولة سار عن كرمان إلى خراسان، ونفس عن محمد بن إلياس، فتخلص من القلعة، وسار إلى مدينة بسم، وهي على طرف المفازة بين كرمان وسجستان، فسار إليه أحمد بن بويه، فرحل من مكانه إلى سجستان بغير قتال، فسار أحمد إلى جيزفت، وهي قصبة كرمان، واستخلف على بسم بعض أصحابه.

بمزراق معه، فكشف وجهه وقال: أنا ياقوت، فما تريدون مني؟ أحملوني إلى البريدي؛ فاجتمعوا عليه فقتلوه وحملوا رأسه إلى العسكر، وكتب أبو جعفر الحمّال كتاباً إلى البريدي على جناح طائر يستأذنه في حمل رأسه إلى العسكر، فأعاد الجواب بإعادة الرأس إلى الجثة وتكفينه ودفنه، وأسر غلامه مؤنس وغيره من قواده فقتلوا، وأرسل البريدي إلى تُسْتَر فحمل ما فيها لياقوت من جوار ومال وغير ذلك، فلم يظهر لياقوت غير اثني [عشر] ألف دينار، فحمل الجميع إليه، وقبض على المظفر بن ياقوت فبقي في حبس البريدي مدة ثم نفّذه إلى بغداد.

وتجبر البريدي بعد قتل ياقوت وعصى، وقد أطلنا في ذكر هذه الحادثة وإنما ذكرناها على طولها لما فيها من الأسباب المحرّضة على الاحتياط والاحتراز، فإنها من أولها إلى آخرها فيها تجارب وأمور يكثر وقوع مثلها. (٣٢٢/٨)

ذكر عزل أبي جعفر ووزارة سليمان بن الحسن

لما تولّى الوزير أبو جعفر الكرخي، على ما تقدّم، رأى قلة الأموال وانقطاع المواد، فازداد عجزاً إلى عجزه، وضاق عليه الأمر.

وما زالت الإضافة تزيد، وطمع من بين يديه من المعاملين فيما عنده من الأموال، وقطع ابن رائق حمل واسط والبصرة، وقطع البريدي حمل الأهواز وأعمالها، وكان ابن بويه قد تغلب على فارس، فتحير أبو جعفر، وكثرت المطالبات عليه، ونقصت هيئته، واستر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته، فلما استر استوزر الراضي أبا القاسم سليمان بن الحسن، فكان في الوزارة كأي جعفر في وقوف الحال وقلة المال.

ذكر استيلاء ابن رائق على أمر العراق وتفرق البلاد

لما رأى الراضي وقوف الحال عنده ألجأته الضرورة إلى أن راسل أبا بكر محمد بن رائق، وهو بواسط، يعرض عليه إجابته إلى ما كان بذله من القيام بالنفقات وأرزاق الجند ببغداد، فلما أثناه الرسول بذلك فرح به، وشرع يتجهز للمسير إلى بغداد، فأنفذ إليه الراضي الساجية، وقلّده إمارة الجيش، وجعله (٣٢٣/٨) أمير الأمراء، وولاه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر، وأنفذ إليه الخلع.

وانحدر إليه أصحاب الدواوين والكتّاب والحجّاب، وتأخر الحجريّة عن الانحدار، فلما استقر الذين انحدروا إلى واسط قبض ابن رائق على الساجية سابع ذي الحجة، ونهب رحلهم ومالهم ودوابهم، وأظهر أنه إنما فعل ذلك لتوفر أرزاقهم على الحجريّة، فاستوحش الحجريّة من ذلك وقالوا: اليوم لهؤلاء وغداً لنا؛

فلما قارب جِيزَتْ أثناء رسول علي بن الزنجي المعروف بعلي (٣٢٥/٨) كلويه، وهو رئيس القفص، والبُلوص، وكان هو وأسلافه متغلبين على تلك الناحية، إلا أنهم يجاملون كل سلطان يرد البلاد، ويطيعونه، ويحملون إليه مالا معلوماً ولا يطؤون باسطه، فبذل لابن بويه ذلك المال، فامتنع أحمد من قبوله إلا بعد دخول جيزت، فتأخر علي بن كلويه نحو عشرة فراسخ، ونزل بمكان صعب المسلك، ودخل أحمد بن بويه جيزت واصطَلَح هو وعلي، وأخذ رهائنه وخطب له.

ذكر استيلاء ماكان على جرجان

وفي هذه السنة استولى ماكان بن كالي على جرجان.

وسبب ذلك أننا ذكرنا أولاً أن ماكان لما عاد من جرجان أقام بنيسابور، (٣٢٧/٨) وأقام بانجين بجرجان، فلما كان بعد ذلك خرج بانجين يلعب بالكرة، فسقط عن دابته فوقع ميتاً.

وبلغ خبره ماكان بن كالي، وهو بنيسابور، وكان قد استوحش من عارض جيش خراسان، فاحتج علي [بن] محمد بن المظفر صاحب الجيش بخراسان بأن بعض أصحابه قد هرب منه، وأنه قد يخرج في طلبه، فأذن له في ذلك، وسار عن نيسابور إلى أسفرايين، فأنفذ جماعة من عسكره إلى جرجان واستولوا عليها، فظهر العصيان على محمد بن المظفر، وسار من أسفرايين إلى نيسابور، مغافصةً، وبها محمد بن المظفر، فخذل محمداً أصحابه ولم يعاونوه، وكان في قلعة من العسكر غير مستعد له، فسار نحو سَرَخَس، وعاد ماكان من نيسابور خوفاً من اجتماع العساكر عليه، وكان ذلك في شهر رمضان سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

ذكر وزارة الفضل بن جعفر للخليفة

وفيهما كتب ابن رائق كتاباً عن الراضي إلى أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات يستدعيه ليجمعه وزيراً، وكان يتولى الخراج بمصر والشام؛ وظن ابن رائق أنه إذا استوزره جبي له أموال الشام ومصر، فقدم إلى بغداد، ونفذت له الخلع قبل وصوله، فلقيته بهيت، فلبسها ودخل بغداد، وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعاً. (٣٢٨/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قلد الراضي محمد بن طُغْج أعمال مصر مضافاً إلى ما بيده من الشام، وعزل أحمد بن كَيْغَلْغ عن مصر.

وفيهما انخسف القمر جميعه ليلة الجمعة لأربع عشرة خلت من ربيع الأول، وانخسف جميعه أيضاً لأربع عشرة خلت من شوال.

وفيهما قبض على أبي عبد الله بن عبدوس الجهشيارى، وصوره على ماتى ألف دينار.

وفيهما ولد عضد الدولة أبو شجاع فتأخسرو بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه بأصبهان.

فلما استقر الصلح وانفصل الأمر أشار بعض أصحاب ابن بويه عليه بأن يقصد علياً ويغدر به، ويسري إليه سرأً على غفلة، وأطمعه في أمواله، وهون عليه أمره بسكونه إلى الصلح، فأصغى الأمير أبو الحسين أحمد إلى ذلك، لحدائث سنة، وجمع أصحابه وأسرى نحوهم جريدة.

وكان علي محتزراً ومن معه قد وضعوا العيون على ابن بويه، فساعة تحرك بلغته الأخبار، فجمع أصحابه ورتبهم بمضيق على الطريق، فلما اجتاز بهم ابن بويه ثاروا به ليلاً من جوانبه، فقتلوا في أصحابه، وأسروا، ولم يفلت منهم إلا اليسير، ووقعت بالأمير أبي الحسين ضربات كثيرة، ووقعت ضربة منها في يده اليسرى فقطعتها من نصف الذراع، وأصاب يده اليمنى ضربة أخرى سقط [منها] بعض أصابعه، وسقط مثخناً بالخراج بين القتلى، وبلغ الخير بذلك إلى جيزت فهرب كل من كان بها من أصحابه.

ولما أصبح علي كلويه تتبع القتلى، فرأى الأمير أبا الحسين قد أشرف على التلف، فحملة إلى جيزت، وأحضر له الأطباء، وبالف في علاجه، واعتذر (٣٢٦/٨) إليه، وأنفذ رسله يعتذر إلى أخيه عماد الدولة بن بويه، ويعرفه غدر أخيه، ويذلل من نفسه الطاعة، فاجابه عماد الدولة إلى ما بذله، واستقر بينهما الصلح، وأطلق علي كل من عنده من الأسرى وأحسن إليهم.

ووصل الخبر إلى محمد بن إلياس بما جرى على أحمد بن بويه، فسار من سيجستان إلى البلد المعروف بجناية، فتوجه إليه ابن بويه، وواقعه ودامت الحرب بينهما عدة أيام، فانهزم ابن إلياس، وعاد أحمد بن بويه ظافراً، وسار نحو علي كلويه ليتقم منه، فلما قاربه أسرى إليه في أصحابه الرجالة، فكبسوا عسكره ليلاً في ليلة شديدة المطر، فأثروا فيهم وقتلوا ونهبوا وعادوا، وبقي ابن بويه باقي ليلته؛ فلما أصبح سار نحوهم، فقتل منهم عدداً كثيراً، وانهزم علي كلويه.

وكتب ابن بويه إلى أخيه عماد الدولة بما جرى له معه ومع ابن إلياس وهزيمته، فاجابه أخوه يأمره بالوقوف بمكانه ولا يتجاوز، وأنفذ إليه قائداً من قواده يأمره بالعود إليه إلى فارس،

وفيها توفي أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، المعروف بجحظة، وله شعر مطبوع، وكان عارفاً بفنون شتى من العلوم.

وفيها توفي أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد في شعبان، وكان إماماً في معرفة القراءة؛ وعبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس أبو الحسن الفقيه الظاهري، صاحب التصانيف المشهورة.

وفيها توفي عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل أبو بكر النيسابوري الفقيه الشافعي في ربيع الأول، وكان مولده سنة ثمان وثلثين ومائتين، وكان قد جالس الربيع بن سليمان والمزني ويونس بن عبد الأعلى أصحاب الشافعي، وكان إماماً. (٣٢٩/٨)

سنة خمس وعشرين وثلاثمائة

ذكر مسير الرازي بالله إلى حرب البريدي

في هذه السنة أشار محمد بن رائق على الرازي بالله ولائحدار معه إلى واسط ليُقرب من الأهواز، ويراسل أبا عبد الله بن البريدي، فإن أجاب إلى ما يطلب منه، وإلا قُرب قصده عليه، فأجاب الرازي إلى ذلك، وانحدر أول المحرم، فخالف الحجرية وقالوا: هذه حيلة علينا ليعمل بنا مثل ما عمل بالساجية؛ فلم يلتفت ابن رائق إليهم، وانحدر، وتبعه بعضهم، ثم انحدروا بعده، فلما صاروا بواسط اعترضهم ابن رائق، فأسقط أكثرهم، فاضطربوا وثاروا، فقاتلهم قتلاً شديداً، فانهزم الحجرية، وقتل منهم جماعة. ولما وصل المنهزمون إلى بغداد ركب لؤلؤ صاحب الشرطة ببغداد ولقيهم، فأوقع بهم، فاستروا، فنهبت دورهم، وقُبضت أموالهم وأملأهم، وقطعت أرزاقهم.

فلما فرغ منهم ابن رائق قتل من كان اعتقله من الساجية سوى صافي الخازن، وهارون بن موسى، فلما فرغ أخرج مضاربه ومضارب الرازي نحو الأهواز لإجلاء ابن البريدي عنها، فأرسل إليه في معنى تأخير الأموال، وما قد ارتكبه من الاستبداد بها وإفساد الجيوش وتزوين العصيان لهم، إلى غير (٣٣٠/٨) ذلك من ذكر معانيه، ثم يقول بعد ذلك: وإنه إن حمل الواجب عليه وسلم الجند الذي أفسدهم أقر على عمله، وإن أبى قوبل بما استحقه.

فلما سمع الرسالة جدد ضمان الأهواز، كل سنة بثلاثمائة وستين ألف دينار، يحمل كل شهر بقسطه، وأجاب إلى تسليم الجيش إلى من يؤمر بتسليمه إليه ممن يسير بهم إلى قتال ابن بويه، إذ كانوا كارهين للعود إلى بغداد لضيق الأموال بها واختلاف الكلمة، فكتب الرسل ذلك إلى ابن رائق، فعرضه على الرازي،

ثم إن جعفرأمر الجيش فطالبوه بمال يفرقه فيهم ليتجهزوا به إلى فارس، فلم يكن معه شيء، فشتموه وتهددوه بالقتل، فاستتر منهم ولجأ (٣٣١/٨) إلى البريدي، وقال له البريدي: ليس العجب ممن أرسلك، وإنما العجب منك كيف جئت بغير شيء، فلو أن الجيش ممالك لما ساروا إلا بمال ترضيهم به؛ ثم أخرجه ليلاً وقال: اتج بنفسك؛ فسار إلى بغداد خائباً.

ثم إن ابن مقاتل شرع مع ابن رائق في عزل الحسين بن علي النوبختي وزيره، وأشار عليه بالاعتضاد بالبريدي، وأن يجعله وزيراً له عوض النوبختي، وبذل له ثلاثين ألف دينار، فلم يجبه إلى ذلك، فلم يزل ابن مقاتل يسعى ويجتهد إلى أن أجابه إليه، فكان من أعظم الأسباب في بلوغ ابن مقاتل غرضه أن النوبختي كان مريضاً، فلما تحدث ابن مقاتل مع ابن رائق في عزله امتنع من ذلك، وقال له: علي حق كثير، هو الذي سعى لي حتى بلغت هذه الرتبة، فلا أبتغي به بديلاً.

فقال ابن مقاتل: فإن النوبختي مريض لا مطمع في عافيته. قال له ابن رائق: فإن الطبيب قد أعلمني أنه قد صلح وأكل الدُّرَّاج.

فقال: إن الطبيب يعلم منزلته منك وأنه وزير الدولة فلا يلتصاك في أمره بما تكره، ولكن أحضر ابن أخي النوبختي وصهره علي بن أحمد واسأله عنه سرّاً، فهو يخبرك بحاله. فقال: أفعل.

وكان النوبختي قد استتاب ابن أخيه هذا عند ابن رائق ليقوم بخدمته في مرضه، ثم إن ابن مقاتل فارق ابن رائق على هذا، واجتمع بعلي بن أحمد وقال له: قد قررت لك مع الأمير ابن رائق الوزارة، فإذا سألك عن عمك فاعلمه أنه على الموت ولا يجيء.

منه شيء لتتم لك الوزارة.

فساءه ذلك، وبلغه مقام إقبال في جيشه بحصن مهدي، فعظم عليه، وأتهم الكوفي بمحاباة البريدي، وأراد عزله، فمنعه عنه أبو بكر محمد بن مقاتل، وكان مقبول القول عند ابن رائق، فأمر الكوفي أن يكتب إلى البريدي يعاتبه على هذه الأشياء، ويأمره بإعادة عسكره من حصن مهدي، فكتب إليه في ذلك، فأجاب بأن (٣٣٤/٨) أهل البصرة يُخفون القرامطة، وابن يزداد عاجز عن حمايتهم، وقد تمسكوا بأصحابي لخوفهم.

وكان أبو طاهر الهجري قد وصل إلى الكوفة في الثالث والعشرين من ربيع الآخر، فخرج ابن رائق في عساكره إلى قصر ابن هُبيرة، وأرسل إلى القُرْمُطِي، فلم يستقر بينهم أمر، فعاد القُرْمُطِي إلى بلده؛ فعاد حينئذ ابن رائق وسار إلى واسط، فبلغ ذلك البريدي، فكتب إلى عسكره بحصن مهدي يأمرهم بدخول البصرة، وقتال من منعهم، وأنفذ إليهم جماعة من الحجرية معونة لهم، فأنفذ ابن يزداد جماعة من عنده ليمنعهم من دخول البصرة، فاقتتلوا بنهر الأمير، فانهزم أصحاب ابن يزداد، فأعادهم، وزاد في عدتهم كل متجند بالبصرة، واقتتلوا ثانياً فانهزموا أيضاً.

ودخل إقبال وأصحاب البريدي البصرة، وانهزم ابن يزداد إلى الكوفة، وقامت القيامة على ابن رائق، وكتب إلى أبي عبد الله البريدي يتهده، ويأمره بإعادة أصحابه من البصرة، فاعتذر ولم يفعل، وكان أهل البصرة في أول الأمر يريدون البريدي لسوء سيرة ابن يزداد.

ذكر استيلاء بجكم على الأهواز

لما وصل جواب الرسالة من البريدي إلى ابن رائق بالمغالطة عن إعادة جنده من البصرة، استدعى بدر الخرشني وخلع عليه، وأحضر بجكم أيضاً وخلع عليه، وسيّرهما في جيش، وأمرهم أن يقيموا بالجمادة، فبادر بجكم، ولم يتوقف على بدر ومن معه، وسار إلى السوس. (٣٣٥/٨)

فبلغ ذلك البريدي، فأخرج إليه جيشاً كثيفاً في ثلاثة آلاف مقاتل، ومقدمهم غلامه محمد المعروف بالحمال، فاقتتلوا بظاهر السوس، وكان مع بجكم مائتان وسبعون رجلاً من الأتراك، فانهزم أصحاب البريدي وعادوا إليه، فضرب البريدي محمداً الحمال وقال: انهزمت بثلاثة آلاف من ثلاثمائة؟ فقال له: أنت ظننت أنك تحارب يا قوتاً المدبر، قد جاءك خلاف ما عهدت؛ فقام إليه وجعل يلكمه بيديه.

ثم رجع عسكره، وأضاف إليهم من لم يشهد الواقعة، فبلغوا ستة آلاف رجل، وسيّرهم مع الحمال أيضاً، فالتقوا عند نهر تُسْتَر، فبادر بجكم فبهر النهر هو وأصحابه، فلما رآه أصحاب البريدي انهزموا من غير حرب، فلما رآهم أبو عبد الله البريدي ركب هو

فلما اجتمع ابن رائق بعلي بن أحمد سأل عن عمه، فغشي عليه، ثم لطم (٣٣٢/٨) برأسه ووجهه وقال: يقي الله الأمير ويعظم أجره فيه، فلا يعده الأمير إلا في الأموات! فاسترجع وحوقل وقال: لو فُدي بجميع ما أملكه لفعلت.

فلما حضر عنده ابن مقاتل قال له ابن رائق: قد كان الحق معك، وقد يسنا من النوبختي، فكتب إلى البريدي ليرسل من ينوب عنه في وزارتي؛ ففعل وكتب إلى البريدي بإنفاذ أحمد بن علي الكوفي لينوب عنه في وزارة ابن رائق، فأنفذه، فاستولى على الأمور، وتمشى حال البريدي بذلك، فإن النوبختي كان عارفاً به لا يتمشى معه محاله.

فلما استولى الكوفي وابن مقاتل شرعا في تضمين البصرة من أبي يوسف ابن البريدي، أخي أبي عبد الله، فامتنع ابن رائق من ذلك، فخدعاه إلى أن أجاب إليه، وكان نائب ابن رائق بالبصرة محمد بن يزداد، وقد أساء السيرة وظلم أهلها، فلما ضمنها البريدي حضر عنده بالأهواز جماعة من أعيان أهلها، فوعدهم ومثاهم، وذم ابن رائق عندهم بما كان يفعله ابن يزداد، فدعوا له.

ثم أنفذ البريدي غلامه إقبالاً في ألفي رجل، وأمرهم بالمقام بحصن مهدي إلى أن يأمرهم بما يفعلون، فلما علم ابن يزداد بهم قامت قيامته من ذلك وعلم أن البريدي يريد التغلب على البصرة، وإلا لو كان يريد التصرف في ضمانه لكان يكفيه عامل في جماعته.

وأمر البريدي بإسقاط بعض ما كان ابن يزداد يأخذه من أهل البصرة، حتى (٣٣٣/٨) اطمأنوا، واقتتلوا معه عسكر ابن رائق، ثم عطف عليهم، فعمل بهم أعمالاً تمنوا [معها] أيام ابن رائق وعدوها أعياداً.

ذكر ظهور الوحشة بين ابن رائق والبريدي والحرب بينهما

في هذه السنة أيضاً ظهرت الوحشة بين ابن رائق والبريدي، وكان لذلك عدة أسباب منها أن ابن رائق لما عاد من واسط إلى بغداد أمر بظهور من اختفى من الحجرين، فظهروا، فاستخدم منهم نحو ألفي رجل، وأمر الباقيين بطلب الرزق أين أرادوا، فخرجوا من بغداد، واجتمعوا بطريق خراسان، ثم ساروا إلى أبي عبد الله البريدي فأكرمهم وأحسن إليهم، وذم ابن رائق وعابه، وكتب إلى بغداد يعتذر عن قبولهم، ويقول: إنني خفتهم، فلماذا قبلتهم، وجعلهم طريقاً إلى قطع ما استقر عليه من المال، وذكر أنهم اتفقوا مع الجيش الذي عنده ومنعوه من حمل المال الذي استقر عليه، فأنفذ إليه ابن رائق يلزمه بإبعاد الحجرية، فاعتذر ولم يفعل.

ومنها أن ابن رائق بلغه ما ذمه به ابن البريدي عند أهل البصرة،

ذكر الفتنة بين أهل صقلية وأمرائهم

في هذه السنة خالف أهل جرجنت، وهي من بلاد صقلية، على أميرهم سالم بن راشد، وكان استعمله عليهم القائم العلوي، صاحب إفريقية، وكان سيء السيرة في الناس، فأخرجوا عامله عليهم، فسار إليهم سالم جيشاً كبيراً من أهل صقلية وإفريقية، فاقتتلوا أشد قتال، فهزمهم أهل جرجنت، وتبعهم فخرج إليهم سالم، ولقيهم، واشتد القتال بينهم وعظم الخطب، فانهزم أهل جرجنت في شعبان.

فلما رأى أهل المدينة خلاف أهل جرجنت خرجوا أيضاً على سالم، وخالفوه، وعظم شغبهم عليه، وقاتلوه في ذي القعدة من هذه السنة، فهزمهم، (٣٣٨/٨) وحصرهم بالمدينة، فأرسل إلى القائم بالمهدية يعرفه، أن أهل صقلية قد خرجوا عن طاعته، وخالفوا عليه، ويستمد، فأمده القائم بجيش، واستعمل عليهم خليل بن إسحاق، فساروا حتى وصلوا إلى صقلية، فرأى خليل من طاعة أهلها ما سره، وشكوا إليه من ظلم سالم وجوره، وخرج إليه النساء والصبيان يكون ويشكون، فرق الناس لهم، وبكوا لبكائهم.

وجاء أهل البلاد إلى خليل وأهل جرجنت، فلما وصلوا اجتمع بهم سالم، وأعلمهم أن القائم قد أرسل خليلاً لينتقم منهم بمن قتلوا من عسكره، فعادوا للخلاف، فشرع خليل في بناء مدينة على مرسى المدينة، وحصنها، ونقض كثيراً من المدينة، وأخذ أبوابها، وسماها الخالصة.

ونال الناس شدة في بناء المدينة، فبلغ ذلك أهل جرجنت، فخافوا، وتحقق عندهم ما قال لهم سالم، وحصنوا مدينتهم واستعدوا للحرب، فسار إليهم خليل في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وحصرهم، فخرجوا إليه، والتحم القتال، واشتد الأمر، وبقي محاصراً لهم ثمانية أشهر لا يخلو يوم من قتال، وجاء الشتاء فرحل عنهم في ذي الحجة إلى الخالصة فتزلها.

ولما دخلت سنة سبع وعشرين [وثلاثمائة] خالف على خليل جميع القلاع وأهل مآزر، كل ذلك بسعي أهل جرجنت، وبشوا سرايهم، واستفعل أمرهم، وكاتبوا ملك القسطنطينية يستجذونه، فامدهم بالمراكب فيها الرجال والطعام، فكتب خليل إلى القائم يستجده، فبعث إليه جيشاً كبيراً، فخرج خليل بمن معه من أهل صقلية فحاصروا قلعة أبي ثور، فملكوها (٣٣٩/٨) وكذلك أيضاً البلوط ملكوها، وحصروا قلعة ابلاطنوا، وأقاموا عليها حتى انقضت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

فلما دخلت سنة ثمان وعشرين رحل خليل عن ابلاطنوا، وحصر جرجنت وأطال الحصار، ثم رحل عنها وترك عليها عسكرياً يحاصرها، مقدّمهم أبو خلف بن هارون، فدام الحصار إلى سنة

واخوته ومن يلزمه في السفن، فأخذ معه ما بقي عنده من المال، وهو ثلاثمائة ألف دينار، ففرقت السفينة بهم، فأخرجهم الغواصون وقد كادوا يغرقون، وأخرج بعض المال، وأخرج باقي المال ليحكم، وصلوا إلى البصرة، فأقاموا بالأبلة، وأعدوا المراكب للهرب إن انهزم إقبال.

وسير أبو عبد الله البريدي غلامه إقبالاً إلى مطارا وسير معه جمعاً من فتیان البصرة، فالتقوا بمطارا مع أصحاب ابن رائق، فانهزمت الرائيّة، وأسر منهم جماعة، فأطلقهم البريدي، وكتب إلى ابن رائق يستعطفه، وأرسل إليه جماعة من أعيان أهل البصرة، فلم يجبه، وطلبوا منه أن، يحلف لأهل البصرة (٣٣٦/٨) ليكونوا معه، ويساعدوه، فامتنع وحلف لئن ظفر بها ليحرقنها، ويقتل كل من فيها، فازدادوا بصيرة في قتاله.

واطمأن البريديون بعد انهزام عسكر ابن رائق، وأقاموا حيثئذ بالبصرة، واستولى بحكم على الأهواز، فلما بلغ ابن رائق هزيمة أصحابه جهز جيشاً آخر وسيره إلى البر والماء، فالتقى عسكره الذي على الظهر مع عسكر البريدي، فانهزم الرائيّة، وأما العسكر الذي في الماء فإنهم استولوا على الكلاء، فلما رأى ذلك أبو عبد الله البريدي ركب في السفن وهرب إلى جزيرة أوال، وترك أخاه أبا الحسين بالبصرة في عسكر يحمها، فخرج أهل البصرة مع أبي الحسين لدفع عسكر ابن رائق عن الكلاء، فقاتلوه حتى أجلوهم عنه.

فلما اتصل ذلك بابن رائق سار بنفسه من واسط إلى البصرة على الظهر، وكتب إلى بحكم ليلحق به، فأتاه فيمن عنده من الجند، فنقدوا وقاتلوا أهل البصرة، فاشتد القتال، وحامى أهل البصرة، وشتموا ابن رائق، فلما رأى بحكم ذلك هاله، وقال لابن رائق: ما الذي عملت بهؤلاء القوم حتى أحوجتهم إلى هذا؟ فقال: والله لا أدري! وعاد ابن رائق وبحكم إلى معسكرهما.

وأما أبو عبد الله البريدي فإنه سار من جزيرة أوال إلى عماد الدولة ابن بويه، واستجار به، وأطعمه في العراق، وهون عليه أمر الخليفة وابن رائق، فنقد معه أخاه معز الدولة على ما نذكره.

فلما سمع ابن رائق بإقبالهم من فارس إلى الأهواز سير بحكم إليها، (٣٣٧/٨) فامتنع من المسير إلا أن يكون إليه الحرب والخراج، فاجابه إلى ذلك، وسيره إليها.

ثم إن جماعة من أصحاب البريدي قصدوا عسكر ابن رائق ليلاً، فصاحوا في جوانبه، فانهزموا، فلما رأى ابن رائق ذلك أمر بإحراق سواده وآلاته ثلاثاً بغيته البريدي، وسار إلى الأهواز جريده، فأشار جماعة على بحكم بالقبض عليه فلم يفعل، وأقام ابن رائق أياماً، وعاد إلى واسط، وكان باقي عسكره قد سبقوه إليها.

بجكم إلى واسط فأقام بها، واعتقل من معه من الأهوازيين، وطالبهم بخمسين ألف دينار، وكان فيهم أبو زكريا يحيى بن سعيد السوسي.

قال أبو زكريا: أردت أن أعلم ما في نفس بجكم، فأنفذت إليه أقول: عندي نصيحة، فأحضرني عنده، فقلت: أيها الأمير أنت تحدث نفسك بمملكة الدنيا، وخدمة الخلافة، وتدبير الممالك، كيف يجوز أن تعتقل قوماً منكوبين قد سلبوا نعمتهم وتطالبهم بمال وهم في بلد غربة، وتأمر بتعذيبهم حين تجعل أمس طشت فيه نار على بطن بعضهم؟ أما تعلم أن هذا إذا سُمع عنك استوحش منك الناس وعاداك من لا يعرفك؟ وقد أنكرت على ابن رائق إيحاشه لأهل البصرة، أترأه أساء إلى جميعهم؟ لا والله، بل أساء إلى بعضهم، فأبغضوه كلهم، وعوام بغداد لا تحتفل أمثال هذا. وذكرته له فصل مرداويج، فلما سمع ذلك قال: قد صدقتني، ونصحتني، ثم أمر بإطلاقهم.

ولما استولى ابن بويه والبريدي على عسكر مكرم سار أهل الأهواز إلى البريدي يهتونه، وفيهم طيب حاذق، وكان البريدي يُحِمُّ بِحُمَى الرَّبْعِ، فقال لذلك الطيب: أما ترى يا أبا زكريا حالي وهذه الحمى؟ فقال له: خِلْطُ، يعني في المأكول، فقال له: أكثر من هذا التخليط، قد رهجت الدنيا.

ثم ساروا إلى الأهواز فأقاموا بها خمسة وثلاثين يوماً، ثم حرب البريدي من ابن بويه إلى الباسيان، فكاتبه بعتب كثير، ويذكر غدره في هربه.

(٣٤٢/٨) وكان سبب هربه أن ابن بويه طلب عسكره الذين بالبصرة ليسيروا إلى أخيه ركن الدولة بأصبهان، معونة له على حرب وشمكير، فأحضر منهم أربعة آلاف، فلما حضروا قال لمعز الدولة: إن أقاموا وقع بينهم وبين الديلم فتنة، والرأي أن يسيروا إلى السوس ثم يسيروا إلى أصبهان؛ فأذن له في ذلك، ثم طالبه بأن يحضر عسكره الذين يحصن مهدي ليسيرهم في الماء إلى واسط، فخاف البريدي أن يعمل به مثل ما عمل هو بياقوت.

وكان الديلم يهينونه ولا يلتفتون إليه، فهرب وأمر جيشه الذي بالسوس فساروا إلى البصرة، وكاتب معز الدولة بالافراج له عن الأهواز حتى يتمكن من ضمانه، فإنه كان قد ضمن الأهواز والبصرة من عماد الدولة بن بويه، كل سنة بثمانية عشر ألف ألف درهم، فرحل عنها إلى عسكر مكرم خوفاً من أخيه عماد الدولة لئلا يقول له: كسرت المال؛ فانتقل البريدي إلى بناباذ، وأنفذ خليفته إلى الأهواز، وأنفذ إلى معز الدولة يذكر له حاله وخوفه منه، ويطلب أن ينتقل إلى السوس من عسكر مكرم ليعده عنه ويأمن بالأهواز.

تسع وعشرين وثلاثمائة، فسار كثير من أهلها إلى بلاد الروم، وطلب الباقون الأمان، فأمتهم على أن يتزلوا من القلعة، فلما تزلوا غدر بهم وحملهم إلى المدينة.

فلما رأى أهل سائر القلاع ذلك أطاعوا، فلما عادت البلاد الإسلامية إلى طاعته رحل إلى إفريقية في ذي الحجة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وأخذ معه وجوه أهل جرجنت، وجعلهم في مركب، وأمر بنقبه وهو في لجة البحر ففرقوا.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرجت الفرنج إلى بلاد الأندلس التي للمسلمين، فنهبوا وقتلوا وسبوا، وممن قُتل من المشهورين جحاف بن يمين قاضي بلنسية.

وفيها توفي عبد الله بن محمد بن سفيان أبو الحسين الجزاز النحوي في ربيع الأول، وكان صاحب تلعياً والمبرد، وله تصانيف في علوم القرآن. (٣٤٠/٨)

سنة ست وعشرين وثلاثمائة

ذكر استيلاء معز الدولة على الأهواز

في هذه السنة سار معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه إلى الأهواز وتلك البلاد، فملكها واستولى عليها.

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من مسير أبي عبد الله البريدي إلى عماد الدولة، كما سبق، فلما وصل إليه أطمعه في العراق والاستيلاء عليه، فسير معه أخاه معز الدولة إلى الأهواز، وترك أبو عبد الله البريدي ولديه: أبا الحسن محمداً، وأبا جعفر الفياض عند عماد الدولة بن بويه رهينةً وساروا، فبلغ الخبر إلى بجكم بنزولهم أرجان، فسار لحربهم، فانهزم من بين أيديهم.

وكان سبب الهزيمة أن المطر اتصل أياماً كثيرة، فغطت أوتار قسي الأتراك، فلم يقدروا على رمي الشباب، فعاد بجكم وأقام بالأهواز، وجعل بعض عسكره بعسكر مكرم، فقاتلوا معز الدولة بها ثلاثة عشر يوماً، ثم انهزموا إلى تستر، فاستولى معز الدولة على عسكر مكرم؛ وسار بجكم إلى تستر من الأهواز، وأخذ معه جماعة من أعيان الأهواز، وسار هو وعسكره إلى واسط، وأرسل من الطريق إلى ابن رائق يعلمه الخبر، ويقول له: إن العسكر محتاج إلى المال، فإن كان معك مائتا ألف دينار فتقيم بواسط (٣٤١/٨) حتى نصل إليك، وتنفق فيهم المال، وإن كان المال قليلاً فالرأي أنك تعود إلى بغداد لئلا يجري من العسكر شغب.

فلما بلغ الخبر إلى ابن رائق عاد من واسط إلى بغداد، ووصل

انهزم عسكرهم خافوا، وضعفت نفوسهم، إلا أنه لما رأى عسكره سالماً لم يقتل منهم أحد ولا غرق طاب قلبه.

وكانت نية بجكم إذلال البريدي وقطعه عن ابن رائق، ونفسه معلقة بالحضرة، فأرسل ثاني يوم الهزيمة إلى البريدي يعتذر إليه مما جرى، ويقول له: أنت بدأت وتعرضت بي، وقد عفوت عنك وعن أصحابك، ولو تبعتم لغرق وقُتل أكثرهم، وأنا أصلحك على أن أقلدك واسطاً إذا ملكت الحضرة، وأصاهرك؛ فسجد البريدي شكراً لله تعالى، وحلف لبجكم وتصلحاً، وعاد إلى واسط، وأخذ في التدبير على ابن رائق، والاستيلاء على الحضرة ببغداد. (٣٤٥/٨)

ذكر قطع يد ابن مقله ولسانه

في هذه السنة، في منتصف شوال، قطعت يد الوزير أبي علي بن مقله.

وكان سبب قطعها أن الوزير أبا الفتح بن جعفر بن الفرات لما عجز عن الوزارة وسار إلى الشام استوزر الخليفة الراضي بالله أبا علي بن مقله، وليس له من الأمر شيء إنما الأمر جميعه إلى ابن رائق، وكان ابن رائق قبض أموال ابن مقله وأملاكه، وأملاك ابنه، فخطبه فلم يردّها، فاستمال أصحابه، وسألهم مخاطبته في ردها، فوعده، فلم يقصروا حاجته، فلما رأى ذلك سعى بابن رائق، فكتب بجكم يطعمه في موضع ابن رائق، وكتب إلى وشمكير يمثل ذلك، وهو بالري، وكتب إلى الراضي يشير عليه بالقبض على ابن رائق وأصحابه ويضمن أنه يستخرج منه ثلاثة آلاف ألف دينار، وأشار عليه باستدعاء بجكم وإقامته مقام ابن رائق، فأطعمه الراضي وهو كاره لما قاله، فعجل ابن مقله وكتب إلى بجكم يعرفه إجابة الراضي، ويستحثه على الحركة والمجيء إلى بغداد.

وطلب ابن مقله من الراضي أن يتنقل ويقيم عنده بدار الخلافة إلى أن يتم على ابن رائق ما اتفقا عليه، فأذن له في ذلك، فحضر متكرراً آخر ليلة من رمضان، وقال: إن القمر تحت الشعاع، وهو يصلح للأسرار؛ فكان عقوبته حيث نظر إلى غير الله أن ذاع سرّه وشهر أمره، فلما حصل بدار الخليفة لم يوصله الراضي إليه، واعتقله في حجرة، فلما كان الغد أنفذ إلى ابن رائق يعرفه الحال، ويعرض عليه خط ابن مقله، فشكر الراضي، وما زالت الرسل تتردد بينهما في معنى ابن مقله إلى منتصف شوال، فأخرج ابن مقله من محبسه، وقُطعت (٣٤٦/٨) يده ثم عولج فبراً، فعاد يكتب الراضي، ويخطب الوزارة، ويذكر [أن] قطع يده لم يمنعه من عمله، وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب.

فلما قرب بجكم من بغداد سمع الخدم يتحدثون بذلك، فقال: إن وصل بجكم فهو يستخلصني، وأكافئ ابن رائق؛ وصار يدعو

فقال له أبو جعفر الصيمري وغيره: إن البريدي يريد أن يفعل بك كما فعل بياقوت، ويفرق أصحابك عنك، ثم يأخذك فيتقرب بك إلى بجكم وابن رائق، ويستعيد أذاك لأجلك؛ فامتنع معز الدولة من ذلك.

وعلم بجكم بالحال، فأنفذ جماعة من أصحابه، فاستولوا على السوس وجنديسابور، وبقيت الأهواز بيد البريدي، ولم يبق بيد معز الدولة من كور الأهواز إلا عسكر مكرم، فاشتد الحال عليه، وفارقه بعض جنده، وأرادوا الرجوع إلى فارس، فمنعهم أصفهوسد وموسى قياده، وهما (٣٤٣/٨) من أكابر القواد، وضمننا لهم أرزاقهم ليقبضوا شهرًا، فأقاموا وكتب إلى أخيه عماد الدولة يعرفه حاله، فأنفذ له جيشاً فقوي بهم، وعاد فاستولى على الأهواز، وهرب البريدي إلى البصرة واستقر فيها فاستقر ابن بويه بالأهواز.

وأقام بجكم بواسط طامعاً في الاستيلاء على بغداد ومكان ابن رائق، ولا يظهر له شيئاً من ذلك، وأنفذ ابن رائق علي بن خلف بن طياب إلى بجكم ليسير معه إلى الأهواز ويخرج منها ابن بويه، فإذا فعل ذلك كانت ولايته لبجكم والخراج إلى علي بن خلف، فلما وصل علي إلى بجكم بواسط استوزره بجكم، وأقام معه، وأخذ بجكم جميع مال واسط.

ولما رأى أبو الفتح الوزير ببغداد إدار الأمور أطمع ابن رائق في مصر والشام، وصاهره، وعقد بينه وبين ابن طنج عهداً وصهرًا، وقال لابن رائق: أنا أجبي إليك مال مصر والشام إن سيرتني إليهما، فأمره بالتجهز للحركة، ففعل وسار أبو الفتح إلى الشام في ربيع الآخر.

ذكر الحرب بين بجكم والبريدي والصلح بعد ذلك

لما أقام بجكم بواسط وعظم شأنه خافه ابن رائق لأنه ظن ما فعله بجكم من التغلب على العراق، فراسل أبا عبد الله البريدي وطلب منه الصلح على بجكم، فإذا انهزم تسلم البريدي واسطاً وضمناها بستمائة ألف دينار في السنة (٣٤٤/٨) على أن ينفذ أبو عبد الله عسكرًا.

فسمع بجكم بذلك، فخاف واستشار أصحابه في الذي يفعله، فأشاروا عليه بأن يتدنئ بأبي عبد الله البريدي، وأن لا يهجم إلى حضرة الخلافة، ولا يكشف ابن رائق إلا بعد الفراغ من البريدي، فجمع عسكره، وسار إلى البصرة يريد البريدي، فسير أبو عبد الله جيشاً بلغت عدتهم عشرة آلاف رجل، عليهم غلامه أبو جعفر محمد الحمّال، فالتقوا واقتلوا، فانهزم عسكر البريدي، ولم يتبعهم بجكم بل كف عنهم.

وكان البريديون بمطارا ينتظرون ما ينكشف من الحال، فلما

فلما رأى ابن رائق ذلك عاد إلى بغداد واستتر، ونزل بجكم بدار مؤنس، واستقر أمره ببغداد، فكانت مدة إمارة أبي بكر بن رائق سنة واحدة وعشرة أشهر وستة عشر يوماً، ومن مكر بجكم أنه كان يرأس ابن رائق على لسان أبي زكريا يحيى بن سعيد السوسي، قال أبو زكريا: أشرت على بجكم أنه لا يكشف ابن رائق، فقال، لم أشرت بهذا؟ فقلت له: إنه قد كان له عليك رئاسة وإمرة، وهو أقوى منك وأكثر عدداً، والخليفة معه، والمال عنده كثير؛ فقال: أما كثرة رجاله فهم جوز فارغ، وقد بلوتهم، فما أبالي بهم قُلُوا أم كثروا، وأما كون الخليفة معه، فهذا لا يضرني عند أصحابي؛ وأما قلة المال معي فليس الأمر كذلك، قد وفيت أصحابي مستحقهم، ومعني ما يستظهر به، فكم تظن مبلغه؟ فقلت: لا أدري! فقال: على كل حال؛ فقلت: مائة ألف درهم؛ فقال: غفر الله لك، معي خمسون ألف دينار لا احتاج إليها.

فلما استولى على بغداد قال لي يوماً: أتذكر إذ قلت لك: معي خمسون ألف دينار؟ والله لم يكن معي غير خمسة آلاف درهم؛ فقلت: هذا يدل على قلة ثقتك بي؛ قال: لا ولكنك كنت رسولي إلى ابن رائق، فإذا علمت قلة المال معي ضعفت نفسك فطمع العدو فينا، فأردت أن تمضي إليه بقلب قوي، فتكلم بما تخلع [به] قلبه وتضعف نفسه. قال: فنجيت من مكروه وعقله. (٣٤٩/٨)

ذكر استيلاء لشكري على أذربيجان وقلعه

وفيها تغلب لشكري بن مردى على أذربيجان، ولشكري هذا أعظم من الذي تقدم ذكره، فإن هذا كان خليفة وشمكير على أعمال الجبل، فجمع مالا ورجالا وسار إلى أذربيجان، وبها يومئذ ديسم بن إبراهيم الكردي، وهو من أصحاب ابن أبي الساج، فجمع عسكرياً وتحارب هو ولشكري، فانهزم ديسم، ثم عاد وجمع، وتصافوا مرة ثانية، فانهزم أيضاً واستولى لشكري على بلاده، إلا أردبيل، فإن أهلها امتنعوا بها لحصانتها، ولهم بأس ونجدة، وهي دار المملكة بأذربيجان، فراسلهم لشكري، ووعدهم الإحسان لما كان يلحقهم من سوء سيرة الديلم مع بلاد الجبل همدان وغيرها، فحصرهم وطال الحصار، ثم صعد أصحابه السور ونقبوه أيضاً في عدة مواضع ودخلوا البلد.

وكان لشكري يدخله نهاراً، ويخرج منه ليلاً إلى عسكره، فبادر أهل البلد وأصلحوه ثلث السور، وأظهروا العصيان، وعادوا الحرب، فندم على التفريط وإضاعة الحزم؛ فأرسل أهل أردبيل إلى ديسم يعرفونه الحال ويواعدونه يوماً يجيء فيه ليخرجوا فيه إلى قتال لشكري، ويأتي هو من ورائه، ففعل وسار نحوهم، وظهروا يوم الموعد في عدد كثير، وقاتلوا لشكري، وأناه ديسم من خلف ظهره، فانهزم أقيح هزيمة، وقُتل من أصحابه خلق كثير، وانحاز إلى

على من ظلمه وقطع يده، فوصل خبره إلى الراضي وإلى ابن رائق، فأمرًا بقطع لسانه، ثم نُقل إلى مجبس ضيق، ثم لحقه ضرب في الحبس، ولم يكن عنده من يخدمه، فآل الحال إلى أن كان يستقي الماء من البئر بيده اليسرى ويمسك الجبل بفيه، ولحقه شقاء شديد إلى أن مات ودُفن بدار الخليفة، ثم إن أهله سالوا فيه، فنبش وسُلم إليهم، فدفنوه في داره، ثم نبش فنُقل إلى دار أخرى.

ومن العجب أنه ولي الوزارة ثلاث دفعات، ووزر لثلاثة خلفاء، وسافر ثلاث سفرات: اثنتين متتابعاً إلى شيراز، وواحدة في وزارته إلى الموصل، ودُفن بعد موته ثلاث مرات وخُص به من خدمه ثلاثة.

ذكر استيلاء بجكم على بغداد

وفي هذه السنة دخل بجكم بغداد، ولقي الراضي، وقُلبد إمرة الأمراء مكان ابن رائق، ونحن نذكر ابتداء أمر بجكم، وكيف بلغ إلى هذه الحال، فإن بعض أمره قد تقدم، وإذا افترق لم يحصل الغرض منه. (٣٤٧/٨)

كان بجكم هذا من غلمان أبي علي العارض، وكان وزيراً لماكان بن كالي الديلمي، فطلبه منه ماكان، فوهبه له، ثم إنه فارق ماكان مع من فارقوه من أصحابه والتحق بمرداويج، وكان في جملة من قتله، وسار إلى العراق، واتصل بابن رائق، وسيّره إلى الأهواز فاستولى عليها وطرده البريدي عنها.

ثم خرج البريدي مع معز الدولة بن بويه من فارس إلى الأهواز، فأخذوها من بجكم، وانتقل بجكم من الأهواز إلى واسط، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً، فلما استقر بواسطة تعلقت همة بالاستيلاء على حضرة الخليفة، وهو مع ذلك يظهر التبعية لابن رائق، وكان على أعلامه وتراسه بجكم الرائقي، فلما وصلته كسب ابن مقله يعرفه أنه قد استقر مع الراضي أن يقلده إمرة الأمراء، طمع في ذلك، وكاشف ابن رائق، ومحا نسبه إليه من أعلامه، وسار من واسط نحو بغداد غرة ذي القعدة.

واستعد ابن رائق له، وسأل الراضي أن يكتب إلى بجكم يأمره بالعود إلى واسط، فكتب الراضي إليه، وسيّر الكتاب، فلما قرأه ألقاه عن يده ورمى به، وسار حتى نزل شرقي نهر ديبالي، وكان أصحاب ابن رائق على غريته، فآلق أصحاب بجكم نفوسهم في الماء فانهزم أصحاب ابن رائق، وعبر أصحاب بجكم وساروا إلى بغداد، وخرج ابن رائق عنها إلى عكبرا ودخل بجكم بغداد ثالث عشر ذي القعدة، ولقي الراضي من الغد، وخلع عليه، وجعله أمير الأمراء، وكتب كتاباً عن الراضي إلى القواد الذين مع ابن رائق يأمرهم (٣٤٨/٨) بالرجوع إلى بغداد، ففارقوه جميعهم وعادوا.

فحضر عند أولاد أبي سعيد، وذكر لهم ذلك، فقال أبو طاهر: هذا هو الذي يدعو إليه؛ فطاعوه، ودانوا له، حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجلاً، يقول له إنه مريض، يعني أنه قد شك في دينه، ويأمر بقتله.

وبلغ أبا طاهر أن الأصهباني يريد قتله ليتفرد بالملك، فقال لإخوته: لقد أخطأنا في هذا الرجل، وسأكشف حاله، فقال له: إن لنا مريضاً، فانظر إليه (٣٥٢/٨) ليبراً، فحضرُوا وأضجعوا والدته وغطوها بإزار، فلما رآها قال: إن هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له: كذبت، هذه والدته؛ ثم قتلوه بعد أن قُتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم. وكان هذا سبب تمسكهم بهجر، وترك قصد البلاد، والإفساد فيها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم في ذي القعدة، وكان القيس به ابن ورقاء الشيباني، وكان عدة من فُودِيٍّ من المسلمين ستة آلاف وثلاثمائة من بين ذكر وأُنثى، وكان الفداء على نهر البندون.

وفيها وُلد الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد. (٣٥٣/٨)

سنة سبع وعشرين وثلاثمائة

ذكر مسير الرازي وبجكم إلى الموصل وظهور ابن رائق ومسيره إلى الشام

في هذه السنة، في المحرم، سار الرازي بالله وبجكم إلى الموصل وديار ربيعة.

وسبب ذلك أن ناصر الدولة بن حمدان أخر المال الذي عليه من ضمان البلاد التي بيده، فغتاظ الرازي منه لسبب ذلك، فسار هو وبجكم إلى الموصل، ومعهما قاضي القضاة أبو الحسين عمر بن محمد، فلما بلغوا تكريت أقام الرازي بها، وسار بجكم، فلقيه ناصر الدولة بالكُحَيْل على ستة فراسخ من الموصل، فاقتلوا، واشتد القتال، فانهمز أصحاب ناصر الدولة، وساروا إلى نصيبين، وتبعهم بجكم ولم ينزل بالموصل.

فلما بلغ نصيبين سار ابن حمدان إلى أميد، وكتب بجكم إلى الرازي بالفتح، فسار من تكريت في الماء يريد الموصل، وكان مع الرازي جماعة من القرامطة، فانصرفوا عنه إلى بغداد قبل وصول كتاب بجكم، وكان ابن رائق يكاتبهم، فلما بلغوا بغداد ظهر ابن رائق من استارته واستولى على بغداد، ولم يعرض لدار الخليفة.

(٣٥٤/٨) وبلغ الخبر إلى الرازي، فأصعد من الماء إلى البر،

موقان، فأكرمه أصهبها ويُعرف بابن دولة، وأحسن ضيافته.

وجمع لشكري وسار نحو ديسم، وساعده ابن دولة، فهرب ديسم (٣٥٠/٨) وعبر نهر أرس، وعبر بعض أصحاب لشكري إليه، فانهمز ديسم، وقصد وشمكير، وهو بالري، وخوفه من لشكري، وبذل له مالاً كل سنة ليسير معه عسكرياً، فأجابه إلى ذلك وسيّر معه عسكرياً، وكتب عسكر لشكري وشمكير يعلمونه بما هم عليه من طاعته، وأنهم متى رأوا عسكره صاروا معه على لشكري، فظفر لشكري بالكتب، فكتب ذلك عنهم، فلما قرب منه عسكر وشمكير جمع أصحابه وأعلمهم ذلك وأنه لا يقوى بهم، وأنه يسير بهم نحو الزوزان، وينهب من على طريقه من الأرمن، ويسير نحو الموصل ويستولي عليها وعلى غيرها، فأجابه إلى ذلك، فسار بهم إلى أرمينية وأهلها غافلون، فنهب وغنم وسبي، وانتهى إلى الزوزان ومعهم الغنائم، فنزل بولاية إنسان أرميني، وبذل له مالاً ليكف عنه وعن بلاده، فأجابه إلى ذلك.

ثم إن الأرمني كمن كميناً في مضيق هناك، وأمر بعض الأرمن أن ينهب شيئاً من أموال لشكري ويسلك ذلك المضيق، ففعلوا، وبلغ الخبز إلى لشكري، فركب في خمسة أنفس، فسار وراءهم، فخرج عليه الكمين فقتلوه ومن معه، ولحقه عسكره، فراوه قتيلاً ومن معه، فعادوا وولوا عليهم ابنه لشكرستان، واتفقوا على أن يسيروا على عقبة التين، وهي تجاوز الجودي، ويحزروا سوادهم، ويرجعوا إلى بلد طرم الأرمني فيدركوا آثارهم، فبلغ ذلك طرم فرتب الرجال على تلك المضايق يرمونهم بالحجارة، ويمنعونهم العبور، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسلم القليل منهم، وفيمن سلم لشكرستان، وسار فيمن معه إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، فأقام بعضهم عنده وانحدر بعضهم إلى بغداد.

فأما الذين أقاموا بالموصل فسبّروهم مع ابن عم أبي عبد الله الحسين بن (٣٥١/٨) سعيد بن حمدان إلى ما بيده من أذربيجان لما أقبل نحوه ديسم ليستولي عليه، وكان أبو عبد الله من قبيل ابن عمه ناصر الدولة على معاون أذربيجان، فقصد ديسم وقاتله فلم يكن لابن حمدان به طاقة، ففارق أذربيجان واستولى عليها ديسم.

ذكر اختلال أمور القرامطة

في هذه السنة فسد حال القرامطة، وقتل بعضهم بعضاً.

وسبب ذلك أنه كان رجل منهم يقال له ابن سنبر، وهو من خواص أبي سعيد القرمطي والمطلعين على سره، وكان له عدو من القرامطة اسمه أبو حفص الشريك، فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصهبان وقال له: إذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوي أبا حفص؛ فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه، فاطلعه على أسرار أبي سعيد، وعلامات كان يذكر أنها في صاحبهم الذي يدعون إليه،

وأن يطروا المنازل ويسبقوا خبرهم ويكبسوا بالرحبة، ففعلوا ذلك، فوصلوا إلى الرحبة في خمسة أيام، ودخلوها على حين غفلة من بالبا، وهو يأكل الطعام، فلما بلغه الخبر اختفى عند إنسان حائك، ثم ظفروا به فأخذوه وأدخلوه بغداد على جمل ثم حبس، فكان آخر العهد به. (٣٥٦/٨)

ذكر ولاية أبي علي بن محتاج خراسان

في هذه السنة استعمل الأمير السعيد نصر بن أحمد على خراسان وجيوشها أبا علي أحمد بن أبي بكر محمد بن المظفر بن محتاج، وعزل أباه واستقدمه إلى بخارى.

وسبب ذلك أن أبا بكر مرض مرضاً شديداً طال به، فأنفذ السعيد فأحضر ابنه أبا علي من الصفانيان، واستعمله مكان أبيه، وسيره إلى نيسابور، وكتب إلى أبيه يستدعيه إليه، فسار عن نيسابور، فلقاه ولده على ثلاث مراحل من نيسابور، فعرفه ما يحتاج إلى معرفته، وسار أبو بكر إلى بخارى مريضاً، ودخل ولده أبو علي نيسابور أميراً في شهر رمضان من هذه السنة.

وكان أبو علي عاقلاً شجاعاً حازماً، فأقام بها ثلاثة أشهر يستعد للمسير إلى جرجان وطبرستان، وسنذكر ذلك سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

ذكر غلبة وشمكير على أصبهان والموت

وفيها أرسل وشمكير بن زيار أخو مرداويج جيشاً كثيفاً من الرّي إلى أصبهان، وبها أبو علي الحسن بن بُويه، وهو ركن الدولة، فأزالوه عنها، (٣٥٧/٨) واستولوا عليها، وخطبوا فيها لوشمكير، ثم سار ركن الدولة إلى بلاد فارس فنزل بظاهر إصطخر، وسار وشمكير إلى قلعة الموت فملكها وعاد عنها، وسيرد من أخبارهما سنة ثمان وعشرين [وثلاثمائة] ما تقف عليه.

ذكر الفتنة بالأندلس

وفي هذه السنة عصى أمية بن إسحاق، بمدينة ششتين، على عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس.

وسبب ذلك أنه كان له أخ اسمه أحمد، وكان وزيراً لعبد الرحمن، فقتله عبد الرحمن، وكان أمية بشّترين، فلما بلغه ذلك عصى فيها، والتجأ إلى ردمير ملك الجلائقة، ودلّه على عورات المسلمين، ثم خرج أمية في بعض الأيام يتصيد، فمنعه أصحابه من دخول البلد، فسار إلى ردمير فاستورزه.

وغزا عبد الرحمن بلاد الجلائقة، فالتقى هو ورمير هذه السنة، فانهزمت الجلائقة، وقُتل منهم خلق كثير، وحصرهم عبد الرحمن.

وسار إلى الموصل، وكتب إلى بجكم بذلك، فعاد عن نصيبين، فلما بلغ خبر عوده إلى ناصر الدولة سار من آيد إلى نصيبين، فاستولى عليها وعلى ديار ربيعة، فقلق بجكم لذلك، وتسلسل أصحابه إلى بغداد، فاحتاج أن يحفظ أصحابه، وقال: قد حصل الخليفة وأمير الأمراء على قصبة الموصل حسب.

وأنفذ ابن حمدان قبل أن يتصل به خبر ابن رائق، يطلب الصلح ويعجل خمسمائة ألف درهم، ففرح بجكم بذلك، وأنهاه إلى الراضي، فأجاب إليه، واستقر الصلح بينهم، وانحدر الراضي وبجكم إلى بغداد. وكان قد راسلهم ابن رائق مع أبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد يلتزم الصلح، فسار إليهم إلى الموصل وأدى الرسالة إلى بجكم، فأكرمه بجكم وأنزله معه، وأحسن إليه، وقدمه إلى الراضي فأبلغه الرسالة أيضاً، فأجابه الراضي وبجكم إلى ما طلب وأرسل في جواب رسالته قاضي القضاة أبا الحسين عمر بن محمد، وقلده طريق الفرات وديار مصر: حرّان والرّها وما جاورها وجند قُسرّين والعواصم، فأجاب ابن رائق أيضاً إلى هذه القاعدة، وسار عن بغداد إلى ولايته، ودخل الراضي وبجكم بغداد تاسع ربيع الآخر.

ذكر وزارة البريدي للخليفة

في هذه السنة مات الوزير أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات بالرملة، وقد ذكرنا سبب مسيره إلى الشام، فكانت وزارته سنة وثمانية أشهر وخمسة (٣٥٥/٨) وعشرين يوماً، ولما سار إلى الشام استتاب بالحضرة عبد الله بن علي النُفري.

وكان بجكم قد قبض على وزيره علي بن خلف بن طيّاب، فاستوزر أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، فسمى أبو جعفر في الصلح بين بجكم والبريدي، فتم ذلك، ثم ضمن البريدي أعمال واسط بستمائة ألف دينار كل سنة، ثم شرع ابن شيرزاد أيضاً، بعد موت أبي الفتح الوزير بالرملة، في تقليد أبي عبد الله البريدي الوزارة، فأرسل إليه الراضي في ذلك، فأجاب إليه في رجب، واستتاب بالحضرة عبد الله بن علي النُفري أيضاً كما كان يخلف أبا الفتح.

ذكر مخالفة بالبا على الخليفة

كان بجكم قد استتاب بعض قوّاده الأتراك ويُعرف ببالبا على الأنبار، فكانت يطلب أن يقلّد أعمال طريق الفرات بأسرها ليكون في وجه ابن رائق، وهو بالشام، فقلّده بجكم ذلك، فسار إلى الرحبة، وكتب ابن رائق، وخالف على بجكم والراضي، وأقام الدعوة لابن رائق وعظم أمره.

فبلغ الخبر إلى بجكم فسير طائفة من عسكره وأمرهم بالجِد

ذكر مسير ركن الدولة إلى واسط

في هذه السنة سار ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه إلى واسط.

وكان سبب ذلك أن أبا عبد الله البريدي أنفذ جيشاً إلى السوس، وقتل قائداً من الديلم، فتحصّن أبو جعفر الصيمري بقلعة السوس، وكان على خراجها.

وكان معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه بالأهواز، فخاف أن يسير إليه البريدي من البصرة، فكتب إلى أخيه ركن الدولة، وهو بباب إصطخر قد عاد من أصبهان على ما ذكرناه، فلما أتاه كتاب أخيه سار إليه مجدداً يطوي المنازل، حتى وصل إلى السوس، ثم سار إلى واسط ليستولى عليها إذ كان قد خرج عن أصبهان، وليس له ملك ليستقلّ به، فنزل بالجانب الشرقي، وكان البريديون بالجانب الغربي، فاضطرب رجال ابن بويه، فاستأمن منهم مائة رجل إلى البريدي.

ثم سار الراضي ويحكم من بغداد نحو واسط لحربه، فخاف أن يكثر الجمع عليه ويستأمن رجاله فيهلك، لأنه كان له سنة لم ينق فيهم مالا، فعاد من واسط إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز.

ذكر ملك ركن الدولة أصبهان

وفيها عاد ركن الدولة فاستولى على أصبهان؛ سار من رامهرمز فاستولى عليها، وأخرج عنها أصحاب وشمكير، وقتل منهم، واستأمر بضعة عشر قائداً.

(٣٦١/٨) وكان سبب ذلك أن وشمكير كان قد أنفذ عسكريه إلى ماكان نجدة له على ما ذكرناه، فخلت بلاد وشمكير من العساكر، وسار ركن الدولة إلى أصبهان، وبها نفر يسير من العساكر، فهزمهم واستولى عليها، وكاتب هو وأخوه عماد الدولة أبا علي بن محتاج يحرّضانه على ماكان ووشمكير، ويعدانه المساعدة عليهما، فصار بينهما بذلك مودة.

ذكر مسير بجكم نحو بلاد الجبل وعوده

في هذه السنة سار بجكم من بغداد نحو بلاد الجبل، ثم عاد عنها.

وكان سبب ذلك أنه صالح هذه السنة أبا عبد الله البريدي، وصاهره، وتزوج ابنته، فأرسل إليه البريدي يشير عليه بأن يسير إلى بلاد الجبل لفتحها والاستيلاء عليها، ويعرفه أنه إذا سار إلى الجبل سار هو إلى الأهواز واستقذها من يد ابن بويه، فاتفقا على ذلك، وأنفذ إليه بجكم خمسمائة رجل من أصحابه معونة له، وأنفذ إليه صاحبه أبا زكريا السوسي يحثه على الحركة، ويكون عنده إلى أن

ثم إن الجلائفة خرجوا عليه وظفروا به وبالمسلمين، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأراد اتباعهم، فمنعه أمية وخوفه المسلمين ورغبه في الخزان والغنيمة.

(٣٥٨/٨) وعاد عبد الرحمن بعد هذه الوقعة فجهز الجيوش إلى بلاد الجلائفة، فالتحقوا عليهم بالغارات، وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين، ثم إن أمية استأمن إلى عبد الرحمن، فأكرمه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انكسف القمر جميعه في صفر.

وفيها مات عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي صاحب الجرح والتعديل، وعثمان بن الخطاب بن عبد الله أبو الدنيا المعروف بالأشج الذي يقال إنه لقي علي بن أبي طالب، عليه السلام، وقيل إنهم كانوا يسمونه، ويكنونه أبا الحسن آخر أيامه، وله صحيفة تروى عنه ولا تصح، وقد رواها كثير من المحدثين مع علم منهم بضعفها.

وفيها توفي محمد بن جعفر بن محمد بن سهل أبو بكر الخرائطي صاحب التصانيف المشهورة، كاعتلال القلوب وغيره، بمدينة يافا. (٣٥٩/٨)

سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة

ذكر استيلاء أبي علي جرجان

في هذه السنة، في المحرم، سار أبو علي بن محتاج في جيش خراسان من نيسابور إلى جرجان، وكان بجرجان ماكان بن كالي قد خلع طاعة الأمير نصر بن أحمد، فوجدتهم أبو علي قد غرّروا المياه، فعدل عن الطريق إلى غيره، فلم يشعروا به، حتى نزل على فرسخ من جرجان، فحصر ماكان بها، وضيق عليه، وقطع الميرة عن البلد، فاستأمن إليه كثير من أصحاب ماكان، وضاق الحال بمن بقي بجرجان، حتى صار الرجل يقتصر كل يوم على حفنة ميمس، أو كيلة من كُسب، أو باقة بقل.

واستمد ماكان من وشمكير، وهو بالرّي، فأمده بقائد من قوّاده يقال له شيرح بن النعمان، فلما وصل إلى جرجان ورأى الحال شرع في الصلح بين أبي علي وبين ماكان بن كالي ليجعل له طريقاً ينجو فيه، ففعل أبو علي ذلك، وهرب ماكان إلى طبرستان، واستولى أبو علي على جرجان في أواخر سنة ثمان وعشرين، واستخلف عليها إبراهيم بن سيمجور الدواتي، بعد أن أصلح حالها، وأقام بها إلى المحرم سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، فسار إلى الرّي على ما نذكره. (٣٦٠/٨)

يرحل عن واسط إلى الأهواز. ورائق بالنهب، ونزلوا في خيم أصحاب الإخشيد، فخرج عليهم

كعين للإخشيد فأوقع بهم وهزمهم وفرقهم، ونجا ابن رائق في سبعين رجلاً، ووصل إلى دمشق على أقبح صورة.

وسار بجكم إلى خلوان، وصار أبو زكريا السوسي يبحث ابن البريدي على المسير إلى السوس والأهواز، وهو يدافع الأوقات، وكان عازماً على قصد بغداد، إذا أبعد عنها بجكم، ليستولي عليها، وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ويستتر به الدوائر من هزيمة أو قتل. وأقام أبو زكريا عنده نحو شهر يحته على المسير، (٣٦٢/٨) وهو يغالطه، فعلم أبو زكريا مقصوده، فكتب إلى بجكم بذلك، فلحقه الخبر وهو سائر، فركب الجمّازات وعاد إلى بغداد، وخلّف عسكره وراءه.

ووصل الخبر إلى البريدي بدخول بجكم إلى بغداد، فسقط في يده، ثم أتته الأخبار بأن بجكم قد سار نحوه.

ذكر استيلاء بجكم على واسط

لما عاد بجكم إلى بغداد تجهّز للانحدار إلى واسط، وحفظ الطرق لئلا يصل خبره إلى البريدي فيتحرّز، وانحدر هو في الماء في العشرين من ذي القعدة، وسير عسكره في البر، وأسقط اسم البريدي من الوزارة، وجعل مكانه أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مخلّد، وكانت وزارة البريدي سنة واحدة وأربعة أشهر وأربعة عشر يوماً، وقبض على ابن شيرزاد لأنه هو كان سبب وصلته بالبريدي، وأخذ منه مائة وخمسين ألف دينار.

فمن عجيب الاتفاق أن بجكم كان له كاتب على أمر داره وحاشيته، وهو معه في السفينة عند انحداره إلى واسط، فجاء طائر فسقط على صدر السفينة، فأخذ وأحضر عند بجكم، فوجد على ذنبه كتاباً ففتح، وإذا هو من هذا الكاتب إلى أخ له مع البريدي يخبره بخبر بجكم، وما هو عازم عليه، فالتقى الكتاب إليه، فاعترف به إذ لم يمكنه جحده لأنه بخطه، فأمر بقتله، وقُتل وألقا في الماء.

(٣٦٣/٨) ولما بلغ خبر بجكم إلى البريدي سار عن واسط إلى البصرة، ولم يبق بها، فلما وصل إليها بجكم لم يجد بها أحداً، فاستولى عليها، وكان بجكم قد خلف عسكراً ببلد الجبل، فصلبهم الديلم والجبل، فانهزموا وعادوا إلى بغداد.

ذكر استيلاء ابن رائق على الشام

في هذه السنة استولى ابن رائق على الشام، وقد ذكرنا مسيره فيما تقدّم، فلما دخل الشام قصد مدينة حمص فملكها، ثم سار منها إلى دمشق، وبها بدر بن عبد الله الإخشيدي، المعروف ببذير، والياً عليها للإخشيد، فآخذه ابن رائق منها وملكها، وسار منها إلى الرملة فملكها.

وسار إلى عريش مصر يريد الديار المصرية، فلقبه الإخشيد محمد بن طنج، وحاربه، فانهزم الإخشيد، فاشتغل أصحاب ابن

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قُتل طريف السُكري.

وفيها عزل بجكم وزيره أبا جعفر بن شيرزاد لما ذكرناه، وصادته على مائة وخمسين ألف دينار، واستوزر بعده أبا عبد الله الكوفي.

وفيها توفي محمد بن يعقوب، وقُتل محمد بن علي أبو جعفر الكليني، وهو من أئمة الإمامية وعلمائهم.

(الكلينيّ بالياء المعجمة باثنتين من تحت ثم بالنون وهو مُمال).

وفيها توفي أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب المقرئ البغدادى المعروف بابن شنبوذ في صفر.

وفيها توفي أبو محمد جعفر المرتعش، وهو من أعيان مشايخ الصوفيّة، وهو نيسابوري سكن بغداد، وقاضي القضاة عمر بن أبي عمر محمد بن يوسف، وكان قد وليّ القضاء بعد أبيه. (٣٦٥/٨)

وفيها توفي أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن محمد بن بشار المعروف بابن الأنباري، وهو مصنف كتاب الوقف والابتداء.

وفيها في حادي عشر شوال مات الوزير أبو علي بن مقلّة في الحبس.

وفيها لليلتين بقيتا من شوال توفي الوزير أبو العباس الخصيبيّ بسكة لحقته، بينه وبين ابن مقلّة سبعة عشر يوماً.

وفيها مات أبو عبد الله القميّ، وزير ركن الدولة بن بويه، فاستوزر بعده أبا الفضل بن العميد، فتمكّن منه، فنال ما لم ينله

أحد من وزراء بني بويه، وسيرد من أخباره ما يُعلم به محله. إليه الندماء، وآخر خليفة كانت له نفقته، وجوائز، وعطاياه، وجراياته، وخزائنه، ومطابخه، ومجالسه، وخدمه، وحجابه، وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين. (٣٦٦/٨)

سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

ذكر موت الراضي بالله

لما مات الراضي بالله بقي الأمر في الخلافة موقوفاً انتظاراً لقدم أبي عبد الله الكوفي، كاتب بجكم، من واسط، وكان بجكم بها.

واحتيط على دار الخلافة، فورد كتاب بجكم مع الكوفي يأمر فيه بأن يجتمع مع أبي القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضي، كل من تقلد الوزارة، وأصحاب الدواوين، والعلويون، والقضاة، والعباسيون، ووجوه البلد، ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضي مذهبه وطريقته، فجمعهم الكوفي واستشارهم، فذكر بعضهم إبراهيم بن المقتدر، وتفرقوا على هذا، فلما كان الغد اتفق الناس عليه، فأحضر في دار الخلافة، وبوع له في العشرين من ربيع الأول، وعرضت عليه ألقاب، فاختار المتقي لله، وبايعه الناس كافة، وسير (٣٦٩/٨) الخلع واللواء إلى بجكم بواسط.

وكان بجكم، بعد موت الراضي وقبل استخلاف المتقي، قد أرسل إلى دار الخلافة فأخذ فرشاً وآلات كان يستحسنها، وجعل سلامة الطولوني حاجبه، وأقر سليمان على وزارته، وليس له من الوزارة إلا اسمها، وإنما التدبير كله إلى الكوفي كاتب بجكم.

ذكر قتل ماكان بن كالي واستيلاء أبي علي بن محتاج على الرزي

قد ذكرنا سير أبي علي بن محمد بن المظفر بن محتاج إلى جرجان، وإخراج ماكان عنها، فلما سار عنها ماكان قصد طبرستان وأقام بها، وأقام أبو علي بجرجان يصلح أمرها، ثم استخلف عليها إبراهيم بن سيمجور الدواتي، وسار نحو الري في المحرم من هذه السنة، فوصلها في ربيع الأول، وبها وشمكير بن زيار، آخر مرداويج.

وكان عماد الدولة وركن الدولة ابننا بويه يكتاتيان أبا علي، ويحانه على قصد وشمكير، ويعدانه المساعدة، وكان قصدهما أن تؤخذ الري من وشمكير، فإذا أخذها أبو علي لا يمكنه المقام بها لسعة ولايته بخراسان، فيغلبان عليها.

وبلغ أمر اتفاهم إلى وشمكير. وكاتب ماكان بن كالي يستخدمه ويعرفه الحال، فسار ماكان بن كالي من طبرستان إلى الري، وسار أبو علي وأناه عسكر (٣٧٠/٨) ركن الدولة بن بويه، فاجتمعوا مع بإسحاقباذ، والنقوا هم وشمكير، ووقف ماكان بن كالي في القلب وياشر الحرب بنفسه، وعبا أبو علي أصحابه

في هذه السنة مات الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر، منتصف ربيع الأول، وكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة وشهوراً، وكانت علته الاستسقاء، وكان أديباً شاعراً، فمن شعره:

يصفّر وجهي إذا تأملته طرفي ويحمر وجهه خجلاً
حتى كأن الذي بوجته من دم جسي إليه قد تقلا

وله أيضاً يرثي أباه المقتدر:

ولو أن حياً كان قبراً لميت ولو أن عمري كان طوي مشيتي
بنفي ثرى ضاجعت في ثرى البلى لقد ضم منك الغيث واليث والبلدا

(٣٦٧/٨) ومن شعره أيضاً:

كل صفر إلى كل صفر الشباب للمم
ومصر في فيه أو الكلد وعظي يندر اليندر
تاه في لجة الغرر دس العيين والأثر
عمرة كله خطر رب إني ذخرت عن

إنني مؤمن بما يت وعتراني بترك نفد رب، فاعفر لي الخطي
وكان الراضي أيضاً سمحاً، سخياً، يحب محادثة الأدباء والفضلاء، والجلوس معهم.

ولما مات أحضر بجكم ندماءه وجلساءه وطمع أن يتفجع بهم، فلم يفهم منهم ما يتفجع به، وكان منهم سنان بن ثابت الصابي الطبيب، فأحضره وشكا إليه غلبة القوة الغضبية عليه، وهو كاره لها، فما زال معه في تقييح ذلك عنده، وتحسين ضده من الجلم، والعفو، والعدل، وتوصل معه حتى زال أكثر (٣٦٨/٨) ما كان يجده، وكف عن القتل والعقوبات.

وكان الراضي أسمر، أعين، خفيف العارضين، وأمه أم ولد اسمها ظلوم، وختم الخلفاء في أمور عدة، فمنها: أنه آخر خليفة له شيعر يدون، وآخر خليفة خطب كثيراً على منبر، وإن كان غيره قد خطب نادراً لا اعتبار به، وكان آخر خليفة جالس الجلساء، ووصل

وكان البريدي قد عزم على الهرب من البصرة هو وإخوته، وكان بجكم قد راسل أهل البصرة وطُيَب قلوبهم، فمالوا إليه، فأتى البريديين الفرج من حيث لم يحتسبوا، وعاد أترك بجكم إلى واسط، وكان تكنيك محبوباً بها، (٣٧٢/٨) حبسه بجكم، وأخرجوه من محبسه، فسار بهم إلى بغداد، وأظهروا طاعة المتقي لله.

وصار أبو الحسين أحمد بن ميمون يدبر الأمور، واستولى المتقي على دار بجكم، فأخذ ماله منها، وكان قد دفن فيها ماله كثيراً، وكذلك أيضاً في الصحراء لأنه خاف أن يُنكب فلا يصل إلى ماله في داره.

وكان مبلغ ما أخذ من ماله ودفائه ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار، وكانت مدة إمارة بجكم ستين وثمانية أشهر وتسعة أيام.

ذكر إبعاد البريديين إلى بغداد

لما قُتل بجكم اجتمعت الديلم على بلسواز بن مالك بن مسافر، فقتله الأتراك، فانهدر الديلم إلى أبي عبد الله البريدي، وكانوا متخفين ليس فيهم حشو، فقوي بهم، وعظمت شوكتهم، فاصعدوا من البصرة إلى واسط في شعبان، فأرسل المتقي لله إليهم يأمرهم أن لا يصعدوا، فقالوا: نحن محتاجون إلى مال، فإن أنفذ لنا منه شيء لم نصعد؛ فأنفذ إليهم مائة ألف وخمسين ألف دينار، فقال الأتراك للمتقي: نحن نقتل بني البريدي، فأطلق لنا ماله وانصب لنا مقدماً؛ فاتفق فيهم ماله، وفي أجناد بغداد القدماء، أربعمائة ألف دينار من المال الذي أخذ لبجكم، وجعل عليهم سلامة الطولوني، وبرزوا مع المتقي لله (٣٧٣/٨) إلى نهر ديبالي يوم الجمعة لثمان بقين من شعبان.

وسار البريدي من واسط إلى بغداد، ولم يقف على ما استقر معه، فلما قرب من بغداد اختلف الأتراك البيكمية، واستأمن بعضهم إلى البريدي، وبعضهم سار إلى الموصل، واستتر سلامة الطولوني وأبو عبد الله الكوفي، ولم يحصل الخليفة إلا على إخراج المال، وهم أرباب النعم والأموال، فالتقال من بغداد خوفاً من البريدي وظلمه وتهوره.

ودخل أبو عبد الله البريدي بغداد ثاني عشر رمضان، ونزل بالشنفيي، ولقه الوزير أبو الحسين، والقضاة، والكتاب، وأعيان الناس، وكان معه من أنواع السفن ما لا يحصى كثرة، فأنفذ إليه المتقي يهتبه بسلامته، وأنفذ إليه طعاماً وغيره عدة ليال، وكان يخاطب الوزير، وكذلك أبو الحسين بن ميمون وزير الخليفة أيضاً، ثم عزّل أبو الحسين، وكانت مدة وزارة أبي الحسين ثلاثة وثلاثين يوماً، ثم قبض أبو عبد الله البريدي على أبي الحسين وسيره إلى البصرة وحبسه بها إلى أن مات في صفر سنة ثلاثين وثلاثمائة من

كراديس، وأمر من يزاء القلب أن يلحقوا عليهم في القتال، ثم يتطاردوا لهم ويستجروهم، ثم وصى من يزاء الميمنة والميسرة أن يناوشهم مناوشة بمقدار ما يشغلونهم عن مساعدة من في القلب، ولا يتناجزهم، ففعلوا ذلك.

والح أصحابه على قلب وشمكير بالحرب، ثم تطاردوا لهم، فطمع فيهم ماكان ومن معه، فتبعوهم، وفارقوا موافقهم، فحيتتد أمر أبو علي الكراديس التي يزاء الميمنة والميسرة أن يتقدم بعضهم، ويأتي من في قلب وشمكير من ورائهم، ففعلوا ذلك، فلما رأى أبو علي أصحابه قد أقبلوا من وراء ما كان ومن معه من أصحابه أمر المتطاردين بالعود والحملة على ما كان وأصحابه، وكانت نفوسهم قد قويت بأصحابهم، فرجعوا وحملوا على أولئك، وأخذهم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فولّوا منهزمين.

فلما رأى ماكان ذلك ترجّل، وأبلى بلاء حسناً، وظهرت منه شجاعة لم ير الناس مثلاً، فأنه سهم غرب، فوقع في جبينه، فنفذ في الخوذة والراس حتى طلع من قفاه، وسقط ميتاً، وهرب وشمكير ومن سلم معه إلى طبرستان، فأقام بها، واستولى أبو علي على الري، وأنفذ رأس ماكان إلى بخارى والسهم فيه، ولم يُحمل إلى بغداد حتى قُتل بجكم لأن بجكم كان من أصحابه، وجلس للعرء لما قُتل، فلما قُتل بجكم حُمل الرأس من بخارى إلى بغداد والسهم فيه وفي الخوذة، وأنفذ أبو علي الأسرى إلى بخارى أيضاً، وكانوا بها حتى (٣٧١/٨) دخل وشمكير في طاعة آل سامان، وسار إلى خراسان فاستوهمهم، فأطلقوا له على ما تذكره سنة ثلاثين [وثلاثمائة].

ذكر قتل بجكم

وفي هذه السنة قُتل بجكم.

وكان سبب قتله أن أبا عبد الله البريدي أنفذ جيشاً من البصرة إلى مذار، فأنفذ بجكم جيشاً إليهم عليهم توزون، فاقتلوا قتالاً شديداً كان أولاً على توزون، فكتب إلى بجكم يطلب أن يلحق به، فسار بجكم إليهم من واسط، منتصف رجب، فلقه كتاب توزون بأنه ظفر بهم وهزمهم، فأراد الرجوع إلى واسط، فأشار عليه بعض أصحابه بأن يتصيد، فقبل منه، وتصيد حتى بلغ نهر جور، فسمع أن هناك أكراداً لهم مال وثروة، فشرهت نفسه إلى أخذه، فقصدهم في قلة من أصحابه بغير جنة تقيه، فهرب الأكراد من بين يديه، ورمى هو أحدهم فلم يصبه، فرمى آخر فأخطأ أيضاً، وكان لا يخيب سهمه، فأنه غلام من الأكراد من خلفه وطعته في خاصرته، وهو لا يعرفه، فقتله وذلك لأربع بقين من رجب، واختلف عسكريه، فمضى الديلم خاصة نحو البريدي، وكانوا ألفاً وخمسمائة، فأحسن إليهم، وأضعف أرازمهم، وأوصلها إليهم دفعة واحدة.

حمى حادة.

رمضان، واستخلف على الشام أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل، فلما وصل إلى الموصل تنحى عن طريقه ناصر الدولة بن حمدان، فتراسلا، واتفقا على أن يتصالحا، وحمل ابن حمدان إليه مائة ألف دينار، وسار ابن رائق إلى بغداد، فقبض كورتيكين على القرائطي الوزير، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي في ذي القعدة، وكانت وزارة القرائطي ثلاثة وأربعين يوماً.

(٣٧٤/٨)

ذكر عود البريدي إلى واسط

وبلغ خبر ابن رائق إلى أبي عبد الله البريدي، فسُرَّ إخوته إلى واسط (٣٧٦/٨) فدخلوها، وأخرجوا الديلم عنها، وخطبوا له بواسط، وخرج كورتيكين عن بغداد إلى عُكبرا، ووصل إليه ابن رائق، ف وقعت الحرب بينهم، وانصلت عدة أيام.

فلما كان ليلة الخميس لتسع بقين من ذي الحجة سار ابن رائق ليلاً من عُكبرا هو وجيشه، فأصبح ببغداد، فدخلها من الجانب الغربي هو وجميع جيشه، ونزل في النجفي، وعبر من الغد إلى الخليفة فلقبه، وركب المتقي لله معه في دجلة، ثم عاد ووصل هذا اليوم بعد الظهر كورتيكين مع جميع جيشه من الجانب الشرقي، وكانوا يستهزئون بأصحاب ابن رائق ويقولون: أين نزلت هذه القافلة الواصلة من الشام؟ ونزلوا بالجانب الشرقي.

ولما دخل كورتيكين بغداد أيس ابن رائق من ولايتها فأمر بحمل أثقاله والعود إلى الشام، فرفع الناس أثقالهم، ثم إنه عزم أن يناوشهم شيئاً من قتال قبل مسيره، فأمر طائفة من عسكره أن يعبروا دجلة ويأتوا الأتراك من ورائهم، ثم إنه ركب في سُميرية، وركب معه عدة من أصحابه في عشرين سُميرية، ووقفوا يرمون الأتراك بالنشاب. ووصل أصحابه وصاحوا من خلفهم، واجتمعت العامة مع أصحاب ابن رائق يضحون، فظن كورتيكين أن العسكر قد جاءه من خلفه ومن بين يديه، فانهزم هو وأصحابه، واختفى هو، ورجعهم العامة بالأجر وغيره.

وقوي أمر ابن رائق، وأخذ من استأمن إليه من الديلم فقتلهم عن آخرهم وكانوا نحو أربعمئة، فلم يسلم منهم غير رجل واحد اختفى بين القتلى، وحمل معهم في الجواليق، وألقي في دجلة فسلم وعاش بعد ذلك دهراً، وقتل الأسرى من قواد الديلم، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وخلع المتقي على (٣٧٧/٨) ابن رائق، وجعله أمير الأمراء، وأمر أبا جعفر الكرخي بلزوم بيته، وكانت وزارته ثلاثة وثلاثين يوماً، واستولى أحمد الكوفي على الأمر فدبره، ثم ظفر ابن رائق بكورتيكين فحبس بدار الخليفة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كان بالعراق غلاء شديد، فاستسقى الناس في ربيع الأول، فسُقوا مطراً قليلاً لم يجر منه ميزاب، ثم اشتد الغلاء والوباء، وكثر الموت حتى كان يُدفن الجماعة في القبر الواحد ولا

ثم أنفذ البريدي إلى المتقي يطلب خمسمائة ألف دينار ليفرقها في الجند، فامتنع عليه، فأرسل إليه يتهدده، ويذكره ما جرى على المعزز، والمستعين، والمهتدي، وترددت الرسل، فأنفذ إليه تمام خمسمائة ألف دينار ولم يلق البريدي المتقي لله مدة مقامه ببغداد.

كان البريدي يأمر الجند بطلب الأموال من الخليفة، فلما أنفذ الخليفة إليه المال المذكور انصرفت أطماع الجند عن الخليفة إلى البريدي وعادت مكيدته عليه، فشغب الجند عليه، وكان الديلم قد قدموا على أنفسهم كورتيكين الديلمي وقدم الأتراك على أنفسهم تكتيك التركي غلام بجكم، وثار الديلم إلى دار البريدي، فأحرقوا دار أخيه أبي الحسين التي كان يترلها، ونفروا عن البريدي وانضاف تكتيك إليهم، وصارت أيديهم واحدة، واتفقوا على قصد البريدي ونهب ما عنده من الأموال، فساروا إلى النجفي ووافقهم العامة، فقطع البريدي الجسر، ووقعت الحرب في الماء ووثب العامة بالجانب الغربي على أصحاب البريدي، فهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابه، وانحدروا في الماء إلى واسط، ونهبت داره في النجفي ودور قواده؛ وكان هربه سلخ رمضان، وكانت مدة مقامه أربعة وعشرين يوماً.

ذكر إمارة كورتيكين الديلمي

لما هرب البريدي استولى كورتيكين على الأمور ببغداد، ودخل إلى المتقي لله، فقلّده إمارة الأمراء، وخلع عليه، واستدعى المتقي، علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن بن عيسى، فأمر عبد الرحمن فدبر الأمر من غير تسمية بوزارة، (٣٧٥/٨) ثم إن كورتيكين قبض تكتيك التركي خامس شوال، وغرقه، ونفّر بالأمير، ثم إن العامة اجتمعوا يوم الجمعة سادس شوال، وتظلموا من الديلم ونزولهم في دورهم، فلم ينكر ذلك، فمنعت العامة الخطيب من الصلاة، واقتتلوا هم والديلم، فقتل من الفريقين، جماعة.

ذكر عود ابن رائق إلى بغداد

في هذه السنة عاد أبو بكر محمد بن رائق من الشام إلى بغداد، وصار أمير الأمراء.

وكان سبب ذلك أن الأتراك البجكية لما ساروا إلى الموصل لم يروا عند ابن حمدان ما يريدون، فساروا نحو الشام إلى ابن رائق، وكان فيهم من القواد توزون، وخجج، ونوشتكين، وصيفون، فلما وصلوا إليه أطمعوه في العود إلى العراق، ثم وصلت إليه كتب المتقي يستدعيه، فسار من دمشق في العشرين من

ألف دينار.

وعاد ابن رائق إلى بغداد، فشغب الجند عليه ثاني ربيع الآخر، وفيهم توزون وغيره من القواد، ورحلوا في العشر الآخر من ربيع الآخر إلى أبي عبد الله البريدي بواسط، فلما وصلوا إليه قوي بهم، فاحتاج ابن رائق إلى مداراته، فكتب أبا عبد الله البريدي بالوزارة، وأنفذ له الخلع، واستخلف أبا عبد الله بن شيرزاد، ثم وردت الأخبار إلى بغداد بعزم البريدي على الإصعاد إلى بغداد، فأزال ابن رائق اسم الوزارة عنه، وأعاد أبا إسحاق القراريطي، ولعن بني البريدي على المنابر بجاني بغداد. (٣٨٠/٨)

ذكر استيلاء البريدي على بغداد وإصعاد المتقي إلى الموصل

وسير أبو عبد الله البريدي أخاه أبا الحسين إلى بغداد في جميع الجيش من الأتراك والدليم، وعزم ابن رائق على أن يتحصن بدار الخليفة، فأصلح سورها، ونصب عليه العرادات والمنجنقات، وعلى دجلة، وأنهض العامة، وجند بعضهم، فثاروا في بغداد وأحرقوا ونهبوا، وأخذوا الناس ليلاً ونهاراً.

وخرج المتقي لله وابن رائق إلى نهر ديبالي منتصف جمادى الآخرة، ووافاهم أبو الحسين عنده في الماء والبر، واقتتل الناس، وكانت العامة على شاطئ دجلة في الجانبين يقاتلون من في الماء من أصحاب البريدي، وانهزم أهل بغداد، واستولى أصحاب البريدي على دار الخليفة، ودخلوا إليها في الماء وذلك لتسع بقين من جمادى الآخرة، وهرب المتقي وابنه الأمير أبو منصور في نحو عشرين فارساً، ولحق بهما ابن رائق في جيشه، فساروا جميعاً نحو الموصل، واستتر الوزير القراريطي، وكانت مدة وزارته الثانية أربعين يوماً، وإمارة ابن رائق ستة أشهر، وقتل أصحاب البريدي من وجدوا في دار الخليفة من الحاشية، ونهبوا، ونهبوا دور الحرم.

وكثر النهب في بغداد ليلاً، ونهاراً، وأخذوا كورتكين من حبسه، وأنفذه أبو الحسين إلى أخيه بواسط فكان آخر العهد به، ولم يتعرضوا للقاهر بالله، ونزل أبو الحسين بدار مؤنس التي يسكنها ابن رائق وعظم النهب، فأقام أبو الحسين توزون على الشرطة بشرقي بغداد، وجعل نوشتكين على شرطة الجانب الغربي (٣٨١/٨) فسكن الناس شيئاً يسيراً، وأخذ أبو الحسين البريدي رهائن القواد الذين مع توزون وغيره، وأخذ نساءهم وأولادهم فسيرهم إلى أخيه أبي عبد الله بواسط.

ذكر ما فعله البريدي ببغداد

لما استولى على بغداد أخذ أصحابه في النهب والسلب وأخذ الدواب، وجعلوا طلبها طريقاً إلى غيرها من الأثاث، وكُبت الدور، وأخرج أهلها منها ونزلت، وعظم الأمر، وجعل على كُر من

يُسلون، ولا يصلى عليهم، ورخص العقار ببغداد والأثاث حتى يبيع ما ثمنه دينار بدرهم. وانقضى تشرين الأول، وتشيرين الثاني، والكانونان، وشباط، ولم يجئ مطر غير المطرة التي عند الاستقاء، ثم جاء المطر في آذار ونيسان.

وفيها، في شوال، استوزر المتقي لله أبا إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي المعروف بالقراريطي، بعد عود بني البريدي من بغداد، وجعل بداراً الخرشني حاجبه، فبقي وزيراً إلى الخامس والعشرين من ذي القعدة، فقبض عليه كورتكين، وكانت وزارته ثلاثة وأربعين يوماً، واستوزر بعده أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي، فبقي وزيراً إلى الثامن والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، فعزله ابن رائق لما استولى على الأمور ببغداد، فكانت وزارته اثنين وثلاثين يوماً، (٣٧٨/٨) ودبر الأمور أبو عبد الله الكوفي كاتب ابن رائق من غير تسمية بوزارة.

وفيها عاد الحجاج إلى العراق، ولم يصلوا إلى المدينة بل سلكوا الجادة بسبب طالبي ظهر بتلك الناحية وقوي أمره.

وفيها كثرت الحميات ووجع المفاصل في الناس، ومن عجل الفساد برئ وإلا طال مرضه.

وفي أيام الرازي توفي أبو بشر أخو متي بن يونس الحكيم الفيلسوف، وله تصانيف في شرح كتب أرسطاطاليس.

وفيها، في ذي الحجة، مات بختيشوع بن يحيى الطبيب.

وفيها مات محمد بن عبد الله البلغمي، وزير السعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان، وكان من عقلاء الرجال، وكان نصر قد صرفه عن وزارته سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وجعل مكانه محمد بن محمد الجبّهاني.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن المظفر بن محتاج ودُفن بالصغانيان؛ وأبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، رئيس الحنابلة، توفي مستراً، ودُفن في تربة نصر القشوري، وكان عمره ستاً وسبعين سنة. (٣٧٩/٨)

سنة ثلاثين وثلاثمائة

ذكر وزارة البريدي

في هذه السنة وزر أبو عبد الله البريدي للمتقي لله.

وكان سبب ذلك أن ابن رائق استوحش من البريدي لأنه آخر حمل المال، وانحدر إلى واسط عاشر المحرم فهرب بنو البريدي إلى البصرة، وسعى لهم أبو عبد الله الكوفي حتى عادوا وضمنوا بقايا واسط بمائة وتسعين ألف دينار، وضمنوها كل سنة ستمائة

الحنطة، والشعير، وأصناف الحبوب، خمسة دنانير، وغلت الأسعار فبيع كُر الحنطة بثلاثمائة وستة عشر ديناراً، والخبز الخشكواري طلين بقراطين صحيح أميري، وحيط أهل الذمة، وأخذ القوي بالضعيف، وورد من الكوفة وسوادها خمسمائة كُر من الحنطة والشعير، فأخذ جميعه وادّعى أنه للعامل بتلك الناحية.

ووقعت الفتن بين الناس، فمن ذلك أنه كان معه طائفة من القرامطة، فجرى بينهم وبين الأتراك حرب قُتل فيها جماعة، وانهمز القرامطة، وفارقوا بغداد، ووقعت حرب بين الديلم والعامّة قُتل فيها جماعة من حدّ نهر طابق إلى القنطرة الجديدة.

وفي آخر شعبان زاد البلاء على الناس، فكيسوا منازلهم ليلاً ونهاراً، واستتر أكثر العمال لعظيم ما طولبوا به مما ليس في السواد، وافترق الناس، (٣٨٢/٨) فخرج الناس وأصحاب السلطان إلى قرب من بغداد، فحصدوا ما استحصدوا من الحنطة والشعير، وحملوه بسنبلة إلى منازلهم، وكان مع ذلك نهب ويعسف أهل العراق ويظلمهم ظلماً لم يُسمع بمثله قط، والله المستعان.

وإنما ذكرنا هذا الفصل ليعلم الظلمة أن أخبارهم تُنقل وتبقى على وجه الدهر، فربما تركوا الظلم لهذا إن لم يتركوه لله سبحانه وتعالى.

ذكر قتل ابن رائق وولاية ابن حمدان إمرة الأمراء

كان المتقي لله قد أنفذ إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمّده على البريديّين، فأرسل أخاه سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان نجدة له في جيش كثيف، فلقي المتقي وابن رائق بتكريت قد انهزما، فخدم سيف الدولة للمتقي خدمة عظيمة، وسار معه إلى الموصل، ففارقها ناصر الدولة إلى الجانب الشرقي، وتوجّه نحو معلثا، وترددت الرسل بينه وبين ابن رائق، حتى تعاهدا واتفقا، فحضر ناصر الدولة ونزل على دجلة بالجانب الشرقي، فعبر إليه الأمير أبو منصور بن المتقي وابن رائق يسألان عليه، فنشر الدنانير والدرهم على ولد المتقي، فلما أرادوا الانصراف من عنده ركب ابن المتقي، وأراد ابن رائق الركوب، فقال له ناصر الدولة: تقيم اليوم هندي لتحدث فيما نفعه، فاعتذر ابن رائق بابن المتقي، فألح عليه ابن حمدان، فاستراب به، وجذب كفه من يده فقطعه، وأراد الركوب فشَبَّ به الفرس فسقط، فصاح ابن حمدان بأصحابه: اقلوه فقتلوه، وألقوه في دجلة.

ذكر الحرب بين ابن حمدان والبريدي

لما هرب أبو الحسين البريدي إلى واسط، ووصل بنو حمدان والمتقي إلى بغداد، خرج بنو حمدان عن بغداد نحو واسط، وكان أبو الحسين قد سار من واسط إليهم ببغداد، فأقام ناصر الدولة بالمدائن، وسير أخاه سيف الدولة وابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان في الجيش إلى قتال أبي الحسين، فالتقوا تحت المدائن بفوسخين، واقتلوا عدة أيام آخرها رابع ذي الحجة، وكان توزون وخججج والأتراك مع ابن حمدان، فانهزم سيف الدولة ومن معه إلى المدائن، وبها ناصر الدولة، فردهم وأضاف

وكان قتل ابن رائق يوم الاثنين تسع بقين من رجب، ولما قُتل ابن رائق سار الإخشيد من مصر إلى دمشق، وكان بها محمد بن يزداد، خليفة ابن رائق، فاستأمن إلى الإخشيد، وسلم إليه دمشق فأقره عليها، ثم نقله عنها إلى مصر وجعله على شرطتها، ويقال إن لابن رائق شعراً منه:

يصفّرُ وجهي إذا تأملته طرفي ويحمرُّ وجهه خجلاً
حسّى كأن السني يوجته من دم قلبي إليه قد نُقلا
وقد قيل إنها للراضي بالله وقد تقدّم.

ذكر عود المتقي إلى بغداد وهرب البريدي عنها

لما استولى أبو الحسين البريدي على بغداد، وأساء السيرة كما ذكرناه، نفرت عنه قلوب الناس العامة والأجناد، فلما قُتل ابن رائق سارع الجند إلى الهرب من البريدي، فهرب خججج إلى المتقي، وكان قد استعمله البريدي على الراذنات وما يليها، ثم تحالف توزون، ونوشتكين، والأتراك على كبس أبي الحسين البريدي، فغدر نوشتكين فأعلم البريدي الخبر، فاحتاط، وأحضر الديلم عنده، وقصده توزون، فحاربه الديلم، وعلم توزون غدر نوشتكين (٣٨٤/٨) به، فعاد ومعه جملة وافرة من الأتراك، وسار نحو الموصل خامس رمضان، فقوي بهم ابن حمدان، وعزم على الانحدار إلى بغداد، وتجهز وأنحدر هو والمتقي، واستعمل على أعمال الخراج والضياغ بديار مصر، وهي الرها وحرّان والرقة، أبا الحسن علي بن طيّاب، وسيّره من الموصل.

وكان على ديار مصر أبو الحسين أحمد بن علي بن مقاتل خليفة لابن رائق، فاقتلوا، فقتل أبو الحسين بن مقاتل واستولى ابن طيّاب عليها، فلما قارب المتقي لله وناصر الدولة بن حمدان بغداد هرب أبو الحسين منها إلى واسط، واضطربت العامة ببغداد، ونهب الناس بعضهم بعضاً، وكان مقام أبي الحسين ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، ودخل المتقي لله إلى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة، واستوزر المتقي أبا إسحاق القراريطي، وقلّد توزون شرطة جانيي بغداد، وذلك في شوال.

لما هرب أبو الحسين البريدي إلى واسط، ووصل بنو حمدان والمتقي إلى بغداد، خرج بنو حمدان عن بغداد نحو واسط، وكان أبو الحسين قد سار من واسط إليهم ببغداد، فأقام ناصر الدولة بالمدائن، وسير أخاه سيف الدولة وابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان في الجيش إلى قتال أبي الحسين، فالتقوا تحت المدائن بفوسخين، واقتلوا عدة أيام آخرها رابع ذي الحجة، وكان توزون وخججج والأتراك مع ابن حمدان، فانهزم سيف الدولة ومن معه إلى المدائن، وبها ناصر الدولة، فردهم وأضاف

وأرسل ابن حمدان إلى المتقي يقول: إنه علم أن ابن رائق أراد أن يقتاله، (٣٨٣/٨) ففعل به ما فعل؛ فردّ عليه المتقي ردّاً جميلاً، وأمره بالمسير إليه، فسار ابن حمدان إلى المتقي لله، فخلع عليه، ولقّبه ناصر الدولة، وجعله أمير الأمراء، وذلك مستهلاً شعبان، وخلع على أخيه أبي الحسين علي، ولقّبه سيف الدولة.

وجوهها، فقلّده وزارته.

وكان يجمعهما مع الذي ذكرنا أنهما كانا من الشيعة، فإن علي بن جعفر كان من دُعاة الباطنية، والمرزبان مشهور بذلك، وكان ديسم كما ذكرنا (٣٨٧/٨) يذهب إلى مذهب الخوارج في بغض علي، عليه السلام، ففر عنه مَنْ عنده من الديلم، وابتدأ علي بن جعفر فكتاب من يعلم أنه يستوحش من ديسم يستميله، إلى أن أجابه أكثر أصحابه، وفسدت قلوبهم على ديسم، وخاصة الديلم، وسار المرزبان إلى أذربيجان، وسار ديسم إليه، فلما اتقيا للحرب عاد الديلم إلى المرزبان، وتبعهم كثير من الأكراد مستأمنين، فحمل المرزبان على ديسم، فهرب في طائفة يسيرة من أصحابه إلى أرمينية، واعتصم بحاجيق بن الديرائي، لمودة بينهما، فأكرمه، واستأنف ديسم يولف الأكراد، وكان أصحابه يشيرون عليه بإبعاد الديلم لمخالفتهم إياه في الجنس والمذهب، فعصاهم، وملك المرزبان أذربيجان، واستقام أمره إلى أن فسد ما بينه وبين وزيره علي بن جعفر.

وكان سبب الوحشة بينهما أن علياً أساء السيرة مع أصحاب المرزبان، فتضافروا عليه، فأحسن بذلك، فاحتال على المرزبان، فأطمعه في أموال كثيرة يأخذها له من بلد تبريز، فضم إليه جنداً من الديلم وسيرهم إليها، فاستمال أهل البلد، فعرفهم أن المرزبان إنما سيره إليهم ليأخذ أمواله، وحسن لهم قتل مَنْ عندهم من الديلم، ومكاتبه ديسم ليقدم عليهم، فأجابوه إلى ذلك.

وكتاب ديسم، ووثب أهل البلد بالديلم فقتلوه، وسار ديسم فيمن اجتمع إليه من العسكر إلى تبريز، وكان المرزبان قد أساء إلى مَنْ استأمن إليه من الأكراد، فلما سمعوا بديسم أنه يريد تبريز ساروا إليه، فلما اتصل (٣٨٨/٨) ذلك بالمرزبان ندم على إيهاش علي بن جعفر، ثم جمع عسكره وسار إلى تبريز، فتحارب هو وديسم بظاهر تبريز، فانهزم ديسم والأكراد، وعادوا فتحصنوا بتبريز، وحصرهم المرزبان وأخذ في إصلاح علي بن جعفر ومراسلته، وبذل له الأيمان على ما يريد، فأجابه علي: إنني لا أريد من جميع ما بذلته إلا السلامة وترك العمل؛ فأجابه إلى ذلك وحلف له.

واشتد الحصار على ديسم، فسار من تبريز إلى أردبيل، وخرج علي بن جعفر إلى المرزبان، فساروا إلى أردبيل وترك المرزبان علي تبريز من يحصرها، وحصر هو ديسم بأردبيل، فلما طال الحصار عليه طلب الصلح، وراسل المرزبان في ذلك، فأجابه إليه، فاصطلحا وتسلم المرزبان أردبيل، فأكرم ديسم وعظمه، ووفى له بما حلف له عليه، ثم إن ديسم خاف على نفسه من المرزبان، فطلب منه أن يسيره إلى قلعة بالطرم فيكون فيها هو وأهله، ويقنع

إليهم من كان عنده (٣٨٥/٨) من الجيش، فعاودوا القتال، فانهزم أبو الحسين البريدي، وأسر جماعة من أعيان أصحابه، وقُتل جماعة، وعاد أبو الحسين البريدي منهزماً إلى واسط، ولم يقدر سيف الدولة على اتباعه إليها لما في أصحابه من الوهن والجراح.

وكان المتقي قد سير أهله من بغداد إلى سُرّ مَنْ رأى، فأعادهم، وكان أعيان الناس قد هربوا من بغداد، فلما انهزم البريدي عادوا إليها، وعاد ناصر الدولة بن حمدان إلى بغداد، فدخلها ثالث عشر ذي الحجة، وبين يديه الأسرى على الجمال، ولما استراح سيف الدولة وأصحابه انحدروا من موضع المعركة إلى واسط، فراوا البريديين قد انحدروا إلى البصرة، فأقام بواسط ومعه الجيش، وسنذكر من أخباره سنة إحدى وثلاثين [وثلاثمائة].

ولما عاد ناصر الدولة إلى بغداد نظر في العيار، فرآه ناقصاً، فأمر بإصلاح الدنانير، فضرب دنانير سماها الإبريزية، عيارها خير من غيرها، فكان الدينار بعشرة دراهم، فبيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً.

ذكر استيلاء الديلم على أذربيجان

كانت أذربيجان بيد ديسم بن إبراهيم الكردي، وكان قد صاحب يوسف ابن أبي الساج، وخدم وتقدّم حتى استولى على أذربيجان، وكان يقول بمذهب الشراة هو وأبوه، وكان أبوه من أصحاب هارون الشاري، فلما قُتل هارون هرب إلى أذربيجان، وتزوج ابنة رئيس من أكرادها، فولدت له ديسم، (٣٨٦/٨) فانضم إلى أبي الساج، فارتفع وكبر شأنه، وتقدم إلى أن ملك أذربيجان بعد يوسف بن أبي الساج، وكان معظم جيوشه الأكراد، إلا نفرأ يسيراً من الديلم، من عسكر وشمكير، أقاموا عنده حين صحبوه إلى أذربيجان.

ثم إن الأكراد تقروا، وتحكّموا عليه، وتغلبوا على بعض قلاع وأطراف بلاده، فرأى أن يستظهر عليهم بالديلم، فاستكثر ذلك منهم، وكان فيهم صعلوك بن محمد بن مسافر، وعلي بن الفضل وغيرهما، فأكرمهم ديسم، وأحسن إليهم، وانتزع من الأكراد ما تغلبوا عليه من بلاده، وقبض على جماعة من رؤسائهم.

وكان وزيره أبا القاسم علي بن جعفر، وهو من أهل أذربيجان، فسمى به أعداءه، فأخافه ديسم، فهرب إلى الطرم إلى محمد بن مسافر، فلما وصل إليه رأى ابنه وهسودان والمرزبان قد استوحشا منه، واستوليا على بعض قلاعه، وكان سبب وحشتهما سوء معاملته معهما ومع غيرهما، ثم إنهما قبضا على أبيهما محمد بن مسافر، وأخذوا أمواله وذخائره، وبقي في حصن آخر وحيداً فريداً بغير مال ولا عدة، فرأى علي بن جعفر الحال فتقرب إلى المرزبان وخدمه وأطمعه في أذربيجان، وضمن له تحصيل أموال كثيرة يعرف هو

ذكرناه، وعاد إلى جرجان، سار وشمكير من طبرستان إلى الري فملكها واستولى عليها، وراسله الحسن بن الفيرزان يستميله، وردّ عليه ابنه سالار الذي كان عند أبي علي رهينة، وقصد أن يتقوى به على الخراسانية إن عادوا إليه، فالان له وشمكير الجواب، ولم يصرح بما يخالف قاعدته مع أبي علي.

ذكر استيلاء ركن الدولة على الريّ

لما سمع ركن الدولة وأخوه عماد الدولة ابنا بويه بملك وشمكير الريّ طمعا فيه لأن وشمكير كان قد ضعف، وقُلّت رجاله وماله بتلك الحادثة مع أبي (٣٩١/٨) علي، فسار ركن الدولة الحسن بن بويه إلى الريّ واقتل هو وشمكير، فانهزم وشمكير، واستأمن كثير من رجاله إلى ركن الدولة، فسار وشمكير إلى طبرستان، فقصدته الحسن بن الفيرزان، فاستأمن إليه كثير من عسكره أيضاً، فانهزم وشمكير إلى خراسان.

ثم إن الحسن بن الفيرزان راسل ركن الدولة وواصله، فستزوج ركن الدولة بتاً للحسن، فولدت له ولده فخر الدولة عليّاً.

وكان ينبغي أن نذكر هذه الحوادث بعد وفاة السعيد نصر بن أحمد وإنما ذكرناها هنا ليتلو بعضها بعضاً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة صُرف بدر الخُرشي عن حجة الخليفة، وجُعل مكانه سلامة الطولوني.

وفيها ظهر كوكب، في المحرم، بذهب عظيم في أول برج القوس، وآخر برج العقرب بين الغرب والشمال، وكان رأسه في المغرب وذهبه في المشرق، وكان عظيماً منتشر الذنب، وبقي ظاهراً ثلاثة عشر يوماً، وسار في القوس والجدي ثم اضمحلّ.

وفيها اشتدّ الغلاء لا سيما بالعراق، وبيع الخبز أربعة أروطال بغير اطين صحيح أميري، وأكل الضعفاء الميتة، وكثر الوباء والموت جُدّاً.

(٣٩٢/٨) وفيها، في ربيع الآخر، وصل الروم إلى قرب حلب، ونهبوا وخربوا البلاد، وسبوا نحو خمسة عشر ألف إنسان.

وفيها دخل الثعلبيّ من ناحية طَرَسُوس إلى بلاد الروم، فقتل، وسبى، وغنم وعاد سالماً، وقد أسر عدة من بطارتهم المشهورين.

وفيها، في ذي القعدة، قُلّد المتقيّ لله بدر الخُرشي طريق الفرات، فسار إلى الإخشيد مستأناً فقلده بلدة دمشق، فلما كان بعد مدة حُمّ ومات بها.

وفيها، في جمادى الآخرة، ولد أبو منصور بويه بن ركن الدولة

بما يتحصّل له منها، ولا يكلفه شيئاً آخر، ففعل المرزبان ذلك، وأقام ديسم بقلعته هو وأهله.

ذكر استيلاء أبي علي بن محتاج على بلد الجبل وطاعة وشمكير للسامانية

قد ذكرنا سنة تسع وعشرين [وثلاثمائة] مسير أبي علي بن محتاج صاحب جيوش خراسان للسامانية إلى الريّ، وأخذها من وشمكير، ومسير وشمكير (٣٨٩/٨) إلى طبرستان، وأقام أبو علي بالري، بعد ملكها، تلك الشتوة، وسير العساكر إلى بلد الجبل، فافتتحها، واستولى على زنكان، وأبهر، وقزوین، وقم، وكرج، وهمدان، ونهاوند والدينور إلى حدود حلوان، ورَتَب فيها العمال، وجبى أموالها.

وكان الحسن بن الفيرزان بسارية، فقصدته وشمكير وحصره، فسار إلى أبي علي واستنجدته، وأقام وشمكير متحصّناً بسارية، فسار إليه أبو علي ومعه الحسن وحصره بها سنة ثلاثين [وثلاثمائة] وضيق عليه، وألح عليه بالقتال كل يوم، وهم في شتاء شاتٍ كثير المطر، فسأل وشمكير المواعدة، فصالحه أبو علي، وأخذ رهائنه على لزوم طاعة الأمير نصر بن أحمد الساماني، ورحل عنه إلى جرجان في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، فأتاه موت الأمير نصر بن أحمد، فسار عنها إلى خراسان.

ذكر استيلاء الحسن بن الفيرزان على جرجان

كان الحسن بن الفيرزان عمّ ماكان بن كالي، وكان قريباً منه في الشجاعة، فلما قُتل ماكان راسله وشمكير ليدخل فسي طاعته، فلم يفعل، وكان بمدينة سارية، وصار يسبّ وشمكير، وينسبه إلى المواطاة على قتل ماكان، فقصدته وشمكير، فسار الحسن من سارية إلى أبي علي صاحب جيوش خراسان، واستنجدته، فسار معه أبو علي من الري، فحصر وشمكير بسارية، وأقام يحاصره إلى سنة إحدى وثلاثين [وثلاثمائة]، واصطلحا.

(٣٩٠/٨) وعاد أبو علي إلى خراسان، وأخذ ابناً لوشمكير، اسمه سالار، رهينة، وصحبه الحسن بن الفيرزان، وهو كاره للصالح، فبلغه وفاة السعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان، فلما سمع الحسن ذلك عزم على الفتك بأبي علي، فثار به وبعسكره، فلمسلم أبو علي، ونهب الحسن سواده، وأخذ ابن وشمكير، وعاد إلى جرجان فملكها، وملك الدامغان وسمنان، ولما وصل أبو علي إلى نيسابور رأى إبراهيم بن سيمجور الدواتي قد امتنع عليه بها وخالفه، فترددت الرسل بينهم فاصطلحوا.

ذكر ملك وشمكير الريّ

لما انصرف أبو علي إلى خراسان، وجرى عليه من الحسن ما

بن بويه وهو مؤيد الدولة. ثم صار يركب كل يوم قبل العصر بساعة في جميع عسكره ويطوف صحاري قرقيسيا إلى آخر النهار، وعيونه تأتيه من أهل الخابور بأنه يحذرون كلما سمعوا بحركته، ففعل ذلك أربعين يوماً، فلما رأى أهل الخابور اتصال ركوبه، وأنه لا يقصدهم، فرقوا جمعهم وأمنوه، فاته عيونه بذلك على رسمه، فلما تكامل رجاله أمرهم بالمسير، وأن يرسلوا غلمانهم في حمل أثقالهم، وسار لوقته فصبح الشسانية، وهي من أعظم قرى الخابور وأحسنها، فتحصن أهلها منه، فقاتلهم وتقب السور وملكها وقتل فيها، وأخذ من أهلها مالا كثيراً، وأقام بها أياماً، ثم سار إلى غيرها، فبقي في الخابور ستة أشهر، فجس الخراج والأموال العظيمة، واستظهر بها، وقوي أصحابه بما وصل إليهم أيضاً، وعاد إلى الرجبة، واتسعت حاله، واشتد أمره، وقصده العساكر من بغداد، فعظم حاله.

وفيها توفي القاضي أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل المحاملي، الفقيه الشافعي، وهو من المكثرين في الحديث، وكان مولده سنة خمس وثلاثين ومائتين، وكان على قضاء الكوفة وفارس، فاستعفى من القضاء وألح في ذلك، فأجيب إليه.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري المتكلم، صاحب المذهب المشهور، وكان مولده سنة ستين ومائتين، وهو من ولد أبي موسى الأشعري. (٣٩٣/٨)

وفيها مات محمد بن محمد الجيهاني وزير السعيد نصر بن أحمد تحت الهدم.

وفيها توفي محمد بن يوسف بن النضر الهروي، الفقيه الشافعي، وكان مولده سنة تسع وعشرين ومائتين، وأخذ عن الربيع بن سليمان صاحب الشافعي وتعلم منه. (٣٩٤/٨)

سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة

ذكر ظفر ناصر الدولة بعدل البجكمي

في هذه السنة ظفر أبو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان بعدل حاجب بجكم، وسلمه، وسيّره إلى بغداد.

وسبب ذلك أن عدلاً صار بعد قتل بجكم مع ابن رائق، وسار معه إلى بغداد، وأصعد معه إلى الموصل، فلما قتل ناصر الدولة أبا بكر بن رائق، كما ذكرناه، صار عدل في جملة ناصر الدولة، فسيّره ناصر الدولة مع علي ابن خلف بن طيّاب إلى ديار مصر، والشام الذي كان بيد ابن رائق، وكان بالرجبة من جهة ابن رائق رجل يقال له مسافر بن الحسن، فلما قُتل ابن رائق استولى مسافر هذا على الناحية، ومنع منها، وجبى خراجها، فأرسل إليه ابن طيّاب عدلاً في جيش ليخرجه عن الرجبة، فلما سار إليها فارقها مسافر من غير قتال، وملك عدل الحاجب البلد، وكانت من ببغداد من البجكمية، فقصده مستخفي، فقوي أمره بهم، واستولى على طريق الفرات، وبعض الخابور.

ثم إن مسافراً جمع جمعاً من بني نمير وسار إلى قرقيسيا، فأخرج منها (٣٩٥/٨) أصحاب عدل وملكها، فسار عدل إليها، واستتر عنها، وعزم عدل على قصد الخابور وملكه، فاحتاط أهله منه، واستنصروا ببني نمير، فلما علم ذلك عدل ترك قصدهم.

وكان سيف الدولة يزهد بالأتراك في العراق، ويحسن لهم قصد الشام معه والاستيلاء عليه وعلى مصر، ويقع في أخيه عندهم، فكانوا يصدقونه في أخيه، ولا يجيئونه إلى المسير إلى الشام معه، ويتسحبون عليه، وهو يجيئهم إلى الذي يريدونه.

فلما كان سلخ شعبان ثار الأتراك بسيف الدولة فكبسوه ليلاً، فهرب من معسكره إلى بغداد، ونهب سواده، وقتل جماعة من

ذكر حال سيف الدولة بواسط

قد ذكرنا مقام سيف الدولة علي بن حمدان بواسط، بعد انحدار البريديين عنها، وكان يريد الانحدار إلى البصرة لأخذها من البريدي، ولا يمكنه لقلّة المال عنده، ويكتب إلى أخيه في ذلك، فلا ينفذ إليه شيئاً، وكان توزون وخجنج يسيران الأدب ويتحكمان عليه.

ثم إن ناصر الدولة أنفذ إلى أخيه مالا مع أبي عبد الله الكوفي ليفرقه في الأتراك، فأسمعه توزون وخجنج المكره، وثارا به، فأخذ سيف الدولة وغيبه عنهما وسيّره إلى بغداد، وأمر توزون أن يسير إلى الجاملة ويأخذها وينفذ بحاصلها، وأمر خجنج أن يسير إلى مذار ويحفظها ويأخذ حاصلها.

أصحابه. توزون، وكان دخوله بغداد في الخامس والعشرين من رمضان،

فخلع عليه المتقي لله، وجعله أمير الأمراء، وصار أبو جعفر الكرخي ينظر في الأمور كما كان الكوفي ينظر فيها.

ولما سار توزون عن واسط أصعد إليها البريدي، فهرب من بها من أصحاب توزون إلى بغداد، ولم يمكن توزون المبادرة إلى واسط إلى أن تستقر الأمور ببغداد، فأقام إلى أن مضى بعض ذي القعدة.

وكان توزون قد أسر غلاماً عزيزاً على سيف الدولة قريباً منه، يقال له ثمال، فأطلقه وأكرمه وأنفذه إليه، فحسن موقع ذلك من بني حمدان، ثم إن توزون انحدر إلى واسط لقصد البريدي، فأتاه أبو جعفر بن شيرزاد هارباً من البريدي، فقبله، وفرح به، وقلّده أمره كلها.

ذكر مسير صاحب عمّان إلى البصرة

في هذه السنة، في ذي الحجة، سار يوسف بن وجيه صاحب عمّان في مراكب كثيرة يريد البصرة، وحارب البريدي، فملك الأبلّة، وقوي قوة عظيمة، وقارب أن يملك البصرة، فأشرف البريدي وإخوته على الهلاك. (٤٠٠/٨)

وكان له ملاح يُعرف بالرنادي، فضمن للبريدي هزيمة يوسف، فوعده الإحسان العظيم، وأخذ الملاح زورقين فملاهما سعفاً يابساً، ولم يعلم به أحد، وأحدرهما في الليل حتى قارب الأبلّة.

وكانت مراكب ابن وجيه تُشدّ بعضها إلى بعض في الليل، فتصير كالجسر، فلما انتصف الليل أشعل ذلك الملاح النار في السعف الذي في الزورقين، وأرسلهما مع الجزر والنار فيهما، فأقبلا أسرع من الريح، فوقعا في تلك السفن والمراكب، فاشتعلت واحترقت قلوسها، واحترق من فيها، ونهب الناس منها مالاً عظيماً، ومضى يوسف بن وجيه هارباً في المحرم سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وأحسن البريدي إلى ذلك الملاح، وفي هذه الفتنة هرب ابن شيرزاد من البريدي وأصعد إلى توزون.

ذكر الوحشة بين المتقي لله وتوزون

كان محمد بن ينال الترجمان من أكبر قوّاد توزون، وهو خليفته ببغداد، فلما انحدر توزون إلى واسط سعى بمحمد إليه، وقَبَّح ذكره عنده، فبلغ ذلك محمداً فغفر منه.

وكان الوزير أبو الحسين بن مقلّة قد ضمن القرى المختصة بتوزون ببغداد، (٤٠١/٨) ففسخ فيها جملة، فخاف أن يطالب بها، وانضاف إلى ذلك اتصال ابن شيرزاد بتوزون، فخافه الوزير وغيره، وظنوا أن مصيره إلى توزون باتفاق من البريدي، فاتفق الترجمان وابن مقلّة، وكتبوا إلى ابن حمدان لينفذ عسكرياً يسيراً صحبة

(٣٩٧/٨) وأما ناصر الدولة فإنه لما وصل إليه أبو عبد الله الكوفي وأخبره الخبر برز ليسير إلى الموصل، فركب المتقي إليه، وسأله التوقّف عن المسير، فأظهر له الإجابة إلى أن عاد، ثم سار إلى الموصل ونهبت داره، وثار الديلم والأتراك، ودبّر الأمر أبو إسحاق القراريطي من غير تسمية بوزارة.

وكانت إمارة ناصر الدولة أبي محمد الحسين بن عبد الله بن حمدان ببغداد ثلاثة عشر شهراً وخمسة أيام، ووزارة أبي العباس الأصهباني أحدًا وخمسين يوماً، ووصل سيف الدولة إلى بغداد.

ذكر حال الأتراك بعد إصعاد سيف الدولة

لما هرب سيف الدولة من واسط عاد الأتراك إلى معسكرهم، فوقع الخلاف بين توزون وخججج، وتنازعا الإمارة، ثم استقر الحال على أن يكون توزون أميراً وخجججج صاحب الجيش، وتصارها.

وطمع البريدي في واسط، فأصعد إليها، فأمر توزون خجججج بالمسير إلى نهر أبان، وأرسل البريدي إلى توزون يطلب أن يضمّنه واسط، فردّه ردّاً جميلاً، ولم يفعل. ولما عاد الرسول أتبعه توزون بجاسوس يأتيه بخبره مع خجججج، فعاد الجاسوس فأخبر توزون بأن الرسول اجتمع هو وخجججج وطلال الحديث بينهما، وأن خجججج يريد أن ينتقل إلى البريدي، فسار توزون (٣٩٨/٨) إليه جريدة في مائتي غلام يثق بهم، وكبسه في فراشه ليلة الثاني عشر من رمضان، فلما أحسن به ركب دابته بقميص، وفي يده لث، ودفع عن نفسه قليلاً، ثم أخذ وحُمِلَ إلى توزون فحملة إلى واسط، فسمله وأعماه ثاني يوم وصوله إليها.

ذكر عود سيف الدولة إلى بغداد وهربه عنها

لما هرب سيف الدولة، على ما ذكرنا، لحق بأخيه، فبلغه خلاف توزون وخجججج، فقطع في بغداد، فعاد ونزل بباب حرب، وأرسل إلى المتقي لله يطلب منه مالاً ليقاتل توزون إن قصد بغداد، فأنفذ إليه أربع مائة ألف درهم، ففرّقها في أصحابه، وظهر من كان مستخفياً ببغداد وخرجوا إليه، وكان وصوله ثالث عشر رمضان.

ولما بلغ توزون وصول سيف الدولة إلى بغداد خَلَفَ بواسط كَيْفَلْغ في ثلاثمائة رجل وأصعد إلى بغداد، فلما سمع سيف الدولة بإصعاده رحل من باب حرب فيمن انضم إليه من أجناد بغداد، وفيهم الحسن بن هارون. (٣٩٩/٨)

ذكر إمارة توزون

قد ذكرنا مسير سيف الدولة من بغداد، فلما فارقتها دخلها

المتقي لله إليه، وقالوا للمتقي: قد رأيت ما فعل معك البريدي! بالأمس أخذ منك خمسمائة ألف دينار، وأخرجت على الأجناد مثلها، وقد ضمنك البريدي من توزون بخمسمائة ألف دينار أخرى، زعم أنها في يدك من تركة بجكم، وابن شيرزاد واصل ليتسلمك ويخلعك ويسلمك إلى البريدي؛ فانزعج لذلك، وعزم على الإصعاد إلى ابن حمدان، وورد ابن شيرزاد في ثلاثمائة رجل جريدة.

ذكر موت السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل

في هذه السنة توفي السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل، صاحب خراسان وما وراء النهر، في رجب، وكان مرضه السَّل، فبقي مريضاً ثلاثة عشر شهراً، ولم يكن بقي من مشايخ دولتهم أحد، فإنهم كانوا قد سعى بعضهم ببعض، فهلك بعضهم، ومات بعضهم، وكانت ولايته ثلاثين سنة وثلاثة وثلاثين يوماً، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة. (٤٠٢/٨)

وكان حليماً، كريماً، عاقلاً، فمن حلمه أنَّ بعض الخدم سرق جوهرًا نفيساً وباعه من بعض التجار بثلاثة عشر ألف درهم، فحضر التاجر عند السعيد وأعلمه أنه قد اشترى جوهرًا نفيساً لا يصلح إلا للسلطان، وأحضر الجوهر عنده، فحين رآه عرفه أنه كان له وقد سرق، فسأله عن ثمنه، ومن أين اشتراه، فذكر له الخادم والثمن، فأمر فأحضر ثمنه في الحال، وأربحه ألفي درهم زيادة.

ثم إن التاجر سأله في دم الخادم، فقال: لا بد من تأديبه، وأما دمه فهو لك؛ فأحضره وأدبه، ثم أنفذه إلى التاجر وقال: كنا وهبنا لك دمه، فقد أنفذه إليك؛ فلو أن صاحب الجوهر بعض الرعايا لقال: هذا مالي قد عاد إلي وخذ أنت مالك ممن سلمته إليه.

وحكي أنه استعرض جنده، وفيهم إنسان اسمه نصر بن أحمد، فلما بلغه العرض سأله عن اسمه فسكت، فأعاد السؤال فلم يجبه، فقال بعض من حضر: اسمه نصر بن أحمد، وإنما سكنت إجلالاً للأمير؛ فقال السعيد: إذا يوجب حقه، ونزد في رزقه؛ ثم قرَّبه وزاد في أرزاقه.

وحكي عنه أنه لما خرج عليه أخوه أبو زكريا نهب خزائنه وأمواله، فلما عاد السعيد إلى ملكه قيل له عن جماعة انتهبوا ماله، فلم يعرض إليهم، وأخبروه أن بعض السوق اشترى منها سكيناً نفيساً بمائتي درهم، فأرسل إليه وأعطاه مائتي درهم وطلب السكين، فأبى أن يبيعه إلا بألف درهم، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ أرى عنده مالي، فلم أعاقبه، وأعطيته حقه، فاشتط في الطلب؛ ثم أمر برضائه.

وحكي أنه طال مرضه فبقي به ثلاثة عشر شهراً، فأقبل على

ذكر ولاية ابنه الأمير نوح بن نصر

لما مات نصر بن أحمد تولى بعده خراسان وما وراء النهر ابنه نوح، واستقر في شعبان من هذه السنة، وبايعه الناس، وحلفوا له، ولقب بالأمير الحميد، وفوض أمره وتدبير مملكته إلى أبي الفضل محمد بن أحمد الحاكم، وصدر عن رأيه.

ولما ولي نوح هرب منه أبو الفضل بن أحمد بن حمويه، وهو من أكابر أصحاب أبيه، وكان سبب ذلك أن السعيد نصرًا كان قد ولي ابنه إسماعيل بخاري، وكان أبو الفضل يتولى أمره وخلافته، فأساء السيرة مع نوح وأصحابه، فحقد ذلك عليه، ثم توفي إسماعيل في حياة أبيه.

وكان نصر يميل إلى أبي الفضل ويؤثره، فقال له: إذا حدث عليَّ حادث الموت فأنج بنفسك، فإني لا آمن نوحاً عليك؛ فلما مات الأمير نصر سار أبو الفضل من بخاري وعبر جيحون، وورد آمل، وكاتب أبا علي بن محتاج، وهو بنسبabor، يعرّفه الحال، وكان بينهما مصاهرة، فكتب إليه أبو علي ينهيه عن الإلمام بناحيته لمصلحة.

ثم إن الأمير نوحاً أرسل إلى أبي الفضل كتاب أمان بخطه، فعاد إليه (٤٠٤/٨) فأحسن الفعل معه، وولاه سمرقند، وكان أبو الفضل معرضاً عن محمد بن أحمد الحاكم، ولا يلتفت إليه، ويسميه الخياط، فأضمر الحاكم بغضه والإعراض عنه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، وصل معز الدولة بن بويه إلى البصرة، فحارب البريديين، وأقام عليهم مدة، ثم استأمن جماعة من قواده إلى البريديين، فاستوحش من الباقيين، فانصرف عنهم.

وفيها تزوج الأمير أبو منصور بن المتقي لله بآبنة ناصر الدولة بن حمدان، وكان الصداق ألف ألف درهم، والحمل مائة ألف دينار.

وفيها قبض ناصر الدولة على الوزير أبي إسحاق القراربي، وربّ مكانه أبا العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني في رجب، وكان أبو عبد الله الكوفي هو الذي يدبّر الأمور، وكانت وزارة القراربي ثمانية أشهر وستة عشر يوماً، وكان ناصر الدولة ينظر في قصص الناس وتقام الحدود بين يديه، ويفعل ما يفعل صاحب الشرطة.

وكان المتقي قد أتفق يطلب من ناصر الدولة بن حمدان إنفاذ جيش إليه ليصحبوه إلى الموصل، فأنفذهم مع ابن عمه أبي عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، فلما وصلوا إلى بغداد نزلوا بباب حرب، واستمر ابن شيرزاد، وخرج المتقي إليهم في حُرْمه، وأهله، ووزيره، وأعيان بغداد، مثل سلامة الطولوني، وأبي زكريا يحيى بن سعيد السوسي، وأبي محمد المارداني، وأبي إسحاق الفارابي، وأبي عبد الله الموسوي، وثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الطيب، وأبي نصر محمد بن ينال الترجمان، وغيرهم.

ولما سار المتقي من بغداد ظلم ابن شيرزاد الناس وعسفهم وصادرهم، وأرسل إلى توزون، وهو بواسط، يخبره بذلك، فلما بلغ توزون الخبر عقد ضمان (٤٠٧/٨) واسط على البريدي وزوجه ابنته، وسار إلى بغداد، وانحدر سيف الدولة وحده إلى المتقي لله بتكريت، فأرسل المتقي إلى ناصر الدولة يستدعيه ويقول له: لم يكن الشرط معك إلا أن تتحدر إلينا؛ فانحدر، فوصل إلى تكريت في الحادي والعشرين من ربيع الآخر، وركب المتقي إليه، فلقبه بنفسه، وأكرمه.

وأصعد الخليفة إلى الموصل، وأقام ناصر الدولة بتكريت، وسار توزون نحو تكريت، فالتقى هو وسيف الدولة بن حمدان تحت تكريت بفرسخين، فاقتتلوا ثلاثة أيام، ثم انهزم سيف الدولة يوم الأربعاء ثلاث بقين من ربيع الآخر، وغنم توزون والأعراب سواده وسواد أخيه ناصر الدولة، وعادا من تكريت إلى الموصل ومعهما المتقي لله.

وشغب أصحاب توزون فعاد إلى بغداد، وعاد سيف الدولة وانحدر فالتقى هو وتوزون بخرى في شعبان، فانهزم سيف الدولة مرة ثانية، وتبعه توزون.

ولما بلغ سيف الدولة إلى الموصل سار عنها هو وأخوه ناصر الدولة والمتقي لله ومن معهم إلى نصيبين، ودخل توزون الموصل، فسار المتقي إلى الرقة، ولحقه سيف الدولة، وأرسل المتقي إلى توزون يذكر أنه استوحش منه لاتصاله بالبريدي، وأنهما صارا يداً واحدة، فإن أتر رضاه يصلح سيف الدولة وناصر الدولة ليعود إلى بغداد، وتردد أبو عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي من الموصل إلى توزون في ذلك فتم الصلح، وعقد الضمان على ناصر الدولة لما بيده من البلاد ثلاث سنين، كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمئة ألف درهم، (٤٠٨/٨) وعاد توزون إلى بغداد، وأقام المتقي عند بني حمدان بالموصل، ثم ساروا عنها إلى الرقة فأقاموا بها.

ذكر وصول معز الدولة إلى واسط وديالي وعوده

وفي هذه السنة بلغ معز الدولة أبا الحسين بن بويه إصعاداً

وفيها كانت الزلزلة المشهورة بناحية نسا من خراسان، فخربت قرى كثيرة، ومات تحت الهدم عالم عظيم، وكانت عظيمة جداً.

وفيها استقدم الأمير نوح محمد بن أحمد النسفي البردهي، وكان قد طعن فيه عنده، فقتله وصلبه، فسرق من الجذع، ولم يعلم من سرقه.

(٤٠٥/٨) وفيها استوزر المتقي لله أبا الحسين بن مقله، ثامن شهر رمضان، بعد إصعاد ناصر الدولة من بغداد إلى الموصل، وقبل إصعاد أخيه سيف الدولة من واسط إلى بغداد.

وفيها أرسل ملك الروم إلى المتقي لله يطلب منديلاً زعم أن المسيح مسح به وجهه، فصارت صورة وجهه فيه، وأنه في بيعة الرها. وذكر أنه إن أرسل المندبل أطلق عدداً كثيراً من أسارى المسلمين، فأحضر المتقي لله القضاة والفقهاء، واستفتاهم، فاختلفوا، فبعض رأى تسليمه إلى الملك وإطلاق الأسرى، وبعض قال إن هذا المندبل لم يزل من قديم الدهر في بلاد الإسلام لم يطلبه ملك من ملوك الروم، وفي دفعه إليهم غضاضة.

وكان في الجماعة علي بن عيسى الوزير، فقال: إن خلاص المسلمين من الأسر ومن الضر والضنك الذي هم فيه أولى من حفظ هذا المندبل؛ فأمر الخليفة بتسليمه إليهم، وإطلاق الأسرى، ففعل ذلك، وأرسل إلى الملك من يتسلم الأسرى من بلاد الروم فأطلقوا.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن إسماعيل الفرغاني الصوفي أستاذ أبي بكر الدقاق، وهو مشهور بين المشايخ.

وفيها توفي محمد بن يزداد الشهرزوري، وكان يلي إمرة دمشق لمحمد بن رائق، ثم اتصل بالإخشيد فجعله على شرطته بمصر.

وفيها توفي سنان بن ثابت بن قرة، مستهل ذي القعدة بعلّة الذرب، وكان حاذقاً في الطب، فلم يُغن عنه عند دنو الأجل شيئاً.

وفيها أيضاً مات أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري. (٤٠٦/٨)

سنة اثنتين وثلاثين و ثلاثمائة

ذكر مسير المتقي إلى الموصل

في هذه السنة أصعد المتقي لله إلى الموصل.

وسبب ذلك ما ذكرنا أولاً من سعاية ابن مقله والترجمان مع المتقي بتوزون وابن شيرزاد، ثم إن ابن شيرزاد وصل خامس المحرم إلى بغداد في ثلاث مائة غلام جريدة، فإزداد خوف المتقي، وأقام ببغداد يأمر وينهى، ولا يراجع المتقي في شيء.

توزون إلى الموصل، فسار هو إلى واسط لميعاد من البريديّين، وكانوا قد وعدوه أن يمدّوه بعسكر في الماء، فأخلفوه.

ورهم، فلما عاد الرسول إلى أبي عبد الله أبلغه ذلك، فدمعت عيناه وقال: ألا قلت له: جنوني وقلة تحصيلي أقعدك هذا المقعد وصيرك كقارون! ثم عدّد ما عمله معه من الإحسان.

وعاد توزون من الموصل إلى بغداد، وانحدر منها إلى لقاء معز الدولة، والتفرا سابع عشر ذي القعدة بقياب حُميد، وطالت الحرب بينهما بضعة عشر يوماً، إلا أن أصحاب توزون يتأخرون، والديلم يتقدّمون، إلى أن عبر توزون نهر ديالي، ووقف عليه، ومنع الديلم من العبور.

وكان مع توزون مقابلة في الماء في دجلة، فكانوا يودون [أن] الديلم يستولون على أطرافهم، فرأى ابن بويه أن يصعد على ديالي ليعبد عن دجلة وقاتل من بهاء، ويتمكّن من الماء، فلمع توزون بذلك، فسير بعض أصحابه، وعبروا ديالي وكنّوا، فلما سار معز الدولة مصعباً وسار سواده في أشره خرج الكمين عليه، فحالوا بينهما، ووقعوا في العسكر وهو على غير تعبئة.

وسمع توزون الصباح، فتعجّل، وعبر أكثر أصحابه سباحة، فوقعوا في عسكر ابن بويه يقتلون ويأسرون حتى ملوا، وانهزم ابن بويه ووزيره الصيمري إلى السوس رابع ذي الحجة ولحق به من سلم من عسكره، وكان قد أسر منهم أربعة عشر قائداً منهم ابن الداعي العلوي، واستأمن كثير من (٤٠٩/٨) الديلم إلى توزون؛ ثم إن توزون عاوده ما كان يأخذه من الصرع، فشغل بنفسه عن معز الدولة وعاد إلى بغداد.

ذكر قتل أبي يوسف البريدي

في هذه السنة قتل أبو عبد الله البريدي أخاه أبا يوسف.

وكان سبب قتله أن أبا عبد الله البريدي كان قد نفذ ما عنده من المال في محاربة بني حمدان ومقامهم بواسط، وفي محاربة توزون، فلما رأى جنده قلّة ماله مالوا إلى أخيه أبي يوسف لكثرة ماله، فاستقرض أبو عبد الله من أخيه أبي يوسف مرة بعد مرة، وكان يعطيه القليل من المال، ويعيه ويذكر تضييعه وسوء تدبيره، وجنونه وتهزّره، فصح ذلك عند أبي عبد الله، ثم صحّ عنده أنه يريد القبض عليه أيضاً، والاستبداد بالأمر وحده، فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه.

ثم إن أبا عبد الله أنفذ إلى أخيه جوهرًا نفيساً كان يجكم قد وهبه لبتّه لما تزوّجها البريدي، وكان قد أخذه من دار الخلافة، فأخذه أبو عبد الله منها حين تزوّجها، فلما جاءه الرسول وأبلغه ذلك وعرض عليه الجوهر أحضر الجوهريّين ليثمنوه، فلما أخذوا في وصفه أنكر عليهم ذلك، وحرد، ونزل في ثمنه إلى خمسين ألف درهم، وأخذ في الواقعة في أخيه أبي عبد الله وذكر (٤١٠/٨) معاييه وما وصل إليه من المال، وأنفذ مع الرسول خمسين ألف

فلما كان بعد أيام أقام غلماناً في طريق مسقف بين داره والشطّ، وأقبل أخوه أبو يوسف من الشطّ، فدخل في ذلك الطريق، وثاروا به فقتلوه وهو يصيح: يا أخي، يا أخي، قتلوني! وأخوه يسمعه ويقول: إلى لعنة الله! فخرج أخوهما أبو الحسين من داره، وكان بجانب دار أخيه أبي عبد الله، وهو يستغيث: يا أخي قتلته! فسبه وهذّده، فسكت، فلما قُتل دفنه، وبلغ ذلك الخبر الجند، فثاروا وشغبوا ظناً منهم أنه حي، فأمر به فُنيش وألقاه على الطريق، فلما رآه سكتوا، فأمر به فذُفن، وانتقل أبو عبد الله إلى دار أخيه أبي يوسف، فأخذ ما فيها، والجوهر في جملته، ولم يحصل من مال أخيه على طائل، فإن أكثره انكسر على الناس، وذهبت نفس أخيه.

ذكر وفاة أبي عبد الله البريدي

وفيها، في شوال، مات أبو عبد الله البريدي بعد أن قتل أخاه بشامية أشهر بحمى حادة، واستقر في الأمر بعده أخوه أبو الحسين، فأساء السيرة إلى الأجناد، فثاروا به ليقتلوه ويجعلوا أبا القاسم ابن أخيه أبي عبد الله مكانه، فهرب منهم إلى هجر، واستجار بالقرامطة فأعانوه، وسار معه إخوان لأبي طاهر القرمطي في جيش إلى البصرة فأروا أبا القاسم قد حفظها، فردّهم عنها، فحصره مدة (٤١١/٨) ثم صجروا وأصلحو بينه وبين عمه وعادوا، ودخل أبو الحسين البصرة، فتجهز منها، وسار إلى بغداد فدخل على توزون.

ثم طمع يأنس مولى أبي عبد الله البريدي في التقدم، فواطأ قائداً من قوّاد الديلم على أن تكون الرئاسة بينهما، ويزيلا أبا القاسم مولا، فاجتمعت الديلم عند ذلك القائد، فأرسل أبو القاسم إليهم يأنس، وهو لا يشعر بالأمر، فلما أتاهم يأنس أشار عليهم بالتوقف، فطمع فيه ذلك القائد الديلمي، وأحب التفرد بالرئاسة، فأمر به فضرب بزويين في ظهره فجرح، وهرب يأنس واختفى.

ثم إن الديلم اختلفت كلمتهم، ففترقوا، واختفى ذلك القائد، فأخذ ونفي، وأمر أبو القاسم البريدي بمعالجة يأنس، وقد ظهر له حاله، فعولج حتى برأ، ثم قبض عليه أبو القاسم بعد نيّف وأربعين يوماً، وصادره على مائة ألف دينار، وقتله، واستقام أمر أبي القاسم إلى أن أتاه أمر الله على ما نذكره.

ذكر مرأسة المتقي توزون في العود

وفيها أرسل المتقي لله إلى توزون يطلب [منه] العود إلى بغداد.

كميناً، ثم يلقاهم في عسكره، ويتطارد لهم، فإذا خرج الكمين عاد عليهم، فتقدم إلى أصحابه بذلك، ورتب الكمين ثم لقيهم، واقتلوا، فطاردهم المرزبان (٤١٤/٨) وأصحابه، وتبعهم الروسية حتى جازوا موضع الكمين، فاستمر الناس على هزيمتهم لا يلوي أحد على أحد.

فحكى المرزبان قال: صحتُ الناس ليرجعوا، فلم يفعلوا لما تقدم في قلوبهم من هبة الروسية، فعلمتُ أنه إن استمر الناس على الهزيمة قتل الروس أكثرهم، ثم عادوا إلى الكمين ففطنوا بهم، فقتلوه عن آخرهم.

قال: فرجعتُ وحدي وتبعني أخي وصاحبي، ووطئتُ نفسي على الشهادة، فحيتتُ عاد أكثر الديلم استحياء فرجعوا وقتلناهم، واندانا بالكمين بالعلامة بيننا، فخرجوا من ورائهم، وصدقاهم القتال، فقتلنا منهم خلقاً كثيراً منهم أميرهم، والتجأ الباقون إلى حصن البلد، ويسمى شيرستان، وكانوا قد نقلوا إليه ميرة كثيرة، وجعلوا معهم السبي والأموال، فحاصروهم المرزبان وصابروهم، فأتاه الخبر بأن أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان قد سار إلى أذربيجان، وأنه واصل إلى سلماس، وكان ابن عمه ناصر الدولة قد سيره ليستولى على أذربيجان، فلما بلغ الخبر إلى المرزبان ترك على الروسية من يحاصروهم وسار إلى ابن حمدان، فاقتلوا، ثم نزل الثلج، ففترق أصحاب ابن حمدان لأن أكثرهم أعراب، ثم أتاه كتاب ناصر الدولة بخبره بموت توزون، وأنه يريد الانحدار إلى بغداد، ويأمره بالعود إليه، فرجع.

وأما أصحاب المرزبان فبينهم أقاموا يقاتلون الروسية، وزاد الوياء على الروسية فكانوا إذا دفنوا الرجل دفنوا معه سلاحه، فاستخرج المسلمون من ذلك شيئاً كثيراً بعد انصراف الروس، ثم إنهم خرجوا من الحصن ليلاً وقد حملوا على ظهورهم ما أرادوا من الأموال وغيرها، ومضوا إلى الكر، (٤١٥/٨) وركبوا في سفنهم ومضوا، وعجز أصحاب المرزبان عن اتباعهم وأخذ ما معهم، فتركوهم وطهر الله البلاد منهم.

ذكر خروج ابن أشكام على نوح

وفي هذه السنة خالف عبد الله بن أشكام على الأمير نوح، وامتنع بخوارزم، فسار نوح من بخارى إلى مرو بسببه، وسير إليه جيشاً، وجعل عليهم إبراهيم بن يارس، وساروا نحوه، فمات إبراهيم في الطريق، وكاتب ابن أشكام ملك الترك، وراسله، واحتفى به.

وكان لملك الترك ولد في يد نوح، وهو محبوس ببخارى، فراسل نوح أباه في إطلاقه ليقبض على ابن أشكام، فاجابه ملك الترك إلى ذلك، فلما علم ابن أشكام الحال عاد إلى طاعة نوح،

وسبب ذلك أنه رأى من بني حمدان تضجراً به، وإشعار المفارقة، فاضطر إلى مراسلة توزون، فأرسل الحسن بن هارون وأبا عبد الله بن أبي موسى (٤١٢/٨) الهاشمي إليه في الصلح، فلقتهما توزون وابن شيرزاد بنهاية الرغبة فيه والحرص عليه، فاستوثقا من توزون وحلفاه للمتي لله، وأحضر لليمين خلقاً كثيراً من القضاة، والعدول، والعباسيين، والعلويين، وغيرهم من أصناف الناس، وحلف توزون للمتي والوزير، وكتبوا خطوطهم بذلك، وكان من أمر المتقي لله ما نذكره سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ذكر ملك الروس مدينة بردعة

في هذه السنة خرجت طائفة من الروسية في البحر إلى نواحي أذربيجان، وركبوا في البحر في نهر الكر، وهو نهر كبير، فانتهوا إلى بردعة، فخرج إليهم نائب المرزبان ببردعة في جمع من الديلم والمطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل، فلقوا الروس، فلم يكن إلا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم، وقُتل الديلم عن آخرهم، وتبعهم الروس إلى البلد، فهرب من كان له مركوب وترك البلد، فنزله الروس ونادوا فيه بالأمان فأحسنوا السيرة.

وأقبلت المساكن الإسلامية من كل ناحية فكانت الروس تقتالهم، فلا يثبت المسلمون لهم، وكان عامة البلد يخرجون ويرجمون الروس بالحجارة، ويصيحون بهم، فينهاهم الروس عن ذلك، فلم يتنهوا، سوى العقلاء فإنهم كفوا أنفسهم وسائر العامة والرعاع لا يضبطون أنفسهم، فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه، وأن لا يقيموا بعد ثلاثة أيام، فخرج من كان له ظهر يحمله، وبقي أكثرهم بعد الأجل، فوضع الروسية فيهم السلاح (٤١٣/٨) فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس، وجمعوا من بقي بالجامع، وقالوا: اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم؛ وسعى لهم إنسان نصراني، فقرر عن كل رجل عشرين درهماً، فلم يقبل منهم إلا عقلاؤهم، فلما رأى الروسية أنه لا يحصل منهم شيء قتلوه عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا الشريد، وغنموا أموال أهلها واستعبدوا السبي، واختاروا من النساء من استحسنتها.

ذكر مسير المرزبان إليهم والظفر بهم

لما فعل الروس بأهل بردعة ما ذكرناه استعظمه المسلمون، وتنادوا بالفير، وجمع المرزبان بن محمد الناس واستنفرهم فبلغ عدة من معه ثلاثين ألفاً، وسار بهم، فلم يقاوم الروسية، وكان يغاديهم القتال ويرواوحهم، فلا يعود إلا مفلولاً، فبقوا كذلك أياماً كثيرة، وكان الروسية قد توجهوا نحو مراغة، فأكثروا من أكل الفواكه، فأصابهم الوباء، وكثرت الأمراض والموت فيهم.

ولما طال الأمر على المرزبان عمل الحيلة، فرأى أن يكمن

وفيهما عرض لتوزون صرع وهو جالس للسلام، والناس بين يديه، فقام ابن شيرزاد ومدّ في وجهه ما ستره عن الناس، فصرّفههم وقال إنه قد ثار به خمار لحقه.

وفيهما ثار نافع غلام يوسف بن وجيه صاحب عمّان على مولاه يوسف، وملك البلد بعده.

وفيهما دخل الروم رأس عين في ربيع الأول، فأقاموا بها ثلاثة أيام، ونهبوها، وسبوا من أهلها، وقصدتهم الأعراب، فقاتلوههم، ففارقها الروم، وكان الروم في ثمانين ألفاً مع الدُمستق.

وفيهما، في ربيع الأول، استعمل ناصر الدولة بن حمدان أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل على طريق الفرات، وديار مصر، وجند قيسرين، والعواصم، وجمص، وأنفذه إليها من الموصل ومعه جماعة من القواد، ثم استعمل بعده، في رجب من السنة، ابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان على ذلك، فلما وصل إلى الرقة منعه أهلها، فقاتلهم، فظفر بهم، وأحرق من البلد قطعة، وأخذ رؤساء أهلها وسار إلى حلب. (٤١٨/٨)

سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

ذكر مسير المتقي إلى بغداد وخلعه

كان المتقي لله قد كتب إلى الإخشيد محمد بن طنج متولّي مصر يشكو حاله ويستقدمه إليه، فأتاه من مصر، فلما وصل إلى حلب سار عنها أبو عبد الله بن سعيد بن حمدان، وكان ابن مقاتل بها معه، فلما علم برحيله عنها اختفى، فلما قدم الإخشيد إليها ظهر إليه ابن مقاتل، فأكرمه الإخشيد، واستعمله على خراج مصر، واتكسر عليه ما بقي من المصادرة التي صادره بها ناصر الدولة بن حمدان، ومبلغه خمسون ألف دينار.

وسار الإخشيد من حلب، فوصل إلى المتقي متتصفاً محرم، وهو بالرقة، فأكرمه المتقي واحترمه، ووقف الإخشيد وقوف الغلمان، ومشى بين يديه، فأمره المتقي بالركوب فلم يفعل إلى أن نزل المتقي، وحمل إلى المتقي هدايا عظيمة، وإلى الوزير أبي الحسين بن مقلّة وسائر الأصحاب، واجتهد بالمتقي ليسيّر معه إلى مصر والشام، ويكون بين يديه، فلم يفعل، وأشار عليه بالمقام مكانه، ولا يرجع إلى بغداد، وخوفه من توزون، فلم يفعل، وأشار على ابن مقلّة أن يسيّر معه إلى مصر ليحكمه في جميع بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فخوفه (٤١٩/٨) أيضاً من توزون، فكان ابن مقلّة يقول بعد ذلك: نصحني الإخشيد فلم أقبل نصيحته.

وكان قد أنفذ رسلاً إلى توزون في الصلح، على ما ذكرناه، فحلّفوا توزون للخليفة والوزير، فلما حلف كتب الرسل إلى

وفارق خوارزم، فأحسن إليه نوح وأكرمه وعفا عنه.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة، في رمضان، مات أبو طاهر الهجري رئيس القرامطة، أصابه جذري فمات، وكان له ثلاثة إخوة منهم: أبو القاسم سعيد بن الحسن (٤١٦/٨) وهو الأكبر، وأبو العباس الفضل بن الحسن، وهذان كانا يتفان مع أبي طاهر على الرأي والتدبير، وكان لهما أخ ثالث لا يجتمع بهما، وهو مشغول بالشرب واللهو.

وفيهما، في جمادى الأولى، غلت الأسعار في بغداد حتى بيع الفقيز الواحد من الدقيق الخشكار ببيف وستين درهماً، والخبز الخشكار ثلاثة أرطال بدرهم.

وكانت الأمطار كثيرة مسرفة جداً حتى خربت المنازل، ومات خلق كثير تحت الهدم، ونقصت قيمة العقار حتى صار ما كان يساوي ديناراً يباع بأقل من درهم حقيقة، وما يسقط من الأبنية لا يعاد، وتعطل كثير من الحمامات، والمساجد، والأسواق، لقلة الناس، وتعطل كثير من أتاين الأجر لقلة البناء، ومن يضطر إليه اجتزأ بالانقراض، وكثرت الكسبات من اللصوص بالليل والنهار من أصحاب ابن حمدي، وتحارس الناس باليوقات، وعظم أمر ابن حمدي فاعجز الناس، وأمنه ابن شيرزاد وخلع عليه وشرط معه أن يوصله كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما يسرقه هو وأصحابه، وكان يستوفيها من ابن حمدي بالروزات، فعظم شره حينئذ وهذا ما لم يُسمع بمثله.

ثم إن أبا العباس الديلمي، صاحب الشرطة ببغداد، ظفر بابن حمدي فقتله في جمادى الآخرة، فخفف عن الناس بعض ما هم فيه.

وفيهما، في شعبان، وهو الواقع في نيسان، ظهر في الجو شيء كثير ستر (٤١٧/٨) عين الشمس ببغداد، فتوهمه الناس جرأداً لكثرت، ولم يشكوا في ذلك، إلى أن سقط منه شيء على الأرض، فإذا هو حيوان يطير في البساتين وله جناحان قائمان مقوشان، فإذا أخذ الإنسان جناحه بيده بقي أثر ألوان الجناح في يده ويعدم الجناح، ويسميه الصبيان طحّان الذريرة.

وفيهما استولى معز الدولة على واسط، وانحدر من كان من أصحاب البريدي فيها إلى البصرة.

وفيهما قبض سيف الدولة بن حمدان على محمد بن ينال الترجمان بالرقة وقلته؛ وسبب ذلك أنه قد بلغه أنه قد واطأ المتقي على الإيقاع بسيف الدولة.

[أن] أبصر الرجل؛ فقلت: لك ذلك، ولكن أكنتم أمرنا من ابن شيرزاد؛ فقال: أفعل؛ وعدت إليهم وأخبرتهم الذي ذكر، ووعدتهم حضور توزون من الغد.

فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مستخفين، فاجتمعنا به، وخطابه توزون ويابعه تلك الليلة، وكنم الأمر، فلما وصل المتقي قلت لتوزون لما لقيه: أنت على ذلك العزم؟ قال: نعم؛ قلت: فافعله الساعة، فإنه إن دخل الدار بعد عليك مرامه؛ فوكل به وسمله، وجرى ما جرى.

وبيع المستكفي بالخلافة يوم خلع المتقي. وأحضر المتقي، فبايعه وأخذ منه البردة والقضيب، وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكفي، وسمت نفسها علماً، وغلبت على أمره كله.

واستوزر المستكفي بالله أبا الفرج محمد بن علي الساري يوم الأربعاء لست بيقين من صفر، ولم يكن له إلا اسم الوزارة، والذي يتولى الأمور ابن شيرزاد، وجلس المتقي، وخلع المستكفي بالله على توزون خلعة وتاجاً، وطلب المستكفي بالله أبا القاسم الفضل بن المقتدر بالله، وهو الذي ولي الخلافة، ولقب المطيع (٤٢٢/٨) لله، لأنه كان يعرفه يطلب الخلافة، فاستمر مدة خلافة المستكفي، فهُدّت داره التي على دجلة عند دار ابن طاهر، حتى لم يبق منها شيء.

ذكر خروج أبي يزيد الغارجي بإفريقية

في هذه السنة اشتدت شوكة أبي يزيد بإفريقية وكثر أتباعه وهزم الجيوش.

وكان ابتداء أمره أنه من زناتة، واسم والده كنداد من مدينة توزر من قسطنطينية، وكان يختلف إلى بلاد السودان لتجارة، فولد له بها أبو يزيد من جارية هوارية، فأتى بها إلى توزر، فنشأ بها، وتعلم القرآن، وخالط جماعة من النكارية، فمالت نفسه إلى مذهبهم، ثم سافر إلى تافرت فأقام بها يعلم الصبيان إلى أن خرج أبو عبد الله الشيعي إلى سيجلماسة في طلب المهدي، فانتقل إلى تقيوس، واشترى ضيعة وأقام يعلم فيها.

وكان مذهبه تكفير أهل الملّة، واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطان فابتدأ يحتسب على الناس في أفعالهم ومذاهبهم، فصار له جماعة يعظمونه، وذلك أيام المهدي سنة ست عشرة وثلاثمائة، ولم يزل على ذلك إلى أن اشتدت شوكته، وكثر أتباعه في أيام القائم ولد المهدي، فصار يغير، ويحرق، ويفسد، وزحف إلى بلاد القوائم وحاصر باغاية، وهزم الجيوش الكثيرة عليها، ثم حاصر قسطنطينية سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وفتح تبسة (٤٢٣/٨) ومجانة وهدم سورها، وأمن أهلها، ودخل مرمجة، فلقية

المتقي بذلك، فكتب إليه الناس أيضاً بما شاهدوا من تأكيد اليمين، فأنحدر المتقي من الرقة في القرات إلى بغداد لأربع بقين من المحرم، وعاد الإخشيد إلى مصر، فلما وصل المتقي إلى هيت أقام بها، وأنفذ من يجدد اليمين على توزون، فعاد وحلف، وسار عن بغداد لعشر بقين من صفر ليلتي المتقي، فالتقاء بالسندية، فنزل توزون وقيل الأرض وقال ها أنا قد وفيت بيمينتي والطاعة لك؛ ثم وكل به والوزير وبالجماعة، وأنزلهم في مضرب نفسه مع حرم المتقي، ثم كحله فأذهب عينيه، فلما سمله صاح، وصاح من عنده من الحرم والخدم، وارتجت الدنيا، فأمر توزون بضرب الدبادب لثلاث تظهر أصواتهم، فخفيت أصواتهم، وعمي المتقي لله، وأنحدر توزون من الغد إلى بغداد والجماعة في قبضته.

وكانت خلافة المتقي لله ثلاث سنين وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، وكان أبيض أشهل العينين، وأمّه أم ولد اسمها خلّوب، وكانت وزارة ابن مقلّة سنة واحدة وخمسة أشهر واثني عشر يوماً. (٤٢٠/٨)

ذكر خلافة المستكفي بالله

هو المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكفي بالله علي بن المعتض بالله أبي العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق بن المتوكل على الله، يجتمع هو والمتقي لله في المعتض، لما قبض توزون على المتقي لله أحضر المستكفي إليه إلى السندية، وبايعه هو وعامة الناس.

وكان سبب البيعة له ما حكاه أبو العباس التميمي الرازي، وكان من خواص توزون، قال: كنت أنا السبب في البيعة للمستكفي، وذلك أنني دعاني إبراهيم بن الزويندار الديلمي، فعضيت إليه، فذكر لي أنه تزوج إلى قوم وأن امرأة منهم قالت له: إن المتقي هذا قد عاداكم وعاديتكم، وكاشفكم، ولا يصفو قلبه لكم، وهائنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكفي - وذكّرت عقله، وأدبه، ودينه - تنصّبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسكم، ويدلّكم على أموال جلييلة لا يعرفها غيره، وتستريحون من الخوف والحراسة.

قال: فعلمت أن هذا أمر لا يتم إلا بك، فدعوتك له؛ فقلت: أريد [أن] أسمع كلام المرأة؛ فجاءني بها، فرأيت امرأة عاقلة، جزلة، فذكرت لي نحواً من ذلك، فقلت: لا بد أن ألقى الرجل؛ فقالت: وتعود غداً إلى هائنا حتى أجمع بينكما؛ فهدت إليها من الغد، فوجدته قد أخرج من دار ابن طاهر في زي امرأة، فعرّفتني نفسه، وضمن إظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون، وذكر وجوها وخطابني خطاب رجل فهم (٤٢١/٨) عاقل، ورأيتني يتشيع، قال: فأتيت توزون فأخبرته، فوقع كلامي بقلبه وقال: أريد

مقاتل، ونزل من الغد شرقي رقادة، وعاملها خليل لا يلتفت إلى أبي يزيد، ولا ييالي به، والناس يأتونه ويخبرونه بقرعهم، فأمر أن لا يخرج أحد لقتال، وكان ينتظر وصول ميسور في الجيش الذي معه.

فلما علم أبو يزيد ذلك زحف إلى البلد بعض عسكره، فأنشبا القتال، فجزى بينهم قتال عظيم قُتل فيه من أهل القيروان خلق كثير، فانهزموا وخليل لم يخرج معهم، فصاح به الناس، فخرج متكارهاً من باب تونس، وأقبل (٤٢٥/٨) أبو يزيد، فانهزم خليل بغير قتال، ودخل القيروان ونزل بداره وأغلق بابها ينتظر وصول ميسور، وفعل كذلك أصحابه، ودخل البربر المدينة فقتلوا وأفسدوا، وقاتل بعض الناس في أطراف البلد.

وبعث أبو يزيد رجلاً من أصحابه اسمه أيوب الزويلي إلى القيروان بعسكر، فدخلها أواخر صفر، فنهب البلد وقتل، وعمل أعمالاً عظيمة، وحصر خليل في داره، فنزل هو ومن معه بالأمان، فحمل خليل إلى أبي يزيد فقتله، وخرج شيخ أهل القيروان إلى أبي يزيد، وهو برقادة، فسلموا عليه وطلبوا الأمان، فماطلهم، وأصحابه يقتلون وينهبون، فعادوا الشكوى، وقالوا: خربت المدينة؟ فقال: وما يكون؟ خربت مكة، والبيت المقدس! ثم أمر بالأمان، وبقي طائفة من البربر ينهبون، فأتاهم الخبر بوصول ميسور في عساكر عظيمة، فخرج عند ذلك البربر من المدينة خوفاً منه.

وقارب ميسور مدينة القيروان، واتصل الخبر بالقائم أن بني كملان قد كاتب بعضهم أبا يزيد على أن يمكنوه من ميسور، فكتب إلى ميسور يعرفه ويحذره، ويأمره بطردهم، فرجعوا إلى أبي يزيد وقالوا له: إن عجلت ظفرت به؛ فسار من يومه، فالتقوا، واشتد القتال بينهم، وانهزمت ميسرة أبي يزيد، فلما رأى أبو يزيد ذلك حمل على ميسور، فانهزم أصحاب ميسور، فغطف ميسور فرسه، فكبأ به، فسقط عنه، وقاتل أصحابه عليه لينمونه، فقصده بنو كملان الذي طردهم، فاشتد القتال حيثئذ، فقتل ميسور، وحمل رأسه إلى أبي يزيد، وانهزم عامة عسكره، وسير الكتب إلى عامة البلاد يخبر بهذا الظفر، وطيف برأس ميسور بالقيروان.

واتصل خبر الهزيمة بالقائم، فخاف هو ومن معه بالمهدية، وانتقل أهلها (٤٢٦/٨) من أرياضها إلى البلد، فاجتمعوا واحتموا بسوره، فمنعهم القائم، ووعدهم الظفر، فعادوا إلى زويلة، واستعدوا للحصار، وأقام أبو يزيد شهرين وثمانية أيام في خيم ميسور، وهو يبعث السرايا إلى كل ناحية، فيخمنون ويعودون.

وأرسل سرية إلى موسسة ففتحوها بالسيف، وقتلوا الرجال، وسبوا النساء، وأحرقوها، وشقوا فروج النساء، وبقروا البطون، حتى لم يبق في إفريقية موضع معمور ولا سقف مرفوع، ومضى جميع من بقي إلى القيروان حفاة عراة، ومن تخلص من السبي

رجل من أهلها، وأهدى له حماراً أشهب مليح الصورة، فركبه أبو يزيد من ذلك اليوم.

وكان قصيراً أعرج يلبس جبة صوف قصيرة، قبيح الصورة، ثم إنه هزم كتامة، وأخذ طائفة من عسكره إلى سبيبة، ففتحها وصلب عاملها، وسار إلى الأريس، ففتحها وأحرقها ونهبها، وجاء الناس إلى الجامع، فقتلهم فيه، فلما اتصل ذلك بأهل المهدية استعظموه، وقالوا للقائم: الأريس باب إفريقية، ولما أخذت زالت دولة بني الأغلب؛ فقال: لا بد أن يبلغ أبو يزيد المصلى، وهو أقصى غايته.

ثم إن القائم أخرج الجيوش لضبط البلاد، فأخرج جيشاً إلى رقادة، وجيشاً إلى القيروان، وجمع العساكر، فخاف أبو يزيد، وعول على أخذ بلاد إفريقية وإخرايها وقتل أهلها، وسير القائم الجيش الذي اجتمع له مع قتاه ميسور، وسير بعضه مع قتاه بشري إلى باجة، فلما بلغ أبا يزيد خبر بشري ترك أثقاله وسار جريداً إليه، فالتقوا بباجة، فانهزم عسكر أبي يزيد وبقي في نحو أربعمئة مقاتل، فقال لهم: ميلوا بنا نخالفهم إلى خيامهم؛ ففعلوا ذلك، فانهزم بشري إلى تونس، وقُتل من عسكره كثير من وجوه كتامة وغيرهم، ودخل أبو يزيد باجة فأحرقها ونهبها، وقتلوا الأطفال، وأخذوا النساء، وكتب إلى القبائل يدعوهم إلى نفسه فاتوه، وعمل الأخبية والبنود وآلات الحرب.

ولما وصل بشري إلى تونس جمع الناس وأعطاهم الأموال، فاجتمع إليه خلق كثير، فجهزهم وسيرهم إلى أبي يزيد، وسير إليهم أبو يزيد جيشاً، فالتقوا واقتلوا، فانهزم أصحاب أبي يزيد، ورجع أصحاب بشري إلى تونس (٤٢٤/٨) غانمين، ووقعت فتنة في تونس، ونهب أهلها دار عاملها، فهرب، وكتبوا أبا يزيد، فأعطاهم الأمان، وولّى عليهم رجلاً منهم يقال له رحمون، وانتقل إلى فحص أبي صالح، وخافه الناس، فانتقلوا إلى القيروان، وأثناء كثير منهم خوفاً ورعباً.

وأمر القائم بشري أن يتجسس أخبار أبي يزيد، فمضى نحوه، وبلغ الخبر إلى أبي يزيد، فسير إليهم طائفة من عسكره، وأمر مقدمهم أن يقتل، ويمثل، وينهب، ليرعب قلوب الناس، ففعل ذلك، والتقى هو وبشري، فاقتلوا وانهزم عسكر أبي يزيد، وقُتل منهم أربعة آلاف، وأسر خمسمائة، فسيرهم بشري إلى المهدية في السلاسل فقتلهم العامة.

ذكر استيلاء أبي يزيد على القيروان ورقادة

لما انهزم أصحاب أبي يزيد غاظه ذلك، وجمع الجموع، ورحل وسار إلى قتال الكتامين، فوصل إلى الجزيرة، وتلاقت الطلائع، وجرى بينهم قتال، فانهزمت طلائع الكتامين، وتبهم البربر إلى رقادة، ونزل أبو يزيد بالغرب من القيروان في مائة ألف

العبيد وافترقوا.

مات جوعاً وعطشاً.

ثم رحل أبو يزيد إلى ثرنوط، وحفر على عسكريه خندقاً، واجتمع إليه خلق عظيم من إفريقية، والبربر، ونفوسة، والزاب، وأقاصي المغرب، فحصر المهدي حصاراً شديداً، ومنع الناس من الدخول إليها والخروج منها، ثم زحف إليها لسبع بقين من جمادى الآخرة من السنة، فجرى قتال عظيم قُتل فيه جماعة من وجوه عسكر القائم، واقتحم أبو يزيد نفسه، حتى وصل إلى قرب الباب، فعرفه بعض العبيد، فقبض على لجامه وصاح: هذا أبو يزيد فاقتلوه! فأتاه رجل من أصحاب أبي يزيد فقطع يده وخلص أبو يزيد.

فلما رأى شدة قتال أصحاب القائم كتب إلى عامل القيروان يأمره بإرسال مقاتلة أهلها إليه، ففعل ذلك، فوصلوا إليه، فزحف بهم آخر رجب، فجرى قتال شديد انهزم فيه أبو يزيد هزيمة منكرة، وقُتل فيه جماعة من أصحابه وأكثر أهل القيروان، ثم زحف الزحفة الرابعة في العشر الآخر من شوال، فجرى قتال عظيم، وانصرف إلى منزله، وكثر خروج الناس من الجوع والغلاء، ففتح عند ذلك القائم الأهراء التي عملها المهدي وملأها طعاماً، وفرّق ما فيها على رجاله، وعظم البلاء على الرعية حتى أكلوا الدواب واليمنة، وخرج من المهديّة أكثر السوق والتجار، ولم يبق بها سوى الجند، فكان البربر يأخذون من خراج ويقتلونهم ويشقون بطونهم طلباً للذهب.

ثم وصلت كتامة فنزلت بقسنطينة، فخاف أبو يزيد، فسار رجل (٤٢٩/٨) من عسكريه في جمع عظيم من ورفجومة وغيرهم إلى كتامة، فقاتلهم فهزموهم، ففرقوا، وكان البربر يأتون إلى أبي يزيد من كل ناحية، وينهبون، ويقتلون، ويرجعون إلى منازلهم، حتى أفنوا ما كان في إفريقية فلما لم يبق ما يُنهَب توقّفوا عن المجيء إليه فلم يبق معه سوى أهل أوراس وبني كملان.

فلما علم القائم تفرّق عساكره أخرج عسكريه إليه، وكان بينهم قتال شديد لست خلون من ذي القعدة من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، ثم صبحوهم من الغد، فلم يخرج إليهم أحد، وكان أبو يزيد قد بعث في طلب الرجال من أوراس، ثم زحفت عساكر القائم إليه، فخرج من خندقه، واقتلوا، واشتد بينهم القتال، فقتل من أصحاب أبي يزيد جماعة منهم رجل من وجوه أصحابه، فعظم قتله عليه، ودخل خندقه ثم عاود القتال، فهتت ریح شديدة مظلمة، فكان الرجل لا يبصر صاحبه، فانهمز عسكر القائم وقُتل منهم جماعة وعاد الحصار على ما كان عليه، وهرب كثير من أهل المهديّة إلى جزيرة صقلية، وطرابلس، ومصر، وبلد الروم.

وفي آخر ذي القعدة اجتمع عند أبي يزيد جموع عظيمة،

وفي آخر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة أمر القائم بحفر الخنادق حول أرباض المهديّة، وكتب إلى زيري بن مناد، سيد صنهاجة، وإلى سادات كتامة والقبائل يحثهم على الاجتماع بالمهديّة وقتال النكار، فتأهبوا للمسير إلى القائم.

ذكر حصار أبي يزيد المهديّة

لما سمع أبو يزيد بتأهب صنهاجة وكتامة وغيرهم لنصرة القائم، خاف ورحل من ساعته نحو المهديّة، فنزل على خمسة عشر ميلاً منها، وبث سراياه إلى ناحية المهديّة، فانتهبت ما وجدت، وقتلت من أصابت، فاجتمع الناس إلى المهديّة، واتفقت كتامة وأصحاب القائم على أن يخرجوا إلى أبي يزيد (٤٢٧/٨) ليضربوا عليه في معسكره لما سمعوا أن عسكريه قد تفرق في الغارة، فخرجوا يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الأولى من السنة.

وبلغ ذلك أبا يزيد، وقد أتاه ولده فضل بعسكر من القيروان، فوجههم إلى قتال كتامة، وقدم عليهم ابنه، فالتقوا على ستة أميال من المهديّة واقتتلوا، وبلغ الخبر أبا يزيد، فركب بجميع من بقي معه، فلقى أصحابه منهزمين، وقد قُتل كثير منهم، فلما رآه الكتاميون انهزموا من غير قتال وأبو يزيد في أثرهم إلى باب الفتح، واقتحم قوم من البربر فدخلوا باب الفتح، فأشرف أبو يزيد على المهديّة ثم رجع إلى منزله، ثم تقدم إلى المهديّة في جمادى الآخرة، فأتى باب الفتح، ووجه زويلة إلى باب بكر، ثم وقف هو على الخندق المحدث، وبه جماعة من العبيد، فناشبههم أبو يزيد القتال على الخندق، ثم اقتحم أبو يزيد ومن معه البحر، فبلغ الماء صدور الدواب، حتى جاوزوا السور المحدث، فانهمز العبيد، وأبو يزيد في طلبهم.

ووصل أبو يزيد إلى باب المهديّة، عند المصلى الذي للعبيد، وبينه وبين المهديّة رمية سهم، وتفرق أصحابه في زويلة ينهبون ويقتلون، وأهلها يطلبون الأمان، والقتال عند باب الفتح بين كتامة والبربر وهم لا يعلمون ما صنع أبو يزيد في ذلك الجانب، فحمل الكتاميون على البربر، فهزموهم، وقتلوا فيهم، وسمع أبو يزيد بذلك، ووصول زيري بن مناد في صنهاجة، فخاف المقام، فقصد باب الفتح ليأتي زيري وكتامة من ورائهم بطبولة وينوده، فلما رأى أهل الأرباض ذلك ظنوا أن القائم قد خرج بنفسه من المهديّة، فكبروا وقويت نفوسهم، واشتد قتالهم، فتحير أبو يزيد، وعرفه أهل تلك الناحية، فمالوا عليه ليقتلوه، فاشتد القتال عنده، فهدم بعض أصحابه حائطاً وخرج منه فقتل، ووصل إلى منزله بعد المغرب، وهم يقاتلون العبيد، فلما (٤٢٨/٨) أراه قويت قلوبهم، وانهمز

بالبقتل والسبي والنهب والخراب وإحراق المنازل، فوصل عسكريه إلى تونس، فدخلوها بالسيف في العشرين من صفر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، فنهوا جميع ما فيها، وسبوا النساء والأطفال، وقتلوا الرجال، وهدموا المساجد، ونجا كثير من الناس إلى البحر ففرق.

وتقدم إلى المهديّة فقاتل عليها، فتخيّر الكتاميون منهم ماتى فارس، فحملوا حملة رجل واحد، فقتلوا في أصحابه كثيراً، وأسروا مثلهم، وكادوا يصلون إليه، فقاتل أصحابه دونه وخلصوه، وفرح أهل المهديّة، وأخذوا الأسرى في الحبال إلى المهديّة، ودخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وهو مقيم على المهديّة.

فسير إليهم القائم عسكرياً إلى تونس، فخرج إليهم أصحاب أبي يزيد، واقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عسكر القائم هزيمة قبيحة، وحال بينهم الليل، والتجؤوا إلى جبل الرصاص، ثم إلى اصطفورة، فتبعهم عسكر أبي يزيد، فلحقوهم واقتلوا، وصبر عسكر القائم، فانهزم عسكر أبي يزيد وقتل منهم خلق كثير، وقتلوا، حتى دخلوا تونس خامس ربيع الأول (٤٣٢/أ) وأخرجوا من فيها من أصحاب أبي يزيد بعد أن قتلوا أكثرهم، وأخذ لهم من الطعام شيء كثير.

وكان لأبي يزيد ولد اسمه أيوب، فلما بلغه الخبر أخرج معه عسكرياً كثيراً، فاجتمع مع من سلم من ذلك الجيش، ورجعوا إلى تونس فقتلوا من عاد إليها وأحرقوا ما بقي فيها، وتوجه إلى باجة فقتل من بها من أصحاب القائم، ودخلها بالسيف وأحرقها، وكان في هذه المدة من القتل والسبي والتخريب ما لا يوصف.

واتفق جماعة على قتل أبي يزيد، وأرسلوا إلى القائم فرغّبهم ووعدهم، فاتفق الخبر بأبي يزيد فقتلهم، وهجم رجال من البربر في الليل على رجل من أهل القيروان وأخذوا ماله وثلاث بنات أباكر، فلما أصبح واجتمع الناس لصلاة الصبح قام الرجل في الجامع وصاح وذكر ما حل به، فقام الناس معه وصاحوا، فاجتمع الخلق العظيم، ووصلوا إلى أبي يزيد فاسمعوه كلاماً غليظاً، فاعتذر إليهم ولطف بهم وأمر برد البنات.

فلما انصرفوا وجدوا في طريقهم رجلاً مقتولاً، فسألوا عنه، فقيل إن فضل بن أبي يزيد قتله وأخذ امرأته، وكانت جميلة، فحمل الناس المقتول إلى الجامع وقالوا: لا طاعة إلا للقائم! وأرادوا الوثوب بأبي يزيد، فاجتمع أصحاب أبي يزيد عنده ولاموه وقالوا: تحتك على نفسك ما لا طاقة لك به لا سيما والقائم قريب مناه فجمع أهل القيروان، واعتذر إليهم، وأعطاهم العهود أنه لا يقتل، ولا يذهب، ولا يأخذ الحرير، فأناه سبي أهل تونس، وهم عنده، فوثبوا إليهم وخلصوهم.

وكان القائم قد أرسل إلى مقدم من أصحابه يسمى علي بن حمدون يأمره (٤٣٣/أ) بجمع العساكر ومن قدر عليه من المسيلة، فجمع منها ومن سطيف وغيرها، فاجتمع له خلق كثير، وتبعه بعض بني هراس، فقصد المهديّة، فسمع به أيوب بن أبي يزيد، وهو بمدينة باجة، ولم يعلم به علي بن حمدون، فسار إليه أيوب وكبسه واستباح عسكريه، وقتل فيهم وغنم أثقالهم، وهرب علي المذكور،

(٤٣٠/أ) وفي المحرم منها ظهر بإفريقية رجل يدعى الناس إلى نفسه، فأجابه خلق كثير وأطاعوه، وادّعى أنه عباسي ورد من بغداد ومعه أعلام سود، فظفر به بعض أصحاب أبي يزيد وقبض عليه، وسيره إلى أبي يزيد فقتله، ثم إن بعض أصحاب أبي يزيد هرب إلى المهديّة بسبب عداوة كانت بينهم وبين أقوام سعوا بهم إليه، فخرجوا من المهديّة مع أصحاب القائم فقاتلوا أصحاب أبي يزيد، فظفروا، ففرق عند ذلك أصحاب أبي يزيد ولم يبق معه غير هوارة وأوراس وبني كملان، وكان اعتماده عليهم.

ذكر رحيل أبي يزيد عن المهديّة

لما تفرق أصحابه عنه، كما ذكرنا، اجتمع رؤساء من بقي معه وتشاوروا وقالوا: نمضي إلى القيروان، ونجمع البربر من كل ناحية، ونرجع إلى أبي يزيد، فإننا لا نأمن أن يعرف القائم خبرنا فيقصدنا! فركبوا ومضوا، ولم يشاوروا أبا يزيد، ومعهم أكثر العسكر، فبعث إليهم أبو يزيد ليردّهم، فلم يقبلوا منه، فرحل مسرعاً في ثلاثين رجلاً، وترك جميع أثقاله، فوصل إلى القيروان سادس صفر، فنزل المصلّى، ولم يخرج إليه أحد من أهل القيروان سوى عامله، وخرج الصبيان يلعبون حوله ويضحكون منه.

وبلغ القائم رجوعه، فخرج الناس إلى أثقاله، فوجدوا الطعام والخيام وغير ذلك على حاله، فأخذوه وحسنت أحوالهم، واستراحوا من شدة الحصار، ورخصت الأسعار، وأنفذ القائم إلى البلاد عمالاً يطردون عمال (٤٣١/أ) أبي يزيد عنها، فلما رأى أهل القيروان قلة عسكر أبي يزيد خافوا القائم، فأرادوا أن يقبضوا أبا يزيد، ثم هابوه، فكانت أبا القائم يسألونه الأمان، فلم يجبههم.

وبلغ أبا يزيد الخبر، فانكر على عامله بالقيروان اشتغاله بالأكل والشرب وغير ذلك، وأمره أن يخرج العساكر من القيروان للجهاد، ففعل ذلك، وألان لهم القول، وخوفهم القائم، فخرجوا إليه.

وتسمع الناس في البلاد بذلك، فاتاه العساكر من كل ناحية، وكان أهل المدائن والقرى لما سمعوا تفرق عساكره عنه أخذوا عماله فمنهم من قتل، ومنهم من أرسل إلى المهديّة.

وثار أهل سوسة، فقبضوا على جماعة من أصحابه فأرسلوهم إلى القائم، فشكر لهم ذلك، وأرسل إليهم سبعة مراكب من الطعام، فلما اجتمعت عساكر أبي يزيد أرسل الجيوش إلى البلاد وأمرهم

يزيد، فركب بنفسه، واقتتلوا، واشتدت الحرب، وانهزم بعض أصحاب المنصور حتى دخلوا المدينة، فألقى رشيق النار في الحطب الذي جمعه أبو يزيد، وفي الدبابة، فأظلم الجو بالدخان، واشتعلت النار.

فلما رأى ذلك أبو يزيد وأصحابه خافوا، وظنوا أن أصحابه في تلك الناحية قد هلكوا فلماذا تمكن أصحاب المنصور من إحراق الحطب إذ لم ير بعضهم بعضاً، فانهزم أبو يزيد وأصحابه، وخرجت عساكر المنصور، فوضعوا السيف فيمن تخلف من البربر، وأحرقوا خيامه.

وجد أبو يزيد هارباً حتى دخل القيروان من يومه، وهرب البربر على وجوههم فمن سلم من السيف مات جوعاً وعطشاً.

ولما وصل أبو يزيد إلى القيروان أراد الدخول إليها، فمنعه أهلها، ورجعوا إلى دار عامله فحاصروه، وأرادوا كسر الباب، فنشر الدنانير على رؤوس الناس فاشتغلوا عنه، فخرج إلى أبي يزيد، وأخذ أبو يزيد امرأته أم أيوب، وتبعه أصحابه بعيالاتهم، ورحلوا إلى ناحية سبيبة، وهي على مسافة يومين من القيروان، فنزلوها.

ذكر ملك المنصور مدينة القيروان وانهزام أبي يزيد

لما بلغ المنصور الخبر سار إلى مدينة سوسة لسبع بقين من شوال من السنة، فنزل خارجاً منها، وسرّ بما فعله أهل القيروان، فكتب إليهم كتاباً يؤمنهم فيه (٤٣٦/٨) لأنه كان واجداً عليهم لطاعتهم أبا يزيد، وأرسل من ينادي في الناس بالأمان، وطابت نفوسهم، ورحل إليهم، فوصلها يوم الخميس لست بقين من شوال، وخرج إليه أهلها، فأمنهم وودعهم خيراً.

ووجد في القيروان من حرم أبي يزيد وأولاده جماعة، فحملهم إلى المهديّة وأجرى عليهم الأرزاق.

ثم إن أبا يزيد جمع عساكره، وأرسل سرية إلى القيروان يتخيرون له، فاتصل خبرهم بالمنصور، فسير إليهم سرية، فالتقوا واقتتلوا، وكان أصحاب أبي يزيد قد جعلوا كميناً، فانهزموا، وتبعهم أصحاب المنصور، فخرج الكمين عليهم، فأكثر فيهم القتل والجراح.

فلما سمع الناس ذلك سارعوا إلى أبي يزيد، فكثر جمعه، فعاد ونازل القيروان، وكان المنصور قد جعل خندقاً على عسكره، ففرق أبو يزيد عسكره ثلاث فرق، وقصد هو يشجعان أصحابه إلى خندق المنصور، فاقتتلوا، وعظم الأمر، وكان الظفر للمنصور، ثم عاودوا القتال، فباشر المنصور القتال بنفسه، وجعل يحمل يميناً وشمالاً، والمظلة على رأسه كالعلم، ومعه خمسمائة فارس، وأبو يزيد في مقدار ثلاثين ألفاً، فانهزم أصحاب المنصور هزيمة عظيمة حتى

ثم سار أبو يزيد خيل إلى طائفة من عسكر المهدي خرجوا إلى تونس، فأسروا واجتمعوا، ووقع بعضهم على بعض فكان بين الفريقين قتال عظيم قُتل فيه جمع كثير وانهزم عسكر القائم، ثم عادوا ثانية وثالثة، وعزموا على الموت، وحملوا حملة رجل واحد، فانهزم أصحاب أبي يزيد وقُتلوا قتلاً ذريعاً، وأخذت أنفاسهم وعددهم، وانهزم أيوب وأصحابه إلى القيروان في شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

فعظم ذلك على أبي يزيد، وأراد أن يهرب عن القيروان، فأشار عليه أصحابه بالتوقف وترك العجلة، ثم جمع عسكراً عظيماً، وأخرج ابنه أيوب ثانية لقتال علي بن حمدون بمكان يقال له بلطة، وكانوا يقتلون، فمرة يظفر أيوب، ومرة يظفر علي، وكان علي قد وكل بحراسة المدينة من يثق به، وكان يحرس باباً منها رجل اسمه أحمد، فراسل أيوب في التسليم إليه على مال يأخذه، فأجابه أيوب إلى ما طلب، وقاتل على ذلك الباب، ففتحه أحمد ودخله أصحاب أبي يزيد، فقتلوا من كان بها، وهرب علي إلى بلاد كتامة في ثلاثمائة فارس وأربعمائة راجل، وكتب إلى قبائل كتامة ونفزة ومزانة وغيرهم، فاجتمعوا وعسكروا على مدينة القسطنطينة.

(٤٣٤/٨) ووجه عسكراً إلى هواره، فقتلوا هواره، وغنموا أموالهم، وكان اعتماد أبي يزيد عليهم، فاتصل الخبر بأبي يزيد، فسير إليهم عساكر عظيمة يتبع بعضها بعضاً، وكان بينهم حروب كثيرة والفتح والظفر في كلها لعلي وعسكر القائم، وملك مدينة تيجس ومدينة باغاية وأخذهما من أبي يزيد.

ذكر محاصرة أبي يزيد سوسة وانهزامه منها

لما رأى أبو يزيد ما جرى على عسكره من الهزيمة جدّ في أمره، فجمع العساكر وسار إلى سوسة سادس جمادى الآخرة من السنة، وبها جيش كثير للقائم، فحاصرها حصاراً شديداً، فكان يقاتلها كل يوم، فمرة له، ومرة عليه، وعمل الدبابات والمنجنقات، فقتل من أهل سوسة خلق كثير وحاصرها إلى أن فوّض القائم العهد إلى ولده إسماعيل المنصور في شهر رمضان، وتوفي القائم وملك الملك ابنه المنصور، على ما نذكره، وكنتم موت أبيه خوفاً من أبي يزيد لقربه، وهو على مدينة سوسة.

فلما ولي عمل المراكب، وشحنها بالرجال، وسيرها إلى سوسة، واستعمل عليها رشيقاً الكاتب، ويعقوب بن إسحاق، ووصّاهما أن لا يقاتلا حتى يأمرهما، ثم سار من القدر يريد سوسة، ولم يعلم أصحابه ذلك، فلما انتصف الطريق علموا فتضرعوا إليه، وسألوه أن يعود ولا يخاطر بنفسه، فعاد وأرسل إلى رشيق ويعقوب بالجدّي القتال، فوصلوا إلى سوسة وقد أعدّ أبو يزيد الحطب لإحراق السور، وعمل دبابة عظيمة، فوصل أسطول المنصور إلى سوسة، واجتمعوا بمن فيها، وخرجوا إلى قتال أبي

دخلوا الخندق ونهبوا، وبقي المنصور في نحو عشرين فارساً.

وأقبل أبو يزيد قاصداً إلى المنصور، فلما رآهم شهر سيفه وثبت مكانه وحمل بنفسه على أبي يزيد حتى كاد يقتله، فولى أبو يزيد هارباً، وقتل المنصور من أدرك منهم، وأرسل من يرد عسكره فعادوا، وكانوا قد سلكوا طريق المهديّة وسوسة، وتمادى القتال إلى الظهر فقتل منهم خلق كثير وكان يوماً من الأيام المشهودة لم يكن في ماضي الأيام مثله.

(٤٣٧/٨) ورأى الناس من شجاعة المنصور ما لم يظنوه، فزادت هيئته في قلوبهم، ورحل أبو يزيد عن القيروان أواخر ذي القعدة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ثم عاد إليها فلم يخرج إليه أحد، ففعل ذلك غير مرة، ونادى المنصور: من أتى برأس أبي يزيد فله عشرة آلاف دينار، وأذن الناس في القتال، فجرى قتال شديد، فانهزم أصحاب المنصور حتى دخلوا الخندق، ثم رجعت الهزيمة على أبي يزيد، فافترقوا وقد انتصف بعضهم من بعض، وقتل بينهم جمع عظيم، وعادت الحرب مرة لهذا ومرة لهذا، وصار أبو يزيد يرسل السرايا، فيقطع الطريق بين المهديّة والقيروان وسوسة.

ثم إنه أرسل إلى المنصور يسأل أن يسلم إليه حرمه وعياله الذي خلفهم بالقيروان وأخذهم المنصور، فإن فعل ذلك دخل في طاعته على أن يؤمنه وأصحابه، وحلف له بأغلظ الأيمان على ذلك، فأجابه المنصور إلى ما طلب، وأحضر عياله وسيرهم إليه مكرمين، بعد أن وصلهم، وأحسن كسوتهم، وأكرمهم، فلما وصلوا إليه نكت جميع ما عقده، وقال: إنما وجههم خوفاً مني؛ فانتقضت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ودخلت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وهم على حالهم في القتال.

ففي خامس المحرم منها زحف أبو يزيد، وركب المنصور، وكان بين الفريقين قتال ما سُمع بمثله، وحملت البربر على المنصور وحمل عليها، وجعل يضرب فيهم، فانهزموا منه بعد أن قُتل خلق كثير، فلما انتصف المحرم عيّا المنصور عسكره، فجعل في الميمنة أهل إفريقية، وكثامة في الميسرة، وهو في عبيده وخاصته في القلب، فوقع بينهم قتال شديد، فحمل أبو يزيد على الميمنة فهزمها، ثم حمل على القلب، فبادر إليه المنصور وقال: هذا يوم الفتح (٤٣٨/٨) إن شاء الله تعالى! وحمل هو ومن معه حملة رجل واحد، فانهزم أبو يزيد، وأخذت السيوف أصحابه فولّوا منهزمين، وأسلموا أئقّالهم، وهرب أبو يزيد على وجهه فقتل من أصحابه ما لا يحصى، فكان ما أخذه أطفال أهل القيروان من رؤوس القتلى عشرة آلاف رأس، وسار أبو يزيد إلى تاه مديت.

ذكر قتل أبي يزيد

لما تمت الهزيمة على أبي يزيد أقام المنصور يتجهز للمسير

في أثره، ثم رحل أواخر شهر ربيع الأول من السنة، واستخلف على البلد مداما الصوّليّ، فادرك أبا يزيد وهو محاصر مدينة باغاية لأنه أراد دخولها لما اتهم، فمُنِع من ذلك، فحصرها، فادركه المنصور وقد كاد يفتحها، فلما قرب منه هرب أبو يزيد وجعل كلما قصد موضعاً يتحصّن فيه سبقه المنصور، حتى وصل طبنة، فوصلت رسل محمد بن خزر الزناتي، وهو من أعيان أصحاب أبي يزيد، يطلب الأمان، فأمنه المنصور، وأمره أن يرصد أبا يزيد، واستمر الهرب بأبي يزيد حتى وصل إلى جبل البربر ويسمى بزرال، وأهله على منعبه، وسلك الرمال ليخفي أثره، فاجتمع معه خلق كثير، فعاد إلى نواحي مقبرة والمنصور بها، فكمن أبو يزيد أصحابه، فلما وصل عسكر المنصور رآهم فحذروا منهم، فعبا حيثئذ أبو يزيد أصحابه، واقتتلوا، فانهزمت ميمنة (٤٣٩/٨) المنصور، وحمل هو بنفسه ومن معه، فانهزم أبو يزيد إلى جبل سالات، ورحل المنصور في أثره، فدخل مدينة المسيلة، ورحل في أثر أبي يزيد في جبال وعرة، وأودية عميقة خشنة الأرض، فأراد الدخول وراءه فعرفه الأدلاء أن هذه الأرض لم يسلكها جيش قط، واشتد الأمر على أهل العسكر، فبلغ علق كل دابة ديناراً ونصفاً، وبلغت قرية الماء ديناراً، وإن ما وراء ذلك رمال وقفار بلاد السودان، ليس فيها عمارة، وإن أبا يزيد اختار الموت جوعاً وعطشاً على القتل بالسيف.

فلما سمع ذلك رجع إلى بلاد صنهاجة، فوصل إلى موضع يسمى قرية دمره، فالتصّل به الأمير زيري بن مناد الصنهاجي الحميري بعساكر صنهاجة، وزيري هذا هو جد بني باديس ملوك إفريقية، كما يأتي ذكره، إن شاء الله تعالى، فأكرمه المنصور وأحسن إليه، ووصل كتاب محمد بن خزر يذكر الموضع الذي فيه أبو يزيد من الرمال.

ومرض المنصور مرضاً شديداً أشفى منه، فلما أفاق من مرضه رحل إلى المسيلة ثاني رجب، وكان أبو يزيد قد سبقه إليها لما بلغه مرض المنصور، وحصرها، فلما قصد المنصور هرب منه يريد بلاد السودان، فأبى ذلك بنو كملان وهوارة وخدعوه، وصعد إلى جبال كثامة وعجيسة وغيرهم، فتحصّن بها واجتمع إليه أهلها، وصاروا يتزلون يتخطفون الناس، فسار المنصور عاشر شعبان إليه، فلم يتزل أبو يزيد، فلما عاد نزل إلى ساقية (٤٤٠/٨) العسكر، فرجع المنصور، ووقعت الحرب فانهزم أبو يزيد، وأسلم أولاده وأصحابه، ولحقه فارسان فقرا فرسه فسقط عنه، فأركبه بعض أصحابه، ولحقه زيري بن مناد فطعنه فآلقاه، وكثر القتال عليه، فخلّصه أصحابه وخلصوا معه، وتبعهم أصحاب المنصور، فقتلوا منهم ما يزيد على عشرة آلاف.

ثم سار المنصور في أثره أول شهر رمضان، فاقتتلوا أيضاً أشد

وابن شيرزاد، فأنفذوا له الخلع وأقرّوه على عمله.

قتال، ولم يقدر أحد الفريقين على الهزيمة لضيق المكان وخشونته، ثم انهزم أبو يزيد أيضاً، واحترقت أبقاله وما فيها، وطلع أصحابه على رؤوس الجبال يرمون بالصخر، وأحاط القتال بالمنصور وتواخدوا بالأيدي، وكثر القتل حتى ظنوا أنه الفناء، واسترقوا على السواء، والتجأ أبو يزيد إلى قلعة كتامة، وهي منيعة، فاحتجى بها.

وفي ذلك اليوم أتى إلى المنصور جند له من كتامة برجل ظهر في أرضهم ادّعى الربوبية، فأمر المنصور بقتله، وأقبلت هواراة وأكثر من مع أبي يزيد يطلبون الأمان، فأنتمهم المنصور، وسار إلى قلعة كتامة، فحصر أبا يزيد فيها، وفرّق جنده حولها، فنأشبه أصحاب أبي يزيد القتال، وزحف إليها المنصور غير مرة، ففسي آخرها ملك أصحابه بعض القلعة، وألقوا فيها النيران، وانهزم أصحاب أبي يزيد وقتلوا قتلاً ذريعاً، ودخل أبو يزيد وأولاده وأعيان أصحابه إلى قصر في القلعة، فاجتمعوا فيه، فاحترقت أبوابه وأدركهم القتل، فأمر المنصور بإشعال النار في شعاري الجبل وبين يديه لتلا يهرب أبو يزيد، (٤٤١/أ) فصار الليل كالنهار.

فلما كان آخر الليل خرج أصحابه وهم يحملونه على أيديهم، وحملوا على الناس حملة منكرة، فأفجروا لهم، فنجوا به، ونزل من القلعة خلق كثير، فأخذوا، فأخبروا بخروج أبي يزيد، فأمر المنصور بطلبه وقال: ما أظنه إلا قريباً منا؛ فبينما هم كذلك أتى بأبي يزيد، وذلك أن ثلاثة من أصحابه حملوه من المعركة ثم ولّوا عنه، وإنما حملوه لقبح عرجه، فذهب لينزل من الوعر، فسقط في مكان صعب، فأدرك فأخذ وحمل إلى المنصور، فسجد شكراً لله تعالى، والناس يكبرون حوله، وبقي عنده إلى سلخ المحرم من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، فمات من الجراح التي به، فأمر بإدخاله في قفص عمل له، وجعل معه قرطين يلعبان عليه، وأمر بسلخ جلده وحشاه تبناً، وأمر بالكتب إلى سائر البلاد وبالبشارة.

ثم خرج عليه عدة خوارج منهم محمد بن خزر، فظفر به المنصور سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وكان يريد نصرة أبي يزيد؛ وخرج أيضاً فضل بن أبي يزيد، وأفسد وقطع الطريق، فغدر به بعض أصحابه وقتله، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ست وثلاثين [وثلاثمائة] أيضاً، وعاد المنصور إلى المهديّة، فدخلها في شهر رمضان من السنة. (٤٤٢/أ)

ذكر قتل أبي الحسن البريدي وإحراقه

في هذه السنة، في ربيع الأول، قدم أبو الحسن البريدي إلى بغداد مستأمناً إلى توزون، فأمّنه، وأنزله أبو جعفر بن شيرزاد إلى جانب داره، وأكرمه، وطلب أن يقوّي يده على ابن أخيه، وضمن أنه إذا أخذ البصرة يوصل له مالا كثيراً، فوعده النجدة والمساعدة، فأنفذ ابن أخيه من البصرة مالا كثيراً خدم به توزون

فلما علم أبو الحسين بذلك سعى في أن يكتب لتوزون، ويقبض على ابن شيرزاد، فعلم ابن شيرزاد بذلك، فسعى به إلى أن قبض عليه، وقبّد وضرب ضرباً عنيفاً، وكان أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي قد أخذ أيام ناصر الدولة فتوى الفقهاء والقضاة بإحلال دمه، فأحضرها، وأحضر القضاة والفقهاء في دار الخليفة، وأخرج أبو الحسين، وسئل الفقهاء عن الفتاوى، فاعترفوا أنهم أفتوا بذلك، فأمر بضرب رقبته، فقتل وصلب، ثم أنزل وأحرق، ونُهبت داره، وكان هذا آخر أمر البريديّين، وكان قتله منتصف ذي الحجة.

وفيها نقل المستكفي بالله القاهر بالله من دار الخلافة إلى دار ابن طاهر، وكان قد بلغ به الضر والفقر إلى أن كان ملتفتاً بقطن جبة، وفي رجله قبقاب خشب. (٤٤٣/أ)

ذكر مسير أبي علي إلى الرّيّ وعوده قبل ملكها

لما استقر الأمير نوح في ولايته بما وراء النهر وخراسان أمر أبا علي بن محتاج أن يسير في عساكر خراسان إلى الرّيّ ويستنفذها من يد ركن الدولة ابن بويه، فسار في جمع كثير، فلقبه وشمكير بخراسان وهو يقصد الأمير نوحاً، فسيرّه إليه، وكان نوح حينئذ بمرو، فلما قدم عليه أكرمه وأنزله، وبالف في إكرامه والإحسان إليه.

وأما أبو علي فإنه سار نحو الري، فلما نزل بسطام خالف عليه بعض من معه، وعادوا عنه مع منصور بن قراتكين، وهو من أكابر أصحاب نوح وخواصّه، فساروا نحو جرجان، وبها الحسن بن الفيرزان، فصدّهم الحسن عنها، فانصرفوا إلى نيسابور، وسار أبو علي نحو الري فيمن بقي معه، فخرج إليه ركن الدولة محارباً، فالتقوا على ثلاثة فراسخ من الري، وكان مع أبي علي جماعة كثيرة من الأكراد، فغدروا به، واستأمنوا إلى ركن الدولة، فانهزم أبو علي، وعاد نحو نيسابور وغنموا بعض أبقاله.

ذكر استيلاء وشمكير على جرجان

لما عاد أبو علي إلى نيسابور لقيه وشمكير، وقد سيره الأمير نوح، ومعه جيش فيهم مالك بن شكرتكين، وأرسل إلى أبي علي يأمره بمساعدة وشمكير، (٤٤٤/أ) فوجه فيمن معه إلى جرجان، وبها الحسن بن الفيرزان، فالتقوا واقتلوا فانهزم الحسن، واستولى وشمكير على جرجان في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ذكر استيلاء أبي علي على الرّيّ

في هذه السنة سار أبو علي من نيسابور إلى نوح، وهو بمرو، فاجتمع به، فأعاده إلى نيسابور، وأمره بقصد الري، وأمدّه بجيش كثير فعاد إلى نيسابور، وسار منها إلى الري في جمادى الآخرة، وبها ركن الدولة، فلما علم ركن الدولة بكثرة جموعه سار عن

الري واستولى أبو علي عليها وعلى سائر أعمال الجبال، وأنفذ نوابه إلى الأعمال، وذلك في شهر رمضان من هذه السنة.

ثم إن الأمير نوحاً سار من مرو إلى نيسابور، فوصل إليها في رجب، وأقام بها خمسين يوماً، فوضع أعداء أبي علي جماعة من الغوغاء والعامه، فاجتمعوا واستنابوا عليه، وشكوا سوء سيرته وسيرة نوابه، فاستعمل الأمير نوح على نيسابور إبراهيم بن سيمجور وعاد عنها إلى بخارى في رمضان، وكان مرادهم بذلك أن يقطعوا طمع أبي علي عن خراسان ليقيم بالري وبلاد الجبل، فاستوحش أبو علي لذلك، فإنه كان يعتقد أنه يحسن إليه بسبب فتح الري وتلك الأعمال، فلما عزل شق ذلك عليه، ووجه أخاه أبا العباس الفضل بن محمد إلى كور الجبال، وولاه همدان، وجعله خليفة على من معه من العساكر، فقصد الفضل نهاوند والدينور وغيرهما واستولى عليها، واستأمن إليه رؤساء الأكراد من تلك الناحية، وأنفذوا إليه رهاثهم. (٤٤٥/٨)

ذكر وصول معز الدولة إلى واسط وعوده عنها

في هذه السنة، آخر رجب، وصل معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه إلى مدينة واسط، فسمع توزون به، فسار هو والمستكفي بالله من بغداد إلى واسط، فلما سمع معز الدولة بمسيرهم إليه فارقه سادس رمضان، ووصل الخليفة وتوزون إلى واسط، فأرسل أبو القاسم البريدي يضمن البصرة، فأجابه توزون إلى ذلك وضمنه، وسلمها إليه، وعاد الخليفة وتوزون إلى بغداد، فدخلها ثامن شوال من السنة.

ذكر ملك سيف الدولة مدينة حلب وحمص

في هذه السنة سار سيف الدولة علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان إلى حلب، فملكها واستولى عليها، وكان مع المتقي لله بالرقّة، فلما عاد المتقي إلى بغداد، وانصرف الإخشيد إلى الشام، بقي يأنس المؤنسي بحلب، فقصد سيف الدولة، فلما نازلها فارقه يأنس وسار إلى الإخشيد، فملكها سيف الدولة، ثم سار منها إلى حمص، فلقى بها عسكر الإخشيد محمد بن طغج، صاحب الشام ومصر، ومع مولاة كافور، واقتلوا، فانهزم عسكر الإخشيد وكافور، وملك سيف الدولة مدينة حمص، وسار إلى دمشق فحصرها، فلم يفتحها أهلها له فرجع.

وكان الإخشيد قد خرج من مصر إلى الشام وسار خلف سيد الدولة، (٤٤٦/٨) فالتقى بقتسين، فلم يظفر أحد العسكرين بالآخر، ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، فلما عاد الإخشيد إلى دمشق رجع سيف الدولة إلى حلب، ولما ملك سيف الدولة حلب سارت الروم إليها، فخرج إليهم، فقاتلهم بالقرب منها، فظفر بهم وقتل منهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، ثامن جمادى الأولى، قبض المستكفي بالله على كاتبه أبي عبد الله بن أبي سليمان وعلى أخيه، واستكتب أبا أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي على خاص أمره، وكان أبو أحمد لما تقلد المستكفي الخلافة بالموصل يكتب لناصر الدولة، فلما بلغه خبر تقلد الخلافة انحدر إلى بغداد لأنه كان يخدم المستكفي بالله، ويكتب له، وهو في دار ابن طاهر.

وفيها، في رجب، سار توزون ومعه المستكفي بالله من بغداد يريدان الموصل، وقصد ناصر الدولة لأنه كان قد أخر حمل المال الذي عليه من ضمان البلاد واستخدم غلماناً هربوا من توزون، وكان الشرط بينهم أنه لا يقبل أحداً من عسكر توزون.

فلما خرج الخليفة وتوزون من بغداد ترددت الرسل في الصلح، وتوسط أبو جعفر بن شيرزاد الأمر، وانقاد ناصر الدولة لحمل المال، وكان أبو القاسم بن مكرم، كاتب ناصر الدولة، وهو الرسول في ذلك، ولما تقرر الصلح عاد (٤٤٧/٨) المستكفي وتوزون فدخلوا بغداد.

وفيها في سابع ربيع الآخر قبض المستكفي على وزيره أبي الفرج السمرائي، وصودر على ثلاثمائة ألف درهم، وكانت مدة وزارته اثنين وأربعين يوماً. (٤٤٨/٨)

سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة

ذكر موت توزون وإمارة ابن شيرزاد

في هذه السنة، في المحرم، مات توزون في داره ببغداد، وكانت مدة إمارته ستين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً، وكتب له ابن شيرزاد مدة إمارته، غير ثلاثة أيام.

ولما مات توزون كان ابن شيرزاد بهت لتخليص أموالها، فلما بلغه الخبر عزم على عقد الإمارة لناصر الدولة بن حمدان، فاضطربت الأجناد، وعقدوا الرئاسة عليهم لابن شيرزاد، فحضر ونزل بباب حرب مستهل صفر، وخرج عليه الأجناد جميعهم، واجتمعوا عليه، وحلقوا له، ووجه إلى المستكفي بالله ليحلف له، فأجابه إلى ذلك، وحلف له بحضوره القضاة والعدول، ودخل إليه ابن شيرزاد، وعاد مكرماً يخاطب بأمر الأمراء، وزاد الأجناد زيادة كثيرة، فضاقت الأموال عليه، فأرسل إلى ناصر الدولة مع أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي، وهو بالموصل، يطلبه بحمل المال، ويعدّه برداً للرئاسة إليه، وأنفذ له خمسمائة ألف درهم وطعاماً كثيراً، ففرقها في عسكره، فلم يؤثر، فقسط الأموال على العمال والكتّاب والتجار وغيرهم لأرزاق (٤٤٩/٨) الجند وظلم

الناس ببغداد.

وظهر للصمص، وأخذوا الأموال، وجلا التجار، واستعمل على واسط ينال كوشة، وعلى تكريت للشكري، فأما ينال فإنه كاتب معز الدولة بن بويه، واستقدمه، وصار معه، وأما الفتح للشكري فإنه سار إلى ناصر الدولة بالموصل، وصار معه، فأقره على تكريت.

ذكر استيلاء معز الدولة على بغداد

لما كاتب ينال كوشة معز الدولة بن بويه، وهو بالأهواز، ودخل في طاعته، سار معز الدولة نحوه، فاضطرب الناس ببغداد، فلما وصل إلى باجسرى اختفى المستكفي بالله وابن شيرزاد، وكانت إمارته ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، فلما استمر سار الأتراك إلى الموصل، فلما أبعدوا ظهر المستكفي وعاد إلى بغداد إلى دار الخلافة، وقدم أبو محمد الحسن بن محمد المهلب، صاحب معز الدولة، إلى بغداد، فاجتمع بابن شيرزاد بالمكان الذي استتر فيه، ثم اجتمع بالمستكفي، فأظهر المستكفي السرور بقدوم معز الدولة، وأعلمه أنه إنما استتر من الأتراك ليفترقوا فيحصل الأمر لمعز الدولة بلا قتال.

ووصل معز الدولة إلى بغداد حادي عشر جمادى الأولى، فنزل بباب (٤٥٠/٨) الشماسية ودخل من الغد على الخليفة المستكفي وبايعه، وحلف له المستكفي، وسأله معز الدولة أن يأذن لابن شيرزاد بالظهور، وأن يأذن أن يستكتبه، فأجابه إلى ذلك، فظهر ابن شيرزاد، ولقي معز الدولة، فولاه الخراج، وجباية الأموال، وخلع الخليفة على معز الدولة، ولقبه ذلك اليوم معز الدولة، ولقب أخاه علياً عماد الدولة، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة، وأمر أن تضرب القباهم وكناهم على الدنانير والدرهم.

ونزل معز الدولة بدار مؤنس، ونزل أصحابه في دور الناس، فلهن الناس من ذلك شدة عظيمة، وصار رسماً عليهم بعد ذلك، وهو أول من فعله ببغداد، ولم يعرف بها قبله، وأقيم للمستكفي بالله كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقاته، وكانت ربما تأخرت عنه، فأقرت له مع ذلك ضياع سلّمت إليه تولاهما أبو أحمد الشيرازي كاتبه.

ذكر خلع المستكفي بالله

وفي هذه السنة خلع المستكفي بالله لثمان بقين من جمادى الآخرة.

وكان سبب ذلك أن علماً القهرمانة صنعت دعوة عظيمة حضرها جماعة من قواد الديلم والأتراك، فأتتهما معز الدولة أنها فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفي ويزيلوا معز الدولة، فساء

ظنه لذلك لما رأى من إقدام علم، وحضر أصفهوسست عند معز الدولة، وقال: قد راسلني الخليفة في أن القاه متكرراً.

فلما مضى اثنان وعشرون يوماً من جمادى الآخرة حضر معز الدولة (٤٥١/٨) والناس عند الخليفة، وحضر رسول صاحب خراسان، ومعز الدولة جالس، ثم حضر رجلان من نقيب الديلم يصيحان، فتناولا يد المستكفي بالله، فظن أنهما يريدان تقييلها، فمتمها إليهما، فجنّبه عن سريره، وجعلا عماته في حلقه، ونهض معز الدولة، واضطرب الناس، ونهبت الأموال، وساق الديلميان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة، فاعتقل بها، ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء، وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي، وأخذت علم القهرمانة فقطع لسانها.

وكانت مدة خلافة المستكفي سنة واحدة وأربعة أشهر، وما زال مغلوباً على أمره مع توزون وابن شيرزاد، ولما بويح المطيع لله سلّم إليه المستكفي، فسلمه وأعماه، وبقي محبوساً إلى أن مات في ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وكان مولده ثالث عشر صفر سنة ست وتسعين ومائتين، وأمّه أم ولد اسمها غصن، وكان أبيض، وحسن الوجه، قد وخطه الشيب.

ذكر خلافة المطيع لله

لما ولي المستكفي بالله الخلافة خافه المطيع، وهو أبو القاسم الفضل بن المقدر، لأنه كان بينهما منازعة، وكان كل منهما يطلب الخلافة، وهو يسعى فيها، فلما ولي المستكفي خافه واستتر منه، فطلبه المستكفي أشد الطلب، فلم يظفر به، فلما قدم معز الدولة ببغداد قيل إن المطيع انتقل إليه، (٤٥٢/٨) واستتر عنده، وأغراه بالمستكفي حتى قبض عليه وسلمه، فلما قبض المستكفي بويح للمطيع لله بالخلافة يوم الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة، ولقب المطيع لله، وأحضر المستكفي عنده، فسلم عليه بالخلافة، وأشهد على نفسه بالخلع.

وإزاد أمر الخلافة إدباراً، ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة، وقد كانوا يراجمون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل، والحرمة قائمة ببعض الشيء، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير إنما كان له كاتب يدبر أقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد.

وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون، ويقولون في التشيع، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة، حتى لقد بلغني أن معز الدولة انتشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوي، أو لغيره من العلويين، فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا

بعض خواصّه فإنه قال: ليس هذا يراي، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه، ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من يعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه، فأعرض عن ذلك؛ فهذا كان من (٤٥٣/٨) أعظم الأسباب في زوال أمرهم ونهبهم مع حب الدنيا وطلب التفرد بها.

وتسلّم معز الدولة العراق بأسره، ولم يبق بيد الخليفة منه شيء البتة، إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته.

ذكر الحرب بين ناصر الدولة ومعز الدولة

فلما علم معز الدولة بعبور أصحابه عاد إلى مكانه، فعلموا بحيلته، فلقبهم ينال كوشة في جماعة أصحاب ناصر الدولة، فهزموه واضطرب عسكر ناصر (٤٥٥/٨) الدولة، وملك الديلم الجانب الشرقي، وأعيد الخليفة إلى داره في المحرم سنة خمس وثلاثين [وثلاثمائة] وغنم الديلم ونهبوا أموال الناس ببغداد، فكان مقدار ما غنموه ونهبوه من أموال المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار، وأمرهم معز الدولة برفع السيف والكف عن النهب وأمن الناس فلم ينتهوا، فأمر وزيره أبا جعفر الصيمري، فركب وقتل، وصلب جماعة، وطاف بنفسه فامتنعوا.

وفي رجب، سبّر معز الدولة عسكراً فيهم موسى قيادة وينال كوشة إلى الموصل في مقدمته، فلما نزلوا عكّبراً أوقع ينال كوشة بموسى قيادة، ونهب سواده، ومضى هو ومن معه إلى ناصر الدولة، وكان قد خرج من الموصل نحو العراق، ووصل ناصر الدولة إلى سامراً في شعبان، ووقعت الحرب بينه وبين أصحاب معز الدولة بمكبرا.

واستقرّ معز الدولة ببغداد، وأقام ناصر الدولة بمكبرا، وأرسل في الصلح بغير مشورة من الأتراك التوزنية، فهمّوا بقتله، فسار عنهم مجذاً نحو الموصل، ثم استقرّ الصلح بينه وبين معز الدولة في المحرم سنة خمس وثلاثين [وثلاثمائة].

وفي رمضان سار معز الدولة مع المطيع لله إلى عكبرا، فلما سار عن بغداد لحق ابن شيرزاد بناصر الدولة، وعاد إلى بغداد مع عسكر لناصر الدولة، فاستولوا عليها، ودبر ابن شيرزاد الأمور بها نيابة عن ناصر الدولة، وناصر الدولة يحارب معز الدولة، فلما كان عاشر رمضان سار ناصر الدولة من سامراً إلى بغداد فأقام بها، فلما سمع معز الدولة الخبر سار إلى تكريت فنهبا لأنها كانت لناصر الدولة، وعاد الخليفة معه إلى بغداد، فنزلوا بالجانب الغربي، ونزل ناصر الدولة بالجانب الشرقي، ولم يخطب للمطيع ببغداد.

ذكر وفاة القائم وولاية المنصور

في هذه السنة توفي القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبد الله المهدي العلوي صاحب إفريقية ثلاث عشرة مضت من شوال، وقام بالأمر بعده ابنه إسماعيل وتلقب المنصور بالله، وكنم موته خوفاً أن يعلم بذلك أبو يزيد، وهو بالقرب منه على سوسة، وأبقى الأمور على حالها، ولم يتسم بالخليفة، ولم يغيّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود، وبقي على ذلك إلى أن فرغ من أمر أبي يزيد، فلما فرغ منه أظهر موته، وتسمى بالخلافة، وعمل آلات الحرب والمراكب، وكان شهماً شجاعاً وضبط الملك والبلاد. (٤٥٦/٨)

ثم وقعت الحرب بينهم ببغداد، وانتشرت أعراب ناصر الدولة بالجانب (٤٥٤/٨) الغربي، فمنعوا أصحاب معز الدولة من الميرة والعلف، فقلت الأسعار على الديلم، حتى بلغ الخبز عندهم كل رطل بدرهم وربع، وكان السعر عند ناصر الدولة رخيصة، كانت تأتيه الميرة في دجلة من الموصل، فكان الخبز عنده كل خمسة أرطال بدرهم.

ذكر أقطاع البلاد وتخريبها

فيها شغب الجند على معز الدولة بن بويه، وأسمعوه المكروه، فضمن لهم إيصال أرزاقهم في مدة ذكرها لهم، فاضطر إلى خبط الناس، وأخذ الأموال من غير وجوها، وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها التي للسultan وأصحاب الأملاك، فبطل لذلك أكثر الدواوين، وزالت أيدي العمال، وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف، والغلاء، والنهب، فأخذ القواد القرى العامرة، وزادت عمارتها معهم، وتوفر دخلها بسبب المجاه، فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك.

ومنع ناصر الدولة من المعاملة بالدنانير التي عليها اسم المطيع، وضرب دنانير ودرهم على سكة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وعليها اسم المتقي لله، واستعان ابن شيرزاد بالعيارين والعامّة على حرب معز الدولة، فكان يركب في الماء، وهم معه، ويقاتل الديلم.

وفي بعض الليالي عبر ناصر الدولة في ألف فارس لكيس معز الدولة، فلقبهم أسفهدوست فهزمهم، وكان من أعظم الناس شجاعة، وضاق الأمر بالديلم حتى عزم معز الدولة على العود إلى

صاحب خراسان وما وراء النهر.

وسبب ذلك أن أبا علي لما عاد من مرو إلى نيسابور وتجهز للمسير إلى الري أنفذ إليه الأمير نوح عارضاً يستعرض العسكر، فأساء العارض السيرة معهم، وأسقط منهم ونقص، فغرت قلوبهم، فساروا وهم على ذلك وانضاف إلى ذلك أن نوحاً أنفذ معهم من يتولى أعمال الديوان، وجعل إليه الحل والعقد والإطلاق بعد أن كان جميعه أيام السعيد نصر بن أحمد إلى أبي علي، فنفر قلبه لذلك، ثم إنه عزل عن خراسان واستعمل عليها إبراهيم بن سيمجور كما ذكرناه.

ثم إن المتولي أساء إلى الجند في معاملاتهم وحوائجهم وأرزاقهم، فازدادوا نفوراً، فشكا بعضهم إلى بعض، وهم إذ ذاك بهمدان، واتفق رأيهم (٤٩٥/٨) على مكاتبة إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل عم نوح، واستقدمه إليهم ومبايعته وتملكه البلاد. وكان إبراهيم حينئذ بالموصل في خدمة ناصر الدولة، وكان سبب مسيره إليها ما ذكرناه قبل، فلما اتفقا على ذلك أظهروا عليه أبا علي، فنهاهم عنه، فتوعدوه بالقبض عليه إن خالفهم، فأجابهم إلى ما طلبوا، فكاتبا إبراهيم وعرفوه حالهم، فسار إليهم في تسعين فارساً، فقدم عليهم في رمضان من هذه السنة، ولقيه أبو علي بهمدان وساروا معه إلى الري في شوال، فلما وصلوا إليها أطلع أبو علي من أخيه الفضل على كتاب كتبه إلى الأمير نوح يطلبه على حالهم، فقبض عليه وعلى ذلك المتولي الذي أساء إلى الجند، وسار إلى نيسابور واستخلف على الري والجبل نوابه.

وبلغ الخبر إلى الأمير نوح، فتجهز وسار إلى مرو من بخارى، وكان الأجناد قد ملؤا من محمد بن أحمد الحاكم المتولي للأمر، لسوء سيرته، فقالوا لنوح: إن الحاكم أفسد عليك الأمور بخراسان، وأحوج أبا علي إلى العصيان، وأوحش الجنود، وطلبوا تسليمه إليهم، وإلا ساروا إلى عمه إبراهيم وأبي علي، فسلمه إليهم، فقتلوه في جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين [وثلاثمائة].

ولما وصل أبو علي إلى نيسابور كان بها إبراهيم بن سيمجور، ومنصور بن قراتكين، وغيرهما من القواد، فاستمالها أبو علي، فمالا إليه وصاروا معه، ودخلها في المحرم سنة خمس وثلاثين [وثلاثمائة] ثم ظهر له من منصور ما يكره فقبض عليه.

ثم سار أبو علي وإبراهيم من نيسابور في ربيع الأول سنة خمس وثلاثين [وثلاثمائة] إلى مرو، وبها الأمير نوح، فهرب الفضل أخو أبي علي من محبسه، احتال على الموكلين به وهرب إلى قوهستان فأقام بها، وسار أبو علي إلى مرو، (٤٩٠/٨) فلما قاربها أتاه كثير من عسكر نوح، وسار نوح عنها إلى بخارى، واستولى أبو علي على مرو في جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين

وأما الأتباع فإن الذي أخذوه ازداد خراباً، فردّوه وطلبوا العوض عنه، فعوضوا، وترك الأجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها، فهلك وبطل الكثير منها.

وأخذ غلمان المقطعين في ظلم وتحصيل العاجل، فكان أحدهم إذا عجز الحاصل تمّمه بمصادراتها.

ثم إن معز الدولة فوّض حماية كل موضع إلى بعض أكابر أصحابه فاتخذ مسكناً وأطعمه، فاجتمع إليهم الإخوة، وصار القواد يدعون الخسارة في الحاصل، فلا يقدر وزير ولا غيره على تحقيق ذلك، فإن اعترضهم معترض صاروا أعداء له، فتركوا وما يريدون، فازداد طمعهم، ولم يقفوا عند غاية، فتعذّر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للثواب والحوادث، (٤٥٧/٨) وأكثر من إعطاء غلمانه الأتراك والزيادة لهم في الأقطاع، فحسداهم الديلم وتولّد من ذلك الوحشة والمنافرة، فكان من ذلك ما نذكره.

ذكر موت الإخشيد وملك سيف الدولة دمشق

في هذه السنة، في ذي الحجة، مات الإخشيد أبو بكر محمد بن طُغُج، صاحب ديار مصر، وكان مولده سنة ثمان وستين ومائتين ببغداد، وكان موته بدمشق، وقيل مات سنة خمس وثلاثين [وثلاثمائة]، وولي الأمر بعده ابنه أبو القاسم أنوجور، فاستولى على الأمر كافور الخادم الأسود، وهو من خدم الإخشيد، وغلب أبا القاسم واستضعفه وتفرّد بالولاية؛ وكافور هذا هو الذي مدحه المتنبي ثم هجاه.

وكان أبو القاسم صغيراً، وكان كافور أتابكه، فلهذا استضعفه، وحكم عليه، فسار كافور إلى مصر، فقصده سيف الدولة دمشق، فملكها وأقام بها، فاتفق أنه كان يسير هو والشريف العقيلي بنواحي دمشق، فقال سيف الدولة: ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد: فقال له العقيلي: هي لأقوام كثيرة؛ فقال سيف الدولة: لئن أخذتها القوائن السلطانية لينبرون منها، فأعلم العقيلي أهل دمشق بذلك، فكاتبوا كافوراً يستدعونه، فجاءهم، فسأخرجوا سيف الدولة (٤٥٨/٨) عنهم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وكان أنوجور مع كافور، فتبعوا سيف الدولة إلى حلب، فهاقهم سيف الدولة فغبر إلى الجزيرة، وأقام أنوجور على حلب، ثم استقر الأمر بينهما، وعاد أنوجور إلى مصر وعاد سيف الدولة إلى حلب، وأقام كافور بدمشق يسيراً وولي عليها بدر الإخشيدي، ويُعرف ببُدير، وعاد إلى مصر، فبقي بُدير على دمشق سنة، ثم وليها أبو المظفر بن طُغُج وقبض على بُدير.

ذكر مخالفة أبي علي على الأمير نوح

وفي هذه السنة خالف أبو علي بن محتاج على الأمير نوح،

[وثلاثمائة] وأقام بها أياماً، وأتاه أكثر أجناد نوح وسار نحو بخارى،

وعبر النهر إليها، ففارقها نوح وسار إلى سمرقند، ودخل أبو علي بخارى في جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وخطب فيها لإبراهيم العم، وباع له الناس.

ثم إن أبا علي أطلع من إبراهيم على سوء قد أضمره له، ففارقه وسار إلى تركستان، وبقي إبراهيم في بخارى، وفي خلال ذلك أطلق أبو علي منصور بن قراتكين فسار إلى الأمير نوح.

ثم إن إبراهيم وافق جماعة في السر على أن يخلع نفسه من الأمر ويرده إلى ولد أخيه الأمير نوح، ويكون هو صاحب جيشه، ويتفق معه على قصد أبي علي، ودعا أهل بخارى إلى ذلك، فأجابوه واجتمعوا وخرجوا إلى أبي علي وقد تفرق عنه أصحابه، وركب إليهم في خيل، فردهم إلى البلد أتبع رده، وأراد إحراق البلد، فشفع إليه مشايخ بخارى، فعفا عنهم وعاد إلى مكانه، واستحضر أبا جعفر محمد بن نصر بن أحمد، وهو أخو الأمير نوح، وعقد له الإمارة وباع له، وخطب له في النواحي كلها.

ثم ظهر لأبي علي فساد نيات جماعة من الجند، فرتب أبا جعفر في البلد، ورتب ما يجب ترتيبه، وخرج عن البلد يظهر المسير إلى سمرقند، ويضمم العود إلى الصغانيان، ومنها إلى نسف، فلما خرج من البلد رد جماعة من الجند والحشم إلى بخارى، وكاتب نوحاً بإفراجه عنها.

ثم سار إلى الصغانيان في شعبان، ولما فارق أبو علي بخارى خرج إبراهيم (٤٦١/٨) وأبو جعفر محمد بن نصر إلى سمرقند مستامين إلى نوح، مظهرين الندم على ما كان منهم، فقرهم وقبلهم ووعدهم وعاد إلى بخارى في رمضان، وقتل نوح في تلك الأيام طغان الحاجب، وسمل عم إبراهيم، وأخويه أبا جعفر محمداً وأحمد، وعادت الجيوش فاجتمعت عليه والأجناد، وأصلح الفساد.

وأما الفضل بن محمد أخو أبي علي فإنه لما هرب من أخيه كما ذكرناه ولحق بقوستان، جمع جمعاً كثيراً وسار نحو نيسابور، وبها محمد بن عبد الرزاق من قبل أبي علي، فخرج منها إلى الفضل، فالتقيا وتحاربا، فانهزم الفضل ومعه فارس واحد، فلحق ببخارى فأكرمه الأمير نوح، وأحسن إليه وأقام في خدمته.

ذكر استعمال منصور بن قراتكين على خراسان

لما عاد الأمير نوح إلى بخارى، وأصلح البلاد، وكان أبو علي بالصغانيان، ويمرو أبو أحمد محمد بن علي القزويني، فرأى نوح أن يجعل منصور بن قراتكين على جيوش خراسان، فولاه ذلك، وسيّره إلى مرو، وبها أبو أحمد، وقد غور المناهل ما يبين أمل

وسار إليه منصور جريداً في ألفي فارس، فلم يشعر القزويني إلا بتزول منصور بكشماهن على خمسة فراسخ من مرو، واستولى منصور على مرو، (٤٦٢/٨) واستقبله أبو أحمد القزويني فأكرمه، وسيّره إلى بخارى مع ماله وأصحابه، فلما بلغها أكرمه الأمير نوح وأحسن إليه إلا أنه وكل به، فظفر بعض الأيام برقعة قد كتبها القزويني بما أنكره، فأحضره ويكته بذنوبه، ثم قتله.

ذكر مصالحة أبي علي مع نوح

ثم إن أبا علي أقام بالصغانيان، فبلغه أن الأمير نوحاً قد عزم على تسيير عسكر إليه، فجمع أبو علي الجيوش وخرج إلى بلخ وأقام بها، وأتاه رسول الأمير نوح في الصلح، فأجاب إليه، فأبى عليه جماعة ممن معه من قواد نوح الذين انتقلوا إليه، وقالوا: نجب أن تردنا إلى منازلنا، ثم صالح، فخرج أبو علي نحو بخارى، فخرج إليه الأمير نوح في عساكره، وجعل الفضل بن محمد أخا أبي علي صاحب جيشه، فالتقوا بجرجيك في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وتحاربوا قبيل العصر، فاستامن إسماعيل بن الحسن الداعي إلى نوح، وتفرق العسكر عن أبي علي فانهمز ورجع إلى الصغانيان.

ثم بلغه أن الأمير نوحاً قد أمر العساكر بالمسير إليه من بخارى وبلخ وغيرهما، وأن صاحب الختل قد تجهز لمساعدة أصحاب أبي علي، فسار (٤٦٣/٨) أبو علي في جيشه إلى يريزد، وعبر جيحون، وسار إلى بلخ، فأنزلها، واستولى عليها وعلى طخارستان، وجبى مال تلك الناحية.

وسار من بخارى عسكر جرار إلى الصغانيان، فأقاموا بنسف ومعهم الفضل بن محمد أخو أبي علي، فكتب جماعة من قواد العسكر إلى الأمير نوح بأن الفضل قد أتهموه بالميل إلى أخيه، فأمرهم بالقبض عليه، فقبضوا عليه وسيّروه إلى بخارى.

وبلغ خبر العسكر إلى أبي علي، وهو بطخارستان، فعاد إلى الصغانيان، ووقعت بينهم حروب، وضيّق عليهم أبو علي في العلوفة، فانتقلوا إلى قرية أخرى على فرسخين من الصغانيان، فقاتلهم أبو علي في ربيع الأول سنة سبع وثلاثين [وثلاثمائة] قتالاً شديداً، فقهره، وسار إلى شومان، وهي على ستة عشر فرسخاً من الصغانيان، ودخل عسكر نوح إلى الصغانيان، فأخربوا قصور أبي علي ومساكنه، وتبعوا أبا علي، فعاد إليهم واجتمع إليه الكتيبة، وضيّق على عسكر نوح، وأخذ عليهم المسالك، فانقطعت عنهم أخبار بخارى، وأخبارهم عن بخارى، نحو عشرين يوماً، فأرسلوا إلى أبي علي يطلبون الصلح، فأجابهم إليه، وانفقوا على إنفاذ ابنه أبي المظفر عبد الله رهينة إلى الأمير نوح، واستقر الصلح بينهما

في جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

وسير ابنه إلى بخارى، فأمر نوح باستقباله، فأكرمته وأحسن إليه، وكان قد دخل إليه بعمامة، فخلع عليه القلنسوة، وجعله من ندمائه، وزال الخلف.

وكان ينبغي أن نذكر هذه الحوادث في السنين التي هي فيها كانت، وإنما أوردناها متابعة في هذه السنة لتلا يفرق ذكرها.

هذا الذي ذكره أصحاب التواريخ من الخراسانيين، وقد ذكره العراقيون (٤٦٤/٨) هذه الحوادث على غير هذه السياقة، وأهل كل بلد أعلم بأحوالهم، ونحن نذكر ما ذكره العراقيون مختصراً، قالوا: إن أبا علي لما سار نحو الري في عساكر خراسان كتب ركن الدولة إلى أخيه عماد الدولة يستمده، فأرسل إليه يأمره بمفارقة الري والوصول إليه لتدبير له في ذلك، ففعل ركن الدولة ذلك.

ودخل أبو علي الري، فكتب عماد الدولة إلى نوح سراً يبذل له في الري في كل سنة زيادة على ما يبذله أبو علي مائة ألف دينار، ويعجل ضمان سنة، ويبذل من نفسه مساعدته على أبي علي حتى يظفر به وخوفه منه، فاستشار نوح أصحابه، وكانوا يحسدون أبا علي ويعادونه، فأشاروا عليه بإجابته؛ فأرسل نوح إلى ابن بويه من يقر القاعدة ويقبض المال، فأكرم الرسول ووصله بمال جزيل، وأرسل إلى أبي علي يعلمه خبر هذه الرسالة، وأنه مقيم على عهده ووده، وحذره من غدر الأمير نوح، فاتفق أبو علي رسول له إلى إبراهيم، وهو بالموصل، يستدعيه ليملكه البلاد، فسار إبراهيم، فلقه أبو علي بهمدان، وساروا إلى خراسان.

وكتب عماد الدولة إلى أخيه ركن الدولة يأمره بالمبادرة إلى الري، فعاد إليه، واضطربت خراسان، ورد عماد الدولة رسول نوح بغير مال، وقال: أخاف أن أنفذ المال فيأخذه أبو علي؛ وأرسل إلى نوح يحذره من أبي علي ويوعده المساعدة عليه، وأرسل إلى أبي علي، يعده بإنفاذ العساكر نجدة له، ويشير عليه بسرعة اللقاء، وإن نوحاً سار فالتقى هو وأبو علي بنيسابور، فانهزم نوح وعاد إلى سمرقند، واستولى أبو علي على بخارى، وإن أبا علي استوحش من إبراهيم فانتقبض عنه.

وجمع نوح العساكر وعاد إلى بخارى، وحارب عمه إبراهيم، فلما (٤٦٥/٨) التقى الصفان عاد جماعة من قواد إبراهيم إلى نوح، وانهزم الباقيون، وأخذ إبراهيم أسيراً، فسُئل هو وجماعة من أهل بيته، سملهم نوح.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اصططح معز الدولة وأبو القاسم البريدي، وضمن أبو القاسم مدينة واسط وأعمالها منه.

وفيها اشتد الغلاء ببغداد حتى أكل الناس الميتة، والكلاب والسنانير، وأخذ بعضهم ومعه صبي قد شواه ليأكله، وأكل الناس خروب الشوك فأكثروا منه، وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه، فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم، وكثر فيهم الموت، حتى عجز الناس عن دفن الموتى، فكانت الكلاب تأكل لحومهم، وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة، فمات أكثرهم في الطريق، ومن وصل منهم مات بعد مديدة سيرة، وبيعت الدور والعقار بالخبز، فلما دخلت الغلات انحل السعر.

وفيها توفي علي بن عيسى بن داود بن الجراح الوزير وله تسعون سنة، وقد تقدم من أخباره ما يدل على دينه وكفايته.

وفيها توفي أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقى الفقيه الحنبلي ببغداد، وأبو بكر الشبلي الصوفي، توفي في ذي الحجة، ومحمد بن عيسى أبو عبد الله، ويُعرف بابن أبي موسى الفقيه الحنفي، في ربيع الأول. (٤٦٦/٨)

سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة

في هذه السنة، في المحرم، استقر معز الدولة ببغداد، وأعاد المطيع لله إلى دار الخلافة، بعد أن استوتق منه، وقد تقدم ذلك مفصلاً.

وفيها اصططح معز الدولة وناصر الدولة، وكانت الرسل تتردد بينهما بغير علم من الأتراك التوزنية، وكان ناصر الدولة نازلاً شرقي تكريت، فلما علم الأتراك بذلك ثاروا بناصر الدولة، فهرب منهم وعبر دجلة إلى الجانب الغربي، فنزل على ملهم والقرامطة، فأجاروه، وسيرهو ومعه ابن شيرزاد إلى الموصل.

ذكر حرب تكين وناصر الدولة

لما هرب ناصر الدولة من الأتراك، ولم يقدرُوا عليه، اتفقوا على تأمير تكين الشيرازي، وقبضوا على ابن قرابة، وعلى كتاب ناصر الدولة ومن تخلف من أصحابه، وقبض ناصر الدولة على ابن شيرزاد عند وصوله إلى جهة، ولم يلبث ناصر الدولة بالموصل بل سار إلى نصيبين، ودخل تكين والأتراك إلى الموصل، وساروا في طلبه، فمضى إلى سنجار، فتبعه تكين إليها، فسار ناصر الدولة من سنجار إلى الحديثة، فتبعه تكين. (٤٦٧/٨)

وكان ناصر الدولة قد كتب إلى معز الدولة يستصرخه، فسير الجيوش إليه، فسار ناصر الدولة من الحديثة إلى السن، فاجتمع هناك بعسكر معز الدولة، وفيهم وزيره أبو جعفر الصيمري، وساروا بأسرهم إلى الحديثة لقتال تكين، فالتقوا بها، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم تكين والأتراك بعد أن كادوا يستظهرون، فلما انهزموا تبعهم

سنة ست وثلاثين وثلاثمائة

ذكر استيلاء معز الدولة على البصرة

في هذه السنة سار معز الدولة ومعه المطيع لله إلى البصرة لاستنقاذها من يد أبي القاسم عبد الله بن أبي عبد الله البريدي، وسلخوا البرية إليها، فأرسل القرامطة من جُحْر إلى معز الدولة يتكرون عليه مسيره إلى البرية بغير أمرهم، وهي لهم، فلم يجيبهم عن كتابهم، وقال للرسول: قل لهم من أنتم حتى تستأمروا، وليس قصدي من أخذ البصرة غيركم، وستعلمون ما تلقون مني.

ولما وصل معز الدولة إلى الدرهمية استأمن إليه عساكر أبي القاسم البريدي، وهرب أبو القاسم في الرابع والعشرين من ربيع الآخر إلى جُحْر، والتجأ إلى القرامطة، وملك معز الدولة البصرة، فاتحلت الأسعار ببغداد انحلالاً كثيراً.

وسار معز الدولة من البصرة إلى الأهواز ليلقى أخاه عماد الدولة، وأقام الخليفة وأبو جعفر الصيمري بالبصرة، وخالف كوركير، وهو من أكابر القواد، على معز الدولة، فسير إليه الصيمري، فقاتله فانهزم كوركير وأخذ أميراً، فحبسه معز الدولة بقلعة رامهرمز، ولقي معز الدولة أخاه عماد الدولة بارجان في شعبان، وقبّل الأرض بين يديه، وكان يقف قائماً عنده، فبأمره بالجلوس، فلا يفعل، ثم عاد إلى بغداد، وعاد المطيع أيضاً إليها، (٤٧٠/٨) وأظهر معز الدولة أنه يريد [أن] يسير إلى الموصل، فترددت الرسل بينه وبين ناصر الدولة، واستقر الصلح وحمل المال إلى معز الدولة فسكت عنه.

ذكر مخالفة محمد بن عبد الرزاق بطوس

كان محمد بن عبد الرزاق بطوس وأعمالها، وهي في يده ويد نوابه، فخالف على الأمير نوح بن نصر الساماني، وكان منصور بن قراتكين، صاحب جيش خراسان، عمرو عند نوح، فوصل إليهما وشمكير منهزماً من جرجان، قد غلبه عليها الحسن بن الفيرزان، فأمر نوح منصوراً بالمسير إلى نيسابور، ومحاربة محمد بن عبد الرزاق وأخذ ما بيده من الأعمال، ثم يسير مع وشمكير إلى جرجان، فسار منصور ووشمكير إلى نيسابور، وكان بها محمد بن عبد الرزاق، فقارقتها نحو أستاذ، فأتبعه منصور، فسار محمد إلى جرجان، وكاتب ركن الدولة بن بويه، واستأمن إليه، فأمره بالوصول إلى الري.

وسار منصور من نيسابور إلى طوس، وحصروا رافع بن عبد الرزاق بقلعة شمیلان، فاستأمن بعض أصحاب رافع إليه، فهرب رافع من شمیلان إلى حصن دُرّك، فاستولى منصور على شمیلان، وأخذ ما فيها من مال وغيره، واحتسمى رافع بذُرّك، وبها أهله

العرب من أصحاب ناصر الدولة، فأدركوهم وأكثروا القتل فيهم، وأسروا تكين الشيرازي وحملوه إلى ناصر الدولة، فسمله في الوقت فأعماه، وحمله إلى قلعة من قلاع فسجنه بها.

وسار ناصر الدولة والصيمري إلى الموصل، فتزولوا شرقها، وركب ناصر الدولة إلى خيمة الصيمري، فدخل إليه ثم خرج من عنده إلى الموصل، ولم يعد إليه، فحكى عن ناصر الدولة أنه قال: ندمت حين دخلت خيمته، فبادرت وخرجت.

وحكى عن الصيمري أنه قال: لما خرج ناصر الدولة من عندي ندمت حيث لم أقبض عليه، ثم تسلّم الصيمري بن شيرزاد من ناصر الدولة ألف كرّ حنطة وشعيراً وغير ذلك.

ذكر استيلاء ركن الدولة على الري

لما كان من عساكر خراسان ما ذكرناه من الاختلاف، وعاد أبو علي إلى خراسان، رجع ركن الدولة إلى الري واستولى عليها وعلى سائر أعمال الجبل، وأزال عنها الخراسانية، وعظم ملك بني بويه، فإنهم صار بأيديهم أعمال الري، والجبل، وفارس، والأهواز، والعراق، ويحمل إليهم ضمان الموصل، وديار بكر، وديار مضر من الجزيرة. (٤٦٨/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اختلف معز الدولة بن بويه وأبو القاسم بن البريدي والي البصرة، فأرسل معز الدولة جيشاً إلى واسط، فسير إليهم ابن البريدي جيشاً من البصرة في الماء، وعلى الظهر، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم أصحاب البريدي، وأسر من أعيانهم جماعة كثيرة.

وفيها كان الفداء بالغفور بين المسلمين والروم على يد نصر الثملي أمير الثغور لسيف الدولة بن حمدان، وكان عدة الأسرى ألفين وأربعمائة أسير وثمانين أسيراً من ذكر وأنثى، وفضل للروم على المسلمين مائتان وثلاثون أسيراً لكثرة من معهم من الأسرى، فوفاهم ذلك سيف الدولة.

وفيها، في شعبان، قبض سيف الدولة بن حمدان على أبي إسحاق محمد القرابطي، وكان استكتبه استظهاراً على أبي الفرج محمد بن علي السُرّ من رائي، واستكتب أبا عبد الله محمد بن سليمان بن فهد الموصلية.

وفيها توفي محمد بن إسماعيل بن نجر أبو عبد الله الفارسي، الفقيه الشافعي، في شوال، ومحمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول أبو بكر الصولي، وكان عالماً بفنون الآداب والأخبار. (٤٦٩/٨)

إليه، فلقية الحسن وأكرمه وعاد إلى داره، ودخل الحسن البلد، ومال إليه كل منحرف عن بني الطبري ومن معهم.

فلما رأى ابن الطبري ذلك أمر رجلاً صقلياً، فدعا بعض عبيد الحسن وكان موصوفاً بالشجاعة، فلما دخل بيته خرج الرجل يستغيث ويصيح ويقول: إن هذا دخل بيتي، وأخذ امرأتي بحضرتي غصباً؛ فاجتمع أهل البلد لذلك، وحركهم ابن الطبري وخوفهم وقال: هذا فعلهم؛ ولم يتمكنوا من البلد، وأمر الناس بالحضور عند الحسن ظناً منه أنه لا يعاقب مملوكه، فيثور الناس به، فيخرجون من البلد.

فلما اجتمع الناس، وذلك الرجل يصيح ويستغيث، أحضره الحسن عنده، وسأله عن حاله، فحلفه بالله تعالى على ما يقول، فحلف، فأمر بقتل الغلام، (٤٧٣/٨) فقتل، فسر أهل البلد وقالوا: الآن طابت نفوسنا، وعلمنا أن بلدنا يتعمر، ويظهر فيه العدل؛ فانعكس الأمر على ابن الطبري، وأقام الحسن وهو خائف منهم.

ثم إن المنصور أرسل إلى الحسن يعرفه أنه قبض على علي بن الطبري، وعلى محمد بن عبدون، ومحمد بن جنا، ومن معهم، ويأمره بالقبض على إسماعيل بن الطبري، ورجاء بن جنا ومحمد .. ومخلفي الجماعة المقبوضين، فاستعظم الأمر، ثم أرسل إلى ابن الطبري يقول له: كنت قد وعدتني أن تنفج في البستان الذي لك، فتحضر لنمضي إليه؛ وأرسل إلى الجماعة على لسان ابن الطبري يقول: تحضرون لنمضي مع الأمير إلى البستان؛ فحضروا عنده، وجعل يحاذيهم ويطول إلى أن أمسوا، فقال: قد فات الليل، وتكونون أضيافاً؛ فأرسل إلى أصحابهم يقول: إنهم الليلة في ضيافة الأمير، فتعودون إلى بيوتهم إلى الغد؛ فمضى أصحابهم، فقبض عليهم، وأخذ جميع أموالهم، وكثر جمعه، واتفق الناس عليه وقويت نفوسهم، فلما رأى الروم ذلك أحضر الراهب مال الهدنة ثلاث سنين.

ثم إن ملك الروم أرسل بطريقاً في البحر، في جيش كثير، إلى صقلية، واجتمع هو والسردغوس، فأرسل الحسن بن علي إلى المنصور يعرفه الحال، فأرسل إليه أسطولاً فيه سبعة آلاف فارس، وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل، سوى البحرية، وجمع الحسن إليهم جمعاً كثيراً، وسار في البر (٤٧٤/٨) والبحر، فوصل إلى مَسِينِي، وعادت العساكر الإسلامية إلى ريو، وبث الحسن السرايا في أرض قلورية، ونزل الحسن على جراحة وحاصرها أشد حصاراً، وأشرقوا على الهلاك من شدة العطش، فوصلهم الخبر أن الروم قد زحفوا إليه، فصالح أهل جراحة على مال أخذه منهم، وسار إلى لقاء الروم، ففروا من غير حرب إلى مدينة بارة، ونزل الحسن على قلعة قسانة، وبث سراياه إلى قلورية وأقام عليها شهراً، فسأله الصلح، فصالحهم على مال أخذه منهم.

ووالدته، وهي على ثلاثة فراسخ من شميلان، فأخرب منصور شميلان، وسار إلى دَرَكَ فحاصرها، وحاربهم عدة أيام، فتغيرت المياه بدَرَكَ، فاستأمن أحمد بن عبد الرزاق إلى منصور في جماعة من بني عمه وأهله، وعمد أخوه رافع إلى الصامت من الأموال، والجواهر، وألقاها في البُسط إلى تحت القلعة، ونزل هو وجماعة فأخذوا تلك الأموال (٤٧١/٨) وتفرقوا في الجبال.

واحتوى منصور على ما كان في قلعة دَرَكَ، وأنفذ عيال محمد بن عبد الرزاق ووالدته إلى بخاري فاعتقلوا بها، وأما محمد بن عبد الرزاق فإنه سار من جُرجان إلى الري، وبها ركن الدولة بن بويه، فأكرمه ركن الدولة، وأحسن إليه، وحمل إليه شيئاً كثيراً من الأموال وغيرها، وسرجه إلى محاربة المرزيان على ما تذكره.

ذكر ولاية الحسن بن علي صقلية

في هذه السنة استعمل المنصور الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي على جزيرة صقلية، وكان لهم حل كبير عند المنصور، وله أثر عظيم في قتال أبي يزيد.

وكان سبب ولايته أن المسلمين كانوا قد استضعفهم الكفار بها، أيام عطاف لعجزه وضعفه، وامتنعوا من إعطاء مال الهدنة؛ وكان بصقلية بنو الطبري من أعيان الجماعة، ولهم أتباع كثيرون، فوثبوا بعطاف أيضاً، وأعانهم أهل المدينة عليه يوم عيد الفطر سنة خمس وثلاثين [وثلاثمائة] وقتلوا جماعة من رجاله، وأفلت عطاف هارباً بنفسه إلى الحصن، فأخذوا أعلامه وطبوله وانصرفوا إلى ديارهم، فأرسل أبو عطاف إلى المنصور يعلمه الحال ويطلب المدد.

فلما علم المنصور ذلك استعمل على الولاية الحسن بن علي، وأمره بالمسير، فسار في المراكب، فأرسي بمدينة مازر، فلم يلتفت إليه أحد، فبقي يومه، فأتاه في الليل جماعة من أهل إفريقية، وكنامة، وغيرهم، وذكروا أنهم (٤٧٢/٨) خافوا الحضور عنده من ابن الطبري ومن اتفق معه من أهل البلاد، وأن علي بن الطبري، ومحمد بن عبدون، وغيرهما قد ساروا إلى إفريقية، وأوصوا بنيتهم ليمتنعوا من دخول البلد، ومفارقة مراكبه إلى أن تصل كتبهم بما يلتقون من المنصور، وقد مضوا يطلبون أن يولي المنصور غيره.

ثم أتاه نفر من أصحاب ابن الطبري ومن معه ليشاهدوا من معه، فزأوه في قلعة، فطمعوا فيه، وخادعوه وخادعهم، ثم عادوا إلى المدينة، وقد وعدهم أنه يقيم بمكانه إلى أن يعودوا إليه، فلما فارقه جد السير إلى المدينة قبل أن يجمعوا أصحابهم ويمنعوه، فلما انتهى إلى البيضاء أتاه حاكم البلد وأصحاب الدواوين، وكل من يريد العافية، فلقبهم وأكرمهم، وسألهم عن أحوالهم، فلما سمع إسماعيل بن الطبري بخروج هذا الجمع إليه اضطر إلى الخروج

ودخل الشتاء، فرجع الجيش إلى مَسِينِي، وشنت الأسطول بها،

وفيه مات سلامة الطولوني الذي كان حاجب الخلفاء، فأخذ ماله وعياله، وسار إلى الشام أيام المستكفي، فمات هناك، ولما سار عن بغداد أخذ ماله في الطريق ومات هو الآن، فذهبت نعمته ونفسه حيث ظن السلامة، ولقد أحسن القاتل حيث يقول:

وإذا خشيت من الأمور مقثراً فهربت منه، فتحوه بتقتم
وفيهما توفي محمد بن أحمد بن حماد أبو العباس الأثرم
المقري: (٤٧٧/٨)

سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة

ذكر ملك معز الدولة الموصل وعوده عنها

في هذه السنة سار معز الدولة من بغداد إلى الموصل قاصداً لناصر الدولة، فلما سمع ناصر الدولة بذلك سار عن الموصل إلى نصيبين، ووصل معز الدولة فملك الموصل في شهر رمضان، وظلم أهلها وعسفهم، وأخذ أموال الرعايا، فكثر الدعا عليه.

وأراد معز الدولة أن يملك جميع بلاد ناصر الدولة، فأنه الخبر من أخيه ركن الدولة أن عساكر خراسان قد قصدت جرجان والري، ويستمدّه ويطلب منه العساكر، فاضطر إلى مصالحة ناصر الدولة، فتددت الرسل بينهما في ذلك، واستقر الصلح بينهما على أن يؤدي ناصر الدولة عن الموصل، وديار الجزيرة كلها، والشام كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم، ويخطب في بلاده لعماد الدولة، وركن الدولة، ومعز الدولة بني بويه، فلما استقر الصلح عاد معز الدولة إلى بغداد فدخلها في ذي الحجة من السنة. (٤٧٨/٨)

ذكر مسير عسكر خراسان إلى جرجان

في هذه السنة سار منصور بن قراتكين في جيوش خراسان إلى جرجان، صحبة وشمكير، وبها الحسن بن الفيرزان، وكان منصور منحرفاً عن وشمكير في السير، فتساهل لذلك مع الحسن، وصالحه وأخذ ابنه رهينة.

ثم بلغ منصور أن الأمير نوحاً اتصل بابنة ختكين، مولى قراتكين، وهو صاحب بُسْت والرُّشُج، فسأه ذلك منصوراً وأقلقه، وكان نوح قد زوّج قبل ذلك بنتاً لمنصور من بعض مواليه، اسمه فتكين، فقال منصور: يتزوّج الأمير ابنة مولاي، وتزوّج ابنتي من مولاه؟ فحمله ذلك على مصالحة الحسين بن الفيرزان وأعاد عليه ابنه، وعاد عنه إلى نيسابور، وأقام الحسن بزوزن، وبقي وشمكير بجرجان.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين [وثلاثمائة] فقصد الحسن جرجة فحصرها، فأرسل إليه قسطنطين ملك الروم يطلب منه الهدنة، فهادنه، وعاد الحسن إلى ريو وبنى بها مسجداً كبيراً في وسط المدينة، وبنى في أحد أركانه مأذنة، وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته، وإقامة الصلاة فيه، والأذان، وأن لا يدخله نصراني، ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو آمن سواء كان مرتداً أو مقيماً على دينه، وإن أخرجوا حجراً منه هُدمت كنائسهم كلها بصقلية وإفريقية، فوفى الروم بهذه الشروط كلها ذلّة وضغارة، وبقي الحسن بصقلية إلى أن توفي المنصور وملك المعز، فسار إليه وكان ما نذكره. (٤٧٥/٨)

ذكر عصيان جُمان بالرجة وما كان منه

كان جُمان هذا من أصحاب توزون، وصار في جملة ناصر الدولة بن حمدان، فلما كان ناصر الدولة ببغداد، في الجانب الشرقي، وهو يحارب معز الدولة ضمّ ناصر الدولة جميع الديلم الذين معه إلى جُمان لقلّة ثقته بهم، وقلّده الرّجبة وأخرجه إليها، فعظم أمره هناك، وقصده الرجال، فأظهر العصيان على ناصر الدولة، وعزم على التغلب على الرّقة وديار مُصّر، فسار إلى الرّقة فحصرها سبعة عشر يوماً، فحاربه أهلها وهزموه، ووثب أهل الرّجة بأصحابه وعمّاله، فقتلوه لشدة ظلمهم، وسوء معاملتهم.

فلما عاد من الرّقة وضع السيف في أهلها فقتل منه مقتلة عظيمة، فأرسل إليه ناصر الدولة حاجبه ياروخ في جيش، فاقتلوا على شاطئ الفرات، فانهزم جُمان، فوقع في الفرات فغرق، واستأنم أصحابه إلى ياروخ، وأخرج جُمان من الماء فدفن مكانه.

ذكر ملك ركن الدولة طبرستان وجرجان

وفيهما، في ربيع الأول، اجتمع ركن الدولة بن بويه، والحسن بن الفيرزان، وقصداً بلاد وشمكير، فالتقاهما وشمكير وانهزم منهما، وملك ركن الدولة طبرستان، وسار منها إلى جرجان فملكها، واستأنم من قوّد وشمكير مائة (٤٧٦/٨) وثلاثة عشر قائداً، فأقام الحسن بن الفيرزان بجرجان، ومضى وشمكير إلى خراسان مستجيراً ومستنجداً لإعادة بلاده، فكان ما نذكره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، ظهر كوكب له ذنب طوله نحو

ذكر مسير المرزبان إلى الري

في هذه السنة سار المرزبان محمد بن مسافر، صاحب أذربيجان، إلى الري.

وسبب ذلك أنه بلغه خروج عساكر خراسان إلى الري، وأن ذلك يشغل ركن الدولة عنه، ثم إنه كان أرسل رسولا إلى معز الدولة، فحلّق معز الدولة لحيته، وسبّه وسبّ صاحبه، وكان سفيهاً، فعظم ذلك على المرزبان، وأخذ في جمع العساكر، واستأمن إليه بعض قواد ركن الدولة، وأطمعه في الري، (٤٧٩/٨) وأخبره أن من وراءه من القواد يريدونه، فطمع لذلك، فراسله ناصر الدولة يعد المساعدة، ويشير عليه أن يتدبّر ببغداد، فخالفه، ثم أحضر أباه وأخاه وهسودان، واستشارهما في ذلك، فنهاه أبوه عن قصد الري، فلم يقبل، فلما ودّعه بكى أبوه وقال: يا بني أين أطلبك بعد يومي هذا؟ قال: إما في دار الإمارة بالري، وإما بين القتلى.

فلما عرف ركن الدولة خبره كتب إلى أخويه عماد الدولة ومعز الدولة يستمدّهما، فسبّر عماد الدولة ألفي فارس، وسبّر إليه معز الدولة جيشاً مع سبكتكين التركي، وأنفذ عهداً من المطيع لله لركن الدولة بخراسان، فلما صاروا بالدينور خالف الديلم على سبكتكين، وكسوه ليلاً، فركب فرس النوبة ونجا، واجتمع الأتراك عليه، فعلم الديلم أنهم لا قوة لهم به، فعادوا إليه وتضرّعوا، فقبل عذرهم.

وكان ركن الدولة قد شرع من المرزبان في المخادعة، وإعمال الحيلة، فكتب إليه يتواضع له ويعظمه، ويسأله أن ينصرف عنه على شرط أن يسلم إليه ركن الدولة زنجان، وأبهر، وقزوین، وترددت الرسل في ذلك إلى أن وصله المدد من عماد الدولة ومعز الدولة، وأحضر معه محمد بن عبد الرزاق، وأنفذ له الحسن بن الفيرزان عسكرياً مع محمد بن ماکان، فلما كثر جمعه قبض على جماعة ممن كان يتهمهم من قواده وسار إلى قزوین، فعلم المرزبان عجزه عنه، وأنف من الرجوع، فالتقى، فانهزم عسكر المرزبان، وأخذ أسيراً، وحمل إلى سنجين فحبس بها، وعاد ركن الدولة، ونزل محمد بن عبد الرزاق بنواحي أذربيجان.

وأما أصحاب المرزبان فإنهم اجتمعوا على أبيه محمد بن مسافر، وولوه (٤٨٠/٨) أمرهم، فهرب منه ابنه وهسودان إلى حصن له، فأساء محمد السيرة مع العسكر، فأرادوا قتله، فهرب إلى ابنه وهسودان، فقبض عليه، وضيق عليه حتى مات، ثم تحبّر وهسودان في أمره، فاستدعى ديسم الكردي لطاعة الأكراد له، وقوّاه، وسبّره إلى محمد بن عبد الرزاق، فالتقى، فانهزم ديسم، وقوي ابن عبد الرزاق فأقام بنواحي أذربيجان يجبي أموالها ثم رجع إلى الري سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وكتب الأمير نوحاً،

وأهدى له هدية، وسأله الصفح، فقبل عذره، وكتب وشمكير بمهاندته، فهاذنه، ثم عاد محمد إلى طوس سنة تسع وثلاثين [وثلاثمائة] لما خرج منصور إلى الري.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار سيف الدولة بن حمدان إلى بلد الروم، فلقه الروم، واقتلوا، فانهزم سيف الدولة، وأخذ الروم مَرَعَش، وأوقعوا بأهل طرسوس.

وفيها قبض معز الدولة على أسفهدوست، وهو خال معز الدولة، وكان من أكابر قواده، وأقرب الناس إليه.

وكان سبب ذلك أنه كان يكثر الدالة عليه، ويعيبه في كثير من أفعاله، وتُقل عنه أنه كان يرأسل المطيع لله في قتل معز الدولة، فقبض عليه، وسبّره إلى رامهرمز فسجنه بها.

وفيها استأمن أبو القاسم البريدي إلى معز الدولة، وقدم ببغداد فلقه معز الدولة، فأحسن إليه وأقطعه. (٤٨١/٨)

سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة

ذكر حال عمران بن شاهين

في هذه السنة استفحل أمر عمران بن شاهين، وقوي شأنه، وكان ابتداء حاله أنه من أهل الجامدة، فجبي جبايات، فهرب إلى البطيحة خوفاً من السلطان، وأقام بين القصب والأجام، واقتصر على ما يصيده من السمك وطيور الماء قوتاً، ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة، واجتمع إليه جماعة من الصيادين، وجماعة من اللصوص، فقوي بهم، وحمل جانبه من السلطان، فلما خاف أن يُقصد استأمن إلى أبي القاسم البريدي، فقلّده حماية الجامدة ونواحي البطائح، وما زال يجمع الرجال إلى أن كثر أصحابه، وقوي واستعد بالسلاح، واتخذ معاقل على التلول التي بالبطيحة، وغلب على تلك النواحي.

فلما اشتد أمره سبّر معز الدولة إلى محاربته وزيره أبا جعفر الصيمري، فسار إليه في الجيوش، وحاربه مرة بعد مرة، واستأسر أهله وعياله، وهرب عمران بن شاهين واستتر، وأشرف على الهلاك.

فاتفق أن عماد الدولة بن بويه مات، واضطرب جيشه بفارس، فكتب معز الدولة إلى الصيمري بالمبادرة إلى شيراز لإصلاح الأمور بها، فترك عمران (٤٨٢/٨) وسار إلى شيراز، على ما ذكره في موت عماد الدولة، فلما سار الصيمري عن البطائح ظهر عمران بن شاهين من استتاره، وعاد إلى أمره، وجمع من تفرّق عنه من

أصحابه، وقوي أمره، وسنذكر من أخباره فيما بعد ما تدعو الحاجة إليه

أصبحه، ولما وصل ركن الدولة إلى شيراز ابتدأ بزيارة قبر أخيه بإصطخر، فمشى حافياً حاسراً ومعه العساكر على حاله، ولزم القبر ثلاثة أيام إلى أن سأل القواد الأكابر ليرجع إلى المدينة، فرجع إليها، وأقام تسعة أشهر، وأنفذ إلى أخيه معز الدولة شيئاً كثيراً من المال والسلاح وغير ذلك.

وكان عماد الدولة في حياته هو أمير الأمراء، فلما مات صار أخوه ركن (٤٨٤/٨) الدولة أمير الأمراء؛ وكان معز الدولة هو المستولي على العراق والخلافة، وهو كالثائب عنهما؛ وكان عماد الدولة كريماً حليماً عاقلاً حسن السياسة للملك والرعية، وقد تقدم من أخباره ما يدل على عقله وسياسته.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، قُتل أبو السائب عتبه بن عبد الله قضاء القضاة ببغداد.

وفيها، في ربيع الآخر، مات المستكفي بالله في دار السلطان، وكانت عُلته نفث الدم. (٤٨٥/٨)

سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة

ذكر موت الصيمري ووزارة المهلبى

في هذه السنة توفي أبو جعفر محمد بن أحمد الصيمري، وزير معز الدولة بأعمال الجامة، وكان قد عاد من فارس إليها، وأقام يحاضر عمران ابن شاهين، فأخذته حمى حادة مات منها.

واستوزر معز الدولة أبا محمد الحسن بن محمد المهلبى في جمادى الأولى وكان يخلف الصيمري بحضرة معز الدولة، فعرف أحوال الدولة والدواوين، فامتحنه معز الدولة، فرأى فيه ما يريده من الأمانة، والكفاية، والمعرفة بمصالح الدولة، وحسن السيرة، فاستوزره، ومكّنه من وزارته فأحسن السيرة، وأزال كثيراً من المظالم، خصوصاً بالبصرة، فإن البريديين كانوا قد أظهروا فيها كثيراً من المظالم، فآزالها، وقرب أهل العلم والأدب، وأحسن إليهم، وتنقل في البلد لكشف ما فيها من المظالم، وتخليص الأموال، فحسن أثره، رحمه الله تعالى.

ذكر غزو سيف الدولة بلاد الروم

في هذه السنة دخل سيف الدولة بن حمدان إلى بلاد الروم، فغزا، وأوغل فيها، وفتح حصوناً كثيرة، وسبى وغنم، فلما أراد الخروج من بلد الروم (٤٨٦/٨) أخذوا عليه المضايق فهلك من كان معه من المسلمين أسراً وقتلاً، واسترد الروم الغنائم والسبي، وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم، ونجا سيف الدولة في عدد يسير.

ذكر موت عماد الدولة بن بويه

في هذه السنة مات عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه بمدينة شيراز في جمادى الآخرة، وكانت عُلته التي مات بها قرحة في كليته طالت به، وتوالت عليه الأسقام والأمراض، فلما أحس بالموت أنفذ إلى أخيه ركن الدولة يطلب منه أن ينفذ إليه ابنه عضد الدولة فتأخروا ليجعله ولي عهده، ووارث مملكته بفارس، لأن عماد الدولة لم يكن له ولد ذكر، فأنفذ ركن الدولة ولده عضد الدولة، فوصل في حياة عمه قبل موته بسنة، وصار في جملة ثقات أصحاب ركن الدولة، فخرج عماد الدولة إلى لقائه في جميع عسكره، وأجلسه في داره على السرير، ووقف هو بين يديه، وأمر الناس بالسلم على عضد الدولة والانقياد له، وكان يوماً عظيماً مشهوداً.

وكان في قواد عماد الدولة جماعة من الأكابر يخافهم، ويعرفهم بطلب الرئاسة، وكانوا يرون أنفسهم أكبر منه نفساً وبيتاً، وأحق بالتقدم، وكان يداريهم، فلما جعل ولد أخيه في الملك خافهم عليه، فأفناهم بالقبض، وكان منهم قائد كبير يقال له شيرنجين، فقبض عليه، فشنع فيه أصحابه وقواده، (٤٨٣/٨) فقال لهم: إني أحدثكم عنه بحديث فإن رأيتم أن أطلقه فعلمت؛ فحدثهم أنه كان في خراسان في خدمة نصر بن أحمد، ونحن شردمة قليلة من الديلم، ومعنا هذا، فجلس يوماً نصر وفي خدمته من مماليكه وممالك أبيه بضعة عشر ألفاً سوى سائر العسكر، فرأيت شيرنجين هذا قد جرد سكيناً معه ولقه في كسائه، فقلت: ما هذا؟ فقال: أريد أن أقتل هذا الصبي، يعني نصراً، ولا أبالي بالقتل بعده، فلإني قد أنفست نفسي من القيام في خدمته.

وكان عمر نصر بن أحمد يومئذ عشرين سنة، وقد خرجت لحيته، فعلمت أنه إذا فعل ذلك لم يُقتل وحده بل يُقتل كلنا، فأخذت بيده وقلت له: بيني وبينك حديث؛ فمضيت به إلى ناحية، وجمعت الديلم، وحدثتهم حديثه، فأخذوا منه السكين، فتريدون مني بعد أن سمعتم حديثه في معنى نصر أن أمكنه من الوقوف بين يدي هذا الصبي، يعني ابن أخي؟ فأمسكوا عنه، وبقي محبوباً حتى مات في محبسه.

ومات عماد الدولة وبقي عضد الدولة بفارس، فاختلف أصحابه، فكتب معز الدولة إلى وزيره الصيمري بالمسير إلى شيراز، وترك محاربة عمران بن شاهين، فسار إلى فارس، ووصل ركن الدولة أيضاً، واتفقا على تقرير قاعدة عضد الدولة، وكان ركن الدولة قد استخلف على الري علي بن كامة، وهو من أعيان

ذكر إعادة القرامطة الحجر الأسود

في هذه السنة أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة، وقالوا: أخذناه بامر، وأعدناه بامر.

منهم وقتلوا، ومضى من سلم منهم إلى الموصل، وسار ركن الدولة نحو أصبهان، ووصل ابن قراتكين إلى أصبهان، فانتقل من كان بها من أصحاب ركن الدولة، وأهله وأسبابه، وركبوا الصعب والذلول، حتى البقر والحمير، وبلغ كراء الثور والحصار إلى خان لنجان مائة درهم، وهي على تسعة فراسخ من أصبهان، فلم يمكنهم مجاورة ذلك الموضع، ولو سار إليهم منصور لغنمهم، وأخذ ما معهم، وملك ما وراءهم، إلا أنه دخل أصبهان وأقام بها.

ووصل ركن الدولة، فنزل بخان لنجان، وجرت بينهما حروب عدة أيام، وضاعت الميرة على الطائفتين، وبلغ بهم الأمر إلى أن ذبحوا دوابهم، ولو أمكن ركن الدولة الانهزام لفعل، ولكنه تعذر عليه ذلك، واستشار وزيره أبا الفضل بن العميد في بعض الليالي في الهرب، فقال له: لا ملجأ لك إلا الله تعالى، فانو للمسلمين خيراً، وصم العزم على حسن السيرة، والإحسان إليهم، فإن الحيل البشرية كلها تقطعت بنا، وإن انهزمنا تبعونا وأهلكونا وهم أكثر منا، فلا يفلت منا أحد؛ فقال له: قد سبقتك إلى هذا.

فلما كان الثلث الأخير من الليل أتهم الخبر أن منصوراً وعسكره قد عادوا إلى الري وتركوا خيامهم، وكان سبب ذلك أن الميرة والعلوفة ضاقت عليهم أيضاً، إلا أن الديلم كانوا يصبرون، ويقنعون بالقليل من الطعام، وإذا ذبحوا دابة أو جملاً اقتسمه الخلق الكثير منهم، وكان الخراسانية بالضد منهم لا يصبرون، ولا يكفهم القليل، فشغبوا على منصور، واختلفوا، وعادوا إلى الري، فكان عودهم في المحرم سنة أربعين [وثلاثمائة]، فأتى الخبر ركن الدولة فلم يصدقه حتى تواتر عنده، فركب هو وعسكره، واحتوى (٤٨٩/٨) على ما خلفه الخراسانية.

حكى أبو الفضل بن العميد قال: استدعاني ركن الدولة تلك الليلة، الثلث الأخير، وقال لي: قد رأيت الساعة في منامي كأنني على دابتي فيروز، وقد انهزم عدونا، وأنت تسير إلى جانبي، وقد جاءنا الفرج من حيث لا نحسب، فمددت عيني، فرأيت على الأرض خاتماً، فأخذته، فإذا فصه من فيروز، فجعلته في إصبعي، وتبركت به، وانتبهت وقد أيقنت بالظفر، فإن الفيروز معناه الظفر، ولذلك لُقّب الدابة فيروز.

قال ابن العميد: فأتانا الخبر والبشارة بأن العدو قد رحل، فما صدقنا حتى تواترت الأخبار، فركبنا، ولا نعرف سبب هربهم، وسيرنا حذرين من كمين، وسرت إلى جانب ركن الدولة وهو على فرسه فيروز، فصاح ركن الدولة بسلام بين يديه: ناولني ذلك الخاتم؛ فأخذ خاتماً من الأرض فناوله إياه، فإذا هو فيروز، فجعله في إصبعه وقال: هذا تأويل رؤيائي، وهذا الخاتم الذي رأيت منذ ساعة، وهذا من أحسن ما يحكي وأعجبه.

ذكر مسير الخراسانيين إلى الري

في هذه السنة سار منصور بن قراتكين من نيسابور إلى الري في صفر، أمره الأمير نوح بذلك، وكان ركن الدولة ببلاد فارس على ما ذكرناه، فوصل منصور إلى الري وبها علي بن كامة، خليفة ركن الدولة، فسار علي عنها إلى أصبهان، ودخل منصور الري واستولى عليها، وفرق العساكر في البلاد، (٤٨٧/٨) فملكوا بلاد الجبل إلى قريسين، وأزالوا عنها نواب ركن الدولة، واستولوا على همدان وغيرها.

فبلغ الخبر إلى ركن الدولة، وهو بفارس، فكتب إلى أخيه معز الدولة يأمره بإفناذ عسكر يدفع تلك العساكر عن النواحي المجاورة للعراق، فسير سبكتكين الحاجب في عسكر ضخمة من الأتراك، والديلم، والعرب، فلما سار سبكتكين عن بغداد خلف أثقاله، وأسرى جريدة إلى من بقرميسين من الخراسانيين، فكبسهم وهم غارون، فقتل فيهم، وأسر مقدمهم من الحماة واسمه بجكم الخمارتيني، فأنفذه مع الأسرى إلى معز الدولة، فحبسه مدة ثم أطلقه.

فلما بلغ الخراسانية ذلك اجتمعوا إلى همدان، فسار سبكتكين نحوهم، ففارقوا همدان ولم يحاربوه، ودخل سبكتكين همدان، وأقام بها إلى أن ورد عليه ركن الدولة في شوال.

وسار منصور من الري في العساكر نحو همدان، وبها ركن الدولة، فلما بقي بينهما مقدار عشرين فرسخاً عدل منصور إلى أصبهان، ولو قصد همدان لأحاز ركن الدولة عنه، وكان ملك البلاد بسبب اختلاف كان في عسكر ركن الدولة، ولكنه عدل عنه لأمر يريده الله تعالى، وتقدم ركن الدولة إلى سبكتكين بالمسير في مقدمته، فلما أراد المسير شغب عليه بعض الأتراك مرة بعد أخرى، فقال ركن الدولة: هؤلاء أعداؤنا، ومعنا، والرأي أن نبداً بهم؛ فواقعهم واقتلوا، فانهزم الأتراك.

وبلغ الخبر إلى معز الدولة، فكتب إلى ابن أبي الشوك الكروي وغيره (٤٨٨/٨) يأمرهم بطلبهم والإيقاع بهم، فطلبوهم، وأسروا

ذكر أخبار عمران بن شاهين وانهزام عساكر معز الدولة

وقد ذكرنا حال عمران بن شاهين، بعد مسير الصيمري عنه، وأنه زاد قوة وجراً، فأنفذ معز الدولة إلى قتاله روزبهان، وهو من أعيان عسكره، فنازله وقاتله، فطاوله عمران، وتحصن منه في مضايق البطيحة، فضجر (٤٩٠/أ) روزبهان، وأقدم عليه طالباً للمناجزة، فاستظهر عليه عمران، وهزمه وأصحابه، وقتل منهم، وغنم جميع ما معهم من السلاح، وآلات الحرب، فقوي بها، وتضاعفت قوته، فطمع أصحابه في السلطان، فصاروا إذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرة والخفارة، فإن أعطاهم، وإلا ضربوه واستخفوا به وشتموه.

وكان الجند لا بد لهم من العبور عليهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها، ثم انقطع الطريق إلى البصرة إلا على الظهر، فشكا الناس ذلك إلى معز الدولة، فكتب إلى المهلبى بالمسير إلى واسط لهذا السبب، وكان بالبصرة، فأصعد إليها، وأمد معز الدولة بالفراد والأجناد والسلاح، وأطلق يده في الإنفاق، فزحف إلى البطيحة وضيّق على عمران، وسد المذاهب عليه، فانتهى إلى المضايق لا يعرفها إلا عمران وأصحابه، وأحب روزبهان أن يصيب المهلبى ما أصابه من الهزيمة، ولا يستبد بالظفر والفتح، وأشار على المهلبى بالهجوم على عمران، فلم يقبل منه، فكتب إلى معز الدولة يعجز المهلبى ويقول: إنه يطاول لينفق الأموال ويفعل ما يريد؛ فكتب معز الدولة بالعتب والاستبطاء، فترك المهلبى الحزم، وما كان يريد [أن] يفعله، ودخل بجميع عسكره، وهجم على مكان عمران، وكان قد جعل الكمائن في تلك المضايق، وتأخر روزبهان ليسلم عند الهزيمة.

فلما تقدم المهلبى خرج عليه وعلى أصحابه الكمائن، ووضعوا فيهم السلاح، فقتلوا، وغرقوا، وأسرُوا، وانصرف روزبهان سالماً هو وأصحابه، وألقى (٤٩١/أ) المهلبى نفسه في الماء فنجا سباحة، وأسر عمران الفراد والأكابر، فاضطر معز الدولة إلى مصالحته، وإطلاق من عنده من أهل عمران وإخوته، فأطلق عمران من في أسره من أصحاب معز الدولة، وقلّده معز الدولة البطائح، فقوي واستفحل أمره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، ليلة يوم السبت رابع عشر ذي الحجة، طلع القمر منكسفاً، وانكشف جميعه.

وفيها، في المحرم، توفي أبو بكر محمد بن أحمد بن قرابة بالموصل، وحُمل تابوته إلى بغداد.

وفيها توفي أبو نصر محمد بن محمد الفارابي، الحكيم

الفيلسوف، صاحب التصانيف فيها، وكان موته بدمشق، وكان تلميذ يوحنا بن حيلان، وكانت وفاة يوحنا أيام المقتدر بالله.

وفيها مات أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي النحوي، وقيل سنة أربعين [وثلاثمائة]. (٤٩٢/أ)

سنة أربعين وثلاثمائة

ذكر وفاة منصور بن قراتكين وأبي المظفر بن محتاج

في هذه السنة مات منصور بن قراتكين، صاحب الجيوش الخراسانية، في شهر ربيع الأول، بعد عوده من أصبهان إلى السري، فذكر العراقيون أنه أدمن الشرب عدة أيام بليلاتها، فمات فجأة، وقال الخراسانيون إنه مرض ومات، والله أعلم.

ولما مات رجعت العساكر الخراسانية إلى نيسابور، وحُمل تابوت منصور، ودُفن إلى جانب والده باسبيجاب.

ومن عجيب ما يُحكى أن منصوراً لما سار من نيسابور إلى الري سَير غلاماً له إلى اسبيجاب ليقيم في رباط والده قراتكين الذي فيه قبره، فلما ودّعه قال: كأنك بي قد حُملت في تابوت إلى تلك البرية، فكان كما قال بعد قليل، مات وحُمل تابوته إلى ذلك الرباط، ودُفن عند قبر والده.

وفيها توفي أبو المظفر بن أبي علي بن محتاج ببخارى، كان قد ركب دابة أنفذهإ إليه أبوه، فالتقه وسقطت عليه فهشمته، ومات من يومه، وذلك في ربيع الأول، وعظم موته على الناس كافة، وشقّ موته على الأمير نوح، وحُمل إلى الصغانيان إلى والده أبي علي وكان مقيماً بها. (٤٩٣/أ)

ذكر عود أبي علي إلى خراسان

وفي هذه السنة أعيد أبو علي بن محتاج إلى قيادة الجيوش بخراسان، وأمر بالعود إلى نيسابور.

وكان سبب ذلك أن منصور بن قراتكين كان قد تأذى بالجند، واستصعب إيالتهم، وكانوا قد استبدوا بالأموال ودونه، وعاثوا في نواحي نيسابور، فتواتر كتبه إلى الأمير نوح بالاستعفاء من ولايتهم، ويطلب أن يقتصر به على هراة، ويؤلى ما بيده من أراد نوح، فكان نوح يرسل إلى أبي علي يعده بإعادته إلى مرتبته، فلما توفي منصور أرسل الأمير نوح إلى أبي علي الخلع واللواء وأمره بالمسير إلى نيسابور، وأقطع الري وأمره بالمسير إليها، فسار عن الصغانيان في شهر رمضان، واستخلف مكانه ابنه أبا منصور، ووصل إلى مرو وأقام بها إلى أن أصلح أمر خوارزم، وكانت شاعرة، وسار إلى نيسابور، فوردّها في ذي الحجة فأقام بها.

ذكر الحرب بصقلية بين المسلمين والروم

كان المنصور العلوي، صاحب إفريقية، قد استعمل على صقلية، سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي، فدخلها (٤٩٤/٨) واستقر بها كما ذكرناه، وغزا الروم الذين بها عدة غزوات، فاستمدوا ملك قسطنطينية فسير إليهم جيشاً كثيراً، فنزلوا أذرت، فأرسل الحسن بن علي إلى المنصور يعرفه الحال، فسير إليه جيشاً كثيراً مع خادمه فرح، فجمع الحسن جنده مع الواصلين وسار إلى ريو، وبث السرايا في أرض قلورية، وحاصر الحسن جراحة أشد حصاراً، فأشرف أهلها على الهلاك من شدة العطش، ولم يسق إلا أخذها، فأتاه الخبر أن عسكر الروم واصل إليه، فهادن أهل جراحة على مال يؤدونه، وسار إلى الروم، فلما سمعوا بقربه منهم انهزموا بغير قتال، وتركوا أذرت.

ونزل الحسن على قلعة قسانة، وبث سراياه تنهب، فصالحه أهل قسانة على مال، ولم يزل كذلك إلى شهر ذي الحجة، وكان المصاف بين المسلمين وعسكر قسطنطينية ومن معه من الروم الذين بصقلية، ليلة الأضحى، واقتتلوا، واشتد القتال، فانهزم الروم، وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى الليل، وغنموا جميع أثقالهم، وسلاحهم، ودوابهم، وسير الرؤوس إلى مدائن صقلية، وإفريقية، وحصر الحسن جراحة، فصالحوه على مال يحملونه، ورجع عنهم، وسير سرية إلى مدينة بطرقة، ففتحوها، وغنموا ما فيها، ولم يزل الحسن بجريدة صقلية إلى سنة إحدى وأربعين [وثلاثمائة]، فمات المنصور، فسار عنها إلى إفريقية، واتصل بالمعز بن المنصور، واستخلف على صقلية ابنه أبا الحسين أحمد. (٤٩٥/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة رُفِعَ إلى المهلبى أن رجلاً يعرف بالبصري مات ببغداد، وهو مقدم القراقية، يدعى أن روح أبي جعفر محمد بن علي بن أبي القراق قد حلت فيه، وأنه خلف مالا كثيراً كان يجنيه من هذه الطائفة، وأن له أصحاباً يعتقدون ربوبيته، وأن أرواح الأنبياء والصديقين حلت فيهم، فأمر بالختم على التركة، والقبض على أصحابه، والذي قام بأمرهم بعده، فلم يجد إلا مالا يسيراً، ورأى دفاتر فيها أشياء من مذاهبهم.

وكان فيهم غلام شاب يدعى أن روح علي بن أبي طالب حلت فيه، وامرأة يقال لها فاطمة تدعى أن روح فاطمة حلت فيها، وخادم لبني بسطام يدعى أنه ميكائيل، فأمر بهم المهلبى فضربوا ونالهم مكروه، ثم إنهم تواصلوا بمن ألقى إلى معز الدولة أنهم من شيعة علي بن أبي طالب، فأمر بإطلاقهم، وخاف المهلبى أن يقيم على تشدده في أمرهم فينسب إلى ترك التشيع، فسكت عنهم.

وفي هذه السنة توفي عبد الله بن الحسين بن لال أبو الحسن الكرخي الفقيه الحنفي المشهور، في شعبان، ومولده سنة ستين ومائتين، وكان عبداً معتزلاً.

وفيها توفي أبو جعفر الفقيه ببخارى. (٤٩٦/٨)

سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة

ذكر حصار البصرة

في هذه السنة سار يوسف بن وجيه، صاحب عمان، في البحر والبر إلى البصرة فحصرها.

وكان سبب ذلك أن معز الدولة لما سلك البرية إلى البصرة، وأرسل القرامطة ينكرون عليه ذلك، وأجابهم بما ذكرناه، علم يوسف بن وجيه استيحاظهم من معز الدولة، فكتب إليهم يطعمهم في البصرة، وطلب منهم أن يمدوه من ناحية البر، فأمدوه بجمع كثير منهم، وسار يوسف في البحر، فبلغ الخبر إلى الوزير المهلبى وقد فرغ من الأهواز والنظر فيها، فسار مجدداً في العساكر إلى البصرة، فدخلها قبل وصول يوسف إليها، وشحنها بالرجال، وأمدّه معز الدولة بالعساكر وما يحتاج إليه، وتحارب هو وابن وجيه أياماً، ثم انهزم ابن وجيه، وظفر المهلبى بمراكبه وما معه من سلاح وغيره. (٤٩٧/٨)

ذكر وفاة المنصور العلوي وملك ولده المعز

في هذه السنة توفي المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل بن القائم أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي، سلخ شوال، وكانت خلافته سبع سنين وستة عشر يوماً، وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة، وكان خطيباً بليغاً، يخترع الخطبة لوقته، وأحواله مع أبي يزيد الخارجي وغيره تدل على شجاعة وعقل.

وكان سبب وفاته أنه خرج إلى سقاقس وتونس ثم إلى قابس، وأرسل إلى أهل جزيرة جربة يدعوهم إلى طاعته، فأجابوه إلى ذلك، وأخذ منهم رجالاً معه وعاد، وكانت سفرته شهراً، وعهد إلى ابنه معز بولاية العهد، فلما كان رمضان خرج منتزهاً أيضاً إلى مدينة جلولاء، وهو موضع كثير الثمار، وفيه من الأترج مالا يرى مثله في عظمه، يكون شيء يحمل الجمل منه أربع أترجات، فحمل منه إلى قصره.

وكان للمنصور جارية حظية عنده، فلما رآته استحسنته، وسألت المنصور أن تراه في أغصانه، فأجابها إلى ذلك، ورحل إليها في خاصته، وأقام بها أياماً، ثم عاد إلى المنصورية، فأصابه في الطريق ريح شديدة وبرد ومطر، ودام عليه فصر وتجلد، وكثر التلج، فمات جماعة من الذين معه، واعتل (٤٩٨/٨) المنصور علّة

البلاء، وعاد عنها إلى الري، واستخلف بجرجان الحسن بن فيروزان وعلي بن كامة، فلما رجع ركن الدولة عنها قصدتها وشمكير، فانهمزوا منه، واستردّها وشمكير.

وفيها ولد أبو الحسن علي بن ركن الدولة بن بويه، وهو فخر الدولة.

وفيها توفي أبو علي إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الصفّار النحوي المحدث، وهو من أصحاب المبرّد، وكان مولده سنة سبع وأربعين ومائتين، وكان مكثرًا من الحديث. (٥٠٠/٨)

سنة الثنتين وأربعين وثلاثمائة

ذكر حرب ديسم عن أذربيجان

في هذه السنة حرب ديسم بن إبراهيم أبو سالم عن أذربيجان، وكنا قد ذكرنا استيلاءه عليها.

وأما سبب هربه عنها فإنه كان ركن الدولة بن بويه قد قبض على بعض قوّاده، واسمه علي بن ميسكي، فأقلت من الحبس وقصد الجبل، وجمع جمعًا وسار إلى وهسودان أخي المرزبان، فاتفق معه وتساعدوا على ديسم.

ثم إن المرزبان استولى على قلعة سُمّيرم على ما نذكره، ووصلت كتبه إلى أخيه وعلي بن ميسكي بخلاصه، وكتب الديلم واستمالهم، ولم يعلم ديسم بخلاصه، إنما كان يظن أن وهسودان وعلي بن ميسكي يقاتلانه.

وكان له وزير يُعرف بأبي عبد الله النعيمي، فشَرّه إلى ماله وقبض عليه، واستكتب إنسانًا كان يكتب للنعيمي، فاحتال النعيمي بأن أجابه إلى كل ما التمس منه، وضمن منه ذلك الكاتب بمال، فاطلقه ديسم، وسلّم إليه كتابه وأعادته إلى حاله.

ثم سار ديسم وخلفه بأردبيل ليحصل المال الذي بذله، فقتل النعيمي ذلك (٥٠١/٨) الكاتب وهرب بما معه من المال إلى علي بن ميسكي، فبلغ الخبر ديسم بقرب رُنجان، فعاد إلى أردبيل، فشغب الديلم عليه، ففرق فيهم ما كان له من مال، وأتاه الخبر بمسير علي بن ميسكي إلى أردبيل في عدة يسيرة، فسار نحوه، والتقى واقتلا، فانهز الديلم إلى علي، وانهزم ديسم إلى أرمينية في نفر من الأكراد، فحمل إليه ملوكها ما تماسك به.

وورد عليه الخبر بمسير المرزبان عن قلعة سُمّيرم إلى أردبيل، واستيلاءه على أذربيجان، وإنفاذه جيشًا نحوه، فلم يمكنه المقام، فهرب عن أرمينية إلى بغداد، فكان وصوله هذه السنة، فلقبه معز الدولة، وأكرمه، وأحسن إليه، فأقام عنده في أرغد عيش.

شديدة، لأنه لما وصل إلى المنصورية أراد دخول الحَمّام، فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي عن ذلك، فلم يقبل منه، ودخل الحَمّام، ففتيت الحرارة الغريزية منه، ولازمه السهر، فأقبل إسحاق يعالج المرض، والسهر باقٍ بحاله، فاشتد ذلك على المنصور، فقال بعض الخدم: أما في القيروان طبيب غير إسحاق يخلصني من هذا الأمر؟ قال: هاهنا شاب قد نشأ الآن اسمه إبراهيم؛ فأمر بإحضاره، وشكا إليه ما يجده من السهر، فجمع له أشياء منومة، وجعلت في قنينة على النار، وكنّفه شَمّها، فلما آدمس شَمّها نام.

وخرج إبراهيم وهو مسرور بما فعل، وبقي المنصور نائمًا، فجهأ إسحاق فطلب الدخول عليه، فقيل: هو نائم؛ فقال: إن كان صُنِعَ له شيء ينام منه فقد مات؛ فدخلوا عليه فوجدوه ميتًا، فذُفن في قصره، وأرادوا قتل إبراهيم، فقال إسحاق: ما له ذنب، إنما دأواه بما ذكره الأطباء، غير أنه جهل أصل المرض، وما عرفتموه، وذلك أنني كنْتُ في معالجته أنظر في تقوية الحرارة الغريزية، وبها يكون النوم، فلما عولج بالأشياء المطفئة لها علمت أنه قد مات.

ولما مات ولي الأمر بعده ابنه معدّ، وهو المعزّ لدين الله، وأقام في تدبير الأمور إلى سابع ذي الحجة، فأذن للناس فدخلوا عليه، وجلس لهم، فسلموا عليه بالخلافة، وكان عمره أربعًا وعشرين سنة.

فلما دخلت سنة ست وأربعين [وثلاثمائة] صعد جبل أوراس، وجال فيه عسكره، وهو ملجأ كل منافق على الملوك، وكان فيه بنو كملان، ومليلة، وقبيلتان من هَوّارة، لم يدخلوا في طاعة من تقدّمه، فأطاعوا المعزّ، ودخلوا معه (٤٩٩/٨) البلاد، وأمر نوابه بالإحسان إلى البربر، فلم يبق منهم أحد إلا أتاه، وأحسن إليهم المعزّ، وعظم أمره، ومن جملة من استأمن إليه محمد بن خزر الزناتي، أخو معبد، فأمنّه وأحسن إليه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، ضرب معزّ الدولة وزيره أبا محمد المهلب بالمقارع مائة وخمسين مقرعة، ووكل به في دأوه، ولم يعزله من وزارته، وكان تقم عليه أمورًا ضربه بسببها.

وفيها، في ربيع الآخر، وقع حريق عظيم ببغداد في سوق الثلاثاء، فاحترق فيه للناس ما لا يحصى.

وفي هذه السنة ملك الروم مدينة سروج، وسبوا أهلها، وغنموا أموالهم وأخربوا المساجد.

وفيها سار ركن الدولة من الري إلى طبرستان وجرجان، فسار عنها إلى ناحية نسا، وأقام بها، واستولى ركن الدولة على تلك

دراً ومبارد، فبرد قيده، واتفق المرزبان وذلك الغلام والذي جاؤوا لتخليص المرزبان على أن يقتلوا بشير أسفار في يوم ذكره.

وكان بشير أسفار يقصد المرزبان كل أسبوع ذلك اليوم يفترقه وقيوده ويصبره ويعود، فلما كان يوم الموعد دخل أحد أولئك التجار، فقعده عند المرزبان، وجلس آخر عند البواب، وأقام الباقون عند باب الحصن ينتظرون الصوت، ودخل بشير أسفار إلى المرزبان، فتلطف به المرزبان، وسأله أن يطلقه، وبذل له أموالاً جلية وإقطاعاً كثيراً، فامتنع عليه وقال: لا أخون ركن الدولة أبداً! فنهض المرزبان وقد أخرج رجله من قيده وتقدم إلى الباب، فأخذ الترس والزويين من ذلك الغلام، وعاد إلى بشير أسفار فقتله هو وذلك التاجر الذي عنده، وثار الرجل الذي عند البواب به فقتله ودخل من كان عند باب الحصن إلى المرزبان.

ثم كاتبه أهله وأصحابه بأذربيجان يستدعونه، فرحل من بغداد سنة ثلاث وأربعين [وثلاثمائة] وطلب من معز الدولة أن ينجده بعسكر، فلم يفعل لأن المرزبان كان قد صالح ركن الدولة وصاهره، فلم يمكن معز الدولة مخالفة ركن الدولة، فصار ديسم إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل يستنجد به، فلم ينجده، فصار إلى سيف الدولة بالشام، وأقام عنده إلى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة.

واتفق أن المرزبان خرج عليه جمع بياب الأبواب، فصار إليهم، فأرسل مقدم من أكراد أذربيجان إلى ديسم يستدعيه إلى أذربيجان ليأخذه على ملكها، فصار إليها، وملك مدينة سلماس، فأرسل إليه المرزبان قائداً من قواده، فقاتله، فاستأمن أصحاب القائد إلى ديسم، فعاد القائد منهزماً، وبقي ديسم بسلماس.

فلما فرغ المرزبان من أمر الخوارج عليه عاد إلى أذربيجان، فلما قرب من ديسم فارق سلماس وسار إلى أرمينية وقصد ابن الديرياني وابن حاجيق (٥٠٢/٨) لثقتهم بهما، فكتب المرزبان إلى ابن الديرياني يأمره بالقبض على ديسم، فدافعه، ثم قبض عليه خوفاً من المرزبان، فلما قبض عليه أمره المرزبان بأن يحملته إليه، فدافعه ثم اضطر إلى تسليمه، فلما تسلمه المرزبان سلمه وأعماه، ثم حبسه، فلما توفي المرزبان قتل ديسم بعض أصحاب المرزبان خوفاً من غائلته.

ذكر استيلاء المرزبان على سُمَيْر

قد ذكرنا أسر المرزبان وحبه بسُمَيْر، وأما سبب خلاصه فإن والدته، وهي ابنة جستان بن وهسودان الملك، وضعت جماعة للسعي في خلاصه، فقصصوا سُمَيْر، وأظهروا أنهم تجار، وأن المرزبان قد أخذ منهم أمتعة نفيسة ولم يوصل ثمنها إليهم، واجتمعوا بمتولي سُمَيْر، ويعرف ببشير أسفار، وعرفوه ما ظلمهم به المرزبان، وسألوه أن يجمع بينهم ليحاسبوه وليأخذوا خطه إلى والدته بإيصال مالهم إليهم، فرق لهم بشير أسفار، وجمع بينهم، فطالبوه بمالهم، فأنكر المرزبان ذلك، فغمره أحدُهم، ففطن لهم واعترف لهم، وقال: حتى أذكر مالكم، فإني لا أعرف مقداره؛ فاقاموا هناك، وبذلوا الأموال لبشير أسفار والأجناد، وضمنوا لهم الأموال الجلية إذا خلص مالهم عند المرزبان، فصاروا لذلك يدخلون الحصن بغير إذن، وكثر اجتماعهم بالمرزبان وأوصلوا إليه أموالاً من عند والدته، وأخياراً، وأخذوا منه ما عنده من (٥٠٣/٨) الأموال.

وكان لبشير أسفار غلام أمرد، جميل الوجه، يحمل ترسه وزويته، فأظهر المرزبان لذلك الغلام محبة شديدة وعشقا، وأعطاه مالا كثيراً مما جاءه من والدته، فوطاه على ما يريد، وأوصل إليه

وكان أجناد القلعة متفرقين، فلما وقع الصوت اجتمعوا فرأوا صاحبهم قتيلاً، فسألوا الأمان، فأمنهم المرزبان، وأخرجهم من القلعة، واجتمع إليه أصحابه وغيرهم، وكثر جمعه، وخرج فلاحق بأمه وأخيه، واستولى على البلاد، على ما ذكرناه قبل (٥٠٤/٨).

ذكر مسير أبي علي إلى الري

لما كان من أمر وشمكير وركن الدولة ما ذكرناه، كتب وشمكير إلى الأمير نوح يستمده، فكتب نوح إلى أبي علي بن محتاج يأمره بالمسير في جيوش خراسان إلى الري وقتال ركن الدولة، فصار أبو علي في جيوش كثيرة، واجتمع معه وشمكير، فسارا إلى الري في شهر ربيع الأول من هذه السنة.

وبلغ الخبر إلى ركن الدولة، فعلم أنه لا طاقة له بمن قصده، فرأى أن يحفظ بلده، ويقاوم عدوه من وجه واحد، فحارب الخراسانيين بطبرك، وأقام عليه أبو علي عدة شهور يقاتله، فلم يظفر به، وهلك دواب الخراسانية، وأتاهم الشتاء وملوا فلم يصبروا، فاضطر أبو علي إلى الصلح، فتراسلوا في ذلك، وكان الرسول أبا جعفر الخازن، صاحب كتاب زيج الصفائح، وكان عارفاً بعلوم الرياضة، وكان المشير به محمد بن عبد الرزاق المقدم ذكره، فتصالحا، وتقرر على ركن الدولة كل سنة مائتا ألف دينار، وعاد أبو علي إلى خراسان.

وكتب وشمكير إلى الأمير نوح يعرفه الحال، ويذكر له أن أبا علي لم يصدق في الحرب وأنه مالا ركن الدولة، فاغتاظ نوح من أبي علي، وأما ركن الدولة فإنه لما عاد عنه أبو علي سار نحو وشمكير، فانهزم وشمكير من بين يديه إلى أسفراين، واستولى ركن الدولة على طبرستان (٥٠٥/٨).

الموصلي.

ذكر عزل أبي علي عن خراسان

لما اتصل خبر عود أبي علي عن الري إلى الأمير نوح مساء ذلك، وكتب وشمكير إلى نوح يلزم الذنب فيه أبا علي، فكتب إلى أبي علي بعزله عن خراسان، وكتب إلى القواد يعرفهم أنه قد عزله عنهم، فاستعمل على الجيوش بعده أبا سعيد بكر بن مالك الفرغاني، فأنفذ أبو علي يعتذر، وراسل جماعة من أعيان نيسابور يقيمون عذره، ويسألون أن لا يُعزل عنهم، فلم يجابوا إلى ذلك، وعُزل أبو علي عن خراسان، وأظهر الخلاف، وخطب لنفسه بنيسابور.

وكتب نوح إلى وشمكير والحسن بن فيروزان يأمرهما بالصلح، وأن يتساعدا على من يخالف الدولة، ففعل ذلك، فلما علم أبو علي باتفاق الناس مع نوح عليه كاتب ركن الدولة في المصير إليه لأنه علم أنه لا يمكنه المقام بخراسان، ولا يقدر على العود إلى الصغانيان، فاضطر إلى مكاتبه ركن الدولة في المصير إليه، فاذن له في ذلك.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في الحادي والعشرين من شباط، ظهر بسواد العراق جرّاد كثير أقام أياماً، وأثر في الغلات آثاراً قبيحة، وكذلك ظهر بالأهواز، وديار الموصل، والجزيرة والشام، وسائر النواحي، ففعل مثل ما فعله بالعراق.

وفيها عاد رسل كان الخليفة أرسلهم إلى خراسان للصلح بين ركن الدولة (٥٠٦/٨) ونوح صاحب خراسان، فلما وصل إلى حلوان خرج عليهم ابن أبي الشوك في أكراده، فنهبهم، ونهب القافلة التي كانت معهم، وأسر الرسل، ثم أطلقهم، فسير معز الدولة عسكرياً إلى حلوان، فوافقوا بالأكراد، وأصلحو البلاد هناك وعادوا.

وفيها سير الحاج الشرفان أبو الحسن محمد بن عبد الله، وأبو عبد الله أحمد بن عمر بن يحيى العلويان، فجرى بينهما وبين عساكر المصريين من أصحاب ابن طنج حرب شديدة، وكان الظفر لهما، فخُطب لمعز الدولة بمكة، فلما خرجا من مكة لحقهما عسكر مصر، فقاتلهما، قظفرا به أيضاً.

وفيها توفي علي بن أبي الفهم داود أبو القاسم جد القاضي علي بن الحسن بن علي التنوخي في ربيع الأول، وكان عالماً بأصول المعتزلة والنجوم وله شعر.

وفيها، في رمضان، مات الشريف أبو علي عمر بن علي العلوي الكوفي ببغداد بصرع لحقه.

وفيها، في شوال، مات أبو عبد الله محمد بن سليمان بن قهد

وفيها مات أبو الفضل العباس بن فسانجس بالبصرة من ذرب لحقه، وحُمِل إلى الكوفة، فدُفِن بمشهد أمير المؤمنين علي، وتقلّد الديوان بعده ابنه أبو الفرج، وجرى على قاعدة أبيه.

وفيها في ذي القعدة ماتت بدعة المغنية المشهورة المعروفة ببدة الحمدونية عن اثنتين وتسعين سنة. (٥٠٧/٨)

سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة

ذكر حال أبي علي بن محتاج

قد ذكرنا من أخبار أبي علي ما تقدّم، فلما كتب إلى ركن الدولة يستأذنه في المصير إليه أذن له، فسار إلى الري، فلقبه ركن الدولة وأكرمه، وأقام الأتراك الضيافة له ولمن معه، وطلب أبو علي أن يكتب له عهداً من جهة الخليفة بولاية خراسان، فأرسل ركن الدولة إلى معز الدولة في ذلك، فسير له عهداً بما طلب، وسير له نجدة من عسكره، فسار أبو علي إلى خراسان واستولى على نيسابور، وخطب للمطيع بها وبما استولى عليه من خراسان، ولم يكن يُخطب له بها قبل ذلك.

ثم إن نوحاً مات في خلال ذلك، وتولّى بعده ولده عبد الملك. فلما استقر أمره سَير بكر بن مالك إلى خراسان من بخارى وجعله مقدماً على جيوشها، وأمره بإخراج أبي علي من خراسان، فسار في العساكر نحو أبي علي، فتفرّق عن أبي علي أصحابه وعسكره وبقي معه من أصحابه مائتا رجل سوى من كان عنده من الديلم نجدة له، فاضطر إلى الهرب، فسار نحو ركن الدولة، فأنزله معه في الري، واستولى ابن مالك على خراسان، فأقام بنيسابور وتبع أصحاب أبي علي. (٥٠٨/٨)

ذكر موت الأمير نوح بن نصر وولاية ابنه عبد الملك

وفي هذه السنة مات الأمير نوح بن نصر الساماني في ربيع الآخر، وكان يلقب الأمير الحميد، وكان حسن السيرة، كريم الأخلاق، ولما توفي ملك بعده ابنه عبد الملك، وكان قد استعمل بكر بن مالك على جيوش خراسان، كما ذكرنا، فمات قبل أن يسير بكر إلى خراسان، فقام بكر بأمر عبد الملك بن نوح، وقرر أمره، فلما استقر حاله وثبت ملكه أمر بكرًا بالمسير إلى خراسان، فسار إليها، وكان من أمره مع أبي علي ما قدّمنا ذكره.

ذكر غزاة لسيف الدولة بن حمدان

في هذه السنة، في شهر ربيع الأول، غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم، وقتل، وأسر، وسبي، وغنم، وكان فيمن قتل قسطنطين بن الدُّمستق، فعظم الأمر على الروم، وعظم الأمر على

وبلغ عمران بن شاهين أن معز الدولة قد مات، واجتاز عليه مال يُحمل إلى معز الدولة من الأهواز، وفي صحبته خلق كثير من التجار، فخرج عليهم فأخذ الجميع، فلما عوفي معز الدولة راسل ابن شاهين في المعنى، فردّ عليه ما أخذه له، وحصل له أموال التجار، وانفسخ الصلح بينهما، وكان ذلك في المحرم. (٥١١/٨)

ذكر خروج الخراسانية إلى الرّي وأصبهان

في هذه السنة خرج عسكر خراسان إلى الرّي، وبها ركن الدولة وكان قد قدمها من جرجان أول المحرم، فكتسب إلى أخيه معز الدولة يستمده، فأمده بعسكر مقدّمهم الحاجب سبكتكين، وسير من خراسان عسكراً آخر إلى أصبهان على طريق المفازة، وبها الأمير أبو منصور بويه بن ركن الدولة.

فلما بلغه خبرهم سار عن أصبهان بالخزائن والخزم التي لأبيه، فلبغوا خان لنجان، وكان مقدّم العسكر الخراساني محمد بن ماکان، فوصلوا إلى أصبهان، فدخلوها، وخرج ابن ماکان منها في طلب بويه، فأدرك الخزائن فأخذها وسار في أثره، وكان من لطف الله به أن الأستاذ أبا الفضل بن العميد، وزير ركن الدولة، اتصل بهم في تلك الساعة، فعارض ابن ماکان وقاتله، فانهزم أصحاب ابن العميد عنه، واشتغل أصحاب ابن ماکان بالنهب.

قال ابن العميد: فبقيت وحدي وأردت اللحاق بأصحابي، ففكرت وقلت: بأيّ وجه ألقى صاحبي وقد أسلمت أولاده، وأهله، وأمواله، وملكه، ونجوت بنفسي؟ فرأيت القتل أيسر عليّ من ذلك، فوفقت، وعسكر ابن ماکان يهب أثقاله وأثقال عسكري، فلحق بابن العميد نفر من أصحابه، ووقفوا معه، وأتاهم غيرهم فاجتمع معهم جماعة، فحمل على الخراسانيين وهم مشغولون بالنهب، وصاحوا فيهم، فانهزم الخراسانيون فأخذوا من بين قتيل وأسير، وأسر ابن ماکان وأحضر عند ابن العميد، وسار ابن العميد إلى أصبهان فأخرج من كان بها من أصحاب ابن ماکان، وأعاد أولاد ركن الدولة وحرمه إلى أصبهان، واستنقذ أمواله. (٥١٢/٨)

ثم إن ركن الدولة راسل بكر بن مالك صاحب جيوش خراسان، واستماله فاصطلحا على مال يحمل به ركن الدولة إليه، ويكون الرّي وبلد الجبل بأسره مع ركن الدولة، وأرسل ركن الدولة إلى أخيه معز الدولة يطلب خلعاً ولواء بولاية خراسان ليكر بن مالك، فأرسل إليه ذلك.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وقع بالرّي وباء كثير مات فيه من الخلق ما لا يحصى، وكان فيمن مات أبو علي بن محتاج الذي كان صاحب جيوش خراسان، ومات معه ولده، وحمل أبو علي إلى الصغانيان،

الدمستق، فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور، فسار إليه سيف الدولة بن حمدان، فالتقوا عند الخدث في شعبان، فاشتد القتال بينهما وصبر الفريقان، ثم إن الله تعالى نصر المسلمين، فانهزم الروم، وقتل منهم ومن معهم خلق عظيم، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقه وعاد الدّمستق مهزوماً مسلولاً. (٥٠٩/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كان بخراسان والجبّال وباء عظيم هلك فيه خلق كثير لا يحصون كثرة.

وفيها صُرف الأبرعاجي عن شرطة بغداد، وصودر على ثلاثمائة ألف درهم، ورتب مكانه بكبيك نقيب الأتراك.

وفيها سار ركن الدولة إلى جرجان ومعه أبو علي بن محتاج، فدخلها بغير حرب، وانصرف وشمكير عنها إلى خراسان.

وفيها وقعت الحرب بمكة بين أصحاب معز الدولة وأصحاب ابن طُغج من المصريين، فكانت الغلبة لأصحاب معز الدولة، فخطب بمكة والحجاز لركن الدولة ومعز الدولة وولده عز الدولة بختيار، ويعدهم لابن طُغج.

وفيها أرسل معز الدولة سبكتكين في جيش إلى شهرزور، في رجب، ومعه المنجنيقات لفتحها، فسار إليها، وأقام بتلك الولاية إلى المحرم من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، فعاد ولم يمكنه فتحها لأنه اتصل به خروج عساكر خراسان إلى الرّي، على ما ذكره إن شاء الله تعالى، فعاد إلى بغداد، فدخلها في المحرم.

وفيها، في شوال، مات أبو الحسين محمد بن العباس بن الوليد المعروف بابن النحوي الفقيه.

وفيها، في شوال أيضاً، مات أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي. (٥١٠/٨)

سنة أربع وأربعين وثلاثمائة

ذكر مرض معز الدولة وما فعله ابن شاهين

كان قد عرض لمعز الدولة في ذي القعدة سنة ثلاث وأربعين [وثلاثمائة] مرض يسمى فريافمسس، وهو دوام الإنعاض مع وجع شديد في ذكره، مع تورّث أعصابه، وكان معز الدولة خوّاراً في أمراضه، فأرجف الناس به، واضطربت بغداد، فاضطر إلى الركوب، فركب في ذي الحجة على ما به من شدة المرض، فلما كان في المحرم من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة أوصى إلى ابنه بختيار، وقلّده الأمر بعده، وجعله أمير الأمراء.

وعاد من كان معه من القواد إلى خراسان.

وفيها وقع الأكراد بناحية ساوة على قفل من الحجاج فاستباحوه.

وفيها خرج بناحية دينوند رجل ادعى النبوة، فقتل، وخرج بأذربيجان رجل آخر يدعى أنه يحرم اللحوم وما يخرج من الحيوان، وأنه يعلم الغيب، فأضافه رجل أطعمه كشكية بشحم، فلما أكلها قال له: ألسنت تحرّم اللحم، وما يخرج من الحيوان، وأنت تعلم الغيب؟ قال: بلى! قال: فهذه الكشكية بشحم، ولو علمت الغيب لما خفي عليك ذلك؛ فأعرض الناس عنه.

وفيها أنشأ عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس مركباً كبيراً لم يعمل (٥١٣/٨) مثله، وسيّر فيه أمتعة إلى بلاد الشرق، فلقي في البحر مركباً فيه رسول من صقلية إلى المعز، فقطع عليه أهل المركب الأندلسي، وأخذوا ما فيه، وأخذوا الكتب التي إلى المعز، فبلغ ذلك المعز، فعمر أسطولاً واستعمل عليه الحسن بن علي صاحب صقلية، وسيّره إلى الأندلس، فوصلوا إلى المربة، فدخلوا المرسى، وأحرقوا جميع ما فيه من المراكب، وأخذوا ذلك المركب، وكان قد عاد من الإسكندرية، وفيه أمتعة لعبد الرحمن، وجوار مغنيات، وصعد من في الأسطول إلى البر فقتلوا ونهبوا ورجعوا سالمين إلى المهديّة.

ولما سمع عبد الرحمن الأموي سيّر أسطولاً إلى بعض بلاد إفريقية، فنزلوا ونهبوا، فقصدهم عساكر المعز، فعادوا إلى مراكبهم، ورجعوا إلى الأندلس وقد قتلوا وقتل منهم خلق كثير. (٥١٤/٨)

سنة خمس وأربعين وثلاثمائة

ذكر عصيان روزبهان على معز الدولة

في هذه السنة خرج روزبهان بن ونداد خرشيد الديلمي على معز الدولة، وعصى عليه، وخرج أخوه بلكا بشيراز، وخرج أخوهما أسفار بالأهواز، ولحق به روزبهان إلى الأهواز، وكان يقاتل عمران بالطيحة، فعاد إلى واسط، وسار إلى الأهواز في رجب، وبها الوزير المهلب، فأراد محاربة روزبهان، فاستأمن رجاله إلى روزبهان، فأنحاز المهلب عنه.

وورد الخبر بذلك إلى معز الدولة فلم يصدقه لإحسانه إليه، لأنه رفعه بعد الضعة، ونوّه بذكره بعد الخمول، فتجهّز معز الدولة إلى محاربته، ومال الديلم بأسرهم إلى روزبهان، ولقوا معز الدولة بما يكره، واختلفوا عليه، وتتابعوا على المسير إلى روزبهان، وسار معز الدولة عن بغداد خامس شعبان، وخرج الخليفة المطيع لله

متحدراً إلى معز الدولة، لأن ناصر الدولة لما بلغه الخبر سيّر العساكر من الموصل مع ولده أبي المرجى جابر لقصد بغداد والاستيلاء عليها، فلما بلغ ذلك الخليفة انحدر من بغداد، فأعاد معز الدولة الحاجب سبكتكين وغيره ممن يثق بهم من عسكره إلى بغداد، فشغب الديلم الذين ببغداد، فوعدوا بأرزاقهم فسكنوا وهم على قنوط من معز الدولة. (٥١٥/٨)

وأما معز الدولة فإنه سار إلى أن بلغ قنطرة أربق، فنزل هناك، وجعل على الطرق من يحفظ أصحاب الديلم من الاستئمان إلى روزبهان، لأنهم كانوا يأخذون العطاء منه ثم يهربون عنه، وكان اعتماد معز الدولة على أصحابه الأتراك وماليكه ونفر يسير من الديلم.

فلما كان سلخ رمضان أراد معز الدولة العبور هو وأصحابه الذين يثق بهم إلى محاربة روزبهان، فاجتمع الديلم وقالوا للمعز الدولة: إن كنا رجالك فأخرجنا معك نقاتل بين يديك، فإنه لا صبر لنا على القعود مع الصبيان والغلمان، فإن ظفرت كان الاسم لهؤلاء دوننا، وإن ظفر عدوك لحقنا العار؛ وإنما قالوا هذا الكلام خديعة ليمكنهم من العبور معه فيتمكّنوا منه، فلما سمع قولهم سألهم التوقف، وقال: إنما أريد [أن] أدوق حربهم ثم أعود، فإذا كان الغد لقيناهم بأجمعنا وناجزناهم؛ وكان يكثر لهم العطاء فأمسكوا عنه.

وعبر معز الدولة، وعيّا أصحابه كرايس تتناوب الحملات، فما زالوا كذلك إلى غروب الشمس، ففني نشاب الأتراك وتعبوا، وشكوا إلى معز الدولة ما أصابهم من التعب، وقالوا: نستريح الليلة ونعود غدًا، فعلم معز الدولة أنه إن رجع زحف إليه روزبهان والديلم، وثار معهم أصحابه الديلم، فيهلك، ولا يمكنه الهرب، فبكى بين يدي أصحابه، وكان سريع الدمعة، ثم سألهم أن تجمع الكرايس كلها ويحملوا حملة واحدة، وهو في أولهم، فإما أن يظفروا وإما أن يُقتل أول من يُقتل، فطالبوه بالنشأ، فقال: قد بقي مع صغار الغلمان نشأ، فخذوه واقسموه. (٥١٦/٨)

وكان جماعة صالحة من الغلمان الأصاغر تحتهم الخيل الجياد، وعليهم اللبس الجيد، وكانوا سألوا معز الدولة أن يأذن لهم في الحرب، فلم يفعل، وقال: إذا جاء وقت يصلح لكم أذنّت لكم في القتال؛ فوجّه إليهم تلك الساعة من يأخذ منهم النشأ، وأوما معز الدولة إليهم بيده أن اقبلوا منه وسلّموا إليه النشأ، فظنوا أنه يأمرهم بالحملة، فحملوا وهم مستريحون، فصدّموا صفوف روزبهان فخرقوها، وألقوا بعضها فوق بعض، فصاروا خلفهم، وحمل معز الدولة فيمن معه بالثورت، فكانت الهزيمة على روزبهان وأصحابه، وأخذ روزبهان أسيراً وجماعة من قواده، وقتل

وفيها، في جمادى الآخرة، سار الروم في البحر، فأوقعوا بأهل طَرَسُوسَ، وقتلوا منهم ألفاً وثمانمائة رجل، وأحرقوا القرى التي حولها.

وفيها سار الحسن بن علي صاحب صقلية على أسطول كثير إلى بلاد الروم. (٥١٩/٨)

سنة سِتِّ وأربعين وثلاثمائة

ذكر موت المرزبان

في هذه السنة، في رمضان، توفي السلار المرزبان بأذربيجان، وهو صاحبها، فلما يئس من نفسه أوصى إلى أخيه وهسودان بالملك، وبعده لابنه جستان بن المرزبان.

وكان المرزبان قد تقدّم أولاً إلى نوابه بالقلاع أن لا يسلموها بعده إلا إلى ولده جستان، فإن مات فإلى ابنه إبراهيم، فإن مات فإلى ابنه ناصر، فإن لم يبق منهم أحد فإلى أخيه وهسودان، فلما أوصى هذه الوصية إلى أخيه عرّفه علامات بينه وبين نوابه في قلاعه ليستسلمها منهم، فلما مات المرزبان أنفذ أخوه وهسودان خاتمه وعلاماته إليهم، فأظهروا وصيته الأولى، فظن وهسودان أخاه خدعه بذلك، فأقام مع أولاد أخيه، فاستبدّوا بالأمر دونه، فخرج من أردبيل كالهارب إلى الطّرم، فاستبدّ جستان بالأمر، وأطاعه إخوته، وقُدّ وزارته أبا عبد الله النعمي، وأتاه قواد أبيه إلا جستان بن شرمز بن عزم على التغلب على أرمينية، وكان والياً عليها.

وشرع وهسودان في الإفساد بين أولاد أخيه، وتفريق كلمتهم، وإطماع أعدائهم فيهم، حتى بلغ ما أراد وقتل بعضهم. (٥٢٠/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثر ببيغداد ونواحيها أورام الحلق والماشرا، وكثر الموت بهما، وموت الفجأة، وكل من افتصد انصب إلى ذراعيه مادة حادة عظيمة، تبعها حمى حادة، وما سلم أحد ممن افتصد، وكان المطر معدوماً.

وفيها تجهّز معز الدولة وسار نحو الموصل لقصد ناصر الدولة بسبب ماقله، فراسله ناصر الدولة، وبذل له مالاً، وضمن البلاد منه كل سنة بالفي ألف درهم، وحمل إليه مثلها، فعاد معز الدولة بسبب خراب بلاده للفتنة المذكورة، ولأنه لم يثق بأصحابه.

ثم إن ناصر الدول منع حمل المال، فسار إليه معز الدولة على ما نذكره.

وفيها نقص البحر ثمانين باعاً، فظهرت فيه جزائر وجبال لم

من أصحابه خلق كثير، وكتب معز الدولة بذلك، فلم يصدق الناس لما علموا من قوة روزبهان وضعف معز الدولة، وعاد إلى بغداد ومعه روزبهان ليواه الناس، وسير سبكتكين إلى أبي المرجى بن ناصر الدولة، وكان بكبرا، فلم يلحقه لأنه لما بلغه الخبر عاد إلى الموصل، وسجن معز الدولة روزبهان، فبلغه أن الديلم قد عزموا على إخراجه قهراً والمبايعة له، فأخرجه ليلاً وغرقه.

وأما آخر روزبهان الذي خرج بشيراز، فإن الأستاذ أبا الفضل بن العميد سار إليه في الجيوش، فقاتله، فظفر به، وأعاد عضد الدولة بن ركن الدولة إلى ملكه، وانطوى خبر روزبهان وإخوته، وكان قد اشتعل اشتعال النار.

وقبض معز الدولة على جماعة من الديلم، وترك من سواهم واصطنع الأتراك وقدمهم، وأمرهم بتوبيخ الديلم والاستطالة عليهم، ثم أطلق للأتراك إطلاقات زائدة على واسط والبصرة، فساروا لقيضها مدلين بما صنعوا، فأخربوا البلاد، ونهبوا الأموال وصار ضررهم أكثر من نفعهم. (٥١٧/٨)

ذكر غزو سيف الدولة بلاد الروم

في هذه السنة، في رجب، سار سيف الدولة بن حمدان في جيوش إلى بلاد الروم وغزاها، حتى بلغ خرّشنة، وصارخة، وفتح عدة حصون وسبي، وأسر، وأحرق، وخرب، وأكثر القتل فيهم، ورجع إلى أذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طَرَسُوسَ، فخلع عليه، وأعطاه شيئاً كثيراً، وعاد إلى حلب.

فلما سمع الروم بما فعل جمعوا وساروا إلى ميّافارقين، وأحرقوا سوادها ونهبوا، وخربوا، وسبوا أهلها، ونهبوا أموالهم وعادوا.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وقعت الفتنة بأصبهان بين أهلها وبين أهل قم بسبب المذهب، وكان سببها أنه قيل عن رجل قمّي إنه سبّ بعض الصحابة، وكان من أصحاب شيعة أصفهان، فثار أهلها، واستغاثوا بأهل السواد، فاجتمعوا في خلق لا يحصون كثرة، وحضروا دار الشحنة، وقُتل بينهم قتلى، ونهب أهل أصفهان أموال التجار من أهل قم، فبلغ الخبر ركن الدولة، فغضب لذلك، وأرسل إليها فطرح على أهلها مالاً كثيراً.

وفيها توفي محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم أبو عمرو الزاهد، غلام ثعلب، في ذي القعدة.

(٥١٨/٨) وفيها كانت الزلزلة بهمدان، واستراباذ ونواحيها، وكانت عظيمة أهلكت تحت الهدم خلقاً كثيراً، وانتشّقت منها حيطان قصر شيرين من صاعقة.

تُعرف قبل ذلك.

وأسمروا، وأقاموا بسنجار.

وسار معز الدولة إلى نصيبين، ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين، ففارقه أصحابه وعادوا إلى معز الدولة مستأمنين، فلما رأى ناصر الدولة ذلك سار إلى أخيه سيف الدولة بحلب، فلما وصل خرج إليه ولقيه، وبالح في إكرامه، وخدمه بنفسه، حتى إنه نزع خفّه بيده.

وكان أصحاب ناصر الدولة في حصونه ببلد الموصل، والجزيرة، ويغيرون على أصحاب معز الدولة بالبلد، فيقتلون فيهم، ويأسرون منهم، ويقطعون الميرة عنهم.

ثم إن سيف الدولة راسل معز الدولة في الصلح، وترددت الرسل في ذلك، فامتنع معز الدولة في تضمين ناصر الدولة لخلفه معه مرة بعد أخرى، فضمن سيف الدولة البلاد منه بألف ألف درهم وتسع مائة ألف درهم، وإطلاق من أسر من أصحابه بسنجار وغيرها، وكان ذلك في المحرم سنة ثمان وأربعين [وثلاثمائة].

وإنما أجاب معز الدولة إلى الصلح بعد تمكنه من البلاد لأنه ضاقت عليه الأموال، وتقاعد الناس في حمل الخراج، واحتجوا بأنهم لا يصلون إلى غلاتهم، وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة، فاضطر معز الدولة (٥٢٤/٨) إلى الانحدار، وأنف من ذلك، فلما وردت عليه رسالة سيف الدولة استراح إليها، وأجابه إلى ما طلبه من الصلح، ثم انحدر إلى بغداد.

ذكر مسير جيوش المعز العلوي إلى أقاصي المغرب

وفيها عظم أمر أبي الحسن جوهر عند المعز بإفريقية، وعلا محله، وصار في رتبة الوزارة، فسيره المعز في صفر في جيش كثيف منهم زيري بن مناد الصنهاجي وغيره، وأمره المسير إلى أقاصي المغرب، فسار إلى تاهرت، فحضر عنده يعلى بن محمد الزناتي، فأكرمه، وأحسن إليه، ثم خالف على جوهر، فقبض عليه، وثار أصحابه، فقاتلهم جوهر، فانهزموا وتبعهم جوهر إلى مدينة أفكان، فدخلها بالسيف، ونهبها، ونهب قصور يعلى، وأخذ ولده، وكان صبيّاً، وأمر بهدم أفكان وإحراقها بالنار، وكان ذلك في جمادى الآخرة.

ثم سار منها إلى فاس، وبها صاحبها أحمد بن بكر، فأغلق أبوابها، فنزلها جوهر، وقتلها مدة، فلم يقدر عليها، وأتته هدايا الأمراء الفاطميين بأقاصي السوس، وأشار على جوهر وأصحابه الرحيل إلى سجلماسة، وكان صاحبها محمد بن واسول قد تلقب الشاكر لله، ويخاطب بأمير المؤمنين، وضرب السكة باسمه، وهو على ذلك ست عشرة سنة، فلما سمع بجوهر هرب، ثم أراد الرجوع إلى سجلماسة، فلقية أقوام، فأخذوه أسيراً، وحملوه إلى

وفيها توفي أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل الأموي النيسابوري المعروف الأصم، وكان عالي الإسناد في الحديث، وصحب الربيع بن سليمان صاحب الشافعي، وروى عنه كتب الشافعي.

وفيها توفي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إسحاق الفقيه البخاري الأمين.

(٥٢١/٨) وفيها كانت بالعراق وبلاد الجبال وقم ونواحيها زلازل كثيرة متتابعة دامت نحو أربعين يوماً تسكن وتعود، فتهدمت الأبنية، وغارت المياه، وهلك تحت الهدم من الأمم الكثير؛ وكذلك كانت زلزلة بالري ونواحيها، مستهل ذي الحجة، أخرجت كثيراً من البلد، وهلك من أهلها كثير؛ وكذلك أيضاً كانت الزلزلة بالطالقان ونواحيها عظيمة جداً أهلكت أمماً كثيرة. (٥٢٢/٨)

سنة سبع وأربعين وثلاثمائة

ذكر استيلاء معز الدولة على الموصل وعوده عنها

قد ذكرنا صلح معز الدولة مع ناصر الدولة على ألفي ألف درهم كل سنة، فلما كان هذه السنة آخر ناصر الدولة حمل المال، فتجهز معز الدولة إلى الموصل وسار نحوها، متصف جمادى الأولى، ومعه وزيره المهلب، ففارقها ناصر الدولة إلى نصيبين، واستولى معز الدولة على الموصل.

فكان من عادة ناصر الدولة إذا قصده أحد سار عن الموصل واستصحب معه جميع الكتاب، والوكلاء، ومن يعرف أبواب المال، ومنافع السلطان، وربما جعلهم في قلاعه كقلعة كواشي، والزعفران، وغيرهما، وكانت قلعة كواشي تسمى ذلك الوقت قلعة أردمشت، وكان ناصر الدولة يأمر العرب بالإغارة على العلافه ومن يحمل الميرة، فكان الذي يقصد بلاد ناصر الدولة يبقى محصوراً مضيقاً عليه.

فلما قصده معز الدولة هذه المرة فعل ذلك به، فضاقت الأقوات على معز الدولة وعسكره، وبلغه أن بنصيبين من الغلات السلطانية شيئاً كثيراً، فسار عن الموصل نحوها، واستخلف بالموصل سبكتكين الحاجب الكبير، فلما توسط الطريق بلغه أن أولاد ناصر الدولة أبا المرجى وهبة الله يستجار في (٥٢٣/٨) عسكر، فسير إليهم عسكراً، فلم يشعر أولاد ناصر الدولة بالعسكر إلا وهو معهم، فعجلوا عن أخذ أثقالهم، فركبوا دوابهم وانهزموا ونهب عسكر معز الدولة ما تركوه، ونزلوا في خيامهم، فعاد أولاد ناصر الدولة إليهم وهام غارون، فوضعوا السيف فيهم، فقتلوا،

جوهري. (٥٢٥/أ)

ركن الدولة، وبين بيستون بن وشمكير، فانهزم بيستون.

وفيها غرق من حجاج الموصل في الماء بضعة عشر زورقاً.
وفيها غسزت الروم طرسوس والرُّها، فقتلوا، وسبوا،
وغنموا، وعادوا سالمين.

وفيها سار مؤيد الدولة بن ركن الدولة من الرِّي إلى بغداد،
فتزوج بابنة عمه معز الدولة، ونقلها معه إلى الري، ثم عاد إلى
أصبهان.

وفيها، في جمادى الأولى، وقعت حرب شديدة بين عامة
بغداد، وقُتل فيها جماعة، واحترق من البلد كثير.

وفيها توفي أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن، الفقيه
الحنبلي المعروف (٥٢٨/أ) بالنجاد، وكان عمره خمساً وتسعين
سنة؛ وجعفر بن محمد بن نصير الخُلديّ الصوفي، وهو من
أصحاب الجنيّد، فروى الحديث وأكثر.

وفيها انقطعت الأمطار، وغلّت الأسعار في كثير من البلاد،
فخرج الناس يستسقون في كانون الثاني في البلاد، ومنها بغداد، فما
سُقوا، فلما كان في آذار ظهر جراد عظيم، فأكّل ما كان قد نبت من
الخضراوات وغيرها، فاشتد الأمر على الناس. (٥٢٩/أ)

سنة تسع وأربعين وثلاثمائة

ذكر ظهور المستجير بالله

في هذه السنة ظهر بأذربيجان رجل من أولاد عيسى بن
المكثفي بالله، وتلقّب بالمستجير بالله، وبايع للرّضا من آل محمد،
وليس الصوف وأظهر العدل، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر،
وكثر أتباعه.

وكان السبب في ظهوره أن جستان بن المرزبان، صاحب
أذربيجان، ترك سيرة والده في سياسة الجيش، واشتغل باللعب،
ومشاورة النساء، وكان جستان بن شرمزن بأريمية متحصّناً بها، وكان
وهو ذوّان بالطُّرم يضرب بين أولاد أخيه ليختلفوا.

ثم إن جستان بن المرزبان قبض على وزيره النعيمي، وكان بينه
وبين وزير جستان بن شرمزن مصاهرة، وهو أبو الحسن عبيد الله
بن محمد بن حمدويه، فاستوحش أبو الحسن لقبض النعيمي،
فحمل صاحبه ابن شرمزن على مكتبة إبراهيم بن المرزبان، وكان
بأرمينية، فكاتبه، وأطمعه في الملك، فسار إليه، فقصّدا مراغة
واستولوا عليها، فلما علم جستان بن المرزبان بذلك راسل ابن
شرمزن ووزيره أبا الحسن، فأصلحهما، وضمن لهما إطلاق
النعيمي، (٥٣٠/أ) فعاد عن نصرة إبراهيم، وظهر له ولأخيه نفاق

ومضى جوهري حتى انتهى إلى البحر المحيط، فأمر أن يُصطاد
له من سمكه، فاصطادوا له، فجعله في قلال الماء وحمله إلى
المعز، وسلك تلك البلاد جميعها فافتحها وعاد إلى فاس، فقاتلها
مدة طويلة، فقام زيري بن مناد فاختار من قومه رجالاً لهم شجاعة،
وأمرهم أن يأخذوا السلاليم، وقصدوا البلد، فصعدوا إلى السور
الأدنى في السلاليم، أهل فاس آمنون، فلما صعدوا على السور
قتلوا من عليه، ونزلوا إلى السور الثاني، وفتحوا الأبواب، وأشعلوا
المشاعل، وضربوا الطبول، وكانت الإمارة بين زيري وجوهري، فلما
سمعها جوهري ركب في العساكر فدخل فاساً، فاستخفى صاحبها،
وأخذ بعد يومين، وجعل مع صاحب سجلماسة، وكان فتحها في
رمضان سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، فحملهما في قفصين إلى
المعز بالمهدية، وأعطى تاهرت لزيري بن مناد.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كان ببلاد الجبل وباء عظيم مات فيه أكثر أهل
البلاد، وكان أكثر من مات فيه النساء، والصبيان، وتعذّر على الناس
عيادة المرضى، وشهود الجنائز لكثرتها.

وفيها انخسف القمر جميعه.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن أحمد البوشنجي الصوفي
بنيسابور، وهو (٥٢٦/أ) أحد المشهورين منهم؛ وأبو الحسن
محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي الشوارب، قاضي بغداد،
وكان مولده سنة اثنتين وتسعين ومائتين؛ وأبو علي الحسين بن
علي بن يزيد الحافظ النيسابوري في جمادى الأولى.

وفيها توفي عبد الله بن جعفر بن درستويه أبو محمد الفارسي
النحوي في صفر وكان مولده سنة ثمان وخمسين ومائتين، وأخذ
النحو عن المبرّد. (٥٢٧/أ)

سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة

في هذه السنة، في المحرم، تم الصلح بين سيف الدولة ومعز
الدولة، وعاد معز الدولة إلى العراق، ورجع ناصر الدولة إلى
الموصل.

وفيها أنفذ الخليفة لواء وخلعة لأبي علي بن إلياس صاحب
كرمان.

وفيها مات أبو الحسن محمد بن أحمد المافروخي، كاتب معز
الدولة، وكتب بعده أبو بكر بن أبي سعيد.

وفيها كانت حرب شديدة بين علي بن كامة، وهو ابن أخت

ابن شرمزن، فتراسلا واتفقا عليه.

ثم إن النعمي هرب من حبس جستان بن المرزبان، وسار إلى موقان، وكاتب ابن عيسى بن المكثفي بالله، وأطمعه في الخلافة، وأن يجمع له الرجال، ويملك له أذربيجان، فإذا قوي قصد العراق فسار إليه في نحو ثلاثمائة رجل، وأتاه جستان بن شرمزن فقوي به، وبايعه الناس، واستفحل أمره، فسار إليهم جستان وإبراهيم ابنا المرزبان قاصدين قتالهم، فلما التقوا انهزم أصحاب المستجير، وأخذ أسيراً فعدم قليل إنه قُتل وقيل بل مات.

ذكر استيلاء وهسودان على بني أخيه وقتلهم

وأما وهسودان فإنه لما رأى اختلاف أولاد أخيه، وأن كل واحد منهم قد انطوى على غش صاحبه، راسل إبراهيم، بعد وقعة المستجير، واستزاره، فزاره، فأكرمه عمه، ووصله بما ملا عينه، وكاتب ناصراً ولد أخيه أيضاً، واستغواه، ففارق أخاه جستان وصار إلى موقان، فوجده الجند طريقاً إلى تحصيل الأموال، ففارق أكثرهم جستان وصاروا إلى أخيه ناصر، فقوي بهم على أخيه جستان، واستولى على أردبيل.

ثم إن الأجناد طالبوا ناصراً بالأموال، فعجز عن ذلك، وقعد عمه وهسودان عن نصرته، فعلم أنه كان يغويه، فراسل أخاه جستان، وتصالحا واجتمعا، (٥٣١/٨) وهما في غاية ما يكون من قلة الأموال واضطراب الأمور، وتغلب أصحاب الأطراف على ما بأيديهم، فاضطر جستان وناصر ابنا المرزبان إلى المسير إلى عمهما وهسودان مع والدتهما، فراسلاه في ذلك، وأخذوا عليه العهد، وساروا إليه، فلما حصلوا عنده نكت، وغدر بهم، وقبض عليهم، وهم جستان وناصر ووالدتهما، واستولى على العسكر، وعقد الإمارة لابنه إسماعيل، وسلم إليه أكثر قلاعه، وأخرج الأموال، وأرضى الجند.

وكان إبراهيم بن المرزبان قد سار إلى أرمينية، فتأهب لمنازعة إسماعيل، واستنقاذ أخويه من حبس عمهما وهسودان، فلما علم وهسودان ذلك ورأى اجتماع الناس عليه بادر بقتل جستان وناصر ابني أخيه وأمهما، وكاتب جستان بن شرمزن، وطلب إليه أن يقصد إبراهيم، وأمهه بالجند والمال، ففعل ذلك، واضطر إبراهيم إلى الهرب والعود إلى أرمينية، واستولى ابن شرمزن على عسكره وعلى مدينة قراغة مع أرمية.

ذكر غزو سيف الدولة بلاد الروم

في هذه السنة غزا سيف الدولة بلاد الروم في جمع كثير، فأنز فيها آثاراً كثيرة، وأحرق، وفتح عدة حصون، وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئاً كثيراً، وبلغ إلى خرشنة، ثم إن الروم أخذوا

عليه المضايق، فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس: إن الروم قد ملكوا الدرب خلف (٥٣٢/٨) ظهرك، فلا تقدر على العود منه، والرأي أن ترجع معنا؛ فلم يقبل منهم، وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأي غيره، وعاد في الدرب الذي دخل منه، فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم، وأخذوا أثقاله، ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلاً وأسراً، وتخلص هو في ثلاثمائة رجل بعد جهد ومشقة وهذا من سوء رأي كل من يجهل آراء الناس العقلاء، والله أعلم بالصواب.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض عبد الملك بن نوح، صاحب خراسان، وما وراء النهر، على رجل من أكابر قواده وأمرائه يسمى نجتكين، وقتله، فاضطربت خراسان.

وفيها استأمن أبو الفتح، المعروف بابن العريان، أخو عمران بن شاهين، صاحب البطيحة، إلى معز الدولة بأهله وماله، وكان خاف أخاه، فأكرمه معز الدولة وأحسن إليه.

وفيها مات أبو القاسم عبد الله بن أبي عبد الله البريدي.

وفيها أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف خركاة.

(٥٣٣/٨) وفيها انصرف حجاج مصر من الحج، فنزّلوا وادياً وياتوا فيه، فأتاهم السيل ليلاً فأخذهم جميعهم مع أنقالهم وجمالهم فألقاهم في البحر.

وفيها سار ركن الدولة من الرّي إلى جرجان، فلقبه الحسن بن الفيرزان، وابن عبد الرزاق، فوصلهما بمال جليل.

وفيها كان بالبلد غلاء شديد، وكان أكثره بالموصل فبلغ الكر من الخنطة ألفاً ومائتي درهم، والكر من الشعير ثمانمائة درهم، وهرب أهلها إلى الشام والعراق.

وفيها، خامس شعبان، كان ببغداد فتنة عظيمة بين العامة، وتعطلت الجمعة من الغد لاتصال الفتنة في الجانبين، سوى مسجد براء فإن الجمعة تمت فيه، وقبض على جماعة من بني هاشم اتهموا أنهم سبب الفتنة، ثم أطلقوا من الغد.

وفيها توفي أبو الخير الأقطع التّيناني، أو قريباً من هذه السنة، وكان عمره مائة وعشرين سنة، وله كرامات مشهورة مسطورة.

(التّيناني) بالتاء المكسورة المعجمة باثنتين من فوق، ثم الباء المعجمة باثنتين من تحت، ثم بالنون والألف ثم التاء المشددة من فوق أيضاً).

وفيها مات أبو إسحاق بن ثوبة كاتب الخليفة ومعز الدولة، وقدّ ديوان الرسائل بعده إبراهيم بن هلال الصابي.

وفيها، في آخرها، مات أنوجور بن الإخشيد صاحب مصر، وتقلّد أخوه علي مكانه. (٥٣٤/٨)

سنة خمسين وثلاثمائة

ذكر بناء معز الدولة دوره ببغداد

وفيها مات أبو إسحاق بن ثوبة كاتب الخليفة ومعز الدولة، وقدّ ديوان الرسائل بعده إبراهيم بن هلال الصابي.

وفيها، في آخرها، مات أنوجور بن الإخشيد صاحب مصر، وتقلّد أخوه علي مكانه. (٥٣٤/٨)

سنة خمسين وثلاثمائة

ذكر بناء معز الدولة دوره ببغداد

في هذه السنة، في المحرم، مرض معز الدولة، وامتنع عليه البول، ثم كان يبول بعد جهد ومشقة دماً، وتبعه البول، والحصى، والرمل، فاشتدّ جزعه وقلقه، وأحضر الوزير المهلبى، والحاجب سيكتكين، فأصلح بينهما، ووصاهما بآبائه بختيار، وسلّم جميع ماله إليه.

ثم إنه عوفي، فعزم على المسير إلى الأهواز لأنه اعتقد أن ما اعتاده من الأمراض إنما هو بسبب مقامه ببغداد، وظن أنه إن عاد إلى الأهواز عاوده ما كان فيه من الصحة، ونسي الكبير والشباب، فلما انحدر إلى كِلْواذى ليتوجّه إلى الأهواز أشار عليه أصحابه بالمقام، وأن يفكر في هذه الحركة ولا يعجل، فأقام بها، ولم يؤثر أحد من أصحابه انتقاله لمفارقة أوطانهم وأسفاً على بغداد كيف تخرب بانتقال دار الملك عنها، فأشاروا عليه بالعود إلى بغداد، وأن يبني بها له داراً في أعلى بغداد لتكون أرقّ هواء، وأصفى ماء، ففعل، وشرع في بناء داره في موضع المسناة المعزّية، فكان مبلغ ما خرج عليها إلى أن مات ثلاثة عشر ألف درهم، فاحتاج بسبب ذلك إلى مصادرة جماعة من أصحابه. (٥٣٥/٨)

ذكر موت الأمير عبد الملك بن نوح

في هذه السنة سقط الفرس تحت الأمير عبد الملك بن نوح، صاحب خراسان، فوقع إلى الأرض، فمات من سقطته، وافتتنت خراسان بعده، ووليّ بعده أخوه منصور بن نوح، وكان موته يوم الخميس حادي عشر شوال.

ذكر وفاة عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس وولاية ابنه الحاكم

في هذه السنة توفي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله صاحب الأندلس، والملقب بالناصر لدين الله، في رمضان، فكانت إمارته خمسين سنة وستة أشهر، وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة، وكان أبيض، أشهل، حسن الوجه، عظيم الجسم، قصير الساقين، كان ركاب سرجه يقارب الشبر، وكان طويل الظهر، وهو أول من تلقّب من الأمويين باللقاب الخلفاء، وتسمّى بأمير المؤمنين، وخلف أحد عشر ولداً ذكراً، وكان من تقدّمه من آبائه يخاطبون ويخطب لهم بالأمير وأبناء الخلفاء.

ولما مات وليّ الأمر بعده ابنه الحاكم بن عبد الرحمن، وتلقّب بالمستنصر، وأمه أم ولد تسمى مرجانة، وخلف الناصر عدة أولاد منهم عبد الله، وكان شافعي المذهب عالماً بالشعر والأخبار وغيرهما، وكان ناسكاً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار قفل عظيم من أنطاكية إلى طرسوس ومعهم صاحب أنطاكية، فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيها من المسلمين، وقتل كثيراً منهم، وأفلت صاحب أنطاكية وبه جراحات.

وفيها، في رمضان، دخل نجا غلام سيف الدولة بلاد الروم من ناحية ميّافارقين غازياً، وإنه في رمضان غنم ما قيمته قيمة عظيمة، وسعى، وأمر، وخرج سالماً.

وفيها مات القاضي أبو السائب عتبة بن عبد الله، وقبضت أملاكه، وتولّى قضاء القضاة أبو العباس بن عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب، وضمن أن يؤدي كل سنة مائتي ألف درهم، وهو أول من ضمن القضاء، وكان ذلك أيام معز الدولة، ولم يُسمع بذلك قبله، فلم يَأْذَن له الخليفة المطيع لله (٥٣٧/٨) بالدخول عليه، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء، ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد.

وفيها وصل أبو القاسم أخو عمران بن شاهين إلى معز الدولة مستأثماً.

وفيها توفي القاضي أبو بكر أحمد بن كامل، وهو من أصحاب الطبري، وكان يروي تاريخه. (٥٣٨/٨)

سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة

ذكر استيلاء الروم على عين زربة

في هذه السنة، في المحرم، نزل الروم مع الدُّمُسْتُقْ على عين زربة، وهي في سفح جبل عظيم، وهو مشرف عليها، وهم في جمع عظيم، فانفذ بعض عسكره فصعدوا الجبل فملكوه، فلما رأى ذلك أهلها، وأن الدُّمُسْتُقْ قد ضيق عليهم ومعه الدبابات، وقد وصل إلى السور، وشرع في النقب، طلبوا الأمان فآمنهم الدُّمُسْتُقْ، وفتحوا له

باب المدينة، فدخلها، فرأى أصحابه الذي في الجبل قد نزلوا إلى غيره.
المدينة، فندم على إجابتهم إلى الأمان.

ونادى في البلد، أول الليل، بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع، ومن تأخر في منزله قُتل، فخرج من أمكنته الخروج، فلما أصبح أنفذ رجاله في المدينة، وكانوا ستين ألفاً، وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله، فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان، وأمر بجمع ما في البلد من السلاح، فجُمع، فكان شيئاً كثيراً.

وأمر من في المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا، ويومئذ ذلك، ومن أمسى قُتل، فخرجوا مزدحمين، فمات بالزحمة جماعة، ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون، فماتوا في الطرقات، وقتل الروم من وجدوه (٥٣٩/٨) بالمدينة آخر النهار، وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم، وهدموا سورتي المدينة.

وأقام الدُّمستق في بلد الإسلام أحدًا وعشرين يوماً، وفتح حول عين زربة أربعة وخمسين حصناً للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، وإن حصناً من تلك الحصون التي فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه فخرجوا، فتعرض أحد الأرمن لبعض حُرَم المسلمين، فلحق المسلمين غيرة عظيمة، فجردوا سيوفهم، فاغتاظ الدُّمستق لذلك، فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل، وقتل النساء والصبيان، ولم يترك إلا من يصلح أن يُسرق.

فلما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد، وخلف جيشه بقياسرية، وكان ابن الزيات، صاحب طرسوس، قد خرج في أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين، فأوقع بهم الدُّمستق، فقتل أكثرهم، وقتل أختاً لابن الزيات، فعاد إلى طرسوس، وكان قد قطع الخطبة لسيف الدولة بن حمدان، فلما أصابهم هذا الوهن أعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة وراسلوه بذلك، فلما علم ابن الزيات حقيقة الأمر صعد إلى رؤس في داره فلقى نفسه منه إلى نهر تحته فغرق، وراسل أهل بفراس الدُّمستق، وبذلوا له مائة ألف درهم، فأقرهم وترك معارضتهم. (٤٥٠/٨)

ذكر استيلاء الروم على مدينة حلب وعودهم عنها بهير سبب في هذه السنة استولى الروم على مدينة حلب دون قلعتها.

وكان سبب ذلك أن الدُّمستق سار إلى حلب، ولم يشعر به المسلمون، لأنه كان قد خلف عسكره بقياسرية ودخل بلادهم كما ذكرناه، فلما قضى صوم النصرارى خرج إلى عسكره من البلاد جريئة، ولم يعلم به أحد، وسار بهم عند وصوله، فسبق خبره، وكبس مدينة حلب، ولم يعلم به سيف الدولة ابن حمدان ولا

فلما بلغها وعلم سيف الدولة الخير أعجله الأمر عن الجمع والاحتشاد، فخرج إليه فيمن معه، فقاتله فلم يكن له قوة الصبر لقلته من معه، فقتل أكثرهم، ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد، قتلوا جميعهم، فانهزم سيف الدولة في نفر يسير، وظفر الدُّمستق بداره، وكانت خارج مدينة حلب، تسمى الدارين، فوجد فيها لسيف الدولة ثلاثمائة بدره من الدراهم، وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل، ومن خزائن السلاح ما لا يحصى، فأخذ الجميع، وخرب الدار، وملك الحاضر، وحصر المدينة، فقاتله أهلها.

وهدم الروم في السور ثلثة، فقاتلهم أهل حلب عليها، فقتل من الروم كثير، ودفعوهم عنها، فلما جنهم الليل عمروها، فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى جبل جوشن.

ثم إن رجالة الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس، وخانات التجار لينهبوها، فلحق الناس أموالهم ليمنعوها، فخلا السور منهم، فلما رأى الروم السور خالياً (٥٤١/٨) من الناس قصدوه وقربوا منه، فلم يمنعهم أحد، فصعدوا إلى أعلاه فராوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله، فنزلوا وفتحوا الأبواب، ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا، ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا.

وكان في حلب ألف وأربعمائة من الأسارى، فتخلصوا، وأخذوا السلاح، وقتلوا الناس، وسبي من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية، وغنموا ما لا يُوصف كثرة، فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة أمر الدُّمستق بإحراق الباقي، وأحرق المساجد، وكان قد بذل لأهل البلد الأمان على أن يسلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ومالاً ذكره، وينصرف عنهم، فلم يجيبوه إلى ذلك، فملكهم كما ذكرنا، وكان عدة عسكره ماتي ألف رجل، منهم ثلاثون ألف رجل بالجواشن، وثلاثون ألفاً للهدم وإصلاح الطرق من الثلج، وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد.

ولما دخل الروم البلد قصد الناس القلعة، فمن دخلها نجا بحشاشة نفسه، وأقام الدُّمستق تسعة أيام، وأراد الانصراف عن البلد بما غنم، فقال له ابن أخت الملك، وكان معه: هذا البلد قد حصل في أيدينا، وليس من يدفعنا عنه، فلاي سبب تنصرف عنه؟ فقال الدمستق: قد بلغنا ما لم يكن الملك يؤمله، وغنمنا، وقتلنا، وخربنا، وأحرقنا، وخلصنا أسراتنا، وبلغنا ما لم يُسمع بمثله؛ فتراجعا الكلام إلى أن قال له الدُّمستق: انزل على القلعة فحاصرها، فلإني مقيم بعسكري على باب المدينة؛ فتقدم ابن أخت الملك إلى القلعة، ومعه سيف وترس، وتبعه الروم، فلما قرب من باب القلعة ألقي عليه حجر فسقط، ورمي بخشب (٥٤٢/٨) فقتل، فأخذه أصحابه وعادوا إلى الدمستق، فلما رآه قتيلاً قتل من معه من أسرى

ذكر عدة حوادث

المسلمين، وكانوا ألفاً ومائتي رجل، وعاد إلى بلاده، ولم يعرض لسواد حلب، وأمر أهله بالزراعة والعمارة ليعود إليهم بزعمه.

ذكر استيلاء ركن الدولة بن بويه على طبرستان وجرجان

في هذه السنة، في المحرم، سار ركن الدولة إلى طبرستان، وبها وشمكير، فنزل على مدينة سارية فحصرها وملكها، ففارق حينئذ وشمكير طبرستان وقصد جرجان، فأقام ركن الدولة بطبرستان إلى أن ملكها كلها، وأصلح أمورها، وسار في طلب وشمكير إلى جرجان، فأزاح وشمكير عنها، واستولى عليها، واستأنم إليه من عسكر وشمكير ثلاثة آلاف رجل، فازداد قوة، وازداد وشمكير ضعفاً ووهناً فدخل بلاد الجبل.

ذكر ما كُتِبَ على مساجد بغداد

في هذه السنة، في ربيع الآخر، كتب عامة الشيعة ببغداد، بأمر معز الدولة، على المساجد ما هذه صورته: لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غصب فاطمة، رضي الله عنه، فذكاً، ومن منع من أن يُدفن الحسن عند قبر جدّه، عليه السلام، ومن نفى أبا ذر الغفاري، ومن أخرج العباس من الشورى، فأما الخليفة فكان محكوماً عليه لا يقدر على المنع، وأما معز الدول فبأمره كان ذلك.

فلما كان الليل حكّه بعض الناس، فأراد معز الدولة إعادته، فأشار عليه الوزير أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما مُحي: لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ ولا يذكر أحداً في اللعن إلا معاوية، ففعل ذلك.

ذكر فتح طبرمين من صقلية

وفي هذه السنة سارت جيوش المسلمين بصقلية، وأميرهم حينئذ أحمد ابن الحسن بن علي بن أبي الحسين، إلى قلعة طبرمين من صقلية أيضاً، وهي بيد الروم، فحصروها، وهي من أمنع الحصون وأشدّها على المسلمين، فامتنع أهلها، ودام الحصار عليهم، فلما رأى المسلمون ذلك عمدوا إلى الماء الذي يدخلها فقطعوه عنها، وأجروه إلى مكان آخر، فعظم الأمر عليهم، وطلبوا الأمان، فلم يُجابوا إليه، فعادوا وطلبوا أن يؤمنوا على دمائهم، ويكونوا رقيقاً للمسلمين، وأموالهم فيشاً، فأجابوا إلى ذلك، وأخرجوا من البلد، وملكه المسلمون في ذي القعدة.

وكانت مدة الحصار سبعة أشهر ونصفاً، وأسكنت القلعة نفرأ من المسلمين وسميت المعزّية، نسبة إلى المعز العلوي صاحب إفريقية، وسار جيش إلى (٥٤٤/٨) رَمْطَة مع الحسن بن عَمَّار، فحصروها وضيّقوا عليها، فكان ما ذكره سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة.

في هذه السنة، في ربيع الأول، أرسل الأمير منصور بن نوح، صاحب خُرَّاسان وما وراء النهر، إلى بعض قوّاده الكبار، واسمه الفتكين، يستدعيه، فامتنع، فأنفذ إليه جيشاً، فلقبهم الفتكين فهزمهم، وأسر وجوه القوّاد منهم، وفهم خال منصور.

وفيهما، في منتصف ربيع الأول أيضاً، انخسف القمر جميعه. وفيها، في جمادى الأولى، كانت فتنة بالبصرة وبهمذان أيضاً بين العامة بسبب المذهب، قُتل فيها خلق كثير.

وفيهما أيضاً فتح الروم حصن ذلوك وثلاثة حصون مجاورة له بالسيف.

وفيهما لقّب الخليفة المطيع لله فتأخسرو بن ركن الدولة بعضد الدولة.

وفيهما، في جمادى الآخرة، أعاد سيف الدولة بناء عين زُربة، وسير حاجبه في جيش مع أهل طَرَسوس إلى بلاد الروم، فغنموا، وقتلوا، وسبوا وعادوا، فقصد الروم حصن سبسية فملكوه.

وفيهما سار نجا غلام سيف الدولة في جيش إلى حصن زياد، فلقبه جمع من (٥٤٥/٨) الروم، فهزمهم، واستأنم إليه من الروم خمسمائة رجل.

وفيهما، في شوال، أسرت الروم أبا فراس بن سعيد بن حمدان من مَنبِج، وكان متقلداً لها، وله ديوان شعر جيد.

وفيهما سار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة أقرطش، فأرسل إليهم نجدة، فقاتلوا الروم، فانتصر المسلمون، وأسر من كان بالجزيرة من الروم.

وفيهما توفي أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد النقاش المُقرئ، صاحب كتاب شفاء الصدور؛ وعبد الباقي بن قانع مولى بني أمية، وكان مولده سنة خمس وتسعين ومائتين؛ ودعلج بن أحمد السجزي العدل؛ وأبو عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي. (٥٤٦/٨)

سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة

ذكر عصيان أهل حرّان

في هذه السنة، في صفر، امتنع أهل حرّان على صاحبها هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان، وعصوا عليه.

وسبب ذلك أنه كان متقلداً لها ولغيرها من ديار مُضر من قبَل عمه سيف الدولة، ففسقهم نوأبه وظلمهم، وطرخوا الأمتعة على التجار من أهل حرّان، وبالقوا في ظلمهم.

بحضرة عيالاتهم وأهليهم، فأخرجوا أمتعتهم فباعوا كل ما يساوي ديناراً بلدهم، لأن أهل البلد كلهم كانوا يبيعون ليس فيهم من يشتري لأنهم مصادرون، فاشتري ذلك أصحاب نجا بما أرادوا، وافترق أهل البلد، وسار نجا إلى ميافارقين، وترك حرّان شاغرة بغير وال، فتسلط العيّارون على أهلها، وكان من أمر نجا ما نذكره سنة ثلاث وخمسين [وثلاثمائة]. (٥٤٩/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عاشر المحرم أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم، ويطلّوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهروا النياحة، ويلبسوا قباً عملوها بالمسوح، وأن يخرج النساء منشّرات الشعور، مسودّات الوجوه، قد شققن ثيابهن، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي، رضي الله عنهما، ففعل الناس ذلك، ولم يكن للسنة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة، ولأن السلطان معهم.

وفيها، في ربيع الأول، اجتمع من رجالة الأرمن جماعة كثيرة، وقصدوا الرها فأغاروا عليها، فغنموا، وأسروا، وعادوا موفورين.

وفيها عزل ابن أبي الشوارب عن قضاء بغداد، وتقلّد مكانه أبو بشر عمرو ابن أكرم، وعُفي عما كان يحمله ابن أبي الشوارب من الضمان عن القضاء، وأمر بإبطال أحكامه وسجلاته.

وفيها، في شعبان، ثار الروم بملكهم فقتلوه وملّكوا غيره، وصار ابن شمشقيق دُستقاً، وهو الذي يقوله العامة ابن الشمشكي.

وفيها، في ثامن عشر ذي الحجة، أمر معز الدولة بإظهار الزينة في البلد، وأشعلت النيران بمجلس الشرطة، وأظهر الفرح، وفُتحت الأسواق بالليل، (٥٥٠/٨) كما يُفعل ليالي الأعياد، فعل ذلك فرحاً بعيد الغدير، يعني غدير خم، وضربت الدباب والبوقات، وكان يوماً مشهوداً.

وفيها، في ذي الحجة الواقع في كانون الثاني، خرج الناس في العراق للاستسقاء لعدم المطر. (٥٥١/٨)

سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة

ذكر عصيان نجا وقله وملك سيف الدولة بعض أرمينية

قد ذكرنا سنة اثنتين وخمسين [وثلاثمائة] ما فعله نجا غلام سيف الدولة بن حمدان بأهل حرّان، وما أخذه من أموالهم، فلما اجتمعت عنده تلك الأموال قوي بها وطر، ولم يشكر ولي نعمته بل كفره، وسار إلى ميافارقين، وقصد بلاد أرمينية، وكان قد استولى على كثير منها رجل من العرب يُعرف بأبي الورد، فقاتله نجا، فقتل

وكان هبة الله عند عمه سيف الدولة بحلب، فثار أهلها على نوابه وطردهم، فسمع هبة الله بالخبر، فسار إليهم وحاربهم، وحصرهم، فقاتلهم وقاتلوه أكثر من شهرين، قُتل منهم خلق كثير، فلما رأى سيف الدولة شدة الأمر واتصال الشر قرب منهم وراسلهم، وأجابهم إلى ما يريدون، فاصطلحوا وفتحوا أبواب البلد، وهرب منه العيّارون خوفاً من هبة الله.

ذكر وفاة الوزير أبي محمد المهلب

في هذه السنة سار الوزير أبو محمد المهلب، وزير معز الدولة، في جمادى الآخرة، في جيش كثيف إلى حُمان ليفتحها، فلما بلغ البحر اعتلّ، (٥٤٧/٨) واشتدت علته، فأعيد إلى بغداد، فمات في الطريق في شعبان، وحُمّل تابوته إلى بغداد فدفن بها، وقبض معز الدولة أمواله وذخائره وكل ما كان له، وأخذ أهله وأصحابه وحواشييه، حتى ملّأه، ومن خدمه يوماً واحداً، قبض عليهم وحبسهم، فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه.

وكانت مدة وزارته ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر، وكان كريماً فاضلاً ذا عقل ومروءة، فمات بموته الكرم.

ونظر في الأمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي، وأبو الفرج محمد بن العباس بن فسانجس من غير تسمية لأحدهما بوزارة.

ذكر غزوة إلى الروم وعصيان حرّان

في هذه السنة، في شوال، دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين، ودخلها أيضاً نجا غلام سيف الدولة بن حمدان من درب آخر، ولم يكن سيف الدولة معهم لمرضه، فإنه كان قد لحقه، قبل ذلك بستين، فالحج، فأقام على رأس درب من تلك الدروب، فأوغل أهل طرسوس في غزوتهم حتى وصلوا إلى قونية، وعادوا، فرجع سيف الدولة إلى حلب، فلحقه في الطريق غشية أرجف عليه الناس بالموت، فوثب هبة الله ابن أخيه ناصر الدولة بن حمدان بابن دنجا (٥٤٨/٨) النصراني فقتله، وكان خصيصاً بسيف الدولة، وإنما قتله لأنه كان يتعرض لغلام له، فغار لذلك.

ثم أفاق سيف الدول، فلما علم هبة الله أن عمه لم يمت هرب إلى حرّان، فلما دخلها أظهر لأهلها أن عمه مات، وطلب منهم اليمين على أن يكونوا مسلماً لمن ساله، وحرماً لمن حاربه، فحلفوا له، واستثنوا عمه في اليمين، فأرسل سيف الدولة غلامه نجا إلى حرّان في طلب هبة الله، فلما قاربها هرب هبة الله إلى أبيه بالموصل، فنزل نجا على حرّان في السابغ والعشرين من شوال، فخرج أهلها إليه من الغد، قبض عليهم، وصادهم على ألف ألف درهم، ووكّل بهم حتى أدّواها في خمسة أيام، بعد الضرب الوجيع

أبر الورد وأخذ نجا قلاع وبلاد: خيلاط وملازكرد وموش وغيرها، وحصل له من أموال أبي الورد شيء كثير، فأظهر العيصيان على سيف الدولة.

فاتفق أن معز الدولة بن بويه سار من بغداد إلى الموصل، ونصيبين، واستولى عليها، وطرد عنها ناصر الدولة على ما ذكرناه آنفاً، فكتبه نجا وراسله، وهو بنصيبين، يعده المعاضدة والمساعدة على مواله بني حمدان، فلما عاد معز الدولة إلى بغداد واصطلح هو وناصر الدولة سار سيف الدولة إلى نجا ليقاتله على عصبائه عليه، وخروجه عن طاعته، فلما وصل إلى ميافارقين هرب نجا من بين يديه، فملك سيف الدولة بلاده وقلاعه التي أخذها من أبي الورد، (٥٥٢/أ) واستأمن إليه جماعة من أصحاب نجا فقتلهم، واستأمن إليه أخو نجا، فأحسن إليه وأكرمه، وأرسل إلى نجا يرغبه ويرهبه إلى أن حضر عنده، فأحسن إليه وأعاده إلى مرتبه.

ثم إن غلمان سيف الدولة وثبوا على نجا في دار سيف الدولة بميافارقين، في ربيع الأول سنة أربع وخمسين [وثلاثمائة]، فقتلوه بين يديه، فغشي على سيف الدولة، وأخرج نجا فألقي في مجرى الماء والأقدار، وبقي إلى الغد ثم أخرج ودُفن.

ذكر حصر الروم المصبية ووصول الغزاة من خراسان

في هذه السنة حصر الروم مع الدُمستق المصبية، وقتلوا أهلها، ونقبوا سورها، واشتد قتال أهلها على القتب حتى دفعهم عنه بعد قتال عظيم، وأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنة وطرسوس لمساعدتهم أهلها، فقتل من المسلمين خمسة عشر ألف رجل، وأقام الروم في بلاد الإسلام خمسة عشر يوماً لم يقصدتهم من يقاتلهم، فعادوا لغلاء الأسعار وقلة الأقوات.

ثم إن إنساناً وصل إلى الشام من خراسان يريد الغزاة ومعه نحو خمسة آلاف رجل، وكان طريقهم على أرمينية وميافارقين، فلما وصلوا إلى سيف الدولة في صفر أخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم لدفعهم عن المسلمين، فوجدوا الروم قد عادوا، ففرق الغزاة الخراسانية في الثغور لشدة الغلاء، وعاد أكثرهم إلى بغداد ومنها إلى خراسان.

(٥٥٣/أ) ولما أراد الدُمستق العود إلى بلاد الروم أرسل إلى أهل المصبية وأذنة وطرسوس: إني منصرف عنكم لا لعجز، ولكن لضيق العلوقة وشدة الغلاء، وأنا عائد إليكم، فمن انتقل منكم فقد نجا، ومن وجدته بعد عودي قتلته.

ذكر ملك معز الدولة الموصل وعوده عنها

في هذه السنة، في رجب، سار معز الدولة من بغداد إلى الموصل وملكها.

وسبب ذلك أن ناصر الدولة كان قد استقر الصلح بينه وبين معز الدولة على ألف ألف درهم يحملها ناصر الدولة كل سنة، فلما حصلت الإجابة من معز الدولة بذلك زيادة ليكون اليمين أيضاً لولده أبي تغلب فضل الله الغضنفر معه، وأن يحلف معز الدولة لهما، فلم يجب إلى ذلك، وتجهز معز الدولة وسار إلى الموصل في جمادى الآخرة، فلما قاربها سار ناصر الدولة إلى نصيبين، ووصل معز الدولة إلى الموصل وملكها في رجب، وسار يطلب ناصر الدولة حادي عشر شعبان، واستخلف على الموصل أبا العلاء صاعد بن ثابت ليحمل الغلات ويجبي الخراج، وخلف بكتوزون وسبكتكين العجمي في جيش ليحفظ البلد.

فلما قارب معز الدولة نصيبين فارقها ناصر الدولة، وملك معز الدولة نصيبين، ولم يعلم أي جهة قصد ناصر الدولة، فخاف أن يخالفه إلى الموصل، (٥٥٤/أ) فعاد عن نصيبين نحو الموصل، وترك بها من يحفظها، وكان أبو تغلب بن ناصر الدولة قد قصد الموصل، وحارب من بها من أصحاب معز الدولة، وكانت الدائرة عليه، فانصرف بعد أن أحرق السفن التي لمعز الدولة وأصحابه.

ولما انتهى الخبر إلى معز الدولة بظفر أصحابه سكنت نفسه، وأقام ببرقعيد يتوقع أخبار ناصر الدولة، فبلغه أنه نزل بجزيرة ابن عُمَر، فرحل عن برقعيد إليها، فوصلها سادس شهر رمضان، فلم يجد بها ناصر الدولة، فملكها، وسأل عن ناصر الدولة فقيل: إنه بالحسنة، ولم يكن كذلك، وإنما كان قد اجتمع هو وأولاده وعساكره وسار نحو الموصل، فوقع بمن فيها من أصحاب معز الدولة، فقتل كثيراً منهم، وأسر كثيراً، وفي الأسرى أبو العلاء، وسبكتكين، وبكتوزون، وملك جميع ما خلفه معز الدولة من مال وسلاح وغير ذلك، وحمل جميعه مع الأسرى إلى قلعة كواشي.

فلما سمع معز الدولة بما فعله ناصر الدولة سار يقصده، فرحل ناصر الدولة إلى سنجار، فلما وصل معز الدولة بلغه مسير ناصر الدولة إلى سنجار، فعاد إلى نصيبين، فسار أبو تغلب بن ناصر الدولة إلى الموصل، فنزل بظاهرها عند الدير الأعلى، ولم يتعرض إلى أحد ممن بها من أصحاب معز الدولة، فما سمع معز الدولة بنزل أبي تغلب بالموصل سار إليها، ففارقها أبو تغلب وقصد الزاب فأقام عنده، وراسل معز الدولة في الصلح، فأجابته لأنه علم أنه متى فارق الموصل عادوا وملكوها، ومتى أقام بها لا يزال متردداً وهم يغيرون على النواحي، فأجابته إلى ما التمس، وعقد عليه ضمان الموصل وديار ريعة والرَّحبة وما كان في يد أبيه بمال قرره، وأن يطلق من عندهم من الأسرى، فاستقرت القواعد على ذلك، ورحل معز الدولة إلى بغداد، وكان معه في سفرته هذه ثابت بن سنان بن

ذكر حال الداعي العلوي

كان قد هرب أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الداعي من بغداد، وهو حسني من أولاد الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وسار نحو بلاد الديلم، وترك أهله وعياله ببغداد، فلما وصل إلى بلاد الديلم اجتمع عليه عشرة آلاف رجل، فهرب ابن الناصر العلوي من بين يديه، وتلقب ابن الداعي بالمهدي لدين الله، وعظم شأنه، وأوقع بقائد كبير من قواد وشمكير فهزمه.

ذكر حصر الروم طرسوس والمصيصة

وفي هذه السنة أيضاً نزل ملك الروم على طرسوس وحصرها، وجرى بينهم وبين أهلها حروب كثيرة سقط في بعضها الدُّمُستُق بين الشمشقيق إلى الأرض، وكاد يؤسر، فقاتل عليه الروم وخلصوه، وأمر أهل طرسوس بطريقاً كبيراً من بطارقة الروم، ورحل الروم عنهم، وتركوا عسكرياً على المصيصة مع الدُّمُستُق، فحصرها ثلاثة أشهر لم يمنعه منها أحد، فاشتد الغلاء على الروم، وكان شديداً قبل نزولهم، فلهمذا طعموا في البلاد لعدم الأقوات عندهم، فلما نزل الروم زاد شدة، وكثر الوياء أيضاً، فمات من الروم كثير فاضطروا إلى الرحيل. (٥٥٦/٨)

ذكر فتح رَمْطة والحرب بين المسلمين والروم بصلقية

قد ذكرنا سنة إحدى وخمسين [وثلاثمائة] فتح طبرمين وحصر رَمْطة والروم فيها، فلما رأى الروم ذلك خافوا وأرسلوا إلى ملك القُسطنطينية يعلمونه الحال، ويطلبون منه أن ينجدهم بالعساكر، فجهز إليهم عسكرياً عظيماً يزيدون على أربعين ألف مقاتل، وسيّره في البحر، فوصلت الأخبار إلى الأمير أحمد أمير صقلية، فأرسل إلى المعز بإفريقية يعرفه ذلك ويستمدّه، ويسأل إرسال العساكر إليه سريعاً، وشرع هو في إصلاح الأسطول، والزيادة فيه، وجمع الرجال المقاتلة في البر والبحر.

وأما المعز فإنه جمع الرجال وحشد، وفرق فيهم الأموال الجلييلة، وسيّره مع الحسن بن علي، والد أحمد، فوصلوا إلى صقلية في رمضان، وسار بعضهم إلى الذين يحاصرون رَمْطة، فكانوا معهم على حصارها.

فأما الروم فإنهم وصلوا أيضاً إلى صقلية، ونزلوا عند مدينة مَسِينِي في شوال، وزحفوا منها بجيوعهم التي لم يدخل صقلية مثلاً إلى رَمْطة، فلما سمع الحسن بن عمار مقدّم الجيش الذي يحاصر رَمْطة ذلك، جعل عليها طائفة من عسكره يمنعون من يخرج منها، وبرز بالعساكر للقاء الروم وقد عزموا على الموت، ووصل الروم وأحاطوا بالمسلمين.

ونزل أهل رَمْطة إلى من يليهم ليأتوا المسلمين من ظهورهم،

فقاتلهم الذي جعلوا هناك لمنعمهم، وصدّوهم عما أرادوا، وتقدّم الروم إلى القتال، وهم (٥٥٧/٨) مُدْلُون بكثرتهم وبما معهم من العُدَد وغيرها، والتحم القتال وعظم الأمر على المسلمين، والحقهم العدو بخيامهم، وأيقن الروم بالظفر، فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت، وراوا أنه أسلم لهم وأخذوا بقول الشاعر:

تَأَخَّرْتُ اسْتَبَقِي الْحَيَاةَ، فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ تَقْتُلَا
فَحَمَلُ بِهِمُ الْحَسَنُ بْنُ عِمَارٍ أَمِيرُهُمْ، وَحَمِي الْوُطَيْسُ حَيْشُدُهُ
وَحَرَضَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِطَارِقَةِ الرُّومِ، حَمَلُوا، وَحَرَضُوا عَسَاكِرَهُمْ.

وحمل منوبل مقدّم الروم، فقتل في المسلمين، فطعنه المسلمون، فلم يؤثر فيه لكثرة ما عليه من اللباس، فرمى بعضهم فرسه فقتله، واشتد القتال عليه، فقتل هو وجماعة من بطارقه، فلما قُتل انهزم الروم أقبح هزيمة، وأكثر المسلمون فيهم القتل، ووصل المنهزمون إلى جرف خندق عظيم كالحفرة، فسقطوا فيها من خوف السيف، فقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأت، وكانت الحرب من بُكْرَةِ إِلَى الْعَصْرِ، وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية، وغنموا من السلاح والخيول، وصنوف الأموال، ما لا يُحَدُّ.

وكان في جملة الغنيمة سيف هندي عليه مكتوب: هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً طالما ضُربَ به بين يدي رسول الله، ﷺ، فأرسل إلى المعز مع الأسرى والرؤوس، وسار من سلم من الروم إلى رَمْوَ.

وأما أهل رَمْطة فإنهم ضعفت نفوسهم، وكانت الأقوات قد قَلَّتْ عندهم، فأخرجوا من فيها من الضعفاء، وبقي المقاتلة، فزحف إليهم المسلمون وقتلواهم (٥٥٨/٨) إلى الليل، ولزموا القتال في الليل أيضاً، وتقدّموا بالسلايل فملكوها عنوة، وقتلوا من فيها، وسبوا الحُرَمَ والصغار، وغنموا ما فيها، وكان شيئاً كثيراً عظيماً، ورُتِبَ فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم فيها.

ثم إن الروم تجمّع من سلم منهم، وأخذوا معهم من في صقلية وجزيرة رَمْوَ منهم، وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم، فركب الأمير أحمد في عساكره وأصحابه في المراكب أيضاً، وزحف إليهم في الماء وقاتلهم، واشتد القتال بينهم، وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم في الماء، وخرقوا كثيراً من المراكب التي للروم، فقرقت، وكثر القتل في الروم، فانهزموا لا يلوي أحد، وسارت سرايا المسلمين في مدائن الروم، فغنموا منها، فبذل أهلها لهم من الأموال، وهادونهم، وكان ذلك سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وهذه الوقعة الأخيرة هي المعروفة بوقعة المجاز.

ذكر عدة حوادث

وتتصر بعضهم.

في هذه السنة، عاشر المحرم، أغلقت الأسواق ببغداد، يوم عاشوراء، وفعل الناس ما تقدم ذكره، فثارت فتنة عظيمة بين الشيعة والسنة جرح فيها كثير، ونُهبت الأموال. (٥٥٩/٨)

وفيهما، في ذي الحجة، ظهر بالكوفة إنسان ادعى أنه علوي، وكان مُبرقعاً، فوقع بينه وبين أبي الحسن محمد بن عمر العلوي وقائع، فلما عاد معز الدولة من الموصل هرب المُبرقع. (٥٦٠/٨)

سنة أربع وخمسين وثلاثمائة

ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس

في هذه السنة فتح الروم المصيصة وطرسوس.

وكان سبب ذلك أن تغفور ملك الروم بنى بَقِيسارية مدينة ليقرّب من بلاد الإسلام، وأقام بها، ونقل أهله إليها، فأرسل إليه أهل طرسوس والمصيصة يذلّون له إناوة، ويطلبون منه أن ينفذ إليهم بعض أصحابه يقيم عندهم، فعزم على إجابتهم إلى ذلك.

فأتاه الخبر بأنهم قد ضعضعوا وعجزوا، وأنهم لا ناصر لهم، وأن الغلاء قد اشتد عليهم، وقد عجزوا عن القوت، وأكلوا الكلاب والميتة، وقد كثّر فيهم الوباء، فيموت منهم في اليوم نحو ثلاثمائة نفس، فعاد تغفور عن إجابتهم، وأحضر الرسول وأحرق الكتاب على رأسه، واحترقت لحيته، وقال لهم: أنتم كالحية، في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت، فإن أخذها إنسان، وأحسن إليها، وأدفاها انتعشت ونهشته، وأنتم إنما أطلعتم لضعفكم، (٥٦١/٨) وأن تركتكم حتى تستقيم أحوالكم تأذيت بكم.

وأعاد الرسول، وجمع جيوش الروم وسار إلى المصيصة بنفسه، فحاصرها وفتحها عنوة بالسيف يوم السبت ثالث عشر رجب، ووضع السيف فيهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم رفع السيف ونقل كل من بها إلى بلد الروم، كانوا نحو مائتي ألف إنسان.

ثم سار إلى طرسوس فحاصرها، فأذعن أهلها بالطاعة، وطلبوا الأمان، فأجابهم إليه، وفتحوا البلد، فلقيهم بالجميل، وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقي، ففعلوا ذلك، وساروا براً وبحراً، وسير معهم من يحميمهم حتى بلغوا أنطاكية.

وجعل الملك المسجد الجامع إصطبلًا لدوابه، وأحرق المنبر، وعمر طرسوس وحصنها، وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار، وتراجع إليها كثير من أهلها، ودخلوا في طاعة الملك،

وأراد المقام بها ليقرّب من بلاد الإسلام، ثم عاد إلى القسطنطينية، وأراد الدّمستق، وهو ابن الشمشقيق، أن يقصد ميافارقين، وبها سيف الدولة، فأمره الملك باتباعه إلى القسطنطينية، فمضى إليه.

ذكر مخالفة أهل أنطاكية على سيف الدولة

وفي هذه السنة عصى أهل أنطاكية على سيف الدولة بن حمدان.

وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل طرسوس كان مقدماً فيها، (٥٦٢/٨) يسمى رشيقاً النسمي، كان في جملة من سلّمها إلى الروم وخرج إلى أنطاكية، فلما وصلها خدمه إنسان يُعرف بابن الأهوازي كان يضمن الأرحاء بأنطاكية، فسلم إليه ما اجتمع عنده من حاصل الأرحاء، وحسن له العصيان، وأعلمه أن سيف الدولة بميافارقين قد عجز عن العود إلى الشام، فعصى واستولى على أنطاكية، وسار إلى حلب، وجري بينه وبين النائب عن سيف الدولة، وهو قرغويه، حروب كثيرة، وصعد قرغويه إلى قلعة حلب، فتنحصر بها، وأنفذ سيف الدولة عسكرياً مع خادمه بشارة نجدة لقرغويه، فلما علم بهم رشيق انهزم عن حلب، فسقط عن فرسه، فنزل إليه إنسان عربي فقتله، وأخذ رأسه وحمله إلى قرغويه وبشارة.

ووصل ابن الأهوازي إلى أنطاكية، فأظهر إنساناً من الديلم اسمه ذير، وسماه الأمير، وتقوى بإنسان علوي ليقيم له الدعوة، وتسمى هو بالأستاذ، فظلم الناس، وجمع الأموال، وقصد قرغويه إلى أنطاكية، وجرت بينهما وقعة عظيمة فكانت على ابن الأهوازي أولاً، ثم عادت إلى قرغويه، فانهزم وعاد إلى حلب.

ثم إن سيف الدولة عاد من ميافارقين عند فراغه من الغزاة إلى حلب، فأقام بها ليلة، وخرج من الغد، فواقع ذير وابن الأهوازي، فقاتل من بها فانهزموا، وأسر ذير وابن الأهوازي، فقتل ذير، وسجن ابن الأهوازي مدة ثم قتله. (٥٦٣/٨)

ذكر عصيان أهل سيجستان

وفي هذه السنة عصى أهل سيجستان على أميرهم خلف بن أحمد، وكان خلف هذا هو صاحب سيجستان حيثنذ، وكان عالماً محباً لأهل العلم، فاتفق أنه حج سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، واستخلف على أعماله إنساناً من أصحابه يسمى طاهر بن الحسين، فقطع في الملك، وعصى على خلف لما عاد من الحج، فسار خلف إلى بخاري، واستنصر بالأمير منصور بن نوح، وسأله معوته، ورده إلى ملكه، فأنجده وجهز معه العساكر، فسار بهم نحو

ذكر طاعة أهل عُمان معز الدولة وما كان منهم

سجستان، فلما أحس بهم طاهر فارق مدينة خلف وتوجّه نحو أسفرار، وعاد خلف إلى قراره وملكه وفرّق العساكر.

فلما علم طاهر بذلك عاد إليه، وغلب على سجستان، وفارقها خلف، وعاد إلى حضرة الأمير منصور أيضاً ببخارى، فأكرمه وأحسن إليه، وأنجده بالعساكر الكثيرة، وردّه إلى سجستان، فوافق وصوله موت طاهر، وانتصاب ابنه الحسين مكانه، فحاصره خلف وضايقه، وكثر بينهم القتلى، واستظهر خلف عليه، فلما رأى ذلك كتب إلى بخارى يعتذر ويتصلّل، ويظهر الطاعة، ويسأل الإقالة، فاجابه الأمير منصور إلى ما طلبه، وكتب في تمكينه من المسير إليه، فسار من سجستان إلى بخارى، فأحسن الأمير منصور إليه.

واستقر خلف بن أحمد بسجستان، ودامت أيامه فيها، وكثرت أمواله ورجاله، فقطع ما كان يحمله إلى بخارى من الخلع والخدم والأموال التي (٥٦٤/٨) استقرت القاعدة عليها، فجهّزت العساكر إليه، وجعل مقدّمها الحسين بن طاهر بن الحسين المذكور، فساروا إلى سجستان، وحصروا خلف بن أحمد بحصن أرك، وهو من أمنع الحصون وأعلاها محلاً وأعمقها خندقاً، فدام الحصار عليه سبع سنين.

وكان خلف يقاتلهم بأنواع السلاح، ويعمل بهم أنواع الحيل، حتى إنه كان يأمر بصيد الحيات ويجعلها في جراب ويقذفها في المنجنيق إليهم، فكانوا يتقلّون لذلك من مكان إلى مكان.

فلما طال ذلك الحصار، وفنيت الأموال والآلات، كتب نوح بن منصور إلى أبي الحسن بن سيمجور الذي كان أمير جيوش خراسان، وكان حينئذ قد عزل عنها على ما سنذكره، يأمره بالمسير إلى خلف ومُحاصرتِه، وكان بقوهستان، فسار منها إلى سجستان، وحصر خلفاً، وكان بينهما مودة، فأرسل إليه أبو الحسن يشير عليه بالنزول عن حصن أرك وتسليمه إلى الحسين بن طاهر، ليصير لمن قد حصّره من العساكر طريق وجّعة يعودون بها إلى بخارى، فإذا تفرّقت العساكر عاود هو محاربة الحسين ويكر بن الحسين مفرداً من العساكر، فقبل خلف مشورته، وفارق حصن أرك إلى حصن الطارق، ودخل أبو الحسن السيمجوري إلى أرك، وأقام به الخطبة للأمير نوح، وانصرف عنه، وقرر الحسين بن طاهر فيه.

وسنورد ما يتجدد فيما بعد، وكان هذا أول وهن دخل على دولة السامانية، فطمع أصحاب الأطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم، وقد كان ينبغي أن (٥٦٥/٨) نورد كل حادث من هذه الحوادث في سنته، لكننا جمعناه لقلته، فإنه كان يُنسى أوله لبعده ما بينه وبين آخره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ليلة السبت رابع عشر صفر انخسف القمر جميعه.

وفيهما نزلت طائفة من الترك على بلاد الخزّر، فانتصر الخزّر بأهل خوارزم فلم ينجدوهم وقالوا: أنتم كفار، فإن أسلمتم نصرناكم، فأسلموا إلا ملكهم، فنصرهم أهل خوارزم، وأزالوا الترك عنهم، ثم أسلم ملكهم بعد ذلك.

وفيهما، رابع جمادى الآخرة، تقلّد الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى (٥٦٦/٨) والد الرّضي والمرضى نقابة العلويين، وإمارة الحاج، وكتب له منشور من ديوان الخليفة.

وفيهما أنفذ القرامطة سرية إلى عُمان، والشرأة في جبالها كثير، فاجتمعوا، فأوقعوا بالقرامطة، فقتلوا كثيراً منهم، وعاد الباقون.

وفيهما ثار إنسان من القرامطة الذين استأمنوا إلى سيف الدولة، واسمه مروان وكان يتقلّد السواحل لسيف الدولة، فلما تمكّن ثار بحمص فملكها، وملك غيرها، فخرج إليه غلام لفرغويه، حاجب سيف الدولة، اسمه بدر، وواقع القرمطي عدة وقعات، ففي بعضها رمى بدر مروان بشبابة مسمومة، واتفق أن أصحاب مروان أسروا بدرًا، فقتله مروان، ثم عاش بعد قتله أياماً ومات.

وفيهما قُتل المتنبي الشاعر، واسمه أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي، قريباً من التّعمانية، وقُتل معه ابنه، وكان قد عاد من عند عضد الدولة بفارس، فقتله الأعراب هناك وأخذوا ما معه.

وفيهما توفي محمد بن حيّان بن أحمد بن حيّان أبو حاتم البستي، صاحب التصانيف المشهورة؛ وأبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسم المفسّر النحوي المقرئ، وكان عالماً بنحو الكوفيّين، وله تفسير كبير حسن؛ ومحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدويه أبو بكر الشافعي في ذي الحجة، وكان عالماً بالحديث عالي الإسناد.

ذكر هزيمة إبراهيم بن المرزبان

(جَبَان بكسر الحاء والباء الموحدة). (٥٦٧/٨)

سنة خمس وخمسين وثلاثمائة

ذكر ما تجدد بعمان واستيلاء معز الدولة عليه

قد ذكرنا في السنة التي قبل هذه خبر عُمان ودخول القرامطة إليها، وهرب نافع عنها، فلما هرب نافع، واستولى القرامطة على البلد، كان معهم كاتبٌ يُعرف بعلي بن أحمد ينظر في أمر البلد، وكان بعمان قاضي له عشيرة وجاء، فاتفق هو وأهل البلد أن ينصبوا في الإمرة رجلاً يُعرف بابن طغان، وكان من صغار القواد بعمان، وأدناهم مرتبةً، فلما استقر في الإمرة خاف ممن فوقه من القواد، فقبض على ثمانين قائداً، قتل بعضهم، وغرق بعضهم.

وقدم البلد ابناً أخت لرجل ممن قد غرقهم، فأقام مدة، ثم إنهما دخلا على طغان يوماً من أيام السلام، فسَلَمَا عليه، فلما تقوَّض المجلس قتلاه، فاجتمع رأي الناس على تأييد عبد الوهاب بن أحمد بن مروان، وهو من أقارب القاضي، فولَّى الإمارة بعد امتناع منه، واستكتب علي بن أحمد الذي كان مع الهجريين، فأمر عبد الوهاب كاتبه علياً أن يعطي الجند أرزاقهم صلة، ففعل ذلك، فلما انتهى إلى الزنج، وكانوا ستة آلاف رجل، ولهم بأس (٥٦٨/٨) وشدة، قال لهم علي: إن الأمير عبد الوهاب أمرني أن أعطي البيض من الجند كذا وكذا، فاضطربوا وامتنعوا، فقال لهم: هل لكم أن تبايعوني فأعطيكم مثل سائر الأجناد؟ فأجابوه إلى ذلك، وبايعوه، وأعطاهم مثل البيض من الجند، فامتنع البيض من ذلك، ووقع بينهم حرب، فظهر الزنج عليهم، فسكنوا، واتفقوا مع الزنج، وأخرجوا عبد الوهاب من البلد، فاستقر في الإمارة علي بن أحمد.

ثم إن معز الدولة سار إلى واسط لحرب عمران بن شاهين، ولإرسال جيش إلى عُمان، فلما وصل إلى واسط قدم عليه نافع الأسود الذي كان صاحب عُمان، فأحسن إليه، وأقام للفراغ من أمر عمران بن شاهين، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

وانحدر من واسط إلى الألبَّة، في شهر رمضان، فأقام بها يجهز الجيش والمراكب ليسيروا إلى عُمان، ففرغ منه، وساروا منتصف شوال، واستعمل عليهم أبا الفرج محمد بن العباس بن فسانجس، وكانوا في مائة قطعة، فلما كانوا بسيراف انضم إليهم الجيش الذي جهزه عضد الدولة من فارس نجدةً لعمه معز الدولة، فاجتمعوا وساروا إلى عُمان، ودخلها تاسع ذي الحجة، وخطب لمعز الدولة فيها، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، وأحرقت مراكبهم، وهي تسعة وثمانون مركباً.

في هذه السنة انهزم إبراهيم بن المرزبان عن أذربيجان إلى الري.

وسبب ذلك أن إبراهيم لما انهزم من جستان بن شرمز، على ما ذكرناه (٥٦٩/٨) سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، وقصد أرمينية، وشرع يستعد ويتجهز للعود إلى أذربيجان، وكانت ملوك أرمينية من الأرمن والأكراد، وراسل جستان ابن شرمز، وأصلحه، فأتاه الخلق الكثير.

واتفق أن إسماعيل ابن عمه وهسودان توفي، فسار إبراهيم إلى أردبيل فملكها، وانصرف أبو القاسم بن مسيكي إلى وهسودان، وصار معه، وسار إبراهيم إلى عمه وهسودان يطلبه بشأ إخوته، فخافه عمه وهسودان، وسار هو وابن مسيكي إلى بلد الديلم، واستولى إبراهيم على أعمال عمه، وخبَّط أصحابه، وأخذ أمواله التي ظفر بها.

وجمع وهسودان الرجال وعاد إلى قلعه بالطرم، وسير أبا القاسم بن مسيكي في الجيوش إلى إبراهيم، فلقبهم إبراهيم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم إبراهيم، وتبعه الطلب فلم يدركوه، وسار وحده حتى وصل إلى الري، إلى ركن الدولة، فأكرمه ركن الدولة وأحسن إليه، وكان زوج أخت إبراهيم، فبالغ في إكرامه لذلك، وأجزل له الهدايا والصلات.

ذكر خير الغزاة الخراسانية مع ركن الدولة

في هذه السنة، في رمضان، خرج من خراسان جمع عظيم يبلغون عشرين ألفاً إلى الري بنية الغزاة، فبلغ خبرهم إلى ركن الدولة، وكثرة جمعهم، وما فعلوه في أطراف بلاده من الفساد، وأن رؤسائهم لم يمنعوهم عن ذلك، فأشار عليه الأستاذ أبو الفضل بن العميد، وهو وزيره، بمنعهم من دخول (٥٧٠/٨) بلاده مجتمعين، فقال: لا تتحدث الملوك أنني خفتُ جمعاً من الغزاة؛ فأشار عليه بتأخيرهم إلى أن يجمع عسكره، وكانوا متفرقين في أعمالهم، فلم يقلل منه، فقال له: أخاف أن يكون لهم مع صاحب خراسان مواطاة على بلادك ودولتك؛ فلم يلتفت إلى قوله.

فلما وردوا الري اجتمع رؤسائهم، وفيهم القفال الفقيه، وحضروا مجلس ابن العميد، وطلبوا مالاً ينفقونه، فوعدهم، فاشتطوا في الطلب وقالوا: نريد خراج هذه البلاد جميعها، فإنه لبيت المال، وقد فعل الروم بالمسلمين ما بلغكم، واستولوا على بلادكم، وكذلك الأرمن، ونحن غزاة، وفقراء، وأبناء سبيل، فنحن أحق بالمال منكم؛ وطلبوا جيشاً يخرج معهم، واشتطوا في الاقتراح، فعلم ابن العميد حيث خبث سرائرهم، وتيقن ما كان ظنه

فيهم، ففرق بهم وداراهم، فعدلوا عنه إلى مشاتمة الديلم، ولعنهم، وتكفيرهم، ثم قاموا عنه، وشرعوا يأمرؤن بالمعروف ويهونون عن المنكر، ويسلبون العامة بحجة ذلك، ثم إنهم أثاروا الفتنة، وحاربوا جماعة من الديلم إلى أن حجز بينهم الليل، ثم باكروا القتال ودخلوا المدينة، ونهبوا دار الوزير ابن العميد، وجرحوه، وسلم من القتل.

وخرج ركن الدولة إليهم في أصحابه، وكان في قلعة، فهزمه الخراسانية، فلو تبعوه لأتوا عليه وملكوا البلد منه، لكنهم عادوا عنه لأن الليل أدركهم، فلما أصبحوا راسلهم ركن الدولة، ولطف بهم، لعلهم يسيرون من بلده، فلم يفعلوا، وكانوا ينتظرون مدداً يأتيهم من صاحب خراسان، فإنهم كان بينهم موعدة على تلك البلاد.

ثم إنهم اجتمعوا وقصدوا البلد ليملكوه، فخرج ركن الدولة إليهم (٥٧١/٨) فقاتلهم، وأمر نفرًا من أصحابه أن يسيروا إلى مكان يراهم، ثم يثيروا غيرة شديدة، ويرسلوا إليه من يخبره أن الجيوش قد آتته، ففعلوا ذلك.

وكان أصحابه قد خافوا لقلته، وكثرة عدوهم، فلما رأوا الغيرة وأتاهم من أخبرهم أن أصحابهم لحقوهم قويت نفوسهم، وقال لهم ركن الدولة: احملوا على هؤلاء لعلنا نظفر بهم قبل وصول أصحابنا، فيكون الظفر والغنمة لنا؛ فكبروا، وحملوا حملة صادقة، فكان لهم الظفر، وانهزم الخراسانية، وقُتل منهم خلق كثير، وأسر أكثر ممن قُتل، وتفرق الباقون، فطلبوا الأمان، فأمنهم ركن الدولة.

وكان قد دخل البلد جماعة منهم يكبرون كأنهم يقاتلون الكفار، ويقتلون كل من رآه يزي الديلم، ويقولون هؤلاء رافضة، فبلغهم خبر انهزام أصحابهم، وقصدهم الديلم ليقتلوهم، فمنعهم ركن الدولة وأمنهم، وفتح لهم الطريق ليعودوا، ووصل بعضهم نحو ألفي رجل بالعدة والسلاح، فقاتلهم ركن الدولة، فهزمهم وقتل فيهم، ثم أطلق الأسارى، وأمر لهم بنفقات، ورددهم إلى بلادهم، وكان إبراهيم بن المرزبان عند ركن الدولة، فأثر فيهم آثاراً حسنة.

ذكر عود إبراهيم بن المرزبان إلى أذربيجان

في هذه السنة عاد إبراهيم بن المرزبان إلى أذربيجان واستولى عليها.

وكان سبب ذلك أنه لما قصد ركن الدولة، على ما ذكرناه، جهز العساكر (٥٧٢/٨) معه، وسير معه الأستاذ أبا الفضل بن العميد ليرده إلى ولايته، ويصلح له أصحاب الأطراف، فسار معه إليها، واستولى عليها، وأصلح له جستان بن شرمزن، وقاده إلى طاعته، وغيره من طوائف الأكراد، ومكث من البلاد.

وكان ابن العميد لما وصل إلى تلك البلاد رأى كثرة دخلها،

وسعة مياهاها، ورأى ما يتحصل لإبراهيم منها، فوجده قليلاً لسوء تدبيره، وطمع الناس فيه لاشتغاله بالشرب والنساء، فكتب إلى ركن الدولة يعرفه الحال، ويشير بأن يعرضه من بعض ولايته بمقدار ما يتحصل له من هذه البلاد ويأخذها منه، فإنه لا يستقيم له حال مع الذين بها، وإنها تؤخذ منه، فامتنع ركن الدولة من قبول ذلك منه، وقال: لا يتحدث الناس عني أنني استجار بي إنسان وطمعت فيه؛ وأمر أبا الفضل بالعود عنه وتسليم البلاد إليه، ففعل وعاد، وحكى لركن الدولة صورة الحال، وحذره خروج البلاد من يد إبراهيم، وكان الأمر كما ذكره، حتى أخذ إبراهيم وحبس، على ما نذكره.

ذكر خروج الروم إلى بلاد الإسلام

وفي هذه السنة، في شوال، خرجت الروم، فقصدوا مدينة آمد، ونزلوا عليها، وحصروها، وقاتلوا أهلها، فقتل منهم ثلاثمائة رجل، وأسر نحو أربعمائة أسير، ولم يمكنهم فتحها، فانصرفوا إلى دارا، وقربوا من نصيبين، ولقيهم قافلة واردة من ميفارقين، فأخذوها، وهرب الناس من نصيبين (٥٧٣/٨) خوفاً منهم، حتى بلغت أجرة الدابة مائة درهم.

وراسل سيف الدولة الأعراب ليهرب معهم، وكان في نصيبين، فاتفق أن الروم عادوا قبل هربه، فأقام بمكانه، وساروا من ديار الجزيرة إلى الشام، فنزلوا أنطاكية، فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها، فلم يمكنهم فتحها، فخرجوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس.

ذكر ما جرى لمعز الدولة مع عمران بن شاهين

قد ذكرنا انحذار معز الدولة إلى واسط لأجل قصد ولاية عمران بن شاهين بالبطائح، فلما وصل إلى واسط أنفذ الجيش مع أبي الفضل العباس بن الحسن، فساروا، فنزلوا الجامدة، وشرعوا في سد الأنهار التي تصب إلى البطائح.

وسار معز الدولة إلى الأبله، وأرسل الجيش إلى عُمان، على ما ذكرناه، وعاد إلى واسط لإتمام حرب عمران وملك بلده، فأقام بها، فمرض، وأصعد إلى بغداد ليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة ست وخمسين [وثلاثمائة] وهو عليل، وخلف العسكر بها، ووعدهم أنه يعود إليهم، فلما وصل إلى بغداد توفي، على ما نذكره، فدعت الضرورة إلى مصالحة عمران والانصراف عنه. (٥٧٤/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرجت بنو سليم على الحجاج الساترين من مصر والشام، وكانوا عالمًا كثيراً، ومعهم من الأموال ما لا حدّ عليه لأن كثيراً من الناس من أهل الثغور والشام هربوا، من خوفهم من الروم، بأموالهم وأهليهم، وقصدوا مكة ليسيروا منها إلى العراق،

فأخذوا، ومات من الناس في البرّة ما لا يحصى، ولم يسلم إلا القليل.

وفيها عظم أمر أبي عبد الله الداعي بالديلم، ولبس الصوف، وأظهر النسك والعبادة، وحارب ابن وشمكير، فهزمه وعزم على المسير إلى طبرستان، وكتب إلى العراق كتاباً يدعوهم فيه إلى الجهاد.

وفيها تم الفداء بين سيف الدولة والروم، وسلم سيف الدولة ابن عمه أبا فراس بن حمدان، وأبا الهيثم ابن القاضي أبي الحصين.

وفيها انخسف القمر جميعه ليلة السبت ثالث عشر شعبان، وغاب منخسفاً.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن سالم المعروف بابن الجعّابي الحافظ البغدادي بها، وكان يتشيع؛ وأبو عبد الله محمد بن الحسين بن علي ابن الحسين بن الرضّاح الرضّاحي، الشاعر الأنباري. (٥٧٥/٨)

سنة مِيت وخمسين وثلاثمائة

ذكر موت معز الدولة وولاية ابنه بختيار

في هذه السنة، ثالث عشر ربيع الآخر، توفي معز الدولة بعلة الذرب، وكان بواسط، وقد جهّز الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين، فابتدأ به الإسهال، وقوي عليه، فسار نحو بغداد، وخلف أصحابه، ووعدهم أنه يعود إليهم لأنه رجا العافية، فلما وصل إلى بغداد اشتد مرضه، وصار لا يثبت في معدته شيء، فلما أحس بالموت عهد إلى ابنه عز الدولة ببختيار، وأظهر التوبة، وتصدّق بأكثر ماله، واعتق ممالিকে، وردّ شيئاً كثيراً على أصحابه، وتوفي ودفن بباب التين في مقابر قريش، فكانت إمارته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ويومين.

وكان حليماً كريماً عاقلاً، ولما مات معز الدولة وجلس ابنه عز الدولة في الإمارة مُطر الناس ثلاثة أيام ليلاليها مطراً دائماً منع الناس من الحركة، فأرسل إلى القوّاد فأرضاهم، فأنجلت السماء، وقد رضوا فسكنوا ولم يتحرك أحد.

وكتب عز الدولة إلى العسكر بمصالحة عمران بن شاهين، ففعلوا وعادوا.

وكانت إحدى يدي معز الدولة مقطوعة، واختلف في سبب قطعها، فقيل قطعت بكرمان لما سار إلى قتال من بها، وقد ذكرناه، وقيل غير ذلك، وهو الذي أحدث أمر السّعاة، وأعطاهم عليه

الجزايات الكثيرة، لأنه أراد أن (٥٧٦/٨) يصل خبره إلى أخيه ركن الدولة سريعاً، فنشأ في أيامه فضل ومرعوش، وفاقا جميع السعاة، وكان كل واحد منهما يسير في اليوم ثيماً وأربعين فرسخاً، وتعصب لهما الناس، وكان أحدهما ساعي السنة، والآخر ساعي الشيعة.

ذكر سوء سيرة ببختيار وفساد حاله

لما حضرت معز الدولة الوفاة وصى ولده ببختيار بطاعة عمه ركن الدولة، واستشارته في كل ما يفعله، وبطاعة عضد الدولة ابن عمه، لأنه أكبر منه سناً، وأقوم بالسياسة، ووصاه بتقرير كاتبيه أبي الفضل العباس بن الحسين، وأبي الفرج محمد بن العباس لكفائتهما وأمانتهما، ووصاه بالديلم والأتراك وبالحاجب سبكتكين، فخالف هذه الوصايا جميعها، واشتغل باللّهو واللعب، وعشرة النساء، والمساخر، والمغنين، وشرع في إححاش كاتبيه وسبكتكين، فاستوحشوا، وانقطع سبكتكين عنه فلم يحضر داره.

ونفى كبار الديلم عن مملكته شراً إلى إقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم، فاتفق أصاغرهم عليه، وطلبوا الزيادات، واضطر إلى مرضاتهم، واقتدى بهم الأتراك فعملوا مثل ذلك، ولم يتم له على سبكتكين ما يرد لاحتياطه، واتفق الأتراك معه، وخرج الديلم إلى الصحراء، وطالعوا ببختيار بإعادة من أسقط منهم، فاحتاج أن يجيهم لتغيير سبكتكين عليه، وفعل الأتراك (٥٧٧/٨) أيضاً مثل فعلهم.

واتصل خبر موت معز الدولة بكاتبه أبي الفرج محمد بن العباس، وهو متولّي أمر عُمان، فسلمها إلى نواب عضد الدولة وسار نحو بغداد.

وكان سبب تسليمها إلى عضد الدولة أن ببختيار لما ملك بعد موت أبيه تفرّد أبو الفضل بالنظر في الأمور، فخاف أبو الفرج أن يستمر انفراده عنه، فسلم عُمان إلى عضد الدولة لثلا يؤمر بالمقام فيها لحفظها وإصلاحها، وسار إلى بغداد، فلم يتمكن من الذي أراد، وتفرّد أبو الفضل بالوزارة.

ذكر خروج عساكر خراسان وموت وشمكير

وفي هذه السنة جهّز الأمير منصور بن نوح صاحب خراسان وما وراء النهر الجيوش إلى الري.

وكان سبب ذلك أن أبا علي بن إلياس سار من كرمان إلى بخارى ملتجئاً إلى الأمير منصور، على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، فلما ورد عليه أكرمه وعظمه، فاطمعه في ممالك بني بُويه، وحسن له قصدها، وعرفه أن نوابه لا يناصحونه، وأنهم يأخذون الرشى من الديلم، فوافق ذلك ما كان يذكره له وشمكير، فكتب الأمير منصور وشمكير، والحسن بن الفيزان، يعرفهما ما عزم عليه

من قصد الرِّي، ويأمرهما بالتجهز لذلك ليسيرا مع عسكره.

ثم إنه جهز العساكر وسيَّرها مع صاحب جيوش خراسان، وهو أبو (٥٧٨/٨) الحسن محمد بن إبراهيم سيمجور الدواتي، وأمره بطاعة وشمكير، والانقياد له، والتصرف بأمره، وجعله مقدم الجيوش جميعها.

فلما بلغ الخبر إلى ركن الدولة أنه ما لم يكن في حسابه، وأخذه المقيم المقعد. وعلم أن الأمر قد بلغ الغاية، فسَيَّر أولاده وأهله إلى أصبهان، وكاتب ولده عضد الدولة يستمدّه، وكاتب ابن أخيه عز الدولة يختار يستنجده أيضاً.

فأما عضد الدولة فإنه جهز العساكر وسيَّرهم إلى طريق خراسان، وأظهر أنه يريد قصد خراسان لخلوها من العساكر، فبلغ الخبر أهل خراسان فأحجموا قليلاً، ثم ساروا حتى بلغوا الدامغان، وبرز ركن الدولة في عساكره من الري نحوهم، فاتفق موت وشمكير، فكان سبب موته أنه وصله من صاحب خراسان هدايا من جملةا خيل، فاستعرض الخيل، واختار أحدها وركبه للصيد، فعارضه خنزير قد رُمي بحربة، وهي ثابتة فيه، فحمل الخنزير على وشمكير، وهو غافل، فضرب الفرس، فشبَّ تحتها، فألقاه إلى الأرض وخرج الدم من أذنيه وأنفه، فحمل ميتاً، وذلك في المحرم من سنة سبع وخمسين [وثلاثمائة]، وانتقض جميع ما كانوا فيه وكفى الله ركن الدولة شرهم.

ولما مات وشمكير قام ابنه يستون مقامه، ورأسل ركن الدولة وصالحه، فأمدّه ركن الدولة بالمال والرجال.

ومن أعجب ما يُحكى مما يَرغب في حسن النية وكرم المقدرة أن وشمكير لما اجتمعت معه عساكر خراسان وسار كتب إلى ركن الدولة يتهده بضروب من الوعيد والتهديد، ويقول: والله لئن ظفرت بك لأفعلن بك ولأصنعن، بالفاظ قبيحة، فلم يتجاسر الكاتب أن يقرأه، فأخذه ركن الدولة (٥٧٩/٨) فقرأه وقال للكاتب: اكتب إليه: أما جمعلك وأحشائك فما كنت قط أهون منك علي الآن؛ وأما تهديك وإبعادك فوالله لئن ظفرت بك لأعاملنك بضده، ولأحسنن إليك ولأكرمك؛ فلقني وشمكير سوء نيته، ولقي ركن الدولة حُسن نيته.

وكان بطبرستان عدو لركن الدولة يقال له نوح بن نصر، شديد العداوة له، لا يزال يجمع له ويقصد أطراف بلاده، فمات الآن، وعصى عليه بهمدان إنسان يقال له أحمد بن هارون الهمداني لما رأى خروج عساكر خراسان، وأظهر العصيان، فلما أتاه خبر موت وشمكير مات لوقته، وكفى الله ركن الدولة هم الجميع.

ذكر القبض على ناصر الدولة بن حمدان

في هذه السنة قبض أبو تغلب بن ناصر الدولة على أبيه، وحبسه في القلعة، ليلة السبت لست بقين من جمادى الأولى.

وكان سبب قبضه أنه كان قد كبر وماءت أخلاقه، وضيق على أولاده وأصحابه، وخالفهم في أغراضهم للمصلحة، فضجروا منه.

وكان فيما خالفهم فيه أنه لما مات معز الدولة عزم أولاده على قصد العراق وأخذ من بختيار، فنهاهم وقال لهم: إن معز الدولة قد خلف مالا يستظهر به ابنه عليكم، فاصبروا حتى يفرق ما عنده من المال ثم اقصدوه وفرقوا (٥٨٠/٨) الأموال، فإنكم تظفرون به لا محالة؛ فوثب عليه أبو تغلب، فقبضه، ورفعاه إلى القلعة، ووكل به من يخدمه ويقوم بحاجاته وما يحتاج إليه.

فلما فعل ذلك خلفه بعض إخوته، وانتشر أمرهم الذي كان يجمعهم، وصار قصاراهم حفظ ما في أيديهم، واحتاج أبو تغلب إلى مداراة عز الدولة بختيار، وتجديد عقد الضمان ليجتنب بذلك على إخوته، ومن خلفه، فضمَّته البلاد بألف ألف ومائتي ألف درهم كل سنة.

ذكر من مات هذه السنة من الملوك

مات فيها وشمكير بن زيار، كما ذكرناه؛ ومعز الدولة، وقد ذكرناه؛ والحسن بن الفيزان، وكافور الإخشيدي، ونقفور ملك الروم، وأبو علي محمد بن إلياس صاحب كرمان، وسيف الدولة بن حمدان.

فأما سيف الدولة أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبي الربيعي فإنه مات بحلب في صفر، وحمل تابوته إلى ميفارقين فدفن بها، وكانت علته الفاليج، وقيل عُسر البول، وكان مولده في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثمائة، وكان جواداً، كريماً، شجاعاً، وأخباره مشهورة في ذلك، وكان يقول الشعر، فمن شعره في أخيه ناصر الدولة:

وهبت لك القاليا وقد كنت أهلاًها وقلت لهم يني وبين أخي فرق
وما كان بي عنها نُكْرٌ وإمسا تجاوزت عن حقي فتم لك الحق (٥٨١/٨)
أما كنت ترضى أن أكون مُصلياً إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق
وله أيضاً:

قد جرى في معي دمه فإلى كم أنت تظلمه
ردَّ عنه الطسرف منك قدس جرحسه منك أسهمه
كيف يسطيع التجلّد من خطرأت الوقم تولّعه

ولما توفي سيف الدولة ملك بلاده بعده ابنه أبو المعالي شريف.

وأما أبو علي بن إلياس فسيرد ذكر موته سنة سبع وخمسين [وثلاثمائة].

ذكر البيعة لمحمد بن المستكفي

في هذه السنة ظهر ببغداد، بين الخاص والعام، دعوة إلى رجل من أهل البيت، اسمه محمد بن عبد الله، وقيل إنه الدجال الذي وعد به رسول الله ﷺ وإنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجدد ما عفا من أمور الدين، فمن كان من أهل السنة قيل له: إنه عباسي، ومن كان من أهل الشيعة قيل له: إنه علوي، فكثرت الدعاة إليه، والبيعة له.

وكان الرجل بمصر، وقد أكرمه كافور الإخشيدي وأحسن إليه، وكان في جملة من بايع له سبكتكين العجمي، وهو من أكابر قواد معز الدولة، وكان يتشيع، فظنه علوياً، وكتب إليه يستدعيه من مصر، فسار إلى الأنبار، وخرج سبكتكين إلى طريق الفرات، وكان يتولى حمايته، فلقي ابن المستكفي، (٥٨٥/٨) وترجل له وخدمه وعاد إلى بغداد، وهو لا يشك في حصول الأمر له.

ثم ظهر لسبكتكين أن الرجل عباسي، فعاد عن ذلك الرأي، فظن ابن المستكفي وخاف هو وأصحابه، فهربوا وتفرقوا، فأخذ ابن المستكفي ومعه أخ له، وأحضرا عند بختيار، فأعطاهما الأمان، ثم إن المطيع تسلّمه من بختيار، فجدع أنفه، ثم خفي خبره.

ذكر امتلاء عضد الدولة على كرمان

في هذه السنة ملك عضد الدولة بلاد كرمان.

وكان سبب ذلك أن أبا علي بن إلياس كان صاحبها مدة طويلة، على ما ذكرناه، ثم إنه أصابه فالج خاف منه على نفسه، فجمع أكابر أولاده، وهم ثلاثة: إلياس وإلياس وسليمان، فاعتذر إلى إلياس من جفوة كانت منه له قديماً، وولاه الأمر، ثم بعده أخاه إلياس، وأمر سليمان بالعود إلى بلادهم، وهي بلاد الصغد، وأمره بأخذ أموال له هناك، وقصد إبعاده عن إلياس لعداوة كانت بينهما.

فسار من عند أبيه، واستولى على السرجان، فلما بلغ أباه ذلك أنفذ إليه إلياس في جيش، وأمره بمحاربه وإجلاله عن البلاد، ولم يمكنه من قصد الصغد إن طلب ذلك، فسار إليه، وحصره، واستظهر عليه، فلما رأى سليمان ذلك جمع أمواله وسار نحو خراسان، واستقر أمر إلياس بالسرجان وملكها وأمر ببنيتها، فنهب، فسأله القاضي وأعيان البلد العفو عنهم، فعفا. (٥٨٦/٨)

ثم إن جماعة من أصحاب والده خافوه، فسعوا به إلى أبيه، فقبض عليه وسجنه في قلعة له، فمشت والدته إلى والدة أخيه إلياس وقالت لها: إن صاحبنا قد فسخ ما كان عقده لولدي، وبعده يفعل بولدك مثله، ويخرج الملك عن آل إلياس، والرأي أن تساعدني على تخليص ولدي ليعود الأمر إلى ما كان عليه.

وكان والده أبو علي تأخذه غشية في بعض الأوقات، فيمكث

وأما كافور فإنه كان صاحب مصر، وكان من موالي الإخشيد محمد بن طُغج، واستولى على مصر ودمشق بعد موت الإخشيد لصغر أولاده، وكان خصياً أسود، وللمنتبي فيه مديح وهجو، وكان قصده إلى مصر، وخبره معه مشهور، ولما دُفِن كُتِبَ على قبره:

انظر إلى غَيْرِ الأيام ما صَنَعْتَ أَقْنَتْ أَناسُأَ بها كُتِبُوا وَقَدْ فُتِنَتْ دِيَارُهُمْ ضَجَّكَتْ أَيَّامُ دَوْلَتِهِمْ حَتَّى إِذَا اقْرَضُوا نَاحَتْ لَهُمْ وَبَكَتْ

وفيها توفي أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهاني الأموي، وهو من ولد محمد بن مروان بن الحكم الأموي، وكان شيعياً، (٥٨٢/٨) وهذا من العجب، وهو صاحب كتاب الأغاني وغيره.

وفيها توفي يوسف بن عمر بن أبي عمر القاضي، وكان مولده سنة خمس وثلاثمائة، وولي قضاء بغداد في حياة أبيه وبعده.

وفيها توفي أبو الحسن أحمد بن محمد بن سالم صاحب سهل التُستري رضي الله عنه. (٥٨٣/٨)

سنة سبع وخمسين وثلاثمائة

ذكر عصيان حبشي ابن معز الدولة على بختيار بالبصرة وأخذه قهراً في هذه السنة عصى حبشي بن معز الدولة على أخيه بختيار، وكان بالبصرة لما مات والده، فحسن له مَنْ عنده من أصحابه الاستبداد بالبصرة، وذكروا له أن أخاه بختيار لا يقدر على قصده، فشرع في ذلك، فأنتهى الخبر إلى أخيه، فسَيرَ وزيره أبا الفضل العباس بن الحسين إليه، وأمره بأخذه كيف أمكن، فأظهر الوزير أنه يريد الانحدار إلى الأهواز.

ولما بلغ واسط أقام بها ليصلح أمرها، وكتب إلى حبشي يبعده أنه يسلم إليه البصرة سلماً، ويصالحه عليها، ويقول له: إنني قد لزمني مال على الوزارة، ولا بد من مساعدتي، فأنفذ إليه حبشي مائتي ألف درهم، وتيقن حصول البصرة له، وأرسل الوزير إلى عسكر الأهواز يأمرهم بقصد الأبلّة في يوم ذكره لهم، وسار هو من واسط نحو البصرة، فوصلها هو وعسكر (٥٨٤/٨) الأهواز لميعادهم، فلم يتمكن حبشي من إصلاح شأنه وما يحتاج إليه، فظفروا به وأخذوه أسيراً وحبسوه براهنرْمُز، فأرسل عمه ركن الدولة وخلّصه فسار إلى عضد الدولة، فاقطعه إقطاعاً وافراً، وأقام عنده إلى أن مات في آخر سنة تسع وستين وثلاثمائة، وأخذ الوزير من أمواله بالبصرة شيئاً كثيراً، ومن جملة ما أخذ له خمسة عشر ألف مجلد سوى الأجزاء والمسرّس وما ليس له جلد.

زماناً طويلاً لا يعقل، فانفتحت المراتان وجمعتا الجواري في وقت غشيته، وأخرجن إليسع من حبسه ودليته من ظهر القلعة إلى الأرض، فكسر قيده، وقصد العسكر، فاستبشروا به وأطاعوه، وهرب منه من كان أفسد حاله مع أبيه، وأخذ بعضهم، ونجا بعضهم؛ وتقدم إلى القلعة ليحصرها.

فلما أفاق والده وعرف الصورة راسل ولده، وسأله أن يكف عنه ويؤمته على ماله وأهله حتى يسلم إليه القلعة وجميع أعمال كرمان، ويرحل إلى خراسان، ويكون عوناً له هناك، فأجابته إلى ذلك، وسلم إليه القلعة وكثيراً من المال، وأخذ معه ما أراد، وسار إلى خراسان وقصد بخارى، فأكرمه الأمير منصور بن نوح، وأحسن إليه وقربه منه، فحمل منصوراً على تجهيز العساكر إلى الري، وقصد بني بويه، على ما ذكرناه، وأقام عنده إلى أن توفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة بعلّة الفالج، على ما ذكرناه.

وكان ابنه سليمان ببخارى أيضاً، وأما إليسع فإنه صفت له كرمان، فحمله ترف الشباب وجهله على مغالبة عضد الدولة على بعض حدود عمله، وأتاه جماعة من أصحاب عضد الدولة وأحسن إليهم، ثم عاد بعضهم إلى عضد الدولة، فاتهم إليسع الباقين، فعاقبهم، ومثل بهم.

(٥٨٧/٨) ثم إن جماعة من أصحابه استامنوا إلى عضد الدولة، فأحسن إليهم وأكرمهم ووصلهم، فلما رأى أصحابه تباعد ما بين الحالين تألبوا عليه، وفارقوه متسللين إلى عضد الدولة، وأتاه منهم في دفعة واحدة نحو ألف رجل من وجوه أصحابه، فبقي فسي خاصته، وفارقه معظم عسكره.

فلما رأى ذلك أخذ أمواله وأهله وسار بهم نحو بخارى لا يلوي على شيء، وسار عضد الدولة إلى كرمان فاستولى عليها وملكها وأخذ ما بها من أموال آل إلياس، وكان ذلك في شهر رمضان، وأقطعها ولده أبا الفوارس، وهو الذي لقب بعد ذلك شرف الدولة، وملك العراق، واستخلف عليها كورتيكين بن جستان، وعاد إلى فارس ورأسه صاحب سجستان، وخطب له بها، وكان هذا أيضاً من الوهن على بني سامان ومما طرق الطمع فيهم.

وأما إليسع فإنه لما وصل إلى بخارى أكرمه وأحسن إليه، وصار يذم أهل سامان في قعودهم عن نصره، وإعادته إلى ملكه، فنفي عن بخارى إلى خوارزم.

ويبلغ أبا علي بن سيمجور خبره، فقصد ماله وأثقاله، وكان خلفها ببعض نواحي خراسان، فاستولى على ذلك جميعه، وأصاب إليسع رمد شديد بخوارزم، فألقته، فحمله الضجر وعدم السعادة إلى أن قلع عينه الرمدة بيده، وكان ذلك سبب هلاكه، ولم يعد لآل إلياس بكرمان دولة، وكان الذي أصابه لشؤم عصيان والده وثمرة

عُقُوقه. (٥٨٨/٨)

ذكر قتل أبي فراس بن حمدان

في هذه السنة، في ربيع الآخر، قُتل أبو فراس بن أبي العلاء سعيد بن حمدان.

وسبب ذلك أنه كان مقيماً بحمص، فجرى بينه وبين أبي المعالي بن سيف الدولة بن حمدان وحشة، فطلبه أبو المعالي، فانحاز أبو فراس إلى صدد، وهي قرية في طرف البرية عند حمص، فجمع أبو المعالي الأعراب من بني كلاب وغيرهم، وسيرهم في طلبه مع قرغويه، فأدركه بصدد، فكبسوه، فاستأمن أصحابه، واختلط هو بمن استأمن منهم، فقال قرغويه لغلام له: اقتله، فقتله وأخذ رأسه وتركته جثته في البرية، حتى دفنها بعض الأعراب.

وأبو فراس هو خال أبي المعالي بن سيف الدولة، ولقد صدق من قال: إنَّ الملك عقيم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، منتصف شعبان، مات المتقي لله إبراهيم بن المقتدر في داره، ودفن فيها. (٥٨٩/٨)

وفيهما، في ذي القعدة، وصلت سرية كثيرة من الروم إلى أنطاكية فقتلوا في سوادها وغنموا، وسبوا اثني عشر ألفاً من المسلمين.

وفيهما كان بين هبة الرُعفائي وبني أسد بن وزير الغُبيري حرب، فاستمدت أسد خزر يشكري الذي مع عمران بن شاهين، صاحب البطائح، وأوقع بهيمة، وقتل من أصحابه مقتل عظيمة وهزمه، واستولى على جُبَيْلا وقُتْسَيْن من أرض العراق، فسار سبكتكين العجمي إلى خزر، وضيق عليه، فمضى إلى البصرة واستأمن إلى الوزير أبي الفضل.

وفيهما عمل أهل بغداد يوم عاشوراء وغدير خم، كما جرت به عادتهم من إظهار الحزن يوم عاشوراء، والسرور يوم الغدير؛ وتوفي علي بن بتدار ابن الحسين أبو الحسن الصوفي المعروف بالصيرفي النيسابوري. (٥٩٠/٨)

سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة

ذكر ملك المعز العلوي بمصر

في هذه السنة سَير المعز لدين الله أبو تميم معد بن إسماعيل المنصور بالله القائد أبا الحسن جوهرًا، غلام والده المنصور، وهو رومي، في جيش كثيف إلى الديار المصرية، فاستولى عليها.

وكان سبب ذلك أنه لما مات كافور الإخشيدي، صاحب

فدخل الشريف الجعفري، وكان خرج من البلد إلى جعفر بن فلاح في الصلح، فأعاده وأمره بتسكين الناس وتطبيب قلوبهم، ووعدهم بالجميل، ففعل ما أمره، وتقدم إلى الجند العامة بسلامهم، وأن لا يخرجوا منها إلى أن يدخل جعفر بن فلاح البلد ويطوف فيه ويعود إلى عسكره، ففعلوا ذلك.

فلما دخل المغاربة البلد عاثوا فيه، ونهبوا قُطراً منه، فثار الناس، وحملوا عليهم، ووضعوا السيف فيهم، فقتلوا منهم جماعة، وشرعوا في تحصين البلد وحفر الخنادق، وعزموا على اصطلاء الحرب، وبذل النفوس في الحفظ، وأحجمت المغاربة عنهم، ومشى الناس إلى الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى، فطلبوا منه أن يسعى فيما يعود بصلاح الحال، ففعل، ودبر الحال إلى أن تقرّر الصلح يوم الخميس لست عشرة خلت من ذي الحجة سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وكان الحريق قد أتى على عدة كثيرة من الدور وقت الحرب.

ودخل صاحب الشرطة جعفر بن فلاح البلد يوم الجمعة فصلى مع الناس وسكنهم وطب قلوبهم، وقبض على جماعة من الأحداث في المحرم سنة ستين وثلاثمائة، وقبض على الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى الهاشمي المذكور، وسيره إلى مصر، واستقر أمر دمشق.

وكان ينبغي أن يؤخر ملك ابن فلاح دمشق إلى آخر السنة، وإنما قدمته ليتصل خبر المغاربة بعضه ببعض. (٥٩٣/٨)

ذكر اختلاف أولاد ناصر الدولة وموت أبيهم

كان سبب اختلاف أولاد ناصر الدولة أنه كان قد أقطع ولده حمدان مدينة الرجة وماردين وغيرهما، وكان أبو تغلب وأبو البركات وأختهما جميلة أولاد ناصر الدولة من زوجته فاطمة بنت أحمد الكرديّة، وكانت مالكة أمر ناصر الدولة، فانفقت مع ابنها أبي تغلب، وقبضوا على ناصر الدولة، على ما ذكرناه، فابتدأ ناصر الدولة يدبّر في القبض عليهم، فكتب ابنه حمدان يستدعيه ليتقوى به عليهم، فظفر أولاده بالكتاب، فلم ينفذوه، وخافوا أباهم وحذرهم، فحملهم خوفاً على نقله إلى قلعة كواشي.

واتصل ذلك بحمدان، فعظم عليه، وصار عدواً مبيناً، وكان أشجعهم، وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة من الرجة إلى الرقة فملكها، وسار إلى نصيبين وجمع من أطاعه، وطالب إخوته بالإفراج عن والده وإعادته إلى منزله، فسار أبو تغلب إليه ليحاربه، فانهزم حمدان قبل اللقاء إلى الرقة، فتنازله أبو تغلب وحصره ثم اصطالحا على دخن وعاد كل واحد منهما إلى موضعه.

وعاش ناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله بن

مصر، اختلفت القلوب فيها، ووقع بها غلاء شديد، حتى بلغ الخبز كل رطل بدرهمين، والحنطة كل وبة بدينار وسُدس مصري، فلما بلغ الخبر بهذه الأحوال إلى المعز، وهو بإفريقية، سبر جوهراً إليها، فلما اتصل خبر مسيره إلى العساكر الإخشيدية بمصر هربوا عنها جميعهم قبل وصوله.

ثم إنه قدما سابع عشر شعبان، وأقيمت الدعوة للمعز بمصر في الجامع العتيق في شوال، وكان الخطيب أبا محمد عبد الله بن الحسين الشمشاطي.

وفي جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين [وثلاثمائة] سار جوهراً إلى جامع ابن طولون، وأمر المؤذن فأذن بحي على خير العمل، وهو أول ما أذن بمصر، ثم أذن بعده في الجامع العتيق، وجهر في الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم، ولما استقر جوهراً بمصر شرع في بناء القاهرة. (٥٩١/٨)

ذكر ملك عسكر المعز دمشق وغيرها من بلاد الشام

لما استقر جوهراً بمصر، وثبت قدمه، سبر جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام في جمع كبير، فبلغ الرملة، وبها أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طُغج، فقاتله في ذي الحجة من السنة، وجرت بينهما حروب كان الظفر فيها لجعفر ابن فلاح، وأسر ابن طُغج وغيره من القواد فسبّروهم إلى جوهراً، وسبّروهم جوهراً إلى المعز بإفريقية، ودخل ابن فلاح البلد عنوة، فقتل كثيراً من أهله، ثم أمّن من بقي، وجبى الخراج وسار إلى طبرية، فرأى ابن ملهم قد أقام الدعوة للمعز لدين الله، فسار عنها إلى دمشق، فقاتله أهلها، فظفر بهم وملك البلد، ونهب بعضه وكف عن الباقي، وأقام الخطبة للمعز يوم الجمعة لأيام خلّت من المحرم سنة تسع وخمسين [وثلاثمائة] وقُطعت الخطبة العباسية.

وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي، وكان جليل القدر، نافذ الحكم في أهلها، فجمع أحداثها ومن يريد الفتنة، فثار بهم في الجمعة الثانية، وأبطل الخطبة للمعز لدين الله وأعاد خطبة المطيع لله، ولبس السواد وعاد إلى داره، فقاتله جعفر بن فلاح ومن معه قتالاً شديداً، وصبر أهل دمشق، ثم افترقوا آخر النهار، فلما كان الغد تزاحف الفريقان واقتتلوا ونشبت الحرب بينهما، وكثر القتلى من الجانبين ودام القتال، فعاد عسكر دمشق منهزمين والشريف ابن أبي يعلى مقيم على باب البلد يحرض الناس على القتال، ويأمرهم بالصبر.

وواصل المغاربة الحملات على الدماشقة حتى الجؤوهم إلى باب البلد، ووصل المغاربة إلى قصر حجاج، ونهبوا ما وجدوا، فلما رأى ابن أبي يعلى (٥٩٢/٨) الهاشمي والأحداث ما لقي الناس من المغاربة خرجوا من البلد ليلاً، فأصبح الناس حيارى،

فلما قبض عليه سار إبراهيم والحسين ابنا ناصر الدولة إلى أخيهما حمدان، خوفاً من أبي تغلب، فاجتمعا معه، وساروا إلى سنجار، فسار أبو تغلب إليهم من الموصل في شهر رمضان سنة ستين وثلاثمائة، ولم يكن لهم بلفاته طاقة، فراسله أخواه إبراهيم والحسين يطلبان العود إليه خديعة منهما ليؤمنهما ويفتكا به، فأجابهما إلى ذلك، فهربا إليه، وتبعهما كثير من أصحاب حمدان، فعاد حمدان حيثن من سنجار إلى عريان، واستأمن إلى أبي تغلب، صاحب حمدان، وأطلعته على حيلة أخويه عليه، وهما إبراهيم والحسين، فأراد القبض عليهما، فحذرا وهربا.

ثم إن نما غلام حمدان ونائبه بالرحبة أخذ جميع ماله بها وهرب إلى أصحاب أبي تغلب بحرآن، وكانوا منع صاحبه سلامة البرقعدي، فاضطر حمدان إلى العود إلى الرحبة، وسار أبو تغلب إلى قرقيسيا، وأرسل سرية عبروا الفرات (٥٩٦/٨) وكبسوا حمدان بالرحبة، وهو لا يشعر، فنجأ هارباً، واستولى أبو تغلب عليها، وعمر سورها، وعاد إلى الموصل، ودخلها في ذي الحجة سنة ستين وثلاثمائة.

وسار حمدان إلى بغداد، فدخلها آخر ذي الحجة سنة ستين [وثلاثمائة] ملتجئاً إلى بختيار ومعه أخوه إبراهيم، وكان أخوهما الحسين قد عاد إلى أخيه أبي تغلب مستأناً، وحمل بختيار إلى حمدان وأخيه إبراهيم هدايا جلييلة كثيرة المقدار، وأكرمهما واحترمهما.

ذكر ما فعله الروم بالشام والجزيرة

وفي هذه السنة دخل ملك الروم الشام، ولم يمنعه أحد، ولا قاتله، فسار في البلاد إلى طرابلس، وأحرق بلدها، وحصر قلعة عرقة، فملكها ونهبها وسبى من فيها.

وكان صاحب طرابلس قد أخرجه أهلها لشدة ظلمه، فقصده عرقة، فأخذه الروم وجميع ماله، وكان كثيراً.

وقصد ملك الروم حمص، وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها، فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهياً وتخريباً، وملك ثمانية عشر منيراً، فأما القرى فكثير لا يحصى، وأقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء، ويخرب ما شاء، ولا يمنعه أحد إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم، فأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا (٥٩٧/٨) المسلمين من العرب وغيرهم، فامتعت العرب من قصدهم، وصار للروم الهيبة العظيمة في قلوب المسلمين، فأراد أن يحضر أنطاكية وحلب، فبلغه أن أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه، فامتنع من ذلك وعاد ومعه من السبي نحو مائة ألف رأس، ولم يأخذ إلا الصبيان، والصبايا، والشبان، فأما الكهول، والشيوخ، والعجائز،

حمدان بن حمدون التغلبي شهوراً، ومات في ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ودفن بتل توبة، شرقي الموصل، وقبض أبو تغلب أملاك أخيه حمدان، وسير أخاه (٥٩٤/٨) أبا البركات إلى حمدان، فلما قرب من الرحبة استأمن إليه كثير من أصحاب حمدان، فانهزم حيثن، وقصد العراق مستأناً إلى بختيار، فوصل بغداد في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فأكرمه بختيار وعظمه، وحمل إليه هدية كثيرة جلييلة المقدار، ومعه كل ما يحتاج إليه مثله، وأرسل إلى أبي تغلب القيقب أبا أحمد الموسري والد الشريف الرضي في الصلح مع أخيه، فاصطلحا، وعاد حمدان إلى الرحبة، وكان مسيره من بغداد في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

فلما سمع أبو البركات بمسير أخيه حمدان على هذه الصورة فارق الرحبة، ودخلها حمدان، وراسله أخوه أبو تغلب في الاجتماع به، فامتنع من ذلك، فعاد أبو تغلب وسير إليه أخاه أبا البركات، فلما علم حمدان بذلك فارقها، فاستولى أبو البركات عليها، واستأنت بها من يحفظها في طائفة من الجيش، وعاد إلى الرقة ثم منها إلى عريان.

فلما سمع حمدان بعوده عنها، وكان بيرة تدمر، عاد إليها في شعبان، فوافاها ليلاً، فأصعد جماعة من غلمانه السور، وفتحوا له باب البلد فدخله، ولا يعلم من به من الجند بذلك، فلما صار في البلد وأصبح أمر بضرب البوق، فبادر من بالرحبة من الجند منقطعين يظنون أن صوت البوق من خارج البلد، وكل من وصل إلى حمدان أسره، حتى أخذهم جميعهم، فقتل بعضاً واستبقى بعضاً، فلما سمع أبو البركات بذلك عاد إلى قرقيسيا، واجتمع هو وأخوه حمدان منفردين، فلم يستقر بينهما قاعدة، فقال أبو البركات لحمدان: أنا أعود إلى عريان، وأرسل إلى أبي تغلب لعله يجيب إلى ما تلتسمه منه.

(٥٩٥/٨) فسار عائداً إلى عريان، وعبر حمدان الفرات من مخاضة بها، وسار في أثر أخيه أبي البركات، فأدركه بعريان وهو آمن، فلقىهم أبو البركات بغير جنة ولا سلاح، فقاتلهم، واشتد القتال بينهم، وحمل أبو البركات بنفسه في وسطهم، فضره أخوه حمدان فألقاه وأخذه أسيراً، فمات من يومه، وهو ثالث رمضان، فحمل في تابوت إلى الموصل، ودفن بتل توبة عند أبيه.

وتجهز أبو تغلب ليسير إلى حمدان، وقدم بين يديه أخاه أبا الفوارس محمداً إلى نصيبين، فلما وصلها كاتب أخاه حمدان ومالاً على أبي تغلب، فبلغ الخبر أبا تغلب، فأرسل إليه يستدعيه ليزيد في إقطاعه، فلما حضر عنده قبض عليه وسيره إلى قلعة كواشي، من بلد الموصل، فأخذ أمواله، وكانت قيمتها خمسمائة ألف دينار.

فمنهم من قتله، ومنهم من أطلقه.

وكان بحلب قرغويه، غلام سيف الدولة بن حمدان، وقد أخرج أبا المعالي بن سيف الدولة منها، على ما نذكره، فصانع الروم عليها، فعادوا إلى بلادهم، فقبل كان سبب عودهم كثرة الأمراض والموت، وقيل ضجروا من طول السفر والغيبة عن بلادهم؛ فعادوا على عزم العود.

وسير ملك الروم سرية كثيرة إلى الجزيرة، فبلغوا كفروتوثا، ونهبوا وسبوا وأحرقوا وعادوا، ولم يكن من أبي تغلب بن حمدان في ذلك نكير ولا أثر.

ذكر استيلاء قرغويه على حلب وإخراج أبي المعالي بن حمدان منها

في هذه السنة أيضاً استولى قرغويه غلام سيف الدولة بن حمدان على حلب، وأخرج منها أبا المعالي شريف بن سيف الدولة بن حمدان، فسار أبو (٥٩٨/٨) المعالي إلى حران، فمنعه أهلها من الدخول إليهم، فطلب منهم أن يأذنوا لأصحابه أن يدخلوا فيتزودوا منها يومين فأذنوا لهم، ودخل إلى والدته بميفارقين، وهي ابنة سعيد بن حمدان، وتفرق عنه أكثر أصحابه ومضوا إلى أبي تغلب بن حمدان.

فلما وصل إلى والدته بلغها أن غلمانها وكتابه قد عملوا على القبض عليها وحبسها، كما فعل أبو تغلب بأبيه ناصر الدولة، فأغلقت أبواب المدينة ومنعت ابنها من دخولها ثلاثة أيام، حتى أبعدت من تحب إبعاده، واستوثقت لنفسها، وأذنت له وللمن بقي معه في دخول البلد، وأطلقت لهم الأرزاق، وبقيت حران الأمير عليها، ولكن الخطبة فيها لأبي المعالي بن سيف الدولة، وفيها جماعة من مقدمي أهلها يحكمون فيها، ويصلحون من أمور الناس.

ثم إن أبا المعالي عبر الفرات إلى الشام، وقصد حماة فأقام بها، على ما نذكره سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

ذكر خروج أبي خزر يافريقية

في هذه السنة خرج يافريقية أبو خزر الزناتي، واجتمع إليه جموع عظيمة من البربر والكنار، فخرج المعز إليه بنفسه يريد قتاله، حتى بلغ مدينة باغاية، وكان أبو خزر قريباً منها، وهو يقاتل نائب المعز عليها، فلما سمع أبو خزر بقرب المعز تفرقت عنه جموعه، وسار المعز في طلبه، فسلك الأوعار، فعاد المعز وأمر أبا الفتوح يوسف بلقين بن زيري بالمسير في طلبه (٥٩٩/٨) أين سلك، فسار في إثره حتى خفي عليه خبره، ووصل المعز إلى مستقره بالمنصورة.

فلما كان ربيع الآخر من سنة تسع وخمسين [وثلاثمائة] وصل

أبو خزر الخارجي إلى المعز مستأثماً، ويطلب الدخول في طاعته، فقبل منه المعز ذلك وفرح به، وأجرى عليه رزقاً كثيراً.

ووصله، عقيب هذه الحال، كتب جوهر بإقامة الدعوة له في مصر والشام، ويدعوه إلى المسير إليه، ففرح المعز فرحاً شديداً أظهره للناس كافة ومدحه الشعراء، فممن ذكر ذلك محمد بن هاني الأندلسي، فقال:

يقول بنو العباس: قد فتحت مصرُ قتل لبني العباس: قد قضى الأمر

ذكر قصد أبي البركات بن حمدان ميفارقين وانهزامه

في هذه السنة، في ذي القعدة، سار أبو البركات بن ناصر الدولة بن حمدان في عسكره إلى ميفارقين، فأغلقت زوجة سيف الدولة أبواب البلد في وجهه، ومنعته من دخوله، فأرسل إليها يقول: إنني ما قصدت إلا الغزاة؛ ويطلب منها ما يستعين به، فاستقر بينهما أن تحمل إليه مائتي ألف درهم، وتسلم إليه قرايا كانت لسيف الدولة بالقرب من نصيبين.

ثم ظهر لها أنه يعمل سراً في دخول البلد، فأرسلت إلى من معه من غلمان سيف الدولة تقول لهم: ما من حق مولاكم أن تفعلوا بحرمه وأولاده هذا؛ (٦٠٠/٨) فتكلموا عن القتال والقصد لها، ثم جمعت رجالة وكبست أبا البركات ليلاً، فانهزم ونهب سواده وعسكره، وقتل جماعة من أصحابه وغلمانها، فراسلها: إنني لم أقصد لسوء؛ فردت رداً جميلاً، وأعادت إليه بعض ما نهب منه، وحملت إليه مائة ألف درهم، وأطلقت الأسرى، فعاد عنها.

وكان ابنها أبو المعالي بن سيف الدولة على حلب يقاتل قرغويه غلام أبيه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، عاشر المحرم، عمل أهل بغداد ما قد صار لهم عادة من إغلاق الأسواق، وتعطيل المعاش، وإظهار النوح والمأتم، بسبب الحسين بن علي، وضوان الله عليهما.

وفيها أرسل القرامطة رسلاً إلى بني نمير وغيرهم من العرب يدعونهم إلى طاعتهم، فأجابوا إلى ذلك، وأخذت عليهم الأيمان بالطاعة، وأرسل أبو تغلب بن حمدان إلى القرامطة بهجر هدايا جميلة قيمتها خمسون ألف درهم.

وفيها طلب سابور بن أبي طاهر القرمطي من أعمامه أن يسلموا الأمر إليه والعيش، وذكر أن أباه عهد إليه بذلك، فحسوه في داره، ووكّلوا به، ثم أخرج ميتاً في نصف رمضان، فدفن ومنع أهله من البكاء عليه، ثم أذن لهم بعد أسبوع أن يعملوا ما يريدون.

(٦٠١/٨)

وفيها، ليلة الخميس رابع عشر رجب، انخسف القمر جميعه،

وغاب منخسفاً.

وفيها، في شعبان، وقعت حرب بين أبي عبد الله بن الداعي العلوي وبين علوي آخر يُعرف بأميرك، وهو أبو جعفر الشائر في الله، قُتل فيها خلق كثير من الديلم والجيل، وأسر أبو عبد الله بن الداعي، وسُجن في قلعة، ثم أطلق في المحرم سنة تسع وخمسين [وثلاثمائة] وعاد إلى رئاسته، وصار أبو جعفر صاحب جيشه.

وفيها قبض بختيار على وزيره أبي الفضل العباس بن الحسين، وعلى جميع أصحابه، وقبض أموالهم وأملأهم، واستوزر أبا الفرج محمد بن العباس، ثم عزل أبا الفرج وأعاد أبا الفضل.

وفيها اشتد الغلاء بالعراق، واضطراب الناس، فسعر السلطان الطعام، فاشتد البلاء، فدعته الضرورة إلى إزالة التسعير، فسهل الأمر، وخرج الناس من العراق إلى الموصل والشام وخراسان من الغلاء.

وفيها نُفي شيرزاد، وكان قد غلب على أمر بختيار، وصار يحكم على الوزير والجند وغيرهم، فأوحش الأجناد، وعزم الأتراك على قتله، فمنعهم سبكتكين وقال لهم: خوفوه ليهرب؛ فهرب من بغداد، وعهد إلى بختيار ليحفظ ماله وملكه، فلما سار عن بغداد قبض بختيار أمواله وأملاكه ودوره وكان هذا مما يعاب به بختيار.

ثم إن شيرزاد سار إلى ركن الدولة ليصلح أمره مع بختيار، فتوفي بالرّي عند وصوله إليها.

(٦٠٢/٨) وفيها توفي عبيد الله بن أحمد بن محمد أبو الفتح النحوي، المعروف بجخجخ.

وفيها مات عيسى الطيب الذي كان طيبب القاهرة بالله، والحاكم في دولته، وكان قد عمي قبل موته بستين، وكان مولده سنة إحدى وسبعين ومائتين. (٦٠٣/٨)

سنة تسع وخمسين وثلاثمائة

ذكر ملك الروم مدينة أنطاكية

في هذه السنة، في المحرم، ملك الروم مدينة أنطاكية.

وسبب ذلك أنهم حصروا حصناً بالقرب من أنطاكية يقال له حصن لوقا، وأنهم وافقوا أهله، وهم نصارى، على أن يرتحلوا منه إلى أنطاكية، ويظهروا أنهم إنما انتقلوا منه خوفاً من الروم، فإذا صاروا بأنطاكية أعانواهم على فتحها، وانصرف الروم عنهم بعد موافقتهم على ذلك، وانتقل أهل الحصن ونزلوا بأنطاكية بالقرب من الجبل الذي بها.

فلما كان بعد انتقالهم بشهرين وافى الروم مع أخي تقفور

الملك، وكانوا نحو أربعين ألف رجل، فأحاطوا بسور أنطاكية، وصعدوا الجبل إلى الناحية التي بها أهل حصن لوقا، فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا تلك الناحية طرحوا أنفسهم من السور، وملك الروم البلد، ووضعوا في أهله السيف، ثم أخرجوا المشايخ، والعجائز، والأطفال من البلد، وقالوا لهم: اذهبوا حيث شئتم؛ فآخذوا الشباب من الرجال، والنساء، والصبيان، والصبايا، فحملوهم إلى بلاد الروم سيئاً، وكانوا يزيدون على عشرين ألف إنسان، وكان حصرهم له في ذي الحجة. (٦٠٤/٨)

ذكر ملك الروم مدينة حلب وعودهم عنها

لما ملك الروم أنطاكية أنفذوا جيشاً كثيفاً إلى حلب، وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة محاصراً لها، وبها قرغويه السيفي متغلباً عليها. فلما سمع أبو المعالي خبرهم فارق حلب وقصد البرية ليعده عنهم، وحصروا البلد، وفيه قرغويه وأهل البلد قد تحصنوا بالقلعة، فملك الروم المدينة، وحصروا القلعة، فخرج إليهم جماعة من أهل حلب، وتوسطوا بينهم وبين قرغويه، وترددت الرسل، فاستقر الأمر بينهم على هدنة مؤبدة على مال يحمله قرغويه إليهم، وأن يكون للروم إذا أرادوا الغزاة أن لا يمكن قرغويه أهل القرايا من الجلاء عنها لبيتاع الروم ما يحتاجون إليه منها.

وكان مع حلب حماة، وحمص، وكفرطاب، والمعرّة، وأفامية، وشيزر، وما بين ذلك من الحصون والقرايا، وسلموا الرهائن إلى الروم، وعادوا عن حلب وتسلمها المسلمون.

ذكر ملك الروم ملازكرد

وفيها أرسل ملك الروم جيشاً إلى ملازكرد من أعمال أرمينية، فحاصروها، وضيقوا على من بها من المسلمين، وملكوها عنوة وقهراً، وعظمت شوكتهم، (٦٠٥/٨) وخافهم المسلمون في أقطار البلاد، وصارت كلها سائبة لا تمتنع عليهم يقصدون أيها شأؤوا.

ذكر مسير ابن العميد إلى حسنويه

وفي هذه السنة جهّز ركن الدولة وزيره أبا الفضل بن العميد في جيش كثيف، وسيرهم إلى بلد حسنويه.

وكان سبب ذلك أن حسنويه بن الحسين الكردي كان قد قوي واستفحل أمره لاشتغال ركن الدولة بما هو أهم منه، ولأنه كان يعين الديلم على جيوش خراسان إذا قصدتهم، فكان ركن الدولة يراعيه لذلك، ويغضي على ما يبدو منه؛ وكان يتعرّض إلى القوافل وغيرها بخفارة، فبلغ ذلك ركن الدولة، فسكت عنه.

فلما كان الآن وقع بينه وبين سهلان بن مسافر خلاف أدى إلى أن قصده سهلان وحاربه، وهزمه حسنويه، فأنحاز هو وأصحابه إلى

فلما ملك تزوج امرأة الملك المقتول على كره منها، وكان لها من الملك المقتول ابنان، وجعل تقفّر همتّه قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها، وتمّ له ما أراد باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض، فدلّج البلاد، وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد فنيهه ويخرّب، فيضعف البلاد فيملكها، وغلب على الثغور الجزرية والشامية وسبى، وأسر ما يخرج عن الحصر، وهابه المسلمون هبة عظيمة، ولم يشكّوا في أنه يملك جميع الشام، ومصر، والجزيرة وديار بكر لخلو الجميع من مانع.

فلما استفحل أمره أناه أمر الله من حيث لم يحتسب، وذلك أنه عزم على أن يخصي ابني الملك المقتول لينقطع نسلهما، ولا يعارض أحد أولاده في الملك، فلما علمت أمهما ذلك قلقت منه، واحتالت على قتله، فأرسلت إلى ابن (٦٠٨/٨) الشمشقيق، وهو الدُمستق حيثنذ، ووافقته على أن يصير إليها في زي النساء ومعه جماعة، وقالت لزوجها إن نسوة من أهلها قد زاروها، فلما صار إليها هو ومن معه جعلتهم في بيعة تتصل بدار الملك، وكان ابن الشمشقيق شديد الخوف منه لعظم هيئته، فاستجاب للمرأة إلى ما دعت إليه، فلما كان ليلة الميلاد من هذه السنة نام تقفّر، واستنقل في نومه، ففتحت امرأته الباب ودخلوا إليه فقتلوه، وثار بهم جماعة من أهله وخاصته، فقتل منهم نيف وسبعون رجلاً، وأجلس في الملك الأكبر من ولدي الملك المقتول، وصار المدبّر له ابن الشمشقيق، ويقال إن تقفّر ما بات قط إلا بسلاح إلا تلك الليلة لما يريده الله تعالى من قتله وفناء أجله.

ذكر ملك أبي تغلب مدينة حرّان

في هذه السنة، في الثاني والعشرين من جمادى الأولى، سار أبو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان إلى حرّان، فرأى أهلها قد أغلقوا أبوابها، وامتنعوا منه، فنازلهم وحصرهم، فرعى أصحابه زروع تلك الأعمال، وكان الغلاء في العسكر كثيراً، فبقي كذلك إلى ثالث عشر جمادى الآخرة، فخرج إليه نفران من أعيان أهلها ليلاً وصالحاه، وأخذوا الأمان لأهل البلد وعادوا.

فلما أصبحا أعلما أهل حرّان ما فعلاه، فاضطربوا، وحملوا السلاح (٦٠٩/٨) وأرادوا قتلها، فسكنهم بعض أهلها، فسكنوا، واتفقوا على إتمام الصلح، وخرجوا جميعهم إلى أبي تغلب، وفتحوا أبواب البلد ودخله أبو تغلب وإخوته وجماعة من أصحابه، وصلّوا به الجمعة، وخرجوا إلى معسكرهم، واستعمل عليهم سلامة البرقعدي لأنه طلبه أهله لحسن سيرته، وكان إليه أيضاً عمل الرقة، وهو من أكابر أصحاب بني حمدان، وعاد أبو تغلب إلى الموصل ومعه جماعة من أحداث حرّان، وسبب سرعة عوده أن بني نمير عاثوا في بلد الموصل، وقتلوا العامل ببرقعدي، فعاد

مكان اجتمعوا فيه، فقصدهم حسنويه وحصرهم فيه، ثم إنه جمع من الشوك والنبات وغيره شيئاً كثيراً، وفرّقه في نواحي أصحاب سهلان وألقى فيه النار، وكان الزمان صيفاً، فاشتد عليهم الأمر حتى كادوا يهلكون، فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان فآمنهم، فأخذهم عن آخرهم.

وبلغ ذلك ركن الدولة فلم يحتمله له، فحيثنذ أمر ابن العميد بالمسير إليه، فتجهّز وسار في المحرم ومعه ولده أبو الفتح، وكان شاباً مرحاً، قد أبطره (٦٠٦/٨) الشباب والأمر والنهي، وكان يظهر منه ما يغضب بسببه والده، وازدادت علته، وكان به يقترس وغيره من الأمراض فلما وصل إلى همدان توفي بها، وقام ولده مقامه، فصالح حسنويه على مال أخذه منه، وعاد إلى الري إلى خدمة ركن الدولة.

وكان والده يقول عند موته: ما قتلني إلا ولدي، وما أخاف على بيت العميد أن يخرّب ويهلكوا إلا منه. فكان على ما ظن.

وكان أبو الفضل بن العميد من محاسن الدنيا قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حسن التدبير، وسياسة الملك، والكتابة التي أتى فيها بكل بدیع.

وكان عالماً في عدة فنون منها الأدب، فإنه كان من العلماء به، ومنها حفظ أشعار العرب، فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله: ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها مع سلامة اعتقاد، إلى غير ذلك من الفضائل، ومع حسن خلق، ولين عشرة مع أصحابه وجلسائه، وشجاعة تامة، ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات، وبه تخرج عضد الدولة، ومنه تعلم سياسة الملك، ومجبة العلم والعلماء، وكان عمر ابن العميد قد زاد على ستين سنة يسيراً، وكانت وزارته أربعاً وعشرين سنة.

ذكر قتل تقفّر ملك الروم

في هذه السنة قُتل تقفّر ملك الروم، ولم يكن من أهل بيت المملكة، وإنما كان دُستقاً، والدُمستق عندهم الذي كان يلي بلاد الروم التي هي شرقي خليج (٦٠٧/٨) القسطنطينية، وأكثرها اليوم بيد أولاد فلج أرسلان، وكان كل من يليها يلقب بالدُمستق، وكان تقفّر هذا شديداً على المسلمين، وهو الذي أخذ حلب أيام سيف الدولة فعظم شأنه عند الروم، وهو أيضاً الذي فتح طرسوس والمصيصة، وأذنة، وعين زربة، وغيرها.

ولم يكن نصراني الأصل، وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يُعرف بابن القفاس تنصّر، وكان ابنه هذا شهماً، شجاعاً، حسن التدبير لما يتولاه، فلما عظم أمره وقوي شأنه قتل الملك الذي كان قبله، وملك الروم بعده، وقد ذكرنا هذا جميعه.

إليهم ليكفهم.

ذكر قتل سليمان بن أبي علي بن إلياس

في هذه السنة قُتل سليمان بن أبي علي بن إلياس الذي كان والده صاحب كُorman.

وسبب ذلك أنه ذكر للأمير منصور بن نوح صاحب خراسان أن أهل كُorman من القُصص والبلوص معه وفي طاعته، وأطمعه في كُorman، فسَير معه عسكرياً إليها، فلما وصل إليها وافقه القُصص والبلوص وغيرهما من الأسم المارقة لطاعة عضد الدولة، فاستفحل أمره، وعظم جمعه، فلقبه كوركير ابن جستان، خليفة عضد الدولة بكُorman، وحاربه، فقتل سليمان وابنا أخيه إليسع، وهما بكر والحسين، وعدد كثير من القواد والخراسانية، وحملت رؤوسهم إلى عضد الدولة بشيراز، فسَيرها إلى أبيه ركن الدولة، فاخذ منهم جماعة كثيرة أسرى. (٦١٠/٨)

ذكر الفتنة بصقلية

وفي هذه السنة استعمل المعز لدين الله الخليفة العلوي، على جزيرة صقلية، يعيش مولى الحسن بن علي بن أبي الحسين، فجمع القبائل في دار الصناعة، فوقع الشر بين موالى كتامة والقبائل، فاقتتلوا، فقتل من موالى كتامة كثير، وقتل من الموالى بناحية سرقوسة جماعة.

وازداد الشر بينهم، وتمكنت العداوة، وسعى يعيش في الصلح، فلم يوافقوه، وتناول أهل الشر من كل ناحية، ونهبوا وأفسدوا، واستطالوا على أهل المراعي، واستطالوا على أهل القلاع المستأنمة، فبلغ الخبر إلى المعز، فعزل يعيش، واستعمل أبا القاسم بن الحسن بن علي بن أبي الحسين نياية عن أخيه أحمد، فسار إليها، فلما وصل فرح به الناس، وزال الشر من بينهم، واتفقوا على طاعته.

ذكر حصر عمران بن شاهين

في هذه السنة، في شوال، انحدر بختيار إلى البطيحة لمحاصرة عمران بن شاهين، فأقام بواسط يتصيد شهراً، ثم أمر وزيره أبا الفضل أن يتحدر إلى الجامدة، وطفوف البطيحة، وبنى أمره على أن يسد أفواه الأنهار ومجاري المياه إلى البطيحة، ويرفعها إلى دجلة والفاروث، وربع طير، فبنى المستنبات التي يمكن (٦١١/٨) السلوك عليها إلى العراق، فطالت الأيام، وزادت دجلة فخريت ما عملوه.

وانتقل عمران إلى معقل آخر من معاقل البطيحة، ونقل كل ماله إليه، فلما نقصت المياه، واستقامت الطرق، وجدوا مكان عمران بن شاهين فارغاً، فطالت الأيام، وضجر الناس من المقام،

وكرهوا تلك الأرض من الحر، والبق، والضفادع، وانقطع المواد التي ألفوها، وشغب الجند على الوزير، وشتموه، وأبوا أن يقيموا، فاضطر بختيار إلى مصالحة عمران على مال يأخذه منه.

وكان عمران قد خافه في الأول، وبذل له خمسة آلاف الف درهم، فلما رأى اضطراب أمر بختيار بذل ألفي الف درهم في نجوم، ولم يسلم إليهم رهاثن، ولا حلف لهم على تأدية المال، ولما رحل العسكر تخطف عمران أطراف الناس فغنم منهم، وفسد عسكر بختيار، وزالت عنهم الطاعة والهيبة، ووصل بختيار إلى بغداد في رجب سنة إحدى وستين وثلاثمائة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، اصطلع قرغويه، غلام سيف الدولة ابن حمدان، وأبو المعالي بن سيف الدولة، وخطب لأبي المعالي بحلب، وكان بحمص، وخطب هو وقرغويه في أعمالها للمعز لدين الله العلوي، صاحب المغرب ومصر.

(٦١٢/٨) وفيها، في رمضان، وقع حريق عظيم ببغداد في سوق الثلاثاء، فاحرق جماعة رجال ونساء، وأما الرجال وغيرها فكثير، ووقع الحريق أيضاً في أربعة مواضع من الجانب الغربي فيها أيضاً.

وفيها كانت الخطبة بمكة للمطيع لله وللقرامطة الهجريين، وخطب بالمدينة للمعز لدين الله العلوي، وخطب أبو أحمد الموسوي والد الشريف الرضي خارج المدينة للمطيع لله.

وفيها مات عبيد بن عمر بن أحمد أبو القاسم العبيسي المقرئ الشافعي بقرطبة، وله تصانيف كثيرة، وكان مولده ببغداد سنة خمس وتسعين ومائتين؛ وأبو بكر محمد بن داود الدينوري الصوفي، المعروف بالرقفي، وهو من مشاهير مشايخهم، وقيل مات سنة اثنتين وستين [وثلاثمائة].

وفيها توفي القاضي أبو العلاء محارب بن محمد بن محارب الفقيه الشافعي في جمادى الآخرة، وكان عالماً بالفقه والكلام. (٦١٣/٨)

سنة ستين وثلاثمائة

ذكر عصيان أهل كُorman على عضد الدولة

لما ملك عضد الدولة كُorman، كما ذكرناه، اجتمع القُصص والبلوص، وفيهم أبو سعيد البلوصي وأولاده، على كلمة واحدة في الخلاف، وتحالفوا على الثبات والاجتهاد، فضم عضد الدولة إلى كوركير بن جستان عابد بن علي فساروا إلى جیرت فيمن معهم من العساكر، فالتقوا عاشر صفر، فاقتتلوا، وصبر الفريقان ثم انهزم

القُصص ومن معهم، قُتِل منهم خمسة آلاف من شجعانهم ووجوهم، وقُتِل ابنان لأبي سعيد.

ثم سار عابد بن علي يَقبُص آثارهم ليستأصلهم، فأوقع بهم عدة وقائع، وأثنى فيهم، وانتهى إلى هرموز فملكها، واستولى على بلاد التَّيز ومُكران، وأسر ألفي أسير، وطلب الباقون الأمان، وبذلوا تسليم معاقلمهم وجبالهم، على أن يدخلوا في السلم، وينزعوا شععار الحرب، ويقيموا حدود الإسلام من الصلاة والزكاة والصوم.

ثم سار عابد إلى طوائف أخر يُعرفون بالحرومية والحاسكية يخيفون السيل في البحر والبر، وكانوا قد أعانوا سليمان بن أبي علي بن إلياس، وقد (٦١٤/٨) تقدم ذكرهم، فأوقع بهم، وقتل كثيراً منهم، وأنفذهم إلى عضد الدولة، فاستقامت تلك الأرض مدة من الزمان.

ثم لم يلبث البلوص أن عادوا إلى ما كانوا عليه من سفك الدم وقطع الطريق، فلما فعلوا ذلك تجهَّز عضد الدولة وسار إلى كرمان في ذي القعدة، فلما وصل إلى السَّيرجان رأى فسادهم وما فعلوه من قطع الطريق بكرمان وسجستان وخراسان، فجرد عابد بن علي في عسكر كثيف، وأمره باتباعهم، فلما أحسوا به أوغلوا في الهرب إلى مضايق ظنوا أن العسكر لا يتوغلها، فأقاموا آمنين.

فسار في آثارهم، فلم يشعروا إلا وقد أطلَّ عليهم، فلم يمكنهم الهرب، فصبروا يومهم، وهو تاسع عشر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وثلاثمائة، ثم انهزموا آخر النهار، وقتل أكثر رجالهم المقاتلة، وسبى الذراري والنساء، وبقي القليل، وطلبوا الأمان فأحيوا إليه، ونقلوا عن تلك الجبال، وأسكن عضد الدولة مكانهم الأكره والزراعين، حتى طبقوا تلك الأرض بالعمل، وتبع عابد تلك الطوائف براً وبحراً حتى أتى عليهم وبدد شملهم.

ذكر ملك القرامطة دمشق

في هذه السنة، في ذي القعدة، وصل القرامطة إلى دمشق فملكوها، وقتلوا جعفر بن فلاح.

وسبب ذلك أنهم لما بلغهم استيلاء جعفر بن فلاح على الشام أهمهم (٦١٥/٨) وأزعجهم وقلقوا لأنه كان قد تقرر بينهم ابن طنج أن يحمل إليهم كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، فلما ملكها جعفر علموا أن المال يفوتهم، فعزموا على قصد الشام، وصاحبهم حينئذ الحسين بن أحمد بن بهرام القُرْمُطي، فأرسل إلى عز الدولة بختيار يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال، فأجابته إلى ذلك، واستقر الحال أنهم إذا وصلوا إلى الكوفة سائرين إلى الشام حُمِل الذي استقر، فلما وصلوا إلى الكوفة أوصل إليهم ذلك، وساروا إلى دمشق.

وبلغ خبرهم إلى جعفر بن فلاح، فاستهان بهم ولم يحترز منهم، فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه وأخذوا ماله وسلاحه ودوابه، وملكوا دمشق، وأمنوا أهلها، وساروا إلى الرملة، واستولوا على جميع ما بينهما.

فلما سمع من بها من المغاربة خبرهم ساروا عنها إلى يافا فتحصنوا بها، وملك القرامطة الرملة، وساروا إلى مصر، وتركوا على يافا من يحصرها، فلما وصلوا إلى مصر اجتمع معهم خلق كثير من العرب والجند والإخشيدية والكافورية، فاجتمعوا بعين شمس عند مصر، واجتمع عساكر جوهر وخرجوا إليهم، فاقتلوا غير مرة، الظفر في جميع تلك الأيام للقرامطة، وحصروا المغاربة حصراً شديداً، ثم إن المغاربة خرجوا في بعض الأيام للقرامطة، وحملوا على ميمنة القرامطة، فانهزم من بها من العرب وغيرهم، وقصدوا سواد القرامطة فنهبوه، فاضطروا إلى الرحيل، فعادوا إلى الشام، فنزلوا الرملة.

ثم حصروا يافا حصراً شديداً، وضيقوا على من بها، فسار جوهر من مصر نجدة إلى أصحابه المحصورين بيافا، ومعهم ميرة في خمسة عشر مركباً، فأرسل (٦١٦/٨) القرامطة مراكبهم إليها، فأخذوا مراكب جوهر، ولم ينج منها غير مركبين، فغنمهما مراكب الروم.

وللحسين بن بهرام مقدَّم القرامطة شيعر، فمنه في المغاربة أصحاب المعز لدين الله:

رُغِمَتْ رِجَالُ الْغَرْبِ أَنِّي هَيْهَاتَا فَعَمِي إِذَا مَا بَيْنَهُمْ مَطْلُوكُ
يَا مِصْرُ إِن لَمْ أَسْقِ لَوْضُكَ مِنْ دَمٍ يَرُوي ثَرَاكَ فَلَا سَقَاتِي النَّيْلُ

ذكر قتل محمد بن الحسين الزناتي

في هذه السنة قُتِل يوسف بلكين بن زيري محمد بن الحسين بن خزر الزناتي وجماعة من أهله وبني عمه، وكان قد عصى على المعز لدين الله بإفريقية، وكثر جمعه من زناتة والبربر، فأهم المعز أمره لأنه أراد الخروج إلى مصر، فخاف أن يخلّف محمداً في البلاد عاصياً، وكان جبّاراً عاتياً طاغياً.

وأما كيفية قتله فإنه كان يشرب هو وجماعة من أهله وأصحابه، فعلم يوسف به، فسار إليه جريداً متخفياً، فلم يشعر به محمد حتى دخل عليه، فلما رآه محمد قتل نفسه بسيفه، وقتل يوسف الباقيين وأسر منهم، فحلَّ ذلك عند المعز محلاً عظيماً، وقعد للهناة به ثلاثة أيام. (٦١٧/٨)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض عضد الدولة على كوركير بن جستان قبضاً فيه إبقاء وموضع للصالح.

ذكر الفتنة ببغداد

في هذه السنة وقعت ببغداد فتنة عظيمة، وأظهروا العصية الزائفة، وتحزّب الناس، وظهر العيّارون وأظهروا الفساد، وأخذوا أموال الناس.

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من استفغار العامة للغزاة، فاجتمعوا وكثروا فتولّد بينهم من أصناف البنية، والفتيان، والسنة، والشيعية، والعيّارين، فنهبت الأموال، وقُتل الرجال، وأحرقت الدور، وفي جملة ما احترق محلة الكرخ، وكانت معدن التجار والشيعية، وجرى بسبب ذلك فتنة بين النقيب أبي أحمد الموسوي والوزير أبي الفضل الشيرازي وعداوة.

ثم إن بختيار أنفذ إلى المطيع لله يطلب منه مالاً يُخرجه في الغزاة، فقال المطيع: إن الغزاة والنفقة عليها، وغيرها من مصالح المسلمين، تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبني إليّ الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا تلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد في يده، وليس لي إلا الخطيئة، فإن شتمت أن اعتزل فعلت.

(٦٢٠/٨) وترددت الرسائل بينهما، حتى بلغوا إلى التهديد، فبذل المطيع لله أربعمائة ألف درهم، فاحتاج إلى بيع ثيابه، وأتقاض داره، وغير ذلك، وشاع بين الناس من العراقيين وحجّاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر. فلما قبض بختيار المال صرفه في مصالحه، وبطل حديث الغزاة.

ذكر مسير المعز لدين الله العلوي من الغرب إلى مصر

في هذه السنة سار المعز لدين الله العلوي من إفريقية يريد الديار المصرية، وكان أول مسيره أواخر شوال من سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وكان أول رحيله من المنصورة، فأقام بسردانية، وهي قرية قريبة من القيروان، ولحقه بها رجال، وعماله، وأهل بيته، وجميع ما كان له في قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك، حتى إن الدنانير سبكت وجعلت كهينة الطواحين وحُمِل كل طاحونتين على جمل.

وسار عنها واستعمل على بلاد إفريقية يوسف بلكنين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري، إلا أنه لم يجعل له حكماً على جزيرة صقلية، ولا على مدينة طرابلس الغرب، ولا على أجنادية، وسُرت، وجعل على صقلية حسن بن علي بن أبي الحسين، على ما قدّمنا ذكره، وجعل على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي، وكان أثيراً عنده، وجعل على جباية أموال (٦٢١/٨) إفريقية زيادة الله بن القديم، وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني، وحسين بن خلف الموصدي، وأمرهم بالانقياد ليوسف بن زيري.

فأقام بسردانية أربعة أشهر حتى فرغ من جميع ما يريد، ثم

وفيها تزوّج أبو تغلب بن حمدان ابنة عز الدولة بختيار، وعمرها ثلاث سنين، على صداق مائة ألف دينار؛ وكان الوكيل في قبول العقد أبا الحسن علي بن عمرو بن ميمون صاحب أبي تغلب بن حمدان، ووقع العقد في صفر.

وفيها قُتل رجلان بمسجد دير مار ميخائيل بظاهر الموصل، فصادر أبو تغلب جماعة من النصارى.

وفيها استوزر مؤيد الدولة بن ركن الدولة صاحب أبا القاسم بن عبّاد، وأصلح أموره كلها.

وفيها مات أبو القاسم سليمان بن أيوب الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة بأصبهان وكان عمره مائة سنة، وأبو بكر محمد بن الحسين الأجرى بمكة، وهما من حفاظ المحدثين.

وفيها توفي السري بن أحمد بن السري أبو الحسن الكندي الرّفا، الشاعر الموصل، ببغداد. (٦١٨/٨)

سنة إحدى وستين وثلاثمائة

ذكر ما فعله الروم بالجزيرة

في هذه السنة، في المحرم، أغار ملك الروم على الرّها ونواحيها، وسار في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين، فغنموا، وسبوا، وأحرقوا وخربوا البلاد، وفعلوا مثل ذلك بديار بكر، ولم يكن من أبي تغلب بن حمدان في ذلك حركة، ولا سعي في دفعه، لكنه حمل إليه مالاً كَفّه به عن نفسه.

فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، وقاموا في الجوامع والمشاهد، واستنفرُوا المسلمين، وذكرُوا ما فعله الروم من النهب، والقتل، والأسر، والسبي، فاستعظمه الناس، وخزّفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم، وأنهم لا مانع لهم عندهم، فاجتمع معهم أهل بغداد، وقصدوا دار الخليفة الطائع لله، وأرادوا الهجوم عليه، فمَنعوا من ذلك، وأغلقت الأبواب، فاسمعوا ما يقبح ذكره.

وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة، فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستنثين، منكرين عليه اشتغاله بالصيد، وقال عمران بن شاهين وهو مسلم، وترك جهاد الروم، ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغّلوا، فوعدهم (٦١٩/٨) التجهّز للغزاة، وأرسل إلى الحاجب سيكتكين يأمره بالتجهّز للغزو وأن يستنفر العامة، ففعل سيكتكين ذلك، فاجتمع من العامة عدد كثير لا يُحصون كثرة، وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان، صاحب الموصل، يأمره بإعداد الميرة والمعلوقات، ويعرفه عزمه على الغزاة، فأجابته بإظهار الفرح، وإعداد ما طلب منه.

رحل عنها، ومعه يوسف بلكين وهو يوصله بما يفعله، ونحن نذكر من سلف يوسف بلكين وأهله ما تمس الحاجة إليه، وردّ يوسف إلى أعماله، وسار إلى طرابلس ومعه جيوشه وحواشييه، فهرب منه بها جمع من عسكره إلى جبال نفوسة فطلبهم فلم يقدر عليهم.

ثم سار إلى مصر، فلما وصل إلى برقة ومعه محمد بن هاني الشاعر الأندلسي، قُتل غيلة، فرؤي ملقى على جانب البحر قتيلًا لا يُدري من قتله، وكان قتله أواخر رجب من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وكان من الشعراء المجيدين إلا أنه غالي في مدح المعز حتى كَفَرَه العلماء، فمن ذلك قوله:

ما شئت لا ما شاءت الأندلسُ فاحكم فأت الواحد القهارُ
وقوله:

... ولطالما زاحمت حول ركبته جبريلا
ومن ذلك ما يُنسب إليه ولم أجده في ديوانه قوله:

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالي فكل شيء سواه ربح
(٦٢٢/٨) ورقادة اسم مدينة بالقرب من القيروان، إلى غير ذلك، وقد تأول ذلك من يتعصّب له، والله أعلم، وبالجملّة فقد جاز حدّ المديح.

ثم سار المعز حتى وصل إلى الإسكندرية أواخر شعبان من السنة، وأتاه أهل مصر وأعيانها، فلقبهم، وأكرمهم، وأحسن إليهم، وسار فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وأنزل عساكره مصر والقاهرة في الديار، وبقي كثير منهم في الخيام.

وأما يوسف بلكين فإنه لما عاد من وداع المعز أقام بالمنصورة يعقد الولايات للعمال على البلاد، ثم سار في البلاد، وياشر الأعمال، وطبّق قلوب الناس، فوثب أهل باغاية على عامله فقاتلوه فهزموه، فسّير إليهم يوسف جيشاً فقاتلهم فلم يقدر عليهم، فأرسل إلى يوسف يعرفه الحال، فتأهب يوسف، وجمع العساكر ليسير إليهم، فبينما هو في التجهز أتاه الخبر عن تأخرت أن أهلها قد عصوا، وخالفوا، وأخرجوا عامله، فرحل إلى تاهرت فقاتلها، فظفر بأهلها، وخرّبها، فاتاه الخبر بها أن زناته قد نزلوا على تلمسان، فرحل إليهم، فهربوا منه، وأقام على تلمسان حصرها مدة ثم نزلوا على حكمه فعفا عنهم، إلا أنه نقلهم إلى مدينة أشير، فبنوا عندها مدينة سموها تلمسان.

ثم إن زيادة الله بن القديم جرى بينه وبين عامل آخر كان معه، اسمه عبد الله بن محمد الكاتب، منافسة صارت إلى محاربة، واجتمع مع كل واحد منهما جماعة، وكان بينهما حروب عدة دفعات، وكان يوسف بلكين مائلاً (٦٢٣/٨) مع عبد الله لصحبة

قديمية بينهما، ثم إن أبا عبد الله قبض على ابن القديم وسجنه واستبدّ بالأمور بعده، وبقي ابن القديم محبوباً حتى توفي المعز بمصر، وقوي أمر يوسف بلكين.

وفي سنة أربع وستين [وثلاثمائة] طلع خلف بن حسين إلى قلعة منيعة، فاجتمع إليه خلق كثير من البربر وغيرهم، وكان من أصحاب ابن القديم المساعدين له، فسمع يوسف بذلك، فسار إليه ونازل القلعة وحاربه، فقتل بينهما عدة قتلى، وافتتحها، وهرب خلف بن حسين، وقتل ممن كان بها خلق كثير، وبعث إلى القيروان من رؤوسهم سبعة آلاف رأس، ثم أخذ خلف وأمر به فطيف به على جمل، ثم صُلب، وسير رأسه إلى مصر فلما سمع أهل باغاية بذلك خافوا، فصالحو يوسف ونزلوا على حكمه، فأخرجهم من باغاية وخرّب سورها.

ذكر خير يوسف بلكين بن زيري بن مناد وأهل بيته

هو يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري، اجتمعت صنهاجة ومن والاها بالمغرب على طاعته، قبل أن يقدّمه المنصور، وكان أبوه مناد كبيراً في قومه، كثير المال والولد، حسن الضيافة لمن يمر به، ويقدم ابنه زيري في أيامه، وقاد كثيراً من صنهاجة، وأغار بهم، وسبى، فحسدته زناته، وجمعت له لتسير إليه وتحاربه، فسار إليهم مجداً، فكبسهم ليلاً وهم غارون بارض مُغيلة، فقتل منهم كثيراً، وغنم ما معهم، فكثرت تبعه، فضاقت بهم أرضهم، (٦٢٤/٨) فقالوا له: لو اتخذت لنا بلداً غير هذا؟ فسار بهم إلى موضع مدينة أشير، فرأى ما فيه من العيون، فاستحسنه، وبنى فيه مدينة أشير، وسكنها هو وأصحابه، وكان ذلك سنة أربع وستين وثلاثمائة.

وكانت زناته تفسد في البلاد، فإذا طلبوا احتموا بالجبال والبراري، فلما بُنيت أشير صارت صنهاجة بين البلاد وبين زناته والبربر، فسُرّ بذلك القائم.

وسمع زيري بغمارة وفسادهم، واستحلّ لهم المحرمات، وأنهم قد ظهر فيهم نبي، فسار إليهم، وغزاهم، وظفر بهم، وأخذ الذي كان يدعي النبوة أسيراً، وأحضر الفقهاء فقتله.

ثم كان له أثر حسن في حادثة أبي يزيد الخارجي، وحمل الميرة إلى القائم بالمهدية، فحسن موقعها منه.

ثم إن زناته حصرت مدينة أشير، فجمع لهم زيري جموعاً كثيرة، وجرى بينهما عدة وقعات قُتل فيها كثير من الفريقين، ثم ظفر بهم واستباحهم.

ثم ظهر بجبل أوراس رجل، وخالف على المنصور، وكثر جمعه، يقال له سعيد بن يوسف، فسّير إليه زيري ولده بلكين في جيش كثيف، فلقبه عند باغاية، واقتلوا، فقتل الخارجي ومَن معه

من هواره وغيرهم، فزاد محلّه عند المنصور، وكان له في فتح مدينة فاس أثر عظيم، على ما ذكرناه.

ثم إن بلّكين بن زيري قصد محمد بن الحسين بن خنزر الزناتي، وقد خرج عن طاعة المعز، وكثر جمعه، وعظم شأنه، فظفر به يوسف بلّكين، وأكثر القتل في أصحابه، فسّر المعز بذلك سروراً عظيماً لأنه كان يريد [أن] يستخلف يوسف بلّكين على الغرب لقوّته، وكثرة أتباعه، وكان يخاف أن يتغلّب على البلاد بعد مسيره عنها إلى مصر. فلما استحكمت الوحشة بينه وبين زناته أمن (٦٢٥/٨) تغلبه على البلاد.

ثم إن جعفر بن علي، صاحب مدينة مسيلة وأعمال الزاب، كان بينه وبين زيري محاسبة، فلما كثر تقدّم زيري عند المعز ساء ذلك جعفر، ففارق بلاده ولحق بزناته فقبّله قَبُولاً عظيماً، وملّكوه عليهم عداوة لزيري، وعصى على المعز، فسار زيري إليه في جمع كثير من صنهاجة وغيرهم، فالتقوا في شهر رمضان، واشتد القتال بينهم، فكبأ بزيري فرسه فوقع فقتل، ورأى جعفر من زناته تغيراً عن طاعته، وندماً على قتل زيري، فقال لهم: إن ابنه يوسف بلّكين لا يترك ثار أبيه، ولا يرضى بمن قتل منكم، والرأي أن نتحصّن بالجبال المنيعّة، والأوعار؛ فأجابوه إلى ذلك، فحمل ماله وأهله في المراكب، وبقي هو مع الزناتيين، وأمر عبيده في المراكب أن يعملوا في المراكب فتنة، ففعلوا وهو يشاهدهم من البر، فقال لزناته: أريد [أن] أنظر ما سبب هذا الشر؛ فصعد المركب، ونجا معهم، وسار إلى الأندلس إلى الحاكم الأموي، فأكرمه، وأحسن إليه، وندمت زناته كيف لم يقتلوه ويغنموا ما معه.

ثم إن يوسف بلّكين جمع فاكثر، وقصد زناته، وأكثر القتل فيهم، وسبى نساءهم، وغنم أولادهم، وأمر أن تجعل القُدور على رؤوسهم، ويُطبخ فيها، ولما سمع المعز بذلك سرّه أيضاً، وزاد في أقطاع بلّكين المسيلة وأعمالها، وعظم شأنه، ونذكر باقي أحواله بعد ملكه إفريقية. (٦٢٦/٨)

ذكر الصلح بين الأمير منصور بن نوح

وبين ركن الدولة وعضد الدولة

في هذه السنة تم الصلح بين الأمير منصور بن نوح الساماني، صاحب خراسان وما وراء النهر، وبين ركن الدولة وابنه عضد الدولة، على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة إليه كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار، وتزوّج نوح بابنة عضد الدولة، وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لم يحمل مثله، وكُتب بينهم كتاب صلح، وشهد فيه أعيان خراسان، وفارس، والعراق.

وكان الذي سعى في هذا الصلح وقرّره محمد بن إبراهيم بن سيمجور، صاحب جيوش خراسان من جهة الأمير منصور.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، انقض كوكب عظيم، وله نور كثير، وسُمع له عند انقضاضه صوت كالرعد، وبقي ضوءه.

وفي شوال منها ملك أبو تغلب بن حمدان قلعة ماردين، سلّمها إليه نائب أخيه حمدان، فأخذ أبو تغلب كل ما كان لأخيه فيها من أهل ومال وأثاث وسلاح، وحمل الجميع إلى الموصل. (٦٢٧/٨)

سنة اثنتين وستين وثلاثمائة

ذكر انهزام الروم وأسر الدُمستق

في هذه السنة كانت وقعة بين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وبين الدُمستق بناحية ميفارقين.

وكان سببها ما ذكرناه من غزو الدُمستق ببلاد الإسلام، ونهيه ديار زبيعة وديار بكر، فلما رأى الدُمستق أنه لا مانع له من مراده قوي طمعه على أخذ آمد، فسار إليها، وبها هزازمرد غلام أبي الهيجاء بن حمدان، فكتب إلى أبي تغلب يستصرخه ويستجده، ويعلمه الحال، فسّير إليه أخاه أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة، واجتمعا على حرب الدُمستق، وسارا إليه فلقياه سلخ رمضان، وكان الدُمستق في كثرة لكن لقياه في مضيق لا تجول فيه الخيل، والروم على غير أهبة، فانهزموا، وأخذ المسلمون الدُمستق أسيراً، ولم يزل محبوساً إلى أن مرض سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، فبالغ أبو تغلب في علاجه، وجمع الأطباء له، فلم ينفعه ذلك ومات. (٦٢٨/٨)

ذكر حريق الكرخ

في هذه السنة، في شعبان، احترق الكرخ حريقاً عظيماً.

وسبب ذلك أن صاحب المعونة قتل عامياً، فثار به العامة والأتراك، فهرب ودخل دار بعض الأتراك، فأخرج منها مسحوباً، وقتل وأحرق، وفتحت السجون فأخرج من فيها، فركب الوزير أبو الفضل لأخذ الجُنّة، وأرسل حاجباً له يسمى صافياً في جمع لقتال العامة بالكرخ، وكان شديد العصية للسنة، فألقى النار في عدة أماكن من الكرخ، فاحترق حريقاً عظيماً، وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان، وثلاثمائة دكان، وكثير من الدور، وثلاثة وثلاثين مسجداً، ومن الأموال ما لا يُحصى.

ذكر عزل أبي الفضل من وزارة عز الدولة ووزارة ابن بَقِيّة

وفيها أيضاً عزّل الوزير أبو الفضل العباس بن الحسين بن وزارة عز الدولة بختيار في ذي الحجة، واستوزر محمد بن بَقِيّة،

وفيها توفي أبو العباس محمد بن الحسن بن سعيد المخزومي الصوفي صاحب الشبلي بمكة. (٦٣١/٨)

سنة ثلاث وستين وثلاثمائة

ذكر استيلاء بختيار على الموصل وما كان من ذلك

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار بختيار إلى الموصل ليستولي عليها وعلى أعمالها وما بيد أبي تغلب بن حمدان.

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من مسير حمدان بن ناصر الدولة بن حمدان وأخيه إبراهيم إلى بختيار، واستجارتهما به، وشكواهما إليه من أخيهما أبي تغلب، فوعدهما أن ينصرهما ويخلص أعمالهما وأموالهما منه، ويتقم لهما، واشتغل عن ذلك بما كان منه في البليحة وغيرها، فلما فرغ من جميع أشغاله عاود حمدان وإبراهيم الحديث معه، وبذل له حمدان مالا جزيلاً، وصغر عنده أمر أخيه أبي تغلب، وطلب أن يضمّنه بلاده ليكون في طاعته، ويحمل إليه الأموال ويقيم له الخطبة.

ثم إن الوزير أبا الفضل حسن ذلك، وأشار به ظناً منه أن الأموال تكثر عليه فتمشي الأمور بين يديه، ثم إن إبراهيم بن ناصر الدولة هرب من عند بختيار، وعاد إلى أخيه أبي تغلب، فقوي عزم بختيار على قصد الموصل أيضاً، ثم عزل أبا الفضل الوزير واستوزر ابن بَقِيَّة، فكاتبه أبو تغلب، فقصر في خطابه، فأعزى به بختيار، وحمله على قصده. فسار عن بغداد، ووصل إلى (٦٣٢/٨) الموصل تاسع عشر ربيع الآخر ونزل بالدير الأعلى.

وكان أبو تغلب بن حمدان قد سار عن الموصل لما قرب منه بختيار، وقصد سنجار، وكسر العروب، وأخلى الموصل من كل ميرة، وكاتب الديوان، ثم سار من سنجار يطلب بغداد، ولم يعرض إلى أحد من سوادها بل كان هو وأصحابه يشترون الأشياء بأوفى الأثمان. فلما سمع بختيار بذلك أعاد وزيره ابن بَقِيَّة، والحاجب سبكتكين إلى بغداد، فأما ابن بَقِيَّة فدخل إلى بغداد، وأما سبكتكين فأقام بحري، وكان أبو تغلب قد قارب بغداد، فثار العيارون بها، وأهل الشر بالجانب الغربي، ووقعت فتنة عظيمة بين السنة والشعبة، وحمل أهل سوق الطعام، وهم من السنة، امرأة على جمل وسموها عائشة، وسمى بعضهم نفسه طلحة، وبعضهم الزبير، وقتلوا الفرقة الأخرى، وجعلوا يقولون: نقاتل أصحاب علي بن أبي طالب، وأمثال هذا من الشر.

وكان الجانب الشرقي آمناً، والجانب الغربي مفتوناً، فأخذ جماعة من رؤساء العيارين وقتلوا، فسكن الناس بعض السكون. وأما أبو تغلب فإنه لما بلغه دخول ابن بَقِيَّة بغداد، ونزول سبكتكين الحاجب بحري، عاد عن بغداد، ونزل بالقرب منه، وجري بينهما

فعجب الناس لذلك لأنه كان وضعياً في نفسه، من أهل أوانا، وكان أبوه أحد الزراعين، لكنه كان قريباً من بختيار، وكان يتولى له المطبخ، ويقدم إليه الطعام ومتدبل الخوان على كتفه، إلى أن استوزر.

وحبس الوزير أبو الفضل، فمات عن قريب، فقيل إنه مات مسموماً، (٦٢٩/٨) وكان في ولايته مضيقاً لجانب الله. فمن ذلك أنه أحرق الكرخ ببغداد، فهلك فيه من الناس والأموال ما لا يحصى؛ ومن ذلك أنه ظلم الرعية، وأخذ الأموال يفرقها على الجند ليسلم، فما سلمه الله تعالى، ولا نفعه ذلك، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: من أَرْضَى الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس.

وكان ما فعله من ذلك أبلغ الطرق التي سلكها أعداؤه من الرقبة فيه، والسعي به، وتمشى لهم ما أرادوا لما كان عليه من تفریطه في أمر دينه، وظلم رعيته، وعقب ذلك أن زوجته ماتت وهو محبوس وحاجبه وكاتبه، فخربت داره، وعُفِيَ أثرها، نعوذ بالله من سوء الأقدار، ونسأله أن يختم بخير أعمالنا، فإن الدنيا إلى زوال ما هي.

وأما ابن بَقِيَّة فإنه استقامت أموره، ومشت الأحوال بين يديه بما أخذه من أموال أبي الفضل، وأموال أصحابه، فلما فني ذلك عاد إلى ظلم الرعية، فانتشرت الأمور على يده، وخرت النواحي، وظهر العيارون، وعملوا ما أرادوا، وزاد الاختلاف بين الأتراك وبين بختيار، فشرع ابن بَقِيَّة في إصلاح الحال مع بختيار وسبكتكين، فاصطلحوا، وكانت هُدنة على دخن وركب سبكتكين إلى بختيار ومعه الأتراك، فاجتمع به، ثم عاد الحال إلى ما كان عليه من الفساد.

وسبب ذلك أن ديلمياً اجتاز بدار سبكتكين وهو سكران، فرمى الروشن (٦٣٠/٨) بزوبين في يده، فأثبته فيه، وأحس به سبكتكين فصاح بغلمانة فأخذه، وظن سبكتكين أنه قد وضع على قتله، فقرر فلم يعترف، وأنفذه إلى بختيار وعرفه الحال، فأمر به فقتل، فقوي ظن سبكتكين أنه كان وضعه عليه، وإنما قتله لثلاثي نفسى ذلك، وتحرك الديلم لقتله، وحملوا السلاح، ثم أرضاهم بختيار فرجعوا.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ذي الحجة، أرسل عز الدولة بختيار الشريف أبا أحمد الموسوي، والد الرضي والمترضى، في رسالة إلى أبي تغلب بن حمدان بالموصل، فمضى إليه، وعاد في المحرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة.

مطاردة يسيرة، ثم اتفقا في السر على أن يظهر الاختلاف إلى أن يتمكنوا من القبض على الخليفة والوزير والدة بختيار وأهله، فإذا فعلوا ذلك انتقل سبكتكين إلى بغداد، وعاد أبو تغلب إلى الموصل، فيبلغ من بختيار ما أراد، ويملك دولته.

ثم إن سبكتكين خاف سوء الأحدثة، فتوقف وسار الوزير ابن بقة إلى (٦٣٣/٨) سبكتكين، فاجتمع به، وانفسخ ما كان بينهما، وتراسلوا في الصلح على أن أبا تغلب يضمن البلاد على ما كانت معه، وعلى أن يطلق لبختيار ثلاثة آلاف كر غلة عوضاً عن مؤونة سفره، وعلى أن يرد على أخيه حمدان أملاكه وأقطاعه، إلا ماردين.

ولما اصطالحوا أرسلوا إلى بختيار بذلك ليرحل عن الموصل، وعاد أبو تغلب إليها، ودخل سبكتكين بغداد، وأسلم بختيار. فلما سمع بختيار بقرب أبي تغلب منه خافه لأن عسكره كان قد عاد أكثره مع سبكتكين، وطلب الوزير ابن بقة من سبكتكين أن يسير نحو بختيار، فتشاور، ثم فكر في العواقب، فسار على مضض، وكان أظهر للناس ما كان هم به.

وكان سبب ذلك أن عز الدولة بختيار قلت عنده الأموال، وكثر إدلال جنده عليه، وأطراحهم لجانبه، وشغبهم عليه، فتعذر عليه القرار، ولم يجد (٦٣٥/٨) ذيرانه ووزيره جهة يحتال منها بشيء، وتوجهوا إلى الموصل لهذا السبب، فلم يفتح عليهم، فرأوا أن يتوجهوا إلى الأهواز، ويتعرضوا لبختكين آزادرويه، وكان متوليها، ويعملوا له حجة يأخذون منه مالاً ومن غيره، فسار بختيار وعسكره، وتخلّف عنه سبكتكين التركي، فلما وصلوا إلى الأهواز خدم بختيار وحمل له أموالاً جلية المقدار، وبذل له من نفسه الطاعة، وبختيار يفكر في طريق يأخذه به.

وكان سبب ذلك أن عز الدولة بختيار قلت عنده الأموال، وكثر إدلال جنده عليه، وأطراحهم لجانبه، وشغبهم عليه، فتعذر عليه القرار، ولم يجد (٦٣٥/٨) ذيرانه ووزيره جهة يحتال منها بشيء، وتوجهوا إلى الموصل لهذا السبب، فلم يفتح عليهم، فرأوا أن يتوجهوا إلى الأهواز، ويتعرضوا لبختكين آزادرويه، وكان متوليها، ويعملوا له حجة يأخذون منه مالاً ومن غيره، فسار بختيار وعسكره، وتخلّف عنه سبكتكين التركي، فلما وصلوا إلى الأهواز خدم بختيار وحمل له أموالاً جلية المقدار، وبذل له من نفسه الطاعة، وبختيار يفكر في طريق يأخذه به.

وكان سبب ذلك أن عز الدولة بختيار قلت عنده الأموال، وكثر إدلال جنده عليه، وأطراحهم لجانبه، وشغبهم عليه، فتعذر عليه القرار، ولم يجد (٦٣٥/٨) ذيرانه ووزيره جهة يحتال منها بشيء، وتوجهوا إلى الموصل لهذا السبب، فلم يفتح عليهم، فرأوا أن يتوجهوا إلى الأهواز، ويتعرضوا لبختكين آزادرويه، وكان متوليها، ويعملوا له حجة يأخذون منه مالاً ومن غيره، فسار بختيار وعسكره، وتخلّف عنه سبكتكين التركي، فلما وصلوا إلى الأهواز خدم بختيار وحمل له أموالاً جلية المقدار، وبذل له من نفسه الطاعة، وبختيار يفكر في طريق يأخذه به.

ذكر حيلة لبختيار عادت عليه

كان بختيار قد واطأ والدته وإخوته إنه إذا كتب إليهم بالقبض على الأتراك يظهرون أن بختيار قد مات، ويجلسون للعزاء، فإذا

ولما اصطالحوا أرسلوا إلى بختيار بذلك ليرحل عن الموصل، وعاد أبو تغلب إليها، ودخل سبكتكين بغداد، وأسلم بختيار. فلما سمع بختيار بقرب أبي تغلب منه خافه لأن عسكره كان قد عاد أكثره مع سبكتكين، وطلب الوزير ابن بقة من سبكتكين أن يسير نحو بختيار، فتشاور، ثم فكر في العواقب، فسار على مضض، وكان أظهر للناس ما كان هم به.

وأما بختيار فإنه جمع أصحابه وهو بالدير الأعلى؛ ونزل أبو تغلب بالحصياء، تحت الموصل، وبينهما عرض البلد، وتعصّب أهل الموصل لأبي تغلب، وأظهروا محبة لما نالهم من بختيار من المصادرات وأخذ الأموال، ودخل الناس بينهما في الصلح، فطلب أبو تغلب من بختيار أن يلقب لقباً سلطانياً، وأن يسلم إليه زوجته ابنة بختيار، وأن يحط عنه من ذلك القرار. فاجابه بختيار خوفاً منه، وتحالفاً، وسار بختيار عن الموصل عاقداً إلى بغداد، فأظهر أهل الموصل السرور برحيله، لأنه كان قد أساء معهم السيرة وظلمهم.

فلما وصل بختيار إلى الكُحَيْل بلغه أن أبا تغلب قد قتل قوماً كانوا من أصحابه، وقد استأمنوا إلى بختيار، فعادوا إلى الموصل ليأخذوا ما لهم بها من أهل ومال فقتلهم. فلما بلغه ذلك اشتد عليه، وأقام بمكانه، وأرسل إلى الوزير أبي طاهر بن بقة والحاجب سبكتكين يأمرهما بالإصعاد إليه، وكان قد أرسل إليهما يأمرهما بالتوقف، ويقول لهما إن الصلح قد استقر، فلما أرسل (٦٣٤/٨) إليهما يطلبهما أصعدا إليه في العساكر، فعادوا جميعهم إلى الموصل، ونزلوا بالدير الأعلى أواخر جمادى الآخرة، وفارقها أبو تغلب إلى تل يُدعى، وعزم عز الدولة على قصده وطلبه أين سلك، فأرسل أبو تغلب كاتبه وصاحبه أبا الحسن علي بن أبي عمرو إلى عز الدولة فاعتقله، واعتقل معه أبا الحسن ابن عرس، وأبا أحمد بن حوقل.

وما زالت المراسلات بينهما، وحلف أبو تغلب أنه لم يعلم بقتل أولئك، فعاد الصلح واستقر، وحمل إليه ما استقر من المال، فأرسل عز الدولة الشريف أبا أحمد الموسوي، والقاضي أبا بكر

فكتب جوابه: وصل كتابك الذي قلّ تحصيله وكثر تفضيله، ونحن سائرون إليك على أثره، والسلام.

وسار حتى وصل إلى مصر، فنزل على عين شمس بعسكره، وأنشبت القتال، ويث السرايا في البلاد يهيمونها، فكثرت جموعه، وأتاه من العرب خلق كثير، وكان ممن أتاه حسان بن الجراح الطائي، أمير العرب بالشام، ومعه جمع عظيم.

فلما رأى المعز كثرة جموعه استعظم ذلك وأهمّه، وتحير في أمره، ولم يقدم على إخراج عسكره لقتاله، فاستشار أهل الرأي من نصحاته، فقالوا: ليس حيلة غير السعي في تفريق كلمتهم، وإلقاء الخلف بينهم، ولا يتم ذلك إلا بابن الجراح؛ فراسله المعز واستماله، وبذل له مائة ألف دينار إن هو خالف على القرمطي، فأجابته ابن الجراح إلى ما طلب منه، فاستحلفوه، (٦٣٩/٨) فحلف أنه إذا وصل إليه المال المقرر انهمز بالناس.

فأحضروا المال، فلما رآه استكثروه، فضربوا أكثرها دنائير من صفر، والبسوها الذهب، وجعلوها في أسافل الأكياس، وجعلوا الذهب الخالص على رؤوسها، وحمل إليه، فأرسل إلى المعز أن يخرج في عسكره يوم كذا ويقاقلوه وهو في الجهة الفلانية فإنه يتهزم، ففعل المعز ذلك فانهمز وتبعه العرب كافة، فلما رآه الحسن القرمطي منهزماً تحير في أمره، وثبت، وقاقل بعسكره، إلا أن عسكر المعز طمعوا فيه وتابعوا الحملات عليه من كل جانب، فأرهقوه، فوَلَّى منهزماً، واتبعوا أثره، وظفروا بمعسكره فأخذوا من فيه أسرى، وكانوا نحو ألف وخمسمئة أسير، فضربت أعناقهم، ونهب ما في المعسكر.

وجرد المعز القائد أبا محمد بن إبراهيم بن جعفر في عشرة آلاف رجل، وأمره باتباع القرامطة والإيقاع بهم، فاتبعهم، وتناقل في سيره خوفاً أن ترجع القرامطة إليه؛ وأما هم فإنهم ساروا حتى نزلوا أذرعات، وساروا منها إلى بلدهم الأحساء، ويظهرون أنهم يعودون. (٦٤٠/٨)

ذكر ملك المعز دمشق وما كان فيها من الفتن

لما بلغ المعز انهزام القرمطي من الشام، وعوده إلى بلاده، أرسل القائد ظالم بن موهوب العقيلي والياً على دمشق، فدخلها، وعظم حاله، وكثرت جموعه وأمواله وعذته، لأن أبا المنجى وابنه صاحبي القرمطي كانا بدمشق، ومعهما جماعة من القرامطة، لأخذهم ظالم وجسهم، وأخذ أموالهم وجميع ما يملكونه.

ثم إن القائد أبا محمود الذي سيّر المعز يتبع القرامطة وصل إلى دمشق بعد وصول ظالم إليها بأيام قليلة، فخرج ظالم متلياً له مسروراً بقدمه، لأنه كان مستشعراً من عود القرمطي إليه، فطلب

حضر سبكتكين عندهم قبضوا عليه، فلما قبض يختار على الأتراك كتب إليهم على أجنحة الطيور يعرفهم ذلك، فلما وقفوا على الكتب وقع الصراخ في داره، وأشاعوا موته، ظناً منهم أن سبكتكين يحضر عندهم ساعة يبلغه الخبر، فلما سمع الصراخ أرسل يسأل عن الخبر، فأعلموه، فأرسل يسأل عن الذي أخبرهم، وكيف أتاهم الخبر، فلم يجد نقلاً يثق القلب به، فارتاب بذلك.

ثم وصله رسله الأتراك بما جرى، فعلم أن ذلك كان مكيدة عليه، ودعاه الأتراك إلى أن يتأمر عليهم، فتوقف، وأرسل إلى أبي إسحاق بن معز الدولة يعلمه أن الحال قد انفسد بينه وبين أخيه، فلا يرجى صلاحه، وأنه لا يرى العدول عن طاعة مواليه وإن أسأوا إليه، ويدعوه إلى أن يعقد الأمر له، فعرض قوله على والدته، فمنعته.

فلما رأى سبكتكين ذلك ركب في الأتراك، وحصر دار يختار يومين، ثم أحرقتها ودخلها، وأخذ أبا إسحاق وأبا طاهر ابني معز الدولة ووالدتهما ومن كان معهما، فسألوه أن يمتكنهم من الانحدار إلى واسط، ففعل، وانحدروا، (٦٣٧/٨) وانتحلر معهم المطيع لله في الماء، فأنفذ سبكتكين فأعاده وردّه إلى داره، وذلك تاسع ذي القعدة، واستولى على ما كان لخبثار جميعه ببغداد، ونزل الأتراك في دور الديلم، وتبعوا أموالهم وأخذوها، واثارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين لأنه كان يتسنن، فخلع عليهم، وجعل لهم العرفاء والقراد، فأثاروا بالشيعة وحاربوهم وسفكت بينهم الدماء، وأحرقت الكرخ حريقاً ثانياً، وظهرت السنة عليهم.

ذكر خلع المطيع وخلافة الطائع لله

وفي هذه السنة، منتصف ذي القعدة، خلّع المطيع لله، وكان به مرض الفالج، وقد ثقل لسانه، وتعلّزت الحركة عليه، وهو يستر ذلك، فانكشف حاله لسبكتكين هذه الدفعة، فدعاه إلى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها إلى ولده الطائع لله، واسمه أبو الفضل عبد الكريم، ففعل ذلك، وأشهد على نفسه بالخلع ثالث عشر ذي القعدة. وكانت مدة خلافته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر غير أيام، وبيع للطائع لله بالخلافة، واستقر أمره. (٦٣٨/٨)

ذكر الحرب بين المعز لدين الله العلوي والقرامطة

في هذه السنة سار القرامطة، ومقدمهم الحسن بن أحمد، من الأحساء إلى ديار مصر فحصرها، ولما سمع المعز لدين الله صاحب مصر بأنه يريد قصد مصر كتب إليه كتاباً يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته، وأن الدعوة واحدة، وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه، وإلى آبائه من قبله، ووعظه وبالف، وتهدده، وسيّر الكتاب إليه.

منه أن ينزل بعسكره بظاهر دمشق، ففعل، وسَلَّم إليه أبا المنجى الناس. وابنه ورجلاً آخر يُعرف بالنابلسي، وكان حرب من الرملة، وتقرب إلى القرمطي، فأُسِرَ بدمشق أيضاً، فحملهم أبو محمد إلى مصر، فسُجِن أبو المنجى وابنه، وقيل للنابلسي: أنت الذي قلت لو أن معي عشرة أسهم لرميتُ تسعة في المغاربة واحداً في الروم؟ فاعترف، فسُلِّخ جلده وحُشي تَبناً وصُلِّب.

ولما نزل أبو محمود بظاهر دمشق امتدت أيدي أصحابه بالبعث والفساد، وقطع الطريق، فاضطرب الناس وخافوا، ثم إن صاحب الشرطة أخذ إنساناً من أهل البلد قتلته، فثار به الغوغاء والأحداث، وقتلوا أصحابه، وأقام ظالم بين الرعية يداريهم، وانتزع أهل القرى منها لشدة نهب المغاربة أموالهم، (٦٤١/٨) وظلمهم لهم، ودخلوا البلد، فلما كان نصف شوال من السنة وقعت فتنة عظيمة بين عسكر أبي محمود وبين العامة، وجرى بين الطائفتين قتال شديد، وظالم مع العامة يُظهر أنه يريد الإصلاح، ولم يكشف أبا محمود، وانفصلوا.

ثم إن أصحاب أبي محمود أخذوا من القوطة قسلاً من حوران، وقتلوا منه ثلاثة نفر، فأخذهم أهلوههم وألقوهم في الجامع، فأغلقت الأسواق، وخاف الناس، وأرادوا القتال، فسكنهم عقلاؤهم.

ثم إن المغاربة أرادوا نهب قينية واللؤلؤة، فوقع الصائح في أهل البلد، فنفروا، وقتلوا المغاربة في السابح عشر ذي القعدة، وركب أبو محمود في جموعه وزحف الناس بعضهم إلى بعض، فقوي المغاربة، وانهزم العامة إلى سور البلد، فصبروا عنده، وخرج إليهم من تخلف عنهم، وكثر الشباب على المغاربة فأتخن فيهم، فعداوا، فتبعهم العامة، فاضطروهم إلى العود، فعداوا، وحملوا على العامة فانهزموا، وتبعوهم إلى البلد، وخرج ظالم من دار الإمارة.

وألقي المغاربة النار في البلد من ناحية باب الفرائيس، وأحرقوا تلك الناحية فأخذت النار إلى القيلة فأحرقت من البلد كثيراً، وهلك فيه جماعة من الناس، وما لا يُحَدِّث من الأثاث والرحال والأموال، ويات الناس على أقبح صورة، ثم إنهم اصطالحوا هم وأبو محمود، ثم انتقصوا، ولم يزلوا كذلك إلى ربيع الآخر سنة أربع وستين وثلاثمائة. (٦٤٢/٨)

ذكر ولاية جيش بن الصمصامة دمشق

ثم عادت الفتنة في ربيع الآخر سنة أربع وستين وثلاثمائة، وترددوا في الصلح، فاستقر الأمر بين القنائد أبي محمود والدمشقيين على إخراج ظالم من البلد، وأن يليه جيش من الصمصامة، وهو ابن أخت أبي محمود، واتفقوا على ذلك، وخرج ظالم من البلد، ووليه جيش بن الصمصامة، وسكنت الفتنة واطمان

ثم إن المغاربة بعد أيام عاثوا وأفسدوا باب الفرائيس، فثار الناس عليهم وقتلوه، وقتلوا من لحقوه، وصاروا إلى القصر الذي فيه جيش، فهرب منه هو ومن معه من الجند المغاربة، ولحق بالعسكر، فلما كان من الغد، وهو أول جمادى الأولى من السنة، زحف جيش في العسكر إلى البلد، وقتلته أهله، فظفر بهم وهزمهم، وأحرق من البلد ما كان سلم، ودام القتال بينهم أياماً كثيرة، فاضطرب الناس وخافوا، وخربت المنازل وانقطعت المواد، وانتسدت المسالك، وبطل البيع والشراء، وقُطِع الماء عن البلد، فبطلت القنوات والحمامات، ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد، فاتاهم الفرج بعزل أبي محمود. (٦٤٣/٨)

ذكر ولاية ريان الخادم دمشق

لما كان بدمشق ما ذكرناه من القتال، والتحريق، والتخريب، وصل الخبر بذلك إلى المعز صاحب مصر، فأنكر ذلك واستبشعه واستعظمه، فأرسل إلى القائد ريان الخادم، والسي طرابلس، يأمره بالمسير إلى دمشق لمشاهدة حالها وكشف أمور أهلها، وتعريف حقيقة الأمر، وأن يصرف القائد أبا محمود عنها، فامتل ريان ذلك، وسار إلى دمشق، وكشف الأمر فيها وكتب به إلى المعز، وتقدم إلى القائد أبي محمود بالانصراف عنها، فسار في جماعة قليلة من العسكر إلى الرملة، وبقي الأكثر منهم مع ريان. وبقي الأمر كذلك إلى أن ولي الفتكين، على ما نذكره.

ذكر حال بختيار بعد قبض الأتراك

لما فعل بختيار ما ذكرناه من قبض الأتراك ظفر بذخيرة لأزادرويه بجنديسابور، فأخذها، ثم رأى ما فعله الأتراك مع سبكتكين، وأن بعضهم بسواد الأهواز قد عصوا عليه، واضطرب عليه غلمانه الذين في داره، وأتاه مشايخ الأتراك من البصرة، فعاتبوه على ما فعل بهم، وقال له عقلاء الديلم: لا بد لنا في الحرب من الأتراك يدفعون عنا بالنشاب؛ فاضطرب رأي بختيار، ثم أطلق أزادرويه، وجعله صاحب الجيش موضع سبكتكين، وظن أن الأتراك يأسون به، وأطلق المعتقلين وسار إلى والدته وإخوته بواسط، وكتب (٦٤٤/٨) إلى عمه ركن الدولة وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألها أن ينجده، ويكشف ما نزل به، وكتب إلى أبي تغلب بن حمدان يطلب منه أن يساعده بنفسه، وأنه إذا فعل ذلك أسقط عنه المال الذي عليه، وأرسل إلى عمران بن شاهين بالبطيحة خلعة، وأسقط عنه باقي المال الذي اصطالحا عليه، وخطب إليه إحدى بناته، وطلب منه أن يسير إليه عسكرياً.

فأما ركن الدولة عمه فإنه جهز عسكرياً مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وكتب إلى ابنه عضد الدولة يأمره بالمسير إلى ابن عمه

والاجتماع مع ابن العميد.

الأول.

وسبب ذلك أن معز الدولة لما توفي، وبخمان أبو الفرج بن

العباس، نائب معز الدولة، فارقها، فتولى أمرها عمر بن نهبان الطائي، وأقام الدعوة لمعز الدولة، ثم إن الزنج غلبت على البلد، ومعهم طوائف من الجند، وقتلوا ابن نهبان، وأثروا عليهم إنساناً يُعرف بابن حلاج، فسير معز الدولة جيشاً من كرمان، واستعمل عليهم أبا حرب طغان، فساروا في البحر إلى عُمان، فخرج أبو حرب من المراكب إلى البر، وسارت المراكب في البحر من ذلك المكان، فتوافوا على صُحار قصبة عُمان فخرج إليهم الجند والزنج واقتتلوا قتالاً شديداً في البر والبحر، فظفر أبو حرب، واستولى على صُحار، وانهزم أهلها، وكان ذلك سنة اثنتين وستين [وثلاثمائة].

وأما عضد الدولة فإنه وعد بالمسير، وانتظر ببختيار الدوائر طمعاً في ملك العراق.

وأما عمران بن شاهين فإنه قال: أما إسقاط المال فنحن نعلم أنه لا أصل له، وقد قبلته، وأما الوصلة فإنني لا أتزوج أحداً إلا أن يكون الذكر من عندي، وقد خطب إلي العلويون، وهم موالينا، فما أجبتهم إلى ذلك، وأما الخلع والفرس فلانني لست ممن يلبس ملبوسكم، وقد قبلها ابني، وأما إنفاذ عسكر فإن رجالي لا يسكتون إليكم لكثرة ما قتلوا منكم.

ثم ذكر ما عامله به هو وأبوه مرة بعد أخرى، وقال: ومع هذا فلا بد أن يحتاج إلى أن يدخل بيتي مستجيراً بي، والله لأعاملنه بضد ما عاملني به هو وأبوه فكان كذلك.

(٦٤٥/٨) وأما أبو تغلب بن حمدان فإنه أجاب إلى المسارعة، وأنفذ أخاه أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان إلى تكريت في عسكر، وانتظر انحذار الأتراك عن بغداد، فإن ظفروا ببختيار دخل بغداد مالكا لها، فلما انحدر الأتراك عن بغداد سار أبو تغلب إليها ليوجب على ببختيار الحجة في إسقاط المال الذي عليه، ووصل إلى بغداد والناس في بلاء عظيم مع العيارين، فحمى البلد، وكف أهل الفساد.

ثم إن الزنج اجتمعوا إلى يريم، وهو رُستاق بينه وبين صُحار مرحلتان، فسار إليهم أبو حرب، فأوقع بهم وقعة أثت عليهم قتلاً وأسرأ، فاطمأنت البلاد.

ثم إن جبال عُمان اجتمع بها خلق كثير من الشُراة، وجعلوا لهم أميراً اسمه ورد بن زياد، وجعلوا لهم خليفة اسمه حفص بن راشد، فاشتدت شوكتهم، فسير معز الدولة المطهر بن عبد الله في البحر أيضاً، فبلغ إلى نواحي حرفان من (٦٤٧/٨) أعمال عُمان، فأوقع بأهلها، وأخذ منهم، وأسر، ثم سار إلى ذما، وهي على أربعة أيام من صُحار، فقاتل من بها، وأوقع بهم وقعة عظيمة قتل فيها وأسر كثيراً من رؤسائهم، وانهزم أميرهم ورد، وإمامهم حفص، وأتبعهم المطهر إلى نزوى، وهي قصبة تلك الجبال، فانهزموا منه، فسير إليهم العساكر، فأوقعوا بهم وقعة أثت على باقيهم، وقُتل ورد، وانهزم حفص إلى اليمن، فصار معلماً، وسار المطهر إلى مكان يُعرف بالشرف به جمع كثير من العرب، نحو عشرة آلاف، فأوقع بهم، واستقامت البلاد، ودانت بالطاعة، ولم يبق فيها مخالف.

ذكر عدة حوادث

وفيهما خُطب للمعز لدين الله العلوي، صاحب مصر، بمكة والمدينة، في الموسم.

وفيهما خرج بنو هلال وجمع من العرب على الحاج، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وضاق الوقت، فبطل الحج، ولم يسلم إلا من مضى مع الشريف أبي أحمد الموسوي، والد الرضي، على طريق المدينة، فتم حجهم.

وأما الأتراك فإنهم انحدروا مع سبكتكين إلى واسط، وأخذوا معهم الخليفة الطائع لله، والمطيع أيضاً وهو مخلوع، فلما وصلوا إلى دير العاقول توفي بها المطيع لله، ومرض سبكتكين فمات بها أيضاً، فحُمِل إلى بغداد، وقدم الأتراك عليهم الفتيكين، وهو من أكابر قوادهم وموالي معز الدولة، وفرح ببختيار بموت سبكتكين، وظن أن أمر الأتراك ينحل ويتشرب بموته، فلما رأى انتظام أمورهم ساءه ذلك.

ثم إن الأتراك ساروا إليه، وهو بواسط، فنزلوا قريباً منه، وصاروا يقاتلونه نواب نحو خمسين يوماً، ولم تنزل الحرب بين الأتراك وبختيار متصلة، والظفر للأتراك في كل ذلك، وحصروا ببختيار، واشتد عليه الحصار، وأحدقوا به، وصار خائفاً يترقب، وتابع إنفاذ الرسل إلى عضد الدولة بالحث والإسراع وكتب إليه:

فإن كنت مأكولاً تكن أنت أكلتي وإلا فإفركني ولما أتقرك فلما رأى عضد الدولة ذلك، وأن الأمر قد بلغ ببختيار ما كان يرجوه، سار نحو العراق نجدة له في الظاهر، وباطنه بضد ذلك.

(٦٤٦/٨)

ذكر ملك عضد الدولة عُمان

في هذه السنة استولى الوزير أبو القاسم المطهر بن محمد

وفيهما كانت بواسط زلزلة عظيمة في ذي الحجة.

بغداد، فلما علم وصول الأتراك إلى تكريت دخل بغداد ونزل بدار المملكة، وكان الأتراك قد أخذوا الخليفة معهم كارهاً، فسعى عضد الدولة حتى رده إلى بغداد، فوصلها ثامن رجب في الماء، وخرج عضد الدولة فلقبه في الماء أيضاً، وامتلات دجلة بالسُميريات والريازب، ولم يبق ببغداد أحد، ولو أراد إنسان أن يعبر دجلة على السُميريات من واحدة إلى أخرى لأمكنه ذلك لكثرتها؛ وسار عضد الدولة مع الخليفة وأنزله بدار الخلافة.

وكان عضد الدولة قد طمع في العراق، واستضعف بختيار، وإنما خاف أباه ركن الدولة، فوضع جند بختيار على أن يشوروا به ويشغبوا عليه، وبطالبوه (٦٥٠/٨) بأموالهم والإحسان لأجل صبرهم مقابل الأتراك، ففعلوا ذلك، وبالفؤاد، وكان بختيار لا يملك قليلاً ولا كثيراً، وقد نهب البعض، وأخرج هو الباقي والبلاد خراب، فلا تصل يده إلى أخذ شيء منها.

وأشار عضد الدولة على بختيار بترك الالتفات إليهم، والغلظة لهم وعليهم، وأن لا يدهم بما لا يقدر عليه، وأن يعرفهم أنه لا يريد الإمارة والرياسة عليهم، ووعد أنه إذا فعل ذلك توسط الحال بينهم على ما يريد. فظن بختيار أنه ناصح له، مشفق عليه، ففعل ذلك واستغنى من الإمارة، وأغلق باب داره، وصرف كتابه حجابيه، فراسله عضد الدولة ظاهراً بمحض من مقدمي الجند يشير عليه بمقاربتهم، وتطبيب قلوبهم، وكان أوصاه سراً أن لا يقبل منه ذلك. فعمل بختيار بما أوصاه، وقال: لست أميراً لهم، ولا يبني وبينهم معاملة، وقد برئت منهم فترددت الرسل بينهم ثلاثة أيام، وعضد الدولة يغريهم به، والشغب يزيد، وأرسل بختيار إليه يطلب نجاز ما وعده به، ففرق الجند على عدة جميلة، واستدعى بختيار وإخوته إليه، فقبض عليهم، ووكّل بهم، وجمع الناس وأعلمهم استعفاه بختيار عن الإمارة عجزاً عنها، ووعدهم الإحسان والنظر في أمورهم، فسكنوا إلى قوله. وكان قبضه على بختيار [في] السادس والعشرين من جمادى الآخرة.

وكان الخليفة الطائع لله نافرأً عن بختيار لأنه كان مع الأتراك في حروبه، فلما بلغه قبضه سره ذلك، وعاد إلى عضد الدولة، فأظهر عضد الدولة من تعظيم الخلافة ما كان قد نسي وترك، وأمر بعمارة السدار، والإكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة، وحماية أقطاعه؛ ولما دخل الخليفة إلى بغداد (٦٥١/٨) ودخل دار الخلافة أنفذ إليه عضد الدولة مالاً كثيراً، وغيره من الأمتعة والفرش وغير ذلك.

ذكر عود بختيار إلى ملكه

لما قبض بختيار كان ولده المرزبان بالبصرة متولياً لها، فلما بلغه قبض والده امتنع فيها على عضد الدولة، وكتب إلى ركن الدولة يشكو ما جرى على والده وعييه من عضد الدولة ومن أبي

وفيها توفي عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد الفقيه الحنبلي المعروف بغلام الخلال وعمره ثمان وسبعون سنة.

وإلى آخر هذه السنة انتهى تاريخ ثابت بن سنان بن ثابت بن قرّة، وأوله من خلافة المقتدر بالله سنة خمس وتسعين ومائتين. (٦٤٨/٨)

سنة أربع وستين وثلاثمائة

ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق وقبض بختيار

في هذه السنة وصل عضد الدولة واستولى على العراق، وقبض بختيار ثم عاد فأخرجه.

وسبب ذلك أن بختيار لما تابع كتبه إلى عضد الدولة يستنجد، ويستعين به على الأتراك، سار إليه في عساكر فارس، واجتمع به أبو الفتح بن العميد، وزير أبيه ركن الدولة، في عساكر الرّي بالأهواز، وساروا إلى واسط. فلما سمع الفتيكين بخبر وصولهم رجع إلى بغداد، وعزم على أن يجعلها وراء ظهره، ويقاقل على ديبالي.

ووصل عضد الدولة، فاجتمع به بختيار، وسار عضد الدولة إلى بغداد في الجانب الشرقي، وأمر بختيار أن يسير في الجانب الغربي.

ولما بلغ الخبر إلى أبي تغلب بقرب الفتيكين منه عاد عن بغداد إلى الموصل لأن أصحابه شغبوا عليه، فلم يمكنه المقام، ووصل الفتيكين إلى بغداد، فحصل محصوراً من جميع جهاته، وذلك أن بختيار كتب إلى ضيّه بن محمد الأسدي، (٦٤٩/٨) وهو من أهل عين الثمر، وهو الذي هجاه المتنبي، فأمره بالإغارة على أطراف بغداد، ويقطع الميرة عنها، وكتب بشمل ذلك إلى بني شيان.

وكان أبو تغلب بن حمدان من ناحية الموصل يمنع الميرة وينفذ سراياه، فغلاً السمر ببغداد، وثار العيارون والمفسدون فنهبوا الناس ببغداد، وامتنع الناس من المعاش لخوف الفتنة، وعدم الطعام والقوت بها، وكبس الفتيكين المنازل في طلب الطعام.

وسار عضد الدولة نحو بغداد، فلقبه الفتيكين والأتراك بين ديبالي والمدائن، فاقتلوا قتالاً شديداً، وانهمز الأتراك فقتل منهم خلق كثير، ووصلوا إلى ديبالي فعبروا على جسر كانوا عملوها عليه، فغرق منهم أكثرهم من الزحمة، وكذلك قتل وغرق من العيارين الذين أعانواهم من بغداد، واستباحوا عسكرهم وكانت الواقعة رابع عشر جمادى الأولى.

وسار الأتراك إلى تكريت، وسار عضد الدولة فنزل بظاهر

الفتح بن العميد، ويذكر له الحيلة التي تمت عليه، فلما سمع ركن الدولة ذلك ألقى نفسه عن سريره إلى الأرض وتمرّع عليها، وامتنع من الأكل والشرب عدة أيام، ومريض مرضاً لم يستقل منه باقي حياته.

وكان محمد بن بقیة، بعد بختيار، قد خدم عضد الدولة، وضمن منه مدينة واسط وأعمالها، فلما صار إليها خلع طاعة عضد الدولة، وخالف عليه، وأظهر الامتناع لقبض بختيار، وكتب عمران بن شاهين، وطلب مساعدته، وحذّره مكر عضد الدولة، فأجابه عمران إلى ما التمس.

وكان عضد الدولة قد ضمّن سهل بن بشر، وزير الفتكين، بلد الأهواز، وأخرجه من حبس بختيار، فكتبه محمد بن بقیة واستماله، فأجابه، فلما عصى ابن بقیة أنفذ إليه عضد الدولة جيشاً قوياً، فخرج إليهم ابن بقیة في الماء ومعه عسكر قد سيره إليه عمران، فانهزم أصحاب عضد الدولة أقبح هزيمة، وكتب ركن الدولة بحاله وحال بختيار، فكتب ركن الدولة إليه (٦٥٢/٨) وإلى المرزبان وغيرهما ممن احتمى لبختيار، يأمرهم بالثبات والصبر، ويعرفهم أنه على المسير إلى العراق لإخراج عضد الدولة وإعادة بختيار.

فاضطربت النواحي على عضد الدولة، وتجاسر عليه الأعداء حيث علموا إنكار أبيه عليه، وانقطعت عنه مواد فارس والبحر، ولم يبق بيده إلا قصبة بغداد، وطمع فيه العامة، وأشرف على ما يكره، فرأى إيفاد أبي الفتح بن العميد برسالة إلى أبيه يعرفه ما جرى له وما فرق من الأموال، وضعف بختيار عن حفظ البلاد، وإن أعيد إلى حاله خرجت المملكة والخلافة عنهم، وكان بوارهم، ويسأله ترك نصرة بختيار. وقال لأبي الفتح: فإن أجاب إلى ما تريد منه، وإلا فقل له: إنني أضمن منك أعمال العراق، وأحمل إليك منها كل سنة ثلاثين ألف ألف درهم، وأبعث بختيار وأخويه إليك لتجعلهم بالخيار، فإن اختاروا أقاموا عندك، وإن اختاروا بعض بلاد فارس سلمته إليهم، ووسعت عليهم، وإن أحببت أنت أن تحضر في العراق لتلي تدبير الخلافة، وتنفذ بختيار إلى الري وأعود أنا إلى فارس فالأمر إليك.

وقال لابن العميد: فإن أجاب إلى ما ذكرت له، وإلا فقل له: أيها السيد الوالد، أنت مقبول الحكم والقول، ولكن لا سبيل إلى إطلاق هؤلاء القوم بعد مكاشفتهم، وإظهار العداءة، وسيقاتلونني بغاية ما يقدرون عليه، تنتشر الكلمة، ويختلف أهل هذا البيت أبداً، فإن قبلت ما ذكرته فأننا العبد الطائع، وإن أبيست، وحكمت بانصرافي، فإني سأقتل بختيار وأخويه، وأقبض على كل من اتهمه بالميل إليهم، وأخرج عن العراق، وأترك البلاد سائبة ليدبرها من اتفقت له.

فخاف ابن العميد أن يسير بهذه الرسالة، وأشار أن يسير بها غيره، ويسير (٦٥٣/٨) هو بعد ذلك، ويكون كالمشير على ركن الدولة بإجابته إلى ما طلب، فأرسل عضد الدولة رسولاً بهذه الرسالة، وسير بعده ابن العميد على الجمارات، فلما حضر الرسول عند ركن الدولة، وذكر بعض الرسالة، وثب إليه ليقتله، فهرب من بين يديه، ثم رده بعد أن سكن غضبه، وقال: قل لفلان، يعني عضد الدولة، وسماه بغير اسمه، وشتمه، خرجت إلى نصرة ابن أخي وللطمع في مملكته، أما عرفت أنني نصرت الحسن بن الفيرزان، وهو غريب مني، مراراً كثيرة أخطأ فيها بملكي ونفسي، فإذا ظفرت أعدت له بلاده، ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد. ثم نصرت إبراهيم بن المرزبان، وأعدته إلى أذربيجان، وأنفذت وزيراً وعسكرياً في نصرتي، ولم آخذ منه درهماً واحداً، كل ذلك طلباً لحسن الذكر، ومحافظة على الفتوة، تريد أن تمنّ أنت عليّ بدرهمين أنفقتهما أنت عليّ وعلى أولاد أخي، ثم تطمع في ممالكهم وتهذني بقتلهم.

فعاد الرسول ووصل ابن العميد، فحجبه عنه، ولم يسمع حديثه، وتهذبه بالهلاك، وأنفذ إليه يقول له: لأتركك وذلك الفاعل، يعني عضد الدولة، تجتهدان جهدكما، ثم لا أخرج إليكما إلا في ثلاثمائة جمّازة وعليها الرجال، ثم اثبتوا إن شتمتم، فوالله لا قاتلتكما إلا بأقرب الناس إليكما.

وكان ركن الدولة يقول: إنني أرى أخي معز الدولة كل ليلة في المنام بعض على أنامله ويقول: يا أخي هكذا ضمنت لي أن تخلفني في ولدي. وكان ركن الدولة يحب أخاه محبة شديدة لأنه ربه، فكان عنده بمنزلة الولد.

ثم إن الناس سعوا لابن العميد، وتوسطوا الحال بينه وبين ركن الدولة، وقالوا: إنما تحمّل ابن العميد هذه الرسالة ليجعلها طريقاً للخلاص من عضد الدولة، والوصول إليك لتأمر بما تراه. فأذن له في الحضور عنده، فاجتمع به، وضمن (٦٥٤/٨) له إعادة عضد الدولة إلى فارس، وتقرير بختيار بالعراق، فردّه إلى عضد الدولة، وعرفه جليّة الحال.

فلما رأى عضد الدولة انحراف الأمور عليه من كل ناحية، أجاب إلى المسير إلى فارس وإعادة بختيار، فأخرجه من محبسه، وخلع عليه، وشرط عليه أن يكون نائباً عنه بالعراق، ويخطب له، ويجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش لضعف بختيار، وردّ عليهم عضد الدولة جميع ما كان لهم، وسار إلى فارس في شوال من هذه السنة، وأمر أبا الفتح بن العميد، وزير أبيه، أن يلحقه بعد ثلاثة أيام. فلما سار عضد الدولة أقام ابن العميد عند بختيار متشاعلاً باللدات، وبما هو بختيار مغرّى به من اللعب، واتفقا باطناً على أنه

الحسين على باب جِزْقَت، وانهزم عسكره فمَنَعهم سور المدينة من الهرب، فكثُر فيهم القتل، وأخذ الحسين أسيراً، وأحضر عند المطهر، فلم يُعرف له بعد خبر، وصِلحت كِرمَان لعُضد الدولة.

ذكر ولاية الفتيكين دمشق وما كان منه إلى أن مات

قد ذكرنا ما كان من انهزام الفتيكين التركي، مولى معز الدولة بن بويه، من مولاة بختيار من معز الدولة، ومن عضد الدولة في فتنة الأتراك بالعراق، فلما انهزم منهم سار في طائفة صالحة من الجند الترك، فوصل إلى حمص، فنزل بالقرب منها، فقصده ظالم بن موهوب العقيلي الذي كان أمير دمشق للمعز لدين الله ليأخذه، فلم يتمكن من أخذه، فعاد عنه وسار الفتيكين إلى دمشق فنزل بظاهرها.

وكان أميرها حينئذ رِيَّان الخادم للمعز، وكان الأحداث قد غلبوا عليها، وليس للأعيان معهم حكم، ولا للسلطنة عليهم طاعة، فلما نزل خرج أشرافها وشيوخها إليه، وأظهروا له السرور بقدمه، وسألوه أن يقيم عندهم، ويملك بلدهم، ويزيل عنهم سمة المصريين، فإنهم يكرهونها بمخالفة الاعتقاد، (٦٥٧/٨) ولظلم عمالهم، ويكف عنهم شر الأحداث، فأجابهم إلى ذلك، واستحلفهم على الطاعة والمساعدة، وحلف لهم على الحماية وكف الأذى عنهم منه ومن غيره، ودخل البلد، وأخرج عنه رِيَّان الخادم، وقطع خطبة المعز، وخطب للطائع لله في شعبان، وقمع أهل العيث والفساد، وهاب به الناس كافة، وأصلح كثيراً من أمورهم.

فكانت العرب قد استولت على سواد البلد وما يتصل به، فقصدهم، وأوقع بهم، وقتل كثيراً منهم، وأبان عن شجاعة وقوة نفس، وحسن تدبير، فأذعنوا له، وأقطع البلاد، وكثر جمعه، وتوفرت أمواله، وثبت قدمه.

وكاتب المعز بمصر يداريه، ويظهر له الانقياد، فشكره، وطلب منه أن يحضر عنده ليخلع عليه، ويعيده والياً من جانبه، فلم يثق به، وامتنع من المسير، فتجهز المعز، وجمع العساكر لقصده، فمريض ومات، وعلى ما نذكره سنة خمس وستين وثلاثمائة، وولي بعده ابنه العزيز بالله، فأمن الفتيكين بموته جهة مصر، فقصد بلاد العزيز التي بساحل الشام، فعمد إلى صيدا فحصرها وبها ابن الشيخ، ومعه رؤوس المغاربة، ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي، فقاتلهم وكانوا في كثرة، فطمعوا فيه وخرجوا إليه، فاستجروهم حتى أبعدوا، ثم عاد عليهم فقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل.

وطمع في أخذ عكا، فتوجه إليها، وقصد طَبْرية، ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا، وعاد إلى دمشق.

فلما سمع العزيز بذلك استشار وزيره يعقوب بن كَلَس فيما

إذا مات ركن الدولة سار إليه ووزر له. واتصل ذلك بعُضد الدولة، فكان سبب هلاك ابن المعيد، على ما نذكره.

واستقر بختيار ببغداد، ولم يقف لعُضد الدولة على العود، فلما ثبت أمر بختيار أنفذ ابن بَقِيَّة من خلقه له، وحضر عنده، وأكد الوحشة بين بختيار وعضد الدولة، واثارت الفتنة بعد مسير عضد الدولة، واستمال ابن بَقِيَّة الأجناد، وجبى كثيراً من الأموال إلى خزائنه، وكان إذا طالبه بختيار بالمال وضع الجند على مطالبته، فنقل على بختيار، فاستشار في مكروه يوقعه به، فبلغ ذلك ابن بَقِيَّة، فعاتب بختيار عليه، فأنكره وحلف له، فاحتز ابن بَقِيَّة منه. (٨/ ٦٥٥)

ذكر اضطراب كِرمَان على عضد الدولة وعودها له

في هذه السنة خالف أهل كِرمَان على عضد الدولة.

وسبب ذلك أن رجلاً من الجرومية، وهي البلاد الحارة، يقال له طاهر بن الصنَّة، ضمن من عضد الدولة ضمانات، فاجتمع عليه أموال كثيرة، فطمع فيها، وكان عضد الدولة قد سار إلى العراق، وسير وزيره المطهر بن عبد الله إلى عُمان ليستولي عليها، فخلت كِرمَان من العساكر، فجمع طاهر الرجال الجرومية وغيرهم، فاجتمع له خلق كثير.

واتفق أن بعض الأتراك السامانية، اسمه يوزنمر، كان قد استوحش من أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور، صاحب جيش خراسان للسامانية، فكتبه طاهر، وأطمعه في أعمال كِرمَان، فسار إليه، واتفقا، وكان يوزنمر هو الأمير، فاتفق أن الرجال الجرومية شغبوا على يوزنمر، فظن أن طاهراً وضعهم، فاختلفا واقتتلا، فظفر يوزنمر بطاهر وأسر، وظفر بأصحابه.

وبلغ الخبر إلى الحسين بن أبي علي بن إلياس، وهو بخراسان، فطمع في البلاد، فجمع جمعاً وسار إليها، فاجتمع عليه بها جموع كثيرة. ثم إن المطهر بن عبد الله استولى على عُمان وجبالها، وأوقع بالشراسة فيها وعاد، فوصله كتاب عضد الدولة من بغداد يأمره بالمسير إلى كِرمَان، فسار إليها مجداً، وأوقع في طريقه بأهل العيث والفساد، وقتلهم، وصلبهم، ومثل بهم، ووصل إلى يوزنمر على حين غفلة منه، فقاتلوا بنواحي مدينة بَم، فانهزم يوزنمر ودخل المدينة، وحصره المطهر في حصن وسط المدينة، فطلب (٦٥٦/٨) الأمان فأمنه، فخرج إليه ومعه طاهر، فأمر المطهر بطاهر فشهر، ثم ضرب عنقه.

وأما يوزنمر فإنه رفعه إلى بعض القلاع، فكان آخر العهد به، وسار المطهر إلى الحسين بن إلياس، فرأى كثرة من معه، فخاف جانبهم، ولم يجد من اللقاء بدءاً، فقاتلوا قتالاً شديداً، فانهزم

يفعل، فأشار بإرسال جوهر في العساكر إلى الشام، فجهّزه وسيرّه. فلما سمع الفتيكين بمسيره جمع أهل دمشق وقال: قد علمتم أنني ما وليتُ أمركم إلا عن رضى منكم، (٦٥٨/٨) وطلب من كبيركم وصغيركم لي، وإنما كنتُ مجتازاً وقد أظلمكم هذا الأمر، وأنا سائر عنكم لئلا ينالكم أذى بسببي. فقالوا: لا نمكّنك من فراقنا، ونحن نبذل الأنفس والأموال في هوائك، وننصررك، ونقوم معك؛ فاستحلفهم على ذلك، فحلفوا له، فأقام عندهم. فوصل جوهر إلى البلد في ذي القعدة من سنة خمس وستين وثلاثمائة، فحصره، فرأى من قتال الفتيكين ومن معه ما استعظمه، ودامت الحرب شهرين، قُتل فيها عدد كثير من الطائفتين.

فلما رأى أهل دمشق طول مقام المغاربة عليهم أشاروا على الفتيكين بمكاتبة الحسن بن أحمد القرمطي، واستنجاهه، ففعل ذلك، فسار القرمطي إليه من الأحساء، فلما قرب منه رحل جوهر عن دمشق، خوفاً أن يبقى بين عدوين، وكان مقامه عليها سبعة أشهر، ووصل القرمطي واجتمع هو والفتيكين، وسارا في أثر جوهر، فأدركاه وقد نزل بظاهر الرملة، وسير أثقاله إلى عسقلان، فاقتلوا، فكان جمع الفتيكين والقرمطي كثيراً من رجال الشام والعرب وغيرهم، فكانوا نحو خمسين ألف فارس وراجل، فنزلوا على نهر الطواحين، على ثلاثة فراسخ من البلد، ومنه ماء أهل البلد، فقطعوه عنهم، فاحتاج جوهر ومن معه إلى ماء المطر في الصحاريح، وهو قليل لا يقوم بهم، فرحل إلى عسقلان، وتبعه الفتيكين والقرمطي فحصره بها، وطال الحصار، فقلّت الميرة، وهدمت الأقوات، وكان الزمان شتاء، فلم يمكن حمل الذخائر في البحر من مصر وغيرها، فاضطروا إلى أكل الميتة، وبلغ الخبز كل خمسة أرطال، بالشامي، بدينار مصري.

وكان جوهر يرأسل الفتيكين، ويدعوه إلى الموافقة والطاعة، ويبدل له (٦٥٩/٨) البذول الكثيرة، فيهم أن يفعل، فيمنعه القرمطي ويخوفه منه، فزادت الشدة على جوهر ومن معه، فعابنوا الهلاك، فأرسل إلى الفتيكين يطلب منه أن يجتمع به، فتقدم إليه واجتمعا راكبين. فقال له جوهر: قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة، وأريق في الدماء، ونهبت الأموال، ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى، وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والموافقة، وبذلك لك الرغائب، فأبيت إلا القبول ممن يشب نار الفتنة، فراقب الله تعالى، وراجع نفسك، وغلب رأيك على هوى غيرك.

فقال الفتيكين: أنا والله واثق بك في صحة الرأي والمشورة منك، لكنني غير متمكن مما تدعوني إليه بسبب القرمطي الذي أحوجتني أنت إلى مداراته والقبول منه.

فقال جوهر: إذا كان الأمر على ما ذكرتُ فإنني أصدقك الحال تعويلاً على أمانتك، وما أجده من الفتوة عندك؛ وقد ضاق الأمر بنا، وأريد أن تمنّ عليّ بنفسي وبمن معي من المسلمين وتذمّ لنا، وأعود إلى صاحبي شاكرًا لك، وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف.

فأجاب به إلى ذلك، وحلف له على الوفاء به، وعاد واجتمع بالقرمطي وعرقه الحال فقال: أخطأت، فإن جوهرًا له رأي وحزم ومكيده، وسيرجع إلى صاحبه فيحمله على قصدنا بما لا طاقة لنا به، والصواب أن ترجع عن ذلك ليموتوا جوعاً، وناخذهم بالسيف؛ فامتنع الفتيكين من ذلك وقال: لا أغدر به؛ وأذن لجوهر ولمن معه بالمسير إلى مصر، فسار إليه، واجتمع بالعزيز، (٦٦٠/٨) وشرح له الحال وقال: إن كنت تريد لهم فإخرج إليهم بنفسك، وإلا فهم واصلون على أثري؛ فبرز العزيز، وفرّق الأموال، وجمع الرجال، وسار وجوهر على مقدّمته.

وورد الخبر إلى الفتيكين والقرمطي فعادا إلى الرملة، وجمعا العرب وغيرها، وحشدا، ووصل العزيز فنزل بظاهر الرملة، ونزلا بالقرب منه، ثم اصطفوا للحرب في المحرم سنة سبع وستين وثلاثمائة، فرأى العزيز من شجاعة الفتيكين ما أعجبه، فأرسل إليه في تلك الحال يدعوه إلى طاعته، ويبدل له الرغائب والولايات، وأن يجعله مقدّم عسكريه، والمرجوع إليه في دولته، ويطلب أن يحضر عنده، ويسمع قوله، فترجّل وقبّل الأرض بين الصّفين، وقال للرسول: قلّ لأمير المؤمنين: لو قدم هذا القول لسارعتُ وأطعْتُ، وأما الآن فلا يمكن إلا ما ترى. وحمل على الميسرة فهزمها، وقتل كثيراً منها، فلما رأى العزيز ذلك حمل من القلب، وأمر الميمنة فحملت، فانهزم القرمطي والفتيكين ومن معها، ووضع المغاربة السيف، فأكثروا القتل، وقتلوا نحو عشرين ألفاً.

ونزل العزيز في خيامه، وجاءه الناس بالأسرى، فكلّ من أناه بأسير خلع عليه، وبذل لمن أناه بالفتيكين أسيراً مائة ألف دينار، وكان الفتيكين قد مضى منهزماً، فكفّ العطش، فلقى المفرج بن دغفل الطائي وكان بينهما أنس قديم، طلب منه الفتيكين ماء، فسقاه، وأخذ معه إلى بيته فأنزله وأكرمه، وسار إلى العزيز باللّه فأعلمه بأسر الفتيكين، وطلب منه المال، فأعطاه ما ضمنه، وسير معه من تسلّم الفتيكين منه، فلما وصل الفتيكين إلى العزيز لم يشك أنه يقتله لوقته، فرأى من إكرام العزيز له والإحسان إليه ما أعجزه، وأمر له بالخيام فُنصبت، وأعاد إليه جميع من كان يخدمه، فلم يفقد من حاله شيئاً، وحمل إليه من التحف والأموال ما لم ير مثله، وأخذ معه إلى مصر وجعله من أخص خدمه وحجّابه.

فقال له الرسول: إن أمتني على نفسي، ولم تغضب، قلت لك ما عندي. قال له المعز: قل وأنت آمن؟ فقال: بعثني إليك الملك ذلك العام، فأرأيت (٦٦٤/٨) من عظمتك في عيني وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه، ووصلت إلى قصرك، فأرأيت عليه نوراً عظيماً غطي بصري، ثم دخلت عليك، فأرأيتك على سريرك، فظننتك خالقاً، فلو قلت لي إنك تعرج إلى السماء لتحقق ذلك، ثم جئت إليك الآن، فما رأيت من ذلك شيئاً، أشرفت على مدينتك، فكانت في عيني سوداء مظلمة، ثم دخلت عليك، فما وجدت من المهابة ما وجدته ذلك العام، فقلت إن ذلك كان أمراً مقبلاً وإنه الآن بضد ما كان عليه.

فأطرق المعز، وخرج الرسول من عنده، وأخذت المعز الحمى لشدة ما وجد، واتصل مرضه حتى مات.

وكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، منها: بمصر ستان وتسعة أشهر، والباقي بإفريقية، وهو أول الخلفاء العلويين ملك مصر، وخرج إليها، وكان مغرراً بالنجوم، ويعمل بأقوال المنجمين. قال له منجمه: إن عليه قطعاً في وقت كذا، وأشار عليه بعمل سرداب يختفي فيه إلى أن يجوز ذلك الوقت، ففعل ما أمره وأحضر قواده، فقال لهم: إن بيني وبين الله عهداً أنا ماضٍ إليه، وقد استخلفت عليكم ابني نزاراً، يعني العزيز، فاسمعوا له وأطيعوا.

ونزل السرداب، فكان أحد المغاربة إذا رأى سحاباً نزل وأومأ بالسلام إليه، ظناً منه أن المعز فيه. فغاب سنة ثم ظهر، وبقي مديدة، ومرض وتوفي، فستر ابنه العزيز موته إلى عيد النحر من السنة، فصلى بالناس وخطبهم، ودعا لنفسه، وعزى بآبائه.

وكان المعز عالماً، فاضلاً، جواداً، شجاعاً، جارياً على منهاج أبيه من (٦٦٥/٨) حسن السيرة، وإنصاف الرعية، وستر ما يدعون إليه، إلا عن الخاصة، ثم أظهره، وأمر الدعاة بإظهاره إلا أنه لم يخرج فيه إلى حد يذم به.

ولما استقر العزيز في الملك أطاعه العسكر، فاجتمعوا عليه، وكان هو يدبر الأمور منذ مات أبوه إلى أن أظهره، ثم سير إلى الغرب دنائير عليها اسمه، فرقت في الناس، وأقر يوسف بلكين على ولاية إفريقية، وأضاف إليه ما كان أبوه استعمل عليه غير يوسف، وهي طرابلس، وسُرت، وأجداية، فاستعمل عليها يوسف عماله، وعظم أمره حيثن، وأمن ناحية العزيز، واستبد بالملك، وكان يظهر الطاعة مجاملة، ومراقبة لا ظالماً وراءه.

ذكر حرب يوسف بلكين مع زناته وغيرها بإفريقية

في هذه السنة جمع خزرون بن فلقول بن خزر الزناتي جمعاً

وأما الحسن القرمطي فإنه وصل منهزماً إلى طبرية، فأدركه رسول العزيز يدعوهُ إلى العود إليه ليحسن إليه، ويفعل معه أكثر مما فعل مع الفتيكين، فلم يرجع، فأرسل إليه العزيز عشرين ألف دينار، وجعلها له كل سنة، فكان يُرسلها إليه، وعاد إلى الأحساء.

ولما عاد العزيز إلى مصر أنزل الفتيكين عند قصره، وزاد أمره، وتحكم، فتكبر على وزيره يعقوب بن كلس، وترك الركوب إليه، فصار بينهما عداوة متأكدة، فوضع عليه من سقاه سماً فمات، فحزن عليه العزيز وأنهم الوزير فحبسه نيفاً وأربعين يوماً، وأخذ منه خمسمائة ألف دينار، ثم وقفت أمور دولة العزيز باعتزال الوزير، فخلع عليه، وأعادته إلى وزارته.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار الحجاج إلى سُمراء فأرأوا هلال ذي الحجة بها، والعادة جارية بأن يُرى الهلال بعده بأربعة أيام، ويلغهم أنهم لا يرون الماء إلى غمرة، وهو بها أيضاً قليل، وبينهما نحو عشرة أيام، فغدوا إلى المدينة فوقفوا بها وعادوا، فكانوا أول المحرم في الكوفة.

(٦٦٢/٨) وفيها ظهر بإفريقية كوكب عظيم من جهة المشرق، وله ذوابة وضوء عظيم، فبقي يطلع كذلك نحواً من شهر، ثم غاب فلم يُر.

وفيها توفي أبو القاسم عبد السلام بن أبي موسى المخرومي الصوفي نزيل مكة، وكان قد صاحب أبا علي الروذباري وطبقته وغيره. (٦٦٣/٨)

سنة خمس وستين وثلاثمائة

ذكر وفاة المعز لدين الله العلوي وولاية ابنه العزيز بالله

في هذه السنة توفي المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله إسماعيل ابن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي أبي محمد عبيد الله العلوي الحسيني بمصر، وأمّه أم ولد، وكان موته سابع عشر شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وولد بالمهدية من إفريقية حادي عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة، وعمره خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريباً.

وكان سبب موته أن ملك الروم بالقسطنطينية أرسل إليه رسلاً كان يتردد إليه بإفريقية، فخلا به بعض الأيام، فقال له المعز: أتذكر إذ أتيتني رسلاً، وأنا بالمهدية، فقلت لك: لتدخلن علي وأنا بمصر مالكا لها؟ قال: نعم! قال: وأنا أقول لك: لتدخلن علي ببغداد وأنا خليفة.

القلعة بجميع ما فيها، ورجل إلى مدينة طَارَنْت، فرأى أهلها قد هربوا منها وأغلقوا أبوابها، فصعد الناس السور، وفتحوا الأبواب، ودخلها الناس، فأمر الأمير بهدمها فهُدمت وأُحرقت، وأرسل السرايا فيلغوا أَذْرَنْت وغيرها، ونزل هو على مدينة عردلية، فقاتلها، فبذل أهلها له مالاً صالحهم عليه وعاد إلى المدينة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خُطِبَ للعزیز العلوي بمكة، حرسها الله تعالى، بعد أن أرسل جيشاً إليها، فحصروها، وضيّقوا على أهلها، ومنعواهم الميرة، ففلت الأسعار بها، ولقي أهلها شدة شديدة.

(٦٦٨/٨) وفيها أقام بَسِيلُس بن أرماتوس ملك الروم ورءاً، المعروف بسقاروس، دُمُسْتَقاً، فلما استقر في الولاية استوحش من الملك، فعصى عليه، واستظهر بأبي تغلب بن حمدان، وصاهره، ولبس التاج وطلب الملك.

وفيها توفي أبو أحمد بن عدي الجُرْجاني في جمادى الآخرة، وهو إمام مشهور، ومحمد بن بدر الكبير الحمامي، غلام ابن طولون، وكان قد ولي فارس بعد أبيه.

وفيها، في ذي القعدة، توفي ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابي، صاحب التاريخ. (٦٦٩/٨)

سنة ست وستين وثلاثمائة

ذكر وفاة ركن الدولة وملك عضد الدولة

في هذه السنة، في المحرم، توفي ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه، واستخلف على مملكه ابنه عضد الدولة، وكان ابنه عضد الدولة قد عاد من بغداد، بعد أن أطلق بختيار على الوجه الذي ذكرناه.

وظهر عند الخاص والعام غضب والده عليه، فخاف أن يموت أبوه وهو على حال غضبه فيختلّ ملكه، ونزل طاعته، فأرسل إلى أبي الفتح بن العميد، وزير والده، يطلب منه أن يتوصل مع أبيه وإحضاره عنده، وأن يعهد إليه بالملك بعده. فعسى أبو الفتح في ذلك، فأجابه إليه ركن الدولة، وكان قد وجد في نفسه خفة، فسار من الري إلى أصبهان، فوصلها في جمادى الأولى سنة خمس وستين وثلاثمائة، وأحضر ولده عضد الدولة من فارس، وجمع عنده أيضاً سائر أولاده بأصبهان، فعمل أبو الفتح بن العميد دعوة عظيمة حضرها ركن الدولة وأولاده، والقواد والأجناد.

فلما فرغوا من الطعام عهد ركن الدولة إلى ولده عضد الدولة بالملك بعده، وجعل لولده فخر الدولة أبي الحسن علي همدان وأعمال الجبل، ولولده مؤيد (٦٧٠/٨) الدولة أصبهان وأعمالها،

كبيراً، وسار إلى سجلماسة، فلقبه صاحبها في رمضان فقتله خزرون، وملك سجلماسة، وأخذ منها، من الأموال والعدد، شيئاً كثيراً، وبعث برأس صاحبها إلى الأندلس، وعظم شأن زناته، واشتد ملكهم.

وكان بلكنين عند سبّنة، وكان قد رحل إلى فاس وسجلماسة وأرض الهبط، وملكه كله، وطرد عنه عمال بني أمية وهربت زناته منه، فلجأ كثير منهم إلى سبّنة، وهي للأموي صاحب الأندلس، وكان في طريقه شَعَارِي مشبّكة، ولا تُسَلَك، فأمر بقطعها وإحراقها، ففُطِعت وأُحرقت حتى صارت (٦٦٦/٨) للعسكر طريقاً.

ثم مضى بنفسه حتى أشرف على سبّنة من جبل مطل عليها، فوقف نصف نهار لينظر من أي جهة يحاصرها ويقاثلها، فرأى أنها لا تؤخذ إلا بأسطول، فخافه أهلها خوفاً عظيماً، ثم رجع عنها نحو البصرة، وهي مدينة حسنة تسمى بصرة في المغرب، فلما سمعت به زناته رحلوا إلى أقاصي الغرب في الرمال والصحاري هاربين منه، فدخل يوسف البصرة، وكان قد عمّرها صاحب الأندلس عمارة عظيمة، فأمر بهدمها، ونهبها، ورحل إلى بلد برغواطة.

وكان ملكهم عبس بن أم الأنصار، وكان مشعبذاً، ساحراً، وأدعى النبوة، فاطاعوه في كل ما أمرهم به، وجعل لهم شريعة، فغزا بلكنين، وكانت بينهم حروب عظيمة لا توصف، كان الظفر في آخرها لبلكنين، وقتل الله عبس بن أم الأنصار، وهزم عساكره، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وسبي من نساءهم وأبنائهم ما لا يحصى، وسبّره إلى إفريقية، فقال أهل إفريقية: إنه لم يدخل إليهم من السبي مثله قط؛ وأقام يوسف بلكنين بتلك الناحية قاهراً لأهلها، وأهل سبّنة منه خائفون، وزناته هاربون في الرمال إلى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

ذكر حصر كَسْتة وغيرها

في هذه السنة سار أمير صقلية، وهو أبو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي الحسين، في عساكر المسلمين، ومعه جماعة من الصالحين والعلماء، فنازل مدينة (٦٦٧/٨) مَسِينِي في رمضان، فهرب العدو عنها، وعدا المسلمون إلى كَسْتة فحصرها أياماً، فسأل أهلها الأمان، فأجابهم إليه، وأخذ منهم مالاً، ورحل عنها إلى قلعة جلوا، ففعل كذلك بها وبغيرها، وأمر أخاه القاسم أن يذهب بالأسطول إلى ناحية بربولة وبيت السرايا في جميع قُلُورِيّة، ففعل ذلك فغنم غنائم كثيرة، وقتل وسبي، وعاد هو وأخوه إلى المدينة.

فلما كان سنة ست وستين وثلاثمائة أمر أبو القاسم بعمارة رمطة، وكانت قد خربت قبل ذلك، وعاود الغزو وجمع الجيوش، وسار فنازل قلعة إغاثة، فطلب أهلها الأمان فأمنهم، وسلّموا إليه

وجعلهما في هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة.

وخلع عضد الدولة على سائر الناس، وذلك اليوم، الأقيسة والأكسية على زي الديلم، وحيّاه القواد وإخوته بالريحان على عادتهم مع ملوكهم، وأوصى ركن الدولة أولاده بالاتفاق وترك الاختلاف، وخلع عليهم.

ثم سار عن أصبهان في رجب نحو الري، فدام مرضه إلى أن توفي فأصيب به الدين والدنيا جميعاً لاستكمال جميع خلال الخير فيه، وكان عمره قد زاد على سبعين سنة، وكانت إمارته أربعاً وأربعين سنة.

ذكر بعض سيرته

كان حليماً، كريماً واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه وجنده رؤوفاً بهم عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمة، عظيم الجد والسعادة، متحرّجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء، يرى حقها واجباً إلا فيما لا بد منه؛ وكان يحمي على أهل البيوتات، وكان يجري عليهم الأرزاق، ويصونهم عن التبدل، وكان يقصد المساجد الجامعة، في أشهر الصيام، للصلاة، ويتصب لرد المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق بالأموال الجلية على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام.

قال له بعض أصحابه في ذلك وذكر له شدة مرداويج على أصحابه، فقال: انظر كيف اخترم، ووثب عليه أخص أصحابه به، وأقربهم منه (٦٧١/٨) لعنفه وشدته، وكيف عمّرت، وأحبّني الناس للين جاني.

وحكي عنه أنه سار في سفر، فنزل في خروكة قد ضربت له قبل أصحابه، وقدم إليه طعام، فقال لبعض أصحابه: لأي شيء قيل في المثل: خير الأشياء في القرية الإمارة؟ فقال صاحبه: لقعودك في الخروكة والطعام، فانظر إلى هذا الخلق ما أحسنه وما أجمله.

وفي فعله حادثة بختيار ما يدل على كمال مروءته، وحسن عهده وصلته لرحمه، رضي الله عنه وأرضاه، وكان له حسن عهد ومودة وإقبال.

ذكر مسير عضد الدولة إلى العراق

في هذه السنة تجهّز عضد الدولة وسار يطلب العراق لما كان يبلغه عن بختيار وابن بَقِيّة من استمالة أصحاب الأطراف كحسنيوه الكردي، وفخر الدولة بن ركن الدولة، وأبي تغلب بن حمدان، وعمران بن شاهين، وغيرهم، والاتفاق على معاداته، ولما كانا يقولانه من الشتم القبيح له، ولما رأى من حسن العراق وعظم مملكته إلى غير ذلك.

وانحدر بختيار إلى واسط على عزم محاربة عضد الدولة، وكان حسنيوه وعده أنه يحضر نفسه لنصرته، وكذلك أبو تغلب بن حمدان، فلم يفِ له واحد منهما.

(٦٧٢/٨) ثم سار بختيار إلى الأهواز، أشار بذلك ابن بَقِيّة، وسار عضد الدولة من فارس نحوهم، فالتقوا في ذي القعدة واقتلوا، فخامر على بختيار بعض عسكره، وانتقلوا إلى عضد الدولة، فانهزم بختيار، وأخذ ماله ومال ابن بَقِيّة، ونهبت الأقاليم وغيرها؛ ولما وصل بختيار إلى واسط حمل إليه ابن شاهين صاحب البطيحة مالا، وسلاحاً، وغير ذلك من الهدايا النفيسة، ودخل بختيار إليه، فأكرمه، وحمل إليه مالا جليلاً، وأعلاقاً نفيسة، وعجب الناس من قول عمران: إن بختيار سيدخل منزلي وسيستجير بي؛ فكان كما ذكر. صم أصعد بختيار إلى واسط.

وأما عضد الدولة فإنه سَير إلى البصرة جيشاً فملوكها. وسبب ذلك أن أهلها اختلفوا، وكانت مضر تهوى عضد الدولة، وتميل إليه لأسباب قرّرها معهم، وخالفتهم ربيعة، ومالت بختيار، فلما انتهزم ضعفوا، وقويت مضر، وكاتبوا عضد الدولة، وطلبوا منه إنفاذ جيش إليهم، فسَير جيشاً تسلّم البلد أقام عندهم.

وأقام بختيار بواسط، وأحضر ما كان له ببغداد والبصرة من مال وغيره ففرقه في أصحابه، ثم إنه قبض على ابن بَقِيّة لأنه أطرحه واستبدّ بالأمور دونه، وجبى الأموال إلى نفسه، ولم يوصل إلى بختيار منها شيئاً، وأراد أيضاً التقرّب إلى عضد الدولة بقبضه لأنه هو الذي كان يفسد الأحوال بينهم.

ولما قبض عليه أخذ أمواله ففرقها، وراسل عضد الدولة في الصلح، وتردّدت الرسل بذلك، وكان أصحاب بختيار يختلفون عليه؛ فبعضهم يشير به، وبعضهم ينهى عنه، ثم إنه أناه عيد الرزاق ويدر ابنا حسنيوه في نحو ألف فارس معونة له، فلما وصلا إليه أظهر المقام بواسط ومحاربة عضد الدولة. (٦٧٣/٨) فاتصل بعضد الدولة أنه نقض الشرط، ثم بدا لبختيار في المسير، فسار إلى بغداد، فعاد عنه ابنا حسنيوه إلى أبيهما، وأقام بختيار ببغداد، وانقضت السنة وهو بها، وسار عضد الدولة إلى واسط، ثم سار منها إلى البصرة، فأصلح بين ربيعة ومضر، وكانوا في الحروب والاختلاف نحو مائة وعشرين سنة.

ومن عجيب ما جرى لبختيار في هذه الحادثة أنه كان له غلام تركي يميل إليه، فأخذ في جملة الأسرى، وانقطع خبره عن بختيار، فحزن لذلك، وامتنع من لذاته والاهتمام بما رُفِع إليه من زوال ملكه وذهاب نفسه، حتى قال على رؤوس الأشهاد: إن فجيعتي بهذا الغلام أعظم من فجيعتي بذهاب ملكي؛ ثم سمع أنه في جملة الأسرى، فأرسل إلى عضد الدولة يذلل له ما أحبّ في ردّه إليه،

بسقيانا، إذا خُشع جِيار الأرض رحم جبار السماء؛ فخرج واستسقى بالناس، فلما صعد المنبر ورأى الناس قد شخصوا إليه بأبصارهم قال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام: ٥٤] الآية، وكرهها، فضج الناس بالبكاء والتوبة، وتَمَّ خطبته فسقى الناس.

ذكر القبض على أبي الفتح بن العميد

في هذه السنة قبض عضد الدولة على أبي الفتح بن العميد، وزير أبيه، وسمل عينه الواحدة وقطع أنفه.

وكان سبب ذلك أن أبا الفتح لما كان ببغداد مع عضد الدولة، على ما شرحناه، وسار عضد الدولة نحو فارس تقدّم إلى أبي الفتح بتعجيل المسير عن بغداد إلى الري، فخالفه وأقام، وأعجبه المقام ببغداد، وشرب مع بختيار، ومال في هواه، واقتنى ببغداد أملكاً ودوراً على عزم العود إليها إذا مات ركن الدولة، ثم صار يكاتب بختيار بأشياء يكرها عضد الدولة.

(٦٧٦/٨) وكان له نائب يعرضها على بختيار، فكان ذلك النائب يكاتب بها عضد الدولة ساعة فساعة، فلما ملك عضد الدولة، بعد موت أبيه، كتب إلى أخيه فخر الدولة بالري يأمره بالقبض عليه وعلى اهله وأصحابه، ففعل ذلك، وانتقل بيت العميد على يده كما ظنّه أبوه أبو الفضل.

وكان أبو الفتح ليلة قبض قد أمسى مسروراً، فأحضر الندماء والمغنين، وأظهر من الآلات الذهبية، والزجاج المليح، وأنواع الطيب ما ليس لأحد مثله، وشربوا، وعمل شعراً وغني له فيه وهو:

دعوتُ المنى ودعوتُ العلى فلما أجابا دعوتُ القنخ
وقلتُ لأَيامِ شرخِ الشبابِ إليّ فهنا أو أن القنخ
إذا بلغ المرأةَ أمالُك فليس له بغتها مُنخِخ
فلما غني في الشعر استطابه، وشرب عليه إلى أن سكر، وقام وقال لغلمانه: اتركوا المجلس على ما هو عليه لنصطبح غداً؛ وقال لندمائه: بكرّوا إلى غداً لنصطبح، ولا تسأخروا. فانصرف الندماء، ودخل هو إلى بيت منامه، فلما كان السحر دعاه مؤيد الدولة فقبض عليه، وأرسل إلى داره فأخذ جميع ما فيها ومن جملة ذلك المجلس بما فيه. (٦٧٧/٨)

ذكر وفاة الحاكم وولاية ابنه هشام

وفي هذه السنة توفي الحاكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن المستنصر بالله الأموي، صاحب الأندلس، وكانت إمارته خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وعمره ثلاثاً وستين سنة وسبعة أشهر، وكان أصهب أعين، أفتى، عظيم الصوت، ضخم الجسم، أققم، وكان محباً لأهل العلم،

فأعاده عليه، وسارت هذه الحادثة عنه، فازداد فضيحة وهواناً عند الملوك وغيرهم.

ذكر وفاة منصور بن نوح وملك ابنه نوح

في هذه السنة مات الأمير منصور بن نوح صاحب خراسان، وما وراء النهر، منتصف شوال، وكان موته ببخارى، وكانت ولايته خمس عشرة سنة، وولي الأمر بعده ابنه أبو القاسم نوح، وكان عمره حين ولي الأمر ثلاث عشرة سنة، ولقب بالمنصور. (٦٧٤/٨)

ذكر وفاة القاضي منذر البلوطي

في هذه السنة، في ذي القعدة، مات القاضي منذر بن سعيد البلوطي، أبو الحاكم قاضي قضاة الأندلس، وكان إماماً فقيهاً، خطيباً، شاعراً فصيحاً، ذا دين متين، دخل يوماً على عبد الرحمن الناصر، صاحب الأندلس، بعد أن فرغ من بناء الزهراء وقصورها، وقد قعد في قبة مزخرفة بالذهب، والبناء البديع الذي لم يسبق إليه، ومعه جماعة من الأعيان، فقال عبد الرحمن الناصر: هل بلغكم أن أحداً بنى مثل هذا البناء؟ فقال له الجماعة: لم نر، ولم نسمع بمثله؛ وأثنوا، وبألغوا، والقاضي مطروق، فاستنطقه عبد الرحمن، فبكى القاضي، وانحدرت دموعه على لحيته، وقال: واللّه ما كنت أظن أن الشيطان، أخزاه الله تعالى، يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكّنه من قيادك هذا التمكن، مع ما أتاك الله، وفصلك به حتى أنزلك منازل الكافرين.

فقال له عبد الرحمن: انظر ما تقول، وكيف أنزلني منزل الكافرين؟

فقال: قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ، وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ، وَزُخْرُفًا﴾، إلى قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾. [الزخرف: ٣٣-٣٥]

فوجم عبد الرحمن وبكى، وقال: جزاك الله خيراً، وأكثر في المسلمين مثلك.

وأخبار هذا القاضي كثيرة حسنة جداً، منها: أنه قحط الناس وأرادوا (٦٧٥/٨) الخروج للاستسقاء، فأرسل إليه عبد الرحمن يأمره بالخروج، فقال القاضي للرسول: يا ليت شعري ما الذي يصنعه الأمير يومنا هذا؟ فقال: ما رأيته قط أخشع منه الآن، قد لبس خشن الثياب واقتصر التراب، وجعله على رأسه ولحيته، وبكى، واعترف بذنوبه، ويقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذب هذا الخلق لأجلني؟

فقال القاضي: يا غلام احمل الممطر معك، فقد أذن الله

عالمًا، فقيهاً في المذاهب، عالماً بالأنساب والتواريخ، جمعاً للكتب والعلماء، مكرماً لهم، محسناً إليهم، أحضرهم من البلدان البعيدة ليستفيد منهم ويحسن إليهم.

ولما توفي ولي بعده ابنه هشام بعهد أبيه، وله عشر سنين، ولُقِّب المؤيد بالله، واختلفت البلاد في أيامه، وأخذ وحُبس، ثم عاد إلى الإمارة.

ومسببه أنه لما ولي المؤيد تحجَّب له المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافري، وابناه المظفر والناصر، فلما حجَّج له أبو عامر حجَّبه عن الناس، فلم يكن أحد يراه، ولا يصل إليه، وقام بأمر دولته القيام المرضي، وعدل في الرعية، وأقبلت الدنيا إليه، واشتغل بالغزو، وفتح من بلاد الأعداء كثيراً، وأمتلات بلاد الأندلس بالغنائم والريق، وجعل أكثر جنده منهم كواضع الفتى وغيره من المشهورين، وكانوا يُعرفون بالعامريين.

وأدام الله له الحال ستاً وعشرين سنة، غزا فيها اثنتين وخمسين غزاة ما بين صائفة وشائية، وتوفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وكان حازماً، قوي العزم، كثير العدل والإحسان، حسن السياسة.

(٦٧٨/٨) فمن محاسن أعماله: أنه دخل بلاد الفرنج غازياً، فجاز الدرب إليها، وهو مضيق بين جبلين، وأوغل في بلاد الفرنج يسي، ويخرَّب، ويغتم، فلما أراد الخروج رآهم قد سدوا الدرب، وهم عليه يحفظونه من المسلمين، فأظهر أنه يريد المقام في بلادهم، وشرع هو وعسكره في عمارة المساكن وزرع الغلات، وأحضروا الحطب، والتبن، والميرة، وما يحتاجون إليه، فلما رأوا عزمه على المقام مالوا إلى السلم، فراسلوه في ترك الغنائم والجواز إلى بلاده، فقال: أنا عازم على المقام، فتركوا الغنائم، فلم يجبهم إلى الصلح، فبذلوا له مالاً، ودواب تحمل له ما غنمه من بلادهم، فأجابهم إلى الصلح، وفتحوا له الدرب، فجاز إلى بلاده.

وكان أصله من الجزيرة الخضراء، وورد شاباً إلى قرطبة، طالباً للعلم والأدب وسماع الحديث، فبرع فيها وتميَّز، ثم تعلَّق بخدمة صُبيح والدة المؤيد، وعظم محله عندها، فلما مات الحاكم المستنصر كان المؤيد صغيراً، فخيف على الملك أن يختل، فضمن لصُبيح سكون البلاد، وزوال الخوف، وكان قوي النفس، وساعدته المقادير، وأمدته الأمراء بالأموال، فاستمال العساكر، وجرت الأمور على أحسن نظام.

وكانت أمه تميمية، وأبوه معافرياً، بطن من حمير، فلما توفي ولي بعده ابنه عبد الملك الملقَّب بالمظفر، فسار كسيرة أبيه وتوفي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، فكانت ولايته سبع سنين.

وكان سبب موته أن أخاه عبد الرحمن سمَّه في تفاحة قطعها بسكين كان قد سمَّ أحد جانبيها، فناول أخاه ما يلي الجانب المسموم، وأخذ ما يلي الجانب الصحيح، فأكله بحضرته، فاطمان المظفر، وأكل ما بيده منها فمات.

(٦٧٩/٨) فلما توفي ولي بعده أخوه عبد الرحمن الملقَّب بالناصر، فسلك غير طريق أبيه وأخيه، وأخذ في المجون، وشرب الخمر، وغير ذلك، ثم دسَّ إلى المؤيد من خوفه منه إن لم يجعله وليَّ عهده ففعل ذلك، فحقَّد الناس وينو أمية عليه ذلك، وأبغضوه، وتحركوا في أمره إلى أن قُتل.

وغزا شائية، وأوغل في بلاد الجلائقة، فلم يقدم ملكها على لقاءه، وتحصَّن منه في رؤوس الجبال، ولم يقدر عبد الرحمن على اتباعه لزيادة الأنهار، وكثرة الثلوج، فأنخن في البلاد التي وطنها، وخرج موفوراً، فبلغه في طريقه ظهور محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله بقرطبة، واستيلاؤه عليها، وأخذه المؤيد أسيراً، ففرَّق عنه عسكره، ولم يبقَ معه إلا خاصته، فسار إلى قرطبة ليتلافى ذلك الخطب، فخرج إليه عسكر محمد بن هشام فقتلوه وحملوا رأسه إلى قرطبة فطافوا به؛ وكان قتله سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، ثم صلبوه.

ذكر ظهور محمد بن هشام بقرطبة

وفي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ظهر بقرطبة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي، ومعه اثنا عشر رجلاً، فباعه الناس، وكان ظهوره سلبخ جنادي الآخرة، وتلقَّب بالمهدي بالله، وملك قرطبة، وأخذ المؤيد فحبسه معه في القصر، ثم أخرجه وأخفاه، وأظهر أنه مات.

وكان قد مات إنسان نصراني يشبه المؤيد، فأبرزه للناس في شعبان من هذه السنة، وذكر لهم أنه المؤيد، فلم يشكوا في موته، وصلُّوا عليه، ودفنوه في مقابل المسلمين، ثم إنه أظهره، على ما نذكره، وأكذب نفسه، فكانت مدة (٦٨٠/٨) ولاية المؤيد هذه إلى أن حُيِس ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، ونقم الناس على ابن عبد الجبار أشياء منها أنه كان يعمل التبيد في قصره، فسَمَّوْهُ تَبَاداً، ومنها فعله بالمؤيد، وأنه كان كذاباً، متلوئاً، مُبغضاً للبربر، فانقلب الناس عليه.

ذكر خروج هشام بن سليمان عليه

لما استوحش أهل الأندلس من ابن عبد الجبار، وأبغضوه، قصدوا هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، فأخرجوه من داره وباعوه فتلقَّب بالرشيد، وذلك لأربعين بقين من شوال سنة تسع وتسعين [وثلاثمائة]. واجتمعوا بظواهر قرطبة،

وحصروا ابن عبد الجبار، وتردّدت الرسل بينهم ليخلع ابن عبد الجبار من الملك على أن يؤمنه وأهله وجميع أصحابه.

ثم إن ابن عبد الجبار جمع أصحابه وخرج إليهم فقاتلهم، فانهزم هشام وأصحابه، وأخذ هشام أسيراً، فقتله ابن عبد الجبار، وقتل معه عدة من قواده، واستقرّ أمر ابن عبد الجبار، وكان عمّ هشام.

ذكر خروج سليمان عليه أيضاً

ولما قتل ابن عبد الجبار هشام بن سليمان بن الناصر وانهزم أصحابه انهزم معهم سليمان بن الحاكم بن سليمان بن الناصر، وهو ابن أخي هشام المقتول، فبايعه أصحاب عمّه، وأكثرهم البربر، بعد الوقعة بيومين، ولقبوه (٦٨١/٨) المستعين بالله، ثم لُقّب بالظاهر بالله وساروا إلى النصارى فصالحوهم واستجدوهم وأنجدوهم وساروا معهم إلى قرطبة، فاقتتلوا هم وابن عبد الجبار بقتيج، وهي الوقعة المشهورة غزوا فيها، وقتل ما لا يحصى، فانهزم ابن عبد الجبار، وتحصّن بقصر قرطبة، ودخل سليمان البلد، وحصره في القصر.

فلما رأى ابن عبد الجبار ما نزل به أظهر المؤيد ظناً منه أنه يُخلع هو وسليمان ويرجع الأمر إلى المؤيد، فلم يوافق أحد ظناً منهم أن المؤيد قد مات. فلما أعياه الأمر احتال في الهرب، فهرب سرّاً واختفى، ودخل سليمان القصر، وبايعه الناس بالخلافة في شوال سنة أربعمائة، وبقي بقرطبة أياماً، وكان عدة القتلى بقتيج نحو خمسة وثلاثين ألفاً، وأغار البربر والروم على قرطبة فنهبوا وسبوا وأسروا عدداً عظيماً.

ذكر عود ابن عبد الجبار وقله وعود المؤيد

لما اختفى ابن عبد الجبار سار سرّاً إلى طليطلة، وأتاه واضح الفتى العامري في أصحابه، وجمع له النصارى وسار بهم إلى قرطبة، فخرج إليهم سليمان فالتقوا بقرب عقبة البقر، واقتتلوا أشد قتال، فانهزم سليمان ومن معه منتصف شوال سنة أربعمائة، ومضى سليمان إلى شاطبة، ودخل ابن عبد الجبار قرطبة وجنّد البيعة لنفسه، وجعل الحجابة لواضح وتصرف بالاختيار.

ثم إن جماعة من الفتيان العامريين، منهم عنبر، وخيرون، وغيرهما، (٦٨٢/٨) كانوا مع سليمان، فأرسلوا إلى ابن عبد الجبار يطلبون قبول طاعتهم، وأن يجعلهم في جملة رجاله، فأجابهم إلى ذلك، وإنما فعلوا ذلك مكيده به ليقتلوه، فلما دخلوا قرطبة استمالوا واضحاً فأجابهم إلى قتله، فلما كان تاسع ذي الحجة سنة أربعمائة اجتمعوا في القصر فملكوه، وأخذوا ابن عبد الجبار أسيراً، وأخرجوا المؤيد بالله فأجلسوه مجلس الخلافة وبايعوه، وأحضروا

ابن عبد الجبار بين يديه، فعذّذ ذنوبه عليه، ثم قُتل، وطيف برأسه في قرطبة، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وأمّه أم ولد.

وكان ينبغي أن نذكر هذه الحوادث متأخرة، وإنما قدّمناها لتعلّق بعضها ببعض، ولأن كل واحد منهم ليس له من طول المدة ما تؤخّر أخباره وتفرّق.

ذكر عود أبي المعالي بن سيف الدولة إلى ملك حلب

في هذه السنة عاد أبو المعالي شريف بن سيف الدولة بن حمدان ملك حلب.

وكان سببه أن قرغويه لما تغلّب عليها أخرج منها مولاه أبا المعالي، كما ذكرناه سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، فسار أبو المعالي إلى والدته بميفارقين، ثم أتى حماة، وهي له، فنزل بها، وكانت الروم قد خربت حمص وأعمالها، وقد ذكر أيضاً، فنزل إليه يارقاتش مولى أبيه وهو يحصن (٦٨٣/٨) برزويه، وخدمه، وعمر له مدينة حمص، فكثر أهلها.

وكان قرغويه قد استتاب بحلب مولى له اسمه بكجور، فقوي بكجور، واستفحل أمره، وقبض على مولاه قرغويه، وجسه في قلعة حلب، وأقام بها نحو ست سنين، فكتب من بحلب من أصحاب قرغويه إلى أبي المعالي بن سيف الدولة ليقتصد حلب ويملكها، فسار إليها، وحصرها أربعة أشهر، وملكها.

وبقيت القلعة بيد بكجور، فتردّدت الرسل بينهما، فأجاب إلى التسليم على أن يؤمنه في نفسه وأهله وماله ويؤليه حمص، وطلب بكجور أن يحضر هذا الأمان والمهد وجوه بني كلاب، ففعل أبو المعالي ذلك، وأحضرهم الأمان والمهد، وسلم قلعة حلب إلى أبي المعالي، وسار بكجور إلى حمص فوليها لأبي المعالي، وصرف همتّه إلى عمارتها، وحفظ الطرق، فازدادت عمارتها، وكثر الخير بها، ثم انتقل منها إلى ولاية دمشق، على ما تذكره سنة ست وسبعين وثلاثمائة.

ذكر ابتداء دولة آل سبكتكين

في هذه السنة ملك سبكتكين مدينة غزنة وأعمالها، وكان ابتداء أمره أنه كان من غلمان أبي إسحاق بن اليكتين، صاحب جيش غزنة للسامانية، وكان مقدماً عنده، وعليه مدار أمره، وقدم إلى بخارى، أيام الأمير منصور (٦٨٤/٨) ابن نوح، مع أبي إسحاق، فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل، والعفة، وجودة الرأي والصرامة، وعاد معه إلى غزنة، فلم يلبث أبو إسحاق أن توفي، ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم، فاجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم، ويجمع كلمتهم، فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين، لما عرفوه من عقله، ودينه، ومروءته، وكمال خلال الخير فيه، فقدّموه

ولما رأى جييال ملك الهند ما دعهما، وأن بلاده تُملك من أطرافها، أخذها ما قَدُم وحُدث، فحشد وجمع واستكثر من الفيول، وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين، وقد بياض الشيطان في رأسه وفرّخ، فسار سبكتكين عن غزنة إليه ومعه عساكره وخلق كثير من المتطوعة، فالتقوا واقتتلوا أياماً كثيرة، وصبر الفريقان.

وكان بالقرب منهم عَقَبَة غورك، وفيها عين ماء لا تقبل نجساً ولا قَدراً، وإذا ألقي فيها شيء من ذلك اكفهرت السماء، وهبت الرياح، وكثر الرعد والبرق والأمطار، ولا تزال كذلك إلى أن تظهر من الذي ألقي فيها، فأمر سبكتكين بإلقاء نجاسة في تلك العين، فجاء الغيم والرعد والبرق، وقامت القيامة على الهنود لأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وتوالت عليهم الصواعق والأمطار، واشتد البرد، حتى هلكوا، وعميت عليهم المذاهب، واستسلموا لشدة ما عاينوه.

وأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب الصلح، وترددت الرسل، فأجابهم إليه بعد امتناع من ولده محمود، على مال يؤديه، ويلاذ يسلّمها، وخمسين فيلاً يحملها إليه، فاستقر ذلك، ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد، وسير معه سبكتكين من يتسلّمها، فإن المال والفيلة كانت (٦٨٧/٨) معجلة، فلما أبعد جييال ملك الهند قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه.

فلما سمع سبكتكين بذلك جمع العساكر وسار نحو الهند، فأخرب كل ما مر عليه من بلادهم، وقصد لمغان، وهي من أحصن قلاعهم، فافتتحها عنوةً وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعار الإسلام، وسار عنها يفتح البلاد، ويقتل أهلها، فلما بلغ ما أراد عاد إلى غزنة.

فلما بلغ الخبر إلى جييال سقط في يده، وجمع العساكر وسار في مائة ألف مقاتل، فلقية سبكتكين، وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود، ففعلوا ذلك، فضجر الهنود من دوام القتال معهم، وحملوا حملة واحدة، فعند ذلك اشتد الأمر وعظم الخطب، وحمل أيضاً المسلمون جميعهم، واختلط بعضهم ببعض، فانهزم الهنود، وأخذهم السيف من كل جانب، وأسر منهم ما لا يُعد، وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة.

وذَلَّ الهنود بعد هذه الواقعة، ولم يكن لهم بعدها راية، ورضوا بأن لا يُطلبوا في أقاصي بلادهم، ولَمَّا قَوِيَ سبكتكين، بعد هذه الواقعة، أطاعه الأفغانية والخلج وصاروا في طاعته.

ذكر ملك قابوس بن وشمكير جُرجان

في هذه السنة توفي ظهير الدولة بيستون بن وشمكير بجُرجان؛ وكان قابوس أخوه زائراً خاله رستم بجبل شهریار؛ وخلف بيستون

عليهم، وولوه أموره، وحلفوا له، وأطاعوه، فوليه، واحسن السيرة فيهم، وساس أموره مياسة حسنة، وجعل نفسه كأحدكم في الحال والمال، وكان يذخر من أقطاعه ما يعمل منه طعاماً لهم في كل أسبوع مرتين.

ثم إنه جمع العساكر وسار نحو الهند مجاهدًا، وجرى بينه وبين الهنود حروب يشيب لها الوليد، وكشف بلادهم، وشن الغارات عليها، وطمع فيها، وخافه الهنود، ففتح من بلادهم حصوناً ومعاقل، وقتل منهم ما لا يدخل تحت الإحصاء.

واتفق له في بعض غزواته أن الهنود اجتمعوا في خلق كثير، وطاولوه الأيام، وماطلوه القتال، فعدم الزاد عند المسلمين، وعجزوا عن الامتياز، فشكوا إليه ما هم فيه، فقال لهم: إني استصحبْتُ لنفسي شيئاً من السوق استظهاراً، وأنا أقسمه بينكم قسمة عادلة على السواء إلى أن يمن الله بالفرج؛ فكان يعطي كل إنسان منهم ملة قدح معه، ويأخذ لنفسه مثل أحدكم، فيجتزئ به يوماً وليلة، وهم مع ذلك يقاتلون الكفار، فرزقهم الله النصر عليهم والظفر بهم، فقتلوا منهم وأسروا خلقاً كثيراً. (٦٨٥/٨)

ذكر ولاية سبكتكين على قُصدار بُست

ثم إن سبكتكين عظم شأنه، وارتفع قدره، وحسن بين الناس ذكره، وتعلقت الأطماع بالاستعانة به، فأتاه بعض الأمراء الكبار، وهو صاحب بُست واسمه طغان، مستعيناً به مستنصراً.

وسبب ذلك أنه خرج عليه أمير يُعرف ببابي تور، فملك مدينة بُست عليه، وأجلاه عنها بعد حرب شديدة، فقصد سبكتكين مستنصراً به، وضمن له مالاً مقرراً، وطاعة يذلها له، فتجهز وسار معه حتى نزل على بُست، وخرج إليه بابي تور، فقاتله قتالاً شديداً، ثم انهزم بابي تور وتفرق هو وأصحابه وتسلّم طغان البلد.

فلما استقر فيه طالبه سبكتكين بما استقر عليه من المال، فأخذ في المثل، فأغلظ له في القول لكثرة مطلبه، فحمل طغان جهله على أن سلّ السيف فضرب يد سبكتكين فجرّحها، فأخذ سبكتكين السيف وضربه أيضاً فجرّحه، وحجز العسكر بينهما، وقامت الحرب على ساق، فانهزم طغان واستولى سبكتكين على بُست.

ثم إنه سار إلى قُصدار، وكان متولّيها قد عصى عليه لصعوبة مسالكها، وحصانتها، وظن أن ذلك يمنعه، فسار إليه جريدةً مجنداً، فلم يشعر إلا والخيّل معه، فأخذ من داره، ثم إنه من عليه وردّه إلى ولايته، وقرّر عليه مالاً يحمله إليه كل سنة. (٦٨٦/٨)

ذكر مسير الهند إلى بلاد الإسلام وما كان منهم مع سبكتكين

لما فرغ سبكتكين من بُست وقُصدار غزا الهند، فافتتح قلاعاً حصينة على شواطئ الجبال، وعاد سالماً ظافراً.

ابناً صغيراً بطبرستان (٦٨٨/٨) مع جده لأمه، فطمع جده أن يأخذ الملك، فبادر إلى جرجان، فرأى بها جماعة من القواد قد مالوا إلى قابوس، فقبض عليهم، وبلغ الخبر إلى قابوس فسار إلى جرجان، فلما قاربها خرج الجيش إليه، وأجمعوا عليه، وملكوه، وهرب من كان مع ابن بيستون، فأخذه عمه قابوس وكفله، وجعله أسوة أولاده، واستولى على جرجان وطبرستان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الأولى، نُقلت ابنة عز الدولة بختيار إلى الطائع لله، وكان تزوجها.

وفيها توفي أبو الحسن محمد بن عبد الله بن زكرياء بن حيويه في رجب.

وفي صفر منها توفي أبو الحسن علي بن وصيف الناشئ المعروف بالخلال، صاحب المراثي الكثيرة في أهل البيت.

وفيها توفي أبو يعقوب يوسف بن الحسن الجنابي صاحب هجر، وكان مولده سنة ثمانين ومائتين، وتولى أمر القرامطة بعده ستة نفر شركة، وسُموا السادة، وكانوا متفقين. (٦٨٩/٨)

سنة سبع وستين وثلاثمائة

ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق

في هذه السنة سار عضد الدولة إلى بغداد، وأرسل إلى بختيار بدعوه إلى طاعته، وأن يسير عن العراق إلى أي جهة أراد، وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مال وسلاح وغير ذلك.

فاختلف أصحاب بختيار عليه في الإجابة إلى ذلك، إلا أنه أجاب إليه لضعف نفسه، فأئذ له عضد الدولة خلعة، فلبسها، وأرسل إليه يطلب منه ابن بَقِيَّة قلع عينيه وأنفذه إليه.

وتجهز بختيار بما أنفذه إليه عضد الدولة، وخرج عن بغداد عازماً على قصد الشام، وسار عضد الدولة فدخل بغداد، وخطب له بها، ولم يكن قبل ذلك يُخطب لأحد ببغداد، وضرب على بابه ثلاث نوب، ولم تجر بذلك عادة مَنْ تقدّمه، وأمر بأن يُلقى ابن بَقِيَّة بين قوائم الفيلة لقتله، ففعل به ذلك، وخطبته الفيلة حتى قتلتها، وصُلب على رأس الجسر في شوال من هذه السنة، (٦٩٠/٨) فرتاه أبو الحسين الأنباري بأبيات حسنة في معناها وهي:

علو في الحياة وفي الممات
لحق تلك إحدى المعجزات
كان الناس حولك حين قاموا
وفود نساك أيام الصّلات
كأنك قائم فيهم خطيباً،
وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم اقتفاء،
كمنعنا إليهم في الهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن
يضم غلاك من بعد الممات

أصاروا الجوق قبلك، واستأبوا
لغظبك في الفوس تيت ترعى
وتشعل عندك النيران ليلاً
كذلك كنت أيام الحياة
ولم أزل قبل جذعك قطعاً جذعاً
تمكن من عناق المكومات
ركبت مطية من قبل زبد
علاها في السنين النامبات

وهي كثيرة؛ قوله زيد علاها يعني زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، لما قُتل وصُلب أيام هشام بن عبد الملك، وقد ذُكر؛ وبقي ابن بَقِيَّة مصلوباً إلى أيام مصصام الدولة فأُنزِل من جذعه ودُفن. (٦٩١/٨)

ذكر قتل بختيار

لما سار بختيار عن بغداد عزم على قصد الشام ومعه حمدان بن ناصر الدولة ابن حمدان، فلما صار بختيار بعكبرا حسن له حمدان قصد الموصل، وكثرة أموالها، وأطمعه فيها، وقال إنها خير من الشام وأسهل.

فسار بختيار نحو الموصل، وكان عضد الدولة قد حلف أنه لا يقصد ولاية أبي تغلب بن حمدان لمودة ومكاتبة كانت بينهما، فنكث وقصدها، فلما صار إلى تكريت أته رسل أبي تغلب تسأله أن يقبض على أخيه حمدان ويسلمه إليه، وإذا فعل سار بنفسه وعساكره إليه، وقاتل معه عضد الدولة، وأعاده إلى ملكه بغداد، فقبض بختيار على حمدان وسلمه إلى نواب أبي تغلب، فحبسه في قلعة له، وسار بختيار إلى الحديثة، واجتمع مع أبي تغلب، وسارا جميعاً نحو العراق، وكان مع أبي تغلب نحو من عشرين ألف مقاتل.

وبلغ ذلك عضد الدولة، فسار عن بغداد نحوهما، فالتقوا بقصر الجص بنواحي تكريت ثامن عشر شوال، فهزمهما، وأسر بختيار، وأحضر عند عضد الدولة، فلم يأذن بإدخاله إليه، وأمر بقتله فقتل، وذلك بمشورة أبي الوفاء طاهر بن إبراهيم، وقتل من أصحابه خلق كثير، واستقر ملك عضد الدولة بعد ذلك، وكان عمر بختيار ستاً وثلاثين سنة، وملك إحدى عشرة سنة وشهوراً. (٦٩٢/٨)

ذكر استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان

لما انهزم أبو تغلب وبختيار سار عضد الدولة نحو الموصل، فملكها ثاني عشر ذي القعدة، وما يتصل بها، وظن أبو تغلب أنه يفعل كما كان غيره يفعل، يقيم سيزاً، ثم يضطر إلى المصالحة، ويعود.

وكان عضد الدولة أحزم من ذلك، فإنه لما قصد الموصل حمل معه الميرة والعلوفات، ومن يعرف ولاية الموصل وأعمالها، وأقام بالموصل مطمئناً، وبث السرايا في طلب أبي تغلب، فأرسل

أبو تغلب يطلب أن يضمن البلاد، فلم يجبه عضد الدولة إلى ذلك، وقال: هذه البلاد أحب إليّ من العراق.

وفيها سَيرَ العزيز بالله العلوي صاحب مصر وإفريقية أميراً على الموسم ليحج بالناس، وكانت الخطبة له بمكة، وكان الأمير على الموسم باديس بن زيري أخا يوسف بلكين، خليفته بإفريقية، فلما وصل إلى مكة أتاه اللصوص بها فقالوا له: نتقبّل منك الموسم بخمسين ألف درهم، ولا تعرض لنا؛ فقال لهم: أفعل ذلك، اجمعوا إليّ أصحابكم حتى يكون العقد مع جميعكم، فاجتمعوا فكانوا ثَمَانًا وَثَلَاثِينَ رجلاً، فقال: هل بقي منكم أحد؟ فحلفوا أنه لم يبق منهم أحد، فقطع أيديهم كلهم.

وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة، وغرقت كثيراً من الجانب الشرقي ببغداد، وغرقت أيضاً مقابر يساب التبن بالجانب الغربي منها، وبلغت السفينة أجرة وافرّة، واشرف الناس على الهلاك، ثم نقص الماء فأمنوا.

وفيها توفي القاضي أبو بكر محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن قُريّة، وله نوادر مجموعة، وعمره خمس وستون سنة.

وفيها خُلع على القاضي عبد الجبار بن أحمد بالري، وولي القضاء بها وبما تحت حكم مؤيد الدولة من البلاد، وهو من أئمة المعتزلة، ويرد في تراجم تصانيفه قاضي القضاة، ويعني به قاضي قضاة أعمال الري، وبعض من لا يعمل ذلك يظنه قاضي القضاة مطلقاً وليس كذلك. (٦٩٥/٨)

سنة ثمان وستين وثلاثمائة

ذكر فتح مِيفَارِقِينَ وآمد وغيرها من ديار بكر

على يد عضد الدولة

لما عاد أبو الوفاء من طلب أبي تغلب نازل مِيفَارِقِينَ، وكان الوالي عليها هزارد، فضبط البلد، وبالع في قتال أبي الوفاء ثلاثة أشهر، ثم مات هزارد، فكتب أبو تغلب بذلك، فأمر أن يقام مقامه غلام من الحمدانية اسمه مؤنس فولّي البلد، ولم يكن لأبي الوفاء فيه حيلة، فعدل عنه، وراسل رجلاً من أعيان البلد اسمه أحمد بن عبيد الله، واستماله فأجابه، وشرع في استمالة الرعية إلى أبي الوفاء، فأجابه إلى ذلك، وعظم أمره، وأرسل إلى مؤنس يطلب منه المفاتيح، فلم يمكنه منعه لكثرة أتباعه، فأفندّها إليه، وسأله أن يطلب له الأمان، فأرسل أحمد بن عبيد الله إلى أبي الوفاء في ذلك قائمته، وأمن سائر أهل البلد، ففتح له البلد وسلّمه إليه.

وكان أبو الوفاء مدة مقامه على مِيفَارِقِينَ قد بثّ سراياه في تلك الحصون المجاورة لها، فافتتحها جميعها، فلما سمع أبو

وكان مع أبي تغلب المرزبان بن بختيار، وأبو إسحاق، وأبو طاهر ابنا معز الدولة، ووالدتهما، وهي أم بختيار، وأسبابهم، فسار أبو تغلب إلى نصيبين، فسَيرَ عضد الدولة سرّية عليها حاجبه أبو حرب طغان إلى جزيرة ابن عمر، وسَيرَ في طلب أبي تغلب سرّية، واستعمل عليها أبا الوفاء طاهر ابن محمد، على طريق سنجار، فسار أبو تغلب مجدّاً، فبلغ مِيفَارِقِينَ، وأقام بها ومعه أهله، فلما بلغه مسير أبي الوفاء إليه سار نحو بدليس ومعه النساء وغيرهن من أهله، ووصل أبو الوفاء إلى مِيفَارِقِينَ، فأغلقت دونه، وهي حصينة منة من حصون الروم القديمة، وتركها وطلب أبا تغلب.

وكان أبو تغلب قد عدل من أرزن الروم إلى الحسنية من أعمال الجزيرة وصعد إلى قلعة كواشي وغيرها من قلاعها، وأخذ ما له فيها من الأموال، وعاد أبو الوفاء إلى مِيفَارِقِينَ وحصرها.

ولما اتصل بعضد الدولة مجيء أبي تغلب إلى قلاعها سار إليه بنفسه، فلم (٦٩٣/٨) يدركه، ولكنه استأنى إليه أكثر أصحابه، وعاد إلى الموصل، وسَيرَ في أثر أبي تغلب عسكرياً مع قائد من أصحابه يقال له طغان، فتعسّف أبو تغلب إلى بدليس، وظن أنه لا يتبعه أحد، فنبه طغان، فهرب من بدليس وقصد بلاد الروم ليتصل بملكهم المعروف بورد الرومي، وليس من بيت الملك، وإنما تملك عليهم قهراً، واختلف الروم عليه، ونصبوا غيره من أولاد ملوكهم، فطالت الحرب بينهم، فصاهر ورد هذا أبا تغلب ليتقوى به، فقدر أن أبا تغلب احتاج إلى الاعتضاد به.

ولما سار أبو تغلب من بدليس أدركه عسكري عضد الدولة، وهم حريصون على أخذ ما معه من المال، فإنهم كانوا قد سمعوا بكثرتهم، فلما وقعوا عليه نادى أميرهم: لا تتعرضوا لهذا المال، فهو لعضد الدولة؛ فقتلوا عن القتال.

فلما رآهم أبو تغلب فاترين حمل عليهم فانهمزوا، فقتل منهم مقتلة عظيمة ونجا منهم، فنزل بحصن زياد، ويُعرف الآن بخرتيرت، وأرسل ورد المذكور فعرّفه ما هو بصده من اجتماع الروم عليه، واستمده، وقال: إذا فرغت عُدّت إليك. فسَيرَ إليه أبو تغلب طائفة من عسكريه، فاتفق أن ورداً انهزم، فلما علم أبو تغلب بذلك ينس من نصره، وعاد إلى بلاد الإسلام، فنزل بآمد، وأقام بها شهرين إلى أن فتحت مِيفَارِقِينَ.

ذكر عدة حوادث

فيها ظهر بإفريقية في السماء حمرة بين المشرق والشمال، مثل لهب النار، فخرج الناس يدعون الله تعالى، ويتضرعون إليه، وكان بالمهدية زلازل (٦٩٤/٨) وأحوال أقامت أربعين يوماً، حتى فارق

وتغلب بذلك سار عن آمد نحو الرحبة، هو وأخته جميلة، وأمر بعض أهله بالاستئمان إلى أبي الوفاء، ففعلوا، ثم إن أبا الوفاء سار إلى آمد فحصرها، فلما رأى أهلها ذلك سلكوا مسلك أهل (٦٩٦/٨) ميفارقين، فسلموا البلد بالأمان، فاستولى أبو الوفاء على سائر ديار بكر، وقصده أصحاب أبي تغلب وأهله مستأمنين إليه، فأمّنهم، وأحسن إليهم، وعاد إلى الموصل.

وأما أبو تغلب فإنه لما قصد الرحبة أنفذ رسولاً إلى عضد الدولة يستعطفه، ويسأله الصفح، فأحسن جواب الرسل، وبذل إقطاعاً يرضيه، على أن يطأ بساطه، فلم يجبه أبو تغلب إلى ذلك، وسار إلى الشام، إلى العزيز بالله صاحب مصر.

ذكر فتح ديار مضر على يد عضد الدولة

كان متولّي ديار مضر لأبي تغلب بن حمدان سلامة البرقعدي، فأنفذ إليه سعد الدولة بن سيف الدولة من حلب جيشاً، فجرت بينهم حروب، وكان سعد الدولة قد كاتب عضد الدولة، وعرض نفسه عليه، فأنفذ عضد الدولة النقيب أبا أحمد، والد الرضي، إلى البلاد التي بيد سلامة، فتسلمها بعد حرب شديدة، ودخل أهلها في الطاعة، فأخذ عضد الدولة لنفسه الرقعة حسب، وردّ باقيها إلى سعد الدولة فصارت له.

ثم استولى عضد الدولة على الرحبة، وتفرّغ بعد ذلك فتح قلاع وحصونه، وهي قلعة كواشي، وكانت فيها خزائنه وأمواله، وقلعة هرور والملاسي وبرقي والشعباني وغيرها من الحصون، فلما استولى على جميع أعمال أبي (٦٩٧/٨) تغلب استخلف أبا الوفاء على الموصل، وعاد إلى بغداد في سلع ذي القعدة، ولقيه الطائع لله، وجمع من الجند وغيرهم.

ذكر ولاية قسّام دمشق

لما فارق الفتيكين دمشق، كما ذكرناه، تقدم على أهلها قسّام، وكان سبب تقدّم قسّام أن الفتيكين قرّبه ووثق إليه، وعوّل في كثير من أموره عليه، فعلا ذكره وصيته، وكثر أتباعه من الأحداث، فاستولى على البلد وحكم فيه.

وكان القائد أبو محمود قد عاد إلى البلد والياً عليه للعزيز، فلم يتم له مع قسّام أمر، وكان لا حكم له، ولم يزل أمر قسّام على دمشق نافذاً، وهو يدعو للعزيز بالله العلوي.

ووصل إليه أبو تغلب بن حمدان، صاحب الموصل، منهزماً، كما ذكرناه، فمنعه قسّام من دخول دمشق، وخافه على البلد أن يتولاه، إما غلبة، وإما بأمر العزيز، فاستوحش أبو تغلب وجرى بين أصحابه وأصحاب أبي تغلب شيء من قتال، فرحل أبو تغلب إلى طبرية.

وكان قسّام بالجامع، والناس عنده، فكتب محضراً وسيّره إلى العزيز يذكر أنه كان بالجامع عند هذه الفتنة، ولم يشهدها، وبذل من نفسه أنه إن قصده عضد الدولة بن بويه أو عسكر له قاتله، ومنعه من البلد، فأغضى العزيز لقسّام على هذه الحال لأنه كان يخاف أن يقصد عضد الدولة الشام، فلما فارق سلمان دمشق عاد إليها القائد أبو محمود، ولا حكم له، والحكم جميعه لقسّام، فدام ذلك.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كانت زلازل شديدة كثيرة، وكان أشدها بالعراق. وفيها توفي القاضي أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي النحوي مصنف شرح كتاب سيبويه، وكان فقيهاً، فاضلاً، مهندساً، منطقيّاً، فيه كل فضيلة، وعمره أربع وثمانون سنة، وولي بعده أبو محمد بن معروف الحاكم بالجانب الشرقي ببغداد. (٦٩٩/٨)

سنة تسع وستين وثلاثمائة

ذكر قتل أبي تغلب بن حمدان

في هذه السنة، في صفر، قتل أبو تغلب فضل الله بن ناصر الدولة بن حمدان.

وكان سبب قتله أنه سار إلى الشام، على ما تقدّم ذكره، ووصل إلى دمشق، وبها قسّام قد تغلب عليها، كما ذكرناه، فلم يمكن أبا تغلب من دخولها، فنزل بظاهر البلد، وأرسل رسولاً إلى العزيز بمصر يستنجده ليفتح له دمشق، فوقع بين أصحابه وأصحاب قسّام فتنة، فرحل إلى نوى، وهي من أعمال دمشق، فأنشأ كتاب رسول له من مصر يذكر أن العزيز يريد أن يحضر هو عنده بمصر ليستشير معه المساكين، فامتنع، وترددت الرسل، ورحل إلى بحيرة طبرية، وسيّر العزيز عسكراً إلى دمشق مع قائد اسمه الفضل، فاجتمع بأبي تغلب عند طبرية، ووعده، عن العزيز، بكل ما أحب، وأراد أبو تغلب المسير معه إلى دمشق، فمنعه بسبب الفتنة التي جرت بين أصحابه وأصحاب قسّام، لئلا يستوحش قسّام، وأراد أخذ البلد منه سلماً، ورحل الفضل إلى دمشق فلم يفتحها.

وكان معه في عسكره أبو الحسن محمد بن عمر العلوي الكوفي، فاتهمه بمراصلة الحسن، وإطلاعه على أسرارهم، وخاف المظهر أن تنقص منزلته عند عضد الدولة، ويشمت به أعداؤه، كأي الوفاء وغيره، فعزم على قتل نفسه، فأخذ سكيناً وقطع شرايين ذراعه، فخرج الدم منه، فدخل فراش له، فرأى الدم فصاح، فدخل الناس فراؤه، وظنوا أن أحداً فعل به ذلك، فتكلم، وكان يأخر رمق، وقال: إن محمد بن عمر أحوجني إلى هذا (٧٠٢/٨) ثم مات، وحمل إلى بلده كازرون، فدفن فيها.

وأرسل عضد الدولة من حفظ العسكر، وصالح الحسن بن عمران على مال يؤديه، وأخذ رهائهم، وانفرد نصر بن هارون بوزارة عضد الدولة، وكان مقيماً بفارس فاستخلف له عضد الدولة بحضرته أبا الريان حمد بن محمد.

ذكر الحرب بين بني شيان وعسكر عضد الدولة

في هذه السنة، في رجب، سار عضد الدولة جيشاً إلى بني شيان، وكانوا قد أكثروا الغارات على البلاد والفساد، وعجز الملوك عن طلبهم، وكانوا قد عقدوا بينهم وبين أكراد شهرزور مصاهرات، وكانت شهرزور ممتعة على الملوك، فأمر عضد الدولة عسكره بمنازلة شهرزور ليقطع طمع بني شيان عن التحصن بها، فاستولى أصحابه عليها وملكوها، فهرب بنو شيان، وسار العسكر في طلبهم، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة قتل من بني شيان فيها خلق كثير، ونهبت أموالهم ونساؤهم، وأسر منهم ثمانمائة أسير وحملوا إلى بغداد.

ذكر وصول ورد الرومي إلى ديار بكر وما كان منه

في هذه السنة وصل ورد الرومي إلى ديار بكر مستجيراً بعضد الدولة، وأرسل إليه يستنصره على ملوك الروم، ويبدل له الطاعة إذا ملك وحمل الخراج.

(٧٠٣/٨) وكان سبب قدومه أن أرماتوس ملك الروم لما توفي خلف ولدين له صغيرين، فملكاه بعده، وكان نقفور، وهو حينئذ الدُّمستق، قد خرج إلى بلاد الإسلام فنكى فيها وعاد، فلما قارب القسطنطينية بلغه موت أرماتوس، فاجتمع إليه الجند وقالوا له: إنه لا يصلح للنباية عن الملكين غيرك، فإنهما صغيران، فامتنع، فالحقوا عليه فأجابهم، وخدم الملكين، وتزوج بالدهما، ولبس التاج.

ثم إنه جفا والدتهما، فراسلت ابن الشمشقيق في قتل نقفور وإقامته مقامه، فأجابها إلى ذلك، وسار إليها سراً هو وعشرة رجال، فاغتالوا الدُّمستق فقتلوه، واستولى ابن الشمشقيق على الأمر، وقبض على لاون أخي الدُّمستق، وعلى ورديس ابن لاون، واعتقله

وكان بالرملة دغفل بن المفرج بن الجراح الطائي قد استولى على هذه الناحية، (٧٠٠/٨) وأظهر طاعة العزيز من غير أن يتصرف بأحكامه، وكثر جمعه، وسار إلى أحياء عقيل المقيمة بالشام ليخرجها من الشام، فاجتمعت عقيل إلى أبي تغلب وسالته نصرتها، وكتب إليه دغفل يسأله أن لا يفعل، فتوسط أبو تغلب الحال، فرضوا بما يحكم به العزيز.

ورحل أبو تغلب، فنزل في جوار عقيل، فخافه دغفل، والفضل صاحب العزيز، وظن أنه يريد أخذ تلك الأعمال. ثم إن أبا تغلب سار إلى الرملة في المحرم سنة تسع وستين [وثلاثمائة] فلم يشك ابن الجراح والفضل أنه يريد حربهما، وكانا بالرملة، فجمع الفضل العساكر من السواحل، وكذلك جمع دغفل من أمكنه جمعه، وتضاف الناس للحرب، فلما رأت عقيل كثرة الجمع انهزمت، ولم يبق مع أبي تغلب إلا نحو سبعمائة رجل من غلمانه وغلمان أبيه، فانهزم ولحقه الطلب، فوقف يحمي نفسه وأصحابه، فضرب على رأسه فسقط، وأخذ أسيراً، وحمل إلى دغفل فأسره وكتفه.

وأراد الفضل أخذه وحمله إلى العزيز بمصر، فخاف دغفل أن يصطنعه العزيز، كما فعل بالفتكين، ويجعله عنده، فقتله، فلامه الفضل على قتله، وأخذ رأسه وحمله إلى مصر، وكان معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة وزوجته، وهي بنت عمه سيف الدولة، فلما قتل حملهما بنو عقيل إلى حلب إلى سعد الدولة بن سيف الدولة، فأخذ أخته، وسير جميلة إلى الموصل، فسلمت إلى أبي الوفاء نائب عضد الدولة، فأرسلها إلى بغداد، فاعتقلت في حجرة في دار عضد الدولة. (٧٠١/٨)

ذكر محاربة الحسن بن عمران بن شاهين مع جيوش عضد الدولة

في هذه السنة توفي عمران بن شاهين، فجأة، في المحرم، وكانت ولايته، بعد أن طلبه الملوك والخلفاء وبذلوا الجهد في أخذه، وأعملوا الحيل، أربعين سنة، فلم يقدروهم الله عليه، ومات حتف أنفه.

فلما مات ولي مكانه ابنه الحسن، فتجدد لعضد الدولة طمع في أعمال البطيحة، فجهز العساكر مع وزيره المظهر بن عبيد الله، فأمدهم بالأموال والسلاح والآلات، وسار المظهر في صفر، فلما وصل شرع في سدّ أفواه الأنهار الداخلة في البطائح، فضاغ فيها الزمان والأموال، وجاءت المدود، ويثق الحسن بن عمران بعض تلك السدود، فأعانه الماء فقلعها.

وكان المظهر إذا سدّ جانباً افتحت عدة جوانب، ثم جرت بينه وبين الحسن وقعة في الماء فاستظهر عليه الحسن، وكان المظهر سريعاً قد ألف المناجزة، ولم يآلف المصابرة، فشق ذلك عليه.

والضعفاء المجاورين بمكة والمدينة، وفعل مثل ذلك بمشهدي علي والحسين، عليهما السلام، وسكن الناس من الفتن، وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين، والمتكلمين، والمفسرين، والنحاة، والشعراء، والنسائين، والأطباء، والحُصَّاب، والمهندسين، وأذن لوزير نصر بن هارون، وكان نصرانياً، في عمارة البيع والديرة، وإطلاق الأموال لقراءتهم.

ذكر وفاة حسويه الكردي

في هذه السنة توفي حسويه بن الحسين الكردي البرزكاني بصرامج، وكان أميراً على جيش من البرزكان يسفون البرزنيّة، وكان خاله ونداد وغانم ابنا أحمد أميرين على صنف آخر منهم يسفون العيشانيّة، وغلبا على أطراف نواحي الدّينور، وهمذان، ونهاوند، والصامغان، وبعض أطراف أذربيجان إلى حد شهرزور نحو خمسين سنة.

وكان يقود كل واحد منهما عدة ألوف، فتوفي غانم سنة خمسين وثلاثمائة، فكان ابنه أبو سالم ديسم بن غانم مكانه بقلعته قسان، إلى أن أزاله أبو الفتح بن العميد، واستصفي قلاعه المسماة قسنان، وغانم أباه وغيرهما.

وتوفي ونداد بن أحمد سنة تسع وأربعين [وثلاثمائة]، فقام مقامه ابنه أبو (٧٠٦/٨) الغنائم عبد الوهاب إلى أن أسره الشاذنخان وسلموه إلى حسويه، فأخذ قلاعه وأملاكه.

وكان حسويه مجدوداً، حسن السياسة والسيرة، ضابطاً لأمره، ومنع أصحابه من التلصص، وبنى قلعة بصرامج بالصخور المهندمة، وبنى بالدّينور جامعاً على هذا البناء، وكان كثير الصدقة بالحرمين، إلى أن مات في هذه السنة، واقترب أولاده من بعده، فبعضهم انحاز إلى فخر الدولة، وبعضهم إلى عضد الدولة، وهم أبو العلاء، وعبد الرزاق، وأبو النجم بدر، وعاصم، وأبو عدنان، وبختيار، وعبد الملك.

وكان بختيار بقلعة بصرامج ومعه الأموال والذخائر، فكتب عضد الدولة ورغب في طاعته، ثم تلون عنه وتغيّر، فسير عضد الدولة إليه جيشاً فحصره وأخذ قلعته، وكذلك قلاع غيره من إخوته، واصطنع من بينهم أبا النجم بدر بن حسويه، وقواه بالرجال، فضبط تلك النواحي، وكف عادية من بها من الأكراد، واستقام أمره، وكان عاقلاً.

ذكر قصد عضد الدولة أخاه فخر الدولة وأخذ بلاده

في هذه السنة سار عضد الدولة إلى بلاد الجبل، فاحتوى عليها.

وكان سبب ذلك أن بختيار بن معز الدولة كان يكتب ابن عمه

في بعض القلاع، وسار إلى أعمال الشام فأوغل فيها، ونال من المسلمين ما أراد، وبلغ إلى طرابلس فامتنع عليه أهلها فحصرهم.

وكان لوالدة الملكين أخ خصي، وهو حيثنذ الوزير، فوضع على ابن الشمشقيق من سقاء سمّاً، فلما أحس به أسرع العود إلى القسطنطينية، فمات في طريقه.

وكان ورد بن منير من أكابر أصحاب الجيوش وعظماء البطارقة، فطمع في الأمر، وكتب أبا تغلب بن حمدان وصاهره، واستجاش بالمسلمين من الثغور، فاجتمعوا عليه، فقصد الروم، فأخرج إليه الملكان جيشاً بعد جيش وهو يهزمهم، فقوي جنانته وعظم شأنه، وقصد القسطنطينية، فخافه الملكان، فاطلقا ورد بن لاون، وقدماه على الجيوش، وسيّراه لقتال ورد، فاقتلوا قتلاً شديداً، وطال الأمر بينهما، ثم انهزم ورد إلى بلاد الإسلام، فقصد ديار (٧٠٤/٨) بكر، ونزل بظاهر ميافارقين، وراسل عضد الدولة، وأنفذ إليه أخاه يندل الطاعة والاستنصار به، فأجابته إلى ذلك ووعد به.

ثم إن ملكي الروم راسلوا عضد الدولة واستمالاه، فقوي في نفسه ترجيح جانب الملكين، وعاد عن نصرة ورد، وكتب أبا علي التميمي، وهو حيثنذ ينوب عنه بديار بكر، بالقبض على ورد وأصحابه، فشرع يدبّر الحيلة عليه، واجتمع إلى ورد أصحابه وقالوا له: إن ملوك الروم قد كاتبوا عضد الدولة وراسلوه في أمرنا، ولا شك أنهم يرغبون في المال وغيره فيسلمنا إليهم، والرأي أن نرجع إلى بلاد الروم على صلح إن أمكننا، أو على حرب نبدل فيها أنفسنا، فإما ظفّرنا أو متنا كراماً.

فقال: ما هذا رأي، ولا رأينا من عضد الدولة إلا الجميل، ولا يجوز أن نصرف عنه قبل أن نعلم ما عنده؛ ففارقته كثير من أصحابه، فطمع فيه أبو علي التميمي، وراسله في الاجتماع، فأجابته إلى ذلك، فلما اجتمع به قبض عليه، وعلى ولده وأخيه، وجماعة من أصحابه، واعتقلهم بميافارقين ثم حملهم إلى بغداد، فبقوا في الحبس إلى أن فرّج الله عنهم، على ما نذكره، وكان قبضه سنة سبعين وثلاثمائة.

ذكر عمارة عضد الدولة ببغداد

في هذه السنة شرع عضد الدولة في عمارة بغداد، وكانت قد خربت بتوالي الفتن فيها، وعمر مساجدها وأسواقها، وأدرّ الأموال على الأئمة، والمؤذنين، والعلماء، والقراء، والغرباء، والضعفاء، الذي يأرون [إلى] المساجد، (٧٠٩/٨) وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها، وجدّد ما دثر من الأتھار، وأعاد حفرها وتسويتها، وأطلق مكوس الحجّاج، وأصلح الطريق من العراق إلى مكة، شرّفها الله تعالى، وأطلق الصلوات لأهل البيوتات والشرف،

فخر الدولة، بعد موت ركن الدولة، ويدعوه إلى الاتفاق معه على عضد الدولة، فأجابه إلى ذلك واتفقا.

(٧٠٧/٨) وعلم عضد الدولة به، فكتم ذلك إلى الآن، فلما فرغ من أعدائه كأبي تغلب، وبختيار، وغيرهما، ومات حسنويه بن الحسين، ظن عضد الدولة أن الأمر يصلح بينه وبين أخويه، فراسل أخويه فخر الدولة، ومؤيد الدولة، وقابوس بن وشمكير.

فأما رسالته إلى أخيه مؤيد الدولة، فيشكره على طاعته وموافقته، فإنه كان مطيعاً له غير مُخالف.

وأما إلى فخر الدولة، فيعاتبه ويستميله، ويذكر له ما يلزمه به الحجة.

وأما إلى قابوس، فيشير عليه بحفظ العهد التي بينهما.

فأجاب فخر الدولة جواب المناظر المناوئ، ونسي كبر السن، وسعة الملك وعهد أبيه.

وأما قابوس فأجاب جواب المراقب. وكان الرسول خواشاده، وهو من أكابر أصحابه، فاستمال أصحاب فخر الدولة، فضمن لهم الإقطاعات، وأخذ عليهم العهد، فلما عاد الرسول برز عضد الدولة من بغداد على عزم المسير إلى الجبل وإصلاح تلك الأعمال، وابتدأ فقدم العساكر بين يديه يتلو بعضها بعضاً، ومنهم أبو الوفاء على عسكر، وخواشاده على عسكر، وأبو الفتح المظفر بن محمد في عسكر، فسارت هذه العساكر، وأقام هو بظاهر بغداد.

ثم سار عضد الدولة، فلقية الشائر بدخول جيوشه همذان، واستثمان العدد الكثير من قواد فخر الدولة ورجال حسنويه، ووصل إليه أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن حمدويه وزير فخر الدولة، ومعه جماهير أصحابه، فأنحل أمر فخر الدولة، وكان بهمدان، فخاف من أخيه، وتذكر قتل ابن عمه ببختيار (٧٠٨/٨) فخرج هارباً، وقصد بلد الديلم، ثم خرج منها إلى جرجان، فنزل على شمس المعالي قابوس بن وشمكير، والتجأ إليه فأمته وآواه، وحمل إليه فوق ما حدث به نفسه، وشركه فيما تحت يده من ملك غيره.

وملك عضد الدولة ما كان بيد فخر الدولة همذان، والرّي، وما بينهما من البلاد وسلمها إلى أخيه مؤيد الدولة بن بويه، وجعله خليفته ونائبه في تلك البلاد، ونزل الرّي، واستولى على تلك النواحي.

ثم عرج عضد الدولة إلى ولاية حسنويه الكردي، فقصد نهاوند، وكذلك الدينور، وقلعة سراماج، وأخذ ما فيها من ذخائر حسنويه، وكانت جليلة المقدار، وملك معها عدة من قلاع حسنويه،

ولحقه في هذه السفرة صرع، وكان هذا قد أخذه بالموصل، وحدث به فيها، فكتمه، وصار كثير النسيان لا يذكر الشيء إلا بعد جهل، وكتم ذلك أيضاً، وهذا دأب الدنيا لا تصفو لأحد.

وأناه أولاد حسنويه، فقبض على عبد الرزاق، وأبي العلاء، وأبي عدنان، وأحسن إلى بدر بن حسنويه، وخلع عليه، وولاه رعاة الأكراد، هذا آخر ما في تجارب الأمم تأليف أبي علي بن مسكويه. (٧٠٩/٨)

ذكر ملك عضد الدولة بلد الهكارية وما معها

في هذه السنة سبر عضد الدولة جيشاً إلى الأكراد الهكارية من أعمال الموصل، فأوقع بهم وحصر قلاعهم، وطال مقام الجند في حصرها.

وكان من بالحصون من الأكراد ينتظرون نزول الثلج لترحل العساكر عنهم، فقدر الله تعالى أن الثلج تأخر نزوله في تلك السنة، فأرسلوا يطلبون الأمان، فأجبروا إلى ذلك، وسلموا قلاعهم، ونزلوا مع العسكر إلى الموصل، فلم يفارقوا أعمالهم غير يوم واحد حتى نزل الثلج.

ثم إن مقدم الجيش غدر بهم، وصلبهم على جانبي الطريق من معلثايا إلى الموصل نحو خمسة فراسخ وكف الله شرهم عن الناس.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ورد رسول العزيز بالله صاحب مصر إلى عضد الدولة برسائل أذاه.

وفيها قبض عضد الدولة على محمد بن عمر العلوي وأنفذه إلى فارس، وكان سبب قبضه ما تكلم به المظهر في حقه عند موته، وأرسل إلى الكوفة (٧١٠/٨) فقبض أمواله، فوجد له من المال والصلاح والذخائر ما لا يحصى، واصطنع عضد الدولة أخاه أبا الفتح أحمد، وولاه الحج بالناس.

وفيها تجددت وصلة بين الطائع لله وبين عضد الدولة، فتزوج الطائع ابنته، وكان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب، وكان الصداق مائة ألف دينار.

وفيها كانت فتنة عظيمة بين عامة شيراز من المسلمين وبين المجوس، نُهت فيها دور المجوس، وضربوا، وقتل منهم جماعة، فسمع عضد الدولة الخبر، فسير إليهم من جمع كل من له أثر في ذلك، وضربهم، وبالح في تاديبتهم وزجرهم.

وفيها أرسل سرية إلى عين التمر، وبها ضبة بن محمد

الأسدي، وكان يسلك سبيل اللصوص وقطّاع الطريق، فلم يشعر إلا والعساكر معه، فترك أهله وماله ونجا بنفسه فريداً، وأخذ ماله وأهله، ومُلكت عين التمر، وكان قبل ذلك قد نهب مشهد الحسين، صلوات الله عليه، فعوقب بهذا.

وفيها قبض عضد الدولة على النقيب أبي أحمد الحسين الموسوي، والد الشريف الرضي، وعلى أخيه أبي عبد الله، وعلى قاضي القضاة أبي محمد وسيرهم إلى فارس، واستعمل على قضاء القضاة أبا سعد بشر بن الحسين، وهو شيخ كبير، وكان مقيماً بفارس، واستتاب على القضاء ببغداد.

وفيها توفي أبو عبد الله أحمد بن عطاء بن أحمد بن محمد بن عطاء الروذباري، الصوفي، بنواحي عكا، وكان قد انتقل من بغداد إلى الشام.

(٧١١/٨) وفيها، في ذي الحجة، توفي محمد بن عيسى بن عمرو بن أبو أحمد الجلودي الزاهد، راوي صحيح مسلم عن ابن سفيان، ودفن بالحيرة في نيسابور وله ثمانون سنة.

(الجلودي يفتح الجيم، وقيل بضمتها، وهو قليل، والحيرة بكسر الحاء المهملة وبالراء المهملة، وهي محلّة نيسابور).

وفيها توفي أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس اللغوي، صاحب كتاب المجلد وغيره. وله شعر، فمن ذلك قوله قبل وفاته بيومين:

ياربّ إنّ ذنوبي [قد] أحطت بها علماء، وسي وإعلاني وإسراري
أنا الموحّد لكنّي المقرّب بها، فهبّ فتوبي لتوحيد وإقراري
وفي شوال توفي أبو الحسن ثابت بن إبراهيم الحرّاني المتطبّب، الصابي، ومولده بالرقة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وكان عارفاً حاذقاً في الطب. (٥/٩)

سنة سبعين وثلاثمائة

ذكر إقطاع مؤيد الدولة همدان

في هذه السنة أرسل صاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد إلى عضد الدولة بهمدان رسولا من عند أخيه مؤيد الدولة يبذل له الطاعة والموافقة، فالتقاء عضد الدولة بنفسه، وأكرمه، وأقطع أخاه مؤيد الدولة همدان وغيرها، وأقام عند عضد الدولة إلى أن عاد إلى بغداد، فردّه إلى مؤيد الدولة، فأقطعه إقطاعاً كثيراً، وسير معه عسكرياً يكون عند مؤيد الدولة في خدمته.

ذكر قتل أولاد حسنيوه سوى بدر

لما خلع عضد الدولة على بدر وأخوته عاصم وعبد الملك،

وقضّل بدرأ عليهما ولأه الأكراد حسده أخواه، فشققا العصا، وخرجا عن الطاعة، (٦/٩) واستمال عاصم جماعة الأكراد المخالفين، فاجتمعوا عليه، فسير إليه عضد الدولة عسكرياً، فأوقعوا بعاصم ومن معه، فانهزموا، وأمر عاصم، وأدخل همدان على جمل، ولم يعرف له خبر بعد ذلك اليوم، وقتل أولاد حسنيوه، إلا بدرأ فإنه ترك على حاله، وأقر على عمله، وكان عاقلاً، لبيّاً، حازماً، كريماً، حليماً، وسيرد من أخباره ما يعلم به ذلك، إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك عضد الدولة قلعة مندرة وغيرها

وفيها استولى عضد الدولة على قلاع أبي عبد الله المرّي بنواحي الجبل، وكان منزله بسندة، وله فيها مساكن نفيسة، وكان قديم البيت، فقبض عليه وعلى أولاده فاعتقلهم، فبقوا كذلك إلى أن أطلقهم الصاحب بن عباد فيما بعد، واستخدم ابنه أبا طاهر، واستكتبه، وكان حسن الخطّ واللفظ.

ذكر الحرب بين عسكر العزيز وابن جرّاح وعزل قسام عن دمشق في هذه السنة سُرّرت العساكر من مصر لقتال المفرج بن جرّاح.

وسبب ذلك أنّ ابن جرّاح عظم شأنه بأرض فلسطين، وكثر جمعه، (٧/٩) وقويت شوكته، وبالح هو في العيث والفساد، وتخريب البلاد، فجّهز العزيز بالله العساكر وسيرها، وجعل عليها القائد يلكين التركي، فسار إلى الرملة، واجتمع إليه من العرب، من قيس وغيرها، جمع كثير، وكان مع ابن جرّاح جمع يرمون بالنشاب، ويقاثلون قتال الترك، فالتقوا ونشبت الحرب بينهما، وجعل يلكين كميناً، فخرج على عسكر ابن جرّاح، من وراء ظهورهم، عند اشتداد الحرب، فانهزموا وأخذتهم سيوف المصريين، ومضى ابن جرّاح منهزماً إلى أنطاكية، فاستجار بصاحبها فأجاره، وصادف خروج ملك الروم من القسطنطينية في عساكر عظيمة يريد بلاد الإسلام، فخاف ابن جرّاح، وكاتب بكجور بحمص والتجأ إليه.

وأما عسكر مصر فإنهم نازلوا دمشق، مخادعين لقسام، لم يظهروا له إلا أنّهم جاؤوا لإصلاح البلد، وكفّ الأيدي المتطرقة إلى الأذى، وكان القائد أبو محمود قد مات سنة سبعين [وثلاثمائة] وهو والي البلد، ولا حكم له، وإنما الحكم لقسام، فلما مات قام بعده في الولاية جيش بن الصمصامة، وهو ابن أخت أبي محمود، فخرج إلى يلكين وهو يظنّ أنه يريد إصلاح البلد، فأمره أن يخرج هو ومن معه وينزلوا بظاهر البلد، ففعلوا. وحذر قسام، وأمر من معه بمباشرة الحرب، فقاتلوا دفعات عدّة؛ فقوى عسكر يلكين، ودخلوا أطراف البلد، وملكوا الشاغور، وأحرقوا ونهبوا، فاجتمع

وفيها توفي الزبير بن عبد الواحد بن موسى أبو يعلى البغدادي، سمع البيهقي وابن صاعد، وسافر إلى أصبهان وخراسان وأذربيجان وغيرها، وسمع فيها الكثير، وتوفي في الموصل هذه السنة؛ ومحمد بن جعفر بن الحسين بن محمد أبو بكر المفيد، المعروف بغندر، توفي بمقازة بخاري؛ وأبو الفرج محمد بن العباس بن فسانجس؛ وأبو محمد علي بن الحسن الأصبهاني؛ والحسن بن بشر الأمدني.

وفيها توفي القائد أبو محمود إبراهيم بن جعفر والي دمشق للعزيقي، وقام بعده جيش بن الصمصامة. (١٠/٩)

سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة

ذكر عزول ابن سيمجور عن خراسان

في هذه السنة عزّل أبو الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور عن قيادة جيوش خراسان، واستعمل عوضه حسام الدولة أبو العباس تاش.

وكان سبب ذلك أنّ الأمير نوح بن منصور لما ملك خراسان وما وراء النهر، وهو صبي، استوزر أبا الحسين العُتبي، فقام في حفظ الدولة القيام المرضي؛ وكان محمد بن سيمجور قد استوطن خراسان، وطالت أيامه فيها، فلا يطيع إلا فيما يريد، فعزله أبو الحسين العُتبي عنها، واستعمل مكانه حسام الدولة أبا العباس تاش، وسيّره من بخاري إلى نيسابور في هذه السنة، فاستقر بها ودبر خراسان، ونظر في أمورها، وأطاعه جندها.

ذكر استيلاء عضد الدولة على جرجان

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، استولى عضد الدولة على بلاد جرجان وطبرستان، وأجلى عنها صاحبها قابوس بن وشمكير. (١١/٩)

وسبب ذلك أن عضد الدولة لما استولى على بلاد أخيه فخر الدولة انهزم فخر الدولة، فلقب بقابوس، كما ذكرناه، وبلغ ذلك عضد الدولة، فأرسل إلى قابوس يئذله له الرغائب من البلاد، والأموال، والعهود، وغير ذلك، ليسلم إليه أخاه فخر الدولة، فامتنع قابوس من ذلك، ولم يجب إليه. فجهّز عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة، وسيّره، ومعه العساكر، والأموال، والعُدّة، إلى جرجان.

وبلغ الخير قابوساً، فسار إليه، فلقبه بتواحي استراياد، فاقتلوا من بُكرة إلى الظهر، فانهمز قابوس وأصحابه في جمادى الأولى، وقصد قابوس بعض قلاعها التي فيها ذخائره وأمواله، فأخذ ما أراد وسار نحو نيسابور، فلما ورد لها لحق به فخر الدولة، وانضم إليه من تفرّق من أصحابها.

مشايخ البلد عند قسّام، وكلموه في أن يخرجوا إلى يَلْتَكِين، ويأخذوا أماناً لهم وله، فانخذل ودلّ، وخضع بعد تجبّره وتكبّره وقال: افعلوا ما شئتم.

وعاد أصحاب قسّام إليه، فوجدوه خائفاً، ملقياً بيده، فأخذ كل نفسه. وخرج شيوخ البلد إلى يَلْتَكِين، فطلبوا منه الأمان لهم ولقسّام، فأجابهم إليه (٨/٩) وقال: أريد [أن] أنسلم البلد اليوم؛ فقالوا: افعل ما تؤمّر! فأرسل والياً يقال له ابن خطّخ، ومعه خيل ورجل.

وكان مبدأ هذه الحرب والحصر في المحرم سنة سبعين [وثلاثمائة] لعشر يقين منه، والدخول إلى البلد ثلاث يقين منه، ولم يعرض لقسّام ولا لأحد من أصحابه، وأقام قسّام في البلد يومين ثم استتر، فأخذ كلّ ما في داره وما حولها من دور أصحابه وغيرهم، ثم خرج إلى الخيام، فقصد حاجب يَلْتَكِين وعزّقه نفسه، فأخذه وحمله إلى يَلْتَكِين، فحمّله يَلْتَكِين إلى مصر، فأطلقه العزيز، واستراح الناس من تحكمه عليهم، وتغلّبه بمن تبعه من الأحداث من أهل العيث والفساد.

ذكر عدة حوادث

وفيها توفي عليّ بن محمد الأحدب المزور، وكان يكتب على خط كل واحد فلا يشك المكتوب عنه أنه خطّه؛ وكان عضد الدولة إذا أراد الإيقاع بين الملوك أمره أن يكتب على خط بعضهم إليه في الموافقة على من يريد إفساد الحال بينهما، ثم يتوصّل ليصل المكتوب إليه، فيفسد الحال. وكان هذا الأحدب (٩/٩) ربّما خُتمت يده لهذا السبب.

وفيها زادت الفرات زيادة عظيمة جاوزت المألوف، وغرق كثير من الغلات وتمردت الصرّة، وخربت قناطرها العتيقة والجديدة، وأشقى أهل الجانب الغربي من بغداد على الغرق، وبقيت الزيادة بها وبدجلة ثلاثة أشهر ثم نقصت.

وفيها زفّت ابنة عضد الدولة إلى الخليفة الطائع، ومعها من الجواهر شيء لا يحصى.

وفيها ورد على عضد الدولة هدية من صاحب اليمن فيها قطعة واحدة [من] عتبر وزنها ستة وخمسون رطلاً؛ وحجّ بالناس أبو الفتح أحمد بن عمر بن يحيى العلوي، وخطب بمكة والمدينة للعزيز بالله صاحب مصر العلوي.

وفيها توفي أبو بكر أحمد بن عليّ الرازي، إمام الفقهاء الحنفيّة في زمانه، وطلب ليّلي قضاء القضاة، فامتنع، وهو من أصحاب الكرخي.

وكان وصولهما إليها عند ولاية حُسام الدولة أبي العباس تاش خراسان، فكتب حُسام الدولة إلى الأمير أبي القاسم نوح بن منصور يعرفه خبر وصولهما، وكتب أيضاً إلى نوح يعرفانه حالهما، ويستنصرانه على مؤيد الدولة. فوردت كتب نوح على حُسام الدولة يأمره بإجلال محلّهما، وإكرامهما، وجمع العساكر والمسير معهما، وإعادتهما إلى ملكهما، وكتب وزيره أبو الحسين بذلك أيضاً.

ذكر مسير حُسام الدولة وقابوس إلى جرجان

فلما وردت الكتب من الأمير نوح على حُسام الدولة بالمسير بعساكر خراسان جميعها مع فخر الدولة وقابوس، جمع العساكر وحشد، فاجتمع بنسايور عساكر سدّت الفضاء، وساروا نحو جرجان فنازلوها وحصروها، (١٢/٩) وبها مؤيد الدولة، ومعه من عساكره وعساكر أخيه عضد الدولة جمع كثير، إلا أنهم لا يقاربون عساكر خراسان، فحصرهم حُسام الدولة شهرين يغاديهم القتال ويرواحهم، وضافت الميرة على أهل جرجان، حتى كانوا يأكلون نخالة الشعير معجونة بالطين، فلما اشتد عليهم الأمر خرجوا من جرجان، في شهر رمضان، على عزم صدق القتال إما لهم وإما عليهم. فلما رآهم أهل خراسان ظنّوها كما تقدم من الدفعات، يكون قتال، ثم تحاجز، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فراوا الأمر خلاف [ما] ظنّوه.

وكان مؤيد الدولة قد كاتب بعض قواد خراسان، يسمى فائق الخاصة، وأطعمة ورغبة فأجابه إلى الانهزام عند اللقاء، وسيرد من أخبار فائق هذا ما يُعرف به محلّه من الدولة.

فلما خرج مؤيد الدولة، هذا اليوم، حمل عسكره على فائق وأصحابه، فانهزم هو ومن معه، وتبعه الناس، وثبت فخر الدولة، وحُسام الدولة في القلب، واشتد القتال إلى آخر النهار، فلما راوا تلاحق الناس في الهزيمة لحقوا بهم، وغنم أصحاب مؤيد الدولة منهم ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وأخذوا من الأقوات شيئاً كثيراً.

وعاد حُسام الدولة، وفخر الدولة، وقابوس نيسايور، وكتبوا إلى بخارى بالخبر، فاتاهم الجواب يمينهم، ويعدهم بإنفاذ العساكر والعود إلى جرجان والرّي، وأمر الأمير نوح سائر العساكر بالمسير إلى نيسايور، فاتوها من كل حذب ينسلون، فاجتمع بظاهر نيسايور من العساكر أكثر من (١٣/٩) الممرة الأولى، وحُسام الدولة ينظر تلاحق الأمداد ليسير بهم، فاتاهم الخبر بقتل الوزير أبي الحسين العُتبيّ، ففرق ذلك الجمع، وبطل ذلك التدبير.

وكان سبب قتله أن أبا الحسن بن سيمجور وضع جماعة من المماليك على قتله، فوثبوا به فقتلوه، فلما قُتل كتب الرضّيّ نوح بن منصور إلى حُسام الدولة يستدعيه إلى بخارى ليدبّر دولته، ويجمع ما انتشر منها بقتل أبي الحسين، فسار عن نيسايور إليها،

ذكر قتل الأمير أبي القاسم أمير صقلية وهزيمة الفرنج

في هذه السنة، في ذي القعدة، سار الأمير أبو القاسم، أمير صقلية، من المدينة يريد الجهاد.

وسبب ذلك أن ملكاً من ملوك الفرنج، يقال له بردويل، خرج في جموع كثيرة من الفرنج إلى صقلية، فحصر قلعة ملطة وملكها، وأصاب سرّيتين للمسلمين، فسار الأمير أبو القاسم بعساكره ليُرحله عن القلعة، فلما قاربها خاف وجبن، فجمع وجوه أصحابه، وقال لهم: إنّي راجع من مكاني هذا فلا تكسروا عليّ رأيي. فرجع هو وعساكره.

وكان أسطول الكفّار يساير المسلمين في البحر، فلما راوا المسلمين راجعين أرسلوا إلى بردويل، ملك الروم، يُعلمونه ويقولون له: إنّ المسلمين خائفون منك، فالحق بهم فإنك تنظفر. فجردّ الفرنجيّ عسكره من أثقالهم، وسار (١٤/٩) جريده، وجدّ في السّير، فأدركهم في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين [وثلاثمائة]، فتعباً المسلمون للقتال، واقتتلوا، واشتدت الحرب بينهم، فحملت طائفة من الفرنج على القلب والأعلام، فشقوا العسكر ووصلوا إليها، وقد تفرّق كثير من المسلمين عن أميرهم، واختلّ نظامهم، فوصل الفرنج إليه، فأصابته ضربة على أم رأسه فقتل، وقُتل معه جماعة من أعيان الناس وشجعانهم.

ثم إن المنهزمين من المسلمين رجعوا مصممين على القتال ليظفروا أو يموتوا، واشتدّ حيثنذ الأمر، وعظم الخطب على الطائفتين، فانهزم الفرنج أقيح هزيمة، وقُتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل، وأسر من بطارتهم كثير وتبعوهم إلى أن أدركهم الليل، وغنموا من أموالهم كثيراً. وأفلت ملك الفرنج هارباً ومعه رجل يهودي كان خصيصاً به، فوقف فرس الملك، فقال له اليهودي: اركب فرسي، فإن قُلت فأت لولدي؛ فركبه الملك وقُتل اليهودي، فجا الملك إلى خيامه وبها زوجته وأصحابه فأخذهم وعاد إلى رومية.

ولما قتل الأمير أبو القاسم كان معه ابنه جابر، فقام مقام أبيه، ورحل بالمسلمين لوقتهم، ولم يمكنهم من إتمام الغنيمة، فتركوا كثيراً منها، وسأله أصحابه ليقيم إلى أن يجمع السلاح وغيره ويعمر به الخزائن، فلم يفعل.

وكانت ولاية أبي القاسم على صقلية اثني عشرة سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، وكان عادلاً، حسن السيرة، كثير الشفقة على رعيته والإحسان (١٥/٩) إليهم، عظيم الصدقة، ولم يخلّف ديناراً

ولا درهماً ولا عقاراً، فإنه كان قد وقف جميع أملاكه على الفقراء بالحصري. (١٧/٩) وأبواب البر.

سنة الثنتين وسبعين وثلاثمائة

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وقع حريق بالكرخ ببغداد فاحترق فيها مواضع كثيرة هلك فيها خلق كثير من الناس، وبقي الحريق أسبوعاً.

وفيهما قبض عضد الدولة على القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي، وألزمه منزله، وعزله عن أعماله التي كان يتولاهما، وكان حنفي المذهب، شديد التعصب على الشافعي يطلق لسانه فيه، قاتله الله!

وفيهما أفرج عضد الدولة عن أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب، وكان القبض عليه سنة سبع وستين [وثلاثمائة].

وكان سبب قبضه أنه كان يكتب عن بختيار كتباً في معنى الخلف الواقع بينه وبين عضد الدولة، فكان ينصح صاحبه، فمما كتبه عن الخليفة الطائع إلى عضد الدولة في المعنى، وقد لقب عز الدولة بشاهنشاه، فتزحج له عن سنن المساواة، فنقم عليه عضد الدولة ذلك وهذا من أعجب الأشياء، فإنه كان ينبغي أن يعظم في عينه لنصحه لصاحبه، فلما أطلقه أمره بعمل كتاب يتضمن أخبارهم ومحاسنها، فعمل التاجي في دولة الديلم. (١٦/٩)

وفيهما أرسل عضد الدولة القاضي أبا بكر محمد بن الطيب الأشعري المعروف بابن الباقلاني إلى ملك الروم في جواب رسالة وردت منه، فلما وصل إلى الملك قيل له ليقبل الأرض بين يديه، فلم يفعل، فقيل: لا سبيل إلى الدخول إلا مع تقبيل الأرض؛ فأصر على الامتناع، فعمل الملك باباً صغيراً يدخل منه القاضي متحنياً ليروهم الحاضرين أنه قبل الأرض، فلما رأى القاضي الباب علم ذلك، فاستدبره ودخل منه، فلما جازاه استقبل الملك وهو قائم، فعظم عندهم محله.

وفيهما فتح المارستان العسدي، غربي بغداد، ونقل إليه جميع ما يحتاج إليه من الأدوية.

وفي هذه السنة توفي الإمام أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الأسماعيلي الجرجاني، الفقيه الشافعي، وكان عالماً بالحديث وغيره من العلوم؛ والإمام محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد أبو زيد المروزي الفقيه الشافعي الزاهد، يروي صحيح البخاري عن الفريري، وتوفي في رجب؛ وأبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، شيخ الصوفي في وقته، صاحب الجريري وابن عطاء وغيرهما.

وفيهما توفي أبو الحسن علي بن إبراهيم الصوفي المعروف

ذكر ولاية بكجور دمشق

قد ذكرنا سنة ست وستين [وثلاثمائة] ولاية بكجور حمص لأبي المعالي ابن سيف الدولة بن حمدان، فلما وليها عمرها؛ وكان بلد دمشق قد خربه العرب وأهل العيث والفساد مدة تحكم قسام عليها، وانتقل أهله إلى أعمال حمص، فعمرت، وكثر أهلها والغلات فيها، ووقع الغلاء والقحط بدمشق، فحمل بكجور الأقوات من حمص إليها وتردد الناس في حمل الغلات وحفظ الطرق وحماها.

وكتب العزيز بالله بمصر، وتقرب إليه، فوعده ولاية دمشق، فبقي كذلك إلى هذه السنة.

ووقعت وحشة بين سعد الدولة أبي المعالي بن سيف الدولة وبين بكجور، فأرسل سعد الدولة يأمره بأن يفارق بلده، فأرسل بكجور إلى العزيز بالله يطلب نجاز ما وعده من إمارة دمشق. وكان الوزير ابن كلثوم يمنع العزيز من ولايته إلى هذه الغاية.

وكان القائد يلتكين قد ولي دمشق بعد قسام، كما ذكرناه، فهو مقيم بها. (١٨/٩)

فاجتمع المغاربة بمصر على الوثوب بالوزير ابن كلثوم، فدعته الضرورة إلى أن يستحضر يلتكين من دمشق، فأمره العزيز بإحضاره وتسليم دمشق إلى بكجور.

فقال: إن بكجور إن وليها عصى فيها. فلم يصغ إلى قوله، وأرسل إلى يلتكين يأمره بقصد مصر، وتسليم دمشق إلى بكجور، ففعل ذلك، ودخلها في رجب من هذه السنة والياً عليها، فأساء السيرة إلى أصحاب الوزير ابن كلثوم والمتعلقين به، حتى إنه صلب بعضهم، وفعل مثل ذلك في أهل البلد، وظلم الناس، وكان لا يخلو من أخذ مال، وقتل، وصلب، وعقوبة، فبقي كذلك إلى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، وسنذكر هناك عزله، إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة عضد الدولة

في هذه السنة، في شوال، اشتدت علة عضد الدولة، وهو ما كان يعتاده من الصرع، فضعفت قوته عن دفعه، فخفته، فمات منه ثامن شوال ببغداد، وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، فدفن به.

وكانت ولايته بالعراق خمس سنين ونصفاً، ولما توفي جلس ابنه صمصام الدولة أبو كاليبجار للعزاء، فأتاه الطائع لله معزياً،

وكان عمر عضد الدولة سبعة وأربعين سنة، وكان قد سَير ولده شرف الدولة أبا الفوارس إلى كَرْمان مالِكاً لها، قبل أن يشتد مرضه، وقيل إنه لما احتضر لم ينطق لسانه إلا بتلاوة ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةُ مَلِكٌ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]. (١٩/٩)

وكان عاقلاً، فاضلاً، حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمة، ثاقب الرأي، محباً للفضائل وأهلها، باذلاً في مواضع العطاء، مانعاً في أماكن الحزم، ناظراً في عواقب الأمور.

قيل: لما مات عضد الدولة بلغ خبره بعض العلماء، وعنده جماعة من أعيان الفضلاء، فتذاكروا الكلمات التي قالها الحكماء عند موت الإسكندر، وقد ذكرت في أخباره، فقال بعضهم: لو قُلتُم أنتم مثلها لكان ذلك يؤثر عنكم، فقال أحدهم: لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مقالها، وأعطاهما فوق قيمتها، وطلب الربح فيها ففخر روحه فيها.

وقال الثاني: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم فيها فهذا انتباهه.

وقال الثالث: ما رأيت عاقلاً في عقله، ولا غافلاً في غفلته مثله، لقد كان ينفض جانباً وهو يظن أنه مبرم، ويغرم وهو يظن أنه غانم.

وقال الرابع: من جدّ للدنيا هزلت به، ومن هزل راغباً عنها جدّت له.

وقال الخامس: ترك هذا الدنيا شاغرة، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة.

وقال السادس: إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف.

وقال السابع: إنما سلبك مَنْ قدر عليك.

وقال الثامن: أما إنه لو كان معتبراً في حياته لما صار عبدة في مماته.

وقال التاسع: الصاعد في درجات الدنيا إلى استفال، والنازل في درجاتها إلى تعال.

وقال العاشر: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتّى نفذ فيك، وهلاً (٢٠/٩) اتخذت دونه جنةً تفيك، إن في ذلك لبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين.

وقال الحادي عشر: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتّى نفذ فيك، وهلاً (٢٠/٩) اتخذت دونه جنةً تفيك، إن في ذلك لبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين.

وقال الثاني عشر: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتّى نفذ فيك، وهلاً (٢٠/٩) اتخذت دونه جنةً تفيك، إن في ذلك لبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين.

وقال الثالث عشر: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتّى نفذ فيك، وهلاً (٢٠/٩) اتخذت دونه جنةً تفيك، إن في ذلك لبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين.

وقال الرابع عشر: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتّى نفذ فيك، وهلاً (٢٠/٩) اتخذت دونه جنةً تفيك، إن في ذلك لبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين.

وقال الخامس عشر: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتّى نفذ فيك، وهلاً (٢٠/٩) اتخذت دونه جنةً تفيك، إن في ذلك لبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين.

ذكر قتل الحسين بن عمران بن شاهين

في هذه السنة قُتل الحسين بن عمران بن شاهين، صاحب البطيخة، قتله أخوه أبو الفرج واستولى على البطيخة. (٢٤/٩)

وكان سبب قتله أنه حسد الناس على ولايته ومجبة الناس له، فاتفق أن اختأ لهما مرضت، فقال أبو الفرج لأخيه الحسين: إن اختأ مشقة، فلو عدتها؛ ففعل ومار إليها، ورتب أبو الفرج في الدار نفراً يساعدونه على قتله، فلما دخل الحسين الدار تخلف عنه أصحابه، ودخل أبو الفرج معه ويده سيفه، فلما خلا به قتله، ووقعت الصيحة، فصعد إلى السطح وأعلم العسكر بقتله، ووعدهم الإحسان فسكوا، وبذل لهم المال، فأقروه في الأسر، وكتب إلى بغداد، يظهر الطاعة، ويطلب تقليده الولاية، وكان متهوراً جاهلاً.

ذكر عود ابن سيمجور إلى خراسان

لما عزل أبو الحسن بن سيمجور عن قيادة جيوش خراسان ووليها أبو العباس سار ابن سيمجور إلى سجستان فأقام بها، فلما انهزم أبو العباس عن جرجان، على ما ذكرناه، ورأى الفتنة رفعت رأسها، سار عن سجستان نحو خراسان، وأقام ببهستان. فلما سار أبو العباس إلى بخارى، وخلت منه خراسان، كاتب ابن سيمجور فاتفقاً يطلب موافقته على الاستيلاء على خراسان، فأجابه إلى ذلك، واجتمعا بنيسابور، واستوليا على تلك النواحي.

وبلغ الخبر إلى أبي العباس فسار عن بخارى في جمع كثير إلى مرو، وترددت الرسل بينهم، فاصطلحوا على أن تكون نيسابور وقيادة الجيوش لأبي العباس، وتكون بلخ لفاق، وتكون قرأة لأبي علي بن أبي الحسن بن سيمجور، وتفرقوا على ذلك وقصد كل واحد منهم ولايته. (٢٥/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي نقيب النقباء أبو تمام الزينبي، وولي النقباء بعده ابنه أبو الحسن؛ وتوفي محمد بن جعفر المعروف بزواج الحرة في صفر ببغداد؛ وتوفي في جمادى الأولى منصور بن أحمد بن هارون الزاهد وهو ابن خمس وستين سنة. (٢٦/٩)

سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة

ذكر موت مؤيد الدولة وعود فخر الدولة إلى مملكته

في هذه السنة، في شعبان، توفي مؤيد الدولة أبو منصور بويه بن ركن الدولة بجرجان، وكانت علته الخوانيق، وقال له الصاحب بن عباد: لو عهدت إلى أحد؛ فقال: أنا في شغل عن هذا، ولم يعهد بالملك إلى أحد؛ وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة.

والملكي في الطب، والتاجي في (٢٢/٩) التاريخ، إلى غير ذلك، وعمل المصالح في سائر البلاد كالبيمارستانات والقناطر وغير ذلك من المصالح العامة، إلا أنه أحدث في آخر أيامه رسوماً جائرة في المساحة، والضرائب على بيع الدواب، وغيرها من الأمعة، وزاد على ما تقدم، ومنع من عمل الثلج، والقر، وجعلهما متجراً للخاص، وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق.

ولما توفي عضد الدولة قبض على نائبه أبي الريان من الغد، فأخذ من كنه رقة فيها:

أيما وثقأ بالدهر عند انصرافه! رويته إني بالزمان أخو خير ويا شامئاً مهلاً، فكم ذي شمتة تكون له العقبى بقاصمة الظهر

ذكر ولاية صمصام الدولة العراق وملك أخيه شرف الدولة

بلاد فارس

لما توفي عضد الدولة اجتمع القواد والأمراء على ولده أبي كالجار المرزيان، فبايعوه وولوه الإمارة، ولقبوه صمصام الدولة، فلما ولي خلع على أخوته أبي الحسين أحمد، وأبي طاهر فيروزشاه، وأقطعهما فارس، وأمرهما بالجد في السير ليسبقا أخاهما شرف الدولة أبا الفوارس شيرزيل إلى شيراز.

فلما وصلا إلى أرجان أتاهما خبر وصول شرف الدولة إلى شيراز، فعادا (٢٣/٩) إلى الأهواز. وكان شرف الدولة بكرمان، فلما بلغه خبر وفاة أبيه سار مجدداً إلى فارس فملكها، وقبض على نصر بن هارون النصراني، وزيار أبيه، وقتله لأنه كان يسيء صحبته أيام أبيه، وأصلح أمر البلاد، وأطلق الشريف أبا الحسين محمد بن عمر العلوي، والنقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي، والقاضي أبا محمد بن معروف، وأبا نصر خراساذه، وكان عضد الدولة حسبه، وأظهر مشاققة أخيه صمصام الدولة، وقطع خطبته، وخطب لنفسه، وتلقب بتاج الدولة، وفرق الأموال، وجمع الرجال، وملك البصرة وأقطعها أخاه أبا الحسين، فبقي كذلك ثلاث سنين إلى أن قبض عليه شرف الدولة، على ما تذكره إن شاء الله تعالى.

فلما سمع صمصام الدولة بما فعله شرف الدولة سبر إليه جيشاً، واستعمل عليهم الأمير أبا الحسن بن دبعض، حاجب عضد الدولة، فجهز تاج الدولة عسكرياً، واستعمل عليهم الأمير أبا الأعز ديبس بن عفيف الأسدي، فالتقيا بظاهر قرقوب، واقتلوا، فانهزم عسكر صمصام الدولة، وأمر دبعض، فاستولى حيتنذ أبو الحسين بن عضد الدولة على الأهواز، وأخذ ما فيها وفي رامهرمز، وطمع في الملك، وكانت الوقعة في ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

وجلس صمصام الدولة للعزاء ببغداد، فأتاه الطائع للـ معزياً، فلقبه في طيارة. ولما مات مؤيد الدولة تشاور أكابر دولته فيمن يقوم مقامه، فأشار الصاحب إسماعيل بن عباد بإعادة فخر الدولة إلى مملكته، إذ هو كبير البيت، ومالك تلك البلاد قبل مؤيد الدولة، ولما فيه من آيات الإمارة والملك. فكتب إليه واستدعاه، وهو بنيسابور، وأرسل الصاحب إليه من استخلفه لنفسه، وأقام في الوقت خسرو فيروز بن ركن الدولة ليسكن الناس إلى قدوم فخر الدولة.

فلما وصلت الأخبار إلى فخر الدولة سار إلى جرجان، فلقبه العسكر بالطاعة، (٢٧/٩) وجلس في دست ملكي في رمضان بغير منة لأحب، فسبحان من إذا أراد أمراً كان.

ولما عاد إلى مملكته قال له الصاحب: يا مولانا، قد بلغك الله، وبلغني فيك ما أمّلته، ومن حقوق خدمتي لك إجابتي إلى ترك الجندية، وملازمة داري والتوفر على أمر الله. فقال: لا تقل هذا، فما أريد الملك إلا لك، ولا يستقيم لي أمر إلا بك، وإذا كرهت ملازمة الأمور كرهتها أنا أيضاً وانصرفت.

فقبل الأرض، وقال: الأمر لك؛ فاستوزره وأكرمه وعظمه، وصدر عن رأيه في جليل الأمور وصغيرها.

وسيرت الخلع من الخليفة إلى فخر الدولة، والعهد، واتفق فخر الدولة و صمصام الدولة فصاراً يداً واحدة.

ذكر عزل أبي العباس عن خراسان وولاية ابن سيمجور

لما عاد أبو العباس عن بخارى إلى نيسابور، كما ذكرناه، استوزر الأمير نوح عبد الله بن عزّير، وكان ضدّاً لأبي الحسين العتيبي، وأبي العباس، فلما ولي الوزارة بدأ بعزل أبي العباس عن خراسان، وإعادة أبي الحسن بن سيمجور إليها، فكتب من خراسان من القواد إليه يسألونه أن يقرّ أبا العباس على عمله، فلم يجبههم إلى ذلك، فكتب أبو العباس إلى فخر الدولة بن بويه يستمده، فأمدّه بمال كثير وعسكر، فأقاموا بنيسابور، وأتاهم أبو محمد عبد الله بن عبد الرزاق معاضداً لهم على ابن سيمجور.

وكان أبو العباس حينئذ بمرو، فلما سمع أبو الحسن بن سيمجور وفائق (٢٨/٩) بوصول عسكر فخر الدولة إلى نيسابور قصدوهم، فأنحاز عسكر فخر الدولة وابن عبد الرزاق، وأقاموا ينتظرون أبا العباس، ونزل ابن سيمجور ومن معه بظاهر نيسابور، ووصل أبو العباس فيمن معه واجتمع بعسكر الديلم، ونزل بالجانب الآخر، وجري بينهم حروب عدة أيام، وتحصّن ابن سيمجور في البلد، وأنفذ فخر الدولة إلى أبي العباس عسكراً آخر، أكثر من ألفي فارس، فلما رأى ابن سيمجور قوة أبي العباس انحاز

عن نيسابور، فسار عنها ليلاً، وتبعه عسكر أبي العباس، فغنموا كثيراً من أموالهم ودوابهم، واستولى أبي العباس على نيسابور، وراسل الأمير نوح بن منصور يستميله ويستعطفه، ولجّ ابن عزّير في عزله، ووافق على ذلك والده الأمير نوح، وكانت تحكم في دولة ولدها، وكانوا يصدرون عن رأيها، فقال بعض أهل العصر في ذلك:

شيان يعجزُ ذو الرّياضةَ عنهم: رأيُ النّساءِ وامرأةُ الصّيانِ
أما النّساءُ فيملّهن إلى الهوى، وأخو الصّبا يجري بغير عِنانِ

ذكر انهزام أبي العباس إلى جرجان ووفاته

لما انهزم ابن سيمجور وأقام أبو العباس بنيسابور يستعطف الأمير نوحاً ووزيره ابن عزّير، وترك اتباع ابن سيمجور وإخراجه من خراسان، فراجع إلى ابن سيمجور أصحابه المنهزمون، وعادت قوته، وأتته الأمداد من بخارى، وكتب شرف الدولة أبا الفوارس بن عضد الدولة، وهو بفارس، يستمده، فأمدّه بألفي فارس مراغمةً لعمه فخر الدولة، فلما كثف جمعه قصد أبا (٢٩/٩) العباس، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً إلى آخر النهار، فانهزم أبو العباس وأصحابه، وأسر منهم جماعة كثيرة.

وقصد أبو العباس جرجان، وبها فخر الدولة، فأكرمه وعظمه، وترك له جرجان ودهستان وأستراباذ صافية له ولمن معه، وسار عنها إلى الري، وأرسل إليه من الأموال والآلات ما يجلب عن الوصف.

وأقام أبو العباس بجرجان هو وأصحابه، وجمع العساكر وسار نحو خراسان، فلم يصل إليها، وعاد إلى جرجان وأقام بها ثلاث سنين، ثم وقع بها وباء شديد مات فيه كثير من أصحابه، ثم مات هو أيضاً، وكان موته سنة سبع وسبعين [وثلاثمائة]، وقيل: إنه مات مسموماً.

وكان أصحابه قد أسأوا السيرة مع أهل جرجان، فلما مات ثار بهم أهلها ونهبوهم، وجرت بينهم وقعة عظيمة أجلت عن هزيمة الجرجانية، وقتل منهم خلق كثير، وأحرقت دورهم، ونهبت أموالهم، وطلب مشايخهم الأمان، فكفّوا عنهم، وتفرّق أصحابه، فسار أكثرهم إلى خراسان، واتصلوا بأبي علي بن أبي الحسن بن سيمجور، وكان حينئذ صاحب الجيش مكان أبيه، وكان والده قد توفي فجأة وهو يجمع بعض حظائيه، فمات على صدرها، فلما مات قام بالأمر بعده ابنه أبو علي، واجتمع إخوته على طاعته، منهم أخوه أبو القاسم وغيره، فنازعه فائق الولاية، وسنذكر ذلك سنة ثلاث وثمانين [وثلاثمائة] عند ملك الترك بخارى، إن شاء الله تعالى. (٣٠/٩)

ذكر قتل أبي الفرج محمد بن عمران وملك أبي المعالي

ابن أخيه الحسن

في هذه السنة قتل أبو الفرج محمد بن عمران بن شاهين صاحب البطيحة، وولي أبو المعالي ابن أخيه الحسن.

وسبب قتله أن أبا الفرج قدم الجماعة الذين ساعدوه على قتل أخيه، ووضع من حال مقدمي القواد، فجمعهم المظفر بن علي الحاجب، وهو أكبر قواد أبيه عمران وأخيه الحسن، وحذرهم عاقبة أمرهم، فاجتمعوا على قتل أبي الفرج، فقتله المظفر وأجلس أبا المعالي مكانه، وتولى تديره بنفسه، وقتل كل من كان يخافه من القواد، ولم يترك معه إلا من يتق به، وكان أبو المعالي صغيراً.

ذكر استيلاء المظفر على البطيحة

لما طالت أيام المظفر بن علي الحاجب وقوي أمره طمع في الاستقلال بأمر البطيحة، فوضع كتاباً عن لسان صمصام الدولة إليه يتضمن التعويل عليه في ولاية البطيحة، وسلمه إلى ركابي غريب، وأمره أن يأتيه إذا كان القواد والأجناد عنده، ففعل ذلك، وأتاه وعليه أثر الغبار، وسلم إليه الكتاب، فقبله وفتح، وقرأه بمحضر من الأجناد، وأجاب بالسمع والطاعة، وعزل أبا المعالي، وجعله مع والدته، وأجرى عليهما جارية، ثم (٣١/٩) أخرجهما إلى واسط، وكان يصلهما بما يتفقانه، واستبد بالأمر، وأحسن السيرة، وعدل في الناس مدة.

ثم إنه عهد إلى ابن أخته أبي الحسن علي بن نصر الملقب بمهذب الدولة، وكان يلقب حينئذ بالأمر المختار، ويعهده إلى أبي الحسن علي بن جعفر، وهو ابن أخته الأخرى، وانقرض بيت عمران بن شاهين، وكذلك الدنيا دول، وما أشبه حاله بحال باؤ، فإنه ملك، وانتقل الملك إلى ابن أخته مهذب الدولة ابن مروان.

ذكر عصيان محمد بن غانم

وفيها عصى محمد بن غانم البرزيكاني بناحية كوردر، من أعمال قم، على فخر الدولة، وأخذ بعض غلات السلطان، وامتنع بحصن الهفتجان، وجمع البرزيكاني إلى نفسه فسارت إليه العساكر، في شوال، لقتاله، فهزمها، وأعيدت إليه من الرّي مرة أخرى فهزمها.

فأرسل فخر الدولة إلى أبي التجم بدر بن حسويه ينكر ذلك عليه، ويأمره بإصلاح الحال معه، ففعل، وراسله، فاصطلحوا أول سنة أربع وسبعين (ثلاثمائة) وبقي إلى سنة خمس وسبعين، فسار إليه جيش لفخر الدولة، فقاتله، فأصابته طعنة، وأخذ أسيراً، فمات من طعته. (٣٢/٩)

ذكر انتقال بعض صنهاجة من إفريقية إلى الأندلس وما فعلوه

في هذه السنة انتقل أولاد زيري بن مناد، وهم زاوي وجلالة وماكسن إخوة بلكين، إلى الأندلس.

وسبب ذلك أنهم وقع بينهم وبين أخيههم حماد حروب وقتال على بلاد بينهم، فغلبهم حماد، فتوجهوا إلى طنجة ومنها إلى قرطبة، فأنزلهم محمد ابن أبي عامر وسر بهم، وأجرى عليهم الوظائف وأكرمهم، وسألهم عن سبب انتقالهم، فأخبروه، وقالوا له: إنما اخترناك على غيرك، وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله. فاستحسن ذلك منهم، ووعدهم ووصلهم، فأقاموا أياماً.

ثم دخلوا عليه وسأله إتمام ما وعدهم به من الغزو، فقال: انظروا ما أردتم من الجند نعظكم؛ فقالوا: ما يدخل معنا بلاد العدو غيرنا إلا الذين معنا من بني عمنّا، وصنهاجة وموالينا؛ فأعطاهم الخيل والسلاح والأموال، ويعت معهم دليلاً، وكان الطريق ضيقاً، فاتوا أرض جليقية، فدخلوها ليلاً، وكمنا في بستان بالقرب من المدينة، وقتلوا كل من به وقطعوا أشجاره. فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد فضربوا عليهم وأخذوهم وقتلوهم جميعاً ورجعوا.

وتسامع العدو، فركبوا في أثرهم، فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ريو، فلما جاوزهم العدو خرجوا عليهم من ورائهم، وضربوا في ساقهم وكبروا، فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدد كثير، فانهزموا، وتبعهم صنهاجة، فقتلوا خلقاً كثيراً، وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا إلى قرطبة، فعظم ذلك (٣٣/٩) عند ابن أبي عامر، ورأى من شجاعتهم ما لم يره من جند الأندلس، فأحسن إليهم وجعلهم بطلانه.

ذكر غزو ابن أبي عامر إلى الفرنج بالأندلس

لما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم، ورغبوا في الجهاد، وقالوا للمصور بن أبي عامر: لقد نشطنا هؤلاء للغزو. فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار، وخرج إلى الجهاد، وكان رأى في منامه، تلك الليالي، كان رجلاً أعطاه الأسبراج، فأخذه من يده وأكل منه، فغبره على ابن أبي جمعة، فقال له: اخرج إلى بلد اليون فإنك ستفتحها؛ فقال: من أين أخذت هذا؟ فقال: لأن الأسبراج يقال له في المشرق الهليون، فملك الرويا قال لك: ها ليون.

فخرج إليها ونازلها، وهي من أعظم مدائنهم، واستمد أهلها الفرنج، فأمذوهم بجيوش كثيرة، واقتلوا ليلاً ونهاراً، فكثر القتل فيهم، وصبرت صنهاجة صبراً عظيماً، ثم خرج قومص كبير من الفرنج لم يكن لهم مثله، فجال بين الصفوف وطلب البراز، فبرز

ووصل بعض أصحابه إلى نصيبين، فاستولى عليها، فجهّز مصصام الدولة إليه العساكر مع أبي سعد بهرام بن أردشير، فواقعه، فانهزم بهرام وأسر جماعة من أصحابه، وقوي أمر باذ، فأرسل مصصام الدولة إليه أبا القاسم سعد بن محمد الحاجب في عسكر كثير، فالتقوا بباجلایا على خابور الحسينية، من بلد كواشي، واقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم سعد وأصحابه، واستولى باذ على كثير من الديلم، فقتل وأسر، ثم قتل الأسرى صبراً. وفي هذه الوقعة يقول أبو الحسين البشنوي:

بباجلایا جَلَوْنَا عَنْهُ غَمْسُهُ ونحن في الروع جَلَاوُنَ لِلْكَرْبِ
(٣٦/٩)

يعني باذاً، وسنذكر سببه سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، إن شاء الله تعالى.

ولما هزم باذ الديلم وسعداً، وفعل فيهم ما تقدّم ذكره، سبّقه سعد فدخل الموصل، وسار باذ في أثره، فثار العامة بسعد لسوء سيرة الديلم فيهم، فنجّا منهم بنفسه، ودخل باذ إلى الموصل واستولى عليها، وقويت شوكته، وحدّث نفسه بالتغلب على بغداد وإزالة الديلم عنها، وخرج من حدّ المنطرفين، وصار في عداد أصحاب الأطراف. فخافه مصصام الدولة، وأهمّه أمره، وشغله عن غيره، وجمع العساكر ليسيّرها، إليه، فانقضت السنة.

وقد حدّثني بعض أصدقائنا من الأكراد الحميدية ممّن يعتني بأخبار باذ أن باذاً كنيته أبو شجاع، واسمه باذ، وأنّ أبا عبد الله هو الحسين بن دوستك، وهو أخو باذ، وكان ابتداء أمره أنّه كان يرعى الغنم، وكان كريماً جواداً، وكان يذبح الغنم التي له ويطعم الناس، فظهر عنه اسم الجود، فاجتمع عليه الناس، وصار يقطع الطريق، وكلّما حصل له شيء أخرجه، فكثّر جمعه، وصار يفتزو، ثمّ إنّ دخل أرمينية، فملك مدينة أرجيش، وهي أول مدينة ملكها، فقوي بها، وسار منها إلى ديار بكر، فملك مدينة آمد، ثمّ ملك مدينة ميّافارقين وغيرها من ديار بكر، وسار إلى الموصل فملكها كما ذكرناه. (٣٧/٩)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة استعمل العزيز بالله الخليفة العلويّ على دمشق وأعمالها بكجور التركيّ مولى قرغويه أحد غلمان سيف الدولة بن حمدان، وكان له حصص، فسار منها إلى دمشق، وظلم أهلها، وعسفهم وأساء السيرة فيهم، وقد ذكرناه سنة اثنتين وسبعين [وثلاثمائة] مستقصى.

وفيها وزر أبو محمد عليّ بن العباس بن فسانجس لشرف الدولة.

إليه جلالة بن زيري الصنهاجيّ فحمل كلّ واحد منهما على صاحبه، فطعنه الفرنجيّ فمال عن الطعنة وضربه بالسيف على عاتقه فأبان عاتقه، فسقط الفرنجيّ على الأرض، وحمل المسلمون على النصاري، فانهزموا إلى بلادهم، وقتل منهم ما لا يحصى وملك المدينة.

وغنم ابن أبي عامر غنيمة عظيمة لم ير مثلهما، واجتمع من السبي ثلاثون ألفاً، (٣٤/٩) وأمر بالقتلى فنضّدت بعضها على بعض، وأمر مؤذناً أذن فوق القتلى المغرب، وخرّب مدينة قامونة، ورجع سالماً هو وعساكره.

ذكر وفاة يوسف بُلْكَيْن وولاية ابنه المنصور

في هذه السنة، لسبع بقين لذي الحجة، توفي يوسف بُلْكَيْن بن زيري صاحب إفريقية بوارقلين.

وسبب مضيّه إليها أن خزرون الزناتيّ دخل سجلماسة، وطرد عنها نائب يوسف بُلْكَيْن، ونهب ما فيها من الأموال والعُدَد، وتغلّب على فاس زيري بن عطية الزناتيّ، فرحل يوسف إليها، فاعتزل في الطريق بقولنج، وقيل خرج في يده بثرة فمات منها، فأوصى بولاية ابنه المنصور، وكان المنصور بمدينة أشير، فجلس للعزاء بآبيه، وأناه أهل القيروان وسائر البلاد يعزّونه بآبيه ويهنّونه بالولاية، فأحسن إلى الناس وقال لهم: إنّ أبي يوسف وجدّي زيري كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلاّ بالإحسان، ولست ممّن يولّي بكتاب ويغزل بكتاب، يعني أنّ الخليفة بمصر لا يقدر أن يعزله بكتاب.

ثم سار إلى القيروان، وسكن برقادة، وولّي الأعمال، واستعمل الأمراء وأرسل هدية عظيمة إلى العزيز بالله بمصر، قيل: كانت قيمتها ألف ألف دينار، ثم عاد إلى أشير، واستخلف على جباية الأموال بالقيروان، والمهدية، وجميع إفريقية إنساناً يقال له عبد الله بن الكاتب. (٣٥/٩)

ذكر أمر باذ الكرديّ خال بني مروان وملكه الموصل

في هذه السنة قوي أمر باذ الكرديّ، واسمه أبو عبد الله الحسين بن دوستك وهو من الأكراد الحميدية، وكان ابتداء أمره أنّه كان يفتزو بثغور ديار بكر كثيراً، وكان عظيم الخلفة، له بأس وشدة، فلما ملك عضد الدولة الموصل حضر عنده، فلمّا رأى عضد الدولة خافه وقال: ما أظنه يُتقي عليّ؛ فهرب حين خرج من عنده، وطلبه عضد الدولة بعد خروجه ليقبض عليه، وقال: له بأس وشدة، وفيه شرّ، ولا يجوز الإبقاء على مثله؛ فأخبر بهربه، فكفّ عن طلبه.

وحصل بثغور ديار بكر، وأقام بها إلى أن استفضل أمره وقوي، وملك ميّافارقين وكثيراً من ديار بكر بعد موت عضد الدولة،

ذكر عدة حوادث

وفيهما، في ربيع الأول، انتقض كوكب عظيم أضاءت له الدنيا،
وسُمع له مثل دوي الرعد الشديد.

وفيهما غلت الأسعار بالعراق وما يجاوره من البلاد، وعدمت
الأقوات، فمات كثير من الناس جوعاً.

وفيهما وزر أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان لصمصام
الدولة.

وفيهما ورد القرامطة إلى قريب بغداد، وطعموا بموت عضد
الدولة، فصولحوا على مال أخذوه وعادوا.

وفيهما، في جمادى الآخرة، توفي سعيد بن سلام أبو عثمان
المغربي بنسبأبور، ومولده بالقيروان، ودخل الشام، فصحب
الشيوخ منهم أبو الخير الأقطع وغيره، وكان من أرباب
الأحوال. (٣٨/٩)

سنة أربع وسبعين وثلاثمائة

ذكر عود الديلم إلى الموصل وانتهزام باذ

لما استولى باذ الكردي على الموصل اهتم صمصام الدولة
ووزيره ابن سعدان بأمره، فوقع الاختيار على إنفاذ زيار بن
شهرأكويه، وهو أكبر قوادهم، فأمره بالمسير إلى قتاله وجهزه،
وبالغ في أمره، وأكثر معه الرجال والعُد والأموال، وسار إلى باذ،
فخرج إليهم، ولقيهم في صفر من هذه السنة، فأجلت الوقعة عن
هزيمة باذ وأصحابه وأسر كثير من عسكره وأهله، وحملوا إلى
بغداد فشهرها بها، وملك الديلم الموصل.

وأرسل زيار عسكراً مع سعد الحاجب في طلب باذ، فسلكوا
على جزيرة ابن عمر، وأرسل عسكراً آخر إلى نصيبين، فاختلفوا
على مقدميهم، فلم يطاوعوهم على المسير إليهم، وكان باذ بديار
بكر قد جمع خلقاً كثيراً، فكتب وزير صمصام الدولة إلى سعد
الدولة بن سيف الدولة بن حمدان، وبذل له تسليم ديار بكر إليه،
فسيّر إليها جيشاً، فلم يكن لهم قوة بأصحاب باذ، فعادوا إلى
حلب، وكانوا قد حصروا ميفارقين، فلما شاهد سعد ذلك من
عسكره أعمل الحيلة في قتل باذ، فوضع رجلاً على ذلك، فدخل
الرجل خيمة باذ ليلاً، وضربه بالسيف، وهو يظن أنه يضرب رأسه،
فوقعت الضربة على ساقه، (٣٩/٩) فصاح، وهرب ذلك الرجل،
فمرض باذ من تلك الضربة، فأشفى على الموت، وكان قد جمع
معه من الرجال خلقاً كثيراً، فواصل زياراً وسعداً يطلب الصلح،
فاستقر الحال بينهم، واصطلحوا على أن تكون ديار بكر لباز،
والنصف من طور عبلين أيضاً، وانحدر زيار إلى بغداد، وأقام سعد
بالموصل.

في هذه السنة قلد أبو طريف عليان بن شمال الخفاجي حماية
الكوفة، وهي أول إمارة بني شمال.

وفيهما خطب أبو الحسين بن عضد الدولة بالأهواز لنخر
الدولة، وخطب له أبو طاهر بن عضد الدولة بالبصرة، ونقش اسمه
على السكة.

وفيهما خطب لصمصام الدولة بعمان، وكانت لشرف الدولة،
ونائبه بها أستاذ هرمز، فصار مع صمصام الدولة، فلما بلغ الخبر
إلى شرف الدولة أرسل إليه جيشاً، فانهزم أستاذ هرمز وأخذ أسيراً،
وعادت عمان إلى شرف الدولة، وخُيس أستاذ هرمز في بعض
القلاع وطولب بمال كثير.

وفيهما توفي علي بن كامة، ومقدم عسكر ركن الدولة.

وفيهما أفرج شرف الدولة عن أبي منصور بن صالحان
واستوزره، وقبض على وزيره أبي محمد بن فسانجس.

وفيهما أرسل شرف الدولة رسلاً إلى القرامطة، فلما عاد قال:
إن القرامطة سألوني عن الملك فأخبرتهم بحسن سيرته فقالوا: من
ذلك أنه استوزر (٤٠/٩) ثلاثة في سنة لغير سبب، فلم يغيّر شرف
الدولة بعد هذا على وزيره أبي منصور بن صالحان.

وفي هذه السنة توفي أبو الفتح محمد بن الحسين الأزدي
الموصلّي، الحافظ المشهور، وقيل في سنة تسع
وستين [وثلاثمائة]، وكان ضعيفاً في الحديث. (٤١/٩)

سنة خمس وسبعين وثلاثمائة

ذكر الفتنة ببغداد

في هذه السنة جرت فتنة ببغداد بين الديلم، وكان سببها أن
أسفار بن كردويه، وهو من أكابر القواد، استنفر من صمصام
الدولة، واستمال كثيراً من العسكر إلى طاعة شرف الدولة، واتفق
رأيهم على أن يولّوا الأمير بهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة
العراق نيابة عن أخيه شرف الدولة.

وكان صمصام الدولة مريضاً، فتمكن أسفار من الذي عزم
عليه، وأظهر ذلك، وتأخر عن الدار، وراسله صمصام الدولة
يستميله ويُسكنه، فما زاده إلا تمادياً، فلما رأى ذلك من حاله راسل
الطائع يطلب منه الركوب معه، وكان صمصام الدولة قد أبلى من
مرضه، فامتنع الطائع من ذلك، فشرع صمصام الدولة، واستمال
فولاذ زماندار، وكان موافقاً لأسفار إلا أنه كان يأنف من متابعتها
لكبر شأنه. فلما راسله صمصام الدولة أجابه، واستحلفه على ما

وقصد ورديس بن لاون، فتراسلا، واستقر الأمر بينهما على أن تكون القسطنطينية، وما جاورها من شمالي الخليج، لورديس، وهذا الجانب من الخليج لورد، وتحالفا واجتماعا، فقبض ورديس على ورد وحبيه، ثم إنه ندم فأطلقه عن قريب، وعبر ورديس الخليج، وحصر القسطنطينية وبها الملكان ابنا أرماتوس، وهما بسيل وقسطنطين، وضيّق عليهما، فراسلا ملك الروسية، واستنجده وزوجاه بأخت لهما، فامتنعت من تسليم نفسها إلى (٤٢/٩) من يخالفها في الدين، فنصر، وكان هذا أول النصرانية في الروس، وتزوجها وسار إلى لقاء ورديس، فاقتلوا وتحاربوا فقتل ورديس، واستقر الملكان في ملكهما، وراسلا ورداً وأقرّاه على ما بيده، فبقي مديدة ومات، قيل إنه مات مسموماً.

وتقدّم بسيل في الملك، وكان شجاعاً، عادلاً، حسن الرأي، ودام ملكه، وحارب البلغار خمسا وثلاثين سنة، وظفر بهم، وأجلى كثيراً منهم من بلادهم، وأسكنها الروم، وكان الإحسان إلى المسلمين والميل إليهم.

ذكر ملك شرف الدولة الأهواز

في هذه السنة سار شرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة من فارس يطلب الأهواز، وأرسل إلى أخيه أبي الحسين وهو بها يطيب نفسه، ويعدّه الإحسان، وأن يقرّه على ما بيده من الأعمال، وأعلمه أن مقصده العراق، وتخليص أخيه الأمير أبي نصر من محبسه، فلم يصغ أبو الحسين إلى قوله، وعزم على منعه، وتجهّز لذلك، فأتاه الخبر بوصول شرف الدولة إلى أرجان، ثم إلى رامهرمز، فتسلّل أجناده إلى شرف الدولة ونادوا بشعاره، فهرب أبو الحسين نحو الريّ إلى عمّه فخر الدولة، فبلغ أصبهان وأقام بها، واستنصر عمّه فأطلق له مالاً ووعدّه بنصره.

فلما طال عليه الأمر قصد التغلب على أصبهان ونادى بشعار أخيه شرف الدولة، فثار به جندها وأخذوه أسيراً وسيّروه إلى الريّ، فحبسه عمّه، (٤٥/٩) وبقي محبوساً إلى أن مرض عمّه فخر الدولة مرض الموت، فلما اشتدّ مرضه أرسل إليه من قتله، وكان يقول شعراً، فمن قوله:

هب الدهر أرضاتي واعتب صرفه وأغقب بالحسن، وفكّ من الأسر فمّن لي بآيام الشباب التي مضت ومن لي بما قد فات في الحبس من وأما شرف الدولة فإنه سار إلى الأهواز وملكها، وأرسل إلى البصرة فملكها، وقبض على أخيه أبي طاهر، وبلغ الخبر إلى صمصام الدولة، فراسله في الصلح، فاستقرّ الأمر على أن يخطب لشرف الدولة، ويكون صمصام الدولة نائباً عنه، ويطلق أخاه الأمير بهاء الدولة أبا نصر، فأطلقه وسيّره إليه، وصلح الحال واستقام.

وكان قواد شرف الدولة يحبّون الصلح لأجل العود إلى

أراد، وخرج من عنده، وقاتل أسفار، فهزمه فولاذ، وأخذ الأمير أبو نصر أسيراً، وأحضر عند أخيه صمصام الدولة، فرق له، وعلم أنه لا ذنب له، (٤٢/٩) فاعتقله مكرماً، وكان عمره حينئذ خمس عشرة سنة.

وثبت أمر صمصام الدولة، وسُعي إليه بابن سعدان الذي كان وزيره، فعزله، وقيل إنه كان هواه معهم، فقتل ومضى أسفار إلى الأهواز، واتصل بالأمير أبي الحسين بن عضد الدولة، وخدمه، وسار باقي العسكر إلى شرف الدولة.

ذكر أخبار القرامطة

في هذه السنة ورد إسحاق وجعفر البحرين، وهما من الستة القرامطة الذين يلقّبون بالسادة، فملكا الكوفة، وخطبا لشرف الدولة، فانزعج الناس لذلك لما في النفوس من هيتهم وبأسهم، وكان لهم من الهبة ما إن عضد الدولة ويختار أقطاعهم الكثير.

وكان نائبهم ببغداد يُعرف بأبي بكر بن شاهويه، يتحكّم تحكّم الوزراء، فقبض عليه صمصام الدولة، فلما ورد القرامطة الكوفة كتب إليهما صمصام الدولة يُلطفهما، ويسألهما عن سبب حركتهما، فذكرا أن قبض نائبهم هو السبب في قصدهم بلاده، ويثا أصحابهما، وجبى المال.

ووصل أبو قيس الحسن بن المنذر إلى الجامعين، وهو من أكابرهم، فأرسل صمصام الدولة العساكر، ومعهم العرب، فعبروا الفرات إليه وقاتلوه، فانهزم عنهم، وأسر أبو قيس وجماعة من قوادهم، فقتلوا، فعاد القرامطة (٤٣/٩) وسيّروا جيشاً آخر في عدد كثير وعُدّة، فالتقوا هم وعساكر صمصام الدولة بالجامعين أيضاً، فأجلت الواقعة عن هزيمة القرامطة، وقتل مقدّمهم وغيره، وأسر جماعة، ونهب سوادهم، فلما بلغ المنهزمون إلى الكوفة رحل القرامطة، وتبعهم العسكر إلى القادسية، فلم يدركوهم، وزال من حينئذ ناموسهم.

ذكر الإفراج عن ورد الروميّ وما صار أمره إليه ودخول الروس في النصرانية

في هذه السنة أفرج صمصام الدولة عن ورد الروميّ، وقد تقدّم ذكر حبسه. فلما كان الآن أفرج عنه وأطلقه، وشرط عليه إطلاق عدد كثير من أسارى المسلمين، وأن يسلم إليه سبعة حصون من بلد الروم برساتيقها، وأن لا يقصد بلاد الإسلام هو ولا أحد من أصحابه ما عاش، وجّهّه بما يحتاج إليه من مال وغيره، فسار إلى بلاد الروم، واستمال في طريقه خلقاً كثيراً من البوادي وغيرهم، وأطمعهم في العطاء والنعمة، وسار حتى نزل بملطية، فسلمها، وقوي بها وبما فيها من مال وغيره.

سنة ست وسبعين وثلاثمائة

ذكر ملك شرف الدولة العراق وقبض صمصام الدولة

في هذه السنة سار شرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة من الأهواز إلى واسط فملكها، فأرسل إليه صمصام الدولة أخاه أبا نصر يستعطفه بإطلاقه، وكان محبوباً عنده، فلم يتعطف له، واتسع الخرق على صمصام الدولة، وشغب عليه جنده، فاستشار أصحابه في قصد أخيه والدخول في طاعته، فنهوه عن ذلك، وقال بعضهم: الرأي أننا نصعد إلى عُكبرا لنعلم بذلك من هو لنا ممن هو علينا، فإن رأينا عدتنا كثيرة قاتلناهم وأخرجنا الأموال، وإن عجزنا سرنا إلى الموصل، فهي وسائر بلاد الجبل لنا، فيقوى أمرنا، ولا بد أن الديلم والأتراك تجري بينهم منافسة ومحاسدة ويحدث اختلال فتبلغ الغرض.

وقال بعضهم: الرأي أننا نسير إلى قرميسين نكتب عنك فخر الدولة فتستجده، وتسير على طريق خراسان وأصبهان إلى فارس، فتغلب عليها، على خزائن شرف الدولة وذخائره، فما هناك ممانع ولا مدافع، فإذا فعلنا ذلك لا يقدر شرف الدولة على المقام بالعراق، فيعود حينئذ فيقع الصلح. (٤٩/٩)

فأعرض صمصام الدولة عن الجميع وسار في طيار إلى أخيه شرف الدولة في خرواصه، فوصل إلى أخيه شرف الدولة، فلقبه وطيب قلبه. فلما خرج من عنده قبض عليه، وأرسل إلى بغداد من يحتاط على دار المملكة، فسار فوصل إلى بغداد في شهر رمضان، فنزل بالشقيعي، وأخوه صمصام الدولة معه تحت الاعتقال، وكانت إمارته بالعراق ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

ذكر الفتنة بين الأتراك والديلم

في هذه السنة جرت فتنة بين الديلم والأتراك الذين مع شرف الدولة ببغداد. وسببها أن الديلم اجتمعوا مع شرف الدولة في خلق كثير بلغت عدتهم خمسة عشر ألف رجل، وكان الأتراك في ثلاثة آلاف، فاستطال عليهم الديلم فجرت منازعة بين بعضهم في دار وإصطبل، ثم صارت إلى المحاربة، فاستظهر الديلم لكثرتهم، وأرادوا إخراج صمصام الدولة وإعادته إلى ملكه.

وبلغ شرف الدولة الخبر، فوكل بصمصام الدولة من يقتله إن هم الديلم بإخراجه. ثم إن الديلم لما استظهروا على الأتراك تبعوهم، فتشوشت صفوفهم، فعادت الأتراك عليهم من أمامهم ومن خلفهم، فانهزموا وقتل منهم زيادة على ثلاثة آلاف، ودخل الأتراك البلد فقتلوا من وجدوه منهم، ونهبوا أموالهم، وتفرق الديلم، فبعضهم اعتصم بشرف الدولة، وبعضهم سار عنه.

وأوطانهم، وخطب لشرف الدولة بالعراق، وسيرت إليه الخلع والألقاب من الطائع لله، فإلى أن عادت الرسل إلى شرف الدولة ليحلفوه ألقب إليه البلاد مقاليداً كواسط وغيرها، وكاتبه القواد بالطاعة، فعاد عن الصلح، وعزم على قصد بغداد والاستيلاء على الملك، ولم يحلف لأخيه.

وكان معه الشريف أبو الحسن محمد بن عمر يشير عليه بقصد العراق، ويحثه عليه، ويطمعه فيه، فوافقه على ذلك. وسنذكر باقي خبره سنة ست وسبعين [وثلاثمائة]، إن شاء الله تعالى. (٤٦/٩)

ذكر انهزام عساكر المنصور من صاحب سيجلماسة

قد ذكرنا استيلاء خزرون وزيري الزناتيين على سيجلماسة وفارس، وموت يوسف بلُكنم لما قصدتهما، فلما مات تمكنا من تلك البلاد؛ فلما استقر المنصور سير جيشاً كثيراً إليهما ليردعهما إلى طاعته، فلما صار الجيش قريب فاس خرج إليهم صاحبها زيري بن عطية الزناتي، المعروف بالقرطاس، في عساكره، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عسكر المنصور، وقتل منهم خلق كثير، وأسر جماعة كثيرة، وثبت قدمه في ولايته.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرج بعمان طائر من البحر كبير، أكبر من الفيل، ووقف على تل هناك، وصاح بصوت عال، ولسان فصيح: قد قرب، قد قرب، قد قرب، ثلاثاً ثم غاص في البحر، فعل ذلك ثلاثة أيام، ثم غاب ولم يُر بعد ذلك.

وفيهما جدّد صمصام الدولة ببغداد على ثياب الإبريسم والقطن المبيعة ضريبة مقدارها عشر الثمن، واجتمع الناس في جامع المنصور، وعزموا على قطع الصلاة، وكاد البلد يفتن، فأعفوا من ذلك. (٤٧/٩)

وفيهما توفي ابن مؤيد الدولة بن بويه، فجلس صمصام الدولة للعزاء، فأناه الطائع لله معزياً.

وفيهما توفي أبو علي الحسن بن الحسين بن أبي هريرة الفقيه الشافعي المشهور؛ وأبو القاسم عبد العزيز بن عبد الله الداركي وكان رئيس أصحاب الشافعي بالعراق، وتوفي في شوال وله ثيف وسبعون سنة؛ وأبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح الفقيه المالكي، ومولده سنة سبع وثمانين ومائتين، وسئل أن يلي قضاء القضاة فامتنع؛ والوليد بن أحمد بن محمد بن الوليد أبو العباس الزوزني الصوفي المحدث، كان من العلماء في الحقائق، وله تصانيف حسنة. (٤٨/٩)

قضاء القضاة بخراسان، ومات في صفرو، وكان عابداً محدثاً ثقةً.
واسحاق بن المقتدر بالله أبو محمد والد القادر، ومولده سنة
سبع عشرة وثلاثمائة، وصلى عليه ابنه القادر وهو حينئذ أمير.

وأبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي،
صاحب الإيضاح؛ قيل كان معتزلياً وقد جاوز تسعين سنة.

وأبو أحمد محمد بن أحمد بن الحسين بن الغطريف
الجرجاني، توفي في رجب، وهو عالي الإسناد فسي
الحديث. (٥٢/٩)

سنة سبع وسبعين وثلاثمائة

ذكر الحرب بين بدر بن حسويه وعسكر شرف الدولة

في هذه السنة جهّز شرف الدولة عسكراً كثيفاً مع قراتكين
الجهشياري، وهو مقدم عسكره وكبيرهم، وأمرهم بالمسير إلى بدر
بن حسويه وقتاله.

وسبب ذلك أن شرف الدولة كان مغيباً حقاً على بدر
لانحرافه عنه، وميله إلى عمّه فخر الدولة، فلما استقرّ ملكه ببغداد
وأطاعه الناس شرع في أمر بدر، وكان قراتكين قد جاوز الحدّ في
التحكّم والإدلال، وحماية الناس على نواب شرف الدولة، فرأى
أن يخرج في هذا الوجه، فإن ظفر ببدر شفى غيظه منه، وإن ظفر
به بدر استراح منه.

فساروا نحو بدر، وتجهّز بدر وجمع العساكر، وتلقاها على
الوادي بقرميسين، فلما اقتتلوا انهزم بدر حتى توارى عنه، وظنّ
قراتكين وأصحابه أنه مضى على وجهه، فنزلوا عن خيولهم
وتفرقوا في خيامهم، فلم يلبثوا إلا ساعة حتى كرّ بدر راجعاً إليه،
وأكبّ عليهم، وأعجلهم عن الركوب، وقتل منهم مقتلة عظيمة،
 واحتوى على جميع ما في عسكرهم، ونجا قراتكين في نفر من
غلمان، فبلغ جسر النهر، وأقام به حتى اجتمع إليه المنهزمون،
ودخل بغداد. (٥٣/٩)

واستولى بدر بعد ذلك على أعمال الجبل وما والاها، وقويت
شوكته.

وأما قراتكين فإنه لما عاد من الهزيمة زاد إدلاله وتجنّبه،
وأغرى العسكر بالشغب والتوّب على الوزير أبي منصور بن
صالحان، فلقوه بما يكره، فلاطفهم ودفعهم، وأصلح شرف الدولة
بين الوزير وبين قراتكين، وشرع في إعمال الحيلة على قراتكين،
 فلم تمض غير أيام حتى قبض عليه وعلى جماعة من أصحابه،
 وكتّابه، وأخذ أموالهم، وشغب الجند لأجله، فقتله شرف الدولة،
 فسكنوا، وقدم عليهم طغان الحاجب، فصلحت طاعته.

فلما كان الغد دخل شرف الدولة ببغداد والديلم المعتصمون
به معه، فخرج الطائع لله ولقيه وهنّاه بالسلامة، وقبّل شرف الدولة
الأرض، وأخذ الديلم يذكرهم صمصام الدولة، فقبل لشرف
الدولة: اقبله، وإلا ملّكوه الأمر. (٥٠/٩)

ثم إن شرف الدولة أصلح بين الطائفتين، وحلف بعضهم
لبعض، وحمل صمصام الدولة إلى فارس، فاعتقل في قلعة هناك،
 فردّ شرف الدولة على الشريف محمد بن عمر جميع أملاكه وزاده
عليها، وكان خراج أملاكه كلّ سنة ألفي ألف وخمسمائة ألف
درهم، وردّ على النقيب أبي أحمد الموسويّ أملاكه، وأقرّ الناس
على مراتبهم، ومنع الناس من السعاعات ولم يقبلها، فأمنوا
وسكنوا. ووّرّ له أبو منصور بن صالحان.

ذكر ولاية مهذب الدولة البطيحة

في هذه السنة توفي المظفر بن عليّ، وولي بعده ابن أخته أبو
الحسن علي بن نصر بالعهد المذكور، وكتب إلى شرف الدولة
يبدّل له الطاعة، ويطلب التقليد، فأجيب إلى ذلك، ولُقّب بمهذب
الدولة، فأحسن السيرة، وبذل الخير والإحسان، فقصدته الناس،
وأمن عنده الخائفون.

وصارت البطيحة معقلاً لكلّ من قصدها، واتّخذها الأكابر
وطناً لهم، وينوا فيها الدور الحسنة ووسعهم برّه وإحسانه، وكتب
ملوك الأطراف وكتابه، وزوّجه بهاء الدولة ابنته، وعظم شأنه إلى
أن قصده القادر بالله فحماء، وبقي عنده إلى أن أتته الخلافة، على
ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر علة حوادث

في هذه السنة توفي أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر
الصوفي، المنجّم لعهد الدولة، وكان مولده بالرّيّ سنة إحدى
وتسعين ومائتين. (٥١/٩)

وفيها كان بالموصل زلزلة شديدة تهدّم بها كثير من المنازل،
وهلك كثير من الناس.

وفيها قتل المنصور بن يوسف، صاحب إفريقية، عبد الله
الكاظم، وقام على ولاية الأعمال بإفريقية عوضه يوسف بن أبي
محمد، وكان والي قصّة قبل ذلك.

وفيها كان بالعراق غلاء شديد جلا لشدّته أكثر أهله.

وفيها توفي أحمد بن يوسف بن يعقوب بن البهللول التنوخيّ
الأزرق، الأنباري الكاتب.

وأحمد بن الحسين بن عليّ أبو حامد المروزي، ويعرف بابن
الطبريّ الفقيه الخنفي، تفقه ببغداد على أبي الحسن الكرخي، وولي

ذكر مسير المنصور بن يوسف لحرب كتامة

وانهزم عسكره، وأقام بعضهم مقابل بعض.

فبينما هم كذلك أتاهم الخبر بموت شرف الدولة، فعاد خواشاهه إلى الموصل وأظهر موته، وأقامت العرب بالصحراء تمنع باذاً من النزول إليها، وبأذى بالجيل، وكان خواشاهه يصلح أمره ليعاود حرب باذ، فأتاه إبراهيم وأبو الحسين ابنا ناصر الدولة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة جلس الطائع لله لشرف الدولة جلوساً عاماً وحضره أعيان الدولة، وخلع عليه، وحلف كل واحد منهما لصاحبه.

وفيهما ولد الأمير أبو علي الحسن بن فخر الدولة في رجب.

وفيهما سار الصحاب بن عباد إلى طبرستان فأصلحها، ونفى المتغلبين عنها، وفتح عدة حصون منها: حصن قريم، وعاد في مسته.

وفيهما عصى الأمير أبو منصور بن كوريكنج، صاحب قزوین، على فخر(٥٦/٩) الدولة، فإطاعه فخر الدولة، وبذل له الأمان والإحسان، فعاد إلى طاعته.

وفيهما، في رمضان، حدثت فتنة شديدة بين الديلم والعامّة بمدينة الموصل، قُتل فيها مقتلة عظيمة، ثم أصلح الحال بين الطائفتين.

وفيهما تأخر المطر حتى انتصف كانون الثاني، وغلبت الأسعار بالعراق وما يجاوره من البلاد، واستسقى الناس مرتين فلم يُسقوا، حتى جاء المطر سابع عشر كانون الثاني، وزال القنوط، وتباعت الأمطار.(٥٧/٩)

سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة

ذكر القبض على شكر الخادم

في هذه السنة قبض شرف الدولة على شكر الخادم، وكان أخص الناس عند والده عضد الدولة وأقربهم إليه، يرجع إلى قوله ويعول عليه.

وكان سبب قبضه أنه كان أيام والده يقصد شرف الدولة ويؤذيه، وهو الذي تولى إبعاده إلى كرمان من بغداد، وقام بأمر صمصام الدولة، فحقد عليه شرف الدولة ذلك، فلمّا ملك شرف الدولة العراق اختفى شكر، فطلبه أشد الطلب فلم يوجد، وكان له جارية حبشية قد تزوجها، فطلبها إليه، فأقامت عنده مدة تخدمه.

في هذه السنة جمع المنصور، صاحب إفريقية، عساكره وسار إلى كتامة قاصداً حربها.

وسبب ذلك أن العزيز بالله العلوي بمصر كان قد أرسل داعياً له إلى كتامة، يقال له أبو الفهم، واسمه حسن بن نصر، يدعوهم إلى طاعته، وغرضه أن تميل كتامة إليه وترسل إليه جنداً يقاتلون المنصور، ويأخذون إفريقية منه، لما رأى من قوته. فدعاهم أبو الفهم، فكثر تبعه، وقاد الجيوش، وعظم شأنه، وعزم المنصور على قصده، فأرسل إلى العزيز بمصر يعرفه الحال، فأرسل العزيز رسولين إلى المنصور ينهاه عن التعرّض لأبي الفهم وكتامة، وأمرهما أن يسيرا إلى كتامة بعد الفراغ من رسالة المنصور.

فلما وصلا إلى المنصور وأبلغاه رسالة العزيز أغلظ القول لهما وللعزيز(٥٤/٩) أيضاً، وأغلظا له، فأمرهما بالمقام عنده بقية شعبان ورمضان، ولم يتركهما بمضيان إلى كتامة، وتجهّز لحرب كتامة وأبي الفهم، وسار بعد عيد الأضحى، فقصده مدينة ميله، وأراد قتل أهلها وسيب نسايتهم وذرايعهم، فخرجوا إليه يتضرعون ويبيكون فعفا عنهم، وخرّب سورها، وسار منها إلى كتامة والرسولان معه.

فكان لا يمرّ بقصر ولا منزل إلّا هدمه، حتى بلغ مدينة سطيف، وهي كرسى عزهم، فاقتتلوا عندها قتالاً عظيماً، فانهزمت كتامة، وهرب أبو الفهم إلى جبل وعرف فيه ناس من كتامة يقال لهم بنو إبراهيم، فأرسل إليهم المنصور يتهددهم إن لم يسلموه، فقالوا: هو ضيفنا ولا نسلمه، ولكن أرسل أنت إليه فخذّه ونحن لا نمنعه. فأرسل فأخذه، وضربه ضرباً شديداً، ثم قتله وسلخه، وأكلت صنهاجة وعبيد المنصور لحمه، وقتل معه جماعة من الدعاة ووجه كتامة، وعاد إلى أشير، وردّ الرسولين إلى العزيز فأخبراه بما فعل بأبي الفهم، وقالوا: جئنا من عند شياطين يأكلون الناس. فأرسل العزيز إلى المنصور يطيب قلبه، وأرسل إليه هدية، ولم يذكر له أبا الفهم.

ذكر معاودة باذ القتال

في هذه السنة تجدد لباز الكردي طمع في بلاد الموصل وغيرها.

وسبب ذلك أن سعداً الحاجب الذي تقدّم ذكره توفي بالموصل، فسير إليه أبا نصر خواشاهه، وجّهز إليه العساكر، وكتب يستمد(٥٥/٩) من شرف الدولة العساكر والأموال، فتأخرت الأموال عنه، فأحضر العرب من بني عقيل وأقطعهم البلاد ليمنعوا عنها، وانحدر باذ فاستولى على طور عبيد، ولم يقدر على النزول إلى الصحراء، وأرسل أخاه في عسكر، فقاتلوا العرب، فقتل أخوه

وقد أبرزتْهُ دولة فلكية أقام بها الإقبال صدر قناته
وصار إلى شاهنشاه اتسابه على أنه مستنصر لمقاتله
يخبر أن يقى سنين كوزنه لتستبشر الدنيا بطول حياته
تأتى فيه عبلة، وابن عبلة وغرس إياديه، وكافى كفتاه
وكان على الجانب الآخر سورة الإخلاص، ولقب الخليفة
الطائع لله، ولقب فخر الدولة، واسم جرجان لأنه ضرب بها. قوله:
دولة فلكية يعني أن لقب فخر الدولة كان فلك الأمة. وقوله:
وكافى كفتاه، فإن صاحب كان لقبه كافي الكفاة. (٦٠/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة تابعت الأمطار، وكثرت البروق والرعود، والبرد
الكبار، وسالت منه الأودية، وامتلات الأنهار والآبار ببلاد الجبل،
وخربت المساكن، وامتلات الأقباء طيناً وحجارة، وانقطعت
الطرق.

وفيها عصى نصر بن الحسن بن الفيزان بالدامغان على فخر
الدولة، واجتاز به أحمد بن سعيد الشيباني الخراساني مقبلاً من
الرئي ومعه عسكر من الديلم لمحاربه، فلمّا رأى الجدّ في أمره
راسل فخر الدولة، وعاد طاعته، فأجابه إلى قبول ذلك منه وأقرّه
على حاله.

وفيها توفي الأمير أبو علي بن فخر الدولة في رجب.

وفيها وقع الوباء بالبصرة والبطائح من شدة الحرّ، فمات خلق
كثير حتى امتلات منهم الشوارع.

وفي شعبان كثرت الرياح العواصف، وجاءت وقت العصر،
خامس شعبان، ريح عظيمة بقم الصلح، فهدمت قطعة من الجامع،
وأهلكت جماعة من الناس، وغرقت كثيراً من السفن الكبار
المملوءة، واحتملت زورقاً منحدراً فيه دواب، وعدة من السفن،
وألقت الجميع على مسافة من موضعها.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب
المفيد، كان محدثاً كثيراً، ومولده سنة أربع وثمانين ومائتين.

وأبو حامد محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق الحاكم
النيسابوري، في ربيع الأول، وهو صاحب التصانيف
المشهورة. (٦١/٩)

سنة تسع وسبعين وثلاثمائة

ذكر سمل صمصام الدولة

كان تحرير الخادم يشير على شرف الدولة بقتل أخيه صمصام
الدولة، وشرف الدولة يُعرض عن كلامه، فلمّا اعتلّ شرف الدولة
واشتدتّ علته ألح عليه تحرير وقال له: الدولة معه على خطر، فإن

وكان قد علق بقلبها غيره، فصارت تأخذ المأكول وغيره
وتحملة إلى حيث شاءت، فأحسن بها شكر، فلم يحتملها، فضربها،
فخرجت غصبي إلى باب شرف الدولة، فأخبرت بحال شكر، فأخذ
وأحضر عند شرف الدولة، فأراد قتله، فشفع فيه تحرير الخادم،
فوجه له، واستأذنه في الحج، فأذن له، فسار إلى مكة ثم منها إلى
مصر، فنال هناك منزلة كبيرة، وسيرد خبره إن شاء الله
تعالى. (٥٨/٩)

ذكر عزل بكجور عن دمشق

في هذه السنة عزل بكجور عن دمشق.

وسبب ذلك أنه أساء السيرة في دمشق، وفعل الأعمال
الذميمة، وكان الوزير يعقوب بن كلّس منحرفاً عنه، يسيء الرأي
فيه، وانضاف إلى ذلك ما فعله بأصحابه بدمشق على ما ذكرناه.
فلما بلغه فعله بدمشق تحرّك في عزله، وقبّح ذكره عند العزيز بالله،
فأجابه إلى ذلك، فجهّزت العساكر من مصر مع القائد منير الخادم،
فساروا إلى الشام.

فجمع بكجور العرب وغيرها وخرج، فلقى العسكر المصري
عند داريا، وقاتلهم، فاشتدّ القتال بينهم، فانهزم بكجور وعسكره،
وخاف من وصول نزال والي طرابلس، وكان قد كتب من مصر
بمعاوضة منير، فلما انهزم بكجور خاف أن يجيء نزال فيؤخذ،
فأرسل يطلب الأمان ليسلم البلد إليهم، فأجابه إلى ذلك، فجمع
ماله جميعه وسار، وأخفى أثره لئلا يغدر المصريون به، وتوجّه إلى
الرقة فاستولى عليها، وتسلم منير البلد، ففرح به أهله وسرّهم
ولايتهم، وسنذكر سنة إحدى وثمانين [وثلاثمائة] باقي أخباره وقلته،
إن شاء الله تعالى.

ذكر ظفر الأصفر بالقرامطة

في هذه السنة جمع إنسان يُعرف بالأصفر من بني المتفق
جمعاً كثيراً، وكان بينه وبين جمع من القرامطة وقعة شديدة قُتل
فيها مقدّم القرامطة، وانهزم أصحابه (٥٩/٩) وقتل منهم، وأسر كثير.

وسار الأصفر إلى الأحساء، فتحصّن منه القرامطة، فعدل إلى
القطيف فأخذ ما كان من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار بها إلى
البصرة.

ذكر نكتة حسنة

في هذه السنة أهدى صاحب بن عبّاد، أول المحرّم، إلى فخر
الدولة ديناراً وزنه ألف مثقال، وكان على أحد جانبيه مكتوب:

وأحمر يحكي الشمن شكلاً وصورةً فأوصافه مشقة من صفاته
فلن قيل دينار فقد صدق اسمه وإن قيل ألف كان بعض سماته
بديع، ولم يطبع على الدرهم مثله ولا ضربت أضرابُه لسرته

انتقل إلى الأتراك، فكشفوا القناع، وناذبوا الأتراك، وجرى بينهم قتال عدة أيام.

ثم سار أبو علي والأتراك إلى فسا، فاستولوا عليها وأخذوا ما بها من مال، وقتلوا من بها من الديلم، وأخذوا أموالهم وسلاحهم فقتلوا بذلك.

وسار أبو علي إلى أَرْجَان، وعاد الأتراك إلى شیراز، فقاتلوا صمصام الدولة ومن معه من الديلم، ونهبوا البلد، وعادوا إلى أبي علي بأَرْجَان، وأقاموا معه مُدْبِذَةً.

ثم وصل رسول من بهاء الدولة إلى أبي علي وأدى الرسالة، وطُيِبَ قلبه ووعده، ثم إنّه راسل الأتراك سرّاً، واستمالهم إلى نفسه، وأطمعهم، فحسّنوا لأبي علي المسير إلى بهاء الدولة، فسار إليه، فلقاه بواسط منتصف جمادى الآخرة سنة ثمانين وثلاثمائة، فانزله وأكرمه، وتركه عدة أيام، وقبض عليه، ثم قتله بعد ذلك بيسير، وتجهّز بهاء الدولة للمسير إلى الأهواز لقصد بلاد فارس.

ذكر الفتنة ببغداد بين الأتراك والديلم

وفي هذه السنة أيضاً وقعت الفتنة في بغداد بين الأتراك والديلم، واشتدّ الأمر، ودام القتال بينهم خمسة أيام، وبهاء الدولة في داره يرأسهم في الصلح، فلم (٦٤/٩) يسمعوا قوله، وقُتِلَ بعض رُسُلِهِ.

ثم إنّه خرج إلى الأتراك، وحضر القتال معهم، فاشتدّ حينئذ الأمر، وعظم الشرّ، ثم إنّه شرع في الصلح، ورفق بالأتراك، وراسل الديلم، فاستقرّ الحال بينهم، وحلف بعضهم لبعض، وكانت مدة الحرب اثني عشر يوماً.

ثم إنّ الديلم تفرّقوا، فمضى فريق بعد فريق، وأخرج بعضهم، وقبض على البعض، فضعب أمرهم، وقويت شوكة الأتراك، واشتدّت حالهم.

ذكر مسير فخر الدولة إلى العراق وما كان منه

وفي هذه السنة سار فخر الدولة من الرّي إلى همدان، عازماً على قصد العراق والاستيلاء عليها.

وكان سبب حركته أنّ الصّاحب بن عباد كان يحبّ العراق لا سيّما ببغداد، ويؤثر التّقدّم بها، ويرصد أوقات الفرصة، فلمّا توفي شرف الدولة علم أنّ الفرصة قد أمكنت، فوضع على فخر الدولة من يعظّم عنده ملك العراق، ويسهّل أمره عليه، ولم يباشر هو ذلك خوفاً من خطر العاقبة، إلى أن قال له فخر الدولة: ما عندك في هذا الأمر؟ فأحال على أن سعادته تسهّل كلّ صعب، وعظّم البلاد؛ فتجهّز وسار إلى همدان، وأتاه بدر بن حنويه، وقصده ديبس بن

لم تقتله فاسلمه. فأرسل في ذلك محمد الشيرازي الفَرّاش، فمات شرف الدولة قبل أن يصل الفَرّاش إلى صمصام الدولة، فلمّا وصل الفَرّاش إلى القلعة التي بها صمصام الدولة لم يقدم على سمله، فاستشار أبا القاسم العلّاء بن الحسن الناظر هناك، فأشار بذلك، فسمله. وكان صمصام الدولة يقول: ما أعماني إلّا العلّاء لأنّه أمضى في حكم سلطان قد مات.

ذكر وفاة شرف الدولة وملك بهاء الدولة

في هذه السنة، مستهلّ جمادى الآخرة، توفي الملك شرف الدولة أبو الفوارس شيرزِيل بن عضد الدولة مستقيماً، وحُمِلَ إلى مشهد أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام، فدُفِنَ به، وكانت إمارته بالعراق ستين وثمانية أشهر (٦٢/٩) وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة وخمسة أشهر.

ولما اشتدّت علته سَيرَ ولده أبا عليّ إلى بلاد فارس، وأصبحه الخزان والعدد وجماعة كثيرة من الأتراك، فلمّا أيس أصحابه منه اجتمع إليه أعيانهم وسألوه أن يملك أحداً، فقال: أنا في شغل عمّا تدعونني إليه. فقالوا له ليأمر أخاه بهاء الدولة أبا نصر أن ينوب عنه إلى أن يعافى ليحفظ الناس لثلاً ثور فتنة، ففعل ذلك، وتوقّف بهاء الدولة ثم أجاب إليه.

فلمّا مات جلس بهاء الدولة في المملكة، وقعد للعزاء، وركب الطائع لله أمير المؤمنين إلى العزاء في الزبّزب، فلقاه بهاء الدولة، وقبّل الأرض بين يديه، وانحدر الطائع لله إلى داره، وخلع على بهاء الدولة خلع السلطنة، وأقرّ بهاء الدولة أبا منصور بن صالحان على وزارته.

ذكر مسير الأمير أبي عليّ بن شرف الدولة إلى فارس وما كان منه

مع صمصام الدولة

لما اشتدّ مرض شرف الدولة جهّز ولده الأمير أبا عليّ وسيّره إلى فارس ومعه والدته وجواريه، وسيّر معه من الأموال والجواهر والسلاح أكثرها. فلمّا بلغ البصرة أتاهم الخير بموت شرف الدولة، فسَيرَ ما معه في البحر إلى أَرْجَان، وسار هو مجدداً إلى أن وصل إليها، واجتمع معه من بها من الأتراك، وساروا نحو شیراز، وكتبهم متولّيها وهو أبو القاسم العلّاء بن الحسن بالوصول إليها ليسلمها إليهم، وكان المرتّبون في القلعة التي بها صمصام (٦٣/٩) الدولة وأخوه أبو طاهر قد أطلقوهما ومعهما فولاذ وساروا إلى سيرا.

واجتمع على صمصام الدولة كثير من الديلم. وسار الأمير أبو عليّ إلى شیراز، ووقعت الفتنة بها بين الأتراك والديلم، وخرج الأمير أبو عليّ من داره إلى معسكر الأتراك، فقتل معهم، واجتمع الديلم وقصدوا ليأخذوه ويسلموه إلى صمصام الدولة، فراه قد

ذكر عود بني حمدان إلى الموصل

في هذه السنة ملك أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة ابن حمدان الموصل.

وسبب ذلك أنهما كانا في خدمة شرف الدولة ببغداد، فلما توفي وملك بهاء الدولة استأذنا في الإصحاد إلى الموصل، فأذن لهما، فأصعدا، ثم علم القواد الغلط في ذلك، فكتب بهاء الدولة إلى خواشاده، وهو يتولى الموصل، يأمره بدفعهما عنها، فأرسل إليهما خواشاده يأمرهما بالعود عنه، فأعادا جواباً جميلاً، وجذاً في السير حتى نزلا بالدير الأعلى بظاهر الموصل. (٦٧/٩)

وثار أهل الموصل بالديلم والأترك، فنهبهم، وخرجوا إلى بني حمدان، وخرج الديلم إلى قتالهم، فهزمهم الموصلة وبنو حمدان، وقتل منهم خلق كثير، واعتصم الباقون بدار الإمارة، وعزم أهل الموصل على قتلهم والاستراحة منهم، فمنعهم بنو حمدان عن ذلك، وسيروا خواشاده ومن معه إلى بغداد، وأقاموا بالموصل، وكثر العرب عندهم.

ذكر خلاف كتامة علي المنصور

وفي هذه السنة خرج إنسان آخر من كتامة يقال له أبو الفرج، لا يعرف من أي موضع هو، وزعم أن أباه ولد القائم العلوي، جذاً المعز لدين الله، فعمل أكثر مما عمله أبو الفهم، واجتمعت إليه كتامة، واتخذ البنود والطبول، وضرب السكة، وجرت بينه وبين نائب المنصور وعساكره بمدينة ميلة وسطيف حروب كثيرة ووقعات متعددة، فسار المنصور إليه في عساكره، وزحف هو إلى المنصور في عساكر كتامة، فكان بينهما حرب شديدة، فانهزم أبو الفرج وكتامة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، واخفى أبو الفرج في غار في جبل، فوثب عليه غلامان كانا له فأخذهما وأتيا به المنصور، فسره ذلك وقتله شر قتلة.

وشحن المنصور بلاد كتامة بالعساكر، وبث عماله فيها، ولم يدخلها عامل قبل ذلك، فجبوا أموالها، وضيّقوا على أهلها.

ورجع المنصور إلى مدينة أشير، فأناه سعيد بن خزرون الزناتي، وكان أبوه قد تغلب على سجلماسة سنة خمس وستين و ثلاثمائة، وهاجر في طاعة المنصور، واختص به، وعلت منزلته عنده، فقال له المنصور يوماً: يا سعيد هل تعرف أحداً أكرم مني؟ وكان قد وصله بمال كثير، فقال: نعم أنا (٦٨/٩) أكرم منك. فقال المنصور: وكيف ذلك؟ قال: لأنك جدت عليّ بالمال، وأنا جدت عليك بنفسي. فاستعمله المنصور على طينة، وزوج ابنه ببعض بنات سعيد. فلامه على ذلك بعض أهلها، فقال: كان أبي وجدي يستبغنانهم بالسيف، وأنا فمّن رمانى رميته بكيس، حتى

عفيف الأسدي، فاستقرّ الأمر على أن يسير الصحاب بن عبّاد ويدل إلى العراق على الجادة، ويسير فخر الدولة إلى خوزستان. فلما سار الصحاب حذر فخر الدولة من ناحيته، وقيل له ربما استماله أولاد عضد الدولة، فاستعاده إليه، وأخذه معه إلى الأهواز فملكها، وأساء السيرة مع جندها، وضيّق عليهم، ولم يبذل المال، فخابت ظنون الناس فيه، واستشعر منه أيضاً عسكره، وقالوا (٦٥/٩) هكذا يفعل بنا إذا تمكّن من إرادته، فتخاذلوا.

وكان الصحاب قد أمسك نفسه تأثراً بما قيل عنه من اتهامه، فالأمور بسكوته غير مستقيمة. فلما سمع بهاء الدولة بوصولهم إلى الأهواز سبر إليهم العساكر، والتقوا هم وعساكر فخر الدولة.

فاتفق أن دجلة الأهواز زادت ذلك الوقت زيادة عظيمة، وانفتحت البثوق منها، فظننا عسكر فخر الدولة مكيدة، فانهزموا، فقلق فخر الدولة من ذلك، وكان قد استبدّ برأيه، فعاد حيثنذ إلى رأي الصحاب، فأشار ببذل المال، واستصلاح الجند، وقال له: إن الرأي في مثل هذه الأوقات إخراج المال وترك مضايقة الجند، فإن أطلقت المال ضمنت لك حصول أضعافه بعد سنة، فلم يفعل ذلك، وتفرّق عنه كثير من عسكر الأهواز، واتسع الخرق فيه، وضاعت الأمور به، فعاد إلى الرّي، وقضى في طريقه على جماعة من القواد الرازيين، وملك أصحاب بهاء الدولة الأهواز.

ذكر هرب القادر بالله إلى البطيحة

في هذه السنة هرب القادر بالله من الطائع لله إلى البطيحة فاحتجى فيها.

وكان سبب ذلك أن إسحاق بن المقتدر والد القادر لما توفي جرى بين القادر وبين أخت له منازعة في ضيعة وطال الأمر بينهما. ثم إن الطائع لله مرض مرضاً أشفى منه، ثم أبى، فسعت إليه بأخيه القادر وقالت له: إنه شرع في طلب الخلافة عند مرضك؛ فتغيّر رأيه فيه، فأنفذ أبا الحسن بن النعمان وغيره (٦٦/٩) للقبض عليه، وكان بالحرّيم الطاهري، فأصعدوا في الماء إليه.

وكان القادر قد رأى في منامه كأن رجلاً يقرأ عليه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فهو يحكي هذا المنام لأهله ويقول: أنا خائف من طالب بطليني؛ ووصل أصحاب الطائع لله إليه واستدعوه، فأراد لبس ثيابه، فلم يمكنوه من مفارقتهم، فأخذه النساء منهم قهراً، وخرج عن داره واستتر، ثم سار إلى البطيحة، فنزل على مهذب الدولة، فأكرم نزله، ووسّع عليه، وحفظه، وبالح في خدمته، ولم يزل عنده إلى أن أتته الخلافة، فلما وليها جعل علامته ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

سنة ثمانين وثلاثمائة

تكون مودتهم طبعاً واختياراً.

ذكر قتل باذ

في هذه السنة قتل باذ الكردي، صاحب ديار بكر.

وكان سبب قتله أن أبا طاهر والحسين ابني حمدان لما ملكا الموصل طمع فيها باذ، وجمع الأكراد فأكثر، وممن أطاعه الأكراد البشنوية أصحاب قلعة فك، وكانوا كثيراً، ففي ذلك يقول الحسين البشنوي الشاعر لبني مروان يعتد عليهم بنجدتهم خالهم باذاً من قصيدة:

البشنوية أنصاراً للولتكم وليس في فاختاً في المجمع والعرب
أنصار باذ بل جيش وشبيته بظاهر الموصل الحبيب في العطب
بإجلالها جلونا عنه غمته ونحن في الروع جلاؤون للكرب

وكتب أهل الموصل فاستمالهم، فأجابهم بعضهم فصار إليهم، ونزل بالجانب الشرقي فضعف عنه، وراسل أبا الذؤاد محمد بن المسيب، أمير بني (٧١/٩) عقيل، واستصره، فطلب منهما جزيرة ابن عمر، ونصيبين، وبلد، وغير ذلك، فأجاباه إلى ما طلب، واتفقوا، وسار إليه أبو عبد الله بن حمدان وأقام أبو طاهر بالموصل يحارب باذاً.

فلما اجتمع أبو عبد الله وأبو الذؤاد سارا إلى بلد، وعبرا دجلة وصارا مع باذ على أرض واحدة وهو لا يعلم، فأتاه الخبر بعبورهما وقد قارباه، فأراد الانتقال إلى الجبل لئلا يأتيه هؤلاء من خلفه وأبو طاهر من أمامه، فاختلط أصحابه، وأدركه الحمدانية، فناوشهم القتال، وأراد باذ الانتقال من فرس إلى آخر، فسقط وانددت ترقوته، فأتاه ابن أخته أبو علي بن مروان، وأراد على الركوب فلم يقدر، فتركوه وانصرفوا واحتموا بالجبل.

ووقع باذ بين القتلى ففرعه بعض العرب فقتله وحمل راسه إلى بني حمدان وأخذ جائزة سنية، وصليت جثته على دار الإمارة، فثار العامة وقالوا: رجل غاز، ولا يحل فعل هذا به؛ وظهر منهم محبة كثيرة له، وأنزلوه وكفّوه وصلوا عليه ودفنوه.

ذكر ابتداء دولة بني مروان

لما قتل باذ سار ابن أخته أبو علي بن مروان في طائفة من الجيش إلى حصن كيفا، وهو على دجلة، وهو من أحصن المعاقل، وكان به امرأة باذ وأهله، فلما بلغ الحصن قال لزوجة خاله: قد أنقذني خالي إليك في مهم؛ فظنته حقاً، فلما صعد إليها أعلمها بهلاكه، وأطمعها في التزوج بها، فوافقته على ملك الحصن وغيره، ونزل وقصد حصناً حصناً، حتى ملك ما كان لخاله، وسار إلى ميافارقين؛ وسار إليه أبو طاهر وأبو عبد الله ابنا حمدان طمعا فيه،

ورجع سعيد إلى أهله وبقي إلى سنة إحدى وثمانين [وثلاثمائة]، ثم عاد إلى المنصور زائراً، فاعتل سعيد أياماً، وتوفي أول رجب. ثم قدم فلعل بن سعيد على المنصور، فأحسن إليه، وحمل إليه مالاً كثيراً، فردّه إلى طبنة ولاية أبيه.

ذكر خلاف عم المنصور عليه

وفي هذه السنة أيضاً خالف أبو البهار عم المنصور بن يوسف بلكين، صاحب إفريقية، عليه لشيء جرى عليه من المنصور لم يحمله له لعة نفسه، فصار المنصور إليه بتاهرت، ففارقها عمّه إلى الغرب بمن معه من أهله وأصحابه، ودخل عسكر المنصور تاهرت فانتهبوها، ثم طلب أهلها الأمان فآمنهم، ثم سار في طلب عمّه حتى جاوز تاهرت سبع عشرة مرحلة، ولقي العسكر شدة.

وقصد عمّه زيري بن عطية، صاحب فاس، فآكرمه، وأعلى محله، وبقي جنده يغيرون على نواحي المنصور.

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة قصدوا النواحي المجاورة لفاس، فأوقعوا (٦٩/٩) بأصحاب المنصور بها واستولوا عليها. ثم ندم أبو البهار، فصار إلى المنصور معتزلاً مما جرى منه، فقبله المنصور، وأحسن إليه وآكرمه، وحمل إليه كل ما يحتاج إليه من مال وغيره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض بهاء الدولة على أبي الحسن محمد بن عمر العلوي الكوفي، وكان قد عظم شأنه مع شرف الدولة، واتسع جاهه، وكثرت أمواله، فلما ولي بهاء الدولة سعى به أبو الحسن المعلم إليه، وأطمعه في أمواله وملكه، وعظم ذلك عنده وقبض عليه.

وفيهما أسقط بهاء الدولة ما كان يأخذ من المراعي من سائر السواد.

وفيهما ولد الأمير أبو طالب رستم بن فخر الدولة.

وفيهما خرج ابن الجراح الطائي على الحجاج بن سميراء وفيد ونازلهم، فصالحوه على ثلاثمائة ألف درهم، وشيء من الثياب، فأخذها وانصرف.

وفيهما بُني جامع القطيعة ببغداد.

وفيهما توفي محمد بن أحمد بن العباس بن أحمد بن جلال أبو العباس السلمي النقاش، كان من متكلمي الأشعرية، وعنه أخذ أبو علي بن شاذان الكلام، وكان ثقة في الحديث. (٧٠/٩)

ومعهما رأس باذ، فوجدوا أبا علي قد أحكم أمره، فتصافوا واقتلوا، وظفر أبو (٧٢/٩) علي وأسر أبا عبد الله بن حمدان، فآكرمه وأحسن إليه، ثم أطلقه فسار إلى أخيه أبي طاهر، وهو بأمد يحصرها، فأشار عليه ابن مروان فواقعه، فغزهما وأسر أبا عبد الله أيضاً فأساء إليه وضيق عليه، إلى أن كاتبه صاحب مصر وشفع فيه فأطلقه ومضى إلى مصر وتقلد منها ولاية حلب، وأقام بتلك الديار إلى أن توفي .

وأما أبو طاهر فإنه لما وصل إلى نصيبين قصد أبو الذؤاد فأسر وعلياً ابنه، والمزعر أمير بني نمير، وقتلهم صبراً .

وأقام ابن مروان بديار بكر وضبطها، وأحسن إلى أهلها، والآن جانبه لهم، فطمع فيه أهل ميافارقين، فاستطالوا على أصحابه، فأمسك عنهم إلى يوم العيد، وقد خرجوا إلى المصلى، فلما تكاملوا في الصحراء وافى إلى البلد، وأخذ أبا الصقر شيخ البلد فآلقاه من على السور، وقبض على من كان معه، وأخذ الأكراد ثياب الناس خارج البلد، وأغلق أبواب البلد، وأمر أهله أن ينصرفوا حيث شاؤوا، ولم يمكنهم من الدخول فذهبوا كل مذهب .

وكان قد تزوج ست الناس بنت سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان، فأتته من حلب، فغزم على زفافها بأمد، فخاف شيخ البلد، واسمه عبد البر، أن يفعل بهم مثل فعله بأهل ميافارقين، فأحضر ثقاته وحلفهم على كتمان سره، وقال لهم : قد صبح عزم الأمير على أن يفعل بكم مثل فعله بأهل ميافارقين، وهو يدخل من باب الماء ويخرج من باب الجهاد، فقفوا له في الدركاء، وانثروا عليه هذه الدراهم، ثم اعتمدوا بها وجهه، فإنه سيفطيه بكمه، فاضربوه بالسكاكين في مقتلته ؟ ففعلوا . (٧٣/٩)

وجرت الحال كما وصف، وتولى قتله إنسان يقال [له] ابن دمنة كان فيه إقدام وجراءة، فاختبئ الناس وماجوا، فرمى برأسه إليهم، فأسرعوا السير إلى ميافارقين .

وحدث جماعة من الأكراد نفوسهم بملك البلد، فاستراب بهم مستحفظ ميافارقين لإسراعهم، وقال : إن كان الأمير حيّاً فادخلوا معه، وإن كان قتل فأخوه مستحق لموضعه . فما كان بأسرع من أن وصل ممهد الدولة أبو منصور بن مروان أخو أبي علي إلى ميافارقين، ففتح له باب البلد فدخله وملكه، ولم يكن له فيه إلا السكّة والخطبة لما ذكره .

وأما عبد البر فاستولى على أمد، وزوج ابن دمنة، الذي قتل أبا علي، ابنته فعمل له ابن دمنة دعوة وقلته، وملك أمدًا، وعمر البلد، وبني لنفسه قصرًا عند السور وأصلح أمره مع ممهد الدولة، وهادى ملك الروم، وصاحب مصر، وغيرهما من الملوك وانتشر ذكره .

وأما ممهد الدولة فإنه كان معه إنسان من أصحابه يسمى شروة، حاكمًا في مملكته، وكان لشروة غلام قد ولّاه الشرطة، وكان ممهد الدولة يبيعه، ويريد قتله، ويتركه احتراماً لصاحبه، ففطن الغلام لذلك، فأفسد ما بينهما، فعمل شروة طعاماً بقلعة الهتاج، وهي إقطاعه، ودعا إليها ممهد الدولة، فلما حضر عنده قتله، وذلك سنة اثنتين وأربعمائة، وخرج من الدار إلى بني عم ممهد الدولة، فقبض عليهم وقبدهم، وأظهر أن ممهد الدولة أمره بذلك، ومضى إلى ميافارقين وبين يديه المشاغل، ففتحوا له ظناً منهم أنه ممهد الدولة، فملكها، وكتب إلى أصحاب القلاع يستدعيهم، وأنفذ إنساناً (٧٤/٩) إلى أرزن ليحضر متوليها، ويعرف بخواجه أبي القاسم، فسار خواجه نحو ميافارقين، ولم يسلم القلعة إلى القاصد إليه .

فلما توسط الطريق سمع بقتل ممهد الدولة، فعاد إلى أرزن، وأرسل إلى أسعد، فأحضر أبا نصر بن مروان أخا ممهد الدولة، وكان أخوه قد أبعدته عنه، وكان يبخسه لئمان رآه وهو أنه رأى كأن الشمس سقطت في حجره، فنازعه أبو نصر عليها وأخذها، فأبعده لهداء، وتركه بأسعد مضيّاً عليه، فلما استدعاه خواجه قال له دُبِير : تفلح ؟ قال : نعم .

وكان شروة قد أنفذ إلى أبي نصر، فوجده قد سار إلى أرزن، فعلم حينئذ انتفاض أمره . وكان مروان والد ممهد الدولة قد أضر، وهو بأرزن، عند قبر ابنه أبي علي، هو وزوجته، فأحضر خواجه أبا نصر عندهما، وحلقه على القبول منه، والعدل، وأحضر القاضي والشهود على اليمين وملكه أرزن، ثم ملك سائر بلاد ديار بكر، فدامت أيامه، وأحسن السيرة، وكان مقصدًا للعلماء من سائر الآفاق، وكثروا ببلاده .

ومن قصده أبو عبد الله الكازروني، وعنه انتشر مذهب الشافعي بديار بكر، وقصده الشعراء وأكثروا مدحه وأجزل جوائزهم، وبقي كذلك من سنة اثنتين وأربعمائة إلى سنة ثلاث وخمسين، فتوفي فيها، وكان عمره ثمانين سنة، وكانت الثغور معه آمنة، وسيرته في رعيته أحسن سيرة، فلما مات ملك بلاده ولده . (٧٥/٩)

ذكر ملك آل المسيب الموصل

لما انهزم أبو طاهر بن حمدان من أبي علي بن مروان، كما ذكرناه، سار إلى نصيبين في قلّة من أصحابه، وكانوا قد تفرقوا، فطمع فيه أبو الذؤاد محمد بن المسيب، أمير بني عقيل، وكان صاحب نصيبين حينئذ، كما ذكرناه، فثار بأبي طاهر، فأسره وأسر ولده وعدة من قوادهم، وقتلهم، وسار إلى الموصل فملكها وأعمالها، وكاتب بهاء الدولة يسأله أن يتخذ إليه من يقيم عنده من

الحكم.

أصحابه يتولّى الأمور، فسير إليه قائداً من قوّاده .

وفيها توفي أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس، وزير العزيز، صاحب مصر، وكان كامل الأوصاف، متمكناً من صاحبه، فلما مرض عاده العزيز صاحب مصر، وقال: وددت أنك تباع فأبتاعك بملكي، فهل من حاجة ترضى بها؟ فبكى، وقبّل يده، ووضعها على عينه، وقال: أمّا فيما يخصني فإنك أرعى لحقي من أن أوصيك بمخلقي، ولكن فيما يتعلق بدولتك سالم الحمدانية، ما سالموك، واقنع منهم بالدعة، وإن ظفرت بالمفرج فلا تبقي عليه.

فلما مات حزن العزيز عليه، وحضر جنازته، وصلى عليه، والحدّه بيده في قصره، وأغلق الدواوين عدّة أيام، واستوزر بعده أبا عبد الله الموصلّي، ثم صرفه، وقد عيسى بن نسطورس النصراني، فمال مع اليهود مثل ما فعل عيسى بالنصارى، وجرى على المسلمين تحامل عظيم.

وفيها، في ربيع الأول، قلد الشريف أبو أحمد والد الرضي نقابة العلويين (٧٨/٩) والمظالم، وإمارة الحجّ، وحجّ بالناس أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله العلوي نيابة عن النقيب أبي أحمد الموسوي.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن عبد الرحمن الفقيه الحنفي، ومولده سنة عشرين وثلاثمائة.

وفيها توفي عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النمرّي بالأندلس، والد الإمام أبي عمر بن عبد البرّ. (٧٩/٩)

سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة

ذكر القبض على الطائع لله

في هذه السنة قبض الطائع لله، قبضه بهاء الدولة، وهو الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن الفضل المطيع لله بن جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بالله بن أبي أحمد الموفق بن المتوكل .

وكان سبب ذلك أن الأمير بهاء الدولة قتلّ عنده الأموال، فكثر شغب الجند، فقبض على وزيره سابور، فلم يغن عنه ذلك شيئاً .

وكان أبو الحسن بن المعلم قد غلب على بهاء الدولة، وحكم في مملكته، فحسن له القبض على الطائع، وأطمعه في ماله، وهون عليه ذلك وسهّله، فاقدم عليه بهاء الدولة، وأرسل إلى الطائع وسأله الإذن في الحضور في خدمته ليجدّد العهد به، فأذن له في ذلك، وجلس له كما جرت العادة، فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير، فلما دخل قبل الأرض، وأجلس على كرسي، فدخل بعض

وكان بهاء الدولة قد سار من العراق إلى الأهواز، على ما تذكره إن شاء الله تعالى . وأقام نائب بهاء الدولة، وليس له من الأمر شيء ولا يحكم إلا فيما يريده أبو الذؤاد، وسيرد من ذكره وذكر عقبه ما تنقّف عليه إن شاء الله تعالى .

ذكر مسير بهاء الدولة إلى الأهواز وما كان منه ومن صمصام الدولة

في هذه السنة سار بهاء الدولة عن بغداد إلى خوزستان عازماً على قصد فارس، واستخلف ببغداد أبا نصر خواشاده، ووصل إلى البصرة ودخلها، وسار عنها إلى خوزستان، فاتاه نعي أخيه أبي طاهر، فجلس للعزاء به، ودخل أرجان فاستولى عليها وأخذ ما فيها من الأموال، فكان ألف دينار وثمانية آلاف درهم، ومن الثياب والجواهر ما لا يحصى، فلما علم الجند (٧٦/٩) بذلك شغبوا شغباً متتابعاً فاطلقت تلك الأموال كلها لهم ولم يبق منها إلا القليل . ثم سارت مقدّمته وعليها أبو العلاء بن الفضل إلى التوبندجان، وبها عساكر صمصام الدولة، فهزمهم، وبث أصحابه في نواحي فارس، فسير إليهم صمصام الدولة عسكرياً وعليهم فولاذ زماندار، فانهزم أبو العلاء وعاد مهزوماً.

وكان سبب الهزيمة أنه كان بين العسكريين وادّ وعليه قطرة، وكان أصحاب أبي العلاء يعبرون القنطرة ويغيرون على أنقال الديلم، عسكر صمصام الدولة، فوضع فولاذ كميناً عند القنطرة، فلما عبر أصحاب بهاء الدولة خرجوا عليهم فقتلوهم جميعهم، وراسل فولاذ أبا العلاء وخدعه، ثم سار إليه وكسبه، فانهزم من بين يديه وعاد إلى أرجان مهزوماً، وغلت الأسعار بها.

ولما بلغ الخبر إلى صمصام الدولة سار عن شیراز إلى فولاذ، وتردّدت الرسل في الصلح، فتمّ على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق، وأن يكون لكل واحد منهما إقطاع في بلد صاحبه، وحلف كلّ واحد منهما لصاحبه، وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز.

ولما سار بهاء الدولة عن بغداد ثار العيارون بجائبي بغداد، ووقعت الفتن بين السّنة والشيعه، وكثر القتل بينهم، وزالت الطاعة، وأحرق عدّة محالّ، ونُهبت الأموال، وأخرت المساكين، ودام ذلك عدّة شهور إلى أن عاد بهاء الدولة إلى بغداد. (٧٧/٩)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبض بهاء الدولة على وزيره أبي منصور بن صالحان، واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير قبل مسيره إلى خوزستان، وكان المدير لدولة بهاء الدولة أبا الحسين المعلم، وإليه

أتريد أن تعبر؟ قلت: نعم؛ فمَدَّ يده حَتَّى وصلت إليّ، فآخذني وعبرني، فهالني وتعاظمني فعله، قلتُ: مَنْ أنت؟ قال: عليّ بن أبي طالب، وهذا الأمر صائر إليك، ويطول عمرك فيه، فأحسِن إلى ولدي وشيعتي.

فما انتهى القادر إلى هذا القول حَتَّى سمعنا صياح الملاحين وغيرهم، وصالنا عن ذلك، وإذا هم الواردون إليه لإصعاده ليتولّى الخلافة، فخاطبتهُ بِإمرة المؤمنين وبابيعته، وقام مهذَّب الدولة بخدمته أحسن قيام، وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه. فسار القادر باللّه إلى بغداد، فلما دخل جَبَلٍ انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله، وساروا في خدمته، فدخل دار الخلافة ثاني عشر رمضان، وبابيعه بهاء الدولة والثامن، وخطب له ثالث عشر رمضان، وجدّد أمر الخلافة، وعظّم ناموسها، وسيرد من (٨٢/٩) أخباره، إن شاء الله تعالى، ما يُعلم به ذلك، وحُمِل إليه بعض ما نُهب من دار الخلافة، وكانت مدّة مقامه في البطيحة ستّين وأحد عشر شهراً ولم يخطب له في جميع خراسان، كانت الخطبة فيها للطائع لله.

ذكر ملك خلف بن أحمد كرمان

في هذه السنة أنفذ خلف بن أحمد، صاحب سجستان، وهو ابن بانوا بنت عمرو بن الليث الصّفّار، ابنه عمراً إلى كرمان فملكها.

وكان سبب ذلك أنّه كان لما قوي أمره، وجمع الأموال الكثيرة، حدّث نفسه بملك كرمان، ولم يهتأ له ذلك لهدنة كانت بينه وبين عضد الدولة. فلما مات عضد الدولة، وملك شرف الدولة، واستقرّ أمره وانتظم، وأمن ملكه، لم يتحرّك بشيء من ذلك. فلما توفي شرف الدولة، واضطرب ملوك بني بويه، ووقع الخلاف بين صمصام الدولة وبهاء الدولة، قوي طمعه، وانتهز الفرصة، وجَهّز ولده عمراً، وسيره في عسكر كثير إلى كرمان، وبها قائد يقال له تمرناش كان قد استعمله شرف الدولة، فلم يشعر تمرناش إلّا وعمرو قد قاربه، فلم يكن له ولنمن معه حيلة إلّا الدخول إلى بردسير، وحملوا ما أمكنهم حمله، وغنم عمرو الباقي، وملك كرمان ما عدا بردسير، وصادر الناس وجبى الأموال. (٨٣/٩) فلما وصل الخبر إلى صمصام الدولة، وهو صاحب فارس، جَهّز العساكر وسيره إلى تمرناش، وقَدّم عليهم قائداً يقال له أبو جعفر، وأمره بالقبض على تمرناش عند الاجتماع به، لأنّه اتّهمه بالميل إلى أخيه بهاء الدولة. فسار أبو جعفر، فلما اجتمع بتمرناش أنزله عنده بعلّة الاجتماع على ما يفعلانه، وقبض عليه وحمله إلى شيراز، فسار أبو جعفر بالعسكر جميعه يقصد عمرو بن خلف ليحاربه، فالتقوا بدارزين واقتلوا، فانهزم أبو جعفر والديلم، وعادوا

الديلم كأنه يريد [أن] يقبّل يد الخليفة فجذبه، فأنزله عن سريره، والخليفة يقول: إنّ الله وإنّا إليه راجعون! وهو يستغيث ولا يُلتفت إليه، وأخذ ما في دار الخليفة من الذخائر فمشوا به [في] الحال، ونهب الناس بعضهم بعضاً، وكان (٨٠/٩) من جملة نهب الشريف الرضي فبادر بالخروج فسلم وقال آياتاً من جملتها:

من بعد ما كان ربّ الملُك متبسماً إليّ أنشده في التجوى ويُكنيني أميتُ أرحم من قد كنتُ أغبطه، لقد تقارب بين الميز والهُون ومظنّ كان بالشراء يُضحكني يا قُرب ما عاذ بالضرّة يُكنيني هيئات أغنرُ بالسلطان ثانية قد ضلّ ولأج أبواب السلاطين ولما حُمِل الطائع إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع، وكانت مدّة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية شهور وستة أيام، وحُمِل إلى القادر باللّه لما وليّ الخلافة، فبقي عنده إلى أن توفي سنة ثلاث وتسعين [وثلاثمائة]، ليلة الفطر، وصلى عليه القادر باللّه، وكبّر عليه خمساً.

وكان مولده سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وكان أبيض، مربوعاً، حسن الجسم، وكان أنفه كبيراً جداً، وكان شديد القوة، كثير الإقدام، اسم أمّه عتب، وعاشت إلى أن أدركت أيامه، ولم يكن له من الحكم في ولايته ما يُعرف به حال يُستدلّ به على سيرته.

ذكر خلافة القادر باللّه

لما قبض على الطائع لله ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة، فاتفقوا على القادر باللّه وهو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد، وأمّه أم ولد اسمها دمنه، وقيل تمنى، وكان بالبطيحة، كما ذكرناه، فأرسل إليه بهاء (٨١/٩) الدولة خواص أصحابه ليحضره إلى بغداد ليتولّى الخلافة، فأنحدروا إليه، وشغب الديلم ببغداد، ومنعوا من الخطبة، فقبل على المنبر: اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر باللّه، ولم يذكروا اسمه، وأرضاهم بهاء الدولة.

ولما وصل الرسل إلى القادر باللّه كان تلك الساعة يحكي مناماً رآه تلك الليلة، وهو ما حكاه هبة الله بن عيسى كاتب مهذَّب الدولة قال: كنتُ أحضر عند القادر باللّه كل أسبوع مرتين، فكان يكرمني، فدخلتُ عليه يوماً فوجدته قد تأهّب تأهّباً لم تجر به عادته، ولم أر منه ما ألفته من إكرامه، واختلفت بي الظنون، فسألته عن سبب ذلك، فإن كان لزلة مني اعتذرت عن نفسي. فقال: بل رأيت البارحة في منامي كأن نهركم هذا، نهر الصليق، قد اتّسع، فصار مثل دجلة، دفعات، فسيرتُ على حافته متعجباً منه، ورأيتُ قطرة عظيمة، فقلتُ: من قد حدّث نفسه بعمل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم؟ ثم صدعتها، وهي محكمة، فبينما أنا عليها اتّعجب منها إذ رأيت شخصاً قد تأمّلتني من ذلك الجانب، فقال:

على طريق جبرقت.

إلى طاعته على قاعدته الأولى، ويقطعه منه بمدينة حمص كما كانت له، فليس فيهم من أجابه إلى شيء مما طلب، فبقي في الرقة يرأس جماعة رفاقه من ممالك سعد الدولة، ويستميلهم، فأجابوه إلى الموافقة على قصد بلد سعد الدولة، وأخبروه أنه مشغول بلذاته وشهواته عن تدبير الملك؛ فأرسل حيتنذ بكجور إلى العزيز بالله، صاحب مصر يطمعه في حلب، ويقول له إنها دهليز العراق، ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها، ويطلب الإنجاد بالعساكر. فأجابه العزيز إلى ذلك وأرسل إلى نزال، والي طرابلس، وإلى ولاية غيرها من البلاد الشامية يأمرهم بتجهيز العساكر مع نزال إلى بكجور، والتصرف على ما يأمرهم به من قتال سعد الدولة وقصد بلاده.

وكتب عيسى بن نسطورس النصراني، وزير العزيز، إلى نزال يأمره بمداغمة بكجور، وإطاماعه في المنستير إليه، فإذا تورط في قصد سعد الدولة تخلى عنه. (٨٦/٩)

وكان السبب في فعل عيسى هذا ببكجور أنه كان بينه وبين بكجور عداوة مستحكمة، وولي الوزارة بعد وفاة ابن كلس، فكتب إلى نزال ما ذكرناه. فلما وصل أمر العزيز إلى نزال بإنجاد بكجور كتب إليه يعرفه ما أمر به من نجاته بنفسه وبالعساكر معه، وقال له بكجور: مسيرك عن الرقة يوم كذا؛ وتابع رسله إليه بذلك، فسار مفتراً بقوله إلى بالس، فامتعت عليه، فحصرها خمسة أيام فلم يظفر بها فسار عنها.

وبلغ الخبر بمسير بكجور إلى سعد الدولة، فسار عن حلب ومعه لؤلؤ الكبير، مولى أبيه سيف الدولة، وكتب إلى بكجور يستميله ويدعوه إلى المودعة، ورعاية حق الرق والعبودية، ويسذل له أن يقطعه من الرقة إلى حمص، فلم يقبل منه ذلك.

وكان سعد الدولة قد كاتب والي بانطاكية لملك الروم يستنجده، فسير إليه جيشاً كثيراً من الروم، وكاتب أيضاً من مع بكجور من العرب يرغبهم في الإقطاع، والعطاء الكثير، والعفو عن مساعدتهم بكجور، فمالوا إليه، ووعده الهزيمة بين يديه، فلما التقى العسكران اقتتلوا، واشتد القتال، فلما اختلط الناس في الحرب وشغل بعضهم ببعض عطف العرب على سواد بكجور فنبهوه، واستأمنوا إلى سعد الدولة، فلما رأى بكجور ذلك اختار من شجعان أصحابه أربعمائة رجل، وعزم على أن يقصد موقف سعد الدولة ويلقي نفسه عليه، فإما له وإما عليه، فهرب واحد ممن حضر الحال إلى لؤلؤ الكبير وعرفه ذلك، فطلب لؤلؤ من سعد الدولة أن يتحرك من موقفه ويقف مكانه، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع. فحمل بكجور ومن معه، فوصلوا (٨٧/٩) إلى موقف لؤلؤ بعد قتال شديد عجب الناس منه واستعظموه كلهم، فلما رأى لؤلؤ ألقى نفسه عليه وهو يظنه سعد الدولة، فضربه على رأسه، فسقط

وبلغ الخبر إلى صمصام الدولة وأصحابه، فانزعجوا لذلك، ثم أجمعوا أمرهم على إنفاذ العباس بن أحمد في عسكر أكثر من الأول، فسبّروه في عدد كثير وعدة ظاهرة، فسار حتى بلغ عَمْرَأ، فالتقوا بقرب السيرجان، واقتتلوا فكانت الهزيمة على عمرو بن خلف وأسر جماعة من قواده وأصحابه، وكان هذا في المحرم سنة اثنتين وثمانين [وثلاثمائة]، وعاد عمرو إلى أبيه بسجستان مهزوماً، فلما دخل عليه لأمه وولّخه، ثم حبسه أياماً، ثم قتله بين يديه [وتولى غسله والصلاة عليه، ودفنه في القلعة. فسيحان الله ما كان أفسى قلب هذا الرجل مع علمه ومعرفته]

ثم إن صمصام الدولة عزل العباس عن كرمان واستعمل عليها أستاذ هرْمَز، فلما وصل إلى كرمان خافه خلف بن أحمد، فكتبه في تجديد الصلح، واعتذر عن فعله، فاستقرّ الصلح، وأنفذ خلف قاضياً كان بسجستان يعرف بأبي يوسف كان له قبول عند العامة والخاصة، ووضع عليه إنساناً يكون معه (٨٤/٩) وأمره أن يسقيه سماً إذا صار عند أستاذ هرمز ويعود مسرعاً ويشيع بأن أستاذ هرمز قتله.

فسار أبو يوسف إلى كرمان، فصنع له أستاذ هرمز طعاماً، فحضره وأكل منه، فلما عاد إلى منزله سقا ذلك الرجل سماً فمات منه، وركب جمّازة وسار مجدداً إلى خلف، فجمع له خلف وجوه الناس ليسمعوا له، فذكر أن أستاذ هرمز قتل القاضي أبا يوسف، وبكى خلف وأظهر الجزع عليه، ونادى في الناس بغزو كرمان والأخذ بثار أبي يوسف، فاجتمع الناس واحتشدوا، فسبّروهم مع ولده طاهر، فوصلوا إلى نرماسير، وبها عسكر الديلم، فهزموهم وأخذوا البلد منهم.

ولحق الديلم بجبرقت، فاجتمعوا بها، وجعلوا يبردسبر من يحميها، وهي أصل بلاد كرمان ومصرها، فقصدها طاهر وحصرها ثلاثة أشهر، فضاق بأهلها، وكتبوا إلى أستاذ هرمز يعلمونه حالهم، وأنه إن لم يدركهم سلموا البلد. فركب الخطر وسار مجدداً في مضائق وجبال وعرة، حتى أتى بردسبر، فلما وصل إليها رحل طاهر ومن معه عنها، وعادوا إلى سجستان، واستقرت كرمان للديلم، وكان ذلك سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. (٨٥/٩)

ذكر عصيان بكجور على سعد الدولة بن حمدان وقتله

لما وصل بكجور إلى الرقة منهزماً من عساكر مصر بدمشق وأقام، على ما ذكرناه، واستولى على الرحبة وما يجاور الرقة، راسل الملك بهاء الدولة ابن بويه بالانضمام إليه، وكاتب أيضاً بأذا الكردي المتغلب على ديار بكر والموصل بالمسير إليه، وراسل سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان، صاحب حلب، بأن يعود

إلى الأرض، فظهر حينئذ سعد الدولة وعاد إلى موقعه، ففرح به أصحابه وقويت نفوسهم، وأحاطوا بكجور وصدقوه القتال، فمضى منهزماً هو وعامة أصحابه، وتفرقوا، وبقي منهم معه سبعة أنفس، وكثر القتل والأسر في الباقيين.

وكان الوزير أبو الحسن المغربي قد سار من مشهد عليّ، عليه السلام، إلى العزيز بمصر، وأطمعه في حلب، فسار إليها في جيش كثيف فحصرها، وبها أبو الفضائل ولؤلؤ، فكتب إلى بسيل ملك الروم يستجده، وهو يقاتل البلغار، فأرسل بسيل إلى نائبه بأنطاكية يأمره بإنجاد أبي الفضائل، فسار في خمسين ألفاً، حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصي، فلما سمع منجوتكين الخبر سار إلى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل، وعبر إليهم العاصي، وأوقعوا بالروم فهزموهم ولّوا الأدبار إلى أنطاكية، وكثر القتل فيهم.

وسار منجوتكين إلى أنطاكية، فنهب بلدها وقراها وأحرقها، وأنفذ أبو الفضائل إلى بلد حلب، فقتل ما فيه من الغلال، وأحرق الباقي إضراراً بعساكر مصر، وعاد منجوتكين إلى حلب فحصرها، فأرسل لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي وغيرهم وبذل لهم مالاً ليردّوا منجوتكين عنهم، هذه السنة، بعلّة تعذر الأقوات، ففعلوا ذلك، وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب، فأجابهم إليه وسار إلى دمشق.

ولما بلغ الخبر إلى العزيز غضب وكتب بعود العسكر إلى حلب، وإبعاد المغربي، وأنفذ الأقوات من مصر في البحر إلى طرابلس، ومنها إلى العسكر، فأنزل العسكر حلب، وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهراً، فقلّت الأقوات بحلب. (٩٠/٩)

وعاد إلى أمراة ملك الروم والاعتضاد به، وقال له: متى أخذت حلب أخذت أنطاكية وعظم عليك الخطب. وكان قد توسّط بلاد البلغار، فعاد وجدّ في السير، وكان الزمان ربيعاً، وعسكر مصر قد أرسل إلى منجوتكين يعرفه الحال، وأتته جواسيسه بمثل ذلك، فأخرب ما كان بناه من سوق وحمّام وغير ذلك، وسار كالمنهزم عن حلب، ووصل ملك الروم فنزل على باب حلب، وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ، وعاد إلى حلب، ورحل بسيل إلى الشام، ففتح حمص وشيرز ونهبها، وسار إلى طرابلس فأنزلها، فامتنعت عليه، وأقام عليها ثيماً وأربعين يوماً، فلما أيس منها عاد إلى بلاد الروم.

ولما بلغ الخبر إلى العزيز عظم عليه، ونادى في الناس بالنفير لغزو الروم، وبرز من القاهرة، وحدث به أمراضاً منعتة، وأدركه الموت، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل المنصور، صاحب أفريقية، نائبه في البلاد

ولما طال الشوط بكجور ألقى سلاحه وسار، فوقف فرسه، فنزل عنه وسار راجلاً، فلحقه نفر من العرب، فأخذوا ما عليه، وقصد بعض العرب فنزل عليه وعرفه نفسه، وضمن له جمل بغير ذهباً ليوصله إلى الرقة، فلم يصدقه لبخله المشهور عنه، فتركه في بيته وتوجّه إلى سعد الدولة فعرفه أنّ بكجور عنده، فحكمه سعد في مطالبه، فطلب ماتني فدان ملكاً، ومائة ألف درهم، ومائة جمل تحمل له حنطة، وخمسين قطعة ثياباً، فأعطاه ذلك أجمع وزيادة وسير معه سرّية، فتسلّموا بكجور وأحضره عند سعد الدولة، فلما رآه أمر بقتله، فقتل، ولقي عاقبة يغيه وكفره إحسان مولا.

فلما قتله سعد الدولة سار إلى الرقة فأنزلها، وبها سلامة الرشيقي، ومعه أولاد بكجور وأبو الحسن عليّ بن الحسين المغربي وزير بكجور، فسلّموا البلد إليه بأمان وعهود أكدوها وأدخلوها عليه لأولاد بكجور وأموالهم، وللوزير المغربي، ولسلامة الرشيقي، ولأموالهم، فلما خرج أولاد بكجور (٨٨/٩) بأموالهم رأى سعد الدولة ما معهم، فاستعظمه واستكره.

وكان عنده القاضي ابن أبي الحصين، فقال سعد الدولة: ما كنت أظنّ أنّ بكجور يملك هذا جميعه؛ فقال له القاضي: لم لا تأخذه؟ فهر لك لأنّه مملوك لا يملك شيئاً، ولا حرج عليك ولا حنث. فلما سمع هذا أخذ المال جميعه وقبض عليهم، وهرب الوزير المغربي إلى مشهد أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام، وكتب أولاد بكجور إلى العزيز يسألونه الشفاعة فيهم، فأرسل إليه يشفع فيهم، ويأمره أن يسيرهم إلى مصر ويتهنّده إن لم يفعل. فأهان الرسول وقال له: قل لصاحبك أنا سائر إليك، وسير مقدّمته إلى حمص ليلحقهم.

ذكر وفاة سعد الدولة بن حمدان

فلما برز سعد الدولة ليسير إلى دمشق لحقه قوّلتج، فعاد إلى حلب ليتداوى، فزال ما به وغوفي، وعزم على العود إلى معسكره، وحضر عند إحدى سراريه فواقعها فسقط عنها وقد فُلج وبطل نصفه، فاستدعى الطبيب، فقال له: أعطني يدك لأخذ مجسّك؛ فأعطاه اليسرى، فقال: أعطني اليمين؛ فقال: لا تركت لي اليمين يميناً، يعني نكته بأولاد بكجور هو الذي أهلكه، وقد ذكر ذلك، وندم عليه حيث لم تنفعه الندامة، وعاش بعد ذلك ثلاثة أيام ومات بعد أن عهد إلى ولده أبي الفضائل، ووصّى إلى لؤلؤ به وبسائر

يوسف، واستعمل بعده على البلاد أبا عبد الله محمد بن أبي العرب.

وفيها توفي القائد جوهر، بعد عزله، وجوهر هذا هو الذي فتح مصر للمعز العلوي.

وفيها قبض بهاء الدولة على وزيره أبي نصر سابور بالأهواز، واستوزر أبا (٩١/٩) القاسم عبد العزيز بن يوسف.

وفيها أيضاً قبض بهاء الدولة على أبي نصر خواشاذه وأبي عبد الله بن طاهر، بعد عوده من خوزستان، وكان سبب قبضهما أن أبا نصر كان شحيحاً، فلم يواصل ابن المعلم بخدمه وهداياه، فشرع في القبض عليه.

وفيها هرب فولاذ زماندار من عند صمصام الدولة إلى الري، وكان سبب هربه أنه تحكّم على صمصام الدولة تحكماً عظيماً أنف منه، فأراد القبض عليه، فعلم به فهرب منه.

وفيها كتب أهل الرحبة إلى بهاء الدولة يطلبون إنفاذ من يسلمون إليه الرحبة، فأنفذ خماساتكين الحفصي إلى الرحبة فتسلمها، وسار منها إلى الرقة، وبها بدر غلام سعد الدولة بن حمدان، فجرت بينهما وقعتات، فلم يظفر بها، وبلغ اختلاف ببغداد، فعاد، فخرج عليه بعض العرب، فأخذوه أسيراً، ثم اقتدى منهم بمال كثير.

وفيها حلف بهاء الدولة للقادر بالله على الطاعة، والقيام بشروط البيعة، وحلف له القادر بالوفاء والخلوص، وأشهد عليه أنه قلده ما وراء بابه.

وفيها كثرت الفتن بين العامة ببغداد، وزالت هيئة السلطنة، وتكرر الحريق في المحال، واستمر الفساد.

وفيها توفي قاضي القضاة عبيد الله بن أحمد بن معروف أبو محمد، ومولده سنة ست وثلاثمائة، وكان فاضلاً، عفيفاً، نزيهاً، وكان معتزلاً، ومحمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم بن زاذان أبو بكر المعروف بابن المقرئ الأصبهاني، وله ست وتسعون سنة، وهو راوي مسند أبي يعلى الموصلي عنه. (٩٢/٩)

سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة

ذكر عود الديلم إلى الموصل

كان بهاء الدولة قد أنفذ أبا جعفر الحجاج بن هُرْمُز في عسكر كثير إلى الموصل، فملكها آخر سنة إحدى وثمانين [وثلاثمائة]، فاجتمعت غفيل، وأميرهم أبو الذؤاد محمد بن المسيب، على حربه، فجرى بينهم عدة وقائع ظهر من أبي جعفر فيها بأس شديد،

حتى إنه كان يضع له كُرسياً بين الصّفين ويجلس عليه، فهابه العرب، واستمد من بهاء الدولة عسكراً، فأمدّه بالوزير أبي القاسم علي بن أحمد، وكان مسيره أول هذه السنة، فلما وصل إلى العسكر كتب بهاء الدولة إلى أبي جعفر بالقبض عليه، فعلم أبو جعفر أنه إن قبض عليه اختلف العسكر، وظفر به العرب، فراجع في أمره.

وكان سبب ذلك أن ابن المعلم كان عدواً له، فسعى به عند بهاء الدولة، فأمر بقبضه، وكان بهاء الدولة أذنأ يسمع ما يقال له ويفعل به، وعلم الوزير الخير، فشرع في صلح أبي الذؤاد وأخذ رهائنه والعود إلى بغداد، فأشار عليه أصحابه باللحاق بأبي الذؤاد، فلم يفعل آنفة، وحسن عهده، فلما وصل إلى بغداد رأى ابن المعلم قد قبض وقتل وكفى شره.

ولما أتاه خبر قبض ابن المعلم وقتله ظهر عليه الانكسار، فقال له خواصه: (٩٣/٩) ما هذا الهم وقد كُفيت شرّ عدوك؟ فقال: إن ملكاً قرب رجلاً كما قرب بهاء الدولة ابن المعلم، ثم فعل به هذا، لحقيق بأن تخاف ملاسته.

وكان بهاء الدولة قد أرسل الشريف أبا أحمد الموسوي رسولاً إلى أبي الذؤاد، فأصره العرب، ثم أطلقوه، فورد إلى الموصل وانحدر إلى بغداد.

ذكر تسليم الطائع إلى القادر وما فعله به

في هذه السنة، في رجب، سلم بهاء الدولة الطائع لله إلى القادر بالله، فأنزله حجرة من خاص حُجره، ووكل به من ثقات خدمه من يقوم بخدمته، وأحسن ضيافته، وكان يطلب الزيادة في الخدمة كما كان أيام الخلافة، فيؤمر له بذلك.

حكى عنه أن القادر بالله أرسل إليه طبيباً فقال: من هذا يتطبّب أبو العباس؟ يعني القادر، فقالوا: نعم! فقال: قولوا له عني: في الموضع الفلاني كندوج فيه مما كنت أستعمله، فليرسل إلي بعضه ويأخذ الباقي لنفسه. ففعل ذلك. وأرسل إليه يوماً القادر بالله عديسة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: عدس وسيق، فقال: أوقد أكل أبو العباس من هذا؟ قالوا: نعم؛ قال: قولوا له عني: لما أردت أن تأكل عديسة لم اخفيت، فما كانت العديسة تمسوك، ولم تقلدت هذا الأمر؟ فأمر حينئذ القادر أن يفرد له جارية من طبائحه تطبخ له ما يلتمسه كل يوم؛ فأقام على هذا إلى أن توفي. (٩٤/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض بهاء الدولة على أبي الحسن بن المعلم، وكان قد استولى على الأمور كلها، وخدمه الناس كلهم، حتى الوزراء، فأساء السيرة مع الناس، فشغب الجند في هذا

وعرف صمصام الدولة الحال، فسّر أبا عليّ بن أستاذ هُرْمُز في عسكر، فلما قاربهم تفرّق من معهم من الرّجالة، وتحصّن بنو بختيار، وكانوا ستّة، ومن معهم من الديلم بالقلعة، وحصرهم أبو عليّ، وراسل أحد وجوه الديلم وأطمعه في الإحسان، فأصعدهم إلى القلعة سرّاً، فملكوها، وأخذوا أولاد بختيار أسراء، فأمر صمصام الدولة بقتل اثنين منهم وخَبَسَ الباقين، ففعل ذلك بهم. (٩٧/٩)

ذكر ملك صمصام الدولة خوزستان

في هذه السنة ملك صمصام الدولة خوزستان. وكان سبب نقض الصلح أنّ بهاء الدولة سَرَّ أبا العلاء عبد الله بن الفضل إلى الأهواز، وتقدّم إليه بأن يكون مستعدّاً لقصد بلاد فارس، وأعلمه أنّه سيّير إليه العساكر متفرقين، فلإذا اجتمعوا عنده سار بهم إلى بلاد فارس بغتة، فلا يشعر صمصام الدولة إلّا وهم معه في بلاده.

فسار أبو العلاء، ولم يتهيّأ لبهاء الدولة إمداده بالعساكر، وظهر الخير، فجهّز صمصام الدولة عسكره وسيّره إلى خوزستان، وكتب أبو العلاء إلى بهاء الدولة بالخبر وطلب إمداده بالعساكر، فسّير إليه عسكراً كثيراً، ووصلت عساكر فارس، فلقيهم أبو العلاء، فانهزم هو وأصحابه وأخذ أسيراً وحُمِلَ إلى صمصام الدولة، فألبس ثياباً مُصَبَّغة وطيف به، وسألت فيه والسدة صمصام الدولة، فلم يقتله، واعتقله.

ولما سمع بهاء الدولة بذلك أزعجه وأقلق، وكانت خزائنه قد خلت من الأموال، فأرسل وزيره أبا نصر بن سابور إلى واسط ليحصل ما أمكنه، وأعطاه رهوناً من الجواهر والأعلاق النفيسة ليقترض عليها من مهذب الدولة، صاحب البطيحة، فلما وصل إلى واسط تقرب منها إلى مهذب الدولة، وترك ما معه من الرهون بحاله، وأرسل بهاء الدولة ورهنها واقترض عليها. (٩٨/٩)

ذكر ملك الترك بخارى

في هذه السنة ملك مدينة بخارى شهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي، وكان له كاشغر وبلاساغون إلى حد الصين.

وكان سبب ذلك أن أبا الحسن بن سيمجور لما مات وولي ابنه أبو علي خراسان بعده، كاتب الأمير الرضي نوح بن منصور يطلب أن يقره على ما كان أبوه يتولا، فأجيب إلى ذلك، وحملت إليه الخلع، وهو لا يشك أنها له، فلما بلغ الرسول هراة عدل إليها، وبها فائق، فأوصل الخلع والعهد بخراسان إليه، فعلم أبو علي أنهم مكروا به، وأن هذا دليل سوء يريدونه به، فلبس فائق الخلع وسار

الوقت، وشكوا منه، وطلبوا منه تسليمه إليهم، فراجعهم بهاء الدولة، ووعدهم كفّ يده عنهم، فلم يقبلوا منه، فقبض عليه وعلى جميع أصحابه، فظنّ أنّ الجند يرجعون، فلم يرجعوا، فسلمه إليهم، فسقوه السّم مرتين، فلم يعمل فيه شيئاً، فخنقوه ودفنوه.

وفيهما، في شوال، تجددت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم، واشتدّ الحال، فركب أبو الفتح محمد بن الحسن الحاجب، فقتل وصلب، فسكن البلد.

وفيهما غلت الأسعار ببغداد، فبيع رطل الخبز بأربعين درهماً.

وفيهما قبض بهاء الدولة على وزيره أبي القاسم عليّ بن أحمد المذكور، وكان سبب قبضه أنّ بهاء الدولة أتهمه بمكاتبة الجند في أمر ابن المعلم، واستوزر أبا نصر بن سابور، وأبا منصور بن صالحان، جمع بينهما في الوزارة.

وفيهما قبض صمصام الدولة على وزيره أبي القاسم العلاء بن الحسن بشيراز، وكان غالباً على أمره، وبقي محبوباً إلى سنة ثلاث وثمانين [وثلاثمائة]، فأخرجه صمصام الدولة واستوزره، وكان يدبّر الأمر مدة حبسه أبو القاسم المدلجي.

وفيهما نزل ملك الروم بأرمينية، وحصر خيلاط، وملازكر، وأرجيش، فضعت نفوس الناس عنه، ثم هادنه أبو عليّ الحسن بن مروان مدة عشر سنين، وعاد ملك الروم. (٩٥/٩)

وفيهما، في شوال، وُلِدَ الأمير أبو الفضل بن القادر بالله.

وفيهما سار بغراخان إيلك، ملك الترك، بعساكره إلى بخارى، فسّير إليه الأمير نوح بن منصور جيشاً كثيراً، ولقيهم إيلك وهزمهم، فعادوا إلى بخارى مغلولين، وهو في أثرهم، فخرج نوح بنفسه وسائر عسكره، ولقيه فاقتلوا قتالاً شديداً وأجلت المعركة عن هزيمة إيلك، فعاد منهزماً إلى بلاساغون، وهي كرسي مملكته.

وفيهما توفي أبو عمرو محمد بن العباس بن حسنويه الحرّاز، ومولده سنة خمس وتسعين ومائتين. (٩٦/٩)

سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة

ذكر خروج أولاد بختيار

في هذه السنة ظهر أولاد بختيار من مجسهم، واستولوا على القلعة التي كانوا معتقلين بها.

وكان سبب حبسهم أنّ شرف الدولة أحسن إليهم، بعد والده، وأطلقهم، وأزلههم بشيراز، وأقطعهم، فلما مات شرف الدولة حبسوا في قلعة ببلاد فارس، فاستمالوا مستحفظها ومن معه من الديلم، فأفرجوا عنهم، وأنفذوا إلى أهل تلك النواحي، وأكثرهم رجالة، فجمعوهم تحت القلعة.

عن هراة نحو أبي علي فبلغه الخبر، فسار جريدة في نخبة أصحابه، وطوى المنازل حتى سبق خبره، فأوقع بضائق فيما بين بوشنج وهراة، فهزم فائقاً وأصحابه، وقصدوا مرو الروذ.

وكتب أبو علي إلى الأمير نوح يجدد طلب ولاية خراسان، فأجابه إلى ذلك، وجمع له ولاية خراسان جميعها بعد أن كانت هراة لفائق، فعاد أبو علي إلى نيسابور ظافراً، وجبى أموال خراسان، فكتب إليه نوح يستنزل عن بعضها ليصرفه في أرزاق جنده، فاعتذر إليه ولم يفعل، وخاف عاقبة المنع، فكتب إلى بغراخان المذكور يدعو إلى أن يقصد بخارى ويملكها على السامانية، وأطمعه فيهم، واستقر الحال بينهما على أن يملك بغراخان ما وراء النهر كله، ويملك أبو علي خراسان، قطع بغراخان في البلاد، وتجدد له إليها حركة. (٩٩/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثر شغب الديلم على بهاء الدولة، ونهبوا دار الوزير أبي نصر بن سابور، واختفى منهم، واستعفى ابن صالحان من الانفراد بالوزارة فأعفى، واستوزر أبا القاسم علي بن أحمد، ثم هرب، وعاد سابور إلى الوزارة بعد أن أصلح الديلم.

وفيهما جلس القادر بالله لأهل خراسان، بعد عودهم من الحج، وقال لهم (١٠١/٩) في معنى الخطبة له، وحملوا رسالة وكتبوا إلى صاحب خراسان في المعنى.

وفيهما عقد النكاح للقادر على بنت بهاء الدولة بصداق مبلغه مائة ألف دينار، وكان العقد بحضوره، والولي النقيب أبو أحمد الحسين بن موسى، والد الرضي، وماتت قبل النقلة.

وفيهما كان بالعراق غلاء شديد فبيعت كارة الدقيق بمائتين وستين درهما، وكُر الحنطة بستة آلاف وستمائة درهم غياثة.

وفيهما بنى أبو نصر سابور بن أردشير بيغداد داراً للعلم، ووقف فيها كتباً كثيرة على المسلمين المتفنين بها.

وفيهما توفي أبو الحسن علي بن محمد بن سها العامرجسي، الفقيه الشافعي، شيخ أبي الطيب الطبري بَنَسَابور؛ وأبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر؛ وأبو طالب عبد السلام بن الحسن المأموني، وهو من أولاد المأمون، وكان فاضلاً حسن الشعر.

(١٠٢/٩)

سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

ذكر ولاية محمود بن سبكتكين خراسان وإجلاء أبي علي عنها في هذه السنة وإلى الأمير نوح محمود بن سبكتكين خراسان. وكان سبب ذلك أن نوحاً لما عاد إلى بخارى، على ما تقدم

وأما فائق فإنه أقام بمرو الروذ حتى انجبر كسره واجتمع إليه أصحابه وسار نحو بخارى من غير إذن، فارتاب الأمير نوح به، فسار إليه الجيوش وأمرهم بمنعه، فلما لقوه قاتلوه، فانهزم فائق وأصحابه، وعاد على عقبيه، وقصد ترمذ. فكتب الأمير نوح إلى صاحب الجوزجان من قبله، وهو أبو الحارث أحمد بن محمد الفريغوني، وأمره بقصد فائق، فجمع جمعاً كثيراً وسار نحوه، فأوقع بهم فائق فهزمهم وغنم أموالهم.

وكتب أيضاً بغراخان بطمعه في البلاد، فسار نحو بخارى، وقصد بلاد السامانية، فاستولى عليها شيئاً بعد شيء، فلقبهم بغراخان، فهزمهم، وأسر أئمة وجماعة القواد، فلما ظفر بهم قوي طمعه في البلاد، وضعف نوح وأصحابه، وكتب الأمير نوح أبا علي بن سيمجور يستنصره، ويأمره بالقدوم إليه بالعاكرو، فلم يجبه إلى ذلك، ولا لبى دعوته، وقوي طمعه في الاستيلاء على خراسان

وسار بغراخان نحو بخارى، فلقبه فائق، واختص به، وصار في جملته، ونازلوا بخارى، فاختفى الأمير نوح، وملكها بغراخان ونزلها، وخرج نوح منها مستخفياً فعبّر النهر إلى أمل الشط، وأقام بها، ولحق به أصحابه، فاجتمع عنده منهم جمع كثير، وأقاموا هناك.

وتابع نوح كتبه إلى أبي علي ورسله يستنجد ويخضع له، فلم يصغ إلى ذلك، وأما فائق فإنه استأذن بغراخان في قصد بلخ والاستيلاء عليها، فأمره بذلك، فسار نحوها ونزلها. (١٠٠/٩)

ذكر عود نوح إلى بخارى وموت بغراخان

لما نزل بغراخان بخارى وأقام بها استوخمها، فلحقه مرض ثقيل، فانتقل عنها نحو بلاد الترك، فلما فارقتها ثار أهلها بساقة

وتعيم وأسد . فلما بلغ تُسْتَرُ رحل ليلاً ليكبس الأتراك من عسكر بهاء الدولة، فضّل الأدلاء في الطريق، فأصبح على بعد منهم، ورأتهم طلائع الأتراك، فعادوا بالخير، فحذروا، واجتمعوا، واصطفوا، وجعل مقدمهم، واسمه طغان، كميناً، فلما التقوا واقتلوا خرج الكمين على الديلم، فكانت الهزيمة، وانهمز صمصام الدولة ومن معه من الديلم، وكانوا الوفاً كثيرة، واستأمن منهم أكثر من ألفي رجل، وغنم الأتراك من أقتالهم شيئاً كثيراً .

وضرب طغان للمستأمنة خيماً يسكنونها، فلما نزلوا اجتمع الأتراك وتشاوروا وقالوا: هؤلاء أكثر من عدتنا، ونحن نخاف أن يثوروا بنا ؟ واستقر رأيهم على قتلهم، فلم يشعر الديلم إلا وقد أُلقيت الخيام عليهم، ووقع الأتراك فيهم بالعمد حتى أتوا عليهم فقتلوا كلهم .

وورد الخبر على بهاء الدولة وهو بواسط، قد اقترض مالا من مهذب الدولة، فلما سمع ذلك سار إلى الأهواز، وكان طغان والأتراك قد ملكوها قبل وصوله إليها .

وأما صمصام الدولة فإنه لبس السواد وسار إلى شيراز فدخلها، فغيّرت والدته ما عليه من السواد وأقام يتجهّز للعود إلى أخيه بهاء الدولة بخوزستان . (١٠٥/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عُقد النكاح لمهذب الدولة على ابنة بهاء الدولة، ولأمير أبي منصور بويه بن بهاء الدولة على ابنة مهذب الدولة، وكان الصداق من كل جانب مائة ألف دينار .

وفيها قبض بهاء الدولة على أبي نصر خواشاده .

وفيها عاد الحجاج من الثعلبية، ولم يحجّ من العراق والشام أحد، وسبب عودتهم أنّ الأصفير، أمير العرب، اعترضهم وقال : إنّ الدراهم التي أرسلها السلطان عام أوّل كانت نقرة مطلية، وأريد العوض ؛ فطالت المخاطبة والمراسلة وضاق الوقت على الحجاج فرجعوا .

وفيها توفي أبو القاسم النقيب الزينبي، ووليّ النقابة بعده ابنه أبو الحسن .

وفيها وليّ نقابة الطالبين أبو الحسن النهرساسي، وعُزل عنها أبو أحمد الموسوي، وكان ينوب عنه فيها ابنه المرتضى والرضي .

وفيها توفي عبد الله بن محمد بن نافع بن مُكرّم أبو العباس البستي الزاهد، وكان من الصالحين، حجّ من نيسابور ماشياً، وبقي سبعين سنة لا يستند إلى حافظ ولا إلى مخدة، وعليّ بن الحسين بن حمويه بن زيد أبو الحسين الصوفي، سمع الحديث، وحديث الحديث، وحديث وصحب أبا الخير الأقطع وغيره، وعليّ

ذكره، سقط في يد أبي علي، وندم على ما فرط فيه من ترك معونته عند حاجته إليه .

وأما فائق فإنه لما استقر نوح ببخارى حدّث نفسه بالمسير إليه، والاستيلاء عليه، والحكم في دولته، فسار عن بلخ إلى بخارى . فلما علم نوح بذلك سبّر إليه الجيوش لترده عن ذلك، فلقوه واقتلوا قتلاً شديداً، فانهزم فائق وأصحابه، ولحقوا بأبي علي، ففرح بهم، وقوي جنتاه بقرهم، واتفقوا على مكاشفة الأمير نوح بالعصيان، فلما فعلوا ذلك كتب الأمير نوح إلى سبكتكين، وهو حينئذ بغزنة، يعرفه الحال، ويأمره بالمسير إليه لينجده، وولاه خراسان .

وكان سبكتكين في هذه الفتن مشغولاً بالغزو، غير ملتفت إلى ما هم فيه، فلما أتاه كتاب نوح ورسوله أجابه إلى ما أراد، وسار نحوه جريداً، واجتمع به، وفرّوا بينهما ما يفعلانه، وعاد سبكتكين فجمع العساكر وحشد . فلما (١٠٣/٩) بلغ أبا علي وفاقاً الخبر جمعا، وراسلا فخر الدولة بن بويه يستجدانه، ويطلبان منه عسكراً، فأجابهما إلى ذلك وسبّر إليهما عسكراً كثيراً، وكان وزيره صاحب بن عبّاد هو الذي قرر القاعدة في ذلك .

وسار سبكتكين من غزنة، ومعه ولده محمود، نحو خراسان، وسار نوح فاجتمع هو وسبكتكين، فقصدا أبا علي وفاقاً، فالتقوا بنواحي هراة، واقتلوا، فانهز دارا بن قابوس بن شمكير من عسكر أبي علي إلى نوح ومعه أصحابه، فانهزم أصحاب أبي علي، وركبهم أصحاب سبكتكين يأسرون، ويقتلون، ويغنمون، وعاد أبو علي وفائق نحو نيسابور، وأقام سبكتكين ونوح بظواهر هراة حتى استراحوا وساروا نحو نيسابور، فلما علم بهم أبو علي سار هو وفائق نحو جرجان، وكتب إلى فخر الدولة بخبرهما، فأرسل إليهما الهدايا والتحف والأموال، وأنزلهما بجرجان .

واستولى نوح على نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة، فأحسن السيرة، وعاد نوح إلى بخارى وسبكتكين إلى هراة وأقام محمود بنيسابور .

ذكر عود الأهواز إلى بهاء الدولة

في هذه السنة ملك بهاء الدولة الأهواز .

وكان سببه أنه أنفذ عسكراً إليها، عذتهم سبع مائة رجل، وقدم عليهم (١٠٤/٩) طغان التركي، فلما بلغوا السوس رحل عنها أصحاب صمصام الدولة، فدخلها عسكر بهاء الدولة، وانتشروا في أعمال خوزستان، وكان أكثرهم من الترك، فعَلَّتْ كلمتهم على الديلم، وتوجّه صمصام الدولة إلى الأهواز ومعه عساكر الديلم

فلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ خَوَارِزْمِشَاهُ جَمْعًا مِنْ عَسْكَرِهِ فَأَحَاطُوا بِهِ وَأَخَذُوهُ أَسِيرًا فِي رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَاعْتَقَلَهُ فِي بَعْضِ دُورِهِ، وَطَلَبَ أَصْحَابَهُ، فَاسْرَ أَعْيَانَهُمْ وَتَفَرَّقَ الْبَاقُونَ.

وَأَمَّا فَاتِقٌ فَإِنَّهُ سَارَ إِلَى أَيْلِكَ خَانَ بِمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، فَكَرَّمَهُ وَعَظَّمَهُ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَبْعِدَهُ إِلَى قَاعِدَتِهِ، وَكُتِبَ إِلَى نُوحٍ يَشْفَعُ فِي فَاتِقٍ وَأَنْ يُؤْتَى سَمَرْقَنْدَ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَقَامَ بِهَا.

ذِكْرُ خُلَاصِ أَبِي عَلِيٍّ وَقَتْلِ خَوَارِزْمِشَاهِ

لَمَّا أَسْرَ أَبُو عَلِيٍّ بَلَغَ خَبْرَهُ إِلَى مَأمُونِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَالْيَهِ الْجُرْجَانِيَّةِ، فَقَلِقَ لِذَلِكَ وَعَظُمَ عَلَيْهِ، وَجَمَعَ عَسَاكِرَهُ وَسَارَ نَحْوَ خَوَارِزْمِشَاهِ، وَعَبَّرَ إِلَى كَاثٍ، وَهِيَ مَدِينَةُ خَوَارِزْمِشَاهِ، فَحَصَرُوهَا وَقَاتَلُوهَا، وَفَتَحُوهَا عُنُوفًا، وَأَسْرَوْا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ خَوَارِزْمِشَاهَ، وَأَحْضَرُوا أَبَا عَلِيٍّ فَفَكَّرُوا عَنْهُ قَيْدَهُ وَأَخَذُوهُ وَعَادُوا إِلَى الْجُرْجَانِيَّةِ، وَاسْتَخْلَفَ مَأمُونُ بِخَوَارِزْمِ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، وَصَارَتْ [فِي] جُمْلَةِ مَا بِيَدِهِ، وَأَحْضَرَ خَوَارِزْمِشَاهَ وَقَتَلَهُ بَيْنَ يَدَيْ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ سِيَمْجُورٍ. (١٠٩/٩)

ذِكْرُ قُبُضِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ سِيَمْجُورٍ وَمَوْتِهِ

لَمَّا حَصَلَ أَبُو عَلِيٍّ عِنْدَ مَأمُونِ بْنِ مُحَمَّدٍ بِالْجُرْجَانِيَّةِ كُتِبَ إِلَى الْأَمِيرِ نُوحٍ يَشْفَعُ فِيهِ، وَيَسْأَلُ الصَّفْحَ عَنْهُ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَمَرَ أَبَا عَلِيٍّ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَخَارَى، فَسَارَ إِلَيْهَا فِيمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ، فَلَمَّا بَلَغُوا بَخَارَى لَقِيَهُمُ الْأَمْرَاءُ وَالْمَسَاكِرُ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى الْأَمِيرِ نُوحٍ أَمَرَ بِالْقُبُضِ عَلَيْهِمْ.

وَبَلَغَ سَبِكْتِكِينَ أَنَّ ابْنَ عَزُيْرٍ، وَزِيرَ الْأَمِيرِ نُوحٍ، يَسْعَى فِي خُلَاصِ أَبِي عَلِيٍّ، فَارْسَلَ إِلَيْهِ يَطْلُبُ أَبَا عَلِيٍّ، فَمَاتَ فِي حَبْسِهِ سَنَةً سَبْعَ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثُمِائَةً، وَكَانَ ذَلِكَ خَاتِمَةً أَمْرِهِ، وَآخِرَ حَالِ بَيْتِ سِيَمْجُورٍ جَزَاءً لِكُفْرَانِ إِحْسَانِ مَوْلَاهُمْ، فَتَبَارَكَ الْحَيُّ الدَّائِمُ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَزُولُ مَلِكُهُ.

وَكَانَ ابْنُهُ أَبُو الْحَسَنِ قَدْ لَحِقَ بِفَخْرِ الدَّوْلَةِ بَنِ بُوَيْهِ، فَاحْسَنَ إِلَيْهِ وَأَكْرَمَهُ، فَسَارَ عَنْهُ سَرًّا إِلَى خِرَاسَانَ لَهْوَى كَانَ لَهُ بِهَا، وَظَنَّ أَنَّ أَمْرَهُ يَخْفَى، فَظَهَرَ حَالَهُ، فَأَخَذَ أَمِيرًا وَسُجُنَ عِنْدَ الْوَلَدِ.

وَأَمَّا أَبُو الْقَاسِمِ أَخُو أَبِي عَلِيٍّ فَإِنَّهُ أَقَامَ فِي خِدْمَةِ سَبِكْتِكِينَ مَدَّةَ سِيرَةٍ، ثُمَّ ظَهَرَ مِنْهُ خِلَافُ الطَّاعَةِ، وَقَصِدَ نَيْسَابُورَ، فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ مَا أَرَادَ، وَعَادَ مُحَمَّدُ بْنُ سَبِكْتِكِينَ إِلَيْهِ، فَهَرَبَ مِنْهُ وَقَصِدَ فَخْرَ الدَّوْلَةِ وَبَقِيَ عِنْدَهُ، وَسِيرَدَ بَاقِي أَخْبَارِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. (١١٠/٩)

ذِكْرُ وَفَاةِ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ مَاتَ الصَّاحِبُ أَبُو الْقَاسِمِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبَّادٍ، وَزِيرُ فَخْرِ الدَّوْلَةِ بِالرِّيِّ، وَكَانَ وَاحِدَ زَمَانِهِ عُلَمَاءَ وَفَضَلَاءَ، وَتَدْبِيرًا، يَقْصِدُهُ لِيَجْتَمَعَ بِهِ، فَسَكَنَ إِلَى ذَلِكَ.

(١٠٦/٩) ابْنُ عَيْسَى بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو الْحَسَنِ النَّحْوِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالرَّمَانِيِّ، وَمَوْلَدُهُ سَنَةُ سِتٍّ وَتَسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ، رَوَى عَنْ ابْنِ دُرَيْدٍ وَغَيْرِهِ، وَلَهُ تَفْسِيرٌ كَبِيرٌ؛ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْقَزَّازِ أَبُو الْحَسَنِ، سَمِعَ الْكَثِيرَ، وَكُتِبَ الْكَثِيرُ، وَخَطَّهُ حُجَّةٌ فِي صَحَّةِ النُّقْلِ وَجُودَةِ الضَّبْطِ؛ وَأَبُو عَيْدٍ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ الْمَرْزِبَانِيُّ الْكَاتِبُ؛ وَالْمُحَسِّنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ أَبِي الْفَهْمِ أَبُو عَلِيٍّ التَّنُوخِيُّ الْقَاضِي، وَمَوْلَدُهُ سَنَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثُمِائَةً، وَكَانَ فَاضِلًا.

وَفِيهَا تُوَفِّيَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَلَالِ الصَّابِيِّ، الْكَاتِبُ الْمَشْهُورُ، وَكَانَ عُمُرُهُ إِحْدَى وَتَسْعِينَ سَنَةً، وَكَانَ قَدْ زَيْنَ، وَضَاقَتْ بِهِ الْأُمُورُ، وَقُلَّتْ عَلَيْهِ الْأُمُالُ.

وَفِيهَا اشْتَدَّ أَمْرُ الْعِيَارَيْنِ بِبَغْدَادَ، وَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْكَرْخِ وَأَهْلِ بَابِ الْبَصْرَةِ، وَاحْتَرَقَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَحَالِّ، ثُمَّ اصْطَلَحُوا. (١٠٧/٩)

سنة خمس وثمانين وثلاثمائة

ذِكْرُ عُدُودِ أَبِي عَلِيٍّ إِلَى خِرَاسَانَ

لَمَّا عَادَ الْأَمِيرُ نُوحٌ إِلَى بَخَارَى، وَسَبِكْتِكِينَ إِلَى هَرَاةَ، وَبَقِيَ مُحَمَّدُ بَنِيْسَابُورَ، طَمَعَ أَبُو عَلِيٍّ وَفَاتِقٌ فِي خِرَاسَانَ، فَسَارَا عَنْ جُرْجَانَ إِلَى نَيْسَابُورَ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ، فَلَمَّا بَلَغَ مُحَمَّدٌ خَبْرَهُمَا كُتِبَ إِلَى أَبِيهِ بِذَلِكَ، وَبَرَزَ هُوَ فَنَزَلَ بِظَاهِرِ نَيْسَابُورَ وَأَقَامَ يَنْتَظِرُ الْمَدَدَ، فَأَعْجَلَاهُ، فَصَبَرَ لَهُمَا، فَقَاتَلَاهُ، وَكَانَ فِي قَلَّةٍ مِنَ الرِّجَالِ، فَانْهَزَمَ عَنْهُمَا نَحْوَ أَبِيهِ، وَغَنِمَ أَصْحَابُهُمَا مِنْهُ شَيْئًا كَثِيرًا، وَأَشَارَ أَصْحَابُ أَبِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ بِاتِّبَاعِهِ، وَإِعْجَالِهِ وَوَالِدِهِ عَنْ الْجَمْعِ وَالْإِحْتِشَادِ، فَلَمْ يَفْعَلْ، وَأَقَامَ بَنِيْسَابُورَ، وَكَاتَبَ الْأَمِيرُ نُوحًا يَسْتَمِيلُهُ، وَيَسْتَقِيلُ مِنْ عَثْرَتِهِ وَزَلَّتِهِ، وَكَذَلِكَ كَاتَبَ سَبِكْتِكِينَ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَأَحَالَ بِمَا جَرَى عَلَى فَاتِقٍ، فَلَمْ يَجِيبْهُ إِلَى مَا أَرَادَ.

وَجَمَعَ سَبِكْتِكِينَ الْعَسَاكِرَ، فَأَتَوْهُ عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذُلُولٍ، وَسَارَ نَحْوَ أَبِي عَلِيٍّ، فَالْتَقُوا بِطُوسَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ، فَاقْتَتَلُوا عَامَةً يَوْمَهُمْ، وَأَتَاهُمُ مُحَمَّدُ بْنُ سَبِكْتِكِينَ فِي عَسْكَرٍ ضَخْمٍ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَانْهَزَمُوا وَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَنَجَا أَبُو عَلِيٍّ وَفَاتِقٌ، فَقَصِدَا أَيْبُورْدَ، فَتَبِعَهُمُ سَبِكْتِكِينَ، وَاسْتَخْلَفَ ابْنَهُ مُحَمَّدًا بَنِيْسَابُورَ، فَقَصِدَا مَرُومَ ثُمَّ أَمَلَ الشُّطْرَ، وَرَاسَلَا الْأَمِيرَ نُوحًا يَسْتَعِظِفَانِهِ، فَأَجَابَ أَبَا عَلِيٍّ إِلَى مَا طَلَبَ مِنْ قَبُولِ عِذْرِهِ إِنْ قَارَقَ فَاتِقًا وَنَزَلَ بِالْجُرْجَانِيَّةِ، (١٠٨/٩) فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَحَذَرَهُ فَاتِقٌ، وَخَوْفَهُ مِنْ مَكِيدَتِهِمْ بِهِ وَمَكْرِهِمْ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ لِأَمْرِ يَرِيدُهُ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، فَسَارَ فَاتِقًا وَسَارَ نَحْوَ الْجُرْجَانِيَّةِ فَنَزَلَ بِقَرْيَةٍ بِقَرَبِ خَوَارِزْمَ تَسْمَى هِزَارَ أَنْسَبَ، فَارْسَلَ إِلَيْهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ خَوَارِزْمِشَاهُ مِنْ أَقَامَ لَهُ ضِيَافَةً، وَوَعَدَهُ أَنَّهُ يَقْصِدُهُ لِيَجْتَمَعَ بِهِ، فَسَكَنَ إِلَى ذَلِكَ.

ذكر وفاة خواشاده

في هذه السنة توفي أبو نصر خواشاده بالبطائح، وكان قد هرب إليها بعد أن قبض، وكتبه بهاء الدولة، وفخر الدولة، وصمصام الدولة، ويدر بن حسني، كلٌ منهم يستدعيه، ويذل له ما يريد، وقال له فخر الدولة: لعلك تُسيء الظن بما قدّمته في خدمة عضد الدولة، وما كنّا لنؤاخذك بطاعة من قدّمك ومناصحته، وقد علمت ما عملته مع الصّاحب بن عبّاد، وتركتنا ما فعله معنا، فعزم على قصده، فأدركه أجله قبل ذلك، وتوفي، وكان من أعيان قوَاد عضد الدولة.

ذكر عود عسكر صمصام الدولة إلى الأهواز

في هذه السنة صمصام الدولة عسكره من الديلم وردّهم إلى الأهواز مع العلاء بن الحسن، وأتفق أن طغان، نائب بهاء الدولة بالأهواز، توفي، وعزم من معه من الأتراك على العود إلى بغداد، وكتب من هناك إلى بهاء الدولة بالخبر، فأقلقه ذلك وأزعجه، فسير أبا كاليجار المرزيان بن شهريوز إلى الأهواز نائباً عنه، وأنفذ أبا محمد الحسن بن مكرم إلى الفتيكين، وهو براهمرْمز، قد عاد من بين يدي عسكر صمصام الدولة إليها، يأمره بالمقام بموضعه، فلم يفعل، وعاد إلى الأهواز، فكتب إلى أبي محمد بن مكرم بالنظر في الأعمال، وسار بعدهم بهاء الدولة نحو خوزستان، فكتبه العلاء، وسلك طريق اللين والخداع.

ثم سار على نهر المِسْرَقان إلى أن حصل بخان طوق، ووقعت الحرب بينه (١١٣/٩) وبين أبي محمد بن مكرم والفتيكين، وزحف الديلم بين البساتين، حتّى دخلوا البلد، وانزاح عنه ابن مكرم والفتيكين، وكتبوا إلى بهاء الدولة يشيران عليه بالعبور إليها، فتوقف عن ذلك ووعدهما به، وسير إليهما ثمانين غلاماً من الأتراك، فعبروا وحملوا على الديلم من خلفهم، فسأفرج لهم الديلم، فلمّا توسّطوا بينهم أطبقوا عليهم فقتلوه.

فلما عرف بهاء الدولة ذلك ضعفت نفسه، وعزم على العود، ولم يُظهر ذلك، فأمر بإسراج الخيل وحمل السلاح، ففعل ذلك، وسار نحو الأهواز يسيراً، ثم عاد إلى البصرة فنزل بظاهرها. فلمّا عرف ابن مكرم خبر بهاء الدولة عاد إلى عسكر مكرم، وتبعهم العلاء والديلم فأجلوهم عنها، فنزلوا براملان بين عسكر مكرم وتُسْتَر، وتكرّرت الوقائع بين الفريقين مدة.

وكان بيد الأتراك، أصحاب بهاء الدولة، من تُسْتَر إلى رامهرْمز، ومع الديلم منها إلى أَرْجان، وأقاموا ستّة أشهر، ثم رجعوا إلى الأهواز، ثم عبر بهم النهر إلى الديلم، واقتلوا نحو شهرين، ثم رحل الأتراك وتبعهم العلاء، فوجدهم قد سلكوا طريق واسط، فكفّ عنهم، وأقام بعسكر مكرم.

وجودة رأي، وكرماً، عالماً بأنواع العلوم، عارفاً بالكتابة وموادّها، ورسائله مشهورة مدوّنة، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره، حتّى إنّه كان يحتاج في نقلها إلى أربع مائة جمل.

ولما مات وزر بعده لفخر الدولة أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضيّبي الملقب بالكافي.

ولما حضره الموت قال لفخر الدولة: قد خدمتك خدمة استغرقت فيها وسعي، وميَّرتُ سيرةً جلبت لك حسن الذكر، فإن أجريت الأمور على ما كانت عليه نسب ذلك الجميل إليك وتركته أنا، وإن عدلت عنه كنت أنا المشكور ونُسبت الطريقة الثانية إليك، وقدح ذلك في دولتك. فكان هذا نصحه له إلى أن مات.

فلما توفي أنفذ فخر الدولة من احتاط على ماله وداره، ونقل جميع ما فيها إليه، فقيح الله خدمة الملوك، هذا فعلهم مع من نصح لهم، فكيف مع غيره!

ونقل الصاحب بعد ذلك إلى أصبهان، وكثير ما بين فعل فخر الدولة مع ابن عبّاد وبين العزيز بالله العلويّ مع وزيره يعقوب بن كلس وقد تقدّم. (١١١/٩)

وكان الصاحب بن عبّاد قد أحسن إلى القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي، وقدمه، وولاه قضاء الريّ وأعمالها، فلما توفي قال عبد الجبار: لا أرى الترحم عليه، لأنّه مات عن غير توبة ظهرت منه، فنسب عبد الجبار إلى قلة الوفاء.

ثم إن فخر الدولة قبض على عبد الجبار وصادره، فباع في جملة ما باع ألف طيلسان، وألف ثوب صوف رفيع، فلم لا نظر لنفسه، وتاب عن أخذ مثل هذا وأدخاره من غير حله؟

ثم إن فخر الدولة قبض على أصحاب ابن عبّاد وأبطل كلّ مسامحة كانت منه، وقرّر هو ووزراؤه المصادرات في البلاد، فاجتمع له منها شيء كثير، ثم تمزّق بعد وفاته في أقرب مدّة، وحصل بالوزر وسوء الذكر.

ذكر إيقاع صمصام الدولة بالأتراك

في هذه السنة أمر صمصام الدولة بقتل من بفارس من الأتراك، فقتل منهم جماعة، وهرب الباقون فعاثوا في البلاد، وانصرفوا إلى كرمان، ثم منها إلى بلاد السند، واستأذنوا ملكها في دخول بلاده، فأذن لهم وخرج إلى تلقّهم ووافق أصحابه على الإيقاع بهم، فلمّا رأهم جعل أصحابه صفين، فلما حصل الأتراك في وسطهم أطبقوا عليهم وقتلوه فلم يفلت منهم إلّا نفر جرحى وقعوا بين القتلى وهربوا تحت الليل. (١١٢/٩)

ذكر حادثة غريبة بالأندلس

في هذه السنة سَير المنصور محمد بن أبي عامر، أمير الأندلس لهشام المؤيد، عسكرياً إلى بلاد الفرنج للغزاة، قتالوا منهم وغنموا، وأوغلوا في ديارهم، وأسروا غرسية، وهو ملك للفرنج ابن ملك من ملوكهم يقال له شانجة، وكان من أعظم ملوكهم وأمنهم، وكان من القدر أن شاعراً للمنصور، يقال له (١١٤/٩) أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي، قد قصده من بلاد الموصل، وأقام عنده، وامتدحه قبل هذا التاريخ، فلما كان الآن أهدى أبو العلاء إلى المنصور آيلاً، وكتب معه أبياتاً منها:

يا جِرْزُ كُلِّ مُخَوِّفٍ، وَأَمَانُ كُلِّ مُثَرِّدٍ، وَمِعْزُ كُلِّ مُثَلِّلٍ
جِدْواكَ إِن تَخْصُصَ بِهِ فَلَاحِلِي وَتَعَمَّ بِالْإِحْسَانِ كُلِّ مُؤَسِّلٍ
يقول فيها:

مولاي مؤنس غرسي، مُخْظَنِي من ظَفَرِ آيَامِي، مَنَعَ مَقْلِي
عَبْدُ رَفَعَتْ بَضْبِهِ، وَغَرَسَتْ فِي حِلْيَةِ لِسَانِي إِلَيْكَ بَلِيلِ
سَمِيَّةَ غَرَسِيَّةَ، وَيَعْتَشُهُ فِي حِلْيَةِ لِسَانِي فِيهِ تَقَالِي
فَلَسَنَ قَبْلَتْ، فَتَلَكُ اسْمِي نَعْمَةً اسْتَيْ بِهَا ذُو نَعْمَةٍ وَتَطْلُو
فَسَمِيَّ هَذَا الشَّاعِرِ الْأَيْلِ غَرَسِيَّةَ تَقَالُؤاً بِأَسْرِ ذَلِكَ غَرَسِيَّةَ
فَكَانَ أَسْرُهُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَهْدَى فِيهِ الْأَيْلَ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْإِتِّفَاقِ
مَا أَعْجَبَهُ. (١١٥/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ورد الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الأبرقوهي من البطيحة إلى بهاء الدولة، بعد عوده من خوزستان، وكان قد التجأ إلى مهذب الدولة، فأرسل بهاء الدولة يطلبه ليستوزره، فحضر عنده، فلم يتم له ذلك فعاد إلى البطيحة، وكان الفاضل، وزير بهاء الدولة، معه بواسطة، فلما علم الحال استأذن في الإصعاد إلى بغداد، فأذن له فأصعد، فعاد بهاء الدولة وطلبه ليرجع إليه، فغالبه ولم يُعَد.

وفي هذه السنة، في ذي الحجة، توفي أبو حفص عمر بن أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن شاهين الواعظ، مولده في صفر سنة سبع وتسعين ومائتين، وكان مكثرًا من الحديث ثقة.

وفيهما، في ذي القعدة، توفي الإمام أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي المعروف بالدارقطني الإمام المشهور.

وفيهما، في ربيع الأول، توفي محمد بن عبد الله بن مكرمة الهاشمي من ولد علي بن المهدي بالله، وكان منحرفاً عن علي بن أبي طالب، عليه السلام، وكان خبيث اللسان يتقن سفهه، ومن جيد شعره:

فِي وَجْهِهِ إِنْسَانَةٌ كَلَّفَتْ بِهَا أَرْبَعَةً مَا اجْتَنَبْنَ فِي أَحَدٍ

الوجهُ بَدَنٌ، وَالصُّلْبُ غَالِيَةٌ وَالرِّيقُ خَمَرٌ، وَالنَّفْسُ مِنْ بَرْدٍ
وفيهما توفي يوسف بن عمر بن مشرّوق، أبو الفتح القواس، الزاهد، في ربيع الأول، وله خمس وخمسون سنة. (١١٦/٩)

سنة ست وثمانين وثلاثمائة

ذكر وفاة العزيز بالله وولاية ابنه الحاكم وما كان من الحروب إلى أن استقر أمره

في هذه السنة توفي العزيز أبو منصور يزار بن المعز أبي تميم معد العلوي، صاحب مصر لليلتين بقيتا من رمضان، وعمره اثنان وأربعون سنة وثمانية أشهر ونصف، بمدينة بلّيس، وكان برز إليها لغزو الروم، فلحقه عدة أمراض منها النقرس والحصى والقولنج، فانصَلَّتْ به إلى أن مات.

وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، ومولده بالمهدية من إفريقية.

وكان أسمر طويلاً، أصهب الشعر، عريض المنكبين، عارفاً بالخيل والجوهر، قيل إنه ولّى عيسى بن نسطورس النصراني كاتبه، واستتاب بالشام يهودياً اسمه منشا، فاعتز بهما النصراني واليهود، وأدوا المسلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا قصّة وجعلوها في يد صورة عملوها من قراطيس، فيها: بالذي أعزّ اليهود بمنشا والنصارى يعيسى بن نسطورس، وأذلّ المسلمين بك الأ كشف ظلماتي، وأفعدوا تلك الصورة على طريق العزيز، والرقعة بيدها، فلما رآها أمر بأخذها، فلما قرأ ما فيها، ورأى الصورة من قراطيس، (١١٧/٩) علم ما أريد بذلك، فقبض عليهما، وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليهودي شيئاً كثيراً.

وكان يحبّ العفو ويستعمله، فمن حلمه أنه كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقي، وكان كثير الهجاء، فهجا يعقوب بن كلس، وزير العزيز، وكاتب الإنشاء من جهته أبا نصر عبد الله بن الحسين القيرواني، فقال:

قُلْ لِأَبِي نَصْرٍ صَاحِبِ الْقَصْرِ وَالْمُسَلَّاتِي لَنَقُصَّ ذَا الْأَمْرِ
اَقْضِ عُرَى الْمُلْكِ لِلْوَزِيرِ تَمَزَّ مِنْهُ بِخُسْنِ النَّشَاءِ وَالذِّكْرِ
وَأَعْطِ، وَامْنَعْ، وَلَا تَخَفْ أَحَدًا فَصَاحِبُ الْقَصْرِ لَيْسَ فِي الْقَصْرِ
وَلَيْسَ يَدْرِي مَاذَا يَرَادُ بِهِ وَهُوَ إِذَا مَا دَرَى، فَمَا يَدْرِي

فشكاها ابن كلس إلى العزيز، وأنشده الشعر، فقال له: هذا شيء اشرتكتنا فيه في الهجاء فشاركني في العفو عنه، ثم قال هذا الشاعر أيضاً وعرض بالفضل القائد:

تَصَنَّرَ، فَالْتَصَّرَ دِينَ حَقٍّ عَلَيْهِ زَمَانَتَا هَذَا يَسْدُ
وَقُلْ بِلَاثَةِ عَزَّوَا وَجَلُّوا وَعَطَّلْ مَا سَوَاهِمَ فَهَرَّ عَطَّلْ

فيغيب الوزير أب، وهذا العزيز ابن، وروح القدس فضل فشكاه أيضاً إلى العزيز، فامتعض منه إلا أنه قال: اعف عنه؛ فعفا عنه. ثم دخل الوزير على العزيز، فقال: لم يبق للعفو عن هذا معني، وفيه غض (١١٨/٩) من السياسة، ونقض لهية الملك، فإنه قد ذكرك وذكر ابن زيارج نديمك، وسبك بقوله:

زيسارجي نديم وكلسي وزير نعم على قدر الكلب يصلح الساجور فغضب العزيز، وأمر بالقبض عليه، فقبض عليه لوقته، ثم بدا للعزيز إطلاقه، فأرسل إليه يستدعيه، وكان للوزير عين في القصر، فأخبره بذلك، فأمر بقتله فقتل.

فلما وصل رسول العزيز في طلبه أراه رأسه مقطوعاً، فعاد إليه فأخبره، فاغتم له.

ولما مات العزيز ولي بعده ابنه أبو علي المنصور، ولقب الحاكم بأمر الله، بعهد من أبيه، فولّي وعمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر، وأوصى العزيز إلى أرجوان الخادم، وكان يتولّى أمر داره، وجعله مدير دولة ابنه الحاكم، فقام بأمره، وباع له، وأخذ له البيعة على الناس، وتقدّم الحسن بن عمار، شيخ كتامة وسيدّها، وحكم في دولته، واستولى عليها، وتلقّب بأمين الدولة، وهو أوّل من تلقّب في دولة العلويين المصريين، فأشار عليه ثقافته بقتل الحاكم، وقالوا: لا حاجة [بنا] إلى من يتعبنا؛ فلم يفعل احتقاراً له، واستصغاراً لسنة.

وانسبط كتامة في البلاد، وحكموا فيها، وسلّوا أيديهم إلى أموال الرعية وحرّيمهم، وأرجوان مقيم مع الحاكم في القصر يحرسه، واتّفق معه شكر خادم عضد الدولة، وقد ذكرنا قبض شرف الدولة عليه ومسيره إلى مصر، فلما (١١٩/٩) اتّفقا، وصارت كلمتهما واحدة، كتب أرجوان إلى منجوتكين يشكو ما يتمّ عليه من ابن عمار، فتجهّز وسار من دمشق نحو مصر، فوصل الخبر إلى ابن عمار، فأظهر أن منجوتكين قد عصى على الحاكم، وندب العساكر إلى قتاله، وسير إليه جيشاً كثيراً، وجعل عليهم أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي، فساروا إليه، فلقوه بفسقلان، فانهزم منجوتكين وأصحابه، وقتل منهم ألفا رجلاً، وأسر منجوتكين وحمل إلى مصر، فابقى عليه ابن عمار، وأطلقه استمالاً للمشاركة بذلك.

واستعمل ابن عمار على الشام أبا تميم الكتامي، واسمه سليمان بن جعفر، فسار إلى طبرية، فاستعمل على دمشق أخاه عليّاً، فامتنع أهلها عليه، فكاتبهم أبو تميم يتهذّم فخافوا وأذعنوا بالطاعة، واعتذروا من فعل سفهائهم، وخرجوا إلى علي فلم يعبا بهم وركب ودخل البلد فأحرق وقتل وعاد إلى معسكره.

وقدم عليهم أبو تميم فأحسن إليهم وأمنهم، وأطلق المحبّسين، ونظر في أمر الساحل، واستعمل أخاه عليّاً على طرابلس، وعزل عنها جيش بن الصمصامة الكتامي، فمضى إلى مصر، واجتمع أرجوان على الحسن بن عمار، فانهز أرجوان الفرصة ببعد كتامة عن مصر مع أبي تميم، فوضع المشاركة على الفتك بمن بقي بمصر منهم، وبابن عمار معهم.

فبلغ ذلك ابن عمار، فعمل على الإيقاع بأرجوان وشكر العضدي، فأخبرهما عيون لهما على ابن عمار بذلك، فاحتاطا ودخلا قصر الحاكم باكين، وثارت الفتنة، واجتمعت المشاركة، ففرّق فيهم المال، وواقعوا ابن عمار (١٢٠/٩) ومن معه، فانهزم واختفى.

فلما ظفر أرجوان أظهر الحاكم، وأجلسه، وجدّد له البيعة، وكتب إلى وجوه القواد والناس بدمشق بالإيقاع بأبي تميم، فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنه، فخرج هارباً، وقتلوا من كان عنده من كتامة، وعادت الفتنة بدمشق، واستولى الأحداث.

ثم إن أرجوان أذن للحسن بن عمار في الخروج من استتاره، وأجراه على إقطاعه، وأمره بإغلاق بابيه.

وعصى أهل صور، وأمروا عليهم رجلاً ملاحاً يعرف بعلاقة، وعصى أيضاً المفرج بن دغفل بن الجراح، ونزل على الرملة وعاث في البلاد.

واتّفق أن الدوقس، صاحب الروم، نزل على حصن أفامية، فأخرج أرجوان جيش بن الصمصامة في عسكر ضخم، فسار حتى نزل بالرملة، فأطاعه واليها، وظفر فيها بأبي تميم فقبض عليه، وسير عسكراً إلى صور، وعليهم أبو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان، ففزاها برأً وبحراً. فأرسل علاقة إلى ملك الروم يستنجد، فسير إليه عدّة مراكب مشحونة بالرجال، فالتقوا بمراكب المسلمين على صور، فاقتتلوا، وظفر المسلمون، وانهزم الروم، وقتل منهم جمع، فلما انهزموا اتخذ أهل صور، وضعفت نفوسهم، فملك البلد أبو عبد الله بن حمدان، ونهبه، وأخذت الأموال، وقتل كثير من جنده، وكان أوّل فتح على يد أرجوان، وأخذ علاقة أسيراً فسيره إلى مصر، (١٢١/٩) فسُلخ وصُلّب بها؛ وأقام بصور، وسار جيش بن الصمصامة لقصد المفرج ابن دغفل، فهرب من بين يديه، وأرسل يطلب العقو فأمته.

وسار جيش أيضاً إلى عسكر الروم، فلما وصل إلى دمشق تلقّاه أهلها مذعنين، فأحسن إلى رؤساء الأحداث، وأطلق المؤمن، وأباح دم كل مغربي يتعرّض لأهلها، فاطمأنوا إليه.

وسار إلى أفامية، فصاف الروم عندها، فانهزم هو وأصحابه، ما

الحسني، أمير مكة، وخطابه بأمر المؤمنين، وطلباه إليهما ليبيعا له الخلافة، فحضر، واستتاب بمكة، وخطب بالخلافة.

ثم إن الحاكم راسل حسناً وأباه، وضمن لهما الأقطاع الكثيرة والعطاء الجزيل، واستمالهما، فعدلا عن أبي الفتح، ورداه إلى مكة، وعادا إلى طاعة الحاكم.

ثم إن الحاكم جهّز عسكراً إلى الشام، واستعمل عليهم علي بن جعفر بن فلاح، فلما وصل إلى الرملة أراح حسناً بن المفرج وعشيرته عن تلك الأرض، وأخذ ما كان له من الحصون بجبل الشراة، واستولى على أمواله وذخائره، وسار إلى دمشق والياً عليها، فوصل إليها في شوال سنة تسعين وثلاثمائة.

وأما حسان فإنه بقي شريداً نحو ستين، ثم أرسل والده إلى الحاكم فائتاه وأقطعه، فسار حسناً إليه بمصر، فأكرمه وأحسن إليه؛ وكان المفرج والد حسناً قد توفي مسموماً، وضع الحاكم عليه من سمّه، فبموته ضَعُفَ أمر حسناً على ما ذكرناه.

ذكر استيلاء عسكر صمصام الدولة على البصرة

في هذه السنة سار قائد كبير من قواد صمصام الدولة، اسمه لشكرستان، إلى البصرة، فأجلى عنها نواب بهاء الدولة. (١٢٤/٩)

وسبب ذلك أن الأتراك لما عادوا عن العلاء، كما ذكرناه، كان لشكرستان هذا مع العلاء، فاتاهم من الديلم الذين مع بهاء الدولة أربعمائة رجل مستأمنين، فأخذهم لشكرستان، وسار بهم وبمن معه إلى البصرة، فكثر جمعه، فنزلوا قرب البصرة بين البساتين يقسالون أصحاب بهاء الدولة، ومال إليهم بعض أهل البصرة، ومقدمهم أبو الحسن بن أبي جعفر العلوي، وكانوا يحملون إليهم الميرة.

وعلم بهاء الدولة بذلك، فأنفذ من يقبض عليهم، فهرب كثير منهم إلى لشكرستان، فقوي بهم، وجمعوا السفن وحملوه فيها، ونزلوا إلى البصرة، فقاتلوا أصحاب بهاء الدولة بها، وأخرجوهم عنها، وملك لشكرستان البصرة، وقتل من أهلها كثيراً، وهرب كثير منهم، وأخذ كثيراً من أموالهم.

فكتب بهاء الدولة إلى مهذب الدولة، صاحب البطيحة، يقول: أنت أحقّ بالبصرة، فسير إليها جيشاً مع عبد الله بن مرزوق، فأجلى لشكرستان عن البصرة، فقتل: إتماً قارقها بعد أن حارب فيها، وضعف عن المقام بين يديه. وصفت البصرة لمهذب الدولة.

ثم إن لشكرستان عمل على العود إلى البصرة، فهجم عليها في السفن، ونزل أصحابه بسوق الطعام، واقتلوا، فاستظهر لشكرستان، وكتب بهاء الدولة يطلب المصالحة، ويبدل الطاعة، ويخطب له بالبصرة، فأجابه مهذب الدولة إلى ذلك، وأخذ ابنه

عدا بشارة الإخشيد، فإنه ثبت في خمسمائة فارس. ونزل الروم إلى سواد المسلمين يغتمون ما فيه، والدوقس واقف على رايته، وبين يديه ولده وعدة غلمان، فقصده كردي يعرف بأحمد بن الضحاك، من أصحاب بشارة، ومعه خشت، فظنه الدوقس مستأناً، فلم يحترز منه، فلما دنا منه حمل عليه وضربه بالخشت فقتله، فصاح المسلمون: قُتل عدو الله! وعادوا ونزل النصر عليهم، فانهزمت الروم وقُتل منهم مقتلة عظيمة.

وسار جيش إلى باب أنطاكية يغتم ويسبي ويُحرق، وعاد إلى دمشق فنزل بظاهرها، وكان الزمان شتاء، فسأله أهل دمشق ليدخل البلد، فلم يفعل، ونزل بيت لهيأ، وأحسن السيرة في أهل دمشق، واستخص رؤساء الأحداث، واستحجب جماعة منهم، وجعل يسطر الطعام كل يوم لهم ولمن يجيء معهم من أصحابهم، فكان يحضر كل إنسان منهم في جمع من أصحابه وأشياعه، وأمرهم إذا فرغوا من الطعام أن يحضروا إلى حجرة له يغسلون أيديهم فيها، فغير ذلك على برهة من الزمان، فأمر رؤساء أن الأحداث، إذا دخلوا لغسل أيديهم، أن يغلّقوا باب الحجرة عليهم، ويضعوا السيف في أصحابهم، فلما كان الغد حضروا الطعام، وقام الرؤساء إلى الحجرة، (١٢٢/٩) فأغلقت الأبواب عليهم، وقتل من أصحابهم نحو ثلاثة آلاف رجل، ودخل دمشق فطافها، فاستغاث الناس وسألوه العفو، وأحضر أشراف أهلها، وقتل رؤساء الأحداث بين أيديهم، وسير الأشراف إلى مصر، وأخذ أموالهم ونعمهم، ثم مرض بالبواسير وشدة الضربان فمات.

وولي بعده ابنه محمد، وكانت ولايته هذه تسعة أشهر. ثم إن أرجوان بعد هذه الحادثة راسل بسيل ملك الروم، وهادنه عشر سنين، واستقامت الأمور على يد أرجوان. وسير أيضاً جيشاً إلى بركة، وطرابلس الغرب، ففتحها، واستعمل عليها أنساً الصقلي ونصح الحاكم، وبالف في ذلك، ولزم خدمته، فثقل مكانه على الحاكم، فقتله سنة تسع ثمانين [وثلاثمائة].

وكان حصياً أبيض، وكان لأرجوان وزير نصراني اسمه فهد بن إبراهيم، فاستورزه الحاكم، ثم إن الحاكم رتب الحسين بن جوهر موضع أرجوان، ولقبه قائد القواد ثم قتل الحسين بن عمار، المقدم ذكره، ثم قتل الحسين بن جوهر، ولم يزل يقيم الوزير بعد الوزير ويقتلهم. ثم جهّز بارختكين للمسير إلى حلب، وحصرها، وسير معه العساكر الكثيرة، فسار عنها، فخافه حسناً بن المفرج الطائي، فلما رحل من غزة إلى عسقلان كمن له حسناً ووالده، وأوقعاه به وبمن معه، وأسراه وقتلاه، وقتل من الفريقين قتلى كثيرة، وحصرها الرملة، ونهاها النواحي، وكثر جمعها، وملكها الرملة (١٢٣/٩) وما والاها، فغظم ذلك على الحاكم، وأرسل يعاتبهما، وسبق السيف العذل، فأرسل إلى الشريف أبي الفتح الحسن بن جعفر العلوي

رهينة.

الحماية، ويخطب لأبي جعفر بعد بهاء الدولة، وأن يخلع على المقلّد الخلع السلطانيّة، ويلقب بحسام الدولة، ويقطع الموصل، والكوفة، والقصر، والجامعين، واستقرّ الأمر على ذلك، وجلس القادر بالله له.

ولم يف المقلّد من ذلك بشيء إلاّ بحمل المال، واستولى على البلاد، ومدّ يده في المال، وقصده المتصرفون والأمائل، وعظم قدره، وقبض أبو جعفر (١٢٧/٩) على أبي عليّ، ثم هرب أبو عليّ، نائب بهاء الدولة، واستتر وسار إلى البطيحة مستتراً، ملتحجاً إلى مهذب الدولة.

ذكر وفاة المنصور بن يوسف وولاية ابنه باديس

في هذه السنة توفي المنصور بن يوسف بلكين أمير إفريقية، أوائل ربيع الأول، خارج صبرة، ودفن بقصره.

وكان ملكاً كريماً، شجاعاً، حازماً، ولم يزل مظفراً منصوراً، حسن السيرة، محباً للعدل والرّعيّة، أوسعهم عدلاً، وأسقط البقايا عن أهل إفريقية، وكانت مالاً جليلاً.

ولما توفي وليّ بعده ابنه باديس، وتكنّى أبا مناد، فلمّا استقرّ في الأمر سار إلى سُرْدَانِيّة، وأتاه الناس من كلّ ناحية للتعزية والتهنئة، وأراد بنو زيري أعمام أبيه أن يخالفوا عليه، فمنعهم أصحاب أبيه وأصحابه.

وكان مولد باديس سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، وأتته الخلع والمهد بالولاية من الحاكم بأمر الله من مصر، فقرأ العهد، وباع للحاكم هو وجماعة بني عمّه والأعيان من القوّاد.

وفيها ثار على باديس رجل صنهاجيّ اسمه خليفة بن مبارك، فأخذ وحمل إلى باديس، فأركب حماراً، وجعل خلفه رجل أسود يصغعه، وطيف به، ولم يقتل احتقاراً له وسجّج.

(١٢٨/٩) وفيها استعمل باديس عمّه حمّاد بن يوسف بلكين على أشير، وأقطعه إيّاه، وأعطاه من الخيل والسلاح والثّدّد شيئاً كثيراً، فخرج إليها، وحمّاد هذا هو جدّ بني حمّاد الذين كانوا ملوك إفريقية، والقلعة المنسوبة إليهم مشهورة بإفريقية، ومنهم أخذها عبد المؤمن بن عليّ.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبض بهاء الدولة على الفاضل وزيره، وأخذ ماله، واستوزر بهاء الدولة سايور بن أردشير، فأقام نحو شهرين، وفرق الأموال، ووقع بها للقوّاد قصداً ليضعف بهاء الدولة، ثم هرب إلى البطيحة، وبقي منصب الوزارة فارغاً، واستوزر أبو العباس بن سرجس.

وكان لشكرستان يظهر طاعة صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة، (١٢٥/٩) وعسّف أهل البصرة مدّة، فتفرّقوا، ثم إنّه أحسن إليهم وعدل فيهم، فعادوا.

ذكر ولاية المقلّد الموصل

في هذه السنة ملك المقيّد بن المسيّب مدينة الموصل.

وكان سبب ذلك أنّ أخاه أبا الذوّاد توفي هذه السنة، فطمع المقلّد في الإمارة، فلم تساعده عيّيل على ذلك، وقدّوا أخاه عليّاً لأنّه أكبر منه، فأسرع المقلّد واستمال الديلم الذين كانوا مع أبي جعفر الحجاج بالموصل، فمال إليه بعضهم، وكتب إلى بهاء الدولة يضمن منه البلد بألفي درهم كلّ سنة، ثم حضر عند أخيه عليّ، وأظهر له أنّ بهاء الدولة قد ولّاه الموصل، وسأله مُساعدته على أبي جعفر لأنّه قد منعه عنها، فساروا ونزلوا على الموصل فخرج إليهم كلّ من استماله المقلّد من الديلم، وضعف الحجاج، وطلب منهم الأمان، فأمنوه، وواعدهم يوماً يخرج إليهم فيه.

ثم أنّه انحدر في السفن قبل ذلك اليوم، فلم يشعروا به إلاّ بعد انحداره، فتيّعه، فلم ينالوا منه شيئاً، ونجا بماله منهم، وسار إلى بهاء الدولة، ودخل المقلّد البلد، واستقرّ الأمر بينه وبين أخيه على أن يخطب لهما، ويقدم عليّ لكبره، ويكون له معه نائب يجبي المال، واشتركا في البلد والولاية، وسار عليّ (١٢٩/٩) إلى البر، وأقام المقلّد وجري الأمر على ذلك مُتّيداً، ثم تشاجروا واختصموا وكان ما نذكره إن شاء الله.

وكان المقلّد يتولّى حماية غربيّ الفرات من أرض العراق، وكان له ببغداد نائب فيه تهوّر، فجرى بينه وبين أصحاب بهاء الدولة مشاجرة، فكتب إلى المقلّد يشكو، فأنحدر من الموصل في عساكره، وجري بينه وبين أصحاب بهاء الدولة حرب انهزموا فيها، وكتب إلى بهاء الدولة يعتذر، وطلب إنفاذ من يعقد عليه ضمان القصر وغيره.

وكان بهاء الدولة مشغولاً بمن يقاتله من عسكر أخيه، فاضطرّ إلى المغالطة، ومدّ المقلّد يده فأخذ الأموال، فبرز نائب بهاء الدولة ببغداد، وهو حنينيّ أبو عليّ بن إسماعيل، وخرج إلى حرب المقلّد، فبلغ الخبر إليه، فأنفذ أصحابه ليلاً، فاقتلوا، وعادوا إلى المقلّد، فلمّا بلغ الخبر إلى بهاء الدولة بمجيء أصحاب المقلّد إلى بغداد، أنفذ أبا جعفر الحجاج إلى بغداد، وأمره بمصالحة المقلّد والقبض على أبي عليّ بن إسماعيل، فسار إلى بغداد في آخر ذي الحجة، فلمّا وصل إليها راسله المقلّد في الصلح، فاصطلحا على أن يحمل إلى بهاء الدولة عشرة آلاف دينار، ولا يأخذ من البلاد إلاّ رسم

وفيه استكتب القادر بالله أبا الحسن علي بن عبد العزيز بن حاجب النعمان.

وفيه توفي أحمد بن إبراهيم بن محمد بن إسحاق أبو حامد بن أبي إسحاق المزكي، النيسابوري، في شعبان، وكان إماماً، ومولده سنة ثلاث وعشرين [وثلاثمائة].

وفيه توفي علي بن عمر بن محمد بن الحسن أبو إسحاق الحميري، المعروف بالسكري، وبالحري، وبالكيال، ومولده سنة ست وتسعين ومائتين.

وفيه توفي أبو الأغرد ديس بن عفيف الأسدي بخورستان؛ وأبو طالب محمد بن علي بن عطية المكي، صاحب [قوت القلوب]، روي أنه صنف [قوت القلوب] وكان قوته عروق البردي. (١٢٩/٩)

سنة سبع وثمانين وثلاثمائة

ذكر موت الأمير نوح بن منصور وولاية ابنه منصور

في هذه السنة توفي الأمير الرضي نوح بن منصور الساماني في رجب، واختل بموته ملك آل سامان، وضعف أمرهم ضعفاً ظاهراً، وطمع فيهم أصحاب الأطراف، فزال ملكهم بعد مدة يسيرة.

ولما توفي قام بالملك بعده ابنه أبو الحارث منصور بن نوح، وبايعه الأمراء والقبائل وسائر الناس، وفرق فيهم بقايا الأموال، فاتفقوا على طاعته. وقام بأمر دولته وتديرها بكتوزون. ولما بلغ خبر موته إلى ابلك خان سار إلى سمرقند، وانضم إليه فائق الخاصة، فسيره جريدة إلى بخارى، فلما سمع بمسيره الأمير منصور تحير في أمره، وأعجله عن التجهز، فسار عن بخارى، وقطع النهر، ودخل فائق بخارى، وأظهر أنه إنما قصد المقام بخدمة الأمير منصور، رعاية لحق أسلافه عليه، إذ هو مولاهم، وأرسل إليه مشايخ بخارى ومقدمهم في العود إلى بلده وملكه، وأعطاه من نفسه ما يطمئن إليه من العهود والمواثيق، فعاد إليها ودخلها وولي فائق أمره وحكم في دولته، وولي بكتوزون إمرة الجيوش بخراسان.

وكان محمود بن سبكتكين حيثن مشغولاً بمحاربة أخيه إسماعيل، وعلى (١٣٠/٩) ما نذكره إن شاء الله تعالى، وسار بكتوزون إلى خراسان فوليها، واستقرت القواعد بها.

ذكر موت سبكتكين وملك ولده إسماعيل

وفي هذه السنة توفي ناصر الدولة سبكتكين في شعبان، وكان مقامه ببلخ، وقد ابنتى بها دوراً ومساكن، فمرض، وطال مرضه،

وكان عادلاً، خيراً، كثير الجهاد، حسن الاعتقاد، ذا مروءة تامة، وحسن عهد ووفاء، لا جرم بارك الله في بيته، ودام ملكهم مدة طويلة جازت مدة ملك السامانية والسلجوقية وغيرهم.

وكان ابنه محمود أول من لقب بالسلطان، ولم يلقب به أحد قبله.

ولما حضرته الوفاة عهد إلى ولده إسماعيل بالملك بعده، فلما مات بايع الجند لإسماعيل، وحلفوا له، وأطلق لهم الأموال، وكان أصغر من أخيه محمود، فاستضعفه الجند، فاشتطوا في الطلب حتى أفنى الخزائن التي خلفها أبوه.

ذكر استيلاء أخيه محمود بن سبكتكين على الملك

لما توفي سبكتكين، وبلغ الخبر إلى ولده يمين الدولة محمود بنيسابور، وجلس للعزاء، ثم أرسل إلى أخيه إسماعيل يعزبه بأبيه، ويعرفه أن أباه إنما (١٣١/٩) عهد إليه بعده عنه، ويذكره ما يتعين من تقديم الكبير، ويطلب منه الوفاق، وإنفاذ ما يخصه من تركه أبيه. فلم يفعل، وترددت الرسل بينهما فلم تستقر القاعدة. فسار محمود عن نيسابور إلى هراة عازماً على قصد أخيه بغزنة، واجتمع بعمره بغراجق بهراة، فساعدته على أخيه إسماعيل، وسار نحو بستان، وبها أخوه نصر، فقبه وأعانه وسار معه إلى غزنة.

وبلغ الخبر إلى إسماعيل، وهو ببلخ، فسار عنها مجذاً، فسبق أخاه محموداً إليها؛ وكان الأمراء الذين مع إسماعيل كاتبوا أخاه محموداً يستدعونه، ووعدوه الميل إليه، فجذب في المسير، والتقى هو وإسماعيل بظاهر غزنة، واقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم إسماعيل وصعد إلى قلعة غزنة فاعتصم بها، فحصره أخوه محمود واستنزله بآمان. فلما نزل إليه أكرمه، وأحسن إليه، وأعلى منزلته، وشركه في ملكه وعاد إلى بلخ واستقامت الممالك له.

وكانت مدة ملك إسماعيل سبعة أشهر، وهو فاضل، حسن المعرفة، له نظم ونثر، وخطب في بعض الجُمُعات، فكان يقول بعد الخطبة للخليفة: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَالْحَقَّيْنِ بِالصَّالِحِينَ» [يوسف: ١٠١].

ذكر وفاة فخر الدولة بن بويه وملك ابنه مجد الدولة

في هذه السنة توفي فخر الدولة أبو الحسن علي بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه بقلعة طبرق، في شعبان. (١٣٢/٩) وكان سبب ذلك أنه أكل لحماً مشوياً، وأكل بعده عنباً، فآخذه

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من الاختلاف الواقع بين أصحابهما بالموصل، واشتغل المقلد بما ذكرناه بالعراق، فلما خلا وعاد إلى الموصل عزم (١٣٤/٩) على الانتقام من أصحاب أخيه، ثم خافه، فأعمل الحيلة في قبض أخيه، فأحضر عسكره من الديلم والأكراد وأعلمهم أنه يريد قصد دقوقا، وحلفهم على الطاعة، وكانت داره ملاصقة دار أخيه، فتقب في الحائط ودخل إليه وهو سكران، فأخذه وأدخله الخزانة، وقبض عليه، وأرسل إلى زوجته يأمرها بأخذ ولديها قرواش ويدران والحقا بتكرت، قبل أن يسمع أخوه الحسن الخبر، ففعلت ذلك، وخلصت، وكانت في الحلة التي له على أربعة فراسخ من تكريت.

وسمع الحسن الخبر فبادر إلى الحلة ليقبض أولاد أخيه، فلم يجدهم؛ وأقام المقلد بالموصل يستدعي رؤساء العرب ويخلع عليهم، فاجتمع عنده زهاء ألفي فارس، وسار الحسن في حبل أخيه، ومعه أولاد أخيه علي وحرمه، ويستنفرهم على المقلد، فاجتمع معه نحو عشرة آلاف، وراسل المقلد يؤذنه بالحرب، فسار عن الموصل، وبقي بينهم منزل واحد، ونزل بإزاء العلك، فحضره وجوه العرب، واختلوا عليه، فغنم من أثار بالحرب ومنهم رافع بن محمد بن مقن؛ ومنهم من أثار بالكف عن القتال، وصلة الرحم، ومنهم غريب بن محمد بن مقن، وتنازع هو وأخوه.

فبينما هم في ذلك قيل لمقلد: إن أختك رهيلة بنست المسيب تريد لقامك وقد جاءتك؛ فركب وخرج إليها، فلم تزل معه حتى أطلق أخاه علياً، ورد إليه ماله ومثله معه، وأنزله في خيم ضربها له. فسر الناس بذلك، وتحالفوا، وعاد إلى حلته.

وعاد المقلد إلى الموصل، وتجهز للمسير إلى أبي الحسن علي بن مزيد الأسدي لأنه تعصب لأخيه علي، وقصد ولاية المقلد بالأذى فسار إليه. (١٣٥/٩)

ولما خرج علي من محبسه اجتمع العرب إليه، وأشاروا عليه بقصد أخيه المقلد، فسار إلى الموصل، وبها أصحاب المقلد، فامتنعوا عليه، فافتتحها، فسمع المقلد بذلك، فعاد إليه، واجتاز في طريقه بحلة أخيه الحسن، فخرج إليه، فرأى كثرة عسكره، فخاف على أخيه علي منه، فأشار عليه بالوقوف ليصلح الأمر، وسار إلى أخيه علي وقال له: إن الأعور، يعني المقلد، قد أتاك بحدّه وحديده وأنت غافل؛ وأمره بإفساد عسكر المقلد، فكتب إليهم، فظفر المقلد بالكتب فأخذها وسار مجدداً إلى الموصل، فخرج إليه أخوه علي والحسن وصالحاه، ودخل الموصل وهما معه.

ثم خاف علي فهرب من الموصل ليلاً، وتبعه الحسن، وتردّت الرسل بينهم، فاصطلحوا على أن يدخل أحدهما البلد في غيبة الآخر، ويقوا كذلك إلى سنة تسع وثمانين [وثلاثمائة].

المغص، ثم اشتد مرضه فمات منه. فلما مات كانت مفاتيح الخزائن بالرّي عند أم ولده مجد الدولة، فطلبوا له كفنًا فلم يجده، وتعذر النزول إلى البلد لشدة شغب الديلم، فاشترى له من قيم الجامع ثوباً كنفوه فيه، وزاد شغب الجند فلم يمكنهم من دفنه فبقي حتى أتت ثم دفنوه.

وحين توفي قام بملكه بعده ولده مجد الدولة أبو طالب رستم، وعمره أربع سنين، أجلسه الأمراء في الملك، وجعلوا أخاه شمس الدولة بهمدان وقرميسين إلى حدود العراق. وكان المرجع إلى والدته أبي طالب في تدبير الملك، وعن رأيها يصدرن، وبين يديها، في مباشرة الأعمال، أبوطاهر صاحب فخر الدولة، وأبو العباس الضبي الكافي.

ذكر وفاة مأمون بن محمد وولاية ابنه علي

وفيها توفي مأمون بن محمد، صاحب خوارزم والجرجانية، فلما توفي اجتمع أصحابه على ولده علي وبايعوه، واستقر له ما كان لأبيه، وراسل يمين الدولة محمود بن سبكتكين، وخطب إلى أخته، فزوجها، واتفقت كلمتهما وصارا يداً واحدة إلى أن مات علي وقام بعده أخوه أبو العباس مأمون بن مأمون، واستقر في الملك، فأرسل إلى يمين الدولة يخطب أخته أيضاً فأجابته إلى ذلك، وزوجه، فداما أيضاً على الاتفاق والاتحاد مدة.

وسيرد من أخباره معه سنة سبع وأربعمئة إن شاء الله تعالى ما نتف عليه. (١٣٣/٩)

ذكر وفاة العلاء بن الحسن وما كان بعده

في هذه السنة توفي أبو القاسم العلاء بن الحسن نائب صمصام الدولة بخوزستان، وكان موته بعسكر مكرم، وكان شهماً، شجاعاً، حسن التدبير، فأنفذ صمصام الدولة أبا علي بن أستاذ فرمز، ومعه المال، ففرقه في الديلم، وسار إلى جند نيسابور فدفع أصحاب بهاء الدولة عنها، وجرت له معهم وقائع كثيرة كان الظفر فيها له، وأزاح الأتراك عن خوزستان، وعادوا إلى واسط، وخلت لأبي علي البلاد، ورتب العمال، وجبى الأموال، وكتب أترك بهاء الدولة واستمالهم، فأنه بعضهم فأحسن إليهم، واستمر حال أبي علي في أعمال خوزستان.

ثم إن أبا محمد بن مكرم والأتراك عادوا من واسط، واستعد أبو علي للحرب، وجرى بينهم وقائع. ولم يكن للأتراك قوة على الديلم، فغزموا على العود إلى واسط ثانياً، فاتفق مسير بهاء الدولة من البصرة إلى القنطرة البيضاء، وكان ما نذكره إن شاء الله.

ذكر القبض على علي بن المسيب وما كان بعد ذلك

في هذه السنة قبض المقلد على أخيه علي.

ومات عليّ سنة تسعين [وثلاثمائة] وأقام الحسن مقامه، فقصدته والمقلّد ومعه بنو خفاجة، فهرب الحسن إلى العراق، وتبعه المقلّد فلم يدركه فعاد.

وفيها، تاسع ذي الحجة، توفي الحسن بن عبد الله بن سعيد أبو أحمد العسكري، الراوية، العلامة، صاحب التصانيف الكثيرة في الأدب، واللغة، والأمثال، وغيرها. (١٣٨/٩)

سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة

ذكر عود أبي القاسم السيمجوري إلى نيسابور

قد ذكرنا مسير أبي القاسم بن سيمجور أخيه أبي عليّ إلى جرجان ومقامه بها. فلما مات فخر الدولة أقام عند ولده مجد الدولة، واجتمع عنده جماعة كثيرة من أصحاب أخيه. وكان قد أرسل إلى شمس المعالي يستدعيه من نيسابور ليسلمها إليه، فزار إليه حتى وافى جرجان، فلما بلغها رأى أبا القاسم قد سار عنها، فعاد شمس المعالي إلى نيسابور.

فكتب فائق من بخارى إلى أبا القاسم يخبره بكتوزون، ويأمره بقصد خراسان، وإخراج بكتوزون عنها لعداوة بينهما. فزار أبو القاسم عن جرجان نحو نيسابور، وسير سرية إلى أسفرايين، وبها عسكر لبكتوزون، فقاتلوه وأجلوه عن أسفرايين، واستولى أصحاب أبي القاسم عليها، وزار أبو القاسم إلى نيسابور، فالتقى هو وبكتوزون بظاهرها في ربيع الأول، واقتلوا، واشتد القتال بينهم فانهزم أبو القاسم وقتل من أصحابه وأسر خلق كثير.

وزار أبو القاسم إلى قهستان وأقام بها حتى اجتمع إليه أصحابه، وزار إلى بوشنج واحتوى عليها، وتصرفت فيها، فزار إليه بكتوزون، وتردّت الرسل بينهما، حتى اصطلحا وتصاهرا، وعاد بكتوزون إلى نيسابور. (١٣٩/٩)

ذكر استيلاء محمود بن سبكتكين على نيسابور وعوده عنها

لما فرغ محمود من أمر أخيه، وملك غزنة، وعاد إلى بلخ رأى بكتوزون قد ولي خراسان، على ما ذكرناه، فأرسل إلى الأمير منصور بن نوح يذكر طاعته والمحاماة عن دولته، ويطلب خراسان، فأعاد الجواب يعتذر عن خراسان ويأمره بأخذ ترمذ وبلخ وما وراءها من أعمال بشت وهراة، فلم يقطع بذلك، وأعاد الطلب، فلم يجبه إلى ذلك، فلما تيقن المنع سار إلى نيسابور، وبها بكتوزون، فلما بلغه خبر مسيره نحوه رحل عنها، فدخلها محمود وملكها. فلما سمع الأمير منصور بن نوح سار عن بخارى نحو نيسابور، فلما علم محمود بذلك سار عن نيسابور إلى مرو الروذ، ونزل عند قطرة راعول ينتظر ما يكون منهم.

ذكر ملك جبرئيل بدقوفا

في هذه السنة ملك جبرئيل بن محمد بدقوفا. وجبرئيل هذا من الرّجالة الفرس ببغداد، وخدم مهذب الدولة بالبطيحة، فهم بالغزو، وجمع جمعاً كثيراً، واشترى السلاح وسار فاجتاز في طريقه بدقوفا، فوجد المقلّد بن المسيّب يحاصرها، فاستغاث أهلها بجبرئيل فحماهم ومنع عنهم.

وكان بدقوفا رجلاً نصرانيّاً قد تمكّن في البلد، وحكما فيه، واستعبدا أهله، فاجتمع جماعة من المسلمين إلى جبرئيل وقالوا له: إنك تريد الغزو، ولست تدري أتبلغ غرضاً أم لا، وعندنا من هذين النصرانيّين من قد تعبّدنا، وحكم علينا، فلو أقمنا عندنا، وكفينا أمرهما، ساعدناك على ذلك. فأقام وقبض عليهما، وأخذ مالهما، وقوي أمره، فملك البلد في شهر ربيع الأول، وثبت قدمه، وأحسن معاملة أهل البلد، وعدل فيهم، وبقي مدة على اختلاف الأحوال.

ثم ملكها المقلّد، وملكها بعده محمد بن عتّاز، ثم أخذها بعده قرواش، ثم انتقلت إلى فخر الدولة أبي غالب، فعاد جبرئيل هذا حينئذ إلى بدقوفا، واجتمع مع أمير من الأكراد يقال له موصك بن جكريه، ودفعاً عمال فخر الدولة عنها وأخذها، فقصدها بدران بن المقلّد وغلبهما وأخذها منهما.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرج أبو الحسن عليّ بن مزيد عن طاعة بهاء الدولة، فسار إليه عسكرياً، فهرب من بين أيديهم إلى مكان لا يقدرون على الوصول إليه فيه، (١٣٧/٩) ثم أرسل بهاء الدولة وأصلح حاله معه وعاد إلى طاعته.

وفيها توفي أبو الوفاء محمد بن المهندس الحاسب.

وفيها، في المحرم، توفي عبيد الله بن محمد بن حميران أبو عبد الله العكبري المعروف بابن بطّة الحبلي، وكان مولده في شوال سنة أربع وثلاثمائة، وكان زاهداً، عابداً، عالماً، ضعيفاً في الرواية.

وفيها، في ذي القعدة، توفي أبو الحسين محمد بن أحمد بن

ذكر عود قابوس إلى جرجان

في هذه السنة عاد شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى جرجان وملكها؛ ولما ملك فخر الدولة بن بويه جرجان والري أراد أن يسلم جرجان إلى قابوس، فردّه عن ذلك صاحب بن عبّاد، وعظّمها في عينه، فأعرض عن الذي أراد، ونسي ما كان بينهما من الصّحة بخراسان، وأنه بسببه خرجت البلاد عن يد قابوس، والملك عقيم.

وقد ذكرنا كيف أخذت منه، ومقامه بخراسان، وإنفاذ ملوك السامانية الجيوش في نصرته مرّة بعد أخرى، فلم يقدر الله تعالى عود ملك إليه.

ولما ولي سبكتكين خراسان اجتمع به ووعدّه أن يسير معه الجيوش ليردّه (١٤٠/٩) إلى مملكته، فمضى إلى بلخ ومرض ومات.

فلما كان هذه السنة، بعد موت فخر الدولة، سیر شمس المعالي قابوس الأصهب شهریار بن شروین إلى جبل شهریار، وعليه رستم بن المرزبان، خال مجد الدولة بن فخر الدولة، فاقتلا، فانهزم رستم، واستولى الأصهب على الجبل، وخطب لشمس المعالي، فسار إلى أمل، وبها عسكر لمجد الدولة، فطردهم عنها واستولى عليها، وخطب لقابوس، وكتب إليه بذلك.

ثم إن أهل جرجان كتبوا إلى قابوس يستدعون، فسار إليهم من نيسابور، وسار الأصهب وباتي بن سعيد إلى جرجان، وبها عسكر لمجد الدولة، فالتقوا واقتلوا، فانهزم عسكر مجد الدولة إلى جرجان، فلما بلغوها صادفوا مقدّمه قابوس قد بلغتها، فأيقنوا بالهلاك، وانهزموا من أصحاب قابوس هزيمة ثانية، وكانت قرحاً على قرح، ودخل شمس المعالي جرجان في شعبان من هذه السنة.

وبلغ المنهزمون الريّ، فجهّزت العساكر من الريّ نحو جرجان، فساروا وحصروها، فغلت الأسعار بالبلد، وضائق الأمور بالعسكر أيضاً، وتوالت عليهم الأمطار والرياح، فاضطروا إلى الرحيل، فتبعهم شمس المعالي فلحقهم وواقهم فاقتلوا، وانهزم عسكر الريّ وأسر من أعيانهم جماعة كثيرة، وقُتل أكثر منهم، فأطلق شمس المعالي الأسرى، واستولى على تلك الأعمال ما بين جرجان وأستراباذ.

ثم إن الأصهب حدّث نفسه بالاستقلال، والتفرد عن قابوس، واغترّ بما اجتمع عنده من الأموال والذخائر، فسارت إليه العساكر من الريّ، وعليها (١٤١/٩) المرزبان، خال مجد الدولة، فهزموا الأصهب وأسروه، ونادوا بشعار شمس المعالي لوحشة كانت عند المرزبان من مجد الدولة، وكتب إلى شمس المعالي بذلك، وانضافت مملكة الجبل جميعها إلى ممالك جرجان وطبرستان،

فولّاها شمس المعالي ولده منوچهر، ففتح الرويان وسالوس، وراسل قابوس يمين الدولة محموداً، وهاداه، وصالحه، واتّفا على ذلك.

ذكر مسير بهاء الدولة إلى واسط وما كان منه

في هذه السنة عاد أبو عليّ بن إسماعيل إلى طاعة بهاء الدولة، وهو بواسط، فوزر له، ودبّر أمره، وأشار عليه بالمسير إلى أبي محمد بن مكرم ومن معه من الجند ومساعدتهم، ففعل ذلك، وسار على كره وضيّق، فنزل بالقطرة البيضاء، وثبت أبو عليّ بن أستاذ هرْمُز وعسكره، وجرى لهم معه وقائع كثيرة.

وضاق الأمر ببهاء الدولة، وتعدّرت عليه الأقوات، فاستمدّ بدرّ بن حسّويه، فأنفذ إليه شيئاً قام ببعض ما يريده، وأشرف بهاء الدولة على الخطر، وسعى أعداء أبي عليّ بن إسماعيل به حتى كاد يبطش به، فتجدّد من أمر ابنيّ بختيار وقتل صمصام الدولة ما يأتي ذكره، وأتاه الفرج من حيث لم يحتسب، وصلح أمر أبي عليّ عنده، واجتمعت الكلمة عليه، وسيأتي شرح ذلك، إن شاء الله تعالى. (١٤٢/٩)

ذكر قتل صمصام الدولة

في هذه السنة، في ذي الحجة، قُتل صمصام الدولة بن عضد الدولة.

وسبب ذلك أنّ جماعة من الديلم استوحشوا من صمصام الدولة لأنّه أمر بعرضهم، وإسقاط من ليس بصحيح النسب، فأسقط منهم مقدار ألف رجل، فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون.

واتّفق أنّ أبا القاسم وأبا نصر ابني عزّ الدولة بختيار كانا مقبوضين، فخدعا الموكلين بهما في القلعة، فافرجوا عنهما، فجمعا لفيقاً من الأكراد، واتّصل خبرهما بالذين أسقطوا من الديلم، فاتّوهم، وقصدوا إلى أَرْجان، فاجتمعت عليها العساكر، وتحجّر صمصام الدولة، ولم يكن عنده من يدبّره.

وكان أبو جعفر أستاذ هرْمُز مقيماً بقسا، فأشار عليه بعض منّ عنده بتفريق ما عنده من المال في الرجال، والمسير إلى صمصام الدولة، وأخذه إلى عسكر بالأهواز، وخوّفه إن لم يفعل ذلك. فشحّ بالمال، فثار به الجند ونهبوا داره وهربوا، فاخفى، فأخذ وأُتي به إلى ابنيّ بختيار، فحبس، ثم احتال فنجّا.

وأما صمصام الدولة فإنّه أشار عليه أصحابه بالصعود إلى القلعة التي على باب شيراز والامتناع بها إلى أن يأتي عسكره ومنّ يمنعه، فأراد الصعود إليها، فلم يمكنه المستحفظ بها، وكان معه ثلاثمائة رجل، فقالوا له: الرأي أننا (١٤٣/٩) نأخذك والدتك، ونسير إلى أبي عليّ بن أستاذ هرْمُز، وأشار بعضهم بقصد الأكراد

سنة تسع وثمانين وثلاثمائة

ذكر القبض على الأمير منصور بن نوح وملك أخيه عبد الملك

في هذه السنة قبض على الأمير منصور بن نوح بن منصور الساماني، صاحب بخارى وما وراء النهر، وملك أخوه عبد الملك وسبب قبضه ما ذكرناه من قصد محمود بن سبكتكين بكتوزون بخراسان، وعوده عن نيسابور إلى مرو الروذ، فلما نزلها سار بكتوزون إلى الأمير منصور، وهو بسترخس، فاجتمع به فلم ير من إكرامه وبره ما كان يؤمله، فشكا ذلك إلى فائق، فقابله فائق بأضعاف شكواه، فاتفقا على خلعه من الملك، وإقامة أخيه مقامه، وأجابهما إلى ذلك جماعة من أعيان العسكر، فاستحضره بكتوزون بعلّة الاجتماع لتدبير ما هم بصدده من أمر محمود، فلما اجتمعوا به قبضوا عليه، وأمر بكتوزون من سبله فأعماه، ولم يراقب الله ولا إحسان مواليه، وأقاموا أخاه عبد الملك مقامه في الملك، وهو صبي صغير.

وكانت مدة ولاية منصور سنة وسبعة أشهر. وماج الناس بعضهم في بعض، وأرسل محمود إلى فائق وبكتوزون يلومهما، ويفتح فعلهما، وقويت نفسه على لقائهما، وطمع في الاستقلال بالملك، فسار نحوهما عازماً على القتال (١٤٦/٩).

ذكر استيلاء يمين الدولة محمود بن سبكتكين على خراسان

لما قبض الأمير منصور سار محمود نحو فائق وبكتوزون، ومعهما عبد الملك بن نوح، فلما سمعوا بمسيره ساروا إليه، فالتقوا بمرور آخر جمادى الأولى، واقتتلوا أشد قتال رآه الناس إلى الليل، فانهزم بكتوزون وفائق ومن معهما.

فاما عبد الملك وفائق فإنهما لحقا ببخارى، وقصد بكتوزون نيسابور، وقصد أبو القاسم بن سيمجور قهستان، فرأى محمود أن يقصد بكتوزون وأبا القاسم، ويجعلهما عن الاجتماع والاحتشاد، فسار إلى طوس، فهرب منه بكتوزون إلى نواحي جرجان، فأرسل محمود خلفه أكبر قواده وأمرائه وهو أرسلان الجاذب في عسكر جرّار، فأتبعه حتى أحقه بجرجان، وعاد فاستخلفه محمود على طوس، وسار إلى هراة.

فلما علم بكتوزون بمسير محمود عن نيسابور عاد إليها فملكها، فقصد محمود، فاجفل من بين يديه إجلال الظليم، واجتاز بمرور فتهبها، وسار عنها إلى بخارى، واستقرّ ملك محمود بخراسان، فأزال عنها اسم السامانية، وخطب فيها للقادر بالله، وكان إلى هذا الوقت لا يخطب له فيها، إنما كان يخطب للطائع

وأخذهم والتقوي بهم، ففعل ذلك، وخرج معهم بخزائنه وأمواله، فنهبوه، وأرادوا أخذه فهرب وسار إلى الدودمان، على مرحلتين من شيراز.

وعرف أبو نصر بن بختيار الخبير، قبادر إلى شيراز، ووثب رئيس الدودمان، واسمه طاهر، بصمصام الدولة فأخذه، وأناه أبو نصر بن بختيار وأخذه منه فقتله في ذي الحجة، فلما حمل رأسه إليه قال: هذه سنة سنّها أبوك، يعني ما كان من قتل عضد الدولة بختيار.

وكان عمر صمصام الدولة خمساً وثلاثين سنة وسبعة أشهر، ومدة إمارته بفارس تسع سنين وثمانية أيام، وكان كريماً حليماً. وأما والدته فسلمت إلى بعض قواد الدليم، فقتلها وبني عليها دكة في داره، فلما ملك بهاء الدولة فارس أخرجها ودفنها في تربة بني بويه.

ذكر هرب ابن الوثّاب

في هذه السنة هرب أبو عبد الله بن جعفر المعروف بابن الوثّاب من الاعتقال في دار الخلافة.

وكان هذا الرجل يقرب بالنسب من الطائع، فلما خلع الطائع هرب هذا وصار عند مذهب الدولة، فأرسل القادر بالله في أمره، فأخرجه، فسار إلى (١٤٤/٩) المدائن، وأتى خبره إلى القادر فأسخذه وحبسه، فهرب هذه السنة، ومضى إلى كيلان، وأدعى أنّه هو الطائع لله، وذكر من أمور الخلافة ما كان يعرفه، وزوجه محمد بن العباس، مقدّم كيلان، وشدّ منه، وأقام له الدعوة، وأطاعه أهل نواح آخر، وأدوا إليه العشر على عادتهم.

وورد من هؤلاء القوم جماعة يحجون، فأحضرهم القادر وكشف لهم حاله، وكتب على أيديهم كتباً في المعنى، فلم يقدح ذلك فيه. وكان أهل كيلان يرجعون إلى القاضي أبي القاسم بن كج، فكتب من بغداد في المعنى، فكشف لهم الأمر، فأخرجوا أبا عبد الله عنهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عظم أمر بدر بن حسويه، وعلا شأنه، ولقب، من ديوان الخليفة، ناصر الدين والدولة، وكان كثير الصدقات بالحرّمين، ويكثر الخرج على العرب بطريق مكة ليكفّوا عن أذى الحجاج، ومنع أصحابه من الفساد وقطع الطريق، فعظم محله، وسار ذكره.

وفيها نظر أبو علي بن أبي الريّان في الوزارة بواسط. وفيها مات أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الجكّار. (١٤٥/٩)

لله، واستقل بملكها منفرداً، وتلك سنة الله تعالى يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء .

وولى محمود قيادة جيوش خراسان أخاه نصرأ، وجعله بنسأبور على ما كان يليه آل سيمجور للسامانية، وسار هو إلى بلخ، مستقر والده، فاتخذها دار ملك، واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته كسأل فريغون، (١٤٧/٩) أصحاب الجوزجان، ونحن نذكرهم إن شاء الله تعالى، وكالشار الشاه، صاحب غرغستان، ونحن نذكر هاهنا أخبار هذا الشار، فاعلم أن هذا القلب، وهو الشار، لقب كل من يملك بلاد غرغستان، ككسرى للفرس، وقبصر للروم، والنجاشي للحبشة، وكان الشار أبو نصر قد اعتزل الملك وسلمه إلى ولده الشاه، وفيه لؤة وهوج، واشتغل والده أبو نصر بالعلوم ومجالسة العلماء.

ولما عصى أبو علي بن سيمجور على الأمير نوح أرسل إلى غرغستان من حصرها، وأجلى عنها الشاه الشار والده أبا نصر، فقصدا حصناً منيعاً في آخر ولايتهما، فتحصنا به إلى أن جاء سبكتكين إلى نصره الأمير نوح، فتزلا إليه وأعانه على أبي علي وعادا إلى ملكهما . فلما ملك الآن يمين الدولة محمود خراسان أطاعاه وخطب له .

ثم إن يمين الدولة، بعد هذا، أراد الغزوة إلى الهند، فجمع لها وتجهز، وكتب إلى الشاه الشار يستدعيه ليشهد معه غزوته، فامتنع وعصى، فلما فرغ من غزوته سبر إليه الجيوش ليملكوا بلاده، فلما دخلوا البلاد طلب والده أبو نصر الأمان، فأجيب إلى ذلك، وحمل إلى يمين الدولة فأكرمه، واعتذر أبو نصر بعقوب ولده، وخلافه عليه، فأمره بالمقام بهراة متوسعاً عليه إلى أن مات سنة اثنتين وأربعمئة .

وأما ولده الشاه فإنه قصد ذلك الحصن الذي احتجى به على أبي علي، فأقام به ومعه أمواله وأصحابه، فحصره عسكر يمين الدولة في حصنه، ونصبوا (١٤٨/٩) عليه المجانيق، وألحوا عليه بالقتال ليلاً ونهاراً، فانهدمت أسوار حصنه، وتسلق العسكر إليه، فلما أيقن بالطب طلب الأمان، والعسكر يقاتله، فلم يزل كذلك حتى أخذ أميراً، وحمل إلى يمين الدولة، فضرب تأديباً له، ثم أودع السجن إلى أن مات، وكان موته قبل موت والده.

ورأيت عدة مجلدات من كتاب [التهذيب] للأزهري في اللغة بخطه، وعليه ما هذه نسخته : يقول محمد بن أحمد بن الأزهري قرا علي الشار أبو نصر هذا الجزء من أوله إلى آخره، وكتبه بيده صح . فهذا يدل على اشتغاله وعلمه بالعربية، فإن من يصحب مثل الأزهري، ويقرأ كتابه [التهذيب]، يكون فاضلاً .

ذكر انقراض دولة السامانية وملك الترك ما وراء النهر

في هذه السنة انقضت دولة آل سامان على يد محمود بن سبكتكين، وإيلك الخان التركي، واسمه أبو نصر أحمد بن علي، ولقبه شمس الدولة .

فأما محمود فإنه ملك خراسان، كما ذكرناه، وبقي بيد عبد الملك بن نوح ما وراء النهر، فلما انهزم من محمود قصد بخارى واجتمع بها هو وفاق وبكتوزون وغيرهما من الأمراء والأكابر، فقويت نفوسهم، وشرعوا في جمع العساكر، وعزموا على العود إلى خراسان، فاتفق أن مات فائق، وكان (١٤٩/٩) موته في شعبان من هذه السنة، فلما مات ضعفت نفوسهم، وهنت قوتهم، فإنه كان هو المشار إليه من بينهم، وكان خصياً من موالي نوح بن نصر.

وبلغ خبرهم إلى إيلك الخان، فسار في جمع الأتراك إلى بخارى، وأظهر لعبد الملك المودة والموالة، والحمية له، فظنوه صادقاً، ولم يحترسوا منه، وخرج إليه بكتوزون وغيره من الأمراء والقواد، فلما اجتمعوا قبض عليهم، وسار حتى دخل بخارى يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة من هذه السنة، فلم يدر عبد الملك ما يصنع لقلعة عدده، فاخفى ونزل إيلك الخان دار الإمارة، وبث الطلّب والعيون على عبد الملك، حتى ظفر به، فأودعه بافكتد فمات بها، وكان آخر ملوك السامانية، وانقضت دولتهم على يده كان لم تغن بالأمن، كداب الدول قبلها، إن في ذلك لعلبة لأولي الأبصار . وحسب معه أخوه أبو الحارث منصور بن نوح الذي كان في الملك قبله، وأخوه أبو إبراهيم، إسماعيل، وأبو يعقوب ابنا نوح، وعمّاه أبو زكرياء وأبو سليمان، وغيرهم من آل سامان، وأفرد كل واحد منهم في حجرة .

وكانت دولتهم قد انتشرت وطبقت كثيراً من الأرض من حدود حلوان إلى بلاد الترك، بما وراء النهر، وكانت من أحسن الدول سيرة وعدلاً، وعبد الملك هذا هو عبد الملك بن نوح بن منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل كلهم ملكوا، وكان منهم من ليس المذكوراً في هذا النسب، وعبد الملك بن نوح بن نصر ملك قبل أخيه منصور بن نوح المذكور، وكان منهم أيضاً منصور بن نوح بن منصور أخو عبد الملك هذا الأخير الذي زال الملك في ولايته ولي قبله. (١٥٠/٩)

ذكر ملك بهاء الدولة فارس وخوزستان

في هذه السنة دخل الديلم الذين مع أبي علي بن أستاذ هُرمز بالأهواز في طاعة بهاء الدولة.

وكان سبب ذلك أن ابني بختيار لما قتل صمصام الدولة، كما تقدم، وملكوا بلاد فارس، كتبوا إلى أبي علي بن أستاذ هُرمز بالخبر،

والدولة وجدّد أكفانه، وحُمِل إلى التربة بشيراز فدُفِن بها، وسيرَ عسكرياً مع أبي الفتح أستاذ هُرمز إلى كرمان فملكها وأقام بها نائباً عن بهاء الدولة . إلى هاهنا آخر ما في ذيل الوزير أبي شجاع، رحمه الله . (١٥٢/٩)

ذكر مسير باديس إلى زناته

في هذه السنة، منتصف صفر، أمر باديس بن المنصور، صاحب إفريقية، نائبة محمد بن أبي العرب بالتجهّز والاستكثار من العسكر والعُدَد، والمسير إلى زناته .

وسبب ذلك أن عمّه يطوّف كتب إليه يُعلمه أن زيري بن عطية الملقّب بالقرطاس، وقد تقدّم ذكره، نزل عليه بتأهّرت محارباً، فأمر محمداً بالتجهّز إليه، فسار في عساكر كثيرة حتى وصل إلى أشير، وبها حماد بن يوسف عمّ باديس، كان قد أقطعه إياها باديس، فرحل حماد معه، فوصل إلى تاهّرت، واجتمعوا بيطوّف، وبينهم وبين زيري بن عطية مرحلتان، فرحفوا إليه، فكانت بينهما حروب عظيمة .

وكان أكثر عسكر حماد يكرهونه لقلّة عطائه، فلما اشتدّ القتال انهزموا، فتبعهم جميع العسكر، فأراد محمد بن أبي العرب أن يردّ الناس، فلم يقدر على ذلك، وتمّت الهزيمة، وملك زيري بن عطية مالهم وعُددهم ورجعت العساكر إلى أشير .

وبلغ خبر الهزيمة إلى باديس، فرحل، فلما قارب طُينة في طلب فلفل بن سعيد، فخاف، فأرسل يعتذر إليه، وطلب عهداً بإقطاع مدينة طُينة، فكتب له، وسار باديس، فلما أبعد قصد فلفل مدينة طُينة، وغلب على ما حولها، وقصد باغاية فحصرها، وباديس سائر إلى أشير . فلما سمع زيري ابن عطية بأنّه قرب منه رحل إلى تاهّرت، فقصد باديس، فسار زيري إلى العرب . فلما سمع باديس برحيله استعمل عمّه يطوّف على أشير، وأعطاه (١٥٣/٩) أمراً بالعداء، وعاد إلى أشير، فبلغه ما فعل فلفل بن سعيد، فأرسل إليه العساكر، وبقي يطوّف ومعه أعمامه وأولاد أعمامه، فلما أبعد عنهم باديس عصوا، وخالفوا عليه، منهم ماكنس، وزاوي وغيرهما، وقبضوا على يطوّف، وأخذوا جميع ما معه من المال، فهرب من أيديهم وعاد إلى باديس .

وأما فلفل بن سعيد فإنه لما وصل إليه العسكر المسير إلى قتاله لقيهم وقاتلهم وهزمهم، وقتل فيهم، وسار يطلب القيروان . فسار عند ذلك باديس إلى باغاية، فلقية أهلها، فعرفوه ما قاسوه من قتال فلفل، وأنه حصرهم خمسة وأربعين يوماً، فشكرهم، ووعدهم الإحسان، وسار يطلب فلفل، فوصل إلى مَرَجَنَة، وسار فلفل إليه في جمع كثير من البربر وزناته، ومعه كل من في نفسه حقد على باديس وأهل بيته، فالتقوا بوادي اغلان، وكان بينهم حرب عظيمة

ويذكران تعويلهما عليه، واعتصامهما به، ويأمرانه بأخذ اليمين لهما على من معه من الديلم، والمقام بمكانه، والجد بمحاربة بهاء الدولة . فخافهما أبو علي لما كان أسلفه إليهما من قتل أخويهما وأسرهما، فجمع الديلم الذين معه وأخبرهم الحال، واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا بطاعة ابنيّ بختيار ومقاتلة بهاء الدولة، فلم يوافقهم على ذلك، ورأى أن يرأسل بهاء الدولة ويستميله ويحلّفه لهم، فقالوا : إنا نخاف الأتراك، وقد عرفنا ما بيننا وبينهم ؛ فسكت عنهم وتفرّقوا .

ورأسله بهاء الدولة يستميله، ويبذل له وللديلم الأمان والإحسان، وتردّت الرُّسل، وقال بهاء الدولة : إن ثأري وثأركم عند من قتل أخي، فلا عذر لكم في التخلّف عن الأخذ بشأره ؛ واستمال الديلم فاجابوه إلى الدخول في طاعته، وأنفذوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة فحلّفوه واستوثقوا منه، وكتبوا إلى أصحابهم المقيمين بالسُّوس بصورة الحال .

وركب بهاء الدولة من الغد إلى باب السُّوس، رجاء أن يخرج من فيه إلى طاعته، فخرجوا إليه في السلاح، وقاتلوا قتالاً شديداً لم يقاتلوا مثله، فضاق صدره، فقيل له إن هذه عادة الديلم أن يشتدّ قتالهم عند الصُّلح، لئلاّ يظنّ بهم ؛ ثم كفّوا عن القتال وأرسلوا من يحلّفه لهم، ونزلوا إلى خدمته، واختلط العسكران، وساروا إلى الأهواز، فقرّر أبو علي بن إسماعيل أمورهما، وقسم الإقطاعات بين الأتراك والديلم، ثم ساروا إلى رامهرمّز فاستولوا عليها وعلى (١٥١/٩) أرجان وغيرهما من بلاد خوزستان .

وسار أبو علي بن إسماعيل إلى شيراز، فنزل بظاهرها، فخرج إليه ابنا بختيار في أصحابهما، فحاربوه، فلما اشتدّت الحرب مال بعض من معهما إليه، ودخل بعض أصحابه البلد، ونادوا بشعار بهاء الدولة، وكان النقيب أبو أحمد الموسويّ بشيراز قد وردّها رسولاً من بهاء الدولة إلى صمصام الدولة، فلما قُتل صمصام الدولة كان بشيراز، لما سمع النداء بشعار بهاء الدولة ظنّ أنّ الفتح قد تمّ، فقصّد الجامع، وكان يوم الجمعة، وأقام الخطبة لبهاء الدولة .

ثم عاد ابنا بختيار، واجتمع إليهما أصحابهما، فخاف النقيب، فاختفى، وحُمِل في سلة إلى أبي علي بن إسماعيل ؛ ثم إن أصحاب ابنيّ بختيار قصدوا أبا علي وأطاعوه، فاستولى على شيراز، وهرب ابنا بختيار، فأما أبو نصر فإنه لحق ببلاد الديلم، وأما الثاني، وهو أبو القاسم، فلحق ببدر بن حسنويه، ثم قصد البطيحة .

ولما ملك أبو علي شيراز كتب إلى بهاء الدولة بالفتح، فسار إليهما ونزلها، فلما استقرّ بها أمر بنهب قرية الدودمان وإحراقها، وقتل كلّ من كان بها من أهلهم فاستأصلهم، وأخرج أخاه صمصام

الحجة زينة عظيمة وفرحاً كثيراً، وكذلك عملوا ثامن عشر المحرم مثل ما يعمل الشيعة في عاشوراء، وسبب ذلك أن الشيعة بالكرخ كانوا ينصبون القباب، وتعلّق الثياب للزينة، اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وهو يوم الغدير، وكانوا يعملون يوم عاشوراء من المأتم، والنوح، وإظهار الحزن ما هو مشهور، فعمل أهل باب البصرة في مقابل ذلك، بعد يوم الغدير بثمانية أيام، مثلهم وقالوا: هو يوم دخل النبي ﷺ وأبو بكر، رضي الله عنه، الغار؛ وعملوا بعد عاشوراء بثمانية أيام مثل ما يعملون يوم عاشوراء، وقالوا: هو يوم قتل مصعب بن الزبير.

وتوفي هذه السنة أحمد بن محمد بن عيسى أبو محمد السرخسي المقرئ الفقيه الشافعي، وهو من أصحاب أبي إسحاق المروزي، وله رواية للحديث أيضاً، وكان شيخ خراسان في زمانه، وقرأ القرآن علي ابن مجاهد، والأدب علي ابن الأتباري، ومات وله ست وتسعون سنة؛ وعبد الله بن محمد بن إسحاق بن سليمان أبو القاسم البرازي، المعروف بابن حباب، وكان شيخ الحنابلة في زمانه (١٥٦/٩).

سنة تسعين وثلاثمائة

ذكر خروج إسماعيل بن نوح وما جرى له بخراسان

في هذه السنة خرج أبو إبراهيم إسماعيل بن نوح من حبسه، وكان قد حبسه إيلك الخان لما ملك بخاري مع جماعة من أهله.

وسبب خلاصه أنه كانت تأتيه جارية تخدمه، وتتعرف أحواله، فليس ما كان عليها وخرج، فظنّه الموكّلون الجارية، فلما خرج استخفى عند عجز من أهل بخاري، فلما سكن الطلب عنه سار من بخاري إلى خوارزم، وتلقّب المنتصر، واجتمع إليه بقايا القواد السامانية والأجناد، فكشف جمعه، وسير قائداً من أصحابه في عسكر إلى بخاري، فبيّت من بها من أصحاب إيلك الخان، فهزمهم وقتل منهم، وكبس جماعة من أعيانهم، مثل جعفر تكين وغيره، وتبع المنهزمين نحو إيلك الخان إلى حدود سمرقند، فلقي هناك عسكراً جرّاراً جعلهم إيلك الخان يحفظون سمرقند، فانضاف إليهم المنهزمون، ولقوا عسكر المنتصر، فانهزم أيضاً عسكر إيلك الخان، وتبعهم عسكر المنتصر، فغنموا أنفالهم فصلحت أحوالهم بها، وعادوا إلى بخاري، فاستبشر أهلها بعود السامانية.

ثم إن إيلك جمع الترك وقصد بخاري، فانهز من بها من السامانية (١٥٧/٩) وعبروا النهر إلى أمل الشط، فضاقت عليهم فساروا هم والمنتصر نحو أبيورد فملكها، وجبوا أموالها، وساروا نحو نيسابور، وبها منصور بن سيكتكين، نائباً عن أخيه محمود، فالتقوا قرب نيسابور في ربيع الآخر، فاقبلوا، فانهزم منصور

لم يُسمع بمثلها، وطال القتال بينهم، وصبر الفريقان، ثم أنزل الله تعالى نصره على باديس وصنهاجة، وانهزم البربر وزناتة هزيمة قبيحة، وانهزم لفلل فأبعد في الهزيمة، وقُتل من زويلة تسعة آلاف قتيل سوى من قُتل من البربر، وعاد باديس إلى قصره، وفرح أهل القيروان لأنهم خافوا أن يأتيهم لفلل.

ثم إن عمومة باديس اتصلوا بفلل، وصاروا معه على باديس، فلما سمع باديس بذلك سار إليهم، فلما وصل قصر الإفريقي وصله أن عمومته فارقوا لفللاً، ولم يبق معه سوى ماكسن بن زيري، وذلك أول سنة تسعين وثلاثمائة. (١٥٤/٩)

ذكر ملك الحاكم طرابلس الغرب وعودها إلى باديس

كان لباديس نائب بطرابلس الغرب، فكتب الحاكم بأمر الله بمصر، وطلب أن يسلم إليه طرابلس ويلتحق به، فأرسل إليه الحاكم يأنس الصقلي، وكان خصيصاً بالحاكم، وهو المتولي لبلاد بركة، فوصل يأنس وتسلم طرابلس وأقام بها، وذلك سنة تسعين [وثلاثمائة].

فأرسل باديس إلى يأنس يسأله عن سبب وصوله إلى طرابلس، وقال له: إن كان الحاكم استعملك عليها فأرسل المهد لأقف عليه. فقال يأنس: إنما أرسلني معيناً ونجدة إن احتيج إليّ، ومثلي لا يُطلب منه عهد بولاية لمحلّي من دولة الحاكم. فسير إليه جيشاً، فلقبهم يأنس خارج طرابلس، فقتل في المعركة، وانهزم أصحابه ودخلوا طرابلس فتحصنوا بها.

وكان قد قتل منهم في المعركة كثير، ونزل عليهم الجيش وحصرهم، وأرسلوا إلى الحاكم يستمدونه، فجهز جيشاً عليهم يحيى بن علي الأندلسي، وسيرهم إلى طرابلس، وأطلق لهم مالاً على بركة، فلم يجد يحيى فيها مالاً، فاختلف حاله، فسار إلى لفلل وكان قد دخل إلى طرابلس واستولى عليها، أقام معه فيها، واستوطنها من ذلك الوقت. وسنذكر باقي خبرهم سنة ثلاث وتسعين [وثلاثمائة].

وفي سنة إحدى وتسعين [وثلاثمائة] سار ماكسن بن زيري، عم أبي باديس، إلى أشير، وبها ابن أخيه حماد بن يوسف بلّكين، فكان بينهما (١٥٥/٩) حرب شديدة قُتل فيها ماكسن وأولاده محسن، وباديس، وحباسة، وتوفي زيري بن عطية بعد قتل ماكسن بتسعة أيام.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، عاشر ربيع الأول، انقضّ كوكب عظيم ضحوة نهار.

وفيها عمل أهل باب البصرة يوم السادس والعشرين من ذي

وأصحابه، وقصدوا هرة، وملك المتنصر نيسابور، وكثر جمعه .

ويلغ يمين الدولة الخير فصار مجدداً نحو نيسابور، فلما قاربها سار عنها المتنصر إلى أسفرايين، فلما أزعجه الطلب سار نحو شمس المعالي قابوس بن وشمكير ملتجئاً إليه ومتكثراً به، فأكرم مورده، وحمل إليه شيئاً كثيراً، وأشار على المتنصر بقصد الرئي إذ كانت ليس بها من يذب عنها، لاشتغال أصحابها باختلافهم، ووعده بأن يجنده بعسكر جرار مع أولاده، فقبل مشورته وسار نحو الرئي، فنالها، فضمف من بها عن مقاومتها، إلا أنهم حفظوا البلد منه، ودسوا إلى أعيان عسكره، كأبي القاسم بن سيمجور وغيره، وبذلوا لهم الأموال ليردوه عنهم، ففعلوا ذلك، وصغروا أمر الرئي عنده وحسبوا له العود إلى خراسان . فصار نحو الدامغان، وعاد عنه عسكر قابوس .

ووصل المتنصر إلى نيسابور في آخر شوال سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، فنجى له الأموال بها، فأرسل إليه يمين الدولة جيشاً فلقوه، فانهزم المتنصر وسار نحو أبيورد، وقصد جرجان، فردّه شمس المعالي عنها، فقصد سرحس وجبى أموالها وسكنها . فصار إليه منصور بن سبكتكين من نيسابور، فالتقوا بظاهر سرحس واقتتلوا، فانهزم المتنصر وأصحابه، وأسر أبو القاسم علي بن محمد بن سيمجور وجماعة من أعيان عسكره، وحملوا إلى المنصور، (١٥٨/٩) فسيرهم إلى غزنة، وذلك في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين [وثلاثمائة].

وسار المتنصر تائهاً حتى وافى الأتراك الغزية ولهم ميل إلى آل سامان، فحركتهم الحمية، واجتمعوا معه، وسار بهم نحو ايلك الخان، وكان ذلك في شوال سنة ثلاث وتسعين [وثلاثمائة]، فلقبهم ايلك بنواحي سمرقند، فهزموه واستولوا على أمواله وسواده، وأسروا جماعة من قواده وعادوا إلى أوطانهم، واجتمعوا على إطلاق الأسرى تقريباً إلى ايلك الخان بذلك . فعلم المتنصر، فاختر من أصحابه جماعة يثق بهم، وسار بهم، فعبر النهر، ونزل بأمل الشط، فلم يقبله مكان، وكلما قصد مكاناً رده أهله خوفاً من معرفته، فعاد وعبر النهر إلى بخارى، وطلب واليها لايك الخان، فلقبه واقتلوا، فانهزم المتنصر إلى ديبوسية وجمع بها، ثم عاودهم فهزمهم، وخرج إليه خلق كثير من قتيان سمرقند، وصاروا في جملة، وحمل له أهلها المال والآلات والثياب والدواب وغير ذلك .

فلما سمع ايلك الخان بحاله جمع الأتراك وسار إليه في قضه وقضيضه، والتقوا بنواحي سمرقند، واشتدت الحرب بينهم، فانهزم ايلك الخان، وكان ذلك في شعبان سنة أربع وتسعين [وثلاثمائة]، وغنموا أمواله ودوابه . وعاد ايلك الخان إلى بلاد الترك فجمع

وحشد وعاد إلى المتنصر، فوافق عوده تراجع الغزية الذين كانوا مع المتنصر إلى أوطانهم، وقد زحف جمعه، فاقتتلوا بنواحي أسروشنه، فانهزم المتنصر وأكثر الترك في أصحابه القتل .

وسار المتنصر منهزماً، حتى عبر النهر، وسار إلى الجوزجان فنهب أموالها، وسار يطلب مرو، فسير يمين الدولة العساكر، ففارق مكانه وسار وهم في أثره، حتى أتى بسطام، فأرسل إليه قابوس عسكراً أزعجه عنها، فلما (١٥٩/٩) ضاقت عليه المذاهب عاد إلى ما وراء النهر، فعبر أصحابه وقد ضجروا وسنموا من السهر والتعب والخوف، ففارقة كثير منهم إلى بعض أصحاب ايلك الخان، فأعلموهم بمكانه، فلم يشعر المتنصر إلا وقد أحاطت به الخيل من كل جانب، فطاردهم ساعة ثم ولأهم الذبر وسار فنزل بحلة من العرب في طاعة يمين الدولة، وكان يمين الدولة قد أوصاهم بطلبه، فلما رآوه أمهلوه حتى أظلم الليل، ثم وثبوا عليه فأخذوه وقتلوه، وكان ذلك خاتمة أمره ؛ وإنما أوردت الحادثة في هذه السنة لترد متتابعة، فلو تفرقت في السنين لم تعلم على هذه الصورة لقاتها .

ذكر محاصرة يمين الدولة سجستان

في هذه السنة سار يمين الدولة إلى سجستان، وصاحبها خلف بن أحمد، فحصره بها .

وكان سبب ذلك أن يمين الدولة لما اشتغل بالحروب التي ذكرناها سير خلف بن أحمد ابنه طاهراً إلى قهستان فملكها، ثم سار منها إلى بوشنج فملكها، وكانت هي وهرة لبغراق، عم يمين الدولة، فلما فرغ يمين الدولة من تلك الحروب استأذن عمه في إخراج طاهر بن خلف من ولايته، فأذن له في ذلك، فصار إليه، فلقبه طاهر بنواحي بوشنج، فاقتلوا، فانهزم (١٦٠/٩) طاهر ولج بفرجاق في طلبه، فعطف عليه طاهر فقتله ونزل إليه وأخذ رأسه .

فلما سمع يمين الدولة بقتل عمه عظم عليه، وكبر لديه، وجمع عساكره وسار نحو خلف بن أحمد، فتحصن منه خلف بحصن أصهبذ، وهو حصن ينطاح النجوم علواً وارتفاعاً، فحصره فيه وضيق عليه، فذل وخضع، وبذل أموالاً جليلية لينفس عن خناقه، فأجابه يمين الدولة إلى ذلك، وأخذ رهنه على المال .

ذكر قتل ابن بختيار بكرمان واستيلاء بهاء الدولة عليها

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، قتل الأمير أبو نصر بن بختيار، الذي كان قد استولى على بلاد فارس .

وسبب قتله أنه لما انهزم من عسكر بهاء الدولة بشيراز سار إلى بلاد الديلم، وكاتب الديلم بفارس وكرمان من هناك يستميلهم، وكاتبوه واستدعوه، فصار إلى بلاد فارس، واجتمع عليه جمع كثير من الزط، والديلم، والأتراك، وتردد في تلك النواحي .

ثم سار إلى كرمان، فلم يقبله الديلم الذين بهاء، وكان المقدم عليهم أبو جعفر بن أستاذ هُرْمُز، فجمع وقصد أبا جعفر، فالتقيا، فانهزم أبو جعفر إلى السِيرْجَان، ومضى ابن بختيار إلى جيرت فملكها، وملك أكثر كرمان، فعظم الأمر على بهاء الدولة؛ فسير إليه الموفق علي بن إسماعيل في جيش كثير، (١٦١/٩) وسار مجداً حتى أطل على جيرت، فاستأمن إليه من بهاء من أصحاب ابن بختيار ودخلها. فأنكر عليه من معه من القواد سرعة سيره، وخوفه عاقبة ذلك، فلم يصغ إليهم، وسأل عن حال ابن بختيار، فأخبر أنه على ثمانية فراسخ من جيرت، فاختر ثلاثمائة رجل من شجعان أصحابه وسار بهم، وترك الباقيين مع السواد بجيرت.

وفها ظهر في سيجستان معدن الذهب، فكانوا يحفرون التراب ويخرجون منه الذهب الأحمر.

وفها توفي الشريف أبو الحسن محمد بن عمر العلوي، ودُفن بالكرخ، (١٦٢/٩) وعمره خمس وسبعون سنة، وهو مشهور بكثرة المال والعقار، والقاضي أبو الحسن ابن قاضي القضاة أبي محمد بن معروف؛ والقاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا المعروف بابن طرار الجري، ففتح الجيم، منسوب إلى محمد بن جرير الطبري لأنه كان يتفقه على مذهبه، وكان عالماً بفنون العلوم، كثير الرواية والتصنيف فيها. (١٦٤/٩)

سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة

ذكر قتل المقلد وولاية ابنة قرواش

في هذه السنة قُتل حسام الدولة المقلد بن المسيب العُقَيْلي غيلة، قتله ممالك له ترك.

وكان سبب قتله أن هؤلاء الغلمان كانوا قد هربوا منه، فتبعهم وظفر بهم، وقتل منهم وقطع، وأعاد الباقيين، فخافوا على نفوسهم، فاغتنم بعضهم غفلته وقتله بالأنبار، وكان قد عظم أمره، وراسل وجوه العساكر ببغداد، وأراد التغلب على الملك، فأنه الله من حيث لا يشعر.

ولما قتل كان ولده الأكبر قرواش غائباً، وكانت أمواله وخزائنه بالأنبار، فخاف نائبه عبد الله بن إبراهيم بن شهرويه بادرة الجند، فراسل أبا منصور بن قُراد اللديد، وكان بالسندية، فاستدعاه إليه وقال له: أنا أجعل بينك وبين قرواش عهداً، وأزوجه ابنتك وأقسامك على ما خلفه أبوه، ونساعده على عمه الحسن إن قصده وطمع فيه، فأجاب به إلى ذلك وحمى الخزانة والبلد.

وأرسل عبد الله إلى قرواش يحثه على الوصول، فوصل وقاسمه على المال، وأقام قُراد عنده.

ثم إن الحسن بن المسيب جمع مشايخ عُقَيْل، وشكا قرواشا إليهم وما (١٦٥/٩) صنع مع قيراد، فقالوا له: خوفه منك حملة على ذلك؛ وبذل من نفسه الموافقة له، والوقوف عند رضاه، وسفر المشايخ بينهما فاصطلحا، واتَّفَقا على أن يسير الحسن إلى قرواش شبه المحارب، ويخرج هو وقيراد لقتاله، فإذا لقي بعضهم بعضاً عادوا جميعاً على قيراد فأخذوه، فسار الحسن وخرج قرواش وقيراد

فلما بلغ ذلك المكان لم يجده ودُلَّ عليه فلم يزل يتبعه من منزل إلى منزل، حتى لحقه بدارزين، فسار ليلاً، وقدر وصوله إليه عند الصبح فأدركه. فركب ابن بختيار واقتتلوا قتالاً شديداً، وسار الموفق في نفر من غلمانه، فأتى ابن بختيار من ورائه، فانهزم ابن بختيار وأصحابه، ووضع فيهم السيف، فقتل منهم الخلق الكثير. فغدر بابن بختيار بعض أصحابه، وضربه بلسان فلقاه وعاد إلى الموفق ليخبره بقتله، فأرسل معه من ينظر إليه، فرآه وقد قتله غيره، وحمل رأسه إلى الموفق.

وأكثر الموفق القتل في أصحاب ابن بختيار، واستولى على بلاد كرمان، واستعمل عليها أبا موسى سياهجيل، وعاد إلى بهاء الدولة، فخرج بنفسه ولفيه، وأكرمه وعظمه ثم قبض عليه بعد أيام. ومن أعجب ما يذكر أن الموفق أخبره منجم أنه يقتل ابن بختيار يوم الاثنين، فلما كان قبل الاثنين بخمسة أيام قال للمنجم: قد بقي خمسة أيام وليس لنا علم به؛ فقال له المنجم: إن لم تقتله فاقتلني عوضه، وإلا فاحسن إليّ. فلما كان يوم الاثنين أدركه وقتله، وأحسن إلى المنجم إحساناً كثيراً. (١٦٢/٩)

ذكر القبض على الموفق أبي علي بن إسماعيل

قد ذكرنا مسيره إلى قتال ابن بختيار، وقتله ابن بختيار، فلما عاد أكرمه بهاء الدولة ولفيه بنفسه، فاستغنى الموفق من الخدمة، فلم يعفه بهاء الدولة، فآلح كل واحد منهما، فأشار أبو محمد بن مُكْرَم على الموفق بترك ذلك، فلم يقبل، فقبض عليه بهاء الدولة وأخذ أمواله، وكتب إلى وزيره سابور ببغداد بالقبض على أنساب الموفق، ففرَّقه ذلك سراً، فاحتالوا لنفوسهم وهربوا، واستعمل بهاء الدولة أبا محمد بن مُكْرَم على عُمان، ثم إن بهاء الدولة قتل الموفق سنة أربع وتسعين وثلاثمائة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة استعمل بهاء الدولة أبا علي الحسن بن أستاذ

واستهان به، فكثرت جمع طاهر وصعد إلى الجبال، وبها قوم من العصاة على السلطان، فاحتفى بهم وقوي، فنزل إلى جيزفت فملكها وملك غيرها، وقوي طمعه في الباقي.

فقصد أبو موسى والديلم، فهزمهم، وأخذ بعض ما بقي بأيديهم، فكتبوا بهاء الدولة، فسير إليهم جيشاً عليهم أبو جعفر بن أستاذ هرمز، فسار إلى كرمان، وقصد إلى بيم، وبها طاهر، فجری بين طلائع العسكرين حرب، وعاد طاهر إلى سجستان، وفارق كرمان، فلما بلغ سجستان أطلق المأسورين، ودعاهم إلى قتال أبيه معه، وحلف لهم أنهم إذا نصره وقاتلوا معه أطلقهم، ففعلوا ذلك، وقاتل أباه، فهزمه وملك طاهر البلاد، ودخل أبوه إلى حصن له متنج فاحتفى به.

وأحب الناس طاهر لحسن سيرته، وسوء سيرة والده، وأطلق طاهر الديلم، ثم إن أباه راسل أصحابه ليفسدهم عليه، فلم يفعلوا، فعدل إلى مخادعته، وراسله يظهر له الندم على ما كان منه، ويستميله بأنه ليس له ولد غيره، وأنه يخاف أن يموت فيملك بلاده غير ولده.

ثم استدعاه إليه جريدة ليجتمع به ويعرفه أحواله، فتواعدا تحت قلعة خلف، فأتاه ابنه جريدة ونزل هو إليه كذلك، وكان قد كمن بالقرب منه كميناً، فلما لقيه اعتقه، وبكى خلف، وصاح في مكانه، فخرج الكمين وأسروا طاهراً فقتله أبوه بيده، وغسله ودفنه، ولم يكن له ولد غيره.

فلما قتل طمع الناس في خلف، لأنه كانوا يخافون ابنه لشهامته، وقصدته حينئذ محمود بن سبكتكين، فملك بلاده على ما نذكره؛ وأما العتيبي فذكر في سبب فتحها غير هذا، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى. (١٦٨/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ثار الأتراك ببغداد بنائب السلطان، وهو أبو نصر سابور، فهرب منهم، ووقعت الفتنة بين الأتراك والعامة من أهل الكرخ، وقتل بينهم قتلى كثيرة، ثم إن السنة من أهل بغداد ساعدوا الأتراك على أهل الكرخ، فضعفوا عن الجميع، فسعى الأشراف في إصلاح الحال فسكنت الفتنة.

وفيها ولد الأمير أبو جعفر عبد الله بن القادر، وهو القائم بأمر الله.

وفيها، في ربيع الأول توفي أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى، وكان فاضلاً عالماً بعلوم الإسلام وبالمنطق، وكان يجلس للتحديث، وروى الناس عنه.

لقتاله.

فلما تراءى الجمعان جاء بعض أصحاب قراد إليه فأعلمه الحال، فهرب على فرس له، وتبعه قرواش والحسن فلم يدركاه، وعاد قرواش إلى بيت قراد فأخذ ما فيه من الأموال التي أخذها من قرواش، وهي بحالها، وسار قرواش إلى الكوفة، فأوقع بخفاجة عندها وقعة عظيمة، فساروا بعدها إلى الشام، فأقاموا هناك حتى أحضرهم أبو جعفر الحجاج، على ما ذكره إن شاء الله.

ذكر البيعة لولي العهد

في هذه السنة، في ربيع الأول، أمر القادر بالله بالبيعة لولده أبي الفضل لولاية العهد، وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم ذلك، ولقبه بالغالب بالله.

وكان سبب البيعة له أن أبا عبد الله بن عثمان الواثق، من ولد الواثق بالله أمير المؤمنين، كان من أهل نصيبين، فقصد بغداد، ثم سار عنها إلى خراسان، وعبر النهر إلى هارون بن إيلك بغرا خاقان، وصحبه الفقيه أبو الفضل التميمي، وأظهر أنه رسول من الخليفة إلى هارون يأمره بالبيعة لهذا الواثقي، فإنه ولي عهد (١٦٦/٩) فأجابه خاقان إلى ذلك، وبايع له وخطب له ببلاده وأنفق عليه. فبلغ ذلك القادر بالله، فعظم عليه، وراسل خاقان في معناه فلم يصغ إلى رسالته.

فلما توفي هارون خاقان، وولي بعده أحمد قرأ خاقان، كاتبه الخليفة في معناه، فأمر بإبعاده، فحينئذ بايع الخليفة لولده بولاية العهد.

وأما الواثق فإنه خرج من عند أحمد قرأ خاقان وقصد بغداد فحرف بها وطُلب، فهرب منها إلى البصرة، ثم إلى فارس وكرمان، ثم إلى بلاد الترك، فلم يتم له ما أراد، وراسل الخليفة الملوك يطلبه، فضاقت عليه الأرض، وسار إلى خوارزم وأقام بها، ثم فارقه، فأخذه يمين الدولة محمود بن سبكتكين فحبسه في قلعة إلى أن توفي بها.

ذكر استيلاء طاهر بن خلف على كرمان وعوده عنها

في هذه السنة سار طاهر بن خلف بن أحمد، صاحب سيجستان، إلى كرمان طالباً ملكها.

وكان سبب مسيره إليها أنه كان قد خرج عن طاعة أبيه، وجرى بينهما حروب كان الظفر فيها لأبيه، ففارق سيجستان وسار إلى كرمان، وبها عسكر بهاء الدولة، وهي له على ما ذكرناه، فاجتمع من بها من العساكر إلى المقدّم عليهم ومتولي أمر البلد، وهو أبو موسى سياهجيل، فقالوا له: إن هذا الرجل قد وصل، وهو ضعيف، والرأي أن تبادره قبل أن يقوى أمره (١٦٧/٩) ويكثر جمعه. فلم يفعل

عازمين على الفساد والعناد، فسَّير إليهم طائفة من عسكره، فأوقعوا بهم، وأكثروا القتل فيهم، ولم ينجُ منهم إلا الشريد الفريد، وعاد إلى غزنة سالماً مظفراً.

ذكر الحرب بين قرواش وعسكر بهاء الدولة

في هذه السنة سَير قرواش بن المقلَّد جمعاً من عُقيل إلى المدائن فحصرها، فسَّير إليهم أبو جعفر نائب بهاء الدولة جيشاً فازالوهم عنها، فاجتمعت عُقيل وأبو الحسن مَزِيد في بني أسد، وقويت شوكتهم، فخرج الحَجَّاج إليهم، واستنجد خفاجة، وأحضرهم من الشام، فاجتمعوا معه، واقتتلوا بنواحي بَاكْرَم في رمضان، فانهزمت الدليم والأترک، وأسر منهم خلق كثير، واستبيح عسكرهم. (١٧١/٩)

فجمع أبو جعفر من عنده من العسكر وخرج إلى بني عُقيل وابن مَزِيد، فالتقوا بنواحي الكوفة، واشتد القتال بينهم، فانهزمت عُقيل وابن مَزِيد، وقُتل من أصحابهم خلق كثير، وأسر مثلهم، وسار إلى حُلل ابن مَزِيد فأوقع بمن فيها فانهزموا أيضاً، فنهبت الحُلل والبيوت والأموال، ورأوا فيها من العَيْن والمصاغ والثياب ما لا يقدر قدره.

ولما سار أبو جعفر عن بغداد اختلَّت الأحوال بها، وعاد أمر العيَّارين فظهر، واشتدَّ الفساد، وقُتلت النفوس، ونُهبت الأموال، وأُحرقت المساكن، فبلغ ذلك بهاء الدولة، فسَّير إلى العراق لحفظه أبا علي بن أبي جعفر المعروف بأستاذ هُرْمُز، ولقبه عميد الجيوش، وأرسل إلى أبي جعفر الحَجَّاج، وطِيب قلبه، ووصل أبو علي إلى بغداد، فأقام السياسة، ومنع المفسدين، فسكنت الفتنة وأمن الناس.

وفيها توفي محمد بن محمد بن جعفر أبو بكر الفقيه الشافعي المعروف بابن الدقاق، صاحب الأصول. (١٧٢/٩)

سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة

ذكر ملك يعين الدولة سجستان

في هذه السنة ملك يعين الدولة محمود بن سبكتكين سيجستان، وانتزعها من اليد خلف بن أحمد.

قال العتبي: وكان سبب أخذها أنَّ يعين الدولة لما رحل عن خلف بعد أن صالحه، كما تقدَّم ذكره سنة تسعين [وثلاثمائة]، عهد خلف إلى ولده طاهر، وسلَّم إليه مملكته، وانعكف هو على العبادة والعلم، وكان عالماً، فاضلاً، محباً للعلماء، وكان قصده أن يوهم يعين الدولة أنَّه ترك الملك وأقبل على طلب الآخرة ليقطع عن بلاده.

وفيها توفي القاضي أبو الحسن الجزري، وكان على مذهب داود الظاهري، وكان يصحب عضد الدولة قديماً.

وفيها توفي أبو عبد الله الحسين بن الحَجَّاج الشاعر بطريق النُّيل، وحُمِل إلى بغداد، وديوانه مشهور.

وفيها توفي بكران بن أبي الفوارس خال الملك جلال الدولة بواسط.

وفيها توفي جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات المعروف بابن حنْزَبة، الوزير، ومولده سنة ثمان وثلاثمائة، وكان سار إلى مصر فولِّي وزارة كافور وروى حديثاً كثيراً. (١٦٩/٩)

سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة

ذكر وقعة ليعين الدولة بالهند

في هذه السنة أوقع يعين الدولة محمود بن سبكتكين بجييال وقعة عظيمة.

وسبب ذلك أنَّه لما اشتغل بأمر خُرَاسان وملكهها، وفرغ منها ومن قتال خلف بن أحمد، وخلا وجهه من ذلك، أحبَّ أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين، فثنى عنانه نحو تلك البلاد، فنزل على مدينة برُشُور، فأثناء عدوِّ الله جييال ملك الهند في عساكر كثيرة، فاخترار يعين الدولة من عساكره والمطوَّعة خمسة عشر ألفاً، وسار نحوه، فالتقوا في المحرَّم من هذه السنة، فاقتتلوا، وصبر الفريقان.

فلما انتصف النهار انهزم الهند، وقُتل فيهم مقتلة عظيمة، وأسر جييال ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته، وغنم المسلمون منهم أموالاً جلييلة، وجواهر نفيسة، وأخذ من عنق عدوِّ الله جييال قلادة من الجواهر العديم النظير قومت بمائتي ألف دينار، وأصيب أمثالها في أعناق مقدَّمي الأسرى، (١٧٠/٩) وغنموا خمس مائة ألف رأس من العبيد، وفتح من بلاد الهند بلاداً كثيرة، فلما فرغ من غزواته أحبَّ أن يطلق جييال ليراه الهنود في شعار الذلِّ، فأطلقه بمال قرَّره عليه، فأذى المال.

ومن عادة الهند أنَّهم من حصل منهم في أيدي المسلمين أسيراً لم يتعد له بعدها رئاسة، فلما رأى جييال حاله بعد حلق رأسه، ثم ألقى نفسه في النار، فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة.

ذكر غزوة أخرى إلى الهند أيضاً

فلما فرغ يعين الدولة من أمر جييال رأى أن يغزو غزوة أخرى، فسار نحو وَهَنْد، فأقام عليها محاصراً لها، حتَّى قتهاها قهراً، وبلغه أنَّ جماعة من الهند قد اجتمعوا بشعاب تلك الجبال

النعمانية، فاقتلوا قتالاً عظيماً، وأرسل أبو عليّ بعض عسكره، فأتوا أبا جعفر من ورائه، فانهزم أبو جعفر ومضى منهزماً.

فلما أمن أبو عليّ سار من العراق، بعد الهزيمة، إلى خوزستان، وبلغ السوس، وأتاه الخبر أنّ أبا جعفر قد عاد إلى الكوفة، فرجع إلى العراق، وجرى بينه وبين أبي جعفر منازعات ومراجعات إلى أن آل الأمر إلى الحرب فاستجد كل واحد منهم بني عُقيل وبني خفاجة وبني أسد، فبينما هم كذلك أرسل بهاء الدولة إلى عميد الجيوش أبي عليّ يستدعيه، فسار إليه إلى خوزستان لأجل أبي العباس بن واصل، صاحب البطيحة. (١٧٥/٩)

ذكر عصيان سجستان وفتحها ثانية

لما ملك يمين الدولة ميخستان عاد منها واستخلف عليها أميراً كبيراً من أصحابه، يُعرف بَنَجِي الحاجب، فأحسن السيرة في أهلها.

ثم إن طوائف من أهل العيث والفساد قدّموا عليهم رجلاً يجمعهم، وخالفوا على السلطان، فسار إليهم يمين الدولة، وحصرهم في حصن أرك، ونشبت الحرب في ذي الحجة من هذه السنة، فظهر عليهم، وظفر بهم، وملك حصنهم، وأكثر القتل فيهم، وانهزم بعضهم فسير في آثارهم من يطلبهم، فأدركهم، فأكثروا القتل فيهم حتى خلت ميخستان منهم وصفت له واستقر ملكها عليه، فأقطعها أخاه نصرأ مضافة إلى نيسابور.

ذكر وفاة الطائع لله

في هذه السنة، في شوال منها، توفي الطائع لله المخلوع بن المطيع لله، وحضر الأشراف والقضاة وغيرهم دار الخلافة للصلاة عليه والتعزية، وصلى عليه القدر بالله، وكبر عليه خمساً، وتكلمت العامة في ذلك فقيل: إن هذا مما يفعل الخلفاء؛ وشيع جنازته ابن حاجب النعمان، وورثه الشريف الرضي فقال: ما بهد يورك ما يسأله السالي ومثل يورك لم يخطر على بالي وهي طويلة. (١٧٦/٩)

ذكر وفاة المنصور بن أبي عامر

في هذه السنة توفي أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافري، الملقب بالمنصور، أمير الأندلس مع المؤيد هشام بن الحاكم، وقد تقدّم ذكره عند ذكر المؤيد، وكان أصله من الجزيرة الخضراء من بيت مشهور بها، وقدم قرطبة طالباً للعلم، وكانت له همة، فتعلّق بوالدة المؤيد في حياة أبيه المستنصر.

فلما ولي هشام كان صغيراً، فتكفل المنصور لوالدته القيام بأمره، وإخماد الفتن النائرة عليه، وإقرار الملك عليه، فولّته أمره؛

فلما استقر طاهر في الملك عتّى أباه وأهمل أمره، فلاطفه أبوه، ورفق به، ثم إنّه تمارض في حصنه المذكور، واستدعى ولده ليوصي له، فحضر عنده غير محتاط، ونسي إساءته، فلما صار عنده قبض عليه وسجنه، وبقي في السجن إلى أن مات فيه، وأظهر عنه أنّه قتل نفسه.

ولما سمع عسكر خلف وصاحب جيشه بذلك تغيّرت نيّتهم في طاعته، وكروهوه، وامتنعوا عليه في مدينته، وأظهروا طاعة يمين الدولة، وخطبوا له، وأرسلوا إليه يطلبون من يتسلّم المدينة، ففعل وملكها، واحتوى عليها (١٧٣/٩) في هذه السنة، وعزم على قصد خلف وأخذ ما بيده والاستراحة من مكّره. فسار إليه، وهو في حصن الطاق، وله سبعة أسوار مُحْكَمَة، يحيط بها خندق عميق، عريض، لا يخاض إلا من طريق على جسر يُرفع بطنم الخندق ليتمكن العبور إليه، فقُطعت الأخشاب وطُم بها وبالتراب في يوم واحد مكاناً يعبرون فيه ويقاثلون منه.

وحذف الناس ومعهم الفيول، واشتدّت الحرب، وعظم الأمر، وتقدّم أعظم الفيول إلى باب السور فاقتلعه بنائيّه وألقاه، وملكه يمين الدولة، وتأخّر أصحاب خلف إلى السور الثاني، فلم ينزل أصحاب يمين الدولة يدفعونهم عن سور سور، فلما رأى خلف اشتداد الحرب، وأن أسواره تُملك عليه وأن أصحابه قد عجزوا، وأنّ الفيلة تحطم الناس طار قلبه خوفاً وقرقاً، فأرسل يطلب الأمان، فاجابه يمين الدولة إلى ما طلب وكفّ عنه، فلما حضر عنده أكرمه واحترمه، وأمره بالمقام في أيّ البلاد شاء، فاختر أَرْض الجوزجان، فسير إليها في هيئة حسنة، فأقام بها نحو أربع سنين.

ونُقل إلى يمين الدولة عنه أنّه يرأسل إليك الخان يُغريه بقصد يمين الدولة، فنقله إلى جردين، واحتاط عليه هناك، إلى أن أدركه أجله في رجب سنة تسع وتسعين [وثلاثمائة]، فسلّم يمين الدولة جميع ما خلفه إلى ولده أبي حفص. وكان خلف مشهوراً بطلب العلم وجمع العلماء، وله كتاب صنّفه في تفسير القرآن من أكبر الكتب. (١٧٤/٩)

ذكر الحرب بين عميد الجيوش أبي عليّ وبين جعفر الحجاج

في هذه السنة كانت بين أبي عليّ بن أبي جعفر أستاذ هُرْمُز، وبين أبي جعفر الحجاج.

وسبب ذلك أنّ أبا جعفر كان نائباً عن بهاء الدولة بالعراق، فجمع وغزا، واستتاب بعده عميد الجيوش أبا عليّ، فأقام أبو جعفر بنواحي الكوفة، ولم يستقر بينه وبين أبي عليّ صلح.

وكان أبو جعفر قد جمع جمعاً من الديلم والأتراك وخفاجة فجمع أبر عليّ أيضاً جمعاً كثيراً وسار إليه، والتبّخوا بنواحي

وكان شهماً، شجاعاً، قوي النفس، حسن التدبير، فاستمال العساكر وأحسن إليهم، فقوي أمره، وتلقّب بالمنصور، وتابع الغزوات إلى الفرنج وغيرهم، وسكنت البلاد معه، فلم يضطرب منها شيء.

وكان عالماً، محباً للعلماء، يكثر مجالستهم وينظرهم، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه، وصنّفوا لها تصانيف كثيرة، ولما مرض كان متوجّهاً إلى الغزو، فلم يرجع، ودخل بلاد العدو فنال منهم وعاد وهو مثقل، فتوفي بمدينة سالم، وكان قد جمع الغبار الذي وقع على درعه في غزواته شيئاً صالحاً، فأمر أن يجعل في كفنه تبركاً به.

وكان حسن الاعتقاد والسيرة، عادلاً، كانت آيامه أعياداً لنضارتها، وأمن الناس فيها، رحمه الله. وله شعر جيد، وكانت أمه تميمية، ولما مات ولي بعده ابنه المظفر أبو مروان عبد الملك، فجرى مجرى أبيه. (١٧٧/٩)

ذكر محاصرة فلل مدينة قابس وما كان منه

في هذه السنة سار يحيى بن عليّ الأندلسي وفلفل من طرابلس إلى مدينة قابس في عسكر كثير، فحاصروها ثم رجعوا إلى طرابلس. ولما رأى يحيى بن عليّ ما هو عليه من قلة المال، واختلال حاله وسوء مجاورة فلل وأصحابه له، رجع إلى مصر إلى الحاكم، بعد أن أخذ فلل وأصحابه خيولهم، وما اختاروه من عُددهم بين الشراء والغصب، فأراد الحاكم قتله ثم عفا عنه.

وأقام فلل بطرابلس إلى سنة أربعمائة، فمرض ونفسي، ووليّ أخوه ورو، فأطاعته زناته، واستقام أمره، فرحل باديّ إلى طرابلس لحرب زناته، فلما بلغهم رحيله فارقوها وملكه باديّ، ففرّ أهلها، وأرسل ورو أخو فلل إلى باديّ يطلب أن يكون هو ومن معه من زناته في أمانه، ويدخلون في طاعته، ويجعلهم عمالاً كسائر عماله، فأمنهم وأحسن إليهم، وأعطاهم نفزاة وقسطنطية على أن يرحلوا من أعمال طرابلس، ففعلوا ذلك.

ثم إن خزرون بن سعيد أخا ورو جاء إلى باديّ، ودخل في طاعته، وفارق أخاه، فأكرمه باديّ، وسار إلى طرابلس فحاصرها، وسار إلى خزرون لينمنعه عن حصارها، وكان ذلك سنة ثلاث وأربعمائة. (١٧٨/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في رمضان، طلع كوكب كبير له ذؤابة؛ وفي ذي القعدة انقضى كوكب كبير أيضاً كضوء القمر عند تمامه، وانمحى نوره وبقي جرمه يتموج.

وفيها اشتدت الفتنة ببغداد، وانتشر العيارون والمفسدون، فبعث بهاء الدولة عميد الجيوش أبا عليّ بن أستاذ هُرْمُز إلى العراق

ليدير أمره، فوصل إلى بغداد، فزيت له، وقمع المفسدين، ومنع السنة والشيعه من إظهار مذاهبهم، ونفى، بعد ذلك، ابن المعلم فقيه الإمامية، فاستقام البلد.

وفيها، في ذي الحجة، وُلد الأمير أبو الحسن بن بهاء الدولة، وهو الذي ملك الأمر، وتلقّب بمشرف الدولة.

وفيها هرب الوزير أبو العباس الضبيّ، وزير مجد الدولة بن فخر الدولة ابن بويه، من الريّ إلى بدر بن حسويه، فأكرمه، وقام بالوزارة بعده الخطير أبو عليّ.

وفيها وليّ الحاكم بأمر الله على دمشق، وقيادة العساكر الشامية، أبا محمد الأسود، واسمه تمصّولت، فقدم إليها، ونزل في قصر الإمارة، فأقام والياً عليها سنة وشهرين؛ ومن أعماله فيها أنه أطاف إنساناً مغريباً، وشهره، ونادى عليه: هذا جزء من يحبّ أبا بكر وعمر! ثم أخرجه عنها. (١٧٩/٩)

وفيها توفي عثمان بن جنيّ النحويّ، مصنف اللّمع وغيرها، ببغداد، وله شعر بارز؛ والقاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ بالريّ، وكان إماماً فاضلاً، ذا فنون كثيرة؛ والوليد بن بكر بن مخلد الأندلسيّ الفقيه المالكيّ، وهو محدث مشهور.

وفيها توفي أبو الحسن محمد بن عبد الله السلاميّ الشاعر البغداديّ، ومن شعره يصف الدرع، وهي هذه الأبيات:

ياربّ سابقه خيشي نعمة كافتها بالسوء غير مفند
أضحت تصون عن المنيا مُهجتي وظللت أبلها لكل مُهند
وله من أحسن المديح في عضد الدولة:

وليت، وعزمي والظلام وصارمي ثلاثة أشباح كما اجتمع السر
ويشرت آتالي بملك هو السورى ودار هي الدنيا، ويسوم هو الدهر
وقدم الموصل، فاجتمع بالخالدين من الشعراء منهم أبو الفرج البیضاء، وأبو الحسين التلعفريّ، فامتحنوه، وكان صيباً، فبرز عند الامتحان.

وفيها توفي محمد بن العباس الخوارزميّ الأديب الشاعر، وكان فاضلاً، وتوفيّ ببسبور.

وفيها توفي محمد بن عبد الرحمن بن زكريّا أبو طاهر المخلص المحدث المشهور، وأوّل سماعه سنة انتني عشرة وثلاثمائة. (١٨٠/٩)

سنة أربع وتسعين وثلاثمائة

ذكر استيلاء أبي العباس على البطيحة

في هذه السنة، في شعبان، غلب أبو العباس بن واصل إلى

البطيحة، وأخرج منها مهذب الدولة.

وسار إلى البطائح، وفرّق جنده في البلاد لتقرير قواعدها.

وكان ابتداء حال أبي العباس أنه كان يتوب عن طاهر بن زيرك الحاجب في الجهيضة، وارتفع معه، ثم أشفق منه ففارقه وسار إلى شيراز، وأصل بخدمة فولاذ، وتقدّم عنده، فلما قبض على فولاذ عاد أبو العباس إلى الأهواز بحال سيئة، فخدم فيها.

ثم أصدع إلى بغداد، فضاق الأمر عليه، فخرج منها، وخدم أبا محمد ابن مكرم، ثم انتقل إلى خدمة مهذب الدولة بالبطيحة، فجرد معه عسكرياً، وسيره إلى حرب لشكرستان حين استولى على البصرة، ومضى إلى شيراف وأخذ ما بها لأبي محمد بن مكرم من سفن ومال، وأتى أسافل دجلة، فغلب عليها، وخلع مهذب الدولة.

فأرسل إليه مهذب الدولة مائة سُميريّة فيها مقاتلة، فغرق بعضها، وأخذ أبو العباس ما بقي منها، وعدل إلى الأبلّة، فهزم أبا سعد بن مأكولا، وهو يصحب لشكرستان، فانهزم أيضاً لشكرستان من بين يديه، واستولى ابن واصل (١٨١/٩) على البصرة، ونزل دار الإمارة، وأمن الديلم والأجناد.

وقصد لشكرستان مهذب الدولة، فأعاده إلى قتال أبي العباس في جيش، فلقية أبو العباس وقاتله، فانهزم لشكرستان وقتل كثير من رجاله، واستولى أبو العباس على ثقله وأمواله، وأصدع إلى البطيحة، وأرسل إلى مهذب الدولة يقول له: قد هزمت جندك، ودخلت بلدك، فخذ لنفسك؛ فسار مهذب الدولة إلى بشامني، وصار عند أبي شجاع فارس بن مردان وابنه صدقة، فغدرا به وأخذوا أمواله، فاضطر إلى الهرب، وسار إلى واسط فوصلها على أقيح صورة، فخرج إليه أهلها فلقوه وأصعدت زوجته ابنة الملك بهاء الدولة إلى بغداد وأصدع مهذب الدولة إليها فلم يمكن من الوصول إليها.

وأما ابن واصل فإنه استولى على أموال مهذب الدولة وبلادها، وكانت عظيمة، ووكل بدار زوجته ابنة بهاء الدولة من يحرسها، ثم جمع كل ما فيها وأرسله إلى أبيها، واضطرب عليه أهل البطائح واختلفوا، فسير سبع مائة فارس إلى الجازرة لإصلاحها، فقاتلهم أهلها، فظفروا بالعسكر، وقتلوا فيهم كثيراً.

وانتشر الأمر على أبي العباس بن واصل، فعاد إلى البصرة، خوفاً أن يتشر الأمر عليه بها، وترك البطائح شاغرة ليس فيها أحد يحفظها.

ولما سمع بهاء الدولة بحال أبي العباس وقوته خافه على بلاده، فسار من فارس إلى الأهواز لتلافي أمره، وأحضر عنده عميد الجيوش من بغداد، وجهز (١٨٢/٩) معه عسكرياً كيفاً وسيرهم إلى أبي العباس فأتى إلى واسط وعمل ما يحتاج إليه من سفن وغيرها،

وسمع أبو العباس بمسيره إليه، فاصعد إليه من البصرة، وأرسل يقول له: ما أحوجك تتكلف الانحدار، وقد أتيتك فخذ لنفسك.

ووصل إلى عميد الجيوش وهو على تلك الحال من تفرق العسكر عنه، فلقية في من معه بالصليق، فانهزم عميد الجيوش، ووقع من معه بعضهم على بعض، ولقي عميد الجيوش شدة إلى أن وصل إلى واسط، وذهب ثقله وخيامه وخزائنه، فأخبره خازنه أنه قد دفن في الخيمة ثلاثين ألف دينار وخمسين ألف درهم، فأنفذ من أحضرها، فقوي بها. ونذكر باقي خبر البطائح سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قلّد بهاء الدولة النقيب أبا أحمد الموسوي، والد الشريف الرضي، نقابة العلويين بالعراق، وقضاء القضاة، والحجّ، والمظالم، وكتب عهده بذلك من شيراز، ولقب الطاهر ذا المناقب، فامتنع الخليفة من تقليده قضاء القضاة، وأمضى ما سواه.

وفيها خرج الأصيفر المتفقيّ على الحاج، وحصرهم بالباطنية، وعزم على أخذهم، وكان فيهم أبو الحسن الرفاء، وأبو عبد الله الدجّاجي، وكانا يقرآن القرآن بأصوات لم يسمع مثلها فحضر عند الأصيفر وقرأ القرآن فترك الدجّاج وعاد، وقال لهما: قد تركت لكما ألف ألف دينار. (١٨٣/٩)

سنة خمس وتسعين وثلاثمائة

ذكر عود مهذب الدولة إلى البطيحة

قد ذكرنا انهزام عميد الجيوش من أبي العباس بن واصل، فلما انهزم أقام بواسط، وجمع العساكر عازماً على العود إلى البطائح، وكان أبو العباس قد ترك بها نائباً له، فلم يتمكن من المقام بها، ففارقها إلى صاحبه، فأرسل عميد الجيوش إليها نائباً من أهل البطائح، فعسف الناس، وأخذ الأموال، ولم يلتفت إلى عميد الجيوش، فأرسل إلى بغداد وأحضر مهذب الدولة، وسير معه العساكر في السفن إلى البطيحة، فلما وصلها لقيه أهل البلاد، وسروا بقدومه، وسلّموا إليه جميع الولايات، واستقرّ عليه بهاء الدولة كل سنة خمسين ألف دينار، ولم يعترض عليه ابن واصل، فاشتغل عنه بالتجهيز إلى خوزستان، وحفر نهراً إلى جانب النهر العسديّ، بين البصرة والأهواز وكثر ماؤه، وكان قد اجتمع عنده جمع كثير من الديلم وأنواع الأجناد.

ولما كثر ماله وذخائره، و[ما] استولى عليه من البطيحة، قوي

إبراهيم المهلب.

وفيهما توفي محمد بن علي بن الحسين بن الحسن بن أبي إسماعيل العلوي الهمداني، الفقيه الشافعي، رحمه الله تعالى. (١٨٦/٩)

سنة ست وتسعين وثلاثمائة

ذكر غزوة المولتان

في هذه السنة غزا السلطان يمين الدولة المولتان.

وكان سبب ذلك أن واليها أبا الفتح نقل عنه خبث اعتقاده ونسب إلى الإلحاد، وأنه قد دعا أهل ولايته إلى ما هو عليه، فاجابوه. فرأى يمين الدولة أن يجاهده ويستنزله على ما هو عليه، فسار نحوه، فرأى الأنهار التي في طريقه كثيرة الزيادة، عظيمة المد، وخاصة سيحون، فإنه منع جانبه من العبور، فأرسل إلى أندبال يطلب إليه أن يأذن له في العبور ببلاده إلى المولتان، فلم يجبه إلى ذلك فابتدأ به قبل المولتان، وقال: تجمع بين غزوتين لأنه لا غزو إلا التعقيب؛ فدخل بلاده، وجاسها، وأكثر القتل فيها والنهب لأموال أهلها، والإحراق لأبنيتها، ففر أندبال من بين يديه وهو في أثره كالشهاب في أثر الشيطان، من مضيق إلى مضيق، إلى أن وصل إلى قشمبر.

ولما سمع أبو الفتح بخبر إقباله إليه علم عجزه عن الوقوف بين يديه والعصيان عليه، فنقل أمواله إلى سرتديب، وأخلى المولتان، فوصل يمين الدولة إليها نازلها، فإذا أهلها في ضلال يعمهون، فحصرهم وضيق عليهم، وتابع القتال حتى افتتحها عنوة، وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم. (١٨٧/٩)

ذكر غزوة كواكير

ثم سار عنها إلى قلعة كواكير، وكان صاحبها يُعرف ببیدا، وكان بها ستمائة صنم، فافتتحها وأحرق الأصنام، فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة بكالينجار، فسار خلفه إليها، وهو حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة فيل، وعشرون ألف دابة، وفي الحصن ما يكفي الجميع مدة.

فلما قاربها يمين الدولة وبقي بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق ما لا حدّ عليه، فأمر بقطعها، ورأى في الطريق وادياً عظيم العمق، بعيد القعر، فأمر أن يطمّ منه مقدار ما يسع عشرين فارساً، فطمّوه بالجلود المملوءة تراباً، ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوماً، وراسله صاحبها بالصلح فلم يجبه.

ثم بلغه عن خراسان اختلاف بسبب قصد ايلك الخان لها،

طمعه في الملك، وسار هو وعسكره إلى الأهواز في ذي القعدة، فجهّز إليه بهاء الدولة جيشاً في الماء، فالتقوا بنهر السدرة، فاقتلوا، وخاتلهم أبو العباس، وسار إلى الأهواز وتبعه من كان قد لقيه من العسكر، فالتقوا بظاهر الأهواز، وانضاف إلى عسكر (١٨٤/٩) بهاء الدولة العساكر التي بالأهواز، فاستظهر أبو العباس عليهم.

ورحل بهاء الدولة إلى قطرة أربق، عازماً على المسير إلى فارس، ودخل أبو العباس إلى دار المملكة وأخذ ما فيها من الأمتعة والأثاث المتخلف عن بهاء الدولة، إلا أنه لم يمكنه المقام لأن بهاء الدولة كان قد جهّز عسكراً ليسير في البحر إلى البصرة، فخاف أبو العباس من ذلك، وراسل بهاء الدولة، وصالحه، وزاد في أقطاعه، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، وعاد إلى البصرة، وحمل معه كل ما أخذه من دار بهاء الدولة ودور الأكابر والقواد والتجار.

ذكر غزوة بهاطية

في هذه السنة غزا يمين الدولة بهاطية من أعمال الهند، وهي وراء المولتان، وصاحبها يُعرف بحيرة، وهي مدينة حصينة، عالية السور، يحيط بها خندق عميق، فامتنع صاحبها بها، ثم إنه خرج إلى ظاهرها، فقاتل المسلمين ثلاثة أيام ثم انهزم في الرابع، وطلب المدينة ليدخلها، فسبقهم المسلمون إلى باب البلد فملكوه عليهم، وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم، فقتل المقاتلة وسببت الذرية وأخذت الأموال. (١٨٥/٩)

وأما بحيرا فإنه لما عاين الهلاك أخذ جماعة من ثقاته وسار إلى رؤوس تلك الجبال، فسير إليه يمين الدولة سرية، فلم يشعر بهم بحيرا إلا وقد أحاطوا به، وحكموا السيوف في أصحابه، فلما أيقن بالطغيان أخذ خنجراً معه فقتل به نفسه، وأقام يمين الدولة بهاطية حتى أصلح أمرها، وربّت قواعدها، وعاد عنها إلى غزنة، واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها ما يجب عليهم تعلمه، ولقي في عوده شدة شديدة من الأمطار وكثرتها، وزيادة الأنهار، ففرق منه ومن عسكره شيء عظيم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كان بإفريقية غلاء شديد بحيث تعطلت المخازير والحمامات، وهلك الناس، وذهبت الأموال من الأغنياء، وكثر الوباء، فكان يموت كل يوم ما بين خمسمائة إلى سبعمائة.

وفيهما وصل قرواش وأبو جعفر الحجاج إلى الكوفة، فقبضا على أبي علي عمر بن محمد بن عمر العلوي، وأخذ منه قرواش مائة ألف دينار، وحمله معه إلى الأنبار.

وفيهما توفي إسحاق بن محمد بن حمدان بن محمد بن نوح أبو

فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل، وثلاثة آلاف من الفضة، وليس خلعة يمين الدولة بعد أن استعفى من شدّ المنطقة، فإنه اشتدّ عليه، فلم يجبه يمين الدولة إلى ذلك، فشدّ المنطقة، وقطع أصبعه الخنصر وأنفذه إلى يمين الدولة توثقة فيما يعتقدونه، وعاد يمين الدولة إلى خراسان، لإصلاح ما اختلف فيها، وكان عزمًا على الوجود في بلاد الهند. (١٨٨/٩)

ذكر عبور عسكر ايلك الخان إلى خراسان

كان يمين الدولة لما استقرّ له ملك خراسان، وملك ايلك الخان ما وراء النهر، قد راسله ووائقه، وتزوَّج ابنته، وانعقدت بينهما مصاهرة ومصالحة، فلم تزل السعاة حتى أفسدوا ذات بينهما، وكنم ايلك الخان ما في نفسه، فلمّا سار يمين الدولة إلى المولتان اغتتم ايلك الخان خلّو خراسان، فسّير السباشي تكين، صاحب جيشه في هذه السنة، إلى خراسان في معظم جنده، وسير أخاه جعفر تكين إلى بلخ في عدّة من الأمراء.

وكان يمين الدولة قد جعل بهرة أميراً من أكابر أمراءه يقال له: ارسلان الجاذب، فأمره إذا ظهر عليه مخالف أن ينحاز إلى غزنة. فلما عبر سباشي تكين إلى خراسان سار ارسلان إلى غزنة، وملك سباشي هرة وأقام بها، وأرسل إلى نيسابور من استولى عليها.

وأتصلت الأخبار بيمين الدولة، وهو بالهند، فرجع إلى غزنة لا يلوي على دار، ولا يركن إلى قرار، فلما بلغها فرّق في عساكره الأموال، وقوّاهم، وأصلح ما أراد إصلاحه، واستمدّ الأتراك الخليفة، فجاءه منهم خلق كثير، وسار بهم نحو بلخ، وبها جعفر تكين أخو ايلك الخان، فعبر إلى ترمذ، ونزل بيمين الدولة ببلخ، وسير العساكر إلى سباشي تكين بهرة، فلما قابوه سار نحو مرو ليبر النهر، فلقية الترمكان الغزّة، فقاتلوه فهزموهم وقتل منهم مقلّة عظيمة. (١٨٩/٩)

ثم سار نحو أبيورد لتعذر العبور عليه، فتبعه عسكر يمين الدولة، كلما رحل نزلوا، حتى ساقه الخوف من الطلب إلى جرجان فأخرج عنها، ثم عاد إلى خراسان، فعارضه يمين الدولة، فمنعه عن مقصده، وأسر أخو سباشي تكين وجماعة من قواده، ونجا هو في خفّ من أصحابه، فعبر النهر.

وكان ايلك الخان قد عبّر أخاه جعفر تكين إلى بلخ ليلفت يمين الدولة عن طلب سباشي، فلم يرجع، وجعل دأبه إخراج سباشي من خراسان، فلما أخرجه عنها عاد إلى بلخ، فانهزم من كان بها مع جعفر تكين، وسلمت خراسان ليمين الدولة.

ذكر الحرب بين عسكر بهاء الدولة والأكراد

في هذه السنة سير عميد الجيوش عسكرياً إلى البندنجين،

وجعل المقدّم عليهم قائداً كبيراً من الديلم، فلما وصلوا إليها سار إليهم جمع كثير من الأكراد، فاقتلوا، فانهزم الديلم، وغنم الأكراد رحلهم ودوابهم، وجرد المقدّم عليهم من ثيابه، فأخذ قميصاً من رجل سواديّ، وعاد راجلاً حافياً، ولم يكن مقامهم غير أيام قليلة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قلد الشريف الرضي نقابة الطالبين بالعراق، ولقب بالرضي ذي الحسين، ولقي أخوه المرتضى ذا المجدين، فعمل ذلك بهاء الدولة. (١٩٠/٩)

وفيها توفي أبو أحمد بن عليّ بن المرزبان الأصبهانيّ، قاضي خراسان، وكان إليه أمر البيمارستان ببغداد.

وفيها، مستهلّ شعبان، طلع كوكب كبير يشبه الزهرة عن يسرة قبلة العراق، له شعاع على الأرض كشعاع القمر، وبقي إلى منتصف ذي القعدة وغاب.

وفيها توفي أبو سعد إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيليّ، الإمام، الفقيه الشافعيّ، بجرجان في ربيع الآخر، ومحمّد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة أبو عبد الله الحافظ الأصبهانيّ المشهور، له التصانيف المعروفة. (١٩١/٩)

سنة سبع وتسعين وثلاثمائة

ذكر هزيمة ايلك الخان

لما أخرج يمين الدولة عساكر ايلك الخان من خراسان، راسل ايلك الخان قدرخان بن بغراخان ملك الخنّ لقراءة بينهما، وذكر له حاله، واستعان به، واستصره، واستنفر الترك من أقاصي بلادها، وسار نحو خراسان، واجتمع هو وايلك الخان، فعبرا النهر.

وبلغ الخبر بيمين الدولة، وهو بطخارستان، فسار وسبقهما إلى بلخ، واستعدّ للحرب، وجمع الترك الغزّة، والخلج، والهند، والأفغانيّة، والغزنويّة، وخرج عن بلخ، فعسكر على فرسخين بمكان فسيح يصلح للحرب، وتقدّم ايلك الخان، وقدرخان في عساكرهما، فزلوا بإزائه، واقتلوا يومهم ذلك إلى الليل.

فلما كان الغد برز بعضهم إلى بعض واقتلوا، واعتزل يمين الدولة إلى نشر مرتفع ينظر إلى الحرب، ونزل عن دابّته وعفر وجهه على الصيد تواضعاً لله تعالى، وساله النصر والظفر، ثم نزل وحمل في قبلة على قلب ايلك (١٩٢/٩) الخان، فأزاله عن مكانه، ووقعت الهزيمة فيهم، وتبعهم أصحاب يمين الدولة يقتلون، ويأسرون، ويغنمون إلى أن عبروا بهم النهر، وأكثر الشعراء تهنئة بيمين الدولة بهذا الفتح.

ذكر غزوه إلى الهند

فلما فرغ يمين الدولة من الترك سار نحو الهند للغزاة.

وسبب ذلك أن بعض أولاد ملوك الهند، يُعرف بتواسه شاه، كان قد أسلم على يده، واستخلفه على بعض ما اقتتحه من بلادهم.

فلما كان الآن بلغه أنه ارتد عن الإسلام، ومالاً أهل الكفر والطغيان، فسار إليه مجتأً، فحين قاربه فرّ الهندي من بين يديه، واستعاد يمين الدولة تلك الولاية، وأعادها إلى حكم الإسلام، واستخلف عليها بعض أصحابه، وعاد إلى غزنة.

ذكر حصر أبي جعفر الحجاج بغداد

في هذه السنة جمع أبو جعفر الحجاج جمعاً كثيراً، وأمدّه بدر حسنويه بجيش كثير، فسار بالجميع وحصر بغداد.

وسبب ذلك أن أبا جعفر كان نازلاً على قلع حامي طريق خراسان، وكان (١٩٣/٩) قلع مبانياً لمعيد الجيوش، فاجتمعوا لذلك. وتوفي قلع هذه السنة، فجعل عميد الجيوش على حماية الطريق أبا الفتح بن عتاز، وكان عدواً لبدر بن حسنويه، فحقد ذلك بدر، فاستدعى أبا جعفر الحجاج، وجمع له جمعاً كثيراً، منهم الأمير هندي بن سعدي، وأبو عيسى شاذي بن محمد، وورام بن محمد، وغيرهم، وسيّروهم إلى بغداد.

وكان الأمير أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي قد عاد من عند بهاء الدولة بخوزستان مغضباً، فاجتمع معهم، فزادت عدتهم على عشرة آلاف فارس.

وكان عميد الجيوش عند بهاء الدولة لقتال أبي العباس بن واصل، فسار أبو جعفر ومن اجتمع معه إلى بغداد، ونزلوا على فرسخ منها، وأقاموا شهراً، وبيغداد جمع من الأتراك، ومعهم أبو الفتح بن عتاز فحفظ البلد، فبينما هم كذلك أتاهم خبر انهزام أبي العباس، وقوة بهاء الدولة، ففت ذلك في أعضاء أبي جعفر ومن معه، ففترقوا، فعاد ابن مزيد إلى بلده، وسار أبو جعفر وأبو عيسى إلى خلوان، وراسل أبو جعفر في إصلاح حاله مع بهاء الدولة، فأجابته إلى ذلك، فحضر عنده بشتّر، فلم يلتفت إليه لثلاث استوحش عميد الجيوش. (١٩٤/٩)

ذكر قصد بدر ولاية رافع بن مقن

كان أبو الفتح بن عتاز التجأ إلى رافع بن محمد بن مقن، ونزل عليه، حين أخذ بدر بن حسنويه منه خلوان وقزميسين، فأرسل بدر إلى رافع يذكر مودة أبيه، وحقوقه عليه، ويعتب عليه حيث آوى خصمه، ويطلب إليه أن يعيده ليدوم له على العهد والود القديم.

فلم يفعل رافع ذلك، فأرسل بدر جيشاً إلى أعمال رافع

بالجانب الشرقي من دجلة فنهبها، وقصدوا داره بالمطيرة فنهبوا، وأحرقوها، وساروا إلى قلعة البردان، وهي لرافع أيضاً، ففتحوها قهراً، وأحرقوا ما كان بها من الغلات، وطمّوا بثرها، فسار أبو الفتح إلى عميد الجيوش ببغداد، فخلع عليه وأكرمه ووعدته نصره.

ذكر قتل أبي العباس بن واصل

في هذه السنة قُتل أبو العباس بن واصل، صاحب البصرة، وقد تقدّم ذكر ابتداء حاله، وارتفاعه، واستيلائه على البطيحة، وما أخذه من الأموال، وما هزم من جيوش السلطان، وغير ذلك مما هو مذكور في موضعه.

فلما عظم أمره سار بهاء الدولة من فارس إلى الأهواز ليحفظ خوزستان منه، وكان في البطائح مقابل عميد الجيوش، فلما فرغ منه سار إلى الأهواز، (١٩٥/٩) وبها بهاء الدولة، فملكها على ما ذكرناه، وعاد عنها على صلح مع بهاء الدولة وبها بهاء الدولة، فملكها على ما ذكرناه، وعاد عنها على صلح مع بهاء الدولة إلى البصرة، وقد ذكرناه أيضاً.

ثم تجدد ما أوجب عوده إلى الأهواز، فعاد إليها في جيشه، وبها الدولة مقيم بها، فلما قاربها رحل بهاء الدولة عنها لقلّة عسكره، وتفرّقهم: بعضهم بفارس، وبعضهم بالعراق، وقطع قنطرة أريق، وبقي النهر يحجز بين الفريقين، فاستولى أبو العباس على الأهواز، وأتاه مدد من بدر بن حسنويه، ثلاثة آلاف فارس، فقوي بهم.

وعزم بهاء الدولة على العود إلى فارس، فمنعه أصحابه، فأصلح أبو العباس القنطرة، وجرى بين العسكرين قتال شديد دام إلى السحر، ثم عبر أبو العباس على القنطرة بعد أن أصلحها، والتقى العسكران واشتد القتال، فانهزم أبو العباس، وقُتل من أصحابه كثير، وعاد إلى البصرة مهزوماً منتصف رمضان سنة ست وتسعين وثلاثمائة. فلما عاد منهزماً جهّز بهاء الدولة إليه العساكر مع وزيره أبي غالب، فسار إليه، ونزل عليه محاصراً له، وجرى بين العسكرين القتال، وضاق الأمر على الوزير، وقلّ المال عنده، واستمدّ بهاء الدولة فلم يمدّه.

ثم إن أبا العباس جمع سفنه وعساكره، وأصعد إلى عسكر الوزير، وهجم عليه، فانهزم الوزير، وكاد يتمّ على الهزيمة، فاستوقفه بعض الديلم وثبته، وحملوا على أبي العباس فانهزم هو وأصحابه، وأخذ الوزير سفنه، فاستأمن إليه كثير من أصحابه.

ومضى أبو العباس منهزماً، وركب مع حسّان بن ثمال الخفاجي هارباً إلى الكوفة، ودخل الوزير البصرة، وكتب إلى بهاء الدولة بالفتح. (١٩٦/٩)

ثم إن أبا العباس سار من الكوفة، وقطع دجلة، ومضى عازماً على اللحاق بيدر بن حسويه، فبلغ خاتقين، وبها جعفر بن العوام في طاعة بدر، فأنزله وأكرمه، وأشار عليه بالمسير في وقته وحذره الطلب، فاعتلّ بالتعب، وطلب الاستراحة، ونام، وبلغ خبره إلى أبي الفتح بن عتّار وهو في طاعة بهاء الدولة، وكان قريباً منهم، فسار إليهم بخاتقين، وهو بها، فحصره وأخذه وسار به إلى بغداد، فسيّره عميد الجيوش إلى بهاء الدولة، فلقّتهم في الطريق قاصداً من بهاء الدولة يأمر بقتله، فقتل وحُمل رأسه إلى بهاء الدولة وطيف به بخوزستان وفارس، وكان بواسط عاشر صفر.

ذكر مسير عميد الجيوش إلى حرب بدر وصلحه معه

كان في نفس بهاء الدولة على بدر بن حسويه حقد لما اعتمده في بلاده لاشتغاله عنه بأبي العباس بن واصل، فلما قُتل أبو العباس أمر بهاء الدولة عميد الجيوش بالمسير إلى بلاده، وأعطاه مالاً أنفق في الجند، فجمع عسكرياً وسار يريد بلاده، فنزل جُنْدِيَسَابُور. فأرسل إليه بدر: إن لم تقدر على أن تأخذ ما تغلب عليه بنو عُقَيْل من أعمالكم، وبينهم وبين بغداد فرسخ، حتى صالحتهم، فكيف تقدر على أخذ بلادِي وحصوني مني، ومعِي من الأموال ما ليس معك مثلها؟

وأنا معك بين أمرين إن حاربتك، فالحرب سجال، ولا نعلم لمن العاقبة، فإن انهزمت أنا لم ينفعك ذلك لأنّي أحتمي بقلاعي ومعقلي، وأنفق أموالِي، وإذا عجزتُ فانا رجل صحراويّ صاحب عُقْد، أبعثُ ثم أقرب، وإن (١٩٧/٩) انهزمت أنت لم تجتمع، وتلقى من العتب؛ والرأي أن أحمل إليك مالاً ترضي به صاحبك، ونصلطح. فأجابه إلى ذلك، وصالحه، وأخذ منه ما كان أخرجه على تجهيز الجيش وعاد عنه.

ذكر الحرب بين قرواش وأبي عليّ بن ثمال الخفاجي

في المحرم جرت وقعة بين معتمد الدولة أبي المنيع قرواش بن المقلّد العقيليّ، وبين أبي عليّ بن ثمال الخفاجي، وكان سببها أن قرواشاً جمع جمعاً كثيراً وسار إلى الكوفة، وأبو عليّ غائب عنها، فدخلها ونزل بها، وعرف أبو عليّ الخبر، فسار إليه، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم قرواش وعاد إلى الأنبار مقلولاً، وملك أبو عليّ الكوفة، وأخذ أصحاب قرواش فصادروهم.

ذكر خروج أبي ركونة على الحاكم بمصر

في هذه السنة ظفر الحاكم بأبي ركونة، ونحن نذكرها هنا خبره أجمع.

كان أبو ركونة اسمه الوليد، وإنما كنّي أبا ركونة لركونة كان يحملها في أسفاره، سنة الصوفيّة، وهو من ولد هشام بن عبد

وكان أبو ركونة ممن هرب، وعمره حينئذ قد زاد على العشرين سنة، وقصد مصر، وكتب الحديث، ثم سار إلى مكة واليمن، وعاد إلى مصر ودعا بها إلى القائم، فأجابه بنو قُرّة وغيرهم.

وسبب استجابتهم أن الحاكم بأمر الله كان قد أسرف في مصر في قتل القواد، وحبسهم، وأخذ أمواله، وسائر القبائل معه في ضنك وضيق، ويدّون خروج الملك عن يده؛ وكان الحاكم في الوقت الذي دعا أبو ركونة بني قُرّة قد آذاهم، وحبس منهم جماعة من أعيانهم، وقتل بعضهم، فلما دعاهم أبو ركونة انتقادوا له.

وكان بين بني قُرّة وبين زناتة حروب ودماء، فاتفقوا على الصلح، ومنع أنفسهم من الحاكم، فقصد بني قُرّة، وفتح يعلم الصبيان الخط، وتظاهر بالدين والنسك، وأمهم في صلواتهم، فشرع في دعوتهم إلى ما يريد، فأجابوه وباعوه، واتفقوا عليه، وعرفهم حينئذ نفسه، وذكر لهم أن عندهم في الكتب أنه يملك مصر وغيرها، ووعدهم ومناهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. فاجتمعت بنو قُرّة وزناتة على بيعته، وخاطبوه بالإمامة، وكانوا بناوحي برقة. فلما سمع الوالي برقة خبرهم كتب إلى الحاكم ينهيه إليه ويستأذنه في قصدهم وإصلاحهم، فأمر بالكف عنهم وأطراحهم.

ثم إن أبا ركونة جمعهم وسار إلى برقة، واستقرّ بينهم أن يكون الثلث من الغنائم له، والثلثان لبني قُرّة وزناتة، فلما قاربها خرج إليه واليها، فالتقوا، فانهزم عسكر الحاكم، وملك أبو ركونة برقة، وقوي هو ومن معه بما أخذوا (١٩٩/٩) من الأموال والسلاح وغيره، ونادى بالكف عن الرعيّة والنهب، وأظهر العدل وأمر بالمعروف.

فلما وصل المنهزمون إلى الحاكم عظم عليه الأمر، وأهمته نفسه وملكه، وعادوا الإحسان إلى الناس، والكف عن آذاهم، وندب عسكرياً نحو خمسة آلاف فارس وسيّره، وقَدَّم عليهم قائداً يُعرف بِبِئَال الطويل، وسيّره، فبلغ ذات الحِمَام، وبينها وبين برقة مفازة فيها منزلان، لا يلقي السالك الماء إلا في آبار عميقة بصعوبة وشدة. فسيّر أبو ركونة قائداً في ألف فارس، وأمرهم بالمسير إلى بئال ومن معه ومطاردتهم قبل الوصول إلى المنزلين المذكورين، وأمرهم، إذا عادوا، أن يغزّروا الآبار ففعلوا ذلك وعادوا، فحينئذ سار أبو ركونة في عساكره ولقيهم وقد خرجوا من المفازة على ضعف وعطش، فقاتلهم، فاشتد القتال فحمل بئال على عسكر أبي ركونة، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأبو ركونة واقف لم يحمل هو ولا

ثم ركب الفضل ومعه رؤساء العرب، وقد فاته ما عزموا عليه، فباشروا الحرب وغاصوا فيها، وورد أبو ركوعة مدداً لأصحابه، فلما رآه الفضل ردّ أصحابه وعاد إلى المدافعة.

وجَهَّزَ الحاكم عسكرياً آخر، أربعة آلاف فارس، وعبروا إلى الجزيرة، فسمع أبو ركوعة بهم، فسار مجداً في عسكره ليوافقهم عند مصر، وضبط الطرق لئلا يسمع الفضل، ولم يكن الماضي يكتبه، فساروا، وأرسل إليه من الطريق يعرفه الخبر، وقطع أبو ركوعة مسيرة خمس ليالٍ في ليلتين، وكبسوا عسكر الحاكم بالجزيرة، وقتلوا نحو ألف فارس، وخاف أهل مصر، ولم يبرز الحاكم من قصره، وأمر الحاكم من عنده من العساكر بالعبور إلى الجزيرة، ورجع أبو ركوعة فقتل عند الهرمين، ثم انصرف من يومه، وكتب الحاكم إلى الفضل كتاباً ظاهراً يقول فيه: إنَّ أبا ركوعة انهزم من عساكرنا، فليقرأ على القوادم، وكتب إليه سرّاً يعلمه الحال. فآظهر الفضل البشارة بانتهزام أبي ركوعة تسكيناً للناس.

ثم سار أبو ركوعة إلى موضع يُعرف بالسبخة، كثير الأشجار، وتبعه الفضل، وكمن أبو ركوعة بين الأشجار، وطارد عسكر الفضل، ورجع عسكره القهقري ليستجروا عسكر الفضل ويخرج الكمين عليهم، فلما رأى الكمين رجوع عسكر أبي ركوعة ظنَّوها الهزيمة لاشكَّ فيها، فولَّوا يتبعونهم، وركبهم أصحاب الفضل، وعلوهم بالسيوف فقتل منهم ألف كثيرة، وانهزم أبو ركوعة (٢٠٢/٩) معه بنو قرة وساروا إلى حلهم، فلما بلغوا تبَّطَّهم الماضي عنه، فقالوا له: قد قاتلنا معك، ولم يبقَ فينا قتال، فخذ لنفسك وانج؛ فسار إلى بلد النوبة، فلما بلغ إلى حصن يُعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر أنه رسول من الحاكم إلى ملكهم، فقال له صاحب الحصن: الملك عليل، ولا بدَّ من استخراج أمره في مسيرك إليه.

وبلغ الفضل الخبر، فأرسل إلى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته، فوكلَّ به من يحفظه، وأرسل إلى الملك بالحال، وكان ملك النوبة قد توفَّى وملك ولده، فأمر أن يسلم إلى نائب الحاكم، فتسلَّمه رسول الفضل وسار به، فلقى الفضل وأكرمه وأنزله في مضاربه، وحمله إلى مصر فأشهر بها، وطيف به.

وكتب أبو ركوعة إلى الحاكم رقعة يقول فيها: يا مولانا الذنوب عظيمة، وأعظم منها عقوبك، والدماء حرام ما لم يحلها سخطك، وقد أحسنت وأسات وما ظلمت إلا نفسي، وسوء عملي أوبقني، وأقول:

فررت فلم يبقَ القرار، ومن يكن
ووالله ما كان القرار لحاجة
وقد قاتني جرمي إليك برمتي
فيا ربَّ ظنَّ ربه فيك كاذب

عسكره، فاستأمن إليه جماعة كثيرة من كتامة لما نالهم من الأذى والقتل من الحاكم، وأخذوا الأمان لمن بقي من أصحابهم، ولحقهم الباقون، فحمل حيتن بهم على عساكر الحاكم، فانهزمت وأسر ينال وقُتل، وأسر أكثر عسكره، وقُتل منهم خلق كثير، وعاد إلى بركة وقد امتلأت أيديهم من الغنائم.

وانتشر ذكره، وعظمت هيئته، وأقام ببرقة، وتردَّدت سراياه إلى الصعيد وأرض مصر، وقام الحاكم من ذلك وقعد، وسقط في يده، وندم على ما فرط، وفرح جند مصر وأعيانها، وعلم الحاكم ذلك، فاشتدَّ قلقه، وأظهر الاعتذار عن الذي فعله.

وكتب الناس إلى أبي ركوعة يستدعونهم، وممن كتب إليه الحسين بن جوهر (٢٠٠/٩) المعروف بقائد القوادم، فسار حيتن عن بركة إلى الصعيد، وعلم الحاكم، فاشتدَّ خوفه، وبلغ الأمر به كل مبلغ، وجمع عساكره واستشارهم، وكتب إلى الشام يستدعي العساكر، فجاءته، وفرَّق الأموال، والدواب، والسلاح، وسيَّرههم وهم اثنا عشر ألف رجل بين فارس وراجل، سوى العرب، واستعمل عليهم الفضل بن عبد الله. فلما قاربوا أبا ركوعة لقيهم في عساكره ورام المناجزة المصريين، والفضل يحاجزه، ويدافع، ويرسل أصحاب أبي ركوعة يستميلهم ويذل لهم الرغائب، فأجابه قائد كبير من بني قرة يعرف بالماضي، وكان يطالعه بأخبار القوم وما هم عازمون، فيدبّر الأمر فضله على حسب ما يعلمه منه.

وضاقت الميرة على العساكر، فاضطر الفضل إلى البقاء، فالتقوا واقتتلوا بكوم شريك، فقتل بين الفريقين قتلى كثيرة، ورأى الفضل من جمع أبي ركوعة ما هاله، وخاف المناجزة فعاد إلى عسكره.

وراسل بنو قرة العرب الذين في عسكر الحاكم يستدعونهم إليهم ويذكرونهم أعمال الحاكم بهم، فأجابوهم، واستقرَّ الأمر أن يكون الشام للعرب ويصير لأبي ركوعة ومن معه مصر، وتواعدوا ليلة يسير فيها أبو ركوعة إلى الفضل، فإذا وصل إليه انهزمت العرب، ولا يبقى دون مصر مانع. فكتب الماضي إلى الفضل بذلك، فلما كان ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليُطَّفروا عنده، وأظهر أنه صائم، وطاولهم الحديث، وتركهم في خيمة واعتزلهم، ووصَّى أصحابه بالاحذر، ورام العرب العود إلى خيامهم، فعلمهم وطاولهم، ثم أحضر الطعام وأحضرهم، فأكلوا وتحذَّثوا. (٢٠١/٩)

وسمَّيَ الفضل سريةً إلى طريق أبي ركوعة، فلقوا العسكر الوارد من عنده، فاقتتلوا، فوصل الخبر إلى العسكر وارتجَّ، وأراد العرب الركوب، فمنعهم، وأرسل إلى أصحابهم من العرب فأمرهم بالركوب والقتال، ولم يكن عندهم علم بما فعل رؤسائهم، فركبوا واشتدَّ القتال، ورأى بنو قرة الأمر على خلاف ما قرَّروه.

وفيهما هب على الحجاج ريح سوداء بالعلبية اظلمت لها الأرض، ولم ير الناس بعضهم بعضاً، وأصابهم عطش شديد، ومنعه ابن الجراح الطائي من المسير ليأخذ منهم مالاً، ففارق الوقت عليهم، فعادوا ولم يحجوا.

وفيهما مات علي بن أحمد أبو الحسن الفقيه المالكي، المعروف بابن القصاب. (٢٠٦/٩)

سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة

ذكر غزوة بهم نغر

لما فرغ يمين الدولة من الغزوة المتقدمة وعاد إلى غزنة، واستراح هو وعسكره، استعد لغزوة أخرى، فسار في ربيع الآخر من هذه السنة، فانتهى إلى شاطئ نهر هيند مند، فلما هناك ابرهمن بال بن اندبال في جيوش الهند، فاقتتلوا ملياً من النهار، وكادت الهند تغفر بالمسلمين، ثم إن الله تعالى نصر عليهم، فظفر بهم المسلمون، فانهزموا على أعقابهم، وأخذهم المسلمون بالسيف.

وتبع يمين الدولة أثر ابرهمن بال، حتى بلغ قلعة بهم نغر، وهي على جبل عال كان الهند قد جعلوها خزانة لصلتهم الأعظم، فينقلون إليها أنواع الذخائر، قرناً بعد قرن، وأغلاق الجواهر، وهم يعتقدون ذلك ديناً وعبادة، فاجتمع فيها على طول الأزمان ما لم يُسمع بمثله، فنازلهم يمين الدولة وحصرهم وقتلهم.

فلما رأى الهند كثرة جمعه، وحرصهم على القتال، وزحفهم إليهم مرة بعد أخرى، خافوا وجبنوا، وطلبوا الأمان، وفتحوا باب الحصن، وملك (٢٠٧/٩) المسلمون القلعة، وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته، فأخذ منها من الجواهر ما لا يُحَد، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية، ومن الأواني الذهبية والفضية سبع مائة ألف وأربعمائة من، وكان فيها بيت مملوء من فضة طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه خمسة عشر ذراعاً، إلى غير ذلك من الأمتعة. وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم، ففرش تلك الجواهر في صحن داره، وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك، فادخلهم إليه، فرأوا ما لم يسمعوا بمثله.

ذكر حال أبي جعفر بن كاكويه

هو أبو جعفر بن دشمنزيار، وإنما قيل كاكويه لأنه كان ابن خال والدته مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه، وكاكويه هو خال بالفارسية، وكانت والدته مجد الدولة قد استعملته على أصهبان، فلما فارت ولدها فسد حاله، فقصد الملك بهاء الدولة وأقام عنده مدة، ثم عادت والدته مجد الدولة إلى ابنها بالرّي، فهرب أبو جعفر وسار إليها، فأعادته إلى أصهبان، واستقر فيها قدمه، وعظم شأنه،

وما هو إلا الانتقام، وينتهي وأخذك منه واجباً لك واجب (٢٠٣/٩)

ولما طيف به البس طرطوراً، وجعل خلفه قرد يصفعه، كان معلماً بذلك، ثم حُمِل إلى ظاهر القاهرة ليقتل ويصلب، فتوفي قبل وصوله، فقطع رأسه وصلب، وبالحاكم في إكرام الفضل إلى حد أنه عاده في مرضه مرضها دفعين، فاستعظم الناس ذلك، ثم إنه عمل في قتل الفضل لما عوفي فقتله.

ذكر القبض على مجد الدولة وعوده إلى ملكه

في هذه السنة قبضت والدته مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه، صاحب الرّي وبلد الجبل، عليه.

وكان سبب ذلك أن الحكم كان إليها في جميع أعمال ابنها، فلما وزر له الخطير أبو علي بن علي بن القاسم استمال الأمراء، ووضعهم عليها، والشكوى عليها، وخوف ابنها منها، فصار كالمحجور عليه. فخرجت من الرّي إلى القلعة فوضع عليها من يحفظها، فعملت الحيلة حتى هربت إلى بدر بن حسنويه، واستعانت به في ردها إلى الرّي.

وجاءها ولدها شمس الدولة، وعساكرهمذان، وسار معها بدر إلى الرّي فحصروها، وجرى بين الفريقين قتال كثير مدة، ثم استظهر بدر، ودخل البلد، وأسر مجد الدولة، فقيدته والدته وسجنته بالقلعة، وأجلست (٢٠٤/٩) أخاه شمس الدولة في الملك وصار الأمر إليها.

وعاد بدر إلى بلده، وبقي شمس الدولة في الملك نحو سنة، فمات والدته منه تنكراً وتغيراً، وأن أخاه مجد الدولة آتس عريكة، وأسلم جانباً، فأعادته إلى الملك، وسار شمس الدولة إلى همذان، وكره بدر هذه الحالة إلا أنه اشتغل بولده هلال عن الحركة فيها، وصارت هي تدبر الأمر، وتسمع رسائل الملوك، وتعطي الأجوبة.

وأرسل شمس الدولة إلى بدر يستمده، فسير إليه جنداً، فأخذهم وسار بهم إلى قم، فحصرها، فمنعها أهلها. ثم إن العساكر دخلوا طرفاً منها واشتغلوا بالنهب، فأكب عليهم العامة وقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل، وانهزم الباقون إلى معسكرهم، ثم قبض هلال بن بدر على أبيه، فتفرق ذلك الجمع كله.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اشتد الغلاء بالعراق، فضج العامة، وشغب الجند وكانت فتنة.

وفيهما توفي عبد الصمد الزاهد، ودُفن عند قبر أحمد، وكان غاية في الزهد والورع. (٢٠٥/٩)

وسياتي من أخباره ما يُعلم [به] صحة ذلك، إن شاء الله
تعالى (٢٠٨/٩)

الجرجاني الحنفي بعد أن فُلج ؛ وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر
المعروف بالبيغاء الشاعر، وديوانه مشهور ؛ والقاضي أبو عبد الله
الضبي بالبصرة ؛ والبديع أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني،
صاحب المقامات المشهورة، وله شعر حسن، وقرأ الأدب على
أبي الحسين بن فارس مصنف المُجمل .

وتوفي أبو بكر أحمد بن علي بن لال الفقيه الشافعي الهمداني
بنواحي عكا بالشام، كان انتقل إلى هناك . (٢١٠/٩)

سنة تسع وتسعين وثلاثمائة

ذكر ابتداء حال صالح بن مرداس

لما قتل عيسى بن خلاط أبا علي بن شمال بالرحبة وملكها،
أقام فيها مدةً، ثم قصده بدران بن المقلد العُقيلي، فأخذ الرحبة منه
وبقيت لبدران . فأمر الحاكم بأمر الله نائبه بدمشق لؤلؤاً البشاري
بالمسير إليها، فقصده الرقة أولاً وملكها، ثم سار إلى الرحبة وملكها
ثم عاد إلى دمشق .

وكان بالرحبة رجل من أهلها يُعرف بابن مُحكان، فملك البلد،
واحتاج إلى من يجعله ظهراً، ويستعين به على من يطمع فيه،
فكتب صالح بن مرداس الكلابي، فقدم عليه وأقام عنده مدةً، ثم
إن صالحاً تغيّر عن ذلك، فسار إلى ابن مُحكان وقتله على البلد،
وقطع الأشجار، ثم تصالحا، وتزوج ابنة ابن مُحكان، ودخل صالح
البلد إلا أنه كان أكثر مقامه بالحلة .

ثم إن ابن مُحكان راسل أهل عانة فأطاعوه، ونقل أهله وماله
إليهم، وأخذ رهائتهم، ثم خرجوا عن طاعته وأخذوا ماله واستعادوا
رهائتهم وردوا أولاده، فاجتمع ابن مُحكان وصالح على قصد
عانة، فسارا إليها (٢١١/٩) فوضع صالح على ابن مُحكان من
يقتله، فقتل غيلةً، وسار صالح إلى الرحبة فملكها، وأخذ أموال ابن
مُحكان وأحسن إلى الرعية، واستمر على ذلك، إلا أن الدعوة
للمصريين .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قُتل أبو علي بن شمال الخفاجي، وكان الحاكم
بأمر الله، صاحب مصر، قد ولّاه الرحبة، فسار إليها، فخرج إليه
عيسى بن خلاط العُقيلي فقتله وملك الرحبة، ثم ملكها بعده غيره،
فصار أمرها إلى صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب .

وفيها صُرف أبو عمر بن عبد الواحد الهاشمي عن قضاء
البصرة، وكان قد علا إسناده في رواية السنن لأبي داود
السجستاني، ومن طريقه سمعناه، وولي القضاء بعده أبو الحسن بن
أبي الشوارب، فقال العُصفرى الشاعر :

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، وقع تلج كثير ببغداد واسط
والكوفة، والبطائح إلى عبادان، وكان ببغداد نحو ذراع، وبقي في
الطرق نحو عشرين يوماً.

وفيها وقعت الفتنة ببغداد في رجب، وكان أولها أن بعض
الهاشميين من باب البصرة أتى ابن المعلم فقيه الشيعة في مسجده
بالكرخن فأذاه، ونال منه، فثار به أصحاب المعلم، واستنفر بعضهم
بعضاً، وقصدوا أبا حامد الأسفراييني وابن الأكفاني فسبّوهما
وطلبوا الفقهاء ليوَقّعوا بهم، فهربوا، وانتقل أبو حامد الأسفراييني
إلى دار القطن، وعظمت الفتنة، ثم إن السلطان أخذ جماعة
وسجنهم، فسكنوا، وعاد أبو حامد إلى مسجده، وأخرج ابن المعلم
من بغداد، فشفع فيه علي بن مزيد فأعيد.

وفيها وقع الغلاء بمصر واشتدَّ، وعظم الأمر، وعمدت
الأقوات، ثم تعقبه وباء كثير أفنى كثيراً من أهلها.

وفيها زلزلت الدّينور زلزلةً شديدة خربت المساكن، وهلك
خلق كثير من أهلها، وكان الذين دُفِنوا ستّة عشر ألفاً سوى من بقي
تحت الهدم ولم يشاهد.

وفيها أمر الحاكم بأمر الله، صاحب مصر، بهدم بيعة قمامة،
وهي بالبيت (٢٠٩/٩) المقدّس، وتسّمها العامة القيامة، وفيها
الموضع الذي دفن فيه المسيح، عليه السلام، فيما يزعمه النصارى،
وإليها يحجّون من أقطار الأرض، وأمر بهدم البيع في جميع
مملكته، فهُدِّمت، وأمر اليهود والنصارى إمّا أن يسلموا، أو يسيروا
إلى بلاد الروم ويلبسوا النصارى، فأسلم كثير منهم، ثم أمر بعمارة
البيع، ومن اختار العود إلى دينه عاد، فارتدّ كثير من النصارى.

وفيها توفي أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبي، وزير مجد
الدولة، برّوجرد، وكان سبب مجيئه إليها أن أم مجد الدولة بن بويه
أتهمت أنه سمّ أخاه فمات، فلما توفي أخوه طلبت منه ماتتي دينار
لتنفقها في مائمه، فلم يعطها، فأخرجته، فقصد برّوجرد، وهي من
أعمال بدر بن حسنويه، فبذل بعد ذلك ماتتي ألف دينار ليعود إلى
عمله، فلم يُقبل منه، فأقام بها إلى أن توفي، وأوصى أن يُدفن
بمشهد الحسين، عليه السلام، فقبيل للشريف أبي أحمد، والد
الشريف الرضي، أن يبيعه بخمس مائة دينار موضع قبره، فقال : من
يريد جوار جذي لا يباع ؛ وأمر أن يُعمل له قبر، وسيّر معه من
أصحابه خمسين رجلاً، فدفته بالمشهد .

وتوفي بعده بيسير ابنه أبو القاسم سعد ؛ وأبو عبد الله

أصحاب هلال لإحسانه إليهم وبذله المال لهم، وأعرض الناس عن بدر لإمساكه المال، فسار كل منهما إلى صاحبه، فالتقيا على باب الدنيتور، فلما تراءى الجمعان انحازت الأكراد إلى هلال، فأخذ بدر أسيراً وحمل إلى ابنه، فأشير على هلال بقتله، وقالوا: لا يجوز أن تستبقيه بعدما أوحشته؛ فقال: ما بلغ من عقوقي له أن أقتله؛ وحضر عند أبيه، وقال له: أنت الأمير وأنا مدبر جيشك. فخادعه أبوه بأن قال له: لا يسمعن هذا منك أحد فيكون هلاكنا جميعاً، وهذه القلعة لك، والعلامة في تسليمها كذا وكذا، واحفظ المال الذي بها، فإنك الأمير ما دام الناس يظنون بقاءه، وأريد أن تغرد لي قلعة أنفرغ فيها للعبادة. ففعل ذلك، وأعطاه جملة من المال.

عندي حديث طريف بمظلمة يغتشى من قاضين يعزى فلما يقرهوننا وفايقولوا استرحنا ويكتبان ونهذي فمن يصديقنا وفيها توفي أبو داود بن سيامرد بن باجعفر، ودفن عند قبر النذور (١١٢/٩) بنهر المعلى، وقبته مشهورة؛ وأبو محمد النامي الفقيه الشافعي، وهو القاتل؛

يا ذا النبي قاسمني في البلى فاختار أن يسكتة أولاً ما وطنت نفسي، ولكنها تسري إليكم متزلاً، متزلاً (٢١٣/٩)

سنة أربع مائة

ذكر قلعة نارين بالهند

في هذه السنة تجهز يمين الدولة إلى الهند غازماً على غزوها، فسار إليها واخترقها واستباحها ونكس أصنامها. فلما رأى ملك الهند أنه لا قوة له به راسله في الصلح والهدنة على مال يؤديه، وخمسين فيلاً، وأن يكون له في خدمته ألفا فارس لا يزالون. فقبض منه ما بذله وعاد عنه إلى غزنة.

ذكر الخلف بين بدر بن حسنويه وابنه هلال

في هذه السنة كانت حرب بين بدر بن حسنويه الكردي وبين ابنه هلال.

وكان سبب الوحشة بينهما أن أم هلال كانت من الشاذنجان، فاعتزلها أبوه عند ولادته، فنشأ هلال مبعداً منه لا يعيل إليه، وكانت نعمة بدر لابنه الآخر أبي عيسى.

فلما كان في بعض الأيام خرج هلال مع أبيه متصيداً، فأرأى سباعاً وكان بدر إذا رأى سباعاً قتله بيده، فتقدم هلال إلى الأسد بغير إذن أبيه فقتله، (٢١٤/٩) فاحتفظ أبوه وقال: كأنك قد فتحت فتحاً، وأي فرق بين السبع والكلب؟ ورأى إبعاده عنه لشدة، فأطلقه الصامغان، وسهل ذلك على هلال ليفرد بنفسه عن أبيه، فأول ما فعله أنه أساء مجاورة ابن الماضي، صاحب شهرزور، وكان موافقاً لأبيه بدر، فنهى بدر ابنه هلالاً عن معارضة، فلم يسمع قوله، وأرسل إلى ابن الماضي يتهذهه، فأعاد بدر مراسلة ابنه في معناه، وتهذهه إن تعرض بشيء هو له، فكان جواب نهيته أنه جمع عسكره وحصر شهرزور ففتحها، وقتل ابن الماضي وأهله، وأخذ أموالهم. فورد على بدر من ذلك ما أزعجه وأقلق، وأظهر السخط على هلال.

وشرع هلال يفسد جند أبيه ويستميلهم ويبذل لهم، فكثر

فلما استقر بدر بالقلعة عمرها وحصنها، وراسل أبا الفتح بن عتاز، وأبا عيسى شاذي بن محمد، وهو بأساداباذ، يقول لكل واحد منهما ليقتد أعمال هلال ويشعنها. فسار أبو الفتح إلى قرميسين فملكها، وسار أبو عيسى إلى سابور خواست، فنهب حبل هلال، ومضى إلى نهاوند، وبها أبو بكر بن (٢١٥/٩) رافع، فأتبعه هلال إليها، ووضع السيف في الديلم فقتل منهم أربع مائة نفس، منهم تسعون أميراً، وأسلم ابن رافع أبا عيسى إلى هلال، فعفا عنه، ولم يواخذه على فعله، وأخذه معه.

وأرسل بدر إلى الملك بهاء الدولة يستنجد، فجهز فخر الملك أبا غالب في جيش وسيره إلى بدر، فسار حتى وصل إلى سابور خواست، فقال هلال لأبي عيسى شاذي: قد جاءت عساكر بهاء الدولة، فما الرأي؟ قال: الرأي أن تتوقف عن لقاءهم، وتبذل لبهاء الدولة الطاعة، وترضيه بالمال، فإن لم يجيبك فضيقت عليهم، وانصرف بين أيديهم، فإنهم لا يستطيعون المطاولة، ولا تظن هذا العسكر كمن لقيته بباب نهاوند، فإن أولئك ذلهم أبوك على ممر السنين.

فقال: غششتني ولم تصحني، وأردت بالمطاولة أن يقوى أبي وأضعف أنا؛ وقتله، وسار ليكبس العسكر ليلاً. فلما وصل إليهم وقع الصوت، فركب فخر الملك في العساكر، وجعل عند أثناسهم من يحميها، وتقدم إلى قتال هلال، فلما رأى هلال صعوبة الأمر ندم، وعلم أن أبا عيسى بن شاذي نصحه، فندم على قتله، ثم أرسل إلى فخر الملك يقول له: إني ما جئت لقتال وحرب، إنما جئت لأكون قريباً منك، وأنزل على حكمك، فترد العسكر عن الحرب، فإني أدخل في الطاعة.

فمال فخر الملك إلى هذا القول، وأرسل الرسول إلى بدر ليخبره بما جاء به. فلما رأى بدر الرسول سبه وطرده، وأرسل إلى فخر الملك يقول له: (٢١٦/٩) إن هذا مكر من هلال، لما رأى ضعفه، والرأي أن لا تنفس خناقه. فلما سمع فخر الملك الجواب

يملكها، فانتقل إلى الزهراء وحصرها، وقتل من بها ثلاثة أيام. ثم إن بعض الموكّلين بحفظها سلّم إليه الباب الذي هو موكّل بحفظه، فصعد البربر السور وقتلوا من عليه حتّى أزالوهم، وملكوا البلد عنوةً، وقُتل أكثر من به من الجند، وصعد أهل الجبل، واجتمع الناس بالجامع، فأخذهم البربر وذبحوهم، حتّى النساء والصبيان، وألقوا النار بالجامع والقصر والديار، فاحترق أكثر ذلك ونُهبت الأموال. (٢١٨/٩)

ثم إن واضحاً كاتب سليمان يعرفه أنّه يريد الانتقال عن قُرطبة سرّاً، ويشير عليه بمنازلتها بعد مسيره عنها، ونمى الخبر إلى مؤيّد، فقبض عليه وقتله، واشتد الأمر بقُرطبة، وعظم الخطب، وقُلت الأوقات، وكثر الموت، وكانت الأقوات عند البربر أقلّ منها بالبلد لأنهم كانوا قد خرّبوا البلاد، وجلا أهل قُرطبة، وقتل المؤيّد كلّ من مال إلى سليمان.

ثم إن البربر وسليمان لازموا الحصار والقتال لأهل قُرطبة، وضيقوا عليهم، وفي مدّة هذا الحصار ظهر بطلُيلة عُبيد الله بن محمّد بن عبد الجبار، وبابعه أهلها، فسير إليهم المؤيّد جيشاً، فحصرهم، فعادوا إلى الطاعة، وأخذ عبيد الله أسيراً، وقُتل في شعبان سنة إحدى وأربعين.

ثم إن أهل قُرطبة قاتلوا في بعض الأيام البربر فقتل منهم خلق كثير، وغرق في النهر مثلهم، فرحلوا عنها، وساروا إلى إشبيلية فحصرها، فأرسل المؤيّد إليها جيشاً فحماها، ومنع البربر منها، وراسل سليمان نائب المؤيّد بسُرْقطة وغيرها يدعوهم إليه فاجابوه وأطاعوه، فسار البربر وسليمان عن إشبيلية إلى قلعة رباح، فملكوها، وغنموا ما فيها، واتخذوها داراً، ثم عادوا إلى قُرطبة فحصرها، وقد خرج كثير من أهلها وعساكرها من الجوع والخوف، واشتد القتال عليها، وملكها سليمان عنوةً وقهراً، وقتلوا من وجدوا في الطرق، ونهبوا البلد وأحرقوه، فلم تحصن القتلى لكثرتهم.

ونزل البربر في الدور التي لم تحرق، فقال أهل قُرطبة من ذلك ما لم يسمع بمثله، وأخرج المؤيّد من القصر وحلّ إلى سليمان، ودخل سليمان قُرطبة منتصف شوال سنة ثلاث وأربعمئة وبويع له فيها.

ثم إن المؤيّد جرى له مع سليمان أقاوص طويلة؛ ثم خرج إلى شرق (٢١٩/٩) الأندلس من عنده، وكان ممن قُتل في هذا الحصر أبو الوليد ابن الفرضي مظلوماً، رحمه الله.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أرسل الحاكم بأمر الله من مصر إلى المدينة،

قويت نفسه، وكان يتهم بدرأ بالميل إلى ابنه، وتقدّم إلى الجيش بالحرب، فقاتلوا، فلم يكن بأسرع من أن أتى بهلال أسيراً، فقبِل الأرض وطلب أن لا يسلمه إلى أبيه، فأجابه إلى ذلك، وطلب علامته بتسليم القلعة، فأعطاهم العلامة، فامتعت أمّه ومن بالقلعة من التسليم، وطلبوا الأمان، فأتتهم فخر الملك، وصعد القلعة ومعه أصحابه، ثم نزل منها وسلمها إلى بدر، وأخذ ما فيها من الأموال وغيرها، وكانت عظيمة، قيل: كان بها أربعون ألف بكرة دراهم، وأربع مائة بكرة ذهباً، سوى الجواهر النفيسة، والثياب والسلاح وغير ذلك. وأكثر الشعراء ذكر هذا، فممن قال مهيّار:

فَنظَرْتُكَ تَبّاً بِحَمْلِ الْعِرَاقِ كَانَ لَمْ يَرْوِكَ حَمَلَتْ الْجِبَالَا
وَلَوْلَمْ تَكُنْ فِي الْعُلُوفِ السَّمَاءِ لَمَا كَانَ غُنْمُكَ مِنْهَا هِلَالَا
سَرِيتَ إِلَيْهِ، فَكَنتَ السَّرَازَ لَهُ، وَلِبَدْرِ أَبِيهِ كَمَالَا
وهي كثيرة.

ذكر عود المؤيّد إلى إمارة الأندلس وما كان منه

قد ذكرنا سبب خلعه وحبسه، فلما كان هذه السنة أعيد إلى خلافته، واسمه هشام بن الحاكم بن عبد الرحمن الناصر، وكان عوده تاسع ذي الحجة، وكان الحكم في دولته هذه إلى واضح العامري، وأدخل أهل قُرطبة إليه، فوعدهم ومناهم، وكتب إلى البربر الذين مع سليمان بن الحاكم بن سليمان بن عبد الرحمن (٢١٧/٩) الناصر، ودعاهم إلى طاعته، والوفاء ببيعتهم، فلم يجيبوه إلى ذلك، فأمر أجناده وأهل قُرطبة بالحذر والاحتياط، فأحبّه الناس.

ثم نقل إليه أنّ نفرًا من الأمويّين بقُرطبة قد كاتبوا سليمان، وواعدوه ليكون بقُرطبة في السابع والعشرين من ذي الحجة ليسلموا إليه البلد، فأخذهم وحبسهم، فلما كان الميعاد قدم البربر إلى قُرطبة، فركب الجند وأهل قُرطبة وخرجوا إليهم مع المؤيّد، فعاد البربر وتبعتهم عساكره، فلم يلحقوهم، وتردّت الرسل بينهم فلم يتفقوا إلى شيء.

ثم إن سليمان والبربر راسلوا ملك الفرنج يستمدّونه، ويدلّوا له تسليم حصون كان المنصور بن أبي عامر قد فتحها منهم، فأرسل ملك الفرنج إلى المؤيّد يعرفه الحال، ويطلب منه تسليم هذه الحصون لتلاّ يمدّ سليمان بالعساكر. فاستشار أهل قُرطبة في ذلك، فأشاروا بتسليمها إليه خوفاً من أن يُنجدوا سليمان، واستقرّ الصلح في المحرم سنة إحدى وأربعمئة. فلما أيس البربر من إنجاد الفرنج رحلوا، فنزلوا قريباً من قُرطبة في صفر سنة إحدى وأربعمئة، وجعلت خيلهم تغير يميناً وشمالاً، وخرّبوا البلاد.

وعمل المؤيّد وواضح العامري سوراً وخندقاً على قُرطبة أمام السور الكبير، ثم نزل سليمان قُرطبة خمسة وأربعين يوماً فلم

ففتح بيت جعفر الصادق، وأخرج منه مصحف وسيف وكساء وقعب وسرير.

وفيها نقص الماء بدجلة حتى أصلحت مسا بين أوانا وقريب بغداد، حتى جرت السفن فيها.

وفيها مرض أبو محمد بن سهلان، فاشتد مرضه، فنذر إن عوفي بنى سوراً على مشهد أمير المؤمنين علي، عليه السلام، فعوفي، فأمر ببناء سور عليه، فبني في هذه السنة، تولى بناءه أبو إسحاق الأرجاني.

وفيها ولد عدنان ابن الشريف الرضي.

وفيها توفي النقيب أبو أحمد الموسوي، والد الرضي، بعد أن أضرب، ووقف بعض أملاكه على البر، وصلى عليه ابنه الأكبر المرتضى، ودُفن بداره، ثم نُقل إلى مشهد الحسين، عليه السلام، وكان مولده سنة أربع وثلاثمئة.

وفيها توفي أيضاً أبو جعفر الحجاج بن هُرْمُز بالأهواز؛ وعمدة الدولة أبو إسحاق بن معز الدولة بن بويه بمصر. وفيها مرض الخليفة القادر بالله، واشتد مرضه، فأرجف عليه، فجلس (٢٢٠/٩) للناس ويده القضيبي، فدخل إليه أبو حامد الأسفرائيني، فقال لابن حاجب النعمان: اسأل أمير المؤمنين أن يقرأ شيئاً من القرآن لسمع الناس قراءته؛ فقرا: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ الآيات الثلاث. [الأحزاب: ٦٠]

وفيها توفي أبو العباس النامي الشاعر؛ وأبو الفتح علي بن محمد البستي الكاتب الشاعر، صاحب الطريقة المشهورة في التجنيس، فمن شعره:

يا أيها السائل عن مذهبي لِقَتَلِي فِيهِ بِنَهَاجِي
مِنَاجِي الْمَدْلُ وَقَمَعَ الْهُوَى فَهَلْ لِمِنَاجِي مِنْ هَاجِي (٢٢١/٩)

سنة إحدى وأربعمئة

ذكر غزوة يمين الدولة بلاد الغور وغيرها

بلاد الغور تجاور غزنة، وكان الغور يقطعون الطريق، ويخيفون السبيل، وبلادهم جبال وعرة، ومضايق غلقة، وكانوا يحتمون بها، ويعتصمون بصعوبة مسلكتها، فلما كثرت ذلك منهم أنف يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيواته، وهم على هذه الحال من الفساد والكفر، فجمع العساكر وسار إليهم وعى مقدمته التوتانش الحاجب، صاحب هراة، وأرسلان الجاذب، صاحب طوس، وهما أكبر أمرائه، فسارا فيمن معهما حتى انتهوا

فسمع يمين الدولة الحال، فجد في السير إليهم، وملك عليهم مسالكهم، ففرقوا، وساروا إلى عظيم الغورية المعروف بابن سوري، فانتهاوا إلى مدينته التي تدعى اهكران، فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم المسلمون إلى أن انتصف النهار، فراوا أشجع الناس وأقواهم على القتال، فأمر يمين الدولة أن يولّوهم الأدبار على سبيل الاستدراج، ففعلوا. فلما رأى الغورية (٢٢٢/٩) ذلك ظنوه هزيمة، فاتبعهم حتى أبعدوا عن مدينتهم، فحيتن عطف المسلمون عليهم ووضعوا السيوف فيهم فأبادوهم قتلاً وأسراً، وكان في الأسرى كبيرهم وزعيمهم ابن سوري، ودخل المسلمون المدينة وملكوها، وغنموا ما فيها، وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعها، فلما عاين ابن سوري ما فعل المسلمون بهم شرب سماً كان معه، فمات وخسر الدنيا والآخرة، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار الإسلام، وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه وعاد؛ ثم سار إلى طائفة أخرى من الكفار، فقطع عليهم مفازة من رمل، ولحق عساكره عطش شديد وكادوا يهلكون، فلطف الله، سبحانه وتعالى بهم، وأرسل عليهم مطراً سقاهم، وسهل عليهم السير في الرمل، فوصل إلى الكفار، وهم جمع عظيم، ومعهم ستمائة قبل، فقاتلهم أشد قتال صبر فيه بعضهم لبعض، ثم إن الله نصر المسلمين، وهزم الكفار، وأخذ غنائمهم، وعاد سالماً مطمئناً منصوراً.

ذكر الحرب بين ايلك الخان وبين أخيه

وفي هذه السنة سار ايلك الخان في جيوش قاصداً قتال أخيه طغان خان، فلما بلغ يوزكند سقط من الثلج ما منهم من سلوك الطرق، فعاد إلى سمرقند.

وكان سبب قصده أن أخاه أرسل إلى يمين الدولة يعتذر، ويتصل من قصد أخيه ايلك الخان بلاد خراسان، ويقول: إنني ما رضيت ذلك منه؛ ويلزم أخاه (٢٢٣/٩) وحده الذنب، وتبرأ هو منه، فلما علم أخوه ايلك الخان ذلك ساءه وحمله على قصده.

ذكر الخطبة للمصريين العلويين بالكوفة والموصل

في هذه السنة أيضاً خطب قرواش بن المقلد أمير بني غُثَيْل للحاكم بأمر الله العلوي، صاحب مصر، بأعماله كلها، وهي: الموصل، والأنبار، والمدائن، والكوفة وغيرها، وكان ابتداء الخطبة بالموصل: الحمد لله الذي أنجلت بنوره غمرات العصب. وإنهذت بقدرة أركان النصب. وأطلع بنوره شمس الحق من العرب.

فأرسل القادر بالله، أمير المؤمنين، القاضي أبا بكر بن

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اشتد الغلاء بخراسان جميعها، وعدم القوات حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، فكان يصيح الإنسان: الخبز الخبز! ويموت، ثم تبعه وباء عظيم حتى عجز الناس عن دفن الموتى.

وفيها مات أبو الفتح محمد بن عَناز بلحوان، وكانت إمارته عشرين سنة، وقام بعده ابنه أبو الشوك فسيرت إليه العساكر من بغداد لقتاله، ولقيهم أبو الشوك وقاتلهم قتالاً شديداً، وانهزم أبو الشوك إلى حلوان، وأقام بها إلى أن أصلح حاله مع الوزير أبي غالب لما قدم العراق.

وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن مقن بن مقلد بن جعفر بن عمرو بن المهدي القليلي، وفي مقلد يجتمع آل المسيب وآل مقن، وكان عمره مائة وعشر سنين، وكان بخيلاً شديداً البخل، وشهد مع القرامطة أخذ الحجر الأسود.

وفيها توفي الأمير أبو نصر أحمد بن أبي الحارث محمد بن فريفون، (٢٢٦/٩) صاحب الجوزجان، وكان صهر يمين الدولة على أخته، وكان هو وأبوه قبله يحبان العلماء ويحسنان إليهم.

وفيها انقض كوكب كبير لم يُر أكبر منه.

وفيها زادت دجلة إحدى وعشرين ذراعاً، وغرق كثير من بغداد والعراق، وتفتحت البثوق؛ ولم يحج هذه السنة من العراق أحد.

وفيها توفي إبراهيم بن محمد بن عُبيد أبو مسعود الدمشقي الحافظ، سافر الكثير في طلب الحديث، وله عناية بصحاحي بخاري ومسلم؛ وتوفي أيضاً خلف بن محمد بن علي بن حمدون أبو محمد الواسطي، كان فاضلاً، ولسه أطراف الصحيحين أيضاً. (٢٢٧/٩)

سنة اثنين وأربعمئة

ذكر ملك يمين الدولة قصدار

في هذه السنة استولى يمين الدولة على قصدار، وملكها.

وسبب ذلك أن ملكها كان قد صالحه على قطعة يؤذيها إليه، ثم قطعها اغتراراً بحصانة بلده، وكثرة المضايق في الطريق، واحتفى بإبليك الخان، وكان يمين الدولة يريد قصدها، فيتقي ناحية إبليك الخان. فلما فسد ذات بينهما صمم العزم وقصدها وتجهز، وأظهر أنه يريد هراة، فسار من غزنة في جمادى الأولى، فلما استقل على الطريق سار نحو قصدار، فسبق خبره، وقطع تلك المضايق والجبل، فلم يشعر صاحبها إلا وعسكر يمين الدولة قد أحاط به ليلاً، فطلب الأمان فأجابه وأخذ منه المال الذي كان قد

الباقلائي إلى بهاء الدولة يعرفه ذلك، وأن العلويين والعباسيين انتقلوا من الكوفة إلى بغداد، فأكرم بهاء الدولة القاضي أبا بكر، وكتب إل عميد الجيوش يأمره بالمسير إلى حرب قرواش، وأطلق له مائة ألف دينار ينفقها في العسكر، وخلع على القاضي أبي بكر، وولاه قضاء عُمان والسواحل. وسار عميد الجيوش إلى حرب قرواش فأرسل يعتذر وقطع خطبة العلويين وأعاد خطبة القادر بالله.

ذكر الحرب بين بني مزيد وبني دؤيب

كان أبو الغنائم محمد بن مزيد مقيماً عند بني دؤيب في جزيرتهم، بنواحي خوزستان، لمصاهرة بينهم، فقتل أبو الغنائم أحد وجوههم، ولحق بأخيه أبي (٢٢٤/٩) الحسن علي بن مزيد، فتبعوه فلم يدركوه، وانحدر إليهم سند الدولة أبو الحسن بن مزيد في ألفي فارس، واستنجد عميد الجيوش، فأنحدر إليه عجلًا في زبزة في ثلاثين دليماً، وسار ابن مزيد، فوصل الخبر بهزيمته إلى عميد الجيوش وهو منحدر فعاد.

ذكر وفاة عميد الجيوش وولاية فخر الملك العراق

في هذه السنة توفي عميد الجيوش أبو علي بن أستاذ هرمز ببغداد، وكانت ولايته ثمانين سنين وأربعة أشهر وسبعة عشر يوماً، وكان عمره تسعاً وأربعين سنة، وتولى تجهيزه ودفنه الشريف الرضي، دفنه بمقابر قريش، ورثاه الرضي وغيره.

وكان أبوه، أبو جعفر أستاذ هرمز، من حُجّاب عضد الدولة، وجعل عضد الدولة عميد الجيوش في خدمة ابنه صمصام الدولة، فلما قتل اتصل بخدمة بهاء الدولة. فلما استولى الخراب على بغداد، وظهر العيارون، وانحلت الأمور بها، أرسله إليها، فأصلح الأمور، وقمع المفسدين وقتلهم. فلما مات استعمل بهاء الدولة مكانه بالعراق فخر الملك أبا غالب، فأصعد إلى بغداد، فلقبه الكتّاب والقواد وأعيان الناس، وزينوا له البلاد، ووصل بغداد في ذي الحجة، ومدحه مهيار وغيره من الشعراء.

ومن محاسن أعمال عميد الجيوش أنه حُمل إليه مال كثير قد خلّفه به التجّار المصريّين، وقيل له: ليس للميت وارث؛ فقال: لا يدخل خزّانة (٢٢٥/٩) السلطان ما ليس لها، يُترك إلى أن يصحّ خبره. فلما كان بعد مدة جاء أخ للميت بكتاب من مصر بأنّه مستحقّ للتركة، فقصد باب عميد الجيوش ليوصل الكتاب، فرآه يصلي على روشن داره فظنّه بعض الحُجّاب، فأوصل الكتاب إليه ففضى حاجته، فلما علم التاجر أن الذي أخذ الكتاب كان عميد الجيوش عظم الأمر عنده، فأظهر ذلك، فاستحسنه الناس، ولما وصل التاجر إلى مصر أظهر الدعاء له، فضجّ الناس بالدعاء له والثناء عليه، فبلغه الخبر فسرّه ذلك.

ماله، فشكا إلى سرور ذلك، فقال له: سيكون أمر تأمن معه؛ فسأله، فكتمه، فلم يزل يخدعه حتى أعلمه الخبر.

وكان بين ابن غانم وبين فتح مودة، فصعد إليه بالقلعة متكرراً، فأعلمه الخبر، وأشار عليه بمكاتبة الحاكم صاحب مصر، وأمر ابن لؤلؤ أخاه أبا الجيش بالصعود إلى القلعة بحجة افتقاد الخزائن، فإذا صار فيها قبض على فتح، وأرسل إلى فتح يعلمه أنه يريد افتقاد الخزائن، ويأمره بفتح الأبواب. فقال فتح: إنني قد شربت اليوم دواءً، وأسأل تأخير الصعود في هذا اليوم، إنني لا أثق في فتح الأبواب لغيري؛ وقال للرسول: إذا لقيته فاردده. فلما علم ابن لؤلؤ الحال أرسل والدته إلى فتح ليعلم سبب ذلك، فلما صعدت إليه أكرمها، وأظهر لها الطاعة فعادت وأشارت على ابنها بترك محافته ففعل، وأرسل إليه يطلب جوهرًا كان له بالقلعة، فغالبه فتح ولم يرسله، فسكت على مضض لعلمه أن المحافة لا تفيد لحصانة القلعة، وأشارت والدته ابن لؤلؤ عليه بأن يتمارض، ويظهر شدة المرض، ويستدعي الفتح لينزل إليه ليجعله وصياً، فإذا حضر (٢٣٠/٩) قبضه. ففعل ذلك، فلم ينزل الفتح، واعتذر، وكتب الحاكم، وأظهر طاعته، وخطب له، وأظهر العصيان على استأذنه، وأخذ من الحاكم صيدا، وبيروت، وكل ما في حلب من الأموال. وخرج ابن لؤلؤ من حلب إلى أنطاكية، وبها الروم، فأقام عندهم.

وكان صالح بن مرداس قد مالاً الفتح على ذلك، فلما عاد عن حلب استصحب معه والدته ابن لؤلؤ ونساءه، وتركهن بمنبج، وتسلم حلب نواب الحاكم، وتنقلت بأديهم حتى صارت بيد إنسان من الحمدانية يعرف بعزيز الملك، فقدمه الحاكم واصطنعه وولاه حلب، فلما قتل الحاكم وولي الظاهر عصى عليه، فوضعت ست الملك أخت الحاكم قرأشاً له على قتله فقتله.

وكان للمصريين بالشام نائب يعرف بأنوشكين البربري، وبيده دمشق، والرملة، وعسقلان، وغيرها، فاجتمع حسان أمير بني طي، وصالح بن مرداس أمير بني كلاب، ومسنان بن عليان، وتحالفوا، واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح، ومن الرملة إلى مصر لحسان، ودمشق لسان، فسار حسان إلى الرملة فحصرها وبها أنوشكين، فسار عنها إلى عسقلان، واستولى عليها حسان ونهبها وقتل أهلها، وذلك سنة أربع عشرة وأربعمئة، أيام الظاهر لإعزاز دين الله خليفة مصر.

وقصد صالح حلب، وبها إنسان يُعرف بابن ثعبان يتولى أمرها للمصريين، وبالقلعة خادم يعرف بموصوف، فأما أهل البلد فسلموه إلى صالح لإحسانه إليهم، ولسوء سيرة المصريين معهم، وصعد ابن ثعبان إلى القلعة، فحصره (٢٣١/٩) صالح بالقلعة، فغار الماء الذي بها، فلم يبق لهم ما يشربون، فسلم الجند القلعة إليه، وذلك

اجتمع عنده، وأقره على ولايته وعاد.

ذكر أسر صالح بن مرداس ومملكه حلب وملك أولاده

في هذه السنة كانت وقعة بين أبي نصر بن لؤلؤ، صاحب حلب، وبين صالح بن مرداس، وكان ابن لؤلؤ من موالي سعد الدولة بن سيف الدولة بن (٢٢٨/٩) حمدان، فقوي على ولد سعد الدولة وأخذ البلد منه، وخطب للحاكم صاحب مصر، ولقبه الحاكم مرتضى الدولة.

ثم فسد ما بينه وبين الحاكم، فطمع فيه ابن مرداس، وبنو كلاب، وكانوا يطالبونه بالصَّلَات والخَلع. ثم إنهم اجتمعوا هذه السنة في خمسمائة فارس، ودخلوا مدينة حلب، فأمر ابن لؤلؤ بإغلاق الأبواب والقبض عليهم، فقبض على مائة وعشرين رجلاً، منهم صالح بن مرداس، وجبسه، وقتل صائتين، وأطلق من لم يفكر به.

وكان صالح قد تزوج بابنة عم له يُسمى جابرًا، وكانت جميلة، فوصفت لابن لؤلؤ، فخطبها إلى إختوها، وكانوا في حبسه، فذكروا له أن صالحاً قد تزوجها، فلم يقبل منهم، وتزوجها، ثم أطلقهم، وبقي صالح بن مرداس في الحبس، فتوصل حتى صعد من السور وألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تلها، واختفى في مسيل ماء.

ووقع الخبر بهريه، فأرسل ابن لؤلؤ الخيل في طلبه، فعادوا ولم يظفروا به. فلما سكن عنه الطلب سار بقيده ولبنة حديد في رجليه، حتى وصل قرية تعرف بالياسرية، فرأى ناساً من العرب فغرفوه وحملوه إلى أهله بمرج دابق، فجمع ألفي فارس فقصده حلب وحاصرها اثنين وثلاثين يوماً، فخرج إليه ابن لؤلؤ فقاتله، فهزمهم صالح وأسر ابن لؤلؤ، وقبده بقيده الذي كان في رجله ولبنته. وكان لابن لؤلؤ أخ فنجأ وحفظ مدينة حلب.

ثم إن ابن لؤلؤ بذل لابن مرداس مالاً على أن يطلقه، فلما استقر الحال بينهما أخذ رهائنه وأطلقه، فقالت أم صالح لابنها: قد أعطاك الله مالاً كنت تأمله، فإن رأيت أن تتم صنيحك بإطلاق الرهائن فهو المصلحة، فإنه إن أراد (٢٢٩/٩) القدر بك لا يمنعه من عندك؛ فأطلقهم، فلما دخلوا البلد حمل ابن لؤلؤ إليه أكثر مما استقر، وكان قد تقرر عليه مائتا ألف دينار، ومائة ثوب، وإطلاق كل أسير عنده من بني كلاب. فلما انفصل الحال ورحل صالح أراد ابن لؤلؤ قبض غلامه فتح، وكان دزدار القلعة، لأنه أتته بالممالة على الهزيمة، وكان خلاف ظنه، فأطلع على ذلك غلام له اسمه سرور، وأراد أن يجعله مكان فتح، فأعلم سرور بعض أصدقائه ويعرف بابن غانم.

وسبب إعلامه أنه حضر عنده، وكان يخاف ابن لؤلؤ لكثرة

شبل الدولة نصر بن صالح يستدعونه ليسألوا البلد إليه، فقبض على جماعة منهم، وكان منهم رجل يعرف بكامل بن نباتة، فخاف، فجلس يبكي، وكان يقول لكل من سألته عن مكانه: إن أصحابنا الذين أخذوا قد قتلوا، وأخاف على الباقيين. فاجتمع أهل البلد، واشتدوا، وراسلوا محموداً، وهو عنهم مسيرة يوم، يستدعونه، وحصروا ابن ملهم وجاء محمود وحصره معهم في جمادى الآخرة سنة اثنين وخمسين [وأربعمئة]. (٢٣٣/٩)

ووصلت الأخبار إلى مصر، فسيروا ناصر الدولة أبا علي بن ناصر الدولة بن حمدان في عسكر، بعد اثنين وثلاثين يوماً من دخول محمود حلب، فلما قارب البلد خرج محمود عن حلب إلى البرية، واختفى الأحداث جميعهم، وكان عطية بن صالح نازلاً بقرب البلد، وقد كره فعل محمود ابن أخيه، فقبض ابن ملهم على مائة وخمسين من الأحداث، ونهب وسط البلد، وأخذ أموال الناس.

وأما ناصر الدولة فلم يمكن أصحابه من دخول البلد ونهبه، وسار في طلب محمود، فالتقى بالغنيدق في رجب، فانهزم أصحاب ابن حمدان، فسار هو وابن ملهم إلى مصر، فجهز المصريون معز الدولة ثمال بن صالح إلى ابن أخيه، فحصره في حلب في ذي الحجة من السنة، فاستنجد محمود خاله منيع بن شبيب بن وثاب النمري، صاحب حران، فجاء إليه، فلما بلغ ثمال مجيئه سار عن حلب إلى البرية في المحرم سنة ثلاث وخمسين [وأربعمئة]، وعاد منيع إلى حران، فعاد ثمال إلى حلب، وخرج إليه محمود ابن أخيه، فاقتلوا، وقتل محمود قتلاً شديداً، ثم انهزم محمود فضى إلى أخواله بني نمير بحران، وتسلم ثمال حلب في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين [وأربعمئة]، وخرج إلى الروم، فغزاهم ثم توفي بحلب في ذي القعدة سنة أربع وخمسين [وأربعمئة]، وكان كريماً، حليماً، وأوصى بحلب لأخيه عطية بن صالح فملكها.

ونزل به قوم من التركمان مع ابن خان التركماني، فقوي بهم، فأشار أصحابه بقتلهم، فأمر أهل البلد بذلك، فقتلوا منهم جماعة، ونجا الباقون، فقصدا (٢٣٤/٩) محموداً بحران، واجتمعوا معه على حصار حلب، فحصرها وملكها في رمضان سنة أربع وخمسين [وأربعمئة].

وقصد عنه عطية الرقة فملكها، ولم يزل بها حتى أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ثلاث وستين [وأربعمئة]، وسار عطية إلى بلد الروم، فمات بالقسطنطينية سنة خمس وستين.

وأرسل محمود التركمان مع أميرهم ابن خان إلى ارتاح، فحصرها وأخذها من الروم سنة ستين [وأربعمئة]، وسار محمود إلى طرابلس، فحصرها، وأخذ من أهلها مائلاً وعاد، وأرسله محمود

سنة أربع عشرة [وأربعمئة]، وملك من بعلبك إلى عانة، وأقام بحلب ست سنين.

فلما كان سنة عشرين وأربعمئة جهز الظاهر صاحب مصر جيشاً، وسيروهم إلى الشام لقتال صالح وحسان، وكان مقدم العسكر أنوشكين البربري، فاجتمع صالح وحسان على قتاله، فاقتلوا بالأقحوانة على الأرذن عند طبرية، فقتل صالح وولده الأصغر وأنفذ رأسهما إلى مصر، ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح، فجاء إلى حلب وملكها وكان لقبه شبل الدولة.

فلما علمت الروم بأنطاكية الحال، تجهزوا إلى حلب في عالم كثير، فخرج أهلها فحاربوهم فهزمهم، ونهبوا أموالهم وعادوا إلى أنطاكية، وبقي شبل الدولة مالكاً لحلب إلى سنة تسع وعشرين وأربعمئة، فأرسل إليه الدزبري العساكر المصرية، وصاحب مصر حينئذ المستنصر بالله، فلقيه عند حماة، فقتل في شعبان. وملك الدزبري حلب في رمضان سنة تسع وعشرين [وأربعمئة]، وملك الشام جميعه، وعظم أمره وكثر ماله وأرسل يستدعي الجند الأتراك من البلاد، فبلغ المصريين عنه أنه عازم على العصبان، فتقدموا إلى أهل دمشق بالخروج عن طاعته، ففعلوا، فسار عنها نحو حلب في ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين [وأربعمئة] وتوفي بعد ذلك بشهر واحد.

وكان أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس الملقب بمعز الدولة بالرحبة، فلما بلغه موت الدزبري جاء إلى حلب فملكها تسليمياً من أهلها، وحاصر امرأة الدزبري وأصحابه بالقلعة أحد عشر شهراً، وملكها في صفر سنة أربع وثلاثين [وأربعمئة] فبقي فيها إلى سنة أربعين. فأنفذ المصريون إلى محاربه (٢٣٢/٩) أبا عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان، فخرج أهل حلب إلى حربه، فهزمهم، واختنق منهم بالباب جماعة، ثم إنه رحل عن حلب وعاد إلى مصر، وأصابهم سيل ذهب بكثير من دوابهم وأثقالهم. فأنفذ المصريون إلى قتال معز الدولة خادماً يعرف برفق فخرج إليه في أهل حلب، فقاتلوه، فانهزم المصريون، وأسر رفق، ومات عندهم، وكان أسره سنة إحدى وأربعين [وأربعمئة] في ربيع الأول.

ثم إن معز الدولة بعد ذلك أرسل الهدايا إلى المصريين، وأصلح أمره معها، ونزل لهم عن حلب فأنفذوا إليها أبا علي الحسن بن علي بن ملهم، ولقبوه مكين الدولة، فتسلمها من ثمال في ذي القعدة سنة تسع وأربعين [وأربعمئة]، وسار ثمال إلى مصر في ذي الحجة وسار أخوه أبو ذؤابة عطية بن صالح إلى الرحبة، وقام ابن ملهم بحلب، فجرى بين بعض السودان وأحداث حلب حرب.

وسمع ابن ملهم أن بعض أهل حلب قد كاتب محمود بن

العلويين خلفاء مصر، وكتب فيه المرتضى وأخوه الرضي وابن البطحاوي العلوي، وابن الأزرق الموسوي، والزكي أبو يعلى عمر بن محمد، ومن القضاة والعلماء ابن الأكفاني وابن الخرزني، وأبو العباس الأبيوردي، وأبو حامد الأسفرايني، والكشغلي، والقُدوري، والصيمري، وأبو عبد الله بن البيضاوي، وأبو الفضل النسوي، وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وغيرهم، وقد ذكرنا الاختلاف فيهم عند ابتداء دولتهم سنة ست وتسعين ومائتين.

ذكر أخذ بني خفاجة الحجاج

في هذه السنة سارت خفاجة إلى واقصة، ونزحوا ماء البرمكي والريان والقوا فيهما الحنظل؛ ووصل الحجاج من مكة إلى العقبة، فلقيهم خفاجة ومنعوهم الماء، ثم قاتلوهم فلم يكن فيهم امتناع، فأكثروا القتل، وأخذوا الأموال، ولم يسلم من الحاج إلا اليسير، فبلغ الخير فخر الملك الوزير ببغداد، فسير العساكر في أثرهم، وكتب إلى أبي الحسن علي بن مزيد يأمره بطلب العرب، والأخذ منهم بئر الحاج، والانتقام، فسار خلفهم فلحقهم وقد قاربوا البصرة، فأوقعوا بهم، فقتل منهم وأسروا جمعا كثيرا، وأخذ من أموال الحاج ما رآه، وكان الباقي قد أخذه العرب ونفروا، وأرسل الأسرى وما استردّه من أمتعة الحاج إلى الوزير، فحسن موقعه منه. (٢٣٧/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي أبو الحسن بن اللبان الفرضي في ربيع الأول؛ وتوفي في شهر رمضان عثمان بن عيسى أبو عمرو الباقلي العابد، وكان مُجاب الدعوة، رحمة الله عليه. (٢٣٨/٩)

سنة ثلاث وأربعمئة

ذكر قتل قابوس

في هذه السنة قُتل شمس المعالي قابوس بن وشمكير.

وكان سبب قتله أنه كان مع كثرة فضائله ومناقبه، عظيم السياسة، شديد الأخذ، قليل العفو، يقتل على الذنب اليسير، فضجر أصحابه منه، واستطالوا أيامه، واتفقوا على خلعه والقبض عليه.

وكان حينئذ غائبا عن جرجان، فخفي عليه الأمر، فلم يشعر ذات ليلة إلا وقد احاط العسكر بباب القلعة التي كان بها، وانهبوا أمواله، ودوابه، وأرادوا استزاله من الحصن، فقاتلهم هو ومن معه من خواصه وأصحابه، فسادوا ولم يظفروا به، ودخلوا جرجان واستولوا عليها، وعصوا عليه بها، وبعثوا إلى ابنه منوهر، وهو بطبرستان، يعرفونه الحال، ويستدعونه ليؤكده أمرهم، فأسرع السير نحوهم خوفا من خروج الأمر عنه، فالتقوا، واتفقوا على طاعته إن

في رسالة إلى السلطان ألب أرسلان، ومات محمود في حلب سنة ثمان وستين [وأربعمئة] في ذي الحجة، ووصى بها بعده لابنه مشيب، فلم ينفذ أصحابه وصيته لصغره، وسلموا البلد إلى ولده الأكبر، واسمه نصر، وجده لأمه الملك العزيز بن الملك جلال الدولة بن بويه وتزوجها عند دخولهم مصر لما ملك طغرلبيك العراق.

وكان نصر يدمن شرب الخمر، فحمله السكر على أن يخرج إلى التركمان الذين ملكوا أباه البلد، وهم بالحاضر، يوم الفطر، فلقوه، وقبلوا الأرض بين يديه، فسبهم وأراد قتلهم، فرماه أحدهم بنشابة فقتله، وملك أخوه سابق، وهو الذي كان أبوه أوصى له بحلب، فلما صعد القلعة استدعى أحمد شاه مقدم التركمان، وخلع عليه، وأحسن إليه، وبقي فيها إلى سنة اثنتين وسبعين [وأربعمئة]، فقصده تش بن ألب أرسلان، فحصره في حلب أربعة أشهر ونصف، ثم رحل عنه، وناله شرف الدولة، فأخذ البلد منه، على ما ذكره إن شاء الله تعالى؛ فهذه جميع أخبار بني مرداس أنيت بها متتابعة لئلا تُجهل إذا تفرقت. (٢٣٥/٩)

ذكر قتل جماعة من خفاجة

لما فتح الملك فخر الدولة دَيْر العاقول أثناء سلطان، وعلوان، ورجب، أولاد شمال الخفاجي، ومعهم أعيان عشائهم، وضمّنوا حماية سقي الفرات، ودفع عقيل عنها، وساروا معه إلى بغداد، فآكرهم وخلع عليهم، وأمرهم بالمسير مع ذي السعادين الحسن بن منصور إلى الأنبار، فساروا، فلما صاروا بتواحي الأنبار أفسدوا وعاثوا، فقبض ذو السعادين على نفر منهم، ثم أطلقهم واستحلفهم على الطاعة، والكف عن الأذى، فأشار كاتب نصراني من أهل دقوقا على سلطان ابن شمال بالقبض على ذي السعادين، وأن يظهر أن عقيل قد اغاروا، فإذا خرج عسكر ذي السعادين انفرد به فأخذه. فوصل إلى ذي السعادين الخبر.

ثم إن سلطانا أرسل إليه يقول له إن عقيل قد قاربوا الأنبار، ويطلب منه إنقاذ العسكر، فقال ذو السعادين: أنا أركب وأخذ العساكر؛ ثم دافعه إلى أن فات وقت السير، فانتقض على سلطان ما دبّره، فأرسل يقول: قد أخذت جماعة من عقيل؛ ثم إن ذا السعادين صنع طعاما كثيرا، وحضر عنده سلطان وكاتبه النصراني وجماعة من أعيان خفاجة، فأمر أصحابه بقتل كثير منهم، وقبض على سلطان وكاتبه وجماعته، ونهب بيوتهم وما فيها، وحبس سلطانا ومن معه ببغداد، حتى شفع فيهم أبو الحسن بن مزيد، وبذل مالا عنهم فأطلقوا. وذكر ابن نباتة وغيره هذه الحادثة. (٢٣٦/٩)

ذكر القدح في نسب العلويين المصريين

في هذه السنة كُتب ببغداد محضر يتضمّن القدح في نسب

هو خلق أباه، فأجابهم إلى ذلك على كره.

وصالحه، وقال له: المصلحة للإسلام والمسلمين أن تشتغل أنت بغزو الهند، واشتغل أنا بغزو الترك، وأن يترك بعضنا بعضاً؛ فوافق ذلك هو، فأجابه إليه، وزال الخلاف، واشتغل بغزو الكفار.

وكان إيلك الخان خيراً، عادلاً، حسن السيرة، محباً للدين وأهله، معظماً للعلم وأهله، محسناً إليهم. (٢٤١/٩)

ذكر وفاة بهاء الدولة وملك سلطان الدواة

في هذه السنة، خامس جمادى الآخرة، توفي بهاء الدولة أبونصر بن عضد الدولة بن بويه، وهو الملك حينئذ بالعراق، وكان مرضه تابع الصرع مثل مرض أبيه، وكان موته بأرجان، وحُمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي، عليه السلام، فدفن عند أبيه عضد الدولة، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة وتسعة أشهر ونصفاً، وملكه أربعاً وعشرين سنة.

ولما توفي ولي الملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع، وسار من أرجان إلى شيراز، وولي أخاه جلال الدولة أبا طاهر بن بهاء الدولة البصرة، وأخاه أبا الفوارس كerman.

ذكر ولاية سليمان الأندلس، الدولة الثانية

في هذه السنة ملك سليمان بن الحاكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموي، ولقب المستعين، وهذه غير ولايته، متصرف شوال، على ما ذكرناه سنة أربعمئة، وبايعه الناس وخرج أهل قرطبة إليه يسلمون عليه، فأنشد متمثلاً: (٢٤٢/٩)

إذا مارأوني طالعا من ثيبة يقولون من هنا، وقد عرفوني يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو ظفروا بسي ساعة قتلوني
وكان سليمان أديباً شاعراً بليغاً، وأريق في أيامه دماء كثيرة لا تحدد، وقد تقدم ذكر ذلك سنة أربعمئة، وكان البربر هم الحاكمين في دولته لا يقدر على خلافهم، لأنهم كانوا عامة جنده، وهم الذين قاموا معه حتى ملكوه، وقد تقدم ذكر ذلك.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خلع سلطان الدولة على أبي الحسن علي بن مزيد الأسدي، وهو أول من تقدم من أهل بيته.

وفيهما قلد الرضي الموسوي، صاحب الديوان المشهور، نقابة العلويين ببغداد، وخلع عليه سواد، وهو أول طالبي خلع عليه سواد.

وفيهما توفي أبو بكر الخوارزمي، واسمه محمد بن موسى، الفقيه الحنفي، وأبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي، نقيب الكوفة، وكان يسير بالحاج عشر سنين، وأبو عبد الله الحسن بن حامد بن علي بن مروان، الفقيه الحنبلي، وله تصانيف في الفقه؛ والقاضي أبو بكر محمد بن الطيب المتكلم الأشعري، وكان مالكي

وكان أبوه شمس المعالي قد سار نحو بسطام عند حدوث هذه الفتنة لينظر (٢٣٩/٩) فيما تسفر عنه، فأخذوا منوهر معهم، عازمين على قصد والده وإزعاجه من مكانه، فسار معهم مضطراً، فلما وصل إلى أبيه أذن له وحده دون غيره، فدخل عليه وعنده جمع من أصحابه المحامين عنه، فلما دخل عليه تشاكيا ما هما فيه، وعرض عليه منوهر أن يكون بين يديه في قتال أولئك القوم ودفعهم وإن ذهبت نفسه. فرأى شمس المعالي ضد ذلك، وسهل عليه حيث صار الملك إلى ولده، فسلم إليه خاتم الملك، ووصاه بما يفعله، واتفقا على أن ينتقل هو إلى قلعة جناشك يتفرغ للعبادة إلى أن يأتيه اليقين، وينفرد منوهر بتدبير الملك.

وسار إلى القلعة المذكورة مع من اختاره لخدمته، وسار منوهر إلى جرجان، وتولى الملك وضبطه ودارى أولئك الأجناد، وهم نافرون، خائفون من شمس المعالي ما دام حياً، فما زالوا يحتالون ويجيلون الرأي حتى دخلوا إلى منوهر وخوفوه من أبيه مثل ما جرى لهلال بن بدر مع أبيه، وقالوا له: مهما [كان] والسدك في الحياة لا نأمن نحن ولا أنت؛ واستأذنه في قتله، فلم يرد عليهم جواباً، فمضوا إليه إلى الدار التي هو فيها، وقد دخل إلى الطهارة متخففاً، فأخذوا ما عنده من كسوة، وكان الزمان شتاء، وكان يستغيث؛ أعطوني ولو جل دابة! فلم يفعلوا، فمات من شدة البرد؛ وجلس ولده للعزاء، ولقب القادر بالله منوهر فلك المعالي.

ثم إن منوهر راسل يمين الدولة، ودخل في طاعته، وخطب له على منابر بلاده، وخطب إليه من يوزجه بعض بناته، ففعل، فقوي جنباه، وشرع في (٢٤٠/٩) التدبير على أولئك الذين قتلوا أباه، فابادهم بالقتل والتشريد.

وكان قابوس غزير الأدب، وافر العلم، له رسائل وشعر حسن، وكان عالماً بالنجوم وغيرها من العلوم، فمن شعره:

قُلْ لِلذِّي بِصُورِهِ الدُّعْرُ عَيْنَا هَلْ عَائِدَ الدُّعْرُ الْأَمْنُ لَهُ خَطَرُ
أَمَا نَرَى الْبَحْرَ يُطْفِئُ فَوْقَهُ جَيْفُ وَتَسْتَعْرِبُ أَهْصَى قَمَرِهِ السُّرُورُ
فَمَا نَكُنْ نَشِبْتُ أَيْدِي الْخَطُوبِ بِنَا وَمَسْنَا مَنْ تَوَالِي صَرْفِهَا صَرْرُ
فَقِي السَّمَاءِ نَجُومًا لَا عَيْدَ لَهَا وَلَيْسَ يَكْشِفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

ذكر موت إيلك الخان وولاية أخيه طغان خان

في هذه السنة توفي إيلك الخان، وهو يتجهز للعود إلى خراسان، ليأخذ بثأره من يمين الدولة، وكاتب قدر خان وطغان خان ليساعده على ذلك.

فلما توفي ولي بعده أخوه طغان، فراسل يمين الدولة

المذهب، رثاه بعضهم فقال: (٢٤٣/٩)

انظر إلى جبل تمشي الرجال به وانظر إلى القبر ما يحوي من الصلوة وانظر إلى صادم الإسلام منمداً وانظر إلى درة الإسلام في الصدف وفيها قتل أبو الوليد عبد الله بن محمد، المعروف بابن الغرضي الأندلسي، بقرطبة، قتله البربر. (٢٤٤/٩)

سنة أربع وأربعمئة

ذكر فتح يمين الدولة ناردين

في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند في جمع عظيم وحشد كثير، وقصد واسطة البلاد من الهند، فسار شهرين، حتى قارب مقصده، ورتب أصحابه وعساكره، فسمع عظيم الهند به، فجمع من عنده من قواده وأصحابه، وبرز إلى جبل هناك، صعب المرتقى، ضيق المسلك، فاحتفى به، وطاول المسلمين، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية، فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحاً، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل، وتصافوا هو والمسلمون، واشتد القتال وعظم الأمر.

ثم إن الله تعالى منح المسلمين اكتافهم فهزمهم، واكثروا القتل فيهم، وغنموا ما معهم من مال، وفيل، وسلاح، وغير ذلك.

ووجد في بيت بد عظيم الروم حجراً منقوراً دلت كتابته على أنه مبني منذ أربعين ألف سنة، فعجب الناس لقلة عقولهم.

فلما فرغ من غزوته عاد إلى غزنة، وأرسل إلى القادر بالله يطلب منه منشوراً، وعهداً بخراسان وما بيده من الممالك، فكتب له ذلك، ولقب نظام الدين. (٢٤٥/٩)

ذكر ما فعله خفاجة دفعة أخرى

في هذه السنة جاء سلطان بن ثمال، واستشفع بأبي الحسن بن مزيد إلى فخر الملك ليرضى عنه، فأجابته إلى ذلك، فأخذ عليه العهود بلزوم ما يُحمد أمره، فلما خرج وصلت الأخبار بأنهم نهبوا سواد الكوفة، وقتلوا طائفة من الجند، وأتى أهل الكوفة مستغيثين، فسار فخر الملك إليهم عسكراً، وكتب إلى ابن مزيد وغيره بمحاربتهم، فسار إليهم، وأوقع بهم بنهر الرمان، وأسر محمد بن ثمال وجماعة معه، ونجا سلطان، وأدخل الأسرى إلى بغداد مشهرين وحسبوا.

وهب على المنهزمين من بني خفاجة ريح شديدة حارة، فقتلت منهم نحو خمسمائة رجل، وأفلت منهم جماعة ممن كانوا أسروا من الحجاج، وكانوا يرعون إيلهم وغنمهم، فعادوا إلى بغداد، فوجد بعضهم نساءهم قد تزوجن وولدن، واقتسمت تركاتهم.

ذكر استيلاء طاهر بن هلال على شهرزور

قد ذكرنا حال شهرزور، وأن بدر بن حسويه سلمها إلى عميد الجيوش، فجعل فيها نوابه. فلما كان الآن سار طاهر بن هلال بن بدر إلى شهرزور، (٢٤٦/٩) وقاتل من بها من عسكر فخر الملك، وأخذها منهم في رجب. فلما سمع الوزير الخبر أرسل إلى طاهر يعاتبه، ويأمره بإطلاق من أسر من أصحابه، ففعل، ولم تنزل شهرزور بيد طاهر إلى أن قتله أبو الشوك، وأخذها منه، وجعلها لأخيه مهلهل.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي إلى أبي الشوك على عزم محاربته، فاصطلحا من غير حرب، وتزوج ابنه أبو الأغر دئيس بن علي بأخت أبي الشوك.

وفيها توفي القاضي أبو الحسن علي بن سعيد الإصطخري، وهو شيخ من شيوخ المعتزلة ومشهور بهم، وكان عمره قد زاد على ثمانين سنة، وله تصانيف في الرد على الباطنية. (٢٤٧/٩)

سنة خمس وأربعمئة

ذكر غزوة تانيش

قد ذكر ليمين الدولة أن بناحية تانيش فيلة من جنس فيلة الصيلبان الموصوفة في الحرب، وأن صاحبها غال في الكفر والطغيان، والعناد للمسلمين، فعزم على غزوه في قصر داره، وأن يذيقه شرية من كأس قتاله، فسار في الجند والعساكر والمتطوعة، فلقى في طريقه أودية بعيدة القعر، وعرة المسالك، وقصاراً فسيحة الأقطار والأطراف، بعيدة الأكفاف، والماء بها قليل، فلقوا شدة، وقاسوا مشقة إلى أن قطعوها.

فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهراً شديداً الجرية، صعب المخاضة، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه، يمنع من عبوره، ومعه عساكره، وفيلته التي كان يدل بها. فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر، وإشغال الكافر بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور، ففعلوا ذلك، وقاتلوا الهنود، وشغلواهم عن حفظ النهر، حتى عبر سائر العسكر في المخاضات، وقاتلواهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار، فانهمز الهند، وظفر المسلمون، وغنموا ما معهم من أموال فيلة، وعادوا إلى غزنة موفرين ظافرين. (٢٤٨/٩)

ذكر قتل بدر بن حسويه وإطلاق ابنه هلال وقتله

في هذه السنة قتل بدر بن حسويه أمير الجبل. وكان سبب قتله أنه سار إلى الحسين بن مسعود الكردي ليملك عليه بلاده، فحصره بحصن كوسحد، فضجر أصحاب بدر

العساكر. فأجابها أخوها مُرُّ إلى ذلك، وامتنع أخوه حسان.

فلما سمع ابن مُزَيْد بما فعلته زوجته أنكره، وأراد طلاقها، فقالت له: خُفْتُ أَنْ أَكُونَ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ بَيْنَ فَقْدِ أَخٍ حَمِيمٍ، أَوْ زَوْجِ كَرِيمٍ، فَفَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ رَجَاءَ الصَّلَاحِ؛ فَنَزَالَ مَا عِنْدَهُ مِنْهَا، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ، وَتَقَدَّمُوا إِلَيْهِ بِالْحِلِّ وَالْيَبُوتِ، فَالْتَقَوْا وَاقْتَتَلُوا، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ لَمَّا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الدَّحُولِ، فَظَفَرَ ابْنُ مُزَيْدٍ بِهِمْ، وَهَزَمَهُمْ، وَقَتَلَ ابْنَيْ دُبَيْسٍ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْبُيُوتِ وَالْأَمْوَالِ، وَلَحِقَ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْهَزِيمَةِ بِالْحَوِيزَةِ. وَلَمَّا ظَفَرَ بِهِمْ رَأَى عِنْدَهُمْ مَكَاتِبَاتَ فَخْرٍ الْمَلِكِ يَأْمُرُهُم بِالْجَدِّ فِي أَمْرِهِ، وَيُعَدِّمُ النُّصْرَ، فَعَاتَبَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَحَصَلَ بَيْنَهُمَا نَفَرَةٌ، وَدَعَتْ فَخْرَ الْمَلِكِ الضَّرُورَةَ إِلَى تَقْلِيدِ ابْنِ مُزَيْدٍ الْجَزِيرَةَ الدُّبَيْسِيَّةَ، وَاسْتَسْتَنَى مَوَاضِعَ مِنْهَا: الطَّيِّبَ وَفَرْقُوبَ وَغَيْرَهُمَا، وَبَقِيَ أَبُو الْحَسَنِ هُنَاكَ إِلَى جُمَادَى الْأُولَى.

ثُمَّ إِنَّ مُضَرَ بْنَ دُبَيْسٍ جَمَعَ جَمْعاً، وَكَبَسَ أَبَا الْحَسَنِ لَيْلاً، فَهَرَبَ فِي نَفَرٍ سِيرٍ، وَاسْتَوْلَى مُضَرُّ عَلَى حِلِّهِ وَأَمْوَالِهِ، وَكُلَّ مَالِهِ، وَلَحِقَ أَبُو الْحَسَنِ بِلَدِّ النَّيْلِ مِنْهُزِماً.

ذَكَرَ مَلِكُ شَمْسِ الدَّوْلَةِ الرَّيَّيَّ وَعُودَهُ عَنْهَا

لَمَّا مَلَكَ شَمْسُ الدَّوْلَةِ بْنُ فَخْرٍ الدَّوْلَةَ وَبَدْرُ بْنُ حَسَنُوبٍ وَأَخَذَ مَا فِي قَلَاعِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ عَظُمَ شَأْنُهُ، وَاتَّسَعَ مَلِكُهُ، فَسَارَ إِلَى الرَّيَّيَّ، وَبِهَا أَخُوهُ مُجَدُّ (٢٥١/٩) الدَّوْلَةَ، فَرَحَلَ عَنِ الرَّيَّيَّ وَمَعَهُ وَالدَّتْهُ إِلَى دُبَاوَنْدٍ، وَخَرَجَتْ عَسَاكِرُ الرَّيَّيَّ إِلَى شَمْسِ الدَّوْلَةِ مُدْعِنَةً بِالطَّاعَةِ، وَدَخَلَ الرَّيَّيَّ وَمَلَكَهَا، وَخَرَجَ مِنْهَا يَطْلُبُ أَخَاهُ وَالدَّتْهُ، فَشَغَبَ الْجَنْدَ عَلَيْهِ، وَزَادَ خُطْبَهُمْ، وَطَالَبُوهُ مَطَالِبَاتٍ اتَّسَعَ الْخُرْقُ بِهَا، فَعَادَ إِلَى هَمْدَانَ وَارْسَلَ إِلَى أَخِيهِ وَالدَّتْهُ بِأَمْرِهِمَا بِالْعُودِ إِلَى الرَّيَّيَّ، فَعَادَا.

ذَكَرَ عِدَّةُ حَوَادِثَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي شَعْبَانَ، تَوَفَّى أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَيْهَقِيُّ، الْكَاتِبُ الشَّاعِرُ، وَمِنْ شِعْرِهِ فِي نَكْوَةٍ:

لَمْ لَا أَتِيَهُ وَمُضْجَعِي بَيْنَ الرُّوَادِفِ وَالْخُصُورِ
وَإِذَا نَسَجْتُ، فَلَئِنْ بَيْنَ السَّرْتَابِ وَالنَّحُورِ
وَلَقَدْ نَشَأْتُ صَغِيرَةً بِأَكْفِ رَبَاتِ الْخُسُورِ

وَلَهُ نَوَادِرُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا أَنَّهُ شَرِبَ قَقَاعاً فِي دَارِ فَخْرِ الْمَلِكِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَجَلَسَ مَفْكَراً، فَقَالَ لَهُ الْفَقَاطِيُّ: فِي أَيِّ شَيْءٍ تَفَكَّرُ؟ فَقَالَ: فِي دَقَّةِ صِنْعَتِكَ، كَيْفَ أَمَكَّنَكَ الْخِرَاءُ فِي هَذِهِ الْكَيْزَانِ الضِّيْقَةِ كُلَّهَا

وَفِي رَمَضَانَ مَاتَ الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ يُونُسُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ كَيْحَ الْفَقِيهِ، وَكَانَ مِنْ أَيْمَةِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ، وَكَانَ قَاضِي الدُّيُنُورِ، قَتَلَهُ طَائِفَةٌ مِنْ عَائِمَتِهَا خَوْفاً مِنْهُ .

مِنْهُ لَهْجُومُ الشِّتَاءِ، فَعَزَمُوا عَلَى قَتْلِهِ، فَأَتَاهُ بَعْضُ خَوَاصِّهِ وَعَرَفَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: فَمَنْ هُمُ الْكِلَابُ حَتَّى يَفْعَلُوا ذَلِكَ! وَأَبْعَدَهُمْ، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ، فَقَالَ مِنْ وَرَاءِ الْخِرَاكَةِ: الَّذِي أَعْلَمْتُكَ قَدْ قَوِيَ الْعَزْمُ عَلَيْهِ؛ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ.

وَخَرَجَ فَجَلَسَ عَلَى تَلٍّ، فَتَارَوْا بِهِ، فَقَتَلَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ تَسْمَى الْجُورْقَانُ، وَنَهَبُوا عَسْكَرَهُ، وَتَرَكُوهُ وَسَارُوا. فَتَنَزَلَ الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَرَأَاهُ مَلَقَى عَلَى الْأَرْضِ، فَأَمَرَ بِتَجْهِيزِهِ وَحَمَلَهُ إِلَى مَشْهَدٍ عَلَيْهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِيُدْفَنَ فِيهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ.

وَكَانَ عَادَلاً كَثِيرَ الصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ، كَبِيرَ النَّفْسِ، عَظِيمَ الْهِمَّةِ. وَلَمَّا قُتِلَ هَرَبَ الْجُورْقَانُ إِلَى شَمْسِ الدَّوْلَةِ أَبِي طَاهِرِ بْنِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ، فَدَخَلُوا فِي طَاعَتِهِ.

وَكَانَ طَاهِرُ بْنُ هَلَالِ بْنِ بَدْرِ هَارِياً مِنْ جَدِّهِ بَنُو أَحْيَى شَهْرَزُورٍ، فَلَمَّا عَرَفَ بِقَتْلِهِ بَادَرَ بِطَلْبِ مَلِكِهِ، فَوَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَمْسِ الدَّوْلَةِ حَرْبٌ، فَأَسْرَ طَاهِرٌ وَحَبَسَ وَأَخَذَ مَا كَانَ قَدْ جَمَعَهُ بَعْدَ أَنْ مَلَكَ نَائِباً مِنْ أَبِيهِ هَلَالٍ، وَكَانَ عَظِيماً، وَحَمَلَهُ إِلَى هَمْدَانَ، وَسَارَ اللَّيْلَةَ وَالشَّاذَنْجَانَ إِلَى أَبِي الشُّوكِ، فَدَخَلُوا فِي طَاعَتِهِ. (٢٤٩/٩)

وَحِينَ قُتِلَ كَانَ ابْنُهُ هَلَالٌ مَحْبُوباً عِنْدَ الْمَلِكِ سُلْطَانَ الدَّوْلَةِ، كَمَا ذَكَرْنَا، فَلَمَّا قُتِلَ بَدَرَ اسْتَوْلَى شَمْسُ الدَّوْلَةِ بْنُ فَخْرِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ عَلَى بَعْضِ بِلَادِهِ، فَلَمَّا عَلِمَ سُلْطَانُ الدَّوْلَةِ بِذَلِكَ أَطْلَقَ هَلَالاً وَجْهَهُ وَسَيَّرَهُ وَمَعَهُ الْعَسَاكِرُ لِيَسْتَعِيدَ مَا مَلَكَهُ شَمْسُ الدَّوْلَةِ مِنْ بِلَادِهِ. فَسَارَ إِلَى شَمْسِ الدَّوْلَةِ، فَالْتَقَا فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَاقْتَتَلَ الْعَسَاكِرُ، فَانْهَزَمَ أَصْحَابُ هَلَالٍ، وَأُسْرُ هُوَ، فَقُتِلَ أَيْضاً، وَعَادَتْ الْعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُ إِلَى بَغْدَادَ عَلَى أَسْوَأِ حَالٍ.

وَكَانَ مِنْ أَسْرَ مَعَهُ أَبُو الْمُظَفَّرِ أَنْوَشْتَكِينَ الْأَعْرَابِيَّ، وَكَانَ فِي مَمْلَكَةِ بَدْرِ سَابُورِ خُوَاسْتِ، وَالدُّيُنُورِ، وَبَرْوَجَرْدٍ، وَنَهَاوَنْدٍ، وَأَسْدَابَادَ، وَقِطْعَةً مِنْ أَعْمَالِ الْأَهْوَازِ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْقِلَاعِ وَالْوِلَايَاتِ.

ذَكَرَ الْحَرْبَ بَيْنَ عَلِيٍّ بْنِ مُزَيْدٍ وَبَيْنَ بَنِي دُبَيْسٍ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي الْمَحْرَمِ كَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ بْنِ مُزَيْدٍ الْأَسَدِيِّ وَبَيْنَ مُضَرَ، وَنَهْبَانَ، وَحَسَّانَ، وَطَرَادِ بْنِ دُبَيْسٍ.

وَسَبَبُهَا أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا أَبَا الْغَنَائِمِ بْنِ مُزَيْدٍ أَخَا أَبِي الْحَسَنِ فِي حَرْبٍ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا، وَحَالَتْ الْأَيَّامُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَخْذِ بِثَارِهِ، فَلَمَّا كَانَ الْآنَ تَجَهَّزَ لِقَصْدِهِمْ، وَجَمَعَ الْعَرَبَ، وَالشَّاذَنْجَانَ، وَالْجَوَانِيَّةَ، وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْأَكْرَادِ وَسَارَ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا قَرِبَ مِنْهُمْ خَرَجَتْ زَوْجَتُهُ ابْنَةُ دُبَيْسٍ وَقَصَدَتْ أَخَاهَا مُضَرَ بْنَ دُبَيْسٍ لَيْلاً، وَقَالَتْ لَهُ: قَدْ أَتَاكَ ابْنُ مُزَيْدٍ فِيمَا لَا يَجِبُ لَكُمْ (٢٥٠/٩) بِهِ، وَهُوَ يَقْنَعُ مِنْكُمْ بِإِبْعَادِ نَهْبَانَ قَاتِلِ أَخِيهِ، فَابْعُدُوهُ، وَقَدْ تَفَرَّقَتْ هَذِهِ

وتوفي أبو نصر عمر بن عبد العزيز بن نبأة السعدي الشاعر ؛ والقاضي (٢٥٢/٩) أبو محمد بن الأكفاني، قاضي بغداد، وولي بعده قضاء القضاة أبو الحسن بن أبي الشوارب البصري .

وتوفي أبو أحمد عبد السلام بن الحسن البصري الأديب ؛ وأبو القاسم هبة الله بن عيسى، كاتب مذهب الدولة بالبطيحة، وهو من الكتاب المفلقين، ومكاتبته مشهورة ؛ وكان ممدحاً، وممن مدحه ابن الحجّاج .

وتوفي أيضا عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس أبو سعيد الإدريسي، الأستراباذي، الحافظ، نزيل سمرقند، وهو مصنف تاريخ سمرقند .

وتوفي أيضا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، صاحب التصانيف الحسنة المشهورة ؛ وأبو الحسن بن عياض، وكان يلقب الناصر، وكان يتولى الأهواز، وقام ولده بتكبير مقامه ؛ وأبو علي الحسين بن الحسين بن حمدان الهمداني، الفقيه الشافعي، وكان إماماً عالماً (٢٥٣/٩).

سنة بيت وأربعمئة

ذكر الفتنة بين باديس وعمه حماد

في هذه السنة ظهر الاختلاف بين الأمير باديس، صاحب إفريقية، وعمه حماد، حتى آل الأمر بينهما إلى الحرب التي لا بقيا بعدها .

وسبب ذلك أن باديس أبلغ عن عمه حماد قوارص وأمواراً أنكرها، فاغضى عليها، حتى كثر ذلك عليه، وكان لباديس ولد اسمه المنصور أراد أن يقدمه ويجعله وليّ عهده، فأرسل إلى عمه حماد يقول له بأن يسلم بعض ما بيده من الأعمال التي أقطعها إلى نائب ابنه المنصور، وهي مدينة تيجس، وقصر الإفريقي وقسنطينة، وسير إلى تسليم ذلك هاشم بن جعفر، وهو من كبار قوادهم، وسير معه عمه إبراهيم ليمنع أخاه حماداً من أمر إن أرادته. فساروا إلى أن قاربوا حماداً، ففارق إبراهيم هاشماً، وتقدم إلى أخيه حماد، فلما وصل إليه حسن له الخلاف على باديس، وواقفه على ذلك، وخلعا الطاعة، وأظهرا العصيان، وجعما الجموع الكثيرة، فكانوا ثلاثين ألف مقاتل.

فبلغ ذلك باديس، فجمع عساكره وسار إليهما، ورحل حماد وأخوه (٢٥٤/٩) إبراهيم إلى هاشم بن جعفر والعسكر الذين معه، وهو بقلعة شقبارية، فكان بينهم حرب انهزم فيها ابن جعفر ولجأ إلى باجة، وغنم حماد ماله وعُدده، فرحل باديس إلى مكان يسمى قبر الشهيد، فأتاه جمع كثير من عسكر عمه حماد، ووصلت كتب

حماد وإبراهيم إلى باديس أنهما ما فارقا الجماعة، ولاخرجا عن الطاعة، فكذبهما ما ظهر من أفعالهما من سفك الدماء، وقتل الأطفال، وإحراق الزروع والمساكن، وسبي النساء .

ووصل حماد إلى باجة فطلب أهلها منه الأمان، فأمّتهم، واطمأنوا إلى عهده، فدخلها يقتل وينهب ويحرق ويأخذ الأموال .

وتقدم باديس إليه بعساكره، فلما كان في صفر سنة ست وأربعمئة، وصل حماد إلى مدينة أشير، وهي له، وفيها نائبه، واسمه خلف الجيمري، فمنعه خلف من دخولها، وصار في طاعة باديس، فسقط في يد حماد، فإنها هي كانت معوله لحصانها وقوتها .

ووصل باديس إلى مدينة المسيلة، ولقيه أهلها، وفرحوا به، وسير جيشاً إلى المدينة التي أحدثها حماد، فغربوها إلا أنهم لم يأخذوا مال أحد، وهرب إلى باديس جماعة كثيرة من جند القلعة التي له، وفيها أخوه إبراهيم، فأخذ إبراهيم أبناءهم، وذبحهم على صدور أمهاتهم، فقبل إنه ذبح بيده ستين طفلاً، فلما فرغ من الأطفال قتل الأمهات .

وتقارب باديس وحماد، والتقوا مستهل جمادى الأولى، واقتلوا أشد قتال وأعظمه، ووطن أصحاب باديس أنفسهم على الصبر أو الموت لما كان حماد يفعل له لمن يظفر به، واختلط الناس بعضهم ببعض، وكثر القتل، ثم انهزم (٢٥٥/٩) حماد وعسكره لايولي على شيء، وغنم عسكر باديس أثقاله وأمواله، وفي جملة ما غنم منه عشرة آلاف درقة مختارة لمط، ولسولا اشتغال العسكر بالنهب لأخذ حماد أسيراً .

وسار حتى وصل إلى قلعة تاسع جمادى الأولى، وجاء إلى مدينة دكمة، فتجنّى على أهلها، فوضع السيف فيهم، فقتل ثلاثمائة رجل . فخرج إليه فقيه منها وقال له : يا حماد إذا لقيت الجيوش انهزمت، وإذا قاومتك الجموع فررت، وإنما قدرتك وسلطانك على أسير لا قدرة له عليك ؛ فقتله وحمل جميع ما في المدينة من طعام وملح وذخيرة إلى القلعة التي له .

وسار باديس خلفه، وعزم على المقام بناحية، وأمر بالبناء، وبذل الأموال لرجاله، فاشتد ذلك على حماد، وأنكر رجاله، وضعفت نفسه، وتفرق عنه أصحابه .

ثم مات ورو بن سعيد الزناتي المتغلب على ناحية طرابلس، واختلفت كلمة زناتة، فمالت فرقة مع أخيه خزون، وفرقة مع ابن ورو، فاشتد ذلك أيضاً على حماد، وكان يطمع أن زناتة تغلب على بعض البلاد، فيضطر باديس إلى الحركة إليهم . (٢٥٦/٩)

ذكر وفاة باديس وولاية ابنه المعز

لما كان يوم الثلاثاء، سلخ ذي القعدة سنة ست وأربعمئة، أمر باديس بعرض العساكر، فرأى ما سره، وركب آخر النهار، ونزل ومعه جماعة من أصحابه، ففارقه إلى خيامهم، فلما كان نصف الليل توفي.

وخرج الخادم في الوقت إلى حبيب بن أبي سعيد، وباديس بن أبي حمامة، وآيوب بن يطوفت، وهم أكبر قواده، فأعلمهم بوفاته.

وكان بين حبيب وباديس بن حمامة عداوة، فخرج حبيب مسرعاً إلى باديس وخرج باديس إليه أيضاً، فالتقيا في الطريق، فقال كل واحد منهما لصاحبه: قد عرفت الذي بيننا، والأولى أن نتفق على إصلاح هذا الخلل، فإذا انقضى رجعتا إلى المنافسة، فاجتمعا مع أيوب وقالوا: إن العدو قريب منا، وصاحبنا بعيد عنا، ومتى لم نقدم رأساً نرجع إليه في أمورنا لم نأمن العدو، ونحن نعلم ميل صنهاجة إلى المعز، وغيرهم إلى كرامت بن المنصور أخي باديس، فاجتمعوا على تولية كرامت ظاهراً، فإذا وصلوا إلى موضع الأمن، ولّوا المعز بن باديس، وينقطع الشر.

فأحضروا كرامت وبإيعاه، وولّوه في الحال، وأصبحوا وليس عند أحد من العسكر خبر من ذلك، وعزموا أن يقولوا للناس بكرة إن باديس قد شرب دواء، فلما أصبحوا أغلق أهل مدينة المحمدية أبوابها، وكأنما نودي فيهم بموت باديس، فشاع الخبر، وخاف الناس خوفاً عظيماً، واضطربوا (٢٥٧/٩) لموته، وأظهروا ولاية كرامت، فلما رأى ذلك عبيد باديس ومن معهم أنكروه، فخلا حبيب بأكابرهم، وعرفهم الحال فسكنوا.

ومضى كرامت إلى مدينة أشير ليجمع صنهاجة، وتلكاتة، وغيرهم وأعطوهم من الخزائن مائة ألف دينار.

وأما المعز فإنه كان عمره ثماني سنين وستة أشهر وإياماً تقريباً، لأن مولده كان في جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، ولما وصل إليه الخبر بموت أبيه أجلسه من عنده للزواء، ثم ركب في الموكب، وبإيعاه الناس، فكان يركب كل يوم، ويطعم الناس كل يوم بين يديه.

وأما العساكر فإنهم رحلوا من مدينة المحمدية إلى المعز، وجعلوا باديس في تابوت بين يدي العسكر، والطبول، والبنود على رأسه، والعساكر تتبعه ميمنة وميسرة، وكان وصولهم إلى المنصورة رابع المحرم سنة سبع وأربعمئة، ووصلوا إلى المهديّة، والمعز بها، ثامن المحرم، فركب المعز، ووقف حبيب يعلمه بهم، ويذكر له أسماءهم، ويعرفه بقوادهم وأكابرهم، فرحل المعز من المهديّة، فوصل إلى المنصورة، منتصف المحرم.

وهذا المعز أول من حمل الناس بإفريقية على مذهب مالك، وكان الأغلب عليهم مذهب أبي حنيفة.

وأما كرامت فإنه لما وصل إلى مدينة أشير اجتمع عليه قبائل صنهاجة وغيرهم، فأتاه حمّاد في ألف وخمسمائة فارس، فتقدم إليه كرامت [في] سبعة آلاف مقاتل، فالتقوا واقتلوا قتلاً شديداً، فرجع بعض أصحاب كرامت إلى بيت المال فانتهبوه وهربوا، فتمت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، ووصل إلى مدينة أشير فأنشأ عليه قاضياً وأعيان أهلها بالمقام، ومنع حمّاد عنها، (٢٥٨/٩) ففعل، ونازلهم حمّاد، وطلب كرامت ليجتمع به، فخرج إليه، فأعطاه مالا، وأذن له في المسير إلى المعز، وقتل حمّاد من أهل أشير كثيراً حيث أشاروا على كرامت بحفظ البلد ومنع حمّاد منه، ووصل كرامت إلى المعز في المحرم هذه السنة، فأكرمه وأحسن إليه.

وفي آخر ذي الحجة سار الحاكم الخلع من مصر إلى المعز، ولقيّه شرف الدولة، ولم يذكر ما كان منه إلى الشيعة من القتل والإحراق، وسار المعز إلى حمّاد لثمان بقين من صفر سنة ثمان وأربعمئة بالعساكر لئلا يمنع عن البلاد، فإنه كان يحاصر باغاية وغيرها، فلما قاربته رحل عن باغاية، والتقوا آخر ربيع الأول، فاقتتلوا، فما كان إلا ساعة حتى انهزم حمّاد وأصحابه، ووضع أصحاب المعز فيهم السيف، وغنموا ما لهم من عُدَد ومال وغير ذلك، فنادى المعز: من أتى برأس فله أربعة دنانير؛ فأتي بشيء كثير، وأسر إبراهيم أخو حمّاد، ونجا حمّاد وقد أصابته جراحة، وتفرّق عنه أصحابه، ورجع المعز، وورد رسول من حمّاد إليه يعتذر، ويقرّ بالخطأ، ويسأل العفو، فأجابته المعز: إن كنت على ما قلت فارسل ولدك القائد إلينا.

واستعمل المعز على جميع العرب المجاورة لإبراهيم عمه كرامت، فعاد جواب حمّاد أنه إذا وصله كتاب أخيه إبراهيم بالعلامات التي بينهم، أنه قد أخذ له عهد المعز، بعث ولده القائد، أو حضر هو بنفسه. فحضر إبراهيم وأخذ العهد على المعز وأرسل إليه يعرفه ذلك ويشكر المعز على إحسانه إليه، ووصل المعز إلى قصره آخر جمادى الأولى، ولما وصل أطلق عمه إبراهيم، وخلع عليه، وأعطاه الأموال والدواب وجميع ما يحتاج إليه، فلما سمع (٢٥٩/٩) حمّاد ذلك أرسل ولده القائد إلى المعز، وكان وصوله للصف من شعبان، فأكرمه وأعطاه شيئاً كثيراً، وأقطعته المسيلة وطبّة وغيرهما، وعاد إلى أبيه في شهر رمضان، ورضي الصلح، وخلف عليه، واستقرت الأمور بينهما، وتصاهرا، وزوج المعز أخته بعبد الله بن حمّاد، فازدادوا اتفاقاً وأماناً.

وكان بإفريقية والغرب غلاء بسبب الجراد، واختلاف الملوك، ولما استقر الصلح والاتفاق سار المعز الجيوش إلى القبائل من

طوائف فقوي بهم، وحارب أبو الشوك فهزمه، وقُتل سعدي أخو أبي الشوك، ثم انهزم أبو الشوك منه مرة ثانية، ومضى منهزماً إلى حلوان، وبذل له الحسن بن مُزَيّد الأسديّ المعاونة، فلم يكن فيه معاودة للحرب.

وأقام طاهر بالنهروان، وصالح أبا الشوك، وتزوج أخته، فلما أمته طاهر وثب عليه أبو الشوك فقتله بشار أخيه سعدي، وحمله أصحابه فدفنوه بمشهد باب التبن.

ذكر عدة حوادث

فيها توفي الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر أبو الحسن، صاحب الديوان المشهور، وشهد جنازته الناس (٢٦٢/٩) كافة، ولم يشهدا أخوه لأنه لم يستطع أن ينظر إلى جنازته، فأقام بالمشهد إلى أن أعاده الوزير فخر الملك إلى داره، ورثاه كثير من الشعراء منهم أخوه المرتضى، فقال:

يا للرجال لقعة جنت يدي وودعتها ذعبت عليّ براسي
ما زلت آسى ودها، حتى أتت فحسوتها في بعض ما أنا حاسي
ومطلتها زمناً، فلما صمت لم يثنها مطلي، وطول بكاسي
لا تكسروا من فيض دمي غيرة فالدم خير مساعد ومواس
وهاً لعمرك من قصير طاهر واربّ عُمر طال بالأرجاس

وفيها توفي أبو طالب أحمد بن بكر العبدّي النحويّ، مصنف شرح الإيضاح؛ وأبو أحمد عبد السلام بن أبي مسلم الفرضيّ، والإمام أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الأسفراينيّ إمام أصحاب الشافعيّ، وكان يحضر دراسته أربعمئة متفقه، وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك بقطيعة الفقهاء، وكان عمره إحدى وستين سنة وأشهرًا.

وفيها توفي أبو جعفر أستاذ هُرْمُز بن الحسن، والد عميد الجيوش، بشيراز، وكان عمره مائة وخمس سنين؛ وتوفي شهاب الدولة أبو درع رافع بن محمد بن مقرن، وله شعر حسن، منه: (٢٦٣/٩)

وما زلت أبكي في الديار تأسفاً ليس خليل، أوفراق حبيب
فلما عرفت الرُبع لاشك أنه هو الرُبع فاضت مقلتي بغروب
وجرت دهرى ناسياً، فوجدته أبا غير لا تنقضي وخطوب
وعاشت أبناء الزمان، فلم أجذ من الناس خيلاً حافظاً لغيب
ولم يبق منهم حافظاً ليمامة ولا ناصر يزعج جوار قريب

وفيها توفي الشار أبو نصر، الذي كان صاحب غرّيشستان من خراسان، في قبض يمين الدولة، وقد ذكرنا سبب ذلك.

البربر وغيرهم، فإن الحروب بينهم كانت بسبب الاختلاف، كثيرة، والدماء مسفوكة، فلما راوا عساكر السلطان رجعوا إلى السكون وترك الحرب، ومن أبى قوتل، فقتل المفسدون، وأصلح ما بين القبائل.

ووصل من جزيرة الأندلس زاوي بن زيري بن مناد، عم أبي المعز، وأهله وولده وحشمه، وكان قد أقام بالأندلس مدة طويلة، وقد ذكرنا سبب دخوله الأندلس، وملك بالأندلس غرناطة وقاس حروب كثيرة، ووصل معه من الأموال والعدد والجواهر شيء كثير لا يحصى، فأكرمهم المعز، وحمل لهم شيئاً عظيماً وإقامات زائدة، وأقاموا عنده.

كان ينبغي أن يكتب وفاة باديس وما بعده سنة سبع وأربعمئة، وإنما أتبعنا بعض أخبارهم بعضاً (٢٦٠/٩).

ذكر غزوة محمود إلى الهند

في هذه السنة غزا محمود بن سبكتكين الهند على عادته، فضل أدلاؤه الطريق، ووقع هو وعسكره في مياه فاضت من البحر، فغرق كثير ممن معه، وخاض الماء بنفسه أياماً حتى تخلص وعاد إلى خراسان.

ذكر قتل فخر الملك ووزارة ابن سهلان

وفيها قبض سلطان الدولة على نائبه بالعراق ووزيره فخر الملك أبي غالب، وقُتل سليخ ربيع الأول، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وأحد عشر شهراً، وكان نظره بالعراق خمس سنين وأربعة شهور واثنى عشر يوماً، وكان كافياً حسن الولاية والأثار، ووجد له ألف دينار عيناً سوى ما نهب، وسوى الأعراس، وكان قبضه بالأهواز، ولما مات نقل إلى مشهد أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام، فدفن هناك.

قيل: كان ابن علمكار، وهو من كبار قواده، قد قتل إنساناً ببغداد، فكانت زوجته تكتب إلى فخر الملك أبي غالب تظلم منه ولا يلتفت إليها، (٢٦١/٩) فلقيته يوماً، وقالت له: تلك الرقاع التي كنت أكتبها إليك صرت أكتبها إلى الله تعالى. فلم يمس على ذلك غير قليل حتى قبض هو وابن علمكار، فقال له فخر الملك: قد برز جواب رقاع تلك المرأة. ولما قبض فخر الملك استوزر سلطان الدولة أبا محمد الحسن بن سهلان، فللقب عميد أصحاب الجيوش، وكان مولده براهمرمز في شعبان سنة إحدى وستين وثلاثمئة.

ذكر قتل طاهر بن هلال بن بدر

في هذه السنة أطلق شمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه طاهر بن هلال بن بدر، واستحلفه على الطاعة له، واجتمع معه

وفيها، في صفر، قُتل الشريف المرتضى أبو القاسم أخو

الرضي نقابة العلوتين، والحج، والمظالم، بعد موت أخيه الرضي . وفيها وقعت فتنة ببغداد بين أهل الكرخ وبين أهل باب الشعر، ونهبوا القلاطين، فأنكر فخر الملك على أهل الكرخ، ومُنِعُوا من النوح يوم عاشوراء، ومن تعليق المُسُوح .

وفيها وقع بالبصرة وما جاورها وباء شديد عجز [معه] الحفّارون عن حفر القبور .

وفيها، في حزيران، جاء مطر شديد في بلاد العراق وكثيراً من البلاد. (٢٦٤/٩)

سنة سبع وأربعمائة

ذكر قتل خوارزمشاه وملك يمين الدولة خوارزم وتسليمها إلى

التونش

في هذه السنة قُتل خوارزمشاه أبو العباس مأمون بن مأمون وملك يمين الدولة خوارزم .

وسبب ذلك أن أبا العباس كان قد ملك خوارزم والجرجانية، كما ذكرناه، وخطب إلى يمين الدولة، فزوجه أخته . ثم إن يمين الدولة أرسل إليه يطلب أن يخطب له على منابر بلاده، فأجابه إلى ذلك، وأحضر أمراء دولته واستشارهم في ذلك، فأظهروا الامتناع، ونهوه عنه، وتهدّدوه بالقتل إن فعله، فعاد الرسول وحكى ليمين الدولة ما شاهده .

ثم إن الأمراء خافوه حيث ردّوا أمره، فقتلوه غيلة، ولم يُعلم قاتله، وأجلسوا مكانه أحد أولاده، وعلموا أن يمين الدولة يسوءه ذلك، وربما طالبهم بثأره، فتعاهدوا على مقاتلته ومقارعته .

واتّصل الخبر بيمين الدولة، فجمع العساكر وسار نحوهم، فلما قاربهم (٢٦٥/٩) جمعهم صاحب جيشهم، ويُعرف بالبتكين البخاري، وأمرهم بالخروج إلى لقاء مقدّمة يمين الدولة والإيقاع بمن فيها من الأجناد، فساروا معه وقاتلوا مقدّمة يمين الدولة، واشتدّ القتال بينهم .

واتّصل الخبر بيمين الدولة، فتقدّم نحوهم في سائر جيوشه، فلحقهم وهم في الحرب، فثبت الخوارزمية إلى أن انتصف النهار، وأحسنوا القتال، ثم إنهم انهزموا، وركبهم أصحاب يمين الدولة يقتلون ويأسرون، ولم يسلم إلا القليل .

ثم إن البتكين ركب سفينة لينجو فيها، فجرى بينه وبين منعه منافرة، فقاموا عليه وأوثقوه، وردّوا السفينة إلى ناحية يمين الدولة، وسلموه إليه، فأخذهم وسائر القواد المأسورين معه، وصلبهم عند قبر أبي العباس خوارزمشاه، وأخذ الباقي من الأسرى فسبّهم إلى

غزوة فوجاً بعد فوج، فلمّا اجتمعوا بها أفرج عنهم، وأجرى لهم الأرزاق، وسبّهم إلى أطراف بلاده من أرض الهند يحمونها من الأعداء، ويحفظونها من أهل الفساد، وأخذ خوارزم واستتاب بها حاجبه التونش .

ذكر غزوة قشмир وقنوج وغيرها

في هذه السنة غزا يمين الدولة بلاد الهند، بعد فراغه من خوارزم، فسار منها إلى غزنة ومنها إلى الهند عازماً على غزو قشмир، إذ كان قد استولى (٢٦٦/٩) على بلاد الهند ما بينه وبين قشмир؛ وأتاه من المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل من ما وراء النهر، وغيره من البلاد، وسار إلى غزنة ثلاثة أشهر سيراً دائماً، وعبر نهر سيحون، وجيلوم، وهما نهران عميقان شديداً الجرية، فوطى أرض الهند، وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الإتاوة .

فلما بلغ درب قشмир أتاه صاحبها وأسلم على يده، وسار بين يديه إلى مقصده، فبلغ ماجون في العشرين من رجب وفتح ما حولها من الولايات الفسيحة والحصون المتينة، حتّى بلغ حصن هودب، وهو آخر ملوك الهند، فنظر هودب من أعلى حصنه، فرأى من العساكر ما هاله ورعبه، وعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام، فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص، طلباً للإخلاص، فقبله يمين الدولة، وسار عنه إلى قلعة كلجند، وهو من أعيان الهند وشياطينهم، وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة، فسير كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلكوها، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم، وسلك طريقاً مختصرة إلى الحصن، فلم يشعر به إلا وهو معهم، فقاتلهم قتالاً شديداً، فلم يطبقوا الصبر على حدّ السيوف، فانهزموا، وأخذهم السيف من خلفهم، ولقوا نهراً عميقاً بين أيديهم، فاقتحموه، ففرق أكثرهم وكان القتلى والفرقى قريباً من خمسين ألفاً، وعمد كلجند إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه .

ثم سار نحو بيت متعبّ لهم، وهو مهرة الهند، وهو من أحصن الأبنية على نهر، ولهم به من الأصنام كثير، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر المرصّع (٢٦٧/٩) بالجواهر، وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفاً وثلاثمائة مثقال، وكان بها من الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه، وأحرق الباقي، وسار نحو قنوج، وصاحبها راجيال، فوصل إليها في شعبان، فرأى صاحبها قد فارقتها، وعبر الماء المسمّى كنك، وهو ماء شريف عندهم يرون أنه من الجنة، وأن من غرق نفسه فيه طهر من الآثام، فأخذها يمين الدولة، وأخذ قلاعها وأعمالها، وهي سبع على الماء المذكور، وفيها قريب من عشر

ذكر ابتداء الدولة العلوية بالأندلس وقتل سليمان

آلاف بيت صنم، يذكرون أنها عُمِلت من مائتي ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف كذباً منهم وزوراً، ولما فتحها أباحها عسكره.

ثم سار إلى قلعة البراهمة، فقاتلوه وثبتوا، فلَمَّا عَضَمَ السلاح علموا أنه لا طاقة لهم، فاستسلموا للسيف فقتلوا، ولم ينجُ منهم إلا شريد.

ثم سار إلى قلعة آسي، وصاحبها جند بال، فلَمَّا قاربها هرب جندبال، وأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه، ثم سار إلى قلعة شروة، وصاحبها جندراي، فلَمَّا قاربها نقل ماله وقيوله نحو جبال هناك منيعة يحتمي بها، وعمي خبره فلم يُدر أين هو، فانزل يمين الدولة حصنه فافتحه وغنم ما فيه، وسار في طلب جندراي جريداً، وقد بلغه خبره، فلحق به في آخر شعبان، فقاتله، فقتل أكثر جند جندراي، وأمر كثيراً منهم، وغنم ما معه من مال وقيل، وهرب جندراي في نفر من أصحابه فنجأ.

وكان السبي في هذه الغزوة كثيراً حتى إن أحدهم كان يُباع بأقل من (٢٦٨/٩) عشرة دراهم، ثم عاد إلى غزوة ظافراً؛ ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنية، فبني بناء لم يُسمع بمثله، ووسّع فيه، وكان جامعها القديم صغيراً، وأنفق ما غنمه في هذه الغزاة في بنائه.

ذكر حال ابن فولاذ

في هذه السنة عظمت شوكة ابن فولاذ وكبر شأنه.

وكان ابتداء أمره أنه كان ضيعاً، فنجم في دولة بني بويه، وعلا صيته، وارتفع قدره، واجتمع إليه الرجال، فلَمَّا كان الآن طلب من مجد الدولة والولادة أن يقطعه قزوين لتكون له وللمن معه من الرجال، فلم يفعلوا، واعتذرا إليه، فقصد أطراف ولاية الرّي، وأظهر العصيان، وجعل يفسد ويغير، ويقطع السبيل، وملك ما يليه من القرى، فعجزا عنه، فاستمنا بأصبهيد المقيم بفرّيم، فأتاهما في رجال الجبل، وجرى بينهم وبين ابن فولاذ عدّة حروب، وجرح ابن فولاذ، وولّى منهزماً حتى بلغ الدامغان، فأقام حتى عاد أصحابه إليه ورجع أصبهيد إلى بلاده.

وكتب ابن فولاذ إلى منوچهر بن قابوس يطلب أن يُنفذ له عسكرياً ليملك البلاد، ويقم له الخطبة فيها، ويحمل إليه المال، فانفذ له ألفي رجل، فسار بهم حتى نزل بظاهر الرّي وأعاد الإغارة، ومنع الميرة عنها، فضاقت (٢٦٩/٩) الأقوات بها، فاضطر مجد الدولة والولادة إلى مداراته، وإعطائه ما يلتمسه، فاستقرّ بينهم أن يسلموا إليه مدينة أصبهان، فسار إليها، وأعاد عسكر منوچهر إليه، وزال الفساد، وعاد إلى طاعة مجد الدولة.

وفي هذه السنة ولّى الأندلس عليّ بن حمّود بن أبي العيش بن ميمون بن أحمد بن عليّ بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، عليه السلام، وقيل في نسبه غير ذلك مع اتفاق على صحّة نسبه إلى أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام.

وكان سبب ذلك أن الفتى خيران العامري لم يكن راضياً بولاية سليمان بن الحاكم الأمويّ لأنّه كان من أصحاب المؤيد على ما ذكرناه قبل، فلَمَّا ملك سليمان قرطبة انهزم خيران في جماعة كثيرة من الفتيان العامريين، فتبعهم البربر وواقعههم، فاشتد القتال بينهم، وجرح خيران عدّة جراحات، وترك على أنه ميّت، فلَمَّا فارقه قام يمشي، فأخذه رجل من البربر إلى داره بقرطبة وعالجه فبرأ، وأعطاه مالاً، وخرج منها سراً إلى شرق الأندلس، فكثر جمعه، وقويت نفسه، وقاتل من هناك من البربر، وملك المريّة، واجتمع له الأجناد، وأزال البربر عن البلاد المجاورة له، فغلظ أمره وعظم شأنه.

وكان عليّ بن حمّود بمدينة سبّته، بينه وبين الأندلس عدوة المجاز مالكا (٢٧٠/٩) لها، وكان أخوه القاسم بن حمّود بالجزيرة الخضراء مستولياً عليها، وبينهما المجاز، وسبب ملكهما أنهما كانا من جملة أصحاب سليمان بن الحاكم، فقوّدهما على المغاربة، ثم ولّاهما هذه البلاد، وكام خيران يعمل إلى دولة المؤيد، ويرغب فيها، ويخطب له على منابر بلاده التي استولى عليها لأنّه كان يظنّ حياته حيث قدّم من القصر، فحدث لعلّي بن حمّود طمع في ملك الأندلس لما رأى من الاختلاف، فكتب إلى خيران يذكر له أن المؤيد كان كتب له بولاية العهد والأخذ بشأره إن هو قُتل، فدعا لعلّي بن حمّود بولاية العهد.

وكان خيران يكتب الناس، ويأمرهم بالخروج على سليمان. فوافقه جماعة منهم عامر بن فتوح وزير المؤيد، وهو بمالقة، وكتبوا عليّ بن حمّود، وهو بسبّته، ليعبر إليهم ليقوموا معه ويسيروا إلى قرطبة، فعبّر إلى مالقة في سنة خمس وأربعمئة، فخرج عنها عامر بن فتوح، وسلّمها إليه، ودعا له بولاية العهد، وسار خيران ومن أجابه إليه، فاجتمعوا بالمنكب، وهي ما بين المريّة ومالقة، سنة ست وأربعمئة، وقرّروا ما يفعلونه، وعادوا يتجهّزون لقصد قرطبة، فتجهّزوا وجمعوا من وافقهم، وساروا إلى قرطبة، وبايعوا عليّاً على طاعة المؤيد الأمويّ.

فلَمَّا بلغوا غرناطة وافقهم أميرها، وسار معهم إلى قرطبة، فخرج سليمان والبربر إليهم، فالتقوا وقتلوا على عشرة فراعس من قرطبة، ونشب القتال بينهم، فانهزم سليمان والبربر، وقتل منهم

الْبُت، وأقام بها إلى أن خطب بالخلافة، ولم يزل عليّ بن حمّود بعد هذه الهزيمة يقصد بلاد خيران والعامرّيين مرّة أخرى.

ذكر قتل عليّ بن حمّود العلويّ

فلما كان ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة تجهّز عليّ بن حمّود للمسير إلى جيّان لقتال من بها من عسكر خيران، فلما كان الثامن والعشرون منه برزت العساكر إلى ظاهر قرطبة بالبندود والطبول ووقفوا ينتظرون خروجه، (٢٧٣/٩) فدخل الحمام ومعه غلمانه، فقتلوه، فلما طال على الناس انتظاره بحثوا عن أمره، فدخلوا عليه، فراوه مقتولاً، فعاد العسكر إلى البلد.

وكان لقبه المتوكّل على الله، وقبل الناصر لدين الله، وكان أسمر، أعين، أكحل، خفيف الجسم، طويل القامة، حازماً، عازماً، عادلاً، حسن السيرة، وكان قد عزم على أن يعيد إلى أهل قرطبة أموالهم التي أخذها البربر، فلم تطل أيامه، وكان يحبّ المديح، ويجزل العطاء عليه.

ثم وليّ بعده أخوه القاسم، وهو أكبر من عليّ بعدة أعوام، وكان عمر عليّ ثمانياً وأربعين سنة، بنوه يحيى، وإدريس، وأمّه قُرشية، وكنيته أبو الحسن، وكانت ولايته سنة وتسعة أشهر.

ذكر ولاية القاسم بن حمّود العلويّ بقرطبة

قد ذكرنا قتل أخيه عليّ بن حمّود سنة سبع وأربعمائة، فلما قُتل بايع الناس أخاه القاسم، ولقب المأمون، فلما وليّ، واستقرّ ملكه، كاتب العامرّيين واستمالهم، وأقطع زهيراً جيّان، وقلعة رباح، وبياسة، وكاتب خيران واستعطفه، فلجأ إليه واجتمع به، ثم عاد عنه إلى العريّة، وبقي القاسم مالكاً لقرطبة وغيرها إلى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة. (٢٧٤/٩) وكان وادعاً، ليّناً، يحبّ العافية، فأمن الناس معه، وكان يشيخ إلاّ أنّه لم يُظهر شيئاً من ذلك، فسار عن قرطبة إلى إشبيلية، فخالفه يحيى ابن أخيه فيها.

ذكر دولة يحيى بن عليّ بن حمّود وما كان منه ومن عمّه

لما سار ابن أخيه يحيى بن عليّ من مالقة إلى قرطبة، فدخلها بغير مانع، فلما تمكّن بقرطبة دعا الناس إلى بيعته، فأجابوه، فكانت البيعة مستهلّ جمادى الأولى من سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، ولقب بالمعتلي، وبقي بقرطبة يُدعى له بالخلافة، وعمّه القاسم بإشبيلية يُدعى له بالخلافة إلى ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وأربعمائة. فسار يحيى عن قرطبة إلى مالقة.

ووصل الخبر إلى عمّه فركب وجذّ في السيّر ليلاً ونهاراً إلى أن وصل إلى قرطبة فدخلها ثامن عشر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة [وأربعمائة]، وكان مدّة بقائه بإشبيلية، قد استمال العساكر من البربر فقوي بهم، وبقي القاسم بقرطبة شهوراً، ثم اضطرب أمره

خلق كثير، وأخذ سليمان أسيراً، فحمل إلى عليّ بن حمّود ومعه أخوه، وأبوه الحاكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، ودخل عليّ بن حمّود قرطبة فسيّ المحسّر سنة سبع [وأربعمائة] (٢٧١/٩) ودخل خيران وغيره إلى القصر طمعاً في أن يجدوا المؤيد حيّاً، فلم يجدوه، ورأوا شخصاً مدفوناً فنبشوه، وجمعوا له الناس، وأحضروا بعض فتياته الذين ربّاهم وعرضوه عليه، ففتشه، وفتش أسنانه لأنّه كان له سنّ سوداء كان يعرفها ذلك الفتى، فأجمع هو وغيره على أنّه المؤيد خوفاً على أنفسهم من عليّ، فأخبروا خيران أنّه المؤيد، وكان ذلك الفتى يعلم أن المؤيد حيّ، فأخذ عليّ بن حمّود سليمان وقلته سابح المحرمّ سنة سبع [وأربعمائة]، وقتل أباه وأخاه.

ولما حضر أبوه بين يدي عليّ بن حمّود قال له: يا شيخ قتلتم المؤيد؛ فقال: والله ما قتلناه، وإنّه لحَيّ؛ فحينئذ أسرع في قتله، وكان شيخاً صالحاً منقبضاً لم يتدنّس بشيء من أحوال ابنه. واستولى عليّ بن حمّود على قرطبة، ودعا الناس إلى بيعته، فبويع، واجتمع له الملك، ولقب المتوكّل على الله.

ثم إنّ خيران أظهر الخلاف عليه لأشياء منها أنّه كان طامعاً أن يجد المؤيد فلم يجده، ومنها أنّه نقل إليه أنّ عليّاً يريد قتله فخرج عن قرطبة وأظهر الخلاف عليه.

ذكر ظهور عبد الرحمن الأمويّ

لما خالف خيران عليّاً أرسل يسأل عن بني أميّة، فدلّ على عبد الرحمن بن محمّد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأمويّ، وكان قد خرج من قرطبة مستخفياً، ونزل بجيّان، وكان أصلح من بقي من بني أميّة، فبايعه خيران وغيره، ولقبوه المرتضى، وراسل خيران منذر بن يحيى التّجيبّي أمير سرقسطة والغر الأعلى، وراسل أهل شاطبة، وبلنسية، وطرطوشة، (٢٧٢/٩) والبتّ، فأجابوا كلّهم بيعته، والخلاف على عليّ بن حمّود، فاتفق عليه أكثر الأندلس، واجتمعوا بموضع يُعرف بالرياحين في الأضحى سنة ثمان وأربعمائة، ومعهم الفقهاء، والشيخوخ، وجعلوا الخلافة سُوري، وأصفقوا على بيعته، وساروا معه إلى صنهاجة والتزول على غرناطة.

وأقبل المرتضى على أهل بلنسية، وشاطبة، وأظهر الجفاء لمانذر بن يحيى التّجيبّي، ولخيران، ولم يُقبل عليهما، فندما على ما كان منهما، وسار حتّى وصل إلى غرناطة، فوصل إليها، ونزل عليها، وقاتلوا أياماً قتالاً شديداً، فغلبهم أهل غرناطة، وأميرهم زاوي بن زيري الصنهاجيّ، وانهزم المرتضى وعسكره، وأتبعهم صنهاجة يقتلون ويأسرون، وقتل المرتضى في هذه الهزيمة وعمره أربعون سنة، وهو أصغر من أخيه هشام، وسار أخوه هشام إلى

الولد محمد والحسن، أمهما أميرة بنت الحسن بن القاسم المعروف بقتون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عليه السلام، وكان أسمر، أعين، أكحل، مصفر اللون، طويلاً، خفيف العارضين.

ذكر عود بني أمية إلى قرطبة وولاية المستظهر

لما انهزم البربر والقاسم بن علي من أهل قرطبة، على ما ذكرناه، اتفق رأي أهل قرطبة على رد بني أمية، فاختاروا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي، فبايعوه بالخلافة ثالث عشر رمضان من سنة أربع عشرة وأربعمائة، وعمره حينئذ اثنتان وعشرون سنة، وتلقب بالمستظهر بالله، فكانت ولايته شهراً واحداً وسبعة عشر يوماً وقتل.

وكان سبب قتله أنه أخذ جماعة من أعيان قرطبة فسجنهم ليلهم إلى (٢٧٧/٩) سليمان بن المرتضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وأخذ أموالهم، فسعوا عليه من السجن، وآلبوا الناس، فأجابهم صاحب الشرطة وغيره، واجتمعوا وقصدوا السجن فأخرجوا من فيه.

وكان ممن وافقهم على ذلك أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن الأموي في جماعة كثيرة، فظفروا بالمستظهر، فقتلوه في ذي القعدة، ولم يعقب، وكنيته أبو المطرف، وأمّه أم ولد، وكان أبيض أشقر، أعين، شثن الكفين، رطب الصدر، وكان أديباً خطيباً، بليغاً، رقيق الطبع، له شعر جيد. وكان وزيره أبا محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، وكان سليمان بن المرتضى قد مات قبل قتله بعشرة أيام.

ذكر ولاية محمد بن عبد الرحمن

لما قُتل المستظهر بايع الناس بقرطبة محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر، وخطبوا له بالخلافة، ولقبوه المستكفي بالله، وهمّه لا يعدو فرجه ووطنه، وليس له هم ولا فكر في سواهما، وبقي بها ستة عشر شهراً وأياماً، وثار عليه أهل قرطبة في ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمائة، فخلعوه وخرج عن قرطبة ومعه جماعة من أصحابه، حتى صار إلى أعمال مدينة سالم، فضجر منه بعض أصحابه، فشوى له دجاجة، وعمل فيها شيئاً من البيش، (٢٧٨/٩) فأكلها فمات في ربيع الآخر من هذه السنة.

وكان في غاية التخلف، وله أخبار يقبح ذكرها، وكان رتعة، أشقر، أزرق، مدور الوجه، ضخم الجسم، وكان عمره نحو خمسين سنة. ولما توفي أعاد أهل قرطبة دعوة المعتلي بالله يحيى بن علي بن حمود العلوي بها.

بها، وسار ابن أخيه يحيى بن علي إلى الجزيرة الخضراء، وغلب عليها، وبها أهل عمه وماله، وغلب أخوه إدريس بن علي، صاحب سبتة، على طنجة، وهي كانت غلة القاسم التي يلجأ إليها إن رأى ما يخاف بالأندلس، فلما ملك ابن أخيه بلاده طمع فيه الناس، وتسلب البربر على قرطبة فاخذوا أموالهم، فاجتمع أهلها ويرزوا إلى قتاله عاشر جمادى الأولى سنة (٢٧٥/٩) أربع عشرة وأربعمائة، فاقتلوا قتالاً شديداً، ثم سكنت الحرب، وأمن بعضهم بعضاً إلى منتصف جمادى الأولى من السنة، والقاسم بالقصر يظهر التردد لأهل قرطبة، وأنه معهم، وباطنه مع البربر.

فلما كان يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة صلى الناس الجمعة، فلما فرغوا تنادوا: السلاح! السلاح! فاجتمعوا ولبسوا السلاح، وحفظوا البلد، ودخلوا قصر الإمارة، فخرج عنها القاسم، واجتمع معه البربر، وقاتلوا أهل البلد وضيقوا عليهم، وكانوا أكثر من أهلها، فبقوا كذلك ثقياً وخمسين يوماً والقتال متصل، فخاف أهل قرطبة، وسألوا البربر في أن يفتحوا لهم الطريق ويؤمنهم على أنفسهم وأهلهم، فأبوا إلا أن يقتلهم، فصبروا حينئذ على القتال، وخرجوا من البلد ثاني عشر شعبان، وقاتلوه قتالاً مستقلاً، فنصرهم الله على البربر، ومن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يغني عليه لينصره الله، [الحج: ٦٠]، وانهزم البربر هزيمة عظيمة، ولحق كل طائفة منهم ببلد فاستروا عليه.

وأما القاسم بن حمود فإنه سار إلى إشبيلية، وكتب إلى أهلها في إخلاء ألف دار ليسكنها البربر، فعظم ذلك عليهم، وكان بها ابن محمد والحسن، فثار بهما أهلها، فأخرجوهما عنهم ومن معهم، وضبطوا البلد، وقدموا على أنفسهم ثلاثة من شيوخهم وكبرائهم وهم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل ابن عباد اللخمي، ومحمد بن يريم الألحاني، ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي، وكانوا يدبرون أمر البلد والناس.

ثم اجتمع ابن يريم والزبيدي، وسألوا ابن عباد أن ينفرد بتدبير أمورهم، (٢٧٦/٩) فامتنع وألحوا عليه، فلما خاف إلى البلد بامتناعه أجابهم إلى ذلك، وانفرد بالتدبير وحفظ البلد.

فلما رأى القاسم ذلك سار في تلك البلاد، ثم إنه نزل بشرش، فزحف إليه يحيى ابن أخيه علي، ومعه جمع من البربر، فحاصروه ثم أخذوه أسيراً، فحبسه يحيى، فبقي في حبسه إلى أن توفي يحيى، وملك أخوه إدريس، فلما ملك قتله، وقيل: بل مات حتف أنفه، وحمل إلى ابنه محمد، وهو بالجزيرة الخضراء، فدفنه.

وكانت مدة ولاية القاسم بقرطبة، مذ تسمى بالخلافة إلى أن أسره ابن أخيه، ستة أعوام، وبقي محبوساً ستة عشرة سنة إلى أن قُتل سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان له ثمانون سنة، وله من

ذكر عود يحيى العلوي إلى قُرْبَة وقله

لما مات أبو عبد الرحمن الأموي، وصحَّ عند أهل قُرْبَة خبر موته، سعى معهم بعض أهلها ليحيى بن علي بن حمّود العلوي ليعيدوه إلى الخلافة، وكان بمالقة يخطب لنفسه بالخلافة، فكتبوا إليه وخاطبوه بالخلافة، وخطبوا له في رمضان سنة ست وأربعمئة، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إليهم عبد الرحمن بن عطاف اليفرنى والياً عليهم، ولم يحضر هو باختياره، فبقي عبد الرحمن فيها إلى محرم سنة سبع عشرة، فسار إليه مجاهد وخيران العامريان، في ربيع الأول منها، في جيش كثير، فلما قاربوا قُرْبَة نار أهلها بعبد الرحمن فأخرجوه، وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة، ونجا الباقون.

وأقام خيران ومجاهد بها نحو شهر، ثم اختلفا، فخاف كل واحد منهما صاحبه، فعاد خيران عن قُرْبَة لسبع بقين من ربيع الآخر من السنة المريّة، وبقي بها إلى سنة ثمان عشرة وتوفي، وقيل سنة تسع عشرة، وصارت المريّة بعده لصاحبه زهير العامري، فخالف حبّوس بن ماكسن الصنهاجي البربري (٢٧٩/٩) وأخوه على طاعة يحيى بن علي العلوي، وبقي مجاهد مدة ثم سار إلى دانية، وقطعت خطبة يحيى منها، وأعدت خطبة الأمويين، على ما نذكره في ما بعد إن شاء الله، وبقي يتردّد عليها بالعساكر، وأتفق البربر على طاعته، وسلّموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن، فقوي وعظم شأنه وبقي كذلك مدة.

ثم سار إلى قُرمونة، فأقام بها محصراً لإشبيلية طامعاً في أخذها، فأثاء الخبر يوماً أنّ خيلاً لأهل إشبيلية قد أخرجها القاضي أبو القاسم بن عباس إلى نواحي قُرمونة، فركب إليهم ولقيهم وقد كمنوا له، فلم يكن بأسرع من أن قتل، وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمئة، وخلف من الولد الحسن وإدريس لأُمّي ولد، وكان أسمر، أعين، أكحل، طويل الظهر، قصير الساقين، وقوراً، حينئذٍ، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وأمّه بربرية.

ذكر أخبار أولاد يحيى وأولاد أخيه وغيرهم وقتل ابن عمّار

نذكر ها هنا ما كان من أخبار أولاده، وأولاد أخيه، وغيرهم من العلويين متتابعاً، لئلا ينقطع الكلام، وليأخذ بعضه ببعض.

لما قتل يحيى بن علي رجّع أبو جعفر أحمد بن أبي موسى المعروف بابن بقيّة، ونجا الخادم الصقليّ وهما ملبّين دولة العلويين، فأثيا مالقة، وهي دار (٢٨٠/٩) مملكتهم، فخاطبا أخاه إدريس بن علي، وكان له مَنبَتَة وطنجة، وطلباه فأثى إلى مالقة، وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتول مكانه بسبّة، فأجابهما إلى ذلك، فبايعاه، وسار حسن بن يحيى ونجا إلى سبّة وطنجة، وتلقّب إدريس بالمتأيد بالله، فبقي كذلك إلى سنة ثلاثين، أو إحدى وثلاثين وأربعمئة.

فسير القاضي أبو القاسم بن عبّاد ولده إسماعيل في عسكر ليتلقّب على تلك البلاد، فأخذ قُرمونة، وأخذ أيضاً اشبونة، واستجّه، فأرسل صاحبها إلى إدريس وإلى باديس بن حبّوس، صاحب صنهاجة، فأثاه صاحب صنهاجة بنفسه، وأمّده إدريس بعسكر يقوده ابن بقيّة مذبّر دولته، فلم يجسر على إسماعيل بن عبّاد، فعادوا عنه، فسار إسماعيل مجدّداً ليأخذ على صنهاجة الطريق، فأدركهم وقد فارقهم عسكر إدريس قبل ذلك بساعة، فأرسلت صنهاجة من ردهم فعادوا، وقتلوا إسماعيل بن عبّاد، فلم يلبث أصحابه أن انهزموا وأسلموه، فقتل وحلّ رأسه إلى إدريس.

وكان إدريس قد أيقن بالهلاك، وانتقل عن مالقة إلى جبل يحتمي به وهو مريض، فلما أثار الرأس عاش بعده يومين، ومات وترك من الولد يحيى، ومحمّداً، وحسنًا، وكان يحيى بن عليّ المقتول قد حبس ابني عمّه محمّداً والحسن ابني القاسم بن حمّود بالجزيرة، فلما مات إدريس أخرجهما الموكل بهما، ودعا الناس إليهما، فبايعهما السودان خاصّة قبل الناس لميل أبيهما إليهم، فملك محمد الجزيرة، ولم يتسم بالخلافة.

وأما الحسن بن القاسم فإنّه تنسك وترك الدنيا وحجّ. وكان ابن بقيّة قد أقام يحيى بن إدريس بعد موت والده بمالقة، فسار إليها نجا الصقليّ من سبّة (٢٨١/٩) هو والحسن بن يحيى، فهرب ابن بقيّة، ودخلها الحسن ونجا، فاستملا ابن بقيّة حتّى حضر، فقتله الحسن، وقتل ابن عمّه يحيى بن إدريس، وبايعه الناس بالخلافة، ولقّب بالمستنصر بالله، ورجع نجا إلى سبّة، وترك مع الحسن المستنصر نائباً له يُعرف بالشطيفي، فبقي حسن كذلك نحواً من ستين، ثم مات سنة أربع وثلاثين وأربعمئة، فقبيل إن زوجته ابنة عمّه إدريس سمّته أسفاً على أخيها يحيى، فلما مات المستنصر اعتقل الشطيفي إدريس بن يحيى، وسار نجا من سبّة إلى مالقة، وعزم على محو أمر العلويين، وأن يضبط البلاد لنفسه، وأظهر البربر على ذلك، فعظم عندهم، فقتلوه، وقتلوا الشطيفيّة وأخرجوا إدريس بن يحيى، وبايعوه بالخلافة، وتسمّى بالعالي، وكان كثير الصدقة يتصدّق كلّ جمعة بخمس مائة دينار، ورَدّ كلّ مطرود عن وطنه، وأعاد عليهم أملأهم.

وكان متأدّباً، حسن اللقاء، له شعر جيّد إلا أنّه كان يصحب الأرزال، ولا يحبّج نساءه عنهم، وكل من طلب منهم حصناً من بلاده أعطاه، فأخذ منه صنهاجة عدّة حصون، وطلبوا وزيره ومذبّر أمره صاحب أبيه موسى بن عفّان يقتلوه، فسلمّه إليهم فقتلوه. وكان قد اعتقل ابني عمّه محمّداً والحسن ابني إدريس بن عليّ في حصن ايرش، فلما رأى ثقته بايرش اضطراب آرائه خالف عليه وبايع ابن عمّه محمد بن إدريس بن عليّ، وثار بإدريس بن يحيى من عنده من السودان، وطلبوا محمّداً فجاء إليهم فسلمّ إليه إدريس الأمر، وبايع

له سنة اثنتين وثلاثين وأربعمئة، فاعتقله محمد، وتلقب بالمهدي، وولّى أخاه الحسن عهده، ولقبه السامي.

وظهرت من المهدي شجاعة وجراءة، فهابه البربر وخافوه، فراسلوا (٢٨٢/٩) الموكل بإدريس بن يحيى، فأجابهم إلى إخراجهم، وأخرجه وبايع له، وخطب له بسبته وطنجة بالخلافة، وبقي إلى أن توفي سنة ست وأربعين [وأربعمئة].

ثم إن المهدي رأى من أخيه السامي ما أنكره، ففاه عنه، فسار إلى العدو إلى جبال غمارة، وأهلها يتقادون للعلوين ويعظمونهم، فبايعوه. ثم إن البربر خاطبوا محمد بن القاسم بالجزيرة، واجتمعوا إليه وبايعوه بالخلافة، وتسمى بالمهدي أيضاً، فصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة، أربعة كلهم يسمى أمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً، فرجعت البرابر عنه، وعاد إلى الجزيرة، فمات بعد أيام، فولّى الجزيرة ابنه القاسم، ولم يتسم بالخلافة، وبقي محمد بن إدريس بمالقة إلى أن مات سنة خمس وأربعين [وأربعمئة]، وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالي عند بني يفرن بتاكرنا، فلما توفي محمد بن إدريس بن عليّ قصد إدريس بن يحيى مالقة فملكها، ثم انتقلت إلى صنهاجة.

ذكر ولاية هشام الأموي قرطبة

لما قطعت دعوة يحيى بن عليّ العلويّ عن قرطبة سنة سبع عشرة وأربعمئة، على ما ذكرناه قبل، أجمع أهلها على خلع العلولين لميلهم إلى البربر، وإعادة الخلافة بالأندلس إلى بني أمية، وكان رأسهم في ذلك أبا الحزم جهّور بن محمد بن جهّور، فراسلوا أهل الثغور والمتغلبين هناك في هذا، فاتفقوا معهم، فبايعوا أبا بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي، وكان مقيماً بالبتّ مذ قُتل أخوه المرتضى، فبايعوه في ربيع الأول سنة ثمان (٢٨٣/٩) عشرة، وتلقب بالمعتد بالله، وكان أسنّ من المرتضى، ونهض إلى الثغور فتردّد فيها، وجرى له هناك فتن واضطراب شديد من الرؤساء إلى أن اتفق أمرهم على أن يسير إلى قرطبة دار الملك، فسار إليها ودخلها ثامن ذي الحجة سنة عشرين [وأربعمئة] وبقي بها حتى خلع ثاني ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين.

وكان سبب خلع له أن وزيره أبا عاصم سعيداً القرّاز لم يكن له قديم رئاسة، وكان يخالف الوزراء المتقدمين، ويتسبّب إلى أخذ أموال التجار وغيرهم، وكان يصل البربر، ويحسن إليهم ويقربهم فنفر عنه أهل قرطبة، فوضعوا عليه من قتله، فلماً قتلوه استوحشوا من هشام فخلعوه بسببه. فلما خلع هشام قام أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، وتسور القصر مع جماعة من الأحداث، ودعا إلى نفسه، فبايعه من سواد الناس كثير، فقال له

وأما أمية فإنه اختفى بقرطبة، فنادى أهل قرطبة بالأسواق والأرباض أن لا يبقى أحد من بني أمية بها، ولا يتركهم عنده أحد، فخرج أمية فيمن خرج، وانقطع خبره مدة، ثم أراد العود إليها، فعاد طمعاً في أن يسكنها، فأرسل إليه شيوخ قرطبة من منعه عنها، وقيل قُتل وخُيّب، وذلك في جمادى الآخرة سنة أربع وعشرين [وأربعمئة]، ثم انحلّ عقد الجماعة وانتشر وافتترقت البلاد، على ما نذكره.

ذكر تفرق ممالك الأندلس

ثم إن الأندلس اقتسمه أصحاب الأطراف والرؤساء، فتغلب كل إنسان على شيء منه، فصاروا مثل ملوك الطوائف، وكان ذلك أضر شيء على المسلمين فطمع بسببه العدو الكافر، خذله الله فيهم، ولم يكن لهم اجتماع إلى أن ملكه أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين، على ما نذكره إن شاء الله.

فاما قرطبة فاستولى عليها أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، المقدم ذكره، وكان من وزراء الدولة العامرية، قديم الرفاة، موصوفاً بالدعاء والعقل، ولم يدخل في شيء من الفتن قبل هذا بل كان يتصاون عنها. فلما خلا له الجو، وأمكتته الفرصة، وثب عليها فتولّى أمرها وقام بحمايتها، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً، بل دبّرها تدبيراً لم يسبق إليه، وأظهر أنه حاكم للبلد إلى أن يجيء من يستحقّه، ويتفق عليه الناس، فيسلمه إليه. ورتب (٢٨٥/٩) البوابين والحشم على أبواب قصور الإمارة، ولم يتحوّل هو عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك، وهو المشرف عليهم، وصيّر أهل الأسواق جنداً، وجعل أرزاقهم ربح أموال تكون بأيديهم ديناً عليهم، فيكون الربح لهم، ورأس المال باقياً عليهم، وكان يتعهده في الأوقات المتفرقة لينظر كيف حفظهم لها، وفرّق السلاح عليهم، فكان أحدهم لا يفارقه سلاحه حتى يعجل حضوره إن احتاج إليه.

وكان جهّور يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويحضر الأفراح على طريقة الصالحين، وهو مع ذلك يدبّر الأمر تدبير الملوك،

بعشرين سنة وادّعى أنه المؤيد، فوبع بالخلافة، وخطب له على منابر جميع بلاد الأندلس في أوقات متفرقة، وسفكت الدماء بسببه، واجتمعت العساكر في أمره.

ولما أظهر ابن عباد موت هشام المؤيد، واستقلّ بأمر إشبيلية وما انضاف إليها، بقي كذلك إلى أن مات من ذبحة لحقته للبلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة، وولي بعده ابنه أبو القاسم محمد بن عباد ابن القاضي أبي القاسم، ولقب بالمعتمد على الله، فأتسع ملكه، وشمخ سلطانه، وملك كثيراً من الأندلس، وملك قرطبة أيضاً، وولى عليها ابنه الظافر بالله، فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذي النون، صاحب طليطلة، فحسده عليها، فضمن له جرير بن عكاشة أن يجعل ملكها له، وسار إلى قرطبة، وأقام بها يسمى في ذلك وهو ينتهز الفرصة.

فاتفق أن في بعض الليالي جاء مطر عظيم ومعه ريح شديدة ورعد وبرق، فثار جرير فيمن معه، ووصل إلى قصر الإمارة، فلم يجد من يمانعه، فدخل صاحب الباب إلى الظافر وأعلمه، فخرج بمن معه من العبيد والحرس، وكان صغير السن، وحمل عليهم، ودفعهم عن الباب، ثم إنه عثر في بعض كراته فسقط، فوثب بعض من يقائله وقتله، ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا والقصر قد مُلك، وتلاحق بجريز أصحابه وأشياعه، وترك الظافر ملقاً على الأرض عرياناً، فمرّ عليه بعض أهل قرطبة، فأبصره على تلك الحال، فترجّ رداؤه وألقاه عليه، وكان أبوه إذا ذكره يمثّل:

ولم أدر من ألقى عليه رداه على أنه قد سلّ عن ماجد محض ولم يزل المعتمد يسمى في أخذها، حتى عاد ملكها، وترك ولده المأمون (٢٨٨/٩) فيها، فأقام بها حتى أخذها جيش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقُتل فيها بعد حروب كثيرة يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى سنة أربع وثمانين [وأربعمائة].

وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد في السنة المذكورة، وبقي محبوساً في أغمات إلى أن مات بها، رحمه الله، وكان هو وأولاده جميعهم الرشيد، والمأمون، والراضي، والمعتمد، وأبوه، وجدّه، علماء فضلاء شعراء.

وأما بطليوس فقام بها سابور الفتى العامري، وتلقّب بالمنصور، ثم انتقلت بعده إلى أبي بكر محمد بن عبد الله بن سلمة، المعروف بابن الأفطس، أصله من بربر مكناسة، لكنه ولد أبوه بالأندلس، ونشأوا بها، وتخلّقوا تخلّق أهلها، وانتسبوا إلى تاجيب، وشاكلهم الملك، فلما توفي صارت بعده إلى ابنه أبي محمد عمر بن محمد وأتسع ملكه إلى أقصى المغرب، وقُتل صبراً مع ولدين له عند تغلب أمير المسلمين على الأندلس.

وأما طليطلة فقام بأمرها ابن يعيش، فلم تطل مدّته، وصارت

وكان مأمون الجانب، وأمن الناس في أيامه، وبقي كذلك إلى أن مات في صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وقام بأمرها بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات، فغلب عليها الأمير الملقب بالمأمون، صاحب طليطلة، فدبّرها إلى أن مات بها.

وأما إشبيلية فاستولى عليها القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، وهو من ولد النعمان بن المنذر، وقد ذكرنا سبب ذلك في دولة يحيى بن علي بن حمّود قبل هذا. وفي هذا الوقت ظهر أمر المؤيد هشام بن الحاكم، وكان قد اختفى وانقطع خبره، وكان ظهوره بمالقة، ثم سار منها إلى المريّة، فخافه صاحبها زهير العامري فأخرجه منها، فقصد قلعة رباح، فأطاعه أهلها فسار إليهم صاحبه إسماعيل بن ذي النون وحاربهم، فضعفوا عن مقاومته، فأخرجوه، فاستدعاه القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد إليه بإشبيلية، وأذاع أمره، وقام بنصره، وكان رؤساء الأندلس في طاعته، فأجابه إلى ذلك صاحب بلنسية ونواحيها، وصاحب قرطبة، وصاحب (٢٨٦/٩) دانية والجزائر، وصاحب طرطوشة، وأقروا بخلافته، وخطبوا له، وجدّدت بيعته بقرطبة، في المحرم سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

ثم إن ابن عباد سيّر جيشاً إلى زهير العامري لأنه لم يخطب للمؤيد، فاستنجد زهير حبّوس بن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة، فسار إليه بجيشه، فعادت عساكر ابن عباد، ولم يكن بين العسكريين قتال، وأقام زهير في يبايسة، وعاد حبّوس إلى مالقة، فمات في رمضان من هذه السنة، وولي بعده ابنه باديس، واجتمع هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحبّوس، فلم تستقر بينهما قاعدة، واقتتلا، فقتل زهير وجمع كثير من أصحابه أواخر سنة تسع وعشرين [وأربعمائة].

ثم في سنة إحدى وثلاثين [وأربعمائة] التقى عسكر ابن عباد وعليهم ابنه إسماعيل مع باديس بن حبّوس، وعسكر إدريس العلوي، على ما ذكرناه عند أخبار العلويين فيما تقدّم، إلا أنهم اقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل إسماعيل، ثم مات بعده أبوه القاضي أبو القاسم سنة ثلاث وثلاثين، وولي بعده ابنه أبو عمرو عباد بن محمد، ولقب بالمعتمد بالله، فاضطرب ما ولي، وأظهر موت المؤيد.

هذا قول ابن أبي الفياض في المؤيد، وقال غيره إن المؤيد لم يظهر خبره منذ عدم من قرطبة عند دخول علي بن حمّود إليها، وقتله سليمان، وإنما كان هذا من تمويلات ابن عباد وحيله ومكره، وأعجب من اختفاء حال المؤيد، ثم تصديق الناس ابن عباد في ما أخبر به من حياته، أن إنساناً حضرياً (٢٨٧/٩) ظهر بعد موت المؤيد

ورأسته إلى إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر بن مطرف بن ذي النون، ولقبه الظافر بحول الله، وأصله من البربر وولد بالأندلس، وتأدب بأدب أهلها، وكان مولد لإسماعيل سنة تسعين وثلاثمائة، وتوفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وكان عالماً بالأدب، وله شعر جيد، وصنّف كتاباً في الآداب والأخبار.

وأما دانية والجزائر فكانت بيد الموفق أبي الحسن مجاهد العامري؛ وسار إليه من قرطبة الفقيه أبو محمد عبد الله المعيطي ومعه خلق كثير، فأقامه مجاهد شبه خليفة يصدر عن رأيه، وبايعه في جمادى الآخرة سنة خمس وأربعمائة، فأقام المعيطي بدانية مع مجاهد ومن انضم إليه نحو خمسة أشهر، ثم سار هو ومجاهد في البحر إلى الجزائر التي في البحر، وهي ميورقة بالياء، ومنورقة بالنون، وبإسة.

ثم بعث المعيطي بعد ذلك مجاهداً إلى سردينة في مائة وعشرين مركباً بين كبير وصغير ومعه ألف فارس، ففتحها في ربيع الأول سنة ست وأربعين وأربعمائة، وقتل بها خلقاً كثيراً من النصراني، وسبى مثلهم، فسار إليه الفرنج والروم من البر في آخر هذه السنة، فأخرجوه منها، ورجع إلى الأندلس والمعيطي قد توفي، فغاص مجاهد في تلك الفتن إلى أن توفي، وولي بعده ابنه علي بن مجاهد، وكانا جميعاً من أهل العلم والمجبة لأهله والإحسان إليهم، وجلباهم من أقاصي البلاد وأدانيها، ثم مات ابنه علي فولي بعده ابنه أبو عامر، (٢٩١/٩) ولم يكن مثل أبيه وجده. ثم إن دانية وسائر بلاد بني مجاهد صارت إلى المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود في شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

وأما مرسية فولياها بنو طاهر، واستقامت رئاستها لأبي عبد الرحمن منهم، المدعو بالريش، ودامت رئاسته إلى أن أخذها منه المعتمد بن عباد على يد وزيره أبي بكر بن عمار المهري، فلما ملكها عصى على المعتمد فيها، فوجه إليه عسكرياً مقدمهم أبو محمد عبد الرحمن بن رشيق القشيري، فحصره وضيقوا عليه، حتى هرب منها، فلما دخلها القشيري عصى فيها أيضاً على المعتمد، إلى أن دخل في طاعة الملثمين، وبقي أبو عبد الرحمن بن طاهر بمدينة بلنسية إلى أن مات بها سنة سبع وخمسمائة، ودفن بمرسية، وقد تيف على تسعين سنة.

وأما المرية فملكها خيران العامري، وتوفي كما ذكرنا، وولياها بعده زهير العامري، واتسع ملكه إلى شاطبة، إلى ما يجاور عمل طليطلة، ودام إلى أن قُتل، كما تقدّم، وصارت مملكته إلى المنصور أبي الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، فولي بعده ابنه محمد، فلما توفي عبد العزيز ببلنسية أقام ابنه محمد بالمرية، وهو يلبس بلنسية، فانتهز الفرصة فيها المأمون يحيى بن ذي النون وأخذها منه، وبقي بالمرية إلى أن أخذها منه صهره ذو الوزارتين أبو الأحوص المعتصم معن بن صمادح التجيبي، ودانت له لورقة، وبياسة، وجيان، وغيرها إلى أن توفي سنة ثلاث وأربعين [وأربعمائة]، وولي بعده ابنه أبو يحيى محمد بن معن وهو ابن أربع عشرة سنة، فكفله عمه أبو عتبة بن محمد إلى أن توفي سنة ست (٢٩٢/٩) وأربعين، فبقي أبو يحيى مستضعفاً

ورأسته إلى إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر بن مطرف بن ذي النون، ولقبه الظافر بحول الله، وأصله من البربر وولد بالأندلس، وتأدب بأدب أهلها، وكان مولد لإسماعيل سنة تسعين وثلاثمائة، وتوفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وكان عالماً بالأدب، وله شعر جيد، وصنّف كتاباً في الآداب والأخبار.

وولي بعده ابنه يحيى فاشتغل بالخلاعة والمجون، وأكثر مهادة الفرنج ومصانعتهم ليتلذذ باللعب، وامتدت يده إلى أموال الرعية، ولم تزل الفرنج تأخذ حصونه شيئاً بعد شيء، حتى أخذت طليطلة في سنة سبع وسبعين (٢٨٩/٩) وأربعمائة، وصار هو ببلنسية، وأقام بها إلى أن قتله القاضي ابن جحاف الأحنف، وفيه يقول الرئيس أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر:

أيها الأحنف مهلاً فلقد جئت عريفاً
إذ قتل الملك يحيى وتقصت القمصا
رب يوم فيه تجري إن تجد فيه محيماً

وأما سرقسطة والثغر الأعلى فكان بيد منذر بن يحيى التجيبي، ثم توفي وولي بعده ابنه يحيى، ثم صارت بعده لسليمان بن أحمد بن محمد بن هود الجذامي وكان يلقب بالمستعين بالله، وكان من قواد منذر على مدينة لاردة، وله وقعة مشهورة بالفرنجة بطليطلة سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ثم توفي وولي بعده ابنه المقتدر بالله، وولي بعده ابنه يوسف بن أحمد المؤتمن، ثم ولي بعده ابنه أحمد المستعين بالله على لقب جده، ثم ولي بعده ابنه عبد الملك عماد الدولة، ثم ولي بعده ابنه المستنصر بالله، وعليه انقضت دولتهم على رأس الخمس مائة، فصارت بلادهم جميعاً لابن ناشفين.

ورأيت بعض أولادهم بدمشق سنة تسعين وخمسمائة، وهو فقير جداً، وهو قيم الزبوة، فسبحان من لا يزول ولا تغير الدهور.

وأما طرطوشة فولياها لييب الفتى العامري.

وأما بلنسية فكان بها المنصور أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن المنصور بن أبي عامر المعافري. ثم انضاف إليه المرية وما كان إليها، وبه ابنه محمد ودام فيها إلى أن غدر به صهره المأمون بن إسماعيل بن ذي النون، (٢٩٠/٩) وأخذ منه رئاسة بلنسية في ذي الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فانتزع إلى المرية، وأقام بها إلى أن خلع، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأما السهلة فملكها عتود بن رزين، وأصله بربري، ومولده بالأندلس، فلما هلك ولي بعده ابنه عبد الملك، وكان أديباً شاعراً، ثم ولي بعده ابنه عز الدولة، ومنها ملكها الملثمون.

لصغره، وأخذت بلاده البعيدة عنه، ولم يبق له غير المروية وما يجاورها.

فلما سمع سلطان الدولة عاد إلى فارس، فالتقوا هناك واقتتلوا، فانهزم أبو الفوارس، وقُتل كثير من أصحابه، وعاد بأسوأ حال، وملك سلطان (٢٩٤/٩) الدولة بلاد فارس، وهرب أبو الفوارس سنة ثمان وأربعمائة إلى كرمان، فسُير سلطان الدولة الجيوش في أثره، فأخذوا كرمان منه، فلحق بشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه، صاحب همذان، ولم يمكنه العود إلى يمين الدولة، لأنه أساء السيرة مع أبي سعد الطائي.

ثم فارق شمس الدولة، ولحق بمهذب الدولة، صاحب البطيحة، فأكرمه وأنزله داره، وأنفذ إليه أخوه جلال الدولة من البصرة مالاً وثياباً، وعرض عليه الانحدار إليه فلم يفعله، وترددت الرسل بينه وبين سلطان الدولة، فأعاد إليه كرمان، وسُيرت إليه الخلع والتقليد بذلك، وحُمِلت إليه الأموال، فعاد إليها.

ذكر قتل الشيعة بإفريقية

في هذه السنة، في المحرم، قُتل الشيعة بجميع بلاد إفريقية.

وكان سبب ذلك أن المعز بن باديس ركب ومشى في القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له، فاجتاز بجماعة، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء رافضة يسبون أبابكر وعمر؛ فقال: رضي الله عن أبي بكر وعمر! فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلبي من القيروان، وهو [مكان] تجتمع به الشيعة، فقتلوا منهم، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم، طمعاً في النهب، وانبسطن أيدي العامة في الشيعة، وأغرامهم عامل القيروان وحرّضهم.

وسبب ذلك أنه كان قد أصلح أمور البلد، فبلغه أن المعز بن باديس يريد (٢٩٥/٩) عزله، فأراد فساده، فقتل من الشيعة خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونُهبت ديارهم، وقُتلوا في جميع إفريقية، واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قريب القيروان، فتحصنوا به، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع، فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قُتلوا عن آخرهم، ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع فقتلوا كلهم.

وكانت الشيعة تُسمّى بالمغرب المشاركة نسبة إلى أبي عبد الله الشيعي، وكان من المشرق، وأكثر الشعراء ذكر هذه الحادثة، فمن فرج مسرور ومن بالك حزين.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، احترقت قبة مشهد الحسين والأزقة، وكان سببه أنهم أشعلوا شمعتين كبيرتين في الليل على التماثيل فاحترق، وتعدت النار؛ وفيه أيضاً احترق نهر طابق، ودار القطن، وكثير من باب البصرة، واحترق جامع سُر من رأى.

فلما كبر أخذ نفسه بالعلوم، ومكارم الأخلاق، فامتدّ صيته، واشتهر ذكره، وعظم سلطانه، والتحق بأكابر الملوك، ودام بها إلى أن نازله جيش الملتمين، فمرض في أثناء ذلك، وكان القتال تحت قصره، فسمع يوماً صيحاً وجليّة، فقال: نقض علينا كل شيء حتى الموت! وتوفي في مرضه ذلك لثمان بقين من ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ودخل أولاده وأهله البحر في مركب إلى بجاية، قاعدة مملكة بني حماد من إفريقية، وملك الملتمون المروية وما معها.

وأما مالقة فملكها بنو علي بن حمود، فلم تنزل في مملكة العلويين يخطب لهم فيها إلى أن أخذها منهم إدريس بن حبوس صاحب غرناطة سنة سبع وأربعين [وأربعمائة]، وانتفضى أمر العلويين بالأندلس.

وأما غرناطة فملكها حبوس بن ماسكن الصنهاجي، ثم مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وولي بعده ابنه باديس، فلمّا توفي ولي بعده ابن أخيه عبد الله بن بُلْكِين، وبقي إلى أن ملكها منه الملتمون في رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وانقرضت دول جميعهم، وصارت الأندلس جميعها للملتمين، وملكهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، واتصلت مملكته من المغرب الأقصى إلى آخر بلاد المسلمين بالأندلس؛ نعود إلى سنة سبع وأربعمائة. (٢٩٣/٩)

ذكر الحرب بين سلطان الدولة وأخيه أبي الفوارس

قد ذكرنا أن الملك سلطان الدولة لما ملك بعد أبيه بهاء الدولة ولي أخاه أبا الفوارس بن بهاء الدولة كُرمان، فلما وليها اجتمع إليه الدليم، وحسّنوا له محاربة أخيه وأخذ البلاد منه، فتجهّز وتوجّه إلى شيراز، فجمع عساكره وسار إليه فحاربه، فانهزم أبو الفوارس، وعاد إلى كُرمان، فنبهه إليها، فخرج منها هارباً إلى خراسان، وقصد يمين الدولة محمود بن سبكتكين، وهو بُيُست، فأكرمه وعظّمه، وحمل إليه شيئاً كثيراً، وأجلسه فرق دارا بن قابوس بن وشمكير، فقال دارا: نحن أعظم محلاً منهم لأن أباه وأعمامه خدموا آبائي؛ فقال محمود: لكنهم أخذوا الملك بالسيف؛ أراد بهذا نصرة نفسه حيث أخذ خراسان من السامانية، ووعد محمود أن ينصره.

ثم إن أبا الفوارس باع جوهرتين كانتا على جبهة فرسه بعشرة آلاف دينار، فاشتراهما محمود وحملهما إليه، فقال له: من غلظكم تتركون هذا على جبهة الفرس، وقيمتها ستون ألف دينار. ثم إن محموداً سَير جيشاً مع أبي الفوارس إلى كرمان، مقدّمهم أبو سعد الطائي، وهو من أعين قواده، فسار إلى كرمان فملكها، وقصد بلاد

ذكر ملك أخيه أرسلان خان

لما مات طغان خان ملك بعده أخوه أبو المظفر أرسلان خان، ولقبه شرف الدولة، فخالف عليه قدرخان يوسف بن بغراخان هارون بن سليمان الذي ملك بخارى، وقد تقدّم ذكره، وكان ينوب عن طغان خان بسمرقند، فكتاب يمين الدولة يستنجد به على أرسلان خان، فعقد على جيّحون جسراً من السفن، وضبطه بالسلاسل، فغبر عليه، ولم يكن يُعرف هناك قبل هذا، وأعانه على أرسلان خان .

ثم إن يمين الدولة خافه، فعاد إلى بلاده، فاصططح قدر خان وأرسلان خان على قصد بلاد يمين الدولة واقتسامها، وسارا إلى بلخ .

وبلغ الخبر إلى يمين الدولة، فقصدهما، واقتلوا، وصبر الفريقان، ثم انهزم الترك وعبروا جيّحون، فكان من غرق منهم أكثر ممن نجا .

وورد رسول متولّي خوارزم إلى يمين الدولة يهنّئ بالفتح عُتَيْب الوقعة، فقال له : من أين علمتم ؟ فقال : من كثرة القلائس التي جاءت على الماء ؛ وعبر يمين الدولة، فشكا أهل تلك البلاد إلى قدر خان ما يلقون من عسكر يمين الدولة، فقال : قد قرب الأمر بيننا وبين عدونا، فإن ظفرونا منعنا عنكم، وإن ظفر عدونا فقد استرحم منا . ثم اجتمع هو وقدر خان، وأكلا طعاماً، وكان قدر خان عادلاً (٢٩٩/٩) حسن السيرة، كثير الجهاد، فمن فتوحه ختن، وهي بلاد بين الصين وتركستان وهي كثيرة العلماء والفضلاء، وبقي كذلك إلى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة فتوفي فيها، وكان يديم الصلاة في الجماعة .

ولما توفي خلف ثلاثة بنين [منهم] أبو شجاع أرسلان خان، وكان له كاشغر، وختن، وبلاساغون، وخطيب له على منابرهما، وكان لقبه شرف الدولة، ولم يشرب الخمر قط، وكان ديناً، مكرماً للعلماء وأهل الدين، فقصده من كل ناحية، فوصلهم وأحسن إليهم، وخلف أيضاً بغراخان ابن قدر خان، وكان له طراز واسييجاب فقدم أخوه أرسلان وأخذ مملكته، فتحاربوا، فانهزم أرسلان خان وأخذ أسيراً، فأودعوه الحبس، وملك بلاده .

ثم إن بغراخان عهد بالملك لولده الأكبر، واسمه حسين جفري تكين، وجعله وليّ عهده، وكان لبغراخان امرأة له منها ولد صغير، ففاظها ذلك، فعمدت إليه وسّمته فمات هو وعدة من أهله، وخنقت أخاه أرسلان خان بن قدر خان، وكان ذلك سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، وقتلت وجوة أصحابه، ومَلَكَت ابنه، واسمه إبراهيم، وسيرته في جيش إلى مدينة تُعرف ببرسُخان، وصاحبها يُعرف بِئَالْتَكِين، فظفر به بئالْتَكِين وقتله، وانهزم عسكره إلى أمه،

وفيهما تشعّت الركن اليمانيّ من البيت الحرام، وسقط حائط بين يدي حُجرة النبي ﷺ ووقعت القبة الكبيرة على الصخرة بالبيت المقدس .

وفيهما كانت فتنة كبيرة بين السُنّة والشيعية بواسط، فانتصر السُنّة وهرب وجوه الشيعة والعلويّين إلى علي بن مَزِيد فاستنصروه. (٢٩٦/٩)

وفيهما، في رجب، مات محمد بن أحمد بن القاسم بن إسماعيل أبو الحسين الضيّبي القاضي المعروف بابن المحامليّ ؛ وكان من أعيان الفقهاء الشافعيّة وكبار المحدثين ؛ مولده سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ؛ ومحمد بن الحسين بن محمد بن الهيثم أبو عمر البسطاميّ، الواعظ، الفقيه، الشافعيّ، وليّ قضاء نيسابور . (٢٩٧/٩)

سنة ثمان وأربعمائة

ذكر خروج الترك من الصين وموت طغان خان

في هذه السنة خرج الترك من الصين في عدد كثير يزيدون على ثلاثمائة ألف خروا من أجناس الترك، منهم الخطائية الذين ملكوا ما وراء النهر، وسيرد خبر ملكهم إن شاء الله تعالى .

وكان سبب خروجهم أن طغان خان لما ملك تركستان مرض مرضاً شديداً، وطال به المرض، فطمعوا في البلاد لذلك، فساروا إليها وملكوا بعضها وغنموا وسبوا وبقي بينهم وبين بلاساغون ثمانية أيام، فلما بلغه الخبر كان بها مريضاً، فسأل الله تعالى أن يعافيه ليتنقم من الكفرة، ويحمي البلاد منهم، ثم يفعل به بعد ذلك ما أراد، فاستجاب الله له وشفاه، فجمع العساكر، وكتب إلى سائر بلاد الإسلام يستنفر الناس، فاجتمع إليه من المتطوعة مائة ألف وعشرون ألفاً، فلما بلغ الترك خبر عافيته وجمعه العساكر وكثرة من معه عادوا إلى بلادهم، فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم وهم آمنون لبعد المسافة، فكبسهم وقتل منهم زيادة على مائتي ألف رجل، وأسر نحو مائة ألف، وغنم من الدواب والخركاهاات وغير ذلك من الأواني الذهبية والفضية، ومعمول الصين ما لا عهد لأحد بمثله، وعاد إلى بلاساغون، فلما بلغها عاوده مرضه فمات منه .

وكان عادلاً، خيراً، ديناً، يحب العلم وأهله، ويميل إلى أهل الدين، ويصلهم ويقرّبهم، وما أشبه قصته بقصة سعد بن معاذ الأنصاريّ، وقد تقدّم في غزوة الخندق، وقيل : كانت هذه الحادثة مع أحمد بن علي قراخان، أخي طغان خان، وإنها كانت سنة ثلاث وأربعمائة .

واختلف أولاد بغراخان، قصدهم طُفُفَاج خان صاحب سمرقند. وثمانين، وسنذكره هناك إن شاء الله تعالى.

(٣٠٠/٩)

ذكر ملك طُفُفَاج خان وولده

وكان طُفُفَاج خان أبو المظفر إبراهيم بن نصر ايلك يلقب عماد الدولة، وكان يبيده سمرقند، فلما مات ورثه ابنه طفغاج، وملك بعده، وكان طفغاج متديناً لا يأخذ مالا حتى يستغني الفقهاء، فورد عليه أبو شجاع العلوي الواعظ، وكان زاهداً، فوعظه وقال له : إنك لا تصلح للملك . فأغلق طفغاج بابيه، وعزم على ترك الملك، فاجتمع عليه أهل البلد وقالوا : قد أخطأ هذا، والقيام بأمورنا متعين عليه . فعند ذلك فتح بابيه، ومات سنة ستين وأربعمئة .

وكان السلطان ألب أرسلان قد قصد بلاده ونهبها أيام عمه طغرلبيك، فلم يقابل الشر بمثله، وأرسل رسولا إلى القائم بأمر الله سنة ثلاث وخمسين [وأربعمئة] يهتته بعوده إلى مستقره، ويسأل التقدم إلى ألب أرسلان بالكف عن بلاده، فأجيب إلى ذلك، وأرسل إليه الخلع والألقاب، ثم فجع سنة ستين .

وكان في حياته قد جعل الملك في ولده شمس الملك، فقصد أخوه طغان خان بن طفغاج، وحصره بسمرقند، فاجتمع أهلها إلى شمس الملك، وقالوا له : قد خرب أخوك ضياعا وأفسدها، ولو كان غيره لساعدناك، ولكنه أخوك فلا ندخل بينكما؛ فوعدهم المناجزة، وخرج من البلد نصف الليل في خمسمائة غلام مُتَّذِينَ، وكبس أخاه، وهو غير محتاط، فظفر به، فهزمه، وكان هذا وأبوها حي .

ثم قصده هارون بغراخان بن يوسف قدر خان، وطغرل قراخان، وكان طفغاج قد استولى على ممالكهما، وقاربا سمرقند، فلم يظفرا بشمس الملك، (٣٠١/٩) فصالحاه وعادا فصارت الأعمال المتاخمة لجيحين لشمس الملك، وأعمال الخاهر في أيديهما، الحد بينهما خُجُنْدَة .

وكان السلطان ألب أرسلان قد تزوج ابنة قدر خان، وكانت قبله عند مسعود بن محمود بن سبكتكين، وتزوج شمس الملك ابنة ألب أرسلان، وزوج بنت عمه عيسى خان من السلطان ملكشاه، وهي خاتون الجلالة أم الملك محمود الذي ولي السلطنة بعد أبيه، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

ثم اختلف ألب أرسلان وشمس الملك، وسنذكره سنة خمس وستين [وأربعمئة] عند قتل ألب أرسلان ؛ ثم مات شمس الملك، فولي بعده أخوه خضر خان، ثم مات، فولي ابنه أحمد خان، وهو الذي قبض عليه ملك شاه، ثم أطلقه وأعادته إلى ولايته سنة خمس

ثم إن جنده ثاروا به فقتلوه وملك بعده محمود خان، وكان جده من ملوكهم، وكان أصم، فقصد طغان خان بن قارخان، صاحب طراز، فقتله واستولى على الملك، واستتاب بسمرقند أبا المعالي محمد بن زيد العلوي البغدادي، فولي ثلاث سنين، ثم عصى عليه، فحاصره طغان خان، وأخذه وقتله، وقتل خلقا كثيرا معه .

ثم خرج طغان خان إلى ترمذ يريد خراسان، فلقبه السلطان سنجر وظفر به وقتله وصارت أعمال ما وراء النهر له، فاستتاب به محمد خان بن كمشكين بن إبراهيم بن طفغاج خان، فأخذها منه عمر خان، وملك سمرقند، ثم هرب (٣٠٢/٩) من جنده وقصد خوارزم فظفر به السلطان سنجر فقتله وولي سمرقند محمد خان وولي بخارى محمد تكين بن طغانتيكين .

ذكر كاشغر وتركستان

وأما كاشغر، وهي مدينة تركستان، فإنها كانت لأرسلان خان بن يوسف قدر خان، كما ذكرنا، ثم صارت بعده لمحمود بغراخان، صاحب طراز والشاش، خمسة عشر شهرا، ثم مات فولي بعده طغرل خان بن يوسف قدر خان، فاستولى على الملك، وملك بلاساغون، وكان ملكه ست عشرة سنة ثم توفي .

وملك ابنه طغرلتيكين، وأقام شهرين، ثم أتى هارون بغراخان أخو يوسف طغرلخان بن طُفُفَاج بغراخان، وعبر كاشغر، وقبض على هارون، وأطاعه عسكره، وملك كاشغر، وختن، وما يتصل بهما إلى بلاساغون، وأقام مائتا تسعا وعشرين سنة، وتوفي سنة ست وتسعين وأربعمئة، فولي ابنه أحمد ابن أرسلان خان، وأرسل رسولا إلى الخليفة المستظهر بالله يطلب منه الخلع والألقاب، فأرسل إليه ما طلب، ولقبه نور الدولة .

ذكر وفاة مهذب الدولة وحال البطيحة بعده

في هذه السنة، في جمادى الأولى، توفي مهذب الدولة أبو الحسن علي بن نصر، ومولده سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وهو الذي نزل عليه القادر بالله، (٣٠٣/٩)

وكان سبب موته أنه افتصد، فانتفخ ساعده، ومرض منه، واشتد مرضه . فلما كان قبل وفاته بثلاثة أيام تحدث الجند بإقامة ولده أبي الحسين أحمد مقامه، فبلغ ابن أخت مهذب الدولة، وهو أبو محمد عبد الله بن بني، فاستدعى الديلم والأتراك، ورغبهم ووعدهم، واستحلفهم لنفسه، وقرّر معهم القبض على أبي الحسين بن مهذب الدولة وتسليمه إليه، فمضوا إليه ليلا وقالوا له : أنت ولد الأمير، ووارث الأمر من بعده، فلو قمت معنا إلى دار الإمارة ل يظهر

وفيها قدم سلطان الدولة ببغداد، وضُرب الطبل في أوقات الصلوات الخمس، ولم تجر به عادة إنما كان عضد الدولة يفعل ذلك في أوقات ثلاث صلوات.

وفيها هرب ابن سهلان من سلطان الدولة إلى هيت وأقام عند قرواش، وولى سلطان الدولة موضعه أبا القاسم جعفر بن أبي الفرج بن فسانجس، ومولده ببغداد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

وفيها كانت ببغداد فتنة بين أهل الكرخ من الشيعة وبين غيرهم من السنة اشتدت.

وفيها استتاب القادر بالله المعتزلة والشيعة وغيرهما من أرباب المقالات المخالفة لم يعتقد من مذاهبهم، ونهى من المناظرة في شيء منها، ومن فعل ذلك نُكِّل به وعوقب. (٣٠٦/٩)

سنة تسع وأربعمائة

ذكر ولاية ابن سهلان العراق

في هذه السنة عرض سلطان الدولة على الرُّخْجِي ولاية العراق، فقال: ولاية العراق تحتاج إلى مَنْ فيه عسف وخرق، وليس غير ابن سهلان، وأنا أخلفه ها هنا. فولاه سلطان الدولة العراق في المحرم، فسار من عند سلطان الدولة، فلما كان ببعض الطريق ترك ثقله، والكتاب، وأصحابه، وسار إلى جريدة في خمسمائة فارس مع طراد دُبَيْس الأسدي، يطلب مهارش ومُضَرَ ابني دُبَيْس، وكان مُضَر قد قبض قديماً عليه بأمر فخر الملك، فكان يغيضه لذلك، وأراد أن يأخذ جزيرة بني أسد منه ويسلّمها إلى طراد.

فلما علم مُضَر ومهارش قصده لهما سارا عن المَذَار، فتبعهما، والحرّ شديد، فكاد يهلك هو ومن معه عطشاً، فكان من لطف الله به أن بني أسد اشتغلوا بجمع أموالهم وإبعادها، وبقي الحسن بن ديبس فقاتل قتالاً شديداً، وقتل جماعة من الديلم والأتراك، ثم انهزموا ونهب ابن سهلان أموالهم، وصان حُرْمهم ونساءهم، فلما نزل في خيمته قال: الآن ولدنني أمي؛ وبذل الأمان لمهارش ومُضَر وأهلها، وأشرك بينهم وبين طراد في الجزيرة ورحل.

وأنكر على سلطان الدولة فعله ذلك، ووصل إلى واسط والفتن بها قائمة، (٣٠٧/٩) فأصلحها، وقتل جماعة من أهلها.

وورد عليه الخبر باشتداد الفتن ببغداد، فسار إليها، فدخلها أواخر شهر ربيع الآخر، فهرب منه العِمَارُون، ونفى جماعة من العباسيين وغيرهم، ونفى أبا عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وأنزل الديلم أطراف الكرخ وباب البصرة، ولم يكن قبل ذلك، ففعلوا من الفساد ما لم يشاهد مثله.

أمرك وتجتمع الكلمة عليك لكان حسناً.

فخرج من داره معهم، فلما فارقوا قبضوا عليه وحملوه إلى أبي محمد، فسمعت والدته فدخلت على مهذب الدولة قبل موته بيوم فأعلمته الخبر، فقال: أي شيء أقدر أن أعمل وأنا على هذه الحال؟ وتوفي من الغد، وولي الأمر أبو محمد، وتسلم الأموال والبلد، وأمر بضرب أبي الحسين بن مهذب الدولة، فضرِب ضرباً شديداً توفي منه بعد ثلاثة أيام من موت أبيه.

وبقي أبو محمد أميراً إلى منتصف شعبان، وتوفي بالذُّبْحَة، وكان قد قال قبل موته: رأيت مهذب الدولة بالمنام وقد مسك حلقي ليخفني، ويقول: قتلْتُ ابني أحمد، وقابلت نعمتي عليك بذلك. فمات بعد أيام فكان ملكه أقلّ من ثلاثة أشهر.

فلما توفي اتَّفَق الجماعة على تأمير أبي عبد الله الحسين بن بكر الشرايبي، وكان من خواص مهذب الدولة فصار أمير البطيحة، وبذل للملك سلطان الدولة بذولاً، فأقرّه عليها، وبقي إلى سنة عشر وأربعمائة، فسُيِّر إليه سلطان الدولة صدقة بن فارس المازياري، فملك البطيحة، وأمر أبا عبد الله الشرايبي، فبقي عنده أسيراً إلى أن توفي صدقة وخلص، على ما نذكره إن شاء الله تعالى. (٣٠٤/٩)

ذكر وفاة علي بن مزيد وإمارة ابنه دُبَيْس

في هذه السنة، في ذي القعدة، توفي أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي، وقام بعده ابنه نور الدولة أبو الأغر دُبَيْس، وكان أبوه قد جعله وليّ عهده في حياته، وخلع عليه سلطان الدولة، وأذن في ولايته، فلما توفي والده اختلعت العشيرة على ديبس فطلب أخوه المقلد بن أبي الحسن عليّ الإمارة، وسار إلى بغداد، وبذل للأتراك بذولاً كثيرة ليحاضدوه، فسار معه منهم جمع كثير، وكبسوا دُبَيْساً بالنعمانية ونهبوا حُلَّتَه، فانهزم إلى نواحي واسط، وعاد الأتراك إلى بغداد، وقام الأتبر الخادم بأمر دُبَيْس، حتّى ثبت قدمه، ومضى المقلد أخوه إلى بني عُقَيْل، ونذكر باقي أخباره في موضعها إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ضعف أمر الديلم ببغداد، وطمع فيهم العامة، فانحدروا إلى واسط، فخرج إليهم عامتهم وأتراكها، فقاتلوهم، فدفع الديلم عن أنفسهم، وقتلوا من أتراك واسط وعامتهم خلقاً كثيراً، وعظم أمر العيارين ببغداد، فافسدوا ونهبوا الأموال.

وفيها توفي الحاجب أبو طاهر سباشي المشطَب، وكان كثير المعروف، وأبو الحسن الهُماني، وكان متولّي البصرة وغيرها، وهو الذي مدحه مهيار بقوله:

أستجد الصبر فيكم، وهو مغلوب (٣٠٥/٩)

غزوة وبينه، فقصده بلادهم، وسلك مضايقتها، وفتح مغالقتها، وخرّب عامرها، وغنم أموالهم، وأكثر القتل فيهم والأسر، وغنم المسلمون من أموالهم الكثير.

ثم استقلّ على المسير، وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدّم من غزواته، وعبر نهر كك، ولم يعبره قبلها، فلمّا جازه رأى قفلاً قد بلغت عدّة أحمالهم ألف عدد، فغنمها، وهي من العود، والأمتعة الفاخرة، وجذب به السير، فأثاء في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له تروجنبال قد سار من بين يديه ملتجئاً إلى بيده ليحتمي به عليه، فطوى المراحل، فلاحق تروجنبال ومن معه، رابع عشر شعبان، وبينه وبين الهند نهر عميق، فعبّر إليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال ثم عبر هو وباقي العسكر إليهم، فاقتتلوا عامّة نهارهم وانهزم تروجنبال ومن معه، وكثر القتل والأسر، وأسلموا أموالهم وأهليهم، فغنمها المسلمون وأخذوا منهم الكثير من الجواهر وأخذ ما يزيد على مائتي فيل، وسار المسلمون يقتصون آثارهم، وانهزم ملكهم جريحاً، وتحرّر في أمره، وأرسل إلى يمين الدولة يطلب الأمان فلم يؤمنه، ولم يقنع منه إلاّ بالإسلام وقتل من عساكره ما لا يحصى.

وسار تروجنبال ليلحق ببدا فانفرد [به] بعض الهند فقتله. فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والإتاوة. وسار (٣١٠/٩) يمين الدولة بعد الواقعة إلى باري، وهي من أحسن القلاع والبلاد وأقواها، فرآها من سكّانها خالية، وعلى عروشها خاوية، فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وسار يطلب بيده الملك، فلحقه وقد نزل إلى جانب نهر، وأجرى الماء بين يديه فصار وحلاً، وترك عن يمينه وشماله طريقاً يساً يقاتل معه إذا أراد القتال، وكان عدّة من معه، ستة وخمسين ألف فارس، ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل، وسبع مائة وستة وأربعين فيلاً. فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال، فأخرج بيده إليهم، ولم يزل كل عسكر يمدّ أصحابه، حتّى كثر الجمعان واشتدّ الضرب والطعان، فأدركهم الليل وحجز بينهم.

فلما كان الغد بكرّ يمين الدولة إليهم، فرأى الديار منهم بلاقع، وركب كلّ فرقة منهم طريقاً مخالفاً للطريق الأخرى. ووجد خزائن الأموال والسلاح بحالها، فغنموا الجميع، واقتنى آثار المنهزمين، فلهقوهم في الغياض والأجاص، وأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا بيده فريداً وحيداً، وعاد يمين الدولة إلى غزوة منصوراً.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبض سلطان الدولة على وزيره ابن فسانجس وإخوته، وولّى وزارته ذا السعدتين أبا غالب الحسن بن منصور،

فمن ذلك أنّ رجلاً من المستورين أغلق بابه عليه خوفاً منهم، فلما كان أول يوم من رمضان خرج لحاجته، فرأهم على حال عظيم من شرب الخمر والفساد، فأراد الرجوع إلى بيته، فأكرهوه على الدخول معهم إلى دار نزولها، وألزموه بشرب الخمر فاستمتع، فصّبوا فيه فيه قهراً، وقالوا له: قم إلى هذه المرأة فافعل بها، فامتنع فالزموه، فدخل معها إلى بيت في الدار، وأعطاهم دراهم، وقال: هذا أول يوم رمضان، والمعصية فيه تتضاعف، وأحبّ أن تخبريهم أنني قد فعلت. فقالت: لا كرامة ولا عزازة، أنت تصون دينك عن الزنى، وأنا أريد أن أصون أمانتي في هذا الشهر عن الكذب! فصارت هذه الحكاية سائرة في بغداد.

ثم إن أبا محمد بن سهلان أفسد الأتراك والعامّة، فانحدر الأتراك إلى واسط، فلقوا بها سلطان الدولة، فشكوا إليه، فسكّنهم، ووعدهم الإصعاد إلى بغداد وإصلاح الحال.

واستحضر سلطان الدولة ابن سهلان، فخافه ومضى إلى بني خفّاجة، ثم أصدع إلى الموصل فأقام بها مدّة، ثم انحدر إلى الأنبار ومنها إلى البطيحة. (٣٠٨/٩) فأرسل سلطان الدولة إلى البطيحة رسلاً يطلبه من الشرايين، فلم يسلمه، فسّير إليها العساكر، فانهزم الشرايين، وانحدر ابن سهلان إلى البصرة، فاتّصل بالملك جلال الدولة، وكان الرّخّجي قد خرج مع ابن سهلان إلى الموصل، ففارقه بها، وأصلح حاله مع سلطان الدولة وعاد إليه.

ذكر غزوة يمين الدولة إلى الهند والأفغانيّة

في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند غازياً، واحتشد وجمع، واستعدّ وأعدّ أكثر ممّا تقدّم.

وسبب هذا الاهتمام أنّه لمّا فتح قنّوج، وهرب صاحبها منه، ويلقب رأي قنّوج، ومعنى رأي هو لقب الملك كقبصر وكشري، فلمّا عاد إلى غزنة أرسل بيده اللعين، وهو أعظم ملوك الهند مملكة، وأكثرهم جيشاً، وتسمّى مملكته كجوراهة، رُسلًا إلى رأي قنّوج، واسمه راجيال، يوّخه على انهزامه، وإسلام بلاده للمسلمين وطال الكلام بينهما، وآل أمرهما إلى الاختلاف.

وتأهّب كلّ واحد منهما لصاحبه، وسار إليه، فالتقوا واقتتلوا، فقتل راجيال، وأتى القتل على أكثر جنوده، فازداد بيده بما اتّفق له شراً وعُتوّاً، وبعد صيبت في الهند، وعلوّاً، وقصده بعض ملوك الهند الذي ملك يمين الدولة بلاده، وهزمه وأباد أجناده، وصار في جملته وخدمته والتجأ إليه، فوعده (٣٠٩/٩) بإعادة ملكه إليه، وحفظ ضالّته عليه، واعتذر بهجوم الشتاء وتسايع الأنداء. فتمت هذه الأخبار إلى يمين الدولة فأزعجته، وتجهّز للغزو، وقصد بيده، وأخذ ملكه منه، وسار عن غزنة، وابتدأ في طريقه بالأفغانيّة، وهم كفّار يسكنون الجبال، ويفسدون في الأرض، ويقطعون الطريق بين

ومولده بسيراف سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة (٣١١/٩)

وفيهما توفي الغالب بالله ولي عهد أبيه القادر بالله في شهر رمضان؛ وتوفي أيضاً أبو أحمد بن محمد بن أبي علان، قاضي الأهواز، ومولده سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وله تصانيف حسنة، وكان معتزلياً.

وفيه هذه السنة مات عبد الغني بن سعيد بن بشر بن مروان الحافظ المصري، صاحب المؤتلف والمختلف، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

وتوفي رجا بن عيسى بن محمد أبو العباس الأنصاري، وأنصنا من قرى مصر، وهو من الفقهاء المالكية وسمع الحديث الكثير. (٣١٢/٩)

سنة عشر وأربعمئة

في هذه السنة قبض الملك جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة على وزيره أبي سعد عبد الواحد بن علي بن مأكولا، وكان ابن عمه أبو جعفر محمد بن مسعود كاتباً فاضلاً، وكان يعرض الديلم لعرض الدولة، ولأبي سعد شعر منه:

وَإِنْ لَقِيتُ لِلشَّجَاعِ لَهْفًا وَلَكِنْ جَمَلُ الضِّمِّ مِنْهُ شَلِيدٌ
إِنَّمَا كَانَ قَلْبُ الْقَرْنِ يَبْشُرُ عَنِ الْوُغَى فَلَا جَنَاتِي جَلْمِدٌ وَحَلِيدٌ

وفيهما توفي وثاب بن سابق النميري، صاحب حران؛ وأبو الحسن بن أسد الكاتب، وأبو بكر محمد بن عبد السلام الهاشمي القاضي بالبصرة؛ وأبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي، الفقيه الحنبلي البغدادي، عم أبي محمد.

قال أبو الفضل: سمعت أبا الحسن بن القصاب الصوفي قال: دخلت أنا وجماعة إلى اليمارستان ببغداد، فرأينا شاباً مجنوناً شديد الهوس، فولعنا به، فردّ بفصاحة، وقال: انظروا إلى شعور مطررة. وأجساد معطرة... وقد جعلوا اللهو صناعة. واللعب بضاعة. وجانبوا العلم رأساً. فقلت: أتعرف شيئاً من العلم فنسالك؟ قال: نعم! إن أعندي علماً جماً، فاسألوني. قال بعضنا: من الكريم في الحقيقة؟ قال: من رزق أمثالكم وأنتم لا (٣١٣/٩) تساؤون ثومة. فضحكنا. فقال آخر: من أقل الناس شكراً؟ فقال: من عوفي من بلية ثم رآها في غيره ترك الاعتبار، فإن الشكر عليها واجب. فأبكاني بعد أن أضحكنا. فقلنا: ما الظرف؟ قال: خلاف ما أنتم عليه. ثم قال: اللهم إن لم تردّ عقلي، فردّ يدي لأصنع كل واحد منهم صفقة! فتركناه وانصرفنا.

وفيهما مات الأصمغير المتفقي الذي كان يؤذي الحاج في طريقهم؛ وأبو بكر أحمد بن موسى بن مدويه الحافظ الأصبهاني؛

وعبد الصمد بن بابك أبو القاسم الشاعر، قدم على صاحب بن عباد فقال: أنت ابن بابك؟ فقال: أنا ابن بابك؛ فاستحسن قوله. (٣١٤/٩)

سنة إحدى عشرة وأربعمئة

ذكر قتل الحاكم وولاية ابنه الظاهر

في هذه السنة، ليلة الاثنين لثلاث بقين من شوال، قُتل الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور بن العزيز بالله نزار بن المعز العلوي، صاحب مصر بها، ولم يُعرف له خبر.

وكان سبب فقده أنه خرج يطوف ليلة على رسمه، وأصبح عند قبر الفقاعي، وتوجه إلى شرقي حلوان ومعه ركائبان، فأعاد أحدهما مع جماعة من العرب إلى بيت المال، وأمر لهم بجائزة، ثم عاد الركابي الآخر، وذكر أنه خلفه عند العين والمقصة.

وبقي الناس على رسمهم يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه إلى سلخ شوال، فلما كان ثالث ذي القعدة خرج مظفر الصقلي، صاحب المظلة، وغيره من خواص الحاكم، ومعهم القاضي، فبلغوا عسفان، ودخلوا في الجبل، فبصروا بالحمار الذي كان عليه راكباً، وقد ضربت يده سيف فأنزلهما، وعليه سرجه ولجامه، فاتبعا الأثر، فانتهوا به إلى البركة التي شرقي حلوان، فرأوا ثيابه، وهي سبع قطع صوف، وهي مزورة بحالها لم تحل، (٣١٥/٩) وفيها أثر السكاكين، فعادوا ولم يشكوا في قتله.

وقيل: كان سبب قتله أن أهل مصر كانوا يكرهونه لما يظهر منه من سوء أفعاله، فكانوا يكتبون إليه الرقاع فيها سيئه، وسب أسلافه، والدعاء عليه، حتى إنهم عملوا من قراطيس صورة امرأة ويدها رقعة، فلما رآها ظن أنها امرأة تشتكي، فأمر بأخذ الرقعة منها، فقرأها، وفيها كل لعن وشتيمة قبيحة، وذكر حُرْمه بما يكره، فأمر بطلب المرأة، فقبل أنها من قراطيس، فأمر بإحراق مصر ونهبها، ففعلوا ذلك، وقتل أهلها أشد قتال، وانضاف إليهم في اليوم الثالث الأتراك والمشاركة، فقويت شوكتهم وأرسلوا إلى الحاكم يسألونه الصصح ويعتذرون، فلم يقبل، فصاروا إلى التهديد، فلما رأى قوتهم أمر بالكف عنهم، وقد أحرق بعض مصر ونهب بعضها، وتبع المصريون من أخذ نساءهم وأبناءهم، فابتاعوا ذلك بعد أن فضحوه، فازداد غيظهم منه وحقهم عليه.

ثم إنه أوحش أخته، وأرسل إليها مراسلات قبيحة يقول فيها: بلغني أن الرجال يدخلون إليك؛ وتهذنها بالقتل، فأرسلت إلى قائد كبير من قواد الحاكم يقال له ابن دؤاس، وكان أيضاً يخاف الحاكم، وتقول له: إنني أريد أن ألقاك؛ فحضرت عنده وقالت له: قد جئت إليك في أمر تحفظ فيه نفسك ونفسي، وأنت تعلم ما يعتقدُه أخي

وأزال عنه أخاه سلطان الدولة وكان سببه أن الجند شغبوا على سلطان الدولة، ومنعوه من الحركة، وأراد (٣١٨/٩) ترتيب أخيه مشرف الدولة في الملك، فأشير على سلطان الدولة بالقبض عليه، فلم يمكنه من ذلك، وأراد سلطان الدولة الانحدار إلى واسط، فقال الجند: إما أن تجعل عندنا ولدك أو أخاك مشرف الدولة، فراسل أخاه بذلك فامتنع، ثم أجاب بعد معاودة، ثم إنهما اتفقا، واجتمعا ببغداد، واستقر بينهما أنهما لا يستخدما ابن سهلان، وفارق سلطان الدولة ببغداد، وقصد الأهواز واستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق.

فلما انحدر سلطان الدولة ووصل إلى تستر استوزر ابن سهلان، فاستوحش مشرف الدولة، فأنفذ سلطان الدولة وزيره ابن سهلان ليخرج أخاه مشرف الدولة من العراق، فجمع مشرف الدولة عسكرياً كثيراً منهم أترك واسط، وأبو الأغر دؤيب بن علي بن مزيد، ولقي ابن سهلان عند واسط، فانهزم ابن سهلان وتحصن بواسط، وحاصره مشرف الدولة وضيق عليه، فغلت الأسعار حتى بلغ الكرم من الطعام ألف دينار قاسانية، وأكل الناس الدواب حتى الكلاب، فلما رأى ابن سهلان إدار أمورهم سلم البلد، واستخلف مشرف الدولة وخرج إليهم وخطب حينئذ مشرف الدولة يشاهنشا، وكان ذلك في آخر ذي الحجة، ومضت الديلم الذي كانوا بواسط في خدمته، وساروا معه، فحلف لهم وأقطعهم، واتفق هو وأخوه جلال الدولة أبو طاهر. فلما سمع سلطان الدولة ذلك سار عن الأهواز إلى أرجان، وقطعت خطبته من العراق، وخطب لأخيه ببغداد آخر المحرم سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، وقبض على ابن سهلان وكحل.

ولما سمع سلطان الدولة بذلك ضعفت نفسه، وسار إلى الأهواز في أربعمائة فارس، فقلت عليهم الميرة، فنبهوا السواد في طريقهم، فاجتمع الأتراك الذين (٣١٩/٩) بالأهواز وقاتلوا أصحاب سلطان الدولة، ونادوا بشعار مشرف الدولة، وساروا منها فقطعوا الطريق على قافلة وأخذوها وانصرفوا.

ذكر ولاية الظاهر لإعزاز دين الله

لما قتل الحاكم، على ما ذكرناه، بقي الجند خمسة أيام، ثم اجتمعوا إلى أخته، واسمها ست الملك، وقالوا: قد تأخر مولانا، ولم تجر عادته لذلك. فقالت: جاءني رقعته بأنه يأتي بعد غد. فترقوا، وبعث بالأموال إلى القواد على يد ابن دواس، فلما كان اليوم السابع البست أبا الحسن علياً ابن أخيها الحاكم أفسر الملابس، وكان الجند قد حضروا للميعاد، فلم يرهم إلا وقد أخرج أبو الحسن، وهو صبي، والوزير بين يديه، فصاح: يا عبيد الدولة، مولانا تقول لكم: هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه! فقبل

فيك، وأنه متى تمكن منك لا يتقي عليك، وأنا كذلك، وقد انضاف إلى هذا ما تظاهروا به مما يكرهه المسلمون، ولا يصبرون عليه، وأخاف أن يثوروا به فيهلك هو ونحن معه، وتقلع (٣١٦/٩) هذه الدولة. فأجابها إلى ما تريد، فقالت: إنه يصعد إلى الجبل غداً، وليس معه غلام إلا الركابي وصبي، وينفرد بنفسه، فتقيم رجلين تتن بهما يقتلانه، ويقتلان الصبي، وتقيم ولده بعده، وتكون أنت مدبر الدولة، وأزيد في إقطاعك مائة ألف دينار.

فأقام رجلين، وأعطتهما هي ألف دينار، ومضيا إلى الجبل، وركب الحاكم على عادته، وسار منفرداً إليه، فقتله، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر، وولايته خمساً وعشرين سنة وعشرين يوماً، وكان جواداً بالمال، سفاكاً للدماء، قتل عدداً كثيراً من أمثال دولته وغيرهم، فكانت سيرته عجيبة.

منها: أنه أمر في صدر خلافته بسب الصحابة، رضي الله عنهم، وأن تكتب على حيطان الجوامع والأسواق، وكتب إلى سائر عماله بذلك، وكان ذلك سنة خمس وتسعين وثلثمائة.

ثم أمر بعد ذلك بمدة بالكف عن السب، وتأديب من يسبهم، أو يذكرهم بسوء، ثم أمر في سنة تسع وتسعين [وثلثمائة] بترك صلاة التراويح، فاجتمع الناس بالجامع العتيق، وصلى بهم إمام جميع رمضان، فأخذه وقتله، ولم يصل أحد التراويح إلى سنة ثمان وأربعمائة، فرجع عن ذلك، وأمر بإقامتها على العادة. وبنى الجامع براشدة، وأخرج إلى الجوامع والمساجد من الآلات، (٣١٧/٩) والمصاحف، والستور، والخضر، ما لم ير الناس مثله، وحمل أهل الذمة على الإسلام، أو المسير إلى مأمهم أو لبس الغيار، فأسلم كثير منهم، ثم كان الرجل منهم، بعد ذلك، يلقاه فيقول له: إنني أريد العود إلى ديني، فيأذن له.

ومنع النساء من الخروج من بيوتهن، وقتل من خرج منهن، فشكت إليه من لا قيم لها يقوم بأمرها، فأمر الناس أن يحملوا كل ما يباع في الأسواق إلى الدروب ويبيعه على النساء، وأمر من يبيع أن يكون معه شبه المغرفة يساعد طويل يمدّه إلى المرأة وهي من وراء الباب، وفيه ما تشتره، فإذا رضيت وضعت الثمن في المغرفة وأخذت ما فيها ثللاً يراها، فقال الناس من ذلك شدة عظيمة.

ولما فقد الحاكم ولي الأمر بعده ابنه أبو الحسن علي، ولقب الظاهر لإعزاز دين الله، وأخذت له البيعة، ورد النظر في الأمور جميعها إلى الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجاني.

ذكر ملك مشرف الدولة العراق

في هذه السنة، في ذي الحجة، عظم أمر أبي علي مشرف الدولة بن بهاء الدولة، وخطب بأمير الأمراء، ثم ملك العراق،

ابن دؤاس الأرض، والقواد الذين أرسلت إليهم الأموال، ودعوا له. وبتبعهم الباقون ومشوا معه، ولم يزل راكباً إلى الظهر، فتنزل، ودعا الناس من الغد فبايعوا له، ولقب الظاهر لإعزاز دين الله، وكتب إلى البلد بمصر والشام بأخذ البيعة له.

وجمعت أخت الحاكم الناس، وودعتهم، وأحسن إليهم، ورتبت الأمور ترتيباً حسناً، وجعلت الأمر بيد ابن دؤاس، وقالت له: إننا نريد أن نرد جميع أحوال المملكة إليك، ونزيد في إقطاعك، ونشرفك بالخلق، فآختر يوماً يكون ذلك. فقَبِل الأرض ودعا، وظهر الخبر به بين الناس، ثم (٣٢٠/٩) أحضرته، وأحضرت القواد معه، وأغلقت أبواب القصر، وأرسلت إليه خادماً وقالت له: قُل للقواد إن هذا قتل سيدكم، وأضر به بالسيف، ففعل ذلك وقتله، فلم يختلف رجالان، وياشرت الأمور بنفسها، وقامت هيبتها عند الناس، واستقامت الأمور، وعاشت بعد الحاكم أربع سنين وماتت.

ذكر الفتنة بين الأتراك والأكراد بهمدان

في هذه السنة زاد شغب الأتراك بهمدان على صاحبهم شمس الدولة بن فخر الدولة، وكان قد تقدم ذلك منهم غير مرة، وهو يحلم عنهم بل يعجز، فقوي طمعهم، فزادوا في التوُّب والشغب، وأرادوا إخراج القواد القويَّة من عنده، فلم يجبههم إلى ذلك، فعزموا على الإيقاع بهم بغير أمره، فاعتزل الأكراد منع وزيره تاج الملك أبي نصر بن بهرام إلى قلعة برجين، فسار الأتراك إليهم فحصرهم، ولم يلتفتوا إلى شمس الدولة، فكتب الوزير إلى جعفر بن كأكوثي، صاحب أصبهان، يستجده، وعيَّن له ليلة يكون قدوم العساكر إليه فيها بغتة، ليخرج هو أيضاً تلك الليلة ليكبسوا الأتراك. ففعل أبو جعفر ذلك، وسير ألفي فارس، وضبطوا الطرق لئلا يسبقهم الخير، وكبسوا الأتراك سحراً على غفلة، ونزل الأمير والقويَّة من القلعة، فوضعوا فيهم السيف، فأكثروا القتل، وأخذوا المال، ومن سلم من الأتراك نجا فقيراً.

وفعل شمس الدولة بمن عنده في همدان كذلك، وأخرجهم، فنضى ثلاثمائة منهم إلى كرمان، وخدموا أبا الفوارس بن بهاء الدولة صاحبها. (٣٢١/٩)

ذكر القبض على أبي القاسم المغربي وابن فهد

في هذه السنة قبض معتمد الدولة قرواش بن المقلد على وزيره أبي القاسم المغربي، وعلى أبي القاسم سليمان بن فهد بالموصل، وكان ابن فهد يكتب في حديثه بين يدي الصابي، وخدم المقلد بن المسيب، وأصعد إلى الموصل، واقتنى بها ضياعاً، ونظر فيها لقرواش، فظلم أهلها وصادرهم، ثم سخط قرواش عليهما فحبسهما، وطولب سليمان بالمال، فأدعى الفقر فقتل.

وأما المغربي فإنه خدع قرواشاً، ووعد به مال له في الكوفة

وبغداد، فأمر بحمله وترك. وفي قرواش وابن فهد يقول الشاعر، وهو ابن الزمكدم:

وليل كوجه السريقي ذي ظلمة ويرد أغايه، وطول قرونه
سريت، ونومي فيه نوم مشرد كقتل سليمان بن فهد ودينه
على أولق في الثقات كآله أبو جابر في خطبه وجنونه
إلى أن بدا ضوء الصباح كآله ستا وجه قرواش وضوء جينيه
وهذه الأبيات قد أجمع أهل البيان على أنها غاية في الجودة لم يُقَل خير منها في معناها.

ذكر الحرب بين قرواش وغريب بن مقن

في هذه السنة، في ربيع الأول، اجتمع غريب بن مقن، ونور الدولة ديس بن علي بن مزيد الأسدي، وأتاهم عسكر من بغداد، فقاتلوا قرواشاً، ومعه (٣٢٢/٩) رافع بن الحسين، عند كرخ سر من رأى، فانهزم قرواش ومن معه، وأسر في المعركة، ونهبت خزائنه وأثقاله، واستجار رافع بغريب، وفتحوا تكريت عنوة، وعاد عسكر ببغداد إليها بعد عشرة أيام.

ثم إن قرواشاً خلص، وقصد سلطان بن الحسين بن شمال، أمير خفاجة، فسار إليهم جماعة من الأتراك، فعاد قرواش وانهزم ثانياً هو وسلطان، وكانت الوقعة بينهم غربي الفرات. ولما انهزم قرواش مدَّ نواب السلطان أيديهم إلى أعماله فأرسل يسأل الصفح عنه، ويذل الطاعة.

ذكر عدة حوادث

فيها أغارت زناتة بإفريقية على دواب المعز بن باديس، صاحب البلاد، ليأخذوها، فخرج إليهم عمال مدينة قابس فقاتلهم فهزمهم.

وفيها، في ربيع الآخر، نشأت سحابة بإفريقية أيضاً شديدة البرق والرعد، فأمرت حجارة كثيرة ما رأى الناس أكبر منها، فهلك كل من أصابه شيء منها.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن عمر العنبري الشاعر، وديوانه مشهور، ومن قوله:

فني إلى الدهر اني لم أجد سيدي في الراغبين، ولم أطلب ولم أسأل
وأنتي كلمنا نابت نوابيه القيتي بالزوايا غير مُحْتَفَل
(٣٢٣/٩)

سنة اثنتي عشرة وأربعمائة

ذكر الخطبة لمشرف الدولة ببغداد وقتل وزيره أبي غالب في هذه السنة، في المحرم، قُطعت خطبة سلطان الدولة من

العراق، وخطب لمشرف الدولة، فطلب الديلم من مشرف الدولة، أن ينحدروا إلى بيوتهم بخوزستان، فأذن لهم، وأمر وزيره أبا غالب بالانحدار معهم، فقال له: إني إن فعلتُ خاطرتُ نفسي، ولكن أبذلها في خدمتك.

فتقدم إلى أبي محمد الناصحي قاضي قضاة بلاده بأن يسير بالحاج، وأعطاه ثلاثين ألف دينار يعطيها للعرب سوى النفقة في الصدقات، ونادى في خراسان بالتأهب للحج، فاجتمع خلق عظيم، وساروا، وحج بهم أبو الحسن الأقسائي، فلما بلغوا قيد حصرهم العرب، فبذل لهم الناصحي خمسة آلاف دينار، فلم يقنعوا، وصمموا العزم على أخذ الحاج، وكان مقدمهم رجل يقال له حمار بن عدي، بضم العين، من بني نيهان، فركب فرسه، وعليه درعه وسلاحه، وجال جولة يهرب بها، وكان من سمرقند شاب يوصف بجودة الرمي، فرماه بسهم فقتله، وتفرق أصحابه، وسلم الحاج فحجوا، وعادوا سالمين.

وفيها قُتل أبو جعفر السمناني الحسبي، والمواريث، ببغداد، والموتى.

وتوفي هذه السنة أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله الماليني، الصوفي بمصر، في شوال، وهو من المكثرين في الحديث؛ ومحمد بن أحمد بن محمد بن رزق البزاز، المعروف بابن رزقونه، شيخ الخطيب أبي بكر، ومولده (٣٢٦/٩) سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وكان فقيها شافعيًا، وأبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي الصوفي، النيسابوري، صاحب طبقات الصوفية؛ وأبو علي الحسن بن علي الدقاق النيسابوري الصوفي، شيخ أبي القاسم القشيري، وأبو الفتح بن أبي الفوارس. (٣٢٧/٩)

سنة ثلاث عشرة وأربعمئة

ذكر الصلح بين سلطان الدولة ومشرف الدولة

في هذه السنة اصطلاح سلطان الدولة وأخوه مشرف الدولة وحلف كل واحد منهما لصاحبه، وكان الصلح بسمي من أبي محمد بن مكرم، ومؤيد الملك الرُحجي، وزير مشرف الدولة، على أن يكون العراق جميعه لمشرف الدولة، وفارس وكرمان لسلطان الدولة.

ذكر قتل المعز ووزيره وصاحب جيشه

في هذه السنة قتل المعز بن باديس، صاحب أفريقية، وزيره وصاحب جيشه أبا عبد الله محمد بن الحسين.

وسبب ذلك أنه أقام سبع سنين لم يحمل إلى المعز من الأموال شيئاً بل يجيها ويرفعها عنده، وطمع طمعاً عظيماً، لا يصبر على مثله، بكثرة أتباعه، ولأن أخاه عبد الله بطرابلس الغرب

ثم انحدر في العساكر، فلما وصل إلى الأهواز نادى الديلم بشعار سلطان الدولة، وهجموا على أبي غالب فقتلوه، فسار الأتراك الذين كانوا معه إلى طراد بن دئيس الأسدي بالجزيرة التي لبني دئيس، ولم يقدروا [أن] يدفعوا عنه، فكانت وزارته ثمانية عشر شهراً وثلاثة أيام، وغمره ستين سنة وخمسة أشهر، فاخذ ولده أبو العباس، وصودر على ثلاثين ألف دينار، فلما بلغ سلطان الدولة قتله واطمأن، وقويت نفسه، وكان قد خافه، وأنفذ ابنه أبا كاليجار إلى الأهواز فملكها. (٣٢٤/٩)

ذكر وفاة صدقة صاحب البطيحة

في هذه السنة مرض صدقة صاحب البطيحة، فقصدتها أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين، في صفر، ليملكها، وكان أبو الهيجاء بعد موت أبيه قد تمزق في البلاد تارة بمصر، وتارة عند بدر بن حسويه، وتارة بينهما، فلما ولي الوزير أبو غالب أنفق عليه لأدب كان فيه، فكانت به بعض أهل البطيحة ليسلموا إليه، فسار إليهم، فسمع به صدقة قبل موته بيومين، فسار إليه جيشاً، فقاتلوه، فانهزم أبو الهيجاء وأخذ أسيراً، فأراد استبقائه فتمعه سابور بن المرزبان بن مروان، وقتله بيده.

ثم توفي صدقة، بعد قتله، في صفر، فاجتمع أهل البطيحة على ولاية سابور بن المرزبان، فوليهم، وكتب إلى مشرف الدولة يطلب أن يقرر عليه ما كان على صدقة من الحمل، ويُسْتعمل على البطيحة، فأجابته إلى ذلك، وزاد في القرار عليه، واستقر في الأمر.

ثم إن أبا نصر شيرزاد بن الحسن بن مروان زاد في المقاطعة، فلم يدخل سابور في الزيادة، فولي أبو نصر البطيحة، وسار إليها، وفارقها سابور إلى جزيرة بني دئيس، واستقر أبو نصر في الولاية، وأمنت به الطرق.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي علي بن هلال المعروف بابن البواب، الكاتب المشهور، وإليه انتهى الخط، ودفن بجوار أحمد بن حنبل، وكان يقص بجامع بغداد (٣٢٥/٩)، ورثاه المرتضى، وقيل كان موته سنة ثلاث عشرة وأربعمئة.

وفيها حج الناس من العراق، وكان قد انقطع سنة عشر وسنة إحدى عشرة، فلما كان هذه السنة قصد جماعة من أعيان خراسان السلطان محمود بن سبكتكين وقالوا له: أنت أعظم ملوك الإسلام، وأترك في الجهاد مشهور، والحج قد انقطع كما ترى، والتشاغل به

وفيها توفي أبو علي عمر بن محمد بن عمر العلوي، وأخذ السلطان ماله جميعه.

وفيها توفي أبو عبد الله بن المعلم، فقيه الإمامية، ورثاه المرتضى. (٣٣٠/٩)

سنة أربع عشرة وأربعمئة

ذكر استيلاء علاء الدولة على همذان

في هذه السنة استولى أبو جعفر بن كاكويه على همذان وملكها وكذلك غيرها مما يقار بها.

وسبب ذلك أن فرهاد بن مرداويج الديلمي، مُقَطَّع بُرُوجُرد، قصد سماء الدولة أبو الحسن بن شمس الدولة بن بويه، صاحب همذان، وحصره فالتجأ فرهاد إلى علاء الدولة، فحماه ومنع عنه، وسارا جميعاً إلى همذان فحاصراها وقطعا الميرة عنها، فخرج إليهما من بها من العسكر، فاقتلوا فرحل علاء الدولة إلى جرياذقان، فهلك من عسكره ثلاثمائة رجل من شدة البرد.

فسار إليه تاج الملك القهري، مقدّم عسكر همذان، فحصره بها، فصانع علاء الدولة الأكراد الذين مع تاج الملك، فرحلوا عنه، فخلص من الحصار، وشرع بالتجهيز ليعاود حصار همذان، فأكثر من الجمع، وسار إليها، فلقيه سماء الدولة في عساكره ومعه تاج الملك، فاقتلوا، فانهزم عسكر همذان، ومضى تاج الملك إلى قلعة فاحتسب بها، وتقدم علاء الدولة إلى سماء الدولة، (٣٣١/٩) فترجل له وخدمته، وأخذته وأنزله في خيمته، وحمل إليه المال وما يحتاج إليه، وسار وهو معه إلى القلعة التي بها تاج الملك، فحصره وقطع الماء عن القلعة، فطلب تاج الملك الأمان فأمنه، فنزل إليه، ودخل معه همذان.

ولما ملك علاء الدولة همذان سار إلى الدينور فملكها، ثم إلى سابور خواست فملكها أيضاً، وجمع تلك الأعمال، وقبض على أمراء الديلم الذين بهمذان، وسجنهم بقلعة عند أصهبان، وأخذ أموالهم وأقطاعهم، وأبعد كل من فيه شر من الديلم، وترك عنده من يعلم أنه لا شر فيه، وأكثر القتل، فقامت هيبته، وخافه الناس. وقصد حسام الدولة أبا الشوك، فأرسل إليه مشرف الدولة يشفع فيه، فعاد عنه.

ذكر وزارة أبي القاسم المغربي لمشرف الدولة

في هذه السنة قبض مشرف الدولة على وزيره مؤيد الملك الرُّحْجِي في شهر رمضان، وكانت وزارته سنتين وثلاثة أيام.

وكان سبب عزله أن الأثير الخادم تغير عليه لأنه صادر ابن شعيا اليهودي على مائة ألف دينار، وكان متعلقاً على الأثير، فسعى

مجاور لزناته، وهم أعداء دولته، فصار المعز لا يكتب ملكاً، ولا يرأسه، إلا ويكتب أبو عبد الله معه عن نفسه، (٣٢٨/٩) فعظم ذلك على المعز وقتله.

يحكى عن أبي عبد الله أنه قال: سهرت ليلة أفكر في شيء أحدثه في الناس وأخرجه عليهم من الخدم التي التزمتها، فتمت فرأيت عبد الله بن محمد الكاتب، وكان وزيراً لباديس، والد هذا المعز، وكان عظيم القدر والمحل، وهو يقول لي: أتق الله، أبا عبد الله، في الناس كافة، وفي نفسك خاصة، فقد أسهرت عينيك، وأبرمت حافظيك، وقد بدا لي منك ما خفي عليك، وعن قليل تُرد على ما وردنا، وتقدم على ما قدمنا. فكتب عني ما أقول، فإنتني لا أقول إلا حقاً. فأملى علي هذه الأبيات:

وليت وقد رأيت مصير قوم هُمُ كانوا السماء وكنست أرضاً
سَمُوا دَرَجَ العُلَى حَتَّى اطْمَأَنُّوا وَهَدَّ بِهِمْ فَعَادَ الرَّقْعُ خَفَضاً
وَاعْظُمُ أَسْرَةُ لَكَ بِي لَأَنِّي مَلَكْتُ وَلَمْ أَعِشْ طَوَّلاً وَغَرَضاً
فَلَا تَفْتَرِ بالدُّنْيَا وَأَقْصِرْ فَإِنِ أَوَانَ أَمْرِي كَدَّ تَقَفُّسِي
قال: فانتبهت مرعوباً، ورسخت الأبيات في حفظي، فلم يبق بعد هذا المنام غير شهرين حتى قُتل.

ولما وصل خبر قتله إلى أخيه عبد الله بطرابلس بعث إلى زناته فعاهدتهم، وأدخلهم مدينة طرابلس، فقتلوا من كان فيها من صنهاجة وسائر الجيش، وأخذوا المدينة. فلمّا سمع المعز ذلك أخذ أولاد عبد الله ونفراً من أهلهم فحبسهم، ثم قتلهم بعد أيام، لأن نساء المقتولين بطرابلس استغثن إلى المعز في قتلهم فقتلهم. (٣٢٩/٩)

ذكر عدة حوادث

وفيها كان بإفريقية غلاء شديد، ومجاعة عظيمة لم يكن مثلها في تعذر الأقوات، إلا أنه لم يمت فيها أحد بسبب الجوع، ولم يجد الناس كبير مشقة.

وفيها، في شهر رمضان، استوزر مشرف الدولة أبا الحسين بن الحسن الرُّحْجِي، ولقب مؤيد الملك، وامتدحه مهيار وغيره من الشعراء وبنى مارستاناً بواسط، وأكثر فيه من الأدوية والأشربة، ورتب له الخزان والأطباء، ووقف عليه الوقوف الكثيرة، وكان يعرض عليه الوزارة فيأبأها، فلمّا قُتل أبو غالب ألزمه بها مشرف الدولة فلم يقدر على الامتناع.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن عيسى السكري شاعر السنة، ومولده ببغداد في صفر سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. وكان قد قرأ الكلام على القاضي أبي بكر بن الباقلاني، وإنما سمي شاعر السنة لأنه أكثر مدح الصحابة، ومناقضات شعراء الشيعة.

إلى موضعه.

ذكر فتح قلعة من الهند

في هذه السنة أوغل يمين الدولة محمود بن سبكتكين في بلاد الهند، ففتحهم وقتل، حتى وصل إلى قلعة على رأس جبل منيع، ليس له مصعد إلا من موضع واحد، وهي كبيرة تسع خلقاً، وبها خمسمائة فيل، وفي رأس الجبل من الغلات، والمياه، وجميع ما يحتاج الناس إليه، فحصرهم يمين الدولة، وأدام الحصار، وضيق عليهم، واستمر القتال، فقتل منهم كثير.

فلما رأوا ما حلّ بهم أذاعوا له، وطلبوا الأمان، فأمّنهم وأقرّ ملكهم فيها على خراج يأخذ منه، وأهدى له هدايا كثيرة، منها طائر على هيئة القمر (٣٣٤/٩) من خاصيته إذا أحضر الطعام وفيه سمّ دمعت عيناه هذا الطائر وجرى منهما ماء وتجرّ، فإذا حُكّ وجعل على الجراحات الواسعة الحمها.

ذكر عذّة حوادث

فيها توفّي القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي الرّازي، صاحب التصانيف المشهورة في الكلام وغيره، وكان موته بمدينة الرّي، وقد جاوز تسعين سنة؛ وأبو عبد الله الكشغلي، الفقيه الشافعي، وأبو جعفر محمد بن أحمد الفقيه الحنفي السفي، وكان زاهداً مصنفًا، وهلال بن محمد بن جعفر أبو الفتح الحفّار، ومولده سنة اثنتين وعشرون وثلاثمائة، وكان عالماً بالحديث، عالي الإسناد. (٣٣٥/٩)

سنة خمس عشرة وأربعمئة

ذكر الخلف بين مشرف الدولة و الأتراك وعزل الوزير المغربي

في هذه السنة تأكدت الرّحشة بين الأثير عنبر الخادم، ومعه الوزير ابن المغربي، وبين الأتراك، فاستأذن الأثير والوزير ابن المغربي الملك مشرف الدولة في الاتّراح إلى بلد يأمنان فيه على أنفسهم، فقال: أنا أسير معكما. فساروا جميعاً ومعهم جماعة من مقدّمي الدليم إلى السندية، وبها قرواش، فانزلهم، ثم ساروا كلهم إلى أوانا.

فلما علم الأتراك ذلك عظم عليهم، وانزعجوا منه، وأرسلوا المرتضى وأبا الحسن الزينبي وجماعة من قوّاد الأتراك يعتدّرون، ويقولون: نحن العبيد؛ فكذب إليهم أبو القاسم المغربي: إنني تأملت ما لكم من الجامكيّات، فإذا هي ستمائة ألف دينار، وعملت دخل بغداد، فإذا هو أربعمئة ألف دينار، فإن أسقطتم مائة ألف دينار تحمّلت بالباقي؛ فقالوا: نحن نسقطها؛ فاستشعر منهم أبو القاسم المغربي، فهرب إلى قرواش، فكانت وزارته عشرة أشهر

وعزله، واستوزر بعده أبو القاسم الحسين بن عليّ بن الحسين المغربي، ومولده بمصر سنة سبعين وثلاثمائة، وكان أبوه من أصحاب سيف الدولة بن همدان، فسار إلى مصر، فتولى بها، فقتله الحاكم، فهرب ولده أبو القاسم إلى الشام، وقصد حسان بن المفرج بن الجراح الطائي، وحمله على مخالفة الحاكم والخروج عن طاعته، ففعل ذلك، (٣٣٢/٩) وحسن له أن يبايع أبا الفتح الحسن بن جعفر العلوي، أمير مكة، فأجاب إليه، واستقدمه إلى الرملة، وخطب بأمر المؤمنين.

فأنفذ الحاكم إلى حسان مალًا جليلًا، وأفسد معه حال أبي الفتح، فأعاده حسان إلى وادي القرى، وسار أبو الفتح منه إلى مكة. ثم قصد أبو القاسم العراق، واتصل بفخر الملك، فاتهمه القادر بالله لأنه من مصر، فأبغده فخر الملك، فقصد قرواشاً بالموصل، فكتب له، ثم عاد عنه، وتنقلت به الحال إلى أن وزر بعد مؤيد الملك الرّحجي.

وكان خبيثًا، محتلاً، حسوداً، إذا دخل عليه ذو فضيلة سأل عنه غيرها ليظهر للناس جهله.

وفيها، في المحرم، قدم مشرف الدولة إلى بغداد، ولقيه القادر بالله في الطيّار وعليه السواد، ولم يلتق قبله أحدًا من ملوك بني بويه وفيها قتل أبو محمد بن سهلان، قتله نكير بن عياض عند إيدج.

ذكر الفتنة بمكة

في هذه السنة كان يوم النّفر الأول يوم الجمعة، فقام رجل من مصر، بإحدى يديه سيف مسلول، وفي الأخرى دبّوس، بعدما فرغ الإمام من الصلاة، فقصد ذلك الرجل الحجر الأسود كأنه يستلمه، فضرب الحجر ثلاث ضربات بالدبّوس، وقال: إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي؟ فلمنعني مانع من هذا، فإني أريد [أن] أهدم البيت. فخاف أكثر الحاضرين وتراجعوا عنه، (٣٣٣/٩) وكاد يفلت، فثار به رجل فضربه بخنجر فقتله، وقطعه الناس وأحرقوه، وقتل من اتهم بمصاحبه جماعة وأحرقوا، وثار الفتنة، وكان الظاهر من القتلى أكثر من عشرين رجلاً غير من اختفى منهم.

والبح الناس، ذلك اليوم، على المغاربة والمصريين بالنهب والسلب، وعلى غيرهم في طريق ميني إلى البلد. فلما كان الغد ماج الناس واضطربوا، وأخذوا أربعة من أصحاب ذلك الرجل، فقالوا: نحن مائة رجل؛ فضربت أعناق هؤلاء الأربعة، وتقشر بعض وجه الحجر من الضربات، فأخذ ذلك الفئات وعجن بلك وأعيد

الملوك إليك. فركب سفينة ليضي فيها، فأصابه برد، فبطل عن الحركة، وأرسل العادل بن مافنة إلى كرمان لإحضار أبي الفوارس، فسار إليه العادل وأبلغه رسالة ابن مكرم باستدعائه، فسار مجدداً ومعه العادل، فوصلوا إلى فارس، وخرج ابن مكرم يلتقي أبا الفوارس ومعه الناس، فطالبه الأجناد بحق البيعة، فأحالهم على ابن مكرم، فتضجر ابن مكرم، فقال له العادل: الرأي أن تبذل مالك وأموالنا حتى تمشي الأمور؛ فانتهره فسكت، وتلوم ابن مكرم بإيصال المال إلى الأجناد، فشكوه إلى أبي الفوارس، فقبض عليه وعلى العادل بن مافنة، ثم قتل ابن مكرم واستبقى ابن مافنة. (٣٣٨/٩)

فلما سمع ابنه أبو القاسم بقتله صار مع الملك أبي كاليجار وأطاعه، وتجهز أبو كاليجار، وقام يأمره أبو مزاحم صندل الخادم، وكان مريته، وساروا بالعساكر إلى فارس، فسير معه أبو الفوارس عسكرياً مع وزيره أبي منصور الحسن بن عليّ الفسوي لقتاله، فوصل أبو كاليجار والوزير متهاون به لكثرة عسكره، فاتوه وهو نائم، وقد تفرق عسكره في البلد يتاعون ما يحتاجون إليه، وكان جاهلاً بالحرب، فلما شاهدوا أعلام أبي كاليجار شرع الوزير يرتب العسكر، وقد داخلهم الرعب، فحمل عليهم أبو كاليجار وهم على اضطراب، فانهمزوا، وغنم أبو كاليجار وعسكره أموالهم، ودوابهم، وكل مالهم، فلما انتهى خبر الهزيمة إلى عمه أبي الفوارس سار إلى كرمان، وملك أبو كاليجار بلاد فارس ودخل شيراز.

ذكر عود أبي الفوارس وإخراجه عنها

ولما ملك أبو كاليجار بلاد فارس ودخل شيراز جرى على الديلم الشيرازية من عسكره ما أخرجه عن طاعته، وتمنوا معه أنهم كانوا قتلوا مع عمه.

وكان جماعة من الديلم بمدينة فسا في طاعة أبي الفوارس، وهم يريدون أن يصلحوا حالهم مع أبي كاليجار ويصيروا معه، فأرسل إليهم الديلم الذين بشيراز يعرفونهم ما يلقون من الأذى، ويأمرونهم بالتمسك بطاعة أبي الفوارس، ففعلوا ذلك. (٣٣٩/٩)

ثم إن عسكر أبي كاليجار طالبوه بالمال، وشغبوا عليه، فسأظهر الديلم الشيرازية ما في نفوسهم من الحقد، فعجز عن المقام معهم، فسار عن شيراز إلى التوتدجان، ولقي شدة في طريقه، ثم انتقل عنها لشدة حرها، وخامة هوائها، وممرض أصحابه، فأتى شيعب بوان فأقام به.

فلما سار عن شيراز أرسل الديلم الشيرازية إلى عمه أبي الفوارس يحثونه على المجيء إليهم، ويعرفونه بعد أبي كاليجار عنهم، فسار إليهم، فسلموا إليه شيراز، وقصد إلى أبي كاليجار شيعب بوان ليحاربه ويخرجه عن البلاد، فاختر العسكران الصلح،

وخمسة أيام، فلما أبعد خرج الأتراك فسألوا الملك والأثير الانحدار معهم، فأجابهم إلى ذلك وانحدروا جميعهم. (٣٣٦/٩)

ذكر الفتنة بالكوفة ووزارة أبي القاسم المغربي لابن مروان في هذه السنة وقعت فتنة الكوفة بين العلويين والعباسيين.

وسببها أن المختار أبا علي بن عبد الله العلوي وقعت بينه وبين الزكي أبي علي النهرسابسي، وبين أبي الحسن علي بن أبي طالب بن عمر مبانة، فاعتضد المختار بالعباسيين، فساروا إلى بغداد، وشكوا ما يفعل بهم النهرسابسي، فتقدم الخليفة القادر بالله بالإصلاح بينهم مراعاة لأبي القاسم الوزير المغربي لأن النهرسابسي كان صديقه، وابن أبي طالب كان صهره، فعادوا، واستعان كل فريق بخفاجة، فأعان كل فريق من الكوفيين طائفة، فجرى بينهم قتال، فظهر العلويون، وقتل من العباسيين ستة نفر، وأحرقت دورهم ونهبت، فعادوا إلى بغداد، ومنعوا من الخطبة يوم الجمعة، وثاروا، وقتلوا ابن العباس العلوي وقالوا: إن أخاه كان في جملة الفتنة بالكوفة.

فبرز أمر الخليفة إلى المرتضى يأمره بصرف ابن أبي طالب عن نقابة الكوفة، وردّها إلى المختار، فأنكر الوزير المغربي ما يجري على صهره ابن أبي طالب من العزل، وكان عند قرواش بسر من رأي، فاعترض أرحاء كانت للخليفة بترزيجان، فأرسل الخليفة القاضي أبا جعفر السمناني في رسالة إلى قرواش يأمره بإبعاد المغربي عنه، ففعل، فسار المغربي إلى ابن مروان بديار بكر، وغضب الخليفة على النهرسابسي، وبقي تحت السخط إلى سنة ثمان عشرة وأربع مائة، فشنع فيه الأتراك وغيرهم فرضي عنه، وحلّفه على الطاعة، فحلّف. (٣٣٧/٩)

ذكر وفاة سلطان الدولة ومُلك ولده أبي كاليجار وقتل ابن مكرم

في هذه السنة، في شوال، توفي الملك سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة بشيراز، وكان عمره اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر. وكان ابنه أبو كاليجار بالأهواز، فطلبه الأوحّد أبو محمّد بن مكرم ليملك بعد أبيه، وكان هواه معه، وكان الأتراك يريدون عمه أبا الفوارس ابن بهاء الدولة، صاحب كرمان، فكتبوه يطلبون إليهم أيضاً، فتأخّر أبو كاليجار عنها، فسبقه عمه أبو الفوارس إليها فملكها.

وكان أبو المكارم بن أبي محمّد بن مكرم قد أشار على أبيه، لما رأى الاختلاف، أن يسير إلى مكان يأمن فيه على نفسه، فلم يقبل قوله، فسار وتركه وقصد البصرة، فندم أبوه حيث لم يكن معه، فقال له العادل أبو المنصور ابن مافنة: المصلحة أن تقصد سیراف، وتكون مالك أمرك، وابنك أبو القاسم بعمان فتحتاج

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة تزوج السلطان مشرف الدولة بآبنة علاء الدولة بن كاكويه، وكان الصداق خمسين ألف دينار، وتولى العقد المرتضى.

وفيها قُتل القاضي أبو جعفر السمناني قضاء الرصافة وباب الطاق.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن محمد السُمَيْمِيّ الأديب؛ وابن الدقاق النحوي؛ وأبو الحسين بن بشران المحدث، وعمره سبع وثمانون سنة؛ والقاضي أبو محمد بن أبي حامد المَرْزُوقِيّ قاضي البصرة بها؛ وأبو الفرج أحمد بن عمر المعروف بابن المسلمة، الشاهد، وهو جدّ رئيس الرؤساء؛ وأحمد بن محمد بن أحمد بن القاسم أبو الحسن المحاملي، الفقيه الشافعي، تَفَقَّه على أبي حامد، وصنّف المصنفات المشهورة؛ وعبيد الله بن عمر بن علي بن محمد بن الأشرس أبو القاسم المقرئ، الفقيه الشافعي. (٣٤٢/٩)

سنة ست عشرة وأربعمائة

ذكر فتح سومنات

في هذه السنة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن، وأخذ الصنم المعروف بسومنات، وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند، وهم يحجّون إليه كل ليلة خسوف، فيجتمع عنده ما ينيف على مائة ألف إنسان، وتزعم الهند أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ، فينشئها فيمن شاء، وأن المدّ والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر على قدر استطاعته.

وكانوا يحملون إليه كل علق نفيس، ويعطون سدنته كلّ مال جزيل، وله من الموقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية، وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر ما لا تحصى قيمته.

ولأهل الهند نهر كبير يسمّى كسك يعظمونه غاية التعظيم، ويُلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم، ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم.

وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتي فرسخ، وكان يحمل من مائه كلّ يوم إلى سومنات ما يغسل به، ويكون عنده من البرهمين كل يوم ألف (٣٤٣/٩) رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه، وثلاثمائة رجل يخلقون رؤوس زوّاره ولحاهم، وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يفتّون ويرقصون على باب الصنم، ولكل واحد من

فسفروا فيه، فاستقرّ لأبي الفوارس كرمان وفارس، ولأبي كاليبجار خوزستان، وعاد أبو الفوارس إلى شیراز، وسار أبو كاليبجار إلى أَرَجَان.

ثم إن وزير أبي الفوارس خبّط الناس، وأفسد قلوبهم، وصادرهم، وجاز به مال لأبي كاليبجار، والديلم الذين معه، فأخذته، فحينئذ حثّ العادل ابن مافنة صندلاً الخادم على العود إلى شیراز، وكان قد فارق بها نعمة عظيمة، وصار مع أبي كاليبجار، وكان الديلم يطيعونه، فعادت الحال إلى أشدّ مما كانت عليه، فسار كلّ واحد من أبي كاليبجار وعمه أبي الفوارس إلى صاحبه، والتقوا واقتتلوا، فانهزم أبو الفوارس إلى دارابجرد وملك أبو كاليبجار فارس، وعاد أبو الفوارس فجمع الأكراد فأكثر، فاجتمع معه منهم نحو عشرة آلاف مقاتل، فالتقوا بين البيضاء وإصطخر فاقتتلوا أشدّ من القتال الأول، فعاد أبو الفوارس الهزيمة، فسار إلى كرمان، واستقرّ ملك أبي كاليبجار بفارس سنة سبع عشرة وأربعمائة، وكان أهل شیراز يكرهونه. (٣٤٠/٩)

ذكر خروج زنّاة والظفر بهم

في هذه السنة خرج بإفريقية جمع كثير من زنّاة، فقطعوا الطريق، وأفسدوا بقسطنطينية ونفزاوة، وأغاروا وغنموا، واشتدت شوكتهم، وكثر جمعهم. فسير إليهم المعز بن باديس جيشاً جريداً، وأمرهم أن يحدّوا السير ويسبقوا أخبارهم، ففعلوا ذلك وكتبوا خبرهم، وطوّوا المراحل حتى أدركوهم وهم آمنون من الطلب، فوضعوا فيهم السيف، فقتل منهم خلق كثير، وعلّق خمسمائة رأس بأعناق الخيول، وسُيّرت إلى المعز، وكان يوم دخولها يوماً مشهوداً.

ذكر عود الحاج على الشام وما كان من الظاهر إليهم

في هذه السنة عاد الحجّاج من مكة إلى العراق على الشام لصعوبة الطريق المعتاد، فلما وصلوا إلى مكة بذل لهم الظاهر العلوي، صاحب مصر، أموالاً جليلة وخلعاً نفيسة، وتكلّف شيئاً كثيراً، وأعطى لكلّ رجل في الصحبة جملة من المال ليظهر لأهل خراسان ذلك.

وكان على تسير الحجّاج الشريف أبو الحسن الأقباسي، وعلى حجّاج خراسان حسنك نائب يمين الدولة بن سيكتكين، فعظم ما جرى على الخليفة القادر بالله، وعبر حسنك دجلة عند أوانا، وسار إلى خراسان، وتهدّد القادر بالله ابن الأقباسي، فمرض فمات، ورثاه المرتضى وغيره، وأرسل إلى يمين الدولة في المعنى، فسير يمين الدولة الخلع التي خلعت على صاحبه حسنك إلى بغداد فأحرقت. (٣٤١/٩)

الهندود القتل، وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم سومنات، فقاتلوا على بابه أشد قتال، وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخلون إلى سومنات فيعتقونه ويبيكون، ويتضرعون إليه، ويخرجون فيقاتلون إلى أن يقتلوا، حتى كاد الفناء يستوعبهم، فبقي منهم القليل، فدخلوا البحر إلى مركبتين لهم لينجوا فيهما، فأدركهم (٣٤٥/٩) المسلمون فقتلوا بعضاً وغرق بعض.

وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصنّف بالرصاص، وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع: ثلاثة مدورة ظاهرة، وذراعان في البناء، وليس بصورة مصورة، فأخذه يمين الدولة فكسره، وأحرق بعضه، وأخذ بعضه معه إلى غزنة، فجعل عتبة الجامع.

وكان بيت الصنم مظلماً، وإنما الضوء الذي عنده من فتايل الجواهر الفائق، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس، وزنها مائتا من، كلما مضى طائفة معلومة من الليل حركت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهمنين إلى عبادتهم؛ وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية، وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجواهر، كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم، وقيمة ما في البيوت تزيد على عشرين ألف ألف دينار، فأخذ الجميع، وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل.

ثم إن يمين الدولة ورد عليه الخبر أن بهيم صاحب أنهلوارة قد قصد قلعة تسمى كندغة في البحر، بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخاً، فسار إليها يمين الدولة من سومنات، فلما حاذى القلعة رأى رجلين من الصيادين، فسألها عن خوض البحر هناك، فعرّفا أنه يمكن خوضه لكن إن تحرك الهواء يسيراً غرق من فيه. فاستخار الله تعالى، وخاضه هو ومن معه، فخرجوا سالمين، فرأوا بهيم وقد فارق قلعة وأخلاها فعاد عنها، وقصد المنصورة، وكان صاحبها قد ارتد عن الإسلام، فلما بلغه خبر مجيء يمين الدولة (٣٤٦/٩) فارقها واحتج بغياض أشية، فقصد يمين الدولة من موضعين، فأحاط به ويمن معه، فقتل أكثرهم، وغرق منهم كثير، ولم ينج منهم إلا القليل.

ثم سار إلى بهاطية، فأطاعه أهلها، ودانوا له، فرحل إلى غزنة، فوصلها عاشر صفر من سنة سبع عشرة وأربعمئة.

ذكر وفاة مشرف الدولة وملك أخيه جلال الدولة

في هذه السنة، في ربيع الأول، توفي الملك مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة بمرض حاد، وعمره ثلاث وعشرون سنة وثلاثة أشهر، ومُلكه خمس سنين وخمسة وعشرون يوماً، وكان كثير الخير، قليل الشر، عادلاً، حسن السيرة، وكانت والدته في الحياة، وتوفيت سنة خمس وعشرين [وأربعمئة].

هؤلاء شيء معلوم كل يوم.

وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحاً وكسر صنماً، يقول الهنود: إن هذه الأصنام قد سحق عليها سومنات، ولو أنه راضٍ عنها لأهلك من تقصدها بسوء، فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه، ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام، فاستخار الله تعالى وسار عن غزنة عاشر شعبان من هذه السنة، في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة، وسلك سبيل المُلتان، فوصلها منتصف شهر رمضان.

وفي طريقه إلى الهند برية قفر، لا ساكن فيها، ولا ماء، ولا ميرة، فتجهّز هو وعسكره على قدرها، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة، وقصد أنهلوارة، فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصوناً مشحونة بالرجال، وعندها آبار قد غُوروا ليتعذر عليه حصرها، فبصر الله تعالى فتحها عند قربها منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم، وتسَلَّها، وقتل سكّانها وأهلك أوثانها وامتاروا منها الماء وما يحتاجون إليه.

وسار إلى أنهلوارة فوصلها مستهل ذي القعدة، فرأى صاحبها المدعو بهيم قد أجفل عنها وتركها وأمن في الهرب وقصد حصناً له يحمي به، فاستولى يمين الدولة على المدينة، وسار إلى سومنات، فلقي في طريقه عدة (٣٤٤/٩) حصون فيها كثير من الأوثان شبه الحجاب والنقاب لسومنات، على ما سول لهم الشيطان، فقاتل من به، وفتحها وخرّبها، وكسر أصنامها، وسار إلى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء، فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكّانها لم يدينوا للملك، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم، فهزموهم وغنموا مالهم، وامتاروا من عندهم، وساروا حتى بلغوا دُبُولوارة، وهي على مرحلتين من سومنات، وقد ثبت أهلها له ظناً منهم أن سومنات يمنعه ويدفع عنهم، فاستولى عليها، وقتل رجالها، وغنم أموالها، وسار عنها إلى سومنات، فوصلها يوم الخميس منتصف ذي القعدة، فرأى حصناً حصيناً مبنيّاً على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواجه، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين، واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم.

فلما كان الغد، وهو الجمعة، زحف وقاتل من به، فرأى الهنود من المسلمين قتالاً لم يعهدوا مثله، ففارقوا السور، فنصب المسلمون عليه السلايم، وصعدوا إليه، وأعلنوا بكلمة الإخلاص، وأظهروا شعار الإسلام، فحيّت أشدّ القتال، وعظم الخطب، وتقدّم جماعة الهنود إلى سومنات، فغفروا له خدودهم، وسألوه النصر، وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض.

فلما كان الغد بكر المسلمون إليهم وقاتلوهم، فأكثروا في

ما يقاربه. فسمع ذلك الخير فخرج فيمن عنده من العساكر، وطلب القوم، فلما جاوز الكمضاء خرجوا عليه، فقاتلهم، فأصابه حجر مقلاع، فسقط وقُتل، وكان قتله سنة ثمانى عشرة وأربعمئة في أولها، وخلصت المدينة لنصر الدولة.

ثم إن صالح بن مرداس شفع في ابن عَطِير وابن شبل التُميريين ليردَّ الرُّها إليهما، فشفعه وسلَّمهما إليهما، وكان فيها بُرجان أحدهما أكبر من الآخر، فأخذ ابن عطير البرج الكبير، وأخذ ابن شبل البرج الصغير، وأقاما في البلد إلى أن باعه ابن عطير من الروم، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غرق الأسطول بجزيرة صقلية

في هذه السنة خرج الروم إلى جزيرة صقلية في جمع كثير، وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قَلُورِيَّة، وهي مجاورة لجزيرة صقلية، وشرعوا في بناء المساكن يتظنون وصول مراكبهم وجمعهم مع ابن أخت الملك. فبلغ ذلك (٣٤٩/٩) المعز بن باديس، فجهَّز أسطولاً كبيراً: أربعمئة قطعة، وحشد فيها، وجمع خلقاً كثيراً، وتطوَّع جمع كثير بالجهاد، رغبة في الأجر، فسار الأسطول في كانون الثاني، فلما قرب من جزيرة قَوْصَرَة، وهي قريب من برِّ إفريقية، خرج عليهم ريح شديدة، ونوء عظيم، فغرق أكثرهم، ولم ينج إلا يسير.

ذكر عدَّة حوادث

في هذه السنة ظهر أمر العيارين ببغداد، وعظم شرُّهم، فقتلوا النفوس، ونهبوا الأموال، وفعلوا ما أرادوا، وأحرقوا الكرخ، وغلا السعر بها حتى بيع كَر الحنطة بمائتي دينار قاسانية.

وفيهما قبض جلال الدولة على وزيره أبي سعد بن ماکولا، واستوزر ابن عمه أبا علي بن ماکولا.

وفيهما أرسل القادر بالله القاضي أبا جعفر السمعاني إلى قرواش يأمره بإبعاد الوزير أبي القاسم المغربي، وكان عنده، فأبعده، فقصده نصر الدولة بن مروان بميفارقين وقد تقدَّم السبب فيه.

وفيهما توفي الوزير أبو منصور محمد بن الحسن بن صالحان، وزير مشرّف الدولة أبي الفوارس، وعمره ست وستون سنة. (٣٥٠/٩)

وقاضي القضاة أبو الحسن أحمد بن أبي الشوارب، ومولده في ذي القعدة سنة تسع عشرة وثلاثمئة، وكان غنياً، نزهاً، وقيل توفي سنة سبع عشرة.

وسيل ملك الروم، وملك بعد أخوه قُسطنطين.

وفيهما ورد رسول محمود بن سبكتكين إلى القادر بالله ومعه

ولمَّا توفي مشرّف الدولة خُطب ببغداد، بعد موته، لأخيه أبي الطاهر جلال الدولة، وهو بالبصرة، وطلب إلى بغداد، فلم يصعد إليها، وإنما بلغ إلى واسط، وأقام بها، ثم عاد إلى البصرة، فقطعت خطبته، وخُطب لابن أخيه الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة في شوال، وهو حينئذ صاحب خوزستان، والحرب بينه وبين عمه أبي الفوارس، صاحب كرمان بفارس، فلما سمع جلال الدولة بذلك أصعد إلى بغداد، فأنحدر عسكرها ليردَّه عنها، فلقوه بالسَّيْب من أعمال النهران، فردَّوه فلم يرجع، فرموه بالنشاب، ونهبوا بعض خزائنه، فعاد إلى البصرة، وأرسلوا إلى الملك أبي كاليجار ليصعد (٣٤٧/٩) إلى بغداد ليملكوه، فوعدهم الإصعاد، ولم يمكنه لأجل صاحب كرمان، ولمَّا أصعد جلال الدولة كان وزيره أبا سعد بن ماکولا.

ذكر ملك نصر الدولة بن مروان مدينة الرُّها

وفي هذه السنة ملك نصر الدولة بن مروان، صاحب ديار بكر، مدينة الرُّها.

وكان سبب ملكها أنَّ الرُّها كانت لرجل من بني تُمير يسمَّى عَطِيرًا، وفيه شرٌّ وجهل، واستخلف عليها نائباً له اسمه أحمد بن محمَّد، فأحسن السيرة، وعدل في الرعيَّة، فمالوا إليه.

وكان عَطِير يقيم بحتلته، ويدخل البلد في الأوقات المتفرقة، فرأى أنَّ نائبه يحكم البلد، ويأمر وينهى، فحسده، فقال له يوماً: قد أكلت مالي، واستوليت على بلدي، وصيرت الأمير وأنا النائب؛ فاعتذر إليه، فلم يقبل عذره وقتله. فأنكرت الرعيَّة قتله، وغضبوا على عَطِير، وكاتبوا نصر الدولة ابن مروان ليسلِّموا إليه البلد، فسار إليهم نائباً كان له بأمد يسمَّى زك، فتسلَّها وأقام بها ومعه جماعة من الأجناد، ومضى عَطِير إلى صالح بن مرداس، وسأله الشفاعة له إلى نصر الدولة، فشفع فيه، فأعطاه نصف البلد، ودخل عَطِير إلى نصر الدولة بميفارقين، فأشار أصحاب نصر الدولة بقيضه، فلم يفعل وقال: لا أغدر به وإن كان أفسد، وأرجو أن أكفَّ شرَّه بالوفاء. وتسلَّم عَطِير نصف البلد ظاهراً وباطناً، وأقام فيه مع نواب نصر الدولة. (٣٤٨/٩) ثم إن نائب نصر الدولة عمل طعاماً ودعاه، فأكل وشرب، واستدعى ولداً كان لأحمد الذي قتله عَطِير، وقال: تريد أن تأخذ بثأر أبيك؟ قال: نعم! قال: هذا عَطِير عندي في نفر يسير، فإذا خرج فتعلَّق به في السوق وقتل له: يا ظالم قتلت أبي، فإنه سيجرّد سيفه عليك، فإذا فعل فاستغفر الناس عليه وقتله وأنا من ورائك. ففعل ما أمره، وقتل عَطِيرًا ومعه ثلاثة نفر من العرب. فاجتمع بنو تُمير وقالوا: هذا فعل زك، ولا ينبغي لنا أن نسكَّت عن ثأرنا، ولئن لم نقتله ليُخرجنا من بلادنا. فاجتمعت نمير، وكنموا له بظاهر البلد كميناً، وقصد فريق منهم البلد، فأغاروا على

خَلَعَ قَد سَيَّرَهَا لَهُ الظَّاهِرَ لِإِعْزَازِ دِينِ اللَّهِ الْعَلَوِيِّ، صَاحِبِ مِصْرَ، وَيَقُولُ: أَنَا الْخَادِمُ الَّذِي أَرَى الطَّاعَةَ فِرْصَةً، وَيَذْكُرُ إِسْرَافَ هَذِهِ الْخَلْعِ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ سَيَّرَهَا إِلَى الدِّيَّانِ لِيُرْسِمَ فِيهَا بِمَا يَرَى، فَأُحْرِقَتْ عَلَى بَابِ الثُّرَيْبِيِّ، فَخَرَجَ مِنْهَا ذَهَبٌ كَثِيرٌ تَصَدَّقَ بِهِ عَلَى ضَعْفَاءِ بَنِي هَاشِمٍ.

ذِكْرُ الْحَرْبِ بَيْنَ قُرَاشٍ وَبَنِي أَسَدٍ وَخَفَاجَةٍ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ اجْتَمَعَ دُبَيْسُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مَرْزِيدِ الْأَسَدِيِّ وَابْنُ الْفَتَيَّانِ مَنِيعُ بْنُ حَسَّانٍ، أَمِيرُ بَنِي خَفَاجَةٍ، وَجَمْعًا عَشَائِرَهُمَا وَغَيْرَهُمْ، وَانْصَافَ إِلَيْهِمَا عَسْكَرُ بَغْدَادَ عَلَى قِتَالِ قُرَاشٍ وَبَنِي الْمُقَلَّدِ الْعُقَيْلِيِّ.

وَكَانَ سَبَبُهُ أَنَّ خَفَاجَةً تَعَرَّضُوا إِلَى السَّوَادِ مَا بِيدَ قُرَاشٍ مِنْهُمْ، فَانْحَدَرُوا مِنَ الْمَوْصِلِ لِدَفْعِهِمْ، فَاسْتَعَانُوا بِدُبَيْسٍ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ، وَاجْتَمَعُوا، فَأَتَاهُمُ عَسْكَرُ بَغْدَادَ فَالْتَقَوْا بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ، وَهِيَ لِقُرَاشٍ، فَجَرَى بَيْنَ مَقْدَمَتِهِ وَمَقْدَمَتِهِمَا مَنَاوَشَةٌ.

وَعَلِمَ قُرَاشٌ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِمْ، فَسَارَ لَيْلًا جَرِيدَةً فِي نَفَرٍ سِيرٍ، وَعَلِمَ أَصْحَابُهُ بِذَلِكَ، فَتَبِعُوهُ مَنَهْزِمِينَ، فَوَصَلُوا إِلَى الْأَنْبَارِ، وَسَارَتْ أَسَدٌ وَخَفَاجَةٌ خَلْفَهُمْ، فَلَمَّا قَارَبُوا الْأَنْبَارَ فَارَقَهَا قُرَاشٌ إِلَى حُلَلِهِ، فَلَمْ يَمَكْنَهُمُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهِ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْأَنْبَارِ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا. (٣٥٣/٩)

ذِكْرُ الْفِتْنَةِ بِبَغْدَادَ وَطَمَعِ الْأَتْرَافِ وَالْعِيَّارِينَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ كَثُرَ تَسَلُّطُ الْأَتْرَافِ بِبَغْدَادَ، فَكَثُرُوا مَصَادِرَاتِ النَّاسِ، وَأَخَذُوا الْأَمْوَالَ، حَتَّى إِنَّهُمْ قَسَطُوا عَلَى الْكَرْخِ خَاصَّةً مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَعَظُمَ الْخَطْبُ، وَزَادَ الشَّرُّ، وَأُحْرِقَتِ الْمَنَازِلُ، وَالدُّرُوبُ، وَالْأَسْوَاقُ، وَدَخَلَ فِي الطَّمَعِ الْعَامَّةُ وَالْعِيَّارُونَ، فَكَانُوا يَدْخُلُونَ عَلَى الرَّجُلِ فَيَطَالِبُونَهُ بِذَخَائِرِهِ، كَمَا يَفْعَلُ السُّلْطَانُ بِمَنْ يَصَادِرُهُ، فَعَمِلَ النَّاسُ الْأَبْوَابَ عَلَى الدُّرُوبِ، فَلَمْ تَغْنِ شَيْئًا، وَوَقَعَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ الْجَنْدِ وَالْعَامَّةِ، فَظَفَرَ الْجَنْدُ، وَنَهَبُوا الْكَرْخَ وَغَيْرَهُ، فَأَخَذَ مِنْهُ مَالٌ جَلِيلٌ، وَهَلَكَ أَهْلُ السُّرِّ وَالْخَيْرِ.

فَلَمَّا رَأَى الْقَوَادُ وَعَقْلَاءُ الْجَنْدِ أَنَّ الْمَلِكَ أَبَا كَالِيَجَارَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ، وَأَنَّ الْبِلَادَ قَدْ خَرِبَتْ، وَطَمَعَ فِيهِمُ الْمَجَارُونَ، مِنْ الْعَرَبِ وَالْأَكْرَادِ، رَاسَلُوا جَلَالَ الدَّوْلَةِ فِي الْحَضُورِ إِلَى بَغْدَادَ، فَحَضَرَ، عَلَى مَا تَذْكُرُهُ سَنَةُ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَأَرْبَعَمِائَةٍ.

ذِكْرُ إِصْعَادِ الْأَثِيرِ إِلَى الْمَوْصِلِ وَالْحَرْبِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ بَنِي عُقَيْلٍ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَصْعَدَ الْأَثِيرُ عَنِيْرَ إِلَى الْمَوْصِلِ مِنْ بَغْدَادَ.

وَكَانَ سَبَبُهُ أَنَّ الْأَثِيرَ كَانَ حَاكِمًا فِي الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيَّةِ، مَاضِي الْحُكْمِ، نَافِذَ الْأَمْرِ، وَالْجَنْدُ مِنْ أَطْوَعِ النَّاسِ لَهُ، وَأَسْمَعُهُمْ لِقَوْلِهِ. فَلَمَّا كَانَ الْآنَ زَالَ ذَلِكَ، (٣٥٤/٩) وَخَالَفَهُ الْجَنْدُ، فَزَالَتْ طَاعَتُهُ

وَفِيهَا تُوْفِيَ سَابُورُ بْنُ أَرْدَشِيرَ، وَزَيْرُ بَهَاءِ الدَّوْلَةِ، وَكَانَ كَاتِبًا سَدِيدًا، وَعَمِلَ دَارَ الْكُتُبِ بِبَغْدَادَ سَنَةً إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَثَلَاثَمِائَةٍ، وَجَعَلَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ مَجْلَدًا، وَبَقِيََتْ إِلَى أَنْ احْتَرَقَتْ عِنْدَ مَجِيءِ طُغْرُكْ بَكٍ إِلَى بَغْدَادَ سَنَةَ خَمْسِينَ وَأَرْبَعَمِائَةٍ.

وَفِيهَا تُوْفِيَ عُثْمَانُ الْخُرَكُوشِيُّ، الْوَاعِظُ النَّيْسَابُورِيُّ، وَكَانَ صَالِحًا، خَيْرًا، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ بْنِ سَبْكْتِكِينَ يَقُومُ وَيَلْتَقِيهِ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قَسَطَ عَلَى نَيْسَابُورَ مَا لَا يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ لَهُ الْخُرَكُوشِيُّ: بَلِّغْنِي أَنَّكَ تَكْذِبُ النَّاسَ، وَضَاقَ صَدْرِي؛ فَقَالَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: بَلِّغْنِي أَنَّكَ تَأْخُذُ أَمْوَالَ الضَّعْفَاءِ، وَهَذِهِ كَدِيدَةٌ. فَتَرَكَ الْقَسْطَ وَأَطْلَقَهُ.

وَفِيهَا بَطَلَ الْحِجَّ مِنَ الْعِرَاقِ وَخِرَاسَانَ. (٣٥١/٩)

سَنَةُ سَبْعِ عَشْرَةِ وَأَرْبَعَمِائَةٍ

ذِكْرُ الْحَرْبِ بَيْنَ عَسْكَرِ عِلَافِ الدَّوْلَةِ وَالْجُوزْقَانِ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ حَرْبٌ شَدِيدَةٌ بَيْنَ عَسَاكِرِ عِلَافِ الدَّوْلَةِ وَبَنِي كَاكُوتَيْهِ وَبَيْنَ الْأَكْرَادِ الْجُوزْقَانِ.

وَكَانَ سَبَبُهَا أَنَّ عِلَافَ الدَّوْلَةِ اسْتَعْمَلَ أَبَا جَعْفَرَ ابْنَ عَمِّهِ عَلَى سَابُورِ خُوَاسْتِ وَتِلْكَ النُّوَاحِي، فَضَمَّ إِلَيْهِ الْأَكْرَادَ الْجُوزْقَانِ، وَجَعَلَ مَعَهُ عَلَى الْأَكْرَادِ أَبَا الْفَرَجِ الْبَابُورِيَّ، مَنْسُوبٌ إِلَى بَطْنِ مِنْهُمْ، فَجَرَى بَيْنَ أَبِي جَعْفَرَ وَأَبِي الْفَرَجِ مَشَاجِرَةٌ أَدَّتْ إِلَى الْمَنَافَرَةِ، فَاصْلَحَ بَيْنَهُمَا عِلَافُ الدَّوْلَةِ، وَأَعَادَهُمَا إِلَى عَمَلِهِمَا.

فَلَمْ يَزَلِ الْحَقْدُ يَقْوَى، وَالشَّرُّ يَتَجَدَّدُ، فَضَرَبَ أَبُو جَعْفَرَ أَبَا الْفَرَجِ بَلَّتْ كَانَ فِي يَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَفُتِرَ الْجُوزْقَانُ بِأَسْرِهِمْ، وَنَهَبُوا وَأَفْسَدُوا، فَطَلَبَهُمْ عِلَافُ الدَّوْلَةِ، وَسَيَّرَ عَسَاكِرًا، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ أَبَا مَنْصُورَ ابْنَ عَمِّهِ أَخَا أَبِي جَعْفَرَ الْأَكْبَرَ، وَجَعَلَ مَعَهُ فَرَهَازَ بْنَ مَرْدَاوِيحَ، وَعَلِيَّ بْنَ عِمْرَانَ.

فَلَمَّا عَلِمَ الْجُوزْقَانُ ذَلِكَ أَرْسَلُوا إِلَى عَلِيٍّ بْنِ عِمْرَانَ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَصْلَحَ حَالَهُمْ مَعَ عِلَافِ الدَّوْلَةِ، وَقَصَدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ، فَشَرَعَ فِي الْإِصْلَاحِ، فَطَالِبَهُ أَبُو جَعْفَرَ وَفَرَهَازُ بِالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ قَصَدُوهُ لِيَسْلَمَهُمْ إِلَيْهِمَا، وَارَادَا أَخْذَهُمْ مِنْهُ قَهْرًا، (٣٥٢/٩) فَانْتَقَلَ إِلَى الْجُوزْقَانِ، وَاحْتَمَى كُلُّ مِنْهُمْ بِصَاحِبِهِ، وَجَرَى بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ قِتَالٌ غَيْرُ مَرَّةٍ كَانَ فِي آخِرِهِ لِعَلِيِّ بْنِ عِمْرَانَ وَالْجُوزْقَانِ، فَانْهَزَمَ فَرَهَازُ، وَأَسْرَ أَبُو

صاحب إفريقية، وكان خرج من قلعة متزهاً، فمرض ومات وحُمِلَ إلى القلعة فُتِنَ (٣٥٦/٩) بها، وولي بعده ابنه القائد، وعظم على المعز موته، لأن الأمر بينهما كان قد صلح، واستقامت الأمور للمعز بعده، وأذن له أولاد عمه حماد بالطاعة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كان بالعراق برد شديد جمد فيه الماء في دجلة والأنهار الكبيرة، فاما السواقي فأنها جمدت كلها، وتأخر المطر وزيادة دجلة، فلم يُزرع في السواد إلا القليل .

وفيهما بطل الحج من خراسان والعراق .

وفيهما انقضى كوكب عظيم استنارت له الأرض، فسمع له دوي عظيم، كان ذلك في رمضان .

وفيهما مات أبو أسعد بن مأكولا، وزير جلال الدولة، في محبسه ؛ وأبو حازم عمر بن أحمد بن إبراهيم البغدوي النيسابوري الحافظ، وهو من مشايخ خطيب بغداد ؛ وأبو الحسن علي بن أحمد بن عمر الحمامي المقرئ، مولده سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. (٣٥٧/٩)

سنة ثمانى عشرة وأربعمئة

ذكر الحرب بين علاء الدولة وأصبهذ ومن معه وما تبع ذلك من الفتن

في هذه السنة، في ربيع الأول، كانت حرب شديدة بين علاء الدولة بن كاكويه وبين الأصبهذ ومن معه .

وكان سببها ما ذكرناه من خروج علي بن عمران عن طاعة علاء الدولة . فلما فارقه اشتد خوفه من علاء الدولة، فكتب أصبهذ صاحب طبرستان، وكان مقبلاً بالري مع ولكنين بن وندرين، وحثه على قصد بلاد الجبل، وكتب أيضاً منوچهر بن قابوس بن وشمكير، واستمده، وأوهم الجميع أن البلاد في يده لا دافع له عنها .

وكان أصبهذ معادياً لعلاء الدولة، فسار هو ولوكين إلى همدان فملكاه وملكاً أعمال الجبل، وأجلبا عنها عمال علاء الدولة، وأتاهم عسكر منوچهر وعلي بن عمران، فزادوا قوة، وساروا كلهم إلى أصبهان، فتحصن علاء الدولة بها، وأخرج الأموال، فحضره، وجرى بينهم قتال استظهر فيه علاء الدولة، وقصده كثير من ذلك العسكر، وهو يبذل لمن يجيء إليه المال الجزيل ويحسن إليهم، فأقاموا أربعة أيام، وضاعت عليهم الميرة، فعادوا عنها .

عنهم، فلم يلتفتوا إليه، فخافهم على نفسه، فسار إلى قرواش، فندم الجند على ذلك، وسألوه أن يعود، فلم يفعل وأصعد إلى الموصل مع قرواش، فأخذ ملكه وإقطاعه بالعراق .

ثم إن نجدة الدولة بن قراد ورافع بن الحسين جمعاً جمعاً كثيراً من عقيل، وانضم إليهم بدران أخو قرواش، وساروا يريدون حرب قرواش، وكان قرواش لما سمع خبرهم قد اجتمع هو وغريب بن مقن، والأثير عنبر، وأتاه مدد من ابن مروان، فاجتمع في ثلاثة عشر ألف مقاتل، فالتقوا عند بلد وأقتلوا، وثبت بعضهم لبعض، وكثر القتل، ففعل ثروان بن قراد فعلاً جميلاً، وذلك أنه قصد غريباً في وسط المصاف واعتنقه وصالحه، وفعل أبو الفضل بدران بن المقلد بأخيه قرواش كذلك، فاصطلح الجميع، وأعاد قرواش إلى أخيه بدران مدينة نصيبين .

ذكر إحراق خفاجة الأنبار وطاعتهم لأبي كاليبجار

في هذه السنة سار منيع بن حسان أمير خفاجة إلى الجامعين، وهي لنور الدولة دُبَيْس، فنهبا، فسار دبّيس في طلبه إلى الكوفة، ففارقها وقصد الأنبار، وهي لقرواش كان استعادها بعد ما ذكرناه قبل، فلما نازلها منيع قتله أهلها، فلم يكن لهم بخفاجة طاقة، فدخل خفاجة الأنبار ونهبوها، وأحرقوا أسواقها، فانهدر قرواش إليهم ليمتعهم، وكان مريضاً، ومعه غريب والأثير عنبر، إلى الأنبار ثم تركها ومضى إلى القصر، فاشتد طمع خفاجة وعادوا إلى الأنبار فأحرقوها مرة ثانية . (٣٥٥/٩)

وسار قرواش إلى الجامعين، فاجتمع هو ونور الدولة دبّيس بن مزّيد في عشرة آلاف مقاتل، وكانت خفاجة في ألف، فلم يقدم قرواش في ذلك الجيش العظيم على هذه الألف، وشرع أهل الأنبار في بناء سور على البلد، وأعانهم قرواش وأقام عندهم الشتاء، ثم إن منيع بن حسان سار إلى الملك أبي كاليبجار، فاطاعه، فخلع عليه، وأتى منيع الخفاجي إلى الكوفة فخطب فيها لأبي كاليبجار، وأزال حكم عقيل عن سقي الفرات .

ذكر الصلح بإفريقية بين كتامة وزناتة وبين المعز بن باديس

في هذه السنة وردت رسل زناتة وكتامة إلى المعز بن باديس، صاحب إفريقية، يطلبون منه الصلح، وأن يقبل منهم الطاعة والدخول تحت حكمه، وشرطوا أنهم يحفظون الطريق، وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم، فأجابهم إلى ما سألوا، وجاءت مشيخة زناتة وكتامة إليه، فقبلهم وأنزلهم ووصلهم، وبذل لهم أموالاً جليلاً .

ذكر وفاة حمّاد بن المنصور وولاية ابنه القائد

في هذه السنة توفي حماد بن بُلْكَيْن، عم المعز بن باديس،

وتبعهم علاء الدولة، واستمال الجوزقان، فمال إليه بعضهم، وتبعهم (٣٥٨/٩) إلى نهاوند، فالتقوا عندها، واقتتلوا قتالاً كثر فيه القتل والأسرى، فظفر علاء الدولة، وقتل ابنتين لولكيين في المعركة، وأسر الأصهبذ وابنان له ووزيره، ومضى ولكين في نفر يسير إلى علاء الدولة، فحصره بها، وبقي أصهبذ محبوساً عند علاء الدولة إلى أن توفي في رجب سنة تسع عشرة وأربعمئة .

وعاد إلى الوزير فأشار عليه بإرسال أصحابه إلى جهات ذكرها ليحصلوا الأموال، فقبل منه، ثم أشار عليه بإحداً سفته إلى مكان ذكره ليصلح ما فسد منها، ففعل. فلما تم له ذلك وثب هو وأهل البطيحة عليه، وأخرجوه من عندهم، وكان عندهم جماعة من عسكر جلال الدولة في الحبس، فأخرجوهم، واستعانوا بهم، واتفقوا معهم، وفتحوا السواقي، وعادوا إلى ما كانوا عليه أيام مذهب الدولة، وقاتلوا كل من قصدهم، وامتنعوا فتم لهم ذلك. ثم قصده ابن المعبراني فاستولى على البطيحة، وفارقها الشرايين إلى دبّيس بن مزيد، فأقام عنده مكرماً.

ذكر صلح أبي كاليجار مع عمه صاحب كرمان

في هذه السنة استقر الصلح بين أبي كاليجار وبين عمه أبي الفوارس، صاحب كرمان، وكان أبو كاليجار قد سار إلى كرمان لقتال عمه وأخذ كرمان منه، فاحتفى منه بالجيال، وحمي الحرّ على أبي كاليجار وعسكره، فكثرت الأمراض، فتراسل في الصلح، فاصطلحا على أن تكون كرمان لأبي الفوارس، ويولد فارس لأبي كاليجار، ويحمل إلى عمه كل سنة عشرين ألف دينار.

ولما عاد أبو كاليجار إلى الأهواز جعل أمور دولته إلى العادل بن مافنة، فأجابه بعد امتناع، وكان مولد العادل بكازرون سنة ستين وثلاثمئة، وشرط العادل أن لا يعارض في الذي يفعله، فأجيب إلى ذلك. (٣٦١/٩)

ذكر الخطبة لجلال الدولة ببغداد وإصعاده إليها

في هذه السنة، في جمادى الأولى، خطب للملك جلال الدولة أبي طاهر بن بهاء الدولة ببغداد، وأصعد إليها من البصرة فدخلها ثالث شهر رمضان، وكان سبب ذلك أن الأتراك لما رأوا أن البلاد تخرّب، وأن العامة والعرب والأكراد قد طمعوا، وأنهم ليس عندهم سلطان يجمع كلمتهم، قصدوا دار الخلافة، وأرسلوا يعتذرون إلى الخليفة من انفرادهم بالخطبة لجلال الدولة أولاً، ثم برده ثانياً، وبالخطبة لأبي كاليجار، ويشكرون الخليفة حيث لم يخالفهم في شيء من ذلك، وقالوا: إن أمير المؤمنين صاحب الأمر، ونحن العبيد، وقد أخطأنا ونسأل العفو، وليس عندنا الآن من يجمع كلمتنا، ونسأل أن ترسل إلى جلال الدولة ليصعد إلى بغداد، ويملك الأمر، ويجمع الكلمة ويخطب له فيها، ويسألون أن يحلفه الرسول السائر لإحضاره لهم. فأجابهم الخليفة إلى ما سألوا، وراسله هو وقواد الجند في الإصعاد واليمين للخليفة والأتراك

ثم إن ولكين بن ندرين سار بعد خلاصه من الوقعة إلى منوهر بن قابوس، وأطمعه في الري وملكها، وهون عليه أمر البلاد لاسيما مع اشتغال علاء الدولة بمحاصرة علي بن عمران، وانضاف إلى ذلك أن ولد ولكين كان صهر علاء الدولة على ابنته، وقد أقطعه علاء الدولة مدينة قم، فغصى عليه وصار مع أبيه، وأرسل إليه يحثه على قصد البلاد، فسار إليها ومعه عساكره، وعساكر منوهر، حتى نزلوا على الري، وقتلوا مجد الدولة بن بويه ومن معه، وجرى بين الفريقين وقائع استظهر فيها أهل الري. فلما رأى علاء الدولة ذلك صالح علي بن عمران .

فلما بلغ ولكين الصلح بين علاء الدولة وعلي بن عمران رحل عن الري من غير بلوغ غرض، فتوجه علاء الدولة إلى الري، وراسل منوهر، وويّحه وتهدده، وأظهر قصد بلاده، فسمع أن علي بن عمران قد كاتب منوهر، وأطمعه، ووعدته النصر، وحثه على العود إلى الري، فعاد علاء الدولة عن قصد بلاد منوهر، وتجهّز لقصد علي بن عمران، فأرسل ابن عمران إلى منوهر يستعده، فسير إليه ستمائة فارس وراجل مع قائد من قواده، وتحصّن ابن عمران، وجمع عنده الذخائر بكينكور، وقصده علاء الدولة وحصره وضيق عليه، ففني ماعنده، فأرسل يطلب الصلح، فاشتراط علاء الدولة أن (٣٥٩/٩) يسلم قلعة كينكور والذين قتلوا أبا جعفر ابن عمه، والقائد الذي سيره إليه منوهر، فأجابه إلى ذلك وسيرهم إليه، فقتل قتلة ابن عمه، وسجن القائد، وتسلم القلعة، وأقطع علياً عوضاً عنها مدينة الدينور، وأرسل منوهر إلى علاء الدولة فصالحه، فأطلق صاحبه .

ذكر عصيان البطيحة على أبي كاليجار

في هذه السنة غصى أهل البطيحة على الملك أبي كاليجار، ومقدمهم أبو عبد الله الحسين بن بكر الشرايين، الذي كان قديماً صاحب البطيحة، وقد تقدّم خبره.

وكان سبب هذا الخلاف أن الملك أبا كاليجار سير وزيره أبا محمد بن بابشاذ إلى البطيحة، فعسف الناس، وأخذ أموالهم، وأمر الشرايين فوضع على كل دار بالصليق قسماً، وكان في صحبته، ففعل ذلك، ففترقوا في البلاد، وفارقوا أوطانهم، فغزم من بقي على أن يستدعوا من يتقدم عليهم في العصيان على أبي كاليجار، وقتل

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سقط في العراق جميعه بَرْد كبار يكون في الواحدة رطل أو رطلان، وأصفره كالبيضة، فأهلك الغلات، ولم يصح منها إلا القليل.

وفيها، في آخر تشرين الثاني هبَّت ريح باردة بالعراق جمد منها الماء والخل، وبطل دوران الدواليب على دجلة.

وفيها انقطع الحج من خراسان والعراق.

وفيها نُقِضَت الدار المعزّية، وكان معزّ الدولة بن بويه بناها وعظّمها، وغرم عليها ألف ألف دينار، وأول من شرع في تخريبها بهاء الدولة، فإنه لما عمر داره بسوق الثلاثاء نقل إليها من أنقاضها، وأخذ سقفاً منها وأراد (٢٦٤/٩) أن ينقله إلى شيراز، فلم يتم له ذلك، فبذل فيه من يحكّ ذهب ثمانية آلاف دينار، ونُقِضَت الآن، وبيع أنقاضها.

وفيها توفي هبة الله بن الحسن بن منصور أبو القاسم اللالكاني الرازي، سمع الحديث الكثير، وتفقه على أبي حامد الأسفرائيني، وصنّف كتاباً، وأبو القاسم طباطبا الشریف العلوي، وله شعر جيد، فمَنهُ أن صديقاً له كتب إليه رقعة، فأجابته على ظهرها هذه الأبيات:

وقرأتُ النبي كبست، وما زالا
لنجي ونجسي ومؤنسي وسنجري
وغدا الفأل بالمتراج السطور
حاكماً بامتراج ما في الضمير
واقتران الكلام لفظاً وخطاً
شاهداً باقتران وذال الصدور
وتبركت باجتماع الكلامي
نرجاء اجتماعنا في سرور
ونصامت بالظهور على السوا
شي، فصارت إجابتي في الصدور
(٣٦٥/٩)

سنة تسع عشرة وأربعمائة

ذكر الحرب بين بدران وعسكر نصر الدولة

في هذه السنة، في جمادى الأولى، سار بدران بن المقتد العجلي في جمع من العرب إلى نصيبين وحصرها، وكانت لنصر الدولة بن مروان، فخرج إليه عسكر نصر الدولة الذين بها، وقتلوه، فنهزمهم، واستظهر عليهم، وقتل جماعة من أهل نصيبين والعسكر، فسير نصر الدولة عسكراً آخر نجدة لمن بنصيبين، فأرسل إليهم بدران عسكراً، فلقوهم، فقاتلوهم وهزمهم، وقتلوا أكثرهم. فازعج ذلك ابن مروان، وألقه، فسير عسكراً آخر ثلاثة آلاف فارس، فدخلوا نصيبين، واجتمعوا بمن فيها، وخرجوا إلى بدران فقاتلوا، فانهزم بدران ومن معه بعد قتال شديد، وقت الظهر، وتبعهم عسكر ابن مروان.

فحلف لهم، وأصعد إلى بغداد، وانحدر الأتراك إليه، فلقوه في الطريق، وأرسل الخليفة إليه القاضي أبا جعفر السمناني، فأعاد تجديد العهد عليه للخليفة والأتراك، ففعل.

ولما وصل إلى بغداد نزل النجفي، فركب الخليفة في الطيار وانحدر يتقيه، فلما رآه جلال الدولة قبل الأرض بين يديه، وركب في زبزه، ووقف قائماً، فأمره الخليفة بالجلوس، فخدم وجلس ودخل إلى دار المملكة، بعد أن مضى إلى مشهد موسى بن جعفر فزار، وقصد الدار فدخلها، وأمر بضرب الطبل أوقات الصلوات الخمس، فراسله الخليفة في منعه، فقطعه غضباً، حتى (٣٦٢/٩) أذن له في إعادته ففعل.

وأرسل جلال الدولة مؤيد الملك أبا علي الرُّخْجِي إلى الأنسر عنبر الخادم. وهو عند قرواش، وقد ذكرنا ذلك، يعرفه اعتضاده به، واعتماده عليه، ومحبته له، ويعتذر إليه من الأتراك، فعذرهم وقال: هم أولاد وإخوة.

ذكر وفاة أبي القاسم بن المغربي وأبي الخطاب

أما أبو القاسم بن المغربي فتوفي هذه السنة بميفارقين، وكان عمره ستاً وأربعين سنة، ولما أحس بالموت كتب كتاباً عن نفسه إلى كل من يعرفه من الأمراء والرؤساء الذين بينه وبين الكوفة، ويعرفهم أن حظية له توفيت، وأنه قد سير تابوتها إلى مشهد أمير المؤمنين علي، عليه السلام، وخاطبهم في المراجعة لمن في صحبته. وكان قصده أن لا يتعرض أحد لتابوته بمنع، وينطوي خبره. فلما توفي سار به أصحابه، كما أمرهم، وأوصلوا الكتب، فلم يعرض أحد إليه، فذُفِنَ بالمشهد، ولم يعلم به أحد إلا بعد دفنه.

ولأبي القاسم شعر حسن، فمَنهُ هذه الأبيات:

وما عيّنة أمعاء تحنو على طلاء
تري الإنس وحشاً وهي تأنس بالوحش
غدت فارقت ثم انتشت لرضاعه
فلم تُلغ شيئاً من قوائمه الحش
فطافت بذاك القاع ولهي فصادت
سباغ الفلا ينهشه إيما نهش
(٣٦٣/٩)

بالوجع مني يوم ظلت أسما
تودعني بالذئ من شبك القش
وأجمالهم تحدى وقد خيل الهوى
كان مطاياهم على ناظري تمشي
وأعجب ما في الأمر أن عشت بدمهم
على أنهم ما خلفوا لي من بطش

وأما أبو الخطاب حمزة بن إبراهيم فإنه مات بكرخ سامراً مفلوجاً، غريباً، قد زال عنه أمره وجهه، وكان مولده سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ورتاه المرتضى، وكان سبب اتصاله بهاء الدولة معرفة النجوم، وبلغ منه منزلة لم يبلغها أمثاله، فكان الوزراء يخدمونه، وحمل إليه فخر الملك مائة ألف دينار فاستقلها، وصار أمره إلى ما صار من الضيق والفقر والغربة.

ذكر استيلاء أبي كاليجار على البصرة

لَمَّا بلغ الملك أبا كاليجار ما كان بالبصرة سَير جيشاً إلى بختيار، وأمره أن يقصد البصرة فيأخذها. فساروا إليها، وبها الملك العزيز بن جلال الدولة، فقاتلهم ليمنعه، فلم يكن له بهم قوة، فانهزم منهم، وفارق البصرة، وكاد يهلك هو ومن معه عطشاً، فمَنَّ الله عليهم بمطر جود، فشربوا منه، وأصعدوا إلى واسط.

وملك عسكر أبي كاليجار البصرة، ونهب الديلم وأسواقها، وسلم منها (٣٦٨/٩) البعض بمال بذلوه لمن يحميمهم، وتبعوا أموال أصحاب جلال الدولة من الأتراك وغيرهم. فلَمَّا بلغ جلال الدولة الخبر أراد الانحدار إلى واسط، فلم يوافقه الجند، وطلبوا منه مالأً يفرق فيهم، فلم يكن عنده، فمَدَّ يده في مصادرات الناس وأخذ أموالهم لا سيما أرباب الأموال، فصادر جماعه.

ذكر وفاة صاحب كرمان واستيلاء أبي كاليجار عليها

في هذه السنة، في ذي القعدة، توفي قوام الدولة أبو الفوارس بن بهاء الدولة، صاحب كرمان، وكان قد تجهَّز لقصد بلاد فارس، وجمع عسكراً كثيراً، فأدركه أجله. فلَمَّا توفي نادى أصحابه بشعار الملك كاليجار، وأرسلوا إليه يطلبوه إليه، فسار مجداً، وملك البلاد بغير حرب ولا قتال، وأمن الناس معه، وكانوا يكرهون عمه أبا الفوارس لظلمه وسوء سيرته، وكان إذا شرب ضرب أصحابه، وضرب وزيره يوماً ماتت مرقعة، وحلَّفه بالطلاق أنه لا يتأوه، ولا يخبر بذلك أحداً، فقيل إنهم سمَّوه فمات.

ذكر استيلاء المنصور بن الحسين على الجزيرة الدبسية

كان منصور بن الحسين الأسدي قد ملك الجزيرة الدبسية، وهي تجاور خوزستان، ونادى بشعار جلال الدولة، وأخرج صاحبها طراد بن دُبَيْس الأسدي سنة ثمان عشرة وأربع مائة، فمات طراد عن قريب، فلَمَّا مات طراد (٣٦٩/٩) سار ابنه أبو الحسن إلى بغداد يسأل أن يُرسل جلال الدولة معه عسكراً إلى بلده ليُخرج منصوراً منه ويسلمه إليه، وكان منصور قد قطع خطبة جلال الدولة وخطب للملك أبي كاليجار، فسَير معه جلال الدولة طائفة من الأتراك، فلما وصلوا إلى واسط لم يقف علي بن طراد حتى تجتمع معه طائفة من عسكر واسط، وسار عجلاً.

واتفق أن أبا صالح كوركير كان قد هرب من جلال الدولة، وهو يريد اللحاق بأبي كاليجار، فسمع هذا الخبر، فقال لمن معه: المصلحة أننا نعين منصوراً، ولا نمكّن عسكر جلال الدولة من إخراجنا، وتخذ بهذا الفعل يداً عند أبي كاليجار. فأجابوه إلى ذلك، فسار إلى منصور واجتمع معه، والتقوا هم وعسكر جلال الدولة الذين مع علي بن طراد بيسير ووذ، فاقتتلوا، فانهزم عسكر

ثم عطف عليهم بدران وأصحابه، فلم يثبتوا له، فأكثر فيهم القتل والأسر، وغنم الأموال، فعاد عسكر ابن مروان مفلولين، فدخلوا نصيبين، فاجتمعوا بها واقتتلوا مرة أخرى، وكانوا على السواء، ثم سمع بدران بأن أخاه قرواشاً قد وصل إلى الموصل، فرحل خوفاً منه لأنهما كانا مختلفين. (٣٦٦/٩)

ذكر شغب الأتراك ببغداد على جلال الدولة

في هذه السنة ثار الأتراك ببغداد على جلال الدولة، وشغبوا، وطالبوا الوزير أبا علي بن مأكولا بما لهم من العلوقة والادرار، ونهبوا داره ودور كتاب الملك وحواشيه حتى المغنين والمختشين، ونهبوا صياغات أخرجهها جلال الدولة لتضرب دنانير ودراهم، وتفرق فيهم، وحصروا جلال الدولة في داره، ومنعوه الطعام والماء حتى شرب أهله ماء البئر، وأكلوا ثمرة البستان. فسألهم أن يمكنوه من الانحدار، فاستأجروا له ولأهله وأثقاله سفناً فجعل بين الدار والسفن سرادقاً لتجتاز حرمة فيه، لئلا يراهم العامة والأجناد، فقصد بعض الأتراك السرادق، فظنَّ جلال الدولة أنهم يريدون الحرم، فصاح بهم يقول لهم: بلغ أمركم إلى الحرم! وتقدّم إليهم، ويبيده طَبْرًا، فصاح صغار الغلمان والعامة: جلال الدولة يا منصور! ونزل أحدهم عن فرسه وأركبه إياه وقبّلوا الأرض بين يديه.

فلما رأى قواد الأتراك ذلك هربوا إلى خيامهم بالرملة، وخافوا على نفوسهم، وكان في الخزانة سلاح كثير، فأعطاه جلال الدولة أصاغر الغلمان وجعلهم عنده، ثم أرسل إلى الخليفة ليصلح الأمر مع أولئك القواد، فأرسل إليهم الخليفة القادر بالله، فأصلح بينهم وبين جلال الدولة، وحلفوا، وقبلوا الأرض بين يديه، ورجعوا إلى منازلهم، فلم يمض غير أيام حتى عادوا إلى الشغب، فباع جلال الدولة فرشه وثيابه وخيمه وفرّق ثمنه فيهم حتى سكنوا. (٣٦٧/٩)

ذكر الاختلاف بين الديلم والأتراك بالبصرة

في هذه السنة ولي النفيس أبو الفتح محمد بن أردشير البصرة، استعمله عليها جلال الدولة، فلما وصل إلى المشان منحدرًا إليها وقع بينه وبين الديلم الذين بالمشان وقعة فاستظهر عليهم وقتل منهم.

وكانت الفتن بالبصرة بين الأتراك والديلم، وبها الملك العزيز المنصور [بن] جلال الدولة، فقوي الأتراك بها، فأخرجوا الديلم، فمضوا إلى الأبلّة، وصاروا مع بختيار بن علي، فسار إليهم الملك العزيز بالأبلّة ليعيدهم ويصلح بينهم وبين الأتراك، فكاشفوه وحملوا عليه، ونادوا بشعار أبي كاليجار، فعاد منهزمًا في الماء إلى البصرة، ونهب بختيار نهر الدير والأبلّة وغيرهما من السواد، وأعانه الديلم ونهب الأتراك أيضاً، وارتكبوا المحظور، ونهبوا دار بنت الأوحّد بن مكرم زوجة جلال الدولة.

ونسخها، وكانت والدته تدبّر مملكته، فلمّا توفيت طمع جنده فيه، واختلّت أحواله، فحين وصلت كتبه إلى محمود سبّر إليه جيشاً، وجعل مقدّمهم حاجبه، وأمره أن يقبض على مجد الدولة، فلمّا وصل العسكر إلى الرّيّ ركب مجد الدولة يلتقيهم، فقبضوا عليه وعلى أبي دلف ولده.

فلمّا انتهى الخبر إلى يمين الدولة بالقبض عليه سار إلى الرّيّ، فوصلها في ربيع الآخر، ودخلها، وأخذ من الأموال ألف ألف دينار، ومن الجواهر ما قيمته خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ستّة آلاف ثوب، ومن الآلات وغيرها ما لا يحصى، وأحضر مجد الدولة، وقال له: أما قرأت شاهنامه، وهو تاريخ الفرس، وتاريخ الطبري، وهو تاريخ المسلمين؟ قال: بلى! قال: (٣٧٢/٩) ما حالك حال من قرأها؟ أما لعبت الشطرنج؟ قال: بلى! قال: فهل رأيت شاهاً يدخل على شاه؟ قال: لا، قال: فما حملك على أن سلّمت نفسك إلى من هو أقوى منك؟ ثمّ سيّره إلى خراسان مقبوضاً، ثمّ ملك قزوین وقلاعه، ومدينة ساوة وآبّة، وبافت، وقبض على صاحبها ولكن بن وندرين، وسيّره إلى خراسان.

ولمّا ملك محمود الرّيّ كتب إلى الخليفة القادر بالله يذكر أنّه وجد لمجد الدولة من النساء الحرائر ما يزيد على خمسين امرأة، ولدن له ثيماً وثلاثين ولداً، ولمّا سُئل عن ذلك قال: هذه عادة سلّفي. وصلب من أصحابه الباطنية خلقاً كثيراً، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم، وأخذ من الكتب ما سوى ذلك مائة حمل.

وتحصّن منه منوچهر بن قابوس بن وشمكير بجبال حصينة، وعرة المسالك، فلم يشعر إلا وقد أطلّ عليه يمين الدولة، فهرب منه إلى غياض حصينة، وبذل خمسمائة ألف دينار ليصلحه، فأجابه إلى ذلك، فأرسل المال إليه، فسار عنه إلى نيسابور.

ثمّ توفّي منوچهر عقيب ذلك، ووّلي بعده ابنه أنوشروان، فأقرّه محمود على ولايته، وقرّر عليه خمسمائة ألف دينار أخرى، وخطب لمحمود أكثر بلاد الجبل إلى حدود أرمينية، وافتتح ابنه مسعود زنجان وأبهر، وخطب له علاء الدولة بأصبهان، وعاد محمود إلى خراسان واستخلف بالريّ ابنه مسعوداً، فقصد أصبهان، وملكها من علاء الدولة، وعاد عنها، واستخلف بها بعض أصحابه، فثار به أهلها فقتلوه، فعاد إليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة نحو خمسة آلاف قتيل، وسار إلى الرّيّ فأقام بها. (٣٧٣/٩)

ذكر ما فعله السالار إبراهيم بن المرزبان بعد عود يمين الدولة عن الرّيّ

هذا السالار هو إبراهيم بن المرزبان بن إسماعيل بن وهسودان بن محمد بن مسافر الديلمي، وكان له من بلاد سرجهان، وزنجان،

جلال الدولة، وقتل علي بن طراد وجماعة كثيرة من الأتراك، وهلك كثير من المنهزمين بالعطش، واستقرّ ملك منصور بها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار الدزبري وعساكر مصر إلى الشام، فأوقعوا بصالح بن مرداس وابن الجراح الطائي، فهزهما، وقتل صالحاً وابنه الأصغر، وملك جميع الشام، وقيل سنة عشرين [وأربعمئة].

وفيها توفيت أم مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه، وهي التي تدبّر المملكة وترتب الأمور. (٣٧٠/٩)

وفيها عزل الحسن بن عليّ بن جعفر أبو عليّ بن ماکولا من وزارة جلال الدولة، وولي الوزارة بعده أبو طاهر المحسن بن طاهر، ثمّ عزل بعد أربعين يوماً، ووليّ بعده أبو سعد بن عبد الرحيم.

وفيها توفي قسطنطين ملك الروم، وانتقل الملك إلى بنت له، وقام بتدبير الملك والجيش زوجها، وهو ابن خالها.

وفيها توفي الوزير أبو القاسم جعفر بن محمد بن فسانجس بأربق.

وفيها عدت الأرطاب بالعراق للبرد الذي تقدّم في السنة قبلها، وكان يُحمل من الأماكن البعيدة الشيء اليسير منه.

وفيها انقطع الحجّ من العراق، فمضى بعض حجّاج خراسان إلى كرمّان، وركبوا في البحر إلى جدّة، وحجّوا.

وتوفي في هذه السنة محمد بن محمد بن إبراهيم بن مخلد أبو الحسن التاجر، وهو آخر من حدّث عن إسماعيل بن محمد الصفار، ومحمد بن عمر الرّزّاز، وعمر بن الحسن الشيباني، وكان له مال كثير، فسافر إلى مصر خوف المصادرة، فأقام بها سنة، ثمّ عاد إلى بغداد، فأخذ ماله في التقيط على الكرخ الذي ذكرناه سنة ثمان عشرة وأربعمئة، فانقرض، فلمّا مات لم يوجد له كنز، فأرسل له القادر بالله ما يكفّن فيه. (٣٧١/٩)

سنة عشرين وأربعمئة

ذكر ملك يمين الدولة الرّيّ وبلد الجبل

في هذه السنة سار يمين الدولة محمود بن سبكتكين نحو الرّيّ، فانصرف منوچهر بن قابوس من بين يديه، وهو صاحب جرجان وطبرستان، وحمل إليه أربعمئة ألف دينار وأنزلاً كثيرة.

وكان مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه، صاحب الرّيّ، قد كاتبه يشكو إليه جنده، وكان متشاغلاً بالنساء، ومطالعة الكتب

وأرسل أبو كاليبجار إلى قرواش، صاحب الموصل، وعنده الأثير عنبر، (٣٧٥/٩) يطلب منه أن ينحدر إلى العراق ليبقى جلال الدولة بين الفريقين، فأنحدر إلى الكُحَيْل، فمات به الأثير عنبر، ولم ينحدر معه قرواش، وجمع جلال الدولة عساكره، واستنجد أبا الشوك وغيره، وانحدر إلى واسط، ولم يكن بين العسكرين قتال، وتابعت الأمطار حتى هلكوا.

واشتد الأمر على جلال الدولة لفقره، وقلة الأموال وغيرها عنده، فاستشار أصحابه فيما فعل، فأشاروا أن يقصدوا الأهواز وينهبها، ويأخذ ما بها من أموال أبي كاليبجار وعسكره، فسمع أبو كاليبجار ذلك، فاستشار أيضاً أصحابه، فقال بعضهم: ما عدل جلال الدولة عن القتال إلا لضعف فيه، والراي أن تسير إلى العراق فتأخذ من أموالهم ببغداد أضعاف ما يأخذون منّا، فاتفقوا على ذلك، فأتاهم جاسوس من أبي الشوك يُخبر بمجيء عساكر محمود بن سبكتكين إلى طخر، وأنهم يريدون العراق، ويشير بالصلح، واجتماع الكلمة على دفعهم عن البلاد، فأنفذ أبو كاليبجار الكتاب إلى جلال الدولة، وقد سار إلى الأهواز، وأقام ينتظر الجواب، ظناً منه أن جلال الدولة يعود بالكتاب، فلم يلفت جلال الدولة، ومضى إلى الأهواز فنهبها، وأخذ من دار الإمارة مائتي ألف دينار، وأخذوا ما لا يحصى، ودخل الأكراد والأعراب وغيرهم إلى البلد، فأهلكوا الناس بالنهب والسي، وأخذت والدته أبي كاليبجار وابنته وأم ولده وزوجته، فماتت أمه، وحُمل من عداها إلى بغداد.

ولما سمع أبو كاليبجار الخبر سار ليلقى جلال الدولة، فتخلف عنه دُيَّيس بن مُزَيْد، خروفاً على أهله وحلله من خفاجة، والتقى أبو كاليبجار وجلال (٣٧٦/٩) الدولة آخر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين [وأربعمئة]، فاقتتلوا ثلاثة أيام، وانهمز أبو كاليبجار، وقتل من أصحابه ألفا رجلاً، ووصل إلى الأهواز بأسوأ حال، فأتاه العادل بن مافنة بمال، فحسنت حاله.

وأما جلال الدولة فإنه عاد واستولى على واسط، وجعل ابنه العزيز بها، وأبعد إلى بغداد، ومدحه المرتضى ومهيار وغيرهما، وهنّوه بالظفر.

ذكر حال دُيَّيس بن مُزَيْد بعد الهزيمة

لما عاد دُيَّيس بن مُزَيْد الأسدي، وفارق أبا كاليبجار، وصل إلى بلده، وكان قد خالف عليه قوم من بني عمّه، ونزلوا الجامعين، وأتاهم وقتلهم، فظفر بهم، وأسر منهم جماعة منهم شبيب، وسرايا، وهوب، بنو حماد بن مزيد، وأبو عبد الله الحسن بن أبي الغنائم بن مزيد، وحملهم إلى الجوسق.

ثم إن المقلد بن أبي الأغر بن مزيد وغيره اجتمعوا معهم عسكر من جلال الدولة، وقصدوا دُيَّيساً، وقتلوه، فانهزم منهم،

وأبهر، وشهزور، وغيرها، وهي ما استولى عليها بعد وفاة فخر الدولة بن بويه. فلما ملك يمين الدولة محمود بن سبكتكين الرئيّ سِير المرزبان بن الحسن بن خراميل، وهو من أولاد ملوك الديلم، وكان قد التجأ إلى يمين الدولة، فسّيره إلى بلاد السالار إبراهيم ليملكها، فقصدوا واستمال الديلم، فمال إليه بعضهم.

وأتفق عود يمين الدولة إلى خراسان، فسار السالار إبراهيم إلى قزوين، وبها عسكر يمين الدولة، فقاتلهم، فأكثر القتل فيهم، وهرب الباقون، وأعانه أهل البلد؛ وسار السالار أيضاً إلى مكان بقرب سَرْجَهان تطّيف به الأنهار والجبال فتحصّن به، فسمع مسعود بن يمين الدولة وهو بالرئيّ، بما فعل، فسار مجدداً إلى السالار، فجري بينهما وقائع كان الاستظهار فيها للسالار.

ثم إن مسعوداً راسل طائفة من جند السالار، واستمالهم، وأعطاهم الأموال فمالوا إليه، ودلّوه على عورة السالار، وحملوا طائفة من عسكره في طريق غامضة، حتى جعلوه من ورائهم، وكبسوا السالار أول رمضان، وقتله مسعود من بين يديه، وأولئك من خلفه، فاضطرب السالار ومن معه، وانهزموا وطلب كل إنسان منهم مهرباً، واختفى السالار في مكان، فدلّت عليه امرأة سودانية، فأخذه مسعود وحمله إلى سَرْجَهان، وبها ولده، فطلب منه أن يسلمها، فلم يفعل، فعاد عنها وتسلم باقي قلاعه وبلاده، وأخذ أمواله، (٣٧٤/٩) وقرّر على ابنه المقيم بسَرْجَهان مالا، وعلى كل من جاوزه من مقدّمي الأكراد، وعاد إلى الرئيّ.

ذكر ملك أبي كاليبجار مدينة واسط ومسير جلال الدولة إلى

الأهواز ونهبها وعود واسط إليه

في هذه السنة أصدع الملك أبو كاليبجار إلى مدينة واسط فملكها؛ وكان ابتداء ذلك أن نور الدولة دُيَّيس بن عليّ بن مُزَيْد، صاحب الحلة، والنبل، ولم تكن الحلة بنيت ذلك الوقت، خطب لأبي كاليبجار في أعماله.

وسببه أن أبا حسان المقلد بن أبي الأغر الحسن بن مُزَيْد كان بينه وبين نور الدولة عداوة، فاجتمع هو ومنيع أمير بني خفاجة، وأرسلوا إلى بغداد يبذلان مالاّ يتجهّز به العسكر لقتال نور الدولة، فاشتد الأمر على نور الدولة، فخطب لأبي كاليبجار، وراسله يطعمه في البلاد.

ثم اتفق أنه ملك البصرة، على ما ذكرناه، فقوي طمعه، فسار من الأهواز إلى واسط، وبها الملك العزيز بن جلال الدولة، ومعه جمع من الأتراك، ففارقها العزيز وقصد النعمانية، ففجّر عليه نور الدولة البشوق من بلده، فهلك كثير من أنقاليهم، وغرق جماعة منهم، وخطب في البطيحة لأبي كاليبجار، وورد إليه نور الدولة.

وأُسِرَ من بني عمّه خمسة عشر رجلاً، فنزل المعتقلون بالجوسق، وهم شيبب وأصحابه، إلى حلله فحرسوها، وسار دُتَيْسَ منهزماً إلى السندية، إلى نجدة الدولة أبي منصور كامل بن قراد، فاستصحبه إلى أبي سنان غريب بن مقن، حتّى أصْلَحَ أمره مع جلال الدولة وعسكره، وتكفّل به، وضمن عنه عشرة آلاف دينار سابورية إذا أعيد إلى ولايته، فأُجِيبَ إلى ذلك، وخُلعَ عليه. (٣٧٧/٩)

فعرّف المقلّد الحال ومعه جمع من خفاجة فذهبوا مطيراباذ، والنيل، وسُوراء، وأتبع نهب، واستاقوا مواشيها، وأحرقوا منازلها، وعبر المقلّد دجلة إلى أبي الشوك، وأقام عنده إلى أن أحكم أمره.

ذكر عصيان زناته ومحاربتهم بإفريقية

في هذه السنة تجمّعت زناته وصاودت الخلاف مع المعزّ بإفريقية، فبلغ ذلك المعزّ، فجمع عساكره وسار إليهم بنفسه، فالتقوا بموضع يعرف بحمديس الصابون، ووقعت الحرب بين الطائفتين، واشتدّ القتال، فانهزمت زناته وقُتل منهم عدد كثير، وأُسِرَ مثلهم، وعاد المعزّ ظافراً غانماً.

ذكر ما فعله يمين الدولة وولده بعده بالغزّ

في هذه السنة أوقع يمين الدولة بالأتراك الغزّية، وفرّقهم في بلاده لأنهم كانوا قد افسدوا فيها، وهؤلاء كانوا أصحاب أرسلان بن سلجوق التركي، وكانوا بمفازة بخارى، فلمّا عبر يمين الدولة النهر إلى بخارى هرب عليّ تكيّن صاحبها منه، على ما نذكره.

وحضر أرسلان بن سلجوق عند يمين الدولة، فقبض عليه، وسجنه ببلاد الهند، وأسرى إلى خراكاته، فقتل كثيراً من أصحابه، وسلم منهم خلق كثير، فهربوا منهم ولحقوا بخراسان فأفسدوا فيها، ونهبوا هذه السنة، فأرسل إليهم (٣٧٨/٩) جيشاً فسبّوهم وأجلوهم عن خراسان، فسار منهم أهل التي خراكة، فلحقوا بأصبهان، فكتب يمين الدولة إلى علاء الدولة بإنفاذهم، أو إنفاذ رؤوسهم، فأمر نائبه أن يعمل طعاماً ويدعوهم إليه ويقتلهم، فأرسل إليهم وأعلمهم أنه يريد إثبات أسمائهم ليستخدمهم، وكمن الديلم في البساتين، فحضر جمع كثير منهم، فلقيهم مملوك تركيّ لعلاء الدولة، فأعلمهم الحال، فعادوا فأراد نائب علاء الدولة أن يمتنعهم من العود، فلم يقبلوا منه، فحمل ديلمّي من قوّد الديلم على إنسان منهم، فرماه التركي بسهم فقتله.

ووقع الصوت بذلك، فخرجت الديلم وانضاف إليهم أهل البلد، فجرى بينهم حرب، فهزموهم، فقلع الترك خراكاتهم وساروا، ولم يجتازوا على قرية إلّا نهبوها إلى أن وصلوا إلى وهسودان بأذربيجان، فراعاهم وتقدّمهم.

وبقي بخراسان أكثر ممن قصد أصبهان، فأتوا جبل بلجان وهو

الذي عنده خوارزم القديمة، فنزل كثير منهم من الجبل إلى البلاد، فنهبوها وأخربوا وقتلوا، فجردّ محمود بن سبكتكين إليهم أرسلان الجاذب، أمير طوس، فسار إليهم ولم يزل يتبعهم نحو سستين في جموع كثيرة من العساكر، فاضطرّ محمود إلى قصد خراسان بسبيهم، فسار يطلبهم من نيسابور إلى دهستان، فساروا إلى جرجان، ثم عاد عنهم، وجعل ابنه مسعوداً بالرّي، على ما ذكرناه، فاستخدم بعضهم ومقدّمهم يغمر.

فلما مات محمود بن سبكتكين سار مسعود ابنه إلى خراسان وهم معه، فلمّا ملك غزّة سألوه فيمن بقي منهم بجبل بلجان، فأذن لهم في العود على (٣٧٩/٩) شرط الطاعة والاستقامة.

ثم إن مسعوداً قصد بلاد الهند عند عصيان أحمد ينادكتين، فعاودوا الفساد، فسبّر تاش فراش في عسكر كثير إلى الرّي لأخذها من علاء الدولة، فلمّا بلغ نيسابور، ورأى سوء فعلهم، دعا مقدّمهم، وقتل منهم ثبّاً وخمسين رجلاً، فيهم يغمر، فلم يتهوا، وساروا إلى الرّي، وبلغ مسعوداً ما هم عليه من الشر والفساد، فأخذ حللهم وسيّرهم إلى الهند، وقطع أيدي كثير منهم وأرجلهم وصلبهم.

هذه أخبار عشيرة أرسلان بن سلجوق وأما أخبار طغرل بك، وداود، وأخيها بيغو، فإنهم كانوا بما وراء النهر، وكان من أمرهم ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى لأنهم صاروا ملوكاً تجيء أخبارهم على السنين.

ولما أوقع تاش فراش حاجب السلطان مسعود بالغزّ ساروا إلى الرّي يزعمون أنهم يريدون أذربيجان، واللباق بمن مضى منهم أولاً إلى هناك، ويسمّون العراقيّة، وكان اسم أمراء هذه الطائفة كوكتاش، وبوقا، وقزل، ويغمر، وناصغلي، فوصلوا إلى الدامغان، فخرج إليهم عسكرها وأهل البلد ليمنعهم عنه، فلم يقدروا، فصعدوا الجبل وتحصّنوا به، ودخل الغز البلد ونهبوه، وانتقلوا إلى سمنان ففعلوا فيها مثل ذلك، ودخلوا خوار الرّي ففعلوا مثله، ونهبوا إسحاق آباد وما يجاورها من القرى، وساروا إلى مشكويه من أعمال الرّي فنهبوا.

وتجّهز أبو سهل الحمدونيّ، وتاش فراش، وكاتب الملك مسعوداً، وصاحب جرجان وطبرستان بالحال، وطلب النجدة، وأخذ تاش ثلاثة آلاف فارس، وما عنده من الفيلة والسلاح، وسار إلى الغزّ ليواقعهم، وبلغهم خبره، (٣٨٠/٩) فتركوا نساءهم، وأمورهم وما غنموا من خراسان، وهذه البلاد المذكورة، وساروا جريدة والتقا فركب تاش الفيل، ووقعت الحرب بين الفريقين، فكانت أولاً لتاش، ثم إن الغزّ أسروا مقدّم الأتراك الذين مع تاش، وأرادوا قتله، فقال لهم: استبقوني حتى أمر الأكراد الذين مع تاش بترك

قتالهم؛ فتركوه، وعاهدوه على إطلاقه، فأرسل إلى الأكراد يقول لهم: إن قاتلتُم قتلْتُ؛ فقتلوا في القتال.

وكان أسماء مقدّمهم: بوقا، وكوكتاش، ومنصور، ودانا، وكان ما أمّله بعيداً، فلأنهم لم يتركوا الشرّ والفساد، والقتل، والنهب، وساروا إلى مراغة، فدخلوها سنة تسع وعشرين [وأربعمئة] وأحرقوا جامعها، وقتلوا من عوامها مقتلة كثيرة، ومن الأكراد الهذبية كذلك، وعظم الأمر، واشتدّ البلاء.

فلما رأى الأكراد ما حلّ بهم وبأهل البلاد شرعوا في الصلح والاتفاق على دفع شرهم، فاصطحب أبو الهيجاء بن ربيب الدولة ووهسودان صاحب أذربيجان وافقت كلمتهما، واجتمع معهما أهل تلك البلاد، فانصفوا من الغز. فلما رأوا اجتماع أهل البلاد على حربهم انصرفوا عن أذربيجان، وتعدّر عليهم المقام بها، ثم إنهم ائترقوا، فسار طائفة إلى النيسن على الرّي، ومقدّمهم بوقا، وسار طائفة منهم، ومقدّمهم منصور وكوكتاش، إلى همدان فحاصروها، وبها أبو كاليبجار بن علاء الدولة بن كاكويّه، فاتفق هو وأهل البلاد على قتالهم ودفعهم عن أنفسهم وبلددهم، فقتل بين الفريقين جماعة كثيرة، وطال مقامهم على همدان، فلما رأى أبو كاليبجار بن علاء الدولة ذلك، وضعفه عن مقاومتهم، راسل كوكتاش وصالحه وصاهره.

وأما الذين قصدوا الرّي فلأنهم حاصروها، وبها علاء الدولة بن كاكويّه، واجتمع معهم فناخسرو بن مجد الدولة، وكامرو الديلمي، صاحب ساوة، فكنز جمعهم، واشتدّت شسوكتهم. فلما رأى علاء الدولة أنهم كلّما جاء أمرهم ازدادوا قوة، وضعف هو، خاف على نفسه، وفارق البلد في رجب ليلاً، ومضى هارباً إلى أصبهان، وأجفل أهل البلد وتمزّقوا، وعدلوا عن القتال إلى الاحتيال للهرب، وغاداهم الغز من الغد القتال، فلم يثبتوا لهم؛ (٣٨٣/٩) ودخلوا البلد، ونهبوا نهباً فاحشاً، وسبوا النساء، وبقوا كذلك خمسة أيام، حتّى لجأ الحرّم إلى الجامع، وتفرّق الناس في كلّ مذهب ومهرب، وكان السعيد من نجا بنفسه. وكانت هذه الرقعة بعد التي تقدّمها مستأصلة، حتّى قيل إنّ بعض الجُمع لم يكن إلّا خمسون نفساً.

ولما فارق علاء الدولة الرّي تبعه جمع من الغز فلم يدركوه، فعدلوا إلى كرج فنهبوا، وفعلوا فيها الأفاعيل القبيحة، ومضى طائفة منهم، ومقدّمهم ناصغلي، إلى قزوین، فقاتلهم أهلها، ثمّ صالحوهم على سبعة آلاف دينار، وصاروا في طاعته.

وكان بأرمية طائفة منهم، فساروا إلى بلد الأرمن، فأوقعوا بهم، وأئخذوا فيهم، وأكثروا القتل، وغنموا وسبوا، وعادوا إلى أرمية وأعمال أبي الهيجاء الهذباني، فقاتلهم أكرادها لما من سوء مجاورتهم، فقتل خلق كثير، ونهب الغز سواد البلاد هناك، وقتلوا من الأكراد كثيراً.

وحملت الغز، وكانوا خمسة آلاف، على تاش فراش، وعسكره، فانهزم الأكراد، وثبت تاش وأصحابه، فقتل الغز الفيل الذي تحته فسقط، فقتلوه وقطعوه أخذاً بثأر من قتل منهم، وقتل معه عدد كثير من الخراسانية، وأكابر القواد، وغنموا بقية الفيلة، وأئقال العسكر وساروا إلى الرّي فاقتلوا هم وأبو سهل الحمدوني ومن معه من الجند وأهل البلد، فصعد هو ومن معه قلعة طبرك، ودخل الغز البلد، ونهبوا عدّة محال اجتاحتها به الأموال، ثم ائقتلوا هم وأبو سهل، فأسر منهم ابن أخت ليغمر أمير الغز، وقائد كبيراً من قوادهم، فبذلوا فيها إعادة ما أخذوا من عسكر تاش، وإطلاق الأسرى، وحمل ثلاثين ألف دينار، فقال: لا أفعل إلّا بأمر السلطان.

وخرج الغز عن البلد ووصل عسكر من جرجان، فلما قربوا من الرّي سار إليهم الغز فكبسهم، وأسروا مقدّمهم وأسروا معه نحو ألفي رجل وانهزم الباقيون وعادوا، وكان هذا سنة سبع وعشرين وأربعمئة. (٣٨١/٩)

ذكر وصول علاء الدولة إلى الرّي واتفاقه مع الغز وعودهم إلى الخلاف عليه

لما فارق الغز الرّي إلى أذربيجان علم علاء الدولة ذلك، فسار إليها، ودخلها، وهو يظهر طاعة السلطان مسعود بن سبكتكين، فأرسل إلى أبي سهل الحمدوني يطلب منه أن يقرّر الذي عليه بمال يؤديه، فامتنع من إجابته مخافة علاء الدولة، فأرسل إلى الغز يستدعيهم ليعطيهم الأقطاع، ويتقوى بهم على الحمدوني، فعاد منهم نحو ألف وخمسمائة، مقدّمهم قزل، وسار الباقيون إلى أذربيجان.

فلما وصل الغز إلى علاء الدولة أحسن إليهم، وتمسك بهم واقاموا عنده، ثم ظهر على بعض القواد الخراسانية الذين عنده أنه دعا الغز إلى موافقته على الخروج عليه والعصيان، فأرسل إليه علاء الدولة وأحضره وقبض عليه، وسجنه في قلعة طبرك، فاستوحش الغز لذلك ونفروا، فاجتهد علاء الدولة في تسكينهم، فلم يفعلوا، وعادوا الفساد والنهب وقطع الطريق، وعاد علاء الدولة فراسل أبا سهل الحمدوني، وهو طبرستان، وقرر معه أمر الرّي ليكون في طاعة مسعود، فأجابته إلى ذلك، وسار إلى نيسابور وبقي علاء الدولة بالرّي.

ذكر ما كان من الغز الذين بأذربيجان ومفارقتها

قد ذكرنا أنّ طائفة من الغز وصلوا إلى أذربيجان، فأكرمهم

ذكر ملك الغز همذان

أجفلوا من بين يديه، وفارقوا بلاد الجبل خوفاً منه، وقصدوا ديار بكر والموصل في سنة ثلاث وثلاثين [وأربعمئة] .

ذكر دخول الغز ديار بكر

في سنة ثلاث وثلاثين [وأربعمئة] فارق الغز أذربيجان .

وسبب ذلك أن إبراهيم يئال، وهو أخو طغرلبك، سار إلى الري، فلما (٣٨٦/٩) سمع الغز الذين بها خبره أجفلوا من بين يديه، وفارقوا بلاد الجبل خوفاً . وقصدوا أذربيجان، ولم يمكنهم المقام بها لما فعلوا بأهلها، ولأن إبراهيم يئال وراءهم، وكانوا يخافونه لأنهم كانوا له ولأخويه طغرلبك وداود رعية، فأخذوا بعض الأكراد، وعرفهم الطريق، فأخذ بهم في جبال وعرة على الزَّوْزَان، وخرجوا إلى جزيرة ابن عمر، فسار بوقا وناصغلي وغيرهما إلى ديار بكر، ونهسوا قَرْدَى، وبازَنْدَى، والحَسَنِيَّة، وفيشابور وبقي منصور بن غرغلي بالجزيرة من الجانب الشرقي .

فراسله سليمان بن نصر الدولة بن مروان المقيم بالجزيرة في المصالحة والمقام بأعمال الجزيرة إلى أن يتكشف الشتاء، ويسير مع باقي الغز إلى الشام، فتصالحا وتحالفا، وأضرع سليمان الغدر به، فعمل له طعاماً احتفل فيه ودعاه، فلما دخل الجزيرة قبض عليه وحبسه، وانصرف أصحابه متفرقين في كل جهة .

فلما علم بذلك قرواش سَيَّر جيشاً كثيفاً إليهم، واجتمع معهم الأكراد البشوتية، أصحاب فنك، وعسكر نصر الدولة، فتبعوا الغز، فلحقوهم وقاتلوهم، فبذل الغز جميع ما غنموه على أن يؤمنوهم، فلم يفعلوا، فقاتلوا قتالاً من [لا] يخاف الموت، فخرجوا من العرب كثيراً، واقتروا .

وكان بعض الغز قد قصد نصيبين وسنجان للغارة، فعادوا إلى الجزيرة وحصروها، وتوجهت العرب إلى العراق ليشتبوا به، فأخربت الغز ديار بكر، ونهبوا وقتلوا، فأخذ نصر الدولة منصوراً أمير الغز من ابنه سليمان، وراسل الغز، وبذل لهم مالاً، وإطلاق منصور ليفارقوا عمله، فأجابوه، فأطلق منصوراً، وأرسل بعض المال، فسدروا، وزادوا في الشر، وسار بعضهم إلى (٣٨٧/٩) نصيبين وسنجان والخابور، فنهبوا وعادوا، وسار بعضهم إلى جُهَيْنَةَ وأعمال الفرج فنهبوا، فدخل قرواش الموصل خوفاً منهم .

ذكر ملك الغز مدينة الموصل

لما خرجوا من أذربيجان إلى جزيرة ابن عمر، وهي من أعمال نصر الدولة بن مروان، سار بعضهم إلى ديار بكر مع أمرائهم المذكورين، وسار الباقون إلى البقعاء، ونزلوا بَرَقْعِد، فأرسل إليهم قرواش صاحب الموصل من ينظر فيهم، ويغير عليهم . فلما رأوا ذلك تقدموا إلى الموصل، فأرسل إليهم يستعطفهم ويلين لهم،

قد ذكرنا حصار الغز همذان وصلحهم مع صاحبها أبي كاليبجار بن علاء الدولة بن كاكويه، فلما كان الآن، وملك الغز الرِّي، عاودوا حصار همذان، وساروا إليها من الرِّي، ما عدا قزل وجماعته، واجتمعوا مع من بها من الغز . فلما سمع أبو كاليبجار بهم علم أنه لا قدرة له عليهم، فسار عنها ومعه وجوه (٣٨٤/٩) التجار وأعيان البلد، وتحصن بكنكور .

ودخل الغز همذان سنة ثلاثين وأربعمئة، واجتمع عليها من مقدميهم: كوكتاش، ويوقا، وقزل، ومعهم فناخسرو بن مجد الدولة بن بويه في عدة كثيرة من الديلم، فلما دخلوها نهبوا نهباً منكراً لم يفعلوا بغيرها من البلاد، غيظا منهم، وحققا عليهم، حيث قاتلوهم أولاً، وأخذوا الحرم، وضربت سراياهم إلى أسداباذ وقرى الدينور، واستباحوا تلك النواحي وكان الديلم أشدهم . فخرج إليهم أبو الفتح بن أبي الشوك، صاحب الدينور، فواقعهم، واستظهر عليهم، وأسر منهم جماعة، فراسله أمراؤهم في إطلاقهم، فامتنع إلا على صلح وعهود، فأجابوه وصالحوه فاطلقهم .

ثم إن الغز بهمذان راسلوا أبا كاليبجار بن علاء الدولة وصالحوه، وطلبوا إليه أن ينزل إليهم، فلما صار معهم وثبوا عليه فانهزم، ونهبوا ماله وما كان معه من دواب وغيرها . فسمع أبوه فخرج من أصبهان إلى أعماله بالجبل ليشاهدها، فوقع بطائفة كثيرة من الغز، فظفر بهم، وقتل منهم فأكثر، وأسر مثلهم، ودخل أصبهان منصوراً .

ذكر قتل الغز بمدينة تبريز وفراقهم أذربيجان إلى الهكارية

في سنة اثنتين وثلاثين [وأربعمئة] قتل وهسوذان بن مهلان جمعاً كثيراً من الغز بمدينة تبريز (٣٨٥/٩) وكان سبب ذلك أنه دعا جمعاً كثيراً منهم إلى طعام صنع له، فلما طعموا وشربوا قبض على ثلاثين رجلاً منهم من مقدميهم، فضعف الباقون، فأكثرت فيهم القتل، فاجتمع الغز المقيمون بأرمية وساروا نحو بلاد الهكارية من أعمال الموصل، فقاتلهم أكرادها، وقاتلوهم قتالاً عظيماً، فانهزم الأكراد وملك الغز حللهم وأموالهم، ونساءهم وأولادهم، وتعلق الأكراد بالجبال والمضايق، وسار الغز في أثرهم فواقعوهم، فظفر بهم الأكراد، فقتلوا منهم ألفاً وخمسمائة رجل، وأسروا جمعا فيه سبعة من أمرائهم، ومائة نفس من وجوههم، وغنموا سلاحهم ودوابهم وما معهم من غنيمة استردوها، وسلك الغز طريق الجبال فتمزقوا وتفرقوا .

وسمع ابن ربيب الدولة الخبر، فسير في آثارهم من يقني باقيهم، ثم توفي قزل أمير الغز المقيم بالري، وخرج إبراهيم يئال أخو السلطان طغرلبك إلى الري، فلما سمع به الغز المقيمون بها

وبذل لهم ثلاثة آلاف دينار، فلم يقبلوا، فأعاد مراسلتهم ثانية، فطلبوا خمسة آلاف دينار، فالتزمها، وأحضر أهل البلد وأعلمهم الحال .

ولما طال مقامهم في هذه البلاد، وجرى منهم ما ذكرناه، كتب الملك جلال الدولة بن بويه إلى طغرل بك يعرفه ما يجري منهم، وكتب إليه نصر الدولة بن سروان يشكو منهم، فكتب إلى نصر الدولة يقول له: بلغني أنَّ عبيدنا قصدوا بلادك، وأنتك صانعتهم بمال بذلتهم لهم، وأنت صاحب ثغر ينبغي أن تعطى ما تستعين به على قتال الكفار؛ ويعد أنه يرسل إليهم يرحلهم من بلده.

وكانوا يقصدون بلاد الأرمن ونيهيون ويسبون، حتى إن الجارية الحسنة بلغت قيمتها خمسة دنانير، وأما الغلمان فلا يُردون. فاما كتاب طغرل بك إلى جلال الدولة، فيعتذر بأن هؤلاء التركمان كانوا لنا عبيداً، وخدماءً، ورعايا، وتبعاً، يمثلون الأمر ويخدمون الباب، ولما نهضنا لتدبير خطب آل محمود بن سبكتكين، وانتدبنا لكفاية أمر خوارزم، انحازوا إلى الرِّيِّ فعاثوا فيها وأفسدوا، فزحفنا بجندونا من خراسان إليهم مقدِّرين أنَّهم يلجؤون إلى الأمان، ويلوذون بالعفو والغفران، فملكهم البيبة، وزحزحتهم الحشمة، ولا بدَّ من أن تردَّهم إلى راياننا خاضعين، ونذيقهم من بأسنا جزاء المتمردين، قربوا أم بعدوا، أغاروا أم أنجدوا. (٣٩٠/٩)

ذكر ظفر قرواش صاحب الموصل بالغز وما كان منهم

قد ذكرنا انحذار قرواش إلى السنِّ، ومراسلته سائر أصحاب الأطراف في طلب النجدة منهم، فأما الملك جلال الدولة فلم ينجده لزوال طاعته عن جنده الأتراك، وأما ديبس بن مزيد فسار إليه، واجتمعت عليه عقيل كافة، وأتته أمداد أبي الشوك وابن ورام وغيرهما، فلم يدركوا الوقعة، فإن قرواشاً لما اجتمعت عقيل وديبس عنده سار إلى الموصل .

وبلغ الخبر إلى الغزِّ، فسأخروا إلى تلعفر، وبومارية، وتلك النواحي، وراسلوا الغزِّ الذين كانوا بديار بكر ومقدمهم ناصغلي وبقوا، وطلبوا منهم المساعدة على العرب، فساروا إليهم .

وسمع قرواش بوصولهم، فلم يعلم أصحابه لئلا يفشلوا ويجتئوا، وسار حتى نزل على العجاج، وسارت الغزُّ فنزلوا برأس الأكل من الفرج، وبينهما نحو فرسخين، وقد طمع الغز في العرب، فتقدَّموا حتى شارقوا حلل العرب ووقعت الحرب في العشرين من شهر رمضان من أول النهار، فاستظفرت الغزُّ، وانهزمت العرب حتى صار القتال عند حللهم، وتساوهم يشاهدن القتال، فلم يزل الظفر للغزِّ إلى الظهر، ثم أنزل الله نصره على العرب، وانهزمت الغزُّ وأخذهم السيف وتفرَّقوا، وكثر القتل فيهم، فقتل ثلاثة من مقدميهم، وملك العرب حلل الغزِّ وخركاهااتهم، وغنموا أموالهم، فعمَّت الغنيمة، وأدركهم الليل فحجز بينهم. (٣٩١/٩)

فبينما هم بجمع المال وصل الغز إلى الموصل ونزلوا بالحصباء، فخرج إليهم قرواش وأجناده والعامة، فقاتلوهم عامة نهارهم، وأدركهم الليل فاقتروا، فلما كان الغد عادوا إلى القتال، فانهزمت العرب وأهل البلد، وهرب قرواش في سفينة نزلها من داره، وخرج من جميع ماله إلا الشيء اليسير، ودخل الغز البلد فنهبوا كثيراً منه، ونهبوا جميع ما لقرواش من مال وجوهر وحلي وثياب وأثاث، ونجا قرواش في السفينة ومعه نفر، (٣٨٨/٩) فوصل إلى السن وأقام بها، وأرسل إلى الملك جلال الدولة يعرفه الحال، ويطلب النجدة، وأرسل إلى ديبس بن مزيد وغيره من أمراء العرب والأكراد يستمدهم ويشكو ما نزل به .

وعمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشيعة من الفسك وهتك الحريم ونهب المال، وسلم عدَّة محالٍ منها سكة أبي نجيج، والجصاصة، وجارسوك، وشاطي نهر، وباب القصايين على مال ضمنوه، فكفوا عنهم .

ذكر وثوب أهل الموصل بالغز وما كان منهم

قد ذكرنا ملك الغز الموصل، فلما استقروا فيها قسطوا على أهلها عشرين ألف دينار وأخذوها، ثم تبعوا الناس وأخذوا كثيراً من أموالهم بحجَّة أموال العرب، ثم قسطوا أربعة آلاف دينار أخرى، فحضر جماعة من الغز عند ابن فرغان الموصل، وطلبوا إنساناً بحضرته، وأسأوا الأدب والقول .

وجرى بين بعض الغز وبعض الموصل مشاجرة، فجرحه الغزِّي وقطع شعره، وكان للموصل والدة سليطة، فلطخت وجهها بالدم، وأخذت الشعر بيدها وصاحت: المستغاث بالله وبالمسلمين، قد قُتل لي ابن وهذا دمه، وابنة وهذا شعرها! وطافت في الأسواق، فثار الناس وجاؤوا إلى ابن فرغان، فقتلوا من عنده من الغزِّ، وقتلوا من ظفروا به منهم، ثم حصروهم في دار، فقاتلوا من بسطحها، فنقب الناس عليهم الدار، وقتلهم جميعهم، غير سبعة أنفس منهم (٣٨٩/٩) أبو علي ومنصور، فخرج منصور إلى الحصباء، ولحق به من سلم منهم.

وكان كركاش قد فارق الموصل في جمع كثير، فأرسلوا إليه يعلمونه الحال، فعاد إليهم، ودخل البلد عنوة في الخامس والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين [وأربعمئة] ووضعوا السيف في أهله، وأسروا كثيراً، ونهبوا الأموال، وأقاموا على ذلك اثني عشر يوماً يقتلون ويهبون، وسلمت سكة أبي نجيج، فإن أهلها أحسنوا إلى الأمير منصور، فرعى لهم ذلك، والتجأ من سلم إليها،

وقيل أن القول كان للشريف الرضي وأخيه المرتضى، ومعهما عثمان بن جني، فقال: ما أعجب أحوال الشريفين ! يكون عثمان معهما، وعلي يمشي على الشط .

وفيها أيضاً توفي أبو المسك عنبر، الملقب بالأثير، وكان قد أصعد إلى الموصل مغاضباً لجلال الدولة، فلقبه قرواش وأهله، وقبلوا الأرض بين يديه، فأقام عندهم، وكان خصياً لبهاء الدولة بن بويه، وكان قد بلغ مبلغاً عظيماً، لم يخل أمير ولا وزير في دولة بني بويه من تقبيل يده والأرض بين يديه، وكان قد استقر بينه وبين قرواش وأبي كاليجار قاعدة أن يصعد أبو كاليجار من واسط، وينحدر الأثير وقرواش من الموصل لقصد جلال الدولة، وكان الأثير قد انحدر من الموصل، فلما وصل مشهد الكحيل توفي فيه .

وفيها انقض كوكب عظيم، في رجب، أضاءت منه الأرض، وسمع له صوت عظيم كالرعد، وتقطع أربع قطع، وانقض بعده بليلتين كوكب آخر دونه، وانقض بعدهما كوكب أكبر وأكثر ضوءاً . وفيها كانت ببغداد فتنة قوي فيها أمر العيارين واللصوص، فكانوا يأخذون العملات ظاهراً .

وفيها قطعت الجمعة من جامع براءثا، وسببها أنه كان يخطب فيها إنسان يقول في خطبته : بعد الصلاة على النبي وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مكلم الجماعة، ومحبيها البشري الإلهي، مكلم الفتية أصحاب الكهف، إلى غير ذلك من الغلو المتبدع، فأقام الخليفة خطيباً، فرجمه (٣٩٤/٩) العامة، فانقطعت الصلاة فيه، فاجتمع جماعة من أعيان الكرخ مع المرتضى، واعتذروا إلى الخليفة بأن سفهاء لا يعرفون فعلوا ذلك، وسألوا إعادة الخطبة، فأجيبوا إلى ما طلبوا، وأعيدت الصلاة والخطبة فيه .

وفيها توفي ابن أبي الهيثم الزاهد المقيم بالكوفة، وهو من أرباب الطبقات الغالية في الزهد، وقبره يزار إلى الآن وقد زرته .

وفيها توفي منوچهر بن قابوس بن وشمكير، وملك ابنه أنوشروان. (٣٩٥/٩)

سنة إحدى وعشرين وأربعمائة

ذكر ملك مسعود بن محمود بن سبكتكين همدان

في هذه السنة سبر مسعود بن يمين الدولة محمود جيشاً إلى همدان، فملكوها، وأخرجوا نواب علاء الدولة بن كاكويه عنها، وسار هو إلى أصبهان، فلما قاربها فارقها علاء الدولة، فغتم مسعود ما كان له بها من دواب وسلاح وذخائر، فإن علاء الدولة أعجل عن أخذه، فلم يأخذ إلا بعضه، وسار إلى خوزستان، فبلغ إلى تستر ليطلب من الملك أبي كاليجار نجدة، ومن الملك جلال الدولة،

وسير قرواش رؤوس كثير من القتلى في سفينة إلى بغداد، فلما قربتها أخذها الأتراك ودفنوها، ولم يتركوها تصل أنفة وحمية للجنس، وكفى الله أهل الموصل شرهم، وتبعهم قرواش إلى نصيبين، وعاد عنهم، فقصدوا ديار بكر فنهبوا، ثم مالوا على الأرمن والروم فنهبهم، ثم قصدوا بلاد أذربيجان، وكتب قرواش إلى الأطراف يشر بالظفر بهم، وكتب إلى ابن ربيب الدولة، صاحب أرمية، يذكر له أنه قتل منهم ثلاثة آلاف رجل، فقال للرسول : هذا عجب ! فإن القوم لما اجتازوا بيلادي أقمت على قنطرة لا بد لهم من عبورها من عندهم، فكانوا نيفاً وثلاثين ألفاً مع ليفهم، فلما عادوا بعد هزيمتهم لم ييلغوا خمسة آلاف رجل، فأما أن يكونوا قتلوا أو هلكوا . ومدح الشعراء قرواشاً بهذا الفتح، ومن مدحه ابن شبيل بقصيدة منها :

بأي السني أرسن نزاريتها في شامخ من عزه المتخير
وهي طويلة . هذه أخبار الغز العراقيين، وإنما أوردناها متابعة لأن دولتهم لم تطل حتى نذكر حوادثها في السنين، وإنما كانت سحابة صيف تفتت عن قريب .

وأما السلجوقية فنحن نذكر حوادثهم في السنين ونذكر ابتداء أمرهم سنة اثنتين وثلاثين [وأربعمائة] إن شاء الله تعالى (٣٩٢/٩).

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة سبر الظاهر جيشاً من مصر، مقدمهم أنوشكين البريدي، فقتل صالح بن مرداس، وملك نصر بن صالح مدينة حلب، وقد تقدم ذكره في سنة اثنتين وأربعمائة .

وفيها سقط في البلاد برد عظيم، وكان أكثره بالعراق، وارتفعت بعده ريح شديدة سوداء، فقلعت كثيراً من الأشجار بالعراق، فقلعت شجراً كباراً من الزيتون وحملتها إلى دار بينها وبين موضع هذه الشجرة ثلاث دور، وقلعت سقف مسجد الجامع ببعض القرى .

وفيها، في ذي القعدة، تولى أبو عبد الله بن ماکولا قضاء القضاة .

وفيها توفي أبو الحسن علي بن عيسى الربيعي النحوي عن نيف وتسعين سنة، وأخذ النحو عن أبي علي الفارسي، وأبي سعيد السيرافي، وكان فكها، كثير الدعاية، فمن ذلك أنه كان يوماً على شاطئ دجلة ببغداد، الملك جلال الدولة، والمرتضى والرضي كلاهما في سُميرية، ومعهما عثمان بن جني النحوي، فناداه الربيعي : أيها الملك ما أنت صادق في تشييعك لعلي بن أبي طالب، يكون عثمان إلى جانبك، وعلي، يعني نفسه، هاهنا ! فأمر بالسُميرية فحُرقَت إلى الشاطئ وحمله معه . (٣٩٣/٩)

ذكر ملك أبي الشوك دقوقا

وفيها حصر أبو الشوك دقوقا، وبها مالك بن بدران بن المقلد العقيلي، فطال حصاره، وكان قد أرسل إليه يقول له: إن هذه المدينة كانت لأبي، ولا بد لي منها، والصواب أن تنصرف عنها. فامتنع من تسليمها، فحصره بها، ثم استظهر، وملك البلد، فطلب منه مالك الأمان على نفسه وماله وأصحابه، فأمنه على نفسه حسب، فلما خرج إليه مالك قال له أبو الشوك: قد كنت سألتك أن تسلم البلد طوعاً، وتحقن دماء المسلمين، فلم تفعل. فقال: لو فعلت لغيرتني العرب، وأما الآن فلا عار علي. فقال أبو الشوك: إن من إتمام الصنيعة تسليم مالك وأصحابك إليك؛ فأعطاه ما كان له أجمع، فأخذه وعاد سالماً. (٣٩٨/٩)

ذكر وفاة يعين الدولة محمود بن سبكتكين وملك ولده محمد

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفي يعين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين، ومولده يوم عاشوراء سنة ستين وثلاثمائة، وقيل إنه توفي أحد عشر صفر، وكان مرضه سوء مزاج وإسهالاً، وبقي كذلك نحو ستين، وكان قوي النفس لم يضع جنبه في مرضه بل كان يستند إلى مخدته، فأشار عليه الأطباء بالراحة، وكان يجلس للناس بكرة وعشية، فقال: أتريدون أن اعتزل الإمارة؟ فلم يزل كذلك حتى توفي قاعداً.

فلما حضره الموت أوصى بالملك لابنه محمد، وهو بليخ، وكان أصغر من مسعود، إلا أنه كان معرضاً عن مسعود، لأن أمره لم يكن عنده نافذاً، وسعى بينهما أصحاب الأغراض، فزادوا ألباه نفوراً منه، فلما وصى بالملك لولده محمد توفي، فخطب لمحمد من أقاصي الهند إلى نيسابور، وكان لقبه جلال الدولة، وأرسل إليه أعيان دولة أبيه يخبرونه بموت أبيه ووصيته له بالملك، ويستدعونه، ويحثونه على السرعة، ويخوفونه من أخيه مسعود، فحين بلغه الخبر سار إلى غزنة، فوصلها بعد موت أبيه بأربعين يوماً، فاجتمعت العساكر على طاعته، وفرق فيهم الأموال والخلع النفيسة، فأسرف في ذلك.

ذكر ملك مسعود وخلع محمد

لما توفي يعين الدولة كان ابنه مسعود بأصبهان، فلما بلغه الخبر سار إلى خراسان، واستخلف بأصبهان بعض أصحابه في طائفة من العسكر، فحين (٣٩٩/٩) فارقها ثار أهلها بالوالي عليهم بعده فقتلوه، وقتلوا من معه من الجند.

وأتى مسعوداً الخبر، فعاد إليها وحصرها وفتحها عنوة، وقتل فيها فأكثر، ونهب الأموال، واستخلف فيها رجلاً كافياً، وكتب إلى أخيه محمد يعلمه بذلك، وأنه لا يريد من البلاد التي وصى له أبوه

ويعود إلى بلاده يستنقذها، فبقي عند أبي كاليجار مدة، وهو عقيب انهزامه من جلال الدولة ضعيف، ومع هذا فهو يعده النصرة، وتسيير العساكر، إذا اصططح هو وجلال الدولة.

فينما هو عنده إذ أتاه خبر وفاة يعين الدولة محمود، ومسير مسعود إلى خراسان، فسار علاء الدولة إلى بلاده، على ما تذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غزوة للمسلمين إلى الهند

في هذه السنة غزا أحمد بن يثالثكين، النائب عن محمود بن سبكتكين ببلاد الهند، مدينة للهنود هي من أعظم مدتهم، يقال لها نرسى، ومع أحمد نحو (٣٩٦/٩) مائة ألف فارس وراجل، وشن الغارة على البلاد، ونهب، وسبى، وخرب الأعمال، وأكثر القتل والأسر، فلما وصل إلى المدينة دخل من أحد جوانبها ونهب المسلمون في ذلك الجانب يوماً من بكرة إلى آخر النهار، ولم يفرغوا من نهب سوق العطارين والجوهرتين، حسب، وباقى أهل البلد لم يعلموا بذلك، لأن طوله منزل من منازل الهنود، وعرضه مثله، فلما جاء مساء لم يجسر أحد على المبيت فيه لكثرة أهله، فخرج منه ليأمن على نفسه وعسكره.

وبلغ من كثرة ما نهب المسلمون أنهم اقتسموا الذهب والفضة كلاً، ولم يصل إلى هذه المدينة عسكر المسلمين قبله ولا بعده، فلما فارقه أراد العود إليه، فلم يقدر على ذلك، منعه أهله عنه.

ذكر ملك بدران بن المقلد نصيين

قد ذكرنا محاصرة بدران نصيين وأنه رحل عنها خوفاً من قرواش، فلما رحل شرع في إصلاح الحال معه فاصطلحا. ثم جرى بين قرواش ونصر الدولة بن مروان نفرة كان سببها أن نصر الدولة كان قد تزوج ابنة قرواش فأثر عليها غيرها، فأرسلت إلى أبيها تشكر منه، فأرسل يطلبها إليه، فسيرها فأقامت بالموصل. ثم أن ولد مستحفظ جزيرة ابن عمر وهي لابن مروان هرب إلى قرواش وأطمعه في الجزيرة فأرسل إلى نصر الدولة يطلب منه صداق ابنته وهو عشرون ألف دينار، ويطلب الجزيرة لتفقيها، ويطلب نصيين لأخيه بدران ويحتج بما أخرج بسببها (٣٩٧/٩) عام أول، وترددت الرسل بينهما في ذلك فلم يستقر حال، فسير بدران وأتاه قرواش فحصرها معه فلم يملك واحد من البلدين وتفرق من كان معه من العرب والأكراد. فلما رأى بدران تفرق الناس عن أخيه سار إلى نصر الدولة بن مروان بميافارقين يطلب منه نصيين، فسلمها إليه وأرسل من صداق ابنة قرواش خمسة عشر ألف دينار واصطلحا.

ذكر بعض سيرة يمين الدولة

كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين عاقلاً، ديناً، خيراً، عنده علم ومعرفة، وصنف له كثير من الكتب في فنون العلوم، وقصده العلماء من أقطار البلاد، وكان يكرمهم، ويقبل عليهم، ويعظمهم، ويحسن إليهم، وكان عادلاً، كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم، كثير الغزوات، ملازماً للجهاد، وفتوحه مشهورة مذكورة، وقد ذكرنا منها ما وصل إلينا على بعد الدهر، وفيه ما يستدل به على بذل نفسه لله تعالى واهتمامه بالجهاد.

ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق، فمن ذلك أنه بلغه أن إنساناً من نيسابور كثير المال، عظيم الغنى، فأحضره إلى غزنة وقال له: بلغنا أنك قرمطي؛ فقال: لست بقرمطي، ولي مال يأخذ منه ما يرد وأعفى من هذا الاسم؛ فأخذ منه مالاً، وكتب معه كتاباً بصحة اعتقاده.

وجدت عمارة المشهد بطوس الذي فيه قبر علي بن موسى الرضى، والرشيد، وأحسن عمارته، وكان أبوه سبكتكين أخربه، وكان أهل طوس يأذون من يزوره، فمنعهم عن ذلك.

وكان سبب فعله أنه رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السلام، في المنام وهو يقول له: إلى متى هذا؟ فعلم أنه يريد أمر المشهد، فأمر بعمارة.

وكان ربعة ملبح اللون، حسن الوجه، صغير العينين، أحمر الشعر، وكان ابنه محمد يشبهه، وكان ابنه مسعود ممتلئ البدن، طويلاً. (٤٠٢/٩)

ذكر عود علاء الدولة إلى أصبهان وغيرها وما كان منه

لما مات محمود بن سبكتكين طمع فتأخسرو بن مجد الدولة بن بويه في الرّي، وكان قد هرب منها لما ملكها عسكر يمين الدولة محمود، فقصد قصران، وهي حصينة، فامتنع بها. فلما توفي يمين الدولة وعاد ابنه مسعود إلى خراسان جمع فتأخسرو هذا جمعاً من الديلم والأتراك وغيرهم، وقصدوا الرّي، فخرج إليه نائب مسعود ومن معه من العسكر، فقاتلوه، فانهزم منهم وعاد إلى بلده، وقُتل جماعة من عسكره.

ثم إن علاء الدولة بن كاكويه، لما بلغه وفاة يمين الدولة، كان بخوزستان عند الملك أبي كاليجار، كما ذكرنا، وقد آيس من نصره، وتفرق بعض من عنده من عسكره وأصحابه، والباقيون على عزم مفارقتها، وهو خائف من مسعود أن يسير إليه من أصبهان فلا يقوى هو وأبو كاليجار به، فأتاه من الفرج بموت يمين الدولة ما لم يكن في حسابه، فلما سمع الخبر سار إلى أصبهان فملكها، وملك همدان، وغيرهما من البلاد، وسار إلى الرّي، وامتد إلى أعمال

بها شيئاً، وأنه يكفي بما فتحه من بلاد طبرستان، وبلد الجبل، وأصبهان، وغيرها، ويطلب منه الموافقة، وأن يقدمه في الخطبة على نفسه، فأجابه محمد جواب مغالط.

وكان مسعود قد وصل إلى الرّي، فأحسن إلى أهلها، وسار منها إلى نيسابور ففعل مثل ذلك، وأما محمد فإنه أخذ على عسكره العهود والمواثيق على المناصحة له، والشّدّ منه، وسار في عساكره إلى أخيه مسعود محارباً له، وكان بعض عساكره يعيل إلى أخيه مسعود لكبره وشجاعته، ولأنه قد اعتاد التقدم على الجيوش، وفتح البلاد، وبعضها يخافه لقوة نفسه.

وكان محمد قد جعل مقدّم جيشه عمه يوسف بن سبكتكين، فلما هم بالركوب، في داره بغزنة، ليسير سقطت قلنسوته من رأسه، فتطير الناس من ذلك، وأرسل إليه التوتناش، صاحب خوارزم، وكان من أعيان أصحاب أبيه محمود، يشير عليه بموافقة أخيه وترك مخالفته، فلم يصغ إلى قوله، وسار فوصل إلى تكتاباذ أول شهر رمضان، وأقام إلى العيد، فعيد هناك، فلما كان ليلة الثلاثاء، ثالث شوال، ثار به جنده، فأخذوه وقيدوه وحبسوه، وكان مشغولاً بالشرب واللعب عن تدبير المملكة، والنظر في أحوال الجند والرعايا. (٤٠٠/٩)

وكان الذي سعى في خذلانه علي خويشاوند، صاحب أبيه، وأعانه على ذلك عمه يوسف بن سبكتكين. فلما قبضوا عليه نادوا بشعار أخيه مسعود، ورفعوا محمداً إلى قلعة تكتاباذ، وكتبوا إلى مسعود بالحال. فلما وصل إلى هراة لقيته العساكر مع الحاجب علي خويشاوند، فلما لقيه الحاجب علي قبض عليه وقتله، وقبض بعد ذلك أيضاً على عمه يوسف، وهذه عاقبة الغدر، وهما سعيًا له في ردّ الملك إليه، وقبض أيضاً على جماعة من أعيان القواد في أوقات متفرقة، وكان اجتماع الملك له واتفاق الكلمة عليه في ذي القعدة، وأخرج الوزير أبا القاسم أحمد بن الحسن الميمندي الذي كان كان وزير أبيه من محبسه، واستوزره، وردّ الأمر إليه، وكان أبوه قد قبض عليه سنة اثنتي عشرة وأربعمائة لأمر أنكرها، وقيل شربه في ماله، وأخذ منه لما قبض عليه مالاً وأعراضاً بقيمة خمسة آلاف ألف دينار.

وكان وصول مسعود إلى غزنة ثامن جمادى الآخرة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، فلما وصل إليها وثبت ملكه بها أتته رسل الملوك من سائر الأقطار إلى بابه، واجتمع له ملك خراسان، وغزنة، وبلاد السند والهند، وسجستان، وكرمان، ومكران، والرّي، وأصبهان، وبلد الجبل، وغير ذلك، وعظم سلطانه وخيف جانبه. (٤٠١/٩)

أنوشروان بن منوچهر بن قابوس، فأخذ منه خوار الرّيّ ودينابوند.

فكتب أنوشروان إلى مسعود يهّته بالملك، وسأله تقرير الذي عليه بمال يحمله، فأجاب إلى ذلك، وسير إليه عسكر من خراسان، فساروا إلى دينابوند فاستعادوها، وساروا نحو الرّيّ فأتاهم المدد والعساكر، ومنهم أتاها علي بن عمران، فكثّر جمعهم، فحاصروا الرّيّ، وبها علاء الدولة، فاشتد القتال في بعض الأيام، فدخل العسكر الرّيّ قهراً، والفيّلة معهم، فقتل جماعة من (٤٠٣/٩) أهل الرّيّ والديلم، ونهبت المدينة، وانهزم علاء الدولة، وتبعه بعض العسكر وجرحه في رأسه وكفه، فألقى لهم دنائير كانت معه، فاشتغلوا بها عنه فنجأ، وسار إلى قلعة فردجان، على خمسة عشر فرسخاً من همدان، فأقام بها إلى أن برأ من جراحته، وكان من أمره ما نذكره، إن شاء الله تعالى، وخطب بالرّيّ وأعمال أنوشروان لمسعود، فعظم شأنه.

ذكر الحرب بين عسكر جلال الدولة وأبي كاليجار

في هذه السنة، في شوال، سير جلال الدولة عسكراً إلى المذار، وبها عسكر أبي كاليجار، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم عسكر أبي كاليجار، واستولى أصحاب جلال الدولة على المذار، وعملوا بأهلها كلّ محظور.

فلما سمع أبو كاليجار الخبر سير إليهم عسكراً كيّفاً، فاقتلوا بظاهر البلد، فانهزم عسكر جلال الدولة، وقتل أكثرهم، وثار أهل البلد بغلمانهم فقتلوه، ونهبوا أموالهم لقيح سيرتهم معهم، وعاد من سلم من المعركة إلى واسط.

ذكر الحرب بين قرواش وغريب بن مقن

في هذه السنة، في جمادى الأولى، اختلف قرواش وغريب بن مقن.

وكان سبب ذلك أنّ غريباً جمع جمعاً كثيراً من العرب والأكراد، (٤٠٤/٩) واستمدّ جلال الدولة، فأمدّه بجملّة صالحة من العسكر، فسار إلى تكريت فحاصرها، وهي لأبي المسيب رافع بن الحسين، وكان قد توجهه إلى الموصل، وسأل قرواشاً النجدة، فجمعاً وحشداً وساراً منحدريين فيمن معهم، فبلغا الدكة، وغريب يحاصر تكريت، وقد ضيق على من بها، وأهلها يطلبون منه الأمان، فلم يأتهم، فحفظوا نفوسهم وقاتلوا أشد قتال.

فلما بلغه وصول قرواش ورافع سار إليهم، فالتقوا بالدكة واقتتلوا، فغدر بغريب بعض من معه، ونهبوا سواده وسواد الأجناد الجلالية، فانهزم، وتبعهم قرواش ورافع، ثم كفّوا عنه وعن أصحابه، ولم يتعرضوا إلى حلّته وما له فيها، وحفظوا ذلك أجمع، ثم إنهم ترأسوا واصطلحوا وعادوا إلى ما كانوا عليه من الوفاق.

ذكر خروج ملك الروم إلى الشام وانهزامه

في هذه السنة خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلاث مائة ألف مقاتل إلى الشام، فلم يزل يسير يساركه حتى بلغوا قريب حلب، وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس، فنزلوا على يوم منها، فلحقهم عطش شديد، وكان الزمان صيفاً، وكان أصحابه مختلفين عليه، فمنهم من يحسده، ومنهم من يكرهه.

ومن من كان معه ابن الدوقس، وهو من أكابرهم وكان يريد هلاك الملك ليملك بعده، فقال الملك: الرأي أن نقيم حتى تجيء الأمطار وتكثر المياه. (٤٠٥/٩) فتبجح ابن الدوقس هذا الرأي وأشار بالإسراع قصداً لشرّ يتطرق إليه، ولتدبير كان قد دبره عليه. فسار، ففارق ابن الدوقس، وابن لؤلؤ في عشرة آلاف فارس، وسلكوا طريقاً آخر، فخلا بالملك بعض أصحابه وأعلمهم أن ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالفاً أربعين رجلاً، هو أحدهم، على الفتك به، واستشعر من ذلك وخاف، ورحل من يومه راجعاً.

ولحقه ابن الدوقس، وسأله عن السبب الذي أوجب عوده، فقال له: قد اجتمعت علينا العرب وقربوا منا، وقبضوا في الحال على ابن الدوقس وابن لؤلؤ وجماعة معهم، فاضطرب الناس واختلقوا، ورحل الملك، وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون، وأخذوا من الملك أربعمائة بغل محمّلة مالا وثياباً، وهلك كثير من الروم عطشاً، ونجا الملك وحده، ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شيء البتّة، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً.

وقيل في عوده غير ذلك، وهو أن جمعاً من العرب ليس بالكثير عبر على عسكره، وظنّ الروم أنها كبسة، فلم يدروا ما يفعلون، حتى إن ملكهم لبس خفّاً أسود، وعادة ملوكهم لبس الخفّ الأحمر، فتركه ولبس الأسود ليخبره على من يريد، وانهزموا، وغنم المسلمون جميع ما كان معهم. (٤٠٦/٩)

ذكر مسير أبي علي بن ماکولا إلى البصرة وقتله

لما استولى الملك جلال الدولة على واسط، وجعل ولده فيها، سير وزيره أبا علي بن ماکولا إلى البطائح والبصرة ليملكهما، فملك البطائح، وسار إلى البصرة في الماء، وأكثر من السفن والرجال.

وكان بالبصرة أبو منصور بختیار بن علي نائباً لأبي كاليجار، فجهّز جيشاً في أربعمائة سفينة، وجعل عليهم أبا عبد الله الشرايبي الذي كان صاحب البطيحة، وسيره، فالتقى هو والوزير أبو علي، فعند اللقاء والقتال هبّ ريح شمال كانت على البصريين ومعونة للوزير، فانهزم البصريون وعادوا إلى البصرة، فعزم بختیار على

الهرب إلى عبادان، فمنعه من سلم عنده من عسكره، فأقام متجلاًداً.

وأشار جماعة على الوزير أبي علي أن يعجل الانحدار، ويقتنم الفرصة قبل أن يعود بختيار يجمع. فلما قاربهم، وهو في ألف وثلاثمائة عدد من السفن، سبر بختيار ما عنده من السفن، وهي نحو ثلاثين قطعة، وفيها المقاتلة، وكان قد سبر عسكراً آخر في البر، وكان له في فم نهر أبي الخصيب نحو خمسمائة قطعة فيها ماله، ولجميع عسكره من المال والأثاث والأهل، فلما تقدست سفنه صاح من فيها، وأجابه من في السفن التي فيها أهلهم وأموالهم، ورد عليهم العسكر الذين في البر، فقال الوزير لمن أشار عليه بمعالجة بختيار: أستم زعمتم أنه في خف من العسكر، وأن معالجته أولى، وأرى الدنيا مملوءة (٤٠٧/٩) عساكر؟ فهوتوا عليه الأمر، فغضب، وأمر بإعادة السفن إلى الشاطئ، إلى الغد، ويعود إلى القتال.

فلما أعاد سفنه ظن أصحابه أنه قد انهزم، فصاحوا: الهزيمة! فكانت هي. وقيل: بل لما أعاد سفنه لحقهم من في سفن بختيار، وصاحوا: الهزيمة! الهزيمة! وأجابهم من في البر من عسكر بختيار، ومن في سفنهم التي فيها أموالهم، فانهزم أبو علي حقاً، وتبعه أصحاب بختيار وأهل السواد، ونزل بختيار في الماء، واستصرخ الناس، وسار في آثارهم يقتل ويأسر، وهم يفرقون، فلم يسلم من السفن كلها أكثر من خمسين قطعة.

وسار الوزير أبو علي منهزماً، فأخذ أسيراً، وأحضر عند بختيار، فأكرمه وعظمه، وجلس بين يديه، وقال له: ما الذي تشتهي أن أفعل معك؟ قال: ترسلني إلى الملك أبي كاليجار. فأرسله إليه فأطلقه، فاتفق أن غلاماً له اجتماعاً على فساد، فعلم بهما، وعرفا أنه قد علم حالهما، فقتلاه بعد أسره بنحو من شهر.

وكان قد أحدث في ولايته رسوماً جائرة، ومن سنناً سيئة، منها جباية سوق الدقيق، ومقالي الباذنجان، وسميريات المشارع، ودلالة ما يُباع من الأمتعة، وأجر الحماليين الذين يرفعون التمور إلى السفن، وبما يعطيه الذبّاحون لليهود، فجرى في ذلك مناوشة بين العامة والجنود. (٤٠٨/٩)

ذكر استيلاء عسكر جلال الدولة على البصرة وأخذها منهم

لما انحدر الوزير أبو علي بن ماکولا إلى البصرة، على ما ذكرناه، لم يستصحب معه الأجناد البصريين الذين مع جلال الدولة، تائباً للديلم الذين بالبصرة، فلما أصيب، على ما ذكرناه، تجهز هؤلاء البصريون وانحدروا إلى البصرة، فوصلوا إليها، وقتلوا من بها من عسكر أبي كاليجار، فانهزم عسكر أبي كاليجار، ودخل عسكر جلال الدولة البصرة في شعبان.

واجتمع عسكر أبي كاليجار بالأبلة مع بختيار، فأقاموا بها يستعدون للعود، وكتبوا إلى أبي كاليجار يستمدونه، فسبر إليهم عسكراً كثيراً مع وزيره ذي السعادات أبي الفرج بن فسانجس، فقدموا إلى الأبلة، واجتمعوا مع بختيار، ووقع الشروع في قتال من البصرة من أصحاب جلال الدولة، فسبر بختيار جمعاً كثيراً في عدة من السفن، فقاتلوه، فنصر أصحاب جلال الدولة عليهم وهزمهم، فوبخهم بختيار، وسار من وقته في العدد الكثير، والسفن الكثيرة، فاقتلوا، واشتد القتال، فانهزم بختيار، وقُتل من أصحابه جماعة كثيرة، وأخذ هو قتل من غير قصد لقتله، وأخذوا كثيراً من سفنه، وعاد كل فريق إلى موضعه.

وعزم الأتراك من أصحاب جلال الدولة على مباركة الحرب، وإتمام الهزيمة، وطالبوا العامل الذي على البصرة بالمال، فاختلوا، وتنازعوا في الإقطاعات، فأصعد ابن المعبراني، صاحب البطيحة، فسار إليه جماعة من الأتراك الواسطيين ليردوه، فلم يرجع، فتبعوه، وخاف من بقي بعضهم من (٤٠٩/٩) بعض أن لا يناصحهم، ويسلموهم عند الحرب، ففترقوا، واستأمن بعضهم إلى ذي السعادات، وقد كان خائفاً منهم، فجاءه ما لا يقدره من الظفر، ونادى من بقي بالبصرة بشعار أبي كاليجار، فدخلها عسكره، وأرادوا نهبها، فمنعهم ذو السعادات.

ذكر غزو فضلون الكردي الخزر وما كان منه

كان فضلون الكردي هذا بيده قطعة من أذربيجان قد استولى عليها، وملكها، فاتفق أنه غزا الخزر، هذه السنة، فقتل منهم، وسي، وغنم شيئاً كثيراً، فلما عاد إلى بلده أبطاً في سيره وأمل الاستظهار في أمره، ظن أنه قد دوتهم وشغلهم بما عمله بهم، فاتبعوه مجذبن، وكبسه، وقتلوا من أصحابه والمطوعة الذين معه أكثر من عشرة آلاف قتيل، واستردوا الغنائم التي أخذت منهم، وغنموا أموال العساكر الإسلامية وعادوا.

ذكر البيعة لولي العهد

في هذه السنة مرض القادر بالله، وأرجف بموته، فجلس جلوساً عاماً وأذن للخاصة والعامة فوصلوا إليه، فلما اجتمعوا قام صاحب أبو الغنائم فقال: خدّم مولانا أمير المؤمنين داعون له بإطالة البقاء، وشاكرون لما بلغهم (٤١٠/٩) من نظره لهم وللمسلمين، باختيار الأمير أبي جعفر لولاية العهد.

فقال الخليفة للناس: قد أذنّا في العهد له، وكان أراد أن يبايع له قبل ذلك، فثناه عنه أبو الحسن بن حاجب النعمان. فلما عهد إليه ألقبت الستارة، وقعد أبو جعفر على السرير الذي كان قائماً عليه، وخدمه الحاضرون وهنّوه، وتقدّم أبو الحسن بن حاجب النعمان فقَبِلَ يده وهنّاه، فقال: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم

ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال» [الأحزاب: ٢٥]؛ يعرضوا له بإفساده رأي الخليفة فيه، فأكبَّ على تقبيل قدمه، وتعفير خدّه بين يديه والاعتذار. فقبل عذره، ودُعِيَ له على المنابر يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الأولى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة استوزر جلال الدولة أبا سعد بن عبد الرحيم بعد ابن ماکولا، ولقبه عميد الدولة.

وفيها توفي أبو الحسن بن حاجب النعمان، ومولده سنة أربعين وثلاثمائة، وكان خصيصاً بالقادر بالله حاكماً في دولته كلّها، وكتب له وللطائع أربعين سنة.

وفيها ظهر متلصصة ببغداد من الأكراد، فكانوا يسرقون دواب الأتراك، فنقل الأتراك خيلهم إلى دورهم، ونقل جلال الدولة دوابه إلى بيت في دار المملكة. (٤١١/٩)

وفيها توفي أبو الحسن بن عبد الوارث الفسوي، النحوي، بفسا، وهو نسب أبي علي الفارسي.

وفيها توفي أبو محمد الحسن بن يحيى العلوي، النهرواسبي، الملقب بالكافي، وكان موته بالكوفة.

وفيها، في رجب، جاء في غزوة سيل عظيم أهلك الزرع والضرع، وغرق كثيراً من الناس لا يحصون، وخرّب الجسر الذي بناه عمرو بن الليث، وكان هذا الحادث عظيماً.

وفيها، في رمضان، تصدّق مسعود بن محمود بن سبكتكين، في غزوة، بألف درهم، وأدّر على الفقراء من العلماء والرعايا إدراتات كثيرة. (٤١٢/٩)

سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة

ذكر ملك مسعود بن محمود بن سبكتكين التّيز ومكران

في هذه السنة سیر السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين عسكرياً إلى التّيز، فملكها وما جاورها.

وسبب ذلك أنّ صاحبها معدان توفي، وخلف ولدين أبا العساكر وعيسى، فاستبدّ عيسى بالولاية والمال، فسار أبو العساكر إلى خراسان، وطلب من مسعود التجدة، فسير معه عسكرياً، وأمرهم بأخذ البلاد من عيسى، والاتّفاق مع أخيه على طاعته، فوصلوا إليها، ودعوا عيسى إلى الطاعة والموافقة، فأبى وجمع جمعاً كثيراً بلغوا ثمانية عشر ألفاً، وتقدّم إليهم، فالتقوا، فاستأمن كثير من أصحاب عيسى إلى أخيه أبي العساكر، فانهزم عيسى ثم عاد وحمل في نفر من أصحابه، فتوسّط المعركة فقتل، واستولى

أبو العساكر على البلاد ونهبها ثلاثة أيام، فأجحف بأهلها. (٤١٣/٩)

ذكر ملك الروم مدينة الرّها

في هذه السنة ملك الروم مدينة الرّها، وكان سبب ذلك أنّ الرّها كانت بيد نصر الدولة بن مروان، كما ذكرناه، فلما قُتل عُطير الذي كان صاحبها، شفع صالح بن مرداس، صاحب حلب، إلى نصر الدولة ليعيد الرّها إلى ابن عُطير، وإلى ابن شبل، بينهما نصفين، فقبل شفاعته، وسلّمها إليهما.

وكان له في الرّها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر، فتسلّم ابن عُطير الكبير، وابن شبل الصغير، وبقيت المدينة معهما إلى هذه السنة، فراسل ابن عُطير أرماتوس ملك الروم، وباعه حصته من الرّها بعشرين ألف دينار، وعدة قرايا من جملتها قرية تُعرف إلى الآن بسنّ ابن عُطير، وتسلّموا البرج الذي له، ودخلوا البلد فملكوه، وهرب منه أصحاب ابن شبل، وقتل الروم المسلمين، وخرّبوا المساجد.

وسمع نصر الدولة الخبر، فسير جيشاً إلى الرّها، فحاصروها وفتحوها عنوة، واعتصم من بها من الروم بالبرجَيْن، واحتسّى النصارى بالبيعة التي لهم، وهي من أكبر البيع وأحسنها عمارة، فحصرهم المسلمون بها، وأخرجوهم، وقتلوا أكثرهم، ونهبوا البلد، وبقي الروم في البرجَيْن، وسير إليهم عسكرياً نحو عشرة آلاف مقاتل، فانهزم أصحاب ابن مروان من بين أيديهم، ودخلوا البلد وما جاورهم من بلاد المسلمين، وصالحهم ابن وثاب النُميريّ على حرّان وسروج وحمل إليهم خراجاً. (٤١٤/٩)

ذكر ملك مسعود بن محمود كرمان وعود عسكريه عنها

وفيها سارت عساكر خراسان إلى كرمان فملكوها، وكانت للملك أبي كالبجار، فاحتسّى عسكريه بمدينة بَرْدَسِير، وحصرهم الخراسانيون فيها، وجرى بينهم عدة وقائع، وأرسلوا إلى الملك أبي كالبجار يطلبون الملد، فسير إليهم العادل بهرام بن مافنة في عسكري كثيف، ثم إن الذين بَرْدَسِير خرجوا إلى الخراسانية فواقعوهم، واشتد القتال، وصبروا لهم، فأجلت الوقعة عن هزيمة الخراسانية، وتبعهم الديلم حتّى أبعدوا، ثم عادوا إلى بَرْدَسِير.

ووصل العادل عُقَيْب ذلك إلى جيرفت، وسير عسكريه إلى الخراسانية، وهم بأطراف البلاد، فواقعوهم، فانهزم الخراسانية، ودخلوا المقازة عاقدين إلى خراسان، وأقام العادل بكرمان إلى أن أصلح أمورها وعاد إلى فارس.

ذكر وفاة القادر بالله وشيء من سيرته وخلافة القائم بأمر الله

في هذه السنة، في ذي الحجة، توفي الإمام القادر بالله، أمير المؤمنين، وعمره ستّ وثمانون سنة وعشرة أشهر، وخلافته إحدى

وأربعون سنة وثلاثة (٤١٥/٩) أشهر وعشرين يوماً، وكانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم والأتراك، فلما وليها القادر بالله أعاد جذتها، وجدّد ناموسها، وألقى الله هيئته في قلوب الخلق، فأطاعوه أحسن طاعة وأتمّها.

وكان حليماً، كريماً، خيراً يحبّ الخير وأهله، ويأمر به، وينهى عن الشرّ ويبغض أهله، وكان حسن الاعتقاد، صنّف فيه كتاباً على مذهب السّنة.

ولما توفّي صلى عليه ابنه القائم بأمر الله، وكان القادر بالله أبيض، حسن الجسم، كثّ اللحية، طويلها، يخضب، وكان يخرج من داره في زيّ العامّة، ويزور قبور الصالحين، قنبر معروف وغيره، وإذا وصل إليه حالّ أمر فيه بالحقّ.

قال القاضي الحسين بن هارون: كان بالكرخ ملك لبيتم، وكان له فيه قيمة جيّدة، فأرسل إليّ ابن حاجب النعمان، وهو حاجب القادر، يأمرني أن أفكّ عنه الحجر ليشترى بعض أصحابه ذلك الملك، فلم أفعل، فأرسل يستدعيني، فقلتُ لغلامه: تقدّمني حتّى ألحقك؛ وخفته، فقصّدت قبر معروف، فدعوتُ الله أن يكفيني شرّه، وهناك شيخ، فقال لي: على من تدعو؟ فذكرتُ له ذلك، ووصلتُ إلى ابن حاجب النعمان، فأغلظ لي في القول، ولم يقبل عذري، فاتاه خادم برقعة، ففتحها وقرأها وتغيّر لونه، ونزل من الشدّة، فاعتذر إليّ ثم قال: كبتتُ إلى الخليفة قصّة؟ فقلتُ: (٤١٦/٩) لا. وعلمتُ أنّ ذلك الشيخ كان الخليفة.

وقيل: كان يقسم إفطاره كلّ ليلة ثلاثة أقسام: فقسم كان يتركه بين يديه، وقسم يرسله إلى جامع الرّصافة، وقسم يرسله إلى جامع المدينة، يفرّق على المقيمين فيهما، فسأفّق أنّ الفراش حمل ليلة الطعام إلى جامع المدينة، ففرّقه على الجماعة، فأخذوا، إلا شاباً فإنه رده.

فلما صلّوا المغرب خرج الشاب، وتبعه الفراش، فوقف على باب فاستطعمه فأطعموه كسريات فأخذها وعاد إلى الجامع، فقال له الفراش: ويحك ألا تستحي؟ ينفلذ إليك خليفة الله بطعام حلال فترده وتخرج وتأخذ من الأبواب! فقال: والله ما رددته إلا لأنك عرضتُ عليّ قبل المغرب، وكنت غير محتاجاً إليه، فلما احتجت طلبت؛ فعاد الفراش فأخبر الخليفة بذلك فبكى وقال له: راع مثل هذا، واغتم أخذه، وأقم إلى وقت الإفطار.

وقال أبو الحسن الأبهري: أرسلني بهاء الدولة إلى القادر بالله في رسالة، فسمعتُه ينشد:

سَبَقَ الْقَضَاءُ بِكُلِّ مَا هُوَ كَائِفٌ وَاللّٰهُ يَأْمُرُ بِمَا لَزِمَكَ ضَامِنٌ
تَعْنَى بِمَا يَنْصَحُ، وَتَرَكَ مَا بَدَّه تَعْنَى: كَلَّاكَ لِلْحَوَادِثِ أَمْسَ

أَوْ مَا تَرَى النَّبِيَّاءَ وَمَصْرَعُ أَهْلِهَا فاعمل ليوم فراقها، يا حاتن (٤١٧/٩)
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا إِبَالَكَ فِي السَّنَى أَصْبَحْتَ تَجْمَعُهُ لِمُسْرِكِ خَازِنٍ
يَا عَامَرَ الدُّنْيَا أَتَعْمُرُ مَرْتَلًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَعَ الْمَنِيَةِ سَاكِنٌ
الْمَوْتُ شَيْءٌ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ، وَأَنْتَ بِذِكْرِهِ مَهَاوِنٌ
إِنَّ الْمَنِيَةَ لَا تَزَامِرُ مَنْ أَتَتْ فِي نَفْسِهِ يَوْمًا وَلَا تَسْتَأْذِنُ
فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِإِنْشَادِ مِثْلِ هَذِهِ
الْأَبْيَاتِ. فَقَالَ: بَلِ لِلَّهِ الْمَنَّةُ إِذْ أَلْزَمْنَا بِذِكْرِهِ، وَوَفَّقَنَا لَشُكْرِهِ. أَلَمْ
تَسْمَعْ قَوْلَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي أَهْلِ الْمَعَاصِي: هَاتُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ،
وَلَوْ عَزَّوْا عَلَيْهِ لِعَصَمَهُمْ؟ وَمَنَاقِبُ كَثِيرَةٌ.

ذكر خلافة القائم بأمر الله

لَمَّا مَاتَ الْقَادِرُ بِاللَّهِ جَلَسَ فِي الْخِلَافَةِ ابْنُهُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ، أَبُو جَعْفَرٍ عَبْدِ اللَّهِ، وَجَدَّتْ لَهُ الْبَيْعَةُ، وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ بَايَعَ لَهُ بُولَايَةَ الْعَهْدِ سَنَةَ إِحْدَى وَعَشْرِينَ [وَأَرْبَعَمِائَةَ]، كَمَا ذَكَرْنَا، وَاسْتَقَرَّتْ الْخِلَافَةُ لَهُ، وَأَوَّلَ مَنْ بَايَعَهُ الشَّرِيفُ أَبُو الْقَاسِمِ الْمَرْتَضَى، وَأَنْشَدَ: (٤١٨/٩)

وَأَمَّا فَجَعْنَا يَدَ الْتَمَامٍ قَدْ بَقِيََتْ مِنْهُ شَمْسُ الضُّحَى
لَنَا حَزَنٌ فِي مَحَلِّ السُّرُورِ وَكَمْ ضَجَّكَ فِي حِلَالِ الْبُكََا
فِيَا صَارِمَ أَعْمَدَتِكَ يُدُّ لَنَا بِتِلْكَ الصَّارِمِ الْمُتَضَى
وهي أكثر من هذا. وأرسل القائم بأمر الله قاضي القضاة أبا الحسن الماورديّ إلى الملك أبي كاليبجار ليأخذ عليه البيعة، ويخطب له في بلاده، فأجاب وبايع، وخطب له في بلاده وأرسل إليه هدايا جليلة وأموالاً كثيرة.

ذكر الفتنة ببغداد

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ، تَجَدَّدَتِ الْفِتْنَةُ بِبَغْدَادَ بَيْنَ السَّنَةِ وَالشَّيْعَةِ.

وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَقَّ بِالْمَذْكُورِ أَظْهَرَ الْعَزْمَ عَلَى الْغَزَاةِ، وَاسْتَأْذَنَ الْخَلِيفَةَ فِي ذَلِكَ، فَأَذِنَ لَهُ، وَكُتِبَ لَهُ مَنشُورٌ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ، وَأَعْطِيَ عِلْمًا، فَاجْتَمَعَ لَهُ لَفِيفٌ كَثِيرٌ، فَسَارَ وَاجْتَازَ بِيَابَ الشَّعِيرِ، وَطَاقَ الْحَرَاتِيَّ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ الرِّجَالُ بِالسَّلَاحِ، فَصَاحُوا بِذِكْرِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَالُوا هَذَا يَوْمٌ مَعَاوِيَةٌ؛ فَتَافَرَهُمْ أَهْلُ الْكِرْخِ وَرُومُهُمْ، وَثَارَتِ الْفِتْنَةُ، وَنَهَبَتْ دُورَ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ قَبِلَ عَنْهُمْ إِنْهُمْ أَعَانُوا أَهْلَ الْكِرْخِ. (٤١٩/٩)

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعَ السَّنَةُ مِنَ الْجَانِبِينَ، وَمَعَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْأَتْرَاكِ، وَقَصَدُوا الْكِرْخَ، فَأَحْرَقُوا وَهَدَمُوا الْأَسْرَاقَ، وَأَشْرَفَ أَهْلُ الْكِرْخِ عَلَى خُطَّةٍ عَظِيمَةٍ. وَأَنْكَرَ الْخَلِيفَةُ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا، وَنَسَبَ

ذلك، وأرسل إليهما جلال الدولة مؤيد الملك الرُّخْجِي والمرضى وغيرهما، فرجعا، وزاد تسحب الغلمان على جلال الدولة إلى أن نهوا من داره فرشاً وآلات، ودواب، وغير ذلك، فركب وقت الهجرة إلى دار الخلافة، ومعه نفر قليل من الركائب والغلمان وجمع كثير من العامة وهو سكران، فانزعج الخليفة من حضوره، فلما علم الحال أرسل إليه يأمره بالعود إلى داره، ويطيب قلبه، فقبل قروبس سرجه، ومسح حائط الدار بيده وأمرها على وجهه، وعاد إلى داره والعامة معه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبل قاضي القضاة أبي عبد الله بن ماکولا شهادة أبي الفضل محمد بن عبد العزيز بن الهادي، والقاضي أبي الطيب الطبري، وأبو الحسين بن المهدي، وشهد عنده أبا القاسم بن بشار، وكان قد ترك الشهادة قبل ذلك.

وفيها فوّض مسعود بن محمود بن سبكتكين إمارة الرُّي، وهمدان، والجبال إلى تاش فراش، وكتب له إلى عامل نيسابور يأنفق الأموال على حشمه، ففعل ذلك وسار إلى عمله، وأساء السيرة فيه.

وفيها، في رجب، أخرج الملك جلال الدولة دوابه من الإصطبل، وهي خمس عشرة دابة، وسيبها في الميدان بغير سائس، ولا حافظ، ولا علف، (٤٢٢/٩) فعل ذلك لسببين: أحدهما عدم العلف، والثاني أن الأتراك كانوا يلتمسون دوابه، ويطلبونها كثيراً، ففصر منهم فأخرجها وقال: هذه دوابي منها: خمس لمركوبي، والباقي لأصحابي، ثم صرف حواشيه، وفراشيه، وأتباعه، وأغلق باب داره لانتقطاع الجاري له، فثارت لذلك فتنة بين العامة والجند، وعظم الأمر، وظهر العيارون.

وفيها غُزل عميد الدولة وزير جلال الدولة، ووزر بعده أبو الفتح محمد بن الفضل بن أردشير، فبقي أياماً، ولم يستقم أمره، فغُزل، ووزر بعده أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسين، وهو ابن أخي أبي الحسين السهلي، وزير مأمون صاحب خوارزم، فبقي في الوزارة خمسة وخمسين يوماً وهرب.

وفيها توفي عبد الوهاب بن علي بن نصر أبو نصر الفقيه المالكي بمصر، وكان ببغداد، ففارقه إلى مصر عن ضائقة، فأغناه المغاربة. (٤٢٣/٩)

سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة

ذكر وثوب الأجناد بجلال الدولة وإخراجه من بغداد في هذه السنة، في ربيع الأول، تجددت الفتنة بين جلال

إليه تخريق علامته التي مع الغزاة، فركب الوزير، فوقعت في صدره أجرة، فسقطت عمامته، وقُتل من أهل الكرخ جماعة، وأحرق وخرّب في هذه الفتنة سوق العروس، وسوق الصفارين، وسوق الأنماط، وسوق الدقاقين، وغيرها، واشتد الأمر، فقتل العامة الكلالكي، وكان ينظر في المعونة، وأحرقوه.

ووقع القتال في أصفاء البلد من جانيه، واقتل أهل الكرخ، ونهر طابق، والقلائين، وباب البصرة، وفي الجانب الشرقي أهل سوق الثلاثاء، وسوق يحيى، وباب الطاق، والأساكفة، والرهادرة، ودرب سليمان، فقطع الجسر ليفرق بين الفريقين، ودخل العيارون البلد، وكثر الاستفتاء بها والعملات ليلاً ونهاراً. وأظهر الجند كراهة الملك جلال الدولة، وأرادوا قطع خطبته، ففرّق فيهم مალًا وحلف لهم فسكنوا، ثم عادوا الشكوى إلى الخليفة منه، وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته، فلم يجبه إلى ذلك، فامتنع حينئذ جلال الدولة من الجلوس، وضربه التوبة أوقات الصلوات، وانصرف الأطباء لانتقطاع الجاري لهم، ودامت هذه الحال إلى عيد الفطر، فلم يضرب بوق، ولا طبل، ولا أظهرت الزينة وزاد الاختلاط.

ثم حدث في سؤال فتنة بين أصحاب الأكسية وأصحاب الغلمان، وهما شعبة، وزاد الشر، ودام إلى ذي الحجة، فنودي في الكرخ بإخراج العيارين، (٤٢٠/٩) فخرجوا، واعترض أهل باب البصرة قوماً من قَم أرادوا زيارة مشهد عليّ والحسين، عليهما السلام، فقتلوا منهم ثلاثة نفر، وامتنعت زيارة مشهد موسى بن جعفر.

ذكر ملك الروم قلعة أفامية

في هذه السنة ملك الروم قلعة أفامية بالشام.

وسبب ملكها أن الظاهر خليفة مصر سَرَّ إلى الشام الدزيري، وزيره، فملكه، وقصد حسان بن المفرج الطائي، فالتح في طلبه، فهرب منه، ودخل بلد الروم، وليس خلعة ملكهم، وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب، ومعه عسكر كثير، فسار إلى أفامية فكيسها، وغنم ما فيها، ونسي أهلها، وأسرهم، وسَرَّ الدزيري إلى البلاد يستنفر الناس للغزو.

ذكر الوحشة بين يارسطغان وجلال الدولة

اجتمع أصاغر الغلمان هذه السنة إلى جلال الدولة، وقالوا له: قد هلكنا فقراً وجوعاً، وقد استبدّ القسود بالدولة والأموال عليك وعلينا، وهذا يارسطغان ويلدرك قد أفقرانا وأفقراك أيضاً. (٤٢١/٩)

فلما بلغهما ذلك امتنعا من الركوب إلى جلال الدولة، واستوحشا، وأرسل إليهما الغلمان يطالبونهما بمعلومهم، فاعتنرا بضيق أيديهما عن ذلك، وسارا إلى المدائن. فندم الأتراك على

جريدة، فكبسه بجرياذقان، وأسره وأسر كثيراً من عسكره، وقتل منهم، وغنم ما معه من سلاح ومال وغير ذلك.

ولما سار عليّ عن همدان دخلها علاء الدولة، وملكها ظناً منه أنّ عليّاً سار منهزماً، وسار علاء الدولة من همدان إلى كرج، فاتاه خبر ابن أخيه ففتّ في عضده.

وكان عليّ بن عمران قد سار بعد الوقعة إلى أصبهان طامعاً في الاستيلاء عليها وعلى مال علاء الدولة وأهله، فتعذّر عليه ذلك، ومنعه أهلها والعسكر الذي فيها، فعاد عنها، فلقبه علاء الدولة وفرهاذ، فاقتتلوا، فانهزم منها، وأخذ ما معه من الأسرى، إلا أبا منصور ابن أخي علاء الدولة، فإنه كان قد سيره إلى تاش فرّاش، وسار عليّ من المعركة منهزماً، نحو تاش فرّاش، فلقبه بـ كرج فعاتبه على تأخره عنه، واتفقا على المسير إلى علاء الدولة وفرهاذ، وكان قد نزل بجبل عند بروجرد متحصّناً فيه، فاقترب تاش وعليّ وقصدها من جهتين: إحداهما من خلفه، والأخرى من الطريق المستقيم، فلم يشعر إلا وقد خالطه العسكر، فانهزم علاء الدولة وفرهاذ، وقتل كثير من رجالهما، فمضى علاء الدولة إلى أصبهان، وصعد فرهاذ إلى قلعة سليموه فتحصّن بها. (٤٢٦/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي قدرخان ملك التّرك بما وراء النهر.

وفيها ورد أحمد بن محمد المُكدريّ الفقيه الشافعي رسولاً من مسعود بن سبكتكين إلى القائم بأمر الله معزياً له بالقادر بالله.

وفيها نقل تابوت القادر بالله إلى المقبرة بالرّصافة، وشهده الخلق العظيم، وحجّاج خراسان، وكان يوماً مشهوداً.

وفيها كان بالبلاد غلاء شديد، واستسقى الناس فلم يُسقوا، وتبعه وباء عظيم، وكان عامّاً في جميع البلاد بالعراق، والموصل، والشام، وبلد الجبل، وخراسان، وغزّة، والهند، وغير ذلك، وكثر الموت، فدفن في أصبهان، في عدة أيّام أربعون ألف ميت، وكثر الجدري في الناس، فأحصي بالموصل أنّه مات به أربعة آلاف صبيّ، ولم تخل دار من مصيبة لعوم المصائب، وكثرة الموت، ومن جُرّ القائم بأمر الله وسلم.

وفيها جمع نائب نصر الدولة بن مروان بالجزيرة جمعاً ينيف على عشرة آلاف رجل، وغزا من يقاربه من الأرمن، وأوقع بهم، وأتخن فيهم، وغنم وسى كثيراً، وعاد ظافراً منصوراً.

وفيها كان بين أهل تونس من إفريقية خلف، فسار المعزّ بن باديس إليهم بنفسه، فأصلح بينهم، وسكن الفتنة وعاد. (٤٢٧/٩)

وفيها اجتمع ناس كثير من الشيعة بإفريقية، وساروا إلى أعمال

الدولة وبين الأتراك، فأغلق بابيه، فجاءت الأتراك ونهبوا داره، وسلبوا الكتاب وأرباب الديوان ثيابهم، وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهليّ، فهرب إلى حلّة كمال الدولة غريب بن محمد، وخرج جلال الدولة إلى عُكبرا في شهر ربيع الآخر، وخطب الأتراك ببغداد للملك أبي كالججار، وأرسلوا إليه يطلبونه وهو بالأهواز، فمنعه العادل بن مافّة عن الإصعاد إلى أن يحضر بعض قوّاده.

فلما رأوا امتناعه من الوصول إليهم، أعادوا خطبة جلال الدولة، وساروا إليه، وسألوه العود إلى بغداد، واعتذروا، فعاد إليها بعد ثلاثة وأربعين يوماً، ووزر له أبو القاسم بن مأكولا، ثم عُزل، ووزر على أبي المعزّ إبراهيم بن الحسين البساميّ، طمعاً في ماله، فقبض عليه، وجعله في داره، فثار الأتراك وأرادوا منعه، وقصدوا دار الوزير، وأخذوه وضربوه، وأخرجوه من داره حافياً، ومزّقوا ثيابه، وأخذوا عمامته وقطعوها، وأخذوا خواتيمه من (٤٢٤/٩) يده، فدُميت أصابعه، وكان جلال الدولة في الحمام، فخرج مرتاعاً، فركب وظهر لينظر ما الخبر، فأكبّ الوزير يقيّل الأرض، ويذكر ما فعل به، فقال جلال الدولة: أنا ابن بهاء الدولة، وقد فعل بي أكثر من هذا، ثم أخذ من البساميّ ألف دينار وأطلقه، واختفى الوزير.

ذكر انهزام علاء الدولة بن كاكويّه من عسكر مسعود بن محمود

بن سبكتكين

قد ذكرنا انهزام علاء الدولة أبي جعفر من الرّيّ ومسيره عنها، فلما وصل إلى قلعة فردجان أقام بها لتندمل جراحه، ومعه فرهاذ بن مرداويج، كان قد جاءه مددٌ له، وتوجّهوا منها إلى بروجرد، فسير تاش فرّاش مقدّم عسكر خراسان جيشاً إلى علاء الدولة، واستعمل عليهم عليّ بن عمران، فسار يقصّ أثر علاء الدولة، فلما قارب بروجرد صعد فرهاذ إلى قلعة سليموه، ومضى أبو جعفر إلى سابور خواست، ونزل عند الأكراد الجوزقان.

وملك عسكر خراسان بروجرد، وراسل فرهاذ الأكراد الذين مع عليّ بن عمران، واستمالهم، فصاروا معهم، وأرادوا أن يفتكوا بعليّ، وبلغه الخبر، فركب ليلاً في خاصّته وسار نحو همدان، ونزل في الطريق بقرية تعرف بكسب، وهي منبعا فاستراح فيها، فلحقه فرهاذ وعسكره والأكراد الذين صاروا معه وحصروه في القرية، فاستسلم وأيقن بالهلاك، فأرسل الله تعالى ذلك اليوم مطراً وتلجاً، فلم يمكنهم المقام عليه لأنهم كانوا جريدة بغير (٤٢٥/٩) خيام ولا آلة شتاء، فرحلوا عنه، وراسل عليّ بن عمران الأمير تاش فرّاش يستنجده ويطلب العسكر إلى همدان، ثم اجتمع فرهاذ وعلاء الدولة ببروجرد، واتفقا على قصد همدان، وسير علاء الدولة إلى أصبهان، وبها ابن أخيه، يطلبه، وأمره بإحضار السلاح والمال، ففعل وسار. فبلغ خبره عليّ بن عمران، فسار إليه من همدان

نقطة، فاستولوا على بلد منها وسكنوه، فجرّد إليهم المعزّ عسكرياً، كان الملك مسعود بنيسابور، فلمّا عاد سكن الناس واطمأنوا. فدخلوا البلاد وحاربوا الشيعة وقتلهم أجمعين.

ذكر ظفر مسعود بصاحب ساوة وقتله

فيها قبض عسكر السلطان مسعود بن محمود على شهريوش بن ولكن، فأمر به مسعود فقتل وصُلِب على سور ساوة.

وكان سبب ذلك أن شهريوش كان صاحب ساوة وقمّ وتلك النواحي، فلمّا اشتغل مسعود بأخيه محمّد بعد موت والده جمع شهريوش جمعاً وسار إلى الرّيّ محاصراً لها، فلم يتمّ له ما أراد، وجاءت العساكر فعاد عنها.

ثمّ آفي هذه السنة اعترض الحجاج الواردين من خراسان، وعصمهم أذاه، وأخذ منهم ما لم تجر به عادة، وأساء إليهم، وبلغ ذلك إلى مسعود، فتقدّم إلى تاش فراش، وإلى أبي الطيّب طاهر بن عبد الله خليفته معه، يطلب شهريوش وقصده أين كان، واستنفاد الوسع في قتاله، فسارت العساكر في أثره، فاحتى (٤٣٠/٩) بقلعة تقارب قمّ تسمّى فسق، وهي حصينة، عالية المكان، وثيقة البنيان، فاحاطوا به وأخذوه، وكتبوا إلى مسعود في أمره، فأمرهم بصلبه على سور ساوة.

ذكر امتيلاء جلال الدولة على البصرة وخروجها عن طاعته

في هذه السنة سارت عساكر جلال الدولة مع والده الملك العزيز فدخلوا البصرة في جمادى الأولى.

وكان سبب ذلك أنّ بختيار متولّي البصرة توفّي فقام بعده ظهير الدين أبو القاسم خال ولده لجلد كان فيه، وكفاية، وهو في طاعة الملك أبي كاليجار، ودام كذلك، فقبل لأبي كاليجار: إنّ أبا القاسم ليس لك من طاعته غير الاسم، ولو رُمّت عزله لتعدّر عليك.

وبلغ ذلك أبا القاسم، فاستعدّ للامتناع، وأرسل أبو كاليجار إليه ليعزله فامتنع، وأظهر طاعة جلال الدولة، وخطب له، وأرسل إلى ابنه، وهو بواسط، يطلبه، فأنحدر إليه عساكر أبيه التي كانت معه بواسط، ودخلوا البصرة وأقاموا بها، وأخرجوا عساكر أبي كاليجار منها، وبقي الملك العزيز بالبصرة مع أبي القاسم إلى أن دخلت سنة خمس وعشرين [وأربعمائة] وليس له معه أمر، والحكم إلى أبي القاسم.

ثمّ إنّه أراد القبض على بعض الديلم، فهرب ودخل دار الملك العزيز (٤٣١/٩) مستجيراً، فاجتمع الديلم إليه، وشكوا من أبي القاسم، فصادت شكواهم صدراً موعراً حقاً عليه لسوء صُحبته، فأجابهم إلى ما أرادوه من إخراجهم عن البصرة، واجتمعوا، وعلم أبو القاسم بذلك، فامتنع بالأبلّة، وجمع أصحابه، وجرى بين الفريقين حروب كثيرة أجلت عن خروج العزيز عن البصرة وعوده إلى واسط، وعود أبي القاسم إلى طاعة أبي كاليجار.

وفيها خرجت العرب على حاجّ البصرة ونهبوهم، وحجّ الناس من سائر البلاد إلّا العراق.

وفيها توفّي أبو الحسن بن رضوان المصريّ، النحويّ، في رجب.

وفيها قتل الملك أبو كاليجار صندلاً الحصيّ، وكان قد استولى على المملكة، وليس لأبي كاليجار معه غير الاسم.

وفيها توفّي عليّ بن أحمد بن الحسن بن محمّد بن نعيم أبو الحسن النعميّ البصريّ، حدّث عن جماعة، وكان حافظاً، شاعراً، فقيهاً على مذهب الشافعيّ. (٤٢٨/٩)

سنة أربع وعشرين وأربعمائة

ذكر عود مسعود إلى غزنة والفتن بالرّيّ وبلد الجبل

في هذه السنة، في رجب، عاد الملك مسعود بن سبكتكين من نيسابور إلى غزنة وبلاد الهند.

وكان سبب ذلك أنّه لمّا كان قد استقرّ له الملك بعد أبيه أقرّ بما كان قد فتحه أبوه من الهند نائباً يسمّى أحمد بن التكين، وقد كان أبوه محمود استنابه بها ثقةً بجلده ونهضته، فرسّت قدمه فيها، وظهرت كفائته.

ثمّ إنّ مسعوداً بعد فراغه من تقرير قواعد الملك، والقبض على عمّه يوسف والمخالفين له، سار إلى خراسان عازماً على قصد العراق، فلمّا أبعد عصى ذلك النائب بالهند، فاضطرّ مسعود إلى العود، فأرسل إلى علاء الدولة بن كاكويّ، وأمره على أصبهان بقرار يؤدّيه كلّ سنة، وكان علاء الدولة قد أرسل يطلب ذلك، فأجابه إليه، وأقرّ ابن قابوس بن وشمكير على جرجان وطبرستان على مال يؤدّيه إليه، وسير أبا سهل الحمدونيّ إلى الرّيّ للنظر في أمور هذه البلاد الجبلية، والقيام بحفظها، وعاد إلى الهند، فاصلح الفاسد، وأعاد المخالف إلى طاعته، وفتح قلعة حصينة تسمّى سرّمتي، على ما نذكره، وقد كان أبوه حصرها غير مرّة فلم يتهيّأ له فتحها. (٤٢٩/٩)

ولمّا سار أبو سهل إلى الرّيّ أحسن إلى الناس، وأظهر العدل، فآزال الأقباط والمصادرات. وكان تاش فراش قد ملأ البلاد ظلماً وجوراً، حتّى تمنّى الناس الخلاص منهم ومن دولتهم، وخربت البلاد، وتفرّق أهلها، فلمّا ولي الحمدونيّ، وأحسن، وعدل، عادت البلاد فعمرت، والرعيّة أمنت؛ وكان الإرجاف شديداً بالعراق، لمّا

ذكر إخراج جلال الدولة من دار المملكة وإعادته إليها

في هذه السنة، في رمضان، شغب الجند على جلال الدولة، وقبضوا عليه، ثم أخرجوه من داره، ثم سألوه ليعود إليها فعاد.

سبب ذلك أنه استقدم الوزير أبا القاسم من غير أن يعلموا، فلما قدم ظنوا أنه إنما ورد للتعرض إلى أموالهم ونعمهم، فاستوحشوا واجتمعوا إلى داره وهجموا عليه، وأخرجوه إلى مسجد هناك، فوكلوا به فيه، ثم اتهم أسمعوه ما يكره، ونهبوا بعض ما في داره، فلما وكلوا به جاء بعض القواد في جماعة من الجند، ومن انضاف إليه من العامة والعيارين، فأخرجوه من المسجد وأعادوه إلى داره، فنقل جلال الدولة ولده وخزّنه وما بقي له إلى الجانب الغربي، وعبر هو في الليل إلى الكرخ، فلقبه أهل الكرخ بالدعاء، فنزل بدار المرتضى، وعبر الوزير أبو القاسم معه.

ثم إن الجند اختلفوا، فقال بعضهم: نخرجه من بلادنا ونملك غيره. وقال بعضهم: ليس من بني بويه غيره وغير أبي كالجبار، وذلك قد عاد إلى بلاده، ولا بدّ من مداراة هذا، فأرسلوا إليه يقولون له: نريد أن نتحدّرعنا إلى واسط، (٤٣٢/٩) وأنت ملكنا، وتركنا عندنا بعض أولادك الأصاغر، فأجابههم إلى ذلك، وأرسل سرّاً إلى الغلمان الأصاغر فاستمالهم، وإلى كلّ واحدٍ من الأكابر، وقال: إنما أئتيتك، وأسكن إليك؛ واستمالهم أيضاً، فعبروا إليه، وقبلوا الأرض بين يديه، وسألوه العود إلى دار الملك، فعاد، وحلف لهم على إخلاص النية، والإحسان إليهم، وحلفوا له على المناصحة، واستقرّ في داره.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفي الوزير أحمد بن الحسن الميمّندي، وزير مسعود بن سبكتكين، ووزر بعده أبو نصر أحمد بن عليّ بن عبد الصمد، وكان وزير هارون التوتاش، صاحب خوارزم، ووزر بعده لهارون ابنه عبد الجبار.

وفيها ثار العيارون ببغداد، وأخذوا أموال الناس ظاهراً وعظم الأمر على أهل البلد، وطمع المفسدون إلى حدّ أن بعض القواد الكبار أخذ أربعة من العيارين، فجاء عقيدهم وأخذ من أصحاب القائد أربعة، وحضر باب داره ودقّ عليه الباب، فكلّمه من داخل، فقال العقيد: قد أخذت من أصحابك أربعة، فإن أطلقت من عندك أطلقت من عندي، وإلا قتلته، وأحرقت دارك! فاطلقهم القائد.

وفيها تأخّر الحاج من خراسان.

وفيها خرج حجاج البصرة بخفي، فغدر بهم ونهبهم.

وفيها، في جمادى الأولى، توفي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن البيضاء، الفقيه الشافعي، عن نيف وثمانين سنة.

وفيها، في شوال، توفي أبو الحسن بن السّمّاك القاضي عن خمس وتسعين سنة. (٤٣٢/٩)

سنة خمس وعشرين وأربعمائة

ذكر فتح قلعة سرتشي وغيرها من بلد الهند

في هذه السنة فتح السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين قلعة سرتشي وما جاورها من بلد الهند.

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من عصيان نائبه بالهند أحمد ينالتكين عليه ومسيره إليه. فلما عاد أحمد إلى طاعته أقام بتلك البلاد طويلاً حتى أمّنت واستقرّت، وقصد قلعة سرتشي، وهي من أمنح حصون الهند وأحصنها، فحصرها، وقد كان أبوه حصرها غير مرة، فلم يتهيأ له فتحها، فلما حصرها مسعود راسله صاحبها، وبذل له مالاً على الصلح، فأجابته إلى ذلك.

وكان فيها قوم من التجار المسلمين، فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها إلى مسعود من جملة القرار عليه، فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها إليه يعرفونه فيها ضعف الهنود بها، وأنه إن صابروهم ملكها، فرجع عن الصلح إلى الحرب، وطمّ خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره، وفتح الله عليه، وقتل كل من فيها، وسبى ذراريهم، وأخذ ما جاورها من البلاد، وكان عازماً (٤٣٤/٩) على طول المقام والجهاد، فأتاه من خراسان خبر الفزّ، فعاد، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر حصر قلعة بالهند أيضاً

لما ملك مسعود قلعة سرتشي رحل عنها إلى قلعة نفسي، فوصل إليها عاشر صفر، وحصرها فراها عالية لا ترام، يرتدّ البصر دونها وهو حسير، إلا أنه أقام عليها يحصرها، فخرجت عجوز ساحرة، فتكلّمت باللسان الهندي طويلاً، وأخذت مكنسة فبلتها بالماء ورشّته منها إلى جهة عسكر المسلمين، فمرض وأصبح لا يقدر أن يرفع رأسه، وضعفت قوّته ضعفاً شديداً، فرحل عن القلعة لشدة المرض، فحين فارقتها زال ما كان به، وأقبلت الصحة والعافية إليه، وسار نحو غزنة.

ذكر الفتنة بنيسابور

لما اشتد أمر الأتراك بخراسان، على ما نذكره، تجمع كثير من المفسدين وأهل العيث والشر، وكان أول من أثار الشر أهل أبيورد وطوس، واجتمع معهم خلق كثير، وساروا إلى نيسابور لينهبوها، وكان الوالي عليها قد سار عنها إلى الملك مسعود، فخافهم خوفاً عظيماً، وأيقنوا بالهلاك.

فبينما هم يترقبون البوار والاستئصال، وذهب الأنفس

والأموال، إذ (٤٣٥/٩) وصل إليهم أمير كرمان في ثلاثمائة فارس، قدم متوجّهاً إلى مسعود أيضاً، فاستغاث به المسلمون، وسألوه أن يقيم عندهم ليكفّ عنهم الأذى، فأقام عليهم، وقاتل معهم، وعظم الأمر، واشتدت الحرب، وكان الظفر له ولأهل نيسابور، فانهزم أهل طوس وأبيورد ومن تبعهم، وأخذتهم السيوف من كل جانب، وعمل بهم أمير كرمان أعمالاً عظيمة، واثخن فيهم، وأسر كثيراً منهم، وصلبهم على الأشجار وفي الطرق، فقليل إنه عدم من أهل طوس عشرون ألف رجل.

ثم إن أمير كرمان أحضر زعماء قري طوس، وأخذ أولادهم وإخوانهم وغيرهم من أهلهم رهائن، فأودعهم السجن، وقال: إن اعترض منكم واحد إلى أهل نيسابور أو غيرهم، أو قطع طريقاً، فأولادهم، وإخوانهم، ورهائلكم مأخوذون بجناياتكم. فسكن الناس، وفرج الله عن أهل نيسابور بما لم يكن في حسابهم.

ذكر الحرب بين علاء الدولة وعسكر خراسان

في هذه السنة اجتمع علاء الدولة بن كاكويه وفرهاد بن مرداويج، واتفقا على قتال عسكر مسعود بن محمود بن سبكتكين، وكانت العساكر قد خرجت من خراسان مع أبي سهل الحمدوني، فالتقوا واقتلوا قتالاً شديداً صبر فيه الفريقان، ثم انهزم علاء الدولة، وقتل فرهاد، واحتمى علاء الدولة ببجبال بين أصبهان وجرباذقان، ونزل عسكر مسعود بكرج.

وأرسل أبو سهل إلى علاء الدولة يقول له ليسذل المال، ويراجع الطاعة (٤٣٦/٩) ليقره على ما بقي من البلاد، ويصلح حاله مع مسعود. فترددت الرسل، فلم يستقر بينهم أمر، فصار أبو سهل إلى أصبهان فملكها، وانهزم علاء الدولة من بين يديه لما خاف الطلب إلى إيذج، وهي للملك أبي كاليجار.

ولما استولى أبو سهل على أصبهان نهب خزائن علاء الدولة وأمواله، وكان أبو علي بن سينا في خدمة علاء الدولة، فأخذت كتبه وحملت إلى غزنة ففجعت في خزائن كتبه إلى أن أحرقها عساكر الحسين بن الحسين الغوري، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الحرب بين نور الدولة ديبس وأخيه ثابت

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين ديبس بن علي بن مزيد وأخيه أبي قزّام ثابت بن علي بن مزيد.

وسبب ذلك أن ثابتاً كان يعتضد بالباسميري ويتقرب إليه، فلما كان سنة أربع وعشرين وأربعمائة سار الباسميري معه إلى قتال أخيه ديبس، فدخلوا النيل واستولوا عليه وعلى أعمال نور الدولة، فسار نور الدولة إليهم طائفة من أصحابه، فقاتلهم فانهزموا، فلما

رأى ديبس هزيمة أصحابه سار عن بلده، وبقي ثابت فيه إلى الآن، فاجتمع ديبس وأبو المغرا عتاز ابن المغرا، وبنو أسد وخفاجة، وأعاناه أبو كامل منصور بن قزاة، وساروا جريدة لإعادة ديبس إلى بلده وأعماله، وتركوا حللهم بين خصاً وخرى.

فلما ساروا لقيهم ثابت عند جرجاريا، وكانت بينهم حرب قتل فيها جماعة من الفريقين، ثم تراسلوا واصطلحوا ليعود ديبس إلى أعماله، (٤٣٧/٩) ويقطع أخاه ثابتاً إقطاعاً، وتحالفوا على ذلك، وسار الباسميري نجدة لثابت، فلما وصل إلى النعمانية سمع يصلحهم، فعاد إلى بغداد.

ذكر ملك الروم قلعة بروكي

هذه قلعة متاخمة للأرمن في يد أبي الهيجاء بن ربيب الدولة، ابن أخت وهسودان بن ملان، فتنافر هو وخاله، فأرسل خاله إلى الروم فاطمهم فيها، فسير الملك إليها جمعاً كثيراً فملكوها، فبلغ الخبر إلى الخليفة، فأرسل إلى أبي الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة، فاصطلحا، ولم يتمكنّا من استعادتها واجتمع إليهما خلق كثير من المتطوعة، فلم يقدروا على ذلك لثبات قدم الروم بها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة استوزر جلال الدولة عميد الدولة أبا سعد بن عبد الرحيم، وهي الوزارة الخامسة، وكان قبله في الوزارة ابن ماكولا، ففارقه وسار إلى عكبرا، فردّه جلال الدولة إلى الوزارة، وعزل أبا سعد، فبقي أياماً، ثم فارقه إلى أوانا.

وفيها استخلف الباسميري في حماية الجانب الغربي ببغداد لأن العيارين اشتدّ أمرهم وعظم فسادهم، وعجز عنهم نواب السلطان، فاستعملوا الباسميري لكفائته ونهضته. (٤٣٨/٩)

وفيها توفي أبو سنان غريب بن محمد بن مقلّد في شهر ربيع الآخر، في كرخ سامراً، وكان يلقّب سيف الدولة، وكان قد ضرب دراهم سمّاها السيفيّة، وقام بالأمر بعده ابنه أبو الرّيان، وخلف خمسمائة ألف دينار، وأمر فنودي: قد أحللت كسل من لي عنده شيء فحللوني كذلك؛ فحلّوه، وكان عمره سبعين سنة.

وفيها توفي بدران بن المقلّد، وقصد ولده عمّه قرواشاً، فأقر عليه حاله وماله وولاية نصيبين، وكان بنو نمير قد طعموا فيها وحصروها، فصار إليهم ابن بدران قد دفعهم عنها.

وفيها توفي أرماتوس ملك الروم، وملك بعده رجل صيرفي ليس من بيت الملك، وإنما بنت قسطنطين اختارته.

وفيها كثرت الزلازل بمصر والشام، وكان أكثرها بالرملة، فإن

أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهته، واجتهد في تسليم الجند إلى نائب الخليفة، فلم يمكنه ذلك، فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه، وإلى الشهود بترك الشهادة، وإلى الفقهاء بترك الفتوى .

فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الأجناد ليجيئوه إلى أن يحملهم إلى ديوان الخلافة، ففعلوا، فلما وصلوا إلى دار الخلافة أطلقوا، وعظم أمر العيارين، وصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً، ولا مانع لهم لأن الجند يحمونهم على السلطان ونوابه، والسلطان عاجز عن قهرهم، وانتشر العرب في (٤٤١/٩) البلاد فنهبوا النواحي، وقطعوا الطريق، وبلغوا إلى أطراف بغداد، حتى وصلوا إلى جامع المنصور، وأخذوا ثياب النساء في المقابر .

ذكر إظهار أحمد ينانكين العصيان وقتله

في سنة خمس وعشرين [وأربعمائة] عاد مسعود بن محمود من الهند لقتال الغز، فعاد أحمد ينانكين إلى إظهار العصيان ببلاد الهند، وجمع الجموع، وقصد البلاد بالأذى، فسير إليه مسعود جيشاً كثيفاً، وكانت ملوك الهند تمنعه من الدخول إلى بلادهم، وسد منافذ هربه .

ولما وصل الجيش المنفذ إليه قاتلهم، فانهزم ومضى هارباً إلى المئتان، وقصد بعض ملوك الهند بمدينة بهاطية ومعه جمع كثير من عساكره الذين سلموا، فلم يكن لذلك الملك قدرة على منعه، وطلب منه سفناً ليبر نهر السند، فاحضر له السفن .

وكان في وسط النهر جزيرة ظنّها أحمد ومن معه متصلة بالبر من الجانب الآخر، ولم يعلموا أن الماء محيط بها، فتقدم ملك الهند إلى أصحاب السفن بإنزالهم في الجزيرة والعود عنهم، ففعلوا ذلك، وبقي أحمد ومن معه فيها وليس معهم طعام إلا ما معهم، فبقوا بها تسعة أيام، ففني زادهم، وأكلوا دوابهم، وضعفت قواهم، فأرادوا خوض الماء فلم يتمكنوا منه لعمقه (٤٤٢/٩) وشدة الوحل فيه، فعبر الهند إليهم عسكرهم في السفن، وهم على تلك الحال، فاقوموا بهم وقتلوا أكثرهم، وأخذوا لأحمد أسيراً، فلما رآه أحمد على تلك الحال قتل نفسه، واستوعب أصحابه القتل والأسر والغرق .

ذكر ملك مسعود جرجان وطبرستان

كان الملك مسعود قد أقر دارا بن متوجهر بن قابوس على جرجان وطبرستان وتزوج أيضاً بابنة أبي كاليبجار القوهي، مقدم جيش دارا، والقيم بتدبير أمره استماله . فلما سار إلى الهند منعوا ما كان استقر عليهم من المال، وراسلوا علاء الدولة بن كاكويه وفرهاذ بالاجتماع على العصيان والمخالفة، وقوى عزمهم على

أهلها فارقوا منازلهم عدة أيام، واتهدم منها نحو ثلثها، وهلك تحت الهدم خلق كثير .

وفيها كان بإفريقية مجاعة شديدة وغلاء .

وفيها قبض قرواش على البرجمي العيار وغرقه، وكان سبب ذلك أن قرواشاً قبض على ابن القلعي عامل عكبرا، فحضر البرجمي العيار عند قرواش مخاطباً في أمره لمودة بينهما، فأخذ قرواش وقبض عليه، فبذل مالا كثيراً ليطلقه، فلم يفعل وغرقه، وكان هذا البرجمي قد عظم شأنه وزاد شره، وكبس عدة مخازن بالجانب الشرقي، وكبس دار المرتضى، ودار ابن عديسة، وهي مجاورة دار الوزير، وثار العامة بالخطيب يوم الجمعة، وقالوا : (٤٣٩/٩) إما أن تخطب للبرجمي، وإلا فلا تخطب لسلطان ولا غيره ؛ وأهلك الناس ببغداد، وحكاياته كثيرة، وكان مع هذا فيه قوة، ومروءة، لم يعرض إلى امرأة، ولا إلى من يستسلم إليه .

وفيها هبت ريح سوداء بنصيبين فقلعت من بساطينها كثيراً من الأشجار، وكان في بعض البساتين قصر مبني بجص وأجر وكلس، فقلعته من أصله .

وفيها كثر الموت بالخوانيق في كثير من بلاد العراق، والشام، والموصل، وخوزستان، وغيرها حتى كانت الدار يسد بابها لموت أهلها .

وفيها، في ذي القعدة، انقض كوكب هال منظره الناس، وبعده بلبنتين انقض شهاب آخر أعظم منه كأنه البرق ملاصق الأرض، وغلب على ضوء المشاعل، ومكث طويلاً حتى غاب أثره .

وفيها توفي أبو العباس الأبيوردي، الفقيه الشافعي، قاضي البصرة، وأبو بكر محمد بن أحمد بن غالب البرقاني، المحدث، الإمام المشهور، وكانت وفاته في رجب ؛ والحسين بن عبد الله بن يحيى أبو علي البندنجي، الفقيه الشافعي، وهو من أصحاب أبي حامد الأسفراييني ؛ وعبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد أبو الفرج التميمي الفقيه الحنبلي . (٤٤٠/٩)

سنة ست وعشرين وأربعمائة

ذكر حال الخلافة والسلطنة ببغداد

في هذه السنة انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد، حتى إن بعض الجند خرجوا إلى قرية يحيى، فلقبهم أكراد، فأخذوا دوابهم، فعادوا إلى قراح الخليفة القائم بأمر الله، فنهبوا شيئاً من ثمرته، وقالوا للمماليك فيه : أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا .

فسمع الخليفة الحال، فعظم عليه، ولم يقدر جلال الدولة على

وفيها هرب الزكيّ أبو عليّ النهرسابسيّ من محبسه، وكان قرواش قد اعتقله بالموصل، فبقي ستّين إلى الآن، ولم يحجّ هذه السنة من العراق أحد.

وفي هذه السنة توفّي أحمد بن كليب، الأديب، الشاعر الأندلسي، وحديثه مع أسلم بن أحمد بن سعيد مشهور، وكان يهواه، فقال فيه:

ألمني في هواه أنلم هذا الرّشوا
غزالاً له مقلّة يصيب بها من يشا
وثقى بيتاً حسداً سيّال عما وثقى
ولو شاء أن يرثني على الوصل روعي ارتشى
ومات كمدأ من هواه. (٤٤٥/٩)

وتوفّي في جمادى الأولى منها أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد الأديب الأندلسي، ومن شعره:

إنّ الكريم إذا نالته مخصّة أبلى إلى الناس شعباً، وهو طيّان
يحيي الضلوع على مثل اللّظى خرّفاً والوجه غمر بماء البشر ملان
وله أيضاً:

كبت لها أنسي عاشق على مهرق اللثم بالنّاظر
فردت عليّ جراب الهوى باحور عن مائه حائر
منّمة نطقت بالجنون فلّلت على وقّة الخاطر
كان فؤادي، إذا عرضت تملّقت في مخبلي طائر
وفيها توفّي أبو المعالي بن سخطة العلويّ النقيب بالبصرة، وأبو محمد بن معيّة العلويّ بها أيضاً؛ وأبو عليّ الحسين بن أحمد بن شاذان، المحدث الأشعريّ مذهباً، وكان مولده ببغداد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة؛ وحزمة بن يوسف الجرجانيّ، وكان من أهل الحديث. (٤٤٦/٩)

سنة سبع وعشرين وأربعمائة

ذكر وثوب الجند بجلال الدولة

في هذه السنة ثار الجند ببغداد بجلال الدولة، وأرادوا إخراجه منها، فاستنظروهم ثلاثة أيام، فلم ينظروهم، ورموه بالأجر، فأصابه بعضهم، واجتمع الغلمان فردّوهم عنه، فخرج من باب لطيف في سميّة متكرراً، وصعد راجلاً منها إلى دار المرتضى بالكرخ، وخرج من دار المرتضى، وسار إلى رافع بن الحسين بن مقن بتكريت، وكسر الأتراك أبواب داره ودخلوها ونهبوها، وقلعوا كثيراً من سياجها وأبوابها، فأرسل الخليفة إليه، وقرّر أمر الجند وأعادته إلى بغداد.

ذلك ما بلغهم من خروج الغز بخراسان.

فلما عاد مسعود من الهند وأجلى الغزّ وهزمهم سار إلى جرجان فاستولى عليها وملكها، وسار إلى أمل طبرستان، وقد فارقتها أصحابها، واجتمعوا بالفياض والأشجار الملتفة، الضيقة المدخل، الوعرة المسلك، فسار إليهم واقتحمها عليهم فهزمهم وأسر منهم وقتل، ثم راسله داراً وأبو كاليبجار وطلبوا منه العفو وتقرير البلاد عليهم، فأجابهم إلى ذلك، وحملوا من الأموال ما كان عليهم، وعاد إلى خراسان. (٤٤٣/٩)

ذكر مسير ابن وثاب والروم إلى بلد ابن مروان

فيها جمع ابن وثاب النُميريّ جمعاً كثيراً من العرب وغيرهم، واستنجد من بالرها من الروم، فسار معه منهم جيش كثيف، وقصد بلد نصر الدولة بن مروان، ونهب وأخرب. فجمع ابن مروان جموعه وعساكره واستمد قرواشاً وغيره، وأتته الجنود من كل ناحية، فلما رأى ابن وثاب ذلك وأنه لا يتم له غرض عاد عن بلاده

وأرسل ابن مروان إلى ملك الروم يعاتبه على نقض الهدنة، وفسخ الصلح الذي كان بينهما، وراسل أصحاب الأطراف يستنجدهم للغزاة، فكثر جمعه من الجند والمتطوعة، وعزم على قصد الرها، ومحاصرتها، فوردت رسل ملك الروم يعتذر، ويحلف أنه يعلم بما كان، وأرسل إلى عسكره الذين بالرها والمقدم عليهم ينكر ذلك، وأهدى إلى نصر الدولة هدية سنّية، فترك ما كان عازماً عليه من الغزو، وفرّق العساكر المجتمعة عنده.

ذكر عدة حوادث

فيها خرج أبو سعد، وزير جلال الدولة، إلى أبي الشوك مفارقاً للوزارة، ووزر بعده أبو القاسم، وكثرت مطالبات الجند فهرب، فأخرج وحُمِل إلى دار المملكة مكشوف الرأس في قميص خفيف، وكانت وزارته هذه شهرين وثمانية أيام، وعاد أبو سعد بن عبد الرحيم إلى الوزارة. (٤٤٤/٩)

وفيها، في ذي الحجة، وثب الحسن بن أبي البركات بن شمال الخفاجي بمعه عليّ بن شمال أمير بني خفاجة، فقتله، وقام بإمارة بني خفاجة.

وفيها جمعت الروم وسارت إلى ولاية حلب، فخرج إليهم صاحبها شبل الدولة بن صالح بن مرداس، فتصافوا واقتلوا، فانهزمت الروم، وتبعهم إلى عزاز، وغنم غنائم كثيرة وعاد سالماً.

وفيها قصدت خفاجة الكوفة، ومقدمهم الحسن بن أبي البركات بن شمال، فنهبها، وأرادوا تخريبها، ومنعوا النخل من الماء فهلك أكثره.

ذكر الحرب بين أبي سهل الحمدوني وعلاء الدولة

رجل، وغنموا ما فيها، وسبوا خلقاً كثيراً، وقصدوا الرُّها فحاصروها، وقطعوا الميرة عنها، حتى بلغ مكوك الحنطة ديناراً، واشتدَّ الأمر، فخرج البطريق الذي فيها متخفياً، ولحق بملك الروم، وعرفه الحال، فسَير معه خمسة آلاف فارس، فعاد بهم.

عرف ابن وثاب ومقدّم عساكر نصر الدولة الحال، فكنا لهم، فلما (٤٤٩/٩) قاربوهم خرج الكمين عليهم، فقتل من الروم خلق كثير، وأسر مثلهم، وأسر البطريق وحُمِل إلى باب الرُّها، وقالوا لمن فيها: إمّا أن تفتحوا البلد لنا، وإمّا قتلنا البطريق والأسرى الذين معكم! ففتحوا البلد للعجز عن حفظه، وتحصّن أجناد الروم بالقلعة، ودخل المسلمون المدينة، وغنموا ما فيها، وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي، وأكثروا القتل، وأرسل ابن وثاب إلى آمد مائة وستين راحلة عليها رؤوس القتلى وأقام محاصراً للقلعة.

ثم إنَّ حسان بن الجراح الطائي سار في خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدةً لمن بالرُّها، فسمع ابن وثاب بقرّبه، فسار إليه مجداً ليلقاه قبل وصوله، فخرج من الرُّها من الروم إلى حرّان، فقاتلهم أهلها، وسمع ابن وثاب الخبر فعاد مسرعاً، فوقع على الروم، فقتل منهم كثيراً، وعاد المنهزمون إلى الرُّها.

ذكر غدر السّانسة وأخذ الحاج وإعادة ما أخذه

في هذه السنة ورد خلق كثير من أذربيجان، وخراسان، وطبرستان، وغيرها من البلاد يريدون الحج، وجعلوا طريقهم على أرمينية وخلاط، فوردوا إلى آني ووسطان، فسار بهم الأرمن من تلك البلاد، وأعانهم السّانسة، وهم من الأرمن أيضاً لأنهم لهم حصون منيعة تجاور خلاط، وهم صلح مع صاحب خلاط.

ولم تنزل هذه الحصون بأيديهم منفردين بها، لأنهم متعاهدون إلى سنة ثمانين وخمسائة، فملكها المسلمون منهم، وأزالوهم عنها، على ما نذكره إن شاء الله تعالى. (٤٥٠/٩)

فلما اتفقوا مع الأرمن من رعيّة البلاد أخذوا الحاج فقتلوا منهم كثيراً، وأسروا، وسبوا، ونهبوا الأموال، وحملوا ذلك أجمع إلى الروم، وطمع الأرمن في تلك البلاد، فسمع نصر الدولة بن مروان الخبر، فجمع العساكر وعزم على غزوهم، فلما سمعوا ذلك، ورأوا جدّه فيه، راسله ملك السّانسة، وبذل إعادة جميع ما أخذ أصحابه، وإطلاق الأسرى والسبي، فأجابهم إلى الصلح، وعاد عنهم لحصانة قلاعهم، وكثرة المضايق في بلادهم، ولأنهم بالقرب من الروم، فخاف أن يستجدوهم ويمتنعوا بهم، فصالحهم.

ذكر الحرب بين المعز وزناتة

في هذه السنة اجتمعت زناتة بإفريقية، وزحف في خيلها ورجلها يريدون مدينة المنصورة، فلقبهم جيوش المعز بن باديس

في هذه السنة سار طائفة من العساكر الخراسانية التي مع الوزير أبي سهل الحمدوني بأصبهان يطلبون الميرة، فوضع عليهم علاء الدولة من أطعمهم في (٤٤٧/٩) الأمتار من النواحي القريبة منه، فساروا إليها، ولا يعلمون قرّبه منهم، فلما أتاه خبرهم خرج إليهم وأوقع بهم وغنم ما معهم.

وقوي طمعه بذلك، فجمع جمعاً من الديلم وغيرهم وسار إلى أصبهان، وبها أبو سهل في عساكر مسعود بن سيكتكين، فخرجوا إليه وقاتلوه، فغدر الأتراك بعلاء الدولة، فانهزم ونهب سواده، فسار إلى بروجرد، ومنها إلى الطرم، فلم يقبله ابن السّار، وقال: لا قدرة لي على مبابنة الخراسانية؛ فتركه وسار عنه.

ذكر وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر

في هذه السنة، في منتصف شعبان، توفي الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن عليّ بن أبي عليّ المنصور الحاكم، الخليفة العلوي، بمصر، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وكانت خلافته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً، وكان له مصر، والشام، والخطبة له بإفريقية، وكان جميل السيرة، حسن السياسة، منصفاً للرعيّة، إلاّ أنّه مشغول بلذاته مُحبٌ للدعة والراحة، قد فوّض الأمور إلى وزيره أبي القاسم عليّ بن أحمد الجرجرائي لمعرفته بكفايته وأمانته.

ولما مات وليّ بعده ابنه أبو تميم معدّ، ولُقّب المستنصر بالله، ومولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمئة، وفي أيامه كانت قصّة الباسيري، وخطب (٤٤٨/٩) له ببغداد سنة خمسين وأربعمئة.

وكان الحاكم في دولته بدر بن عبد الله الجمال الملقّب بالأنفصل، أمير الجيوش، وكان عادلاً، حسن السيرة.

وفي سنة تسع وسبعين [وأربعمئة] وصل الحسن بن الصباح الإسماعيليّ في زيّ تاجر إلى المستنصر بالله، وخطبه في إقامته الدعوة له بخراسان وبلاد المعجم، فأذن له في ذلك، فعاد ودعا إليه سرّاً، وقال للمستنصر: من إمامي بعدك؟ فقال: ابنسي نزار. والإسماعيليّة يعتقدون إمامة نزار، وسيرد كيف صُرف الأمر عنه سنة سبع وثمانين [وأربعمئة] إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح السويداء وربض الرُّها

في رجب من هذه السنة اجتمع ابن وثاب وابن عطير، وتصاهرا، وجمعا، وأمدّهما نصر الدولة بن مروان بعسكر كثير، فساروا جميعهم إلى السويداء، وكان الروم قد أحدثوا عمارتها في ذلك الوقت، واجتمع إليها أهل القرى المجاورة لها، فحاصرها المسلمون وفتحوها عنوة، وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسائة

وأبو من أكابر الأمراء ويلقب حاجب الحجاب.

وكان سبب ذلك أن جلال الدولة نسبته إلى فساد الأتراك، والأتراك نسبوه إلى أخذ الأموال، فخاف على نفسه، فالتجأ إلى دار الخلافة في رجب من السنة الخالية.

وتردّت الرسل بين جلال الدولة والقائم بأمر الله في أمره، فدافع الخليفة عنه، وبارسطفان يرأس الملك أبا كاليجار، فأرسل أبو كاليجار جيشاً، فوصلوا إلى واسط، وأخرجوا الملك العزيز بن جلال الدولة، فأصعد إلى أبيه، وكشف بارسطفان القناع، فاستبج أصاغر الممالك ونادوا بشعار أبي كاليجار، وأخرجوا جلال الدولة من بغداد، فسار إلى أوانا ومعه البساسيري، وأخرج بارسطفان الوزير أبا الفضل العباس بن الحسن بن فسانجس، فنظر في الأمور نيابة عن الملك أبي كاليجار، وأرسل بارسطفان إلى الخليفة يطلب الخطبة لأبي كاليجار، فاحتج بهود جلال الدولة، فأكره الخطباء على لأبي كاليجار، ففعلوا. (٤٥٤/٩)

وجرى بين الفريقين مناوشات، وسار الأجناد الواسطيون إلى بارسطفان ببغداد، فكانوا معه، وتقلب الحال بين جلال الدولة وبارسطفان، فعاد جلال الدولة إلى بغداد، ونزل بالجانب الغربي ومعه قرواش بن المقلد العقيلي، ودنيس بن علي بن مزيد الأسدي، وخطب لجلال الدولة به، وبالجانب الشرقي لأبي كاليجار.

ثم سار جلال الدولة إلى الأنبار، وسار قرواش إلى الموصل، وقبض بارسطفان على ابن فسانجس، فعاد منصور بن الحسين إلى بلده، وأتى الخبر إلى بارسطفان يعود الملك أبي كاليجار إلى فارس، ففارقه الديلم الذين جاؤوا نجدة له، فضعف أمره، فدفع ماله وحُرمه إلى الخلافة، وانحدر إلى واسط، وعاد جلال الدولة إلى بغداد، وأرسل البساسيري والمرشد وبني خفاجة في أثره، فتبعهم جلال الدولة ودنيس بن علي بن مزيد، فلحقوه بالخيزرانية، فقاتلوه، فسقط عن فرسه، فأخذ أسيراً وحُمِل إلى جلال الدولة، فقتله وحمل رأسه، وكان عمره نحو سبعين سنة.

وسار جلال الدولة إلى واسط فملكها، وأصعد إلى بغداد، فضعف أمر الأتراك، وطمع فيه الأعراب، واستولوا على إقطاعاتهم، فلم يقدروا على كنف أيديهم عنها، وكانت مدة بارسطفان من حين كاشف جلال الدولة إلى أن قُتل ستة أشهر وعشرة أيام. (٤٥٥/٩)

ذكر الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار والمصاهرة بينهما

في هذه السنة تردّت الرسل بين جلال الدولة وابن أخيه أبي كاليجار، سلطان الدولة، في الصلح والاتفاق، وزوال الخلف، وكان الرسل أفضى القضية أبا الحسن المارودي، وأبا عبد الله المردوستي، وغيرهما، فاتفقوا على الصلح، وحلف كل واحد من

صاحبها، بموضع يقال له الجفنة قريب من القيروان، فقاتلوا قتالاً شديداً، وانهزمت عساكر المعز، ففارقت المعركة، وهم على حامية، ثم عاودوا القتال، وحرّض بعضهم بعضاً، فصبرت صنهاجة، وانهزمت زناتة هزيمة قبيحة، وقُتل منهم عدد كثير، وأسر خلق عظيم، وتعرف هذه الوقعة بوقعة الجفنة، وهي مشهورة عندهم. (٤٥١/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في رجب، انقضّ كوكب عظيم غلب نوره على نور الشمس وشوهد في آخرها مثل التّنين يضرب إلى السواد، وبقي ساعة وذهب. وفيها كانت ظلمة عظيمة اشتدّت حتّى إنّ إنساناً كان لا يبصر جليسه، وأخذ بأنفاس الخلق، فلو تأخّر انكشافها لهلك أكثرهم.

وفيها قبض على الوزير أبي سعد بن عبدالرحيم، وزير جلال الدولة، وهي الوزارة السادسة.

وفيها، في رمضان، توفي رافع بن الحسين بن مقل، وكان حازماً، شجاعاً، وخلف بتكرت ما يزيد على خمس مائة ألف دينار، فملكها ابن أخيه خميس بن ثعلب، كان طريداً في أيام عمّه، وحمل إلى جلال الدولة ثمانين ألف دينار فأصلح بها الجند، وكانت يده قد قطعت [لأنّ] بعض عبيد بني عمّه كان يشرب معه، فجرى بينه وبين آخر خصومة، فجرّدا سيفيهما، فقام رافع ليصلح بينهما، فضرب العبد يده فقطعها غلطاً، ولرافع فيها شعر، ولم تمنعه من قتال [فقد] عمل له كفاً أخرى يمسك بها العنان ويقاقل، وله شعر جيّد، من ذلك قوله:

لهاريفة، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، إِنِّهَا أَلَذُّ وَأَسْهَى فِي الثُّمُوسِ مِنَ الْخَمْرِ (٤٥٢/٩)

وصارم طَرَفُو لَا يَزِيلُ جَنْفَهُ وَلَمْ أَزْ سِفَا قَطْ فِي جَنْفِهِ يَفْرِي قَلْتُ لَهُ، وَالْحَيْسُ تُحَدِّجُ بِالضُّحَى: أَعْنِي لِقْدِي مَا اسْتَطَعْتُ مِنَ الصَّبْرِ سَأَتَّقِي رِيْعَانَ الشَّيْبَةِ أَتَقَا عَلَى طَلَبِ الْغَلِيَاءِ أَوْ طَلَبِ الْأَجْرِ أَلَيْسَ مِنَ الْخُسْرَانِ أَنْ لِيَالِيَا تَمْرٌ لَا تَقْمُ وَتُحَسِبُ مِنْ عُمَرِي

وفيها، في صفر، أمر القائم بأمر الله بترك التعامل بالدنانير المغربية، وأمر الشهود أن لا يشهدوا في كتاب ابتاع ولا غيره يُذكر فيه هذا الصنف من الذهب، فعدل الناس إلى القادرية، والسابورية، والقاسانية. (٤٥٣/٩)

سنة ثمان وعشرين وأربعمائة

ذكر الفتنة بين جلال الدولة وبين بارسطفان

في هذه السنة كانت الفتنة بين جلال الدولة وبين بارسطفان،

الملكيّن لصاحبه، وأرسل الخليفة القائم بأمر الله إلى أبي كاليبجار الخيلع النفيسة، ووقع العقد لأبي منصور بن أبي كاليبجار على ابنة جلال الدولة، وكان الصداق خمسين ألف دينار قاسانيّة.

ذكر عذّة حوادث

فيها توفي أبو القاسم عليّ بن الحسين بن مكرم، صاحب عُمان، وكان جواداً، ممدّحاً، وقام ابنه مقامه.

وفيها توفي الأمير أبو عبد الله الحسين بن سلامة، أمير تهامة باليمن، ووليّ ابنه بعده، فعصى عليه خادم كان لوالده، وأراد أن يملك، فجري بينهما حروب كثيرة تبادت أيامها، ففارق أهل تهامة أوطانهم إلى غير مملكة ولد الحسين هرباً من الشرّ وتفاقم الأمر. (٤٥٦/٩)

وفيها توفي مهيار الشاعر، وكان مجوسياً، فأسلم سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، وصحب الشريف الرضيّ، وقال له أبو القاسم بن بُرهان: يا مهيار قد انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية! قال: وكيف؟ قال: لأنك كنت مجوسياً، فصرت تسبّ أصحاب النبي ﷺ في شعرك.

وفيها توفي أبو الحسين القدوريّ الفقيه الحنفيّ، والحاجب أبو الحسن هبة الله بن الحسين، المعروف بابن أخت الفاضل، وكان من أهل الأدب وله شعر جيّد، وأبو عليّ بن أبي الرّيان بمطيراباذ، ومولده سنة أربعمائة وخمسين وثلاثمائة، وقد مدحه الرضيّ وابن نباتة وغيرهما.

وفيها عاود العزّ بن باديس حرب زناتة بإفريقية، فهزمهم وأكثر القتل فيهم، وخرب مساكنهم وقصورهم.

وفي شعبان توفيّ أبو عليّ بن سينا الحكيم، الفيلسوف المشهور، صاحب التصانيف السائرة على مذاهب الفلاسفة، وكان موته بأصبهان، وكان يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكوتيه، ولا شك أنّ أبا جعفر كان فاسد الاعتقاد، فلهاذا أقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد، والرّد على الشرائع في بلده. (٤٥٧/٩)

سنة تسع وعشرين وأربعمائة

ذكر محاصرة الأبخاز تفليس وعودهم عنها

في هذه السنة حصر ملك الأبخاز مدينة تفليس، وامتنع أهلها عليه، فأقام عليهم محاصراً مضيّقاً، فنضدت الأقوات، وانقطعت الميرة، فأنفذ أهلها إلى أذربيجان يستنفرون المسلمين، ويسألونهم إعاتتهم، فلما وصل الغزّ إلى أذربيجان، وسمع الأبخاز بقرعهم، وبما فعلوا بالأرمن، رحلوا عن تفليس مُجفّلين خوفاً. ولما رأى وهسودان صاحب أذربيجان قوة الغزّ، وأنه لا طاقة له بهم، لاطفهم

وصاهرهم واستعان بهم، وقد تقدّم ذكر ذلك .

ذكر ما فعله طغرل بك بخراسان

في هذه السنة دخل ركن الدين أبو طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق مدينة نيسابور مالكاً لها .

وكان سبب ذلك أن الغزّ السلجوقيّ لما ظهروا بخراسان أفسدوا، ونهبوا، وخربوا البلاد، وسبوا، على ما ذكرناه، وسمع الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين الخبر، فسير إليهم حاجبه سباشي في ثلاثين ألف مقاتل، فسار إليهم (٤٥٨/٩) من غزنة، فلما بلغ خراسان ثقل على ما سلم من البلاد بالإقامات، فخرب السالم من تخريب الغزّ، فأقام مدة سنة على المدافعة والمطاوله، لكنه كان يتبع أثرهم إذا بعدوا، ويرجع عنهم إذا أقبلوا استعماً للمحاجزة، وإشفاقاً من المحاربة، حتى إذا كان في هذه السنة، وهو بقرية بظاهر سرخس، والغزّ بظاهر مرو مع طغرل بك، وقد بلغهم خبره، أسروا إليه وقتلوه يوم وصلوا، فلما جنّهم الليل أخذ سباشي ما خفّ من مال وهرب في خواصّه، وترك خيمه ونيرانه على حالها، قيل فعل ذلك مواطاة للغزّ على الهزيمة، فلما أسفر الصبح عرف الباقون من عسكره خبره، فانهزموا، واستولى الغزّ على ما وجدوه في معسكرهم من سوادهم، وقتلوا من الهنود الذين تخلفوا مقتلة عظيمة .

وأسرى داود أخو طغرل بك، وهو والد السلطان ألب أرسلان، إلى نيسابور، وسمع أبو سهل الحمدوني ومن معه بهاء، ففارقوها، ووصل داود ومن معه إليها، فدخلوها بغير قتال، ولم يغيروا شيئاً من أمورها، ووصل بعدهم طغرل بك ثم وصلت إليهم رسل الخليفة في ذلك الوقت، وكان قد أرسل إليهم وإلى الذين بالرّيّ وهمذان وبلد الجبل ينهاتهم عن النهب والقتل والإخراب، ويعظهم، فآكروا الرسل، وعظموهم، وخدموهم .

وخطب داود طغرل بك في نهب البلد، فمنعه فامتنع واحتجّ بشهر رمضان، فلما استلخ رمضان صمّ داود على نهبه، فمنعه طغرل بك، واحتجّ عليه برسل الخليفة وكتابه، فلم يلتفت داود إليه، وقوي عزمه على النهب، فأخرج طغرل بك سكيناً وقال له : واللّه لئن نهبت شيئاً لأقتلن نفسي ! فكفّ عن ذلك، وعدل إلى التقسيط، فقسّط على أهل نيسابور نحو ثلاثين ألف دينار، وفرّقها في أصحابه. (٤٥٩/٩)

وأقام طغرل بك بدار الإمارة، وجلس على سرير الملك مسعود، وصار يقعد للمظالم يومئذ في الأسبوع على قاعدة ولاة خراسان، وسير أخاه داود إلى سرخس فملكها، ثم استولوا على سائر بلاد خراسان سوى بلخ، وكانوا يخطبون للملك مسعود على سبيل المغالطة . وكانوا ثلاثة إخوة : طغرل بك، وداود، وبيغو، وكان يتألّ

واسمه إبراهيم، أخا طغرل بك وداود لأمهما، ثم خرج مسعود من غزنة وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر مخاطبة جلال الدولة بملك الملوك

في هذه السنة سأل جلال الدولة الخليفة القائم بأمر الله ليخاطب بملك الملوك، فامتنع، ثم أجاب إليه إذا أفتى الفقهاء بجوازه، فكتب فتوى إلى الفقهاء في ذلك، فأفتى القاضي أبو الطيب الطبري، والقاضي أبو عبد الله الصيمري، والقاضي ابن البيضاوي، وأبو القاسم الكرخي بجوازه، وامتنع منه قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي، وجرى بينه وبين من أفتى بجوازه مراجعات، وخطب لجلال الدولة بملك الملوك.

وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة، وكان يتردد إلى دار المملكة كل يوم، فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم بيته خائفاً، وأقام منقطعاً من شهر رمضان إلى يوم عيد النحر، فاستدعاه جلال الدولة، فحضر خائفاً، فأدخله وحده وقال له: قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالاً، وجاءه، وقرياً منا، وقد خالفتم فيما خالف هواي، ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحابة منك، وأتباع الحق، وقد بان لي موضعك من الدين، ومكانك من العلم، (٤٦٠/٩) وجعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك إليّ وحدك، وجعلتُ إذن الحاضرين إليك، ليتحققوا عودي إليّ ما تحب. فشكره ودعا له، وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قُتل شبل الدولة نصير بن صالح بن مرداس، صاحب حلب، قتله الدزبري وعساكر مصر، وملكوا حلب.

وفيهما أنكر العلماء على أبي يعلى الفراء الحنبلي ما ضمنه كتابه من صفات الله تعالى، سبحانه وتعالى، المُشعره بأنه يعتقد التجسّم، وحضر أبو الحسن الفزويني الزاهد بجامع المنصور، وتكلّم في ذلك، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وفيهما صالح بن وثاب الثميري، صاحب حرّان، الروم الذين بالرّها لعجزه عنهم، وسلّم إليهم الرّها، وكان تسلّمه على ما ذكرناه أولاً، فنزلوا من الحصن الذي للبلد إليه، وكثر الروم بها، وخاف المسلمون على حرّان منهم، وعمّر الروم الرّها العمارة الحسنة وحصّنها.

وفيهما هادن المستنصر بالله الخليفة العلوي، صاحب مصر، ملك الروم، وشرط عليه إطلاق خمسة آلاف أسير، وشرط الروم عليه أن يعمروا بيعة قُمامة، فأرسل الملك إليها من عمرها، وأخرج عليها مالاً جليلاً.

وفي هذه السنة سارت عساكر المعزّ بن باديس بإفريقية إلى بلد

الزاب، (٤٦١/٩) ففتحوا مدينة تسمى بورس، وقتلوا من البربر خلقاً كثيراً، وفتح من بلاد زناتة قلعة تسمى كروم.

وفيهما توفي إسحاق بن إبراهيم بن مخلد أبو الفضل المعروف بابن الباقري في ربيع الآخر. (٤٦٢/٩)

سنة ثلاثين وأربعمئة

ذكر وصول الملك مسعود من غزنة إلى خراسان وإجلاء السلجقية عنها

في صفر من هذه السنة وصل الملك مسعود إلى بلخ من غزنة، وزوّج ابنه من ابنة بعض ملوك الخانية، كان يتقي جانبه، وأقطع خوارزم لشاه ملك الجندي، فسار إليها، وبها خوارزمشاه إسماعيل بن التوتاش، فجمع أصحابه، ولقي شاه ملك وقتله، ودامت الحرب بينهما مدة شهر، وانهزم إسماعيل، والتجأ إلى طغرل بك وأخيه داود السلجقية، وملك شاه ملك خوارزم.

وكان مسير مسعود من غزنة أول سنة ثمان وعشرين [وأربعمئة]؛ وسبب خروجه ما وصل إليه من أخبار الغز، وما فعلوه بالبلاد وأهلها من الإخواب والقتل والسبي والاستيلاء، وأقام يبلخ حتى أراح واستراح، وفرغ من أمر خوارزم والخانية، ثم أمدّ سباشي الحاجب بعسكر ليتصرّى بهم ويهتّم بأمر الغز واستصالحهم، فلم يكن عنده من الكفاية ما يقهرهم بل أخذ إلى المطاولة التي هي عادته.

وسار مسعود بن سبكتكين من بلخ بنفسه، وقصد سرّخس، فتجنّب (٤٦٣/٩) الغز لقاءه، وعدلوا إلى المراوغة والمخاطلة، وأظهروا العزم على دخول المفازة التي بين مرو وخوارزم، فبينما عساكر مسعود تتبعهم وتطلبهم إذ لقوا طائفة منهم، فقاتلهم وظفروا بهم وقتلوا منهم.

ثم إنّه واقعهم بنفسه، في شعبان من هذه السنة، وقعة استظهر [فيها] عليهم، فأبعدوا عنه، ثم عاودوا القرب منه بنواحي مرو، فواقعهم وقعة أخرى قُتل منهم [فيها] نحو ألف وخمسمائة قتيل، وهرب الباقون فدخلوا البرية التي يحتمون بها.

وثار أهل نيسابور بمن عندهم منهم، فقتلوا بعضاً، وانهزم الباقون إلى أصحابهم بالبرية. وعدل مسعود إلى هراة يتأهب في العساكر للمسير خلفهم وطلبهم أين كانوا، فعاد طغرل بك إلى الأطراف النائية عن مسعود، فتهبها وأئخنها فيها، وكان الناس قد تراجعوا، فملّؤوا أيديهم من الغنائم، فحينئذ سار مسعود يطلبه، فلما قارب انزاح طغرل بك من بين يديه إلى أستا وأقام بها، وكان الزمان شتاء، فلما منه أنّ الثلج والبرد يمنع عنه، فطلبه مسعود إليها، ففارقته

طغربك وسلك الطريق على طُوس، واحتمى بجبال منبجة، ومضايق صعبة المسلك، فسير مسعود في طلبه وزيّره أحمد بن محمد بن عبد الصمد في عساكر كثيرة، فطوى المراحل إليه جريداً، فلما رأى طغربك قربه منه فارق مكانه إلى نواحي أيبورد.

ذكر الخطبة العباسية بخران والرقّة

في هذه السنة خطب شبيب بن وثاب النمري، صاحب حران والرقّة، للإمام القائم بأمر الله، وقطع خطبة المستنصر بالله العلوي.

وكان سببها أن نصر الدولة بن مروان كان قد بلغه عن الدزيري نائب العلويين بالشام أنه يتهذّده، ويريد قصد بلاده، فراسل قرواشاً، صاحب الموصل، وطلب منه عسكرياً، وراسل شبيباً النمري يدعو إلى الموافقة، ويحذّره من المغاربة، فأجابه إلى ذلك، وقطع الخطبة العلوية، وأقام الخطبة العباسية، فأرسل إليه الدزيري يتهذّده، ثم أعاد الخطبة العلوية بخران في ذي الحجة من السنة (٤٦٦/٩).

ذكر عدة حوادث

فيها توفي مؤيد الملك أبو علي الحسين بن الحسن الرُّخجسي، وكان وزيراً لملوك بني بويه، ثم ترك الوزارة، وكان في عطلة يتقدّم على الوزراء.

وفيها أيضاً توفي أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوي أمير مكة.

وفيها توفي الوزير أبو القاسم بن ماکولا محبوباً بهيت، وكان مقامه في الحبس سنتين وخمسة أشهر، ومولده سنة خمس وستين وثلاثمائة، وكان وزير جلال الدولة، وهو والد الأمير أبي نصر، مصنف كتاب الإكمال في المؤلف والمختلف، وكان جلال الدولة سلّمه إلى قرواش، فحبسه بهيت.

وفيها سقط الثلج ببغداد لست بقين من ربيع الأول، فارتفع على الأرض شيراً، ورماه الناس عن السطوح إلى الشوارع، وجمد الماء ستة أيام متوالية، وكان أول ذلك الثالث والعشرين من كانون الثاني.

وتوفي هذه السنة أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني الحافظ وأبو الرضا الفضل بن منصور بن الظريف الفارقي، الأمير الشاعر، له ديوان حسن، وشعر جيد، فمته: ومخطف الخصر مطبوع على صلفٍ عشقته، ودواعي الين تشقه وكيف أطمع منه في مواسلةٍ وكل يوم لنا شمل يفرقه وقد تسامح قلبي في مواسلاتي على السلو ولكن من يُصدّقه أهابة، وهو طلق الوجه مُبسم وكيف يُطمعني في السيف رونقه (٤٦٧/٩).

وكان مسعود قد سار عن جهة إن أرادها، فلقى طغربك مقدّمته، فواقعهم فانتصروا عليه، واستأمن من أصحابه جماعة كثيرة، ورأى الطلب له من كل جانب، فعاد دخول المفازة إلى خوارزم وأوغل فيها.

فلما فارق الغز خراسان قصد مسعود جبلاً من جبال طُوس منبجاً لا (٤٦٤/٩) يُرام، وكان أهله قد وافقوا الغز وأفسدوا معهم، فلما فارق الغز تلك البلاد تحصّن هؤلاء بجبلهم ثقة منهم بحصانته وامتناعه، فسرى مسعود إليهم جريداً، فلم يرعهم إلا وقد خالطهم، فتركوا أهلهم وأموالهم وصعدوا إلى قلّة الجبل واعتصموا بها وامتنعوا، وغنم عسكر مسعود أموالهم وما أدخروه.

ثم أمر مسعود أصحابه أن يزحفوا إليهم في قلّة الجبل، وباشر هو القتال بنفسه، فزحف الناس إليهم، وقتلوهم قتالاً لم يروا مثله، وكان الزمان شتاءً، والثلج على الجبل كثيراً، فهلك من العسكر في مخارم الجبل وشعبه كثير، ثم إنهم ظفروا بأهله وأكثروا فيهم القتل والأسر وفرغوا منهم وأراحوا المسلمين من شرهم.

وسار مسعود إلى نيسابور في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، ليريح ويستريح، ويتظر الربيع ليسير خلف الغز، ويطلبهم في المغاور التي احتموا بها. وكانت هذه الوقعة، وإجلاء الغز عن خراسان، سنة إحدى وثلاثين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك أبي الشوك مدينة خولنجان

كان حسام الدولة أبو الشوك قد فتح قرييين من أعمال الجبل، وقبض على صاحبها، وهو من الأكراد القويّة، فسار أخوه إلى قلعة أرنبة، فاعتصم بها من أبي الشوك، وجعل أصحابه في مدينة خولنجان يحفظونها منه أيضاً (٤٦٥/٩).

فلما كان الآن سير أبو الشوك عسكرياً إلى خولنجان فحصرها فلم يظفروا منها بشيء، فأمر العسكر فعاد فأمن من في البلد يعود العسكر عنه.

ثم جهّز عسكرياً آخر جريداً لم يعلم بهم أحد، وسيرهم ليومهم، وأمرهم بنهب ريف قلعة أرنبة، وقتل من ظفروا به والإتمام لوقتهم إلى خولنجان ليسبقوا خبرهم إليها، ففعلوا ذلك، ووصلوا إليها ومن بها غير متأهّين، فاقتتلوا شتياً من قتال، ثم استسلم من بالمدينة إليهم فتسلّموها، وتحصّن من كان بها من

سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة

في هذه السنة فتح الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين قلعة بخراسان كانت بيد الفرس، وقتل فيها جماعة منهم، وكانت بينه وبينهم وقعات أجلت عن فراقهم خراسان إلى البرية، وقد ذكرناه سنة ثلاثين [وأربعمائة].

ذكر ملك الملك أبي كاليجار البصرة

في هذه السنة سير الملك أبو كاليجار عساكره مع العادل أبي منصور بن مافنة إلى البصرة، فملكها في صفر، وكانت بيد الظهير أبي القاسم، وقد ذكرنا أنه وليها بعد بختيار، وأنه عصى على أبي كاليجار، وكان يترك محاقته، ومعارضته فيما يفعله، ويضمن الظهير أن يحمل إلى أبي كاليجار كل سنة سبعين ألف دينار، وكثرت أمواله، ودامت أيامه، وثبت قدمه، وطار اسمه.

واتفق أنه تعرض إلى أملاك أبي الحسن بن أبي القاسم بن مكرم، صاحب عُمان، وأمواله، وكاتب أبو الحسن الملك أبا كاليجار، وبذل له زيادة ثلاثين (٤٦٨/٩) ألف دينار في ضمان البصرة كل سنة، وجرى الحديث في قصد البصرة، فصادف قليلاً موغراً من الظهير، فحصلت الإجابة، وجَهَزَ الملك العساكر مع العادل أبي منصور، فسار إليها وحصرها.

وسارت العساكر من عُمان أيضاً في البحر وحُصرت البصرة ومُلكت، وأخذ الظهير وقُبض عليه، وأخذ جميع ماله، وقُصِّرَ عليه مائة ألف وعشرة آلاف دينار، يحملها في أحد عشر يوماً، بعد تسعين ألف دينار أخذت منه قبلها، ووصل الملك أبو كاليجار إلى البصرة، فأقام بها، ثم عاد إلى الأهواز، وجعل ولده عز الملوك فيها، ومعه الوزير أبو الفرج بن فسانجس، ولما سار أبو كاليجار عن البصرة أخذ معه الظهير إلى الأهواز.

ذكر ما جرى بِعُمان بعد موت أبي القاسم بن مكرم

لما توفي أبو القاسم بن مكرم خلف أربعة بنين: أبو الجيش، والمهذب، وأبو محمد، وآخر صغير، فولّي بعده ابنه أبو الجيش، وأقرّ علي بن هطال المنوجاني، صاحب جيش أبيه، على قاعدته، وأكرمه، وبالف في احترامه، فكان إذا جاء إليه قام له، فأنكر هذه الحال عليه أخوه المهذب، فطعن على ابن هطال، وبلغه ذلك، فاضمر له سوءاً، واستأذن أبا الجيش في أن يحضر أخاه المهذب لدعوة عمله له، فأذن له في ذلك، فلما حضر المهذب عنده خدمه، وبالف في خدمته، فلما أكل وشرب وانتشى، وعمل السكر فيه، قال له (٤٦٩/٩) ابن هطال: إن أخاك أبا الجيش فيه ضعف، وعجز عن الأمر، والرأي أننا نقوم معك، وتصير أنت الأمير؛ وخدعه، فمال إلى هذا الحديث، فأخذ ابن هطال خطه بما يفوض

إليه، وبما يعطيه من الأعمال إذا عمل معه هذا الأمر. فلما كان الغد حضر ابن هطال عند أبي الجيش، وقال له: إن أخاك كان قد أفسد كثيراً من أصحابك، وتحدث معي، واستمالني فلم أوافق، فلماذا كان يذمّني، ويقع فيّ، وهذا خطه بما استقر هذه الليلة. فلما رأى خط أخيه أمره بالقبض عليه، ففعل ذلك واعتقله، ثم وضع عليه من خنقه وألقى جسّته إلى منخفض من الأرض، وأظهر أنه سقط فمات.

ثم توفي أبو الجيش بعد ذلك بيسير، وأراد ابن هطال أن يأخذ أخاه أبا محمد فوليّه عُمان ثم يقتله، فلم تخرجه إليه والدته، وقالت له: أنت تولّي الأمور، وهذا صغير لا يصلح لها. ففعل ذلك، وأسأه السيرة، وصادر التجار، وأخذ الأموال.

وبلغ ما كان منه مع بني مكرم إلى الملك أبي كاليجار، والعادل أبي منصور بن مافنة، فأعظما الأمر واستكبراه، وشدّ العادل في الأمر، وكاتب نائباً كان لأبي القاسم بن مكرم بجبال عُمان يقال له المرتضى، وأمره بقصد ابن هطال، وجهز العساكر من البصرة لتسير إلى مساعدة المرتضى، فجمع المرتضى الخلق، وتسارعوا إليه، وخرجوا عن طاعة ابن هطال، وضعف أمره، واستولى المرتضى على أكثر البلاد، ثم وضعوا خادماً كان لابن مكرم، وقد التحق بابن هطال، على قتله، وساعده على ذلك فرّاش كان له، فلما سمع العادل بقتله سَيرَ إلى عُمان من أخرج أبا محمد بن مكرم، ورثبه في الإمارة، وكان قد استقر أن الأمر لأبي محمد في هذه السنة. (٤٧٠/٩)

ذكر الحرب بين أبي الفتح بن أبي الشوك وبين عمه مهلهل

في هذه السنة كان بين أبي الفتح بن أبي الشوك وبين عمه مهلهل حرب شديدة.

وكان سبب ذلك أن أبا الفتح كان نائباً عن والده في الديّور، وقد عظم محله، وافتتح عدة قلاع، وحمل أعماله من الفز، وقتل فيه، فأعجب بنفسه، وصار لا يقبل أمر والده.

فلما كان هذه السنة، في شعبان، سار إلى قلعة بلوار ليفتحها، وكان فيها زوجة صاحبها، وكان من الأكرد، فعلمت أنها تعجز عن حفظها، فراسلت مهلهل بن محمد بن عتاز، وهو بحلله في نواحي الصامان، واستدعته لتسلم إليه القلعة، فسأل الرسول عن أبي الفتح: هل هو بنفسه على القلعة أم عسكره؟ فأخبره أنه عاد إلى القلعة، فقصد موضعاً يومه أبا الفتح أنه لم يرد هذه القلعة، ثم رجع عائداً، وتبعه أبو الفتح ولحقه وتراءت الفتان، فعاد مهلهل إليه، فاقتلوا، فرأى أبو الفتح من أصحابه تغييراً، فخافهم، فولّى منهزماً، وتبعه أصحابه في الهزيمة، وقتل عسكر مهلهل من كان في عسكر أبي الفتح من الرّجالة، وساروا في أثر المنهزمين يقتلون

ذلك، وطال الخطاب بينهما فيه، فأغلظ له ملك الترك الكلام، فطمعه تقاق فشج رأسه، فأحاط به خدم ملك الترك، وأرادوا أخذه، فمانعهم وقاتلهم، واجتمع معه من أصحابه من منعه، ففترقوا عنه، ثم صلح الأمر بينهما، وأقام تقاق عنده، وولد له سلجوق. (٤٧٤/٩)

وأما سلجوق فإنه لما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة، ومخايل التقدم، فقربه ملك الترك وقدمه، ولقبه سبأشي، ومعناه الجيش، وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من تقدمه، وطاعة الناس له، والانقياد إليه، وأغرته بقتله، وبالغت في ذلك.

وسمع سلجوق الخبر، فسار بجماعته كلهم ومن يطيعه من دار الحرب إلى ديار الإسلام، وسعد بالإيمان ومجاورة المسلمين، وازداد حاله علوًا، وإمرة، وطاعة، وأقام بنواحي جند، وأدام غزو كفار الترك، وكان ملكهم يأخذ الخراج من المسلمين في تلك الديار، وطرده سلجوق عماله منها وصفت للمسلمين.

ثم إن بعض ملوك السامانية كان هارون بن ايلك الخان قد استولى على بعض أطراف بلاده، فأرسل إلى سلجوق يستمده، فأمدّه بآبائه أرسلان في جمع من أصحابه، فقوي بهم الساماني على هارون، واسترد ما أخذه منه، وعاد أرسلان إلى أبيه.

وكان لسلجوق من الأولاد: أرسلان، وميكائيل، وموسى، وتوفي سلجوق بجنده، وكان عمره مائة سنة وسبع سنين، ودُفن هناك، وبقي أولاده، فغزا ميكائيل بعض بلاد الكفار الأتراك، فقاتل، وياشر القتال بنفسه، فاستشهد في سبيل الله، وخلف من الأولاد: يئغو، وطفريك محمدًا، وجفري بك داود، فأطاعهم عشائهم، ووقفوا عند أمرهم ونهيهم، ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخًا منها، فخافهم أمير بخارى فأساء جوارهم، وأراد إهلاكهم والإيقاع بهم، فالتجؤوا إلى بغراخان ملك تركستان، وأقاموا في (٤٧٥/٩) بلاده، واحتما به وامتنعوا، واستقر الأمر بين طفرليك وأخيه داود أنهما لا يجتمعان عند بغراخان، إنما يحضر عنده أحدهما، ويقم الآخر في أهله خوفًا من مكر يمكره بهم، فبقوا كذلك.

ثم إن بغراخان اجتهد في اجتماعهما عنده، فلم يفعل، فقبض على طفرليك وأسر، فثار داود في عشائره ومن يتبعه، وقصد بغراخان ليخلص أخاه، فأنفذ إليه بغراخان عسكريًا، فاقتلوا، فانهزم عسكري بغراخان وكثر القتل فيهم، وخلص أخاه من الأسر، وانصرفوا إلى جند، وهي قريب بخارى، فأقاموا هناك.

فلما انقضت دولة السامانية وملك ايلك الخان بخارى عظم محل أرسلان بن سلجوق عم داود وطفريك بما وراء النهر، وكان

ويأسرون، ووقف فرس أبي الفتح به فأسر وأحضر عند عمه مهلهل، فضربه عدة مقارع، وقيده، وحبسه عنده وعاد. (٤٧١/٩)

ثم إن أبا الشوك جمع عساكره وسار إلى شهرزور وحصرها، وقصد بلاد أخيه ليخلص ابنه أبا الفتح، فطال الأمر ولم يخلص ابنه، وحمل مهلهل اللجاج على أن استدعى علاء الدولة بن كاكويه إلى بلد أبي الفتح، فدخل الدينور وقرميسين، وأساء إلى أهلها وظلمهم وملكها، وكان ذلك سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة.

ذكر شغب الأتراك على جلال الدولة ببغداد

في هذه السنة شغب الأتراك على الملك جلال الدولة ببغداد، وأخرجوا خيامهم إلى ظاهر البلد، ثم أوقعوا النهب في عدة مواضع، فخافهم جلال الدولة، فعبر خيامه إلى الجانب الغربي، وترددت الرسل بينهم في الصلح، وأراد الرحيل عن بغداد، فمنعه أصحابه، فراسل ديبس بن مزيد، قرواشا، صاحب الموصل، وغيرهما، وجمع عنده العساكر فاستقرت القواعد بينهم، وعاد إلى داره، وطمع الأتراك، وأذوا الناس، ونهبوا وقتلوا، وفسدت الأمور بالكلية إلى حد لا يرجى صلاحه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، وُلد للخليفة بأمر الله ولده أبو العباس، وهو ذخيرة الدين. (٤٧٢/٩)

وفيها توفي شبيب بن وثاب النميري، صاحب الرقة وسروج وحران.

وفيها توفي أبو نصر بن مُشكان، كاتب الإنشاء لمحمود بن سبكتكين ولولده مسعود، وكان من الكتاب المفلقين، رأيتُ له كتابة في غاية الجودة. (٤٧٣/٩)

سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة

ذكر ابتداء الدولة السلجوقية وسياقة أخبارهم متابعة

في هذه السنة اشتد ملك السلطان طفرليك محمد وأخيه جفري بك داود ابني ميكائيل بن سلجوق بن تقاق، فتذكر أولًا حال آباءه، ثم تذكر حاله كيف تنقلت حتى صار سلطانًا، على أنسي قد ذكرتُ أكثر أخبارهم متقدمة على السنين، وإنما أوردناها هاهنا مجموعة لترد سياقًا واحدًا، فهي أحسن، فأقول:

فأما تقاق فمعناه القوس الجديد، وكان شهماً، ذا رأي وتدبير، وكان مقدم الأتراك الغز، ومرجعهم إليه، لا يخالفون له قولاً، ولا يتعدون أمراً. فاتفق يوماً من الأيام أن ملك الترك الذي يقال له يئغو جمع عساكره، وأراد المسير إلى بلاد الإسلام، فنهاه تقاق عن

علي تكين في حبس أرسلان خان، فهرب، وهو أخو إيلك الخان، ولحق ببخارى واستولى عليها، واتفق مع أرسلان بن سلجوق فامتعا، واستفحل أمرهما، وقصدتهما إيلك أخو أرسلان خان، وقتلتهما فهزماه وبقي ببخارى.

وكان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين فيما يجاوره في بلاده، ويقطع الطريق على رسله المتريدين إلى ملوك الترك، فلما عبر محمود جيحون، على ما ذكرناه، هرب علي تكين من بخارى، وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فإنهم دخلوا المفازة والرمل، فاحتما من محمود، فرأى محمود قوة السلجوقية، وما لهم من الشوكة وكثرة العدد، فكتب أرسلان بن سلجوق واستماله ورغبه، فورد إليه، فقبض يمين الدولة عليه في الحال، ولم يمهله، وسجنه في قلعة، ونهب خركاهاته، واستشار فيما يفعل بأهله وعشيرته، فأشار أرسلان الجاذب، وهو من أكبر خواص محمود، بأن يقطع أباهمهم (٤٧٦/٩) لئلا يرموا بالنشاب، أو يُغرَقوا في جيحون، فقال له: ما أنت إلا قاسي القلب! ثم أمر بهم فعبروا نهر جيحون، ففرقهم في نواحي خراسان، ووضع عليهم الخراج، فجار العمال عليهم، وامتدّت الأيدي إلى أموالهم وأولادهم، فانفصل منهم أكثر من ألفي رجل، وساروا إلى كرمان، ومنها إلى أصبهان، وجرى بينهم وبين صاحبها علاء الدولة بن كاكويه حرب قد ذكرناها، فساروا من أصبهان إلى أذربيجان؛ هؤلاء جماعة أرسلان.

فأما أولاد إخوته فإن علي تكين صاحب بخارى أعمل الحيل في الظفر بهم، فأرسل إلى يوسف بن موسى بن سلجوق، وهو ابن عم طغرل بك محمد وجفري بك داود، ووعدته الإحسان، وبالف في استمالته، وطلب منه الحضور عنده، ففعل، ففرض إليه علي تكين التقدّم على جميع الأتراك الذين في ولايته، وأقطعه أقطاعات كثيرة، ولُقّب بالأمير إيتانج بئغو.

وكان الباعث له على ما فعله به أن يستعين به ويعشيرته وأصحابه على طغرل بك وداود ابني عمه، ويفرق كلمتهم، ويضرب بعضهم ببعض، فعلموا مراده، فلم يطعه يوسف إلى شيء مما أرادته، فلما رأى علي تكين أن مكروه لم يعمل في يوسف، ولم يبلغ به غرضاً، أمر بقتله، فقتل يوسف، تولّى قتله أمير من أمراء علي تكين اسمه ألب قرا. فلما قُتل عظم ذلك على طغرل بك وأخيه داود وجميع عشائريهما، وليسوا ثياب الجداد، وجمعا من الأتراك من قدرا على جمعه للأخذ بشأره، وجمع علي تكين أيضاً جيوشه، وسيرها إليهم، فانهزم عسكر علي تكين، وكان قد ولد السلطان ألب أرسلان بن داود أول محرّم سنة عشرين وأربعمئة قبل الحرب، فتبركوا (٤٧٧/٩) به وتيمّنوا بطلعته، وقيل في مولده غير ذلك.

فلما كان سنة إحدى وعشرين [وأربعمئة] قصد طغرل بك وداود ألب قرا الذي قتل يوسف ابن عمهما، فقتلاه، وأوقعا بطائفة من عسكر علي تكين، فقتلا منها نحو ألف رجل، فجمع علي تكين عسكره وقصدهم هو وأولاده وسن حمل السلاح من أصحابه، وتبعهم من أهل البلاد خلق كثير، فقصدوهم من كل جانب، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة قُتل [فيها] كثير من عساكر السلجوقية، وأخذت أموالهم وأولادهم، وسبوا كثيراً من نساءهم وذرائعهم، فالتجأهم الضرورة إلى العبور إلى خراسان.

فلما عبروا جيحون كتب إليهم، خوارزمشاه هارون بن التوتانش يستدعيهم ليتفقوا معه، وتكون أيديهم واحدة. فسار طغرل بك وأخوه داود ويغزو إليه، وخيموا بظاهر خوارزم سنة ست وعشرين [وأربعمئة] ووثقوا به وأطمانوا إليه، فغدر بهم، فوضع عليهم الأمير شاهملك، فكبسهم، ومعه عسكر من هارون، فأكثرت القتل فيهم والنهب والسي، وارتكب من الغدر خطّة شنيعة، فساروا عن خوارزم بجموعهم إلى مفازة نسا، وقصدوا مرو في هذه السنة أيضاً، ولم يتعرضوا لأحد بشرّ، وبقي أولادهم وذرائعهم في الأسر.

وكان الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين هذه السنة بطبرستان قد ملكها، كما ذكرناه، فراسلوه وطلبوا منه الأمان، وضمنوا أنهم يقصدون الطائفة التي تفسد في بلاده، ويدفعونهم عنها، ويقاتلونهم، ويكرنون من أعظم أعوانه عليهم وعلى غيرهم. فقبض على الرسل وجهاز عسكراً جرّاراً إليهم مع ايلتغدي حاجبه، وغيرهم من الأمراء الأكابر، فساروا إليهم، والتفوا عند نسا في شعبان من السنة، واقتتلوا، وعظم الأمر، وانهزم السلجوقية، وغنمت (٤٧٨/٩) أموالهم، فجرى بين عسكر مسعود منازعة في الغنيمة أدّت إلى القتال.

واتفق في تلك الحال أن السلجوقية لما انهزموا قال لهم داود: إن العسكر الآن قد نزلوا، وأطمانوا، وأمنوا الطلب، والرأي أن نقصدهم لعلنا نبليغ منهم غرضاً. فعادوا فوصلوا إليهم وهم على تلك الحال من الاختلاف، قتال بعضهم بعضاً، فأوقعوا بهم، وقتلوا منهم وأسروا، واستردوا ما أخذوا من أموالهم ورجالهم، وعاد المنهزمون من العسكر إلى الملك مسعود، وهو بنيسابور، فندم على ردّه طاعتهم، وعلم أن هيئتهم قد تمكنت من قلوب عساكره، وأنهم قد طمعوا بهذه الهزيمة، وتجسّروا على قتال العساكر السلطانية بعد الخوف الشديد، وخاف من أخوات هذه الحادثة، فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم، فقال طغرل بك لإمام صلاته: اكتب إلى السلطان ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، يَبْدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ ولا تردّ على هذا.

جوزجان، وانهزمت عساكره، فغظم قتله على سبائشي وكل من معه، ووقعت عليهم الذلة، وقويت نفوس السلجوقية، وزاد طمعهم.

وعاد داود إلى مرو، فأحسن السيرة في أهلها، وخطب له فيها أول جمعة في رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، ولقب في الخطبة بملك الملوك، وسبائشي يمادي الأيام، ويرحل من منزل إلى منزل، والسلجوقية يراوغونه مراوغة الثعلب، ف قيل إنه كان يفعل ذلك جُبناً وخوراً، وقيل بل راسله السلجوقية واستمالوه ورغبوه، فنفس عنهم، وتراخى في تتبعهم، والله اعلم.

ولما طال مقام سبائشي وعساكره والسلجوقية بخراسان، والبلاذ منهوبة، والدماء مسفوكة، قلت الميرة والأقوات على العساكر خاصة، فأما السلجوقية فلا يبالون بذلك لأنهم ينعون بالقليل، فاضطر سبائشي إلى مباشرة الحرب وترك المحاجزة، فسار إلى داود، وتقدم داود إليه، فالتقوا في شعبان سنة ثمان وعشرين [وأربعمائة] على باب سرخس. ولداود منجم يقال له الصومعي، فأشار على داود بالقتال، وضمن له الظفر، وأشهد على نفسه أنه إن أخطأ قدمه مباح له، فاقتتل العسكران، فلم يثبت عسكر سبائشي، وانهزموا أتبع هزيمة، وساروا أخزى مسير إلى هراة، فتبعهم داود وعسكره إلى طوس يأخذونهم باليد، وكفوا عن القتل، وغنموا أموالهم، فكانت هذه الواقعة هي التي ملك (٤٨١/٩) السلجوقية بعدها خراسان، ودخلوا قصبات البلاد، فدخل طغرل بك نيسابور، وسكن الشاذياخ، وخطب له فيها في شعبان بالسلطان المعظم، وفرقوا التواب في النواحي.

وسار إلى هراة، ففارقها سبائشي ومضى إلى غزنة، فعاتبه مسعود وحجبه، وقال له: ضيئت العساكر، وطاولت الأيام، حتى قوي أمر العدو وصفا لهم مشربهم، وتمكنوا من البلاد ما أرادوا. فاعتذر بأن القوم تفرقوا ثلاث فرق كلما تبعت فرقة سارت بين يدي، وخلفي الفريقان في البلاد يفعلون ما أرادوا، فاضطر مسعود إلى المسير إلى خراسان، فجمع العساكر وفرق فيهم الأموال العظيمة، وسار عن غزنة في جيوش يضيق بها الفضاء، ومعه من الفيلة عدد كثير، فوصل بلخ، وقصده داود إليها أيضاً، ونزل قريباً منها، فدخلها يوماً جريدة في طائفة يسيرة على حين غفلة من العساكر، فأخذ الفيل الكبير الذي على باب دار الملك مسعود، وأخذ معه عدة جنائب، فغظم قدره في النفوس، وازداد العسكر هيبة له.

ثم سار مسعود من بلخ أول شهر رمضان سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ومعه مائة ألف فارس سوى الأتباع، وسار على جوزجان، فأخذ واليها الذي كان بها للسلجوقية، فصلبه وسار منها

فكتب ما قال، فلما ورد الكتاب على مسعود أمر فكتب إليهم كتاب مملوء من المواعيد الجميلة، وسير معه الخلع النفيسة، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشط، وهي مدينة على جيحون، ونهاهم عن الشر والفساد، وأقطع دِهستان لداود، ونسأ لطغرل بك، وفرأوة ليغزو، ولقب كل واحد منهم بالدهقان، فاستخفوا بالرسول والخلع، وقالوا للرسول: لو علمنا أن السلطان يقي علينا، إذا قدر، لأطعناه، ولكننا نعلم أنه متى ظفر بنا أهلكنا لما عملناه وأسلفناه، فنحن لا نطيعه، ولا نتق به. وأفسدوا، ثم كفوا، وتركوا ذلك، فقالوا: إن كان لنا قدرة على الانتصاف من السلطان وإلا فلا حاجة بنا إلى إهلاك العالم، ونهب أموالهم، وأرسلوا إلى مسعود يخادعون به بظهار الطاعة له، والكف عن (٤٧٩/٩) الشر، ويسألونه أن يطلق عنهم أرسلان بن سلجوق من الحبس، فأجابهم إلى ذلك، فأحضره عنده ببلخ، وأمره بمراصلة بني أخيه ليغزو، وطغرل بك، وداود يأمرهم بالاستقامة، والكف عن الشر، فأرسل إليهم رسلاً يأمرهم بذلك، وأرسل معه أشفي، وأمره بتسليمه إليهم، فلما وصل الرسول وأدى الرسالة وسلم إليهم الإشفى نفرُوا واستوحشوا، وعادوا إلى أمرهم الأول في الغارة والشر، فأعاده مسعود إلى محبسه، وسار إلى غزنة، فقصده السلجوقية بلخ ونيسابور وطوس وجوزجان، على ما ذكرناه.

وأقام داود بمدينة مرو، وانهزمت عساكر السلطان مسعود منه مرة بعد مرة، واستولى الرعب على أصحابه، لاسيما مع بعده إلى غزنة، فتوالت كتب نوابه وعماله إليه يستغيثون به، ويشكون إليه، ويذكرون ما يفعل السلجوقية في البلاد، وهو لا يجيبهم، ولا يتوجه إليهم، وأعرض عن خراسان والسلجوقية، واشتغل بأمور بلاد الهند.

فلما اشتد أمرهم بخراسان وعظمت حالهم اجتمع وزراء مسعود وأرباب الرأي في دولته، وقالوا له: إن قلت المبالاة بخراسان من أعظم سعادة السلجوقية، وبها يملكون البلاد، ويستقيم لهم الملك، ونحن نعلم وكل عاقل، أنهم إذا تركوا على هذه الحال استولوا على خراسان سريعا، ثم ساروا منها إلى غزنة، وحيث لا ينفعنا حركاتنا، ولا تمكن من البطالة والاشتغال باللعب واللهو والطرب. فاستيقظ من رقدته، وأبصر رُشدَه بعد غفلته، وجهز العساكر الكثيرة مع أكبر أمير عنده يُعرف بسبائشي، وكان حاجبه، وقد سيره قبل إلى الغز العراقية، وقد تقدم ذكر ذلك، وسير معه أميراً كبيراً اسمه مرداويج بن يشو. (٤٨٠/٩)

وكان سبائشي جبناً، فأقام بهراة ونيسابور، ثم أغار بغتة على مرو، وبها داود، فسار مجداً، فوصل إليها في ثلاثة أيام، فأصاب جيوشه ودوابه التعب والكلال، فانهزم داود بين يديه، ولحقه العسكر، فحمل عليه صاحب جوزقان، فقاتله داود، فقتل صاحب

وأطلق الأسرى، وأطلق خراج سنة كاملة. وسار طغرليك إلى نيسابور، فملكها ودخل إليها آخر سنة إحدى وثلاثين [وأربعمئة] وأول سنة اثنتين وثلاثين، ونهب أصحابه الناس، فقبل عنه إنه رأى لوزنجاً فأكله وقال: هذا قطماج طيب، إلا أنه لا ثوم فيه؛ ورأى الغز الكافور فظنوه ملحاً، وقالوا: هذا ملح مرّ؛ ونقل عنهم أشياء من هذا كثير.

وكان العيارون قد عظم ضررهم، واشتد أمرهم، وزادت البلية بهم على أهل نيسابور، فهم يهيمون الأموال، ويقتلون النفوس، ويرتكبون الفروج الحرام، ويفعلون كل ما يريدون لا يردعهم عن ذلك رادع، ولا يزرعهم زاجر، فلما دخل طغرليك البلد خافه العيارون، وكفوا عما كانوا يفعلون، وسكن الناس واطمأنوا.

واستولى السلجوقية حيثنذ على جميع البلاد، فسار بيغو إلى هراة فدخلها، وسار داود إلى بلخ، وبها التوتناق الحاجب واليا عليها لمسعود، فأرسل إليه داود يطلب منه تسليم البلد إليه، ويعرفه عجز صاحبه عن نصرته، فسجن (٤٨٤/٩) التوتناق الرسل، فنزله داود، وحصر المدينة، فأرسل التوتناق إلى مسعود، وهو بغزنة، يعزفه الحال وما هو فيه من ضيق الحصار، فجهز مسعود العساكر الكثيرة وسيّرها، فجاءت طائفة منهم إلى الرُخّج، وبها جمع من السلجوقية، فقاتلوه، فانهزم السلجوقية وقتل منهم ثمانمائة رجل، وأسر كثير، وخلا ذلك الصقع منهم.

وسار طائفة منهم إلى هراة، وبها بيغو، فقاتلوه ودفعوه عنها، ثم إن مسعوداً سير ولده مودوداً في عسكر كثير مدداً لهذه العساكر، فقتل مسعود، وهو بخراسان، على ما ذكره إن شاء الله تعالى، فساروا عن غزنة سنة اثنتين وثلاثين وأربعمئة، فلما قاربوا بلخ سير داود طائفة من عسكره، فأوقعوا بطلائع مودود، فسانهزمت الطلائع، وتبعهم عسكر داود، فلما أحس بهم عسكر مودود رجعوا إلى ورائهم، وأقاموا، فلما سمع التوتناق صاحب بلخ الخبر أطاع داود، وسلم إليه البلد، ووطى بساطه.

ذكر قبض السلطان مسعود وقتله ومُلك أخيه محمد

قد ذكرنا عود مسعود بن محمود بن سيكتكين إلى غزنة من خراسان، فوصلها في شوال سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة، قبض على سبائهم وغيره من الأمراء، كما ذكرناه، وأثبت غيرهم، وسير ولده مودوداً إلى خراسان في جيش (٤٨٥/٩) كثيف ليمنع السلجوقية عنها، فسار مودود إلى بلخ ليرد عنها داود أخا طغرليك، وجعل أبوه مسعود معه وزيره أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد يدبّر الأمور، وكان مسيرهم من غزنة في ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين.

وسار مسعود بعدهم بسبعة أيام يريد بلاد الهند ليشتر بها، على

فوصل إلى مرو الشاهجان، وسار داود إلى سرخس، واجتمع هو وأخوه طغرليك ويغور، فأرسل مسعود إليهم رسلاً في الصلح، فسار في الجواب يغور، فأكرمه مسعود وخلع عليه، وكان مضمون رسالته: إنا لنثق بمصالحتك، بعد ما فعلنا هذه الأفعال التي سخطتها كل فعل منها موبق مُهلك؛ وآيسوه من الصلح. فسار مسعود من مرو إلى هراة، وقصد داود مرو، فامتنع أهلها عليه، فحصرها سبعة أشهر، ضيق (٤٨٢/٩) عليهم، وألح في قتالهم فملكها.

فلما سمع مسعود هذا الخبر سَطَق في يده، وسار من هراة إلى نيسابور، ثم منها إلى سرخس، وكلما تبع السلجوقية إلى مكان ساروا منه إلى غيره، ولم يزل كذلك، فأدركهم الشتاء، فأقاموا بنيسابور ينتظرون الربيع، فلما جاء الربيع كان الملك مسعود مشغولاً بلهوه وشربه، فتقضّى الربيع والأمر كذلك، فلما جاء الصيف عاتبه وزراؤه وخصّه على إهماله أمر عدوه، فسار من نيسابور إلى مرو يطلب السلجوقية، فدخلوا البرية، فدخلها وراءهم مرحلتين والعسكر الذي له قد ضجروا من طول سفرهم وبكارتهم، وسموا الشد والترحل، فإنهم كان لهم في السفر نحو ثلاث سنين، بعضها مع سبائهم، وبعضها مع الملك مسعود، فلما دخل البرية نزل منزلاً قليل الماء، والحر شديد، فلم يكف الماء للسلطان وحواشييه.

وكان داود في معظم السلجوقية بإزائه، وغيره من عشيرته مقابل ساقه عساكره، يتخطفون من تخلف منهم، فاتفق لما يريد الله تعالى أن حواشي مسعود اختصموا هم وجمع من العسكر على الماء وازدحموا، وجرى بينهم فتنة، حتى صار بعضهم يقاتل بعضاً، وبعضهم نهب بعضاً، فاستوحش لذلك أمر العسكر، ومشى بعضهم إلى بعض في التخلي عن مسعود، فعلم داود ما هم فيه من الاختلاف، فتقدم إليهم وحمل عليهم، وهم في ذلك التنازع، والقتال، والنهب، فولسوا منهزمين لا يلوي أول على آخر، وكثر القتل فيهم، والسلطان مسعود ووزيره يناديانهم، ويأمرانهم بالعود، فلا يرجعون، وتمت الهزيمة على العسكر، وثبت مسعود، فقيل له: ما تنتظر؟ قد فارك أصحابك، وأنت في برية مُهلكة، وبين يديك عدو، وخلفك عدو، ولا وجه للمقام. فضى (٤٨٣/٩) منهزماً ومعه نحو مائة فارس، فتبعه فارس من السلجوقية، فعطف عليه مسعود فقتله، وصار لا يقف على شيء، حتى أتى غرّستان.

وأما السلجوقية فإنهم غنموا من العسكر المسعودي ما لا يدخل تحت الإحصاء، وقسمه داود على أصحابه، وأثرهم على نفسه، ونزل في سُرداق مسعود، وقعد على كرسيه، ولم يتزل عسكره ثلاثة أيام عن ظهور دوابهم لا يفارقونها إلا لما لا بدّ لهم منه من مأكل ومشروب وغير ذلك، خوفاً من عود العسكر،

فاجاب مودود يقول: اطال الله بقاء الأمير العم، ووزق ولده المعنوه أحمد عقلاً يعيش (٤٨٧/٩) به، فقد ركب أمراً عظيماً، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي الذي لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين، وستعلمون في أي حنف تورطتم، وأي شر تآبطتم ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

نقلق هماً من رجال أعزّة علينا، وهم كانوا أعقوا وظلمنا وطمع جند محمد فيه، وزالت عنهم هيئته، فمدّوا أيديهم إلى أموال الرعايا فنهبوا، فخرّبت البلاد، وخلأ أهلها، لاسيما مدينة برشاوور فإنها هلك أهلها، ونُهبت أموالهم، وكان المملوك بها يُباع بدينار، وتباع الخمر كلّ منّا بدينار، ثم رحل محمد عنها لليلتين بقيتا من رجب، وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وكان السلطان مسعود شجاعاً كريماً، له فضائل كثيرة، محباً للعلماء، كثير الإحسان إليهم، والتقرب لهم، صنّفوا له التصانيف الكثيرة في فنون العلوم، وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة، تصدّق مرّة في شهر رمضان بألف درهم، وأكثر الإدراتات والصلوات، وعمر كثيراً من المساجد في ممالكه، وكانت صنائعه ظاهرة مشهورة، تسيّر بها الركبان مع عفة عن أموال رعاياه، وأجاز الشعراء بجوائز عظيمة، أعطى شاعراً على قصيدة ألف دينار، وأعطى آخر بكلّ بيت ألف درهم، وكان يكتب خطاً حسناً، وكان ملكه عظيماً، فسيحاً، ملك أصبهان والرّيّ وهمدان وما يليها من البلاد، وملك طبرستان وجرجان وخوارزم وبلاد الراون وكرمان وسجستان والسند والرخج وغازنة، وبلاد الغور والهند، وملك كثيراً منها وأطاعه (٤٨٨/٩) أهل البر والبحر، ومناقبه كثيرة، وقد صنّفت فيها التصانيف المشهورة، فلا حاجة إلى الإطالة بذكرها.

ذكر ملك مودود بن مسعود وقته وعنه محمد

لما قتل الملك مسعود وصل الخبر إلى ابنه مودود، وهو بخراسان، فعاد مجدداً بعساكره إلى غزنة فتصافى هو وعنه محمد في الثالث شعبان، فانهزم محمد وعسكره وقبض عليه وعلى ولده أحمد، وأنوشتكين الخصي البلخي، وابن علي خويشاوند، فقتلهم، وقتل أولاد عنه جميعهم، إلا عبد الرحيم لأنكاره على أخيه عبد الرحمن ما فعله بعنه مسعود، وبنى موضع الوقعة قرية ورباطاً، وسماها فتح آباد، وقتل كلّ من له في القبض على والده صنع، وعاد إلى غزنة فدخلها في ثالث وعشرين شعبان سنة اثنين وثلاثين [وأربعمائة]، واستوزر أبا نصر وزير أبيه، وأظهر العدل وحسن السيرة، وسلك سيرة جدّه محمود.

وكان داود أخو طغرل بك قد ملك مدينة بلخ، واستباحها، كما ذكرناه، ومودود مقابله، فتجدد قتل مسعود، فعاد ليقضي الله أمراً

عاده والده، فلما سار أخذ معه أخاه محمداً مسمولاً، واستصحب الخزائن، وكان عازماً على الاستنجاد بالهند على قتال السلجوقية ثقة بعهودهم. فلما عبر سيحون، وهو نهر كبير، نحو دجلة، وعبر بعض الخزائن اجتمع أنوشتكين البلخي وجمع من الغلمان الدارية ونهبوا ما تخلف من الخزانة، وأقاموا أخاه محمداً ثالث عشر ربيع الآخر، وسلموا عليه بالإمارة، فامتنع من قبول ذلك، فتهدّده وأكرهوه، فاجاب وبقي مسعود فيمن معه من العسكر وحفظ نفسه، فالتقى الجمعان منتصف ربيع الآخر، فاقتلوا، وعظم الخطب على الطائفتين، ثم انهزم عسكر مسعود، وتحصّن هو في رباط ماريكلى، فحصره أخوه، فامتنع عليه، فقالت له أمه: إنّ مكانك لا يعصمك، ولأن تخرج إليهم بعد خير من أن يأخذوك قهراً. فخرج إليهم، فقبضوا عليه، فقال له أخوه محمد: والله لا قابلتك على فعلك بي، ولا علامتك إلا بالجميل، فانظر أين تريد أن تقيم حتى أحملك إليه ومعك أولادك وحزرك. فاختار قلعة كيكي، فأنفذه إليها محظوظاً، وأمر بإكرامه وصيافته.

وأرسل مسعود إلى أخيه محمد يطلب منه ما لا يتفق، فأنفذ له خمسمائة درهم، فبكي مسعود وقال: كان بالأمس حكمي على ثلاثة آلاف حمل من (٤٨٦/٩) الخزائن، واليوم لا أملك الدرهم الفرد. فأعطاه الرسول ألف دينار فقبلها، وكانت سبب سعادة الرسول، لأنه لما ملك مودود بن مسعود بالغ في الإحسان إليه.

ثم إنّ محمداً فوّض أمر دولته إلى ولده أحمد، وكان فيه خبط وهوج، فاتفق هو وابن عمّه يوسف بن سبكتكين وابن علي خويشاوند على قتل مسعود ليصفو الملك له ولولده، فدخل إلى أبيه، فطلب خاتمه ليختم به بعض الخزائن، فأعطاه، فسار به إلى القلعة، وأعطوا الخاتم لمستحفظها، وقالوا له معنا رسالة إلى مسعود، فادخلهم إليه فقتلوه، فلما علم محمد بذلك ساء، وشقّ عليه، وأنكره.

وقيل إنّ مسعود لما حُيِس دخل عليه ولدا أخيه محمد، واسم أحدهما عبد الرحمن، والآخر عبد الرحيم، فمدّ عبد الرحمن يده فأخذ القلنسوة من رأس عمه مسعود، فمدّ عبد الرحيم يده وأخذ القلنسوة من أخيه، وأنكر عليه ذلك، وسبه، وقبّلها، وتركها على رأس عمّه، فنجأ بذلك عبد الرحيم من القتل والأسر لما ملك مودود بن مسعود، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثم إنّ محمداً اغراه ولده أحمد بقتل عمّه مسعود، فأمر بذلك، وأرسل إليه من قتله وألقاه في بئر وسدّ رأسها، وقيل بل ألقى في بئر حياً وسدّ رأسها فمات، والله أعلم.

فلما مات كتب محمد إلى أخيه مودود، وهو بخراسان، يقول: إنّ والدك قتل قصاصاً، قتله أولاد أحمد ينالكن بلا رضاً مني.

منها، فخرج عليهم عندها جمع كثير من العرب، فأوقعوا بهم، فانهزم بعضهم وعادوا إلى العسكر، ونهبت العرب ما معهم من الدواب التي تحمل الميرة، وبقي المرشد أبو الوفاء وهو المقدم على العسكر الذين ساروا لإحضار الميرة وثبت معه جماعة.

ووصل الخبر إلى جلال الدولة أن المرشد أبا الوفاء يقاتل، وأخبر سلامته وصبره للعرب، وأنهم يقاتلون وهو يطلب النجدة، فسار الملك إليه بعسكر، فوصلوا، وقد عجز العرب عن الوصول إليه، وعادوا عنه بعد أن حملوا عليه (٤٩١/٩). وعلى من معه عدة حملات صبر لها في قلة من معه. ثم اختلفت على قرواش، فراسل جلال الدولة، وطلب رضاه، وبذل له بذلاً أصلحه به، وعاد إلى طاعته، فتحالفا، وعاد كل إلى مكانه.

ذكر ملك أبي الشوك دقوقا

كانت دقوقا لأبي الماجد المهلهل بن محمد بن عناز، فسير إليها أخوه حسام الدولة أبو الشوك ولده سعدي، فحصرها، فقاتله من بها.

ثم سار أبو الشوك إليها، فجدد في حصارها ونقب سورها ودخلها عنوة، ونهب أصحابه بعض البلد، وأخذوا سلاح الأكراد وثيابهم، وأقام حسام الدولة بالبلد ليلة، وعاد خوفاً على البندنجين وحلوان، فإن أخاه سُرخاب ابن محمد بن عناز كان قد أغار على عدة مواضع من ولايته، وحالف أبا الفتح بن ورام والجوانية عليه، فأشفق من ذلك، وأرسل إلى جلال الدولة يطلب منه نجدة، فسير إليه عسكراً امتنع بهم.

ذكر الحرب بين عسكر مصر والروم

في هذه السنة كانت الوقعة بين عسكر المصريين سيّره الدزيري وبين الروم، فظفر المسلمون.

وكان سبب ذلك أن ملك الروم قد هادنه المستنصر بالله العلوي، صاحب (٤٩٢/٩) مصر، على ما ذكرناه. فلما كان الآن شرع يرسل ابن صالح بن مرداس ويستميله، وراسله قبله صالح ليتقوى به على الدزيري، خوفاً أن يأخذ منه الرقعة، فبلغ ذلك الدزيري فتهدد ابن صالح فاعتذر وجحد.

ثم إن جمعاً من بني جعفر بن كلاب دخلوا ولاية أفامية، فعاثوا فيها، ونهبوا عدة قرى، فخرج عليهم جمع من الروم فقاتلوهم وأوقعوا بهم، ونكوا فيهم، وأزالوهم عن بلادهم.

وبلغ ذلك الناظر يحلب، فأخرج من بها من تجار الفرنج، وأرسل إلى المتولي بأنطاكية يأمره بإخراج من عندهم من تجار المسلمين، فأغلظ للرسول، وأراد قتله، ثم تركه، فأرسل الناظر يحلب إلى الدزيري يعرفه الحال، وأن القوم على التجهز لقصد

كان مفعولاً، فلما تجدد هذا الظفر لمودود ثار أهل قرّة بمن عنده من الغزّ السلجوقية، فأخرجوهم وحفظوها لمودود، واستقرّ الأمر لمودود بغزّة، ولم يبق له همّ إلا أمر أخيه مجدود، فإنّ أباه قد سيّره إلى الهند سنة ست وعشرين [وأربعمائة]، فخاف أن يخالف عليه، فأنساه خبره أنه قصد لهاور، وملتان، فملكها، وأخذ (٤٨٩/٩) الأموال، وجمع بها العساكر، وأظهر الخلاف على أخيه، فندب إليه مودود جيشاً ليمنعوه ويقاتلوه، وعرض مجدود عسكره للميسر، وحضر عيد الأضحى، فبقي بعده ثلاثة أيام، وأصبح ميتاً بهاور لا يدري كيف كان موته، وأطاعت البلاد بأسرها مودوداً، ورست قدمه، وثبت ملكه؛ ولما سمعت الغزّ السلجوقية ذلك خافوه، واستشعروا منه، وراسله ملك الترك بما وراء النهر بالانقياد والمتابعة.

ذكر الخلاف بين جلال الدولة وقرواش صاحب الموصل

في هذه السنة اختلف جلال الدولة، ملك العراق، وقرواش بن المقلّد الغيلي، صاحب الموصل.

وكان سبب ذلك أنّ قرواشاً كان قد أنفذ عسكراً سنة إحدى وثلاثين [وأربعمائة] فحصروا خميس بن ثعلب بتكرت، وجرى بين الطائفتين حرب شديدة في ذي القعدة منها، فأرسل خميس ولده إلى الملك جلال الدولة، وبذل بذولاً كثيرة ليكفّ عنه قرواشاً، فاجابه إلى ذلك، وأرسل إلى قرواش يأمره بالكف عنه، فغالط ولم يفعل، وسار بنفسه ونزل عليه يحاصره، فتأثر جلال الدولة منه.

ثم إنه أرسل كتباً إلى الأتراك ببغداد فيسدهم، وأشار عليهم بالشغب على الملك وإثارة الفتنة معه، فوصل خبرها إلى جلال الدولة، وأشياء أخر كانت هذه هي الأصل، فأرسل جلال الدولة أبا الحارث أرسلان البساسيري في صفر (٤٩٠/٩) من سنة اثنتين وثلاثين ليقبض على نائب قرواش بالسندية، فسار ومعه جماعة من الأتراك، وتبعه جمع من العرب، فرأى في طريقه جمالاً لبني عيسى، فتسرّع إليها الأتراك والعرب فأخذوا منها قطعة، وأوغل الأتراك في الطلب.

وبلغ طائفة من بني عيسى، فكمنوا بين صرصر وبغداد ليفسدوا في السواد، فاتفق أن وصل بعض أكابر القواد الأتراك، فخرجوا عليه فقتلوه وجماعة من أصحابه، وحملوا إلى بغداد، فارتجّ البلد، واستحكمت الوحشة مع معتمد الدولة قرواش، فجمع جلال الدولة العساكر وسار إلى الأنبار، وهي لقرواش، على عزم أخذها منه، وغيرها من أقطاعه بالعراق، فلما وصلوا إلى الأنبار أغلقت، وقتلهم أصحاب قرواش، وسار قرواش من تكرت إلى خصة على عزم القتال، فلما نزل الملك جلال الدولة على الأنبار قتلت عليهم العلوفة، فسار جماعة من العسكر والعرب إلى الحديثة ليمتاروا

سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة

ذكر وفاة علاء الدولة بن كاكويه

في هذه السنة، في المحرم، توفي علاء الدولة أبو جعفر بن دشمينزار، المعروف بابن كاكويه، بعد عودته من بلد أبي الشوك، وإنما قيل له لأنه ابن خال مجد الدولة بن بويه، والخال بلغتهم كاكويه، وقام بأصبهان ابنه ظهير الدين أبو منصور فرامرز مقامه، وهو أكبر أولاده، وأطاعه الجند بها، فسار ولده أبو كاليجار كرشاسف إلى نهاوند، فأقام بها وحفظها، وضبط أعمال الجبل، وأخذها لنفسه، فأمسك عنه أخوه أبو منصور فرامرز.

ثم إن مستحفظاً لعلاء الدولة بقلعة نظنر أرسل أبو منصور إليه يطلب شيئاً مما عنده من الأموال والذخائر، فامتنع وأظهر العصيان، فسار إليه أبو منصور، وأخوه الأصغر أبو حرب، ليأخذوا القلعة منه كيف أمكن، فصعد أبو حرب إليها، ووافق المستحفظ على العصيان، فعاد أبو منصور إلى أصبهان، وأرسل أبو حرب إلى الغز السلجوقية بالرأي يستنجدهم، فسار طائفة منهم إلى قاجان، فدخلوها ونهبوها وسلموها إلى أبي حرب وعادوا إلى الرّي، فسير إليها أبو منصور عسكرياً ليستنقذها من أخيه، فجمع أبو حرب الأكراد وغيرهم، وجعل عليهم صاحباً له وسيّره إلى أصبهان ليملكوها بزمعه، (٩٩٦/٩) فسير إليهم أخوه أبو منصور عسكرياً، فالتقوا، وانهزم عسكر أبي حرب وأسر جماعة منهم.

وتقدم أصحاب أبي منصور فحاصروا أبا حرب، فلما رأى الحال، وخاف، نزل منها متخفياً، وسار إلى شيراز إلى الملك أبي كاليجار، صاحب فارس والعراق، فحسن له قصد أصبهان وأخذها من أخيه، فسار الملك إليها وحصرها، وبها الأمير أبو منصور، فامتنع عليه، وجرى بين الفريقين عدة وقائع، وكان آخر الأمر الصلح على أن يبقى أبو منصور بأصبهان، وتقرر عليه مال، وعاد أبو حرب إلى قلعة نظنر واشتد الحصار عليه، فأرسل إلى أخيه يطلب المصالحة فاصطلحا على أن يعطي أخاه بعض ما في القلعة، ويبقى بها على حاله.

ثم إن إبراهيم بنال خرج إلى الرّي، على ما ذكره، وأرسل إلى أبي منصور فرامرز يطلب منه المودة، فلم يجبه، وسار فرامرز إلى همدان وبروجرد فملكهما، ثم اصططح هو وأخوه كرشاسف، وأقطع همدان، وخطب لأبي منصور على منابر بلاد كرشاسف، واتّفت كلمتهما، وكان المديّر لأمرهما الكيا أبو الفتح الحسن بن عبد الله، وهو الذي سعى في جمع كلمتهما.

ذكر ملك طغرليک جرجان وطبرستان

في هذه السنة ملك طغرليک جرجان وطبرستان؛ وسبب ذلك

البلاد، فجهز الدزيري جيشاً وسيره على مقدمه، فاتفق أنهم لقوا جيشاً للروم وقد خرجوا لمثل ما خرج إليه هؤلاء، والتقى الفريقان بين مدينة حماة وأقامية واشتد القتال بينهم، ثم إن الله نصر المسلمين، وأذل الكافرين، فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة، وأسر ابن عمّ للملك، بذلوا في فدائه مالا جزيلاً، وعدة وافرة من أسراء المسلمين، وانكف الروم عن الأذى بعدها.

ذكر الخلف بين المعز وبني حماد

في هذه السنة خالف أولاد حماد على المعز بن باديس، صاحب إفريقية، وعادوا إلى ما كانوا عليه من العصيان والخلاف عليه، فسار إليهم المعز، وجمع (٩٩٢/٩) العساكر وحشدتها، وحصر قلعتهم المعروفة بقلعة حماد، وضيق عليهم، وأقام عليهم نحو سنتين.

ذكر صلح أبي الشوك وعلاء الدولة

وفيها سار مهلهل أخو أبي الشوك إلى علاء الدولة بن كاكويه، واستصرخه، واستعان به على أخيه أبي الشوك، فسار معه، فلما بلغ قرميسين رجع أبو الشوك إلى حلوان، فعرف علاء الدولة رجوعه، فسار يتبعه، حتى بلغ المرج، وقرب من أبي الشوك، فعزم أبو الشوك على قصد قلعة السيروان والتحصن بها، ثم تجلّد، وأرسل إلى علاء الدولة: إنني لم أنصرف من بين يديك إلا مراقبة لك، وإعظماً لقدرك، واستعظافاً لك، فإذا اضطررتني إلى ما لا أجد بداً منه كان العذر قائماً لي فيه، فإن ظفرت بك طمع فيك الأعداء، وإن ظفرت بي سلّمت قلاعي وبلادي إلى الملك جلال الدولة. فأجابه علاء الدولة إلى الصلح على أن يكون له الدّينور، وعاد فلحقه المرض في طريقه وتوفي، على ما ذكره إن شاء الله تعالى. (٩٩٤/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كان بإفريقية غلاء شديد، وسببه عدم الأمطار، فسُميت سنة الغبار، ودام ذلك إلى سنة أربع وثلاثين [وأربعمائة]، فخرج الناس فاستسقوا.

وفيها توفي قزل أمير الغز العراقية بالري، ودُفن بناحية من أعمالها.

وفيها توفي صاعد بن محمد أبو العلاء النيسابوري ثم الاستوائي، قاضي نيسابور، وكان عالماً فقيهاً، حنفيّاً، انتهت إليه رئاسة الحنفية بخراسان. (٩٩٥/٩)

هؤلاء أقرب إلى بلد الروم من المسلمين بنحو شهرين، وكلاهما يسمى بلغار.

وكان بسيل عادلاً، حسن السيرة، ودام ملكه ثنيًا وسبعين سنة، وتوفي ولم يخلف ولدًا، فملك أخوه قسطنطين، وبقي إلى أن توفي، ولم يخلف غير ثلاث بنات، فملك الكبري، وتزوجت أرماتوس، وهو من أقارب الملك، وملكته، فبقي مدّة، وهو الذي ملك الرّها من المسلمين. (٤٩٩/٩)

وكان لأرماتوس صاحب له يخدمه، قبل ملكه من أولاد بعض الصيارف، اسمه ميخائيل، فلما ملك حكمه في داره، فمالت زوجة قسطنطين إليه، وعملا الحيلة في قتل أرماتوس، فمرض أرماتوس فادخله إلى الحمام كارهاً وخفاه، وأظهر أنه مات في الحمام، وملك زوجته ميخائيل، وتزوجته على كره من الروم.

وعرض لميخائيل صرع لازمه وشوّه صورته، فعهد بالملك بعده إلى ابن أخت له اسمه ميخائيل أيضاً. فلما توفي ملك ابن أخته وأحسن السيرة، وقبض على أهل خاله وإخوته، وهم أخواله، وضرب الذنائب في هذه السنة، وهي سنة ثلاث وثلاثين، ثم أحضر زوجته بنت الملك وطلب منها أن تترهب وتزني نفسها عن الملك، فابت، فضرها وسيرها إلى جزيرة في البحر، ثم عزم على القبض على البطرك، والاستراحة من تحكّمه عليه، فإنه كان لا يقدر على مخالفته، فطلب إليه أن يعمل له طعاماً في دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده، فأجابه إلى ذلك، وخرج إلى الدير يعمل ما قال الملك، فأرسل الملك جماعة من السروس والبلغار، ووافقهم على قتله سرّاً، فقصده ليلاً وحضروه في الدير، فبذل لهم مالاً كثيراً، وخرج متخفياً، وقصد البيعة التي يسكنها، وضرب الناقوس، فاجتمع الروم عليه، ودعاهم إلى عزل الملك، فاجابوه إلى ذلك، وحضروا الملك في دار، فأرسل الملك إلى زوجته وأحضرها من الجزيرة التي نفاها إليها، ورغب في أن تردّ عنه، فلم تفعل، وأخرجته إلى بيعة يترهب فيها.

ثم إن البطرك والروم نزعوا زوجته من الملك، وملكوا أختاً لها صغيرة واسمها تذورة، وجعلوا معها خدام أيها يدبّرون الملك، وكحلوا ميخائيل، (٥٠٠/٩) ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصب له وبين من يتعصب لتذورة والبطرك، فظفر أصحاب تذورة بهم، ونهبوا أموالهم.

ثم إن الروم افتقروا إلى ملك يدبّروهم، فكتبوا أسماء جماعة يصلحون للملك في رقاق، وضعوها في سنادق طين، وأمرؤا من يخرج منها بندق، وهو لا يعرف باسم من فيها، فخرج اسم قسطنطين، فملكوه وتزوجته الملكة الكبيرة، واستنزلت أختها الصغيرة تذورة عن الملك بمال بذلته لها، واستقرّ بالملك سنة أربع

أن أنوشروان بن منوهر بن قابوس بن وشمكير صاحبها قبض على أبي كاليجار بن ويهان (٤٩٧/٩) القوي، صاحب جيشه، وزوج أمه بمساعدة أمه عليه، فعلم حينئذ طغربك أن البلاد لا مانع له عنها، فسار إليها وقصد جرجان ومعه مرداويج بن بسو، فلما نازلها فتح له المقيم بها، فدخلها وقرّر على أهلها مائة ألف دينار صلحاً، وسلمها إلى مرداويج بن بسو، وقرّر عليه خمسين ألف دينار كل سنة عن جميع الأعمال، وعاد إلى نيسابور.

وقصد مرداويج أنوشران بسارية، وكان بها، فاصطلحا على أن ضمن أنوشروان له ثلاثين ألف دينار، وأقيمت الخطبة لطغربك في البلاد كلّها، وتزوج مرداويش بوالدة أنوشران، وبقي أنوشران يتصرّف بأمر مرداويج لا يخالفه في شيء البتّة.

ذكر أحوال ملوك الروم

نذكرها هنا أحوال الروم من عهد بسيل إلى الآن، فنقول: من عادة ملوك الروم أن يركبوا أيام الأعياد إلى البيعة المخصصة بذلك العيد، فإذا اجتاز الملك بالأسواق شاهده الناس وبأيديهم المداخن يبخرون فيها، فركب والد بسيل وقسطنطين في بعض الأعياد، وكان لبعض أكابر الروم بنت جميلة، فخرجت تشاهد الملك، فلما مرّ بها استحسنتها، فأمر من يسأل عنها، فلما عرفها خطبها وتزوجها وأحبها، وولدت منه بسيل وقسطنطين، وتوفي وهما صغيران، فتزوجت بعده بمدّة طويلة تقفوز، فكره كل واحد منهما صاحبه، فعملت على قتله، فراسلت الشمشقي في ذلك، فقصد قسطنطينية متخفياً، فادخلته إلى دار الملك، وأتفقا وقتلاه ليلاً، وأحضرت البطارقة متفرقين، وأعطتهم (٤٩٨/٩) الأموال ودعتهن إلى تملك الشمشقي، ففعلوا، ولم يصبح، وقد فرغت مما تريد ولم يجر خلف.

وتزوجت الشمشقي وأقامت معه سنة، فخافها، واحتال عليها وأخرجها إلى دير بعيد، وحمل ولديها معها، فأقامت فيه سنة، ثم أحضرت راهباً ووهبته مالاً، وأمرته بقصد قسطنطينية، والمقام بكنيسة الملك، والاقتصار على قدر القوت، فإذا وثق به الملك وأراد القربان من يده ليلة العيد، سقاء سماً، ففعل الراهب ذلك، فلما كان ليلة العيد سارت ومعها ولداها، ووصلت قسطنطينية في اليوم الذي توفي فيه الشمشقي، فملك ولداها بسيل، ودبرت هي الأمر لصغره، فلما كبر بسيل قصد بلد البلغار، وتوفيت، وهو هناك، فبلغه وفاتها، فأمر خادماً له أن يدبّر الأمور في غيبته.

ودام قتاله لبلغار أربعين سنة، فظفروا به، فعاد مهزوماً، وأقام بالقسطنطينية يتجهّز للعود، فعاد إليهم، فظفر بهم، وقتل ملكهم، وسبى أهله وأولاده، وملك بلاده، ونقل أهلها إلى الروم، وأسكن البلاد طائفة من الروم، وهؤلاء البلغار غير الطائفة المسلمة، فإن

واشتغل عساكر دمشق ومقدمهم الحسين بن أحمد الذي ولي أمر (٥٠٢/٩) دمشق، بعد الدزيري، بحرب حسان، ووقع الموت في الذين في القلعة، فسلموها إلى مُعز الدولة بالأمان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار الملك أبو كالجار من فارس عسكرياً في البحر إلى عُمان، وكان قد عصى من بها، فوصل العسكر إلى صُحار مدينة عُمان فملكوها، واستعادوا الخرجين عن الطاعة، واستقرت الأمور بها، وعادت العساكر إلى فارس.

وفيها قصد أبو نصر بن الهيثم الصليقي من البطائح، فملكها ونهبها، ثم استقر أمرها على مال يؤديه إلى جلال الدولة.

وفيها توفي أبو منصور بهرام بن مافنة، وهو الملقب بالعدل، وزير الملك أبي كالجار، ومولده سنة ست وستين وثلاثمائة، وكان حسن السيرة، وبني دار الكتب بفيروزاباد، وجعل فيها سبعة آلاف مجلد، فلما مات وزر بعده مهذب الدولة أبو منصور هبة الله بن أحمد الفسوي.

وفيها وصل جماعة من البلغار إلى بغداد يريدون الحج، فأقيم لهم من الديوان الإقامة الوفرة، فسئل بعضهم: من أي الأمم هم البلغار؟ فقال: هم قوم تولدوا بين الترك والصفالية، وبلدهم في أقصى الترك، وكانوا كفاراً، فأسلموا عن قريب، وهم على مذهب أبي حنيفة، رضي الله عنه.

وفيها توفي ميخائيل ملك الروم، وملك بعده ابن أخيه ميخائيل أيضاً. (٥٠٣/٩)

وفيها، في جمادى الآخرة، توفي أبو الحسن محمد بن جعفر الجهمي الشاعر، وهو القائل:

يَا وَيْحَ قَلْبِي مِنْ تَقْلُبِهِ ابْدَأْ يَجْنُ إِلَى مُتَغَلِّبِهِ
قَالُوا: كَمِثَّ هَوَاهُ عَنْ جَلْدِهِ لَوْ أَنَّ لِي رَمَقاً لَبُخْتُ بِهِ
بِلَهِي حَيّاً غَيْرَ مَكْتَرِثٍ عَنِّي، وَيَكْثُرُ مِنْ تَعْتِبِهِ
خَسِي رِضَاهُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَمَا قَلْبِي وَمَوْتِي مِمَّنْ تَقْضِيهِ
وكان بينه وبين المطرّز مهاجاة. (٥٠٤/٩)

سنة أربع وثلاثين وأربعمائة

ذكر ملك طبرليك مدينة خوارزم

قد تقدّم أنّ خوارزم من جملة مملكة محمود بن سبكتكين، فلما توفي وملك بعده ابنه مسعود كانت له، وكان فيها التوتاش، حاجب أبيه محمود، وهو من أكابر أمرائه، يتولأها لمحمود، ومسعود بعده، ولما كان مسعود مشغولاً بقصد أخيه محمد لأخذ

وثلاثين [وأربعمائة]، فخرج عليه فيها خارجي من الروم اسمه أرميناس، ودعا إلى نفسه فكثر جمعه حتى زادوا على عشرين ألفاً، فأهم قسطنطين أمره، وسار إليه جيشاً كثيفاً، فظفروا بالخارجي وقتلوه، وحملوا رأسه إلى القسطنطينية، وأسر من أعيان أصحابه مائة رجل، فشهروا في البلد ثم أطلقوا وأعطوا نفقة، وأمروا بالانصراف إلى أي جهة أرادوا.

ذكر فساد حال الدزيري بالشام وما صار الأمر إليه بالبلاد

في هذه السنة فسد أمر أنوشكين الدزيري، نائب المستنصر بالله، صاحب مصر، بالشام، وقد كان كبيراً على مخدومه بما يراه من تعظيم الملوك له، وهيبة الروم منه.

وكان الوزير أبو القاسم الجرجاني يقصده ويحسده، إلا أنه لا يجد طريقاً إلى الوقوعة فيه؛ ثم اتفق أنه سعي بكتاب للدزيري اسمه أبو سعد، وقيل عنه إنه يستميل صاحبه إلى غير جهة المصريين، فكتب الدزيري بإبعاده، فلم (٥٠١/٩) يفعل، واستوحشوا منه، ووضع الجرجاني حاجب الدزيري على مخالفته.

ثم إنّه جماعة من الأجناد قصدوا مصر، وشكوا إلى الجرجاني منه، فعرّفهم سوء رأيه فيه، وأعادهم إلى دمشق، وأمرهم بإفساد الجند عليه ففعلوا ذلك.

وأحسن الدزيري بما يجري، فأظهر ما في نفسه، وأحضر نائب الجرجاني عنده، وأمر بإهانته وضربه، ثم إنه أطلق لطافة من العسكر يلزمون خدمته أرزاقهم، ومنع الباقي، فحرك ما في نفوسهم، وقوى طمعهم فيه، بما كوتبوا به من مصر، فأظهروا الشغب عليه، وقصدوا قصره، وهو بظاهر البلد، وتبعهم من العامة من يريد النهب، فاقتتلوا، فلمع الدزيري ضعفه وعجزه عنهم، ففارق مكانه، واستصحب أربعين غلاماً له، وما أمكنه من الدواب والأثاث والأموال، ونهب الباقي، وسار إلى بلبلق، فمنعه مستحفظها، وأخذ ما أمكنه أخذه من مال الدزيري، و تبعه طائفة من الجند يفتون أثره، وينهبون ما يقدرون عليه.

وسار إلى مدينة حماة، فمُنِع عنها، وقتل، وكتب المقلد بن منقذ الكناني الكفرطابي، واستدعاه، فأجابه، وحضر عنده نحو ألفي رجل من كفر طاب وغيرها، فاحتفى به، وسار إلى حلب، ودخلها، وأقام بها مدة، وتوفي في منتصف جمادى الأولى من هذه السنة.

فلما توفي فسد أمر بلاد الشام، وانتشرت الأمور بها، وزال النظام، وطمعت العرب، وخرجوا في نواحيه، فخرج حسان بن المفرج الطائي بفلسطين؛ وخرج معز الدولة بن صالح الكلابي بحلب، وقصدها وحصرها، وملك المدينة، وامتنع أصحاب الدزيري بالقلعة، وكتبوا إلى مصر يطلبون النجدة، فلم يفعلوا،

خوارزم وأخذها، فسار إليها، فقاتله (٥٠٦/٩) شكر وإسماعيل، ومنعه عن البلد، فهزمها وملك البلد، فسار إلى طغرليك وداود السلجوقيين والتجأ إليهما، وطلبا المعونة منهما، فسار داود معها إلى خوارزم، فلقبهم شاهملك وقاتلهم فهزمهم؛ ولما جرى على مسعود من القتل ما جرى وملك مودود دخل شاهملك في طاعته وصافاه، وتمسك كل واحد منهما بصاحبه.

ثم إن طغرليك سار إلى خوارزم فحصرها وملكها واستولى عليها، وانهمز شاهملك بين يديه، واستصحب أمواله وذخائره، ومضى في المفازة إلى دهستان، ثم انتقل عنها إلى طيس، ثم إلى أطراف كرمان، ثم إلى أعمال التيز ومكران، فلما وصل إلى هناك علم خلاصه يبعده وأمن في نفسه، فعرف خبره أرتاش، أخو إبراهيم نبال، وهو ابن عم طغرليك، فقصده في أربعة آلاف فارس، فأوقع به وأسره وأخذ ما معه، ثم عاد به فسلمه إلى داود، وحصل هو بما غنم من أمواله، وعاد بعد ذلك إلى بادغيس المقاربة لهراة، وأقام على محاصرة هراة، لأنهم إلى هذه الغاية كانوا مقيمين على الامتناع والاعتصام ببلدهم والثبات على طاعة مودود بن مسعود، فقاتلهم أهل هراة، وحفظوا بلدهم مع خراب سوادهم، وإنما حملهم على ذلك، الحرب خوفاً من الغز.

ذكر قصد إبراهيم نبال وما كان منه

قد ذكرنا خروج إبراهيم نبال من خراسان إلى الري، واستيلائه عليها. فلما استقر أمرها سار عنها، وملك البلاد المجاورة لها، ثم انتقل إلى بروجرد (٥٠٧/٩) فملكها، ثم قصد همدان، وكان بها أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدولة صاحبها، ففارقها إلى سابور خواست، ونزل إبراهيم نبال على همدان، وأراد دخولها، فقال له أهلها إن كنت تريد الطاعة، وما يطلبه السلطان من الرعية، فنحن بأذله وداخلون تحتها، فاطلب أولاً هذا المخالف عليك الذي كان عندنا، يعنون كرشاسف، فإننا لا نأمن عوده إلينا، فإذا ملكته أو دفعته كنا لك.

فكف عنهم وسار إلى كرشاسف، بعد أن أخذ من أهل البلد مالا، فلما قارب سابور خواست صعد كرشاسف إلى القلعة، فتحصن بها، وحصر إبراهيم البلد، فقاتله أهله خوفاً من الغز، فلم يكن لهم طاقة على دفعهم، فملك البلد قهراً، ونهب الغز أهله، وفعلوا الأفاعيل القبيحة بهم، ثم عادوا بما غنموه إلى الري، فأروا طغرليك قد وردوا، ولما فارق إبراهيم والجز همدان نزل كرشاسف إليها، فأقام بها إلى أن وصل طغرليك إلى الري فسار إليه إبراهيم، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر خروج طغرليك إلى الري وملك بلد الجبل

في هذه السنة خرج طغرليك من خراسان إلى الري، بعد فراغه

الملك قصد الأمير علي تكين، صاحب ما وراء النهر، أطراف بلاده وشعتها، فلما فرغ مسعود من أمر أخيه واستقر الملك له كاتب التوتناش في سنة أربع وعشرين [وأربعمائة] بقصد أعمال علي تكين، وأخذ بخاري وسمرقند، وأمه بجيش كيف، فعبر جيحون، وفتح من بلاد علي تكين ما أراد، وانتحز علي تكين من بين يديه.

وأقام التوتناش بالبلاد التي فتحها، فرأى دخلها لا يفي بما تحتاج عساكره لأنه كان يريد [أن] يكون في جمع كثير يمتنع بهم على الترك، فكاتب مسعوداً في ذلك واستأذنه في العود إلى خوارزم، فأذن له، فلما عاد لحقه علي تكين على غرة، وكبسه، فانهزم علي تكين، وصعد إلى قلعة دَبُوسِيَّة، فحصره التوتناش، وكاد يأخذها، فراسله علي تكين واستعطفه وضرع إليه، فرحل عنه وعاد إلى خوارزم.

وأصاب التوتناش في هذه الوقعة جراحة، فلما عاد إلى خوارزم مرض منها وتوفي، وخلف من الأولاد ثلاثة بنين: هارون، ورشيد، وإسماعيل، (٥٠٥/٩) فلم توفي ضبط البلد وزيره أبو نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد، وحفظ الخزائن وغيرها، وأعلم مسعوداً الخبر، فولى ابنه الأكبر هارون خوارزم، وسيّره إليها وكان عنده.

واتفق أن الميمّندي، وزير مسعود، توفي، فاستحضر أبا نصر بن محمد بن عبد الصمد واستوزره، فاستتاب أبو نصر عند هارون منافرة أمرها هارون في نفسه، وحسن له أصحابه القبض على عبد الجبار، والعصيان على مسعود، فأظهر العصيان في شهر رمضان سنة خمس وعشرين [وأربعمائة]، وأراد قتل عبد الجبار، فاختفى منه، فقال أعداء أبيه للملك مسعود: إن أبا نصر قد واطأ هارون على العصيان، وإنما اختفى ابنه حيلة ومكرًا؛ فاستوحش منه إلا أنه لم يظهر ذلك له.

وعزم مسعود على الخروج من غزنة إلى خوارزم، فسار عن غزنة، والزمان شاء، فلم يمكنه قصد خوارزم، فسار إلى جرجان طالباً أنوشروان بن منوچهر ليقابله على ما ظهر منه عند اشتغال مسعود بقتال أحمد بنالتيكين ببلاد الهند. فلما كان ببلاد جرجان أتاه كتاب عبد الجبار بن أبي نصر بقتل هارون، وإعادة البلد إلى طاعته، وكان عبد الجبار في بدء استناره يعمل على قتل هارون، ووضع جماعة على الفتك به، فقتلوه عند خروجه إلى الصيد، وقام عبد الجبار بحفظ البلد.

فلما وقف مسعود على كتاب عبد الجبار علم أن الذي قيل عن أبيه كان باطلاً، فعاد إلى الثقة به، وبقي عبد الجبار أيام يسيرة، فوثب به غلمان هارون فقتلوه، وولوا البلد إسماعيل بن التوتناش، وقام بأمره شكر خادم أبيه، وعصوا على مسعود. فكتب مسعود إلى شاهملك بن علي أحد أصحاب الأطراف بنواحي خوارزم، بقصد

فاصعد إليهم، وأقم معهم، ولا تفارق موضعك حتى أذن لك .

ثم عاد إلى الري، واستتاب بهمذان ناصراً العلوي، وكان كرشاف قد قبض عليه، فأخرجه طغرلبيك وولاه الري، وأمره بمساعدة من يجعله في البلد، وكان معه مرداويج بن بسو نائبه، في جرجان طبرستان، فمات، وقام ولده جستان مقامه، فصار طغرلبيك إلى جرجان، فعزل جستان عنها، واستعمل على جرجان أسفار، وهو من خواص منوچهر بن قابوس، فلما فرغ أمر جرجان وطبرستان سار إلى دهستان فحصرها، وبها صاحبها كاميار، معتصماً بها لحصانتها. (٥١٠/٩)

ذكر مسير عساكر طغرلبيك إلى كرمان

وسير طغرلبيك طائفة من أصحابه إلى كرمان مع أخيه إبراهيم بنال، بعد أن دخل الري، وقيل إن إبراهيم لم يقصد كرمان، وإنما قصد سجستان، وكان مقدّم العساكر التي سارت إلى كرمان غيره، فلما وصلوا إلى أطراف كرمان نهبوا، ولم يقدموا على التوغّل فيها، فلم يروا من العساكر من يكفهم، فتوسّطوها وملكوا عدّة مواضع منها ونهبوها.

فبلغ الخبر إلى الملك أبي كاليبجار، صاحبها، فسير وزيره مهذب الدولة في العساكر الكثيرة، وأمره بالجدّ في المسير ليدركهم قبل أن يملكوا جیرفت، وكانوا يحاصرونها، فطوى المراحل حتى قاربهم، فرحلوا عن جیرفت ونزلوا على سة فراسخ منها.

وجاء مهذب الدولة فنزلها وأرسل ليحمل الميرة إلى العسكر، فخرجت الغزّ إلى الجمال والبغال والميرة ليأخذوها، وسمع مهذب الدولة ذلك، فسير طائفة من العسكر لمنعهم، فتواقعوا واقتتلوا، وتكاثرت الغزّ، فسمع مهذب الدولة الخبر، فصار في العساكر إلى المعركة، وهم يقتلون، وقد ثبتت كلّ طائفة لصاحبها واشتدّ القتال إلى حدّ أن بعض الغزّ رمى فرس بعض أصحاب أبي كاليبجار بسهم، فوقع فيه، وطعنه صاحب الفرس برمح، فأصاب فرس الغزّي، وحمل الزبيّ على صاحب الفرس، فضربه ضربة قطعت يده، وحمل عليه صاحب الفرس وهو على هذه الحالة، فضربه بسيفه فقطعه قطعتين، (٥١١/٩) وسقطا إلى الأرض قتيلين، والفرسان قتيلان، وهذه حالة لم يدون عن مقدّمي الشجعان أحسن منها.

فلما وصل مهذب الدولة إلى المعركة انهزم الغزّ وتركوا ما كانوا يتهبون، ودخلوا المفازة، وتبعهم الديلم إلى رأس الحدّ، وعادوا إلى كرمان فأصلحوا ما فسد منها.

ذكر الوحشة بين القائم بأمر الله أمير المؤمنين وجمال الدولة

في هذه السنة افتتحت الجوالي في المحرم ببغداد، فأنفذ

من خوارزم، وجرجان، وطبرستان، فلما سمع أخوه إبراهيم بنال بقدمه سار إليه فلقه، وتسلم طغرلبيك الرّي منه، وتسلم غيرها من بلد الجبل وسار إبراهيم إلى ميجستان، وأخذ طغرلبيك أيضاً قلعة طبرك من مجد الدولة بن بويه، وأقام عنده مكرماً، وأمر طغرلبيك بعمارة الرّي وكانت قد خربت، فوجد في دار (٥٠٨/٩) الإمارة مراكب ذهب مجوهرة ويزيّتيّ صينيّ مملوءتين جوهرًا، ومالاً كثيراً، وغير ذلك.

وكان كامرو يهادي طغرلبيك، وهو بخراسان، ويخدمه، وخدم أخاه إبراهيم لما كان بالرّي، فلما حضر عنده أهدى له هدايا كثيرة من أنواع شتى، وهو يظن أن طغرلبيك يزيد في إقطاعه، ويرعى له ما تقدّم من خدمته له، فخاب ظنه وقرّر على ما بيده كلّ سنة سبعة وعشرين ألف دينار.

ثم سار إلى قزوین، فامتنع عليه أهلها، فزحف إليهم ورماهم بالسهم والحجارة، فلم يقدروا أن يقفوا على السور، وقتل من أهل البلد برشق، وأخذ ثلاثمائة وخمسين رجلاً، فلما رأى كامرو ومرداويج بن بسو ذلك خافوا أن يملك البلد عنوة وينهب، فمنع الناس من القتال، وأصلحو الحال على ثمانين ألف دينار، وصار صاحبها في طاعته.

ثم إنّه أرسل إلى كركاش وبوقا وغيرهما من أمراء الغزّ الذين تقدّم خروجهم، يمينهم ويدعوهم إلى الحضور في خدمته، فلما وصل رسولهم إليهم ساروا حتى نزلوا على نهر بنواحي زنجان، ثم أعادوا رسوله، وقالوا له: قل له قد علمنا أن غرضك أن تجمعنا لتقبض علينا، والخوف منك أبعدنا عنك، وقد نزلنا ها هنا، فإن أردتنا قصدنا خراسان، أو الروم، ولا نجتمع بك أبداً .

وأرسل طغرلبيك إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة، ويطلب منه مالاً، ففعل (٥٠٩/٩) ذلك، وحمل إليه مالاً وعروضاً، وأرسل أيضاً إلى سلاّر الطرم يدعوه إلى خدمته، ويطلبه بخملي مائتي ألف دينار، فاستقر الحال بينهما على الطاعة وشي من المال . وأرسل سرية إلى أصهبان، وبها أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة، فأغار على أعمالها وعادت سالمة.

وخرج طغرلبيك من الري، وأظهر قصد أصهبان، فراسله فرامرز، وصانعه بمال، فعاد عنه وسار إلى همذان فملكها من صاحبها كرشاف بن علاء الدولة، وكان قد نزل إليه، وهو بالرّي، بعد أن راسله طغرلبيك غير مرة، وسار معه من الرّي إلى أبهر وزنجان، فأخذ منه همذان، وتفرق أصحابه عنه، وطلب منه طغرلبيك تسليم قلعة كنجور، فأرسل إلى من بها بالتسليم، فلم يفعلوا، وقالوا لرسول طغرلبيك: قل لصاحبك والله لو قطعته قطعاً ما سلمناها إليك . فقال له طغرلبيك: ما امتنعوا إلا بأمرك ورأيك،

في بعض البساتين، فأحصي مَن هلك من أهل البلد، وكانوا قريباً من خمسين ألفاً، وليس الأمير السواد والمسوح لعظم المصيبة، وعزم على الصعود إلى بعض قلاعهم، خوفاً من توجّه الغزّ السلجوقيّ إليه، وأخبر بذلك أبو جعفر بن الرقيّ العلويّ النقيب بالموصل. (٥١٤/٩)

وفيها قتل قرواش كاتبه أبا الفتح بن المفرج صبراً.

وفيها توفيّ عبد الله بن أحمد أبو ذرّ الهرويّ الحافظ، أقام بمكة، وتزوَّج من العرب، وأقام بالسروات، وكان يحجّ كلّ سنة يحدث في الموسم، ويعود إلى أهله، وصحب القاضي أبا بكر الباقلائي.

وفيها توفيّ عمر بن إبراهيم بن سعيد الزهريّ من ولد سعد بن أبي وقاص، وكان قنبيهاً شافعيّاً. (٥١٥/٩)

سنة خمس وثلاثين وأربعمئة

ذكر إخراج المسلمين والنصارى الغرباء من القسطنطينية

في هذه السنة أخرج ملك الروم الغرباء من المسلمين والنصارى وسائر الأنواع من القسطنطينية.

وسبب ذلك أنّه وقع الخبر بالقسطنطينية أنّ قسطنطين قتل ابنتي الملك المتقدّم اللّتين قد صار الملك فيهما الآن، فاجتمع أهل البلد وأثاروا الفتنة، وطعموا في النهب، فأشرف عليهم قسطنطين، وسأله عن السبب في ذلك، فقالوا: قتلنا الملكتين، وأفسدت الملك؛ فقال: ما قتلتهما؛ وأخرجهما حتّى رأهما الناس، فسكنوا.

ثمّ إنّه سأل عن سبب ذلك، ف قيل له: إنّه فعل الغرباء، وأشاروا بإبعادهم، وأمر فنودي أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة، فمن أقام بعد ثلاثة أيام كُحل، فخرج منها أكثر من مائة ألف إنسان، ولم يبق بها أكثر من اثني عشر نفساً، ضمنهم الروم فتركهم. (٥١٦/٩)

ذكر وفاة جلال الدولة وملك أبي كاليجار

في هذه السنة، في سادس شعبان، توفيّ الملك جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ببغداد، وكان مرضه ورماً في كبده، وبقي عدة أيام مريضاً وتوفيّ، وكان مولده سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وملكه ببغداد ستّ عشرة سنة وأحد عشر شهراً، ودُفن بداره، ومن علم سيرته، وضعفه، واستيلاء الجند والنواب عليه، ودوام ملكه إلى هذه الغاية، علم أنّ الله على كلّ شيء قدير يؤتي الملك من يشاء وينزع من يشاء.

وكان يزور الصالحين، ويقرب منهم، وزار مرّة مشهذيّ عليّ

الملك جلال الدولة فأخذ ما تحصّل منها، وكانت العادة أن يُحمّل ما يحصّل منها إلى الخلفاء لا تعارضهم فيها الملوك، فلمّا فعل جلال الدولة ذلك عظم الأمر فيه على القائم بأمر الله واشتدّ عليه، وأرسل مع أقضى القضاة أبي الحسن الماروديّ في ذلك، وتكرّرت الرسائل، فلم يصغ جلال الدولة لذلك، وأخذ الجوالي، فجمع الخليفة الهاشميين بالدار والرّجالة، وتقدّم بإصلاح الطيّار والزبازب، وأرسل إلى أصحاب الأطراف والقضاة بما عزم عليه، وأظهر العزم على مفارقة بغداد، فلم يتمّ ذلك، وحدث وحشة بين الجهتين، فاقتضت الحال أنّ الملك يترك معارضة النّواب الإماميّة فيها في السنة الآتية. (٥١٧/٩)

ذكر محاصرة شهرزور وغيرها

في هذه السنة سار أبو الشوك إلى شهرزور، فحصرها ونهبها وأحرقها وخرب قرأها وسوادها، وحصر قلعة تيرانشاه، فدفعه أبو القاسم بن عياض عنها، ووعدّه أن يخلّص ولده أبا الفتح من أخيه مهلهل، وأن يصلح بينهما.

وكان مهلهل قد سار من شهرزور لمّا بلغه أنّ أخاه أبا الشوك يريد قصدها، وقصد نواحي سنّدة وغيرها من ولايات أبي الشوك، فنهبا وأحرقها وهلكت الرعيّة في الجهتين.

ثمّ إنّ أبا الشوك راسل أبا القاسم بن عياض يستنجزه ما وعده به من تخليص ولده والشروط التي تقرّرت بينهما، فأجابته بأن مهلهلاً غير مجيب إليه. فعند ذلك سار أبو الشوك من حُلوان إلى الصامغان ونهبها، ونهب الولاية التي لمهلهل جميعها، فأنزاح مهلهل من بين يديه، وتردّدت الرسل بينهما، فاصطلحا على دغل ودخل، وعاد أبو الشوك. (٥١٣/٩)

ذكر خروج سكين بمصر

في هذه السنة، في رجب، خرج بمصر إنسان اسمه سكين، كان يشبه الحاكم صاحب مصر، فأدّعى أنّه الحاكم، وقد رجع بعد موته، فأتبعه جمع ممّن يعتقد رجعة الحاكم، فاغتموا خلّو دار الخليفة بمصر من الجند وقصدها مع سكين نصف النهار، فدخلوا الدهليز، فوثب مَن هناك من الجند، فقال لهم أصحابه: إنّ الحاكم، فارتاعوا لذلك، ثمّ ارتابوا به، فقبضوا على سكين، ووقع الصوت، واقتلوا، فراجع الجند إلى القصر، والحرب قائمة، فقتل من أصحابه جماعة، وأسر الباقون وصلبوا أحياء، ورماهم الجند بالنشّاب حتّى ماتوا.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كانت زلزلة عظيمة بمدينة تبريز، هدمت قلعتها وسورها ودورها وأسواقها وأكثر دار الإمارة، وسلم الأمير لأنّه كان

داود أخو طغرلبيك، وهو صاحب خراسان، ولده ألب أرسلان في عسكر، فالتقوا واقتتلوا فكان الظفر للملك ألب أرسلان، وعاد عسكر غزنة منهزماً.

وفيهما أيضاً، في صفر سار جمع من الغز إلى نواحي بُست واقتتلوا قتالاً شديداً انهزم الغز فيه، وظفر عسكر مودود، فأكثرُوا فيهما القتل والأسر.

ذكر ملك مودود عدة حصون من بلد الهند

في هذه السنة اجتمع ثلاثة ملوك من ملوك الهند، وقصدوا لهاوور وحصروها، فجمع مقدّم العساكر الإسلامية بتلك الديار من عنده منهم، وأرسل إلى صاحبه مودود يستنجده، فسير إليه العساكر.

فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقه وعاد إلى طاعة مودود، فرحل الملكان الآخران إلى بلادهما، فسارت العساكر الإسلامية إلى أحدهما، ويُعرف بدوبال هراته، فانهزم منهم، وصعد إلى قاعة له منيعة هو وعساكره، فاحتما (٥١٩/٩) بها، وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل، وحصرهم المسلمون وضيّقوا عليهم، وأكثرُوا القتل فيهم، فطلب الهنود الأمان على تسليم الحصن، فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلا بعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك الذي لهم، فحملهم الخوف وعدم الأقوات على إجابتهم إلى ما طلبوا وتسلموا الجميع وغنم المسلمون الأموال، وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين، وكانوا نحو خمسة آلاف نفر.

فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني، واسمه ثابت، بالرّي، فتقدّم إليهم، ولقّهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزمت الهنود، وأجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل، وجرح وأسر ضعفاهم، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم. فلما رأى باقي الملوك من الهند ما لقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة، وحملوا الأموال، وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم، فأجيبوا إلى ذلك.

ذكر الخلف بين الملك أبي كاليجار وفرامرز بن علاء الدولة

في هذه السنة نكت الأمير أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة بن كاكوتي، صاحب أصبهان، العهد الذي بينه وبين الملك أبي كاليجار، وسير عسكراً إلى نواحي كرمان، فملكوا منها حصنين وغنما ما فيها. (٥٢٠/٩)

فأرسل الملك أبو كاليجار إليه في إعادتهما وإزالة الاعتراض عنهما، فلم يفعل، فجهّز عسكراً وسيّره إلى أبرقوه، فحصرها وملكها، فانزعج فرامرز لذلك، وجهّز عسكراً وسيّره إليهم، فسمع

والحسين، عليهما السلام، وكان حافياً قبل أن يصل إلى كلّ مشهد منهما، نحو فرسخ، يفعل ذلك تدنياً.

ولمّا توفي انتقل الوزير كمال الملك بن عبد الرحيم وأصحاب الملك الأكابر إلى باب المراتب، وحريم دار الخلافة، خوفاً من نهب الأتراك والعامة دورهم، فاجتمع قواد العسكر تحت دار المملكة، ومنعوا الناس من نهباها.

ولمّا توفي كان ولده الأكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط، على عادته، فكتابه الأجناد بالطاعة، وشرطوا عليه تعجيل ما جرت به العادة من حق البيعة، فتردّدت المراسلات بينهم في مقداره وتأخير لهفقده.

وبلغ موته إلى الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة، فكتب القواد والأجناد، ورغّبهم في المال وكثرته وتعجيله، فمالوا إليه وعدلوا (٥١٧/٩) عن الملك العزيز.

وأما الملك العزيز فإنه أصدع إلى بغداد لمّا قرب الملك أبو كاليجار منها، على ما تذكره سنة ست وثلاثين [وأربعمائة]، عازماً على قصد بغداد ومعه عسكره، فلما بلغ الثمانيّة غدر به عسكره ورجعوا إلى واسط، وخطبوا لأبي كاليجار، فلما رأى ذلك مضى إلى نور الدولة دُبّيس بن مزّيد، لأنّه بلغه ميل جند بغداد إلى أبي كاليجار، وسار من عند دُبّيس إلى قرواش بن المقلّد، فاجتمع به بقرية خُصة من أعمال بغداد، وسار معه إلى الموصل، ثم فارقه وقصد أبا الشوك لأنّه حموه، فلما وصل إلى أبي الشوك غدر به، وألزمه بطلاق ابنته، ففعل، وسار عنه إلى إبراهيم بنال أخي طغرلبيك، وتنقّل به الأحوال، حتّى قدم بغداد في نفر يسير عازماً على استمالة العسكر وأخذ الملك، فثار به أصحاب الملك أبي كاليجار، فقتل بعض من عنده، وسار هو متخفياً، فقصد نصر الدولة بن مروان فتوفي عنده بميافارقين، وحُمِل إلى بغداد، ودُفن عند أبيه بمقابر قریش، في مشهد باب التين سنة إحدى وأربعين [وأربعمائة].

وقد ذكر الشيخ أبو الفرج بن الجوزي أنّه آخر ملوك بني بويه، وليس كذلك، فإنه ملك بعده أبو كاليجار، ثم الملك الرحيم بن أبي كاليجار، وهو آخرهم على ما تراه.

وأما الملك أبو كاليجار فلم تزل الرسل تتردّد بينه وبين عسكر بغداد، حتّى استقرّ الأمر له، وحلفوا، وخطوا له ببغداد في صفر من سنة ست وثلاثين وأربعمائة، على ما تذكره إن شاء الله تعالى. (٥١٨/٩)

ذكر حال أبي الفتوح مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين في هذه السنة سير الملك أبو الفتح مودود بن مسعود بن سبكتكين عسكراً مع حاجب له إلى نواحي خراسان، فأرسل إليهم

الملك أبو كاليبجار بذلك، فسير عسكرياً ثانياً مدداً لعسكره الأول، والتقى العسكران فاقتلوا وصبروا، ثم انهزم عسكر أصبهان، وأسر مقدمهم الأمير إسحاق بن يتال، واستردّ نواب أبي كاليبجار ما كانوا أخذوه من كرمان.

ذكر أخبار الترك بما وراء النهر

في هذه السنة، في صفر، أسلم من كفار الترك الذين كانوا يطرقون بلاد الإسلام بنواحي بلاساغون وكاشغفر، ويغزيون ويعيثون، عشرة آلاف خرقة، وضحووا يوم عيد الأضحى بعشرين ألف رأس غنم، وكفى الله المسلمين شرهم.

وكانوا يصيفون بنواحي بلغفار، ويشتون بنواحي بلاساغون، فلما سلموا تفرقوا في البلاد، فكان في كل ناحية ألف خرقة، وأقل وأكثر لأمنهم، فإنهم إنما كانوا يجتمعون ليحمي بعضهم بعضاً من المسلمين، وبقي من الأتراك من لم يسلم تتر وخطا، وهم بنواحي الصين.

وكان صاحب بلاساغون، وبلاد الترك، شرف الدولة، وفيه دين، وقد أقتع من إخوته وأقاربه بالطاعة، وقسم البلاد بينهم، فأعطى أخاه أصلاً تكين (٥٢١/٩) كثيراً من بلاد الترك، وأعطى أخاه بغراخان طيراز وأسيجباب، وأعطى عمه طفاخان فرغانة بأسرها، وأعطى ابن علي تكين بخارى وسمرقند وغيرها وقنع هو ببلاساغون وكاشغفر.

ذكر أخبار الروم والقسطنطينية

في هذه السنة، في صفر أيضاً، ورد إلى القسطنطينية عدد كثير من الروس في البحر، وراسلوا قسطنطين ملك الروم بما لم تجر به عادتهم، فاجتمعت الروم على حربهم، وكان بعضهم قد فارق المراكب إلى البر، وبعضهم فيها، فالتقى الروم في مراكبهم النار، فلم يهتدوا إلى إطفائها، فهلك كثير منهم بالحرق والغرق، وأما الذين على البر فقاتلوا، وأبلوا، وصبروا، ثم انهزموا، فلم يكن لهم ملجأ، فمن استسلم أولاً استرق وسلم، ومن امتنع، حتى أخذ قهراً، قطع الروم أيمانهم، وطيف بهم في البلد، ولم يسلم منهم إلا اليسير مع ابن ملك الروسية، وكفى الروم شرهم.

ذكر طاعة المعز يافريقية للقائم بأمر الله

في هذه السنة أظهر المعز ببلاد إفريقية الدعاء للدولة العباسية، وخطب للإمام القائم بأمر الله، أمير المؤمنين، ووردت عليه الخلع والتقليد ببلاد إفريقية وجميع ما يفتح، وفي أول الكتاب الذي مع الرسل: من عبد الله ووليه أبي (٥٢٢/٩) جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحده، ثقة الإسلام، وشرف الإمام، وعمدة الأنام ناصر دين الله، قاهر أعداء الله، ومؤيد سنة رسول الله ﷺ

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة جرت حرب بين ابن الهيثم، صاحب البطيحة، وبين الأجناد من الغز والديلم، فأحرق الجامدة وغيرها، وخطب الجند للملك أبي كاليبجار.

وفيها أرسل الخليفة القائم بأمر الله أقصى القضاة أبا الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الفقيه الشافعي، إلى السلطان طغرل بك قبل وفاة جلال الدولة، وأمره أن يقرر الصلح بين طغرل بك والملك جلال الدولة وأبي كاليبجار، فسار إليه وهو بجرجان، فلقبه طغرل بك على أربعة فراسخ إجلالاً لرسالة الخليفة، وعاد الماوردي سنة ست وثلاثين [وأربعمائة] وأخبر عن طاعة طغرل بك للخليفة، وتعظيمه لأوامره ووقوفه عنده. (٥٢٣/٩) وفيها توفي عبد الله بن أحمد بن عثمان بن الفرج بن الأزهر أبو القاسم بن أبي الفتح الأزهر الصيرفي المعروف بابن السواري شيخ الخطباء أبي بكر، وكان إماماً في الحديث، ومن تلامذته الخطيب البغدادي. (٥٢٤/٩)

سنة ست وثلاثين وأربعمائة

ذكر قتل الإسماعيلية بما وراء النهر

في هذه السنة أوقع بغراخان، صاحب ما وراء النهر، بجمع كثير من الإسماعيلية.

وكان سبب ذلك أن نفرأ منهم قصدوا ما وراء النهر، ودعوا إلى طاعة المستنصر بالله العلوي، صاحب مصر، فتبعهم جمع كثير وأظهروا مذاهب أنكرها أهل تلك البلاد.

وسمع ملكها بغراخان خبرهم، وأراد الإيقاع بهم، فخاف أن يسلم منه بعض من أجابهم من أهل تلك البلاد، فأظهر لبعضهم أنه يعيل إليهم، ويريد الدخول في مذاهبهم، وأعلمهم ذلك، وأحضرهم مجالسه، ولم يزل حتى علم جميع من أجابهم إلى مقاتلهم، فحيتذ قتل من حضرته منهم، وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها، ففعل بهم ما أمر، وسلمت تلك البلاد منهم.

ذكر الخطبة للملك أبي كاليجار وإصعاده إلى بغداد

قد ذكرنا لما توفي الملك جلال الدولة ما كان من مراسلة الجند الملك أبا كاليجار والخطبة له. فلما استقرت القواعد بينهم أرسل أموالاً فرقت (٥٢٥/٩) على الجند ببغداد، وعلى أولادهم، وأرسل عشرة آلاف دينار للخليفة ومعها هدايا كثيرة، فخطب له ببغداد في صفر، وخطب له أيضاً أبو الشوك في أولاده، وديبس بن مزيد ببلاده، ونصر الدولة بن مروان بديار بكر، ولقبه الخليفة محيي الدين، وسار إلى بغداد في مائة فارس من أصحابه لتلا تخافه الأتراك.

فلما وصل إلى النعمانية لقبه ديبس بن مزيد، ومضى إلى زيارة المشهدين بالكوفة وكربلاء، ودخل إلى بغداد في شهر رمضان ومعه وزيره ذو السعادات أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن فسانجس، ووعده الخليفة القائم بأمر الله أن يستقبله، فاستعفى من ذلك، وأخرج عميد الدولة أبا سعد بن عبد الرحيم وأخاه كمال الملك وزيراً جلال الدولة من بغداد، فمضى أبو سعد إلى تكريت، رُئي ببغداد لقدمه، وأمر فخلع على أصحاب الجيوش، وهم: البساسيري، والنشاوري، والهمام أبو اللقاء، وجرى من وفاة العرض تقديم لبعض الجند وتأخير، فشغب بعضهم، وقتلوا واحداً من وفاة العرض بمرأى من الملك أبي كاليجار، فنزل في سُميرية بكنكور، وانحدر خوفاً من انخراق الهيبة، وأصعد بضم الصلح.

وفي رمضان منها توفي أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني وزير الظاهر والمستنصر الخلفيتين، وكان فيه كفاية، وشهامة، وأمانة، وصلى عليه المستنصر بالله. (٥٢٦/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة نزل الأمير أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدولة من كنكور وقصد همدان فملكها وأزاح عنها نواب السلطان طغربك، وخطب للملك أبي كاليجار، وصار في طاعته.

وفيهما أمر الملك أبو كاليجار ببناء سور مدينة شيراز، فبني وأحكم بناؤه، وكان دوره اثني عشر ألف ذراع، وعرضه ثمانية أذرع، وله أحد عشر باباً، وفرغ منه سنة أربعين وأربعمائة.

وفيهما نقل تابوت جلال الدولة من داره إلى مشهد باب التبن، إلى تربة له هناك.

وفيهما استوزر السلطان طغربك وزيره أبا القاسم علي بن عبد الله الجويني، وهو أول وزير وزر له، ثم وزر له بعده رئيس الرؤساء أبو عبد الله الحسين بن علي بن ميكائيل، ثم وزر له بعده نظام الملك أبو محمد الحسن بن محمد الدهستاني، وهو أول من لقب بنظام الملك، ثم وزر له بعده عميد الملك الكندري، وهو

أشهرهم، وأما اشتهر لأن طغربك، في أيامه، عظمت دولته، ووصل إلى العراق، وخطب له بالسلطنة، وسيرد من أخباره ما فيه كفاية، فلا حاجة إلى ذكرها ههنا.

وفيهما توفي الشريف المرتضى أبو القاسم علي أخو الرضي في آخر ربيع الأول، ومولده سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وولي نقابة العلويين بعده أبو أحمد عدنان ابن أخيه الرضي. (٥٢٧/٩)

وفيهما توفي القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد الصيمري، وهو شيخ أصحاب أبي حنيفة في زمانه، ومن جملة تلامذته القاضي أبو عبد الله الدامغاني، ومولده سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وولي بعده قضاء الكرخ القاضي أبو الطيب الطبري مضافاً إلى ما كان يتولاه من القضاء بباب الطاق.

وفيهما توفي القاضي أبو الحسن عبد الوهاب بن منصور بن المشتري قاضي خوزستان وفارس، وكان شافعي المذهب.

وفيهما أيضاً توفي أبو الحسين محمد بن علي البصري، المتكلم المعتزلي، صاحب التصانيف المشهورة. (٥٢٨/٩)

سنة سبع وثلاثين وأربعمائة

ذكر وصول إبراهيم بنال إلى همدان وبلد الجبل

في هذه السنة أمر السلطان طغربك أخاه إبراهيم بنال بالخروج إلى بلد الجبل وملكها، فسار إليها من كرمان، وقصد همدان، وبها كرشاسف بن علاء الدولة، ففارقها خوفاً، ودخلها بنال فملكها، والتحق كرشاسف بالأكراد الجوزقان.

وكان أبو الشوك حنيند بالدينور، فسار عنها إلى قرميسين خوفاً وإشفاقاً من بنال، فقوي طمع بنال حينئذ في البلاد، وسار إلى الدينور فملكها ورتب أمورها، وسار منها يطلب قرميسين.

فلما سمع أبو الشوك به سار إلى خلوان وترك قرميسين من في عسكره من الديلم، والأكراد الشاذنجان، ليمنعوها ويحفظوها، ووافاهم بنال بجريدة، فقاتلوه، فدفعوه عنها، فانصرف عنهم وعاد بخراكهاته وحلله، فقاتلوه، فضعفوا عنه وعجزوا عن منعه، فملك البلد في رجب عنوة وقتل من العساكر جماعة كثيرة، وأخذ أموال من سلم من القتل، وسلاحهم، وطردهم، ولحقوا بأبي الشوك، ونهب البلد وقتل وسب كثيراً من أهله. (٥٢٩/٩)

ولما سمع أبو الشوك ذلك سير أهله وأمواله وسلاحه من خلوان إلى قلعة السيروان، وأقام جريدة في عسكره، ثم إن بنال سار إلى الصيمرة في شعبان، فملكها ونهبها، وأوقع بالأكراد المجاورين لها من الجوزقان، فانهمزوا، وكان كرشاسف بن علاء الدولة نازلاً عندهم، فسار هو وهم إلى بلد شهاب الدولة أبي

الفوارس منصور بن الحسين.

ثم إن إبراهيم ينال سار إلى حلوان، وقد فارقه أبو الشوك، ولحق بقلعة السيروان، فوصل إليها إبراهيم آخر شعبان، وقد جلا أهلها عنها، وتفرقوا في البلاد، فنهبها وأحرقها، وأحرق دار أبي الشوك، وانصرف بعد أن اجتاحها ودرسها.

وتوجه طائفة من الغز إلى خانتين في أثر جماعة من أهل حلوان كانوا ساروا بأهليهم وأولادهم وأموالهم، فأدركهم وظفروا بهم وغنموا ما معهم، وانتشر الغز في تلك النواحي، فبلغوا ما يَشْتَت وما يليها، فنهبوا وأغاروا عليها.

فلما سمع الملك أبو كاليجار هذه الأخبار أزعجه وأقلقته، وكان بخوزستان، فعزم على المسير، ودفع ينال ومن معه من الغز عن البلاد، فأمر عساكره بالتجهيز للسفر إليهم، فمجزوا عن الحركة لكثرة ما مات من دوابهم، فلما تحقق ذلك سار نحو بلاد فارس، فحمل العسكر أقالهم على الحمير. (٥٣٠/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، خطب للملك أبي كاليجار، وقصد كerman، على ما ذكرناه، والتجأ إلى طاعة طغربك، لم يبلغ ما كان يؤمله من طغربك، فلما عاد طغربك إلى خراسان خاف أبو منصور من الملك أبي كاليجار فراسله في العود إلى طاعته، فأجابه إلى ذلك واصطلحا.

وفيها اصططح أبو الشوك وأخوه مهلهل، وكانا متقاطعين من حين أسر مهلهل أبا الفتح بن أبي الشوك، وحلف له أن أبا الفتح توفي حتف أنفه من غير قتل، وقال: هذا ولدي تقتله عوضه؛ فرفض أبو الشوك، وأحسن إلى أبي الغنائم، وردّه إلى أبيه، واصطلحا وأتفقا.

وفيها، في جمادى الأولى، خلع الخليفة على أبي القاسم علي بن الحسن بن المسلمة، واستوزره، ولقبه رئيس الرؤساء، وهو ابتداء حاله.

وكان السبب في ذلك أن ذا السعادات بن فسانجس، وزير الملك أبي كاليجار، كان يسيء الرأي في عميد الرؤساء، وزير الخليفة، فطلب من الخليفة أن يعزله، فعزله واستوزر رئيس الرؤساء نيابة، ثم خلع عليه وجلس في الدست.

وفيها، في شعبان، سار سُرخاب بن محمد بن عَاز أخو أبي الشوك إلى (٥٣١/٩) البَندنجين وبها سعدي بن أبي الشوك، ففارقها سعدي ولحق بأبيه، ونهب سُرخاب بعضها، وكان أبو الشوك قد أخذ بلد سُرخاب ما عدا دَردِيوِيَّة وهما متباينان لذلك.

وفيها، في آخر رمضان، توفي أبو الشوك فارس بن محمد بن عَاز بقلعة السيروان، وكان مرض لَمَّا سار إلى السيروان من حلوان، ولمَّا توفي غدر الأكراد بابنه سعدي، وصاروا مع عمه مهلهل، فعند ذلك مضى سعدي إلى إبراهيم ينال، وأتى بالغز، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها قُتل عيسى بن موسى الهذليّ صاحب إربل، وكان خرج إلى الصيد، فقتله ابن أخ له، وسارا إلى قلعة إربل فملكها؛ وكان سار بن موسى، أخو المقتول، نازلاً على قرواش بن القلّد، صاحب الموصل، لنفرة كانت بينه وبين أخيه، فلما قُتل سار قرواش مع السار إلى إربل، فملكها وسلمها إلى السار، وعاد قرواش إلى الموصل.

وفيها كانت ببغداد فتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة، وقتال اشتد قُتل فيه الجماعة.

وفيها وقع البلاء والوباء في الخيل، فهلك من عسكر الملك أبي كاليجار اثنا عشر ألف فرس، وعمّ ذلك البلاء.

وفيها توفي علي بن محمد بن نصر أبو الحسن الكاتب بواسط، صاحب الرسائل المشهورة. (٥٣٢/٩)

سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة

ذكر ملك مهلهل قريمسين والدينور

في هذه السنة ملك مهلهل بن محمد بن عَاز مدينة قريمسين والدينور.

وسبب ذلك أن إبراهيم ينال كان قد استعمل عند عوده من حلوان على قريمسين بدر بن طاهر بن هلال، فلما ملك مهلهل، بعد موت أخيه أبي الشوك، سار إلى مايدشت، ونزل بها، ثم توجه نحو قريمسين، فانصرف عنها بدر، فملكها مهلهل، وسير ابنه محمداً إلى الدينور، وبها عساكر ينال، فاقتلوا، قُتل بين الفريقين جماعة، وانهمز أصحاب ينال، وملك محمد البلد.

ذكر اتصال سعدي بن أبي الشوك بإبراهيم ينال وما كان منه في هذه السنة، في شهر ربيع الأول، فارق سعدي بن أبي الشوك عمه مهلهلاً، ولحق بإبراهيم ينال فصار معه. (٥٣٣/٩)

وسبب ذلك أن عمه تزوج أمه وأعمل جانبه واحتقره، وكذلك أيضاً قصر في مراعاة الأكراد الشاذنجان، فراسل سعدي إبراهيم ينال في اللحاق به، فأذن له في ذلك، وعده أن يملكه ما كان لأبيه، فسار إليه في جماعة من الأكراد الشاذنجان، فقوي بهم، فأكرمه ينال، وضم إليه جمعاً من الغز وسيره إلى حلوان فملكها.

وخطب فيها لإبراهيم يَنَال في شهر ربيع الأول، وأقام بها أياماً ورجع إلى مايدشت، فسار عمّه مهلهل إلى حُلوان فملكها، وقطع منها خطبة يَنَال.

فلَمَّا سمع سعدي بذلك سار إلى حُلوان، ففارقها عمّه مهلهل إلى ناحية بلوطة، وملك سعدي حُلوان وسار إلى عمّه سرخاب فكبسه ونهب ما كان معه، وسير جمعاً إلى البنديجين، فاستولوا عليها وقبضوا على نائب سرخاب بها، ونهبوا بعضها، وانهمز سرخاب، فصعد إلى قلعة دزديلوية، ثم عاد سعدي إلى قرميسين، فسير عمّه مهلهل ابنه بدرأ إلى حُلوان فملكها، فجمع سعدي وأكثر وعاد إلى حُلوان، ففارقها من كان بها من أصحاب عمّه إلا من كان بالقلعة، وملكها سعدي، وكان قد صحبه كثير من الغزّ، فسار بهم منها إلى عمّه مهلهل، وترك بها من يحفظها. فلَمَّا علم عمّه بقربه منه سار بين يديه إلى قلعة تيرانشاه، بقرب شهرزور، فاحتفى بها، وملك الغزّ كثيراً من النواحي والمواشي، وغنموا كثيراً من الأموال والدواب.

فلَمَّا رأى سعدي تحصّن عمّه منه خاف على من خلفه بخُلوان فعاد عازماً على محاصرة القلعة، فمضى وحصرها، وقتله من بها من أصحاب عمّه، ونهب الغزّ حُلوان، وفنكوا فيها واقتضوا الأبقار، وأحرقوا المساكن، وتفرّق الناس، وفعلوا في تلك النواحي جميعها أقبح فعل. (٥٣٤/٩)

ولَمَّا سمع أصحاب الملك أبي كاليجار ووزيره هذه الأخبار ندبوا العساكر إلى الخروج إلى مهلهل ومساعدته على ابن أخيه، ودفعه عن هذه الأعمال.

ثم إن سعدي أقطع أبي الفتح بن ورام البنديجين، واتّفقاً واجتمع على قصد عمّه سرخاب بن محمد بن عَنَاز، وحصره بقلعة دزديلوية، فساروا فيمن معهما من العساكر، فلَمَّا قاربوا القلعة دخلوا في مضيق هناك من غير أن يجعلوا لهم طليعة طمعاً فيه وإدلالاً لقوتهم، وكان سرخاب قد جعل على رأس الجبل، على فم المضيق، جمعاً من الأكراد، فلَمَّا دخلوا المضيق لقيهم سرخاب، وكان قد نزل من القلعة، فاقتتلوا، وعادوا ليخرجوا من المضيق، فتقطّرت بهم خيلهم، فسقطوا عنها ورامهم الأكراد الذين على الجبل، فوهنوا وأسر سعدي وأبو الفتح بن ورام وغيرهما من الرؤوس، وتفرّق الغزّ والأكراد من تلك النواحي، بعد أن كانوا قد توطّنوا وملكوها.

ذكر حصار طغرل بك أصبهان

في هذه السنة حصر طغرل بك مدينة أصبهان، وبها صاحبها أبو منصور فرامر بن علاء الدولة، وضيق عليه، ولم يظفر من البلد بطائل، ثم اصطلحوها على مالٍ يحمله فرامر بن علاء الدولة

لطغرل بك، وخطب له بأصبهان وأعمالها. (٥٣٥/٩)

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة خرج من الترك من بلد التبت خلقٌ لا يحصون كثرة، فراسلوا أرسلان خان، صاحب بلاساغون، يشكرونه على حسن سيرته في رعيته، ولم يكن منهم تعرّض إلى مملكته، ولكنهم أقاموا بها، وراسلهم، ودعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوا، ولم ينفروا منه.

وفيهما توفي أبو الحسن الخيشي النحوي في ذي الحجة، وله نيّف وتسعون سنة.

وفيهما اتحد علاء الدين أبو الغنائم ابن الوزير ذي السعادات إلى البطائع وحصرها، وبها صاحبها أبو نصر بن الهيثم، وضيق عليه، واجتمع مع جمع كثير.

وفيهما، في ذي القعدة، توفي عبد الله بن يوسف أبو محمد الجويني، والد إمام الحرمين أبي المعالي، وكان إماماً في الشافعية، تفقه على أبي الطيّب سهل بن محمد الصعلوكي، وكان عالماً بالأدب وغيره من العلوم، وهو من بني سنسب، بطن من طيء. (٥٣٦/٩)

سنة تسع وثلاثين وأربعمائة

ذكر صلح الملك أبي كاليجار والسلطان طغرل بك

في هذه السنة أرسل الملك أبو كاليجار إلى السلطان ركن الدين طغرل بك في الصلح، فأجابته إليه، واصطلحا، وكتب طغرل بك إلى أخيه يَنَال يأمره بالكفّ عمّا وراء ما بيده، واستقرّ الحال بينهما أن يتزوّج طغرل بك بابنة أبي كاليجار، ويتزوّج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرل بك، وجرى العقد في شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

ذكر القبض على سُرخاب أبي الشوك

في هذه السنة قبض الأكراد للرّية وجماعة من عسكر سُرخاب عليه، لأنّه أساء السيرة معهم ووترهم، فقبضوا عليه، وحملوه إلى إبراهيم يَنَال، فقلع إحدى عينيه، وطالبه بإطلاق سعدي بن أبي الشوك فلم يفعل. (٥٣٧/٩)

وكان أبو العسكر بن سُرخاب قد غاضبه لمّا قبض على سعدي، واعتزله كراهيةً لفعله، فلَمَّا أسر أبوه سرخاب سار إلى القلعة وأخرج سعدي ابن عمّه، وفك قيوده، وأحسن إليه وأطلقه، وأخذ عليه بطرح ما مضى، والسعي في خلاص والد سُرخاب، فسار سعدي، واجتمع عليه خلق كثير من الأكراد، ووصل إلى

مالأ من قلعة السَّيْران، فوصله تلك الليلة، فغنمه الغَزَّ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُ سَلِمَ مَعَهُ، وَنَجَا سَعْدِي مِنَ الْوَقْعَةِ بِجُرَيْعَةِ الذَّقْنِ، وَنَهَبَ فِغْنَمَهُ الْغَزَّ الدُّسَكِرَةَ، وَبَاجِسْرَى، وَالْهَارَوَيْتِيَّةَ، وَقَصَرَ سَابُورَ وَجَمِيعَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ.

ووصل الخبر إلى بغداد بأنَّ إبراهيم يَنَالُ عَازِمَ عَلَى قَصْدِ بَغْدَادَ، فَارْتَأَى (٥٣٩/٩) النَّاسَ، وَاجْتَمَعَ الْأَمْرَاءُ وَالْقَوَادُ إِلَى الْأَمِيرِ أَبِي مَنْصُورِ بْنِ الْمَلِكِ أَبِي كَالِبِجَارَ لِيَجْتَمِعُوا وَيَسِيرُوا إِلَيْهِ وَيَمْنَعُوهُ، وَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ، فَلَمْ يَخْرُجْ غَيْرَ خَيْمِ الْأَمِيرِ أَبِي مَنْصُورَ وَالْوَزِيرِ وَنَفَرِ سَيَرٍ، وَتَخَلَّفَ الْبَاقُونَ، وَهَلَكَ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ النُّوَاحِي الْمَنْهَوْبَةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ غُرِقَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ الْبَرْدَ.

ووصل سعدى إلى ذِيَالِي، ثُمَّ سَارَ مِنْهَا إِلَى أَبِي الْأَغْرَ دُبَيْسَ بْنِ مَزِيدَ فَأَقَامَ عِنْدَهُ، ثُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ يَنَالُ سَارَ إِلَى السَّيْرانِ، فَحَصَرَ الْقَلْعَةَ، وَضَيَّقَ عَلَى مَنْ فِيهَا، وَأَرْسَلَ سَرِيَّةَ نَهَبَتِ الْبِلَادَ، وَانْتَهَتْ إِلَى مَكَانٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَكْرِيتَ عَشْرَةِ فَرَسَاتٍ، وَدَخَلَ بَغْدَادَ مِنْ أَهْلِ طَرِيقِ خُرَاسَانَ خَلَقَ كَثِيرٌ، وَذَكَرُوا مِنْ حَالِهِمْ مَا أَبْكَى الْعَيُونَ، ثُمَّ سَلِمَهَا إِلَيْهِ مَسْتَحْفَظَةً، بَعْدَ أَنْ أَمَنَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَأَخَذَ مِنْهَا يَنَالُ مِنْ بَقَايَا مَا خَلَّفَهُ سَعْدِي شَيْئاً كَثِيراً، وَلَمَّا فَتَحَهَا اسْتَخْلَفَ فِيهَا مَقْدِماً كَبِيراً مِنْ أَصْحَابِهِ يُقَالُ لَهُ سَخَتْ كِمَانُ، وَانْصَرَفَ إِلَى خُلُونِ، وَعَادَ مِنْهَا إِلَى هَمْدَانَ وَمَعَهُ بَدْرٌ وَمَالٌ ابْنَا مَهْلَهْلَ فَأَكْرَمَهُمَا.

ثُمَّ إِنَّ صَاحِبَ قَلْعَةِ سَرْمَاجَ تَوَفَّى، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ بَدْرِ بْنِ حَسَنِيهِ، وَسُلِّمَتِ الْقَلْعَةُ بَعْدَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ يَنَالُ، وَسِيرَ إِبْرَاهِيمُ يَنَالُ وَزِيرَهُ إِلَى شَهْرَزُورَ فَأَخَذَهَا وَمَلِكُهَا، فَهَرَبَ مِنْهُ مَهْلَهْلُ، فَابْعَدَ فِي الْهَرَبِ. ثُمَّ نَزَلَ أَحْمَدُ عَلَى قَلْعَةِ تِيرَانِشَاةَ وَحَاصَرَهَا، وَنَقَبَ عَلَيْهَا عِدَّةَ نَقَبَاتٍ، ثُمَّ إِنَّ مَهْلَهْلًا رَاسَلَ أَهْلَ شَهْرَزُورَ يَعِدُهُمْ بِالْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ، وَيَأْمُرُهُم بِالْوُثُوبِ بِمَنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْغَزَّ، فَعْمَلُوا وَقَتَلُوا مِنْهُمْ، وَسَمِعَ أَحْمَدُ بْنُ طَاهِرٍ، فَعَادَ إِلَيْهِمْ وَأَوْقَعَ بِهِمْ وَنَهَبَهُمْ، وَقَتَلَ كَثِيراً مِنْهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ الْغَزَّ الْمُقِيمِينَ بِالْبَنْدَجِيْنِ وَمَنْ مَعَهُمْ سَارُوا إِلَى بَرَاذِ الرُّوزِ، (٥٤٠/٩) وَتَقَدَّمُوا إِلَى نَهْرِ السَّيْلِيلِ، فَاسْتَقْتَلُوا هُمُ وَأَبُو دُلْفِ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْجَوَانِيَّ قَتَالاً شَدِيداً ظَفَرَ فِيهِ أَبُو دُلْفِ، وَانْهَزَمَ الْغَزَّ وَأَخَذَ مَا مَعَهُمْ.

وَسَارَ، فِي ذِي الْحِجَّةِ، جَمْعَ مِنَ الْغَزَّ إِلَى بَلَدِ عَلِيِّ بْنِ الْقَاسِمِ الْكُرْدِيِّ، فَأَغَارُوا وَعَاتَوْا، فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمَضِيْقَ وَأَوْقَعَ بِهِمْ وَقَتَلَ كَثِيرَ مِنْهُمْ، وَارْتَجَعَ مَا غَنِمَهُ مِنْ بَلَدِهِ.

ذِكْرُ اسْتِغْلَاءِ أَبِي كَالِبِجَارَ عَلَى الْبَطِيحَةِ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ اشْتَدَّ الْحَصَارُ مِنْ عَسْكَرِ الْمَلِكِ أَبِي كَالِبِجَارَ عَلَى أَبِي نَصْرِ بْنِ الْهَيْثَمِ، صَاحِبِ الْبَطِيحَةِ، فَجَنَحَ إِلَى الصَّلْحِ،

إِبْرَاهِيمَ يَنَالُ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ الَّذِي أَرَادَ، فَفَارَقَهُ وَعَادَ إِلَى الدُّسَكِرَةِ، وَكَاتَبَ الْخَلِيفَةَ وَنَوَّابَ الْمَلِكِ أَبِي كَالِبِجَارَ بِالْعُودِ إِلَى الطَّاعَةِ وَأَقَامَ بِهَا.

ذِكْرُ مَلِكِ إِبْرَاهِيمَ يَنَالُ قَلْعَةَ كَنْكِوَرٍ وَغَيْرَهَا

فِي هَذِهِ السَّنَةِ سَارَ إِبْرَاهِيمُ يَنَالُ إِلَى قَلْعَةِ كَنْكِوَرٍ، وَبِهَا عُكْبَرُ بْنُ فَارَسٍ، صَاحِبُ كَرْشَاسَفَ، بْنُ عِلَاءِ الدَّوْلَةِ يَحْفَظُهَا لَهُ، فَامْتَنَعَ عُكْبَرُ بِهَا إِلَى أَنْ فَنِيَتْ ذَخَائِرُهُ، وَكَانَتْ قَلِيلَةً، فَلَمَّا نَفِدَتْ الذَّخَائِرُ عَمَدَ إِلَى بِيوتِ الطَّعَامِ الَّتِي فِي الْقَلْعَةِ وَمَلَأَهَا تَرَاباً وَحِجَارَةً، وَسَدَّ أَبْوَابَهَا، وَنَثَرَ مِنْ دَاخِلِ الْأَبْوَابِ شَيْئاً مِنْ طَعَامٍ، وَعَلَى رَأْسِ السَّرَابِ وَالْحِجَارَةِ كَذَلِكَ أَيْضاً، وَرَاسَلَ إِبْرَاهِيمَ فِي تَسْلِيمِ الْقَلْعَةِ إِلَيْهِ، عَلَى أَنْ يُوَفِّقَهُ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الرِّجَالِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ الْعَمَالِ، فَأَخَذَ عُكْبَرُ رَسُولَ إِبْرَاهِيمَ فَطَوَّفَهُ عَلَى الْبِيوتِ الَّتِي فِيهَا الطَّعَامُ، وَفَتَحَ مَوَاضِعَ مِنَ الْمَسْدُودِ فَرَأَاهَا مَمْلُوءَةً، فَظَنَّهَا طَعَاماً، وَقَالَ لَهُ عُكْبَرُ: مَا رَاسَلْتُ صَاحِبِكَ خَوْفاً مِنْ الْمَطَاوِلَةِ، وَلَا إِشْفَاقاً مِنْ نِفَادِ الْمِيرَةِ، لَكُنِّي أَحْبَبْتُ الدَّخُولَ فِي طَاعَتِهِ، فَإِنْ بَدَلَ لِي الْأَمَانُ عَلَى مَا طَلَبْتَهُ لِي وَلِلْأَمِيرِ كَرْشَاسَفَ وَأَمْوَالِهِ، وَلَمَنْ بِالْقَلْعَةِ، سَلَّمْتُ إِلَيْهِ، وَكَفَيْتُهُ مَوْئِنَةَ الْمَقَامِ.

فَلَمَّا عَادَ الرَّسُولُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَخْبَرَهُ أَجَابَهُ إِلَى مَا طَلَبَ، وَنَزَلَ عُكْبَرُ، (٥٣٨/٩) وَتَسَلَّمَهَا إِبْرَاهِيمُ، فَلَمَّا صَعِدَ إِلَى الْقَلْعَةِ انْكَشَفَتْ الْحِيَلَةُ، وَسَارَ عُكْبَرُ بِمَنْ مَعَهُ إِلَى قَلْعَةِ سَرْمَاجَ، وَصَعِدَ إِلَيْهَا.

وَلَمَّا مَلَكَ يَنَالُ كَنْكِوَرَ عَادَ إِلَى هَمْدَانَ، فَسِيرَ جَيْشاً لِأَخْذِ قَلْعَةِ سَرْمَاجَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ نَسِيئاً لَهُ اسْمُهُ أَحْمَدُ، وَسَلَّمَ إِلَيْهِ سُرْخَاباً لِيَفْتَحَ بِهِ قَلْعَاهُ، فَسَارَ بِهِ إِلَى قَلْعَةِ كَلْكَانَ، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِ، فَسَارُوا إِلَى قَلْعَةِ دَزْدِيلُوبَةِ فَحَصَرُوهَا، وَامْتَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ إِلَى الْبَنْدَجِيْنِ فَنَهَبُوهَا فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ، وَفَعَلُوا الْأَفْعَالِ الْفَظِيحَةَ مِنَ النَّهَبِ وَالْقَتْلِ وَافْتِرَاشِ النِّسَاءِ وَالْعَقُوبَةِ عَلَى تَخْلِيصِ الْأَمْوَالِ، فَمَاتَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ لَشَدَّةِ الضَّرْبِ.

وَسَارَتِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ إِلَى أَبِي الْفَتْحِ بْنِ رَوَّامٍ، فَانْصَرَفَتْ عَنْهُمْ خَوْفاً مِنْهُمْ، وَتَرَكَ حِلَّهُ بِحَالِهَا، وَقَصَدَ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِنَهَبِ حِلِّهِ، فَيَعُودَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَعْزِجُوا عَلَى النَّهَبِ وَتَبَعُوهُ، فَلَشَدَّةُ خَوْفِهِ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِ وَيَأْخُذُوهُ قَاتِلَهُمْ، فَظَفَرَ بِهِمْ، وَقَتَلَ وَأَسْرَ جَمَاعَةً مِنْهُمْ، وَغَنِمَ مَا مَعَهُمْ، وَرَجَعَ الْبَاقُونَ، وَأَرْسَلَ إِلَى بَغْدَادَ يَطْلُبُ نَجْدَةً خَوْفاً مِنْ عَوْدِهِمْ، فَلَمْ يَجِدْهُوَ لَعْدَمِ الْهَيْئَةِ وَقَلَّةِ إِمْسَاكِ الْأَمْرِ، فَغَبَرَ بَنُو رَوَّامٍ دَجَلَةَ إِلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ.

ثُمَّ إِنَّ الْغَزَّ أَسْرُوا إِلَى سَعْدِي بْنِ أَبِي الشُّوْكَ فِي رَجَبٍ، وَهُوَ نَازِلٌ عَلَى فَرَسَخَيْنِ مِنْ بَاجِسْرَى، وَكَبِسُوهُ، فَانْهَزَمَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ لَا يُلَوِي الْأَخِي عَلَى أَخِيهِ، وَلَا الْوَالِدَ عَلَى وَلَدِهِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَغَنِمَ الْغَزَّ أَمْوَالَهُمْ، وَنَهَبُوا تِلْكَ الْأَعْمَالِ، وَكَانَ سَعْدِي قَدْ أَنْزَلَ

فاشتط عليه أبو الغنائم ابن الوزير ذي السعادات، ثم استأمن نفر من أصحاب أبي نصر وملأه إليه إلى أبي الغنائم، وأخبروه بضغف أبي نصر، وعزمه على الانتقال من مكانه، فحفظ الطرُق عليه، فلما كان خامس صفر جرت وقعة كبيرة بين الفريقين، واشتد القتال، فظفر أبو الغنائم، فقتل من الباطنيتين جماعة كثيرة وغرق منهم سفن كثيرة، وتفرقوا في الأجام، ومضى ابن الهيثم ناجياً بنفسه في زيزب، ومُلكت داره ونهب ما فيها.

وفيها سَير المعز بن باديس صاحب إفريقية أسطولاً إلى جزائر القسطنطينية، فظفر وغنم وعاد.

وفيها أقتلت طوائف من تلكاة، قاتل بعضهم بعضاً، وكان بينهم حرب صبروا فيها، فقتل منهم خلق كثير.

وفيها قبض الملك أبو كاليبج على وزيره محمد بن جعفر بن أبي الفرج الملقب بذي السعادات بن فسانجس، وسجنه، وهرّب ولده أبو الغنائم، وبقي الوزير مسجوناً إلى أن مات في شهر رمضان سنة أربعين [وأربعمائة]، وقيل أرسل إليه أبو كاليبج من قتله، وعمره إحدى وخمسون سنة، وللوزير ذي السعادات مكاتبات حسنة، وشعر جيد منه:

أودعكم، وإنسي ذوا اجتباب وارحل عنكم، والقلب آبي
وإن فراقكم في كل حال لأوجع من مفارقة الشباب (٥٤٣/٩)
أسر، وما فمت لكم جواراً ولا ملت فزالكم ركامي
وأشكر كلما أوطنت داراً ليالينا القصار بلا اجتباب
وأذكركم، إذا هبت جنوب فتذكرني غرارات النصاب
لكم مني المودة في اغترابي وأنتم ألف نفسي في اقترابي
وهو أطول من هذا.

ولما قبض ذو السعادات استوزر أبو كاليبج كمال الملك أبا المعالي بن عبد الرحيم.

وفيها توفي أبو القاسم عبد الواحد بن محمد بن يحيى بن أيوب المعروف بالمطرز الشاعر، وله شعر جيد، فمن قوله في الزهد:

يا عبدكم لك من ذنبي ومعصية إن كنت ناسيها، فالله أخصاها
لا يذبا عبد من يوم تقوم به ووقفة لك يلمني القلب ذكراها
إذا عرضت على قلبي تذكرها وساء ظني فقلت استغفر اللها
وفيها مات أبو الخطّاب الجيلي الشاعر، ومضى إلى الشام، ولقي المعري، وعاد ضريراً، وله شعر منه قوله:

ما حكم الحب فهو مشل وما جناه الحبيب مُحتمل
تهوى، وتشكر الضنى، وكل هوى لا يُحلل الجسم، فهو متحل

وفيها توفي أبو محمد الحسن بن محمد بن الحسن الخلّال، الحافظ، ومولده (٥٤٤/٩) سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، سمع أبا بكر القطيعي وغيره، ومن أصحابه الخطيب أبو بكر الحافظ.

ذكر ظهور الأصغر وأسره

في هذه السنة ظهر الأصغر التغلبي برأس عين، وادّعى أنه من المذكورين في الكتب، واستغوى قوماً بمخاريق وضعها، وجمع جمعاً وغزا نواحي الروم، (٥٤١/٩) فظفر وغنم وعاد، وظهر حديثه، وقوي ناموسه، وعادوا الغزو في عدد أكثر من العدد الأول، ودخل نواحي الروم وأوغل، وغنم أضعاف ما غنمه أولاً، حتى بيعت الجارية الجميلة بالثمن البخس.

وتسامع الناس به فقصده، وكثر جمعه، واشتدت شوكته، وقُلت على الروم وطائنه. فأرسل ملك الروم إلى نصر الدولة بن مروان يقول له: إنك عالم بما بيننا من المودعة، وقد فعل هذا الرجل هذه الأفاعيل، فإن كنت قد رجعت عن المهادنة فعرفنا لتدبر أمرنا بحسبه.

وأتفق، في ذلك الوقت، أن وصل رسولاً من الأصغر إلى نصر الدولة أيضاً، يُنكر عليه ترك الغزو والميل إلى الدعة، فسأه ذلك أيضاً، واستدعى قوماً من بني نمير وقال لهم: إن هذا الرجل قد أثار الروم علينا، ولا قدرة لنا عليهم؛ وبذل لهم بدلاً على الفتك به، فساروا إليه، فقرّبهم، ولأزموه، فركب يوماً غير متحرّز، فأبعد وهم معه، فعضفوا عليه وأخذوه وحملوه إلى نصر الدولة بن مروان، فاعتقله، وتلافى أمر الروم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة تجددت الهدنة بين صاحب مصر وبين الروم، وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة.

وفيها كان ببغداد والموصل، وسائر البلاد العراقية والجزرية، غلاء عظيم، حتى أكل الناس الميتة، وتبعه وباء شديد مات في كثير من الناس، (٥٤٢/٩) حتى خلت الأسواق، وزادت أثمان ما يحتاج إليه المرضى، حتى بيع المن من الشراب بنصف دينار، ومن اللوز بخمسة عشر قيراطاً، والرمان بغيراطين، والخيار بغيراط، وأشباه ذلك.

وفيها جمع الأمير أبو كاليبج فناخسرو بن مجد الدولة بن بويه جمعاً، وسار إلى آمد، فدخلها، وساعده أهلها، وأوقع بمن كان

عجلة، وإن في جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع.

وكان قد دخل بلد الروم جمع من الغز يقدمهم إنسان نسيب طغرل بك، فلم (٥٤٧/٩) يؤثر كبير أثر، وقُتِلَ من أصحابه جماعة، وعاد، ودخل بعده إبراهيم يئال، ففعل هذا الذي ذكرناه.

ذكر موت الملك أبي كاليجار وملك ابنة الملك الرحيم

في هذه السنة توفي الملك أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، رابع جمادى الأولى، بمدينة جناب من كرمان.

وكان سبب مسيره إليها أنه كان قد عول في ولاية كرمان حرباً وخرباً على بهرام بن لشكرستان الديلمي، وقرر عليه مالا، فتراخى بهرام في تحرير الأمر، وأحاله إلى المغالطة والمدافعة، فشرع حينئذ أبو كاليجار في أعمال الحيلة عليه، وأخذ قلعة بردسير من يده، وهي معقله الذي يحتمي به ويعول عليه، فراسل بعض من بها من الأجناد وأفسدهم، فعلم بهم بهرام فقتلهم، وزاد نفوره واستشعاره، وأظهر ذلك، فسار إليه الملك أبو كاليجار في ربيع الآخر، فبلغ قصر مجاشع، فوجد في حلقه خشونة، فلم يبال بها، وشرب وتصيد وأكل من كبذ غزال منوي، واشتدت علته، ولحقه حمى، وضعف عن الركوب، ولم يمكنه المقام لعدم الميرة بذلك المنزل، فحُمِلَ في محفة على أعناق الرجال إلى مدينة جناب، وتوفي بها، وكان عمره أربعين سنة وشهوراً، وكان ملكه بالعراق بعد وفاة جلال الدولة أربع سنين وشهرين وثيقاً وعشرين يوماً. (٥٤٨/٩)

ولما توفي نهب الأتراك من العسكر الخزائن والسلاح والدواب، وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى مخيم الوزير أبي منصور، وكان منفرداً عن العسكر، فأقام عنده، فأراد الأتراك نهب الوزير والأمير، فمنعهم الديلم، وعادوا إلى شيراز، فملكها الأمير أبو منصور، واستشعر الوزير، وصعد إلى قلعة خرمة فامتنع بها.

فلما وصل خبر وفاته إلى بغداد وبها والده الملك الرحيم أبو نصر خرّه فيروز، أحضر الجند واستحلفهم، وراسل الخليفة القائم بأمر الله في معنى الخطبة له، وتلقيه بالملك الرحيم، وترددت الرسل بينهم في ذلك إلى أن أجيب إلى ملتصمه سوى الملك الرحيم فإن الخليفة امتنع من إجابته وقال: لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى.

واستقر ملكه بالعراق، وخوزستان، والبصرة، وكان بالبصرة أخوه أبو علي بن أبي كاليجار، وخلف أبو كاليجار من الأولاد: الملك الرحيم، والأمير أبا منصور فلاستون، وأبا طالب كامرو، وأبا المظفر بهرام، وأبا علي كيخسرو، وأبا سعد خسرو شاه، وثلاثة بنين

وفيها قُتِلَ الفقيه أحمد الزوالجي، وهو من أعيان الفقهاء الحنفية، إلا أنه كان يكثر الرقبة في الأئمة والعلماء، وسلك طريق الرياضة، وفسد دماغه، فقتل بين مرو وسرخس في ذي الحجة. (٥٤٥/٩)

سنة أربعين وأربعمئة

ذكر رحيل عسكر يئال عن تيرانشاه وعود مهلهل إلى شهرزور

قد ذكرنا في السنة المتقدمة استيلاء أحمد بن طاهر، وزير يئال، على شهرزور، ومحاصرته قلعة تيرانشاه، ولم يزل يحاصرها إلى الآن، فوقع في عسكره الوياء وكثر الموت، فأرسل إلى صاحبه يئال يستمده، ويطلب إنجاده، ويعرفه مهلهل ذلك سبر أحد أولاده إلى شهرزور، فملكها وانزعج الغز الذين بالسريوان وخافوا.

ثم سار جمع من عسكر بغداد إلى خلوان، وحصروا قلعتها، فلم يظفروا بها، فنهبوا تلك الأعمال، وأتوا على ما تخلف من الغز، فخربت الأعمال بالكلية، وسار مهلهل ومعه أهله وأمواله إلى بغداد، وبينه وبين بغداد ستة فراسخ، وسار جمع من عسكر بغداد إلى البندنجين، وبها جمع من الغز مع عكبر بن أحمد بن عياض، فتواقعوا، واقتتلوا، فانهزم عسكر بغداد، وقُتِلَ منهم جماعة، وأسر جماعة قُتلوا أيضاً صبراً. (٥٤٦/٩)

ذكر غزو إبراهيم يئال الروم

في هذه السنة غزا إبراهيم يئال الروم، فظفر بهم وغنم.

وكان هذه السنة ذلك أن خلقاً كثيراً من الغز بما وراء النهر قدماوا عليه، فقال لهم: بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، وتجاهدوا في سبيل الله، وتغنموا، وأنا سائر على أثركم، ومساعد لكم على أمركم. ففعلوا.

وساروا بين يديه، وتبعهم، فوصلوا إلى ملازكرد، وأرزن الروم، وقالِقلا، وبلغوا طرابزون وتلك النواحي كلها، ولقيهم عسكر عظيم للروم والأبخاز يبلغون خمسين ألفاً، فاقتتلوا، واشتد القتال بينهم، وكانت بينهم عدة وقائع تارة يظفر هؤلاء، وتارة هؤلاء، وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين، فأكثروا القتل في الروم وهزمهم، وأسروا جماعة كثيرة من بطارتهم، ومن أسر قاربط ملك الأبخاز، فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار، وهدايا بمائة ألف، فلم يجبه إلى ذلك، ولم يزل يجوس تلك البلاد وينهبها إلى أن بقي بينه وبين القسطنطينية خمسة عشر يوماً، واستولى المسلمون على تلك النواحي فنهبوا، وغنموا ما فيها، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس، وأخذوا من الدواب والبغال والغنم والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء، وقيل إن الغنائم حُمِلت على عشرة آلاف

أصاغر، فاستولى ابنه أبو منصور على شيراز، وسير إليه الملك الرحيم أخاه أبا سعد في عسكر، فملكوا شيراز، وخطبوا للملك الرحيم، وقبضوا على الأمير أبي منصور ووالدته، وكان ذلك في شوال (٥٤٩/٩).

ذكر محاصرة العساكر المصرية مدينة حلب

في هذه السنة سار الملك الرحيم من بغداد إلى خوزستان، فلقبه من بها من الجند وأطاعوه، وفيهم كرشاسف بن علاء الدولة الذي كان صاحب همدان (٥٥١/٩) وكنيكور، فإنه كان انتقل إلى الملك أبي كاليجار، بعد أن استولى ينال على أعماله، ولما مات أبو كاليجار سار الملك العزيز ابن الملك جلال الدولة إلى البصرة طمعاً في ملكها، فلقبه من بها من الجند وقتلوه وهزموه، فعاد عنها، وكان قبل ذلك عند قرواش ثم عند ينال، ولما سمع باستقامة الأمور للملك الرحيم انتقم أمه، ولما سار الملك الرحيم عن بغداد كثرت الفتن بها، ودامت بين أهل باب الأزج والأساكفة، وهم السنة، فأحرقوا عقاراً كثيراً.

وفيها سار سعدي بن أبي الشوك من حلة ديبس بن مزيد إلى إبراهيم ينال، بعد أن راسله، وتوثق منه، وتقرر بينهما أنه كل ما يملكه سعدي مما ليس بيد ينال ونوابه فهو له، فسار سعدي إلى الدسكرة، وجري بينه وبين من بها من عسكر بغداد حرب انهزموا (فيها) منه، وملكها وما يليها، فسير إليها عسكران من بغداد، فقتل مقدمهم وهزمهم، وسار من الدسكرة وتوسط تلك الأعمال بالقرب من يعقوب، ونهب أصحابه البلاد، وخطبوا لإبراهيم ينال.

وفيها كان ابتداء الوحشة بين معتمد الدولة قرواش بن المقلد وبين أخيه زعيم الدولة أبي كامل بن المقلد، فانضاف قريش بن بدران بن المقلد إلى عمه قرواش، وجمع جمعاً، وقاتل عمه أبا كامل، فظفر ونصر وانهزم أبو كامل، ولم يزل قريش يغري قرواشاً بأخيه حتى تأكدت الوحشة، وتفاقم الشر بينهما. (٥٥٢/٩)

وفيها خطب للأمير أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله بولاية العهد، ولقب ذخيرة الدين، وولي عهد المسلمين.

وفيها، في رمضان، قُتل الأمير أفسنغر بهمدان، قتله الباطنية لأنه كان كثير الغزو إليهم، والقتل فيهم، والنهب لأموالهم، والتخريب لبلادهم، فلما كان الآن قصد إنساناً من الزهاد ليزوره، فوثب عليه جماعة من الإسماعيلية فقتلوه.

وفيها توفي أبو الحسن محمد بن الحسن بن عيسى بن المقتدر بالله، وكان من الصالحين ورواة الحديث، وأوصى أن يدفن بجوار أحمد بن حنبل، ومولده سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، وأبو طالب محمد بن محمد بن غيلان البرزاز، ومولده سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، روى عن أبي بكر الشافعي وغيره، وتوفي في شوال، وهو راوي الأحاديث المعروفة بالغليات التي خرجها الدارقطني له، وهي من أعلى الحديث وأحسنه؛ وعبيد الله بن عمر ابن أحمد

في جمادى الآخرة وصلت عساكر مصر إلى حلب في جمع كثير فحصروها، وبها معز الدولة أبو علوان شمال بن صالح الكلابي، فجمع جمعاً كثيراً بلغوا خمسة آلاف فارس وراجل، فلما نزلوا على حلب خرج إليهم شمال وقاتلهم قتالاً شديداً، وكانوا ظنوا أن أحداً لا يقوم بين أيديهم، رحلوا عن البلد، فاتفق أن تلك الليلة جاء مطر عظيم لم ير الناس مثله، فجاءت المدود إلى منزلهم، وبلغ الماء ما يقارب قمتين، ولو لم يرحلوا لغرقوا، ثم رحلوا إلى الشام الأعلى.

ذكر الخلف بن قرواش والأكراد الحميدية والهندانية

في هذه السنة اختلف قرواش والأكراد الحميدية والهندانية، وكان للحميدية عدة حصون تجاور الموصل منها القفر وما قاربها، وللهندانية قلعة إربل وأعمالها، وكان صاحب القفر حيشد أبا الحسن بن عيسكان الحميدي، وصاحب إربل أبو الحسن بن موسك الهنداني، وله أخ اسمه أبو علي بن موسك فأعانه الحميدي على أخذ إربل من أخيه أبي الحسن، فملكها منه، وأخذ صاحبها أبا الحسن أسيراً.

وكان قرواش وأخوه زعيم الدولة أبو كامل بالعراق مشغولين، فلما عاد (٥٥٠/٩) إلى الموصل وقد سخطا هذه الحالة لم يظهرها، وأرسل قرواش يطلب من الحميدي والهنداني نجدة له على نصر الدولة بن مروان. فامأ أبو علي كان صاحب إربل، وأخذ إربل من أخيه أبي علي وتسليمها إليه، فإن امتنع أبو علي كان عوناً عليه، فأجاب إلى ذلك، ورهن عليه أهله وأولاده وثلاث قلاع من حصونه إلى أن يتسلم إربل، وأطلق من الحبس.

وكان أخ له قد استولى على قلاعه، فخرج إليها وأخذها منه، وعاد إلى قرواش وأخيه زعيم الدولة، فوثقا به، وأطلقا أهله، ثم إنه راسل أبا علي، صاحب إربل، في تسليمها، فأجاب إلى ذلك، وحضر بالموصل ليتسلم إربل إلى أخيه أبي الحسن، فقال الحميدي لقرواش: إني قد وفيت بعهدي، فتسلمان إلي حصوني؛ فسلماً إليه قلاعه، وسار هو وأبو الحسن، وأبو علي الهنداني إلى إربل ليتسلمها إلى أبي الحسن، فغدرا به في الطريق، وكان قد أحسن بالشر، فتخلف عنهما، وسير معهما أصحابه ليتسلموا إربل، فقبضا على أصحابه وطلبوه ليقبضوه، فهرب إلى الموصل، وتأكدت الوحشة حينئذ بين الأكراد وقرواش وأخيه، وتقاطعوا، وأضمر كل

بن عثمان أبو القاسم الواعظ المعروف بابن شاهين، ومولده سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

وفيهما كان الغلاء والوباء عاماً في البلاد جميعها، بمكة، والعراق، والموصل، والجزيرة، والشام، ومصر وغيرها من البلاد. وفيها قبض بمصر على الوزير فخر الملك صدقة بن يوسف وقتل، وكان أول أمره يهودياً فأسلم، واتصل بالزيري، وخدمه بالشام، ثم خافه فعاد إلى مصر، وخدم الجرجاني الوزير، وأنفق عليه، فلما توفي الجرجاني استوزره المستنصر إلى الآن، ثم قتله واستوزر القاضي أبا محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري في ذي القعدة (٥٥٣/٩).

سنة إحدى وأربعين وأربعمائة

ذكر ظهور الخلف بين قرواش وأخيه أبي كامل وصلحهما

في هذه السنة ظهر الخلف بين معتمد الدولة قرواش وبين أخيه زعيم الدولة أبي كامل ظهوراً آل إلى المحاربة، وقد تقدم سبب ذلك. فلما اشتد الأمر، وفسد الحال فساداً لا يمكن إصلاحه، جمع كل منهما جمعاً لمحاربة صاحبه، وسار قرواش في المحرم، وعبر دجلة بنواحي بلد، وجاءه سليمان بن نصر الدولة بن مروان، وأبو الحسن بن غيثكان الحميدي، وغيرهما من الأكراد، وساروا إلى معلّيا فأخربوا المدينة ونهبوها ونزلوا بالمُعينة، وجاء أبو كامل فيمن معه من العرب وآل المسيب، فنزّلوا بمرج بابنشا، وبين الطائفتين نحو فرسخ، واقتتلوا يوم السبت ثاني عشر المحرم، وافترقوا من غير ظفر، ثم اقتتلوا يوم الأحد كذلك، ولم يلبس الحرب سليمان بن مروان بل كان ناحية، ووافقه أبو الحسن الحميدي، وساروا عن قرواش، وفارقه جمع من العرب، وقصدوا أخاه، فضعف أمر قرواش، وبقي في حلة وليس معه إلا نفر يسير، فركبت العرب من أصحاب أبي كامل لقصد، فمتهم، وأسفر الصبح يوم الاثنين وقد تسرع بعضهم ونهب بعضاً من عرب قرواش، وجاء أبو كامل إلى قرواش واجتمع به ونقله إلى حلته، وأحسن عشرته (٥٥٤/٩) ثم أنفذه إلى الموصل محجوراً عليه وجعل معه بعض زوجاته في دار.

وكان ممّا فتّ في عضد قرواش وأضعف نفسه أنّه كان قد قبض على قوم من الصيادين بالأنبار لسوء طريقهم وفسادهم، فهرب الباقون منهم، وبقي بعضهم بالسندية، فلما كان الآن سار جماعة منهم إلى الأنبار، وتسلفوا السور ليلة خامس المحرم من هذه السنة، وقتلوا حراساً، وفتحوا الباب، ونادوا بشعار أبي كامل، فانضاف إليهم أهلهم وأصدقاؤهم ومن له هوى في أبي كامل، فكثروا، وثار بهم أصحاب قرواش، فاقتتلوا فظفروا وقتلوا من أصحاب معتمد الدولة قرواش جماعة، وهرب الباقون، فبلغه خبر

ثم إنَّ المسيب وأمراء العرب كلّفوا أبا كامل ما يعجز عنه، واشتطوا عليه، فخاف أن يؤول الأمر بهم إلى طاعة قرواش وإعادته إلى مملكته، فبادرهم إليه، وقيل يده وقال له: إني وإن كنت أخاك فإنني عبدك، وما جرى هذا إلا بسبب من أفسد راك في، وأشعرك الوحشة مني، والآن فانت الأمير وأنا الطائع لأمرك والتابع لك؛ فقال له قرواش: بل أنت الأخ، والأمر لك مسلّم، وأنت أقوم به مني. وصلح الحال بينهما، وعاد قرواش إلى التصرف على حكم اختياره.

وكان أبو كامل قد أقطع بلال بن غريب بن مقن خري، وأوانا، فلما اصطلح أبو كامل وقرواش أرسل إلى خري من منع بلالاً عنها، فظاھر بلال بالخلاف عليهما، وجمع إلى نفسه جمعاً وقاتل أصحاب قرواش، وأخذ خري وأوانا بغير اختيارهما، فانحدر قرواش من الموصل إليهما وحصرهما وأخذهما (٥٥٥/٩).

ذكر مسير الملك الرحيم إلى شيراز وعوده عنها

في هذه السنة، في المحرم، سار الملك الرحيم من الأهواز إلى بلاد فارس، فوصلها، وخرج عسكر شيراز إلى خدمته، ونزل بالقرب من شيراز ليدخل البلد.

ثم إنَّ الأتراك الشيرازيين والبغداديين اختلفوا، وجري بينهم مناشرة استظهر فيها البغاديون، وعادوا إلى العراق، فاضطر الملك الرحيم إلى المسير معهم، لأنّه لم يكن يثق بالأتراك الشيرازية.

وكان ديلم بلاد فارس قد مالوا إلى أخيه فولاستون، وهو بقلعة اصطخر، فهو أيضاً منحرف عنهم، فاضطر إلى صحبة البغداديين فعاد في ربيع الأول من هذه السنة إلى الأهواز وأقام بهسا، واستخلف بارجان أخوته أبا سعد، وأبا طالب، ووقع الخلف بفارس، فإنَّ الأمير أبا منصور، فولاستون، كان قد خلص وصار بقلعة اصطخر، واجتمع معه جماعة من أعيان العسكر الفارسي، فلما عاد الملك الرحيم إلى الأهواز انبسط في البلاد، وقصده كثير من العساكر، واستولى على بلاد فارس، ثم سار إلى أرجان عازماً على قصد الأهواز وأخذها.

ذكر الحرب بين البساسيري وعقيل

في هذه السنة سار جمع من بني عقيل إلى بلد العجم من أعمال العراق وتآذروا فنهبهما، وأخذوا من الأموال الكثير، وكانا في إقطاع البساسيري (٥٥٦/٩) فسار من بغداد بعد عوده من فارس إليهم، فالتقوا هم وزعيم الدولة أبو كامل بن المقلد، واقتتلوا قتلاً شديداً أبلى الفريقان فيه بلاء حسناً، وصبرا صبراً جميلاً، وقتل جماعة من الفريقين.

ذكر الوحشة بين طغرل بك وأخيه إبراهيم بن آل

في هذه السنة استوحش إبراهيم بن آل من أخيه السلطان طغرل بك.

وكان سبب ذلك أن طغرل بك طلب من إبراهيم بن آل أن يسلم إليه مدينة همدان والقلاع التي بيده من بلد الجبل، فامتنع من ذلك، وأنهم وزيره أبا علي بالسعي بينهما في الفساد، فقبض عليه، وأمر به فضرب بين يديه، وسمل إحدى عينيّه، وقطع شفتيّه، وسار عن طغرل بك، وجمع جمعاً من عسكره، والتقى، وكان بين العسكرين قتال شديد انهزم [فيه] بن آل وعاد منهزماً، فسار طغرل بك في أثره، فملك قلاعه وبلاده جميعها.

وتحصن إبراهيم بن آل بقلعة سراج، وامتنع على أخيه، فحصره طغرل بك فيها، وكانت عساكره قد بلغت مائة ألف من أنواع العسكر، وقتله، فملكها في أربعة أيام، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، واستنزل بن آل منها مقهوراً، وأرسل إلى نصر الدولة بن مروان يطلب منه إقامة الخطبة له في بلاده، فأطاعه وخطب له في سائر ديار بكر، وأرسل ملك الروم طغرل بك، وأرسل إليه هدية عظيمة، وطلب منه المعاهدة، فأجابه إلى ذلك.

وأرسل ملك الروم إلى ابن مروان يسأله أن يسعى في فداء ملك الأبخاز (٥٥٧/٩) المقدم ذكره، فأرسل نصر الدولة شيخ الإسلام أبا عبد الله بن مروان في المعنى إلى السلطان طغرل بك، فأطلقه بغير فداء، فعظم ذلك عنده وعند ملك الروم، وأرسل عوضه من الهدايا شيئاً كثيراً، وعمرأوا مسجد القسطنطينية، وأقاموا فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك، ودان حينئذ الناس كلهم له، وعظم شأنه وتمكن ملكه وثبت.

ولما نزل بن آل إلى طغرل بك أكرمه وأحسن إليه، وردّ عليه كثيراً ممّا أخذ منه، وخيره بين أن يقطعه ببلاداً يسير إليها، وبين أن يقيم معه، فأختار المقام معه.

ذكر الحرب بين دئيس بن مزيد وعسكر واسط

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين نور الدولة دئيس بن مزيد وبين الأتراك الواسطيين.

وسبب ذلك أن الملك الرحيم أقطع نور الدولة حماية نهر الصلّة، ونهر الفضل، وهما من إقطاع الواسطيين فسار إليهما ووليهما، فسمع عسكر واسط ذلك فسخطوه، واجتمعوا وساروا إلى نور الدولة ليقاتلوه ويدفعوه عنهما، وأرسلوا إليه يتهذّونه، فأعاد الجواب يقول: إن الملك أقطعني هذا، فترسل إليه أنا وأنتم، فبأي شيء أمر رضىنا به. فسبّوه، وساروا مجذّين إليه، فأرسل إلى طريقهم طائفة من عسكره، فلقوهم، وكمن لهم، فلمّا التقوا

استجرحهم (٥٥٨/٩) العرب إلى أن جاوزوا الكمين، وخرج عليهم الكمين فأوقعوا بهم، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، وأسروا كثيراً، وجرح مثلهم، وتمت الهزيمة على الواسطيين، وغنم نور الدولة أموالهم ودوابهم وساروا إلى واسط فتزلوا بالقرب منها.

وأرسل الواسطيون إلى بغداد يستنجدون جندها، ويبذلون للبساسيري أن يدفع عنهم نور الدولة، ويأخذ نهر الصلّة ونهر الفضل لنفسه.

ذكر وفاة مودود بن مسعود وملك عمّه عبد الرشيد

في هذه السنة، في العشرين من رجب، توفي أبو الفتح مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، وعمره تسع وعشرون سنة، وملكه تسع سنين وعشرة أشهر، وكان موته بغزنة، وكان قد كاتب أصحاب الأطراف في سائر البلاد، ودعاهم إلى نصرته وإمداده بالعساكر، وبذل لهم الأموال الكثيرة، وتفويض أعمال خراسان ونواحيها إليهم على قدر مراتبهم، فأجابوا إلى ذلك منهم أبو كاليجار، صاحب أصبهان، فإنه جمع عساكره وسار في المغازة، فهلك كثير من عسكره، ومرض وعاد.

ومنهم خاقان ملك الترك، فإنه سار إلى ترمذ، ونهب وخرب، وصادر أهل تلك الأعمال، وسارت طائفة أخرى ممّا وراء النهر إلى خوارزم.

وسار مودود من غزنة، فلم يسر غير مرحلة واحدة حتى عارضه قولنج اشتدّ عليه، فعاد إلى غزنة مريضاً، وسيّر وزيره أبا الفتح عبد الرزاق بن أحمد العيمندي إلى سجستان في جيش كثيف لأخذها من الغز، واشتدتّ العلة (٥٥٩/٩) بمودود فتوفي، وقام في الملك بعده ولده، بقي خمسة أيام ثم عدل الناس عنه إلى عمّه علي بن مسعود، وكان مودود لما ملك قبض على عمّه عبد الرشيد بن محمود وسجنه في قلعة ميدين، بطريق بست، فلمّا توفي كان وزيره قد قلب هذه القلعة، فنزل عبد الرشيد إلى العسكر ودعاهم إلى طاعته، فأجابوه وعادوا معه إلى غزنة، فلمّا قاربها هرب عنها علي بن مسعود، وملك عبد الرشيد، واستقر الأمر له، ولقب شمس دين الله سيف الدولة، وقيل جمال الدولة، ودفع الله شرّ مودود عن داود، وهذه السعادة التي تقتل الأعداء بغير سلاح ولا أجناد.

ذكر استيلاء البساسيري على الأنبار

في هذه السنة أيضاً، في ذي القعدة، ملك البساسيري الأنبار، ودخلها أصحابه.

وكان سبب ملكها أن قرواشاً أماء السيرة في أهلها، ومذّبه إلى أموالهم، فسار جماعة من أهلها غلى البساسيري ببغداد، وسألوه أن ينفذ معه عسكراً يسلمون إليه الأنبار، فأجابهم إلى ذلك،

الكرخ: الصلاة خيرٌ من النوم؛ وأظهروا الترحم على الصحابة، فبطل عبوره.

وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الصوري الحافظ، كان إماماً صاحب عبد الغني بن سعيد، وتخرج به، ومن تلامذته الخطيب أبو بكر.

وفيها توفي الملك العزيز أبو بكر منصور بن جلال الدولة، وقد ذكرنا تنقل الأحوال به فيما تقدم، وله شعر حسن.

وفيها توفي أحمد بن محمد بن أحمد أبو الحسن العتيفي، نسب إلى جد له يسمى عتيقاً، ومولده سنة سبع وستين وثلاثمائة.

وفيها توفي أبو القاسم عبد الوهاب ابن أقصى القضاة أبي الحسن المارودي، وكانت شهادته سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وقبلها القاضي في بيت النوبة، ولم يفعل ذلك مع غيره، وإنما فعل معه هذا احتراماً لأبيه. (٥٦٢/٩)

سنة الثنتين وأربعين وأربعمائة

ذكر ملك طغربك أصبهان

كان منصور بن علاء الدولة، صاحب أصبهان، غير ثابت على طريقة واحدة مع السلطان طغربك، كان يكثر التلون معه، تارة يطيعه وينحاز إليه، وتارة ينحرف عنه ويطيع الملك الرحيم، فأضمر له طغربك سوءاً، فلما عاد هذه الدفعة من خراسان لأخذ البلاد الجبلية من أخيه إبراهيم بن ينال، واستولى عليها، على ما ذكرناه، عدل إلى أصبهان عازماً على أخذها من أبي منصور، فسمع ذلك، فتحصن ببلده، واحتتم بأسواره، ونازله طغربك في المحرم، وأقام على محاصرته نحو سنة، وكثرت الحروب بينهما، إلا أن طغربك قد استولى على سواد البلد، وأرسل سرية من عسكره نحو فارس، فبلغوا إلى البيضاء، فأغاروا على السواد هناك وعادوا غانمين.

ولما طال الحصار على أصبهان، وأخرب أعمالها، ضاق الأمر بصاحبها وأهلها، وأرسلوا إليه يذلون له الطاعة والمال، فلم يجبههم إلى ذلك، ولم يقنع منهم إلا بتسليم البلد، فصبروا حتى نفذت الأقوات، وامتنع الصبر، وانقطعت الموائد، واضطر الناس حتى نقضوا الجامع، وأخذوا أخشابه لشاة الحاجة إلى الحطب، فحيث بلغ بهم الحال إلى هذا الحد خضعوا له واستكانوا، وسلموا البلد إليه فدخله وأخرج أجناده منه وأقطعهم في بلاد الجبل، (٥٦٣/٩) وأحسن إلى الرعية، وأقطع صاحبها أبا منصور ناحيتي يزد وأبرقوة، وتمكن من أصبهان ودخلها في المحرم من سنة ثلاث وأربعين [وأربعمائة] واستطابها، ونقل ما كان له بالري من مال وذخائر وسلاح إليها، وجعلها دار مقامه، وخرّب قطعة من

وسير معهم جيشاً، فتسلموا الأنبار، ولحقهم البساسيري وأحسن إلى أهلها وعدل فيهم، ولم يمكن أحداً من أصحابه أن يأخذ رطل الخبز بغير ثمنه، وأقام فيها إلى أن أصلح حالها وقرّر قواعدها وعاد إلى بغداد. (٥٦٠/٩)

ذكر انهزام الملك الرحيم من عسكر فارس

في هذه السنة عاد الملك الرحيم من الأهواز إلى رامهرمز في ذي القعدة، فلماً وصل إلى وادي الملح لقيه عسكر فارس، واقتتلوا قتلاً شديداً، ففقد بالملك الرحيم بعض عسكره، وانهزم هو وجميع العسكر، ووصل إلى بصري ومعه أخواه أبو سعد وأبو طالب، وسار منها إلى واسط، وسار عسكر فارس إلى الأهواز، فملكوها وخيموا بظاهرها.

ذكر عدة حوادث

وفيها وصل عسكر من مصر إلى حلب، وبها صاحبها ثمال بن صالح بن مرداس، فخافهم لكثرتهم، فأنصرف عنها، فملكها المصريون.

وفيها، في ذي القعدة، ارتفعت سحابة سوداء مظلمة ليلاً، فزادت ظلمتها على ظلمة الليل، وظهر في جوانب السماء كالنار المضطربة، وهبت معها ريح شديدة قلعت رواشن دار الخليفة، وشاهد الناس من ذلك ما أعجزهم وخوفهم، فلزموا الدعاء والتضرع، فانكشف في باقي الليل.

وفيها، في شعبان، سار البساسيري من بغداد إلى طريق خراسان وقصد ناحية الدزدار وملكها وغنم ما فيها، وكان سعدي بن أبي الشوك قد ملكها، وقد عمل لها سوراً وحصنها، وجعلها معقلاً يتحصن به، ويذخر بها كل ما يئتمه، فأخذه البساسيري جميعه. (٥٦١/٩)

وفيها منع أهل الكرخ من النوح، وفعل مل جرت عادتهم بفعله يوم عاشوراء، فلم يقبلوا وفعلوا ذلك، فجرى بينهم وبين السنة فتنة عظيمة قتل فيها وجرح كثير من الناس، ولم يفضل الشر بينهم حتى عبر الأتراك وضربوا خيامهم عندهم، فكفوا حيث شئ، ثم شرع أهل الكرخ في بناء سور على الكرخ، فلجأ رآهم السنة من القلائين ومن يجري مجراهم شرعوا في بناء سور على سوق القلائين، وأخرج الطافقان في العمارة مالا جليلاً، وجرت بينهما فتن كثيرة، وبطلت الأسواق، وزاد الشر، حتى انتقل كثير من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي فأقاموا به، وتقدم الخليفة إلى أبي محمد بن النسي بالعبور وإصلاح الحال وكف الشر، فسمع أهل الجانب الغربي ذلك، فاجتمع السنة والشيعه على المنع منه، وأذنوا في القلائين وغيرها بحيي على خير العمل، وأذنوا في

سورها وقال: وإنما يحتاجُ إلى الأسوار مَنْ تضعف قوّته، فأما من حصّنه عساكره وسيفه فلا حاجة به إليها.

ذكر عود عساكر فارس من الأهواز وعود الرحيم إليها

في هذه السنة، في المحرم، عادت عساكر فارس التي مع الأمير أبي منصور صاحبها عن الأهواز إلى فارس.

وسبب هذا العود أنّ الأجناد اختلّفوا، وشغبوا، واستطالوا وعاد بعضهم إلى فارس يغير أمر صاحبهم، وأقام بعضهم معه، وسار بعضهم إلى الملك الرحيم، وهو بالأهواز، يطلبونه ليعود إليهم، فعاد فيمن عنده من العساكر، وأرسل إلى بغداد يأمر العساكر التي فيها بالحضور عنده ليسير بهم إلى فارس، فلمّا وصل إلى الأهواز لقيه العساكر مقرّين بالطاعة، وأخبروه بطاعة عساكر فارس، وأنهم ينتظرون قدومه، فدخل الأهواز في شهر ربيع الآخر، فتوقّف بالأهواز ينتظر عساكر بغداد، ثمّ سار عنها إلى عسكر مكرّم فملكها وأقام بها. (٥٦٤/٩)

ذكر استيلاء زعيم الدولة على مملكة أخيه قرواش

في هذه السنة، في جمادى الأولى، استولى زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلّد على أخيه قرواش، وحجر عليه، ومنعه من التصرف على اختياره.

وسبب ذلك أنّ قرواشاً كان قد أنف من تحكّم أخيه في البلاد، وأنّه قد صار لا حكم له، فعمل على الانتحار إلى بغداد ومفارقة أخيه، وسار عن الموصل، فشقّ ذلك على بركة وعظم عنده.

ثمّ أرسل إليه نفرًا من أعيان أصحابه يشيرون عليه بالعود، واجتماع الكلمة، ويحذرونه من الفرقة والاختلاف، فلمّا بلغوه ذلك امتنع عليهم، فقالوا: أنت ممنوع عن فعلك، والرأي لك القبول والعود ما دامت الرغبة إليك؛ فلمع حينئذ أنّه يمنع قهراً، فأجاب إلى العود على شرط أن يسكنوا دار الإمارة بالموصل، وسار معهم. فلمّا قارب حلّة أخيه زعيم الدولة لقيه، وأنزله عنده، فهرب أصحابه وأهله خوفاً، فأثناء زعيم الدولة، وحضر عنده وخدمه وأظهر له الخدمة، وجعل عليه من يمنعه من التصرف على اختياره.

ذكر استيلاء الغزّ على مدينة فسا

وفيها، في جمادى الأولى، سار الملك ألب أرسلان بن داود أخي طغرل بك من مدينة مرو بخراسان، وقصد بلاد فارس في المفازة، فلم يعلم به أحد، ولا أعلم عمّه طغرل بك، فوصل إلى مدينة فسا، وانصرف النائب بها من بين يديه، ودخلها ألب أرسلان فقتل من الديلم بها ألف رجل، وعدداً (٥٦٥/٩) كثيراً من العامة، ونهبوا ما قدره ألف ألف دينار، وأسروا ثلاثة آلاف إنسان، وكان

الأمر عظيماً. فلمّا فرغوا من ذلك عادوا إلى خراسان ولم يلبثوا خوفاً من طغرل بك أن يرسل إليهم، ويأخذ ما غنموه منهم.

ذكر استيلاء الخوارج على عُمان

في هذه السنة استولى الخوارج المقيمون ببجبال عُمان على مدينة تلك الولاية.

وسبب ذلك أن صاحبها الأمير أبا المظفر ابن الملك أبي كالبجار كان مقيماً بها، ومعه خادماً له قد استولى على الأمور، وحكم على البلاد، وأساء السيرة في أهلها، فأخذ أموالهم، فنفروا منه وأبغضوه.

وعرف إنسان من الخوارج يُقال له ابن راشد الحال، فاجتمع من عنده منهم فقصد المدينة، فخرج إليه الأمير أبو المظفر في عساكره، فالتقوا واقتتلوا، فانهزمت الخوارج وعادوا إلى موضعهم.

وقام ابن راشد مدّة يجمع ويحتشد، ثم سار ثانياً، وقاتله الديلم فأعانه أهل البلد لسوء سيرة الديلم فيها، فانهزم الديلم، وملك ابن راشد البلد وقتل الخادم وكثيراً من الديلم، وقبض على الأمير أبي المظفر وسيّره إلى جباله مستظهِراً عليه، وسجن معه كلّ من خطّ بقلم من الديلم، وأصحاب الأعمال، وأخرب دار الإمارة، وقال: هذه أحقّ دار بالخراب! وأظهر العدل، وأسقط المكوس، واقتصر على رفع عشر ما يرد إليهم، وخطب لنفسه، وتلقّب بالراشد بالله، ولبس الصوف، وبنى موضعاً على شكل مسجد، (٥٦٦/٩) وقد كان هذا الرجل تحرّك أيضاً أيام أبي القاسم بن مكرّم وسيّره إليه أبو القاسم من منعه وحصره وأزال طمعه.

ذكر دخول العرب إلى إفريقية

في هذه السنة دخلت العرب إلى إفريقية.

وسبب ذلك أنّ المعزّ بن باديس كان خطب للقياسم بأمر الله الخليفة العباسي وقطع خطبة المستنصر العلوي، صاحب مصر، سنة أربعين وأربعمائة، فلمّا فعل ذلك كتب إليهم المستنصر العلوي يتهدّده، فأغلظ المعزّ في الجواب.

ثم إنّ المستنصر استوزر الحسن بن عليّ اليازوري، ولم يكن من أهل الوزارة، إمّا كان من أهل تبانة والفلاحة، فلم يخاطبه المعزّ كما كان يخاطبه من قبله من الوزراء؛ كان يخاطبهم بعبد فخطب اليازوري بصنيته، فعظم ذلك عليه فعاتبه فلم يرجع إلى ما يحبّ، فأكثر الوقعة في المعزّ، وأغرى به المستنصر، وشرعوا في إرسال العرب إلى الغرب، فأصلحوا بني زغبة ورياح، وكان بينهما حروب وحقوق، وأعطوهم مالا، وأمرهم بقصد بلاد القيروان، وملكوهم كلّ ما يفتحونه، ووعودهم بالمدد والتدّيد. فدخلت العرب إلى إفريقية، وكتب اليازوري إلى المعزّ: أما بعد،

فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً. وحملنا عليها رجالاً كهولاً. ليقضي الله أمراً كان مفعولاً... (٥٦٧/٩) فلما حلّوا أرض بركة وما ولاها وجدوا بلاداً كثيرة المرعى خالية من الأهل لأنّ زناتة كانوا أهلها، فأبادهم المعزّ، فأقامت العرب بها فاستوطنتها، وعاثوا في أطراف البلاد.

وبلغ ذلك المعزّ فاحتقرهم وكان المعزّ لما رأى تقاعس صنهاجة عن قتال زناتة، اشترى العبيد، وأوسع لهم في العطاء، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك. وكانت عرب زغبة قد ملكت مدينة طرابلس سنة ست وأربعين [وأربعمائة]، فتأبعت رياح والأنيج وبني عديّ إلى إفريقية، وقطعوا السيل وعاثوا في الأرض، وأرادوا الوصول إلى القيروان، فقال مؤنس بن يحيى المرداسي: ليس المبادرة عندي برأي؛ فقالوا: كيف تحب أن تصنع؟ فأخذ بساطاً فبسطه، ثم قال لهم: من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه، قالوا: لا نقدر على ذلك! قال: فهكذا القيروان، خذوها شيئاً فشيئاً حتّى لا يبقى إلا القيروان فخذوها حينئذ. فقالوا: إنك لشيوخ العرب وأميرها وأنت المقدم علينا، ولسنا نقطع أمراً دونك.

ثم قدم أمراء العرب إلى المعزّ، فأكرمهم وبذل لهم شيئاً كثيراً، فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان، بل شنّوا الغارات وقطعوا الطريق، وأفسدوا الزروع، وقطعوا الثمار، وحاصروا المدن، فضاق بالناس الأمر، وساءت أحوالهم، وانقطعت أسفارهم، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط، فحينئذ احتفل المعزّ وجمع عساكره، فكانوا ثلاثين ألف فارس، ومثلها رجالة، وسار حتّى أتى جندران، وهو جبل بينه وبين القيروان (٥٦٨/٩) ثلاثة أيام، وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس، فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعزّ هالهم ذلك، وعظم عليهم، فقال لهم مؤنس بن يحيى: ما هذا يوم فرا؟ فقالوا: أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكراغندات والمغافر، قال: في أعينهم؛ فسمّي ذلك اليوم يوم العين.

والتحم القتال، واشتدّت الحرب، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة، وترك المعزّ مع العبيد حتّى يرى فعلهم، ويقتل أكثرهم، فعند ذلك يرجعون على العرب، فانهزمت صنهاجة، وثبت العبيد مع المعزّ، فكثّر القتل فيهم، فقتل منهم خلقٌ كثير، وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب، فلم يمكنهم ذلك، واستمرت الهزيمة، وقُتل من صنهاجة أمة عظيمة، ودخل المعزّ القيروان مهزوماً، على كثرة من معه، وأخذت العرب الخيل والخيّام وما فيها من مالٍ وغيره، وفيه يقول بعض الشعراء:

وإن ابن باديس لأفضل مالك ولكن لعمرى مالى به رجال
ثلاثون ألفاً منهم غلبتهم ثلاثة ألفواً ذالماً مغلّ

ولما كان يوم النحر من هذه السنة جمع المعزّ سبعة وعشرين ألف فارس وسار إلى العرب جريدة، وسبق خبره، وهجم عليهم وهم في صلاة العيد، فركبت العرب خيولهم وحملت، فانهزمت صنهاجة، فقتل منهم عالم كثير.

ثم جمع المعزّ وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير، فلما أشرف على بيوت العرب، وهو قبليّ جبل جندران، انتشب القتال، واشتعلت نيران الحرب وكانت العرب سبعة آلاف فارس، فانهزمت صنهاجة وولّى كلّ رجل منهم إلى منزله، وانهزمت زناتة، وثبت المعزّ (٥٦٩/٩) فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يُسمع مثله، ثم انهزم وعاد إلى المنصورة، وأحصي من قُتل في صنهاجة ذلك اليوم، فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة.

ثم أقبلت العرب حتّى نزلت بمصلّى القيروان، ووقعت الحرب، فقتل من المنصورة ورفادة خلق كثير، فلما رأى ذلك المعزّ أباحهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء، فلما دخلوا استطالت عليهم العامة، ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربيّ وآخر عاميّ وكانت الغلبة للعرب.

وفي سنة أربع وأربعين [وأربعمائة] بني سور زويلة والقيروان، وفي سنة ست وأربعين حاصرت العرب القيروان، وملك مؤنس بن يحيى مدينة باجة، وأشار المعزّ على الرعية بالانتقال إلى المهدية لبعجزه عن حمايتهم من العرب.

وشرعت العرب في هدم الحصون والقصور، وقطعوا الثمار، وخربوا الأنهار، وأقام المعزّ والناس ينتقلون إلى المهدية إلى سنة تسع وأربعين، فعندها انتقل المعزّ إلى المهدية في شعبان، فتلّقاء ابنه تميم، ومشى بين يديه، وكان أبوه قد ولّاه المهدية سنة خمس وأربعين فأقام بها إلى أن قدم أبوه الآن.

وفي رمضان من سنة تسع وأربعين نهبت العرب القيروان.

وفي سنة خمسين خرج بُلكيّن ومعه العرب لحرب زناتة، فقاتلهم فانهزمت زناتة وقُتل منها عدد كثير.

وفي سنة ثلاث وخمسين وقعت الحرب بين العرب وهوارة، فانهزمت هوارة وقُتل منها الكثير.

وفي سنة ثلاث وخمسين قتل أهل تقيوس من العرب مائتين وخمسين رجلاً، وسبب ذلك أنّ العرب دخلت المدينة متسوّقة، فقتل رجل من العرب رجلاً متقدماً من أهل البلد لأنّه سمعه يشي على المعزّ ويدعو له، فلما قُتل (٥٧٠/٩) ثار أهل البلد بالعرب فقتلوا منهم العدد المذكور.

وكان ينبغي أن يأتي كلّ شيء من ذلك في السنة التي حدث

ساروا من أَرْجَان يطلبون تبستر، فسابقهم الرحيم إليها، وحال بينهم وبينها، والتقت الطلائع، فكان الظفر لعسكر الرحيم.

ثم إنَّ الإرجاف وقع في عسكر هزارسب وفاة الأمير أبي منصور ابن الملك أبي كاليجار بمدينة شيراز، فسقط في أيديهم وعادوا، وقصد كثير منهم الملك الرحيم فصاروا معه، فسير قطعة من الجيش إلى رامهرمز، وبها (٥٧٣/٩) أصحاب هزارسب، وقد أفسدوا في تلك الأعمال، فلما وصل إليها عسكر الرحيم خرج أولئك إلى قتالهم، فاقتلوا قتالاً شديداً أكثر فيه القتل والجراح، ثم انهزم أصحاب هزارسب فدخلوا البلد وحُصروا فيه، ثم ملك البلد عنوةً، ونهب وأسر جماعة من العساكر التي فيه، وهرب كثير منهم إلى هزارسب، وهو بإيلنج، وملك الملك الرحيم البلد في ربيع الأول من هذه السنة.

ذكر ملك الملك الرحيم إصطخر وشيراز

في هذه السنة سِير الملك الرحيم أخاه الأمير أبا سعد في جيش إلى بلاد فارس.

وكان سبب ذلك أنَّ المقيم في قلعة إصطخر، وهو أبو نصر بن خسرو، كان له أخوان قبض عليهما هزارسب بن بنكير بامر الأمير أبي منصور، فكتب إلى الملك الرحيم يبذل له الطاعة والمساعدة، ويطلب أن يسير إليه أخاه ليملكه بلاد فارس، فسير إليه أخاه أبا سعد في جيش، فوصل إلى دولتآباد، فأناه كثير من عساكر فارس الديلم، والترك، والعرب، والأكراد، وسار منها إلى قلعة إصطخر، فنزل إليه صاحبها أبو نصر فلقبه وأصعده إلى القلعة، وحمل له وللعساكر التي معه الإقامات والخلع وغيرها.

ثم ساروا منها إلى قلعة بهندر فحاصروها، وأناه كتب بعض مستحفظي البلاد الفارسية بالطاعة، منها مستحفظ درابجرد وغيرها، ثم سار إلى شيراز فملكها في رمضان، فلما سمع أخوه الأمير أبو منصور، وهزارسب، ومنصور بن الحسين الأسدي ذلك، ساروا في عسكرهم إلى الملك (٥٧٤/٩) الرحيم فهزموه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وفارق الأهواز إلى واسط، ثم عطفوا من الأهواز إلى شيراز لإجلاء الأمير أبي سعد عنها، فلما قاربوها لقيهم أبو سعد وقاتلهم فهزمهم، فالتجؤوا إلى جبل قلعة بهندر، وتكررت الحروب بين الطائفتين إلى منتصف شوال، فتقدمت طائفة من عسكر أبي سعد فاقتلوا عامة النهار ثم عادوا، فلما كان الغد التقى العسكران جميعاً واقتلوا، فانهزم عسكر الأمير أبي منصور، وظفر أبو سعد، وقتل منهم خلقاً كثيراً، واستأمن إليه كثير منهم، وصعد أبو منصور إلى قلعة بهندر واحتسب بها، وأقام إلى أن عاد إلى ملكه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ولما فارق الأمير أبو منصور الأهواز أعيدت الخطبة للملك

فيها، وإنما أوردناه متابعاً ليكون أحسن لسياقته، فإنه إذا انقطع وتخلته الحوادث في السنين لم يقم.

ذكر عدة حوادث

فيها سار المهلهل بن محمد بن عتاز أخو أبي الشوك إلى السلطان طغرلبيك، فأحسن إليه وأقره على إقطاعه، ومن جملة السيروان، ودقوقا، وشهرزور، والصامغان، وشفعه في أخيه سرخاب بن محمد بن عتاز، وكان محبوباً عند طغرلبيك، وسار سرخاب إلى قلعة الماهكي، وهي له، وأقطع سعدي بن أبي الشوك الراوندن.

وفيها قبض المستنصر بمصر على أبي البركات عم أبي القاسم الجرجاني، واستوزر القاضي أبا محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري، ويزور من أعمال الرملة.

وفيها توفي محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الصمد بن المهدي بالله أبو الحسين، ومولده سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

وفيها، في شعبان، توفي أبو الحسن علي بن عمر القزويني، الزاهد، وكان من الصالحين، روى الحديث، والحكايات، والأشعار، وروى عن ابن نباتة شيئاً من شعره، فمن ذلك قال ابن نباتة: (٥٧١/٩)

وإذا عجزت عن العلو فداره وامرُجْ له إنَّ المزاج وفاء
فالنار بالماء الذي هو ضلعا تعطي الضجاج وطبعها الإحراق
وفيها، في ذي القعدة، توفي أبو القاسم عمر بن ثابت النحوي الضري، المعروف بالثمانيني (٥٧٢/٩)

سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة

ذكر نهب سرق والحرب الكائنة عندها وملك الرحيم رامهرمز

وفيها، في المحرم، اجتمع جمع كثير من العرب والأكراد، وقصدوا سرق من خوزستان، ونهبوها، ونهبوا دورق، ومقدمهم مطارد بن منصور، ومذكور بن نزار، فأرسل إليهم الملك الرحيم جيشاً، ولقوهم بين سرق ودورق، فاقتلوا، فقتل مطارد وأسر ولده، وكثر القتل فيهم، واستنقذوا ما نهبوه، ونجا الباقيون على أقبح صورة من الجراح والنهب، فلما تم هذا الفتح للملك الرحيم انتقل من عسكر مكرم متقدماً إلى قطرة أريق، ومعه ديبس بن مزيد والباساسيري وغيرها.

ثم إنَّ الأمير أبا منصور، صاحب فارس، وهزارسب بن بنكير، ومنصور بن الحسين الأسدي، ومن معهما من الديلم والأترک،

الرحيم، وأرسل من بها من الجند يستدعونهم إليهم.

ذكر انهزام الملك الرحيم بالأهواز

لما انصرف الأمير أبو منصور، وهزارسب، ومن معهما من منزلهم قريب تستر، على ما ذكرناه، مضوا إلى إيدج وأقاموا فيها، وخافوا الملك الرحيم واستضعفوا نفوسهم عن مقاومته، فاتفق رأيهم على أن راسلوا السلطان طغرل بك، وبذلوا له الطاعة، وطلبوا منه المساعدة، فأرسل إليهم عسكرياً كثيراً، وكان قد ملك أصبهان، وفرغ باله منها.

وعرف الملك الرحيم ذلك، وقد فارقه كثير من عسكره، منهم: البساسيري ونور الدولة دبّيس بن مزّيد، والعرب، والأكراد، وبقي في الديلم الأهوازية وطائفة قليلة من الأتراك البغداديين كانوا قد وصلوا إليه أخيراً، فقرر رأيهم على أن (٥٧٥/٩) عاد من عسكر مكرم إلى الأهواز لأنها أحصن، ويتنظر بالمقام فيها وصول العساكر، ورأى أن يرسل أخاه الأمير أبا سعد إلى فارس، حيث طلب إلى اصطخر، على ما ذكرناه، وسير معه جمعاً صالحاً من العساكر ظناً منه أن أخاه إذا وصل إلى فارس ومُلكت قلعة اصطخر انزعج الأمير أبو منصور، وهزارسب، ومن معهما، واشتغلوا بتلك النواحي عنه، فازداد قلقاً وضغطاً، فلم يلتفت أولئك إلى الأمير أبي سعد بل ساروا مجتئين إلى الأهواز، فوصلوها أواخر ربيع الآخر.

ووقعت الحرب بين الفريقين يومين متتابعين كثر فيهما القتال واشتد، فانهزم الملك الرحيم، وسار في نفر قليل إلى واسط، ولقي في طريقه مشقة وسلم واستقرّ بواسطة في من لحق به من المنهزمين، ونهبت الأهواز، وأحرق فيها عدة محال، وفقد في الواقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي بن عبد الرحيم، وزير الملك الرحيم، فلم يُعرف له خبر.

ذكر الفتنة بين العامة ببغداد وإحراق المشهد على ساكنيه السلام في هذه السنة، في صفر، تجددت الفتنة ببغداد بين السنة والشيعية وعظمت أضعاف ما كانت قديماً، فكان الاتفاق الذي ذكرناه في السنة الماضية غير مأمون الانتقاض، لما في الصدور من الإلحاح. (٥٧٦/٩)

وكان سبب هذه الفتنة أن أهل الكرخ شرعوا في عمل باب السماكين وأهل القلائين في عمل ما بقي من باب مسعود، ففرغ أهل الكرخ، وعملوا أبراجاً كتبوا عليها باللعب: محمد وعلي خير البشر؛ وأنكر السنة ذلك وأدعوا أن المكتوب: محمد وعلي خير البشر فمن رضي فقد شكر، ومن أبي فقد كفر؛ وأنكر أهل الكرخ الزيادة وقالوا ما تجاوزنا ما جرت به عادتنا في ما نكتبه على مساجدنا. فأرسل الخليفة القائم بأمر الله أبا تمام نقيب العباسيين

ونقيب العلويين، وهو عدنان بن الرضي، لكشف الحال وإنهائه، فكتباً بتصديق قول الكرخيين، فأمر حينئذ الخليفة ونواب الرحيم بكف القتال، فلم يقبلوا؛ وانتدب ابن المذهب القاضي، والزهير، وغيرهما من الحنابلة أصحاب عبد الصمد [أن] يحمل العامة على الإغراق في الفتنة، فأمسك نواب الملك الرحيم عن كفهم غيظاً من رئيس الرؤساء لميله إلى الحنابلة، ومنع هؤلاء السنة من حمل الماء من دجلة إلى الكرخ، وكان نهر عيسى قد انفتح بثقته، فعظم الأمر عليهم، وانتدب جماعة منهم وقصدوا دجلة وحملوا الماء وجعلوه في الظروف وصبوا عليه ماء الورد، ونادوا: الماء للسبيل؛ فأغروا بهم السنة.

وتشدّد رئيس الرؤساء على الشيعة، فمحو: خير البشر، وكتبوا: عليهما السلام، فقالت السنة: لا نرضى إلا أن يقطع الأجر الذي عليه محمد وعلي وأن لا يؤذّن: حيّ على خير العمل؛ وامتنع الشيعة من ذلك، ودام القتال إلى ثالث ربيع الأول، وقُتل فيه رجل هاشمي من السنة، فحمله أهله على نعش، وطافوا به في الحريّة، وباب البصرة، وسائر محال السنة، واستغفروا الناس (٥٧٧/٩) للأخذ بثأره، ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل، وقد اجتمع معهم خلق كثير أضعاف ما تقدّم.

فلما رجعوا من دفنه قصدوا مشهد باب التبن فأغلق بابه، فنقبوا في سوره وتهذّوا البواب، فخافهم وفتح الباب فدخلوا ونهبوا ما في المشهد من قناديل ومحارِب ذهب وقصّة وستور وغير ذلك، ونهبوا ما في التبر والدور، وأدركهم الليل فعدّوا.

فلما كان الغد كثر الجمع، فقصدوا المشهد، وأحرقوا جميع التبر والأزاج، واحترق ضريح موسى، وضريح ابن ابنه محمد بن علي، والجوار، والقبتان السّاج اللتان عليهما، واحترق ما يقابلهما ويجاورهما من قبور ملوك بني بويه، معز الدولة، وجلال الدولة، ومن قبور الوزراء والرؤساء، وقبر جعفر بن أبي جعفر المنصور، وقبر الأمير محمد بن الرشيد، وقبر أمّه زبيدة، وجري من الأمر الفظيع ما لم يجر في الدنيا مثله.

فلما كان الغد خامس الشهر عادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمد بن علي لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر، فجاء الحفر إلى جانبه.

وسمع أبو تمام نقيب العباسيين وغيره من الهاشميين السنة الخير، فجأوا ومنعوا عن ذلك، وقصد أهل الكرخ إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه، وقتلوا مدرّس الحنفية أبا سعد السرخسي، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء. وتعدّت الفتنة إلى الجانب الشرقي، فاقُتل أهل باب الطاق وسوق بيح، والأساقفة، وغيرهم.

ولما انتهى خبر إحراق المشهد إلى نور الدولة دبّيس بن مزّيد

ذكر عدة حوادث

ظهر ببغداد يوم الأربعاء، سابع صفر وقت العصر، كوكب غلب نوره على نور الشمس، وله ذؤابة نحو ذراعين، وسار سيراً بطيئاً ثم انقضى، والناس يشاهدونه. (٥٨٠/٩)

وفيهما، في رمضان، ورد رسل السلطان طغرل بك إلى الخليفة جواباً عن رسالة الخليفة إليه، وشكراً لإنعام الخليفة عليه بالخلع والألقاب، وأرسل معه طغرل بك إلى الخليفة عشرة آلاف دينار عينا، وأعلاماً نفيسة من الجواهر، والثياب، والطيب، وغير ذلك، وأرسل خمسة آلاف دينار للحاشية، وألفي دينار لرئيس الرؤساء، وأنزل الخليفة الرسل بباب المراتب، وأمر بإكرامهم، ولما جاء العيد أظهر أجناد بغداد الزينة الرائقة، والخيول النفيسة، والتجانيف الحسنة، وأرادوا إظهار قوتهم عند الرسل.

وفيهما عاد الغز أصحاب الملك داود أخي طغرل بك عن كرمان، وسبب عودهم أن عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، سار عنها إلى خراسان، فالتقى هو والملك داود، واقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم داود، فاقتضى الحال عود أصحابه عن كرمان. وفيها أيضاً عاد السلطان طغرل بك من أصبهان إلى الري.

وفيهما توفي أبو كاليبجار كرشاسف بن علاء الدولة بن كاكويه بالأهواز، وكان قد استخلفه بها الأمير أبو منصور عند عودها إلى شيراز، فلما توفي خطب للملك الرحيم بالأهواز.

وفيهما توفي أبو عبد الله الحسين بن المرتضى الموسوي.

وفيهما، في ربيع الأول، توفي أبو الحسن محمد بن محمد البصري الشاعر، وهو منسوب إلى قرية تسمى بصرى قريب عكبرا، وكان صاحب نادرة، قال له رجل: شربت البازحة ماءً كثيراً، فاحتجت إلى القيام كل ساعة كأنني جدي؛ فقال له: لِمَ تصغر نفسك؟ ومن شعره: (٥٨١/٩)

ترى الدنيا وزينتها قصبو وما يخلو من الشهوات قلبُ
فصورك العيش أكثرها همومُ وأكثر ما يضرّك ما تحبُ
فلا يفرّك زخرف ما تراه وعيش ليس الأعطاف رطبُ
إذا ما بلغتْ جأتهك عفواً فخذها، فالغنى مَرعى وشربُ
إذا اتّسق القليلُ وفيه ميلُ فلا تردّ الكثير وفيه حربُ
(٥٨٢/٩)

سنة أربع وأربعين وأربعمائة

ذكر قتل عبد الرشيد صاحب غزنة وملك فرّخ زاد

في هذه السنة قُتل عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين

عظم عليه (٥٧٨/٩) واشتدّ وبلغ منه كلّ مبلغ لأنّه وأهل بيته وسائر أعماله من النيل، وتلك الولاية كلّهم شيعة، فقطعت في أعماله خطبة الإمام القائم بأمر الله، فروسل في ذلك وعوتب، فاعتذر بأنّ أهل ولايته شيعة، واتفقوا على ذلك، فلم يمكنه أن يشقّ عليهم كما أن الخليفة لم يمكنه كفت السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا، وأعاد الخطبة إلى حالها.

ذكر عصيان بني قرّة على المستنصر بالله بمصر

في هذه السنة، في شعبان، عصى بنو قرّة بمصر على المستنصر بالله الخليفة العلوي.

وكان سبب ذلك أنّه أمر عليهم رجلاً منهم يقال له المقرب، وقدمه، فنفروا من ذلك وكرهوه واستعفوا منه، فلم يعزله عنهم، فكاشفروا بالخلاف والعصيان، وقاموا بالجيزة مقابل مصر، وتظاهروا بالفساد، فعبر إليهم المستنصر بالله جيشاً يقاتلهم ويكفهم، فقاتلهم بنو قرّة فانهمز الجيش، وكثر القتل فيهم، فانتقل بنو قرّة إلى طرف البر، فعظم الأمر على المستنصر بالله، وجمع العرب من طيء، وكتب، وغيرهما من العساكر، وسيّرهم في أثر بني قرّة، فادركوهم بالجيزة، فواقعوهم في ذي القعدة، واشتدّ القتال، وكثر القتل في بني قرّة، وانهزموا وعاد العسكر إلى مصر، وتركوا في مقابل بني قرّة طائفة منهم لتردّ بني قرّة إن أرادوا التعرّض للبلاد، وكفى الله شرهم. (٥٧٩/٩)

ذكر وفاة زعيم الدولة وإمارة قريش بن بدران

في هذه السنة، في شهر رمضان، توفي زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلّد بتكرت، وكان انحدر إليها في حلله قاصداً نحو العراق لينازع الثّواب به عن الملك الرحيم، وينهب البلاد، فلما بلغها انتقض عليه جرح كان أصابه من الغز لما ملكوا الموصل، فترقى، ودفن بمشهد الخضر بتكرت.

واجتمعت العرب من أصحابه على تأمير علم الدين أبي المعالي قريش بن بدران بن المقلّد، فعاد بالحلل والعرب إلى الموصل، وأرسل إلى عمّه قرواش، وهو تحت الاعتقال، يعلمه بوفاة زعيم الدولة، وقيامه بالإمارة، وأنّه يتصرف على اختياره، ويقوم بالأمر نيابة عنه. فلما وصل قريش إلى الموصل جرى بينه وبين عمّه قرواش منازعة ضعف فيها قرواش، وقوي ابن أخيه، ومالت العرب إليه واستقرت الإمارة له، وعاد عمّه إلى ما كان عليه من الاعتقال الجميل، والانتصار به على قليل من الحاشية والنساء والنفقة، ثم نقله إلى قلعة الجراحية من أعمال الموصل، فاعتقل بها

صاحب غزنة. فعلموا، وتهذّبهم إن (٥٨٤/٩) امتنعوا فسلموه إليه، فأخذ طغرل فقتله، واستولى على البلد وتزوّج ابنة مسعود كرهاً.

وكان في الأعمال الهندية أمير يسمّى خرخيز، ومعه عسكر كثير، فلما قتل طغرل عبد الرشيد واستولى على الأمر كتب إليه ودعاه إلى الموافقة والمساعدة من ارتجاع الأعمال من أيدي الغزّ، ووعده على ذلك، وبذل البذل الكثير، فلم يرضَ فعله، وأنكره وامتنع منه، وأغلظ له في الجواب، وكتب إلى ابنة مسعود بن محمود زوجة طغرل، ووجه القوّاد ينكر ذلك عليهم، ويؤخّهم على إغضائهم وصبرهم على ما فعله طغرل من قتل ملكهم وابن ملكهم ويحثّهم على الأخذ بشأره. فلما وقفا على كتبه عرفوا غلظتهم ودخل جماعة منهم على طغرل، ووقفوا بين يديه، فضربه أحدهم بسيفه وتبعه الباقون فقتله.

وورد خرخيز الحاجب بعد خمسة أيّام، وأظهر الحزن على عبد الرشيد، وذمّ طغرل ومن تابعه على فعله، وجمع وجوه القوّاد وأعيان أهل البلد وقال لهم: قد عرفتم ما جرى مما خولفت به اللبانة والأمانة، وأنا تابع، ولا بدّ للأمر من سائن، فاذكروا ما عندكم من ذلك! فأشاروا بولاية فرّخ زاد بن مسعود بن محمود، وكان محبوباً في بعض القلاع، فأحضر وأجلس بدار الإمارة وأقام خرخيز بين يديه يدبّر الأمور، وأخذ من أغان على قتل عبد الرشيد فقتله. فلما سمع داود أخو طغربك صاحب خراسان بقتل عبد الرشيد جمع عساكره وسار إلى غزنة، فخرج إليه خرخيز ومنعه وقاتله، فانهزم (٥٨٥/٩) داود وغنم ما كان معه.

ولما استقرّ ملك فرّخ زاد وثبت قدمه جهّز جيشاً جرّاراً إلى خراسان فاستقبلهم الأمير كلّسارغ، وهو من أعظم الأمراء، فقاتلهم، وصبر لهم، فظفروا به، وانهزم أصحابه عنه، وأخذ أسيراً، وأسر معه كثير من عسكر خراسان ووجوهم وأمرائهم. فجمع ألب أرسلان عسكراً كثيراً، وسير والده داود في ذلك العسكر إلى الجيش الذي أسر كلّسارغ، فقاتلهم وهزمهم، وأسر جماعة من أعيان العسكر، فأطلق فرّخ زاد الأسرى وخلع على كلّسارغ وأطلقه.

ذكر وصول الغزّ إلى فارس وانهزامهم عنها

في هذه السنة وصل أصحاب السلطان طغربك إلى فارس، وبلغوا إلى شيراز، ونزلوا بالبيضاء، واجتمع معهم العادل أبو منصور الذي كان وزير الأمير أبي منصور الملك أبي كاليجار، ودبّر أمرهم، فقبضوا عليه وأخذوا منه ثلاث قلاع، وهي: قلعة كبرة، وقلعة جويم، وقلعة بهندر، فأقاموا بها، وسار من الغزّ نحو ماثي رجل إلى الأمير أبي سعد، أخي الملك الرحيم وصاروا معه، وراسل أبو سعد الذين بالقلاع المذكورة، فاستمالهم، فأطاعوه وسلموا القلاع إليه وصاروا في خدمته.

وكان سبب ذلك أنّ حاجباً لمودود ابن أخيه مسعود، اسمه طغرل، وكان مودود قد قدّمه، ونوّه باسمه، وزوّجه أخته، فلما توفي مودود وملك عبد الرشيد أجرى طغرل على عادته في تقدّمه، وجعله حاجب حاجب، فأشار عليه طغرل بقصد الغزّ وإجلاتهم من خراسان، فتوقّف استبعاداً لذلك، فالتجّ عليه طغرل، فسبّره في ألف فارس، فسار نحو سجستان، وبها أبو الفضل نائباً عن بيغو، فأقام طغرل على حصار قلعة طاق، وأرسل إلى أبي الفضل يدعوه إلى طاعة عبد الرشيد، فقال له: إنني نائب عن بيغو، وليس من الدين والمروءة خيانتة، فأقصده، فإذا فرغت منه سلّمت إليك. فقام على حصار طاق أربعين يوماً فلم يتهيّا له فتحها؛ وكتب أبو الفضل إلى بيغو يعرفه حال طغرل، فسار إلى سجستان لينع عنها طغرل.

ثم إنّ طغرل ضجر من مقامه على حصار طاق فسار نحو مدينة سجستان، فلما كان على نحو فرسخ منها كمن بحيث لا يراه أحد لعلّه يجدها، وفرصة يتنهداها، فسمع أصوات دباب وبوقات، فخرج وسأل بعض من على (٥٨٣/٩) الطريق، فأخبره أن بيغو قد وصل، فعاد إلى أصحابه وأخبرهم وقال لهم: ليس لنا إلّا أن نلتقي القوم ونموت تحت السيوف أمرة، فإنّه لا سبيل لنا إلى الهرب لكثرتهم وقتلنا. فخرجوا من مكنهم، فلما رآهم بيغو سال أبا الفضل عنهم، فأخبره أنّه طغرل، فاستقلّ من معه، وسير طائفة من أصحابه لقتالهم، فلما رآهم طغرل لم يعرّج عليهم بل أقحم فرسه نهراً هناك فعبه، وقصد بيغو ومن معه، فقاتلهم، وهزمهم طغرل وغنم ما معهم، ثمّ عطف على الفريق الآخر، فصنع بهم مثل ذلك، وأمّ بيغو وأبو الفضل نحو هراة، وتبعهم طغرل نحو فرسخين، وعاد إلى المدينة فملكها، وكتب إلى عبد الرشيد بما كان منه، ويطلب الإمداد ليسير إلى خراسان، فأمده بعدة كثيرة من الفرسان، فوصلوا إليه، فاشتدّ بهم وأقام مديدة.

ثمّ حدث نفسه بالعود إلى غزنة والاستيلاء عليها، فأعلم أصحابه ذلك، وأحسن إليهم، واستوثق منهم، ورحل إلى غزنة طائراً للمراحل كاتماً أمره، فلما سار على خمسة فراسخ من غزنة أرسل إلى عبد الرشيد مخادعاً له يعلمه أن العسكر خالفوا عليه، وطلبوا الزيادة في العطاء، وأنهم عادوا بقلوب متغيّرة مستوحشة. فلما وقف على ذلك جمع أصحابه وأهل قنّته وأعلمهم الخبر، فحذّروه منه، وقالوا له إنّ الأمر قد أعجل عن الاستعداد، وليس غير الصعود إلى القلعة والتحصن بها. فصعد إلى قلعة غزنة وامتنع بها.

ووافى طغرل من الغد إلى البلد، ونزل في دار الإمارة، وراسل المقيمين بالقلعة في تسليم عبد الرشيد، ووعدهم، ورغبهم إن

واجتمع العسكر الشيرازي، وعليهم الظهير أبو نصر، وأوقعوا بالغز باب شيراز، فانهزم الغز، وأسر تاج الدين نصر بن هبة الله بن أحمد، وكان من المتقدمين عند الغز، فلما انهزم الغز سار العسكر الشيرازي إلى فسا، وقد كان (٥٨٦/٩) تغلب عليها بعض السفلى، وقوي أمره لاشتغال العساكر بالغز، فازالوا المتغلب عليها واستعادوها.

ذكر الحرب بين قريش وأخيه المقلد

في هذه السنة جرى خلف بين علم الدين قريش بن بدران وبين أخيه المقلد، وكان قريش قد نقل عمه قرواشاً إلى قلعة الجراحية من أعمال الموصل وسجنه بها وارتحل يطلب العراق، فجرى بينه وبين أخيه المقلد منازعة أدت إلى الاختلاف. فسار المقلد إلى نور الدولة ديبس بن مزيد ملتجئاً إليه، فحمل أخاه الفيظ منه على أن نهب حلتته وعاد إلى الموصل، واختلت أحواله، واختلفت العرب عليه، وأخرج نواب الملك الرحيم ببغداد إلى ما كان بيد قريش من العراق بالجانب الشرقي من عكبرا، والعلث، وغيرهما من قبض غلته، وسلم الجانب الغربي من أوانا ونهر بيطر إلى أبي الهندي بلال بن غريب.

ثم إن قريشاً استمال العرب وأصلحهم، فاذعنوا له بعد وفاة عمه قرواش، فإنه توفي هذه الأيام، وانحدر إلى العراق ليستعيد ما أخذ منه، فوصل إلى الصالحية، وسير بعض أصحابه إلى ناحية الحظيرة وما والاها، فنهبوا ما هناك وعادوا، فلقوا كامل بن محمد بن المسيب، صاحب الحظيرة، فأوقعوا بهم وقتلهم، فأرسلوا إلى قريش يعرضونه الحال، فسار إليهم في عدة كثيرة من العرب والأكراد، فانهزم كامل، وتبعه قريش فلم يلحقه، فقصد حليل بلال بن غريب، وهي خالية من الرجال، فنتهبها، وقتله بلال وأبلى بلاء حسناً ففرج ثم انهزم، وراسل قريش نواب الملك الرحيم يبذل الطاعة، (٥٨٧/٩) ويطلب تقرير ما كان عليه، فأجابوه إلى ذلك على كره لقرته وضعفهم، واشتغال الملك الرحيم بخوزستان عنهم، فاستقر أمره وقوي شأنه.

ذكر وفاة قرواش

في هذه السنة، مستهل رجب، توفي معتمد الدولة أبو المنيع قرواش بن المقلد العقيلي، الذي كان صاحب الموصل، محبوباً بقلعة الجراحية، من أعمال الموصل، على ما ذكرناه قبل، وحمل ميتاً إلى الموصل، ودفن بتل توبة من مدينة ينوى، شرقي الموصل.

وكان من رجال العرب، وذوي العقل منهم، وله شعر حسن، فمن ذلك ما ذكره أبو الحسن علي بن الحسن الباخري في دمية القصر من شعره:

لله در النابيات، فإنها صدأ الفوس وصيقل الأحرار

ما كنت إلا زسرة، قطعتني سيفاً، وأطلق شغرتي وغراري وذكر له أيضاً:

من كان يحمد، أو يذم مورثاً للمال من آباءه وجوده (٥٨٨/٩)

إنني امرؤ لله شكر وحده لي أشقر سمح العنان مغاور ومهند غضب، إذا جردته ومخفف لشد السنان كأنما وإذا حوت المال، إلا أنسي سلطت جوة يدي على تبديده

قيل إنه جمع بين أختين في نكاحه، فقيل له: إن الشريعة تحرّم هذا؛ فقال: وأي شيء عندنا تجيزه الشريعة؟ وقال مرة: ما في رقبتي غير خمسة أو ستة من البادية قتلهم، وأما الحاضرة فلا يعبأ الله بهم.

ذكر استيلاء الملك الرحيم على البصرة

في هذه السنة، في شعبان، سير الملك الرحيم جيشاً مع الوزير والبسايري إلى البصرة، وبها أخوه أبو علي بن أبي كالجبار، فحصره بها، فأخرج عسكره في السفن لقتالهم، فاقتلوا عدة أيام، ثم انهزم البصريون في الماء إلى البصرة، واستولى عسكر الرحيم على دجلة والأنهر جميعاً، وسارت العساكر على البر من المنزلة بيطاراً إلى البصرة، فلما قاربوها لقيهم رسل مضر وربيعة يطلبون الأمان، فأجابوهم إلى ذلك، وكذلك بذلوا الأمان لسائر أهلها، ودخلها الملك الرحيم فسر به أهلها، وبذل لهم الإحسان.

فلما دخل البصرة وردت إليه رسل الديلم بخوزستان يبذلون الطاعة، (٥٨٩/٩) ويذكرون أنهم ما زالوا عليها. فشكرهم على ذلك، وأقام بالبصرة ليصلح أمرها.

وأما أخوه أبو علي، صاحب البصرة، فإنه مضى إلى شط عثمان فتحصن به، وحضر الخندق، فمضى الملك الرحيم إليه وقتلهم، فملك الموضع ومضى أبو علي ووالدته إلى عبّادان، وركبوا البحر إلى مهربان، وخرجوا من البحر واكتروا دواب وساروا إلى أرجان عازمين على قصد السلطان طغرليك، وأخرج الملك الرحيم كل من بالبصرة من الديلم أجناد أخيه وأقام غيرهم.

ثم إن الأمير أبا علي وصل إلى السلطان طغرليك، وهو بأصبهان، فأكرمه وأحسن إليه، وحمل إليه مالا، وزوجه امرأة من أهله وأقطعه إقطاعاً من أعمال جرباذقان، وسلم إليه قلعتين من تلك الأعمال أيضاً. وسلم الملك الرحيم البصرة إلى البسايري ومضى إلى الأهواز، وتردّت الرسل بينه وبين منصور بن الحسين وهزارسب، حتى اصطلحوا، وصارت أرجان وتُسُتر للملك

الرحيم.

ذكر ورود سعدي العراق

وفيهما، في ذي القعدة، ورد سعدي بن أبي الشوك في جيش من عند السلطان طغرل بك إلى نواحي العراق، فنزل ما يندشت، وسار منها جريدة فيمن معه من الغز إلى أبي دلف الجاواني، فنذر به أبو دلف، وانصرف من بين (٥٩٠/٩) يديه، ولحقه سعدي فنهيه وأخذ ماله، وأفلت أبو دلف بحشاشة نفسه، ونهب أصحاب سعدي البلاد حتى بلغوا النعمانية، فأسرفوا في النهب والغارة، وقتكوا في البلاد، واقتضوا الأبيكار، فأخذوا الأموال والأثاث فلم يتركوا شيئاً، وقصد البندنجين.

وبلغ خبره إلى خاله خالد بن عمر، وهو نازل على الزرير ومطر ابني علي بن مقلبين، فأرسل إليه ولده مع أولاد الزرير ومطر يشكون إليه ما عاملهم به عمه مهلهل، وقرش بن بدران، فلقوه بخلوان وشكوا إليه حالهم، فوعدهم المسير إليهم والأخذ لهم ممن قصدهم. فسادوا من عنده، فلقبهم نفر من أصحاب مهلهل فواقعهم، فظفر بهم العقيليون وأسروهم.

وبلغ الخبر مهلهلاً، فسار إلى حلال الزرير ومطر في نحو خمسمائة فارس، فأوقع بهم على تل عكبرا ونهيه، وانهزم الرجال، فلقى خالد ومطر والزرير سعدي بن أبي الشوك على تآمراً، فأعلموه الحال وحملوه على قتال عمه، فتقدم إلى طريقه، والتقى القوم، وكان سعدي يجمع كثير، فظفر بعمه وأسرهم، وانهزم أصحابه في كل جهة، وأسر أيضاً مالك ابن عمه مهلهل، وأعاد الغنائم التي كانت معه على أصحابها وعاد إلى خلوان.

ووصل الخبر إلى بغداد، فارتج الناس بها وخافوا، وبرز عسكر الملك الرحيم ليقصدوا خلوان لمحاربة سعدي، ووصل إليهم أبو الأغر دبّيس بن مزيد الأسدي ولم يصنعوا شيئاً. (٥٩١/٩)

ذكر علة حوادث

في هذه السنة قبض عيسى بن خميس بن مقل على أخيه أبي غشام صاحب تكريت بها، وسجنه في سرداب بالقلعة، واستولى على تكريت.

وفيهما زلزلت خوزستان وأرجان وإسذج، وغيرها من البلاد زلازل كثيرة، وكان معظمها بأرجان، فخرّب كثير من بلادها وديارها، وانفجر جبل كبير قريب من أرجان وانصدح، فظهر في وسطه درجة مبنية بالأجر والجصّ قد خفيت في الجبل، فتعجب الناس من ذلك. وكان بخراسان أيضاً زلزلة عظيمة خربت كثيراً، وهلك بسببها كثير، وكان أشدها بمدينة يهق فأتى الخراب عليها، وخرب سورها ومساجدها، ولم يزل سورها خراباً إلى سنة أربع

وستين وأربعمائة، فأمر نظام الملك بيناته، فبني، ثم خرّبه أرسلان أرغو، بعد موت السلطان ملكشاه، وقد ذكرناه، ثم عمره مجد الملك البلاسي.

وفيهما عمل محضر ببغداد يتضمن القدر في نسب العلويين أصحاب مصر، وأنهم كاذبون في ادّعائهم النسب إلى علي، عليه السلام، وعزّوهم فيه إلى الديسانية من المجوس، والقذائية من اليهود، وكتب فيه العلويون، والعباسيون، والفقهاء، والقضاة، والشهود، وعمل به عدة نسخ، وسير في البلاد، وشيع بين الحاضر والبادي.

وفيهما شهد الشيخ أبو نصر عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد بن الصباغ، مصنف الشامل، عند قاضي القضاة أبي عبد الله الحسين بن علي بن ماکولا.

وفيهما حدث فتنة بين السنة والشيعة ببغداد، وامتنع الضبط، وانتشر (٥٩٢/٩) العيارون وتسلطوا، وجبوا الأسواق، وأخذوا ما كان يأخذه أرباب الأعمال، وكان مقدمهم الطقطقي والزبيق، وأعاد الشيعة الأذان يحيى على خير العمل، وكتبوا على مساجدهم: محمد وعلي خير البشر؛ وجرى القتال بينهم، وعظم الشر.

وفيهما زوّج نور الدولة دبّيس بن مزيد ابنه بهاء الدولة منصوراً بابنة أبي البركات بن البساميري.

وفيهما، في ربيع الأول توفي القاضي أبو جعفر السمناني بالموصل، وكان إماماً في الفقه على مذهب أبي حنيفة، والأصول على مذهب الأشعري، وروى الحديث عن الدارقطني وغيره.

وفي هذا الشهر توفي أيضاً أبو علي الحسن بن علي بن المذهب، الواعظ، وهو راوي مُسند أحمد بن حنبل. (٥٩٣/٩)

سنة خمس وأربعين وأربعمائة

ذكر الفتنة بين السنة والشيعة ببغداد

في هذه السنة، في المحرم، زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة، وكان ابتداءها وأواخر سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

فلما كان الآن عظم الشر، وأطرح المراقبة للسلطان، واختلط بالفريقين طوائف من الأتراك، فلما اشتد الأمر اجتمع القواد واتفقوا على الركوب إلى المحال وإقامة السياسة بأهل الشر والفساد، وأخذوا من الكرخ إنساناً علواً وقتلوه، فثار نساؤه، ونشرنا شعورهن واستغثن، فتبعهن العامة من أهل الكرخ، وجرى بينهم وبين القواد، ومن معهم من العامة، قتال شديد، وطرح الأتراك النار في أسواق الكرخ، فاحترق كثير منها والحقتها

بالأرض، وانتقل كثير من الكرخ إلى غيرها من المحال.

ومضى سعدي إلى قلعة روشنقباد.

ذكر عود الأمير أبي منصور إلى شيراز

في هذه السنة، في شوال، عاد الأمير أبي منصور فولاستون ابن الملك أبي كاليجار إلى شيراز مستولياً عليها، وفارقها أخوه الأمير أبو سعد.

ذكر استيلاء الملك الرحيم على أَرْجَان ونواحها

وكان سبب ذلك أَنَّ الأمير أبا سعد كان قد تقدّم معه في دولته إنسان يُعرف بعيمد الدين أبي نصر بن الظهير، فتحكّم معه، وأطرح الأجناد واستخفّ بهم، وأوحش أبا نصر بن خسرو، صاحب قلعة إصطخر، الذي كان قد استدعى الأمير أبا سعد وملّكه. (٥٩٦/٩)

فلما فعل ذلك اجتمعوا على مخالفته وتآلبوا عليه، وأحضر أبا نصر بن خسرو الأمير أبا منصور بن أبي كاليجار إليه وسعى في اجتماع الكلمة عليه، فأجابته كثير من الأجناد عميد الدين لكراتهم لعميد الدين، فقبضوا عليه، ونادوا بشعار الأمير أبي منصور، وأظهروا طاعته، وأخرجوا الأمير أبا سعد عنهم فعاد إلى الأهواز في نفر يسير، ودخل الأمير أبو منصور إلى شيراز مالكاً لها مستولياً عليها، وخطب فيها لطفريك وللملك الرحيم ولنفسه بعدهما.

ذكر إيقاع الباسيري بالأكرد والأعراب

وفيها، في شوال، وصل الخبر إلى بغداد بأنّ جمعاً من الأكرد وجمعاً من الأعراب قد أفسدوا في البلاد، وقطعوا الطريق ونهبوا القرى، طمعاً في السلطنة بسبب الغز، فسار إليهم الباسيري جريدة، وتبعهم إلى البوازيج، فأوقع بطوائف كثيرة منهم، وقتل فيهم، وغنم أموالهم، وانهمز بعضهم فعبروا الزاب عند البوازيج فلم يدركهم، وأراد العبور إليهم، وهم بالجانب الآخر، وكان الماء زائداً، فلم يتمكن من عبوره، فنجوا.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي الشريف أبو تمام بن محمد بن محمد بن عليّ الزيني، تقيب النقباء، وقام بعده في النقباء ابنه أبو عليّ.

وفيها توفي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أحمد البرمكي، وكان مكثراً من الحديث، سمع ابن مالك القطيعي وغيره، وإنما قيل له البرمكي لأنّه سكن محلة ببغداد تُعرف بالبرامكة، وقيل كان من قرية عند البصرة تُعرف بالبرمكية. (٥٩٧/٩)

سنة ست وأربعين وأربعمائة

ذكر فتنة الأتراك ببغداد

في هذه السنة، في المحرم، كانت فتنة الأتراك ببغداد.

وندّم القوّاد على ما فعلوا، وأنكر الإمام القائم بأمر الله ذلك، وصلاح الحال، وعاد الناس إلى الكرخ، بعد أن استقرّت القاعة بالديوان بكفّ الأتراك أيديهم عنهم. (٥٩٤/٩)

في هذه السنة، في جمادى الأولى، استولى الملك الرحيم على مدينة أَرْجَان، وأطاعه من كان بها من الجند، وكان المقدّم عليهم فولاذ بن خسرو الدّيلمّي.

وكان قد تغلّب على ما جاورها من البلاد إنسان متغلّب يسمّى خشنام، فأنفذ إليه فولاذ جيشاً فأوقعوا به وأجلوه عن تلك النواحي واستضافوا إلى طاعة الرّحيم.

وخاف هزارسب بن بنكير من ذلك لأنّه كان مبانئاً للملك الرحيم على ما ذكرناه، فأرسل يتضرّع ويتقرّب، ويسأل التقدّم إلى فولاذ بإحسان مجاورته، فأجيب إلى ذلك.

ذكر مرض السلطان طغرليک

في هذه السنة وصل السلطان طغرليک إلى أصبهان مريضاً، وقويّ الإرجاف عليه بالموت، ثمّ عوفي، ووصل إليه الأمير أبو عليّ ابن الملك أبي كاليجار الذي كان صاحب البصرة، ووصل إليه أيضاً هزارسب بن بنكير بن عياض، صاحب إيدخ، فإنّه كان قد خاف الملك الرحيم لما استولى على البصرة وأَرْجَان. فآكرهما طغرليک، وأحسن ضيافتهما، ووعدهما النصرة والمعونة.

ذكر عود سعدي بن أبي الشوك إلى طاعة الرحيم

قد ذكرنا سنة أربع وأربعين [وأربعمائة] وصول سعدي إلى العراق، وأسره عمّه، فلما أسره سار ولده بدر بن المهلهل إلى السلطان طغرليک، (٥٩٥/٩) وتحدّث معه في مراسلة سعدي ليطلق أباه، فسلمّ إليه طغرليک ولداً كان لسعدي عنده رهينة، وأرسل معه رسولاً يقول فيه: إن أردت فدية عن أسيرك هذا فهذا ولدي قد رددته عليك، وإن أبيت إلا المخالفة ومفارقة الجماعة قابلناك على فعلك.

فلما وصل بدر والرسول إلى همذان تخلف بدر، وسار الرسول إليه، فامتعض من قوله، وخالف طغرليک، وسار إلى خلوان، وأراد أخذها، فلم يُمكنه، وتردّد بين روشنقباد والبردان، وكتب الملك الرحيم، وصار في طاعته، فسار إليه إبراهيم بن إسحاق، وسخت كمان، وهما من أعيان عسكر طغرليک، في عسكر مع بدر بن المهلهل فأوقعوا به فانهزم هو وأصحابه وعاد الغز عنهم إلى خلوان، وسار بدر إلى شهرزور في طائفة من الغز،

وكان سببها أنهم تخلف لهم على الوزير الذي للملك الرحيم مبلغ كثير من رسومهم، فطالبوه، والخوا عليه، فاخفى في دار الخلافة، فحضر الأتراك بالديوان وطالبوه، وشكروا ما يلقونه منه من المطال بمالهم، فلم يُجابوا إلى إظهاره، فعدلوا عن الشكوى منه إلى الشكوى من الديوان، وقالوا: إنَّ أرباب المعاملات قد سكنوا بالحريم، وأخذوا الأموال، وإذا طلبناهم بها يمتنعون بالمقام بالحريم، وانتصب الوزير والخليفة لمنعنا عنهم، وقد هلكنا.

فتردّد الخطاب منهم، والجواب عنه، فقاموا نافرين، فلمّا كان الغد ظهر الخبر أنهم على عزم حصر دار الخلافة، فانزعج الناس لذلك وأخفوا أموالهم، وحضر البساسيري دار الخلافة، وتوصل إلى معرفة خبر الوزير، فلم يظهر له على خبر، فطلب من داره ودور من يُتهم به، وكسبت الدور، فلم يظهروا له على خبر.

وبلغ في غزوته هذه إلى أربن الروم، وعاد إلى أذربيجان، لما هجم الشاء من غير أن يملك ملازكره، وأظهر أنه يقيم إلى أن يتقضي الشاء، ويعود يتم غزاته، ثم توجه إلى الرّي فأقام بها إلى أن دخلت سنة سبع وأربعين [وأربعمائة] وعاد نحو العراق، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

فتردّد الخطاب منهم، والجواب عنه، فقاموا نافرين، فلمّا كان الغد ظهر الخبر أنهم على عزم حصر دار الخلافة، فانزعج الناس لذلك وأخفوا أموالهم، وحضر البساسيري دار الخلافة، وتوصل إلى معرفة خبر الوزير، فلم يظهر له على خبر، فطلب من داره ودور من يُتهم به، وكسبت الدور، فلم يظهروا له على خبر.

ذكر محاربة بني خفاجة وهزيمتهم

في هذه السنة، في رجب، قصد بنو خفاجة الجامعين، وأعمال نور الدولة دُيس، ونهبوا وقتلوا في أهل تلك الأعمال، وكان نور الدولة شرقيّ الفرات، وخفاجة غربيّهما، فأرسل نور الدولة إلى البساسيري يستنجد، فسار إليه، فلمّا وصل عبر الفرات من ساعته، وقاتل خفاجة وأجلاهم عن الجامعين، فانهزموا منه ودخلوا البرّ، فلم يتبعهم، وعاد عنهم، فرجعوا إلى الفساد فاستعدّ لسلك البرّ خلفهم أين قصدوا، وعطف نحوهم قاصداً حربهم، فدخلوا البرّ أيضاً، فتبعهم فلحقهم بخفان، وهو حصن بالبرّ، فأوقع بهم، وقتل منهم، ونهب أموالهم وجمالهم وعبيدهم وإماءهم، (٦٠٠/٩) وشردّهم كلّ شردّ، وحصر خفان ففتحته وخربته، وأراد تخريب القائم به، وهو بناء من آجر وكلس، وصانع عنه صاحبه ربيعة بن مُطاع بمالٍ بذله، فتركه وعاد إلى البلاد.

وركب جماعة من الأتراك إلى دار الروم فنهبوا، وأحرقوا البيع والقلايات، ونهبوا فيها دار أبي الحسن بن عبيد، وزير البساسيري.

وقام أهل نهر المعلّى، وباب الأزج، وغيرهما من المحالّ، في منافذ الدروب لمنع الأتراك، وانخرق الأمر، ونهب الأتراك كلّ من ورد إلى بغداد، (٥٩٨/٩) فغلت الأسعار، وعمدت الأقوات، وأرسل إليهم الخليفة ينهأهم، فلم يتنهأ، فأظهر أنه يريد الانتقال عن بغداد، فلم يزجروا.

هذا جميعه والبساسيري غير راضٍ بفعلهم، وهو مقيم بدار الخليفة. وتردّد الأمر إلى أن ظهر الوزير، وقام هم بالباقي من مالهم من ماله، وأثمان دوابه، وغيرها، ولم يزالوا في خبط وعسف، فعاد طمع الأكراد والأعراب أشدّ منه أولاً، وعادوا الغارة والنهب والقتل، فخرت البلاد وتفرّق أهلها.

وهذا القائم قبل أن كان علماً يهتدي به السفن، لما كان البحر يجيء إلى النجف، ودخل بغداد ومعه خمسة وعشرون رجلاً من خفاجة، عليهم البرانس، وقد شدّهم بالجمال إلى الجمال، وقتل منهم جماعة، وصلب جماعة، وتوجه إلى حربى فحصرها، وقرّر على أهلها تسعة آلاف دينار وأمنهم.

وانحدر أصحاب قريش بن بدران من الموصل طامعين، فكبسوا حبل كامل بن محمد بن المسيّب، وهي بالبردان، فنهبوا، وبها دواب، وجمال بخاتيّ للبساسيري، فأخذوا الجميع ووصل الخبر إلى بغداد، فزاد خوف الناس من العامة والأتراك، وعظم انحلال أمر السلطنة بالكلية وهذا من ضرر الخلاف.

ذكر استيلاء طغرل بك على أذربيجان وغزو الروم

في هذه السنة سار طغرل بك إلى أذربيجان، فقصد تبريز، وصاحبها الأمير أبي منصور وهسودان بن محمد الروادي، فأطاعه وخطب له وحمل إليه ما أرضاه به وأعطاه ولده رهينة، فسار طغرل بك عنه إلى الأمير أبي الأسوار، صاحب جزنة، فأطاعه أيضاً وخطب له، وكذلك سائر تلك النواحي أرسلوا إليه يذلّون الطاعة والخطة. (٥٩٩/٩)

في هذه السنة سار طغرل بك إلى أذربيجان، فقصد تبريز، وصاحبها الأمير أبي منصور وهسودان بن محمد الروادي، فأطاعه وخطب له وحمل إليه ما أرضاه به وأعطاه ولده رهينة، فسار طغرل بك عنه إلى الأمير أبي الأسوار، صاحب جزنة، فأطاعه أيضاً وخطب له، وكذلك سائر تلك النواحي أرسلوا إليه يذلّون الطاعة والخطة. (٥٩٩/٩)

ذكر وفاة القائد ابن حمّاد وما كان من أهله بعده

في هذه السنة، في رجب، توفي القائد ابن حمّاد، وأوصى إلى ولده محسن، وأوصاه بالإحسان إلى عمومته، فلمّا مات خالف ما أمره به، وأراد (٦٠١/٩) عزل جميعهم، فلمّا سمع عمّه يوسف بن حمّاد بما عزم عليه خالفه، وجمع جمعاً عظيماً وبنى قلعة في جبل منيع وسماها الطيّارة.

ثم إن محسنًا قتل من عمومته أربعة، فإزداد يوسف نفوراً؛ وكان ابن عمّه بلكين بن محمد في بلده أفيون، فكتب إليه محسن يستدعيه، فسار إليه، فلمّا قرب منه أمر محسن رجالاً من العرب أن يقتلوه، فلمّا خرجوا قال لهم أميرهم خليفة بن مكن: إن بلكين لم يزل محسنًا إلينا، فكيف نقتله؟ فأعلموه ما أمرهم به محسن، فخاف، فقال له الخليفة: لا تخف، وإن كنت تريد قتل محسن فأنا أقتله لك. فاستعدّ بلكين لقتاله، وسار إليه، فلمّا علم محسن بذلك وكان قد فارق القلعة عاد هارباً إليها، فأدركه بلكين فقتله، وملك القلعة وولّي الأمر، وكان ملكه القلعة سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

ذكر ابتداء الوحشة بين الباسميري والخليفة

في شهر رمضان من هذه السنة ابتدأت الوحشة بين الخليفة والباسميري.

وسبب ذلك أن أبا الغنائم وأبا سعد ابني المحلبان، صاحبي قريش بن بدران، وصلا إلى بغداد سرّاً، فامتعض الباسميري من ذلك، وقال: هؤلاء وصاحبهم كبسوا حبل أصحابه، ونهبوا وفتحوا البثوق، وأسرفوا في إهلاك الناس؛ وأراد أخذهم فلم يمكن منهم، فمضى إلى حربي، وعاد ولم يقصد دار الخلافة على عادته، فنسب ذلك إلى رئيس الرؤساء. واجتازت به سفينة لبعض أقارب رئيس الرؤساء، فمنعها وطالب بالضريبة (٦٠٢/٩) التي عليها، وأسقط مشاهرات الخليفة من دار الضرب، وكذلك مشاهرات رئيس الرؤساء، وحواشي الدار، وأراد هدم دور بني المحلبان، فمنع منه، فقال: ما أشكو إلا من رئيس الرؤساء الذي قد خرب البلاد وأطمع الغزّ وكاتبهم.

ودام ذلك إلى ذي الحجة، فسار الباسميري إلى الأنبار، وأحرق ناحيتي دما، والفلوجة، وكان أبو الغنائم بن المحلبان بالأنبار قد أتاه من بغداد، وورد نور الدولة دبس إلى الباسميري، معانوا له على حصرها، ونصب الباسميري عليها المجانيق، فهدم برجاً، ورماهم بالنفط فأحرق أشياء كان قد أعطاها أهل البلد لقتاله، ودخلها قهراً، فأسر مائة نفس، من بني خفاجة، وأسر أبا الغنائم بن المحلبان، فأخذ وقد ألقى نفسه في الفرات، ونهب الأنبار، وأسر من أهلها خمسمائة رجل، وعاد إلى بغداد ويدين إليه أبو الغنائم على جمل، وعليه قميص أحمر، وعلى رأسه برنس، وفي رجله

قيد، وأراد صلبه وصلب من معه من الأسرى، فسأله نور الدولة أن يؤخّر ذلك حتّى يعود، وأتى الباسميري إلى مقابل الناج، فقَبِل الأرض، وعاد إلى منزله، وترك أبا الغنائم لم يصلبه، وصلب جماعة من الأسرى، فكان هذا أوّل الوحشة.

ذكر وصول الغزّ إلى الدسكرة وغيرها

في شوال من هذه السنة وصل إبراهيم بن إسحاق، وهو من الأمراء الغزّة السليجوقية، إلى الدسكرة، وكان مقيماً بخلوان، فلمّا وصل إليها قاتله أهلها، ثم ضعفوا وعجزوا وهربوا متفرقين، ودخل الغزّ البلد فنهوه أقيح نهب، وضربوا النساء وأولادهن، فاستخرجوا بذلك أموالاً كثيرة، وساروا إلى (٦٠٣/٩) روشنباز لفتحها، وهي بيد سعدي، وأمواله فيها وفي قلعة البردان.

وكان سعدي قد فارق طاعة السلطان طغرل بك على ما ذكرناه، فلم يفتحها وأجلى أهل تلك البلاد، وخربت القرى، ونهبت أموال أهلها.

وسار طائفة أخرى من الغزّ إلى نواحي الأهواز وأعمالها، فنهبوا واجتاحوا أهلها، وقوي طمع الغزّ في البلاد وانخذل الديلم ومن معهم من الأتراك، وضعت نفوسهم.

ثم سیر طغرل بك الأمير أبا عليّ ابن الملك أبي كاليبجار، الذي كان صاحب البصرة، في جيش من الغزّ إلى خوزستان ليملكها، فوصل سابور خواست، وكاتب الديلم الذين بالأهواز يدعوهم إلى طاعته، ويعدّهم الإحسان إن أجابوا، والعقوبة إن امتنعوا، فمَنعهم من أطاع ومنهم من خالف، فسار إلى الأهواز فملكها واستولى عليها، ولم يعرض لأحد في مال ولا غيره، فلم يوافق الغزّ على ذلك، ومدّوا أيديهم إلى النهب والغارة والمصادرة، ولقي الناس منهم عنت وشدة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثرت الصراصر ببغداد، حتّى كان يُسمع لها بالليل دويّ كدويّ الجراد إذا طار.

وفيهما، في ذي الحجة، توفي أبو حسان المقلّد بن بدران أخو قريش بن بدران، صاحب الموصل.

وفيهما، في شوال، توفي قسطنطين ملك الروم، زوج تذورة بنت قسطنطين، الموسومة بالملك، وإتّما ملك قسطنطين هذا حيث تزوّجها.

وفيهما توفي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أبو عبد الله الأصهبانيّ المعروف بابن اللّبان، الفقيه الشافعي، وهو من أصحاب أبي حامد الأسفرائينيّ، وروى الحديث عن ابن المقرئ

طاهر البشنوي، صاحب قلعة فنك وغيرها من الحصون، وكان أبو طاهر هذا ابن أخت نصر الدولة بن مروان، فلم يخالف أبو طاهر، صاحب فنك، أباً حرب في الذي أشار به من تزويج الأمير موسك، فزوجه ابنته ونقلها إليه، فاطمناً حيثئذ موسك، وسار إلى سليمان، فعز به، وقبض عليه وحبسه.

ووصل السلطان طغرل بك إلى تلك الأعمال لما توجه إلى غزو الروم، على ما ذكرناه، فأرسل إلى نصر الدولة يشفع في موسك، فأظهر أنه توفي فشق ذلك على حميه أبي طاهر البشنوي، وأرسل إلى نصر الدولة وابنه سليمان فقال لهما: حيث أردتما قتله، فلم جعلتما ابتي طريقاً إلى ذلك، وقد تدموني العار؟ وتكر لهما، وخافه أبو حرب، فوضع عليه من سقاء سمّاً فقتله. (٦٠٧/٩)

وولي بعده ابن عبيد الله، فأظهر له أبو حرب الموعدة استصلاحاً له، وتبرأ إليه من كل ما قبل عنه، واستقر الأمر بينهما على الاجتماع وتجديد الأيمان، فنزلوا من فنك، وخرج إليهم أبو حرب من الجزيرة في نفر قليل فقتلوه.

وعرف والده ذلك، فأقلقه وأزعجه، وأرسل ابنه نصرأ إلى الجزيرة ليحفظ تلك النواحي، ويأخذ بثار أخيه، وسير معه جيشاً كثيراً.

وكان الأمير قريش بن بدران، صاحب الموصل، لما سمع قتل أبي حرب انتهز الفرصة، وسار إلى الجزيرة ليملكها، وكتب البختية والبشوية، واستمالهم، فنزلوا إليه واجتمعوا معه على قتال نصر بن مروان، فالتقوا واقتلوا قتالاً شديداً كثر فيه القتل، وصبر الفريقان، فكانت الغلبة أخيراً لابن مروان، وجرح قريش جراحة قوية بزوبين رمي به، وعاد عنه، وثبت أمر ابن مروان بالجزيرة، وعاد مراسلة البشوية والبختية، واستمالهم لعله يجد فيهم طمعاً، فلم يطيعوه.

ذكر وثوب الأتراك ببغداد بأهل البساسيري والقبض عليه ونهب دوره وأملاكه وتأكد الوحشة بينه وبين رئيس الرؤساء في هذه السنة ثارت فتنة ببغداد بالجانب الشرقي بين العامة، وثار جماعة من أهل السنة، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحضروا الديوان، وطلبوا أن يؤذن لهم في ذلك، وأن يُقدّم إلى أصحاب الديوان بمساعدتهم، فأجيبوا إلى ذلك، وحدث من ذلك شرٌ كثير. (٦٠٨/٩)

ثم إن أبا سعد النصراني، صاحب البساسيري، حمل في سفينة ستمائة جرة خمرأ ليحدرها إلى البساسيري بواسطه، في ربيع الآخر، فحضر ابن سكرة الهاشمي وغيره من الأعيان في هذا الباب، وتبعهم خلقٌ كثير، وحاجب باب المراتب من قِبل الديوان،

والمخلص وغيرها.

وتوفي فيها أحمد بن عمر بن روح أبو الحسن النهرواني، وله شعر جيد، فمنه أنه سمع رجلاً يتغنى وهو يقول:

وما طلبوا سوى قتلي فهان علي ما طلبوا
فاستوقفه وقال له: أضف إليه:

على قلبي الأحبة يا ثمادي في الهوى غلبوا
وبالهجرات من عيني طيب النوم قد سلوا
وما طلبوا سوى قتلي فهان علي ما طلبوا
(٦٠٥/٩)

سنة سبع وأربعين وأربعمائة

ذكر استيلاء الملك الرحيم على شيراز وقطع خطبة طغرل بك فيها في هذه السنة، في المحرم، سار قائد كبير من الديلم يسمى فولاذ، وهو صاحب قلعة إصطخر، إلى شيراز، فدخلها وأخرج عنها الأمير أبا منصور فولاستون، ابن الملك أبي كالجبار، فقصده فيروزاباد وأقام بها.

وقطع فولاذ خطبة السلطان طغرل بك في شيراز، وخطب للملك الرحيم، ولأخيه أبي سعد، وكتبهما يظهر لهما الطاعة، فعلما أنه يخدعهما بذلك، فسار إليه أبو سعد، وكان بأرجان، ومعه عساكر كثيرة، واجتمع هو وأخوه الأمير أبو منصور على قصد شيراز ومحاصرتها على قاعدة استقرت بينهما من طاعة أخيهما الملك الرحيم، فتوجه نحوها فيمن معها من العساكر، وحصروا فولاذ فيها.

وطال الحصار إلى أن عدم القوت فيها، وبلغ السعر سبعة أرطال حنطة بدينار، ومات أهلها جوعاً، وكان من بقي فيها نحو ألف إنسان، وتعدّر القيام (٦٠٦/٩) في البلد على فولاذ، فخرج هارباً مع من في صحبته من الديلم إلى نواحي البيضاء وقلعة إصطخر، ودخل الأمير أبو سعد والأمير أبو منصور شيراز، وعساكرهما، وملكوها، وقاموا بها.

ذكر قتل أبي حرب بن مروان صاحب الجزيرة

في هذه السنة قتل الأمير أبو حرب بن سليمان الدولة بن نصر الدولة بن مروان، وكان والده قد سلم إليه الجزيرة وتلك النواحي ليقم بها ويحفظها، وكان شجاعاً، مقداماً، استبد بالأمير، واستولى عليه، فجري بينه وبين الأمير موسك بن المعجلي ابن زعيم الأكراد البختية، وله حصون متينة شرقي الجزيرة، نفرة.

ثم راسله أبو حرب واستماله، وسعى أن يزوجه ابنة الأمير أبي

وقصدوا السفينة، وكسروا جرار الخمر وأراقوها.

وبلغ ذلك البساسيري، فعظم عليه ونسبه إلى رئيس الرؤساء، وتجذدت الوحشة، فكتب فتاوى أخذ فيها خطوط الفقهاء الحنفية بأن الذي فعل من كسر الجرار [وراقة الخمر] تعد غير واجب، وهي ملك رجل نصراني لا يجوز، وتردد القول في هذا المعنى، فتأكدت الوحشة من الجانبين، ووضع رئيس الرؤساء الأتراك البغداديين على ثلب البساسيري والذم له، ونسب كل ما يجري عليهم من نقض إليه، فطمعوا فيه، وسلكوا في هذا المعنى زيادة على ما أراد رئيس الرؤساء، وتمادت الأيام إلى رمضان، فحضروا دار الخليفة، واستأذنوا في قصد دور البساسيري ونهبها، فأذن لهم في ذلك، فقصدوها ونهبوها، وأحرقوها، وتكلوا بنسائه وأهله ونوابه، ونهبوا دوابه وجميع ما يملك ببغداد.

وأطلق رئيس الرؤساء لسانه في البساسيري وذمه، ونسبه إلى مكتبة المستنصر، صاحب مصر وأفسد الحال مع الخليفة إلى حد لا يرجى صلاحه، وأرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري فأبعده، وكانت هذه الحالة من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرل بك العراق، وقبض الملك الرحيم، وسيرد من ذلك ما تراه إن شاء الله تعالى. (٦٠٩/٩)

ذكر وصول طغرل بك إلى بغداد والخطبة له بها

قد ذكرنا قبل مسير طغرل بك إلى الري بعد عوده من غزو الروم، للنظر في ذلك الطرف، فلما فرغ من الري عاد إلى همدان في المحرم من هذه السنة، وأظهر أنه يريد الحج، وإصلاح مكة، والمسير إلى الشام ومصر، وإزالة المستنصر العلوي صاحبها.

وكتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها، فأمرهم بإعداد الأقوات والعلوفات. فعظم الإرجاف ببغداد، وقت في أعضاء الناس، وشغب الأتراك ببغداد، وقصدوا ديوان الخلافة.

ووصل السلطان طغرل بك إلى حلوان، وانتشر أصحابه في طريق خراسان، فأجفل الناس إلى عري ببغداد، وأخرج الأتراك خيامهم إلى ظاهر بغداد.

وسمع الملك الرحيم بقرب طغرل بك من بغداد، فأصعد من واسط إليها، وفارقه البساسيري في الطريق لمراسلة وردت من القائم في معناه إلى الملك الرحيم أن البساسيري خلع الطاعة، وكتب الأعداء، يعني المصريين، وأن الخليفة به على الملك عهود، وله على الخليفة مثله، فإن آثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد تولى الديوان تدبير أمره؛ فقال الملك الرحيم ومن معه: نحن لأوامر الديوان متبعون، وعنه منفصلون.

وكان سبب ذلك ما ذكر. وسار البساسيري إلى نور الدولة

ديس بن يزيد لمصاهرة بينهما، وأصعد الملك الرحيم إلى بغداد. وأرسل طغرل بك رسولا إلى الخليفة يببالغ في إظهار الطاعة والعبودية، وإلى الأتراك البغداديين يعدهم (٦١٠/٩) الجميل والإحسان. فأنكر الأتراك ذلك، وأرسلوا الخليفة في المعنى، وقالوا: إنا فعلنا بالبساسيري ما فعلنا، وهو كبيرنا، ومقدمنا، بتقديم أمير المؤمنين، ووعدنا أمير المؤمنين بإبعاد هذا الخصم عنا، ونراه قد قرب منا، ولم يمنع من المجيء. وسألوا التقدم عليه في العود فغولطوا في الجواب، وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئه، ويختار انقراض الدولة الدليمية.

ثم إن الملك الرحيم وصل إلى بغداد منتصف رمضان، وأرسل إلى الخليفة يظهر له العبودية، وأنه قد سلم أمره إليه ليفعل ما تقتضيه العواطف معه في تقرير القواعد مع السلطان طغرل بك، وكذلك قال من مع عبد الرحيم من الأمراء، فأجيبوا بأن المصلحة أن يدخل الأجناد خيامهم من ظاهر بغداد، وينصبوها بالحريم، ويُرسلوا رسولا إلى طغرل بك يذلون له الطاعة والخطبة، فأجابوا إلى ذلك وفعلوه، وأرسلوا رسلا إليه، فأجابهم إلى ما طلبوا، ووعدهم الإحسان إليهم.

وتقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرل بك بجوامع بغداد، فخطب له يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان من السنة، وأرسل طغرل بك يستأذن الخليفة في دخول بغداد، فأذن له، فوصل النهران وخرج الوزير رئيس الرؤساء إلى لقائه في موكب عظيم من القضاة والنقباء والأشراف، والشهود، والخدم، وأعيان الدولة، وصحبه أعيان الأمراء من عسكر الرحيم. فلما علم طغرل بك بهم أرسل إلى طريقهم الأمراء، ووزيره أبا نصر الكندري، فلما وصل رئيس الرؤساء إلى السلطان أبلغه رسالة الخليفة، واستحلفه للخليفة، وللملك الرحيم، وأمراء الأجناد، وسار طغرل بك ودخل بغداد يوم الاثنين لخمس بقين من الشهر (٦١١/٩) ونزل بباب الشَّامسية، ووصل إليه قريش بن بدران، صاحب الموصل، وكان في طاعته قبل هذا الوقت على ما ذكرناه.

ذكر وثوب العامة ببغداد بعسكر السلطان طغرل بك وقبض الملك

الرحيم

لما وصل السلطان طغرل بك بغداد دخل عسكره البلد للامتياز، وشراء ما يريدونه من أهلها، وأحسنوا معاملتهم، فلما كان الغد، وهو يوم الثلاثاء، جاء بعض العسكر إلى باب الأزج، وأخذ واحداً من أهله ليطلب منه تبتاً، وهو لا يفهم ما يريدون، فاستغاث عليهم، وصاح العامة بهم، ورجعهم، وهاجوا عليهم.

وسمع الناس الصياح، فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك، فارتج البلد من أقطاره، وأقبلوا من كل

وأصحابه، ونهب بغداد، ويقول: إنهم إنما خرجوا إليك بأمرى وأمانى، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أفسارق بغداد، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد، وحرمة الحرم تعظم، وأرى الأمر بالصدق فاطلق بعضهم، وأخذ جميع إقطاعات عسكر الرحيم، وأمرهم بالسعي في أرزاق يحصلونها لأنفسهم فتوجه كثير منهم إلى البساسيري ولزموه، فكثير جمعه ونفق سوقه.

وأمر طغرل بك بأخذ أموال الأتراك البغداديين، وأرسل إلى نور الدولة تيس يأمرة بإبعاد البساسيري عنه، ففعل، فصار إلى رجة مالك بالشام، على ما ذكره، وكاتب المستنصر، صاحب مصر، بالدخول في طاعته. وخطب نور الدولة لطغرل بك في بلاده، وانتشر الغزء السلجوقية في سواد بغداد، فنهبوا من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل ومن الشرقي إلى النهروان وأسافل الأعمال، وأسرفوا في النهب، حتى بلغ ثمن الثور ببغداد خمسة قواريط إلى عشرة، والحمار بقرطين إلى خمسة، وخرب السواد، وأجلى أهله عنه.

وضمن السلطان طغرل بك البصرة والأهواز من هزارسب بن بنكير بن عياض (٦١٤/٩) بثلاثمائة ألف وستين ألف دينار، وأقطعه أرتجان، وأمره أن يخطب لنفسه بالأهواز، دون الأعمال التي ضمنها، وأقطع الأمير أبا علي بن أبي كاليجار الملك قريسين وأعمالها، وأمر أهل الكرخ أن يؤذنوا في مساجدهم سحراً: الصلاة خير من النوم؛ وأمر بعمارة دار المملكة، فعمرت، وزيد فيها، وانتقل إليها في شوال.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وقعت الفتنة بين الفقهاء الشافعية والحنابلة ببغداد، ومقدم الحنابلة أبو علي بن الفراء، وابن التميمي، وتبعهم من العامة الجع الغفير، وأنكروا الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، ومنعوا من الترجيع في الأذان، والقنوت في الفجر، ووصلوا إلى ديوان الخليفة، ولم ينفصل حال، وأتى الحنابلة إلى مسجد بيباب الشعير، فنهوا إمامه عن الجهر بالسلمة، فأخرج مصحفاً وقال: أزيلوها من المصحف حتى لا اتلوها.

وفيها كان بمكة غلاء شديد، وبلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربي، ثم تعذر وجوده، فأشرف الناس والحجاج على الناس فأرسل الله تعالى عليهم من الجراد ما ملأ الأرض فتعوض الناس به، ثم عاد الحاج فسهل الأمر على أهل مكة؛ وكان سبب هذا الغلاء عدم زيادة النيل بمصر عن العادة، فلم يحمل منها الطعام إلى مكة.

وفيها ظهر باليمن إنسان يُعرف بأبي كامل علي بن محمد

حذب ينسلون، يقتلون من الغزء من وجد في محال بغداد، إلا أهل الكرخ فإنهم لم يتعرضوا إلى الغزء بل جمعوهم وحفظوهم.

وبلغ السلطان طغرل بك ما فعله أهل الكرخ من حماية أصحابه، فأمر بإحسان معاملتهم. فأرسل عميد الملك، الوزير، إلى عدنان بن الرضي، نقيب العلويين، يأمره بالحضور، فحضر، فشكره عن السلطان، وترك عنده خيلاً بأمر السلطان تحرسه وتحرس المحلة.

وأما عامة بغداد فلم يقتنعوا بما عملوا، حتى خرجوا ومعهم جماعة من العسكر إلى ظاهر بغداد، يقصدون العسكر السلطاني، فلو تبعهم الملك الرحيم (٦١٢/٩) وعسكره لبلغوا ما أرادوا، لكن تخلفوا ودخل أعيان أصحابه إلى دار الخلافة، وأقاموا بها نفيًا للتهمة عن أنفسهم، ظناً منهم أن ذلك ينفعهم.

وأما عسكر طغرل بك فلما راوا فعل العامة وظهورهم من البلد قاتلوهم فقتل بين الفريقين جمع كثير، وانهزمت العامة، وجرح فيهم وأسر كثير، ونهب الغزء درب يحيى، ودرب سليم، وبه دور رئيس الرؤساء ودور أهله، فنهب الجميع، ونهبت الرصافة، وترب الخلفاء، وأخذ منها من الأموال ما لا يحصى، لأن أهل تلك الأصقاع نقلوا إليها أموالهم اعتقاداً منهم أنها محترمة. ووصل النهب إلى أطراف نهر المعلى واشتد البلاء على الناس وعظم الخوف، ونقل الناس أموالهم إلى باب النوبي، وباب العامة، وجامع القصر، فتعطلت الجماعات لكثرة الزحمة.

وأرسل طغرل بك من الغد إلى الخليفة يعتب، وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم وأجنامه، ويقول: إن حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخروا عن الحضور أيقنت أن ما جرى إنما كان بوضع منهم.

وأرسل للملك الرحيم وأعيان أصحابه أماناً لهم، فتقدم إليهم الخليفة بقصده، فركبوا إليه، وأرسل الخليفة معهم رسلاً يبرئهم مما خامر خاطر السلطان، فلما وصلوا إلى خيامه نهبهم الغزء، ونهبوا رسل الخليفة معهم، وأخذوا دوابهم وثيابهم.

ولما دخل الملك الرحيم إلى خيمة السلطان أمر بالقبض عليه وعلى من معه، فقبضوا كلهم آخر شهر رمضان، وحسبوا، ثم حبل الرحيم إلى قلعة السيروان؛ وكانت ولاية الملك الرحيم على بغداد ست سنين وعشرة أيام، ونهب أيضاً قريش بن بدران، صاحب الموصل، ومن معه من العرب، ونجا مسلوباً، فاحتفى بخيمة بدر بن المهلهل، فآلقوا عليه الزلالي حتى أخضوه بها عن الغزء.

ثم علم السلطان بذلك، فأرسل إليه، وخلع عليه، وأمره بالعود إلى أصحابه وحلله تسكيناً له.

وأرسل الخليفة إلى السلطان ينكر ما جرى من قبض الرحيم

الرَّبْعِيّ النُّحَوِيّ، وكان ينوب عن الوزراء ببغداد. (٦١٧/٩)

سنة ثمان وأربعين وأربعمائة

ذكر نكاح الخليفة ابنة داود أخي طغرل بك

في هذه السنة، في المحرم، جلس أمير المؤمنين القائم بأمر الله جلوساً عاماً، وحضر عميد الملك الكندري، وزير طغرل بك، وجماعة من الأمراء منهم: أبو عليّ ابن الملك أبي كاليجار، وهزارسب بن بنكير بن عياض الكردي، وابن أبي الشوك، وغيرهم من الأمراء الأتراك من عسكر طغرل بك.

وقام عميد الملك، وزير طغرل بك، ويده دبوس، ثم خطب رئيس الرؤساء وعقد العقد على أرسلان خاتون، واسمها خديجة ابنة داود أخي السلطان طغرل بك، وقبل الخليفة بنفسه النكاح، وحضر العقد نقيب النقباء أبو عليّ بن أبي تمام، وعدنان ابن الشريف الرضي، نقيب العلويين، وأقصى القضاة الماوردي، وغيرهم، وأهديت خاتون إلى الخليفة في هذه السنة أيضاً في شعبان، وكانت والدته الخليفة قد سارت ليلاً وتسلمتها واحضرتها إلى الدار.

ذكر الحرب بين عبيد المعزّ بن باديس وعبيد ابنه تميم

في هذه السنة وقعت الحرب بين عبيد المعزّ، المقيمين بالمهدية، وعبيد ابنه تميم، بسبب منازعة أدّت إلى المقاتلة، فقامت عامّة زويلة وسائر من بها (٦١٨/٩) من رجال الأسطول مع عبيد تميم، فأخرجوا عبيد المعزّ، وقتل منهم كثير، ومضى الباقي منهم يريدون المسير إلى القيروان، فوضع عليهم تميم العرب، فقتلوا منهم جمعاً كثيراً، وهذه التوبة هي سبب قتل تميم من قتل من عبيد أبيه لما ملك.

ذكر ابتداء دولة الملّثمين

في هذه السنة كان ابتداء أمر الملّثمين، وهم عدّة قبائل يُنسبون إلى جيمر، أشهرها: لمثونة، ومنها أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين، وجدالة، ولمطة.

وكان أول مسيرهم من اليمن، أيام أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فسيرهم إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجّهوا مع طارق إلى طنجة، فأحبّوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها إلى هذه الغاية.

فلما كان هذه السنة توجه رجل منهم، اسمه الجوهر، من قبيلة جدالة إلى إفريقية، طالباً للحج، وكان محباً للدين وأهله، فمرّ بقبو القيروان، وعنده جماعة يتفقّهون، قيل: هو أبو عمران الفاسي في غالب الظن، فأصغى الجوهر إليه، وأعجبه حالهم.

الصُّلَحِيّ، واستولى على اليمن، وكان معلماً، فجمع إلى نفسه جمعاً، وانتفى إلى صاحب مصر، وتظاهر بطاعته، فكثّر جمعه وتبعه، واستولى على البلاد، وقوي على ابن (٦١٥/٩) سادل وابن الكريديّ المقيمين بها على طاعة القائم بأمر الله، وكان يتظاهر بمذهب الباطنية.

وفيها خطب محمود الخفاجي للمستنصر العلوي، صاحب مصر، بشفائنا والعين، وصار في طاعته.

وفيها، في شوال، توفي قاضي القضاة أبو عبد الله الحسين بن عليّ بن ماکولا، ومولده سنة ثمان وستين وثلاثمائة، وبقي في القضاء سبعاً وعشرين سنة؛ كان شافعيّاً، ورعاً، نزهاً، أميناً، ووّلي بعده أبو عبد الله محمد بن عليّ بن الدامغانّي الحنفي.

وفيها، في ذي القعدة، توفي ذخيرة الدين أبو العباس محمد ابن أمير المؤمنين، ومولده في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

وفيها قبض الملك الرحيم قبل وصول طغرل بك إلى بغداد على الوزير أبي عبد الله عبد الرحمن بن الحسين بن عبد الرحيم، وطُرح في بئر في دار المملكة، وطُمّ عليه، وكان وزيراً متحكماً في دولته.

وفيها، في المحرم، توفي القاضي أبو القاسم عليّ بن المحسن بن عليّ التَّنُوخِيّ، ومولده بالبصرة سنة خمس وستين وثلاثمائة، وخلف ولداً صغيراً، وهو أبو الحسن محمد بن عليّ، ثم توفي في شوال سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وانقرض بيته بموته، قال القاضي أبو عبد الله بن الدامغانّي: دخلت على أبي القاسم قبل موته بقليل، فأخرج إليّ ولده هذا مع جارته ويكى فقلت: (٦١٩/٩) يعيش إن شاء الله وترّيته؟ فقال: هيهات! والله لا يترى إلاّ يتيماً؛ وأنشد:

أرى ولد الفنى كلاً عليه لقد سعد النّبي أسى عقيماً
فلما أن ترّيته عدوّاً وإنّ أن تخلفه يتيماً
فترى يتيماً كما قال.

وفي جمادى الأولى توفي أبو محمد الحسن بن رجاء الدهان اللغوي.

وفي جمادى الآخرة فيها توفي أبو القاسم منصور بن حمزة بن إبراهيم الكرخي من كرخ جدان، الفقيه الشافعي.

وفي رجب توفي أبو نصر أحمد بن محمد الشافعي، الفقيه الشافعي، وهما من شيوخ أصحاب أبي حامد الأسفرائيني.

وفي شعبان توفي أبو البركات حسين بن عليّ بن عيسى

الجوهر الجداليّ وبقي لا حكم له تداخله الحسد، وشرع سراً في فساد الأمر، فعلم بذلك منه وعقّد له مجلس، وثبت عليه ما نُقل عنه، فحكم عليه بالقتل لأنّه نكث البيعة، وشقّ العصا، وأراد محاربة أهل الحقّ، فقتل بعد أن صلى ركعتين، وأظهر السرور بالقتل طلباً للقاء الله . فاجتمعت القبائل على طاعتهم، ومن خالفهم قتلوه.

فلما كان سنة خمسين وأربعمائة قحطت بلادهم؛ فأمر ابن ياسين (٦٢١/٩) ضعفاءهم بالخروج إلى السوس وأخذ الزكاة، فجمعوا لهم شيئاً له قدرٌ وعادوا .

ثم إن الصحرَاء ضاقت عليهم، وأرادوا إظهار كلمة الحقّ، والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار، فخرجوا إلى السوس الأقصى، فجمع لهم أهل السوس وقاتلوهم، فانهزم المرابطون، وقتل عبد الله بن ياسين الفقيه، فعاد أبو بكر بن عمر فجمع جيشاً وخرج إلى السوس في ألفي راكب، فاجتمع من بلاد السوس وزناة اثنا عشر ألف فارس، فأرسل إليهم وقال: افتحوا لنا الطريق لنجوز إلى الأندلس ونجاهد أعداء الإسلام، فأبوا ذلك، فصلى أبو بكر، ودعا الله تعالى، وقال: اللهم إن كنا على الحقّ فانصرنا، وإلاّ فارحنا من هذه الدنيا، ثم قاتلهم وصدق هو وصحابه القتال، فنصرهم الله تعالى، وهزم أهل السوس ومن معه وأكثر القتل فيهم، وغنم المرابطون أموالهم وأسلابهم، وقويت نفسه ونفوس أصحابه، وساروا إلى سيجلماسة فنزلوا عليها، وطلبوا من أهلها الزكاة، فامتنعوا عليهم، وسار إليهم صاحب سيجلماسة فقاتلهم فهزموه وقتلوه، ودخلوا سيجلماسة واستولوا عليها، وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين

لما ملك أبو بكر بن عمر سيجلماسة استعلم عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني، وهو من بني عمّه الأقربين، ورجع إلى الصحرَاء، فأحسن يوسف (٦٢٢/٩) السيرة في الرعيّة، ولم يأخذ منهم سوى الزكاة، فأقام بالصحراء مدّة، ثم عاد أبو بكر بن عمر إلى سيجلماسة، فأقام بها سنة، والخطبة والأمر والنهي له، واستخلف عليها ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر، وجّهز مع يوسف بن تاشفين جيشاً من المرابطين إلى السوس فتفتح على يده.

وكان يوسف رجلاً ديناً، خيراً، حازماً، داهية، مجرباً، وبقراً كذلك إلى سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وتوفي أبو بكر بن عمر بالصحراء، فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين، وملّكوه عليهم، ولقبوه أمير المسلمين، وكانت الدولة في بلاد المغرب لزناة الذين ثاروا في أيام الفتن، وهي دولة رديّة، مذمومة، سيئة السيرة، لا سياسة ولا ديانة، وكان أمير المسلمين وطائفته على

فلما انصرف من الحجّ قال للفقهاء: ما عندنا في الصحراء من هذا شيء غير الشهادتين، والصلاة في بعض الخاصة، فابعث معي من يعلمهم شرائع (٦١٩/٩) الإسلام ! فأرسل معه رجلاً اسمه عبد الله بن ياسين الكزوكي، وكان فقيهاً، صالحاً، شهماً، فسار معه حتّى أتيا قبيلة لمتونة، فنزل الجوهر عن جملة، وأخذ يزمام جمل عبد الله بن ياسين، تعظيماً لشريعة الإسلام، فأقبلوا إلى الجوهر يهتّونه بالسلامة، وسألوه عن الفقيه فقال: هذا حامل سنة رسول الله، ﷺ، قد جاء يعلمكم ما يلزم في دين الإسلام، فرحبوا بهما، وأنزلوهما، وقالوا: نذكر لنا شريعة الإسلام؛ فعرفهم عقائد الإسلام وفرائضه، فقالوا: أمّا ما ذكرت من الصلاة، والزكاة، فهو قريب، وأمّا قولك من قتل يُقتل، ومن سرق يُقطع، ومن زنى يُجلد، أو يُرجم، فأمر لا نلتزمه، اذهب إلى غيرنا.

فرحلا عنهم، فنظر إليهما شيخ كبير فقال: لا بدّ وأن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يُذكر في العالم، فانتهى الجوهر والفقيه إلى جدالة، قبيل الجوهر، فدعاهم عبد الله بن ياسين والقبائل الذين يجاورونهم إلى حكم الشريعة، فمنهم من أطاع، ومنهم من أعرض وعصى.

ثم إن المخالفين لهم تحيَّزوا، وتجمَّعوا، فقال ابن ياسين للذين أطاعوا: قد وجب عليكم أن تقتالوا هؤلاء الذين خالفوا الحقّ، وأنكروا شرائع الإسلام، واستعدوا لقتالكم، فاقبموا لكم راية، وقدموا عليكم أميراً، فقال له الجوهر: أنت أمير ! فقال: لا، إنّما أنا حامل أمانة الشريعة، ولكن أنت الأمير . فقال الجوهر: لو فعلت هذا تسلط قبيلي على الناس، ويكون وزرٌ ذلك عليّ . فقال له ابن ياسين: الرأي أن نوليّ ذلك أبا بكر بن عمر، رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل سيّد، مشكور الطريقة، مطاع في قومه، فهو يستجيب لنا لحبّ (٦٢٠/٩) الرئاسة، وتبّعه قبيلته، فتقوى بهم.

فأتيا أبا بكر بن عمر، وعرضا ذلك عليه، فأجاب، فعمدوا له البيعة، وسماه ابن ياسين أمير المسلمين، وعادوا إلى جدالة، وجمعوا إليهم من حسن إسلامه، وحرصهم عبد الله بن ياسين على الجهاد في سبيل الله، وسماهم مرابطين، وتجمّع عليهم من خالفهم، فلم يقاتلهم المرابطون بل استعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على أولئك الأشرار بالمصلحين من قبائلهم، فاستمالوهم وقربوهم حتّى حصلوا منهم نحو ألفي رجل من أهل البغي والفساد، فتركهم في مكان، وخندقوا عليهم، وحفظوهم، ثم أخرجوهم قوماً بعد قوم، فقتلوهم، فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء، وهابوهم، فقويت شوكة المرابطين.

هذا وعبد الله بن ياسين مشغول بالعلم، وقد صار عنده منهم جماعة يتفقّهون، ولما استبدّ بالأمر هو وأبو بكر بن عمر عن

نهج السنة، واتباع الشريعة، فاستغاث به أهل المغرب، فسار إليها وافتتحها حصناً حصناً، وبلداً بلداً بأيسر سعي، فأجبه الرعايا، وصلحت أحوالهم.

ثم إنه قصد موضع مدينة مراكش، وهو قاع صفصف، لا عمارة فيه، وهو موضع متوسط في بلاد المغرب كالقيروان في إفريقية، ومراكش تحت جبال المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة، وأمنهم معقلاً، فاخطف هناك مدينة مراكش ليقوى على قمع أهل تلك الجبال إن هموا بفتنة، واتخذها مقراً، فلم يتحرك أحد بفتنة، وملك البلاد المتصلة بالمجاز مثل سبتة، وطنجة، وسلا، وغيرها، وكثرت عساكره.

وخرجت جماعة قبيلة لمتونة وغيرهم، وضيّقوا حيتنذ لثامهم، وكانوا قبل أن يملكوا يتلثمون في الصحراء من الحرّ والبرد، كما يفعل العرب، والغالب على ألوانهم السُمرة، فلما ملكوا البلاد ضيّقوا اللثام. (٦٢٣/٩)

وقبل كان سبب اللثام لهم أنّ طائفة من لمتونة خرجوا مُغيّرين على عدوّ لهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلاّ المشايخ، والصبيان، والنساء، فلما تحقّق المشايخ أنّه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، ويتلثمن، ويضيّقن، حتّى لا يُعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدّم المشايخ والصبيان أمامهم، واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو جمعاً عظيماً، فظننه رجالاً، فقال: هؤلاء عند حُرْمهم يقاتلون عنهم قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن أتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم.

فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ قد أقبل رجال الحيّ، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنّة يلازمونه، فلا يُعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً، ومما قيل في اللثام.

قرم لهم نرك العلى في جنيّ وإن انتسوا صيهاجة فهم همّ لما خوزوا إحراز كلّ فضيلة غلب الحياة عليهم فتلثموا ونذكر باقي أخبار أمير المسلمين في مواضعها إن شاء الله تعالى. (٦٢٤/٩)

فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ قد أقبل رجال الحيّ، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنّة يلازمونه، فلا يُعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً، ومما قيل في اللثام.

قرم لهم نرك العلى في جنيّ وإن انتسوا صيهاجة فهم همّ لما خوزوا إحراز كلّ فضيلة غلب الحياة عليهم فتلثموا ونذكر باقي أخبار أمير المسلمين في مواضعها إن شاء الله تعالى. (٦٢٤/٩)

ذكر تبيض أبي الغنائم بن المحلبان

في هذه السنة يبيض علاء الدين أبو الغنائم بن المحلبان بواسط، وخطب فيها للعلويّين المصريّين.

وكان سبب ذلك أنّ رئيس الرؤساء سعى له في النظر على واسط وأعمالها، فأجيب إلى ذلك، فانتحدر إليها، فصار عنده

في هذه السنة، سلخ شوال، كانت وقعة بين البساسيريّ ومعه نور الدولة دُبّيس بن مَزِيد، وبين قُريش بن بدران، صاحب الموصل، ومعه قتلْمش، وهو ابن عمّ السلطان طغرلِك، وهو جدّ هؤلاء الملوك أولاد قَلج أرسلان، ومعه أيضاً سهم الدولة أبو الفتح بن عمرو، وكانت الحرب عند مَينجار، فاقتلوا، فاشتدّ القتال بينهم، فانهزم قُريش وقلْمش، وقُتل من أصحابهما الكثير.

ولقي قتلْمش من أهل مَينجار العنت، وبالفوا في أذاه وأذى أصحابه، وجرح قُريش بن بدران، وأتى إلى نور الدولة جريحاً، فأعطاه خلعة كانت قد نُفّذت من مصر، فلبسها وصار في جملةهم، وساروا إلى الموصل، (٦٢٦/٩) وخطبوا لخليفة مصر بها، وهو المستنصر بالله، وكانوا قد كاتبوا الخليفة المصريّ بطاعتهم، فأرسل إليهم الخُلع من مصر للبساسيريّ، ولنور الدولة دُبّيس بن مَزِيد، ولجابر بن ناشب، ولعقيل بن ردان أخي قُريش، ولأبي الفتح بن ورام، ونصير بن عمر، وأبي الحسن بن عبد الرحيم، ومحمّد بن

المحبان، فراسل رئيس الرؤساء واستعطفه، فصلح ما بينهما، وسلم تكريت إلى السلطان ورحل إلى بغداد.

حماد، وانضاف إليهم قريش بن بدران.

ذكر مسير السلطان طغرل بك إلى الموصل

وأقام السلطان بالبوازيح إلى أن دخلت سنة تسع وأربعين [وأربعمائة] فأتاه أخوه ياقوتي في العساكر، فسار بهم إلى الموصل، وأقطع مدينة بلد هزازسب بن (٦٢٨/٩) بتكبير، فأجفل أهل البلاد إلى بلد، فأراد العسكر نهبهم، فمنعهم السلطان وقال: لا يجوز أن تعرضوا إلى بلد هزازسب؛ فلدجوا وقالوا: نريد الإقامة؛ فقال السلطان لهزازسب: إن هؤلاء قد احتجوا بالإقامة، فأخرج أهل البلد إلى معسكرك لتحفظ نفوسهم. ففعل ذلك، وأخرجهم إليه، فصار البلد بعد ساعة قفراً، وفرق فيهم هزازسب مالاً، وأركب من يعجز عن المشي، وسيرهم إلى الموصل ليأمنوا.

وتوجه السلطان إلى نصيبين، فقال له هزازسب: قد تمادت الأيام وأرى أن أختار من العسكر ألف فارس أسير بهم إلى البرية، فلعلني أنال من العرب غرضاً؛ فأذن له في ذلك، فسار إليهم، فلمّا قاربهم كمن لهم كمينين، وتقدّم إلى الحلل، فلمّا راوه قاتلوه، فصر لهم ساعة، ثم انزاح بين أيديهم كالمنهزم، فتبعوه، فخرج عليهم الكمينان، فانهزمت العرب، وكثر فيهم القتل والأسر، وكان قد انضاف إليهم جماعة من بني تميم أصحاب حرّان، والرقّة، وتلك الأعمال، وحمل الأسرى إلى السلطان، فلمّا أحضروا بين يديه قال لهم: هل وطئت لكم أرضاً، وأخذت لكم بلداً؟ قالوا: لا! قال: فلم أنتم لحربي؟ وأحضر الفيل فقتلهم، إلا صبيّاً امرء، فلمّا امتنع الفيل من قتله عفا عنه السلطان. (٦٢٩/٩)

ذكر عود نور الدولة دؤيب بن مزيد وقريش بن بدران إلى طاعة طغرل بك

لما ظفر هزازسب بالعرب وعاد إلى السلطان طغرل بك، أرسل إليه نور الدولة وقريش يسألانه أن يتوسّط حالهما عند السلطان، ويصلح أمرهما معه، فسعى في ذلك، واستعطف السلطان عليهما، فقال: أمّا هما فقد عفوت عنهما، وأمّا البساسيري فذهب إلى الخليفة، ونحن متبعون أمر الخليفة؛ ففرحل البساسيري عند ذلك إلى الرجبة، وتبعه الأتراك البغداديون، ومقبيل بن المقلّد وجماعة من غفيل.

وطلب دؤيب وقريش أن يرسل طغرل بك إليهما أبا الفتح بن ورام، فأرسله، فعاد من عندهما وأخبر بطاعتهما، وأنهما يطلبان أن يمضي هزازسب إليهما ليحلّفهما، فأمره السلطان بالمضي إليهما، فسار واجتمع بهما، وأشار عليهما بالحضور عند السلطان، فخافا وامتنعا، فانفذ قريش أبا السداد هبة الله بن جعفر، وأنفذ دؤيب ابنه بهاء الدولة منصوراً، فأنزلهما السلطان وأكرمهما وكتب لهما بأعمالهما، وكان لقريش نهر الملك، وبادوريا، والأنبار، وهيت،

لما طال مقام السلطان طغرل بك ببغداد، وعمّ الخلق ضرراً عسكره، وضاعت عليهم مساكنهم، فإن العساكر نزلوا فيها، وغلبوهم على أقواتهم، وارتكبوا منهم كلّ محظور، أمر الخليفة القائم بأمر الله وزيره رئيس الرؤساء أن يكتب إلى عميد الملك الكندي، وزير السلطان طغرل بك، يستحضره، فإذا حضر قال له عن الخليفة ليُعرف السلطان ما الناس فيه من الجور والظلم، ويعظه، ويذكره، فإن أزال ذلك، وفعل ما أمر الله به، وإلا فيساعد الخليفة على الانتزاع عن بغداد ليعبد عن المنكرات.

فكتب رئيس الرؤساء إلى الكندي يستدعيه، فحضر، فأبلغه ما أمر به الخليفة، وخرج توقيع من الخليفة إلى السلطان فيه مواعظ، فمضى إلى السلطان وعرفه الحال، فاعتذر بكثرة العساكر، وعجزه عن تهذيبهم وضبطهم، وأمر عميد الملك أن يكثر بالجواب إلى رئيس الرؤساء، ويعتذر بما ذكره.

فلما كان تلك الليلة رأى السلطان في منامه النبي ﷺ، عند الكعبة وكأنه يسلم على النبي وهو معرض عنه لم يلتفت إليه، وقال له: يحكمك الله في بلاده وعباده، فلا تراقبه فيهم، ولا تستحي من جلاله، عز (٦٢٧/٩) وجل، في سوء معاملتهم، وتفتّر، بإهماله عند الجور عليهم!

فاستيقظ فزعاً، وأحضر عميد الملك، وحديثه ما رأى، وأرسله إلى الخليفة يعرفه أنه يقابل ما رسم به بالسمع والطاعة، وأخرج الجند من دور العائمة، ومرو أن يظهر من كان مختفياً، وأزال التوكيل عمّن كان وكل به.

فبينما هو على ذلك، وقد عزم على الرحيل عن بغداد للتخفيف عن أهلها، وهو يتردد فيه إذ أتاه الخبر بهذه الواقعة المتقدمة، فتجهّز وسار عن بغداد عاشر ذي القعدة، ومعه خزائن السلاح، والمنجنقات، وكان مقامه ببغداد ثلاثة عشر شهراً وأياماً لم يلق الخليفة فيها، فلمّا بلغوا أوانا نهبا العسكر، ونهبوا عكبرا وغيرهما.

ووصل إلى تكريت فحصرها، وبها صاحبها نصر بن علي بن خميس فنصب على القلعة علماً أسود، وبذل مالاً، فقبله السلطان، ورحل عنه إلى البوازيح ينتظر جمع العساكر ليسيّر إلى الموصل، فلمّا رحل عن تكريت توفي صاحبها، وكانت أمه أميرة بنت غريب بن مقرن، فخافت أن يملك البلدة أخوه ابن الفشّام، فقتلته وسارت إلى الموصل، فنزلت على دؤيب بن مزيد، فنزّوها قريش بن بدران، ولما رحلت عن تكريت استخلفت به أبا الغنائم ابن

ودُجبل، ونهر بيطر، وعُكبرا، وأَرَّاسًا، وتكريت، والموصل، ونصيبين، وأعاد الرسل إلى أصحابهم (٦٣٠/٩).

ذكر قصد السلطان ديار بكر وما فعله بسنجار

لما فرغ طغربك من العرب سار إلى ديار بكر التي هي لابن مروان، وكان ابن مروان يرسل إليه كل يوم الهدايا والتلج، فسار السلطان إلى جزيرة ابن عمر فحصرها، وهي لابن مروان، فأرسل إليه ابن مروان يبذل له مالاً يصلح حاله به، ويذكر له ما هو بصده من حفظ ثغور المسلمين، وما يعانیه من جهاد الكفار، ولما كان السلطان يحاصر الجزيرة سار جماعة من الجيش إلى عُمر أكمُن، وفيه أربعمائة راهب، فذبحوا منهم مائة وعشرين راهباً، واقتدى الباقون أنفسهم بسنة مكايك ذهاباً وفضة.

ووصل إبراهيم بنال أخو السلطان إليه، فلقية الأمراء والناس كلهم، وحملوا إليه الهدايا، وقال لعديد الملك الوزير: مَنْ هؤلاء العرب حتى تجعلهم نظراء السلطان، وتصلح بينهم؟ فقال: مع حضورك يكون ما تريد، فانت نائب السلطان.

ولما وصل إبراهيم بنال أرسل هزارسب إلى نور الدولة بن مزید وفريش يعرفهما وصوله، ويحذرهما منه، فسارا من جبل سينجار إلى الرُجبة، فلم يلتفت البساسيري إليهما، فالتحق نور الدولة إلى بلدة بالعراق، وأقام قريش عند البساسيري بالرُجبة ومع ابنه مسلم بن قريش.

وشكا قتلش ابن عم السلطان إليه ما لقي من أهل سنجان في العام الماضي لما انتهزم، وأنهم قتلوا رجالاً، فسار العساكر إليهم، فأحاطت بهم، وصعد أهلها على السور وسبوا، وأخرجوا جماعهم مَنْ كانوا قتلوا، وقلانسهم، (٦٣١/٩) وتركوها على رؤوس القصب، ففتحتها السلطان عنوة، وقتل أميرها مجلى ابن مرجا وخلفاً كثيراً من رجالها، وسبى نساءهم، وخرّبت، وسأل إبراهيم بنال في الباقيين فتركهم، فسلمها هي والموصل والبلاد إلى إبراهيم بنال، ونادى في عسكره: من تعرض لنهب صلبته؟ فكفوا عنهم.

وعاد السلطان إلى بغداد، على ما نذكره؛ كان ينبغي أن نذكر هذه الحادثة سنة تسع وأربعين [وأربعمائة] وإنما ذكرناها هذه السنة لأن الابتداء بها كان فيها، فأتبعنا بعضها بعضاً، وذكرنا أنها كانت سنة تسع وأربعين.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انقطعت الطرق عن العراق لخوف النهب، فغلت الأسعار، وكثر الغلاء، وتعدّرت الأقوات وغيرها من كل شيء، وأكل الناس الميتة، ولحقهم وباء عظيم، فكثر الموت حتى دُفن الموتى بغير غسل ولا تكفين، فبيع رطل لحم بقيراط، وأربع

وكان بمصر أيضاً وباء شديد، فكان يموت في اليوم ألف نفس، ثم عم ذلك سائر البلاد من الشام، والجزيرة، والموصل، والحجاز، واليمن وغيرها.

وفيها، في جمادى الأولى، ولدت جارية ذخيرة الدين بن الخليفة، الذي (٦٣٢/٩) ذكرنا وفاته قبل، ولداً ذكراً، ويسمى عبد الله، وكني أبا القاسم، وهو المقتدي.

وفيها، في العشر الثاني من جمادى الآخرة، ظهر وقت السحر في السماء ذؤابة بيضاء طولها نحو عشرة أذرع في رأي العين، وعرضها ذراع، وبقيت كذلك إلى نصف رجب واضمحلت.

وفيها أمر الخليفة بأن يؤذن بالكرخ والمشهد وغيرهما: الصلاة خير من النوم؛ وأن يتركوا: حي على خير العمل؛ ففعلوا ما أمرهم به خوف السلطنة وقوتها.

وفيها توفي علي بن أحمد بن علي أبو الحسن المؤدب المعروف بالفالي من أهل مدينة قالة بالقرب من إيدح؛ روى الحديث والأدب، وله شعر حسن فمته قوله:

تَصَدَّرَ لِلتَّوْبَةِ كُلُّ مُهَوَّسٍ بِلَيْدٍ تَسْمَى بِالْفَيْهِ الْمُنْدَرَسِ
فَحَقُّ لَأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَنَلَّسُوا بَيْتَ قَدِيمِ شَاغٍ فِي كُلِّ مَجْلِسِ
لَقَدْ مَزَلْتُ، حَتَّى بَدَأَ مِنْ فُرَايَا كَلَاهَا، وَحَتَّى سَأَهَا كُلُّ مُفْلِسِ

وفي هذه السنة توفي محمد بن الحسين بن محمد بن سعدون أبو طاهر البراز الموصل، وُلد بالموصل، ونشأ ببغداد، وروى عن ابن حنبل، والدارقطني، وابن بطّة وغيرهم، وكان موته بمصر، وفيها توفي أميرك الكاتب البيهقي في شوال وكان من رجال الدنيا؛ ومحمد بن عبد الواحد بن عمر بن الميمون الدارمي الفقيه الشافعي. (٦٣٣/٩)

سنة تسع وأربعين وأربعمائة

ذكر عود السلطان طغربك إلى بغداد

لما سلم السلطان طغربك الموصل وأعمالها إلى أخيه إبراهيم بنال عاد إلى بغداد، فلما وصل إلى القفص خرج رئيس الرؤساء إلى لقائه، فلما قارب القفص لقيه عميد الملك، وزير السلطان، في جماعة من الأمراء، وجاء رئيس الرؤساء إلى السلطان فأبلغه سلام الخليفة واستباحته، فقَبِلَ الأرض، وقَدَّمَ رئيس الرؤساء جاماً من ذهب فيه جواهر والبيسة فرجعة جاءت معه من عند الخليفة، ووضع العمامة على مخدته، فخدم السلطان، وقَبِلَ الأرض، ووصل إلى بغداد، ولم يَمَكُنْ أحداً من النزول في دور الناس، وطلب السلطان

وخرج توقيع الخليفة : إن منزلة ركن الدين، يعني طغرليك، عندنا اقتضت ما لم نفعله مع غيره لأنه لم تجر العادة بتقييد أحد في الدار العزيزة، ولا بد أن يكون الرضا في جواب ما فعل ؛ فراسله رئيس الرؤساء حتى رضي.

وقد كانت دار الخلافة أيام بني بويه ملجأ لكل خائف منهم، من وزير وعميد وغير ذلك، ففي الأيام السلجوقية سلك غير ذلك، وكان أول شيء فعلوه هذا.

ذكر القبض على الوزير البازوري بمصر

في هذه السنة، في ذي الحجة، قبض بمصر على الوزير أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن البازوري، وقرر عليه أموال عظيمة منه ومن أصحابه، ووجد له مكاتبات إلى بغداد. (٦٣٦/٩)

وكان في ابتداء أمره قد حج، فلما قضى حجة أتى المدينة، وزار مسجد رسول الله، فسقط على منكبيه قطعة من الخلق الذي على حائط الحجر، فقال له أحد القوام : أيها الشيخ ! إنني أبشرك، ولي الجاه والكرامة إذ بلغته، أنك تلي ولاية عظيمة، وهذا الخلق دليل على ذلك.

فلم يخل عليه الحول حتى ولي الوزارة، وأحسن إلى ذلك الرجل ورعا.

وكان يتفق على منعه أبي حنيفة، وكان قاضياً بالرملة، يكرم العلماء، ويحسن إليهم ويجالسهم، وكان ابتداء أمره كابتداء أمر رئيس الرؤساء : الشهادة، والقضاء، وكانت سعادتهما متفقة، ونهايتهما متقاربة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة زاد الغلاء ببغداد والعراق حتى بيعت كارة الدقيق السميد بثلاثة عشر ديناراً، والكارة من الشعير والذرة بثمانية دنائير، وأكل الناس الميتة والكلاب وغيرها، وكثر الربا حتى عجز الناس عن دفن الموتى، فكانوا يجعلون الجماعة في الحفيرة.

وفيها، في ربيع الأول، توفي أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المَعْرِي، الأديب، وله نحو ست وثمانين سنة، وعلمه أشهر من أن يذكر، إلا أن أكثر الناس يرمونه بالزندقة، وفي شعره ما يدل على ذلك، حكى أنه قال يوماً (٦٣٧/٩) لأبي يوسف القزويني، ما هجوت أحداً ؛ فقال له القزويني : هجوت الأنبياء ؛ فتغير وجهه وقال : ما أخاف أحداً سواك.

وحكى عنه القزويني أنه قال : ما رأيت شعراً في مرثية الحسين بن علي يساوي أن يحفظ ؛ فقال القزويني : بلى، قد قال أهل سوادنا :

الاجتماع بالخليفة، فأذن له في ذلك.

وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة جلوساً عاماً، وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد، وحضر السلطان في الماء، وأصحابه حوله في السُميريات، فلما خرج من السُميرية أركب فرساً من مراكب الخليفة، فحضر عند الخليفة، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع، وعليه بردة النبي، وبيده القضيب الخيزران، فقيل السلطان الأرض، وقبل يده، وأجلس على كرسي، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : (٦٣٤/٩)

قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك، حامداً لفعلك، مستأنساً بقربك، وقد ولّاك جميع ما ولّاه الله من بلاده، ورد عليك مراعاة عبادته، فاتق الله فيما ولّاك، واعرف نعمته عليك في ذلك، واجتهد في نشر العدل، وكف الظلم، وإصلاح الرعية.

فقبل الأرض، وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه، فقام إلى موضع لبسها فيه وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب، وأعطى العهد، وخرج، وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسون ألف دينار، وخمسون مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون، ومعهم خيولهم وسلاحهم، إلى غير ذلك من الثياب وغيرها.

ذكر الحرب بين هزاسب وفولاذ

كان السلطان قد ضمن هزاسب بن بنكير بن عياض البصرة، وأرجان، وخوزستان، وشيراز، فتجره رسولتكن ابن عم السلطان ومعه فولاذ لهزاسب، وقصدا أرجان ونهبها.

وكان هزاسب مع طغرليك بالموصل والجزيرة، فلما فرغ السلطان من تلك الناحية ردّ هزاسب إلى بلاده، وأمره بقتال رسولتكن وفولاذ، فسار إلى البصرة وصادر بها تاج الدين بن سخطه العلوي وابن سمحا اليهودي بمائة ألف وعشرين ألف دينار، وسار منها إلى قتال فولاذ ورسولتكن فلقبهما، (٦٣٥/٩) وقاتلتهما قتالاً شديداً، فقتل فولاذ، وأسر رسولتكن ابن عم السلطان، فأبقى عليه هزاسب، فسأل رسولتكن هزاسب ليرسله إلى دار الخلافة ليشفع فيه الخليفة، ففعل ذلك.

ووصل بغداد مع أصحاب هزاسب، فاجتاز بدار رئيس الرؤساء، فهجم ودخلها، واستدعى طعاماً لإيجازاً للحرمة، فأمر الخليفة بإحضار عميد الملك وإعلامه بحال رسولتكن ليخاطب السلطان في أمره، فلما حضر عميد الملك وقيل له ذلك قال : إن السلطان يقول إن هذا لا حرمة له يستحق بها المراعاة، وقد قابل إحساني بالعصيان، ويجب تسليمه ليتحقق الناس مبتزلي، وتتضاعف هيبتني، فاستقر الأمر، بعد مراجعة، على أن يقيده،

فيها دوابهم، فخطب ابن مونسك صاحب إربل قريشاً حتى آمنهم فخرجوا، فهدم الباسيري القلعة، وعفى أثرها.

وكان السلطان قد فرق عسكره في النوروز، وبقي جريدة في ألفي فارس (٦٤٠/٩) حين بلغه الخبر، فسار إلى الموصل فلم يجد بها أحداً؛ كان قريش والباسيري قد فارقاها، فسار السلطان إلى نصيبين ليستريح آثارهم ويخرجهم من البلاد، ففارقه أخوه إبراهيم بنال، وسار نحو همدان، فوصلها في السادس والعشرين من رمضان سنة خمسين [وأربعمئة]، وكان قد قيل إن المصريين كاتبوه والباسيري قد استماله وأطمعه في السلطنة والبلاد، فلما عاد إلى همدان سار السلطان في أثره.

ذكر الغطبة بالعراق للعلوي المصري وما كان إلى قتل الباسيري
لما عاد إبراهيم بنال إلى همدان سار طغربك خلفه، ورد وزيره عميد الملك الكندي وزوجته إلى بغداد.

وكان مسيره من نصيبين في منتصف شهر رمضان، ووصل إلى همدان، وتحصن بالبلد، وقاتل أهلها بين يديه، وأرسل إلى الخاتون زوجته وعميد الملك الكندي يأمرهما باللاحاق به، فمعهما الخليفة من ذلك تمسكاً بهما، وفرق غللاً كثيرة في الناس، وسار من كان ببغداد من الأتراك إلى السلطان بهمدان، وسار عميد الملك إلى ديبس بن مزيد فاحترمه وعظمه، ثم سار من عنده إلى هزاسب، وسارت خاتون إلى السلطان بهمدان، فأرسل الخليفة إلى نور الدولة ديبس بن مزيد يأمره بالوصول إلى بغداد، فورد إليها في مائة فارس، ونزل في النجفي ثم عبر إلى الأناتين.

وقوي الإرجاف بوصول الباسيري، فلما تحقق الخليفة وصوله إلى هيت (٦٤١/٩) أمر الناس بالعبور من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، فأرسل ديبس بن مزيد إلى الخليفة وإلى رئيس الرؤساء يقول: الرأي عندي خروجكما من البلد معي، فإنني أجمع أنا وهزاسب فإنه بواسط على دفع عدوكما، فأجيب ابن مزيد بأن يقيم حتى يقع الفكر في ذلك، فقال: العرب لا تطيعني على المقام، وأنا أتقدم إلى ديبالي! فإذا انحدرتم سيرت في خدمتكم. وسار وأقام بدليالي ينتظرهما، فلم يزل لذلك أثراً، فسار إلى بلاده.

ثم إن الباسيري وصل إلى بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة، ومعه أربعمئة غلام إلى غاية الضّر والفقر، وكان معه أبو الحسن بن عبد الرحيم الوزير، فنزل الباسيري بمشركة الروايا، ونزل قريش بن بدران، وهو في مائتي فارس، عند مشرعة باب البصرة، وركب عميد العراق، ومعه العسكر والعوام، وأقاموا بإزاء عسكر الباسيري، وعادوا، وخطب الباسيري بجوامع المنصور للمستنصر بالله العلوي، صاحب مصر، وأمر فأذن بخي على خير

للمسلمين على قنايرفسه لا جازع منهم، ولا متجسج وأمنت عينا لم تكن بك تهجع وأصم نيك كل أذن تسعج لك مضجع ولخط قيرك موضع وفيها أصلع ديبس بن علي بن مزيد ومحمود بن الأحزم الخفاجي حالهما مع السلطان، فعاد ديبس إلى بلاده فوجدها خراباً لكثرة من مات بها من الوياء الجارف، ليس بها أحد.

وفيها كثر الوياء ببخارى حتى قيل إنه مات في يوم واحد ثمانية عشر ألف إنسان من أعمال بخارى، وهلك في هذه الولاية في مدة الوياء ألف ألف وستمئة ألف وخمسون ألفاً، وكان بسمرقند مثل ذلك، ووجد ميت، وقد دخل تركي يأخذ لحافاً عليه، فمات التركي وطرف للحاف بيده، وبقيت أموال الناس سائبة.

وفيها نهبت دار أبي جعفر الطوسي بالكرخ، وهو فقيه الإمامية، وأخذ (٦٣٨/٩) ما فيها، وكان قد فارقها إلى المشهد الغربي.

وفيها، في صفر، توفي أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، مقدم أصحاب الحديث بخراسان، وكان فقيهاً، خطيباً، إماماً، في عدة علوم.

وفيها، في ربيع الأول، توفي إياز بن إيماق أبو النجم غلام محمود بن سبكتكين، وأخباره معه مشهورة.

وفيها مات أبو أحمد عدنان أبو الشريف الرضي نقيب العلويين.

وفيها توفي أبو الحسين عبد الوهاب بن أحمد بن هارون الغساني، المعروف بابن الجندي. (٦٣٩/٩)

سنة خمسين وأربعمئة

ذكر مفارقة إبراهيم بنال الموصل واستيلاء الباسيري عليها وأخذها منه

في هذه السنة فارق إبراهيم بنال الموصل نحو بلاد الجبل، فنسب السلطان طغربك رحيله إلى العصيان، فأرسل إليه رسلاً يستدعيه، وصحبته الفرجية التي خلعها عليه الخليفة، وكتب الخليفة إليه أيضاً كتاباً في المعنى، فرجع إبراهيم إلى السلطان، وهو ببغداد، فخرج الوزير الكندي لاستقباله، وأرسل الخليفة إليه الخلع.

ولما فارق إبراهيم الموصل قصدها الباسيري، وقريش بن بدران، وحاصرها، فملكها البلد ليومه، وبقيت القلعة، وبها الخازن، وأردم، وجماعة من العسكر، فحاصرها أربعة أشهر حتى أكل من

فوقع فيه، وبرّد فعله، وخوف عاقبته، فتركت أجوبته مدّة، ثم عادت بغير الذي أمّله ورجاه.

وسار البساسيريّ من بغداد إلى واسط والبصرة فملكهما، وأراد قصد الأهواز فأنفذ صاحبها هزارسب بن بكير إلى دُيَّس بن مَزَيْد يطلب منه أن يصلح الأمر (٦٤٥/٩) على مال يحمله إليه، فلم يُجب البساسيريّ إلى ذلك، وقال: لا بدّ من الخطبة للمستنصر، والسكّة باسمه؛ فلم يفعل هزارسب ذلك، ورأى البساسيريّ أنّ طغربك يمدّ هزارسب بالعاكر، فصالحه، وأصعد إلى واسط في مستهلّ شعبان من سنة إحدى وخمسين [وأربعمئة]، وفارقه صدقة بن منصور بن الحسين الأسديّ، ولحق بهزارسب، وكان قد وليّ بعد أبيه على ما نذكره.

وأما أحوال السلطان طغربك، وإبراهيم ينال، فإنّ السلطان كان في قلّة من العسكر، كما ذكرناه، وكان إبراهيم قد اجتمع معه كثير من الأتراك، وحلف لهم أنّه لا يصلح أخاه طغربك، ولا يكلفهم المسير إلى العراق، وكان يكرهونه لطول مقامهم وكثرة إخراجاتهم، فلم يبقَ به طغربك، وأتى إلى إبراهيم محمّد وأحمد ابنا أخيه أراتاش في خلق كثير، فآزاد بهم قوّة، وازداد طغربك ضعفاً، فآتوا من بين يديّه إلى الرّيّ، وكتب ألّب أرسلان، وياقوتي، وقارون بك، أولاد أخيه داود، وكان داود قد مات، على ما نذكره سنة إحدى وخمسين [وأربعمئة] إن شاء الله تعالى، وملك خراسان بعده ابنه ألّب أرسلان، فأرسل إليهم طغربك يستدعيهم إليه، فجاءوا بالعاكر الكثيرة، فلقي إبراهيم بالقرب من الرّيّ، فانهزم إبراهيم ومن معه وأخذ أسيراً هو ومحمّد وأحمد ولدا أخيه، فأمر به فخنق بوتر قوسه تاسع جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين [وأربعمئة]، وقتل ولدا أخيه معه.

وكان إبراهيم قد خرج على طغربك مراراً، فعفا عنه، وإنّما قتله في هذه الدفعة لأنّه علم أنّ جميع ما جرى على الخليفة كان بسببه، فلهاذا لم يعف عنه.

ولما قُتل إبراهيم أرسل طغربك إلى هزارسب بالأهواز يعرفه ذلك، وعنده عميد الملك الكندريّ، فسار إلى السلطان، فجّهزه هزارسب تجهيز مثله. (٦٤٦/٩)

ذكر عود الخليفة إلى بغداد

لما فرغ السلطان من أمر أخيه إبراهيم ينال عاد يطلب العراق، ليس له همّ إلّا إعادة القوائم بأمر الله إلى داره، فأرسل إلى البساسيريّ وفريش في إعادة الخليفة إلى داره على أن لا يدخل طغربك العراق، ويقع بالخطبة والسكّة، فلم يجب البساسيريّ إلى ذلك، فرحل طغربك إلى العراق، فوصلت مقدّمته إلى قصر شيرين، فوصل الخبر إلى بغداد، فاتحدر حُرّم البساسيريّ وأولاده،

ورحل أهل الكرخ بنسائهم وأولادهم في دجلة وعلى الظهر، ونهب بنو شيان الناس، وقتلوا كثيراً منهم، وكان دخول البساسيريّ وأولاده بغداد سادس ذي القعدة سنة خمسين [وأربعمئة] وخرجوا منها سادس ذي القعدة سنة إحدى وخمسين.

وثار أهل باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه، وأحرقوا درب الزعفران، وهو من أحسن الدروب وأعمرها، ووصل طغربك إلى بغداد، وكان قد أرسل من الطريق الإمام أبا بكر أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن فورك، إلى فريش بن بدران يشكره على فعله بالخليفة، وحفظه على صيائه ابنة أخيه امرأة الخليفة، ويعرفه أنّه قد أرسل أبا بكر بن فورك للقيام بخدمة الخليفة، وإحضاره، وإحضار أرسلان خاتون ابنة أخيه امرأة الخليفة.

ولما سمع فريش بقصد طغربك العراق أرسل إلى مُهَارَش يقول له: أودعنا الخليفة عندك ثقةً بإمانتك، لينكفّ بلاء الغُرّ عنا، والآن قد عادوا، وهم عازمون على قصدك، فارحل أنت وأهلك إلى البريّة، فإنهم إذا علموا أنّ الخليفة عندنا في البريّة لم يقصدوا العراق، ونحكم عليهم بما نريد. فقال (٦٤٧/٩) مُهَارَش: كان بيني وبين البساسيريّ عهد ومواثيق نقضها، وإنّ الخليفة قد استحلّطني بعهود ومواثيق لا مخلص منها.

وسار مُهَارَش ومعه الخليفة حادي عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمئة إلى العراق، وجعلا طريقهما على بلد بدر بن مُهَلْهَل ليأمنّا من يقصدهما، ووصل ابن فورك إلى حلّة بدر بن مُهَلْهَل، وطلب منه أن يوصله إلى مُهَارَش، فجاء إنسان سواديّ إلى بدر وأخبره أنّه رأى الخليفة ومُهَارَشاً بتلّ عكبرا، فسُرّ بذلك بدر ورحل ومعه ابن فورك، وخدماه، وحمل له بدر شيئاً كثيراً، وأوصل إليه ابن فورك رسالة طغربك وهدايا كثيرة أرسلها معه.

ولما سمع طغربك بوصول الخليفة إلى بلد أرسل وزيره الكندريّ والأمراء، والحجّاب، وأصحابهم الخيام العظيمة، والسرادات، والتحف من الخيل بالمراكب الذهب وغير ذلك، فوصلوا إلى الخليفة وخدموه ورحلوا، ووصل الخليفة إلى النهران في الرابع والعشرين من ذي القعدة، وخرج السلطان إلى خدمته، فاجتمع به، وقتل الأرض بين يديّه، وهنّاه بالسلامة، وأظهر الفرح بسلامته، واعتذر من تأخّره بعضيان إبراهيم، وأنّه قتله عقوبة لما جرى منه من الوهن على الدولة العبّاسية، وبوفاة أخيه داود بخراسان، وأنّه اضطرّ إلى التريث حتّى يرتب أولاده بعده في المملكة، وقال: أنا أمضي خلف هذا الكلب، يعني البساسيريّ، وأقصد الشام، وأفعل في حقّ صاحب مصر ما أجازي به فعله!

وقلّده الخليفة بيده سيفاً، وقال: لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه، (٦٤٨/٩) وقد تبرّك به أمير المؤمنين؛ فكشف غشاه الخراكة حتى رآه الأمراء، فخدموا وانصرفوا.

وكان في أسر البساسيري جماعة من النساء المملقات بدار الخلافة، فأخذن، وأكرمن، وحُملن إلى بغداد. (٦٥٠/٩)

ومضى نور الدولة دُبَيْس إلى البطيحة، ومعه زعيم الملك أبو الحسن عبد الرحيم، وكان من حق هذه الحوادث المتأخرة أن تذكر سنة إحدى وخمسين [وأربعمئة]، وإنما ذكرناها هاهنا لأنها كالحادثة الواحدة يتلو بعضها بعضاً.

وكان البساسيري مملوكاً تركياً من ممالك بهاء الدولة بن عضد الدولة، تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور، واسمه أرسلان، وكنيته أبو الحارث، وهو منسوب إلى نسا مدينة بفراس، والعرب تجعل عوض الباء فاء فتقول فساء، والنسبة إليها فساوي، ومنها أبو علي الفارسي النحوي، وكان سيد هذا المملوك أولاً من نساء، فقبل له البساسيري لذلك، وجعل العرب الباء فاء فقبل فساوي.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أقر السلطان طغرل بك مملان بن وهسودان بن مملان على ولاية أبيه بأذربيجان.

وفيها مات شهاب الدولة أبو الفوارس منصور بن الحسين الأسدي، صاحب الجزيرة، عند خوزستان، واجتمعت عشيرته على ولده صدقة.

وفيها توفي الملك الرحيم، آخر ملوك بني بويه، بقلعة الري، وكان طغرل بك سجنة أولاً بقلعة السروان، ثم نقله إلى قلعة الري فتوفي بها.

وفيها عصى أبو علي بن أبي الجبر بالبائع، وكان متقدماً بعض نواحيها، فأرسل إليه طغرل بك جيشاً مع عميد العراق أبي نصر، فهزمهم أبو علي. (٦٥١/٩) وفيها يوم الثوروز أرسل السلطان مع وزيره عميد الملك إلى الخليفة عشرة آلاف دينار سوى ما أضيف إليها من الأعلاق النفيسة.

وفيها، في صفر، توفي أبو الفتح بن شيطا القاري، الشاهد، وكانت شهادته سنة خمسين وأربعين وأربعمئة.

وفيها، في شهر ربيع الأول، توفي القاضي أبو الطيب الطبري الفقيه الشافعي، وله مائة سنة وستان، وكان صحيح السمع والبصر، سليم الأعضاء، يناظر ويُفتي ويستدرك على الفقهاء، وحضر عميد الملك جنازته، ودُفن عند قبر أحمد، وله شعر حسن.

وفي سلخه توفي قاضي القضاة أبو الحسين علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الفقيه الشافعي، وكان إماماً، وله تصانيف كثيرة منها: الحاوي وغيره في علوم كثيرة، وكان عمره ستاً وثمانين سنة.

ولم يبق ببغداد من أعيانها من يستقبل الخليفة غير القاضي أبي عبد الله الدامغاني وثلاثة نفر من اليهود. وتقدم السلطان في المسير، فوصل إلى بغداد وجلس في باب النوبي مكان الحاجب، ووصل الخليفة ققام طغرل بك وأخذ بلجام بقلته، حتى صار على باب حُجْرته، وكان وصوله يوم الاثنين لخمس بقين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين [وأربعمئة] وعبر السلطان إلى معسكره، وكانت السنة مجدية، ولم ير الناس فيها مطراً، فجاء تلك الليلة وهما الشعراء الخليفة والسلطان بهذا الأمر، ودام البرد بعد قوم الخليفة نيفاً وثلاثين يوماً، ومات بالجوع والعقوبة عدد لا يحصى، وكان أبو علي بن شبل ممن هرب من طائفة من الغر، فوقع به غيرهم فاخذوا ماله، فقال:

خَرَجْنَا مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ خَوْفًا، فَكَانَ فِرَارُنَا مِنْهُ إِلَيْهِ
وَاشْفَى النَّاسَ فَوْعَزَمَ تَوَالَتْ مَصَائِبُهُ عَلَيْهِ، مَنْ يَلْتَمِسُ
تَفْسِئَتْ عَلَيْهِ طُرُقُ الْمُنْزِلِ مِنْهَا وَيَفْسُقُ قَلْبُ رَاحِمِهِ عَلَيْهِ

ذكر قتل البساسيري

أنفذ السلطان بعد استقرار الخليفة في داره جيشاً عليهم خمار تكتين الطغرائي في ألفي فارس نحو الكوفة، فأضاف إليهم سرايا بن منيع الخفاجي، وكان قد (٦٤٩/٩) قال للسلطان، أرسل معي هذه العدة حتى أمضي إلى الكوفة وأمنع البساسيري من الإصعاد إلى الشام.

وسار السلطان طغرل بك في أثرهم، فلم يشعر دُبَيْس بن مزيد والبساسيري إلا والسرية قد وصلت إليهم ثامن ذي الحجة من طريق الكوفة، بعد أن نهبوا، وأخذ نور الدولة دُبَيْس رحله جميعه وأحدره إلى البطيحة، وجعل أصحاب نور الدولة دُبَيْس يرحلون بأهليهم، فينتهم الأتراك، فتقدم نور الدولة ليرة العرب إلى القتال، فلم يرجعوا، فمضى.

ووقف البساسيري في جماعته، وحمل عليه الجيش، فأسر من أصحابه أبو الفتح بن ورام، وأسر منصور ويبران وحماد، بنو نور الدولة دُبَيْس، وضرب فرس البساسيري بنشابة، وأراد قطع تجفافه لتسهل عليه النجاة فلم ينقطع، وسقط عن الفرس، ووقع في وجهه ضربة، ودل عليه بعض الجرّحي، فأخذه كمشتكين دواتي عميد الملك الكندري وقتله، وحمل رأسه إلى السلطان، ودخل الجند في الظعن، فساقوه جميعه، وأخذت أموال أهل بغداد وأموال البساسيري مع نسائه وأولاده، وهلك من الناس الخلق العظيم، وأمر السلطان بحمل رأس البساسيري إلى دار الخلافة، فحمل إليها، فوصل منتصف ذي الحجة سنة إحدى وخمسين [وأربعمئة]، فنظف وغسل وجعل على قنّاة وطيف به، وصلب قبالة باب النوبي.

وهو مقابل آل سبكتكين ومقاتلهم، وماتهم عن خراسان، فلمّا توفّي ملك بعده خراسان ابنه السلطان ألب أرسلان، وخلف داود عدة أولاد ذكور منهم: السلطان ألب أرسلان، وياقوتي، وسليمان، وقاورت بك، فتزوج أم سليمان السلطان طغرل بك، بعد أخيه داود، ووصّى له بالملك بعده، وكان من أمره ما نذكره.

وكان خيراً، عادلاً، حسن السيرة، معترفاً بنعمة الله تعالى عليه، شاكراً عليها، فمن تلك أنه أرسل إلى أخيه طغرل بك مع عبد الصمد، قاضي سرّخس، يقول له: بلغني إخراجك البلاد التي فتحتها وملكتها، وجلا أهلها عنها، وهذا ما لا يخاف به في مخالفة أمر الله تعالى في عباده وبلادهم، وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة وإيحاء الرعية. (٧/١٠)

وقد علمت أننا لقينا أعداءنا ونحن في ثلاثين رجلاً، وهم في ثلاثمائة، فغلبناهم، وكنا في ثلاثمائة، وهم في ثلاثة آلاف، فغلبناهم، وكنا في ثلاثة آلاف، وهم في ثلاثين ألفاً، فدفعناهم، وقتلنا بالأمس شاه ملك، وهو في أعداد كثيرة متوافرة، فقهرناه، وأخذنا مملكته بخوارزم، وهرب من بين أيدينا إلى خمسمائة فرسخ من موضعه، فظفرنا به وأسرناه وقتلناه، واستولينا على ممالك خراسان وطبرستان وسجستان، وصرنا ملوكاً متبوعين، بعد أن كنا أصاغر تابعين، وما تقتضي نعم الله علينا أن نقابلها هذه المقابلة.

فقال طغرل بك: قل له في الجواب: يا أخي أنت ملكت خراسان وهي بلاد عامرة، فخرّبتها، ووجب عليك مع استقرار قدمك عمارتها، وأنا رددت بلاداً خربها من تقدمني، واجتاحها من كان قبلي، فما أتمكن من عمارتها والأعداء محيطة بها، والضرورة تقود إلى طرقها بالساكر، ولا يمكن دفع مضرّتها عنها.

وله مناقب كثيرة تركناها خوف التطويل.

ذكر حريق بغداد

في هذه السنة احترقت بغداد: الكرخ وغيره، وبين السورين، واحترقت فيه خزانة الكتب التي وقفها أردشير الوزير، ونُهبت بعض كتبها، وجاء عميد الملك الكندي، فاختار من الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف مجلد وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم منها: مائة مصحف بخطوط بني مقلّة، (٨/١٠) وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق، فأزالهم عميد الملك، وقعد يختارها، فنُسب ذلك إلى سوء سيرته، وفساد اختياره، وشأن بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمّر المدارس، ودوّن العلم في بلاد الإسلام جميعها، ووقف الكتب وغيرها.

وفي آخر هذه السنة توفّي أبو عبد الله الحسين بن عليّ الرضا، الضير الفرضي، وكان إماماً فيها على مذهب الشافعي.

وفيها، في شوال، كانت زلزلة عظيمة بالعراق، والموصل، ووصلت إلى همدان، ولبثت ساعة، فخرّبت كثيراً من الدور، وهلك فيها الجمع الغفير.

وفيها توفّي أبو محمد عبد الله بن عليّ بن عياض المعروف بابن أبي عقيل، (٦٥٢/٩) وكان قد سمع الكثير من الحديث ورواه. وتوفّي أيضاً القاضي أبو الحسن عليّ بن هندي قاضي حمص، وكان وافر العلم والأدب. (٥/١٠)

سنة إحدى وخمسين وأربعمائة

ذكر وفاة فرّخ زاد صاحب غزنة وملك أخيه إبراهيم

في هذه السنة، في صفر، توفّي الملك فرّخ زاد بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، وكان قد ثار به مماليكه سنة خمسين واتفقوا على قتله، فقصده وهو في الحمام، وكان معه سيف، فأخذه وقتلهم، ومنهم من نفسه حتى أدركه أصحابه وخلصوه، وقتلوا أولئك الغلمان.

وصار بعد أن نجا من هذه الحادثة يكثر ذكر الموت ويحتقر الدنيا ويزدرها، وبقي كذلك إلى هذه السنة، فأصابه قولنج فمات منه، وملك بعده أخوه إبراهيم بن مسعود بن محمود، فأحسن السيرة، فاستعدّ لجهاد الهند، ففتح حصوناً امتدت على أبيه وجده، وكان يصوم رجباً وشعباناً ورمضاناً.

ذكر الصلح بين الملك إبراهيم وجفري بك داود

في هذه السنة استقرّ الصلح بين الملك إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين وبين داود بن ميكائيل بن سلجوق، صاحب خراسان، على أن يكون كلّ (٦/١٠) واحد منهما على ما بيده، ويترك منازعة الآخر في ملكه.

وكان سبب ذلك أن العقلاء من الجانبين نظروا فراوا أن كل واحد من الملكين لا يقدر على أخذ ما بيد الآخر، وليس يحصل غير إيفاق الأموال، وإتباع العساكر، ونهب البلاد، وقتل النفوس، فسعوا في الصلح، فوقع الاتفاق واليمين، وكُتبت النسخ بذلك، فاستبشر الناس، وسرّهم لما أشرفوا عليه من العافية.

ذكر وفاة داود وملك ابنه ألب أرسلان

في هذه السنة، في رجب، توفّي جفري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، أخو السلطان طغرل بك، وقيل كان موته في صفر سنة اثنتين وخمسين، وعمره نحو سبعين سنة، وكان صاحب خراسان،

ذكر انحدار السلطان إلى واسط وما فعل العسكر وإصلاح دُيَّيس

في هذه السنة انحدر السلطان طغرل بك إلى واسط بعد فراغه من أمر بغداد، فعراًها قد نُهيت، وحضر عنده هزارسب بن بنكير، وأصلح معه حال دُيَّيس بن مَزِيد، وأحضره معه إلى خدمة السلطان، وأصعد في صحبته إلى بغداد، وكذلك صدقة بن منصور بن الحسين، وضمن واسطاً أبو علي بن فضلان بمائتي ألف دينار، وضمن البصرة الأغر أبو سعد مابور بن المظفر، وعبر السلطان إلى الجانب الشرقي من دجلة، وسار إلى قرب البطائح، فنهب العسكر ما بين واسط والبصرة والأهواز.

وأصعد السلطان إلى بغداد في صفر سنة اثنتين وخمسين [وأربعمائة] ومعه أبو الفتح بن ورام، وهزارسب بن بنكير بن عياض، ودُيَّيس بن مَزِيد، وأبو علي ابن الملك أبي كالجبار، وصدقة بن منصور بن الحسين وغيرهم، واجتمع السلطان بالخليفة، وأمر الخليفة بعمل طعام كثير حضره السلطان والأمراء وأصحابهم، وعمل السلطان أيضاً سباطاً أحضر فيه الجماعة، وخلع عليهم، وسار إلى بلاد الجبل في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين، وجعل ببغداد (٩/١٠) شحنة الأمير برسق، وضمها أبو الفتح المظفر بن الحسين ثلاث سنين بأربع مائة ألف دينار.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عُزل أبو الحسين بن المهدي من الخطابة بجامع المنصور لأنه خطب للعلوي ببغداد في الفتنة، وأقيم مقامه بهاء الشرف أبو علي الحسن بن عبد الدود بن المهدي بالله.

وفيها توفي علي بن محمود بن إبراهيم الزوزني أبو الحسن، صاحب أبا الحسن الحُصَري، وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي، وهو الذي نُسب إليه رباط الزوزني المقابل لجامع المنصور.

وفيها، في جمادى الأولى، توفي محمد بن علي بن الفتح بن محمد بن علي أبو طالب العُشاري، ومولده في المحرم سنة ست وستين وثلاثمائة، وسمع الدارقطني وغيره. (١٠/١٠)

سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة

ذكر عود ولي العهد إلى بغداد مع أبي الغنائم بن المحلبان

في جمادى الآخرة ورد عدة الدين أبو القاسم المقتدي بأمر الله، ولي العهد، ومعه جدته أم الخليفة، وخرج الناس لاستقباله، وجلس في الزبزب على رأسه أبو الغنائم بن المحلبان، وقُدِّم له بباب الغربية فرس، فحملة ابن المحلبان على كتفه وأركبه وسلمه إلى مجلس الخليفة، فشكره، وخرج ابن المحلبان فركب في الزبزب، وانحدر إلى دار أُفردت له بباب المراتب، ودخل إلى

الخليفة واجتمع به.

وكان سبب مصير ولي العهد مع ابن المحلبان أنه دخل داره، فوجد زوجة رئيس الرؤساء وأولاده بها، وهم مطلوبون من البساسيري، فعرّفوه أنّ رئيس الرؤساء أمرهم بقصده، فأدخلهم إلى أهله، وأقام لهم من حملهم إلى ميّافارقين، فساروا مع قرواش لما أصعد من بغداد، ولم يعلم بهم.

ثم لقيه أبو الفضل محمد بن عامر الوكيل، وعرّفه ما عليه ولي العهد ومن معه من إثارة الخروج من بغداد، وما هم عليه من تناقص الحال، فبعث ابن المحلبان زوجته، فأثته بهم سراً، فتركهم عنده ثمانية أشهر، وكان يحضر ابن (١١/١٠) البساسيري وأصحابه، ويعمل لهم الدعوات، وولي العهد ومن معه مستترون عنده، يسمعون ما يقول أولئك فيهم.

ثم أكرى لهم، وسار هو في صحبتهم إلى قريب سنجار، ثم حُمِلوا إلى حَرّان، وسار مع صاحبها أبي الزمام منيع بن وثّاب النُميري، حين قصد الرحبة، وفتح فَرْقِيسيا، وعقد لُغْدَة الدين على بنت منيع، وانحدروا إلى بغداد.

ذكر ملك محمود بن شبل الدولة حلب

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، حصر محمود بن شبل الدولة بن صالح بن مرداس الكلابي مدينة حلب، وضيق عليها، واجتمع مع جمع كثير من العرب، فأقام عليها، فلم يتسهل له فتحها، فرحل عنها، ثم عاودها فحصرها، فملك المدينة عشرة في جمادى الآخرة، بعد أن حصرها، وامتنعت القلعة عليه.

وأرسل من بها إلى المستنصر بالله، صاحب مصر ودمشق، يستنجدونه، فأمر ناصر الدولة أبا محمد الحسين بن الحسن بن حمدان، الأمير بدمشق، أن يسير بمن عنده من العساكر إلى حلب يمنعا من محمود، فسار إلى حلب، فلما سمع محمود بقرينه منه خرج من حلب، ودخلها عسكر ناصر الدولة فنهبها. (١٢/١٠)

ثم إنَّ الحرب وقعت بين محمود وناصر الدولة بظاهر حلب، واشتد القتال بينهم، فانهزم ناصر الدولة وعاد مقهوراً إلى مصر، وملك محمود حلب، وقتل عنه معز الدولة، واستقام أمره بها، وهذه الواقعة تُعرف بوقعة الفَيْليق، وهي مشهورة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خلع السلطان طغرل بك على محمود بن الأخرم الخفاجي، ورُدَّت إليه إمارة بني خفاجة، وولاية الكوفة، وسقي الفُرات، وضمن خواص السلطان هناك بأربعة آلاف دينار كل سنة، وصرف عنها رجب بن منيع.

ذكر موت المعز بن باديس وولاية ابنه تميم

في هذه السنة توفي المعز بن باديس، صاحب إفريقية، من مرض أصابه، وهو ضعف الكبد، وكانت مدة ملكه سبعا وأربعين سنة، وكان عمره لما ملك إحدى عشرة سنة، وقيل ثمانين سنة وستة أشهر.

وكان رقيق القلب، خاشعا، متجنباً لسفك الدماء إلا في حد، حليماً، يتجاوز عن الذنوب العظام، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه، مكرماً لأهل العلم، كثير العطاء لهم، كريماً، وهب مرة مائة ألف دينار للمستنصر الزناني وكان عنده وقد جاءه هذا المال، فاستكثره، فأمر به فأفرغ بين يديه، ثم وهبه له، فقيل له: لِمَ أمرت بإخراجه من أوعيته؟ قال: لنأى يقال لو رآه ما سمحت نفسه به؟ وكان له شعر حسن.

ولما مات رثاه الشعراء، فمنهم أبو الحسن بن رشيق فقال:

لكل حي وإن طاع المني هلك لا عز مملكة يبقى، ولا ملك
ولى المعز على أعقاب فرمى أو كاد يهد من أركانه الفلك
مضى فقيداً، وأبقى في خزائنه هام الملوك، وما أدرك ما ملكوا
ما كان إلا حساماً سله قنر على اللين بغوا في الأرض وانهمكوا
كأنه لم يخص للموت بحر وغى خضر البحار، إذا قيست به، برك
(١٦/١٠)

ولم يجز بقناطير مقلطرة قد أرخت باسمه إبريزها السكك
روح المعز وروح الشمس قد قبضا فانظر بأي ضياء يصفد الفلك

ولما توفي ملك بعده ابنه تميم، وكان مولد تميم بالمنصورة التي هي مقره، منتصف رجب سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وولاه المهدية في صفر سنة خمس وأربعين [وأربعمائة]، فأقام بها إلى أن وافاه أبوه المعز، لما انتزع عن القيروان من العرب، وقام بخدمة أبيه، وأظهر من طاعته وبره ما بأن [به] كذب ما كان يُنسب إليه.

ولما استبد بالملك بعد أبيه سلك طريقه في حسن السيرة، ومحبة أهل العلم، إلا أنه كان أصحاب البلاد قد طمعوا بسبب العرب، وزالت الهيبة والطاعة عنهم في أيام المعز، فلما مات ازداد طمعهم، وأظهر كثير منهم الخلاف، فممن أظهر الخلاف القائد حمز بن مليك، صاحب سفاقس، واستعان بالعرب، وقصد المهدية ليحاصرها، فخرج إليه تميم وصافه، فاقبلوا، فانهزم حمز وأصحابه، وكثر القتل فيهم، ومضى حمز ونجا بنفسه، وتفرقت خيله ورجاله، وكان ذلك سنة خمس وخمسين [وأربعمائة].

وسار تميم إلى سوسة، وكان أهلها قد خالفوا أباه المعز وعصوا عليه، فملكها وعفا عن أهلها. (١٧/١٠)

وفيها توفي أبو محمد النسوي، صاحب الشرطة ببغداد، وقد جاوز ثمانين سنة.

وفيها سد بنو ورام بنق النهروانات، وشرع العميد أبو الفتح في عمارة بنق الكرخ.

وفيها، في ذي القعدة، توفيت خاتون زوجة السلطان طغرل بك بننجان، فوجد عليها وجداً شديداً، وحُمل تابوتها إلى الرمي فدفنت بها.

وفيها، ثالث جمادى الآخرة، انقضى كوكب عظيم القدر عند طلوع الفجر من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق، فطال ليله.

وفيها جمع عطية بن صالح بن مرداس جمعاً وحصر الرحبة، وضيق على أهلها، فملكها في صفر من هذه السنة. (١٣/١٠)

وفيها توفيت والدة الخليفة القائم بأمر الله، واسمها قطر الندى، وقيل بدر الدجى، وقيل علم، وهي جارية أرمينية.

وفيها توفي محمد بن الحسين بن محمد بن الحسن أبو علي المعروف بالجازري النهرواني، وكان كثيراً من الرواية، الجازري بالجيم وبعد ألف زاي ثم راء.

وفيها توفي باي أبو منصور الفقيه الجيلي، بالبلاء الموحدة وبعد ألف ياء تحتها نقطتان، ومحمد بن عبيد بن أحمد بن محمد أبو عمرو بن أبي الفضل، الفقيه المالكي. (١٤/١٠)

سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة

ذكر وزارة ابن دارست للخليفة

لما عاد الخليفة إلى بغداد استخدم أبا تراب الأثري في الإنهاء، وحضور المواكب، ولقبه حاجب الحجاب، وكان قد خدمه بالحديث، وقرب منه، فخاطب الشيخ أبو منصور بن يوسف في وزارة أبي الفتح منصور بن أحمد بن دارست، وقال إنه يخدم بغير إقطاع، ويحمل مالاً، فأجيب إلى ذلك، فأحضر من الأهواز إلى بغداد، وخلع عليه خلعة الوزارة منتصف ربيع الآخر، وجلس في منصبه، ومدحه الشعراء، فممن مدحه وهناه أبو الحسن الخباز بقصيدة منها:

أبى الملك بالأمين أبي الفتح ح وصئت عن صفوه الأقداء
دولة أصبحت، وأنت ولي الراي فيها، لنؤلف غرراً

وهي طويلة. وكان ابن دارست في أول أمره تاجراً للملك أبي كاليبجار. (١٥/١٠)

ذكر وفاة قريش صاحب الموصل وإمارة ابنه شرف الدولة

في هذه السنة توفي قريش بن بدران صاحب الموصل ونصيبين، أصابه خروج الدم من فيه وأنفه وعينه وأذنيه، فحمله ابنه شرف الدولة إلى نصيبين، حتى حفظ خزانته بها، وتوفي هناك.

وسمع فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جُهير حاله، فسار من دارا إلى نصيبين، وجمع بني عُقيل على أن يؤمروا ابنه أبا المكارم مُسلم بن قريش عليهم، وكان القائم بأمره جابر بن ناشب، فزوجه فخر الدولة بأخت مسلم، وزوج مسلماً بابنة نصر بن منصور.

ذكر وفاة نصر الدولة بن مروان

في هذه السنة توفي نصر الدولة أحمد بن مروان الكردي، صاحب ديار بكر، ولقبه القادر بالله نصر الدولة، وكان عمره ثقباً وثمانين سنة، وإمارته اثنتين وخمسين سنة، واستولى على الأمور ببلاده استيلاء تاماً، وعمر الثغور وضبطها، وتعمم تنعماً لم يُسمع بمثله عن أحد من أهل زمانه.

وملك من الجواري المغنيات ما اشترى بعضهن بخمسة آلاف دينار، وأكثر من ذلك، وملك خمسمائة سُرية سوى توابعهن، وخمسمائة خادم.

وكان في مجلسه من الآلات ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار، وتزوج من بنات الملوك جملة، وأرسل طبّاحين إلى الديار المصرية، وغرم على إرسالهم (١٨/١٠) جملة وافرة حتى تعلموا الطبخ من هناك.

وأرسل إلى السلطان طغرل بك هدايا عظيمة، من جملتها الجبل الياقوت الذي كان لبني بويه، اشتراه من الملك العزيز أبي منصور بن جلال الدولة، وأرسل معه مائة ألف دينار سوى ذلك.

ووزر له أبو القاسم بن المغربي، وفخر الدولة بن جُهير، ورخصت الأسعار في أيامه، وتظاهر الناس بالأموال، ووفد إليه الشعراء، وأقام عنده العلماء والزهاد.

وبلغه أن الطيور في الشتاء تخرج من الجبال إلى القرى فتصاد، فأمر أن يطرح لها الحب من الأهراء التي له، فكانت في ضيافته طول عمره.

ولمّا مات اتفق وزيره فخر الدولة بن جُهير وابنه نصر، فرتب نصر في الملك بعد أبيه، وجرى بينه وبين أخيه سعيد حروب شديدة كان الظفر في آخرها لنصر، فاستقر في الإمارة بميفارقين وغيرها، وملك أخوه سعيد آيد.

ذكر عدة حوادث

في رجب خلع على الكامل أبي الفوارس طراد بن محمد الزيني، وقُدّ نقابة النقباء، ولُقّب الكامل ذا الشرفين.

وفيهما توفي شمس الدين أسامة بن أبي عبد الله بن علي [تولى نقابة العلويين ببغداد، ولُقّب المرتضى. (١٩/١٠)]

وفيهما، في جمادى الأولى، انكسفت الشمس جميعها، فظهرت الكواكب، وأظلمت الدنيا، وسقطت الطيور الطائرة.

وفيهما، في شهر رمضان، توفي شكر العلوي الحسيني، أمير مكة، وله شعر حسن، فمته:

قَوْضَ خِيَالِكَ عَنْ أَرْضِي نَضَامُهَا، وَجَانِبِ السُّلْ، إِنَّ السُّلْ مُجْتَنَبُ
وَارْخُلَ إِذَا كَانَ فِي الْأُوطَانِ مَقْصُصَةً فَالْمَنْتَلُ الرُّطْبُ فِي أَوْطَانِهِ حَطْبُ
وفيهما توفي أبو القاسم علي بن محمد بن يحيى الشمشاطي بدمشق، وكان عالماً بالهندسة والرياضيات من علوم الفلاسفة، وإليه يُنسب الرباط الذي عند جامع دمشق. (٢٠/١٠)

سنة أربع وخمسين وأربعمائة

ذكر نكاح السلطان طغرل بك ابنة الخليفة

في هذه السنة عقد للسلطان طغرل بك على ابنة الخليفة القائم بأمر الله، وكانت الخطبة تقدّمت سنة ثلاث وخمسين [وأربعمائة] مع أبي سعد قاضي الرّي، فانزعج الخليفة من ذلك، وأرسل في الجواب أبا محمد التميمي، وأمره أن يستعفى، فإن أعفي، وإلا تمّ الأمر على أن يحمل السلطان ثلاثمائة ألف دينار، ويسلم واسطاً وأعمالها.

فلمّا وصل إلى السلطان ذكر لعמיד الملك الوزير ما ورد فيه من الاستعفاء، فقال: لا يحسن أن يردّ السلطان، وقد سأل وتضرّع، ولا يجوز مقابله أيضاً بطلب الأموال والبلاد، فهو يفعل أضعاف ما طُلب منه.

فقال التميمي: الأمر لك، ومهما فعلته فهو الصواب؛ فبنى الوزير الأمر على الإجابة، وطالع به السلطان، فسُرّ به، وجمع الناس وعرفهم أن همته سمت به إلى الاتصال بهذه الجهة النبوية، ويبلغ من ذلك ما لم يبلغه سواه من الملوك. وتقدّم إلى عميد الملك الوزير أن يسير ومعه أرسلان خاتون، زوجة (٢١/١٠) الخليفة، وأن يصحبها مائة ألف دينار برسم الحمل، وما شاكلها من الجواهر وغيرها، ووجه معه فرامر بن كاكوتيه، وغيره من وجوه الأمراء وأعيان الرّي.

فلمّا وصل إلى الإمام القائم بأمر الله، وأوصل خاتون زوجة

والخليفة إلى دارها، وأنهى حضوره وحضور من معه، ذكر حال
الوصلة، فامتنع الخليفة من الإجابة إليها وقال: إن أعفينا، وإلا
خرجنا من بغداد.
فقال عميد الملك: كان الواجب الامتناع من غير اقتراح،
وعند الإجابة إلى ما طلب، فالامتناع سعي على دمي، وأخرج
خيامه إلى النهروان، فاستوقفه قاضي القضاة، والشيخ أبو منصور
بن يوسف، وأنهيا إلى الخليفة عاقبة انصرافه على هذا الوجه،
وصنع له ابن دارست وزير الخليفة دعوة، فحضر عنده، فرأى على
مسجد مكتوباً: معاوية خال علي؛ فأمر بحكه.

وكتب من الديوان إلى خمارتكين الطغرائي كتاباً يتضمن
الشكوى من عميد الملك، فورده الجواب عليه بالرفق، وكتب
الخليفة إلى عميد الملك: نحن نرد الأمر إلى رأيك: ونعول على
أمانتك ودينك.

فحضر يوماً عند الخليفة، ومعه جماعة من الأمراء، والحجّاب،
والقضاة والشهود، فأخذ المجلس لنفسه، ولم يتكلم سواه، وقال
للخليفة: أسأل مولانا أمير المؤمنين التّطول بذكر ما شرف به العبد
المخلص شاهنشاه، ركن الدين، فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة.

فغالطه، وقال: قد سطر في المعنى ما فيه كفاية. فانصرف عميد
الملك مغضباً، ورحل في السادس والعشرين من جمادى الآخرة،
وأخذ المال (٢٢/١٠) معه إلى همدان، وعرف السلطان أن السبب
في اتفاق الحال من خمارتكين الطغرائي، فتغيّر السلطان عليه،
فهرب في سنة غلمان.

وكتب السلطان إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور بن
يوسف يعتب ويقول: هذا جزء من الخليفة الذي قتلته أخي في
خدمته، وأنفقت أموالاً في نصرته، وأهلكته خواصّي في محبته.
وأطال العتاب، وعاد الجواب إليه بالاعتذار.

وأما الطغرائي فإنه أدرك بيزروجذ فقال أولاد إبراهيم يئال
للسلطان: إن هذا قتل أبانا، ونسأل أن نمكّن من قتله؛ وأعانهم
عميد الملك، فأذن لهم في قتله، فساروا إلى طريقه وقتلوه، وجعل
مكانه ساونكين، وبسط الكندري لسانه. وطلب طغرل بك ابنه أخيه،
زوجة الخليفة، لتعاد إليه، وجرى ما كاد يقضي إلى الفساد الكلي.

فلما رأى الخليفة شدة الأمر أذن في ذلك، وكتب الوكالة باسم
عميد الملك، وصيّرت الكتب مع أبي الغنائم بن المحلبان، وكان
العقد في شعبان سنة أربع وخمسين [وأربعمائة] بظاهر تبريز،
وهذا ما لم يُجر للخلفاء مثله، فإن بني بويه مع تحكّمهم
ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطعموا في مثل هذا ولا ساموهم
فعله.

ذكر عزل ابن دارست ووزارة ابن جُهير

في هذه السنة عزل أبو الفتح محمد بن منصور بن دارست من
وزارة الخليفة.

وسببه أنه وصل معه إنسان يهودي يقال له ابن علان، فضمن
أعمال الوكلاء التي لخاصّ الخليفة بسنة آلاف كرّ غلة، ومائة ألف
دينار، فصَحّ منها ألفاً كرّ، وثلاثون ألف دينار، وانكسر الباقي، فظهر
عجز ابن دارست ووهنه، فعزل، وعاد إلى الأهواز، فتوفي بها سنة
سبع وستين [وأربعمائة].

وكان فخر الدولة أبو نصر بن جُهير، وزير نصر الدولة بن
مروان، قد أرسل يخطب الوزارة، وبذل فيها بذولاً كثيرة، فأجيب
إليها، وأرسل كامل طراد الزينبي إلى ميفارقين كأنه رسول، فلما
عاد سار معه ابن جُهير كالمدوّع له، فتمّ السير معه.

وخرج ابن مروان في أثره، فلم يدركه، فلما وصل إلى بغداد
خرج الناس إلى استقباله، وخلع عليه خلع الوزارة يوم عرفة،
ولُقّب فخر الدولة، واستقر في الوزارة، ومدحه وهناه ابن الفضل
وغيره من الشعراء.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عمّ الرخص جميع الأصقاع، فبيع بالبصرة ألف
رطل من التمر بشمانية دراهم.

وفيهما توفي القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر
القضاعي بمصر. (٢٤/١٠)

وفيهما سار السلطان طغرل بك إلى قلعة الطرم من بلاد الدليم،
وقرّر على مسافر ملكها مائة ألف دينار وألف ثوب.

وفيهما مات أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس الملقّب معزّ
الدولة بلبل، وقام أخوه عطية مقامه.

وتوفي الحسن بن علي بن محمد أبو محمد الجوهري،
ومولده سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وكان من الأئمة الكثيرين من
سماع الحديث وروايته، وهو آخر من حدّث عن أبي بكر القطيعي،
والأبهري، وابن شاذان، وغيرهم. (٢٥/١٠)

سنة خمس وخمسين وأربعمائة

ذكر ورود السلطان بغداد ودخوله بابنة الخليفة

في هذه السنة، في المحرم، توجه السلطان طغرل بك من أرمينية إلى بغداد، وأراد الخليفة أن يستقبله، فاستعفاه من ذلك، وخرج الوزير ابن جُهير فاستقبله.

وكان مع السلطان من الأمراء: أبو عليّ ابن الملك أبي كاليجار، وسُرخاب بن بدر، وهزارسب، وأبو منصور فرامر بن كاكوتيه، فنزل عسكره في الجانب الغربي، فزاد بهم أذى.

ووصل عميد الملك إلى الخليفة، وطالب بالجهة، وبات بالدار، فقيل له، خطك موجود بالشرط، وإن المقصود بهذه الرخصة الشرف لا الاجتماع، وإنه إن كانت مشاهدة فتكون في دار الخلافة؛ فقال السلطان: نفعل هذا، ولكن نفرد له من الدور والمساكن ما يكفي، ومعه خواصه، وحجابه، ومماليكه، فإنه لا يمكنه مفارقتهم، فحينئذ نُقلت إلى دار المملكة في منتصف صفر، فجلست على سرير ملبس بالذهب، ودخل السلطان إليها، وقبّل الأرض وخدمها، ولم تكشف الخمار عن وجهها، ولا قامت هي له، وحمل لها شيئاً كثيراً من الجواهر وغيرها، وبقي كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف.

وخلع على عميد الملك وعمل السّماط عدة أيام، وخلع على جميع الأمراء، وظهر عليه سرور عظيم، وعقد ضمان بغداد على أبي سعيد القايّني بمائة وخمسين (٢٦/١٠) ألف دينار، فأعاد ما كان أطلقه رئيس العراقيّين من الموارث والمكوس، وقبض على الأعرابيّ سعد، ضامن البصرة، وعقد ضمان واسط على أبي جعفر ابن صقال بمائتي ألف دينار.

ذكر وفاة السلطان طغرل بك

في هذه السنة سار السلطان من بغداد، في ربيع الأول، إلى بلد الجبل، فوصل إلى الرّيّ واستصحب معه أرسلان خاتون ابنة أخيه، زوجة الخليفة، لأنّها شكت أطراح الخليفة لها، فأخذها معه، فمرض، وتوفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان، وكان عمره سبعين سنة تقريباً، وكان عقيماً لم يلد ولداً.

وكان وزيره الكندريّ على سبعين فرسخاً، فأثاء الخير، فسار، ووصل إليه في يومين وهو بعد لم يُدفن فدفنه. وجلس له الوزير فخر الدولة بن جُهير ببغداد للعزاء.

حكى عنه الكندريّ أنّه قال: رأيتُ، وأنا بخراسان، في المنام كأنني رُفعتُ إلى السماء، وأنا في ضباب لا أبصر معه شيئاً، غير أنّي أشمّ رائحة طيبة، وأنّي أنادي: إنك قريب من الباري، جلّت

قدرته، فاسأل حاجتك لتُقتضى؛ فقلت في نفسي: أسأل طول العمر، فقيل: لك سبعون سنة؛ فقلت: يا ربّ ما يكفيني؛ فقيل: لك سبعون سنة؛ فقلت: يا ربّ لا يكفيني؛ فقيل: لك سبعون سنة. فلمّا مات حسب عميد الملك عمره، على التقريب، فكان سبعين سنة. وكانت مملكته، بحضرة الخلافة، سبع سنين وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً. (٢٧/١٠)

وأما الأحوال بالعراق، بعد وفاته، فإنه كُتب من ديوان الخلافة إلى شرف الدولة مسلم بن قريش، صاحب الموصل، وإلى نور الدولة دُنيس بن مَزِيد، وإلى هزارسب، وإلى بني ورام، وإلى بدر بن المهلهل، بالاستدعاء إلى بغداد، وأرسل لشرف الدولة تشريف، وعمل أبو سعد القايّني، ضامن ببغداد، سوراً على قصر عيسى، وجمع الغلات، فأنحدر إبراهيم بن شرف الدولة إلى أوثان، وتسلم أصحابه الأنبار، وانتشرت البادية في البلاد، وقطعوا الطرقات.

وقدم إلى بغداد دُنيس بن مَزِيد، وخرج الوزير ابن جُهير لاستقباله، وقدم أيضاً ورام.

وتوفي ببغداد أبو الفتح بن ورام، مقدّم الأكراد الجوانية، فحُمِل إلى جَزْجَرِيَا، وفارق شرف الدولة مسلم ببغداد، ونهب التواحي، فسار نور الدولة، والأكراد، وبنو خفاجة إلى قتاله.

ثم أرسل إليه من ديوان الخلافة رسول معه خلة له، وكوتب بالرضاء عنه، وانحدر إليه نور الدولة دُنيس، فعمل له شرف الدولة سيماطاً كثيراً، وكان في الجماعة الأشرف أبو الحسين بن فخر الملك أبي غالب بن خلف، كان قصد شرف الدولة مستجدياً، فمضغ لقمة، فمات من ساعته.

وحكى عنه بعض من صحبه أنّه سمعه ذلك اليوم يقول: اللهم اقبضني، فقد ضجرتُ من الإضافة! فلمّا توفي وُرفِع من السماط خاف شرف الدولة أن يظنّ مَنْ حضر أنّه تناول طعاماً مسموماً قصد به غيره، فقال: يا معشر العرب لا يرح منكم أحد؛ ونهض وجلس مكان ابن فخر الملك المتوفى، وجعل يأكل من الطعام الذي بين يديه، فاستحسن الجماعة فعله، وعادوا عنه وخلع على دُنيس ولده منصور وعاد إلى حلّته.

ولما رأى الناس ببغداد انتشار الأعراب في البلاد ونهبها، حملوا السلاح لقتالهم، وكان ذلك سبباً لكثرة العيارين وانتشار المفسدين. (٢٨/١٠)

ذكر شيء من سيرته

كان عاقلاً حليماً من أشدّ الناس احتمالاً، وأكثرهم كتماناً لسيّره، ظفر بملطقات كتبها بعض خواصه إلى الملك أبي كاليجار، فلم يطلع على ذلك، ولا تغيّر عليه، حتى أظهره بعد مدة طويلة

لغيره.

بعساكر ومعه أيضاً طائفة من العرب من زغبة، ووصل حَمَو إلى سَلْقُطَة، والتقى الفريقان بها، وكانت بينهما حرب شديدة فانهزم حَمَو ومن معه، وأخذتهم السيوف، فقتل أكثر حماته وأصحابه، ونجا بنفسه، وتفرقت رجاله، وعاد تميم مظفراً منصوراً. (٣٠/١٠)

ثم قصد، بعد هذه الحادثة، مدينة سوسة، وكان أهلها قد خالفوا عليه، فملكها، وعفا عنهم وحقق دماءهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، قبض بمصر على الوزير أبي الفرج بن المغربي.

وفيها دخل الصليحي، صاحب اليمن، إلى مكة مالكاً لها، فأحسن السيرة فيها، وجلب إليها الأقوات، ورفع جوراً من تقدم، وظهرت منه أفعال جميلة.

وفيها، في ربيع الآخر، انقض كوكب عظيم، وكان له ضوء كثير.

وفيها، في شعبان، كان بالشام زلزلة عظيمة خرب منها كثير من البلاد، وانهدم سور طرابلس.

وفيها ملك أمير الجيوش بدر دمشق للمستنصر، صاحب مصر، فوصل إليها في الثالث والعشرين من ربيع الآخر، وأقام بها، واختلف هو والجند، فثاروا به، ووافقهم العامة، فضعف عنهم، ففارقها في رجب سنة ست وخمسين [وأربعمئة].

وفيها توفي سعيد بن نصر الدولة بن مروان، صاحب آيد، من ديار بكر، وذهير بن الحسين بن علي أبو نصر الجذامي، الفقيه الشافعي، تفقه على أبي حامد الأسفراييني، وسمع الحديث الكثير ورواه، وكان موته بـسرخس. (٣١/١٠)

سنة ست وخمسين وأربعمئة

ذكر القبض على عميد الملك وقتله

في هذه السنة قبض السلطان ألب أرسلان على الوزير عميد الملك أبي نصر منصور بن محمد الكندري وزير طغرل بك.

وسبب ذلك أن عميد الملك قصد خدمة نظام الملك، وزير ألب أرسلان، وقدم بين يديه خمسمائة دينار، واعتذر، وانصرف من عنده، فسار أكثر الناس معه، فخوف السلطان من غائلة ذلك، فقبض عليه وأنفذه إلى مرو الرود، وأتت عليه سنة في الاعتقال، ثم نفذ إليه غلامين فدخلا عليه وهو محبوم، فقالا له: تبّ ممّا أنت عليه، ففعل، ودخل فودع أهله، وخرج إلى مسجد هناك فصلّى ركعتين، وأراد الغلامان خنقه، فقال: لست بلساً وخرق خرقه من طرف كمة وعصب عينيه، فضربوه بالسيف، وكان قتله في ذي

وحكى عنه أفضى القضاة الماوردي قال: لمّا أرسلني القائم بأمر الله إليه سنة ثلاث وثلاثين [وأربعمئة] كتب كتاباً إلى بغداد أذكر فيه سيرته وخراب بلاده، وأطعن عليه بكل وجه، فوقع الكتاب من غلامي، فحمل إليه، فوقف عليه وكتمه، ولم يحدثني فيه بشيء، ولا تغيّر عما كان عليه من إكرامي.

وكان، رحمه الله، يحافظ على الصلوات، ويصوم الاثنين، والخميس، وكان لبسه الثياب البياض، وكان ظلوماً، غشوماً، قاسياً، وكان عسكره ينصبون الناس أموالهم، وأيديهم مطلقة في ذلك نهاراً وليلاً.

وكان كريماً، فمن كرمه أن أخاه إبراهيم ينال أسر من الروم، لمّا غزاهم بعض ملوكهم فبذل في نفسه أربعمئة ألف دينار، فلم يقبل إبراهيم منه وحمله إلى طغرل بك، فأرسل ملك الروم إلى نصر الدولة بن مروان حتى خاطب طغرل بك في فكاهه، فلمّا سمع طغرل بك رسالته أرسل الرومي إلى ابن مروان بغير فداء، وسير معه رجلاً علويّاً، فأنفذ ملك الروم إلى طغرل بك ما لم يحمل في الزمان المتقدم، وهو ألف ثوب ديباج، وخمسمائة ثوب أصناف، وخمسمائة رأس من الكراع إلى غير ذلك، وأنفذ مائتي ألف دينار، ومائة لبنه فضة، وثلاثمئة شهري، وثلاثمئة حمار مصريّة، وألف عنز بيض الشعور، سود العيون والقرون، وأنفذ إلى ابن مروان عشرة أمماء مسكاً، وعمر ملك الروم الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينيّة، وعمر منارته، وعلق فيه القناديل، وجعل في محرابه قوساً ونشابة، وأشاع المهادنة. (٢٩/١٠)

ذكر ملك السلطان ألب أرسلان

لمّا مات السلطان طغرل بك أجلس عميد الملك الكندري في السلطنة سليمان ابن داود جعفري بك، أخي السلطان طغرل بك، وكان طغرل بك قد عهد إليه بالملك، وكانت والدة سليمان عند طغرل بك، فلمّا خطب له بالسلطنة اختلف الأمراء، فمضى باغي سيان وأردم إلى قزوین، وخطبوا لعبد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جعفري بك، وهو حيثنذ صاحب خراسان، ومعه نظام الملك وزيره، والناس مائلون إليه، فلمّا رأى عميد الملك الكندري انعكاس الحال عليه أمر بالخطبة بالرأي للسلطان ألب أرسلان، وبعده لأخيه سليمان.

ذكر خروج حَمَو عن طاعة تميم بن المعزّ بإفريقية

في هذه السنة خالف حَمَو بن مليك، صاحب مدينة سَفَاقس بإفريقية، على الأمير تميم بن المعزّ بن باديس، فجمع أصحابه، واستعان بالعرب، وسار إلى المهدية، فسمع تميم الخبر، فسار إليه

ومن العجب أنَّ ذَكَرَهُ دُفِنَ بخوارزم لَمَّا خَصِي، ودمه مسفوح
بَمَرَوْ، وجسده مدفون بِكَنْدَر، ورأسه ما عدا قحفه مدفون بَنيسابور،
وتُقَلُّ قحفه إلى كَرْمان لِأَنَّ نظام الملك كان هناك، فاعتبروا يا أولي
الأبصار.

ولَمَّا قُرِبَ لِلقَتْلِ قال للقاصد إليه: قُلْ لنظام الملك: بنس ما
عَوَدْتُ الأتراك (٣٤/١٠) قتل الوزراء، وأصحاب الديوان، ومن
حفر قَلِيلاً وقع فيه، ولم يخلف عميد الملك غير بنت.

ذكر ملك الب أرسلان ختلان وهراة وصغانيان

لَمَّا تَوَفَّى طغرل بك وملك الب أرسلان عصى عليه أمير ختلان
بقلعته ومنع الخراج، فقصده السلطان، فرأى الحصن منيعاً على
شاهق، فأقام عليه وقاتله، فلم يصل منه إلى مُراد.

ففي بعض الأيام باشر الب أرسلان القتال بنفسه، وترجّل،
وصعد في الجبل، فتبعه الخلق، وتقدّموا عليه في الموقف، والحو
في الزحف والقتال، وكان صاحب القلعة على شرفه من سورها
يحرّض الناس على القتال، فأنته نَشَابَة من العسكر فقتلته، وتسلم
الب أرسلان القلعة وصارت في جملة ممالكه.

وكان عمّه فخر الملك يُغَيِّبُ بن ميكائيل في هراة، فعصى أيضاً
عليه، وطمع في الملك لنفسه، فسار إليه الب أرسلان في العساكر
العظيمة، فحصره وضيق عليه، وأدام القتال ليلاً ونهاراً، فنسلم
المدينة، وخرج عمّه إليه، فأبى عليه وأكرمه وأحسن صحبته.

وسار من هناك إلى صغانيان، وأميرها اسمه موسى، وكان قد
عصى عليه، فلَمَّا قاربه الب أرسلان صعد موسى إلى قلعة على
رأس جبل شاهق، ومعه من الرجال الكماة جماعة كثيرة، فوصل
السلطان إليه، وباشر الحرب لوقت، فلم ينتصف النهار حتى صعد
العسكر الجبل، وملكوا القلعة قهراً، وأخذ موسى أسيراً، فأمر بقتله،
فبذل في نفسه أموالاً كثيرة، فقال السلطان: ليس هذا أوان تجارة؟
واستولى على تلك الولاية بأسرها، وعاد إلى مَرَوْ، ثم منها إلى
نيسابور. (٣٥/١٠)

ذكر عود ابنة الخليفة إلى بغداد والخطبة للسلطان الب أرسلان ببغداد

في هذه السنة أمر السلطان الب أرسلان السيِّدة ابنة الخليفة
بالعود إلى بغداد وأعلمها أنه لم يقبض على عميد الملك إلا لَمَّا
اعتمده من نقلها من بغداد إلى الرِّيِّ بغير رضا الخليفة، وأمر
الأمير إيتكين السليمانيّ بالمسير في خدمتها إلى بغداد، والمقام بها
شحنة، وأنفذ أبا سهل محمّد بن هبة الله، المعروف بابن الموفق،
للمسير في الصحبة، وأمره بالمخاطبة في إقامة الخطبة له، فمات
في الطريق مُجَدِّراً.

الحجة، ولَفَّ في قميص ديقِيٍّ من ملابس الخليفة، وخرقة كانت
البردة التي عند الخلفاء فيها، وحملت جسّه إلى كَنْدَر، فدفن عند
أبيه، وكان عمره يوم قُتِلَ نيفاً وأربعين سنة.

وكان سبب اتّصاله بالسلطان طغرل بك أن السلطان لَمَّا ورد
نيسابور طلب رجلاً يكتب له، ويكون فصيحاً بالعربية، فدلّ عليه
الموفق، والد أبي (٣٢/١٠) سهل، وأعطته السعادة، وكان فصيحاً،
فاضلاً، وانتشر من شعره ما قاله في غلام تركيٍّ صغير السن كان
واقفاً على رأسه يقطع بالسكين قصبة، فقال عميد الملك فيه:

أنا مشغولٌ بِمَنْعَةٍ، وهو مشغولٌ بِالْعَبَةِ
لو أراد الله خيراً، وصلاًحاً لَمْجَبَةٍ
تَقَلَّتْ رَقَّةٌ خَلِيَّةٌ، إلى قسوة قَلْبَةٍ
صانته الله فما أكـ فرأعجالي بِعَجَبَةٍ
ومن شعره:

إن كان بالناس غيبٌ عن مُناقَشَتِي، فالمرء قد وسع الدنيا على الناس
مضيت، والشامتُ المغبونُ يَتَغَنِّي، كلُّ لكاسٍ المَناسِبِ شاربٌ حاسي
وقال أبو الحسن الباهريُّ يخاطب الب أرسلان عند قتل
الكندري:

وعَمَّكَ أُنْصَاءُ، وأهْلَى مَحَلِّه، ونِوَاهُ مِنْ مُلْكِهِ كَنُصْأَ رَجَبِ
فَضَى كُلُّ مَوْلَى مِنْكَما حَقٌّ عِبْدِي، فخرتكُ النِّبَا، وخرتُكَ العُتْبَى
وكان عميد الملك خصياً، قد خصاه طغرل بك لأنّه أرسله
يخطب عليه امرأة ليتزوّجها، فتزوّجها هو، وعصى عليه، فظفر به
وخصاه، وأقرّه على خدمته.

وقيل بل أعداؤه أشاعوا عنه أنّه تزوّجها، فخصى نفسه ليخلص
من سياسة (٣٣/١٠) السلطنة، فقال فيه عليُّ بن الحسن الباهريُّ:
قالوا: مَحَا السلطانُ عنه بعِزَّةٍ، سِمَةَ الفحول، وكان قَرَمًا صائلاً
قلت: اسكوا، فالأن زاد فحولةً لَمَّا اخْتَدَى عن أُنْثَى عاتلاً
فالفحلُ يَأْتِفُ أن يَمَيَّ بعضُهُ أُنْثَى، للنسك جلته مُستاهلاً
يعني بالأنثى واحدة الأنثيين.

وكانت شديد التعصّب على الشافعيّة، كثير الوقعة في
الشافعي، رضي الله عنه، بلغ من تعصّبه أنّه خاطب السلطان في
لعن الرافضة على منابر خراسان، فأذن في ذلك، فأمر بلعنهم،
وأضاف إليهم الأشعرية، فأنف من ذلك أئمة خراسان، منهم: الإمام
أبو القاسم القشيري، والإمام أبو المعالي الجويني، وغيرهما،
ففارقوا خراسان، وأقام إمام الحرمين بمكة أربع سنين إلى أن
انقضت دولته، يدرّس، ويفتي، فلهذا لَقِبَ إمام الحرمين، فلَمَّا
جاءت الدولة النظامية أحضر من انتزح منهم وأكرمهم، وأحسن
إليهم، وقيل إنّ تاب من الوقعة في الشافعي، فإن صح فقد أفلح،
ولاً فعلى نفسها براقش تجني.

ولمّا سكن الغبار، ونزل العسكر، وُجد قُتلُمش ميّتا ملقىً على الأرض لا يُدرى كيف كان موته، قيل: إنّه مات من الخوف، واللّه أعلم، فبكى السلطان لموته، وقعد لعزّاته، وعظم عليه فقده، فسلاّه نظام الملك، ودخل ألّب أرسلان إلى مدينة الرّئي آخر المحرّم من السنة.

ومن العجب أنّ قُتلُمش هذا كان يعلم علم النجوم، قد اتّفقنّه، مع أنّه تركيّ، ويعلم غيره من علوم القوم، ثم إنّ أولاده من بعده لم يزالوا يطلبون هذه العلوم الأوّليّة، ويقرّبون أهلها، فنالهم بهذا غضاضة في دينهم، وسبرد من أخبارهم ما يُعلم منه ذلك وغيره من أحوالهم.

ذكر فتح ألّب أرسلان مدينة آني وغيرها من بلاد النصرانيّة

ثم سار السلطان من الرّئي أوّل ربيع الأوّل، وسار إلى أذربيجان، فوصل إلى مرّند عازماً على قتال الروم وغزوهم، فلمّا كان بمرّند أتاه أمير من أمراء التركمان، كان يُكثر غزو الروم، اسمه طغديكين، ومعه من عشيرته خلق كثير، قد ألفوا الجهاد، وعرفوا تلك البلاد، وحثّه على قصد بلادهم، وضمن له سلوك الطريق المستقيم إليها، فسار معه، فسلك بالمساكر في مضايق (٣٨/١٠) تلك الأرض ومخارمها، فوصل إلى نقجوان، فأمر بعمل السفن لعبور نهر آرس، فليل له إن سكَان خوّي، وسلّمناش، من أذربيجان، لم يقوموا بواجب الطاعة، وإنّهم قد امتنعوا ببلادهم، فسبّر إليهم عميد خراسان، ودعاهم إلى الطاعة، وتهدّدهم إن امتنعوا، فأطاعوا، وصاروا من جملة حزيه وجنده، واجتمع عليه هناك من الملوك والعساكر مالا يحصى.

فلمّا فرغ من جمع العساكر والسفن سار إلى بلاد الكُرج، وجعل مكانه في عسكره ولذّه ملكشاه، ونظام الملك وزيره، فسار ملكشاه ونظام الملك إلى قلعة فيها جمع كثير من الروم، فنزل أهلها منها، وتخطّفوا من العسكر، وقتلوا منهم فئة كثيرة، فنزل نظام الملك وملكشاه، وقاتلوا من بالقلعة، وزحفوا إليهم، فقتل أمير القلعة وملكها المسلمون، وساروا منها إلى قلعة سُرماري، وهي قلعة فيها المياه الجارية والبساتين، فقاتلوا وملكوها، وأنزلوا منها أهلها، وكان بالقرب منها قلعة أخرى، ففتحها ملكشاه، وأراد تخريبها، فنهاه نظام الملك عن ذلك، وقال: هي ثغر للمسلمين، وشحنها بالرجال والذخائر والأموال والسلاح، وسلّم هذه القلاع إلى أمير نقجوان.

وسار ملكشاه ونظام الملك إلى مدينة مريم نشين، وفيها كثير من الرهبان والقسّيسين وملوك النصارى وعامّتهم يتقربون إلى أهل هذه البلدة، وهي مدينة حصينة، سورها من الأحجار الكبار الصلبة، المشدودة بالرصاص والحديد، وعندنا نهر كبير، فأعدّ نظام الملك

وهذا أبو سهل من رؤساء أصحاب الشافعيّ بنيسابور، وكان يحضر طعامه في رمضان، كلّ ليلة، أربع مائة مُتفقّه، ويصلهم ليلة العيد بكسوة ودنانير تعمّمهم، فلمّا سمع بموته أرسل العميد أبا الفتح المظفرّ بن الحسين فمات أيضاً في الطريق، فالّزم السلطان رئيس العراقيّين بالمسير، فوصلوا بغداد منتصف ربيع الآخر، وخرج عميد الدولة ابن الوزير فخر الدولة بن جُهير لتلقّيهم، واقترح السلطان أن يخاطب بالولد المؤيّد، فأجيب إلى ذلك، ولقّب ضياء الدين عضد الدولة.

وجلس الخليفة جلوساً عامّاً سابع جمادى الأولى، وشافه الرسل بتقليد ألّب أرسلان للسلطنة، وسلّمَت الخُلع بمشهد من الخلق، وأرسل إليه من الديوان لأخذ البيعة التّقيّة طراداً الزينبيّ، فوصلوا إليه وهو بنقجوان من أذربيجان، فلبس الخُلع، وباع للخليفة. (٣٦/١٠)

ذكر الحرب بين ألّب أرسلان وقُتلُمش

سمع ألّب أرسلان أنّ شهاب الدولة قُتلُمش، وهو من السُلجوقيّة أيضاً، وهو جدّ الملوك أصحاب قوّة، وقبصريّة، وأقصر، وملطّية، يومنا هذا، قد عصى عليه، وجمع جموعاً كثيرة، وقصد الرّئي ليستولي عليها، فجهّز ألّب أرسلان جيشاً عظيماً، وسيّره على المفازة إلى الرّئي، فسبقوا قُتلُمش إليها.

وسار ألّب أرسلان من نيسابور أوّل المحرّم من هذه السنة، فلمّا وصل إلى دامغان أرسل إلى قُتلُمش يُكرّ عليه فعله، وينهاه عن ارتكاب هذه الحال، ويأمره بتركها، فإنّه يرضى له القربة والرحم، فأجاب قُتلُمش جواب مُعترّب بمن معه من الجموع، ونهب قرى الرّئي، وأجرى الماء على وادي الملح، وهي سبخة، فتعذّر سلوكها، فقال نظام الملك: قد جعلت لك من خراسان جنداً ينصرونك ولا يخذلونك، ويرمون دونك بسهام لا تخطى، وهم العلماء والرّهّاد، فقد جعلتهم بالإحسان إليهم من أعظم أعرانك.

وقرب السلطان من قُتلُمش، فلبس نظام الملك السلاح، وعبّأ الكتائب، واصطفّ العسكران.

وكان قُتلُمش يعلم علم النجوم، فوقّف ونظر، فرأى أنّ طالعه في ذلك اليوم قد قارنه نحوس لا يرى معها ظفراً، قصد المحاجزة وجعل السبخة بينه وبين ألّب أرسلان ليمنّعه من اللقاء، فسلك ألّب أرسلان طريقاً في الماء، وخاض غمرته، وتبعه العسكر، فطلع منه سالماً هو وعسكره، فصاروا مع (٣٧/١٠) قُتلُمش، واقتتلوا، فلم يثبت عسكر قُتلُمش لعسكر السلطان، وانهزموا لساعتهم، ومضى منهزماً إلى قلعة كردكوه، وهي من جملة حصونه ومعاقله، واستولى القتل والأسر على عسكره، فأراد السلطان قتل الأسرى، فشفع فيهم نظام الملك فعفا عنهم وأطلقهم.

لقتالها ما يحتاج إليه من السفن وغيرها، وقاتلها، واصل قتالها ليلاً ونهاراً، وجعل العساكر عليها يقاتلون (٣٩/١٠) بالنوبة، فضجر الكفار، وأخذهم الإعياء والكلال، فوصل المسلمون إلى سورها، ونصبوا عليه السلاطين، وصعدوا إلى أعلاه، لأن المعاول كلت عن نقبه لقوة حجره.

فلما رأى أهلها المسلمين على السور فت ذلك في أعضادهم، وسقط في أيديهم، ودخل ملكشاه البلد، ونظام الملك، وأحرقوا البيع، وخربوها، وقتلوا كثيراً من أهلها، وأسلم كثير فنجوا من القتل.

واستدعى ألب أرسلان إليه ابنه ونظام الملك، وفرح بما يسره الله من الفتح على يد ولده، وفتح ملكشاه في طريقه عدة من القلاع والحصون، وأسر من النصارى ما لا يحصون كثرة، وساروا إلى سيبد شهر، فجري بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها كثير من المسلمين، ثم إن الله تعالى يسر فتحها فملكها ألب أرسلان.

وسار منها إلى مدينة أعالي لال، وهي حصينة، عالية الأسوار، شاهقة البنيان، وهي من جهة الشرق والغرب على جبل عال، وعلى الجبل عدة من الحصون، ومن الجانبين الآخرين نهر كبير لا يخاض، فلما رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها، وكان ملكها من الكرج، وهكذا ما تقدم من البلاد التي ذكرنا فتحها، وعقد السلطان جسراً على النهر عريضاً، واشتد القتال، وعظم الخطب، فخرج من المدينة رجالان يستغيثان، ويطلبان الأمان، والتمسا من السلطان أن يرسل معهما طائفة من العسكر، فسير جمعاً صالحاً، فلما جازوا الفصيل أحاط بهم الكرج من أهل المدينة وقاتلوهم فأكثروا القتل فيهم، ولم يتمكن المسلمون من الهزيمة لضيق المسلك. (٤٠/١٠)

وخرج الكرج من البلد وقصدوا العسكر، واشتد القتال، وكان السلطان ذلك الوقت، يصلي، فأتاه الصريح، فلم يبرح حتى فرغ من صلاته، وركب، وتقدم إلى الكفار، فقاتلهم، وكثير المسلمون عليهم، فولوا منهزمين، فدخلوا البلد والمسلمون معهم، ودخلها السلطان وملكها، واعتمص جماعة من أهلها في برج من أبراج المدينة، فقاتلهم المسلمون فأمر السلطان بإلقاء الحطب حول البرج وإحراقه، ففعل ذلك، وأحرق البرج ومن فيه، وعاد السلطان إلى خيامه، وغنم المسلمون من المدينة ما لا يحصى ولا يحصى.

ولما جن الليل عصفت ريح شديدة، وكان قد بقي من تلك النار التي أحرق بها البرج بقية كثيرة، فأطارتها الريح، فاحترقت المدينة بأسرها، وذلك في رجب سنة ست وخمسين [أو أربع مائة]، وملك السلطان قلعة حصينة كانت إلى جانب تلك المدينة،

وأخذها، وسار منها إلى ناحية قرس ومدينة آني وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما سيل ورده، ونورة، فخرج أهلها مذعنين بالإسلام، وخربوا البيع، وبنوا المساجد.

وسار منها إلى مدينة آني فوصل إليها فرآها مدينة حصينة، شديدة الامتناع لا ترام، ثلاثة أرباعها على نهر أرس، والربع الآخر نهر عميق شديد الجرية، لو طرح فيه الحجارة الكبار لدحها وحملها، والطريق إليها على خندق عليه سور من الحجارة الصم، وهي بلدة كبيرة، عامرة، كثيرة الأهل، فيها ما يزيد على خمسمائة بيعة، فحصرها وضيق عليها، إلا أن المسلمين قد أسوا من فتحها لما رأوا من حصانتها، فعمل السلطان برجاً من خشب، وشحنه بالمقاتلة، ونصب عليه المنجنيق، ورماة النشاب، فكشفوا الروم عن السور (٤١/١٠) وتقدم المسلمون إليه لينقبوه، فأتاهم من لطف الله ما لم يكن في حسابهم، فأنهزم قطعة كبيرة من السور بغير سبب، فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى بحيث أن كثيراً من المسلمين عجزوا عن دخول البلد من كثرة القتلى، وأسروا نحواً مما قتلوا.

وسارت البشري بهذه الفتوح في البلاد، فسر المسلمون، وقرئ كتاب الفتح ببغداد في دار الخلافة، فبرز خط الخليفة بالثناء على ألب أرسلان والدعاء له.

ورتب [السلطان] فيها أميراً في عسكر جزار، وعاد عنها، وقد راسله ملك الكرج في الهدنة، فصالحه على أداء الجزية كل سنة، قبل ذلك.

ولما رحل السلطان عائداً قصد أصبهان، ثم سار منها إلى كرمان، فاستقبله أخوه قاورد بك بن جغري بك داود، ثم سار منها إلى مرو، وزوج ابنه ملكشاه بانية خاقان، ملك ما وراء النهر، وزفت إليه في هذا الوقت، وزوج ابنه أرسلانشاه بانية صاحب غزنة، واتحد البيتان: البيت السلجوقي، والبيت المحمودي، وانفقت الكلمة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، ظهر بالعراق وخوزستان وكثير من البلاد جماعة من الأكراد، خرجوا يتصيدون، فرأوا في البرية خيماً سوداً، (٤٢/١٠) وسمعوا منها لطمات شديداً، وعويلاً كثيراً، وقتلاً يقول: قد مات سيدك ملك الجن، وأي بلد لم يلطم أهله عليه ويعملوا له العزاء قلع أصله، وأهلك أهله، فخرج كثير من النساء في البلاد إلى المقابر يلطمن، وينحن، وينشن شعورهن، وخرج رجال من سيفلة الناس يفعلون ذلك، وكان ذلك ضحكة عظيمة.

ولقد جرى في أيامنا نحن في الموصل، وما والاها من البلاد

إلى العراق، وغيرها، نحو هذا، وذلك أَنَّ الناس سنة ستمائة أصابهم وجع كثير في حلوقهم، ومات منه كثير من الناس، فظهر أَنَّ امرأة من الجنِّ يقال لها أَمَّ عُقُود، مات ابنها عُقُود، وكلٌّ من لا يعمل له ماتماً أصابه هذا المرض، فكثُر فعل ذلك، وكانوا يقولون: يا أَمَّ عُقُود اعذرينا، قد مات عُقُود ما درينا؛ وكان النساء يلطمن، وكذلك الأوباش.

وفيهما وليُّ أبو الغنائم المعمر بن محمد بن عبيد الله العلويُّ نقابة العلويين ببغداد، وإمارة الموسم، وألقب بالطاهر ذي المناقب، وكان المرتضى أبو الفتح أسامة قد استعفى من النقابة، وصاهر بني خفاجة، وانتقل معهم إلى البرية، وتوفيَّ أسامة بمشهد أمير المؤمنين عليٍّ، عليه السلام، في رجب سنة اثنتين وسبعين [وأربعمائة].

وفيهما في جمادى الآخرة توفيَّ أبو القاسم عبد الواحد بن عليٍّ بن برهان الأسديُّ النحويُّ المتكلم، وكان له اختيار في الفقه، وكان عالماً بالنسب، (٤٣/١٠) ويمشي في الأسواق مكشوف الرأس، ولم يقل من أحد شيئاً، وكان موته في جمادى الآخرة، وقد جاوز ثمانين سنة، وكان يميل إلى مذهب مُرْجئة المعتزلة، ويعتقد أَنَّ الكفار لا يخلدون في النار.

وفيهما انقضى كوكب عظيم، وكثر نوره فصار أكثر من نور القمر، وسمع له دويٌّ عظيم، ثم غاب. (٤٤/١٠)

سنة سبع وخمسين وأربعمائة

ذكر الحرب بين بني حماد والعرب

في هذه السنة كانت حرب بين الناصر بن علناس بن حماد ومن معه من رجال المغاربة من صنهاجة ومن زناتة ومن العرب: عدي والأثيب، وبين رباح، وزُغْبَة، وسُلَيْم، ومع هؤلاء المعز بن زيري الزناتِيُّ، على مدينة سَبْتَة.

وكان سببها أَنَّ حماد بن بُلْكَيْن جدَّ الناصر كان بينه وبين باديس بن المنصور من الخلف، وموت باديس محاصراً قلعة حماد، ما هو مذكور، ولولا تلك القلعة لأُخذ سريعاً، وإنما امتنع هو وأولاده بها بعده، وهي من أمنع الحصون، وكذلك ما استمرَّ بين حماد والمعز بن باديس، ودخول حماد في طاعته ما تقدَّم ذكره، وكذلك أيضاً ما كان بين القائد بن حماد وبين المعز، وكان القائد يُضمر الغدر وخلع طاعة المعز، والعجز يمنعه من ذلك، فلمَّا رأى القائد قوَّة العرب وما نال المعز منهم، خلع الطاعة، واستبدَّ بالبلاد، وبعده ولده محسن، وبعده ابن عمِّه بُلْكَيْن بن محمد بن حماد، وبعده ابن عمِّه الناصر بن علناس بن محمد بن حماد، وكلُّ منهم متحصِّن بالقلعة، وقد جعلوها دار ملكهم.

فلَمَّا رحل المعز من القيروان وصيَّره إلى المهدية تمكَّنت العرب، (٤٥/١٠) ونهبت الناس، وخربت البلاد، فانتقل كثير من أهلها إلى بلاد بني حماد لكونها جبالاً وعرة يمكن الامتناع بها من العرب، فعمرت بلادهم، وكثرت أموالهم، وفي نفوسهم الضغائن والحقود من باديس، ومن بعده من أولادهم، يرثه صغير عن كبير.

ووليَّ تميم بن المعز بعد أبيه، فاستبدَّ كلٌّ من هو ببلد وقلعة بمكانه وتميم صابر يداري ويتجلد.

وأتصل بتميم أَنَّ الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمه، وأنَّه عزم على المسير إليه ليحاصره بالمهدية، وأنَّه قد حالف بعض صنهاجة، وزناتة، وبني هلال ليعينوه على حصار المهدية. فلمَّا صحَّ ذلك عنده أرسل إلى أمراء بني رباح، فأحضرهم إليه وقال: أنتم تعلمون أَنَّ المهدية حصن منيع، أكثره في البحر، لا يقاتل منه في البرِّ غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلاً، وإنما جمع الناصر هذه العساكر إليكم، فقالوا له: الذي تقولُه حقٌّ، ونحبُّ منك المَعُونَة، فأعطاهم المال، والسلاح من الرماح والسيوف والدروع والدرق، فجمعوا قومهم، وتحالفوا، وأتَّفَقُوا على لقاء الناصر.

وأرسلوا إلى من مع الناصر من بني هلال يفتِّحون عندهم مساعدتهم للناصر، ويخوِّفونهم منه إن قوي، وأنَّه يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة، وأنهم إنما يستمرُّ لهم المقام، والاستيلاء على البلاد، إذا تمَّ الخلف وضعف السلطان، فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة، وقالوا: اجعلوا أوَّل حملة تحملونها علينا، فنحن نهزم بالناس، ونعود عليهم، ويكون لنا ثلث الغنيمة، فأجابوهم إلى ذلك، واستقرَّ الأمر. (٤٦/١٠)

وأرسل المعز بن زيري الزناتِيُّ إلى من مع الناصر من زناتة بنحو ذلك، فوعده أيضاً أن ينهزموا، فحينئذ رحلت رباح وزناتة جميعها، وسار إليهم الناصر بصنهاجة، وزناتة وبني هلال، فالتقت العساكر بمدينة سَبْتَة، فحملت رباح على بني هلال، وحمل المعز على زناتة، فانهزمت الطائفتان، وتبعهم عساكر الناصر منهزمين، ووقع فيهم القتل، فقتل فيمن قُتل القاسم بن علناس، أخو الناصر، وكان مبلغ من قُتل من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرين ألفاً، وسلم الناصر في نفر يسير، وغنمت العرب جميع ما كان في العسكر من مال وسلاح ودوابٍ وغير ذلك، فاقسموها على ما استقرَّ بينهم، وبهذه الواقعة تمَّ للعرب ملك البلاد، فإِذْ قَدِمُوا فِي ضَيْقٍ وَقَلَّةِ دَوَابٍ فَاسْتَفْتَوْا، وَكَثُرَتْ دَوَابُّهُمْ وَسِلَاحُهُمْ، وَقُلَّ الْمُحَامِي عَنْ الْبِلَادِ، وَأَرْسَلُوا الْأُولِيَّةَ وَالطُّبُولَ وَجِمْجِجَ النَّاصِرِ بِدَوَابِّهَا إِلَى تَمِيمٍ، فَرَدَّهَا وَقَالَ: يَقْبَحُ بِي أَنْ أَخْذَ سَلْبَ ابْنِ عَمِّي! فَأَرْضَى الْعَرَبَ بِذَلِكَ.

ذكر بناء مدينة بجاية

لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْوَقْعَةُ بَيْنَ بَنِي حَمَادِ الْعَرَبِ، وَقَوِيَتِ الْعَرَبُ، اهْتَمَّ تَعِيمُ بْنُ الْمُعَزِّ لِلذَلِكَ، وَأَصَابَهُ حُزْنٌ شَدِيدٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّاصِرَ، وَكَانَ لَهُ وَزِيرٌ اسْمُهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي الْفَتْوحِ، وَكَانَ رَجُلًا جَيِّدًا يَحِبُّ الْإِتِّفَاقَ بَيْنَهُمْ، وَيَهْوِي دَوْلَةَ تَعِيمٍ، فَقَالَ لِلنَّاصِرِ: أَلَمْ أَشْرُ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَقْصِدَ ابْنَ عَمِّكَ، وَأَنْ تَتَّفَقَا (٤٧/١٠) عَلَى الْعَرَبِ، فَإِنَّكُمَا لَوْ اتَّفَقْتُمَا لَأَخْرَجْتُمَا الْعَرَبَ.

فَقَالَ النَّاصِرُ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَلَكِنْ لَا مَرَدُّ لِمَا قُدِّرَ، فَاصْلَحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، فَأَرْسَلَ الْوَزِيرُ رَسُولًا مِنْ عِنْدِهِ إِلَى تَعِيمٍ يَعْتَذِرُ، وَيَرْغِبُ فِي الْإِصْلَاحِ، فَقَبِلَ تَعِيمٌ قَوْلَهُ، وَأَرَادَ أَنْ يَرْسِلَ رَسُولًا إِلَى النَّاصِرِ، فَاسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى مُحَمَّدَ بْنِ الْبَيْعِ، وَقَالُوا لَهُ: هَذَا رَجُلٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ، وَحَصَلَ لَهُ مِنْكَ الْأَمْوَالُ وَالْأَمْلاَكُ، فَأَحْضَرَهُ، وَأَعْطَاهُ مَالًا وَدَوَابَّ وَعِيْدًا وَأَرْسَلَهُ، فَسَارَ مَعَ الرُّسُولِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَجَايَةَ، وَكَانَتْ حَيْثُذَ مَنْزِلًا فِيهِ رَعِيَّةٌ مِنَ الْبَرَبِ، فَظَنَرُ إِلَيْهَا مُحَمَّدُ بْنُ الْبَيْعِ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِنَّ هَذَا الْمَكَانَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ بِهِ مَرْسَى وَمَدِينَةٌ، وَسَارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى النَّاصِرِ فَلَمَّا أَوْصَلَ الْكِتَابَ وَأَدَّى الرَّسَالَهَ قَالَ لِلنَّاصِرِ: مَعِيَ وَصِيَّةُ إِلَيْكَ، وَأَحَبُّ أَنْ تَخْلِي الْمَجْلِسَ، فَقَالَ النَّاصِرُ: أَنَا لَا أَخْفِي عَنْ وَزِيرِي شَيْئًا، فَقَالَ: بِهَذَا أَمْرُنِي الْأَمِيرُ تَعِيمٌ؛ فَقَامَ الْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ وَانْصَرَفَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ الرُّسُولُ: يَا مَوْلَايَ إِنَّ الْوَزِيرَ مَخَافُكَ عَلَيْكَ، هَوَاهُ مَعَ الْأَمِيرِ تَعِيمٍ، لَا يُخْفِي عَنْهُ مِنْ أُمُورِكَ شَيْئًا، وَتَعِيمٌ مَشْغُولٌ مَعَ عِيِيدِهِ قَدْ اسْتَبَدَّ بِهِمْ، وَأَطْرَحَ صَهَابَهُ وَغَيْرَ هَؤُلَاءِ، وَلَوْ وَصَلْتَ بِعَسْكَرِكَ مَا بَثَّ إِلَّا فِيهَا لُبْغُضَ الْجَنْدِ وَالرَّعِيَّةِ لَتَعِيمٍ، وَأَنَا أَشِيرُ عَلَيْكَ بِمَا تَمْلِكُ بِهِ الْمَهْدِيَّةَ وَغَيْرَهَا، وَذَكَرَ لَهُ عِمَارَةَ بَجَايَةَ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَهَا دَارَ مَلِكٍ، وَيَقْرُبَ مِنْ بِلَادِ إِفْرِيقِيَّةَ، وَقَالَ لَهُ: أَنَا أَنْتَقِلُ إِلَيْكَ بِأَهْلِي، وَأَدَبَرْتُ دَوْلَتَكَ؛ فَأَجَابَهُ النَّاصِرُ إِلَى ذَلِكَ، وَارْتَابَ بِوَزِيرِهِ، وَسَارَ مَعَ الرُّسُولِ إِلَى بَجَايَةَ، وَتَرَكَ الْوَزِيرَ بِالْقَلْعَةِ.

فَلَمَّا وَصَلَ النَّاصِرُ وَالرُّسُولُ إِلَى بَجَايَةَ أَرَاهُ مَوْضِعَ الْمِيْنَاءِ وَالْبَلَدِ وَالْدَارِ (٤٨/١٠) السُّلْطَانِيَّةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَامَرَ النَّاصِرُ مِنْ سَاعَتِهِ بِالْبِنَاءِ وَالْعَمَلِ، وَسَرَّ بِذَلِكَ، وَشَكَرَهُ، وَعَاهَدَهُ عَلَى زَوَارْتِهِ إِذَا عَادَ إِلَيْهِ، وَرَجَعَا إِلَى الْقَلْعَةِ، فَقَالَ النَّاصِرُ لَوَازِيرِهِ: إِنَّ هَذَا الرُّسُولَ مُحِبٌّ لَنَا، وَقَدْ أَشَارَ بِبِنَاءِ بَجَايَةَ، وَيُرِيدُ الْإِنْتِقَالَ إِلَيْنَا، فَاصْبِرْ لَهُ جَوَابَ كِتَابِهِ؛ فَفَعَلَ.

وَسَارَ الرُّسُولُ، وَقَدْ ارْتَابَ بِهِ تَعِيمٌ، حَيْثُ تَجَلَّدَ بِنَاءَ بَجَايَةَ عُقِيبَ مَسِيرِهِ إِلَيْهِمْ، وَحُضُورَهُ مَعَ النَّاصِرِ فِيهَا، وَكَانَ الرُّسُولُ قَدْ طَلَبَ مِنَ النَّاصِرِ أَنْ يَرْسِلَ مَعَهُ بَعْضَ قِثَاتِهِ لِشَاهِدِ الْأَخْبَارِ وَيَعُودَ بِهَا، فَأَرْسَلَ مَعَ رَسُولًا يَقُيُّ بِهِ، فَكُتِبَ مَعَهُ: إِنِّي لَمَّا اجْتَمَعْتُ بِتَعِيمٍ لَمْ يَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ قَبْلَ سُؤَالِهِ عَنْ بِنَاءِ بَجَايَةَ، وَقَدْ عَظُمَ أَمْرُهَا

عَلَيْهِ، وَأَتَهَمَنِي، فَانْظُرْ إِلَى مَنْ تَتَّقُ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ تَرْسِلُهُمْ إِلَى مَوْضِعِ كَذَا، فَإِنِّي سَائِرُ مُسْرِعًا، وَقَدْ أَخَذْتُ عَهْدَ زَوِيلَةٍ وَغَيْرِهَا عَلَى طَاعَتِكَ، وَسَيَّرَ الْكِتَابَ، فَلَمَّا قَرَأَهُ النَّاصِرُ سَلَّمَهُ إِلَى الْوَزِيرِ، فَاسْتَحْسَنَ الْوَزِيرُ ذَلِكَ، وَشَكَرَهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَقَدْ نَصَحَ وَبَالَغَ فِي الْخِدْمَةِ، فَلَا تُؤَخَّرْ عَنْهُ إِنْغَازُ الْعَرَبِ لِيَحْضُرَ مَعَهُمْ.

وَمَضَى الْوَزِيرُ إِلَى دَارِهِ، وَكُتِبَ نَسْخَةُ الْكِتَابِ، وَأَرْسَلَ الْكِتَابَ الَّذِي يَخْطُ الرُّسُولُ إِلَى تَعِيمٍ، وَكِتَابًا مِنْهُ يَذْكُرُ لَهُ الْحَالُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، فَلَمَّا وَقَفَ تَعِيمٌ عَلَى الْكِتَابِ عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ، وَبَقِيَ يَتَوَقَّعُ لَهُ سَبَبًا يَأْخُذُهُ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ عَلَيْهِ مِنْ يَحْرُسُهُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، فَأَتَى بَعْضَ أَوْلِيَاءِ الْحَرَسِ إِلَى تَعِيمٍ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ الرُّسُولَ صَنَعَ طَعَامًا، وَأَحْضَرَ عِنْدَهُ الشَّرِيفَ الْفَهْرِيَّ وَكَانَ هَذَا الشَّرِيفُ مِنْ رِجَالِ تَعِيمٍ وَخَوَاصِّهِ، فَأَحْضَرَهُ تَعِيمٌ، فَقَالَ: كُنْتُ وَاصِلًا إِلَيْكَ؛ وَحَدَّثَنِي أَنَّ ابْنَ الْبَيْعِ الرُّسُولَ دَعَانِي، فَلَمَّا حَضَرْتُ عَنْدَهُ قَالَ: أَنَا فِي ذِمَامِكَ، أَحَبُّ أَنْ تَعْرِفَنِي مَعَ مَنْ أَخْرَجَ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ؛ فَمَنْعَتُهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ خَائِفٌ، فَأَوْقَفَهُ تَعِيمٌ عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي يَخْطُهُ، وَأَمَرَهُ بِإِحْضَارِهِ، فَأَحْضَرَهُ الشَّرِيفُ (٤٩/١٠) فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَابِ السُّلْطَانِ لَقِيَ رَجُلًا يَكْتُبُ الْعَرَبَ الَّذِينَ سَيَّرَهُمُ النَّاصِرُ، وَمَعَهُمْ كِتَابُ النَّاصِرِ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ بِالْحَضُورِ عَنْدِهِ، فَأَخَذَ الْكِتَابَ وَخَرَجَ الْأَمِيرُ تَعِيمٌ، فَلَمَّا رَأَاهُ ابْنُ الْبَيْعِ سَقَطَ الْكِتَابُ مِنْهُ، فإِذَا عَتَانَ أَحَدُهُمَا: مِنَ النَّاصِرِ بِنَ عِلْنَسَ إِلَى فُلَانٍ، فَقَالَ لَهُ تَعِيمٌ: مِنْ أَيْنَ هَذِهِ الْكِتَابُ؟ فَسَكَتَ، فَأَخَذَهَا وَقَرَأَهَا، فَقَالَ الرُّسُولُ ابْنَ الْبَيْعِ: الْعَفْوُ يَا مَوْلَانَا! فَقَالَ: لَا عَفَا اللَّهُ عَنْكَ! وَأَمْرُهُ قُتِلَ وَغُرِّقَتْ جَسَدُهُ.

ذكر ملك الب أرسلان جند وصيران

فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَبَّرَ الْبُ أَرْسَلَانُ جِيْحُونُ، وَسَارَ إِلَى جَنْدِ وَصِيرَانِ، وَهَمَا عِنْدَ بَخَارَى، وَقَبْرُ جَدِّهِ سَلْجُوقُ بَجَنْدِ، فَلَمَّا عَبَّرَ النُّهْرَ اسْتَقْبَلَهُ مَلِكُ جَنْدِ وَأَطَاعَهُ، وَأَهْدَى لَهُ هَادِيَا جَلِيلَةً، فَلَمْ يَغْيَرِ الْبُ أَرْسَلَانُ عَلَيْهِ شَيْئًا، وَأَقْرَأَهُ عَلَى مَا بِيَدِهِ، وَعَادَ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ وَأَكْرَمَهُ، وَوَصَلَ إِلَى كَرْخَانَجِ خَوَارِزْمِ، وَسَارَ مِنْهَا إِلَى مَرُوزِ.

ذكر عدة حوادث

فِي هَذِهِ السَّنَةِ ابْتَدَأَ بِعِمَارَةِ الْمَدْرَسَةِ النَّظَامِيَّةِ بِبَغْدَادِ.

وَفِيهَا انْقَضَى كَوْكَبٌ عَظِيمٌ، وَصَارَ لَهُ شُعَاعٌ كَثِيرٌ أَكْثَرَ مِنْ شُعَاعِ الْقَمَرِ، وَسَمِعَ لَهُ صَوْتٌ مُفْرَجٌ.

وَفِيهَا تَوَفَّى مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنِ الْأَبْنَوْسِيِّ، رَوَى عَنِ الدَّارِقُطْنِيِّ وَغَيْرِهِ. (٥٠/١٠)

سنة ثمان وخمسين وأربعمئة

ذكر عهد ألب أرسلان بالسلطنة لابنه ملكشاه

في هذه السنة سار ألب أرسلان من مرو إلى رايبكان، فتزل بظاهرها، ومعه جماعة أمراء دولته، فأخذ عليهم اليهود والموائيق لولده ملكشاه بأنه السلطان بعده، وأركبه، ومشي بين يديه يحمل الغاشية.

وخلع السلطان على الأمراء، وأمرهم بالخطبة له في جميع البلاد التي يحكم عليهم، ففعل ذلك، وأقطع البلاد، فسأقطع ماؤندزان للامير إيتانج بيغو؛ وتبلغ لأخيه سليمان بن داود جعفري بك؛ وخوارزم لأخيه أرسلان أرغو؛ ومرو لابنه الآخر أرسلان شاه؛ وضغانيان وطخارستان لأخيه إلياس؛ وولاية بغشور ونواحيها لمسعود بن أرتاش، وهو من أقارب السلطان؛ وولاية أسفرار لمودود بن أرتاش.

ذكر استيلاء تميم على مدينة تونس

في هذه السنة سير تميم، صاحب إفريقية، عسكرياً كيفاً إلى مدينة تونس وبها أحمد بن خراسان قد أظهر عليه الخلاف.

وسبب ذلك أن المعز بن باديس، أبا تميم، لما فارق القيروان والمنصورية (٥١/١٠) ورحل إلى المهدية، على ما ذكرناه، استخلف على القيروان وعلى قابس قائد بن ميمون الصنهاجي، وأقام بها ثلاث سنين، ثم غلبته هواراة عليها، فسلمها إليهم وخرج إلى المهدية، فلما ولي الملك تميم بن المعز بعد أبيه رده إليها، وأقام عليها إلى الآن، ثم أظهر الخلاف على تميم والتجأ إلى طاعة الناصر بن علناس بن حماد، فسير إليه تميم الآن عسكرياً كثيراً، فلما سمع بهم قائد بن ميمون علم أنه لا طاقة له بهم، فترك القيروان وسار إلى الناصر، فدخل عسكر تميم القيروان، وخرّبوا دور القائد، وسار العسكر إلى قابس، وبها ابن خراسان، فحاصروه بها سنة وشهريْن، ثم أطاع ابن خراسان تميمًا وصالحه.

وأما قائد فإنه أقام عند الناصر، ثم أرسل إلى أمراء العرب، فاشتري منهم إمارة القيروان، فأجابوه إلى ذلك، فعاد إليها فبنى سورها وحصنها.

ذكر ملك شرف الدولة الأنبار وهيت وغيرها

في هذه السنة سار شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران، صاحب الموصل، إلى السلطان ألب أرسلان، فأقطعه الأنبار، وهيت وخرّبي، والسّن، والبوازيج، ووصل إلى بغداد، فخرج الوزير فخر الدولة بن جهمير في الموكب، فلقه، ونزل شرف الدولة بالحريم الطاهري، وخلع عليه الخليفة.

ذكر عدة حوادث

في العشر الأول من جمادى الأولى ظهر كوكب كبير، له ذوابة طويلة، بناحية المشرق، عرضها نحو ثلاث أذرع، وهي ممتدة إلى وسط السماء، (٥٢/١٠) وبقي إلى السابع والعشرين من الشهر وغاب، ثم ظهر أيضاً آخر الشهر المذكور عند غروب الشمس، كوكب قد استدار نوره عليه كالقمر، فارتاع الناس وانزعجوا، ولما أظلم الليل صار له ذوائب نحو الجنوب، وبقي عشرة أيام ثم اضمحل.

وفيها، في جمادى الآخرة، كانت بخراسان والجبال زلزلة عظيمة، بقيت تردد أياماً، تصدعت منها الجبال، وأهلكت خلقاً كثيراً، وانخسف منها عدة قرى، وخرج الناس إلى الصحراء فأقاموا هناك.

وفيها، في جمادى الأولى وقع حريق بنهر معلّى، فاحترق من باب الجريد إلى آخر السوق الجديد من الجانبين.

وفيها ولدت صبيّة بياب الأزج ولدأ برأسين، ورقبتين، ووجهين، وأربع أيدي على بدن واحد.

وفي جمادى الآخرة توفي الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي، ومولده سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وكان إماماً في الحديث والفقه على مذهب الشافعي، وله فيه مصنفات أحدها السنن الكبير، عشرة مجلدات، وغيره من التصنيفات الحسنة، وكان عفيفاً، زاهداً، ومات بنيسابور.

وفي شهر رمضان منها توفي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي، ومولده سنة ثمانين وثلاثمائة، وعنه انتشر مذهب أحمد، رضي الله عنه، وكان إليه قضاء الحريم ببغداد بدار الخلافة، وهو مصنف كتاب الصفات أتى فيه بكلّ عجيبة، وترتيب أبوابه يدلّ على التجسيم المحض، تعالى الله عن ذلك؛ وكان ابن تميمي الحنبلي يقول: لقد خرى أبو يعلى الفراء على الحنابلة خرية لا يغسلها الماء. (٥٣/١٠)

سنة تسع وخمسين وأربعمئة

ذكر عصيان ملك كرمان على ألب أرسلان وعوده إلى طاعته

في هذه السنة عصى ملك كرمان، وهو قرا أرسلان، على السلطان ألب أرسلان.

وسبب ذلك أنه كان له وزير جاهل سوكّت له نفسه الاستبداد بالبلاد عن السلطان، وأنّ صاحبه، إذا عصى، احتاج إلى التمسك به، فحسن لصاحبه الخلاف على السلطان، فأجاب إلى ذلك، وخلع

الطاعة، وقطع الخطبة.

فسمع ألب أرسلان، ففسار إلى كَرمان، فلمّا قاربها وقعت طليعته على طليعة قرا أرسلان، فانهزمت طليعة قرا أرسلان بعد قتال، فلمّا سمع قرا أرسلان وعسكره بانهزام طليعتهم، خافوا وتحيروا، فانهزموا لا يلوي أحد على آخر، فدخل قرا أرسلان إلى جبرقت وامتنع بها، وأرسل إلى السلطان ألب أرسلان يظهر الطاعة ويسأل العفو عن زلّته، فعفا عنه وحضر عند السلطان فأكرمه، وبكى وأبكى من عنده، فأعاده إلى مملكته، ولم يغيّر عليه شيئاً من حاله، فقال للسلطان: إنّ لي بنات تجهيزهنّ إليك، وأمورهنّ إليك؛ فأجابته إلى ذلك، وأعطى كلّ واحدة منهنّ ألف دينار سوى الثياب والإقطاعات. (٥٤/١٠)

ثم سار منها إلى فارس فوصل إلى إصطخر، وفتح قلعتها، واستنزل واليها، فحمل إليه الوالي هدايا عظيمة جليّة المقدار، من جملة قح فيروزج، فيه متون من المسك، مكتوب عليه اسم جمشيد الملك، وأطاعه جميع حصون فارس، وبقي قلعة يقال لها بهزاد، ففسار نظام الملك إليها، وحصرها تحت جبلها، وأعطى كلّ من رمى بسهم وأصاب قبضة من الدنانير، ومن رمى حجراً ثوباً نفيساً، ففتح القلعة في اليوم السادس عشر من نزوله، ووصل السلطان إليه بعد الفتح، فعظم محلّ نظام الملك عنده، فأعلى منزلته، وزاد في تحكيمه.

ذكر عدة حوادث

في المحرم منها توفي الأغر أبو سعد، ضامن البصرة، على باب السلطان بالريّ، وعقدت البصرة وواسط على هزارسب بثلاثمائة ألف دينار.

وفي صفر منها وصل إلى بغداد شرف الملك أبو سعد المستوفي، وبني على مشهد أبي حنيفة، رضي الله عنه، مدرسة لأصحابه، وكتب الشريف أبو جعفر بن البيضاوي على القبة التي أحدثها:

ألم نر أنّ العلم كساؤ مشتا، فجمعه هذا المئيب في المحبد
كذلك كانت هذه الأرض تيتة، فأنشروها فضل العميد أبي سعيد

(٥٥/١٠) وفيها، في جمادى الأولى، وصلت أرسلان خاتون، أخت السلطان ألب أرسلان، وهي زوجة الخليفة، إلى بغداد، واستقبلها فخر الدولة بن جُهير الوزير على فراسخ.

وفيها، في ذي القعدة، احترقت تربة معروف الكرخي، رحمة الله عليه، وسبب حريقها أنّ قيماً كان مريضاً، فطبخ لنفسه ماء الشعير، فاتصلت النار بخشب ويواري كانت هناك، فأحرقت وأتصل الحريق، فأمر الخليفة أبا سعد الصوفي، شيخ الشيوخ، بعمارتها.

وفيها، في ذي القعدة، فرغت عمارة المدرسة النظامية، وتقرّر التدريس بها للشيخ أبي إسحاق الشيرازي، فلمّا اجتمع الناس لحضور الدرس، وانتظروا مجيئه، تأخّر، فطلب، فلم يوجد.

وكان سبب تأخّره أنّه لقيه صبي، فقال له: كيف تدرّس في مكان مغصوب؟ فتغيّرت نيّته عن التدريس بها، فلمّا ارتفع النهار، وأيس الناس من حضوره أشار الشيخ أبو منصور بن يوسف بأبي نصر بن الصباغ، صاحب كتاب الشامل وقال: لا يجوز أن يفصل هذا الجمع إلّا عن مدرّس، ولم يبق ببغداد من لم يحضر غير الوزير، فجلس أبو نصر للدرس، وظهر الشيخ أبو إسحاق بعد ذلك، ولمّا بلغ نظام الملك الخبر أقام القيامة على العميد أبي سعد، ولم يزل يرفق بالشيخ أبي إسحاق حتّى درّس بالمدرسة، وكانت مدة تدريس ابن الصباغ عشرين يوماً.

وفيها، في ذي القعدة، قُتل الصليحي، أمير اليمن، بمدينة المهجّم، قتله أحد أمرائها وأقيمت الدعوة العباسية هناك، وكان قد ملك مكة، على ما ذكرناه سنة خمس وخمسين [وأربعمئة]، وأمين الحجاج في إقامه، فأتوا عليه خيراً، وكسا البيت بالحرير الأبيض الصيني، وردّ حلى البيت إليه، (٥٦/١٠) وكان بنو حسن قد أخذوه وحملوه إلى اليمن، فابتاعه الصليحي منهم.

وفيها توفي عمر بن إسماعيل بن محمد أبو علي الطوسي، قاضيه، وكان يلقّب العراقي لطول مقامه ببغداد، وتفقّه على أبي طاهر الأسفراييني الشافعي، وأبي محمد الشاشي وغيرهما.

(٥٧/١٠)

سنة ستين وأربعمئة

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كانت حرب بين شرف الدولة بن قريش وبين بني كلاب بالرحبة، وهم في طاعة العلويّ المصري، فكسرهم شرف الدولة، وأخذ أسلابهم، وأرسل أعلاماً كانت معهم، عليها سمات المصري، إلى بغداد وكسرت، وطيف بها في البلد، وأرسلت الخلع إلى شرف الدولة.

وفيها، في جمادى الأولى، كانت بفلسطين ومصر زلزلة شديدة خربت الرملة، وطلع الماء من رؤوس الآبار، وهلك من أهلها خمسة وعشرون ألف نسمة، وانشقت الصخرة بالبيت المقدس، وعادت بإذن الله تعالى، وعاد البحر من الساحل مسيرة يوم، فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون منه فرج الماء عليهم فأهلك منهم خلقاً كثيراً.

وفيها، في رجب، ورد أبو العباس الخوافي ببغداد عميداً من

سنة اثنين وستين وأربعمائة

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف إلى الشام، ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها، وهزم محمود بن صالح بن مرادس، وبني كلاب، وابن حسن الطائي، ومن معهم من جموع العرب؛ ثم إن ملك الروم ارتحل وعاد إلى بلاده، ولم يُمكِنه المقام لشدة الجوع.

وفيها سار أمير الجيوش بدر من مصر في عساكر كثيرة إلى مدينة صور وحصرها، وكان قد تغلب عليها القاضي عين الدولة بن أبي عقيل، فلما حصره أرسل القاضي إلى الأمير قزلو، مقدم الأتراك المقيمين بالشام، يستجده، فسار في اثني [عشر] ألف فارس، فحصر مدينة صيدا، وهي لأمر الجيوش بدر، فرحل حينئذ بدر، فعاد الأتراك، فعاود بدر حصر صور براً وبحراً سنة، وضيّق على أهلها حتى أكلوا الخبز كل رطل بنصف دينار، ولم يبلغ غرضه فرحل عنها.

وفيها صارت دار ضرب الدنانير ببغداد في يد وكلاء الخليفة، وسبب ذلك (٦١/١٠) أن البهرج كثر في أيدي الناس على السكك السلطانية، وضرب اسم ولي العهد على الدينار، وسُمّي الأميري، ومنع من التعامل بسواه.

وفيها ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم، ومعه ولده، إلى السلطان ألب أرسلان، يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله وللسلطان بمكة وإسقاط خطبة العلوي، صاحب مصر، وترك الأذان يحيى على خير العمل، فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار، وخلعاً نفيسة، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار، وقال: إذا فعل أمير المدينة مهناً كذلك، أعطينه عشرين ألف دينار، وكل سنة خمسة آلاف دينار.

وفيها تزوج عميد الدولة بن جُهير بابتة نظام الملك بالرئي وعاد إلى بغداد.

وفيها، في شهر رمضان، توفي تاج الملوك هزارسب بن بنكسر بن عياض بأصبهان وهو عائد من عند السلطان إلى خوزستان، وكان قد علا أمره، وتزوج بأخت السلطان، وبغى على نور الدولة دُيُوس بن مُزَيد، وأغرى السلطان به لياخذ بلاده، فلما مات سار دُيُوس إلى السلطان، ومعه شرف الدولة مُسلم، صاحب الموصل، فخرج نظام الملك فلقبهما، وتزوج شرف الدولة بأخت السلطان التي كانت امرأة هزارسب، وعادا إلى بلادهما من همدان.

وفيها كان بمصر غلاء شديد، ومجاعة عظيمة، حتى أكل الناس

جهة السلطان، وفيها عُزل فخر الدولة بن جُهير من وزارة الخليفة، فخرج من بغداد إلى نور الدولة دُيُوس بن مُزَيد بالقلوجة، وأرسل الخليفة إلى أبي يعلى والد (٥٨/١٠) الوزير أبي شجاع يستحضره ليؤليه الوزارة، وكان يكتب لهزارسب بن بنكسر، فسار، فأدركه أجله في الطريق فمات، ثم شفع نور الدولة في فخر الدولة بن جُهير، فأعيد إلى الوزارة سنة إحدى وستين [وأربعمائة] في صفر.

وفيها كان بمصر غلاء شديد، وانقضت سنة إحدى وستين وأربعمائة.

وفيها حاصر الناصر بن علناس مدينة الأربس بإفريقية ففتحها وأمن أهلها.

وفيها، في المحرم، توفي الشيخ أبو منصور بن عبد الملك بن يوسف، ورثاه ابن الفضل وغيره من الشعراء، وعم مصابه المسلمين، وكان من أعيان الزمان، فمن أفعاله أنه تسلّم المارستان العضدي، وكان قد دثر واستولى عليه الخراب، فجدد في عمارته، وجعل فيه ثمانية وعشرين طيباً، وثلاثة من الخزّان، إلى غير ذلك، واشترى له الأملاك النفيسة، بعد أن كان ليس به طيب ولا دواء، وكان كثير المعروف والصلات والخير، ولم يكن يلقب في زمانه أحد بالشيخ الأجل سواه.

وفي المحرم أيضاً توفي أبو جعفر الطوسي، فقيه الإمامية، بمشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السلام. (٥٩/١٠)

سنة إحدى وستين وأربعمائة

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، أعيد فخر الدولة بن جُهير إلى وزارة الخليفة، على ما ذكرناه، فلما عاد مدحه ابن الفضل فقال:

قد رجع الحق إلى مصابه وإن من كل سوى أولى به ما كنت إلا السيف سلته يده ثم أعادته إلى قرابه وهي طويلة.

وفي شعبان احترق جامع دمشق وكان سبب احتراقه أنه وقع بدمشق حرب بين المغاربة أصحاب المصريين والمشاركة، فحرقوا داراً مجاورة للجامع بالنار، فاحترقت، وانصلت بالجامع، وكانت العامة تعين المغاربة، فتركوا القتال واشتغلوا بإطفاء النار من الجامع، فعظم الخطب واشتد الأمر، وأتى الحريق على الجامع، فدمرت محاسنه، وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة. (٦٠/١٠)

وأرسل الخليفة إلى محمود الخلع مع نقيب النقباء طراد بن محمد الزيني، فلبسها، ومدحه ابن سنان الخفاجي، وأبو الفتيان بن حيّوس، وقال أبو عبد الله بن عطية يمدح القائم بأمر الله، ويذكر الخطبة بحلب ومكة والمدينة:

كم طالع لك لم تجلب عليه، ولم تعرف بطاعته غير القسي سبياً
هذا البشير يأنعان الحجاز، وذا داعي دمشق وذا المبعوث من حلباً
(٦٤/١٠)

ذكر استيلاء السلطان ألب أرسلان على حلب

في هذه السنة سار السلطان ألب أرسلان إلى حلب، وجعل طريقه على ديار بكر، فخرج إليه صاحبها، نصر بن مروان، وخدمه بمائة ألف دينار، وحمل إليه إقامة عرف السلطان أنه قسطنطين على البلاد، فأمر بردها.

ووصل إلى أريد فرأها ثغراً منيعاً، فتبرك به، وجعل يمرّ يده على السور ويمسح بها صدره.

وسار إلى الرها فحصرها فلم يظفر منها بطائل، فسار إلى حلب وقد وصلها نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بالرسالة القائمية، والخلع، فقال له محمود، صاحب حلب: أسالك الخروج إلى السلطان، والاستعفاء لي من الحضور عنده؛ فخرج نقيب النقباء، وأخبر السلطان بأنه قد ليس الخلع القائمية وخطب فقال: أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون حي على خير العمل؟ ولا بدّ من الحضور، ودوس بساطي؛ فامتنع محمود من ذلك.

فاشتد الحصار على البلد، وغلّت الأسعار، وعظم القتال، وزحف السلطان يوماً وقرب من البلد، فوقع حجر منجنيق في فرسه، فلما عظم الأمر من محمود خرج ليلاً، ومعه والدته منيعة بنت وثاب الثميري، فدخلها على السلطان وقالت له: هذا ولدي، فافعل به ما تحب. فتلقأهما بالجميل، وخلع على محمود وأعادته إلى بلده، فأنفذ إلى السلطان مالاً جزيلاً. (٦٥/١٠)

ذكر خروج ملك الروم إلى خلاط وأسره

في هذه السنة خرج أرماتوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم، والفرنج، والغرب، والروس، والبيجناك، والكرج، وغيرهم، من طواف تلك البلاد، فجاؤوا في تجمل كثير، وزيّ عظيم، وقصد بلاد الإسلام، فوصل إلى ملازكرد من أعمال خلاط، فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر، وهو بمدينة خوي من أذربيجان، قد عاد من حلب، وسمع ما هو ملك الروم فيه من كثرة الجموع، فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو، فسير الأتقال مع زوجته ونظام الملك إلى همدان، وسار هو فيمن عنده من العساكر، وهم خمسة عشر ألف فارس، وجدّ في السير، وقال لهم: إنني

بعضهم بعضاً، وفارقوا الديار المصرية، فورد بغداد منهم خلق كثير هرباً من الجوع، وورد التجار، ومعهم ثياب مصر وآلاته، نُهب من الجوع، وكان فيها أشياء كثيرة نُهب من دار الخلافة وقت القبض على الطائع لله سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، ومما نُهب أيضاً في فتنه البساسيري وخرج من خزائهم (٦٢/١٠) ثمانون ألف قطعة بلور كبار، وخمسة وسبعون ألف قطعة من الديباج القديم، وأحد عشر ألف كراغند، وعشرون ألف سيف محلي، وقال ابن الفضل يمدح القائم بأمر الله، ويذكر الحال بقصيدة فيها:

قد علم المصيري أن جنوده ستؤسفو منها، وطاعون عمواس
أقامت به حتى استراب بنفسه، وأوجس منه خيفة أي إجلال
في أبيات.

وفيهما توفي أبو الجوائز الحسن بن علي بن محمد الواسطي، كان أديباً شاعراً، حسن القول، فمن قوله:

واخترتني من قولها: خان غودي ولها
وحنّ من صيرني وقفاً عليها ولها
ما خطرت بخاطري، إلا كنتي ولها
وتوفي محمد بن أحمد أبو غالب بن بشران الواسطي الأديب، وانتهت الرحلة إليه في الأدب، وله شعر، فمنه في الزهد:

يا شائداً للقصور كهلاً أقصر، فقصر القسي الممات
لم يجتمع شمل أهل قصر، إلا أقصاهم الثنات
ولما العيش مثل ظل، مثل مال له ثبات

وفيهما توفي القاضي أبو الحسين محمد بن إبراهيم بن حزم، قاضي دمشق؛ وأبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي العجائز، الخطيب بدمشق. (٦٣/١٠)

سنة ثلاث وستين وأربعمائة

ذكر الخطبة للقائم بأمر الله والسلطان بحلب

في هذه السنة خطب محمود بن صالح بن مرداس بحلب لأمر المؤمنين القائم بأمر الله، وللسلطان ألب أرسلان.

وسبب ذلك أنه رأى إقبال دولة السلطان، وقوتها، وانتشار دعوتها، فجمع أهل حلب وقال: هذه دولة جديدة، ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم، والراي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بدل، فأجاب المشايخ [إلى] ذلك، وليس المؤذنون السواد، وخطبوا للقائم بأمر الله والسلطان، فأخذت العامة حصر الجامع، وقالوا: هذه حصر على بن أبي طالب، فليات أبو بكر بحصر يصلي عليها بالناس.

وأستقر الأمر على ذلك، وأنزله في خيمة، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، فأطلق له جماعة من البطارقة، وخلع عليه من الغد، فقال ملك الروم: أين جهة الخليفة؟ فدلّ عليها، فقام وكشف رأسه وأمرأه إلى الأرض بالخدمة، وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيّره إلى بلاده، وسيّر معه عسكرياً أوصلوه إلى مأمته، وشيّعهُ السلطان فرسخاً.

وأما الروم فلما بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد، فلما وصل أرماتوس الملك إلى قلعة دوقية بلغه الخبر، فلبس الصوف وأظهر الزهد، وأرسل إلى ميخائيل يعرفه ما تقرّر مع السلطان، وقال: إن شئت أن تفعل ما استقرّ، وإن شئت أمسكت؟ فأجابه ميخائيل بإيثار ما استقرّ، وطلب وساطته، وسؤال السلطان في ذلك.

وجمع أرماتوس ما عنده من المال فكان مائتي ألف دينار، فأرسله إلى السلطان، وطبق ذهب عليه جواهر بتسعين ألف دينار، وحلف له أنه لا يقدر على غير ذلك، ثم إن أرماتوس استولى على أعمال الأرمن وبلادهم. ومدح الشعراء السلطان، وذكروا هذا الفتح، فأكثروا. (٦٨/١٠)

ذكر ملك أتميز الرملة وبيت المقدس

في هذه السنة قصد أتميز بن أوق الخوارزمي، وهو من أمراء السلطان ملكشاه، بلد الشام، فجمع الأتراك وسار إلى فلسطين، ففتح مدينة الرملة، وسار منها إلى البيت المقدس وحصره، وفيه عساكر المصريين، ففتحه، وملك ما يجاورهما من البلاد، ما عدا عسقلان، وقصد دمشق فحصرها، وتابع النهب لأعمالها حتى خربها، وقطع الميرة عنها، فضاقت الأمور بالناس، فصبّروا، ولم يمكنه من ملك البلد، فعاد عنه، وأدام قصد أعماله وتخريبها حتى قُلت الأقوات عندهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن فوران القوراني، الفقيه الشافعي، مصنف كتاب الإبانة وغيره.

وفي هذه السنة، في ذي الحجة، توفي الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ ابن ثابت البغدادي، صاحب التاريخ والمصنفات الكثيرة ببغداد، وكان إمام الدنيا في زمانه، وممن حمل جنازته الشيخ أبو إسحاق الشيرازي.

وتوفي أيضاً فيها، في شهر رمضان، أبو يعلى محمد بن الحسين بن (٦٩/١٠) حمزة الجعفري، فقيه الإمامية، وحسان بن سعيد بن حسان بن محمد بن عبد الله المنيعي المخزومي من أهل مرو الروذ، كان كثير الصدقة والمعروف، والعبادة، والقنوع بالقليل

أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمتْ فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإنّ ابني ملكشاه وليّ عهدي؛ وساروا.

فلما قارب العدو جعل له مقدّمة، فصادفت مقدّمته، عند خياط، مقدّم الروسية في نحو عشرة آلاف من الروم، فاقتلوا، فانهزمت الروسية، وأسر مقدّمهم، وحُمل إلى السلطان، فجدع أنفه، وأنفذ بالسلب إلى نظام الملك، وأمره أن يرسله إلى بغداد، فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المُهادنة، فقال: لا هدنة إلا بالآري، فانزعج السلطان لذلك، فقال له إمامه وفقهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري، الحنفي: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون (٦٦/١٠) الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالفهم يوم الجمعة، بعد الزوال، في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة.

فلما كانت تلك الساعة صلّى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، وقال لهم: من أراد الانصراف فليصرف، فما هاهنا سلطان يأمر وينهى، وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف والدبوس، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، وليس البياض، وتحطّ، وقال: إن قُلت فهذا كفتي.

وزحف إلى الروم، وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب، وبكى، وأكثر الدعاء، ثم ركب وحمل، وحملت العساكر معه، فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم، فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا، وأنزل الله نصره عليهم، فانهزم الروم، وقُتل منهم ما لا يحصى، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى، وأسر ملك الروم، أسره بعض غلمان كوهرائين، أراد قتله ولم يعرفه، فقال له خادماً مع الملك: لا تقتله، فإنه الملك.

وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك، فردّه استحقاراً له، فأثنى عليه كوهرائين، فقال نظام الملك: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً؛ فكان كذلك.

فلما أسر الغلام الملك أحضره عند كوهرائين، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك، فأمر بإحضاره، فلما أحضر ضربه السلطان ألْب أرسلان ثلاث مقارع بيده وقال له: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت؟ فقال: دعني من (٦٧/١٠) التوبيخ، وافعل ما تريد! فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فقال: أفعل القبيح. قال له: فما تظنّ أنني أفعل بك؟ قال: إمّا أن تقتلني، وإمّا أن تشهرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة، وهي العفو، وقبل الأموال، واصطناعي نائباً عنك. قال: ما عزمت على غير هذا.

فدّاه بألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق كلّ أسير في بلاد الروم،

ذكر ولاية أبي الحسن بن عمّار طرابلس

في هذه السنة، توفي القاضي أبو طالب بن عمّار، قاضي طرابلس، وكان قد استولى عليها، واستبدّ بالأمر فيها، فلمّا توفي قام مكانه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمّار، فضبط البلد أحسن ضبط، ولم يظهر لفقد عمّه أثر لكفايته.

ذكر ملك السلطان ألب أرسلان قلعة فضلون بفارس

في هذه السنة سبّر السلطان ألب أرسلان وزيره نظام الملك في عسكر إلى بلاد فارس، وكان بها حصن من أمنح الحصون والمعاقل، وفيه صاحبه فضلون، (٧٢/١٠) وهو لا يُعطي الطاعة، فنازله وحصره، ودعاه إلى طاعة السلطان فامتنع، فقاتله فلم يبلغ بقتاله غرضاً لعلو الحصن وارتفاعه، فلم يطل مقامهم عليه حتى نادى أهل القلعة بطلب الأمان ليسلموا الحصن إليه، فعجب الناس من ذلك.

وكان السبب فيه أنّ جميع الآبار التي بالقلعة غارت مياهها في ليلة واحدة فقادتهم ضرورة العطش إلى التسليم، فلمّا طلبوا الأمان أمّنهم نظام الملك، وتسلم الحصن، والتجأ فضلون إلى قلّة القلعة، وهي أعلى موضع فيها، وفيه بناء مرتفع، فاحتسب فيها، فسبّر نظام الملك طائفة من العسكر إلى الموضع الذي فيه أهل فضلون وأقاربه ليحملوهم إليه وينهبوا مالهم، فسمع فضلون الخبر، ففارق موضعه مستخفياً فيمن عنده من الجند، وسار ليمنع عن أهلها، فاستقبلته طلائع نظام الملك، فخافهم، ففرّق من معه، واختفى في نيات الأرض، فوقع فيه بعض العسكر، فأخذه أسيراً، وحمله إلى نظام الملك، فأخذه وسار به إلى السلطان فأمّنه وأطلقه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي القاضي أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الصمد بن المهدي بالله الخطيب بجامع المنصور، وكان قد أضر، ومولده سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وكان إليه قضاء واسط، وخليفته عليها أبو محمد بن السّمّال. (٧٣/١٠)

سنة خمس وستين وأربعمائة

ذكر قتل السلطان ألب أرسلان

في أوّل هذه السنة قصد السلطان ألب أرسلان، واسمه محمد، وإنّما غلب عليه ألب أرسلان ما وراء النهر، وصاحبه شمس الملك تكين، فعقد على جيحون جسراً وعبر عليه في نيّف وعشرين يوماً، وعسكره يزيد على مائتي ألف فارس، فاتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يُعرف بيوسف الخوارزمي، في سادس شهر ربيع الأوّل، وحُمِل إلى قرب سريره مع غلامين، فتقدّم أن تضرب له أربعة أوتاد وتشدّ

من القوت، والإعراض عن زينة الدنيا وبهجتها، وكان السلاطين يزورونه ويتبركون به، وأكثر من بناء المساجد والخانقاهات والقناطر، وغير ذلك من مصالح المسلمين.

وتوفيت أيضاً كريمة بنت أحمد بن محمد المروزيّة، وهي التي تروي صحيح البخاري، توفيت بمكة، وإليها انتهى علو الإسناد للصحيح إلى أن جاء أبو الوقت. (٧٠/١٠)

سنة أربع وستين وأربعمائة

ذكر ولاية سعد الدولة كهراتين شحنيّة بغداد

في ربيع الأول من هذه السنة ورد إيتكين السليماني شحنة بغداد من عند السلطان إلى بغداد، فقصّد دار الخلافة، وسأل العفو عنه، وأقام إماماً، فلم يُجب إلى ذلك.

وكان سبب غضب الخليفة عليه أنّه كان قد استخلف ابنه عند مسيره إلى السلطان، وجعله شحنة بغداد، فقتل أحد المماليك الدارّة، فأنفذ قميصه من الديوان إلى السلطان، ووقع الخطاب في عزله.

وكان نظام الملك يعني بالسليماني، فأضاف إلى إقطاعه تكريت، فكوتب واليها، من ديوان الخلافة، بالتوقّف عن تسليمها. فلمّا رأى نظام الملك والسلطان إصرار الخليفة على الاستقالة من ولايته شحنيّة بغداد، سبّر سعد الدولة كهراتين إلى بغداد شحنة، وعزل السليماني عنها، أتباعاً لما أمر به الخليفة القائم بأمر الله، ولمّا ورد سعد الدولة خرج الناس لتلقيه، وجلس له الخليفة.

ذكر ترويح ولي العهد بانه السلطان

في هذه السنة أرسل الإمام القائم بأمر الله عميد الدولة بن جُهير، ومعه الخلع للسلطان ولولده ملكشاه، وكان السلطان قد أرسل يطلب من الخليفة أن يأذن (٧١/١٠) في أن يجعل ولده ملكشاه وليّ عهده، فأذن، وسبّر له الخلع مع عميد الدولة، وأمر عميد الدولة أن يخطب ابنة السلطان ألب أرسلان من سفري خاتون لوليّ العهد المقتدي بأمر الله، فلمّا حضر عند السلطان خطب ابنته، فأجيب إلى ذلك.

وعقد النكاح بظاهر نيسابور، وكان عميد الدولة الوكيل في قبول النكاح، ونظام الملك الوكيل من جهة السلطان في العقد، وكان الثار جواهر، وعاد عميد الدولة من عند السلطان إلى ملكشاه، وكان ببلاد فارس، فلقيه بأصبهان، فأفاض عليه الخلع، فلبسها وسار إلى والده، وعاد عميد الدولة إلى بغداد، فدخلها في ذي الحجة.

أطرافه إليها، فقال له يوسف: يا مَحْسَنُ! مثلي يُقتل هذه القتل؟ فغضب السلطان ألب أرسلان، وأخذ القوس والنشاب، وقال للغلامين: خليّاهُ ورماهُ السلطان بسهم فأخطاهُ، ولم يكن يخطيءُ سهمه، فوثب يوسف يريده، والسلطان على سُدَّة، فلمَّا رأى يوسف يقصده قام عن السُدَّة ونزل عنها، فعثر، فوقع على وجهه، فبرك عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه في خاصرته، وكان سعد الدولة واقفاً، فجرحه يوسف أيضاً بجراحات، ونهض السلطان فدخل إلى خيمة أخرى، وضرب بعض الفُراشين يوسفَ بمرزبة على رأسه، فقتله وقطَّعه الأتراك.

وهذه حالة لا يُذكر عن أحد من الملوك أحسن منها. وكان كثيراً ما يُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولَمَّا اشتهر بين الملوك حُسْن سيرته، ومحافظة على عهده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النهر إلى أقصى الشام.

وكان شديد العناية بكفّ الجند عن أموال الرعية، بلغه أنَّ بعض خواصّ مماليكه سلب من بعض الرستاقية إزاراً، فأخذ المملوك وصلبه، فارتدع الناس عن التعرّض إلى مال غيرهم.

ومناقبه كثيرة لا يليق بهذا الكتاب أكثر من هذا القدر منها. وخلف ألب أرسلان من الأولاد: ملكشاه، وهو صار السلطان بعده، وإياز، وتكش، ويسوي برش، وتتش، وأرسلان أرغو، وعائشة، وبنّا أخرى. (٧٦/١٠)

ذكر ملك السلطان ملكشاه

لَمَّا جُرح السلطان ألب أرسلان أوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه، وكان معه، وأمر أن يحلف له العسكر، فحلفوا جميعهم، وكان المتولّي للأمر في ذلك نظام الملك، وأرسل ملكشاه إلى بغداد يطلب الخطبة له، فخُطب له على منابرهما، وأوصى ألب أرسلان ابنه ملكشاه أيضاً أن يعطي أخاه قاورت بك بن داود أعمال فارس وكرمان، وشيئاً عيَّنه من المال، وأن يُزوِّج بزوجته؛ وكان قاورت بك بكرمان، وأوصى أن يعطي ابنه إياز بن ألب أرسلان ما كان لأبيه داود، وهو خمسمائة ألف دينار، وقال: كلٌّ من لم يرض بما أوصيتُ له فقاتلوه، واستعينوا بما جعلته له على حربه.

وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر، فعبّر العسكر الذي قطع النهر في ثَيْفٍ وعشرين يوماً في ثلاثة أيام، وقام بوزارة ملكشاه نظام الملك، وزاد الأجناد في معاشهم سبع مائة ألف دينار، وعادوا إلى خراسان، وقصدوا نيسابور؛ وراسل ملكشاه جماعة الملوك أصحاب الأطراف يدعوهم إلى الخطبة له والانقياد إليه، وأقام إياز أرسلان يَبْلُغُ وسار السلطان ملكشاه في عساكره من نيسابور إلى الري. (٧٧/١٠)

ذكر ملك صاحب سَمَرْقَنْد مدينة ترمذ

في هذه السنة في ربيع الآخر، ملك التكين صاحب سَمَرْقَنْد مدينة ترمذ.

وكان أهل سمرقند لَمَّا بلغهم عبور السلطان النهر، وما فعل عسكره بتلك البلاد لا سِيماً بخارى، اجتمعوا، وختموا ختمات، وسألوا الله أن يكفيهم (٧٤/١٠) أمره، فاستجاب لهم.

ولَمَّا جُرح السلطان قال: ما من وجه قصدته، وعدوّ أردته، إلا استعنت بالله عليه، ولما كان أمس صعدتُ على تلٍّ، فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر، فقلتُ في نفسي: أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحدٌ عليّ، فمعجزني الله تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر الله تعالى، وأستقبله من ذلك الخاطر، فتوقّي عاشر ربيع الأوّل من السنة، فحُمِلَ إلى مرو ودُفِنَ عند أبيه.

ومولده سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وبلغ من العمر أربعين سنة وشهوراً، وقيل كان مولده سنة عشرين وأربعمائة، وكانت مدة ملكه منذ خُطب له بالسلطنة إلى أن قُتل تسع سنين وستة أشهر وأياماً، ولَمَّا وصل خبر موته إلى بغداد جلس الوزير فخر الدولة بن جُهير للعزاء به في صحن السلام.

ذكر نسب ألب أرسلان وبعض سيرته

هو ألب أرسلان محمد بن داود جُفري بك بن ميكائيل بن سلجوق، وكان كريماً، عادلاً، عاقلاً، لا يسمع السعيات، واتسع ملكه جذاً، ودان له العالم، وبحقّ قيل له سلطان العالم.

وكان رحيماً القلب رقيقاً بالفقراء، كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه. اجتاز يوماً بمرور على فقراء الخرائين، فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله. (٧٥/١٠)

وكان يكثر الصدقة، فيتصدّق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه، عليهم الإدرات والصلوات، ولم يكن في جميع بلاده جنابة ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصليّ يؤخذ منهم كلّ سنة دفعتين رفقاً بهم.

وكتب إليه بعض السُّعاة سعاية في نظام الملك وزيره، وذكر ما له في ممالكه من الرسوم والأموال، وتركت على مصلاه، فأخذها

وأقطع العرب والأكراد إقطاعات كثيرة لما فعلوه في الرقعة.

وكان السبب في حضور شرف الدولة، وبهاء الدولة، عند ملكشاه، أنَّ السلطان ألب أرسلان كان ساخطاً على شرف الدولة، فأرسل الخليفة تقيب النقيب طراد بن محمد الزينبي إلى شرف الدولة بالموصل، فأخذه ومار به إلى ألب أرسلان ليشفع فيه عند الخليفة، فلما بلغ الزاب وقف على ملطقات كتبها وزيره أبو جابر بن صقلاب، فأخذه شرف الدولة ففرقه، ومار مع طراد، فبلغهما الخبر بوفاة ألب أرسلان، ومسير ابنه ملكشاه، فتمتا إليه.

وأما بهاء الدولة فإنه كان قد سار بمال أرسله به أبوه إلى السلطان، فحضر الحرب بهذا السبب.

ذكر تفويض الأمور إلى نظام الملك

ثم إنَّ عسكر ملكشاه بسطوا ومدوا أيديهم في أموال الرعية، وقالوا: ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، فنال الرعية أذى شديداً، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، فبين له ما في هذا الفعل من الوهن، وخراب البلاد، وذهاب السياسة، فقال له: افعل في هذا ما تراه مصلحة؛ فقال له (٨٠/١٠) نظام الملك: ما يمكنني أن أفعل إلا بأمرك.

فقال السلطان: قد رددتُ الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأت الوالد؛ وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان، من جعلته طوس مدينة نظام الملك، وخلع عليه، ولقبه ألقاباً من جعلتها: أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهر من كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما هو مشهور، فمن ذلك أنَّ امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعه بعض حجابيه، فأنكر ذلك عليه وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإنَّ الأمراء والأعيان لا حاجة بهم إليك؛ ثم صرفه عن حجابته.

ذكر قتل ناصر الدولة بن حمدان

في هذه السنة قُتل ناصر الدولة أبو علي الحسن بن حمدان، وهو من أولاده ناصر الدولة بن حمدان، بمصر، وكان قد تقدَّم فيها تقدماً عظيماً.

ونذكر هاهنا الأسباب الموجبة لقتله، فإنَّها تتبع بعضها بعضاً، وفي حروب وتجارب، وكان أول ذلك انحلال أمر الخلافة، وفساد أحوال المستنصر بالله العلوي، صاحبها، وسببه أنَّ والدته كانت غالباً على أمره، وقد اصطنعت أبا سعيد إبراهيم التستري، الهودي، وصار وزيراً لها، فأشار عليها بوزارة أبي نصر الفلاح، فولته الوزارة، واتفقا مدةً، ثم صار الفلاح ينفرد بالتدبير، فوقع بينهما وحشة، فخافه الفلاح أن يُقصد أمره مع أم المستنصر، (٨١/١٠) فاصطنع الغلمان الأتراك، واستمالهم، وزاد في أرزاقهم، فلما وثق

وسبب ذلك أنه لما بلغه وفاة ألب أرسلان، وعود ابنه ملكشاه عن خراسان، طمع في البلاد المجاورة له، فقصد ترمذ أول ربيع الآخر، وفتحها، ونقل ما فيها من ذخائر وغيرها إلى سمرقند.

وكان إياز بن ألب أرسلان قد سار عن بلخ إلى الجوزجان، فخاف أهل بلخ، فأرسلوا إلى التكين يطلبون منه الأمان، فأمنهم، فخطبوا له فيها، وورد إليها، فنهب عسكره شيئاً من أموال الناس، وعاد إلى ترمذ، فثار أوباش بلخ بجماعة من أصحابه فقتلوه، فعاد إليهم وأمر بإحراق المدينة، فخرج إليه أعيان أهلها وسالوه الصفع، واعتدروا، فعفا عنهم، لكنه أخذ أموال التجار فغتم شيئاً عظيماً.

فلما وصل الخبر إلى إياز عاد من الجوزجان إلى بلخ، فوصل غرة جمادى الأولى، فأطاعه أهلها، ومار عنها إلى ترمذ في عشرة آلاف فارس في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، فلقيهم عسكر التكين، فانهزم إياز، ففرق من عسكره في جيحون أكثرهم، وقتل كثير منهم، ولم ينج إلا القليل. (٧٨/١٠)

ذكر قصد صاحب غزنة سكلكتند

وفي هذه السنة أيضاً، في جمادى الأولى، وردت طائفة كثيرة من عسكر غزنة إلى سكلكتند، وبها عثمان عم السلطان ملكشاه، ولقب بأمير الأمراء، فأخذه أسيراً، وعادوا به إلى غزنة مع خزائنه وحشمه، فسمع الأمير كمشكين بلكابك، وهو من أكابر الأمراء، فتنج آثارهم، وكان معه أنوشكين جد ملوك خوارزم في زماننا، فنهبا مدينة سكلكتند.

ذكر الحرب بين السلطان ملكشاه وعمه قاوورت بك

لما بلغ قاوورت بك، وهو بكرمان، وفاة أخيه ألب أرسلان سار طالباً للرأي يريد الاستيلاء على الممالك، فسبقه إليها السلطان ملكشاه ونظام الملك، وسارا منها إليه، فالتقوا بالقرب من همدان في شعبان، وكان العسكر يميلون إلى قاوورت بك، فحملت ميسرة قاوورت على ميمنة ملكشاه، فهزموها، وحمل شرف الدولة مسلم بن قُريش، وبهاء الدولة منصور بن تقيس بن مزيد، وهما مع ملكشاه، ومن معهما من العرب والأكراد، على ميمنة قاوورت بك فهزموها، وتمت الهزيمة على أصحاب قاوورت بك، ومضى المنهزمون من أصحاب السلطان ملكشاه إلى حلل شرف الدولة، وبهاء الدولة، فنهبوا غيظاً منهم، حيث هزموا عسكر قاوورت بك، ونهبوا أيضاً ما كان لتقيب النقيب طراد بن محمد الزينبي رسول الخليفة. (٧٩/١٠)

وجاء رجل سوادى إلى السلطان ملكشاه، فأخبره أنَّ عمه قاوورت بك في بعض القرى، فأرسل من أخذه وأضره، فأمر سعد الدولة كوهراين فخنقه، وأقر كرمان بيد أولاده، وسير إليهم الخلع،

وبهم وضعهم على قتل اليهودي، فقتلوه، فعظم الأمر على أم المستنصر، وأغرت به ولدها، قبض عليه، وأرسلت من قتله تلك الليلة، وكان بينهما في القتل تسعة أشهر.

وورّر بعده أبو البركات حسن بن محمد، فوضعه على الغلمان الأتراك فأفسد أحوالهم، وشرع يشتري العبيد للمستنصر، واستكثر منهم، فوضعت أم المستنصر ليغري العبيد المجريين بالأتراك، فخاف عاقبة ذلك، وعلم أنه يورث شراً وفساداً، فلم يفعل، فتكرّرت له، وعزلته عن الوزارة.

ووليّ بعده الوزارة أبو محمد اليازوري من قرية من قرى الرملة اسمها يازور، فأمرته أيضاً بذلك، فلم يفعل، وأصلح الأمور إلى أن قُتل.

وورّر بعده أبو عبد الله الحسين بن البابلي، فأمرته بما أمرت غيره من الوزراء من إغراء العبيد بالأتراك، ففعل، فتغيّرت نياتهم.

ثم إنَّ المستنصر ركب ليشيع الحجاج، فأجرى بعض الأتراك فرسه، فوصل به إلى جماعة العبيد المحدثين، وكانوا يحيطون بالمستنصر، فضربه أحدهم فجرحه، فعظم ذلك على الأتراك ونشبت بينهم الحرب، ثم اصطلحوا على تسليم الجارح إليهم، واستحكمت العداوة، فقال الوزير للعبيد: خذوا حذرکم؛ فاجتمعوا في محلّتهم.

وورّر بعده أبو عبد الله الحسين بن البابلي، فأمرته بما أمرت غيره من الوزراء من إغراء العبيد بالأتراك، ففعل، فتغيّرت نياتهم.

ثم إنَّ المستنصر ركب ليشيع الحجاج، فأجرى بعض الأتراك فرسه، فوصل به إلى جماعة العبيد المحدثين، وكانوا يحيطون بالمستنصر، فضربه أحدهم فجرحه، فعظم ذلك على الأتراك ونشبت بينهم الحرب، ثم اصطلحوا على تسليم الجارح إليهم، واستحكمت العداوة، فقال الوزير للعبيد: خذوا حذرکم؛ فاجتمعوا في محلّتهم.

وعرف الأتراك ذلك، فاجتمعوا إلى مقدّمهم، وقصدوا ناصر الدولة ابن حمدان، وهو أكبر قائد بمصر، وشكوا إليه، واستمالوا المصامدة، وكتامة، وتعاهدوا، وتعاقدوا، فقوي الأتراك، وضعف العبيد المحدثون، فخرجوا من القاهرة إلى الصعيد ليجتمعوا هناك، فانضاف إليهم خلق كثير يزيدون على خمسين ألف فارس وراجل، فخاف الأتراك وشكوا إلى المستنصر، فأعاد (٨٢/١٠) الجواب أنه لا علم له بما فعل العبيد، وأنه لا حقيقة له، فظنّوا قوله حيلة عليهم.

ثم قوي الخبر بقرب العبيد منهم بكثرتهم، فأجفل الأتراك، وكتامة، والمصامدة، وكانت عدّتهم ستّة آلاف، فالتقوا بموضع يُعرف بكنوز الریش، واقتتلوا، فانهزم الأتراك ومن معهم إلى القاهرة، وكان بعضهم قد كمن في خمسمائة فارس، فلمّا انهزم الأتراك خرج الكمين على ساقّة العبيد ومن معهم، وحملوا عليهم حملة منكرة، وضربت البوقات، فارتاع العبيد، وظنّوها مكيدة من المستنصر، وأنه قد ركب في باقي العسكر، فانهزموا، وعاد عليهم الأتراك وحكّموا فيهم السيوف، فقتل منهم وغرق نحو أربعين ألفاً، وكان يوماً مشهوداً.

وقويت نفوس الأتراك، وعرفوا حسن رأي المستنصر فيهم،

ثم إنَّ العبيد اجتمعوا بالصعيد في خمسة عشر ألف فارس وراجل، فقلق الأتراك لذلك، فحضر مقدّمهم دار المستنصر لشكوى حالهم، فأمرت أم المستنصر مَنْ عندها من العبيد بالهجوم على المقدّمين والفتك بهم، ففعلوا ذلك، وسمع ناصر الدولة الخبر، فهرب إلى ظاهر البلد، واجتمع الأتراك إليه، (٨٣/١٠) ووقعت الحرب بينهم وبين العبيد، ومن تبعهم من مصر والقاهرة، وحلف الأمير ناصر الدولة بن حمدان أنه لا ينزل عن فرسه ولا يذوق طعاماً، حتّى يفصل الحال بينهم، فبقيت الحرب ثلاثة أيام، ثم ظفر بهم ناصر الدولة، وأكثر القتل فيهم، ومن سلم هرب، وزالت دولتهم من القاهرة.

وكان بالإسكندرية جماعة كثيرة من العبيد، فلمّا كانت هذه الحادثة طلبوا الأمان، فأمنوا وأخذت منهم الإسكندرية، وبقي العبيد الذين بالصعيد.

فلمّا خلت الدولة للأتراك طمعوا في المستنصر، وقلّ ناموسه عندهم، وطلبوا الأموال، فخلت الخزائن، فلم يبق فيها شيء البتّة، واختلّ ارتفاع الأعمال، وهم يطالبون، واعتذر المستنصر بعدم الأموال عنده، فطلب ناصر الدولة العروض، فأخرجت إليهم، وقوّمت بالثمن البخس، وصُرفت إلى الجند، قيل إنَّ واجب الأتراك كان في الشهر عشرين ألف دينار، فصار الآن في الشهر أربعمائة ألف دينار.

وأما العبيد بالصعيد فإنهم أفسدوا، وقطعوا الطريق، وأخافوا السبيل، فصار إليهم ناصر الدولة في عسكر كثير، فمضى العبيد من بين يديّهم إلى الصعيد الأعلى، فأدرهم، فقاتلهم، وقتلوه، فانهزم ناصر الدولة منهم وعاد إلى الجيزة بمصر، واجتمع إليه مَنْ سلم من أصحابه، وشغبوا على المستنصر، واتهموه بتقوية العبيد والميل إليهم، ثم جهّزوا جيشاً وسيّروه إلى طائفة من العبيد بالصعيد، وقتلهم، فقتلت تلك الطائفة من العبيد، فوهن الباقون، وزالت دولتهم. (٨٤/١٠)

وعظم أمر ناصر الدولة، وقويت شوكته، وتفرّد بالأمر دون الأتراك، فامتنعوا من ذلك، وعظم عليهم، وفسدت نياتهم له، فشكوا ذلك إلى الوزير، وقالوا: كلّمنا خرج من الخليفة مال أخذ أكثره له ولحاشيته، ولا يصل إلينا منه إلّا القليل. فقال الوزير: إنّما

أكثر أصحاب المستنصر، وتفرّق كثير منهم، فاسأل الأتراك من القاهرة ناصر الدولة في الصلح، فاصطلحوا على أن يكون تاج الملوك شاذي نائياً عن ناصر الدولة بالقاهرة، يحمل المال إليه، ولا يبقى معه لأحد حكم.

فلما دخل تاج الملوك إلى القاهرة تغيّر عن القاعدة، واستبدّ بالأموال دون ناصر الدولة، ولم يرسل إليه منها شيئاً، فسار ناصر الدولة إلى الجيزة، واستدعى إليه شاذي وغيره من مقدّمي الأتراك، فخرجوا إليه إلا أقلهم، فقبض عليهم (٨٦/١٠) كلّهم، ونهب ناحيتي مصر، وأحرق كثيراً منهما، فسير إليه المستنصر عسكرياً فكسره، فانهزم منهم ومضى هارباً، فجمع جمعاً، وعاد إليهم فقاتلهم فهزمهم، وقطع خطبة المستنصر بالإسكندرية ودمياط، وكان معه، وكذلك جميع الريف، وأرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب خلعاً ليخطب له بمصر.

واضمحل أمر المستنصر، وبطل ذكره، وتفرّق الناس من القاهرة، وأرسل ناصر الدولة إليه أيضاً يطلب المال، فرآه الرسول جالساً على حصير، وليس حوله غير ثلاثة خدم، ولزم ير الرسول شيئاً من آثار المملكة، فلما أدّى الرسالة قال: أما يكفي ناصر الدولة أن اجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟ فبكى الرسول، وعاد إلى ناصر الدولة فأخبره الخبر، فأجرى له كلّ يوم مائة دينار، وعاد إلى القاهرة، وحكم فيها، وأذل السلطان وأصحابه.

وكان الذي حمّله على ذلك أنّه كان يُظهر التسنّن من بين أهله، ويعيب المستنصر، وكان المغاربة كذلك فأعانوه على ما أراد، وقبض على أمّ المستنصر، وصادروا بخمسين ألف دينار، وتفرّق عن المستنصر أولاده وكثير من أهله إلى الغرب، وغيره من البلاد، فمات كثير منهم جوعاً.

وانقضت سنة أربع وستين [وأربعمائة] وما قبلها بالفتن، وانحطّ السعر سنة خمس وستين، ورخصت الأسعار، وبالغ ناصر الدولة في إهانة المستنصر، وفرق عنه عامة أصحابه، وكان يقول لأحدهم: إني أريد أن أوليك عمل كذا؛ فيسير إليه، فلا يمكنه من العمل ويمتنع من العود، وكان غرضه بذلك (٨٧/١٠) أن يخطب للخليفة القائم بأمر الله، ولا يمكنه مع وجودهم، ففطن لفعله قائد كبير من الأتراك اسمه الدكر، وعلم أنّه متى ما تمّ ما أراد تمكن منه ومن أصحابه، فأطاع على ذلك غيره من قوّة الأتراك، فاتّفقوا على قتل ناصر الدولة، وكان قد أمن لقوته، وعدم عدوّه، فتواعدوا ليلة على ذلك، فلما كان سحر الليلة التي تواعدوا فيها على قتله جاؤوا إلى باب داره، وهي التي تُعرف بمنازل العزّ، وهي على النيل، فدخلوا، من غير استئذان، إلى صحن داره، فخرج إليهم ناصر الدولة في رداء لأنّه كان أمناً منهم، فلما دنا منهم ضربوه

وصل إلى هذا وغيره بكم، فلو فارقتموه لم يتمّ له أمر. فاتّفق رأيهم على مفارقة ناصر الدولة، وإخراجه من مصر، فاجتمعوا، وشكروا إلى المستنصر، وسألوه أن يخرج عنهم ناصر الدولة، فأرسل إليه يأمره بالخروج، وينهذه إن لم يفعل، فخرج من القاهرة إلى الجيزة، ونهبت داره ودور حواشيه وأصحابه.

فلما كان الليل دخل ناصر الدولة مستخفياً إلى القائد المعروف بتاج الملوك شاذي، فقبّل رجله، وقال: اصطنعني! فقال: أفعل؛ فحالفه على قتل مقدّم من الأتراك اسمه الدكر، والوزير الخطير، وقال ناصر الدولة لشاذي: تركب في أصحابك، وتسير بين القصرين، فإذا أمكنتك الفرصة فهما فاقتلها.

وعاد ناصر الدولة إلى موضعه إلى الجيزة. وفعل شاذي ما أمره، فركب الدكر إلى القصر، فرأى شاذي في جمعه، فأنكره، وأسرع فدخل القصر، فقاته، ثم أقبل الوزير في موكبه، فقتله شاذي، وأرسل إلى ناصر الدولة يأمره بالركوب، فركب إلى باب القاهرة، فقال الدكر للمستنصر: إن لم تركب، وإلا هلكت أنت ونحن. فركب، وليس سلاحه، وتبعه خلق عظيم من العامة والجند، واصطفوا للقتال، فحمل الأتراك على ناصر الدولة فانهزم، وقُتل من أصحابه خلق كثير، ومضى منهزماً على وجهه لا يلوي على شيء، وتبعه فلّ أصحابه، فوصل إلى بني منبس، فأقام عندهم وصايرهم فقوي بهم.

وتجهّزت العساكر إليه ليعدوه، فساروا حتّى قربوا منه، وكانوا ثلاث (٨٥/١٠) طوائف، فأراد أحد المقدّمين أن يفوز بالظفر وحده دون أصحابه، فعبر فيمن معه إلى ناصر الدولة، وحمل عليه فقاتله، فظفر به ناصر الدولة، فأخذه أسيراً، وأكثر القتل في أصحابه، وعبر العسكر الثاني، ولم يشعروا بما جرى على أصحابهم، فحمل ناصر الدولة عليهم، ورفع رؤوس القتلى على الرماح، فوقع الرعب في قلوبهم، فانهزموا وقتل أكثرهم، وقويت نفس ناصر الدولة.

وعبر العسكر الثالث، فهزمه وأكثر القتل فيهم، وأسر مقدّمهم، وعظم أمره، ونهب الريف فأنقطعه، وقطع الميرة عن مصر برّاً وبحراً، فغلت الأسعار بها، وكثر الموت بالجوع، وامتدّت أيدي الجند بالقاهرة إلى النهب والقتل، وعظم الوباء حتّى إن أهل البيت الواحد كانوا يموتون كلّهم في ليلة واحدة.

واشتدّ الغلاء، حتّى حكى أن امرأة أكلت رغيفاً بألف دينار، فاستبعد ذلك، فقيل: إنها باعت عروصاً قيمتها ألف دينار بثلاثمائة دينار، واشترت بها حنطة، وحملها الحمّال على ظهره، فنهبت الحنطة في الطريق، فنهبت هي مع الناس، فكان الذي حصل لها ما عملته رغيفاً واحداً.

وقطع ناصر الدولة الطريق برّاً وبحراً، فهلك العالم، ومات

بالسيوف، فسبّهم، وهرب منهم يريد الحرم، فلحقوه ففرضوه حتى قتلوه، وأخذوا رأسه.

(٨٩/١٠)

فإنك تظلم ما صرّة عقوقاً له، وتسميه شِعْراً وهذا ظلم من ابن البياضي، فإنه كان شاعراً محسناً، ومن شعر ابن صرّ قوله:

تزارون عن أفراسي بيننا، نواشيز ليس يطيقن الرينا
كلفن بجبد، كان الرياض اتخذن لنجد عليها بيننا
واشمعن يحولن إلا نجيلاً، إليه، ويلفن إلا حزناً
فلما استمعن زفير المشوق ونوح الخمام، تركن الحيناً
إذا جئنا باله الواهين فأرخوا السرع، وحلوا الوهيناً
فتم علائق من أجلهن ملاء الدجى والضحى قد طوينا
وقد أنبأهم مياه الجفون بأن بلبك داه ففينا
(٩٠/١٠)

سنة ميت وستين وأربعمائة

ذكر تقليد السلطان ملكشاه السلطنة والخلع عليه

في هذه السنة، في صفر، ورد كوهرايين إلى بغداد من عسكر السلطان، وجلس له الخليفة القائم بأمر الله، ووقف على رأسه ولي العهد المقتدي بأمر الله، وسلم الخليفة إلى كوهرايين عهد السلطان ملكشاه بالسلطنة، وقرأ الوزير أوله، وسلم إليه أيضاً لواء عقده الخليفة بيده، ولم يمنع يومئذ أحد من الدخول إلى دار الخلافة، فامتلا صحن السلام بالعامّة، حتّى كان الإنسان تهمة نفسه ليتخلص، وهذا الناس بعضهم بعضاً بالسلامة.

ذكر غرق بغداد

في هذه السنة غرق الجانب الشرقي وبعض الغربي من بغداد. وسببه أنّ دجلة زادت زيادة عظيمة، وانفتح القورج عند المسناة المعزّية، وجاء في الليل سيل عظيم، وطفح الماء من البرية مع ريح شديدة، وجاء الماء إلى المنازل من فوق، ونبع من البلايع والآبار بالجانب الشرقي، وهلك خلق كثير تحت الهدم، وشدّت الزوارق تحت التاج خوف الغرق.

وقام الخليفة يتضرّع ويصلي، وعليه البردة، ويديه القضيب، وأتى ايتكين السليمانيّ من عكبرا، فقال للوزير: إنّ الملاحين يؤذون الناس في (٩١/١٠) المعابر فأحضرهم، وتهدّدهم بالقتل، وأمر بأخذ ما جرت به العادة.

وجُمع الناس، وأقيمت الخطبة للجمعة في الطيّار مرتين، وغرق من الجانب الغربي مقبرة أحمد، ومشهد باب التبن، وتهدّم سوره، فأطلق شرف الدولة ألف دينار تُصرف في عمارته، ودخل الماء من شبايك اليمارستان العضديّ.

ومضى رجل منهم، يُعرف بكوكب الدولة، إلى فخر العرب، اخي ناصر الدولة، وكان فخر العرب كثير الإحسان إليه، فقال للحاجب: استأذن لي على فخر العرب، وقُلّ صنيعتك فلان على الباب، فاستأذن له، فأذن له وقال: لعله قد دهمه أمر. فلما دخل عليه أسرع نحوه كأنه يريد السلام عليه، وضربه بالسيف على كتفه، فسقط إلى الأرض، فقطع رأسه، وأخذ سيفه، وكان ذا قيمة وافرة، وأخذ جارية له أردفها خلفه، وتوجّه إلى القاهرة، وقتل أخوهما تاج المالعي، وانقطع ذكر الحمدانيّة بمصر بالكلية.

فلما كان سنة ست وستين وأربعمائة ولي الأمر بمصر بدر الجمالي، أمير الجيوش، وقتل الدكّر والوزير ابن كدينة، وجماعة من المسلحة، وتمكّن من الدولة إلى أن مات، وولي بعده ابنه الأفضل، وسيرد ذكرهم إن شاء الله تعالى. (٨٨/١٠)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أقيمت الدعوة العباسيّة بالبيت المقدس.

وفيها توفي الأمير ليث بن منصور صدقة بن الحسين بالدامغان، والشريف أبو الغنائم عبد الصمد بن عليّ بن محمد بن المأمون ببغداد، وكان موته في شوال، ومولده سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، وكان عالي الإسناد في الحديث.

وفيها، في ذي الحجة، توفي الشريف أبو الحسين محمد بن عليّ بن عبد الله بن عبد الصمد بن المهدي بالله، المعروف بابن الغريق، وكان يسمّى راهب بني العباس، وهو آخر من حدث عن الدارقطني وابن شاهين وغيرهما، وكان موته ببغداد.

وفيها قُتل ناصر الدولة أبو عليّ الحسين بن حمدان بمصر، قتله الدكّر التركي، وقد تقدم شرحه مستوفى.

وفيها توفي الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيريّ، النيسابوريّ، مصنف الرسالة وغيرها، وكان إماماً فقيهاً، أصولياً، مفسراً، كاتباً، ذا فضائل جمّة، وكان له فرس قد أهدي إليه، فركبه نحو عشرين سنة، فلما مات الشيخ لم يأكل الفرس شيئاً فعاش أسبوعاً ومات.

وفيها أيضاً توفي عليّ بن الحسن بن عليّ بن الفضل أبو منصور، الكاتب المعروف بابن صُرْبَعْر، وكان نظام الملك قال له أنت ابن صُرْدَر، لا صُرْبَعْر، فبقي ذلك عليه، وهو من الشعراء المجيدين، وهجاه ابن البياضي فقال:

لئن نَزَّيَ الناسُ قَدَمًا أباك، فسوّه من شعره صُرْبَعْرًا

الحسن ما كان إليه من القضاء بالعراق والموصل، وكان مولده سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بسمان، وكان هو وأبوه من المغالين في مذهب الأشعري، ولأبيه فيه تصانيف كثيرة، وهذا مما يُستطرف أن يكون حنفيًا أشعريًا.

وفيها، في جمادى الآخرة، توفي عبد العزيز أحمد بن محمد بن علي أبو محمد الكتاني، الدمشقي، الخافظ وكان مكشراً في الحديث، ثقة، وممن سمع منه الخطيب أبو بكر البغدادي.

(٩٤/١٠)

سنة سبع وستين وأربعمائة

ذكر وفاة القائم بأمر الله وذكر بعض سيرته

في هذه السنة، ليلة الخميس ثالث عشر شعبان، توفي القائم بأمر الله أمير المؤمنين، رضي الله عنه، واسمه عبد الله أبو جعفر بن القادر بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد.

وكان سبب موته أنه كان قد أصابه شَرٌّ، فافتصد، ونام منفرداً، فانفجر قصاده، وخرج منه دم كثير ولم يشعر، فاستيقظ وقد ضعف وسقطت قوته، فأيقن بالموت، فأحضر ولي العهد، ووصاه بوصايا، وأحضر التقيين وقاضي القضاة وغيرهم مع الوزير ابن جُهير، وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله وليَّ عهده.

ولما توفي غسله الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي، وصلى عليه المقتدي بأمر الله.

وكان عمره ستاً وسبعين سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وخلافته أربعاً (٩٥/١٠) وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياماً، وقيل كان مولده ثامن عشر ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة وعلى هذا يكون عمره ستاً وسبعين سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

وأُمُّه أُمٌ ولد تُسمَّى قَطْر النَّدى، أرمينية، وقيل رومية، أدركت خلافته، وقيل اسمها عَلم، وماتت في رجب سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

وكان القائم جميلاً، مليح الوجه، أبيض، مشرباً حُمْرة، حسن الجسم، زرعاً، ديناً، زاهداً، عالماً، قويَّ اليقين بالله تعالى، كثير الصبر، وكان للقائم عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، ولم يكن يرتضي أكثر ما يكتب من الديوان، فكان يُصلح فيه أشياء، وكان مؤثراً للعدل والإنصاف يريد قضاء حوائج الناس، لا يرى المنع من شيء يُطلب منه.

ومن عجيب ما يحكى في هذا الغرق أن الناس، في العام الماضي، كانوا قد أنكروا كثرة المغنيّات والخمور، فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند جندي، فشار به الجندي الذي كانت عنده، فضربه، فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة منهم أبو إسحاق الشيرازي، واستغاثوا بالخليفة، وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبديلها، فوعدهم أن يكاتب السلطان في ذلك، فسكنوا وتفرقوا.

ولازم كثير من الصالحين الدعاء بكشفه، فاتَّفَق أن غرقت بغداد، ونال الخليفة والجند من ذلك أمر عظيم، وعُمت مصيبتهم الناس كافة، فرأى الشريف أبو جعفر بن أبي موسى بعض الحجاب الذين يقولون: نحن نكاتب السلطان، ونسعى في تفريق الناس، ويقول: اسكنوا إلى أن يرد الجواب. فقال له أبو جعفر: قد كتبنا، وكتبتم، فجاء جوابنا قبل جوابكم، يعني أنهم شكوا ما حلَّ بهم إلى الله تعالى، وقد أجابهم بالغرق، قبل ورود جواب السلطان. (٩٢/١٠)

ذكر ملك السلطان ملكشاه ترمذ والهدنة بينه وبين صاحب

سَمَرْقَنْد

قد ذكرنا أن خاقان التكين صاحب سَمَرْقَنْد ملك ترمذ بعد قتل السلطان ألب أرسلان، فلما استقامت الأمور للسلطان ملكشاه سار إلى ترمذ وحصرها، وطَمَّ المسكر خندقها، ورامها بالمجانيق، فخاف من بها، فطلبوا الأمان فأمنهم، وخرجوا منها وسلموها.

وكان بها أخٌ لخاقان التكين، فآكرمه السلطان، وخلع عليه، وأحسن إليه، وأطلقه، وسلم قلعة ترمذ إلى الأمير ساونكين، وأمره بعمارته وتحصينها وعمارة سورها بالحجر المحكم، وحفر خندقها وتعميقه، ففعل ذلك.

وسار السلطان ملكشاه يريد سَمَرْقَنْد، ففارقها صاحبها، وأنفذ يطلب المصالحة، ويضرع إلى نظام الملك في إجابته إلى ذلك، ويعتذر من تعرّضه إلى ترمذ، فأجيب إلى ذلك، واصطلحوا، وعاد ملكشاه عنه إلى خراسان، ثم منها إلى الري، وأقطع بلخ وطُخارستان لأخيه شهاب الدين تكش.

ذكر عدة حوادث

فيها توفي زعيم الدولة أبو الحسن بن عبد الرحيم بالنَّيل فجأة، وله سبعون سنة، وقد تقدّم من أخباره ما فيه كفاية.

وفيها توفي إياز أخو السلطان ملكشاه، وكُفي شره كما كُفي شر عمه (٩٣/١٠) فأورث بك.

وفيها، في ربيع الأول، توفي القاضي أبو الحسين بن أبي جعفر السَّمْناني حمو قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغانّي، وولي ابنه أبو

فأخفاه أهله، وحمله أبو الغنائم بن المحلبان إلى خزان، كما ذكرنا، ولما عاد القائم إلى بغداد أعيد المقتدي إليه. فلما بلغ الحلم جعله ولياً عهد، ولما ولي الخلافة أقرّ فخر الدولة بن جُهير على وزارته بوصيةً من القائم بذلك، وسير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جُهير إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة، وكان مسيره في شهر رمضان، وأرسل معه من أنواع الهدايا ما يجلّ عن الوصف.

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة، في شوال، وقعت نار ببغداد في دكان خباز بنهر العلّی، فاحترقت من السوق مائة وثمانون دكاناً سوى الدور، ثم وقعت نار في المأمونية، ثم في الطفرية، ثم في درب المطبخ، ثم في دار الخليفة، ثم في حمام السمرقندي، ثم في باب الأُرج ودرب خراسان، ثم في الجانب الغربي في نهر طابق، ونهر القلائين، والقطيعة، وباب البصرة، واحترق ما لا يُحصى.

وفيها أرسل المستنصر بالله العلوي، صاحب مصر، إلى صاحب مكة ابن أبي (٩٨/١٠) هاشم، رسالة وهدية جليّة، وطلب منه أن يُعيد له الخطبة بمكة، حرسها الله تعالى، وقال: إن أيمانك وعهودك كانت للقائم، وللسلطان ألب أرسلان، وقد ماتا؛ فخطب له بمكة وقطع خطبة المقتدي، وكانت مدة الخطبة العباسية بمكة أربع سنين وخمسة أشهر، ثم أعيدت في ذي الحجة سنة ثمان وستين [وأربعمائة].

وفيها كانت حرب شديدة بين بني رباح ورغبة ببلاد إفريقية، فقويت بنو رباح على رغبة فهزموهم وأخرجوهم عن البلاد.

وفيها جمع نظام الملك، والسلطان ملكشاه، جماعة من أعيان المنجمين، وجعلوا النّيروز أوّل نقطة من الحمل، وكان النّيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت وصار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم.

وفيها أيضاً عمل الرّصد للسلطان ملكشاه، واجتمع جماعة من أعيان المنجمين في عمله منهم: عمر بن إبراهيم الخيامي، وأبو المظفر الإسفرازي، وميمون ابن النّجيب الواسطي، وغيرهم، وخرج عليه من الأموال شيء عظيم، وبقي الرصد دائراً إلى أن مات السلطان سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فبطل بعد موته. (٩٩/١٠)

سنة ثمان وستين وأربعمائة

ذكر ملك أقيس دمشق

قد ذكرنا سنة ثلاث وستين [وأربعمائة] ملك أقيس الرملة، والبيت المقدس، وحصره مدينة دمشق، فلما عاد عنها جعل يقصد

قال محمد بن علي بن عامر الوكيل: دخلت يوماً إلى المخزن، فلم يبق أحد إلا أعطاني قصّة، فامتلات أكمامي منها، فقلت في نفسي: لو كان الخليفة أخي لأعرض عن هذه كلّها، فالقيتها في بركة، والقائم ينظر ولا أشعر، فلما دخلت إليه أمر الخدم بإخراج الرقاع من البركة، فأخرجت، ووقف عليها، ووقع فيها بأغراض أصحابها، ثم قال لي: يا عامي! ما حملك على هذا؟ فقلت: خوف الضجر منها؛ فقال: لا تُعدّ إلى مثله! فإنّا ما أعطيناهم من أموالنا شيئاً، إنّما نحن وكلاء.

ووزر للقائم أبو طالب محمد بن أيوب، وأبو الفتح بن دارست، ورئيس الرؤساء، وأبو نصر بن جُهير، وكان قاضيه ابن ماکولا، وأبو عبد الله الدامغاني. (٩٦/١٠)

ذكر خلافة المقتدي بأمر الله

لما توفي القائم بأمر الله بوع المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد بن القائم بالخلافة، وحضر مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الدولة بن جُهير وابنه عميد الدولة، والشيخ أبو إسحاق، وأبو نصر بن الصّبّاغ، ونقيب النقباء طراد، والنقيب الطاهر المعمر بن محمد، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني، وغيرهم من الأعيان والأمائل، فبايعوه.

وقيل: كان أوّل من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي، فإنه لما فرغ من غسل القائم ببايعه، وأنشده:

إذا سيّد منّا مضى قام سيّد

ثم أرتج عليه، فقال المقتدي:

فؤول بما قال الكرام فؤول

فلما فرغوا من البيعة صلى بهم العصر.

ولم يكن للقائم من أعقابهِ ذكر سواه، فإنّ الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفي أيام أبيه، ولم يكن له غيره، فأيقن الناس بانقراض نسله، وانتقال الخلافة من البيت القادرِي إلى غيره، ولم يشكوا في اختلال الأحوال بعد القائم، لأنّ من عدا البيت القادرِي كانوا يخالطون العامة في البلد، ويحرون مَجرى السوق، فلو اضطّر الناس إلى خلافة أحدهم لم يكن له ذلك القول، ولا تلك الهيبة، فقدّر الله تعالى أنّ الذخيرة أبا العباس كان له جارية اسمها أرجوان، وكان يُلِم بها، فلما توفي ورأت ما نال القائم من المصيبة واستعظمه من انقراض عقبه، ذكرت أنّها حامل، فتعلقت النفوس بذلك، فولدت بعد (٩٧/١٠) موت سيّدِها بستة أشهر المقتدي، فاشتدّ فرح القائم، وعظم سروره، وبالحق [في] الإشفاق عليه والمحبة له.

فلما كانت حادثة البساسيري كان للمقتدي قريب أربع سنين،

علامة في كثير من العلوم.

وفي شعبان توفي القاضي أبو الحسين محمد بن محمد بن البيضاوي الفقيه الشافعي، وكان يدرس الفقه بدرب السلولي بالكرخ، وهو زوج ابنة القاضي أبي الطيب الطبري، وعبد الرحمن بن محمد بن محمد بن المظفر بن محمد ابن داود أبو الحسن بن أبي طلحة الداودي، راوي صحيح البخاري، ولد سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، وسمع الحديث وتفقه للشافعي على أبي بكر القفال، وأبي حامد الأسفرياني، وصحب أبا علي الدقاق، وأبا عبد الرحمن السلمي، وكان عابداً خيراً، قصده نظام الملك، فجلس بين يديه، فوعظه، وكان في قوله: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَلَطَكُ عَلَى عِبَادِهِ، فانظر كيف تجيبه إذا سالك عنهم؛ فيكي، وكان موته ببوشنج.

وفيهما توفي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن متويه الواحدي المفسر مصنف الوسيط، والوجيز، في التفسير، وهو نيسابوري، إمام مشهور، وأبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست، وزير القائم، توفي بالأهواز، ومحمد بن القاسم بن حبيب بن عبدوس أبو بكر الصغار النيسابوري، الفقيه الشافعي، تفقه على أبي محمد الجويني، وسمع من الحاكم أبي عبد الله وأبي عبد الرحمن السلمي وغيرهما.

وفيهما توفي مسعود بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق أبو جعفر البياضي (١٠٢/١٠) الشاعر، له شعر مطبوع، فمته قوله:

يا من لبست لئلا توب الفضي، حتى نكبت به عن الموكاد
وايئت بالشهر الطويل، فأنسيت اجضان عيني كيف كان رقاد
إن كان يوسف بالجمال مقطوع اليد، فأتت مئنت الأكباد
(١٠٣/١٠)

سنة تسع وستين وأربعمائة

ذكر حصر أقيس مصر وعوده عنها

في هذه السنة سار أقيس من دمشق إلى مصر، وحصرها، وضيق على أهلها، ولم يبق غير أن يملكها، فاجتمع أهلها مع ابن الجوهري الواعظ في الجامع، ويكوا وتضرعوا ودعوا، فقبل الله دعاهم، فانهزم أقيس من غير قتال، وعاد على أقيع صورة بغير سبب، فوصل إلى دمشق وقد تفرق أصحابه، فرأى أهلها قد صانوا مخلفيه وأمواله، فشكروهم، ورفع عنهم الخراج تلك السنة.

وأتى البيت المقدس، فرأى أهله قد قبّحوا على أصحابه ومخلفيه، وحصروهم في محراب داود، عليه السلام، فلما قارب البلد تحصن أهله منه وسبّوه، فقاتلهم، ففتح البلد عنوة ونهبه، وقتل من أهله فأكثر حتى قتل من التجأ إلى المسجد الأقصى، وكف عمن كان عند الصخرة وحدها، هكذا يذكر الشاميون هذا

أعمالها كل سنة عند إدراك الغلات فأخذها، فيقوى هو وعسكره، ويضعف أهل دمشق وجندها، فلما كان رمضان سنة سبع وستين سار إلى دمشق فحصرها، وأميرها المعلى بن خندرة من قبل الخليفة المستنصر، فلم يقدر عليها، فانصرف عنها في شوال، فهرب أميرها المعلى في ذي الحجة.

وكان سبب هربه أنه أساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم، فكثر الدعاء عليه، وثار به العسكر، وأعانهم العامة، فهرب منها إلى بانياس، ثم منها إلى صور، ثم أخذ إلى مصر فحبس بها، فمات محبوساً.

فلما هرب من دمشق اجتمعت المصامدة، وولّوا عليهم انتصار بن يحيى المصمودي، المعروف برزين الدولة، وغلت الأسعار بها حتى أكل الناس بعضهم بعضاً.

ووقع الخلاف بين المصامدة وأحداث البلد، وعرف أقيس ذلك، فعاد إلى دمشق، فنزل عليها في شعبان من هذه السنة، فحصرها، فقدمت الأقوات، (١٠٠/١٠) فبيعت الغرارة، إذا وجدت، بأكثر من عشرين ديناراً، فسلموها إليه بأمان، وعوض انتصار عنها بقلعة بانياس، ومدينة يافا من الساحل، ودخلها هو وعسكره في ذي القعدة، وخطب بها يوم الجمعة لخمسة بقين من ذي القعدة، للمقتدي بأمر الله الخليفة العباسي، وكان آخر ما خطب فيها للعلويين المصريين، وتغلب على أكثر الشام، ومنع الأذان بحي على خير العمل، ففرح أهلها فرحاً عظيماً، وظلم أهلها، وأساء السيرة فيهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ملك نصر بن محمود بن مرداس مدينة منبج وأخذها من الروم.

وفيهما قدم سعد الدولة كوراثين شحنة إلى بغداد من عسكر السلطان، ومعه العميد أبو نصر ناظرًا في أعمال بغداد.

وفيهما وثب الجند بالبطيحة على أميرها أبي نصر بن الهيثم، وخالفوا عليه، فهرب منهم، وخرج من ملكه والذخائر والأموال التي جمعها في المدة الطويلة، ولم يصحبه من ذلك جميعه شيء، وصار نزلياً على كوراثين شحنة العراق.

وفيهما انفجر البثوق بالفلوجة، وانقطع الماء من النيل وغيره من تلك الأعمال من بلاد قيس بن مزيد، فجلا أهل البلاد، ووقع الوباء فيهم، ولم (١٠١/١٠) يزل كذلك إلى أن سده عميد الدولة بن جهمر سنة اثنتين وسبعين [وأربعمائة].

وفي هذه السنة توفي أبو علي الحسن بن القاسم بن محمد المقرئ، المعروف بغلام الهراس الواسطي، بها، وكانا محدثاً

الاسم أقيس، والصحيح أنه أنيز، وهو اسم تركي، وقد ذكر بعض مؤرخي الشام أن أنيز لما وصل إلى مصر جمع أمير الجيوش بدر العساكر، واستمد العرب وغيرهم من أهل البلاد، فاجتمع (١٠٤/١٠) معه خلق كثير، واقتلوا، فانهزم أنيز، وقُتل أكثر أصحابه، وقُتل أخ له، وقُطعت يد أخ آخر، وعاد منهزماً إلى الشام في نفر قليل من عسكره، فوصل إلى الرملة، ثم سار منها إلى دمشق.

وحكى لي من أتى به عن جماعة من فضلاء مصر: أن أنيز لما وصل إلى مصر ونزل بظاهر القاهرة أساء أصحابه السيرة في الناس، وظلموهم، وأخذوا أموالهم، وفعلوا الأفاعيل القبيحة، فأرسل رؤساء القرى ومقدموها إلى الخليفة المستنصر بالله العلوي يشكون إليه ما نزل بهم، فأعاد الجواب بأنه عاجز عن دفع هذا العدو، فقالوا له: نحن نرسل إليك من عندنا من الرجال المقاتلة يكونون معك، ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحاً، وعسكر هذا العدو قد أمنوا، وتفرقوا في البلاد، فنثر بهم في ليلة واحدة ونقتلهم، وتخرج أنت إليه فيمن اجتمع عندك من الرجال، فلا يكون له بك قوة، فاجابهم إلى ذلك.

وأرسلوا إليه الرجال، وثاروا كلهم في ليلة واحدة بمن عندهم، فأوقعوا بهم، وقتلوه عن آخرهم، ولم يسلم منهم إلا من كان عنده في عسكره، وخرج إليه العسكر الذي عند المستنصر بالقاهرة، فلم يقدر على الثبات لهم، فوَلَّى منهزماً، وعاد إلى الشام، وكفى أهل مصر شره وظلمه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ورد بغداد أبو نصر ابن الأستاذ أبي القاسم القشيري حاجاً، وجلس في المدرسة النظامية يعظ الناس، وفي رباط شيخ الشيوخ، وجرى له مع الحنابلة فتنة لأنه تكلم على مذهب الأشعري، ونصره، وكثر أتباعه والمتعصبون له، وقصد خصومه من الحنابلة، ومن تبعهم، سوق المدرسة النظامية وقتلوا جماعة. (١٠٥/١٠)

وكان من المتعصبين للقشيري الشيخ أبو إسحاق، وشيخ الشيوخ، وغيرهما من الأعيان، وجرت بين الطائفتين أمور عظيمة.

وفيها تزوج الأمير علي بن أبي منصور بن فرامرز بن علاء الدولة أبي جعفر بن كاكوثي أرسلان خاتون بنت داود عمه السلطان ملكشاه التي كانت زوجة القائم بأمر الله.

وفيها كان بالجزيرة، والعراق، والشام وباء عظيم، وموت كثير، حتى بقي كثير [من] الغلات ليس لها من يعملها لكثرة الموت في الناس.

وفيها مات محمود بن مرداس، صاحب حلب، وملك بعده ابنه نصر، فمدحه ابن خيوس بقصيدة يقول فيها:

ثمانية لم تشرق منذ جمعتها فلا افترقت ما ذب عن ناظر شمر
ضميرك والقوى وجودك والغنى ولظنك والمغنى وعزمك والنصر
وكان لمحمود بن نصر سجية وغالب ظني أن سيخلفها نصر
فقال: والله لو قال سيضعفها نصر لأضعفتها له. وأمر له بما كان يعطيه أبوه، وهو ألف دينار، في طبق فضة.

وكان على بابة جماعة من الشعراء، فقال بعضهم:

على بابك المعمور منّا عصابة مقاليس فانظر في أمور مقاليس
وقد قُتبت منك العصابة كلها بغر الذي أعطيت لابن خيوس
وما بيننا هذا القارب كله ولكن سيد لا يقاس بمنحوس
(١٠٦/١٠) فقال لو قال: بمثل الذي أعطيت، لأعطيهم ذلك؛ وأمر لهم بمثل نصفه.

وفيها توفي اسهدوست بن محمد بن الحسن أبو منصور الديلمي الشاعر، وكان قد لقي ابن الحجاج، وابن نباتة، وغيرهما، وكان يتشيع، وتركه، وقال في ذلك:

إذا سُلِّت عن اعتصامي قلت: ما كانت عليه مذاهب الأبرار
واقول: خير الناس بعد محمد صلبه وأئسسه في الفار
وفيها توفي رئيس العراقيين أبو أحمد النهاوندي الذي كان عميد بغداد، والشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي الحنبلي؛ ورزق الله بن محمد بن أحمد ابن علي أبو سعد الأنباري الخطيب، الفقيه، الحنفي، سمع الحديث الكثير، وكان ثقة حافظاً، وظاهر بن أحمد باشاذ النحوي، المصري، توفي في رجب، سقط من سطح جامع عمرو بن العاص بمصر فمات لوقته؛ وعبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر بن أحمد المعروف بابن هزارمرد، الصرغيفي، راوية أحاديث علي بن الجعد، وهو آخر من رواها، وكان ثقة، صالحاً، ومن طريقه سمعناها. (١٠٧/١٠)

سنة سبعين وأربعمائة

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ورد مؤيد الملك بن نظام الملك إلى بغداد من العسكر.

وفيها اصطلاح تميم بن المعز بن باديس، صاحب إفريقية، مع الناصر بن علناس، وهو من بني حماد، عم جده، وزوجه تميم ابنته بلارة، وسيّرها إليه من المهديّة في عسكر، وأصحابها من الخُلي والجهاز ما لا يُحَد، وحمل الناصر ثلاثين ألف دينار، فأخذ منها تميم ديناراً واحداً وردّ الباقي.

وفيهما استعمل تميم ابنه مُقَلَّدًا على مدينة طرابلس الغرب.

وكان ببغداد، في هذه السنة، فتنة بين أهل سوق المدرسة وسوق الثلاثاء بسبب الاعتقاد، فذهب بعضهم بعضاً، وكان مؤيد الملك بن نظام الملك ببغداد بالدار التي عند المدرسة، فأرسل إلى العميد والشحنة فحضرَا ومعهما الجند. فضربوا الناس، فقتل بينهم جماعة وانفصلوا.

وفي هذه السنة، في ربيع الأول، توفي القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد ابن محمد بن البيضاوي، الفقيه الشافعي، وكان القاضي أبو الطيب الطبري جده لأمه.

وفيهما توفي محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن النور أبو (١٠٨/١٠) الحسين البرزازي رجب، وكان كثيراً من الحديث، ثقة في الرواية، وأحمد ابن عبد الملك بن عليّ أبو صالح المؤذن النيسابوري، كان يعظ ويؤذن، وكان كثير الرواية، حافظاً، ومولده سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، وعبد الرحمن بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة الأصبهاني أبو القاسم بن أبي عبد الله الحافظ، له تصانيف كثيرة، منها: تاريخ أصفهان، وله طائفة يتمنون إليه في الاعتقاد من أهل أصفهان، يقال لهم العبد رحمانية.

وفي شوال منها توفيت ابنة نظام الملك زوجة عميد الدولة بن جُهير، نفساء بولد مات من يومه، ودُفِنَا بدار الخلافة، ولم تجر بذلك عادة لأحد، فُيْلَ ذلك إكراماً لأبيها، وجلس الوزير فخر الدولة بن جُهير، وابنه عميد الدولة زوجها، للعزاء في دار بياب العامة ثلاثة أيام. (١٠٩/١٠)

سنة إحدى وسبعين وأربعمائة

ذكر عزل ابن جُهير من وزارة الخليفة

في هذه السنة عُزِلَ فخر الدولة أبو نصر بن جُهير من وزارة الخليفة المقتدي بأمر الله، ووُزِّرَ بعده أبو شجاع محمد بن الحسين.

وكان السبب في ذلك أن أبا نصر بن القُشَيْرِيَّ ورد إلى بغداد، على ما تقدّم ذكره، وجرى له الفتن مع الحنابلة، لما ذكر مذهب الأشعرية، ونصره، وعاب من سواهم، وفعلت الحنابلة ومن معهم ما ذكرناه، نسب أصحاب نظام الملك ما جرى إلى الوزير فخر الدولة، وإلى الخدم، وكتب أبو الحسن محمد بن عليّ بن أبي الصقر الواسطيّ الفقيه الشافعيّ إلى نظام الملك:

يا نظام! شئتُ جدّ حلّ يفيغداد النّظام
وابنك القاطن فيها مستهاناً مستضام
وبها أوفى له قتل على غلام، وغلام

والذي منهم تقى سالماً فيه سهام
(١١٠/١٠)

يا قوام الدين لم يـ قبيغداد منقام
عظم الخطب، وللحر بـ اتصّال، وقوام
فتى لم تحميم الداء أياديك الحـام
ويكف القوم في بـ ناد قتل، واتصّام
فعلى مدرسة فيـ هـا، ومن فيها السلام
واعصام بخريم لك من بعد خـرام
فلما سمع نظام الملك ما جرى من الفتن، وقصد مدرسته، والقتل بجوارها، مع أن ابنه مؤيد الملك فيها، عظم عليه، فأعاد كوهرائين إلى شحنة العراق، وحمله رسالة إلى الخليفة المقتدي بأمر الله تضمّن الشكوى من بني جُهير، وسأل عزل فخر الدولة من الوزارة، وأمر كوهرائين بأخذ أصحاب بني جُهير، وإيصال المكروه إليهم وإلى حواشيهم.

فسمع بنو جُهير الخبر، فسار عميد الدولة إلى المعسكر يريد نظام الملك ليستطفه، وتجنّب الطريق، وسلك الجبال خوفاً أن يلقاه كوهرائين ويناله فيها أذى، فلما وصل كوهرائين إلى بغداد اجتمع بالخليفة وأبلغه رسالة نظام الملك، فأمر فخر الدولة بلزوم منزله.

ووصل عميد الدولة إلى المعسكر السلطاني، ولم يزل يستصالح نظام الملك حتى عاد إلى ما ألفه منه، وزوجه بانه بنت له، وعاد إلى بغداد في العشرين من جمادى الأولى، فلم يردّ الخليفة أباه إلى وزارته، وأمرهما بملازمة منازلهما، واستوزر أبا شجاع محمد بن الحسين. (١١١/١٠)

ثم إن نظام الملك راسل الخليفة في إعادة بني جُهير إلى الوزارة، وشفع في ذلك، فأعيد عميد الدولة إلى الوزارة، وأذن لأبيه فخر الدولة في فتح بابيه، وكان ذلك في صفر سنة اثنتين وسبعين [وأربعمائة].

ذكر استيلاء تُتَش على دمشق

في هذه السنة ملك تاج الدولة تُتَش بن ألب أرسلان دمشق. وسبب ذلك أن أخاه السلطان ملكشاه أقطعه الشام، وما يفتحها في تلك النواحي، سنة سبعين وأربعمائة، فأتى حلب وحصرها، ولحق أهلها مجاعة شديدة، وكان معه جمع كثير من التركمان، فأنفذ إليه أقيس، صاحب دمشق، يستجده، ويعرفه أن عساكر مصر قد حصرته بدمشق.

وكان أمير الجيوش بدر قد سير عسكراً من مصر، ومقدمهم قائد يُعرف بنصر الدولة، فحصر دمشق، فأرسل أقيس إلى تاج الدولة تُتَش يستنصره، فسار إلى نصره أقيس، فلما سمع

(١١٤/١٠) الملوك، فسار إليهم إبراهيم، ودعاهم إلى الاسلام أولاً، فامتنعوا من إجابته، وقتلوه، فظفر بهم، وأكثر القتل فيهم، وتفرق من سلم في البلاد، وسبى واسترق من النسوان والصبيان مائة ألف، وفي هذه القلعة حوض للماء يكون قطره نحو نصف فرسخ لا يُدرَك قعره، يشرب منه أهل القلعة وجميع ما عندهم من دابة، ولا يظهر فيه نقص.

وفي بلاد الهند موضع يقال له وره، وهو برّ بين خليجتين، فقصده الملك إبراهيم، فوصل إليه في جمادى الأولى، وفي طريقه عقبات كثيرة، وفيها أشجار ملتفة، فأقام هناك ثلاثة أشهر ولقي الناس من الشتاء شدة، ولم يفارق الغزوة حتى أنزل الله نصره على أوليائه، ودلّه على أعدائه، وعاد إلى غزنة سالماً مظفراً.

هذه الغزوات لم أعرف تاريخها، وأمّا الأولى فكانت هذه السنة، فلهاذا أوردتها متتابعة في هذه السنة.

ذكر ملك شرف الدولة مُسلم مدينة حلب

في هذه السنة ملك شرف الدولة مُسلم بن قُريش العُقيلي، صاحب الموصل، مدينة حلب.

وسبب ذلك أنّ تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان حصرها مرة بعد أخرى، فاشتد الحصار بأهلها، وكان شرف الدولة يواصلهم بالغلات وغيرها. (١١٥/١٠)

ثم إنّ تُتُش حصرها هذه السنة، وأقام عليها أياماً، ورحل عنها وملك بُزاعة والبيّرة، وأحرق رَيْض عَزَّاز، وعاد إلى دمشق.

فلما رحل عنها تاج الدولة استدعى أهلها شرف الدولة ليسلموها إليه، فلما قاربها امتنعوا من ذلك، وكان مقدّمهم يُعرف بابن الخُتَيْي العباسي، فاتفق أنّ ولده خرج بتصديد بضعية له، فأسره أحد التركمان، وهو صاحب حصن بنواحي حلب، وأرسله إلى شرف الدولة، فقررّ معه أن يسلم البلد إليه إذا أطلقه، فأجاب إلى ذلك، فأطلقه، فعاد إلى حلب، واجتمع بأبيه، وعرفه ما استقرّ، فاذعن إلى تسليم البلد، ونادى بشعار شرف الدولة، وسلم البلد إليه، فدخله سنة ثلاث وسبعين [وأربعمائة]، وحصر القلعة، واستنزل منها سابقاً ووثاباً ابني محمود بن مرداس، فلما ملك البلد أرسل ولده، وهو ابن عمّه السلطان، إلى السلطان يخبره بملك البلد، وأنفذ معه شهادة فيها خطوط المعدّكين بحلب بضمانها، وسأل أن يقرّر عليه الضمان، فأجابه السلطان إلى ما طلب، وأقطع ابن عمّه مدينة بالس.

ذكر مسير ملكشاه إلى كرمان

في أوّل هذه السنة سار السلطان ملكشاه إلى بلاد كرمان، فلما سمع صاحبها سلطانشاه بن قاووت بك، وهو ابن عمّ السلطان،

المصريون بقربه أجفلوا من بين يديه شبه المنهزمين، وخرج أقسيس إليه يلتقيه عند سور البلد، فاغتاز منه تُتُش حيث لم يعد في تلقّيه، وعاتبه على ذلك، فاعتذر بأمور لم يقبلها تُتُش، فقبض عليه في الحال، وقتله من ساعته، وملك البلد، وأحسن السيرة في أهله، وعدل فيهم.

قد ذكر ابن الهمداني وغيره من العراقيين أنّ ملك تُتُش دمشق كان هذه السنة، وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي في كتاب تاريخ دمشق أنّ ملكه إيّاه كان سنة اثنين وسبعين [وأربعمائة] (١١٢/١٠)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وُلد الملك بركيارق ابن السلطان ملكشاه.

وفيهما، في المحرم، وصل سعد الدولة كوهرايين إلى بغداد، وضُرب الطبل على باب داره، أوقات الصلوات، وكان قد طلب ذلك من قبل، فلم يُجب إليه لأنّه لم تجر به عادة.

وفيهما توفي سيف الدولة أبو النجم بدر بن ورام الكردي، الجاواني، في شهر ربيع الأول، ودُفن بطُسفونج.

وفي رجب توفي أبو عليّ بن البنا المقرّي الحنبلي، وله مصنفات كثيرة، وسُلم الجُوري بناحية جُور من دُجَيْل، وكان زاهداً، يعمل، ويأكل من كسبه، ولم يكلف أحداً حاجةً، وأقام بطُزّة من ديار بكر، وهي كثيرة الفواكه، فلم يأكل بها فاكهة البتّة. (١١٣/١٠)

سنة اثنين وسبعين وأربعمائة

ذكر فتوح إبراهيم صاحب غزنة في بلاد الهند

في هذه السنة غزا الملك إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سيكتكين بلاد الهند، فحصر قلعة أجود، وهي على مائة وعشرين فرسخاً من لُهاوور، وهي قلعة حصينة، في غاية الحصانة، كبيرة، تحوي عشرة آلاف رجل من المقاتلة، فقاتلوه، وصبروا تحت الحصر، وزحف إليهم غير مرة، فراوا من شدة حربه ما ملأ قلوبهم خوفاً ورعباً، فسلموا القلعة إليه في الحادي والعشرين من صفر هذه السنة.

وكان في نواحي الهند قلعة يقال لها قلعة رويال، على رأس جبل شاهق، وتحتها غياض أشيية، وخلفها البحر، وليس عليها قتال إلا من مكان ضيق، وهو مملوء بالقيّة المقاتلة، وبها من رجال الحرب الوف كثيرة، فتابع عليهم الوقائع، وألحّ عليهم بالقتال بجميع أنواع الحرب، وملك القلعة، واستنزلهم منها، وفي موضع يقال له دره نوره أقوام من أولاد الخراسانيين الذين جعل أجدادهم فيها أفراسياب التركي من قديم الزمان، ولم يتعرّض إليهم أحد من

بوصوله إليها خرج إلى طريقه ولقبه وحمل له الهدايا الكثيرة، وخدمه، وبالف في الخدمة، فأقره السلطان على البلاد، وأحسن إليه، وعاد عنه في المحرم سنة ثلاث وسبعين [وأربعمائة] إلى أصبهان. (١١٦/١٠)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وُلد للخليفة المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين ولد سمّاه موسى، وكانه أبا جعفر، وزيّنت بغداد سبعة أيام.

وفيها وصل السلطان ملكشاه إلى خوزستان متصديداً، فوصل معه خمართვეين وكوراثين [وكانا يسميان] في قتل ابن علان اليهودي، ضامن البصرة، وكان ملتجئاً إلى نظام الملك، وكان بين نظام الملك وبين خمართვეين الشرايين وكوراثين عداوة، فسعى باليهودي لذلك، فأمر السلطان بتغريقه فغرق، وانقطع نظام الملك عن الركوب ثلاثة أيام، وأغلق بابه، ثم أشير عليه بالركوب فركب، وعمل للسلطان دعوة عظيمة قدّم له فيها أشياء كثيرة، وعاتبه على فعله، فاعتذر إليه.

وكان أمر اليهودي قد عظم إلى حد أن زوجته توقيت، فمشى خلف جنازتها كل من في البصرة، إلا القاضي، وكان له نعمة عظيمة، وأموال كثيرة، فاخذ السلطان منه مائة ألف دينار، وضمن خمართვეين البصرة كل سنة بمائة ألف دينار ومائة فرس.

وفيها زادت [مياه] الفرات تسع أذرع، فخربت بعض دواليب هيت، وخربت فوهة نهر عيسى، وزادت تامةً ثيلاً وثلاثين ذراعاً، وعلا على قنطري طراستان وخانقين الكسرويتين فقطعهما.

وفيها، في ذي الحجة، توفي نصر بن مروان، صاحب ديار بكر، وملك (١١٧/١٠) بعده ابنه منصور، ودبر دولته ابن الأنباري.

وفيها توفي أبو منصور محمد بن عبد العزيز المكي، ومولده سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وهو من المحدثين المعروفين، وكان صدوقاً، ومحمد ابن هبة الله بن الحسن بن منصور أبو بكر بن أبي القاسم الطبري اللالكائي وُلد سنة تسع وأربعمائة، وحدث عن هلال الحفار وغيره، وتوفي في جمادى الأولى.

وفيها توفي أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيّوس الشاعر المشهور، وحدث عن جده، لأمه القاضي أبي نصر محمد بن هارون بن الجندي. (١١٨/١٠)

سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة

ذكر استيلاء تكش على بعض خراسان وأخذها منه

في هذه السنة، في شعبان، سار السلطان ملكشاه إلى الري، وعرض العسكر، فأسقط منهم سبعة آلاف رجل لم يرض حالهم،

فمضوا إلى أخيه تكش، وهو يوشنج، فقوي بهم، وأظهر العصيان على أخيه ملكشاه، واستولى على مرو الروذ، ومرو الشاهجان، وتريز، وغيرها، وسار إلى نيسابور طامعاً في ملك خراسان.

وقيل إن نظام الملك قال للسلطان لما أمر بإسقاطهم: إن هؤلاء ليس فيهم كاتب، ولا تاجر، ولا خياط، ولا من له صنعة غير الجندية، فإذا أسقطوا لا نأمن أن يقيموا منهم رجلاً ويقولوا هذا السلطان، فيكون لنا منهم شغل، ويخرج عن أيدينا أضعاف مالهم من الجاري إلى أن ننظر بهم. فلم يقبل السلطان قوله، فلما مضوا إلى أخيه وأظهر العصيان ندم على مخالفة وزيره حيث لم ينفع الندم.

واتصل خبره بالسلطان ملكشاه، فسار مجدداً إلى خراسان، فوصل إلى (١١٩/١٠) نيسابور قبل أن يستولي تكش عليها، فلما سمع تكش بقرية منها سار عنها، وتحصن بيزيد، وقصده السلطان، فحصره بها، وكان تكش قد أسر جماعة من أصحاب السلطان، فأطلقهم، واستقر الصلح بينهما، ونزل تكش إلى أخيه السلطان ملكشاه، ونزل عن بيزيد.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة تسلّم مؤيد الملك بن نظام الملك تكريت من صاحبها المهرباط.

وفيها توفي أبو علي بن ثبيل الشاعر المشهور، ومن شعره في الزهد:

أهم بترك النسب ثم يرثني طمّوح شبابي بالغرام مؤكّل
فمن لي إذا انحدرت ذا اليوم توبة بأن المتأبلي إلى الشب ثمهل
أعجز ضعفاً عن أذا حق خالقي وأحميل وزراً فوق ما يتحمل
وفيها أيضاً توفي العميد أبو منصور بالبصرة.

وفيها توفي عبد السلام بن أحمد بن محمد بن جعفر أبو الفتح الصوفي من أهل فارس، سافر الكثير، وسمع الحديث بالعراق، والشام، ومصر، وأصبهان وغيرها، وكانت وفاته بفارس؛ ويوسف بن الحسن بن محمد بن الحسن أبو الهيثم التفكري، الزنجاني، وُلد سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وسمع من أبي نعيم الحافظ وغيره، وتفقّ على أبي إسحاق الشيرازي وأدرك أبا الطيّب الطبري، وكان من العلماء العاملين، المشتغلين بالعبادة. (١٢٠/١٠)

سنة أربع وسبعين وأربعمائة

ذكر خطبة الخليفة ابنة السلطان ملكشاه

في هذه السنة أرسل الخليفة الوزير فخر الدولة أبا نصر بن جهمير إلى السلطان يخطب ابنته لنفسه، فسار فخر الدولة إلى

وفيها مات ابن السلطان ملكشاه، واسمه داود، فجزع عليه جزعاً شديداً، وحزن حزناً عظيماً، ومنع من أخذه وغسله، حتى تغيرت رائحته، وأراد قتل نفسه مرّات، فمنعه خواصه، ولمّا دُفِن لم يُطَقِ المقام، فخرج يتصيد، وأمر بالنيابة عليه في البلد، فعُفِّل ذلك عدّة أيام، وجلس له وزير الخليفة في العزاء ببغداد.

وفيها توفي عبد الله بن أحمد بن رضوان أبو القاسم، وهو من أعيان أهل بغداد، وكان مرضه شقيقة، وبقي ثلاث سنين في بيت مظلم لا يقدر يسمع صوتاً ولا يبصر ضوءاً.

وفيها، في ذي الحجة، توفي أبو محمد بن أبي عثمان المحدث، وكان صالحاً، يُقَرَأ القرآن بمسجده بنهر القلائين.

وتوفي علي بن أحمد بن علي أبو القاسم البُسرِيُّ البندار، ومولده سنة ست وثمانين وثلاثمائة، سمع المخلص وغيره، وكان ثقةً صالحاً.

وفيها توفي أبو إسحاق إبراهيم بن عُقَيْل بن حبش القرشي، النحوي. (١٢٣/١٠)

سنة خمس وسبعين وأربعمائة

ذكر وفاة جمال الملك بن نظام الملك

في هذه السنة، في رجب، توفي جمال الملك منصور بن نظام الملك، وورد الخبر بوفاته إلى بغداد في شعبان، فجلس أخوه مؤيد الملك للعزاء، وحضر فخر الدولة بن جُهير، وابنه عميد الملك، معزّين، وأرسل الخليفة إليه في اليوم الثالث فأقامه من العزاء.

وكان سبب موته أنّ مسخرةً كان للسلطان ملكشاه يُعرف بجعفر فكحاكي نظام الملك، ويذكره في خلواته مع السلطان، فبلغ ذلك جمال الملك، وكان يتولّى مدينة بُلخ وأعمالها، فسار من وقته يطوي المراحل إلي والده والسلطان، وهما بأصبهان، فاستقبله أخواه، فخر الملك ومؤيد الملك، فأغلظ لهما القول في إغضائهما على ما بلغه عن جعفر، فلمّا وصل إلى حضرة السلطان رأى جعفر كساره، فأنهزته وقال: مثلك يقف هذا الموقف، وينبسط بحضرة السلطان في هذا الجمع! فلمّا خرج من عند السلطان أمر بالقَبْض على جعفر، وأمر بإخراج لسانه من فقاؤه وقطعه فمات.

ثم سار مع السلطان وأبيه إلى خراسان، وأقاموا ببساوير مدّة، ثم أرادوا (١٢٤/١٠) العود إلى أصفهان، وتقدّمهم نظام الملك، فأحضر السلطان عميد خراسان، وقال له: أيّما أحبّ لك رأسك أم رأس جمال الملك؟ فقال: بل رأسي، فقال: لئن لم تعمل في قتله لأقتلنك، فاجتمع بخادم يختصّ بخدمة جمال الملك، وقال له سرّاً: الأولى أن تحفظوا نعمتكم، ومناصبكم، وتدبّر في قتل جمال

أصفهان، إلى السلطان يخطب ابنته، فأمر نظام الملك أن يمضي معه إلى خاتون زوجة السلطان في المعنى، فمضيا إليها فخطبها، فقالت إن ملك غزنة وملك الخاتبة بما وراء النهر طلبوها، وخطبوها لأولادهم، وبذلوا أربع مائة ألف دينار، فإن حمل الخليفة هذا المال فهو أحقّ منهم، فعرّفتها أرسلان خاتون التي كانت زوجة القائم بأمر الله ما يحصل لها من الشرف والفخر بالاتّصال بالخليفة، وأنّ هؤلاء كلّهم عبيده وخدمه، ومثل الخليفة لا يُطلب منه المال، فأجابته إلى ذلك، وشرطت أن يكون الحمل المعجل خمسين ألف دينار، وأنّه لا يبقّي له سرّيّة ولا زوجة غيرها، ولا يكون مبيته إلّا عندها، فأجيبته إلى ذلك، فأعطى السلطان يده، وعاد فخر الدولة إلى بغداد. (١٢١/١٠)

ذكر وفاة نور الدولة بن مُزَيْد وإمارة ولده منصور

في هذه السنة، في شوال، توفي نور الدولة أبو الأغر قتيّس بن عليّ ابن مُزَيْد الأسديّ بمطربا، وكان عمره ثمانين سنة، وإمارته سبعاً وخمسين سنة، وما زال مُدَحّاً في كلّ زمان مذكوراً بالتفصيل والإحسان، ورثاه الشعراء فاكثروا، وولّي بعده ما كان إليه ابنه أبو كامل منصور، ولقبه بهاء الدولة، فأحسن السيرة، واعتمد الجميل، وسار إلى السلطان ملكشاه في ذي القعدة، واستقرّ له الأمر، وعاد في صفر سنة خمس وسبعين [وأربعمائة]، وخلع الخليفة أيضاً عليه.

ذكر محاصرة تميم بن المعزّ مدينة قابس

في هذه السنة حصر الأمير تميم بن المعزّ بن باديس، صاحب إفريقية، مدينة قابس حصاراً شديداً، وضيق على أهلها، وعاث عساكره في بسائيتها المعروفة بالغاية، فافسدوها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة سار تمش، بعد عود شرف الدولة عن دمشق، وقصد الساحل الشاميّ، فافتتح أنطوطوس، وبعضاً من الحصون، وعاد إلى دمشق. (١٢٢/١٠)

وفيها ملك شرف الدولة، صاحب الموصل، مدينة حرّان، وأخذها من بني وثّاب النُميريين، وصالحه صاحب الرّها، ونقش السكّة باسمه.

وفيها سد ظفر القائيّ بقنّ نهر عيسى، وكان خراباً منذ ثلاث وعشرين سنة، وسدّ مراراً، وتخرّب إلى أن سدّه ظفر.

فيها أرسل السلطان إلى بغداد ليُخرَج الوزير أبو شعجاع الذي ورّر للخليفة بعد بني جُهير، فأرسله الخليفة إلى نظام الملك، وسير معه رسلاً، وكتب معه إلى نظام الملك كتاباً بخطّه، يأمره بالرضا عن أبي شعجاع، فرضى عنه وأعادته إلى بغداد.

الملك، فإنَّ السلطان يريد أن يأخذه ويقتله، ولأن تقاتلوه انتم سرّاً أصلح لكم من أن يقتله السلطان ظاهراً، فظنَّ الخادم أنَّ ذلك صحيح، فجعل له سماً في كوز ققاع، فطلب جمال الملك ققاعاً، فأعطاه الخادم ذلك الكوز، فشربه فمات، فلما علم السلطان بعمته سار مجذاً، حتَّى لحق نظام الملك، فأعلمه بموت ابنه، وعزَّاه، وقال: أنا ابنك، وأنت أولى من صبر واحتسب.

ذكر الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة

ورد إلى بغداد، هذه السنة، الشريف أبو القاسم البكري، المغربي، الواظظ وكان أشعري المذهب، وكان قد قصد نظام الملك، فأحبَّه ومال إليه، وسبَّره إلى بغداد، وأجرى عليه الجارية الوفرة، فوُظف بالمدرسة النظامية، وكان يذكر الحنابلة ويعيهم، ويقول ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، والله ما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا.

ثمَّ إنَّه قصد يوماً دار قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني بنهر القلائين، فجرى بين بعض أصحابه وبين قوم من الحنابلة مشاجرة أدت إلى الفتنة، وكثر (١٢٥/١٠) جمعه، فكبس دور بني الفراء، وأخذ كتبهم، وأخذ منها كتاب الصفات، لأبي يعلى، فكان يُقرأ بين يديه وهو جالس على الكرسي للوعظ، فيشنع به عليهم، وجرى له معهم خصومات وفتن، ولُقِّبَ البكري من الديوان بعلم السنة، ومات ببغداد، ودُفن عند قبر أبي الحسن الأشعري.

ذكر مسير الشيخ أبي إسحاق إلى السلطان في رسالة

في هذه السنة، في ذي الحجة، أوصل الخليفة المقتدي بأمر الله الشيخ أبا إسحاق الشيرازي إلى حضرته، وحمله رسالة إلى السلطان ملكشاه، ونظام الملك، تتضمن الشكوى من العميد أبي الفتح بن أبي الليث، عميد العراق، وأمره أن ينهي ما يجري على البلاد من النظر، فسار فكان كلما وصل إلى مدينة من بلاد العجم يخرج أهلها إليه بنسائهم وأولادهم يتمسحون بركابه، ويأخذون تراب بغلته للبركة.

وكان في صحبته جماعة من أعيان بغداد منهم الإمام أبو بكر الشاشي وغيره.

ولما وصل إلى ساوة خرج جميع أهلها، وسأله فقهاؤها كلَّ منهم أن يدخل بيته، فلم يفعل، ولقيه أصحاب الصناعات، ومعهم ما يثرونه على محفَّته، (١٢٦/١٠) فخرج الخبازون يثرون الخبز، وهو ينههم، فلم يتهوا، وكذلك أصحاب الفاكهة، والحلواء، وغيرهم، وخرج إليه الأساكفة، وقد عملوا مداسات لطافاً تصلح لأرجل الأطفال، ونثروها، فكانت تسقط على رؤوس الناس، فكان الشيخ يتعجب، ويذكر ذلك لأصحابه بعد رجوعه، ويقول: ما كان

ولما وصل الشيخ إلى بسطام خرج إليه السهلقي، شيخ الصوفية بها، وهو شيخ كبير، فلما سمع الشيخ أبو إسحاق بوصوله خرج إليه ماشياً، فلما رآه السهلقي ألقى نفسه من دابة كان عليها، وقبَّل يد الشيخ أبي إسحاق، فقَبَّل أبو إسحاق رجله، وأقعده موضعه، وجلس أبو إسحاق بين يديه، وأظهر كلَّ واحد منهما من تعظيم صاحبه كثيراً، وأعطاه شيئاً من حنطة ذكر أنَّها من عهد أبي يزيد البسطامي، ففرح بها أبو إسحاق.

ذكر حصر شرف الدولة دمشق وعوده عنها

في هذه السنة جمع تاج الدولة تَشَّ جمعاً كثيراً، وسار عن بغداد، وقصد بلاد الروم: أنطاكية وما جاورها، فسمع شرف الدولة، صاحب حلب (١٢٧/١٠) الخبر، فخافه، فجمع أيضاً العرب من عُقَيْل، والأكراد، وغيرهم، فاجتمع معه جمع كثير، فراسل الخليفة بمصر يطلب منه إرسال نجدة إليه ليحصر دمشق، فوعده ذلك فسار إليها، فلما سمع تَشَّ الخبر عاد إلى دمشق، فوصلها أوَّل المحرم سنة ست وسبعين [وأربعمائة]، ووصل شرف الدولة أواخر المحرم، وحصر المدينة وقتله أهلها.

وفي بعض الأيام خرج إليه عسكر دمشق وقتلوه، وحملوا على عسكره حملة صادقة، فأنكسفوا وتضعفوا، وانهمزت العرب، وثبت شرف الدولة، وأشرف على الأسر، وتراجع إليه أصحابه، فلما رأى شرف الدولة ذلك ورأى أيضاً أنَّ مصرَ لم يصل إليه منها عسكر، وأثناء عن بلاده الخبر أنَّ أهل حرَّان عصَّوا عليه رحل عن دمشق إلى بلاده، وأظهر أنَّه يريد البلاد بفلسطين فرحل أوَّلًا إلى مَرْج الصُّفَر، فارتاع أهل دمشق وتَشَّ واضطربوا، ثمَّ إنَّه رحل من مَرْج الصُّفَر مشرقاً في البرية وجدَّ في مسيره، فهلك من المواشي الكثير مع عسكره، ومن الدوابَّ شيء كثير، وانقطع خلق كثير.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قدم مؤيد الملك بن نظام الملك إلى بغداد من أصبهان، فخرج عميد الدولة بن جُهير إلى لقائه، ونزل بالمدرسة النظامية، وضرب على بابه (١٢٨/١٠) الطبول، أوقات الصلوات الثلاث، فأعطى مالا جليلاً حتَّى قطعه، وأرسل الطبول إلى تكريت.

فانهل أسرابُ الدُمُوعِ كأنها يَنحُ يابغها ظهيرُ الدِّينِ
(١٣١/١٠)

ذكر قتل أبي المحاسن بن أبي الرضا

في هذه السنة، في شوال، قُتل سيّد الرُؤساء أبو المحاسن بن كمال الملك أبي الرضا، وكان قد قرب من السلطان ملكشاه قريباً عظيماً، وكان أبوه يكتب الطغراء، فقال أبو المحاسن للسلطان: سلّم إليّ نظام الملك وأصحابه، وأنا أسلّم إليك منهم ألف ألف دينار، فإنهم ياكلون الأموال، ويقطعون الأعمال؛ وعظم عنده ذخائرهم.

فبلغ ذلك نظام الملك، فعمل سيماطاً عظيماً، وأقام عليه مماليكه، وهم ألف من الأتراك، وأقام خيلهم وسلاحهم على حيالهم، فلما حضر السلطان قال له: إنني قد خدمتك، وخدمتُ أباك وجدك، ولي حقّ خدمة، وقد بلغك أخذي لغير أموالك، وصدق هذا، أنا أخذه وأصرفه إلى هؤلاء الغلمان الذين جمعتهم لك، وأصرفه أيضاً إلى الصدقات، والصلوات، والوقوف التي أعظم ذكرها، وشكرها، وأجرها لك، وأموالي، وجميع ما أملكه بين يديك، وأنا أقتع بمرقعة زواوية، فأمر السلطان بالقبض على أبي المحاسن وأن تسلم عيناه، وأنفذه إلى قلعة ساوة.

وسمع أبوه كمال الملك الخبر، فاستجار بدار نظام الملك، فسلم، وبذل مائتي ألف دينار، وغُزل عن الطغراء، ورُتب مكانه مؤيّد الملك بن نظام الملك. (١٣٢/١٠)

ذكر استيلاء مالك بن غلوي على القيروان وأخذها منه

في هذه السنة جمع مالك بن غلوي الصخريّ العرب فاكثراً، وسار إلى المهديّة فحصرها، فقام الأمير تميم بن المعزّ قياً تاماً، ورحله عنها، ولم يظفر منها بشيء، فسار مالك منها إلى القيروان فحصرها وملكها، فجرد إليه تميم العساكر العظيمة، فحصره بها، فلما رأى مالك أنه لا طاقة له بتميم خرج عنها وتركها، فاستولى عليها عسكر وعادت إلى ملكه كما كانت.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عمّ الرخص جميع البلاد، فبلغ كرّ الحنطة الجيدة ببغداد عشرة دنانير.

وفيها، في جمادى الآخرة، توفي الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وأكثر الشعراء مراثيه، فمتهم أبو الحسن الخباز، والتبتيجي، وغيرهما، وكان، رحمة الله عليه، واحد عصره علماً وزهداً وعبادة وسخاء، وصُلّي عليه في جامع القصر، وجلس أصحابه للجزاء في المدرسة النظامية ثلاثة أيام، ولم يتخلّف أحدٌ عن الغزاء.

وفيها توفي أبو عمرو عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن مندة، الأصهباني، في جمادى الآخرة، بأصبهان، وكان حافظاً فاضلاً، والأمير أبو نصر عليّ ابن الوزير أبي القاسم هبة الله بن عليّ بن جعفر بن ماکولا، مصنف كتاب الإكمال، ومولده سنة عشرين وأربعمائة، وكان فاضلاً حافظاً، قتله مماليكه الأتراك بكرمان، وأخذوا ماله. (١٢٩/١٠)

سنة ست وسبعين وأربعمائة

ذكر عزل عميد الدولة بن جُهير عن وزارة الخليفة ومسير والده

فخر الدولة إلى ديار بكر

في هذه السنة، في صفر، عُزل عميد الدولة بن جُهير عن وزارة الخليفة، ووصل يوم عُزل رسول من السلطان، ونظام الملك، إلى الخليفة بطلان أن يُرسل إليهما بنو جُهير، فأذن لهما في ذلك، وساروا بجميع أهلهم ونسائهم إلى السلطان، فصادفوا منه، ومن نظام الملك، الإكرام والاحترام، وعقد السلطان على فخر الدولة بن جُهير ديار بكر، وخلع عليه، وأعطاه الكوسات، وسير معه العساكر، وأمره أن يقصدها ويأخذها من بني مروان، وأن يخطب لنفسه، ويذكر اسمه على السكة، فسار إليها.

ولما فارق بنو جُهير بغداد رُتب في الديوان أبو الفتح المظفر ابن رئيس الرُؤساء، وكان قبل ذلك على أبنية الدار وغيرها.

ذكر عصيان أهل حرّان على شرف الدولة وفتحها

في هذه السنة عصى أهل حرّان على شرف الدولة مُسلم بن قُريش، وأطاعوا قاضيه ابن حلبة، وأرادوا هم وابن عَطِيّ التُميريّ تسليم البلد إلى (١٣٠/١٠) جُبَيْنق، أمير التركمان، وكان شرف الدولة على دمشق، يحاصر تاج الدولة تُشّ بها، فبلغه الخبر، فعاد إلى حرّان وصالح ابن مُلاعب، صاحب جِمص، وأعطاه سَلَمِيّة ورَفِيّة، وبادر بالمسير إلى حرّان، فحصرها، ورماها بالينجنيق، فخرب من سورها بدنة، وفتح البلد في جمادى الأولى، وأخذ القاضي ومعه ابنان له، فصلبهم على السور.

ذكر وزارة أبي شجاع محمد بن الحسين للخليفة

في هذه السنة عزل الخليفة أبا الفتح ابن رئيس الرُؤساء من النيابة في الديوان، واستوزر أبا شجاع محمد بن الحسين، وخلع عليه خلع الوزارة في شعبان، ولقيّه ظهير الدين، ومدحه الشعراء فأكثروا، فممن مدحه وهنّاه أبو المظفر محمد بن العباس الأبيورديّ بالقصيدة المشهورة التي أولّها:

ها إنَّها مقلّ الطُّبَّاء العين فككت بِسِرِّ قُواديّ المكنون

ومنها:

خليفة السُّنْبُسيُّ يذكر ذلك في قصيدة:

كما أحرزت شكر بني عُقَيْلٍ بأيديهم كَفَّلَهُمُ الجِنْدَارُ
غداة رَمَتْهُمُ الأتراك طَرّاً بشهبٍ في خوافيلها أزورارُ
فما جئوا، ولكن فاض بحرُ عظيمٍ لا تقاومُه البحارُ
فحين تَازَلُوا تحت المَنايا، وفيهِنَّ الرِّزَاةُ والذُّمارُ
متت عليهم، وفككت عنهم، وفي أثناء حيلهم انتشارُ
ولولا أنت لم يَفُكْ منهم أميرٌ، حين أغلقت الإِسمارُ

في أبيات كثيرة، وذكرها أيضاً البندنجي فأحسن، ولولا خوف
التطويل لذكرت أبياته. (١٣٦/١٠)

ذكر استيلاء عميد الدولة على الموصل

لما بلغ السلطان أنَّ شرف الدولة انهزم وحُصر بأيدٍ لم يشك
في أمره، فخلع على عميد الدولة بن جُهير، وسيرَ في جيش كثيفٍ
إلى الموصل، وكاتب أمراء التركمان بطاعته، وسيرَ معه من الأمراء
أَقْسَنَرُ، قسيم الدولة، جدُّ ملوكنا أصحاب الموصل، وهو الذي
أقطعهُ السلطان بعد ذلك حلب.

وكان الأمير أُرْتُقُ قد قصد السلطان، فعاد صحبة عميد الدولة
من الطريق، فسار عميد الدولة حتَّى وصل إلى الموصل، فأرسل
إلى أهلها يشير عليهم بطاعة السلطان وترك عصيانه، ففتحوا له
البلد وسَلَّمُوهُ إليه، وسار السلطان بنفسه وعساكره إلى بلاد شرف
الدولة ليملكها، فأتاه الخبر بخروج أخيه تكش بخراسان، على ما
نذكره.

ورأى شرف الدولة قد خلص من الحصر، فأرسل مؤيدَ الملك
بن نظام الملك إلى شرف الدولة، وهو مقابل الرحبة، فأعطاه
العهود والمواثيق، وأحضره عند السلطان، وهو بالبوازيج، فخلع
عليه آخر رجب، وكانت أمواله قد ذهبت فاقترض ما خدم به،
وحمل للسلطان خيلاً راقية، من جملتها فرسه بشار، وهو فرسه
المشهور الذي نجا عليه من المعركة، ومن أيدٍ أيضاً، وكان سابقاً
لا يُجارى، فأمر السلطان بأن يسابق به الخيل، فجاء سابقاً، فقام
السلطان قائماً لما تدخله من العجب.

وأرسل الخليفة النقيب طراداً الزيني في لقاء شرف الدولة،
فلقبه بالموصل، (١٣٧/١٠) فزاد أمر شرف الدولة قوَّةً، وصالحه
السلطان، وأقره على بلاده، وعاد إلى خراسان لحرب أخيه.

ذكر عصيان تكش على أخيه السلطان ملكشاه

قد تقدَّم ذكره، وذكر مصالحته للسلطان، فلما كان الآن، ورأى
بُعد السلطان عنه عاود العصيان، وكان أصحابه يؤثرون الاختلاط،
فحسَّوا له مفارقة طاعة أخيه، فأجابهم، وسار معهم، فملك مرو
الروذ وغيرها إلى قلعة تقارب سَرَخَسَ وهي لمسعود ابن الأمير

وكان مؤيد الملك بن نظام الملك ببغداد، فرتَّب في التدريس
أبا سعد عبد الرحمن بن المأمون المتولِّي، فلما بلغ ذلك نظام
الملك أنكره، وقال: كان (١٣٣/١٠) يجب أن تُغلَق المدرسة بعد
الشيخ أبي إسحاق سنة، وصُلِّي عليه بياب الفردوس، وهذا لم
يُفعل على غيره، وصُلِّي عليه الخليفة المقتدي بأمر الله، وتقدَّم في
الصلاة عليه أبو الفتح ابن رئيس الرؤساء، وهو ينوب في الوزارة،
ثم صُلِّي عليه بجوامع القصر، ودُفن بياب أبرز. (١٣٤/١٠)

سنة سبع وسبعين وأربعمائة

ذكر الحرب بين فخر الدولة بن جُهير وابن مروان وشرف الدولة

قد تقدَّم ذكر مسير فخر الدولة بن جُهير في العساكر السلطانية
إلى ديار بكر، فلما كانت هذه السنة سَير السلطان إليه أيضاً جيشاً
فيهم الأمير أُرْتُقُ بن اكسب، وأمرهم بمساعدته.

وكان ابن مروان قد مضى إلى شرف الدولة وسأله نصرته على
أن يسَلِّمَ إليه أيدٍ، وحلف كل واحد لصاحبه، وكل منهما يرى أنَّ
صاحبه كاذبٌ لما كان بينهما من العداوة المستحكمة، واجتمعا
على حرب فخر الدولة، وسارا إلى أيدٍ، وقد نزل فخر الدولة
بنواحيها، فلما رأى فخر الدولة اجتماعهما مال إلى الصُّلح، وقال:
لا أوتر أن يحلَّ بالعرب بلاء على يدي، فعصر التركمان ما عزم
عليه، فركبوا ليلاً وأتوا إلى العرب وأحاطوا بهم في ربيع الأوَّل،
والتحم القتال واشتدَّ، فانهزمت العرب، ولم يحضر هذه الوقعة
الوزير فخر الدولة، ولا أُرْتُقُ، وغنم التركمان حُلل العرب
ودوابهم، وانهزم شرف الدولة، وحمل نفسه حتَّى وصل إلى فصيل
أيدٍ، وحصره فخر الدولة ومن معه. (١٣٥/١٠)

فلما رأى شرف الدولة أنَّه محصورٌ خاف على نفسه، فإرسل
الأمير أُرْتُقُ، وبذل له مالاً، وسأله أن يَمَنَّ عليه بنفسه، ويمكنه من
الخروج من أيدٍ، وكان هو على حفظ الطُّرُق والحصار، فلما سمع
أُرْتُقُ ما بذل له شرف الدولة أذن له في الخروج، فخرج منها في
الحادي والعشرين من ربيع الأوَّل، وقصد الرِّقَّة، وأرسل إلى أُرْتُقُ
بما كان وعده به، وسار ابن جُهير إلى مِيفَارِقِينَ، ومعه من الأمراء
الأمير بهاء الدولة منصور بن مَزِيد، وابنه سيف الدولة صدقة،
ففارقه وعادوا إلى العراق، وسار فخر الدولة إلى خيلاط.

ولما استولى العسكر السلطاني على حُلل العرب، وغنموا
أموالهم، وسبوا حريمهم، بذل سيف الدولة صدقةً بن منصور بن
مَزِيد الأموال، وافتك أسرى بني عُقَيْل ونساءهم وأولادهم
وجهزهم جميعهم وردهم إلى بلادهم، ففعل امرأ عظيمًا، وأسدى
مكرمة شريفة، ومدحه الشعراء في ذلك فأكثروا، فمنهم محمد بن

ياخز، وقد حصَّتها جهَّده، فحصره بها، ولم يبق غير أخذها منه. فاتَّفَقَ أَبُو الفَتْوح الطُّوسِيُّ، صاحب نظام الملك، وهو بَنَسَابُور، وعميد خُرَاسان، وهو أَبُو عَلِيٍّ، على أن يكتب أَبُو الفَتْوح مَلَطْفًا إلى مسعود بن ياخز، وكان خطُّ أَبِي الفَتْوح أشبه شيء بخط نظام الملك، يقول فيه: كُتِبَتْ هذه الرقعة من الرُّيِّ يوم كذا، ونحن سائرون من الغد نحوك، فاحفظ القلعة، ونحن نكس العدو في ليلة كذا، واستدعيا فَيُجَايِثُون به، وأعطاه دنائير صالحة، وقالوا: مِرْ نحو مسعود، فإذا وصلت إلى المكان الفلاني فأَومِ به ونم وأخفِ هذا المَلَطْفَ في بعض حيطانه، فستأخذك طلائع تكش، فلا تعترف لهم حتَّى يضرُّوك، فإذا فعلوا ذلك وبالفِعل فآخِرجه لهم وقُلْ إِنَّكَ فارقت السلطان بالرُّيِّ، ولك منَّا الجِفاء والكرامة.

ولمَّا ملك سليمان أنطاكية أرسل إلى السلطان ملكشاه يبشِّره بذلك، وينسب هذا الفتح إليه لأنَّه من أهله، وممَّن يتولَّى طاعته، فأظهر ملكشاه البشارة به، وهنَّاهُ الناس، فمَمَّن قال فيه الأبيوردِّي من قصيدة مطلعها:

لَمَعَتْ كَنَاصِيَةُ الجِصَّانِ الأَصْفَرِ نَسَارٌ بِمُعْتَلِجِ الكَوَّسِ الأعْفَرِ
وَفُتِحَتْ أنطاكيَّةُ الرومِ التي نَشَرَتْ مُعَاوِلَهَا على الإسكندرِ
وِطِنَتْ مَنَازِلَهَا جِبالَكَ، فَانْتَشَتْ تَلَقِي أَجْنَتَهَا بِنَاتِ الأَصْفَرِ
وهي طويلة.

ذكر قتل شرف الدولة وملك أخيه إبراهيم

قد تقدَّم ذكر مُلْك سليمان بن قُتْلُمُش مدينة أنطاكية، فلمَّا ملكها أرسل إليه شرف الدولة مُسلم بن قُرَيْش يطلب منه ما كان يحمله إليه الفردوس من المال، ويخوفه معصية السلطان، فأجابه:

أُمَّا طاعة السلطان، فهي شعاري، ودثاري، والخطبة له، والسكَّة في بلادي، وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته من هذا البلد، وأعمال الكُفَّار. (١٤٠/١٠)

وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي، فهو كان كافرًا، وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه، وأنا بحمد الله مؤمن، ولا أحمل شيئًا، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية، فنهب سليمان أيضًا بلد حلب، فلقبه أهل السواد يشكون إليه نهب عسكره، فقال:

أنا كنتُ أشدَّ كراهيةً لما يجري، ولكنَّ صاحبكم أحوجني إلى ما فعلتُ ولم تجر عادتي بنهب مال مسلم، ولا أخذ ما حرَّمته الشريعة، وأمر أصحابه بإعادة ما أخذوه منهم فأعاده.

ثم إنَّ شرف الدولة جمع الجموع من العرب والتركمان، وكان ممَّن معه جبق أمير التركمان في أصحابه، وسار إلى أنطاكية ليحصرها، فلمَّا سمع سليمان الخبر جمع عساكره وسار إليه، فالتقيا في الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة في طرف من أعمال أنطاكية، واقتتلوا، فمال تركمان جبق إلى سليمان فانهمزت العرب، وتبعهم شرف الدولة منهزمًا، فقتل بعد أن صبر، وقتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وكان قتله يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين [وأربعمائة] وذكرته هاهنا لتتبع الحادثة بعضها بعضًا.

وكان أحول، وكان قد ملك من السندية التي على نهر عيسى إلى مَنبِج من الشام، وما والاها من البلاد، وكان في يده ديار ربيعة

ففعل ذلك، وجرى الأمر على ما وصفنا، وأحضر بين يدي تكش وضرب، وعرض على القتل، فأظهر المَلَطْفَ وسلَّمه إليهم، وأخبرهم (١٣٨/١٠) أنَّه فارق السلطان ونظام الملك بالرُّيِّ في العساكر، وهو سائر، فلمَّا وقفوا على المَلَطْفَ، وسمعوا كلام الرجل، ساروا من وقتهم، وتركوا خيامهم ودوابهم، والقنودور على النار، فلم يصبروا على ما فيها، وعادوا إلى قلعة وَنَج، وكان هذا من الفرج العجيب، فنزل مسعود وأخذ ما في المعسكر، وورد السلطان إلى خُرَاسان بعد ثلاثة أشهر، ولولا هذا الفعل لنهب تكش إلى باب الرُّيِّ.

ولمَّا وصل السلطان قصد تكش وأخذه، وكان قد حلف له بالآيمان أنَّه لا يؤذيه، ولا يناله منه مكروه، فأفاته بعض من حضر بأن يجعل الأمر إلى ولده أحمد، ففعل ذلك، فأمر أحمد بكحله، فكحل وسجن.

ذكر فتح سليمان بن قُتْلُمُش أنطاكية

في هذه السنة سار سليمان بن قُتْلُمُش، صاحب قونية وأقصر وأعمالها من بلاد الروم، إلى الشام، فملك مدينة أنطاكية من أرض الشام، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وسبب ملك سليمان المدينة أنَّ صاحبها الفردوس الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم، ورَتَّبَ بها شحنة، وكان الفردوس مُسَيِّئًا إلى أهلها وإلى جنده أيضًا، حتَّى إنَّه حبس ابنه، فاتَّفَقَ ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان بن قُتْلُمُش، وكتابته يستدعونه، فركب البحر في ثلاثمائة فارس وكثير من الرِّجَالِ، وخرج منه، وسار في جبال وعرة، ومضايق شديدة، حتَّى (١٣٩/١٠) وصل إليها للموعود، فنصب السلايم، باتَّفَاق من الشحنة ومن معه، وصعد السور، واجتمع بالشحنة وأخذ البلد في شعبان، فقاتله أهل البلد، فهزمهم مرَّةً بعد أخرى، وقتل كثيرًا من أهلها، ثم عفا عنهم، وتسَلَّمَ القلعة المعروفة بالقُسيان، وأخذ من

قوي شأنه، وعظم ملكه، وكثرت عساكره، منذ تفرقت بلاد الأندلس، وصار كل بلد بيد ملك، فصاروا مثل ملوك الطوائف، فحينئذ طمع الفرنج فيهم، وأخذوا كثيراً من ثغورهم.

وكان قد خدم قبل ذلك صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى بن ذي النون، وعرف من أين يؤتى البلد، وكيف الطريق إلى ملكه، فلما كان الآن جمع الأذقوش عساكره وسار إلى مدينة طليطلة فحصرها سبع سنين، وأخذها من القادر، فإزداد قوة إلى قوته.

وكان المعتمد على الله أبو عبد الله محمد بن عبد الله أعظم ملوك الأندلس من المسلمين، وكان يملك أكثر البلاد مثل: قرطبة وإشبيلية، وكان يؤدي إلى الأذقوش ضريبة كل سنة، فلما ملك الأذقوش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة على عادته، فردّها عليه ولم يقبلها منه، فأرسل إليه يتهدده ويتوعده أنه يسير إلى مدينة قرطبة ويتملكها إلا أن يسلم إليه جميع الحصون التي في الجبل، ويبقى السهل للمسلمين، وكان الرسول في جمع كثير كانوا خمسمائة (١٤٣/١٠) فارس، فأنزله محمد بن عبد الله، وفرّق أصحابه على قواد عسكره، ثم أمر كل من عنده منهم رجل أن يقتله، وأحضر الرسول وصفه حتى خرجت عيناه، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأذقوش فأخبروه الخبر، وكان متوجّهاً إلى قرطبة ليحاصرها، فلما بلغه الخبر عاد إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار، ورحل المعتمد إلى إشبيلية.

ذكر استيلاء ابن جُهير على آيد

في المحرم من هذه السنة ملك ابن جُهير مدينة آيد.

وسبب ذلك أن فخر الدولة بن جُهير كان قد أنفذ إليها ولده زعيم الرؤساء أبا القاسم، ومعه جناح الدولة، المعروف بالمقدم السالار، وأرادوا قلع كرومها وبساتينها، ولم يطمع مع ذلك في فتحها لحصانتها، فعَمَّ أهلها الجوع، وتعدّرت الأقوات، وكادوا يهلكون، وهم صابرون على الحصار، غير مكتثرين له.

فاتَّفَقَ أن بعض الجند نزل من السور لحاجة لهم، وتركوا أسلحتهم مكانها، فصعد إلى ذلك المكان عدد من العامة تقدّمهم رجل من السواد يُعرف بأبي الحسن، فلبس السلاح، ووقف على ذلك المكان، ونادى بشعار السلطان، وفعل من معه كفعله، وطلبوا زعيم الرؤساء، فأتاهم، وملك البلد، واتَّفَقَ أهل المدينة على نهب بيوت النصارى لما كانوا يلقون من نواب بني مروان من الجور والحكم، وكان أكثرهم نصارى، فانتقموا منهم. (١٤٤/١٠)

ذكر ملكه أيضاً ميثاقين

وفي هذه السنة أيضاً، في سادس جمادى الآخرة، ملك فخر

ومُضِر من أرض الجزيرة والموصل وحلب، وما كان لأبيه وعمّه قرواش، وكان عادلاً حسن السيرة، والأمن في بلاده عام، والرخص شامل، وكان يسوس بلاده سياسة عظيمة بحيث يسير الراكب والراكبان فلا يخافان شيئاً، وكان له في كل بلد قرية عامل، وقاض، وصاحب خبر، بحيث لا يتعدّى أحد على أحد. (١٤١/١٠)

ولما قُتل قصد بنو عُقيل أخاه إبراهيم بن قُريش، وهو مجبوس، فأخرجوه وملكوه أمرهم، وكان قد مكث في الحبس سنين كثيرة بحيث أنه لم يمكنه المشي والحركة لمّا أُخرج؛ ولما قُتل شرف الدولة سار سليمان بن قتلمش إلى حلب فحصرها مستهل ربيع الأول سنة ثمان وسبعين [وأربعمائة]، فأقام عليها إلى خامس ربيع الآخر من السنة، فلم يبلغ منها غرضاً، فرحل عنها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، انقضى كوكب من المشرق إلى المغرب، كان حجمه كالقمر وضوؤه كضوؤه، وسار مدى بعيداً على مهل وتؤدّة في نحو ساعة، ولم يكن له شبيه من الكواكب.

وفيها وُلد السلطان سنجرُ بن ملكشاه في الخامس والعشرين من رجب، بمدينة سنجار من أرض الجزيرة مقارب الموصل بينهما يومان، عند نزول السلطان بها، وسماه أحمد، وإنما قيل له سنجرُ باسم المدينة التي وُلد فيها، وأمه أم ولد.

وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، توفي الشيخ أبو نصر عبد السيّد بن محمد بن عبد الواحد بن الصّبّاح، الفقيه الشافعي، صاحب الشامل والكمال، وكفاية المسائل وغيرها من التصنيف، بعد أن أضرّ عدة سنين، وكان مولده سنة أربعمائة؛ والقاضي أبو عبد الله الحسين بن عليّ البغدادي المعروف بابن البقال، وهو من شيوخ أصحاب الشافعي، وكان إليه القضاء بباب الأزج، وحجّ لمّا انقطع الحجّ على سبيل التجريد؛ وإسماعيل بن مسعدة بن إسماعيل ابن أحمد بن إبراهيم أبو القاسم الإسماعيلي، الجرجاني، ومولده سنة أربع وأربعمائة، وكان إماماً فقيهاً شافعيّاً، محدثاً، أديباً، وداره مجمع العلماء، (١٤٢/١٠)

سنة ثمان وسبعين وأربعمائة

ذكر استيلاء الفرنج على مدينة طليطلة

في هذه السنة استولى الفرنج، لنعمهم الله، على مدينة طليطلة من بلاد الأندلس، وأخذوها من المسلمين، وهي من أكبر البلاد وأحسنها.

وسبب ذلك أن الأذقوش، ملك الفرنج بالأندلس، كان قد

الدولة ميفارقين، وكان مقيماً على حصارها، فوصل إليه سعد الدولة كوهرايين في عسكره نجدة له، فجدّ في القتال فسقط من سورها قطعة، فلما رأى أهلها ذلك نادوا بشعار ملكشاه، وسلّموا البلد إلى فخر الدولة وأخذ جميع ما استولى عليه من أموال بني مروان وأنفذه إلى السلطان مع ابنه زعيم الرؤساء، فأنحدر هو وكوهرايين إلى بغداد، وسار زعيم الرؤساء منها إلى أصبهان، فوصلها في شوال، وأوصل ما معه إلى السلطان.

ذكر ملك جزيرة ابن عمر

في هذه السنة أرسل فخر الدولة جيشاً إلى جزيرة ابن عمر، وهي لبني مروان أيضاً، فحصرها، فثار أهل بيت من أهلها يقال لهم بنو وهبان، وهم من أعيان أهلها، وقصدوا باباً للبلد صغيراً يقال له باب البوينة لا يسلكه إلا الرجالة لأنه يُصعد إليه من ظاهر البلد بدرج، فكسروه، وأدخلوا العسكر، فملكه، وانقرضت دولة بني مروان، فسبحان من لا يزول ملكه.

وهؤلاء بنو وهبان، إلى يومنا هذا، كلما جاء إلى الجزيرة من يحصرها يخرجون من البلد، ولم يبق منهم من له شوكة، ولا منزلة يفعل بها شيئاً، وإنما بتلك الحركة يؤخذون إلى الآن. (١٤٥/١٠)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، وصل أمير الجيوش في عساكر مصر إلى الشام، فحصر دمشق، وبها صاحبها تاج الدولة تثنش، فضيق عليه، وقتله، فلم يظفر منها بشيء، فرحل عنها عائداً إلى مصر.

وفيها كانت الفتنة بين أهل الكرخ وسائر المحال من بغداد، وأحرقوا من نهر الدجاج درب الأجر، وما قاربه، وأرسل الوزير أبو شجاع جماعة من الجند، ونهاهم عن سفك الدماء تخرجاً من الإثم، فلم يمكنهم تلافي الخطب فعظم.

وفيها كانت زلزلة شديدة بخوزستان وفارس، وكان أشدها بأرجان، فسقطت الدور، وهلك تحتها خلق كثير.

وفيها، في ربيع الأول، هاجت ريح عظيمة سوداء بعد العشاء، وكثر الرعد والبرق، وسقط على الأرض رمل أحمر وتراب كثير، وكانت النيران تضطرم في أطراف السماء، وكان أكثرها بالعراق وبلاد الموصل، فألقت النخيل والأشجار وسقط معها صواعق فسي كثير من البلاد، حتى ظن الناس أنّ القيامة قد قامت، ثم اتجلى ذلك نصف الليل.

وفيها، في ربيع الآخر، توفي إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، ومولده سنة سبع عشرة وأربعمائة، وهو الإمام المشهور في الفقه والأصولين وغيرهما من

العلوم، وسمع الحديث من أبي محمد الجوهري وغيره. وفيها، في ذي الحجة، توفي محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد (١٤٦/١٠) ابن الوليد أبو علي المتكلم، كان أحد رؤساء المعتزلة وأئمتهم، ولزم بيته خمسين سنة لم يقدر على أن يخرج منه من عامة بغداد، وأخذ الكلام عن أبي الحسين البصري وعبد الجبار الهمداني القاضي، ومن جملة تلاميذه ابن برهان، وهو أكبر منه.

وفي هذه السنة توفي القاضي أبو الحسن هبة الله بن محمد بن السي، قاضي الحریم، بنهر معلی، ومولده سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، وكان يذاكر الإمام المقتدي بامر الله، ووليّ ابنه أبو الفرج عبد الوهاب بين يديّ قاضي القضاة ابن الدماغاني.

وفيها، في جمادى الأولى، توفي أبو العز بن صدقة، وزير شرف الدولة، ببغداد، وكان قد قبض عليه شرف الدولة وسجنه بالرحبة، فهرب منها إلى بغداد، فمات بعد وصوله إلى مأمنه بأربعة أشهر، وكان كريماً متواضعاً لم يغيّر الولاية عن إخوانه.

وفيها، في رجب، توفي قاضي القضاة أبو عبد الله بن الدماغاني، ومولده سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، ودخل بغداد سنة تسع عشرة وأربعمائة، وكان قد صحب القاضي أبا العلاء بن صاعد، وحضر ببغداد مجلس أبي الحسين القدوري، وولي قضاء القضاة بعده القاضي أبو بكر بن المظفر بن بكران الشامي، وهو من أكبر أصحاب القاضي أبي الطيب الطبري.

وفيها توفي عبد الرحمن بن مأمون بن علي أبو سعد المتولي مدرّس النظامية، وهو من أصحاب القاضي حسين المرورودي وتّم كتاب الإبانة. (١٤٧/١٠)

سنة تسع وسبعين وأربعمائة

ذكر قتل سليمان بن قُلميش

لما قتل سليمان بن قُلميش شرف الدولة مُسلم بن قُريش على ما ذكرناه، أرسل إلى ابن الحُثيّتي العبّاسي، مقدّم أهل حلب، يطلب منه تسليمها إليه، فأثذّب إليه، واستمهله إلى أن يكاتب السلطان ملكشاه، وأرسل ابن الحُثيّتي إلى تثنش، صاحب دمشق، بعده أن يسلم إليه حلب، فثار تثنش طالباً لحلب، فعلم سليمان بذلك، فسار نحوه مجذّباً، فوصل إلى تثنش وقت السحر على غير تَعَبَةٍ، فلم يعلم به حتّى قرب منه، فعبا أصحابه.

وكان الأمير أرتق بن أكسب مع تثنش، وكان منصوراً لم يشهد حرباً إلّا وكان الظفر له، وقد ذكرنا فيما تقدّم حضوره مع ابن جُهير على أيّد، وإطلاقه شرف الدولة من أيّد، فلما فعل ذلك خاف أن

عسكر السلطان، وقال إني قد وصلوا، وبمهم وبدوا بهم من التعب ما ليس عندهم معه امتناع؛ ولو فعل لظفر بهم.

فقال تثنى: لا أكسبُ جاة أخِي الذي أنا مستظلّ بظله، فإنه يعود بالوهن عليّ أولاً.

وسار إلى دمشق، ولَمَّا وصل السلطان إلى حلب تسلّم المدينة، وسلّم إليه سالم بن مالك القلعة على أن يعرضه عنها قلعة جَعْبَر، وكان سالم قد امتنع بها أولاً، فأمر السلطان أن يُرمى إليه رشقاً واحداً بالسهم، فرمى الجيش، فكادت الشمس تحتجب لكثرة السهام، فصانع عنها بقلعة جَعْبَر وسلّمها، وسلّم السلطان إليه قلعة جَعْبَر، فبقيت بيده ويبد أولاده إلي أن أخذها منهم نور الدين محمود بن زنكي، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأرسل إليه الأمير نصر بن عليّ بن مُنْقذ الكنانيّ، صاحب شَيْزَر، فدخل في طاعته، وسلّم إليه اللاذقيّة، وكَفَرطاب، وأقاميّة، فأجابه إلى (١٥٠/١٠) المسالمة، وترك قصده، وأقرّ عليه شَيْزَر.

ولَمَّا ملك السلطان حلب سلّمها إلى قسيم الدولة أَسْفَر، فعرها، وأحسن السيرة فيها.

وأما ابن الحُتَيْتِيّ فإنه كان وثاقاً بإحسان السلطان ونظام الملك إليه، لأنّه استدعاهما، فلَمَّا ملك السلطان البلد طلب أهله أن يعفيهم من ابن الحُتَيْتِيّ، فأجابهم إلى ذلك، واستصحبه معه، وأرسله إلى ديار بكر، فافتقر، وتوقّى بها على حال شديدة من الفقر، وقُتِل ولده بأنطاكية، قتله الفرنج لما ملكوها.

ذكر وفاة بهاء الدولة منصور بن مُزَيْد وولاية ابنه صدقة

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، توفّي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دُيُوس بن عليّ بن مُزَيْد الأسديّ، صاحب الجَلّة، والنُّيل، وغيرهما ممّا يجاورها؛ ولَمَّا سمع نظام الملك خبر وفاته قال: مات أجلّ صاحب عِمامة؛ وكان فاضلاً قرأ على عليّ بن برهان، فبرع بذكائه في الذي استفاد منه، وله شعر حسن، فمته:

فإن أنالتم أحمل عظيمًا ولم أقدِّ لهامًا، ولم أصبر على فعل مُعظم
ولم أجبر الجاني، ولمنع حورّة غلّة أسدي للفقار وأنومي
(١٥١/١٠) وله في صاحب له يُكنى أبا مالك يرثيه:

فإن كان أوى خيلنا، ونديمنا، أبو مالك، فالتابات تسوّب
فكلّ ابن أنسى لأمّالة ميت. وفي كلّ حيٍّ للممّن نصيب
ولوردة حُرّة، أو بكّة لهالك، بكّة، ما هبت صبا وجنوب

ولَمَّا توفّي أرسل الخليفة إلى ولده سيف الدولة صدقة نقيب العلويّين أبا الغنائم يعزيه، وسار سيف الدولة إلى السلطان ملكشاه، فخلع عليه، وولاه ما كان لأبيه، وأكثر الشعراء مراثي بهاء الدولة.

ينهي ابن جُهَيْر ذلك إلى السلطان، ففارق خدمته، ولحق بتاج الدولة تثنى، فأقطعه البيت المقدّس، وحضر معه هذه الحرب، فأبلى فيها بلاء حسناً، وحرّض العرب على القتال، فانهزم أصحاب سليمان، وثبت وهو في القلب، فلَمَّا رأى انهزام عساكره أخرج سكّيناً معه فقتل نفسه، وقيل بل قُتِل في المعركة، واستولى تثنى على عسكره.

وكان سليمان بن قُتْلُوش، في السنة الماضية، في صفر، قد أنفذ جُتّة (١٤٨/١٠) شرف الدولة إلى حلب على بغل ملفوفة في إزار، وطلب من أهلها أن يسلموها إليه. وفي هذه السنة في صفر أرسل تثنى جُتّة سليمان في إزار ليسلموها إليه، فأجابه ابن الحُتَيْتِيّ أنّه يكاتب السلطان، ومهما أمره فعل، فحصر تثنى البلد، وأقام عليه، وضيق على أهله.

وكان ابن الحُتَيْتِيّ قد سلّم كلّ برج من أبراجها إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه، وسلّم برجاً فيها إلى إنسان يُعرف بابن الرعوي، ثم إن ابن الحُتَيْتِيّ أوحشه بكلام أغلظ له فيه، وكان هذا الرجل شديد القوّة، ورأى ما الناس فيه من الشدّة، فدعاه ذلك إلى أن أرسل إلى تثنى يستدعيه، وواعده ليلة يرفع الرجال إلى السور في الحبال، فأتى تثنى للميعاد الذي ذكره، فأصعد الرجال في الحبال والسلاطيم، وملك تثنى المدينة، واستجار ابن الحُتَيْتِيّ بالأمير أرتق فشنع فيه، وأما القلعة فكان بها سالم بن مالك بن بدران، وهو ابن عمّ شرف الدولة مسلم بن قريش، فأقام تثنى يحصر القلعة سبعة عشر يوماً، نبّله الخبر بوصول مقدّمة أخيه السلطان ملكشاه، فرحل عنها.

ذكر ملك السلطان حلب وغيرها

كان ابن الحُتَيْتِيّ قد كاتب السلطان ملكشاه يستدعيه ليسلّم إليه حلب، لمّا خاف تاج الدولة تثنى، فسار إليه من أصبهان في جمادى الآخرة، وجعل على مقدّمته الأمير برسق، ويزان، وغيرهما من الأمراء، وجعل طريقه على الموصل، فوصلها في رجب، وسار منها، فلَمَّا وصل حرّان سلّمها إليه ابن الشاطر، فأقطعه السلطان لمحمّد بن شرف الدولة، وسار إلى الرها، (١٤٩/١٠) وهي بيد الروم، فحصرها وملكها، وكانوا قد اشتروها من ابن عَطِيّز، وتقدّم ذكر ذلك، وسار إلى قلعة جَعْبَر، فحصرها يوماً وليلة وملكها، وقتل من بها من بني قُشَيْر، وأخذ جَعْبَر من صاحبها، وهو شيخ أعمى، ولولدين له، وكانت الأذية بهم عظيمة يقطعون الطرق ويلجؤون إليها.

ثم عبر الفرات إلى مدينة حلب، فملك في طريقه مدينة مُنْجِج، فلَمَّا قارب حلب رحل عنها أخوه تثنى، وكان قد ملك المدينة، كما ذكرناه، وسار عنها يسلك البريّة، ومعه الأمير أرتق، فأشار بكبس

ذكر وقعة الزلاقة بالأندلس وهزيمة الفرنج

قد تقدّم ذكر ملك الفرنج طليطلة، وما فعله المعتمد بن عباد برسول الأذفونش، ملك الفرنج، وعود المعتمد إلى إشبيلية، فلما عاد إليها، وسمع مشايخ قرطبة بما جرى، ورأوا قوة الفرنج، وضعف المسلمين، واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض، اجتمعوا وقالوا: هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الفرنج، ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانيّة كما كانت.

وساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم، فقالوا له: ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الضعاف والذلة، وعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك. قال: ما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب إفريقية ونبذل لهم، فإذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا، وخرجنا معهم مجاهدين في (١٥٢/١٠) سبيل الله قال: نخاف، إذا وصلوا إلينا، يخربون بلادنا، كما فعلوا بإفريقية، ويتركون الفرنج ويدوون بكم، والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا.

قالوا له: فكاتب أمير المسلمين، وارغب إليه ليعبر إلينا، ويرسل بعض قوّاده.

وقدم عليهم المعتمد بن عباد، وهم في ذلك، فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه، فقال له ابن عباد: أنت رسولي إليه في ذلك؛ فامتنع، وإنما أراد أن يرى نفسه من تهمة؛ فآلح عليه المعتمد، فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فأبلغه الرسالة، وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش.

وكان أمير المسلمين بمدينة سبّنة، ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس، وأرسل إلى مراكش في طلب من بقي من عساكره، فأقبلت إليه تتلو بعضها بعضاً، فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار، فاجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية، وكان قد جمع عساكره أيضاً، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير، وقصده المتطوعة من سائر بلاد الأندلس.

ووصلت الأخبار إلى الأذفونش، فجمع فرسانه، وسار من طليطلة، وكتب إلى أمير المسلمين كتاباً كبه له بعض أدباء المسلمين، يغفل له القول، ويصف ما عنده من القوة والعدد والتعدد، وبالحال الكاتب في الكتاب، فأمر أمير المسلمين أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه، وكان كاتباً مقلداً، فكتب فأجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين قال: هذا كتاب طويل، أحضر كتاب الأذفونش واكتب في ظهره الذي يكون سترًا له.

فلما عاد الكتاب إلى الأذفونش ارتاع لذلك، وعلم أنه بُلي برجل له عزم (١٥٣/١٠) وحزم، فازداد استعداداً، فرأى في منامه

كأنه راكب فيل، وبين يديه طبل صغير، وهو ينقر فيه، فقصر رؤياه على القيسيين، فلم يعرفوا تأويلها، فأحضر رجلاً مسلماً، عالماً بتعبير الرؤيا، فقصّها عليه، فاستعفا من تعبها، فلم يُعفه، فقال: تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله العزيز، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠٨]؛ ويقضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه.

فلما اجتمع جيشه رأى كثرة فاعجبه، فأحضر ذلك المعبر، وقال له: بهذا الجيش ألقى إله محمد، صاحب كتابكم. فانصرف المعبر، وقال لبعض المسلمين: هذا الملك هالك وكل من معه؛ وذكر قول رسول الله ﷺ ثلاث مهلكات الحديث: وفيه: وإعجاب المرء بنفسه.

وسار أمير المسلمين، والمعتمد بن عباد، حتى أتوا أرضاً يقال لها الزلاقة، من بلد بطليوس، وأتى الأذفونش فنزل موضعاً بينه وبينهم ثمانية عشر ميلاً، قليل لأمر المسلمين: إن ابن عباد ربما لم ينصح؛ ولا يذلل نفسه دونك. فأرسل إليه أمير المسلمين يأمره أن يكون في المقدمة، ففعل ذلك، وسار، وقد ضرب الأذفونش خيامه في لحف جبل، والمعتمد في سفح جبل آخر، يتراوون، وينزل أمير المسلمين وراء الجبل الذي عنده المعتمد، وظنّ الأذفونش أنّ عساكر المسلمين ليس إلا الذي يراه.

وكان الفرنج في خمسين ألفاً، فتيقنوا الغلب، وأرسل الأذفونش إلى المعتمد في ميقات القتال، وقصده الملك، فقال: غداً الجمعة، وبعده الأحد، فيكون اللقاء يوم الاثنين، فقد وصلنا على حال تعب؛ واستقرّ الأمر على هذا، (١٥٤/١٠) وركب ليلة الجمعة سحراً، وصبح بجيشه جيش المعتمد بكرة الجمعة، غدرأ، وظناً منه أنّ ذلك المخيم هو جميع عسكر المسلمين، فوقع القتال بينهم، فصر المسلمون، فأشرفوا على الهزيمة.

وكان المعتمد قد أرسل إلى أمير المسلمين يعلمه بمجيء الفرنج للحرب، فقال: احملوني إلى خيام الفرنج؛ فسار إليها، فينماهم في القتال وصل أمير المسلمين إلى خيام الفرنج، فنهبها، وقتل من فيها، فلما رأى الفرنج ذلك لم يثامكوا أن انهزموا، وأخذهم السيف، وتبعهم المعتمد من خلفهم، ولقيهم أمير المسلمين من بين أيديهم، ووضع فيهم السيف، فلم يفلت منهم أحد، ونجا الأذفونش في نفر يسير، وجعل المسلمون من رؤوس القتلى كوماً كثيرة، فكانوا يؤذنون عليها إلى أن جيفت فأحرقوها.

وكانت الوقعة يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان سنة تسع وسبعين [وأربعمائة]، وأصاب المعتمد جراحات في وجهه، وظهرت ذلك اليوم شجاعته، ولم يرجع من الفرنج إلى

وهي مشهورة.

بلادهم غير ثلاثمائة فارس، وغنم المسلمون كل ما لهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك.

وطلب نظام الملك إلى دار الخلافة ليلاً، فمضى في الزئزب، وعاد من ليلته، ومضى السلطان ونظام الملك إلى الصيد في البرية، فزارا المشهدين: مشهد أمير المؤمنين علي، ومشهد الحسين، عليه السلام، ودخل السلطان البر، فاصطاد شيئاً كثيراً من الغزلان وغيرها، وأمر ببناء منارة القرون بالشييعي، وعاد السلطان إلى بغداد، ودخل إلى الخليفة، فخلع عليه الخلع السلطانية.

ولما خرج من عنده لم يزل نظام الملك قائماً يقدم أميراً أميراً إلى الخليفة، وكلماً قدم أميراً يقول: هذا العبد فلان بن فلان، وأقطعاه كذا وكذا، وعدة عسكره كذا وكذا، إلى أن أتى على آخر الأمراء، وفوض الخليفة إلى السلطان أمر البلاد والعباد، وأمره بالعدل فيهم، وطلب السلطان أن يقبل يد الخليفة، (١٥٧/١٠) فلم يجبه، فسأل أن يقبل خاتمه، فأعطاه إياه فقبله، ووضع على عينه، وأمره الخليفة بالعود فعد.

وخلع الخليفة أيضاً على نظام الملك، ودخل نظام الملك إلى المدرسة النظامية، وجلس في خزانة الكتب، وطالع فيها كتباً، وسمع الناس عليه بالمدرسة جزء حديث، وأملى جزءاً آخر وأقام السلطان ببغداد إلى صفر سنة ثمانين [وأربعمائة]، وسار منها إلى أصبهان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، جرى بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة فتنة قتل فيها جماعة، من جملةهم القاضي أبو الحسن ابن القاضي أبي الحسين بن الفريق الهاشمي، الخطيب، أصابه سهم فمات منه، ولما قتل تولى ابنه الشريف أبو تمام ما كان إليه من الخطابة، وكان العميد كمال الملك الدهستاني ببغداد، فسار بخيله ورجله إلى القنطرة العتيقة، وأعان أهل الكرخ، ثم جرت بينهم فتنة ثانية في شوال منها، فأعان الحجاج على أهل الكرخ، فانهزموا، وبلغ الناس إلى درس اللؤلؤ، وكاد أهل الكرخ يهلكون، فخرج أبو الحسن بن برغوث العلوي إلى مقدم الأحداث من السنة، فسأله العفو، فعاد عنهم ورد الناس.

وفيها زاد الماء بدجلة تاسع عشر حزيران، وجاء المطر يومئذ ببغداد.

وفيها، في ربيع الأول، أرسل العميد كمال الملك إلى الأنبار، فتسلمها من بني عقيل، وخرجت من أيديهم. (١٥٨/١٠)

وفيها، في ربيع الآخر، فرغت المنارة بجامع القصر وأذن فيها.

وفيها، في جمادى الأولى، ورد الشريف أبو القاسم علي بن

وعاد ابن عباد إلى إشبيلية، ورجع أمير المسلمين إلى الجزيرة الخضراء، وعبر إلى سبتة، وسار إلى مراكش، فأقام بها إلى العام المقبل، وعاد إلى الأندلس، وحضر معه المعتمد بن عباد في عسكره، وعبد الله بن بلكين الصنهاجي، صاحب غرناطة، في عسكره، وساروا حتى نزلوا على ليط، وهو حصن منيع بيد الفرنج، فحصره حصاراً شديداً فلم يقدروا على فتحه، فرحلوا عنه بعد مدة، ولم يخرج إليهم أحد من الفرنج لما أصابهم في العام (١٥٥/١٠) الماضي، فعاد ابن عباد إلى إشبيلية، وعاد أمير المسلمين إلى غرناطة، وهي طريقه، ومعه عبد الله بن بلكين، فغدر به أمير المسلمين، وأخذ غرناطة منه وأخرجه منها، فرأى في قصوره من الأموال والذخائر ما لم يحويه ملك قبله بالأندلس، ومن جملة ما وجده سبعة فيها أربعمائة جوهرة، قومت كل جوهرة بمائة دينار، ومن الجواهر ما له قيمة جلييلة، إلى غير ذلك من الثياب والعُد وغيرها، وأخذ معه عبد الله، وأخاه تميم ابني بلكين إلى مراكش، فكانت غرناطة أول ما ملكه من بلاد الأندلس.

وقد ذكرنا فيما تقدم سبب دخول صنهاجة إلى الأندلس، وعود من عاد منهم إلى المعز بإفريقية، وكان آخر من بقي منهم بالأندلس عبد الله هذا، وأخذت مدينته، ورحل إلى العدو.

ولما رجع أمير المسلمين إلى مراكش أطاعه من كان لم يطعها من بلاد السوس، وورغة، وقلعة مهدي، وقال له علماء الأندلس إنه ليست طاعته بواجبة حتى يخطب للخليفة، ويأتيه تقليد منه بالبلاد، فأرسل إلى الخليفة المقتدي بأمر الله ببغداد، فأتاه الخلع، والأعلام، والتقليد، ولقب بأمر المسلمين، وناصر الدين.

ذكر دخول السلطان إلى بغداد

في هذه السنة دخل السلطان ملكشاه بغداد في ذي الحجة، بعد أن فتح حلب وغيرها من بلاد الشام، والجزيرة، وهي أول قدمه قدمها، ونزل (١٥٦/١٠) بدار المملكة، وركب من الغد إلى الحلية، ولعب بالجوكان والكرة، وأرسل إلى الخليفة هدايا كثيرة، فقبلها الخليفة، ومن الغد أرسل نظام الملك إلى الخليفة خدمة كثيرة، فقبلها، وزار السلطان ونظام الملك مشهد موسى بن جعفر، وقبر معروف، وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة، وغيرها من القبور المعروفة، فقال ابن زكرويه الواسطي يهنيء نظام الملك بقصيدة منها:

رُزئت المشاهد زُودة مشهودة أرضت مضاجع من بها مدفون
فكأنك النبت استهل بربرها وكأنها بك روضة وميمن
فأزنت قناحك بالثواب وأنجحت ولك الإله على التجاح ضامن

أبي يعلى الحسني الدبوسي إلى بغداد، في تجمل عظيم، لم يُر مثله لفقير، ورُتب مدرّساً بالنظامية بعد أبي سعد المتوكل.

سنة ثمانين وأربعمائة

ذكر زفاف ابنة السلطان إلى الخليفة

في المحرم نُقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجلّة بالديباج الرومي، وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة وثلاث عماريات؛ وعلى أربعة وسبعين بغلاً مجلّة بأنواع الديباج الملكي، وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة؛ وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يُقدّر ما فيها من الجواهر والحلي، وبين يدي البغال ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيل الرائقة، عليها مراكب الذهب مرصّعة بأنواع الجواهر، ومهذّب عظيم كثير الذهب.

وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهرائين، والأمير برسقي، وغيرهما، ونشر أهل نهر مُعلّى عليهم الدنانير والثياب، وكان السلطان قد خرج عن بغداد متصيّداً، ثم أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى ترکان خاتون، زوجة السلطان، وبين يديّه نحو ثلاثمائة موكية، ومثلها مشاعل، ولم يبق في الحريم دكان إلا وقد أشعل فيها الشمعة والانتان وأكثر من ذلك.

وأرسل الخليفة مع ظفر خادمه محفةً لم يُر مثلها حسناً، وقال الوزير لتركّان خاتون: سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول: إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا (١٦١/١٠) الأمانات إلى أهلها، وقد أذن في نقل الوديعه إلى داره، فأجابت بالسمع والطاعة، وحضر نظام الملك فَمَنّ دونه من أعيان دولة السلطان، وكلّ منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير، وجاء نساء الأمراء الكبار ومَنّ دونهم كلّ واحدة منهنّ منفردة في جماعتها وتجمّلها، وبين أيديهنّ الشمع الموكيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان.

ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان، بعد الجميع، في محفة مجلّة، عليها من الذهب والجواهر أكثر شيء، وقد أحاط بالمحفة مائتا جارية من الأتراك بالمراكب العجيبة، وسارت إلى دار الخلافة، وكانت ليلة مشهودة لم يُر ببغداد مثلاً.

فلما كان الغد حضر الخليفة أمراء السلطان لسماط أمر بعمله حكّي أن فيه أربعين ألف من السكر، وخلع عليهم كلّهم، وعلى كلّ من له ذكر في العسكر، وأرسل الخلع إلى الخاتون زوجة السلطان، وإلى جميع الخواتين، وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وُلد للسلطان ابن من ترکان خاتون، وسمّاه

وفيها أمر السلطان أن يزداد في إقطاع وكلاء الخليفة نهر بُرزي من طريق خراسان، وعشرة آلاف دينار من معاملة بغداد.

وفيها أقطع السلطان ملكشاه محمّد بن شرف الدولة مسلم مدينة الرّجبة وأعمالها، وحرّان، وسروج، والرّقة، والخابور، وزوجّه بأخته زُكيّاً خاتون، فسلم البلاد جميعها ما عدا حرّان، فإنّ محمّد بن الشاطر امتنع من تسليمها، فلما وصل السلطان إلى الشام نزل عنها ابن الشاطر، فسلمها السلطان إلى محمّد.

وفيها وقع ببغداد صاعقتان، فكسرت إحدهما أسطوانتين، وأحرقت قطناً في صناديق، ولم تحترق الصناديق، وقلّت الثانية رجلاً.

وفيها كانت زلازل بالعراق، والجزيرة، والشام، وكثير من البلاد، فخرّب كثيراً من البلاد، وفارق الناس مساكنهم إلى الصحراء، فلما سكّنت عادوا.

وفيها عُزل فخر الدولة بن جُهير عن ديار بكر، وسلمها السلطان إلى العميد أبي علي البلخي، وجعله عاملاً عليها.

وفيها أسقط اسم الخليفة المصريّ من الحرّمين الشريفين، وذكر اسم الخليفة المقتدي بأمر الله. (١٥٩/١٠)

وفيها أسقط السلطان المكوس والاحتيازات بالعراق.

وفيها حضر تميم بن المعز بن باديس، صاحب إفريقية، مدينتي قابس وسفّاقس في وقت واحد، وفرّق عليهما العساكر.

وفيها، في ربيع الأوّل، توفي أبو الحسن بن فضال المجاشعي، النحوي، المقرئ.

وفي ربيع الآخر توفي شيخ الشيوخ أبو سعد الصوفي، النيسابوري، وهو الذي تولى بناء الرباط بنهر المعلّى، وبنى وقوفه، وهو رباط شيخ الشيوخ الآن، وبنى وقوف المدرسة النظامية، وكان عالي الهمة، كثير التعصّب لمن يلتجئ إليه، وجدّد تربة معروف الكرخي بعد أن احترقت، وكانت له منزلة كبيرة عند السلطان، وكان يقال: نحمد الله الذي أخرج رأس أبي سعد من مرقعة، ولو أخرج من قباء لهلكنا.

وفيها توفي أبو عليّ محمّد بن أحمد الشيري، البصري، وكان خيراً، حافظاً للقرآن، ذا مال كثير، وهو آخر من روى سنن أبي داود السجستاني عن أبي عمر الهاشمي.

وفيها توفي الشريف أبو نصر الزينبي، العباسي، نقيب

وسمعت الحديث وأسمعته.

محموداً، وهو الذي خُطب له بالمملكة بعدُ. (١٦٢/١٠)

وفيهما سلّم السلطان ملكشاه مدينة حلب والقلعة إلى مملوكه
أقسنقر، فوليهما، وأظهر فيها العدل، وحسن السيرة، وكان زوج دادوا
السلطان ملكشاه، وهي التي تحضنه وتربيته، وماتت بحلب سنة
أربع وثمانين [وأربعمائة].

سنة إحدى وثمانين وأربعمائة

ذكر الفتنة ببغداد

وفيهما استبق ساعيان أحدهما للسلطان، فضلي، والآخر للأمير
قماج، مرعوشي، فسبق ساعي السلطان، وقد تقدّم ذكر الفضلي
والمرعوشي أيام معز الدولة بن بُوَيْه.

وفيهما جعل السلطان وليّ عهده ولدهُ أبا شجاع أحمد، ولقبه
ملك الملوك، عضد الدولة، وتاج الملة، عُدة أمير المؤمنين،
وأرسل إلى الخليفة بعد مسيره من بغداد، ليخطب له ببغداد بذلك،
فخُطب له في شعبان، ونثر الذهب على الخطباء.

وفيهما، في شعبان، انحدر سعد الدولة كهرائين إلى واسط
لمحاربة مهذب الدولة بن أبي الجبر، صاحب البطائع، ولما فارق
بغداد كثرت فيها الفتن.

وفيهما، في ذي القعدة، وُلد للخليفة من ابنة السلطان ولد سمّاه
جعفرأ، وكناه أبا الفضل، وزيّن البلد لأجل ذلك.

وفيهما استولى العميد كمال الملك أبو الفتح الدُعُستائي، عميد
العراق، على مدينة هيت، أخذها صلحاً ومضى إليها، وعاد عنها في
ذي القعدة.

وفيهما وقعت فتنة بين أهل الكرخ وغيرها من المحال، قُتل فيها
كثير من الناس.

وفيهما كسفت الشمس كسوفاً كلياً. (١٦٣/١٠)

وفيهما توفي الأمير أبو منصور قتلخ أمير الحاج، وحجّ أميراً
اثنى عشرة سنة، وكانت له في العرب عُدة وقعات، وكانوا
يخافونه، ولَمّا مات قال نظام الملك: مات اليوم ألف رجل؛ وولي
إمارة الحاج نجم الدولة خمارتكين.

وفيهما، في جمادى الأولى، توفي إسماعيل بن عبد الله بن
موسى بن سعد أبو القاسم الساوي، سمع الحديث الكثير من أبي
سعيد الصيرفي وغيره، وروى عنه الناس، وكان ثقةً وطاهر بن
الحسين أبو الوفا البَزنِيجي، الهَمْداني، كان شاعراً، أديباً، وكان
يمدح لا لعرض الدنيا، ومدح نظام الملك بقصيدتين كل واحدة
منهما تزيد على أربعين بيتاً، إحداهما ليس فيها نقطة، والأخرى
جميع حروفها منقوطة.

وفيهما توفيت فاطمة بنت عليّ المؤدّب، المعروفة بينت الأقرع،
الكاينة، كانت من أحسن الناس خطاً على طريقة ابن البواب،

وفيهما، في ذي القعدة، توفي غرس النعمة أبو الحسن محمّد
بن الصايي، صاحب التاريخ، وظهر له مال كثير، وكان له معروف
وصدقة. (١٦٤/١٠)

في هذه السنة، في صفر، شرع أهل باب البصرة في بناء
القطرة الجديدة، ونقلوا الأجرُ في أطباق الذهب والفضّة وبين
أيديهم الذباب، واجتمع إليهم أهل المحال؛ وكثر عندهم أهل
باب الأزعج في خلق لا يُحصى.

وَاتَّفَقَ أَنَّ كهرائين سار في سُميرية، وأصحابه يسرون على
شاطئ دجلة بسيره، فوقف أهل باب الأزعج على امرأة كانت تُسقي
الناس من مُزْملة لها على دجلة، فحملوا عليها، على عادة لهم،
وجعلوا يكسرون الجرار، ويقولون: الماء للنسيب! فلَمّا رأت سعدُ
الدولة كهرائين استغاثت به، فأمر بإبعادهم عنها، فضرِبهم الأتراك
بالمقارع، فسَلَّ العامة سيوفهم وضربوا وجه فرس حاجبه سليمان،
وهو أخَصَّ أصحابه، فسقط عن الفرس، فحمل كهرائين الحنق
على أن خرج من السُميرية إليهم راجلاً، فحمل أحدهم عليه،
فطعنه بأسفل رمحه، فألقاه في الماء والطين، فحمل أصحابه على
العامة، فقاتلهم، وحرصوا على الظفر بالذي طعنه، فلم يصلوا
إليه، وأخذ ثمانية نفر، فقتل أحدهم، وقطع أعصاب ثلاثة نفر،
وأرسل قباه (١٦٥/١٠) إلى الديوان وفيه أثر الطعنة والطين يستنفر
على أهل باب الأزعج، ثم إن أهل الكرخ عقدوا لأنفسهم طاقاً آخر
على باب طاق الحراني، وفعلوا كفعل أهل باب البصرة.

ذكر إخراج الأتراك من حريم الخلافة

في هذه السنة، في ربيع الآخر، أمر الخليفة بإخراج الأتراك
الذي مع الخاتون زوجته ابنة السلطان من حريم دار الخلافة.

وسبب ذلك أَنَّ تركياً منهم اشترى من طواف فاكهة، فتماسكا،
فشم الطواف التركي، فأخذ التركي صَنْجَة من الميزان وضرب بها
رأس الطواف فشجّه، فاجتمعت العامة، وكاد يكون بينهم وبين
الأتراك شرٌّ، واستغاثوا، وشتموا، فأمر الخليفة بإخراج الأتراك،
فأخرجوا عن آخرهم، في ساعة واحدة، على أقبح صورة، وقت
العشاء الأخيرة.

ذكر ملك الروم مدينة رُؤَيْلَة وعودهم عنها

في هذه السنة فتح الروم مدينة رُؤَيْلَة من إفريقية، وهي بقرب
المهدية.

مكة، وكان يقول: لو كنت موضع أبي مسعود، بعد وفاة جدي محمود، لما انفصمت (١٦٨/١٠) غرى مملكتنا، ولكني الآن عاجز عن [أن] أسترّد ما أخذوه، واستولى عليه ملوك قد اتّسعت مملكتهم، وعظمت عساكرهم.

ولمّا توفيّ ملك بعده ابنه مسعود، ولقبه جلال الدين، وكان قد زوّجه أبوه بآبنة السلطان ملكشاه، وأخرج نظام الملك في هذا الإملاك والزّفاف مائة ألف دينار.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة حجّ الوزير أبو شجاع، وزير الخليفة، واستتاب ابنه ربيب الدولة أبا منصور، ونقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي. وفيها أسقط السلطان ما كان يؤخذ من الحجّاج من الخفارة.

وفيها جمع آقسنقر، صاحب حلب، عسكره وسار إلى قلعة شيزر فحصرها، وصاحبها ابن مُنقذ، وضيق عليها، ونهب ريضها، ثمّ صالحها صاحبها وعاد إلى حلب.

وفيها توفيّ أبو بكر أحمد بن أبي حاتم عبد الصمد بن أبي الفضل الغورجيّ، الهرويّ، والقاضي محمود بن محمد بن القاسم أبو عامر الأزديّ، المهلبيّ، راويا جامع الترميذيّ عن أبي محمد الجراحيّ، رواه عنهما أبو الفتح الكروخيّ.

وتوفيّ عبد الله بن محمد بن عليّ بن محمد أبو إسماعيل، الأنصاريّ، الهرويّ، شيخ الإسلام، ومولده سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وكان شديد التعصّب في المذهب، ومحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الباقريّ، ومولده (١٦٩/١٠) في شعبان، وهو من أهل الحديث والرواية.

وفي المحرمّ توفيت ابنة الغالب بالله بن القادر ودُفنت عند قبر أحمد، وكانت ترجع إلى دين، ومعروف كثير، لم يبلغ أحد في فعل الخير ما بلغت.

وفي شعبان توفيّ عبد العزيز الصحراويّ الزاهد.

وفيهما توفيّ الملك أحمد ابن السلطان ملكشاه بمرو، وكان وليّ عهد أبيه في السلطنة، وكان عمره إحدى عشرة سنة، وجلس الناس ببغداد للعزاء سبعة أيام في دار الخلافة، ولم يركب أحد فرساً، وخرج النساء ينحن في الأسواق، واجتمع الخلق الكثير في الكرخ للتفجّر والمناحات، وسود أهل الكرخ أبواب عقودهم إظهاراً للحزن عليه. (١٧٠/١٠)

وسبب ذلك أنّ الأمير تميم بن المعزّ بن باديس، صاحبها، أكثر غزوّ (١٦٦/١٠) بلادهم في البحر، فخرّبها، وشتّت أهلها، فاجتمعوا من كلّ جهة، واتّفقوا على إنشاء الشواني لغزو المهديّة، ودخل معهم البيشانيّون، والجنويّون، وهما من الفرنج، فأقاموا يعمرّون الأسطول أربع سنين، واجتمعوا بجزيرة قوصرة في أربع مائة قطعة، فكتب أهل قوصرة كتاباً على جناح طائر يذكرون وصولهم وعددهم وحكمهم على الجزيرة، فأراد تميم أن يسيّر عثمان بن سعيد المعروف بالمهر، مقدّم الأسطول الذي له، ليمنعهم من النزول، فمنعه من ذلك بعض قوّاده، واسمه عبد الله بن منكوت، لعداوة بينه وبين المهر، فجاءت الروم، وأرسلوا، وطلّعوا إلى البرّ، ونهبوا، وخربوا، وأحرقوا، ودخلوا زويلة ونهبوا، وكانت عساكر تميم غائبة في قتال الخارجين عن طاعته.

ثمّ صالح تميم الروم على ثلاثين ألف دينار، وردّ جميع ما حووه من السبي، وكان تميم يذلّ المال الكثير في الغرض الحقيق، فكيف في الغرض الكبير، حكى عنه أنّه بذل للعرب، لمّا استولوا على حصن له يسمّى قناطة ليس بالعظيم، اثني عشر ألف دينار حتّى هدمه، فقيل له: هذا سرف في المال، فقال: هو شرف في الحال.

ذكر وفاة الناصر بن علناس وولادة المنصور

في هذه السنة مات الناصر بن علناس بن حمّاد، ووليّ بعده ابنه المنصور، فاتفق آثار أبيه في الحزم والعزم والرياسة، ووصله كتب الملوك ورُسّله (١٦٧/١٠) بالتعزية بأبيه والتهنئة بالملك، منهم: يوسف بن تاشفين، وتمام بن المعزّ، وغيرهما.

ذكر وفاة إبراهيم ملك غزنة وملك ابنه مسعود

في هذه السنة توفيّ الملك المؤيّد إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، وكان عادلاً، كريماً، مجاهداً، وقد ذكرنا من فتوحه ما وصل إلينا، وكان عاقلاً، ذا رأي متين، فمن أراه أنّ السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقيّ جمع عساكره وسار يريد غزنة، ونزل بأسفرار، فكتب إبراهيم بن مسعود كتاباً إلى جماعة من أعيان أمراء ملكشاه يشكرهم، ويعتدّ لهم بما فعلوا من تحسين قصد ملكشاه بلاده ليم لنا ما استقرّ بيتنا من الظفر به، وتخليصهم من يده، ويعدهم الإحسان على ذلك، وأمر القاصد بالكتب أن يتعرّض لملكشاه في الصيد، ففعل ذلك، فأخذ، وأحضر عند السلطان، فسأله عن حاله، فأنكره، فأمر السلطان بجلبه، فجلبه، فدفع الكتب إليه بعد جهد ومشقة، فلمّا وقف ملكشاه عليها تحيّل من أمرائه وعاد، ولم يقلّ لأحد من أمرائه في هذا الأمر شيئاً خوفاً أن يستوحشوا منه.

وكان يكتب بخطّه، كلّ سنة، مصحفاً، ويعبئه مع الصدقات إلى

سنة الثنتين وثمانين وأربعمائة

ذكر الفتنة ببغداد بين العامة

في هذه السنة، في صفر، كبس أهل باب البصرة الكرخ، فقتلوا رجلاً، وجرحوا آخر، فأعلق أهل الكرخ الأسواق، ورفعوا المصاحف، وحملوا ثياب الرجلين وهي بالدم، ومضوا إلى دار العميد كمال الملك أبي الفتح الدهستاني مستغيثين، فأرسل إلى النقيب طراد بن محمد يطلب منه إحضار القاتلين، فقصده طراد دار الأمير بوزان بقصر ابن المأمون، فطالبه بوزان بهم، ووكل به، فأرسل الخليفة إلى بوزان يعرفه حال النقيب طراد، ومحله، ومنزلته، فخلّى سبيله واعتذر إليه، فسكن العميد كمال الملك الفتنة، وكف الناس بعضهم عن بعض، ثم سار إلى السلطان، فعاد الناس إلى ما كانوا فيه من الفتنة، ولم ينقض يوم إلا عن قتلين وجرحين. (١٧١/١٠)

ذكر ملك السلطان ملكشاه ما وراء النهر

في هذه السنة ملك السلطان ملكشاه ما وراء النهر.

وسبب ذلك أنّ سمرقند كان قد ملكها أحمد خان بن خضر خان. آخر شمس الملك، الذي كان قبله، وهو ابن أخي تركان خاتون، زوجة السلطان ملكشاه، وكان صبيّاً ظالماً، فيبغ السيرة، يكثر مصادرة الرعية، فنفروا منه، وكتبوا إلى السلطان سراً يستغيثون به، ويسألونه القدوم عليهم ليملك بلادهم، وحضر الفقيه أبو طاهر بن علك الشافعي عند السلطان شاكياً، وكان يخاف من أحمد خان لكثرة ماله، ف أظهر السفر للتجارة والحج، فاجتمع بالسلطان، وشكا إليه، وأطمعه في البلاد. فتحرّكت دواعي السلطان إلى ملكها، فسار من أصفهان.

وكان قد وصل إليه، وهو فيها، رسول ملك الروم، ومعه الخراج المقرّر عليه، فأخذه نظام الملك معهم إلى ما وراء النهر، وحضر فتح البلاد، فلما وصل إلى كاشغر أذن له نظام الملك في العود إلى بلاده، وقال: أحب أن يذكّر عتاً في التواريخ أنّ ملك الروم حمل الجزية وأوصلها إلى باب كاشغر ليُنهى إلى صاحبه سعة ملك السلطان ليعظم خوفه منه، ولا يحدث نفسه بخلاف الطاعة، وهذا يدل على همّة عالية تعلو على العيوق.

ولما سار السلطان من أصفهان إلى خراسان جمع العساكر من البلاد جميعها، (١٧٢/١٠) فعبّر النهر بجيوش لا يحصرها ديوان، ولا تدخل تحت الإحصاء، فلما قطع النهر قصد بخارى، وأخذ ما على طريقه، ثم سار إليها وملكها وما جاورها من البلاد، وقصد سمرقند ونازلها، وكانت الملقطات قد قدّما إلى أهل البلد يهدمهم النصر، والخلاص ممّا هم فيه من الظلم، وحصر البلد، وضيق

عليه، وأعانه أهل البلد بالإقامات، وفريق أحمد خان، صاحب سمرقند، أبراج السور على الأمراء ومن يشق به من أهل البلد، وسلّم رجلاً يقال له برج العيّار إلى رجل علويّ كان مختصاً به، فنصح في القتال.

فاتفق أنّ ولدًا لهذا العلويّ أخذ أسيراً ببخارى، فهذه الأب يقتله، فترأخى عن القتال، فسهل الأمر على السلطان ملكشاه، ورمى من السور عدة ثلّم بالمينجيات، وأخذ ذلك البرج، فلما صعد عسكر السلطان إلى السور هرب أحمد خان، واختفى في بيوت بعض العامة فعزّز عليه وأخذ وحمل إلى السلطان وفي رقبته حبل، فأكرمه السلطان، وأطلقه وأرسله إلى أصفهان، ومعه من يحفظه، ورّتب سمرقند الأمير العميد أبا طاهر عميد خوارزم.

وسار السلطان قاصداً إلى كاشغر، فبلغ إلى يوزكند، وهو بلد يجري على يابه نهر، وأرسل منها رسلاً إلى ملك كاشغر يأمره بإقامة الخطبة، وضرب السكة باسمه، ويتوعده إن خالف بالمسير إليه، ففعل ذلك وأطاع، وحضر عند السلطان، فأكرمه وعظّمه، وتابع الإنعام عليه، وأعادته إلى بلده.

ورجع السلطان إلى خراسان، فلما أبعد عن سمرقند لم يتفق أهلها (١٧٣/١٠) وعسكرها المعروفون بالجكّية مع العميد أبي طاهر، نائب السلطان عندهم، حتّى كادوا يثبّون عليه، فاحتال حتّى خرج من عندهم، ومضى إلى خوارزم.

ذكر عصيان سمرقند

كان مقدم العسكر المعروف بالجكّية، واسمه عين الدولة، قد خاف السلطان لهذا الحادث، فكتب يعقوب تكين أخا ملك كاشغر، ومملكته تُعرف بأب نباشي، ويبيده قلعتها، واستحضره، فحضر عنده سمرقند، وأتفقا، ثم إن يعقوب علم أنّ أمره لا يستقيم معه، فوضع عليه الرعية الذين كان أساء إليهم، حتّى ادّعوا عليه دماء قوم كان قتلهم، وأخذ الفتاوى عليه فقتله، واتّصلت الأخبار بالسلطان ملكشاه بذلك، فعاد إلى سمرقند.

ذكر فتح سمرقند الفتح الثاني

لما اتّصلت الأخبار بعصيان سمرقند بالسلطان ملكشاه، وقتل عين الدولة، مقدّم الجكّية، عاد إلى سمرقند، فلما وصل إلى بخارى هرب يعقوب المستولي على سمرقند، ومضى إلى فرغانة، ولحق بولايته.

ووصل جماعة من عسكره إلى السلطان مستأمنين، فلقوه بقرية تُعرف بالطواويس، ولما وصل السلطان إلى سمرقند ملكها، ورّتب بها الأمير أبر، (١٧٤/١٠) وسار في أثر يعقوب حتّى نزل ببوزكند، وأرسل العساكر إلى سائر الأكناف في طلبه.

الأطراح لها، والإعراض عنها، فأذن لها في المسير، فسارت في ربيع الأول، وسار معها ابنها من الخليفة أبو الفضل جعفر بن المقتدي بأمر الله، ومعهما سائر أرباب الدولة، ومشى، مع محفّتها، سعد الدولة كوهرايين، وخدم دار الخلافة الأكابر، وخرج الوزير وشيخهم إلى النهران وعاد. (١٧٦/١٠)

وسارت الخاتون إلى أصبهان، فأقامت بها إلى ذي القعدة، وتوفيت، وجلس الوزير ببغداد للعزاء سبعة أيام، وأكثر الشعراء مرأيتها ببغداد، وبمسكن السلطان.

ذكر فتح عسكر مصر عكا وغيرها من الشام

في هذه السنة خرجت عساكر مصر إلى الشام في جماعة من المقدمين، فحاصروا مدينة صور، وكان قد تغلب عليها القاضي عين الدولة بن أبي عقيل، وامتنع عليهم، ثم توفي، ووليها أولاده، فحصرهم العسكر المصري فلم يكن لهم من القوة ما يمتنعون بها، فسلموها إليهم.

ثم سار العسكر عنها إلى مدينة صيدا، ففعلوا بها كذلك.

ثم ساروا إلى مدينة عكا، فحاصروها، وضيقوا على أهلها، فافتتحوها.

وقصدوا مدينة جليل، فملكوها أيضاً، وأصلحوا أحوال هذه البلاد، وقرروا قواعدها، وساروا عنها إلى مصر عائدتين، واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الأمراء والعلماء.

ذكر الفتنة بين أهل بغداد ثانية

وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، كثرت الفتن ببغداد بين أهل الكرخ وغيرها من المحال، وقتل بينهم عدد كثير، واستولى أهل المحال على قطعة كبيرة من نهر الدجاج، فنهبوا، وأحرقوها، فنزل شيخنة بغداد، (١٧٧/١٠) وهو خمართვეكين النائب عن كوهرايين، على دجلة في خيله ورجله، ليكشف الناس عن الفتنة، فلم يتهوا، وكان أهل الكرخ يجرون عليه وعلى أصحابه الجرايات والإقامات.

وفي بعض الأيام وصل أهل باب البصرة إلى سوقية غالب، فخرج من أهل الكرخ من لم تجر عادته بالقتال، فقاتلهم حتى كشفهم. فركب خدم الخليفة، والحجّاب، والنقباء، وغيرهم من أعيان الحنابلة، كابن عقيل، والكلوذاني، وغيرهما، إلى الشحنة، وساروا معه إلى أهل الكرخ، فقرأ عليهم مثلاً من الخليفة بأمرهم بالكف، ومعاودة السكون، وحضور الجماعة والجمعة، والتدين بمنهبل أهل السنة، فأجابوا إلى الطاعة.

فبينما هم كذلك اتاهم الصارخ من نهر الدجاج بأن السنة قد

وأرسل السلطان إلى ملك كاشغر، وهو أخو يعقوب، ليجد في أمره، ويرسله إليه، فاتفق أن عسكر يعقوب شغبوا عليه، ونهبوا خزائنه، واضطروه إلى أن هرب على فرسه، ودخل إلى أخيه بكاشغر مستجيراً به، فسمع السلطان بذلك، فأرسل إلى ملك كاشغر يتوعده، إن لم يرسله إليه، أن يقصد بلاده، ويصير هو العدو، فخاف أن يمنع السلطان، وأنف أن يسلم أخاه بعد أن استجار به وإن كانت بينهما عداوة قديمة، ومتافسة في الملك عظيمة، لما يلزمه فيه العار، فأذاه اجتهداه إلى أن قبض على أخيه يعقوب، وأظهر أنه كان في طلبه، فقتل به، وسيّره مع ولده، وجماعة من أصحابه، وكلهم يعقوب، وأرسل معهم هدايا كثيرة للسلطان، وأمر ولده أنه إذا وصل إلى قلعة بقرب السلطان أن يسلم يعقوب ويتركه، فإن رضي السلطان بذلك، وإلا سلمه إليه.

فلما وصلوا إلى القلعة عزم ابن ملك كاشغر أن يسلم عمه، وينفذ فيه ما أمره به أبوه، فتقدم بكفّه وإلقائه على الأرض، ففعلوا به ذلك، فبينما هم على تلك الحال، وقد أحتموا الميل ليسلموه، إذ سمعوا ضجة عظيمة، فتركوه، وتشاوروا بينهم، وظهر عليهم انكسار، ثم أرادوا بعد ذلك سلمه، ومنع منه بعض، فقال لهم يعقوب: أخبروني عن حالكم، وما يفوتكم الذي تريدونه مني، وإذا فعلتم بي شيئاً ربما ندمتم عليه.

فقال له: إن طغرل بن يئال أسرى من ثمانين فرسخاً في عشرات ألف من العساكر، وكبس أخاك بكاشغر، فأخذته أسيراً، ونهب عسكره، وعاد (١٧٥/١٠) إلى بلاده؛ فقال لهم: هذا الذي تريدون تفعلونه بي ليس ممّا تتقربون به إلى الله تعالى، وإنما تفعلونه اتباعاً لأمر أخي، وقد زال أمره؛ ووعدهم الإحسان فأطلقوه.

فلما رأى السلطان ذلك ورأى طمع طغرل بن يئال، ومسيره إلى كاشغر، وقبض صاحبها، وملكه لها مع قربه منه، خاف أن ينحل بعض أمره وتزول هيئته، وعلم أنه متى قصد طغرل سار من بين يديه، فإن عاد عنه رجع إلى بلاده، وكذلك يعقوب أخو صاحب كاشغر، وأنه لا يمكنه المقام لسعة البلاد وراءه وخوف الموت بها، فوضع تاج الملك على أن يسمى في إصلاح أمر يعقوب معه، ففعل ما أمره به السلطان، فاتفق هو ويعقوب، وعاد إلى خراسان، وجعل يعقوب مقابل طغرل يمنعه من القوة، وملك البلاد، وكلّ منهما يقوم في وجه الآخر.

ذكر عود ابنة السلطان زوجة الخليفة إلى أبيها

وفي هذه السنة أرسل السلطان إلى الخليفة يطلب ابنته طلباً لا بدّ منه.

وسبب ذلك أنها أرسلت تشكو من الخليفة، وتذكر أنه كثير

فلم يظفرَكَ الله بذلك، فكفَّ عن شرك، فقد أعطاك الله المغرب بأسره، ولم يعطني غير هذا الجبل، وهو في بلادك كالشامة البيضاء في الثور الأسود، فلم تنقح بما أعطاك الله، عزَّ وجلَّ. فلمَّا رأى يوسف أنَّ سرَّه قد انكشف وأنه لا يمكنه في أمره شيء لحصانة جبله أعرض عنه وتركه.

ذكر ملك العرب مدينة سومة وأخذها منهم

في هذه السنة نقض ابن علوي ما بينه وبين تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية من العهد، وسار في جمع من عشيرته العرب، فوصل إلى مدينة سومة من بلاد إفريقية، وأهلها غارون لم يعلموا به، فدخلها عنوة، وجرى بينه وبين من بها من العسكر والعامة قتال، فقتل من الطائفتين جماعة وكثر القتل في أصحابه والأسرى، وعلم أنه لا يتم له مع تميم حال، ففارقها، وخرج منها إلى حلته من الصحراء.

وكان بإفريقية هذه السنة غلاء شديد، وبقي كذلك إلى سنة أربع وثمانين [وأربعمائة]، وصلحت أحوال أهلها، وأخصبت البلاد، ورخصت الأسعار وأكثر أهلها الزرع. (١٨٠/١٠)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قطعت الحرامية الطريق على قفل كبير بولاية حلب، فركب أقتسر في جماعة من عسكره وتبعهم، ولم يزل حتى أخذهم وقتلهم، فأمنت الطرق بولايته.

وفيهما ورد العميد الأغر أبو المحاسن عبد الجليل بن علي اللؤساني إلى بغداد عميداً، وعُزل أخوه كمال الملك على ما ذكرناه.

وفيهما درَّس الإمام أبو بكر الشاشي في المدرسة التي بناها تاج الملك مُستوفي السلطان بباب إبرس من بغداد، وهي المدرسة التاجية المشهورة.

وفيهما عمرت منارة جامع حلب.

وفيهما توفي الخطيب أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن عبد الواحد بن أبي الحديد السلمي، خطيب دمشق، في ذي الحجة.

وفيهما توفي أحمد بن محمد بن محمد بن صاعد بن محمد أبو نصر النيسابوري رئيسها، ومولده سنة عشر وأربعمائة، وكان من العلماء وعاصم بن الحسن ابن محمد بن علي بن عاصم العاصمي البغدادي من أهل الكرخ، كان ظريفاً كيساً، له شعر حسن، فمنه:

ملا على ثلثون الأخلاق لوزارني، فأنس أشراقي
وابسح بالشكوى إليه تذللاً، وأفضَّ ختم النع من آفاني
فسه يسبح بالوصال لثمنه، ذي نوع، وصبا، مُشتاق

قصدوهم، والقتال عندهم، فمضوا مع الشحنة، ومنعوا من الفتنة، وسكن الناس وكتب أهل الكرخ على أبواب مساجدهم: خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ومن عند هذا اليوم نار أهل الكرخ، وقصدوا شارع ابن أبي عوف ونهبوه، وفي جملة ما نهبوا دار أبي الفضل بن خيرون المعدل، فقصد الديوان مستغفراً، ومعه الناس، ورفع العامة الصليان وهجموا على الوزير في حجرته، وأكثروا من الكلام الشنيع، وقتل ذلك اليوم رجل هاشمي من أهل باب الأرج بسهم أصابه، فنار العامة هناك بعلوي كان مقيماً بينهم، قتلوه وحرقوه، وجرى من النهب، والقتل، والفساد أمور عظيمة، فأرسل الخليفة إلى سيف الدولة صدقة بن مزيد، فأرسل عسكراً إلى بغداد، فطلبوا المفسدين والعيارين، فهربوا منهم، فهذمت دورهم، وقتل منهم ونفي وسكنت الفتنة، وأمن الناس. (١٧٨/١٠)

ذكر حيلة لأمر المسلمين ظهرت ظهوراً غريباً

كان بالمغرب إنسان اسمه محمد بن إبراهيم الكزولي، سيد قبيلة كزولة ومالك جبلها، وهو جبل شامخ، وهي قبيلة كثيرة، وبين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مودة واجتماع، فلمَّا كان هذه السنة أرسل يوسف إلى محمد بن إبراهيم يطلب الاجتماع به، فركب إليه محمد، فلمَّا قارب خافه على نفسه، فعاد إلى جبله، واحتاط لنفسه، فكتب إليه يوسف، وحلف له أنه ما أراد به إلا الخير، ولم يحدث نفسه بغدر، فلم يركن محمد إليه.

فدعا يوسف حجاجاً، وأعطاه مائة دينار، وضمن له مائة دينار أخرى، إن هو سار إلى محمد بن إبراهيم واحتال على قتله فسار الحجاج، ومعه مشاريط مسمومة، فصعد الجبل، فلمَّا كان الغد خرج ينادي لصناعته بالقرب من مساكن محمد، فسمع محمد الصوت، فقال: هذا الحجاج من بلدنا؟ فقبل: إنه غريب؛ فقال: أراه يُكثر الصباح، وقد ارتبب بذلك، اتوني به فأحضر عنده، فاستدعى حجاجاً آخر وأمره أن يحججه بمشاريطه التي معه، فامتنع الحجاج الغريب، فأمسك وحجج فمات، وتعبَّ الناس من فطته.

فلما بلغ ذلك يوسف ازداد غيظه، ولجَّ في السعي في أدنى يوصله إليه، فاستمال قوماً من أصحاب محمد، فمالوا إليه، فأرسل إليهم جراراً من غسل مسموم، فحضروا عند محمد وقالوا: قد وصل إلينا قوم معهم جرار من غسل (١٧٩/١٠) أحسن ما يكون، وأردنا إتخافك به؛ وأحضروها بين يدي، فلمَّا رآه أمر بإحضار خبز، وأمر أولئك الذين أهدوا إليه الغسل أن يأكلوا منه، فامتنعوا، واستغفوه من أكله، فلم يقبل منهم، وقال: من لم يأكل قُتل بالسيف؛ فأكلوا، فماتوا عن آخرهم.

فكتب إلى يوسف بن تاشفين: إنك قد أردت قتلي بكل وجه،

وسبب ذلك أنه ورد إلى بغداد، في بعض السنين، رجل أشقر من سواد النبل يدعي الأدب، والنجوم، ويستجري الناس، فلقبه أهل بغداد تلياً، وكان نازلاً في بعض الخانات، فسرق ثياباً من الديباج وغيره، وأخفاها في خلفاء، وسار بها، فرأها الذين يحفظون الطريق، فمتعوه من السفر، اتهاماً له، وحملوه إلى المقدم عليهم، فأطلقه لحرمة العلم.

فسار إلى أمير من أمراء العرب من بني عامر، وبلاده متاخمة الأحساء، وقال له: أنت تملك الأرض، وقد فعل أجدادك بالحاج كذا وكذا، وأفعالهم مشهورة، مذكورة في التواريخ؛ وحسن له نهب البصرة وأخذها، فجمع من العرب ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل، وقصد البصرة، وبها العميد عصمة، وليس معه من الجند إلا اليسير، لكون الدنيا آمنة من داعر، ولأن الناس في جنة من هينة السلطان، فخرج إليهم في أصحابه، وحاربهم، ولم يمكنهم من دخول البلد، فأناه من أخيره أن أهل البلد يريدون أن يسلموه إلى العرب، فخاف، ففارقهم، وقصد الجزيرة التي هي مكان القلعة بنهر معقل. (١٨٤/١٠)

فلما علم أهل البلد بذلك فارقوا ديارهم وانصرفوا، ودخل العرب حيثذ البصرة، وقد قويت نفوسهم، وملكوها، ونهبوا ما فيها نهباً شنيعاً، فكانوا ينهبون نهراً، وأصحاب العميد عصمة ينهبون ليلاً، وأحرقوا مواضع عدة، وفي جملة ما أحرقوا داران للكتب إحداهما وقفت قبل أيام عضد الدولة ابن بويه، فقال عضد الدولة: هذه مكرمة سبنا إليها، وهي أول دار وقفت في الإسلام. والأخرى وقفها الوزير أبو منصور بن شاه مردان، وكان بها نفائس الكتب وأعيانها، وأحرقوا أيضاً النحاسين وغيرها من الأمان.

وخربت وقوف البصرة التي لم يكن لها نظير، من جملتها: وقوف على الحمال الدائرة على شاطئ دجلة، وعلى الدواليب التي تحمل الماء وترقيه إلى قنن الرصاص الجارية إلى المصانع، وهي على فراسخ من البلد، وهي من عمل محمد بن سليمان الهاشمي وغيره.

وكان فعل العرب بالبصرة أول خرق جرى في أيام السلطان ملكشاه، فلما فعلوا ذلك، وبلغ الخبر إلى بغداد، انحدر سعد الدولة كوهرايين، وسيف الدولة صدقة بن مزيد إلى البصرة لإصلاح أمورها، فوجدوا العرب قد فارقوها.

ثم إن تلياً أخذ بالبحرين، وأرسل إلى السلطان، فشهره ببغداد سنة أربع وثمانين [وأربعمائة] على جمل، وعلى رأسه طرطور، وهو يصنع بالذرة، والناس يشتمونه، ويسبهم، ثم أمر به فصلب. (١٨٥/١٠)

ما ضره لوجاذب الإطلاق
إن كان قد لست عراب صذغو
قلبي، فإن رضاءه درساقي
وقال أيضاً:

فلتت من دبت شوقاً من محبي،
سمعت يتغنى، وهو مصطبغ،
وأخلفتك ابنة البكري ما وعدت،
وأصبح الخيل منها واهياً خلفاً
والصحيح أنه توفي سنة ثلاث وثمانين [وأربعمائة].

وفيهما، في جمادى الآخرة، توفي الشريف أبو القاسم العلوي،
الدبوسي، المدرس بالنظامية ببغداد، وكان فساداً فصيحاً.
(١٨٢/١٠)

سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة

ذكر وفاة فخر الدولة أبي نصر بن جهمير

في هذه السنة، في المحرم، توفي فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهمير الذي كان وزير الخليفة بمدينة الموصل، ومولده بها سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وتزوج إلى أبي العقارب شيخها، ونظر في إملاك جارية قرواش المعروفة بسرهنك، ثم خدم بركة بن المقلد، حتى قبض على أخيه قرواش وجبسه، ومضى بهدايا إلى ملك الروم، فاجتمع هو ورسول نصر الدولة بن مروان، فتقدم فخر الدولة عليه، فنازعه، رسول ابن مروان، فقال فخر الدولة لملك الروم: أنا أستحق التقدم عليه لأن صاحبه يؤدي الخراج إلى صاحبي.

فلما عاد إلى قریش بن بدران أراد القبض عليه، فاستجار بأبي الشداد، وكانت غفيل تجير على أمرائها، وسار إلى حلب، فوزر لمعز الدولة أبي ثمال بن صالح. ثم مضى إلى ملطية، ومنها إلى ابن مروان، فقال له: كيف أمتني وقد فعلت برسولي ما فعلت عند ملك الروم؟ فقال: حملني على ذلك نصيح صاحبي. فاستوزره، فعمر بلاده. (١٨٣/١٠)

وزر بعد نصر الدولة لولده، ثم سار إلى بغداد، وولتي وزارة الخليفة، على ما ذكرناه، وتولى أخذ ديار بكر من بني مروان، على ما ذكرناه أيضاً، ثم أخذها منه السلطان، فسار إلى الموصل فتوفي بها.

ذكر نهب العرب البصرة

وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، نهب العرب البصرة نهباً قبيحاً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قدم الإمام أبو عبد الله الطبري بغداد، في المحرم، بمنشور من نظام الملك بتوليته تدريس المدرسة النظامية، ثم ورد بعده، في شهر ربيع الآخر من السنة، أبو محمد عبد الوهاب الشيرازي، وهو أيضاً معه منشور بالتدريس، فاستقر أن يدرس يوماً، والطبري يوماً. (١٨٦/١٠)

سنة أربع وثمانين وأربعمائة

ذكر عزل الوزير أبي شجاع ووزارة عميد الدولة بن جهمير

في هذه السنة، في ربيع الأول، عزل الوزير أبو شجاع من وزارة الخليفة.

وكان سبب عزله أن إنساناً يهودياً ببغداد يقال له أبو سعد بن سمحا كان وكيل السلطان ونظام الملك، فلقبه إنسان ببيع الحُصُر، فصفعه صفقة أزالت عمامته عن رأسه، فأخذ الرجل، وحُمِلَ إلى الديوان، وسُئِلَ عن السبب في فعله، فقال: هو وضعني على نفسه؛ فسار كوهرايين ومعه ابن سمحا اليهودي إلى المعسكر يشكوان، وكانا متفقين على الشكاية من الوزير أبي شجاع.

فلما سارا خرج توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة بالغيار، ولُبِسَ ما شرط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فهبوا كل مهرب؛ أسلم بعضهم، فممن أسلم أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن موصلايا الكاتب، وابن أخيه أبو نصر هبة الله بن الحسن بن علي صاحب الخبر، أسلما على يدي الخليفة. (١٨٧/١٠)

ونقل أيضاً عنه إلى السلطان ونظام الملك أنه يكسر أغراضهم ويقبح أفعالهم، حتى إنه لما ورد الخبر بفتح السلطان سمرقند قال: وما هذا مما يُبشِّرُ به، كأنه قد فتح بلاد الروم، هل أنى إلا إلى قوم مسلمين موحدين، فاستباح منهم ما لا يستباح من المشركين!

فلما وصل كوهرايين وابن سمحا إلى المعسكر وشكوا من الوزير إلى السلطان ونظام الملك، وأخبرهما بجميع ما يقول عنهما، ويكسر من أغراضهما، أرسلوا إلى الخليفة في عزله، فعزله، وأمره بلزوم بيته، وكان عزله يوم الخميس، فلما أمر بذلك أنشد:

تولأها وليس له عذرٌ وفارها وليس له صديقٌ

فلما كان الغد، يوم الجمعة، خرج من داره إلى الجامع راجلاً، واجتمع الخلق العظيم عليه، فأمر أن لا يخرج من بيته، ولما عزل استناب في الوزارة أبو سعد بن موصلايا، كاتب الإنشاء، وأرسل الخليفة إلى السلطان ونظام الملك يستدعي عميد الدولة بن جهمير ليستوزره، فسير إليه، فاستوزره في ذي الحجة من هذه السنة،

وركب إليه نظام الملك، فهناه بالوزارة في داره، وأكثر الشعراء تهنته بالعود إلى الوزارة.

ذكر ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس التي للمسلمين

في هذه السنة، في رجب، ملك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، صاحب بلاد المغرب، من بلاد الأندلس ما هو بيد المسلمين: قوطبة وإشبيلية، وقبض على المعتمد بن عباد صاحبها، وملك غيرها من الأندلس.

ولقد جرى للرشد بن المعتمد حادثة شبيهة بحادثة الأمين محمد بن هارون (١٨٨/١٠) الرشيد. قال أبو بكر عيسى بن اللبابة الداني، من مدينة ذاتية: كنت يوماً عند الرشيد بن المعتمد في مجلس أسبوع سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، فجرى ذكر غرناطة، وملك أمير المسلمين لها، وقد ذكرنا أخذها في وقعة الزلاقة، فلما ذكرناها تفجع، وتلهف، واسترجع، وذكر قصرها، فدعونا لقصره بالدوام، ولملكه بتراخي الأيام فأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلي بالغناء فغنى:

يا دار مية بالغيا فالتسني أقوت وطال عليها سالف الأبد
فاستحالت مسرته، وتجهمت أسيرته. ثم أمر بالغناء من ستارته فغنى:

إن شئت أن لا ترى صبراً لمضطرب فانظر إلى أي حال أصبح الطفل
فتأكد تطيره، واشتد اربداد وجهه وتغيره، وأمر مغنية أخرى بالغناء، فغنت:

يا تلهف نفسي على مال أفرقت على المؤمنين من أهل المروءات
إن اضلرتني إلى من جاء يسألني ما ليس عندي من إحدى المصليات

قال ابن اللبابة: فتلايت الحال بأن قمت فقلت:

محل مكرمة لا هُدْ وشغل مأثرة لا شتة الله
البيت كالبيت لكن زاد ذا إن الرشيد مع المعتد ركناء
ثاو على أنجم الجوزاء وراحل في سبيل الله
حتم على الملك أن يقوى وقد بالشرق والغرب يمناه (١٨٩/١٠)

بأس توقد، فاحمرت لواحظه ونائل شب، فاخضرت عذاره
فلعمري قد بسطت من نفسه، وأعدت عليه بعض أسه، على
أنى وقعت فيما وقع فيه الكل بقولي البيت كالبيت، وأمر إثر ذلك بالغناء فغنى:

ولما قضينا من منى كل حاجة، ولم يبق إلا أن نرزم الركائب
فايقنا أن هذه الطير، تعقب الغير، فلما أراد أمير المسلمين ملك الأندلس سار من مراكش إلى سبتة، وأقام بها، وسير المعساكر مع سير بن أبي بكر وغيره إلى الأندلس، فعبروا الخليج فاتوا مدينة

مُرسية، فملكوها وأعمالها، وأخرجوا صاحبها أبا عبد الرحمن بن طاهر منها، وساروا إلى مدينة شاطبة ومدينة ذاتية فملكوها.

وكانت بلنسية قد ملكها الفرنج قديماً، بعد أن حصروها سبع سنين، فلما سمعوا بوقعة الزلاقة فارقوها، فملكها المسلمون أيضاً، وعمروها وسكنوها، فصارت الآن للمرابطين.

وكانوا قد ملكوا غرناطة نوبة الزلاقة، فقصدوا مدينة إشبيلية، وبها صاحبها المعتمد بن عباد، فحصروه بها، وضيّقوا عليه، فقاتل أهلها قتالاً شديداً، وظهر من شجاعة المعتمد، وشدة بأسه، وحسن دفاعه عن بلده ما لم يُشاهد من غيره ما يقاربه، فكان يُلقى نفسه في المواقف التي لا يُرجى خلاصه منها، فيسلم بشجاعته، وشدة نفسه، ولكن إذا نفذت المدة، لم تُغنِ العدة.

وكانت الفرنج قد سمعوا بقصد عساكر المرابطين ببلاد الأندلس، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا بلادهم، فجمعوا فأكثروا، وساروا ليساعدوا (١٩٠/١٠) المعتمد، وبعينوه على المرابطين، فسمع سير بن أبي بكر، مقدّم المرابطين، بمسيرهم، ففارق إشبيلية وتوجّه إلى لقاء الفرنج، فلقاهم، وقاتلهم، وهزمهم، وعاد إلى إشبيلية فحصرها، ولم يزل الحصار دائماً، والقتال مستمراً إلى العشرين من رجب من هذه السنة، فعظم الحرب ذلك اليوم، واشتد الأمر على أهل البلد، ودخله المرابطون من واديه، ونهب جميع ما فيه، ولم يبقوا على مَنبذ ولا بُدٍ، وسلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم، وسبّيت المختبرات، وانتَهكت الخُرّمات، فأخذ المعتمد أسيراً، ومعه أولاده الذكور والإناث، بعد أن استأصلوا جميع مالهم، فلم يصحبهم من ملوكهم بُلغة زاد.

وقيل إنَّ المعتمد سلّم البلد بأمان، وكتب نسخة الأمان والعهد، واستحلفهم به لنفسه، وأهله، وماله، وعبيده، وجميع ما يتعلّق بأسيابه، فلما سلّم إليهم إشبيلية لم يفوا له، وأخذوهم أسراء، ومالهم غنيمة، وسبّر المعتمد وأهله إلى مدينة أغمات، فحُسبوا فيها، وفعل أمير المسلمين بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممّن قبله، ولا يفعلها أحد ممّن يأتي بعده، إلا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة، وذلك أنّه سجنهم فلم يُجر عليهم ما يقوم بهم، حتّى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقنهن على أنفسهن، وذكر ذلك المعتمد في أبيات تردّد عند ذكر وفاته، فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدرة.

وأغمات هذه مدينة في سفح جبل بالقرب من مراكش، وسبّر ذكر المعتمد عند موته، سنة ثمان وثمانين [وأربعمائة]، ما يُعرّف به محلّه.

قال أبو بكر بن اللبّانة: رُزّت المعتمد بعد أسره بأغمات، وقلتُ أبيتاً (١٩١/١٠) عند دخولي إليه، منها:

لَمْ أَقُلْ فِي الثَّغْرِ كَانَ ثَقَافًا، كُنْتُ قَلْبًا بِهِ، وَكَانَ شَغَافًا،
يَمَكْتُ الزُّهْرُ فِي الْكِامِ، وَلَكِنْ
وَإِذَا مَا الْهَلَالُ غَابَ يَغِيَمُ
إِنَّمَا أَنْتَ فُرَّةٌ لِلْمَعَالِي،
حَجَبَ الْيَتِّ مِنْكَ شَخْصًا كَرِيماً،
أَنْتَ لِلْفَضْلِ كَبِيَّةٌ، وَلَوْ أَنْتِي
قَالَ: وَجَرْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَخَاطِبَاتُ الْيَدِّ مِنْ غَفَلَاتِ الرَّقِيبِ،
وَأَشْهَى مِنْ رَشَفَاتِ الْحَبِيبِ، وَأَدَلَّ عَلَى السَّمَاحِ، مِنْ فَجْرِ عَلَى
صَبَاحٍ.

وَلَمَّا أُخِذَ الْمَعْتَمِدُ وَأَهْلُهُ قُتِلَ وَلَدَاهُ الْفَتْحُ وَيَزِيدُ بَيْنَ يَدَيْهِ
صَبْرًا، فَقَالَ فِي ذَلِكَ:

يَقُولُونَ صَبْرًا لَا سَبِيلَ إِلَى الصَّبْرِ
أَتَحَبُّ لَقَدْ فَحَسْتُ لِي بِبَابِ رَحْمَةٍ
هَوَى بِكَمَا الْمَقْدَارُ عَنِّي وَلَمْ أَتُتْ
وَلَوْ عَلِمْتُمْ لَاخِرَتُنَا الْعَوْدَ فِي الثَّرَى
أَبَا خَالِدٍ أَوْرَثَنِي الْجَبْتَ خَالِدًا

وكان المعتمد يكاثره فضلاء البلاد، وهو محبوب، بالشر والنظم، يتوجعون له، ويذمون الزمان وأهله، حيثُ مثله منكوب، فمن ذلك ما قاله عبد الجبار (١٩٢/١٠) ابن أبي بكر بن حمديس، وكتبه إليه يذكر مسيرهم عن إشبيلية إلى أغمات:

جَزَى لَكَ جَدُّ بِالْكَرَامِ عُسُورُ
وَجَزَى زَمَانٌ كُنْتُ مِنْهُ تُجِيرُ
لَقَدْ أَصْبَحْتُ يَهْرُ الطَّلَى فِي غَمُودِهَا
إِنَّمَا لَزَّكَ الْفُسْرِبُ، وَفِي ذُكُورُ
وَلَمَّا رَخَلْتُمْ بِالْأَنْدَلِ فِي أَفْكَكُمْ
وَقَلِيلَ رَضْوَى مِنْكُمْ وَبَسِيرُ
رَفَعْتُ لِسَانِي بِالْقِيَامَةِ قَدْ أَتَتْ
الْأَفَانُظُورُ كَيْفَ الْجِبَالِ تَسِيرُ
وقال شاعره ابن اللبّانة في حادثته أيضاً:

نَيْكِي السَّمَاءُ بَدَمْعٍ رَاحِعٍ غَادِي
عَلَى الْبَهَائِلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَادِ
عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي مُنَّتْ قَوَاعِلُهَا
وَكَاثِرَ الْأَرْضِ مِنْهَا تَحْتَ أَوْتَادِ
عَرِيضَةً دَخَلَتْهَا النَّبَاتُ عَلَى
أَسَاوِدِ مِنْهُمْ فِيهَا وَأَسَاوِدِ
وَكَبِيَّةٌ كَانَتْ الْأَسَالُ تَمُرُّهَا
فَالْيَوْمَ لَا عَاكِفَ فِيهَا، وَلَا بَادِ

وَلَمَّا اسْتَقْصَى عَسْكَرُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ مَلُوكَ الْأَنْدَلُسِ، وَأَخَذَ
بِلَادَهُمْ، جَمَعَ مَلُوكَهُمْ وَسَيَرَهُمْ إِلَى بِلَادِ الْغَرْبِ، وَفَرَّقَهُمْ فِيهَا؛
﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا
أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤].

وَلَمَّا فَرِغَ سِيرُ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ إِلَى الْمَرْيَةِ فَنَازَلَهَا، وَكَانَ صَاحِبُهَا
مُحَمَّدُ بْنُ مَعْنٍ بْنِ صُمَادِحٍ، فَقَالَ لَوْلَدُهُ: مَا دَامَ الْمَعْتَمِدُ بِإِشْبِيلِيَّةَ فَلَا
نَبَالِي بِالْمُرَابِطِينَ. فَلَمَّا سَمِعَ بِمَلِكِهِمْ لَهَا، وَمَا جَرَى لِلْمَعْتَمِدِ، مَاتَ
فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ غَمًّا وَكَمَدًا، فَلَمَّا مَاتَ سَارَ وَلَدُهُ الْحَاجِبُ وَأَهْلُهُ فِي
مَرَآكِبٍ، وَمَعَهُمْ كُلُّ (١٩٣/١٠) مَالِهِمْ، وَقَصَدُوا بِلَادَ بَنِي حَمَادٍ،

فأحسنوا إليهم.

وصغيرهم، فحصره في قصره في المحرم سنة عشر وأربعمائة، وأشرفوا على أخذه، فخرج إليهم أبوه يوسف في محفة، وكانوا له محبين، فلفظ بهم ورقق، فبكوا رحمة له من مرضه، وذكروا له ما أحدث ابنه عليهم، وطلبوا أن يستعمل ابنه أحمد المعروف بالأكلح، ففعل ذلك.

وخاف يوسف على ابنه جعفر منهم، فسيّره في مركب إلى مصر، وسار أبوه يوسف بعده، ومعهما من الأموال ستمائة ألف دينار وسبعون ألفاً، وكان ليوسف من الدواب ثلاثة عشر ألف جحجرة، سوى البغال وغيرها (١٩٥/١٠) ومات بمصر وليس له إلا ذابة واحدة.

ولما ولي الأكلح أخذ أمره بالخزم والاجتهاد، وجمع المقاتلة، وبت سراياه في بلاد الكفرة، فكانوا يحرقون، ويغنمون، ويسبون، ويخربون البلاد، وأطاعه جميع قلاع صقلية التي للمسلمين.

وكان للأكلح ابن اسمه جعفر كان يستنبيه إذا سافر، فخالف سيرة أبيه، ثم إن الأكلح جمع أهل صقلية وقال: أحب أن أشليكم على الإفريقيين الذين قد شاركوكم في بلادكم، والرأي إخراجهم؛ فقالوا: قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً؛ فصرهم، ثم أرسل إلى الإفريقيين، فقال لهم مثل ذلك، فأجابوه إلى ما أراد، فجمعهم حوله، فكان يحمي أملاكهم، ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية، فسار من أهل صقلية جماعة إلى المعز ابن باديس، وشكوا إليه ما حلّ بهم، وقالوا: نحب أن نكون في طاعتك، وإلا سلّمنا البلاد إلى الروم، وذلك سنة سبع وعشرين وأربعمائة، فسير معهم ولذّة عبد الله في عسكر، فدخل المدينة، وحصر الأكلح في الخلاصة، ثم اختلف أهل صقلية، وأراد بعضهم نصرة الأكلح، فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعز.

ثم إن الصقليين رجع بعضهم على بعض، وقالوا: أدخلتم غيركم عليكم، والله لا كانت عاقبة أمركم فيه إلى خير فعزموا على حرب عسكر المعز، فاجتمعوا وزحفوا إليهم، فاقتلوا، فانهزم عسكر المعز، وقتل منهم ثمانمائة رجل، ورجعوا في المراكب إلى إفريقية، وولي أهل الجزيرة عليهم حسناً الصمصام، أخا الأكلح، فاضطربت أحوالهم، واستولى الأراذل، وانفرد كل إنسان ببلده، وأخرجوا الصمصام، فانفرد القائد عبد الله بن منكوت بمآزر (١٩٦/١٠) وطرابلس وغيرها، وانفرد القائد علي بن نعمة، المعروف بابن الحوأس، بقصر يانة وجرجنت وغيرها، وانفرد ابن الثمنة بمدينة سرقوسة، وقطانية، وتزوج باخت ابن الحوأس.

ثم إنه جرى بينها وبين زوجها كلام فاعلظ كل منهما لصاحبه، وهو سكران فأمر ابن الثمنة بفصلها في عضديها، وتركها لتموت،

وكان عمر بن الأفطس، صاحب بطليوس، ممن أغان سير على المعتمد، فلما فتحت إشبيلية رجع ابن الأفطس إلى بلده، فسار إليه سير، وحاربه، فغلبه، وأخذ بلده منه، وأخذه أسيراً هو وولده الفضل، فقتلها، فقال عمر حين أرادوا قتله: قدّموا ولدي قبلي للقتل ليكون في صحيفتي! فقتل ولده قبله، وقتل هو بعده، واحتوى سير على ذخائرهم وأموالهم.

ولم يترك من ملوك الأندلس سوى بني هود، فإنه لم يقصد بلادهم، وهي شرق الأندلس، وكان صاحبها حينئذ المستعين بالله بن هود، وهو من الشجعان الذين يضرب المثل بهم، وكان قد أخذ كل ما يحتاج إليه في الحصار، وترك عنده ما يكفيه عدة سنين بمدينة روطّة، وكانت قلعة حصينة، وكانت رعيته تخافه، ولم يزل يهادي أمير المسلمين، قبل أن يقصد بلاد الأندلس ويملكها، ويواصله، ويكثر مراسلته، فرعى له ذلك، حتى إنه أوصى ابنه علي بن يوسف عند موته بترك التعرض لبلاد بني هود، وقال: أتركهم بينك وبين العدو، فإنهم شجعان.

ذكر ملك الفرنج جزيرة صقلية

في هذه السنة استولى الفرنج، لعنهم الله، على جميع جزيرة صقلية، أعادها الله تعالى إلى الإسلام والمسلمين. (١٩٤/١٠)

وسبب ذلك أن صقلية كان الأمير عليها سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة أبا الفتح يوسف بن عبد الله بن محمد بن أبي الحسين، ولأه عليها العزيز العلوي، صاحب مصر وإفريقية، فأصابه هذه السنة فالج، فتعطل جانب الأيسر، وضعف الجانب الأيمن، فاستتاب ابنه جعفر، فبقي كذلك ضابطاً للبلاد، حسن السيرة في أهلها إلى سنة خمس وأربعمائة، فخالف عليه أخوه علي، وأعانه جمع من البربر والعبيد، فأخرج إليه أخوه جعفر جنداً من المدينة، فاقتلوا سابع شعبان، وقتل من البربر والعبيد خلق كثير، وهرب من بقي منهم وأخذ علي أسيراً فقتله أخوه جعفر، وعظم قتله على أبيه، فكان بين خروجه وقتله ثمانية أيام.

وأمر جعفر حينئذ أن يُنفى كل بربري بالجزيرة، فنُفوا إلى إفريقية، وأمر بقتل العبيد، فقتلوا عن آخرهم وجعل جنده كلهم من أهل صقلية، فقلّ العسكر بالجزيرة، وطمع أهل الجزيرة في الأمراء، فلم يعض إلا يسير حتى ثار به أهل صقلية، وأخرجوه، وخلعوه، وأرادوا قتله.

وسبب ذلك أنه ولي عليهم إنساناً صادرهم، وأخذ الأعشار من غلاتهم، واستخف بقوادهم وشيوخ البلد، وقهر جعفر إخوته، واستنطال عليهم، فلم يشعر إلا وقد زحف إليه أهل البلد كبيرهم

سهم غرب فقتله، فملك العسكر عليهم أيوب.

ثم وقع بعد ذلك بين أهل المدينة وبين عبيد تميم فتنة أدت إلى القتال، ثم زاد (١٩٨/١٠) الشر بينهم، فاجتمع أيوب وعليّ أخوه، ورجعا في الأسطول إلى إفريقية سنة إحدى وستين [وأربعمائة]، وصحبهم جماعة من أعيان صقلية والأسطولية، ولم يبق للفرنج ممانع، فاستولوا على الجزيرة، ولم يثبت بين أيديهم غير قَصْرَيَانَة وجُرْجَنْت، فحصرهما الفرنج، وضيقوا على المسلمين بهما، فضاقت الأمور على أهلها حتى أكلوا الميتة، ولم يبق عندهم ما يأكلونه، فأما أهل جُرْجَنْت فسلموها إلى الفرنج، وبقيت قَصْرَيَانَة بعدها ثلاث سنين، فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم، فتسلمها الفرنج، لعنهم الله، سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وملك رجاء جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين، ولم يترك لأحد من أهلها حمأماً، ولا دكاناً، ولا طاحوناً.

ومات رجاء، بعد ذلك، قبل التسعين والأربعمائة، وملك بعده ولده رجاء، فسلك طريق ملوك المسلمين من الجنايب والحجاب، والسلاحية، والجندارية، وغير ذلك، وخالف عادة الفرنج، فإنهم لا يعرفون شيئاً منه، وجعل له ديوان المظالم تُرفع إليه شكوى المظلومين، فينصفهم ولو من ولده، وأكرم المسلمين، وقربهم ومنع عنهم الفرنج، فأحبوه، وعمر أسطولاً كبيراً، وملك الجزائر التي بين المهدية وصقلية، مثل مالطة، وقوصرة، وجربة، وقرقنة، وتناولوا إلى سواحل إفريقية، فكان منه ما نذكره إن شاء الله. (١٩٩/١٠)

ذكر وصول السلطان إلى بغداد

في هذه السنة، في شهر رمضان، وصل السلطان إلى بغداد، وهي المرة الثانية، ونزل بدار المملكة، ونزل أصحابه متفرقين، ووصل إليه أخوه تاج الدولة تَش، وقسم الدولة أَسْتَقْر، صاحب حلب، وغيرهما من زعماء الأطراف، وعُمل الميلاد ببغداد، وتأنقوا في عمله، فذكر الناس أنهم لم يروا ببغداد مثله أبداً، وأكثر الشعراء وصف تلك الليلة، فممن قال المظفر:

وكل نار على المشتاق مُضَرَكِي
من نار قلبي، أو من ليلِ السَّنَقِي
نار تجلّت بها الظلماء، واشتَبَهَتْ
بُسْدَقِ الليل فيه غُرةَ القَلَسِي
وزارت الشمسُ فيها البدرَ واصطَلحا
على الكواكب بعدَ الفَيْظِ والحنَقِي
مدّت على الأرضُ بسطاً من جواهرها
ما بينَ مجتمعٍ ولرٍ ومُفْتَرَقِي
مثل المصاييح إلا أنها نَزَلَتْ
من السماء بلا رَجْمٍ ولا خَرَقِي
أعجبَ بِنارٍ وروضانٍ يَسْقُرُها
ومالك قائمٌ منها على فَرْقِي
في مجلس ضحكْت روضُ الجنان لهُ
لما جلا ثمره عن واضح بَقْنِي
وللشموغ عيونٌ كلما تَنَظَّرَتْ
تظلمت من بينها أنجمُ العَسْنِي
من كل مُرْقَنَة الأعطاف كالقُصْنِ
المَيَادِ، لكنّه عابٍ من الوَرَقِي

فسمع ولده إبراهيم، فحضر، وأحضر الأطباء، وعالجها إلى أن عادت قوتها، ولما أصبح أبوه ندم، واعتذر إليها بالسكر، فأظهرت قبول غُدره.

ثم إنَّها طلبت منه بعد مدة أن تزور أخاها، فأذن لها، وسير معها التَّخَفُّ والهدايا، فلما وصلت ذكرت لأخيها ما فعل بها، فحلف أنه لا يُعيدُها إليه، فأرسل ابن الثمعة يطلبها، فلم يردّها إليه، فجمع ابن الثمعة عسكره، وكان قد استولى على أكثر الجزيرة، وخطب له بالمدينة، وسار، وحصر ابن الحوَّاس بقَصْرَيَانَة، فخرج إليه فقاتله، فانهزم ابن الثمعة، وتبعه إلى قرب مدينته قَطَانِيَة، وعاد عنه بعد أن قتل من أصحابه فأكثروا.

فلما رأى ابن الثمعة أنَّ عساكره قد تَمَزَقَتْ، سوَّكت له نفسه الانتصار بالكفَّار لما يريده الله تعالى، فسار إلى مدينة مالطة، وهي بيد الفرنج قد ملكوها لما خرج بروديل الفرنجي الذي تقدّم ذكره سنة اثنتين وسبعين وثلاث مائة، واستوطنها الفرنج إلى الآن، وكان ملكها حينئذ رجاء الفرنجي في جمع من الفرنج، فوصل إليهم ابن الثمعة وقال: أنا أملككم الجزيرة! فقالوا: إنَّ فيها جنداً كثيراً، ولا طاقة لنا بهم؛ فقال: إنَّهم مختلفون، وأكثرهم يسمع (١٩٧/١٠) قولِي، ولا يخالفون أمرِي، فساروا معه في رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة، فلم يلقوا من يدافعهم، فاستولوا على ما مروا به في طريقهم، وقصد بهم إلى قَصْرَيَانَة فحصروها، فخرج إليهم ابن الحوَّاس، فقاتلهم، فهزمه الفرنج، فرجع إلى الحصن، فرحلوا عنه، وساروا في الجزيرة، واستولوا على مواضع كثيرة، وفارقها كثير من أهلها من العلماء والصالحين، وسار جماعة من أهل صقلية إلى المعز بن باديس، وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخلف، وغلبة الفرنج على كثير منها، فعمر أسطولاً كبيراً، وشحنه بالرجال والمُدد، وكان الزمان شتاء، فساروا إلى قَوْصَرَة، فهاج عليهم البحر، ففرق أكثرهم، ولم ينج إلا القليل.

وكان ذهاب هذا الأسطول ممّا أضعف المعز، وقوى عليه العرب، حتّى أخذوا البلاد منه، فملك حينئذ الفرنج أكثر البلاد على مهل وتؤدّة، لا يمنعهم أحد، واشتغل صاحب إفريقية مما دهمه من العرب، ومات المعز سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وولي ابنه تميم، فبعث أسطولاً وعسكراً إلى الجزيرة، وقدم عليه ولديه أيوب وعليّ، فوصلوا إلى صقلية، فنزل أيوب والعسكر المدينة، ونزل عليّ جُرْجَنْت، ثم انتقل أيوب إلى جُرْجَنْت، فأمر عليّ بن الحوَّاس أن ينزل في قصره، وأرسل هدية كثيرة.

فلما أقام أيوب فيها أحبه أهلها، فحسده ابن الحوَّاس، فكتب إليهم ليُخرجوه، فلم يفعلوا، فسار إليه في عسكره، وقاتله، فشَدَّ أهل جُرْجَنْت من أيوب، وقاتلوا معه، فبينما ابن الحوَّاس يقاتل أناه

(٢٠٠/١٠)

إنسي لأعجب منها، وفي وادعةً تكي، وعيشها من ضربة العُشَيّ
وفي هذه المرة أمر بعمارة جامع السلطان، فابتدئ في عمارته
في المحرم سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وعمل قبلته بهرام
منجمه، وجماعة من أصحاب الرصد، وابتدأ بعده نظام الملك،
وتاج الملوك، والأمراء الكبار يعمل دور لهم يسكنونها إذا قدموا
بغداد، فلم تطل مدتهم بعدها، وتفرق شملهم بالموت، والقتل،
وغير ذلك في باقي سنتهم، ولم تغن عنهم عساكرهم وما جمعوا
شيئاً، فسبحان الدائم الذي لا يزول أمره.

ذكره عذّة حوادث

في هذه السنة وصل ابن أبي هاشم من مكة مستغيثاً من
التركماني.

وفي آخرها مرض نظام الملك ببغداد، فعالج نفسه بالصدقة،
فكان يجتمع بمدرسته من الفقراء والمساكين من لا يُحصى،
وتصدق عنه الأعيان، والأمراء من عسكر السلطان، فعوفي، وأرسل
[له] الخليفة خلعة نفيسة.

وفيهما، في تاسع شعبان، كان بالشام، وكثير من البلاد، زلازل
كثيرة، وكان أكثرها بالشام، ففارق الناس مساكنهم، وانهدم بأنطاكية
كثير من المساكن، وهلك تحتها عالم كثير، وخرب من سورها
تسعون برجاً، فأمر السلطان ملكشاه بعمارتها.

وفيهما، في شوال، توفي أبو طاهر عبد الرحمن بن محمد بن
علك (٢٠١/١٠) الفقيه الشافعي، وهو من رؤساء الفقهاء الشافعية،
وهو الذي تقدّم ذكره في فتح سمرقند، ومشى أرباب الدولة
السلطانية كلهم في جنازته، إلا نظام الملك، فإنه اعتذر بعلو السن،
وأكثر البكاء عليه، ودفن عند الشيخ أبي إسحاق بباب ابرز، وزار
السلطان قبره.

وتوفي محمد بن عبد الله بن الحسين أبو بكر الناصح الحنفي،
قاضي الري، وكان من أعيان الفقهاء الحنفية يميل إلى الاعتزال،
وكان موته في رجب.

وفيهما في شعبان توفي أبو الحسن علي بن الحسين بن طاووس
المقري بمدينة صور. (٢٠٢/١٠)

سنة خمس وثمانين وأربعمائة

ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج بجيان

في هذه السنة جمع أذفونش عساكره، وجموعه، وغزا بلاد
جيان من الأندلس، فلقية المسلمون وقتلوه، واشتدت الحرب،

فكانت الهزيمة أولاً على المسلمين، ثم إن الله تعالى رد لهم الكرة
على الفرنج، فهزموهم، وأكثروا القتل فيهم، ولم ينبج إلا الأذفونش
في نفر يسير، وكانت هذه الواقعة من أشهر الوقائع، بعد الزلافة،
وأكثر الشعراء ذكروها في أشعارهم.

ذكر استيلاء تثنش على حمص وغيرها من ساحل الشام

لما كان السلطان ببغداد قدم إليه أخوه تاج الدولة تثنش من
دمشق، وقسيم الدولة آقسنقر من حلب، ويوزان من الرها، فلما أذن
لهم السلطان في العود إلى بلادهم أمر قسيم الدولة ويوزان أن
يسيرا مع عساكرهما في خدمة أخيه تاج الدولة، حتى يستولي على
ما للخليفة المستنصر العلوي، بساحل الشام، من البلاد، ويسير،
وهم معه، إلى مصر ليملكها.

فساروا أجمعون إلى الشام، ونزل على حمص، وبها ابن
ملاعب صاحبها، (٢٠٣/١٠) وكان الضرر به وبأولاده عظيماً على
المسلمين، فحصرها البلد، وضيقوا على من به، فملكه تاج الدولة،
وأخذ ابن ملاعب ولديته، وسار إلى قلعة غرقة فملكها عنوة،
وسار إلى قلعة أفامية فملكها أيضاً، وكان بها خادم للمصري فنزل
بالأمان فأمته، ثم سار إلى طرابلس فأنزلها، فرأى صاحبها جلال
الملك ابن عمار جيشاً لا يدفع إلا بحيلة، فأرسل إلى الأمراء الذين
مع تاج الدولة، وأطمعهم ليصلحوا حاله، فلم ير فيهم مطمعاً.

وكان مع قسيم الدولة آقسنقر وزير له اسمه زرين كمر، فرأسله
ابن عمار فرأى عنده لئناً، فأنحفه وأعطاه، فسعى مع صاحبه قسيم
الدولة في إصلاح حاله ليدفع عنه وحمل له ثلاثين ألف دينار،
وتحفاً بمثلها، وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد،
والتقدم إلى التواب بتلك البلاد بمساعدته، والشد معه، والتحذير
من محاربتهم، فقال آقسنقر لتاج الدولة تثنش: لا أقاتل من هذه
المناشير بيده، فأغلظ له تاج الدولة، وقال: هل أنت إلا تابع لي؟
فقال آقسنقر: أنا أتابعك إلا في معصية السلطان؛ ورحل من الغد
عن موضعه، فاضطر تاج الدولة إلى الرحيل، فرحل غضبان، وعاد
يوزان أيضاً إلى بلاده، فانتقض هذا الأمر.

ذكر ملك السلطان اليمني

وكان ممن حضر أيضاً عند السلطان ببغداد جيق أمير التركمان،
وهو صاحب قرميسين وغيرها، فأمره السلطان أن يسير هو ومعه
جماعة من أمراء السلطان (٢٠٤/١٠) ذكرهم، إلى الحجاز واليمن،
ويكون أمرهم إلى سعد الدولة كوهرايين، ليفتحوا البلاد هناك،
فاستعمل عليهم سعد الدولة أميراً اسمه ترشك، فساروا حتى وردوا
اليمن، فاستولوا عليها، وأسأوا السيرة في أهلها، ولم يتركوا فاحشة
ولا سيئة إلا ارتكبوها، وملكوا عدن، وظهر على ترشك الجدري،
فتوفي في سابع يوم من وصوله إليها، وكان عمره سبعين سنة، فعاد

فإن عزم على تغيير (٢٠٦/١٠) فليتزود للاحتياط قبل وقوعه، وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه؛ وأطال فيما هذا سبيله، ثم قال لهم: قولوا للسلطان عني مهما أردتم، فقد أهتمني ما لحقني من توبيخه وقت في عضدي.

فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما جرى عن السلطان، وأن يقولوا له ما مضمونه العبودية والتبذل، ومضوا إلى منازلهم، وكان الليل قد انتصف، ومضى يلبد إلى السلطان فأعلمه ما جرى، وبكر الجماعة إلى السلطان، وهو ينتظرهم، فقالوا له من الاعتذار والعبودية ما كانوا اتفقوا عليه، فقال لهم السلطان: إنه لم يقل هذا، وإنما قال كيت وكيت؛ فأشاروا حينئذ بكتمان ذلك رعاية لحق نظام الملك، وسابقتها، فوقع التدبير عليه، حتى تم عليه من القتل ما سم، ومات السلطان بعده بخمسة وثلاثين يوماً، وانحلت الدولة، ووقع السيف، وكان قول نظام الملك شبه الكرامة له، وأكثر الشعراء مراثية، فمن جيد ما قيل فيه قول شبل الدولة مقاتل بن عطية:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً يتيمةً صاغها الرحمن من شرف
عزّت، فلم تُسرف الأيام قيمتها فرثها غيرُ منه، إلى الضدِّ
ورأى بعضهم نظام الملك بعد قتله في المنام، فسأله عن حاله، فقال: كان يعرض عليّ جميع عملي لولا الحديدية التي أصيبت بها؛ يعني القتل. (٢٠٧/١٠)

ذكر ابتداء حاله وشيء من أخباره

أما ابتداء حاله، فكان من أبناء الدهاقين بطوس، فزال ما كان لأبيه من مال، وملك، وتوفيت أمه وهو رضيع، فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبةً، حتى شب، وتعلم العربية، وميز الله فيه يدعو إلى علو الهمة، والاشتغال بالعلم، فتفقه، وصار فاضلاً، وسمع الحديث الكثير، ثم اشتغل بالأعمال السلطانية، ولم يزل الدهر يعمل به ويخفّض حضراً وسفراً.

وكان يطوف بلاد خراسان، ووصل إلى غزنة في صحبة بعض المتصرفين، ثم لزم أبا عليّ بن شاذان متولّي الأمور ببلخ لدواد والد السلطان ألب أرسلان، فحسنت حاله معه، وظهرت كفايته وأمانته، وصار معروفاً عندهم بذلك، فلما حضرت أبا عليّ بن شاذان الوفاة أوصى الملك ألب أرسلان به، وعرفه حاله، فولاه شغلّه، ثم صار وزيراً له إلى أن ولي السلطنة بعد عمه طغرل بك، واستمر على الوزارة لأنه ظهرت منه كفاية عظيمة، وآراء سديدة قادت السلطنة إلى ألب أرسلان، فلما توفي ألب أرسلان قام بأمر ابنه ملكشاه، وقد تقدّم ذكر هذه الجمل مستوفى مشروحاً.

وقيل إن ابتداء أمره أنه كان يكتب للأمير تاجر، صاحب بلخ، وكان الأمير يصادره في رأس كلّ سنة، ويأخذ ما معه، ويقول له: قد سمعت يا حسن! ويدفع إليه فرساً ومقرعة ويقول: هذا يكفيك؛

أصحابه إلى بغداد، وحملوه، فدفنوه عند قبر أبي حنيفة، رحمة الله عليه.

ذكر مقتل نظام الملك

في هذه السنة، عاشر رمضان، قتل نظام الملك أبو عليّ الحسن بن عليّ ابن إسحاق الوزير بالقرب من نهاوند، وكان هو والسلطان في أصبهان، وقد عاد إلى بغداد، فلما كان بهذا المكان، بعد أن فرغ من إبطاره، وخرج في محفّته إلى خيمة حرّمه، أتاه صبيّ ديلمّي من الباطنية، في صورة مستمع، أو مستغيث، فضربه بسكين كانت معه، فقتل عليه وهرب، فعثر بطنب خيمة، فأدركوه فقتلوه، وركب السلطان إلى خيمه، فسكن عسكره وأصحابه.

وبقي وزير السلطان ثلاثين سنة سوى ما وزر للسلطان ألب أرسلان، صاحب خراسان، أيام عمه طغرل بك، قبل أن يتولّى السلطنة، وكان علت سنّه، فإنه كان مولده سنة ثمان وأربعمائة. (٢٠٥/١٠)

وكان سبب قتله أن عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك كان قد ولّاه جده نظام الملك رئاسة مرو، وأرسل السلطان إليها شيخه يقال له قودن، وهو من أكبر مالكيه، ومن أعظم الأمراء في دولته، فجرى بينه وبين عثمان منازعة في شيء، فحمل عثمان حداثة سنّه، وتمكّنه وطمعه بجده، على أن قبض عليه، وأحرق به، ثم أطلقه، فقصّد السلطان مستغيثاً شاكياً، فأرسل السلطان إلى نظام الملك رسالة مع تاج الدولة ومجد الملك البلاساني وغيرهما من أرباب دولته يقول له: إن كنت شريكاً في الملك، ويدك مع يدي في السلطنة، فلذلك حكم، وإن كنت نائبي، وبحكمي، فيجب أن تلزم حدّ التبعية والنيابة، وهؤلاء أولادك قد استولوا كلّ واحد منهم على كورة عظيمة، وولي ولاية كبيرة، ولم يقتنعهم ذلك، حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا؛ وأطال القول، وأرسل معهم الأمير يلبد، وكان من خواصّه وثقاته، وقال له: تعرّفني ما يقول، فربّما كنتم هؤلاء شيئاً.

فحضروا عند نظام الملك وأوردوا عليه الرسالة، فقال لهم: قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أنني شريك في الملك فاعلم، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتديري ورأيي، أما يذكر حين قتل أبوه فقمّت بتدبير أمره، وقمعت الخوارج عليه من أهله، وغيرهم، منهم: فلان وفلان، وذكر جماعة من خرج عليه، وهو ذلك الوقت يتمسك بي ويلزمني، ولا يخالفني، فلما قدت الأمور إليه، وجمعت الكلمة عليه، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة، وأطاعه القاصي والداني، أقبل يتجنّى لي الذنوب، ويسمع في السعايات؟ قولوا له عني: إن ثاب تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة، وإن اتفقاها رباط كلّ رغبة وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقت هذه زالت تلك،

فلما طال ذلك عليه أخفى ولديه فخر الملك، ومؤيد الملك، فيه.

وقال نظام الملك: كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أقفد فيه لعبادة ربي، ثم بعد ذلك تمنيت أن يكون لي قطعة أرض اتقوت بريعها، ومسجد أعبد الله فيه، وأما الآن فأنا أتمنى أن يكون لي رغيف كل (٢١٠/١٠) يوم، ومسجد أعبد الله فيه.

وقيل: كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر نظام الملك، فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وفزب المقطوع إليه فأكل معه.

وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه، يقربهم إليه، ويدنيههم، وأخباره مشهورة كثيرة، قد جمعت لها المجاميع السائرة في البلاد.

ذكر وفاة السلطان وذكر بعض سيرته

سار السلطان ملكشاه، بعد قتل نظام الملك، إلى بغداد، ودخلها في الرابع والعشرين من شهر رمضان، ولقيه وزير الخليفة عميد الدولة بن جهير، وظهرت من تاج الملك كفاية عظيمة، وكان السلطان قد أمر أن تفصل خلج الوزارة لتاج الملك، وكان هو الذي سعى بنظام الملك، فلما فرغ من الخلع، ولم يبق غير لبسها والجلوس في الدست، اتفق أن السلطان خرج إلى الصيد، وعاد ثالث شوال مريضاً، وأنشب الموت أطفاله فيه، ولم يمنع عنه سعة ملكه، وكثرة عساكره.

وكان سبب مرضه أنه أكل لحم صيد فحمّ وافتصد، ولم يستوف إخراج الدم، فنقل مرضه، وكانت حُمى محرقة، فتوفي ليلة الجمعة، النصف من شوال. (٢١١/١٠)

ولما نقل نقل أرباب دولته أموالهم إلى حريم دار الخلافة، ولما توفي سترت زوجته تركان خاتون المعروفة بخاتون الجلالية موته وكنيته، وأعادته جعفر ابن الخليفة من ابنة السلطان إلى أبيه المقتدي بأمر الله، وسارت من بغداد والسلطان معها محمولاً، وبذلت الأموال للأمرء سراً، واستحلفتهم لابنها محمود، وكان تاج الملك يتولى ذلك لها، وأرسلت قوام الدولة كربوقا الذي صار صاحب الموصل إلى أصبهان بخاتم السلطان، فاستنزل مستحفظ القلعة، وتسلمها، وأظهر أن السلطان أمره بذلك، ولم يُسمع بسلطان مثله لم يُصل عليه أحد، ولم يُطعم عليه وجه.

وكان مولده سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى، وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وحمل

وهرب إلى جفري بك داود، والد ألب أرسلان، فوقف فرسه في الطريق، فقال: اللهم إني أسألك فرساً (٢٠٨/١٠) تخلصني عليه! فسار غير بعيد، فلقيه تركماني وتحت فرس جواد، فقال لنظام الملك: انزل عن فرسك؛ فنزل عنه، فآخذه التركماني وأعطاه فرسه، فركبه وقال له: لا تسني يا حسن. فقال نظام الملك: فقويت نفسي بذلك، وعلمت أنه ابتداء سعادة، فسار نظام الملك إلى مرو، ودخل على داود، فلما رآه أخذ بيده، وسلمه إلى ولده ألب أرسلان، وقال له: هذا حسن الطوسي، فتسلمه، واتخذته والداً لا تخالفة.

وكان الأمير تاجر لما سمع بهرب نظام الملك سار في أثره إلى مرو، فقال لداود: هذا كاتبي ونائبي قد أخذ أموالي؛ فقال له داود: حديثك مع محمد؛ يعني ألب أرسلان، فكان اسمه محمداً، فلم يتجاسر تاجر على خطابه، فتركه وعاد.

وأما أخباره، فإنه كان عالماً، ديناً، جواداً، عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقراء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح، أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد، وأجرى لها الجرايات العظيمة، وأملى الحديث بالبلاد: ببغداد وخراسان وغيرهما، كان يقول: إني لست من أهل هذا الشأن، لما تولاه، ولكني أحب أن أجعل نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ.

وكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، فإذا فرغ (٢٠٩/١٠) لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان، إذا غفل المؤذن ودخل الوقت يأمره بالأذان، وهذا غاية حال المتقطعين إلى العبادة في حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات.

وأسقط المكوس والضرائب، وأزال لعن الأشعرية من المنابر، وكان الوزير عميد الملك الكنتري قد حسن للسلطان طفرل بك التقدم بلعن الرافضة، فأمره بذلك، فأضاف إليهم الأشعرية، ولعن الجميع، فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم، مثل إمام الحرمين، وأبي القاسم القشيري، وغيرهما، فلما ولي ألب أرسلان السلطنة أسقط نظام الملك ذلك جميعه، وأعاد العلماء إلى أوطانهم.

وكان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري، والإمام أبو المعالي الجويني، يقوم لهما، ويجلس في مسنده، كما هو، وإذا دخل أبو علي الفارمذي يقوم إليه، ويجلسه في مكانه، ويجلس هو بين يديه، فليل له في ذلك، فقال: إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا علي يقولون لي: أنت كذا وكذا، يثنون علي بما ليس في، فيزبدني كلامهم عجباً وتيهاً، وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي، وما أنا فيه من الظلم، فتتكسر نفسي لذلك، وأرجع عن كثير مما أنا

إليه ملوك الروم الجزية، ولم يَفْتَهُ مطلبٌ، وانقضت أيامه على أمن عام، وسكون شامل، وعدل مطّرد.

وقبل إنّه ورد بغداد ثلاث دفعات، فخافه من غلاء الأسعار، وتعدّي الجند، فكانت الأسعار أرخص منها قبل قدومه، وكان الناس يخترقون عساكره ليلاً ونهاراً، فلا يخافون أحداً، ولم يتعدّ عليهم أحدٌ، واسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد، وعمر الطرق، والقناطر، والرّبط التي في المفاوز، وحفر الأنهار الخراب، وعمر الجامع ببغداد، وعمل المصانع بطريق مكّة، وبنى البلد بأصبهان، وبنى منارة القرون بالسّبيعي بطريق مكّة، وبنى مثلها بما وراء النهر، واصطاد مرّة صيداً كثيراً، فأمر بعده، فكان عشرة آلاف رأس، فأمر بصدقة عشرة آلاف دينار، وقال: إنني خائف من الله تعالى كيف أزهدت أرواح هذه الحيوانات بغير ضرورة ولا مأكلة؛ وفرّق من الثياب والأموال بين أصحابه ما لا يحصى، وصار بعد ذلك كلّما صاد شيئاً تصدّق بعدده دنائير، وهذا فعل من يحاسب نفسه على حركاته وسكناته، وقد أكثر الشعراء مراثيه أيضاً.

وقيل إنّ بعض أمراء السلطان كان نازلاً بهراً مع بعض العلماء اسمه عبد الرحمن في داره، فقال يوماً ذلك الأمير للسلطان، وهو سكران: إنّ عبد الرحمن يشرب الخمر، ويعبد الأصنام من دون الله تعالى، ويحلّل الحرام؛ فلم يجبه ملكشاه، فلمّا كان الغد صحا ذلك الأمير، فأخذ السلطان السيّف، وقال له: اصدقني عن فلان، ولا تقتل! فطلب منه الأمان، فأمنه، فقال: (٢١٤/١٠) إنّ عبد الرحمن له دار حسناء، وزوجة جميلة، فأردت أن تقتله فأفوز بداره وزوجته؛ فأبعده السلطان، وشكر الله تعالى على التوقّف عن قبول سعائته، وتصدّق بأموال جلييلة المقدار.

ذكر ملك ابنه الملك محمود وما كان من حال ابنه الأكبر

بركيارق إلى أن ملك

لمّا مات السلطان ملكشاه كتمت زوجته تركان خاتون موته، كما ذكرناه، وأرسلت إلى الأمراء سراً فأرضتهم، واستحلفتهم لولدها محمود، وعمره أربع سنين وشهور، وأرسلت إلى الخليفة المقتدي في الخطة لولدها أيضاً فأجابها، وشرط أن يكون اسم السلطنة لولدها، والخطة له، ويكون المديّر لزعامة الجيوش، ورعاية البلد، هو الأمير أتر، ويصدر عن رأي تاج الملك، ويكون ترتيب العمال، وجباية الأموال إلى تاج الملك أيضاً، وكان تاج الملك هو الذي يدير الأمر بين يديّ خاتون.

فلمّا جاءت رسالة الخليفة إلى خاتون بذلك امتنعت من قبوله، فقيل لها: إنّ ولدك صغير، ولا يجيز الشرع ولايته؛ وكان المخاطب لها في ذلك الغزالي، فأذعنّت له، وأجابت إليه، فخطب لولدها، ولقّب ناصر الدنيا والدين، وكانت الخطبة يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال من السنة، وخطب له بالحرمين الشريفين.

ومن أفعاله أنّه لمّا خرج عليه أخوه تكش بخراسان اجناز بمشهد عليّ بن موسى الرضا بطوس، فزاره، فلمّا خرج قال لنظام الملك: بأيّ شيء دعوت؟ قال: دعوت الله أن ينصرك؛ فقال: أمّا أنا فلم أدع بهذا بل قلت: اللهم انصر أصلحنا للمسلمين، وأنفعنا للرعيّة.

وحكي عنه أنّ سوادياً لقيه وهو يبكي، فاستغاث به، وقال: كنت ابتعث بطيخاً بذربهمات لا أملك سواها، فغلبني عليه ثلاثة نفر من الأتراك، فأخذوه مني، فقال السلطان له: اقمعد! ثم أحضر قرّاشاً وقال: قد اشتيت بطيخاً؛ وكان ذلك عند أوّل استوائه، وأمره بطلبه من العسكر، فغاب ثم عاد (٢١٢/١٠) ومعه البطيخ، فأمره بإحضار من وجده عنده، فأحضره، فسأله السلطان من أين له ذلك البطيخ؟ فقال: غلّمانيّ جاؤوني به؛ فأمر أن يجيء بهم إليه، فمضى، وأمرهم بالهرب، وعاد فقال: لم أجدهم؛ فقال للسواديّ: خذ مملوكي هذا قد وهبته لك عوضاً عن بطيخك، ويحضر الذين أخذوه، والله لنن أطلّقتهم لأضربن عنقك، فأخذه السواديّ، فاشترى الغلام نفسه منه بثلاثمائة دينار، فعاد السواديّ إلى السلطان، وقال: قد بعته نفسه بثلاثمائة دينار؛ فقال: أرضيت بذلك؟ قال: نعم! قال: امض مصاحباً.

وقال عبد السميع بن داود العبّاسيّ: شاهدت ملكشاه وقد أتاه رجلاً من أرض العراق السّملّي، من قرية الحذّاديّة، يُعرفان بابنّي غزال، فلقيه، فوقف لهما، فقال: إنّ مُقطّعا الأمير خمارتكين قد صادرنّا بألف وستّمائة دينار، وقد كسر نيتيّ أحدهما، وأراهما السلطان، وقد قصدناك لتقتصّ لنا منه، فإن أخذت بحقنا كما أوجب الله عليك، وإلا فالله يحكم بيننا.

قال فرايت السلطان وقد نزل عن دابّته وقال: ليمسك كلّ واحد منكما بطرف كميّ، واسحباني إلى خواجه حسن، يعني نظام الملك؛ فامتنع من ذلك، واعتذرا، فأقسم عليهما إلّا فعلا، فأخذ كلّ واحد منهما بكفّ من كمّيه ومشى معهما إلى نظام الملك، فبلغه الخبر، فخرج مسرعاً، فلقيه وقبّل الأرض، وقال: يا سلطان العالم! ما حملك على هذا؟ فقال: كيف يكون حالي غداً عند الله إذا طوبت بحقوق المسلمين، وقد قلّدتك هذا الأمر لتكفيني مثل هذا الموقف، فإن نال الرعيّة أذى أنت المطالب، فانظر لسي ولنفسك.

فقبّل الأرض، ومشى في خدمته، وعاد من وقته، وكتب بعزل الأمير (٢١٣/١٠) خمارتكين عن إقطاعه، وردّ المال عليهما، وأعطاهما مائة دينار من عنده، وأمرهما بإثبات البيّنة أنّه قلع نيتيه

[وأربعمائة]، وحملت إلى بغداد إحدى أصابعه.

وكان كثير الفضائل، جمّ المناقب، وإنما غطى جميع محاسنه مُمالأتُهُ على قتل نظام الملك، وهو الذي بنى تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وعمل المدرسة التي إلى جانبها، ورتب بها الشيخ أبا بكر الشاشي، وكان عمره حين قُتل سبعاً وأربعين سنة. (٢١٧/١٠)

ذكر ما فعله العرب بالحُجّاج والكوفة

سار الحُجّاج هذه السنة من بغداد، فقدموا الكوفة، ورحلوا منها، فخرجت عليهم خفاجة، وقد طمعوا بموت السلطان، وبُعِدو العسكر، فأوقعوا بهم، وقتلوا أكثر الجند الذين معهم، وانهزم باقيهم، ونهبوا الحُجّاج، وقصدوا الكوفة فدخلوها، وأغاروا عليها، وقتلوا في أهلها، فرماهم الناس بالنشأ، فخرجوا بعد أن نهبوا، وأخذوا ثياب من لقوه من الرجال والنساء، فوصل الخبر إلى بغداد، فسُيِّرت العساكر منها، فلما سمع بهم بنو خفاجة انهزموا، فأدركهم العسكر، فقتل منهم خلق كثير، ونُهبت أموالهم، وضعفت خفاجة بعد هذه الواقعة.

ذكر عدة حوادث

فيها، في ربيع الأول، عاد السلطان من بغداد إلى أصبهان، وأخذ معه الأمير أبا الفضل جعفر ابن الخليفة المقتدي بأمر الله من ابنة السلطان، وتفرق الأمراء إلى بلادهم، ثم عاد إلى بغداد، فتوفي كما ذكرناه.

وفيها، في جمادى الأولى، احترق نهر الملعى، فاحترق عقد الحديد إلى خربة الهُراس، إلى باب دار الضرب، واحترق سوق الصاغة والصيارف، والمخلطين، والريحانيين، وكان الحريق من الظهر إلى العصر، فاحترق منها (٢١٨/١٠) الأمر العظيم في الزمان القليل، واحترق من الناس خلق كثير، ثم ركب عميد الدولة بن جُهير، وزير الخليفة، وجمع السقّافين، ولم يزل راكباً حتّى طفت النار.

وفي هذه السنة توفي عبد الباقي بن محمّد بن الحسين بن نايقا الشاعر البغداديّ، سمع الحديث، وكان يُتهم بأنّه يطعن على الشرائع، فلما مات كانت يده مقبوضة، فلم يُطَقِ الغاسل فتحها، فبعد جهده فُتحت فإذا فيها مكتوب:

ترلتُ بجزار لا يخيبُ ضيقُهُ أرَجسي نجاتي من عَذَابِ جَهَنَّم
ولّني على خوفي من الله واتقُ بآتِماعه، والله أكرمُ مُنعمٍ
وفيها توفي هبة الله بن عبد الوارث بن علي بن أحمد أبو القاسم الشيرازي الحافظ، أحد الرخّالين في طلب الحديث شرقاً وغرباً، وقدم الموصل من العراق، وهو الذي أظهر سماع

ولما مات السلطان ملكشاه أرسلتُ ترکان خاتون إلى أصبهان في القبض على (٢١٥/١٠) بركيارق ابن السلطان، وهو أكبر أولاده، خافته أن ينازع ولدها في السلطنة، فقبض عليه، فلما ظهر موت ملكشاه وثب المماليك النظامية على سلاح كان لنظام الملك بأصبهان، فأخذوه وثاروا في البلد، وأخرجوا بركيارق من الحبس، وخطبوا له بأصبهان وملّكوه، وكانت والدته بركيارق زبيدة ابنة ياقوتي بن داود، وهي ابنة عم ملكشاه، خافته على ولدها من خاتون أم محمود، فأتاها الفرّج بالمماليك النظامية.

وسارت ترکان خاتون من بغداد إلى أصبهان، فطالب العسكر تاج الملك بالأموال، فوعدهم، فلما وصلوا إلى قلعة برجين صعد إليها لينزل الأموال منها، فلما استقرّ فيها عصى على خاتون، ولم ينزل خوفاً من العسكر، فساروا عنه، ونهبوا خزائنه، فلم يجدوا بها شيئاً، فإنّه كان قد علم ما جرى، فاستظهر وأخفاه.

ولما وصلت ترکان خاتون إلى أصبهان لحقها تاج الملك، واعتذر بأن مستحفظ القلعة حبسه، وأنّه هرب منه إليها، فقبلت عذره.

وأما بركيارق فإنّه لما قاربت خاتون وابنها محمود أصبهان خرج منها هو ومن معه من النظامية، وساروا نحو الرّي، فلقيهم أرغش النظامي في عساكره، ومعه جماعة من الأمراء، وصاروا يداً واحدة، وإنما حمل النظامية على الميل إلى بركيارق كراهمتهم لتاج الملك لأنّه كان عدو نظام الملك، والمُتهم بقتله، فلما اجتمعوا حصروا قلعة طَبَرَك وأخذوها عنوة، فسُيِّرت خاتون العساكر إلى قتال بركيارق، فالتقى العسكران بالقرب من بروجرد، فانهاز جماعة من الأمراء الذين في عسكر خاتون إلى بركيارق، منهم: الأمير يلبرد، وكمشكين الجاندار، وغيرهما، فقوي بهم، وجرت الحرب بينهم (٢١٦/١٠) أواخر ذي الحجة، واشتد القتال، فانهزم عسكر خاتون وعادوا إلى أصبهان، وسار بركيارق في أثرهم فحصرهم بأصبهان.

ذكر قتل تاج الملك

كان تاج الملك مع عسكر خاتون، وشهد الواقعة، فهرب إلى نواحي بروجرد، فأخذ وحمل إلى عسكر بركيارق، وهو يحاصر أصبهان، وكان يعرف كفايته، فأراد أن يستورزه، فشرع تاج الملك في إصلاح كبار النظامية، وقرق فيهم مائتي ألف دينار سوى العروض، فزال ما في قلوبهم.

فلما بلغ عثمان نائب نظام الملك الخبر ساءه، فوضع الغلمان الأصاغر على الاستغاثة، وأن لا يقتلوا قاتل صاحبهم، ففعلوا، فانسحق ما دبره تاج الملك، وهجم النظامية عليه فقتلوه، وفصلوه أجزاء، وكان قتله في المحرم سنة ست وثمانين

الجعديات لأبي محمد الصريفي، ولم يكن يُعرف ذلك. (٢١٩/١٠)

سنة سيست وثمانين وأربعمائة

ذكر وزارة عز الملك بن نظام الملك لبركيارق

كان عز الملك أبو عبد الله الحسين بن نظام الملك مقيماً بخوارزم، حاكماً فيها، وفي كل ما يتعلق بها؛ إليه المرجع في كل أمورها السلطانية، فلما كان قبل أن يُقتل أبوه حضر عنده خدمة له وللسلطان، فقتل أبوه، ومات السلطان، فأقام بأصبهان إلى الآن.

فلما حصرها بركيارق، وكان أكثر عسكره النظامية، خرج من أصبهان هو وغيره من إخوته، فلما اتصل ببركيارق احترمه، وأكرمه، وفوض أمور دولته إليه، وجعله وزيراً له.

ذكر حال تش بن الب أرسلان

كان تش بن الب أرسلان صاحب دمشق وما جاورها من بلاد الشام، فلما كان قبل موت أخيه السلطان ملكشاه، سار من دمشق إليه ببغداد، فلما كان بهت بلغه موته، فأخذ هيت، واستولى عليها، وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة، فجمع العساكر، وأخرج الأموال وسار نحو حلب، (٢٢٠/١٠) وبها قسيم الدولة أقسقر، فرأى قسيم الدولة اختلاف أولاد صاحبه ملكشاه، وصغرمهم، فعلم أنه لا يطيق دفع تش، فصالحه، وصار معه، وأرسل إلى باغي سيان، صاحب أنطاكية، وإلى بوزان، صاحب الرها وحران، يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تش حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه، ففعلوا، وصاروا معه، وخطبوا له في بلادهم، وقصدوا الرجة، فحصروها، وملكوها في المحرم من هذه السنة، وخطب لنفسه بالسلطنة.

ثم ساروا إلى نصيبين، فحصروها، فسب أهلها تاج الدولة، ففتنوها عنوة وقهراً، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، ونهبت الأموال، وفعل فيها الأفعال القبيحة، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلي، وسار يريد الموصل، وأناه الكافي بن فخر الدولة بن جهمير، وكان في جزيرة ابن عمر، فأكرمه، واستوزره.

ذكر وقعة المضيق وأخذ الموصل من العرب

كان إبراهيم بن قريش بن بدران، أمير بني عقيل، قد استدعاه السلطان ملكشاه سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ليحاسبه، فلما حضر عنده اعتقله، وأنفذ فخر الدولة بن جهمير إلى البلاد، فملك الموصل وغيرها، وبقي إبراهيم مع ملكشاه، وسار معه إلى سمرقند، وعاد إلى بغداد، فلما مات ملكشاه أطلقته تركان خاتون من الاعتقال، فسار إلى الموصل.

وكان ملكشاه قد أقطع عمته صفية مدينة بلد، وكانت زوجة شرف الدولة، ولها منه ابنها علي، وكانت قد تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه إبراهيم (٢٢١/١٠) فلما مات ملكشاه قصدت الموصل، ومعه ابنها علي، فقصدتها محمد بن شرف الدولة، وأراد أخذ الموصل، فافتقت العرب فرقتين: فرقة معه، وأخرى مع صفية وابنها علي، واقتتلوا بالموصل عند الكناسة، فظفر علي، وانهزم محمد، وملك علي الموصل.

فلما وصل إبراهيم إلى جُهينة، وبينه وبين الموصل أربعة فراسخ، سمع أن الأمير علياً ابن أخيه شرف الدولة قد ملكها، ومعه أمه صفية، عمه ملكشاه، فأقام مكانه، وراسل صفية خاتون، وتردّت الرسل، فسلمت البلد إليه، فأقام به.

فلما ملك تش نصيبين أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة، ويعطيه طريقاً إلى بغداد لينحدر، ويطلب الخطبة بالسلطنة، فامتنع إبراهيم من ذلك، فسار تش إليه، وتقدم إبراهيم أيضاً نحوه، فالتقوا بالمضيق، من أعمال الموصل، في ربيع الأول، وكان إبراهيم في ثلاثين ألفاً، وكان تش في عشرة آلاف، وكان أقسقر على ميمته، وبوزان على ميسرته، فحمل العرب على بوزان، فانهمز، وحمل أقسقر على العرب فهزمهم، وتمت الهزيمة على إبراهيم والعرب، وأخذ إبراهيم أسيراً وجماعة من أمراء العرب، فقتلوا صبراً، ونهبت أموال العرب وما معهم من الإبل والغنم والخيل وغير ذلك وقتل كثير من نساء العرب أنفسهم خوفاً من السبي والفضيحة.

وملك تش بلادهم الموصل وغيرها، واستتاب بها علي بن شرف الدولة مسلم، وأمّه صفية عمه تش، وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة، وساعده (٢٢٢/١٠) كوهرائين على ذلك، فقبل لرسوله: إننا نتنظر وصول الرسل من العسكر، فعاد إلى تش بالجواب.

ذكر ملك تش ديار بكر وأذربيجان وعوده إلى الشام

فلما فرغ تاج الدولة تش من أمر العرب، ومُلك الموصل وغيرها من بلادهم، سار إلى ديار بكر في ربيع الآخر، فملك ميافارقين وسائر ديار بكر من ابن مروان، وسار منها إلى أذربيجان. فأنتهى خبره إلى ابن أخيه ركن الدين بركيارق، وكان قد استولى على كثير من البلاد، منها: الرئي، وهمدان، وما بينهما، فلما تحقق الحال سار في عساكره ليمنع عمه عن البلاد، فلما تقارب العسكران قال قسيم الدولة أقسقر لبوزان: إننا أطلعنا هذا الرجل لنتظر ما يكون من أولاد صاحبا، والآن فقد ظهر ابنه، ونريد أن نكون معه. فاتفقا على ذلك وفارقا تش، وصارا مع بركيارق.

فلما رأى تاج الدولة تش ذلك علم أنه لا قوة له بهم، فعاد إلى الشام، واستقامت البلاد لبركيارق، فلما قوي أمره سار

سَيِّمَا الأمير أُوْ، وهو مدبِّر الأمر، وصاحب الجيش، وآثروا خروج إسماعيل عنهم، وخافوه، وخاف هو أيضاً منهم، ففارقهم، وراسل أخته زُبَيْدَةَ والدَةَ بركيَّارِق في اللحاق بهم، فأذنت له في ذلك، فوصل إليهم، وأقام عندهم أياماً بسيرة، فخلا به كمشتكين الجاندار، وأقسقَر، ووزان، وبسطوه في القول، فاطلمهم على سرِّه، وأَنَّهُ يزيد السلطنة، وقَتَلَ بركيَّارِق، فوثبوا عليه فقتلوه، وأعلموا أخته خبره فسكتت عنه. (٢٢٥/١٠)

ذكر أخذ الخُجَّاج

في هذه السنة انقطع الحجُّ من العراق لأسباب أُوجبت ذلك، وصار الحاجُّ من دمشق مع أمير أقامه تاج الدولة تُشُّ صاحبها، فلمَّا قضا حَجَّهم وعادوا سائرَين سَيرَ أمير مَكَّة، وهو مُحَمَّد بن أبي هاشم، عسكرياً فلحقوهم بالقرب من مَكَّة، ونهبوا كثيراً من أموالهم وجمالهم، فعادوا إليها، ولقوه، وسالوه أن يُعيد عليهم ما أخذ منهم، وشكوا إليه بُعْدَ ديارهم، فأعاد بعض ما أخذ منهم، فلمَّا أيسوا منه ساروا من مَكَّة عائدين على أقيح صورة، فلمَّا أبعدها عنها ظهر عليهم جموع من العرب في عدَّة جهات، فصانعوهم على مال أخذوه من الحاجِّ، بعد أن قُتِلَ منهم جماعة وافرة، وهلك فيه [كثيرون] بالضعف والانتطاع، وعاد السالم على أقيح صورة.

ذكر عدَّة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الأولى، قدم إلى بغداد أردشيرين بن منصور أبو الحسين الواعظ، العبادي، وأكثر الوعظ بالمدرسة النظامية، وهو مَرْزُوقِي، وقدم بغداد قاصداً للحجِّ، وكان له قبول عظيم، بحيث أنَّ الغزالي وغيره من الأئمة ومشايخ الصوفيَّة الكبار يحضرون مجلسه، وفُزِعَ في بعض المجالس الأرض التي فيها الرجال، فكان طولها مائة وخمسة وسبعين ذراعاً، وعرضها مائة (٢٢٦/١٠) وعشرين ذراعاً، وكانوا يزدحمون ازدحاماً كثيراً، وكان النساء أكثر من ذلك، وكان له كرامات ظاهرة، وعبادات كثيرة.

وكان سبب منعه من الوعظ أَنَّهُ نهى أن يتعامل الناس ببيع القراضة بالصحيح، وقال هو ربا، فمُنِعَ من الوعظ، وأُخرج من البلد.

وفيها وقعت الفتنة ببغداد بين العامة، وقصد كلُّ فريق الفريق الآخر، وقطعوا الطرقات بالجانب الغربي، وقتل أهل النصرية مُصلحياً، فأرسل كوهرائين فأحرقها، واتصلت الفتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة، وكان للعميد الأغز أبي المحاسن الدهستاني في إطفاء هذه الفتنة أثر حسن.

وفيها، في شعبان، سار سيف الدولة صدقة بن مَزِيد إلى السلطان بركيَّارِق، فلقية بنصيين، وسار معه إلى بغداد، فوصلها في

كوهرائين إلى العسكر يعتذر من مساعدته لتاج الدولة تُشُّ، وأعانه برسق، وتعصَّب عليه كمشتكين الجاندار، فأخذ إقطاعه، وأعطى الأمير يلبرد زيادةً، وولي شحنةً بغداد عوض كوهرائين، وتفرَّق عن كوهرائين أصحابه، فكان ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى. (٢٢٣/١٠)

ذكر حصر عسكر مصر صور وملكهم لها

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، ملك عسكر المستنصر بالله العلويُّ صاحب مصر، مدينة صور.

وسبب ذلك ما ذكرناه سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة: إنَّ أمير الجيوش بدرأ، وزير المستنصر، سَيرَ العساكر إلى مدينة صور، وغيرها، من ساحل الشام، وكان مَن بها قد امتنع من طاعتهم، فملكها، وقرَّر أمورها، وجعل فيها الأمراء.

وكان قد ولى مدينة صور الأمير الذي يُعرف بمُنِير الدولة الجيوشي، فعصى على المستنصر وأمير الجيوش، وامتنع بصور، فسَيرَت العساكر من مصر إليه، وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه، فلمَّا وصل العسكر المصري إلى صور وحصروها وقتلوها نار أهلها، ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش، وسَلَمُوا البلد، وهجم العسكر المصري بغير مانع ولا مدافع، ونهب من البلد شيء كثير، وأسر منير الدولة وقتل معه من أصحابه، وحُمِلُوا إلى مصر، وقُطِعَ على أهل البلد ستون ألف دينار، فأجحفت بهم.

ولمَّا وصل منير الدولة إلى مصر ومعه الأسرى قُتِلُوا جميعهم ولم يُعَفَّ عن واحد منهم. (٢٢٤/١٠)

ذكر قتل إسماعيل بن ياقوتي خال بركيَّارِق

في هذه السنة، في شعبان قُتِلَ إسماعيل بن ياقوتي بن داود، وهو خال بركيَّارِق، وابن عم ملكشاه.

وسبب قتله أَنَّهُ كان بأذربيجان أميراً عليها، فأرسلت إليه ترکان خاتون، زوجة ملكشاه، تُطمِعه أن تزوج به، وتدعوه إلى محاربة بركيَّارِق، فأجابها إلى ذلك، وجمع خلقاً كثيراً من التركمان وغيرهم، وصار أصحاب سرهنگ ساوكتين في خيله، وأرسلت إليه ترکان خاتون كربوقا، وغيره من الأمراء، في عسكر كثير مدداً له، فجمع بركيَّارِق عساكره، وسار إلى حرب خاله إسماعيل، فالتقوا عند الكَرَج، فانهزَمَ الأمير يلبرد إلى بركيَّارِق، وصار معه، فانهزم إسماعيل وعسكره، وتوجَّه إلى أصبهان، فأكرمه ترکان خاتون، وخطبت له، وضربت اسمه على الدينار بعد ابنها محمود بن ملكشاه.

وكاد الأمر في الوصلة يتم بينهما، فامتنع الأمراء من ذلك لا

وفي ذي الحجة منها توفي أبو الفرج عبد الواحد بن محمد بن عليّ الحنبليّ، الفقيه، وكان أوفر العلم، غزير الدين، حسن الوعظ والسمت. (٢٢٩/١٠)

سنة سبع وثمانين وأربعمائة

ذكر الخطبة للسلطان بركيارق

في هذه السنة، يوم الجمعة رابع عشر المحرم، خطب ببغداد للسلطان بركيارق بن ملكشاه، وكان قديمها أواخر سنة ست وثمانين [وأربعمائة]، وأرسل إلى الخليفة المقتدي بأمر الله يطلب الخطبة، فأجيب إلى ذلك، وخطب له، ولقب بركن الدين.

وحمل الوزير عميد الدولة بن جُهير الخلع إلى بركيارق، فلبسها، وعرض التقليد على الخليفة ليعلم عليه، فعلم فيه، وتوفي فجأة على ما تذكره، إن شاء الله تعالى، ووليّ ابنه الإمام المستظهر بالله الخلافة، فأرسل الخلع والتقليد إلى السلطان بركيارق، فأقام ببغداد إلى ربيع الأول من السنة، وصار عنها إلى الموصل.

ذكر وفاة المقتدي بأمر الله

في هذه السنة، يوم السبت خامس عشر المحرم، توفي الإمام المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة بن القائم بأمر الله أمير المؤمنين فجأة، وكان قد أحضر عنده تقليد السلطان بركيارق ليعلم فيه، فقرأه، وتذبره، وعلم فيه، ثم قُدّم إليه طعام، فأكل منه، وغسل يديه، وعنده قهرمانته (٢٣٠/١٠) شمس النهار، فقال لها: ما هذه الأشخاص التي دخلت عليّ بغير إذن؟ قالت: فالتفت فلم أر شيئاً، ورأيت قد تغيرت حالته، واسترخت يده ورجلاه، وانحلت قوته، وسقط إلى الأرض، فظننتها غشبة قد لحقت، فحللت أزرار ثوبه، فوجدته وقد ظهرت عليه أمارات الموت، ومات لوقته.

قالت: فتماسكت، وقلت لجارية عندي: ليس هذا وقت إظهار الجزع والبكاء، فإن صيحت قتلتيك، وأحضرت الوزير فأعلمته الحال، فشرعوا في البيعة لوليّ العهد، وجهزوا المقتدي، وصلى عليه ابنه المستظهر بالله، ودفنوه، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين، وأمّه أم ولد أرميّة تسمى أرجوان، وتدعى قرّة العين، أدركت خلافته، وخلافة ابنه المستظهر بالله، وخلافة ابنه المسترشد بالله.

ووزر له فخر الدولة أبو نصر بن جُهير، ثم أبو شجاع، ثم عميد الدولة أبو منصور بن جُهير.

وقضاه: أبو عبد الله الدماغاني، ثم أبو بكر الشامي.

ذي القعدة ومعه وزيره عزّ الملك بن نظام الملك، وخرج عميد الدولة والناس إلى لقائه من عقَرْقوف.

وفيهما ولد للمستظهر بالله ولد سمي الفضل، وكني أبا منصور، ولقب عمدة الدين، وهو المسترشد بالله.

وفيهما، في رمضان، قُتل الأمير يلبرد، قتله بركيارق، وكان من الأمراء الكبار مع أبيه، فزاده بركيارق إقطاع كوهرائين، وشحنكية بغداد، فلما وصل إلى دَقَوْقاً أعيد منها لأنّه تكلم، فيما يتعلق بوالدة السلطان بركيارق، بكلام شنيع، فلما وصل إليه أصبح مقتولاً.

وفيهما، في المحرم، توفي عليّ بن أحمد بن يوسف أبو الحسن القرشيّ، الهكاريّ، المعروف بشيخ الإسلام، وكان فاضلاً، عابداً، كثير السماع، (٢٢٧/١٠) إلا أنّ الغرائب في حديثه كثيرة لا يُدرى ما سببها؛ والأمير أبو نصر عليّ بن هبة الله بن عليّ بن جعفر العجليّ، المعروف بابن ماکولا، مصنف كتاب الاكمال، قتله غلمانه الأتراك بكرمان، ومولده سنة اثنتين وأربعمائة، وكان حافظاً.

وفيهما، في صفر، توفي أبو محمد عامر الضيرير، وكان فقيهاً شافعيّاً مقلداً، نحوياً، وكان يصلي في رمضان بالإمام المقتدي بأمر الله.

وفي جمادى الأولى توفي الأمير أبو الفضل جعفر بن المقتدي، وأمّه ابنة السلطان ملكشاه، وإليه تنسب الجعفريات.

وفي رجب توفي الشيخ أبو سعد عبد الواحد بن أحمد بن المحسن الوكيل بالمخزن، وكان فقيهاً شافعيّاً، كثير الإحسان إلى أهل العلم، وكان محموداً في ولايته.

وفيهما توفي كمال الملك الدّهستانيّ الذي كان عميد بغداد.

وفي رمضان توفي المشطب بن محمد الحنفي بالكُخَيْل من أرض الموصل، وكان الخليفة قد أرسله إلى بركيارق، وكان بالموصل، ومعه تاج الرؤساء أبو نصر بن الموصلايا، وكان شيخاً كبيراً، عالماً، مكرماً عند الملوك، وحُمِلَ إلى العراق، ودُفن عند أبي حنيفة.

وفيه توفي القاضي أبو عليّ يعقوب بن إبراهيم المرّيانيّ، قاضي باب الأزج، ووليّ مكانه القاضي أبو المعالي عزيزي، وكان أبو المعالي شافعيّاً، أشعريّاً، مغالياً، وله مع أهل باب الأزج أقاصيص وحكايات عجيبة.

وفيهما توفي نصر بن الحسن بن القاسم بن الفضل أبو الليث، وأبو الفتح (٢٢٨/١٠) التنكّي، له كنيّتان، سافر [في] البلاد شرقاً وغرباً، روي صحيح مسلم وغيره، وكان ثقة، ومولده سنة ست وأربعمائة.

فحفظاها منه، وحصرها تَشُّشٌ ولَجَّ في قتالها حتَّى ملكها، سلَّمها إليه المقيم بقلعة الشريف، ومنها دخل البلد، وأخذهما أسيرين، وأرسل إلى حرَّان والرُّها ليسلِّموه من بهما وكانت لبوزان، فامتنعوا من التسليم إليه، فقتل بوزان، وأرسل رأسه إليهم وتسلم البلدين. (٢٣٣/١٠)

وأما كربوقا فإنَّه أرسله إلى حمص، فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تَشُّش.

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين رخص عامٍّ، وعدل شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كلِّ قرية من بلاده، متى أخذ عندهم قفل، أو أحد من الناس، غَرِمَ أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السَّيَّارة إذا بلغوا قرية من بلاده، ألقوا رحالهم وناموا، وحرسهم أهل القرية إلى أن يرحلوا، فأمنت الطرق.

وأما وفاقه، وحسن عهده، فيكفيه فخراً أنَّه قُتل في حفظ بيت صاحبه وولي نعمته.

فلما ملك تَشُّش حرَّان والرُّها سار إلى الديار الجُزْرية فملكها جميعها، ثم ملك ديار بكر وخيلاط، وسار إلى أذربيجان فملك بلادها كلّها، ثم سار منها إلى هَمْدان فملكها، ورأى بها فخر الملك بن نظام الملك، وكان بخراسان، فسار منها إلى السلطان بركيارق ليخدمه، فوقع عليه الأمير قماج، وهو من عسكر محمود ابن السلطان ملكشاه بأصبهان، فنهب فخر الملك، فهرب منه ونجا بنفسه، فجاه إلى هَمْدان فصادفه تَشُّش بها، فأراد قتله، فشفع فيه باغي سنيان، وأشار عليه أن يستوزره لميل الناس إلى بيته، فاستوزره، وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة من الخليفة المستظهر بالله، وكان شيخته ببغداد إيتكين جب، فلازم الخدمة بالدِيوان، وألح في طلبها، فأجيب إلى ذلك، بعد أن سمعوا أنَّ بركيارق قد انهزم من عسكر عمِّه تَشُّش، على ما ذكره (٢٣٤/١٠)

ذكر انهزام بركيارق من عمِّه تَشُّش وملكه أصبهان بعد ذلك في هذه السنة، في سؤال، انهزم بركيارق من عسكر عمِّه تَشُّش. وكان بركيارق نصّيبين، فلما سمع بمسير عمِّه إلى أذربيجان، سار هو من نصّيبين، وعبر دجلة من بلد فوق الموصل، وسار إلى إربل، ومنها إلى بلد سُرخاب بن بدر إلى أن بقي بينه وبين عمِّه تسعة فراسخ، ولم يكن معه غير ألف رجل، وكان عمِّه في خمسين ألف رجل، فسار الأمير يعقوب بن آبق من عسكر عمِّه، فكبسه وهزمه، ونهب سواده، ولم يبق معه إلا برسق، وكمشتكين الجباندان، واليارق، وهم من الأمراء الكبار، فسار إلى أصبهان.

وكانت خاتون أم أخيه محمود قد ماتت، على ما ذكره، فمعه

وكانت أيامه كثيرة الخير، واسعة الرزق، وعظمت الخلافة أكثر ممَّا كان من قبله، وانعمت ببغداد عدَّة محالٍ في خلافته منها: البصلية، والقطيعة، والحلبة، والمقتدية، والأجمة، ودرب القيّار، وخربة ابن جرّدة، وخربة الهرّاس، والخانوثيين. (٢٣١/١٠)

وأمر بنفي المغنّيات والمفسدات من بغداد، ويبيع دورهن، فنفيهن، ومنع الناس أن يدخل أحد الحمام إلا بمترز، وقلع الهراذية، والأبراج التي للطيور، ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حُرْم الناس، ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة، وألزم أربابها بحفر آبار للمياه، وأمر أنَّ من يغسل السمك المالح يعبر إلى النجّمي فيغسله هناك، ومنع الملاّحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين، وكان قويّ النفس، عظيم الهمة من رجال بني العباس.

ذكر خلافة المستظهر بالله

لما توفيّ المقتدي بأمر الله، أحضر ولده أبو العباس أحمد المستظهر بالله، وأعلم بموته، وحضر الوزير فبايعه، وركب إلى السلطان بركيارق، فأعلمه الحال، وأخذ يبعث للمستظهر بالله.

فلما كان اليوم الثالث من موت المقتدي أظهر ذلك، وحضر عزّ الملك ابن نظام الملك وزير بركيارق، وأخوه بهاء الملك، وأمراء السلطان، وجميع أرباب المناصب: النقيان طراد العباسي، والمعمر العلوي في أصحابهما، وقاضي القضاة، والغزالي، والشاشي، وغيرهما من العلماء، فجلسوا في العزاء، وبايعوا، وكان للمستظهر بالله لما بويح ست عشرة سنة وشهران.

ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر وملك تَشُّش حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمدان والخطبة له ببغداد

في هذه السنة، في جمادى الأولى، قُتل قسيم الدولة آقسنقر، جدّ ملوكنا بالموصل الآن، أولاد الشهيد زنكي بن آقسنقر.

وسبب قتله أن تاج الدولة تَشُّش لما عاد من أذربيجان منهزماً لم يزل يجمع العساكر، فكثرت جموعه، وعظم حشده، فسار في هذا التاريخ عن دمشق نحو حلب ليطالب السلطنة، فاجتمع قسيم الدولة آقسنقر، وبوزان، وأمدّهما ركن الدين بركيارق بالأمير كربوقا الذي صار بعد صاحب الموصل، فلما اجتمعوا ساروا إلى طريقه، فلقوه عند نهر سبعين قريباً من تلّ السلطان، بينه وبين حلب ستّة فراسخ، واقتتلوا، واشتد القتال، فخامر بعض العسكر الذين مع آقسنقر، فانهزموا، وتبعهم الباقون، فتمت الهزيمة، وثبت آقسنقر، فأخذ أسيراً، وأحضر عند تَشُّش، فقال له: لو ظفرت بي ما كنت صنعت؟ قال: كنت أقتلك! فقال له: أنا أحكم عليك بما كنت تحكم عليّ؛ فقتله صبراً.

وسار نحو حلب، وكان قد دخل إليها كربوقا، وبوزان،

من بها من الدخول إليها، ثم أذنوا له خديعة منهم ليقبضوا عليه، فلما قاربها خرج أخوه الملك محمود فلقه، ودخل البلد، واحتاطوا عليه، فاتفق أن أخاه محموداً حُمّ وجُدُر، فراد الأمراء أن يكبحوا بركيارق، فقال لهم أمين الدولة ابن التلميذ الطيب: إنَّ الملك محموداً قد جُدُر، وما كأنه يسلم منه، وأراكم تكرهون أن يليكم، ويملك البلاد تاج الدولة، فلا تعجلوا على بركيارق، فإن مات محمود أقيموه ملكاً، وإن سلم محمود فأنتم تقدرون على كحله. فمات محمود سلخ شوال، فكان هذا من الفرج بعد الشدة، وجلس بركيارق للعزاء بأخيه.

وكان مولد محمود في صفر سنة ثمانين وأربعمائة، وقصده مؤيد الملك بن نظام الملك، فاستورزه في ذي الحجة، وكان أخوه عز الملك بن نظام الملك (٢٣٥/١٠) قد مات لمّا كان مع بركيارق بالموصل، وحُمِل إلى بغداد، فدُفِن بالطّامة، وكان أصبح الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً وسيرة، وكان قد أجرى الناس على ما بأيديهم من توقيعات أبيه في الإطلاقات من خاصته، منها ببغداد مائتا كرّ غلة، وثمانية عشر ألف دينار أميريّ.

ثم إنَّ بركيارق جُدُر، بعد أخيه، وعوفي وسلم، فلما عوفي كاتب مؤيد الملك وزيره الأمراء العراقيين، والخُرّاسانيين، واستمالهم، فعادوا كلّهم إلى بركيارق، فعظم شأنه وكثر عسكره.

ذكر وفاة أمير الجيوش بمصر

في هذه السنة، في ذي القعدة، توفي أمير الجيوش بدر الجمالي، صاحب الجيش بمصر، وقد جاوز ثمانين سنة، وكان هو الحاكم في دولة المستنصر، والمرجوع إليه.

وكان قد استعمله على الشام سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وجرى بينه وبين الرعية والجند بدمشق ما خاف [منه] على نفسه، فخرج عنها هارباً، وجمع وحشد، وقدم إلى الشام فاستولى عليه بأسره سنة ست وخمسين [وأربعمائة]، ثم خالقه أهل دمشق مرة أخرى، فهرب منهم سنة ستين، وخرّب العامة والجند قصر الإمارة، ثم مضى أمير الجيوش إلى مصر، وتقدّم بها، وصار صاحب الأمر. (٢٣٦/١٠)

قال علقمة بن عبد الرزّاق العليمي: قصدتُ بدرًا الجمالي بمصر، فرأيتُ أشراف الناس وكبراهم وشعراءهم على بابيه، قد طال مقامهم ولم يصلوا إليه، قال: فيينا أنا كذلك إذ خرج بدر يريد الصيد، فخرج علقمة في أثره، وأقام إلى أن رجع من صيده، فلما قاربه وقف على نشز من الأرض، وأومأ برقعة في يده، وأنشأ يقول:

نَحْنُ التَّجَارُ وَهَذِهِ أَعْلَانَا فَرَّ وَجَوْدُ يَمِينِكَ الْمُتَبَاعُ
قَلْبٌ وَفَتْحُهَا بِسَمْعِكَ إِنَّمَا هِيَ جَوْهَرٌ تَخْلَاهُ الْأَسْمَاعُ
كَسَدَتْ عَلَيْنَا بِالشَّامِ وَكَلَمَا قُلْتُ الشَّقَاءُ تَعَطَّلَ الصُّغَاعُ

فَأَتَاكَ يَحْمِلُهَا إِلَيْكَ تَجَارُهَا وَمَطَّيْهَا الْأَمَالُ وَالْأَطْنَاعُ
حَتَّى أَتَاخُوهَا يَبْأَبُكَ وَالزَّجَا مِنْ دُونَكَ السُّنْسَارُ وَالْيَبَاعُ
فَوَهَبْتَ مَا لَمْ يُعْطَ فِي دَمَرِهِ هَرَمٌ وَلَا كَسْبٌ وَلَا الْفَقْعَاعُ
وَسَقَتْ هَذَا النَّاسُ فِي طَلَبِ الْعُلَى فَالْأَسْ بِمَعْنِكَ كَلَّهْمُ الْبُيَاعُ
يَا بَدْرُ أَقِيمْ لِرَبِّكَ اعْتَصِمِ الْوَرَى وَلَجُرَا إِلَيْكَ جَمِيعُهُمْ مَا ضَاعُوا

وكان على يد بدر بازي قالفاه وانفرد عن الجيش، وجعل يستردّ الأبيات وهو ينشدّها إلى أن استقرّ في مجلسه، ثم قال لجماعة غلمانه وخاصّته: من أحييني فليخلع على هذا الشاعر؛ فخرج من عنده ومعه سبعون بغلاً يحمل الخلع والتحف، وأمر له بعشرة آلاف درهم، فخرج من عنده وفرّق كثيراً من ذلك على الشعراء؛ ولما مات بدر قام بما كان إليه ابنه الأفضل. (٢٣٧/١٠)

ذكر وفاة المستنصر وولاية ابنه المستعلي

في هذه السنة، ثامن عشر ذي الحجة، توفي المستنصر بالله أبو تميم معدّ ابن أبي الحسن عليّ الظاهر لإعزاز دين الله العلوي، صاحب مصر والشام، وكانت خلافته ستين سنة وأربعة أشهر، وكان عمره سبعاً وستين سنة، وهو الذي خطب له البساسيري ببغداد، وقد ذكرنا ذلك.

وكان الحسن بن الصباح، رئيس هذه الطائفة الإسماعيلية، قد قصده في زيّ تاجر، واجتمع به، وخاطبه في إقامة الدعوة له ببلاد العجم، فعاد ودعا الناس إليه سرّاً، ثم أظهرها، وملك القلاع، كما ذكرناه، وقال للمستنصر: من إمامي بعدك؟ فقال: ابني نزار، وهو أكبر أولاده، والإسماعيلية إلى يومنا هذا يقولون بإمامة نزار.

ولقي المستنصر شدائد وأهوالاً، وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر، أخرج فيها أمواله وذخائره إلى أن بقي لا يملك سجّادته التي يجلس عليها، وهو مع هذا صابرٌ غيرٌ خاشع، وقد أتينا على ذكر هذا سنة سبع وستين وأربعمائة وغيرها.

ولما مات ولي بعده ابنه أبو القاسم أحمد المستعلي بالله، ومولده في المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة، وكان قد عهد في حياته بالخلافة لابنه نزار، فخلعه الأفضل وبايع المستعلي بالله.

وسبب خلعه أن الأفضل ركب مرة، أيام المستنصر، ودخل دهليز القصر (٢٣٨/١٠) من باب الذهب راكباً، ونزار خارج، والمجاز مظلم، فلم يره الأفضل، فصاح به نزار: انزل، يا أرمني، كلب، عن القرس، ما أقلّ أدبك! فحقدها عليه، فلما مات المستنصر خلعه خوفاً منه على نفسه، وبايع المستعلي، فهرب نزار إلى الإسكندرية، وبها ناصر الدولة أفتكين، فبايعه أهل الإسكندرية، وسمّوه المصطفى لدين الله، فخطب الناس، ولعن الأفضل، وأعانه أيضاً القاضي جلال الدولة بن عمّار، قاضي الإسكندرية، فسار إليه

الأفضل، وحاصره بالإسكندرية، فعاد عنه مهزوماً ثم ازداد عسكرياً، وسار إليه، فحصره وأخذه، وأخذ أفتكين فقتله، وتسلم المستعلي نزاراً فبنى عليه حائطاً فمات، وقتل القاضي جلال الدولة بن عمار ومن أعانه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، رأى بعض اليهود بالغرب رؤيا أنهم سيطيرون، فاخبر اليهود بذلك، فوهبوا أموالهم وذخائرهم، وجعلوا ينتظرون الطيران، فلم يطيروا، وصاروا ضحكة بين الأمم.

وفي هذا الشهر كانت بالشام زلازل كثيرة متتابعة يطول مكثها، إلا أنه لم يكن الهدم كثيراً. (٢٣٩/١٠)

وفيهما كانت الفتنة بين أهل نهر طابق وأهل باب الأرجاء، فاحترقت نهر طابق، وصارت تلوياً فلما احترقت عبر يمين، صاحب الشرطة، فقتل رجلاً مستوراً، فنفّر الناس منه، وعُزل في اليوم الثالث.

وفيهما توفي محمد بن أبي هاشم الحسيني، أمير مكة، وقد جاوز سبعين سنة، ولم يكن له ما يُمدّح به، وكان قد نهب بعض الحجاج سنة ست وثمانين [وأربعمائة] وقتل منهم خلقاً كثيراً.

وفيهما، في ربيع الأول، قتل السلطان بركيارق عمه تكش وغرقه، وقتل ولده معه، وكان ملكشاه قد أخذه، لما خرج عليه، وكحله، وجسه بقلعة تكريست، فلما ملك بركيارق أحضره إليه ببغداد، وسار بمسيره، فظفر بملطقات إليه من أخيه تَشَّس يحته على اللحاق به، وقيل إنه أراد المسير إلى بلخ لأن أهلها كانوا يريدونه، فقتله، فلما غرق بقي بسر من رأى فحُمِلَ إلى بغداد، فدُفِنَ عند قبر أبي حنيفة.

وفيهما، في جمادى الآخرة، كانت وقعة بين الأمير أنسر وتوران شاه، ابن قاورت بك، وكانت ترکان خاتون الجلالية، والدة محمود بن ملكشاه، قد أرسلته في عسكر لياخذ بلاد فارس من تورانشاه، ولم يحسن الأمير أنسر تدبير بلاد فارس، فاستوحش منه الأجناد، واجتمعوا مع تورانشاه وهزموا أنسر، ومات تورانشاه، بعد الكسرة بشهر، من سهم أصابه فيها.

وفيهما استولى أصبهان بن ساونكين على مكة، حرسها الله، عنوة، وهرب منها الأمير قاسم بن أبي هاشم العلوي صاحبها، وأقام بها إلى شوال، وجمع (٢٤٠/١٠) الأمير قاسم وكيسه بعُسفان، وجرى بينهما حرب في شوال من هذه السنة، فانهمز أصبهان، ودخل قاسم إلى مكة، ومضى أصبهان إلى الشام وقدم إلى بغداد.

وفيهما، في رجب، أحرق شحنة بغداد، وهو أيتكين، جَبَّ باب البصرة؛ وسبب ذلك أن النقيب طراداً الزينبي كان له كاتب يُعرف بابن سينان، فقتل، فأنفذ النقيب إلى الشحنة يستدعي منه من يقيم السياسة، فأنفذ حاجبه محمداً، فرجعه أهل باب البصرة، وأدموه، فرجع إلى صاحبه فشكا إليه منهم، فأمر أخاه بقصدهم ومعاقبتهم على فعلهم، فسار إليهم في جماعة كثيرة، وتبعهم أهل الكرخ، فأحرقوا ونهبوا، فأرسل الخليفة إلى الشحنة يأمره بالكف عنهم فكف.

وفيهما، في رمضان، توفيت ترکان خاتون الجلالية بأصبهان، وهي ابنة طغفاج خان، وهو من نسل أفراسياب التركي، وكانت قد برزت من أصبهان لتسير إلى تاج الدولة تَشَّس لتتصل به، فمضت وعادت وماتت، وأوصت إلى الأمير أنر وإلى سرمز شحنة أصبهان بحفظ المملكة على ابنها محمود، ولم يكن بقي بيدها سوى قصبة أصبهان، ومعها عشرة آلاف فارس أتراك.

وفيهما، في ذي القعدة، توفي أبو الحسين بن الموصلاني، كاتب ديوان الزمام ببغداد. (٢٤١/١٠)

سنة ثمان وثمانين وأربعمائة

ذكر دخول جمع من الترك إفريقية وما كان منهم

في هذه السنة غدر شاهملك التركي يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، وقبض عليه.

وكان شاهملك هذا من أولاد بعض الأمراء الأتراك ببلاد الشرق، فناله في بلده أمر اقتضى خروجه منه، فسار إلى مصر في مائة فارس، فأكرمه الأفضل أمير الجيوش، وأعطاه إقطاعاً ومالاً، ثم بلغه عنه أسباب أوجبت إخراجه من مصر، فخرج هو وأصحابه هارين، فاحتالوا حتى أخذوا سلاحاً وخيلاً وتوجهوا إلى المغرب، فوصلوا إلى طرابلس الغرب، وأهل البلد كارهون لواليهما، فدخلوهم البلد، وأخرجوا الوالي، وصار شاهملك أمير البلد.

فسمع تميم الخبر، فأرسل العساكر إليها، فحصروها، وضيقوا على الترك ففتحوها، ووصل شاهملك معهم إلى المهديّة، فسُرَّ به تميم وبمن معه، وقال ولد لي مائة ولد أنتفع بهم؛ وكانوا لا يخطئ لهم سهم.

فلم تطل الأيام حتى جرى منهم أمر غير تميماً عليهم، فعلم شاهملك ذلك، وكان داهياً، خيئاً، فخرج يحيى بن تميم إلى الصيد في جماعة من أعيان أصحابه نحو مائة فارس، ومعه شاهملك، وكان أبوه تميم قد تقدّم إليه أن لا يقرب شاهملك، فلم يقبل، فلما أبعدا في طلب الصيد غدر به شاهملك فقبض عليه، وسار به

على قتله، قالوا لمستحفظ قلعة كاسان، وهو طغرل بنال بك، ليظهر العصبان ليسير أحمد خان معهم من سمرقند إلى قتاله، فيتمكنوا من قتله، فعصى طغرل بنال بك، فسار أحمد خان والعسكر إلى قتاله، فلما نازل القلعة تمكن العسكر منه، وقبضوا عليه، وعادوا إلى سمرقند، وأحضروا القضاة والفقهاء، وأقاموا خصوماً ادعوا عليه الزندقة، فجحد، فشهد عليه (٢٤٤/١٠) جماعة بذلك، فأسفتي الفقهاء بقتله، فخنقوه، وأجلسوا ابن عمه مسعوداً مكانه وأطاعوه.

ذكر ما فعله يوسف بن آبق ببغداد

في هذه السنة، في صفر، سار الملك تئش يوسف بن آبق التركماني شحنة لبغداد، ومعه جمع من التركمان، فمُنِعَ من دخول بغداد، وورد إليه صدقة بن مزيد صاحب الجلة وكان يكره تئش، ولم يخطب له في بلاده، فلما سمع ابن آبق بوصول عاد إلى طريق خراسان ونهب بأجسرا، وقاتله العسكر ببغقوبا، فهزمهم ونهبهم أفحش نهب وأكثر معه من التركمان وعاد إلى بغداد.

وكان صدقة قد رجع إلى الجلة، فدخل يوسف بن آبق إلى بغداد، وأراد نهبها والإيقاع بأهلها، فمنعه أمير كان معه من ذلك، ثم وصل إليه الخبر بقتل تئش، فرحل عن بغداد إلى الموصل، وسار من هناك إلى حلب.

ذكر الحرب بين بركيارق وتئش وقتل تئش

في هذه السنة، في صفر، قُتِلَ تئش بن ألب أرسلان.

وكان سبب ذلك أنه لما هزم السلطان بركيارق، كما ذكرناه، سار من (٢٤٥/١٠) موضع الوقعة إلى همدان، وقد تحصن بها أمير آخر، فرحل تئش عنها، فتبعه أمير آخر لأجل أنقائه، فعاد عليه تئش فكسره، فعاد إلى همدان، واستأمن إليه، وصار معه.

وبلغ تئش مرض بركيارق، فسار إلى أصبهان، فاستأذنه أمير آخر في قصد جرياذقان لإقامة الضيافة وما يحتاج إليه، فأذن له، فسار إليها، ومنها إلى أصبهان، وعرفهم خبر تئش.

وعلم تئش خبره، فنهب جرياذقان، وسار إلى الري، وراسل الأمراء الذين بأصبهان يدعوهم إلى طاعته، ويذل لهم البذول الكثيرة، وكان بركيارق مريضاً بالجذري، فأجابوه يعدونه بالانحياز إليه، وهم ينتظرون ما يكون من بركيارق، فلما عوفي أرسلوا إلى تئش: ليس بيننا غير السيف؛ وساروا مع بركيارق من أصبهان، وهم في نفر يسير، فلما بلغوا جرياذقان أقبلت إليهم العساكر من كل مكان، حتى صاروا في ثلاثين ألفاً، فالتقوا بموضع قريب من الري، فانهزم عسكر تئش وثبت هو، فقتل؛ قيل قتله بعض أصحاب آقسنقر، صاحب حلب، أخذاً بثأر صاحبه.

وكان قد قبض على فخر الملك بن نظام الملك، وهو معه،

وبمن أخذ معه من أصحابه إلى مدينة سفاقس. (٢٤٢/١٠)

وبلغ الخبر تميماً، فركب، وسير العساكر في أثرهم، فلم يدركوهم، ووصل شاهملك يحيى بن تميم إلى سفاقس، فركب صاحبها، واسمه حمو، وكان قد خالف على تميم، ولقي يحيى، ومشى في ركابه راجلاً، وقُتِلَ يده وعظمه، واعترف له بالعبودية، فأقام عنده أياماً، ولم يذكره أبوه بكلمة، وكان قد جعله ولياً عهداً، فلما أخذ أقام أبوه مقامه ابناً له آخر اسمه المثنى.

ثم أن صاحب سفاقس خاف يحيى على نفسه أن يشور معه الجند وأهل البلد ويملكوه عليهم، فأرسل إلى تميم كتاباً يسأله في إنفاذ الأتراك وأولادهم إليه ليرسل ابنه يحيى، ففعل ذلك بعد امتناع، وقدم يحيى، فحجبه أبوه عنه مدة، ثم أعاده إلى حاله، ورضي عنه، ثم جهز تميم عسكراً إلى سفاقس، ويحيى معهم، فساروا إليها وحصروها برّاً وبحراً، وضيقوا على الأتراك بها، وأقاموا عليها شهرين، واستولوا عليها، وفارقها الأتراك إلى قابس.

وكان تميم لما رضي عن ابنه يحيى عظم ذلك على ابنه الآخر المثنى، وداخله الحسد، فلم يملك نفسه، فقتل عنه إلى أبيه ما غير قلبه عليه، فأمر بإخراجه من المهديّة بأهله وأصحابه، فركب في البحر ومضى إلى سفاقس، فلم يمكنه عامله من الدخول إليها، وقصد مدينة قابس، وبها أمير يقال له مكين بن كامل الدهسماني، فأنزله وأكرمه، فحسن له المثنى الخروج معه إلى سفاقس والمهديّة، وأطعمه فيهما، وضمن الإنفاق على الجند من ماله، فجمع مكين من يمكنه جمعه، وسار إلى سفاقس، ومعهما شاهملك التركي وأصحابه، فنزلوا على سفاقس وقتلوه. (٢٤٣/١٠)

وسمع تميم، فجرد إليها جنداً، فلما علم المثنى ومن معه أنهم لا طاقة لهم بها ساروا عنها إلى المهديّة، فنزلوا عليها وقتلوه، وكان الذي يتولى القتال في المهديّة يحيى بن تميم، وظهرت منه شهامة، وشجاعة، وحزم وحسن تدبير، فلم يبلغ أولئك منها غرضاً، فعادوا خائبين، وقد تلف ما كان مع المثنى من مال وغيره، وعظم أمر يحيى، وصار وهو المشار إليه.

ذكر قتل أحمد خان صاحب سمرقند

في هذه السنة، في المحرم، قُتِلَ أحمد خان، صاحب سمرقند، وكان قد كرهه عسكره وأتهموه بفساد الاعتقاد، وقالوا: هو زنديق.

وكان سبب ذلك أن السلطان ملكشاه، لما فتح سمرقند وأسر أحمد خان هذا، قد وكل به جماعة من الديلم، فحسّنوا له معتقدتهم، وأخرجوه إلى الإباحة، فلما عاد إلى سمرقند كان يظهر منه أشياء تدلّ على انحلاله من الدين، فلما كرهه أصحابه، وعزموا

من بوزان، فقاتل المسلمين بمن معه، واحتسى بالقلعة، وشاهدوا من شجاعته مالم يكونوا يظنون، ثم ملكها رضوان، وطلب باغي سيان القلعة من رضوان، فوجهها له، فتسلمها وحصنها، ورتب رجالها، وأرسل إليها أهل حرّان يطلبونهم ليسلموا إليهم حرّان، فسمع ذلك قراجه أميرها، فأتهم ابن المفتي، وكان ابن المفتي هذا قد اعتمد عليه تشّش في حفظ البلد، فأخذه، وأخذ معه بني أخيه، فصلبهم.

ووصل الخير إلى رضوان، وقد اختلف جناح الدولة وباغي سيان، وأضمر كلّ واحد منهما الغدر بصاحبه، فهرب جناح الدولة إلى حلب، فدخلها، واجتمع بزوجه أم الملك رضوان، وسار رضوان وباغي سيان، فعبرا الفرات إلى حلب، فسمعا بدخول جناح الدولة إليها، ففارق باغي سيان الملك رضوان، وسار إلى أنطاكية، ومعه أبو القاسم الخوارزمي، وسار رضوان إلى حلب.

وأما دقاق بن تشّش فإنه كان قد سيّره أبوه إلى عمّه السلطان ملكشاه ببغداد، وخطب له ابنة السلطان، وسار بعد وفاة السلطان مع خاتون الجلالة وابنها محمود إلى أصبهان، وخرج إلى السلطان بركيارق سرّاً، وصار معه، ثم لحق بأبيه، وحضر معه الوقعة التي قُتل فيها. (٢٤٨/١٠)

فلما قُتل أبوه أخذه غلام لأبيه اسمه أيتكين الحلبي، وسار به إلى حلب، وأقام عند أخيه الملك رضوان، فراسله الأمير ساونتين الخادم الوالي بقلعة دمشق سرّاً، يدعو لملكه دمشق، فهرب من حلب سرّاً، وجذّ في السير، فأرسل أخوه رضوان عدّة من الخيالة، فلم يدركوه، فلما وصل إلى دمشق فرح به الخادم، وأظهر الاستبشار، ولقيه، فلما دخلها أرسل إليه باغي سيان يشير عليه بالفرد بملك دمشق عن أخيه رضوان.

وأتفق وصول معتمد الدولة طغديكين إلى دمشق، ومعه جماعة من خواص تشّش وعسكره، وقد سلموا، فإنه كان قد شهد الحرب مع صاحبه، وأمير، فبقي إلى الآن، وخلص من الأسر، فلما وصل إلى دمشق لقيه الملك دقاق وأرباب دولته، وبالعوا في إكرامه، وكان زوج والدة دقاق فمال إليه لذلك، وحكّمه في بلاده، وعملوا على قتل الخادم ساونتين، فقتلوه، وسار إليهم باغي سيان من أنطاكية، ومعه أبو القاسم الخوارزمي، فجعله وزيراً لدقاق، وحكّمه في دولته.

ذكر وفاة المعتمد بن عباد

في هذه السنة توفي المعتمد بن عباد، الذي كان صاحب الأندلس، مسجوناً بأغمار، من بلد المغرب، وقد ذكرنا كيف أخذت بلاده منه سنة أربع وثمانين وأربعمائة، فبقي مسجوناً إلى الآن، وتوفي، وكان من محاسن الدنيا كريماً، وعلماً، وشجاعاً،

فأطلق، واستقام الأمر والسلطنة لبركيارق، وإذا أراد الله أمراً هباً أسبابه، بالأمس ينهزم من عمّه تشّش، ويصل إلى أصبهان في نفر سير، فلا يتبعه أحد، ولو تبعه عشرون فارساً لأخذه لأنه بقي على باب أصبهان عدّة أيام، ثم لما دخلها أراد الأمراء كحله، فاتفق أنّ أخاه حمّ ثاني يوم وصوله، وجدر، فمات، فقام في الملك مقامه، ثم جدر هو وأصابه معه سرسام، فعوفي، وبقي مذكسره عمّه إلى أن عوفي وسار عن أصبهان أربعة أشهر لم يتحرك عمّه، ولا عمل شيئاً، ولو قصده وهو مريض أو وقت مرض أخيه لملك البلاد:

ولله سرّ في علاك، وإتّما كلام العبدى ضرب من الهنّان (٢٤٦/١٠)

ذكر حال الملك رضوان وأخيه دقاق بعد قتل أبيهما

كان تاج الدولة تشّش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه الملك رضوان، وكتب إليه من بلد الجبل، قبل المصاف الذي قُتل فيه، يأمره أن يسير إلى العراق، ويقم بدار المملكة، فسار في عدد كثير منهم: إيلغازي بن أرتق، وكان قد سار إلى تشّش، فتركه عند ابنه رضوان، ومنهم: الأمير وثاب بن محمود ابن صالح بن مرداس، وغيرهم، فلما قارب حيث بلغه قتل أبيه، فعاد إلى حلب، ومعه والدته، فملكها، وكان بها أبو القاسم الحسن بن علي الخوارزمي، قد سلمها إليه تشّش وحكّمه في البلد والقلعة.

ولحق برضوان زوج أمّه جناح الدولة الحسين بن أيتكين، وكان مع تشّش، فسلم من المعركة، وكان مع رضوان أيضاً أخوه الصغيران: أبو طالب وزيهرا، وكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكّمه في البلد؛ واستمال جناح الدولة المغاربة، وكانوا أكثر جند القلعة، فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان، واحتاطوا على أبي القاسم، وأرسل إليه رضوان يعطي قلبه، فاعتذر، فقبل عذره، وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها، ولم يكن يخطب له بل كانت الخطبة لأبيه، بعد قتله، نحو شهرين.

وسار جناح الدولة في تدبير المملكة سيرة حسنة، وخالف عليهم الأمير باغي سيان بن محمّد بن ألب التركماني، صاحب أنطاكية، ثم صالحهم، وأشار على الملك رضوان بقصد ديار بكر، لخلوها من وال يحفظها، فساروا جميعاً، وقدم عليهم أمراء الأطراف الذين كان تشّش رتبهم فيها، وقصدوا سرّوج فسبقهم إليها الأمير سقمان بن أرتق جدّ أصحاب الحصن اليوم، (٢٤٧/١٠) وأخذها، ومنعهم عنها، وأمر أهل البلد فخرجوا إلى رضوان وتظلموا إليه من عساكره وما يفسدون من غلاتهم، ويسألونه الرحيل، فرحل عنهم إلى الرها.

وكان بها رجل من الروم يقال له الفارقليط، وكان يضمن البلد

ورئاسة تامة، وأخباره مشهورة، وآثاره مدونة. (٢٤٩/١٠)

ذكر الفتنة بنيسابور

في هذه السنة، في ذي الحجة، جمع أمير كبير من أمراء خراسان جمعاً كثيراً، وسار بهم إلى نيسابور، فاجتمع أهلها وقاتلوه أشد قتال، ولازم حصارها نحو أربعين يوماً، فلمّا لم يجد له مطعماً فيها سار عنها في المحرم سنة تسع وثمانين [وأربعمائة]، فلمّا فارقها وقعت الفتنة بها بين الكرامية وسائر الطوائف، فقتل بينهم قتلى كثيرة.

وكان مقدّم الشافعية أبا القاسم ابن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، ومقدّم الحنيفة القاضي محمد بن أحمد بن صاعد، وهما متفقان على الكرامية، ومقدّم الكرامية محمّد، فكان الظفر للشافعية والحنيفة على الكرامية، فخربت مدارسهم، وقتل كثير منهم ومن غيرهم، وكانت فتنة عظيمة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، شرع الخليفة في عمل سور على الحريم وأذن الوزير عميد الدولة بن جُهير للعامة في التفرّج والعمل، فزيناوا البلد، وعمِلوا القِياب، وجدّوا في عمارته.

وفيها، في شهر رمضان، جرح السلطان بركيارق، جرحه إنسان سترى (٢٥٢/١٠) له، من أهل سجستان، في عضده، ثم أخذ الرجل، وأعانه رجلاان أيضاً من أهل سجستان، فلمّا ضرب الرجل الجارح اعترف أن هذين الرجلين وضعا، واعترف بذلك، فضربا الضرب الشديد، ليقرأ على من أمرهما بذلك، فلم يقرأ، فقرأ إلى الليل ليُجعلاً تحت قوائمه، وقَدّم أحدهما، فقال: اتركوني وأنا أعرفكم؛ فتركوه، فقال لصاحبه: يا أخي لا بدّ من هذه القتلّة، فلا تفضح أهل سجستان بإفشاء الأسرار؛ فقتلا.

وفيها توجه الإمام أبو حامد الغزالي إلى الشام، وزار القدس، وترك التدريس في النظامية، واستتاب أخاه، وتزهد، ولبس الخشن، وأكل الدون، وفي هذه السفرة صنف إحياء علوم الدين، وسمعه منه الخلق الكثير بدمشق، وعاد إلى بغداد بعدما حجّ في السنة التالية، وسار إلى خراسان.

وفيها، في ربيع الأول، خطب لولي العهد أبي الفضل منصور بن المستظهر بالله.

وفيها عزل بركيارق وزيره مؤيد الملك بن نظام الملك، واستوزر أخاه فخر الملك؛ وسبب ذلك أن بركيارق لمّا هزم عمه تَشّ، وقتله، أرسل خادماً ليحضّر والدته زبيدة خاتون من أصبهان، فأتفق مؤيد الملك مع جماعة من الأمراء، وأشاروا عليه بتركها، فقال: لا أريد الملك إلا لها، ويوجودها عندي؛ فلمّا وصلت إليه وعلمت الحال تنكرت على مؤيد الملك، وكان مجد الملك أبو

وله أشعار حسنة، فمنها ما قاله لمّا أخذ ملكه وحس:

سَلَّتْ عليَّ يدُ الخطوبِ سِيوفُها فجنّذَن من جسدي الحَصيفُ الأمتا
ضربتُ بها أيدي الخطوبِ، وإمتا ضربتُ رقابَ الأملينَ بها المني
يا أملِي العاداتِ من نَمَحَاتِنا كَفُّوا، فإنَّ الدُّعْرَ كَفَّ أَكفُّنا
وله من قصيدة يصف القيد في رجله:

تَعَطَّفَ في ساقِي تَعَطَّفَ لِرَقَمِ يُساورُها عَضاً بِأَيْسابِ ضَيْقِهم
وإني مَن كانَ الرِّجالُ بِسَيِّهِ ومن سَيِّهِ في جَنَّةٍ وجَنِّهِم
وقال في يوم عيد:

فيما مضى كَتَبَ بالأعيادِ مسروراً فساءك العيْدُ في أغصانِ ماسوراً
قد كانَ دُهرُكَ إن تَأثَّرَ مُتَيْلاً فَرَكَّكُ الدَّهرُ مَتَيْلاً وماسوراً
من باتَ بَعْدَكَ في مُلْكٍ يُسَرُّ بِهِ فإنَّما باتَ بالأحلامِ مسروراً

وكان شاعره أبو بكر بن اللبّانة يأتيه وهو مسجون، فيمدحه لا لجدوى ينالها منه، بل رعاية لحقه وإحسانه القديم إليه. فلمّا توفى أناه، فوقف على قبره، يومَ عيدٍ، والناس عند قبور أهلهم، وأنشد بصوت عال:

مَلِكُ المُلوكِ أَسامِيعُ فَأَسادي أَم قد عَذَّكَ عَنِ الجوابِ عَوادي (٢٥٠/١٠)

لمّا خَلَّتْ مِنْكَ القصورُ ولم تَكُنْ فيها كما قد كُنْتَ في الأعيادِ
فَتَنَلْتُ في هذا الثَّرَى لَكَ خاضِعاً وَتَحَنَّنْتُ فَبَرَكْتُ مَوْضِعَ الإنْشاؤِ
وأخذ في إتمام القصيدة، فاجتمع الناس كلهم عليه ليكون، ولو أخذنا في تفصيل مناقبه ومحاسنه لطال الأمر، فلنقف عند هذا.

ذكر وفاة الوزير أبي شعاع

في هذه السنة توفى الوزير أبو شعاع محمد بن الحسين بن عبد الله، وزير الخليفة، في جمادى الآخرة، وأصله من رُوداور، ووُلد بالأهواز، وقرأ الفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكان عالماً بالعربية، وله تصانيف منها: ذيل تجارب الأمم، وكان عفيفاً، عادلاً، حسن السيرة، كثير الخير والمعروف، وكان موته بمدينة رسول الله ﷺ كان مجاوراً فيها.

ولمّا حضره الموت أمر فُحْمِلَ إلى مسجد النبي ﷺ فوقف بالحضرة وبكى، وقال: يا رسول الله أقال الله، عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ [النساء: ٦٣]؛ وقد جئت معترفاً بذنوبي وجراثمي أرجو شفاعتك.

وبكى فاكتر، وتوفى من يومه، ودُفن عند قبر إبراهيم ابن النبي،

ﷺ. (٢٥١/١٠)

وكان سبب قتله أنه كان بحلب، بعد قتل تاج الدولة، وكان بحلب إنسان يقال له الميجن، وهو رئيس الأحداث بها، وله أتباع كثيرون، فحضر عند جناح الدولة حسين، وقال له: إن يوسف بن آبق يكاتب باغي سيان، وهو على عزم الفساد؛ واستأذنه في قتله، فأذن له، وطلب أن يعينه بجماعة من الأجناد، ففعل ذلك، فقصده الميجن الدار التي بها يوسف، فكسبها من الباب والسطح، وأخذ يوسف قتلته، ونهب كل ما كان في داره، وبقي بحلب حاكماً، فحدثته نفسه بالثغرة بالحكم عن الملك رضوان، فقال لجناح الدولة: إن الملك رضوان أمرني بقتلك، فخذ لنفسك؛ فهرب جناح الدولة إلى حمص، وكانت له، فلما انفرد الميجن بالحكم تغير عليه رضوان، وأراد منه أن يفرق البلد، فلم يفعل، وركب في أصحابه، فلو هم بالمحاربة لفعل، ثم أمر أصحابه أن ينهبوا ماله، وأثاثه، ودوابه، ففعلوا ذلك، واختفى، فطلب (٢٥٦/١٠) فوجد بعد ثلاثة أيام، فأخذ وعوقب وعذب، ثم قتل هو وأولاده، وكان من السواد يشق الخشب، ثم بلغ هذه الحالة.

ذكر وفاة منصور بن مروان

في هذه السنة، في المحرم، توفي منصور بن نظام الدين بن نصر الدولة بن مروان، صاحب ديار بكر، وهو الذي انقراض أمر بني مروان على يده، حين حاربه فخر الدولة بن جهير، وكان جكرمش قد قبض عليه بالجزيرة، وتركه عند رجل يهودي، فمات في داره، وحملته زوجته إلى تربة آباءه، فدفتته ثم حُجِّت، وعادت إلى بلد البشنوية، فابتاعت ديراً من بلد فكك بقرب جزيرة ابن عمر، وأقامت فيه تعبد الله.

وكان منصور شجاعاً، شديد البخل، له في البخل حكايات عجبية، فتعسا لطالب الدنيا، المعرض عن الآخرة، ألا ينظر إلى فعلها بأبائها؛ بينما منصور هذا ملك من بيت آل أمره إلى أن مات في بيت يهودي، نسال الله تعالى أن يحسن أعمالنا، ويصلح عاقبة أمرنا في الدنيا والآخرة، بمنه وكرمه. (٢٥٧/١٠)

ذكر ملك تميم مدينة قابس أيضاً

في هذه السنة ملك تميم بن المعز مدينة قابس، وأخرج منها أخاه عمراً.

وسبب ذلك أنها كان بها إنسان يقال له قاضي بن إبراهيم بن يلمونه فمات، فولى أهلها عليهم عمرو بن المعز، فأساء السيرة، وكان قاضي ابن إبراهيم عاصياً على تميم، وتميم يعرض عنه، فسلك عمرو طريقه في ذلك، فأخرج تميم العساكر إلى أخيه عمرو ليأخذ المدينة منه، فقال له بعض أصحابه: يا مولانا لما كان فيها قاضي توائت عنه وتركته، فلما وليها أخوك جردت إليه العساكر؛ فقال: لما كان فيها غلام من عبيدنا كان زواله سهلاً علينا، وأما

الفضل البلاساني قد صاحبها في طريقها، وعلم أنه لا يتم له أمر مع مؤيد الملك، وكان بين مؤيد الملك وأخيه فخر الملك تباعد بسبب جواهر خلفها أبوهم نظام الملك، فلما علم فخر الملك تنكراً أم السلطان على أخيه (٢٥٣/١٠) مؤيد الملك أرسل وبذل أموالاً جزيلة في الوزارة، فأجيب إلى ذلك، وعزل أخوه وولي هو.

وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، توفي أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي، الفقيه الحنبلي، وكان عارفاً بعدة علوم، وكان قريباً من السلاطين.

وفيها، في رجب، توفي أبو الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون، المعروف بابن الباقلاني، وهو مشهور، ومولده سنة ست وأربعمائة.

وفيها، في شعبان، توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، وكان من أصحاب أبي الطيب الطبري، ولم يأخذ على القضاء أجراً، وأقر الحق مقره، ولم يحاب أحدًا من خلق الله، ادعى عنده بعض الأتراك على رجل شيئاً، فقال: ألك بينة؟ قال: نعم! فلان، والمشطب الفقيه الفرغاني؛ فقال: لا أقبل شهادة المشطب لأنه يلبس الحرير؛ فقال التركي: فالسلطان ونظام الملك يلبسان الحرير؛ فقال: لو شهدا عندي على باقة بقل لم أقبل شهادتهما؛ وولي القضاء بعده أبو الحسن علي ابن قاضي القضاة أبي عبد الله محمد الدامغاني.

وفيها مات القاضي أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزويني، ومولده سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وكان مغالياً في الاعتزال، وقيل كان زيدي المذهب.

وفيها توفي القاضي أبو بكر بن الرطبي، قاضي دجيل، وكان شافعي (٢٥٤/١٠) المذهب، وولي بعده أخوه أبو العباس أحمد بن الحسن بن أحمد أبو الفضل الحداد الأصبهاني، صاحب أبي نعيم الحافظ، روى عنه جليلة الأولياء، وهو أكبر من أخيه أبي المعالي؛ وأبو عبد الله محمد بن أبي نصر فروح بن عبد الله بن حميد الحميدي الأندلسي، ولد قبل العشرين وأربعمائة، وسمع الحديث ببليده، ومصر، والحجاز، والعراق، وهو مصنف الجمع بين الصحيحين، وكان ثقة فاضلاً، وتوفي في ذي الحجة، ووقف كتبه فانتفع بها الناس. (٢٥٥/١٠)

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

ذكر قتل يوسف بن آبق والمجن الحلبى

في هذه السنة، في المحرم، قتل يوسف بن آبق الذي ذكرنا أنه سيّره تاج الدولة تش إلى بغداد ونهب سوادها.

اليوم، وابن المعزّ بالمهدية، وابن المعزّ يقايس، فهذا مالا يمكن السكوت عليه.

وفي فتحها يقول ابن خطيب سوسة القصيدة المشهورة التي أولها:

ضجك الزمان، وكان يُلقى عابساً
لما فتحت بحد سيفك قابساً
الله يعلم ما حوت بمارها
إلا وكان أبوك، قبل، الغارياً
من كان في رُزق الأستة خاطباً،
كانت له قتل البلاد عرائساً
فاشترت نعيم بن المعزّ بفكك
تركك من اكناف قايس قابساً (٢٥٨/١٠)

ولما فكك تركوا هناك مصائباً
ومقاصراً، ومخالداً، ومجالساً
فكأها قلب، ومن وساوس،
جاء اليقين، فناد عنه وساوساً

ذكر ملك كربوقا الموصل

في هذه السنة، في ذي القعدة، ملك قوام الدولة أبو سعيد كربوقا مدينة الموصل، وقد ذكرنا أن تاج الدولة تشش أسره لما قتل آقسنقر وبوزان، فلما أسره أبقى عليه، طمعاً في استصلاح حميه الأمير أتر، ولم يكن له بلد يملكه إذا قتله، كما فعل بالأمير بوزان، فإنه قتله واستولى على بلاده الرها وخران.

ولم يزل قوام الدولة محبوباً يحلب إلى أن قتل تشش، وملك ابنه الملك رضوان حلب، فأرسل السلطان بركيارق رسولاً يأمره بإطلاقه وإطلاق أخيه التوتاش، فلما أطلقا سارا واجتمع عليهما كثير من العساكر البطالين، فأثبا حران فتسلماها، وكاتبهما محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وهو نصيبين، ومعه ثروان بن وهيب، وأبو الهيجاء الكردي، يستنصرون بهما على الأمير علي بن شرف الدولة، وكان بالموصل قد جعله بها تاج الدولة تشش بعد وقعة المضيق. (٢٥٩/١٠)

فسار كربوقا إليهم، فلقية محمد بن شرف الدولة على مرحلتين من نصيبين، واستحلفهما لنفسه، فقبض عليه كربوقا بعد اليمين، وحمله معه، وأتى نصيبين، فامتنعت عليه، فحصرها أربعين يوماً، وتسلّمها، وسار إلى الموصل فحصرها، فلم يظفر منها بشيء، فسار عنها إلى بلد، وقتل بها محمد بن شرف الدولة، وغرقه، وعاد إلى حصار الموصل، ونزل على فرسخ منها بقرية باحلاقا، وترك التوتاش شرقي الموصل، فاستنجد علي بن مسلم صاحبها بالأمير جكرمش، صاحب جزيرة ابن عمر، فسار إليه نجدة له، فلما علم التوتاش بذلك سار إلى طريقه، فقاتله، فانهزم جكرمش، وعاد إلى الجزيرة منهزماً، وصار في طاعة كربوقا، وأعانه على حصر الموصل، وعدمت الأقوات بها وكل شيء، حتى ما يوقدونه، فأوقدوا القير، وحبّ القطن.

فلما ضاق بصاحبها علي الأمر فارقتها وسار إلى الأمير صدقة

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اجتمع ستة كواكب في برج الحوت، وهي الشمس، والقمر، والمشتري، والزهرة، والمريخ، وعطارد، فحكم المنجمون (٢٦٠/١٠) بطوفان يكون في الناس يقارب طوفان نوح، فاحضر الخليفة المستظهر بالله ابن عيسون المنجم، فسأله، فقال: إن طوفان نوح اجتمعت الكواكب السبعة في برج الحوت، والآن فقد اجتمع ستة منها، وليس منها رُحل، فلو كان معها لكان مثل طوفان نوح، ولكن أقول إن مدينة، أو بقعة من الأرض يجتمع فيها عالم كثير من بلاد كثيرة، فيغرقون؛ فخافوا على بغداد، لكثرة من يجتمع فيها من البلاد، فأحكمت المنيات، والمواضع التي يخشى منها الانفجار والغرق.

فاتفق أن الحجّاج نزلوا بوادي المياقت، بعد نخلة، فاتاهم سيل عظيم فاغرق أكثرهم، ونجا من تعلّق بالجبال، وذهب المال، والدواب، والأزواد، وغير ذلك، فخلع الخليفة على المنجم.

وفيهما، في صفر، درس الشيخ أبو عبد الله الطبري الفقيه الشافعي بالمدرسة النظامية ببغداد، رتب فيها فخر الملك بن نظام الملك، وزير بركيارق.

وفيهما أغارت خفاجة على بلد سيف الدولة صدقة بن مزيد، فأرسل في أثرهم عسكرياً، مقدّمة ابن عمه قريش بن بدران بن دئيس بن مزيد، فأسرته خفاجة، وأطلقوه، وقصدوا مشهد الحسين بن علي، عليه السلام، فتظاهروا فيه بالفساد والمنكر، فوجّه إليهم صدقة جيشاً، فكبسوهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً في المشهد، حتى عند الضريح، وألقى رجل منهم نفسه وهو على فرسه من على السور، فسلم هو والفرس.

وفي هذه السنة، في صفر، توفي القاضي أبو مسلم وادع بن سليمان قاضي معرة النعمان المستولي على أمورها، وكان رجل زمانه همة وعلماً.

وفيهما، في ربيع الأول، توفي أبو بكر محمد بن عبد الباقي المعروف (٢٦١/١٠) بابن الخاضبة، المحدث، وكان عالماً.

وفيهما، في رمضان، توفي أبو بكر عمر بن السمرقندي، ومولده سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.

وفتحها عنوةً، وقتل فيها وأكثر، وقلع أبواب سورها وهدمه، فسار إليه بوربرس من هَرَاة، فالتقيا وتصافوا، فانهزم بوربرس سنة ثمان وثمانين [وأربعمائة].

وفيهما، في رمضان، توفي أبو الفضل عبد الملك بن إبراهيم المقدسي المعروف بالهمذاني، وكان عالماً في عدة علوم، وقد قارب ثمانين سنة. (٢٦٢/١٠)

سنة تسعين وأربعمائة

ذكر قتل أرسلان أرغون

في هذه السنة، في المحرم، قُتل أرسلان أرغون بن ألب أرسلان، أخو السلطان ملكشاه، بمرو، وكان قد ملك خراسان.

وسبب قتله أنه كان شديداً على غلمانه، كثير الإهانة لهم والعقوبة، وكانوا يخافونه [خوفاً] عظيماً، فاتفق أنه الآن طلب غلاماً له، فدخل عليه وليس معه أحد، فأنكر تأخره عن الخدمة، فاعتذر، فلم يقبل عذره، وضربه، فأخرج الغلام سكيناً معه وقتله، وأخذ الغلام، فقيل له: لِمَ فعلتَ هذا؟ فقال: لأريح الناس من ظلمه.

وكان سبب ملكه خراسان أنه كان له أيام أخيه ملكشاه، من الإقطاع ما مقداره سبعة آلاف دينار، وكان معه ببغداد لماً مات، فسار إلى همذان في سبعة غلمان، واتصل به جماعة، فسار إلى نيسابور، فلم يجد فيها مطعماً، فتمم إلى مرو، وكان شحنة مرو أمير اسمه قودن من مماليك ملكشاه، وهو الذي كان سبب تنكر السلطان ملكشاه على نظام الملك، وقد تقدم ذلك في قتل نظام الملك، فمال إلى أرسلان أرغون، وسلم البلد إليه، فأقبلت العساكر إليه، وقصد بلخ، وبها فخر الملك بن نظام الملك، فسار عنها، (٢٦٣/١٠) ووزر لتاج الدولة تشش، على ما ذكرناه.

وملك أرسلان أرغون بلخ، ويزميد، ونيسابور، وعامة خراسان، وأرسل إلى السلطان، بركيارق وإلى وزيره مؤيد الملك بن نظام الملك يطلب أن يقر عليه خراسان، كما كانت لجده داود، ما عدا نيسابور، ويبدل الأموال ولا ينازع في السلطنة، فسكت عنه بركيارق لاشتغاله بأخيه محمود وعمه تشش، فلمّا عزل السلطان بركيارق مؤيد الملك عن وزارته، ووليها أخوه فخر الملك، واستولى على الأمور مجده الملك البلاساني، قطع أرسلان أرغون مراسلة بركيارق، وقال: لا أرضى لنفسى مخاطبة البلاساني؛ فتدب بركيارق حيثنذ عمه بوربرس بن ألب أرسلان، وسيره في العساكر لقتاله.

وكان قد اتصل بأرسلان عماد الملك أبو القاسم بن نظام الملك، ووزر له، فلمّا وصلت العساكر إلى خراسان لقيهم أرسلان أرغون، وقتلتهم، وانهزم منهم، وسار منهزماً إلى بلخ، وأقام بوربرس والعساكر التي معه بهراة.

ثم جمع أرغون عساكر جمّة وسار إلى مرو، فحصرها أياماً،

وسبب هزيمته أنه كان معه من جملة العساكر التي سيرها معه بركيارق أمير آخر ملكشاه، وهو من أكابر الأمراء، والأمير مسعود بن تاجر، وكان أبوه مقدم عسكر داود، جدّ ملكشاه، ولمسعود منزلة كبيرة، ومحلّ عظيم، عند الناس كافة، وكان بين أمير آخر وبين أرسلان موثة قديمة، فأرسل (٢٦٤/١٠) إليه أرسلان أرغون يستميله، ويدعوه إلى طاعته، فأجاب به إلى ذلك.

ثم إن مسعود بن تاجر قصد أمير آخر زائراً له، ومعه ولده، فأخذهما وقتلهما، فضعف أمر بوربرس، وانهزم من أرسلان أرغون، وتفرق عسكره، وأسر، وحُمل إلى أرسلان أرغون، وهو أخوه، فحبسه بترمذ، ثم أمر به فخنق بعد سنة من حبسه، وقتل أكابر عسكر خراسان ممن كان يخافه ويخشى تحكّمه عليه، وصادر وزيره عماد الملك بثلاثمائة ألف دينار، وقتله، وخرّب أسوار مدن خراسان، منها: سور سبزوار، وسور مرو الشاهجان، وقلعة سَرْخَس، وقهنلر نيسابور، وسور شهرستان، وغير ذلك، خربه جميعه سنة تسع وثمانين [وأربعمائة]، ثم إنه قُتل هذه السنة كما ذكرنا.

ذكر استيلاء عسكر مصر على مدينة صور

في هذه السنة، في ربيع الأول، وصل عسكر كثير من مصر إلى ثغر صور، بساحل الشام، فحصرها وملكها.

وسبب ذلك أن الوالي بها، ويُعرف بكتيلة، أظهر العصيان على المستعلي، صاحب مصر، والخروج عن طاعته، فسير إليه جيشاً، فحصره بها، وضيقوا عليه وعلى من معه من جنديّ وعامّي، ثم اقتحها عنوةً بالسيف، وقتل بها خلق كثير، ونهب منها المال الجزيل، وأخذ الوالي أسيراً بغير أمان، وحُمل إلى مصر فقتل بها. (٢٦٥/١٠)

ذكر ملك بركيارق خراسان وتسليمها إلى أخيه سنجر

كان بركيارق قد جهّز العساكر مع أخيه الملك سنجر، وسيرها إلى خراسان لقتال عمه أرسلان أرغون، وجعل الأمير قماج أتاك بك سنجر، ورتب في وزارته أبا الفتح علي بن الحسين الطغراني، فلمّا وصلوا إلى الدماغان بلغهم خبر قتله، فأقاموا، حتّى لحقهم السلطان بركيارق، وساروا إلى نيسابور، فوصل إليها خامس جمادى الأولى من السنة وملكها بغير قتال، وكذلك سائر البلاد الخراسانية، وساروا إلى بلخ.

وكان عسكر أرسلان أرغون قد ملكوا بعد قتله ابناً له صغيراً،

عمره سبع سنين، فلما سمعوا بوصول السلطان أبعدهوا إلى جبال

طخارستان، وأرسلوا يطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، فعادوا ومعهم ابن أرسلان أرغون، فأحسن السلطان لقاءه، وأعطاه ما كان لأبيه من الإقطاع أيام ملكشاه، وكان وصوله إلى السلطان في خمسة عشر ألف فارس، فما انقضى يومهم حتى فارقه، واتصلت كل طائفة منهم بأمير تخدمه، وبقي وحده مع خادم لأبيه، فأخذته والدة السلطان بركيارق إليها، وأقامت له من يتولى خدمته وتربيته.

وسار بركيارق إلى يرمذ فسلمت إليه، وأقام عند بلخ سبعة أشهر، وأرسل إلى ما وراء النهر، فأقيمت له الخطبة بسمركند وغيرها، ودانت له البلاد.

ذكر خروج أمير أميران بخراسان مغالفاً

في هذه السنة لما كان السلطان بركيارق بخراسان خالف عليه أمير محمد ابن سليمان، ويُعرف بأمير أميران، وهو ابن عم ملكشاه، وتوجه إلى (٢٦٦/١٠) بلخ، واستعد من صاحب غزنة، فأمده بجيش كثير، وقبلة، وشرط عليه أن يخطب له في جميع ما يفتح من خراسان، ففويت شوكته، ومد يده في البلاد، فسار إليه الملك سنجر بن ملكشاه جريداً، ولا يعلم به أمير أميران، فكبسه، فجرى بينهما قتال ساعة، ثم أضر، وحمل إلى بين يدي سنجر، فأمر به فكحل.

ذكر عصيان الأمير قودن ويارقشاش على السلطان واستعمال

حبشي على خراسان

في هذه السنة عصى يارقشاش وقودن على السلطان بركيارق.

وسبب ذلك أن الأمير قودن كان قد صار في جملة الأمير قماج، فتوفي، والسلطان بمرو، فاستوحش قودن، وأظهر المرض، وتأخر بمرو بعد مسير السلطان إلى العراق، وكان من جملة أمراء السلطان أمير اسمه اكنجي، وقد ولّاه السلطان خوارزم، ولقبه خوارزمشاه، فجمع عساكره وسار في عشرة آلاف فارس ليلحق السلطان، فسبق العسكر إلى مرو في ثلاثمائة فارس، وتشاغل بالشرب، فاتفق قودن وأمير آخر اسمه يارقشاش على قتله، فجمعا خمسمائة فارس وكبسوه وقتلوه، وساروا إلى خوارزم، وأظهروا أن السلطان قد استعملهما عليها تسليماً.

وبلغ الخبر إلى السلطان، فتمّ المسير إلى العراق، لما بلغه من خروج الأمير أثر ومؤيد الملك عن طاعته، وأعاد أمير داذ حبشي بن التوتناق في جيش (٢٦٧/١٠) إلى خراسان لقتالهما، فسار إلى هراة، وأقام ينتظر اجتماع العساكر معه، فعاجلاه في خمسة عشر ألفاً، فعلم أمير داذ أنه لا طاقة له بهما، فعبر جيحون، فسارا إليه، وتقدم يارقشاش ليلحقه قودن، فعاجله يارقشاش وحده وقتله،

فانهزم يارقشاش وأخذ أسيراً.

وبلغ الخبر إلى قودن، فثار به عسكره، ونهبوا خزائنه وما معه، فبقي في سبعة نفر، فهرب إلى بخارى، فقبض عليه صاحبها، ثم أحسن إليه، وبقي عنده، وسار من هناك إلى الملك سنجر ببلخ، فقبله أحسن قبول، وبذل له قودن أن يكفيه أموره، ويقوم بجمع العساكر على طاعته، فقدر أنه مات عن قريب، وأما يارقشاش فبقي أسيراً إلى أن قتل أمير داذ، وكان من أمره ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ابتداء دولة محمد بن خوارزمشاه

في هذه السنة أمر بركيارق الأمير حبشي بن التوتناق على خراسان، كما ذكرناه، فلما صفت له، وقُتل قودن، كما ذكرنا قبل، ولي خوارزم الأمير محمد بن أنوشتكين، وكان أبوه أنوشتكين مملوك أمير من السلجوقية، اسمه بلكبك، قد اشتراه من رجل من غرشيستان فقبل له أنوشتكين غرضه، فكبر، وعلا أمره، وكان حسن الطريقة، كامل الأوصاف، وكان مقدماً، مرجوعاً إليه، وولد له ولد سمّاه محمداً، وهو هذا، وعلمه، وخرجه، وأحسن تربيته، وتقدم بنفسه، وبالعبادة الأزلية.

فلما ولي أمير داذ حبشي خراسان كان خوارزمشاه اكنجي قد قُتل، (٢٦٨/١٠) وقد تقدم ذكره، ونظر الأمير حبشي فيمن يوليّه خوارزم، فوقع اختياره على محمد بن أنوشتكين، فولّاه خوارزم، ولقبه خوارزمشاه، فقصر أوقاته على مغذلة ينشرها، ومكرمة يغلها، وقرب أهل العلم والدين، فازداد ذكره حسناً، ومحله علواً.

ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقرّ محمداً خوارزمشاه على خوارزم وأعمالها، فظهرت كفايته وشهامته، فعظم سنجر محله وقدره.

ثم إن بعض ملوك الأتراك جمع جموعاً، وقصد خوارزم، ومحمد غائب عنها، وكان طغرلكتين بن اكنجي، الذي كان أبوه خوارزمشاه قبل عند السلطان سنجر، فهرب منه، والتحق بالأتراك على خوارزم، فلما سمع خوارزمشاه محمد الخبر بادر إلى خوارزم، وأرسل إلى سنجر يستمده، وكان ببغسبور، فسار في العساكر إليه، فلم ينتظره محمد، فلما قارب خوارزم هرب الأتراك إلى منشلاغ، وطغرلكتين أيضاً رحل إلى حندخان، وكفي خوارزمشاه شرهم.

ولما توفي خوارزمشاه، ولي بعده ابنه إسنر، فمدّ ظلال الأمن، وأفاض العدل، وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه، وقصد بلاد الأعداء، وياشر الحروب، فملك مدينة منشلاغ.

ولما ولي بعد أبيه قريه السلطان سنجر، وعظمه، واعتضد به،

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كانت فتنة عظيمة بخراسان بين أهل سبزوار وأهل خُسرُو جَرْد، وقُتل عظيم، فقتل بينهم جماعة كثيرة، وانهزم أهل خُسرُو جَرْد.

وفيها قُتل عثمان، وكيل دار نظام الملك، وكان سبب قتله أنه كان كاتبَ صاحب غَزَنَة بالأخبار من قِبَل السلطان، فأخذ وحُبِسَ بترميز مدَّة، ثم أُطْلِع عليه، وهو في الحبس، أنه كان يكتب أيضاً فقتل.

وفي صفر منها قُتل عبد الرحمن السمرمي، وزير أم السلطان بركيارق قُتل باطني غيلة، وقُتل الباطني بعده. (٢٧١/١٠)

وفيها، في شعبان، ظهر كوكب كبير له ذُؤابة، وأقام يطلع عشرين يوماً، ثم غاب ولم يظهر.

وفيها توفي النقيب الطاهر أبو الغنائم محمد بن عبد الله، وكان ديناً سخيّاً، كريماً، متعصباً، حنفي المذهب، وولي النقابة بعده ولده أبو الفتح حيدرة.

وفيها توفي أبو القاسم يحيى بن أحمد السبيعي وهو ابن مائة سنة وستين، وهو صحيح الحواس، وكان مقرئاً، محدثاً، حاضر القلب.

وفيها قُتل أرغش النظامي، مملوك نظام الملك، بالرّي وكان قد بلغ مبلغاً عظيماً بحيث أنه تزوج ابنة ياقوتي عم السلطان بركيارق، قتله باطني، وقُتل قاتله.

وقُتل بُرسق في شهر رمضان، وهو من أكابر الأمراء، قتله باطني، وكان بُرسق من أصحاب السلطان طغرلبيك، وهو أول شحنة كان ببغداد. (٢٧٢/١٠)

سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

ذكر ملك الفرنج مدينة أنطاكية

كان ابتداء ظهور دولة الفرنج، واشتداد أمرهم، وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فملكوا مدينة طَلَيْطَلَة وغيرها من بلاد الأندلس، وقدم تقدّم ذكر ذلك.

ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها، وقد ذكرته أيضاً، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية، فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم، ثم ملكوا غيره على ما تراه.

فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام، وكان

واستصحبه معه في أسفاره وحروبه، فظهرت منه الكفاية والشهامة، فزاده تقدماً وعلوّاً؛ وهو ابتداء مُلك بيت خوارزمشاه تكش، وابنه محمد الذي ظهرت التّر عليه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى. (٢٦٩/١٩)

ذكر الحرب بين رضوان وأخيه دُقاق

في هذه السنة سار الملك رضوان إلى دمشق، وبها أخوه دُقاق، عازماً على أخذها منه، فلما قاربها، ورأى حصانتها وامتناعها، علم عجزه عنها، فرحل إلى نابلس، وسار إلى القدس ليأخذها، فلم يمكنه، وانقطعت العساكر عنه، فعاد ومعه باغي سيان، صاحب أنطاكية، وجناح الدولة.

ثم إن باغي سيان فارق رضوان، وقصد دُقاق، وحسن له محاصرة أخيه بحلب، جزاء لما فعله، فجمع عساكر كثيرة وسار ومعه باغي سيان، فأرسل رضوان رسولا إلى سُقمان بن أرتق، وهو بسروج، يستنجد به، فأتاه في خلق كثير من التركمان، فسار نحو أخيه، فالتقيا ببُقسرين، فاقبلا، فانهزم دُقاق وعسكره، ونهبت خيامهم وجميع مالهم، وعاد رضوان إلى حلب، ثم اتفقا على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دُقاق، وبأنطاكية، وقيل كانت هذه الحادثة سنة تسع وثمانين [وأربعمائة].

ذكر الخطبة للعلوي المصري بولاية رضوان

في هذه السنة خطب الملك رضوان في كثير من ولايته للمستعلي بأمر الله العلوي، صاحب مصر.

وسبب ذلك أنه كان عنده الأمير جناح الدولة، وهو زوج أمه، فرأى من رضوان تغيّراً، فسار إلى حمص، وهي له، فلما رأى باغي سيان بُغْده (٢٧٠/١٠) عن رضوان صالحه، وقدم إليه بحلب، ونزل بظاهرها.

وكان لرضوان منجم يقال له الحكيم أسعد، وكان يميل إليه، فقدّمه بعد مسير جناح الدولة، فحسن له مذاهب العلويين المصريين، وأتته رسل المصريين يدعونه إلى طاعتهم، ويبدلون له المال، وإنفاذ العساكر إليه ليملك دمشق، فخطب لهم بشيْزُر، وجميع الأعمال سوى أنطاكية، وحلب، والمَعْرَة، أربع جُمع، ثم حضر عنده سُقمان بن أرتق، وباغي سيان، صاحب أنطاكية، فأنكروا ذلك واستعظماءه، فأعاد الخطبة العباسية في هذه السنة، وأرسل إلى بغداد يعتذر ممّا كان منه.

وسار باغي سيان إلى أنطاكية، فلم يُقم بها غير ثلاثة أيام حتى وصل الفرنج إليها وحصروها، وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

غيرهم، وأمرهم بحفر الخندق، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً، ليس معهم مسلم، فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منهم، وقال لهم: أنطاكية لكم تهبوننا لي حتى انظر ما يكون منا ومن الفرنج، فقالوا له: من يحفظ أبنائنا ونساءنا؟ فقال: أنا أخلفكم فيهم، فأمسكوا، وأقاموا في عسكر الفرنج، فحصرها تسعة أشهر، وظهر من شجاعة باغي سيان، وجودة رأيه، وحزمه، واحتياظه مالم يشاهد من غيره، فهلك أكثر الفرنج موتاً، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام، وحفظ باغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكف الأيدي المتطرقة إليهم.

فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج، وهو زراد يُعرف برؤبه، وبذلوا له مالاً وأقطاعاً، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي، وهو مبني على شباك في الوادي، فلما تقرر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزراد، جاؤوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه، وصعد جماعة كثيرة بالحبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة ضربوا البوق، وذلك (٢٧٥/١٠) عند السحر، وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ باغي سيان، فسأل عن الحال، فقبل: إن هذا البوق من القلعة، ولا شك أنها قد ملكت؛ ولم يكن من القلعة، وإنما كان من ذلك البرج، فدخله الرعب، وفتح باب البلد، وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه، فجاء نائبه في حفظ البلد، فسأل عنه، فقبل إنه هرب، فخرج من باب آخر هارباً، وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من الباب، ونهبوه، وقتلوا من فيه من المسلمين وذلك في جمادى الأولى.

وأما باغي سيان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إليه عقله، وكان كاللؤلؤ، فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا؟ فقبل: على أربعة فراسخ من أنطاكية؛ فندم كيف خلص سالماً، ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل، وجعل يتلهف، ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين، فلشدته ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه، فلما سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يركبوه، فلم يكن فيه مسكة [فإنه كان] قد قارب الموت فتركوه وساروا عنه، واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب، وهو بأخر رمق، فقتله واخذ راسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية.

وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب، ودمشق، بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها؛ مكرراً منهم وخديعة، حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية. (٢٧٦/١٠)

سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان نسيب رجار الفرنجي الذي ملك صقلية، فأرسل إلى رجار يقول له: قد جمعت جمعاً كثيراً، وأنا واصل إليك، وسائر من عندك إلى إفريقية أفتحها، وأكون مجاوراً لك.

فجمع رجار أصحابه، واستشارهم في ذلك، وقالوا: وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد بلاد النصرانية، وفرج رجله وحبى حبة عظيمة وقال: وحق ديني، هذه خير من كلامكم! قالوا: وكيف ذلك؟ قال: إذا وصلوا إليّ أحتاج إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى إفريقية، وعساكر (٢٧٣/١٠) من عندي أيضاً، فإن فتحوا البلاد كانت لهم، وصارت المؤونة لهم من صقلية، ويقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة، وإن لم يفتحوا رجعوا إلى بلادهم، وتأذيت بهم، ويقول تميم غدرت بي، ونقضت عني، وتقطع الوصلة والأسفار بيننا؛ وبلاد إفريقية باقية لنا، متى وجدنا قوة أخذناها.

وأحضر رسوله، وقال له: إذا عزمتم علي جهاد المسلمين، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس، تخلصونه من أيديهم ويكون الفخر، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها إيمان وعهود.

فتجهزوا، وخرجوا إلى الشام، وقيل: إن أصحاب مصر من العلويين، لما رأوا قوة الدولة السلجوقية، وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول أقيس إلى مصر وحصرها، خافوا، وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين، والله أعلم.

فلما عزم الفرنج على قصد الشام، ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجرى إلى بلاد المسلمين، ويسيروا في البر، فيكون أسهل عليهم؛ فلما وصلوا إليها تمنعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده، وقال: لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لي أنكم تسلمون إليّ أنطاكية؛ وكان قصده [أن] يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام، ظناً منه أنهم أثراك لا يثقون منهم أحداً، لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد. (٢٧٤/١٠)

فأجابوه إلى ذلك، وعبروا الخليج عند القسطنطينية سنة تسعين [وأربعمائة]، ووصلوا إلى بلاد قُلج أرسلان بن سليمان بن قُلمش، وهي قونية وغيرها، فلما وصلوا إليها لقيهم قُلج أرسلان في جموعه، ومنعهم، فقاتلوه فهزموه في رجب سنة تسعين [وأربعمائة]، واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن الأرمني، فسلكوها، وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها.

ولما سمع صاحبها باغي سيان بتوجههم إليها، خاف من النصارى الذين بها، فأخرج المسلمين من أهلها، ليس معهم

ذكر مسير المسلمين إلى الفرنج وما كان منهم

لَمَّا سَمِعَ قِوَامَ الدَّوْلَةِ كَرْبُوقًا بِحَالِ الْفَرَنْجِ، وَمَلِكُهُمْ أَنْطَاكِيَّةَ، جَمَعَ الْعَسَاكِرَ وَسَارَ إِلَى الشَّامِ، وَأَقَامَ بِحَرْجٍ دَائِبٍ، وَاجْتَمَعَتْ مَعَهُ عَسَاكِرُ الشَّامِ، تَرْكُهَا وَعَرَبِيهَا سِوَى مَنْ كَانَ بِحَلَبَ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُ دُقَاقُ بْنُ تَشٍّ وَطُغْتَكِينُ أُنْطَاكِيَّةَ، وَجَنَاحُ الدَّوْلَةِ، صَاحِبُ حِمَصَ، وَأَرْسِلَانُ تَاشَ، صَاحِبُ سِنْجَارَ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ أَرْتُقَ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْأُمَرَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ مِثْلُهُمْ، فَلَمَّا سَمِعَتْ الْفَرَنْجُ عَظُمْتَ الْمَصِيبَةُ عَلَيْهِمْ، وَخَافُوا لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الزَّهْنِ، وَقَلَّتْ الْأَقْوَاتُ عَنْهُمْ، وَسَارَ الْمُسْلِمُونَ، فَنَازَلُوهُمْ عَلَى أَنْطَاكِيَّةَ، وَأَسَاءَ كَرْبُوقًا السَّيْرَةَ، فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَغْضَبَ الْأُمَرَاءَ وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقِيمُونَ مَعَهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، فَأَغْضَبَهُمْ ذَلِكَ، وَأَضْمَرُوا لَهُ فِي أَنْفُسِهِمُ الْغَدْرَ، إِذَا كَانَ قِتَالُ، وَعَزَمُوا عَلَى إِسْلَامِهِ عِنْدَ الْمَصْدُوقَةِ.

وَأَقَامَ الْفَرَنْجُ بِأَنْطَاكِيَّةَ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَوْهَا، اثْنِي عَشَرَ يَوْمًا لَيْسَ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَهُ، وَتَقَوَّتْ الْأَقْوِيَاءُ بِدَوَابِّهِمْ، وَالضَّعْفَاءُ بِالْمَيْتَةِ وَوَرَقِ الشَّجَرِ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ أَرْسَلُوا إِلَى كَرْبُوقَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْأَمَانَ لِيُخْرِجُوا مِنْ الْبَلَدِ، فَلَمْ يُعْطِهِمْ مَا طَلَبُوا، وَقَالَ: لَا تَخْرُجُونَ إِلَّا بِالسَّيْفِ.

وَكَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ بَرْدُوبِلَ، وَصَنْجِيلَ، وَكَنْدُفَرِي، وَالْقَمَصَ، (٢٧٧/١٠) صَاحِبُ الرُّهَا، وَتَيْسَنَتَ، صَاحِبُ أَنْطَاكِيَّةَ، وَهُوَ الْمَقْدَمُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ مَعَهُمْ رَاهِبٌ طُطَاعَ فِيهِمْ، وَكَانَ دَاهِيَةً مِنَ الرِّجَالِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الْمَسِيحَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ لَهُ حُرِيَّةٌ مَدْفُونَةٌ بِالْقَسْيَانِ الَّذِي بِأَنْطَاكِيَّةَ، وَهُوَ بِنَاءٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهَا فَلْيَنْكُمُ تَنْظُرُونَ، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوهَا فَالْهَلَاكُ مُتَحَقِّقٌ.

وَكَانَ قَدْ دَفِنَ قَبْلَ ذَلِكَ حُرِيَّةً فِي مَكَانٍ فِيهِ، وَعَفَى أَثَرُهَا، وَأَمَرَهُمْ بِالصُّورِ وَالتَّوْبَةِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعَ أَدْخَلَهُمُ الْمَوْضِعَ جَمِيعُهُمْ وَمَعَهُمْ عَامَتُهُمْ، وَالصَّنَاعُ مِنْهُمْ، وَحَفَرُوا فِي جَمِيعِ الْأَمَاكِنِ فَوَجَدُوهَا كَمَا ذَكَرَ، فَقَالَ لَهُمْ: أَبْشَرُوا بِالظَّفَرِ؛ فَخَرَجُوا فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْبَابِ مَتَرَفِقِينَ مِنْ خَمْسَةِ، وَسِتَّةَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ لَكَرْبُوقَا: يَنْبَغِي أَنْ تَقِفَ عَلَى الْبَابِ، فَتَقْتُلَ كُلَّ مَنْ يَخْرُجُ، فَإِنَّ أَمْرَهُمُ الْآنَ، وَهُمْ مَتَرَفِقُونَ، سَهْلٌ فَقَالَ: لَا تَفْعَلُوا! أَمْهَلُوهُمْ حَتَّى يَتَكَامَلَ خُرُوجُهُمْ فَتَقْتُلُهُمْ، وَلَمْ يُمْكِنْ مِنْ مَعَاجِلَتِهِمْ، فَتَقَتْلَ قَوْمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةً مِنَ الْخَارَجِينَ، فَجَاءَ إِلَيْهِمْ هُوَ بِنَفْسِهِ، وَمَنْعَهُمْ وَنَهَاهُمْ.

فَلَمَّا تَكَامَلَ خُرُوجُ الْفَرَنْجِ، وَلَمْ يَبْقَ بِأَنْطَاكِيَّةَ أَحَدٌ مِنْهُمْ، ضَرَبُوا مَصَافًا عَظِيمًا، فَوَلَّى الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ، لَمَّا عَامَلَهُمْ بِهِ كَرْبُوقَا أَوَّلًا مِنَ الْإِسْتِهَانَةِ بِهِمْ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، وَثَانِيًا مِنْ مَنْعِهِمْ عَنْ قِتَالِ الْفَرَنْجِ، وَتَمَّتْ الْهَزِيمَةُ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُضْرَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسَيْفٍ، وَلَا طَعَنَ بِرُمَحٍ، وَلَا رُمِيَ بِسَهْمٍ، وَآخِرَ مِنْ أَنْهَزَمَ سَقَمَانُ بْنُ أَرْتُقَ،

وَجَنَاحُ الدَّوْلَةِ، لِأَنَّهُمَا كَانَا فِي الْكَيْمَنِ، وَأَنْهَزَمَ كَرْبُوقَا مَعَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى الْفَرَنْجُ ذَلِكَ ظَنُّوهُ مَكِيدَةً، إِذْ لَمْ يَحْزِرْ قِتَالُ يُنْهَزَمُ مِنْ مِثْلِهِ، (٢٧٨/١٠) وَخَافُوا أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ، وَثَبَتَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَجَاهِدِينَ، وَقَاتَلُوا حَسْبَةً، وَطَلَبُوا لِلشَّهَادَةِ، فَقَتَلَ الْفَرَنْجُ مِنْهُمْ الْوَفَا، وَغَنَمُوا مَا فِي الْعَسْكَرِ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَثَاثِ وَالْذَوَابِ وَالْأَسْلِحَةِ، فَصَلَحَتْ حَالُهُمْ، وَعَادَتْ إِلَيْهِمْ قُوَّتُهُمْ.

ذكر ملك الفرنج معرفة النعمان

لَمَّا فَعَلَ الْفَرَنْجُ بِالْمُسْلِمِينَ مَا فَعَلُوا سَارُوا إِلَى مَعْرَةِ النَّعْمَانِ، فَنَازَلُوهَا، وَحَصَرُوهَا، وَقَاتَلَهُمْ أَهْلُهَا قِتَالًا شَدِيدًا، وَرَأَى الْفَرَنْجُ مِنْهُمْ شِدَّةً وَنَكَايَةً، وَلَقُوا مِنْهُمْ الْجِدَّ فِي حَرْبِهِمْ، وَالْاجْتِهَادَ فِي قِتَالِهِمْ، فَفَعَلُوا عِنْدَ ذَلِكَ بَرْجًا مِنْ خَشَبٍ يُوَازِي سُورَ الْمَدِينَةِ، وَوَقَعَ الْقِتَالُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَضُرَّ الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ خَافَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَدَاخَلَهُمُ الْفَشَلُ وَالْهَلَعُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِذَا تَحَصَّنُوا بِبَعْضِ الدُّوَرِ الْكِبَارِ امْتَنَعُوا بِهَا، فَتَزَلُّوا مِنَ السُّورِ وَأَخْلَوْا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانُوا يَحْفَظُونَهُ، فَرَأَاهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى، فَفَعَلُوا كَفَعْلَهُمْ، فَخَلَا مَكَانُهُمْ أَيْضًا مِنَ السُّورِ.

وَلَمْ تَزَلْ تَتَّبِعُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ التَّيْلِيَّ فِي النُّزُولِ، حَتَّى خَلَا السُّورُ، فَصَعَدَ الْفَرَنْجُ إِلَيْهِ عَلَى السَّلَالِيمِ، فَلَمَّا عَلَوُةٌ تَحْيِيرُ الْمُسْلِمُونَ، وَدَخَلُوا دُورَهُمْ، فَوَضَعَ الْفَرَنْجُ فِيهِمُ السَّيْفَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَقَتَلُوا مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ، وَسِوَا السَّيِّئِ الْكَثِيرِ، وَمَلَكَوهُ، وَأَقَامُوا أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَسَارُوا إِلَى عَرَقَةِ فَحَصَرُوهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَنَقَبُوا سُورَهَا عِدَّةَ نَقَرٍ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا، وَرَاسَلَهُمْ مُنْبِذٌ، صَاحِبُ شَيْزَرَ، فَصَالَحَهُمْ عَلَيْهَا، وَسَارُوا إِلَى حِمَصَ وَحَصَرُوهَا، فَصَالَحَهُمْ صَاحِبُهَا جَنَاحُ الدَّوْلَةِ، وَخَرَجُوا عَلَى طَرِيقِ النُّوَاقِيرِ إِلَى عَكَا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا. (٢٧٩/١٠)

ذكر الحرب بين الملك سنجر ودولتشاه

كَانَ دَوْلَتِشَاهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ السَّلْجُوقِيَّةِ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ جَمْعٌ مِنْ عَسَاكِرِ بَيْغُو أَخِي طُغْرُكِيكَ، وَكَانُوا بِطَخَارِسْتَانَ، فَأَخَذُوا وَلُؤَالِجَ وَكَمَنْجَ، فَسَارَ إِلَيْهِمُ السُّلْطَانُ سَنْجَرُ وَعَسَاكِرُهُ، فَوَصَلَ إِلَى بَلُخَ، فَدَخَلَهَا فِي رَجَبٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَخَرَجَ مِنْهَا لِقِتَالِ دَوْلَتِشَاهِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْجَمْعِ مَا ثَبَتَ مُقَابِلَ عَسْكَرِ سَنْجَرِ، فَقَاتَلُوا شَيْئًا مِنْ قِتَالٍ، وَأَنْهَزَمُوا، وَأَخَذُوا دَوْلَتِشَاهَ أَسِيرًا، وَأَحْضَرَ عِنْدَ سَنْجَرِ، فَعَفَا عَنْهُ مِنَ الْقِتَالِ، وَحَبَسَهُ، ثُمَّ بَعَدَ ذَلِكَ كَحَلَّهُ، وَسِيرَ سَنْجَرُ جَيْشًا إِلَى مَدِينَةِ تَرْمِذَ، فَمَلَكَوْهَا، وَسَلَّمَهَا إِلَى طُغْرُكَتِكِينَ.

ذكر عدة حوادث

فِي هَذِهِ السَّنَةِ فَتَحَ تَمِيمُ بْنُ الْعِزِّ بْنِ بَادِيَسَ، صَاحِبُ إِفْرِيْقِيَّةَ، جَزِيرَةَ جَرَّةَ وَجَزِيرَةَ قَرْقَنَةَ، وَمَدِينَةَ تُونُسَ، وَكَانَ بِإِفْرِيْقِيَّةَ غِلَاءٌ

شديد هلك فيه كثير من الناس.

وفيها أرسل الخليفة رسولاً إلى السلطان بركيارق مستنقراً على الفرنج ومبالغاً في تعظيم الأمر وتداركه قبل أن يزداد قوة.

وفي هذه السنة، في شعبان، توفي أبو الحسن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف، ومولده سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، وكان فاضلاً في الحديث.

وفيها توفي أبو الفضل عبد الوهاب بن أبي محمد التميمي الحنبلي، وكان (٢٨٠/١٠) فاضلاً، فصيحاً.

وفيها، في شوال، توفي طراد بن محمد الزينبي، وهو علي الإسناد في الحديث، وولي نقابة العباسيين من بعده ابنه شرف الدين علي بن طراد.

وفيها، في ذي القعدة، توفي أبو الفتح المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة، وكان بيته مجمع الفضلاء وأهل الدين، ومن جملة من كان عنده إلى أن توفي الشيخ أبو إسحاق الشيرازي.

وفيها توفي أبو الفرج سهل بن بشر بن أحمد الاسفراييني، وهو من أعيان المحدثين. (٢٨١/١٠)

سنة الثنتين وتسعين وأربعمائة

ذكر عصيان الأمير أتر وقتله

لما سار السلطان بركيارق إلى خراسان ولّى الأمير أتر بلاد فارس جميعها، وكانت قد تغلب عليها الشوانكارة على اختلاف بطونهم وقبائلهم، واستعانوا بصاحب كرمان إيران شاه بن قاوورت، فاجتمعوا، وصافوا الأمير أتر، وكسروه، وعاد مغلولاً إلى أصبهان، وأرسل إلى السلطان يستأذنه في اللحاق به إلى خراسان، فأمره بالمقام ببلد الجبال، ولأه إمارة العراق، وكتب العساكر المجاورة له بطاعته، فأقام بأصبهان، وسار منها إلى أقطاعه بأذربيجان، وعاد وقد انتشر أمر الباطنية بأصبهان، فندب نفسه لقتالهم، وحصر قلعة على جبل أصبهان.

واتصل به مؤيد الملك بن نظام الملك، وكان ببغداد، فسار منها إلى الحلة، فأكرمه صدقة، وسار من عنده إلى الأمير أتر، فلما اجتمع بالأمير أتر خوفه هو وغيره من السلطان بركيارق، وعظموا عليه الاجتماع به، وحسّوا له البعد عنه، وأشاروا عليه بمكاتبة غياث الدين محمد بن ملكشاه، وهو إذ ذاك بكنجة، فعزم على المخالفة للسلطان، وتحذث فيه، فظهر ذلك، فزاد خوفه (٢٨٢/١٠) من السلطان، فجمع من العساكر المعروفين بالشجاعة

نحو عشرة آلاف فارس، وسار من أصبهان إلى الري، وأرسل إلى السلطان يقول: إنّه مملوك، ومطيع، إن سلّم إليه مجد الملك البلاساني، وإن لم سلّمه إليه فهو عاصٍ خارج عن الطاعة.

فبينما هو يفطر، وكانت عادته [أن] يصوم أياماً من الأسبوع، فلما قارب الفراغ من الإفطار هجم عليه ثلاثة نفر من الأتراك المولدين بخوارزم، وهم من جملة خيله، فصدّم أحدهم المشعل فألقاه، وصدّم الآخر الشمعة فأطفأها، وضربه الثالث بالسكين فقتله، وقتل معه جانداره، واختلط الناس في الظلمة ونهبوا خزائنه، وتفرّق عسكره، وبقي مُلقًى فلم يوجد ما يُحمل عليه، ثم حُمِل إلى داره بأصبهان، ودُفن بها.

ووصل خبر قتله إلى السلطان بركيارق، وهو بخوار الري، قد خرج من خراسان عازماً على قتاله، وهو على غاية الحذر من قتاله وعاقبة أمره، وفرح مجد الملك البلاساني بقتله، وكان له مثل يومه عن قريب، وكان عمر أتر سبعاً وثلاثين سنة، وكان كثير الصوم والصلاة والخير والمحبة للصالحين.

ذكر ملك الفرنج، لعنهم الله، البيت المقدس

كان البيت المقدس لتاج الدولة تُش، وأقطعه للأمير سُقمان بن أرتق التركماني، فلما ظفر الفرنج بالأتراك على أنطاكية، وقتلوا فيهم، ضعفوا (٢٨٣/١٠) وتفرّقوا، فلما رأى المصريون ضعف الأتراك ساروا إليه، ومقدمهم الأفضل ابن بدر الجمالي، وحصروه، وبه الأمير سُقمان، وإيلغازي ابن أرتق، وابن عمهما سونج، وابن أخيهما ياقوتي، ونصبوا عليه نيفاً وأربعين منجيقاً، فهدموا مواضع من سورهم، وقتلهم أهل البلد، فدام القتال والحصار نيفاً وأربعين يوماً، وملكوه بالأمان في شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة.

وأحسن الأفضل إلى سُقمان وإيلغازي ومن معهما، وأجرل لهم العطاء، وسيّره فساروا إلى دمشق، ثم عبروا الفرات، فأقام سُقمان ببلد الرها وسار إيلغازي إلى العراق، واستناب المصريون فيه رجلاً يُعرف بافتخار الدولة، وبقي فيه إلى الآن. فقصده الفرنج، بعد أن حصروا عكا، فلم يقدروا عليها، فلما وصلوا إليه حصروه نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون، وأحرقه المسلمون، وقتلوا كل من به.

فلما فرغوا من إحراق أتايم المستغيث بأن المدينة قد ملكت من الجانب الآخر، وملكوها من جهة الشمال منه ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيوف، ولبت الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، ووفى لهم الفرنج، وخرجوا ليلاً

إلى عَسْقَلَانَ فاقاموا بها.

ومنها:

فَلْيَتَنَبَّهُمْ إِذْ لَمْ يَنْوُدُوا حَيَّةً
وَأَنْ زَهَدُوا فِي الْأَجْرِ، إِذْ خَمَسَ
لَنْ أَذَعَنْتَ تِلْكَ الْخَيْشِيمَ لِلْبَرَى،
(٢٨٦/١٠)
دَعَوْنَاكُمْ، وَالْحَرْبُ تَرْسُو مُلْحَسَةً
تُرَاقِبُ فِينَا غَارَةَ غَرِيَّةً،
فِيَا أَنْتُمْ لَمْ تَنْفُسُوا بَعْدَ هَذِهِ،
رَمَيْنَا إِلَى أَعْدَائِنَا بِالْجَرَائِمِ

ذكر الحرب بين المصريين والفرنج

في هذه السنة، في رمضان، كانت وقعة بين العساكر المصرية والفرنج، وسببها أَنَّ الْمَصْرِيِّينَ لَمَّا بَلَغَهُمْ مَا تَمَّ عَلَى أَهْلِ الْقُدْسِ، جَمَعَ الْأَفْضَلُ أَمِيرَ الْجِيُوشِ الْعَسَاكِرِ، وَحَشَدَ، وَسَارَ إِلَى عَسْقَلَانَ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْفَرَنْجِ يَنْكُرُ عَلَيْهِمْ مَا فَعَلُوا، وَيَتَهَذَّهُمْ، فَأَعَادُوا الرِّسُولَ بِالْجَوَابِ وَرَحَلُوا عَلَى أَثَرِهِ، وَطَلَعُوا عَلَى الْمَصْرِيِّينَ، عَقِيبَ وَصُولِ الرِّسُولِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْمَصْرِيِّينَ خَبَرٌ مِنْ وَصُولِهِمْ، وَلَا مِنْ حَرَكَتِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى أَقْبَى الْقِتَالِ، فَنَادُوا إِلَى رُكُوبِ خَيْلِهِمْ، وَلَبَسُوا أَسْلِحَتَهُمْ، وَأَعَجَلَهُمُ الْفَرَنْجُ، فَهَزَمُوهُمْ، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ، وَغَنَمُوا فِي الْمَعْسَكِ مِنْ مَالٍ وَسِلَاحٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَانْهَزَمَ الْأَفْضَلُ، فَدَخَلَ عَسْقَلَانَ، وَمَضَى جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَنْهَزِمِينَ فَاسْتَرَوْا بِشَجَرِ الْجُمَيْرِ، وَكَانَ هُنَاكَ كَثِيرًا، فَأَحْرَقَ الْفَرَنْجُ بَعْضَ الشَّجَرِ، حَتَّى هَلَكَ مَنْ فِيهِ، وَقَتَلُوا مَنْ خَرَجَ مِنْهُ، وَعَادَ الْأَفْضَلُ فِي خَوَاصِهِ إِلَى مِصْرَ، وَنَازَلَ الْفَرَنْجُ عَسْقَلَانَ، وَضَاقُوا بِهَا، فَبَذَلَ لَهُمْ أَهْلُهَا قِطْعَةً اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَقِيلَ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْقُدْسِ. (٢٨٧/١٠)

ذكر ابتداء ظهور السلطان محمد بن ملكشاه

كَانَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ وَسَجَرَ أَخُو بَنِي لَامٍ وَأَبِي، أُمَّهُمَا أُمٌّ وَلَدَتْهُمَا مَاتَ أَبُوهُ مَلِكْشَاهُ كَانَ مُحَمَّدٌ مَعَهُ بِبَغْدَادَ، فَسَارَ مَعَ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ، وَتَرَكَانَ خَاتُونَ زَوْجَةً وَالِدِهِ إِلَى أَصْبِهَانَ، وَلَمَّا حَصَرَ بَرْكِيَارِقُ أَصْبِهَانَ خَرَجَ مُحَمَّدٌ مُتَخَفِيًا، وَمَضَى إِلَى وَالِدَتِهِ، وَهِيَ فِي عَسْكَرِ أَخِيهِ بَرْكِيَارِقَ، وَقَصِدَ أَخَاهُ السُّلْطَانُ بَرْكِيَارِقَ، وَسَارَ مَعَهُ إِلَى بَغْدَادَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَأَقْطَعَهُ بَرْكِيَارِقُ كَنْجَةً وَأَعْمَالَهَا، وَجَعَلَ مَعَهُ أَتَابِكًا لَهُ الْأَمِيرُ قَتْلُغَ تَنْكِينَ، فَلَمَّا قَوِيَ مُحَمَّدٌ قَتْلَهُ، وَاسْتَوْلَى عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ أَرْزَانَ الَّذِي مِنْ جَمَلَتِهِ كَنْجَةٌ، فَعَرَفَ ذَلِكَ الْوَقْتُ شَهَامَةَ مُحَمَّدٍ.

وَكَانَ السُّلْطَانُ مَلِكْشَاهُ قَدْ أَخَذَ تِلْكَ الْبِلَادَ مِنْ فَضْلُونَ بْنِ أَبِي الْأَسْوَارِ الرُّوَادِيِّ، وَسَلَّمَهَا إِلَى سَرْهَنْكَ سَاوَتَكِينَ الْخَادِمِ، وَأَقْطَعَ فَضْلُونَ أَسْتَرَابَادَ، وَعَادَ فَضْلُونَ ضَمْنَ بِبِلَادِهِ، ثُمَّ عَصَى فِيهَا لَمَّا قَوِيَ، فَارْسَلَ السُّلْطَانُ إِلَيْهِ الْأَمِيرَ بُوزَانَ، فَحَارِبَهُ وَأَسْرَهُ، وَأَقْطَعَهُ

وَقَتَلَ الْفَرَنْجِ، بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، مَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ أَلْفًا، مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ (٢٨٤/١٠) كَثِيرَةٌ مِنَ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعِلْمَانِهِمْ، وَعِبَادِهِمْ، وَزَهَادِهِمْ، مِمَّنْ فَارَقَ الْأَوْطَانَ وَجَاوَرَ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ الشَّرِيفِ، وَأَخَذُوا مِنْ عِنْدِ الصَّخْرَةِ نَيْفًا وَأَرْبَعِينَ قَنْدِيلًا مِنَ الْفَضَّةِ، وَزَنَ كُلَّ قَنْدِيلٍ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ وَسِتِّمِائَةِ دَرَاهِمٍ، وَأَخَذُوا تَنْوَرًا مِنْ فِضَّةٍ وَزَنَهُ أَرْبَعُونَ رَطْلًا بِالشَّامِيِّ، وَأَخَذُوا مِنَ الْقَنَادِيلِ الصَّغَارِ مِائَةَ وَخَمْسِينَ قَنْدِيلًا نَفَرَةً، وَمِنْ الذَّهَبِ نَيْفًا وَعِشْرِينَ قَنْدِيلًا، وَغَنَمُوا مِنْهُ مَا لَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْإِحْصَاءُ.

وَوَرَدَ الْمُسْتَنْفَرُونَ مِنَ الشَّامِ، فِي رَمَضَانَ، إِلَى بَغْدَادَ صَحْبَةُ الْقَاضِي أَبِي سَعْدِ الْهَرَوِيِّ، فَأُورِدُوا فِي الدِّيَّانِ كَلَامًا أَبْكَى الْعِيُونَ، وَأَوْجَعَ الْقُلُوبَ، وَقَامُوا بِالْجَامِعِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَاسْتَغَاثُوا، وَيَكُونُوا وَأَبْكُوا، وَذَكَرَ مَا دَهَمَ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ الْبَلَدِ الشَّرِيفِ الْمَعْظَمِ مِنْ قَتْلِ الرِّجَالِ، وَسَبْيِ الْحَرِيمِ وَالْأَوْلَادِ، وَنَهْبِ الْأَمْوَالِ، فَلَشَدَّةٌ مَا أَصَابَهُمْ أَفْطَرُوا، فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ أَنْ يُسَيِّرَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ الدَّامَغَانِيَّ، وَأَبُو بَكْرٍ الشَّاشِيَّ، وَأَبُو الْقَاسِمِ الزَّنْجَانِيَّ، وَأَبُو الْوَفَا بْنِ عَقِيلٍ، وَأَبُو سَعْدِ الْخُلَوَانِيَّ، وَأَبُو الْحُسَيْنِ بْنِ سَمَّاكٍ، فَسَارُوا إِلَى خُلْوَانَ، فَبَلَغَهُمْ قَتْلُ مُجِدِّ الْمَلِكِ الْبِلَاسَانِيِّ، عَلَى مَا ذَكَرَهُ، فَعَادُوا مِنْ غَيْرِ بُلُوغِ أَرْبَ، وَلَا قَضَاءِ حَاجَةٍ.

وَاخْتَلَفَ السُّلَاطِينُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ، فَتَمَكَّنَ الْفَرَنْجُ مِنَ الْبِلَادِ، فَقَالَ أَبُو الْمَظْفَرِ الْأَبْيُورْدِيُّ، فِي هَذَا الْمَعْنَى، آيَاتُهَا:

مَرْجَنًا مِمَّا بِالْمُتَوَعِّجِ السَّوَاكِجِ، فَلَمْ يَبْقَ مَنَّا عُرْضَةٌ لِلْمَرَاكِجِ
(٢٨٥/١٠)

وَسُرَّ سِلَاحُ الْفَرَسِ نَمَعٌ يُفَيْضُهُ، إِذَا الْحَرْبُ شَبَّتْ نَزَاهَا بِالصُّوَارِ
فَلَيْهَا، بَنِي الْإِسْلَامِ، إِنَّ وَرَاءَ كَمِ
أَتَهْوِيَةٌ فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَغُبَةٍ
وَكَيْفَ تَسَامُ الْعَيْنُ مَلَأَ جَفُونَهَا،
وَأَخَوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْحِي مَقِيلَهُمْ
تَسُوْمُهُمُ الرُّؤْمُ الْهَوَانَ، وَأَتَمُّ
وَكَمْ مِنْ دِمَاءٍ قَدْ أَيْخَتْ، وَمَنْ دُمِيَ
بِحَيْثُ السُّيُوفِ الْبَيْضِ مُخْمَرَةُ الظُّبَى
وَبَيْنَ اخْتِلَاسِ الطُّغْنِ وَالضَّرْبِ وَقَفَ
وَتِلْكَ حُرُوبٌ مَن يَغِيبُ عَنْ غِمَارِهَا
سَلَّلْنَ بِأَيْدِي الْمُتَرَكِّينَ قَوَاضِيًا،
يَكَاذُ لَهْمُنَ الْمُسْتَجِبُ بِطِيَّةٍ
أَرَى أُمِّي لَا يَنْشُرُ عَوْنَ إِلَى الْيَمْنِ
وَيَجْتَنِبُونَ النَّارَ خَوْفًا مِنَ السُّرُوقِ،
أَتَرْضَى صَنَائِدَ الْأَعَارِبِ بِالْأَذَى

بلاده لجماعة منهم: باغي سيان، صاحب أنطاكية، ولما مات باغي سيان عاد والده إلى ولاية أبيه في هذه البلاد، وتوفي ففضلون ببغداد سنة أربع وثمانين [وأربعمائة] وهو على غاية من الإضافة في مسجد على دجلة.

وقد ذكرنا فيما تقدم تنقل الأحوال بمؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك، وأنه كان عند الأمير أتر، فحسن له عصيان السلطان بركيارق، فلما قُتل (٢٨٨/١٠) أتر سار إلى الملك محمد، فأشار عليه بمخالفة أخيه، والسعي في طلب السلطنة، ففعل ذلك، وقطع خطبة بركيارق من بلاده، وخطب لنفسه بالسلطنة واستوزر مؤيد الملك.

وأتفق قتل مجد الملك البلاساني، واستباحش العسكر من السلطان بركيارق وفارقوه وساروا نحو السلطان محمد، فلقوه بخرقان، فصاروا معه، وساروا نحو الري.

وكان السلطان بركيارق لما فارقه عسكره سار مجداً إلى الري، فأتاه بها الأمير يتال بن أئوشكين الحسامي، وهو من أكابر الأمراء، ووصل إليه أيضاً عز الملك منصور بن نظام الملك، وأمه ابنة ملك الأنجاز، ومعه عساكر جمّة، فبلغه مسير أخيه محمد إليه في العساكر، فسار من الري إلى أصبهان، فلم يفتح أهلها له الأبواب، فسار إلى خوزستان، على ما نذكره.

وورد السلطان محمد إلى الري ثاني ذي القعدة، فوجد زبيدة خاتون والدة أخيه السلطان بركيارق قد تخلّت بعد ابنها، فأخذها مؤيد الملك وسجنها في القلعة، وأخذ خطها بخمسة آلاف دينار، وأراد قتلها، وأشار عليه ثقاته أن لا يفعل ذلك، فلم يقبل منهم، وقالوا له: العسكر محبون لولدها، وإنما استوحشوا منه لأجلها، ومتى قُلت عدلوا عليه، فلا تفتّر بهؤلاء الجند، فإنهم غدروا بمن أحسن إليهم أوثق ما كان بهم؛ فلم يصغ إلى قولهم، ورفعها إلى القلعة، وخنقت، وكان عمرها اثنين وأربعين سنة، فلما أسر السلطان بركيارق مؤيد الملك رأى خطه في تذكّره بخمسة آلاف دينار، فكان أعظم الأسباب في قتله. (٢٨٩/١٠)

ذكر الخطبة ببغداد للملك محمد

لما قوي أمر السلطان محمد سار إليه سعد الدولة كهرائين من بغداد، وكان قد استوحش من السلطان بركيارق، فاجتمع هو وكربوقا، صاحب الموصل، وجكرمش، صاحب الجزيرة، ومُرخاب بن بدر، صاحب كِنكُور، وغيرها، فساروا إلى السلطان محمد، فلقوه بفهم، فردّ سعد الدولة إلى بغداد، وخلع عليه، وسار كربوقا وجكرمش في خدمته إلى أصبهان، ولما وصل كهرائين إلى بغداد خاطب الخليفة في الخطبة للسلطان محمد فأجاب إلى ذلك، وخطب له يوم الجمعة سابع عشر ذي الحجة، ولُقّب غياث

الدنيا والدين.

ذكر قتل مجد الملك البلاساني

قد ذكرنا تحكّم مجد الملك أبي الفضل أسعد بن محمد في دولة السلطان بركيارق، وتمكّنه منها. فلما بلغ الغاية التي لا مزيد عليها جاءت نكبات الدنيا ومصائبها من حيث لا يحتسب.

وأما سبب قتله، فإنّ الباطنية لما توالى منهم قتل الأمراء الأكابر من الدولة السلطانية، نسبوا ذلك إليه، وأنه هو الذي وضعهم على قتل من قتلوه؛ وعظم ذلك قتل الأمير برسق، فأتهم أولاده زكسي واقبورى وغيرهما، مجدّ الملك بقتله، وفارقوا السلطان.

وسار السلطان إلى زنجان لأنّه بلغه خروج السلطان محمد عليه، على (٢٩٠/١٠) ما ذكرناه، فقطع حثيث الأمراء، فأرسل أمير آخر، وملكابك، وطغا يرك ابن اليزن، وغيرهم، إلى الأمراء بني برسق يستحضرونهم إليهم ليتفقروا معهم على مطالبة السلطان بتسليم مجد الملك إليهم ليقتلوه، فحضروا عندهم، فأرسلوا إلى السلطان بركيارق، وهم يسبحون، مدينة قريبة من همدان، يلتزمون تسليمه إليهم، ووافقهم على ذلك العسكر جميعه، وقالوا: إن سلّم إلينا فنحن العبيد الملازمون للخدمة، وإن منعنا فارقنا، وأخذناه قهراً، فمنع السلطان منه، فأرسل مجد الملك إلى السلطان يقول له: المصلحة أن تحفظ أمراء دولتك، وتقتلني أنت لئلا يقتلني القوم فيكون وهم على دولتك. فلم تطب نفس السلطان بقتله، وأرسل إليهم يستحلّتهم على حفظ نفسه، وجسه في بعض القلاع. فلما حلّفوا سلّمه إليهم، فقتله الغلمان قبل أن يصل إليهم، فسكنت الفتنة.

ومن العجب أنّه كان لا يفارقه كففه سفراً وحضراً، ففي بعض الأيام فتح خازنه صندوقاً، فرأى الكفن، فقال: وما أصنع بهذا؟ إنّ أمري لا يؤول إلى كفن، والله ما أبقى إلا طريحاً على الأرض. فكان كذلك، ورُبّ كلمة تقول لقائلها دغني.

ولما قُتل حُمِل رأسه إلى مؤيد الملك بن نظام الملك. وكان مجد الملك خيراً، كثير الصلاة بالليل، كثير الصدقة، لا سبماً على العلويين وأرباب البيوتات، وكان يكره سفك الدماء، وكان يتشيع إلا أنّه كان يذكر الصحابة ذكراً حسناً، ويلعن من يسبهم. ولما قُتل أرسل الأمراء يقولون للسلطان: المصلحة أن تعود إلى الري، ونحن نمضي إلى أخيك فقاتله ونقضي هذا المهم. فسار (٢٩١/١٠) بعد امتناع، وتبعه مائتا فارس لا غير، ونهب العسكر سراق السلطان ووالدته وجميع أصحابه، وعاد إلى الري، وسار العسكر إلى السلطان محمد.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في شعبان، وصل الكيا أبو الحسن علي بن محمد الطبري المعروف بالهراس، الفقيه الشافعي، ولقبه عماد الدين. ضمن الإسلام، برسالة من السلطان بركيارق إلى الخليفة، وهو من أصحاب إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، ومولده سنة خمسين وأربعمائة، واعتنى بأمره مجد الملك البلاستاني، وقام له الوزير عميد الدولة بن جهمير لما دخل عليه.

وفيها قُتل أبو القاسم ابن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني بنيسابور، وكان خطيبها، وأتهم العامة بأب البركات الثعلبي بأنه هُوَ الذي سعى في قتله، فوثبوا به فقتلوه وأكلوا لحمه.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد، تعدت فيه الأقوات، ودام ستين، وكان سببه أن البرد أهلك الزروع جميعها، ولحق الناس بعده وباء جارف، فمات منهم خلق كثير عجزوا عن دفنهم لكثرتهم.

وفيها، في شعبان، توفي أبو الغنائم الفارقي، الفقيه الشافعي، بجزيرة ابن عمر، وكان إماماً فاضلاً زاهداً.

وفيها، في صفر، توفي أبو عبد الله الحسين بن طلحة النعماني، وعمره (٢٩٢/١٠) نحو تسعين سنة، وكان عالي الإسناد في الحديث، وقيل توفي سنة ثلاث وتسعين [أو أربعمائة].

وفيها، في شعبان، توفي أبو غالب محمد بن علي بن عبد الواحد بن الصباغ الفقيه الشافعي، تفقه على ابن عمه أبي نصر، وكان حسن الخلق، متواضعاً. (٢٩٣/١٠)

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة

ذكر إعادة خطبة السلطان بركيارق ببغداد

في هذه السنة أعيدت الخطبة للسلطان بركيارق ببغداد.

وسبب ذلك أن بركيارق سار في العام الماضي من السري إلى خوزستان، فدخلها وجمع من معه على حال سيئة، وكان أمير عسكرياً حينئذ ينال ابن أنوشكين الحسامي، وأثناء غيره من الأمراء وسار إلى واسط، فظلم عسكريه الناس، ونهبوا البلاد، واتصل به الأمير صدقة بن مزيد، صاحب الحلة، ووثب على السلطان قوم ليقتلوه، فأخذوا وأحضروا بين يديه، فاعترفوا أن الأمير سمرز، شحنة أصبهان، وضعهم على قتله، فقتل أحدهم، وخيس الباقون، وسار إلى بغداد، فدخلها سابع عشر صفر، وخطب له ببغداد يوم الجمعة منتصف صفر قبل وصوله بيومين.

وكان سعد الدولة كهرائين بالشقيعي، وهو في طاعة السلطان

محمد، فسار إلى داي مَرَج، ومعه إيلغازي بن أرتق وغيره من الأمراء، فأرسل إلى مؤيد الملك والسلطان محمد يستحثهما على الوصول إليه، فأرسل إليه كربوقا، صاحب الموصل، وجكرمش، صاحب جزيرة ابن عمر، فأما جكرمش فاستأذن كهرائين في العود إلى بلده، وقال إنه قد اختلّت الأحوال، (٢٩٤/١٠) فأذن له، وبقي مع كهرائين جماعة من الأمراء، فاتفقوا على أن يصدروا عن رأي واحد لا يختلفون، ثم اتفقت آراؤهم على أن كتبوا إلى السلطان بركيارق يقولون له: أخرج إلينا، فما فينا من يقانلك.

وكان الذي أشار بهذا كربوقا، وقال لكهرائين: إننا لم نظفر من محمد ومؤيد الملك بقاتل، وكان منحرفاً عن مؤيد الملك فسار بركيارق إليهم، فخرجوا، وقبلوا الأرض، وعادوا معه إلى بغداد، وأعاد إلى كهرائين جميع ما كان أخذ له من سلاح ودواب وغير ذلك، واستورز بركيارق ببغداد الأغزّيا المخلصين عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني، وقبض على حميد الدولة ابن جهمير، وزير الخليفة، وطالبه بالحاصل من ديار بكر. والموصل لما تولّاها هو وأبوه أيام ملككشاه، فاستقر الأمر على مائة ألف دينار وستين ألف دينار يحملها إليه، وخلع الخليفة على السلطان بركيارق.

ذكر الوقعة بين السلطانين بركيارق ومحمد وإعادة خطبة محمد

ببغداد

في هذه السنة سار بركيارق من بغداد على شهرزور، فأقام بها ثلاثة أيام، والتحق [به] عالم كثير من التركمان وغيره، فسار نحو أخيه السلطان محمد ليحاربه، فكتبه رئيس همدان ليسير إليها ويأخذ أقطاع الأمراء الذين مع أخيه، فلم يفعل، وسار نحو أخيه، فوقع الحرب بينهم رابع رجب، وهو المصاف الأول بين بركيارق وأخيه السلطان محمد بامبيذرو، ومعناه النهر الأبيض، وهو على عدة فراسخ من همدان. (٢٩٥/١٠)

وكان مع محمد نحو عشرين ألف مقاتل، وكان محمد في القلب، ومعهم الأمير سمرز، وعلى ميمته أمير آخر، وابنه إياز، وعلى ميسرته مؤيد الملك، والنظامية، وكان السلطان بركيارق في القلب، ووزيره الأغزّ أبو المحاسن، وعلى ميمته كهرائين وعز الدولة بن صدقة بن مزيد، وسرخاب بن بدر، وعلى ميسرته كربوقا وغيره، ففعل كهرائين من ميمته بركيارق على مسيرة محمد، وبها مؤيد الملك، والنظامية، فانهزموا، ودخل عسكري بركيارق في خيامهم، فنهزمهم، وحملت ميمته محمد على ميسرة بركيارق، فانهزمت الميسرة، وانضافت ميمته محمد إليه في القلب على بركيارق، ومن معه، فانهزم بركيارق، ووقف محمد مكانه، وعاد كهرائين من طلب المهزيمين الذين انهزموا بين يديه، وكبا به فرسه، فأنه خراساني فقتله، وأخذ رأسه، وتفرقت عساكر بركيارق، وبقي في

خمسین فارساً.

على الملك سنجر، فسار إليه في ألف فارس، فلم يعلم بقدومه إلا الأمراء الكبار من أصحاب سنجر، ولم يُعلموا الأصاغر لئلا ينهزموا.

وكان مع أمير داؤد عشرون ألف فارس، فيهم من رجالة الباطنية خمسة آلاف، ووقع المصاف بين بركيارق وأخيه سنجر خارج النوشجان، وكان الأمير يزغش في ميمنة سنجر، والأمير كندكز في ميسرته، والأمير رستم في القلب، فحمل بركيارق على رستم فقتله، وانهزم أصحابه وأصحاب سنجر، واشتغل العسكر بالنهب، فحمل عليهم يزغش وكندكز، فقتلا المنهزمين، وانهزم الرجالة إلى مضيق بين جبلين، فأرسل عليهم الماء فأهلكهم، ووقعت الهزيمة على أصحاب بركيارق، وكان قد أخذ والدته أخيه سنجر لَمَّا انهزم أصحابه أولاً، فخافت أن يقتلها بأمه، فأحضرها وطيب قلبها، وقال: إِنَّمَا أَخَذْتُكَ حَتَّى يَطْلُقَ أَخِي سَنَجْرَ مِنْ عِنْدِهِ مِنَ الْأَسْرَى، وَلَسْتُ كَفَوْا لَوَالِدَتِي حَتَّى أَقْتُلَكَ. فَلَمَّا أَطْلَقَ سَنَجْرَ الْأَسْرَى أَطْلَقَهَا بِرَكْيَارِقَ.

وهرب أمير داؤد إلى بعض القرى، وأخذ بعض التركمان، فأعطاه في نفسه مائة ألف دينار، فلم يطلقه، وحمله إلى يزغش فقتله.

وسار بركيارق إلى جرجان ثم إلى دامغان، وسار في البرية، ورؤي في بعض المواضع معه سبعة عشر فارساً، وجماعة واحدة، ثم كثر جمعه، (٢٩٨/١٠) وصار معه ثلاثة آلاف فارس، منهم: جاولي سقاوا، وغيره، وسار إلى أصبهان بمكاتبة من أهلها، فسمع السلطان محمد، فسبى إليها، فعاد إلى سمرقم.

ذكر فتح تميم ابن المعز مدينة سقافس

في هذه السنة فتح تميم ابن المعز مدينة سقافس، وكان صاحبها حمو قد عاد فتغلب عليها، واشتد أمره بوزير كان عنده قد قصده، وهو من كتاب المعز، كان حسن الرأي والتدبير، فاستقامت به دولته، وعظم شأنه، فأرسل إليه تميم يطلبه ليستخدمه، ووعدته، وبالف في استمالته، فلم يقبل، فسير تميم جيشاً إلى حصار سقافس، وأمر الأمير الذي جعله مقدم الجيش أن يهدم ما حول المدينة ويعرقه. ويقطع الأشجار سوى ما يتعلق بذلك الوزير فإن لا يتعرض له، ويبالغ في صيانتها، ففعل ذلك، فلما رأى حمو ما فعل بأملالك الناس، ما عدا الوزير، أتهمه، فقتله، فانحل نظام دولته، وتسلم عسكر تميم المدينة، وخرج حمو منها، وقصد مكن بن كامل الدهماني، فأقام عنده، فأحسن إليه، ولم يزل عنده حتى مات.

ذكر عزل عميد الدولة من وزارة الخليفة ووفاته

لَمَّا أَطْلَقَ مُؤَيَّدُ الدَّوْلَةِ، وَزِيرُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدُ، الْأَعَزُّ أَبَا

وَأَمَّا وَزِيرُهُ الْأَعَزُّ أَبُو الْمُحَاسِنِ فَإِنَّهُ أَخَذَ أَسِيرًا، فَكَرَّمَهُ مُؤَيَّدُ الْمَلِكِ ابْنِ نِظَامِ الْمَلِكِ، وَنَصَبَ لَهُ خِيَمًا وَخِرَكَاءَ، وَحَمَلَ إِلَيْهِ الْفُرْشَ وَالْكُسْرَى، وَضَمَّنَهُ عِمَادَةَ بَغْدَادَ، وَأَعَادَهُ إِلَيْهَا، وَأَمَرَهُ بِالْمُخَاطَبَةِ فِي إِعَادَةِ الْخُطْبَةِ لِلْسُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ بِبَغْدَادَ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا خَاطَبَ فِي ذَلِكَ، فَأُجِيبَ إِلَيْهِ، وَخُطِبَ لَهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ رَابِعَ عَشْرِ رَجَبٍ.

ذكر قتل سعد الدولة كهرائين

في هذه السنة، في رجب، قُتِلَ سَعْدُ الدَّوْلَةِ كَهْرَائِينَ فِي الْحَرْبِ الْمَذْكُورَةِ قَبْلُ، وَكَانَ ابْتِدَاءَ أَمْرِهِ أَنَّهُ كَانَ خَادِمًا لِلْمَلِكِ أَبِي كَالِيَجَارِ بْنِ سُلْطَانَ الدَّوْلَةِ ابْنِ بُوَيْهِ، انْتَقَلَ إِلَيْهِ مِنْ امْرَأَةٍ مِنْ قُرُقُوبِ بَخْوَزِسْتَانِ، وَكَانَ إِذَا تَوَجَّهَ (٢٩٦/١٠) إِلَى الْأَهْوَازِ حَضَرَ عِنْدَهَا، وَاسْتَعْرَضَ حَوَائِجَهَا، وَأَصَابَ أَهْلُهَا مِنْهُ خَيْرًا كَثِيرًا، فَأَرْسَلَهُ أَبُو كَالِيَجَارِ مَعَ ابْنَةِ أَبِي نَصْرِ إِلَى بَغْدَادَ، فَلَمَّا قَبِضَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ طَغْرُبُكُ مَضَى مَعَهُ إِلَى قَلْعَةِ طَبْرُكَ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو نَصْرِ انْتَقَلَ إِلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ، وَوَقَاهُ بِنَفْسِهِ لَمَّا جَرَحَهُ يَوْسُفُ الْخَوَازِمِيُّ.

وَكَانَ أَلْبِ أَرْسَلَانُ قَدْ أَقْطَعَهُ وَاسِطَ، وَجَعَلَهُ شِجْنَةً لِبَغْدَادَ، فَلَمَّا قُتِلَ أَلْبِ أَرْسَلَانُ أَرْسَلَهُ ابْنُهُ مَلِكْشَاهُ إِلَى بَغْدَادَ، فَأَحْضَرَ لَهُ الْخَلِيعَ وَالتَّقْلِيدَ، وَرَأَى مَا لَمْ يَرَهُ خَادِمٌ قَبْلَهُ مِنْ نَفْوذِ الْأَمْرِ، وَتَمَامِ الْقُدْرَةِ، وَطَاعَةِ أَعْيَانِ الْأَمْوَاءِ، وَخِدْمَتِهِمْ لِيَاكِهِ، وَكَانَ حَلِيمًا، كَرِيمًا، حَسَنَ السَّيْرِ، لَمْ يَصَادِرْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ وِلَايَتِهِ، وَمَنَاقِبُهُ كَثِيرَةٌ.

ذكر حال السلطان بركيارق بعد الهزيمة وانهزامه من أخيه سنجر

أيضاً وقتل أمير داؤد حبشي

لَمَّا انْهَزَمَ السُّلْطَانُ بِرَكْيَارِقُ مِنْ أَخِيهِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ سَارَ قَلِيلًا، وَهُوَ فِي خَمْسِينَ فَارِسًا، وَنَزَلَ عُمَةً، وَاسْتَرَاحَ، وَقَصَدَ الرُّيَّ، وَأَرْسَلَ إِلَى مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرِيدُهُ، وَيُؤْثِرُ دَوْلَتَهُ، فَاسْتَدْعَاهُ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُ جَمْعٌ صَالِحٌ، فَسَارَ إِلَى إِسْفَرَايِينَ، وَكَاتَبَ أَمِيرَ دَاؤْدَ حَبَشِيَّ بْنَ التُّوْنِاقِ، وَهُوَ بِدَامَغَانَ، يَسْتَدْعِيهِ، فَاجَابَهُ يَشِيرُ عَلَيْهِ بِالْمَقَامِ نَيْسَابُورَ حَتَّى يَأْتِيَهُ. وَكَانَ بِيَدِهِ حَيْثُ أَكْثَرُ خُرَاسَانَ وَطَبْرِسْتَانَ وَجُرجَانَ، فَلَمَّا وَصَلَ بِرَكْيَارِقُ إِلَى نَيْسَابُورَ قَبِضَ عَلَى رُؤُسَائِهَا، وَخَرَجَ بِهِمْ، وَأَطْلَقَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَسَكَّ بِعَمِيدِ خُرَاسَانَ أَبِي مُحَمَّدٍ، وَأَبِي الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي الْمُعَالِي الْجَوْنِيِّ، فَأَمَّا أَبُو الْقَاسِمِ فَمَاتَ مَسْمُومًا فِي قَبْضِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ قُتِلَ سَنَةَ اثْنَيْنِ وَتَسْعِينَ [وَأَرْبَعَمِائَةٍ].

(٢٩٧/١٠)

وعاد بركيارق فاستدعى أمير داؤد، فاعتذر بقصد السلطان سنجر بلاده في عسكار بلخ، ويسأل السلطان بركيارق أن يصل إليه ليعينه

الوقائع في شهور قرية. (٣٠١/١٠)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة زاد أمر العيارين بالجانب الغربي من بغداد، في شعبان، وعظم ضررهم، فأمر الخليفة كمال الدولة يمين بتهديب البلد، فأخذ جماعة من أعيانهم، وطلب الباقيين فهروا.

وفيها أيضاً انحلت الأسعار بالعراق، وكان كثر الحنطة قد بلغ سبعين ديناراً، وربما زاد كثيراً في بعض الأوقات، وانقطعت الأمطار، وبست الأنهار. وكثر الموت. حتى عجزوا عن دفن الموتى، فحُمِل في بعض الأوقات ستة أموات على نعش واحد، وعدمت الأدوية والعقاقير.

وفيها، في رجب، سار يمين الفرنجي، صاحب أنطاكية، إلى قلعة أفامية، فحصرها، وقتل أهلها أياً ما، وأفسد زروعها ثم رحل عنها.

وفيها، في آخر رمضان، قُتل الأمير بلكابك سمرز بأصهان، بدار السلطان محمد، وكان كثير الاحتياط من الباطنية لا يفارقه ليس الدرع ومن يمنع عنه، ففي ذلك اليوم لم يلبس درعاً، ودخل دار السلطان في قلعة، فقتله الباطنية، فقتل واحد ونجا آخر.

وفيها توفي أبو الحسن البسطامي الصوفي، ورباطه مشهور على دجلة غربي بغداد، بناه أبو الغنائم بن المحلبان.

وفيها مات أبو نصر بن أبي عبد الله بن جرّدة، وأصله من عكبرا، وإليه (٣٠٢/١٠) ينسب مسجد ابن جرّدة، وخرابة ابن جرّدة ببغداد.

وفيها توفي أبو علي يحيى بن جرّدة الطليبي، وكان نصرانياً فاسلم، وهو مصنف كتاب المنهاج.

وفيها، في شوال، توفي عبد الرزاق الصوفي، الغزنوي، المقيم برباط غتاب، وحجّ عدة حجّات على التجريد، ولم يخلف ما تكفّن فيه، فقالت زوجته: إذا متّ افترضنا؟ قال: لم تفترض؟ قالت: لأنك ليس لك ما تكفّن فيه فقال: إنما افترض إذا خلّفت ما أكفّن فيه.

وفيها، في رمضان، توفي عز الدولة أبو المكارم محمد بن سيف الدولة صدقة بن مزيد. (٣٠٣/١٠)

سنة أربع وتسعين وأربعمائة

ذكر الحرب بين السلطانين بركيارق ومحمد وقتل مزيد الملك

في هذه السنة، ثالث جمادى الآخرة، كان المصاف الثاني بين السلطان بركيارق والسيطان محمد، وقد ذكرنا سنة ثلاث وتسعين

المحاسن، وزير بركيارق، وضمنه عمادة بغداد، أمره أن يخاطب الخليفة بعزل وزيره عميد (٢٩٩/١٠) الدولة بن جُهير، فسار من العسكر، وسمع عميد الدولة الخبر، فأمر أصبَهذ صباوة بن خمارتكن بالخروج إلى طريق الأعزّ وقتله.

وكان أصبَهذ قد حضر الحرب مع بركيارق، ولما انهزم العسكر قصد بغداد، فخرج إلى طريق الأعزّ أبي المحاسن، فلقبه قريباً من بغدّاد، فأوقع بمن معه، والتجأ الأعزّ إلى القرية واحتسّن، فلما رأى أصبَهذ صباوة ذلك أرسل إليه يقول له: إنك وزير السلطان بركيارق، وأنا مملوكه، فإن كنت على خدمته فإخرج إلينا حتى تسير إلى بغداد وتقيم الخطبة للسلطان، وأنت صاحب الذي لا يخالف، وإن لم تجب إلى هذا، فما بيننا غير السيف، فأجابه الأعزّ إلى ذلك، واجتماعاً فعرفه صباوة الذي أمره به عميد الدولة من قتله، وباتا تلك الليلة، وأرسل الأعزّ إلى الأمير إيلغازي بن أرتق، وكان قد ورد في صحبته، وفارقه نحو الراذان، فحضر في الليل، فانقطع حينئذ أمل صباوة منه، وفارقه.

وسار الأعزّ إلى بغداد وخاطب في عزل عميد الدولة، فعزل في رمضان، وأخذ من ماله خمسة وعشرون ألف دينار وقبض عليه وعلى إخوته، وبقي معزولاً إلى سادس عشر شوال، فتوفي محبوساً في دار الخلافة، ومولده في المحرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وكان عاقلاً، كريماً، حليماً، إلا أنه كان عظيم الكبر، يكاد يُعَدّ كلامه عداءً، وكان إذا كلّم إنساناً كلمات يسيرة هُنيء ذلك الرجل بكلامه. (٣٠٠/١٠)

ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

في ذي القعدة من هذه السنة لقي كمشكين بن الدانشمند طابلو، وإنما قيل له ابن الدانشمند لأن أباه كان معلماً للتركان وتقلّبت به الأحوال، حتى ملك، وهو صاحب ملطية وسيواس وغيرهما، يمين الغونجي، وهو من مقلبي الفرنج، قريب ملطية، وكان صاحبها قد كاتبه، واستقله إليه، فورد عليه في خمسة آلاف، فلقبهم ابن الدانشمند، فانهزم يمين وأمر.

ثم وصل من البحر سبعة قماصة من الفرنج، وأرادوا تخليص يمين، فاتوا إلى قلعة تسمى أنكورية، فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا إلى قلعة أخرى فيها إسماعيل بن الدانشمند، وحصروها، فجمع ابن الدانشمند جمعاً كثيراً، ولقي الفرنج، وجعل له كميناً، وقتلهم، وخرج الكمين عليهم، فلم يفلت أحد من الفرنج، وكانوا ثلاثمائة ألف، غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين.

وسار ابن الدانشمند إلى ملطية، فملكها وأسر صاحبها، ثم خرج إليه عسكر الفرنج من أنطاكية، فلقبهم وكسرهم، وكانت هذه

الأسديبادي، لأخذ أموال مؤيد الملك، فنزل ببغداد بدار مؤيد الملك، وسلم إليه محمد الشراي، وهو ابن خالة مؤيد الملك، (٣٠٥/١٠) فأخذت منه الأموال والجواهر بعد مكروء أصابه، وعذاب ناله، وأخذ له ذخائر من مواضع آخر ببلاد العجم منها: قطعة بلخش، وزنها واحد وأربعون مثقالاً.

ولما فرغ السلطان بركيارق من هذه الواقعة سار إلى الري، فوصل إليه هناك قوام الدولة كربوقا، صاحب الموصل، ونور الدولة دئيس بن صدقة بن مزيد.

ذكر حال السلطان محمد بعد الهزيمة واجتماعه بأخيه الملك

سنجر

لما انهزم السلطان محمد، سار طالباً خراسان إلى أخيه سنجر، وهما لأم واحدة، فأقام بجرجان، وراسل أخاه يطلب منه مالا وكسوة، وغير ذلك، فسير إليه ما طلب، وترددت الرسل بينهما، حتى تحالفا وانفقا.

ولم يكن بقي مع السلطان محمد غير أميرين في نحو ثلاثمائة فارس، فلما استقرت القواعد بينهما سار الملك سنجر من خراسان في عساكره نحو أخيه السلطان محمد، فاجتمعا بجرجان، وسارا منها إلى دامغان، فخر بها العسكر الخراساني، ومضى أهلها هاربين إلى قلعة كردكوه، وخرّب العسكر ما قدروا عليه بين البلاد، وعمّ الغلاء تلك الأصقاع، حتى أكل الناس الميتة والكلاب، وأكل الناس بعضهم بعضاً. وسارا إلى الري، فلما وصلا إليها (٣٠٦/١٠) انضم إليهما النظامية وغيرهم، فكثر جمعهما، وعظمت شوكتهما، وتمكنت من القلوب هيتهما.

ذكر ما فعله السلطان بركيارق ودخوله بغداد

لما كان السلطان بركيارق بالري، بعد انهزام أخيه محمد، اجتمعت عليه العساكر الكثيرة، فصار معه نحو مائة ألف فارس، ثم إنهم ضاقت عليهم الميرة، ففترقت العساكر، فعاد دئيس بن صدقة إلى أبيه، وخرج الملك مودود ابن إسماعيل بن ياقوتي بأذربيجان، فسير إليه قوام الدولة كربوقا في عشرة آلاف فارس، واستأذن الأمير إياز في أن يقصد داره بهمدان يصوم بها شهر رمضان، ويعود بعد الفطر، فأذن له، وفترقت العساكر لمثل ذلك، وبقي في العدد القليل.

فلما بلغه أن أخوته قد جمعا الجموع، وحشدا الجنود، وأنهما لما بلغتهما قلعة من قمعه، جذاً في المسير إليه، وطويبا المنازل ليعاجلاه، قيل أن يجمع جموعه وعساكره، فلما قاربا سار من مكانه، وقد طمع فيه من كان يهابه، وأيس منه من كان يرجوه، فقصده نحو همدان ليجتمع هو وإياز، فبلغه أن إياز قد راسل

[وأربعمائة] انهزام السلطان بركيارق من أخيه السلطان محمد، وتنقله في البلاد، إلى أصبهان، وأنه لم يدخلها، وسار منها إلى خوزستان، وأتى عسكر مكرم، فأنه الأميران زنكي والبكي ابنا برسق، وصارا معه، وأقام بها شهرين، وسار منها إلى همدان، فاتصل به الأمير إياز.

وكان سبب ذلك أن أمير آخر قد مات منذ قريب، فاتهم إياز مؤيد الملك بأنه سقا السم، وقوى ذلك عنده أن وزير أمير آخر هرب عقيب موته، فازداد ظن إياز بأنهم، فظفر بالوزير، فقتله.

وكان إياز قد اتخذ أمير آخر ولداً، واتصل به العسكر، ووصى له بجميع ماله، فحين استوحش لهذا السبب كاتب السلطان بركيارق، واتصل به، ومعه خمسة آلاف فارس، وصار من جملة عسكره.

وسار السلطان محمد إلى لقاء أخيه، فلما تقارب العسكران استأمن الأمير سرخاب بن كبحسرو، صاحب آوة، إلى السلطان بركيارق، فآكرمه. (٣٠٤/١٠) ووقع المصافى ثالث جمادى الآخرة، وكان مع السلطان بركيارق خمسون ألفاً، ومع أخيه السلطان محمد خمسة عشر ألفاً، فالتقوا، فاقتلوا يوتهم أجمع، وكان النفر بعد النفر يستأمنون من عسكر محمد إلى بركيارق، فيحسن إليهم.

ومن العجب الدال على الظفر أن رجالة بركيارق احتاجوا إلى ترأس، فوصل إليه يوم المصافى بكرة اثنا عشر حملاً سلاحاً من همدان منها ثمانية أحمال ترأس، ففرقت فيهم، فلما وصلت نزل السلطان بركيارق، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى.

ولم يزل القتال بينهما إلى آخر النهار، فانهزم السلطان محمد وعسكره، وأسر مؤيد الملك، أسره غلام لمجد الملك البلاساني وأحضر عند السلطان بركيارق، فسبه، وأوقفه على ما اعتمده معه من سب والدته مرة، ونسبته إلى مذهب الباطنية أخرى، ومن حمل أخيه محمد على عصيانه، والخروج عن طاعته إلى غير ذلك، ومؤيد الملك ساكت لا يعيد كلمة، فقتله بركيارق بيده، وألقي على الأرض عذبة أيام، حتى سأل الأمير إياز في دفنه، فأذن فيه، فحُمِل إلى تربة أبيه بأصبهان فدفن معه.

وكان بخيلاً، سيء السيرة مع الأمراء، إلا أنه كان كثير المكر والحيل في إصلاح أمر الملك، وكان عمره لما قتل نحو خمسين سنة.

وكان السلطان بركيارق قد استوزر في صفر الأعزّ أباً المحاسن عبد الجليل ابن علي التومستاني، فلما قتل مؤيد الملك أرسل الوزير أبو المحاسن رسولاً إلى بغداد، وهو أبو إبراهيم

أرسلتها، وإلا سيرة العساكر إلى بلادك وأخذناها منك، فلما سمع هذه الرسالة قطع الخطبة، وخطب لمحمد.

فلما وصل السلطان بركيارق إلى بغداد على هذه الحال أرسل إليه مرة بعد مرة يدعو إلى الحضور عنده، فلم يجب إلى ذلك، فأرسل إليه الأمير إياز يشير عليه بقصد خدمة السلطان، ويضمن له كل ما يريده، فقال: لا أحضر، ولا أطيع السلطان، إلا إذا سلم وزيره أبا المحاسن إلي، وإن لم يفعل فلا يتصور مني الحضور عنده أبداً، ويكون في ذلك ما يكون، فإن سلمه إلي، فأنا العبد المخلص في العبودية بالحسن والطاعة، فلم يجب إلى ذلك، فتم على مقاطعته، وأرسل إلى الكوفة، وطرد عنها النائب بها عن السلطان واستضافها إليه. (٣٠٩/١٠)

ذكر وصول السلطان محمد إلى بغداد

ورحيل السلطان بركيارق عنها

في هذه السنة في السابع والعشرين [من] ذي الحجة، وصل السلطان محمد وسنجر إلى بغداد، وكان السلطان محمد لما استولى على همدان وغيرها سار إلى بغداد، فلما وصل إلى حلوان سار إليه إيلغازي بن أرئق في عساكره، وخدمه، وأحسن في الخدمة، وكان عسكر محمد يزيد على عشرة آلاف فارس سوى الأتباع.

فلما وصلت الأخبار بذلك كان بركيارق على شدة من المرض، يرجف عليه خواصه بكثرة وعشياً، فماج أصحابه، وخافوا، واضطربوا، وحاروا، وعبروا به في محفة إلى الجانب الغربي، فترلوا بالرملة، ولم يبق في بركيارق غير روح يترقد، وتيقن أصحابه موته، وتشاوروا في كفته، وموضع دفنه.

فبينما هم كذلك إذ قال لهم: إني أجد نفسي قد قويت، وحركي قد تزايدت، فطابت نفوسهم، وساروا، وقد وصل العسكر الآخر، فترامى الجمعان بينهما دجلة، وجرى بينهما قراماة وسباب، وكان أكثر ما يستهم عسكر محمد يا باطنية، يُغيرونهم بذلك، ونهبوا البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط.

ووصل السلطان محمد إلى بغداد، فترل بدار المملكة، فبرز إليه توقيع الخليفة المستظهر بالله يتضمن الامتناع من سوء سيرة بركيارق ومن معه، (٣١٠/١٠) والاستيثار بقدمه، وخطب له بالديوان، ونزل الملك سنجر بدار كرواين، وكان محمد قد استوزر بعد مؤيد الملك خطير الملك أبا منصور محمد بن الحسين، وقدم إليه في المحرم سنة خمس وتسعين [وأربعمائة]

الأمير سيف الدولة صدقة، وخرج الخلق كلهم إلى لقاءه.

السلطان محمد ليكون معه ومن جملة أعرانه، خوفاً على ولايته، وهي همدان وغيرها، فلما سمع ذلك عاد عنها، وقصد خوزستان، فلما قرب من تستر كاتب الأمراء بني برسق يستدعيهم إليه، فلم يحضروا لما علموا أن إياز لم يحضر، وللخوف من السلطان محمد، فسار نحو العراق، فلما بلغ حلوان أتاه رسول الأمير إياز يسأل التوقف ليصل إليه. (٣٠٧/١٠)

وسبب ذلك أن إياز راسل السلطان محمد في الانضمام إليه، والمصير في جملة عسكره، فلم يقبله، وسير العساكر إلى همدان، ففارقها منهزماً. ولحق بالسلطان بركيارق، فأقام السلطان بركيارق بحلوان، ووصل إليه إياز، وساروا جميعهم إلى بغداد.

وأخذ عسكر محمد ما تخلف للأمير إياز بهمدان من مال، ودواب، وبزك، وغير ذلك، فإنه أعجل عنه، وكان من جملة خمسمائة حصان عربية، قيل كان يساوي كل حصان منها ما بين ثلاثمائة دينار إلى خمسمائة دينار، ونهبوا داره، وصادروا جماعة من أصحابه، وصودر رئيس همدان بمائة ألف دينار.

ولما وصل إياز إلى بركيارق تكاملت عدتهم خمسة آلاف فارس، وقد ذهبت خيامهم ونقلهم، ووصل بركيارق إلى بغداد سابع عشر ذي القعدة، وأرسل الخليفة إلى طريقه يلتقيه أمين الدولة بن موصليا في الموكب، ولما كان عيد الأضحى نفذ الخليفة منبرا إلى دار السلطان، وخطب عليه الشريف أبو الكرم، وصلى صلاة العيد، ولم يحضر بركيارق لأنه كان مريضاً.

وضاقت الأموال على بركيارق، فلم يكن عنده ما يخرج به نفسه وعلى عساكره، فأرسل إلى الخليفة يشكو الضائقة وقلة المال، ويطلب أن يعان بما يخرج به، فقرر الأمر بعد المراجعات على خمسين ألف دينار، حملها الخليفة إليه، ومذ بركيارق وأصحابه أيديهم إلى أموال الناس، فعم ضررهم، وتمنى أهل البلاد زوالهم عنهم، ودعتهم الضرورة إلى أن ارتكبوا خطئة شنعاء، وذلك أنه قدم عليهم أبو محمد عبيد الله بن منصور، المعروف بابن صليحة، (٣٠٨/١٠) قاضي جيلة من بلاد الشام وصاحبها، منهزماً من الفرنج، على ما تذكره، ومعه أموال جلييلة المقدار، فأخذوها منه.

ذكر خلاف صدقة بن يزيد على بركيارق

في هذه السنة خرج الأمير صدقة بن منصور بن قنيس بن مزيد، صاحب الجيلة، عن طاعة السلطان بركيارق، وقطع خطبته من بلاده، وخطب فيها للسلطان محمد.

وسبب ذلك أن الوزير الأعز أبا المحاسن اللجستاني، وزير السلطان بركيارق، أرسل إلى صدقة يقول له: قد خلفت عنك لخزاة السلطان ألف ألف دينار، وكذا وكذا ديناراً كثيراً، فإن

ذكر حال قاضي جبلة

أحضره الوزير الأعز أبو المحاسن عنده، (٣١٢/١٠) وقال له: السلطان محتاج، والعساكر يطالبونه بما ليس عنده، ونريد منك ثلاثين ألف دينار، وتكون له منة عظيمة، تستحق بها المكافأة والشكر. فقال: السمع والطاعة، ولم يطلب أن يخط شيئاً، وقال: إن رحلي ومالي في الأنبار بالدار التي نزلتها؛ فأرسل الوزير إليها جماعة، فوجدوا فيها مالا كثيراً، وأغلافاً نفيسة، فمن جملة ذلك ألف ومائة قطعة مصاغ عجيب الصنعة، ومن الملابس والعمائم التي لا يوجد مثلها شيء كثير.

كان ينبغي أن نذكر هذه الحوادث التي بعد انهزام السلطان محمد إلى هاهنا، بعد قتل الباطنية، فإنها كانت أواخر السنة، وكان قتلهم في شعبان، وإنما قدّمناها لتتبع بعض الحادثة بعضاً لا يفصل بينها شيء.

وأما تاج الملوك بوري، فإنه لما ملك جبلة، وتمكن منها، أساء السيرة هو وأصحابه مع أهلها، وفعلوا بهم أفعالاً أنكروها، فراسلوا القاضي فخر الملك أبا علي عمار بن محمد بن عمار، صاحب طرابلس، وشكوا إليه ما يفعل بهم، وطلبوا منه أن يرسل إليهم بعض أصحابه ليسلموا إليه البلد، ففعل ذلك، وسير إليهم عسكرياً، فدخلوا جبلة، واجتمعوا بأهلها، وقتلوا تاج الملوك ومن معه، فانهزم الأتراك، وملك عسكر ابن عمار جبلة، وأخذوا تاج الملوك أسيراً، وحملوه إلى طرابلس، فآكرمه ابن عمار، وأحسن إليه، وسيره إلى أبيه بدمشق، واعتذر إليه، وعرفه صورة الحال، وأنه خاف أن يملك الفرنج جبلة. (٣١٣/١٠)

ذكر قتل الباطنية

في هذه السنة، في شعبان، أمر السلطان بركيارق بقتل الباطنية، وهم الإسماعيلية وهم الذين كانوا قديماً يستمّون قرامطة، ونحن نبتدي بأول أمرهم الآن ثم بسبب قتلهم.

فاول ما عُرِف من أحوالهم، أعني هذه الدعوة الأخيرة التي اشتهرت بالباطنية، والإسماعيلية، في أيام السلطان ملكشاه، فإنه اجتمع منهم ثمانية عشر رجلاً، فصلوا صلاة العيد في ساوة، ففطن بهم الشحنة، فأخذهم وحبسهم، ثم سئل فيهم فأطلقهم، فهذا أول اجتماع كان لهم.

ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان، فلم يجبههم إلى دعوتهم، فخافوه أن يتم عليهم، فقتلوه، فهو أول قتييل لهم، وأول دم أراقوه، فبلغ خبره إلى نظام الملك، فأمر بأخذ من بينهم بقتله، فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر، فقتل ومثل به، وجروا برجليه في الأسواق، فهو أول قتييل منهم، وكان والده واعظاً، وقدم إلى بغداد مع السلطان بركيارق سنة ست وثمانين [وأربعمائة] فحظي منه، ثم قصد البصرة فولّي القضاء بها، ثم توجه

هو أبو محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صليحة، وكان والده رئيسها أيام كان الروم مالكين لها على المسلمين، يقضي بينهم، فلما ضعف أمر الروم، وملكها المسلمون، وصارت تحت حكم جلال الملك أبي الحسن علي بن عمار، صاحب طرابلس، كان منصور على عادته في الحكم فيها. فلما توفي منصور قام ابنه أبو محمد مقامه، وأحب الجندية، واختار الجند، فظهرت شهامته، فأراد ابن عمار أن يقبض عليه، فاستشعر منه، وعصى عليه، وأقام الخطبة العباسية، فبذل ابن عمار للدقاق بن تثنى مالا ليقصده ويحصره، ففعل، وحصره، فلم يظفر منه بشيء، وأصيب صاحبه أتابك طغتكين بشتابة في ركبته وبقي أثرها.

وبقي أبو محمد بها مطاعاً إلى أن جاء الفرنج، لعنهم الله، فحاصروها. فأظهر أن السلطان بركيارق قد توجه إلى الشام، وشاع هذا، فرحل الفرنج، فلما تحققوا اشتغال السلطان عنهم عادوا حصره، فأظهر أن المصريين قد توجهوا لحربهم، فرحلوا ثانياً، ثم عادوا، ففرز مع النصاري الذين بها أن (٣١١/١٠) يرأسوا الفرنج، ويوعدوهم إلى برج من أبراج البلد ليسلموه إليهم ويملكوا البلد، فلما أتتهم الرسالة جهزوا نحو ثلاثمائة رجل من أعيانهم وشجعانهم، فتقدموا إلى ذلك البرج، فلم يزالوا يرقون في الحبال، واحداً بعد واحد، وكلما صار عند ابن صليحة، وهو على السور، رجل منهم قتله إلى أن قتلهم أجمعين، فلما أصبحوا رمى الرووس إليهم فرحلوا عنه.

وحصروه مرة أخرى، ونصبوا على البلد برج خشب، وهدموا برجاً من أبراجه، وأصبحوا وقد بناه أبو محمد، ثم نقب في السور نقوياً، وخرج من الباب وقتلهم، فانهزم منهم، وتبعوه، فخرج أصحابه من تلك القنوب، فأتوا الفرنج من ظهورهم، فولوا منهزمين وأسر مقدمهم المعروف بكند اصطبل، فافتدى نفسه بمال جزيل.

ثم علم أنهم لا يقعدون عن طلبه، وليس له من يمتنعهم عنه، فأرسل إلى طغتكين أتابك يلمس منه إنفاذ من يثق به ليسلم إليه ثغر جبلة، ويحميه ليصل هو إلى دمشق بماله وأهله، فأجابه إلى ما التمس، وسير إليه ولده تاج الملوك بوري، فسلم إليه البلد، ورحل إلى دمشق، وسأله أن يسيره إلى بغداد، ففعل، وسيره ومعه من يحميه إلى أن وصل إلى الأنبار.

ولما صار بدمشق أرسل ابن عمار صاحب طرابلس إلى الملك دقاق، وقال: سلم إلي ابن صليحة غريباناً، وخذ ماله أجمع، وأنا أعطيك ثلاثمائة ألف دينار، فلم يفعل. فلما وصل إلى الأنبار أقام بها أياماً، ثم سار إلى بغداد، وبها السلطان بركيارق، فلما وصل

في رسالة إلى كُرْمان، فقتله العامة في الفتنة التي جرت، وذكرُوا أَنَّهُ النيران، وَسَمَوْهُ مَالِكًا، فقتلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا. باطنِي.

ذكر قلاعهم التي استولوا عليها ببلاد المعجم

واستولوا على عِدَّة حصون منها قلعة أصبهان، وهذه القلعة لم تكن قديمًا، وإنما بناها السلطان ملكشاه.

وسبب بنائها أَنَّهُ كان قد أتاه رجل من مَقْدَمِي الروم، فأسلم وصار معه، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ سار يوماً إلى الصيد، فهرب منه كلبٌ حسن الصيد، وصعد (٣١٦/١٠) هذا الجبل، فقتلته السلطان والروميُّ معه، فوجده موضعَ القلعة، فقال له الروميُّ: لو أَنَّ عندنا مثل هذا الجبل لجعلنا علينا حصناً نتنفع به، فأمر ببناء القلعة، ومنع منها نظام الملك، فلم يُقبل قوله، فلَمَّا فرغَتْ جعل فيها دزدارًا.

فلَمَّا انقضت أيام السلطان ملكشاه، وصارت أصبهان بيد خاتون أزالَت الدزدار، وجعلت غيره فيها، وهو إنسان ديلمِي اسمه زيار، فمات، وصار بالقلعة إنسان خوزِي. فبَاتَّصَلَ به أحمد بن عَطَّاش، وكان الباطنية قد البسوه ثاجًا، وجمعوا له أموالًا، وقَدَّموه عليهم مع جهله، وأَمَّا كان أبوه مَقْدَمًا فيهم، فلَمَّا أَتَصَلَ بالدزدار بقي معه، ووثق به، وقَدَّله الأمور، فلَمَّا توفي الدزدار استولى أحمد بن عَطَّاش عليها، ونال المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال، وقتل النفوس، وقطع الطريق، والخوف الدائم، فكانوا يقولون: إِنَّ قلعة يدُلُّ عليها كلبٌ، ويشير بها كافر لا بدَّ وأن يكون خاتمة أمرها الشرِّ.

ومنها المُوت، وهي من نواحي قزوین، قيل إِنَّ ملكًا من ملوك الديلم كان كثير التصيد، فأرسل يوماً عُقَّابًا، وتبعه، فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة، فوجده موضعًا حصينًا، فأمر ببناء قلعة عليه، فسماها أَلَهْ مُوت، ومعناه بلسان الديلم: تعليم العُقَّاب، ويقال لذلك الموضع وما يجاوره طالقان.

وفيها قلاع حصينة أشهرها المُوت، وكانت هذه النواحي في ضمان شرفشاه الجعْفَرِي، وقد استتاب فيها رجلًا علويًّا، فيه بلة وسلامة صدر.

وكان الحسن بن الصباح رجلًا شهيرًا، كافيًا، عالمًا بالهندسة، والحساب، والنجوم، والسحر، وغير ذلك، وكان رئيس الريِّ إنسانًا يقال له أبو مُسلم، وهو صهر نظام الملك، فَاتَّهَمَ الحسن بن الصباح بدخول جماعة من دعاة (٣١٧/١٠) المصريِّين عليه، فخافه ابن الصباح، وكان نظام الملك يكرمه، وقال له يوماً من طريق الفراسة: عن قريب يُضَلُّ هذا الرجل ضعفاء العوام؛ فلَمَّا هرب الحسن من أبي مسلم طلبه فلم يدرکه.

وكان الحسن من جملة تلامذة ابن عَطَّاش، الطيب الذي ملك قلعة أصبهان، ومضى ابن الصباح فظاف البلاد، ووصل إلى مصر،

ثم إِنَّ الباطنية قتلوا نظام الملك، وهي أوَّل فتنة مشهورة كانت لهم، وقالوا: قتل نَجَّارًا فقتلناه به. (٣١٤/١٠)

وأوَّل موضع غلبوا عليه وتحصَّنوا به بلدٌ عند قَازين، كان متقدِّمًا على مذهبهم، فاجتمعوا عنده، وقبَّروا به، فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كُرْمان إلى قَازين، فخرج عليهم ومعه أصحابه والباطنية، فقتل أهل القفل أجمعين، ولم ينجُ مِنْهُمْ غير رجل تركماني، فوصل إلى قَازين فأخبر بالقصة، فتسارع أهلها مع القاضي الكرمانِي إلى جهادهم، فلم يقدرُوا عليهم.

ثم قُتل نظام الملك، ومات السلطان ملكشاه، فعظم أمرهم، واشتدَّت شوكتهم، وقرت أطماعهم.

وكان سبب قوتهم بأصبهان أَنَّ السلطان بركيارق لَمَّا حصر أصبهان، وبها أخوه محمود، وأمه خاتون الجلالية، وعاد عنهم ظهرت مقالة الباطنية بها، وانتشرت، وكانوا متفرقين في المحال، فاجتمعوا، وصاروا يسرقون مَنْ قدروا عليه من مخالفيهم ويقتلونهم، فعلوا هذا بخلق كثير، وزاد الأمر، حتى إِنَّ الإنسان كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد يَتَّقُوا قتله، وقعدوا للعزاء به، فحذر الناس، وصاروا لا ينفرد أحد، وأخذوا في بعض الأيام مودنًا، أخذه جازٍ له باطني، فقام أهله للنياحة عليه، فأصعبه الباطنية إلى سطح داره وأروه أهله كيف يلطمون ويبيكون، وهو لا يقدر [أَن] يتكلَّم خوفًا منهم.

ذكر ما فعل بهم العامة بأصبهان

لَمَّا عَمَّت هذه المصيبة الناس بأصبهان، أذن الله تعالى في هتك أستارهم، والانتقام منهم، فَاتَّفَقَ أَنَّ رجلًا دخل دار صديق له، فرأى فيها ثيابًا، (٣١٥/١٠) ومداسات، وملابس لم يعدها، فخرج من عنده، وتحدَّث بما كان، فكشف الناس عنها، فعلموا أَنَّها من المقتولين.

وثار الناس كافةً يبحثون عَمَّن قُتل منهم، ويستكشفون، فظهروا على الدروب التي هم فيها، وإتَّهَمُوا كانوا إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى داره منها وقتلوه وألقوه في بئر في الدار قد صُنعت لذلك.

وكان على باب درب منها رجلٌ ضري، فإذا اجتاز به إنسان يسأله أَن يقوده خطوات إلى باب الدرب، فيفعل ذلك، فإذا دخل الدرب أخذ وقُتل، فتجدد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندي، الفقيه الشافعي، وجمع الجسم الغفير بالأسلحة، وأمر بحفر أخاديد، وأوقد فيها النيران، وجعل العامة يأتون بالباطنية أفواجًا ومفردين، فيلقون في النار، وجعلوا إنسانًا على أخاديد

ودخل على المستنصر صاحبها، فأكرمه، وأعطاه مالا، وأمره أن

يدعو الناس إلى إمامته، فقال له الحسن: فَمَنْ الإمام بعدك؟ فأشار إلى ابنه نزار، وعاد من مصر إلى الشام، والجزيرة، وديار بكر، والروم، ورجع إلى خراسان، ودخل كاشغر، وما وراء النهر، يطوف على قوم يُصلُّهم، فلَمَّا رأى قلعة الموت، واختير أهل تلك النواحي، أقام عندهم، وطمع في إغوائهم، ودعاهم في السر، وأظهر الزهد، وليس الميَّسَج، فتبعه أكثرهم، والعلويُّ صاحب القلعة حسن الظنَّ فيه، يجلس إليه يترك به، فلَمَّا أحكم الحسن أمره، دخل يوماً على العلوي بالقلعة، فقال له ابن الصَّباح: أخرج من هذه القلعة؛ فتبسَّم العلوي، وظنَّ يمزح، فأمر ابن الصَّباح بعض أصحابه بإخراج العلوي، فأخرجوه إلى دامغان، وأعطاه ماله وملك القلعة.

ولَمَّا بلغ الخبر إلى نظام الملك بعث عسكرياً إلى قلعة الموت، فحاصروه فيها، وأخذوا عليه الطرق، فضاق ذرعه بالحصر، فأرسل مَنْ قتل نظام الملك، فلَمَّا قُتل رجع العسكر عنها.

ثم إنَّ السلطان محمد بن ملكشاه جهَّز نحوها العساكر، فحصرها، وسيرد ذكر ذلك إن شاء الله تعالى. (٣١٨/١٠)

ومنها طَبَسُ، وبعض قُهْستان، وكان سبب ملكهم لها أنَّ قُهْستان كان قد بقي فيها بقايا من بني سيمجور، أمراء خراسان، أيام السامانية، وكان قد بقي من نسلهم رجل يقال له المنور، وكان رئيساً مُطاعاً عند الخاصة والعامة، فلَمَّا ولي كلسارخ قُهْستان ظلم الناس وعسفهم، وأراد اختناً للمنور بغير حل، فحمل ذلك المنور على أن التجأ إلى الإسماعيلية، وصار معهم، فعظم حالهم في قُهْستان، واستولوا عليها ومن جملتها، خور، وخوسف وزوزن، وقاين، وتون، وتلك الأطراف المجاورة لها.

ومنها قلعة وسَمُكُو، ملكوها، وهي بقرب أبهر، سنة أربع وثمانين [وأربعمائة]، وتآذى بهم الناس، لا سيما أهل أبهر، فاستغاثوا بالسلطان بركيارق، فجعل عليها من يحاصرها، فحوصرت ثمانية أشهر، وأخذت منهم سنة تسع وثمانين [وأربعمائة]، وقُتل كلُّ من بها عن آخرهم.

ومنها قلعة خالنجان على خمسة فراسخ من أصبهان، كانت لمؤيد الملك ابن نظام الملك، وانتقلت إلى جاولي سقاوا، فجعل بها إنساناً تركياً، فصادقه تجار باطني، وأهدى له هدية جميلة، ولزمه حتى وثق به، وسَلَّم إليه مفاتيح القلعة، فعمل دعوة للتركي وأصحابه، فسقاها الخمر، فأسكرهم، واستدعى ابن عطاش، فجاء في جماعة من أصحابه، فسَلَّم إليهم القلعة، فقتلوا من بها سوى التركي فإنه هرب، وقرى ابن عطاش بها، وصار له على أهل

أصبهان للقطائع الكثيرة.

ومن قلاعهم المذكورة أُسْتَوْنَاوَنَدُ، وهي بين الرُّيِّ وآمل، ملكوها بعد ملكشاه، نزل منها صاحبها، فقتل وأخذت منه.

ومنها أَرْدَهَنُ، وملكها أبو الفتح ابن أخت الحسن بن الصباح. (٣١٩/١٠)

ومنها كُردكو، وهي مشهورة.

ومنها قلعة الناظر بخُوزستان، وقلعة الطُّبُور وبينها وبين أَرْجان فرسخان أخذها أبو حمزة الإسكافي، وهو من أهل أَرْجان، سافر إلى مصر، وعاد داعية لهم.

وقلعة خلاذخان، وهي بين فارس وخُوزستان، وأقام بها المفسدون نحو مائتي سنة يقطعون الطريق حتى فتحها عضد الدولة بن بُوَيَّه، وقتل من بها.

فلَمَّا صارت الدولة لملكشاه أقطعها الأمير أُنر، فجعل بها دزداراً، فأنفذ إليه الباطنية الذين بأَرْجان يطلبون منه يَمِّها فأبى، فقالوا له: نحن نرسل إليك من يناظرك حتى يظهر لك الحق؛ فأجابهم إلى ذلك، فأرسلوا إليه إنساناً ديلمياً يناظره، وكان للدزدار مملوك قد رآه، وسَلَّم إليه مفاتيح القلعة، فاستماله الباطني، فأجابه إلى القبض على صاحبه وتسليم القلعة إليهم، فقبض عليه، وسَلَّم القلعة إليهم، ثم أطلقه، واستولوا بعد ذلك على عدة قلاع هذه أشهرها.

ذكر ما فعله جاولي سقاوا بالباطنية

في هذه السنة قتل جاولي سقاوا خلقاً كثيراً منهم.

وسبب ذلك أنَّ هذا الأمير كانت ولايته البلاد التي بين رامهرمز وأَرْجان. (٣٢٠/١٠)

فلَمَّا ملك الباطنية القلاع المذكورة بخُوزستان وفارس، وعظم شرهم، وقطعوا الطريق بتلك البلاد، واقف جماعة من أصحابه، حتى أظهروا الشغب عليه، وفارقوه، وقصدوا الباطنية، وأظهروا أنهم معهم، وعلى رأيهم، فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم.

ثم أظهر جاولي أنَّ الأمراء بنسي برسقي يريدون قصده وأخذ بلاده، وأنه عازم على مفارقتها لعجزه عنهم، والمسير إلى هَمْدَان، فلَمَّا ظهر ذلك وسار قال مَنْ عند الباطنية من أصحابه، [يَمِّنُ] لهم الرأي: إننا نخرج إلى طريقه ونأخذه وما معه من الأموال؛ فساروا إليه في ثلاثمائة من أعيانهم وضاديدهم، فلَمَّا التقوا صار من معهم من أصحاب جاولي عليه، ووضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر، سعدوا إلى الجبل وهربوا، وغنم جاولي ما معهم من دواب، وسلاح، وغير ذلك.

ذكر قتل صاحب كرمان الباطني وملك غيره

كان تيرانشاه بن تورانشاه بن قاوَرَت بك هو الذي قتل الأتراك الإسماعيلية، وليسوا منسوبين إلى هذه الطائفة الباطنية، إنما نسبوا إلى أمير اسمه إسماعيل، وكانوا من أهل السنة؛ قتل منهم الفقي رجل صبراً، وقطع أيدي الفقيين، ووفد عليه إنسان يقال له: أبو زُرْعَة، كان كاتباً بخوزستان، (٣٢١/١٠) فحسن له مذهب الباطنية، فأجاب إليه.

وكان عنده فقيه حنفي يقال له: أحمد بن الحسين البلخي، كان مطاعاً في الناس، فأحضره عنده ليلاً، وأطال الجلوس معه، فلما خرج من عنده أتبعه بمن قتله، فلما أصبح الناس دخلوا عليه، وفيهم صاحب جيشه، فقال لتيرانشاه: أيها الملك من قتل هذا الفقيه؟ فقال: أنت شيخنا البلد، تسألني من قتله؟ فقال: أنا أعرف قاتله! ونهض من عنده، ففارقته في ثلاثمائة فارس، وسار إلى أصبهان، فأرسل في أثره ألفي فارس ليردوه، فقاتلهم، وهزمهم، وسار إلى أصبهان، وبها السلطان محمد ومؤيد الملك، فآكرمه السلطان، وقال: أنت والد الملوك.

وامتنع عنده عسكر كرمان بعد مسيره، واجتمعوا، وقاتلوا تيرانشاه، وأخرجوه عن مدينة بَرْزَمِير التي هي مدينة كرمان، فلما فارقها اتفق القاضي والجند، وأقاموا أرسلان شاه بن كرمانشاه بن قاروت بك، وسار تيرانشاه إلى مدينة بَم من كرمان، فحاربه أهلها ومنعوه منها، وأخذوا ما معه من أموال وجواهر، وقصد قلعة سَمِيرَم وتحصن بها، وفيها أمير يُعرف بمحمد بهستون، فأرسل أرسلان شاه جيشاً حصرها بالقلعة، فقال محمد بهستون لتيرانشاه: انصرف عني، فلست أرى الغدر بك، وأنا رجل مسلم، ومقامك عندي يؤذي، وأنهم بك في ديني. فلما عزم على الخروج أرسل محمد بهستون إلى مقدم الجيش الذين يحاصرونهم يعلمهم بمسير تيرانشاه، فجزء عسكراً إلى طريقه، فخرجوا عليه، وأخذوه وما معه، وأخذوا أيضاً أبا زُرْعَة، فأرسل أرسلان شاه قتلهم، وتسلم جميع بلاد كرمان. (٣٢٢/١٠)

ذكر السبب في قتل بركيارق الباطنية

لما اشتد أمر الباطنية، وقويت شوكتهم، وكثر عددهم، صار بينهم وبين أعدائهم ذحولاً وإنحزاً، فلما قتلوا جماعة من الأمراء الأكابر، وكان أكثر من قتلوا من هو في طاعة محمد، مخالفاً للسلطان بركيارق، مثل شيخنا أصبهان سرمز، وأرغش، وكمش النظاميين، وصهره، وغيرهم، نسب أعداء بركيارق ذلك إليه، واتهموه بالميل إليهم.

فلما ظفر السلطان بركيارق، وهزم أخاه السلطان محمداً، وقتل مؤيد الملك وزيره، انبسط جماعة منهم في العسكر، واستغفروا

كثيراً منهم، وأدخلوهم في مذهبهم، وكلدوا يظهرون بالكثرة والقوة، وحصل بالعسكر منهم طاقة من وجوههم، وزاد أمرهم، فصاروا يتهدون من لا يوافقهم بالقتل، فصار يخافهم من يخالفهم، حتى إنهم لم يتجاسر أحد منهم، لا أمير ولا متقدم، على الخروج من منزله حاسراً بل يلبس تحت ثيابه درعاً، حتى إن الوزير الأعز أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه، واستأذن السلطان بركيارق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم، وعرفوه خوفهم ممن يقاتلهم، فأذن لهم في ذلك.

وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم، وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل إلى مذهبهم، حتى إن عسكر أخيه السلطان محمد يشنون بذلك، وكانوا في المصاف يكررون عليهم، ويقولون يا باطنية، فاجتمعت هذه البواعث كلها، فأذن السلطان قتلهم، والفتك بهم، وركب (٣٢٣/١٠) هو والعسكر معه، وطلبوهم، وأخذوا جماعة من خيامهم ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف.

وكان ممن اتهم بأنه مقدمهم الأمير محمد بن دشمزبار بن علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه، صاحب يزد، فهرب، وسار يومه وليلته، فلما كان اليوم الثاني وجد في العسكر قد ضل الطريق ولا يشعر، فقتل، وهذا موضع المثل: أتك بحائن رجلاه، ونهبت خيامه، فوجد عنده السلاح المعد، وأخرج الجماعة المتهمون إلى الميدان فقتلوا، وقتل منهم جماعة براء لم يكونوا منهم سوى بهم أعداؤهم، وفيمن قتل ولد كيقباز، مستحفظ تكريت، فلم يغير والده خطبة بركيارق، ولكن شرع في تحصين القلعة وعمارتها، ونقض جامع البلد، وكان يقاربها، لئلا يؤتى منه، وجعل بيعة في البلد جامعاً، وصلى الناس فيه.

وكتب إلى بغداد بالقبض على أبي إبراهيم الأسدي الذي كان قد وصل إليها رسولاً من بركيارق لياخذ مال مؤيد الملك، وكان من أعيانهم ورؤوسهم، فأخذ وحبس، فلما أرادوا قتله قال: هبوا أنكم قتلتموني، أنقدرون على قتل من بالقلاع والمدن؟ فقتل، ولم يصل عليه أحد، وألقي خارج السور، وكان له ولد كبير قتل بالعسكر معهم.

وقد كان أهل عانة نسبوا إلى هذا المذهب قديماً، فأنهى حالهم إلى الوزير أبي شجاع أيام المقتدي بامر الله، فأحضرهم إلى بغداد، فسأل مشايخهم على الذي يقال فيهم، فأنكروا ووجدوا، فأطلقهم.

واتهم أيضاً الكيا الهراس، المدوس بالنظامية، بأنه باطني، ونقل ذلك عنه إلى السلطان محمد، فأمر بالقبض عليه، فأرسل المستظهر بالله من استخلصه، وشهد له بصحة الاعتقاد، وعلو الدرجة في العلم، فأطلق. (٣٢٤/١٠)

ذكر حصر الأمير بزغش فِهستان وطَبَس

في هذه السنة جمع الأمير بزغش، وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر، جموعاً كثيرة، وقواهم بالمال والسلاح، وسار إلى بلد الإسماعيلية، فنهبه، وخرّبه، وقتل فيهم فاكثراً، وحصر طَبَس، وضيّق عليها، ورماها بالمنجنيق، فخرّب كثيراً من سورها، وضعّف من بها، ولم يبق إلا أخذها، فأرسلوا إليه الرشا الكثيرة، واستنزّلوها عمّا كان يريد منهن، فرحل عنهم وتركهم، فعاودوا عمارة ما اتهدم من سورها، وملأوها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك، ثم عاودهم بزغش سنة سبع وتسعين [وأربعمائة]، فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ما ملك الفرنج من الشام

فيها سار كُندفري، ملك الفرنج بالشام، وهو صاحب البيت المقدس، إلى مدينة عكّة، بساحل الشام، فحصرها، فأصابه سهم فقتله، وكان قد عمر مدينة يافا وسلمها إلى قَمَص من الفرنج اسمه: طنكري، فلما قُتل كُندفري سار أخوه بَعْدُوين إلى البيت المقدس في خمسمائة فارس وراجل، فبلغ ذلك دُقاق، صاحب دمشق، خبره، فنهض إليه في عسكره، ومعه الأمير جناح الدولة في جموعه، فقاتله، فَنَصِر على الفرنج.

وفيها ملك الفرنج مدينة سَرُوج من بلاد الجزيرة، وسبب ذلك أن الفرنج كانوا قد ملكوا مدينة الرُّها بمكانة من أهلها لأن أكثرهم أرمن، وليس بها (٣٢٥/١٠) من المسلمين إلا القليل، فلما كان الآن جمع سَقمان بسَرُوج جمعاً كثيراً من التركمان، وزحف إليهم، فلفقوه وقاتلوه، فهزموه في ربيع الأول. فلما تَتَت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سَرُوج، فحصروها وتسَلّموها، وقتلوا كثيراً من أهلها وسَبّوا حريمهم، ونهبوا أموالهم، ولم يسلم إلا من مضى منهزماً.

وفيها ملك الفرنج مدينة حِيفَا، وهي بالقرب من عكّة على ساحل البحر، ملكوها غنّة، وملكوا أَرَسُوف بالأمان، وأخرجوا أهلها منها.

وفيها، في رجب، ملكوا مدينة قَيْسَارِيَة بالسيف، وقتلوا أهلها، ونهبوا ما فيها.

ذكر عَدّة حوادث

في هذه السنة، في شهر رمضان، تقدّم الخليفة المستظهر بالله يفتح جامع القصر، وأن يُصلّى فيه صلاة التراويح، ولم تكن جرت بذلك عادة، وأمر بالجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، وهذا أيضاً لم تجر به عادة، وإنما ترك الجهر بالتسليم في جوامع بغداد لأن العلويين أصحاب مصر كانوا يجهرون بها، فترك ذلك مخالفة لهم

لا اتباعاً لمذهب أحمد الإمام، وأمر أيضاً بالقنوت على مذهب الشافعي، فلما كانت الليلة التاسعة والعشرون ختم في جامع القصر، وازدحم الناس عنده، وكان زعيم الرؤساء أبو القاسم عليّ بن فخر الدولة بن جُهير أخو عميد الدولة قد أطلق من الاعتقال، فاختلط بالناس، وخرج إلى ظاهر بغداد من ثلثة في السور، وسار إلى سيف الدولة صدقة بن مَرزُيد، (٣٢٦/١٠) فاستقبله وأنزله وأكرمه.

وفيها، في المحرم، توفي جمال الدولة أبو نصر بن رئيس الرؤساء بن المسلمة، وهو أستاذ دار الخليفة.

وفيه توفي القاضي أحمد بن محمد بن عبد الواحد أبو منصور بن الصبّاغ الفقيه الشافعي، وأخذ الفقه عن ابن عمّه الشيخ أبي نصر بن الصبّاغ، وكان يصوم الدهر، وروى الحديث عن القاضي أبي الطيّب الطبري وغيره.

وفيه توفي شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور المستوفي، الخوارزمي، بأصبهان، وكان مستوفياً في ديوان السلطان ملكشاه، فبذل مائة ألف دينار حتى ترك الاستيفاء، وبني مشهداً على قبر أبي حنيفة، رحمة الله عليه، ومدرسة بباب الطاق، ومدرسة بمرو جميعها للحنفيين.

وفيها، في صفر، توفي القاضي أبو المعالي عزيزي، وكان شافعيّاً، أشعريّاً، وهو من جيلان، وله مصنّفات كثيرة حسنة، وكان ورعاً، وله مع أهل باب الأُزج أخبار ظريفة، وكان قاضياً عليهم، وكانوا يُبغضونه ويُبغضهم.

وتوفي أسعد بن مسعود بن عليّ بن محمد أبو إبراهيم المُتنبّي من ولد عُتْبَة بن غَزْوان نيسابوري، ولُد سنة أربع وأربعمائة، وروى عن أبي بكر الجيري وغيره.

وتوفي في صفر محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن الحسن بن محمد بن طوق أبو الفضائل الربيعي الموصليّ الفقيه الشافعي، تفقّه على أبي إسحاق الشيرازي، (٣٢٧/١٠) وسمع الحديث من أبي الطيّب الطبري وغيره، وكان ثقةً صالحاً.

وتوفي في ربيع الأول منها محمد بن عليّ بن عبيد الله بن أحمد بن صالح ابن سليمان بن ودعان أبو نصر القاضي الموصليّ، وهو صاحب الأربعين الودعانية وقد تكلموا فيها، فقبل إنه سرقها، وكانت تصنيف زيد بن رفاعة الهاشمي، والغالب على حديثه المناكير.

وتوفي فيها، في ربيع الأول، نصر بن أحمد بن عبد الله بن البطر القاري أبو الخطّاب، ومولده سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، سمع ابن رزقويه، وغيره وصارت إليه الرحلة لعلو إسناده، وكان

سماعه صحيحاً. (٣٢٨/١٠)

سنة خمس وتسعين وأربعمائة

ذكر وفاة المستعلي بالله وولاية الأمر بأحكام الله

في هذه السنة توفي المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن معد المستنصر بالله العلوي، الخليفة المصري، لسيح عشرة خلعت من صفر، وكان مولده في العشرين من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة، وكانت خلافته سبع سنين وقريب شهرين، وكان المدبر لدولته الأفضل.

ولما توفي ولي بعده ابنه أبو علي المنصور، ومولده ثالث عشر المحرم سنة تسعين وأربعمائة، وبويع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبوه، وله خمس سنين وشهر وأربعة أيام، ولقب الأمر بأحكام الله، ولم يكن [يبين] من تسمى بالخلافة قط أصغر منه ومن المستنصر، وكان المستنصر أكبر من هذا، ولم يقدر [أن] يركب وحده على الفرس لصغر سنه، وقام بتدبير دولته الأفضل ابن أمير الجيوش أحسن قيام، ولم يزل كذلك يدبر الأمر إلى أن قتل سنة خمس عشرة وخمسمائة. (٣٢٩/١٠)

ذكر الحرب بين السلطان بركيارق والسلطان محمد والصلح بينهما

في هذه السنة، في صفر، كان المصافاة الثالث بين السلطين بركيارق ومحمد.

قد ذكرنا سنة أربع وتسعين [وأربعمائة] قدوم السلطان محمد إلى بغداد، ورخيل السلطان بركيارق عنها إلى واسط مريضاً، فأقام السلطان محمد ببغداد إلى سابع عشر المحرم من هذه السنة، وسار عنها هو وأخوه السلطان سنجر عائدين إلى بلادهما، وسنجر يقصد خراسان، والسلطان محمد يقصد همدان.

فلما سار محمد عن بغداد وصلت الأخبار أن بركيارق قد اعترض خاص الخليفة بواسط وسُمع منه في حق الخليفة ما يوجب نقله، فأرسل الخليفة وأعاد السلطان محمدًا إلى بغداد، وذكر له ما نُقل إليه، وعزم على الحركة مع محمد إلى قتال بركيارق، فقال السلطان محمد: لا حاجة إلى حركة أمير المؤمنين، فإني أقوم في هذا القيام المرضي وسار عائداً، ورتب ببغداد أبا المعالي المفضل بن عبد الرزاق في جباية الأموال وإيلغازي شحنة.

وكان لما دخل بغداد قد خلف عسكره بطريق خراسان، فنهوا البلاد وخربوها، فأخذهم السلطان محمد معه، وجد السير إلى رُودراور.

وأما السلطان بركيارق فقد تقدّم سنة أربع وتسعين [وأربعمائة] أنه سار من بغداد عند وصول محمد إليها قاصداً إلى واسط، فلما سمع عسكر واسط (٣٣٠/١٠) بقرينه منهم، خافوا منه، وأخذوا نساءهم، وأولادهم، وأموالهم، وجمعوا السفن جميعها، وانحدروا إلى الزبيدية، فأقاموا هناك.

ووصل السلطان، وهو شديد المرض، يُحمل في محفة، وقد هلك من دواب عسكره ومتاعهم الكثير، فإنهم كانوا يجذون السير خوفاً أن يتبعهم السلطان محمد، أو الأمير صدقة، صاحب الجلة، فكانوا كلما جازوا قطرة هدموها، ليمتنع من يجتاز بها من اتباعهم.

ولما وصلوا إلى واسط عوفي بركيارق، ولم يكن له ولاصحابه همّة غير العبور من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، فلم يجد هناك سفينة، وكان الزمان شاتياً، شديد البرد، والماء زائداً، وكان أهل البلد قد خافوهم، فلزموا الجامع وبيوتهم، فخلت الطرق والأسواق من مجتاز فيها، فخرج القاضي أبو علي الفارقي إلى العسكر، واجتمع بالأمير إياز، والوزير، واستعطفهما للخلق، وطلب إنقاذ شحنة لتطمئن القلوب، فأجابوه إلى ملتمسه، وقالوا له: نريد أن تجمع لنا من يعبر دوابنا في الماء، ونسج معها؛ فجمع لهم من شباب واسط، وأعطاهم الأجرة الوافرة، فعبروا دوابهم من الخيل والبغال والجمال، وكان الأمير إياز بنفسه يسوق الدواب، ويفعل ما يفعله الغلمان، ولم يكن معهم غير سفينة واحدة انحدرت مع السلطان من بغداد، فعبروا أموالهم ورحالهم فيها. فلما صاروا في الجانب الشرقي اطمأنوا، ونهب العسكر البلد، فرجع القاضي وجدّد الخطاب في الكف عنهم، فأجيب إلى ذلك، فأرسل معه من يمنع من النهب. (٣٣١/١٠)

ثم إن عسكر واسط أرسلوا إلى السلطان بركيارق يطلبون الأمان ليحضروا الخدمة فأمّنهم، فحضر أكثرهم عنده، وساروا معه إلى بلاد بني برسقي، فحضروا أيضاً عنده وخدموه، واجتمعت العساكر عليه.

وبلغه مسير أخيه محمد عن بغداد، فسار يتبعه على نهائند، فأدركه بروذراور، وكان العسكران متقاربين في العدة، كل واحد منهما أربعة آلاف فارس من الأتراك، فتصافوا، أول يوم، جميع النهار، ولم يجز بينهم قتال لشدة البرد، وعادوا في اليوم الثاني، ثم توافقوا كذلك، ثم كان الرجل يخرج من أحد الصفتين فيخرج إليه من يقاتله، فإذا تقاربا اعتقت كل واحد منهما صاحبه، وسلم عليه، ويعود عنه.

ثم خرج الأمير بلدجي وغيره من عسكر محمد إلى الأمير إياز والوزير الأعز، فاجتمعوا، وأتفقوا على الصلح، لما قد عم الناس من الضرر، والملل، والوهن، فاستقرت القاعدة أن يكون بركيارق

الأول، وأمر بتجديد ما تشعث من السور، وهذا السور هو الذي بناه علاء الدولة بن كاكويه سنة تسع وعشرين وأربعمائة، عند خوفه من طغرلبيك، وأمر محمد بتعميق الخندق حتي صعد الماء فيه، وسلم إلى كل أمير باباً، وكان معه في البلد ألف ومائة فارس وخمس مائة راجل، ونصب المجانيق.

ولما علم السلطان بركيارق بمسير أخيه محمد إلى أصبهان سار يتبعه، فوصلها في جمادى الأولى، وعساكره كثيرة، تزيد على خمسة عشر ألف فارس، ومعها مائة ألف من الحواشي، وأقام يحاصر البلد، وضيق عليه.

وكان السلطان محمد يدور كل ليلة على سور البلد ثلاث دفعات، فلما زاد (٣٣٤/١٠) الأمر في الحصار، أخرج الضعفاء والفقراء من البلد، حتى خلت المحال، وغدمت الأقوات، وأكل الناس الخيل، والجمال، وغير ذلك، وقلّت الأموال، فاضطرّ السلطان محمد إلى أن يستقرض من أعيان البلد، فآخذ مالا عظيماً، ثم عاود الجند الطلب، فقسط على أهل البلد شيئاً آخر، وأخذه منهم بالشدة والعنف، فلم تزل الأسعار تغلو، حتى بلغ عشرة أمان من الحنطة بدينار، وأربعة أطلال لحماً بدينار، وكلّ مائة رطل ثبناً باربعة دنانير، ورخصت الأمتعة وهانت لعدم الطالب.

وكانت الأسعار، في عسكر بركيارق، رخيصة، فبقي الحصار على البلد إلى عاشر ذي الحجة، فلما رأى السلطان محمد أنه لا قدرة له على الدفع عن البلد، وكلما جاء أمره يضعف، قوى عزمه على مفارقه وقصد جهة أخرى، يجمع فيها العساكر، ويعود يدفع الخصم عن الحصار، فسار عن البلد في مائة وخمسين فارساً، ومعهم الأمير يتال، واستخلف بالبلد جماعة من الأمراء الكبار في باقي العسكر، فلما فارق العسكر، والبلد لم يكن في دوابهم ما يدوم على السير، لقلة العلف في الحصار، فنزل على ستة فراسخ.

فلما سمع بركيارق بمسيره سار وراءه الأمير إياز في عسكر كثير، وأمره بالجد في السير في طلبه، فقيل: إن محمد سبقتهم فلم يدركوه، فرجعوا، وقيل: بل أدركوه، فأرسل إلى الأمير إياز يقول: أنت تعلم أنني لي في رقبك عهود ما نقضت، ولم يكن مني إليك ما تبالغ في أذاي، فعاد عنه، وأرسل له خيلاً، وأخذ علمه، والجتر، وثلاثة أحمال دنانير، (٣٣٥/١٠) وعاد إلى بركيارق، فدخل إليه، وأعلام أخيه السلطان محمد منكوسة، فأفكر بركيارق ذلك، وقال: إن كان قد أساء، فلا ينبغي أن يعتمد معه هذا، فأخبره الخبر، فاستحسن ذلك منه.

فلما فارق محمد أصبهان اجتمع من المفسدين، والسوادية، ومن يريد النهب، ما يزيد على مائة ألف نفس، وزحفوا إلى البلد بالسلايم، والدبابات، وطعموا الخندق بالثبن، والتصقوا بالسور،

السلطان، ومحمد الملك، ويضرب له ثلاث ثوب، ويكون له من البلاد جنتزة وأعمالها، وأفريجان، وديار بكر، والجزيرة، والموصل، وأن يمدّه السلطان بركيارق بالعساكر، حتى يفتح ما يمتنع عليه منها، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، وانصرف الفريقان من المصاف ربيع الأول، وسار بركيارق إلى مرج قراتكين قاصداً ساوة، والسلطان محمد إلى أسدآباد، وتفرق العسكران وقصد كل أمير أقطاعه. (٣٣٢/١٠)

ذكر الحرب بين السلطان بركيارق ومحمد وانفاسخ الصلح بينهما في هذه السنة، في جمادى الأولى، كان المصاف الرابع بين السلطان بركيارق وأخيه محمد.

وكان سببه أن السلطان محمد سار من رودزاور، من الوقعة المذكورة، إلى أسدآباد، ومنها إلى قزوین، ونسب الأمراء الذين سعوا في ذلك الصلح إلى المخامرة عليه، والتقاعد به، فوضع رئيس قزوین أن يتوسل إليه بأولئك الأمراء ليحضر دعوته، فاستشفع الرئيس بهم إلى السلطان، فحضر دعوته، بعد أن امتنع، ووصى خواصه بحمل السلاح تحت أقيمتهم، وحضر الدعوة ومعهم الأمير آيتكين، وبسمل، فقتل الأمير بسمل، وهو من أكابر الأمراء، وكحل الأمير آيتكين.

وكان الأمير يتال بن أنوشكين الحسامي قد فارق بركيارق، وأقام مجاهداً للباطنية الذين في القلاع والجبال، فقصد الآن السلطان محمد، وسار معه إلى الري يضرب الثوب الخمس، واجتمعت إليه العساكر، وأقام ثمانية أيام، ووافاه أخوه السلطان بركيارق في اليوم التاسع، ووقع بينهما المصاف عند الري، وكانت عدة العسكرين متقاربة كل عسكر منهما عشرة آلاف فارس، فلما اصطفوا حمل الأمير سرخاب بن كيخسرو الديلمي، صاحب أبة، على الأمير يتال، فهزمه، وتبعه في الهزيمة جميع عسكر محمد، وتفرقوا، (٣٣٣/١٠) ومضى معظمهم نحو طبرستان، ولم يقتل في هذا المصاف غير رجل واحد قتل صبراً.

ومضى قطعة من المنهزمين نحو قزوین، ونهبت خزائن محمد، ومضى في نفر يسير إلى أصبهان، وحمل هو علمه بيده ليتبعه أصحابه، وسار في طلبه الأمير البكي بن برسق، والأمير إياز إلى قم، وتبع السلطان بركيارق أصحاب أخيه محمد، وأخذ أموالهم.

ذكر حصار السلطان محمد بأصبهان

لما انهزم السلطان محمد من الوقعة التي ذكرناها بالري، مضى إلى أصبهان في سبعين فارساً، والبلد في حكمه، وفيه نائبه، ومعهم من الأمراء الأمير يتال، وغيره من الأمراء، ودخل المدينة في ربيع

وصعد الناس في السلايلم فقاتلهم أهل البلد قتال من يريد [أن] يحمي حريمه وماله فباعدوا خلائين، فحينئذ أشار الأمراء على بركيارق بالرجيل، فرحل ثمانين عشر ذي الحجة من السنة. واستخلف على البلد القديم، الذي يقال له شهرستان، ترشك الصوابي في ألف فارس مع ابنه ملكشاه، وسار إلى همدان؛ وكان هذا من أعجب ما سطر أن سلطاناً محصوراً قد تقطعت موائه، وهو يطلب له في أكثر البلاد، ثم يخلص من الحصر الشديد، وينجو من العساكر الكثيرة التي كلها قد شرع إليه رمحه، وفوق إليه سهمه.

ذكر قتل الوزير الأعزّ ووزارة الخطير أبي منصور

في هذه السنة، ثاني عشر صفر، قتل الوزير الأعزّ أبو المحاسن عبد الجليل ابن محمد الدهستاني، وزير السلطان بركيارق على أصبهان، وكان مع بركيارق محاصراً لها، فركب هذا اليوم من خيمته إلى خدمة السلطان، فجاء شاباً اشقر، قيل: إنه كان من غلمان أبي سعيد الحداد، وكان الوزير قتله في العام الماضي، فانتهاز الفرصة فيه، وقيل: كان باطنياً، فجرحه عدة جراحات، ففرق أصحابه عنه، ثم عادوا إليه، فجرح أقربهم منه جراحات أثختته، وعاد إلى (٣٣٦/١٠) الوزير فتركه بأخر رمق.

وكان كريماً، واسع الصدر، حسن الخلق، كثير العمارة، ونفر الناس منه لأنه دخل في الوزارة، وقد تغيرت القوانين، ولم يبق دخل ولا مال، ففعل للضرورة ما خافه الناس بسببه.

وكان حسن المعاملة مع التجار، فاستغنى به خلق كثير، فكانوا يسألونه ليعاملهم، فلما قتل ضاع منهم مال كثير.

حكى أن بعض التجار باعه متاعاً بألف دينار، فقال له: خذ بها حنطة من الرافان خمسين كراً، كل كبر بعشرين ديناراً، فامتنع التاجر من أخذها، وقال: لا أريد غير الدينائير، فلما كان من البغد دخل إليه التاجر، فقال له: يهنتك، يا فلان! فقال: وما هو؟ قال: خير حنطتك؟ فقال: ما لي حنطة، ولا أريدها؟ قال: بلى، وقد بيعت كل كبر بخمسين ديناراً، فقال: أنا لم أتقبل بها! فقال الوزير: ما كنت لأفسخ عقداً عقدته. قال: فخرجت، وأخذت ثمن الحنطة ألفين وخمسمائة، وأضفت إليها مثلاً وعاملته، فقتل فضاء الجميع.

وكان قد نفق عليه عمل الكيمياء، واختص به إنسان كيميائي، فكان يبعده الشهر بعد الشهر، والحوّل بعد الحوّل، وقال له بعض أصحابه، وقد أحاله عليه بكر حنطة، فاستزاده: لو كان صادقاً في عمله، لما كان يستزيد من القدر القليل، وقتل ولم يصح له منه شيء.

ولما قتل الأعزّ أبو المحاسن وزر بعده الوزير الخطير أبو منصور الميبدئي الذي كان وزير السلطان محمد.

حادثة يُعتبر بها

في سنة ثلاث وتسعين [وأربعمائة] بيع رحل بني جهمير ودورهم بباب العامة، ووصل ثمن ذلك إلى مؤيد الملك، ثم قتل في سنة أربع وتسعين مؤيد الملك، وبيع ماله وبركه، وأخذ الجميع وحمل إلى الوزير الأعزّ، وقتل الوزير الأعزّ، هذه السنة، وبيع رحله، واقتسمت أمواله، وأخذ السلطان ومن ولي بعده أكثرها، وتفرقت أيدي سبأ، وهذا عاقبة خدمة الملوك.

ذكر الفتنة بين الإلغازي وعامة بغداد

في هذه السنة، في رجب، كانت فتنة شديدة بين عسكر الأمير الإلغازي ابن أرتق، شيعة بغداد، وبين عامتها. (٣٣٨/١٠)

وسببها أن الإلغازي كان بطريق خراسان، فعاد إلى بغداد، فلما وصل أتى جماعة من أصحابه إلى دجلة، فتادوا ملاحاً ليعبر بهم، فتأخّر، فرماه أحدهم بشابه، فوقعت في مشجرة فمات، فأخذ الغائّة القاتل، وقصدوا باب النوسي، فللقهيم ولدت الإلغازي مع جماعة، فاستنقذوه، ورجعهم العامة بسوق الثلاثاء، فمضى إلى أبيه مستغيثاً، فأخذ حاجب الباب من له في هذه الحادثة عمل فلم يفتح للإلغازي ذلك، فعبر بأصحابه إلى محلة الملاحين، المعروفة بمرجعة القطّانين، ويتبعهم خلق كثير، فنهبوا ما وجدوا وقدروا عليه، فعطفوا عليهم العيارون فقتلوا أكثرهم.

ونزل من سلّم في السفن ليعبروا دجلة، فلما توسّطوها ألقى الملاحون أنفسهم في الماء وتركوهم غرقوا، فكان الغريق أكثر من القاتل، وجمع الإلغازي التركمان، وأراد نهيب للجانب الغربي، فأرسل إليه الخليفة قاضي القضاة والكيّا الهراس، المدرّس بالتظاميّة، فمتعاه من ذلك، فامتنع.

ذكر قصد صاحب البصرة مدينة واسط وعوده عنها

في هذه السنة، في العشرين من شوال، قصد الأمير إسماعيل، صاحب البصرة، مدينة واسط للاستيلاء عليها.

فلَمَّا عبر أصحابه عاد الأتراك عليهم، ومعهم العامة، فقتلوا منهم ثلاثين رجلاً، وأسروا خلقاً كثيراً، وألقى الباقون أنفسهم في الماء، فأتاه من ذلك مصيبة لم يظنها، وصار أعيان أصحابه مأسورين، وعاد إلى البصرة، وكان عوده من سعادته، فإنه كان قد قصد الأمير أبو سعد محمد بن مضر بن محمود البصرة ذلك الوقت، وله أعمال واسعة، منها: نصف عُمان، وجَنَابَة، ومسيراف، وجزيرة بني نَيس.

وكان سبب قصده إِيَّاهَا أَنَّهُ كان قد صار مع إسماعيل إنسان يُعرف بجعفر، وآخر اسمه زنجويه، والثالث بأبي الفضل الأَلمَلي، فاطمعوهم في أن يعمل مراكب يرسل فيها مقاتلة في البحر إلى أبي سعد هذا وغيره، فعمل ثِيّاً وعشرين قطعة، فلَمَّا علم أبو سعد الحال أرسل جماعة كثيرة من أصحابه في نحو خمسين قطعة، فأتوا إلى دجلة البصرة، وذلك في السنة الخالية، فأقاموا (٣٤١/١٠) بها مخربين، وظفروا بطائفة من أصحاب إسماعيل، وقتلوا صاحب قلعة الأَبلَة، وكاتبوا بني برسق بخوزستان يطلبون أن يرسلوا عسكرياً ليساعدوهم على أخذ البصرة، فتمادى الجواب، وركن الطائفتان إلى الصلح، على أن يسلم إليهم إسماعيل جعفر، ورفيقه، ويُقطعهم مواضع ذكروها من أعمال البصرة.

فلَمَّا رجعوا لم يفعل شيئاً من ذلك، وأخذ مركبين لقوم من أصحاب أبي سعد، فحملة على ذلك على أن سار بنفسه في قطع كثيرة تزيد على مائة قطعة بين كبيرة وصغيرة، ووصل إلى فوهة نهر الأَبلَة.

وخرج عسكر إسماعيل في عدة مراكب، ووقع القتال بينهم، وكان البحرئون في نحو عشرة آلاف، وإسماعيل في سبعمائة، وأصعد البحرئون في دجلة، فأحرقوا عدة مواضع، وتفرق عسكر إسماعيل، فبعضه بالأَبلَة، وبعضه بنهر الديسر، وبعضه في مواضع أخرى.

فلَمَّا ضعف إسماعيل عن مقاومة أبي سعد طلب من وكيل الخليفة، على ما يتعلق بديوانه من البلاد، أن يسعى في الصلح، فأرسل إليه في ذلك، فأعاد الجواب يذكر قُبْح ما عامله به إسماعيل مرة بعد أخرى، وتكررت الرسائل بينهم، فأجاب إلى الصلح، فاصطلحا، واجتمعوا، وعاد أبو سعد إلى بلاده، وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية جميلة.

ذكر وفاة كربوقا وملك موسى التركماني الموصل وجكرمش بعده

وملك سَقمان الحصن

في هذه السنة، في ذي القعدة، توفي قوام الدولة كربوقا، عند مدينة خَوَ، وكان السلطان بركيارق قد أرسله في العام الماضي إلى أذربيجان، كما (٣٤٢/١٠) ذكرناه، فاستولى على أكثرها، وأتى

ونحن نبتدىء بذكر إسماعيل، وتنقل الأحوال به إلى أن ملك البصرة، وهو إسماعيل بن سلاتنج، وكان إليه في أيام ملكشاه شحنة الري، ولَمَّا وليها كان أهل الري والرستاقية قد أعينوا مَنَ ولِيهم، وعجز الولاة عنهم، فسلك معهم طريقاً أصلحهم بها، وقتل منهم مقتلة عظيمة فتهذبوا بها، وأرسل من شعورهم إلى السلطان ما عمل منه مقاوذة وشكلاً للدواب، ثم غزل عنها.

ثم إنَّ السلطان بركيارق أقطع البصرة للأمير قماج، فأرسل إليها هذا الأمير (٣٣٩/١٠) إسماعيل نائباً عنه، فلَمَّا فارق قماج بركيارق، وانتقل إلى خراسان، حدثته نفسه بالتغلب على البصرة، والاستبداد، فاندحر مذهب الدولة بن أبي الجبر من البطيحة إليه ليحاربه، ومعه معقل بن صدقة بن منصور بن الحسين الأسدي، صاحب الجزيرة اللبسية، فأقبل في جمع كثير من السفن والخيول، ووصلوا إلى مَطَّار.

فبينما معقل يقاتل قريباً من القلعة التي بناها يَنال بَمَطَّار، وجذدها إسماعيل وأحكمها، أنهاهم عن قتله، فعاد ابن أبي الجبر إلى البطيحة، وأخذ إسماعيل سفنه، وذلك سنة إحدى وتسعين [وأربعمائة]، فاستمدَّ ابن أبي الجبر كوهرايين، فأمدَّه بأبي الحسن الهروي، وعباس بن أبي الجبر، فلقياه، فكسرها وأسرهما، وأطلق عباساً على مال أرسله أبوه، واصطلحا.

وأما الهروي فبقي في حبسه مدة، ثم أطلقه على خمسة آلاف دينار، فلم يصح له منها شيء.

وقوي حال إسماعيل، فبنى قلعة بالأَبلَة، وقلعة بالشاطيء مقابل مَطَّار، وصار مخوف الجانب وأمن البصريون به، وأسقط شيئاً من المكوس، واتسعت إمارته باشتغال السلاطين، وملك المَشَّان، واستضافها إلى ما بيده.

فلَمَّا كان هذه السنة كاتبه بعض عسكر واسط بالتسليم إليه، فقوي طمعه في واسط، فأصعد في السفن إلى نَهْرَبَان، ورأسهم في التسليم، فامتنعوا من ذلك، وقالوا: راسلناك، وقد رأينا غير ذلك الرأي، فأصعد إلى الجانب الشرقي، فخيم تحت النخيل، وسفنه بين يديه، وخيم جنده واسط جيذاه، (٣٤٠/١٠) ورأسهم، ووعدهم، وهم لا يجيبونه.

واتفقت العامة مع الجند، وشموه أقيح شتم، فلَمَّا أيس منهم عاد إلى البصرة، وساروا بإزائه من الجانب الآخر، فوصل إلى العَمَر، وعبر طائفة من أصحابه فوق البلد، وهو يظن أن البلد خال، وأن الناس قد خرجوا منه، لَمَّا رأى كثرة مَن بإزائه، فبرقع الحريق في البلد، فإذا رجع الأتراك عاد هو من ورائهم، فكان ظنه خائباً لأنَّ العامة كانوا على دجلة، أولهم في البلد، وآخرهم مع الأتراك بإزائه.

ذكر حال صنجيل الفرنجي وما كان منه في حصار طرابلس
كان صنجيل الفرنجي، لعنه الله، قد لقي قلعج أرسلان بن
سليمان بن قلمش، صاحب قونية، وكان صنجيل في مائة ألف
مقاتل، وكان قلعج أرسلان (٣٤٤/١٠) في عدد قليل، فاقتلوا،
فانهزم الفرنج وقتل منهم كثير، وأسير كثير، وعاد قلعج أرسلان
بالغنائم، والظفر الذي لم يحسبه.

ومضى صنجيل مهزوماً في ثلاثمائة، فوصل إلى الشام، فأرسل
فخر الملك ابن عمار، صاحب طرابلس، إلى الأمير ياخر، خليفة
جناح الدولة على حمص، فإلى الملك دقاق بن تمش، يقول: من
الضرب أن يعاجل صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة؛ فخرج
الأمير ياخر بنفسه، وسير دقاق ألفي مقاتل، وأتتهم الأمداد من
طرابلس، فاجتمعوا على باب طرابلس، وصافوا صنجيل هناك،
فأخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس، ومائة إلى عسكر دمشق،
وخمسين إلى عسكر حمص، وبقي هو في خمسين.

فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة، وولّوا
منهزمين، وتبعهم عسكر دمشق.

وأما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المائة الذين قاتلوهم، فلمّا
شاهد ذلك صنجيل حمل في المائتين الباقيتين، فكسروا أهل
طرابلس، وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونابذ صنجيل طرابلس
وحصرها.

وأما أهل الجبل فأعانوه على حصارها، وكذلك أهل السواد،
وأكثرهم نصاري، فقاتل من بها أشد قتال، فقتل من الفرنج
ثلاثمائة، ثم إنه هادنهم على مال وخيل، فرحل عنهم إلى مدينة
أنطرسوس، وهي من أعمال طرابلس، فحصرها، وفتحها، وقتل من
بها من المسلمين، ورحل إلى حصن الطوبان، وهو بقارب ريفية،
ومقدمه يقال له ابن العريض، فقاتلهم، فنصر عليهم أهل الحصن،
وأمر ابن العريض منه فارساً من أكابر فرسانه، فبذل صنجيل في
فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير، فلم يجبه ابن العريض إلى
ذلك. (٣٤٥/١٠)

ذكر ما فعله الفرنج

في هذه السنة أطلق الدانشمند يميند الفرنجي، صاحب
أنطاكية، وكان قد أسره، وقد تقدّم ذكر ذلك، وأخذ منه مائة ألف
دينار، وشرط عليه إطلاق ابنة باغي سيان الذي كان صاحب
أنطاكية، وكانت في أسره.

ولمّا خلاص يميند من أسره عاد إلى أنطاكية، فقويت نفوس
أهلها به، ولم يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقشّرين وما
جاورها يطالبهم بالإتاوة، فورد على المسلمين من ذلك ما طمس

إلى خوري، فمرض بها ثلاثة عشر يوماً، وكان معه أصبهيد صباوة
بن خسارتكين، وسنقرجة، فوصى إلى سنقرجة، وأمر الأتراك
بطاعته، وأخذ له على عسكره العهد، ومات على أربعة فراسخ من
خوري، ولّف في زليّة لعدم ما يكفّن فيه ودُفن بخوري.

وسار سنقرجة وأكثر العسكر إلى الموصل، فتسلّمها، فأقام بها
ثلاثة أيام، وكان أعيان الموصل قد كاتبوا موسى التركماني، وهو
بحصن كيفا ينوب عن كربوقا فيها، وسألوه أن يبادر إليهم ليسلموا
إليه البلد، فسار مجدّاً، فسمع سنقرجة بوصول، فظن أنه جاء إليه
خدمة له، فخرج ليستقبله في أهل البلد، فلمّا تقاربا نزل كلّ واحد
منهما لصاحبه عن فرسه، واعتقاً، وبكى على قوام الدولة، فتساورا.

فقال سنقرجة لموسى في جملة حديثه، أنا مقصودي من جميع
ما كان لصاحبنا المخدّة؛ والمنصب، والأموال، والولايات لكم
وبحكمكم.

فقال موسى: من نحن حتى يكون لنا مناصب ودسوت؟ الأمر
في هذا إلى السلطان يرتّب فيه من يريد، ويولّي من يختار.

وجرى بينهما محاورات، فجذب سنقرجة سيفه وضربه صفحاً
على رأسه فجرحه، فألقى موسى نفسه إلى الأرض، وجذب
سنقرجة فألقاه إلى الأرض، وكان مع موسى ولد منصور بن مروان
الذي كان أبوه صاحب ديار بكر، فجذب سكيناً وضرب بها رأس
سنقرجة فأبانه، ودخل موسى البلد، وخلع على أصحاب سنقرجة،
وطيّب نفوسهم فصارت الولاية له.

ولمّا سمع شمس الدولة جكرمش، صاحب جزيرة ابن عمر،
الخبر (٣٤٣/١٠) قصد نصيبين وتسلّمها، وسار موسى قاصداً إلى
الجزيرة، فلمّا قارب جكرمش غدر بموسى عسكره، وصاروا مع
جكرمش، فعاد موسى إلى الموصل، وقصده جكرمش، وحصره
مدة طويلة، فاستعان موسى بالأمير سقمان بن أرتق، وهو يومئذ
بديار بكر، وأعطاه حصن كيفا وعشرة آلاف دينار، فسار سقمان
إليه، فرحل جكرمش عنه.

وخرج موسى لاستقبال سقمان، فلمّا كان موسى عند قرية
تسمى كزانا، وثب عليه عدة من الغلمان القوامية، قتلوه: رماء
أحدهم بنشابه قتلته، فعاد أصحابه منهزمين، ودُفن على تلّ هناك
يُعرف الآن بتلّ موسى، ورجع الأمير سقمان إلى الحصن، فملكها
وهي بيد أولاده إلى يومنا هذا، سنة عشرين وستمئة، وصاحبها
حيتنذ غازي بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق.

وقصد جكرمش الموصل وحصرها أياماً، ثم تسلّمها صلحاً،
وأحسن السيرة فيها، وأخذ القوامية الذين قتلوا موسى، فقتلهم
واستولى بعد ذلك على الخابور، وملك العرب والأكراد، فأطاعوه.

المعالم التي بناها الدانشمند.

وعلى ما حصل بيده من أموالها، فسلمها إليه ووفى له.

ذكر قتل قدرخان صاحب سمرقند

قد ذكرنا قبلُ قدوم الملك سنجر مع أخيه السلطان محمد إلى بغداد وعوده إلى خراسان، فلما وصل إلى نيسابور خطب لأخيه محمد بخراسان جميعها، ولما كان ببغداد طمع قدرخان جبريل بن عمر، صاحب سمرقند، في خراسان لبعده عنها، وجمع عساكر تملأ الأرض، قيل: كانوا مائة ألف مقاتل فيهم مسلمون وكفار، وقصد بلاد سنجر.

وكان أمير من أمراء سنجر، اسمه كندغدي، قد كاتب قدرخان بالأخبار، وأعلمه مرض سنجر، بعد عودته إلى بلاده، وأنه قد أشفى على الهلاك، وقوى طمعه بالاختلاف الواقع بين السلطانين بركيارق ومحمد، وبشدة عداوة بركيارق لسنجر، وأشار عليه بالسرعة مهما الاختلاف واقع، وأنه متى أسرع ملك خراسان والعراق، فبادر قدرخان وأقدم، وقصد البلاد، فبلغ السلطان سنجر الخير، وكان قد عوفي، فبادر وسار نحوه قاصدا قتاله ومنعه عن البلاد، وكان من جملة من معه كندغدي المذكور، وهو لا يتهمه بشيء مما فعل، فوصل إلى بلخ في ستة آلاف فارس، فبقي بينه وبين قدرخان (٣٤٨/١٠) نحو خمسة أيام، فهرب كندغدي إلى قدرخان، وحلف كل واحد منهما لصاحبه على الاتفاق والمناصحة، وسار من عنده إلى ترمذ، فملكها، وكان الباعث لكندغدي على ما فعل حسده للأمير يزغش على منزله.

ثم تقدم قدرخان، فلما تدانى العسكران أرسل سنجر يذكر قدرخان اليهود والمواثق القديمة، فلم يصنع إلى قوله، وأذكى سنجر العيون والجواسيس على قدرخان، فكان لا يخفي عنه شيء من خبره، فأتاه من أخيره أنه نزل بالقرب من بلخ، وأنه خرج متصيذاً في ثلاثمائة فارس، فندب سنجر، عند ذلك، الأمير يزغش لقصد، فسار إليه، فلحقه وهو على تلك الحال، فقاتله، فلم يصبر من مع قدرخان، فانهزموا، وأسر كندغدي وقدرخان، وأحضرهما، عند سنجر، فأما قدرخان فإنه قبل الأرض واعتز، فقال له سنجر: إن خدمتنا، أو لم نخدمنا، فما جزاؤك إلا السيف؛ ثم أمر به فقتل.

فلما سمع كندغدي الخبر نجا بنفسه، ونزل في قناة، ومشى فيها فرسخين تحت الأرض، على ما به من القبرس، وقتل فيها حيتين عظيمتين، وسبق أصحابه إلى مخرجها، وسار منها في ثلاثمائة فارس إلى غزنة وقيل: بل جمع سنجر عساكر كثيرة، والتقى هو وقدرخان، وجري بينهما مصاف، وقتال عظيم، أكثر فيه القتل فيهم، فانهزم قدرخان وعسكره، وحمل أسيراً إلى سنجر، فقتله، وحصر ترمذ، وبها كندغدي، فطلب الأمان، فأمنه سنجر، ونزل إليه، وسلم ترمذ، فأمره سنجر بمقارفة بلاده، فسار إلى غزنة، فلما

وفيها سار صنجيل إلى حصن الأكراد فحصره، فجمع جناح الدولة عسكره ليسير إليه ويكسه، فقتله باطنياً بالمسجد الجامع، قيل: إن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله، فلما قُتل صبح صنجيل حمص من الغد، ونازلها، وحصر أهلها، وملك أعمالها.

ونزل القصص على عكة في جمادى الآخرة، وضيق عليها، وكاد يأخذها، ونصب عليها المنجنيقات والأبراج، وكان له في البحر ست عشرة قطعة، فاجتمع المسلمون من سائر السواحل، وأتوا إلى منجنيقاتهم، وأبراجهم، فأحرقوها، وأحرقوا سفنهم أيضاً، وكان ذلك نصراً عجباً أذل الله به الكفار.

وفيها صار القصص الفرنجي، صاحب الرها، إلى بيروت من ساحل الشام، وحصرها وضائقها، وأطال المقام عليها، فلم ير فيها طمعاً فرحل عنها.

وفيها، في رجب، خرجت عساكر مصر إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من البلاد الشامية، فسمع بها بردويل، صاحب القدس، (٣٤٦/١٠) فسار إليهم في سبعمائة فارس، وقاتلهم، فنصر الله المسلمين، وانهزم الفرنج، وكثر القتل فيهم، وانهزم بردويل، فاختفى في أجمة قصب، فأحرقت تلك الأجمة، ولحقت النار بعض جسده، ونجا منها إلى الرملة، فتبعه المسلمون، وأحاطوا به فتنكر، وخرج منها إلى يافا، وكثر القتل والأسر في أصحابه.

ذكر عود قلعة خُفيذ كان إلى سُرخاب بن بدر

في هذه السنة غادت قلعة خُفيذ كان إلى الأمير سُرخاب بن بدر بن مهليل.

وكان سبب أخذها منه أن القرابلي، وهو من قبيل من التركمان يقال لهم سَلْغَر، كان قد أتى إلى بلد سُرخاب، فمنعه من المراعي، وقتل جماعة من أصحابه، فمضى قرابلي إلى التركمان، واستجاش بهم، وجاء في عسكر كثير، فلقبه سُرخاب وقاتله، فقتل قرابلي من أصحابه الأكراد قريباً من ألفي رجل، وانهزم سُرخاب إلى بعض جباله في عشرين رجلاً.

فلما سمع المستحفظان بقلعة خُفيذ كان ذلك، وكانا رجلين حدثتهما أنفسهما بالاستيلاء عليها، وكان بها ذخائره، وأمواله، وقدرها يزيد على ألفي ألف دينار، فتملكاها، واجتاز بها السلطان بركيارق، فأنفذ إليه مائتي ألف دينار، واستولى التركمان على جميع بلاد سُرخاب بن بدر، سوى دقوقا وشهرزور، فلما كان هذا الوقت قتل أحد المستحفظين الآخر، وأرسل (٣٤٧/١٠) إلى سُرخاب يطلب منه الأمان ليسلم إليه القلعة، فأمنه على نفسه،

وصل إليها أكرمه صاحبها علاء الدولة، وحلّ عنده المحلّ الكبير (٣٤٩/١٠)
 أمين الدولة أبي سعيد بن الموصلاني إلى العلّة السيفيّة، ويستجيراً
 بسيف الدولة صدقة.

وسبب ذلك أنّ الوزير الأعزّ وزير السلطان بركيارق كان يُنسب
 إليه أنّه هو الذي يميل جانب الخليفة إلى السلطان محمد، فسار
 خائفاً، واعتزل خاله أمين (٣٥١/١٠) الدولة الديوان، وجلس في
 داره، فلمّا قُتل الوزير الأعزّ، على ما ذكرنا، عاد تاج الرؤساء من
 الحلة إلى بغداد، وعاد خاله إلى منصبه.

وفي ربيع الأول أيضاً ورد العميد المهذب أبو المجد، أخيو
 الوزير الأعزّ، إلى بغداد نائباً عن أخيه، ظناً منه أنّ إيلغازي لا
 يخالفهم، حيث كان بركيارق ومحمد قد اتفقا، كما ذكرناه، فقبض
 عليه إيلغازي، ولم يتغيّر عن طاعة محمد.

وفيها، في جمادى الأولى، ورد إلى بغداد ابن تكتش بن آل
 أرسلان، وكان قد استولى على الموصل، فخذعه من كان بها، حتى
 سار عنها إلى بغداد، فلمّا وصل إليها روجه إيلغازي بن أرتق ابتعد.

وفيها، في شهر رمضان، استوزر الخليفة سديد الملك أبا
 المبالى بن عبد الرزاق، ولقب عضد الدين.

وفيها، في صفر، قتل الرعيون بهيت قاضي البلد أبا علي بن
 المثنى، وكان ورعاً، فقيهاً، حنفيّاً، من أصحاب القاضي أبي عبد
 الله الدامغانى، وكان هذا القاضي على ما جرت به عادة القضاة
 هناك من الدخول بين القبائل، فتسبوه في ذلك إلى التحامل عليهم،
 فقتله أحدهم، فندم الباقون على قتله وقد فات الأمر.

وفيها بنى سيف الدولة صدقة بن مزيد الحلة بالجامعين،
 وسكنها، وإنما كان يسكن هو وآبائه قبله في البيوت العربيّة.
 (٣٥٢/١٠)

وفي جمادى الأولى قُتل المؤيد بن شرف الدولة مُسلم بن
 قريش أمير بني عُقيل، قتله بنو نُمير عند هيت قصاصاً.

وفيها توفي القاضي البندنجي الضريّر، الفقيه الشافعي، انتقل
 إلى مكة، فجاور بها أربعين سنة يدرّس الفقه، ويسمع الحديث،
 ويشغل بالعبادة.

وفيها توفي أبو عبد الله الحسين بن محمد الطبري بأصبهان،
 وكان يدرّس فقه الشافعي بالمدرسة النظاميّة، وقد جاوز تسعين
 سنة، وهو من أصحاب أبي إسحاق.

وفيها توفي الأمير منظور بن عمارة الجسيني، أمير المدينة،
 على ساكنها السلام، وقام ولده مقامه، وهو من ولد المهنا، وقد
 كان قتل المعمار الذي أنفذه مجد الملك البلاساني لعمارة للقبّة
 التي على قبر الحسن بن عليّ والعبّاس، رضي الله عنهما، وكان

واتفق أنّ صاحب غزنة عزم على قصد أوتان، وهي جبال
 منيعة، على أربعين فرسخاً من غزنة، وقد عصى عليه فيها قوم،
 وتحصّنوا بمعقلها، ووعور مسالكها، فقاتلهم عسكر علاء الدولة،
 فلم يظفروا منهم بطائل، فتقدّم كئدغدي متقدماً عنهم، فأبلى بلاء
 حسناً، ونصر عليهم، وأخذ غنائمهم، وحملها إلى علاء الدولة، فلم
 يقبل منها شيئاً، وقررها عليه، فغضب العسكر، وحسدوه على
 ذلك، وعلى قربه من صاحبهم، وتفاقه عليه، فأشاروا بقبضه،
 وقالوا: إنا لا نأمن أن يقصد بعض الأماكن فيفعل في أمر الدولة ما
 لا يمكن تلافيه، فقال: قد تحققت قصدكم، ولكن بمن أقبض
 عليه؟ فإني أخاف أن آمركم بالقبض عليه، فينالك منه ما تفتضحون
 به فقالوا: الصواب أن تولّيه ولاية ويُقبض عليه إذا سار إليها، فولّاه
 حصن جرت عادته أن يسجن فيهما من يخاف جانبه، فسار إليهما.

فلما قاربهما عرف ما يراد منه، فأحرق جميع ماله، ونحر
 جماله، وسار جريداً، وكان في مدة مقامه بغزنة يسأل عن الطرق
 وتشعبها، فإنه ندم على قصد تلك الجهة، فلمّا سار سأل راعياً عن
 الطريق التي يريد، فدلّه، فأخذ معه خوفاً أن يكون قد غرّه، ولم
 يزل سائراً إلى أن وصل إلى قريب هرة، فمات هناك، وهو من
 مماليك تش بن آل أرسلان الذي كحل أخوه ملكشاه، وسجنه
 بتكرّيت، وقد تقدّم ذكر حادثته. (٣٥٠/١٠)

ذكر ملك محمد خان سمرقند

في هذه السنة أحضر السلطان سنجر محمداً أرسلان خان بن
 سليمان بن داود بغراخان، من مَرّو، وملكه سمرقند، بعد قتل
 قدرخان، وكان محمد خان هذا من أولاد الخانيّة بما وراء النهر،
 وأمه ابنة السلطان ملكشاه، فدفع عن ملك آباءه، قصد مَرّو، وأقام
 بها إلى الآن.

فلما قُتل قدرخان ولّاه سنجر أعماله، وميّر معه العساكر
 الكثيرة، فعبروا النهر، فاطاعه العساكر بتلك البلاد جميعها، وعظم
 شأنه، وكثرت جموعه، إلاّ أنّه انتصب له أمير اسمه هاغويك،
 وزاحمه في الملك، فطمع فيه، فجري له معه حروب احتاج في
 بعضها إلى الاستنجاد بعساكر سنجر، على ما نذكره بعد إن شاء الله
 تعالى.

ولما ملك محمد خان البلاد أحسن إلى الرعايا بوصيّة من
 سنجر، وحقق الدماء، وصار بابه مقصداً، وجنابه ملجأ.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، خرج تاج الرؤساء ابن أخت

عليه، فبقي ينال إلى مستهل ذي القعدة، وسار إلى أوانا، فنهب، وقطع الطريق، وعسف الناس، وبالع في الفعل القبيح، وأقطع القرى لأصحابه، فأرسل الخليفة إلى صدقة في ذلك، فأرسل ألف فارس، وساروا إليه ومعهم جماعة من أصحاب الخليفة، وإيلغازي، شحنة بغداد، فلما سمع ينال (٣٥٥/١٠) بقرية من عير دجلة، وسار إلى باجسرى وشعتها، وقصد شهربان، فمنعه أهلها، فقاتلهم، فقتل بينهم قتلى، ورحل عنهم، وسار إلى أذربيجان قاصداً إلى السلطان محمد، وعاد ديبس بن صدقة، وإيلغازي، شحنة بغداد، إلى مواضعهم.

ذكر وصول كمشتكين القيصري شحنة إلى بغداد والفتنة بينه وبين إيلغازي وسقمان وصدقة

في هذه السنة، منتصف ربيع الأول، ورد كمشتكين القيصري إلى بغداد، شحنة، أرسله إليها السلطان بركيارق، وقد ذكرنا في السنة المتقدمة رحيل بركيارق من أصبهان إلى همدان، فلما وصلها أرسل إلى بغداد كمشتكين شحنة، فلما سمع إيلغازي، وهو شحنة ببغداد، للسلطان محمد، أرسل إلى أخيه سقمان ابن أرتق، صاحب حصن كيفا، يستدعيه إليه ليعتصده به على منعه، وسار إلى سيف الدولة صدقة بالجلّة، واجتمع به، وسأله تجديد عهد في دفع من يقصده من جهة بركيارق، فأجابه إلى ذلك وحلف له، فعاد إيلغازي.

وورد سقمان في عساكر، ونهب في طريقه تكريت، وسبب تمكنه منها أنه أرسل جماعة من التركمان إلى تكريت، معهم أحمال جبن، وسمن، وعسل، فباعوا ما معهم، وأظهروا أن سقمان قد عاد عن الانحدار، فاطمأن أهل البلد، ووثب التركمان تلك الليلة على الحراس فقتلواهم، وفتحوا الأبواب، وورد إليها سقمان، ودخلها ونهبها، ولما وصل إلى بغداد نزل بالرملة. (٣٥٦/١٠)

وأما كمشتكين فوصل، أول ربيع الأول، إلى قريسين، وأرسل إلى من له هوى مع بركيارق، وأعلمهم بقرية منهم، فخرج إليه جماعة منهم، فلقوه بالبنديجين، وأعلموه الأحوال، وأشاروا عليه بالمعاجلة، فأسرع السير، فوصل إلى بغداد منتصف ربيع الأول، ففارق إيلغازي داره، واجتمع بأخيه سقمان، وأصعدا من الرملة، ونهبوا بعض قرى دجيل، فسار طائفة من عسكر كمشتكين وراءهما، ثم عادوا عنهما، وخطب للسلطان بركيارق ببغداد، فأرسل كمشتكين القيصري إلى سيف الدولة صدقة، ومعه حاجب من ديوان الخليفة، في طاعة بركيارق، فلم يجب إلى ذلك، وكشف القناع ببغداد في مخالفته، وسار من الجاة إلى جسر صرصر، فقطعت خطبة بركيارق ببغداد، ولم يذكر على منابرها أحد من السلاطين، واقتصار الخطباء على الدعاء للخليفة لا غير.

من أهل قم، فلما قتل البلاساني قتله منظور بعد أن آمنه، وكان قد هرب منه إلى مكة، فأرسل إليه بامانه. (٣٥٣/١٠)

سنة ست وتسعين وأربعمائة

ذكر استيلاء ينال على الري وأخذها منه ووصوله إلى بغداد

كانت الخطبة بالري للسلطان بركيارق، فلما خرج السلطان محمد من أصبهان، على ما ذكرناه، ومعه ينال بن أنوشكين الحسامي، استأذنه في قصد الري وإقامة الخطبة له بها، فأذن له، فسار هو وأخوه علي بن أنوشكين، فوصلا إليها في صفر، فأطاع من بها من نواب بركيارق، وخطب لمحمد بالري، واستولى ينال على البلد، وعسف أهله، وصادهم بمائتي ألف دينار، وأقام بها إلى النصف من ربيع الأول، فورد إليه الأمير برسق بن برسق من عند السلطان بركيارق، فوقع القتال بينهم على باب الري، فانهزم ينال وأخوه علي.

فأما علي فعاد إلى ولايته قزوین، وسلك ينال الجبال، فقتل من أصحابه كثير، وتشتوا، فأتى إلى بغداد في سبعمائة رجل، فأكرمه الخليفة، واجتمع هو وإيلغازي وسقمان ابنا أرتق بمشهد أبي حنيفة، وتحالفوا على مناصحة السلطان محمد، وساروا إلى سيف الدولة صدقة، فحلف لهم أيضاً على ذلك، وعادوا. (٣٥٤/١٠)

ذكر ما فعله ينال بالعراق

قد ذكرنا وصول ينال بن أنوشكين إلى بغداد قبل. فلما استقر ببغداد ظلم الناس بالبلاد جميعاً، وصادهم، واستطال أصحابه على العامة بالضرب والقتل والتعسيف، وصادر العمال.

فأرسل إليه الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن الدامغانی ينهاه عن ذلك، ويقبح عنده ما يرتكبه من الظلم والعدوان، وتردد أيضاً إلى إيلغازي، وكان ينال قد تزوج هذه الأيام بأخته، وهي التي كانت زوجة تاج الدولة تش، حتى توسط الأمر معه، فمضوا إليه، وحلفوه على الطاعة، وترك ظلم الرعية، وكف أصحابه، ومنعهم، فحلف، ولم يقف على اليمين، ونكث ودام على الظلم وسوء السيرة.

فأرسل الخليفة إلى سيف الدولة صدقة، وعرفه ما يفعله ينال من نهب الأموال، وسفك الدماء، وطلب منه أن يحضر بنفسه ليكشف ينال، فسار من جلته في رمضان، ووصل بغداد رابع شوال، وضرب خيامه بالنجمي، واجتمع هو وينال، وإيلغازي، ونواب ديوان الخليفة، وتقررت القواعد على مال يأخذه ويرحل عن العراق، فطلب ينال المهلة، فعاد صدقة عاشر شوال إلى جلته، وترك ولده ديبساً ببغداد ليمتنع من الظلم والتعدي عما استقر الأمر

ولمّا وصل سيف الدولة إلى حَرَصَر أرسل إلى إيلغازي وسُقمان، وكانا يخزي، يعرّفهما أنه قد أتى لتضرّتهما، فعاد ونهبا دُجَيْلًا، ولم يبقيا على قرية كبيرة ولا صغيرة، وأخذت الأموال، وافترضت الأبكّار، ونهب العرب والأكراد الذين مع سيف الدولة بنهر ملك، إلّا أنهم لم يُنقل عنهم مثل التركمان من أخذ النساء والفساد معهم، لكنهم استقصوا في أخذ الأموال بالضرب والإحراق، وبطلت معاش الناس، وغلست الأمعار، فكان الخبز يساوي عشرة أطلال بغيراط، فصار ثلاثة أطلال بغيراط، وجميع الأشياء كذلك.

فأرسل الخليفة إلى سيف الدولة في الإصلاح، فلم تستقرّ قاعدة، وعاد إيلغازي وسُقمان ومعهما دُبَيْس بن سيف الدولة صدقة من دُجَيْل، فخيّموا بالرملة، فقصدهم جماعة كثيرة من العامة، فقاتلوهم، فقتل من (٣٥٧/١٠) العامة أربعة نفر، وأخذ منهم جماعة، فأطلقوا بعد أن أخذت أسلحتهم، وازداد الأمر شدّة على الناس، فأرسل الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن بن الدامغاني، وتاج الرؤساء بن الموصل إلى سيف الدولة يأمره بالكفّ عن الأمر الذي هو ملايسه، ويعرّفه ما الناس فيه، ويعظّم الأمر عليه، فظهر طاعة الخليفة، إن أخرج القيصريّ من بغداد، وإلّا فليس غير السيف، وأرعد وأبرق.

فلمّا عاد الرسول استقرّ الأمر على إخراج القيصريّ من بغداد، ففارقها ثاني عشر ربيع الآخر، وسار إلى النهروان، وعاد سيف الدولة إلى بلده، وأعيدت خطبة السلطان محمّد ببغداد، وسار القيصريّ إلى واسط، فخاف الناس منه، وأرادوا الانحدار منها ليأمنوا، فمتهم القيصريّ، وخطب لبركيارق بواسط، ونهبوا كثيراً من سوادها.

فلمّا سمع صدقة ذلك سار إلى واسط، فدخلها، وعدل في أهلها، وكفّ عسكره عن أذاهم، ووصل إليه إيلغازي بواسط، وفارقها القيصريّ، ونزل متحصّناً بدجلة، فقبل لسيف الدولة: إن هناك مخاضة؛ فسار إليها بعسكره وقد لبسوا السلاح، فلمّا راهم عسكر القيصريّ تفرّقوا عنه، وبقي في خواص أصحابه، فطلب الأمان من سيف الدولة، فأمّته، فحضر عنده، فأكرمه، وقال له: قد سمعت؛ قال: وتركتنا نسمن؟ أخرجتنا من بغداد، ثم من واسط، ونحن لا نعلق.

ثم بذل صدقة الأمان لجميع عسكر واسط، ومن كان مع القيصريّ، سوى رجلين، فعادا إليه فأمّتهما، وعاد القيصريّ إلى بركيارق، وأعيدت خطبة السلطان محمّد بواسط؛ وخطب بعده لسيف الدولة وإيلغازي، واستتاب كلّ (٣٥٨/١٠) واحد منهما فيها ولذّة، وعادا عنها في العشرين من جمادى الأولى، وأمن أهل واسط ممّا كانوا يخافونه.

وكانت كَنَجَة وبلاد أُرّان جميعها للسلطان محمّد، وبها عسكره، ومقدّمهم الأمير غزغلي، فلمّا طال مقام محمّد بأصبهان محصوراً توجه غزغلي والأمير منصور بن نظام الملك وابن أخيه محمّد بن مؤيد الملك بن نظام الملك قاصدين لنصرته، ليراهم بعين الطاعة.

وكان آخر ما تقام فيه الخطبة لمحمّد زَنْجَان ممّا يلي أفرييجان، فوصلوا إلى الريّ في العشرين من ذي الحجة سنة

وكان سبب ذلك أنّ صدقة زَوْج بنتاً له من ابن عمّه، وكان ثروان قد خطبها، فلم يجبه إلى ذلك، فتحالت عُقِيل، وهم في جَلّة سيف الدولة، أن يكونوا بدأ واحدة عليه، فأنكر صدقة ذلك، وحجّ ثروان عُقَيْب ذلك وعاد مريضاً، فوكّل به صدقة، وقال: لا بدّ من هَيْت؛ فأرسل ثروان حاجبه، وكتب خطّه بتسليم البلد إليه. (٣٥٩/١٠)

وكان بهيئت حيثنذ محمد بن رافع بن رفاع بن ضبيعة بن مالك بن مقلّد بن جعفر، وأرسل صدقة ابنه دُبَيْس مع الحاجب ليتسلّمها فلم يسلم إليه محمّد، فعاد دُبَيْس إلى أبيه، فلمّا أخذ صدقة واسطاً، هذه النوبة، أصعد في عسكره إلى هَيْت، فخرج إليه منصور بن كثير بن أخي ثروان، ومعه جماعة من أصحابه، فلقوا سيف الدولة، وحاربوه ساعة من النهار.

ثم إنّ جماعة من الرُعَيْن فتحوا لسيف الدولة البلد، فدخله أصحابه، فلمّا رأى ذلك منصور ومن معه سلّموا البلد إليه، فملكه يوم نزولهم، وخلع على منصور وجماعة من وجوه أصحابه، وعاد إلى جَلّته، واستخلف عليه ابن عمّه ثابت بن كامل.

ذكر الحرب بين بركيارق ومحمّد

في هذه السنة، ثامن جمادى الآخرة، كان المصافّة الخامس بين السلطان بركيارق والسلطان محمّد.

وكانت كَنَجَة وبلاد أُرّان جميعها للسلطان محمّد، وبها عسكره، ومقدّمهم الأمير غزغلي، فلمّا طال مقام محمّد بأصبهان محصوراً توجه غزغلي والأمير منصور بن نظام الملك وابن أخيه محمّد بن مؤيد الملك بن نظام الملك قاصدين لنصرته، ليراهم بعين الطاعة.

وكان آخر ما تقام فيه الخطبة لمحمّد زَنْجَان ممّا يلي أفرييجان، فوصلوا إلى الريّ في العشرين من ذي الحجة سنة

خمس وتسعين [وأربعمئة]، ففارقته (٣٦٠/١٠) عسكر بركيارق، ودخلوه وأقاموا به ثلاثة أيام.

ووصلهم الخبر بخروج السلطان محمد من أصبهان، وأنه وصل إلى ساوة، فساروا إليه، ولحقوه بهمدان ومعه ينال وعليّ ابنا أنوشكين الحسامي، فبلغ عددهم ستة آلاف فارس، فأقاموا بها إلى أواخر المحرم، فأتاهم الخبر بأن السلطان بركيارق قد أتاهم، فتلوتوا في رأيهم، فسار ينال وعليّ ابنا أنوشكين إلى الرّي، على ما ذكرناه، وعزم السلطان محمد على التوجه إلى شروان، فوصل إلى أرذبيل، فأرسل إليه الملك مودود بن إسماعيل بن ياقوتي، صاحب بعض آذربيجان، وكانت قبله لأبيه إسماعيل بن ياقوتي، وهو خيال السلطان بركيارق، وكانت اخته زوجة السلطان محمد، وهو مطالب السلطان بركيارق بثأر أبيه، وقد تقدم مقتله أول دولة بركيارق، وقال له: ينبغي أن تقدم إلينا لتجتمع كلمتنا على طاعتك، وقال خصمنا؟ فسار إليه مجداً، وتصيد في طريقه بين أرذبيل ونيلقان، وانفرد عن عسكره، فوثب عليه نمر، وهو غافل، فجرح السلطان محمد في عضده، فأخذ سكيناً وشنق بها جوف النمر فألقاه عن فرسه ونجا.

ثم إن مودود بن إسماعيل توفي في النصف من ربيع الأول، وعمره اثنتان وعشرون سنة، ولما بلغ بركيارق اجتماع السلطان محمد والملك مودود سار غير متوقف، فوصل بعد موت مودود، وكان عسكر مودود قد اجتمعوا على طاعة السلطان محمد، وحلفوا له، وفيهم سكران القبطي، ومحمد بن باغي سيان، الذي كان أبوه صاحب أنطاكية، وقزل أرسلان بن السبع الأحمر، (٣٦١/١٠) فلما وصل بركيارق وقعت الحرب بينهما على باب خوي من آذربيجان عند غروب الشمس، ودامت إلى العشاء الأخيرة.

فاتفق أن الأمير إياز أخذ معه خمسمائة فارس مستريحين، وحمل بهم، وقد أعيا العسكر من الجهتين، على عسكر السلطان محمد، فكسروهم، وولوا الأديار لا يلوي أحد على أحد.

فأما السلطان بركيارق فإنه قصد جبلاً بين مراغة و تبريز، كثير الغشب والماء، فأقام به أياماً، وسار إلى زنجان.

وأما السلطان محمد فإنه سار مع جماعة من أصحابه إلى أرجيش، من بلاد أرمينية، على أربعين فرسخاً من الواقعة، وهي من أعمال خلاط، من جملة أنطاخ الأمير سكران القبطي، وسار منها إلى خلاط، واتصل به الأمير علي صاحب أرزن الروم، وتوجه إلى آني، وصاحبها منوچهر أخو فضلون الروادي، ومنها سار إلى تبريز من آذربيجان. وسنذكر باقي أخبارهم سنة سبع وتسعين [وأربعمئة] عند صلحهم إن شاء الله.

وكان الأمير محمد بن مؤيد الملك بن نظام الملك مع

السلطان محمد في هذه الواقعة، فمّر منهزماً، ودخل ديار بكر، واتحدر منها إلى جزيرة ابن عمر، وسار منها إلى بغداد، وكان في حياة أبيه يقيم ببغداد في سوق المدرسة، فاتصلت الشكاوى منه إلى أبيه، فكتب إلى كهراتين بالقض عليه، فاستجار بدار الخلافة، وتوجه سنة اثنتين وتسعين [وأربعمئة] إلى مجد الملك البلاستاني، والوالد حيثذ بكنجة عند السلطان محمد، قبل أن يخطب لنفسه بالسلطنة، وتوجه بعد قتل مجد الملك إلى والده، وقد صار وزير السلطان محمد، وخطب (٣٦٢/١٠) لمحمد بالسلطنة، وبقي بعد قتل والده، واتصل بالسلطان محمد، وحضر معه هذه الحرب فانهزم.

ذكر عزل سديد الملك وزير الخليفة

ونظر أبي سعد بن الموصلاني في الوزارة

في هذه السنة، منتصف رجب، قبض على الوزير سديد الملك أبي المعالي، وزير الخليفة، وخُبس في دار بدار الخلافة، وكان أهله قد وردوا عليه من أصبهان، فنقلوا إليه، وكان محبسه جميلاً.

وسبب عزله جهله بقواعد ديوان الخلافة، فإنه قضى عمره في أعمال السلاطين، وليس لهم هذه القواعد، ولما قبض عاد أمين الدولة بن الموصلاني إلى النظر في الديوان.

ومن عجب ما جرى من الكلام الذي وقع بعد أيام أن سديد الملك كان يسكن في دار عميد الدولة بن جهير، وجلس فيها مجلساً عاماً يحضره الناس لوعظ المؤيد عيسى الغزنوي، فانشدوا أياتاً ارتجلها:

سديد الملك سُدْتُ، وخُضْتُ بحراً عميق اللُج، فاحفظ فيه رُوحك
واخفي معالم الخيرات، واجتنب لسان الصدق في الثبا فترُحك
وفي الماضين مُعْتَبِر، فانسرح فُروُحك في السلامة، أو جُمُوحك

ثم قال سديد الملك: من شرب من مرقاة السلطان احترقت شفتاه، ولو (٣٦٣/١٠) بعد زمان؛ ثم أشار إلى الدار وقرأ: «وَسَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَكُمْ كَيْفَ ظَلَمْتُمْ» [إبراهيم: ٤٥]، قبض على الوزير بعد أيام.

ذكر ملك الملك دُقاق مدينة الرُحبة

في هذه السنة، في شعبان، ملك الملك دُقاق بن تَش، صاحب دمشق، مدينة الرُحبة، وكانت بيد إنسان اسمه قايماز من ممالك السلطان الب أرسلان، فلما قُتل كربوقا استولى عليها، فسار دُقاق وطغتكين أتاكبه إليه، وحصره بها، ثم رحل عنه.

وتوفي قايماز هذه السنة في صفر، وقام مقامه غلام تركي اسمه حسن، فأبعد عنه كثيراً من جنده، وخطب لنفسه، وخاف من دُقاق، فاستظهر، وأخذ جماعة من السالارية الذين يخافهم، فقبض

عليهم، وقتل جماعة من أعيان البلد، وحبس آخرين وصادهم، فتوجه دُقاق إليه وحصره، فسلم العامة البلد إليه، واعتصم حسن بالقلعة، فأمنه دُقاق، فسلم القلعة إليه، فأقطعه إقطاعاً كثيراً بالشام، وقرر أمر الرُحبة، وأحسن إلى أهلها، وجعل فيها من يحفظها، ورحل عنها إلى دمشق. (٣٦٤/١٠)

ذكر أخبار الفرنج بالشام

كان الأفضل أمير الجيوش بمصر قد أنفذ مملوكاً لأبيه، لقبه سعد الدولة، ويُعرف بالطواشي، إلى الشام لحرب الفرنج، فلقبهم بين الرُملة ويافا، ومقدم الفرنج يُعرف ببغدوين، لعنه الله تعالى، وتصافوا واقتتلوا، فحملت الفرنج حملة صادقة، فانهزم المسلمون. وكان المنجيمون يقولون لسعد الدولة: إنك تموت مُتردياً؛ فكان يحذر من ركوب الخيل، حتى إنه ولَّى بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط، فقلعه خوفاً أن يزلق به فرسه، أو يعثر، فلم ينفعه الحذر عند نزول القدر، فلما كانت هذه الواقعة انهزم، فتردى به فرسه، فسقط ميتاً، وملك الفرنج خيمه وجميع ما للمسلمين.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سادس المحرم، توفيت بنت أمير المؤمنين القائم بأمر الله، التي كانت زوجة السلطان طغرلبيك، وكانت موصوفة بالدين، وكثرة الصدقة، وكان الخليفة المستظهر بالله قد ألزمها بيتها، لأنه أبلغ عنها أنها تسعى في إزالة دولته.

وفيها، في شعبان أيضاً، استوزر المستظهر بالله زعيم الرؤساء أبا القاسم ابن جُهير، واستقدمه من الجيلة من عند سيف الدولة صدقة، وقد ذكرنا في السنة المتقدمة سبب مسيره إليها، فلما قدم إلى بغداد خرج كل أرباب الدولة فاستقبلوه، وخلع عليه الخلع الثامّة، وأجلس في الديوان ولقب قوام الدين.

وفيه أيضاً قُتل أبو المظفر بن الخُجندِي، وكان يعظ الناس، فقتله رجل علويّ حين نزل من كرسيه، وقُتل العلويّ ودُفن الخُجندِيّ بالجامع، وأصل بيت الخُجندِيّ من مدينة خُجندة، بما وراء النهر، ويُنسبون إلى المهلب بن أبي صفرة، وكان نظام المليك قد سمع أبا بكر محمد بن ثابت الخُجندِيّ يعظ بمرو، فأعجبه كلامه، وعرف محله من الفقه والعلم، فحمّله إلى أصبهان، وصار مدرّساً بمدرسته بها، فقال جاهلاً عريضاً، (٣٦٧/١٠) وضيّاً واسعة، وكان نظام الملك يتردد إليه ويزوره.

وفيها جمع ساغريك، بما وراء النهر، جموعاً كثيرة، وهو من أولاد الخانية، وقصد محمد خان الذي ملكه السلطان سنجر سمرقند، ونازعه في ملكها، فضعف محمد خان عنه، فأرسل إلى السلطان سنجر يستنجد، فسار إلى سمرقند، فأبعد عنه ساغريك، وخافه، واحتّمى منه، وأرسل يطلب الأمان من سنجر، والبعفو، فأجابه إلى ما طلب، وحضر ساغريك عنده، وقرر الصلح بينه وبين

فأرسل الأفضل بعده ابنه شرف المعالي في جمع كثير، فالتقوا هم والفرنج بياروز، بقرب الرملة، فانهزم الفرنج، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وعاد من سلم منهم مغلولين، فلما رأى بغدوين شدة الأمر، وخاف القتل والأمر، ألقى نفسه في الحشيش واختفى فيه، فلما أبعد المسلمون خرج منه إلى الرملة. وسار شرف المعالي بن الأفضل من المعركة، ونزل على قصر بالرملة، وبه سبعمائة من أعيان الفرنج، وفيهم بغدوين، فخرج متخفياً إلى يافا، وقاتل ابن الأفضل من بقي خمسة عشر يوماً، ثم أخذهم، فقتل منهم أربعمائة صبراً، وأسر ثلاثمائة إلى مصر.

ثم اختلف أصحابه في مقصدهم، فقال قوم: نقصد البيت المقدس (٣٦٥/١٠) ونملكه؛ وقال قوم: نقصد يافا ونملكها.

فبينما هم في هذا الاختلاف، إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر، فاصدين زيارة البيت المقدس، فندبهم بغدوين للغزو معه، فسار إلى عسقلان، وبها شرف المعالي، فلم يكن يقوى بحربهم، فخطف الله تعالى بالمسلمين، فرأى الفرنج البحرية حصانة عسقلان، وخافوا البيات، فرحلوا إلى يافا، وعاد ولد الأفضل إلى أبيه، فسير رجلاً يقال له تاج العجم، في البر، وهو من أكبر مماليك أبيه، وجّه معه أربعة آلاف فارس، وسير في البحر رجلاً يقال له القاضي ابن قادوس، في الأسطول، فنزل الأسطول على يافا، ونزل تاج العجم على عسقلان، فاستدعا ابن قادوس إليه ليتمّقا على حرب الفرنج، فقال تاج العجم: ما يمكنني أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل؛ ولم يحضر عنده، ولا أعانه، فأرسل القادوسي إلى قاضي عسقلان، وشهودها، وأعيانها، وأخذ خطوطهم بأنه أقام

محمد خان، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، وعاد إلى خراسان،
فوصل إلى مرو في ربيع الأول سنة سبع وتسعين وأربعمائة.

وفيها توفي أبو المعالي الصالح، ساكن باب الطاق، وكان مقيلاً
من الدنيا، له كرامات ظاهرة. (٣٦٨/١٠)

سنة سبع وتسعين وأربعمائة

ذكر ملك بلخ بن بهرام بن أرتق مدينة عانة

في هذه السنة، في المحرم، استولى بلخ بن بهرام بن أرتق،
وهو ابن أخي إيلغازي بن أرتق، على مدينة عانة، والحديثة، وكان
له مدينة سروج، فأخذها الفرنج منه، فسار عنها إلى عانة وأخذها
من بني يعيش بن عيسى بن خيلاط، فقصده بنو يعيش سيف الدولة
صدقة بن مزيد، ومعهم مشايخهم، فسأله الإصعاد إليها، وأن
يتسلمها منهم، ففعل وأصعد معهم.

فرحل التركمان وبهرام عنها، وأخذ صدقة رهائتهم، وعاد إلى
جلته، فرجع تلك إليها ومعها ألفا رجل من التركمان، فمانعه
أصحابه قليلاً، واستدل على المخاضة إليها، فخاضها وعبر،
وملكهم ونهبهم، وسبى جميع حرمهم واتحد طالباً هيت من
الجانب الشامي، فبلغ إلى قريب منها، ثم رجع من يومه، ولما سمع
صدقة جهز العساكر، ثم أعادهم عند عود بلخ. (٣٦٩/١٠)

ذكر غارة الفرنج على الرقة وقلعة جعبر

في هذه السنة، في صفر، أغار الفرنج من الرها على مرج الرقة
وقلعة جعبر، وكانوا لما خرجوا من الرها افرقوا فرقتين، وأبعدوا
يوماً واحداً تكون الغارة على البلدتين فيه، ففعلوا ما استقر بينهم،
وأغاروا، واستاقوا المواشي، وأسروا من وقع بأيديهم من
المسلمين، فكانت القلعة، والرقة لسالم ابن مالك بن بدران بن
المقلد بن المسيب سلمها إليه السلطان ملكشاه سنة تسع وسبعين
[وأربعمائة]، وقد ذكرناه فيها.

ذكر الصلح بين السلطان بركيارق ومحمد

في هذه السنة، في ربيع الآخر، وقع الصلح بين السلطانين
بركيارق ومحمد ابني ملكشاه.

وكان سببه أن الحروب تطاولت بينهما، وعم الفساد، فصارت
الأموال منهوبة، والدماء مسفوك، والبلاد مخربة، والقرى محروقة،
والسلطنة مطموغاً فيها، محكوماً عليها، وأصبح الملوك مهوورين،
بعد أن كانوا قاهرين، وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه
ليدوم تحكمهم، وانساقهم، وإذلالهم. (٣٧٠/١٠)

وكان السلطان بركيارق حيثنذ بالري والخطبة له بها، وبالجيل،

وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركيارق، وبعضها
لمحمد.

وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً.

وأما خراسان فإن السلطان سجن كان يخطب له في جميعها،
وهي من حدود جرجان إلى ما وراء النهر، ولأخيه السلطان محمد.

فلما رأى السلطان بركيارق المال عنده معدوماً، والطمع من
العسكر زائداً، أرسل القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي، وأبا
الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمداني، المعروف بصاحب قراكتين،
إلى أخيه محمد في تقرير قواعد الصلح، فسارا إليه، وهو بالقرب
من مراغة، فذكر له ما أرسل فيه، ورغبه في الصلح وفضيلته، وما
شمل البلاد من الخراب، وطمع عدو الإسلام في أطراف الأرض.
فأجاب إلى ذلك، وأرسل فيه رسلاً، واستقر الأمر، وحلف كل
واحد منهما لصاحبه، وتقررت القاعدة: أن السلطان بركيارق لا
يعترض أخاه محمد في الطبل، وأن لا يذكر معه على سائر البلاد
التي صارت له، وأن لا يكتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتب
من الوزيرين، ولا يعارض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء،
وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بإسبيذرود، إلى باب
الأبواب، وديار بكر، والجزيرة، والموصل، والشام، ويكون له من
بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة. (٣٧١/١٠)

فأجاب بركيارق إلى هذا، وزال الخلف، والشغب، وأرسل
السلطان محمد إلى أصحابه بأصبيان يأمرهم بالانصراف عن البلد،
وتسليمه إلى أصحاب أخيه، وسار السلطان بركيارق إلى أصبهان،
فلما سلمها إليه أصحاب أخيه دعاهم إلى أن يكونوا معه، وفي
خدمته، فامتدوا، وأوا لزوم خدمة أصحابهم، فسمّاهم أهل
العسكرين جميعاً: أهل الوفاء. وتوجهوا من أصبهان، ومعهم
حريم السلطان محمد، إليه، وأكرمهم بركيارق، وحمل لأهل أخيه
المال الكثير، ومن الدواب ثلاثمائة جمل، ومائة وعشرين بغلاً،
تحمل الثقل، وسير معهم العساكر يخدمونهم.

ولما وصلت رسل السلطان بركيارق إلى الخليفة المستظهر
بالله بالصلح، وما استقرت القواعد عليه، حضر إيلغازي بالدليوان،
وسأل في إقامة الخطبة لبركيارق، فأجيب إلى ذلك، وخطب له
بالدليوان يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأولى، وخطب له، من
الغد، بالجوامع، وخطب له أيضاً بواسط.

وكان حرّان لمملوك من ممالك ملكشاه اسمه قراجيه، فاستخلف عليها إنساناً يقال له محمد الأصبهاني، وخرج في العام الماضي، فعصى الأصبهاني على قراجيه، وأعانه أهل البلد لظلم قراجيه.

وكان الأصبهاني جلدًا، شهماً، فلم يترك بحرّان من أصحاب قراجيه سوى غلام تركي يُعرف بجاولي، وجعله أصفهانسار العسكر، وأنس به، فجلس معه يوماً للشرب، فاتفق جاولي مع خادم له على قتله فقتله وهو سكران. (٣٧٤/١٠) فعند ذلك سار الفرنج إلى حرّان وحصروها.

فلما سمع معين الدولة سقمان، وشمس الدولة جكرمش ذلك، وكان بينهما حرب، وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه، وكلّ منهما يستعدّ للقاء صاحبه، وأنا أذكر سبب قتل جكرمش له، إن شاء الله تعالى، أرسل كلّ منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لتلافي أمر حرّان، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى، وثوابه، فكلّ واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه، وسارا، فاجتمعا على الخابور، وتحالفا، وسارا إلى لقاء الفرنج.

وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك، والعرب، والأكراد، فالتقوا على نهر البليخ، وكان المصاف بينهم هناك، فاقتتلوا، فظهر المسلمون الانهزام، فتبعهم الفرنج نحو فرسخين، فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا، وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم، ووصلوا إلى الأموال العظيمة، لأنّ سواد الفرنج كان قريباً، وكان يميند، صاحب أنطاكية، وطنكري، صاحب الساحل، قد انفردا، وراء جبل لياثيا المسلمين من وراء ظهورهم، إذا اشتدت الحرب، فلما خرجا رايّا الفرنج منهزمين، وسوادهم منهزماً، فاقاموا إلى الليل، وهربا، فتبعهما المسلمون، وقتلوا من أصحابهما كثيراً، وأسروا كذلك، وأفلتا في سنة فرسان.

وكان القمّص بردويل، صاحب الرها، قد انهزم مع جماعة من قماصتهم، وخاضوا نهر البليخ، فوجلت خيولهم، فجاء تركماني من أصحاب سقمان (٣٧٥/١٠) فاخذهم، وحمل بردويل إلى خيم صاحبه، وقد سار فيمن معه لاتباع يميند، فرأى أصحاب جكرمش أنّ أصحاب سقمان قد استولوا على مال الفرنج، ويرجعون هم من الغنمية بغير طائل، فقالوا لجكرمش: أي منزلة تكون لنا عند الناس، وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا؟ وحسبنا له أخذ القمّص من خيم سقمان، فلما عاد سقمان شقّ عليه الأمر، وركب أصحابه للقتال، فرثهم، وقال لهم: لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بفهمهم باختلافنا، ولا أوشر شقاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين. ورحل لوقته، وأخذ سلاح الفرنج، وراياتهم، والبس أصحابه لبسهم، وأركبهم خيلهم، وجعل يأتي حصون شينخان، وبها

ولما خطب يلغازي ببغداد لبركيارق، وصار في جملة، أرسل الأمير صدقة إلى الخليفة يقول: كان أمير المؤمنين ينسب إليّ كلّ ما يتجدد من يلغازي من إخلال بواجب الخدمة، وشرط الطاعة، ومن أطراح المراقبة، والآن، فقد أبدى صفحته للسلطان الذي استنابه، وأنا غير صابر على ذلك، بل أسير لإخراجه عن بغداد. (٣٧٢/١٠)

فلما سمع يلغازي ذلك شرع في جمع التركمان، وورد صدقة بغداد، فنزل مقابل التاج، وقبّل الأرض، ونزل في مخيمه بالجانب الغربي، ففارق يلغازي بغداد إلى بعقوبا، وأرسل إلى صدقة يعتذر من طاعته لبركيارق بالصّلح الواقع، وأنّ إقطاعه خلوان وغيرها في جملة بلاده، وأنّ بغداد التي هو شحنة فيها قد صارت له، ففلك الذي أدخله في طاعته. فرضي عنه صدقة، وعاد إلى الجلة.

وفي ذي القعدة سيّرت الخلع من الخليفة للسلطان بركيارق، وللأمير إياز، ولوزير بركيارق، وهو الخطير، والعهد بالسلطنة، وحلفوا جميعهم للخليفة وعادوا.

ذكر ملك الفرنج جليل وعكا من الشام

في هذه السنة وصلت مراب من بلاد الفرنج إلى مدينة اللاذقية، فيها التجار، والأجناد، والحجاج، وغير ذلك، واستعان بهم صنجل الفرنجي على حصار طرابلس، فحصروها معه براً وبحراً، وضايقوها، وقتلوا آباء، فلم يروا فيها مطعماً، فرحلوا عنها إلى مدينة جليل، فحصروها، وقتلوا عليها قتلاً شديداً. فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أماناً، وسلّموا البلد إليهم، فلم تف الفرنج لهم بالأمان، وأخذوا أموالهم، واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب. (٣٧٣/١٠)

فلما فرغوا من جليل ساروا إلى مدينة عكا، استنجدهم الملك بغدوين، ملك الفرنج، صاحب القدس على حصارها، فنازلوها، وحصروها في البر والبحر.

وكان الوالي بها اسمه بنا، ويُعرف يزهر الدولة الجيوشي، نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل، فقاتلهم أشدّ قتال، فزحفوا إليه غير مرة، فعجز عن حفظ البلد، فخرج منه، وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً، وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة، وسار الوالي به إلى دمشق، فأقام بها، ثم عاد إلى مصر، واعتذر إلى الأفضل فقبل عذره.

ذكر غزو سقمان وجكرمش الفرنج

لما استطال الفرنج، خذلهم الله تعالى، بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام، وملكوك، بقتال بعضهم بعضاً، تفرّقت حينئذ بالمسلمين الآراء، واختلّت الأهواء، وتمزّقت الأموال.

الفرنج، فيخرجون ظناً منهم أن أصحابهم نُصروا، فيقتلهم ويأخذ الحصن منهم، فعل ذلك بعدة حصون.

وأما جكرمش فإنه سار إلى حران، فتسلّمها، واستخلف بها صاحبه، وسار إلى الرها، فحصرها خمسة عشر يوماً، وعاد إلى الموصل ومعه القمّص الذي أخذه من خيام سقمان، ففاده بخمسة وثلاثين ديناراً، ومائة وستين أسيراً من المسلمين، وكان عدّة القتلى من الفرنج يقارب اثني عشر ألف قتيل.

ذكر وفاة دُقاق وملك ولده

في هذه السنة، في شهر رمضان، توفي الملك دُقاق بن تَشش بن ألب أرسلان، صاحب دمشق، وخطب أتايكه طغتكين لولده صغير، له سنة (٣٧٦/١٠) وأخذة، وجعل اسم المملكة فيه، ثم قطع خطبته وخطب ليكتاش بن تَشش، عمّ هذا الطفل، في ذي الحجة، وله من العمر اثنتا عشر سنة.

ثم إن طغتكين أشار عليه بقصد الرُحبة، فخرج إليها فملكها وعاد، فمنعه طغتكين من دخول البلد، فمضى إلى حصون له، وأعاد طغتكين خطبة الطفل ولد دُقاق.

وقيل إن سبب استحاش بكتاش من طغتكين أن والدته خوّفته منه، وقالت: إنه زوج والدة دُقاق، وهي لا تتركه حتى تقتلك ويستقيم الملك لولدها، فخاف، ثم إنه حسّن له من كان يحسد طغتكين مفارقة دمشق، وقصد بعلبك، وجنّ الرجال، والاستنجاد بالفرنج، والعود إلى دمشق، وأخذها من طغتكين، فخرج من دمشق سيراً في صفر سنة ثمان وتسعين [وأربعمائة]، ولحقه الأمير أيتكين الحلبي، وهو من جملة من قرّر مع بكتاش ذلك، وهو صاحب بُصْرَى، فعانا في نواحي حوران، ولحق بهما كل من يريد الفساد، وراسل بغدوين ملك الفرنج يستجدّاه، فأجابهما إلى ذلك، وسار إليهما فاجتمعا به، وقرّرا القواعد معه، وأقاما عنده مدّة، فلم يريا منه غير التهرّض على الإفساد في أعمال دمشق، وتخريبها، فلمّا ينسا من نصره عادا من عنده، وتوجّها في البرية إلى الرُحبة، فملكها بكتاش وعاد عنها. (٣٧٧/١٠)

واستقام أمر طغتكين بدمشق واستبدّ بالأمر، وأحسن إلى الناس، وبث فيهم العدل، فسروا به سروراً كثيراً.

ذكر استيلاء صدقة على واصل

في هذه السنة، في شوال، انحدر سيف الدولة صدقة بن مزّيد من الجبلّة إلى واصل في عسكر كثير، وأمر فنودي بها في الأتراك: من أقام فقد برئت منه الذمّة؛ فسار جماعة منهم إلى بركيارق، وجماعة إلى بغداد، وصار مع صدقة جماعة منهم، ثم إنه أحضر مهذّب الدولة بن أبي الجبر، صاحب البطيحة، فضمّته البلد لمدّة

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، أطلق شديد الملك أبو المعالي من الاعتقال، وهو الذي كان وزير الخليفة، ولمّا أطلق هرب إلى الجبلّة السّيفيّة، ومنها إلى السلطان بركيارق، فولاه الإشراف على ممالكه.

وفيها توفي أمين الدولة أبو سعد العلّاء بن الحسين بن الموصلايا، فجأة، وكان قد أضرّ، وكان بليغاً فصيحاً، وكان ابتداء خدمته للقائم بأمر الله سنة (٣٨٨/١٠) اثنتين وثلاثين وأربعمائة، خدم الخلفاء خمساً وستين سنة، كلّ يوم تزداد منزلته، حتى تاب عن الوزارة، وكان نصراً، فأسلم سنة أربع وثمانين [وأربعمائة]، وكان كثير الصدقة، جميل المحضر، صالح النية، ووقف أملاكه على أبواب البرّ، ومكاتباته مشهورة حسنة؛ ولمّا مات خلع على ابن اخته أبي نصر، ولُقّب بنظام الحضرتين، وقُدّ ديوان الإنشاء.

وفيها كانت ببغداد بين العامة فتن كثيرة، وانتشر العيّارون.

وفيها قُتل أبو نعيم بن ساوة الطيّيب الواسطي، وكان من الحذّاق في الطب، وله فيه إصابات حسنة.

وفيها عزل السلطان سنجر وزيره المجير أبا الفتح الطغراني، وسبب ذلك أن الأمير بزغش، وهو أصغرُهم العسكر السنجري، ألقي إليه ملطّف فيه: لا يتمّ لك أمر مع هذا السلطان، ووقع إلى سنجر، لا يتمّ لك أمر مع الأمير بزغش، مع كثرة جموعه، فجمع بزغش أصحاب العمائم، وعرض عليهم الملطّفين، فاتفقوا على كاتب الطغراني، وظهرت عليه قُتل. وقبض سنجر على الطغراني، وأراد قتله، فمنعه بزغش، وقال له: حقّ خدمتي، فأبعده إلى غزنة. وفيها جمع بزغش كثيراً من عساكر خراسان، وأتاه كثير من المتطوعة، وسار إلى قتال الإسماعيلية، فقصّد طَبَس، وهي لهم، فخرّبها وما جاورها من القلاع والقرى، وأكثر فيهم القتل، والنهب، والسبي، وفعل بهم الأفعال العظيمة، ثم إن أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمّنوا، ويُشرط عليهم أنهم لا يبنون حصناً، ولا يشترون سلاحاً، ولا يدعون أحداً (٣٧٩/١٠) إلى عقابهم، فسخط كثير من الناس هذا الأمان، وهذا الصلح، ونقموه على سنجر، ثم إن بزغش، بعد عوده من هذه الغزاة، توفي، وكانت خاتمة أمره الجهاد، رحمة الله.

وفي هذه السنة توفي أبو بكر علي بن أحمد بن زكريا الطُرَيْثِيُّ، وكان صوفيّاً محدثاً مشهوراً.

وفي رجب توفي القاضي أبو الحسين أحمد بن محمد الثقفي،

ويختارون سلطانه.

وقد ذكرنا من تغلب الأحوال به ما وقفت عليه، ومن أعجبها دخوله أصبهان هارباً من عمه تئش، فمكثه عسكر أخيه محمود صاحبها من دخولها ليقبضوا عليه، فاتفق أن أخاه محموداً مات، فاضطروا إلى أن يملكوه، وهذا من أحسن الفرج بعد الشدة.

وكان حليماً، كريماً، صبوراً، عاقلاً، كثير المداراة، حسن القدرة، لا يبالغ في العقوبة، وكان عفوه أكثر من عقوبته. (٣٨٢/١٠)

ذكر الخطبة لملكشاه بن بركيارق

في هذه السنة خطب لملكشاه بن بركيارق بالديوان يوم الخميس سلخ ربيع الآخر، وخطب له بجوامع بغداد من الغد، يوم الجمعة.

وكان سبب ذلك أن إيلغازي، شيخه بغداد، سار في المحرم إلى السلطان بركيارق، وهو بأصبهان، يحثه على الوصول إلى بغداد، ورحل مع بركيارق، فلما مات بركيارق سار مع ولده ملكشاه والأمير إياز إلى بغداد، فوصلوها سابح عشر ربيع الآخر، ولقوا في طريقهم برداً شديداً لم يشاهدوا مثله بحيث إنهم لم يقدروا على الماء لجموده.

وخرج الوزير أبو القاسم علي بن جهير، فلقبهم من ديبالي، وكانوا خمسة آلاف فارس، وحضر إيلغازي، والأمير طغايك، بالديوان، وخاطبوا في إقامة الخطبة لملكشاه بن بركيارق، فأجيب إليها، وخطب له، ولقب بالقب جده ملكشاه، وهي جلال الدولة، وغيره من الألقاب، ونشرت الدنانير عند الخطبة له.

ذكر حصر السلطان محمد جكرمش بالموصل

لما اصطلى السلطان بركيارق والسلطان محمد، كما ذكرناه في السنة الخالية، وسلم محمد مدينة أصبهان إلى بركيارق، وسار إليها، أقام محمد ببيتريز من أذربيجان إلى أن وصل أصحابه الذين بأصبهان، فلما وصلوا استوزر سعد الملك أبا المحاسن لحسن أثره [الذي] كان في حفظ أصبهان، وأقام إلى صفر من (٣٨٣/١٠) هذه السنة، وسار إلى مراغة، ثم إلى أربل يريد قصد جكرمش، صاحب الموصل، ليأخذ بلاده.

فلما سمع جكرمش بمسيره إليه جدد مسير الموصل، ورم ما احتاج إلى إصلاح، وأمر أهل السواد بدخول البلد، وأذن لأصحابه في نهب من لم يدخل.

وحصر محمد المدينة، وأرسل إلى جكرمش يذكر له الصلح بينه وبين أخيه، وأن في جملة ما استقر أن تكون الموصل وبلاد

قاضي الكوفة، ومولده في ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وهو من ولد غزوة بن مسعود، ومن تلاميذ القاضي الدماغاني، وولي القضاء بعده ابنه أبو البركات.

وفي ربيع الآخر توفي أبو عبد الله الحسين بن علي بن البصري البندار، المحدث، ومولده سنة أربع وأربعمائة. (٣٨٠/١٠)

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة

ذكر وفاة السلطان بركيارق

في هذه السنة، ثاني شهر ربيع الآخر، توفي السلطان بركيارق بن ملكشاه، وكان قد مرض بأصبهان بالسل، والبواسير، فسار منها في مخفة طالباً بغداد، فلما وصل إلى بروجرد ضعفت عن الحركة، فأقام بها أربعين يوماً، فاشتد مرضه، فلما أيس من نفسه خلع على ولده ملكشاه، وعمره حينئذ أربع سنين وثمانية أشهر، وخلع على الأمير إياز، وأحضر جماعة الأمراء، وأعلمهم أنه قد جعل ابنه ولياً عهده في السلطنة، وجعل الأمير إياز أتابكته، وأمرهم بالطاعة لهما، ومساعدتهما على حفظ السلطنة لولده، والذب عنها، فأجابوا كلهم بالسمع والطاعة، وبذل النفوس والأموال في حفظ ولده وسلطته عليه، واستخلفهم على ذلك، فخلعوا، وأمرهم بالمسير إلى بغداد، فساروا، فلما كانوا على اثني عشر فرسخاً من بروجرد وصلهم خبر وفاته، وكان بركيارق قد تخلف على عزم العودة إلى أصبهان فعاجلته ميتة.

فلما سمع الأمير إياز بموته أمر وزيره الخطير الميسزي وغيره بأن يسيروا مع تابوته إلى أصبهان، فحمل إليها، ودفن في تربة جدتها له سرية، ثم ماتت بعد أيام، فدفنت بإزائه، وأحضر إياز السراذقات، والخيام، والجتر، والشمسة، وجميع ما يحتاج إليه السلطان، فجعله بوسم ولده ملكشاه. (٣٨١/١٠)

ذكر عمره وشي من ميرته

لما توفي بركيارق كان عمره خمسا وعشرين سنة، ومدة وقوع اسم السلطنة عليه اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر، وقاسى من الحروب واختلاف الأمور عليه ما لم يقاسه أحد، واختلفت به الأحوال بين رخاء وشدة، وملك وزواله، وأشرفه في علة توبه، بعد إسلام النعمة، على ذهاب المهجة.

ولما قوي أمره، في هذا الوقت، وأطاعه المخالفون، وانتقادوا له، أدركته ميتة، ولم يهزم في حروبه غير مرة واحدة، وكان أمراؤه قد طمعوا فيه للاختلاف الواقع، حتى إنهم كانوا يطلبون نوابه ليقتلوه، فلا يمكنه الدفع عنهم، وكان متى خطب له ببغداد وقع الغلاء، ووقف المعاش والمكاسب، وكان أهلها مع ذلك يحبونه،

الجزيرة له، وعرض عليه الكتب من بريكارق إليه بذلك، والأيمان على تسليمها إليه، وقال له: إن أطعت فانا لا آخذها منك، بل أقرها بيدك، وتكون الخطبة لي بها. فقال جكرمش: إن كُتِبَ السلطان وردت إليّ، بعد الصلح، تأمرني أن لا أسلم البلد إلى غيره.

فلما رأى محمد امتناعه بآكرة القتال، وزحف إليه بالنقابين، والدبابات، وقاتل أهل البلد أشد قتال، وقتلوا خلقاً كثيراً لمحبته لجكرمش لحسن سيرته فيهم، فأمر جكرمش بفتح في السور أبواب لطاف يخرج منها الرجال يقاتلون، فكانوا يكثرون القتل في العسكر، ثم زحف محمد مرة، فنقب في السور أصحابه، وأدركهم الليل، فأصبحوا وقد عثره أهل البلد، وشننحوه بالمقاتلة، وكانت الأسعار عندهم رخيصة في الحصار: كانت الحنطة تساوي كل ثلاثين مكوّاً بدينار، والشعير [كل] خمسين مكوّاً بدينار.

وكان بعض عسكر جكرمش قد اجتمعوا بشلّ يَغْفَرُ فكانوا يغيرون على أطراف العسكر، ويمنعون الميرة عنهم، فدام القتال عليهم إلى عاشر جمادى الأولى، فوصل الخبر إلى جكرمش بوفاة السلطان بريكارق، فأحضر أهل (٣٨٤/١٠) البلد، واستشارهم فيما يفعله بعد موت السلطان، فقالوا: أموالنا وأرواحنا بين يديك، وأنت أعرف بشأنك، فاستشر الجند، فهم أعرف بذلك. فاستشار أمراءه، فقالوا: لما كان السلطان حياً قد كنا على الامتناع، ولم يتمكن أحد من طروق بلدنا، وحيث توفي فليس للناس اليوم سلطان غير هذا، والدخول تحت طاعته أولى.

فأرسل إلى محمد يذل الطاعة، ويطلب وزيره سعد الملك ليدخل إليه، فحضر الوزير عنده، وأخذ بيده، وقال: المصلحة أن تحضر الساعة عند السلطان، فإنه لا يخالفك في جميع ما تلتزمه؛ وأخذ بيده وقام، فسار معه جكرمش، فلما رآه أهل الموصل قد توجه إلى السلطان، جعلوا يبكون، ويضعون، ويخثون التراب على رؤوسهم، فلما دخل على السلطان محمد أقبل عليه، وأكرمه، وعانقه، ولم يمكنه من الجلوس، وقال: ارجع إلى رعيتك، فإن قلوبهم إليك، وهم متطلعون إلى عودك؛ فقبل الأرض وعاد معه جماعة من خواص السلطان، وسأل السلطان من الغد أن يدخل البلد ليزين له، فامتنع من ذلك، فعمل سباطاً بظاهر الموصل، عظيماً، وحمل إلى السلطان من الهدايا والتحف ولوزيره أشياء جليلة المقدار.

فأرسل إلى محمد يذل الطاعة، ويطلب وزيره سعد الملك ليدخل إليه، فحضر الوزير عنده، وأخذ بيده، وقال: المصلحة أن تحضر الساعة عند السلطان، فإنه لا يخالفك في جميع ما تلتزمه؛ وأخذ بيده وقام، فسار معه جكرمش، فلما رآه أهل الموصل قد توجه إلى السلطان، جعلوا يبكون، ويضعون، ويخثون التراب على رؤوسهم، فلما دخل على السلطان محمد أقبل عليه، وأكرمه، وعانقه، ولم يمكنه من الجلوس، وقال: ارجع إلى رعيتك، فإن قلوبهم إليك، وهم متطلعون إلى عودك؛ فقبل الأرض وعاد معه جماعة من خواص السلطان، وسأل السلطان من الغد أن يدخل البلد ليزين له، فامتنع من ذلك، فعمل سباطاً بظاهر الموصل، عظيماً، وحمل إلى السلطان من الهدايا والتحف ولوزيره أشياء جليلة المقدار.

ذكر وصول السلطان إلى بغداد وصلحه مع ابن أخيه والأمير إياز لما وصل خبر وفاة السلطان بريكارق إلى أخيه السلطان محمد، وهو يحاصر الموصل، جلس للعرزاء، وأصلح جكرمش، صاحب الموصل، كما ذكرناه، وسار إلى بغداد ومعه سكران القُطبي، وهو يُنسب إلى قطب الدولة إسماعيل (٣٨٥/١٠) ابن

وكان سيف الدولة صدقة، صاحب الجلة، قد جمع خلقاً كثيراً من العساكر، فبلغت عدتهم خمسة عشر ألف فارس، وعشرة آلاف راجل، وأرسل ولديه بدران ودُيَيْساً إلى السلطان محمد يستحثه على المعجى إلى بغداد، فاستصحبهما معه إلى بغداد.

فلما سمع الأمير إياز بمسيره إليه خرج هو والعسكر الذي معه الدور، ونصبوا الخيام بالزاهر، خارج بغداد، وجمع الأمراء، واستشارهم فيما يفعله، فبذلوا له الطاعة واليمين على قتاله وحره، ومنعه عن السلطنة، والاتفاق معه على طاعة ملكشاه بن بريكارق.

وكان أشدهم في ذلك نبال وصباوة، فإنهما بالغا في الإطماع في السلطان محمد، والمنع له عن السلطنة، فلما تفرقوا قال له وزيره الصفي أبو المحاسن: يا مولانا إن حياتي مقرونة بنيات نعمتك ودولتك، وأنا أكثر التزاماً بك من هؤلاء، وليس الرأي ما أشاروا به، فإن كلامهم يقصد أن يسلك طريقاً، وأن يقيم سوقاً لنفسه بك، وأكثرهم يناوئك في المنزلة، وإنما يقعد بهم عن منازعتك قلة العدد والمال، والصواب مصالحة السلطان محمد وطاعته، وهو يُفَرِّقُ على إقطاعك، ويزيدك عليه مهما أردت.

فتردد رأي الأمير إياز بين الصلح والمباينة، إلا أن حركته في المباينة ظاهرة، وجمع السفن التي ببغداد عنده، وضبط المشاريع من متطرق إلى عسكره وإلى البلد. (٣٨٦/١٠)

ووصل السلطان محمد إلى بغداد يوم الجمعة لثمان بقين من جمادى الأولى، ونزل عند الجانب الغربي بأعلى بغداد، وخطب له بالجانب الغربي، وملكشاه بن بريكارق بالجانب الشرقي؛ وأما جامع المنصور فإن الخطيب قال فيه: اللهم أصلح سلطان العالم وسكت.

وخاف الناس من امتداد الشر والنهب، فركب إياز في عسكره، وهم عازمون على الحرب، وسار إلى أن أشرف على عسكر السلطان محمد، وعاد إلى مخيمه، فدعا الأمراء إلى اليمين مرة ثانية على المخالفة لملكشاه، فأجاب البعض، وتوقف البعض، وقالوا: قد حلفنا مرة، ولا فائدة في إعادة اليمين، لأننا إن وفينا بالأولى وفينا بالثانية، وإن لم نفِ بالأولى فلا نفى بالثانية.

فأمر إياز حيثش وزيره الصفي أبا المحاسن بالعبور إلى السلطان محمد في الصلح، وتسليم السلطنة إليه، وترك منازعته فيها؛ فغير يوم السبت لسبع بقين من الشهر إلى عسكر محمد، واجتمع بوزيره سعد الملك أبي المحاسن سعد بن محمد، فعرّفه ما جاء فيه، فحضرنا عند السلطان محمد، وأدى الصفي رسالة صاحبه

إنه بلغنا أن قلع أرسلان بن سليمان بن قتلوش قصد ديار بكر ليملكها، وسير منها إلى الجزيرة، وينبغي أن تجتمع آراؤهم على من يسير إليه ليمنعه ويقاتله. فقال الجماعة: ليس لهذا غير الأمير إياز؛ فقال إياز: ينبغي أن نجتمع أنا وسيف الدولة صدقة بن مزيد على هذا الأمر، والدفع لهذا القاصد؛ فقبل ذلك للسلطان، فأعاد الجواب يستدعي إياز، وصدقة، والوزير سعد الملك ليحضر الأمر في حضرته، فنهضوا ليدخلوا إليه.

وكان قد أعد جماعة من خواصه ليقبضوا إياز إذا دخل إليه، فلما دخلوا ضرب أحدهم رأسه فأبانه. فأما صدقة فغطى وجهه بكتمه، وأما (٣٨٧/١٠) الوزير فإنه غشي عليه، ولَفَّ إياز في مسح وألقى على الطريق عند دار المملكة، وركب عسكر إياز، فنهبوا ما قدروا عليه من داره، فأرسل السلطان من حماها من النهب، وتفرق أصحابه من يومهم، وكان زوال تلك النعمة العظيمة، والدولة الكبيرة، في لحظة، بسبب هزل ومزاج، فلما كان من الغد كَفَتْه قورم من المتطوعة، ودفنوه في المقابر المجاورة لقبر أبي حنيفة، رحمه الله.

وكان عمره قد جاوز أربعين سنة، وهو من جملة منالِك السلطان ملكشاه، ثم صار بعد موته في جملة أمير آخر، فاتخذته ولداً، وكان غزير المروءة، شجاعاً، حسن الرأي في الحرب.

وأما وزيره الصفي فإنه اختفى، ثم أخذ وحمل إلى داره الوزير سعد الملك، ثم قُتل في رمضان وعمره ست وثلاثون سنة، وكان من بيت رئاسة بهمدان.

ذكر وفاة سُقمان بن أرتق

كان فخر الملك بن عمارة صاحب طرابلس، قد كاتب سُقمان يستدعيه إلى نصرته على الفرنج، وبذل له اليعونة بالمال والرجال، فبينما هو يتجهز للمسير أتاه كتاب طغتكين، صاحب دمشق، يخبره أنه مريض قد أشفى على الموت، وأنه يخاف إن مات، وليس بدمشق من يحميها، أن يملكها الفرنج، ويستدعيه ليوصي إليه، وبما يعتمد في حفظ البلد، فلما رأى ذلك أسير في (٣٩٠/١٠) السير عازماً على أخذ دمشق، وقصد الفرنج في طرابلس، وإبعادهم عنها، فوصل إلى القريتين.

واتصل خبره بطغتكين، فخاف عاقبة ما صنع، ولقوة فكره زاد مرضه. ولامه أصحابه على ما فرط في تدبيره وخوفه عاقبة ما فعل، وقالوا له: قد رأيت سيدك تاج الدولة لما استدعاه إلى دمشق ليمنعه كيف قتله حين وقعت عينه عليه.

فبينما هم يدبرون الرأي بأي حيلة يردونه أتابهم الخبير بأنه وصل القريتين، ومات، وحمله أصحابه وعادوا به، فاتاهم فرج لم

إياز، واعتذاره عما كان منه أيام بركيارق، فأجابه محمد جواباً لطيفاً سكن به قلبه وطيب نفسه، وأجاب إلى ما التمس منه من اليمين.

فلما كان الغد حضر قاضي القضاة، والقيان والصفي وزير إياز، عند السلطان محمد، فقال له وزيره سعد الملك: إن إياز يخاف لما تقدم منه، (٣٨٧/١٠) وهو يطلب العهد لملكشاه ابن أخيك، ولنفسه، وللأمراء الذين معه. فقال السلطان: أما ملكشاه فإنه ولدي، ولا فرق بيني وبين أخي، وأما إياز والأمراء فأحلف لهم، ألا يتأن الحُسامي وصباؤة؛ فاستحلفه الكيا الهراس، مدرّس النظامية، على ذلك، وحضر الجماعة اليمين. فلما كان من الغد حضر الأمير إياز عند السلطان محمد، فلقبه وزير السلطان، والناس كافة، ووصل سيف الدولة صدقة، ذلك الوقت، ودخلا جميعاً إلى السلطان، فأكرمهما، وأحسن إليهما، وقيل بل ركب السلطان ولقيهما، ووقف أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، وأقام السلطان ببغداد إلى شعبان، وسار إلى أصبهان، وفعل فيها ما سنذكره، إن شاء الله تعالى.

ذكر قتل الأمير إياز

في هذه السنة، ثالث عشر جمادى الآخرة، قُتل الأمير إياز، قتله السلطان محمد.

وسبب ذلك أن إياز لما سلم السلطنة محمد صار في جملته، واستحلفه لنفسه، فلما كان ثامن جمادى الآخرة عمل دعوة عظيمة في داره، وهي دار كهرائين، ودعا السلطان إليها، وقدم له شيئاً كثيراً من جملته الحبل البلخشي الذي أخذ من تركة مؤيد الملك بن نظام الملك، وقد تقدم ذكر ذلك، وحضر مع السلطان سيف الدولة صدقة بن مزيد. (٣٨٨/١٠)

وكان من الاتفاق الرديء أن إياز تقدم إلى غلاماته ليلبسوا السلاح من خزانته، ليعرضهم على السلطان، فدخل عليهم رجل من أبهر يتطايب معهم، ويضحكون منه، مع كونه يتصوّف، فقالوا له: لا بد من أن نلبسك درعاً ونعرضك؛ فالبسوه الدرع تحت قميصه، وتناولوه بأيديهم، وهو يسألهم أن يكفوا عنه، فلم يفعلوا، فلشدة ما قتلوا به هرب منهم، ودخل بين خواص السلطان معصماً بهم، فرأه السلطان مذعوراً، وعليه لباس عظيم، فاستراب به، فقال لغلام له بالتركية ليلمسه من غير أن يعلم أحد، ففعل، فرأى الدرع تحت قميصه، فاعلم السلطان بذلك، فاستشعر، وقال: إذا كان أصحاب العمام قد لبسوا السلاح، فكيف الأجنادا وقوي استشاره لكونه في داره، وفي قبضته، فنهض وفارق الدار وعاد إلى داره.

فلما كان ثالث عشر الشهر استدعى للسلطان الأمير صليقة، وإياز، وجكرمش، وغيرهم من الأمراء، فلما حضروا أرسل إليهم:

فمات، ومضت زوجة أرتق إلى ابنها سُقمان، وجمعت التركمان، وطلبت بثأر ابن ابنها، وحصر سُقمان نصيبين، وهي لجكرمش، فسير جكرمش إلى سُقمان مالا كثيرا سيرا، فأخذه ورضي، وقال: إنه قُتل في الحرب، ولا يُعرف قاتله.

وملك ماردین بعد ياقوتي أخوه علي، وصار في طاعة جكرمش، واستخلف بها أميرا اسمه علي أيضا، فأرسل علي الوالي بماردین إلى سُقمان يقول له: ابن أخيك يريد أن يسلم ماردین إلى جكرمش؛ فسار سُقمان بنفسه وتسلمها، فجاء إليه علي ابن أخيه وطلب إعادة القلعة إليه، فقال: إنما أخذتها لئلا يخرب البيت؛ فأقطعه جبل جور، ونقله إليه.

وكان جكرمش يعطي عليا كل سنة عشرين ألف دينار، فلما أخذ عنه سُقمان ماردین منه، أرسل علي إلى جكرمش يطلب منه المال، فقال: إنما كنت أعطيتك احتراماً لماردین، وخوفاً من مجاورتك، والآن فاصنع ما أنت صانع، فلا قدرة لك علي.

ذكر حال الباطنية هذه السنة بخراسان

في هذه السنة سار جمع كثير من الإسماعيلية من طُرَيْث، عن بعض أعمال بيهق، وشاعت الغارة في تلك النواحي، وأكثروا القتل في أهلها، (٣٩٢/١٠) والنهب لأموالهم، والسبي لنسائهم، ولم يبقوا على الهدنة المتقدمة.

وفي هذه السنة اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، ولم يكفوا ابديهم عن يريدون قتله، لاشتغال السلاطين عنهم، فمن جملة فعلهم: أن قتل الحاج تجمع، هذه السنة، ممّا وراء النهر، وخراسان، والهند، وغيرها من البلاد، فوصلوا إلى خوار الري، فاتاهم الباطنية وقت السحر، فوضعوا فيهم السيف، وقتلوهم كيف شاؤوا، وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئا.

وقتلوا هذه السنة أبا جعفر بن المشاط، وهو من شيوخ الشافعية، أخذ الفقه عن الخجندی، وكان يدرّس بالري، ويعظ الناس، فلما نزل من كرميه أتاه باطني قتلته.

ذكر حال الفرنج هذه السنة مع المسلمين بالشام

في هذه السنة، في شعبان، كانت وقعة بين طنكري الفرنجي، صاحب أنطاكية، وبين الملك رضوان، صاحب حلب، انهزم فيها رضوان.

وسببها أن طنكري حصر حصن أرتاخ، وبه نائب الملك رضوان، فضيق الفرنج على المسلمين، فأرسل النائب بالحصن إلى رضوان يعرفه ما هو فيه من الحصر الذي أضعف نفسه ويطلب النجدة، فسار رضوان في عسكر كثير من الخيالة، وسبعة آلاف من الرجال، منهم ثلاثة آلاف من المتطوعة، فساروا حتى وصلوا إلى

يحبسوه، وكان مرضه الذي مات به الخوانيق، يعتره دائماً، فأشار عليه أصحابه بالعود إلى حصن كيفا، فامتنع، وقال: بل أسير، فإن عوفيت تمت ما عزمْتُ عليه، ولا يراني الله تشاقلت عن قتال الكفار خوفاً من الموت، وإن أدركني أجلي كنت شهيداً سائراً في جهاد. فساروا، فاعتقل لسانه يومئذ، ومات في صفر، وبقي ابنه إبراهيم في أصحابه، وجعل في تابوت وحمل إلى الحصن، وكان حازماً داهياً، ذا رأي، كثير الخير، وقد ذكرنا سبب أخذه لحصن كيفا.

وأما ملكه ماردین، فإن كربوقا خرج من الموصل، فقصده أميد، وحارب أصحابها، فاستجد صاحبها، وهو تركماني، بسُقمان، فحضر عنده، وصاف كربوقا.

وكان عماد الدين زنكي بن أفسقر، حيثنذ، صيماً قد حضر مع كربوقا، ومعه جماعة كثيرة من أصحاب أبيه، فلما اشتد القتال ظهر سُقمان، فالتقى (٣٩١/١٠) أصحاب أفسقر زنكي ولد صاحبهم بين أرجل الخيل، وقالوا: قاتلوا عن ابن صاحبكم ا فقاتلوا حيثنذ قتلاً شديداً، فانهزم سُقمان، وأسروا ابن أخيه ياقوتي بن أرتق، فسجنه كربوقا بقلعة ماردین، وكان صاحبها إنساناً مغنياً للسلطان بركيارق، فطلب منه ماردین وأعمالها، فأقطعه إياها، بقي ياقوتي في حبسه مدة، فمضت زوجة أرتق إلى كربوقا وسأته إطلاقه، فأطلقه، فنزل عند ماردین، وكانت قد أعجبت، فأقام ليعمل في تملكها والاستيلاء عليها.

وكان من عند ماردین من الأكراد قد طمعوا في صاحبها المغني، وأغاروا على أعمال ماردین عدة دفعات، فراسله ياقوتي يقول: قد صار بيننا مودة وصداقة، وأريد أن أعمر بلدك بأن أمنع عنه الأكراد وأغير على الأماكن، وأخذ الأموال أنفقها في بلدك وأقيم في الرض، فأذن له في ذلك، فجعل يغير من باب خلاط إلى بغداد، فصار ينزل معه بعض أجناد القلعة، طلباً للكسب، وهو يكرمهم، ولا يعترضهم، فأمنوا إليه.

فاتفق أن في بعض الأوقات نزل معه أكثرهم، فلما عادوا من الغارة أمر بقبضهم وتقييدهم، وسبّهم إلى القلعة، ونادى من بها من أهلهم: إن فتحتم الباب، ولأ ضربت أعناقهم؛ فامتنعوا، فقتل إنساناً منهم، فسلم القلعة من بها إليه وبقي بها.

ثم إنه جمع جمعاً وسار إلى نصيبين، وأغار على بلد جزيرة ابن عمر، وهي لجكرمش، فلما عاد أصحابه بالغنيمة أتاهم جكرمش، وكان ياقوتي قد أصابه مرض عجز معه عن لبس السلاح، وركوب الخيل، فحمل إلى فرسه (٣٩٢/١٠) فركبه، وأصابه سهم فسقط منه، فأتاه جكرمش، وهو يجنود بنفسه، فبكى عليه، وقال له: ما حملك على ما صنعت يا ياقوتي؟ فلم يجبه،

يُتَسَرِّين، وبينهم وبين الفرنج قليل، فلَمَّا رأى طنكسرى كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح، فأراد أن يجيب، فمنعه أصهبند صباوة، وكان قد قصده، وصار معه بعد قتل إياز، فامتنع من الصلح، (٣٩٤/١٠) واصطفوا للحرب، فانهزمت الفرنج من غير قتال، ثم قالوا: نعود ونحمل عليهم حملة واحدة، فإِنْ كَانَتْ لَنَا، وَإِلَّا أَنهَزَمْنَا؛ فحملوا على المسلمين فلم يثبتوا، وانهزموا، وقُتِلَ منهم وأسر كثير.

وأما الرجالة فإنهم كانوا قد دخلوا معسكر الفرنج لَمَّا انهزموا، فاشتغلوا بالنهب، فقتلهم الفرنج، ولم ينج إلا الشريد فأخذ أسيراً، وهرب من في أرتاح إلى حلب، وملكه الفرنج، لعنهم الله تعالى، وهرب أصهبند صباوة إلى طفتكين أتابك بدمشق، فصار معه ومن أصحابه.

ذكر حرب الفرنج والمصريين

في ذي الحجة من هذه السنة كانت وقعة بين الفرنج والمسلمين كانوا فيها على السواء.

وسببها أن الأفضل، وزير صاحب مصر، كان قد سَير ولده شرف المعالي في السنة الخالية إلى الفرنج، فقهرهم. وأخذ الرملة منهم، ثم اختلف المصريون والعرب، وأدعى كل واحد منهما أن الفتح له، فأتاهم سرية الفرنج، فتقاعد كل فريق منهما بالآخر، حتى كاد الفرنج يظهرون عليهم، فرحل عند ذلك شرف المعالي إلى أبيه بمصر، فنفذ ولده الآخر، وهو سناء الملك حسين، في جماعة من الأمراء منهم جمال الملك، النائب بعسقلان للمصريين، وأرسلوا إلى طفتكين أتابك بدمشق يطلبون منه عسكرياً، فأرسل إليهم أصهبند صباوة ومعه ألف وثلاثمائة فارس.

وكان المصريون في خمسة آلاف، وقصدهم بغدوين الفرنجي، صاحب (٣٩٥/١٠) القدس، وعكة، وبافا، في ألف وثلاثمائة فارس، وثمانية آلاف راجل، فوقع المصاف بينهم بين عسقلان وبافا، فلم تظهر إحدى اللطافتين على الأخرى، فقتل من المسلمين ألف ومائتان، ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك، أمير عسقلان.

فلَمَّا رأى المسلمون أنهم قد بكفأوا في البكايكة قطعوها الحرب وعادوا إلى عسقلان، وعاد صباوة إلى دمشق، وكان مع الفرنج جماعة من المسلمين منهم بكتاش بن تشر، وكان بطفتكين قد عدل في الملك إلى ولد أخيه دقاق، وهو طفل، وقد ذكرناه، فدعاه ذلك إلى قصد الفرنج، والكون معهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عظم فساد التركمان بطريق خراسان من أحوال

العراق، وقد كانوا قبل ذلك ينهبون الأموال، ويقطعون الطريق إلا أنهم عندهم مراقبة، فلَمَّا كانت هذه السنة أطرحوا المراقبة، وعملوا الأعمال الشنيعة، فاستعمل إيلغازي بن أرتق، وهو شيخنة العراق، على ذلك البلد ابن أخيه بلك بن بهرام ابن أرتق، وأمره بحفظه وحياطته، ومنع الفساد عنه، فقام في ذلك القيام العزضي، وحسى البلاد، وكف الأيدي المتطاوله، وسار بلك إلى حصن خانيجار، وهو من أعمال سُرخاب بن بدر، فحصره وملكه.

وفيها، في شعبان، جعل السلطان محمد قسيم الدولة سبقر البرسقي شيخنة (٣٩٦/١٠) بالعراق، وكان موصوفاً بالخير، والدين، وحسن العهد، لم يفارق محمداً في حروبه كلها.

وفيها أقطع السلطان محمد الكوفة للأمير قايماز، وأوصى صدقة أن يحمي أصحابه من خفاجة، فأجاب إلى ذلك.

وفيها، في شهر رمضان، وصل السلطان محمد إلى أصهبان، فأمن أهلها، ووثقوا بزوال ما كان يشتملهم من الخبط والعسف، والمصادرة، وشتان بين خروجه منها هارباً متخفياً، وعمره إليها سلطاناً متمكناً، وعدل في أهلها، وأزال عنهم ما يكرهون، وكف الأيدي المتطرفة إليهم من الجند وغيرهم، فصارت كلمة العامي أقوى من كلمة الجندي، وبد الجندي قاصرة عن العامي من هيبة السلطان وعدله.

وفيها كثر الجُذري في كثير من البلدان، لا سيما العراق، فإنه كان به كثر، ومات به من الصبيان ما لا يحصى، وتبعه وباء كثير، وموت عظيم.

وتوفي في هذه السنة، في شوال، أحمد بن محمد بن أحمد أبو علي البردائي، الحافظ، ومولده سنة ست وعشرين وأربعمائة، سمع ابن غيلان، والبرمكي، والعشاري وغيرهم.

وتوفي أبو المعالي ثابت بن بندار بن إبراهيم البقال، ومولده سنة ست عشوة وأربعمائة، سمع أبا بكر البرقاني، وأبا علي بن شاذان، وكانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة.

وفي ربيع جمادى الأولى توفي أبو الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر، (٣٩٧/١٠) الفقيه الشافعي، ومولده سنة تسع وأربعمائة، وكان أديباً، شاعراً، فمن قوله:

من قال لي جاء ولي حشمة، ولي قسوة عند مولانا
ولم يعد ذلك نفع عيسى، فليقمه لا يحسن قلبا

وفيها أيضاً توفي أبو نصر ابن أخت ابن الجوصلايا، وكان كاتباً للخليفة جند الكتائب، وكان عمره سبعين سنة، ولم يخلف وارثاً لأنه أسلم، وأهله نصاري، فلم يرشوه، وكان يبخل، إلا أنه كان كثير الصدقة، وأبو المؤيد عيسى بن عبد الله بن القاسم الغزنوي، كان

مقاتلتهم، فسار بغدوين ملك القدس، وعكّا، وغيرهما، إلى هذا القمّص ليعاضده، ويساعده على المسلمين، فعرفه القمّص غناه عنه، وأنه قادر على مقارعة المسلمين إن قاتلوه، فعاد بغدوين إلى عكّا. (٤٠٠/١٠)

واعظاً، شاعراً، كاتباً، قدم بغداد، ووعظ بها، ونصر مذهب الأشعري، وكان له قبول عظيم، وخرج منها، فمات بإسفرايين. (٣٩٨/١٠)

سنة تسع وتسعين وأربعمائة

ذكر خروج منكبرس على السلطان محمد

في هذه السنة، في المحرم، أظهر منكبرس ابن الملك بوربرس بن ألب أرسلان، وهو ابن عم السلطان محمد، العصيان للسلطان محمد والخلاف عليه.

وسبب ذلك: أنه كان مقيماً بأصبهان، فلحقته ضائقة شديدة، وانقطعت المواد عنه، فخرج منه وسار إلى نهاوند، فاجتمع عليه بها جماعة من العسكر، وظاهره على أمره جماعة من الأمراء، وتغلب على نهاوند، وخطب لنفسه بها، وكاتب الأمراء بني برسق يدعوهم إلى طاعته ونصرته.

وكان السلطان محمد قد قبض على زنكي بن برسق، فكاتب زنكي إخوته، وحذرهم من طاعة منكبرس، وما فيها من الأذى والخطر، وأمرهم بتدبير الأمر في القبض عليه.

فلما أتاهم كتاب أخيهم بذلك أرسلوا إلى منكبرس يذلون له الطاعة والموافقة، فسار إليه، وساروا إليه، فاجتمعوا به، وقبضوا عليه بالقرب من أعمالهم، وهي خوزستان، ونفّرق أصحابه، وأخذوا منكبرس إلى أصبهان، فاعتقله السلطان مع بني عمه تكش، وأخرج زنكي بن برسق، وأعادته إلى مدينته، واستنزله وإخوته عن أقطاعهم، وهي ليشتر، وسابور، خواست (٣٩٩/١٠) وغيرهم، ما بين الأهواز وهمدان، وأقطعهم عوضها الدّينور وغيرها.

واتفق أن ظهر بنهاوند أيضاً، في هذه السنة، رجل من السواد ادّعى النبوة، فأطاعه خلق كثير من السوادية، وأتبعوه، وباعوا أملاكهم ودفعوا إليه أثمانها، فكان يُخرج ذلك جميعه، وسمي أربعة من أصحابه: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وقُتل بنهاوند، فكان أهلها يقولون: ظهر عندنا، في مدة شهرين، اثنان ادّعى أحدهما النبوة، والآخر المملكة، فلم يتم لواحد منهما أمره.

ذكر الحرب بين طغتكين والفرنج

في هذه السنة، في صفر، كانت وقعة بين طغتكين أتابك، صاحب دمشق، وبين قمص كبير من قماصة الفرنج.

وسبب ذلك: أنه تكررت الحروب، والمقاومات، بين عسكر دمشق وبغدوين، فتارة لهؤلاء [وتارة له]، ففي آخر الأمر بني بغدوين حصناً بينه وبين دمشق نحو يومين، فخاف طغتكين من عاقبة ذلك، وما يحدث به من الضرر، فجمع عسكره وخرج إلى

وتقدّم طغتكين إلى الفرنج، واقتتلوا، واشتد القتال، فانهزم أميران من عسكر دمشق، فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الفرنج إلى حصنهم، فاحتما به، فقال طغتكين: من أحسن قتالهم وطلب مني أمراً فعلته معه، ومن أثنائي بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرجال نفوسهم، وصعدوا إلى الحصن وخربوه، وحملوا حجارته إلى طغتكين، فوفى لهم بما وعدهم، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي، وأسروا من بالحصن، فأمر بهم فقتلوا كلّهم، واستبقى الفرسان أسراء، وكانوا مائتي فارس، ولم ينج من كان في الحصن إلا القليل.

وعاد طغتكين إلى دمشق منصوراً، فزَيّن البلد أربعة أيام، وخرج منها إلى رَقِيّة، وهو من حصون الشام، وقد تغلب عليه الفرنج، وصاحبه ابن أخت صنجيل المقيم على حصار طرابلس، فحصره طغتكين، وملكه، وقتل به خمسمائة رجل من الفرنج.

ذكر الحرب بين عبادة وخفاجة

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين عبادة وخفاجة.

وسببها: أن رجلاً من عبادة أخذ منه جماعة خفاجة جملتين، فجاء إليهم وطالبهم بهما، فلم يعطوه شيئاً، فأخذ منهم غارة أحد عشر بغيراً، فلحقته (٤٠١/١٠) خفاجة، وقتلوا من أصحابه رجلاً، وقطعوا يد آخر، وكان ذلك بالموقف من الجبل السيفيّة، ففرق بينهم أهلها.

فسمعت عبادة الخبر، فتواعدت، وانحدرت إلى العراق للأخذ بثأرها، وساروا مع جماعة من أمرائهم، فبلغت عدّتهم سبعمائة فارس، وكانت خفاجة دون هذه العدد، فراسلتهم خفاجة يذلون الدّية ويصلحون، فلم تجبهم إلى ذلك عبادة، وأشار به سيف الدولة صدقة، فلم تقبل عبادة، فالتقوا واقتتلوا بالقرب من الكوفة، ومع عبادة الإبل والغنم بين البيوت، فكمنت لهم خفاجة ثلاثمائة فارس، وقاتلوهم مطاردة من غير جدّ في القتال، فداموا كذلك ثلاثة أيام، ثم إنهم اشتدّ بينهم القتال، واختلطوا، حتّى تركوا الرماح، وتضاربوا بالسيف.

فبينما هم كذلك، وقد أعيا الفريقان من القتال، إذ طلع كمين خفاجة، وهم مستريحون، فانهزمت عبادة، وانتصرت عليهم خفاجة، وقُتل من وجوه عبادة اثنا عشر رجلاً، ومن خفاجة جماعة، وغنمت خفاجة الأموال من الخيل، والإبل، والغنم، والعبيد،

والإمام.

وكان الأمير صدقة بن مزيد قد أعان خفاجة سرّاً، فلمّا وصل المنهزمون إليه هناهم صدقة بالسلامة، فقال له بعضهم: ما زلتُ أقاتل، وأضارب، وأنا طامع في الظفر بهم، حتّى رأيتُ فرسك الشقياء تحت أحدهم، فعلمتُ أنّهم (٤٠٢/١٠) أجلبوا علينا بخيلك ورجلك، وأنّا لا طاقة لنا بهم، فنصروا علينا بمعونتك، وفلونا بحدّك فلم يجبه صدقة.

ذكر ملك صدقة البصرة

في هذه السنة، في جمادى الأولى، انحدر سيف الدولة من الجبلّة إلى البصرة فملكها.

وقد ذكرنا فيما تقدّم تمكّن إسماعيل بن أرسلاّحق من البصرة ونواحيها، وأقام بها عشر سنين نافذ الأمر، وازداد قوّة وتمكّناً بالاخلاف الواقع بين السلاطين، وأخذ الأموال السلطانيّة؛ وكان قد راسل صدقة، وأظهر له أنّه في طاعته وموافقته، فلمّا استقرّ الأمر للسلطان محمّد أراد أن يرسل إلى البصرة مُقطّعا يأخذها من إسماعيل، فخطب صدقة في معناه، حتّى أقرت البصرة عليه، فأنفذ السلطان عميداً إليها ليتولّى ما يتعلّق بالسلطان هناك، فمّنع به إسماعيل، ولمس يمكنه من عمله، وفعل ما خرج به عن حدّ المجاملة، فأمر السلطان صدقة بقصده، وأخذ البصرة منه، فتحرك لذلك.

فاتفق ظهور منكبرس، وخلافة على السلطان، وأنّه على قصد واسط، فسّر إسماعيل بذلك، وزاد انبساطه، وأرسل صدقة حاجباً له، وكان قبله قد خدّم أباه وخدّمه، إلى إسماعيل يأمره بتسليم الشرطة وأعمالها إلى مهذب الدولة ابن أبي الجبر لأنّها كانت في ضمانه، فوصل إلى الشرطة، وأخذ الدنانير منه، فلمّا رأى صدقة فأخضره إسماعيل وحبسه، وأخذ الدنانير منه، فلمّا رأى صدقة مكاشفته سار من جلّته، وأظهر أنّه يريد قصد الرّحبة، ثم جدّ السير إلى البصرة، فلم يشعر إسماعيل إلاّ بقرعه منه، ففرّق أصحابه في القلاع التي استجنّوها بمطّاراً ونهر مَعْقِل، وغيرهما، واعتقل وجوه العباسيّين، والعلويّين، وقاضي البصرة، ومدرسها، وأعيان أهلها.

ونازلهم صدقة، فجرى قتال بين طائفة من عسكريه، وطائفة من البصريّين، قُتل فيه أبو النجم بن أبي القاسم الوريّمي، وهو ابن خال سيف الدولة صدقة، فمما مدّح به سيف الدولة، ورثي به أبو النجم بن أبي القاسم، قول بعضهم:

تَهَنّ، يا خير من يحمي حريم جمى
رَكَبَتَ للبصرة الفرساء في نَحْبِهِ
هوى أبو النجم كالنجم المنير بها
لكنّه كان زُجْماً للشياطين

وأقام صدقة محاصراً لإسماعيل بالبصرة، فأشار على سيف الدولة صدقة بعض أصحابه بالعود عنها، وأعلموه أنّهم لا يظفرون بطائل، فأشار عليهم بالمقام، وقالوا: إن رَحَلْنَا كانت كسرة؛ وكان رأي سيف الدولة المقام، وقال: إن تعذّر عليّ فتح البصرة لم يطفني أحد، واستعجزني الناس.

ثم إنّ إسماعيل خرج من البلد، وقاتل صدقة، فسار بعض أصحاب صدقة إلى مكان آخر من البلد، ودخلوه، وقتلوا من السواديّة، الذين جمعهم إسماعيل، خلقاً كثيراً، وانهزم إسماعيل إلى قلعة بالجيزة، فأدركه بعض أصحاب سيف الدولة وأراد قتله، ففداه أحد غلمانه بنفسه، فوقعت الضربة فيه فائتخته، فهبت البصرة، وغنم من معه من عرب البرّة وغيرهم، ما (٤٠٤/١٠) فيها، ولم يسلم منهم إلاّ المحلّة المجاورة لقبر طلحة والبريد، فإنّ العباسيّين دخلوا المدرسة النظاميّة، وامتنعوا بها، وجمّحوا البريد، وعمّت المصيبة لأهل البلد، سوى من ذكرناه، وامتنع إسماعيل بقلعته.

فاتفق أنّ المهذب بن أبي الجبر انحدر في سفن كثيرة، وأخذ اللقعة التي لإسماعيل بمطّاراً، وقتل بها خلقاً من أصحاب إسماعيل، وحمل إلى صدقة كثيراً فأطلقهم.

فلما علم إسماعيل بذلك أرسل إلى صدقة يطلب الأمان على نفسه، وأهله، وأمواله، فأجاب به إلى ذلك، وأجلّه سبعة أيام، فأخذ كلّ ما يمكنه حمله ممّا يعزّ عليه، وما لم يقدر على حمله أهلكه بالماء وغيره، ونزل إلى سيف الدولة، وأمن سيف الدولة أهل البصرة من كلّ أدّى، ورثب عندهم شحنة، وعاد إلى الجبلّة ثالث جمادى الآخرة، وكان مقامه بالبصرة ستة عشر يوماً.

وأما إسماعيل فإنّه لما سار صدقة إلى الجبلّة قصد هو الباسيان إلى أن وصله ماله في المراكب، وسار نحو فارس، وصار يتعنّت أصحابه، وزوجته، وقبض على جماعة من خواصّه وقال لهم: أنتم ستقيّمون ولدي أفراسياب السّم حتّى مات! وكان قد مات في صفر من هذه السنة، ففارقه كثير منهم، حتّى زوجته فارقته وسارت إلى بغداد.

وأخذته الحُمى، وقويت عليه، فلمّا بلغ رَأْمُهُمْز انفرد في خيمته، ولم يظهر لأصحابه يوماً وليلة، فظهر لهم موته، فنهبوا ماله وتفرّقوا، فأرسل الأمير برَأْمُهُمْز فردّمه وأخذ ما معهم من أمواله، ودُفِنَ بالقرب من (٤٠٥/١٠) إنذج، وكان عمره قد جاوز خمسين سنة، وكانت سيرته قد حسنت في أهل البصرة أخيراً.

ذكر حصر رضوان نصيبين وعوده عنها

في هذه السنة، في شهر رمضان، حصر الملك رضوان بن تَشّ نصيبين.

ولم يفو له بما وعده، ونازل سينجار ليشفي غيظه من صهره الي بن أرسلان تاش بما اعتمده من معاداته، ومظاهرة (٤٠٧/١٠) أعدائه، وكان الي على شدة من المرض بالسهم الذي أصابه على نصيبين، فلما نزل جكرمش عليها أمر الي أصحابه أن يحملوه إليه، فحملوه في مَحْفَةٍ، فحضر عنده، وأخذ يعتذر مما كان منه، وقال: جئتُ ملتباً، فافعل بي ما تراه. فرق له وأعادته إلى بلده، فلما عاد قضى نحيبه، فلما مات عصى على جكرمش من كان بسينجار، وتمسكوا بالبلد، فقاتلهم بقية رمضان، وشوالاً، ولم يظفر منهم بشيء، فجاء تيمرك أخو أرسلان تاش، عم الي، فأصلح حاله مع جكرمش، وبذل له الخدمة، فعاد إلى الموصل.

ذكر ملك طفتكين بصرى

قد ذكرنا سنة سبع وتسعين [وأربعمائة] حل بكتاش بن تَشَش، وخروجه من دمشق، واتصاله بالفرنج، ومعه أيتكين الحلبي، صاحب بصرى، وسيروهما إلى الزُحْبَةِ، وعودهما عنها، فلما ضعفت أخوالهم سار طفتكين إلى بصرى فحصرها، وبها أصحاب أيتكين، فراسلوا طفتكين، وبذلوا له التسليم إليه، بعد أجل قرؤوه بينهم، فأجابهم إلى ذلك، فرحل عنهم إلى دمشق، فلما انقضى الأجل، هذه السنة، تسلمها، وأحسن إلى من بها، ووفي لهم بما وعدهم، وبالح في إكرامهم، وكثر الثناء عليه، والدعاء له، ومالت النفوس إليه، وأحبوه. (٤٠٨/١٠)

ذكر ملك الفرنج حصن أفاية

في هذه السنة ملك الفرنج حصن أفاية من بلد الشام.

وسبب ذلك: أن خلف بن ملاعب الكلابي كان متغلباً على حمص، وكان الضرر به عظيماً، ووجاله يقطعون الطريق، فكثر الحرامية عنده، فأخذها منه تَشَش بن ألب أرسلان وأبعده عنها، فتقلبت به الأحوال إلى أن دخل إلى مصر، فلم يلتفت إليه من بها، فأقام بها.

واتفق أن المتولي لأفاية من جهة الملك رضوان أرسل إلى صاحب مصر، وكان يميل إلى مذهبهم، يستدعي منهم من يسلم إليه الحصن، وهو من أمنع الحصون، وطلب ابن ملاعب منهم أن يكون هو المقيم به، وقال: إني أرغب في قتال الفرنج، وأوثر الجهاد. فسلموه إليه، وأخذوا رهائته، فلما ملكه خلع طاعتهم ولم يبرح حقهم، فأرسلوا إليه يتهددونه بما يفعلون بولده الذي عندهم.

فأعاد الجواب: إني لا أنزل من مكاني، وابعثوا إلي ببعض أعضاء ولدي حتى آكله؛ فأيسوا من رجوعه إلى الطاعة، وأقام بأفاية يخيف السيل، ويقطع الطريق، واجتمع عنده كثير من المفسدين، فكثرت أمواله.

وسبب ذلك: أنه عزم على حرب الفرنج، واجتمع معه من الأمراء: إيلغازي بن أرتق، الذي كان شحنة بغداد، وأصبهيد صباوة، وألبي ابن أرسلان تاش، صاحب سينجار، وهو صهر جكرمش، صاحب الموصل، فقال إيلغازي: الرأي أننا نقصد بلاد جكرمش، وما والاه، فنملكها، وتكثر بفسادها والأموال. ووافقه الي، فسار إلى نصيبين في عشرة آلاف فارس، مستهل رمضان، وكان قد جعل فيها أميرين من أصحابه في عسكر، فتحصنوا بالبلد، وقاتلوا من وراء السور، فمى الي بن أرسلان تاش بنشابة، فجرح جرحاً شديداً، فعاد إلى سينجار.

وأما جكرمش فإنه بلغه الخبر بترؤسهم على نصيبين، وهو بالحمأة، التي بالقرب من طقزة، يتداوى بمانها من مرضه، فرحل إلى الموصل، وقد أجفل إليها أهل السواد، فخيم على باب البلد، عازماً على حرب رضوان، واستعمل المخادعة، فكاتب أعيان عسكر رضوان، ورغبهم، حتى أفسد نياتهم، وتقدم إلى أصحابه بنصيبين بخدمة الملك رضوان، وبإخراج الإقامات إليه مع الاحتراز منه، وأرسل إلى رضوان يبذل له خدمته، والدخول في (٤٠٦/١٠) طاعته، ويقول له: إن السلطان محمداً قد حصرني، ولم يبلغ مني غرضاً، فترحل عن صلح، وإن قبضت على إيلغازي الذي قد عرفت أنت وغيرك فساداً وشره فأنا معك، ومعينك بالرجال والأموال والسلاح.

فاتفق هذا، ورضوان قد تغيرت نيته مع إيلغازي، فازداد تغيراً، وعزم على قبضه، فاستدعاه يوماً، وقال له: هذه بلاد ممتعة، وربما استولى الفرنج على حلب، والمصلحة مصلحة جكرمش، واستصحابه معنا، وإنه يسير بعساكر كثيرة ظاهرة التجل، ونعود إلى قتال الفرنج، فإن ذلك مما يعود باجتماع شمل المسلمين. فقال له إيلغازي: إنك جئت بحكمك، وأنت الآن يحكمي لا أمكنك من المسير بدون أخذ هذه البلاد، فإن أقمت، ولأ بدأت بقتالك.

وكان إيلغازي قد قويت نفسه بكثرة من اجتمع عنده من التركمان، وكان الملك رضوان قد واعد قوماً من أصحابه ليقبضوا عليه، فلما جرى ما ذكرناه أمرهم رضوان يقبضوا عليه ويؤبدوه، فلما سمع التركمان الحال أظهروا الخلاف والامتناع، ففارقوا رضوان والتجأوا إلى سور المدينة، وأصعد إيلغازي إلى قلعتها، وخرج من نصيبين من العسكر فاعانوه، فلما رأى التركمان ذلك تفوقوا، ونهبوا ما قدروا عليه من المواشي وغيرها، ورحل رضوان من وقته وسار إلى حلب.

وكان جكرمش قد رحل من الموصل قاصداً لحرب القوم، فلما بلغ تل يفر أنه الميثلون بانصراف رضوان على اختلاف وإفراق، فرحل عند ذلك إلى سينجار، ووصلت إليه رسل رضوان تستدعي منه النجدة، ويعتد عليه ما فعل بإيلغازي، فأجابه مغالطة،

على أبيه، فولاه طغتكين حصناً، وضمن على نفسه حفظ الطريق، فلم يفعل، وقطع الطريق، وأخذ القوافل، فاستغاثوا إلى طغتكين منه، فأرسل إليه من طلبه، فهرب إلى الفرنج، واستدعاهم إلى حصن أقامية، وقال: ليس فيه غير قوت شهر، فأقاموا عليه يحاصرونه، فجاء أهله، وملكه الفرنج، وقتلوا القاضي المتغلب عليه، وأخذوا الصانع قتلوه، وكان هو الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام.

هكذا ذكر بعضهم أن أبا طاهر الصانع قتل الفرنج بأقامية، وقد قيل إن ابن بديع، رئيس حلب، قتل سنة سبع وخمسمائة، بعد وفاة رضوان، وقد ذكرناه هناك، والله أعلم. (٤١١/١٠)

ذكر نهب العرب البصرة

قد ذكرنا استيلاء الأمير صدقة على البصرة، وأنه استتاب بها مملوكاً كان لجده دئيس بن يزيد، اسمه التوتناش، وجعل معه مائة وعشرين فارساً.

فاجتمعت ربيعة والمتفق ومن انضم إليها من العرب، وقصدوا البصرة في جمع كثير، فقاتلهم التوتناش، فأمره، وانهزم أصحابه، ولم يقدر من بها على حفظها، فدخلوها بالسيف أو آخر ذي القعدة، وأحرقوا الأسواق، والدور الحسان، ونهبوا ما قدروا عليه، وأقاموا يتهبون، ويحرقون اثنين وثلاثين يوماً، وتشرذ أهلها في السواد، ونهبت خزانة كتب كانت موقوفة، وقفها القاضي أبو الفرج بن أبي البقاء.

وبلغ الخبر صدقة، فأرسل عسكرياً، فوصلوا وقد فارقها العرب، ثم إن السلطان محمداً أرسل شحنة وعميماً إلى البصرة، وأخذوا من صدقة، وعاد أهلها إليها وشرعوا في عمارتها.

ذكر حال طرابلس الشام مع الفرنج

كان صنجيل الفرنجي، لعنه الله، قد ملك مدينة جبلة، وأقام على طرابلس يحصرها، فحيث لم يقدر أن يملكها، بنى بالقرب منها حصناً، وبني تحته ريباً، (٤١٢/١٠) وأقام مُراصد لها، ومتطراً وجود فرصة فيها، فخرج فخر الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس، فأحرق ريبه، ووقف صنجيل على بعض سقوفه المتحرقة، ومعه جماعة من القباصة والفرسان، فانخسف بهم، فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات، وحُمل إلى القدس فدفن فيه.

ثم إن ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس، فحملوها في البحر، فأخرج إليها فخر الملك بن عمار أسطولاً، فجری بينهم وبين الروم قتال شديداً، فظفر المسلمون بقطعة من الروم، فأخذوها، وأسروا من

ثم إن الفرنج ملكوا سرمين، وهي من أعمال حلب، وأهلها غلاة في التشيع، فلما ملكها الفرنج تفرق أهلها، فتوجه القاضي الذي بها إلى ابن ملاعب وأقام عنده، فأكرمه، وأحبّه، ووثق به، فأعمل القاضي الحيلة عليه، وكتب (٤٠٩/١٠) إلى أبي طاهر، المعروف بالصانع، وهو من أعيان أصحاب الملك رضوان، ووجه الباطنية ودعاتهم، ووافقهم على الفتك بسابن ملاعب، وأن يسلم أقامية إلى الملك رضوان، فظهر شيء من هذا، فأتى إلى ابن ملاعب أولاده، وكانوا قد تسلموا إليه من قصر، وقالوا له: قد بلغنا عن هذا القاضي كذا وكذا، والرأي أن نتعاجله، وتحتاط لشئك، فإن الأمر قد اشتهر وظهر.

فأحضره ابن ملاعب، فأثابه في كمه مصحف، لأنه رأى أمارات الشر، فقال له ابن ملاعب ما بلغه عنه، فقال له: أيها الأمير، قد علم كل أحد أنني أتيتك خائفاً جائعاً، فأمتنتي، وأغيتني، وعزرتني، فصرت ذا مال وجاه، فإن كان بعض من حسدني على منزلتي منك، وما غمرني من نعمتك سعى بي إليك، فأسالك أن تأخذ جميع ما معي، وأخرج كما جئت. وحلف له على الوفاء والنصح، فقبل عذره وأمنه.

وعاد القاضي مكاتبه أبي طاهر بن الصانع، وأشار عليه أن يوافق رضوان على إنفاذ ثلاثمائة رجل من أهل سرمين، وينفذ معهم خيلاً من خيول الفرنج، وسلاحاً من أسلحتهم، وروساً من رؤوس الفرنج، ويأتوا إلى ابن ملاعب ويظهروا أنهم غزاة ويشكوا من سوء معاملة الملك رضوان وأصحابه لهم، وأنهم فارقوه، فلقيهم طائفة من الفرنج، فظفروا بهم، ويحملوا جميع ما معهم إليه، فإذا أذن لهم في المقام اتفقت آراؤهم على إعمال الحيلة عليه، ففعل ابن (٤١٠/١٠) الصانع ذلك، ووصل القوم إلى أقامية، وقدموا إلى ابن ملاعب بما معهم من الخيل وغيرها، فقبل ذلك منهم، وأمرهم بالمقام عنده، وأزلهم في ريب أقامية.

فلما كان في بعض الليالي نام الحراس بالقلعة، فقتل القاضي ومن بالحصن من أهل سرمين، ودلوا الحبال، وأصعدوا أولئك القادمين جميعهم، وقصدوا أولاد ابن ملاعب، وبني عمه، وأصحابه، فقتلوه، وأتى القاضي وجماعة معه إلى ابن ملاعب، وهو مع امرأته، فأحس بهم، فقال: من أنت؟ فقال: ملك الموت جئت لقبض روحك، فتأشده الله، فلم يرجع عنه، وجرحه، وقتله، وقتل أصحابه، وهرب ابنه، فقتل أحدهما، والتحق الآخر بأبي الحسن بن منقذ، صاحب شيزر، فحفظه ليعده كان بينهما.

ولما سمع ابن الصانع خبر أقامية سار إليها، وهو لا يشك أنها له، فقال له القاضي: إن وافقتني، وأقمت معي، فبالرحب والسعة، ونحن بحكمك، وإلا فارجع من حيث جئت، فأيس ابن الصانع منه، وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق عند طغتكين، غضبان

كان بها وعادوا. قالوا يقوم بنصرهم، وأن يدفع عنهم بمن أحب من خلقه، وما ذلك على الله بعزيز.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ورد إلى بغداد إنسان من المثلثين، ملوك الغرب، قاصداً إلى دار الخلافة، فأكرم، وكان معه إنسان يقال له الفقيه، من المثلثين أيضاً، فوعظ الفقيه في جامع القصر، واجتمع له العالم العظيم، وكان يعظ وهو مثلم لا يظهر منه غير عينيه، وكان هذا المثلم قد حضر مع ابن الأفضل، أمير الجيوش بمصر، وقعته مع الفرنج، وأبلى بلاء حسناً.

وكان سبب مجيئه إلى بغداد: أن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين، أصحاب مصر، الاعتقاد القبيح، فكانوا، إذا أرادوا الحج، يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر والد الأفضل أراد إصلاحهم، فلم يميلوا إليه، ولا قاربوه، فأمر بقتل من ظفر به منهم، فلما ولي ابنه الأفضل أحسن إليهم، واستعان بمن قاربهم منهم على حرب الفرنج، وكان هذا من جملة من قاتل معه، فلما خالط المصريين خاف العود إلى بلاده، فقدم بغداد، ثم عاد إلى دمشق، ولم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا وشهدوا، فقتل في بعضها شهيداً، وكان شجاعاً فتاكاً مقداماً.

وفيها، في ربيع الآخر، ظهر كوكب في السماء له ذؤابة، كقوس قزح، (٤١٥/١٠) آخذه من المغرب إلى وسط السماء، وكان يرى قريباً من الشمس قبل ظهوره ليلاً، وبقي يظهر عدة ليالٍ، ثم غاب.

وفيها وصل الملك قلع أرسلان بن سليمان بن قتلмыш، صاحب بلاد الروم، إلى الرها ليحصرها، وبها الفرنج، فراسله أصحاب جكرمش المقيمون بخران ليسلموها إليه، فسار إليهم وتسلم البلد، وفرح به الناس لأجل جهاد الفرنج، فأقام بخران أياماً، ومرض مرضاً شديداً، أوجب عوده إلى مَلطِيَّة، فعاد مريضاً، وبقي أصحابه بخران.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو منصور الخياط المقرئ، إمام مسجد ابنجرده، وكان خيراً صالحاً.

وفيها قتل القاضي أبو العلاء صاعد بن أبي محمد النيسابوري الحنفي بجامع أصبهان، قتله باطني.

وفيها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين بن الخازن، صاحب الخط الجيد، وعمره سبعون سنة، قيل إنه كتب خمسمائة ختمة.

وفيها، في المحرم، توفي القاضي أبو الفرج عبيد الله بن

ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين إلى هذا الوقت، فعدمت الأقوات به، وخاف أهله على أنفسهم وأولادهم وحرّهم، فجلا الفقراء، وافترق الأغنياء، وظهر من ابن عمّار صبر عظيم، وشجاعة، ورأي سديد.

ومما أضرّ بالمسلمين فيها أن صاحبها استنجد سُقْمَان بن أرتق، فجمع العساكر وسار إليه، فمات في الطريق، على ما ذكرناه، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

وأجرى ابن عمّار الجرايات على الجند والضغنى، فلما قلت الأموال عنده شرع يقسّط على الناس ما يخرج في باب الجهاد، فآخذ من رجلين من الأغنياء مالاً مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الفرنج وقالوا: إن صاحبنا صادرنا، فخرجنا إليكم لنكون معكم؛ وذكرنا لهم أنه تأتيه الميرة من عرقّة والجبل، فجعل الفرنج جمعاً على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد، فأرسل ابن عمّار ويدل للفرنج مالاً كثيراً ليسلموا الرجلين إليه، فلم يفعلوا، فوضع عليها من قتلها غيلة. (٤١٣/١٠)

وكانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام وأكثرها تجملاً وثروة، فباع أهلها من الحلبي، والأواني الغربية، ما لا حدّ عليه، حتى بيع كل مائة درهم نفقة بدينار، وشتان بين هذه الحالة وبين حال السروم أيام السلطان ألب أرسلان، وقد ذكرت ظفروهم بهم سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وقد كان بعض أصحابه، وهو كمشكين دواتي، عميد الملك، هرب منه خوفاً لما قبض على صاحبه عميد الملك، وسار إلى الرقة فملكها، وصار معه كثير من التركمان، فيهم: الأتاشين، وأحمد شاه، فقتلوا، وأرسلوا أمواله إلى ألب أرسلان، ودخل الأتاشين بلاد الروم، وقاتل الفردوس، صاح أنطاكية، فهزّمه، وقتل من الروم خلقاً كثيراً.

وسار ملك الروم من القسطنطينية إلى مَلطِيَّة، فدخل الأتاشين بلاده، ووصل إلى عَمُورِيَّة، وقتل في غزاته مائة ألف آدمي، ولما عاد إلى بلاد الإسلام وتفرّق من معه خرج عليه عسكر الرها، وهي حينئذ للروم، ومعهم بنو نمير من العرب، فقاتلهم، ومعه مائتا فارس، فهزّمهم ونهبهم، ونهب بلاد الروم، فأرسل ملك الروم رسولا إلى القائم بأمر الله يسأله الصلح، فأرسل إلى ألب أرسلان في ذلك، فصالح الروم على مائة ألف دينار، وأربعة آلاف شوب أصنافاً، وثلاثمائة رأس بغلاً، فشتان بين الحاليتين.

وأقول شتان بين حال أولئك المردّولين الذين استعجزهم، وبين حال الناس في زماننا هذا، وهو سنة ست عشرة وستمئة مع الفرنج أيضاً والتر، ومترى ذلك مشروحاً، إن شاء الله تعالى، لتعلم الفرق، نسأل الله تعالى أن ييسر للإسلام وأهله

الحسن، قاضي البصرة، وله ثلاث وثمانون سنة، وكان من الفقهاء الشافعية المشهورين، تفقه على الماوردي، وأبني إسحاق، وأخذ النحو عن الرقي، والدعان، وابن برهان، وكان عفيفاً، مُقلعاً عند الخلفاء والسلاطين.

وفيها، في المحرم، توفي سهل بن أحمد بن علي الأرميني، أبو الفتح الحاكم، تفقه على الجويني، وبرز، ثم ترك المناظرة، وبني رباطاً، واشتغل (٤١٦/١٠) بالعبادة وقراءة القرآن.

وفيها، في صفر، توفي الأمير مهارش بن مجلي وله نحو ثمانين سنة، وهو الذي كان الخليفة القسام عند الحديث، وكان كثير الصلاة والصوم، يحب الخير وأهله، ولما توفي ملك الحديث بعده ابنه سليمان. (٤١٧/١٠)

سنة خمسمائة

ذكر وفاة يوسف بن تاشفين وملك ابنه علي

في هذه السنة توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ملك الغرب والأندلس، وكان حسن السيرة، خيراً، عادلاً، يخيل إلى أهل الدين والعلم، ويكرمهم، ويصدر عن رأيهم، ولما ملك الأندلس، على ما ذكرناه، جمع الفقهاء وأحسن إليهم، فقالوا له: ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتج طاعتك على الكافة، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله، أمير المؤمنين، رسولاً ومعه هدية كثيرة، وكتب معه كتاباً يذكر ما فتح الله من بلاد الفرنج، وما اعتمده من نصرته الإسلام، ويطلب تقليداً بولاية البلادة، فكتب له تقليد من ديوان الخلافة بما أراد، ولقب أمير المسلمين، وسيرت إليه الخلع، فسر بذلك سروراً كثيراً، وهو الذي بنى مدينة مراكش للمرابطين، وبقي على ملكه إلى سنة خمسمائة، توفي وملك بعده البلاد ولده علي بن يوسف، وتلقب أيضاً أمير المسلمين، فإزداد في إكرام العلم والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة، ولان قلبه لها، وظهر ذلك عليه.

وكان يوسف بن تاشفين حليماً، كريماً، ديناً، خيراً، يحب أهل العلم والدين، ويحكمهم في بلاده، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام، فمن ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا، فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى (٤١٨/١٠) الآخر عملاً يعمل فيه لأمر المسلمين، وتمنى الآخر زوجته الفزاوية، وكانت من أحسن النساء، ولها الحكم في بلاده، فبلغه الخبر، فأحضرهم، وأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر، وقال للذي تمنى زوجته: يا جاهل! ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه؟ ثم أرسله إليها، فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كل يوم طعاماً واحداً، ثم أحضرته وقالت له: ما أكلت هذه الأيام؟ قال: طعاماً

واحداً، فقالت: كل النساء شيء واحد. وأمريت له بمال وكسوة وأطلقته.

ذكر قتل فخر الملك بن نظام الملك

في هذه السنة قتل فخر الملك أبو المظفر علي بن نظام الملك، يوم عاشوراء، وكان أكبر أولاده، وقد ذكرنا سنة ثمان وثمانين وأربعمئة وزارته للسلطان بركيارق، فلما فارق وزارته قصد نيسابور، وأقام عند الملك سنجر بن ملكشاه، ووزر له، وأصبح يوم عاشوراء صائماً، وقال لأصحابه: رأيت الليلة في المنام الحسين بن علي، عليه السلام، وهو يقول: عجل إلينا، وليكن إفتارك عندنا، وقد اشتغل فكري به، ولا محيد عن قضاء الله وقدره، وقالوا له: يحملك الله، والصواب أن لا تخرج اليوم والليلة من دارك، فأقام يومه يصلي، ويقرأ القرآن، وتصدق بشيء كثير. (٤١٩/١٠)

فلما كان وقت العصر خرج من الدار التي كان بها يريد دار النساء، فسمع صياح متظلم، شديد الحرقة، وهو يقول: ذهب المسلمون، فلم يبق من يكشف مظلمة، ولا يأخذ بيد ملهوف! فأحضره عنده، رحمة له، فحضر فقال: ما خالك؟ فذبح إليه رقعة، فبينما فخر الملك يتأملها إذ ضربه بسكين فقتل عليه، فمات، فحمل الباطني إلى سنجر، فقرره، فأقر على جماعة من أصحاب السلطان كذبه، وقال: إنهم وضعوني على قتله، وأراد أن يقتل بيده ومعايته، فقتل من ذكر، وكان مكذوباً عليهم، ثم قتل الباطني بعدهم، وكان عمر فخر الملك ستاً وستين سنة.

ذكر ملك صدقة بن مزيد تكريت

في هذه السنة، في صفر، تسلم الأمير سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد قلعة تكريت، وقد ذكرنا فيما تقدم أنها كانت لبني مغل العقيليين، وكانت إلى آخر سنة سبع وعشرين وأربعمئة بيد رافع بن الحسين بن مغل، فمات، ووليها ابن أخيه أبو منعة خميس بن تغلب بن حنّاد، ووجد بها خمسمائة ألف دينار سوى الفصاخ، وتوفي سنة خمس وثلاثين وأربعمئة، ووليها ولده أبو غشام.

فلما كان سنة أربع وأربعين [وأربعمئة] وثب عليه عيسى فحسبه، وملك القلعة والأموال، فلما اجتاز به طغرل بك سنة ثمان وأربعين [وأربعمئة] صاحبه على بعض الميال فوحل عنه.

(٤٢٠/١٠)

وخافت زوجته أميرة، بعد موته، أن يغدر أبو غشام فيملك القلعة، فقتلته، وكان قد بقي في الحرس أربع سنين، واستتابت في القلعة أبا الغنظام بن المحلبات، فسلمها إلى أم حجاب السلطان طغرل بك، فنارت إلى الموصل، فقتلها ابن أبي غشام بابيه، وأخذ

وأصاب خفاجة من مفارقة بلاده، ونهب أموالها، وقتل رجالها، أمر عظيم وانتزحت إلى نواحي البصرة، وأقامت عبادة في بلاد خفاجة.

ولما انهزمت خفاجة وتفرقت ونهبت أموالها، جاءت امرأة منهم إلى الأمير (٤٢٢/١٠) صدقة، فقالت له: إنك سيبتنا وسلبتنا قوتنا، وغرتنا، واضمت حرمتنا، قابلك الله في نفسك، وجعل صورة أهلك كصورتنا، فكظم الغيظ واحتمل لها ذلك، وأعطاهما أربعين جملاً، ولم يعض غير قليل حتى قابل الله صدقة في نفسه وأولاده، فإن دعاء الملهوف عند الله بمكان.

ذكر مسير جاولي سقاو إلى الموصل وأمر صاحبها جكرمش

في هذه السنة، في المحرم، أقطع السلطان محمد جاولي سقاو الموصل، والأعمال التي بيد جكرمش، وكان جاولي قبل هذا قد استولى على البلاد التي بين خوزستان وفارس، وأقام بها سنين، وعمر قلاعها وحصنها، وأساه السيرة في أهلها، وقطع أيديهم وجذع أنوفهم وسمل أعينهم.

فلما تمكن السلطان محمد من السلطنة خافه جاولي، وأرسل السلطان إليه الأمير مودود بن التوتكين، فتحصن منه جاولي، وحصره مودود ثمانية أشهر، فأرسل جاولي إلى السلطان: إنني لا أنزل إلى موجوده، فإن أرسلت غيره نزلت. فأرسل إليه خاتمه مع أمير آخر، فنزل جاولي، وحضر الخدمة بأصبهان، فرأى من السلطان ما يحب، وأمره السلطان بالمسير إلى الفرنج لياخذ البلاد منهم، وأقطعه الموصل وديار بكر والجزيرة كلها.

وكان جكرمش لما عاد من عند السلطان إلى بلاده، كما ذكرناه، وعد من نفسه الخدمة، وحمل المال، فلما استقر ببلاده لم يقربها قال، وتشاغل في الخدمة وحمل المال، فأقطع بلاده لجاولي، فجاء إلى بغداد، وأقام بها إلى (٤٢٣/١٠) أول ربيع الأول، وسار إلى الموصل، وجعل طريقه على البواريج، فملكها ونهبها أربعة أيام، بعد أن آمن أهلها، وحلف لهم أنه يجيهم، فلما ملكها سار إلى إربل.

وأما جكرمش فإنه لما بلغه منسيرة إلى بلاده كتب في جمع العساكر، فأناه كتاب أبي الهيجاء بن موسك الكرواني الهذباني، صاحب إربل، يذكر استيلاء جاولي على البواريج، ويقول له: إن لم تتعجل المجيء لنجتمع عليه وننتقمه، وإلا اغطسرت إلى موافقة والمصير معه. فبادر جكرمش وعبر إلى شيرفي وجلة، وسار في عسكر الموصل قبل اجتماع عساكره، وأرسل إليه أبو الهيجاء عسكره مع أولاده، فاجتمعوا بقرية باكلتا من أعمال إربل.

ووافاهم جاولي وهو في ألف فارس، وكان جكرمش في ألفي

شرف الدولة مسلم بن قريش مالها، ورد طغربك أمر القلعة إلى إنسان يعرف بأبي العباس الرازي، فمات بها بعد ستة أشهر، فملكها المهرباط، وهو أبو جعفر محمد بن أحمد بن خشانم من بلد الشمر، فأقام بها إحدى وعشرين سنة ومات، ووليها ابنه سستين، وأخذتها منه تركان خاتون، ووليها لها كوهرائين.

ثم ملكها بعد وفاة ملكشاه قسيم الدولة أفسنقر، صاحب حلب، فلما قتل صار للأمير كمشكين الجاندار، فجعل فيها رجلاً يعرف بأبي المصارع، ثم عادت إلى كوهرائين إقطاعاً، ثم أخذها منه مجد الملك البلاساني، فولى فيها كيقباز بن هزارسب الديلمي، فأقام بها اثنتي عشرة سنة، فظلم أهلها، وأساه السيرة، فلما اجتاز به سقمان بن أرتق سنة ست وتسعين [وأربعماية] ونهبها، كان كيقباز ينهبها ليلاً، وسقمان ينهبها نهاراً.

فلما استقر السلطان محمد بعد موت أخيه بركيارق أقطعه للأمير أفسنقر البرسقي، شيجنة بغداد، فسار إليها وحصرها مدة تزيد على سبعة أشهر، حتى ضاق على كيقباز الأمر، فراسل صدقة بن مزيد ليسلمها إليه، فسار إليها في صفر هذه السنة وتسلمها منه، وانحدر البرسقي ولم يملكها.

ومات كيقباز بعد نزوله من القلعة بثمانية أيام، وكان عمره ستين سنة، واستتاب صدقة بها ورأى بن أبي فراس بن ورأى، وكان كيقباز ينسب إلى الباطنية، وكان موته من ضعادة صدقة، فإنه لو أقام عنده لعرض صدقة لظنون الناس في اعتقاده ومذهبه. (٤٢١/١٠)

ذكر الحرب بين عبادة وخفاجة

في هذه السنة، في ربيع الأول، كانت حرب بين عبادة وخفاجة، فظفرت عبادة، وأخذت بثأرها من خفاجة.

وكان سبب ذلك أن سيف الدولة صدقة أرسل ولده بلران في جيش إلى طرف بلاده مما يلي البطيحة ليحميها من خفاجة لأنهم يؤذون أهل تلك النواحي، فقبروا منه، وتهددوا أهل البلاد، فكتب إلى أبيه يشكو منهم، ويعرفه حالهم، فأحضر عبادة، وكانت خفاجة قد فعلت بهم العام الماضي ما ذكرناه، فلما حضروا عنده قال لهم ليتجهزوا مع عسكره لياخذوا بثأرهم من خفاجة، فساروا في مقدم عسكره، فأدركوا حلة من خفاجة من بني كليب ليلاً، وهم غارون، لم يشعروا بهم، فقالوا: من أنتم؟ فقالت عبادة: نحن أصحاب لديون، فعلموا أنهم عبادة، فقاتلوهم، وصبرت خفاجة، فبينما هم في القتال إذ سمع طبل الجيش، فانهزموا، وقتلت منهم عبادة جماعة، وكان فيهم عشرة من وجوههم، وتركوا حرمهم، فأمر بخدقة بحر استهن، وجمائتهن، وأمر العسكر أن يؤثروا عبادة بما غنموه من أموال خفاجة، خلفاً لهم عما أخذ منهم في العام الماضي.

صاحب إربل، قد حضروا الحرب مع جكرمش، وأسوهم جاولي، فأرسل إلى أبي الهيجاء يطلب ابن كسيرات، فأطلقه وسبّره إليه، فأطلق جاولي ابن أبي الهيجاء، فلما حضر ابن كسيرات عند جاولي ضمن له فتح الموصل وبلاد جكرمش، وبحصيل الأموال، فاعتقله اعتقالاً جميلاً.

وكان قاضي الموصل أبو القاسم بن ودعان عدوً لأبي طالب، فأرسل إلى جاولي يقول له: إن قلت لأبي طالب سلّمْتُ الموصل إليك، فقتله وأرسل رأسه إليه، فأظهر الشمامسة به وأخذ كثيراً من أمواله وودائعهم، فثار به الأتراك غضباً لأبي طالب ولنفرد بهما أخذ من أمواله، فقتلوه؛ وكان بينهما شهر واحد، وقد رأينا كثيراً، وسمعنا ما لا نحصى [من] قرب وفاة أحد المعتادين بعد صاحبه.

ذكر الحرب بين ملك القسطنطينية والفرنج

في هذه السنة كانت وحشة مستحكمة بين ملك الروم، صاحب القسطنطينية، وبين يميند الفرنجي، فسار يميند إلى بلد ملك الروم ونهيه، وعزم على قصده، فأرسل ملك الروم إلى الملك قلعج أرسلان بن سليمان، صاحب قونية وأقصرها، وأخبرهما من تلك البلاد، يستنجد، فأمده بجمع من عسكره، فقوي بهم، وتوجّه إلى يميند، فالتقوا وتصارفوا وقتلوا، وصبر الفرنج بشجاعتهم، وصبر الروم ومن معهم لكثرتهم، ودامت الحرب، ثم أجلت الوقعة عن هزيمة (٤٢٦/١٠) الفرنج، وأتى القتل على أكثرهم، وأسر كثير منهم، والذين سلموا عادوا إلى بلادهم بالشام، وعاد عسكر قلعج أرسلان إلى بلادهم عازمين على المسير إلى صاحبهم بديار الجزيرة، فأتاهم خير قتله، على ما تذكره إن شاء الله تعالى، فتركوا الحركة وأقاموا.

ذكر ملك قلعج أرسلان الموصل

قد ذكرنا أن أصحاب جكرمش كتبوا إلى الأمير صدقة، وقسم الدولة البرسقي، والملك قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلش السلجوقي، صاحب بلاد الروم، يستدعون كلاً منهم إليهم ليسلموا البلد إليه. فأما صدقة فامتنع، ورأى طاعة السلطان؛ وأما قلعج أرسلان فإنه سار في عساكره فلما سمع جاولي سقاو وروضه إلى نصيبين رحل عن الموصل؛ وأما البرسقي فإنه كان شيخه بغداد، فسار منها إلى الموصل، فوصلها بعند رجيل جاولي عنهما، فنزل بالجانب الشرقي فلم يلتفت أحد إليهم ولا أرسلوا إليه كلمة واحدة، فعاد في باقي يومه.

ثم إن قلعج أرسلان لما وصل إلى نصيبين أقام بها حتى كثر جمعه، فلما سمع جاولي يقربه رحل من الموصل إلى سنجار، وأودع رحله بها، واتصل به الأمير أيلغازي بن أرتق وجماعة من عسكره جكرمش، فصار معه أربعة آلاف فارس، فأباه كتاب الملك

فارس، ولا يشك أنه يأخذ جاولي باليد، فلما اصطفوا للحرب حمل جاولي من القلب على قلب جكرمش فتهزم من فيه، وبقي جكرمش وحده لا يقدر على الهزيمة لقلج كان به، فهو لا يقدر [أن] يركب، وإنما يحمل في محفة، فلما انهزم أصحابه قاتل عنه ركابي أسود قتالاً عظيماً، فقتل، وقاتل معه واحد من أولاد الملك قاورت بك بن داود، اسمه أحمد، فقاتل بين يديه، فطعن فجرح وانهزم، فمات بالموصل، ولم يقدر أصحاب جاولي على الوصول إلى جكرمش، حتى قُتل الركابي الأسود فحيث أخذوه أسيراً وأحضروه عند جاولي، فأمر بحفظه وحراسته.

وكانت عساكر جكرمش التي استدعاهما قد وصلت إلى الموصل بعد مسيره بيومين، فساروا جزاء ليدركوا الحرب، فلقبهم المنهزمون ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً: (٤٢٤/١٠)

ذكر حصر جاولي سقاو الموصل وموت جكرمش

لما انهزم العسكر، وأسر جكرمش، وصل الخبر إلى الموصل، فأقعدوا في الأمر زكي بن جكرمش، وهو صبي عمره إحدى عشرة سنة، وخطبوا له، وأحضروا أعيان البلد، والتمسوا منهم المساعدة، فأجابوا إلى ذلك.

وكان مستحفظ القلعة مملوكاً لجكرمش اسمه غزغلي، فقام في ذلك المقام المرضي، وفروق الأموال التي جمعها جكرمش، والخيول، وغير ذلك على الجند، وكتب سيف الدولة صدقة، وقلج أرسلان، والبرسقي، شيخه بغداد، بالمبادرة إليهم، ومنع جاولي عنهم، ووعدوا كلاً منهم أن يسلموا البلد إليه.

فأما صدقة فلم يجبههم إلى ذلك، ورأى طاعة السلطان، وأما البرسقي وقلج أرسلان فنذكر حالهما.

ثم إن جاولي حصر الموصل، ومعه كرمايي بن خراسان التزكمتاني، وغيره من الأمراء، وكثر جمعه، وأبصر أن يحمل جكرمش كل يوم على بقل وينادي أصحابه بالموصل ليسلموا البلد ويخلصوا أصحابهم مما هو فيه، ويأمرهم هو بذلك، فلا يسمعون منه؛ وكان يسجنه في حبس، ويوكل به من يحفظه لئلا يسوق، فأخرج في بعض الأيام ميتاً، وعمره نحو ستين سنة، وكان شأنه قد علا، ومنزله قد عظمت، وكان قد شيد سور الموصل وقواه، وبني عليها فصيلاً، وحفر خندقها، وحصنها غاية ما يقدر عليه.

وكان مع جكرمش رجل من أعيان الموصل يقال له أبو طليب بن (٤٢٥/١٠) كسيرات، ومثو كسيرات إلى الآن بالموصل من أعيان أهلها، وكان أبو طالب قد تقدم ضد جكرمش، وأوتعت منزلته، واستولى على أضرو، وحضر معه الحروب، فلما أسر جكرمش هرب أبو طالب إلى إربل، وركب أولاد أبي الهيجاء

ذكر قتل قلعج أرسلان وملك جاولي الموصل

قد ذكرنا أنَّ قلعج أرسلان لما وصل إلى نصيبين سار جاولي عن الموصل إلى سينجار، ثم إلى الرُّحبة، فوصلها في رجب، وحصرها إلى الرابع والعشرين من شهر رمضان، وكان صاحبها حينئذ يُعرف بمحمد بن السَّبَّاق، وهو من بني شيان، رتبته بها الملك دُقاق لما فتحها، وأخذ ولده رهينة، وحمله معه إلى دمشق، فلما توفي أرسل هذا الشيباني قوماً سرقوا ولده وحملوه إليه، فلما وصل إليه خلع الطاعة للدمشقيين، وخطب في بعض الأوقات لقلعج أرسلان. فلما وصل إليها جاولي وحصرها، أرسل إلى الملك رضوان يعرفه أنه على الاجتماع به ومساعدته على من يحاربه، وبشرط عليه أنه إذا (٤٢٩/١٠) تسلم البلاد سار معه ليكشف الفرنج عن بلاده، فلما استقرت القاعدة بينهما حضر عنده رضوان، فاشتد الحصار على أهل البلد، وضاعت عليهم الأمور.

وأتفق جماعة كانوا بأحد الأبراج، وأرسلوا إلى جاولي، واستحلفوه على حفظهم وحراستهم، وأمره أن يقصد البرج الذي هم فيه عند انتصاف الليل، ففعل ذلك، فرفع من في البرج أصحابه إليهم في الحبال، فضربوا بوقاتهم وطبولهم، فخذل من في البلد، ودخله أصحاب جاولي في اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان، ونهبوه إلى الظهر، ثم أمر برفع النهب، ونزل إليه محمد الشيباني صاحب البلد، وأطاعه، وصار معه.

ثم إن قلعج أرسلان لما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جاولي سقاو ليحاربه، وجعل ابنه ملكشاه في دار الإمارة، وعمره إحدى عشرة سنة، ومعه أمير يديره، وجماعة من العسكر، وكانت عدة عسكره أربعة آلاف فارس بالعدة الكاملة والخيال الجيدة.

وسمع العسكر بقوة جاولي، فاختلوا، وكان أول من خالف عليه إبراهيم بن نبال، صاحب آمد، فإنه فارق خيامه وأثقاله وعاد من الخابور إلى بلاده. وكذلك غيره، وعمل قلعج أرسلان على المطاولة لما بلغه من قوة جاولي وكثرة جموعه، وأرسل إلى بلاده يطلب عساكره لأنها كانت عند ملك الروم نجدة له على قتال الفرنج، كما ذكرناه، فلما وصل إلى الخابور بلغت عدته خمسة آلاف.

وكان مع جاولي أربعة آلاف، من جملتهم الملك رضوان، وجماعة من عسكره، إلا أنَّ شجاعته أكثر، واغتم جاولي قلعة عسكر قلعج أرسلان، فقاتله قبل وصول عساكره إليه، فبالتوا في العشرين من ذي القعدة، فحمل قلعج أرسلان (٤٣٠/١٠) على القوم بنفسه، حتى خالطهم، فضرب يد صاحب العلم فابانها، ووصل إلى جاولي بنفسه، ففرضه بالسيف، فقطع الكراغند ولم يصل إلى بدنه، وحمل أصحاب جاولي على أصحابه فهزمهم،

رضوان يستدعيه إلى الشام، ويقول له: إنَّ الفرنج قد عجز من بالشام عن منعهم؛ فسار إلى الرُّحبة.

وأرسل أهل الموصل وعسكر جكرمش إلى قلعج أرسلان، وهو بنصيبين، (٤٢٧/١٠) فاستحلفوه لهم، فحلف، واستحلفهم على الطاعة له والمناصحة، وسار معهم إلى الموصل، فملكها في الخامس والعشرين من رجب، ونزل بالمعرقية، وخرج إليه ولد جكرمش وأصحابه، فخلع عليهم، وجلس على التخت، وأسقط السلطان محمداً، وخطب لنفسه بعد الخليفة، وأحسن إلى العسكر، وأخذ القلعة من غزعلي، مملوك جكرمش، وجعل له فيها دزداراً، ورفع الرسوم المحدث في الظلم، وعدل في الناس وتألفهم، وقال: من سعى إلي بأحد قتلته؛ فلم يسع أحد بأحد، وأقر القاضي أبا محمد عبد الله بن القاسم ابن الشهرزوري على القضاء بالموصل، وجعل الرئاسة لأبي البركات محمد بن محمد بن خميس، وهو والد شيخنا أبي الربيع سليمان.

وكان في جملة قلعج أرسلان الأمير إبراهيم بن نبال التركماني، صاحب آمد، ومحمد بن جبق التركماني، صاحب حصن زياد، وهو خرتبورت.

فأما إبراهيم بن نبال فكان سبب ملكه لمدينة آمد أنَّ تاج الدولة تش، حين ملك ديار بكر، سلمها إليه، فبقيت بيده، وأما محمد بن جبق فكان سبب ملكه لحصن زياد أنَّ هذا الحصن كان بيد الفلادروس الرومي، ترجمان ملك الروم، وكانت الرُّها وأنطاكية من أعماله، فلما ملك سليمان ابن قتلمش، والد قلعج أرسلان هذا، أنطاكية، وملك فخر الدولة بن جُبَيْر ديار بكر، ضعف الفلادروس عن إقامة ما يحتاج إليه حصن زياد من الميرة والإقامة، فأخذه جبق، وأسلم الفلادروس على يد السلطان ملكشاه، وأمره على الرُّها، فلم يزل عليها حتى مات وأخذها الأمير بزان بعده. (٤٢٨/١٠)

وكان بالقرب من حصن زياد حصن آخر بيد إنسان من الروم اسمه الفرنجي، وكان يقطع الطريق، ويكثر قتل المسلمين، فأرسل إليه جبق هدية، وخطب إليه مؤدته، وأن يعين كل واحد منهما صاحبه، فأجاب به إلى ذلك، فكان جبق يعين افرنجي على قطع الطريق وغيره، وكذلك افرنجي يعين جبق، فلما وثق كل واحد بصاحبه أرسل إليه جبق: إني أريد قصد بعض الأماكن؛ وطلب أن يرسل إليه أصحابه، فأرسلهم إليه، فلما ساروا معه في الطريق تقدم بكتفهم، وحملهم إلى قلعة افرنجي، وقال لأهلهم: والله لئن لم تسلموا إلي افرنجي لأخربن أعناقهم، ولأخذن الحصن عنوة، ولأقتلنكم على دم واحد. ففتحوا له الحصن، وسلموا إليه افرنجي، فسلبه، وأخذ أمواله وسلاحه، وكان عظيمًا، ومات جبق، فولى بعده ابنه محمد.

الأذى بها أكثر، وهي متسلطة على سرير ملكه، فخرج بنفسه فحاصروهم في سادس شعبان.

وكان قد عزم على الخروج أول رجب، فساء ذلك من يتعصب لهم من العسكر، فارجعوا أن قلع أرسلان بن سليمان قد ورد بغداد وملكها، وافعلوا في ذلك مكاتبات، ثم اظهروا أن خلافاً قد تجدد بخراسان، فتوقف (٤٣٢/١٠) السلطان لتحقيق الأمر، فلما ظهر بطلانه عزم عزيمة مثله، وقصد حربيهم، وصعد جبلاً يقابل القلعة من غربيها، ونصب له التخت في أعلاه، واجتمع له من أصبهان وسوادها لحربيهم الأسم العظيمة للدخول التي يطالبونهم بها، وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ، ورتب الأمراء لقتالهم، فكان يقاتلهم كل يوم أمير، فضاق الأمر بهم، واشتد الحصار عليهم، وتعذرت عندهم الأقوات.

فلما اشتد الأمر عليهم كتبوا فتوى فيها ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وإنما يخالفون في الإمام: هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم، وأن يقبل طاعتهم، ويحرسهم من كل أذى؟ فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف بعضهم، فجمعوا للمناظرة، ومعهم أمير الحسن علي بن عبد الرحمن السمنجاني، وهو من شيوخ الشافعية، فقال بمحضر من الناس، يجب قتالهم، ولا يجوز إقرارهم بمكانهم، ولا ينفعهم التلطف بالشهادتين، فإنهم يقال لهم: أخبرونا عن إمامكم، إذا أباح لكم ما حظره الشرع، أو حظر عليكم ما أباحه الشرع اتقبلون أمره؟ فإنهم يقولون نعم؛ وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع، وطالت المناظرة في ذلك.

ثم إن الباطنية سألو السلطان أن يرسل إليهم من ينظرهم، وعينوا على أشخاص من العلماء منهم القاضي أبو العلاء صاعد بن يحيى، شيخ الحنفية بأصبهان، وقاضيا، وغيره، فصعدوا إليهم وناظروهم، وعادوا كما صعدوا، (٤٣٣/١٠) وإنما كان قصدهم التعلل والمطاول، فلجئ حينئذ السلطان في حصرهم، فلما راوا عين المحاقة أعذروا إلى تسليم القلعة على أن يعطوا عوضاً عنها قلعة خالتجان، وهي على سبعة فراسخ من أصبهان، وقالوا: إننا نخاف على دماننا وأموالنا من العامة، فلا بد من مكان نحتمي به منهم؛ فأشير على السلطان بإجابتهم إلى ما طالبوا، فسألوا أن يؤخرهم إلى النوروز ليرحلوا إلى خالتجان ويسلموا قلعتهم، وشرطوا أن لا يسمع قول متصيح فيهم، وإن قال أحد عنهم شيئاً سلمه إليهم، وأن ما اتاه منهم رده إليهم، فأجابهم إليه، وطلبوا أن يحمل إليهم من الإقامة ما يكفيهم يوماً بيوم، فأجيبوا إليه في كل هذا، وقصدهم المطاوله انتظاراً لفتى أو حادث يتجدد.

واستباحوا ثقلهم وسوادهم. فلما رأى قلع أرسلان انهزام عسكره علم أنه إن أسر فعل به فعل من لم يترك للصلح موضعاً، لا سيما وقد نازع السلطان في بلاده، واسم السلطنة، فألقى نفسه في الخابور، وحمل نفسه من أصحاب جاولي بالشباب، فانهدر به الفرس إلى ماء عميق فغرق، وظهر بعد أيام دفن بالشمسانية وهي من قرى الخابور.

وسار جاولي إلى الموصل، ولما وصل إليها فتح أهلها له بابها، ولم يتمكن من بها من أصحاب قلع أرسلان من متعهم، ونزل بظاهر البلد، وأخذ كل واحد من أصحاب جكرمش الذين حضروا الوقعة مع قلع أرسلان إلى جهته. فلما ملك جاولي الموصل أعاد خطبة السلطان محمد، وصادر جماعة من بها من أصحاب جكرمش، وسار إلى جزيرة ابن عمرو، وبها جيشي بن جكرمش، ومعه أمير من غلمان أبيه اسمه غزغلي، فحصره مدة، ثم إنهم صالحوه، وحملوا إليه ستة آلاف دينار، وغيرها من الدواب والثياب، ورحل عنهم إلى الموصل، وأرسل ملكشاه بن قلع أرسلان إلى السلطان محمد.

ذكر أحوال الباطنية بأصبهان وقتل ابن عطاش

في هذه السنة ملك السلطان محمد القلعة التي كان الباطنية ملكوها بالقرب من أصبهان، واسمها شاه دز، وقتل صاحبها أحمد بن عبد الملك بن عطاش، (٤٣١/١٠) وولده، وكانت هذه القلعة قد بناها ملكشاه، واستولى عليها بعده أحمد بن عبد الملك بن عطاش.

وسبب ذلك أنه اتصل بدردار كان لها، فلما مات استولى أحمد عليها، وكان الباطنية بأصبهان قد اليسره تاجاً، وجمعوا له أموالاً، وإنما فعلوا ذلك به لتقدم أبيه عبد الملك في مذهبهم، فإنه كان أديباً بليغاً، حسن الخط، سريع البديهة، عفيفاً، وإتلي بحب هذا المذهب وكان ابنه أحمد هذا جاهلاً لا يعرف شيئاً، وقيل لابن الصباح، صاحب قلعة الموت: لماذا تعظم ابن عطاش مع جهله؟ قال: لمكان أبيه، لأنه كان أستاذي.

وصار لابن عطاش عدد كثير، وبأس شديد، واستفحل أمره بالقلعة، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل من قدروا على قتله، فقتلوا خلقاً كثيراً لا يمكن إحصاؤهم، وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكتفوا عنها الأذى، فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراءه، والناس باملاكهم، وتمشي لهم الأمر بالخلف الواقع بين السلطانيين بركيارق ومحمد.

فلما صفت السلطنة لمحمد، ولم يبق له منازع، لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربيهم، والاتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم، فرأى البداية بقلعة أصبهان التي بأيديهم، لأن

ورتب لهم وزير السلطان سعد الملك ما يُحمل إليهم كل يوم من الطعام والفاكهة، وجميع ما يحتاجون إليه، فجعلوا هم يرسلون، ويتعاونون من الأطعمة ما يجمعونه ليمتعوا في قلعته، ثم إنهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميراً كان يبالغ في قتالهم، فوثبوا عليه وجرحوه، وسلم منهم، فحيثُ أمر السلطان بإخرا ب قلعة خالنجان، وجدد الحصار عليهم، فطلبوا أن ينزل بعضهم، ويرسل السلطان معهم من يحميهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بأرجان، وهي لهم، وينزل بعضهم، ويرسل معهم من يوصلهم إلى طيس، وأن يقيم البقية منهم في فريس من القلعة، إلى أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم، فينزلون حيثُ، ويرسل معهم من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة الموت، فأجيبوا إلى ذلك، فنزل منهم إلى الناظر، وإلى طيس، وساروا، وتسلم (٤٣٤/١٠) السلطان القلعة وخرتها.

ثم إن الذين ساروا إلى قلعة الناظر وطيس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم، فلم يسلم السن الذي بقي بيده، ورأى السلطان منه الغدر، والعود عن الذي قرره، فأمر بالزحف إليه، فزحف الناس عامة ثاني ذي القعدة، وكان قد قلَّ عنده من يمنع ويقاتل، فظهر منهم صبر عظيم، وشجاعة زائدة، وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من أعيانهم، فقال لهم: إني أدلكم على عورة لهم؛ فأتى بهم إلى جانب لذلك السن لهم لا يُرام؛ فقال لهم: اصعدوا من هاهنا؛ فقبل إنهم قد ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال، فقال: إن الذي ترون أسلحه وكزائدات قد جعلوها كهينة الرجال فلقنهم عندهم.

وكان جميع من بقي ثمانين رجلاً، فزحف الناس من هناك، فصعدوا منه، وملكوا الموضوع، وقتل أكثر الباطنية، واختلط جماعة منهم مع من دخل، فخرجوا معهم، وأما ابن عطاش فإنه أخذ أسيراً، فترك أسبوعاً، ثم إنه أمر به فشنر في جميع البلد، وسُلخ جلده، فتجلد حتى مات، وحشي جلده تبنياً، وقتل ولده، وحمل رأسهما إلى بغداد، وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت، وكان معها جواهر نفيسة لم يوجد مثلها، فهلكت أيضاً وضاعت، وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثني عشرة سنة. (٤٣٥/١٠)

ذكر الخلف بين سيف الدولة صدقة ومهذب الدولة صاحب

البطيحة

في هذه السنة اختلف سيف الدولة صدقة بن مزيد، ومهذب الدولة السعيد ابن أبي الجبر، صاحب البطيحة، وانضاف حماد بن أبي الجبر إلى صدقة، وأظهر معاداة ابن عمه مهذب الدولة، ثم اتفقوا.

وكان سبب ذلك أن صدقة لما أقطعه السلطان محمد مدينة

واسط ضمنها منه مهذب الدولة، واستتاب في الأعمال أولاده وأصحابه، فمدوا أيديهم في الأموال، وفرطوا فيها، وفرقوها، فلما انقضت السنة طالبه صدقة بالمال، وحسبه، ثم سعى في خلاصه بدران بن صدقة، وهو صهر مهذب الدولة، فأخرجه من الحبس وأعادته إلى بلده البطيحة.

وضمن حماد بن أبي الجبر واسط، فأنحل على مهذب الدولة كثير من أمره، فآل الأمر إلى الاختلاف بعد الاتفاق، فإن المصطنع إسماعيل، جد حماد، والمختص محمد، والد مهذب الدولة، أخوان، وهما ابنا أبي الجبر، وكانت إليهما رئاسة أهلها وجماعتهما، فهلك المصطنع، وقام ابنه أبو السيد المظفر، والد حماد، مقامه، وهلك المختص محمد، وقام ابنه مهذب الدولة مقامه، وصارا يتنازعان ابن الهيثم، صاحب البطيحة، ويقاتلانه إلى أن أخذه مهذب الدولة، أيام كهرائين، وسلمه إلى كهرائين، فحملة إلى أصبهان، فهلك في طريقها، فعظم أمر مهذب الدولة، وصيره كهرائين أمير البطيحة، فصار ابن عمه وجماعة تحت حكمه. (٤٣٦/١٠)

وكان حماد شاباً، فأكرمه مهذب الدولة، وزوجه بنتاً له، وزاد في إقطاعه، فكثر ماله، فصار يحسد مهذب الدولة، ويضمربغضه، وربما ظهر في بعض الأوقات؛ وكان مهذب الدولة يداريه بجده، فلما هلك كهرائين انتقل حماد عن مهذب الدولة، وأظهر ما في نفسه، فاجتهد مهذب الدولة في إعادته إلى ما كان، فلم يفعل، فسكت عنه، فجمع النفيس بن مهذب الدولة جمعاً وقصد حماداً، فهرب منه إلى سيف الدولة بالحلة، فأعاده صدقة ومعه جماعة من الجند، فحشد مهذب الدولة، فأرسل حماد إلى صدقة يعرفه ذلك، فأرسل إليه كثيراً من الجند، فقوي عزم مهذب الدولة على المحاربة ثلاثاً يظن به العجز، فأشار عليه أهله بترك الخروج من موضعه لحصانته، فلم يفعل، وسير سفته وأصحابه في الأنهر، فجعل حماد وأخوه له الكمائن، واندفعوا من بين أيديهم، فطمع أصحاب مهذب الدولة وتبعوهم، فخرج عليهم الكمائن، فلم يسلم منهم إلا من لم يحضر أجله، فقتل منهم وأسر خلق كثير، فقوي طمع حماد، وأرسل إلى صدقة يستنجده، فأرسل إليه مقدم جيشه سعيد بن حميد الغمري، وغيره من المقدمين، وجمعوا السفن ليقاتلوا مهذب الدولة، فأروا أمراً محكماً، فلم يمكنهم الدخول إليه.

وكان حماد بخيلاً، ومهذب الدولة جواداً، فأرسل إلى سعيد بن حميد الإقامة الموفرة، والصلات الكثيرة، واستماله، فمال إليه، واجتمع به، وتقرر الأمر على أن أرسل مهذب الدولة ابنه النفيس إلى صدقة، فرضي عنه، وأصلح بينهم وبين حماد ابن عمهم، وعادوا إلى حال حسنة من الاتفاق، وكان صلحهم في ذي الحجة

سنة خمسمائة. (٤٣٧/١٠)

ذكر قتل وزير السلطان ووزارة أحمد بن نظام الملك

في شوال من هذه السنة قبض السلطان محمد على وزيره سعد الملك أبي المحاسن، وأخذ ماله، وصلبه على باب أصفهان، وصلب معه أربعة نفر من أعيان أصحابه والمتمين إليه؛ أما الوزير فنُسب إلى خيانة السلطان، وأما الأربعة فنُسبوا إلى اعتقاد الباطنية، وكانت مدة وزارته ستين وتسعة أشهر، وكان في ابتداء حاله يصحب تاج الملك أبا الغنائم، وتعطل بعده، ثم استعمله مؤيد الملك بن نظام الملك، فجعله على ديوان الاستفتاء، وخدم السلطان محمداً لما حصره أخوه السلطان بركيارق بأصفهان خدمة حسنة، ولما فارقهما محمد حفظها الحفظ التام، وقام المقام العظيم، فاستورزه محمد، ووسّع له في الإقطاع، وحكّمه في دولته، ثم نكبه، وهذا آخر خدمة الملوك؛ وما أحسن ما قال عبد الملك بن مروان: أنعم الناس عيشاً من له ما يكفيه، وزوجة ترضيه، ولا يعرف أبوابنا هذه الخبيثة فتؤذيه.

ولما قبض الوزير استشار السلطان في من يجعله وزيراً، فذكر له جماعة، فقال السلطان: إن آياتي دروا على نظام الملك البركة، ولهم عليه الحق الكثير، وأولاده أغنياء نعمتنا، ولا معدل عنهم فأمر لأبي نصر أحمد هذا بالوزارة، ولقب القاب أبيه: قوام الدين، نظام الملك، صدر الإسلام.

وكان سبب قدومه إلى باب السلطان أنه لما رأى انقراض دولة أهل بيته (٤٣٨/١٠) لزم داره بهمدان، فاتفق أن رئيس همدان، وهو الشريف أبو هاشم آذاه، فسار إلى السلطان شاكياً منه ومتظلماً، فقبض السلطان على الوزير، وأحمد هذا في الطريق، فلما وصل إليه ذكره، وخلع عليه خلع الوزارة، وحكّمه ومكّنه، وقوي أمره، وهذا من الفرج بعد الشدة، فإنه حضر شاكياً، فصار حاكماً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، عُزل الوزير أبو القاسم علي بن جُهير، وزير الخليفة، فقصده دار سيف الدولة، صدقة ببغداد ملتجئاً إليها، وكانت ملجأ لكل ملهوف، فأرسل إليه صدقة من أخذه إليه إلى الحلة، وكانت وزارته ثلاث سنين وخمسة أشهر وأياماً، وأمر الخليفة بتقص داره التي بباب العائمة، وفيها غير، فإن أباه أبا نصر بن جُهير بناها بأنقاض أملاك الناس، وأخذ، بسببها، أكثر ما دخل فيها، فخربت عن قريب.

ولما عُزل استناب قاضي القضاة أبو الحسن بن الدماغي، ثم تقررت الوزارة في المحرم من سنة إحدى وخمسمائة لأبي المعالي هبة الله بن محمد بن المطلب، وخلع عليه فيه.

وفيها، في شوال، توفي الأمير أبو الفوارس سُرخاب بن بدر بن مُهلّهل، المعروف بابن أبي الشوك الكردي، وكانت له أموال كثيرة، وخيول لا تحصى، وولي الإمرة بعده أبو منصور بن بدر، وقام مقامه، وبقيت الإمارة في بيته مائة وثلاثين سنة، وقد تقدّم من أخباره ما فيه كفاية. (٤٣٩/١٠)

وفي هذه السنة توفي أبو الفتح أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد الحنّاد الأصفهاني ابن اخت عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن مندة، ومولده سنة ثمان وأربع مائة، وكان مكثراً من الحديث، مشهوراً بالرواية.

وفيها توفي أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي في صفر، وهو مكثّر من الرواية، وله تصانيف حسنة، وأشعار لطيفة، وهو من أعيان الزمان، وعبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب أبو محمد الشيرازي، الفقيه، ولي التدريس بالنظامية ببغداد سنة ثلاث وثمانين وأربع مائة، وكان يسري الحديث أيضاً؛ وأبو الحسين المبارك بن عبد الجبار بن أحمد الصيرفي المعروف بابن الطيوري البغدادي، ومولده سنة إحدى عشرة وأربع مائة، وكان مكثراً من الحديث ثقة صالحاً عابداً؛ وأبو الكرم المبارك بن الفاجر بن محمد بن يعقوب النحوي، سمع الحديث من أبي الطيب الطبري، والجوهري، وغيرهما، وكان إماماً في النحو واللغة. (٤٤٠/١٠)

سنة إحدى وخمسمائة

ذكر قتل صدقة بن مزيد

في هذه السنة، في رجب، قُتل الأمير سيف الدولة صدقة بن منصور ابن دُئيس بن مزيد الأسدي، أمير العرب، وهو الذي بنى الجلة السيفية بالعراق، وكان قد عظم شأنه، وعيلا قدره، واتسع جاهه، واستجار به صغار الناس وكبارهم، فأجارهم.

وكان كثير العناية بأمور السلطان محمد، والتفوية ليد، والشدة منه على أخيه بركيارق، حتى إنه جاهر بركيارق بالعداوة، ولم يبرح على مصافاة السلطان محمد، وزاده محمد إقطاعاً من جملته مدينة واسط، وأذن له في أخذ البصرة. ثم أفسد ما بينهما العميد أبو جعفر محمد بن الحسين البلخي، وقال في جملة ما قاله عنه: إن صدقة قد عظم أمره، وزاد حاله، وكثر إدلاله، ويسيطر في الدولة حمايته على كل من يفر إليه من عند السلطان، وهذا لا تحتمله الملوك لأولادهم، ولو أرسلت بعض أصحابك لملك بلاده وأمواله.

ثم إنه تعدّى ذلك حتى طعن في اعتقاده، ونسبه وأهل بلده إلى مذهب الباطنية، وكذب، وإنما كان مذهب التشيع لا غير، ووافق

أنه واقف عند ما يُرسم له ويقرر من حاله مع السلطان، ومهما أمرته، من ذلك امتثل؛ فأئذ الخليفة الكتاب إلى السلطان، فقال السلطان: أنا ممثّل ما يأمره به الخليفة، ولا مخالفة عندي فأرسل الخليفة إلى صدقة يعرّفه إجابة السلطان إلى ما طلب منه، ويأمره بإنفاذ ثقته ليستوثق له، ويحلف السلطان على ما يقع الاتفاق عليه، فعاد صدقة عن ذلك الرأي، وقال: إذا رخل السلطان عن بغداد أمددته بالمال والرجال، وما يحتاج إليه في الجهاد، وأما الآن، وهو بغداد، وعسكره بنهر (٤٤٣/١٠) الملك، فما عندي مال ولا غيره، وإن جاولي سقاوو، وإلغازي بن أرتق، قد أرسلوا إليّ بالطاعة والموافقة معي على محاربة السلطان وغيره، ومتى أردتهما وصلا إليّ في عساكرهما.

وورد إلى السلطان قرواش بن شرف الدولة، وكرماوي بن خراسان التركماني، وأبو عمران فضل بن ربيعة بن حازم بن الجراح الطائي، وآبأوه كانوا أصحاب البلقاء والبيت المقدس منهم: حسان بن المفرج الذي مدحه التهامي؛ وكان فضل تارة مع الفرنج، وتارة مع المصريين، فلما رآه طغتكين أتابك على هذه الحال طرده من الشام، فلما طرده التجأ إلى صدقة وعاقده، فأكرمه صدقة، وأهدى له هدايا كثيرة منها سبعة آلاف دينار عينا.

فلما كانت هذه الحادثة بين صدقة والسلطان سار في الطلائع، ثم هرب إلى السلطان، فلما وصل خلع عليه وعلى أصحابه، وأنزله بدار صدقة ببغداد، فلما سار السلطان إلى قتال صدقة استأذنه فضل في إتيان البرية ليمنع صدقة من الهرب إن أراد ذلك، فأذن له، فعبر بالأنبار وكان آخر العهد به.

وأئذ السلطان في جمادى الأولى إلى واسط الأمير محمد بن بوقا التركماني، فأخرج عنها نائب صدقة، وأمن الناس كلهم، إلا أصحاب صدقة، فتنفروا، ولم ينهب أحدا؛ وأئذ خيله إلى بلد قوسان، وهو من أعمال صدقة، فنهب أقبج نهب، وأقام عدة أيام، فأرسل صدقة إليه ثابت بن سلطان، وهو ابن عم صدقة، ومعه عسكر، فلما وصلوا إليها خرج منها الأتراك، وأقام ثابت بها، وبينه وبينهم دجلة.

ثم إن بوقا غير جماعة من الجند ارتضاهم، وعرف شجاعتهم، فوقفوا على موضع مرتفع على نهر سالم، يكون ارتفاعه خمسين ذراعا، (٤٤٤/١٠) فقصدهم ثابت وعسكره فلم يقدروا أن يقرّبوا الترك من الشباب، والمدد يأتيهم من ابن بوقا، وجرح ثابت في وجهه، وكثرت الجراح في أصحابه، فانهزم هو ومن معه، وتبعهم الأتراك، فقتلوا منهم وأسروا، ونهب طائفة من الترك مدينة واسط، واختلط بهم رجاله ثابت، فنهبت معهم، فسمع ابن بوقا الخبر، فركب إليهم ومنعهم، وقد نهبوا بعض البلد، ونادى في الناس

أرغون السعدي، أبا جعفر العميد وانتهى ذلك إلى صدقة، وكانت زوجة أرغون بالجلة وأهله، (٤٤١/١٠) فلم يؤاخذهم بشيء مما كان له أيضاً هناك [ما] بقايا خراج يبلده، فأمر صدقة أن يخلص ذلك إليه بأجمعه ويسلم إلى زوجته.

وأما سبب قتله فإن صدقة كان، كما ذكرنا، يستجير به كل خائف من خليفة وسلطان وغيرهما، وكان السلطان محمد قد سخط على أبي دلف سرخاب بن كيخسرو، صاحب ساوة وآبة، فهرب منه وقصد صدقة فاستجار به، فأجاره، فأرسل السلطان يطلب من صدقة أن يسلمه إلى نوابه، فلم يفعل، وأجاب: إنني لا أتمكن منه بل أحامي عنه، وأقول ما قاله أبو طالب لقريش لما طلبوا منه رسول الله ﷺ:

وَسَلِّمُهُ، حَتَّى نَصْرُحَ حَوْلَهُ، وَتَنْفَلُ عَنْ ابْنَيْسَا وَالْجَلَّاسِ
وظهر منه أمور أنكرها السلطان، فتوجّه إلى العراق ليتلافى هذا الأمر، فلما سمع صدقة استشار أصحابه في الذي يفعله، فأشار عليه ابنه ديبس بأن ينفذه إلى السلطان ومعه الأموال، والخيول، والتحف، ليستعطف له السلطان، وأشار سعيد بن حميد، صاحب جيش صدقة، بالمحاربة، وجمع الجند، وتفريق المال فيهم، واستطال في القول، فمال صدقة إلى قوله، وجمع العساكر، واجتمع إليه عشرون ألف فارس، وثلاثون ألف راجل، فأرسل إليه المستظهر بالله يحذّره عاقبة أمره، وينهاه عن الخروج عن طاعة السلطان، ويعرض له توسط الحال، فأجاب صدقة: إنني على طاعة السلطان، لكن لا آمن على نفسي في الاجتماع به؛ وكان الرسول بذلك عن الخليفة نقيب النقباء علي بن طراد الزينبي. (٤٤٢/١٠)

ثم أرسل السلطان أقضى القضاة أبا سعيد الهروي إلى صدقة يطيب قلبه، ويزيل خوفه، ويأمره بالانسياط عن عادته، ويعرفه عزمه على قصد الفرنج، ويأمره بالتجهز للغزاة معه. فأجاب: إن السلطان قد أفسد أصحابه قلبه عليّ، وغيروا حالي معه، وزال ما كان عليه في حقّي من الإنعام، وذكر سالف خدمته ومناصحته، وقال سعيد بن حميد، صاحب جيشه: لم يبق لنا في صلح السلطان مطمع، ولتروا خيولنا بخلوان؛ وامتنع من الاجتماع بالسلطان.

ووصل السلطان إلى بغداد في العشرين من ربيع الآخر، ومعه وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك، وسير البرسقي، شيخنة بغداد، في جماعة من الأمراء إلى صرصر، فنزلوا عليها.

وكان وصول السلطان، جريدة، لا يبلغ عسكرة ألفي فارس، فلما تيّن ببغداد مكاشفة صدقة، أرسل إلى الأمراء يأمرهم بالوصول إليه، والجد في السير، وتعجيل ذلك، فوردوا إليه من كل جانب.

ثم وصل كتاب صدقة إلى الخليفة، في جمادى الأولى، يذكر

وَأَعَاد الخليفة مَكَاتِبَ صَدَقَةِ بَحْرَيْنَ أَمْرَ الصِّلَحِ، فَأَجَابَ أَنَّهُ لَا يَخَالِفُ (٤٤٦/١٠) مَا يُمْرَرُهُ، وَكَتَبَ صَدَقَةَ أَيْضًا إِلَى السُّلْطَانِ يَعْتَذِرُ مِمَّا تَقَلَّ عَنْهُ، وَمِنْ الْحَرْبِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَبَيْنَ الْأَتْرَاكِ، وَأَنَّ جُنْدَ السُّلْطَانِ عَبَرَتْ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَمَنَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَحْضُرِ الْحَرْبَ، وَلَمْ يَسْتَرْزِعْ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَلَا قَطَعَ خَطْبَتَهُ مِنْ بَلَدِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ صَدَقَةُ كَاتِبِهِ قَبْلَ هَذَا الْكِتَابِ، فَأَرْسَلَ الخليفة نَقِيبَ النِّقْبَاءِ، وَأَبَا سَعْدَ الْهَرَوِيَّ إِلَى صَدَقَةٍ، فَقَصَدُوا السُّلْطَانَ أَوَّلًا، وَأَخَذَا يَدَهُ بِالْأَمَانِ لِمَنْ يَقْصِدُهُ مِنْ أَقَارِبِ صَدَقَةٍ، فَلَمَّا وَصَلَا إِلَى صَدَقَةٍ وَقَالَ لَهُ عَنِ الْخَلِيفَةِ: إِنَّ إِصْلَاحَ قَلْبِ السُّلْطَانِ مَوْقُوفٌ عَلَى إِطْلَاقِ الْأَسْرَى، وَرَدِّ جَمِيعِ مَا أَخَذَ مِنَ الْعَسْكَرِ الْمُنْهَزَمِ، فَأَجَابَ أَوَّلًا بِالْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ قَدَرْتُ عَلَى الرَّحِيلِ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ السُّلْطَانِ لَفَعَلْتُ، لَكِنْ وَرَائِي مِنْ ظَهْرِي، وَظَهَرَ أَبِي وَجْهِي، ثَلَاثُمِائَةِ امْرَأَةٍ، وَلَا يَحْمِلُهُنَّ مَكَانٌ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّنِي إِذَا جِئْتُ السُّلْطَانَ مُسْتَسْلِمًا قَبْلَنِي وَاسْتَخْدَمَنِي لَفَعَلْتُ، لَكِنِّي أَخَافُ أَنَّهُ لَا يُقِيلُ عَثْرَتِي، وَلَا يَغْفُو عَن رِزْوَانِي.

وَأَمَّا مَا نُهَبَ فَإِنَّ الْخَلْقَ كَثِيرٌ، وَعِنْدِي مِنْ لَا أَعْرِفُهُ، وَقَدْ نَهَبُوا وَدَخَلُوا الْبَرَّ، فَلَا طَاقَةَ لِي عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ السُّلْطَانُ لَا يَعَارِضُنِي فِيمَا فِي يَدِي، وَلَا فِيمَنْ أَجْرَتُهُ، وَأَنْ يَقْرَأَ سُرْحَابَ بَنٍ كَيْخَسَرُو عَلَى إِقْطَاعِهِ بِسَاوَةٍ، وَأَنْ يَقْدَمَ إِلَى الْإِسْنِ بَوْقًا بِإِعَادَةِ مَا نُهَبَ مِنْ بِلَادِي، وَأَنْ يَخْرُجَ وَزِيرُ الْخَلِيفَةِ يَحْلِفُهُ بِمَا أَثَقُّ بِهِ مِنْ الْإِيمَانِ عَلَى الْمَحَافَظَةِ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَحَيْثُ أَخْدَمَ بِالْمَالِ، وَأَدْوَسَ بِسَاطِهِ بَعْدَ ذَلِكَ.

فَعَادُوا بِهِذَا، وَمَعَهُمْ أَبُو مَنْصُورٍ بَنٍ مَعْرُوفٍ، رَسُولُ صَدَقَةٍ، فَرَدَّهُمُ الْخَلِيفَةُ، وَأَرْسَلَ السُّلْطَانُ مَعَهُمْ قَاضِي أَصْبَهَانَ أَبَا إِسْمَاعِيلَ، فَأَمَّا أَبُو إِسْمَاعِيلَ (٤٤٧/١٠) فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ، وَعَادَ مِنَ الطَّرِيقِ، وَأَصْرَ صَدَقَةَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، فَحَيْثُ سَارَ السُّلْطَانُ، ثَامِنَ رَجَبٍ مِنَ الزَّعْفَرَانِيَّةِ، وَسَارَ صَدَقَةُ فِي عَسَاكِرِهِ إِلَى قَرْيَةِ مَطَرٍ، وَأَمَرَ جُنْدَهُ بِلِبْسِ السِّلَاحِ، وَاسْتَأْمَنَ ثَابِتُ بْنُ سُلْطَانَ بْنِ قُتَيْبِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُزَيْدٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ صَدَقَةٍ، إِلَى السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ، وَكَانَ يَحْسُدُ صَدَقَةَ، وَهُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ أَنَّهُ كَانَ بِوَاسِطِ، فَكَرَّمَهُ السُّلْطَانُ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَوَعَدَهُ الْإِقْطَاعَ.

وَوَرَدَتِ الْعَسَاكِرُ إِلَى السُّلْطَانِ مِنْهُمْ: بَنُو بَرْسَقٍ، وَعِلَاءُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِجَارِ كَرْشَاسَبِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ فَرَاوَزِ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ كَاكُوتِيهِ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا أَصْحَابَ أَصْبَهَانَ، وَفَرَاوَزُ هُوَ الَّذِي سَلَّمَهَا إِلَى طَغْرَلْبَكٍ، وَقُتِلَ أَبُوهُ مَعَ تَشْنِ.

وَعَبَّرَ عَسْكَرُ السُّلْطَانِ دَجْلَةَ، وَلَمْ يَعْبُرْ هُوَ، فَصَارُوا مَعَ صَدَقَةٍ عَلَى أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، بَيْنَهُمَا نَهْرٌ، وَالتَّقَا تَاسِعَ عَشْرِ رَجَبٍ، وَكَانَتْ

بِالْأَمَانِ، وَأَقَطَعَ السُّلْطَانُ، أَوَاخِرَ جَمَادَى الْأُولَى، مَدِينَةَ وَاسِطٍ لِقَسِيمِ الدَّوْلَةِ الْبَرْسَقِيِّ وَأَمَرَ ابْنَ بَوْقًا بِقَصْدِ بَلَدِ صَدَقَةٍ وَنَهَبَهُ، فَنَهَبُوا فِيهِ مَا لَا يُحَدُّ.

وَأَمَّا السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ فَإِنَّهُ سَارَ عَنْ بَغْدَادَ إِلَى الزَّعْفَرَانِيَّةِ، ثَانِي جَمَادَى الْآخِرَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةَ وَزِيرَهُ مَجْدُ الدِّينِ بْنِ الْمُطَّلَبِ بِأَمْرِهِ بِالْتَوَقُّفِ، وَتَرَكَ الْعَجَلَةَ خَوْفًا عَلَى الرَّعِيَّةِ مِنَ الْقَتْلِ وَالنَّهْبِ؛ وَأَشَارَ قَاضِي أَصْبَهَانَ بِذَلِكَ، وَاتَّبَعَ أَمْرَ الْخَلِيفَةِ، فَأَجَابَ السُّلْطَانَ إِلَى ذَلِكَ، فَأَرْسَلَ الْخَلِيفَةَ إِلَى صَدَقَةِ نَقِيبِ النِّقْبَاءِ عَلِيِّ بْنِ طِرَادٍ، وَجَمَالَ الدَّوْلَةَ مَخْصَصًا لِلْخَادِمِ، فَسَارَا إِلَى صَدَقَةٍ فَأَلْبَغَاهُ رِسَالَةَ الْخَلِيفَةِ بِأَمْرِهِ بِطَاعَةِ السُّلْطَانِ، وَبِنَهَايَةِ الْمَخَالَفَةِ، فَاعْتَذَرَ صَدَقَةُ، وَقَالَ: مَا خَالَفْتُ الطَّاعَةَ، وَلَا قَطَعْتُ الْخُطْبَةَ فِي بِلَدِي، وَجَهَّزْتُ ابْنَهُ دُبَيْسًا لِيَسِيرَ مَعَهُمَا إِلَى السُّلْطَانِ.

فَبَيْنَمَا الرِّسْلُ وَصَدَقَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، إِذْ وَرَدَ الْخَبَرُ أَنَّ طَافِقَةً مِنْ عَسْكَرِ السُّلْطَانِ قَدْ عَبَرُوا مِنْ مَطِيرِابَادٍ، وَأَنَّ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَصْحَابِ صَدَقَةٍ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقٍ، فَتَجَلَّدَ صَدَقَةُ لِأَجْلِ الرِّسْلِ، وَهَوَّ يَشْتَهِي الرُّكُوبَ إِلَى أَصْحَابِهِ خَوْفًا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ الرِّسْلُ إِذَا سَمِعُوا ذَلِكَ يَنْكُرُونَهُ لِأَنَّهُمْ قَدْ تَقَدَّمُوا إِلَى الْعَسْكَرِ، عِنْدَ عُبُورِهِمْ عَلَيْهِمْ، أَنَّهُ لَا يَتَعَرَّضُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى حَرْبٍ، حَتَّى نَعُودَ، فَإِنَّ الصِّلَحَ قَدْ قَارَبَ. فَقَالَ صَدَقَةُ لِلرَّسُولِ: كَيْفَ أَثَقُّ أَرْضِي وَلَدِي (٤٤٥/١٠) الْآنَ، وَكَيْفَ أَمْنٌ عَلَيْهِ، وَقَدْ جَرَى مَا تَرَوْنَ؟ فَإِنْ تَكْفَلْتُمْ بِرَدِّهِ إِلَيَّ أَنْفَذْتُهُ، فَلَمْ يَتَجَاسَرُوا عَلَى كِفَالَتِهِ، فَكَتَبَ إِلَى الْخَلِيفَةِ يَعْتَذِرُ عَنْ إِنْفَازِ وَلَدِهِ بِمَا جَرَى.

وَكَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْوَقْعَةِ أَنَّ عَسْكَرَ السُّلْطَانِ لَمَّا رَأَوْا الرِّسْلَ اعْتَقَدُوا وَقُوعَ الصِّلَحِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّأْيُ أَنَّنَا نَنْهَبُ شَيْئًا قَبْلَ الصِّلَحِ، فَأَجَابَ الْبَعْضُ وَامْتَنَعَ الْبَعْضُ، فَغَبِرَ مِنْ أَجَابِ النَّهْرِ، وَلَمْ يَتَأَخَّرْ مِنْ لَمْ يَجِبْ لَثَلًا يُنْسَبُ إِلَى خَوَرٍ وَجْبَنٍ، وَلَثَلًا يَتِمُّ عَلَى مَنْ عَبَّرَ وَهْنٌ، فَيَكُونُ عَارُهُ وَأَذَاهُ عَلَيْهِمْ، فَغَبِرُوا بَعْدَهُمْ أَيْضًا، فَأَتَاهُمْ أَصْحَابُ صَدَقَةٍ وَقَاتَلُوهُمْ، فَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى الْأَتْرَاكِ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ، وَأَسْرُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَغَرِبَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ: الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ بَاغِي سِيَانَ الَّذِي كَانَ أَبَوَهُ صَاحِبَ أَنْطَاكِيَّةٍ، وَكَانَ عُمُرُهُ ثِنفًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ مُحِبًّا لِلْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ، وَبَنَى بِإِقْطَاعِهِ مِنْ أَذْرِبَيْجَانَ عِدَّةَ مَدَارِسَ، وَلَمْ يَجْسُرِ الْأَتْرَاكِ عَلَى أَنْ يَعْرِفُوا السُّلْطَانَ بِمَا أَخَذَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَدْوَابِ خَوْفًا مِنْهُ، حَيْثُ فَعَلُوا ذَلِكَ بِغَيْرِ أَمْرِهِ.

وَوَطِعَ الْعَرَبُ بِهَذِهِ الْهَزِيمَةِ، وَظَهَرَ مِنْهُمْ الْفَخْرُ وَالتَّيَّةُ وَالطَّمَعُ، وَأَظْهَرُوا أَنَّهُمْ بَاعُوا كُلَّ أَسِيرٍ بِدِينَارٍ، وَأَنَّ ثَلَاثَةَ بَاعُوا أَسِيرًا بِخَمْسَةِ قَرَارِيطٍ وَأَكَلُوا بِهَا خَبْزًا وَهَرِيسَةً، وَجَعَلُوا يَنَادُونَ: مَنْ يَتَغَدَّى بِأَسِيرٍ، وَيَتَعَشَّى بِآخَرٍ؟ وَظَهَرَ مِنَ الْأَتْرَاكِ اضْطِرَابٌ عَظِيمٌ.

أحبّت أميرها كحُب رعيّته له.

وكان متواضعاً، محتسلاً، يحفظ الأشعار، ويبادر إلى النادرة، رحمه الله، لقد كان من محاسن الدنيا.

وعاد السلطان إلى بغداد، ولم يصل إلى الجلة، وأرسل إلى البطيحة أماناً لزوجته صدقة، وأمرها بالظهور فأصعدت إلى بغداد، فأطلق السلطان ابنها دُيَّساً، وأنفذ معه جماعة من الأمراء إلى لقائها، فلما لقيها ابنها بكيا بكاء شديداً، ولما وصلت إلى بغداد أحضرها السلطان، واعتذر من قتل زوجها، وقال: وددتُ أنه حمّل إليّ حتّى كنتُ أفعل معه ما يعجب الناس به من الجميل والإحسان، لكنّ الأقدار غلبتني، واستحلف ابنها دُيَّساً أنه لا يسعى بفساد.

ذكر وفاة تميم بن المعزّ صاحب إفريقية وولاية ابنه يحيى

في هذه السنة، في رجب، توفي تميم بن المعزّ بن باديس، صاحب إفريقية، وكان شهماً، شجاعاً، ذكياً، له معرفة حسنة، وكان حليماً، كثير العفو عن (٤٥٠/١٠) الجرائم العظيمة، وله شعر حسن، فمنه أنه وقعت حرب بين طائفتين من العرب، وهم عديّ، ورياح، فقتل رجل من رياح، ثم اصطلحوا، وأهدروا دمه، وكان صلحهم ممّا يضرّ به ويبلّده، فقال أبياتاً يحرّض على الطلب بدمه، وهي:

مَنى كاتتَ دِمائُكم تُطيلُ أما فيكمُ بشأْرُ سُتَيْلُ
اغنامُ ثمّ سالمُ إن فيلتمُ فما كانت أو اللكم تَنيلُ
وينتمُ عن طلّاب الثأْرِ حتّى كان البرز فيكم مُضْجِلُ
وما كترتمُ فيه القوالي، ولا يبيضُ ثَمْلُ، ولا تُسلُ
فعمد إخوة المقتول قتلوا أميراً من عديّ، واشتدّ بينهم القتال، وكثرت القتلى، حتّى أخرجوا بني عديّ من إفريقية.

قيل: إنه اشترى جارية بشمن كثير، فبلغه أنّ مولاها الذي باعها ذهب عقله وأسف على فراقها، فأحضره تميم إلى بين يديه، وأرسل الجارية إلى داره، ومعه من الكسوات، والأواني الفضة، وغيرها، ومن الطيب، وغيره، شيء كثير، ثم أمر مولاها بالانصراف، وهو لا يعلم بذلك، فلما وصل إلى داره ورأها على تلك الحال وقع مغشياً عليه لكثرة سروره، ثم أفاق، فلما كان الغد أخذ الثمن، وجميع ما كان معها، وحمله إلى دار تميم، فانتهره، وأمره بإعادة جميع ذلك إلى داره.

وكان له في البلاد أصحاب أخبار يُجري عليهم أرزاقاً سنّية ليطالعوهم بأحوال أصحابه لئلا يظلموا الناس، فكان بالقيروان تاجر له مال وثروة، فذكر في بعض الأيام تجار تميم، ودعوا له، وذلك التاجر حاضر، فترحم على أبيه المعزّ، ولم يذكره، فزُفّع ذلك إلى

الريح في وجوه أصحاب السلطان، فلما التقوا صارت في ظهورهم، وفي وجوه أصحاب صدقة، ثم إن الأتراك رموا بالنشاب، فكان يخرج في كلّ رشقة عشرة آلاف نشابة، فلم يقع سهم إلا في فرس أو فارس، وكان أصحاب صدقة كلّما حملوا منهم النهر من الوصول إلى الأتراك والنشاب، ومن عبر منهم لم يرجع وتفاعدت عبادة وخفاجة، وجعل صدقة ينادي: يا آل خزيمة، يا آل ناشرة، يا آل عوف؛ ووعد الأكراد بكلّ جميل لما ظهر من شجاعته، وكان ركباً على فرسه المهلوب، ولم يكن لأحد مثله، فجرح الفرس ثلاث جراحات، وأخذته الأمير أحمديل بعد قتل صدقة، فسبّره إلى بغداد في سفينة، فمات في الطريق.

وكان لصدقة فرس آخر قد ركب حاجبه أبو نصر بن قفاجة، فلما رأى (٤٤٨/١٠) الناس وقد غشوا صدقة هرب عليه، فناداه صدقة، فلم يجبه، وحمل صدقة على الأتراك، وضربه غلام منهم على وجهه فشوّه، وجعل يقول: أنا ملك العرب، أنا صدقة! فأصابه سهم في ظهره، وأدركه غلام اسمه بزغش، كان أشمل، فتعلّق به، وهو لا يعرفه، وجذبه عن فرسه، فسقط إلى الأرض هو والغلام، فعرفه صدقة، فقال: يا بزغش ارفق؛ فضربه بالسيف فقتله، وأخذ رأسه وحمله إلى البرسقي، فحمله إلى السلطان، فلما رآه عاتقه، وأمر لبزغش بصلّو.

وبقي صدقة طريحاً إلى أن سار السلطان، فدفته إنسان من المدائن. وكان عمره تسعاً وخمسين سنة، وكانت إمارته إحدى وعشرين سنة، وحمل رأسه إلى بغداد، وقُتل من أصحابه ما يزيد على ثلاثة آلاف فارس، فيهم جماعة من أهل بيته، وقُتل من بني شيبان خمسة وتسعون رجلاً، وأمر ابنه دُيَّس بن صدقة، وسرخاب بن كيخسرو الديلمي الذي كانت هذه الحرب بسببه، فأحضر بين يدي السلطان، فطلب الأمان، فقال: قد عاهدت الله أنني لا أقتل أسيراً، فإن ثبت عليك أنك باطني قتلتك؛ وأسر سعيد بن حميد العمريّ، صاحب جيش صدقة، وهرب بدران بن صدقة إلى الجلة، فأخذ من المال وغيره ما أمكنه، وسير أمّه ونساءه إلى البطيحة إلى مذهب الدولة أبي العباس أحمد ابن أبي الحبر، وكان بدران صهر مذهب الدولة على ابنته، ونهب من الأموال ما لا حدّ عليه.

وكان له من الكتب المنسوبة الخطّ شيء كثير، السوف مجلّدات، وكان (٤٤٩/١٠) يحسن يقرأ، ولا يكتب، وكان جواداً، حليماً، صدوقاً، كثير البرّ والإحسان، ما برح ملجأ لكلّ ملهوف، يلقي من يقصده بالبرّ والتفضّل، ويسقط قاصديه، ويزورهم، وكان عادلاً، والرعايا معه في أمن ودعة، وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته، ولا تسرى عليها، فما ظنك بغير هذا؟ ولم يصادر أحداً من نوابه، ولا أخذهم بإساءة قديمة، وكان أصحابه يودعون أموالهم في خزائنه، ويدلون عليه إدلال الولد على الوالد، ولم يُسمع برعيّة

توفي في هذه السنة، في شعبان، إبراهيم بن مياس بن مهدي أبو إسحاق القشيريّ الدمشقيّ، سمع الحديث الكثير من الخطيب البغداديّ وغيره.

وتوفي في ذي القعدة أبو سعيد إسماعيل بن عمرو بن محمد التيسابوريّ المحدث، كان يقرأ الحديث للغرباء، قرأ صحيح مسلم على عبد الخافر القارسيّ عشرين مرة. (٤٥٧/١٠)

سنة اثنتين وخمسمائة

ذكر استيلاء مودود وعسكر السلطان على الموصل وولاية مودود في هذه السنة، في صفر، استولى مودود، والعسكر الذي أرسله السلطان معه، على مدينة الموصل، وأخذوها من أصحاب جاولي سقاوو، وقد ذكرنا سنة خمسمائة استيلاء جاولي عليها، وما جرى بينه وبين جكرمش والملك قلعج أرسلان، وهلاكهما على يده، وصار معه بعد ذلك العسكر الكثير، والعدة الثامنة، والأموال الكثيرة، وكان السلطان محمد قد جعل إليه ولاية كلّ بلد يفتحها، فاستولى على كثير من البلاد والأموال.

وكان سبب أخذ البلاد منه: أنه لما استولى عليها، وعلى الأموال الكثيرة منها، لم يحمل إلى السلطان منها شيئاً، فلما وصل السلطان إلى بغداد، لقصد بلاد سيف الدولة صدقة، أرسل إلى جاولي يستدعيه إليه بالعساكر، وكرّر الرسل إليه، فلم يحضر، وغالط في الانحذار إليه، وأظهر أنه يخاف أن يجتمع به، ولم يتّسع بذلك، حتى كاتب صدقة، وأظهر له أنه معه، ومُساعدته على حرب السلطان، وأطمعه في الخلاف والعصيان.

فلما فرغ السلطان من أمر صدقة، وقتله، كما ذكرناه، تقدّم إلى الأمراء بني برسق، وسكمان القطبيّ، ومودود بن التوتكين، وأقسقر البرسقيّ، ونصر (٤٥٨/١٠) ابن مهلهل بن أبي الشوك الكرديّ، وأبي الهيجاء، صاحب إربل، بالمسير إلى الموصل، وبلاد جاولي، وأخذها منه، فتوجهوا نحو الموصل، فوجدوا جاولي عاصياً قد شيد سور الموصل، وأحكم ما بناه جكرمش، وأعدّ الميرة والأقوات والآلات، واستظهر على الأعيان بالموصل، فحبسهم، وأخرج من أحداثها ما يزيد على عشرين ألفاً، ونادى: متى اجتمع عاتيان على الحديث في هذا الأمر قتلتهما؛ وأخرج عن البلد، ونهب السواد.

وترك بالبلد زوجته ابنة برسق، وأسكنها القلعة، ومعها ألف وخمسمائة فارس من الأتراك سوى غيرهم، وسوى الرجال، ونزل العسكر عليها في شهر رمضان سنة إحدى وخمسمائة، وصادرت زوجته من بقي بالبلد، وعسفت نساء الخارجين عنه، وبالغت في الاحتراز عليهم، فأوحشهم ذلك، ودعاهم إلى الانحراف عنها،

والمكوس، ودار البيع، والاجتازات، وغير ذلك ممّا يناسبه بالعراق، وكتب به الألواح، وجُعِلت في الأسواق.

وفيهما، في شهر رمضان، ولي القاضي أبو العباس بن الرطبي الحسبة ببغداد.

وفيه أيضاً عزل الخليفة وزيره مجد الدين بن المطلّب برسالة من السلطان بذلك، ثم أعيد إلى الوزارة بإذن السلطان، وشرط عليه شروطاً منها: العدل، وحسن السيرة، وأن لا يستعمل أحداً من أهل الدّمة. (٤٥٥/١٠)

وفيهما عاد أصبهان صباوة من دمشق، وكان هرب عند قتل إيزاز، فلما قدم أكرمه السلطان، وأقطعه رجة مالك بن طوق.

وفيهما، سابع شوال، خرج السلطان إلى ظاهر بغداد، عازماً على العود إلى أصبهان، وكان مقامه هذه المرة خمسة أشهر وسبعة عشر يوماً.

وفيهما، في ذي الحجة، احترقت خرابة ابن جردة، فهلك فيها كثير من الناس، وأمّا الأمتعة والأموال، وأثاث البيوت، فهلك ما لا حدّ عليه، وخلص خلق بنقب نقيوه في سور المحلة إلى مقبرة باب أبرز، وكان بها جماعة من اليهود، فلم ينقلوا شيئاً لتمسكهم بسببهم؛ وكان بعض أهله قد عبروا إلى الجانب الغربيّ للفرجة، على عادتهم في السبت الذي يلي العيد، فعادوا فوجدوا بيوتهم قد خربت، وأهلهم قد احترقوا، وأموالهم قد هلك.

ثم تبع ذلك حريق في عدّة أماكن منها: درب القيّار، وقراح ابن ززين، فارتاع الناس لذلك، وطلّوا معاشهم، وأقاموا ليلاً ونهاراً يحرصون بيوتهم في السدروب، وعلى السطوح، وجعلوا عندهم الماء المعدّ لإطفاء النار، فظهر أنّ سبب هذا الحريق أنّ جارية أحبت رجلاً، فوافقت على المبيت عندها في دار مولاهم سراً، وأعدّت له ما يسرقه إذا خرج، وبأخذها هي أيضاً معه، فلما أخذها طرخا النار في الدار، فخرجوا، فأظهر الله عليهما، وعجّل الفضيحة لهما، فأخذوا وخبسا.

وفيهما جمع بغدوين ملك الفرنج عسكره وقصد مدينة صور وحصرها، وأمر ببناء حصن عندها، على تلّ المعشوقة، وأقام شهراً محاصراً لها، فصانعه (٤٥٦/١٠) واليهما على سبعة آلاف دينار، فأخذها ورحل عن المدينة، وقصد مدينة صيدا، فحصرها برّاً وبحراً ونصب عليها البرج الخشب، ووصل الأسطول المصريّ في الدفع عنها، والحماية لمن فيها، فقاتلهم أسطول الفرنج، فظهر المسلمون عليهم، فأتصل بالفرنج مسير عسكر دمشق نجدة لأهل صيدا، فرحلوا عنها بغير فائدة.

وفيهما ظهر كوكب عظيم له ذوائب، فبقي ليالي كثيرة ثم غاب.

ذكر إطلاق جاولي للقَمَص الفرنجي

لَمَّا هرب إيلغازي من جاولي سار جاولي إلى الرُّجبة، فلمَّا وصل إلى مَكايسين أطلق القَمَص الفرنجي، الذي كان أسيراً بالموصل، وأخذ معه، واسمه بردويل، وكان صاحب الرُّها وسُروج وغيرهما، وبقي في الحبس إلى الآن، وبذل الأموال الكثيرة، فلم يُطَلَقْ، فلمَّا كان الآن أطلقه جاولي، وخلع عليه، وكان مقامه في السجن ما يقارب خمس سنين، وقرَّر عليه أن يفدي نفسه بمال، وأن يطلق أسرى المسلمين الذين في سجنه، وأن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله.

فلَمَّا اتَّفَقَا على ذلك سَير القَمَص إلى قلعة جَعْبَر، وسَلَّمَه إلى صاحبها سالم بن مالك، حتَّى ورد عليه ابن خالته جوسلين، وهو من فرسان الفرنج وشجعانها، وهو صاحب تلِّ باغبر وغيره، وكان أسر مع القَمَص في تلك الواقعة، ففدى نفسه بعشرين ألف دينار، فلمَّا وصل جوسلين إلى قلعة جَعْبَر أقام رهينةً عوض القَمَص، وسار إلى أنطاكية، وأخذ جاولي جوسلين من قلعة جَعْبَر فأطلقه، وأخذ عرضه أخا زوجته، وأخا زوجة القَمَص، وسَيره إلى القَمَص ليقوى به، وليحثه على إطلاق الأسرى، وإنفاذ المال وما ضمنه، فلمَّا وصل جوسلين إلى مَنبج أغار عليها ونهبها، وكان معه جماعة من أصحاب جاولي، فأنكروا عليه ذلك، ونسبوه إلى الغدر، فقال: إن هذه المدينة ليست لكم. (٤٦١/١٠)

ذكر ما جرى بين هذا القَمَص وبين صاحب أنطاكية

لَمَّا أطلق القَمَص وسار إلى أنطاكية أعطاه طنكري صاحبها ثلاثين ألف دينار، وخيلاً، وسلاحاً، وثياباً، وغير ذلك؛ وكان طنكري قد أخذ الرُّها من أصحاب القَمَص حين أسر، فخطابه الآن في رَدِّها عليه، فلم يفعل، فخرج من عنده إلى تلِّ باغبر فلمَّا قدم عليه جوسلين، وقد أطلقه جاولي، سرَّه ذلك، وفرح به.

وسار إليهما طنكري، صاحب أنطاكية، بعساكره ليحاربهما، قبل أن يقوى أمرهما، ويجمعا عسكراً، ولتحتق بهما جاولي وينجدهما، فكانوا يقتلون، فإذا فرغوا من القتال اجتمعوا وأكل بعضهم مع بعض وتحدَّثوا.

وأطلق القَمَص من الأسرى المسلمين مائة وستين أسيراً كلَّهم من مَنبج حلب، وكساهم وسيَّره.

وعاد طنكري إلى أنطاكية من غير فصل حال في معنى الرُّها، فسار القَمَص وجوسلين وأغاروا على حصون طنكري، صاحب أنطاكية، والتجأ إلى ولاية كواسيل، وهو رجل أرمني، ومعه خلق كثير من المرتدين وغيرهم، وهو صاحب رَعْبَان، وكِسُوم، وغيرهم من القلاع، شمالي حلب، فأنجد القَمَص بألف فارس من

وقرَّتل أهل البلد قتلاً متتابعاً، فتمادى الحصار بأهلها من خارج، والظلم من داخل إلى آخر المحرَّم، والجند بها يمتنعون عاقبياً من القرب من السور.

فلَمَّا طال الأمر على الناس، اتَّفَق نفر من الجصاصين، ومقدمهم جصاص يُعرف بسعدي، على تسليم البلد، وتحالفوا على التساعد، وأتوا وقت صلاة الجمعة، والناس بالجامع، وصعدوا برجاً، وأغلَقوا أبوابه، وقتلوا من به من الجند، وكانوا نياماً، فلم يشعروا بشيء، حتَّى قُتلوا، وأخذوا سلاحهم، والقوهوم إلى الأرض، وملكوا برجاً آخر.

ووقعت الصيحة، وقصدهم مائتا فارس من العسكر، ورموهم بالشَّاب، وهم يقاتلون، وينادون بشعار السلطان، فزحف عسكر السلطان إليهم، ودخلوا البلد من ناحيتهم، وملكوه، ودخله الأمير مودود، ونودي بالسكون والأمن، وأن يعود الناس إلى دورهم وأملأهم، وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية (٤٥٩/١٠) أيام، وراسلت الأمير مودود أن يفرج لها عن طريقها، وأن يحلف لها على الصيانة والحراسة، فحلف، وخرجت إلى أخيها برسق بن برسق، ومعها أموالها وما استولت عليه، وولي مودود الموصل وما ينضاف إليها.

ذكر حال جاولي مدة الحصار

وأما جاولي فإنَّه لَمَّا وصل عسكر السلطان إلى الموصل، وحصَّرها، سار عنها، وأخذ معه القَمَص، صاحب الرُّها، الذي كان قد أسره سُقمان وأخذَه منه جكرمش، وقد ذكرنا ذلك، وسار إلى نصيبين، وهي حيشة للأمير إيلغازي بن أرئق، وراسله، وسأله الاجتماع به، واستدعاه إلى مُعاضدته، وأن يكونا يداً واحدة، وأعلمه أنَّ خوفهما من السلطان ينبغي أن يجمعهما على الاحتماء منه. فلم يجبه إيلغازي إلى ذلك، ورحل عن نصيبين، ورَّكب بها ولده، وأمره بحفظها من جاولي، وأن يقاتله إن قصده، وسار إلى ماردين.

فلَمَّا سمع جاولي ذلك عدل عن نصيبين، وقصد داراء وأرسل إلى إيلغازي ثانياً في المعاني، وسار بعد الرسول، فبينما رسوله عند إيلغازي بماردين، لم يشعر إلا وجاولي معه في القلعة وحده، قصد أن يتألفه ويستميله، فلمَّا رآه إيلغازي قام إليه وخدمه؛ ولمَّا رأى جاولي مُحسناً للظنِّ فيه، غير مستشعر منه، لم يجد إلى دفعه سبيلاً، فنزل معه، وعسكروا بظاهر نصيبين، وساروا منها إلى مَنبج، وحاصراها مدة، فلم يجبهما إلى صلح، فتركاه وسارا نحو الرُّجبة، وإيلغازي يُظهر لجاولي المساعدة، ويظن الخلاف، ويتنظر فرصة (٤٦٠/١٠) لينصرف عنه، فلمَّا وصلا إلى عرابان، من الخابور، هرب إيلغازي ليلاً وقصد نصيبين.

المرتدين، والفني راجل، فقصدهم طنكري، فتنازعوا في أمر الرُّهّا، فتوسط بينهم البطرّك الذي لهم، وهو عتدهم كالإمام الذي للمسلمين، لا يخالف أمره، وشهد جماعة من المطارنة والقسيسين: أنّ يُمْنَدُ خال طنكري قال له، لَمّا أراد ركوب البحر، والعود إلى بلاده، (٤٦٢/١٠) ليعيد الرُّهّا إلى القمّص، إذا خلص من الأسر، فأعادها عليه طنكري تاسع صفر، وعبر القمّص الفرات، ليسلم إلى أصحاب جاولي المال، والأسرى، فأطلق في طريقه خلقاً كثيراً من الأسرى من حرّان وغيرها.

وكان بسروج ثلاثمائة مسلم ضعفى، فعمّر أصحاب جاولي مساجدهم، وكان رئيس سروج مسلماً قد ارتد، فسمعه أصحاب جاولي يقول في الإسلام قولاً شنيعاً، فضربوه، وجرى بينهم وبين الفرنج بسببه نزاع، فذكر ذلك للقمّص، فقال: هذا لا يصلح لنا ولا للمسلمين؛ فقتله.

ذكر حال جاولي بعد إطلاق القمّص

لَمّا أطلق جاولي القمّص بماكيسين سار إلى الرُّحبة، فأتاه أبو النجم بدران، وأبو كامل منصور، ابنا سيف الدولة صدقة، وكانا، بعد قتل أبيهما بقلعة جعفر، عند سالم بن مالك، فتعاهدوا على المساعدة والمعاضدة، ووعدهما أنّه يسير معهما إلى الحجلة، وعزموا أن يقدّموا عليهم بكتاش بن تكش بن ألب أرسلان، فوصل إليهم، وهم على هذا العزم، أصبّه صباوة، وكان قد قصد السلطان فأقطعه الرُّحبة وقد ذكرناه، فاجتمع بجاولي، وأشار عليه أن يقصد الشام، فإنّ بلاده خالية من الأجناد، والفرنج قد استولوا على كثير منها، وعرفه أنّه متى قصد العراق، والسلطان بها، أو قريباً منها، لم يأمن شراً يصل إليه. فقبل قوله، وأصعد عن الرُّحبة، فوصل إليه رسل سالم بن مالك، صاحب (٤٦٣/١٠) قلعة جعفر، يستغيث به من بني نمير، وكانت الرُّقة بيد ولده عليّ بن سالم، فوثب جوشن النُميري، ومعه جماعة من بني نمير، فقتل عليّاً وملك الرُّقة.

فبلغ ذلك الملك رضوان، فسار من حلب إلى صقّين، فصادف تسعين رجلاً من الفرنج معهم مال من فدية القمّص، صاحب الرُّهّا، قد سيّره إلى جاولي، فأخذه، وأسر عدداً منهم، وأتى الرُّقة، فصالحه بنو نمير على مال، فرحل عنهم إلى حلب، فاستجد سالم بن مالك جاولي، وسأله أن يرسل إلى الرُّقة ويأخذها، ووعده بما يحتاج إليه، فقصد الرُّقة، وحصرها سبعين يوماً، فضمن له بنو نمير مالاً وخيلاً، فأرسل إلى سالم: إنني في أمر أهمّ من هذا، وأنا بإزاء عدوّ، ويجب التشاغل به دون غيره، وأنا عازم على الانحدار إلى العراق، فإنّ تمّ أمري فالرُّقة وغيرها لك، ولا اشتغل عن هذا المهمّ بحصار خمسة نفر من بني نمير.

ووصل إلى جاولي الأمير حسين بن أتابك قتلغ تكين، وكان أبوه أتابك السلطان محمّد، فقتله، وتقدّم ولده هذا عند السلطان، واختصّ به، فسيّره السلطان مع فخر الملك بن عمّار ليصلح الحال مع جاولي، ويأمر العساكر بالمسير مع ابن عمّار إلى جهاد الكفار، فحضر عند جاولي، وأمر بتسليم البلاد، وطيب قلبه عن السلطان، وضمن الجميل، إذا سلّم البلاد، وأظهر الطاعة والعبودية، فقال جاولي: أنا مملوك السلطان، وفي طاعته، وحمل إليه مالاً وثياباً لها مقدار جليل، وقال له: ميز إلى الموصل ورجل العسكر عنها، فإني أرسل معك من سلّم ولدي إليك رهينة، وينفذ السلطان إليها من يتولّى أمرها (٤٦٤/١٠) وجباية أموالها؛ ففعل حسين ذلك، وسار معه صاحب جاولي، فلمّا وصلا إلى العسكر الذي على الموصل، وكانوا لم يفتحوها بعد، أمرهم حسين بالرحيل، فكلمهم أجاب، إلاّ الأمير مودود قائنه قال: لا أرحل إلاّ بأمر السلطان؛ وقبض على صاحب جاولي، وأقام على الموصل، حتّى فتحها كما ذكرناه.

وعاد حسين بن قتلغ تكين إلى السلطان، فأحسن النياية عن جاولي عنده، وسار جاولي إلى مدينة بابس، فوصلها ثالث عشر صفر، فاحتفى أهلها منه، وهرب من بها من أصحاب الملك رضوان، صاحب حلب، فحصرها خمسة أيام، وملكها بعد أن نقب برجاً من أبراجها، فوقع على الثّقابين، فقتل منهم جماعة، وملك البلد، وصلب جماعة من أعيانه عند النقب، وأحضر القاضي محمّد بن عبد العزيز بن إلياس فقتله، وكان فقيهاً صالحاً، ونهب البلد، وأخذ منه مالاً كثيراً.

ذكر الحرب بين جاولي والفرنج

وفي هذه السنة، في صفر، كان المصاف بين جاولي سقاوو وبين طنكري الفرنجي؛ صاحب أنطاكية.

وسبب ذلك أنّ الملك رضوان كتب إلى طنكري، صاحب أنطاكية يعرفه ما هو جاولي عليه من الغدر، والمكر، والخداع، ويحذره منه، ويعلمه أنّه على قصد حلب، وأنّه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام، وطلب منه النصرة، والاتفاق على منعه، فأجابه طنكري إلى منعه ويرز من أنطاكية، فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس، فلمّا سمع جاولي الخبر أرسل إلى القمّص، (٤٦٥/١٠) صاحب الرُّهّا، يستدعيه إلى مساعدته، وأطلق له ما بقي عليه من مال المفاداة، فسار إلى جاولي فلقى به، وهو على متبج، فوصل الخبر إليه، وهو على هذه الحال، بأنّ الموصل قد استولى عليها عسكر السلطان وملكوا خزائنه وأمواله، فاشتد ذلك عليه، وفارقه كثير من أصحابه منهم أتابك زنكي بن آقستقر، وبكتاش الهواندي، وبقي جاولي في ألف فارس، وانضمّ إليه خلق من المطوّعة، فنزل بتلّ باشر.

وسبها أن طغتكين سار إلى طبرية، وقد وصل إليها ابن أخت بغدوين الفرنجي، ملك القدس، فتحاربا واقتلا، وكان طغتكين في القي فارس، وكثير من الرجالة، وكان ابن أخت ملك الفرنج في أربعمائة فارس، والقي راجل.

فلما اشتد القتال انهزم المسلمون، فترجل طغتكين، ونادى بالمسلمين، وشجعهم، فعاودوا الحرب، وكسروا الفرنج، وأسروا ابن أخت الملك، وحمل إلى طغتكين، فعرض طغتكين عليه الإسلام، فامتنع منه، وبذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار، وإطلاق خمسمائة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الإسلام، فلما لم يجب قتله بيده، وأرسل إلى الخليفة والسلطان الأسرى، ثم اصطلح طغتكين وبغدوين ملك الفرنج على وضع الحرب أربع سنين، وكان ذلك من لطف الله تعالى بالمسلمين، ولولا هذه الهدنة لكان الفرنج بلغوا من المسلمين، بعد الهزيمة الآتية ذكرها، أمراً عظيماً.

ذكر انهزام طغتكين من الفرنج

في هذه السنة، في شعبان، انهزم أتابك طغتكين من الفرنج.

وسبب ذلك أن حصن عرقه، وهو من أعمال طرابلس، كان بيد غلام للقااضي فخر الملك أبي علي بن عمار، صاحب طرابلس، وهو من الحصون (٤٦٨/١٠) المنيعة، فعصى على مولاه، فضاقت به القوت، وانقطعت عنه الميرة، لطول مكث الفرنج في نواحيه، فأرسل إلى أتابك طغتكين، صاحب دمشق، وقال له: أرسل من يتسلم هذا الحصن مني، قد عجزت عن حفظه، ولأن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخره من أن يأخذه الفرنج، فبعث إليه طغتكين صاحباً له، اسمه إسرائيل، في ثلاثمائة رجل، فتسلم الحصن، فلما نزل غلام ابن عمار منه رماه إسرائيل، في الأخلاط، بسهم فقتله، وكان قصده بذلك أن لا يطلع أتابك طغتكين على ما خلفه بالقلعة من المال.

وأراد طغتكين قصد الحصن للاطلاع عليه، وتقويه بالعساكر، والأقوات، وآلات الحرب، فنزل الغيث والثلج مدة شهرين، ليلاً ونهاراً، فمعه، فلما زال ذلك سار في أربعة آلاف فارس، ففتح حصوناً للفرنج، منها حصن الأكمة، فلما سمع السرداني الفرنجي بمجيء طغتكين، وهو على حصار طرابلس، توجه في ثلاثمائة فارس، فلما أشرف أوتال أصحابه على عسكر طغتكين انهزموا، وخلو أتلهم ورحالهم ودوابهم للفرنج، فغنموا، وقوا به، وزاد في تجملهم.

ووصل المسلمون إلى حصن، على أتبج من التقطع، ولم يقتل منهم أحد لأنه لم تجز حرب، وقصد السرداني إلى عرقه، فلما نالها طلب من كان بها الأمان، فأمتمهم على نفوسهم، وتسلم

وقاربهم طنكري، وهو في ألف وخمسمائة فارس من الفرنج، وستمائة من أصحاب الملك رضوان، سوى الرجالة، فجعل جاوли في ميمته الأمير أقيان، والأمير التوتناش الابري، وغيرهما، وفي الميسرة الأمير بدران ابن صدقة، وأصبيد صباوة، وسنقر دراز، وفي القلب القمص بغدوين، وجوسلين الفرنجين، ووقعت الحرب، فحمل أصحاب أنطاكية على القمص، صاحب الرها، واشتب القتال، فازاح طنكري القلب عن موضعه، وحملت ميسرة جاوли على رجالة صاحب أنطاكية، فقتلت منهم خلقاً كثيراً، ولم يبق غير هزيمة صاحب أنطاكية، فحينئذ عمد أصحاب جاوли إلى جنائب القمص، وجوسلين، وغيرهما من الفرنج، فركبوا وانهزموا، فمضى جاولي وراهم ليردهم، فلم يرجعوا، وكانت طاعته قد زالت عنهم حين أخذت الموصل منه، فلما رأى أنهم لا يعودون معه أهمته نفسه، وخاف من المقام، فانهزم، وانهزم باقي عسكره.

فأما أصبيد فسار نحو الشام، وأما بدران بن صدقة فسار إلى قلعة جعبر، وأما ابن جكرمش فقصد جزيرة ابن عمر، وأما جاولي (٤٦٦/١٠) فقصد الرحبة، وقتل من المسلمين خلق كثير، ونهب صاحب أنطاكية أموالهم وأثقالهم، وعظم البلاء عليهم من الفرنج، وهرب القمص، وجوسلين إلى تل باشر والتجأ إليهما خلق كثير من المسلمين، ففعلا معهم الجميل، ودأوا الجرحى، وكسوا العراة، وسيراهم إلى بلادهم.

ذكر عود جاولي إلى السلطان

لما انهزم جاولي سقاو قصد الرحبة، فلما قاربها بات دونها في عدة فوارس، فاتفق أن طائفة من عسكر الأمير مودود، الذين أخذوا الموصل منه، أغاروا على قوم من العرب يجاورون الرحبة، فقاربوا جاولي ولا يشعرون به، ولو علموا لأخذوه.

فلما رأى الحال كذلك، علم أنه لا يقدر [أن] يقيم بالجزيرة، ولا بالشام، ولا يقدر على شيء يحفظ به نفسه، ويرجع إليه، ويدأوي به مرضه، غير قصد باب السلطان محمد عن رغبة واختيار، وكان واقفاً بالأمير حسين بن قتلغتكين، فرحل من مكانه وهو خائف خزي، قد أخفى شخصه وكم أمره، وسار إلى عسكر السلطان، وكان بالقرب من أصبهان، فوصل إليه في سبعة عشر يوماً من مكانه لجدّه في السير، فلما وصل المعسكر قصد الأمير حسيناً، فحمّله إلى السلطان، فدخل إليه وكفنه تحت يده، فأمته، وأتاه الأمراء يهتونه بذلك، وطلب منه السلطان الملك بكناش بن تكش، فسلمه إليه، فاعتقله بأصبهان. (٤٦٧/١٠)

ذكر الحرب بين طغتكين والفرنج والهندة بعدها

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين طغتكين أتابك والفرنج،

الحصن، فلما خرج من فيه قبض على إسرائيل، وقال: لا أطلقه إلا بإطلاق فلان، وهو أسير كان بدمشق من الفرنج، منذ سبع سنين، ففودي به وأطلقا معاً. (٤٦٩/١٠)

ولما وصل طغتكين إلى دمشق، بعد الهزيمة، أرسل إليه ملك القدس يقول له: لا تظن أنني أنقض الهدنة للذي تمّ عليك من الهزيمة، فالملوك ينالهم أكثر ممّا نالك، ثم تعود أمورهم إلى الانتظام والاستقامة، وكان طغتكين خائفاً أن يقصده بعد هذه الكسرة فينال من بلده كل ما أراد.

ذكر صلح السنة والشعبة ببغداد

في هذه السنة، في شعبان، اصطلاح عامة بغداد السنة والشعبة، وكان الشرّ منهم على طول الزمان، وقد اجتهد الخلفاء والسلاطين، والشحن في إصلاح الحال، فتعذر عليهم ذلك، إلى أن أذن الله تعالى فيه، وكان بغير واسطة.

وكان السبب في ذلك أنّ السلطان محمداً لما قتل ملك العرب صدقة، كما ذكرناه، خاف الشيعة ببغداد، أهل الكرخ وغيرهم، لأنّ صدقة كان يتشيع هو وأهل بيته، فشنع أهل السنة عليهم بأنهم نالهم غمّ وهم لقتله، فخاف الشيعة، وأغضوا على سماع هذا، ولم يزلوا خائفين إلى شعبان، فلما دخل شعبان تجهّز السنة لزيارة قبر مُصعب بن الزبير، وكانوا قد تركوا ذلك سنين كثيرة، ومنعوا منه لتقطع الفتن الحادثة بسببه.

فلما تجهّزوا للمسیر، اتفقوا على أن يجعلوا طريقهم في الكرخ، فآظفروا ذلك، فاتفق رأي أهل الكرخ على ترك معارضتهم، وأنهم لا يمنعونهم، فصارت السنة تسير أهل كل محلّة منفردين، ومعهم من الزينة والسلاح شيء كثير، وجاء أهل باب المراتب، ومعهم فيل قد عمل من خشب، وعليه الرجال بالسلاح، وقصدوا جميعهم الكرخ لعبروا فيه، فاستقبلهم أهله بالبخور (٤٧٠/١٠) والطيب، والماء المبرّد، والسلاح الكثير، وأظهروا بهم السرور، وشيوعهم حتى خرجوا من المحلّة.

وخرج الشيعة، ليلة النصف منه، إلى مشهد موسى بن جعفر وغيره، فلم يعترضهم أحد من السنة، فعجب الناس لذلك، ولما عادوا من زيارة مُصعب لقيهم أهل الكرخ بالفرح والسرور، فاتفق أن أهل باب المراتب انكسر فيلهم عند قنطرة باب حرب، فقرأ لهم قوم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] إلى آخر السورة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عاد منصور بن صدقة بن مزّيد إلى باب السلطان، فتقبّله وأكرمه، وكان قد هرب، بعد قتل والده، إلى الآن،

والتحق أخوه بدران بن صدقة بالأمير مودود الذي أقطعه السلطان الموصل، فأكرمه وأحسن صحبته.

وفيهما، في نيسان، زادت دجلة زيادة عظيمة، وتقطّعت الطرق، وغرقت الغلات الشتويّة والصيفيّة، وحدث غلاء عظيم بالعراق، بلغت كارة الدقيق الخشكار عشرة دنائير إماميّة، وغدم الخبز رأساً، وأكل الناس التمر والبقلاء الخضراء، وأمّا أهل السواد فإنهم لم ياكلوا جميع شهر رمضان، ونصف شوال، سوى الحشيش والتوت.

وفيهما، في رجب، عُزل وزير الخليفة أبو المعالي هبة الله بن المطّلب، ووزر (٤٧١/١٠) له أبو القاسم عليّ بن أبي نصر بن جهمير.

وفيهما، في شعبان، تزوّج الخليفة المستظهر بالله ابنة السلطان ملكشاه، وهي أخت السلطان محمّد، وكان الذي خطب النكاح القاضي أبو العلاء صاعد بن محمّد النيسابوري، الحنفي، وكان المتولّي لقبول العقد نظام الملك أحمد ابن نظام الملك، وزير السلطان، بوكالة من الخليفة، وكان الصداق مائة ألف دينار، ونُثرت الجواهر والدنانير، وكان العقد بأصبهان.

وفيهما تولّى مجاهد الدين بهروز شحنيّة بغداد، وكان سبب ذلك أنّ السلطان محمداً كان قبض على أبي القاسم الحسين بن عبد الواحد، صاحب المخزن وعلى أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، واعتقلهما عنده، ثم أطلقهما الآن، وقرّر عليهما مالاً يحملانه إليه، فأرسل مجاهد الدين بهروز لقبض المال، وأمره السلطان بعمارة دار المملكة، ففعل ذلك، وعمر الدار، وأحسن إلى الناس، فلما قدم السلطان إلى بغداد ولأه شحنيّة العراق جميعه، وخلع على سعيد بن حميد العمري، صاحب جيش صدقة، ولأه الجلّة السيّفة، وكان صارماً، حازماً، ذا رأي وجلّد.

وفيهما، في شوال، ملك الأمير سكمان القطبي، صاحب خلاط، مدينة ميّافارقين بالأمان، بعد أن حصرها وضيق على أهلها عدّة شهور، قعدت الأقوات بها، واشتدّ الجوع بأهلها فسلموها.

وفي هذه السنة، في صفر، قُتل قاضي أصبهان عبيد الله بن عليّ الخطيبي بهمدان، وكان قد تجرّد، في أمر الباطنيّة، تجرّداً عظيماً، وصار يلبس درعاً حذراً منهم، ويحسّط، ويحترز، فقصده إنسان عجمي، يوم جمعة، (٤٧٢/١٠) ودخل بينه وبين أصحابه فقتله؛ وقُتل صاعد بن محمّد بن عبد الرحمن أبو العلاء قاضي نيسابور، يوم عيد الفطر، قتله باطني، وقُتل الباطني، ومولده سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وسمع الحديث، وكان حنفي المذهب.

وفي هذه السنة سار قتل عظيم من دمشق إلى مصر، فأثنى الخبر إلى ملك الفرنج، فسار إليه وعارضه في البر، وأخذ كل من

فيه، ولم يسلم منهم إلا القليل، ومن سلم أخذه العرب.

وله شعر ليس بالجيد.

وفيها، في فصيح النصاري، ثار جماعة من الباطنية في حصن شَيزَر على حين غفلة من أهله في مائة رجل، فملكوه، وأخرجوا من كان فيه، وأغلَقوا بابه، وصعدوا إلى القلعة فملكوها، وكان أصحابها بنو مُتَيْذ قد نزلوا منها لمشاهدة عيد النصاري، وكانوا قد أحسنوا إلى هؤلاء الذين أفسدوا كل الإحسان، فبادر أهل المدينة بالاشورة، فأصغدهم النساء في الحبال من الطاقات، وصاروا معهم، وأدركهم الأمراء بنو مُتَيْذ، أصحاب الحصن، فصعدوا إليهم، فكبروا عليهم وقتلواهم، فأنخذل الباطنية، وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يفلت منهم أحد، وقُتل من كان على مثل رأيهم في البلد.

وفيها وصل إلى المهديّة ثلاثة نفر غرباء، فكتبوا إلى أميرها يحيى ابن تميم يقولون: إنهم يعملون الكيمياء؛ فأحضرهم عنده، وأمرهم أن يعملوا شيئاً يراه من صناعتهم، فقالوا: نعمل النقرة؛ فأحضر لهم ما طلبوا من آلة وغيرها، وقعد معهم هو والشريف أبو الحسن، وقائد جيشه واسمه إبراهيم، وكانا يختصمان به، فلما رأى الكيمائية المكان خالياً من جمع. (٤٧٣/١٠) ثاروا بهم، فضرب أحدهم يحيى بن تميم على رأسه، فوَقعت السكين في عمامته فلم تصنع شيئاً، ورفسه يحيى فألقاه على ظهره، ودخل يحيى باباً وأغلقه على نفسه، فضرب الثاني الشريف فقتله، وأخذ القائد إبراهيم السيف فقاتل الكيمائية، ووقع الصوت، فدخل أصحاب الأمير يحيى فقتلوا الكيمائية، وكان زَيْهَم زِي أهل الأندلس، فقتل جماعة من أهل البلد على مثل زَيْهَم، وقيل للأمير يحيى: إن هؤلاء رَأهم بعض الناس عند المقدّم بن خليفة، وأنفق أن الأمير أبا الفتوح بن تميم، أخوا يحيى، وصل تلك الساعة إلى القصر في أصحابه وقد لبسوا السلاح، فمنع من الدخول، فثبت عند الأمير يحيى أن ذلك بوضع منهما، فأحضر المقدّم بن خليفة، وأمر أولاد أخيه فقتلوه قصاصاً، لأنه قتل أباهم، وأخرج الأمير أبا الفتوح وزوجته بلارة بنت القاسم بن تميم، وهي ابنة عمه، ووكل بهما في قصر زياد بين المهديّة وسفّاقس، فبقي هناك إلى أن مات يحيى، وملك بعده ابنه عليّ سنة تسع وخمسمائة، فسّير أبا الفتوح وزوجته بلارة إلى ديار مصر في البحر، فوصلا إلى إسكندرية، على ما نذكره إن شاء الله.

وفيها، في المحرم، قُتل عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد أبو المحاسن الرواني الطبري، الفقيه الشافعي، مولده سنة خمس عشرة وأربعمائة، وكان حافظاً للمذهب، ويقول: لو احترقت كُتب الشافعي لأمليتها من قلبي.

وفيها، في جمادى الآخرة، توفي الخطيب أبو زكريّا يحيى بن عليّ التبريزي، الشيباني، اللغوي، صاحب التصانيف المشهورة،

وفيها، في رجب، توفي السيّد أبو هاشم زيد الحسني، العلوي، رئيس (٤٧٤/١٠) همدان، وكان نافذ الحكم، ماضي الأمر، وكانت مدة رئاسته لها سبعاً وأربعين سنة، وجده لأمة الصاحب أبو القاسم بن عبّاد، وكان عظيم المال جدّاً، فمن ذلك أنه أخذ منه السلطان محمد في دفعة واحدة سبع مائة ألف دينار لم يبع لأجلها ملكاً ولا استدان ديناراً، وأقام بعد ذلك بالسلطان محمد، عدّة شهور، في جميع ما يريده، وكان قليل المعروف.

وفيها، في ذي الحجة، توفي أبو الفوارس الحسن بن عليّ الخازن، الكاتب المشهور بجودة الخط، وله شعر منه:

عَسَرَ اللَّيْلُ الطَّالِيَهَا، وَاسْتَرَاحَ الزَّاهِدُ الْقَطِيبُنْ
عَرَفَ الثَّيْبُ، فَلَمْ يَرَهَا، وَسَبَّاهُ حَظُّهُ الْفَتْنُنْ
كُلُّ مَنْ لَوْنُهُ زُخْرُفُهُ، حَظُّهُ مِمَّا حَوَى كَفْنُنْ
يَنْتَسِي مَالاً، وَيَتْرَكُهُ، فِي كُلِّ الْحَالَيْنِ مَفْتَنُنْ
أَتَلَسِي كَوْنِي عَلَى يَقِيَّةٍ، مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ مُرْتَبِنْ
أَكْرَهُ الثَّيْبَ، وَكَيْفَ يَهَا، وَاللَّيْ تَسْبُو بِهِ وَسَنُنْ
لَمْ تَدُمْ قَلْبِي عَلَى أَحَدٍ، فَلِمَ إِذَا الْهَوْمُ وَالْحَزْنُنْ؟

وقيل توفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقد ذُكر هناك (٤٧٥/١٠)

سنة ثلاث وخمسمائة

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت من الشام

في هذه السنة، حادي عشر ذي الحجة، ملك الفرنج طرابلس.

وسبب ذلك: أن طرابلس كانت قد صارت في حكم صاحب مصر ونابيه فيها، والمدد يأتي إليها منه، وقد ذكرنا ذلك سنة إحدى وخمسمائة، فلما كانت هذه السنة، أوّل شعبان، وصل أسطول كبير من بلد الفرنج في البحر، ومقدّمهم قَمَنَص كبير اسمه ريمند بن صنجيل ومراكبه مشحونة بالرجال، والسلاح، والميرة، فنزل على طرابلس، وكان نازلاً عليها قبله السرداني ابن أخت صنجيل، وليس بابن أخت ريمند هذا، بل هو قَمَنَص آخر، فجرى بينهما فتنة أدّت إلى الشر والقتال، فوصل طنكسري صاحب أنطاكية إليها، معونةً للسرداني، ووصل الملك بغدوين، صاحب القدس، في عسكره، فاصلح بينهم، ونزل الفرنج جميعهم على طرابلس، وشرعوا في قتالها، ومضايقة أهلها، من أوّل شعبان، والصقوا أبراجهم بسورها، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك سَقَط في أيديهم، وذلت نفوسهم، وزادهم ضعفاً تأخّر الأسطول المصري عنهم بالميرة والنجدة.

وكان سبب تأخره: أنه فرغ منه، والحث عليه، واختلّفوا فيه

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، سار السلطان وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك إلى قلعة ألموت لقتال الحسن بن الصباح ومن معه من الإسماعيلية، (٤٧٨/١٠) فحصرهم، وهجم الشتاء عليهم فعادوا ولم يلغوا منه غرضاً.

وفيها، في ربيع الآخر، قدم السلطان إلى بغداد، وعاد عنها في شوال من السنة أيضاً.

وفيها، في شعبان، توجه الوزير نظام الملك إلى الجامع، فوثب به الباطنية، فضربوه بالسكاكين، وجرح في رقبته، فبقي مريضاً مدة، ثم برأ، وأخذ الباطني الذي جرحه فسقى الخمر حتى سكر، ثم سئل عن أصحابه، فأقر على جماعة بمسجد المأمونية، فأخذوا وقتلوا.

وفيها عزل وزير الخليفة، وهو أبو المعالي بن المطلب، ووزر بعده الزعيم أبو القاسم بن جهمير، فخرج ابن المطلب من دار الخليفة مستتراً هو وأولاده واستجار بدار السلطان.

وفيها جهز يحيى بن تميم، صاحب إفريقية، خمسة عشر شينياً وسيرها إلى بلاد الروم، فلقبها أسطول الروم، وهو كبير، فقاتلوه، وأخذوا ست قطع من شيواني المسلمين، ولم يهزم بعد ذلك ليحيى جيش في البحر والبر.

وسير ابنه أبا الفتح إلى مدينة سغاقس والياً عليها، فثار به أهلها، فنهبا قصره، وهما يقتله، فلم يزل يحيى يعمل الحيلة عليهم، حتى فرق كلمتهم، وبذد شملهم، وملك رقابهم فسجنهم، وعفا عن دماهم وذنبهم.

وفيها توفي الأمير إبراهيم بنال، صاحب آيد، وكان قبيح السيرة، مشعوراً بالظلم، فجلا كثير من أهلها لجوره، وملك بعده ولده، وكان أصلح حالاً منه.

وفيها، في ثامن ذي القعدة، ظهر في السماء كوكب من الشرق له ذؤابة ممتدة إلى القبلة، وبقي يطلع إلى آخر ذي الحجة، ثم غاب. (٤٧٩/١٠)

سنة أربع وخمسمائة

ذكر ملك الفرنج مدينة صيدا

في هذه السنة، في ربيع الآخر، ملك الفرنج مدينة صيدا، من ساحل الشام.

وسبب ذلك: أنه وصل في البحر إلى الشام ستون مركباً للفرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحيى البيت المقدس وليغزو بزعمه المسلمين، فاجتمع بهم بغداديين ملك

أكثر (٤٧٦/١٠) من ستة، وسار، فردته الريح، فتعذر عليهم الوصول إلى طرابلس ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً.

ومدّ الفرنج القتال عليها من الأبراج والزحف، فهجموا على البلد وملكوه عنوة وقهراً يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة، ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال، وغنموا من أهلها من الأموال، والأمتعة، وكُتب دور العلم الموقوفة، مالا يُحَد ولا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالاً وتجارة، وسلم الوالي الذي كان بها، وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها، فوصلوا إلى دمشق، وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات، وأخذت دقاتهم وذخائهم في مكانهم.

ذكر ملك الفرنج جبيل وبنائس

لما فرغ الفرنج من طرابلس سار طنكري، صاحب أنطاكية، إلى بنائس، وحصرها، وافتتحها، وأمن أهلها، ونزل مدينة جبيل، وفيها فخر الملك ابن عمّار، الذي كان صاحب طرابلس، وكان القوت فيها قليلاً، فقاتلها إلى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة بالأمان، وخرج فخر الملك بن عمّار سالماً.

ووصل عُقَيْب ملك طرابلس، الأسطول المصري بالرجال، والمال، والغلال، وغيرها، ما يكفيهم سنة، فوصل إلى صور بعد أخذها بشمانية أيام (٤٧٧/١٠) للقضاء النازل بأهلها، وفُرقت الغلال التي فيه والذخائر في الجهات المنفذة إليها صور، وصيدا، وبيروت.

وأما فخر الملك بن عمّار فإنه قصد شيزر، فأكرمه صاحب الأمير سلطان بن علي بن مُنْقذ الكِنَانِي، واحترمه، وسأله أن يقيم عنده، فلم يفعل، وسار إلى دمشق، فأنزله طغتكين صاحبها، وأجزل له في الحمل والعطية، وأقطع أعمال الزبداني، وهو عمل كبير من أعمال دمشق، وكان ذلك في المحرم سنة اثنتين وخمسمائة.

ذكر الحرب بين محمد خان وساغريك

في هذه السنة عاد ساغريك وجمع العساكر الكثيرة من الأتراك وغيرهم وقصد أعمال محمد خان بسمرقند وغيرها، فأرسل محمد خان إلى سنجر يستنجد، فسير إليه الجنود، واجتمع معه أيضاً كثير من العساكر، وسار إلى ساغريك فالتقوا بنواحي الخشب واقتتلوا فانهمز ساغريك وعساكره وأخذت السيوف منهم مأخذها وكثر الأسر فيهم والنهب، فلما فرغوا من حربهم وأمن محمد خان من شر ساغريك عاد العسكر السنجري إلى خراسان فعبروا النهر إلى بلخ.

راكب، فخرجوه، فلتهزم منهم إلى داره، فتيغوه وقتلوه، ونهبوا داره، وجنّب ما فيها، ونهبوا بعض دور غيره من أرباب الأموال بهذه الحجة، وأرسلوا إلى مصر بجلية الحال إلى الأمر والأفضل، فسراً بذلك، وأحسنوا إلى الواصلين بالشارة، وأرسلوا إليه والياً يقيم به، ويستعمل مع أهل البلد الإحسان ويحسن البصرة، فتم ذلك، وزال ما كانوا يخافونه.

ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب وغيره

في هذه السنة جمع صاحب أنطاكية عساكره من الفرنج، وحشد الفارس والراجل، وسار نحو حصن الأثارب، وهو بالقرب من مدينة حلب بينهما ثلاثة فراسخ، وحضره، ومنع عنه الميرة، فضاق الأمر على من به من المسلمين فقبوا من القلعة نقيباً، قصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه، فلما فعلوا ذلك وقربوا من خيمته استأمن إليه صبي أرمني، فعرفه الحال، فاحتاط، واحتجز منهم، وجدّ في قتالهم، حتى ملك الحصن قهراً وعنوة، وقتل من أهله ألفي رجل، وسبى وأسر الباقين. (٤٨٢/١٠)

ثم سار إلى حصن رزّذا، فحصره، ففتحه، وقبض بأهلنه مثل الأثارب، فلما سمع أهل منبج بذلك فارقوها خوفاً من الفرنج، وكذلك أهل بليس، وقصد الفرنج البلدين فراوهما وليس بهما أنيس، فعادوا عنهما.

وسار عسكر من الفرنج إلى مدينة صيدا، فطلب أهلها منهم الأمان، فأثروهم وتسلّموا البلد، فعظم خوف المسلمين منهم، وبلغت القلوب الحناجر، وأيقنوا باستيلاء الفرنج على سائر الشام لعدم الحامي له والمنايع عنه، فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم، فامتنع الفرنج من الإجابة إلا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة، فصالحهم الملك رضوان، صاحب حلب، على اثنين وثلاثين ألف دينار، وغيرها من الخيول والثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم ابن مقيّد، صاحب شيزر، على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردّي، صاحب حماة، على ألفي دينار، وكانت مدة الهدنة إلى وقت إدراك الغلة وحصادها.

ثم إن مراكب أقيمت من ديار مصر، فيها التجار ومعهم الأمتعة الكثيرة، فوقع عليها مراكب الفرنج، فأخذوها، وغنموا ما مع التجار، وأسروهم، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد، مستفتين على الفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم فقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا، ومنعوا من الصلاة، وكسروا المنبر، فوعدهم السلطان بإنقاذ العساكر للمجاهد، وسير من دار الخلافة منبراً إلى جامع السلطان، فلما كان الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة، ومعهم أهل

القدس، وتقرّرت القاعدة بينهم أن يقصدوا بلاد الإسلام، فرحطوا من القدس، ونزلوا مدينة صيدا ثالث ربيع الآخر من هذه السنة، وضائقوها برأ وبحراً.

وكان الأسطول المصري مقيماً على صور، فلم يقدر على إنجاد صيدا، فعمل الفرنج برجاً من الخشب، وأحكموه، وجعلوا عليه ما يمنع النار عنه والحجارة، وزحفوا به، فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم، وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت، فإرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج، وطلبوا من ملكهم الأمان فأتمهم على أنفسهم، وأموالهم، (٤٨٠/١٠) والعسكر الذي عندهم، ومن أراد المقام بها عندهم أمّنة، ومن أراد المسير عنهم لم يمنعه، وحلف لهم على ذلك، فخرج الموالي، وجماعة كثيرة من أعيان أهل البلد، في العشرين من جمادى الأولى إلى دمشق، وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوماً.

ورحل بغدوين عنها إلى القدس، ثم عاد إلى صيدا، بعد مدة يسيرة، فقرر على المسلمين الذي أقاموا بها عشرين ألف دينار، فأفقرهم، واستغرق أموالهم.

ذكر استيلاء المصريين على عسقلان

كانت عسقلان للعلوين المصريين، ثم إن الخليفة الأمر بأحكام الله استعمل عليها إنساناً يُعرف بشمس الخلافة، فواصل بغدوين ملك الفرنج بالشام، وهادنه، وأهدى إليه مالا وعروضا، فامتنع به من أحكام المصريين عليه، إلا فيما يريد من غير مجاهرة بذلك.

فوصلت الأخبار بذلك إلى الأمر بأحكام الله، صاحب مصر، وإلى وزيره الأفضل، أمير الجيوش، فعظم الأمر عليهما، وجهّزا عسكرياً وسيراه إلى عسقلان مع قائد كبير من قواده، وأظهرا أنه يريد الغزاة، ونفذا إلى القائد ميراً أن يقبض على شمس الخلافة إذا حضر عندهم، ويقبض هو عروضة بعسقلان أميراً، فسار العسكر، فعرف شمس الخلافة الحال، فامتنع من الحضور عند (٤٨١/١٠) العسكر المصري، وجاهر بالعصيان، وأخرج من كان عنده من عسكر مصر خوفاً منهم.

فلما عرف الأفضل ذلك خاف أن يسلم عسقلان إلى الفرنج، فأرسل إليه وطيب قلبه، وسكّبه، وأقرّه على عمله، وأعاد عليه إقطاعه بمصر.

ثم إن شمس الخلافة خاف أهل عسقلان، فأحضر جماعة من الأرمن وأتخذهم جنداً، ولم يزل على هذه الحال إلى آخر سنة أربع وخمسمائة، فأنكر الأمر أهل البلد، فوثب به قوم من أعيانه، وهو

إلى قتال الفرنج، فكانوا: الأمير مودود، صاحب الموصل، والأمير سكمان القطبي، صاحب تيريز وبعض ديار بكر، والأميرين إيلبكي وزنكي ابني بُرسق، ولهما هَمْدَان وما جاورها، والأمير أحمد ديل، وله مَرَاغَة، وكوتب الأمير أبو الهيجاء، صاحب إربل، والأمير إيلغازي، صاحب ماردين، والأمراء البكجيّة، بالهقاق بالملك مسعود، ومودود، فاجتمعوا، ما عدا الأمير إيلغازي فإنه سَير ولده إياز وأقام هو، فلمّا اجتمعوا ساروا إلى بلد سينجار، ففتحوا عدّة حصون للفرنج، وقُتل من بها منهم، وحصروا مدينة الرُّها مدّة، ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها.

بغداد، فمَنعهم حاجب الباب من الدخول، فغلبوه على ذلك، ودخلوا الجامع، وكسروا شَبَاك المَقصورة، (٤٨٣/١٠) وهجموا إلى المنبر فكسروه، وبطلت الجمعة أيضاً، فأرسل الخليفة إلى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورَتَقَه، فتقدّم حيثنّ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم، والتجهّز للجهاد، وسَير ولدُه الملك مسعوداً مع الأمير مودود، صاحب الموصل، وتقدّموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا إلى قتال الفرنج، وانقضت السنة، وساروا في سنة خمس وخمسمائة، وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عُرِل نظام الملك أحمد من وزارة السلطان، ووزر بعده الخطير محمد بن الحسين الميضي.

وفيهما ورد رسول ملك الروم إلى السلطان يستنفره على الفرنج، ويحثّه على قتالهم ودفعهم عن البلاد، وكان وصوله قبل وصول أهل حلب، وكان أهل حلب يقولون للسلطان: أما تبقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل إليك في جهادهم!

وفيهما، في رمضان، رُفّت ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة، ورُيِّت (٤٨٤/١٠) بغداد وغُلِّقت، وكان بها فرحة عظيمة لم يشاهد الناس مثلاً.

وفيهما هَبَّت بمصر ريح سوداء أظلمت بها الدنيا، وأخذت بأنفاس الناس، ولم يقدر أحد [أن] يفتح عينيه، ومَن فتحهما لا يبصر يده، ونزل على الناس رمل، ويش الناس من الحياة، وأيقنوا بالهلاك، ثم تجلّى قليلاً، وعاد إلى الصفوة، وكان ذلك من أوّل وقت العصر إلى بعد المغرب.

وفيهما، في المحرم، توفي الكيا الهرّاس الطبري واسمه أبو الحسن علي بن محمد بن علي، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية، أخذ الفقه عن إمام الحرمين الجويني، ودَرس بعده في النظامية ببغداد، وتوفّي بها، ودُفن عند تربة الشيخ أبي إسحاق، ودَرس بعده في النظامية الإمام أبو بكر الشاشي.

وفيهما توفي أبو الحسين إدريس بن حمزة بن علي الرمليّ الفقيه الشافعي من أهل الرملة بفلسطين، تفقّه على أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي، وعلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، ودخل خراسان، وولّي التدريس بسمرقند، فتوفّي بها. (٤٨٥/١٠)

سنة خمس وخمسمائة

ذكر مسير العساكر إلى قتال الفرنج

في هذه السنة اجتمعت العساكر التي أمرها السلطان بالمسير

وكان سبب رحيلهم عنها أنّ الفرنج اجتمعت جميعها، فارسها وراجلها، وساروا إلى الفرات ليعبروه ليمنعوا الرُّها من المسلمين، فلمّا وصلوا إلى الفرات بلغهم كثرة المسلمين، فلم يقدموا عليه، وأقاموا على الفرات، فلمّا رأى (٤٨٦/١٠) المسلمون ذلك رحلوا عن الرُّها إلى خَرّان، ليطمع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم ويقاتلوهم، فلمّا رحلوا عنها جاء الفرنج، ومعهم الميرة والذخائر، إلى الرُّها، فجعلوا فيها كلّ ما يحتاجون إليه، بعد أن كانت قليلة الميرة، وقد أشرفت على أن تُؤخَذ، وأخذوا كلّ من فيه عَجْز وضَعْف وفقر، وعادوا إلى الفرات فعبروه إلى الجانب الشاميّ، وطرقوا أعمال حلب، فأفسدوا ما فيها، ونهبوها، وقتلوا فيها وأسروا، وسبوا خلقاً كثيراً.

وكان سبب ذلك أنّ الفرنج لمّا عبروا إلى الجزيرة خرج الملك رضوان، صاحب حلب، إلى ما أخذه الفرنج من أعمالها، فاستعاد بعضه، ونهب منهم وقتل، فلمّا عادوا وعبروا الفرات فعلوا بأعمالها ما فعلوا.

وأما العسكر السلطانيّ فلمّا سمعوا بعود الفرنج وعبرهم الفرات، رحلوا إلى الرُّها وحصروها، فراوا أمراً محكماً، قد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم، وبكثرة المقاتلين عنهم، ولم يجدوا فيها مطعماً، فرحلوا عنها، وعبروا الفرات، فحصروا قلعة تَلّ باثير خمسة وأربعين يوماً، ورحلوا عنها ولم يلبثوا غرضاً.

ووصلوا إلى حلب، فأغلق الملك رضوان أبواب البلد، ولم يجتمع بهم، ثم مرض هناك الأمير سكمان القطبي، فعاد مريضاً، فتوفّي في بالسن، فجعله أصحابه في تابوت، وحملوه عائدين إلى بلاده، فقصدهم إيلغازي ليأخذهم، ويغنم ما معهم، فجعلوا تابوته في القلب، وقاتلوا بين يديه، فانهزم إيلغازي، وغنموا ما معه، وساروا إلى بلادهم. (٤٨٧/١٠)

ولمّا أغلق الملك رضوان أبواب حلب، ولم يجتمع بالعساكر السلطانية، رحلوا إلى مَرّة النعمان، واجتمع بهم طغتكين، صاحب دمشق، ونزل على الأمير منودود، فأطلع من الأمراء على نيات

فاسدة في حقّه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق، فشرع في مهادنة الفرنج سرّاً وكانوا قد نكلوا عن قتال المسلمين، فلم يتم ذلك، وتفرقت العساكر.

ثم إن أهل صور حفرُوا سُرَادِيبَ تحت الأرض لِيَسْقُطَ فِيهَا الْفَرَنْجُ إِذَا زَحَفُوا إِلَيْهِمْ، وَلِيَنْخَسِفَ بَرَجُ إِنْ عَمَلُوهُ وَسَيَّرُوهُ إِلَيْهِمْ، فَاسْتَأْمَنَ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْفَرَنْجِ، وَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا عَمَلُوهُ، فَحَذَرُوا مِنْهَا.

وَأَرْسَلَ أَهْلَ الْبَلَدِ إِلَى أَتَابِكِ طُغْتِكِينَ، صَاحِبِ دِمَشْقَ، يَسْتَجِدُّونَهُ، وَيَطْلُبُونَهُ لِيَسْلَمُوا الْبَلَدَ إِلَيْهِ، فَسَارَ فِي عَسَاكِرِهِ إِلَى نَوَاحِي بَانِيَّاسَ، وَسَيَّرَ إِلَيْهِمْ نَجْدَةً مَاتَتِي فَارَسَ، فَدَخَلُوا الْبَلَدَ، فَامْتَنَعَ مَنْ فِيهِ بِهِمْ، وَاشْتَدَّ قِتَالُ الْفَرَنْجِ خَوْفًا مِنْ اتِّصَالِ النُّجَدَاتِ، فَفِي نَشَابِ الْأَتْرَاكِ، فَقَاتَلُوا بِالْخَشَبِ، وَفَنَى الْنَفْطَ، فَظَفَرُوا بِسَرَبٍ تَحْتَ الْأَرْضِ فِيهِ نَفْطٌ وَلَا يُعْلَمُ مَنْ حَزَنَهُ.

ثُمَّ إِنَّ عَزَّ الْمَلِكِ، صَاحِبَ صُورَ، أَرْسَلَ الْأَمْوَالَ إِلَى طُغْتِكِينَ لِيَكْثُرَ مِنَ الرِّجَالِ، وَيَقْصِدَهُمَ لِيَمْلِكَ الْبَلَدَ، فَأَرْسَلَ طُغْتِكِينَ طَائِرًا فِيهِ رَقْعَةٌ لِيَعْلَمَهُ وَصُولَ الْمَالِ، وَيَأْمُرَهُ أَنْ يَقِيمَ مَرْكَبًا بِمَكَانٍ ذَكَرَهُ لِيَتَّجِيَ الرِّجَالَ إِلَيْهِ، فَسَقَطَ الطَّائِرُ عَلَى مَرْكَبِ الْفَرَنْجِ، فَأَخَذَهُ رَجُلَانِ: مُسْلِمٌ وَفَرَنْجِيٌّ، فَقَالَ الْفَرَنْجِيٌّ: نَطْلُقُهُ لَعَلَّ فِيهِ فَرْجًا لَهُمْ؛ فَلَمْ يُمْكِنَهُ الْمُسْلِمُ، وَحَمَلَهُ إِلَى الْمَلِكِ بِغَدُوسَيْنِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ سَيَّرَ مَرْكَبًا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي ذَكَرَهُ طُغْتِكِينَ، وَفِيهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اسْتَأْمَنُوا إِلَيْهِ مِنْ صُورَ، فَوَصَلَ إِلَيْهِمُ الْعَسْكَرُ، فَكَلَّمُوهُمْ بِالْعَرَبِيَّةِ، فَلَمْ يَنْكَرُوهُمْ، وَرَكِبُوا مَعَهُمْ، فَأَخَذُوهُمْ أَسْرَى، وَحَمَلُوهُمْ إِلَى الْفَرَنْجِ، فَقَتَلُوهُمْ (٤٩٠/١٠) وَطَمَعُوا فِي أَهْلِ صُورَ، فَكَانَ طُغْتِكِينَ يُغَيِّرُ عَلَى أَعْمَالِ الْفَرَنْجِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا، وَقَصَدَ حَصْنَ الْحَبِيسِ فِي السَّوَادِ، مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ، وَهُوَ لِلْفَرَنْجِ، فَحَصَرَهُ، وَمَلَكَهَ بِالسَّيْفِ، وَقَتَلَ كُلَّ مَنْ فِيهِ، وَعَادَ إِلَى الْفَرَنْجِ الَّذِينَ عَلَى صُورَ.

وَكَانَ يَقْطَعُ الْمِيرَةَ عَنْهُمْ فِي الْبَرِّ، فَأَحْضَرُوهَا فِي الْبَحْرِ، وَخَنَدُوا عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَخْرُجُوا إِلَيْهِ فَسَارَ إِلَى صَيْدَا، وَأَغَارَ عَلَى ظَاهِرِهَا، فَقَتَلَ جَمَاعَةً مِنَ الْبَحْرِيَّةِ، وَأَحْرَقَ نَحْوَ عَشْرِينَ مَرْكَبًا عَلَى السَّاحِلِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُوَاصِلُ أَهْلَ صُورَ بِالْكَتَبِ بِأَمْرِهِمْ بِالصَّبْرِ وَالْفَرَنْجِ يَلْزَمُونَ قِتَالَهُمْ، وَقَاتَلَ أَهْلُ صُورَ قِتَالَ مَنْ أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ، فَدَامَ الْقِتَالُ إِلَى أَوَانِ إِدْرَاكِ الْغُلَاتِ، فَخَافَ الْفَرَنْجُ أَنَّ طُغْتِكِينَ يَسْتَوْلِي عَلَى غُلَاتِ بِلَادِهِمْ، فَسَارُوا عَنِ الْبَلَدِ، عَاشِرَ شَوَّالٍ، إِلَى عَكَّةَ، وَعَادَ عَسْكَرُ طُغْتِكِينَ إِلَيْهِ، وَأَعْطَاهُمْ أَهْلُ صُورَ الْأَمْوَالَ وَغَيْرَهَا، ثُمَّ أَصْلَحُوا مَا شَتَّتَ مِنْ سُورِهَا وَخَنَدَقَهَا، وَكَانَ الْفَرَنْجُ قَدْ طَمَعَهُ.

ذَكَرَ انْهِزَامَ الْفَرَنْجِ بِالْأَنْدَلُسِ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ خَرَجَ آذَفُونُشُ الْفَرَنْجِيُّ، صَاحِبُ طُلَيْطَلَةَ

وَكَانَ سَبَبُ تَفَرُّقِهِمْ أَنَّ الْأَمِيرَ بُرْسُقَ بْنَ بَرَسُقَ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ الْأُمَرَاءِ كَانَ بِهِ يَفْرَسُ، فَهُوَ يُحْتَمَلُ فِي مُحَفَّةٍ، وَمَاتَ سِكْمَانُ الْقُطَيْبِيُّ، كَمَا ذَكَرْنَا، وَأَرَادَ الْأَمِيرُ أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدٍ، صَاحِبُ مَرَاغَةَ، الْعَوْدَةَ، لِيَطْلُبَ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَقْطَعَهُ مَا كَانَ لِسِكْمَانَ مِنَ الْبِلَادِ، وَأَتَابِكِ طُغْتِكِينَ، صَاحِبِ دِمَشْقَ، خَافَ الْأُمَرَاءَ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمْ يَنْصَحْهُمْ، إِلَّا أَنَّهُ حَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَوْدُودٍ، صَاحِبِ الْمَوْصِلِ، مَوَدَّةٌ وَصَدَاقَةٌ، فَتَفَرَّقُوا لِهَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَبَقِيَ مَوْدُودٌ وَطُغْتِكِينَ بِالْمَعْرَةِ، فَسَارُوا مِنْهَا، وَنَزَلُوا عَلَى نَهْرِ الْعَاصِي.

وَلَمَّا سَمِعَ الْفَرَنْجُ بِتَفَرُّقِ عَسَاكِرِ الْإِسْلَامِ طَمَعُوا، وَكَانُوا قَدْ اجْتَمَعُوا كُلَّهُمْ، بَعْدَ الْاِخْتِلَافِ وَالتَّبَايُنِ، وَسَارُوا إِلَى أَفَامِيَّةَ، فَسَمِعَ بِهَا سُلْطَانُ بْنُ مُنْقِذٍ، صَاحِبُ شَيْزُرَ، فَسَارَ إِلَى مَوْدُودٍ وَطُغْتِكِينَ، وَهُوَ عَلَيْهِمَا أَمْرُ الْفَرَنْجِ، وَحَرَّضَهُمَا عَلَى الْجِهَادِ، فَرَحَلُوا إِلَى شَيْزُرَ، وَنَزَلُوا عَلَيْهَا، وَنَزَلَ الْفَرَنْجُ بِالْقَرْبِ مِنْهُمْ، فَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ عَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ الْمِيرَةَ، وَلَزَوْهُمْ بِالْقِتَالِ، وَالْفَرَنْجُ يَحْفَظُونَ نَفْسَهُمْ، وَلَا يَعْطُونَ مَصَافًا، فَلَمَّا رَأَوْا قُوَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَادُوا إِلَى (٤٨٨/١٠) أَفَامِيَّةَ وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَتَخَفُّوهُمْ مِنْ أَدْرِكِهِمْ فِي سَاقَتِهِمْ وَعَادُوا إِلَى شَيْزُرَ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ.

ذَكَرَ حَصْرَ الْفَرَنْجِ مَدِينَةَ صُورَ

لَمَّا تَفَرَّقَتِ الْعَسَاكِرُ اجْتَمَعَتِ الْفَرَنْجُ عَلَى قَصْدِ مَدِينَةِ صُورَ وَحَضَرُوهَا، فَسَارُوا إِلَيْهَا مَعَ الْمَلِكِ بِغَدُوسَيْنِ، صَاحِبِ الْقُدُسِ، وَحَشَدُوا، وَجَمَعُوا، وَنَازَلُوهَا وَحَصَرُوهَا فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى، وَعَمَلُوا عَلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَبْرَاجَ خَشَبٍ، عَلَوُ الْبَرَجِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَفِي كُلِّ بَرَجٍ أَلْفُ رَجُلٍ، وَنَصَبُوا عَلَيْهَا الْمَجَانِيقَ، وَالصُّقُورَ أَحَدَهَا إِلَى سُورِ الْبَلَدِ، وَأَخْلَوْهُ مِنَ الرِّجَالِ.

وَكَانَتْ صُورَ لِلْأَمْرِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ الْعُلُوِّيِّ وَتَابِعِهَا بِهَا عَزَّ الْمَلِكِ الْأَغَزَّ، فَأَحْضَرَ أَهْلَ الْبَلَدِ، وَاسْتَشَارَهُمْ فِي حِيلَةٍ يَدْفَعُونَ بِهَا شَرَّ الْأَبْرَاجِ عَنْهُمْ، فَقَامَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ طَرَابُلُسَ وَضَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ إِحْرَاقَهَا، وَأَخَذَ مَعَهُ أَلْفَ رَجُلٍ بِالسَّلَاحِ التَّامِّ، وَمَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ حُزْمَةٌ حَطَبٍ، فَقَاتَلُوا الْفَرَنْجَ إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَى الْبَرَجِ الْمُلْتَصِقِ بِالْمَدِينَةِ، فَأَلْقَى الْحَطَبَ مِنْ جِهَاتِهِ، وَأَلْقَى فِيهِ النَّارَ، ثُمَّ خَافَ أَنْ يَشْتَغَلَ الْفَرَنْجُ الَّذِينَ فِي الْبَرَجِ بِإِطْفَاءِ النَّارِ، وَيَتَخَلَّصُوا، فَرَمَاهُمْ بِجُرْبٍ كَانَ قَدْ أَعْدَاهُ، مَمْلُوءَةً مِنَ الْعِنْدَرَةِ، فَلَمَّا سَقَطَتْ عَلَيْهِمْ اشْتَغَلُوا بِهَا وَبِمَا نَالَهُمْ مِنْ سُوءِ الرَّاحَةِ وَالتَّلْوِثِ، فَتَمَكَّنَتِ النَّارُ مِنْهُمْ، فَهَلَكَ كُلُّ مَنْ بِهِ إِلَّا (٤٨٩/١٠) الْقَلِيلَ، وَأَخَذَ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ بِالْكَالِيلِ، ثُمَّ أَخَذَ سَلَالَ الْعِنَبِ الْكِبَارِ، وَتَرَكَ فِيهَا

بالأندلس، إلى بلاد الإسلام بها، يطلب ملكها، والاستيلاء عليها، وجمع وحشد فاكثر، وكان قد قوي طمعه فيها بسبب موت أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فسمع أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الخبر، فصار إليه في عساكره وجموعه، فلقيه، فاقتلوا، واشتد القتال، وكان الظفر للمسلمين، وانهزم (٤٩١/١٠) الفرنج، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وأمر منهم بشر كثير، وسبى منهم، وغنم من أموالهم ما يخرج من الاحصاء، فخافه الفرنج، بعد ذلك، وامتنعوا من قصد بلاده، وذلك أذفونش حيثشد وعلم أن في البلاد حامياً لها، وذائباً عنها.

وفي هذه السنة، في جمادى الآخرة، توفي الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، الإمام المشهور. (٤٩٢/١٠)

سنة ست وخمسمائة

في هذه السنة، في المحرم، سار مودود، صاحب الموصل، إلى الرها، فنزل عليها، ورعى عسكره، ورحل عنها إلى سروج، وفعل بها كذلك وأهمل الفرنج، ولم يحترز منهم، فلم يشعر إلا وجوسلين، صاحب تلّ باشر، قد كبسهم، وكانت دوابّ العسكر متشرة في المرعى، فأخذ الفرنج كثيراً منها، وقتلوا كثيراً من العسكر، فلما تأهب المسلمون للقاءه، عاد عنهم إلى سروج.

وفيهما رحل السلطان محمد من بغداد، وكان مقامه هذه المرة خمسة أشهر، فلما وصل إلى أصبهان قبض على زين الملك أبي سعد القمي، وسلمه إلى الأمير كاميار لعداوة بينهما، فلما وصل إلى الرهي أركبه كاميار على دابة بمركب ذهب، وأظهر أن السلطان خلع عليه على مال قرره عليه، فحصل بذلك مالاً كثيراً من أهل القمي، ثم صلبه، وكان سبب قبضه أنه كان يكسر الطعن على الخليفة والسلطان.

وفيهما كان ببغداد رجل مغربي يعمل الكيمياء، بزعمه، اسمه أبو علي، فحمل إلى دار الخلافة، وكان آخر العهد به.

وفيهما ورد إلى بغداد يوسف بن أيوب الهمداني، الواعظ، وكان من الزهاد (٤٩٣/١٠) العابدين، فوعظ الناس بها، فقام إليه رجل متفقه، يقال له ابن السقاء، فأذاه في مسألة، وعادوه، فقال له: اجلس، فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلك تموت على غير دين الإسلام؛ فاتفق بعد مديدة أن ابن السقاء خرج إلى بلاد الروم، وتنصر.

وفيهما، في ذي القعدة، سُمع ببغداد هدة عظيمة، ولم يكن بالسماء غيم حتى يُظن أنه صوت رعد، ولم يعلم أحد أي صوت كان.

وفيهما توفي بسيل الأرمني، صاحب الدروب ببلاد ابن لاون، فسار طنكري، صاحب أنطاكية، أول جمادى الآخرة، إلى بلاده طمعاً في أن يملكها، فمرض في طريقه، فعاد إلى أنطاكية، فمات ثامن جمادى [الآخرة] وملكها بعده ابن أخته سرخالة، واستقام الأمر فيها، بعد أن جرى بين الفرنج خلف بسبي، فأصلح بينهم القسوس والرهبان.

وفيهما توفي قراجة، صاحب حمص، وكان ظالماً، وقام ولده قرجان، مكانه، وكان مثله في قبح السيرة.

وفي هذه السنة توفي المعمر بن علي أبو سعد بن أبي عمامة الواعظ البغدادي، ومولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة؛ وكان له خاطر حاد، ومجون حسن، وكان الغالب على وعظه أخبار الصالحين.

وتوفي أحمد بن الفرج بن عمر الدينوري، والد شهدة، وكان يروي (٤٩٤/١٠) عن أبي يعلى بن الفراء، وابن المأمون، وابن المهدي، وابن النور، وغيرهم، وكان حسن السيرة متزهداً.

وتوفي أبو العلاء صاعد بن منصور بن إسماعيل بن صاعد، الخطيب النيسابوري، وكان من أعيان الفقهاء، وولي قضاء خوارزم، وكان يروي الحديث. (٤٩٥/١٠)

سنة سبع وخمسمائة

ذكر قتال الفرنج وانهزامهم وقتل مودود

في هذه السنة، في المحرم، اجتمع المسلمون، وفيهم الأمير مودود بن التوتنكين، صاحب الموصل، وتميرك، صاحب سينجار، والأمير إياز بن إيلغازي، وطفتكين، صاحب دمشق.

وكان سبب اجتماع المسلمين أن ملك الفرنج بغدوين تابع الغارات على بلد دمشق، ونهبه، وخربه، وأواخر سنة ست وخمسمائة، وانقطعت الموائد عن دمشق، فغلت الأسعار فيها، وقُلت الأقوات، فأرسل طفتكين صاحبها إلى الأمير مودود يشريح له الحال، ويستجده، ويحثه على سرعة الوصول إليه، فجمع عسكراً، وسار فعبّر الفرات آخر ذي القعدة سنة ست وخمسمائة، فخافه الفرنج.

وسمع طفتكين خبره، فسار إليه، ولقيه بسلامة، واتفق رأيهم على (٤٩٦/١٠) قصد بغدوين، ملك القدس، فساروا إلى الأردن، فنزل المسلمون عند الأقحوانة ونزل الفرنج مع ملكهم بغدوين وجوسلين، صاحب جيشهم، وغيرهما من المقدسين، والفرسان المشهورين، ودخلوا بلاد الفرنج مع مودود، وجمع الفرنج، فالتقوا عند طبرية ثالث عشر المحرم، واشتد القتال، وصبر الفريقان، ثم إن

الفرنج انهزموا، وكثر القتل فيهم والأمر، ومعن أسر ملكهم بغدوين، فلم يعرف، فأخذ سلاحه وأطلق فنجبا، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ووصل الفرنج إلى مضيق دون طبرية، فلقبهم عسكو طرابلس وأنطاكية، فقويت نفوسهم بهم، وعادوا الحرب، فأحاط بهم المسلمون من كل ناحية، وضعد الفرنج إلى جبل غرب طبرية، فقاموا به ستة وعشرين يوماً، والمسلمون يازأهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم، ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون إلى قتالهم، فلم يخرج منهم أحد، فسار المسلمون إلى نيساب، ونهبوا بلاد الفرنج بين عكا إلى القدس، وخربوها، وقتلوا من ظفروا به من النصارى، وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم، فعادوا ونزلوا بمرج الصفر.

وكان سنجر على شاطئ جيحون من الجانب الغربي، وجاء محمد خان إلى الجانب الشرقي، فترجل وقبّل الأرض وسنجر راكب، وعاد كل واحد منهما إلى خيامه، ورجعوا إلى بلادهم، وسكنت الفتنة بينهما.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار قفل عظيم من دمشق إلى مصر، فأتى الخبر إلى بغدوين ملك الفرنج، فسار إليه، وعارضه في البر، فأخذهم أجمعين، ولم ينج منهم إلا القليل، ومن سلم أخذه العرب.

وفي هذه السنة توفي الوزير أبو القاسم علي بن محمد بن جهمير، وزير الخليفة المستظهر بالله، ووزر بعده الربيع أبو منصور ابن الوزير أبي شجاع محمد ابن الحسين وزير السلطان. (٤٩٩/١٠)

وفيها توفي الملك رضوان بن تاج الدولة تثن بن ألب أرسلان، صاحب حلب، وقام بعده بحلب ابنه ألب أرسلان الأخرس، وعمره ست عشرة سنة، وكانت أمور رضوان غير محمودة: قتل أخويه أبا طالب وبهرام، وكان يستعين بالباطنية في كثير من أموره لقلّة دينه، ولما ملك الأخرس استولى على الأمور لولؤ الخادم، ولم يكن للأخرس معه إلا اسم السلطنة، ومعناه اللؤلؤ، ولم يكن ألب أرسلان أخرس، وإنما في لسانه خبسة وتشنّة، وأمه بنت باغي سيان الذي كان صاحب أنطاكية، وقتل الأخرس أخوين له أحدهما اسمه ملكشاه، وهو من أبيه وأمه، واسم الآخر مبارکشاه، وهو من أبيه، وكان أبوه فعل مثله، فلما توفي قتل ولدا، مكافأة لما اعتمده مع أخويه.

وكان الباطنية قد كثروا بحلب في أيامه، حتى خافهم ابن بديع رئيسها، وأعيان أهلها، فلما توفي قال ابن بديع لألب أرسلان في قتلهم والإيقاع بهم، فأمره بذلك، فقبض على مقدمهم أبي طاهر الصايغ، وعلى جميع أصحابه، فقتل أبا طاهر وجماعة من أعيانهم، وأخذ أموال الباقيين وأطلقهم، فمنهم من قصد الفرنج، وتفرقوا في البلاد.

وفي هذه السنة توفي بيغداد أبو بكر أحمد بن علي بن بدران الحلواني الزاهد، متصّف جمادى الأولى، روى الحديث عن

وأذن الأمير مودود للعساكر في العود والاستراحة، ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه، ودخل دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول ليقم عند طغتكين إلى الربيع. فدخل الجامع يوم الجمعة في ربيع الأول، ليصلّي فيه وطغتكين، فلما عرفوا من الصلاة، وخرج إلى صحن (٤٩٧/١٠) الجامع، ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطني، وأخذ رأسه، فلم يعرفه أحد، فأحرق.

وكان صائماً، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر، فلم يفعل، وقال: لا لقيت الله إلا صائماً، فمات من يومه، رحمه الله، فقيل إن الباطنية بالشام خافوه وقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله.

وكان خيراً، عادلاً، كثير الخير، حدثني والذي قال: كتب ملك الفرنج إلى طغتكين، بعد قتل مودود، كتاباً من فضوله: أن أمة قتلت عميدها. يوم عيدها، في بيت معبودها. لتحقيق على الله أن يبيدها.

ولما قتل تسلّم تيمرك، صاحب سنجار، ما معه من الخزائن والسلاح وحملها إلى السلطان، ودفع مودود بدمشق في تربة ذقاق صاحبها، وحمل بعد ذلك إلى بغداد، فدفن في جواد أبي حنيفة، ثم حمل إلى أصبهان.

ذكر الخلف بين السلطان سنجر ومحمد خان والصلح بينهما

في هذه السنة كثر الحديث عن سنجر: أن محمد خان بن سليمان بن داود قد مده يده إلى أموال الرعايا وظلمهم ظلماً كثيراً، وأنه خرب البلاد بظلمه وشره، وأنه قد صار يستخف بأوامر سنجر، ولا يلتفت إلى شيء منها، فتجهّز سنجر وجمع عساكره وسار يريد قصده بما وراء النهر، فخاف (٤٩٨/١٠) محمد خان، فأرسل إلى الأمير قماج، وهو أكبر أمير مع سنجر، يسأله أن يصلح الحال بينه وبين سنجر، وأرسل أيضاً إلى خوارزمشاه بمثل ذلك،

البرسقي إلى جزيرة ابن عمر، فسلمها إليه نائب مودود بها، وسار معه إلى ماردين، فنزلها البرسقي، حتى أذن له إيلغازي صاحبها، وسير معه عسكرياً مع ولده إياز، فسار عنه البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس، فنزلها في ذي الحجة، وقتلها، وصبر له الفرنج، وأصابوا من بعض المسلمين غرة، فأخذوا منهم تسعة رجال، وصلبهم على سورها، فاشتد القتال حينئذ، وخشي المسلمون، وقتلوا، فقتلوا من الفرنج خمسين فارساً من أعيانهم، وأقام عليها شهرين وأياماً.

وخافت الميرة على المسلمين، فرحلوا من الرها إلى سُمِسَاط، بعد أن حرقوا بلد الرها وبلد سروج وبلد سُمِسَاط وأطاعه صاحب مَرَعَش على ما (٥٠٢/١٠) نذكره، ثم عاد إلى شحان، فقبض على إياز بن إيلغازي، حيث لم يحضر أبوه، ونهب سواد ماردين.

ذكر طاعة صاحب مَرَعَش وغيرها البرسقي

في هذه السنة توفي بعض كنبود الفرنج، ويعرف بكواسيل، وهو صاحب مَرَعَش، وكيسوم، ورعبان وغيرها، فاستولت زوجته على المملكة، وتحصنت من الفرنج، وأحسنّت إلى الأجناد، وراست آقسقر البرسقي، وهو على الرها، واستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه، فسير إليها الأمير سُفَر دزدار، صاحب الخابور، فلما وصل إليها أكرمته، وحملت إليه مالا كثيراً.

وبينما هو عندها إذ جاء جمع من الفرنج، فواقعوا أصحابه، وهم نحو مائة فارس، واقتتلوا قتالاً شديداً ظفر فيه المسلمون بالفرنج، وقتلوا منهم أكثرهم، وعاد سُفَر دزدار، وقد أصحبه الهدايا للملك مسعود والبرسقي، وأذعنت بالطاعة، ولما عرف الفرنج ذلك عاد كثير ممن عندها إلى أنطاكية.

ذكر الحرب بين البرسقي وإيلغازي وأسر إيلغازي

لما قبض البرسقي على إياز بن إيلغازي سار إلى حصن كيفا، وصاحبها الأمير ركن الدولة داود بن أخيه سُقمان، فاستنجد، فسار معه في عسكره وأحضر (٥٠٣/١٠) خلقاً كثيراً من التركمان، وسار إلى البرسقي، فلقيه، وأواخر السنة، واقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه، فانهزم البرسقي وعسكره، وخلص إياز بن إيلغازي من الأسر، فأرسل السلطان إليه يتهنئه، فخافه، وسار إلى الشام إلى حميه طغتكين، صاحب دمشق، فأقام عنده أياماً.

وكان طغتكين أيضاً قد استوحش من السلطان لأنه نسب إليه قتل مودود، فاتفق على الامتناع، والاتجاه إلى الفرنج، والاحتماء بهم، فراسل صاحب أنطاكية، وحالفه، فحضر عندهما على بُحيرة قدس، عند جمص، وجدّوا العهد، وعاد إلى أنطاكية، وعاد

القاضي أبي الطيب الطبري، وأبي محمد الجوهري، وأبي طالب العُشاري وغيرهم، وروى عنه خلق كثير، ومن آخرهم أبو الفضل عبد الله بن الطوسي، خطيب الموصل.

واسماعيل بن أحمد بن الحسين بن عليّ أبو عليّ بن أبي بكر البيهقي الإمام ابن الإمام، ومولده سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وتوفي بمدينة نيهق، ولوالده تصانيف كثيرة مشهورة. (٥٠٠/١٠)

وشجاع بن أبي شجاع فارس بن الحسين بن فارس أبو غالب الذهلي الحافظ، ومولده سنة ثلاثين وأربعمائة، وروى عن أبيه، وأبي القاسم، وابن المهدي والجوهري وغيرهم.

والأديب أبو المظفر محمد بن أحمد بن محمد الأبيوردي الشاعر المشهور، وله ديوان حسن، ومن شعره:

تَكَرَّرَ لِي نَفَرِي، وَلَمْ يَنْزِلْ أُنْتِي أَعِزُّ، وَاحْدَاكَ الزَّمَانُ تَهَوُّ
وَطَلُّ يُمِيتِي الْخَطْبُ كَيْفَ اعْتَدَاؤُهُ وَيَسَّرَ أَرَبَ الصَّبْرُ كَيْفَ يَكُونُ
وله أيضاً:

رَكِبْتُ طَرْفِي، فَاذْنِي دَفَعَهُ اسْقَا عِنْدَ انْقِرَافِي مِنْهُمْ، مُضْمِرُ الْيَاسِ
وَقَالَ: حَتَامُ تُوذِينِي، فَإِنْ سَنَحْتُ حَوَاتِجَ لِسْكَ، فَارْكَبْنِي إِلَى النَّاسِ
وكانت وفاته بأصبهان، وهو من ولد عَبَّسَة بن أبي سفيان بن حرب الأموي.

وتوفي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي، الإمام الفقيه الشافعي، في سؤال، مولده سنة سبع وعشرين وأربعمائة، سمع أبا بكر الخطيب، وأبا يعلى بن الفراء، وغيرهما، وتفقه على أبي عبد الله محمد بن الكازروني بديار بكر، وعلى أبي إسحاق الشيرازي ببغداد، وعلى أبي نصر بن الصبّاغ.

وفيهما توفي أبو نصر المؤتمن بن أحمد بن الحسن الساجي، الحافظ المقدسي، ومولده سنة خمس وأربعين وأربعمائة، وكان مكثرًا من الحديث، وتفقه على أبي إسحاق، وكان ثقة. (٥٠١/١٠)

سنة ثمان وخمسمائة

ذكر مسير آقسقر البرسقي إلى الشام لحرب الفرنج

في هذه السنة سير السلطان محمد الأمير آقسقر البرسقي إلى الموصل وأعمالها، وإلياً عليها، لما بلغه قتل مودود، وسير معه ولده الملك مسعوداً في جيش كثيف، وأمره بقتال الفرنج، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته، فوصل إلى الموصل، واتصلت به عساكرها، وفيهم عماد الدين زنكي بن آقسقر، الذي ملك هو وأولاده الموصل بعد ذلك، وكان له الشجاعة في الغاية.

واتصل به أيضاً تميرك صاحب مینجار وغيرهما، فسار

وسمع أرسلان شاه الخير، فسِرَّ جيشاً كثيراً، فهزمها، ونهبها، وعاد من سلم إلى غزنة على أسوأ حال، فخضع حينئذ أرسلان شاه وأرسل إلى الأمير أنر يضمن له الأموال الكثيرة ليعود عنه، ويحسن للملك سنجر العود عنه، فلم يفعل.

وتجهز السلطان سنجر، بعد أنر، للمسير بنفسه، فأرسل إليه أرسلان شاه امرأة عمه نصر تسأله الصفح والعود عن قصده، وهي أخت الملك سنجر من السلطان بركيارق، وكان علاء الدولة أبو سعد قد قتل زوجها، ومنعها من الخروج عن غزنة وتزوجها، فسبّرها الآن أرسلان شاه، فلما وصلت إلى أخيه أوصلت ما معها من الأموال والهدايا، وكان معها مائتا ألف دينار وغير ذلك؛ وطلب من سنجر أن يسلم أخاه بهرام إليه.

وكانت مغرة الصدر من أرسلان شاه، فهوت أمره على سنجر، وأطعمته في البلاد، وسهلت الأمر عليه، وذكرت له ما فعل بإخوته، وكان قتل بعضاً وكحل بعضاً من غير خروج منهم عن الطاعة. فسار الملك سنجر، فلما وصل إلى بستان أرسل خادماً من خواصه إلى أرسلان شاه في رسالة، فقبض عليه بعض القلاع، فسار حينئذ سنجر مجتأ، فلما سمع بقربه منه أطلق الرسول، ووصل سنجر إلى غزنة، ووقع بينهما المصاف على فرسخ من غزنة، بصحراء شهبازة، وكان أرسلان شاه في ثلاثين ألف فارس، وخلق كثير من الرُجالة، ومعه مائة وعشرون فيلاً، على كل فيل أربعة نفر، فحملت الفيلة على القلب، وفيه سنجر، فكان من فيه يهزمون، فقال سنجر لغلمانه الأتراك ليرموها بالنشاب، فتقدم ثلاثة آلاف غلام، فرموا الفيلة رشقاً واحداً جميعاً، فقتلوا منها عدة، فعدلت الفيلة عن القلب إلى الميسرة، وبها أبو الفضل صاحب سيستان، وجالت عليهم، فضعف من في الميسرة، فشجعهم أبو الفضل، (٥٠٦/١٠) وخوفهم من الهزيمة مع بعد ديارهم، وترجل عن فرسه بنفسه، وقصد كبير الفيلة ومتقدمها، ودخل تحتها فشق بطنها، وقتل فيلين آخرين.

ورأى الأمير أنر، وهو في الميمنة، ما في الميسرة من الحرب، فخاف عليها، فعمل من وراء عسكر غزنة، وقصد الميسرة، واختلط بهم، وأعانهم، فكانت الهزيمة على الغزنوية، وكان ركب الفيلة قد شدوا أنفسهم عليها بالسلاسل، فلما عضتهم الحرب، وعمل فيهم السيف، ألغوا أنفسهم، فبقوا معلقين عليها.

ودخل السلطان سنجر غزنة في العشرين من شوال سنة عشر وخمسمائة، ومعه بهرام شاه، فأما القلعة الكبيرة المشتملة على الأموال، وبينها وبين البلد تسعة فراسخ، وهي عظيمة، فلا حطع فيها، ولا طريق عليها.

وكان أرسلان شاه قد سجن فيها أخاه طاهراً الخنازن، وهو

طغتكين إلى دمشق، وسار إيلغازي إلى الرستن على عزم قصد ديار بكر، وجمع التركمان والعود، فنزل بالرستن ليستريح، فقصده الأمير قرجان بن قراجه، صاحب حمص، وقد تفرق عن إيلغازي أصحابه، فظفر به قرجان وأسرهم ومعه جماعة من خواصه، وأرسل إلى السلطان يعرفه ذلك، ويسأله تعجيل إنفاذ العساكر لئلا يغلبه طغتكين على إيلغازي.

ولما بلغ طغتكين الخبر عاد إلى حمص، وأرسل في إطلاقه، فامتنع قرجان، وحلف: إن لم يعد طغتكين لقتل إيلغازي، فأرسل إيلغازي إلى طغتكين: إن الملاجئة تؤذيني، وتسفك دمى، والمصلحة عودك إلى دمشق. فعاد.

وانتظر قرجان وصول العساكر السلطانية، فتأخرت عنه، فخاف أن يندفع أصحابه لطغتكين، ويسلموا إليه حمص، فعدل إلى الصلح مع إيلغازي على أن يطلقه، ويأخذ ابنه إياز رهينة، ويصاهره، ويمنع من طغتكين وغيره، فأجاب به إلى ذلك، فأطلقه، وتحالفاً، وسلم إليه ابنه إياز، وسار عن حمص (٥٠٤/١٠).

إلى حلب، وجمع التركمان، وعاد إلى حمص، وطالب بولده إياز، وحصر قرجان إلى أن وصلت العساكر السلطانية، فعاد إيلغازي على ما نذكره.

ذكر وفاة علاء الدولة بن سبكتكين وملك ابنه وما كان منه مع السلطان سنجر

في هذه السنة، في شوال، توفي الملك علاء الدولة أبو سعد مسعود بن أبي المظفر إبراهيم بن أبي سعد مسعود بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، بها، وملك بعده ابنه أرسلان شاه، وأمه سلجوقية، وهي أخت السلطان ألب أرسلان بن داود، فقبض على إخوته وسجنهم، وهرب أخ له اسمه بهرام إلى خراسان، فوصل إلى السلطان سنجر بن ملكشاه، فأرسل إلى أرسلان شاه في معناه، فلم يسمع منه، ولا أصغى إلى قوله، فتجهز سنجر للمستير إلى غزنة، وإقامة بهرام شاه في الملك.

فأرسل أرسلان شاه إلى السلطان محمد يشكو من أخيه سنجر، فأرسل السلطان إلى أخيه سنجر يأمره بمصالحة أرسلان شاه، وتترك التعرض له، وقال للرسول: إن رأيت أخي قد قصدهم، وسار نحوهم، أو قارب أن يسير، فلا تمنعه، ولا تبلغه الرسالة، فإن ذلك يفت في عضده ويوهنه، ولا يعود، ولأن يملك أخي الدنيا أحب إليّ. فوصل الرسول إلى سنجر، وقد جهز العساكر إلى غزنة، وجعل على مقدمته الأمير أنر، متقدم عسكره، ومعه الملك بهرام شاه، فساروا حتى بلغوا بستان، واتصل بهم فيها أبو الفضل نصر بن خلف، صاحب سيستان. (٥٠٥/١٠)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، كانت زلزلة شديدة بديار الجزيرة، والشام، وغيرها، فخربت كثيراً من الرُّهّا، وحُرّان، وسُمَيْساط، وبالسّ وغيرها، وهلك خلق كثير تحت الهدم.

وفيها قُتل تاج الدولة ألب أرسلان بن رضوان، صاحب حلب، قتل غلماناً بقلعة حلب، وأقاموا بعده أخاه سلطان شاه بن رضوان، وكان المستولي عليه لؤلؤ الخادم.

وفيها توفي الشريف النسيب أبو القاسم علي بن إبراهيم بن العباس الحسيني، في ربيع الآخر، بدمشق. (٥٠٩/١٠)

سنة تسع وخمسمائة

ذكر انهزام عسكر السلطان من الفرنج

قد ذكرنا ما كان من عصيان إيلغازي وطغتكين على السلطان، وقوة الفرنج، فلما اتّصل ذلك بالسلطان محمد جهّز عسكراً كثيراً، وجعل مقدّمهم الأمير بُرسق بن برسق، صاحب همدان، ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي، وعساكر الموصل والجزيرة، وأمرهم بالبداية بقتال إيلغازي وطغتكين، فإذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقتلوه، وحصروا بلادهم.

فساروا في رمضان من سنة ثمان وخمسمائة، وكان عسكراً كثير العدد، وعبروا القرات، آخر السنة، عند الرقّة، فلما قاربوا حلب راسلوا المتولّي لأمرها لؤلؤ الخادم، ومقدّم عسكرها المعروف بشمس الخواص، يأمرهم بتسليم حلب، وعرضوا عليهما كتب السلطان بذلك، فقالا في الجواب، وأرسلوا إلى إيلغازي وطغتكين يستنجدانهما، فسارا إليهم في ألفي فارس، ودخلا حلب، فامتنع من بها حينئذ عن عسكر السلطان، وأظهروا العصيان، فسار الأمير (٥١٠/١٠) برسق بن برسق إلى مدينة حماة، وهي في طاعة طغتكين، وبها ثقله، فحصرها، وفتحها عنوة، ونهبها ثلاثة أيام، وسلّمها إلى الأمير قرجان، صاحب حمص.

وكان السلطان قد أمر أن يسلم كل بلد يفتحونه، فلما رأى الأمراء ذلك قتلوا وضعفت نيّاتهم في القتال، بحيث تؤخذ البلاد وتسلم إلى قرجان، فلما سلّموا حماة إلى قرجان سلّم إليهم أياز بن إيلغازي، وكان قد سار إيلغازي، وطغتكين، وشمس الخواص، إلى أنطاكية واستجازوا بصاحبها روجيل، وسأله أن يساعدهم على حفظ مدينة حماة ولم يكن بلغهم فتحها.

ووصل إليهم بأنطاكية بغدوين، صاحب القدس، وصاحب طرابلس، وغيرهما من شياطين الفرنج، واتفق رأيهم على ترك اللقاء لكثرة المسلمين، وقالوا إنهم عند هجوم الشتاء يتفرقون، واجتمعوا بقلعة أقامية، وأقاموا نحو شهرين، فلما انتصف أيلول،

صاحب بهرامشاه، واعتقل بها أيضاً زوجة بهرامشاه، فلما انهزم أرسلان شاه استمال أخوه طاهر المستحفظ بها، فبذل له وللأجناد الزيادات، فسلّموا القلعة إلى الملك سنجر.

وأما قلعة البلد فإن أرسلان شاه كان اعتقل بها رسول سنجر، فلما أطلقه بقي غلماناً بها، فسلّموا القلعة أيضاً بغير قتال.

وكان قد تفرّق بين بهرامشاه وبين سنجر أن يجلس بهرام على سرير جدّه محمود بن سبكتكين وحده، وأن تكون الخطبة بغزنة للخليفة، وللسلطان محمد، وللملك سنجر، وبعدمهم لبهرامشاه، فلما دخلوا غزنة كان سنجر راكباً، وبهرامشاه بين يديه راجلاً، حتى جاء السرير، فصعد بهرامشاه فجلس (٥٠٧/١٠) عليه، ورجع سنجر، وكان يخطب له بالملك، ولبهرامشاه بالسلطان، على عادة آبائه، فكان هذا من أعجب ما يُسمع به.

وحصل لأصحاب سنجر من الأموال ما لا يُحَدّ ولا يُحصى من السلطان والرعايا، وكان في دور لملوكها عدة دور على حيطانها الراح الفضة، وسواقي المياه إلى البساتين من الفضة أيضاً، فقلع من ذلك أكثره، ونهب، فلما سمع سنجر ما يفعل منع عنه بجهد، وصلب جماعة حتى كف الناس.

وفي جملة ما حصل للملك سنجر خمسة تيجان قيمة أحدها تزيد على ألفي ألف دينار، وألف وثلاثمائة قطعة مصاغة مرصعة، وسبعة عشر سيراً من الذهب والفضة، وأقام بغزنة أربعين يوماً، حتى استقرّ بهرامشاه، وعاد نحو خراسان، ولم يُخطب بغزنة لسلاجقي قبل هذا الوقت، حتى إن السلطان ملكشاه مع تمكّنه وكثرة ملكه لم يطمع فيه، وكان كلما رام ذلك منع منه نظام الملك.

وأما أرسلان شاه فإنه لما انهزم قصد هندوستان واجتمع عليه أصحابه، فقويت شوكتة، فلما عاد سنجر إلى خراسان توجه إلى غزنة، فلما عرف بهرامشاه قصده إياه توجه إلى باميان، وأرسل إلى الملك سنجر يعلمه الحال، فأرسل إليه عسكراً.

وأقام أرسلان شاه بغزنة شهراً واحداً، وسار يطلب أصحابه بهرامشاه، فبلغه وصول عسكر سنجر، فانهزم بغير قتال للخوف الذي قد باشر قلوب أصحابه، ولحق بجبال أوغشان، فثار أخوه بهرامشاه وعسكر سنجر في أثره، وخرّبوا البلاد التي هو فيها، وأرسلوا إلى أهلها يهدّدونهم، فسلّموه بعد المضايقة، فأخذه مقدّم جيش الملك سنجر، وأراد حملبه إلى صاحبه، فخاف بهرامشاه (٥٠٨/١٠) من ذلك، فبذل له مالاً، فسلّمه إليه، فحققه ودفنه بترية أبيه بغزنة، وكان عمره مبعاً وعشرين سنة، وكان أحسن إخوته صورة، وكان قتل في جمادى الآخرة سنة اثني عشرة وخمسمائة، وإنما ذكرناه هاهنا لتصل الحادثة.

ورأوا عزم المسلمين على المقام، تفرقوا فعاد إيلغازي إلى ماردين، وطمعتهن إلى دمشق، والفرنج إلى بلادها.

وكانت أفامية وكفرطاب للفرنج، فقصدهم المسلمون كفرطاب وحصروها، فلما اشتد الحصر على الفرنج، ورأوا الهلاك، قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم، ودخل المسلمون البلد عنوة وقهرًا، وأسروا صاحبه، وقتلوا من بقي فيه من الفرنج، وماروا إلى قلعة أفامية، فأروها حصينة، فعدلوا عنها إلى المعرة، وهي للفرنج أيضاً، وفارقهم الأمير جيوخش بك إلى وادي بُزاعة فملكه.

وسلوت العساكر عن المعرة إلى حلب، وتقدمهم قتلهم ودوابهم، (٥١١/١٠) على جاري العادة، والعساكر في أشوه متلاحقة، وهم آمنون لا يظنون أحداً يقدم على القرب منهم.

وكان روجيل، صاحب أنطاكية، لما بلغه حصر كفرطاب، سار في خمسمائة فارس، وألقي راجل للمنع، فوصل إلى المكان الذي ظنبت فيه خيام المسلمين، على غير علم بها، فأراها خالية من الرجال المقاتلة، لأنهم لم يصلوا إليها، فنهب جميع ما هناك، وقتل كثيراً من السوقية، وغلبان العسكرة، ووصلت العساكر متفرقة، فكان الفرنج يقتلون كل من وصل إليهم.

ووصل الأمير برسق في نحو مائة فارس، فرأى الخال، فصعد تلاً هناك، ومعه أخوه زنكي، وأحاط بهم من السوقية والعلمان، واحتنوا بهم، ومنعوا الأمير برسق من النزول، فأشار عليه أخوه ومن معه بالنزول والنجاة بنفسه، فقال: لا أفعل، بل أقتل في سبيل الله، وأكون فداء المسلمين؛ فغلبوه على رأيه، فنجوا هو ومن معه، فتبعهم الفرنج نحو فرسخ، ثم عادوا وتمسروا الغنيمة والقتل، وأحرقوا كثيراً من الناس، وتفرق الضيكر، وأخذ كل واحد جهة.

ولما سمع الموكلون بالأمرى المأخوذ من كفرطاب ذلك قتلهم، وكذلك فعل الموكل إياز بن إيلغازي قتله أيضاً، وخاف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التي بالشام، فأتاهم كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر، فأتاهم ما لم يكن في الحساب، وعادت العساكر عنهم إلى بلادهم.

وأما برسق وأخوه زنكي فإنهما توفيا في سنة عشر وخمسمائة، وكان برسق خيراً، ديناً، وقد ندم على الهزيمة، وهو يتجهز للعود إلى الغزاة، فأتاه أجله. (٥١٢/١٠)

ذكر ملك الفرنج رقية وأخذها منهم

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، ملك الفرنج رقية حتى أرض الشام، وهي لطمعتهن، فطاح دمشق وقوتها بالرجال والذخائر، وبالغنائم تخصبها، فاهتم طمعتين للهلك، وقوي عزيمته على قصد بلاد الفرنج بالنهب لها والتخريب، فأتاه البحر من رقية

بخلوها من عسكر يمنع عنها، وليس هناك إلا الفرنج الذين رتبوا لحفظها، فسار إليها جريداً، فلم يشعر من بها إلا وقد هجم عليهم البلد فدخله عنوة وقهرًا، وأخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً، وقتل البعض، وترك البعض، وغنم المسلمون من سوادهم، وكراعهم، وذخائرهم ما امتلأت منه أيديهم، وعادوا إلى بلادهم سالمين.

ذكر وفاة يحيى بن تميم وولاية ابنه علي

في هذه السنة توفي يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، صاحب إفريقية، يوم عيد الأضحى، فجأة، وكان منجم قد قال له في منشيئ مولده إن عليه قطعاً في هذا اليوم، فلا يركب، فلم يركب، وخرج أولاده وأهل دولته إلى المصلى، فلما انقضت الصلاة حضروا عنده للسلام عليه وتهنته، وقرأ القراء، وأنشد الشعراء، وانصرفوا إلى الطعام، فقام يحيى من باب آخر ليحضر معهم على الطعام، فلم يمش غير ثلاث خطا حتى وقع ميتاً، وكان ولده (٥١٣/١٠) علي بمدينة سفاقس، فأحضر وعقدت له الولاية، ودُفن يحيى بالقصر، ثم نُقل إلى التربة بمنشيئ، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً، وكانت ولايته ثلثي سنين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وخلف ثلاثين ولداً، فقال عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصفي تربيته ويهشأ ابنه علياً بالملك:

ما أهدم العصب إلا جرد الذكُر، ولا أخفى قمر حتى بدا قمر
بموت يحيى أبيت الناس كلهم، حتى إذا ما علي جاءهم نثروا
إن يتعسروا يسرور من تملكه، فبين خيمة يحيى بالأسى فبروا
أوفى علي، فبين الملك ضاحكة، وعينها من أيدٍ دمعها فبر
شقت جيوب التعلالي بالأسى فبكت، في كل أنسٍ عليه الأنجم الزمر
وقل لابن تميم حزن ما دعما، فكل حزن عظيم فيه محضر
قام الدليل ويحيى لا حياة له، إن النسيئة لا تقسي، ولا تندر

وكان يحيى عادلاً في رعيته، ضابطاً لأموار دولته، مذبذباً لجميع أحواله، رحيماً بالضعفاء والفقراء، يكثر الصدقة عليهم، ويقرب أهل العلم والفضل، وكان عالماً بالأخبار، وأيام الناس، والطب، وكان حسن الوجه، أشبه العين إلى الطول، هو.

ولما استقر علي في الملك جهز أسطولاً إلى جزيرة جرجنة، وسماه أن (٥١٤/١٠) أهلها كانوا يقطعون الطريق، ويأخذون التجار، فحصرها، وضيق على من فيها فدخلوا تحت أطاعتها، وألتمزوا ترك الفساد وضمموا إصلاح الطريق، وكيف عنهم عند ذلك، وصلاح أمر البحر، وأمن المسافرون.

ذكر حلة جواليد

في هذه السنة في رجب، قدم السلطان محمد بن تغلق بوجندل إلى حلب، فطاح دمشق، في ذي القعدة، ومالك الرضا

عنه، فرضي عنه السلطان، وخلع عليه، وردّه إلى دمشق.

وفيه أمر الإمام المستظهر بالله ببيع البدرية، وهي منسوبة إلى بدر غلام المعتضد بالله، وكانت من أحسن دور الخلفاء، وكان ينزلها الراضي بالله، ثم تهدمت وصارت تلاً، فأمر القادر أن يسوّر عليها سور، لأنها مع الدار الإمامية، ففعل ذلك، فلما كان الآن أمر ببيعها، بيعت، وعمرها الناس.

وفيهما، في شعبان، وقعت الفتنة بين العامة، وسببها أن الناس لما عادوا من زيارة مصعب اختصموا على من يدخل أولاً، فاقتتلوا، وقتل بينهم جماعة، وعادت الفتن بين أهل المحال كما كانت، ثم سكنت.

وفيهما أقطع السلطان محمد الموصل وما كان بيد آقستقر البرسقي للأمير جيوش بك، وسير ولده الملك مسعوداً، وأقام البرسقي بالرّحبة، وهي إقطاعه، (٥١٥/١٠) إلى أن توفي السلطان محمد، وكان ما ذكره إن شاء الله تعالى.

وفيهما توفي إسماعيل بن محمد بن أحمد بن ملّة الأصبهاني، أبو عثمان ابن أبي سعيد الواعظ، سمع الكثير، وحدث ببغداد وغيرها، وعبد الله بن المبارك بن موسى السقطي، أبو البركات، له رحلة، وله تصانيف، وكان أدبياً. (٥١٦/١٠)

سنة عشر وخمسمائة

ذكر قتل أحمد بن وهسودان

في هذه السنة، أول المحرم، حضر أتابك طغتكين، صاحب دمشق، دار السلطان محمد ببغداد، وحضر جماعة الأمراء، ومعهم أحمد بن إبراهيم ابن وهسودان الروادي، الكردي، صاحب مراغة وغيرها من أذربيجان، وهو جالس إلى جانب طغتكين، فأتاه رجل متظلم، وبسده رقعة، وهو يكي، ويسأله أن يوصلها إلى السلطان، فأخذها من يده، فضربه الرجل بسكين، فجذبه أحمد بن وهسودان، فتركه تحته، فوثب رفيق اللباني وضرب أحمد بن وهسودان، فآخذتها السيوف، وأقبل رفيق لهما وضرب أحمد بن وهسودان، فمجب الناس من إقدامه بعد قتل صاحبه، وطمس طغتكين والحاضرون أن طغتكين كان المقصود بالقتل، وأنه بامر السلطان، فلما علموا أنهم باطنية زال هذا الوهم.

ذكر وفاة جاولي سقاو وحال بلاد فارس معه

في هذه السنة توفي جاولي سقاو، وكان السلطان ببغداد عازماً على المقام بها، فاضطر إلى السير إلى أصبهان ليكون قريباً من فارس، لئلا تختلف عليه، (٥١٧/١٠) وقد ذكرنا حال جاولي بالموصل إلى أن ملكته منه وأخذها السلطان، فلما قصد السلطان

ورضي عنه أقطعه بلاد فارس، فسار جاولي إليها، ومعه ولد السلطان جفري، وهو طفل له من العمر ستان، وأمره بإصلاحها، وقمع المفسدين بها، فسار إليها، فأول ما اعتمده فيها أنه لم يتوسط بلاد الأمير بلدجي، وهو من كبار ممالك السلطان ملكشاه، ومن جملة بلاده كليل وسرماه، وكان متمكناً بتلك البلاد.

وراسله جاولي ليحضر خدمة جفري، ولد السلطان، وعلم جفري أن يقول بالقارسية خذوه، فلما دخل بلدجي قال جفري على عادته: خذوه، فأخذ وقتل، ونهبت أمواله.

وكان لبلدجي، من جملة حصونه، قلعة إصطخر، وهي من أمتع القلاع وأحصنها، وكان بها أهله وذخائره، وقد استناب في حفظها وزيراً له يُعرف بالجهرمي، فعصى عليه، وأخرج إليه أهله وبعض المال، ولم تزل في يد الجهرمي حتى وصل جاولي إلى فارس فأخذها منه، وجعل فيها أمواله.

وكان بفارس جماعة من أمراء الشوانكاره، وهم خلق كثير لا يحصون، ومقدمهم الحسن بن المبارك، المعروف بخسرو، وله فسا وغيرها، فراسله جاولي ليحضر خدمة جفري، فأجاب: إنني عبد السلطان، وفي طاعته، فأما الحضور فلا سبيل إليه، لأنني قد عرفتُ عادتك مع بلدجي وغيره، ولكنني أحمل إلى السلطان ما يؤثّر. فلما سمع جاولي جوابه علم أنه لا مقام (٥١٨/١٠) له بفارس معه، فأظهر العود إلى السلطان، وحمل أثقاله على الدواب، وسار كأنه يطلب السلطان، ورجع الرسول إلى خسرو فأخبره، فاغتر وقعد للشرب، وأمين.

وأما جاولي فإنه عاد من الطريق إلى خسرو جريدة في نفر سير، فوصل إليه وهو مخمور نائم، فكبسه، فأنبهه أخوه فضّله، فلم يستيقظ، فصب عليه الماء البارد، فافاق، وركب من وقته وانهمز، وتفرق أصحابه، ونهب جاولي ثقله وأمواله، وأكثر القتل في أصحابه، ونجا خسرو إلى حصنه، وهو بين جبلين يقال لأحدهما أنج.

وسار جاولي إلى مدينة فسا فتسلمها، ونهب كثيراً من بلاد فارس منها جهرم، وسار إلى خسرو، وحصره مدة، وضيق عليه، فرأى من امتناع حصنه وقوته، وكثرة ذخائره ما علم [معه] أن المدة تطول عليه، فصالحه ليشتغل بباقي بلاد فارس، ورحل عنه إلى شيراز، فأقام بها، ثم توجه إلى كازرون فملكها، وحصر أبا سعد محمد بن مّا في قلعته، وأقام عليها ستين صيفاً وشتاء، فراسله جاولي في الصلح، فقتل الرسول، فأرسل إليه قوماً من الصوفية، فأطعمهم الهريسة والقطائف، ثم أمر بهم فخيّط أديارهم وألقوا في الشمس فهلكوا، ثم نفذ ما عند أبي سعد، فطلب الأمان فأمّنه، وتسلم الحصن.

ونُهيت أمواله، وصُلِبَ الفَرَّاش، ونَدب العساكر إلى المسير إلى جاولي، فساروا في سَنَةِ آلف فارس.

وكانت الولاية التي هي الحد بين فارس وكرمان بيد إنسان يسمي موسى، وكان ذا رأي ومكر، فاجتمع بالعسكر، وأشار عليهم بترك الجادة المسلوكة، وقال: إن جاولي محتاط منها؛ وسلك بهم طريقاً غير مسلوكة، بين جبال ومضايق.

وكان جاولي يحاصر فَرَج، وقد ضيق على من بها، وهو يُدمن الشراب، فسير أميراً في طائفة من عسكره ليلقي العسكر المنفذ من كَرْمَانَ، فسار الأمير، فلم ير أحداً، فظن أنهم قد عادوا، فرجع إلى جاولي وقال: إن العسكر (٥٢١/١٠) كان قليلاً، فعاد خوفاً متناً؛ فاطمأن حينئذ جاولي، وأدمن شرب الخمر.

ووصل عسكر كَرْمَانَ إليه ليلاً، وهو سكران، نائم، فأيقظه بعض أصحابه وأخبره، فقطع لسانه، فأناه غيره وأيقظه وعرفه الحال، فاستيقظ وركب وانهزم، وقد تفرق عسكره منهزمين، فقتل منهم وأسر كثير، وأدركه خسرو وابن أبي سعد الذي قتل جاولي أباه، فسارا معه في أصحابهما، فالتفت، فلم ير معه أحداً من أصحابه الأتراك، فخاف على نفسه منهم، فقالا له: إنا لا نغدر بك، ولن نري منك إلا الخير والسلامة، وسارا معه، حتى وصل إلى مدينة فسا، واتصل به المنهزمون من أصحابه، وأطلق صاحب كَرْمَانَ الأسرى وجهزهم، وكانت هذه الوقعة في شوال سنة ثمان وخمسمائة.

وبينما جاولي يدبر الأمر ليعاود كَرْمَانَ، ويأخذ بشاره، توفي الملك جفري ابن السلطان محمد، وعمره خمس سنين، وكانت وفاته في ذي الحجة سنة تسع وخمسمائة، ففت ذلك في عضده، فأرسل ملك كَرْمَانَ رسولا إلى السلطان، وهو ببغداد، يطلب منه منع جاولي عنه، فاجابه السلطان أنه لا بد من إرضاء جاولي وتسليم فَرَج إليه، فعاد الرسول في ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة، فتوفي جاولي، فأبينوا ما كانوا يخافونه، فلما سمع السلطان سار عن بغداد إلى أصبهان، خوفاً على فارس من صاحب كَرْمَانَ.

ذكر فتح جبل وسلات وتونس

في هذه السنة حصر عسكر علي بن يحيى، صاحب إفريقية، مدينة تونس، وبها أحمد بن خراسان، وضيق على من بها، فصالحه صاحبها على ما أراد. (٥٢٢/١٠)

وفها فتح أيضاً جبل وسلات بإفريقية، واستولى عليه، وهو جبل منيع، ولم يزل أهله، طول الدهر، يفتكون بالناس، ويقطعون الطريق، فلما استمر ذلك منهم سير إليهم جيشاً، فكان أهل الجبل ينزلون إلى الجيش، ويقاتلون أشد قتال، فعمل قائد الجيش الحيلة

ثم إن جاولي أساء معاملته، فهرب، فقبض على أولاده، وبث الرجال في أثره، فرأى بعضهم زنجياً يحمل شيئاً، فقال: ما معك؟ فقال: زادي؛ ففتشه، فرأى دجاجاً وحلواء السكر، فقال: ما هذا من طعامك؟ فضربه، فآقر على أبي سعد، وأنه يحمل ذلك إليه، فقصده، وهو في شعب جبل، فأخذته الجندي وحمله إلى جاولي فقتله. (٥١٩/١٠)

وسار إلى دارابجزة، وصاحبها اسمه إبراهيم، فهرب صاحبها منه إلى كَرْمَانَ خوفاً منه، وكان بينه وبين صاحب كَرْمَانَ صهر، وهو أرسلان شاه ابن كرمانشاه بن أرسلان بك بن قاوورت، فقال له: لو تعاضدنا لم يقدر علينا جاولي، وطلب منه النجدة.

وسار جاولي بعد هربه منه إلى حصار رتيل رننه، يعني مضيق رننه، وهو موضع لم يؤخذ قهراً قط؛ لأنه وإد نحو فرسخين، وفي صدره قلعة متينة على جبل عال، وأهل دارابجزة يتحصنون به إذا خافوا، فأقاموا به، وحفظوا أعلاه.

فلما رأى جاولي حصانته سار يطلب البرية نحو كَرْمَانَ، كاتماً أمره، ثم رجع من طريق كَرْمَانَ إلى دارابجزة، فظهوراً أنه من عسكر الملك أرسلان شاه، صاحب كَرْمَانَ، فلم يشك أهل الحصن أنهم مدد لهم مع صاحبهم، فأظهروا السرور، وأذنوا له في دخول المضيق، فلما دخله وضع السيف فيمن هناك، فلم ينج غير القليل، ونهب أموال أهل دارابجزة وعاد إلى مكانه، وراسل خسرو يعلمه أنه عازم على التوجه إلى كَرْمَانَ، ويدعوه إليه، فلم يجد بداً من موافقته، فنزل إليه طائفاً، وسار معه إلى كَرْمَانَ، وأرسل إلى صاحبها القاضي أبا طاهر عبد الله بن طاهر قاضي شيراز، يأمره بإعادة الشواكر لآلهم رعية السلطان، يقول: إنه متى أعادهم عاد عن قصد بلاده، وإلا قصده؛ فأعاد صاحب كَرْمَانَ جواب الرسالة يتضمن الشفاعة فيهم، حيث استجاروا به.

ولما وصل الرسول إلى جاولي أحسن إليه، وأجزل له العطاء، وأفسده على (٥٢٠/١٠) صاحبه، وجعله عيناً له عليه، وقرر معه إعادة عسكر كَرْمَانَ ليدخل البلاد وهم غارون، فلما عاد الرسول وبلغ السيرجان، وبها عساكر صاحب كَرْمَانَ، ووزيره مقدم الجيش، أعلم الوزير ما عليه جاولي من المقاربة، وأنه يفارق ما كرهوه، وأكثر من هذا النوع، وقال: لکنه مستوحش من اجتماع العساكر بالسيرجان، وإن أعداء جاولي طمعوا فيه بهذا العسكر، والرأي أن تعاد العساكر إلى بلادها.

فعاد الوزير والعساكر، وخلت السيرجان، وسار جاولي في أثر الرسول، فنزل بفَرَج، وهي الحد بين فارس وكَرْمَانَ، فحاصرها، فلما بلغ ذلك ملك كَرْمَانَ أحضر الرسول وأنكر عليه إعادة العسكر، فاعتذر إليه، وكان مع الرسول فرأش لجاولي ليعود إليه بالأخبار، فارتاب به الوزير، فعاقبه، فآقر على الرسول، فصُلِب،

في الصعود إلى الجبل من شعبه لم يكن أحد يظن أنه يصعد منه، فلما صار في أعلاه، في طائفة من أصحابه، ثار إليه أهل الجبل، فصبّر لهم، وقاتلهم فيمن معه أشد قتال، وتابع الجيش في الصعود إليه، فانهزم أهل الجبل، وكثر القتل فيهم، ومنهم من رمى نفسه فتكسّر، ومنهم من أفلت؛ واحتفى جماعة كثيرة بقصر في الجبل، فلما أحاط بهم الجيش طلبوا أن يرسل إليهم من يصلح حالهم، فأرسل إليهم جماعة من العرب والهند، فنار بهم أولئك بالسلح، فقتلوا بعضهم، وطلع الباقون إلى أعلى القصر، ونادوا أصحابهم من الجيش، فاتوهم وقاتلوهم: بعضهم من أعلى القصر، وبعضهم من أسفله، فالتقى من فيه من أهل الجبل أيديهم، فقتلوا كلهم.

ذكر الفتنة بطوس

في هذه السنة، في عاشوراء، كانت فتنة عظيمة بطوس، في مشهد علي بن موسى الرضا عليه السلام.

وسببها: أن علويًا خاصم، في المشهد، يوم عاشوراء، بعض فقهاء طوس، فأدى ذلك إلى مضاربة، وانقطعت الفتنة، ثم استعان [كل] منهما بحزبه، فثار فتنة عظيمة حضرها جميع أهل طوس، وأحاطوا بالمشهد وخرّبوه، وقتلوا (٥٢٣/١٠) من وجدوا، فقتل بينهم جماعة ونهبت أموال جمّة، واقتروا.

وترك أهل المشهد الخطية أيام الجمعات فيه، فبنى عليه عضد الدين فرامرز بن علي سوراً منيعاً يحتمي به من بالمشهد على من يريده بسوء، وكان بناؤه خمس عشرة وخمسمائة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وقعت النار في الحظائر المجاورة للمدرسة النظامية ببغداد، فاحترقت الأخشاب التي بها، واتصل الحريق إلى درب السلسلة، وتطاير الشرر إلى باب المراتب، فاحترقت منه عدة دور، واحترقت خزنة كتب النظامية، وسلمت الكتب، لأن الفقهاء لما أحسوا بالنار نقلوها.

وفيها توفي عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول أبو محمد الأندلسي، الشرفسطي، وكان فقيهاً، فاضلاً، ورد العراق نحو سنة خمسمائة، وسار إلى خراسان، فسكن مرو الروذ، فمات بها، وله شعر حسن، فمته:

وَمَهْهَمْ يَخَالُ فِي إِبْرَائِيهِ مَرَحَ الْقَضِبِ الْمَذْنُ تَحْتَ الْبَارِحِ
أَبْصَرْتُ فِي مَرَاةٍ فِكْرِي خَلْتُ، فَحَكَيْتُ فَمَلَّ جَفْوَنِي بِجَوْجِي
مَا كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ يَمْلَأَ تَوْفِي يَمْلَأُ يَمْلَأُ، فَجَرَحَ جَارِحِي
لَا غُرُوبَ إِنْ جَرَحَ التَّوَهُّمُ خَلْتُ، فَالْسَّحَرُ يَمْلَأُ فِي الْعِيدِ النَّازِحِ

وفيها، في شعبان، توفي أبو القاسم علي بن محمد بن أحمد بن بيان (٥٢٤/١٠) الرزاز، ومولده في صفر سنة ثلاث عشرة

وفيها توفي أبو بكر محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، رئيس الشافعية، بمرو، ومولده سنة ست وأربعين وأربعمائة، وسمع الحديث الكثير وصنف فيه، وله فيه أمال حسنة، وتكلم على الحديث، فأحسن ما شاء.

وفيها توفي محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوزاني أبو الخطّاب الفقيه الحنيلي، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وتفقّه على أبي يعلى بن القزّاء. (٥٢٥/١٠)

سنة إحدى عشرة وخمسمائة

ذكر وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود

في هذه السنة، في الرابع والعشرين من ذي الحجة، توفي السلطان محمد ابن ملكشاه بن ألب أرسلان، وكان ابتداء مرضه في شعبان، وانقطع عن الركوب، وتزايد مرضه، ودام، وأرجف عليه بالموت، فلما كان يوم عيد النحر حضر السلطان، وحضر ولده السلطان محمود على السباط، فنهى الناس، ثم أذن لهم فدخلوا إلى السلطان محمد، وقد تكلف القعود لهم، وبين يديه سباط كبير، فاكلوا وخرجوا. فلما انتصف ذو الحجة آيس من نفسه، فأحضر ولده محموداً، وقبّله، وبكى كل واحد منهما، وأمره أن يخرج ويجلس على تخت السلطنة، وينظر في أمور الناس، وعمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة، فقال لوالده: إنه يوم غير مبارك، يعني من طريق النجوم؛ فقال: صدقت، ولكن على أبيك، وأما عليك فمبارك بالسلطنة. فخرج وجلس على التخت بالنج والسوارين.

وفي يوم الخميس الرابع والعشرين أحضر الأمراء وأعلموا بوفاته، وفُرت وصيته إلى ولده محمود يأمره العدل والإحسان، وفي الجمعة الخامس والعشرين منه خطب لمحمود بالسلطنة.

وكان مولد السلطان محمد ثامن عشر شعبان من سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وأوّل ما دعي له (٥٢٦/١٠) بالسلطنة، ببغداد، في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين [وأربعمائة]، وقُطعت خطبته عدة دفعات على ما ذكرناه، ولقي من المشاق والأخطار ما لا حد له.

فلما توفي أخوه بركيارق صفت له السلطنة، وعظمت هيئته، وكثرت جيوشه وأمواله، وكان اجتمع الناس عليه اثني عشرة سنة وستة أشهر.

ذكر بعض سيرته

وهي على سبعة فراسخ من قزوین ولما تمهم، وسيرهم إلى الموت أيضاً.

وسار إلى قلعة الموت فيمن معه من العساكر، وأمدّه السلطان بعدة من الأمراء، فحصرهم، وكان هو، من بينهم، صاحب القريضة والبصرة في قتالهم، مع جودة رأي وشجاعة، فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه، وعيّن لكل طائفة من الأمراء أشهرًا يقيمونها، فكانوا ينيون، ويحضرون، وهو ملازم الحصار، وكان السلطان ينقل إليه الميرة، والذخائر، والرجال، فضايق الأمر على الباطنية، وعُدّت عندهم الأقوات وغيرها، فلما اشتدّ عليهم الأمر نزلوا نساءهم وأبنائهم مستأمنين، وسألوا أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق، ويؤمّنوا، فلم يجابوا إلى ذلك، وأعادهم إلى القلعة، قصدًا، ليموت الجميع جوعًا.

كان عادلاً، حسن السيرة، شجاعاً، فمن عدله أنّه اشترى ممالك من بعض التجار، وأحاطهم بالثمن على عامل خوزستان، فأعطاهم البعض، ومطل بالباقي، فحضرُوا مجلس الحكم، ولغدوا معهم غلمان القاضي، فلما رآهم السلطان قال لحاجبه: تنظر ما حال هؤلاء؟ فسألهم عن حالهم، فقالوا: لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم؟ فقال: من هو؟ قالوا: السلطان؛ وذكرُوا قصتهم، فأعلمه ذلك، فاشتدّ عليه وأكره، وأمر بإحضار العامل، وأمره بإيصال أموالهم، والجُمل الثقيل، ونكل به حتّى يمتنع غيره عن مثل فعله، ثمّ أنّه كان يقول بعد ذلك: لقد ندمتُ نداماً عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم، فيقتدي بي غيري، ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق.

فمن عدله: أنّه كان خازن يُعرف بابي أحمد القزويني قتل الباطنية، فلما قُتل أمر بعرض الخزانة، ففُرض عليه فيها دُرج فيه جوهر كثير نفيس، فقال: إنّ هذا الجوهر عرضه عليّ، منذ أيام، وهو في ملك أصحابه، وسلّمه (٥٢٧/١٠) إلى خادم ليحفظه وينظر من أصحابه فيسلّم إليهم، فسأل عنهم، وكانوا تجاراً غرباء، وقد تيقنوا ذهابه وأيسوا منه، فسكتوا؛ فأحضرهم وسلّمه إليهم.

ومن عدله: أنّه أطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ولم يُعرف منه فعل قبيح، وعلم الأمراء سيرته، فلم يقدم أحد منهم على الظلم، وكفّوا عنه.

ومن محاسن أعماله ما فعله مع الباطنية على ما نذكره.

ذكر حال الباطنية أيام السلطان محمد

قد تقدّم ذكر ما اعتمده من حصر قلاعهم، ونحن نذكر هاهنا زيادة اهتمامه بأمّهم، فإنّه، رحمه الله تعالى، لمّا علم أن مصالحي البلاد والعباد منوطَةٌ بمحو آثارهم، وإخراص دينارهم، وملك حصونهم وقلاعهم، جعل فصلهم دأبه.

وكان، في أيامه، المقدم عليهم، والقيّم بأمّهم الحسن بن الصباح الرازي، صاحب قلعة الموت، وكانت أيامه قد طالت، وله منذ ملك قلعة الموت ما يقارب ستّاً وعشرين سنة، وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزاة عليهم، وقتله وأسره رجالهم، وسبي نساءهم، فسّير إليه السلطان العساكر، على ما ذكرناه، فعادت من غير بلوغ غرض، فلما أعضل داؤه ندب لقتاله الأمير أنوشكين شيركير، صاحب آية، وسأوه، وغيرهما، فملك منهم عدّة قلاع منها قلعة كلام، ملكها في جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة، وكان مقدّمها يُعرف بعليّ بن موسى، فأمنه ومن معه، وسيرهم (٥٢٨/١٠) إلى الموت؛ وملك منهم أيضاً قلعة بيرة،

فلما سمعوا قوله علموا صدقه، فتعاهدوا على الاتفاق والاجتماع، فلما (٥٢٩/١٠) أمسوا رحلوا من غير مشاورة، ولم يبق غير شيركير، ونزل إليه الباطنية من القلعة، فدافعهم وقتلهم وحمى من تخلف من سوقة العسكر وأتباعه، ولحق بالعسكر، فلما فارق القلعة غنم الباطنية ما تخلف عندهم.

ذكر حصار قابس والمهديّة

في هذه السنة جهّز عليّ بن يحيى، صاحب إفريقية، أسطولاً في البحر إلى مدينة قابس، وحصرها.

وسبب ذلك أنّ صاحبها رافع بن مكنّ الدهمانيّ أنشأ مركباً بساحلها ليحمل التجار في البحر، وكان ذلك آخر أيام الأمير يحيى، فلم ينكر يحيى ذلك، جرياً على عادته في المداورة، فلما ولي عليّ الأمر، بعد أبيه، أنف من ذلك وقال: لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناوئي في إجراء المراكب في البحر بالتجارة؛ فلما خاف رافع أن يمنعه عليّ التّجاء إلى اللعين رجّار ملك الفرنج بصقلية، واعتضد به، فوعده رجّار أن ينصره ويعينه على إجراء مركبه في البحر، وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابس، فاجتازوا بالمهديّة، فحينئذ تحقق عليّ اتفاقهما، وكان يكذبّه.

وولي أتابكته سلطان شاه بن رضوان شمس الخواص يارو قناش، بقي شهراً، وعزلوه، وولي بعده أبو المعالي بن الملحني الدمشقي، ثم عزلوه وصادروه.

وقيل: كان سبب قتل لؤلؤ أنه أراد قتل سلطان شاه، كما قتل أخاه ألب أرسلان قبله، فظن به أصحاب سلطان شاه، فقتلوه؛ وقيل كان قتله سنة عشر وخمسمائة، والله أعلم.

ثم إن أهل حلب خافوا من الفرنج، فسلموا البلد إلى نجم الدين إيلغازي، فلما تسلمه لم يجد فيه مالاً، ولا ذخيرة، لأن الخادم كان قد فرق الجميع، وكان الملك رضوان قد جمع فأكثر، فزقه الله غير أولاده، فلما رأى إيلغازي خلوا البلد من الأموال صادر جماعة من الخدم بمال صانع به الفرنج، وهاذهم مئة يسيرة تكون بمقدار مسيره إلى ماردین، وجمع العساكر والعود، (٥٣٢/١٠) فلما تمت الهدنة مار إلى ماردین، على هذا العزم، واستخلف بحلب ابنه حُسام الدين تمر تاش.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في رابع عشر صفر، انخسف القمر انخسافاً كلياً.

وفي هذه الليلة هجم الفرنج على ريف حماة من الشام، وقتلوا من أهلها ما يزيد على مائة رجل وعادوا.

وفيها، في يوم عرفة، كانت زلزلة بالعراق، والجزيرة، وكثير من البلاد، وخرت ببغداد دور كثيرة بالجانب الغربي.

وفيها مات أحمد العربي ببغداد، وكان من عباد الله الصالحين، له كرامات، وقبره يزار بها.

وفي هذه السنة، في شوال، توفي أبو علي محمد بن سعد بن إبراهيم بن نيهان الكاتب، وعمره مائة سنة، وكان عالي الإسناد، روى عن أبي علي بن شاذان وغيره؛ والحسن بن أحمد بن جعفر أبو عبد الله الشقاق الفرضي، الحاسب، وكان واحد عصره في علم الفرائض والحساب، وسمع الحديث من أبي الحسين بن المهدي وغيره.

وفيها مات الكزايكس ملك القسطنطينية، وملك بعده ابنه يوحنا، وسلك سيرته.

وفيها مات دوقس أنطاكية، وكفى الله شره. (٥٣٣/١٠)

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

ذكر ما فعله السلطان محمود بالعراق وولاية البرسقي شحنكية

فلما جاز أسطوله رجار بالمهدية أخرج علي أسطوله في أثره، فتوافى الجميع إلى قابس، فلما رأى صاحبها أسطول الفرنج والمسلمين لم يخرج مركبه، فعاد أسطول الفرنج، وبقي أسطول علي يحصر رافعا بقابس مضيقاً عليها. (٥٣٠/١٠)

ثم عادوا إلى المهدية، وتمادى رافع في المخالفة لعلي، وجمع قبائل العرب، وسار بهم، حتى نزل على المهدية محاصراً لها، وخادع علياً، وقال: إنني إنما جئت للدخول في الطاعة، وطلب من يستقى في الصلح، وأفعاله تكذب أقواله، فلم يجبه عن ذلك بحرف، وأخرج العساكر، وحملوا على رافع ومن معه حملة منكرة، فالحقوهم بالبيوت، ووصل العسكر إلى البيوت، فلما رأى ذلك النساء صيحن، وولولن، فغارت العرب، وعادت القتال، واشتد حينئذ الأمر إلى المغرب، ثم افترقوا، وقد قتل من عسكر رافع بشر كثير، ولم يقتل من جند علي غير رجل واحد من الرجال.

ثم خرج عسكر علي مرة أخرى، فاقتلوا أشد من القتال الأول، كان الظهور فيه لعسكر علي، فلما رأى رافع أنه لا طاقة له بهم رحل عن المهدية ليلاً إلى القيروان، فمنعه أهلها من دخولها، فقاتلهم أياماً فلائيل، ثم دخلها، فأرسل علي إليه عسكراً من المهدية، فحصره فيها إلى أن خرج عنها، وعاد إلى قابس؛ ثم إن جماعة من أعيان إفريقية، من العرب وغيرهم، سألوا علياً في الصلح، فامتنع، ثم أجاب إلى ذلك، وتعاهد عليه.

ذكر الوحشة بين رجار والأمير علي

كان رجار، صاحب صقلية، بينه وبين الأمير علي، صاحب إفريقية، مودة وكيدة، إلى أن أمان رافعاً كما تقدم قبل، فاستوحش كل منهما من صاحبه، ثم بعد ذلك خاطبه رجار بما لم تجر عادتهم به، فتأكدت الوحشة، فأرسل رجار رسالة فيها خشونة، فاحترز علي منه، وأمر بتجديد الأسطول، وإعداد الأهبة للقاء العدو، وكاتب المرابطين بمراكش في الاجتماع معه على الدخول إلى صقلية، فكف رجار عما كان يمتد به. (٥٣١/١٠)

ذكر قتل صاحب حلب واستيلاء إيلغازي عليها

في هذه السنة قتل لؤلؤ الخادم، وكان قد استولى على قلعة حلب وأعمالها، بعد وفاة الملك رضوان، وولي أتابكته ولده ألب أرسلان، فلما مات أقام بعده فسي الملك سلطان شاه بن رضوان، وحكم في دولته أكثر من حكمه في دولة أخيه، فلما كانت هذه السنة سار منها إلى قلعة جعبر ليجتمع بالأمير سالم بن مالك صاحبها، فلما كان عند قلعة نادر نزل يريق الماء، فقصده جماعة من أصحاب الأتراك، وصاحوا: أرنب، أرنب! وأوهموا أنهم يصيدون، ورموه بالنشاب، فقتل، فلما هلك [تهبوا] خزائنه، فخرج إليهم أهل حلب، فاستعادوا ما أخذوه.

بغداد

عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة (٥٣٥/١٠) أشهر وأحد عشر يوماً، ووزر له عميد الدولة أبو منصور بن جُهير، وسديد الملك أبو المعالي المفضل بن عبد الرزاق الأصهباني، وزعيم الرؤساء أبو القاسم ابن جُهير، ومجد الدين أبو المعالي هبة الله بن المطلب، ونظام الدين أبو منصور الحسين بن محمد، وناب عن الوزارة أمين الدولة أبو سعد بن الموصلايا، وقاضي القضاة أبو الحسن علي بن الدماغاني، ومضى في أيامه، ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة، وهم: تاج الدولة تَش بن ألب أرسلان، والسلطان بركيارق، ومحمد ابنا ملكشاه.

ومن غريب الاتفاق أنه لما توفي السلطان ألب أرسلان توفي بعده القائم بأمر الله، ولما توفي السلطان ملكشاه توفي بعده المقتدي بأمر الله، ولما توفي السلطان محمد توفي بعده المستظهر بالله.

ذكر بعض أخلاقه وسيرته

كان، رضي الله عنه، لين الجانب، كريم الأخلاق، يحب اصطناع الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البرِّ والثواب، مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه.

وكان كثير الوثوق بمن يوليّه، غير مصغٍ إلى سعاية ساع، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلون، وانحلال عزم، بأقوال أصحاب الأغراض.

وكانت أيامه أيامَ ضرور للزعية، فكانها من حسنها أعياد، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره، وإذا تعرض سلطان أو نائب له لأذى أحد بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه. (٥٣٦/١٠)

وكان حسن الخط، جيد التوقيعات، لا يقاربه فيها أحد، يدلّ علي فضل غزير، وعلم واسع؛ ولما توفي صلى عليه ابنه المسترشد بالله، وكبر أربعاً، ودُفن في حجرة له كان يالفها، ومن شعره قوله:

أفاب حرّ الهوى في القلب ما جَمَدَا لما مددت إلى رسم الوفاغ بينا
وكيف أسلك نهج الاصطبل وقد أرى طرائق في تهوى الهوى يسلكا
قد انحلت الوعد بذر قد شيعت به، من بعد ما قد وفي دجري بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي مين بعد هذا، فلا عيتبه أبدا

ذكر خلافة الإمام المسترشد بالله

لما توفي المستظهر بالله بوع ولد المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أبي العباس أحمد بن المستظهر بالله، وكان ولي عهد قد خطب له ثلاثاً وعشرين سنة، فبايعه أخواه ابنا المستظهر بالله، وهما أبو عبد الله محمد، وأبو طالب العباس، وعمومته بنو المقتدي بأمر الله، وغيرهم من الأمراء، والفضاة، والأئمة،

لما توفي السلطان محمد، وملك بعده ابنه محمود، ودبر دولة الوزير الريب أبو منصور، أرسل إلى الخليفة المستظهر بالله يطلب أن يخطب له ببغداد، فخطب له في الجمعة ثالث عشر المحرم، وكان شحنة بغداد بهروز.

ثم إن الأمير ديبس بن صدقة كان عند السلطان محمد، مذ قتل والده، على ما ذكرناه، فأحسن إليه، وأقطعهُ إقطاعاً كثيراً، فلما توفي السلطان محمد خاطب السلطان محموداً في العود إلى بلده الجيلة، فأذن له في ذلك، فعاد إليها، فاجتمع عليه خلق كثير من العرب، والأكراد، وغيرهم، وكان أقسى البرسقي مقيماً بالرجبة، وهي إقطاع، وليس بيده من الولايات شيء، فاستخلف عليها ابنه عز الدين مسعود، وصار إلى السلطان محمد، قبل موته، عازماً على مخاطبته في زيادة إقطاعه، فبلغه وفاة السلطان محمد قبل وصوله إلى بغداد.

وسمع مجاهد الدين بهروز بقره من بغداد، فأرسل إليه يمنعه من دخولها، فسار إلى السلطان محمود، فلقبه توقيع السلطان بولاية شحنة بغداد، وهو بخلوان، وعزل بهروز.

وكان الأمراء عند السلطان يريدون البرسقي، ويتعصبون له، ويكرهون (٥٣٤/١٠) مجاهد الدين بهروز، ويحسدونه للقرب الذي كان له عند السلطان محمد، وخافوا أن يزداد تقدماً عند السلطان محمود وحكماً، فلما ولي البرسقي شحنة بغداد هرب بهروز إلى تكريت، وكانت له.

ثم إن السلطان ولي شحنة بغداد الأمير منكوبرس، وهو من أكابر الأمراء، وقد حكم في دولة السلطان محمود، فلما أعطي الشحنة سار إليها ربيبه الأمير حسين بن أزيك، أحد الأمراء الأتراك، وهو صاحب أسدآباد، لثوب عنه ببغداد والعراق، وفارق السلطان من باب همدان، واتصل به جماعة الأمراء البكجية وغيرهم.

فلما سمع البرسقي خاطب الخليفة المستظهر بالله ليأمره بالتوقف إلى أن يكاتب السلطان، ويفعل ما يرد به الأمر عليه، فأرسل إليه الخليفة، فأجاب: إن يرسم الخليفة بالعود عُدْتُ، وإلا فلا بد من دخول بغداد. فجمع البرسقي أصحابه وصار إليه، فالتقوا واقتتلوا، فقتل أخ لحسين، وانهزم هو ومن معه، وعادوا إلى عسكر السلطان، فكان ذلك في شهر ربيع الأول، قبل وفاة المستظهر بالله بأيام.

ذكر وفاة المستظهر بالله

في هذه السنة، سادس عشر ربيع الآخر، توفي المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان مرضه التراخي، وكان

والأعيان.

وكان المتولي لأخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدمغاني، وكان نائباً عن الوزارة، فأقره المسترشد بالله عليها، ولم يأخذ البيعة قاضي غير هذا، وأحمد (٥٣٧/١٠) ابن أبي داود، فإنه أخذها للوائق بالله، والقاضي أبو علي إسماعيل بن إسحاق، أخذها للمعتضد بالله.

ثم إن المسترشد عزل قاضي القضاة عن نيابة الوزارة، واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيع أبي منصور، وزير السلطان محمود، وكان والده خطب في معنى ولده، حتى استوزر، وقبض على صاحب المخزن أبي طاهر يوسف بن أحمد الحزني.

ذكر هرب الأمير أبي الحسن أخي المسترشد وعوده

لما اشتغل الناس ببيعة المسترشد بالله، ركب أخوه الأمير أبو الحسن بن المستظهر بالله سفينة، ومعه ثلاثة نفر، وانحدر إلى المدائن، وسار منها إلى ديبس بن صدقة بالجلّة، فكرمه ديبس، وعلم منه وفاة المستظهر بالله، وأقام له الإقامات الكثيرة، فلما علم المسترشد بالله خبره أمه ذلك وأقلقه، وأرسل إلى ديبس يطلب منه إعادته، فأجاب بأنني عبد الخليفة، وواقف عند أمره، ومع هذا فقد استندم بي، ودخل منزلي، فلا أكرهه على أمر أبداً.

وكان الرسول نقيب النقباء شرف الدين علي بن طراد الزينبي، فقصده الأمير أبا الحسن، وتحدث معه في عودته، وضمن له عن الخليفة كل ما يريد، فأجاب إلى العود، وقال: إني لم أفارق أخي لشراً أريده، وإنما الخوف حملني على مفارقه، فإذا أمنتني قصدته. وتكفل ديبس بإصلاح الحال (٥٣٨/١٠) بنفسه، والمسير معه إلى بغداد، فعاد النقيب وأعلم الخليفة الحال، فأجاب إلى ما طلبه منه.

ثم حدث من أمر البرسقي وديبس ومنكوبرس ما ذكرناه، فتأخر الحال.

وأقام الأمير أبو الحسن عند ديبس إلى ثاني عشر صفر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، ثم سار عن الحلة إلى واسط، وكثر جمعة، وقوي الإرجاف بقوته، وملك مدينة واسط، وخيف جانبه، فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولي عهده ولده أبي جعفر المنصور، وعمره حينئذ اثنا عشرة سنة، فخطب له ثاني ربيع الآخر ببغداد، وكتب إلى البلاد بالخطبة له، وأرسل إلى ديبس بن مزيد في معنى الأمير أبي الحسن، وأنه الآن قد فارق جواره، ومدّ يده إلى بلاد الخليفة وما يتعلق به، وأمره بقصدته ومعالجته قبل قوته؛ فأرسل ديبس العساكر إليه، ففارق واسط، وقد تحير هو وأصحابه، ففضلوا الطريق، ووصلت عساكر ديبس، فصادفوه عند الصلح، فنهبروا أثقاله، وهرب الأكراد من أصحابه، والأتراك، وعاد الباقون إلى ديبس.

وبقي الأمير أبو الحسن في عشرة من أصحابه وهو عطشان، وبينه وبين الماء خمسة فراسخ، وكان الزمان قيطاً، فأيقن بالتلف، وتبعه بدويان، فأراد الهرب منهما، فلم يقدر، فأخذه، وقد اشتد به العطش، فسقيه، وحمله إلى ديبس، فسيره إلى بغداد، وحمله إلى الخليفة، بعد أن بذل له عشرين ألف دينار، فحمل إلى الدار العزيزة، وكان بين خروجه عنها وعوده إليها أحد عشر شهراً.

ولما دخل على المسترشد بالله قبل قدمه، وقبله المسترشد، ويكيا، وأنزله (٥٣٩/١٠) داراً حسنة كان هو يسكنها قبل أن يلي الخلافة، وحمل إليه الخلع، والتحف الكثيرة، وطيب نفسه وأمنه.

ذكر مسير الملك مسعود وجيوش بك إلى العراق وما كان بينهما

وبين البرسقي وديبس

في هذه السنة، في جمادى الأولى، برز البرسقي، ونزل بأسفل الرقة في عسكره، ومن معه، وأظهر أنه على قصد الحلة وإجلاء ديبس بن صدقة عنها.

وجمع ديبس جمعاً كثيراً من العرب والأكراد، وفرق الأموال الكثيرة والسلاح.

وكان الملك مسعود ابن السلطان محمد بالموصل مع أتاكبه أي أبه جيوش بك، فأشار عليهما جماعة ممن عندهما بقصد العراق فإنه لا مانع دونه، فسارا في جيوش كثيرة، ومع الملك مسعود وزيره فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وقسيم الدولة زنكي بن أقسقر جد ملوكنا الآن بالموصل، وكان من الشجاعة في الغاية، ومعهم أيضاً صاحب سنجار، وأبو الهيجاء صاحب إربل، وكرباوي بن خراسان التركماني، صاحب البوازيج، فلما علم البرسقي قريتهم خافهم.

وكان البرسقي قديماً قد جعله السلطان محمد أتابك ولده مسعود، على ما ذكرناه، وإنما كان خوفه من جيوش بك، فلما قاربوا بغداد سار إليهم ليقاتلهم ويصدّهم، فلما علم مسعود وجيوش بك ذلك أرسل إلى الأمير (٥٤٠/١٠) كرباوي في الصلح، وأعلمه أنهم إنما جاؤوا نجدة له على ديبس، واصطلحوا، وتعاهدوا، واجتمعوا.

ووصل مسعود إلى بغداد، ونزل بدار المملكة، ووصلهم الخبر بوصول الأمير عماد الدين منكبرس المتقدم ذكره، في جيش كثير، فسار البرسقي عن بغداد نحوه ليحاربه ويمنعه عنها، فلفسوا علم به منكبرس قصد النعمانية، وعبر دجلة هناك، واجتمع هو وديبس بن صدقة.

وكان ديبس قد خاف من الملك مسعود والبرسقي، فبنى أمره على المجازعة والملاطفة، فأهدى لمسعود هدية حسنة،

وكان يؤثر مصلحته لذلك، واستقرّ الصلح، وخافا من البرسقي أن يمنع منه، فاتفقا على إرسال العسكر إلى دُرْزِيحَان ليعنف في مقابلته البرسقي ليعخلو العسكر منه، ويقع الاتفاق، فكان الأمر في مسيره على ما تقدم.

وكان البرسقي مجبواً لدى أهل بغداد لحسن سيرته فيهم، فلما استقرّ الصلح ووصلوا إلى بغداد، تفرق عن البرسقي أصحابه وجموعه، وبطل ما كان يحدث به نفسه من التغلب على العراق بغير أمر السلطان، وسار عن العراق إلى الملك مسعود، فأقام معه، واستقرّ منكبرس في شحمة بغداد، وودعه دُتَيْس بن صدقة، وعاد إلى الجلة، بعد أن طالب بدار أبيه برب فيروز، وكانت قد دخلت في جامع القصر ببغداد، فصولح عنها بمال.

وأقام منكبرس ببغداد يظلم، ويعسف الرعية، ويصادهم، فاختفى أرباب الأموال، وانتقل جماعة إلى حريم دار الخلافة خوفاً منه، وبطلت معاش الناس، وأكثر أصحابه الفساد، حتى إن بعض أهل بغداد رُتت إليه امرأة تزوجها، فعلم بعض أصحاب منكبرس، فأتاه وكسر الباب، وجرح الزوج عدة جراحات، وابتنى بزوجه، فكثر الدعا ليلاً ونهاراً، واستغاث الناس لهذه الحال، وأغلقت الأسواق، فأخذ الجندي إلى دار الخلافة فاعتقل أياماً ثم أطلق.

وسمع السلطان بما يفعله منكبرس ببغداد، فأرسل إليه يستدعيه، ويحثه على الحقوق به، وهو يغالط ويدافع، وكلما طلبه السلطان لجّ في جمع الأموال والمصادرات. فلما علم أهل بغداد تغير السلطان عليه، واستدعاه إياه، طمعوا فيه، فسار جيش منكبرس عنهم خوفاً أن يثروا به، وكفى الناس شره، وظهر من كان مستراً (٥٤٣/١٠).

ذكر وفاة ملك الفرنج وما كان بين الفرنج وبين المسلمين

في ذي الحجة من سنة إحدى عشرة وخمسمائة توفي بغدوين ملك القدس، وكان قد سار إلى ديار مصر في جمع الفرنج، فاصداً ملكها والتغلب عليها، وقوي طمعه في الديار المصرية، وبلغ مقابل دُتَيْس، وصبح في النيل، فاتفق جرح كان به، فلما أحسن بالموت عاد إلى القدس، فمات، ووصى ببلاده للقمص صاحب الرها، وهو الذي كان أسره جكرمش وأطلقه جاولي بمقاو، واتفق أن هذا القمص كان قد سار إلى القدس بوزر بيعة قمامة، فلما وصى إليه بالملك قبله، واجتمع له القدس والرها.

وكان أتايك طغتكين قد سار عن دمشق لقتال الفرنج، فنزل بين دُتَيْر أيوب وكُتَيْر بصل بالرموك، فخصيت عنه وفاة بغدوين، حتى يمنع الغير بعد ثمانية عشر يوماً، ويهجم نحو يومين، فأتته رسل ملك الفرنج يطلب المهادنة، فاقترح عليه طغتكين ترك المناصفة التي بينهم من جبل عوف، والحلّة، والصلت، والفور، فلم يجب

وللبرسقي، وجيوش بك، فلما وصله خبر وصول منكبرس وأسله، واستماله، واستحلفه، واتفقا على التعاضد والتناصر، واجتماعا، وكل واحد منهما قوي بصاحبه، فلما اجتماعا سار الملك مسعود، والبرسقي، وجيوش بك، ومن معهم، إلى المدائن للقاء دُتَيْس ومنكبرس، فلما وصلوا المدائن اتهم الأخبار بكثرة الجمع معهم، فعاد البرسقي، والملك مسعود، وعبرا نهر صرصر، وحفظا المخاضات عليه، ونهبت الطافتان السواد نهياً فاحشاً: نهر الملك، ونهر صرصر، ونهر عيسى، ونهض دُجَيْل، واستباحوا النساء.

فأرسل المسترشد بالله إلى الملك مسعود والبرسقي ينكر هذه الحال، ويأمرهما بحسن الدماء، وترك الفساد، ويأمر بالموادعة والمصالحة، وكان الرسل: سديد الدولة بن الأنباري، والإمام الأسعد الميمني، مدرّس النظامية، فانكر البرسقي أن يكون جرى منها شيء من ذلك، وأجاب إلى العود، فوصل من أخيره أن منكبرس ودُيُسا قد جهزا ثلاثة آلاف فارس مع منصور أخيه دُتَيْس، والأمير حسين بن أزيك، ربيب منكبرس، وسيروهم، وعبروا عند دُرْزِيحَان ليقطعوا مخاضة عند قبالي إلى بغداد، لخلوها من (٥٤١/١٠) عسكر يحميها ويمنع عنها.

فعاد البرسقي إلى بغداد، وعبر الجسر لثلاً يخاف الناس، ولم يعلموا الخبر، وخلف ابنه عز الدين مسعوداً على عسكره بصرصر، واستصحب معه عماد الدين زنكي بن أفسر، فوصل إلى قبالي، ومنع عسكر منكبرس من العبور، فأقام يومين، فأتاه كتاب ابنه عز الدين مسعود يخبره أن الصلح قد استقر بين الفريقين، فانكسر نشاطه، حيث جرى هذا الأمر ولم يعلم به، وعاد نحو بغداد، وعبر إلى الجانب الغربي، وعبر منصور وحسين فسارا في عسكرهما خلفه، فوصلا ببغداد عند نصف الليل، فنزلا عند جامع السلطان.

وسار البرسقي إلى الملك مسعود فأخذ بركة وماله وعاد إلى بغداد، فحجم عند القنطرة العتيقة، وأصعد الملك مسعود، وجيوش بك، فنزلا عند اليمارستان، وأصعد دُتَيْس ومنكبرس فخيمتا تحت الرقعة، وأقام عز الدين مسعود بن البرسقي عند منكبرس عتقداً عن أبيه.

وكان سبب هذا الصلح أن جيوش بك كان قد أرسل إلى السلطان محمود يطلب الزيادة له وللملك مسعود، فوصل كتاب الرسول من العسكر يذكر أنه لقي من السلطان إحساناً كثيراً، وأنه أقطعهما أدرَبِيحَان، فلما بلغه رجليهما إلى بغداد اعتقد أنهما قد غصتا عليه، فعاد عما كان استقر، ويقول إن السلطان قد جهز عسكراً إلى الموصل، فوقع الكتاب بيد منكبرس، فأرسله إلى جيوش بك، وضمن له إصلاح السلطان له وللملك مسعود، وكان منكبرس (٥٤٢/١٠) مترجماً بأمر الملك مسعود، واسمها سبرجهان،

إلى ذلك، وأظهر القوّة، فسار طغتكين إلى طبرية فنهبها وما حولها، ففرقا، وكان الناس قد خافوا ممّن فيهما. وسار منها نحو عسقلان.

وفيها، وصل رسول إيلغازي، صاحب حلب وماردين، إلى بغداد يستنفر على الفرنج، ويذكر ما فعلوا بالمسلمين في الديار الجزيرية، وأنهم ملكوا قلعة عند الرها، وقتلوا أميرها ابن عطير، فسوّت الكتب بذلك إلى السلطان محمود.

وفيها نُقل المستظهر إلى الرصافة، وجميع من كان مدفوناً بدار الخلافة، وفيهم جدّة المستظهر أمّ المقتدي، وكانت وفاتها بعد المستظهر، ورأت البطن الرابع من أولادها.

وفيها كثر أمر العيارين بالجانب الغربي من بغداد، فعبر إليهم نائب الشحنة في خمسين غلاماً أتراكاً، فقاتلهم، فانهزم منهم، ثم عبر إليهم من الغد في مائتي غلام، فلم يظفر بهم، ونهب العيارون يومئذ قطعاً.

وفي هذه السنة، في شعبان، توفي أبو الفضل بكر بن محمد بن عليّ بن الفضل الأنصاري من ولد جابر بن عبد الله، وهو من بلد بخاري، وكان من أعيان الفقهاء الحنفيّة، حافظاً للمذهب.

وتوفي أبو طالب الحسين بن محمد بن عليّ بن الحسن الزيني، نقيب النقباء ببغداد، في صفر، واستقال من النقابة، فولياها أخوه طراد، وكان من أكابر (٥٤٦/١٠) الحنفيّة، وروي الحديث الكثير.

وفيها، في ذي الحجة، توفي أبو زكريّا يحيى بن عبد الوهاب بن مندة الأصهباني، المحدث المشهور من بيت الحديث، وله فيه تصانيف حسنة.

وفيها توفي أبو الفضل أحمد بن الخازن، وكان أديباً، ظريفاً، له شعر حسن، فمنه قوله، وقد قصد زيارة صديق له، فلم يره، فأدخله غلماته إلى بستان في الدار، وحمام، فقال في ذلك:

وَأَيْتَ مَرَلَةً، فَلَمْ أَرِ صَاحِباً إِلَّا تَلَقَّاهُ بِوَجْهِ ضَاحِكٍ
وَالْبُشْرِ فِي وَجْهِهِ السَّلَامُ نَتِجَةً لِمُقَدَّسَاتِ ضِيَاءِ وَجْهِهِ الْمَالِكِ
وَدَخَلَتْ جَسَدَهُ، وَوُثِرَتْ جِوَانِبُهُ فَشَكَرَتْ رِضْوَاناً وَرَأْفَةً مَالِكِ
(٥٤٧/١٠)

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

ذكر عصيان الملك طغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طغرل بن محمد لما توفي والده بقلعة سرجهان، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة في المحرم، وأقطعه والده، سنة أربع، ساوة وآوة وزنجان، وجعل أتابكه الأمير شيركير الذي تقدّم ذكره في حصار قلاع الإسماعيلية، فإزاداد ملك طغرل بما فتحه

وكانت للمصريين وبها عساكرهم، كانوا قد سبّروها لما عاد ملك القدس المتوفى عن مصر، وكانوا سبعة آلاف فارس، فاجتمع بهم طغتكين، وأعلمه المقدم عليهم أنّ صاحبهم تقدّم إليه بالوقوف عند رأي طغتكين، والتصرف على ما يحكم به، فأقاموا بعسقلان نحو شهرين، ولم يؤثروا في الفرنج أثراً، فعاد طغتكين إلى دمشق، فأتاه الصريح بأنّ مائة وثلاثين فارساً من الفرنج أخذوا (٥٤٤/١٠) حصناً من أعماله يُعرف بالحبس، يُعرف بحصن جلدك، سلّمه إليهم المستحفظ به وقصدوا أذرعاً فنهبوا، فأرسل إليهم تاج الملوك بوري بن طغتكين، فأتاحوا عنه إلى جبل هناك، فنازلهم، فأتاه أبوه ونهاه عنهم، فلم يفعل، وطمع فيهم، فلما أيسر الفرنج قاتلوا قتالاً مُستقتل، فنزلوا من الجبل وحملوا على المسلمين حملة صادقة هزمهم بها، وأسروا وقتلوا خلقاً كثيراً، وعاد الفلّ إلى دمشق على أسوأ حال.

فسار طغتكين إلى حلب، وبها إيلغازي، فاستنجده، وطلب منه التعاضد على الفرنج، فوعده بالمسير معه، فينما هو بحلب أتاه الخبر بأنّ الفرنج قصدوا حوران من أعمال دمشق، فنهبوا وقتلوا وسبوا وعادوا، فاتفق رأي طغتكين وإيلغازي على عود طغتكين إلى دمشق، وحماية بلاده، وعود إيلغازي إلى ماردين، وجمع العساكر، والاجتماع على حرب الفرنج، فصالح إيلغازي من يليه من الفرنج على ما تقدّم ذكره، وعبر إلى ماردين لجمع العساكر، وكان ما ذكره سنة ثلاث عشرة (وخمسمائة)، إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انقطع الغيث، وعُدمت الغلات في كثير من البلاد، وكان أشدّه بالعراق، فغلت الأسعار، واجلس أهل السواد، وتقوت الناس بالنخالة، وعظم الأمر على أهل بغداد بما كان يفعله منكبرس بهم.

وفيها أسقط المسترشد بالله من الإقطاع المختص به كلّ جور، وأمر أن لا يؤخذ إلا ما جرت به العادة القديمة، وأطلق ضمان غزل الذهب، وكان (٥٤٥/١٠) صنّاع السقلاطون، والممرّج، وغيرهم ممّن يعمل منه، يلقون شدة من العمال عليها، وأذى عظيماً.

وفيها تأخر مسير الحجّاج تأخراً أرجف بسببه بانقطاع الحجّ من العراق، فرتّب الخليفة الأمير نظّر، خدام أمير الجيوش يمين، وولاه من أمر الحجّ ما كان يتولاه أمير الجيوش، وأعطاه من المال ما يحتاج إليه في طريقه، وسبّره، فأدركوا الحجّ وظهرت كفاية نظّر. وفيها وصل مركبان كبيران فيهما قوّة ونجدة للفرنج بالشام،

وكان سنجر يلقب بناصر الدين، فلما توفي أخوه محمد تلقب بمعز الدين، وهو لقب أبيه ملكشاه، وعزم على قصد بلد الجبال والعراق وما بيد محمود ابن أخيه، فندم على قتل وزيره أبي جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر ابن نظام الملك.

وكان سبب قتله أنه وحش الأمراء، واستخف بهم فأبغضوه وكرهوه، وشكروا منه إلى السلطان، وهو بغزنة، فأعلمهم أنه يؤثر قتله، وليس يمكنه فعل ذلك بغزنة.

وكان سنجر قد تغير على وزيره لأسباب منها: أنه أشار عليه بقصد غزنة، فلما وصل إلى بشت أرسل أرسلانشاه صاحبها إلى الوزير، وضمن له خمسمائة ألف دينار ليشني سنجر عن قصده، فأشار عليه بمصالحته والعود عنه، وفعل مثل ذلك بما وراء النهر؛ ومنها: أنه نقل عنه أنه أخذ من غزنة أموالاً جلية عظيمة المقدار؛ ومنها: ما ذكر من إيحاشه الأمراء وغير هذه الأسباب. فلما عاد إلى بلخ قبض عليه، وقتله وأخذ ماله، وكان له من الجواهر والأموال ما لا حدّ عليه، والذي وجد له من العين ألفا ألف دينار، فلما قتله استوزر بعده شهاب الإسلام عبد الرزاق ابن أخي نظام الملك، ويُعرف بابن الفقيه، إلا أنه لم تكن له منزلة ابن فخر الملك عند الناس في علو المنزلة، فلما اتصل به وفاة أخيه ندم على قتله لأنه كان يبلغ به من الأغراض والملك ما لا يبلغه بكثرة العساكر لميل الناس إليه، ومحلّه عندهم.

ثم إن السلطان محموداً أرسل إلى عمّه سنجر شرف الدين أنوشروان (٥٥٠/١٠) ابن خالد وفخر الدين طغايك بن اليزن، ومعهما الهدايا والتحف، وبذل له السزول عن مازندران، وحمل مائتي ألف دينار كل سنة، فوصلا إليه وأبلغاه الرسالة، فتجهز ليسير إلى الري، فأشار عليه شرف الدين أنوشروان بترك القتال والحرب، فكان جوابه في ذلك: أن ولد أخي صبي، وقد تحكّم عليه وزيره والحاجب علي.

فلما سمع السلطان محمود بمسير عمّه نحوه، ووصول الأمير أثر في مقدمته إلى جرجان، تقدّم إلى الأمير علي بن عمر، وهو أمير حاجب السلطان محمد، وبصده صار أمير حاجب السلطان محمود، بالمسير، وضم إليه جمعاً كثيراً من العساكر والأمراء، فاجتمعوا في عشرة آلاف فارس، فساروا إلى أن قاربوا مقدمة سنجر التي عليها الأمير أثر، فراسله الأمير علي بن عمر يعرفه وصية السلطان محمد بتعظيم سنجر والرجوع إلى أمره ونهيه، والقبول منه، وأنه ظن أن سنجر يحفظ السلطنة على ولده السلطان محمود، وأخذ علينا بذلك العهد، فليس لنا أن نخالفه، وحيث جئتم إلى بلادنا لا نحتمل ذلك، ولا نقضي عليه، وقد علمت أن معك خمسة آلاف فارس، فانا أرسل إليك أقلّ منهم لتعلم أنك لا

شريك من قلاعهم، فأرسل إليه السلطان محمود الأمير كتغندي ليكون أتابكاً له، ومدبراً لأمره، ويحمّله إليه، فلما وصل إليه حسن له مخالفة أخيه، وترك المجيء إليه، واتّفقاً على ذلك.

وسمع السلطان محمود الخير، فأرسل شرف الدين أنوشروان بن خالد، ومعه خلع وتحف وثلاثون ألف دينار، ووعد أخاه بإقطاع كثير، زيادة على ماله، إذا قصده، واجتمع به، فلم تقع الإجابة إلى الاجتماع، وأجاب كتغندي، بأننا في طاعة السلطان، وأي جهة أراد قصدناها، ومعنا من العساكر ما نقاوم بها من يرسم بقصده.

فبينما الخوض معهم في ذلك ركب السلطان محمود من باب همدان في عشرة آلاف فارس، جريدة، في جمادى الأولى، وكتم مقصده، وعزم على أن يكبس أخاه، والأمير كتغندي، فرأى أحد خواصّه تركياً من أصحاب الملك طغرل، فأعلم السلطان به، فقبض عليه، فعلم رفيق كان معه الحال، فسار عشرين (٥٤٨/١٠) فرسخاً في ليلة، ووصل إلى الأمير كتغندي، وهو سكران، فأيقظه بعد جهد، وأعلمه الحال، فقصد الملك طغرل، فعرفه ذلك، وأخذه متخفياً، وقصد قلعة سميران، فضلاً عن الطريق إلى قلعة سرجهان، وكانا قد فارقاها، وجمعا العساكر، وكان ضلالهما هداية لهما إلى السلامة، فإن السلطان محموداً جعل طريقه على سميران، وقال: إنها حصنهما الذي فيه الذخائر والأموال، وإذا علمنا بوصوليهما إليهما سارا إليهما، فربما صادفهما في الطريق، فسلما منه بما ظناه عطياً لهما.

ووصل السلطان إلى العسكر، فكيسه، ونهيه، وأخذ من خزانة أخيه ثلاثمائة ألف دينار، وذلك المال الذي أنفذه له، وأقام السلطان محمود بزنجان، وتوجه منها إلى الري، ونزل طغرل من سرجهان، ولحق هو وكتغندي بكنجة وقصده أصحابه، فقويت شوكتهم، وتمكّنت الوحشة بينه وبين أخيه محمود.

ذكر الحرب بين سنجر والسلطان محمود

في هذه السنة، في جمادى الأولى، كانت حرب شديدة بين سنجر وابن أخيه السلطان محمود، ونحن نذكر سببها ذلك:

قد ذكرنا سنة ثمان وخمسمائة مسير السلطان سنجر إلى غزنة، وفتحها وما كان منه فيها، ثم عاد عنها إلى خراسان، فلما بلغه وفاة أخيه السلطان محمد، وجلس ولده السلطان محمود في السلطنة، وهو زوج ابنة سنجر، لحقه حزن عظيم (٥٤٩/١٠) لموت أخيه، وأظهر من الجزع والحزن ما لم يُسمع بمثله، وجلس للعزاء على الرماد، وأغلق البلد سبعة أيام، وتقدّم إلى الخطباء بذكر السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتال الباطنية، وإطلاق المكوس، وغير ذلك.

ونهب من أثقالهم شيء كثير، وقتل أهل السواد كثيراً منهم.

تقاوموننا، ولا تقوون بنا.

ووقف سنجر بين القيلة في جمع من أصحابه، وبلازائه السلطان محمود، ومعه أتابكه غزغلي، فالحجأت سنجر الضرورة، عند تعاضم الخطاب عليه، أن يقدم القيلة للحرب، وكان من بقي قد أشاروا عليه بالهزيمة، فقال: إما النصر أو القتل، وأما الهزيمة فلا. فلما تقدمت القيلة، ورأها خيل محمود، تراجعت بأصحابها على أعقابها، فاشفق سنجر على السلطان محمود في تلك الحال، وقال لأصحابه: لا تفرعوا الصبي بحملات القيلة؛ فكفوها عنهم، وانهمزم السلطان محمود ومن معه في القلب، وأسر أتابكه غزغلي، فكان يكتب السلطان، ويعد أنه يحمل إليه ابن أخيه، فعاتبه على ذلك، فاعتذر بالعجز، فقتله، وكان ظالماً قد بالغ في ظلم أهل همدان، فعجل الله عقوبته.

فلما سمع الأمير أثر ذلك عاد عن جرجان ولحقه بعض عسكر السلطان محمود، فأخذوا قطعة من سواده، وأسروا عدداً من أصحابه.

وكان السلطان محمود قد وصل إلى الري، وهو بها، وعاد الأمير علي بن عمر إليه، فشكره على فعله، وأثنى عليه وعلى عسكره الذين معه. (٥٥١/١٠)

وأشير على السلطان محمود بملازمة الري، والمقام بها، وقيل: إن عساكر خراسان إذا علموا بمقامك فيها لا يفارقون حدودهم، ولا يتعدون ولا يتهم. فلم يقبل ذلك وضجر [من] المقام، وسار إلى جرجان.

ووصل السلطان محمود والأمير منكبرس من العراق في عشرة آلاف فارس، والأمير منصور بن صدقة أخو ديتيس، والأمراء البيكجية، وغيرهم، وسار محمود إلى همدان، وتوفي بها وزيره الريب، واستوزر أبا طالب السمرمي، وبلغه وصول عمه سنجر إلى الري، فسار نحوه. قاصداً قتاله، فالتقيا بالقرب من ساوة ثاني جمادى الأولى من السنة، وكان عسكر السلطان محمود قد عرفوا المفازة التي بين يدي عسكر سنجر، وهي ثمانية أيام، فسبقوهم إلى الماء وملكوهم عليهم.

وكان العسكر الخراساني في عشرين ألفاً، ومعهم ثمانية عشر فيلاً. اسم كبيرها باذهر، ومن الأمراء الكبار: ولد الأمير أبي الفضل، صاحب سيستان، وخوارزمشاه محمد، والأمير أثر، والأمير قماج، واتصل به علاء الدولة كرشايف بن فرامرز بن كاكوتيه، صاحب يزد، وهو صهر السلطان محمد وسنجر على اختهما، وكان أخص الناس بالسلطان محمد، فلما تولى السلطان محمود تأخر عنه، فأقطع بلده لقراجه الساقى الذي صار صاحب بلاد فارس، فسار حيثئذ علاء الدولة إلى سنجر، وهو من ملوك الديلم، وعرف سنجر الأحوال، والطريق إلى قصد البلاد، وما فعله الأمراء من أخذ الأموال، وما هم عليه من اختلاف الأهواء، وحسن قصد البلاد.

وكان عسكر السلطان محمود ثلاثين ألفاً، ومن الأمراء الكبار: الأمير علي ابن عمر، أمير حاجب، والأمير منكبرس، وأتابكه غزغلي، وبنو برسق، (٥٥٢/١٠) وسفر البخاري، وقراجه الساقى، ومعه تسعمائة جمل من السلاح.

واستهان عسكر محمود بعسكر عمه بكثرتهم وشجاعتهم، وكثرة خيلهم، فلما التقوا ضعفت نفوس الخراسانية لما رأوا لهذا العسكر من القوة والكثرة، فانهزمت ميمنة سنجر وميسرته، واختلط أصحابه، واضطرب أمرهم، وساروا منهزمين لا يلوون على شيء،

ولما تم النصر والظفر للسلطان سنجر أرسل من أعاد المنهزمين من أصحابه إليه، ووصل الخبر إلى بغداد في عشرة أيام، فأرسل الأمير ديتيس بن صدقة إلى المسترشد بالله في الخطبة للسلطان سنجر، فخطب له في السادس والعشرين من جمادى الأولى، وقطعت خطبة السلطان محمود.

وأما السلطان محمود فإنه سار من الكسرة إلى أصبهان، ومعه وزيره أبو طالب السمرمي، والأمير علي بن عمر، وقراجه.

وأما سنجر فإنه سار إلى همدان، فرأى قلة عسكره، واجتماع العساكر على ابن أخيه، فراسله في الصلح، وكانت والدته تشير عليه بذلك، (٥٥٣/١٠) ويقول: قد استوليت على غزنة وأعمالها، وما وراء النهر، وملكت ما لا حدّ عليه، وقررت الجميع على أصحابه، فاجعل ولد أخيك كأحدكم.

وكانت والدته سنجر هي جدّة السلطان محمود، فأجاب إلى قولها، ثم كثرت العساكر عند سنجر منهم البرسقي، وكان عند الملك مسعود بأذربيجان من حين خروجه عن بغداد إلى هذه الغاية، فقوي بهم، فعاد الرسول وأبلغه عن الأمراء الذين مع السلطان محمود أنهم لا يصلحونه حتى يعود إلى خراسان، فلم يجب إلى ذلك، وسار من همدان إلى كرج، وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح، ووعد أنه يجعله وليّ عهده، فأجاب إلى ذلك، واستقر الأمر بينهما، وتحالفا عليه.

وسار السلطان محمود إلى عمه سنجر في شعبان، فنزل على جدته والدة سنجر، وأكرمه عمه، وبالح في ذلك، وحمل له السلطان محمود هدية عظيمة، فقبلها ظاهراً، وردّها باطناً، ولم تقل منه سوى خمسة أفراس عربية، وكتب السلطان سنجر إلى سائر الأعمال التي بيده كخراسان وغزنة، وما وراء النهر، وغيرها من الولايات، بأن يخطب للسلطان محمود بعده، وكتب إلى بغداد

الوقعة قول العظيمي:

مثل ذلك، وأعاد عليه جميع ما أخذ من البلاد سوى الرّي، وقصد بأخذها أن تكون له في هذه الديار لئلا يحدث السلطان محمود نفسه بالخروج.

ذكر غزاة إيلغازي بلاد الفرنج

في هذه السنة سار الفرنج من بلادهم إلى نواحي حلب، فملكوا بزاعة وغيرها، وخربوا بلد حلب ونازلوها، ولم يكن يحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً، وخافهم أهلها خوفاً شديداً، ولو مكنوا من القتال لم يبق بها (٥٥٤/١٠) أحد، لكنهم منعوا من ذلك؛ وصانع الفرنج أهل حلب على أن يقاسموهم على أملكهم التي بباب حلب، فأرسل أهل البلد إلى بغداد يستغيثون، ويطلبون النجدة، فلم يُعَاثُوا.

وكان الأمير إيلغازي، صاحب حلب، ببلد ماردين يجمع الحساكر والمتطوعة للغزاة، فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً، وكان معه أسامة بن المبارك ابن شبل الكلبي، والأمير طغان أرسلان بن المكر، صاحب بدليس وأرزن، وسار بهم إلى الشام، عازماً على قتال الفرنج.

فلما علم الفرنج قوة عزمهم على لقائهم، وكانوا ثلاثة آلاف فارس، وتسعة آلاف راجل، ساروا ففزلوا قريباً من الأثارب، بموضع يقال له تلّ عفّرين، بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات، وفي هذا الموضع قُتل شرف الدولة مُسلم بن قريش.

وظنّ الفرنج أن أحداً لا يسلك إليهم لضيق الطريق، فأخذوا إلى المطاولة، وكانت عادة لهم، إذا رأوا قوة من المسلمين؛ وراسلوا إيلغازي يقولون له: لا تختب نفسك بالمسير إلىنا، فنحن واصلون إليك؛ فاعلم أصحابه بما قالوه، واستشارهم فيما يفعل، فاشاروا بالركوب من وقته، وقصدتهم، ففعل ذلك، وسار إليهم، ودخل الناس من الطرق الثلاثة، ولم تعتقد الفرنج أن أحداً يقدم عليهم، لصعوبة المسلك إليهم، فلم يشعروا إلا وأواكل المسلمين قد غشيتهم، فحمل الفرنج حملة منكراً، فوَلَّوْا منهزمين، فلقوا باقي العسكر متتابعة، فعادوا معهم، وجري بينهم حرب شديدة، وأحاطوا بالفرنج من جميع جهاتهم، وأخذهم السيف من سائر نواحيهم، فلم يفلت منهم غير نفر (٥٥٥/١٠) يسير، وقُتل الجميع، وأُسروا.

وكان في جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم، وحملوا إلى حلب، فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار، فلم يُقبل منهم، وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة.

وأما سيرجال، صاحب أنطاكية، فإنه قُتل وحُمِل رأسه، وكانت الوقعة منتصف شهر ربيع الأول، فمما مُدِح به إيلغازي في هذه

قُلْ ما تشاء، قَرَأْتُكَ المَقْبُولُ، وَعَلَيْكَ بَعْدُ الْخَائِقُ التَّغْوِيلُ
وَأَسْبِشِرُ الْقِرَاءُ حِينَ نَصْرَتُهُ، وَيَكِي لَقَدِيرُ رَجَالِ الْإِنْبِجِلُ

ثم تجتمع من سلم من المعركة مع غيرهم، فلقبهم إيلغازي أيضاً، فهزّمهم، وفتح منهم حصن الأثارب، ورزّذنا، وعاد إلى حلب، وقرّر أمرها، وأصلح حالها، ثم عبر الفرات إلى ماردين.

ذكر وقعة أخرى مع الفرنج

في هذه السنة سار جوسلين، صاحب تلّ باثير، في جمع من الفرنج نحو ماتي فارس، من طبرية، فكبس طائفة من طي يُعرقون بني خالد، (٥٥٦/١٠) فأخذهم، وأخذ غنائمهم، وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة، فأخبروه أنهم من وراء الحزن، بوادي السلالة، بين دمشق وطبرية، فقدم جوسلين مائة وخمسين فارساً من أصحابه، وسار هو في خمسين فارساً على طريق آخر، وواعدهم الصبح ليكبسوا بني ربيعة، فوصلهم الخبر بذلك، فأرادوا الرحيل، فمنعهم أميرهم من بني ربيعة، وكانوا في مائة وخمسين فارساً، فوصلهم المائة وخمسون من الفرنج، معتقدين أن جوسلين قد سبقهم، أو سيدركهم، فضلّ الطريق، وتساوت العذتان، فاقتلوا، وطعنت العرب خيولهم، فجعلوا أكثرهم رجالة، وظهر من أميرهم شجاعة، وحسن تدبير، وجودة رأي، فقتل من الفرنج سبعون، وأسر اثنا عشر من مقدميهم، بذل كل واحد [منهم] في فداء نفسه مالا جزيلاً وعدة من الأسرى.

وأما جوسلين فإنه ضلّ في الطريق، وبلغه خبر الوقعة، فسار إلى طرابلس، فجمع بها جمعاً، وأسرّى إلى عسقلان، فأغار على بلدها، فهزّمه المسلمون هناك فعاد مقلولاً.

ذكر قتل منكوبيرس

في هذه السنة قُتل الأمير منكوبيرس البذي كان شيخنة بغداد، وقد تقدّم خاله.

وكان سبب قتله: أنه لما انهزم مع السلطان محمود وعاد إلى بغداد، نهب عدة مواضع من طريق خراسان، وأراد دخول بغداد، فسير إليه ديبس ابن صدقة من منعه، فعاد وقد استقرّ الصلح بين السلطانيين سنجر ومحمود، (٥٥٧/١٠) فقصد السلطان سنجر، فدخل إليه ومعه سيف وكفن، فقال له: أنا لا أؤاخذ أحداً، وسلّمه إلى السلطان محمود، وقال: هذا مملوكك، فاصنع به ما تريد! فأخذه.

وكان في نفسه منه غيظ شديد لأسباب منها: أنه لما توفي السلطان محمد أخذ سرّيته، والدّة الملك مسعود، قهراً، قبل انقضاء عدتها؛ ومنها: جرّأته عليه، واستبداده بالأمور دونه، ومسيره إلى

شحنكية بغداد، والسلطان كارهٌ لذلك لكنه لم يقدر على منعه؛ ومنها: ما فعله بالعراق من الظلم، إلى غير ذلك، فقتله صبراً، وأراح العباد والبلاد من شره.

ذكر ملك علي بن سَكمان البصرة

في هذه السنة استولى علي بن سَكمان على البصرة.

وسبب ذلك: أنَّ السلطان محمدًا كان قد أقطع البصرة الأمير أَسَنَقَرُ البخاري، فاستخلف بها نائباً يُعرف بِسُقَرُ البياتي، فأحسن السيرة إلى حدِّ أنَّ الماء بالبصرة يُلح، فأقام سفناً وجاراً للضعفاء والسابلة، تحمل لهم الماء العذب، فلما توفي السلطان محمد عزم هذا الأمير سُقَرُ على القبض على أمير اسمه غزغلي، مقدّم الأتراك الإسماعيلية، وهو مذكور، وحجَّ بالناس على البصرة عدّة سنين، وعلى أمير آخر اسمه سُقَرُ الب، وهو مقدّم الأتراك البلديّة، فاجتمعا عليه، وقبضاه وقيداه، وأخذوا القلعة وما وجداه له.

ثم إنَّ سُقَرُ الب أراد قتله، فمنعه غزغلي، فلم يقبل منه، فلما قتله وثب غزغلي على سُقَرُ الب فقتله، ونادى في الناس بالسكون، واطمأنوا.

وكان أمير الحاجّ من البصرة هذه السنة؛ أمير اسمه علي بن سَكمان أحد الأمراء البلديّة، وكان في نفس غزغلي عليه حق، حيث تمَّ الحجّ على يده، ولأنّه خاف أن يأخذ بشار سُقَرُ الب، إذ هو مقدّم البلديّة، فأرسل غزغلي إلى عرب البرية يأمرهم بقصد الحُجّاج ونهبهم، فطمعوا بذلك، وقصدوا الحُجّاج فقاتلهم، وحماهم ابن سَكمان، وأبلى بلاءً حسناً، وجعل يقاتلهم وهو سائر نحو البصرة إلى أن بقي بينه وبين البصرة يومان، فأرسل إليه غزغلي يمنعه من قصد البصرة، فقصد العوني، أسفل دجلة، هذا والعرب يقاتلونه، فلما وصل إلى العوني حمل على العرب حملة صادقة، فهزمهم.

وسار غزغلي إلى علي بن سَكمان في عدد كثير، وكان علي في قلّة، (٥٦٠/١٠) فتحاربوا، واقتلت الطائفتان، فأصاب فرس غزغلي نَشابة فسقط وقُتل، وسار علي إلى البصرة فدخلها، وملك القلعة، وأقرَّ عمال أَسَنَقَرُ البخاري ونوابه، وكاتبه بالطاعة، وكان عند السلطان، وسأله أن يكون نائباً عنه بالبصرة، فلم يجبه أَسَنَقَرُ إلى ذلك، فطرد حيثنذ نواب أَسَنَقَرُ، واستولى على البلد، وتصرف تصرف الأصحاب، مستبداً، واستقرّ فيه، وأحسن السيرة إلى سنة أربع عشرة [وخمسمائة]، فسير السلطان محمود الأمير أَسَنَقَرُ البخاري في عسكر إلى البصرة، فأخذها من علي بن سَكمان.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الدين بهروز شهنكية العراق، وكان بها نائب دُبّيس بن صدقة، فعُزل عنها.

ذكر قتل الأمير علي بن عمر

في هذه السنة أيضاً قُتل علي بن عمر، حاجب السلطان محمد، وكان قد صار أكبر أمير مع السلطان محمود، واثقادات العساكر له، فحسده الأمراء، وأفسدوا حاله مع السلطان محمود، وحسّنوا له قتله، فعلم، فهرب إلى قلعة برجين، وهي بين بَرْوجَرْد وكَرْج، وكان بها أهله وماله، وسار منها في مائتي فارس إلى خُوزِستان، وكانت بيد أقبوري بن برسق، وابني أخويه: أرغلي بن يَلِكِي، وهندو بن زنكي، فأرسل إليهم وأخذ عهدهم بأمانه وحمايته.

فلما سار إليهم أرسلوا عسكراً منعه من قصدهم، فلقوه على سَنَة فراسخ من سَنَر، فاقتلوا، فانهزم هو وأصحابه، فوقف به فرسه، فانتقل إلى غيره، فتشيت ذيله بسرجه الأول، فأزاله، فعادوا التعلّق، فأبطأ، فادركوه وأسروه، وكاتبوا السلطان محموداً في أمره، فأمرهم بقتله، فقتل وحُمل رأسه إليه. (٥٥٨/١٠)

ذكر الفتنة بين المرابطين وأهل قرطبة

في هذه السنة، وقيل سنة أربع عشرة [وخمسمائة]، كانت فتنة بين عسكر أمير المسلمين علي بن يوسف وبين أهل قرطبة.

وسببها: أنَّ أمير المسلمين استعمل عليها أبا بكر يحيى بن رواد، فلما كان يوم الأضحى خرج الناس متفرجين، فمدَّ عبد من عبيد أبي بكر يده إلى امرأة فأمسكها، فاستغاثت بالمسلمين، فأغاثوها، فوقع بين العبيد وأهل البلد فتنة عظيمة، ودامت جميع النهار، والحرب بينهم قائمة على ساق، فأدركهم الليل، فتفرّقوا، فوصل الخبر إلى الأمير أبي بكر، فاجتمع إليه الفقهاء والأعيان، فقالوا: المصلحة أن تقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة؛ فإنكر ذلك، وغضب منه، وأصبح من الغد، وأظهر السلاح والعدد يريد قتال أهل البلد، فركب الفقهاء والأعيان والشبان من أهل البلد، وقاتلوه فهزموه، وتحصّن بالقصر، فحاصروه، وتسلقوا إليه، فهرب منهم بعد مشقة وتعب، فهربوا القصر، وأحرقوا جميع دور المرابطين، ونهبوا أموالهم، وأخرجوهم من البلد على أقبح صورة.

واتصل الخبر بأمير المسلمين فكره ذلك واستعظمه، وجمع العساكر من صنهاجة، وزناتة، والبربر، وغيرهم، فاجتمع له منهم جمع عظيم، فعبر إليهم سنة خمس عشرة وخمسمائة، وحصر مدينة قرطبة، فقاتله أهلها قتال من يريد [أن] يحمي دمه وحريمه وماله، فلما رأى أمير المسلمين شدّة قتالهم دخل السُفراء بينهم، وسعوا في الصلح، فأجابهم إلى ذلك على أن يُعزَّم أهل قرطبة

سنة أربع عشرة وخمسمائة

ذكر عصيان الملك مسعود على أخيه السلطان محمود والحرب

بينهما

في هذه السنة، في ربيع الأول، كان المصاف بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود، ومسعود حيث شد له الموصل وأذربيجان.

وكان سبب ذلك أن دُيِّس بن صدقة كان يكاتب جيوش بك أنابك مسعود، يحثه على طلب السلطنة للملك مسعود، ويعدّه المساعدة، وكان غرضه أن يختلفوا فينال من الجاه وعلو المنزلة ما ناله أبوه باختلاف السلطانين بركيارق ومحمد ابني ملكشاه على ما ذكرناه.

وكان قسيم الدولة البرسقي، أنابك الملك مسعود، قد فارق شحنة بغداد، وقد أقطع مسعود مراغة، مضافة إلى الرحبة، وبينه وبين دُيِّس عداوة محكمة، فكاتب دُيِّس جيوش بك يشير عليه بقبض البرسقي، وينسبه إلى الميل إلى السلطان محمود، وبذل له مالا كثيرا على قبضه، فعلم البرسقي ذلك، ففارقهم إلى السلطان محمود، فأكرمه وأعلى محله وزاد في تقديره.

واتصل الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصهباني الطغرائي بالملك مسعود، (٥٦٣/١٠) فكان أبو المؤيد، محمد بن أبي إسماعيل، يكتب الطغراء مع الملك، فلمّا وصل والده استوزره مسعود، بعد أن عزل أبا علي بن عمّار، صاحب طرابلس، سنة ثلاث عشرة (وخمسمائة) بباب خوي، فحسن ما كان دُيِّس يكاتب به من مخالفة السلطان محمود والخروج عن طاعته.

وظهر ما هم عليه من ذلك، فبلغ السلطان محموداً الخبر، فكتب إليهم يخوفهم إن خالفوه، ويعدّهم الإحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته، فلم يصغوا إلى قوله، وأظهروا ما كانوا عليه، وما يُسرّونه، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة، وضربوا له النوب الخمس، وكان ذلك على تفرق من عساكر السلطان محمود، فقوي طمعهم، وأسرعوا السير إليه ليلقوه وهو مُخَفَّف من العساكر، فاجتمع إليه خمسة عشر ألفاً، فسار أيضاً إليهم، فالتقوا عند عقبة أسداباذ، منتصف ربيع الأول، واقتتلوا من بكرة إلى آخر النهار.

وكان البرسقي في مقدمة السلطان محمود، وأبلى يومئذ بلاء حسناً، فانهمز عسكر الملك مسعود، آخر النهار، وأسر منهم جماعة كثيرة من أعيانهم ومقدميهم، وأسر الأستاذ أبو إسماعيل وزير مسعود، فأمر السلطان بقتله، وقال: قد ثبت جندي فساد دينه واعتقاده؛ فكانت وزارته سنة وشهراً، وقد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة والشعر، يعميل إلى صنعة الكيمياء، وله فيها تصانيف

وفيهما، في ربيع الأول، توفي الوزير ربيب الدولة، وزير السلطان محمود، ووزر بعده الكمال السُميري، وكان ولد ربيب الدولة، وزير المسترشد، فعزل، واستعمل بعده عميد الدولة أبو علي بن صدقة، ولقب جلال الدين، وهذا الوزير، وهو عم الوزير جلال الدين أبي الرضا صدقة، الذي وزر للراشد، والأتابك زنكي على ما نذكره.

وفيهما ظهر قبر إبراهيم الخليل، وقبرا ولدته إسحاق ويعقوب، عليهم السلام، بالقرب من البيت المقدس، ورآهم كثير من الناس لم تثل أجسادهم، وعندهم في المغارة قتاديل من ذهب وقصّة، هكذا ذكره حمزة بن أسد التميمي في تاريخه، والله أعلم. (٥٦١/١٠)

وفيهما، في المحرم، توفي قاضي القضاة أبو الحسن علي بن محمد الدامغاني، ومولده في رجب سنة تسع وأربعين وأربعمائة، وولي القضاء بباب الطاق من بغداد إلى الموصل وله من العمر ست وعشرون سنة، وهذا شيء لم يكن لغيره، ولما توفي ولي قضاء القضاة الأكمل أبو القاسم علي بن أبي طالب الحسين بن محمد الزيني، وخُلع عليه ثالث صفر.

وفيهما هُدم تاج الخليفة على دجلة للخوف من انهدامه، وهذا التاج بناه أمير المؤمنين المكتفي بعد سنة تسعين ومائتين.

وفيهما تأخر الحج، فاستغاث الناس، وأرادوا كسر الجبر بجامع القصر، فأرسل الخليفة إلى دُيِّس بن صدقة ليساعد الأمير نظر على تسير الحجّاج، فأجاب إلى ذلك، وكان خروجهم من بغداد ثاني عشر ذي القعدة، وتوالت عليهم الأمطار إلى الكوفة.

وفيهما أرسل دُيِّس بن صدقة القاضي أبا جعفر عبد الواحد بن أحمد الثقفي، قاضي الكوفة، إلى إيلغازي بن أرتق بماربين، يخطب ابته، فزوجه منه إيلغازي، وحملها الثقفي معه إلى الجيلة، واجتاز بالموصل.

وفيهما، في جمادى الأولى، توفي أبو الوفا علي بن عُقيل بن محمد بن عُقيل، شيخ الحنابلة، في وقته، ببغداد، وكان حسن المناظرة، سريع الخاطر، وكان قد اشتغل بمذهب المعتزلة في حديثه على أبي الوليد، فأراد الحنابلة قتله، فاستجار بباب المراتب عدة سنين، ثم أظهر التوبة حتى تمكّن من الظهور، وله مصنفات من جملتها كتاب الفنون. (٥٦٢/١٠)

قد ضيعت من الناس أموالاً لا تحصى.

وأما الملك مسعود فإنه لما انهزم أصحابه وتفرقوا قصد جبلاً بينه وبين الوقعة اثنا عشر فرسخاً، فأختفى فيه ومعه غلمان صغار فأرسل ركائبه عثمان إلى أخيه يطلب له الأمان، فسار إلى السلطان محمود وأعلمه حال أخيه مسعود، (٥٦٤/١٠) ففرق له، وبذل له الأمان، وأمر أستاذ البرسقي بالمسير إليه، وتطييب قلبه، وإعلامه ببعفه عنه، وإحضاره؛ فكان مسعود بعد أن أرسل يطلب الأمان قد وصل بعض الأمراء إليه، وحسن له اللحاق بالموصل، وكانت له، ومعه أذربيجان، وأشار عليه بمكاتبة دؤيب بن صدقة ليجتمع به، ويكثر جمعه، ويعاود طلب السلطنة، فسار معه من مكانه.

ووصل البرسقي فلم يره، فأخبر بمسيره، فسار في أثره، وعزم على طلبه ولو إلى الموصل، وجد في السير، فأدركه على ثلاثين فرسخاً من مكانه ذلك، وعرفه عقو أخيه عنه، وضمن له ما أراد، وأعادته إلى العسكر، فأمر السلطان محمود العساكر باستقباله وتعظيمه، ففعلوا ذلك، وأمر السلطان أن ينزل عند والدته، وجلس له، وأحضره، واعتقا، وبكى، وانعطف عليه محمود، ووفى له بما بذله، وخلطه بنفسه في كل أفعاله، فعُد ذلك من مكارم محمود، وكانت الخطبة بالسلطنة لمسعود بأذربيجان، وبلد الموصل، والجزيرة، ثمانية وعشرين يوماً.

وأما أتايكه جيوش بك فإنه سار إلى عقبة أساباذ، وانتظر الملك مسعوداً، فلم يره، وانتظره بمكان آخر، فلم يصل إليه، فلما أيس منه سار إلى الموصل، ونزل بظاهرها، وجمع الغلات من السواد إليها، واجتمع إليه عسكره، فلما سمع بما فعله السلطان مع أخيه، وأنه عنده، علم أنه لا مقام له على هذه الحال، فسار كأنه يريد الصيد، فوصل إلى الزاب، وقال لمن معه: إني قد عزمْتُ على قصد السلطان محمود، وأحاطير بنفسي؛ فسار إليه، فوصل وهو بهمدان، ودخل إليه، فطيّب قلبه وأمنه، وأحسن إليه.

وأما دؤيب فإنه كان بالعراق، فلما بلغه خبر انهزام الملك مسعود (٥٦٥/١٠) نهب البلاد وخرّبها، وفعل فيها الأفاعيل القبيحة، إلى أن أتاه رسول السلطان محمود، وطيّب قلبه، فلم يلتفت.

ذكر حال دؤيب وما كان منه

لما كان منه ببغداد وسوادها من النهب والقتل والفساد مالم يجر مثله، أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله رسالة ينكر عليه، ويأمره بالكف، فلم يفعل، فأرسل إليه السلطان وطيّب قلبه، وأمره بمنع أصحابه عن الفساد، فلم يقبل، وسار بنفسه إلى بغداد، وضرب سرادقه بإزاء دار الخلافة، وأظهر الضغائن التي في نفسه، وكيف طيف برأس أبيه، وتهبّد الخليفة، وقال: إنك أرسلت

تستدعي السلطان، فإن أعدتموه، وإلا فعلتُ وصنعتُ، فأعيد جواب رسالته: أن عودَ السلطان، وقد سار عن همدان، غير ممكن، ولكننا نُصلح حالك معه.

وكان الرسول شيخ الشيخ إسماعيل، فكفّ على أن تسير الرسل في الاتفاق بينه وبين السلطان، وعاد عن بغداد في رجب.

ووصل السلطان في رجب إلى بغداد، فأرسل دؤيب زوجته ابنة عميد الدولة بن جُهير إليه، ومعه مال كثير، وهدية نفيسة، وسال الصفع عنه، فأجيب إلى ذلك على قاعدة امتنع منها، ولزم لجاحه، ونهب جشيراً للسلطان. فسار السلطان عن بغداد، في شوال، إلى قصد دؤيب بالجلّة، واستصحب ألف سفينة ليغير فيها، فلما علم دؤيب مسير السلطان أرسل يطلب الأمان، فأمنه، وكان قصده أن يغالطه ليتجهز، فأرسل نساءه إلى البطيحة، وأخذ أمواله وسار عن الجلّة، بعد أن نهبا، إلى إيلغازي ملتجئاً إليه، ووصل السلطان إلى الجلّة، فلم ير أحداً، فبات بها ليلة واحدة وعاد. (٥٦٦/١٠)

وأقام دؤيب عند إيلغازي، وتردّد معه، ثم إنّه أرسل أخاه منصوراً في جيش من قلعة جُبر إلى العراق، فنظر الجلّة، والكوفة، وانحدر إلى البصرة، وأرسل إلى يرتقش الزكوي يسأله أن يُصلح حاله مع السلطان، فلم يتم أمره، فأرسل إلى أخيه دؤيب يعرفه ذلك، ويدعوه إلى العراق، فسار من قلعة جُبر إلى الجلّة سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، فدخلها وملكها، وأرسل إلى الخليفة والسلطان يعتذر، ويعد من نفسه الطاعة، فلم يُجب إلى ذلك.

وسيّرت إليه العساكر، فلما قاربوه فارق الجلّة، ودخل إلى الأزل (١)، وهو نهر سِنْدَاد، ووصل العسكر إليها وهي فارغة قد أجلي أهلها عنها، وليس بها إقامة، فكانت البيرة تنقل من بغداد، وكان مقدّم العسكر سعد الدولة يرتقش الزكوي، فترك بالجلّة خمسمائة فارس، وبالكوفة جماعة أخرى تحفظ الطريق على دؤيب، وأرسل إلى عسكر واسط يحفظ طريق البطيحة، ففعلوا ذلك، وعبر عسكر السلطان إلى دؤيب، فبقي بين الطائفتين نهر يخاض فيه مواضع، فتراسل يرتقش ودؤيب، واتّفا على أن يرسل دؤيب أخاه منصوراً رهينة، ويلزم الطاعة، ففعل، وعاد العسكر إلى بغداد سنة ست عشرة [وخمسمائة]. (٥٦٧/١٠)

ذكر خروج الكُرج إلى بلاد الإسلام وملك يَفْلِس

في هذه السنة خرج الكُرج، وهم الخَزَر، إلى بلاد الإسلام، وكانوا قديماً يغيرون، فامتنعوا أيام السلطان ملكشاه إلى آخر أيام السلطان محمد، فلما كانت هذه السنة خرجوا معهم قفجاق وغيرهم من الأمم المجاورة لهم، فتكاتب الأمراء المجاورون لبلادهم، واجتمعوا، منهم: الأمير إيلغازي، ودؤيب بن صدقة، وكان عنده، والملك طغرل بن محمد، وأتابكه كنتغدي، وكان لطغرل بلد

ذكر ابتداء أمر محمد بن تومرت وعبد المؤمن وملكهما

في هذه السنة كان ابتداء أمر المهدي أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت العلوي، الحسيني، وقبيلته من المضامدة، تعرف بهرقة في جبل السوس، من بلاد المغرب، نزلوا به لما فتحه المسلمون مع موسى بن نصير، ونذكر أمره وأمر عبد المؤمن هذه السنة إلى أن فرغ من ملك المغرب لتبعية بعض الحادثة بعضاً.

وكان ابن تومرت قد رحل في شبته إلى بلاد الشرق في طلب العلم، وكان قتيهاً، قاضياً، فاضلاً، عالماً بالشرعة، حافظاً للحديث، غارفاً بأصولي الدين والفقه، متحققاً بعلم العربية، وكان ورعاً، ناسكاً، ووصل في سفره إلى العراق، واجتمع بالفرزي، والكبي، واجتمع بأبي بكر الطروشي بالإسكندرية، وقيل إنه جرى له حديث مع الفرزي فيما فعله بالمغرب من التملك، فقال له الفرزي: إن هذا لا يتمشى في هذه البلاد، ولا يمكن وقوعه، لأمثالنا.

كذا قال بعض مؤرخي المغرب، والصحيح أنه لم يجتمع به، فخرج من هناك (٥٧٠/١٠) وعاد إلى المغرب، ولما ركب البحر من الإسكندرية، مغرباً، غير المنكر في المركب، وألزم من به بإقامة الصلاة، وقراءة القرآن، حتى انتهى إلى المهديّة، وسلطانها حينئذ يحيى بن تميم، سنة خمس وخمسمائة، فنزل بمسجد قبلي بمسجد السبت، وليس له سوى زكوة، وعضاً، وتسامع به أهل البلد، فقصده يقرؤون عليه أنواع العلوم، وكان إذا مر به منكراً غيره وأزاله، فلما كثر ذلك منه أحضره الأمير يحيى مع جماعة من الفقهاء، فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه واحترمه وسأله الدعاء.

ورحل عن المدينة وأقام بالمستير مع جماعة من الصالحين، مدة، وسار إلى بجاية ففعل فيها مثل ذلك، فأخرج منها إلى قرية بالقرب منها اسمها ملالة، فلقبه بها عبد المؤمن بن علي، فرأى فيه من النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدّم، والقيام بالأمر، فسأله عن اسمه وقبيلته، فأخبره أنه من قيس عيلان، ثم من بني سليم، فقال ابن تومرت: هذا الذي بشر به النبي ﷺ حين قال: إن الله ينصر هذا الدين، في آخر الزمان، برجل من قيس، فقيل: من أي قيس؟ فقال: من بني سليم. فاستشير بعبد المؤمن وسر بلقائه، وكان مولد عبد المؤمن في مدينة تاجرة، من أعمال يلمسان، وهو من عائد قبيل من كومرة، نزلوا بذلك الإقليم سنة ثمانين ومائة.

ولم يزل المهدي ملازماً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريقه إلى أن وصل إلى مراكش دار مملكة أمير المسلمين يوسف بن علي بن تاشفين، فرأى فيها من المنكرات أكثر مما عاينه في طريقه، فزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فكثر أتباعه، وحسنت ظنون الناس فيه، فينتما هو في بعض الأيام في طريقه، إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها، ومعها مسن الجسوري

أرّان، ونقجوان إلى آرس، فاجتمعوا وساروا إلى الكرج، فلما قاربوا قفليس، وكان المسلمون في عسكر كثير يبلغون [ثلاثين] ألفاً، التقوا واصطفت الطائفتان للقتال، فخرج من القفجاق مائتا رجل، فظن المسلمون أنهم مستامنون، فلم يحترزوا منهم، ودخلوا بينهم، ورموا بالنشاب، فاضطرب صف المسلمین، فظن من بعد أنها هزيمة، فانهمزوا، وتبع الناس بعضهم بعضاً منهزمين، ولشدة الزحام صدم بعضهم بعضاً، فقتل منهم عالم عظيم.

وتبعهم الكفار عشرة فراسخ يقتلون ويأسرون، فقتل أكثرهم، وأسروا أربعة آلاف رجل، ونجا الملك طغرل، وإيلغازي، ودييس، وعاد الكرج فنهوا بلاد الإسلام، وحصروا مدينة قفليس، واشتد قتالهم لمن بها، وعظم الأمر، وتفاقم الخطب على أهلها، ودام الحصار إلى سنة خمس عشرة [وخمسمائة] فملكوها عنوة.

وكان أهلها لما أشرفوا على الهلاك قد أرسلوا قاضيهما وخطيبه إلى الكرج في (٥٦٨/١٠) طلب الأمان، فلم تصنع الكرج إليهما فآخروا بهما، ودخلوا البلد قهراً وغلبة، واستباحوه ونهبوه، ووصل المستنفرون منهم إلى بغداد متصرخين ومستصرين سنة ست عشرة [وخمسمائة]، فبلغهم أن السلطان محموداً بهمنان، فقصصوه واستغاثوه به، فسار إلى أذربيجان، وأقام بمدينة تبريز شهر رمضان، وأنفذ عسكراً إلى الكرج، وسيرد ذكر ما كان منهم، إن شاء الله تعالى.

ذكر غزوات إيلغازي هذه السنة

في هذه السنة أرسل المسترشد بالله خلعاً مع سديد الدولة بن الأنباري لنجم الدين إيلغازي، وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج، ويأمره بإبعاد دييس عنه، وسار أبو علي بن عمار الذي كان صاحب طرابلس، مع ابن الأنباري إلى إيلغازي ليقسم عنده، يعبر الأوقات بما ينجم به عليه، فاعتذر عن إبعاد دييس، ووعد به، ثم سار إلى الفرنج، وكان قد جمع لهم جمعاً، فالتقوا بموضع اسمه ذات البقل من أعمال حلب، فاقتلوا، واشتد القتال، وكان الظفر له.

ثم اجتمع إيلغازي وأتابك طفتكين، صاحب دمشق، وحصروا الفرنج في معة قيسرين يوماً وليلة، ثم أشار أتابك طفتكين بالإفراج عنهم، كيلا يحملهم الخوف على أن يستقلوا ويخرجوا إلى المسلمين، فربما ظفروا (٥٦٩/١٠) وكان أكثر خوفه من دبر خيل التركمان، وجودة خيل الفرنج، فأفرج لهم إيلغازي، فساروا عن مكانهم وتخلصوا، وكان إيلغازي لا يطيل المقام في بلد الفرنج لأنه كان يجمع التركمان للطعم، فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق، وشاة، ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها، ويمود، فإذا طال مقامهم تفرقوا، ولم يكن له من الأموال ما يفرقها بهم.

فتوجه إلى جبل تين مَلَل واستوطنه، وألف لهم كتاباً في التوحيد، وكتاباً في العقيدة، ونهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض، والاقتصار على القصير من الثياب، القليل الثمن، وهو يحرصهم على قتال عدوهم، وإخراج الأشرار من بين أظهرهم.

وأقام تين مَلَل وبنى له مسجداً خارج المدينة، فكان يصلي فيه الصلوات هو وجميع ممن معه عنده، ويدخل البلد بعد العشاء الأخيرة، فلما رأى كثرة أهل الجبل، وحصانة المدينة، خاف أن يرجعوا عنه، فأمرهم أن يحضروا بغير سلاح، ففعلوا ذلك عدة أيام، ثم إنه أمر أصحابه أن يقتلوه، فخرجوا (٥٧٣/١٠) عليهم وهم غارون فقتلوه في ذلك المسجد، ثم دخل المدينة فقتل فيها وأكثر، وسبى الحرير، ونهب الأموال، فكان عدة القتلى خمسة عشر ألفاً، وقسم المساكن والأرض بين أصحابه، وبنى على المدينة سوراً، وقلعة على رأس جبل عال.

وفي جبل تين مَلَل أنهار جارية، وأشجار، وزروع، والطريق إليه صعب، فلا جبل أحسن منه، وقيل: إنه لما خاف أهل تين مَلَل نظره، فرأى كثيراً من أولادهم شقراً زرقاً، والذي يغلب على الآباء الشمرة، وكان لأمر المسلمين عدة كثيرة من الممالك الفرنج والروم، ويغلب على الوانهم الشقرة، وكانوا يصعدون الجبل في كل عام مرة، ويأخذون مالهم فيه من الأموال المقررة لهم من جهة السلطان، فكانوا يسكنون بيوت أهلهم، ويخرجون أصحابها منها، فلما رأى المهدي أولادهم سألهم: مالي أراكم سمر الألوان، وأرى أولادكم شقراً، زرقاً؟ فأخبروه خبرهم مع ممالك أمير المسلمين، ففتح الصبر على هذا، وأزري عليهم، وعظم الأمر عندهم، فقالوا له: فكيف الحيلة في الخلاص منهم، وليس لنا بهم قوة؟ فقال: إذا حضروا عندكم في الوقت المعتاد، وتفرقوا في مساكنهم، فليقم كل رجل منكم إلى نزله فيقتله، واحفظوا جبلكم، فإنه لا يرام ولا يُقدَّر عليه. فصبروا حتى حضر أولئك العيد، فقتلوه على ما قرَّر لهم المهدي، فلما فعلوا ذلك خافوا على نفوسهم من أمير المسلمين، فامتنعوا في الجبل، وسدوا ما فيه من طريق يسلك إليهم، فقويت نفس المهدي بذلك.

ثم إن أمير المسلمين أرسل إليهم جيشاً قوياً، فنصروهم في الجبل، وضيقوا عليهم، ومنعوا عنهم الميرة، فقلَّت عند أصحاب المهدي الأقوات (٥٧٤/١٠) حتى صار الخبز معدوماً عندهم، وكان يطبخ لهم كل يوم من الحساء ما يكفيهم، فكان قوت كل واحد منهم أن يغمس يده في ذلك الحساء ويخرجها، فما علق عليها قنع به ذلك اليوم، فاجتمع أعيان أهل تين مَلَل، وأرادوا إصلاح الحال مع أمير المسلمين، فبلغ الخبر بذلك المهدي بن تومرت، وكان معه إنسان يقال له أبو عبد الله الونشريشي، يظهر البله، وعدم المعرفة بشيء من القرآن والعلم، وبزرقه يجري على

(٥٧١/١٠) الحسان عدة كثيرة، وهن مُسفرات، وكانت هذه عادة الملتئمين يسفر نساؤهم [عن] وجوههن، ويتلثم الرجال، فحين رأى النساء كذلك أنكروا عليهن، وأمرهن بستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها، فرفع أمره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف، فأحضره، وأحضر الفقهاء لينظروا، فأخذ يعظه، ويخوفه، فبكى أمير المسلمين، وأمر أن ينظره الفقهاء، فلم يكن فيهم من يقوم له بقوة أدلته في الذي فعله.

وكان عند أمير المسلمين بعض وزرائه يقال له مالك بن وهيب، فقال: يا أمير المسلمين، إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يريد إثارة فتنة، والغلبة على بعض النواحي، فاقتله وقلدني دمه، فلم يفعل ذلك، فقال: إن لم تقتله فاحبس، وخلده [في] السجن، ولأنا أثار شراً لا يمكن تلافيه، فأراد حبسه، فمنعه رجل من أكابر الملتئمين يسمى بيان بن عثمان، فأمر بإخراجه من مراكش، فسار إلى أغمات، ولحق بالجبل، فسار فيه، حتى التحق بالسوس الذي فيه قبيلة هرغة وغيرهم من المصامدة سنة أربع عشرة [وخمسمائة]، فأتوه، واجتمعوا حوله.

وتسامع به أهل تلك النواحي، فوفدوا عليه، وحشروا أعيانهم بين يديه، وجعل يعظهم، ويذكرهم بأيام الله، ويذكر لهم شرائع الإسلام، وما غير منها، وما حدث من الظلم والفساد، وأنه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لا تباعهم الباطل، بل الواجب قتالهم، ومقتلهم عما هم فيه، فأقام على ذلك نحو سنة، وتابعت هرغة قبيلته، وسمى أتباعه الموحدين، وأعلمهم أن النبي ﷺ بشر بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً، وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى، فقام إليه عشرة رجال، أحدهم عبد المؤمن، فقالوا: لا يوجد هذا إلا نيك فانت المهدي؛ فبايعوه على ذلك. (٥٧٣/١٠)

فانتهى خبره إلى أمير المسلمين، فجهَّز جيشاً من أصحابه وسيرهم إليه، فلما قربوا من الجبل الذي هو فيه قال لأصحابه: إن هؤلاء يريدوني، وأخاف عليكم منهم، فالراي أن أخرج نفسي إلى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم، فقال له ابن توفيان من مشايخ هرغة: هل تخاف شيئاً من السماء؟ فقال: لا، بل من السماء تنصرون؛ فقال ابن توفيان: فليأتنا كل من في الأرض، وواقفه جميع قبيلته، فقال المهدي: أبشروا بالنصر والظفر بهذه الشرذمة، وبعد قليل تستاصلون دولتهم، وترثون أرضهم. فنزلوا من الجبل، ولقوا جيش أمير المسلمين، فهزموهم، وأخذوا أسلابهم، وقروى ظنهم في صدق المهدي، حيث ظفروا، كما ذكر لهم.

وأقبلت إليه أفواج القبائل، من الجبل التي حوله، شرقاً وغرباً، وبايعوه، وأطاعته قبيلة هتاتة، وهي من أقوى القبائل، فأقبل عليهم، وأطمأن إليهم، وأناه رسل أهل تين مَلَل بطاعتهم، وطلبوه إليهم،

صدره، وهو كأنه معتوه، ومع هذا فالمهدي يقربه، ويكرمه، ويقول: إن لله سيراً في هذا الرجل سوف يظهر.

وكان الونشريسي يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السر بحيث لا يعلم أحد ذلك منه، فلما كان سنة تسع عشرة [وخمسمائة]، وخاف المهدي من أهل الجبل، خرج يوماً لصلاة الصبح، فرأى إلى جانب محرابه إنساناً حسن الثياب، طيب الريح، فأنظره أنه لا يعرفه، وقال: من هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريسي! فقال له المهدي: إن أمرك لعجيب! ثم صلى، فلما فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريسي، فانظروا، وحققوا أمره، فلما أضاء النهار عرفوه، فقال له المهدي: ما قصتك؟ قال: إني أتاني الليلة ملك من السماء، فغسل قلبي، وعلمني الله القرآن، والموطأ، وغيره من العلوم والأحاديث، فبكي المهدي بحضرة الناس، ثم قال له: نحن نمتحنك؟ فقال: افعل.

وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أي موضع سئل، وكذلك الموطأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فعجب الناس من ذلك، واستعظموه.

ثم قال لهم: إن الله تعالى قد أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل (٥٧٥/١٠) النار، وأمركم أن تقتلوا أهل النار، وتركوا أهل الجنة، وقد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصديقي.

فسار المهدي، والناس معه وهم يكون، إلى تلك البئر، وصلى المهدي عند رأسها، وقال: يا ملائكة الله، إن أبا عبد الله الونشريسي قد زعم كيت وكيت؛ فقال من بها: صدق! وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلما قيل ذلك من البئر، قال المهدي: إن هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تطمئ لتلايق فيها نجاسة، أو مالا يجوز؛ فآلقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمئها، ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان، فحضروا للتمييز، فكان الونشريسي يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار؛ فيلقى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الفير، ومن لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنة؛ فيترك على يمينه، فكان عدة القتلى سبعين ألفاً، فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه واستقام أمره.

هكذا سمعت جماعة من فضلاء المغاربة يذكرون في التمييز، وسمعت منهم من يقول: إن ابن تومرت لما رأى كثرة أهل الشر والفساد في أهل الجبل، أحضر شيوخ القبائل، وقال لهم: إنكم لا يصح لكم دين، ولا يقوى إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإخراج المفسد من بينكم، فابحثوا من كل من عندهم من أهل الشر والفساد، فانهوهم عن ذلك، فإن انتهوا، وإلا فآكبتوا أسماءهم

وارفعوها إليّ لأنظر في أمرهم، ففعلوا ذلك، وكتبوا له أسماءهم من كل قبيلة، ثم أمرهم بذلك مرة ثانية، ثم جمع المكتوبات فأخذ منها ما تكرر من الأسماء فأثبتها عنده، ثم جمع الناس قاطبة، ورفع الأسماء التي كتبها، ودفعها إلى الونشريسي المعروف بالشبير، وأمره أن يعرض القبائل، ويجعل أولئك المفسدين في جهة الشمال، ومن عداهم في جهة اليمين، (٥٧٦/١٠) ففعل ذلك، وأمر أن يكثف من على شمال الونشريسي، فكتفوا، وقال: إن هؤلاء أشقياء قد وجب قتلهم؛ وأمر كل قبيلة أن يقتلوا أشقياءهم، فقتلوا عن آخرهم فكان يوم التمييز.

ولما فرغ ابن تومرت من التمييز، رأى أصحابه الباقين على نيات صادقة، وقلوب متفقة على طاعته، فجهز منهم جيشاً وسيرهم إلى جبال أغمات، وبها جمع من المرابطين، فقاتلهم، فانهزم أصحاب ابن تومرت، وكان أميرهم أبو عبد الله الونشريسي، وقتل منهم كثير، وجرح عمر الهتائي، وهو من أكبر أصحابه، وسكن حسه ونبضه، فقالوا: مات! فقال الونشريسي: أما إنه لم يمُت، ولا يموت حتى يملك البلاد، فيعد ساعة فتح عينيه، وعادت قوته إليه، فافتنوا به، وعادوا منهزمين إلى ابن تومرت، فوعظهم، وشكرهم على صبرهم.

ثم لم يزل بعدها يرسل السرايا في أطراف بلاد المسلمين، فإذا راوا عسكرياً فآلقوا بالجبل فأموتوا، وكان المهدي قد رتب أصحابه مراتب؛ فالأولى يسمون آيت عشرة يعني أهل عشرة، وأولهم عبد المؤمن، ثم أبو حفص الهتائي، وغيرهما، وهم أشرف أصحابه، وأهل الثقة عنده، والسابقون إلى متابعتة؛ والثانية: آيت خمسين، يعني أهل خمسين، وهم دون تلك الطبقة، وهم جماعة من رؤساء القبائل، والثالثة: آيت سبعين، يعني أهل سبعين، وهم دون التي قبلها، وسبى عامة أصحابه والداخلين في طاعته موحدون، فإذا ذكر الموحدون في أخبارهم فإنما يعني أصحابه وأصحاب عبد المؤمن بعده.

ولم يزل أمر ابن تومرت يعلو إلى سنة أربع وعشرين [وخمسمائة]، فجهز (٥٧٧/١٠) المهدي جيشاً كثيفاً يبلغون أربعين ألفاً، أكثرهم رجالاً، وجعل عليهم الونشريسي، وسير معهم عدة المؤمن، فنزلوا وساروا إلى مراکش فحاصروها، وضيقوا عليها، وبها أمير المسلمين علي بن يوسف، فبقي الحصار عليها عشرين يوماً، فأرسل أمير المسلمين إلى متولي سيجلماسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش، فجمع جيشاً كثيراً وسار، فلما قارب عسكر المهدي خرج أهل مراکش من غير الجهة التي أقبل منها، فآقتلوا، واشتد القتال، وكثر القتل في أصحاب المهدي، فقتل الونشريسي أميرهم، فاجتمعوا إلى عبد المؤمن وجعلوه أميراً عليهم.

وكان الونشريسي يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السر بحيث لا يعلم أحد ذلك منه، فلما كان سنة تسع عشرة [وخمسمائة]، وخاف المهدي من أهل الجبل، خرج يوماً لصلاة الصبح، فرأى إلى جانب محرابه إنساناً حسن الثياب، طيب الريح، فأنظره أنه لا يعرفه، وقال: من هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريسي! فقال له المهدي: إن أمرك لعجيب! ثم صلى، فلما فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريسي، فانظروا، وحققوا أمره، فلما أضاء النهار عرفوه، فقال له المهدي: ما قصتك؟ قال: إني أتاني الليلة ملك من السماء، فغسل قلبي، وعلمني الله القرآن، والموطأ، وغيره من العلوم والأحاديث، فبكي المهدي بحضرة الناس، ثم قال له: نحن نمتحنك؟ فقال: افعل.

وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أي موضع سئل، وكذلك الموطأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فعجب الناس من ذلك، واستعظموه.

ثم قال لهم: إن الله تعالى قد أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل (٥٧٥/١٠) النار، وأمركم أن تقتلوا أهل النار، وتركوا أهل الجنة، وقد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصديقي.

فسار المهدي، والناس معه وهم يكون، إلى تلك البئر، وصلى المهدي عند رأسها، وقال: يا ملائكة الله، إن أبا عبد الله الونشريسي قد زعم كيت وكيت؛ فقال من بها: صدق! وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلما قيل ذلك من البئر، قال المهدي: إن هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تطمئ لتلايق فيها نجاسة، أو مالا يجوز؛ فآلقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمئها، ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان، فحضروا للتمييز، فكان الونشريسي يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار؛ فيلقى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الفير، ومن لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنة؛ فيترك على يمينه، فكان عدة القتلى سبعين ألفاً، فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه واستقام أمره.

هكذا سمعت جماعة من فضلاء المغاربة يذكرون في التمييز، وسمعت منهم من يقول: إن ابن تومرت لما رأى كثرة أهل الشر والفساد في أهل الجبل، أحضر شيوخ القبائل، وقال لهم: إنكم لا يصح لكم دين، ولا يقوى إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإخراج المفسد من بينكم، فابحثوا من كل من عندهم من أهل الشر والفساد، فانهوهم عن ذلك، فإن انتهوا، وإلا فآكبتوا أسماءهم

وكان عبد المؤمن وأصحابه في أرض خشنة صلبة في الجبل، لا يبالون بشيء والميرة متصلة إليهم؛ وفي ذلك الوقت سار عبد المؤمن جيشاً إلى وِجْرَة من أعمال يَلْمَسَان، ومقدّمهم أبو عبد الله محمد بن رفو، وهو من أيت خمسين، فبلغ خبرهم إلى محمد بن يحيى بن فأنوا، متولّي يَلْمَسَان، فخرج في جيش من الملبّسين، فالتقوا بموضع يُعرف بخندق الخمر، فهزمهم جيش عبد المؤمن، وقُتل محمد بن يحيى وكثير من أصحابه، وغنموا ما معهم ورجعوا؛ فتوجّه عبد المؤمن بجميع جيشه إلى غمارة، فاطاعوه قبيلة بعد قبيلة، وأقام عندهم مدة.

وما برح يمشي في الجبال، وتاشفين يحاذيه في الصحارى، فلم يزل عبد المؤمن كذلك إلى سنة خمس وثلاثين، فتوفي أمير المسلمين علي بن يوسف بمراكش وملك بعده ابنه تاشفين، فسوي طمع عبد المؤمن في البلاد، إلا أنه لم ينزل الصحراء.

وفي سنة ثمان وثلاثين توجّه عبد المؤمن إلى يَلْمَسَان، فنازلها، وضرب خيامه في جبل بأعلاها، ونزل تاشفين على الجانب الآخر من البلد، وكان بينهما مناوشة، فبقوا كذلك إلى سنة تسع وثلاثين، فرحل عبد المؤمن عنها إلى جبل تاجرة، ووجّه جيشاً مع عمر الهتاتي إلى مدينة وهران، فهاجمها بغتة، وحصل هو وجيشه فيها، فسمع [بذلك عبد المؤمن] فسار إليها، فخرج منها عمر، ونزل تاشفين بظاهر وهران، على البحر، في شهر رمضان سنة تسع (٥٨٠/١٠) وثلاثين، فجاءت ليلة سبع وعشرين منه، وهي ليلة يعظمها أهل المغرب، وبظاهر وهران ربوة مطلّة على البحر، وبأعلاها ثنية يجتمع فيها المتعبّدون، وهو موضع معظم عندهم، فسار إليه تاشفين في نفر يسير من أصحابه متخفياً، لم يعلم به إلا نفر الذين معه، وقصد التبرك بحضور ذلك الموضع مع أولئك الجماعة الصالحين، فبلغ الخبر إلى عمر بن يحيى الهتاتي، فسار لوقته بجميع عسكره إلى ذلك المتعبّد، وأحاطوا به، وملكوا الربوة، فلما خاف تاشفين على نفسه أن يأخذه ركب فرسه وحمل عليه إلى جهة البحر، فسقط من جرف عال على الحجارة فهلك، ورفعت جثته على خشبة، وقُتل كلّ من كان معه.

وقيل إن تاشفين قصد حصناً هناك على رابية، وله فيه بستان كبير فيه من كلّ الثمار، فاتفق أنّ عمر الهتاتي، مقدّم عسكر عبد المؤمن، سار سرية إلى ذلك الحصن، يُعلمهم بضعف من فيه، ولم يعلموا أنّ تاشفين فيه، فالتقوا النار في بابه فاحترق، فأراد تاشفين الهرب، فركب فرسه، فوثب الفرس من داخل الحصن إلى خارج السور، فسقط في النار، فأخذ تاشفين، فاعترف، فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن، فمات في الحال لأن رقبته كانت قد اندقت، فسلّب، وقُتل كلّ من معه، وتفرّق عسكره ولم يعدّ لهم جماعة، وملك بعده أخوه إسحاق بن علي بن يوسف.

ولم يزل القتال بينهم عامّة النهار، وصلى عبد المؤمن صلاة الخوف، الظُّهر والعصر، والحرب قائمة، ولم تُصلّ بالمغرب قبل ذلك، فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين، وقوتهم، أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير هناك، والبستان يُسمّى عندهم البحيرة، فلهاذا قيل وقعة البحيرة، وعام البحيرة، وصاروا يقاتلون من جهة واحدة إلى أن أدركهم الليل، وقد قُتل من المصامدة أكثرهم، وحين قُتل النوشريشي دفنه عبد المؤمن، فطلبه المصامدة، فلم يروه في القتلى، فقالوا: رفعته الملائكة؛ ولما جنهم الليل سار عبد المؤمن ومن سلم من القتلى إلى الجبل.

ذكر وفاة المهدي وولاية عبد المؤمن

لما سار الجيش إلى حصار مراكش مرض مرضاً شديداً، فلما بلغه خبر الهزيمة اشتدّ مرضه، وسأل عن عبد المؤمن، فقيل: هو سالم؛ فقال: ما مات (٥٧٨/١٠) أحد، الأمر قائم، وهو الذي يفتح البلاد، ووصّى أصحابه باتباعه، وتقديمه، وتسليم الأمر إليه، والانقياد له، ولقبه أمير المؤمنين.

ثم مات المهدي، وكان عمره إحدى وخمسين سنة، وقيل: خمساً وخمسين سنة، ومدة ولايته عشرين سنة، وعاد عبد المؤمن إلى تين ملّ، وأقام بها يتألّف القلوب، ويحسن إلى الناس، وكان جواداً مقدّماً في الحروب، ثابتاً في الهزائم، إلى أن دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، فتجهّز وسار في جيش كبير، وجعل يمشي مع الجبل إلى أن وصل إلى تادّة، فمانعه أهلها، وقاتلوه ففهمهم، وفتحها وماتت البلاد التي تليها ومشى في الجبال يفتح ما امتنع عليه، وأطاعته صنهاجة الجبل.

وكان أمير المسلمين قد جعل وليّ عهده ابنه سير، فمات، فأحضر أمير المسلمين ابنه تاشفين من الأندلس، وكان أميراً عليها، فلما حضر عنده جعله وليّ عهده سنة إحدى وثلاثين [وخمسمائة]، وجعل معه جيشاً، وصار يمشي في الصحراء قبالة عبد المؤمن في الجبال.

وفي سنة اثنتين وثلاثين كان عبد المؤمن في النواظر، وهو جبل عال مشرف، وتاشفين في الوطاة، [وكان] يخرج من الطائفتين قوم يترامون ويتطاردون، ولم يكن بينهما لقاء، وسمّى عام النواظر.

وفي سنة ثلاث وثلاثين توجّه عبد المؤمن مع الجبل في الشغراء، حتّى انتهى إلى جبل كرناطة، فنزل في أرض صلبة بين شجر، ونزل تاشفين قبله في الوطاة، في أرض لا نبات فيها، وكان الفصل شتاءً، فتوالى الأمطار أياماً كثيرة لا تقلع، فصارت الأرض التي فيها تاشفين وأصحابه كثيرة (٥٧٩/١٠) الوحل، تسوخ فيها قوائم الخيل إلى صدورهم، ويعجز الرجل عن المشي فيها، وتقطعت الطرق عنهم، فأوقدوا رماحهم، وقربايس سرورهم، وهلكوا جوعاً وبرداً وسوء حال.

وسار منها إلى فاس، والله أعلم.

وسير عبد المؤمن سرية إلى يكناسة، فحصرها مدة، ثم سلمها إليهم أهلها بالأمان فوفوا لهم.

وسار عبد المؤمن من فاس إلى مدينة سلا ففتحها، وحضر عنده جماعة من أعيان سبتة، فدخلوا في طاعته، فأجابهم إلى بذل الأمان، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين [وخمسمائة]. (٥٨٣/١٠)

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة مراكش

لما فرغ عبد المؤمن من فاس، وتلك النواحي، سار إلى مراكش، وهي كرسي مملكة الملمثيين، وهي من أكبر المدن وأعظمها، وكان صاحبها حينئذ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وهو صبي، فنزلها، وكان نزوله عليها سنة إحدى وأربعين [وخمسمائة]، ففرض خيامه في غربيها على جبل صغير، وبنى عليه مدينة له ولعسكره، وبنى بها جامعاً وبنى له بناء عالياً يشرف منه على المدينة، ويرى أحوال أهلها، وأحوال المقاتلين من أصحابه، وقاتلها قتالاً كثيراً، وأقام عليها أحد عشر شهراً، فكان من بها من المرابطين يخرجون يقاتلونهم بظاهر البلد، واشتد الجوع على أهله، وتعدت الأقوات عندهم.

ثم زحف إليه يوماً، وجعل لهم كميناً، وقال لهم: إذا سمعتم صوت الطبل فاخرجوا، وجلس هو بأعلى المنظرة التي بناها يشاهد القتال، وتقدم عسكره، وقتلوا، وصبروا ثم إنهم انهزموا لأهل مراكش ليتبعوهم إلى الكمين الذي لهم، فتبعهم الملمثيون إلى أن وصلوا إلى مدينة عبد المؤمن، فهدموا أكثر سورها، وصاحبت المصامدة بعد المؤمن ليأمر بضرب الطبل ليخرج الكمين، فقال لهم: اصبروا حتى يخرج كل طامع في البلد؛ فلما خرج أكثر أهله أمر بالطبل ففُضِرَ وخرج الكمين عليهم، ورجع المصامدة المنهزمون إلى الملمثيين فقتلوه كيف شاؤوا، وعادت الهزيمة على الملمثيين، فمات في زحمة الأبواب ما لا يحصى إلا الله سبحانه. (٥٨٤/١٠)

وكان شيوخ الملمثيين يدبرون دولة إسحاق بن علي بن يوسف لصغر سنه، فاتفق أن إنساناً من جملتهم يقال له عبد الله بن أبي بكر خرج إلى عبد المؤمن مستأناً وأطلعته على عورتهم وضعفهم، فقوي الطمع فيهم، واشتد عليهم البلاء، ونصب عليه المنجنيقات والأبراج، وفيت أقاتهم، وأكلوا دوابهم، ومات من العانة بالجوع ما يزيد على مائة ألف إنسان، فانتن البلد من ريح الموتى.

وكان بمراكش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم، فجاءوا إليهم نجدة، فلما طال عليهم الأمر راسلوا عبد المؤمن يسألون الأمان، فأجابهم إليه، ففتحوا له باباً من أبواب البلد

ولما قُتل تاشفين أرسل عمر إلى عبد المؤمن بالخبر، فجاء من تاجرة في يومه جميع عسكره، وتفرق عسكر أمير المسلمين، واحتفى بعضهم بمدينة وهران، فلمّا وصل عبد المؤمن دخلها بالسيف، وقتل فيها ما لا يحصى. ثم سار إلى تلمسان، وهما مدينتان بينهما شوط فرس، إحداهما تاهرت، (٥٨١/١٠) وبها عسكر المسلمين، والأخرى أقادير، وهي بناء قديم، فامتعت أقادير، وغلبت أبوابها، وتأهب أهلها للقتال.

وأما تاهرت، فكان فيها يحيى بن الصحراوية، فهرب منها بعسكره إلى مدينة فاس، وجاء عبد المؤمن إليها، فدخلها لمّا فر منها العسكر، ولقيه أهلها بالخضوع والاستكانة، فلم يقبل منهم ذلك، وقتل أكثرهم، ودخلها عسكره، ورتب أمرها، ورحل عنها، وجعل على أقادير جيشاً يحصرها، وسار إلى مدينة فاس سنة أربعين [وخمسمائة] فنزل على جبل مطلق عليها، وحصرها تسعة أشهر، وفيها يحيى بن الصحراوية، وعسكره الذين فروا من تلمسان، فلما طال مقام عبد المؤمن عمد إلى نهر يدخل البلد فسكّره بالأخشاب والتراب وغير ذلك، فمنعه من دخول البلد، وصار بحيرة تسير فيها السفن، ثم هدم السكّر، فجاء الماء دفعة واحدة فخرّب سور البلد، وكلّ ما يجاور النهر من البلد، وأواد عبد المؤمن أن يدخل البلد، فقاتله أهله خارج السور، فتعذر عليه ما قدره من دخوله.

وكان بفاس عبد الله بن خيار الجبائي عاملاً عليها وعلى جميع أعمالها، فاتفق هو وجماعة من أعيان البلد، وكاتبوا عبد المؤمن في طلب الأمان لأهل فاس، فأجابهم إليه، ففتحوا له باباً من أبوابها، فدخلها عسكره، وهرب يحيى بن الصحراوية، وكان فتحها آخر سنة أربعين وخمسمائة، وسار إلى (٥٨٢/١٠) طنجة، ورتب عبد المؤمن أمر مدينة فاس، وأمر فتودي في أهلها: من ترك عنده سلاحاً وعدة قتال حلّ دمه؛ فحمل كل من في البلد ما عندهم من سلاح إليه، فأخذهم منهم.

ثم رجع إلى يكناسة، ففعل بأهلها مثل ذلك، وقتل من بها من الفرسان والأجناد.

وأما العسكر الذي كان على تلمسان فإنهم قاتلوا أهلها، ونصبوا المجانيق، وأبراج الخشب، وزحفوا بالذبابات، وكان المقدم على أهلها الفقيه عثمان، فدام الحصار نحو سنة، فلما اشتد الأمر على أهل البلد اجتمع جماعة منهم وراسلوا الموحدين أصحاب عبد المؤمن، بغير علم الفقيه عثمان، وأدخلوهم البلد، فلم يشعر أهله إلا بالسيف يأخذهم، فقتل أكثر أهله، وسويت الذرية والحريم، ونهب من الأموال ما لا يحصى، ومن الجواهر ما لا تحصى قيمته، ومن لم يقتل بيع بأوكس الأثمان، وكان عدة القتلى مائة ألف قتيل، وقيل: إن عبد المؤمن هو الذي حصر تلمسان،

(٥٨٦/١٠) البحر، قُتِلَ أكثرهم، وغُنِمَت إبلهم وأغنامهم وأموالهم، وسبَّيَت نساؤهم وذرايرهم، فبيعت الجارية الحسناء بدرهم يسيرة، وعاد عبد المؤمن إلى مراكش مظفراً منصوراً، وثبت ملكه، وخافه الناس في جميع المغرب، وأذعنوا له بالطاعة.

ذكر حصر مدينة كُتْدَة

في هذه السنة، يعني سنة أربع عشرة وخمسمائة، خرج ملك من ملوك الفرنج بالأندلس، يقال له ابن رُدْمِير، فسار حتَّى انتهى إلى كُتْدَة، وهي بالقرب من مَرْسِيَة، في شرق الأندلس، فحصرها، وضيق على أهلها، وكان أمير المسلمين عليّ بن يوسف حينئذ بقرطبة، ومعه جيش كثير من المسلمين والأجناد المتطوعة، فسيرهم إلى ابن رُدْمِير، فالتقوا واقتتلوا أشدَّ القتال، وهزمهم ابن رُدْمِير هزيمة منكرة، وكثر القتل في المسلمين، وكان فيمن قُتِلَ أَبُو عبد الله بن الفراء، قاضي مَرْسِيَة، وكان من العلماء العاملين، والزهاد في الدنيا العادلين في القضاء.

ذكر عَدَة حوادث

في هذه السنة كسر بلق بن أرتق عفراس الرومي، وقتل من الروم خمسة آلاف رجل على قلعة سرمان من بلد الدكان وأسر عفراس وكثير من عسكره. (٥٨٧/١٠)

وفيها أغار جوسلين الفرنجي، صاحب الرها، على جيوش العرب والتركمان، وكانوا نازلين بصفيين، غربي القرا، وغنم من أموالهم وخيلهم ومواشيهم شيئاً كثيراً، ولَمَّا عاد خرب بُزاعة.

وفيها تسلَّم أتابك طغتكين، صاحب دمشق، مدينة تدمر والشقيف.

وفيها أمر السلطان محمود الأمير جيوش بك بالمسير إلى حرب أخيه طغرل، فسار إليه، فسمع طغرل وأتابكه كنتغدي ذلك، فسارا إلى كُتْنَة من بين يدي العسكر، ولم يجر قتال.

وفيها، في المحرم، توفي خالصة الدولة أبو البركات أحمد بن عبد الوهاب ابن السيبي، صاحب المخزن ببغداد، وولي مكانه الكمال أبو الفتوح حمزة بن طلحة، المعروف بابن البقشلام، والد علم الدين الكاتب المعروف.

وفي جمادى الأولى منها توفي أبو سعد عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، الإمام ابن الإمام، وكان أخذ العلم من قرائته، والطريقة أيضاً، ثم استفاد أيضاً من إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وسمع الحديث من جماعة، ورواه، وكان حسن الوعظ، سريع الخاطر، ولَمَّا توفي جلس الناس في البلاد البعيدة للعزاء به، حتَّى في بغداد برباط شيخ الشيوخ. (٥٨٨/١٠)

يقال له باب أغمات، فدخلت عساكره بالسيف، وملكوا المدينة عنوة، وقتلوا من وجدوا، ووصلوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا الأمير إسحاق وجميع من معه من أمراء المرابطين، فقتلوا، وجعل إسحاق يرتعد رغبة في البقاء، ويدعو لعبد المؤمن ويكي، فقام إليه الأمير سير بن الحاج، وكان إلى جانبه مكتوفاً، فبزق في وجهه، وقال: تبكي على أبيك وأمك؟ اصبر صبر الرجال، فهذا رجل لا يخاف الله ولا يدين بدين. فقام الموحدون إليه بالخشب فضربوه حتَّى قتلوه، وكان من الشجعان المعروفين بالشجاعة، وقَدَّم إسحاق، على صغر سنه، فضربت عنقه سنة اثنتين وأربعين [وخمسمائة]، وهو آخر ملوك المرابطين وبه انقضت دولتهم، وكانت مدة ملكهم سبعين سنة، وولي منهم أربعة: يوسف وعليّ وتاشفين وإسحاق.

ولَمَّا فتح عبد المؤمن مراكش أقام بها، واستوطنها واستقر ملكه، ولَمَّا قتل عبد المؤمن من أهل مراكش فأكثر فيهم القتل اختفى كثير من أهلها، فلَمَّا كان بعد سبعة أيام أمر فنودي بأمان من بقي من أهلها، فخرجوا، فأراد أصحابه المصادمة قتلهم، فمنعهم، وقال: هؤلاء صنّاع، وأهل الأسواق (٥٨٥/١٠) من نتفع به؛ فتركوا، وأمر بإخراج القتلى من البلد، فأخرجوهم، وبني بالقصر جامعاً كبيراً، وزخرفه فأحسن عمله، وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عباد، وارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب، فلا جرم سلط الله [عليه في] عقابه من أربى في الأخذ عليه وزاد، فتبارك الحي الدائم الملك، الذي لا يزول ملكه، وهذه سنة الدنيا، فاف لها، ثم أف، نسأل الله أن يختم أعمالنا بالحسن، ويجعل خير أيامنا يوم نلقاه بمحمد وآله.

ذكر ظفر عبد المؤمن بدكالة

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة سار بعض المرابطين من الملثمين إلى دكالة، فاجتمع إليه قبائلها، وصاروا يُضَيرون على أعمال مراكش، وعبد المؤمن لا يلتفت إليهم، فلَمَّا كثر ذلك منهم سار إليهم سنة أربع وأربعين [وخمسمائة]، فلَمَّا سمعت دكالة بذلك انحشروا كلهم إلى ساحل البحر في مائتي ألف راجل وعشرين ألف فارس، وكانوا موصوفين بالشجاعة.

وكان مع عبد المؤمن من الجيوش ما يخرج عن الحصر، وكان الموضع الذي فيه دكالة كثير الحجر والحزونة، فكمنوا فيه كمناء ليخرجوا على عبد المؤمن إذا سلكه، فمن الاتفاق الحسن له أنه قصدهم من غير الجهة التي فيها الكمناء، فانحلَّ عليهم ما قدره، وفارقوا ذلك الموضع، فأخذهم السيف، فدخلوا

سنة خمس عشرة وخمسمائة

ذكر إقطاع البرسقي الموصل

في هذه السنة، في صفر، أقطع السلطان محمود مدينة الموصل وأعمالها، وما يضاف إليها، كالجزيرة، وسنجار، وغيرهما، الأمير أفسقر البرسقي.

وسبب ذلك : أنه كان في خدمة السلطان محمود، ناصحاً له، ملازماً له في حروبه كلها، وكان له الأثر الحسن في الحرب المذكورة بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود، وهو الذي أحضر الملك مسعوداً عند أخيه السلطان محمود، فعظم ذلك عند السلطان محمود، ولما حضر جيوش بك عند السلطان محمود وبقيت الموصل بغير أمير ولّى عليها البرسقي، وتقدم إلى سائر الأمراء بطاعته، وأمره بمجاهدة الفرنج وأخذ البلاد منهم، فسار إليها في عسكر كثير وملكها، وأقام يدبّر أمورها، ويصلح أحوالها.

ذكر وفاة الأمير عليّ وولاية ابنه الحسن إفريقية

في هذه السنة توفي الأمير عليّ بن يحيى بن تميم، صاحب إفريقية، في العشر الأخير من ربيع الآخر، وكان مولده بالمهدية، وقد تقدم من حروبه (٥٨٩/١٠) وأعماله ما يستدل به على علمه، ولما توفي وليّ الملك بعده ابنه الحسن، بعهد أبيه، وقام بأمر دولته صندل الخصي، لأنه كان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة لا يستقل بتدبير الملك، فقام صندل في الحفظ والاحتياط، فلم تطل أيامه حتى توفي، فوقع الاختلاف بين أصحابه وقواده، كلّ منهم يقول: أنا المقدم على الجميع، ويسدي الحل والشدة، فلم يزالوا كذلك إلى أن فوض أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له أبو عزيز موفق، فصلحت الأمور.

ذكر قتل أمير الجيوش

في هذه السنة، في الثالث والعشرين من رمضان، قتل أمير الجيوش الأفضل ابن بدر الجمالي، وهو صاحب الأمر والحكم بمصر، وكان ركب إلى خزانة السلاح ليفرّقه على الأجناد، على جاري العادة في الأعياد، فسار معه عالم كثير من الرجالة والخيالة، فتأذى بالغبار، فأمر بالبعد عنه، وسار منفرداً، معه رجلان، فصادفه رجلان يسوق الصيالة، فضرباه بالسكاكين فجرّاه، وجاء الثالث من ورائه، فضربه بسكين في خاصرته، فسقط عن دابته، ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة، وحملوه إلى دار الأفضل، فدخل عليه الخليفة، وتوجّع له، وسأله عن الأموال، فقال: أما الظاهر منها فأبوه الحسن بن أسامة الكاتب يعرفه، وكان من أهل حلب، وتولّى أبوه قضاء القاهرة، وأما الباطن فأبن البطاحي يعرفه، فقالا: صدق.

فلما توفي الأفضل ثقل من أمواله ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وبقي الخليفة في داره نحو أربعين يوماً، والكتاب بين يديه، والدوابّ تحمل، وتنقل ليلاً (٥٩٠/١٠) ونهاراً، ووجد له من الأعلاق النفيسة، والأشياء الغريبة القليلة الوجود، ما لا يوجد مثله لغيره، واعتقل أولاده، وكان عمره سبعاً، وخمسين سنة، وكانت ولايته بعد أبيه ثمانياً وعشرين سنة، منها : آخر أيام المستنصر، وجميع أيام المستعلي، إلى هذه السنة من أيام الأمر.

وكان الإسماعيلية يكرهونه لأسباب منها : تضييقه على إمامهم، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها ترك معارضة أهل السنة في اعتقادهم، والنهي عن معارضتهم، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها، فكثر الغرياء ببلاد مصر.

وكان حسن السيرة، عادلاً، حكماً، أنه لما قُتل، وظهر الظلم بعده، اجتمع جماعة واستغاثوا بالخليفة، وكان من جملة قولهم : إنهم لعنوا الأفضل، فسألهم عن سبب لعنهم إياه، فقالوا : إنه عدل، وأحسن السيرة، فارقنا بلادنا وأوطاننا، وقصدنا بلد له عدله، فقد أصابنا بعده هذا الظلم، فهو كان سبب ظلمنا. فاحسن الخليفة إليهم، وأمر بالإحسان إلى الناس.

ومنها أن صاحبه الأمر بأحكام الله، صاحب مصر، وضع منه، وسبب ذلك ما ذكرناه قبل، ففسد الأمر بينهما، فأراد الأمر أن يضع عليه من يقتله إذا دخل عليه قصره للسلام، أو في أيام الأعياد، فمنعه من ذلك ابن عمّه أبو اليمون عبد المجيد، وهو الذي وليّ الأمر بعده بمصر، وقال له : في هذا الفعل شناعة، وسوء سمعة، لأنه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة، ولم يعلم (٥٩١/١٠) الناس منها إلا النصح لنا، والمحبة لدولتنا، وقد سار ذلك في أقطار البلاد، فلا يجوز أن يظهر منا هذه المكافأة الشنيعة، ومع هذا فلا بد وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه في منصبه، متمكّن مثله، أو ما يقاربه، فيخاف أن نفعل به مثل فعلنا بهذا، فيحذر من الدخول إلينا خوفاً على نفسه، وإن دخل علينا كان خائفاً مستعداً للامتناع، وفي هذا الفعل منهم ما يسقط المنزلة، والرأي أن ترأسل أبا عبد الله بن البطاحي، فإنه الغالب على أمر الأفضل، والمطلع على سره، وتعيده أن تولّي منصبه، وتطلب منه أن يدبّر الأمر في قتله لمن يقتله، إذا ركب، فإذا ظفّرنا بمن قتله قتلناه، وأظهرنا الطلب بدمه، والحزن عليه، فنبلغ غرضنا، ويزول عنا قبح الأحداث، ففعلوا ذلك قتل كما ذكرناه.

ولما قُتل وليّ بعده أبو عبد الله بن البطاحي الأمر، ولُقب المأمون، وتحكم في الدولة، بقي كذلك حاكماً في البلاد إلى سنة تسع عشرة [وخمسمائة]، فُصلب كما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عصيان سليمان بن إيلغازي على أبيه

في هذه السنة عصى سليمان بن إيلغازي بن أرتق على أبيه بحلب، وقد جاوز عمره عشرين سنة، حمله على ذلك جماعة من عنده، فسمع والده الخبر، فسار مجدداً لوقته، فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه، فخرج إليه معتذراً، فأمسك عنه، وقبض على من كان أشار عليه بذلك، منهم: أمير كان قد التقطه أرتق، والد إيلغازي، ورياء، اسمه ناصر، فقلع عينيه، وقطع لسانه، ومنهم: (٥٩٢/١٠) إنسان من أهل حماة من بيت قرناص، كان قد قدمه إيلغازي على أهل حلب، وجعل إليه الرئاسة، فجازاه بذلك، وقطع يديه ورجليه، وسمل عينيه، فمات.

وأحضره ولده، وهو سكران، فأراد قتله، فمئنته رقة الوالد، فاستبقاه، فهرب إلى دمشق، فأرسل طغتكين يشفع فيه، فلم يجبه إلى ذلك، واستتاب بحلب سليمان بن أخيه عبد الجبار بن أرتق، ولقبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردین.

ذكر إقطاع ميافارقين لإيلغازي

في هذه السنة أقطع السلطان محمود مدينة ميافارقين للأمير إيلغازي.

وسبب ذلك أنه أرسل ولده حُسام الدين تمرناش، وعمره سبع عشرة سنة، إلى السلطان ليشفع في دُيُوس بن صدقة، ويئذله عنه الطاعة، وحمل الأموال، والخيل، وغيرها، وأن يضمن الحلة كل يوم بألف دينار وفرس، وكان المتحدث عنه القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم بن الشهرزوري، فتردد الخطاب في ذلك، ولم ينفصل حال، فلما أراد العود أقطع السلطان أباه مدينة ميافارقين، وكانت مع الأمير سُكمان، صاحب خيلاط، فتسلمها لإيلغازي، وبقيت في يده، ويد أولاده، إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى. (٥٩٣/١٠)

ذكر حصر بلك بن بهرام الرها وأسر صاحبها

في هذه السنة سار بلك بن بهرام، ولد أخيه إيلغازي، إلى مدينة الرها، فحصرها وبها الفرنج، وبقي على حصرها مدة، فلم يظفر بها، فرحل عنها، فجاءه إنسان تركماني، وأعلمه أن جوسلين، صاحب الرها، وسروج، قد جمع من عنده من الفرنج، وهو عازم على كبسه، وكان قد تفرق عن بلك أصحابه، وبقي في أربعمائه فارس، فوقف مستعداً لقتالهم.

وأقبل الفرنج، فمن لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج وصلوا إلى أرض قد نصب عنها الماء، فصارت وحلاً غاصت خيولهم فيه فلم تتمكن، مع ثقل السلاح والفرسان، من الإسراع

والجري، فمراهم أصحاب بلك بالنشاب، فلم يفلت منهم أحد، وأسر جوسلين وجعل في جلد جمل، وخيط عليه، وطلب منه أن يسلم الرها، فلم يفعل، وبذل في فداء نفسه أموالاً جزيلة، وأسرى كثيرة، فلم يجبه إلى ذلك، وحمله إلى قلعة خرتبرت فسجنه بها، وأسر معه ابن خالته، واسمه كليام، وكان من شياطين الكفار، وأسر أيضاً جماعة من فرسانه المشهورين، فسجنهم معه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفيت جدّة السلطان محمود لأبيه، وهي والدة السلطان سنجر، وكانت تركية تعرف بخاتون السفيرة، وكان موتها بمرور، فجلس (٥٩٤/١٠) محمود يبغداد للعزاء بها، وكان عزاء لم يشاهد مثله الناس.

وفيها توفي الخطير محمد بن الحسن الميثدي ببلاد فارس، وهو في وزارة الملك سلجوق ابن السلطان محمد، وكان قديماً وزر للسلطانين بركيارق ومحمد، وكان جواداً حليماً، سمع أن الأيوبيّ ذي الجهاد، فلما سمع الهجو مضه، فعرض على إيهامه، وصفح عنه، وخلع عليه ووصله.

وفيها توفي الشهاب أبو المحاسن عبد الرزاق بن عبد الله وزير السلطان سنجر، وهو ابن أخيه نظام الملك، وكان يتفق قديماً على إيمان الحرمين الجويني فكان يُفتي ويوقع، ووزر بعده أبو طاهر سعد بن علي بن عيسى القمي، وتوفي بعد شهر، فوزر بعده عثمان القمي.

وفيها، في جمادى الأولى، أوقع أنابك طغتكين بطائفة من الفرنج، فقتل منهم وأسر وأرسل من الأسرى والغنيمة للسلطان وللخليفة.

وفيها تضعع الركن اليماني من البيت الحرام، زاده الله شرفاً، من زلزلة، وانهدم بعضه، وتشعث بعض حرم النبي ﷺ وتشعث غيرها من البلاد، وكان بالموصل كثير منها.

وفيها احترقت دار السلطان، كان قد بناها مجاهد الدين بهروز للسلطان محمد، ففرغت قبل وفاته بيسير، فلما كان الآن احترقت.

وسبب الحريق أن جارية كانت تختضب ليلاً، فأسندت شمعة إلى الخيش فاحترق، وعلقت النار منه في الدار، واحترق فيها من زوجة السلطان محمود بنت السلطان سنجر ما لا حد له من الجواهر، والحلى، والفرش، والثياب، وأقيم الغسالون يخلصون الذهب وما أمكن تخليصه، وكان الجوهر جميعه قد هلك إلا الباقوت الأحمر. (٥٩٥/١٠)

وترك السلطان الدار لم تجدّد عمارتها، وتطير منها، لأن أباه لم

في السنة الخالية ليتقلب عليها، وكان أتابيكه كتنغدي يحسن له ذلك، ويقويه عليه، فاتفق أنه مرض، وتوفي في شوال سنة خمس عشرة [وخمسمائة].

وكان الأمير آقسنقر الأحمدلي، صاحب مراغة، عند السلطان محمود ببغداد، فاستأذنه في المضي إلى إقطاعه، فأذن له، فلما سار عن السلطان ظن أنه يقوم مقام كتنغدي من الملك طغرل، فسار إليه، واجتمع به، وأشار عليه بالكاشفة لأخيه السلطان محمود، وقال له: إذا وصلت إلى مراغة اتصل بك عشرة آلاف فارس وراجل. فسار معه، فلما وصلوا إلى أردبيل أغلقت أبوابها دونهم، فساروا عنها إلى قريب تبريز، فاتاهم الخبر أن السلطان محموداً سير الأمير جيوش بك إلى أذربيجان، وأقطعها البلاد، وأنه نزل مراغة في عسكر كثيف من عند السلطان.

فلما يتقنوا ذلك عدلوا إلى خونج، وانتقض عليهم ما كانوا فيه، وراسلوا الأمير شيركير الذي كان أتابك طغرل، أيام أبيه، يدعونه إلى إنجادهم، وقد كان كتنغدي قبض عليه بعد موت السلطان محمد علي ما ذكرناه، ثم أطلقه (٥٩٨/١٠) السلطان سنجر، فعاد إلى إقطاعه، أبهر، وزنجان، وكاتبوه فأجابهم، واتصل بهم، وسار معهم إلى أبهر، فلم يتم لهم ما أرادوا، فراسلوا السلطان بالطاعة، فأجابهم إلى ذلك، فاستقرت القاعدة أول هذه السنة، وتنت.

ذكر حال دئيس بن صدقة وما كان منه

قد ذكرنا سنة أربع عشرة [وخمسمائة] حال دئيس بن صدقة، وصلحه على يد يرتش الزكري، ومقامه بالجلّة، وعود يرتش إلى السلطان ومعه منصور بن صدقة، أخو دئيس، وولده رهينة، فلما علم الخليفة بذلك لم يرض به، وراسل السلطان محموداً في إبعاد دئيس عن العراق إلى بعض النواحي.

وتردد الخطاب في ذلك، وعزم السلطان على المسير إلى همدان، فأعاد الخليفة الشكوى من دئيس، وذكر أنه يطالب الناس بحقوقه، منها قتل أبيه، وأشار أن يحضر السلطان آقسنقر البرسقي من الموصل، ويوليه شحنة بغداد والعراق، ويجعله في وجه دئيس، ففعل السلطان ذلك، وأحضر البرسقي، فلما وصل إليه زوجته والدة الملك مسعود، وجعله شحنة بغداد، وأمره بقتال دئيس إن تعرض للبلاد.

وسار السلطان عن بغداد في صفر من هذه السنة، وكان مقامه ببغداد سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً، فلما قارق ببغداد والعراق تظاهر دئيس بأمور تأثر بها المسترشد بالله، وتقدم إلى البرسقي بالمسير إليه، وإزعاجه عن الجلّة، فأرسل البرسقي إلى الموصل، وأحضر عساكره، وسار إلى الجلّة، (٥٩٩/١٠) وأقبل

يتمتع بها، ثم احترق فيها من أموالهم الشيء العظيم، واحترق قبلها بأسبوع جامع أصبهان، وهو من أعظم الجوامع وأحسنها، أحرقه قوم من الباطنية ليلاً، وكان السلطان قد عزم على أخذ حق البيع، وتجديد المكوس بالعراق، بإشارة الوزير السميمري عليه بذلك، فتجدد من هذين الحريقين ما هاله، وأتعط فأعرض عنه.

وفيهما، في ربيع الآخر، انقض كوكب عشاء، وصار له نور عظيم، وتفرق منه أعمدة عند انقضاضه، وسمع عند ذلك صوت هدة عظيمة كالزلزلة.

وفيهما ظهر بمكة إنسان علوي، وأمر بالمعروف، فكثر جمعه، ونازع أمير مكة ابن أبي هاشم، وقوي أمره، وعزم على أن يخطب لنفسه، فعاد ابن أبي هاشم وظفر به، ونفاه عن الحجاز إلى البحرين، وكان هذا العلوي من فقهاء النظامية ببغداد.

وفيهما ألزم السلطان أهل الذمة ببغداد بالغيار، فجرى فيه مراجعات انتهت إلى أن قرر عليهم للسلطان عشرون ألف دينار، وللخليفة أربعة آلاف دينار.

وفيهما حضر السلطان محمود وأخوه الملك مسعود عند الخليفة، فخلع عليهما، وعلى جماعة من أصحاب السلطان، منهم وزيره أبو طالب السميمري، وشمس الملك عثمان بن نظام الملك، والوزير أبو نصر أحمد بن محمد بن حامد المستوفي، وعلى غيرهم من الأمراء.

وفيهما، في ذي القعدة، وهو الحادي والعشرون من كانون الثاني، سقط بالعراق جميعه من البصرة إلى تكريت ثلج كثير، وبقي على الأرض خمسة عشر يوماً، وسمكه ذراع، وهلكت أشجار النارنج، والأترج، والليمون، (٥٩٦/١٠) فقال فيه بعض الشعراء:

يا صُلُوْزَ الزَّمانِ لَيْسَ يَوْفِرُ ما رَأَيْناه فِي نواحِي العِراقِ
إِمْناَعُ ظِلْمِكُمْ سائِرَ الخَلْقِ، فَسَلَبَتْ ذَوائِبُ الأَفْلاكِ
وفيهما هبت بمصر ريع سوداء ثلاثة أيام، فأهلكت كثيراً من الناس، وغيرهم من الحيوانات.

وفيهما توفي أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري، صاحب المقامات المشهورة، وهزارسب بن عوض الهروي، وكان قد سمع الحديث كثيراً. (٥٩٧/١٠)

سنة ست عشرة وخمسمائة

ذكر طاعة الملك طغرل لأخيه السلطان محمود

وفي المحرم من هذه السنة أطاع الملك طغرل أخاه السلطان محموداً، وكان قد خرج عن طاعته، كما ذكرناه، وقصد أذربيجان

وَأَمَّا الْمُظَفَّرُ بْنُ أَبِي الْجَبْرِ فَإِنَّهُ أَصْعَدَ مِنَ الْبُطِيحَةِ وَنَهَبَ وَأَفْسَدَ، وَجَرَى مِنْ أَصْحَابِهِ الْقَبِيحُ، فَلَمَّا قَارَبَ وَاسِطاً سَمِعَ بِالْهَزِيمَةِ، فَعَادَ مُنْهَدِراً.

وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَا أَخَذَ الْعَسْكَرُ الْوَاسِطِيَّ مِنْ مُهْلِهِلْ تَذَكُّرَةً بِخَطِّ دُبَيْسَ يَأْمُرُهُ فِيهَا بِقَبْضِ الْمُظَفَّرِ بْنِ أَبِي الْجَبْرِ وَمَطَالَبَتِهِ بِأَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ أَخَذَهَا مِنَ الْبُطِيحَةِ، فَأَرْسَلُوا الْخَطَّ إِلَى الْمُظَفَّرِ، وَقَالُوا: هَذَا خَطُّ الَّذِي تَخْتَارُهُ، وَقَدْ أَسْخَطْتَ اللَّهَ تَعَالَى وَالْخَلْقَ كُلَّهُمْ لِأَجْلِهِ؛ فَعَالَ إِلَيْهِمْ وَصَارَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا جَرَى عَلَى أَصْحَابِ دُبَيْسَ مِنَ الْوَاسِطِيِّينَ مَا ذَكَرْنَاهُ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدِهِ فِي الشَّرِّ، وَبَلَغَهُ أَنَّ السُّلْطَانَ كَحَلَ أَخَاهُ، فَجَزَّ شَعْرَهُ، وَلَيْسَ السَّوَادُ، وَنَهَبَ الْبِلَادَ، وَأَخَذَ كُلَّ مَا لِلْخَلِيفَةِ بِنَهْرِ الْمَلِكِ، فَأَجْلَى النَّاسَ إِلَى بَغْدَادَ.

وَسَارَ عَسْكَرُ وَاسِطٍ إِلَى النُّعْمَانِيَّةِ، فَأَجْلَوْا عَنْهَا عَسْكَرَ دُبَيْسَ وَاسْتَوْلُوا (٦٠١/١٠) عَلَيْهَا، وَجَرَى بَيْنَهُمْ هُنَاكَ وَقْعَةٌ كَانَ الظُّفَرُ [فِيهَا] لِلْوَاسِطِيِّينَ، وَتَقَدَّمَ الْخَلِيفَةُ إِلَى الْبَرْسَقِيِّ بِالْتَّبَرِيزِ إِلَى حَرْبِ دُبَيْسَ، فَبَرَزَ فِي رَمَضَانَ، وَكَانَ مِنْ تَذَكُّرِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذِكْرُ قَتْلِ السُّمَيْرِيِّ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قُتِلَ الْوَزِيرُ الْكَمَالُ أَبُو طَالِبِ السُّمَيْرِيُّ، وَزِيرُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ، سَلَخَ صَفَرًا، وَكَانَ قَدْ بَرَزَ مَعَ السُّلْطَانِ لِيَسِيرَ إِلَى هَمْدَانَ، فَدَخَلَ إِلَى الْحَمَّامِ، وَخَرَجَ بَيْنَ يَدَيْهِ الرَّجَالَةُ وَالْخِيَالَةُ، وَهُوَ فِي مَوْكِبٍ عَظِيمٍ، فَاجْتَازَ بِسُوقِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي بَنَاهَا خِمَارَتَكِينُ التُّشِيَّ، وَاجْتَازَ فِي مَنَافِقِ فِيهِ حِطَّائِرُ الشُّوكِ، فَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ لِنُضِيقِ الْمَوْضِعِ، فَوُثِبَ عَلَيْهِ بِأُتُنِيٍّ وَضُرِبَ بِسِكِّينَ، فَوَقَعَتْ فِي الْبَغْلَةِ، وَهَرَبَ إِلَى دَجَلَةٍ، وَتَبِعَهُ الْغُلَمَانُ، فَخَلَا الْمَوْضِعَ، فَظَهَرَ رَجُلٌ آخَرُ فَضْرِبَهُ، بِسِكِّينَ فِي خَاصِرَتِهِ، وَجَذَبَهُ عَنِ الْبَغْلَةِ إِلَى الْأَرْضِ، وَضُرِبَ عِدَّةَ ضَرْبَاتٍ.

وَعَادَ أَصْحَابُ الْوَزِيرِ، فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ رَجُلَانِ بَاطَنِيَّانِ، فَانْهَزَمَا مِنْهُمَا، ثُمَّ عَادَا وَقَدْ دُبِجَ الْوَزِيرُ مِثْلَ الشَّاةِ، فَحُمِلَ قَتِيلًا وَبِهِ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ جِرَاحَةً، وَقَتْلَ قَاتِلُوهُ.

وَلَمَّا كَانَ فِي الْحَمَّامِ كَانَ الْمُنْتَجِمُونَ يَأْخُذُونَ لَهُ الطَّالِعَ لِيُخْرِجَ، فَقَالُوا: هَذَا وَقْتُ جَيْدٍ، وَإِنْ تَأَخَّرْتَ يَفْتُ طَالِعُ السَّعْدِ، فَاسْرَجْ وَرَكِبْ، وَارَادَ أَنْ يَأْكُلَ طَعَامًا، فَفَتَحُوهُ لِأَجْلِ الطَّالِعِ، فَقَتَلَ وَلَمْ يَنْفَعِهِ قَوْلُهُمْ.

وَكَانَتْ زَوَارَتُهُ ثَلَاثَ سِنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرًا، وَانْتَهَبَ مَالَهُ، وَأَخَذَ السُّلْطَانُ (٦٠٢/١٠) خَزَائِنَهُ، وَوَزَرَ بَعْدَهُ شَمْسُ الْمَلِكِ بْنِ نِظَامِ الْمَلِكِ، وَكَانَتْ زَوْجَةُ السُّمَيْرِيِّ قَدْ خَرَجَتْ هَذَا الْيَوْمَ فِي مَوْكِبٍ كَبِيرٍ، مَعَهَا نَحْوُ مِائَةِ جَارِيَةٍ، وَجُمُعٌ مِنَ الْخُدَمِ، وَالْجَمِيعُ بِمَرَاقِبِ الذَّهَبِ، فَلَمَّا سَمِعَ بِقَتْلِهِ عُدُنَ حَافِيَاتٍ حَاسِرَاتٍ، وَقَدْ تَبَدَّلْنَ بِالْعَزِّ

دُبَيْسَ نَحْوَهُ، فَالْتَقُوا عِنْدَ نَهْرِ بُشَيْرٍ، شَرْقِيَّ الْفَرَاتِ، وَاقْتَتَلُوا، فَانْهَزَمَ عَسْكَرُ الْبَرْسَقِيِّ.

وَكَانَ سَبَبُ الْهَزِيمَةِ أَنَّهُ رَأَى فِي مَيْسَرَتِهِ خِلَلاً، وَبِهَا الْأَمْرَاءُ الْبَكِجِيَّةَ؛ فَأَمَرَ بِالْقَاءِ خِيَمَتِهِ، وَأَنْ تُنْصَبَ عِنْدَ الْمَيْسَرَةِ، لِيَقْوِيَ قُلُوبُ مَنْ بَهَا، فَلَمَّا رَأَوْا الْخِيَمَةَ وَقَدْ سَقَطَتْ ظَنُّوْهَا عَنْ هَزِيمَةٍ، فَانْهَزَمُوا، وَتَبِعَهُمُ النَّاسُ وَالْبَرْسَقِيُّ.

وَقِيلَ: بَلْ أَعْطَى رَقْعَةً فِيهَا: إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْأَمْرَاءِ مِنْهُمْ إِسْمَاعِيلُ الْبَكِجِيُّ، يَرِيدُونَ الْفَتْكَ بِهِ، فَانْهَزَمَ، وَتَبِعَهُ الْعَسْكَرُ، وَدَخَلَ بَغْدَادَ ثَانِي رُبْعِ الْآخَرِ، وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ الْعَسْكَرُ نَصْرُ بْنُ الْغَفِيِّسِ بْنِ مَهْدَبِ الدَّوْلَةِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْجَبْرِ، وَكَانَ نَاطِراً بِالْبُطِيحَةِ لِرِيحَانٍ مُحْكُوْتِهِ، خَادِمُ السُّلْطَانِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ مِنْ جُمْلَةِ إِقْطَاعِهِ، وَحَضَرَ أَيْضاً الْمُظَفَّرُ بْنُ حَمَادٍ بْنُ أَبِي الْجَبْرِ، وَبَيْنَهُمَا عِدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ، فَالْتَقِيَا عِنْدَ الْانْهَزَامِ بِسَابِاطِ نَهْرِ مَلِكٍ، فَقَتَلَهُ الْمُظَفَّرُ وَمَضَى إِلَى وَاسِطٍ، وَسَارَ مِنْهَا إِلَى الْبُطِيحَةِ، وَتَغَلَّبَ عَلَيْهَا وَكَاتَبَ دُبَيْسًا وَأَطَاعَهُ.

وَأَمَّا دُبَيْسٌ فَإِنَّهُ لَمْ يُعْرِضْ لِنَهْرِ مَلِكٍ، وَلَا غَيْرِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَنَّهُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَخَذَ الْبَرْسَقِيُّ وَجَمِيعَ مَنْ مَعَهُ، وَسَأَلَ أَنْ يُخْرِجَ النَّاطِرَ إِلَى الْقُرَى الَّتِي لَخَاصَّ الْخَلِيفَةُ لِقَبْضِ دَخْلِهَا.

وَكَانَتْ الْوَقْعَةُ فِي حَزِيرَانَ، وَحَمَى الْبَلَدَ، فَأَحْمَدُ الْخَلِيفَةُ فَعَلَهُ، وَتَرَدَّدَتْ الرُّسُلُ بَيْنَهُمَا، فَاسْتَقَرَّتِ الْقَاعِدَةُ أَنْ يَقْبُضَ الْمُسْتَرَشِدُ بِاللَّهِ عَلَى وَزِيرِهِ جَلَالِ الدِّينِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ صَدَقَةِ لِيَعُودَ إِلَى الطَّاعَةِ، فَقَبِضَ عَلَى الْوَزِيرِ، وَنَهَبَتْ دَارَهُ وَدُورَ أَصْحَابِهِ وَالْمَتَمِّينَ إِلَيْهِ، وَهَرَبَ ابْنُ أَخِيهِ جَلَالُ الدِّينِ أَبُو الرِّضَا إِلَى الْمَوْصِلِ.

وَلَمَّا سَمِعَ السُّلْطَانُ خَبَرَ الْوَقْعَةِ قَبِضَ عَلَى مُنْصَوَّرٍ بْنِ صَدَقَةِ، أَخِي دُبَيْسَ، وَوَلَدَهُ، وَرَفَعَهُمَا إِلَى قَلْعَةٍ بِرَحِينٍ وَهِيَ تَجَاوِرُ كَرْجَ (٦٠٠/١٠)

ثُمَّ إِنَّ دُبَيْسًا أَمَرَ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ بِالْمَسِيرِ إِلَى أَقْطَاعِهِمْ بِوَاسِطٍ، فَسَارُوا إِلَيْهَا، فَمَنْعَهُمْ أَتْرَاكُ وَاسِطٍ، فَجَهَّزَ دُبَيْسَ إِلَيْهِمْ عَسْكَراً مَقْدَمَهُمْ مُهْلِهِلْ ابْنَ أَبِي الْعَسْكَرِ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْمُظَفَّرِ بْنِ أَبِي الْجَبْرِ بِالْبُطِيحَةِ لِيَتَّفِقَ مَعَ مُهْلِهِلْ وَيُسَاعِدَهُ عَلَى قِتَالِ الْوَاسِطِيِّينَ، فَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ تَكُونَ الْوَقْعَةُ تَامِسَ رَجَبٍ، وَأَرْسَلَ الْوَاسِطِيُّونَ إِلَى الْبَرْسَقِيِّ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْمَدَدَ، فَأَمَتَهُمْ بِجَيْشٍ مِنْ عُنْدِهِ، وَعَجَلَ مُهْلِهِلْ فِي عَسْكَرِ دُبَيْسَ، وَلَمْ يَنْتَظِرِ الْمُظَفَّرَ ظَنًّا أَنَّهُ بِمَقَرِّهِ يَنْتَالُ مِنْهُمْ مَا أَرَادَ، وَيَنْفَرِدُ بِالْفَتْحِ، فَالْتَقَى هُوَ وَالْوَاسِطِيُّونَ، ثَامِنَ رَجُلٍ، فَانْهَزَمَ مُهْلِهِلْ وَعَسْكَرُهُ، وَظَفَرَ الْوَاسِطِيُّونَ، وَأَخَذَ مُهْلِهِلْ أَسِيرًا وَجَمَاعَةً مِنْ أَعْيَانِ الْعَسْكَرِ، وَقَتَلَ مَا يَزِيدُ عَلَى أَلْفِ قَتِيلٍ، وَلَمْ يُقَتَّلْ مِنَ الْوَاسِطِيِّينَ غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ.

هواناً، وبالمسرة أحراناً فسيحان من لا يزول ملكه.

وكان السُميرمي ظالمًا، كثير المصادرة للناس، سيئ السيرة، فلما قُتل أطلق السلطان ما كان جُذده من المكوس، وما وضعه على التجار والباعة.

ذكر القبض على ابن صدقة وزير الخليفة ونياة علي بن طراد

في جمادى الأولى قبض الخليفة على وزيره جلال الدين بن صدقة، وقد تقدّم ذكره قبل، وأقيم نقيب النقباء شرف الدين علي بن طراد الزينبي في نياة الوزارة، فأرسل السلطان إلى المسترشد بالله في معنى وزارة نظام الملك أبي نصر أحمد بن نظام الملك، وكان أخو شمس الملك عثمان بن نظام الملك وزير السلطان محمود، فأجيب إلى ذلك، واستوزر في شعبان.

وكان قد وزر للسلطان محمد سنة خمسمائة، ثم عُزل، ولزم داراً استجدها ببغداد إلى الآن، فلما خلع على نظام الملك، وجلس في الديوان، طلب أن يخرج ابن صدقة عن بغداد، فلما علم ابن صدقة ذلك طلب من الخليفة أن يُسَرَّ إلى حديثة عانة ليكون عند الأمير سليمان بن مَهَارَش، فأجيب إلى ما طلب.

وسار إلى الحديثة، فخرج عليه في الطريق إنسان من مفسدي التركمان يقال (٦٠٣/١٠) له يونس الحرامي، فأسره ونهب أصحابه، فخاف الوزير أن يعلم دُبَيْس فأرسل إلى يونس ويدل له مالا يأخذه منه للعداوة التي بينهما، فقرر أمره مع يونس على ألف دينار يعجل منها ثلاثمائة، ويؤخر الباقي إلى أن يرسله من الحديثة.

وراسل عامل بلد الفرات في تخليصه، وإنفاذ من يضمن الباقي الذي عليه، فأعمل العامل الحيلة في ذلك، فأحضر إنساناً فلاحاً والبسه ثياباً فاخرة وطيلساناً، وأركبه وسير معه غلماناً، وأمره أن يمضي إلى يونس ويذّعي أنه قاضي بلد الفرات، ويضمن الوزير منه بما بقي من المال، فسار السوادّي إلى يونس، فلما حضر عند الوزير ويونس أحترماه، وضمن السوادّي الوزير منه، وقال له: أقيم عندك إلى أن يصل المال مع صاحب لك تتغذّ مع الوزير؛ فاعتقد يونس صدق ذلك وأطلق الوزير ومعه جماعة من أصحابه، فلما وصل الحديثة قبض على من معه منهم، فأطلق يونس ذلك السوادّي، والمال الذي أخذه، حتى أطلق الوزير أصحابه، وعلم الحيلة التي تمّت عليه.

ولما سار الوزير من عند يونس لقي إنساناً أنكره، فأخذه، فرأى معه كتاباً من دُبَيْس إلى يونس يبدل مئة آلاف دينار ليسلم الوزير إليه، وكان خلاصه من أعجب الأشياء.

ذكر قتل جيوش بك

في هذه السنة قُتل الأمير جيوش بك الذي كان صاحب

الموصل، وقد ذكرنا خروجه على السلطان محمود، وعوده إلى خدمته، فلما رضي عنه أقطعه أذربيجان (٦٠٤/١٠) وجعله مقدّم عسكره، فجري بينه وبين جماعة من الأمراء منافرة ومنازعات، فأغروا به السلطان، فقتله في رمضان على باب تبريز.

وكان تركياً من مماليك السلطان محمد، عادلاً، حسن السيرة، ولما ولي الموصل والجزيرة كان الأكراد بتلك الأعمال قد انتشروا، وكثر فسادهم، وكثرت قلاعهم، والناس معهم في ضيق، والطريق خائفة، فقصدهم، وحصر قلاعهم، وفتح كثيراً منها ببلد الهكارية، وبلد السوّزان، وبلد التشنوية، وخافه الأكراد، وتولّى قصدهم بنفسه، فهربوا منه في الجبال والشعاب والمضايق، وأمنت الطرق، وانتشر الناس واطمأنوا، وبقي الأكراد لا يجسرون أن يحملوا السلاح لهيبته.

ذكر وفاة يلغازي وأحوال حلب بعده

في هذه السنة، في شهر رمضان، توفي يلغازي بن أرتق بميافارقين، وملك ابنه حسام الدين تمرناش قلعة ماردين، وملك ابنه سليمان ميافارقين، وكان يحلب ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، فبقي بها إلى أن أخذها ابن عمّه.

ذكر عذة حوادث

في هذه السنة أقطع السلطان محمود الأمير آقستقر البرسقي مدينة واسط وأعمالها، مضافاً إلى ولاية الموصل وغيرها ممّا بيده، وشحنكية العراق، فلما أقطعها البرسقي سار إليها عماد الدين زنكي بن آقستقر الذي كان والده (٦٠٥/١٠) صاحب حلب، وأمره بحمايتها، فسار إليها في شعبان ووليها، وقد ذكرنا أخبار زنكي في كتاب الباهر في ذكر ملكه وملك أولاده الذين هم ملوكنا الآن، فينظر منه.

وفيهما ظهر معنود نحاس بديار بكر قريباً من قلعة ذي القرنين.

وفيهما زاد الفرات زيادة عظيمة لم يُعهد مثلها، فدخل الماء إلى ريش قلعة جعبر، وكان الفرات، حيثئذ، بالقرب منها، ففرق أكثر دوره ومسكنه، وحمل فرساً من الريش وألقاه من فوق السور إلى الفرات.

وفيهما بُنيت مدرسة بحلب لأصحاب الشافعي.

وفيهما توفيت ابنة السلطان سنجر زوج السلطان محمود.

وفيهما، في شعبان، قدم إلى بغداد البرهان أبو الحسن علي بن الحسين الغزنوي وعقد مجلس الوعظ في جميع المواضع، وورد بعده أبو القاسم علي بن يعلى العلوي، ونزل رباط شيخ الشيوخ، فوعظ في جامع القصر، والتاجية، ورباط سعادة، وصار له قبول

عند الحنابلة، وحصل له مال كثير لأنه أظهر موافقتهم.

وورد بعده أبو الفتح الاسفرايني، ونزل برباط شيخ الشيوخ أيضاً، وعوظ في هذه المواضع، وفي النظامية، وأظهر مذهب الأشعري، فصار له قبول كثير عند الشافعية، وحضر مجلسه الخليفة المسترشد بالله، وسلم إليه رباط الأرجونية، والده المقتدي بالله، بدرب زاحي.

وفيها توفي عبد الله بن أحمد بن عمر أبو محمد السمرقندي، أخو أبي القاسم بن السمرقندي، ومولده بدمشق سنة أربع وأربعين، ونشأ ببغداد، وسمع الصريفي وابن النور وغيرهما، وسافر الكثير، وكان حافظاً (٦٠٦/١٠) للحديث عالماً به.

وفي ذي الحجة توفي عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف أبو طالب، ومولده سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وسمع البرمكي، والجوهري، والعشاري، وكان ثقة، حافظاً للحديث. (٦٠٧/١٠)

سنة سبع عشرة وخمسمائة

ذكر مسير المسترشد بالله لحرب دئيس

في هذه السنة كانت الحرب بين الخليفة المسترشد بالله، وبين دئيس بن صدقة.

وكان سبب ذلك: أن دئيساً أطلق عفيفاً خدام الخليفة، وكان مأسوراً عنده، وحمله رسالة فيها تهديد للخليفة بإرسال البرسقي إلى قتاله، وتقويته بالمال، وأن السلطان كحل أخاه، وبالف في الوعيد، ولبس السواد، وجز شعره، وحلف لينهين ببغداد، ويخربها، فاغتاظ الخليفة لهذه الرسالة، وغضب، وتقدم إلى البرسقي بالتبزيز إلى حرب دئيس، فبرز في رمضان سنة ست عشرة [وخمسمائة].

وتجهز الخليفة، وبرز من بغداد، واستدعى العساكر، فأتاه سليمان بن مھارش، صاحب الحديثة، في عجيل، وأتاه قزوإش بن مسلم، وغيرهما، وأرسل دئيس إلى نهر ملك فنهب، وعمل أصحابه كل عظيم من الفساد، فوصل أهله إلى بغداد، فأمر الخليفة فنودي ببغداد لا يتخلف من الأجداد أحد، ومن أحب الجندية من العامة فليحضر، فجاء خلق كثير، ففرق فيهم الأموال والسلاح.

(٦٠٨/١٠) فلما علم دئيس الحال كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرضاء عنه، فلم يجب إلى ذلك، وأخرجت خيام الخليفة في العشرين من ذي الحجة من سنة ست عشرة [وخمسمائة]، فنادى أهل بغداد: الفير الفير، الغزاة الغزاة! وكثر الضجيج من الناس، وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة، وبرز الخليفة رابع عشر ذي الحجة، وعبر دجلة وعليه قباء أسود، وعمامة سوداء،

وطرحة، وعلى كفه البردة، وفي يده القضيب، وفي وسطه منطقة حديد صيني، ونزل الخيام ومعه وزير نظام الدين أحمد بن نظام الملك، ونقيب الطالبين، ونقيب النقباء علي بن طراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل وغيرهم من الأعيان.

وكان البرسقي قد نزل بقرية جهار طاق، ومعه عسكره، فلما بلغهم خروج الخليفة عن بغداد عادوا إلى خدمته، فلما رأوا الشمشة ترجلوا بأجمعهم، وقبلوا الأرض بالبعد منه.

ودخلت هذه السنة، فنزل الخليفة، مستهل المحرم، بالحديثة، بنهر الملك، واستدعى البرسقي والأمراء، واستحلفهم على المناصحة في الحرب، ثم ساروا إلى النبل، ونزلوا بالمباركة، وعيا البرسقي أصحابه، ووقف الخليفة من وراء الجميع في خاصته، وجعل دئيس أصحابه صفاً واحداً، ميمنة، وميسرة، وقلباً، وجعل الرجالة بين يدي الخيالة بالسلاح، وكان قد وعد أصحابه بنهب بغداد، وسبي النساء، فلما تراءت الفتان بادر أصحاب دئيس، وبين أيديهم الإمام يضر بن بالدوف، والمخائيت بالماهي، ولم ير في عسكر الخليفة غير قاري، ومسبح، وداع، فقامت الحرب على ساق.

وكان مع أعلام الخليفة الأمير كرباوي بن خراسان، وفي الساقة سليمان ابن مھارش، وفي ميمنة عسكر البرسقي الأمير أبو بكر بن إلياس مع الأمراء البكجية، فحمل عتزر بن أبي العسكر في طائفة من عسكر دئيس على ميمنة (٦٠٩/١٠) البرسقي، فتراجعت على أعقابها، وقتل ابن أخ للأمير أبي بكر البكجي، وعاد عتزر وحمل حملة ثانية على هذه الميمنة، فكان حالها في الرجوع على أعقابها كحالها الأول، فلما رأى عسكر واسط ذلك، ومقدمهم الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر، حمل وهم معه على عتزر ومن معه، وأتوهم من ظهورهم فبقي عتزر في الوسط، وعماد الدين وعسكر واسط من ورائه، والأمراء البكجية بين يديه، فأسر عتزر، وأسر معه بريك بن زائدة وجميع من معهم ولم يفلت أحد.

وكان البرسقي واقفاً على نشز من الأرض، وكان الأمير آق بوري في الكمين في خمسمائة فارس، فلما اختلط الناس خرج الكمين على عسكر دئيس، فانهمزوا جميعهم وألقوا نفوسهم في الماء، ففرق كثير منهم، وقتل كثير.

ولما رأى الخليفة اشتداد الحرب جرد سيفه وكبر وتقدم إلى الحرب، فلما انهزم عسكر دئيس وحملت الأسرى إلى بين يديه أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم صبراً.

وكان عسكر دئيس عشرة آلاف فارس، واثنى عشر ألف راجل، وعسكر البرسقي ثمانية آلاف فارس، وخمسة آلاف راجل، ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً، وحصل نساء دئيس،

وسرازيه تحت الأسر سوى بنت إيلغازي، وبت عميد الدولة بن جهير، فإنه كان تركهما في المشهد.

وعاد الخليفة إلى بغداد، فدخلها يوم عاشوراء من هذه السنة، ولما عاد الخليفة إلى بغداد ثار العامة بها، ونهبوا مشهد باب التين، وقلعوا أبوابه، فأنكر الخليفة ذلك، وأمر نظر أمير الحاج بالركوب إلى المشهد، وتأديب من فعل ذلك، وأخذ ما نهب، ففعل وأعاد البعض وخفي الباقي عليه.

وأما ديبس بن صدقة فإنه لما انهزم نجا بفرسه وسلاحه، وأفركه (٦١٠/١٠) الخيل، ففاتها وعبر الفرات، فرأته امرأة عجوز وقد عبر، فقالت له: ديبس جئت؟ فقال: ديبس من لم يجيء. واختفى خبره بعد ذلك، وأرجف عليه بالقتل، ثم ظهر أمره أنه قصد غزوة من عرب نجد، فطلب منهم أن يحالفوه، فامتنعوا عليه وقالوا: إنا نُسخط الخليفة والسلطان؛ فرحل إلى المتفق، واتفق معهم على قصد البصرة وأخذها، فساروا إليها ودخلوها، ونهبوا أهلها، وقتل الأمير سَخَت كمان مقدم عسكريها، وأجلى أهلها.

فأرسل الخليفة إلى البرسقي يعاتبه على إهماله أمر ديبس، حتى تم له من أمر البصرة ما أخربها، فتجهز البرسقي للاتخاذ إليه، فسمع ديبس ذلك، ففارق البصرة، وسار على البر إلى قلعة جعفر، والتحق بالفرنج، وحضر معهم حصار حلب، وأطمعهم في أخذها، فلم يظفروا بها، فعادوا عنها، ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمد، فأقام معه، وحسن له قصد العراق، وسنذكره سنة تسع وعشرين [وخمسمائة]، إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب

في هذه السنة، في صفر، ملك الفرنج حصن الأثارب، من أعمال حلب.

وسبب ذلك: أنهم كانوا قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة، والتخريب، والتحريق، وكان بحلب جيش بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ابن أرتق، وهو صاحبها، ولم يكن له بالفرنج قوة، وخافهم، فهادنهم على أن يسلم الأثارب ويكفوا عن بلاده، فأجابوا إلى ذلك، وتسلموا الحصن، وتمت الهدنة بينهم، واستقام أمر الرعية بأعمال حلب، وجلبت إليهم الأقوات وغيرها؛ ولم تزل الأثارب بأيدي الفرنج إلى أن ملكها أتابك زنكي بن آقسنقر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى. (٦١١/١٠)

ذكر ملك تلك حران وحلب

في هذه السنة، في ربيع الأول، ملك تلك بن بهرام مدينة حران، وكان قد حضرها، فلما ملكها سار منها إلى مدينة حلب.

وسبب مسيره إليها: أنه بلغه أن صاحبها بدر الدولة قد سلم

قلعة الأثارب إلى الفرنج، فعظم ذلك عليه، وعلم عجزه عن حفظ بلاده، فقوي طمعه في ملكها، فسار إليها، ونازلها، في ربيع الأول، وضلعها، ومنع الميرة عنها، وأحرق زروعها، فسلم إليه ابن عمه البلد والقلعة بالأمان، غرة جمادى الأولى من السنة، وتزوج ابنة الملك رضوان، وبقي مالكاً لها إلى أن قتل على ما نذكره.

ذكر الحرب بين الفرنج والمسلمين بإفريقية

قد ذكرنا أن الأمير علي بن يحيى، صاحب إفريقية، لما استوحش من رجار صاحب صقيلية، جدد الأسطول الذي له، وكثر عُدده، وعُدده، وكتب أمير المسلمين علي بن يوسف بن ناشفين بمرآكش بالاجتماع معه على قصد جزيرة صقيلية، فلما علم رجار ذلك كف عن بعض ما كان يفعله.

فاتفق أن علياً مات سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، وولي ابنه الحسن، وقد ذكرناه. فلما دخلت سنة ست [عشرة وخمسمائة] سیر أمير المسلمين أسطولاً، ففتحوا نقورة بساحل بلاد قنوزة، فلم يشك رجار أن علياً (٦١٢/١٠) كان سبب ذلك، فجد في تعميم الشواني والمراكب، وحشد فأكثر، ومنع من السفر إلى إفريقية وغيرها من بلاد الغرب، فاجتمع له من ذلك ما لم يُعْهَد مثله، قيل: كان ثلاثمائة قطعة، فلما انقطعت الطريق عن إفريقية توقّع الأمير الحسن بن علي خروج العدو إلى المهديّة، فأمر باتخاذ العُدّة، وتجديد الأسوار، وجمع المقاتلة، فأتاه من أهل البلاد ومن العرب جمع كثير.

فلما كان في جمادى الآخرة سنة سبع عشرة [وخمسمائة] سار الأسطول الفرنجي في ثلاثمائة قطعة، فيها ألف فرس وفرس واحد، إلا أنهم لما ساروا من مرسى علي فرقتهم الرياح، وغرق منهم مراكب كثيرة، ونازل من سلم منهم جزيرة قنوزة ففتحوها، وقتلوا من بها، وسبوا وغنموا، وساروا عنها، فوصلوا إلى إفريقية، ونازلوا الحصن المعروف بالديماس أو آخر جمادى الأولى، فقاتلهم طائفة من العرب كانوا هناك، والديماس حصن منيع، في وسطه حصن آخر، وهو مشرف على البحر.

وسير الحسن من عنده من الجموع إلى الفرنج، وأقام هو بالمهديّة في جمع آخر يحفظها، وأخذ الفرنج حصن الديماس، وجنود المسلمين محيطة بهم، فلما كان بعد ليال اشتد القتال على الحصن الداخل، فلما كان الليل صاح المسلمون صيحة عظيمة ارتجت لها الأرض، وكبروا، فوقع الرعب في قلوب الفرنج، فلم يشكوا أن المسلمين يهجمون عليهم، فبادروا إلى شوانيتهم، وقتلوا بأيديهم كثيراً من خيولهم، وغنم المسلمون منها أربعمائة فرس، ولم يسلم معهم غير فرس واحد، وغنم المسلمون جميع ما تخلف عن الفرنج، وقتلوا كل من عجز عن الطلوع إلى المراكب.

توفي، وهو ابن أخي نظام الملك، ووزر بعده أبو طاهر القمّي، وهو عدو للبيت النظامي، فسعى مع السلطان سنجر، حتى أرسل إلى السلطان محمود يأمره بالقبض على وزيره شمس الملك، فصادق وصول الرسول وهو متغير عليه، فقبض عليه وسلمه إلى طغاييرك، فبعثه إلى بلده خلخال، فحبسه فيها.

ثم إن أبا نصر المستوفي، الملقب بالعزير، قال للسلطان محمود: لا نأمن أن يرسل السلطان سنجر يطلب الوزير، ومتى اتصل به لا نأمن شراً يحدث منه. وكان بينهما عداوة، فأمر السلطان بقتله، فلما دخل عليه السياف ليقبله (٦١٥/١٠) قال: أمهلني حتى أصلي ركعتين؛ ففعل، فلما صلى جعل يرتعد، وقال للسياف: سيقي أجود من سيفك، فاقتلني به ولا تعذبني؛ فقتل ثاني جمادى الآخرة. فلما سمع الخليفة المسترشد بالله ذلك عزل أخاه نظام الدين أحمد من وزارته، وأعاد جلال الدين أبا علي بن صدقة إلى الوزارة، وأقام نظام الدين بالمتعة التي في المدرسة النظامية ببغداد.

وأما العزيز المستوفي فإنه لم تطل أيامه حتى قتل، على ما نذكره، جزاء لستغيه في قتل الوزير.

ذكر ظفر السلطان محمود بالكُرْج

في هذه السنة اشتدت نكاية الكُرْج في بلد الإسلام، وعظم الأمر على الناس، لا سيما أهل دَرِينْد ثيروان، فسار منهم جماعة كثيرة من أعيانهم إلى السلطان، وشكوا إليه ما يلقون منهم، وأعلموه بما هم عليه من الضعف والعجز عن حفظ بلادهم، فسار إليهم والكُرْج قد وصلوا إلى شَمَاخي، فسنزل السلطان في بستان هناك، وتقدم الكُرْج إليه، فخافهم العسكر خوفاً شديداً.

وأشار الوزير شمس الملك عثمان بن نظام الملك على السلطان بالعود [من] هناك، فلما سمع أهل ثيروان بذلك قصدوا السلطان وقالوا له: نحن نقاتل ما دمت عندنا، وإن تأخرت عنا ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا؛ فقبل قولهم، وأقام بمكانه.

وبات العسكر على وجل عظيم، وهم بنية المصاف، فأتاهم الله بفرج من (٦١٦/١٠) عنده، وألقى بين الكُرْج وقبجاق اختلافاً وعداوة، فاقتتلوا تلك الليلة، ورحلوا شبه المنهزمين، وكفى الله المؤمنين القتال، وأقام السلطان بشيروان مدة، ثم عاد إلى همدان فوصلها في جمادى الآخرة.

ذكر الحرب بين المغاربة وعسكر مصر

في هذه السنة وصل جمع كثير من لوائة من الغرب إلى ديار مصر، فافسدوا فيها ونهبوها، وعملوا أعمالاً شنيعة، فجمع المأمون بن البطائحي، الذي وزر بمصر بعد الأفضل، عسكر مصر، وسار

فلما صعد الفرنج إلى مراكبهم أقاموا بها ثمانية أيام لا يقدرון على النزول (٦١٣/١٠) إلى الأرض، فلما أيسوا من خلاص أصحابهم الذين في الديماس ساروا والمسلمون يكثرون عليهم ويصيحون بهم، وأقامت عساكر المسلمين على حصن الديماس في أمم لا يحصون كثرة، فحاصروه، فلم يمكنهم فتحه لحصانته وقوته، فلما عُد الماء على من به من الفرنج، وضجروا من مواصلة القتال ليلاً ونهاراً، فتحوا باب الحصن وخرجوا، فقتلوا عن آخرهم، وذلك يوم الأربعاء منتصف جمادى الآخرة من السنة، وكانت مدة إقامتهم في الحصن ستة عشر يوماً.

ولما رجع الفرنج مقهورين أرسل الأمير الحسن البُشَري إلى سائر البلاد، وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا، تركنا ذلك خوف التطويل.

ذكر استيلاء الفرنج على خَرْبِرت وأخذها منهم

في هذه السنة، في ربيع الأول، استولى الفرنج على خَرْبِرت من بلاد ديار بكر.

وسبب ذلك: أن بلك بن بهرام بن أرشق كان صاحب خَرْبِرت، فحصر قلعة كركر، وهي تقارب خَرْبِرت، فسمع الفرنج بالشام الخبر، فسار بغدوين ملك الفرنج في جموعه إليه ليرحله عنها، خوفاً أن يقوى بملكها، فلما سمع بلك بقربه منه رحل إليه، والتقى في صفر، واقتلا، فانهزم الفرنج، وأسر ملكهم ومعه جماعة من أعيان فرسانهم، وسجنهم بقلعة خَرْبِرت، وكان بالقلعة أيضاً جوسلين، صاحب الرها، وغيره من مقدمي الفرنج كان قد أسرهم سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، وسار بلك عن خَرْبِرت إلى حران في ربيع الأول فملكها، فأعمل الفرنج الحيلة باستمالة بعض الجند، فظهروا وملكوا القلعة. (٦١٤/١٠)

فأما الملك بغدوين فإنه اتخذ الليل جملاً ومضى إلى بلاده، واتصل الخبر ببلك صاحبها، فعاد في عساكره إليها وحصرها، وضيق على من بالقلعة، واستعادها من الفرنج، وجعل فيها من الجند من يحفظها، وعاد عنها.

ذكر قتل وزير السلطان وعُود ابن صدقة إلى وزارة الخليفة

في هذه السنة قبض السلطان محمود على وزيره شمس الملك عثمان بن نظام الملك وقتله.

وسبب ذلك: أنه لما أشار على السلطان بالعود عن حرب الكُرْج، وخالفه، وكانت الخيرة في مخالفته، تغير عليه، وذكره أعداؤه بالسوء، ونهبوا على تهوّه، وقلة تحصيله ومعرفته بمصالح الدولة، ففسد رأي السلطان فيه.

ثم إن الشهاب أبا المحاسن، وزير السلطان سنجر، كان قد

وفيها سار الأمير محمود بن قراجه، صاحب حماة، إلى حصن أفاعية، فهجم على الرّيش بغتة، فأصابه سهم من القلعة في يده، فاشتد ألمه، فعاد إلى حماة، وقلع الرّج من يده، ثم عملت عليه، فمات منه، واستراح أهل عمله من ظلمه وجوره؛ فلما سمع طغتكين، صاحب دمشق، الخبر سبر إلى حماة عسكرياً، فلملكها وصارت في جملة بلاده، ورتب فيها والياً وعسكرياً لحمايتها. (٦١٩/١٠)

سنة ثمانى عشرة وخمسمائة

ذكر قتل بلك بن بهرام بن أرتق وملك تمراتاش حلب

في هذه السنة، في صفر، قبض بلك بن بهرام بن أرتق، صاحب حلب، على الأمير حسان البلبيكي، صاحب منبج، وسار إليها فحصرها، فملك المدينة، وحصر القلعة، فامتنت عليه، فسار الفرنج إليه ليرحلوه عنها لئلا يقوى بأخذها، فلما قابروه ترك على القلعة من يحصرها، وسار في باقي عسكريه إلى الفرنج، فلقبهم وقاتلهم، فكسرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وعاد إلى منبج فحصرها، فبينما هو يقاتل من بها أتاه سهم فقتله، لا يدري من رماه، واضطرب عسكريه وتفرقوا، وخلص حسان من الحبس، فكان حسان الدين تمراتاش بن إيلغازي بن أرتق مع ابن عمه بلك، فحمله مقتولاً إلى ظاهر حلب، وتسلمها في العشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وزال الحصار عن قلعة منبج، وعاد إليها صاحبها حسان، واستقر تمراتاش بحلب واستولى عليها.

ثم إنه جعل فيها نائباً له يثق به، ورتب عنده ما يحتاج إليه من جند وغيرهم وعاد إلى ماردين، لأنه رأى الشام كثيرة الحرب مع الفرنج، وكان رجلاً يحب اللذة والرّفاقة، فلما عاد إلى ماردين أخذت حلب منه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى. (٦٢٠/١٠)

ذكر ملك الفرنج مدينة صور بالشام

كانت مدينة صور للخلفاء العلويين بمصر، ولم تزل كذلك إلى سنة ست وخمسمائة، فكان بها وال من جهة الأفضل أمير الجيوش، وزير الأمر بأحكام الله العلوي، يلقب هو الملك، وكان الفرنج قد حصرها، وضيقوا عليها، ونهبوا بلدتها غير مرة، فلما كانت سنة ست تجهز ملك الفرنج، وجمع عسكريه ليسير إلى صور، فخافهم أهل صور، فأرسلوا إلى أنابك طغتكين، صاحب دمشق، يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم، ويكون البلد له، وقالوا له: إن أرسلت إلينا والياً، وعسكرياً، ولأ سلطنا البلد إلى الفرنج؛ فسبر إليهم عسكرياً وجعل عندهم والياً اسمه مسعود، وكان شطهما شطها، عارفاً بالحرب ومكائدها، وأمه بعسكر، وسير إليهم ميرة ومالاً فزكهم.

إليهم فقاتلهم فهزمهم، وأسر منهم وقتل خلقاً كثيراً، وقرر عليهم خراجاً معلوماً كل سنة يقومون به، وعادوا إلى بلادهم، وعاد المأمون إلى مصر مظفراً منصوراً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، أمر المسترشد بالله ببناء سور بغداد، وأن يجي ما يخرج عليه من البلد، فشق ذلك على الناس، وجمع من ذلك مال كثير، فلما علم الخليفة كراهة الناس لذلك أمر بإعادة ما أخذ منهم، فسروا بذلك، وكثر الدعاء له.

وقيل: إن الوزير أحمد بن نظام الملك بذل من ماله خمسة عشر ألف دينار، وقال: تنقسط الباقي على أرباب الدولة. (٦١٧/١٠)

وكان أهل بغداد يعملون بأنفسهم فيه، وكانوا يتناوبون العمل: يعمل أهل كل محلة منفردين بالطوبى والزّمور، وزينوا البلد، وعملوا فيه القباب.

وفيها عزل نقيب العلويين، وهُدمت دار علي بن أفلح، وكان الخليفة يكرمه، فظهر أنهما عين لئيس يطالعانه بالأخبار، وجعل الخليفة نقابة العلويين إلى علي بن طراد، نقيب العباسيين.

وفيها جمع الأمير بلك عسكريه وسار إلى عزاة بالشام، فلقبه الفرنج، فاقتلوا، فانهزم الفرنج وقتل منهم وأسر بشر كثير من مقدميهم ورجالتهم.

وفيها كان في أكثر البلاد غلاء شديد، وكان أكثره بالعراق، فبلغ ثمن كارة الدقيق الخشكار ستة دنائير وعشرة قراريط، وتبع ذلك موت كثير، وأمراض زائدة هلك فيها كثير من الناس.

وفيها، في صفر، توفي قاسم بن أبي هاشم العلوي الحسني أمير مكة، وولي بعده ابنه أبو فليحة، وكان أعدل منه، وأحسن السيرة، فأسقط المكوس، وأحسن إلى الناس.

وفيها توفي عبد الله بن الحسن بن أحمد بن الحسن أبو نعيم بن أبي علي الحدّاد الأصباني، ومولده سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وهو من أعيان المحدثين، سافر الكثير في طلب الحديث.

وفيها سار طغتكين، صاحب دمشق، إلى حمص، فهجم [على] المدينة ونهبها وأحرق كثيراً منها وحصرها، وصاحبها قرجان بالقلعة، فاستمد صاحبها طغان أرسلان، فسار إليه في جميع كثير، فعاد طغتكين إلى دمشق.

وفيها لقي أسطول مصر أسطول البنادقة من الفرنج، فاقتلوا، وكان الظفر للبنادقة، وأخذ من أسطول مصر عدة قطع، وعاد الباقي سالمًا. (٦١٨/١٠)

وفارقه أهله، وتفرقوا في البلاد، وحملوا ما أطاقوا، وتركوا ما عجزوا عنه، ولم يعرض الفرنج لأحد منهم، ولم يبق إلا الضعيف عجز عن الحركة.

وملك الفرنج البلد في الثالث والعشرين من جمادى الأولى من السنة، وكان فتحه وهنا عظيماً من المسلمين، فإنه من أحصن البلاد وأمنعها، فالله يعيده إلى الإسلام، ويقر أعين المسلمين بفتحها، بمحمد وآله.

ذكر عزل البرسقي عن شحنة العراق وولاية يرنقش الزكوي في هذه السنة عزّل البرسقي عن شحنة العراق، ووليها سعد الدولة يرنقش الزكوي.

وسبب ذلك: أن البرسقي نفر عنه المسترشد بالله، فأرسل إلى السلطان محمود يلتمس منه أن يعزل البرسقي عن العراق ويعيده إلى الموصل، فأجابهُ السلطان إلى ذلك، وأرسل إلى البرسقي يأمره بالعود إلى الموصل، والاشتغال بجهاد الفرنج، فلما علم البرسقي الخير شرع في جباية الأموال، ووصل نائب يرنقش، فسلم إليه البرسقي الأمر، وأرسل السلطان ولداً له صغيراً مع أمه إلى البرسقي ليكون عنده، فلما وصل الصغير إلى العراق خرجت العساكر والمواكب إلى لقائه، وحملت له الإقامة، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وتسلمه البرسقي، وسار إلى الموصل، وهو ووالدته معه.

ولما سار البرسقي إلى الموصل كان عماد الدين زنكي بن آقسنقر بالبصرة قد سيره البرسقي إليها ليحميها، فظهر من حمايته لها ما عجب منه الناس، ولم يزل (٦٢٣/١٠) يقصد العرب ويقاتلهم في جليلهم، حتى أبعدها إلى البر، فأرسل إليه البرسقي يأمره باللاحاق به، فقال لأصحابه: قد هجرنا ممّا نحن فيه: كل يوم للموصل أمير جديد، ونريد نخدعه، وقد رأيت أن أسير إلى السلطان فأكون معه؛ فأشاروا عليه بذلك، فسار إليه، فقدم عليه بأصبيان فأكرمه، وأقطع البصرة وأعادها إليها.

ذكر ملك البرسقي مدينة حلب

في هذه السنة، في ذي الحجة، ملك آقسنقر البرسقي مدينة حلب وقلمتها.

وسبب ذلك: أن الفرنج لما ملكوا مدينة صور، على ما ذكرناه، طمعوا، وقويت نفوسهم، وتيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام، واستكثروا من الجموع، ثم وصل إليهم ديبس بن صدقة، صاحب الحيلة، فاطمعهم طمعاً ثانياً، لا سيما في حلب، وقال لهم: إن أهلها شيعة، وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ. وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة، وقال: إني أكون هاهنا

وطابت نفوس أهل البلد، ولم تُغيّر الخطبة للأمر، صاحب مصر، ولا السكة، وكتب إلى الأفضل بمصر يعرفه صورة الحال، ويقول: متى وصل إليهم من مصر من يتولاهما، ويذب عنها، سلمتها إليه، ويطلب أن الأسطول لا يقطع عنها بالرجال والقوة. فشكره الأفضل على ذلك، وأثنى عليه، وصوب رأيه فيما فعله، وجّهز أسطولاً، وسيره إلى صور، فاستقامت أحوال أهلها. ولم يزل كذلك إلى سنة ست عشرة، بعد قتل الأفضل، فسُير إليها أسطول، على جاري العادة، وأمروا المقدّم على الأسطول أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود الوالي بصور من قبل طغتكين، ويقبض عليه، ويتسلم البلد منه.

وكان السبب في ذلك: أن أهل صور أكثروا الشكوى منه إلى الأمر بأحكام (٦٢١/١٠) الله، صاحب مصر، بما يعتمد منه من مخالفتهم، والإضرار بهم، ففعلوا ذلك، وسار الأسطول فارسي عند صور، فخرج مسعود إليه للسلام على المقدّم عليه، فلما صعد إلى المركب الذي فيه المقدّم اعتقله، ونزل البلد، واستولى عليه، وعاد الأسطول إلى مصر، وفيه الأمير مسعود، فأكرم وأحسن إليه، وأعيد إلى دمشق.

وأما الوالي من قتل المصريين فإنه طيّب قلوب الناس، وراسل طغتكين يخدمه بالدعاء والاعتصاف، وأن سبب ما فعل هو شكوى أهل صور من مسعود، فأحسن طغتكين الجواب، وبذل من نفسه المساعدة.

ولما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها، وحدثوا نفوسهم بملكها، وشرعوا في الجمع والثأب للنزول عليها وحصرها، فسمع الوالي بها للمصريين الخير، فعلم أنه لا قوة له، ولا طاقة على دفع الفرنج عنها، لقلّة من بها من الجند والميرة، فأرسل إلى الأمر بذلك، فرأى أن يرّد ولاية صور إلى طغتكين، صاحب دمشق، فأرسل إليه بذلك، فملك صور، ورتب بها من الجند وغيرهم ما ظنّ فيه كفاية.

وسار الفرنج إليهم ونازلوهم في ربيع الأوّل من هذه السنة، وضيقوا عليهم، ولازموا القتال، فقلت الأقوات، وبسّم من بها القتال، وضعفت نفوسهم، وسار طغتكين إلى بانياس ليقرب منهم، ويذبّ عن البلد، ولعلّ الفرنج إذا رأوا قربهم منهم رحلوا، فلم يتحركوا، ولزموا الحصار، فأرسل طغتكين إلى مصر يستجلبهم، فلم ينجدوه، وتمادت الأيام، وأشرف أهلها على الهلاك، فراسل حينئذ طغتكين، صاحب دمشق، وقرّر الأمر على أن يسلم المدينة إليهم، ويمكنوا من بها من الجند والرعيّة من الخروج (٦٢٢/١٠) منها بما يقدرّون عليه من أموالهم ورجالهم وغيرها، فاستقرت القاعة على ذلك، وفتحت أبواب البلد، وملكه الفرنج،

الدين إيلغازي.

وفيها ثار أهل آمد بمن فيها من الإسماعيلية، وكانوا قد كثروا، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل، فضعف أمرهم بها بعد هذه الواقعة.

وفيها، في صفر، توفي محمد بن مرزوق بن عبد الرزق الزعفراني، وهو من أصحاب الخطيب البغدادي.

وفيها توفي أحمد بن علي بن برهان أبو الفتح، الفقيه المعروف بابن الحماصي لأن أباه كان حماصياً، وكان حنبلياً، تفقه على ابن عقيل، ثم صار شافعيّاً، وتفقه على الغزالي والشافعي. (١٠/٢٢٦)

سنة تسع عشرة وخمسمائة

ذكر وصول الملك طغرل ودينس ابن صدقة إلى العراق وعودهما

عنه

قد ذكرنا مسير دینس بن صدقة إلى الملك طغرل من الشام، فلما وصل إليه لقيه، وأكرمه، وأحسن إليه، وجعله من أعيان خواصه وأمرائه، فحسن له دینس قصد العراق، وهون أمره عليه، وضمن له أنه يملكه، فسار معه إلى العراق، فوصلوا دقوقاً في عساكر كثيرة. فكتب مجاهد الدين بهروز من تكريت يخبر الخليفة خبرهما، فتجهز للمسير ومُنعمهما، وأمر يرتقى الزكري، شيخنة العراق، أن يكون مستعداً للحرب، وجمع العساكر، والأمرء البكجية، وغيرهم، فبلغت هذه العساكر اثنتي عشر ألفاً سوى الرجالة، وأهل بغداد، وفرق السلاح.

وبرز خامس صفر وبين يدي أرباب الدولة رجالة، وخيرج من باب النصر، وكان قد أمر بفتح تلك الأيام، وسميها باب النصر، ونزل صحراء الشامية، ونزل يرتقى عند السنجي، ثم سار فنزل الخالص تاسع صفر.

فلما سمع طغرل بخروج الخليفة عدل إلى طريق خراسان، وتفرق أصحابه في النهب والفساد، ونزل هو رباط جلولاء، فسار إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في عسكر كثير، فنزل بالأسكرة، وتوجه طغرل ودينس إلى الهارونية وسار الخليفة فنزل بالأسكرة هو والوزير، واستقر الأمر بين (١٠/٢٢٧) دینس وطغرل أن يسيرا حتى يعبرا ديبالي وتامراً، ويقطعا جسر النهران، ويقسم دینس ليحفظ المعابر، ويتقدم طغرل إلى بغداد فيملكها ويتنهبها، فسارا على هذه القاعدة، فعبرا تامراً، ونزل طغرل بينه وبين ديبالي.

وسار دینس على أن يلحقه طغرل، فقدر الله تعالى أن الملك طغرل لحقه حتى شديدة، ونزل عليهم من المطر ما لم يشاهدوا مثله، وزادت المياه وجاءت السيول والخليفة بالأسكرة، وسار

نائباً عنكم ومطعياً لكم. فساروا معه إليها وحصروها، وقتلوا قتلاً شديداً، ووطئوا نفوسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يمارقونها حتى يملكوها، وينوا البيوت لأجل البرد والحر.

فلما رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم، وخافوا الهلاك، وظهر لهم من صاحبهم تمرناش الوهن والعجز، وقلت الأقوات عندهم، فلما رأوا ما دُفِعوا إليه من هذه الأسباب، عملوا الرأي في طريق يتخلصون به، فأروا أنه ليس لهم غير البرسقي، صاحب الموصل، فأرسلوا إليه يستجدونه ويسألونه (١٠/٢٢٤) المجيء إليهم ليسلموا البلد إليه، فجمع عساكره وقصدهم، وأرسل إلى من بالبلد، وهو في الطريق، يقول: إنني لا أقدر على الوصول إليكم، والفرج يقاتلونكم، إلا إذا سلمتم القلعة إلى نوأي، وصار أصحابي فيها، فإني لا أدري ما يقدره الله تعالى إذا أنا لقيت الفرنج، فإن انهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتى أحمي أنا وعسكري بها، لم يبق منا أحد، وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها.

فأجابوه إلى ذلك، وسلموا القلعة إلى نوأيه، فلما استقروا فيها، واستولوا عليها، سار في العساكر التي معه، فلما أشرف عليها رحل الفرنج عنها، وهو يراهم، فأراد من في مقدمة عسكره أن يحمل عليهم، فمنعهم هو بنفسه، وقال: قد كفيينا شرهم، وحفظنا بلدنا منهم، والمصلحة تركهم حتى يتقرر أمر حلب ونصلح حالها، وبكثر ذخائرها، ثم حينئذ نقصدهم ونقاتلهم، فلما رحل الفرنج خرج أهل حلب ولقوه، وفرحوا به، وأقام عندهم حتى أصلح الأمور وقررها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انقطعت الأمطار في العراق، والموصل، وديار الجزيرة، والشام، وديار بكر، وكثير من البلاد، فقلت الأقوات، وغلت الأسعار في جميع البلاد، ودام إلى سنة تسع عشرة [وخمسمائة].

وفيها وصل منصور بن صدقة أئجه دینس إلى بغداد تحت الاستظهار، فمرض بها، فأحضر الخليفة الأطباء وأمرهم بمعالجته، وأحضره عنده، وجعل في حجره، وأدخل أصحابه إليه. (١٠/٢٢٥)

وفيها سار دینس من الشام، بعبد بن حليبه وقصد الملك طغرل، فأغراه بالخليفة، وأطمعه في العراق، وكان ما ذكره سنة تسع عشرة إن شاء الله تعالى.

وفيها مات الحسن بن الصباح، مقدم الإسماعيلية، صاحب الكوت، وقد تقدم من أخباره ما يُعلم به محله من الشجاعة والرأي والتجربة.

وفيها أيضاً توفي داود ملك الأبخاز، وشمس الدولة بن نجم

وكان عدد القتلى أكثر من ألف قتيل من المسلمين، وعاد منهزماً إلى حلب، (٦٢٩/١٠) فخلف بها ابنه مسعوداً، وعبر الفرات إلى الموصل ليجتمع العساكر ويعاود القتال، وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر قتل المأمون بن البطاحي

في هذه السنة، في رمضان، قبض الأمر بأحكام الله العلوي، صاحب مصر، على وزيره أبي عبد الله بن البطاحي، الملقب بالمأمون، وصلبه وإخوته.

وكان ابتداء أمره أن أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلف شيئاً، فتزوجت أمه وتركته فقيراً، فاتصل بإنسان يتعلم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الحماليين إلى دار الأفضل أمير الجيوش، مرة بعد أخرى، فراه الأفضل خفيفاً رشيقاً، حسن الحركة، حلو الكلام، فأعجبه، فسأل عنه، فقيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفرائشين، ثم تقدم عنده، وكبرت منزلته، وعلت حالته، حتى صار وزيراً.

وكان كريماً، واسع الصدر، قتالاً، سفكاً للدماء، وكان شديد التحرز، كثير التطلع إلى أحوال الناس من العامة والخاصة من سائر البلاد: مصر، والشام، والعراق، وكثر الغمازون في أيامه.

وأما سبب قتله فإنه كان قد أرسل الأمير جعفر أخا الأمر ليقتل الأمر ويجعله خليفة، وتقررت القاعدة بينهما على ذلك، فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي أسامة، وكان خصيصاً بالأمر، قريباً منه، وقد ناله من الوزير أذى واطّراح، (٦٣٠/١٠) فحضر عند الأمر وأعلمه الحال، فقبض عليه وصلبه؛ وهذا جزء من قبال الإحسان بالإساءة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي شمس الدولة سالم بن مالك، صاحب قلعة جعبر، وتعرف قديماً بقلعة دوس.

وفيها قتل القاضي أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي بهمدان، قتله الباطنية، وكان قد مضى إلى خراسان في رسالة الخليفة إلى السلطان سنجر، فعاد قُتِل، وكان ذا مروءة غزيرة، وتقدم كثير في الدولة السلجوقية.

وفي هذه السنة توفي هلال بن عبد الرحمن بن شريح بن عمر بن أحمد، وهو من ولد بلال بن رباح، مؤذن رسول الله ﷺ وكنيته أبو سعد، طاف البلاد وسمع وقرأ القرآن، وكان موته بسمرة فند. (٦٣١/١٠)

دُيِّس في مائتي فارس، وقصد معرة النهران وهو تبغان سهران، وقد لقي هو وأصحابه من المطر والبلل ما آذاهم، وليس معهم ما يأكلون، ظناً منهم أن طغرل وأصحابه يلحقونهم، فتأخروا لما ذكرناه، فترلوا جيعاً قد نالهم البرد، وإذا قد طلع عليهم ثلاثون جملاً تحمل الثياب المخيطة، والعمائم، والأقنية، والقلانس، وغيرها من الملبوس، وتحمل أيضاً أنواع الأطعمة المصنوعة، قد حُمِلت من بغداد إلى الخليفة، فأخذ دُيِّس الجميع، فلبسوا الثياب الجُدد، ونزعوا الثياب النديّة، وأكلوا الطعام، وناموا في الشمس ممّا نالهم تلك الليلة.

وبلغ الخبر أهل بغداد، فلبسوا السلاح، ويقوا يحرسون الليل والنهار، ووصل الخبر إلى الخليفة والعسكر الذين معه أن دُيِّساً قد ملك بغداد، فرحل من الدُسكر، ووقعت الهزيمة على العسكر إلى النهران، وتركوا أثقالهم ملقاة بالطريق لا يلتفت إليها أحد، ولولا أن الله تعالى لطف بهم بحمي الملك طغرل وتأخره لكان قد هلك العسكر، والخليفة أيضاً، وأخذوا، وكان السواقي مملوءة بالوحد والماء من المسيل، فتمزقوا، ولو لحقهم مائة فارس لهلكوا.

ووصلت رايات الخليفة ودُيِّس وأصحابه نيام، وتقدم الخليفة، (٦٢٨/١٠) وأشراف على دُبالي، ودُيِّس نازل غرب النهران، والجسر محدود شرق النهران، فلما أبصر ديبس شمس الخليفة قبل الأرض بين يدي الخليفة وقال: أنا العبد المطرود، فليعف أمير المؤمنين عن عبده، فرق الخليفة له، وهم بصلحه، حتى وصل الوزير ابن صدقة فتناه عن رأيه، وركب دُيِّس، ووقف بإزاء عسكر يرتقش الزكوي يحادتهم ويتماجن معهم، ثم أمر الوزير الرجالة فعبروا الجسر آخر النهار، فسار حينئذ دُيِّس عانداً إلى الملك طغرل، وسير الخليفة عسكراً مع الوزير في أثره، وعاد إلى بغداد فدخلها، وكانت غيبته خمسة وعشرين يوماً.

ثم إن الملك طغرل ودُيِّس عادا وسارا إلى السلطان سنجر، فاجتازا بهمدان، فقسّطا على أهلها مالا كثيراً، وأخذاه وغابا في تلك الأعمال، فبلغ خبرهم السلطان محموداً، فجدّ السير إليهم، فانهزموا من بين يديه، وتبعتهم العساكر، فدخلوا خراسان إلى السلطان سنجر، وشكروا إليه من الخليفة ويرتقش الزكوي.

ذكر فتح البرسقي كفرطاب وانهزاه من الفرنج

في هذه السنة جمع البرسقي عساكره وسار إلى الشام، وقصد كفرطاب وحصرها، فملكها من الفرنج، وسار إلى قلعة عزاز، وهي من أعمال حلب من جهة الشمال، وصاحبها جوسلين، فحصرها، فاجتمعت الفرنج، فارسها وراجلها، وقصدوه ليرحلوه عنها، فلحقهم وضرب معهم مصافاً، واقتلوا قتلاً شديداً صبروا كلهم فيه، فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر كثير.

سنة عشرين وخمسمائة

ذكر حرب الفرنج والمسلمين بالأندلس

في هذه السنة عظم شأن ابن رُدَيمِر الفرنجي بالأندلس، واستطاع على المسلمين، فخرج في عساكر كثيرة من الفرنج، وجاس في بلاد الإسلام، وخاضها، حتى وصل إلى قريب قُرْطُبَة، وأكثر النهب والسبي والقتل، فاجتمع المسلمون في جيش عظيم زائد الحد في الكثرة، وقصدوه، فلم يكن له بهم طاقة، فتحصّن منهم في حصن منيع له اسمه أرنيسول، فحصروه، وكبسهم ليلاً، فانهزم المسلمون، وكثر القتل فيهم، وعاد إلى بلاده.

ذكر قصد بلاد الإسماعيلية بخراسان

في هذه السنة أمر الوزير المختص أبو نصر أحمد بن الفضل، وزير السلطان سنجر، بغزو الباطنية، وقتلهم أين كانوا، وحيثما ظفرو بهم، ونهب أموالهم، وسبي حريمهم، وجهاز جيشاً إلى طُرَيْثُت، وهي لهم، وجيشاً إلى بَيْهَق من أعمال نيسابور، وكان في هذه الأعمال قرية مخصوصة بهم اسمها طرز، ومقدمهم بها إنسان اسمه الحسن بن سمين. (٦٣٢/١٠)

وسير إلى كل طرف من أعمالهم جميعاً من الجند، ووصاهم أن يقتلوا من لقوه منهم، فقصد كل طائفة إلى الجهة التي سِيرَتْ إليها، فأما القرية التي بأعمال بَيْهَق فقصدوا العسكر، فقتلوا كل من بها، وهرب مقدمهم، وصعد منارة المسجد وألقى نفسه منها فهلك؛ وكذلك العسكر المنفذ إلى طُرَيْثُت قتلوا من أهلها فأكثروا، وغنموا من أموالهم وعادوا.

ذكر ملك الإسماعيلية قلعة باتياس

في هذه السنة عظم أمر الإسماعيلية بالشام، وقويت شوكتهم، وملكوا باتياس في ذي القعدة منها.

وسبب ذلك أن بهرام ابن اخت الأسد ابادي، لما قُتل خاله ببغداد، كما ذكرناه، هرب إلى الشام، وصار داعي الإسماعيلية فيه؛ وكان يتردد في البلاد، ويدعو أوباش الناس وطغاهم إلى ملعبه، فاستجاب له منهم من لا عقل له، فكثرت جمعه، إلا أنه يخفي شخصه فلا يعرف، وأقام بحلب مدةً، ونفر إلى إيلغازي صاحبه.

وأراد إيلغازي أن يعتضد به لانتفاء الناس شره وشر أصحابه، لأنهم كانوا يقتلون كل من خالفهم، وقصد من يمسك بهم، وأشار إيلغازي على طغتكين، صاحب دمشق، بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه، وأخذته إليه، فأظهر حيث شخسه، وأعلن دعوته، فكثرت أتباعه من كل من يريد الشر والفساد، وأعانه الوزير أبو طاهر بن سعد المرغيناني قصداً للاعتضاد به على ما يريد، فعظم

شره واستفحل أمره، وصار أتباعه أضعاف ما كانوا، فلولا (٦٣٣/١٠) أن عامة دمشق يغلب عليهم مذاهب أهل السنة، وأنهم يشدون عليه فيما ذهب إليه لملك البلد.

ثم إن بهرام رأى من أهل دمشق فظافة وغلظة عليه، فخاف عاديته، فطلب من طغتكين حصناً يأوي إليه هو ومن اتبعه، فأشار الوزير بتسليم قلعة باتياس إليه، فسلمت إليه، فلما سار إليها اجتمع إليه أصحابه من كل ناحية، فعظم حيث شخه، وجلست المحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، لا سيما أهل السنة والسر والسلامة، إلا أنهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد، خوفاً من سلطانهم أولاً، ومن شر الإسماعيلية ثانياً، فلم يقدم أحد على إنكار هذه الحال، فانتظروا بهم الدوائر.

ذكر قتل الرسقي وملك ابنه عز الدين مسعود

في هذه السنة، ثامن ذي القعدة، قُتل قسيم الدولة أفسنقر البرسقي، صاحب الموصل، بمدينة الموصل، قتله الباطنية يوم جمعة بالجامع، وكان يصلي الجمعة مع العامة، وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثارت به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما آذاه، فقصر رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام، فقال: لا أترك الجمعة لشيء أبداً، فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأتاه المصحف يقرأ فيه، فأول ما رأى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فركب إلى الجامع على عادته، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة (٦٣٤/١٠) عشر نفساً عدة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فخرج هو بيده منهم ثلاثة، وقُتل رحمه الله.

وكان مملوكاً تركياً، خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً.

حكى لي والدي، رحمه الله، عن بعض من كان يخدمه قال: كنتُ فراعشاً معه، فكان يصلي كل ليلة كثيراً، وكان يتوضأ هو بنفسه، ولا يستعين بأحد، ولقد رأيته في بعض ليالي الشتاء بالموصل، وقد قام من فراشه، وعليه فرجة صغيرة وبر، ويده إبريق، فمشى نحو دجلة ليأخذ ماء، فمتعني البرد من القيام، ثم إنني خففته، فممت إلى بين يديه لأخذ الإبريق منه، فمتعني وقال: يا مسكين! ارجع إلى مكانك، فإنه برد؛ فاجتهدتُ لأخذ الإبريق، فلم يعطيني، وردني إلى مكاني ثم توضأ وقام يصلي.

ولما قُتل كان ابنه عز الدين مسعود بحلب يحفظها من الفرنج، فأرسل إليه أصحاب أبيه بالخبر، فسار إلى الموصل ودخلها أول ذي الحجة، وأحسن إلى أصحاب أبيه بها، وأقر وزيره أبا غالب بن

العود إلى داره، فأعاد الجواب أنه لا بد من عودك هذه الدفعة، فإن الناس هلكى بشدة الغلاء، وخراب البلاد، وأنه لا يرى في دينه أن يزداد ما بهم، وهو يشاهدهم، فإن عاد السلطان، وإلا رحل هو عن العراق لئلا يشاهد ما يلقى الناس بمجيء العساكر.

فغضب السلطان لقوله، ورحل نحو بغداد، وأقام الخليفة بالجانب الغربي، فلما حضر عيد الأضحى خطب الناس، وصلى بهم، فبكى الناس لخطبته وأرسل عفيفاً الخادم، وهو من خواجه، في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان، فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكي بن أقتغر، وكان له حيتن البصرة، وقد فارق البرسقي، واتصل بالسلطان، فأقطعه البصرة.

فلما وصل عفيف إلى واسط سار إليه عماد الدين، فنزل بالجانب الشرقي، وكان عفيف بالجانب الغربي، فأرسل إليه عماد الدين يحذره القتال، ويأمره بالانتزاع عنها، فأبى ولم يفعل، فعبر إليه عماد الدين، واقتلوا، فانهزم (٦٣٧/١٠) عسكر عفيف، وقُتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر مثلهم، وتغافل عن عفيف حتى نجا لمودة كانت بينهما.

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعها إليه، وسد أبواب دار الخلافة سوى باب التوي، وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام فيه لحفظ الدار، ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه.

ووصل السلطان إلى بغداد في العشرين من ذي الحجة، ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره إلى بغداد، ونزلوا في دور الناس، فشكا الناس ذلك إلى السلطان، فأمر بإخراجهم، وبقي فيها من له دار، وبقي السلطان يرسل الخليفة بالعود، ويطلب الصلح، وهو يمتنع.

وكان يجري بين العسكرين مناوشة، والعامّة من الجانب الغربي يتبون السلطان أفحش سب، ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة، ونهبوا التاج، وحجر الخليفة، أول المحرم سنة إحدى وعشرين [وخمسمائة]، وضج أهل بغداد من ذلك، فاجتمعوا ونادوا الغزاة، فأقبلوا من كل ناحية، ولما رآهم الخليفة خرج من السُرادق والشمسة على رأسه، والوزير بين يديه، وأمر بضرب الكوسات والبوقات، ونادى بأعلى صوته: يا آل هاشم! وأمر بتقديم السفن، ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة، وكان له في الدار ألف رجل مختفين في السرايد، فظهروا، وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب، فأسر منهم جماعة من الأمراء، ونهب العامة دار وزير السلطان، ودور جماعة من الأمراء، ودار عزيز الدين المستوفي، ودار الحكيم أوحده الزمان الطيب، وقُتل منهم خلق كثير في الدروب.

عبد الخالق بن عبد الرزاق على وزارته، وأطاعه الأمراء والأجناد، وانحدر إلى خدمة السلطان محمود، فأحسن إليه وأعاد، ولم يختلف عليه أحد من أهل بلاد أبيه.

ووقع البحث عن حال الباطنية، والاستقصاء عن أخبارهم، فقيل إنهم كانوا يجلسون إلى إسكاف بدرج إيليا، فأحضر ووعد الإحسان إن أقر، فلم يقر، فهُد بالقتل، فقال: إنهم وردوا من مئين لقتله، فلم يتمكنوا منه إلى (٦٣٥/١٠) لأن قُطعت يده ورجلاه وذكره، ووجم بالحجارة فمات.

ومن العجب أن صاحب أنطاكية أرسل إلى عز الدين بن البرسقي يخبره بقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر، وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية.

ولما استقر عز الدين في الولاية قبض على الأمير بابكر بن ميكائيل، وهو من أكابر الأمراء، وطلب منه أن يسلم ابن أخيه قلعة إربل إلى الأمير فضل وأبي علي، ابني أبي الهيجاء، وكان ابن أخيه قد أخذها منه سنة سبع عشرة [وخمسمائة]، فراسل ابن أخيه، فسلم إربل إلى المذكورين.

ذكر الاختلاف الواقع بين المسترشد بالله والسلطان محمود

كان قد جرى بين برنقش الزكوي، شيخنة بغداد، وبين نواب الخليفة المسترشد بالله نفرة تهدد الخليفة فيها، فخافه على نفسه، فسار عن بغداد إلى السلطان محمود في رجب من هذه السنة، وشكا إليه، وحذره جانب الخليفة، وأعلمه أنه قد قاد العساكر، ولقي الحروب، وقويت نفسه، ومتى لم تعاجله بقصد العراق ودخول بغداد، ازداد قوة وجمعاً، ومنعه عنه، وحيتن يتعنّز عليه ما هو الآن بيده.

فتوجّه السلطان نحو العراق، فأرسل إليه الخليفة يعرفه ما هي البلاد وأهلها عليه من الضعف والوهن، بسبب دئيس، وإفساد عسكره فيها، وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات، لهرب الأكرة عن بلادهم، ويطلب (٦٣٦/١٠) منه أن يتأخر هذه الدفعة إلى أن يصلح حال البلاد ثم يعود إليها، فلا مانع له عنها؛ وبذل له على ذلك مالا كثيراً.

فلما سمع السلطان هذه الرسالة قوي عنده ما قرره الزكوي، وأبى أن يجيب إلى التأخر، وصمّ العزم وسار إليها مجداً، فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحزمه ومن عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربي في ذي القعدة، مظهرًا للغضب والانتزاع عن بغداد إن قصدوا السلطان، فلما خرج من داره بكى الناس جميعهم بكاء عظيماً لم يشاهد مثله، فلما علم السلطان ذلك اشتد عليه، وبلغ منه كل مبلغ، فأرسل يستعطف الخليفة، ويسأله

طغتكين عن فرسه، فظن أصحابه أنه قُتل، فانهزموا وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الفرنج وبقي التركمان لم يقدروا أن يلحقوا بالمسلمين في الهزيمة فتخلفوا، فلما رأوا فرسان الفرنج قد تبعوا المنهزمين وأن معسكرهم ورجالهم ليس له موانع ولا حام حملوا في الرجالة فقتلوه ولم يسلم منهم إلا الشريد، ونهبوا معسكر الفرنج وخيامهم وأموالهم وجميع ما معهم وفي جملة كنيسة وفيها من الذهب والجواهر ما لا يقرم كثرة فنهبوا ذلك جميعه وعادوا إلى دمشق سالعين لم يعدم منهم أحد، ولما رجع الفرنج من أثر المنهزمين ورأوا رجالهم قتل وأموالهم منهوبة تمسوا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه، وكان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة منهما من صاحبتها. (٦٤٠/١٠)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة حصر الفرنج رقة من أرض الشام، وهي بيد المسلمين، وضيوا عليها فملكوها.

وفيها توفي أبو الفتح أحمد بن محمد بن محمد الغزالي، الواعظ، وهو أخو الإمام أبي حامد محمد، وقد ذمه أبو الفرج بن الجوزي بأشياء كثيرة منها: روايته في وعظه الأحاديث التي ليست له بصحيفة، والعجب أنه يقدح فيه بهذا، وتصانيفه هو ووعظه محشو به، مملوء منه، نال الله أن يعيذنا من الوقعة في الناس، ثم يا ليت شعري أما كان للغزالي حسنة تذكر مع ما ذكر من المساوي التي نسبها إليه لئلا ينسب إلى الهوى والغرض؟ (٦٤١/١٠)

سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

ذكر ولاية الشهيد أتابك زنكي شحنة العراق

في هذه السنة، في ربيع الآخر، أسند السلطان محمود شحنة العراق إلى عماد الدين زنكي بن آقسنقر.

وكان سبب ذلك: أن عماد الدين لما أصعد من واسط في التجهل والجمع الذي ذكرناه، وقام في حفظ واسط والبصرة وتلك النواحي القيام الذي عجز غيره عنه، عظم في صدر السلطان وصور أمراته، فلما عزم السلطان على المسير من بغداد نظر فيمن يصلح أن يلي شحنة العراق ويأمن معه من الخليفة، فاعتبر أمره، وأعيان دولته، فلم ير فيهم من يقوم في هذا الأمر مقام عماد الدين، فاستشار في ذلك، فكل أشار به، وقالوا: لا تقدر على رقع هذا الخرق، وإعادة ناموس هذه الولاية، ولا تقوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي، فوافق ما عنده، فأسند إليه الولاية وفوضها [إليه] مضافة إلى ماله من الأقطاع، وسار عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق فكان الأمر كما ظن.

(٦٤٢/١٠)

ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي، ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد، وأمر بحضر الخنادق، فحُفرت بالليل، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان، ووقع الفلاء عند العسكر، واشتد الأمر عليهم، وكان القتال كل (٦٣٨/١٠) يوم عليهم عند أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة، وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان، فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردي، صاحب إربل، وخرج كأنه يريد القتال، فالتحق هو وعسكره بالسلطان.

وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين بواسطة يأمرة أن يحضر هو بنفسه، ومعه المقاتلة في السفن، وعلى الدواب في البر، فجمع كل سفينة في البصرة إلى بغداد، وشحنها بالرجال المقاتلة، وأكثر من السلاح، وأصعد، فلما قارب بغداد أمر كل من معه في السفن وفي البر بلبس السلاح، وإظهار ما عندهم من الجلد والنهضة، فسارت السفن في الماء، والعسكر في البر على شاطئ دجلة قد انتشروا وملؤوا الأرض يرا ويحرقا، فرأى الناس منظراً عجيباً، كبر في أعينهم، وسلا صدورهم، وركب السلطان والعسكر إلى لقائهم، فنظروا إلى ما [لم] يروا مثله، وعظم عماد الدين في أعينهم، وعزم السلطان على قتال بغداد حيثنذ، والجد في ذلك في البر والماء، فلما رأى الإمام المسترشد بالله الأمر على هذه الصورة، وخرج الأمير أبي الهيجاء من عنده، أجاب إلى الصلح، وتردأت الرسل بينهما، فاصطلحا، واعتذر السلطان مما جرى، وكان حليماً يسمع منه بأذنه فلا يعاقب عليه، وعفا عن أهل بغداد جميعهم.

وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد، فلم يفعل، وقال: لا تساوي الدنيا فعل مثل هذا. وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وحمل الخليفة من المال إليه كما استقرت القاعدة عليه، وأهدى له سلاحاً وخيلاً وغير ذلك، فمرض السلطان ببغداد، فأشار عليه الأطباء بمفارقةها، فرحل إلى قنّان، فلما وصلها عرفي. (٦٣٩/١٠)

ذكر مصاف بين طغتكين أتابك والفرنج بالشام

في هذه السنة اجتمعت الفرنج وملوكها وقماصتها وكنودها وساروا إلى نواحي دمشق فنزلوا بمرج الصفر عند قرية يقال لها سقجا بالقرب من دمشق، فعظم الأمر على المسلمين واشتد خوفهم، وكتب طغتكين أتابك صاحبها أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها وجمعهم وكان هو قد سار عن دمشق إلى جهة الفرنج واستخلف بها ابنه تاج الملوك يوزي فكان بها، كما جاءت طائفة أحسن ضيافتهم وسيرهم إلى أبيه، فلما اجتمعوا سار بهم طغتكين إلى الفرنج فالتقوا أواخر ذي الحجة واقتلوا، واشتد القتال، فسقط

صلاح الدين، ونصير الدين جقر الذي صار نائباً عن أتابك عماد الدين بالموصل، وكان بينهما مصاهرة، وذكر له صلاح الدين ما (٦٤٤/١٠) ورد فيه، وأقشى إليه سره، فخوفه نصير الدين من جاولي، وقبّح عنده طاعته، وقرّر في نفسه أنه إنما أبقاء وأمثاله لحاجته إليهم، ومتى أُجيب إلى مطلوبه لا يبقى على أحد منهم.

وتحدّث معه في المخاطبة في ولاية عماد الدين زنكي، وضمن له الولايات والأقطاع الكثيرة، وكذلك للقاضي بهاء الدين الشهرزوري، فأجابه إلى ذلك وأحضره معه عند القاضي بهاء الدين، وخاطباه في هذا الأمر، وضمن له كلّ ما أَرادَه فوافقهما على ما طلبا، وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير، وهو حيثُ شرف الدين أنوشيروان بن خالد، وقالوا له: قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكّن الفرنج منها، وقويت شوكتهم بها، فاستولوا على أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين، وقد كان البرسقيّ مع شجاعته، وتجربته، وانقياد العساكر إليه، يكفّ بعض عاديّتهم وشرهم، فمُدّ قتل ازداد طمعهم، وهذا ولده طفلٌ صغيرٌ، ولا بدّ للبلاد من رجلٍ شهيمٍ، شجاع، ذي رأي وتجربة، يذبّ عنها ويحفظها ويحمي حوزتها، وقد أنهبنا الحال لنلاّ يجري خللٌ، أو وهنٌ على الإسلام والمسلمين، فيختصّ اللوم بنا، ويقال: ألا أنهبتم إلينا جليّة الحال؟

فرفع الوزير قولهما إلى السلطان، فاستحسنه، وشكرهما عليه، وأحضرهما، واستشارهما فيمن يصلح للولاية، فذكر جماعة منهم عماد الدين زنكي، (٦٤٥/١٠) وبذلا عنه، تقرّباً إلى خزّانة السلطان، مالاً جليلاً، فأجاب السلطان إلى توليته، لما يعلمه من كفايته لما يليه، فأحضره وولّاه البلاد كلّها، وكتب منشوره بها.

وسار فبداً بالبوازيح ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره، لأنّه خاف من جاولي أنّه ربّما صدّه عن البلاد، فلمّا دخل البوازيح سار عنها إلى الموصل. فلمّا سمع جاولي بقرّبه من البلد خرج إلى تلقّيه ومعه جميع العسكر، فلمّا رآه جاولي نزل عن فرسه وقبّل الأرض بين يديه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فدخلها في رمضان، وأقطع جاولي الرّحبة وسيّره إليها، وأقام بالموصل يصلح أمورهما، ويقرّر قواعدهما، فولّى نصير الدين دزداريّة القلعة بالموصل، وجعل إليه سائر دزداريّة القلاع، وجعل صلاح الدين محمّداً أمير حاجب، وبهاء الدين قاضي قضاة بلادهم جميعها، وزاده أملاكاً، وأقطاعاتاً، واحتراماً، وكان لا يصدر إلّا عن رأيه.

فلما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمر، وبها ممالك البرسقيّ، فامتنعوا عليه، فحصرهم وراسلهم، وبذل لهم البذول الكثيرة إن سلّموا، فلم يجيبوه إلى ذلك، فجدّ في قتالهم،

ذكر عود السلطان عن بغداد ووزارة أنوشيروان بن خالد

في هذه السنة، في عاشر ربيع الآخر، سار السلطان محمود عن بغداد، بعد تقرير القواعد بها، ولمّا عزم على المسير حمل إليه الخليفة الخلع، والدوابّ الكثيرة، فقبل ذلك جميعه وسار.

ولمّا أبعد عن بغداد قبض على وزيره أبي القاسم عليّ بن القاسم الأنساباديّ في رجب، لأنّه اتهمه بمعالة المسترشد بالله لقيامه في أمره وإتمام الصلح مقاماً ظهر أثره، فسعى به أعداؤه، فلمّا قبض عليه أرسل السلطان إلى بغداد فأحضر شرف الدين أنوشيروان بن خالد، وكان مقيمًا بها، فلمّا علم بذلك جاءته الهدايا من كلّ أحد، حتّى من الخليفة، وسار عن بغداد خامس شعبان، فوصل إلى السلطان، وهو بأصبهان، فخلع عليه خلع الوزارة، وبقي فيها نحو عشرة أشهر، ثم استعفى منها، وعزل نفسه، وعاد إلى بغداد في شعبان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

وأما الوزير أبو القاسم فإنّه بقي مقبوضاً إلى أن خرج السلطان سنجر إلى الريّ سنة اثنتين وعشرين، فأخرجه من الحبس في ذي الحجة، وأعادته إلى وزارة السلطان محمود، وهي الوزارة الثانية. (٦٤٣/١٠)

ذكر وفاة عزّ الدين بن البرسقيّ وولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها

في هذه السنة توفي عزّ الدين مسعود بن البرسقيّ، وهو صاحب الموصل، وكان موته بمدينة الرّحبة، وسبب مسيره إليها: أنّه لمّا استقامت أموره في ولايته، وراسل السلطان محموداً، وخطب له ولاية ما كان أبوه يتولّاه من الموصل، وغيرها، أجاب السلطان إلى ما طلب، فرتبّ الأمور وقرّرها، فكثّر جنده، وكان شجاعاً، شهماً، فطعم في التغلّب على بلاد الشام، فجمع عساكره وسار إلى الشام يريد قصد دمشق، فابتدأ بالرّحبة، فوصل إليها ونازلها، وقام يحاصرها، فأخذ مرض حادّ وهو محاصر لها، فتسلّم القلعة ومات بعد ساعة، فندم من بها على تسليمها إليه.

ولمّا مات بقي مطروحاً على بساط لم يُدفن، وتفرّق عنه عسكره، ونهب بعضهم بعضاً، فشغلوا عنه، ثم دُفن بعد ذلك، وقام بعده أخ له صغير، واستولى على البلاد مملوك للبرسقيّ يُعرف بالجاولي، ودبّر أمر الصبيّ، وأرسل إلى السلطان يطلب أن يقرّر البلاد على ولد البرسقيّ، وبذل الأموال الكثيرة على ذلك.

وكان الرسول في هذا الأمر القاضي بهاء الدين أبو الحسن عليّ بن القاسم الشهرزوريّ، وصلاح الدين محمّد أمير حاجب البرسقيّ، فحضرَا دركاه السلطان ليخاطبا في ذلك، وكانا يخافان جاولي، ولا يرضيان بطاعته والتصرّف بما يحكم به، فاجتمع

وبينه وبين البلد دجلة، فأمر الناس، فألقوا أنفسهم في الماء ليعبروه إلى البلد، ففعلوا، وعبر بعضهم سباحة، وبعضهم في السفن، وبعضهم في الأكلاك، وتكاثروا على أهل الجزيرة، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين الجزيرة ودجلة، تُعرف بالزلاقة، ليمنعوا من يريد عبور دجلة، فلما عبر العسكر إليهم قاتلهم ومانعهم، فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم، فأنهزم أهل البلد، ودخلوه، وتحصنوا بأسوارهم واستولى عماد الدين على الزلاقة، فلما رأى من بالبلد ذلك ضحكوا، ووهنوا وأيقنوا أن البلد يُملك مسلماً، أو عنوة، فأرسلوا يطلبون الأمان، فأجابهم إلى (٦٤٦/١٠) ذلك، وكان هو أيضاً مع عسكره بالزلاقة، فسلموا البلد إليه، فدخله هو وعسكره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قُتل مُعين الملك أبو نصر أحمد بن الفضل، وزير السلطان سنجر، قتله الباطنية، وكان له في قتالهم آثار حسنة، ونية صالحة، فزرقه الله الشهادة.

وفيها ولي السلطان شحنة بغداد مجاهد الدين بهروز، لما سار أتابك زنكي إلى الموصل.

وفيها رُتب الحسن بن سليمان في تدريس النظامية ببغداد.

وفيها أوقع السلطان سنجر بالباطنية في الموت، فقتل منهم خلقاً كثيراً قيل كانوا يزيدون على عشرة آلاف نفس. (٦٤٨/١٠)

وتوفي هذه السنة علي بن المبارك أبو الحسن المقرئ، المعروف بابن القاعوس، الحنبلي، في شوال، وكان صالحاً.

وفي شوال توفي محمد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد أبو الحسن بن أبي الفضل الهمداني الفرضي، صاحب التاريخ. (٦٤٩/١٠)

سنة الثنتين وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك أتابك عماد الدين زنكي مدينة حلب

في هذه السنة، أولاً المحرم، ملك عماد الدين زنكي بن أفسقر مدينة حلب وقلعتها، ونحن نذكر كيف كان سبب ملكه فقول: قد ذكرنا ملك البرسقي لمدينة حلب وقلعتها سنة ثمان عشرين (وخمسمائة)، واستخلافها بها ابنه مسعوداً، ولما قُتل البرسقي سار مسعود عنها إلى الموصل (ملكها)، واستتاب يعلب أميراً اسمه قومان، ثم إنه وثق عليها أميراً اسمه قتلغ آية، وسيره بتوقيع إثنى قومان بتسليمها، فقال: بيني وبين عز الدين علامة تم أمرها، ولا أسلم إلا بها، وكانت العلامة بينهما صورة غزال، وكان مسعود بن البرسقي يحسن التصوير، فعاد قتلغ آية إلى مسعود، وهو يحاصر الرحبة، فوجده قد مات، فعاد إلى حلب فيسرها.

وعرف الناس مؤنة، فسلم الرئيس قسطل بن بدیع البلد، وأطاعه المقتدون به، واستولوا قوماناً من القلعة، فلما أن هرج عدة وفاة صاحبه مسعوداً وأعطوه ألف دينار، فسلم قطع القلعة.

ثم إن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة لحقت سور البلد، وصارت الزلاقة ماء، فلو أقام ذلك اليوم لفرق هو وعسكره، ولم ينج منهم أحد، فلما رأى الناس ذلك أيقنوا بسعادته، وأيقنوا أن أمراً هذا بدايته لعظيم.

ثم سار عن الجزيرة إلى نصيبين، وكانت لحسام الدين تمرشاش، صاحب ماردین، فلما نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان ابن أرتق، وهو صاحب حصن كيفا وغيرها، فاستنجد على أتابك زنكي، فوعده النجدة بنفسه، وجمع عسكره، وعاد تمرشاش إلى ماردین، وأرسل رقاصاً على أجنحة الطيور إلى نصيبين يعرف من بها من العسكر أنه وابن عمه سائران في العسكر الكثير إليهم، وإزاحة عماد الدين عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام.

فبينما أتابك في خيمته إذ سقط طائر على خيمته تقابله، فأمر به فصيد، فرأى فيه رقعة، فقرأها وعرف ما فيها، فأمر أن يُكتب غيرها، يقول فيها: إني قصدت ابن عمي ركن الدولة، وقد وعدني النصرة وجمع العساكر، وما يتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً، ويمنعهم بحفظ البلد هذه المدة إلى أن يصلوا، وجعلها في الطائر وأرسله، فتدخل نصيبين، فلما وقف من بها على الرقعة سقط في أيديهم، وأعلموا أنهم لا يقبلون أن يحفظوا البلد هذه المدة، فأرسلوا إلى الشهيد وصالحوه، وسلموا البلد إليه، فبطل على تمرشاش وداود ما كانا عزماء عليه، وهذا من غريب ما يُسمع.

فلما ملك نصيبين سار عنها إلى منجار، فامتنع من بها عليه، ثم صالحوه (٦٤٧/١٠) وسلموا البلد إليه، وسير منها الشجن إلى الخابور، فملكه جميعه، ثم سار إلى حران، وهي للمسلمين، وكانت الرها، وسروج، والبيرة، وتلك النواحي جميعها للمفرنج، وأهل حران معهم في ضرر عظيم، وخصيق شديد لخلو البلد من حام يذوي عنها، وسلاطین يمتنعها، فلما قارب حران خرج أهل البلد

بولاية عماد الدين، ففعل بالفرنج ما تذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر قدوم السلطان سنجر إلى الرِّيِّ

في هذه السنة خرج السلطان سنجر من خراسان إلى الرِّيِّ في جيش كثير.

وكان سبب ذلك: أن قَيْس بن صدقة لما وصل إليه هو والملك ظفر بن طغرل على ما ذكرناه، لم يزل يُطعمه في العراق، ويُسهِّل عليه قصده، ويُلقِي في نفسه أن المسترشد بالله والسلطان محمود متفان على الانتفاع منه، ولم يزل به حتى أجابه إلى المسير إلى العراق، فلما ساروا وصل إلى الرِّيِّ، وكان السلطان محمود بهمدان، فأرسل إليه السلطان سنجر يستدعيه إليه لينظر هل هو على طاعته أم قد تغير على ما زعم دُيُنِس، فلما جاءه الرسول بادر إلى المسير إلى عمه، فلما وصل إليه أمر العسكر جميعه بلاقته، وأجلسه معه على التخت، وبالح في إكرامه، وأقام عنده إلى منتصف ذي الحجة، ثم عاد السلطان سنجر إلى خراسان، وسلم دُيُنِس إلى السلطان محمود، ووصاه بإكرامه وإعادته إلى بلده، ورجع محمود إلى همدان ودُيُنِس معه، ثم سارا إلى العراق، فلما (٦٥٢/١٠) قاربوا بغداد خرج الوزير إلى لقاته، وكان قدومه تاسع المحرم سنة ثلاث وعشرين [وخمسمائة].

وكان الوزير أبو القاسم الأنسابي قد قبض السلطان محمود عليه، فلما اجتمع بالسلطان سنجر أمر بإطلاقه فأطلقه، وقرره سنجر في وزارة ابنته التي زوجها بالسلطان محمود، فلما وصل معه إلى بغداد أعاده محمود إلى وزارته في الرابع والعشرين من المحرم، وهي وزارته الثانية.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ثامن صفر توفي أتابك طغتكين، صاحب دمشق، وهو مملوك الملك يَتَش بن ألب أرسلان، وكان عاقلاً، خيراً، كثير الغزوات والنجاح للفرنج، حسن السيرة في رعيتيه، مؤثراً للمصلين فيهم، وكان لقبه ظهير الدين، ولما توفي خلك بعلده ابنه تاج الملوك بوري، وهو أكبر أولاده، بوصية من والده له بالملك، وأقر وزير أبيه أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني على وزارته.

وفيها، مستهل رجب، توفي الوزير جلال الدين أبو علي بن صدقة، وزير الخليفة، وكان حسن السيرة، جميل الطريقة، متواضعاً، محباً لأهل العلم، مكرماً لهم، وله شعر حسن، فمنه في مدح المسترشد بالله:

وجئت الوزير كالماء طمأ ورقة، وإن أمير المؤمنين زلزلته
وصورت مقي العقل شخصاً مصوراً، وإن أمير المؤمنين يثابته
وتلوا طريق الدين والشرع والتقى، فقلت من الإعتناء جلت جلالة

في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين [وخمسمائة]، فظهر منه بعد أيام جور شديد، وظلم عظيم، ومدَّ يده إلى أموال الناس، لا سيما التركات، فإنه أخذها، وتقرب إليه الأشرار، ففترت قلوب الناس منه.

وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق الذي كان قديماً (٦٥٠/١٠) صاحبها، فأطاعه أهلها، وقاموا ليلة الثلاثاء ثاني شوال فقبضوا على كل من كان بالبلد من أصحاب قتلغ أبه، وكان أكثرهم يشربون في البلد صبحه العيد، وزحفوا إلى القلعة، فتحصن قتلغ أبه فيها بمن معه، فحصره، ووصل إلى حلب حسان صاحب منبج، وحسن صاحب بزاعة، لإصلاح الأمر فلم ينصلح.

وسمع الفرنج بذلك، فتقدم جوسلين بعسكره إلى المدينة، فصنع بمال، فعاد عنها، ثم وصل بعده صاحب أنطاكية في جمع من الفرنج، فخذق الحلبيون حول القلعة، فمنع الداخل والخارج إليها من ظاهري البلد، وأشرف الناس على الخطر العظيم إلى منتصف ذي الحجة من السنة.

وكان عماد الدين قد ملك الموصل والجزيرة، فسار إلى حلب الأمير سنقر دراز، والأمير حسن قراقوش، وهما من أكابر أمراء البرسقي، وقد صاروا معه في عسكر قوي، ومعه التوقيع من السلطان بالموصل، والجزيرة، والشام، فاستقر الأمر أن يسير بدر الدولة بن عبد الجبار وقتلغ أبه إلى الموصل إلى عماد الدين، فسارا إليه، وأقام حسن قراقوش بحلب والياً عليها ولاية مستعارة، فلما وصل بدر الدولة وقتلغ أبه إلى عماد الدين أصلح بينهما، ولم يرد واحداً منهما إلى حلب، وسير حاجته صلاح الدين محمداً الياغيساني إليها في عسكر، فصعد إلى القلعة، ورتب الأمور، وجعل فيها والياً.

وسار عماد الدين زنكي إلى الشام في جيوشه وعساكره، فملك في طريقه مدينة منبج وبزاعة، وخرج أهل حلب إليه، فالتقوه، واستمروا بقدومه، ودخل البلد واستولى عليه، ورتب أموره، وأقطع أعماله الأجناد والأمراء، فلما فرغ من الذي أرادته قبض على قتلغ أبه وسلمه إلى ابن بديع، فحمله بداره بحلب، فمات قتلغ أبه، واستوحش ابن بديع، فهرب إلى قلعة جعفر واستجار بصاحبها، فأجاره. (٦٥١/١٠)

وجعل عماد الدين في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الزقاق، وتولا أن الله تعالى من على المسلمين بملك أتابك بيلاد الشام لملكها الفرنج لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية، وإذا علم ظهير الدين طغتكين بذلك جمع عساكره وقصيد بلادهم وحصرها وأغار عليها، فيضطر الفرنج إلى الرحيل لدفعه عن بلادهم، فقدر الله تعالى أنه توفي هذه السنة، فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله، فلفظ الله بالمسلمين

يستعطفه، ويقول: إن رضىت عني فإنا أرد أضعاف ما أخذت، وأكون العبد المملوك؛ فتردد الرسل وتبس جمع الأموال، والرجال، فاجتمع معه عشرة آلاف فارس، وكان قد وصل في ثلاثمائة فارس، ووصل الأحمدلي ببغداد في شوال، وسار في أثر قتيس.

ثم إن السلطان سار إلى العراق، فلما سمع قتيس بذلك أرسل إليه هدايا جليلة المقدار، وبذل ثلاثمائة حصان بعلية بالذهب، ومائتي ألف دينار، ليرضى عنه السلطان والخليفة، فلم يجبه إلى ذلك، ووصل السلطان إلى بغداد في ذي القعدة، فلقبه الوزير الزينبي، وأرباب المناصب، فلما يقن قتيس وصوله وحل إلى البرية، وقصد البصرة وأخذ منها أموالاً كثيرة، وما للخليفة والسلطان هناك من الدخول، فسار السلطان إثره عشرة آلاف فارس، ففارق البصرة ودخل البرية. (٦٥٦/١٠)

ذكر قبل الإسماعيلية بدمشق

قد ذكرنا فيما تقدم قتل إيراخي الأسدي بدمشق، وهرب ابن اخته بهرام إلى الشام، ومثله قلعة باناس، ومبيرة إليها، ولما فارق دمشق أقام له بها خليفة يدعو الناس إلى مذهبه، فكثروا وانتشروا، وملك هو عدة حصون من الجبال منها القديروس وغيره، وكان يرادي التيم، من أعمال بعلبك، أصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية، والدروزية، والمجوس، وغيرهم، وأميرهم اسمه الضحاك، فسار إليهم بهرام سنة اثنتين وعشرين [وخمسمائة] وحصرهم وقتلهم، فخرج إليه الضحاك في ألف رجل، وكيس عسكر بهرام فوضع السيف فيهم، وقتل منهم مقتلة كثيرة، وقتل بهرام وانهزم من سليم، وعادوا إلى باناس على أقيح صورة.

وكان بهرام قد استخلف في باناس رجلاً من أهليان أصحابه اسمه إسماعيل، فقام مقامه، وجمع شمل من عاد إليه منهم، وبت دعائه في البلاد، وعاضده المزدقاني ليعضدوا، وهوى نفسه على عدم من الإمتاع بهذه الحادثة، وإلهم بسببها.

ثم إن المزدقاني أقام بدمشق عوَض بهرام إنساناً اسمه أبو الوفاء، ففري أمره وعلا شأنه وكثر أتباعه، وقام بدمشق، فصار المستولي على من بها من المسلمين وحكمته أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك. ثم إن المزدقاني راسل الفرنج ليشتل إليهم مدينة دمشق، فسلّموا إليه مائة جوير، واستقر الأمر بينهم على ذلك، وتقرر بينهم الميعاد يوم جمعة ذكروه، وقبر المزدقاني مع الإسماعيلية أن (٦٥٧/١٠) يحتاطوا ذلك اليوم بآبواب الجامع فلا يمكنوا أحداً من الخروج منه ليجيء الفرنج ويملكوا البلاد، فبلغ الخبر تاج الملوك، صاحب دمشق، فمشتد المزدقاني إليه، فحضر، وخلا معه، فقتله تاج الملوك، وعلق رأسه على باب

(٦٥٣/١٠) وأقيم في الثيابة بعنه شرف الدين علي بن طراد الزينبي، ثم جعل وزيراً، وخلع عليه آخر شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وعشرين [وخمسمائة]، ولم يزل للخلفاء من بني العباس هاشمي وغيره.

وفيها هبت ريح شديدة اسودت لها الأفاق، وجاءت بتراب أحمر يشبه الرمل، وظهر في السماء أعمدة كأنها نار، فخاف الناس، وعدلوا إلى الذبابة والامتنعاف، فانكشف عنهم ما يخافونه. (٦٥٤/١٠)

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

ذكر قدوم السلطان محمود إلى بغداد

في هذه السنة في المحرم، قدم السلطان محمود ببغداد، بعد عوده من عند عمه السلطان سنجر، ومعه قتيس بن صدقة، ليصلح حاله مع الخليفة المسترشد بالله، فتأخر قتيس عن السلطان، ثم دخل بغداد، ونزل بدار السلطان، واسترضى عنه الخليفة، فامتنع الخليفة من الإجابة إلى أن يولى قتيس شيئاً من البلاد، وبذل مائة ألف دينار لذلك.

وعلم أتاكب زنكي أن السلطان يريد أن يولى قتيس الموصل، فبذل مائة ألف دينار، وحضر بنفسه إلى خدمة السلطان، فلم يشعر السلطان به إلا وهو عند السر، وحمل معه الهدايا الجليلة، فأقام عند السلطان ثلاثة أيام، وخلع عليه، وأعادته إلى الموصل.

وخرج السلطان يتصيد، فعمل له شيخ المَرْزَبة دعوة عظيمة امتار منها جميع عسكر السلطان، وأدخله إلى حمام في داره، وجعل فيه عوَض الماء ماء الورد، فأقام السلطان إلى رابع جمادى الآخرة، وسار عنها إلى قَمَندان، وجعل يهرورز على شحنة بغداد، وسلّمته إليه الجلة أيضاً. (٦٥٥/١٠)

ذكر ما فعله قتيس بالعراق وعود السلطان إلى بغداد

لما رحل السلطان إلى قَمَندان ماتت زوجته، وهي ابنة السلطان سنجر، وهي التي كانت تسمى بامر قتيس، وتُدافع عنه، فلما ماتت انحل أمر قتيس.

ثم إن السلطان مرض مرضاً شديداً، فأخذ قتيس ابناً له صغيراً وقصد العراق، فلما سمع المسترشد بالله بذلك جند الأجناد، وحشد، وكان يهرورز بالجلة، فهرب منها، فدخلها قتيس في شهر رمضان، فلما سمع السلطان الخبر عن قتيس أخضر الأميرين قتل، والأحمدلي، وقال: أنتما ضمتما قتيساً متي، وأزديدة متكماً. فسار الأحمدلي إلى العراق، إلى قتيس، ليكشف شره عن البلاد، ويحضره إلى السلطان، فلما سمع قتيس الخبر أرسل إلى الخليفة

يستجده، ويطلب منه المعونة على جهادهم، فأجاب إلى المراد، وأرسل من أخذ له العهود والمواثيق، فلما وصلت التوثقة جرد عسكرًا من دمشق مع جماعة من الأمراء، وأرسل إلى (٦٥٩/١٠) ابنه سونج، وهو بمدينة حماة، يأمره بالنزول إلى العسكر، والمسير معهم إلى زنكي، ففعل ذلك، فساروا جميعهم، فوصلوا إليه، فأكرمهم، وأحسن لقاءهم، وتركهم أيامًا.

ثم إنّه غدر بهم، فقبض على سونج ولد تاج الملوك، وعلى جماعة الأمراء المقدّمين، ونهب خيامهم وما فيها من الكراع، واعتقلهم بحلب، وهرب من سواهم، وسار من يومه إلى حماة، فوصل إليها وهي خالية من الجند الحماة الدائنين، فملكها واستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص، وكان صاحبها قرجان بن قراجه معه في عسكره، وهو الذي أشار عليه بالغدر بولد تاج الملوك، فقبض عليه، ونزل على حمص وحصرها، وطلب من قرجان صاحبها أن يأمر نوابه وولده الذين فيها بتسليمها، فأرسل إليهم بالتسليم، فلم يقبلوا منه، ولا التفتوا إلى قوله، فأقام عليها محاصراً لها، ومقاتلاً لمن فيها مدة طويلة، فلم يقدر على ملكها، فرحل عنها عائداً إلى الموصل، واستصحب معه سونج بن تاج الملوك ومن معه من الأمراء الدمشقيين.

وترددت الرسل في إطلاقهم بينه وبين تاج الملوك، واستقرّ الأمر على خمسين ألف دينار، فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، ولم يتظم بينهم أمر.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ملك بيمند، صاحب أنطاكية، حصن القدموس من المسلمين.

وفي هذه السنة أيضاً وثب الإسماعيلية على عبد اللطيف بن الخجندى، رئيس (٦٦٠/١٠) الشافعية بأصبهان، فقتلوه، وكان ذا رفاة عظيمة وتحكم كثير.

وفي هذه السنة توفي الإسام أبو الفتح أسعد بن أبي نصر المهنسي، الفقيه الشافعي، مدرس النظامية ببغداد، وله طريقة مشهورة في الخلاف، وتفقّه على أبي المظفر السمعاني، وكان له قبول عظيم عند الخليفة، والسلطان، وسائر الناس.

وفيها توفي حمزة بن هبة الله بن محمد بن الحسن الشريف العلوي، الحسني، النيسابوري، سمع الحديث الكثير، ورواه، ومولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وجمع مع شرف النسب شرف النفس والتقوى، وكان زبدي المذهب. (٦٦١/١٠)

القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف نفس، وكان ذلك منتصف رمضان من السنة، وكفى الله المسلمين شرهم، وردّ على الكافرين كيدهم.

ولما تمت هذه الحادثة بدمشق على الإسماعيلية خاف إسماعيل والي بانياس أن يثور به ويمن معه الناس فيهلكوا، فراسل الفرنج، وبذل لهم تسليم بانياس إليهم، والانتقال إلى بلادهم، فأجابوه، فسلم القلعة إليهم، وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلادهم، ولقوا شدة وذلة وهواناً، وتوفي إسماعيل أوائل سنة أربع وعشرين [وخمسمائة]، وكفى الله المؤمنين شرهم.

ذكر حصر الفرنج دمشق وانهزامهم

لما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والإسماعيلية بدمشق عظم عليهم ذلك، وتأمنوا على دمشق حيث لم يتم لهم ملكها، وعثتهم المصيبة، فاجتمعوا كلهم: صاحب القدس، وصاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وغيرهم من الفرنج وقصاصتهم، ومن وصل إليهم في البحر للتجارة، والزيار، فاجتمعوا في خلق عظيم نحو ألفي فارس، وأما الراجل فلا يحصى، وساروا إلى دمشق ليحصروها.

ولما سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب والتركمان، فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس، ووصل الفرنج في ذي الحجة، فنزلوا البلد، وأرسلوا إلى أعمال (٦٥٨/١٠) دمشق لجمع الميرة والإخارة على البلاد، فلما سمع تاج الملوك أن جمعاً كثيراً قد ساروا إلى خوزان لنهب، وإحضار الميرة، سار أميراً من أمراءه، يعرف بشمس الخواص، في جمع من المسلمين إليهم، وكان خروجهم في ليلة شاتية، كثيرة المطر، ولقوا الفرنج من الغد، فواقعوهم، واقتتلوا، وصبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون وقتلوهم، فلم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه أربعون رجلاً، وأخذوا ما معهم، وهي عشرة آلاف دابة موقرة، وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق لم يمسنهم قرح، فلما علم من هليها من الفرنج ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب، فرحلوا عنها شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وميرة وغير ذلك، وتبعهم المسلمون، والمطر شديد، والبرد عظيم، يقتلون كل من تخلف منهم، فكثير القتل منهم، وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجة من هذه السنة.

ذكر ملك عماد الدين زنكي مدينة حماة

في هذه السنة ملك عماد الدين زنكي بن أقتقر، صاحب الموصل، مدينة حماة.

وسبب ذلك: أنه عبر الفرات إلى الشام، وأظهر أنه يريد جهاد الفرنج، وأرسل إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين، صاحب دمشق،

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك السلطان ينجر مدينة سمرقند من محمد خان ملك محمود بن محمد خان المذكور

في هذه السنة، في ربيع الأول، ملك السلطان سنجر مدينة سمرقند.

وسبب ذلك: أنه كان قد رتب فيها، لهما ملكها أولاً، أرسلان خان محمد ابن سليمان بن بغراخان داود، فأصابه فالج، فاستتاب ابناً له يُعرف بنصرخان، وكان شهماً شجاعاً، وكان بسمرقند إنسان علوي، فقيه، مدرّس، إليه الحل والعقد، والحكم في البلد، فاتفق هو ورئيس البلد على قتل نصرخان، فقتلاه ليلاً، وكان أبوه محمد خان غائباً، فعظم عليه واشتد، وكان له ابن آخر غائب في بلاد تركستان، فأرسل إليه واستدعاه، فلما قارب سمرقند خرج العلوي رئيس البلد إلى استقباله، فقتل العلوي في الحال، وقبض على الرئيس.

وكان والده أرسلان خان قد أرسل إلى السلطان سنجر رسولاً يستدعيه، ظناً منه أن ابنه لا يتم أمره مع العلوي والرئيس، فتجهّز سنجر وسار يريد سمرقند، فلما ظفر ابن أرسلان خان بهما ندم على استدعاه السلطان سنجر، فأرسل إليه يعرفه أنه قد ظفر بالعلوي والرئيس، وأنه وابنه على الطاعة، ويسأله العود إلى خراسان، فغضب سنجر من ذلك، وأقام أياماً، فبينما هو في الصيد إذ رأى اثني عشر رجلاً في السلاح التام، فقبض عليهم وعاقبهم فأقروا أن محمد خان أرسلهم ليقتلوه، فقتلهم، ثم سار إلى سمرقند فملكها (٦٦٢/١٠) عنوة، ونهب بعضها، ومنع من الباقي، وتحصّن منه محمد خان ببعض تلك الحصون، فاستنزله السلطان سنجر بأمان، بعد مدة، فلما نزل إليه أكرمه وأرسله إلى ابنته زوجة السلطان سنجر، فبقي عندها إلى أن توفي.

وأقام سنجر بسمرقند مدة حتى أخذ المال والسلاح والخزائن، وسلم البلد إلى الأمير حسن تكين، وعاد إلى خراسان، فلم يلبث حسن تكين أن مات، فملك سنجر بعده عليها محمود بن محمد خان بن سليمان بن داود، المقدم ذكره، وقيل إن السبب غير ما ذكرناه، وسيرد ذكره سنة ست وثلاثين للحاجة إلى ذكره هناك.

ذكر فتح عماد الدين زنكي حصن الأنبار وهزيمة الفرنج

لما فرغ عماد الدين زنكي من أمر البلاد الشامية، حلب وأعمالها، وما ملكه، وقرّر قواعده، عاد إلى الموصل، وديار الجزيرة، ليستريح عسكره، ثم أمرهم بالتجهّز للفرقة، فتجهّزوا وأعدّوا واستعدّوا، وعاد إلى الشام، وقصد حلب، فقوي عزمه على قصد حصن الأنبار، ومحاصره، لشدة ضرره على المسلمين.

وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية، حتى على رحي لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق، وكان أهل البلد معهم في ضر شديد، وضيق، كل يوم قد أغاروا عليهم، ونهبوا أموالهم. فلما رأى الشهيد هذه الحال صمّ العزم على حصر هذا الحصن، فسار إليه ونازله. (٦٦٣/١٠)

فلما علم الفرنج بذلك جمعوا فارسهم وراجلهم، وعلموا أن هذه وقعة لها ما بعدها، فحشدوا وجمعوا، ولم يتركوا من طاقهم شيئاً إلا استفدوه، فلما فرغوا من أمرهم ساروا نحوه، فاستشار أصحابه فيما يفعل، وكلّ أشار بالعود عن الحصن، فإن لقاء الفرنج في بلادهم خطر لا يُدرى على أي شيء تكون العاقبة، فقال لهم: إن الفرنج متى راونا قد علّنا من أيديهم طمعوا وساروا في أثرنا، وخربوا بلادنا، ولا بدّ من لقائهم على كل حال.

ثم ترك الحصن وتقدّم إليهم، فالتقوا، واصطفوا للقتال، وصبر كل فريق لخصمه، واشتدّ الأمر بينهم، ثم إن الله تعالى أنزل نصره على المسلمين، فظفروا، وانهزم الفرنج أتبع هزيمة، ووقع كثير من فرسانهم في الأسر، وقتل منهم خلق كثير، وتقدّم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز، وقال: هذا أول مصافى علمناه معهم، فلنذهبهم من بأسنا ما يبقى رغبة في قلوبهم، ففعلوا ما أمرهم، ولقد اجتزت تلك الأرض سنة أربع وثمانين وخمسمائة ليلاً، فقبل لني: إن كثيراً من العظام باقٍ إلى ذلك الوقت.

فلما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا إلى الحصن فتسلموه عنوة، وقتلوا وأسروا كل من فيه، وأخبره عماد الدين، وجعله دكاً، وبقي إلى الآن خراباً، ثم سار منه إلى قلعة حارم، وهي بالقرب من أنطاكية، فحصرها وهي أيضاً للفرنج، فبذل له أهلها نصف دخل بلد حارم، وهادنوه، فاجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم وقد استدار المسلمون تلك الأعمال، وضعفت قوَى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها مالم يكن لهم في حساب، وصار قصاصهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع. (٦٦٤/١٠)

ذكر ملك عماد الدين زنكي أيضاً مدينة سرجي ودارا

لما فرغ من أمر الأنبار وتلك النواحي، عاد إلى ديار الجزيرة، وكان قد بلغه عن حسان الدين تمرشاش بن إيلغازي، صاحب ماردين، وابن عمه ركن الدولة داود بن سُقمان، صاحب حصن كيفا، قوارص، فعاد إليهم، وحصر مدينة سرجي، وهي بين ماردين ونصيبين، فاجتمع حسان الدين، وركن الدولة، وصاحب آيد، وغيرهم، وجمعوا خلقاً كثيراً من التركمان بلغت عدّتهم عشرين ألفاً، وساروا إليه، فتصافوا بتلك النواحي، فنهزمهم عماد الدين وملك سرجي.

فحكى لي والدي قال: لما انهزم ركن الدولة داود قصد بلد

جزيرة ابن عمر ونهبه، فبلغ الخبر إلى عماد الدين، فسلر نحو الجزيرة، وأراد دخول بلد داود، ثم عاد عنه لضيق مسالكه، وخشونة الجبال التي في الطريق، وسار إلى داراً فملكها، وهي: من القلاع في تلك الأعمال.

ذكر وفاة الأمر وخلافة الحافظ العلوي

في هذه السنة، ثاني ذي القعدة، قُتل الأمر بأحكام الله أبو علي بن المستعلي العلوي، صاحب مصر، خرج إلى منزله، فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه، لأنه كان سبي السيرة في رعيته، وكانت ولايته تسعاً وعشرين سنة (٦٦٥/١٠) وخمسة أشهر، وعمره أربعاً وثلاثين سنة، وهو العاشر من ولد المهدي عبيد الله الذي ظهر بسجلماسة وبني المهدي بإفريقية، وهو أيضاً العاشر من الخلفاء العلويين من أولاد المهدي أيضاً.

ولما قُتل لم يكن له ولد بعده، فولى بعده ابن عمه الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم بن المستنصر بالله، ولم يبايع بالخلافة، وإنما بوع له لينظر في الأمر نيابة، حتى يكشف عن حمل إن كان للأمر فتكون الخلافة فيه، ويكون هو نائباً عنه.

ومولد الحافظ بمسقلان، لأن أباه خرج من مصر إليها في الشدة، فأقام بها، فولد ابنه عبد المجيد هناك ولماً ولي استوزر أبا علي أحمد بن الأفضل ابن بدر الجمالي، واستبد بالأمر، وتغلب على الحافظ، وحجر عليه، وأودعه في خزانة، ولا يدخل إليه إلا من يريده أبو علي، وبقي الحافظ له اسم لا معنى تخته، ونقل أبو علي كل ما [كان] في القصر إلى داره من الأموال وغيرها، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قُتل أبو علي سنة ست وعشرين [وخمسمائة] فاستقامت أمور الحافظ، وحكم في دولته، وتمكن من ولايته وبلاده.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفيت الخاتون ابنة السلطان سنجر، وهي زوجة السلطان محمود. (٦٦٦/١٠)

وفيها قُتل يميند الفرنجي صاحب أنطاكية.

وفيها توفي نصير الدين محمود بن مؤيد الملك بن نظام الملك، في شعبان، ببغداد، ووقع الحريق في داره بعد وفاته، وفي حظائر الحطب، والسوق الشهي، فذهب من الناس أموال كثيرة.

وفيها وزر الرئيس أبو الذواد المفرج بن الحسن بن الصوفي لصاحب دمشق تاج الملوك.

وفيها كان الرصد بالدار السلطانية، شرقي بغداد، تولاه البديع

الاصطربلاي، ولم يتم.

وفيها ظهر ببغداد عقارب طيارة ذوات شوكتين، فنال الناس منها خوف شديد، وأذى عظيم.

وفيها، في ذي الحجة، خرج الملك مسعود بن محمد من خراسان، وكان عند عمه السلطان سنجر، ووصل إلى ساوة، ووقع الإرجاف أن غزاه على مخالفة أخيه السلطان محمود قوي، وأن عمه سنجر أمره بذلك، فاستشعر السلطان محمود، وسار عن بغداد إلى همدان، فلما وصل إلى كرمانشاهان، وصل إليه أخوه الملك مسعود وخدمه، ولم يظهر للإرجاف أثر، فأقطعه السلطان مدينة كنجة وأعمالها وسيروها إليها.

وفيها كانت زلزلة عظيمة، في ربيع الأول، بالعراق، وبلد الجبل، والموصل، والجزيرة، فخربت كثيراً.

وفيها ملك السلطان محمود قلعة ألموت.

وفيها توفي إبراهيم بن عثمان بن محمد أبو إسحاق الغزي من أهل غزة، مدينة فلسطين من الشام، ومولده سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وهو من الشعراء المجيدين، فمن قوله من قصيدة يصف فيها الأتراك: (٦٦٧/١٠)

في قبضة من جيوش الترك ما تركت للردوكزاتهم صوتاً ولا حيناً
قوم إذا قولوا كانوا ملائكة حسناً، وإن قوتلوا كانوا غفارياتاً
وله في الزهد:

إنما هذه الحياة تناع، والسعي الغوي من يظن أنها
ما مضى فات والموئل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها

وفيها توفي الحسين بن محمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن محمد الديباس أبو عبد الله النحوي، الشاعر، المعروف بالبارع، أخو أبي الكرم بن فاخر النحوي لأمه، وكُلد سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وله شعر مليح، فمنه قوله:

رئي علي الكرى ثم اهجرني سكتي قد قيعت بطيف منك في الوسن
لا تحسني النوم قد أوشكت أطلبه، لأرجاء خيال منك يؤنسني
تركسني والهوى فرداً أغاليه، ونام ليلى عن هم يؤرقني
وهي طويلة.

وفيها توفي هبة الله بن القاسم بن محمد بن عطا بن محمد أبو سعد المهرواني، النيسابوري، ومولده سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان محدثاً، حافظاً، صالحاً. (٦٦٨/١٠)

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

ذكر أمير دئيس بن صدقة وتسليمه إلى عماد الدين زنكي

في هذه السنة، في شعبان، أمر تاج الملوك بوري بن طغتكين، صاحب دمشق، الأمير دئيس بن صدقة، صاحب القلعة، وتسلمه إلى أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر.

وسبب ذلك: أنه لما فارق البصرة، على ما ذكرناه، جاءه قاصد من الشام، من صرخد، يستدعيه إليها، لأن صاحبها كان خصياً، فتوفي هذه السنة، وخلف جارية شريفة له، فاستولت على القلعة وما فيها، وعلمت أنها لا يتم لها ذلك إلا بأن تتصل برجل له قوة ونجدة، فوصف لها دئيس بن صدقة وكثرة عشيرته، وذكر لها حاله، وما هو عليه بالعراق، فأرسلت تدعوه إلى صرخد لتتزوج به، وتسلم القلعة وما فيها من مال وغيره إليه، فأخذ الأدلاء معه، وسار من أرض العراق إلى الشام، ففضل به الأدلاء بنواحي دمشق، فبذل بناس من كلب كانوا شرقي القوطة، فآخذوه وحملوه إلى تاج الملوك صاحب دمشق، فحبسه عنده.

وسمع أتابك عماد الدين زنكي الخبر، وكان دئيس يقع فيه وينال منه، فأرسل إلى تاج الملوك يطلب منه دئيساً يسلمه إليه، ويطلق ولده، ومن (٦٦٩/١٠) معه من الأمراء المأسورين، وإن امتنع من تسليمه سار إلى دمشق وحصرها وخرّبها ونهب بلدها، فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، وأرسل أتابك سونج بن تاج الملوك، والأمراء الذين معه، وأرسل تاج الملوك دئيساً، فأيقن دئيس بالهلاك، ففعل زنكي معه خلاف ما ظن، وأحسن إليه، وحمل له الأقوات، والسلاح والدواب وسائر أمتعة الخزان، وقدمه حتى على نفسه، وفعل معه ما يفعل أكابر الملوك.

ولما سمع المسترشد بالله بقبضه بدمشق أرسل سديد الدولة بن الأنباري، وأبا بكر بن بشر الجزري، من جزيرة آبن غمر، إلى تاج الملوك يطلب منه أن يسلم دئيساً إليه، لما كان متحققاً به من عداوة الخليفة، فسمع سديد الدولة ابن الأنباري بتسليمه إلى عماد الدين، وهو في الطريق، فسار إلى دمشق ولم يرجع، وذم أتابك زنكي بدمشق، واستخف به، وبلغ الخبر عماد الدين، فأرسل إلى طريقه من يأخذه إذا عاد، فلما رجع من دمشق قبضوا عليه، وعلى ابن بشر، وحملوهما إليه، فأما ابن بشر فأهانته وجرى في حقه مكروه، وأما ابن الأنباري فسجنه.

ثم إن المسترشد بالله شفع فيه فأطلق، ولم يزل دئيس مع زنكي حتى انحدر معه إلى العراق، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

في هذه السنة، في شوال، توفي السلطان محمود ابن السلطان محمد بهمدان، وكان قبل مرضه قد خاف وزيره أبو القاسم الأنسابي من جماعة من الأمراء وأعيان الدولة، منهم: عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد المستوفي، والأمير أنوشكين المعروف بشيركير، وولده عمير، وهو أمير حاجب السلطان، (٦٧٠/١٠) وغيرهم، فأما عزيز الدين فأرسله مقبوضاً عليه إلى مجاهد الدين بهروز بتكرت، ثم قتل بها، وأما شيركير وولده فقتلا في جمادى الآخرة.

ثم أن السلطان مرض وتوفي في شوال، وأقعد ولده الملك داود في السلطنة باتفاق من الوزير أبي القاسم وأتابكه آقسنقر الأحمدلي، وخُطب له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان، ووقعت الفتنة بهمدان وسائر بلاد الجبل، ثم سكنت، فلما اطمأن الناس وسكنوا سار الوزير بأمواله إلى الري، فأمن فيها حيث هي للسلطان سنجر.

وكان عمر السلطان محمود لما توفي نحو سبع وعشرين سنة، وكانت ولايته للسلطنة اثني عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، وكان حليماً، كريماً عاقلاً، يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه، مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا، عفيفاً عنها، كافئاً لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ثار الباطنية بتاج الملوك بوري بن طغتكين، صاحب دمشق، فخرجوه جرحين، فبزا أحدهما، وتسر الآخر، وبقي فيه ألم، إلا أنه يجلس للناس، ويكسب معهم على ضعف فيه.

وفيها توفي الأمير أبو الحسن بن المستظهر بالله أخو المسترشد بالله في رجب.

وفيها، في شوال، توفي الحسن بن سلمان بن عبد الله أبو علي الفقيه الشافعي (٦٧١/١٠) الواعظ، مدرس النظامية ببغداد، وأصله من الزوزان.

والخطيب أبو نصر أحمد بن عبد القاهر المعروف بابن الطوسي، خطيب الموصل، توفي في ربيع الأول.

وحاذ بن مسلم الدبائس الرحبي الزاهد المشهور، صاحب الكرامات، وسمع الحديث، وله أصحاب وتلامذة كثيرون ساروا، ورأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزي قد ذمه وتلبه، ولهذا الشيخ أموة يغيره من الصالحين، فإن ابن الجوزي قد صنف كتاباً سماه تليس إيليس لم يبق فيه على أحد من مائة المسلمين وصالحهم.

وهبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن الحصين الشيباني الكاتب، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، سمع أبا علي بن المهذب، وأبا طالب بن غيلان وغيرهما، وهو راوي مسند أحمد بن حنبل والفيلايات وغيرهما.

ومحمد بن الحسن بن علي بن الحسن أبو غالب الماوردي، ولد سنة خمسين وأربعمائة بالبصرة، وسمع الحديث الكثير، وروى سنن أبي داود السجستاني، وكان صالحاً. (٦٧٢/١٠)

سنة ست وعشرين وخمسمائة

ذكر قتل أبي علي وزير الحافظ ووزارة يانس وموته

في هذه السنة، في المحرم، قتل الأفضل أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الحافظ لدين الله العلوي، صاحب مصر.

وسبب قتله: أنه كان قد حجر على الحافظ، ومنعه أن يحكم في شيء من الأمور، قليل أو جليل، وأخذ ما في قصر الخلافة إلى داره، وأسقط من الدعاء ذكر إسماعيل الذي هو جدهم، وإليه تُنسب الإسماعيلية، وهو ابن جعفر بن محمد الصادق، وأسقط من الأذان حي على خير العمل، ولم يخطب للحافظ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له باللقاب كتبها لهم، وهي: السيد الأفضل الأجل، سيد ممالك أرباب الدول، والمحمي عن حوزة الدين، وناسر إمام الحق في العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بنصره بماضي سيفه وصائب رأيه وتدييره، أمين الله على عبادته، وهادي القضاة إلى اتباع الحق واعتماده، ومُرشد دُعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، ومالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل، شاهنشاه أمير الجيوش.

وكان إمامي المذهب، يُكثر ذم الأمور، والتناقض به، فنفرت منه شيعه (٦٧٢/١٠) العلويين وممالئهم، وكرهوه، وعزموا على قتله، فخرج في العشرين من المحرم من هذه السنة إلى الميدان يلعب بالكرة مع أصحابه، فكمن له جماعة منهم مملوك فرنجي كان للحافظ، فخرجوا عليه، فحمل الفرنسي عليه، فطعنه فقتله، وحزوا رأسه، وخرج الحافظ من الخزانة التي كان فيها، ونهب الناس دار أبي علي، وأخذ منها ما لا يحصى، وركب الناس والحافظ إلى داره، فأخذ ما بقي فيها وحمله إلى القصر.

وبويح يومئذ الحافظ بالخلافة، وكان قد بويح له بولاية العهد، وأن يكون كافلاً لحمل إن كان للأمر، فلمّا بويح بالخلافة استوزر أبا الفتح يانس الحافظي في ذلك اليوم بعينه، ولقب أمير الجيوش، وكان عظيم الهبة، بعيد الغور، كثير الشر، فخافه الحافظ على نفسه، وتخيّل منه يانس، فاحتاط، ولم يأكل عنده شيئاً، ولا شرب،

ولمّا مات يانس استوزر الحافظ ابنه حسناً، وخطب له بولاية العهد، وسيرد ذكر قتله سنة تسع وعشرين [وخمسمائة].

وإنما ذكرتُ القاب أبي علي تعجباً منها، ومن حماقة ذلك الرجل، فإن وزير صاحب مصر وحدها إذا كان هكذا فينبغي أن يكون وزير السلاطين (٦٧٤/١٠) السلجوقيّة كنظام الملك وغيره يدعون الربوبية، على أن تربة مصر هكذا تولد، ألا ترى إلى فرعون يقول: ﴿إِنَّا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [التازعات: ٢٤]، وإلى أشياء أخر لا نطيل ذكرها.

ذكر حال السلطان مسعود والملكين سلجوقشاه وداود واستقرار السلطنة بالعراق لمسعود

لمّا توفي السلطان محمود ابن السلطان محمد، وخطب، ببلاد الجبل وأذربيجان، لولده الملك داود، على ما ذكرناه، سار الملك داود من همدان في ذي القعدة من سنة خمس وعشرين [وخمسمائة] إلى زنجان، فأتاه الخبر أن عمه السلطان مسعوداً قد سار من جرجان ووصل إلى تبريز واستولى عليها، فسار الملك داود إليه وحصره بها، وجرى بينهما قتال، إلى سلخ المحرم سنة ست وعشرين [وخمسمائة] ثم اصطلحا.

وتأخر الملك داود مرحلة، وخرج السلطان مسعود بن تبريز، واجتمعت عليه العساكر، وسار إلى همدان، وأرسل يطلب الخطبة ببغداد، وكانت رسل الملك داود قد تقدّمت في طلب الخطبة، فأجاب المسترشد بالله أن الحكم في الخطبة إلى السلطان سنجر من أراد خطب له، وأرسل إلى السلطان سنجر أن لا يأذن لأحد في الخطبة، فإن الخطبة ينبغي أن تكون له وحده، فوقع ذلك منه موقفاً حسناً. (٦٧٥/١٠)

ثم إن السلطان مسعوداً كاتب عماد الدين زنكي، صاحب الموصل وغيرهما، يستجده، ويطلب مساعدته، فوعده النصر، فقويت بذلك نفس مسعود على طلب السلطنة.

ثم إن الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمد سار أتابكه قراجه الساقى، صاحب فارس وخوزستان، في عسكر كثير إلى بغداد،

وقطعت خطبة سنجر من العراق جميعه، ووصلت الأخبار بوصول عماد الدين زنكي ودييس بن صدقة إلى قريب بغداد، فأما دييس فإنه ذكر أن السلطان سنجر أقطع الجبل، وأرسل إلى المسترشد بالله يضرع ويسأل (٦٧٧/١٠) الرضا عنه، فامتنع من إجابته إلى ذلك.

وأما عماد الدين زنكي فإنه ذكر أن السلطان سنجر قد أعطاه شحنة بغداد، فعاد المسترشد بالله إلى بغداد، وأمر أهلها بالاستعداد للمدافعة عنها، وجند أجناداً جعلهم معهم.

ثم إن السلطان مسعوداً وصل إلى دادر، فلقيتهم طلائع السلطان سنجر في خلق كثير، فتأخر السلطان مسعود إلى كرماتشاهان، ونزل السلطان سنجر في أسدabad في مائة ألف فارس، فسار مسعود وأخوه سلجوقشاه إلى جبلين يقال لهما: كاو، وماهي، فنزلا بينهما، ونزل السلطان سنجر كنكور، فلما سمع بانحرافهم أسرع في طلبهم، فرجعوا إلى ورائهم مسيرة أربعة أيام في يوم وليلة، فالتقى العسكران بعولان، عند الدنور، وكان مسعود يدافع الحرب انتظاراً لقدوم المسترشد، فلما نازله السلطان سنجر لم يجذ بداً من المصاف، وجعل سنجر على ميمنته طغرل ابن أخيه محمد، وقماج، وأمير أميران، وعلى ميسرته خوارزمشاه اتيز بن محمد مع جمع من الأمراء، وجعل مسعود على ميمنته قراجه الساقى، والأمير قزل، وعلى ميسرته يرتقش بازدار، ويوسف جاووش، وغيرهما، وكان قزل قد واطأ سنجر على الانهزام.

ووقعت الحرب، وقامت على ساق، وكان يوماً مشهوداً، فحمل قراجه الساقى على القلب، وفيه السلطان سنجر في عشرة آلاف فارس من شجعان العسكر، وبين يذبة الفيلة، فلما حمل قراجه على القلب، رجسج الملك طغرل، وخوارزمشاه إلى وراء ظهره، فصار قراجه في الوسط، فقاتل إلى أن جرح عدة جراحات، وقتل كثير من أصحابه، وأخذ هو أسيراً وبه جراحات كثيرة، فلما رأى السلطان مسعود ذلك انهزم وسلم من المعركة، (٦٧٨/١٠) وقتل يوسف جاووش، وحسين أزيك، وهما من أكابر الأمراء، وكانت الواقعة ثامن رجب من هذه السنة.

فلما تمت الهزيمة على مسعود نزل سنجر وأحضر قراجه، فلما حضر قراجه سبه وقال له: يا مفسد أي شيء كنت ترجو بقتالي؟ قال: كنت أرجو أن أقتلك وأقيم سلطاناً أحكم عليه. فقتله صبراً، وأرسل إلى السلطان مسعود يستدعيه، فحضر عنده، وكان قد بلغ خونج، فلما رآه قبله، وأكرمه، وغابته على العصيان عليه، ومخالفته، وأعادته إلى كنبجة، وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد في السلطنة، وخطب له في جميع البلاد، وجعل في وزارته أبا القاسم الأساباذي، وزير السلطان محمود، وعاد إلى خراسان،

فوصل إليها قبل وصول السلطان مسعود، ونزل في دار السلطان، وأكرمه الخليفة، واستخلفه لنفسه.

ثم وصل رسول السلطان مسعود يطلب الخطبة، ويتهدد إن منعها، فلم يجب إلى ما طلبه، فسار حتى نزل عباسية الخالص، وبرز عسكر الخليفة وعسكر سلجوقشاه وقراجه الساقى إلى أن يفرغ من حرب أتابك عماد الدين زنكي، وسار يوماً وليلة إلى المعشوق، وواقع عماد الدين زنكي فهزمه، وأسر كثيراً من أصحابه، وسار زنكي منهزماً إلى تكريت، فعبّر فيها دجلة، وكان الدردار بها حينئذ نجم الدين أيوب، فأقام له المعابر، فلما عبر أيمن الطلب، وسار إلى بلاده لإصلاح حاله وحال رجاله، وهذا الفعل من نجم الدين أيوب كان سبباً لاتصاله به والمصير في جملته، حتى آل بهم الأمر إلى ملك مصر والشام وغيرهما على ما تذكره.

وأما السلطان مسعود فإنه سار من العباسية إلى الملكية، ووقعت الطلائع بعضها عن بعض، ثم لم تزل المناوشة تجري بينه وبين أخيه سلجوقشاه يومئذ.

وأرسل سلجوقشاه إلى قراجه يستحثه على المبادرة، فعاد سريعاً وعبر (٦٧٩/١٠) دجلة إلى الجانب الشرقي، فلما علم السلطان مسعود بانتهزام عماد الدين زنكي رجع إلى ورائه، وأرسل إلى الخليفة يعرفه وصول السلطان سنجر إلى الري، وأنه عازم [على] قصد الخليفة وغيره، وإن رأيتم أن تنفق على قتاله، ودفعه عن العراق، ويكون العراق لوكيل الخليفة، فأنما موافق على ذلك، فأعاد الخليفة الجواب يستوفقه.

وتردّت الرسل في الصلح، فاصطلحوا على أن يكون العراق لوكيل الخليفة، وتكون السلطنة لمسعود، ويكون سلجوقشاه وليّ عهده، وتحالفوا على ذلك، وعاد السلطان مسعود إلى بغداد، فنزل بدار السلطان، ونزل سلجوقشاه في دار الشحنة، وكان اجتماعهم في جمادى الأولى.

ذكر الحرب بين السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر

لما توفّي السلطان محمود سار السلطان سنجر إلى بلاد الجبال، ومعه الملك طغرل ابن السلطان محمد، وكان عنده قد لازم، فوصل إلى الري، ثم سار منها إلى همدان، فوصل الخير إلى الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود بوصوله إلى همدان، فاستقرت القاعدة بينهما على قتاله، وأن يكون الخليفة معهم، وتجهز الخليفة، فتقدم قراجه الساقى، والسلطان مسعود، وسلجوقشاه نحو السلطان سنجر، وتأخر المسترشد بالله عن المسير معهم، فأرسل إلى قراجه، وألزمه، وقال: إن الذي تخاف من سنجر أجلاً أنا أفعله عاجلاً. فبرز حينئذ وسار على تربث، وتوقف إلى أن بلغ إلى خانقين وأقام بها.

فوصل إلى نيسابور في العشرين من رمضان سنة مئتين وعشرين وخمسمائة.]

وأما المسترشد بالله فكان منه ما نذكره.

ذكر مسير عماد الدين زنكي إلى بغداد وانهزامه

لما سار المسترشد بالله من بغداد، وبلغه انهزام السلطان مسعود، عزم على العود إلى بغداد، فأتاه الخبر بوصول عماد الدين زنكي إلى بغداد، ومعه دُيُوس بن صدقة، وكان السلطان مستنجر قد كاتبهما، وأمرهما بقصد العراق، والاستيلاء عليه، فلما علم الخليفة بذلك أسرع العود إليها، وعبر إلى الجانب الغربي، وسار فتزل بالعباسية، ونزل عماد الدين بالمنارية من دُجَيْل، والتقى بحصن البرامكة في السابع والعشرين من رجب، فابتدأ زنكي فحمل على ميمنة الخليفة، وبها جمال الدولة إقبال، فانهزموا منه، وحمل نظر الخادم من ميسرة الخليفة على (٦٧٩/١٠) ميمنة عماد الدين ودُيُوس، وحمل الخليفة بنفسه، واشتد القتال، فانهزم دُيُوس، وأراد عماد الدين الصبر، فرأى الناس قد تفرقوا عنه، فانهزم أيضاً، وقُتل من العسكر جماعة، وأسر جماعة، وبات الخليفة هناك ليلته، وعاد من الغد إلى بغداد.

ذكر حال دُيُوس بعد الهزيمة

وفيها عاد دُيُوس، بعد انهزامه المذكور، يلوذ ببلاد الحلة وتلك النواحي، وجمع جمعاً، وكانت تلك الولاية بيد إقبال المسترشدي، فأمد بعسكر من بغداد، فالتقى هو ودُيُوس، فانهزم دُيُوس واختفى في أجمه هناك، وبقي ثلاثة أيام لم يطعم شيئاً، ولم يقدر على التخلص منها، حتى أخرجه حماس على ظهره.

ثم جمع جمعاً وقصد واسط، وانضم إليه عسكرها، وبختيار وشاق، وابن أبي الجبر، ولم يزل فيها إلى أن دخلت سنة سبع وعشرين [وخمسمائة]، فنفذ إليهم يرنقش بازدار، وإقبال الخادم المسترشدي، في عسكر، فاقتلوا في الماء والبر، فانهزم الواسطيون ودُيُوس، وأسر بختيار وشاق وغيره من الأمراء.

ذكر وفاة تاج الملوك صاحب دمشق

في هذه السنة، في رجب، توفي تاج الملوك بورزي بن طفتكين، صاحب دمشق. (٦٨٠/١٠)

وسبب موته أن الجرح الذي كان به من الباطنية، وقد ذكرناه، اشتد عليه الآن، وأضعفه، وأسقط قوته، فتوفي في الحادي والعشرين من رجب، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل، ووصى بمدينة بعلبك وأعمالها لولده شمس الدولة محمد.

وكان بورزي كثير الجهاد، شجاعاً، مقداماً، سد مسد أبيه، وفائق عليه، وكان مُمدحاً، أكثر الشعراء مدائح، لا سيما ابن الخطاط، وملك بعده ابن شمس الملوك، وقام بتدبير الأمر بين يديه الحاجب يوسف بن فيروز، شحنة دمشق، وهو حاجب أبيه، واعتمد عليه، وابتدأ أمره بالرفق بالرعية، والإحسان إليهم، فكثر الدعاء له والقصد عليه.

ذكر ملك شمس الملوك حصن اللبوة وحصن راس وحصره بعلبك في هذه السنة ملك شمس الملوك إسماعيل، صاحب دمشق، حصن اللبوة، وحصن راس.

وسبب ذلك: أنهما كانا لأبيه تاج الملوك، وفي كل واحد منهما مستحفظ يحفظه، فلما ملك شمس الملوك بلغه أن أخاه شمس الدولة محمداً، صاحب بعلبك، وقد راسلها، واستمالها إليه، قسماً الحصنين إليه، وجعل فيهما من الجند ما يكتفيهما، فلم يظهر بذلك أثر بل راسل أخاه بلطف، يقبح هذه الحال، ويطلب أن يعيدهما إليه، فلم يفعل، فأغضى على ذلك، وتجهز من غير أن يعلم أحداً. (٦٨٠/١٠)

وسار هو وعسكره، آخر ذي القعدة، فطلب جهة الشمال، ثم عاد مغرباً، فلم يشعر من حصن اللبوة إلا وقد نزل عليهم، وزحف لوقته، فلم يتمكنوا من نصب منجنيق ولا غيره، فطلبوا الأمان، فبذله لهم، وتسلم الحصن من يومه، وسار من آخر النهار إلى حصن راس، فيغتمهم، وجرى الأمر فيه على تلك القضية، وتسلمه، وجعل فيهما من يحفظهما.

ثم رحل إلى بعلبك وحصرها، وفيها أخوه شمس الدولة محمد، وقد استمد، وجمع في الحصن ما يحتاج إليه من رجال وذخائر، فحصرهم شمس الملوك، وزحف في الفارس والراجل، وقتله أهل البلد على السور، ثم زحف عدة مرات، فملك البلد بعد قتال شديد، وقتل كثيرة، وبقي الحصن، فقاتله، وفيه أخوه، ونصب المجانيق، ولزم القتال؛ فلما رأى أخوه شمس الدولة شدة الأمر أرسل ببذل الطاعة، ويسأل أن يُقر على ما بيده، وجعله أبوه باسمه، فأجاب به إلى مطلوبه، وأقر عليه بعلبك وأعمالها، وتحالفوا، وعاد شمس الملوك إلى دمشق وقد استقامت له الأمور.

ذكر الحرب بين السلطان طغرل والملك داود

في هذه السنة، في رمضان، كانت الحرب بين الملك طغرل وبين ابن أخيه الملك داود بن محمود، وكان سببها، أن السلطان سنجر أجلس الملك طغرل في السلطنة، كما ذكرناه، وعاد إلى خراسان لأنه بلغه أن صاحب (٦٨٢/١٠) ما وراء النهر أحمد خان قد عصى عليه، فبادر إلى العود لتلافي ذلك الخرق، فلما عاد إلى

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك شمس الملوك بانياس

في هذه السنة، في صفر، ملك شمس الملوك، صاحب دمشق، حين بانياس من الفرنج.

وسبب ذلك: إن الفرنج استضعفوه وطعموا فيه، وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم، ففتحوا إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت وأخذوها، فشكا التجار إلى شمس الملوك، فراسل في إعادة ما أخذوه، وكرّر القول فيه، فلم يردوا شيئاً، فجمعت الأنفة من هذه الحالة، والغضب، على أن جمع عسكره وتأهب، ولا يعلم أحد أين يريد.

ثم سار، وسبق خيزه، وأخّر المحرم من هذه السنة، ونزل على بانياس أول صفر، وقاتلها لساعته، وحرق إليها زحاً متتابعاً، وكانوا غير متأهبين، وليس فيها من المقاومة من يقوم بها وقرب من سور المدينة، وترجل بنفسه، وتبعه الناس من الفارس والراجل، ووصلوا إلى السور فقبوه ودخلوا البلد عنوة، (٦٨٥/١٠)، والتجأ من كان من جند الفرنج إلى الحصن، ويحصنوا به، فقتل من البلد كثير من الفرنج، وأسر كثير، ونهبت الأموال، وقاتل القلعة قتلاً شديداً ليلاً ونهاراً، فملكها رابع صفر بالأميان، وعاد إلى دمشق فوصلها سادسها.

وأما الفرنج فإنهم لما سمعوا نزوله على بانياس شرعوا يجمعون عسكراً يسرون به إليه، فاتاهم خبر فتحها، فبطل ما كانوا فيه.

ذكر حرب بين المسلمين والفرنج

في هذه السنة، في صفر، سار ملك الفرنج، صاحب البيت المقدس، في خياله، ورجاله إلى أطراف أعمال حلب، فوجه إليه الأمير أسوار، النائب بحلب، في من عنده من العسكر، وانضاف إليه كثير من التركمان، فاقتلوا عند قيسرين، فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانهزم المسلمون إلى حلب، وتردد ملك الفرنج في أعمال حلب، فعاد أسوار وخرج إليه فيمن معه من العسكر، فوقع على طائفة منهم، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم، والأسر، فعاد من منظم منهزم إلى بلادهم، وانجبر ذلك المصائب بهذا الظفر، ودخل أسوار حلب، ومعه الأمري، ووؤوس القتلى، وكان يوماً مشهوداً.

ثم إن طائفة من الفرنج من الرها قصدوا أعمال حلب للغارة عليها، فسمع بهم أسوار، فخرج إليهم هو والأمير حسان البعلبكي، فأوقعوا بهم، وقتلوه من آخرهم في بلد الشمال، وأسروا من لم يقتل، ورجعوا إلى حلب سالمين. (٦٨٦/١٠)

خراسان عصى الملك داود على عمه طغرل، وخالفه، وجمع العساكر بأذربيجان، وبلاد كنج، وسار إلى همدان، فبطل رمضان، عند قرية يقال لها وهان، بقرب همدان.

وخرج إليه طغرل، وصبا كل واحد منهما أصحابه ميمنة وميسرة، وكان على ميمنة السلطان طغرل بن برشيق، وعلى ميسرته قول، وعلى مقدمته قراستقر، وكان على ميمنة داود يرتقش الزكوي، ولم يقاتل، فلما رأى التركمان ذلك نهبوا خيمه وبركه جميعه، ووقع الخلف في عسكر داود، فلما رأى أتابكه أقتسر الأحمديلي ذلك ولّى هرباً، وتبعه الناس في الهزيمة، وقبض طغرل على يرتقش الزكوي، وعلى جماعة من الأمراء.

وأما الملك داود فإنه لما انهزم بقي متحيراً إلى أوائل ذي القعدة، ففقد بغداد ومعه أتابكه أقتسر الأحمديلي، فأكرمه الخليفة وأنزله بدار السلطان، وكان الملك مسعود بكنجة، فلما سمع بانهزام الملك داود توجه نحو بغداد، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض المسترشد بالله على وزيره شرف الدين علي بن طراد الزيني، واستوزر أنوشروان بن خالد، بعد أن امتنع، وسأله الإقالة. (٦٨٣/١٠)

وفي هذه السنة قتل أحمد بن حامد بن محمد أبو نصر مستوفي السلطان محمود، الملقب بالعزيز، بقلعة تكريت، وقد تقدم سبب ذلك سنة خمس وعشرين وخمسمائة.

وفي المحرم منها قتل محمد بن محمد بن الحسين أبو الحسين بن أبي يعلى بن الفراء الحنبلي، مولده في شعبان سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وسمع الحديث من الخطيب أبي بكر، وابن الحسين بن المهدي، وغيرهما، وتفقه، قتله أصحابه غيلة، وأخذوا ماله.

وفي جمادى الأولى توفي أحمد بن عبيد الله بن كادش أبو العز المكي، وكان محدثاً كثيراً.

وتوفي فيها أبو الفضل عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء، وكان أديباً، وله شعر حسن، فمته ما كتبه إلى جلال الدين بن صدقة الوزير.

أولانا جلال الدين، يامن أدكبره بخلعتسي القديسة ألم تك قد غرمت على اصطياحي، فماذا صد عن تلك العزيمه؟ (٦٨٤/١٠)

ذكر عود السلطان مسعود إلى السلطنة وانهزام الملك طغرل

قد تقدّم ذكر انهزام السلطان مسعود من عمه السلطان سنجر، وعوده إلى كنجة، وولاية الملك طغرل السلطنة، وأنه تحارب هو والملك داود ابن أخيه محمود، وانهزام داود ودخوله بغداد، فلما بلغ السلطان مسعوداً، انهزام داود وقصده بغداد، سار هو إلى بغداد أيضاً، فلما قاربها لقيه داود، وترجّل له وخدعه، ودخل بغداد.

ونزل مسعود بدار السلطنة في صفر من هذه السنة، وخاطب في الخطبة له، فأجيب إلى ذلك، وخطب له ولد داود بعده، وخلع عليهما، ودخلا إلى الخليفة فأكرمهما، ووقع الاتفاق على مسير مسعود وداود إلى أذربيجان، وأن يرسل الخليفة معهما عسكرياً، فساروا، فلما وصلوا إلى مراغة حمل أفسنقر الأحمديلي مالا كثيراً، وإقامة عظيمة، وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان، وانهزم من بها من الأمراء مثل قراستقر، وغيره من بين يديه، وتحصّن منه كثير منهم بمدينة أردبيل، فقصدهم وحصرهم بها، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وانهزم الباقون.

ثم سار بعد ذلك إلى همدان لمحاربة أخيه الملك طغرل، فلما سمع طغرل بقربه برز إلى لقائه، فاقتتلا إلى الظهر، ثم انهزم طغرل وقصد الري، واستولى السلطان مسعود على همدان في شعبان، ولما استقرّ مسعود بهمدان قتل أفسنقر الأحمديلي، قتله الباطنية، فقبل إن السلطان مسعوداً وضع عليه من قتله. (٦٨٧/١٠)

ثم إن طغرل لما بلغ قم عاد إلى أصبهان ودخلها، وأراد التحصّن بها، فسار إليه أخوه مسعود ليحاصره بها، فرأى طغرل أنّ أهل أصبهان لا يطاوعونه على الحصار، فرحل عنهم إلى بلاد فارس، واستولى مسعود على أصبهان، وفرج أهلها به، وسار من أصبهان نحو فارس يقتصن أثر أخيه طغرل، فوصل إلى موضع بقرب البيضاء، فاستأمن إليه أمير من أمراء أخيه معه أربعمائة فارس، فأمنه، فخاف طغرل من عسكره أن ينحازوا إلى أخيه، فانهزم من بين يديه، وقصد الري في رمضان، وقتل وزيره أبو القاسم الأنساباذي في الطريق، في شوال، قتله غلمان الأمير شيركير الذي سعى في قتله، كما تقدّم ذكره.

وسار السلطان مسعود يتبعه، فلحقه بموضع يقال له ذكراور، فوقع بينهما المصاف هناك، فلما اشتبكت الحرب انهزم الملك طغرل، فوقع عسكره في أرض قد نضب عنها الماء، وهي وحل، فأسر منهم جماعة من الأمراء منهم: الجانب تنكر، وابن بفراء، فاطلقهم السلطان مسعود، ولم يقتل في هذا المصاف إلا نفر يسير ورجع السلطان مسعود إلى همدان. (٥/١١)

ذكر حصر المسترشد بالله الموصل

في هذه السنة (٥٢٧) حصر المسترشد بالله مدينة الموصل في العشرين من شهر رمضان، وسبب ذلك ما تقدّم من قصد الشهيد زنكي بغداد على ما ذكرناه قبل. فلما كان الآن قصد جماعة من الأمراء السلجوقية باب المسترشد بالله وصاروا معه فقوي بهم.

واشتغل السلاطين السلجوقية بالخلف الواقع بينهم، فأرسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الأسفراييني الواعظ إلى عماد الدين زنكي برسالة فيها خشونة وزادها أبو الفتوح زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة، فقبض عليه عماد الدين زنكي وأهانته ولقيه بما يكره، فأرسل المسترشد بالله إلى السلطان مسعود يعرفه الحال الذي جرى من زنكي ويُعلمه أنه على قصد الموصل وحصرها، وتمادت الأيام إلى شعبان فسار عن بغداد في النصف منه في ثلاثين ألف مقاتل.

فلما قارب الموصل فارقتها أنابك زنكي في بعض عسكره وترك الباقي بها (٦/١١) مع نائبه نصير الدين جقر دزدارها والحاكم في دولته وأمرهم بحفظها ونازلها الخليفة وقاتلها وضيق على من بها، وأما عماد الدين فإنه سار إلى سينجار وكان يركب كلّ ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ومتى ظفر بأحد من العسكر أخذه ونكل به.

وضاقت الأمور بالعسكر أيضاً وتواطأ جماعة من الجصاصين بالموصل على تسليم البلد فسعى بهم فأخذوا وصلبوا.

وبقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر. ولم يظفر منها بشيء ولا بلغه عن بها وهن ولا قلة ميرة وقوت فرحل عنها عائداً إلى بغداد، فقيل إن نظر الخادم وصل إليه من عسكر السلطان وأبلغه عن السلطان مسعود ما أوجب مسيره وعوده إلى بغداد: وقيل بل بلغه أنّ السلطان مسعوداً عزم على قصد العراق فعاد بالجملة وأنه رحل عنها متحذراً في شبارة في دجلة فوصل إلى بغداد يوم عرفة.

ذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة

وفي هذه السنة أيضاً، في شوال، ملك شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة وقلعتها، وهي لأنابك زنكي بن أفسنقر أخذها من تاج الملوك كما ذكرناه. ولما ملك شمس الملوك قلعة بانيس أقام بدمشق إلى شهر رمضان من هذه السنة وسار منها إلى حماة في العشر الأخير منه.

وسبب طمعه أنه بلغه أنّ المسترشد بالله يريد [أن] يحصر الموصل قطع وكان الوالي بحماة قد سمع الخبر فتحصّن واستكثر من الرجال والذخائر، ولم (٧/١١) يبق أحد من أصحاب

وفيها، تابع ربيع الآخر، وثب على شمس الملوك صاحب دمشق بعض ممالك جده طغتكين، فضربه سيف فلم يعمل فيه شيئاً، وتكاثر عليه ممالك شمس الملوك فأخذوه وقُرِّرَ ما الذي حمله على ما فعل فقال: أردت إراحة المسلمين من شرك وظلمك: ولم يزل يُضرب حتى أقرَّ على جماعة أنهم وضعوه (٩/١١) على ذلك، فقتلهم شمس الملوك من غير تحقيق، وقتل معهم أخاه سونج، فعظم ذلك على الناس ونفروا عنه.

وفيها توفي الشيخ أبو الوفاء الفارسي، وكان له جنازة مشهودة حضرها أعيان بغداد.

وفيها، في رجب توفي القاضي أبو العباس أحمد بن سلامة بن عبد الله ابن مُخلد المعروف بابن الرطبي الفقيه الشافعي قاضي الكرخ، وتفقه على أبي إسحاق وأبي نصر بن الصَّبَّاح، وسمع الحديث ورواه، وكان قريباً من الخليفة يُؤدِّب أولاده.

وتوفي أبو الحسين علي بن عبد الله بن نصر المعروف بابن الزاغوني الفقيه الحنبلي الواعظ، وكان ذا فنون: توفي في المحرم.

وتوفي علي بن يعلى بن عوض بن القاسم الهروي العلوي: كان واعظاً، وله بخراسان قبول كثير، وسمع الحديث الكثير: ومحمد بن أحمد بن علي أبو عبد الله العثماني الديباجي، وهو من أولاد محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان. وكان محمد يلقب بالديباج لحسنه، وأصله من مكَّة، وهو من أهل نابلس، وكان مغالياً في مذهب الأشعري، وكان يعظ توفي في صفر.

وفيها توفي أبو قَلْبَةَ أمير مكَّة، وولي الإمارة بعده ابنه القاسم.

وفيها توفي العزيز بن هبة الله بن علي الشريف العلوي الحسيني فجأةً بنيسابور. وكان جده تقبب النقباء بخراسان. وعُرض على العزيز هذا نقابة (١٠/١١) العلويين بنيسابور فامتنع، وعُرض عليه وزارة السلطان فامتنع، ولزم الانقطاع والاشتغال بأمر آخره.

وفيها توفي قاضي قضاة خراسان أبو سعيد محمد بن أحمد بن صاعد، وكان خيراً صالحاً. (١١/١١)

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

ذكر مُلك شمس الملوك شقيف تيزون ونهبه بلد الفرنج في هذه السنة، في المحرم، سار شمس الملوك إسماعيل من دمشق إلى شقيف تيزون وهو في الجبل المطل على بيروت وضيدا، وكان بيد الضحَّاك بن جندل رئيس وادي التيم، قد تغلب عليه وامتنع به، فتحاماه المسلمون والفرنج، يعتصم على كل طائفة بالأخرى، فسار شمس الملوك إليه هذه السنة، وأخذه منه في

شمس الملوك إلا وأشار عليه بترك قصدها لقوة صاحبها، فلم يسمع منهم، وسار إليها وحصر المدينة وقَاتَلَ مَنْ بها يوم العيد، وزحف إليها من وقته، فتحصَّنوا منه وقَاتَلوه فعاد عنهم ذلك اليوم.

فلَمَّا كان الغد بكر إليهم وزحف إلى البلد من جوانبه فملكه نهراً وغنوة وطلب مَنْ به الأمان فأمَّتهم وحصر القلعة، ولم تكن في الحصانة والمُلُو على ما هي عليه اليوم، فإن بقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قطع جليها وعملها هكذا في ستين كثيرة، فلَمَّا حصرها عجز الوالي بها عن حفظها فسلمها إليه، فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح وغير ذلك، وسار منها إلى قلعة شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فحصرها ونهب بلدها، فراسله صاحبها وصانعه بمال حمله إليه فعاد عنه إلى دمشق فوصل إليها في ذي القعدة من السنة المذكورة.

ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجي

وفي هذه السنة عبر إلى الشام جمع كثير من التركمان من بلاد الجزيرة، وأغاروا على بلاد طرابلس وغنموا وقتلوا كثيراً: فخرج القمَّص صاحب طرابلس في جموعه فاتزاح التركمان من بين يديه، فتبعهم فعادوا إليه وقَاتَلوه فهزموه وأكثروا القتل في عسكره، ومضى وهو ومن سلم معه إلى قلعة بعين فتحصَّنوا فيها وامتنعوا على التركمان، فحصرهم التركمان فيها. فلَمَّا طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارساً من أعيان أصحابه سراً فنجواً وساروا إلى طرابلس وترك الباقين في بعين يحفظونها، فلَمَّا وصل (٨/١١) إلى طرابلس كاتب جميع الفرنج فاجتمع عنده منهم خلق كثير وتوجَّه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعين، فلَمَّا سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقتل بينهم خلق كثير وأشرف الفرنج على الهزيمة، فحملوا نفوسهم ورجعوا على حامية إلى رغبة فتعذر على التركمان اللحاق بهم إلى وسط بلادهم فعادوا عنهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اشترى الإسماعيلية بالشام حصن القُدُّوس من صاحبه ابن عمرون، وصعدوا إليه وقاموا بحرب مَنْ يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم.

وفيها وقع الخلاف بين الفرنج بالشام فقاتل بعضهم بعضاً ولم تجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة وقتل بينهم جماعة.

وفيها، في جمادى الآخرة، أغار الأمير أسوار مُقَدِّم عسكر زنكي بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير، فخرج إليه الفرنج في جمع كثير فقاتلوه، فظفر بهم وأكثر القتل فيهم، وكان عدة القتلى نحو ألف قتيل، وعاد سالماً.

قلعة الصور

في هذه السنة اجتمع أنابك زنكي صاحب الموصل وتبرناش صاحب ماردين وقصدا مدينة أيد فحصرها، فأرسل صاحبها إلى داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا يستجده، فجمع من أمكنه جمعه وسار نحو أيد ليرحلها عنها، فالتقوا على باب أمد، وتصافوا في جمادى الآخرة، فانهزم داود، وعاد مفلولاً، وقُتل جماعة من عسكره.

وأقام زنكي وتبرناش على أيد محاصرين لها، وقطعا الشجر، وشبنا البلد وعادا عنها من غير بلوغ غرض، فقصد زنكي قلعة الصور من ديار بكر وحصرها وضيقها، فملكها في رجب من هذه السنة، واتصل به ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتوشي فاستوزره زنكي، وكان حسن الطريقة، عظيم الرئاسة والكفاية، محباً للخير وأمله. (١٤/١١)

ذكر ملك زنكي قلاع الأكراد الحميدية

في هذه السنة استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرها.

وكان لما ملك الموصل أقر صاحبها الأمير عيسى الحميدي على ولايتها وأعمالها، ولم يعترضه على شيء مما هو بيده: فلما حصر المسترشد الموصل حضر عيسى هذا عنده وجمع الأكراد عنده فآثر، فلما رحل المسترشد عن الموصل أمر زنكي أن تحصر قلاعهم فحُصرت مدة طويلة وقُوتلت قتالاً شديداً إلى أن بُلكت هذه السنة، فاطمان إذا أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم فإنهم كانوا معهم في ضيقة كبيرة من نهب أموالهم وخراب البلاد.

ذكر ملك قلاع الهكارية وكواشي

وحكى عن بعض العلماء من الأكراد ممن له معرفة بأحوالهم أن أنابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية وأجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد الله صاحب قلعة أشب والجزيرة ونوشى، فأرسل إلى أنابك زنكي من استخلفه له وحمل إليه مالا: وحضر عند زنكي بالموصل فبقي مدة ثم مات دفن بثل توبة. ولما سار عن أشب إلى الموصل أخرج ولده أحمد بن أبي الهيجاء (١٥/١١) منها خوفاً أن يتغلب عليها، وأعطاه قلعة نوشى: وأحمد هذا هو والد علي بن أحمد المعروف بالمشطوب من أكابر أمراء صلاح الدين بن أيوب بالشام.

ولما أخرجه أبوه من أشب استتاب بها كردياً يقال له باو الأرجي، فلما مات أبو الهيجاء سار ولده أحمد بن نوشى إلى أشب ليملكها، فمنعه باو، وأراد حفظها لولد صغير لأبي الهيجاء اسمه

المحرّم، وعظم أخذه على الفرنج لأن الضحك كان لا يتعرض لشيء من بلادهم المجاورة له: فخافوا شمس الملوك، فشرعوا في جمع عساكرهم، فلما اجتمعت ساروا إلى بلد حوران، فخربوا أمهات البلد، ونهبوا ما أمكنهم نهبه نوبة عظيمة.

وكان شمس الملوك، لما رآهم يجمعون، جمع هو أيضاً وحشد وحضر عنده جمع كثير من التركمان وغيرهم، فنزل بإزاء الفرنج، وجرت بينهم مناوشة عدة أيام، ثم شمس الملوك نهض ببعض عسكره، وجعل الباقي قبالة الفرنج، وهم لا يشعرون، وقصد بلادهم طبرية والناصرية وعكا وما يجاورها من (١٢/١١) البلاد، فنهب وخرب وأحرق وأهلك أكثر البلاد وسبى النساء والذرية، وامتلأت أيدي من معه من الغنائم: واتصل الخبر بالفرنج، فانزعجوا، ورخلوا في الحال لا يلوي أخ على أخيه وطلبوا بلادهم.

وأما شمس الملوك فإنه عاد إلى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الفرنج، فوصل سالماً ووصل الفرنج إلى بلادهم ورأوها خراباً ففت في أعضادهم وتفرقوا، وراسلوا في تجديد الهدنة قسم ذلك في ذي القعدة للسنة.

ذكر عود الملك طغرل إلى الجبل وانهزام الملك مسعود

في هذه السنة عاد الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه ملك بلاد الجبل جميعها وأجلى عنها أخاه السلطان مسعوداً.

وسبب ذلك أن مسعوداً لما عاد من حرب أخيه بلغه عساكر داود ابن أخيه السلطان محمود بأذربيجان، فسار إليه وحصره بقلعة روتين دز وكان قد تحصن بها واشتغل بحصره، فجمع الملك طغرل العساكر ومال إليه بعض الأمراء الذين مع السلطان مسعود ولم يزل يفتح البلاد، فكثرت عساكره وقصد مسعوداً، فلما قارب قزوین سار مسعود نحوه، فلما تراءى العسكران فارق مسعوداً من أمرائه من كان قد استماله طغرل فبقي في قلعة من العسكر، فولى منهزماً وأواخر رمضان.

وأرسل إلى المسترشد بالله في القدوم [إلى] بغداد، فأذن له، وكان نائبه بأصفهان البقش السلاحي، ومعه الملك سلجوقشاه، فلما سمع بانهزام مسعود قصد بغداد أيضاً، فنزل سلجوقشاه بدار السلطان، فآكرمه (١٣/١١) الخليفة، وأقذ إليه عشرة آلاف دينار، ثم قصد مسعود بغداد وأكثر أصحابه ركاب جمال لعدم ما يركبونه، ولقي في طريقه شدة، فأرسل إليه الخليفة الدواب والخيام والآلات وغيرها من الأموال والثياب، فدخل الدار السلطانية ببغداد متصيف شوال وأقام طغرل بهمدان.

ذكر حصر أنابك زنكي أيد والحرب بينه وبين داود وملك زنكي

علي، فسار زنكي بعسكره فنزل على أشب وملكها.

وسب ملوكها أن أهلها نزلوا كلهم إلى القتال، فتركهم زنكي حتى قاربوه واستجروهم حتى أبعدها عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا، فوضع السيف فيهم، فأكثر القتل والأسر، وملك زنكي القلعة في الحال وأحضر جماعة من مقدمي الأكراد فيهم باو فقتلهم وعاد عنها إلى الموصل، ثم سار عنها، فقبض غيثة أرسل نصير الدين جقر نائب زنكي وغرب أشب وخلص كهيجة ونوشى وقلعة الجلاب، وهي قلعة العمادية، وأرسل إلى قلعة الشهباني وفتح وكوش والعفران وألقى ونيرة، وهي حصون المهرانية، فحصرها فملك الجميع، واستقام أمر الجبل والزوزان، وأمنت الرعايا من الأكراد.

وأما باقي قلاع الهكارية جل صورا، وغرور، والملاسي، وما برها وبابوخا وباكزا ونيساس، فإن قراجه صاحب العمادية فتحها من مدة طويلة بعد قتل زنكي، وقراجه هذا كان أميراً قد أقطعه زين الدين علي بلد الهكارية بعد قتل زنكي، ولم أعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهاذا ذكرته هاهنا.

وحكى غير هذا بعض فضلاء الأكراد وخالف فيه فقال: إن زنكي لما فتح قلعة أشب وغيرها وبني قلعة العمادية ولم يبق في الهكارية إلا صاحب جل صورا وصاحب غرور، ولم يكن لهما شوكة يخاف منها، عاد إلى الموصل، (١٦/١١) فخافه أصحاب القلاع الجبلية، فاتفق أن عبد الله بن عيسى بن إبراهيم صاحب الريبة وألقى وفتح وغيرها توفي وملكها بعده ولده علي، وكانت والدته خديجة بنت الحسن أخت إبراهيم وعيسى، وهما من الأمراء، مع زنكي، وكانا بالموصل، فأرسلها ولد علي إلى أخوها وطلبا له الأمان من زنكي وحلفاه له ففعل، ونزل إلى خدمة زنكي وأقره على قلاعه واشتغل زنكي بفتح قلاع الهكارية، وكان الشهباني يبد أمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر، فأخذه منه وقرّبه منه لكبره وقلة أعماله.

وكان نصير الدين جقر يكره علياً صاحب الريبة وغيرها، فحسن لزنكي القبض عليه، فأذن له في ذلك، فقبض عليه ثم ندّم زنكي على قبضه فأرسل إلى نصير الدين أن يطلقه فراه قد مات، قيل إن نصير الدين قتله. ثم أرسل العسكر إلى قلعة الريبة فنازلوها بفتة، فملكوها في ساعة، وأمسروا كل من بها من ولد علي وإخوته وأخواته، وكانت والدته علي خديجة غائبة فلم توجد، فلما سمع زنكي الخبر بفتح الريبة سره، وأمر أن تسير العساكر إلى باقي القلاع التي لعللي، فسارت العساكر، فحصرها، فأروها منيعة، فراسلهم زنكي ووعدهم الإحسان، فاجابوه إلى التسليم على شرط أن يطلق كل من في السجن منهم، فلم يجبههم إلى ذلك، إلا أن

يسلموا أيضاً قلعة كراشي، فمضت خديجة والدته علي إلى كراشي واسم خول وهرون وهو من المهرانية، فسألته النزول عن كراشي، فاجابها إلى ذلك، وتسلم زنكي القلاع وأطلق الأسرى، فلم يسمع بمثل هذا، فقال يتزل من مثل كراشي لقلول امرأة فإما أن يكون أعظم الناس مروءة لا يرد من دخل بيته، وإما أن يكون أقل الناس عقلاً: واستقامت ولاية الجبال. (١٧/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أوقع الدانشمند صاحب ملطية بالفوج الذين بالشام، فقتل كثيراً منهم وأسر كثيراً.

وفيها اصطلع وأتابك زنكي: وفيها، في ربيع الأول، عزل شرف الدين أنوشروان بن خالد عن وزارة الخليفة.

وفيها توفيت أم المسترشد بالله.

وفيها سير المسترشد عسكراً إلى تكريت فحصرها مجاهد الدين بهروز فصانع عنها بمال فعادوا عنه.

وفيها اجتمع جمع من العساكر السنجية مع الأمير أرغش وحصروا قلعة كردكوه بخراسان، وهي للإسماعيلية، وضيقوا على أهلها وطال حصرها، وعُدّت عندهم الأقوات، فأصاب أهلها تشنج وكزاز، وعجز كثير منهم عن القيام فضلاً عن القتال، فلما ظهرت أمارات الفتح رحل الأمير أرغش فقبل إنهم حملوا إليه مالاً كثيراً وأعطاه نفيسة، فرحل عنهم.

وفيها توفي الأمير سليمان بن مهارش العقيلي أمير بني عقيل وولي الإمارة بعده أولاده مع صغر سنهم، وطيف بهم في بغداد رعاية لحق جدّهم مهارش، فإنه هو الذي كان الخليفة القائم بأمر الله عنده في الحديث لما فعل به الباسيري ما ذكرنا.

وفيها، في المحرم، توفي الفقيه أبو علي الحسن بن إبراهيم بن فروه الشافعي الفارقي، ومولده بميفارقين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، وتفق بها علي أبي عبد الله الكازروني، فلما توفي الكازروني انحدر إلى بغداد وتفق على أبي إسحاق الشيرازي وأبي نصر الصائغ، وولي القضاء بواسط، وكان خيراً فاضلاً لا يوراري ولا يحابي أحداً في الحكم. (١٨/١١)

وفيها توفي عبد الله بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو محمد بن أبي بكر الفقيه الشافعي: تفقه على أبيه وأتقن وناظر، وكان يعظ ويكثر في كلامه من التجانس، فمن ذلك قوله: أين القدود العالية، والخدود الورديّة، ملئت بها والله العالية والورديّة، وهما مقبرتان بنهر المعلن. ومن شعرة:

الدمع فمأيسل من اجشاني إن عشت مع البكا فما اجشاني

ولما توفي ووصل الخبر إلى مسعود سار من ساعته نحو همدان، وأقبلت العساكر جميعها إليه، واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد، وكان قد خرج في صحبته هو وأهله، ووصل مسعود إلى همدان واستولى عليها وأطاعته البلاد جميعها وأهلها.

ذكر قتل شمس الملوك ومُلك أخيه

في هذه السنة رابع عشر ربيع الآخر، قُتل شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، وسبب قتله أنه ركب طريقاً شنيعاً من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم من أعمال البلد، وبائع في العقوبات لاستخراج الأموال، وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس بحيث إنه لا يأخذ من أخذ الشيء الحقيق بالعدوان، إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة وكرهه أهله وأصحابه ورعيته.

ثم ظهر عنه أنه كاتب عماد الدين زنكي يُسلم إليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال، ونقل الجميع إلى صرخد، وتابع الرسل إلى زنكي يحث على الوصول إليه ويقول له: إن أهملت المجيء سلمتها إلى الفرنج: فسار زنكي، فظهر الخبر بذلك في دمشق فامتعض أصحاب أبيه وجده لذلك وأقلقهم، وأنهوا الحال لوالدته فساءها وأشفت منه، ووعدهم بالراحة من هذا الأمر.

ثم إنها ارتقت الفرصة في الخلوة من غلمانها، فلما رآته على ذلك أمرت غلمانها بقتله فقتل، وأمرت بإلقائه في موضع من السدار ليشاهده غلمانها (٢١/١١) وأصحابه، فلما راوه قتيلاً سرّوا لمصرعه وبالراحة من شره.

وكان مولده ليلة الخميس سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة، وقيل كان سبب قتله أن والده كان له حاجب اسمه يوسف بن فيروز وكان متمكناً منه حاكماً في دولته، ثم في دولة شمس الملوك بعده، فأنهم بآم شمس الملوك، ووصل الخبر إليه بذلك فهم بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر، وتحصن بها، وأظهر الطاعة لشمس الملوك، فأراد قتل أمه، فبلغها الخبر فقتلته خوفاً منه، والله أعلم.

ولما قُتل ملك بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري وجلس في منصبه وحلف له الناس كلهم واستقر في الملك، والله أعلم.

ذكر حصر أتابك زنكي دمشق

في هذه السنة حصر أتابك زنكي دمشق، وكان نزوله عليها أوّل جمادى الأولى، وسببه ما ذكرنا من إرسال شمس الملوك صاحبها إليه واستدعائه ليسلمها إليه، فلما [وصلت] كتيبه ورسله

سبحني شجني ومقتني سمتني العاقل بالعلم قد سمتني والذكر لهم يزيد في أشجاني والفرح مع الحمام قد أشجاني ضاقت يعاد مئيتي أعطاني والين يد الهموم قد أعطاني وفيها توفي ابن أبي الصلت الشاعر، ومن شعره يذم ثقيلًا:

لي صديق عجب كيف استطاعت هذه الأرض والجبال ثقلة أنا الزعامة مكروباً وثقلي منه ما ينسف الجبال ثقلة هو مثل المشيب أكثره رؤيا ه ولكن أصونك وأجله وله أيضاً:

ساد صغار الناس في عصرنا لا دام من عصر ولا كنا كالنمل مهمما هم أن ينفسي صار به اليأس فرزنا وفيها توفي محمد بن علي بن عبد الوهاب أبو رشيد الفقيه الشافعي من أهل طبرستان، وسمع الحديث أيضاً ورواه، وكان زاهداً عابداً أقام بجزيرة في البحر سنين متفرداً يعبد الله، سبحانه وتعالى، وعاد إلى أمل فتوفي فيها وقبره يزار. (١٩/١١)

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

ذكر وفاة الملك طغرل ومُلك مسعود بلد الجبل

قد ذكرنا قدوم السلطان مسعود إلى بغداد منهزماً من أخيه الملك طغرل بن محمد، فلما وصل إلى بغداد أكرمه الخليفة وحمل إليه ما يحتاج إليه مثله، وأمره بالمسير إلى همدان وجمع العساكر ومنازعة أخيه طغرل في السلطنة والبلاد، ومسعود يجد ويدافع الأيام، والخليفة يحثه على ذلك، ووعده أن يسير معه بنفسه، وأمر أن تُبرز خيامه إلى باب الخليفة.

وكان قد اتصل الأمير البقش السلاحي وغيره من الأمراء بالخليفة. وطلبوا خدمته، فاستخدمهم وأتفق معهم. وأتفق أن إنساناً أخذ فوجد معه ملطقات من طغرل إلى هؤلاء الأمراء وخاتمه بالإقطاع لهم، فلما رأى الخليفة ذلك قبض على أمير منهم اسمه أغلبك ونهب ماله، فاستشعر غيره من الأمراء الذين مع الخليفة، فهربوا إلى عسكر السلطان مسعود، فأرسل الخليفة إلى مسعود في إعادتهم إليه، فلم يفعل واحتج بأشباه، فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما وحشة أوجبت تأخره عن المسير معه، وأرسل إليه يلزمه بالمسير معه أمراً جزمًا، فبينما الأمر على هذا إذ جاءه الخبر بوفاة أخيه طغرل، وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة في المحرم، وكان خيراً عاقلاً عادلاً قريباً إلى الرعية محسناً إليها، وكان قبل موته قد خرج من داره يريد السفر إلى أخيه السلطان مسعود، فدعا له الناس، فقال: (٢٠/١١) ادعوا بخيرنا للمسلمين.

بذلك سار إليها، فقتل شمس الملوك قبل وصوله، ولما عبر الفرات أرسل إليه رسلاً في تقرير قواعد التسليم، فزأوا الأمر قد فات إلا أنهم أكرموا وأحسن إليهم وأعيدوا بأجمل جواب، وعرف زنكي قتل شمس الملوك، وأن القواعد عندهم مستقرة لشهاب الدين، والكلمة متفقة على طاعته، فلم يحفل زنكي بهذا الجواب، (٢٢/١١) وسار إلى دمشق فتأزله، وأجفل أهل السواد إلى دمشق، واجتمعوا فيها على محاربته.

ونزل أولاً شمالها ثم انتقل إلى ميدان الحصار، وزحف وقاتل. فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقاً تاماً على محاربته: وقام معين الدين أنز مملوك جده طغديكين في هذه الحادثة بدمشق قياماً مشهوداً، وظهر من معرفته بأمر الحصار والقتال وكفايته ما لم يُر وما كان سبب تقدمه واستيلائه على الأمور بأسرها، على ما نذكر إن شاء الله تعالى.

فبينما هو يحاصرها وصل رسول الخليفة المسترشد بالله وهو أبو بكر بن بشر الجزري من جزيرة ابن عمر بخلع لأتابك زنكي، ويأمره بمصالحة صاحب دمشق الملك ألب أرسلان محمود الذي مع أتابك زنكي، فرحل عنها ليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة المذكورة.

ذكر قتل حسن بن الحافظ

قد ذكرنا سنة ست وعشرين وخمسمائة أن الحافظ لدين الله صاحب مصر استوزر ابنه حسناً، وخطب له بولاية العهد، فبقي إلى هذه السنة ومات مسموماً. وسبب ذلك أن أباه الحافظ استوزره وكان جريئاً على سفك الدماء، وكان في نفس الحافظ على الأمراء الذين أعانوا أبا علي بن الأفضل حقاً، ويريد الانتقام منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه، فأمر ابنه حسناً بذلك، فتغلب على الأمر جميعه، واستبد به، ولم يبق لأبيه معه حكم، وقتل من الأمراء المصريين ومن أعيان البلاد أيضاً حتى إنه قتل في ليلة واحدة أربعين أميراً. (٢٣/١١)

فلما رأى أبوه تغلبه عليه أخرج له خادماً من خدم القصر الأكابر، فجمع الجموع وحشد من الرجالة خلقاً كثيراً، وتقدم إلى البلد، فأخرج إليهم حسن جماعة من خواصه وأصحابه، فقاتلوهم، فانهزم الخادم وقتل من الرجالة الذين معه خلق كثير، وعبر الباقون إلى بر الجزيرة، فاستكان الحافظ، ففسر تحت الحجر. ثم إن الباقين من الأمراء المصريين اجتمعوا واتفقوا على قتل حسن، وأرسلوا إلى أبيه الحافظ وقالوا له: إما أنك تسلم ابنك إلينا لقتله أو تقتلكما جميعاً: فاستدعى ولده إليه واحتاط عليه، وأرسل إلى الأمراء بذلك، فقالوا: لا نرضى إلا بقتله. فرأى أنه إن سلمه إليهم طمعوا فيه وليس إلى إبقائه سبيل، فأحضر طبيين كانا له أحدهما

مسلم والآخر يهودي، فقال لليهودي: نريد سماً نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة. فقال: أنا لا أعرف غير النعنع وماء الشعير وما شاكل هذا من الأدوية. فقال: أنا أريد ما أخلص به من هذه المضية. فقال له: لا أعرف شيئاً. فأحضر الطبيب المسلم وسأله عن ذلك، فصنع له شيئاً فسقاه الولد فمات لوقته: فأرسل الحافظ إلى الجند يقول لهم: إنه قد مات. فقالوا: نريد [أن] ننظر إليه: فأحضر بعضهم عنده فراؤه وظنوه قد عمل حيلة، فجرحوا أسفل رجله فلم يجر منها دم، فعلموا موته وخرجوا.

ودفن حسن وأحضر الحافظ الطبيب المسلم وقال له: ينبغي أن تخرج من عندنا من القصر، وجميع ما لك من الإنعام والجامكية باق عليك. وأحضر اليهودي وزاده وقال له: أعلم أنك تعرف ما طلبته منك ولكنك عاقل تقيم في القصر عندنا.

وكان حسن سعى السيرة ظالماً جريئاً على سفك الدماء وأخذ الأموال، فهجاه الشعراء، فمن ذلك ما قال المعتمد بن الأندلسي صاحب الترسل المشهور:

لم تات يا حسن بين الوزى حسناً ولم تر الحق في دنيا ولا دين (٢٤/١١)

قتل الفسوس بلا جرم ولا سبب والجور في أخذ أموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا أدب نية الملوكة وأخلاق المجانين
وقيل إن الحافظ لما رأى ابنه تغلب على الملك وضع عليه من سقاء السم فمات، والله أعلم.

ولما مات حسن استوزر الحافظ الأمير تاج الدولة بهرام، وكان نصرانياً، فتحكم واستعمل الأرمن على الناس، فاستأذوا المسلمين، وسيأتي ذكر ذلك سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة إن شاء الله تعالى.

ذكر مسير المسترشد إلى حرب السلطان مسعود وانهزاه

في هذه السنة كانت الحرب بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود في شهر رمضان، وسبب ذلك أن السلطان مسعوداً لما سافر من بغداد إلى همدان، بعد موت أخيه طغرل، وملكهها، فارقه جماعة من أعيان الأمراء منهم يرتقش بازدار وقزل آخر وسفر الخماركيين والي همدان، وعبد الرحمن بن طغايك، وغيرهم، خافين منه، مستوحشين، ومعهم عدد كثير وانضاف إليهم ديس بن صدقة. وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون منه الأمان ليحضروا خدمته، فقيل له: إنها مكيدة لأن ديساً معهم. وساروا نحو خوزستان، واتفقوا مع برسق بن برسق، فأرسل الخليفة إليهم سديد الدولة ابن الأتباري بتوقيعات إلى الأمراء المذكورين بتطيب نفوسهم والأمر بحضورهم. (٢٥/١١)

من البغداديين قتلناه: فرجع الناس كلهم على أقيح حالة لا يعرفون طريقاً وليس معهم ما يحملهم، وسير السلطان الأمير بك أبه المحمودي إلى بغداد شحنة فوصلها سُلخ رمضان ومعه عبيد، فقبضوا جميع أملاك الخليفة وأخذوا غلاتها.

وثار جماعة من عامة بغداد، فكسروا المنبر والشباك، ومنعوا من الخطبة، وخرجوا إلى الأسواق يَحْثُونَ التراب على رؤوسهم ويكونون ويصيحون، وخرج النساء حاسرات في الأسواق يلطمن، واقتتل أصحاب الشحنة وعامة بغداد فقتل من العامة ما يزيد على مائة وخمسين قتيلاً، وهرب الوالي وحاجب الباب. (٢٧/١١)

وأما السلطان فإنه سار في شوال من همدان إلى مراغة لقتال الملك داود ابن أخيه محمود، وكان قد عصى عليه، فتنزل على فرسخين من مراغة، والمسترشد معه، فتردّت الرسل بين الخليفة وبين السلطان في الصلح، فاستقرّت القاعدة على ما نذكره إن شاء الله، والله الموفق.

ذكر قتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله

لما قبض المسترشد بالله أبو منصور بن الفضل بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد، على ما ذكرناه، أنزله السلطان مسعود في خيمة، ووكل به من يحفظه، وقام بما يجب من الخدمة، وتردّت الرسل بينهما في الصلح وتقرير القواعد على مال يؤذيه الخليفة، وأن لا يعود يجمع العساكر وأن لا يخرج من داره، فأجاب السلطان إلى ذلك، وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبق إلا أن يعود إلى بغداد. فوصل الخبر أن الأمير قرآن خوان قد قدم رسولاً من السلطان سنجر، فآخرو مسير المسترشد لذلك، وخرج الناس والسلطان مسعود إلى لقائه، وفارق الخليفة بعض من كان موثقاً به، وكانت خيمته منفردة عن العسكر، فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه، وجرّوه ما يزيد على عشرين جراحة، ومثلوا به فجذعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً، وقتل معه نفر من أصحابه منهم أبو عبد الله بن سكينه، وكان قتله يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة، وبقي حتى دفنه أهل مراغة.

وأما الباطنية فقتل منهم عشرة، وقيل: بل قتلوا جميعهم، والله أعلم. (٢٨/١١) وكان عمره لما قُتل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً، وأمه أم ولد، وكان شهماً شجاعاً، كثير الإقدام، بعيد الهمة، وأخباره المذكورة تدلّ على ما ذكرناه. وكان فصيحاً بليغاً حسن الخط، ولقد رأيت خطه في غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصح.

ولما قُتل المسترشد بالله بوبع ولده أبو جعفر المنصور، ولُقّب

وكان الأمراء المذكورون قد عزموا على قبض ديبس والتقرّب إلى الخليفة بحمله إليه، فبلغه ذلك فهرب إلى السلطان مسعود. وسار الأمراء إلى بغداد في رجب، فآكرمهم الخليفة وحمل إليهم الإقامات والخلع، وقطعت خطب السلطان مسعود من بغداد، وبرز الخليفة في العشرين من رجب على عزم المسير إلى قتال مسعود وأقام في الشفيعي، فعصى عليه بكبه صاحب البصرة فهرب إليها، فراسله وبذل له الأمان فلم يعد إليه.

وترثت الخليفة عن المسير وهؤلاء الأمراء يحسّنون له الرحيل، ويسهلون عليه الأمر، ويضعفون عنده أمر السلطان مسعود، فسير مقدّمه إلى حلوان فهبوا البلاد، وأفسدوا ولم ينكر عليهم أحد شيئاً، ثم سار الخليفة ثامن شعبان ولحق به في الطريق الأمير برسق بن برسق فبلغت عدّتهم سبعة آلاف فارس وتخلّف بالعراق مع إقبال خادم المسترشد بالله ثلاثة آلاف فارس.

وكان السلطان مسعود بهمدان في نحو ألف وخمسمائة فارس، وكان أكثر أصحاب الأطراف يكتبون الخليفة ويبدلون له الطاعة، فترثت في طريقه، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم حتى صاروا في نحو خمسة عشر ألف فارس، وتسلسل جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقي في خمسة آلاف، وأرسل أتاك زككي نجدة فلم تلحق.

وأرسل الملك داود ابن السلطان محمود وهو بأذربيجان إلى الخليفة يشير بالميل إلى الدنور ليحضر بنفسه وعسكره، فلم يفعل المسترشد ذلك وسار حتى بلغ دايمرج، وعبّا أصحابه، فجعل في الميمنة يرنش بازدار ونور الدولة سنقر وقزل آخر وبرسق بن برسق، وجعل في الميسرة جاولي (٢٦/١١) وبرسق شراب ملار وأغلبك الذي كان الخليفة قد قبض عليه وأخرجه من محبسه.

ولما بلغ السلطان مسعوداً خبرهم سار إليهم مجداً، فواقعهم بدايمرج عاشر رمضان، وانحازت ميسرة الخليفة مخامرة عليه إلى السلطان مسعود فصارت معه، واقتلت ميمته وميسرة السلطان قتالاً ضعيفاً، ودار به عسكر السلطان وهو ثابت لم يتحرك من مكانه، وانتهز عسكره وأخذ هو أسيراً ومعه جمع كثير من أصحابه منهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي وقاضي القضاة وصاحب المخزن ابن طلحة، وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم، وأنزل الخليفة في خيمة وغنموا ما في معسكره وكان كثيراً، فحمل الوزير وقاضي القضاة وابن الأنباري وصاحب المخزن وغيرهم من الأكابر إلى قلعة سرجهان، وباعوا الباقين بالثمن الطفيف، ولم يقتل في هذه المعركة أحدٌ وهذا من أعجب ما يُحكى.

وعاد السلطان إلى همدان وأمر فتودي: من تبعنا إلى همدان

الإصلاح، فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصل ويقول إن الخوف (٣٠/١١) منعه من الحضور، ولا لوم على من خاف مثل السلطان، ويضرب في عوده إلى الإحسان، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده إليه وفارق غزنة عائداً إلى بلاده، فوصل إلى بلخ في شوال سنة ثلاثين وخمسمائة واستقر ملك غزنة لبهرام شاه ورجع إليها مالكا لها ومستولياً عليها.

ذكر قتل دُيس بن صدقة بالتاريخ

في هذه السنة قتل السلطان مسعود دُيس بن صدقة على باب سرادقة يظهر خُوج، أمر غلاماً أرمياً بقتله، فوقف على رأسه وهو ينكت الأرض بإصبعه، فضرب رقبته وهو لا يشعر، وكان ابنه صدقة بالجلّة، فاجتمع إليه عسكر أبيه ومبايكه، وكثر جمعه واستأمن إليه الأمير قتلغ تكين، وأمر السلطان مسعود بك أبيه أن يأخذ الجلّة، فسار بعض عسكره إلى المدائن، وأقاموا مدة ينتظرون لحاق بك أبيه بهم فلم يسر إليهم جُبّاً وعجزاً عن قصد الجلّة لكثرة العسكر بها مع صدقة. وبقي صدقة بالجلّة إلى أن قدم السلطان مسعود إلى بغداد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فقصده وأصلح حاله معه ولزم وخدمته.

ومثل هذه الحادثة تقع كثيراً وهي قرب موت المتعاضدين، فإن دُيساً كان يُعادي المسترشد بالله ويكره خلافته، ولم يكن يعلم أن السلاطين إنما كانوا يُقون عليه ليجعلوه عُدّة لمقاومة المسترشد، فلما زال السبب زال السبب، والله أعلم بذلك. (٣١/١١)

ذكر حصر عسكر يحيى المهديّة

في هذه السنة سَير يحيى بن العزيز بن حماد صاحب نجابة عسكراً ليحضرُوا المهديّة، وبها صاحبها الحسن بن عليّ بن تميم بن المعز بن باديس، وكان سبب ذلك أن الحسن أحبّ ميمون بن زياد أمير طائفة كبيرة من العرب، وزاده على سائر العرب، فحسده العرب فسار أمراؤها إلى يحيى بن العزيز بأولادهم، وجعلوهم رهائن عنده، وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكراً ليملكوا له المهديّة، فأجابهم إلى ذلك وهو قبايطي. فاتفق أنه وصله كتب من بعض مشايخ المهديّة بمثل ذلك، فوثق بما أتاه وسَير عسكراً كثيراً واستعمل عليهم قائداً كبيراً من فقهاء أصحابه يقال له مطرف بن حمدون.

وكان يحيى هذا هو وآباؤه يحسدون أولاد المنصور أبي الحسن هذا، فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم من العرب جمع كثير حتى نزلوا على المهديّة وحصروها براً وبحراً. وكان مطرف يظهر التشكك والتورّع عن الدماء، وقال: إنما أتيت الآن لأتسلم البلد بغير قتال: فخاب ظنه، فبقي أياماً لا يُقاتل، ثم إنهم باشروا القتال فظهر أهل المهديّة عليهم وأثروا فيهم، وتوالى القتال

الراشد بالله، وكان المسترشد قد بايع له بولاية العهد في حياته، وجُددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة: وكتب السلطان مسعود إلى بك أبي الشحنة ببغداد فبايع له، وحضر الناس البيعة، وحضر بيعة أحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء: وبايع له الشيخ أبو النجيب، ووعظه، وبالح في الموعظة. وأما جمال الدولة إقبال فإنه كان ببغداد في طائفة من العسكر، فلما جرت هذه الحادثة عبر إلى الجانب الغربي، وأصعد إلى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز، وحلفه وصعد إليه بالقلة.

ذكر مسير السلطان سنجر إلى غزنة وعوده عنها

في هذه السنة، في ذي القعدة، سار السلطان سنجر من خراسان إلى غزنة، وسبب ذلك أنه نُقل إليه عن صاحبها بهرام شاه أنه تغير عن طاعته، وأنه قد مدّ يده إلى ظلم الرعايا واغتصاب أموالهم. (٢٩/١١)

وكان السلطان سنجر هو الذي ملك غزنة، وقد ذكرناه سنة تسع وخمسمائة، فلما سمع هذه الأخبار المزعجة سار إلى غزنة ليأخذها أو يصلحها، فلما سلك الطريق وأبعد أدركه شتاء شديد البرد، كثير الثلج، وتعذرت عليهم الأقوات والعلوفات، فشكا العسكر إلى السلطان ذلك وذكروا له ما هم فيه من الضيق وتعذر ما يحتاجون إليه، فلم يجدوا عنده غير التقدّم أمامه: فلما قارب غزنة أرسل بهرام شاه رسلاً يضرع إلى سنجر ويسأل الصفح عن جرمه، والعفو عن ذنبه، فأرسل إليه سنجر المقرّب جوهر الخادم، وهو أكبر أمير عنده، ومن جملة أقطاعه مدينة الري، في جواب رسالته يجيبه عن العفو عنه إن حضر عنده وعاد إلى طاعته، فلما وصل إلى بهرام شاه أجابه إلى ما طلب منه من الطاعة وحمل المال والحضور بنفسه في خدمته، وأظهر من الطاعة والانقياد لما يحكم به السلطان سنجر شيئاً كثيراً.

وعاد المقرّب جوهر ومعه بهرام شاه إلى سنجر، فسبّقه المقرّب إلى السلطان سنجر وأعلمه بوصول بهرام شاه، وأنه بكبر غداً يكون عنده، وعاد المقرّب إلى بهرام شاه ليحيي بين يديه، وركب سنجر من الغد في مركبه لتلقيه، وتقدّم بهرام شاه ومعه المقرّب إلى سنجر، فلما عابن مركب سنجر والجزر على رأسه نكص على عقبيه عائداً، فأمسك المقرّب عنانه وقبّح فعله، وخوّفه عاقبة ذلك، فلم يرجع وولى هارباً ولم يصدق بنجاسته ظناً منه أن سنجر يأخذه ويملك بلده: وتبعه طائفة من أصحابه وخواصه، ولم يعرج على غزنة، وسار سنجر إلى غزنة فدخلها وملكها واحتوى على ما فيها وجبى أموالها، وكتب إلى بهرام شاه كتاباً يلومه على ما فعله ويحلف له أنه ما أراد به سوءاً، ولا له في بلده مطمع، ولا هو ممن يكدّر صنيعته وتعقب حسنته معه بسيرة، وإنما قصده

وفي كل ذلك الظفر لأهل البلد، وقتل من الخارجين جم غفير.

ذكر حصر ابن ردمير مدينة أفراغة وهزيمته وموته

وفي هذه السنة حصر ابن ردمير الفرنجي مدينة أفراغة من شرق الأندلس وكان الأمير يوسف بن تاشفين بن علي بن يوسف بمدينة قرطبة، فجهز الزبير بن عمرو اللمتوني والي قرطبة ومعه ألفا فارس وسير معه ميرة كثيرة إلى أفراغة.

وكان يحيى بن غانية، الأمير المشهور، أمير مرسية وبلنسية من شرق الأندلس ووالي أمرها لأمر المسلمين علي بن يوسف، فتجهز في خمس مائة فارس، وكان عبد الله بن عياض صاحب مدينة لاردة، فتجهز في مائتي فارس، فاجتمعوا وحملوا الميرة وساروا حتى أشرفوا على مدينة أفراغة، وجعل الزبير الميرة أمامه وابن غانية أمام الميرة، وابن عياض أمام ابن غانية، وكان شجاعاً بطلاً وكذلك جميع من معه. (٣٤/١١)

وكان ابن ردمير في اثني عشر ألف فارس، فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين، فقال لأصحابه: اخرجوا وخذوا هذه الهدية التي أرسلها المسلمون إليكم، وأدركه العُجب، ونفذ قطعة كبيرة من جيشه. فلما قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسره، ورد بعضهم على بعض، وقتل فيهم، والنعم القتال، وجاء ابن ردمير بنفسه وعساكره جميعها مدلين بكسرتهم وشجاعتهم، فحمل ابن غانية وابن عياض في صدورهم واستحرو الأمر بينهم وعظم القتال فكثر القتل في الفرنج، وخرج في الحال أهل أفراغة ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، إلى خيام الفرنج، فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا في المخيم، واشتغل النساء بالنهب، فحمل جميع ما في المخيم إلى المدينة من قوت وعُدَد وآلات وسلاح وغير ذلك.

وبينا المسلمون والفرنج في القتال إذ وصل إليهم الزبير في عسكره فانهمز ابن ردمير وولى هارباً واستولى القتل على جميع عسكره فلم يسلم منهم إلا القليل، ولحق ابن ردمير بمدينة سرقسطة، فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مفجوعاً بعد عشرين يوماً من الهزيمة، وكان أشد ملوك الفرنج بأساً، وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين، وأعظمهم صبراً، وكان ينام على طارقه بغير وطاء، وقيل له: هلاً تسربت من بنات أكابر المسلمين اللاتي سيبت؟ فقال: الرجل المحارب ينبغي أن يعاشر الرجال لا النساء، وأراح الله منه وكفى المسلمين شره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في شوال، زلزلت الأرض بالعراق والموصل وبلاد الجبل وغيرها، وكانت الزلزلة شديدة، وهلك فيها كثير من الناس، والله أعلم. (٣٥/١١)

وجمع مطرف عسكره وزحف برأً ويحراً لما يش من التسليم، وقاتل أشد قتال، فملك شوانيه شاطئ البحر، وقربوا من السور، فاشتد الأمر، فأمر الحسن بفتح الباب من الشاطئ وخرج أول الناس، وحمل هو ومن معه عليهم وقال: أنا الحسن! فلما سمع من يقاتله دعوا سلّموا عليه، (٣٢/١١) وانهزموا عنه إجلالاً له، ثم أخرج الحسن شوانيه تلك الساعة من الميناء، فأخذ من تلك الشواني أربع قطع، وهزم الباقي.

ثم وصلته نجدة من رجار الفرنجي، صاحب صقلية، في البحر، في عشرين قطعة، فحصرت شواني صاحب بجاية، فأمرهم الحسن بإطلاقها فأطلقوها، ثم وصل ميمون بن زياد في جمع كثير من العرب لنصرة الحسن، فلما رأى ذلك مطرف وأن النجيدات تأتي الحسن في البر والبحر، علم أنه لا طاقة له بهم، فرحل عن المهدي خائباً، وأقام رجار الفرنجي مظهراً للحسن أنه مهاده وموافقه وهو مع ذلك يعمر الشواني ويكثر عددها.

ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة

كانت جزيرة جربة من بلاد إفريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها، غير أن أهلها طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان، ويعرفون بالفساد وقطع الطريق، فخرج إليها جمع من الفرنج، أهل صقلية، في أسطول كثير وجم غفير، فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة، فنزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاها.

واجتمع أهلها وقاتلوا قتالاً شديداً، فوقع بين الفريقين حرب شديدة، فبث أهل جربة، فقتل منهم بشر كثير، فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة، وغنموا أموالها وسبوا نساءها وأطفالها، وهلك أكثر رجالها، ومن بقي منهم أخذوا لأنفسهم أماناً من رجار ملك صقلية، واقتكوا أسراهم وسيبهم وحريمهم، والله أعلم بذلك. (٣٣/١١)

ذكر ملك الفرنج حصن روضة من بلاد الأندلس

في هذه السنة اصطليح المستنصر بالله بن هود والسليطين الفرنجي صاحب طليطلة من بلاد الأندلس مدة عشر سنين. وكان السليطين قد أدمن غزو بلاد المستنصر وقتاله، حتى ضعف المستنصر عن مقاومته لقلته جنوده وكثرة الفرنج، فرأى أن يصالحه مدة يستريح فيها هو وجنوده، ويعتدون للمعاودة، فتردّت الرسل بينهم، فاستقر الصلح على أن يسلم المستنصر إلى السليطين حصن روضة من الأندلس، وهو من أمنع الحصون وأعظمها، فاستقرت القاعدة واصطلحوا وتسلم منه الفرنج الحصن، وفعل المستنصر فعلة لم يفعلها قبله أحد.

سنة ثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان مسعود

في المحرم من هذه السنة وصل يرتقش الزكريّ من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة بما كان قد استقرّ على المسترشد من المال، وهو أربعمائة ألف دينار، فذكر أنه لا شيء عنده، وأنّ المال جميعه كان مع المسترشد بالله، فنهّب في الهزيمة المذكورة. ثمّ بلغ الراشد بالله أنّ يرتقش يريد الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها لأخذ المال، فجمع العساكر لمنع داره، وأمر عليهم كج أبه، وأعاد عمارة السور.

فلما علم يرتقش بذلك اتفق هو وبك أبه شحنة بغداد، وهو من أمراء السلطان، على أن يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة، فبلغ ذلك الراشد بالله فاستعدّ لمتهم، وركب يرتقش ومعه العسكر السلطاني والأمراء الكجّة، ومحمّد بن عكر، في نحو خمسة آلاف فارس، ولقيهم عسكر الخليفة ومتقدّمهم كج أبه واقتتلوا قتالاً شديداً، وساعد العامة عسكر الخليفة على قتال العسكر السلطاني حتى أخرجهم إلى دار السلطان، فلما جنّهم الليل ساروا إلى طريق خراسان، ثمّ انحدر بك أبه إلى واسط، وسار يرتقش إلى البندنجين، ونهب أهل بغداد دار السلطان. (٣٦/١١)

ذكر اجتماع أصحاب الأطراف على حرب مسعود بغداد

وخرجهم عن طاعته

في هذه السنة اجتمع كثير من الأمراء وأصحاب الأطراف على الخروج عن طاعة السلطان مسعود فسار الملك داود ابن السلطان محمود في عسكر أذربيجان إلى بغداد، فوصلها رابع صفر، ونزل بدار السلطان، ووصل أتابك عماد الدين زنكي بعده من الموصل، ووصل يرتقش بازدار صاحب قزوین وغيرها، والبقيش الكبير صاحب أصفهان، وصدقة بن ذبيس صاحب الحلة، ومعه عنتر بن أبي العسكر الجواني يديره، ويتّمس نقض صباه، وابن برسق، وابن الأحمديلي، وخرج إليهم من عسكر بغداد كج أبه والطرناطي وغيرهما، وجعل الملك داود في شحنة بغداد يرتقش بازدار، وقبض الخليفة الراشد بالله على ناصح الدولة أبي عبد الله الحسن بن جُهير أستاذ الدار، وهو كان السبب في ولايته، وعلى جمال الدولة إقبال المسترشدني، وكان قد قدم إليه من تكريت - وعلى غيرهما من أعيان دولته، فتغيّرت نيات أصحابه عليه وخافوه.

فأما جمال الدولة فإنّ أتابك زنكي شفع فيه شفاعته تحتها إلزام، فأطلق وصار إليه ونزل عنده.

وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين أبي الرضى بن صدقة إلى عماد الدين لتهنئته بالقدوم، فأقام عنده وسأله أن يمنعه

من الخليفة، فأجابته إلى ذلك، وعاد الموكب بغير وزير، وأرسل زنكي من حرس دار (٣٧/١١) الوزير من النهب، ثمّ أصلح حاله مع الخليفة، وأعادته إلى وزارته.

وكذلك أيضاً عبر عليه قاضي القضاة الزيني، وسار معه إلى الموصل، ثمّ إنّ الخليفة جدّ في عمارة السور، فأرسل الملك داود من قلع أبوابه وأخرب قطعة منه، فانزعج الناس ببغداد، ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة، وقطعت خطبة السلطان مسعود، وخطب للملك داود وجرت الأيمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكي، وأرسل الخليفة إلى أتابك زنكي ثلاثين ألف دينار ليفقها.

ووصل الملك سلاجوقشاه إلى واسط فدخلها وقبض على الأمير بك أبه ونهب ماله وانحدر أتابك زنكي إليه لدفعه عنها واصطالحا وعاد زنكي إلى بغداد وعبر إلى طريق خراسان، وحثّ على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود.

وسار الملك داود نحو طريق خراسان أيضاً، فنهّب العسكر البلاد وأفسدوا، ووصلت الأخبار بمسير السلطان مسعود إلى بغداد لقتال الملك، وفارق الملك داود وأتابك زنكي، فعاد أتابك زنكي إلى بغداد، وفارق الملك داود، وأظهر له أن يمضي إلى مراغة إذا فارق السلطان مسعود همدان، فبرز الراشد بالله إلى ظاهر بغداد أوّل رمضان، وسار إلى طريق خراسان، ثمّ عاد بعد ثلاثة أيام ونزل عند جامع السلطان، ثمّ دخل إلى بغداد خامس رمضان، وأرسل إلى داود وسائر الأمراء يأمرهم بالعود إلى بغداد، فعادوا، ونزلوا في الخيام، وعزموا على قتال السلطان مسعود من داخل سور بغداد.

ووصلت رسل السلطان مسعود يبذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده، فعرض الخليفة الرسالة عليهم، فكلمهم رأى قتاله، فقال الخليفة: وأنا أيضاً معكم على ذلك. (٣٨/١١)

ذكر ملك شهاب الدين حمص

في هذه السنة، في الثاني والعشرين من ربيع الأوّل. تسلّم شهاب الدين محمود، صاحب دمشق، مدينة حمص وقلعتها وسبب ذلك أنّ أصحابها أولاد الأمير خيرخان بن قراجا، والوالي بها من قبلهم، ضجروا من كثرة تعرّض عسكر عماد الدين زنكي إليها وإلى أعمالها، وتضييقهم على من بها من جنديّ وعاميّ، فراسلوا شهاب الدين في أن يسلموها إليه، ويعطيهم عوضاً عنها تدمر، فأجابهم إلى ذلك، وسار إليها وتسلمها منهم في التاريخ المذكور، وسلم إليهم تدمر، وأقطع حمص مملوك جدّه معين الدين أنز، وجعل فيها نائباً عنه ممّن يثق به من أعيان أصحابه وعاد عنها إلى دمشق.

فلما رأى عسكر زنكي الذين يحلب وحماة خروج حمص عن

الوصف، وقتلوا وأسروا، وفعلوا في بلد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم.

وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي، ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم، وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والعين والحلي فيخرج عن الحد، وأخربوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها إلا القليل، وخرجوا إلى شيزر بما معهم من الغنائم سالمين، منتصف رجب، فامتلا الشام من الأسارى والدواب، وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً، ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً ووهناً.

ذكر وصول السلطان مسعود إلى العراق وتفرق أصحاب الأطراف ومسير الراشد بالله إلى الموصل وخلعه

لما بلغ السلطان مسعوداً اجتماع الملوك والأمراء، ببغداد، على خلافه، (٤١/١١) والخطبة للملك داود ابن أخيه السلطان محمود، جمع العساكر وسار إلى بغداد، فنزل بالمالكية، فسار بعض العسكر حتى شارقوا عسكره وطاردوهم، وكان في الجماعة زين الدين عليّ أمير من أمراء أتابك زنكي، ثم عادوا، ووصل السلطان فنزل على بغداد وحصرها وجميع العساكر فيها.

وثار العيارون ببغداد وسائر محالها، وأفسدوا ونهبوا، وقتلوا حتى إنه وصل صاحب أتابك زنكي ومعه كتب، فخرجوا عليه وأخذوها منه وقتلوه، فحضر جماعة من أهل المحال عند الأتابك زنكي، وأشاروا عليه بنهب المحال الغربية، فليس فيها غير عيار ومقسد، فامتنع من ذلك، ثم أرسل بنهب الحرم الطاهري فأخذ منه من الأموال الشيء الكثير، وسبب ذلك أن العيارين [كثروا] فيه وأخذوا أموال الناس. ونهبت العساكر غير الحرم من المحال، وحصرهم السلطان ثباً وخمسين يوماً فلم يظفر بهم، فعاد إلى النهروان عازماً على العود إلى همدان، فوصله طرطناي صاحب واسط ومعه سفن كثيرة، فعاد إليها وعبر فيها إلى غربي دجلة، وأراد العسكر البغداديّ منعه، فسبقهم إلى العبور، واختلفت كلمتهم، فعاد الملك داود إلى بلاده في ذي القعدة وتفرق الأمراء.

وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فعبر إلى الخليفة الراشد بالله وسار معه إلى الموصل في نفر يسير من أصحابه، فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكي ببغداد سار إليها، ومنع أصحابه من الأذى والنهب. وكان وصوله منتصف ذي القعدة، فسكن الناس واطمأنوا بعد الخوف الشديد، وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد (٤٢/١١) بالله لمسعود وفيها بخط يده: [إني متى جئْتُ أو خرجْتُ أو لقيتُ أحداً من أصحاب السلطان بالسيف، فقد خلعتُ

أيديهم تابعوا الغارات إلى بلدنا والنهب له، والاستيلاء على كثير منه، فجري بينهم عدة وقائع، وأرسل شهاب الدين إلى زنكي في المعنى واستقر الصلح بينهم، وكف كلّ منهم عن صاحبه.

ذكر الفتنة بدمشق

في هذه السنة وقعت الفتنة بدمشق بين صاحبها والجند. وسبب ذلك أن الحاجب يوسف بن فيروز كان أكبر حاجب عند أبيه وجده، ثم إنه خاف أخاه شمس الملوك، وهرب منه إلى تدمر، فلما كانت هذه السنة سال (٣٩/١١) أن يحضر إلى دمشق، وكان يخاف جماعة المماليك لأنه كان أساء إليهم وعاملهم أقبح معاملة، فكلمهم عليه خنق، لا سيما في الحادثة التي خرج فيها شمس الملوك، وقد تقدّمت، فإنه أشار بقتل جماعة أبرياء وبقتل سونج بن تاج الملوك، فصاروا كلهم أعداء مبغضين.

فلما طلب الآن الحضور إلى دمشق أجيب إلى ذلك، فأكثر جماعة الأمراء والمماليك قربه، وخافوه أن يفعل بهم مثل فعله الأول، فلم يزل يتوصّل معهم حتى حلف لهم واستحلفهم، وشرط على نفسه أنه لا يتولّى من الأمور شيئاً.

ثم إنه جعل يدخل نفسه في كثير من الأمور، فاتفق أعداؤه على قتله، فبينما هو يسير مع شمس الملوك في الميدان وإلى جانبه أمير اسمه بزائوش يحادثه، إذ ضربه بزائوش بالسيف فقتله، فحُمل وذُفن عند تربة والده بالعقبة.

ثم إن بزائوش والمماليك خافوا شمس الملوك، فلم يدخلوا البلد، ونزلوا بظاهره، وأرسلوا يطلبون قواعد استطالوا فيها، فأجابهم إلى البعض، فلم يقبلوا منه، ثم ساروا إلى بعلبك، وبها شمس الدولة محمد بن تاج الملوك صاحبها، فصاروا معه، فالتحق بهم كثير من التركمان وغيرهم، وشرعوا في العبث والفساد، واقتضت الحال مراسلتهم وملاطفتهم وإجابتهم إلى ما طلبوا، واستقرت الحال على ذلك، وحلف كلّ منهم لصاحبه، فعادوا إلى ظاهر دمشق ولم يدخلوا البلد.

وخرج شهاب الدين، صاحب دمشق، إليهم واجتمع بهم وتجددت الأيمان، وصار بزائوش مقدّم العسكر وإليه الحلّ والعقد، وذلك في شعبان، وزال الخلف، ودخلوا البلد، والله أعلم. (٤٠/١١)

ذكر غزاة العسكر الأتابكي لبلاد الفرنج

في هذه السنة، في شعبان، اجتمعت عساكر أتابك زنكي، صاحب حلب وحماة، مع الأمير أسوار نائبه بحلب، وقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم، وقصدوا أعمال اللاذقية بغتة، ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز، فنهبوا منها ما يزيد عن

نفسى من الأمر ، فافتوا بخروجه من الخلافة ، وقيل غير ذلك وسنذكره في خلافة المقتضى لأمر الله .

نظام .

وبلغني أنّ السلطان مسعوداً أرسل إلى الخليفة المقتضى لأمر الله في تقرير إقطاع يكون لخاصته ، فكان جوابه : إنّ في الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة ، فليُنظر السلطان ما يحتاج إليه من يشرب هذا الماء ويقوم به ، فتقرّرت القاعدة (٤٤/١١) على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله ، فأجاب إلى ذلك .

وقال السلطان لما بلغه قوله : لقد جعلنا في الخلافة رجلاً عظيماً نسال .

والمقتضى عمّ الراشد هو والمسترشد ابننا المستظهر ، وليا الخلافة ، وكذلك السفّاح والمنصور أخوان ، وكذلك المهدي والرشد أخوان ، وكذلك الواقف والمتوكل أخوان ، وأمّا ثلاثة إخوة ولوا الخلافة فالأمين والمأمون والمعتمد ولولاد الرشيد ، والمقتضى والمقتدر والقاهر بنو المعتضد ، والراضي والمطيع بنو المقتدر ، وأمّا أربعة إخوة ولوها فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان لا يُعرف غيرهم .

وحين استقرّت الخلافة للمقتضى أرسل إليه الراشد بالله رسلاً من الموصل مع رسول أتابك زنكي ، فأما رسول الراشد فلم تسمع رسالته ، وأمّا رسول أتابك زنكي فكان كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري ، فأحضر في الديوان وسمعت رسالته ، وحكى لي والذي عنه قال : لما حضرت الديوان قيل لي : تباع أمير المؤمنين ؟ فقلت أمير المؤمنين عندنا في الموصل وله في أعناق الخلق بيعة مقدّمة . وطال الكلام وعُدّت إلى منزلي .

فلما كان الليل جاعثني امرأة عجوز سرّاً ، واجتمعت بي وأبلغتني رسالة عن المقتضى لأمر الله مضمونها عتابي على ما قلته واستنزالي عنه . فقلت : غداً أخدم خدمة يظهر أثرها .

فلما كان [الغد] أحضرت الديوان وقيل لي في معنى البيعة ، فقلت : أنا رجل فقيه قاضي ، ولا يجوز لي أن أبايع إلا بعد أن يثبت عندي خلع المتقدم . فأحضروا الشهود وشهدوا عدي في الديوان بما أوجب خلعه ، فقلت : هذا ثابت لا كلام فيه ، ولكن لا بدّ لنا في هذه الدعوة من نصيب ، لأنّ أمير (٤٥/١١) المؤمنين قد حصل له خلافة الله في أرضه ، والسلطان ، فقد استراح ممّن كان يقصده ، ونحن بأيّ شيء نعود ؟ فرُفِع الأمر إلى الخليفة ، فأمر أن يعطى أتابك زنكي صريفتين ودرج هرون وحربي ملكاه وهي من خاصّ الخليفة ، ويزاد في القاب ، وقال : هذه قاعدة لم يُسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيب في خاصّ الخليفة .

وكان الوزير شرف الدين عليّ بن طراد وصاحب المخزن كمال الدين بن البشلامي وابن الأنباري قد حضروا مع السلطان لأنهم كانوا عنده منذ أسره مع المسترشد بالله ، فقدحوا في الراشد ووافقهم على ذلك جميع أصحاب المناصب ببغداد ، إلا اليسير ، لأنهم كانوا يخافونه ، وكان قد قبض بعضهم وصادر بعضاً ، واتفقوا على دمة ، فتقدّم السلطان بخلعه وإقامة من يصلح للخلافة ، فخلع وقطعت خطبته في بغداد في ذي القعدة وسائر البلاد . وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً ، وقتله الباطنية على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خلافة المقتضى لأمر الله

لما قطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطان جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير عليّ بن طراد ، وصاحب المخزن ، وغيرهما ، فبمّن يصلح أن يلي الخلافة . فقال الوزير : أحد عمومة الراشد ، وهو رجل صالح . قال : من هو ؟ قال : من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يُقتل ، فتقدّم إليهم يعمل محضر في خلع الراشد ، فعملوا محضراً ذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الأموال وأشياء تشدح في الإمامة ثم كتبوا فتوى : ما يقول العلماء فيمن هذه صفته ، هل يصلح للإمامة أم لا ؟ فافتوا أن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً . فلما فرغوا (٤٣/١١) من ذلك أحضروا القاضي أبا طاهر بن الكرخي ، فشهدوا عنده بذلك ، فحكم بنفسه وخلعه ، وحكم بعده غيره ، ولم يكن قاضي القضاة حاضراً ليحكم فإنه كان عند أتابك زنكي بالموصل .

ثم إنّ شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين ، وقيل محمد ابن المستظهر بالله ، ودينه ، وعقله ، وعفته ، ولين جانبه ، فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي ، وصاحب المخزن ابن البشلامي وغيرهما ، وأمر بإحضار الأمير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي يسكن فيه ، فأحضر وأجلس في المشقة ، ودخل السلطان إليه والوزير شرف الدين وتحالفاً ، وقرّر الوزير القواعد بينهما ، وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذي الحجة ولقب المقتضى لأمر الله .

قيل سبب اللقب أنه رأى النبي ﷺ قبل أن يلي الخلافة بسنة أيام ، وهو يقول له : إنّ هذا الأمر يصير إليك ، فاقف بي ، فلقب بذلك . ولما استخلف سّيرت الكتب الحكيمية بخلافته إلى مسائر الأمصار واستورز شرف الدين عليّ بن طراد الزينبي فأرسل إلى الموصل ، وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم عليّ بن الحسين

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود

في هذه السنة، في المحرم، أذن السلطان مسعود للعساكر التي عنده ببغداد بالعود إلى بلادهم، لما بلغه أن الراشد بالله قد فارق أتابك زنكي من الموصل، فإنه كان يتمسك بالعساكر عنده خوفاً أن ينحدر به إلى العراق فيملكه عليه، فلما أراد أن يأذن للأمير صدقة بن ديبس، صاحب الحلة، زوجته ابنته تمسكاً به.

وقدم على السلطان مسعود جماعة من الأمراء الذين حاربوه مع الملك داود منهم البقش السلاحي ویرسق بن یرسق صاحب تستر، وسنقر الخمارتکین شحنة همدان، فرضي عنهم، وأمنهم، وولى البقش شحنة بغداد، ففسد الناس وظلمهم.

وكان السلطان مسعود بعد تفرق العساكر عنه قد بقي معه ألف فارس. وتزوج الخليفة فاطمة خاتون أخت السلطان مسعود في رجب، والصادق مائة ألف دينار، وكان الوكيل في قبول النكاح وزير الخليفة علي بن طراد الزينبي والوكيل عن السلطان وزيره الكمال الدركزني، ووثق السلطان حيث صار الخليفة وصدقة بن ديبس بن صدقة صهره، وحيث سار الراشد بالله من عند زنكي الأتابك، والله أعلم. (٤٨/١١)

ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان

في هذه السنة، في جمادى الأولى، هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين الله العلوي صاحب مصر، وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وكان نصرانياً أرمينياً، فتمكن في البلاد واستعمل الأرمن وعزل المسلمين، وأسأء السيرة فيهم وأهانهم هو والأرمن الذين ولّاهم وطعموا فيهم، فلم يكن في أهل مصر من أنف من ذلك إلا رضوان بن الريحني، فإنه لما ساءه ذلك وأقلق جمع جمعاً كثيراً وقصد القاهرة، فسمع به بهرام، فهرب إلى الصعيد من غير حرب ولا قتال، وقصد مدينة أسوان فمنعه واليها من الدخول إليها وقاتله فقتل السودان من الأرمن كثيراً، فلما لم يقدر على الدخول إلى أسوان أرسل [إلى] الحافظ الأمان، فأمته، فعاد إلى القاهرة، فسجن بالقصر، فبقي مدة، ثم ترهب وخرج من الحبس.

وأما رضوان فإنه وزر للحافظ ولقب بالملك الأفضل، وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك، ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ في إخراجها، فثار الناس عليه منتصف شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وهرب من داره وتركها بما فيها، فذهب الناس منها ما لا يُحَد ولا يُحصى، وركب الحافظ فسكن الناس ونقل ما بقي في دار رضوان إلى قصره.

فبايعت وعدت مقضي الحوائج قد حصل لي جملة صالحة من المال والتحف. وكانت بيعة وخطب للمفتي في الموصل في رجب سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، ولما عاد كمال الدين بن الشهرزوري سير على يده المحضر الذي عمل بخلع الراشد، فحكم به قاضي القضاة الزينبي بالموصل، وكان عند أتابك زنكي.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد وعاد إلى بغداد، وأقام بذاره معزولاً، ووزر بعده كمال الدين أبو البركات ابن سلمة الدركزني وهو من خراسان.

وفيها ثار العيارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها، وقتلوا في البلد ونهبوا الأموال ظاهراً وكثر الشر، فقصد الشحنة شارع دار الرقيق، وطلب العيارين، فثار عليه أهل المحال الغريبة، فقاتلهم، وأحرق الشارع، فاحترق فيه خلق كثير، ونقل الناس أموالهم إلى الحرم الطاهري، فدخله الشحنة، ونهب منه مالا كثيراً. (٤٦/١١)

ثم وقعت فتنة ببغداد بين أهل باب الأزج وبين أهل المأمونية، وقتل بينهم جماعة ثم اصطلموا.

وفيها سار قراستقر في عساكر كثيرة في طلب الملك داود ابن السلطان محمود، فأقام السلطان مسعود ببغداد، ولم يزل قراستقر يطلب داود حتى أدركه عند مراغة، فالتقى وتصافا، واقتل العسكران قتالاً عظيماً، فانهزم داود وأقام قراستقر بأذربيجان؛ وأما داود فإنه قصد خوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم وبلغت عدتهم نحو عشرة آلاف فارس، فقصد تستر وحاصرها، وكان عمه الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمد بواسط، فأرسل إلى أخيه السلطان مسعود يستنجد، فأمده بالعساكر، فسار إلى داود وهو يحاصر تستر، فتصافا، فانهزم سلجوقشاه.

وفيها توفي محمد بن حموية أبو عبد الله الجويني، وهو من مشايخ الصوفية المشهورين، وله كرامات كثيرة ورواية الحديث.

وتوفي أيضاً محمد بن عبد الله بن أحمد بن حبيب العامري الصوفي مصنف شرح الشهاب وأنشد لما حضره الموت:

ها قد مدت يدي إليك فرقبا بالفضل لا بشماتة الأغدا

وتوفي أيضاً أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد القراوي الصاعدي راوي صحيح مسلم عن عبيد الغافر الفارسي، وطريقه اليوم أعلى الطرق، وإليه الرحلة من الشرق والغرب، وكان فقيهاً متظافراً ظريفاً يخدم الغريب بنفسه، وكان يقال: القراوي ألف راو، رحمه الله ورضي عنه. (٤٧/١١)

وقدّم إليها صلاح الدين محمد الباغسياني، وهو أكبر أمير معه، وكان ذا مكر وحيل، أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلموها إليه، فوصل إليها وفيها معين الدين أنز، وهو الوالي عليها والحاكم فيها، وهو أيضاً أكبر أمير بدمشق وحمص أقطاعه كما سبق ذكره، فلم ينفذ فيه مكره، فوصل حيثما زكي إليها وحصرها وعاد مراراً أنز في التسليم غير مرة، تارة بالوعد وتارة بالعيد، واحتج بأنها ملك صاحبه شهاب الدين وأنها بيده أمانة ولا يسلمها (٥١/١١) إلا عن غلبة، فأقام عليها إلى العشرين من شوال ورحل عنها من غير بلوغ غرض إلى بعين فحصرها، وكان منه ومن الفرنج ما نذكره إن شاء الله تعالى

ذكر ملك زنكي قلعة بعرين وهزيمة الفرنج

وفي هذه السنة، في شوال، سار أتابك زنكي من الموصل إلى الشام وحصر قلعة بعرين، وهي تقارب مدينة حماة، وهي من أمنع معقل الفرنج وأحصنها، فلما نزل عليها قاتلها، وزحف إليها، فجمع الفرنج فارسهم ورجالهم، وساروا في قصبهم وقضيضهم، وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم، إلى أتابك زنكي ليرحلوه عن بعرين، فلم يرحل وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه، فلقبهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس، وصبر الفريقان ثم أجلت الواقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، واحتسب ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه منهم، فحصرهم زنكي فيه ومنع عنهم كل شيء حتى الأخبار فكان من به منهم لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيئة على جنده.

ثم إن القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها مستغفرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت، وأن المسلمين ليس لهم همّة إلا قصد البيت المقدس، فحيثما اجتمعت النصرانية وساروا على (٥٢/١١) الصعب والذلّ، وصدوا الشام، وكان منهم ما نذكره.

وأما زنكي فإنه جدّ في قتال الفرنج، فحصرها وقلت عليهم الذخيرة، فإنهم كانوا غير مستعدين، ولم يكونوا يعتقدون أن أحداً يقدم عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقي الشام، فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم، وأدعوا بالتسليم ليؤمّنهم، وتركهم يعودون إلى بلادهم، فلم يجبهم إلى ذلك، فلما ضجح باجتماع من بقي من الفرنج ووصول من قرب إليهم أعطى لمن بقي الحصن الأمان، وقرر عليهم خمسين ألف دينار يحملونها إليه، فأجابوه إلى ذلك فأطلقهم فخرجوا وسلموا إليه، فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فقدموا على التسليم حيث لا يتفهم البذر، وكان لا يصلحهم شيء من الأخبار البتة، فلهاذا سلموا.

وأما رضوان فإنه سار يريد الشام يستجد الأتراك ويستصرهم، فأرسل إليه الحافظ الأمير ابن مصلال ليرده بالأمان والعهد أنه لا يؤذيه، فرجع إلى القاهرة، فحبسه الحافظ عنده في القصر، وقيل إنه توجه إلى الشام، وهو (٤٩/١١) الصحيح، وقصد صرخد فوصل إليها في ذي القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشكين، فأكرمه وعظمه، وأقام عنده.

ثم عاد إلى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، ومعه عسكر، فقاتل المصريين عند باب النصر وهزمهم، وقتل منهم جماعة كثيرة، وأقام ثلاثة أيام، ففترق عنه كثير ممن معه، فعزم على العودة إلى الشام، فأرسل إليه الحافظ الأمير ابن مصلال، فردّه وجسه عنده في القصر، وجمع بينه وبين عياله، فأقام في القصر إلى سنة ثلاث وأربعين [وخمسمائة]، فنقب الحبس وخرج منه، وقد أعدت له خيل، فهرب عليها، وعبر النيل إلى الجيزة فحشد وجمع المغاربة وغيرهم، وعاد إلى القاهرة، فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم، ودخل إلى القاهرة فتزل عند جامع الأقصر، فأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالا ليفرّقه على عاداتهم فإنهم كانوا إذا وُذروا وزيراً أرسلوا إليه عشرين ألف دينار ليفرقها، فأرسل إليه الحافظ عشرين ألف دينار، فقسّمها، وكثر عليه الناس، وطلب زيادة، فأرسل إليه عشرين ألف دينار أخرى، ففرّقها، ففترق الناس عنه وخفوا عنده، فإذا الصوت قد وقع، وخرج إليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه، فحملوا على غلمانهم فقاتلوهم، فقام يركب، فقدم إليه بعض أصحابه فرساً ليركبه، فلما أزداد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله، وحمل رأسه إلى الحافظ، فأرسله إلى زوجته، فوضع في حجرها، فألقته وقالت: هكذا يكون الرجال، ولم يستورز الحافظ بعده أحداً، وياشر الأمور بنفسه إلى أن مات. (٥٠/١١)

ذكر فتح المسلمين حصن وادي ابن الأحمر من الفرنج

وفي هذه السنة في رجب، سار عسكر دمشق مع مقدمهم الأمير بزاوش إلى طرابلس الشام، فاجتمع معه من الغزاة المتطوعة والتركمان أيضاً خلق كثير، فلما سمع القبط صاحبها بفرهم من ولايته سار إليهم في جموعه وحشوده، فقاتلهم وانهزم الفرنج وعادوا إلى طرابلس على صورة سيئة قد قتل كثير من فرسانهم وشجعانهم فهب المسلمون من أعمالهم الكثير وحصروا حصن وادي ابن الأحمر فملكوه عنوة ونهبوا ما فيه، وقتلوا المقاتلة، وسبوا الحريم والذرية، وأسروا الرجال فاشتروا أنفسهم بمال جليل، وعادوا إلى دمشق سالمين، والله أعلم.

ذكر حصار زنكي مدينة حمص

في هذه السنة، في شعبان سار أتابك زنكي إلى مدينة حمص

إلى الآن، وعادوا، وولي أبو القوارس الرئاسة بدمشق، وكان محبوباً عند أهلها، وتمكّن تمكناً عظيماً، وكان ذا رئاسة عظيمة ومروءة ظاهرة.

وفيها كثرت الأمراض ببغداد وكثر الموت فجأة بأصفهان وهمدان.

وفيها سار أتابك زنكي إلى دقوقا فحصرها وملكها بعد أن قاتل على قلعتها قتالاً شديداً.

وفيها توفي أبو سعيد أحمد بن محمد بن ثابت الخجندی رئيس الشافعية بأصفهان، وتفقه على والده، ودرس بالنظامية بأصفهان.

وتوفي أبو القاسم هبة الله بن أحمد بن عمر الحريري، ومولده يوم عاشوراء سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وهو آخر من روى عن أبي الحسن زوج الحرّة وقد روى الخطيب أبو بكر بن ثابت عن زوج الحرّة أيضاً، وكانت وفاة الخطيب سنة ثلاث وستين وأربعمائة. (٥٥/١١)

سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة

ذكر مُلك أتابك زنكي حمص وغيرها من أعمال دمشق

وفي هذه السنة، في المحرم، وصل أتابك زنكي إلى حماة وسار منها إلى بقاع بعلبك، فملك حصن المجدل، وكان لصاحب دمشق، وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه، وهو أيضاً لصاحب دمشق، وسار إلى حمص فحصرها، وأدام قتالها، فلما نازل ملك الروم حلب رحل عنها إلى سلمية، فلما انجلت حادثة الروم، على ما ذكرناه، عاود منزلة حمص، وأرسل إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أمه ليتزوجها، واسمها زمرد خاتون، ابنة جاولي، وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك، وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المظلة على وادي شقرا ونهر بردى، فتزوجها، وتسلم حمص مع قلعتها.

وحملت الخاتون إليه في رمضان، وإنما حمله على التزويج بها ما رأى من تحكّمها في دمشق فظن أنه يملك البلد بالاتصال بها، فلما تزوّجها خاب أمله ولم يحصل غلى شيء فأعرض عنها. (٥٦/١١)

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بُزاعة وما فعله بالمسلمين

قد ذكرنا سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده واشتغاله بالفرنج وابن ليون، فلما دخلت هذه السنة وصل إلى الشام وخافه الناس خوفاً عظيماً، وقصد بُزاعة فحصرها، وهي مدينة لطيفة على سة فراسخ من حلب، فمضى جماعة من أعيان

وكان زنكي في مدّة مقامه عليهم قد فتح المعرة وكفرطاب من الفرنج فكان أهلها وأهل سائر الولايات التي بين حلب وحماة مع أهل بعدين في الخزي لأن الحرب بينهم قائمة على ساق، والنهب والقتل لا يزال بينهم، فلما ملكها أمن الناس، وعمرت البلاد وعظم دخلها، وكان فتحاً مبنياً ومن رآه علم صحّة قولي.

ومن أحسن الأعمال وأعدلها ما عمله زنكي مع أهل المعرة، فإن الفرنج لما ملكوا المعرة كانوا قد أخذوا أموالهم وأملأهم، فلما فتحها زنكي الآن حضر من بقي من أهلها ومعهم أعقاب من هلك، وطلبوا أملاكهم، فطلب منهم كتابتها، فقالوا: إن الفرنج أخذوا كل ما لنا، (٥٣/١١) والكتب التي للأملاك فيها. فقال: اطلبوا دفاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه، ففعلوا ذلك، وأعاد على الناس أملاكهم، وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها.

ذكر خروج ملك الروم من بلاده إلى الشام

قد تقدّم أنّ الفرنج أرسلوا إلى ملك القسطنطينية يستصرخون به ويعرفونه ما فعله زنكي فيهم، ويحثونه على لحاق البلاد قبل أن تملك، ولا ينفعه حينئذ المجيء، فتجهّز وسار مجداً فابتدأ وركب البحر وسار إلى مدينة أنطاكية، وهي له على ساحل البحر، فأرسل إليها، وأقام ينتظر وصول المراكب التي فيها أنقاله وسلاحه، فلما وصلت سار عنها إلى مدينة نيقية وحصرها، فصالحه أهلها على مال يؤدّونه إليه، وقيل: بل ملكها وسار عنها إلى مدينة أدنة ومدينة المصيصة، وهما بيد ابن ليون الأرمني، صاحب قلاع الدروب، فحصرهما وملكهما.

ورحل إلى عين زربة فملكها عنوة، وملك تل حمدون وحمل أهله إلى جزيرة قبرس، وعبر ميناء الإسكندرونة ثم خرج إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة، وضيق على أهلها، وبها صاحبها الفرنجي ريمند، فرددت الرسل بينهم، فتصالحا ورحل عنها إلى بغراض، ودخل منها بلد ابن ليون الأرمني، فبذل له ابن ليون أموالاً كثيرة ودخل في طاعته، والله أعلم. (٥٤/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في الرابع والعشرين من أيار، ظهر بالشام سحاب أسود أظلمت له الدنيا، وصار الجو كالليل المظلم، ثم طلع بعد ذلك سحاب أحمر كأنه نار أضاعت له الدنيا، وهبت ريح عاصف ألقت كثيراً من الشجر، وكان أشد ذلك يحوران ودمشق، وجاء بعده مطر شديد وبرد كبير.

وفيها عاد مؤيد الدين أبو القوارس المسيب بن علي بن الحسين المعروف بابن الصوفي من صرخد إلى دمشق، فبقوا فيها

حلب إلى أتاك زنكي وهو يحاصر حمص، فاستنفلوا به واستنصروه، فسير معهم كثيراً عن العسكرة، فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حاصروها.

(٥٨/١١)

ثم إن ملك الروم قاتل بزاعة، ونصب عليها منجنيقاته، وضيق على من بها فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب سنة ٥٧١١م. وكان عتق من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس، وتناصرت قاضيها وجماعة من أعيانها نحو أربع مائة نفس.

وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يطلبون من اختفى، فقبيل لهم: إن جمعنا كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا إلى المغارات، فدخلوا عليهم، وهلكوا في النفاور.

ثم رحلوا إلى حلب فنزلوا على قويتق ومعهم الفرنج الذين بساحل الشام، وزحفوا إلى حلب من الغد في خيلهم ورجلهم، فخرج إليهم أحداث حلب، فقاتلوه قاتلاً شديداً، فقتل من الروم وجرح خلق كثير، وقتل بطريق (٥٧/١١)، جليل القتل عندهم، وعادوا خاسرين، وأقاموا ثلاثة أيام، فلم يروا فيها طمعاً، فرحلوا إلى قلعة الأتاب، فخلف من فيها من المسلمين، فهربوا عنها تارح شعبان، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحسون القلعة وساروا، فلما سمع الأمير أسنوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر إلى الأتاب، فأوقع بمن فيها من الروم، فقتلهم، وخلص الأسرى والسبي وعاد إلى حلب.

وأما عماد الدين زنكي فإنه فسار حمص وسار إلى سلمية فأنزلها، وعبر قلعة الفرات إلى الرقة، وأقام جريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة.

وأما الروم فإنهم قصدوا قلعة شيزر، فإنها من أمتع الحصون، وإنما قصدوها لأنها لم تكن لزكني، فلا يكون له في حفظها الاهتمام العظيم، وإنما كانت للأمير أبي العسكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، فأنزلوه وحاصروها، ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقاً، فأرسل صاحبها إلى زنكي يستجده، فسار إليه فنزل على نهر العاصي بالقرب منها، بينها وبين حماة، وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم.

ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له: إنكم قد تجهستم مني بهذه الجبال، فأنزلوا منها إلى الصجر حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم، وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها. ولم يكن له بهم قوة وإنما كان يرهيبهم بهذا القول وأشباهه، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بمصانفته، وهربوا أمره

وكان زنكي يرسل أيضاً إلى ملك الروم يوجهه بأن فرنج الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم: إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً، فاستشعر كل من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار أتاك زنكي يتبع ساقه العسكر، فظفر بكثير ممن تخلف منهم، وأخذ جميع ما تركوه.

ولما كان الفرنج على بزاعة أرسل زنكي القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى السلطان مسعود يستجده، ويطلب العسكرة، فمضى إلى بغداد، وأنهى الحال إلى السلطان، وعرفه عاقبة الإهمال، وأنه ليس بينه وبين الروم إلا أن يملكوا حلب وينحدروا مع الفرات إلى بغداد، فلم يجد عنده حركة، فوضع إنساناً من أصحابه، يوم جمعة، فمضى إلى جامع القصر، ومعه جماعة من رنود العجم، وأمر أن يثور بهم إذا صعد الخطيب المنبر، ويصيح ويصيحوا معه: وا إسلاماه، وأدين محمداه، ويشق ثيابه، ويرمي عمامته من رأسه، ويخرج إلى دار السلطان والناس معه يستغيثون كذلك، ووضع إنساناً آخر يفعل بجامع السلطان مثله.

فلما صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل ولطم رأسه، وألقى عمامته وشق ثوبه، وأولئك معه، وصاحوا، فبكى الناس وتركوا الصلاة، ولعنوا السلطان، وساروا عن الجامع يتبعون الشيخ إلى دار السلطان فوجدوا الناس في جامع السلطان كذلك، وأحاط الناس بدار السلطان يستغيثون ويكون، فخاف السلطان، فقبض: فأحضروا إلى ابن الشهرزوري، فأحضر، فقال كمال الدين: لقد خفت من مآ رأيت، فلما دخلت عليه قال لي: أي فتنة أثرت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً. أنا كنت في بيتي، ولها الناس يغارون للدين والإسلام، ويخافون (٥٩/١١) عاقبة هذا التواني، فقال: أخرج إلى الناس ففرقهم عنا وأحضر عدا وأختر من العسكر من تريد، ففرقت الناس وعرفتهم ما أمر به من تجهيز العسكرة وحضرت من الغد إلى الديوان، فجهزوا لي طائفة عظيمة من الجيش، فأرسلت إلى نصير الدين بالموصل أعرفه ذلك، وأخوفه من العسكر إن طرقت البلاد، فإنهم يملكونها، فأعاد الجواب يقول البلاد لا تشك من خوفه فلأن يأخذها المسلمون غير من أن يأخذها الكافرون.

فشرعنا في التحميل للرحيل، وإذا قد وصلني كتاب أتاك زنكي من الشام يخبر برحل ملك الروم ويأمرني بأن لا أستصحب من العسكر أحداً، فعرقت السلطان ذلك فقال: العسكر قد تجهز،

ولا بدّ من الغزاة إلى الشام، فبعد الجهد وبذل الخلفة العظيمة له ولأصحابه أعاد العسكر.

ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء أتابك زنكي وأكثروا، فمن ذلك ما قاله المسلم بن خضر بن قُتَيْم الحموي من قصيدة أولها:

ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء أتابك زنكي وأكثروا، فمن ذلك ما قاله المسلم بن خضر بن قُتَيْم الحموي من قصيدة أولها:

بِزَمِكَ لَهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ تَسْلُكُ لَكَ الصَّعَابُ وَتَسْتَحِيمُ
وَمِنْهَا:

وقصد السلطان مسعود أذربيجان، وقصد الملك داود همذان، ووصل إليها الراشد بعد الوقعة فاختلفت آراء الجماعة، فبعضهم أشار بقصد العراق والتغلب عليه، وبعضهم أشار باتباع السلطان مسعود للفراغ منه، فإنّ ما بعده يهون عليهم. وكان بوزاية أكبر الجماعة فلم ير ذلك، وكان غرضه المسير إلى بلاد فارس وأخذها بعد قتل صاحبها منكبرس قبل أن يتمتع من بها عليه، فبطل عليهم ما كانوا فيه، وسار إليها فملكها، وصارت له مع خوزستان.

وسار سلجوقشاه ابن السلطان محمد إلى بغداد ليملكها، فخرج إليه البقش الشحنة بها ونظر الخادم أمير الحاج وقتلوه ومنعوه، وكان عاجزاً مستضعفاً، ولما قُتل صدقة بن دُبَيْس أقر السلطان مسعود الحيلة على أخيه محمد بن دُبَيْس وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا عتر المقتول يدبّر أمره.

ولما كان البقش شحنة بغداد يُقاتل سلجوقشاه ثار العيّارون ببغداد ونهبوا الأموال، وقتلوا الرجال، وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون أرباب الأموال ظاهراً، ويأخذون منهم ما يريدون؛ ويحملون الأمتعة على رؤوس الحمالين، فلما عاد الشحنة قتل منهم وصلب، وغلت الأسعار، وكثر الظلم منه، وأخذ المستورين بحجة العيّارين، فجلا الناس عن بغداد إلى الموصل وغيرها من البلاد. (٦٢/١١)

ذكر قتل الراشد بالله

لما وصل الراشد بالله إلى همذان، وبها الملك داود وبزابه ومن معهما من الأمراء والعساكر بعد انهزام السلطان مسعود وتفرق العساكر، على ما تقدّم ذكره، سار الراشد بالله إلى خوزستان مع الملك داود، ومعهما خوارزم شاه، فقاريا الحوزة، فسار السلطان مسعود إلى بغداد ليمنعهم عن العراق، فعاد الملك داود إلى فارس وعاد خوارزم شاه إلى بلاده، وبقي الراشد وحده، فلما أيس من عساكر العجم سار إلى أصفهان.

فلما كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نضر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته، فقتلوه وهو يريد القبلولة، وكان في أعقاب مرض وقد برى منه، ودقن بظاهر أصفهان بشهرستان، فركب من معه فقتلوا الباطنية.

ولما وصل الخبر إلى بغداد جلسوا للعزاء به في بيت النبوة يوماً واحداً وكان أبيض أشقر، حسن اللون مليح الصورة، مهيباً شديداً القوة والبطش.

قال أبو بكر الصولي: الناس يقولون إنّ كلّ سادس يقسم بأمر

(٦٠/١١) وهي قصيدة طويلة، ومن عجيب ما يُحكى أنّ ملك الروم لما عزم على حصر شيزر سمع من بها ذلك، فقال الأمير مرشد بن عليّ أخو صاحبها وهو يفتح مصحفاً: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني إليك! فتوفي بعد أيام.

ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من

الأمراء

لما فارق الراشد بالله أتابك زنكي من الموصل سار نحو أذربيجان، فوصل مراغة، وكان الأمير منكبرس صاحب فارس، ونائبه بخوزستان الأمير بوزاية، والأمير عبد الرحمن طغايك صاحب خلخال، والملك داود ابن السلطان محمود، مستشعرين من السلطان [مسعود]، خافين منه، فتجمّعوا ووافقوا الراشد على الاجتماع معهم لتكون أيديهم واحدة، ويردّوه إلى الخلافة، فأجابهم إلى ذلك إلا أنّه لم يجتمع معهم.

ووصل الخبر إلى السلطان مسعود وهو ببغداد باجتماعهم، فسار عنها في شعبان نحوهم، فالتقوا بينجن كشت، فاقتلوا، فهزمهم السلطان مسعود، وأخذ الأمير منكبرس أسيراً فقتل بين يديه صبراً، وتفرق عسكر مسعود في النهب واتباع المنهزمين.

وكان بوزاية وعبد الرحمن طغايك على نشر من الأرض، فأرأى السلطان (٦١/١١) مسعوداً وقد تفرّق عسكره عنه، فحملاً عليه وهو في قلّة فلم يثبت لهما وانهزم وقبض بوزاية على جماعة من الأمراء، منهم: صدقة بن دُبَيْس صاحب الحيلة، ومنهم ولد أتابك قراسقر صاحب أذربيجان، وعتر بن أبي العسكر وغيرهم وتركهم

بينه وبين الأمراء، لا سيما قراستقر صاحب أذربيجان فإنه فارق السلطان وأرسل يقول: إما أن تنفذ رأس الوزير وإلا خدمنا سلطاناً آخر. فأشار من حضر من الأمراء بقتله، وحذروه فتنة لا تتلاقى، فقتله على كره منه، وأرسل رأسه إلى قراستقر فرضي. وكانت وزارته سبعة أشهر، وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

ووزر بعده أبو العز طاهر بن محمد البروجردی وزير قراستقر، ولقب عز الملك، وضاعت الأمور على السلطان مسعود، واستقطعت الأمراء البلاد بغير اختياره، ولم يبق له شيء من البلاد البتة إلا اسم السلطنة لا غير. (٦٥/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ملك حسام الدين تمرشاش إيلغازي، صاحب ماردین، قلعة الهتاخ من بلاد ديار بكر، أخذها من بعض بني مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها، وهذا آخر من بقي منهم له ولاية، فسبحان الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا يتطرق إليه النقص ولا التغيير.

وفيها انقطعت كسوة الكعبة، لما ذكرناه من الاختلاف، فقام بكسوتها رامشت التاجر الفارسي، كساها من الثياب الفاخرة بكل ما وجد إليه سبيل، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصرية؛ وهو من التجار المسافرين إلى الهند كثير المال.

وفيها توفيت زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارق، زوج السلطان مسعود، وتزوج بعدها سفري ابنة ديبس بن صدقة في جمادی الأولى، وتزوج ابنة قاورت، وهو من البيت السلجوقي، إلا أنه كان لا يزال يعاقر الخمر ليلاً ونهاراً، فلهذا سقط اسمه وذكره.

وفيها قتل السلطان مسعود ابن البقش السلاحي شحنة بغداد، وكان قد ظلم الناس وعسفهم، وفعل ما لم يفعله غيره من الظلم، فقبض عليه، وسيّره إلى تكريت، فسجنه بها عند مجاهد الدين بهروز، ثم أمر بقتله، فلما أرادوا قتله ألقى بنفسه في دجلة فغرق، فأخذ رأسه وحمل إلى السلطان، وجعل السلطان شحنة العراق مجاهد الدين بهروز، فعمل أعمالاً صالحة منها: أنه عمل مسنة النهروان وأشباهها، وكان حسن السيرة كثير الإحسان. (٦٦/١١)

وفيها درس الشيخ أبو منصور بن الرزاز بالنظامية ببغداد.

وأرسل إلى أتابك زنكي في إطلاق قاضي القضاة الزينبي، فأطلق وانحدر إلى بغداد، فخلع عليه الخليفة وأقره على منصبه.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد طالبت مدته، وعظم أمره، حتى أكل الناس الكلاب والسنابير وغيرهما من الدواب، وتفرق أكثر أهل البلاد من الجوع.

الناس من أول الإسلام لا بد من أن يخلع، وربما قتل. قال: فتأملت ذلك، فراهته كما قيل، فإن أول من قام بأمر هذه الأمة محمد رسول الله ﷺ ثم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن، رضي الله عنهم، فخلع وقتل؛ ثم الوليد بن عبد الملك، وأخوه سليمان، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام ابنا عبد الملك، والوليد بن يزيد ابن عبد الملك، فخلع وقتل، ثم لم يتنظم أمر بني أمية؛ ثم ولي السفاح، (٦٣/١١) والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والأمين، فخلع وقتل؛ والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمتنصر والمستعين فخلع وقتل؛ والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر، فخلع، ثم رز، ثم قتل؛ ثم القاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع، فخلع؛ ثم القادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد، فخلع وقتل.

قلت: وفي هذا نظر لأن البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان، وكونه جعله بعده لا وجه له، والصولي إنما ذكر إلى أيام المقتدر بالله ومن بعده ذكره غيره.

ذكر حال ابن بكران العيار

في هذه السنة، في ذي الحجة عظم أمر ابن بكران العيار بالعراق، وكثر أتباعه، وصار يركب ظاهراً في جمع من المفسدين، وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد، فأمر أبا القاسم ابن أخيه حامي باب الأزج أن يشتد عليه ليأمن شربه.

وكان ابن بكران يكثر المقام بالسواد، ومعه رفيق له يعرف بابن البراز، فأنتهى أمرهما إلى أنهما أرادا أن يضربا باسمهما سكة في الأنبار، فأرسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي إلى الوالي أبي الكرم وقال: إما أن تقتل ابن بكران، وإما أن تقتلك، فأحضر ابن أخيه وعرفه ما جرى، وقال له: إما أن تخشارني ونفسك، وإما أن تخشار ابن بكران، فقال: أنا أقتله. وكان لابن بكران عادة يجيء في بعض الليالي إلى ابن أخيه أبي الكرم، فيقيم في داره، ويشرب عنده، فلما جاء على عادته وشرب، أخذ أبو القاسم سلاحه ووثب (٦٤/١١) به فقتله وأراح الناس من شره، ثم أخذ، بعده يسيّر، رفيقه ابن البراز، وصلب، وقتل معه جماعة من الحرامية، فسكن الناس واطمأنوا وهذات الفتنة.

ذكر قتل الوزير الدرگزني ووزارة الخازن

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره العماد أبي البركات بن سلمة الدرگزني، واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الحسين الخازن، وكان الكمال شهماً عادلاً، نافذ الحكم، حسن السيرة، أزال المكوس ورفع المظالم، وكان يقيم مؤونة السلطان ووظائفه، وجمع له خزان كثيرة، وكشف أشياء كثيرة كانت مستورة يُخَان فيها ويُسرق، فنقل على المتصرفين وأرباب الأعمال، فأوقعوا

ذكر قتل محمود صاحب دمشق ومُلك أخيه محمد

في هذه السنة، في شوال، قُتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طُغتكين، صاحب دمشق، على فراشه غيلةً، قتله ثلاثة من غلمانِه هم خواصُه وأقرب النَّاس منه في خلوته وجلوته، وكانوا ينامون عنده ليلاً، فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا، فنجنا أحدهم وأخذ الآخران فصلياً.

وكتب من بدمشق إلى أخيه جمال الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك وهو بها، بصورة الحال واستدعوه ليملك بعد أخيه، فحضر في أسرع وقت، فلما دخل البلد جلس للعرء بأخيه، وحلف له الجند وأعيان الرعية، وسكن النَّاس، وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنز، مملوك جدّه، وزاد في علو مرتبته، وصار هو الجملة والتفصيل؛ وكان أنز خيراً عاقلاً حسن السيرة فجرت الأمور عنده على أحسن نظام.

ذكر مُلك زنكي بعلبك

في هذه السنة، في ذي القعدة، سار عماد الدين أتابك زنكي بن آقسنقر إلى بعلبك، فحصرها ثم ملكها؛ وسبب ذلك أنَّ محموداً صاحب دمشق لما قُتل كانت والدته زمرد خاتون عند أتابك زنكي بحلب، قد تزوّجها، فوجدت لقتل ولدها وجداً شديداً، وحرّنت عليه، وأرسلت إلى زنكي وهو بديار (٦٩/١١) الجزيرة تعرّفه الحادثة، وتطلب منه أن يقصد دمشق ويطلب بشار ولدها. فلما وقف على هذه الرسالة بادر في الحال من غير توقّف ولا تريث، وسار مُجدداً ليُجعل ذلك طريقاً إلى مُلك البلد، وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق، فاحتاط من بها، واستعدوا، واستكثروا من الذخائر، ولم يتركوا شيئاً ممّا يحتاجون إليه إلّا وبذلوا الجهد في تحصيله، وأقاموا ينتظرون وصوله إليهم، فتركهم وسار إلى بعلبك.

وقيل: كان السبب في مُلكها أنّها كانت لمعين الدين أنز، كما ذكرناه، وكان له جارية يهواها، فلما تزوّج أم جمال الدين سيّرها إلى بعلبك، فلما سار زنكي إلى الشام عازماً على قصد دمشق سيّر إلى أنز يبدل له البذول العظيمة ليسلم إليه دمشق، فلم يفعل.

وسار أتابك إلى بعلبك فوصل إليها في العشرين من ذي الحجة من السنة فأنزلها في عساكره، وضيق عليها، وجدّ في محاربتها، ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عدداً ترمي ليلاً ونهاراً، فأشرف من بها على الهلاك، وطلبوا الأمان، وسلّموا إليه المدينة، وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فقاتلهم، فلما أسبوا من معين ونصير طلبوا الأمان فأمّتهم، فسلموا إليه القلعة، فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم إلّا القليل، فاستقبح النَّاس ذلك من فعله واستعظموه، وخافه غيرهم وحذروه لا سيّما أهل دمشق فإنهم قالوا: لو ملكنا

وفيها توفي طغان أرسلان صاحب بديليس وأرزن من ديار بكر [وولي بعده ابنه فرني] واستقام له الأمر.

وفيها، في شهر صفر، جاءت زلزلة عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغيرها من البلاد، فخربت كثيراً منها، وهلك تحت الهدم عالم كثير.

وفيها توفي أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي الفتح الدُّينوريّ الفقيه الحنبليّ ببغداد، وكان ينشد كثيراً هذه الأبيات:

تَمَيَّنْتُ أَنْ تُسَمِّيَ قَفِيهَا مُنَاطِراً بِغَيْرِ عِيَاةٍ وَالْجُنُودُ تَقُودُ
وَلَيْسَ اكْتِسَابُ الْمَالِ دُونَ مُشَقَّةٍ تَلْقِيهَا فَالْعِلْمُ كَيْفَ يَكُونُ

وفيها توفي محمد بن عبد الملك بن عمر أبو الحسن الكرخي، ومولده سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكان فقيهاً مُحدثاً سمع الحديث بخرخ وأصفهان وهمدان وغيرهما.

وفي شعبان منها توفي القاضي أبو العلاء صاعد بن الحسين بن إسماعيل بن صاعد، وهو ابن عمّ القاضي أبي سعيد، وولي القضاء ببسابور بعد أبي سعيد. (٦٧/١١)

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه

في هذه السنة، في المحرم، سار السلطان سنجر بين ملكشاه إلى خوارزم محارباً لخوارزم شاه أنز بن محمد. وسبب ذلك أنَّ سنجر بلغه أنَّ أنز يحدث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له، وأنّ هذا الأمر قد ظهر على كثير من أصحابه وأمرائه، فأوجب ذلك قصده وأخذ خوارزم منه، فجمع عساكره وتوجّه نحوه، فلما قرب من خوارزم خرج خوارزم شاه إليه في عساكره، فلقيه مقابلاً، وعيّا كل منهما عساكره وأصحابه، فاقتلوا، فلم يكن للخوارزمية قوة بالسلطان، فلم يثبتوا، ولولوا منهزمين، وقُتل منهم خلق كثير، ومن جملة القتلى ولد لخوارزم شاه، فحزن عليه أبوه حزناً عظيماً، ووجد وجداً شديداً.

وملك سنجر خوارزم، وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه محمد، ورّتب له وزيراً وأتابكاً وحاجباً، وقرّر قواعده، وعاد إلى مرو في جُمادى الآخرة من هذه السنة؛ فلما فارق خوارزم عائداً انتهز خوارزم شاه الفرصة فرجع إليها، وكان أهلها يكرهون العسكر السنجريّ ويؤثرون عودة خوارزم شاه، فلما عاد أعانوه على مُلك البلد، ففارقهم سليمان شاه ومن معه ورجع إلى عمّه السلطان سنجر، وفسد الحال بين سنجر وخوارزم شاه واختلفا بعد الاتفاق، ففعل خوارزم شاه في خراسان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ما نذكره إن شاء الله. (٦٨/١١)

لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء ، فإنه إجماعاً نفوراً وخطاً في محاربه.

ولما ملك زنكي بعلبك أخذ الجارية التي كانت لمعين الدين أنز بها، فتزوجها بحلب، فلم تزل بها إلى أن قتل، فسيّر ابنه نور الدين محمود إلى (٧٠/١١) معين الدين أنز، وهي كانت أعظم الأسباب في التئود بين نور الدين وبين أنز، والله أعلم.

ذكر استيلاء قراستقر على بلاد فارس وعوده عنها

وفي هذه السنة جمع أنابك قراستقر صاحب أذربيجان عساكر كثيرة وحشد، وسار طالباً بشار أبيه الذي قبله بوزابة في المصافى المقدم ذكره، فلما قارب السلطان مسعوداً أرسل إليه يطلب منه قتل وزيره الكمال، فقتله كما ذكرناه، فلما قتل سار قراستقر إلى بلاد فارس، فلما قاربها تحصن بوزابة منه في القلعة البيضاء، ووطىء قراستقر البلاد، وتصرف فيها، وليس له فيها دافع ولا مانع، إلا أنه لم يمكنه المقام، وملك [المدن] التي في فارس، فسلم البلاد إلى الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمود وقال له: هذه البلاد لك فاملك الباقي، وعاد إلى أذربيجان فقتل حيتن بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين [وخمسمائة]، وهزم سلجوقشاه وملك البلاد، وأسر سلجوقشاه وسجنه في قلعة بفارس.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، توفي الوزير شرف الدين أنوشروان بن خالده معزولاً ببغداد، وحضر جنازته وزير الخليفة فمس دونه، ودفن في داره، ثم نقل إلى الكوفة، فدفن في مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، (٧١/١١) عليه السلام. وكان فيه تشيع، وهو كان السبب في عمل المقامات الحريية، وكان رجلاً عاقلاً شهماً، ديناً خيراً، وزر للخليفة المسترشد وللسلطان محمود وللسلطان مسعود، وكان يستقيل من الوزارة فيجاب إلى ذلك ثم يخطب إليها فيجيب كارهاً.

وفيها قدم السلطان مسعود بغداد في ربيع الأول، وكان الزمان شتاءً، وصار يشتي بالعراق، ويصيف بالبحال، ولما قدمها أزال المكوس، وكتب الألواح بإزالتها، ووضعت على أبواب الجوامع وفي الأسواق، وتقدم أن لا يمتزل جندي في دار عامي من أهل بغداد إلا بإذن، فكثر الدعاء له والثناء عليه، وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان.

وفيها، في صفر، كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد، وكان أشدها بالشام، وكانت متوالية عدة ليال، كل ليلة عدة دفعات، فخرّب كثير من البلاد، لا سيما حلب فإن أهلها لما كثرت عليهم فارقوا بيوتهم، وخروا [إلى] الصحراء، وعدوا ليلة واحدة جاءتهم ثمانين مرة، ولم تزل بالشام تتعاهدهم من رابع

صفر إلى التاسع عشر منه، وكان معه صوت وهزة شديدة.

وفيها أغار الفرنج على أعمال بانياس، فسار عسكر دمشق فسيّ أثرهم، فلم يدركوهم فعادوا.

وفيها توفي أبو القاسم زاهر بن طاهر الشحامي النيسابوري بها، ومولده سنة ست وأربعين وأربعمائة، وكان إماماً في الحديث، مكثرًا عالي الإسناد.

وتوفي عبد الله بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف أبو القاسم ابن أبي الحسين البغدادى بها، ومولده سنة اثنين وخمسين وأربعمائة، وعبد (٧٢/١١) العزيز بن عثمان بن إبراهيم أبو محمد الأسدي البخاري، كان قاضي بخارى، وكان من الفقهاء أولاد الأئمة حسن السيرة.

وتوفي محمد بن شجاع بن أبي بكر بن علي بن إبراهيم اللقناني الأصفهاني بأصفهان في جمادى الآخرة، ومولده سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وسمع الحديث الكثير بأصفهان وبغداد وغيرهما. (٧٣/١١)

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

ذكر حصار أنابك زنكي دمشق

في هذه السنة حصر أنابك زنكي دمشق مرتين، فأما المرة الأولى فإنه سار إليها في ربيع الأول من بعلبك بعد الفراغ من أمرها، وتقرير قواعدها وإصلاح ما تشعث منها على حصرها، فنزل بالبقاع، وأرسل إلى جمال الدين صاحبها يبذل له بلداً يقترحه ليسلم إليه دمشق، فلم يجبه إلى ذلك، فرحل وقصد دمشق، فنزل على دار ثالثة عشر ربيع الأول فالتقت الطلائع، واقتتلوا، وكان الظفر لمسكر زنكي وعاد الدمشقيون منهزمين، فقتل كثير منهم.

ثم تقدم زنكي إلى دمشق، فنزل هناك، ولقيه جمع كثير من جند دمشق وأحداثها ورجالة الغوطة، فقاتلوه، فسأتهزم الدمشقيون، وأخذهم السيف، فقتل فيهم وأكثر، وأسر كذلك، ومن سلم عاد جريحاً. وأشرف البلد ذلك اليوم على أن يملك، لكن غاد زنكي عن القتال وأمسك عنه عدة أيام، وتابع الرسل إلى صاحب دمشق، وبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختاره من البلاد، فمال إلى التسليم، وامتنع غيره من أصحابه من ذلك، وخوفوه عاقبة فعله، وأن يفتد به كما غدر بأهل بعلبك، فلما لم يسلموا إليه عاود القتال والتخلف.

ثم إن جمال الدين صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان، وطمع (٧٤/١١) زنكي حيتن في البلد، وزحف إليه زحفاً شديداً ظناً منه أنه ربما يقع بين المتقدمين والأمراء خلاف فيبلغ غرضه،

ذكر ملك زنكي شهرزور وأعمالها

في هذه السنة ملك أنابك زنكي شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون، وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني، وكان حكمه نافذاً على قاضي التركمان ودانيهم، وكلتمته لا تخالف، يرون طاعته فرضاً، فتحامى الملوك قصده، ولم يتعرضوا لولايته لهذا ولأنها منيعة كثيرة المضايق، فعظم شأنه وازداد جمعه، وأتاه التركمان من كل فج عقيق.

فلما كان هذه السنة سبر إليه أنابك زنكي عسكرياً، فجمع أصحابه ولقيهم فصاروا واقتلوا، فانهزم قفجاق واستبيح عسكريه، وسار الجيش (٧٦/١١) الأنابكي في أعقابهم فحاصروا الحصون والقلاع فملكوها جميعها وبذلوا الأمان لقفجاق فصار إليهم، وانخرط في سلك العسكار ولم يزل هو وبنوه في خدمة البيت الأنابكي على أحسن قضية إلى بعد سنة ستمائة بقليل وفارقوها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة جرى بين أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله وبين الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي مناصرة، وسببها أن الوزير كان يعترض الخليفة في كل ما يأمر به، ففسر الخليفة من ذلك، فغضب الوزير، ثم خاف فقصد دار السلطان في سمرية، وقت الظهر، ودخل إليها واحتمى بها، فأرسل إليه الخليفة في العود إلى منصبه، فامتنع. وكانت الكتب تصدر باسمه، واستناب قاضي القضاة الزينبي، وهو ابن عم الوزير، وأرسل الخليفة إلى السلطان رسلاً في معنى الوزير، فأرخص له السلطان في عزله، فحينئذ أسقط اسمه من الكتب، وأقام بدار السلطان، ثم عزل الزينبي من النيابة وناب سديد الدولة بن الأتباري.

وفيها قتل المقرّب جوهر وهو من خدم السلطان سنجر، وكان قد حكم في دولته جميعها، ومن جملة أقطاعه الري، ومن جملة مماليكه عباس صاحب (٧٧/١١) الري، وكان سائر عسكر السلطان سنجر يخدمونه ويقفون ببابه، وكان قتله بيد الباطنية، وقف له جماعة منهم برئ النساء واستغثن به، فوقف يسمع كلامهم فقتلوه، فلما قتل جمع صاحبه عباس العساكر وقصد الباطنية، فقتل منهم وأكثر، وفعل بهم ما لم يفعله غيره، ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرب بلادهم إلى أن مات.

وفيها زلزلت كنجة وغيرها من أعمال أفريجان وأران إلا أن أشدّها كان بكنجة فخرّب منها الكثير وهلك عالم لا يحصون كثرة. قيل: كان الهلكى مائتي ألف وثلاثين ألفاً، وكان من جملة الهلكى إبنان لقاسنقر صاحب البلاد، وتهدمت قلعة هناك لمجاهد الدين بهروز، وذهب له فيها من الذخائر والأموال شيء عظيم.

وفيها شرع مجاهد الدين بهروز في عمل النهروانات: سكر

وكان ما أمّله بعيداً، فلما مات جمال الدين ولي بعده مجير الدين أبق ولده، وتولى تدبير دولته معين الدين أنز فلم يظهر لموت أبيه أثر مع أن عدوهم على باب المدينة، فلما رأى أنز أن زنكي لا يفارقهم، ولا يزول عن حصصهم، راسل الفرنج، واستدعاهم إلى نصرته، وأن يتفقوا على منع زنكي عن دمشق، وبذل لهم بذولاً من جملتها أن يحصر بانياس ويأخذها وسلمها إليهم، وخوفهم من زنكي إن ملك دمشق؛ فعلموا صحة قوله إنه إن ملكها لم يبق لهم معه بالشام مقام، فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكي، فحين علم زنكي بذلك سار إلى حوران خامس رمضان، عازماً على قتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقيين، فلما سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم، فلما رآهم كذلك عاد إلى حصر دمشق [ونزل] بعندرا شمالها سادس شوال، فأحرق عدة قرى من المريج والغوطة ورحل عائداً إلى بلاده.

ووصل الفرنج إلى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكي، فعادوا، فسار معين الدين أنز إلى بانياس في عسكر دمشق، وهي في طاعة زنكي، كما تقدّم ذكرها، ليحصرها وسلمها إلى الفرنج؛ وكان واليها قد سار قبل ذلك منها في جمع جمعه إلى مدينة صور للإغارة على بلادها، فصادفه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق نجدة لصاحبها على زنكي، فاقتتلا، فانهزم المسلمون وأخذوا والي بانياس فقتل، ونجا من سلم منهم إلى بانياس، وجمعوا معهم كثيراً من البقاع وغيرها، وحفظوا القلعة، فنازلها معين الدين، فقاتلهم، وضيق عليهم، ومعه طائفة من الفرنج، فأخذها وسلمها إلى الفرنج. (٧٥/١١)

وأما الحصر الثاني لدمشق، فإن أنابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد إلى بعلبك ليدفع عنها من يحصرها، فأقام هناك. فلما عاد عسكر دمشق، بعد أن ملكوها وسلموها إلى الفرنج، فرق أنابك زنكي عسكره على الإغارة على حوران وأعمال دمشق، وسار هو جريدة مع خواصه، فنازل دمشق سحراً ولا يعلم به أحد من أهلها، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا، وارتج البلد، واجتمع العسكر والعامة على السور وفُتحت الأبواب وخرج الجند والرّجال فقاتلوه، فلم يمكن زنكي عسكره من الإقدام في القتال لأن عامة عسكره كانوا قد تفرقوا في البلاد للنهب والتخريب، وإنما قصد دمشق لئلا يخرج منها عسكر إلى عسكره وهم متفرقون، فلما اقتتلوا ذلك اليوم قتل بينهم جماعة ثم أحجم زنكي عنهم وعاد إلى خيامه ورحل إلى مرج راهط، وأقام ينتظر عودة عسكره، فعادوا إليه وقد ملؤوا أيديهم من الغنائم، لأنهم طرّقوا البلاد وأهلها غافلون، فلما اجتمعوا عنده رحل بهم عائداً إلى بلادهم.

الملك طغرل، وسلّمت أذربيجان وأرّانية إلى الأمير جاولي الطغرلي. وكان قراستقر علا شأنه على سلطانه وخافه السلطان.

وفيها كان بين أتاك زنكي وبين داود سقمان بن أرتق، صاحب حصن كيفا، حربٌ شديدة، وانهزم داود بن سقمان، وملك زنكي من بلاده قلعة بهمرد وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل.

وفيها ملك الإسماعيلية حصن مصبات بالشام، وكان إليه مملوكاً لبني منقذ أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه، ومكروا به حتى صدعوا إليه وقتلوه، وملكوا الحصن، وهو بأيديهم إلى الآن.

وفيها توفي سيد الدولة بن الأباري واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصر محمد بن محمد بن جهير، وكان قبل ذلك أستاذ الدار.

وفيها توفي يرتش بازدار صاحب قزوين.

وفيها، في رجب، ظفر ابن الدانشمند صاحب ملطية وغيرها من تلك النواحي، بجمع من الروم فقتلهم، وغنم ما معهم. (٨٠/١١)

وفيها، في رمضان، سارت طائفة من الفرنج بالشام إلى عسقلان ليغيروا على أعمالها، وهي لصاحب مصر، فخرج إليهم العسكر الذي بعسقلان فقاتلهم، فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيراً، فعادوا منهزمين.

وفيها بُنيت المدرسة الكمالية ببغداد، بناها كمال الدين أبو الفتح بن طلحة صاحب المخزن، ولما فرغت درّس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل، وحضره أرباب المناصب وسائر الفقهاء.

وفيها، في رجب، مات القاضي أبو بكر بن محمد بن عبد الباقي الأنصاري، قاضي المارستان، عن ثمان وتسعين سنة، وله الإسناد العالي في الحديث، وكان عالماً بالسنن والحساب والهيئة وغيرها من علوم الأوائل، وهو آخر من حدث في الدنيا عن أبي إسحق البرمكي والقاضي أبي الطيب الطبري وأبي طالب العشاري وأبي محمد الجوهري وغيرهم.

وتوفي الإمام الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصفهاني عاشر ذي الحجة، ومولده سنة تسع وخمسين [وأربع مائة]، وله التصانيف المشهورة.

وتوفي يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين أبو يعقوب الهمداني من أهل مرو، وسكن مرو، وتفقّه على أبي إسحق الشيرازي، وروى الحديث، واشتغل بالرياضيات والمجاهدات، ووعظ ببغداد، فقام إليه متفقاً يقال له ابن السقاء وسأله وأذاه في السؤال فقال: اسكت، إني أتم منك ربح الكفر! فماله الرجل إلى

ميكراً عظيماً برد الماء إلى مجراه الأول، وحضر مجرى الماء القديم، وخرق إليه مجرة تأخذ من ديبالي ثم استحال بعد ذلك وجرى الماء ناحية من السكر، وبقي السكر في البئر لا يتنفع به أحد، ولم يتعرض أحد لردّه إلى مجراه عند السكر إلى وقتنا هذا.

وفيها انقطع الغيث ببغداد والعراق، ولم يجيء غير مرة واحدة في آذار، ثم انقطع، ووقع الغلاء، وغدمت الأقوات بالعراق.

وفيها، في جمادى الآخرة، دخل الخليفة بفاطمة خاتون بنت السلطان مسعود، وكان يوم حملها إلى دار الخليفة يوماً مشهوداً، أغلقت بغداد عدة أيام ورُئت وتزوج السلطان مسعود بابنة الخليفة المتقي لأمر الله، وعقد عليها، واستقر أن يتأخر زفافها خمس سنين لصغره.

وفيها، في ربيع الأول، توفي القاضي أبو الفضل يحيى ابن قاضي دمشق المعروف بالزكي. (٧٨/١١)

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

ذكر مسير جهار دانكي إلى العراق وما كان منه

في هذه السنة أمر السلطان مسعود الأمير إسماعيل المعروف بجهار دانكي، والبش كون خر، بالمسير إلى خوزستان وفارس وأخذهما من بوزابة، وأطلق لهما نفقة على بغداد، فسارا فيمنعهما إلى بغداد، فمَنعهم مجاهد الدين بهروز من دخولها، فلم يبقوا منه، فأرسل إلى المعابر فحسبها وغرقها، وجد في عمارة السور، وسد باب الظفيرة وباب كلزاذي، وأغلق باقي الأبواب، وعلّق عليها السلاح وضرب الخيام للمقاتلة.

فلما علموا بذلك عبرا بصحر صسر، وقصدا الجلة، فمَنعها منها، فقصدا واسط، فخرج إليهما الأمير طرناي وتقاتلوا، فانهزم طرناي ودخلوا واسط فنهبوا بلد فرسان والنجمانية، وإنضم طرناي إلى حماد بن أبي الخير صاحب البطيحة، ووافقهم عسكر البصرة، وفارق إسماعيل والبش بعض عسكرهما وصارا مع طرناي، فضمّ أولئك، فسار إلى تيسر واستشفع إسماعيل إلى السلطان فعفا عنه. (٧٩/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وصل رسول من السلطان مستجراً ومعه بردة النبي ﷺ، والقضيب، وكانا قد أخذوا من المسترشد، فأعلاههما الآن إلى المفتي.

وفي هذه السنة توفي أتاك قراستقر صاحب أذربيجان وأرّانية بمدينة أربيل، وكان مرضه السّل، وطال به، وكان من مماليك

بلد الروم وتنصر.

وفيها مات أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر المشهور.
(٨١/١١)

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا وملوكهم ما وراء النهر
قد ذكر أصحاب التاريخ في هذه الحادثة أقاويل نحن نذكرها
جميعها للخروج من عهدها، فنقول :

في هذه السنة، في المحرم، انهزم السلطان سنجر من الترك
الكفار. وسبب ذلك أن سنجر كان قتل ابناً لخوارزم شاه أتمز بن
محمد، كما ذكرناه قبل، فبعث خوارزم شاه إلى الخطا، وهم بما
وراء النهر، يطعمهم في البلاد ويزوج عليهم أمهرا، وتزوج إليهم،
وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر، فساروا في ثلاثمائة ألف
فارس، وسار إليهم سنجر في عساكره، فالتقوا بما وراء النهر،
واقبلوا أشد قتال، وانهزم سنجر في جميع عساكره، وقُتل منهم
مائة ألف قتيل، منهم: أحد عشر ألفاً كلهم صاحب عمامة، وأربعة
آلاف امرأة، وأسرت زوجة السلطان سنجر، وتم سنجر منهزماً إلى
ترمد، وسار منها إلى بلخ.

ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو، فدخلها
مراغمة للسلطان سنجر، وقتل بها وقبض على أبي الفضل الكرمانلي
الفيقيه الحنفي وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من أعيان البلد.

ولم يزل السلطان سنجر مسعوداً إلى وقتنا هذا لم تنهزم له
راية، ولما تمت (٨٢/١١) عليه هذه الهزيمة أرسل إلى السلطان
مسعود وأذن له في التصرف في الري وما يجري معها على قاعدة
أبيه السلطان محمد، وأمره أن يكون مقيماً فيها بعساكره بحيث إن
دعت حاجة استدعاه لأجل هذه الهزيمة، فوصل عباس صاحب
الري إلى بغداد بعساكره، وخدم السلطان مسعوداً خدمة عظيمة،
وسار السلطان إلى الري امتثالاً لأمر عمه سنجر.

وقيل: إن بلاد تركستان، وهي كاشغر، وبلماغون، وختن،
وطراظ وغيرها مما يجاورها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد
الملوك الخائية الأتراك، وهم مسلمون من نسل إفراسياب التركي،
إلا أنهم مختلفون وكان سبب إسلام جدهم الأول واسمه سيق
قراخاقان أنه رأى في منامه كأن رجلاً نزل من السماء فقال بالتركية
ما معناه: اسلم تسلم في الدنيا والآخرة؛ فاسلم في منامه، وأضحت
فأظهر إسلامه، فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن سيق، ولم يزل
الملك تلك الناحية في أولاده إلى أرسلان خان محمد ابن سليمان
بن داود بغراخان بن إبراهيم الملقب بطمغاج خان بن ايلك الملقب

بنصر أرسلان بن علي بن موسى بن سيق، فخرج على قدرخان
فانتزع الملك منه، فقتل سنجر قدرخان، كما ذكرناه، سنة أربع
وتسعين وأربعمائة، وأعاد الملك إلى أرسلان خان، وثبت قدمه.
وخرج خوارج، فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعادته إلى ملكه
أيضاً.

وكان من جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغلية والأتراك
الغزية الذين نهباو خراسان على ما نذكره إن شاء الله، وهم نوعان:
نوع يقال لهم أجق، وأميرهم طوطي بن دادبك، ونوع يقال لهم برق
وأميرهم قرعوت بن عبد الحميد، فحسن الشريف الأشرف بن
محمد بن أبي شجاع العلوي السمرقندي لولد أرسلان خان
المعروف بنصر خان طلب الملك من أبيه (٨٣/١١) وأطعمه،
فسمع محمد خان الخبر، فقتل الابن والشريف الأشرف.

وجرت بين أرسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دعتههم
إلى العصيان عليه وانتزع الملك منه، فعادوا الاستغاثة بالسلطان
سنجر، فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وكان
بينهما مصاهرة، فوصل إلى سمرقند، وهرب القارغلية من بين يديه.

واتفق أن السلطان سنجر خرج إلى الصيد، فرأى خيالة، فقبض
عليهم فأقروا بأن أرسلان خان وضعهم على قتله، فعاد إلى
سمرقند، فحصر أرسلان خان بالقلعة فملكها، وأخذ أسيراً، وسيره
إلى بلخ فمات بها، وقيل بل غدر به سنجر، واستضعفه، فملك
البلد منه فأشاع عنه ذلك.

فلما ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلع طمغاج أبا المعالي
الحسن بن علي بن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين، وكان من
أعيان بيت الخائية، إلا أن أرسلان خان أطرحه، فلما ولي سمرقند
لم تطل أيامه، فمات عن قليل، فأقام سنجر مقامه الملك محمود
بن أرسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخان، وهو ابن
الذي أخذ منه سنجر سمرقند، وكان محمود هذا ابن أخت سنجر،
وكان قبل ذلك، سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، قد وصل الأعور
الصيني إلى حدود كاشغر في عدد كثير لا يعلمهم إلا الله، فاستعد
له صاحب كاشغر، وهو التخان أحمد بن الحسن، وجمع جنوده،
فخرج إليه، والتقوا، فاقبلوا، وانهزم الأعور الصيني، وقُتل كثير من
أصحابه، ثم إنه مات، فقام مقامه كوخان الصيني.

وكون يلسان الصين لقباً لأعظم ملوكهم، وخان لقباً لملوك
الترك فمعناه أعظم الملوك. وكان يليس ليسة ملوكهم من المنغية
والخمار، وكان ماثوي (٨٤/١١) المنهب. ولما خرج من الصين
إلى تركستان انضاف إليه الأتراك الخطا، وكانوا قد خرجوا قبله من
الصين، وهم في خدمة الخائية أصحاب تركستان.

وكان أرسلان خان محمد بن سليمان يسير كل سنة عشرة

عاجز عن شقها بإبرة؟

واستعدّ كوخان للحرب، وعنده جنود الترك والصين والخطا وغيرهم، وقصد السلطان سنجر، فالتقى العسكران، وكانا كالبحزين العظيمين، بموضع يقال له قطوان، وطاف بهم كوخان حتى الجاهم إلى واد يقال له درغم، وكان على ميمنة سنجر الأمير قماج، وعلى مسيرته ملك سجستان، والأتقال (٨٦/١١) وراهم، فاقتتلوا خامس صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة.

وكانت الأتراك القارغلية الذين هربوا من سنجر من أشد الناس قتالاً، ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر أحسن قتالاً من صاحب سجستان، فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين، فقتل منهم ما لا يحصى من كثرتهم، واشتمل وادي درغم على عشرة آلاف من القتل والجرح، ومضى السلطان سنجر منهزماً، وأسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان سنجر، وهي ابنة أرسلان خان، فأطلقهم الكفار، ومن قتل الحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري للقبيلة الحنظلي المشهور. ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أكثر قتل فيها بخراسان.

واستقرت دولة الخطا والترك والكفار بما وراء النهر، وبقي كوخان إلى رجب من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فمات فيه. وكان جميلاً، حسن الصورة، لا يلبس إلا الحرير الصيني، له هيئة عظيمة على أصحابه، ولم يسلط أميراً على أقطاع بل كان يعطيهم من عنده، ويقول: متى أخذوا الأقطاع ظلموا، وكان لا يقدم أميراً على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه، وكان ينهى أصحابه عن الظلم، وينهى عن السكر ويعاقب عليه، ولا ينهى عن الزنا ولا يفتحه.

وملك بعده ابنة له فلم تطل مدتها حتى ماتت، فملك بعدها أمها زوجة كوخان وابنة عمه، وبقي ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله. (٨٧/١١)

ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان

قد ذكرنا قبل قصد السلطان سنجر خوارزم، وأخذها من خوارزم شاه ابنه، وعوده إليها وقتل ولد خوارزم شاه، وأنه هو الذي راسل الخطا وأطمعهم في بلاد الإسلام، فلما لقبهم السلطان سنجر وعاد منهزماً سار خوارزم شاه إلى مهرهان، فقصد سرخس في ربيع الأول من السنة.

فلما وصل إليها لقيه الإمام أبو محمد الزيدي، وكان قد جمع بين الزهد والعلم، فأكرمه خوارزم شاه بكرماً عظيماً، وحل من هناك إلى هرو الشاهجيه، فقصد الإمام أحمد الباجيزي، وشفع في

آلاف خروكة ونزلهم على الدروب التي بينه وبين الصين، يمتنعون أحداً من الملوك أن يتطرق إلى بلاده، وكان لهم على ذلك جريات وإقطاعات، فاتفق أنه وجد عليهم في بعض السنين، فمنعهم عن نسايتهم لئلا يتوالدوا، فعظم عليهم، ولم يعرفوا وجهاً يقصدونه وتحيروا، فاتفق أنه اجتاز بهم قفل عظيم فيه الأموال الكثيرة والأمتعة النفيسة فأخذوه وأحضرُوا التجار وقالوا لهم: إن كتبتم تريدون أموالكم فتعرفونا بلداً كثير المرعى فسيحاً، يسعنا ومعنا أموالنا، فاتفق رأي التجار على بلد بلاساغون فوصفوه لهم، فأعادوا إليهم أموالهم، وأخذوا الموكلين بهم لمنعهم عن نسايتهم وكثفهم، وأخذوا نساءهم، وساروا إلى بلاساغون، وكان أرسلان خان يفرّوهم ويكثر جهادهم فخافوه خوفاً عظيماً.

فلما طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصيني انضافوا إليه أيضاً، فعظم شأنهم وتضاعف جمعهم، وملكوا بلاد تركستان، وكانوا إذا ملكوا المدينة لا يغيرون على أهلها شيئاً، بل يأخذون من كل بيت ديناراً من أهل البلاد وغيرها من القرى، وأما المزدردات وغير ذلك فلاجله، وكل من أطاعهم من الملوك شد في وسطه شبه لوح فضة، فذلك علامة من أطاعهم.

ثم ساروا إلى بلاد ما وراء النهر، فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد بن حدود خجندة في رمضان سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، واقتتلوا، فانهزم الخاقان محمود بن محمد، وعاد إلى سمرقند، فعظم الخطب على أهلها، (٨٥/١١) واشتد الخوف والحزن، وانتظروا البلاء صباحاً ومساءً، وكذلك أهل بخارى وغيرها من بلاد ما وراء النهر، وأرسل الخاقان محمود إلى السلطان سنجر يستمده وينهي إليه ما لقي المسلمون، ويحثه على نصرتهم، فجمع العساكر، فاجتمع عنده ملوك خراسان: صاحب سجستان والغور، وملك غزنة، وملك مازندران وغيرهم، فاجتمع له أكثر من مائة ألف فارس وبقي العرض ستة أشهر.

وسار سنجر إلى لقاء الترك، فعبّر إلى ما وراء النهر في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، فشكا إليه محمود بن محمد خان من الأتراك القارغلية، فقصدهم سنجر، فالتجؤوا إلى كوخان الصيني ومن معه من الكفار، وأقام سنجر بسمرقند، فكتب إليه كوخان كتاباً يتضمن الشفاعة في الأتراك القارغلية ويطلب منه أن يعفو عنهم، فلم يشفعه فيهم، وكتب إليه بدعوه إلى الإسلام ويهدده إن لم يجب إليه ويتوعد بكثرة عساكره، ووصفهم، وبالع في قتالهم بأنواع السلاح حتى قال: وأنهم يشقون الشعر بسهامهم، فلم يرض هذا الكتاب وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك، فلم يضع إليه، وسير الكتاب، فلما قرأه الكتاب على كوخان أمر بتفتيح الرسل إليه وأعطاه إبرة، وكله شق شعرة من لحيته فلم يقدر أن يفعل ذلك، فقال: كيف يشق غيرك شعرة بنسهم وأنبت

إلى الشحنة، فتاب كثير منهم، ولم ينتفع الناس بذلك، لأن ولد الوزير وأخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين، فلم يقدر بهروز على منعهم.

وفيها توفي عبد الرحمن طغايك حجة السلطان واستولى على المملكة وعزل الأمير تتر الطغرلي عنها، وآل أمره إلى أن يمضي في ركاب عبد الرحمن.

وفيها توفي إبراهيم السهوي مقدم الإسماعيلية، فأحرقه ولد عباس صاحب الري في تابوته.

وفيها حج كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن، وعاد وقد لبس ثياب الصوفية، وتخلّى عن جميع ما كان فيه، وأقام في داره مرعي الجانب محروس القاعدة.

وفيها وصل السلطان إلى بغداد وكان الوزير الزينبي بدار السلطان، كما ذكرناه، فسأل السلطان أن يشفع فيه ليرده الخليفة إلى داره، فأرسل السلطان وزيره إلى دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي، وشفع في أن يعود إلى داره فأذن له في ذلك، وأعيد أخوه إلى نقابة القباء، فلزم الوزير داره، ولم يخرج منها إلا إلى الجامع. (٩٠/١١)

وفيها أغار عسكر أتابك زنكي من حلب على بلاد الفرنج، فنهبوا وأحرقوا وظفروا بسرية الفرنج، فقتلوا فيهم وأكثروا، فكان عدة القتلى سبع مائة رجل.

وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق، فسير السلطان مسعود سرية إليهم من العسكر، فنهبوا جلتهم، وقتلوا من ظفروا به منهم وعادوا سالمين.

وفيها سير رجار الفرنجي صاحب صقلية أسطولاً إلى أطراف إفريقية، فأخذوا مراكب سيرت من مصر إلى الحسن صاحب إفريقية، وغدر بالحسن، ثم راسله الحسن، وجذد الهدنة لأجل حمل الغلات من صقلية إلى إفريقية لأن الغلاء كان فيها شديداً والموت كثيراً.

وفيها توفي أبو القاسم عبد الوهاب بن عبد الواحد الحنبلي الدمشقي، وكان عالماً صالحاً.

وفيها توفي ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتوشي وزير أتابك زنكي، وكان حسن السيرة في وزارته كريماً رئيساً.

وفيها توفي أبو محمد بن طباووس إمام الجامع بدمشق في المعرم، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً.

وفيها توفي أبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث المعبروف بابن السمرقندي، ولد بدمشق سنة أربع

أهل مرو، وسأل ألا يتعرض لهم أحد من العسكر، فأجابه إلى ذلك، ونزل بظاهر البلد، واستدعى أبا الفضل الكرمانلي الفقيه وأعيان أهلها، فثار عامة مرو وقتلوا بعض أهل خوارزم شاه، وأخرجوا أصحابه من البلد، وأغلقوا أبوابه، واستعدوا للانتاع، فقاتلهم خوارزم شاه، ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الأول من السنة، وقتل كثيراً من أهلها.

ومن قتل: إبراهيم المروزي الفقيه الشافعي وعلي بن محمد بن أرسلان، وكان ذا فنون كثيرة من العلم، وقتل الشريف علي بن إسحق الموسوي، وكان رأس فتنه وملقح شر، وقتل كثيراً من أعيان أهلها وعاد إلى خوارزم، واستصحب معه علماء كثيرين من أهلها منهم: أبو الفضل الكرمانلي وأبو (٨٨/١١) منصور العبادي والقاضي الحسين بن محمد الأرسابندي وأبو محمد الحرقي الفيلسوف وغيرهم.

ثم سار في شوال من السنة إلى نيسابور، فخرج إليه جماعة من فقهاء وعلمائها وزهادها، وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور ما فعل بأهل مرو، فأجابهم إلى ذلك لكنه استقصى في البحث عن أمoral أصحاب السلطان فأخذها، وقطع خطبة السلطان سنجر، ذي القعدة، وخطبوا له؛ فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزم شاه صاح الناس وثاروا، وكادت الفتنة تثور والشر يعود جديداً، وإنما منع الناس من ذلك ذوو الرأي والعقل نظراً في العاقبة، فقطعت إلى أول المحرم سنة سبع وثلاثين [وخمسمائة] ثم أعيدت خطبة السلطان سنجر.

ثم سير خوارزم شاه جيشاً إلى أعمال بيهق، فأقاموا بها يقاتلون أهلها خمسة أيام، ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد، وعملوا بخراسان أعمالاً عظيمة، ومنع السلطان سنجر من مقاتلة أنسر خوارزم شاه خوفاً من قوة الخطا بما وراء النهر، ومجاورتهم خوارزم وغيرها من بلاد خراسان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ملك أتابك زنكي بن أقسق مدينة الحديثة، ونقل من كان بها من آل مهراش إلى الموصل، ورتب أصحابه فيها.

وفيها خطب لزنكي أيضاً بمدينة آمد، وضار صاحبها في طاعته، وكان قبل ذلك موافقاً لداود على قتال زنكي؛ فلما رأى قوة زنكي صلو معه. (٨٩/١١)

وفيها عزل مجاهد الدين بهروز عن شحنة بغداد، وولها قزل أمير آخر وهو من ممالك السلطان محمود، وكان له بروجرد والبصرة، فأضيف إليه شحنة بغداد، ثم وصل السلطان مسعود إلى بغداد، فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ما ساء، فأعاد بهروز

بأنطاكية، فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم وأصلح حاله معه، وعاد إلى مدينة أنطاكية ومات في رمضان من هذه السنة؛ ثم إن ملك الروم بعد أن صالح صاحب أنطاكية سار إلى طرابلس فحصرها ثم سار عنها.

وفيها قبض السلطان مسعود على الأمير ترشك وهو من خواص الخليفة وممن ربي عنده وفي داره، فسأه ذلك الخليفة، ثم أطلقه السلطان حفظاً لقلب الخليفة.

وفيها كان بمصر وباء عظيم فهلك فيه أكثر أهل البلاد.

(٩٢/١١)

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

ذكر صلح الشهيد والسلطان مسعود

في هذه السنة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته في كل سنة، وجمع العساكر، وتجهز لقصد أنابك زنكي، وكان حقد عليه حقداً شديداً.

وسبب ذلك أن أصحاب الأطراف الخارجين على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ما تقدم ذكره، فكان ينسب ذلك إلى أنابك زنكي ويقول إنه هو الذي سعى فيه وأشار به لعلمه أنهم كلهم كانوا يصدرون عن رأيه؛ فكان أنابك زنكي لا شك يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره؛ فلما تفرغ السلطان هذه السنة، جمع العساكر يسير إلى بلاده، فسير أنابك يستعطفه ويستميله، فأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد، فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار يحتملها إلى السلطان ليعود عنه، فحمل عشرين ألف دينار أكثرها عروضاً؛ ثم تنقلت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مُدَاراة أنابك وأطلق له الباقي استمالة له وحفظاً لقلبه، وكان أعظم الأسباب في قعود السلطان عنه ما يعلمه من حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله.

ومن جيد الرأي ما فعله الشهيد في هذه الحادثة، فإنه كان ولده الأكبر (٩٤/١١) سيف الدين غيازي لا يزال عند السلطان سفيراً وحضراً يأمر والده، فأرسل إليه الآن يأمره بالهرب من عند السلطان إلى الموصل، فأرسل إلى نائبه بها نصير الدين جفر يقول له ليمنعه عن الدخول والوصول إليه، فهرب غيازي، وبلغ الخبر والده، فأرسل إليه يأمره بالعود إلى السلطان، ولم يجتمع به، وأرسل معه رسولا إلى السلطان يقول له: إن ولدي هرب خوفاً من السلطان لما رأى تغيره علي، وقد أعدته إلى الخدمة، ولم أجمع به، فإنه مملوكك، والبلاد لك؛ فحل ذلك من السلطان محلاً عظيماً.

وخمسين وأربعمائة، وكان أكثراً من الحديث. (٩١/١١)

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

ذكر ملك أنابك زنكي قلعة أشب وغيرها من الهكارية

في هذه السنة أرسل أنابك زنكي جيشاً إلى قلعة أشب، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها، وبها أموالهم وأهلهم، فحاصروها وضيقوا على من بها فملكوها، فأمر بإخراجها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضاً عنها.

وكانت هذه العمادية حصناً عظيماً من حصونهم، فخرّبوه لكبره لأنه كبير جداً، وكانوا يعجزون عن حفظه، فخرّبت الآن أشب وعمرت العمادية، وإنما سُميت العمادية نسبة إلى لقبه؛ وكان نصير الدين جفر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية.

ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب

وفي هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلية إلى طرابلس الغرب فحاصروها؛ وسبب ذلك أن أهلها في أيام الأمير الحسن، صاحب إفريقية، لم يدخلوا يداً في طاعته، ولم يزالوا مخالفين مشاقين له، قد قدموا عليهم من بني مطروح مشايخ يدبّرون أمرهم، فلما رآهم ملك صقلية كذلك جهز إليهم جيشاً في البحر، فوصلوا إليهم تاسع ذي الحجة، فنازلوا البلد وقتلوه، (٩٢/١١) وعلّقوا الكلايب في سوره ونقبوه.

فلما كان الغد وصل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد، فقوي أهل طرابلس بهم، فخرجوا إلى الأسطولية، فحملوا عليهم حملة منكورة، فانهمزوا هزيمة فاحشة، وقُتل منهم خلق كثير، ولحق الباقون بالأسطول، وتركوا الأسلحة والأثقال والدواب، فنهباها العرب وأهل البلد. ورجع الفرنج إلى صقلية، فجددوا أسلحتهم وعادوا إلى المغرب، فوصلوا إلى جيجل، فلما رآهم أهل البلد هربوا منه إلى البراري والجبال، فدخلها الفرنج ومنبوا من أدركوها فيها وهدموها، وأحرقوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حماد للترهة ثم عادوا.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرج حسن أمير الأمراء على السلطان مسنجر بخراسان.

وفيها توفي محمد بن داتشمد صاحب ملطية والثغر، واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلعج [أرسلان] صاحب قونية وهو من السلجوقية.

وفيها خرج من الروم عسكر كثير إلى الشام، فحاصروا الفرنج

ذكر ملك أتابك بعض ديار بكر

يمكنه من غير قاعدة تستقر بينهما، فاتفق أن خوارزم شاه أرسل رسلاً يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد، فأجابه إلى ذلك واصطلحا، وعاد سنجر إلى مرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار أتابك زنكي عسكراً إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكها.

وفيهما، في المحرم، توفي أبو البركات عبد الزهّاب بن المبارك بن أحمد الأيباطي، الحافظ ببغداد، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمئة.

وفيهما توفي أبو الفتح محمد بن الفضل بن محمد الأسفراييني الواعظ، من أهل أسفرايين من خراسان، وأقام مدة ببغداد يعظ، وسار إلى خراسان، فمات بسطام، وكان إماماً فاضلاً صالحاً، وكان بينه وبين عليّ الغزنوي تحاسد، (٩٧/١١) فلما مات حضر الغزنويّ عزاه ببغداد وبكى وأكثر، فقال بعض أصحاب أبي الفتح للغزنوي كلاماً أغلظ له فيه، فلما قام الغزنويّ لأمّة بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء وقال له: كنت مهاجراً لهذا الرجل، فلما مات حضرت عزاه وأكثر البكاء وأظهرت الحزن؟ قال: كنت أبكي على نفسي، كان يقال فلان وفلان، فمن يعدم النظر أيقن بالرحيل، وأنشد هذه الأبيات:

ذهب الميرد وانقضت إقامته وسقطني بعد الميرد فغلبت
يت من الآداب أصبح نصفه خرباً وساق نصفه فسخرت
فترودوا من غلب فبطل ما شرب الميرد عن قليل يشرب
أوصيكم أن تكبوا أفاضلهم إن كانت الأنفاس مما يكب

وفيهما توفي الوزير شرف الدين عليّ بن طراد الزينبي، في رمضان، معزولاً، ودُفن بداره بباب الأزج، ثم نُقل إلى الحربية.

وفيهما توفي أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوي المفسر، وزمخشري إحدى قرى خوارزم. (٩٨/١١)

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

ذكر فتح الرها وغيرها من بلاد الجزيرة ممّا كان بيد الفرنج في هذه السنة، سادس جمادى الآخرة، فتح أتابك عماد الدين زنكي بن أقسقر مدينة الرها من الفرنج، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضاً، وكان ضرهم قبيد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد ونصيبين ورأس عين والرقة.

وفي هذه السنة سار أتابك زنكي إلى ديار بكر ففتح منها عدة بلاد وحصون، فمن ذلك: مدينة طنزة، ومدينة أسعد، ومدينة حيزان، وحصن الروق، وحصن قطليس، وحصن ناتاسا، وحصن ذي القرنين، وغير ذلك ممّا لم يبلغ شهرة هذه الأماكن، وأخذ أيضاً من بلد ماردين ممّا هو بيد الفرنج حملين، والموزر، وتل موزن وغيرها من حصون جوسلين، ورتب أمور الجميع وجعل فيها من الأجناد من يحفظها، وقصد مدينة آمد وخاني فحصرهما، وأقام بتلك الناحية مصلحاً لما فتحه، ومحاصراً لما لم يفتحه. (٩٥/١١)

ذكر أمر العيارين ببغداد

وفي هذه السنة زاد أمر العيارين وكثروا لأنهم من الطلب بسبب ابن الوزير وابن قاوورت أخي زوجة السلطان، لأنهما كان لهما نصيب في الذي يأخذه العيارون.

وكان النائب في شحنة بغداد يومئذ مملوك اسمه إيلدكز، وكان صارماً، مقداماً، ظالماً، فحمله الإقدام إلى أن حضر عند السلطان، فقال له السلطان: إن السياسة قاصرة، والناس قد هلكوا. فقال: يا سلطان العالم إذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخا امرأتك فأني قدرة لي على المفسدين؟ وشرح له الحال، فقال له: الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا، وتصلبهما، فإن فعلت وإلا صلبت، فأخذ خاتمه وخرج فكبس على ابن الوزير فلم يجده، فأخذ من كان عنده، وكبس على ابن قاوورت فأخذه وصلبه، فأصبح الناس وهرب ابن الوزير وشاع في الناس الأمر وزكى ابن قاوورت مصلوباً، فهرب أكثر العيارين وقبض على من أقام وكفى الناس شرهم.

ذكر حضر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه

قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين [وخمسمائة] مسير سنجر إلى خوارزم وملكه لها، وعود أئمز خوارزم شاه إليها وأخذها، وما كان منه بخراسان بعد ذلك؛ فلما كان في هذه السنة سار السلطان سنجر إلى خوارزم، فجمع (٩٦/١١) خوارزم شاه عساكره، وتحصن بالمدينة، ولم يخرج منها لقتال، لعلمه أنه لا يقوى لسنجر.

وكان القتال يجري بين الفريقين من وراء السور، فاتفق [قبي] يوم من بعض الأيام [أن] هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على البلد من الجانب الشرقي ودخله، ودخل أمير آخر اسمه مثقال التاجي من الجانب الغربي، فلم يبق غير ملكه قهراً وعنوة، وانصرف مثقال عن البلد حسداً لسنقر، فقسوي عليه خوارزم شاه أئمز، فأخرجه من البلد، وبقي سنقر وحده، واشتد في حفظه، فلما رأى السلطان قوة البلد وامتناعه عزم على العود إلى مرو، ولم

الأعمال، فهربوا وقتلوا، وكان بصقلية إنسان من العلماء المسلمين، وهو من أهل الصلاح، وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على عَنِّ عثمته من القسوس والرهبان، وكان أهل ولايته يقولون إنه مُسلم بهذا السبب.

ففي بعض الأيام كان جالساً في منزله تشرف على البحر وإذا قد أقبل موكب لطيف، وأخبره من فيه أنَّ عسكره دخلوا بلاد الإسلام، وغنموا وقتلوا وظفروا؛ وكان المسلم إلى جانبه وقد أضي، فقال له الملك: يا فلان! أما تسمع ما يقولون؟ قال: لا! قال: إنهم يخبرون بكذا وكذا. أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها؟ فقال له: كان قد غلب عنهم، وشهد فتح الرُّها، وقد فتحها المسلمون الآن. فضحك منه من هناك من الفرنج، فقال الملك: لا تضحكوا، فوالله ما يقول إلا الحق، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها.

وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح أنَّ إنساناً صالحاً رأى الشهيد في منامه فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بفتح الرُّها.

ذكر قتل نصير الدين جفر وولاية زين الدين علي كوجك قلعة

الموصل

في هذه السنة، في ذي القعدة، قُتل نصير الدين جفر نائب أتابك زنكي بالموصل والأعمال جميعها التي شرق الفرات. (١٠١/١١)

وسبب قتله أنَّ الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، ولد السلطان محمود، كان عند أتابك الشهيد، وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أنَّ هذه البلاد لهذا الملك، وأنا نائبه فيها، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة، ويملك البلاد باسمه، وكان هذا الملك بالموصل، هذه السنة، ونصير الدين يقصده كل يوم ليقوم بخدمة إن عرضت له، فحسن له بعض المفسدين طلب الملك، وقال له: إن، قتلت نصير الدين ملكك الموصل وغيرها من البلاد، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارسٌ واحد. فوقع هذا منه موقعاً حسناً وظنه صدقاً، فلما دخل نصير الدين إليه وثب عليه من عنده من أجناد أتابك ومماليكه قتلوه، وألقوا برأسه إلى أصحابه ظناً منهم أنَّ أصحابه يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلد.

وكان الأمر خلاف ما ظنوه، فإنَّ أصحابه وأصحاب أتابك الذين في خدمته لما رأوا رأسه قاتلوا من بالذاد مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة أتابك مملوءة بالرجال والأجناد ذوي الرأي والتجربة، ثم دخل إليه القاضي تساج الدين يحيى بن الشهرزوري ولم يزل به يخدعه، وكان فيما قال له حين رآه

وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب مارقين إلى الفرات مثل الرُّها، وسروج، والبيرة، وسنَّ ابن عَطِير، ونحليين، والمنوزر، والقرادي وغير ذلك. وكانت هذه الأعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين، وكان صاحب رأي الفرنج والمقدم على عساكرهم، لما هو عليه من الشجاعة والمكر.

وكان أتابك يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها، فيتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصد بلادهم، فلما رأوا أنه غير قادر على ترك الملوك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر، حيث أنه محارب لهم، اطمأنوا، وفارق جوسلين الرُّها وعبر الفرات إلى بلاد الغريبة، فجاءت عيون أتابك إليه فأخبرته (٩٩/١١) فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرُّها أحد من غد يومه، وجمع الأمراء عنده، وقال: قدّموا الطعام؛ وقال: لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعم غداً معي على باب الرُّها؛ فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبي لا يعرف، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته، وأنَّ أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي: ما أنت في هذا المقام؟ فقال أتابك: دعه فوالله إنني أرى وجهاً لا يتخلف عني.

وسار والعساكر معه، ووصل إلى الرُّها، وكان هو أول من حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبي، وحمل فارس من خيالة الفرنج على أتابك عرضاً، فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله، وبلم الشهيد، ونازل البلد، وقاتله ثمانية وعشرين يوماً، فزحف إليه عدة دفعات، وقدم النقيين فنقبوا سور البلد، ولج في قتاله خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه، فسقطت البدنة التي نقبها النقيون [وأخذ] البلد عنوة وقهراً، وحصر قلعة فملكها أيضاً، ونهب الناس الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال.

فلما رأى أتابك البلد أعجبه، ورأى أنَّ تخريب مثله لا يجوز في السياسة، فأمر فتودي في العساكر برء من أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منهم أحد إلا الشاذ النادر الذي أخذ وفارق من أخذه العسكر، فعاد البلد إلى حاله الأول، وجعل فيه عسكراً يحفظه، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة فإنها حصينة متينة وعلى شاطئ الفرات، فسار إليها وحصرها، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها، (١٠٠/١١) فبقى على حصارها إلى أن رحل عنها، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

حكى أنَّ بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال: كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر إلى طرابلس الغرب وتلك

منزعجاً: يا مولانا لِمَ تخرد من هذا الكلب؟ هذا وأستاذة ممالكك، والحمد لله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يدك، وما الذي يُفعدك في هذه الدار؟ قُم لتصعد القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند، وليس دون البلاد بعد الموصل مانعٌ.

فقام معه وركب القلعة، فلَمَّا قاربها أراد مَن بها من النقيب والأجناد القتال، فتقدَّم إليهم تاج الدين وقال لهم: افتحوا الباب وتسلّموا، وافعلوا به ما أردتم، ففتحوا الباب ودخل الملك والقاضي إليها ومعهما مَن أعان على قتل نصير الدين، فسُجنوا ونزل القاضي. (١٠٢/١١)

وبلغ الخبر أنابك زنكي وهو يحاصر قلعة البيرة، وقد أشرف على مُلكها، فخاف أن تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين، ففارق البيرة وأرسل زين الدين علي بن بُكتكين إلى قلعة الموصل والياً على ما كان نصير الدين يتولاه.

وفي هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجرديّ، ووزر بعده المرزبان ابن عبيد الله بن نصر الأصفهانيّ، وسلّم إليه البروجرديّ، فاستخرج أمواله، ومات مقبوضاً.

ذكر عدة حوادث

وفيها كان أنابك عماد الدين زنكي يحاصر البيرة، وهي للفرنج شرقيّ الفرات بعد مُلك الرُها، وهي من أمتح الحصون، وضيّق عليها وقارب أن يفتحها، فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل، فرحل عنها، وأرسل نائباً إلى الموصل، وأقام ينتظر الخبر، فخاف مَن بالبيرة من الفرنج أن يعود إليهم، وكانوا يخافونه خوفاً شديداً، فأرسلوا إلى نجم الدين صاحب ماردین وسلّموها له، فملكها المسلمون.

وفيها خرج أسطول الفرنج من صِقْلِيَّة إلى ساحل إفريقية والغرب، ففتحوا مدينة برشك، وقتلوا أهلها، وسبوا خربهم وباعوه بصِقْلِيَّة على المسلمين.

وفيها توفي تاشفين بن علي بن يوسف صاحب الغرب، وكانت ولايته تزيد على أربع سنين، وولي بعده أخوه، وضَعُف أمر الملتئمين، وقوي عبد المؤمن، وقد ذكرنا ذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة. (١٠٣/١١)

وفيها توفي تاشفين بن علي بن يوسف صاحب الغرب، وكانت ولايته تزيد على أربع سنين، وولي بعده أخوه، وضَعُف أمر الملتئمين، وقوي عبد المؤمن، وقد ذكرنا ذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة. (١٠٣/١١)

وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فليته بن القاسم العلويّ الحسيني أمير مَكَّة، والأمير نظر الخادم أمير الحاج، فتهب الغرب، فقيل هو هو وقيل بل غيره.

وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فليته بن القاسم العلويّ الحسيني أمير مَكَّة، والأمير نظر الخادم أمير الحاج، فتهب

أصحاب هاشم الحجّاج وهم في المسجد يطوفون ويصلّون، ولم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة.

وفيها، في ذي الحجة، توفي عبد الله بن أحمد بن محمّد بن عبد الله بن حمدويه أبو المعالي المَرزُوزيّ بَمَرْو، وسافر الكثير، وسمع الحديث الكثير، وبنى بمرّو وباطاً، ووقف فيه كتباً كثيرة، وكان كثير الصدقة والعبادة.

وتوفي محمّد بن عبد الملك بن حسن بن إبراهيم بن خيرون أبو منصور المُقَرِّي، ومولده في رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وهو آخر مَن روى عن الجوهرى بالإجازة، وتوفي في رجب.

وفي ذي الحجة منها توفي أبو منصور سعيد بن محمّد بن عمر المعروف بابن الرزاز، مدرّس النظامية ببغداد، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وتفقّه على الغزاليّ والشاميّ، ودُفن في تربة الشيخ أبي إسحاق. (١٠٤/١١)

سنة أربعين وخمسمائة

ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السلطان

في هذه السنة سار بوزابة، صاحب فارس وخوزستان، وعساكره إلى قاشان، ومعه الملك محمّد [ابن السلطان محمود، واتصل بهم الملك سليمان شاه] ابن السلطان محمّد، واجتمع بوزابة والأمير عباس صاحب الرّيّ، واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيراً من بلاده.

ووصل الخبر إليه وهو ببغداد ومعه الأمير عبد الرحمن طغايُرك، وهو أمير حاجب، حاكم في الدولة، وكان ميله إليهما، فسار السلطان في رمضان عن بغداد، ونزل بها الأمير مُهَلْهَل، ونظّر، وجماعة من غلمان بُهْرُوز، وسار السلطان وعبد الرحمن معه، فتقارب العسكران، ولم يبقَ إلا المصاف، فلحق سليمان شاه بأخيه مسعود، وشرع عبد الرحمن في تقرير الصلح على القاعدة التي أرادوها، وأضيف إلى عبد الرحمن ولاية أذربيجان وأرانيّة إلى ما بيده، وصار أبو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود، وهو وزير بوزابة، فصار السلطان معهم تحت الحجر، وأبعدوا بك أرسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك، وهو ملازم السلطان وتربيته، وصار في خدمة عبد الرحمن ليحقن دمه، وصار الجماعة في خدمة السلطان صورة لا معنى تحتها، والله أعلم. (١٠٥/١١)

ذكر استيلاء علي بن دُبَيس بن صدقة على الجَلّة

في هذه السنة سار علي بن دُبَيس إلى الجَلّة هارباً، فملكها؛ وكان سبب ذلك أن السلطان لما أراد الرحيل من بغداد أشار عليه

مهلهل أن يحبس علي بن دؤيب بقلعة تكريت، فعلم ذلك، فهرب في جماعة يسيرة نحو خمسة عشر، فمضى إلى الأيزر، وجمع بني أسد وغيرهم، وسار إلى الحلة وبها أخوه محمد بن دؤيب، فقاتله، فانهزم محمد، وملك علي الحلة.

واستهان السلطان أمره أولاً، فاستفحل وضخم إليه جمعاً من غلمان غلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم، وكثر جمعهم، فسار إليه مهلهل قيمن معه في بغداد من العسكر، وضربوا حه مصفاً، فكسرهم وعادوا منهزمين إلى بغداد.

وكان أهلها يتعصبون لعلي بن دؤيب، وكانوا يصيحون، إذا ركب مهلهل وبعض أصحابه: يا علي! كلّه. وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب.

ومدّ عليّ يده في أقطاع الأمراء بالحلة، وتصرف فيها، وصار شيخه بغداد ومن فيها على وجل منه، وجمع الخليفة جماعة وجعلهم على السور لحفظه، وراسل علياً، فأعاد الجواب بأنّي العبد المطيع مهما رسم لي فعلت؛ فسكن الناس، ووصلت الأخبار بعد ذلك أنّ السلطان مسعوداً تفرّق خصومه عنه، فازداد سكون الناس. (١٠٦/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة حجّ بالنّاس قايمار الأرجواني صاحب أمير الحاج نظر، واحتجّ نظر بأن بركة نهب في كسرة الحلة، وأن بينه وبين أمير مكة من الحروب ما لا يمكنه معه الحجّ.

وفيها اتصل بالخليفة عن أخيه أبي طالب ما كرهه، فضيق عليه، واحتاط على غيره من أقاربه.

وفيها ملك الفرنج، لعنهم الله، مدينة شترين، وباجة، وماردة، وأشبونة، وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس، وكانت للمسلمين، فاختلفوا، فقطع العدو، وأخذ هذه المدن وقوي بها قوة تمكّن معها وتيقن ملك سائر البلاد الإسلامية بالأندلس، فخيب الله ظنه وكان ما نذكره.

وفيها سار أسطول الفرنج من صقلية، ففتحوا جزيرة قرقة من إفريقية، فقتلوا رجالها، وسبوا حريمهم، فأرسل الحسن صاحب إفريقية إلى رجار ملك صقلية يذكره العهد التي بينهم، فاعتذر بأنهم غير مطيعين له.

وفي هذه السنة توفي مجاهد الدين بهروز الغياثي، وكان حاكماً بالعراق ثيفاً وثلاثين سنة؛ ويرتقى الزكري، صاحب أصفهان، وكان أيضاً شحنة بالعراق، وهو خادم أرمني لبعض التجار.

وتوفي الأمير إيلدكز شحنة بغداد، والشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر الجواليقي اللغوي، ومولده في ذي الحجة سنة خمس وستين (١٠٧/١١) وأربعمئة، وأخذ اللغة عن أبي زكريا التبريزي، وكان يؤم بالمعقفي أمير المؤمنين.

وتوفي أحمد بن محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن سليمان أبو سعيد ابن أبي الفضل الأصفهاني، ومولده سنة ثلاث وستين وأربعمئة، وروى الحديث الكثير، وكان على سيرة السلف، كثير الاتباع للسنة، رحمة الله عليه. (١٠٨/١١)

سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب

في هذه السنة ملك الفرنج، لعنهم الله، طرابلس الغرب، وسبب ذلك أنّ رجار ملك صقلية جهّز أسطولاً كثيراً وسيّره إلى طرابلس، فأحاطوا بها برأ ويحراً، ثالث المحرم، فخرج إليهم أهلها وأنشؤوا القتال، فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام.

فلما كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجة عظيمة، وخلت الأسوار من المقاتلة، وسبب ذلك أن أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيام يسيرة قد اختلفوا، فأخرج طائفة منهم بني مطروح، وقدموا عليهم رجلاً من المثلثين قدم يريد الحجّ ومعه جماعة، فولّوه أمرهم، فلما نازلهم الفرنج أعادت الطائفة الأخرى بني مطروح فوقعت الحرب بين الطائفتين، وخلت الأسوار، فاستهزئ الفرنج الفرصة ونصبوا السلاالم، وصعدوا على السور، واشتدّ القتال فلمكّ الفرنج المدينة عنوة بالسيف، فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأموالهم، وهرب من قدر على الهرب، والتجأ إلى البربر والعرب، فتودى بالأمان في الناس كافة، فرجع كل من فر منها.

وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصّنوا أسوارها وحفروا خندقها، ولما عادوا أخذوا رهائن أهلها، ومعهم بنو مطروح والمثلث، ثم أعادوا رهائنهم، (١٠٩/١١) ولولوا عليها رجلاً من بني مطروح، وتركوا رهائته وحده، واستقامت أمور المدينة وألزم أهل صقلية والروم بالسفر إليها فانتعرت سريعاً وحسن حالها.

ذكر حصر زنكي حصني جعبر وفكّ

وفي هذه السنة سار أتابك زنكي إلى حصن جعبر، وهو مطل على القرات، وكان بيد سالم بن مالك العفيلني سلّبه السلطان ملكشاه إلى أبيه لما أخذ منه حلب، وقد ذكرناه، فحصره وسير جيشاً إلى قلعة فكّ، وهي تجاوز جزيرة ابن عمر، بينهما فرسخان، فحصرها أيضاً، وصاحبها جيش أبو الأمير حسام الدين الكردي

البشنوي.

يقدر القوي على ظلم الضعيف؛ وكانت البلاد، قبل أن يملكها خراباً من الظلم، وتثقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلات أهلاً وسكناً.

حكى لي والذي قال: رأيت الموصل وأكثرها خراب، بحيث يقف الإنسان قريب محلة الطبايين ويرى الجامع العتيق، والمعرصة، وهادى السلطان، ليس بين ذلك عمارة؛ وكان الإنسان لا يقدر على المشي إلى الجامع العتيق إلا ومعه من يحميه، لُبَّعه عن العمارة، وهو الآن في وسط العمارة وليس في هذه البقاع المذكورة كلها أرض براج، وحدثنى أيضاً أنه وصل إلى الجزيرة في الشتاء، فدخل الأمير عز الدين الديسي، وهو من أكابر أمراءه، ومن جملة أقطاعه مدينة دقوقا، ونزل في دار إنسان يهودي، فاستغاث اليهودي إلى أتاك، وأنهى حاله إليه، فنظر إلى الديسي، فتأخّر، ودخل البلد، وأخرج بركة وخيامه. قال: فلقد رأيت غلماناً ينصبون خيامه في الوحل، وقد جعلوا على الأرض تبناً يقيم الطين، وخرج فنزلها، وكانت سياسته إلى هذا الحد.

وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة، فصارت في أيامه، وما بعدها، من أكثر البلاد فواكه وراحيين وغير ذلك.

وكان أيضاً شديد الغيرة ولا سيما على نساء الأجناد، وكان يقول: إن (١١٢/١١) لم نحفظ نساء الأجناد بالهيبة، وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار.

وكان أشجع خلق الله، أما قبل أن يملك فيكفيه أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية، وهي للفرنج، فوصلت طعته باب البلد وأثر فيه، وحمل أيضاً على قلعة عقر الجميدية، وهي على جبل عال، فوصلت طعته إلى سورها، إلى أشياء أخر.

وأما بعد الملك فقد كان الأعداء محدقين ببلاده، وكلهم يقصدوا، ويريد أخذها، وهو لا يقنع بحفظها، حتى إنه لا ينقضي عليه عام إلا ويفتح من بلادهم. فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره في ناحية تكريت، وقصد الموصل وحصرها، ثم إلى جانب، من ناحية شهرزور وتلك الناحية، السلطان مسعود، ثم ابن سقمان صاحب خلاط، ثم داود بن سقمان صاحب حصن كينا، ثم صاحب آيد وماردين، ثم الفرنج من مجاورة ماردين إلى دمشق، ثم أصحاب دمشق، فهذه الولايات قد أحاطت بولايته من كل جهاتها، فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة وهذا مرة، ويأخذ من هذا ويصانع هذا، إلى أن ملك من كل من يليه طرفاً من بلاده وقد أتينا على أخباره في كتاب الباهر في تاريخ دولته ودولة أولاده، فيطلب من هناك.

وكان سبب ذلك أنه كان لا يريد أن يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره، حزماً واحتياطاً، فنازل قلعة جعبر وحصرها، وقتلته من بها، فلمّا طال عليه ذلك أرسل إلى صاحبها، مع الأمير حسان المنبجي لمودة كانت بينهما، في معنى تسليمها، وقال له: تضمن عني الإقطاع الكثير والمال الجزيل، فإن أجاب إلى التسليم، وإلا قتل له: والله لأقيمن عليك إلى أن أملكها عنوة، ثم لا أبقي عليك، ومن الذي يمنعك مني؟

فصعد إليه حسان وأدى إليه الرسالة، ووعد، وبذل له ما قيل له، فامتنع من التسليم، فقال له حسان: فهو يقول لك من يمنعك مني؟ فقال: يمنعني منه الذي منعك من الأمير بلك. فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه، ولم يذكر له هذا، فقتل أتاك بعد أيام.

وكانت قصة حسان مع بلك ابن أخي يلغازي أن حسان كان صاحب (١١٠/١١) منبج، فحصره بلك وضيق عليه، فبينما هو في بعض الأيام يقاتله، جاءه سهم لا يعرف من رماه فقتله، وخلص حسان من الحصر، وقد تقدّم ذكره، وكان هذا القول من الاتفاق الحسن.

ولما قتل أتاك زنكي رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها، وهي بيد أعقاب صاحبها إلى الآن، وسمعتهم يذكرون أن لهم بها نحو ثلاثمائة سنة، ولهم مقصد، وفيهم وفاء وعصية، يأخذون بيد كل من يلتجئ إليهم ويقصدهم، ولا يسلمونه كائناً من كان.

ذكر قتل أتاك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته

في هذه السنة، لخمس ماضين من ربيع الآخر، قتل أتاك الشهيد عماد الدين زنكي بن أفسنغر، صاحب الموصل والشام، وهو يحاصر قلعة جعبر، على ما ذكرناه، قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلة، وهربوا إلى قلعة جعبر، فصاح من بها من أهلها إلى العسكر يعلمونهم بقتله، وأظهروا الفرح، فدخل أصحابه إليه، فادركوه وبه رمق.

حدثنى والذي عن بعض خواصه قال: دخلت إليه في الحال وهو حي، فحين رأيته ظن أني أريد قتله، فأشار إليّ بإصبعه السبابة يستعظمني، فوقع من هيته، فقلت: يا مولاي من فعل بك هذا؟ فلم يقدر على الكلام، وفاضت نفسه لوقت، رحمه الله.

قال: وكان حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين، قد وخطه (١١١/١١) الشيب، وكان قد زاد عمره على ستين سنة، لأنه كان لما قتل والده صغيراً، كما ذكرناه قبل، ولما قتل دُفن بالرقة.

وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا

ذكر مُلك ولديه سيف الدين غازي ونور الدين محمود.

حيثني وسني أهلها.

لما قُتل أتابك زنكي أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده، وكان حاضراً معه، وسار إلى حلب فملكها.

وكان حيثني يتولّى ديوان زنكي، ويحكم في دولته من أصحاب العمائم (١١٣/١١) جمال الدين محمد بن علي وهو المنفرد بالحكم، ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغيساني، فاتفقا على حفظ الدولة، وكان مع الشهيد أتابك الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود، فركب ذلك اليوم، واجمعت العساكر عليه، وحضر عنده جمال الدين وصلاح الدين وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات والجواري، وأدخلا الرقة، فبقي بها أياماً لا يظهر، ثم سار إلى ماسكين، فدخلها، وأقام بها أياماً، وجمال الدين يحلف الأمراء لسيف الدين غازي بن أتابك زنكي، ويسيرهم [إلى] الموصل.

ثم سار من ماسكين إلى مينجار، وكان سيف الدين قد وصل إلى الموصل، فلما وصلوا إلى مينجار أرسل جمال الدين إلى الدزدار يقول له ليرسل إلى ولد السلطان يقول له: إني مملوكك، ولكنني تبع الموصل، فمتى ملكتها سلمت إليك مينجار. فسار إلى الموصل، فأخذه جمال الدين وقصد به مدينة بلد، وقد بقي معه من العسكر القليل، فاشاور عليه بعبور دجلة، فعبها إلى الشرق في نفر يسير.

وكان سيف الدين غازي بمدينة شهزور، وهي إقطاعه، فأرسل إليه زين الدين علي كوجك نائب أبيه بالموصل يستدعيه إلى الموصل، فحضر قبل وصول الملك، فلما علم جمال الدين بوصول سيف الدين إلى الموصل أرسل إليه يعرفه قلعة من مع الملك، فأرسل إليه بعض عسكره، فقبضوا عليه وحسب فتي قلعة الموصل، واستقر مُلك سيف الدين البلاد، وبقي أعوانه نور الدين بحلب وهي له، وسار إليه صلاح الدين الباغيساني يلتمز أموره ويقوم بحفظ دولته، وقد استقصينا شرح هذه الحادثة في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية. (١١٤/١١)

ذكر عصيان الرها لما قُتل أتابك

كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرها في ولايته، وهي تلّ باشير وما يجاورها، فراسل أهل الرها وعامتهم من الأرمن، وحملهم على العصيان، والامتناع على المسلمين، وتسليم البلد، فأجابوه إلى ذلك، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، ومار في عساكره إلى الرها، وملك البلد، وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين، فقاتلهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكي، وهو بحلب، فسار مجدداً إليها في عسكره، فلما قاربها خرج جوسلين هارباً وعائداً إلى بلده، ودخل نور الدين المدينة، ونهبها

وفي هذه الدفعة نُهبت وخلت من أهلها، ولم يبق بها منهم إلا القليل، وكثير من الناس يظن أنها نُهبت لما فتحها الشهيد، وليس كذلك.

وبلغ الخبر إلى سيف الدين غازي بعصيان الرها، فسير العساكر إليها، فسمعوا بملك نور الدين البلد واستباحته، وهم في الطريق، فعادوا.

ومن أعجب ما يحكى أن زين الدين علياً الذي كان نائب الشهيد وأولاده بقلعة الموصل، جاءه هدية أرسلها إليه نور الدين من هذا الفتح، وفي الجملة جارية فلما دخل إليها، وخرج من عندها وقد اغتسل، قال لمن عنده: تعلمون ما جرى لي في يومنا هذا؟ قالوا: لا! قال: لما فتحنا الرها (١١٥/١١) مع الشهيد وقع في يدي من النهب جارية راقية أعجبتني حسنها ومسال قلبي إليها، فلم يكن بأسرع من أن أمير الشهيد فنودي برؤ السني والمال المنهوب، وكان مهيباً مخفواً، فردتها وقلبي متعلق بها، فلما كان الآن جاعتي هدية نور الدين وفيها عدة جوارٍ منهن تلك الجارية فوطئتها خوفاً أن يقع ردّ تلك الدفعة.

ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس

في هذه السنة سیر عبد المؤمن جيشاً إلى جزيرة الأندلس، فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام.

وسبب ذلك أن عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء إليه جماعة من أعيان الأندلس منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمدين، ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التي هم فيها لعبد المؤمن، ودخلهم في زمرة أصحابه الموحدين، وإقامتهم لأمره، فقبل عبد المؤمن ذلك منهم، وشكرهم عليه، وطيب قلوبهم، وطلبوا منه النصرة على الفرنج، فجهز جيشاً كثيراً وسيره معهم، وعمر أسطولا وسيره في البحر، فسار الأسطول إلى الأندلس، وقصدوا مدينة إشبيلية، وصعدوا في نهرها، وبها جيش من المُلثمين، فحاصروها براً وبحراً وملكوها عنوة، وقُتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد، وكان لعبد المؤمن من بها. (١١٦/١١)

ذكر قتل عبد الرحمن طغايك وعباس صاحب الرّي

في هذه السنة قتل السلطان مسعود أمير حاجب عبد الرحمن طغايك، وهو صاحب خلخال وبعض أذربيجان والحاكم في دولة السلطان، وليس للسلطان معه حكم.

وكان سبب قتله أن السلطان لما ضيّق عليه عبد الرحمن بقي معه شبه الأسير ليس له في البلاد حكم، حتى إن عبد الرحمن قصد

غلاماً كان للسلطان، وهو بك أرسلان، المعروف بخاص بك بن بلنكري، وقد رباه السلطان وقربه فأبعده عنه وصار لا يراه، وكان

(١١٨/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت.

وفيهما توفي الأمير جاولي الطغرلي صاحب أرتانية وبعض أذربيجان، وكان قد تحرك للعصيان، وكان موته فجأة، مد قوساً فنزف دماً فمات.

وتوفي شيخ الشيخ صدر الدين إسماعيل بن أبي سعد الصوفي، فمات ببغداد ودفن بظاهر رباط الزوزني بباب البصرة، ومولده سنة أربع وستين وأربعمائة، وقام في منصبه ولده صدر الدين شيخ الشيخ عبد الرحيم.

وفيهما توفي تقيب الثقباء محمد بن طراد الزنبي أخو شرف الدين الوزير.

وفيهما ولي مسعود بن بلال شحتكية بغداد، وسار السلطان عنها.

وفيهما كان بالعراق جراد كثير أمحل أكثر البلاد.

وفيهما ورد العبادي الواعظ رسولاً من السلطان سنجر إلى الخليفة، ووعظ ببغداد، وكان له قبول بها، وحضر مجلسه السلطان مسعود فمّن دونه، وأما العامة فإنهم كانوا يتركون أشغالهم لحضور مجلسه والمسابقة إليه.

وفيهما بعد قتل الشهيد زنكي بن آقشقر قصد صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره وكان به نجم الدين أيوب بن شاذي مستحفظاً لها، فخاف أن أولاد زنكي لا يمكنهم إنجاده بالعاجل، فصالحه وسلم القلعة إليه، وأخذ منه إقطاعاً ومالاً، وملّكه عدة قرى من بلد دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها.

وفي هذه السنة، في ربيع الآخر، توفي عبد الله بن علي بن أحمد أبو محمد المقرئ ابن بنت الشيخ أبي منصور، ومولده في شعبان سنة أربع وستين وأربعمائة، وكان مُقرئاً نحويّاً محدثاً، وله تصانيف في القراءات. (١١٩/١١)

سنة اثنين وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل بوزابة

لما اتصل بالأمير بوزابة قتل عباس جمع عساكره من فارس وخوزستان وسار إلى أصفهان فحصرها، وسير عسكرياً آخر إلى

غلاماً كان للسلطان، وهو بك أرسلان، المعروف بخاص بك بن بلنكري، وقد رباه السلطان وقربه فأبعده عنه وصار لا يراه، وكان في [خاص] بك عقل وتديبر وجودة قريحة، وتوصل لما يريد أن يفعله، فجمع عبد الرحمن العساكر وخاص بك فيهم، وقد استقر بينه وبين السلطان مسعود أن يقتل عبد الرحمن، فاستدعى خاص بك جماعة من يثق بهم، وتحدث معهم في ذلك، فكلّ منهم خاف الإقدام عليه، إلا رجلاً اسمه زنكي، وكان جنانداراً، فإنه بذل من نفسه أن يدهه بالقتل، ووافق خاص بك على القيام في الأمر جماعة من الأمراء، فبينما عبد الرحمن في موكبه ضربه زنكي الجاندار بمقرعة حديد كانت في يده على رأسه، فسقط إلى الأرض، فأجهز عليه خاص بك، وأعان على حماية زنكي والقائمين معه من كان واطاه على ذلك من الأمراء، وكان قتله بظاهر جيزة.

وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود وهو ببغداد، ومعه الأمير عباس صاحب الري، وعسكره أكثر من عسكر السلطان، فأنكر ذلك، وامتنع منه، فداراه السلطان ولطف به، واستدعى الأمير البقش كُون خَر من اللُخَف (١١٧/١١) وتتر الذي كان حاجباً، فلما قوي بهما أحضر عباساً إليه في داره، فلما دخل إليه مُنع أصحابه من الدخول معه، وعدلوا به إلى حجرة، وقالوا له: اخلع الزردية. فقال: إن لي مع السلطان أيماناً وعهوداً، فلكموه، وخرج له غلمان أعدوا لذلك، فحينئذ تشاهد وخلع الزردية وألقاها، وضربوه بالسيوف، واحتزوا رأسه وألقوه إلى أصحابه، ثم ألقوا جسده، ونهب رحله وخيمه وانزعج البلد لذلك.

وكان عباس من غلمان السلطان محمود، حسن السيرة، عادلاً في رعيته، كثير الجهاد للباطنية، قتل منهم خلقاً كثيراً، وبنى من رؤوسهم منارة بالري، وحصر قلعة الموت، ودخل إلى قرية من قراهم فالتقى فيها النار فأحرق كل من فيها من رجل وامرأة وصبي وغير ذلك، فلما قتل [دُفن] بالجانب الغربي، ثم أرسلت ابنته فحملته إلى الري فدفتها هناك، وكان مقتله في ذي القعدة.

ومن الاتفاق العجيب أن العبادي كان يعظ يوماً، فحضره عباس، فاسمع بعض أهل المجلس ورمى بنفسه نحو الأمير عباس، فضربه أصحابه ومنعوه خوفاً عليه لأنه كان شديد احتراس من الباطنية لا يزال لابساً الزردية لا تفارقه الغلمان الأجلاء، فقال له العبادي: يا أمير الإلام هذا الاحتراس والله لئن قضي عليك بأمر لتحلن أنت بيدك أزرار الزردية فينفذ القضاء فيك.

وكان كما قال، وقد كان السلطان استوزر ابن دارست، وزير بوزابة، [كارها على ما تقدم ذكره، فعزله الآن لأنه اختار العزل والعود إلى صاحبه بوزابة] فلما عزله قرّر معه أن يصلح له بوزابة، ويزيل ما عنده من الاستشعار بسبب قتل عبد الرحمن وعباس،

هَمْدَان، وعسكراً ثالثاً إلى قلعة الماهكي من بلد اللّحف، فأما

عسكره الذي بالماهكي فإنه سار إليهم الأمير البقش كون خَر
فدفعهم عن أعماله وكانت أقطاعه، ثم إنَّ بوزاية سار عن أصفهان
يطلب السلطان مسعوداً، فراسله السلطان في الصلح، فلم يجب
إليه، وسار مجدداً فالتقى بمرج قراتكين، وتضافاً، فاقتل العسكران،
فانهزمت ميمنة السلطان مسعود وميسرته، واقتل القلبان أشد قتال
وأعظمه، صبر فيه الفريقان، ودامت الحرب بينهما، فسقط بوزاية
عن فرسه بسهم أصابه، وقيل بل عثر به الفرس فأخذ أسيراً وحُمل
إلى السلطان فقتل بين يديه، وانهزم أصحابه لما أخذ هو أسيراً.

وبلغت هزيمة العسكر السلطاني من الميمنة والميسرة إلى
هَمْدَان، وقُتل بين الفريقين خلقٌ كثير، وكانت هذه الحرب من
أعظم الحروب الكائنة بين الأعاجم. (١٢٠/١١)

ذكر طاعة أهل قَابِسَ للفرنج وغلبة المسلمين عليها

كان صاحب مدينة قَابِسَ، قبل هذه السنة، إنساناً اسمه رشيد،
فتوفي وخلف أولاداً، فعمد مولى له اسمه يوسف إلى ولده
الصغير، واسمه محمد، فولّاه الأمر، وأخرج ولده الكبير واسمه
معمر، واستولى يوسف على البلد، وحكم على محمد لصغر سنه.

وجرى منه أشياء من التعرض إلى حُرْم سَيِّده، والمهلة على
ناقلة، وكان من جملةهن امرأة من بني قُرّة، فأرسلت إلى إخوانها
تشكو إليهم ما هي فيه، فجاء إخوانها لأخذها فمنعهم، وقال: هذه
حُرمة مولاي؛ ولم يسلّمها، فسار بنو قُرّة ومعمر بن رشيد إلى
الحسن صاحب إفريقية، وشكوا إليه ما يفعل يوسف، فكاتبه
الحسن في ذلك، فلم يجب إليه، وقال: لئن لم يكفّ الحسن عني
والأُسلِمْتُ قَابِسَ إلى صاحب صِيقْلِيّة، فجهّز الحسن العسكر إليه،
فلما سمع يوسف بذلك أرسل إلى رُجَار الفرنجي، صاحب صِيقْلِيّة،
وبذل له الطاعة، وقال له: أريد منك خلعة وعهداً بولاية قَابِسَ
لأكون نائباً عنك كما فعلت مع بني مطروح في طرابلس؛ فسار إليه
رُجَار الخلعة والعهد، فلبسها وقرىء العهد بجمع من الناس.

فجَدَ حيثنوا الحسن في تجهيز العسكر إلى قَابِسَ، فساروا إليها
ونازلوها وحاصروها، فنار أهل البلد بيوسف لما اعتمده من طاعة
الفرنج، وسلّموا البلد إلى عسكر الحسن، وتحصّن يوسف في
القصر، فقاتلوه حتى فتحوه، وأخذ يوسف أسيراً، فتولّى عذابه
معمر بن رشيد وبنو قُرّة، فقطعوا ذكّره وجعلوه في قفص وعُذّب
بأنواع العذاب.

وولي معمر قَابِسَ مكان أخيه محمد، وأخذ بنو قُرّة أختهم،
وهرب عيسى أخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رُجَار، صاحب
صِيقْلِيّة، فاستجاروا (١٢١/١١) به وشكوا إليه ما لقوا من الحسن،
فغضب لذلك، وكان ما تذكره سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من

فتح المهديّة، إن شاء الله تعالى.

ذكر حادثة ينبغي أن يحتاط العاقل من مثلها

كان يوسف هذا صاحب قَابِسَ قد أرسل رسولاً إلى رُجَار
بصِيقْلِيّة، فاجتمع هو ورسول الحسن صاحب المهديّة عنده، فجرى
بين الرسولين مناظرة، فذكر رسول يوسف الحسن وما نال منه،
ودفعه، ثم إنهما عادا في وقت واحد، وركبا البحر كلّ واحد منهما
في مركبة، فأرسل رسول الحسن رُقعة إلى صاحبه على جناح طائر
يُخبره بما كان من رسول يوسف، فسار الحسن جماعة من أصحابه
في البحر، فأخذوا رسول يوسف وأحضره عند الحسن، فسبه
وقال: ملكك الفرنج بلاد الإسلام وطولت لسانك بذمي! ثم أركبه
جنداً وعلى رأسه طرطور بجلاجل وطيف به في البلد ونودي
عليه: هذا جزاء من سعى أن يملكك الفرنج بلاد المسلمين؛ فلما
توسّط المهديّة ثار به العامة فقتلوه بالحجارة.

ذكر ملك الفرنج الحرّية وغيرها من الأندلس

في هذه السنة، في جمادى الأولى، حصر الفرنج مدينة الحرّية
من الأندلس، وضيقوا عليها براً وبحراً، فملكوها عنوةً، وأكثروا
القتل بها والنهب، (١٢٢/١١) وملكوا أيضاً مدينة يباسة وولاية
جِيَان، وكلّها بالأندلس، ثم استعدها المسلمون بعد ذلك منهم،
على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي عدّة مواضع من بلد الفرنج

في هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكي، صاحب
حلب، بلد الفرنج، ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ونهبها وحصن
مابولة وبُصرُفون وكُفْراًثاً. وكان الفرنج بعد قتل والده زنكي قد
طمعوا، وظنّوا أنهم بعده يستردّون ما أخذوه، فلما راوا من نور
الدين هذا الجدّ في أول أمره علموا أنّ ما أملوه بعيد.

ذكر أخذ الجَلّة من عليّ بن دُبَيس وعوده إليها

في هذه السنة كثر فساد أصحاب عليّ بن دُبَيس بالجَلّة وما
جاورها، وكثرت الشكاوى منه، فأقطع السلطان مسعود الجَلّة
للأمير سلاركرد، فسار إليها من هَمْدَان ومعه عسكر وانضاف إليه
جماعة من عسكر بغداد، وقصدوا الجَلّة، فجمع عليّ عسكره
وحشد، والتقى العسكران بمُطَيْرِاباذ، فانهزم عليّ، وملك سلاركرد
الجَلّة، واحتاط على أهل عليّ ورجعت العساكر، وأقام هو
بالجَلّة في ممالكه وأصحابه، وسار عليّ بن دُبَيس فلاحق بالبقش
كُون خَر، وكان بأقطاعه في اللّحف، متجنباً على السلطان،
فاستجده، فسار معه إلى واسط، وأتفق هو والطرنطاي، وقصدوا
الجَلّة فاستقذوها من سلاركرد في ذي الحجة، وفارقها سلاركرد
وعاد إلى بغداد. (١٢٣/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الأولى، خطب للمستجد بالله يوسف بن المقتفي لأمر الله بولاية العهد.

وفيها ولي عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد، وولي زعيم الدين يحيى بن جعفر المخزن.

وفيها، في ربيع الأول، مات أبو القاسم طاهر بن سعيد بن أبي سعيد بن أبي الخير الميهني شيخ رباط البسطامي ببغداد.

وفي ربيع الآخر توفيت فاطمة خاتون بنت السلطان محمد زوجة المقتفي لأمر الله.

وفي رجب منها مات أبو الحسن محمد بن المظفر بن علي بن المسلمة، ابن رئيس الرؤساء، ومولده سنة أربع وتسعين [أو أربعمئة]، وكان قد تصوف، وجعل داره التي في القصر رباطاً للصوفية.

وفيها سار سيف الدين غازي بن زنكي إلى قلعة دارا، فملكها وغيرها من بلد مardin، ثم سار إلى مardin وحصرها وخرّب بلدها ونهبها.

وكان سبب ذلك أن أنابك زنكي لما قُتل تنازل صاحب مardin وصاحب الحصن إلى ما كان قد فتحه من بلادهما فأخذه، فلياً ملك سيف الدين وتمكن سار إلى مardin وحصرها، وفعل ببلدها الأفاعيل العظيمة، فلما رأى صاحبها، وهو جيشلر حسام الدين تيمرتاش، ما يفعل في بلده قال: كنا نشكو من أنابك الشهيد، وأين أيامه؟ لقد كانت أعياداً. قد حصرنا غير مرة، فلم يأخذ هو ولا أحد من عسكره بخلاعة تبس غير ثمن، ولا تصدى هو وعسكره حاصل السلطان، وأرى هذا يتهب البلاد ويخرّبها. (١٢٤/١١)

ثم راسله وصالحه، وزوجه ابنته، ورحل سيف الدين عنه وعاد إلى الموصل، وجّهزت ابنة حسام الدين وصيرت إليه، فوصلت وهو مريض قد أشفى على الموت، فلم يدخل بها وبقيت عنده إلى أن توفي، وملك قطب الدين مؤدود، فتزوجها، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها اشتد الغلاء بإفريقية ودامت أيامه، فإن أوله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وعظم الأمر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضاً، وقصد أهل البوادي المدن من الجوع، فأغلقها أهلها دونهم، وتبعه وباء وموت كثير، حتى خلت البلاد. وكان أهل البيت لا يبقى منهم أحد، وسار كثير منهم إلى صقلية في طلب القوت، ولقوا أمراً عظيماً. (١٢٥/١١)

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

ذكر ملك الفرنج مدينة المهديّة بإفريقية

قد ذكرنا سنة إحدى وأربعين وخمسمائة مسير أهل يوسف، صاحب قايس، إلى رجاء، ملك صقلية، واستغاثتهم به، فغضب لذلك، وكان بينه وبين الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، صاحب إفريقية، صلح وعهود إلى مدة ستين، وعلم أنه فاته فتح البلاد في هذه الشدة التي أصابتهم، وكانت الشدة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة، وكان أشد ذلك سنة اثنتين وأربعين، فإن الناس فارقوا البلاد والقرى، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية، وأكل الناس بعضهم بعضاً، وكثر الموت في الناس، فاغتم رجاء هذه الشدة، فعمر الأسطول، وأكثر منه، فبلغ نحو مائتين وخمسين شينياً مملوءة رجالاً وسلاحاً وقوتاً.

وسار الأسطول عن صقلية ووصل إلى جزيرة قوصرة، وهي بين المهديّة وصقلية، فصادفوا بها مراكباً وصل من المهديّة، فأخذ أهلها وأحضروا بين يدي جرجي مقدّم الأسطول، فسألهم عن حال إفريقية، ووجد في المركب قصص حمام، فسألهم هل أرسلوا منها، فيحلفوا أنهم لم يرسلوا منها (١٢٦/١١) شيئاً، فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه: إننا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا به مراكب من صقلية، فسألناهم عن الأسطول المخدول، فذكروا أنه ألق إلى جزائر القسطنطينية.

وأطلق الحمام فوصل إلى المهديّة، فسّر الأمير الحسن والناس، وأراد جرجي بذلك أن يصل بغتة، ثم سار، وقدر وصولهم إلى المهديّة وقت السحر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها، فلو تم له ذلك لم يسلم منهم أحد، فقدّر الله تعالى أن أرسل عليهم رجلاً هائلة عكستهم، فلم يقدروا على المسير إلا بالمقازيف، فطلع النهار ثاني صفر في هذه السنة قبل وصولهم، فأرهم الناس، فلما رأى جرجي ذلك وأن الخديعة فاتته، أرسل إلى الأمير الحسن يقول: إنما جئت بهذا الأسطول طالباً بشار محمد بن رشيد صاحب قايس وردّه إليها، وأما أنت فيينا وعهود وميثاق إلى مدة، ونريد منك عسكرياً يكون معنا.

فجمع الحسن الناس من الفقهاء والأعيان وشاورهم، فقالوا: نقاتل عدونا، فإن بلدنا حصين. فقال: أخاف أن ينزل إلى البر ويحصرنا برّاً وبحراً، ويحول بيننا وبين الميرة، وليس عندنا ما يقوتنا شهراً، فنؤخذ قهراً، وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيراً من الملك، وقد طلب مني عسكرياً إلى قايس، فإذا فعلت فما يحلّ لي معونة الكفار على المسلمين، وإذا امتنع يقول: انتقض ما بيننا من الصلح، وليس يريد إلا أن يبطنا حتى

يحول بيتنا وبين السيرة، وليس لنا بقتاله طاقة، والرأي أن نخرج بالأهل والولد ونترك البلد، فمن أراد أن يفعل كفضلنا فليبادر معنا. (١٢٧/١١)

وأمر في الجبال بالرحيل، وأخذ معه من حضره وما خف حمله، وخرج الناس على وجوههم بأهلهم وأولادهم وما خف من أموالهم وأثاثهم، ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس، وبقي الأسطول في البحر تمنعه الرياح من الوصول إلى المهدية إلى ثلثي النهار، فلم يبق في البلد ممن عزم على الخروج أحد، فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع، ودخل جرجي القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه إلا ما خف من ذخائر الملوك، وفيه جماعة من خطاياء، ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة وكل شيء غريب يقل وجود مثله، فختم عليه، وجمع سراي الحسن في قصره.

وكان عدة من ملك منه من زيري بن مناد إلى الحسن تسعة ملوك، ومدة ولايتهم مائتا سنة وثمانى سنووات، من سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وكان بعض القواد قد أرسله الحسن إلى رجاء برسالة، فأخذ لنفسه وأهله منه أماناً، فلم يخرج معهم، ولما ملك المدينة نهبت مقدار ساعتين، ونودي بالأمان، فخرج من كان مستخفياً، وأصبح جرجي من الغد، فأرسل إلى من قرب من العرب، فدخلوا إليه، فأحسن إليهم، وأعطاهم أموالاً جزيلة، وأرسل من جند المهدية الذين تخلفوا بها جماعة، ومعهم أمان لأهل المهدية الذين خرجوا منها، ودواب يحملون عليها الأطفال والنساء، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع، ولهم بالمهدية خبايا وودائع، فلما وصل إليهم الأمان رجعوا، فلم تمض جمعة حتى رجع أكثر أهل البلد.

وأما الحسن فإنه سار بأهله وأولاده، وكانوا اثني عشر ولداً ذكراً غير الإناث، وخواص خدمه، قاصداً إلى مُحَرَّز بن زياد، وهو بالمعلقة، فلقبه في طريقه أمير من العرب يسمى حسن بن ثعلب، فطلب منه مالاً أنكر له في (١٢٨/١١) ديوانه، فلم يمكن الحسن إخراج مال لئلا يؤخذ، فسلم إليه ولده يحيى رهينة ومئار، فوصل في اليوم الثاني إلى مُحَرَّز، وكان الحسن قد فضله على جميع العرب وأحسن إليه، ووصله بكثير من المال، فلقبه محرز لقاء جميلاً، وتوجع لما حل به، فأقام عنده شهراً، والحسن كاره للإقامة، فأراد المسير إلى ديار مصر إلى الخليفة الحافظ العلوي، واشترى مركباً لسفره فسمع جرجي الفرنجي، فجهاز شواني ليأخذه، فعاد الحسن عن ذلك، وعزم على المسير إلى عبد المؤمن بالمغرب، فأرسل كبار أولاده يحيى وتيمناً وعلياً إلى يحيى بن العزيز، وهو من بني حماد، وهما أولاد عمه يستأذنه في الوصول إليه، وتجديد العهد به، والمسير من عنده إلى عبد المؤمن، فأذن له

يحيى، فسار إليه فلما وصل لم يجتمع به يحيى وسيّره إلى جزيرة بني مَرْغَناي هو وأولاده ووكل به من يمتنع من التصرف، فبقوا كذلك إلى أن ملك عبد المؤمن بجاية سنة سبع وأربعين [وخمسمائة]، فحضر عنده وقد ذكرنا حاله هناك.

ولما استقر جرجي بالمهدية سار أسطولاً، بعد أسبوع، إلى مدينة سفاقس، وسيّر أسطولاً آخر إلى مدينة سوسة، فأما سوسة فإن أهلها لما سمعوا خبر المهدية، وكان واليها علي بن الحسن الأمير، فخرج إلى أبيه، وخرج الناس لخروجه، فدخلها الفرنج بلا قتال ثاني عشر صفر. وأما سفاقس فإن أهلها أتاهم كثير من العرب، فامتنعوا بهم، فقاتلهم الفرنج، فخرج إليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة، وتبعهم الناس حتى أبعدوا عن البلد، ثم عطفوا عليهم، فانهمز قوم إلى البلد وقوم إلى البرية، وقتل منهم جماعة، ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتل كثير، وأسر من بقي من الرجال وسبي الحرير، وكذلك في الثالث والعشرين من صفر، ثم نودي بالأمان، فعاد أهلها إليها، وانكروا حرّمهم وأولادهم، ورفق بهم وبأهل سوسة والمهدية، وبعد ذلك وصلت كتب من رجاء لجميع أهل إفريقية (١٢٩/١١) بالأمان والمواعيد الحسنة.

ولما استقرت أحوال البلاد سار جرجي في أسطول إلى قلعة إقليبية، وهي قلعة حصينة، فلما وصل إليها سمعته العرب، فاجتمعوا إليها، ونزل إليهم الفرنج، فاقتلوا فانهمز الفرنج وقتل منهم خلق كثير، فرجعوا خاسرين إلى المهدية، وصار للفرنج من طرابلس الغرب إلى قرب تونس ومن المغرب إلى دون القيروان، والله أعلم.

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي بن زنكي

في هذه السنة سار ملك الألمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج، عازماً على قصد بلاد الإسلام، وهو لا يشك في ملكها بإيسر قتال لكثرة جموعه، وتوفر أمواله وعُدده، فلما وصل إلى الشام قصد من به من الفرنج وخدموه، وامتثلوا أمره ونهيه، فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه، فساروا معه ونازلوها وحصروها، وكان صاحبها مجير الدين أبق بن بُوري بن طُغْذُكِين، وليس له من الأمر شيء، وإمّا الحكم في البلد لمعين الدين أنر مملوك جده طُغْذُكِين، وهو الذي أقام مجير الدين، وكان معين الدين عاقلاً عادلاً، خيراً، حسن السيرة، فجمع العساكر وحفظ البلد.

وأقام الفرنج يحاصرونهم، ثم إنهم زحفوا سادس ربيع الأول بفارسهم وراجلهم، فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوه، وصبروا لهم، وفيمن خرج للقتال الفقيه حُجّة الدين يوسف بن دي ناس الفندلاوي المغربي، وكان شيخاً كبيراً، فقيهاً عالمياً، فلما رآه

ذكر مُلك نور الدين محمود بن زنكي حصن العُريمة

لما سار الفرنج عن دمشق رحل نور الدين إلى حصن العُريمة، وهو للفرنج، فملكه.

وسبب ذلك أن ملك الألمان لما خرج إلى الشام كان معه ولد الفُش، وهو من أولاد ملوك الفرنج، وكان جدّه هو الذي أخذ طرابلس الشام من المسلمين، فأخذ حصن العُريمة وتملكه، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمّص، فأرسل القمّص إلى نور الدين محمود، وقد اجتمع هو ومعين الدين أنر بعلبك، يقول له ولعمري الدين ليقتدا حصن العُريمة ويملكاه من ولد الفُش، فساروا إليه مُجذّين في عساكرهما، وأرسلوا إلى سيف الدين وهو بحمص يستجده، (١٣٢/١١) فأمدّهما بعسكر كثير من الأمير عزّ الدين أبي بكر اللبّيسي، صاحب جزيرة ابن عُمر وغيرها، فانزلوا الحصن وحصروه، وبه ابن الفُش، فحماه وامتنع به، فزحف المسلمون إليه غير مرة، وتقدّم إليه النقاويون فقبضوا السور، فاستسلم حينئذٍ من به من الفرنج، فملكه المسلمون وأخذوا كلّ من به من فارس وراجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفُش، وأخربوا الحصن وعادوا إلى سيف الدين. وكان مثل ابن الفُش كما قيل: خرجت النعمة تطلب قرنين فعادت بغير أذنين.

ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء ووصولهم

إلى بغداد وما كان منهم بالعراق

في هذه السنة فارق السلطان مسعوداً جماعة من أكابر الأمراء وهم من أذربيجان: إيلدكر المسعودي، صاحب كنجة وأزائية، وقيصر، ومن الجبل: البقش كُون خَر، وتَر الحاجب، وهو من مماليك مسعود أيضاً، وطُرَنْطايي المحمودي، شحنة واسط، والدكن، وقرقوب وابن طغاييرك.

وكان سبب ذلك ميل السلطان إلى خاص بك واطّراحه لهم، فخافوا أن يفعل بهم مثل فعله بعبيد الرحمن وعبّاس وبوزابة، ففارقوه وساروا نحو العراق، فلما بلغوا حُلوان خاف النّاس ببغداد وأعمال العراق، وغلّت الأسعار، وتقدّم الإمام المقتضي لأمر الله بإصلاح السور وترميمه، وأرسل الخليفة إليهم بالعبادي الواعظ، فلم يرجعوا إلى قوله، ووصلوا إلى بغداد في (١٣٣/١١) ربيع الآخر، والملك محمد ابن السلطان محمود معهم، ونزلوا بالجانب الشرقي، وفارق مسعود بلال شحنة بغداد البلد خوفاً من الخليفة، وسار إلى تكريت وكانت له، فعم الأمر على أهل بغداد، ووصل إليهم علي بن دُييس صاحب الجيلة، فنزل بالجانب الغربي، فجنّد الخليفة أجناداً يحتمي بهم.

ووقع القتال بين الأمراء وبين عامّة بغداد ومن بها من العسكر، واقتتلوا عدّة دفعات، ففي بعض الأيام انهزم الأمراء الأعاجم من

معين الدين، وهو (١٣٠/١١) راجل، قصده وسلّم عليه، وقال له: يا شيخ أنت معذور لكبر سنك ونحن نقوم بالذّب عن المسلمين، وسأله أن يعود، فلم يفعل وقال له: قد بعث واشترى مني، فوالله لا أقتله ولا استقلته، فعنّى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

وتقدّم فقاتل الفرنج حتى قُتل عند النّيرب نحو نصف فرسخ عن دمشق.

وقوي الفرنج وضعف المسلمون، فتقدّم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر، فأيقن النّاس بأنه يملك البلد. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي يدعوه إلى نصرة المسلمين وكفّ العدو عنهم، فجمع عساكره وسار إلى الشام، واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب، فتنزلوا بمدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعني كلّ من يحمل السّلاح في بلادك، فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزمست دخلت أنا وعسكري البلد واحتميناه به، وإن ظفرت فالبلد لكم لا أناز عكم فيه.

فأرسل إلى الفرنج يتهذّمهم إن لم يرحلوا عن البلد، فكفّ الفرنج عن القتال خوفاً من كثرة الجراح، وربّما اضطروا إلى قتال سيف الدين، فأبقوا على نفوسهم، فوي أهل البلد على حفظه، واستراحوا من لزوم الحرب، وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء: إن ملك المشرق قد حضر، فإن رحلتهم، وإلا سلّمْتُ البلد إليه، وحينئذٍ تندمون. وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم: بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحليّة، وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلّمته إلى سيف الدين، وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام. فأجابوه إلى التخلّي عن ملك الألمان، (١٣١/١١) وبذل لهم تسليم حصن بانياس إليهم.

واجتمع الساحليّة بملك الألمان، وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الأمداد إليه، وأنه ربّما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته، ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد، وتسلموا قلعة بانياس، وعاد الفرنج الألمانيّة إلى بلادهم وهي من وراء القسطنطينيّة، وكفى الله المؤمنين شرّهم.

وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق: أن بعض العلماء حكى له أنه رأى الفتدلاوي في المنام، فقال له: ما فعل الله بك، وأين أنت؟ فقال: غفر لي، وأنا في جنّات عدن على سرّ متقابلين.

ذكر ملك الغورية غزنة وعودهم عنها

في هذه السنة قصد سوري بن الحسين ملك الغور مدينة غزنة فملكها. وسبب ذلك أن أخاه ملك الغورية [قبله محمد بن الحسين كان قد صاهر بهرام شاه مسعود بن] إبراهيم، صاحب غزنة، وهو من بين سيكنكين، فعظم شأنه بالمصاهرة، وعلت همته، فجمع جمعاً كثيراً وسار إلى غزنة ليملكها.

وقيل: إنما سار إليها مظهر الخدمة والزيارة، وهو يريد المكر والغدر، فعلم به بهرام شاه، فأخذته وسجنه، ثم قتله، فعظم قتله على الغورية، ولم يمكنهم الأخذ بثاره.

ولما قتل ملك بعده أخوه سام بن الحسين، فمات بالجذري، وملك بعده أخوه الملك سوري بن الحسين بلاد الغور، وقوي أمره، وتمكن في ملكه، فجمع عسكره من الفارص والراجل وسار إلى غزنة طالباً بثار أخيه المقتول وقاصداً ملك غزنة، فلمّا وصل إليها ملكها في جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

وفارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند، وجمع جمعاً كثيرة، وعاد إلى غزنة وعلى مقدمته السار الحسن بن إبراهيم العلوي أمير هندوستان. وكان عسكر غزنة، الذين أقاموا مع سوري بن الحسين الغوري وخدموه، قلوبهم مع بهرام شاه، وإنما هم بظواهرهم مع سوري، فلمّا التقى سوري وبهرام شاه رجع عسكر غزنة إلى بهرام شاه وصاروا معه، وسلموا إليه سوري ملك الغورية، وملك بهرام شاه غزنة في المحرم سنة أربع وأربعين [وخمسمائة]، وصلب الملك سوري مع السيد الماهياتي في المحرم أيضاً من السنة.

(١٣٦/١١)

وكان سوري أحد الأجواد، له الكرم الغزير، والمروءة العظيمة، حتى إنه كان يرمي الدراهم في المقاليع إلى الفقراء لتقع بيد من يتق له.

ثم عاود الغورية وملكوها، وخربوها، وقد ذكرناه سنة سبع وأربعين [وخمسمائة] وذكرنا هناك ابتداء دولة الغورية لأنهم في ذلك الوقت عظم محلهم، وفارقوا الجبال وقصدوا خراسان، وعلا شأنهم، وفي بعض الخلف كما ذكرناه، والله أعلم.

ذكر ملك الفرنج مدناً من الأندلس

في هذه السنة ملك الفرنج بالأندلس مدينة طرطوشة، وملكوها معها جميع قلاعها وحصون لاردة وأفراغة، ولم يبق للمسلمين في تلك الجهات شيء إلا واستولى الفرنج على جميعه لاختلاف المسلمين بينهم، وبقي بأيديهم إلى الآن.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبي غالب

عامّة بغداد مكرّاً وخديعة، وتبعهم العامة، فلمّا أبعدها عادوا عليهم وصار بعض العسكر من ورائهم، ووضعوا السيف فقتل من العامة خلق كثير، ولم يُبقوا على صغير ولا كبير، وفتكوا فيهم، فأصيب أهل بغداد بما لم يُصابوا بمثله، وكثر القتلى والجرحى وأسر منهم خلق كثير فقتل البعض وشهر البعض، ودفن الناس من عرفوا، ومن لم يُعرف ترك طريقاً بالصحراء، وتفرق العسكر في المحال الغريبة، فأخذوا من أهلها الأموال الكثيرة، ونهبوا بلد دجيل وغيره، وأخذوا النساء والولدان.

ثم إن الأمراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج وقبّلوا الأرض واعتذروا وتردّدت الرسل بينهم وبين الخليفة إلى آخر النهار، وعادوا إلى خيامهم، ورحلوا إلى النهروان، فنهبوا البلاد، وأفسدوا فيها، وعاد مسعود بلال شحنة بغداد من تكرت إلى بغداد.

ثم إن هؤلاء الأمراء تفرقوا وفارقوا العراق، وتوفي الأمير قبصر بأذربيجان، هذا كلّهُ والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل، والرسل بينه وبين عمّه السلطان سنجر متصلة، وكان السلطان سنجر قد أرسل إليه يلومه على تقديم خاص بك، وإيماره بإبعاده، ويتهذبه بأنّه إن لم يفعل فيسبّقه (١٣٤/١١) ويزيله عن السلطنة، وهو يغالط ولا يفعل، فسار السلطان سنجر إلى الريّ، فلمّا علم السلطان مسعود بوصول سار إليه وترضاه، واستنّله عمّا في نفسه فسكن. وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعين [وخمسمائة] على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر انهزام الفرنج بغيرى

في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج بمكان اسمه بغيرى من أرض الشام، وكانوا قد تجتمعوا ليقصدوا أعمال حلب لغيروا عليها، فعلم بهم، فسار إليهم في عسكره، فالتقوا بغيرى واقتتلوا قتالاً شديداً وأجلب المعركة عن انهزام الفرنج، وقتل كثير منهم، وأسر جماعة من مقدميهم، ولم ينبج من ذلك الجمع إلا القليل، وأرسل من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهم.

وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسراني في قصيدته التي أولها:
بأيت أن الصّد مضوّد أو لا، فليت النّوم مرثوّد
ومنها في ذكر نور الدين:

وكيف لا تنسى على غشنا المحمود والسلطان محمود
وصلّم الإسلام لا ينسى إلا وشيّلوا الكفر مقصود
مكارم لم تكن موجرة إلا ونور الدين موجود
وكم له من وقته يومها عند الملوك الكفر مشهود

(١٣٥/١١)

البغدادي المعروف أبوه بالخفاف، سمع الحديث الكثير وكان مفيد بغداد. (١٣٧/١١)

وفيهما غلت الأسعار بالعراق وتعذرت الأقوات بسبب العسكر الوارد، وقدم أهل السواد إلى بغداد منهزمين قد أخذت أموالهم، وهلكوا جوعاً وغرياً، وكذلك أيضاً كان الغلاء في أكثر البلاد: خراسان، وبلاد الجبل، وأصفهان، وديار فارس، والجزيرة والشام، وأما المغرب فكان أشد غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدو إليها.

وفيهما توفي إبراهيم بن نيهان الغنوي الرقي، ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وصحب الغزالي والشاشي، وروى الجمع بين الصحيحين للحمدي عن مصنفه.

وفيهما، في ذي القعدة، توفي الإمام أبو الفضل الكرماني الفقيه الحنفي إمام خراسان. (١٣/١١)

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك زنكي وبعض سيرته ومملك

أخيه قطب الدين

في هذه السنة توفي سيف الدين غازي بن أتابك زنكي صاحب الموصل بها بمرض حاد، ولما اشتد مرضه أرسل إلى بغداد واستدعى أوجده الزمان، فحضر عنده، فرأى شدة مرضه، فعالجه، فلم ينفع فيه الدواء، وتوفي أواخر جمادى الآخرة، وكانت ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً. وكان حسن الصورة والشباب، وكانت ولادته سنة خمس مائة، ودُفِنَ بالمدرسة التي بناها بالموصل، وخلف ولداً ذكراً، فرباه عمه نور الدين محمود، وأحسن تربيته، وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود، فلم تطل أيامه وتوفي في عتوان شبابه، فانقرض عقبه.

وكان كريماً شجاعاً عاقلاً، وكان يصنع كل يوم لعسكره طعاماً كثيراً مرتين بكرة وعشية، فأما الذي بكرة فيكون مائة رأس غنم جيدة، وهو أول من حمل على رأسه السنجق، وأمر الأجناد ألا يركبوا إلا بالسيف في أوساطهم والديوبس تحت ركبهم، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف؛ بنى المدرسة الأتابكية العتيقة بالموصل، وهي من أحسن المبشرين، ووقفها (١٣٩/١١) على الفقهاء الحنفية والشافعية، وبنى رباطاً للصوفية بالموصل أيضاً على باب المشرعة، ولم تطل أيامه ليفعل ما في نفسه من الخير، وكان عظيم الهمة، ومن جملة كرمه أنه قصده شهاب الدين الحصين بيص وامتدحه بقصيدته التي أولها:

إلام يرأى المجد في زي شاعر وقد نحتل شوقاً فروع المنابر

فوصله بألف دينار عينا سوى الخيل وغيرها.

ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مقيماً بالموصل، فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين علي أمير الجيش على تملكه، فأخضروه، واستحلفوه، وحلفوا له، وأركبوه إلى دار السلطنة، وزين الدين في ركابه، وأطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل والجزيرة والشام.

ولما ملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تيمرتاش التي كان قد تزوجها أخوه سيف الدين وتوفي قبل الدخول بها، وهي أم أولاد قطب الدين: سيف الدين، وعز الدين وغيرهما من أولاده.

ذكر استيلاء نور الدين على سينجار

لما ملك قطب الدين مودود الموصل بعد أخيه سيف الدين غازي كان أخوه الأكبر نور الدين محمود بالشام، وله حلب وحماة، فكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه، وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد، وكان حينئذ (١٤٠/١١) مستحفظاً بسينجار، فسار جريدة في سبعين فارساً من أمراء دولته، فوصل إلى ماكسين في نفر يسير قد سبق أصحابه.

وكان يوماً شديد المطر، فلم يعرفهم الذي يحفظ الباب، فأجبر الشحنة أن تقرأ من التركمان المتجندين قد دخلوا البلد، فلم يستم كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة، فقام إليه وقبل يده، ولحق به باقي أصحابه، ثم سار إلى سينجار، فوصلها وليس معه غير ركابي وسلاح دار، ونزل بظاهر البلد.

وأرسل إلى المقدم يعلمه بوصوله، فرآه الرسول وقد سار إلى الموصل وترك ولده شمس الدين محمداً بالقلمة، فأعلمه بمسير والده إلى الموصل، وأقام من لحق أباه بالطريق، فأعلمه بوصول نور الدين، فساد إلى سينجار فسلمها إليه، فدخلها نور الدين، وأرسل إلى فخر الدين قرا أرسلان، صاحب الحصن، يستدعيه إليه لمودة كانت بينهما، فوصل إليه في عسكره. فلما سمع أتابك قطب الدين، وجمال الدين، وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سينجار، فوصلوا إلى تل يغفر، وترددت الرسل بينهم بعد أن كانوا غازمين على قصده سينجار، فقال لهم جمال الدين: ليس من الرأي محاقته وقتاله، فإننا نحن قد عظمنا محلّه عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة، وجعلنا أنفسنا دونه، وهو يظهر للفرنج تعظيماً وأنه تبعنا ولا يزال يقول لهم: إن كتمنا كما يجب، وإلا سلمت البلاد إلى صاحب الموصل (١٤١/١١) وحينئذ يفعل بكم ويصنع، فإذا لقيناه، فإن هزمناه طمع السلطان فينا، ويقول: هذا الذي كانوا يعظمونه ويحتمون به أضعف منهم، وقد هزموه، وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج، ويقولون إن الذين كان يحتمي بهم أضعف منه، وقد هزمهم، وبالجمله فهو ابن أتابك

الكبير.

أخذ الفرنج عسقلان، واشتدَّ وهن الدولة بذلك؛ وفي أيامه أخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبى، وصار الأمر بعد هذا إلى أن أخذت مصر منهم على ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى. (١٤٣/١١)

ذكر عود جماعة من الأمراء إلى العراق

في هذه السنة، في رجب، عاد اليقش كُون خَر والطرطاي وابن دُبَيس ومعهم ملكشاه ابن السلطان محمود إلى العراق، وراسلوا الخليفة في الخطبة لملكشاه، فلم يلتفت إليهم، وجمع العساكر، وحصَّن بغداد، وأرسل إلى السلطان مسعود يعرفه الحال، فوعده بالوصول إلى بغداد، فلم يحضر.

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من وصول عمه السلطان سنجر إلى الري في معنى خاص بك، فلما وصل إلى الري سار إليه السلطان مسعود، ولقيه واسترضاه، فرضي عنه، فلما علم اليقش بمراسلة الخليفة إلى مسعود نهب النهروان، وقبض على الأمير علي بن دُبَيس في رمضان، فلما علم الطرطاي بذلك هرب إلى النعمانية.

ووصل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف شوال، وحل اليقش كُون خَر من النهروان، وأطلق علي بن دُبَيس، فلما وصل السلطان إلى بغداد قصده علي، وألقى بنفسه بين يديه واعتذر، فرضي عنه، وذكر بعض المؤرخين هذه الحادثة سنة أربع وأربعين، وذكر أيضاً مثلها سنة ثلاث وأربعين [وخمسمائة]، فظنهما حادثين، وأنا أظنها واحدة ولكننا تبعناه في ذلك ونبناها عليه. (١٤٤/١١)

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج

في هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكي بلاد الفرنج من ناحية أنطاكية، وقصد حصن حارم، وهو للفرنج، فحصره وحرب رقبه، ونهب سواده، ثم رحل إلى حصن إنب فحصره أيضاً، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم وتلصق الأعمال، وساروا إلى نور الدين ليرحلوه عن إنب، فلقبهم واقتتلوا قتالاً عظيماً.

وباتوا نور الدين القتال ذلك اليوم، فانهزم الفرنج أتبع هزيمة، وقتل منهم جمع كثير، وأسير مثلهم.

وكان ممن قُتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظماتهم، ولما قُتل البرنس ملك بعده ابنه يميند، وهو طفل، فتزوجت أمه بيزنس آخر ليدبير البلد إلى أن يكبر ابنها، وأقام معها بأنطاكية.

ثم إن نور الدين غزاهم غزوة أخرى، فاجتمعوا ولفوه، فهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان فيمن أسر البرنس الثاني زوج أم يميند،

وأشار بالصلح، وسار هو إليه فاصطلع وسلم منجار إلى أخيه قطب الدين، وسلم مدينة حمص والرحبة بأرض الشام وبقي الشام له، وديار الجزيرة لأخيه، وأتقفا، وعاد نور الدين إلى الشام، وأخذ معه ما كان قد أذخره أبوه أنابك الشهيد فيها من الخزائن وكانت كثيرة جداً.

ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر [ووزارة] ابن السلار

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم بن المستنصر بالله العلوي، صاحب مصر. كانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر، وعمره نحو من سبع وسبعين سنة، ولم يزل في جميعها محكوماً عليه، يحكم عليه وزراؤه، حتى إنه جعل ابنه حسناً وزيراً وولي عهد، فحكم عليه واستبدَّ بالأمر دولته، وقتل كثيراً من أمراء دولته وصادراً كثيراً، فلما رأى الحافظ ذلك سفاهاً سماً فمات، وقد ذكرناه.

ولم يل الأمر من العلويين المصريين من أبوه غير خليفة غير الحافظ (١٤٢/١١) العاضد، وسيرد ذكر نسب العاضد. وولي الخلافة بعده بمصر ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ، واستوزر ابن مصال، فبقي أربعين يوماً يدبّر الأمور، فقصده العادل بن السلار من نجر الإسكندرية، ونازعه في الوزارة، وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة في طلب بعض المفسدين من السودان، فحلفه العادل بالقاهرة وصار وزيراً.

وسير عباس بن أبي الفتح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي في عسكر وهو ربيب العادل، إلى ابن مصال، فظفر به وقتله، وعاد إلى القاهرة، واستقر العادل وتمكن، ولم يكن للخليفة معه حكم.

وأما سبب وصول عباس إلى مصر فإن جدّه يحيى أخرج أباه أبا الفتح من المهديّة، فلما توفي يحيى وولي بعده بلاد إفريقية ابنه علي بن يحيى بن تميم [بن يحيى صاحب] إفريقية، أخرج أخاه أبا الفتح بن يحيى والد عباس من إفريقية سنة تسع وخمسمائة، فسار إلى الديار المصرية ومعه زوجته بلارة ابنة القاسم بن تميم بن المعز بن باديس، وولده عباس هذا وهو صغير يرضع، ونزل أبو الفتح بالإسكندرية فأكرم وأقام بها مدة يسيرة، وتوفي وتزوجت بعده امرأته بلارة بالعادل بن السلار.

وشبَّ العباس، وتقدّم عند الحافظ، حتى ولي الوزارة بعد العادل؛ فإنَّ العادل قُتل في المحرم سنة ثمان وأربعين [وخمسمائة]. قيل: وضع عليه عباس من قتله، فلما قُتل ولي الوزارة بعده، وتمكن فيها، وكان جليداً حازماً، ومع هذا ففسد أيامه

وفيهما، في المحرم، رخصت الأسعار بالعراق، وكثرت الخيرات، وخرج أهل السواد إلى قراهم.

وفيهما توفي الأمير نظر أمير الحاج، وكان قد سار بالحاج إلى الجيلة، فمرض واشتد مرضه، واستخلف على الحاج قايماز الأرجواني، وعاد إلى بغداد مريضاً، فتوفي في ذي القعدة، وكان خصياً عاقلاً خيراً له معروف كثير وصدقات وافرة. (١٤٧/١١)

وفيهما توفي أحمد بن نظام الملك الذي كان وزير السلطان محمد والمسترشد بالله.

وفيهما توفي علي بن رافع بن خليفة الشيباني، وهو من أعيان خراسان وله مائة وسبع سنين شمسية.

ومات الإمام مسعود الصوابي في المحرم منها.

وفيهما توفي معين الدين اثر نائب أبق صاحب دمشق، وهو كان الحاكم والأمر إليه، وكان أبق صورة أمير لا معنى تحتها.

وفيهما توفي القاضي أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني أبو بكر قاضي تستر، وله شعر حسن فمته قوله :

ولما بلوت الناس أطلب عتقم
أخا ثقة عند اعتراض الشكائد
تطلعت في حالي زخاء وشيئة
وناديت في الأحياء: هل من مساعيد
فلم أرقم سامني غير شايته
ولم أرقم سرتي غير خاسيد
تعتمتا يساظرني نظيرة
وأودعتا قلبي أسر المواريد
أعني كفا عن فؤادي فأنه
من البغي سعي اثنين في قتل واحد
وفيهما توفي أبو عبد الله عيسى بن هبة الله بن عيسى البزاز، وكان ظريفاً، وله شعر حسن. كتب إليه صديق له رُبعة وزاد في خطابه فأجابه :

قد زفنتني في الخطاي حتى
خشيت نقصاً من الزيادة
فاجعل خطابي خطاب مثلي
ولا تُفتر علي عافة
(١٤٨/١١)

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

ذكر أخذ العرب الحجاج

في هذه السنة، رابع عشر المحرم، خرج العرب، رغب ومن انضم إليها، على الحجاج بالغرابي، بين مكة والمدينة، فأخذوهم ولم يسلم منهم إلا القليل.

وكان سبب ذلك أن نظر أمير الحاج [لما عاد من الجيلة على ما ذكرناه وسار على الحاج] قايماز الأرجواني، وكان حدثاً غراً، سار بهم إلى مكة، فلما رأى أمير مكة قايماز استغفره وطمع في الحاج، وتلفظ قايماز الحال معه إلى أن عادوا.

فتمكّن حينئذ يميند بأنطاكية؛ وأكثر الشعراء مديح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر، فإن قتل البرنس كان عظيماً عند الطائفتين؛ وممن قال فيه القيسراني في قصيدته المشهورة التي أولها: (١٤٥/١١)

هذي العزائم لا ما تَدعى القُصْبُ
ونبي المكارم لا ما قالت الكتبُ
وهذه الهمم اللآتي متى خُطبت
تَشَرَّتْ خلفها الأشعل والخطبُ
صافحت يا ابن عماد الدين فزوتها
براحة للمساعي دونها تَعَبُ
ما زال جِسْلُك يَني كُلَّ شاعرةٍ
حتى بنى قبة أوتادها الشهبُ
أغررت سيفك بالإنج راجفةً
فؤاد روية الكبرى لها يجبُ
ضربت كبشهم منها بقاصصةٍ
أودى بها الصلب وأنطحت بها الصلبُ
ظهرت أرض الأعادي من دماهم
طهارة كل سيف عندها جُنبُ

ذكر الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم

في هذه السنة اختلف رُجار الفرنجي صاحب صقلية وملك القسطنطينية، وجرى بينهما حروب كثيرة دامت عدة سنين، فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين، ولولا ذلك لملك رُجار جميع بلاد إفريقية.

وكان القتال بينهما برأ وبحراً، والظفر في جميع ذلك لصاحب صقلية، حتى إن أسطوله، في بعض السنين، وصل إلى مدينة القسطنطينية، ودخل فم الميناء، وأخذوا عدة شوان من الروم، وأسروا جمعا منهم، ورُمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب، وكان الذي يفعل هذا بالروم والمسلمين جرجي وزير صاحب صقلية، فمرض عدة أمراض منها البواسير والحصا، ومات سنة ست وأربعين وخمسمائة، فسكت الفتنة، واستراح الناس من شره وفساده، ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه بعده. (١٤٦/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة زلزلت الأرض زلزلة عظيمة، فقليل إن جبلاً مقابل حلوان ساخ في الأرض.

وفيهما ولي أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المفتي لأمر الله، وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام، وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد، وحسن قيام في ردهم، فرغب الخليفة فيه، فاستوزره يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر سنة أربع وأربعين [وخمسمائة]، وكان القمر على تربع رُحل، فقليل له: لو أخرجت لِس الخيلة لهذه الترييبات؟ فقال: وأي مسعادة أكبر من وزارة الخليفة؟ ولبسها ذلك اليوم.

وفيهما، في المحرم، توفي قاضي القضاة علي بن الحسين الزينبي، وولي القضاء عماد الدين أبو الحسن علي بن أحمد الدماغاني.

ذكر حصر الفرنج قُرْبُطَةَ ورحلهم عنها

في هذه السنة سار السُّلَيْطِين، وهو الأذْقُونش، وهو ملك طَلَيْطَلَة وأعمالها، وهو من ملوك الجلائقة، نوع من الفرنج، في أربعين ألف فارس إلى مدينة قُرْبُطَةَ، فحصرها، وهي في ضعف وغلاء، فبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو بمرّاكش، فجهّز عسكرياً كثيراً، وجعل مقدمهم أبا زكريّا يحيى بن يرموز ونفذهم إلى قُرْبُطَةَ، فلما قربوا منها لم يقدروا أن يلقوا عسكر السُّلَيْطِين في الوطاء وأرادوا الاجتماع بأهل قُرْبُطَةَ ليمتنعوا لخطر العاقبة بعد القتال، فسلكوا الجبال الوعرة، والمضايق المشعبة، فساروا نحو خمسة وعشرين يوماً في الوعر في مسافة أربعة أيام في السهل، فوصلوا إلى جبل مطّل على قُرْبُطَةَ، فلما رأهم السُّلَيْطِين وتحقّق أمرهم رحل عن قُرْبُطَةَ.

وكان [فيها] القائد أبو الغمر الشائب من ولد القائد ابن غلبون (١٥١/١١) وهو من أبطال أهل الأندلس وأمرائها، فلما رحل الفرنج خرج منها لوقته وصعد إلى ابن يرموز، وقال له: انزلوا عاجلاً وادخلوا البلد؛ ففعلوا، وباتوا فيها، فلما أصبحوا من الغد راوا عسكر السُّلَيْطِين على رأس الجبل الذي كان فيه عسكر عبد المؤمن، فقال لهم أبو الغمر: هذا الذي خفّته عليكم لأنّي علمت أنّ السُّلَيْطِين ما أقبل إلّا طالباً لكم، فإنّ من الموضع الذي كان فيه إلى الجبل طريقاً سهلاً، ولو لحقكم هناك لنال مراده منكم ومن قُرْبُطَةَ. فلما رأى السُّلَيْطِين أنّهم قد فاتوه علم أنّه لم يبقَ له طمع في قُرْبُطَةَ، فرحل عائداً إلى بلاده، وكان حصره لقُرْبُطَةَ ثلاثة أشهر، والله أعلم.

ذكر مُلْك الغُورِيّة هراة

في هذه السنة سار ملك الغور الحسن بن الحسين من بلاد الغور إلى هراة فحصرها، وكان أهلها قد كاتبوه، وطلبوا أن يسلموا البلد إليه هرباً من ظلم الأتراك لهم، وزوال هيبة السلطنة عنهم، فامتنع أهل هراة عليه ثلاثة أيام، ثم خرجوا إليه وسلموا البلد وأطاعوه، فأحسن إليهم، وأفاض عليهم النعم، وغمرهم بالعدل، وأظهر طاعة السلطان سنجر والقيام على الوفاء له والانقياد إليه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أمر علاء الدين محمود بن مسعود، الغالب على أمر طُرْتِيش التي بيد الإسماعيلية، بإقامة الخطبة للخليفة، ولبس السواد، ففعل الخطيب (١٥٢/١١) ذلك، فثار به عمه وأقاربه ومن وافقهم، وقتلوه، وكسروا المنبر وقتلوا الخطيب.

وكان فعل علاء الدين هذا لأنّ أباه كان مسلماً، فلما تغلب الإسماعيلية على طُرْتِيش أظهر موافقتهم، وأبطن اعتقاد الشريعة، وهي طويّلة.

فلما سار عن مكة سمع باجتماع العرب، فقال للحاج: المصلحة أنّ لا نمضي إلى المدينة، وضجّ العجم وتهادّوه بالشكوى منه إلى السلطان سنجر، فقال لهم: فأعطوا العرب ما لا نستكف به شرهم؛ فامتنعوا من ذلك، فسار بهم إلى الغرابي، وهو منزل يخرج إليه من مضيق بين جبليّن، فوقفوا على قم مضيق، وقاتلهم قايماز ومن معه، فلما رأى عجزه أخذ لنفسه أماناً، وظفروا بالحجاج، وغنموا أموالهم وجميع ما معهم، وتفرّق الناس في البر، وهلك منهم خلق كثير لا يحصون كثرة، ولم يسلم إلا القليل، (١٤٩/١١) فوصل بعضهم إلى المدينة وتحملوا منها إلى البلاد، وأقام بعضهم مع العرب حتى توصّل إلى البلاد.

ثم إنّ الله تعالى انتصر للحاج من زغب فلم يزالوا في نقص وذلة، ولقد رأيت شاباً منهم بالمدينة سنة ست وسبعين وخمسمائة، وجري بيني وبينه مفاوضة قلت له فيها: إنّي والله كنت أميل إليك حتى سمعت أنّك من زغب فنضرت وخفت شرك. فقال: ولم؟ فقلت: بسبب أخذكم الحاج. فقال لي: أنا لم أدرك ذلك الوقت، وكيف رأيت الله صنع بنا؟ والله ما أفلحنا، ولا نجحنا، قلّ العدد وطمع العدو فينا.

ذكر فتح حصن فاميا

في هذه السنة فتح نور الدين محمود ابن الشهيد زنكي حصن فاميا من الفرنج وهو مجاور شيزر وحماة على تل عال من أحصن القلاع وأمنعها، فسار نور الدين إليه وحصره وبه الفرنج وقاتلهم وضيق على من به منهم، فاجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحوه ليرحلوه عنهم فلم يصلوا إلّا وقد ملكه وملاه دخائر وسلاحاً ورجالاً وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه مسير الفرنج إليه رحل عنه وقد فرغ من أمر الحصن وسار إليهم يطلبهم، فحين راوا أنّ الحصن قد ملك وقوة عزم نور الدين على لقاءهم عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم وراسلوه في المهادنة وعاد سالماً مظفراً ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح، فمن ذلك قول ابن الرومي من قصيدة أولها:

أشنى الممالك ما أظلت مثارها وجعلت مُرْقَعَةً للشار مسارها
واخترن من ملك البلاد وأهلها زووف تكشف عدلها أطلارها
(١٥٠/١١)

ومنها في وصف الحصن:

أدركت نازكاً في البناء وكنت يا مختاراً أمّة أحمد مختارها
طابت نجوؤك قوتها ولربما باتت تناقضها التجوؤ سركارها
عارية الزمن المعبر شمالها منك المعيرة وأسيرة شعارها
استمع مع الشعرى القبور وأصبحت شغرة تستغلي الفحول فيوارها
وهي طويّلة.

وكان يناظر على مذهب الشافعي، وازداد تقدماً بطريثيث وجرت أمورُها بإرادته، فلما حضره الموت أوصى أن يغسله فقيه شافعي، وأوصى إلى ابنه علاء الدين، إن أمكنه أن يعيد فيها إظهار شريعة الإسلام فعل. فلما رأى من نفسه قوة فعله فلم يتم له.

وفيها كثر المرض بالعراق لا سيما ببغداد، وكثر الموت أيضاً فيها، ففارقها السلطان مسعود.

فلما علم نور الدين الحال عظم عليه ذلك، وأعمل الحيلة [على] جوسلين، وهجر الراحة ليأخذ بشأره، وأحضر جماعة من أمراء التركمان، وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه إما قتيلاً أو أسيراً، لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتجى بجموعه وحصونه، فجعل التركمان عليه العيون، فخرج متصيّداً، فحلقت به طائفة منهم وظفروا به، فصانعهم (١٥٥/١١) على مال يؤذيه إليهم، فاجابوه إلى إطلاقة إذا حضر المال، فأرسل في إحضاره، فمضى بعضهم إلى أبي بكر بن الدابة، نائب نور الدين بحلب، فأعلمه الحال، فسار عسكراً معه، فكبسوا أولئك التركمان وجوسلين معهم، فأخذوه أسيراً وأحضره عنده، وكان أسره من أعظم الفتح لأنه كان شيطاناً عاتياً، شديداً على المسلمين، قاسي القلب، وأصبحت النصرانية كافة بأسره.

ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها، وهي تلّ باشير، وعين تاب، وإعزاز، وتلّ خالد، وقوروس، والروانذان، وبرج الرصاص، وحصن الباره، وكفر سود، وكفر لانا، ودلوك، ومروش، ونهر الجوز، وغير ذلك من أعماله، في مدة يسيرة يرد تفصيلها.

وكان نور الدين كلما فتح منها حصناً نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون، خوفاً من نكسة تلحق المسلمين من الفرنج، فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو. ومدحه الشعراء، فممن قال فيه القيسراني من قصيدة في ذكر جوسلين:

كَمَا أَهْذَتِ الْأَقْدَارُ لِلْقَمَصِ أَسْرَهُ وَأَسْعَدَتْ قَرْنَ مَنْ خَوَّاهُ لَسْكَ الْأَسْرِ
طَفَى وَيَنَى عَنَّا عَلَى غُلُوَائِهِ فَأَوْتَقَهُ الْكُفْرَانُ عَنَّا وَهُوَ الْكُفْرُ
وَأَمْسَتْ عِزّاً كَانَتْهَا بَكَ عِزَّةً تَشَقُّ عَلَى السَّرِينِ لَوْ أَنَّهَا وَكُرُ
فَيَسِّرُ وَاسِلًا لَتَبَا ضِيَاءُ وَهَجَّةً، فَيَا لَأَقْبَى الدَّاجِي إِلَى ذَا السَّنَا فَفُرُ
(١٥٦/١١)

كَأَنِّي بِهَذَا الْقَسَمِ لَا أَقُلُّ خَلَّةً وَأَقْصَاءً بِالْأَقْصَى وَقَدْ قَضَى الْأَمْرُ
وَقَدْ أَصْبَحَ الْبَيْتُ الْمُقْلَسُ طَاهِراً وَلَيْسَ سَرَى جَارِي الدَّمَاءِ لَهُ طَهْرُ

ذكر حصر غرناطة والمروية من بلاد الأندلس

في هذه السنة سار عبد المؤمن جيشاً كثيفاً نحو عشرين ألف فارس، إلى الأندلس مع أبي حفص عمر بن أبي يحيى الهتاتني، وسير معهم نساءهم، فكان يسرن مفرداتٍ عليهن البرانس السود، ليس معهن غير الخدم، ومتى قرب منهن رجل ضرب بالسيّاط.

فلما قطعوا الخليج ساروا إلى غرناطة وبها جمع من

وكان يناظر على مذهب الشافعي، وازداد تقدماً بطريثيث وجرت أمورُها بإرادته، فلما حضره الموت أوصى أن يغسله فقيه شافعي، وأوصى إلى ابنه علاء الدين، إن أمكنه أن يعيد فيها إظهار شريعة الإسلام فعل. فلما رأى من نفسه قوة فعله فلم يتم له.

وفيها كثر المرض بالعراق لا سيما ببغداد، وكثر الموت أيضاً فيها، ففارقها السلطان مسعود.

وفيها توفي الأمير علي بن ديبس بن صدقة صاحب الجيلة بأسداباد، وأتهم طيبه محمد بن صالح بالمواطاة عليه، فمات الطيب بعده بقرى.

وفيها استوزر عبدالمؤمن صاحب بلاد المغرب أبا جعفر بن أبي أحمد الأندلسي، وكان مأسوراً عنده، فوُصف له بالعقل وجودة الكتابة، فأخرجه من الحبس واستوزره، وهو أول وزير كان للموحدين.

وفي هذه السنة، في المحرم، جلس يوسف الدمشقي مدرّساً في النظامية ببغداد، وكان جلوسه بغير أمر الخليفة، فمُنِعَ يرم الجمعة، من دخول الجامع، فصلى في جامع السلطان، ومنع من التدريس، فتقدم السلطان مسعود إلى الشيخ أبي النجيب بأن يدرس فيها، فامتنع بغير أمر الخليفة، فاستخرج السلطان إذن الخليفة في ذلك، فدرس منتصف المحرم من السنة. (١٥٣/١١).

وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن علي مهران الفقيه الشافعي تفتّه على الهراسي، وولي قضاء نصيبين، ثم ترك القضاء وتزهد فأقام بجزيرة ابن عمر، ثم انتقل إلى جبل ببلد الحصن، في زاوية، وكان له كرامات ظاهرة.

وفيها مات الحسن بن ذي النون بن أبي القاسم بن أبي الحسن المسعري أبوالمفاخر النيسابوري، سمع الحديث الكثير، وكان فقيهاً أديباً دائم الأشغال يعظ الناس، وكان ممّا ينشد:

مَاتَ الْكِرَامُ وَوَلَّسُوا وَانْقَضَتْنَا وَمَاتَ مِنْ بَعْدِهِمْ تِلْكَ الْكَرَامَاتُ
وَحَلَفُونَنِي فِي قَوْمٍ ذَوِي سَفْوَ لَوْ أَبْصَرُوا طَيْفَ ضَيْفٍ فِي الْكُرَى مَاتُوا
(١٥٤/١١)

سنة ست وأربعين وخمسمائة

ذكر انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك

في هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكره وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي، وهي شمالي حلب، منها تلّ باشير، وعين تاب، وإعزاز وغيرها، وعزم على محاصرتها وأخذها. وكان جوسلين، لعنه الله، فارس الفرنج غير مدافع، قد جمع الشجاعة والرأي، فلما علم بذلك جمع الفرنج فأكثروا، وسار نحو نور الدين فالتقوا

المُرابطين، فحصرها عمر وعسكره، وضيّقوا عليها، فجاء إليه أحمد بن ملحان، صاحب مدينة وادي آش وأعمالها، بجماعته، ووخّدوا، وصاروا معه، وأنشأهم إبراهيم ابن هشّاشك صهر ابن مرّدنّيش، صاحب جَبّان، وأصحابه، ووخّدوا، وصاروا أيضاً معه، فكشّر جيشه، وحرّضه على المسارعة إلى ابن مرّدنّيش، ملك بلاد شرق الأندلس، ليقيّته بالحصار قبل أن يتجهّز.

وسار من سبّنة في صفر سنة سبع وأربعين [وخمسمائة]، فأسرع السير وطوى المراحل، والعساكر تلقّاه في طريقه، فلم يشعر أهل بجاية إلّا وهو في أعمالها، وكان ملكها يحيى بن العزيز بن حمّاد آخر ملوك بني حمّاد، وكان مولعاً بالصيد والمُهو لا ينظر في شيء من أمور مملكته، قد حكم فيها بنو حمّادون، فلَمّا اتّصل الخبر بميمون بن حمّادون جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن، فلقيهم مقدّمته، وهو يزيد على عشرين ألف فارس، (١٥٩/١١) فأنهزم أهل بجاية من غير قتال، ودخلت مقدّمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن ببومين، وتفرّق جميع عسكر يحيى بن العزيز، وهربوا برأ وبخراً، وتحصّن يحيى بقلعة قسنطينة الهوا، وهرب أخواه الحارث وعبد الله إلى صقلية، ودخل عبد المؤمن بجاية، وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال.

ثم إن يحيى نزل إلى عبد المؤمن بالأمان، فأمنه، وكان يحيى قد فرح لما أخذت بلاد إفريقية من الحسن بن عليّ فرحاً ظهر عليه، فكان يذمّه، ويذكر معاليه، فلم تطل المدة حتى أخذت بلاده، ووصل الحسن بن عليّ إلى عبد المؤمن في جزائر بني مرّغان، وقد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين [وخمسمائة] سبب مصيره إليها، واجتمعوا عنده، فأرسل عبد المؤمن يحيى بن العزيز إلى بلاد المغرب، وأقام بها، وأجرى عليه شيئاً كثيراً.

وأما الحسن بن عليّ فإنه أحسن إليه، وألزمه صحبته، وأعلى مرتبته، فلزمه إلى أن فتح عبد المؤمن المهدية فجعله فيها، وأمر إليها أن يقتدي برأيه ويرجع إلى قوله.

ولما فتح عبد المؤمن بجاية لسم يتعرّض إلى مال أهلها ولا غيره، وسبب ذلك أن بني حمّادون استأمنوا فوقى بأمانه.

ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجة

لما ملك عبد المؤمن بجاية تجمّعت صنهاجة في اسم لا يحضيتها إلّا الله تعالى، وتقدّم عليهم رجل اسمه أبو قصبة، واجتمع معهم من كُتامة ولُواتة (١٦٠/١١) وغيرهما خلق كثير، وقصدوا حرب عبد المؤمن، فأرسل إليهم جيشاً كثيراً، ومقدّمهم أبو سعيد يخلّف، وهو من الخمسين، فللقوا في عُرّض الجبل، شرقي بجاية، فأنهزم أبو قصبة وقُتل أكثر من معه، ونُهبت أموالهم، وسبيت نساؤهم وذواريهم.

ولما فرغوا من صنهاجة ساروا إلى قلعة بني حمّاد، وهي من

فلَمّا سمع ابن مرّدنّيش ذلك خاف على نفسه، فأرسل إلى ملك بَرّشلونة، من بلاد الفرنج، يخبره، ويستنجد، ويستحثّه على الوصول إليه، فسار إليه الفرنجنيّ في عشرة آلاف فيلارس، وسار عسكر عبد المؤمن، فوصلوا إلى حمة بقلورة، وبينها وبين مرسية، التي هي مقرّ ابن مرّدنّيش، مرحلة، (١٥٧/١١) فسمعوا بوصول الفرنج، فرجع وحصر مدينة المرسية، وهي للفرنج، عدّة شهور، فاشتدّ الغلاء في العسكر، وعُدّت الأقوات، فرحلوا عنها وعادوا إلى إشبيلية فاقاموا بها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفيّ العباديّ الواعظ، واسمه المظفر ابن أرّششير، بخوزستان، وكان الخليفة المقتضي لأمر الله قد سيّره في رسالة إلى الملك محمد ابن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الحوزي، فتوفيّ هناك وجلس ولده بيغداد للعزاء، وأقيم بحاجب من الديوان العزيز.

وكان يجلس ويعظ ويذكر والده ويكي هو والناس كافة، وتُقلّ العباديّ إلى بغداد ودُفن بالشونيزي، ومولده سنة إحدى وتسعين وأربعمئة، وسمع الحديث من أبي بكر الشيرازي، وزاهر الشّحاميّ وغيرهما، ورواه.

وفيها انفجر بئق النهروان الذي أمّنه بهروز بكثرة الزيادة في تآمراً وإهمال أمرها، حتى عظم ذلك وتضرّر به الناس.

وفيها سار الأمير قُجق في طائفة من عسكر السلطان سنجر إلى طُرُنّيث بخراسان، وأغار على بلاد الإسماعيلية، فهب، وسبى وخرب، وأحرق المساكن، وفعل بهم أفاعيل عظيمة وعاد سالماً. (١٥٨/١١)

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بني حمّاد

في هذه السنة سار عبد المؤمن بن عليّ إلى بجاية وملكها، وملك جميع ممالك بني حمّاد. وكان لما أراد قصدها سار من مراكش إلى سبّنة سنة ست وأربعين [وخمسمائة]، فأقام بها مدة يعمر الأسطول، ويجمع العساكر القريبة منه.

بإقامة الخمر من مساكن أصحاب السلطان، ووُجد في دار مسعود بلال، شحنة بغداد، كثير من الخمر، فأريق، ولم يكن الناس (١٦٢/١١) يظنون أنه شرب الخمر بعد الحج، وقبض على المؤيد الألويسي الشاعر، وعلى الحيص بيص الشاعر، ثم أطلق الحيص بيص، وأعيد عليه ما أخذ منه.

ثم إن السلطان ملكشاه سیر سلازرد في عسكر إلى الجلة، فدخلها، فسار إليه مسعود بلال، شحنة بغداد، وأظهر له الاتفاق معه، فلما اجتمعاً قبض عليه مسعود بلال وغرقه، واستبد بالجلّة، فلما علم الخليفة ذلك جهز العساكر إليه مع الوزير عون الدين بن هبيرة، فسار إليه، فلما قاربوا الجلة عبر مسعود بلال الفرات إليهم وقاتلهم، فانهزم من عسكر الخليفة، ونادى أهل الجلة بشعار الخليفة، فلم يدخلها، وتمت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، فعاد [إلى] تكريت، وملك عسكر الخليفة الجلة، وسير الوزير عسكراً إلى الكوفة وعسكراً إلى واسط، فملكوهما.

ثم إن عساكر السلطان وصلت إلى واسط، ففارقها عسكر الخليفة، فلما سمع الخليفة ذلك تجهز بنفسه وسار عن بغداد إلى واسط، ففارقها العسكر السلطاني، وملكها الخليفة، وسار منها إلى الجلة، ثم عاد إلى بغداد، فوصلها ناسع عشر ذي القعدة، وكانت غيبته خمسة وعشرين يوماً.

ثم إن خاص بك بن بلكري قبض على الملك ملكشاه الذي خطب له بالسلطنة بعد مسعود، وأرسل إلى أخيه الملك محمد سنة ثمان وأربعين [وخمسمائة] وهو بخوزستان يستدعيه، وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة، فسار الملك محمد إليه، فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة أوائل صفر، وخطب له بالسلطنة، وخدمه، وبالع في خدمته، وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار.

ثم إنه دخل إلى الملك محمد ثاني يوم وصوله، فقتله محمد، وقتل معه زنكي الجاندار، وألقى برأسيهما، ففرق أصحابهما، ولم يتطع فيها (١٦٣/١١) عزان. وكان ابدغدي التركماني المعروف بشملة مع خاص بك. فنهاه عن الدخول إلى الملك محمد، فلم يتو، فقتل، ونجا شملة، فنهج جيش الملك محمد، ومضى طالباً خوزستان، وأخذ محمد من أموال خاص بك شيئاً كثيراً واستقر محمد في السلطنة وتمكن، وبقي خاص بك ملقى حتى أكلته الكلاب، وكان صبياً تركمانياً اتصل بالسلطان مسعود، فتقدم على سائر الأمراء وكان هذا خاتمة أمره.

ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج

في هذه السنة تجمعت الفرنج، وحشدت الفارس والراجل، وساروا نحو نور الدين، وهو ببلاد جوسلين، ليمنعوه عن ملكها،

أحصن القلاع وأعلاها لا ترام، على رأس جبل شاهق يكاد الطرف لا يحققها لعلوها، ولكن القدر إذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش، فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها في رؤوس الجبال، ومُلكت القلعة، وأخذ جميع ما فيها من مال وغيره وحمل إلى عبد المؤمن فقسمه.

ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود

في هذه السنة، أول رجب، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان، وكان مرضه حُمى حادة نحو أسبوع، وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة، ومات معه سعادة البيت السلجوقي فلم يبق له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها:

فَمَا كَانَ قَبْلَ مُلْكِهِ مُلْكُكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ يُبَيِّنُ قَوْمٌ نَهْتَكَا

وكان رحمه الله حسن الأخلاق، كثير المزاح والانبساط مع الناس، فمن ذلك أن أتاكب زنكي، صاحب الموصل، أرسل إليه القاضي كمال الدين (١٦١/١١) محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري في رسالة، فوصل إليه وأقام معه في العسكر، فوقف يوماً على خيمة الوزير، حتى قارب أذان المغرب، فعاد إلى خيمته، فأذن المغرب وهو في الطريق، فرأى إنساناً قفياً في خيمة، فنزل إليه، فصلّى معه المغرب، ثم سأله كمال الدين من أين هو؟ فقال: أنا قاضي مدينة كذا. فقال له كمال الدين: القضية ثلاثة، قاضيان في النار، وهو أنا وأنت، وقاضي في الجنة وهو من لم يعرف أبواب هؤلاء الظلمة ولا يراهم؛ فلما كان الغد أرسل السلطان وأحضر كمال الدين إليه، فلما دخل عليه ورآه ضحك وقال: القضية ثلاثة. فقال كمال الدين: نعم يا مولانا. فقال: والله صدقت، ما أسعد من لا يرانا ولا نراه! ثم أمر أن تقضى حاجته وأعاده من يومه.

وكان كريماً عفيفاً عن الأموال التي للرعايا، حسن السيرة فيهم، من أصلح السلاطين سيرة وألنهم عريكة، سهل الأخلاق لطيفاً، فمن ذلك أنه اجتاز يوماً في بعض أطراف بغداد، فسمع امرأة تقول لأخرى: تعالي انظري إلى السلطان؛ فوقف وقال: حتى تجيء هذه الست تنظر إلينا.

وله فضائل كثيرة ومناقب جمّة، وكان عهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود، فلما توفي خطب له الأمير خاص بك بن بلكري بالسلطنة، ورتب الأمور، وقرّرها بين يديه، وأذعن له جميع العسكر بالطاعة.

ولما وصل الخبر إلى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشحنة بها، وهو مسعود بلال، إلى تكريت، واستظهر الخليفة المقتني لأمر الله على داره، ودور أصحاب السلطان ببغداد، وأخذ كل ما لهم فيها، وكل من كان عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان، وجمع الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد، وتقدم

فوصلوا إليه وهو بذلوك، فلما قربوا منه رجع إليهم ولقيهم، وجرى المصاف بينهم عند ذلوك، واقتلوا أشد قتال رآه الناس، وصبر الفريقان، ثم انهزم الفرنج، وقتل منهم وأسر كثير، وعاد نور الدين إلى ذلوك، فملكها واستولى عليها، ومما قيل في ذلك :

أَعَدَّتْ بِعَصْرِكَ هَذَا الْأَيَّامَ
فَوَاطَاكَ يَا حَبْنًا حَنِيبًا
وَكَانَ مَهَابُهَا تَابِعِيًّا
فَجَدَدَتْ إِسْلَامَ سُلَامِيَّاتِهَا
وَمَا يَوْمُكَ إِلَّا كُنَّا
كَ بِلِ طَالٍ بِالْبُيُوتِ أَشْبَاهَا

صَدَمَتْ عَزِيمَتَهَا صَنْقَةَ
وَفِي تَلٍّ بِأَسْرٍ بِأَسْرَتِهِمْ
وَأَنَّ دَالِكُهُمْ ذُلُّكَ فَقَدْ
شَدَدَتْ فَصَنَقَتْ أَخْبَارَهَا

ذكر الحرب بين سنجر والغورية

في هذه السنة كان بين السلطان [سنجر] وبين الغورية حرب، وكانت دولتهم أول ما قد ظهرت، وأول من ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسين ملك جبال الغور ومدينة فيروزكوه، وهي تقارب أعمال غزنة، وقوي أمره، وتلقب بعلاء الدين، وتعرض إلى أعمال، ثم جمع جيشاً عظيماً وقصد هراة محاصراً لها، فهتب عسكره نساب وأوبة وماربادة من هراة والروذ، وسار إلى بلخ وحصرها، فقاتله الأمير قماج، ومعه جمع من الفرز، فغعدوا به، وصاروا مع الغوري فملك بلخ، فلما سمع السلطان سنجر بذلك سار إليه ليمنعه، فثبت له علاء الدين، واقتلوا، فانهزم الغورية، وأسر علاء الدين، وقتل من الغورية خلق كثير، لا سيما الرجال، وأحضر السلطان سنجر علاء الدين بين يديه، وقال له: يا حسين لو ظفرت بي ما كنت تفعل بي؟ فأخرج له قيد فضة وقال: كنت أقتلك بهذا وأحملك إلى فيروزكوه، فخلع عليه سنجر وردّه إلى فيروزكوه فبقي بها مدة.

ثم إنه قصد غزنة وملكها حيث شاء بهرام شاه بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، فلم يثبت بها بين يدي علاء الدين، بل فارقه إلى مدينة كرمان، وهي مدينة بين غزنة والهند، وسكانها قوم يقال لهم أبغان، وليست (١٦٥/١١) هذه بالولاية المعروفة بكرمان، فلما فارق بهرام شاه غزنة ملكها علاء الدين الغوري، وأحسن السيرة (في أهلها) واستعمل عليهم أخاه شيف الدين سوري، وأجلسه على تخت المملكة، وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين بعدهم.

ثم عاد علاء الدين إلى بلد الغور، وأمر أخاه أن يخلع على أعيان البلد خلعة نفيسة، ويصلهم بصلوات منية، ففعل ذلك وأحسن

[إليهم، فلما] جاء الشتاء، ووقع الثلج، وعلم أهل غزنة أن الطريق قد انقطع إليهم [كاتبوا بهرام شاه الذي كان صاحبها، واستدعوه إليهم]، فسار نحوهم في عسكره، فلما قارب البلد ثار أهله على سيف الدين فأخذوه بغير قتال، وكان العلويون هم الذين تولوا أسره، وانهزم الذين كانوا معه، فممن من نجا، ومنهم من أخذ، ثم إنهم سؤدوا وجه سيف الدين، وأركبوه بقرة وطافوا به البلد، ثم صلبوه، وقالوا فيه أشعاراً يهجون بها وغنى بها حتى النساء.

فلما بلغ الخبر إلى أخيه علاء الدين الحسين قال شعراً معناه: إن لم أقلع غزنة في مرة واحدة، فلست الحسين بن الحسين. ثم توفي بهرام شاه وملك بعده ابنه خسروشاه، وتجهز علاء الدين الحسين وسار إلى غزنة سنة خمس وخمسمائة، فلما بلغ الخبر إلى خسروشاه سار عنها إلى لهاور، وملكها علاء الدين، ونهبها ثلاثة أيام، وأخذ العلويين الذين أسروا أخاه فألقاهم من رؤوس الجبال، وخرّب المحلة التي صلب فيها أخوه، وأخذ النساء اللواتي قيل عنهن إنهن كن يغيثن بهجاء أخيه والغورية، فأدخلهن حماماً ومنعهن من الخروج حتى مئن قيه.

وأقام بغزنة حتى أصلحها، ثم عاد إلى فيروزكوه، ونقل معه من (١٦٦/١١) أهل غزنة خلقاً كثيراً، وحملهم المخالي مملوءة تراباً، فبنى به قلعة في فيروزكوه، وهي موجودة إلى الآن، وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية، وقد تقدّم سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من أخبارهم، وفيه مخالفة لهذا في بعض الأمر، وكلاً سمعناه ورأيناه في مصنفاتهم، فلهذا ذكرنا الأمرين، وأقام الحسين على ذلك مدة، واستعمل ابني أخيه، وهما غياث الدين وشهاب الدين.

ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين

لما قوي أمر عهدهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل للعمال والأمراء على البلاد، وكان ابنا أخيه، وهما غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام، وشهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام، فحين استعمل على بلد من بلاد الغور اسمه سنجة، وكان غياث الدين يلقب حيث شمس الدين، ويلقب الآخر شهاب الدين، فلما استعملهما أحسن السيرة في عملهما وعدلا، وبذلاً الأموال، فمال الناس إليهما، وانتشر ذكرهما، فسعى بهما من يحسد هما إلى عهدهما علاء الدين، وقال: إنهما يريدان الوثوب بك، لاقتلك، والاستيلاء على الملك، فأرسل عهدهما يستدعيهما إليه، فامتنعا، وكانا قد تلقيا الخبر، فلما امتنع عليه جهز إليهما عسكراً مع قائد يسمى خروش الغوري، فلما التقوا انهزم خروش ومن معه، وأسر هرا، وأبقا عليه، وأحسن إليه، وتخلّا عليه، وأظهروا عصيان عهدهما وتعلّفا خطيئة فتوجّه إليهما علاء الدين، وساراهما أيضاً إلى فيه،

أهل البلد والعسكر ذلك ضعفت نياتهم في نصرة أصحابهم، فخذلوه، فأرسل لما رأى ذلك قاضي البلد والخطيب يطلبان له الأمان، فأجابه شهاب الدين إلى ذلك وحلف له، وخرج إليه، ودخل الغورية إلى المدينة، وبقي كذلك شهرين مكرماً عند شهاب الدين، فورد رسول من غياث الدين إلى شهاب الدين يأمره بإنفاذ خسرو شاه إليه. (١٦٩/١١)

ذكر انقراض دولة سيكتكين

لما أنفذ غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين يطلب إنفاذ خسرو شاه إليه أمره شهاب الدين بالتجهز والمسير، فقال: أنا لا أعرف أخاك، ولا لي حديث إلا معك، ولا يمين إلا في عنقك، فمناه وطيب قلبه، وجهزه وسيره وسير معه ولده، وأصحابهما جيشاً يحفظونهما، فسارا كارهين، فلما بلغا قرشابور خرج أهلها إليهما ليكون ويدعون لهما، فزجرهم الموكلون بهما، وقالوا: سلطان يزور سلطاناً آخر، لأي شيء تكون؟ وضربوهم فعادوا، وخرج ولد خطيبها إلى خسرو شاه عن أبيه متوجعاً له، قال: فلما دخلت عليه أعلمته رسالة أبي، وقلت: إنه قد اجتزل الخطابة، ولا حاجة به إلى خدمة غيركم. فقال لي: سلم عليه. وأعطاني فرجة فوطاً ومصلى من عمل الصوفية، وقال: هذه تذكرة أبيه عند أبي، فسلمها إليه وقل له: دُر مع الدهر كيفما دار؛ وأشد بلسان فصيح:

وَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّيَا أَمَ مَالِكٍ وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرَّقَابِ السَّلَاسِلُ
قال: فانصرفتُ إلى أبي وعرفته الحال، فبكى، وقال: قد أيقن الرجل بالهلاك، ثم رحلوا. فلما بلغوا بلد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين بل أمر بهما فرعاً إلى بعض القلاع، فكان آخر العهد بهما.

وهو آخر ملوك آل سيكتكين، وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلاثمائة، فتكون مدة ولايتهم مائتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريباً. وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة، ولا سيما جده محمود، فإن آثاره في الجهاد معروفة، وأعماله للأخرة مشهورة:

لَوْ كَانَ يَمُودُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَسِيمٍ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ تَجِدُهُمْ قَسَلُوا
(١٧٠/١١)

فتبارك الذي لا يزول ملكه، ولا يتغير الدهور، فأف لهذه الدنيا الدنية، كيف تفعل هذا بأبنائها؛ نسأل الله تعالى أن يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة، وأن يقبل بنا إليه، وأن يشغلنا به عما سواه، إنه على كل شيء قدير.

هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أن خسرو شاه آخر ملوك آل سيكتكين، وقد ذكر غيره أنه توفي في الملك، وملك بعده ابنه ملكشاه. وسنذكره في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وبالجملية فابتداء دولة الغورية عندي فيه خلف لو ينكشف الحق فأصلحه إن

فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم علاء الدين وأخذ أسيراً وانهزم عسكره، فنلوا فيهم ابناً أخيه بالأمان، فأحضرا عثمهما وأجلساه على التخت، (١٦٧/١١) ووقفا في خدمته، فبكى علاء الدين وقال: هذان صبيان قد فعلا ما لو قدزت عليه منهما لم أفعله، ثم أحضر عثمهما القاضي في الحال، وزوج غياث الدين بتاً له، وجعله ولياً عهده، وبقي كذلك إلى أن مات.

فلما توفي ملك غياث الدين بعده وخطب لنفسه في الغور وغزنة بالملك، وبقي كذلك إلى أن ملك الغز غزنة بعد موت علاء الدين، طمعوا فيها بموته، وبقيت بأيديهم خمس عشرة سنة يصيرون على أهلها العذاب، ويتابعون الظلم كعادتهم [ففي] كل بلدة ملكوها، ولو أنهم لما ملكوا أحسنوا السيرة في الرعايا لدام ملكهم، فلم يزل الغز بغزنة هذه المدة، وغياث الدين يقوي أمره، ويحسن السيرة، والناس يحيلون إليه ويقصدونه.

ذكر ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد

لما قوي أمر غياث الدين جهز جيشاً كثيراً مع أخيه شهاب الدين إلى غزنة، فيه أصناف الغورية والخلج والخراسانية، فساروا إليها، فلقيهم الغز وقاتلوه، فانهزم الغورية، وثبت شهاب الدين وسار الغز خلف المنهزمين فعطف شهاب الدين فيمن ثبت معه على صاحب علمهم فقتله وأخذ العلم، وتركه على حاله، فتراجع الغز، ولم يكونوا علموا بما كان من شهاب الدين، فجاءوا يطلبون علمهم، فكلما جاء إليه طائفة قتلهم، فأتى على أكثرهم، ودخل غزنة وتسلمها وأحسن السيرة في أهلها وأفاض العدل. (١٦٨/١١)

وسار من غزنة إلى كرمان وشنوران فملكهما، ثم تعدى إلى ماء السند وعمل على العبور إلى بلد الهند، وقصد لهاور، وبها يومئذ خسرو شاه ابن بهرام شاه المقدم ذكر والده، فلما سمع خسرو شاه بذلك سار فيمن معه إلى ماء السند، فمنعه من العبور، فرجع عنه وقصد خرشابور فملكها وما يليها من جبال الهند، وأعمال الأبخان، والله أعلم.

ذكر ملك شهاب الدين لهاور

لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوي أمره وجنانه، وعظمت هيئته في قلوب الناس، وأحبوه لحسن سيرته، فلما خرج الشتاء وأقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسمائة، سار نحو لهاور في جمع عظيم، وحشد كثير من خراسان والغور وغيرهما، فغير إلى لهاور وحضرها، وأرسل إلى صاحبها خسرو شاه وإلى أهلها يتهددهم إن منعه، وأعلمهم أنه لا يزول حتى يملك البلد، وبذل لخسرو شاه الأمان على نفسه وأهله وماله، ومن الأقطاع ما أراد، وأن يزوجه ابنته بابتن خسرو شاه على أن يطأ بساطه ويخطب لأخيه، فامتنع عليه، وأقام شهاب الدين محاصراً له، مضيقاً عليه، فلما رأى

شاء الله تعالى.

المسلمين.

ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة

لما استقر ملكهم بلهاوور واتسعت مملكتهم وكثرت
عساكرهم وأموالهم كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة
الخطبة له بالسلطنة، وتلقب باللقاب السلطين، وكان لقبه شمس
الدين، فتلقب غياث الدين والدنيا معين الإسلام، قسيم أمير
المؤمنين، ولقب أخاه معز الدين، ففعل شهاب الدين ذلك وخطب
له بالسلطنة.

ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان

لم فرغ شهاب الدين من إصلاح أمر لهاوور وتقرير قواعدها،
سار إلى أخيه غياث الدين، فلما اجتمع به استقر رأيهما على
المسير إلى خراسان وقصد (١٧٦/١١) مدينة هراة ومحاصرتها،
فسارا في العساكر الكثيرة إليها، وكان بها جماعة من الأتراك
السنجارية، فأنزلا البلد وحصره، وضيقا على من به، فاستسلموا
إليهما، وأرسلوا يطلبون الأمان منهما، فأجاباهم إلى ذلك وأتاهم،
فتسلما البلد، وأخرجوا من فيه من الأمراء السنجارية، واستتاب فيه
غياث الدين خزائن الغوري، وسار غياث الدين وأخوه إلى فوشنج
فملكها، ثم إلى بادغيس وكالين ويوزار فملكها أيضا، وتسلم ذلك
جميعه غياث الدين وأحسن السيرة في أهل البلاد، ورجع إلى
فيروزكوه، ورجع شهاب الدين إلى غزنة، وكان ينبغي أن حوادث
الغورية تذكر في السنين، وإنما جمعناها ليتلو بعضها بعضا، ولأن
فيه ما لم يعرف تاريخه فتركناه بحاله.

ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلد الهند

لما رجع شهاب الدين من خراسان إلى غزنة أقام بها حتى
أراح، واستراح هو وعساكره، ثم سار إلى بلد الهند، فحاصر مدينة
آجرة، وبها ملك من ملوك الهند، فلم يظفر منه بطائل، وكان
للهندي زوجة غالبية على أمره، فراسلها شهاب الدين أنه يتزوجها،
فاعادت الجواب أنها لا تصلح له، وأن لها ابنة (١٧٦/١١) جميلة
تزوجها إياها، فأرسل إليها بجيها إلى التزوج بابنتها، فسقت زوجها
سما فهات وسلمت البلد إليه.

فلما تسلمه أخذت الضيبة فاستلمت، وتزوجها، وحملها إلى
غزنة، وأجرى عليها الجرايات الوافرة، ووكّل بها من علمها القرآن،
وتشاغل عنها، فتوفيت والدتها، ثم توفيت هي بعد عشر سنين، ولم
يرها ولم يقربها، فبني لها مشهدا ودفنها فيه، وأهل غزنة يزورون
قبرها.

ثم عاد إلى بلد الهند، فذل له صباها، وتيسر له فتح الكثير من
بلادهم، ودوخ ملوكهم، وبلغ منهم ما لم يبلغه أحد قبله من الملوك

ذكر ظفر الهند على المسلمين

لما اشتدت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند وإتخانه في أهلها
واستيلاؤه عليها، اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم، ووبخ بعضهم
بعضا، فاتفق رأيهم على الاجتماع والتعاقد على حرب، فجمعوا
عساكرهم وحشدها، وأقبل إليهم الهنود من كل فج عميق على
الصعب والذل، وجاؤوا بحتّم وحديد، وكان الحاكم على
جميع الملوك المجتمعين امرأة هي من أكبر ملوكهم.

فلما سمع باجتماعهم ومسيرهم إليه تقدّم هو أيضا إليهم في
عسكر عظيم من الغورية والخليج والخراسانية وغيرهم، فالتقوا
واقتلوا، فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون وركبهم
الهنود يقتلون ويأسرون، وأثخنوا فيهم، وأصاب شهاب الدين
ضربة بطلت منها يده اليسرى، وضربة أخرى على رأسه سقط منها
إلى الأرض، وحجز الليل بين الفريقين، فأحسن شهاب الدين
بجماعة من غلمانه الأتراك في ظلمة الليل وهم يطلبونه في القتلى
ويكون، (١٧٣/١١) وقد رجع الهنود إلى ورائهم، وكلمهم وهو
على ما به من الجهد، فجاءوا إليه مسرعين، وحملوه على رؤوسهم
رجالة يتناوبون حمله، حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح.

وشاع خبر سلامته في الناس، فجاءوا إليه يهتونه من أقطار
البلاد، فأول ما عمل أنه أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه
وأسلموه، فملا مخالي خيلهم شعيرا، وحلف لئن لم يأكلوه
ليضربن أعناقهم، فأكلوه ضرورة.

وبلغ الخبر إلى أخيه غياث الدين فكتب إليه يلومه على عجلته
واقدامه وأنفذ إليه جيشا عظيما.

ذكر ظفر المسلمين بالهند

لما سلم شهاب الدين وعاد إلى آجرة، وأتاه الملك من أخيه
غياث الدين، عاد الهنود فجددوا سلاحهم، ووفروا جمعهم،
واقاموا حوض من قتل منهم، وسارت ملكتهم وهم معها في عدد
يضيق عنه القضاء، فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنه يتزوجها، فلم
تجبه إلى ذلك، وقالت: إنما الجرب، وإنما أن تسلم بلاد الهند وترعود
إلى غزنة، فأجابها إلى العود إلى غزنة، وأنه يستأذن أخاه غياث
الدين، ففعل ذلك مكرا وخديعة.

وكان بين العسكرين نهر، وقد حفظ الهنود المخاضات، فلا
يقل أحد من المسلمين [أن] يجوز، وأقاموا ينتظرون ما يكون من
جواب غياث الدين برغمهم، فبينما هم كذلك إذ وصل إنسان
هندي إلى شهاب الدين وأعلمه أنه يعرف مخاضا قريبا من عسكر
الهنود، وطلب أن يرسل معه جيشا يعبرهم المخاض، (١٧٤/١١)

ويكسبون الهند وهم غازون غافلون، خفاف شهاب الدين أن

تكون خديعة ومكرًا، فأقام له ضمنا من أهل آجرة والمولتان، فأرسل معه جيشًا كثيفًا، وجعل عليهم الأمير الحسين بن خرمل الغوري، وهو الذي صار بعد صاحب هراة، وكان من الشجاعة والرأي بالمنزلة المشهورة.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم

في هذه السنة، في المحرم، انهزم السلطان سنجر من الأتراك الغز، وهم طائفة من الترك مسلمون، كانوا بما وراء النهر، فلما ملك الخطأ أخرجوهم منه، كما ذكرنا، فقصدوا خراسان، وكانوا خلقًا كثيرًا، فأقاموا بنواحي بلخ يرعون في مراعيها، وكان لهم أمراء اسم أحدهم دينار، والآخر بختيار، والآخر طوطي، والآخر أرسلان، والآخر جغر، والآخر محمود، فأراد الأمير قماج، وهو مقطع بلخ، إبعادهم، فصانعوهم بشيء بذلوه له، فعاد عنهم، فأقاموا على حالة حسنة لا يؤذون أحدًا، ويقومون الصلاة، ويؤتون الزكاة.

ثم إن قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده، فامتنعوا، وانضم بعضهم إلى بعض، واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك، فسار قماج إليهم في عشرة آلاف فارس، فجاء إليه أمراؤهم وسألوه أن يكف عنهم، ويتركهم في مراعيهم، ويعطونه من كل بيت مائتي درهم فضة، فلم يجيبهم إلى ذلك وشدّد عليهم في الانتزاع عن بلده، فعادوا عنه، واجتمعوا وقاتلوه، فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره، وأكثروا القتل في العسكر والرعايا، (١٧٧/١١) واسترقوا النساء والأطفال، وعملوا كل عزيمة، وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس.

وانتهت الهزيمة بقماج إلى مرو، وبها السلطان سنجر، فأعلمه الحال، فرأسلهم سنجر يتهذّبهم، فأمرهم بمفارقة بلاده، فاعتذروا، وبذلوا بدلًا كثيرًا ليكف عنهم ويتركهم في مراعيهم، فلم يجيبهم إلى ذلك، وجمع عساكره من أطراف البلاد، واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس، وقصدهم ووقع بينهم حرب شديدة، فانهزمت عساكر سنجر، وانهزم هو أيضًا، وتبعهم الغز قتلاً وأسراً، فصار قتل العسكر كالتلال، وقتل علاء الدين قماج، وأسّر [السلطان سنجر، وأسّر] معه جماعة من الأمراء، [فأما الأمراء] فغضبوا أعناقهم، وأما السلطان سنجر، فإن أمراء الغز اجتمعوا، وقبلوا الأرض بين يديه، وقالوا: نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك، فقد علمنا أنك لم ترد قتالنا، وإنما حملت عليه، فأنت السلطان ونحن العبيد. فعضى على ذلك شهران، أو ثلاثة، ودخلوا معه إلى مرو وهي كرسي ملك خراسان، وطلبها منه بختيار إقطاعاً، فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز أن تكون إقطاعاً لأحد. فضحكوا منه وحبق له بختيار بفمه، فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خاتكاه مرو وتاب عن الملك.

واستولى الغز على البلاد، وظهر منهم من الجور ما لم يُسمع

فسار الجيش مع الهندي، فعبروا النهر، فلم يشعر الهنود إلا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم، فاشتغل الموكلون بحفظ المخاضات، فعبر شهاب الدين وباقي العساكر، وأحاطوا بالهنود، وأكثروا القتل فيهم، ونادوا بشعار الإسلام، فلم ينج من الهنود إلا من عجز المسلمون عن قتله وأسره، وقتلت ملكتهم، وتمكن شهاب الدين بعد هذه الواقعة من بلاد الهند، وأمن معزة فسادهم، والتزموا له بالأموال وسلّموا إليه الرهائن وصالحوه، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلوي، وهي كرسي الممالك التي فتحها من الهند، فأرسل عسكراً من الخلق مع محمد بن بختيار، فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل إليها مسلم قبله، حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق.

وقد حدثني صديق لي من التجار بوقعتين تشبهان هاتين الوقعتين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف، وقد ذكرتهما سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. (١٧٥/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي يعقوب الكاتب ببغداد، وكان يسكن بالمدرسة النظامية، وحضر متولّي المتروكات وختم على الغرفة التي كان يسكنها بالمدرسة، فنار الفقهاء وضربوا المتولّي وأخذوا التركة، وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث، فقبض حاجب الباب على رجلين من الفقهاء وعاقبهما، وجسهما، فأغلق الفقهاء المدرسة، وألقوا كرسي الرخاط في الطريق، وصعدوا سطح المدرسة ليلاً، واستغاثوا، وتركوا الأدب.

وكان حينئذ مدرّسهم الشيخ أبا النجيب، فجاء وألقى نفسه تحت التاج بقتل، فعُفي عنه.

وفيها توفي حسام الدين تبرتاش صاحب ماردین وميافارقين، وكانت ولايته ثمان وثلاثين سنة، وتولّى بعده ابنه نجم الدين ألبی.

وفيها مات أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرموي الشافعي المحدث، ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة.

وفيها توفي أبو الأسعد عبد الرحمن القشيري في شوال، وهو شيخ شيوخ خراسان.

وفيها، في المحرم، باض ديك ببغداد بيضة، وباض بلازي

وعسكره، وأسروا هو وابنه أبو بكر، فقتلوهما، واستولوا على نواحي بلخ، وعاثوا فيها وأفسدوا بالنهب والقتل والسلب.

وبلغ السلطان سنجر الخير، فجمع عساكره وسار إليهم، فراسلوه يتعدون ويتصلون، فلم يقبل عذرهم، ووصل إليهم مقدمة السلطان، وفيها محمد بن أبي بكر بن قماج المقتول، والمؤيد أي أبيه في المحرم من سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، ووصل بعدهم السلطان سنجر، فالتقاء الغز بعد أن أرسلوا يعتدون ويذلون الأموال والطاعة والافتقاد إلى كل ما يؤمرون به، فلم يقبل سنجر ذلك منهم، وسار إليهم، فلقوه وقتلوه وصبروا له، ودام قتالهم، فانهزم عسكر سنجر وهو معهم، فتوجهوا إلى بلخ على أقبح (١٨٠/١١) صورة، وتبعهم الغز، واقتتلوا مرة ثانية، فانهزم السلطان سنجر أيضاً، ومضى منهزماً إلى مرو في صفر من السنة، فقصد الغز إليها، فلما سمع العسكر الخراساني بقربهم منهم أجفلوا من بين أيديهم هاربين لما دخل قلوبهم من خوفهم والرعب منهم، فلما فارقها السلطان والعسكر دخلها الغز ونهبوها أفحش نهب وأقبحه، وذلك في جمادى الأولى من السنة، وقتل بها كثير من أهلها وأعيانها، منهم قاضي القضاة الحسن بن محمد الأرسابندي، والقاضي علي بن مسعود وغيرهما من الأئمة العلماء.

ولما خرج سنجر من مرو قصد اندرابه وأخذ الغز أسيراً، وأجلسوه على تخت السلطنة على عادته، وقاموا بين يديه، وبذلوا له الطاعة، ثم عاودوا الغارة على مرو في رجب من السنة، فمنهم أهلها، وقتلوهم قتلاً بذاً في جهدهم وطاعتهم، ثم إنهم همجوا، فاستسلموا إليهم، فنهبوها أقبح من النهب الأول ولم يتركوا بها شيئاً.

وكان قد فارق سنجر جميع أمراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر المملك ابن نظام المملك، ولم يبق عنده غير نفر يسير من خواصه وخدمه، فلما وصلوا إلى نيسابور أحضروا الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد، فوصل إلى نيسابور تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة، فاجتمعوا عليه، وخطبوا له بالسلطنة، وسار في هذا الشهر جماعة من العسكر السلطاني إلى طائفة كثيرة من الغز، فأوقعوا بهم، وقتلوا منهم كثيراً، وانهزم الباقون إلى أمراءهم الغزية فاجتمعوا معهم.

ولما اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه ساروا إلى مرو يطلبون الغز، فبرز الغز إليهم، فساعة رآهم العسكر الخراساني انهزموا ولوا على (١٨١/١١) أدبارهم، وقصدوا نيسابور، وتبعهم الغز، فمروا بطوس، وهي معدن العلماء والزهاد، فنهبوها، وسبوا نساءها، وقتلوا رجالها، وخرّبوا مساجدها ومساكن أهلها، ولم يسلم من جميع ولاية طوس إلا البلد الذي فيه مشهد علي بن

بمثله، ولوا على نيسابور والياء فحسّط على الناس كثيراً وعسفهم وضربهم، وعلق في الأسواق ثلاث غرائر، وقال: أريد ملء هذه ذهباً، فثار عليه العامة فقتلوه ومن معه، فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهباً مجحفاً، وجعلوها قاعاً (١٧٨/١١) صفصفاً، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها، وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها، فممن قتل [الحسين بن محمد الأرسابندي، والقاضي علي بن مسعود، والشيخ محمد بن يحيى، وأكثر الشعراء في مرثي محمد بن يحيى فممن قال فيه علي بن إبراهيم الكاتب :

مضى الذي كان يحنى الثور من فيه يسيل بالفضل والإنصال وإليه مضى ابن يحيى الذي قد كان صوب حياً لأبر شهر وصباحاً للتأجيد خلا خراسان من علم ومن ورج لمّا نكس إلى الأقباق ناعية لمّا استوره مات الذين وأسفا من ذا الذي بعد محيي الذين يحيي ويتعذر وصف ما جرى منهم على تلك البلاد جميعها، ولم يسلم من خراسان شيء لم تنهب الغز غير قرأة ودهستان لأنها كانت حصينة فامتعت.

وقد ذكر بعض مؤرخي خراسان من أخبارهم ما فيه زيادة وضوح وقال: إن هؤلاء الغز قوم انتقلوا من نواحي الثغر من أقاصي الترك إلى ما وراء النهر في أيام المهدي، وأسلموا، واستنصر بهم المقنع صاحب المخاريق والشعبذة، حتى تم أمره، فلما سارت العساكر إليه خذله هؤلاء الغز وأسلموه، وهذه عادتهم في كل دولة كانوا فيها، وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخاقانية، إلا أن الأتراك القارغلية قمعوهم، وطردوهم عن أوطانهم، فدعاهم الأمير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طخارستان إليه، وأنزلهم بلاده، وكانت بينه وبين الأمير قماج عداوة أحكمتها الأيام للمجاورة التي بينهما، وكل منهما يريد أن يعلو على الآخر ويحكم عليه، (١٧٩/١١) فتقوى بهم زنكي، وساروا معه إلى بلخ لمحاربة قماج، فكاتبهم قماج، فمالوا إليه، وخذلوا زنكي عند الحرب، فأخذ زنكي وابنه أسيرين، فقتل قماج ابن زنكي، وجعل يطعم أباه لحمه، ثم قتل الأب أيضاً، وأقطع قماج الغز مواضع، وأباحهم مراعي بلاده.

فلما قام الحسين بن الحسين الغوري بغزوة وقصد بلخ خرج إليه قماج وعساكره ومعه الغز، ففارقه الغز وانضموا إلى الغوري حتى ملك مدينة بلخ، فسار السلطان سنجر إلى بلخ، ففارقها الغوري بعد قتال انهزم منه، ثم دخل على السلطان سنجر لعجزه عن مقاومته، فردّه إلى غزته.

وبقي الغز بنواحي طخارستان وفي نفس قماج منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه، فأراد صرفهم عن بلاده، فاجتمعوا، وانضم إليهم طوائف من الترك، وقدموا عليهم أرسلان بوقا التركي، فجمع قماج عسكره ولقيهم فاقتلوا يوماً كاملاً إلى الليل، فانهزم قماج

موسى الرضى، ومواضع أخر يستتير لها أسوار.

وممن قُتل من أعيان أهلها إمامها محمد المارشكي، وقيب العلويين بها عليّ الموسوي، وخطيبها إسماعيل بن المحسن، وشيخ شيوخها محمد بن محمد، وأقنوا من بها من الشيوخ الصالحين، وساروا منها إلى نيسابور، فوصلوا إليها في شوال سنة تسع وأربعين [وخمسمائة]، ولم يجدوا دونها مانعاً ولا مدافعاً، فنهبوا نهباً ذريعاً، وقتلوا أهلها، فأكثروا حتى ظنوا أنهم لم يُبقوا بها أحداً، حتى إنه أحصى في محلّتين خمسة عشر ألف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان، وسبوا نساءها وأطفالها، وأخذوا أموالهم، وبقي القتل في الدروب كالتلال بعضهم فوق بعض، واجتمع أكثر أهلها بالجامع المنيعي وتحصنوا به، فحصرهم الغز واجتزأ أهل نيسابور عن منهم، فدخل الغز إليهم فقتلهم عن آخرهم، وكانوا يطلبون من الرجال المال، فإذا أعطاهم الرجل ماله قتلوه وقتلوا كثيراً من أئمة العلماء والصالحين، منهم محمد بن يحيى الفقيه الشافعي الذي لم يكن في زمانه مثله، كان رحلة الناس من أقصى الغرب والشرق إليه، ورثاه جماعة من العلماء منهم أبو الحسن عليّ بن أبي القاسم التيهي فقال :

يَا سَائِكاً ذَمْ عَلِيمٌ مَنَحَرٍ قَدْ طُرِفَ فِي أَقْصَى الْمَمَالِكِ مَيْتُهُ
بِاللَّهِ قُلْ لِي يَا ظَلُومٌ وَلَا تَخِفْ مَنْ كَانَ يُحْيِي النَّفْسَ كَيْفَ تَمِيتُهُ

ومنهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الأكاف، وأحمد بن الحسين (١٨٢/١١) الكاتب سبط القشيري، وأبو البركات الرازي، والإمام عليّ الصنّاع المتكلم، وأحمد بن محمد بن حامد، وعبد الوهاب الملقب بأدي، والقاضي صاعد بن عبد الملك بن صاعد، والحسن بن عبد الحميد الرازي وخلق كثير من الأئمة والزهاد والصالحين، وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب ولم يسلم إلا بعضها.

وحصروا شارستان، وهي منبعة، فأحاطوا بها، وقتلهم أهلها من فوق سورها، وقصدوا جُوزين فنهبوا، وقتلهم أهل بحراباد من أعمال جُوزين، وبذلوا نفوسهم لله تعالى، وحموا بضمتهم والباقي أتى النهب والقتل عليه، ثم قصدوا أسفرايين فنهبوا وخرّبوها، وقتلوا في أهلها فأكثروا.

وممن قُتل عبد الرشيد الأشعبي، وكان من أعيان دولة السلطان، فتركها وأقبل على الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة. وأبو الحسن الفنّذرجي، وكان من ذوي الفضائل لا سيما في علم الأدب.

ولما فرغ الغز من جُوزين وأسفرايين عاودوا نيسابور، فنهبوا ما بقي فيها بعد النهب الأول، وكان قد لحق بشهرستان كثير من أهلها، فحصرهم الغز واستولوا عليها، ونهبوا ما كان فيها لأهلها

ولأهل نيسابور، ونهبوا الحرم والأطفال، وفعلوا ما لم يفعله الكفار مع المسلمين، وكان العيارون أيضاً ينهبون نيسابور أشد من نهب الغز ويفعلون أقيح من فعلهم.

ثم إن أمر الملك سليمان شاه ضعف، وكان قبيح السيرة سنئى التدبير، وإن وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك تزوّج في شوال سنة ثمان وأربعين [وخمسمائة] فضعف أمره، واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام الملك أبا (١٨٣/١١) عليّ الحسن بن طاهر وانحل أمر دولته بالكلية، ففارق خراسان في صفر سنة تسع وأربعين [وخمسمائة] وعاد إلى جرجان، فاجتمع الأمراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بُغراخان، وهو ابن أخت السلطان سنجر وخطبوا له على منابر خراسان، واستدعوه إليهم، فملّكوه أهورهم، واتقادوا له في شوال سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وساروا معه إلى الغز وهم يحاصرون هراة، وجرت بينهم حروب كان الظفر في أكثرها للغز، ورحلوا في جمادى الأولى من سنة خمسين وخمسمائة من على هراة إلى مرو، وعاودوا المصادرة لأهلها.

وسار خاقان محمود بن محمد إلى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد، على ما ذكره، وراسل الغز في الصلح، فاصطلحوا في رجب من سنة خمسين وخمسمائة، هدنة على دخن، وسيرد باقي أخبارهم سنة اثنين وخمسين.

ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها

كان للسلطان سنجر مملوك اسمه أيّ أبه، ولقبه المؤيد، فلما كانت هذه الفتنة تقدّم، وعلا شأنه، وأطاعه كثير من الأمراء، واستولى على نيسابور وطوس ونسا وأيوذ وشهرستان والذامغان، وأزاح الغز عن الجميع، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأحسن السيرة، وعدل في الرعية، واستمال الناس، ووفر الخراج على أهله، وبالع في مراعاة أرباب البيوت، فاستقرت البلاد له، ودانت له الرعية لحسن سيرته، وعظم شأنه، وكثرت جموعه، فراسله خاقان محمود بن محمد في تسليم البلاد والحضور عنده، فامتنع، وتردّت (١٨٤/١١) الرسل بينهم حتى استقرّ على المؤيد مال يحمله إلى الملك محمود، فكفّ عنه محمود، وأقام المؤيد بالبلاد هو والملك محمود.

ذكر ملك إيتانج الرّي

كان إيتانج أحد ممالك السلطان سنجر، فلما كان من فتنة الغز ما ذكرناه هرب من خراسان، ووصل إلى الرّي، فاستولى عليها وأقام بها، فأرسل إلى السلطان محمد شاه بن محمود صاحب همذان، وأصفهان، وغيرهما، خدمه وهدايا فأرضاه بها، وأظهر له الطاعة، وبقي بها إلى أن مات الملك محمود، فاستولى عليها

وعلى عدة بلاد تجاور الري، فملكها، فعظم أمره وعلا شأنه وصارت عساكره عشرة آلاف فارس. فلما ملك سليمان شاه همدان، على ما نذكره، حضر عنده وأطاعه لأنسه به. كان أيام مقام سليمان شاه بخراسان، فتقوى أمره بذلك.

ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس

في هذه السنة، في المحرم، قُتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله، قتله ربيبه عباس بن أبي الفتح بن يحيى الصنهاجي، وأشار عليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ، ووافق عليه الخليفة الظافر بالله، فأمر ولده نصراً، فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس، فقتله وولي الوزارة بعده ربيبه عباس. (١٨٥/١١)

وكان عباس قد قدم من المغرب، كما ذكرناه، إلى مصر، وتعلم الخياطة، وكان خياطاً حسناً، فلما تزوج ابن السلار بأمه أحبه، وأحسن تربيته، فجازاه بأن قتله وولي بعده.

وكانت الوزارة في مصر لمن غلب، والخلفاء من وراء الحجاب، والوزراء كالمتملكين، وقل أن ولها أحد بعد الأنفل إلا يحرب وقتل وما شاكل ذلك، فلذلك ذكرناهم في تراجم مفردة، والله أعلم.

ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن

في هذه السنة، في صفر، كانت الحرب بين عسكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة سطيف.

وسبب ذلك أن العرب، وهم بنو هلال والأبتح وعدي ورياح وزغب، وغيرهم من العرب، لما ملك عبد المؤمن بلاد بني حماد اجتمعوا من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب، وقالوا: إن جاورنا عبد المؤمن أجلانا من المغرب، وليس الرأي إلا إلقاء الجسد معه، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن.

وتحالفوا على التعاون والتضافر، وأن لا يخون بعضهم بعضاً، وعزموا على لقاءه بالرجال والأهل والمال ليقاتلوا قتال الحريم.

واتصل الخبر بالملك رجار الفرنجي، صاحب صقلية، فأرسل إلى أمراء العرب، وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وعيسى (١٨٦/١١) ابن حسن وغيرهم، يحثهم على لقاء عبد المؤمن ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن، فشكروه وقالوا: ما بنا حاجة إلى نجدة ولا نستعين بغير المسلمين.

وساروا في عدد لا يحصى، وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية إلى بلاد المغرب، فلما بلغه خبرهم جهز جيشاً من الموحدون يزيد على ثلاثين ألف فارس، واستعمل عليهم عبد الله

بن عمر الهتاتي، وسعد الله بن يحيى، وكان العرب أضعافهم، فاستجزمهم الموحدون وتبعهم العرب إلى أن وصلوا إلى أرض سطيف، بين جبال، فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن فجاءه والعرب على غير أهبة، والتقى الجمعان، واقتتلوا أشد قتال وأعظمه، فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدون.

وترك العرب جميع ما لهم من أهل ومال وأثاث ونعم، فأخذ الموحدون جميع ذلك، وعاد الجيش إلى عبد المؤمن بجميعه، فقسم جميع الأموال على عسكره، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط، وكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بجوانبهم، وأمر بصياتهم. فلما وصلوا معه إلى مراكش أنزلهم في المساكن الفسيحة، وأجرى لهم النفقات الواسعة، وأمر عبد المؤمن ابنه محمداً أن يكتب أمراء العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة، وأمرهم أن يحضروا ليسلم إليهم أبوه ذلك جميعه، وأنه قد بذل لهم الأمان والكرامة.

فلما وصل كتاب محمد إلى العرب سارعوا إلى المسير إلى مراكش، فلما وصلوا إليها أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة، فاسترق قلوبهم بذلك، وأقاموا عنده، وكان بهم حثياً، واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد، على ما نذكره سنة إحدى وخمسين [وخمسمائة]. (١٨٧/١١)

ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غلبالم

في هذه السنة سار أسطول رجار ملك الفرنج بصقلية إلى مدينة بونة، وكان المقيم عليهم فتاه فيلب المهدي فحضرها واستعان بالعرب عليها، فالتحقها في رجب، وسى أهلها، وملك هنا فيها، غير أنه أغضى عن جماعة من العنفاء والصالحين، حتى خرجوا بأهلهم وأموالهم إلى القرى، فأقام بها عشرة أيام، وحاد إلى المهدي وبعض الأسرى معه، وعاد إلى صقلية فقبض رجار عليه لما اعتمده من الرفق بالمسلمين في بونة.

وكان فيلب، يقال إنه وجميع فتياه مستطوف، يكتفونه ذلك، وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك، وأنه مسلم، فجمع رجار الأساقفة والقسوس والفرسان، فحكموا بأن يحرق، فأحرق في رمضان، وهذا أول وخن دخل على المسلمين بصقلية. ولم يمهل الله رجار بعده إلا يسيراً حتى [مات] في العشر الأول من ذي الحجة من السنة، وكان مرضه الخواني، وكان عمره قريب ثمانين سنة، وكان ملكه نحو ستين سنة، ولما مات ملك بعده ابنه غلبالم، وكان فاسد التدبير سىء التصور، فاستوزر مايو البرصاني، فأساء التدبير، فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية، وبلاد قلورية، وتعدى الأمر إلى إفريقية على ما نذكره. (١٨٨/١١)

ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة

في هذه السنة، في رجب، توفي السلطان بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بها، وقام بالملك بعده ولد نظام الدين خسرو شاه، وكانت ولاية بهرام شاه ستاً وثلاثين سنة، وكان عادلاً، حسن السيرة، جميل الطريقة، مجباً للعلماء، مكرماً لهم، باذلاً لهم الأموال الكثيرة، جامعاً للكتب تقرأ بين يديه، ويفهم مضمونها. ولما مات ملك ولده خسرو شاه.

ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان

في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان، وكانت من جملة مملكة الظاهر بالله العلوي المصري، وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها، فلا يجدون إلى ملكها سبيلاً، وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد، والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته، وكان الوزراء كل سنة يرسلون إليها من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال من يقوم بحفظها. فلما كان في هذه السنة قُتل ابن السلار الوزير، على ما ذكرناه، واختلفت الأهواء في مصر، وولني عباس الوزارة، وإلى أن استقرت قاعدة، اغتسم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان، فاجتمعوا وحاصروها، فصبر أهلها، وقتلواهم قتلاً شديداً، حتى إنهم بعض الأيام قاتلوا خارج السور، وردوا الفرنج إلى خيامهم مهزومين، وتبعهم أهل البلد إليها فأيس حيتلوا الفرنج من ملكه.

فبينما هم على عزم الرحيل إذ قد أتاهم الخبر أن الخلف قد وقع بين (١٨٩/١١) أهله، وقُتل بينهم قتلى، فصبروا، وكان سبب هذا الاختلاف أنهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين، ادعى كل طائفة منهم أن النصر من جهتهم كانت، وأنهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين، فعظم الخصام بينهم إلى أن قُتل من إحدى الطائفتين قتيل، واشتد الخطب حيتلوا، وتضام الشر، ووقعت الحرب بينهم، فقتل بينهم قتلى، فطمع الفرنج، وزحفوا إليه وقتلوا عليه، فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه.

ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها

في هذه السنة سار الخليفة المقتضي لأمر الله عسكرياً إلى تكريت ليحصرها، وأرسل معهم مقدماً عليهم أبا البدر ابن الوزير عون الدين بن هبيرة وترشك، وهو من خواص الخليفة، وغيرهما، فجرى بين أبي البدر وترشك مناصرة أوجبت أن كتب ابن الوزير يشكو من ترشك، فأمر الخليفة بالقبض على ترشك، فعرف ذلك، فأرسل إلى مسعود بلال، صاحب تكريت، وصالحه وقبض على ابن الوزير ومن معه من المتقدمين، وسلمهم إلى مسعود بلال، فأنهزم العسكر وغرق منه كثير وسار مسعود بلال وترشك من تكريت إلى طريق خراسان فنهاها وأفسدوا، فسار المقتضي عن بغداد

لدفعهما، فهربا من بين يديه، فقصد تكريت، فحصرها أياماً وجرى له مع أهلها حروب من وراء السور، فقتل من العسكر جماعة بالنشاب، فعاد الخليفة عنها، ولم يملكها. (١٩٠/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وصلت مراكب من صقلية، فيها جمع من الفرنج، فنهبوا مدينة تينس بالديار المصرية.

وفيها كان بين الكرخ بآرمينية وبين صليق، صاحب أرزن الروم، مصاف وحرب شديدة، وانهزم صليق وأسر الكرخ ثم أطلقوه.

وفيها توفي أبو العباس أحمد بن أبي غالب السوراني المعروف بابن الطلبة الزاهد البغدادي بها، وكان من الصالحين، وله حديث ورواية.

وتوفي عبد الملك بن عبد الله بن أبي سهل أبو الفتح بن أبي القاسم الكروخي الهروي، راوي جامع الترمذي، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وتوفي ببغداد في ذي الحجة. (١٩١/١١)

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل الظاهر وخلافة ابنه الفائز

في هذه السنة، في المحرم، قُتل الظاهر بالله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي، صاحب مصر.

وكان سبب [قتله] أن وزيره عباساً كان له ولد اسمه نصر، فأحببه الظاهر، وجعله من ندمائه وأحبابه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة، فاتفق أن قدم من الشام مؤيد الدولة الأمير أسامة من مُنقذ الكيناني في وزارة ابن السلار، واتصل بعباس، فحسن له قتل العادل بن السلار زوج أمه، فقتله، وولاه الظاهر الوزارة، فاستبد بالأمر، وتم له ذلك.

وعلم الأمراء والأجناد أن ذلك من فعل ابن مُنقذ، فعزموا على قتله، فخلا بعباس وقال له: كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول؟ قال: وما ذلك؟ قال: الناس يزعمون أن الظاهر يفعل بآبائك نصر، وكان نصر خصيصاً بالظاهر، وكان ملازماً له ليله ونهاره، وكان من أجمل الناس صورة، وكان الظاهر يُتهم به، فانزعج لذلك وعظم عليه، وقال: كيف الحيلة؟ قال: تقتله فيذهب عنك العار؛ فذكر الحال لولده نصر، فاتفقا على قتله.

وقيل إن الظاهر أقطع نصر بن عباس قرية قليوب، وهي من أعظم قرى (١٩٢/١١) مصر، فدخل إليه مؤيد الدولة بن مُنقذ، وهو عند أبيه عباس. قال له نصر: قد أقطعني مولانا قرية قليوب.

الروح، وكان هذا من الغال العجيب، فخلع الأعلام السود العباسية دخلتها وأزالت الأعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة.

ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة، واستقر في الأمر، وأحضر الخادم الذي شاهد قتل الظافر، فأراه موضع دفنه، فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر.

ولما قتل الفرنج عباساً أسروا ابنه، فأرسل الصالح إلى الفرنج وبذل لهم مالا وأخذهم منهم، فسار من الشام مع أصحاب الصالح، فلم يكلم أحداً منهم كلمة إلى أن رأى القاهرة فأنشد: (١٩٤/١١)

بلى نحن نكنا أهلها فلبنا شراً صُرُوفُ الليالي والجندودُ الغواشِرُ
وأدخل القصر، فكان آخر العهد به، فإنه قتل، وصُلب على باب زويلة، واستقصى الصالح بيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية فأهلك أهلها وأبعدهم عن ديارهم، وأخذ أموالهم، فمَنعهم من هلك، ومنهم من تفرق في بلاد الحجاز واليمن وغيرها؛ ففعل ذلك خوفاً منهم أن يثوروا عليه وينازعوه في الوزارة؛ وكان ابن مُنقذ قد هرب مع عباس، فلما قُتل هرب إلى الشام.

ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا

في هذه السنة أرسل الخليفة المقتضي لأمر الله رسولاً إلى والي تكريت بسبب من عندهم من الماسوريين، وهم ابن الوزير وغيره، فقبضوا على الرسول، فسير الخليفة عسكرياً إليهم، فخرج أهل تكريت، فقاتلوا العسكر ومنعوه من الدخول إلى البلد؛ فسار الخليفة بنفسه مستهلاً صفر فنزل على البلد، فهرب أهله، فدخل العسكر ففتحوا ونهبوا بعضه، ونصب على القلعة ثلاثة عشر منجنيقاً، فسقط من أسوارها برج وبقي الحضر كذلك إلى الخامس والعشرين من ربيع الأول.

وأمر الخليفة بالقتال والزحف، فاشتد القتال، وكثر القتلى، ولم يبلغ منها عرضاً، فرحل عائداً إلى بغداد، فدخلها آخر الشهر، ثم أمر الوزير عون (١٩٥/١١) الدين بن هبيرة بالعود إلى محاصرتها، والاستعداد، والاستكثار من الآلات للحصار، فسار إليها سابع ربيع الآخر، ونزلها وضيق عليها، فوصل الخبر بأن مسعود بلال وصل إلى شهربان ومعه البقش كون خر وترشك في عسكر كثير ونهبوا البلاد، فعاد الوزير إلى بغداد.

وكان سبب وصول هذا العسكر أنهم جنوا الملك محمداً ابن السلطان محمود على قصد العراق، فلم يجهز له ذلك، فسير هذا العسكر، وانضاف إليهم خلق كثير من التركمان، فخرج الخليفة إليهم، فأرسل مسعود بلال إلى تكريت، وأخرج منها الثلثين، أرسله ابن السلطان طغرل بن محمد، وكان محبوساً بتكريت، وقال: هذا السلطان يقتل من يذهب إليه بالظلمة الطويلة.

فقال له مؤيد الدولة: ما هي في مهرك بكثير؟ فعظم عليه وعلى أبيه، وأنف من هذه الحال، وشرع في قتل الظافر بأمر أبيه، فحضر نصر عند الظافر وقال له: أشتهي أن تجيء إلى داري لدعوة صنعتها، ولا تكثر من الجمع؛ فغشى معه في نفر يسير من الخدم ليلاً، فلما دخل الدار قتله وقتل من معه، وأفلت خادم صغير اختبأ فلم يروه، ودفن القتلى في داره.

وأخير أخاه عباساً الخير، فبكر إلى القصر، وطلب من الخدم الخصيين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إفتاً في الدخول عليه لأمر يزيد أن يأخذ رأيهم فيه. فقالوا: إنه ليس في القصر. فقال: لا بُدَّ منه. وكان غرضه أن ينفي التهمة عنه بقتله، وأن يقتل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيم في الخلافة، فلما ألح عليهم عجزوا عن إحضاره.

فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخير إذ وصل إليهم الخادم الصغير الذي شاهد قتله، وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه، وأخبرهم بقتل الظافر، فخرجوا إلى عباس، وقالوا له: سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لأنهما خرجا جميعاً. فلما سمع ذلك منهم قال: أريد أن أعتبر القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله؛ فاستعرض القصر، فقتل آخرين للظافر، وهما يوسف وجبريل، وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى ابن الظافر بأمر الله إسماعيل ثاني يوم قتل أبوه، وله من العمر خمس سنين، فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس، وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد، ولم يترك فيه إلا ما لا خير فيه. (١٩٣/١١)

ذكر وزارة الصالح طالع بن رزيك

كان السبب في وزارة الصالح طالع بن رزيك أن عباساً، لما قتل الظافر وأقام الفائز، ظن أن الأمر يتم له على ما يريد، فكان الحال خلاف ما اعتقده، فإن الكلمة اختلفت عليه، وثبأ به الجند والسودان، وصار إذا أمر بالأمر لا يلتفت إليهم ولا يسمع قوله، فأرسل من بالقصر من النساء والخدم إلى الصالح طالع بن رزيك يستغيثون به، وأرسلوا شعورهم طي الكتب. وكان في منية بني خصيب والياً عليها وعلى أعمالها، وليست من الأعمال الجليلة، وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم، وكان فيه شهامة، فجمع ليقصد عباساً، وسار إليه فلما سمح عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التي لا تحصى كثرة، والتحف والأشياء التي لا توجد إلا هنالك مما كان أخذه من القصر، فلما سار وقع به الفرنج فقتلوه وأخذوا جميع ما معه فقتلوا.

وسار الصالح فدخل القاهرة بأعلام سود وزياب سود حزناً على الظافر، والشعور التي أرسلت إليه من القصر على رؤوس

عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق، حتى اتهم استعرضوا كبل من بها من مملوك وجارية من النصارى، فمن أراد المقام بها تركوه، ومن أراد العود إلى وطنه أخذوه قهراً شاء صاحبه أم أبى.

وكان لهم على أهلها كل سنة قطعة يأخذونها منهم، فكان رسلهم يدخلون البلد يأخذونها منهم، فلما رأى نور الدين ذلك خاف أن يملكها الفرنج فلا يبقى حيتو للمسلمين بالشام مقام، فاعمل الحيلة في أخذها حيث علم أنها لا تملك قوة، لأن صاحبها متى رأى غلبه راسل الفرنج واستعان بهم فأعانوه لئلا يملكها من يقوى بها على قتالهم، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا، وأظهر له المودة حتى وثق به فكان نور الدين يقول له في بعض الأوقات: إن فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق؛ يعني بعض أمراء مجير الدين؛ فكان يعد الذي قيل عنه ويأخذ أقطاعه، فلما لم يبق عنده من الأمراء أحد قدم أميراً يقال له عطا بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهماً شجاعاً، وفوض إليه أمر دولته، فكان نور الدين لا يتمكن معه (١٩٨/١١) من أخذ دمشق، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فسار نور الدين حيتو إلى دمشق، وكان قد كاتب من بها من الأحداث واستمالهم، فوعده بالتسليم إليه، فلما حصر نور الدين البلد أرسل مجير الدين إلى الفرنج يذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليروحوا نور الدين عن البلد، فإلى أن اجتمع لهم ما يريدون تسلّم نور الدين البلد، فعادوا بخفي خن.

وأما كيفية تسليم دمشق فإنه لما حصرها شار الأحداث الذين راسلهم، فسلموا إليه البلد من الباب الشرقي، ولكنه، وحصر مجير الدين في القلعة، وراسله في تسليمها وبذل له إقطاعاً من جملته مدينة حمص، فسلمها إليه وسار إلى حمص، ثم أتته راسل أهل دمشق ليسلموا إليه، فعلم نور الدين ذلك فخافه، فأخذ منه حمص، وأعطاه عوضاً عنها بالنس، فلم يرضها، وسار منها إلى العراق، وأقام ببغداد وابتنى بها داراً بالقرب من النظامية، وتوفي بها.

ذكر قصد الإسماعيلية خراسان والظفر بهم

في هذه السنة، في ربيع الأخير، اجتمع جميع كثير من الإسماعيلية من قهستان، بلغت عدتهم سبعة آلاف رجل ما بين فارس وراجل، وساروا يريدون خراسان لاشتغال عسبائكرها بالغزو، وقصدوا أعمال خواف وما يجاورها، فلقيهم الأمير قرحشاه بن محمود الكاساني في جماعة من حشمه وأصحابه، فعلم أنه لا طائفة له بهم، فتركهم وسار عنهم، وأرسل إلى الأمير (١٩٩/١١) محمد بن أنر، وهو من أكابر أمراء خراسان وأشجعهم، يعرفه الحال،

والتقى العسكرون عند بكمزا بالقرب من بقوبا، ودام بينهم المناوشة والمحاربة ثمانية عشر يوماً، ثم إنهم التقوا آخر رجب فاقتتلوا، فانهمزت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب، حتى بلغت الهزيمة ببغداد، ونهبت خزائنه، وقتل خازنه، فحمل الخليفة بنفسه هو وولي عهده وصاح: يا آل هاشم! كذب الشيطان، وقرأ: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وحمل باقي العسكر معه فانهمز مسعود والبش وجميع من معهم، وتمت الهزيمة، وظفر الخليفة بهم، وغنم عسكره جميع مال التركمان من دواب وغنم وغير ذلك، فبيع كل كبش بدائق، وكانوا قد حضروا بنسائهم وأولادهم وخركاهااتهم وجميع مالهم، فأخذ جميعه، ونودي: من أخذ من أولاد التركمان ونسائهم شيئاً فليرده، فردوه، فأخذ البش كون خر الملك أرسلان، وانهمزم إلى بلد اللحف وقلعة الماهكي. (١٩٦/١١)

وفي هذه الحزب غدر بتز عوف من عسكر الخليفة، ولحقوا بالعجم، ومضى هندي الكردي أيضاً معهم. وكان الملك محمد قد أرسل عسكرياً مع خاص بك بن آقستقر نجدة لكون خر، فلما وصلوا إلى الراذان بلغهم خبر الهزيمة فعادوا، ورجع الخليفة إلى بغداد فدخلها أوائل شعبان، فوصله الخبر أن مسعود بلال وترشك قصدا مدينة واسط فنها وخرها، فسير الخليفة الوزير ابن هبيرة في عسكر خامس عشر شعبان، فانهمزم العجم، فلقيهم عسكر الخليفة ونهب منهم شيئاً كثيراً، وعادوا إلى بغداد، فلقلب الوزير سلطان العراق ملك الجيوش.

وسير الخليفة عسكرياً إلى بلد اللحف فأخذه وصار في جملته، وأما الملك ألب أرسلان بن طغرل فإن البش أخذه معه إلى بلیده، فأرسل إليه الملك محمد يقول له ليحضر عنده وأرسلان معه، فمات البش كون خر في رمضان في هذه السنة، وبقي أرسلان مع ابن البش وحسن الجاندار، فحملاه [إلى] الجبل، فخاف الملك محمد أن يصل أرسلان إلى زوج أمه إيلدكز فيجعله ذريعة إلى قصد البلاد، فلم ينفعه حذره، واتصل أرسلان بإيلدكز زوج أمه قصار معه، وهو أخو البهلوان بن إيلدكز لأمه، وطغرل الذي قتله خوارزم شاه ولد أرسلان هذا، وكان طغرل آخر السلجوقية.

(١٩٧/١١)

ذكر ملك نور الدين محمود مدينة دمشق

في هذه السنة، في صفر، ملك نور الدين محمود بن زنكي بن آقستقر مدينة دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغرل كين أتابك.

وكان سبب جده في ملكه أن الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق إلى إخراجهم

وطلب منه المسير إليهم بعسكره وقدر عليه من الأمراء ليجتمعوا عليهم ويقاتلوه.

فسار محمد بن أنر في جماعة من الأمراء وكثير من العسكر، واجتمعوا هم وفرخشاه، وواقفوا الإسماعيلية وقاتلوه، وطالت الحرب بينهم، ثم نصر الله المسلمين وانهزم الإسماعيلية، وكثر القتل فيهم، وأخذهم السيف من كل مكان، وهلك أعيانهم وساداتهم: بعضهم قتل، وبعضهم أسر، ولم يسلم منهم إلا القليل الشريد، وخلت قلاعهم وأحصونهم من حام ومانع، فلولوا اشتغال العساكر بالغزو لكانوا ملكوها بغير تعب ولا مشقة، وأراحوا المسلمين منهم، ولكن لله أمر هو بالغه.

ذكر ملك نور الدين تل باشير

في هذه السنة، أو التي بعدها، ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة تل باشير، وهي شمالي حلب من أمتع القلاع.

وسبب ملكها أن الفرنج لما راوا ملك نور الدين دمشق خافوه، وعملوا أنه يقوى عليهم، ولا يقدرون على الانتصاف منه، لما كانوا يرون منه قبل ملكها، فراسله من بهذه القلعة من الفرنج، وبذلوا له تسليمها، فسير إليهم الأمير حسن العنجي، وهو من أكابر أمراءه، وكان إقطاعه ذلك الوقت مدينة منبج، وهي تقارب تل باشير، وأمره أن يسير إليها ويسلمها، فسار إليها وتسلمها منهم، وحصنها ورفع إليها من الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة. (٢٠٠/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات أستاذ الدار أبو الفتح عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء، وكان له صدقات، ومعروف كثير، وشجالة للفقراء. ولما مات وأتى الخليفة ابنه الأكبر عضد الدين أبا الفرج محمد بن عبد الله ما كان إلى أبيه.

وتوفي عبد الرحمن بن عبد الصمد بن أحمد بن علي أبو القاسم الأكاف النيسابوري. كان زاهداً، عابداً، فقيهاً، مناظراً، وكان السلطان شجرجي يورده ويتبرك بدعائه، وكان ربما حجبته فلا يمكنه من الدخول إليه.

وفيهما توفي ثقة الدولة أبو الحسن علي بن محمد الدويني، وكان يخدم أبا نصر أحمد بن الفرج الأبري، فرباه حتى قيل ابن الأبري، وزوجه ابنة شهدة الكاتب، فتربه المقتني لأمر الله، وركله فبنى مدرسة بباب الأزج. (٢٠١/١١)

سنة خمسين وخمسمائة

في هذه السنة سار الخليفة المقتضي لأمر الله إلى دقوقا فحصرها وقاتل من بهله ثم رحل عنها لأنه بلغه أن عسكر الموحدين

قد تجهزوا للمسير لمتنعه عنها، فرحل ولم يبلغ غرضاً. وفيها استولى شملة التركماني على خوزستان وكان قد جمع جمعاً كثيراً من التركمان وسار يريد خوزستان، وصاحبه حينئذ ملكشاه بن محمد، فسير الخليفة إليه عسكراً، فلقيهم شملة في رجب، وقاتلهم، فانهزم عسكر الخليفة، وأسروا وجوههم، ثم أحسن إليهم وأطلقهم، وأرسل يعتزله قبيل عذره، وسار إلى خوزستان فملكها وأزاح عنها ملكشاه ابن السلطان محمود.

وفيهما سار الغز إلى نيسابور، فملكوها بالسيف، فدخلوها وقتلوا محمد ابن يحيى الفقيه الشافعي ونحواً من ثلاثين ألفاً، وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة، وهو معتقل لا يُلثف إليه، حتى إنه أراد كثيراً من الأيام أن يركب، فلم يكن له من يحمل سلاخه، فشده على وسطه وركب.

وكان إذا قدم إليه طعام يذخر منه ما يأكله وقتاً آخر، خوفاً من انقطاعه عنه، لتقصيرهم في واجبه، ولأنهم ليس هذا مما يعرفونه.

وفيهما وثب قسوس الأرمن بمدينة آني فآخذوها من الأمير شداد (٢٠٢/١١) وسلموها إلى أخيه فضلون.

وفيهما في ذي الحجة، قتل الأتراك القارغلية طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر، وألقوه في الصحراء، ونسبوه إلى أشياء قبيحة. وكان مدة ملكه مستضعفاً غير مهيب.

وفيهما توفي أبو الفضل محمد بن ناصر بن علي البغدادي الحافظ الأديب وكان مشهوراً بالفضل، وكان شافعيّاً، وصار حنبليّاً مغالياً، ومولده سنة سبع وستين وأربع مائة في شعبان، وكان موته أيضاً في شعبان.

وفيهما كان بالمراق وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة في ذي الحجة.

وفيهما توفي يحيى الغساني النحوي الموصلّي وكان فاضلاً خبيراً؛ وتناح الدين أبو طاهر يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، قاضي جزيرة ابن عمر. (٢٠٣/١١)

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

ذكر عصيان الجزائر والحريقة علي ملك الفرنج بصقلية وما كان

منهم

قد ذكرنا سنة ثمان وأربعين وخمسمائة موت رجار ملك صقلية وملك ولده خليفاً، وأنه كان فاسد التدين، فخرج من حكمه عدة من حصوص صقلية.

فلما كان هذه السنة قوي طمع الناس فيه، فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرنة، وأظهروا الخلاف عليه، وخالف عليه أهل إفريقية، فأول من أظهر الخلاف عليه عمر بن أبي الحسين القرطبي بمدينة سفاقس، وكان رجلاً قد استعمل عليها، لما فتحها، أباه أبا الحسن، وكان من العلماء الصالحين، فأظهر العجز والضعف وقال: استعمل ولدي، فاستعمله، وأخذ أباه رهينة إلى صقلية.

فلما أراد المسير إليها قال لولده عمر: إنني كبير السن، وقد قارب أجلي، فمتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل، ولا تراقبهم، ولا تنظر في أنني أقتل واحسب أنني قد مت، فلما وجد هذه الفرصة دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال: يطلع جماعة منكم إلى السور، وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم، ويقتلونهم كلهم. فقالوا له: إن سيدنا (٢٠٤/١١) الشيخ والدك نخاف عليه. قال: هو أمرني بهذا، وإذا قتل بالشيخ اللوف من الأعداء فما مات، فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم، وكان ذلك أول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

فلما قتلوا هرب من بها من الحرّم والصبيان والشيخ في البر، ولم يعرجوا على شيء من أموالهم، ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال، ونهبوا الأموال، واستقرّ الفرنج بالمهدية إلى أن أخذها منهم عبد المؤمن على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

فلما أراد المسير إليها قال لولده عمر: إنني كبير السن، وقد قارب أجلي، فمتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل، ولا تراقبهم، ولا تنظر في أنني أقتل واحسب أنني قد مت، فلما وجد هذه الفرصة دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال: يطلع جماعة منكم إلى السور، وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم، ويقتلونهم كلهم. فقالوا له: إن سيدنا (٢٠٤/١١) الشيخ والدك نخاف عليه. قال: هو أمرني بهذا، وإذا قتل بالشيخ اللوف من الأعداء فما مات، فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم، وكان ذلك أول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

ذكر القبض على سليمان شاه وحسه بالموصل

في هذه السنة قبض زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين مودود ابن زنكي بن أقيسقر، صاحب الموصل، على الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه، وكان سليمان شاه عند عمه السلطان سنجر قديماً، وقد جعله ولي عهده، وخطب له في منابر خراسان، فلما جرى لسنجر مع الغز ما ذكرناه، وتقدم على عسكر خراسان، وضعفوا عن الغز، مضى إلى (٢٠٦/١١) خوارزم شاه فزوجه ابنة أخيه أقيس، ثم بلغه عنه ما كرهه فأبعده، فجاء إلى أصفهان فمنعه شحتها من الدخول، فمضى إلى قاشان، فسير إليه محمد شاه ابن أخيه محمود بن محمد عسكراً أبعده عنها، فسار إلى خوزستان، فمنعه ملكشاه عنها، فقصده للتحلف ونزل البتديجين، وأرسل رسلاً إلى الخليفة المقتضي يعلمه بوصوله، وتردّت الرسل بينهما، إلى أن استقرّ الأمر على أن يرسل زوجته تكون رهينة، فأرسلها إلى بغداد ومعها كثير من الجواري والأتباع، وقال: قد أرسلت هؤلاء رهاً، فإن أذن أمير المؤمنين في دخول بغداد فعلت وإلا رجعت.

ثم أتبعه أبو محمد بن مطروح بطرابلس وبعدهما محمد بن رشيد بقباس، وسار عسكر عبد المؤمن إلى بونة فملكها وخرج جميع إفريقية عن حكم الفرنج ما عدا المهدية وسوسة.

وأرسل عمر بن [أبي] الحسين إلى زويلة، وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو مئدان، يحرضهم على الثوب على من معهم فيها من النصارى، ففعلوا ذلك، وقدم حرب البلاد إلى زويلة، فأعانوا أهلها على من بالمهدية من الفرنج، وقطعوا الميرة عن المهدية.

فلما اتصل الخبر بغليالم ملك صقلية أحضر أبا الحسين وعرفه ما عمل ابنه، فأمره أن يكتب إليه ينهاء عن ذلك، ويأمره بالعود إلى طاعته، ويخوفه عاقبة فعله، فقال: من قدم على هذا لا يرجع بكتاب، فأرسل ملك صقلية إليه رسلاً يتهذه، ويأمره بترك ما ارتكبه، فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك، فلما كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة، والرسول يشاهدهم فدفنوها وعلوا، وأرسل عمر إلى الرسول يقول له: هذا أبي قد دفته، وقد جلست للعزاء به، فاصنعوا به ما أردتم.

فعاد الرسول إلى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبي الحسين، فأخذ أباه وصلبه، فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات. (٢٠٥/١١)

فأكرم الخليفة زوجته ومن معها، وأذن له في القدوم إليه، فقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلاثمائة رجل، فخرج ولد الوزير ابن هبيرة يلتقيه، ومعه قاضي القضاة والنيبان، ولم يترجل له ابن الوزير، ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة، وخلع عليه الخليفة، وأقام ببغداد إلى أن دخل المحرم من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة فأحضر فيه سليمان شاه إلى دار الخليفة، وأحضر قاضي القضاة والشهود وأعيان العباسيين، وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة، وأنه لا يعرض إلى العراق بحال.

فلما حلف خطب له ببغداد ولقبه بالملك، وسير معه من الدين وباقي القباة، وخلع عليه خلع السلطنة، وسير معه من

وأما أهل زويلة فلأنهم كثر جمعهم بالعرب وأهل سفاقس وغيرهم، فحصرروا المهدية وضيقوا عليها، وكانت الأقوات بالمهدية قليلة، فسير إليهم صاحب صقلية عشرين شبيطاً فيها الرجال والطعام والسلاح، فدخلوا البلد، وأرسلوا إلى العرب

[عسكر] بغداد ثلاثة آلاف فارس، وجعل الأمير قويدان صاحب الجلة أمير حاجب معه، وسار نحو بلاد الجبل في ربيع الأول، وسار الخليفة إلى خلوان، وأرسل إلى ملكشاه ابن السلطان محمود أخي السلطان محمد صاحب همدان وغيرها يدعوها إلى موافقته، فقدم في ألفي فارس، فحلف كل منهما لصاحبه وجعل ملكشاه ولي عهد (٢٠٧/١١) سليمان شاه، وقواهما الخليفة بالمال والأسلحة وغيرها، فساروا واجتمعوا هم وإيلدكز، فصاروا في جمع كبير.

فلما سمع السلطان محمد خبرهم أرسل إلى قطب الدين مردود، صاحب الموصل، ونائب زين الدين يطلب منهما المساعدة والمعاضدة، ويبدل لهما البذول الكثيرة إن ظفر، فأجاباه إلى ذلك ووافقا، فقويت نفسه وسار إلى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم في جمادى الأولى، واشتد القتال بين الفريقين، فانهزم سليمان شاه ومن معه، وتشتت العسكر ووصل من عسكر الخليفة، وكانوا ثلاثة آلاف رجل، نحو من خمسين رجلاً، ولم يقتل منهم أحد، وإنما أخذت خيولهم وأموالهم، وتشتتوا وجاؤوا متفرقين.

وفارق سليمان شاه إيلدكز وسار نحو بغداد على شهرزور، فخرج إليه زين الدين علي في جماعة من عسكر الموصل، وكان بشهرزور الأمير بزان مقطعا لها من جهة زين الدين، فخرج زين الدين وسار، فوقفا على طريق سليمان شاه، فأخذه أسيراً، وحمله زين الدين إلى قلعة الموصل وحبسه بها مكرماً محترماً، إلى أن كان من أمره ما نذكره سنة خمس وخمسين [وخمسمائة] إن شاء الله، فلما قبض سليمان شاه أرسل زين الدين إلى السلطان محمود يعرفه، ووعده المعاضدة على كل ما يريد منه. (٢٠٨/١١)

ذكر حصر نور الدين قلعة حارم

في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي إلى قلعة حارم، وهي للفرنج، ثم لبيئند، صاحب أنطاكية، وهي تقارب أنطاكية من شرقها، وحصرها وضيق على أهلها، وهي قلعة منيعة في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعده، وساروا نحوها ليرحلوه عنها.

وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يقول: إننا نقدر على حفظ القلعة، وليس بنا ضعف، فلا تخاطروا أنتم باللقاء، فإنه إن هزمكم أخذها وغيرها، والرأي مطاولته، فإرسلوا إليه وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم، فاصلحوا على ذلك، ورحل عنهم، فقال بعض الشعراء:

البيست دين محمد يا نورة عزالة فوق السها أساد

ما زلت تشمله ببياد القتا
لم يبق شذ أرمفت هزمك دونه
إن المنابر لو تطلق تكلفاً
ملك باطراف القريضة كلكلاً
حاموا فلما عايتوا خوض الردى
ورأى السرى وقد تدرست قلته
حتى تنصف عروته العباد
عند فراغ به، ولا استعنا
حيثك عن خطايا الأعواد
طرفه ضرب صابوق وجلاد
حاقوا فراسن كيدهم أركاوا
حزماً لحارم والمصاد مصاد
(٢٠٩/١١)

من مكر أن ينصف الرضى
أو أن يعبد الشمس كاسفة السنا
لا ينع الأباة ما سمكوا من الـ
وهي طويلة.

ذكر وفاة خوارزم شاه أنسر وغيره من الملوك

في هذه السنة، تاسع جمادى الآخرة، توفي خوارزم شاه أنسر بن محمد ابن أنوشكين، وكان قد أصابه فالج، فتعالج منه، فلم يبرأ، فاستعمل أدوية شديدة الحرارة بغير أمر الأطباء، فاشتد مرضه، وضعت قوته، فتوفي. وكان يقول عند الموت ﴿ما أغنى عني ماله، هلك عني سلطانيه﴾. وكانت ولادته في رجب سنة تسعين وأربعمائة.

ولما توفي ملك بعده ابنه أرسلان، فقتل نفرًا من أعمامه، وسمل أخا له فمات بعد ثلاثة أيام، وقيل بل قتل نفسه.

وأرسل إلى السلطان سنجر، وكان قد هرب من أسر الغز، على ما نذكره، يبذل الطاعة والانقياد، فكتب له منشورًا بولاية خوارزم، ومير الخلع له في رمضان، فبقي في ولايته ساكنًا آمنًا.

وكان أنسر حسن السيرة، كافًا عن أموال رعيته، منصفًا لهم محبوبًا إليهم، مؤثرًا للإحسان والخير إليهم، وكان الرعية معه بين أمن غامر وعدل شامل.

وفي سابع عشر الشهر المذكور توفي أبو الفوارس بن محمد بن أرسلان (٢١٠/١١) شاه ملك كرمان، ومملك بعده ابنه صلجوقشاه.

وفيها توفي الملك مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلش، صاحب قونية وما يجاورها من بلاد الروم، ومملك بعده ابنه قلج أرسلان.

ذكر هرب السلطان سنجر من الغز

في هذه السنة، في رمضان، هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز هو وجماعة من الأمراء الذين معه، وسار إلى قلعة ترمذ، واستظهر بها على الغز، وكان خوارزم شاه أنسر بن محمد بن

أنوشتكين، والخاقان محمود بن محمد، يقصدان الغزَّ فيقاتلاتهم فيمن معهما، فكانت الحرب بينهما ميجالاً، وغلب كل واحد من الغزَّ والخراسانيين على ناحية من خراسان، فهو يأكل داخلها، لا رأس لهم يجمعهم.

وسار السلطان سنجر من يَزْمَد إلى جيحون يريد العبور إلى خراسان، فاتَّفَقَ أَنْ مَقْدَمَ الأتراك القارغلية، اسمه علي بك توقي، وكان أشدَّ شيء [على] السلطان سنجر وعلى غيره، كثير الشر والفساد وإثارة الفتن، فلَمَّا تَوَقَّى أقبَلَت القارغلية إلى السلطان سنجر، وكذلك غيره من سائر الأمم من أقاصي البلاد وأدانيها، وعاد إلى دار ملكه بمرور في رمضان؛ فكانت مدة أسره مع الغزَّ من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. (٢١١/١١)

ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد أبيه

في هذه السنة أمر عبد المؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده، وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمر هتائي أن يلي عمر الأمر بعد عبد المؤمن. فلَمَّا تَمَكَّن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده أحب أن ينقل الملك إليهم، فأحضر أمراء العزب من هلال ورعبة وعبدى وغيرهم إليه ووصلهم وأحسن إليهم، ووضع عليهم مَنْ يَقُول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن، ويقولوا له: نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك يرجع الناس إليه بعدك، ففعلوا ذلك، فلم يجبهم إكراماً لعمر هتائي لعلَّ منزلته في الموحدين، وقال لهم: إن الأمر لأبي حفص عمر. فلَمَّا علم عمر ذلك خاف على نفسه، فحضر عند عبد المؤمن وأجاب إلى خلق نفسه، فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد، وكتب إلى جميع بلاده بذلك، وخطب له فيها جميعها، فأخرج عبد المؤمن في ذلك اليوم من الأموال شيئاً كثيراً.

ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد

في هذه السنة استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد، فاستعمل ولده أبا محمد عبد الله على بجاية وأعمالها، واستعمل ابنه أبا الحسن علياً على فاس وأعمالها، واستعمل ابنه أبا حفص عمر على مدينة تلمسان وأعمالها، وولَّى ابنه أبا سعيد سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة، وكذلك غيره.

ولقد سلك في استعمالهم طريقاً عجيباً، وذلك أنه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحدين المشهورين من أصحاب المهدي محمد بن تومرت، (٢١٢/١١) وكان يتعذر عليه أن يعزلهم، فأخذ أولادهم، وتركهم عنده يشتغلون في العلوم، فلَمَّا مهروا فيها وصاروا يُقْتَدَى بهم قال لأبائهم: إني أريد أن تكونوا عندي أستعين بكم على ما أنا بصده، ويكون أولادكم في الأعمال لأنهم علماء فقهاء؛ فاجابوا إلى ذلك وهم فرحون مسرورون، فولَّى

أولادهم ثُمَّ وضع عليهم بعضهم مَنْ يعتمد عليه، فقال لهم: إني أرى أمراً عظيماً قد فعلتموه فارتقم فيه الحزم والأدب. فقالوا: وما هو؟ فقال: أولادكم في الأعمال، وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم منها شيء مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة، وإني أخاف أن ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده، فعملوا صدق القائل، فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا: نحب أن تستعمل على البلاد السادة أولادك. فقال: لا أفعل. فلم يزالوا به حتى فعل ذلك بسؤالهم.

ذكر حصر السلطان محمد ببغداد

في هذه السنة، في ذي الحجة، حصر السلطان محمد ببغداد، وسبب ذلك أن السلطان محمد بن محمود كان قد أرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق، قامت الخليفة من إجابته إلى ذلك، فسار من همدان في عساكر كثيرة نحو العراق، ووعده أتاكب قطب الدين، صاحب الموصل، ونائبه زين الدين علي بإرسال العساكر إليه نجدة له على حصر بغداد، فقدم العراق في ذي الحجة سنة إحدى وخمسين [وخمسمائة]، واضطرب الناس ببغداد، وأرسل الخليفة يجمع العساكر فأقبل خطبرس من واسط وعصى (٢١٢/١١) أرغش، صاحب البصرة، وأخذ واسط، ورحل مُهْلِل إلى الجلة فأخذها، واهتم الخليفة وعون الدين بن هبيرة بأمر الحصار، وجمع جميع السفن وقطع الجسر وجعل الجميع تحت التاج، ونودي منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسين [وخمسمائة]، أن لا يقيم أحدٌ بالجانب الغربي، فأجفل الناس وأهل السواد، ونقلت الأموال إلى حريم دار الخلافة، وخرَّب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية والمستجدة والنجمي، ونهب أصحابه ما وجدوا، وخرَّب أصحاب محمد شاه نهر القلابين، والتوتة، وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقُطِّعَتْ.

وأما أهل الكرخ وأهل باب البصرة فإنهم خرجوا إلى عسكر محمد وكسبوا معهم أموالاً كثيرة.

وعبر السلطان محمد فوق خربي إلى الجانب الغربي، ونُهبت أوانا، وأتصل به زين الدين هناك، وساروا، فنزل محمد شاه عند الرملة، وفرَّق الخليفة السلاح على الجند والعامة، ونصب المجانيق والعرادات.

فلَمَّا كان في العشرين من المحرم ركب عسكر محمد شاه وزين الدين علي، ووقفوا عند الرقة، ورموا بالنشاب إلى ناحية التاج، فعبر إليهم عامة بغداد فقاتلهم، ورموهم بالنفط وغيره، ثُمَّ جرى بينهم عدة حروب.

وفي ثالث صفر عاودوا القتال، واشتدَّت الحرب، وعبر كثير من أهل بغداد سباحة وفي السفن فقتلوا، وكان يوماً مشهوداً.

قيماز الحارمي في عسكر نجدة لإينانج، فسار سقمس، وكان إيلدكز وملكشاه ومَن معهم قد هادوا من الري يزيدون محاصرة الخليفة، فلقيهم سقمس وقتلهم، فهزموه ونهبوا عسكره وأتقاهم، فاحتاج السلطان محمد إلى الإسراع، فسار، فلما بلغ خلوان بلغه أن إيلدكز بالدينور، وأتاه رسول من نائبه إينانج أنه دخل همدان، وأعاد الخطبة له فيها، فقويت نفسه وهرب شملة، صاحب خوزستان، إلى بلاده، وتفرق أكثر جمع إيلدكز وملكشاه، وبقيها في خمسة آلاف فارس، فعادوا إلى بلادها شبه الهارب.

ولما رحل محمد شاه إلى همدان أراد المتجهز لقصد بلاد إيلدكز، فابتدا به مرض السل، وبقي به إلى أن مات. (٢١٦/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، أطلق أبو البدر ابن الوزير ابن هُبيرة من حبس تكريت، ولما قدم بغداد خرج أخوه والموكب يتلقونه، وكان يوماً مشهوداً، وكان مقامه في الحبس يزيد على ثلاث سنين.

وفيها احترقت بغداد في ربيع الآخر، وكثر الحريق بها، واحترق درب فراشا، ودرب الدواب، ودرب اللبان، وخرابة ابن حربة، والظفرية، والخاتونية، ودار الخلافة، وباب الأزج، وسوق السلطان وغير ذلك.

وفيها، في شوال، قصد الإسماعيلية طيس بخراسان، فأوقعوا بها وقعة عظيمة، وأسروا جماعة من أعيان دولة السلطان، ونهبوا أموالهم ودوابهم وقتلوا فيهم.

وفيها، في ذي القعدة، توفي شيخ الإسلام أبو المعالي الحسن بن عبيد الله بن أحمد بن محمد المعروف بابن الرزاز بنيسابور، وهو من أعيان الأفاضل.

وفي هذه السنة توفي مُريد الدين بن نيسان رئيس آيد والحاكم فيها على صاحبها، وولي ما كان إليه بعده ابنه كمال الدين أبو القاسم.

وتوفي أبو الحسن علي بن الحسين الغزنوي، الواعظ المشهور، ببغداد، وكان قدم إليها سنة ست عشرة وخمسمائة، وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامة والخلفاء، إلا أن المقتضي أعرض عنه بعد موت السلطان مسعود لإقبال (٢١٧/١١) السلطان عليه، وكان موته في المحرم.

وتوفي أبو الحسن بن الخَلّ الفقيه الشافعي، شيخ الشافعية ببغداد وهو من أصحاب أبي بكر الشاشي، وجمع بين العلم والعمل، وكان يؤم بالخليفة في الصلاة.

ولم تزل الحرب بينهم كل وقت، وعُمل الجسر على وجلة وعبر عليه أكثر العسكر إلى الجانب الشرقي، وصار القتال في الجانبين، وبقي زين الدين (٢١٤/١١) في الجانب الغربي، وأمر الخليفة فنودي: كل من جرح فله خمسة دنانير؛ فكلما كلما جرح إنسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير؛ فاتفق أن بعض العامة جرح جرحاً ليس بكبير، فحضر يطلب الدنانير. فقال له الوزير: ليس هذا الجرح بشيء. فعاد القتال، فضرب، فانشق جوفه وخرج شيء من شحمه، فحُمِل إلى الوزير فقال: يا مولانا الوزير أيرضيك هذا؟ فضحك منه، وأضعف له، ورتب له من يعالج جراحته إلى أن برى.

وتعدّرت الأقوات في العسكر إلا أن اللحم والفواكه والخضر كثيرة، وكانت الغلات ببغداد كثيرة لأن الوزير كان يفرقها في الجند عوض الدنانير فيبيعونها، فلم تزل الأسعار عندهم رخيصة، إلا أن اللحم والفواكه والخضر قليلة عندهم.

واشتد الحصار على أهل بغداد لاقطاع المواد عنهم وعدم المعيشة لأهلها. وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين في القتال لأجل الخليفة والمسلمين، وقيل لأن نور الدين محمود بن زنكي، وهو أخو قطب الدين، صاحب الموصل الأكبر، أرسل إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة، ففتر وأقصر.

ولم تزل الحرب في أكثر الأيام، وعمل السلطان محمد أربعمئة سلم ليصعد الرجال فيها إلى السور، وزحفوا، وقتلوا، ففتح أهل بغداد أبواب البلد وقالوا: أي حاجة بكم إلى السلايم؟ هذه الأبواب مفتحة فادخلوا منها. فلم يقدروا على أن يقرّبوها. فبينما الأمر على ذلك إذ وصل الخبر إلى السلطان محمد أن أخاه ملكشاه وإيلدكز، صاحب بلاد أزان، ومعه الملك أرسلان ابن الملك، طغول بن محمد، وهو ابن امرأة إيلدكز، قد دخلوا همدان واستولوا عليها؛ وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد شاه وأموالهم، (٢١٥/١١) فلما سمع محمد شاه ذلك جدّ في القتال لعله يبلغ غرضاً، فلم يقدر على شيء ورحل عنها نحو همدان في الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة.

وعاد زين الدين إلى الموصل، وتفرق ذلك الجمع على عزم العود إذا فرغ محمد شاه من إصلاح بلاده، فلم يعودوا يجتمعون، وفي كثرة حروبهم لم يقتل بينهم إلا نفر يسير، وإنما الجراح كانت كثيرة، ولما ساروا نهبوا يعقوباً وغيرها من طريق خراسان.

ولما رحل العسكر من بغداد أصاب أهلها أمراض شديدة حادة، وموت كثير للشدة التي مرت بهم، وأما ملكشاه وإيلدكز ومَن معهم فإنهم ساروا من همدان إلى الري، فخرج إليهم إينانج شحتها وقتلهم فهزموه، فأنفذ السلطان محمد الأمير سقمس بن

وكان عالماً بالقرآن والأدب، وهو والد مؤيد الدولة أسامة بن منقذ فولأها أخاه الأصغر سلطان بن علي، واصطحبها أجمل صحبة مدة من الزمان، فأولد مرشد عدة أولاد ذكور، وكبروا وسادوا، منهم: عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة وغيرهما. ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد، فحسد أخاه على ذلك، وخاف أولاد أخيه على أولاده، وسعى بينهم المفسدون ففبروا كلاً منهما على أخيه، فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبيات شعر يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فاجابه شعر في معناه رأيت إثبات ما تمنى الحاجة إليه منه، وهي هذه الأبيات :

ظَلُمْتُ أَبْتَ فِي الظُّلَمِ إِلَّا تَنَابِيَا وَفِي الصَّدِّ وَالْهَجْرَانِ إِلَّا تَنَابِيَا
شَكَّتْ هَجْرَتَنَا وَالذَّنْبُ فِي ذَاكَ ذَنْبُهَا فَيَا عَجَباً مَنْ ظَلَمَ جَاءَ شَاكِيَا
وَطَارَعَتِ الرَّائِسِينَ فَيَا وَطَالَمَا صَعِبَتْ عَذْلُوا فِي هَوَاهَا وَوَالِيَا
(٢٢٠/١١)

وَمَالٌ بَهَا يَتِيَّةُ الْجَمَالِ إِلَى الْقَلَى وَفِيهَا أَنْ أَسِي لَهَا الدَّعْرُ قَالِيَا
وَلَا نَابِيَا مَا أَوْدَعَتْ مِنْ عَهْدِيهَا وَإِنْ هِيَ ابْدَتْ جَفْوَةً وَتَنَابِيَا
وَلَمَّا إِنِّي مِنْ قُرْبَيْكَ جَزَعْتُ جَمَعْتُ الْمُعَالِي فِيهِ لِي وَالْمُعَالِيَا
وَكُنْتُ مَجْرُتُ الشَّعْرِ حِينَ لَأَنْتَ تَوَلَّى بِرُفْعِي حِينَ وَلَّى شَبَابِيَا
وَأَيْمَنْ مِنَ السَّيْنِ لَقَطْتُ مَقْرُوقَ إِذَا رُمْتُ أَدْنَى الْقَوْلِ مِنْهُ عَصَابِيَا
وَقُلْتُ: أَخِي بَرُّعِي بَنِي وَأَسْرَبِي وَحَفَظَ عَهْدِي فِيهِمْ وَذِيَابِيَا
وَيَجْزِيهِمْ مَا لَمْ أَكْفُفْهُ فَعَلْتُ لِنَفْسِي قَدْ اعْتَذَرْتُ مِنْ تَرَابِيَا
فَمَا لَكَ لَمَّا أَنْ خَشِيَ الدَّعْرُ صُعْدَتِي وَقَلَمَ مِنِّي صُلُوباً كَانَ مَاضِيَا
تَكُنْتُ حَتَّى صُلُوبُكَ قَسْوَةً وَقُرْبُكَ مِنْهُمْ جَفْوَةً وَتَنَابِيَا
وَأَصْبَحْتُ صِفْرُ الْكَفِّ مِمَّا رَجَوْتُهُ أَرَى الْيَأْسَ قَدْ غَشَى سَبِيلَ رَجَائِيَا
عَلَى أَنْتِي مَا خُلْتُ عَمَّا عَهْدْتُهُ وَلَا غَيَّرْتُ هَذِي السَّنُونَ وَدَائِيَا
فَلَا غَرُّوَ عِنْدَ الْعَافِيَاتِ، فَسَلَّتِي أَوَّلَكَ يَمِينِي وَالْأَنَامَ شِمَالِيَا
تَحُلْ بِهَا عَذَابَهُ لَوْ قُرْنَتْ بِهَا نَجُومُ السَّمَاءِ لَمْ تَعْدْ ذَرَارِيَا
نَخَلْتُ بِلَدٍ مِنْ صِفَائِكَ زَانِهَا كَمَا زَانَ مَنَظَرُومُ الْإِلَهِ الْغَوَايَا
وَعِشْ بَانِيَا لِلْمَجْدِ مَا كَانَ وَاهِيَا مُشِيداً مِنَ الْإِحْسَانِ مَا كَانَ هَاوِيَا

وكان الأمر بينهما فيه تماسك، فلما توفي مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر الموجن، وبأدهم بما يسوؤهم، وأخرجهم من شيزر، فتفرقوا، وقصد أكثرهم نور الدين وشكوا إليه ما لقوا من عمهم، فغاظه ذلك، ولم يمكنه قصده والأخذ بأرهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج، ولخوفه أن يسلم شيزر إلى الفرنج. (٢٢١/١١)

ثم توفي سلطان وبقي بعده أولاده، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج، فاشتد حقه عليهم، وانتظر فرصة تمكنه، فلما خرجت القلعة هذه السنة بما ذكرناه من الزلزلة لم ينبج من بني منقذ الذين بها أحد.

وسبب هلاكهم أجمعين أن صاحبها منهم كان قد خشن ولداً

وتوفي ابن الأمدى الشاعر، وهو من أهل النيل من أعيان الشعراء في طبقة الغزي والأرجاني، وكان عمره قد زاد على تسعين سنة.

وفيها قُتل مظفر بن حماد بن أبي الخير صاحب البطيحة، قتله نفيس ابن فضل بن أبي الخير في الحمام، وولي ابنه بعده.

وفيها توفي الرواء الحلبي الشاعر المشهور.

وفيها، في رمضان، توفي الحكيم أبو جعفر بن محمد البخاري بأسفرايين، وكان صاحب معرفة بعلوم الحكماء الأوائل.

(٢١٨/١١)

سنة الثنتين وخمسين وخمسمائة

ذكر الزلازل بالشام

في هذه السنة، في رجب، كان بالشم زلازل كثيرة قوية خربت كثيراً من البلاد، وهلك فيها ما لا يحصى كثرة، فخرّب منها بالمرّة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرّة وأقامية وحمص وحصن الأكراد وعرفة واللاذقية، وطرابلس وأنطاكية.

وأما ما لم يكثر فيه الخراب ولكن خرب أكثره فجميع الشام، وتهدمت أسوار البلاد والقلاع، فقام نور الدين محمود في ذلك المقام المرضي، وخاف على بلاد الإسلام من الفرنج حيث خربت الأسوار، فجمع عساكره وأقام بأطراف بلاده يغير على بلاد الفرنج ويعمل في الأسوار في سائر البلاد، فلم يزل كذلك حتى فرغ من جميع أسوار البلاد.

وأما كثرة القتل، فيكفي فيه أن معلماً كان بالمدينة، وهي مدينة حماة، ذكر أنه فارق المكتب لهم عرض له فجاءت الزلزلة فخرّبت البلد، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم. قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له. (٢١٩/١١)

ذكر ملك نور الدين حصن شيزر

نبتدي بذكر هذا الحصن، ولمن كان قبل أن يملكه نور الدين محمود بن زنكي، فنقول: هذا الحصن قريب من حماة، بينهما نصف نهار، وهو على جبل عال لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة. وكان لآل منقذ الكِنَانِيَّين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى أبي المَرْهَق نصر بن علي بن المقلد بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقي بيده إلى أن مات سنة إحدى وتسعين وأربعمئة، وكان شجاعاً كريماً. فلما حضره الموت استخلف أخاه أبا سلامة مرشد بن علي، فقال: والله لا وليه وأخرج من الدنيا كما دخلتها.

سَنَجَر، فأقام بها خائفاً من الغزو، فقصد جُرجان يستظهر بها، وعاد الغز إلى مَرَوْ وخراسان، واجتمع طائفة (٢٢٣/١١) من عساكر خراسان على أي آبه المؤيد، فاستولى على طرف من خراسان، وبقيت خراسان على هذا الاختلال إلى سنة أربع وخمسين [وخمسمائة].

وأرسل الغز إلى الملك محمود بن محمد وسأله أن يحضر عندهم ليملكوه عليهم، فلم يثق بهم، وخافهم على نفسه، فأرسل ابنه إليهم فأطاعوه مُدِيْدَةً ثُمَّ لحق بهم الملك محمود على ما نذكره سنة ثلاث وخمسين [وخمسمائة].

ذكر ملك المسلمين مدينة المريّة وانقراض دولة الملتئمين

بالأندلس

في هذه السنة انقضت دولة الملتئمين بالأندلس، وملك أصحاب عبد المؤمن مدينة المريّة من الفرنج.

وسبب ذلك أن عبد المؤمن لما استعمل ابنه أبا سعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبو سعيد البحر إلى مالقة، واتخذها داراً، وكتبه فيمون بن بدر اللّمتوني، صاحب غرناطة، أن يوحد ويسلم إليه غرناطة، فقبل أبو سعيد ذلك منه وتسلم، فسار فيمون إلى مالقة بأهله وولده، فتلقاه أبو سعيد، وأكرمه، ووجهه إلى مَرَاكُش، فأقبل عليه عبد المؤمن وانقضت دولة الملتئمين ولم يبق لهم إلا جزيرة ميورقة مع حثو بن غانية.

فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار إلى مدينة المريّة، وهي بأيدي الفرنج، أخذوها من المسلمين سنة اثنين وأربعين وخمسمائة، فلما نازلها وافته الأسطول من سبّة وفيه خلق كثير من المسلمين، فحصرها (٢٢٤/١١) المريّة برّاً وبحراً، وجاء الفرنج إلى حصنها، فحصرهم فيها ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها، وبنى أبو سعيد سوراً على الجبل المذكور إلى البحر، وعمل عليه خندقاً، فصارت المدينة والحصن الذي فيه الفرنج محصورين بهذا السور والخندق، ولا يمكن من ينجدهما أن يصل إليهما، فجمع الأذفونش ملك الفرنج بالأندلس، المعروف بالسليطيين، في اثني عشر ألف فارس من الفرنج، ومعه محمد بن سعد بن مردنيش في ستة آلاف فارس من المسلمين، وراموا الوصول إلى مدينة المريّة ودفع المسلمين عنها، فلم يطبقوا ذلك، فرجع السليطيين وابن مردنيش خائبين، فمات السليطيين في عوده قبل أن يصل إلى طليطلة.

وتمادى الحصار على المريّة ثلاثة أشهر، فضاقت الميرة، وقلّت الأقوات على الفرنج، فطلبوا الأمان يسلموا الحصن، فأجابهم أبو سعيد إليه وأتمهم، وتسلم الحصن، ورحل الفرنج في البحر عائدين إلى بلادهم فكان ملكهم المريّة مدة عشر سنين.

له، وعمل دعوة للنّاس، وأحضر جميع بني متقدّ عند في داره، وكان له فرس يحبّه، ويكاد لا يفارقه، وإذا كان في مجلس أقيم الفرس على يابه. وكان المهر في ذلك اليوم على باب الدار فجاءت الزلزلة، فقام النّاس ليخرجوا من الدار، فلمّا وصلوا مجفّلين إلى الباب ليخرجوا من الدار رمح الفرس رجلاً كان أولهم قتلته، وامتنع النّاس من الخروج، فسقطت الدار عليهم كلّهم، وخربت القلعة وسقط سورها وكلّ بناء فيها، ولم ينج منها إلا الشريد، فبادر إليها بعض أمرائه، وكان بالقرب منها، فملكها وتسلمها نور الدين منه، فملكها وعمر أسوارها ودورها، وأعادها جديدة.

ذكر وفاة الديبسي صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة

كانت الجزيرة لأتابك زنكي، فلما قُتل سنة إحدى وأربعين [وخمسمائة] أقطعها ابنه سيف الدين غازي للأمير أبي بكر الديبسي، وكان من أكابر أمراء والده، بقيت بيده إلى الآن، وتمكّن منها وضار بحيث يتعدّى على قطب الدين أخذها منه، فمات في ذي الحجة سنة إحدى وخمسين، ولم يُخلّف ولداً، فاستولى عليها مملوك له اسمه غلبك، وأطاعه جندها، فحصرهم مودود ثلاثة أشهر ثم تسلمها من غلبك في صفر من سنة ثلاث وخمسين، وأعطاه عوضها إقطاعاً كثيراً. (٢٢٢/١١)

ذكر وفاة السلطان سَنَجَر

في هذه السنة، في ربيع الأول، توفي السلطان سَنَجَر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، أبو الجارث، أصابه قولنج، ثم بعده إسهال، فمات منه. ومولده سينجار، من ديار الجزيرة، في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وسكن خراسان، واستوطن مدينة مَرَوْ، ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد، واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله، فعهد إلى محمد بالسلطنة وجعل سَنَجَر ولي عهد.

فلما مات محمد خُوطب سَنَجَر بالسلطان، واستقام أمره، وأطاعه السلاطين وخُطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة، ولم يزل أمره عالياً وجده مترافياً إلى أن أسره الغز على ما ذكرناه، ثم إنه خلص بعد مدة وجمع إليه أطرافه بمرو، وكاد يعود إليه ملكه، فأدركه أجله. وكان مهيباً كريماً رفيقاً بالرعيّة، وكانت البلاد في زمانه آمنة.

ولما مات دُفن في قبة بناها لنفسه سمّاها دار الآخرة. ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطعت خطبته، ولم يجلس له في الديوان للعزاء.

ولما حضر السلطان سَنَجَر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان

ذكر غزو صاحب طبرستان الإسماعيلية

ملكها رستم بينه وبين أخ له اسمه عليّ تنازع على الملك، وقد قوي رستم، فلما وصل إيثاق إلى مازندران قتل علياً وحمل رأسه إلى أخيه رستم، فعظم ذلك على رستم واشتد استشاط غضباً، وقال: أكل لحمي ولا أطعمه غيري.

ولم يزل إيثاق يتردد في خراسان بالنهب والغارة، لا سيما مدينة أسفرايين فإنه أكثر من قصدها حتى خربت، فراسله السلطان محمود بن محمد والمؤيد يدعوانه إلى الموافقة، فامتنع، فسارا إليه في العسكرة، فلما قارباه اتاهما كثير من عسكره، فمضى من بين أيديهما إلى طبرستان في صفر سنة ثلاث وخمسين [وخمسمائة] فتبعاه في عساكرهما، فأرسل شاه مازندران يطلب الصلح، فأجاباه واصطالحوا، وحمل شاه مازندران أموالاً جليلاً وهدايا نفيسة، وسير إيثاق ابنه رهينة فعاد عنه. (٢٢٧/١١)

ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر الغريزي

كان سنقر الغريزي من أمراء السلطان سنجر، وممن يناوى أيضاً المؤيد أي أبه، فلما اشتغل المؤيد بحرب إيثاق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد إلى هراة ودخلها وبها جماعة من الأتراك وتحصن بها، فأشير عليه بأن يعترض بالملك الحسين ملك الغورية، فلم يفعل، واستبد بنفسه منفرداً لأنه رأى اختلاف الأمراء على السلطان محمود بن محمد، فطمع وحدث نفسه بالقوة، فقصده المؤيد إلى هراة، فلما وصل إليها قاتل من بها شيئاً من قتال، ثم إن الأتراك مالوا إلى المؤيد وأطاعوه، وانقطع خبر سنقر الغريزي من ذلك الوقت، ولم يعلم ما كان منه، فقيل: إنه سقط من فرسه فمات، وقيل: بل اغتاله الأتراك فقتلوه.

وتقدم السلطان محمود إلى ولاية هراة في عساكره وجنوده، والتحق جماعة من عسكر سنقر بالأمير إيثاق، وأغاروا على طوس وقراها، فبطلت الزروع والحراث، واستولى الخراب على البلاد، وعمت الفتن أطراف خراسان، وأصابتهم العين، فلأنهم كانوا أيام السلطان سنجر في أرغد عيش وآمنه، وهذا دأب الدنيا لا يصفو نعيمها وخيرها من كدر وشوائب وأفات، ولما يخلص شرها من خير، نسأل الله أن يحسن لنا العقبي بمحمد وآله.

ذكر ملك نور الدين بعلبك

في هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها، وكانت بيد إنسان يقال له ضحّاك البقاعي، منسوب إلى بقاع بعلبك، وكان قد ولّاه إياها (٢٢٨/١١) صاحب دمشق؛ فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحّاك بها، فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج، فتلطّف الحال معه إلى الآن، فملكها واستولى عليها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قلع الخليفة المقتضي لأمر الله باب الكعبة،

في هذه السنة جمع شاه مازندران رستم بن عليّ بن شهریار عسكره، وسار ولم يعلم أحدًا جهة مقصده، وسلك المضائق، وجد السير إلى بلد الموت، وهي للإسماعيلية، فأغار عليها وأحرق القرى والسواد، وقتل فأكثرو، وغنم أموالهم، وسبى نساءهم، واسترق أبناءهم فباعهم في السوق وعاد سالماً غانماً، واتخذ للإسماعيلية، ودخل عليهم من الوهن ما لم يصابوا بمثله، وخرب من بلادهم ما لا يعمر في السنين الكثيرة. (٢٢٥/١١)

ذكر أخذ حجاج خراسان

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار حجاج خراسان، فلما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية قد قصدوا طبرستان، فأخذوا من أمتعتهم، وقتلوا نفرًا منهم، وسلم الباقون وساروا من موضعهم.

فبينما هم سائرون إذ طلع عليهم الإسماعيلية، فقاتلهم الحجاج قتالاً عظيماً، وصبروا صبراً عظيماً، فقتل أميرهم، فانهزلوا، وألقوا بأيديهم، واستسلموا وطلبوا الأمان، وألقوا أسلحتهم مستأمنين، فأخذهم الإسماعيلية وقتلوه، ولم يبقوا منهم إلا شذمة يسيرة، وقتل فيهم من الأئمة العدول والزهاد والصلحاء جمع كثير، وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الإسلام، وخصت خراسان، ولم يبق بلد إلا وفيه الماتم.

فلما كان الغد طاف شيخ في القتلى والجرحى ينادي: يا مسلمون، يا حجاج، ذهب الملاحدة، وأنا رجل مسلم، فمن أراد الماء سقيته؛ فمن كلمه قتله وأجهز عليه، فهلكوا جميعهم إلا من سلم وولّى هارباً؛ وقليل ما هم.

ذكر الحرب بين المؤيد والأمير إيثاق

قد ذكرنا تقدم الأمير المؤيد أي أبه مملوك السلطان سنجر، وتقدمه على عساكر خراسان، فحسده جماعة من الأمراء منهم الأمير إيثاق، وهو (٢٢٦/١١) من الأمراء السنجرية، وانحرف عنه، وكان تارة يقصد خوارزم شاه، وتارة شاه مازندران، وتارة يظهر للمؤيد، ويظن المخالفة.

فلما كان الآن فارق مازندران ومعه عشرة آلاف فارس، قد اجتمع معه كل من يريد الغارة على البلاد، وكل منحرف عن المؤيد، وقصد خراسان وأقام بنواحي نسا وأبيورد، لا يظهر المخالفة للمؤيد بل يرأسه بالموافقة والمعاضدة له، ويظن ضدها.

وانتقل المؤيد من المكاتب إلى المكافحة، وسار إليه جريدة، فأغار عليه وأوقع به، ففرّق عنه جموعه ونجا بخشاشة نفسه، وغنم المؤيد وعسكره كل ما لإيثاق، ومضى منهزماً إلى مازندران. وكان

ذكر الحرب بين شملة وقايمار السلطاني

في هذه السنة أيضاً كان قتال بين شملة صاحب خوزستان، ومعه ابن مكليه، وبين قايمار السلطاني في ناحية بادرايا، فجمع عسكرهما وساروا إليه، فأتاه الخبر بذلك وهو يشرب، فلم يحفل بذلك، وركب إليهم في نحو ثلاثمائة فارس، وكان معجباً بنفسه، فحمل عليهم واختلط بهم، فأحدقوا به، وقاتل أشد قتال، فانهزم أصحابه، وأخذ هو أسيراً، فسلّمه إنسان تركماني كان له عليه دم، لأنه قتل ابناً للتركماني، فقتله بآبائه وأرسل برأسه إلى محمد شاه.

وأرسل الخليفة عسكراً ليقاتل شملة ومن معه، فانزاحوا من بين أيديهم، ولحقوا بالملك ملكشاه بخوزستان فهلك كثير منهم بالبرد.

ذكر معاودة الغز الفتنه بخراسان

كان الأتراك الغزّة قد أقاموا ببلخ واستوطنوها، وتركوا النهب والقتل ببلاد خراسان، واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان، خاقان محمود بن أرسلان، وكان المتولي لأمر دولته المؤيد أيّ، وعن رأيه يصدر محمود.

فلما كان هذه السنة، في شعبان، سار الغز من بلخ إلى مرو، وكان السلطان محمود بسرّخس في العساكر، فسار المؤيد في طائفة من العسكر (٢٣١/١١) إليهم، فأوقع بطائفة منهم، وظفر بهم، ولم يزل يتبعهم إلى أن دخلوا إلى مرو أوائل رمضان، وغنم من أموالهم، وقتل كثيراً وعاد إلى سرّخس، فاتفق هو والسلطان محمود على قصد الغز وقتالهم، فجمعوا العساكر وحشداً، وساروا إلى الغز، فالتقوا سادس شوال من هذه السنة، وجرت بينهم حرب طال مداها، فبقوا يقتلون [من] يوم الاثنين تاسع شوال إلى نصف الليل من ليلة الأربعاء الحادي عشر من الشهر، توافعوا عدة وقعات متتابعة، ولم يكن بينهم راجعة ولا فنول، إلا لما لا يُبَد منه، انهزم الغز فيها ثلاث دفعات وعادوا إلى الحرب.

فلما أسفر الصبح يوم الأربعاء انكشفت الحرب عن هزيمة عساكر خراسان وتفرقهم في البلاد، وظفر الغز بهم، وقتلوا فأكثروا فيهم، وأما الجرحى والأسرى فأكثروا من ذلك.

وعاد المؤيد ومن سلم معه إلى طوس، فاستولى الغز على مرو، وأحسنوا السيرة، وأكرموا العلماء والأئمة مثل تاج الدين أبي سعيد السمعاني وشيخ الإسلام علي البلخي وغيرهما، وأغاروا على سرّخس، وخربت القرى، وجلا أهلها، وقتل من أهل سرّخس نحو عشرة آلاف قتيل، ونهبوا طوس أيضاً وقتلوا أهلها إلا القليل، وعادوا إلى مرو.

وأما السلطان محمود بن محمد الخان والعساكر التي معه فلم يقدرُوا على المقام بخراسان من الغز، فساروا إلى جرجان ينتظرون

وعمل عوضه باباً مصفحاً بالبقرة المذهبة، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً يُدفن فيه إذا مات.

وفيها توفي محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت أبو بكر الخجندي، رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان، وسمع الحديث بها من أبي علي الحداد، وكان صدوراً مقدماً عند السلاطين، وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض.

ووقعت لموته فتنة عظيمة بأصفهان وقُتل فيها خلق كثير.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد أكلت فيه سائر الدواب، حتى الناس، وكان بنيسابور طبّاح، فذبح إنساناً علوياً وطبخه، وباعه في الطبخ، ثم ظهر عليه أنه فعل ذلك، فقتل. وأسفر الغلاء، وصلحت أحوال الناس.

وفيها توفي القاضي أبو العباس أحمد بن بختيار بن علي المانداي الواسطي قاضيها، وكان قبيها عالماً.

وفيها، في ربيع الآخر، توفي القاضي برهان الدين أبو القاسم منصور ابن أبي سعد محمد بن أبي نصر أحمد الصاعدي قاضي نيسابور، وكان من أئمة الفقهاء الحنفية. (٢٢٩/١١)

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

ذكر الحرب بين سنقر وأرغش

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين سنقر الهمذاني وأرغش المسترشدي، وسببها أن سنقر الهمذاني كان قد نهب سواد بغداد بطريق خراسان، وكثر جمعه، فخرج الخليفة المقتضي لأمر الله، جمادى الأولى، بنفسه يطلبه، فلما وصل إلى بلد اللّحف قال له الأمير خطلبرس: أنا أكفيك هذا المهم، وكان بينه وبين سنقر مودة، فركب إليه، وتلقاه وجرى بينهما عتاب طويل لأجل خروجه عن طاعة الخليفة، فأجاب سنقر إلى الطاعة، وعاد خطلبرس وأصلح حاله مع الخليفة وأقطع له بلد اللّحف له وللأمير أرغش المسترشدي.

فلما توجهوا إلى اللّحف جرى بينهما منازعة، فأراد سنقر قبض أرغش فراه محترزاً، فتحاربا، واقتلا قتالاً شديداً، وغدر بأرغش أصحابه، فعاد منهزماً إلى بغداد، وانفرد سنقر ببلد اللّحف وخطب فيه للملك محمد، فسير من بغداد عسكراً لقتاله مقدمهم خطلبرس، فجرت بينهما حرب شديدة انهزم في آخرها سنقر، وقتلت رجاله، ونهبت أمواله التي [في] العسكر، وسار هو إلى قلعة الماهكي وأخذ ما كان فيها، واستخلف فيها بعض غلمانه، وسار هو إلى همذان، فلم يلتفت إليه الملك محمد شاه، فعاد إلى قلعة الماهكي وأقام بها. (٢٣٠/١١)

ما يكون من الغز، فلمّا دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة أرسل الغزّ إلى السلطان محمود يسألونه أن يحضر عندهم ليملكوه أمرهم، فلم يشقّ بهم وخافهم على نفسه، فأرسلوا (٢٣٢/١١) يطلبون منه أن يرسل ابنه جلال الدين محمداً إليهم ليملكوه أمرهم، ويصدروا عن أمره ونهيه في قليل الأمور وكثيرها، وتردّت الرسل واحتاط السلطان محمود لولده بالعهد والموائيق، وتقرير القواعد، ثم سيّره من جرجان إلى خراسان، فلمّا سمع الأمراء الغزّيّة بقدمه ساروا من مرو إلى طريقه، فالتقوه بنيسابور، وأكرموه وعظموه، ودخل نيسابور، واتّصلت به العساكر الغزّيّة، واجتمعوا عنده في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وخمسمائة.

ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغزّ وعودهم إلى نيسابور

لَمّا عاد الغزّ ومعهم الملك محمد بن محمود الخان إلى نسا وأيوّرد، كما ذكرناه، خرج والده السلطان محمود الخان، وكان هناك فيمن معه من العساكر الخراسانيّة، فاجتمع بهم وأنقذت الكلمة على طاعته، وأراد عمارة البلاد وحفظها، فلم يقدر على ذلك، فلمّا سمع بقرّبهم منه رحل عنها إلى خوف في السادس عشر منه، ووصلوا إليها في الحادي والعشرين منه ونزلوا فيه، وخافهم النّاس خوفاً عظيماً، فلم يفعلوا بهم شيئاً، وساروا عنها في السادس والعشرين منه إلى سَرَخس ومَرُو، وكان بها الفقيه المؤيّد بن الحسين الموقفيّ، رئيس الشافعيّة، وله بيت قديم، وهو من أحفاد أبي سهل الصعلوكيّ، وله مصاهرة إلى بيت أبي المعالي الجوينيّ، وهو المقدّم في البلد والمشار إليه، وله من الاتّباع ما لا يُحصى.

فاتفق أنّ بعض أصحابه قتل إنساناً من الشافعيّة، اسمه أبو الفتح الفستقانيّ خطأ، وأبو الفتح هذا له تعلّق بنقيب العلويّين بنيسابور، وهو ذخر الدين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسينيّ، وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور، فغضب من ذلك وأرسل إلى الفقيه المؤيّد يطلب منه القاتل ليقصّ منه، ويتهدّده إن لم يفعل، فامتنع المؤيّد من تسليمه، وقال: لا مدخل لك مع أصحابنا، إنّما حكمك على الطائفة العلويّين؛ فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه وقصد الشافعيّة، فاجتمعوا له وقاتلوه، فقتل منهم جماعة، ثم إنّ النقيب أحرق سوق العطّارين، وأحرقوا سكّة معاذ أيضاً وسكّة باغ (٢٣٥/١١) ظاهراً، ودار إمام الحرمين أبي المعالي الجوينيّ، وكان الفقيه المؤيّد الشافعيّ بها للصهر الذي بينهم.

وعظمت المصيبة على النّاس كافة، وجمع بعد ذلك المؤيّد الفقيه جموعاً من طُوس وأسفرابين وجُوزين وغيرهم، وقتلوا واحداً من اتّباع النقيب زيد يُعرف بابن الحاجّي الأشثانيّ، فاهمّ العلويّة ومن معهم، فاقتلوا ثامن عشر شوّال من سنة أربع وخمسين [وخمسمائة]، وقامت الحرب على ساق وأحرقت المدارس

ثم إنّ السلطان محموداً سار من جرجان إلى خراسان في الجيوش التي معه من الأمراء السنجريّة، وتخلّف عنه المؤيّد أيّ أبه، فوصل إلى حدود نسا وأيوّرد، وأقطع نسا أمير اسمه عمر بن حمزة النّسوي، فقام في حفظها المقام المرضي، ومنع عنها أيدي المفسدين، وأقام السلطان محمود بظاهر نسا حتى انسلخ جمادى الآخرة من السنة.

ولمّا كان الغزّ بنيسابور هذه السنة أرسلوا إلى أهل طوس يدعونهم إلى الطاعة والموافقة، فامتنع أهل رايكان من إجابتهم إلى ذلك، واغترّوا بسور بلدهم وبما عندهم من الشجاعة والقوّة والعدة الوافرة والذخائر الكثيرة، فقصدها طائفة من الغزّ وحصروهم، وملكوا البلد، وقتلوا فيهم ونهبوا وأكثروا، ثم عادوا إلى نيسابور وساروا مع جلال الدين محمد ابن السلطان محمود الخان إلى بيهق، وحصروا سايزوار سبع عشر جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة، فامتنع أهلها عليهم وقام بأمرهم النقيب عماد الدين عليّ بن محمد بن يحيى العلويّ الحسينيّ، نقيب العلويّين، واجتمعوا معه، ورجعوا إلى أمره ونهيه، ووقفوا عند إشارته، فامتنعوا على الغزّ، وحفظوا (٢٣٣/١١) البلد منهم، وصبروا على القتال.

فلَمّا رأى الغزّ امتناعهم عليهم وقوّةهم أرسلوا إليهم يطلبون الصلح، فاصطلحوا، ولم يُقتل من أهل سايزوار، فسي تلك الحروب، غير رجل واحد، ورحل الملك جلال الدين والغزّ عن سايزوار في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وساروا إلى نسا وأيوّرد.

ذكر أسر المؤيّد وخلاصه

قد ذكرنا أنّ المؤيّد أيّ أبه تخلّف عن السلطان ركن [الدين] محمود بن محمد بجرجان، فلمّا كان الآن سار من جرجان إلى خراسان، فنزل بقرية من قرى خيوشان، اسمها زانك، وبها حصن، فسمع الغزّ بوصله إلى زانك، فساروا إليه وحصروه فيه، فخرج منه هارباً، فرآه واحد من الغزّ، فأخذه، فوعده بمال جزيل إن أطلقه،

محمد شاه يأمره بالكف عن ذلك ليجعله ولياً عهده في الملك، فلم يفعل، ومضى إلى أصفهان، فلما قاربها أرسل رسولاً إلى ابن الخجندی وأعيان البلد في تسليم البلد إليه، فامتنعوا من ذلك، وقالوا: لأخيك في رقابتنا يمين، ولا تغدر به. فحينئذ شرع ملكشاه في الفساد والمصادرة لأهل القرى.

والأسواق والمساجد وكثر القتل في الشافعية، فالتجأ المؤيد إلى قلعة فرخك، وقصّر باع الشافعية عن القتال، ثم اقتضى المؤيد إلى قرية من قرى طوس، وبطلت دروس الشافعية بنيسابور، وخرب البلد وكثر القتل فيه.

ذكر حضر صاحب ختلان ترمذ وعوده وموته

في هذه السنة، في رجب، سار الملك أبو شجاع فرخشاه وهو يزعم أنه من أولاد بهرام جور، وقد تقدّم ذكره أيام كسرى أبرويز، إلى ترمذ وحصرها.

وكان سبب ذلك أنه كان في طاعة السلطان سنجر. فلما خرج عليه الغز طلبه ليحضر معه حربه لهم، فجمع عسكره، وأظهر أنه واصل فيمنّ عنده من العساكر إليه، وأقام ينتظر ما يكون منه، فلما ظفر حضر، وقال له: (٢٣٦/١١) سبقتني بالحرب. وإن كان الظفر للغز قال: إنما تأخرت محبة وإرادة أن تملكوا. فلما انهزم سنجر، وكان ما ذكرناه، بقي إلى الآن، فسار إلى ترمذ ليحصرها، فجمع صاحبها فيروز شاه أحمد بن أبي بكر بن قماج عسكره، ولقيه ليمنعه، فاقبلوا، فانهزم فيروز شاه، ومضى منهزماً لا يلوي على شيء، فأصابه في الطريق قولنج فمات منه.

ذكر عود المؤيد إلى نيسابور وتخريب ما بقي منها

في هذه السنة عاد المؤيد أي أبه إلى نيسابور في عساكره ومعه الإمام المؤيد الموقفي الشافعي الذي تقدّم ذكر الفتنة بينه وبين ذخر الدين نقيب العلويين وخروجه من نيسابور، فلما خرد منها صار مع المؤيد وحضر معه حصار نيسابور، وتحصّن النقيب العلوي بشارستان واشتدّ الخطب وطالت الحرب ومُنكت الدماء وهُتكت الأستار وخربوا ما بقي من نيسابور من الدور وغيرها، وبالع الشافعية ومن معهم في الانتقام فحزبوا المدرسة الصنلانية لأصحاب أبي حنيفة وخربوا غيرها وحصروا قهنلر، وهذه الفتنة استأصلت نيسابور، ثم رحل المؤيد أي أبه عنها إلى يهق في شوال من سنة أربع وخمسين وخمسمائة. كان ينبغي أن تكون هذه الحوادث الغزوة الواقعة في سنة أربع وخمسين المذكورة في سستها وإنما قدّمناها هاهنا وذكرناها هاهنا ليلو بعضها بعضاً فيكون أحسن لسياقتها. (٢٣٧/١١)

ذكر ملك ملكشاه خوزستان

في هذه السنة ملك ملكشاه ابن السلطان محمود بلد خوزستان وأخذه من شملة التركماني، وسبب ذلك أن الملك محمد ابن السلطان محمود لما عاد من حصار بغداد، كما ذكرناه، مرض وبقى مريضاً بهمدان، ومضى أخوه ملكشاه إلى قم وقاشان وما والاها، فنهبا جميعها، وصادر أهلها وجمع أموالاً كثيرة، فراسله أخوه

فلما سمع محمد شاه الخبر سار عن همدان، وعلى مقدمته كُرد بازوه الخادم، ففترقت جموع ملكشاه فانهزم إلى بغداد، فلم يتبعه محمد شاه لمرضه، فنزل ملكشاه عند قرمسين، فلحق به قويدان، وكان قد فارق المقضي لأمر الله، واتفق مع سُقّر الهمداني، فلحق كلاهما به، وحسبنا له قصد بغداد، فسار عن بلد خوزستان إلى واسط، ونزل بالجانب الشرقي، وهم على غاية الضّر من الجوع والبرد، فنهوا القرى نهياً فاحشاً، ففتح بقى تلك الناحية ففرق منهم كثير، ونجا ملكشاه ومن سَلِم معه، وساروا (٢٣٨/١١) إلى خوزستان، فمنعه شملة من العبور، فراسله ليتمكن من العبور إلى أخيه الملك محمد شاه، فلم يجبه إلى ذلك، وكتاب حينئذ الأكراد الكر الذين هناك، واستدعاهم إليه، ففرحوا به، ونزل إليه من تلك الجبال خلق كثير، فطاعوه، فرحل ونزل على كرخايا، وطلب من شملة الحرب، فألّا له شملة القول، وقال: أنا أخطب لك وأكون معك، فلم يقبل منه، فاضطرّ شملة إلى الحرب، فجمع عسكره وقصده، فلقبه ملكشاه ومعه سُقّر الهمداني وقويدان، وغيرهما من الأمراء، فاقبلوا، فانهزم شملة، وقُتل كثير من أصحابه، وصعد إلى قلعة دُنْدُزِين، وملك ملكشاه البلاد، وجبى الأموال الكثيرة وأظهر العدل وتوجّه إلى أرض فارس.

ذكر الحرب بين التركمان والإسماعيلية بخراسان

كان بنواحي قهستان طائفة من التركمان، فنزل إليهم جمع من الإسماعيلية من قلاعهم، وهم ألف وسبعائة، فأوقعوا بالتركمان، فلم يجدوا الرجال، وكانوا قد فارقوا بيوتهم، فنهبوا الأموال، وأخذوا النساء والأطفال، وأحرقوا ما لم يقدروا على حمله.

وعاد التركمان فأروا ما فعل بهم، فاتبعوا أثر الإسماعيلية، فأضروهم وهم يقتسمون الغنيمة، فكبروا وحملوا عليهم، ووضعوا فيهم السيف، فقتلوه كيف شاؤوا، فانهزم الإسماعيلية وتبعهم التركمان حتى أفنوهم قتلاً وأسراً، ولم ينج إلا تسعة رجال.

(٢٣٩/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثر فساد التركمان أصحاب برجم الإيواني بالجيل، فسار إليهم من بغداد عسكر مقدمهم منكبرس المسترشدي، فلما قاربهم اجتمع التركمان، فالتقوا واقتتلوا هم ومنكبرس، فانهزم التركمان أقبح هزيمة، وقُتل بعضهم، وأسر

وبعض، وحملت الرؤوس والأسارى إلى بغداد.
وفيها حجَّ النَّاسُ، فلمَّا وصلوا إلى مدينة النبي ﷺ أتاهم الخبر أن العرب قد اجتمعت لتأخذهم، فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر، فوجدوا مشقة شديدة، ونجوا من العرب.
وفيها توفي الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحراني، ومولده بخران سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وأقام ببغداد وكثر ماله وصدقاته أيضاً، وكان يقرأ القرآن، وهو والد ظهير الدين الذي حكم في دولة المستضيء بأمر الله على ما نذكره إن شاء الله.

وفيها توفي أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي ببغداد، وهو سيجزي الأصل، هروي المنشأ، وكان قدم إلى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة يريد الحج، فسمع الناس بها عليه صحيح البخاري، وكان عالي الإسناد، فتأخر لذلك عن الحج، فلمَّا كان هذه السنة عزم على الحج فمات.

وفيها توفي يحيى بن سلامة بن الحسن بن محمد أبو الفضل الحنكفي الأديب بميفارقين، وله شعر حسن ورسائل جيدة مشهورة، وكان يشيع ومولده بطنزة، فمن شعره: (٢٤٠/١١)
وخليلٌ بئسَ اعْدَلُّهُ ورى عَنِّي مِنَ التَّبَسُّ
قُلْتُ: إِنَّ الْخَمْرَ مَخْبِيَةٌ قَالَ: حَاشَاها مِنَ الْخَبَرِ
قُلْتُ: فَالْأَرْبَابُ تَبْهَمُهَا قَالَ: طَيْبُ الْمَيْثِ فِي الرَّثْرِ
قُلْتُ: مِنْهَا الْقِيءُ، قَالَ: أَجَلُ شَرَفْتُ عَنْ مَخْرَجِ الْخَدْرِ
وَسَأَلُوها، فَقُلْتُ: مَنْ؟ قَالَ: عِنْدَ الْكَوْنِ فِي الْجَدْرِ

وقدم بين يديه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي الذي كان صاحب المهديَّة وإفريقية، وقد ذكرنا سبب مصيره عند عبد المؤمن، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة، وبها صاحبها أحمد بن خراسان، وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شيناً وطريدة وشلندي، فلمَّا نازلها أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته، فاستمعوا، فقاتلهم من الغد أشد قتال، فلم يبق إلا أخذها، ودخول الأسطول إليها، فجاءت ريح عاصف منعت الموحدَّين من دخول البلد، فرجعوا ليأكروا القتال ويملكوه.

وقدم بين يديه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي الذي كان صاحب المهديَّة وإفريقية، وقد ذكرنا سبب مصيره عند عبد المؤمن، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة، وبها صاحبها أحمد بن خراسان، وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شيناً وطريدة وشلندي، فلمَّا نازلها أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته، فاستمعوا، فقاتلهم من الغد أشد قتال، فلم يبق إلا أخذها، ودخول الأسطول إليها، فجاءت ريح عاصف منعت الموحدَّين من دخول البلد، فرجعوا ليأكروا القتال ويملكوه.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

ذكر مُلك عبد المؤمن مدينة المهديَّة من الفرنج وملكه جميع إفريقية

قد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة مُلك الفرنج مدينة المهديَّة من صاحبها الحسن بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، وذكرنا أيضاً سنة إحدى وخمسين ما فعله الفرنج بالمسلمين في زويلة المدينة المجاورة للمهديَّة من القتل والنهب، فلمَّا قتلهم الفرنج، ونهبوا أموالهم، هرب منهم جماعة وقصدوا عبد المؤمن صاحب المغرب، وهو بمراكش، يستجيرونه، فلمَّا وصلوا إليه ودخلوا عليه أكرمهم، وأخبروه بما جرى على المسلمين، وأنه ليس في ملوك الإسلام من يقصد سواه، ولا يكشف هذا الكرب غيره، فدمعت عيناه وأطرق، ثم رفع رأسه وقال: أبشروا، لأنصركم ولو بعد حين.

لأخذوا أكثرها، وكان أمراً عجيماً، وفتحاً قريباً.

وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً، وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ويش أهل المهدية حيثنؤ من النجدة، وصبروا على الحصار ستة أشهر إلى (٢٤٥/١١) آخر شهر ذي الحجة من السنة، فنزل حيثنؤ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة، وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم، وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل، فعرض عليهم الإسلام، ودعاهم إليه، فلم يجيبوا، ولم يزالوا يترددون إليه آثاماً واستعطفوه بالكلام اللين، فأجابهم إلى ذلك، وأنتهم وأعطاهم سفناً فركبوا فيها وساروا، وكان الزمان شتاء، ففرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صقلية إلا النفر اليسير.

وكان صاحب صقلية قد قال: إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية، وأخذنا حُرْمهم وأموالهم، فأهلك الله الفرنج غرقاً، وكانت مدة ملكهم المهدية اثني عشرة سنة.

ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وسلمها عبد المؤمن سنة الأخماس، وأقام بالمهدية عشرين يوماً، فرتب أحوالها، وأصلح ما اتلسم من سورها، ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعُد، واستعمل عليها بعض أصحابه، وجعل معه الحسن بن علي الذي كان صاحبها، وأمره أن يقتدي براهيه في أفعاله، وأقطع الحسن بها أقطاعاً، وأعطاه ذوراً نفيسة يسكنها، وكذلك فعل بأولاده، ورجل من المهدية أول صفر من السنة إلى بلاد الغرب.

ذكر إيقاع عبد المؤمن بالغرب

لما فرغ عبد المؤمن من أمر المهدية وأراد العود إلى الغرب جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بإفريقية، وقال لهم: قد وجبت علينا نصره (٢٤٦/١١) الإسلام، فإن المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس، واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين، وما يقاتلهم أحد مثلكم، فيكم فتح البلاد أول الإسلام، وبكم يُدفع عنها العدو الآن، ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله، فأجابوا بالسمع والطاعة، فحلفهم على ذلك بالله تعالى، وبالمصحف، فحلفوا، ومشوا معه إلى مضيق جبل زغوان.

وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك، وهو من أمرائهم ورؤوس القبائل فيها، فجاء إلى عبد المؤمن بالليل وقال له سرّاً: إن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس، وقالوا: ما غرضه إلا إخراجنا من بلادنا، وإنهم لا يفون بما حلفوا عليه. فقال: ياخذ الله، عز وجل، الغادر، فلما كانت الليلة الثانية هربوا إلى عسائهم،

البلاد ما يخرج عن الإحصاء، وأقبلوا يقاتلون المهدية مع الأيام، فلا يؤثر فيها لخصائنها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها، لأن البحر دائر بأكثرها، فكانها كف في البحر، وزندما متصل بالبر.

وكانت الفرنج تخرج شجعانهم إلى أطراف العسكر، قتال منه وتعود سريعاً، فأمر عبد المؤمن أن ينشئ سور من غرب المدينة يمنعهم من الخروج، وأحاط الأسطول بها في البحر، وركب عبد المؤمن في شين، ومعه الحسن ابن علي الذي كان صاحبها، وطاف بها في البحر، فهاله ما رأى من حصانها، وعلم أنها لا تفتح بقتال برّاً ولا بحراً، وليس لها إلا المطاولة، وقال للحسن: كيف نزلت عن مثل هذا الحصن؟ فقال: لقلة من يوثق به، وعدم القوت، وحكم القدر. فقال: صدقت! وعاد من البحر، وأمر بجمع الغلات والأقوات وترك القتال، فلم يمض غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير، فكان من يصل إلى العسكر من بعيد يقولون: متى حدثت هذه الجبال هاهنا؟ فيقال لهم: هي حنطة وشعير. فيعجبون من ذلك.

وتمادى الحصار، وفي مدته أطاع سفاقت عبد المؤمن، وكذلك مدينة طرابلس، وجبال نفوسة، وقصور إفريقية وما والاها، وفتح مدينة قابس بالسيف، وسير ابنه أبا محمد عبد الله في جيش ففتح بلاداً، ثم إن أهل مدينة (٢٤٤/١١) قفصة لما رأوا تمكن عبد المؤمن أجمعوا على المبادرة إلى طاعته، وتسليم المدينة إليه، فتوجه صاحبها يحيى بن تميم بن المعز، ومعه جماعة من أعيانها، وقصدوا عبد المؤمن، فلما علمه حاجبه بهم قال له عبد المؤمن: قد اشتبه عليك، ليس هؤلاء أهل قفصة. فقال له: لسم يشبه علي. قال له عبد المؤمن: كيف يكون ذلك والمهدي يقول إن أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها، ومع هذا فتقبل منهم ونكف عنهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فأرسل إليهم طائفة من أصحابه، ومدحه شاعر منهم بقصيدة أولها:

ما هو عطف بين السيف والأسل
مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي
فوصله بألف دينار، ولما كان في الثاني والعشرين من شعبان من السنة جاء أسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شيناً غير الطرائد، وكان قدومه من جزيرة يابسة من بلاد الأندلس وقد سبى أهلها وأسره وحملهم معه، فأرسل إليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمجيء إلى المهدية، فقدموا في التاريخ، فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء، فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن، وركب العسكر جميعه، ووقفوا على جانب البحر، فاستعظم الفرنج ما راوه من كثرة العساكر، ودخل الرعب قلوبهم، وبقي عبد المؤمن يمتدح وجهه على الأرض، ويكي ويدعو للمسلمين بالنصر، واقتتلوا في البحر، فانهزمت شواني الفرنج، وأعادوا القلوع، وتبعهم المسلمون، فأخذوا منهم سبع شوان، ولو كان معهم قلوع

ودخلوا البرّ، ولم يبقَ منهم إلا يوسف بن مالك، فسمّا عبد المؤمن يوسف الصادق.

ولم يحدث عبد المؤمن في أمرهم شيئاً، وسار مغرباً بحث السير حتى قرب من القسنطينة، فنزل في موضع مخصب يقال له: وادي النساء، والفصل ربيع، والكلّ مستحسن، فأقام به وضبط الطرق، فلا يسير من العسكر أحد البتّة، ودام ذلك عشرين يوماً، فبقى النّاس في جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبراً مع كثرة وعظمه، ويقولون: ما أزعجه إلا خيرٌ وصله من الأندلس، فحثّ لأجله السيرو، فعادت العرب الذين جفلوا منه من البريّة إلى البلاد لما أمّنوا جانبه، وسكنوا البلاد التي ألفوها، واستقرّوا في البلاد.

فلما علم عبد المؤمن برجوعهم جهّز إليهم ولذّيّه أبا محمّد وأبا عبد الله في ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحّدين وشجعانهم، فجذبوا السير، وقطعوا المفاوز، فما شعر العرب إلا والجيش قد أقبل بقنّة من ورائهم، من جهة (٢٤٧/١١) الصحراء، لينمعوهم الدخول إليها إن راموا ذلك.

وكانوا قد نزلوا جنوباً من القنّيروان عند جبل يقال له جبل القرن، وهم زهاء ثمانين ألف بيت، والمشاهير من مقدّمهم: أبو محفوظ مخرز بن زيّاد، ومسعود بن زمام، وجبّارة بن كامل وغيرهم، فلما أطلّت عساكر عبد المؤمن عليهم اضطربوا، واختلفت كلمتهم، ففرّ مسعود وجبّارة بن كامل ومن معهما من عشايرهما، وثبت محرز بن زيّاد، وأمرهم بالثبات والقتال، فلم يلتفتوا إليه، فثبت هو ومن معه من جمهور العرب، فناجزهم الموحّدون القتال في العشر الأوسط من ربيع الآخر من السنة، وثبت الجمعان، واشتدّ العراك بينهما وكثر القتل، فانفق أن محرز بن زيّاد قُتل، وورّع رأسه على رمح، فانهزمت جموع العرب عند ذلك، وأسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال، وحمل جميع ذلك إلى عبد المؤمن وهو بذلك المنزل، فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائح، وحملهنّ معه تحت الحفظ والبرّ والصيانة إلى بلاد الغرب، وفعل معهنّ مثل ما فعل في حريم الأبيّج.

ثمّ أقبلت إليه وفود رياح مهاجرين في طلب حريمهم كما فعل الأبيّج، فأجمل الصنيع لهم، وردّ الحريم إليهم، فلم يبقَ منهم أحدٌ إلا صار عنده. وتحت حكمه، وهو يخفض لهم الجناح ويبدل فيهم الإحسان، ثمّ إنّه جهّزهم إلى تغور الأندلس على الشرط الأوّل، وجُمعت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل القرن، فبقيت دهرًا طويلاً كاتلّ العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد، وبقيت إفريقية مع نواب عبد المؤمن آمنة ساكنة لم يبقَ فيها من أمراء العرب خارجاً عن طاعته إلا مسعود بن زمام، وطاففته في أطراف البلاد. (٢٤٨/١١)

ذكر غرق بغداد

في هذه السنة، ثامن ربيع الآخر، كثرت الزيادة في دجلة، وخرق القورج فوق بغداد، وأقبل المدّ إلى البلد، فامتلات الصحاري وخنق البلد، وأفسد الماء السور ففتّح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر، فوقع بعض السور عليها فسُدّها، ثمّ فتح الماء فتحة أخرى، وأهملوها ظناً أنّها تنفّس عن السور لئلا يقع، فقلب الماء، وتعدّر سدّه، فغرق قراح طفرّ، والأجمنّة، والمُخشّارة، والمُقتديّة، وذرب القبار، وخرابة ابن جردة، والريّان، وقراح القاضي، وبعض القطيعية، وبعض باب الأرج، وبعض المأمونيّة، وقراح أبي الشّحم، وبعض قراح ابن رزين، وبعض الطّفريّة.

ودبّ الماء تحت الأرض إلى أماكن فوقعت وأخذ النّاس يعبرون إلى الجانب الغربيّ، فبلغت المعبرة عدّة دنائير، ولم يكن يقدر عليها، ثمّ نقص الماء وتهدّم السور وبقي الماء الذي داخل السور يدبّ في المحالّ التي لم يركبها الماء، فكثرت الخراب، وبقيت المحالّ لا تعرف إنّما هي تلوّن، فأخذ النّاس حدود دورهم بالتخمين.

وأما الجانب الغربيّ ففرقت فيه مقبرة أحمد بن حنّبل وغيرها من المقابر، وانخسفت القبور المنيّة، وخرج الموتى على رأس الماء، وكذلك المشهد والحريّة، وكان أمراً عظيماً. (٢٤٩/١١)

ذكر عود سُقّر الهمذانيّ إلى اللّحف وإنهزامه

في هذه السنة عاد سُقّر الهمذانيّ إلى إقطاعه، وهو قلعة الماهكيّ وبلد اللّحف، وكان الخليفة قد أقطعه للأمير قايماز العميديّ، ومعه أربعمائة فارس، فأرسل إليه سُقّر يقول له: ارحل عن بلدي. فامتنع، فسار إليه، وجري بينهما قتال شديد انهزم فيه العميديّ، ورجع إلى بغداد بأسوا حال.

فبرز الخليفة، وسار في عساكره إلى سُقّر، فوصل إلى النعمانيّة وسير العساكر مع ترشك ورجع إلى بغداد، ومضى ترشك نحو سُقّر الهمذانيّ، فتوغّل سُقّر في الجبال هارباً، ونهب ترشك ما وجد له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك، وأسر وزيره، وقتل من رأى من أصحابه، ونزل على الماهكي وحصرها أياماً، ثمّ عاد إلى البندنجين، وأرسل إلى بغداد بالباشارة.

وأما سُقّر فإنّه لحق بملكشاه فاستجده، فسير معه خمس مائة فارس، فعاد ونزل على قلعة هناك، وأفسد أصحابه في البلاد، وأرسل ترشك [إلى] بغداد يطلب نجدة، فجاءته، فأراد سُقّر أن يكبس ترشك، فعرف ذلك، فاحترز، فعُدل سُقّر إلى المخادعة، فأرسل رسولاً إلى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة، فاحتبس ترشك الرسول عنده وركب فيمن خفّ من أصحابه،

ذكر أخذ حرّان من نور الدين وعودها إليه

في هذه السنة مرض نور الدين محمود بن زنكي، صاحب حلب، مرضاً شديداً وأرجف بموته، وكان بقلعة حلب، ومعه أخوه الأصغر أمير أميران، فجمع الناس وحضر القلعة. وكان شيركوه، وهو أكبر أمرائه، بخص، فبلغه خبر موته، فسار إلى دمشق ليتغلب عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب، (٢٥٢/١١) فأنكر عليه أيوب ذلك وقال: أهلكنا! والمصلحة أن تعود إلى حلب، فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت، وإن كان قد مات فإننا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها، فعاد إلى حلب مُجِداً، وصعد القلعة، واجلس نور الدين في شبّاك يراه الناس، وكلمهم، فلمّا راوه حياً تفرّقوا عن أخيه أمير أميران، فسار إلى حرّان فملكها.

فكسب سُقراً ليلاً، فانهزم هو وأصحابه، وكثر القتل فهم، وغنم ترشك أموالهم ودوابهم وكلّ ما لهم ونجا سُقراً جريحاً. (٢٥٠/١١)

ذكر الفتنة بين عمّامة استرأباد

في هذه السنة وقع في استرأباد فتنة عظيمة بين العلويين ومن يتبعهم من الشيعة وبين الشافعية ومن معهم. وكان سببها أن الإمام محمداً الهروي وصل إلى استرأباد، فعقد مجلس الوعظ، وكان قاضيا أبو نصر سعد بن محمد بن إسماعيل النعمي شافعي المذهب أيضاً، فثار العلويون ومن يتبعهم من الشيعة بالشافعية ومن يتبعهم باسترأباد، ووقعت بين الطائفتين فتنة عظيمة انتصر فيها العلويون، فقتل من الشافعية جماعة، وضرب القاضي ونهبت داره ودور من معه، وجرى عليهم من الأمور الشنيعة ما لا حدّ عليه.

فسمع شاه مازندران الخبر فاستعظمه، وأنكر على العلويين فعلهم، وبالح في الإنكار مع أنه شديد التشيع، وقطع عنهم جريات كانت لهم، ووضع الجبايات والمصادرات على العمّة، فتفرّق كثير منهم وعاد القاضي إلى منصبه وسكنت الفتنة.

ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه

في هذه السنة، في ذي الحجة، توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد وهو الذي حاصر بغداد طالباً السلطنة وعاد عنها، فأصابه سلّ، وطال به، فمات بباب همدان، وكان مولده في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة. (٢٥١/١١)

فلما حضره الموت أمر العساكر فركبت وأحضر أمواله وجواهره وحظاياه ومماليكه، فنظر إلى الجميع من طيارة تُشرف على ما تحتها، فلمّا رآه بكى، وقال: هذه العساكر والأموال والممالك والسراري ما أرى يدفعون عني مقدار ذرة، ولا يزيدون في أجلي لحظة. وأمر بالجميع فرفع بعد أن فرّق منه شيئاً كثيراً.

وكان حليماً كريماً عاقلاً كثير التأمّن في أموره، وكان له ولد صغير، فسلمه إلى آتسفر الأحمدلي وقال له: أنا أعلم أن العساكر لا تطيع مثل هذا الطفل، وهو وديعة عندك، فأرحل به إلى بلادك، فرحل إلى مراغة، فلمّا مات اختلفت الأمراء، فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه، وطائفة طلبوا سليمان شاه، وهم الأكثر، وطائفة طلبوا أرسلان الذي مع إيلدكز؛ فأما ملكشاه فإنه سار من خوزستان، ومعه دكلا صاحب فارس، وشملة التركماني وغيرهما، فوصل إلى أصفهان، فسلمها إليه ابن الخجندي، وجمع له مالا أثقفه عليه، وأرسل إلى العساكر بهمدان يدعوهم إلى طاعته، فلم يجيبوه لعدم الاتفاق بينهم، ولأن أكثرهم كان يريد سليمان شاه.

فلما عوفي نور الدين قصد حرّان ليخلصها، فهرب أخوه منه، وترك أولاده بحرّان في القلعة، فملكها نور الدين، وسلمها إلى زين الدين علي نائب أخيه قطب [الدين]، صاحب الموصل، ثم سار نور الدين بعد أخذ حرّان إلى الرقّة، وبها أولاد أميرك الجاندار، وهو من أعيان الأمراء، وقد توفي وبقي أولاده، فنازلها، فشفع جماعة من الأمراء فيهم، فغضب من ذلك، وقال: هلاً شغفتم في أولاد أخي لما أخذت منهم حرّان، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إليّ! فلم يشفعهم وأخذها منهم.

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة مرض الخليفة المقتني لأمر الله، واشتدّ مرضه، وتوفي فضربت البشائر ببغداد، وفترت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة، وعلّق البلد أسبوعاً.

وفيها عاد ترشك إلى بغداد، ولم يشعر به أحدٌ إلا وقد ألقى نفسه تحت التاج ومعه سيف وكفن، وكان قد عضى على الخليفة والتحق بالمعجم، فعاد الآن فرضي عنه، وأذن له في دخول دار الخلافة وأعطى مالا. (٢٥٣/١١)

وفيها، في جمادى الأولى، أرسل محمد بن أنز صاحب قهستان عسكرياً إلى بلد الإسماعيلية ليأخذ منهم الخراج الذي عليهم، فنزل عليهم الإسماعيلية من الجبال، فقتلوا كثيراً من العسكر، وأسروا الأمير الذي كان مقدماً عليهم اسمه قبة، وهو صهر ابن أنز، فبقي عندهم أسيراً عدة شهور، حتى زوج ابنته من رئيس الإسماعيلية علي بن الحسن، وخلص من الأسر.

وفيها توفي شرف الدين علي بن أبي القاسم متصوّر بن أبي سعد الصاعدي قاضي نيسابور في شهر رمضان، وكان موته بالرّي، ودُفن في مقبرة محمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي خنيفة، رضي الله عنهما، وكان القاضي حفيّاً أيضاً. (٢٥٤/١١)

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

ذكر مسير سليمان شاه إلى همدان

في أوائل هذه السنة سار سليمان شاه من الموصل إلى همدان ليتولّى السلطنة، وقد تقدّم سبب قبضه وأخذه إلى الموصل.

وسبب مسيرة إليها أن الملك محمدًا ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما مات أرسل أكابر الأمراء من همدان إلى أتابك قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، يطلبون منه إرسال الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه إليهم ليتولّوه السلطنة، فاستقرّت القاعدة بينهم أن يكون سليمان شاه سلطانًا وقطب الدين أتابكهم، وجمال الدين وزير قطب الدين وزيراً للملك سليمان شاه، وزين الدين عليّ أمير العساكر الموصلية مقدّم جيش سليمان شاه، وتحالفوا على هذا، وجّهز سليمان شاه بالأموال الكثيرة والبَرَك والدواب والآلات وغير ذلك ممّا يصلح للسلطين، وسار معه زين الدين عليّ في عسكر الموصل إلى همدان.

فلما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر إليهم إرسالاً كل يوم ليقاء طائفة وأمير، فاجتمع مع سليمان شاه عسكرٌ عظيم، فخافهم زين الدين على نفسه لأنّه (٢٥٥/١١) رأى من تسلّطهم على السلطان واطّراحهم للأدب معه ما أوجب الخوف منه، فعاد إلى الموصل، فحين عاد عنه لم ينظم أمره، ولم يتمّ له ما أراد، وقبض العسكر عليه بباب همدان في شوال سنة ست وخمسين [وخمسمائة]، وخطبوا لأرسلان شاه ابن الملك طغرل، وهو الذي تزوّج إيلدكز بأمّه، وسيذكر مشروحاً إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويّين

في هذه السنة، في صفر، توفيّ الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر، صاحب مصر، وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين وكان له لما وليّ خمس سنين، كما ذكرناه. ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر، واستدعى خادماً كبيراً، وقال له: من هاهنا يصلح للخلافة؟ فقال: هاهنا جماعة؛ وذكر أسماءهم، وذكر له منهم إنساناً كبير السنّ، فأمر بإحضاره، فقال له بعض أصحابه سرّاً: لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبّار واستبدّ بالأمير؛ فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه، وأمر حينئذٍ بإحضار العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان العاضد ذلك الوقت مرافقاً قارب البلوغ، فبايع له بالخلافة، وزوّجه الصالح ابنته، ونقل معها من الجهاز ما لا يُسمع بمثلها، وعاشت بعد موت العاضد وخروج الأمر من العلويّين إلى الأتراك وتزوّجت. (٢٥٦/١١)

ذكر وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله وشيء من سيرته

في هذه السنة، ثاني ربيع الأوّل، توفيّ أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، رضي الله عنه، بعلة التراقي. وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأمّه أم ولد تدعى ياعي. وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستّة عشر يوماً، ووافق أباه المستظهر بالله في علة التراقي وماتاً جميعاً في ربيع الأوّل.

وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوي الرأي والعقل الكثير. وهو أوّل من استبدّ بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أوّل أيام الديلم إلى الآن، وأوّل خليفة تمكّن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكّم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن، إلا أن يكون المعتضد، وكان شجاعاً مقداماً مبشراً للحروب بنفسه، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء.

ذكر خلافة المستنجد بالله

وفي هذه السنة بويح المستنجد بالله أمير المؤمنين، واسمه يوسف، وأمّه أم ولد تدعى طأووس، بعد موت والده. وكان للمقتفي حظّة، وهي أمّ (٢٥٧/١١) ولده أبي عليّ، فلما اشتدّ مرض المقتفي وأبست منه أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة لتساعدوها على أن يكون ولدها الأمير أبو عليّ خليفة. قالوا: كيف الحيلة مع وليّ العهد؟ فقالت: إذا دخل على والده قبضت عليه. وكان يدخل على أبيه كلّ يوم. فقالوا لا بُدّ لنا من أحد من أرباب الدولة، فوقع اختيارهم على أبي المعالي ابن الكيا الهراسي، فدعوه إلى ذلك، فاجابهم على أن يكون وزيراً، فبذلوا له ما طلب.

فلما استقرّت القاعدة بينهم وعلمت أمّ أبي عليّ أحضرت عدّة من الجوّاري وأعطتهنّ السكاكين، وأمرتهنّ بقتل وليّ العهد المستنجد بالله. وكان له خصي صغير يرسله كلّ وقت يتعرّف أخبار والده، فرأى الجوّاري بأيديهنّ السكاكين، ورأى بيد أبي عليّ وأمّه سيفين، فعاد إلى المستنجد فأخبره. وأرسلت هي إلى المستنجد تقول له إن والده قد حضره الموت ليحضر وشاهده، فاستدعى أستاذ الدار عضد الدين وأخذه معه وجماعه من الفرّاشين، ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف، فلما دخل ثار به الجوّاري، فضرب واحدة منهنّ فجرحها، وكذلك أخرى، فصاح ودخل أستاذ الدار ومعه الفرّاشون، فهرب الجوّاري، وأخذ أخاه أبا عليّ وأمّه فسجنهما، وأخذ الجوّاري فقتل منهن، وغرّق منهنّ ودفع الله عنه.

عاقبة ما صنعوا فأكثروا القتل فيهم وخرّبوا حصنهم.

وسار المؤيد من نيسابور إلى نيهق، فوصلها رابع عشر ربيع الآخر من السنة، وقصد منها حصن خسروجرذ، وهو حصن منيع بناء كيخسرو الملك قبل فراغه من قتل أفراسياب، وفيه رجال شجعان، فامتنعوا على المؤيد، فحصرهم ونصب عليهم المجانيق، وجذب في القتال، فصبر أهل الحصن حتى نفذ صبرهم، ثم ملك المؤيد القلعة وأخرج كل من فيها [ورتب فيها] من يحفظها، وعاد منها إلى نيسابور في الخامس والعشرين (٢٦٠/١١) من جمادى الأولى من السنة.

ثم سار إلى هرة، فلم يبلغ منها غرضاً، فعاد إلى نيسابور، وقصد مدينة كندر، وهي من أعمال طرثيث، وقد تغلب عليها رجل اسمه أحمد كان خربندة، واجتمع معه جماعة من الرند وقطاع الطريق والمفسدين، فخرّبوا كثيراً من البلاد، وقتلوا كثيراً من الخلق، وغنموا من الأموال ما لا يحصى.

وعظمت المصيبة بهم على خراسان وزاد البلاء، فقصدهم المؤيد، فتحصّنوا بالحصن الذي لهم، فقتلوا أشد قتال، ونصب عليهم القرايات والمجنقيات، فأذعن هذا الخربندة أحمد إلى طاعة المؤيد والانخراط في سلك أصحابه وأشياعه، فقبله أحسن قبول، وأحسن إليه وأنعم عليه.

ثم إنه عصى على المؤيد، وتحصّن بحصنه، فأخذه المؤيد منه قهراً وعتوه، وقبذه، واحتاط عليه، ثم قتله وأراح المسلمين منه ومن شره وفساده.

وقصد المؤيد في شهر رمضان ناحية نيهق عازماً على قتالهم لخروجهم عن طاعته، فلما قاربها أتاه زاهد من أهلها ودعاه إلى العفو عنهم والحلم عن ذنوبهم، ووعظه وذكره، فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم، فأرسل السلطان ركن الدين محمود بن محمد الخندان إلى المؤيد بتقرير نيسابور وطوس وأعمالها عليه، ورد الحكم فيها إليه، فعاد إلى نيسابور رابع ذي القعدة من السنة، وفرح الناس بما تقرر بينه وبين الملك محمود وبين الغز من إبقاء نيسابور عليه ليزول الخلف والفتن عن الناس. (٢٦١/١١)

ذكر الحرب بين شاه مازندران وبيغرخان

لما قصد بيغرخان الغز وتوسّل إليهم ليضروه على إيثاق لظنه أنه هو الذي حسن للخوارزمية قصده، أجابوه إلى ذلك، وساروا معه على طريق نسا وأبيورد، ووصلوا إلى الأمير إيثاق فلم يجد لنفسه بهم قوة، فاستنجد شاه مازندران، فجاءه معه من الأكراد والديلم والأتراك والتركمان الذين يسكنون نواحياً أبسكون جمع كثير، فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم، وانهمز الأتراك الغزية والبرزية

فلما توفي المقتني لأمر الله جلس للبيعة، فبايعه أهله وأقاربه، وأولهم عمه أبو طالب، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتني، وكان أكبر من المستنجد، ثم بايعه الوزير ابن هبيرة، وقاضي القضاة، وأرباب الدولة والعلماء، وخطب له يوم الجمعة، وتثرت الدنانير والدراهم. (٢٥٨/١١)

حكى عنه الوزير عون الدين بن هبيرة أنه قال: رايت رسول الله ﷺ في المنام منذ خمس عشرة سنة، وقال لي: يبقى أبوك في الخلافة خمس عشرة سنة فكان كما قال، ﷺ. قال: ثم رأيته قبل موت أبي المقتني بأربعة أشهر، فدخل بي في باب كبير، ثم ارتقى إلى رأس جبل، وصلى بي ركعتين، ثم البسني قميصاً، ثم قال لي: قل اللهم أهدي فيمن هديت؛ وذكر دعاء المقتن.

ولما ولي الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم، وأزال المكوس والضرائب، وقبض على القاضي ابن المرحم. وقال: وكان يشس الحاكم، وأخذ منه مالا كثيراً، وأخذت كتبه فأحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة، فكان منها: كتاب الشفاء لابن سينا، وكتاب أخوان الصفا، وما شاكلهما، وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء، وكان أستاذ الدار يمكنه، وتقدّم إلى الوزير أن يقوم له، وعزل قاضي القضاة أبا الحسن علي بن أحمد الدامغاني، ورتب مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي وخلع عليه.

ذكر الحرب بين عسكر خوارزم والأتراك البرزوية

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار طائفة من عسكر خوارزم إلى أجيح، وهجموا على بيغرخان بن أودك ومن معه من الأتراك البرزوية، فأوقعوا بهم، وأكثروا القتل، فانهزم بيغرخان، وقصد السلطان محمود بن محمد الخان [والأتراك الغزية الذين معه وتوسّل إليهم بالقرابة، وظن (٢٥٩/١١) بيغرخان] أن اختيار الدين إيثاق هو الذي هيّج الخوارزمية عليه، فطلب من الغز إنجاده.

ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة

قد ذكرنا سنة ثلاث وخمسين [وخمسمائة] عود المؤيد أي أبه إلى نيسابور، وتمكّنه منها، وأن ذلك كان سنة أربع وخمسين، فلما دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ورأى المؤيد تحكّمه في نيسابور وتمكّنه في دولته، وكثرة جنده وعسكره، أحسن السيرة في الرعية، لا سيما أهل نيسابور، فإنه جبرهم وبائع في الإحسان إليهم، وشرع في إصلاح أعمالها ولاياتها، فسير طائفة من عسكره إلى ناحية أسقيل، وكان بها جمع قد تمردوا وأكثروا الغيث والفساد في البلاد، وطال تماديهم في طغيانهم، فأرسل إليهم المؤيد يدعهم إلى ترك الشر والفساد ومعاودة الطاعة والإصلاح، فلم يقبلوا، ولم يرجعوا عما هم عليه، فسير إليهم سرية كثيرة، فقاتلهم وأذاقوهم

يقال له أغلبك الكوراييني، فمضى إلى بلاد العجم، واشترى جارية من قاضي همدان بألف دينار، وباعها من ملكشاه، وكان قد وضعها على سمه ووعدها أموراً عظيمة، ففعلت ذلك وسمته في لحم مشوي فأصبح ميتاً، وجاء الطبيب إلى دكلا وشملة فعرّفهما أنه مسموم، فعرّفوا أنّ ذلك من فعل الجارية، فأخذت وضربت وأقرّت، وهرب أغلبك، ووصل إلى بغداد، ووفى له الوزير بجميع ما استقرّ الحال عليه.

ولما مات أخرج أهل أصفهان أصحابه من عندهم، وخطبوا لسليمان شاه واستقرّ ملكه بتلك البلاد، وعاد شملة إلى خوزستان فأخذ ما كان ملكشاه تغلب عليه منها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة حجّ أسد الدين شيركوه بن شاذي مقدّم جيوش نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، وشيركوه هذا هو الذي ملك الديار المصرية، (٢٦٤/١١) وسيرد ذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها أرسل زين الدين عليّ نائب قطب الدين، صاحب الموصل، رسلاً إلى المستنجد يعتذر ممّا جناه من مساعدة محمد شاه في حصار بغداد، ويطلب أن يؤذن له في الحجّ، فأرسل إليه يوسف الدمشقي، مدرّس النظامية، وسليمان ابن قتلمش يطيان قلبه عن الخليفة ويعرفاته الإذن في الحجّ، فحجّ ودخل إلى الخليفة، فأكرمه وخلع عليه.

وفيها توفي قايمار الأرجواني أمير الحاج، سقط عن الفرس وهو يلعب بالكرة، فسال مخّه من منخرية وأذنيّه فمات.

وفيها، في ربيع الأوّل، توفي محمد بن يحيى بن عليّ بن مسلم أبو عبد الله الزبيدي، من أهل زبيدة مدينة باليمن مشهورة، وقدم بغداد سنة تسع وخمسائة، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان نحوياً واعظاً، وصحبه الوزير ابن هبيرة مدّة، وكان موته ببغداد. (٢٦٥/١١)

سنة ست وخمسين وخمسائة

ذكر الفتنة ببغداد

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، خرج الوزير ابن هبيرة من داره إلى الديوان، والغلمان يطرقون له، وأرادوا أن يردوا باب المدرسة الكمالية بدار الخليفة، فمتنعهم الفقهاء وضربوهم بالأجر، فشهر أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم، فمتنعهم الوزير، ومضى إلى الديوان، فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير، فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفيهم من الدار، فمضى أستاذ الدار وعاقبهم هناك، واخفى مدرّسهم الشيخ أبو طالب، ثم إن

من شاه مازندران خمس مرّات ويعودون.

وكان على ميمنة شاه مازندران الأمير إيثاق، فحملت الأتراك الغزّة عليه لمّا أسوا من الظفر بقلب شاه مازندران، فانهزم إيثاق وتبعه باقي العسكر، ووصل شاه مازندران إلى سارية، وقُتل من عسكره أكثرهم.

وحكي أنّ بعض التجار كفّ ودفن من هؤلاء القتلى سبعة آلاف رجل.

وأما إيثاق فإنّه قصد في هربه خوارزم وأقام بها، وسار الغزّ من المعركة إلى دهبستان، وكان الحرب قريباً منها، ففقبوا سورها، وأوقعوا بأهلها ونهبوهم أوائل سنة ست وخمسين وخمسائة، بعد أن خربوا جرجان وفرّقوا أهلها في البلاد وعادوا إلى خراسان. (٢٦٢/١١)

ذكر وفاة خسرو شاه صاحب غزّة وملك ابنه بعده

في هذه السنة، في رجب، توفي السلطان خسرو شاه بن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزّة، وكان عادلاً، حسن السيرة في رعيته، محباً للخير وأهله، مقرباً للعلماء محسناً إليهم راجعاً إلى قولهم، وكان ملكه تسع سنين.

[وملك بعده ابنه ملكشاه] فلمّا ملك نزل علاء الدين الحسين، ملك الغور، إلى غزّة فحصرها، وكان الشتاء شديداً والثلج كثيراً، فلم يمكنه المقام عليها، فعاد إلى بلاده في صفر سنة ست وخمسين [وخمسائة].

ذكر الحرب بين إيثاق وبغراتكين

في هذه السنة، منتصف شعبان، كان بين الأمير إيثاق والأمير بغراتكين برغش الجركاني حرب، وكان إيثاق قد سار إلى بغراتكين في آخر أعمال جوين، فنهبه، وأخذ أمواله وكلّ ما له، وكان ذا نعمة عظيمة وأموال جسيمة، فانهزم بغراتكين عنها وغلّاهما فافتتحها إيثاق واستغنى بها، وقويت نفسه بسببها، وكثرت جموعه، وقصده الناس. وأما بغراتكين فإنّه راسل المؤيد صاحب نيسابور، وصار في جملته ومعهدوا من أصحابه، فتلّقه المؤيد بالقبول. (٢٦٣/١١)

ذكر وفاة ملكشاه بن محمود

في هذه السنة توفي ملكشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن الب أرسلان بأصفهان مسموماً. وكان سبب ذلك أنّه لمّا كثر جمعه بأصفهان أرسل إلى بغداد وطلب أن يقطعوا خطبة عمّه سليمان شاه ويخطبوا له ويعيدوا القواعد بالعراق إلى ما كانت أولاً، وإلاّ قصدهم، فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصباً به،

يستدعيه إليه ليخطب للملك أرسلان شاه الذي معه، وبلغ الخبر إلى إينانج صاحب الرّي، فسار يتهب البلاد إلى أن وصل إلى همدان، فتحصّن كردبازو، فطلب منه إينانج أن يعطيه مصافاً، فقال: أنا لا أحاربك حتى يصل الأتابك الأعظم إليك.

[وسار إيلدكز] في عساكره جميعها يزيد على عشرين ألف فارس، ومعه أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، فوصل إلى همدان، فلقبهم كردبازو، وأنزله دار المملكة، وخطب لأرسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد، وكان إيلدكز قد تزوّج بأُم أرسلان شاه، وهي أُم البهلوان بن إيلدكز، وكان إيلدكز أتابكه والبهلوان حاجبه، وهو أخوه لأُمّه، وكان إيلدكز هذا أحد مماليك السلطان مسعود واشتره في أوّل أمره، فلما ملك أقطعه أرّان بعض أذربيجان. واتّفق الحروب والاختلاف، فلم يحضر عنده أحد من (٢٦٨/١١) السلاطين السلجوقيّة، وعظم شأنه وقوي أمره، وتزوّد بأم الملك أرسلان شاه، فولدت له أولاداً منهم البهلوان محمد، وقزل أرسلان عثمان.

وقد ذكرنا سبب انتقال أرسلان شاه إليه، وبقي عنده إلى الآن، فلما خطب له بهمدان أرسل إيلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه أيضاً، وأن تعاد القواعد إلى ما كانت عليه أيّام السلطان مسعود، فأمن رسوله وأعيد إليه على أقبح حالة. وأمّا إينانج صاحب الرّي فإنّ إيلدكز راسله ولاطفه فاصطلحا وتحالفا على الاتّفاق، وتزوّد البهلوان بن إيلدكز بابنة إينانج ونقلت إليه بهمدان.

ذكر الحرب بين ابن آقسنقر وعسكر إيلدكز

لما استقرّ الصلح بين إيلدكز وإينانج أرسل إلى ابن آقسنقر الأحمدلي، صاحب مراغة، يدعو إلى الحضور في خدمة السلطان أرسلان شاه، فامتنع من ذلك وقال: إن كففتهم عني، وإلا فعندي سلطان، وكان عنده ولد محمد شاه بن محمود، كما ذكرناه، وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه يطعمه في الخطبة لولد محمود شاه، فجّهز إيلدكز عسكراً مع ولده البهلوان، فبلغ الخبر إلى ابن آقسنقر فأرسل إلى شاه أرمن، صاحب خلاط، وحالفه، وصاراً يداً واحدة، فسار إليه شاه أرمن عسكراً كثيراً، واعتذر عن تأخّره بنفسه لأنّه في ثغر لا يُمكّنه مفارقتها، فقوي بهم ابن آقسنقر، وكثر جمعه، وسار نحو البهلوان، فالتقيا على نهر أسيرود، فاشتدّ القتال بينهم، (٢٦٩/١١) فانهمز البهلوان أقبح هزيمة، ووصل هو وعسكره إلى همدان على أقبح صورة، واستأمن أكثر أصحابه إلى ابن آقسنقر، وعاد إلى بلده منصوراً.

ذكر الحرب بين إيلدكز وإينانج

لما مات ملكشاه ابن السلطان محمود، كما ذكرناه، أخذ طائفة

الوزير أعطى كلّ فقير ديناراً، واستحلّ منهم، وأعادهم إلى المدرسة وظهر مدرّسهم.

ذكر قتل ترشك

في هذه الأيام قصد جمع من التركمان إلى البنّنجين، فأمر الخليفة بتجهيز عسكر إليهم، وأن يكون مقدّمهم الأمير ترشك، وكان في أقطاعه بلد اللّحف، فأرسل إليه الخليفة يستدعيه، فامتنع من المجيء إلى بغداد وقال: يحضر العسكر، فانا أقاتل بهم. وكان عازماً على الغدر؛ فجّهز العسكر وساروا إليه، وفيهم جماعة من الأمراء، فلما اجتمعوا بترشك قتلوه، وأرسلوا (٢٦٦/١١) رأسه إلى بغداد، وكان قتل منلوّاً للخليفة، فدعا أولياء المقتول، وقيل لهم: إن أمير المؤمنين قد اقتصّ لأبيكم ممّن قتله.

ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان

في هذه السنة، في ربيع الآخر، قُتل السلطان سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه؛ وسبب ذلك أنّه كان فيه تهوّر وخرق، وبلغ به شرب الخمر حتى إنّه شربها في رمضان تهاوفاً، وكان يجمع المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء، فأهمل العسكر أمره، وصاروا لا يحضرون بابه، وكان قد ردّ جميع الأمور إلى شرف الدين كردبازو الخادم، وهو من مشايخ الخدم السلجوقيّة يرجع إلى دين وعقل وحسن تدبير، فكان الأمراء يشكون إليه وهو يسكنهم.

فاتّفق أنّه شرب يوماً بظاهر همدان في الكُشك فحضر عنده كردبازو، فلامه على فعله، فأمر سليمان شاه من عنده من المساخرة فعشروا بكردبازو، حتى إنّ بعضهم كشف له سوءته، فخرج مغضباً، فلما صحا سليمان أرسل إليه يعتذر، فقبل عذره، إلا أنّه تجنّب الحضور عنده، فكتب سليمان إلى إينانج صاحب الرّي يطلب منه أن ينجده على كردبازو، فوصل الرسول وإينانج مريض، فأعاد الجواب يقول: إذا أفقت من مرضي حضرت عندك بمسكري، فبلغ الخبر كردبازو، فازداد استيحاشاً، فأرسل إليه سليمان (٢٦٧/١١) يوماً يطلبه، فقال: إذا جاء إينانج حضرت، وأحضر الأمراء واستحلفهم على طاعته، وكانوا كارهين لسليمان، فحلّقوا له، فأولّ ما عمل أن قتل المساخرة الذين لسليمان، وقال: إنّما أفعّل ذلك صيانةً لملكك ثمّ اصطلحا، وعمل كردبازو دعوة عظيمة حضرها السلطان والأمراء، فلما صار السلطان سليمان شاه في داره قبض عليه كردبازو وعلى وزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدي، وعلى أصحابه، في شوال سنة خمس وخمسين وخمسمائة فقتل وزيره وخواصه، وحبس سليمان شاه في قلعة، ثمّ أرسل إليه من خفته، وقيل بل حبسه في دار مجد الدين العلوي رئيس همدان، وفيها قُتل. وقيل بل سقي سمّاً فمات، والله أعلم.

وأرسل إلى إيلدكز، صاحب أرّان وأكثر بلاد أذربيجان،

وتحصن في قلعة طبرك، وحصر إيلدكز الرئي، ثم شرع في الصلح، واقترح إينانج اقتراحات، فأجابته إيلدكز إليها، وأعطاه جرياذقان وغيرها، وعاد إيلدكز إلى همدان. كان ينبغي أن تتأخر هذه الحادثة والتي قبلها، وإنما قدمت لتتبع آخرتها.

ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد

في هذه السنة، فسي ربيع الآخر، توفي الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغوري ملك الغور بعد انصرافه عن غزنة، وكان عادلاً من أحسن الملوك سيرةً في رعيته، ولما مات ملك بعده ابنه سيف الدين محمد، وأطاعه الناس وأحبوه، وكان قد صار في بلادهم جماعة من دعاة الإسماعيلية، وكثر اتباعهم، فأخرجوا من تلك الديار جميعها، ولم يبق فيها منهم أحد، وراسل الملوك وهاداهم، واستمال المؤيد أي أبه، صاحب نيسابور، وطلب موافقته.

ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها

كان أهل العيث والفساد بنيسابور قد طمعوا في نهب الأموال وتخريب البيوت، وفعل ما أرادوا، فإذا نهبوا لم ينتهوا. فلما كان الآن تقدم المؤيد أي أبه بقبض أعيان نيسابور، منهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني وغيره، وحبسهم في ربيع الآخر سنة ست وخمسين (وخمسمائة)، وقال: أنتم الذين أطعتم الرنود والمفسدين حتى فعلوا هذه (٢٧٢/١١) الفعلة، ولو أردتم منهم لامتنعوا.

وقتل من أهل الفساد جماعة، فخرّب نيسابور بالكلية، ومن جملة ما خرّب مسجد عقيل، كان مجتمعاً لأهل العلم، وفيه خزائن الكتب الموقوفة، وكان من أعظم منافع نيسابور. وخرّب أيضاً من مدارس الحنفية ثمان مئدي مدارس، ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة، وأحرق خمس خزائن للكتب، ونهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الأثمان، هذا ما أمكن إحصاؤه سوى ما لم يذكر.

ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، قصد السلطان محمود بن محمد الخان، وهو ابن أخت السلطان سنجر، وقد ذكرنا أنه ملك خراسان بعده، ففي هذه السنة حصر المؤيد صاحب نيسابور بشافياخ، وكان الغز مع السلطان محمود، فدامت الحرب إلى آخر شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة.

ثم إن محموداً أظهر أنه يريد دخول الحمام، فدخل إلى شهرستان، آخر شعبان، كالهارب من الغز، وأقاموا على نيسابور إلى آخر شوال، ثم عادوا راجعين، فعاثوا في القرى ونهبوها، ونهبوا طوس نهياً فاحشاً، وحضروا المشهد الذي لعلي بن موسى،

من أصحابه ابنه محموداً وانصرفوا به نحو بلاد فارس، فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا السلفري فأخذه منهم وتركه في قلعة إصطخر، فلما ملك إيلدكز والسلطان أرسلان شاه الذي معه البلاد، وأرسل إيلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة للسلطان، كما ذكرناه، شرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة، وزير الخليفة، في إثارة أصحاب الأطراف عليه، وراسل الأحمديلي، وكان ما ذكرناه، وكتب زنكي بن دكلا صاحب بلاد فارس يذلل له أن يخطب للملك الذي عنده، وهو ابن ملكشاه، وعلّق الخطبة له بظفريه بإيلدكز، فخطب ابن دكلا للملك الذي عنده وأنزله من القلعة، وضرب الطبل على بابه خمس نوب، وجمع عساكره وكتب إينانج صاحب الرئي يطلب منه الموافقة.

وسمع إيلدكز الخبر، فحشد وجمع، وكثر عسكره وجموعه فكانت أربعين ألفاً، وسار إلى أصفهان يريد بلاد فارس، وأرسل إلى زنكي بن دكلا يطلب منه الموافقة [على] أن يعود يخطب لأرسلان شاه، فلم يفعل، وقال: إن الخليفة قد أقطعني بلاده وأنا سائر إليه؛ فرحل إيلدكز، وبلغه أن جيشاً (٢٧٠/١١) لأرسلان بوقا، وهو أمير من أمراء زنكي، وفي أقطاعه أرجان، بالقرب منه، فأنفذ سرية للغارة عليه، فاتفق أن أرسلان بوقا عزم على تغيير الخيل التي معه لضيقها، وأخذ عوضها من ذلك الجشير، فسار في عسكره إلى الجشير، فصادف العسكر الذي سيّره إيلدكز لأخذ دوابه، فقاتلهم وأخذهم وقتلهم، وأرسل الرؤوس إلى صاحبه، فكتب بذلك إلى بغداد وطلب المدد، فوعد بذلك.

وكان الوزير عون الدين أيضاً قد كاتب الأمراء الذين مع إيلدكز يوبّخهم على طاعته، ويضعف رأيهم، ويحرّضهم على مساعدة زنكي ابن دكلا وإينانج، وكان إينانج قد برز من الرئي في عشرة آلاف فارس، فأرسل إليه ابن أفسقر الأحمديلي خمسة آلاف فارس، وهرب ابن البازدار، صاحب قزوین، وابن طغريك وغيرهما، فحلّقوا بإينانج وهو في صحراء ساوة.

وأما إيلدكز فإنه استشار نصحاءه، فأشاروا بقصد إينانج لأنه أهم، فرحل إليه، ونهب زنكي بن دكلا متهيم وغيرها، فرد إيلدكز إليه أميراً في عشرة آلاف فارس لحفظ البلاد. فسار زنكي إليهم، فلقبهم وقاتلهم، فانهزم عسكر إيلدكز إليه، فتجلّد لذلك وأرسل يطلب عساكر آذربيجان، فجاءته مع ولده قزل أرسلان.

وسير زنكي بن دكلا عسكراً كثيراً إلى إينانج، واعتذر عن الحضور بنفسه عنده لخوفه على بلاده من شملة، صاحب خوزستان، فسار إيلدكز إلى إينانج وتدانى العسكران، فالتقوا تاسع شعبان وجرى بينهم حرب عظيمة أجلت عن هزيمة إينانج، فانهزم أقبج هزيمة وقُتل رجاله ونُهبت أمواله، (٢٧١/١١) ودخل الرئي،

وقتلوا كثيراً ممن فيه ونهبوهم، ولم يعرضوا للقبّة التي فيها القبر. من القصر، فأرسلت عمّة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين، ودعّتهم إلى قتله. (٢٧٣/١١)

وكان أشدّهم في ذلك إنسان يقال له ابن الراعي، فوقفوا له في دليز القصر، فلما دخل خربوه بالسكاكين على دهمش [منه] فجرحوه جراحات مهلكة، إلا أنه حُمل إلى داره وفيه حياة، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضى بقتله مع أثره في خلافته، فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك، ولم يرض به. فقال: إن كنت بريئاً فسلم عمتك إليّ حتى انتقم منها، فأمر بأخذها، فأرسل إليها فأخذها قهراً، وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه (٢٧٥/١١) رُزَيْك ولَقِبَ العادل، فانتقل الأمر إليه بعد وفاة أبيه. وللصالح أشعار حسنة بليغة تدلّ على فضل عزيز، فمنها في الاختار:

أبى الله إلا أن يندم لنا النعمُ ويخلصنا في ملكنا العزّ والنصرُ
علّمنا بأنّ المال نفسُ ألوهُ وتبقى لنا من بعده الأجرُ والذكرُ
غلّطنا الندى بالباس حتى كأننا سحابٌ لذيّه البرقُ والرعدُ والقطرُ
يرانا إذا رُخنا إلى الحربِ مَرّةً يرانا ومن أضيافنا النُفُوبُ والنسرُ
كما أنّا في السّلمِ نبدّلُ جُوصاً وتوَعّ في إلعابنا العبدُ والحُرُ
وهي طويلة.

وكان الصالح كريماً في أدب، وله شعر جيّد، وكان لأهل العلم عنده إنفاق، ويرسل إليهم العطاء الكثير، بلغه أنّ الشيخ أبا محمّد بن الدّعان النحوي البغدادى المقيم بالموصل قد شرح بيتاً من شعره وهو هذا:

تجنّب سمي ما يقول القوافلُ وأصبح لي شغلٌ من الغزو شاغلُ
فجهّز إليه هدية سنّة ليرسلها إليه، فقتل قبل إرسالها.
ويبلغه أيضاً أنّ إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه بمكّة، فأرسل إليه كتاباً يشكره ومعه هدية.

وكان الصالح إمامياً لم يكن على مذهب العلويّين المصريين، ولما ولي العاضد الخلافة، ركب سمع الصالح ضجّة عظيمة، فقال: ما الخبر؟ فقيل: إنهم يفرحون بالخليفة. فقال: كأنّي بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأزل حتى استخلف هذا، وما علموا أنّي كنتُ من ساعة أسترصهم استعراض الغنم. (٢٧٦/١١)

قال عمارة: دخلتُ إلى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام، فناولني قرطاساً فيه بيتان من شعره وهما:

نحنُ في غفلةٍ ونومٍ وللمنّ توجّهون يقظانّة لا تسامُ
قد رَحّلنا إلى الجِسامِ ميتاً ليت شعري متى يكونُ الجِمامُ
فكان آخر عهدي به. وقال عمارة أيضاً: ومن عجيب الاتفاق أنّي أشدّتُ ابنه قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تنظّر اليالي يخلو وإنّ يمين إن سطا ونسما

فلما دخل السلطان محمود إلى نيسابور أمهله المؤيد إلى أن دخل رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسة وأخذه وكنهه وأعماه، وأخذ ما كان معه من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة، وكان يخفيها خوفاً عليها من الغزّ لَمّا كان معهم، وقطع المؤيد خطبته من نيسابور وغيرها ممّا هو في تصرّفه، وخطب لنفسه، بعد الخليفة المستجد بالله، وأخذ ابنه جلال الدين محمّداً الذي كان قد ملكه الغزّ أمرهم قبل أبيه، وقد ذكرنا ذلك، وسَمَله أيضاً، وسجنهما، ومعهما جواريهما وحشمهما، وبقياً فيها فلم تطل أيامهما، ومات السلطان محمود، ثم مات ابنه بعده من شدّة وجده لموت أبيه، والله أعلم.

ذكر عمارة شاذياخ نيسابور

كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين، لَمّا كان أميراً على خراسان للمامون، وسبب عمارتها أنه رأى امرأة جميلة تقود فرساً تريد سقيّه، فسألها عن زوجها، فأخبرته به، فأحضره وقال له: خدمة الخيل بالرجال أشبه، فلم تعبد أنت في دارك وترسل امرأتك مع فرسك؟ فبكى الرجل، وقال له: ظلمك يحملنا على ذلك. فقال: وكيف؟ قال: لأنك تنزل الجند معنا في دورنا؛ فإن خرجتُ أنا وزوجتي بقي البيت فارغاً، فيأخذ الجندي ما لنا فيه، وإن سقيتُ أنا الفرس فلا آمن على زوجتي من الجندي، فرأيتُ أن أقيم في البيت وتخدم زوجتي الفرس.

فعظم الأمر عليه وخرج من البلد لوقته، ونزل في الخيام، وأمر الجند فخرجوا من دور الناس، وبني شاذياخ داراً له ولجندته وسكنها وهم معه، ثم إنّها دثرت بعد ذلك. (٢٧٤/١١)

فلما كان أيام السلطان ألب أرسلان، ذكرت له هذه القصة فأمر بتجديدها، ثمّ أنها تشعّثت بعد ذلك، فلما كان الآن وخربت نيسابور، ولم يمكن حفظها، والغزّ تطرق البلاد وتنهبا، أمر المؤيد حينئذٍ بعمل سورها، وسدّ ثلمه وسكنه، ففضل ذلك وسكنها هو والناس وخربت حينئذٍ نيسابور كلّ خراب، ولم يبق بها أنيس.

ذكر قتل الصالح بن رُزَيْك ووزارة ابنه رُزَيْك

في هذه السنة، في شهر رمضان، قُتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رُزَيْك الأرمني، وزير العاضد العلوي، صاحب مصر، وكان سبب قتله أنه تحكّم في الدولة التحكّم العظيم، واستبدّ بالأمر والنهي وجباية الأموال إليه، لصغر العاضد، ولأنّه هو الذي ولّاه، ووتر الناس، فإنّه أخرج كثيراً من أعيانهم وفرّقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه، ثمّ إنّه زوج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرّم

لرئيسه العظمى وإن طالع عمره إلى كصير واجيب ومثال تخليصك اللحظ المصور ودونها حجاب شريف لا اقتضا وحجال فانتقل الأمر إليه بعد ثلاثة أيام.

ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد

في هذه السنة، في شهر رمضان، اجتمعت خفاجة إلى الجلة والكوفة، وطلبوا برسومهم من الطعام والتمر وغير ذلك، فمنعهم أمير الحاج أرغش، وهو مقطع الكوفة، ووافقه على منعه الأمير قيصر شحنة الجلة، وهما من ممالك الخليفة، فأفسدت خفاجة ونهبوا سواد الكوفة والجلة، فأمرى إليهم الأمير قيصر، شحنة الجلة، في مائتين وخمسين فارساً، وخرج إليه أرغش (٢٧٧/١١) في عسكر وسلاح، فانتزحت خفاجة من بين أيديهم، وتبعهم العسكر إلى ربة الشام، فأرسل خفاجة يعتذرون ويقولون: قد قنعنا بلبن الإبل وخبز الشعير، وأنتم تمنعوننا رسوماً؛ وطلبوا الصلح، فلم يجبههم أرغش وقيصر.

وكان قد اجتمع مع خفاجة كثير من العرب، فتصافوا واقتتلوا وأرسلت العرب طائفة إلى خيام العسكر ورحالهم فحالفوا بينهم وبينها، وحمل العرب حملة منكرة، فانهزم العسكر، وقُتل كثير منهم، وقُتل الأمير قيصر، وأسرت جماعة أخرى، وجرح أمير الحاج جراحة شديدة، ودخل الرجة، فحماء شيخها وأخذ له الأمان وسيره إلى بغداد، ومن نجا مات عطشاً في البرية.

وكان إمام العرب يخرجون بالماء يسقين الجرحى، فإذا طلبه منهم أحد من العسكر أجهزوا عليه، وكثر النوح والبكاء ببغداد على القتلى، وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة والعساكر معه، فخرج في طلب خفاجة فدخلوا البر وخرجوا إلى البصرة، ولما دخلوا البر عاد الوزير إلى بغداد، وأرسل بنو خفاجة يعتذرون ويقولون: بُغِيَ علينا، وفارقنا البلاد، فتبعونا واضطرونا إلى القتال؛ وسألوا العفو عنهم، فأجيبوا إلى ذلك.

ذكر حصر المؤيد شارستان

في هذه السنة حصر المؤيد أي أبيه مدينة شارستان، قرب نيسابور، وقاتله أهلها، ونصب المجانيق والعرادات، فصر أهلها خوفاً على أنفسهم من المؤيد، وكان معه جلال الدين المؤيد الموقفي الفقيه الشافعي، فيمينا هو راكب (٢٧٨/١١) إذ وصل إليه حجر منجنيق فقتله خامس جمادى الآخرة من السنة، وتعدى الحجر منه إلى شيخ من شيوخ يهق فقتله، فعظمت المصيبة بقتل جلال الدين على أهل العلم، خصوصاً أهل السنة والجماعة، وكان في عفوان شبابه رحمه الله لما قُتل.

ودام الحصار إلى شعبان سنة سبع وخمسين وخمسمائة، فنزل

ذكر ملك الكرج مدينة آني

في هذه السنة، في شعبان، اجتمعت الكرج مع ملكهم، وساروا إلى مدينة آني من بلاد أران، وملكوها، وقتلوا فيها خلقاً كثيراً، فالتدب لهم شاه أرمن بن إبراهيم بن سكرمان صاحب خيلاط، وجمع العساكر، واجتمع معه من المتطوعة خلق كثير، وسار إليهم، فلقوه وقتلوه، فانهزم المسلمون، وقُتل أكثرهم، وأسر كثير منهم، وعاد شاه أرمن مهزوماً لم يرجع معه غير أربع مائة فارس من عسكره. (٢٧٩/١١)

ذكر ولاية عيسى مكة حرمها الله تعالى

كان أمير مكة، هذه السنة، قاسم بن فليته بن قاسم بن أبي هاشم العلوي الحسني، فلما سمع بقرب الحجاج من مكة صادر المجاورين وأعيان أهل مكة، وأخذ كثيراً من أموالهم، وهرب من مكة خوفاً من أمير الحاج أرغش.

وكان قد حج هذه السنة زين الدين علي بن بكتكين، صاحب جيش الموصل، ومعه طائفة صالحة من العسكر، فلما وصل أمير الحاج إلى مكة رتب مكان قاسم بن فليته عمه عيسى بن قاسم بن أبي هاشم، فبقي كذلك إلى شهر رمضان، ثم إن قاسم بن فليته جمع جمعاً كثيراً من العرب أطعمهم في مال له بمكة، فاتبعوه، فسار بهم إليها، فلما سمع عمه عيسى فارقتها، ودخلها قاسم فأقام بها آمراً أياماً، ولم يكن له مال يوصله إلى العرب، ثم إنه قتل قائداً كان معه أحسن السيرة، فتغيرت نيات أصحابه عليه، وكاتبوا عمه عيسى، فقدم عليهم، فهرب وصعد جبل أبي قبيس، فسقط عن فرسه، فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه، فعظم عليه قتله، فأخذه وغسله ودفنه بالمعلّى عند أبيه فليته، واستقر الأمر لعيسى، والله أعلم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار عبد المؤمن، صاحب المغرب، إلى جبل طارق، وهو على ساحل الخليج ممّا يلي الأندلس، فعبّر المجاز إليه، وبنى عليه مدينة حصينة، وأقام بها عدة شهور، وعاد إلى

مَرَاكَش. (٢٨٠/١١)

بكر لسوء سيرته فيهم وظلمه، فلَمَّا رأى أبو بكر ملازمة المؤيد ومواصلة القتال عليه خضع وذلك واستكان، ونزل من القلعة بالأمان في العشرين من ربيع الأول من السنة، فلَمَّا نزل عنها حبسه المؤيد وأمر بتقييده.

ثم سار منها إلى كُرسْتان، وصاحبها أبو بكر فآخرو، فنزل من قلعة، وهي من أمنع الحصون على رأس جبل عال، وصار في طاعة المؤيد، ودان له ووافقه، وسير جيشاً في جمادى الآخرة منها إلى أسفرايين، فتحصن رئيسها عبد الرحمن بن محمد بن علي الحاج بالقلعة، وكان أبوه كريم خراسان على الإطلاق، ولكن كان عبد الرحمن هذا ينس الخلف، فلَمَّا تحصن به العسكر المؤيدي، واستزلوه من الحصن، وحملوه مقيداً إلى شاذياخ وخبس بها؛ وقيل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة.

وملك المؤيد أيضاً قَهَنْدَر نيسابور، واستدارت مملكة المؤيد حول نيسابور وعادت إلى ما كانت عليه قبل، إلا أن أهلها انتقلوا إلى شاذياخ، (٢٨٣/١١) وخربت المدينة العتيقة.

وسير المؤيد جيشاً إلى خُزاف، وبها عسكر مع بعض الأمراء اسمه أرغش، فكمن أرغش جمعاً في تلك المضائق والجبال، وتقدم إلى عسكر المؤيد فقاتلهم وطلع الكمين، فانهزم عسكر المؤيد وقُتل منهم جمع، وعاد الباقون إلى المؤيد بنيسابور.

وسير جيشاً إلى بوشنج هراة، وهي في طاعة الملك محمد بن الحسين الغوري، فحصروها واشتد الحصار عليها، ودام القتال والزحف، فسير الملك محمد الغوري جيشاً إليها لينع عنها، فلَمَّا قاربوا هراة فارقتها العسكر الذي يحصرها، وعلدوا عنها وصفت تلك الولاية للغوري.

ذكر أخذ ابن مردنیش غرناطة من عبد المؤمن وعودها إليه في هذه السنة أرئيل أهل غرناطة من بلاد الأندلس، وهي لعبد المؤمن، إلى الأمير إبراهيم بن قمشك صهر ابن بربريش، فاستدعوه إليهم ليسلموا إليه البلد وكان قيد وجده، وصار من أصحاب عبد المؤمن، وفي طاعته، وممن يحرّضه على قصد ابن مردنیش، ففارق طاعة عبد المؤمن وعاد إلى موافقة ابن مردنیش، فلَمَّا وصل إليه رُسل أهل غرناطة سار معهم إليها، فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن، فامتنعوا بحصنها، فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مَلِيقَة، فجمع الجيش الذي كان عنده وتوجه إلى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابهم، فعلم بذلك إبراهيم بن قمشك، فاستجد ابن مردنیش ملك البلاد بشرق الأندلس، فأرسل إليه ألفي فارس من التجار أصحابه ومن الفرنج الذين جعلهم معه (٢٨٤/٧١) فاجتمعوا بخواجي غرناطة، فالتجروا هم ومن غرناطة من عسكر عبد المؤمن قبل وصول الجيش فخرج

وفيها، في المحرم، ورد نيسابور جمع كثير من تركمان بلاد فارس ومعهم أغنام كثيرة للتجارة فباعوها وأخذوا الثمن وساروا ونزلوا على مرحلتين من طابيس كنكلي، وناموا هناك، فنزل إليهم الإسماعيلية وكيسوهم ليلاً، ووضعوا السيف فيهم، فقتلوا وأكثروا، ولم ينج منهم إلا الشريد، وغنم الإسماعيلية جميع ما معهم من مال وعروض، وعادوا إلى قلاعهم.

وفيها كثرت الأمطار في أكثر البلاد، ولا سيما خراسان، فلان الأمطار توالى فيها من العشرين من المحرم إلى منتصف صفر لم تنقطع، ولا رأى الناس فيها شمساً.

وفيها كان بين الكُرج وبين الملك صلتق بن علي، صاحب أرزن الروم، قتال وحرب انهزم فيه صلتق وعسكره، وأسر هو، وكانت أخته شاه بانوار قد تزوجها شاه أرمن سكرمان بن إبراهيم بن سكرمان صاحب خيلاط، فأرسلت إلى ملك الكُرج هدية جلييلة المقدار، وطلبت منه أن يفادها بأخيها، فأطلقه، فعاد إلى ملكه.

وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج نور الدين محمود، صاحب الشام، ملتجئاً إليه، فأمنه وسير معه عسكراً يمنع من الفرنج أيضاً، فظهر عليهم في الطريق كمين للفرنج، فقتلوا من المسلمين جماعة وانهزم الباقون.

وفيها ملك قرا أرسلان، صاحب حصن كينا، قلعة شتاتان، وكانت لطائفة من الأكراد يقال لهم الجونية، فلَمَّا ملكها خربها وأضاف ولايتها إلى حصن طالب.

وفيها توفي الكمال حمزة بن علي بن طلحة صاحب المخزن، كان جليل (٢٨١/١١) القدر أيام المسترشد بالله، وولي المقتضي، وبنى مدرسة لأصحاب الشافعي بالقرب من داره، ثم حج وقد لبس الفوط وزي الصوفية وترك الأعمال، فقال بعض الشعراء فيه:

يا غُضد الإسلام يا من سَمَتْ إلى المحلا هَمْسَة الفسافية
كانت لك الدنيا، فلم تَرْضَها ملكاً فاعلنت إلى الآخرة
وفي مقطع أبي بيته عشرين سنة، ولم يزل محترماً يغشاه
الناس كافة. (٢٨٢/١١)

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها

في هذه السنة، في السابع والعشرين من صفر، نازل المؤيد أبي أبي بكر جاندار بقلعة وسكره خوي من طوس وكان قيد تحصن بها، وهي حصينة منيعة لا ترام، فقاتله وأجابه أهل طوس على أبي

(٢٨٦/١١)

ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكي

في هذه السنة، في رجب، ملك الخليفة المستجد بالله قلعة الماهكي، وسبب ذلك أنَّ سَفَرُ الهمذاني، صاحبها، سَلَمَهَا إلى أحد ممالিকে ومضى إلى هَمْدَان، فضعف هذا المملوك عن مقاومة مَنْ حولها من التركمان والأكراد، فأشير عليه ببيعها من الخليفة، فراسل في ذلك، فاستقرت [على] خمسة عشر ألف دينار وسلاح وغير ذلك من الأمتعة، وعدة من القرى، فسلّمها وتسلم ما استقر له، وأقام ببغداد. وهذه القلعة لم تزل من أيام المقتدر بالله بأيدي التركمان والأكراد وإلى الآن.

ذكر الحرب بين المسلمين والكُرج

في هذه السنة، في شعبان، اجتمعت الكُرج في خلق كثير يبلغون ثلاثين ألف مقاتل، ودخلوا بلاد الإسلام، وقصدوا مدينة دُون من أذربيجان، فملكوها ونهبوها، وقتلوا من أهلها وسوادها نحو عشرة آلاف قتل، وأخذوا النساء سبايا، وأسروا كثيراً، وأعروا النساء وقادوهن حُفَاة عُرَاة، وأحرقوا الجوامع والمساجد؛ فلما وصلوا إلى بلادهم أنكر نساء الكُرج ما فعلوا بنساء المسلمين، وقتل لهم: قد أحوجتهم المسلمين إلى أن يفعلوا بنا مثل ما فعلتم بنسائهم؛ وكسوتهم. (٢٨٧/١١)

ولما بلغ الخبر إلى شمس الدين إيلدكز، صاحب أذربيجان والجبل وأصفهان، جمع عساكره وحشدوا، وانضاف إليه شاه أرمن بن سكرمان القطبي، صاحب خيلاط، وابن آقستقر، صاحب مراغة وغيرها، فاجتمعوا في عسكر كثير يزيدون على خمسين ألف مقاتل، وساروا إلى بلاد الكُرج في صفر سنة ثمان وخمسين [وخمسمائة] ونهبوها وسبوا النساء والصبيان، وأسروا الرجال، ولقيهم الكُرج، واقتتلوا أشد قتال صبر فيه الفريقان، ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر، وكان الظفر للمسلمين، فانهزم الكُرج وقتل منهم كثير وأسر كذلك.

وكان سبب الهزيمة أنَّ بعض الكُرج حضر عند إيلدكز، فأسلم على يديه، وقال له: تعطيني عسكراً حتى أسير بهم في طريق أعرفها وأجيء إلى الكُرج من ورائهم وهم لا يشعرون! فاستوثق منه، وسير معه عسكراً وواعده يوماً يصل فيه إلى الكُرج، فلما كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكُرج، فبينما هم في القتال وصل ذلك الكرّجي الذي أسلم ومعه العسكر، وكبروا وحملوا على الكُرج من ورائهم، فانهزموا، وكثر القتل فيهم والأسر، وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الإحصاء لكثرة، فبينما كانوا متيقنين الظفر لكثرة، فغيب الله ظنهم، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها، وعاد المسلمون منصورين قاهرين.

إليهم، فاشتد القتال بينهم، فانهزم عسكر عبد المؤمن، وقدم أبو سعيد، واقتلوا أيضاً، فانهزم كثير من أصحابه، وثبت معه طائفة من الأعيان والفرسان المشهورين، والرجال الأجلاء، حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ أبو سعيد ولحق بمالقة.

وسمع عبد المؤمن الخبر، وكان قد سار إلى مدينة سلا، فسير إليهم في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل، فيهم جماعة من شيوخ الموحدين، فجدوا المسير، فبلغ ذلك ابن مردنيش، فسار بنفسه وجيشه إلى غرناطة ليعين ابن همشك، فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير، فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها، ونزل العسكر الذي كان أمده به ابن همشك أولاً، وهم ألفا فارس، بظاهر القلعة الحمراء، ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه، ووصل عسكر عبد المؤمن إلى جبل قريب من غرناطة، فأقاموا في سفحه أياماً ثم سيروا أربعة آلاف فارس، فبيتوا العسكر الذي بظاهر القلعة الحمراء، وقتلوا منهم من جهاتهم، فما لحقوا يركبون، فقتلواهم عن آخرهم.

وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته، فنزلوا بضواحي غرناطة، فعلم ابن مردنيش وابن همشك أنهم لا طاقة لهم بهم، ففروا في الليلة الثانية، ولحقوا ببلادهم، واستولى الموحدون على غرناطة في باقي السنة المذكورة، وعاد عبد المؤمن من مدينة سلا إلى مراكش. (٢٨٥/١١)

ذكر حصر نور الدين حارم

في هذه السنة جمع نور الدين محمود بن زنكي بن آقستقر صاحب الشام العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم، وهي للفرنج غربي حلب، فحصرها وجد في قتالها، فامتنت عليه حصانتها، وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم، فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم ورجالهم من سائر البلاد، وحشدوا واستعدوا، وساروا نحوه ليرخلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف، فلم يجيبوه إليه، وراسلوه، وتلطّفوا الخال معه، فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن، ولا يجيبونه إلى المصاف، عاد إلى بلاده.

ومتى كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن مُقَدِّد الكِنَاني، وكان من الشجاعة في الغاية، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شَيزَر، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج، فلما دخله الآن كتب على حائطه:

لَكَ الْحَمْدُ يَا مَوْلَايَ كَمْ لَكَ نِسَاءً عَلَيَّ وَقَضَا لَا يَحِيطُ بِهِ شُكْرِي
نَزَلْتُ بِهَذَا الْمَسْجِدِ الْعَامَ قَافِلًا مِنَ الْغَزَا مَوْفُورَ النَّصِيْبِ مِنَ الْأَجْرِ
وَمَنْ رَحِلْتُ الْيَسَّ فِي عَامِي الَّذِي قَضَى نَحْوَيْتَ اللَّهَ وَالرَّكْبَنَ وَالْجَبَرِ
فَلْيَايَتِ يَهْرُؤُصِي وَأَسْفَلْتُ قَتْلَ مَا تَحَمَّلْتُ مِنْ وَزْرِ الشَّيْءِ عَنْ ظَهْرِي

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وصل الحجاج إلى مكنى، ولم يتم الحج لأكثر الناس لصدمهم عن دخول مكة والطواف والسعي، فمن دخل يوم النحر مكة وطاف وسعى كمل حجه، ومن تأخر عن ذلك منع دخول مكة لفتنة جرت بين أمير الحاج (٢٨٨/١١) وأمير مكة. كان سببها أن جماعة من عبيد مكة أفسدوا في الحاج بمنى، فنفروا عليهم بعض أصحاب أمير الحاج فقتلوا منهم جماعة، ورجع من سلم إلى مكة، وجمعوا جمعاً، وأغاروا على جمال الحاج، وأخذوا منها قريباً من ألف جمل، فنادى أمير الحاج في جنده، فركبوا بسلاحهم، ووقع القتال بينهم، فقتل جماعة، ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة، فرجع أمير الحاج ولم يدخل مكة، ولم يبق بالزاهر غير يوم واحد، وعاد كثير من الناس رجالاً لقلّة الجمال، ولقوا شدة.

ومن حج هذه السنة جدتنا أم أيّنا، ففاتها الطواف والسعي، فاستفتي لها الشيخ الإمام أبو القاسم بن البرقي، فقال: تدوم على ما بقي عليها من إحرامها، وإن أحببت تفدي وتحل من إحرامها إلى قابل، وتعود إلى مكة، فتطوف وتسعى، فتكمل الحجة الأولى، ثم تحرم إحراماً ثانياً، وتعود إلى عرفات، فتقف وترمي الجمار، وتطوف وتسعى، فتصير لها حجة ثانية؛ فبقيت على إحرامها إلى قابل، وحجّت وقعلت كما قال، فتمّ حجّها الأوّل والثاني.

وفيها نزل بخراسان برد كثير عظيم المقدار، وأواخر نيسان، وكان أكثره بجنين ونيسابور وما والاها، فأهلك الغلات، ثم جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيام.

وفيها، في جمادى الآخرة، وقع الحريق ببغداد، احترق سوق الطيورين والدور التي تليه مقابلة إلى سوق الصفر الجديد، والخان الذي في الرحبة، ودكاكين البزورين وغيرها.

وفيها توفي الكيا الصّباحي، صاحب النُصوت، مقدم الإسماعيلية، (٢٨٩/١١) وقام ابنه مقامه، فأظهر التوبة، وأعاد هو ومن معه الصلوات وصيام شهر رمضان، وأرسلوا إلى قزوين يطلبون من يصلي بهم، ويعلمهم حدود الإسلام، فأرسلوا إليهم.

وفيها، في رجب، دُرس شرف الدين يوسف القدسي في المدرسة النظامية ببغداد.

وفيها توفي شجاع الفقيه الحنفي ببغداد، وكان مدرساً بمدرسة أبي حنيفة، وكان موته في ذي القعدة.

وفيها توفي صدّيق بن وزير الواعظ.

وفيها، في المحرم، توفي الشيخ عدي بن مسافر الزاهد العظيم ببلد الكاركية من أعمال الموصل، وهو من الشام، من بلد بعلبك،

فانتقل إلى الموصل، وتبعه أهل السواد والجال يترك النواحي وأطاعوه، وحسبوا الظن فيه، وهو مشهور جداً. (٢٩٠/١١)

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة المضطرب بعده

في هذه السنة، في صفر، وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي صاحب مصر، وكان ابتداء أمره ووزرائه أنه كان يخدم الصالح بن رزّك ولزّمة، فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد، وهو أكبر الأعمال بعد الوزارة، فلما ولي الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدّم زائد، واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم، ففسر أمره على الصالح، ولم يمكنه عزله، فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته، فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل: إنك لا تغير على شاور، فإني أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله، ولم يمكني عزله، فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تذكرون.

فلما توفي الصالح من جراحته وولي ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزك شاور واستعمال بعضهم مكانه، وخوفوه منه إن أقره على عمله، فأرسل إليه بالعزل، فجمع جمعاً كثيرة وسار إلى القاهرة بهم، فهرب منه العادل ابن الصالح بن رزّك فأخذ وقتل، فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهراً وأياماً، وصار شاور وزيراً، وتلقب بأمير الجيوش، وأخذ أموال بني رزّك وودائعهم وذخائرهم، وأخذ منه أيضاً طي والكامل (٢٩١/١١) أبنا شاور شيئاً كثيراً، وتفرق كثير منها، وجحد كثير، وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين إلى الأتراك.

ثم إن الضرباء جمع جمعاً كثيرة، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان، وظهر أمره، وانهمز شاور منه إلى الشام، على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وصار خيرغام وزيراً.

وكان هذه السنة ثلاثة وزراء العادل بن رزّك، وشاور، وخيرغام، فلما تمكن خيرغام من الوزارة قتل كثيراً من الإهراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع، فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن أيديهم.

ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف

في هذه السنة في العشرين من جمادى الآخرة، توفي عبد المؤمن بن علي صاحب بلاد المغرب، وأفريقية، والأندلس، وكان قد سار من قرطاج إلى سلا، فعرض بها مات.

ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحّدين من أصحابه، وقال لهم: قد جرت ابني محمداً، فلم أره يصلح لهذا الأمر، وإنما

فكانوا يخطبون للسلطان سَنَجَر فيقولون: اللهم اغفر للسلطان
السعيد المبارك على المسلمين سَنَجَر، وبعده للأمير الذي هو
الحاكم في تلك البلاد.

ذكر قتل الغُرّ ملك الغُور

في هذه السنة، في رجب، قُتل سيف الدين محمد بن الحسين
الغُوري ملك الغُور، قتله الغُزّ.

وسبب ذلك أنه جمع عساكره وحشد فأكثر، وسار من جبال
الغُور يريد الغُزّ وهم يبلخ، واجتمعوا، وتقدّموا إليه، فاتفق أن ملك
الغُور خرج من معسكره في جماعة من خاصته، جريئة، فسمع به
أمراء الغُزّ، فساروا يطلبونه مجذّبين قبل أن يعود إلى معسكره،
فأوقعوا به، فقاتلهم أشدّ قتال (٢٩٤/١١) رآه الناس، فقتل ومعه
نفر مَن كان معه، وأسر طائفة، وهربت طائفة، فلحقوا بمعسكرهم
وعادوا إلى بلادهم منهزمين لا يقف الأب على ابنه ولا الأخ على
أخيه، وتركوا كلّ ما معهم بحاله ونجوا بنفوسهم.

فكان عمر ملك الغُور لما قُتل نحو عشرين سنة، وكان عادلاً
حسن السيرة، فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم أنه حاصر أهل هراة،
فلما ملكها أراد عسكره أن ينهبوها، فنزل على درب المدينة،
وأحضر الأموال والثياب، فأعطى جميع عسكره منها، وقال: هذا
خير لكم من أن تنهبوا أموال المسلمين وتُسخطوا الله تعالى، فإنّ
المُلْك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم، ولما قُتل عاد الغُزّ
إلى بلخ و مرو وقد غنموا شيئاً كثيراً من العسكر الغُوري لأن أهله
تركوه ونجّوا.

ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج

في هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زنكي من الفرنج،
تحت حصن الأكراد، وهي الوقعة المعروفة بالبقعة، وسببها أن نور
الدين جمع عساكره ودخل بلاد الفرنج ونزل في البقعة تحت
حصن الأكراد، محاصراً له وعازماً على قصد طرابلس
ومحاصرتها، فبينما الناس يوماً في خيامهم، وسط النهار، لم يرَهم
إلاّ ظهور صليبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد،
وذلك أن الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كيسة المسلمين نهاراً،
فإنهم يكونون آمنين، فركبوا من وقتهم، ولم يتوقفوا حتى يجتمعوا
عساكرهم، وساروا مجذّبين، فلم يشعر بذلك المسلمون إلاّ وقد
قربوا منهم، فارادوا منهم، فلم يطيقوا ذلك فأرسلوا إلى نور الدين
يعرفونه الحال، فرهقهم (٢٩٥/١١) الفرنج بالحملة، فلم يثبت
المسلمون، وعادوا يطلبون معسكر المسلمين، والفرنج في
ظهورهم، فوصلوا معاً إلى العسكر النوري، فلم يتمكن المسلمون
من ركوب الخيل، وأخذ السلاح، إلاّ وقد خالطوهم، فأكثروا القتل
والأسر.

يصلح له ابني يوسف، وهو أولى بها، فقدّموه لها، ووصّاهم به،
وبايعوه ودّعي بأمر المؤمنين، وكتبوا موت عبد المؤمن، وحُمِل
من سلا في مَحْفَة بصورة أنه مريض إلى أن وصل إلى مَرَاكش.

وكان ابنه أبو حفص في تلك المدة حاجباً لأبيه، فبقي مع أخيه
على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للناس: أمير المؤمنين أمر
بكذا، ويوسف [لم] (٢٩٢/١١) يقعد مقعد أبيه إلى أن كملت
المبايعة له في جميع البلاد، واستقرت قواعد الأمور له، ثم أظهر
موت أبيه عبد المؤمن، فكانت ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة وشهوراً،
وكان عاقلاً، جازماً، شديد الرأي، حسن السياسة للأمور، كثير
البدل للأموال، إلاّ أنه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب
الصغير.

وكان يعظّم أمر الدين ويقوّيه، ويُلزم الناس في سائر بلاده
بالصلاة، ومَن رُوي وقت الصلاة غير مصلٍّ قُتل، وجمع الناس
بالغرب على مذهب مالك في الفروع، وعلى مذهب أبي الحسن
الأشعري في الأصول، وكان الغالب على مجلسه أهل العلم
والدين، المرجع إليهم، والكلام معهم ولهم.

ذكر مُلك المؤيّد أعمال قومس والخطبة للسلطان أرسلان

بخراسان

في هذه السنة سار المؤيّد أي أبه، صاحب نيسابور، إلى بلاد
قُومس، فملك بسطام ودامغان، واستتاب بقُومس مملوكه تنكز،
فأقام تنكز بمدينة بسطام، فجرى بين تنكز وبين شاه ماژند زان
اختلاف أدّى إلى الحرب، فجمع كلّ منهما عسكره، والتقوا أوائل
ذي الحجة في هذه السنة، واقتتلوا فانهزم عسكر ماژند زان،
وأخذت أسلابهم، وقتل منهم طائفة كبيرة.

ولما ملك المؤيّد بلاد قُومس أرسل إليه السلطان أرسلان بن
طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعاً نفيسة، وألوية معقودة، وهديّة
جليّة، وأمره أن (٢٩٣/١١) يهتّم باستيعاب بلاد خراسان ويتولّى
ذلك أجمع، وأن يخطب له، فلبس المؤيّد الخلع، فخطب له في
البلاد التي هي بيده.

وكان السبب في هذا أنابك شمس الدين إيلدكز، فإنّه كان هو
الذي يحكم في مملكة أرسلان، وليس لأرسلان غير الاسم، وكان
بين إيلدكز وبين المؤيّد مودة ذكرناها عند قتل المؤيّد، فلما أطاع
المؤيّد السلطان أرسلان خطب له ببلاده وهي بلاد قُومس
ونيسابور وطُوس وأعمال نيسابور جميعها، ومن نسا إلى طَبَس
كنكلي، وكان يخطب لنفسه بعد أرسلان، وكانت الخطبة في
جرجان وديستان لخوارزم شاه أيل أرسلان بن أتمز، وبعده للأمير
إيثاق. وكانت الخطبة في مَزَو وبلخ وهراة وسرخس، وهذه البلاد
بيد الغُزّ، إلاّ هراة فإنّها كانت بيد الأمير ايتكين، وهو مسالم للغُزّ،

وكان اشتدّهم على المسلمين الدوقس الرومي، فإنه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل في جمع كثير من الروم، فقاتلوا محتسبين في زعمهم، فلم يبقوا على أحد، وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه ونجا بنفسه، ولسرعته ركب الفرس والشبحة في رجله، فنزل إنسان كرديّ قطعها، فتنجا نور الدين، وقتل الكردّي، فأحسن نور الدين إلى مخلّقيه، ووقف عليهم الوقوف.

ونزل نور الدين على بحيرة قدّس بالقرب من حمص، وبينه وبين المعركة أربعة فراسخ، وتلاحق به من سلم من العسكر، وقال له بعضهم: ليس من الرأي أن تقيم هاهنا، فإنّ الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، فنؤخذ ونحن على هذا الحال؛ فويّخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم، والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري ونار الإسلام، ثم أرسل إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيول، فأعطى اللباس عوض اللباس عوض ما أخذ منهم جميعه بقولهم، فعاد العسكر كان لم تصبه هزيمة، وكلّ من قتل أعطى أقطاعه لأولاده.

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا: لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها. (٢٩٦/١١)

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خروجه قال له بعضهم: إنّ لك في بلادك إدرات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء وغيرهم، فلو استعنت [بها] في هذا الوقت لكان أصلح، فغضب من ذلك وقال: والله إنّي لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنما نرزقون وتنصرون بضعفائكم؛ كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني، وأنا نائم على فراشي، بسهام لا تخطيء، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأيته بسهام قد نصيب وقد تخطيء، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحلّ لي أن أعطيهم غيرهم؟

ثم إنّ الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح، فلم يجبه، وتركوا عند حصن الأكراد من يحميهم وعادوا إلى بلادهم.

ذكر إجلاء بني أسد من العراق

في هذه السنة أمر الخليفة المستجد بالله بإهلاك بني أسد أهل الحلة المزيديّة، لما ظهر من فسادهم، ولما كان في نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمداً لما حصر بغداد، فأمر يزدن بن قماح بقتالهم وإجلائهم من البلاد، وكانوا منبسطين في البطائح، فلا يقدر عليهم، فتوجّه يزدن إليهم، وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل، وأرسل إلى ابن معروف مقدّم المتفق، وهو بأرض

البصرة، فجاء في خلق كثير وحصرهم وسكّر عنهم الماء، وصار بهم مدة، فأرسل الخليفة يعتب على يزدن ويعجزه وينسبه إلى موافقتهم في التشيع، وكان يزدن يتشيع، فجذّ هو وابن معروف في قتالهم والتضييق عليهم، وسدّ مسالكهم في الماء، فاستسلموا حينئذ، قتل منهم أربعة (٢٩٧/١١) آلاف قتيل، ونادى فيمن بقي: من وجد بعد هذا في الحلة المزيديّة فقد جلّ دمه؛ ففترقوا في البلاد، ولم يبق منهم بالعراق من يُعرف، وسلّمت بطائحهم إلى ابن معروف وبلادهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وقع في بغداد حريق في باب دواب قرأنا إلى مشرعة الصباغين من الجانبين.

وفيها، في رجب، توفي سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم المعروف بابن الأنباري، كاتب الإنشاء بديوان الخلافة، وكان فاضلاً أديباً ذا تقدّم كثير عند الخلفاء والسلاطين، وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى الآن في ديوان الخلافة، وعاش حتى قارب تسعين سنة.

وتوفي في رمضان هبة الله بن الفضل بن عبد العزيز بن محمد أبو القاسم المتوفّي، سمع الحديث؛ وهو من الشعراء المشهورين، إلا أنه كثير الهجو، ومن شعره:

يأمن هجرت ولا تبالي هل ترجع دولة الوصال
قل أطمع يا غذاب قلبي أن ينعم في فؤادك باني
الطرف كما عهدت باني والجسم كما نزلت باني
ما فكرت أن تغليبي في الوصل بوعده المحال
أموالي وأنت خط غيري يا قاتلي فما احتالي

وهي أكثر من هذا. (٢٩٨/١١)

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها

في هذه السنة، في جمادى الأولى، سيّر نور الدين محمود بن زنكي عسكرياً كثيراً إلى مصر، وجعل عليهم الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي، وهو مقدّم عسكره، وأكبر أمراء دولته، وأشجعهم، ومندكر سنة أربع وستين [وخمسمائة] سبب اتصاله بنور الدين وعلوّ شأنه عنده إن شاء الله تعالى.

وكان سبب إرسال هذا الجيش أنّ شاور وزير العاضد لدين الله العلوي، صاحب مصر، نازعه في الوزارة خيرغام، وغلب عليها، فهرب شاور منه إلى الشام، ملتجئاً إلى نور الدين، ومستجيراً

به، فأكرم مثواه، وأحسن إليه، وأنعم عليه، وكان وصوله في ربيع الأول من السنة، وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون شيركوه مقيماً بعساكره في مصر، ويتصرف هو بأمر نور الدين واختياره؛ فبقي نور الدين يقدم إلى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى، فتارةً يحمله رعاية لقصد شاور بابه، وطلب الزيادة في المُلْك والتقوي على الفرنج، وتارةً يمنعه خطر الطريق، وأنَّ الفرنج فيه؛ وتخوف أنَّ شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يفي. بلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً.

فيما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم ومُلْك نور الدين حارم ومسيره إلى باتياس، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، فحيتّز سقّط في أيديهم، وأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها، فراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنّه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج، ولأنّ الأقوات والذخائر قلت عليه، وخرج من بليس في ذي الحجة.

فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بليس قال: أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم ويده لبّ من حديد يحمي ساقتهما، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه. قال: فاتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر، فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك، ولا يبقى لكم بقية؟ فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله؛ كنت والله أضع السيف، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم (٣٠١/١١) رجالاً، وحيثنّ يقصدكم المُلْك العادل نور الدين، وقد ضعفوا وفني شجعانهم، فتملك بلادهم وبهلك من بقي منهم، والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت إليكم من أوّل يوم، ولكنهم امتنعوا.

فصلب على وجهه، وقال: كنّا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم، ثم رجع عنه.

وسار شيركوه إلى الشام، فوصل سالماً، وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصداً ليأخذوه أو ينالوا منه ظفراً، فلم بهم فعاد عن ذلك الطريق، فبه يقول عُمارة: أخذتم على الإفرنج كلّ شيء وقُلتُم لأيدي الخيل مُرّي على مُرّي لئن نصّبوا في البحر جسرًا فأنكّم غيرتم بحر من حديد على الجسر ولفظة مُرّي في آخر البيت الأوّل اسم ملك الفرنج.

وكان نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج ممّا يلي دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرّض لأسد الدين ومن معه، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين، ووصل أسد الدين والعساكر معه إلى مدينة بليس، فخرج إليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم، فانهزم وعاد إلى القاهرة مهزوماً.

ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أو آخر جمادى الآخرة، فخرج ضرغام من القاهرة سلبخ الشهر، فقتل عند مشهد السيّد نفيسة، وبقي يومين، ثم حُمِل ودُفن في القرافة، وقُتل أخوه فارس المسلمين، وخُلِع على شاور مستهلّ رجب، وأعيد إلى الوزارة، وتمكّن منها، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، فغدر به شاور، وعاد عمّا كان قرره لنور الدين من البلاد المصريّة، ولأسد الدين أيضاً، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فأعاد الجواب بالامتناع، وطلب ما كان قد استقرّ بينهم، فلم يجبه شاور إليه، فلمّا رأى ذلك أرسل نوابه فتسلّموا مدينة بليس، وحكم على البلاد الشرقيّة، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدّهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر.

وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن تمّ ملكه لها، فلمّا أرسل شاور يطلب منهم أن يساعده على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرجٌ لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرتهم وطمعوا في ملك الديار المصريّة، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، وتجهّزوا وساروا، فلمّا بلغ نور الدين ذلك (٣٠٠/١١) سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير، فلم يمنعه ذلك لعلمهم أنّ الخطر في مقامهم، إذا ملك أسد الدين مصر، أشدّ، فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقيين إلى مصر.

ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم

في هذه السنة، في شهر رمضان، فتح نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم من الفرنج؛ وسبب ذلك أن نور الدين لما عاد منهزماً من البقعة، تحت حصن الأكراد، كما ذكرناه قبل، فرّق الأموال والسلاح، وغير ذلك من الآلات على ما تقدّم، فعاد المسكر كأنهم لم يُصابوا وأخذوا في الاستعداد للجهاد والأخذ بثأره.

واتّفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم إلى مصر، كما ذكرناه، فأراد أن (٣٠٢/١١) يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر، فأرسل إلى أخيه قطب الدين مودود، صاحب الموصل وديار الجزيرة، وإلى فخر الدين قرا أرسلان، صاحب حصن كيفا، وإلى نجم الدين ألبی، صاحب ماردین، وغيرهم من أصحاب الأطراف يستنجدهم، فأما قطب الدين فإنه جمع عسكره وسار مُجَدّاً، وفي مقدمته زين الدين عليّ أمير جيشه، وأما فخر الدين، صاحب الحصن، فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه: على أي شيء عزمْتَ؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة، وهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، فكلمهم وافقه على هذا الرأي، فلما كان الغد أمر بالتجهّز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا ممّا بدا؟ فأرقناك أمس على حالة، فنرى اليوم ضلّها؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه قد كاتب زهادها وعُبادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر، ويستمدّ منهم الدعاء، ويطلب أن يحشّوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كلّ واحد من أولئك، ومعه أصحابه وأتباعه، وهم يقرؤون كتب نور الدين، ويكفون ويلعنوني، ويدعون عليّ، فلا بدّ من المسير إليه، ثمّ تجهّز وسار بنفسه.

وأما نجم الدين فإنه سيّر عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف إليها، فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج، فجاؤوا في حلقهم وحديد، وملوكهم وفرسانهم، وقسيسهم وراهبهم، وأقبلوا إليه من كلّ حذب ينسلون، وكان المقدّم عليهم البرنس ييُمد، صاحب أنطاكية، وقمّص، صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين، وهو من مشاهير الفرنج، والدوك، وهو مقدّم كبير من الروم، وجمعوا الفارس والراجل، فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعاً أن يتبعوه فيتمكن منهم لبعدهم عن بلادهم إذا لقوه، فساروا، فنزلوا على (٣٠٣/١١) غمّر ثم علموا عجزهم عن لقائه، فعادوا إلى حارم، فلما عادوا تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبته الحرب.

فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، فبدأ الفرنج بالجملة على ميمنة المسلمين، وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن، فانهزم المسلمون فيها، وتبعهم الفرنج، فقبل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتّفاق ورأي دبروه، وهو أن يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم، فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف فيقتلهم، فإذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ولا وُزراً يعتمدون عليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيماهم وعن شمائلهم، فكان الأمر على ما دبروه: فإنّ الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين عليّ في عسكر الموصل على راجل الفرنج فأفناهم قتلاً وأسرّاً، وعاد خيالتهم، ولم يمعنوا في الطلب خوفاً على راجلهم، فعاد المنهزمون في آثارهم، فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى وأسرى، فسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد هلكوا وبقوا في الوسط قد أحرق بهم المسلمون من كلّ جانب، فاشتدّت الحرب، وقامت على ساق، وكثر القتل في الفرنج، وتمتّ عليهم الهزيمة، فعدّل حينئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر، فأسروا ما لا يحصى، وفي جملة الأسرى صاحب أنطاكية والقمّص، صاحب طرابلس، وكان شيطان الفرنج، وأشدّهم شكيمة على المسلمين، والدوك مقدّم الروم، وابن جوسلين، وكانت عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل.

وأشار المسلمون على نور الدين بالمسير إلى أنطاكية وتملّكها لخلوها من حام يحميها ومقاتل يذبّ عنها، فلم يفعل، وقال: أمّا المدينة فأمرها سهل، وأمّا القلعة فمنيعة، وربما سلّموها إلى ملك الروم لأنّ صاحبها ابن أخيه (٣٠٤/١١) ومجاورة ييُمد أحبّ إليّ من مجاورة صاحب قسطنطينية، وبثّ السرايا في تلك الأعمال فنهبها وأسروا أهلها وقتلوه، ثمّ إنه فادى ييُمد البرنس، صاحب أنطاكية، بمال جزيل وأسرى من المسلمين كثيرة أطلقهم.

ذكر ملك نور الدين قلعة باناس من الفرنج أيضاً

في ذي الحجة من هذه السنة فتح نور الدين محمود قلعة باناس، وهي بالقرب من دمشق، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ولما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همّهم حفظها وتقويتها، فسار محمود إلى باناس لعلمه بقلّة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها، وضيق عليها وقتالها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنّيت ذهاب الأخرى. وجحد في حصارها، فسمع الفرنج، فجمعوا، فلم تكامل عدّتهم، حتّى فتحتها، على أنّ الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسره فملك القلعة،

يقول: كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر، فلما مرض قال لي في بعض الأيام: يا أبا القاسم! إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني. قال: فقلت في نفسي قد اختلط عقله، فلما كان الغد أكثر السؤال عنه، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط، فقلت: جاء الطائر، فاستبشر ثم قال: جاء الحق، وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى، إلى أن توفي، فلما توفي طار ذلك الطائر، فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه.

ودفن بالموصل عند فتح الكرام، رحمة الله عليهما، نحو سنة، ثم نقل إلى المدينة، فدفن بالقرب من حرم النبي ﷺ في رباط (٣٠٧/١١) بناء لنفسه هناك، وقال لأبي القاسم: بيني وبين أسد الدين شيركوه عهد، من مات منا قبل صاحبه حمله إلى المدينة فدفنه بها في التربة التي عملها، فإذا أنا مت فامض إليه وذكّره. فلما توفي سار أبو القاسم إلى شيركوه في المعنى، فقال له شيركوه: كم تريد؟ فقال: أريد أجرة حمل يحمله وجمل يحملني وزادي، فأنهزته وقال: مثل جمال الدين يُحمل هكذا إلى مكة! وأعطاه مالا صالحاً ليحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين، وجماعة يقرؤون عليه بين يدي تابوته إذا حُمِل، وإذا نزل عن الجمل؛ وإذا وصل إلى مدينة يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه، فيصلّي عليه في كلّ بلدة يجتاز بها، وأعطاه أيضاً مالا للصدقة عنه، فصلّي عليه في تكريت وبغداد والحلة وفيد ومكة والمدينة، وكان يجتمع له في كلّ بلد من الخلق ما لا يُحصى، ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد بأعلى صوته:

سَرَى نَشْءُ فَوْقَ الرِّقَابِ وَطَالَمَا سَرَى جُودُهُ فَوْقَ الرِّكَابِ وَنَالَهُ
يَمْرُ عَلَى السَّوَادِي فَتَنِي رِمَالُهُ عَلَيْهِ وَتَالَسَادِي فَتَنِي أَرَامِلُهُ
فلم ترَ باكياً أكثر من ذلك اليوم، فطافوا به حول الكعبة، وصلّوا عليه بالحرم الشريف؛ وبين قبره وقبر النبي ﷺ نحو خمسة عشر ذراعاً.

وأما سيرته فكان، رحمه الله، أسخى الناس، وأكثرهم بذلاً للمال، رحيماً بالخلق، متعظاً عليهم، عادلاً فيهم. فمن أعماله الحسنة؛ أنه جلد بناء (٣٠٨/١١) مسجد الخيف بمنى، وغرم عليه أموالاً جسيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة، وزخرف الكعبة وزهّبها، وعملها بالرخام؛ ولما أراد ذلك أرسل إلى المتقفي لأمر الله هدية جليّة، وطلب منه ذلك، وأرسل إلى الأمير عيسى أمير مكة هدية كثيرة، وخيلاً سنّية، منها عمامة مشترها ثلاثمائة دينار، حتى مكّنه من ذلك.

وعمر أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات والدرج التي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات أيضاً مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعمان في طرق

وملاها ذخائر وعدة ورجالاً، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية، وقرّروا له على الأعمال التي لم يشاطروهم عليها مالا في كلّ سنة.

ووصل خبر ملك حارم وحاصر بانياس إلى الفرنج بمصر، فصالحوا شيركوه، وعادوا ليدركوا بانياس، فلم يصلوا إلا وقد ملكها، ولما عاد منها إلى دمشق كان بيده خاتم بفصّ ياقوت من أحسن الجوهر، وكان يسمّى الجبل (٣٠٥/١١) لكبره وحسنه، فسقط من يده في شعاري بانياس، وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، فلما أبعد عن المكان الذي ضاع فيه علم به، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلّهم على المكان الذي كان آخر عهده به فيه، وقال: أظنّ هناك سقط، فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشاميين أظنه ابن منير يمدحه ويهتّه بهذه الغزاة ويذكر الجبل الياقوت:

إِنْ يَمُتُ الشُّكَّاءُ فَبِكَ بَأْتِكَ الْـ مَهْدِيْ مُطْفِئِ جَمْرَةِ الدَّجَالِ
فَلْعُودَةُ الْجَبَلِ الَّذِي أَضْلَلْتُهُ بِالْأَمْسِ يَنْ غِيَاطِلِي وَجِبَالِ
لَمْ يُطْهَرِ إِلَّا أَسْلِمَانٌ وَقَدْ نَبَتِ الرِّبَا بِمُوشِكِ الْأَعْجَالِ
رَحْرَحَرِي لَسِرِّرِ مَلِكِكَ إِنَّهُ كَسْرِيهِ عَنْ كُلِّ حَذَعَالِ
فَلَوْ الْبَحَارُ السَّبْعَةُ اسْتَهْوَيْنِي وَأَمْرَتُنِي قَلْبَتُهُ فِي الْحَالِ

ولما فتح الحصن كان معه ولد معين الدين أنز الذي سلّم بانياس إلى الفرنج، فقال له: للمسلمين بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحان، فقال: كيف ذاك؟ قال: لأنّ اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم.

ذكر أخذ الأتراك غزوة من ملكشاه وعوده إليها

في هذه السنة قصد بلاد غزنة الأتراك المعروفون بغز، ونهبوها وخربوها، وقصدوا غزنة وبها صاحبها ملكشاه بن خسروشاه المحمودي، فعلم أنه لا طاقة له بهم، ففارقها وسار إلى مدينة لهاوور، وملك الغز مدينة (٣٠٦/١١) غزنة، وكان القيم بأمرهم أمير اسمه زنكي بن علي بن خليفة الشيباني، ثم إن صاحبها ملكشاه جمع وعاد إلى غزنة، ففارقها زنكي وعاد ملكها ملكشاه ودخلها في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة وتمكّن في دار ملّكه.

ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشيء من سيرته

في هذه السنة توفي جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، وزير قطب الدين، صاحب الموصل، في شعبان مقبوضاً، وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين، فبقي في الحبس نحو سنة.

حكى لي إنسانٌ صوفيّ يقال له أبو القاسم كان مختصاً بخدمته في الحبس قال: لم يزل مشغولاً في محبسه بأمر آخرته، وكان

وتجري لهم كل شهر ديناراً. قال: فقلت له: قد قلت للرجل حتى يجيء إليّ، فازداد فرحاً، وفعلت بالرجل ما قال، ولم يزل يصل إليه رسمه حتى قبض. وله من هذا كثير، فمن ذلك أنه تصدق بنبابه من على بلده في بعض السنين التي تعذرت الأقوات فيها.

ذكر إجلاء القارغلية من وراء النهر

كان خان خانان الصيني ملك الخطا قد فوض ولاية سمرقند وبخارى إلى الخان جغري خان بن حسن تكين، واستعمله عليهما، وهو من بيت الملك، قديم الأوبة، فبقي فيها مديراً لأمورها، فلما كان الآن أرسل إليه ملك الخطا بإجلاء الأتراك القارغلية من أعمال بخارى وسمرقند إلى كاشغر، وأن يتركوا حمل السلاح ويستغلوا بالزراعة وغيرها من الأعمال، فتقدم جغري خان إليهم بذلك، فامتنعوا، فألزهمهم وألح عليهم بالانتقال، فاجتمعوا وصارت كلمتهم واحدة، فكثروا، وساروا إلى بخارى، فأرسل الفقيه محمد بن عمر ابن برهان الدين عبد العزيز بن مازة، رئيس بخارى، إلى جغري خان يعلمه ذلك ويحثه على الوصول إليهم بعساكره قبل أن يعظم شرهم، وينهبوا البلاد.

وأرسل إليهم ابن مازة يقول لهم: إن الكفار بالأمس لما طرخوا هذه البلاد امتنعوا عن النهب والقتل، وأنتم مسلمون، غزاة، يقبح منكم مدّ الأيدي إلى الأموال والدماء، وأنا أبذل لكم من الأموال ما ترضون به لتكفوا عن النهب والغارة؛ فترددت الرسل بينهم في تقرير القاعدة، وابن مازة يطاول بهم ويمادي الأيام إلى أن وصل جغري خان، فلم يشعر الأتراك القارغلية (٣١١/١١) إلا وقد دهمهم جغري خان في جيوشه وجموعه بغتة ووضع السيف فيهم، فانهزموا وتفرقوا، وكثر القتل فيهم والنهب، واختفى طائفة منهم في الغياض والأجاص ثم ظفر بهم أصحاب جغري خان فقطعوا دابرهم، ودفعوا عن بخارى ونواحيها ضررهم وخلت تلك الأرض منهم.

ذكر استيلاء سُقُر على الطالقان وغرغستان

في هذه السنة استولى الأمير صلاح الدين سُقُر، وهو من مسالك السنجرية، على بلاد الطالقان، وأغار على حدود غرغستان، وتابع الغارات عليها حتى ملكها، فصارت الولايتان له ويحكمه، وله فيها حصون منيعة، وقلاع حصينة، وصالح الأمراء الغزوية وحمل لهم الإتاوة كل سنة.

ذكر قتل صاحب هراة

كان صاحب هراة الأمير إيتكين بينه وبين الغز مهادنة، فلما توفي ملك الغور محمد طمع في بلادهم، فغزاهم غير مرة، ونهب وأغار، فلما كان في شهر رمضان من هذه السنة جمع إيتكين جموعه وسار إلى بلاد الغور، وساروا إلى باميان وإلى ولاية بُسْت

معمولة تحت الأرض، فخرج عليها مال كثير. وكان يُجري الماء في المصانع كل سنة أيام عرفات، وبنى سوراً على مدينة النبي ﷺ وعلى قيد، وبنى لها أيضاً فصيلاً.

وكان يخرج على باب داره، كل يوم، للصعاليك والفقراء مائة دينار أميرى، هذا سوى الإدارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب البيوتات.

ومن أبنائه العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرمصاص والكلس، فقبض قبل أن يفرغ. وبنى عنده أيضاً جسراً كذلك على النهر المعروف بالارباد، وبنى الرُبط، وقصده الناس من أقطار الأرض، ويكنيه أن ابن الخجندي، رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان، قصده وابن الكافي قاضي همدان، فآخرج (٣٠٩/١١) عليهما ملاً عظيماً، وكانت صدقاته وصلاته من أقاصي خراسان إلى حدود اليمن.

وكان يشتري الأسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار، هذا من الشام حسب، سوى ما يشتري من الكرج.

حكى لي والدي عنه قال: كثيراً ما كنت أرى جمال الدين، إذا قدم إليه الطعام، يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه في خبز يسن يديه، فكنت أنا ومن يراه نظن أنه يحمله إلى أم ولده علي، فاتفق أنه في بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين، وكنت أتولى ديوانها، وحمل جاريته أم ولده إلى داري لتدخل الحمام، فبقيت في الدار أياماً، فبينما أنا عنده في الخيام وقد أكل الطعام، فعل كما كان يفعل ثم تفرق الناس، فقممت، فقال: اقم. فقمعت، فلما خلا المكان قال لي: قد أتركت اليوم على نفسي، فلنأتي في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله، خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمك في هذا المنديل، واترك الحماقة من رأسك، وعُد إلى بيتك، فإذا رأيت في طريقك فقيراً يقع في نفسك أنه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام. قال: ففعلت ذلك. وكان معي جمع كثير، ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك، وبقيت في غلmani، فأرأيت في موضع إنساناً أعمى، وعنده أولاده وزوجته، وهم من الفقر في حال شديد، فنزلت عن دابتي إليهم، وأخرجت الطعام وأطعمتهم إياه، وقلت للرجل: تنجيء غداً بكرة إلى دار فلان، أعني داري، ولم أعرفه نفسي، فلنأتي آخذ لك من صدقة جمال الدين شيئاً. ثم ركبته إليه العصر، فلما رأيته قال: ما الذي فعلت في الذي قلت لك؟ فآخذت أذكر له شيئاً يتعلّق بدولتهم، فقال: ليس عن هذا أسألك إنما أسألك عن الطعام الذي سلّمته إليك، فذكرت له الحال، ففرح ثم قال: بقي أنك لو قلت للرجل يجيء إليك هو وأهله فتكسومهم وتعطيهم (٣١٠/١١) دنانير،

وقصد بلاد الإسلام التي بيد قَلَج أرسلان وابن دَانِشْمَنْد، فاجتمع التركمان في (٣١٤/١١) تلك البلاد في جمع كبير، فكانوا يُغيرون على أطراف عسكره ليلاً، فإذا أصبح لا يرى أحداً.

وكرر القتل في الروم حتى بلغت عِدَّة القتلى عشرات ألف، فعاد إلى القسطنطينية، ولَمَّا عاد ملك المسلمون منه عِدَّة حصون.

وفيها توفي الإمام عمر الخوارزمي خطيب بلخ ومفتيها بها، والقاضي أبو بكر المحمودي، صاحب التصانيف والأشعار، وله مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريري بالعربية. (٣١٥/١١)

سنة ستين وخمسمائة

ذكر وفاة شاه مازندران ومُلك ابنه بعده

في هذه السنة، ثامن ربيع الأول، توفي شاه مازندران رستم بن عليّ ابن شهریار بن قارن، ولَمَّا توفي كتم ابنه علاء الدين الحسن موته أياماً، حتى استولى على سائر الحصون والبلاد ثم أظهره، فلَمَّا ظهر خبر وفاته أظهر إيشاق صاحب جرجان ودهستان المنازعة لولده في المُلْك، ولم يرغ حقّ أبيه عليه، فأنه لم يزل يذبّ عنه ويحميه إذا التجأ إليه، ولكن المُلْك عقيم، ولم يحصل من منازعته على شيء غير سوء السمعة وقبح الأحداث.

ذكر حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها

كان المؤيد قد سیر جيشاً إلى مدينة نسا، فحاصروها إلى جمادى الأولى في هذه السنة، فسیر خوارزم شاه إيل أرسلان بن اتيز جيشاً إلى نسا، فلَمَّا قاربوها رحل عنها عسكر المؤيد وعادوا إلى نيسابور أواخر جمادى الأولى.

وسار عسكر المؤيد إلى عسكر خوارزم، لأنهم توجهوا إلى نيسابور، (٣١٦/١١) فتقدّم العسكر المؤيدي ليردّهم عنها، فلَمَّا سمع العسكر الخوارزمي بهم عاد عنهم، وصار صاحب نسا في طاعة خوارزم شاه والخطبة له فيها.

وسار عسكر خوارزم إلى دهستان، فالتجأ صاحبها الأمير إيشاق إلى المؤيد، صاحب نيسابور، بعد تَمَكُّن الوحشة بينهما، فقبله المؤيد وسیر إليه جيشاً كثيفاً، فأقاموا عنده حتى دفع الضرر عن نفسه وبلده من جهة طبرستان.

وأما دهستان فإنّ عسكر خوارزم غلبوا عليها وصار لهم فيها شحنة.

ذكر استيلاء المؤيد على هراة

قد ذكرنا قتل صاحب هراة سنة تسع وخمسين [وخمسمائة]، فلَمَّا قُتل تجهز الأمراء الغزوية وساروا إلى هراة وحاصروها، وقد

والرُخج، فقاتله صاحبها طغرل تكين (٣١٢/١١) يرتقش الفلّكي من قبل الغورية، فظهروا إلى باميان، واستولى [على] بَست والرُخج فسَلَمَهما إلى بعض أولاد ملوك الغور، وأما إيتكين فإنه توغّل في بلاد الغور، فأتاه أهلها وقتلوه وصدّوه، وصدّقه القتال، فانهزم عسكره، وقُتل هو في المعركة.

ذكر مُلك شاه مازندران قوريس وبسطام

قد ذكرنا استيلاء المؤيد صاحب نيسابور على قوريس وبسطام وتلك البلاد، وأنه استتاب بها مملوكه تنكز، فلَمَّا كان هذه السنة جهز شاه مازندران جيشاً واستعمل عليهم أميراً له يُعرف بسابق الدين القزويني، فسار إلى دايغان فملكها، فجمع تنكز من عنده من العساكر وسار إليه إلى دامغان، فخرج إليه القزويني، فوصل إلى تنكز على غرة منه، فلم يشعر هو وعسكره إلا وقد كسبهم القزويني ووضع السيف فيهم ففترقوا وولّوا منهزمين، واستولى عسكر شاه مازندران على تلك البلاد، وعاد تنكز إلى المؤيد صاحب نيسابور، واشتغل بالغارة على بسطام وبلاد قوريس.

ذكر عصيان غمارة بالمغرب

لَمَّا تحقّق الناس موت عبد المؤمن سنة تسع وخمسين [وخمسمائة]، ثارت قبائل غمارة مع مفتاح بن عمرو، وكان مقدّمًا كبيراً فيهم، وتبعوه (٣١٣/١١) بأجمعهم، وامتنعوا في جبالهم، وهي معاقل مانعة، وهم أمم جمّة، فتجهز إليهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، ومعه أخواه عمرو وعثمان، في جيش كبير من الموحدّين والعرب، وتقَدّموا إليهم، فاقتلوا سنة إحدى وستين وخمسمائة، فانهزمت غمارة، وقُتل منهم كثير، وفيمَن قُتل مفتاح بن عمرو مقدّمهم، وجماعة من أعيانهم ومقدّميه، وملكوا بلادهم عنوة.

وكان هناك قبائل كثيرة يريدون الفتنة، فانتظروا ما يكون من غمارة، فلَمَّا قُتلوا ذلّت تلك القبائل وانقادوا للطاعة، ولم يبق متحرّك لفتنة ومعصية فسكنت الدهماء في جميع المغرب.

ذكر عِدَّة حوادث

في هذه السنة أغار الأمير محمد بن أنز على بلد الإسماعيلية بخراسان وأهلها غافلون، فقتل منهم وغنم وأسر وسبى وأكثر وملا أصحابه أيديهم من ذلك.

وفيها توفي أبو الفضل نصر بن خلف ملك سجستان، وعمره أكثر من مائة سنة، ومدة مُلكه ثمانون سنة، وملك بعده ابنه شمس الدين أبو الفتح أحمد بن نصر؛ وكان أبو الفضل ملكاً عادلاً عفيفاً عن رعيته، وله آثار حسنة في نصرة السلطان سنجر في غير موقف.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية في عساكر لا تُحصى

تولّى أمرها إنسان يلقب أثير الدين، وكان له ميل إلى الغرّ، وهو يحاربهم ظاهراً، ويراسلهم باطناً، فهلك لهذا السبب خلق كثير من أهل هرة، فاجتمع أهلها فقتلوه، وقام مقامه أبو الفتوح علي بن فضل الله الطغرثاني، فأرسل أهلها إلى المؤيد أي أبيه، صاحب نيسابور، بالطاعة والانقياد إليه، فسير إليهم مملوكه سيف الدين تنكز في جيش، وسير جيشاً آخر أغاروا على سرّخس، ومرو، فاخذوا دواب الغرّ وعادوا سالمين، فلما سمع الغرّ بذلك رحلوا عن هرة إلى مرو. (٣١٧/١١)

ذكر الحرب بين قلعج أرسلان وبين ابن دانشمند

في هذه السنة كانت الفتنة بين الملك قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان، صاحب قونية وماجاورها من بلد الروم، وبين ياغي أرسلان بن دانشمند، صاحب ملطية وما يجاورها من بلد الروم، وجري بينهما حرب شديدة.

وسببها أن قلعج أرسلان تزوج ابنة الملك صليق بن علي بن أبي القاسم، فسيرت الزوجة إلى قلعج أرسلان مع جهاز كثير لا يُعلم قدره، وأغار ياغي أرسلان صاحب ملطية عليه، وأخذ العروس وما معها وأراد أن يزوجه بابن أخيه ذي النون بن محمد بن دانشمند، فأمرها بالردة عن الإسلام ففعلت لينتسخ النكاح من قلعج أرسلان ثم عادت إلى الإسلام، فزوجه من ابن أخيه، فجمع قلعج أرسلان عسكره وسار إلى ابن دانشمند، فالتقيا واقتلا، فانهزم قلعج أرسلان، والتجأ إلى ملك الروم، واستنصره، فأرسل إليه جيشاً كثيراً، فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الأيام، وملك قلعج أرسلان بعض بلاده، واصطاح هو والملك إبراهيم بن محمد بن دانشمند، لأنه ملك البلاد بعد عمه ياغي أرسلان، واستولى ذو النون بن محمد بن دانشمند على مدينة قيسارية، وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قلعج أرسلان على مدينة انكورية واستقرت القواعد بينهم واتفقوا. (٣١٨/١١)

ذكر الفتنة بين نور الدين وقلعج أرسلان

في هذه السنة كانت وحشة متأكدة بين نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، وبين قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان، صاحب الروم، أدت إلى الحرب والتضاغن، فلما بلغ خبرها إلى مصر كتب الصالح بن رزّيك. وزير صاحب مصر، إلى قلعج أرسلان ينهيه عن ذلك ويأمره بموافقته، وكتب فيه شعراً:

تَقُولُ وَلَكِنْ إِنْ سَنَ يَنْقُصُ وَيَعْلَمُ وَجْهَ الرَّايِّ وَالرَّايِّ مِنْهُمْ وَمَا كُلُّ مَنْ قَامَ الْأُمُورَ وَسَامَتْهَا يُؤْتَقُ لِلْأَمْرِ الَّذِي هُوَ اخِزَمَ وَمَا اخَذَ فِي الْمُلْكِ يَقِي مُخْلَداً وَمَا اخَذَ مِمَّا قَضَى اللَّهُ يَسْلَمُ أَمِنْ بَعْدِ مَا ذَاكَ الْعِدَى طَعَمَ حَرْبَكُمْ [يَفْهَمُ وَكَانَتْ] وَهِيَ صَابَ وَعَلِقُمْ رَجَعْتُمْ إِلَى حُكْمِ التَّصَافِ يَنْتَكِمُ وَفِيكُمْ مِنَ الشَّحْنَاءِ نَلَّ تَقْصُرُمْ

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، وقع بأصفهان فتنة عظيمة بين صدر الدين عبد اللطيف بن الخجندی وبين القاضي وغيره من أصحاب المذاهب، بسبب التعصب للمذاهب، فدام القتال بين الطائفتين ثمانية أيام متتابعة قُتل فيها خلق كثير، واحترق ولُدُم كثير من الدور والأسواق، ثم افرقوا على أقبح صورة.

وفيها بنى الإسماعيلية قلعة بالقرب من قزوین فقبل لشمس الدين إيلدكز عنها، فلم يكن له إنكار لهذه الحال خوفاً من شرهم وغائلهم، فتقدّموا بعد ذلك إلى قزوین فحاصروها، وقتلهم أهلها أشد قتال رآه الناس.

وحكى لي بعض أصدقائنا بل مشايخنا من الأئمة الفضلاء قال: كنتُ بقزوین اشتغل بالعلم، وكان بها إنسان يقود جمعاً كبيراً، وكان موصوفاً بالشجاعة، وله عصابة حمراء، إذا قاتل عصب بها رأسه، قال: فكنّت أحبه واشتبهى الجلوس معه. قال: فبينما أنا عنده يوماً إذا هو يقول: كائني بالملاحدة وقد قصدوا البلد غداً، فخرجنا إليهم وقتلناهم، فكنّت أوّل الناس وأنا متعصب بهذه العصابة، فقاتلناهم، فلم يُقتل غيري، ثم ترجع الملاحدة، ويرجع أهل البلد.

قال: فوالله لما كان الغد قد وقع الصوت بوصول الملاحدة، فخرج الناس، قال: فذكرتُ والله وليس لي همّة إلا [أن] أنظر هل يصح ما قال أم لا. قال: فلم يكن إلا قليل حتى عاد الناس وهو محمول على أيديهم قتيلاً بعصابته الحمراء، وذكروا أنه لم يُقتل بينهم غيره، فقيت متعجباً من قوله كيف صح، ولم يتغير منه شيء، ومن أين له هذا اليقين؟ (٣٢٠/١١)

ولما حكى لي هذه الحكاية لم أسأله عن تاريخها، وإنما كان في هذه المدة في تلك البلاد، فلهاذا أثبتتها هذه السنة على الظن والتخمين.

وفيها قبض المؤيد أي أبيه، صاحب نيسابور، على وزيره ضياء الملك محمد بن أبي طالب سعد بن أبي القاسم محمود الرازي

سنة إحدى وستين وخمسمائة

ذكر فتح المنيطرة من بلد الفرنج

في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكي حصن المنيطرة من الشام، وكان بيد الفرنج، ولم يحشد له، ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه جريدة على غرة منهم، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، وانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصره، وجد في قتاله، فأخذة عنوة وقهراً، وقتل من بها وسبي، وغنم غنيمة كثيرة، فإن الذين به كانوا آمنين، فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون، ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلا وقد ملكه، ولو علموا أنه جريدة في قلعة من العساكر لأسرعوا إليه، وإنما ظنوه أنه في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من رده.

ذكر قتل خطبرس مقطع واسط

في هذه السنة قتل خطبرس مقطع واسط، قتله ابن أخي شملة صاحب خوزستان.

وسبب ذلك أن ابن سنكا، وهو ابن أخي شملة، كان قد صاهر منكوبرس مقطع البصرة، فاتفق أن المستنجد بالله قتل منكوبرس سنة (٣٢٣/١١) تسع وخمسين وخمسمائة، فلما قتل قصد ابن سنكا البصرة ونهب قراها، فأرسل من بغداد إلى كمشتكين، صاحب البصرة، بمحاربة ابن سنكا، فقال: أنا عامل لست بصاحب جيش، يعني أنه ضامن لا يقدر على إقامة عسكر، فطعم ابن سنكا، وأصعد إلى واسط، ونهب سوادها، فجمع خطبرس مقطوعاً جمعاً وخرج إلى قتاله.

وكتب ابن سنكا الأمراء الذين مع خطبرس، فاستمالهم ثم قاتلهم فانهمز عسكره فقتله، وأخذ ابن سنكا علم خطبرس فنصبه، فلما رآه أصحابه ظنوه باقياً، فجعلوا يعودون إليه، وكل من رجع أخذه ابن سنكا فقتله أو أسره.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرج الكرج في جمع كثير وأغاروا على بلدان، حتى بلغوا كنجة، فقتلوا وأسروا وسبوا كثيراً ونهبوا ما لا يحصى.

وفيها توفي الحسن بن العباس بن رستم أبو عبد الله الأصفهاني الرستمي، الشيخ الصالح، وهو مشهور يروي عن أحمد بن خلف وغيره.

وفيها، في ربيع الآخر، توفي الشيخ عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلي المقيم ببغداد، ومولده سنة سبعين وأربعمائة، وكان من الصلاح على حالة كبيرة، وهو حنبل المذهب، ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد. (٣٢٤/١١)

وحبسه، واستوزر بعده نصير الدين أبا بكر محمد بن أبي نصر محمد المستوفي، وكان أيام السلطان سنجر يتولى إشراف ديوانه، وهو من أعيان الدولة السنجرية.

وفي هذه السنة وردت الأخبار أن الناس حجوا سنة تسع وخمسين، ولقوا شدة، وانقطع منهم خلق كثير في قيد والتعليق وواقصة وغيرها، وهلك كثير، ولم يمتص الحاج إلى مدينة النبي ﷺ لهذه الأسباب، ولشدة الغلاء فيها، وعدم ما يقتات، ووقع الوباء في البادية وهلك منهم عالم لا يحصون، وهلكت مواشيهم، وكانت الأسعار بمكة غالية.

وفيها، في صفر، قبض المستنجد بالله على الأمير توبة بن العفيلي، وكان قد قرب منه قرباً عظيماً بحيث يخلو معه، وأحببه المستنجد محبة كثيرة، فحسده الوزير ابن هبيرة، فوضع كتاباً من العجم مع قوم وأمرهم أن يتعرضوا ليؤخذوا، ففعلوا ذلك وأخذوا وأحضروا عند الخليفة، فأظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد، فلما وقف الخليفة عليها خرج إلى نهر الملك يتصيد، وكانت جلل توبة على الفرات، فحضر عنده، فأمر بالقبض عليه، فقبض وأدخل بغداد ليلاً وحبس، فكان آخر العهد به، فلم يمتع الوزير بعده بالحياة بل مات بعد ثلاثة أشهر. وكان توبة من أكمل العرب مروءة وعقلاً وسخاء وإجازة، واجتمع فيه من خلال الكمال ما تفرق في الناس. (٣٢١/١١)

وفيها، في ربيع الأول، توفي الشهاب محمود بن عبد العزيز الحادي الهروي وزير السلطان أرسلان، ووزير أتابكه شمس الدين إيلدكز.

وفيها توفي عون الدين الوزير ابن هبيرة، واسمه يحيى بن محمد أبو المظفر، وزير الخليفة، وكان موته في جمادى الأولى ومولده سنة تسعين وأربعمائة، ودفن بالمدرسة التي بناها للحنابلة بباب البصرة، وكان حنبل المذهب، ديناً خيراً، عالماً، يسمع حديث النبي ﷺ وله فيه التصانيف الحسنة، وكان ذا رأي سديد، وناقد على المفتي نفاقاً عظيماً، حتى إن المفتي كان يقول: لم يزر لبني العباس مثله. ولما مات قبض على أولاده وأهله.

وتوفي بهذه السنة محمد بن سعد البغدادي بالموصل، وله شعر حسن، فمن قوله:

أفدي الندي وكلنسي خيـ بطول إعلال وإمراض
ولست أدري بعد ذا كلو أساخط مزلوي أم راض

وفيها توفي الشيخ الإمام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزي الشافعي، تفقه على الفقيه الكيا الهراسي، وكان واحد عصره في الفقه تأتبه الفتاوى من العراق وخراسان وسائر البلاد، وهو من جزيرة ابن عمر. (٣٢٢/١١)

سنة اثنين وستين وخمسمائة

ذكر عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر، وما كان منه، وقوله إلى الشام، فلما وصل إلى الشام أقام على حاله في خدمة نور الدين إلى الآن.

وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير، فلما كان هذه السنة تجهّز وسار في ربيع الآخر في جيش قوي، وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء، فبلغت عدّتهم ألفي فارس، وكان كارهاً لذلك، ولكن لما رأى جدّ أسد الدين في المسير لم يمكنه إلا أن يسير معه جمعاً خوفاً من حادث يتجدّد عليهم فيضعف الإسلام، فلما اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البرّ، وترك بلاد الفرنج على يمينه، فوصل الديار المصرية، فقصده اطنيفح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرّف في البلاد الغربية، وحكم عليها، وأقام بها خمسين يوماً.

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين إليهم قد أرسل إلى الفرنج يستنجدهم، فأتوه على الصعب والذلول، طمعاً في ملكها، وخوفاً أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين، فالجاء يقدّمهم، والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين (٣٢٥/١١) وعساكره قد ساروا إلى الصعيد، فبلغ مكاناً يُعرف بالباين، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه، فادركوه بها الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، وكان أرسل إلى المصريين والفرنج جواسيس، فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم، وجنّهم في طلبه، فعزم على قتالهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه أقرب من سلامتهم، لقلّة عددهم وبُعدهم عن أوطانهم وبلادهم، وخطر الطريق، فاستشارهم، فكلّهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا، وهو الذي يغلب على الظن، فإلى أين نلتجئ، وبمن نحتمي، وكلّ من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ؟

فقام أمير من ممالك نور الدين يقال له شرف الدين بزغش، صاحب شقيف، وكان شجاعاً، وقال: من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نُعَذّر فيه لياخذنّا ما لنا من أقطاع وجامكية، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا ويقولن: تأخذون أموال المسلمين وتضرون عن عدوهم، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار! والحق بيده.

فقال أسد الدين: هذا الرأي، وبه أعمل، وقال ابن أخيه صلاح الدين مثله، وكثر الموافقون لهم، واجتمعت الكلمة على القتال، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبته، وجعل الانتقال في القلب يتكرّر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فبينها أهل البلاد، وجعل صلاح الدين في القلب، وقال له ولمن معه: إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم أنني فيه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال، ولا تهلكوا نفوسكم، وانفذوا بين أيديهم فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم. (٣٢٦/١١)

واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يتقّ بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره، وحملوا على القلب، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنج، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل، فهزّمهم، ووضع السيف فيهم، فأتخن وأكثر القتل والأسر، فلما عاد الفرنج من المنهزمين رأوا عسكرهم مهزوماً، والأرض منهم قفراً، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرّخ أنّ ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل.

ذكر ملك أسد الدين الإسكندرية وعوده إلى الشام

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالباين سار إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في القرى على طريقه من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية، فتلّسها بمساعدة من أهلها سلّموها إليه، فاستتاب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان.

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا واجتمعوا على القاهرة، وأصلحوا حال عساكرهم، وجمعوا وساروا إلى الإسكندرية، فحصرها صلاح الدين بها، واشتدّ الحصار، وقلّ الطعام على من بها، فصبر أهلها على ذلك، وسار أسد الدين من الصعيد إليهم، وكان شاور قد أقصد بعض من معه من التركمان، فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط [على] الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يملكوا منها قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك، واصطلحوا وعاد إلى الشام، وتسلّم المصريون الإسكندرية في نصف شوال، ووصل شيركوه (٣٢٧/١١) إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة.

وأما الفرنج فإنهم استقرّ بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم، ويكون لهم من دخل مصر كلّ سنة مائة ألف

الترقيع (٣٢٩/١١) وذلك، وقال: أنا أقتع بثلاث ذلك. فعاد الدمشقي بذلك، فأمر الخليفة بلعنه، وأنه من الخوارج، وجمعت العساكر وسيّرت إلى أرغش المسترشدي، وكان بالنعمانية هو وشرف الدين أبو جعفر بن البلدي، ناظر واسط، مقابل شملة.

ثم إن شملة أرسل قَلَج ابن أخيه في طائفة من العسكر لقتال طائفة من الأكراد، فركب أرغش في بعض العسكر الذي عنده وسار إلى قَلَج فحاربه، فأمر قَلَج وبعض أصحابه وسيّروهم إلى بغداد، وبلغ شملة، وطلب الصلح، فلم تقع الإجابة إليه، ثم إن أرغش سقط عن فرسه بعد الواقعة فمات وبقي شملة مقيماً مقابل عسكر الخليفة، فلما علم أنه لا قدرة له عليهم رحل وعاد إلى بلاده، وكانت مدة سفره أربعة أشهر.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عصى غازي بن حسان المنيجي على نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، وكان نور الدين قد أقطعه مدينة مَنبِج، فامتنع عليه فيها، فسير إليهم عسكراً فحصره وأخذوها منه، وأقطعهما نور الدين أخاه قطب الدين ينال بن حسان، وكان عادلاً خيراً، محسناً إلى الرعية، جميل السيرة، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة.

وفيها توفي فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وأكثر ديار بكر، ولما اشتد مرضه أرسل إلى نور الدين محمود، صاحب الشام، يقول له: بيننا صحيفة في جهاد الكفار أريد أن ترعى بها ولدي. ثم توفي، وملك بعده ولده نور الدين محمد، فقام نور الدين الشامي (٣٣٠/١١) بنصرته والذب عنه، بحيث أن أخاه قطب الدين مودوداً، صاحب الموصل، أراد قصد بلاده، فأرسل إليه أخوه نور الدين يمنعه، ويقول له: إن قصدته أو تعرضت إلى بلاده منعك قهراً، فامتنع من قصده.

وفيها توفي أبو المعالي محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد، وكان على ديوان الزمام، فقبض عليه فمات محبوساً.

وفيها توفي قماج المسترشدي ولد الأمير يزدن، وهو من أكابر الأمراء ببغداد. (٣٣١/١١)

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين في البلاد

في هذه السنة فارق زين الدين علي بن بكتكين، النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، خدمة صاحبه بالموصل، وسار إلى إربل، وكان هو الحاكم في الدولة، وأكثر البلاد بيده، منها إربل، وفيها بيته وأولاده وخزائنه، ومنها شهرزور

دينار. هذا كله استقر مع شاور، فإن العاضد لم يكن له معه حكم [لأنه] قد حجر عليه وحجبه عن الأمور كلها، وعاد الفرنج إلى بلادهم بالساحل الشامي، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم، وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهي مجيئه وولاءه، ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه أنه يفعل هذا ويجمع الكلمة بمصر على طاعته، وبذل مالا يحمله كل سنة، فأجاب به ذلك، وحمل إليه مالا جزيلاً، فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان ما نذكره هناك إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك نور الدين صافيا وغريمه

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر، فسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره، فاجتمعوا على حمص، فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج، فاجتازوا على حصن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وقصدوا عرقه فنازلوها وحصروها وأخذوها وخربوها، وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتحوا الغريم، وصافيشا، وعادوا إلى حمص فصاموا بها رمضان. (٣٢٨/١١)

ثم ساروا إلى بانياس، وقصدوا حصن هونين، وهو للفرنج أيضاً، من أمتع حصونهم ومعقلهم، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه، فوصل نور الدين من الغد فهدم سورته جميعه، وأراد الدخول إلى بيروت، فتجدد في العسكر خلف أوجب التفريق، فعاد قطب الدين إلى الموصل، وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات، وكانت له، فاخذها في طريقه وعاد إلى الموصل.

ذكر قصد ابن سنكا البصرة

في هذه السنة عاد ابن سنكا بقصد البصرة، ونهب بلدها وخربها من الجهة الشرقية، وسار إلى مطارا، فخرج إليه كمشتكين، صاحب البصرة، وواقعه واقتتلوا قتالاً صبر فيه الفريقان ثم انهزم كمشتكين إلى واسط فاجتمع بشرف الدين أبي جعفر بن البلدي الناظر فيها، ومعهما مقطعهما أرغش، وأتصلت الأخبار بأن ابن سنكا واصل إلى واسط، فخاف الناس منه خوفاً شديداً، فلم يصل إليها.

ذكر قصد شملة العراق

في هذه السنة وصل شملة صاحب خوزستان إلى قلعة الماهكي، من أعمال بغداد، وأرسل إلى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيئاً من البلاد، ويشط في الطلب، فسير الخليفة أكثر عساكره إليه ليمنعوه، وأرسل إليه يوسف الدمشقي يلومه ويحذره عاقبة فعله، فاعتذر بأن إيلدكر والسلطان أرسلان شاه أقطعا الملك الذي عنده، وهو ولد ملكشاه، البصرة وواسط والجلّة، وعرض

وجميع القلاع التي معها، وجميع بلد الهكاريّة وقلاعه، منها العباديّة وغيرها، وبلد الحميدية، ونكريت ومينجار وحرّان، وقلعة الموصل هو بها، وكان قد أصابه طرش وعُمى أيضاً، فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل سلّم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين مودود، وبقي معه إربل حسب.

وكان شجاعاً، عاقلاً، حسن السيرة، سليم القلب، ميمون النّية، لم ينهزم من حرب قط، وكان كريماً كثير العطاء للجنود وغيرهم، مدحه الجيش بيض بقصيدة، فلما أراد أن ينشده قال: أنا لا أعرف ما يقول، ولكنّي أعلم أنّه يريد شيئاً؛ فأمر له بخمسمائة دينار وفرس وخيلة وثياب مجموع ذلك ألف دينار، ولم يزل بإربل إلى أن مات بها بهذه السنة.

ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلّمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد (٣٣٢/١١) المسيح، وحكّمه في البلاد، فعمّر القلعة، وكانت خراباً لأنّ زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرة سيّدة وسياسة عظيمة، وهو خصيّ أبيض من مماليك زنكي أتاكب عماد الدين.

ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة

في هذه السنة أرسل آقسنقر الأحمدي، صاحب مراغة، إلى بغداد يسأل أن يُخطب للملك الذي هو عنده، وهو ولد السلطان محمد شاه، ويذلل أنّه لا يطأ أرض العراق، ولا يطلب شيئاً غير ذلك، ويذلّ مالاّ يحمله إذا أجيب إلى ما التمس، فأجيب بتطبيب قلبه.

وبلغ الخبر إيلدكز صاحب البلاد، فسأه ذلك، وجّهز عسكرياً، وجعل المقدّم عليهم ابنه البهلوان، ومسيرهم إلى آقسنقر، ف وقعت بينهم حربٌ أجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصّنه بمراغة، ونازله البهلوان بها وحصره وضيق عليه، ثمّ تردّد الرسل بينهم، فاصطلحوا، وعاد البهلوان إلى أبيه بهمدان.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي، وكان ناظراً بواسط أبان في ولايتها عن كفاية عظيمة، فأحضره الخليفة واستوزره، وكان عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء قد تحكّم تحكماً عظيماً، فتقدّم الخليفة إلى ابن البلدي بكفّ يده وأيدي أهله وأصحابه، ففعل ذلك ووكل بتاج الدين أخي أستاذ الدار، وطالبه بحساب نهر الملك، لأنّه كان يتولّاه من أيام المقتفي، وكذلك فعل (٣٣٣/١١) بغيره، فحصل بذلك أموالاً جمّة، وخافه أستاذ الدار على نفسه، فحمل مالاّ كثيراً.

وفي هذه السنة توفيّ عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعد بن أبي بكر ابن أبي المظفر السمعانيّ المروزيّ، الفقيه الشافعيّ، وكان أكثراً من سماع الحديث، سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره، ورحل إلى ما وراء النهر وخراسان دفعات، ودخل إلى بلد الجبل وأصفهان والعراق والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد، وله تصانيف المشهورة منها: ذيل تاريخ بغداد، وتاريخ مدينة مرو، وكتاب النسب، وغير ذلك، أحسن فيها ما شاء، وقد جمع مشيخته فزادت عدّتهم على أربعة آلاف شيخ، وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزيّ فقطعه.

فمن جملة قوله فيه أنّه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به إلى فوق نهر عيسى فيقول: حدّثني فلان بما وراء النهر، وهذا باردٌ جدّاً، فإنّ الرجل سافر إلى ما وراء النهر حقّاً، وسمع في عامّة بلاد من عامّة شيوخه، فأنيّ حاجة به إلى هذا التليّس البارد؟ وإنّما ذنبه عند ابن الجوزيّ أنّه شافعيّ، وله أسوة بغيره، فإنّ ابن الجوزيّ لم يُقَيّ على أحد إلاّ مكسري الحنابلة.

وفيها توفيّ قاضي القضاة أبو البركات جعفر بن عبد الواحد الثّقفيّ في جمادى الآخرة.

وفيها توفيّ يوسف الدمشقيّ مدرّس النظاميّة بخوزستان، وكان قد سار رسولاً إلى شملة.

وفيها توفيّ الشيخ أبو النجيب الشّهروزيّ الصوفيّ الفقيه، وكان من الصالحين المشهورين، ودُفن ببغداد. (٣٣٤/١١)

سنة أربع وستين وخمسمائة

ذكر ملك نور الدين قلعة جعفر

في هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة جعفر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن عليّ بن مالك العُقيليّ، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذكر ذلك، وهي من أمنع القلاع وأحصنها على الفرات من الجانب الشرقيّ.

وأما سبب ملكها، فإنّ صاحبها نزل منها يتصيد، فأخذه بنو كلاب وحملوه إلى نور الدين في رجب سنة ثلاث وستين، فاعتقله وأحسن إليه، ورغبه في الإقطاع والمال ليسلّم إليه القلعة، فلم يفعل، فعدل إلى الشّدّة والعنف، وتهدّده، فلم يفعل، فسير إليها نور الدين عسكرياً مقدّمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي عليّ الزعفرانيّ، فحصرها مدّة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّمه بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية، وهو رضيع نور الدين، وأكبر أمرائه، فحصرها أيضاً فلم ير

عاشر صفر وحصروها، فخاف النَّاسُ منهم أن يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بلييس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد، وقَاتَلُوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، فلو أنَّ الفرنج أحسنوا السَّيرة في بلييس لملكوا مصر والقاهرة، ولكنَّ اللَّهَ تعالى حَسَنَ لهم ما فعلوا ليقضي اللَّهَ أمراً كان مفعولاً.

وأمر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفر، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن يُنهب البلد، فانتقلوا، وبقوا على الطرق، ونُهبت المدينة واقتُِر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم، خوفاً أن يملكها الفرنج، فبقيت النَّار تحرقها أربعة وخمسين يوماً.

وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين (٣٣٧/١١) عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج. فشرع في تسيير الجيوش.

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيّقوا على أهلها، وشاور هو المتولّي للأمر والعساكر والقتال، فضايق به الأمر، وضعّف عن ردهم، فأخذ إلى أعمال الحيلة، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودّته ومحَبّته القديمة له، وأنَّ هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد، وأنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح، وأخذ مال لئلا يتسلّم البلاد نور الدين، فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويمهل البعض، فاستقرّت القاعدة على ذلك.

ورأى الفرنج أنَّ البلاد قد امتنعت عليهم وربّما سلّمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين، وقالوا: نأخذ المال فنقتوي به، ونعاود البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] فعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصّل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار، وسببه أنَّ أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم وما فيها، وما سلم نهب، وهم لا يقدرّون على الأقوات فضلاً عن الأقساط.

وأما القاهرة فالأغلب على أهلها الجند وغلماهم، فلهذا تعذّرت عليهم الأموال، وهم في خلال هذا يرسلون نور الدين بما النَّاسُ فيه، وبذلوا له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكر، وأقطاعهم (٣٣٨/١١) من البلاد المصرية أيضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم.

وكان نور الدين لماً وصله كُتب العاضد بحلب أرسل إلى أسد الدين يستدعيه إليه، فخرج القاصد في طلبه، فلقيه على باب حلب،

له فيها مطعماً، فسلك مع صاحبها طريق اللّين، وأشار عليه أن يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر في حفظها بنفسه، فقبل قوله وسلّمها، فأخذ عوضاً (٣٣٥/١١) عنها سُرُوج وأعمالها التي بين بلد حلب وباب بُزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، هذا إقطاع عظيم جداً، إلا أنه لا حصن فيه.

وهذا آخر أمر بني مالك بالقلعة ولكلّ أمر أمَد ولكلّ ولاية نهاية. بلغني أنَّه قيل لصاحبها: أيما أحبّ إليك وأحسن مقاماً، سُرُوج والشام أم القلعة؟ فقال: هذه أكثر مالاً، وأما العزّ ففارقناه بالقلعة.

ذكر مُلك أسد الدين مصر وقتل شاور

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، فملكها، ومعه العساكر النورية.

وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكّن الفرنج من البلاد المصرية، وأنهم جعلوا لهم في القاهرة شحنة وتسلموا أبوابها، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً، وركبهم بالأذى العظيم، فلمّا رآوا ذلك، وأنَّ البلاد ليس فيها من يردهم، أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام وهو مُزي، ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء، يستدعون ليملكها، وأعلموه خلّوها من مُمانع، وهوتوا أمرها عليه، فلم يجبههم إلى ذلك، فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذوو الرأي منهم، وأشاروا عليه بقصدها وتملكها، فقال لهم: الرأي عندي أننا لا نقصدها، فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا، تنقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها (٣٣٦/١١) فإن صاحبها وعساكره، وعامة بلاده وفلاحها، لا يسلمونها إلينا، ويقاثلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، ولئن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يقبلوا قوله، وقالوا له: إنَّها لا مانع فيها ولا حامي، وإلى أن يتجهّز عسكر نور الدين، ويسير إليها، نكون نحن قد ملكناها، وفرغنا من أمرها، حيثنّى يتعنى نور الدين منا السلامة.

فسار معهم على كره وشرعوا يتجهّزون ويظهرون أنَّهم يريدون قصد مدينة حمص، فلمّا سمع نور الدين شرع أيضاً بجمع عساكره، وأمرهم بالقدم عليه، وجذّ الفرنج في السير إلى مصر، فقدموها، ونازلوا مدينة بلييس، وملكوها قهراً مستهلّ صفر، ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا ومبوا.

وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج، ووعدهم النصرة عداوةً منهم لشاور، منهم ابن الخياط، وابن قرّجلة، فقوي جنّات الفرنج، وساروا من بلييس إلى مصر، فنزلوا على القاهرة

الفرنج إلا أن يسمعوها بالقبض على شيركوه، وحينئذٍ لم مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد؛ فترك ما كان عزم عليه.

ولما رأى العسكر النوري مطل شاور خافوا شره، فاتفق صلاح الدين (٣٤٠/١١) يوسف بن أيوب وعز الدين جورديك وغيرهما على قتل شاور، فأعلموا أسد الدين فنهاهم عنه، فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله، فاتفق أن شاور قصد عسكر أسد الدين على عادته، فلم يجدته في الخيام، كان قد مضى يزور قبر الشافعي، رضي الله عنه، فلقبه صلاح الدين يوسف وجورديك في جمع من العسكر، وخدموه، وأعلموه بأن شيركوه في زيارة قبر الإمام الشافعي، فقال: نمضي إليه. فساروا جميعاً، فسأيره صلاح الدين وجورديك والقياه إلى الأرض عن فرسه، فهرب أصحابه عنه، فأخذ أسيراً، فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فتوكلوا بحفظه، وسيروا فأعلموا أسد الدين الحال، فحضر، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر، فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه إنقاذ رأس شاور، وتابع الرسل بذلك، فقتل وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر.

ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين، يعني العاضد، يأمركم بنهب دار شاور. فتفرق الناس عنه إليها فتهبوا، وقصد هو قصر العاضد، فخلع عليه خلع الوزارة، ولقب الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقر في الأمر، وغلب عليه، ولم يبق له مانع ولا منازع، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره.

وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين به، فكان آخر العهد بهم، فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عُدِمَ لأنه بلغه (٣٤١/١١) ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه، وكان يقول: وددت أنه بقي لأحسن إليه جزء الصنيعة.

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه

لَمَّا بُتِ قَدَمُ أسد الدين، وظن أنه لم يبقَ له منازع، أتاه أجله ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام.

وأما ابتداء أمره وسبب اتصاله بنور الدين، فإنه كان هو وأخوه نجم الدين أيوب ابناً شاذي من بلد دوين، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهذا النسل هم أشرف الأكراد، فقدموا العراق، وخدموا مجاهد الدين بهروز شيخنة بغداد، فرأى من نجم الدين عقلًا ورأيًا

وقد قدمها من حمص وكانت إقطاعه، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين وصلته أيضاً في المعنى، فسار أيضاً إلى نور الدين، واجتمع به، وعجب نور الدين من حضوره في الحال، وسره ذلك، وتغافل به، وأمر بالتجهيز إلى مصر، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وحكمه في العسكر والخزائن، واختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع ستة آلاف فارس، وسار هو ونور الدين إلى دمشق فوصلها سلخ صفر، ورحل إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين كل فارس مئة مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكية، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء منهم: مملوكه عز الدين جورديك، وعز الدين قلعج، وشرف الدين بزغش، وعين الدولة الباروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وصلاح الدين يوسف بن أيوب، أخي شيركوه، على كره منه، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكُونُوا شِئْبًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شِئْبًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣] أحب نور الدين مسير صلاح الدين، وفيه ذهب بيته، وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته ومملكه، وسيرد ذلك عند موت شيركوه، إن شاء الله تعالى.

وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجداً متصفاً ربيع الأول فلماً قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدتين إلى بلادهم بخفي خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودهم، فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر في البلاد، (٣٣٩/١١) وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك، فإنه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها.

فأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة، ودخل إليها، واجتمع بالعاضد لدين الله، وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية، وفرح به أهل مصر، وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة، والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال، وإقطاع الجند، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعدده ويمنيه ﴿وَمَا يَعْلَمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم، ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج، فنهاه ابنه الكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه. فقال له أبوه: والله لئن لم تفعل هذا لتقتلن جميعاً. فقال: صدقت ولأن تقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن تقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود

وأفراً وحُسن سيرة، وكان أكبر من شيركوه، فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت، وهي له، فسار إليها ومعه أخوه شيركوه، فلَمَّا انهزم أنسابك الشهيد زنكي بن آقسنقر بالعراق من قراجة الساقى على ما ذكرناه سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل منهزماً إلى تكريت، فخدمه نجم الدين، وأقام له السفن فعبر دجلة هناك، وتبعه أصحابه، فأحسن أيوب صحبتهم وسيرهم.

وَأَمَّا كَيْفَةُ ولايته، فَإِنَّ جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر، وولاية الوزارة العاضدية بعده، منهم: عين الدولة الياروقي، وقطب الدين، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل واحد من هؤلاء يخطبها، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين فأحضره عنده، وخلق عليه، وولاه الوزارة بعد عمّه.

وكان الذي حمله على ذلك أنّ أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سنّاً من يوسف، والرأي أن يولى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه. (٣٤٤/١١)

فلَمَّا خلع عليه لقب الملك الناصر لم يطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه. وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه، وقال له: إنّ هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما. ثم قصد الحارمي وقال: هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزّه ومُلكه لك، وقد استقام له الأمر فلا تكن أوّل من يسعى في إخراجك عنه ولا يصل إليك. فمال إليه أيضاً، ثم فعل مثل هذا بالباقين، وكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف. وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء، وثبت قدم صلاح الدين، ومع هذا فهو نائب عن نور الدين.

وكان نور الدين يكتابه بالأمير الاسفهلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرد بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهلار صلاح [الدين] وجميع الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال، فعالوا إليه وأجّبه وضعف أمر العاضد، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله، فأرسلهم إليه، وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته، وكلهم فعل ذلك، وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاهم أهلهم والأمراء الذين معه، وزادهم، فازدادوا له حباً وطاعة.

قد اعتبرت التواريخ، فرأيت كثيراً من التواريخ الإسلامية التي يمكن ضبطها، ورأيت كثيراً ممن يتدّء الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه، منهم أوّل الإسلام: معاوية بن أبي

ثم إنّ شيركوه قتل إنساناً بتكريت لملاحاة جرت بينهما، فأخرجهما بهروز من القلعة، فسارا إلى الشهيد زنكي، فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، فلَمَّا ملك قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظاً (٣٤٢/١١) بها، فلَمَّا قُتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها، فضاقت عليه الأمور، وكان سيف الدين غازي بن زنكي مشغولاً عنه بإصلاح البلاد، فاضطرّ إلى تسليمها إليهم، فسلمها على إقطاع ذكره، فأجيب إلى ذلك، وصار من أكبر الأمراء بدمشق.

وأتصل أخوه أسد الدين شيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكي، وكان يخدمه في أيام والده، فقربه وقدمه، ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها، فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدّم عسكره، فلَمَّا أراد نور الدين مُلك دمشق أمره فراسل أخاه أيوب وهو بها، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يراد منه على إقطاع ذكره له ولأخيه، وقُرّي يملكها، فأعطاهما ما طلبا، وفتح دمشق على ما ذكرناه، ووفى لهما، وصارا أعظم أمراء دولته، فلَمَّا أراد أن يرسل العساكر إلى مصر، لم ير لهذا الأمر العظيم والمقام الخطير غيره، فأرسله، ففعل ما ذكرناه.

ذكر مُلك صلاح الدين مصر

لَمَّا توفّي أسد الدين شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذي قد سار معه على كره منه للمسير.

حكى لي عنه بعض أصدقائنا ممن كان قريباً إليه خصيصاً به قال. لَمَّا وردت كُتُب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج، ويطلب إرسال العساكر، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بـحمص (٣٤٣/١١) مع رسولي إليه ليحضر، ونحوه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، ففعلت، وخرجنا من حلب، فما كنّا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى، فأمره نور الدين بالمسير، فلَمَّا قال له نور الدين ذلك التفت عني إليّ فقال لي: تجهّز يا يوسف! فقلت: واللّه لو أعطيت مُلك مصر ما سررت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً، فقال لنور الدين: لا بُدّ من مسيره معي فامرني نور الدين، وأنا استقبل، وانقضى المجلس.

وتجهّز أسد الدين، ولم يبق غير المسير؛ قال لي نور الدين: لا

سفيان، أول من ملك من أهل بيته، فقتل الملك عن أعقابهِ إلى بني مروان من بني عمه. ثم من بعده السفاح أول من ملك من بني العباس، انتقل الملك من أعقابهِ إلى أخيه المنصور. ثم السامانيّة أول من استبدّ منهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه (٣٤٥/١١) إسماعيل بن أحمد وأعقابهِ. ثم يعقوب الصفّار، وهو أول من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك إلى أخيه عمرو وأعقابهِ. ثم عماد الدولة بن بُويه أول من ملك من أهله انتقل الملك عنه إلى أخويه ركن الدولة وعز الدولة. ثم خلص في أعقاب ركن الدولة، وعمر الدولة. ثم خلص في أعقاب ركن الدولة. ثم الدولة السَلْجُوقِيّة أول من ملك منهم طغرلبيك انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود. ثم شيركوه هذا كما ذكرناه انتقل الملك إلى أعقاب أخيه أيوب. ثم إن صلاح الدين لما أنشأ الدولة وعظّمها، وصار كأنه أول لها، نقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل، ولم يبق بيد أعقابهِ غير حلب.

وهذه أعظم الدول الإسلاميّة، ولولا خوف التطويل لذكرنا أكثر من هذا، والذي أظنه السبب في ذلك أنّ الذي يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلّقة به فلهاذا يحرمه الله أعقابهِ ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له.

ذكر وقعة السودان بمصر

في هذه السنة في أوائل ذي القعدة قُتل مؤتمن الخلافة، وهو خصي كان يقصر العاضد، إليه الحكم فيه، والتقدّم على جميع من يحويه، فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى البلاد، والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه، وسيروا الكتب مع إنسان يثقون به، وأقاموا (٣٤٦/١١) ينتظرون جوابه، وسار ذلك القاصد إلى البئر البيضاء، فلقيه إنسان تركماني، فرأى معه تلعين جديدين، فأخذهما منه وقال في نفسه: لو كانا ممّا يلبسه هذا الرجل لكانا خلّقين، فإنّه رث الهيئة، وارتاب به وبهما، فأثني بهما صلاح الدين ففتقهما، فرأى الكتاب فيهما، فقرأه وسكت عليه.

وكان مقصود مؤتمن الخلافة أن يتحرّك الفرنج إلى الديار المصريّة، فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في العساكر إلى قتالهم، فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على مخلفهم فيقتلونهم، ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين، فيأتونه من وراء ظهره، والفرنج من بين يديه، فلا يبقى لهم باقية، فلمّا قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقتل: رجلاً يهودي فأحضر، فأمر بضربه وتقريره، فابتدأ وأسلم، وأخبره الخبر، وأخفى صلاح الدين الحال.

واستشعر مؤتمن الخلافة فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً، وإذا خرج لم يبعد [وصلح الدين] لا يظهر له شيئاً من الطلب،

لئلاّ ينكر ذلك، فلمّا طال الأمر خرج من القصر إلى قرية له تُعرف بالخرقانيّة للتنزّه، فلمّا علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعة، فأخذوه وقتلوه وأثرو برأسه، وعزل جميع الخدم الذين يتولّون أمر قصر الخلافة، واستعمل على الجميع بهساء الدين قراقوش، وهو خصي أبيض، وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلاّ بأمره وحكمه، فغضب السودان الذين بمصر لقتل مؤتمن الخلافة حميّة، ولأنّه كان يتعصّب لهم، فحشدوا وجمعوا، فزادت عدّتهم على خمسين ألفاً، (٣٤٧/١١) وقصدوا حرب الأجناد الصلاحيّة، فاجتمع العسكر أيضاً، وقاتلوه بين القصرين.

وكثر القتل في الفريقين، فأرسل صلاح الدين إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة، فأحرقها على أموالهم وأولادهم وحرّمهم، فلمّا أتاهم الخبر بذلك ولّوا منهزمين، فركبهم السيف، وأخذت عليهم أفواه السكك، فظلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل، فأجيبوا إلى ذلك، فأخرجوا من مصر إلى الجيزة، فعبر إليهم شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين الأكبر في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف، ولم يبق منهم إلاّ القليل الشريد، وكفى الله تعالى شرّهم، والله أعلم.

ذكر ملك شملة فارس وإخراجه عنها

في هذه السنة ملك شملة صاحب خوزستان بلاد فارس، وأخرج عنها، وسبب ذلك أنّ زنكي بن دكلا صاحبها أساء السيرة مع عسكره فأرسلوا إلى شملة بخوزستان وحسّوا له قصد فارس، فجمع عساكره وتجهّز وسار إليها، فخرج إليه زنكي بن دكلا، ووقعت بينهم حرب خامر فيها أصحاب زنكي عليه، فانهزم في شرذمة من عسكره، ونجا بنفسه، وقصد الأكراد الشوانكار والتجأ إليهم، فأجاره صاحبها، وأحسن ضيافته.

ونزل شملة ببلاد فارس فملكها، فأساء السيرة إلى أهلها، ونهب ابن أخيه ابن سنكا البلاد فتغيّرت بواطن أهلها عليه، واجتمع إلى زنكي بعض العسكر الذين خامروا عليه، لما راوا من سوء سيرة شملة فيهم، فكثّر جمعه مع الأكراد (٣٤٨/١١) الشوانكار ونزل بهم إلى البلاد وكاتب عسكره ووعدهم الإحسان فأقبلوا إليه فقصد شملة وواقع فانهزم شملة واستعاد زنكي بلاده ورجع إلى ملكه وعاد شملة إلى بلاده خوزستان.

ذكر ملك إيلدكر الرّي

في هذه السنة ملك إيلدكر مدينة الرّي والبلاد التي كانت بيد إينانج.

وسبب ذلك أنّ إيلدكر كان قد استقرّ الأمر بينه وبين إينانج على مال يؤدّي إلى إيلدكر، فمنعه ستين، فأرسل إيلدكر يطلب المال فاعتذر بكثرة غلمانهِ وحاشيته، فتجهّز إيلدكر وقصد الرّي،

وفي ذي الحجة توفي نجم الدين بن محمد بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل، وولي ابنه حجة الدين عبد القاهر القضاء. (٣٥١/١١)

سنة خمس وستين وخمسمائة

ذكر حصر الفرنج دمياط

في هذه السنة، في صفر، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية وحصروها، وكان الفرنج بالشام، لما ملك أسد الدين شيركوه مصر، قد خافوه، وأيقنوا بالهلاك، وكتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الأتراك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس منهم، فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة، فامدوهم بالأموال والرجال والسلاح، واستعدوا للنزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها، ويتخذونها ظهراً يملكون به الديار المصرية ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] فإلى أن دخلوا كان أسد الدين قد مات وملك صلاح الدين، فاجتمعوا عليها وحصروها، وضيقوا على من بها.

فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة، ويقول: إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سرت (٣٥٢/١١) إليها خلفني المصريون في أهلها وأموالها بالشر، وخرجوا عن طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج من أمامي، فلا يبقى لنا باقية.

فسير نور الدين العساكر إليه إرسالاً يتلو بعضها بعضاً، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية، فنهبا، وأغار عليها واستباحها، فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع.

فلما رأى الفرنج تابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء، ووجدوا بلادهم خراباً، وأهلها بين قتل وأسير، فكانوا موضع المثل: خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين. وكانت مدة مقامه على دمياط خمسين يوماً أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تحصى. حكى لي أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلي مدة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

ذكر حصر نور الدين الكرك

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، سار نور الدين إلى بلد الفرنج، فحصر الكرك، وهو من أمنع المعاقل على طرف البر.

فالتقاه إينانج وحاربه حرباً عظيمة، فانهزم إينانج ومضى منهزماً، فتحصن بقلعة طبرك، فحصره إيلدكز فيها وراسل سراً جماعة من مماليكه، فاطمعههم في الإقطاعات والأموال والإحسان العظيم ليقتلوا إينانج، فقتلوه، وكانوا جماعة كثيرة، وسلموا البلد إلى إيلدكز، فرتب فيه عمر بن علي ياع، وعاد إلى همدان، ولم يغو للغلمان الذين قتلوا إينانج وسلموا البلد إليه بما وعدهم، وقال: مثل هؤلاء ينبغي أن لا يُستخدم، وأبعدهم عنه، فتفرقوا في البلاد، فسار بعضهم، وهو الذي تولى قتله، إلى خوارزم شاه، فوصله خوارزم شاه نكلاً بما فعل بصاحبه. (٣٤٩/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة رُوي في دار الخليفة المستنجد بالله رجل غريب في الطريق الذي يركب فيه وفي زنده سكين صغيرة، وفي يده سكين أخرى كبيرة، فأخذه وقرروه، فقال: أنا من حلب. فحبس وعوقب الثوب، ولم يعلم من أين دخل.

وفيها قبض ابن البلدي وزير الخليفة على الحسين بن محمد المعروف بابن السيبي، وعلى أخيه الأصغر، وكانا ابني عمّة عضد الدين أستاذ الدار، وكان الأصغر عامل البيمارستان، فقطعت يده ورجله، قيل كان عنده صنّج زائدة يُقبض بها وتُحمل إلى الديوان بالصنّج الصحيحة، وقيل غير ذلك. وحُمل إلى البيمارستان فمات به. وكان شاعراً، فمن شعره وهو محبوس هذه الأبيات:

سَلَامٌ عَلَى أَهْلِي وَضَحْبِي وَجَلَّاسِي
وَمَنْ فِي فَوَادِي دُكْرِهِمْ رَاسِبِي
أَعَالِجُ يَكُمُ كُلُّ قَسَمٍ وَلَا أَرَى
لِدَاءِ مُؤَمَّسِي غَيْرَ رُؤْيِكُمْ أَمْسِي
لَقَدْ أَبْذَلْتُ الْإِيَّامَ لِي كُلَّ شَيْءٍ
تَشِبُّ لَهَا الْأَكْبَادُ فَضْلاً عَنِ الرَّاسِ
فِيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ صَبْرًا عَلَى النَّفْسِ
لَقِيتُ هَهْنَا الْحُكْمَ مِنْ مَالِكِ النَّاسِ
فَلَوْ أَبْصَرْتُ عَيْنًا فَلْيَ يَكْتَبْ لِي
بَتَعَسٍ سَوِيَّ بِالْمَنَامِ رَجَاسِ
أَقُولُ لِقَلْبِي وَالْهُرُومُ تَنْوُشُهُ
وَقَدْ حَذَنَتُ النَّفْسَ بِالْفَرِّ وَالْيَاسِ
فَلَوْ هَمَّ طَيْفٌ مِنْ خِيَالِي يُزَوِّدُكُمْ
لَمَنَعَهُ دُونَ الْمُغَالِقِ خَرَامِي
وَمَا حَذَرِي إِلَّا عَلَى النَّفْسِ لَا عَلَى
سِوَاهَا لِأَنِّي جِلْفٌ قَفَرٌ وَفِلَاسِ

وفيها توفي المعمر بن عبد الواحد بن رجار أبو أحمد الأصفهاني الحافظ، يروي عن أصحاب أبي نُعيم، وكان موته بالبادية ذهاباً إلى الحج في ذي القعدة. (٣٥٠/١١)

وفي رجب منها توفي الشيخ أبو محمد الفارقي المتكلم على الناس، وكان أحد الزهاد، له كرامات كثيرة، وكان يتكلم على الخطر، وكلامه مجموع مشهور.

وفيها مات جعفر الرقاص من ندماء دار الخلافة.

وفي شوال منها توفي القاضي أبو الحسن علي بن يحيى القرشي الدمشقي.

فلَمَّا أتاه الخبر سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من سورها وقلعتها، فلَمَّا وصلها أتاه خبر باقي البلاد، وخراب أسوارها وقلاعها، وخلوها من أهلها، فجعل بعلبك من يعمرها ويحميها ويحفظها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم إلى بعين، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج، ثم أتى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها وبلغ الرعب ممن نجا كل مبلغ، وكانوا لا يقدرون [أن] يأووا [إلى] مساكنهم خوفاً من الزلزلة، فأقام بظاهرها، وبأشرف عمارتها بنفسه، فلم يزل كذلك حتى أحكم أسوار البلاد وجوامعها. (٣٥٥/١١)

وأما بلاد الفرنج فإن الزلازل أيضاً عملت بها كذلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفاً من نور الدين عليها، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفاً من الآخر.

ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي وملك ابنه سيف الدين غازي

في هذه السنة، في ذي الحجة، مات قطب الدين مودود بن زنكي، ابن أقسنقر، صاحب الموصل، بالموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولَمَّا اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي، ثم عدل عنه إلى ابنه الآخر سيف الدين غازي، وإنما صرف الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود لأن القيم بأمور دولته، والمقدم فيها، كان خادماً له يقال له فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين لأنه كان طوع عَمَهُ نور الدين، لكثرة مقامه عنده، ولأنه زوج ابنته، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح، فاتَّفَق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرشاش بن إيلغازي، وهي والدته سيف الدين، على صرف الملك عن عماد الدين إلى سيف الدين، فرحل عماد الدين إلى عَمَهُ نور الدين مستنصراً به ليُعينه على أخذ الملك لنفسه.

وتوفي قطب الدين وعمره نحو أربعين سنة، وكان ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، وكان فخر الدين هو المدير للأمور والحاكم في الدولة، وكان قطب الدين من أحسن الملوك سيرة وأعفهم عن أموال رعيته، (٣٥٦/١١) محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، محبوباً إلى كبيرهم وصغيرهم، عطوفاً على شريفهم ووضيعهم، كريم الأخلاق، حسن الصحبة لهم، فكان القائل أرادته بقوله :

خُلِقَ كَمَا الْمُزَنِّ طَيْبَ مَذَاقَةٍ وَالرَّوَضَةِ الْغَنَاءَ طَيْبَ نَسِيمِ
كَالسَّيْفِ لَكِنْ فِيهِ جِلْمٌ وَاسِعٌ عَمَّنْ جَنَى وَالسَّيْفِ غَيْرُ خَلِيمِ
كَالْقَيْثِ إِلَّا أَنْ وَابِلَ جُودِيوِ أَيْدَا وَجُودِ الْقَيْثِ غَيْرُ مُقِيمِ
كَالدَّهْرِ إِلَّا أَنَّهُ فَوْرَحَنِيَّةِ وَالْدَّهْرِ قَاسِي الْقَلْبِ غَيْرُ رَحِيمِ

وكان سبب ذلك أن صلاح الدين أرسل إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب، فجهزه نور الدين، وسيره، وسير معه عسكرياً واجتمع معه من التجار خلق كثير، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين انس وصحبة، فخاف نور الدين عليهم من الفرنج، فسار في عساكره إلى الكرك، فحصره وضيق عليه المجانيق، فأتاه الخبر أن (٣٥٣/١١) الفرنج قد جمعوا له، وساروا إليه، وقد جعلوا في مقدمتهم إليه ابن هنفري وقریب بن الرقيق، وهما فارسا الفرنج في وقتهم، فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج، فلَمَّا قاربهما رجعا القهقري واجتمعا بباقي الفرنج.

وسلك نور الدين وسط بلادهم ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى إلى أن وصل إلى بلاد الإسلام، فنزل على عشتار، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم، فأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة الحادثة فرحل.

وأما نجم الدين أيوب فإنه وصل إلى مصر سالماً هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة لالتقاء إكراماً له.

ذكر غزوة لسرية نورية

كان شهاب الدين إلياس بن إيلغازي بن أرتق، صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره، وهو في مائتي فارس، إلى نور الدين وهو بعشتار، فلَمَّا وصل إلى قرية اللبوة، وهي من عمل بعلبك، ركب متصيِّداً، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام سابع عشر شوال، فوقع بعضهم على بعض، واقتتلوا واشتد القتال، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون، فإن ألف فارس لا يصبرون لحملة ثلاثمائة فارس إفرنجية، وكثر القتلى بين الطائفتين، فانهزم الفرنج، وعَمَّهم القتل والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لا يُعتد به. (٣٥٤/١١)

وسار شهاب الدين برؤوس القتلى وبالأسر إلى نور الدين، فركب نور الدين والعسكر، فلقوهم، فرأى نور الدين في الرؤوس رأس مقدّم الإشتار، صاحب حصن الأكراد، وكان من الشجاعة بمحل كبير، وكان شجاعاً في حلقو المسلمين.

ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام

في هذه السنة أيضاً، ثاني عشر شوال، كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم يرَ الناس مثلهما، وعمت أكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد، وأشدّها كان بالشام، فخرت كثيراً من دمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعين وحلب وغيرها. وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك منهم ما يخرج عن الحد.

المؤمن، فجاسوا بلاده، وخرّبوها، وأخذوا مدينتين من بلاده، وأخافوا عساكره وجنوده، وأقاموا ببلاد مدة يتنقلون فيها ويجيبون أموالها.

وكان سريع الانفعال للخير، بطيشاً عن الشر، جَمَ المناقب، قليل المعايب، رحمه الله ورضي عنه وعن جميع المسلمين بمنه وكرمه، إنه جواد كريم.

ذكر وفاة صاحب كَرَمَانَ والخُلف بين أولاده

في هذه السنة توفي الملك طغرل بن قاروت صاحب كَرَمَانَ، واختلف أولاده بهرام شاه وأرسلان شاه، وهو الأكبر، وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام شاه ومعه أخ له اسمه ترکان شاه، فملك البلاد أرسلان شاه ومضى بهرام شاه إلى خراسان، فدخل على المؤيد صاحب نيسابور واستنجده، فأنجده بعساكر سار بها إلى كَرَمَانَ، فجرى بين الأخوين حرب ظفر فيها بهرام شاه، [وهرب أرسلان شاه، فقصص أصفهان مستجيراً بإيلدكز، فأنفذ معه عسكرياً، واستنجدوا البلاد من بهرام شاه وسلموها إلى أخيه أرسلان شاه فعاد بهرام شاه إلى نيسابور مستجيراً بالمؤيد صاحبها، فأقام عنده، فاتفق أن أخاه أرسلان شاه مات، فسار إلى كَرَمَانَ فملكها، وأقام بها بغير منازع. (٣٥٩/١١)]

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثرت الأذى من عبد الملك بن محمد بن عطاء، وتطرق بلاد حُلوان، ونهب وأفسد، وتطرق الحجاج، فأنفذ إليه من بغداد عسكر فنازلوه في قلاعه وضايقوه، ونهبوا أمواله وأموال أهله، حتى أذعن بالطاعة، ولا يعاود أذى الحجاج ولا غيرهم، فعاد العسكر عنه.

وفيها توفي مجد الدين أبو بكر بن الداية، وهو رضيع نور الدين، وكان أعظم الأمراء منزلة عنده، وله في أقطاعه حلب وحارم وقلعة جَبَر، فلما توفي رد نور الدين ما كان له إلى أخيه شمس الدين علي بن الداية.

وفيها، في شعبان، توفي أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلي ببغداد، وهو من مشهوري المحدثين. الجيلي بالجمع والياء تحتها نقطتان (٣٦٠/١١)

سنة سيست وستين وخمسمائة

ذكر وفاة المستنجد بالله

في هذه السنة، تاسع ربيع الآخر، توفي المستنجد بالله أبو المظفر يوسف ابن المقتدي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستنجد بالله، وقد تقدّم باقي النسب في غير موضع، وأمّه أم ولد، اسمها طاووس، وقيل نرجس، رومية، ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً وستة أيام، وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية.

ذكر حالة ينجي للملوك أن يحترزوا من مثلها

حدثني والدي، رحمه الله، قال: كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين، كما علمتم، فلما كان قبل موته بيسير أتانا كتاب من الديوان بالموصل يأمرهم بمساحة جميع بساتين العقيمة، وهذه العقيمة هي قرية تحاذي الجزيرة بينهما دجلة، ولها بساتين كثيرة بعضها يُسمح فيؤخذ منه على كل جريب شيء معلوم، وبعضها عليه خراج، وبعضها مطلق من الجميع.

قال: وكان لي فيها ملك كثير، فكتبت أقول: إن المصلحة أن لا يغير على الناس شيء، وما أقول هذا لأجل ملكي، فإنني أنا أمسح ملكي، وإنما (٣٥٧/١١) أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة. فجاءني كتاب النائب يقول: لا بُدَّ من المساحة. قال: فإظهرت الأمر، وكان بها قوم صالحون، لي بهم أنس، وبيننا مودة، فجاءني الناس كلهم، وأولئك معهم، يطلبون المراجعة، فأعلمتهم أنني رجعت وما أجبت إلى ذلك، فجاءني منهم رجلان أعرف صلاحهما، وطلبا مني المعادة ومخاطبة ثانية، ففعلت، فأصروا على المسح، فعرفتهما الحال.

قال: فما مضى إلا عدة أيام، وإذ قد جاءني الرجلان، فلما رأيتهما ظننت أنهما جاءا يطلبان المعادة، فعجبت منهما، وأخذت أعترز إليهما، فقالا: ما جئنا إليك في هذا، وإنما جئنا نعرفك أن حاجتنا قضيت. قال: فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل إلى من يشفع لهما. فقلت: من الذي خاطب في هذا بالموصل؟ فقالا: إن حاجتنا قد قضيت من السماء، ولكافة أهل العقيمة.

قال: فظننت أن هذا مما قد حدثنا به نفوسهما، ثم قاما عني، فلم يمض غير عشرة أيام وإذ قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرهم بإطلاق المساحة والمحبسين والمكوس، ويسأرون بالصدقة، ويقال: إن السلطان، يعني قطب الدين، مريض، يعني على حالة شديدة، ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته، فعجبت من قولهما، واعتقدته كرامة لهما، فصار والذي بعد ذلك يُكثر إكرامهما واحترامهما ويزورهما. (٣٥٨/١١)

ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مردينش

كان محمد بن سعيد بن مردينش، ملك شرق الأندلس، قد اتفق هو والفرنج، وامتنع على عبد المؤمن وابنه بعده، فاستفحل أمره، لا سيما بعد وفاة عبد المؤمن، فلما كان هذه السنة جهّز إليه يوسف بن عبد المؤمن العساكر الكثيرة مع أخيه عمر بن عبد

يأمره فيها بالقبض عليهما، وخطَّ الوزير قد راجعه في ذلك، وصرفه عنه، فلمَّا وقفا عليهما عرفا براءته ممَّا كانا يظنَّان فيه، فندما حيث فرطاً في قتله.

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلاً فيهم، كثير الرفق بهم، وأطلق كثيراً من المكوس، ولم يترك بالعراق منها شيئاً، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

بلغني أنَّه قبض على إنسان كان يسعى بالناس، فأطال حبسه، فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته، وبذل عنه عشرة آلاف دينار، فقال: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله لا كُفَّ شره عن الناس، ولم يطلقه، وردَّ كثيراً من الأموال على أصحابها، وقبض على القاضي ابن المرخم، وأخذ منه مالاً كثيراً، فأعاده على أصحابه أيضاً، وكان ابن المرخم ظالماً جائراً في أحكامه.

ذكر مُلك نور الدين الموصل وإقرار سيف الدين عليها

لَمَّا بلغ نور الدين محموداً وفاة أخيه قطب الدين مردود، صاحب الموصل، ومُلك ولده سيف الدين غازي الموصل والبلاد التي كانت لأبيه، بعد وفاته، وقيام فخر الدين عبد المسيح بالامر معه، وتحكُّمه عليه، أنف لذلك وكبر لديه وعظَّم عليه، وكان ييغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسته. (٣٦٣/١١) فقال: أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم. وسار عند انقضاء العزاء جريدة في قلعة من العسكر، وعبر الفرات، عند قلعة جعفر، مستهلاً المحرَّم من هذه السنة، وقصد الرقعة فحصرها وأخذها.

ثمَّ سار إلى الخابور فملكه جميعه، وملك نصيبين وأقام بها يجمع العساكر، فأناه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود، صاحب حصن كيفا، وكثر جمعه، وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره، فلمَّا اجتمعت العساكر سار إلى سينجار فحصرها، ونصب عليها المجانيق وملكها، وسلَّمها إلى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين.

وكان قد جاءته كُتب الأمراء الذين بالموصل سرراً، يبذلون له الطاعة، ويحثُّونه على الوصول إليهم، فسار إلى الموصل فأتى مدينة بلد، وعبر دجلة عندها مخاضة إلى الجانب الشرقي، وسار فنزل شرق الموصل على حصن نينوى، ودجلة بينه وبين الموصل، ومن العجب أنَّ يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة.

وكان سيف الدين غازي وفخر الدين قد سيرا عَزَّ الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتاك شمس الدين إيلدكز، صاحب همدان وبلد الجبل، وأذربيجان، وأصفهان، والرِّيَّ وتلك الأعمال يستنجد

وكان سبب موته أنَّه مرض واشتدَّ مرضه، وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء، وقطب الدين قايماز المقتوي، وهو حينئذٍ أكبر أمير ببغداد، فلمَّا اشتدَّ مرض الخليفة اتَّفقا، ووضعا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه، فوصف له دخول الحمام، فامتنع لضعفه، ثمَّ إنَّه دخل وأغلق عليه بابه فمات.

وهكذا سمعته من غير واحد ممَّن يعلم الحال، وقيل إنَّ الخليفة كتب إلى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما، فاجتمع ابن صفية بأستاذ الدار، وأعطاه خطَّ الخليفة، فقال له: تعود وتقول إنني أوصلتُ الخطَّ إلى الوزير، ففعل ذلك، وأحضر أستاذ الدار قطب الدين ويزدُن وأخاه تنامش، وعرض الخطَّ عليهم، فاتَّفقا على قتل الخليفة، فدخل إليه يزدُن وقايماز الحميدي، فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث (٣٦١/١١) وألقياه، وأغلقا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات، رحمه الله.

وكان وزيره حينئذٍ أبا جعفر بن البلدي، وبينه وبين أستاذ الدار عضد الدين عداوة مستحكمة، لأنَّ المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلَّق بهما فيفعلها، فكانا يظنَّان أنَّه هو الذي يسعى بهما، فلمَّا مرض المستنجد، وأرجف بموته، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعُدَّة، فلم يتحقَّق عنده خبر موته، فأرسل إليه عضد الدين يقول: إنَّ أمير المؤمنين قد خفَّ ما به من المرض، وأقبلت العافية، فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند، فربَّما أنكر عليه ذلك. فعاد إلى داره وتفرَّق الناس عنه. وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدَّا للهرب لَمَّا ركب الوزير خوفاً منه إن دخل الدار أن يأخذهما، فلمَّا عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار، وأظهروا وفاة المستنجد، وأحضر هو وقطب الدين ابنه أبا محمد الحسن، وبايعاه بالخلافة، ولقياه المستضيء بأمر الله، وشرطا عليه شروطاً أن يكون عضد الدين وزيراً، وابنه كمال الدين أستاذ الدار، وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك.

ولم يتولَّ الخلافة من اسمه الحسن إلاَّ الحسن بن علي بن أبي طالب والمستضيء بأمر الله، واتَّفقا في الكنية والكرم، فبايعه أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي أبوه، وبايعه الناس من الغد فسي التاج بيعة عامة، وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه، وفَرَّق أموالاً جليلة المقدار.

وعلم الوزير ابن البلدي فسقط في يده وقرع سنَّه ندماً على ما فرط في عوده حيث لا ينفعه، وأناه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء، فمضى إلى دار الخلافة، فلمَّا دخلها صُرف إلى موضع وقُتل وقُطع قطعاً، (٣٦٢/١١) وألقي في دجلة، رحمه الله، وأخذ جميع ما في داره، فرأيا فيها خطوط المستنجد بالله

وخمسمائة، وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوماً، واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح، وغير اسمه فسماه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كبيراً.

ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفي هذه السنة سار صلاح الدين أيضاً عن مصر إلى بلاد الفرنج، فأغار على أعمال عسقلان والرملة، وهجم على ريف غزة فنهيه، وأتاه ملك الفرنج في قلعة من العسكر مسرعين لردّه عن البلاد، فقاتلهم وهزمهم، وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيراً، وعاد إلى مصر، وعمل مراكب مفصلة، وحملها قطعاً على الجمال في البر، وقصد أيلة، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر، وحصر أيلة براً وبحراً وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر. (٣٦٦/١١)

ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة

كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه، فهدمها صلاح الدين، وبنها مدرسة للشافعية، وأزال ما كان فيها من الظلم، وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضاً، وعزل قضاة المصريين، وكانوا شيعة، وأقام قاضياً شافعيّاً في مصر، فاستتاب القضاة الشافعية في جميع البلاد في العشرين من جمادى الآخرة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اشترى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين منازل العز بمصر، وبنها مدرسة للشافعية.

وفيهما أغار شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين أيضاً على الأعراب الذين بالصعيد، وكانوا قد أفسدوا في البلاد، ومدّوا أيديهم، فكفّوا عما كانوا يفعلونه.

وفيهما مات القاضي ابن الخلال من أعيان الكتاب المصريين وفضلاتهم وكان صاحب ديوان الإنشاء بها.

وفيهما وقع حريق ببغداد في درب المطبخ، وفي خرابة ابن جُرّة. (٣٦٧/١١)

وفيهما توفي الأمير نصر بن المستظهر بالله، عمّ المستنجد بالله وحموه، وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله، وكان موته في ذي القعدة، ودُفن في التراب بالرصافة.

وفيهما جعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار صاحب المخزن ببغداد، ولقب ظهير الدين.

وفيهما حج بالناس الأمير طاشتكين المستنجلي، وكان نعم الأمير، رحمه الله. (٣٦٨/١١)

على عمّه نور الدين، فأرسل إيلدكز رسولاً إلى نور الدين ينهيه عن التعرّض إلى الموصل، ويقول له: إنّ هذه البلاد للسلطان، فلا تقصدها. فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخي منك، فلم تدخل نفسك بيننا؟ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همدان، فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة، وأهملت الثغور حتى غلب الكُرج عليها، وقد بُليت أنا، ولي مثل (٣٦٤/١١) ربع بلادك، بالفرنج، وهم أشجع العالم، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم، ولا يحلّ لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين.

فأقام نور الدين على الموصل، فعزم من بها من الأمراء على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالعصيان، وتسليم البلد إلى نور الدين، فعلم ذلك، فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد إليه على أن يقره بيد سيف الدين، ويطلب لنفسه الأمان ولعاله، فأجابه إلى ذلك، وشرط أن فخر الدين يأخذه معه إلى الشام، ويعطيه عنده إقطاعاً يرضيه، فتسلم البلد ثالث عشر جمادى الأولى من هذه السنة، ودخل القلعة من باب السرّ لأنّه لمّا بلغه عصيان عبد المسيح عليه حلف أن لا يدخلها إلّا من أحسن موضع فيها، ولمّا ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من أبواب المظالم، وكذلك فعل بنصيبين ومينجار والخابور، وهكذا كان جميع بلاده من الشام ومصر.

ووصله، وهو على الموصل يحاصرها، خيلة من الخليفة المستضيء بأمر الله، فلبسها، ولمّا ملك الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه، وأمره وهو بالموصل بعمارة الجامع النوري، وركب هو بنفسه إلى موضعه فرأه، وصعد منارة مسجد أبي حاضر فأشرف منها على موضع الجامع، فأمر أن يضاف إلى الأرض التي شاهدها ما يجاورها من الدور والحوانيت، وأن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه. وولى الشيخ عمر الملاء عمارته، وكان من الصالحين الأخيار، فاشترى الأملّك من أصحابها بأوفر الأثمان، وعمره، فخرج عليه أموال كثيرة، وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين وخمسمائة.

وعاد إلى الشام، واستتاب في قلعة الموصل خصياً كان له اسمه (٣٦٥/١١) كشتكين، ولقبه سعد الدين، وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل من الأمور ولا بكثير، وحكمه [في البلاد] وأقطع مدينة مينجار لعمد الدين ابن أخيه قطب الدين، فلمّا فعل ذلك قال كمال الدين بن الشهرزوري: هذا طريق إلى أذى يحصل لبيت أتابك لأنّ عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين، [وسيف الدين] هو الملك لا يرى الإغضاء لعمد الدين فيحصل الخلف، ويطمع الأعداء، فكان كذلك على ما ذكره سنة سبعين

سنة سبع وستين وخمسمائة

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

في هذه السنة، في ثاني جمعة من المحرم، قطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد الإمام عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور ابن نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل ابن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي بالله أبي محمد عبيد الله، وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة، وخطبوا بإمرة المؤمنين.

وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وزال المخالفون له، وضعف أمر الخليفة بها العاضد، وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش، وهو خصي كان من أعيان الأمراء الأسدية، كلهم يرجعون إليه، فكتب إليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة المستضيئية، فامتنع صلاح الدين، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه لميلهم إلى العلويين.

وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم، ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين، فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه، فكان يريد [أن] يكون العاضد معه، حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه، (٣٦٩/١١) فلما اعتذر إلى نور الدين بذلك لم يقبل عذره، وألح عليه بقطع خطبته، وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفتها، وكان على الحقيقة نائب نور الدين، واتفق أن العاضد مرض هذا الوقت مرضاً شديداً، فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه، فمنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين، ومنهم من خافهم إلا أنه ما يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين.

وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يُعرف بالأمير العالم، رأيته أنا بالموصل، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام، وأن أحداً لا يتجاسر [أن] يخطب للعباسيين قال: أنا ابتدىء بالخطبة لهم، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر أحد ذلك، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا خطبة العاضد ويخطبوا للمستضيء، ففعلوا ذلك فلم يتطع فيها عزاز، وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعل. وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يُعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا: إن عوفي فهو

يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفعجه بمثل هذه الحادثة قبل موته. فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة.

ولما توفي جلس صلاح الدين للعرزاء، واستولى على قصر الخلافة، وعلى جميع ما فيه، فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتبته قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين، وكان من كثرتهم يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلام النفيسة والأشياء الغريبة ما تملو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند أحد غيرهم، فمنه الجبل الباقوت، وزنه سبعة عشر درهماً، أو سبعة عشر مثقالاً، أنا لا أشك، لأنني رأيته ووزنته، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير، ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد، وقد احتاطوا عليه بالحفظ، (٣٧٠/١١) فلما راوه ظنوه عمل لأجل اللعب به، فسخروا من العاضد، فأخذوا إنساناً فضرب به فضرط فتضاحكوا منه، ثم آخر كذلك، وكان كل من ضرب به ضرط، فالتقاء أحدهم فكسره فإذا الطبل لأجل قولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك.

وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يُعد، فباع جميع ما فيه، ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد، فباع البعض، وأعتق البعض، ووهب البعض، وغلّى القصر من سكاته كان لم يغن بالأمس، فسبحان الحي الدائم الذي لا يزول ملكه، ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه.

ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه، فظن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه، فندم على تخلفه عنه، وكان يصفه كثيراً بالكرم، ولين الجانب، وغلبة الخير على طبعه، واتباعه. وكان في نسبة تسعة خطب لهم بالخلافة وهم: الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز والمعز والمنصور والقائم والمهدي. ومنهم من لم يُخطب له بالخلافة: أبوه يوسف بن الحافظ، وجد أبيه، وهو الأمير أبو القاسم محمد بن المستنصر، وبقي من خطب له بالخلافة وليس من آيائه: المستعلي، والأمير، والظافر، والفائز، وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بإفريقية: المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز، إلى أن سار إلى مصر، ومنهم بمصر: المعز المذكور، وهو أول من خرج إليها من إفريقية، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والأمير، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد، وجميع مدة ملكهم من حين ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد مائتان واثنان وسبعون سنة (٣٧١/١١) وشهر تقريباً.

وهذا دأب الدنيا لم تُعطِ إلا واستردت، ولم تخلُ إلا وتمررت، ولم تصفُ إلا وتكثرت، بل صفوها لا يخلو من الكسدر وكدرها قد يخلو من الصفو. نسأل الله تعالى أن يُقبل بقلوبنا إليه ويرينا الدنيا حقيقة، ويزهدنا فيها، ويرغبنا في الآخرة، إنه سميع الدعاء قريب من الإجابة.

ولمّا وصلت البشارة إلى بغداد بذلك ضُربت البشائر بها عذّة أيام، وزيّنت بغداد وظهر من الفرح والجدل ما لا حدَّ عليه. وسُيّرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواصّ الخدم المقننونة والمقدّمين في الدولة لنور الدين وصلاح الدين، فسار صندل إلى نور الدين والبسه الخلعة، وسير الخلعة التي لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية، والأعلام السود، ثم إن صندلاً هذا صار أستاذ دار الخليفة المستضيء بأمر الله ببغداد، وكان يدري الفقه على مذهب الشافعي، وسمع الحديث ورواه، ويعرف أشياء حسنة، وفيه دين، وله معروف كثير، وهو من محاسن بغداد.

ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً

في هذه السنة جرت أمور أوجبت أن تأثر نور الدين من صلاح الدين، ولم يُظهر ذلك. وكان سببه أن صلاح الدين يوسف بن أيوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن الشوئك، وبينه وبين الكرك يوم، وحصره، وضيق على من به من الفرنج، وأدام القتال، (٣٧٢/١١) وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك.

فلمّا سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج أيضاً ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الفرنج، وهم على هذه الحال: أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبقَ بديار مصر مقام مع نور الدين، وإن جاء نور الدين إليك وأنت هاهنا، فلا بُدَّ لك من الاجتماع به، وحيثنّ يكون هو المتحكّم فيك بما شاء، إن شاء تركك، وإن شاء عزلك، فقد لا تقدر على الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر.

فرحل عن الشوئك عائداً إلى مصر، ولم يأخذه من الفرنج، وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمر بلغته عن بعض شيعته العلويين، وأنهم عازمون على الوثوب بها، فإنّه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة، وأطال الاعتذار، فلم يقبلها نور الدين منه، وتغيّر عليه وعزم على الدُخول إلى مصر وإخراجه عنها.

وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر

الأمرء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم، فلم يجبه أحدٌ بكلمة واحدة، فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقال: إذا جأنا قاتلناه، ومنعناه عن البلاد، وواقفه غيره من أهلهم، فشتهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك، واستعظمه، وشم تقي الدين وأقعد، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين، لم يمكن إلا أن نُقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنّا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا؟ وكلّ من تراه عندك من الأمرء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على (٣٧٣/١١) الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونؤابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأني حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما هاهنا من يمتنع عليك.

وأقام الأمرء وغيرهم وتفرقوا على هذا، فلمّا خلا به أيوب قال له: بأيّ عقل فعلت هذا؟ أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربتنا جعلنا أهمّ الوجوه إليه، وحيثنّ لا تقوى به، وأمّا الآن، إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا، والأقدار تعمل عملها، والله لو أراد نور الدين قصبه من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنه أو أقتل.

ففعل صلاح الدين ما أشار به، فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره، فكان الأمر كما ظنّه أيوب، فتوفي نور الدين ولم يقصده، وملك صلاح الدين البلاد، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

ذكر غزوة إلى الفرنج بالشام

وفي هذه السنة خرج مركبان من مصر إلى الشام فأرسيا بمدينة لاذقية، فأخذهما الفرنج، وهما مملوءان من الأمتعة والتجّار، وكان بينهما وبين نور الدين هدنة، فنكثوا وغدروا، فأرسل نور الدين إليهم في المعنى وإعادة ما أخذوه من أموال التجّار، فغالطوه، واحتجّوا بأمر منها أن المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء.

وكان الشرط أن كل مركب يتكسر ويدخله الماء يأخذونه، فلم يقبل (٣٧٤/١١) مغالطتهم، وجمع العساكر، وبث السرايا في بلادهم بعضها نحو أنطاكية، وبعضها نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة، وخرب روضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيتا وغريمة، فأخذها عنوة، ونهب وخرب، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وعادوا إليه وهو بقرقة، فسار في العساكر جميعها إلى أن قارب طرابلس نهب وخرب وبحرق ويقتل.

وأما الذين ساروا إلى أنطاكية ففعلوا في ولايتها مثل ما فعل

وقدم بغداد ووعظ، وكان يذمّ الحنابلة، وكثرت أتباعه، فاصابه إسهال، فمات هو وجماعة من أصحابه، قليل: إنَّ الحنابلة أهدوا له حلواء فمات هو وكلّ مَنْ أكل منها.

وفيها مات القُرطبي أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي، وكان إماماً في القراءة والنحو وغيره من العلوم، زاهداً عابداً، انتفع به الناس في الموصل، وفيها كانت وفاته. (٣٧٧/١١)

سنة ثمان وستين وخمسمائة

ذكر وفاة خوارزم شاه أرسلان ومُلك ولده سلطان شاه بعده ولده الآخر تُكش وقتل المؤيد ومُلك ابنه

في هذه السنة توفي خوارزم شاه أرسلان بن أئسر بن محمد بن أنوشكين، قد عاد من قتال الخطأ مريضاً، فتوفي، ومُلك بعده سلطان شاه محمود، ودبرت والدته المملكة والعساكر.

وكان ابنه الأكبر علاء الدين تُكش مقيماً في الجند قد أقطعه أبوه إياها، فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير أئف من ذلك، وقصد ملك الخطأ، واستمده على أخيه، وأطمعه في الأموال وذخائر خوارزم، فسير معه جيشاً كثيفاً مقدّمهم قوماً، فساروا حتى قاربوا خوارزم، فخرج سلطان شاه وأمه إلى المؤيد، فأهدى له هدية جليلة المقدار، ووعده أموال خوارزم وذخائرها، فاغتر بقوله، وجمع جيوشه وسار معه حتى بلغ سُوبزئي، بُليدة على عشرين فرسخاً من خوارزم، وكان تُكش قد عسكر بالقرب منها، فتقدّم إليهم، فلما تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيد، وكُسِر المؤيد وأُخذ أسيراً، وجمي به إلى خوارزم شاه تُكش، فأمر بقتله، فقتل بين يديه صبراً. (٣٧٨/١١)

وهرب سلطان شاه، وأخذ إلى دِهستان، فقصده خوارزم شاه تُكش، فافتتح المدينة عنوة، فهرب سلطان شاه وأخذت أمّه قتلها تُكش، وعاد إلى خوارزم.

ولما عاد المنهزمون من عسكر المؤيد إلى نيسابور ملكوا ابنه طغان شاه أبا بكر بن المؤيد، واتصل به سلطان شاه، ثمّ سار من هناك إلى غياث الدين ملك الغورية، فأكرمه وعظمه وأحسن ضيافته.

وأما علاء الدين تُكش، فإنه لما ثبت قدمه بخوارزم اتّصلت به رسل الخطأ بالاقتراحات والتحكّم كعادتهم، فأخذته حمية الملك والدين، وقتل أحد أقارب الملك، وكان قد ورد إليه ومعه جماعة أرسلهم ملكهم في مطالبة خوارزم شاه بالمال، فأمر خوارزم شاه أعيان خوارزم، فقتل كلّ واحد منهم رجلاً من الخطأ، فلم يسلم منهم أحد، ونبذوا إلى ملك الخطأ عهده.

في ولاية طرابلس، فراسله الفرنج، وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبيين، وتجديد الهدنة معهم، فأجابهم إلى ذلك، وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون، وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم.

ذكر وفاة ابن مُردنیش ومُلك يعقوب بن عبد المؤمن بِلاده

في هذه السنة توفي الأمير محمد بن سعد بن مُردنیش، صاحب البلاد بشرق الأندلس، وهي: مُرسية وبلنسية وغيرها، ووصى أولاده أن يقصدوا بعد موته الأمير أبا يوسف يعقوب بن عبد المؤمن، صاحب الغرب والأندلس، وتسلموا البلاد وتدخلوا في طاعته، فلما مات قصدوا يعقوب، وكان قد اجتاز إلى الأندلس في مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مُردنیش، فحين رآهم يوسف فرح بهم، وسرّه قدومهم عليه، وتسلم بلادهم، وتزوَّج أختهم، وأكرمهم، وعظم أمرهم، ووصلهم بالأموال الجزيلة، وأقاموا معه. (٣٧٥/١١)

ذكر عبور الخطأ جيحون والحرب بينهم وبين خوارزم شاه

في هذه السنة عبر الخطأ نهر جيحون يريدون خوارزم، فسمع صاحبها خوارزم شاه أرسلان بن أئسر، فجمع عساكره وسار إلى آيوية ليقاثلهم ويصدّهم، فمرض، وأقام بها، وسير بعض جيشه مع أمير كبير إليهم، فلقبهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الخوارزميون، وأسر مقدّمهم، ورجع به الخطأ إلى ما وراء النهر، وعاد خوارزم شاه إلى خوارزم مريضاً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اتّخذ نورالدين بالشام الحُمام الهوادي، وهي التي يقال لها المناسيب، وهي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وجعلها في جميع بلاده.

وسبب ذلك أنه لما اتّسعت بلاده، وطالت مملكته، وعرضت أكنافها، وتباعدت أوائلها عن أواخرها، ثمّ إنها جاورت بلاد الفرنج، وكانوا ربّما نازلوا حصناً من ثغوره، فإلى أن يصل الخبر، ويسير إليهم [يكونون] قد بلغوا غرضهم منه، فأمر بالحمام ليصل الخبر إليه في يومه، وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها وإقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة، والنفع الكبير للمسلمين.

وفيها عزل الخليفة المستضيء بأمر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء مكرهاً لأنّ قطب الدين قايماز ألزمه بعزله، فلم يمكنه مخالفته.

وفيها مات أبو محمد عبد الله بن أحمد الخشّاب اللغوي، وكان قِيماً (٣٧٦/١١) بالعريّة وسمع الحديث الكثير إلى أن مات.

وفيها مات البُوريّ الفقيه الشافعي، تفقّه على محمد بن يحيى،

ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتاب مشارب التجارب، وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ هذه الحوادث مخالفة لهذا في بعض الأمور مع تقديم وتأخير، ونحن نوردها، فقال إن تكش خوارزم شاه أيل أرسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم، وكان ملكها بعد موت أبيه، فجاء إلى مرو فملكها وأزاح الغز عنها، فخرجوا أياماً، ثم عادوا عليه فأخرجوه منها، واتهبوا خزائنه، وقتلوا أكثر رجاله، فغبر إلى الخطا فاستنجدهم، وضمن لهم مالاً، وجاء بجيش عظيم فأخرج الغز عن مرو وسرّخس ونسا وأبوزرد وملكها وردّ الخطا.

فلما أبعدها كاتب غياث الدين الغوري يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج وباذغيس وما والاها، ويتوعد إن هو لم ينزل عن ذلك، فأجاب غياث الدين يطلب منه إقامة الخطية له بمرور وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان، فلما سمع الرسالة سار عن مرو وشن الغارات على باذغيس ويّزار وما والاها، وحصر بوشنج ونهب الرساتيق، وصادر الرعايا، فلما سمع غياث الدين ذلك لم يرض لنفسه أن يسير هو بل سار ملك سجستان، وكاتب ابن أخيه بهاء الدين سام، صاحب باميان، باللاحاق، لأن أخاه شهاب الدين كان بالهند، والزمان شاء، فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث الدين وملك سجستان ومنّ معهما من العساكر، ووافق ذلك وصول سلطان شاه إلى هراة، فلما علم بوصولهم عاد إلى مرو من غير أن يقاتلها، وأحرق كلّ ما مرّ به من البلاد ونهبه، وأقام بمرور إلى الربيع، وأعاد مراسلة غياث الدين (٣٨١/١١) في المعنى، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يعرفه الحال، فنادى في عساكره الرحيل لساعته، وعاد إلى خراسان، واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك سجستان وغيرهم من العساكر، وقصدوا سلطان شاه، فلما علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه، من الغز والمفسدين، وقطّاع الطريق، ومنّ عنده طمع، خلق كثير، فنزل غياث الدين ومنّ معه في الطالقان، ونزل سلطان شاه بمرور الروذ، وتقدّم عسكر الغورية إليه، وتواعدوا للمصافّة.

وبقوا كذلك شهرين والرسول تتردد بين غياث الدين وبين سلطان شاه، وشهاب الدين يطلب من أخيه غياث الدين الإذن في الحرب، فلا يتركه، وتقرّر الأمر على أن يسلم غياث الدين إلى سلطان شاه وبوشنج وباذغيس وقلاع يّوزار، وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين سام، صاحب باميان، إلا أنّهما لم يخالفا غياث الدين، وفي آخر الأمر حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين، وحضر الأمراء ليكتب العهد، فقال الرسول: إن سلطان شاه يطلب أن يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الأمر. فأرسل غياث الدين إليهما، فأعادا الجواب: إنّنا مماليكك، ومهما تفعل لا يمكننا مخالفتك.

وبلغ ذلك سلطان شاه، فسار إلى ملك الخطا واغتسم الفرصة بهذه الحال واستنجد على أخيه علاء الدين تكش، وزعم له أن أهل خوارزم معه يريدونه، ويختارون ملكه عليهم، ولو راوه لسلّموا البلد إليه، فسار معه جيشاً كثيراً من الخطا مع قوماً أيضاً، فوصلوا إلى خوارزم، فحاصروها، فأمر خوارزم شاه علاء الدين بإجراء ماء جيحون عليهم فكادوا يفرقون، فحلّوا ولم يبلغوا منها غرضاً، ولحقهم الندم حيث لم يتفهم، ولاموا سلطان شاه وعفوه، فقال لقوما: لو أرسلت معي جيشاً إلى مرو لاستخلصتها من يد دينار الغزي. وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز إلى الآن، فسار معه جيشاً، فنزل على سرّخس على غيرة من أهلها، وهجموا على الغز فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فلم يتركوا بها أحداً منهم، وألقى دينار ملكهم نفسه في خندق القلعة، فأخرج (٣٧٩/١١) منه، ودخل القلعة وتحصّن بها.

وسار سلطان شاه إلى مرو فملكها، وعاد الخطا إلى ما وراء النهر، وجعل سلطان شاه دأبه قتال الغز وقصدهم، والقتل فيهم، والنهب منهم، فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل إلى نيسابور إلى طغان شاه بن المؤيد يقول له ليرسل إليه من يسلم إليه قلعة سرّخس، فأرسل إليه جيشاً مع أمير اسمه قراقوش، فسلم إليه دينار القلعة ولحق بطغان شاه، فقصد سلطان شاه سرّخس وحصر قلعتها، وبلغ ذلك طغان شاه، فجمع جيوشه وقصد سرّخس، فلما التقى هو وسلطان شاه قرّ طغان شاه إلى نيسابور، وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة، فأخلى قراقوش قلعة سرّخس ولحق بصاحبه، وملكها سلطان شاه، ثم أخذ طوس، والزمام، وضيق الأمر على طغان شاه بعلوهم، وقلة قراره، وحرصه على طلب الملك.

وكان طغان شاه يحبّ الدعة ومعاقرة الخمر، فلم ينزل الحال كذلك إلى أن مات طغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة في المحرم، وملك ابنه سنجر شاه، فغلب عليه مملوك جدّه المؤيد، اسمه منكلي تكين، فنفّر الأمراء أنفة من تحكّمه، واتصل أكثرهم بسلطان شاه، وسار الملك دينار إلى كرمان، ومعه الغز، فملكها.

وأما منكلي تكين فإنه أساء السيرة في الرعية، وأخذ أموالهم، وقتل بعض الأمراء، فسمع خوارزم شاه بذلك، فسار إليه فحصره بنيسابور في ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد إلى خوارزم، ثم رجع سنة ثلاث وثمانين إلى نيسابور فحصرها، وطلبوا منه الأمان، فأمنهم، فسلّموا البلد إليه، فقتل منكلي تكين وأخذ، (٣٨٠/١١) سنجر شاه وأكرمه، وأنزله بخوارزم، وأحسن إليه، فأرسل إلى نيسابور يستميل أهلها ليعود إليهم، فسمع به خوارزم شاه، فأخذ سنجر شاه فسلّمه، وكان قد تزوّج بأمّه وزوّجها بابنته، فماتت، فزوّجها بأخته، وبقي عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

أخرب البلاد وأراد مُلكها، فلعمري إنّه ملكٌ وابن ملك، وله همّة عالية، وإذا أراد المُلك، فمثلته أراده، وللأمور مدبّر يوصلها إلى مستحقّها، وقد التجأ إليّ، ويتبغى أن تزاح عن بلاده، وتعطيه نصيبه ممّا خلف أبوه، ومن الأملاك التي خلف، والأموال، وأحلف لكما يميناً على المودة والمصافاة، وتخطب لي بخوارزم وتزوِّج أخي شهاب الدين بأختك.

فلَمّا سمع خوارزم شاه الرسالة امتنع لذلك وكتب إلى غياث الدين كتاباً يتهذّده بقصد بلاده، فجَهّز غياث الدين العساكر مع ابن أخت ألب غازي وصاحب سجستان، وسيرهما مع سلطان شاه إلى خوارزم، وكتب إلى المؤيّد صاحب نيسابور يستنجد، وكان قد صار بينهما مصاهرة: زوّج المؤيّد ابنه طغان شاه بانية غياث الدين، فجمع المؤيّد عساكره، وأقام بظاهر نيسابور على طريق خوارزم.

وكان خوارزم شاه قد سار عن خوارزم إلى لقاء عسكر الغوريّة الذين مع أخيه سلطان شاه، وقد نزلوا بطرف الرمل، فبينما هو في مسيره أتاه خبر المؤيّد أنّه قد جمع عساكره، وأنّه على قصد خوارزم إذا فارقه، فسقط في يديه وعاد فوقع في قلبه، وعاد إلى خوارزم، فآخذ أمواله وذخائره وعبر جيحون إلى الخطا، وأخلى خوارزم فوقع بها خطباً عظيماً، فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازي وسأله إرسال أمير معهم يضبط البلد، فخاف أن تكون مكيدة، فلم يفعل. (٣٨٤/١١)

فبينما هم في ذلك توفّي سلطان شاه، سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فكتب ألب غازي إلى غياث الدين يُعلمه الخبر، فكتب إليه يأمره بالعود إليه، فرجع ومعه أصحاب سلطان شاه، فأمر غياث الدين بأن يُستخدّموا، وأقطع الأجناد الإقطاعات الجيدة، وكلّهم قابل إحسانه بكفران، وسنذكر باقي أخبارهم.

ولَمّا سمع خوارزم شاه نُكش بوفاة أخيه عاد إلى خوارزم، وأرسل إلى سَرَخس ومرو وشحناء، فجَهّز إليهم أمير هراة عمر المرغني جيشاً فأخرجوهم، وقال: حتى نستأذن السلطان غياث الدين، وأرسل خوارزم شاه رسولاً إلى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة، وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين، ومعهم وجيه الدين محمد بن محمود، وهو الذي جعل غياث الدين شافعياً، وكان له عنده منزلة كبيرة، فوعظوه، وخوّفوه الله تعالى، وأعلموه أنّ خوارزم شاه يرأسهم ويتهدّدهم بأنّه يجيء بالأتراك والخطا ويستبيح حريمهم وأموالهم، وقالوا له: إمّا أن تحضر أنت بنفسك، وتجعل مسرّو دار مُلكك، حتى ينقطع طمع الكافرين عن البلاد ويأمن أهلها، وإمّا أن تصالح خوارزم شاه. فأجاب إلى الصلح وترك معارضة البلاد.

فلَمّا سمع من بخراسان من الغزّ بذلك طمعوا في البلاد،

فبينما النَّاس مجتمعون في تحرير الأمر وإذ قد أقبل مجد الدين العلويّ الهرويّ، وكان خصيصاً بغياث الدين بحيث يفعل في ملكه ما يختار فلا يخالف، فجاء العلويّ ويده في يد ألب غازي ابن أخت غياث الدين، وقد كتبوا الكتاب، وقد أحضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان، فجاء العلويّ كأنّه يُسار غياث الدين، ووقف في وسط الحلقة، وقال للرسول: يا فلان! تقول لسلطان شاه: قد تمّ لك الصلح من جانب السلطان الأعظم، ومن شهاب الدين، وبهاء الدين، ويقول لك العلويّ خصمك: أنا ومولانا ألب غازي بيننا وبينك السيف، ثمّ صرخ صرخة ومزّق ثيابه، وحنا السراب على رأسه وأقبل على غياث الدين، وقال له: هذا واحد طرده أخوه، وأخرجه (٣٨٢/١١) فريداً وحيداً، لِمَ تترك له ما ملكناه بأسيافا من الغزّ والأتراك السنجرية؟ فإذا سمع هذا عنا يجيء أخوه يطلب منازعته الهند وجميع ما بيده، فحرّك غياث الدين رأسه ولم يتفوّه بكلمة، فقال ملك سجستان للعلويّ: اترك الأمر ينصلح.

فلَمّا لم يتكلّم غياث الدين مع العلويّ قال شهاب الدين لجاوشيته: نادوا في العسكر بالتجهّز للحرب، والتقدّم إلى مرو الروذ، وقام وأنشد العلويّ بيتاً من الشعر عجمياً معناه: إنّ الموت تحت السيوف أسهل من الرضى بالدنية. فرجع الرسول إلى سلطان شاه وأعلمه الحال، فرتّب عساكره للمصافاة، والتقى الفريقان واقتتلوا، فصبروا للحرب، فانهزم سلطان شاه وعسكره، وأخذ أكثر أصحابه أسرى، فأطلقهم غياث الدين، ودخل سلطان شاه مرو في عشرين فارساً، ولحق به من أصحابه نحو ألف وخمسمائة فارس.

ولَمّا سمع خوارزم شاه نُكش بما جرى لأخيه سار من خوارزم في ألفي فارس وأرسل إلى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه إن أراد الخطا، وجَد في السير ليقبض على أخيه قبل أن يقوى، فأتت الأخبار سلطان شاه بذلك، فلم يقدر على عبور جيحون إلى الخطا، فسار إلى غياث الدين وكتب إليه يعلمه قصده إليه، فكتب إلى هراة وغيرها من بلاده بإكرامه واحترامه وحمل الإقامة إليه، ففعل به ذلك، وقدم على غياث الدين، واللقاء، وأكرمه وأنزله معه في داره، وأنزل أصحاب سلطان شاه كلّ إنسان منهم عند من هو في طبقته، فأنزل الوزير عند وزيره، والعارض عند عارضه، وكذلك غيرهم، وأقام عنده حتى انسلك الشتاء فأرسل علاء الدين بن خوارزم شاه إلى غياث الدين يذكره ما صنعه أخوه سلطان شاه معه من تخريب بلاده، وجمع العساكر عليه، ويشير بالقبض عليه وردّه إليه، فأنزل الرسول، وإذ قد أتاه كتاب نائيه (٣٨٣/١١) بهراة يخبره أنّ كتاب خوارزم شاه جاءه يتهدّده، فأجابه أنّه لا يُظهر لخوارزم شاه أنّه أعلمه بالحال، وأحضر الرسول، وقال له: تقول لعلاء الدين: أمّا قولك إنّ سلطان شاه

فعاودوا النهب والإحراق والتخريب، فسمع خوارزم شاه فجمع عساكره وحضر بخراسان، ودخل مرو وسرخس ونسا وأبيورد وغيرها، وأصلح البلاد، وتطرق إلى طوس وهي للمؤيد صاحب نيسابور، فجمع المؤيد جيوشه وسار إليه، فلما سمع خوارزم شاه بمسيره إليه عاد إلى خوارزم، فلما وصل إلى الرمل أقام بطرفه، فلما سمع المؤيد بعود خوارزم شاه طمع فيه وتبعه، فلما سمع (٣٨٥/١١) خوارزم شاه بذلك أرسل إلى المناهل التي في البرية فالتقى فيها الجيف والتراب بحيث لم يمكن الانتفاع بها.

فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء فلم يجده، فجاء خوارزم شاه إليه وهو على تلك الحال، ومعه الماء على الجمال، فأحاط به، فأما عسكره فاستسلموا بأسرهم، وحيه بالمؤيد أسيراً إلى خوارزم شاه، فأمر بضرب عنقه، فقال له: يا مخنث هذا فعال الناس؟ فلم يلتفت إليه، وقتله وحمل رأسه إلى خوارزم.

فلما قُتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه طغان شاه. فلما كان من قابل جمع خوارزم شاه عساكره وسار إلى نيسابور، فحاصرها وقايتها، فمنعه طغان شاه فعاد عنه ثم رجع إليه، فخرج إليه طغان شاه فقاتله، فأسر طغان شاه وأخذه وزوجه أخته، وحمله معه إلى خوارزم، وملك نيسابور وجميع ما كان لطغان شاه من الملك وعظم شأنه وقوي أمره.

فلما قُتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه طغان شاه. فلما كان من قابل جمع خوارزم شاه عساكره وسار إلى نيسابور، فحاصرها وقايتها، فمنعه طغان شاه فعاد عنه ثم رجع إليه، فخرج إليه طغان شاه فقاتله، فأسر طغان شاه وأخذه وزوجه أخته، وحمله معه إلى خوارزم، وملك نيسابور وجميع ما كان لطغان شاه من الملك وعظم شأنه وقوي أمره.

هذا الذي ذكره في هذه الرواية مخالف لما تقدم، ولو أمكن الجمع بين الروایتين لفعلت، فإن أحدهما قد قدم ما أخره الآخر، فلهمذا أردنا جميع ما قاله، ولبعد البلاد عنا لم نعلم أي القولين أصح لنذكره وترك الآخر، وإنما أردناها في موضع واحد لأن أيام سلطان شاه لم تطل له ولأعقابه حتى تتفرق على السنين، فلهمذا أردناها متتابعة.

ذكر غارة الفرنج على بلد خوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج في هذه السنة، في ربيع الأول، اجتمعت الفرنج وساروا إلى بلد خوران من أعمال دمشق للغارة عليه، وبلغ الخبر إلى نور الدين وكان قد برز ونزل هو (٣٨٦/١١) وعسكره بالكسوة، فسار إليهم مجداً، وقدم بجموعه عليهم، فلما علموا بقرية منهم دخلوا إلى السواد، وهو من أعمال دمشق أيضاً، ولحقهم المسلمون فتخطفوا من في ساقيتهم ونالوا منهم، وسار نور الدين فنزل في عشترا، وسير منها سرية إلى أعمال طبرية، فشنوا الغارات عليها، فهربوا وسبوا، وأحرقوا وخربوا، فسمع الفرنج ذلك، فرحلوا إليهم ليمنعوا عن بلدهم، فلما وصلوا كان المسلمون قد فرغوا من نهيبهم وغنيمتهم، وعادوا وعبروا النهر.

وأدرهم الفرنج، فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم يقاتلونهم فاشتد القتال وصبر الفريقان، الفرنج يرومون أن يلحقوا

ذكر مسير شمس الدولة إلى بلد النوبة

في هذه السنة، في جمادى الأولى، سار شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى بلد النوبة، فوصل إلى أول بلادهم ليتغلب عليه ويتملكه.

وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر وأخذها منهم، فاستقر الرأي بينهم أنهم يملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه (٣٨٧/١١) عن البلاد، فإن قوا على منعه أقاموا بمصر، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتحوها، فجهز شمس الدولة وسار إلى أسوان، ومنها إلى بلد النوبة، فنازل قلعة اسمها أبريم، فحصرها، وقتله أهلها، فلم يكن لهم يقاتل العسكر الإسلامي قوة، لأنهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب، فسلموها، فملكها وأقام بها، ولم ير للبلاد دخلاً يُرغب فيه وتحتل المشقة لأجله، وقوتهم الذرة، فلما رأى عدم الحاصل، وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة، تركها وعاد إلى مصر بما غنم، وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري.

ذكر ظفر لمليح بن ليون بالروم

في هذه السنة، في جمادى الأولى، هزم مليح بن ليون الأرمني، صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب، عسكر الروم من القسطنطينية.

وسبب ذلك أن نور الدين كان قد استخدم مليحاً المذكور، وأقطعته إقطاعاً سنياً، وكان ملازم الخدمة لنور الدين، ومشاهداً لحروبه مع الفرنج، ومباشراً لها، وكان هذا من جيد الرأي وصائبه، فإن نور الدين لما قيل له في معنى استخدامه وإعطائه الأقطاع من بلاد الإسلام قال: استعين به على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكري تكون بيازاته لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له.

وكان مليح أيضاً يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم، (٣٨٨/١١) وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم، صاحب القسطنطينية، فأخذها مليح منهم لأنها تجاور بلاده، فسير إليه ملك الروم جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه، فلقبهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال، وصابرهم فانهمزمت الروم، وكثر فيهم القتل والأسر، وقويت شوكة مليح، وانقطع أمل الروم من تلك

البلاد.

سنذكره إن شاء الله. (٣٩٠/١١)

ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس

في هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عساكره وسار من إشبيلية إلى الغزو، فقصده بلاد الفرنج، ونزل على مدينة رُنْدَة، وهي بالقرب من طَلَيْطَلَة شرقاً منها، وحصرها، واجتمعت الفرنج على ابن الأذفونش ملك طَلَيْطَلَة في جمع كثير، فلم يُقدّموا على لقاء المسلمين.

فاتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين، وهدمت الأقوات عندهم، وهم في جمع كثير، فاضطروا إلى مفارقة بلاد الفرنج، فعادوا إلى إشبيلية، وأقام أبو يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وهو في ذلك يجهز العساكر ويسيرها إلى غزو بلاد الفرنج في كل وقت، فكان فيها عدة وقائع وغزوات ظهر فيها من العرب من الشجاعة ما لا يوصف، وصار الفارس من العرب يبرز بين الصّفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد، ثم عاد أبو يعقوب إلى مراكش.

ذكر نهب نَهَاوند

في هذه السنة نهب عسكر شَمَلَة نَهَاوند، وسبب ذلك أن شَمَلَة كان أيام إيلدكز لا يزال يطلب منه نَهَاوند لكونها مجاورة ببلاده، وينذل فيها الأموال، فلا يجيبه إلى ذلك، فلما مات إيلدكز، وملك بعده ولده محمد البهلوان، وسار إلى أذربيجان لإصلاحها أنفذ شَمَلَة ابن أخيه ابن سكتا لأخذ نَهَاوند، (٣٩١/١١) وبلغ أهل البلد الخبر، فتحصنوا، وحصرهم، وقتلهم وقتلوه، وأفحشوا في سبّه، فلما علم أنه لا طاقة له بهم رجع إلى نُسْتَر، وهي قرية منها، وأرسل أهل نَهَاوند إلى البهلوان يطلبون منه نجدة، فتأخرت عنهم، فلما اطمأنوا خرج ابن سكتا من خمس مائة فارس جريده، وسار يوماً وليلة فقطع أربعين فرسخاً حتى وصل إلى نَهَاوند، وضرب البوق وأظهر أنه من أصحاب البهلوان، لأنه جاءهم من ناحيته، ففتح أهل البلد له الأبواب فدخله، فلما توسّط قبض على القاضي والرؤساء وصلبهم، ونهب البلد وأحرقه، وقطع أنف الوالي وأطلقه، وتوجّه نحو ماسبذان قادماً للعراق.

ذكر قصد نور الدين بلاد قَلِج أرسلان

في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي إلى مملكة عَزْ الدين قَلِج أرسلان بن مسعود بن قَلِج أرسلان، وهي مَلْطِيَة وسيواس وأقصر وغيرها، عازماً على حربه وأخذ ببلاده منه.

وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند صاحب مَلْطِيَة وسيواس قصده قَلِج أرسلان وأخذ ببلاده، وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستنجراً به وملتجئاً إليه، فأكرم نزله،

وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثين رجلاً من مشهورهم وأعيانهم، فسَير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، وكتب يعتد بهذا الفتح لأن بعض جنده فعلوه.

ذكر وفاة إيلدكز

في هذه السنة توفي أتابك بهمدان، وملك بعده ابنه محمد البهلوان، ولم يختلف عليه أحد، وكان إيلدكز هذا مملوكاً للكمال السُيُرمي وزير السلطان محمود، فلما قُتل الكمال، كما ذكرناه، صار إيلدكز إلى السلطان محمود، فلما ولي السلطان مسعود السلطنة ولأه أرائيه، فمضى إليها، ولم يُعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره، ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وبهمدان وغيرها، وأصفهان والري وما والاها من البلاد، وخطب بالسلطنة لابن امرأته أرسلان شاه بن طغرل. وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع، واتسع ملكه من باب تغليس إلى كرمان، ولم يكن للسلطان أرسلان شاه معه حكم إنما كان له جناية تصل إليه.

وبلغ من تحكمه عليه أنه شرب ليلة، فوهب ما في خزانته، وكان كثيراً، فلما سمع إيلدكز بذلك استعاده جميعه، وقال له: متى أخرجت المال في غير وجهه، أخذته أيضاً من غير وجهه، وظلمت الرعيّة.

وكان إيلدكز عاقلاً، حسن السيرة، يجلس بنفسه للرعيّة، ويسمع شكواهم، وينصف بعضهم من بعض.

ذكر وصول الترك إلى إفريقية وملكهم طرابلس وغيرها

في هذه السنة سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى جبال نفوسة، واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط، وهو من أعيان أمراء العرب هناك، وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن وأولاده، فاتفقا، وكثر جمعهما، ونزلا على طرابلس الغرب فحاصرها وضيّقا على أهلها، ثم فتحت فاستولى عليها قراقوش، وأسكن أهله قصرها، وملك كثيراً من بلاد إفريقية ما خلا المَهديّة وسَقَاقِس وقَفْصَة وتونس وما والاها من القرى والمواضع.

وصار مع قراقوش عسكر كثير، فحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جُبلت عليه من التخريب والنهب، والإفساد بقطع الأشجار والثمار، وغير ذلك، فجمع بها أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قابس، وقويت نفسه وحدّته بالاستيلاء على جميع إفريقية لبعد أبي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها، وكان ما

صلاح الدين بقره خافه هو وجميع أهله، واتفق رأيهم على العود إلى مصر، وترك الاجتماع بنور الدين، لأنهم علموا أنه إن اجتمعوا كان عزله على نور الدين سهلاً.

فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر، وأنه مريض شديد المرض، ويخاف أن يحدث عليه حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم، وأرسل معه [من] التحف والهدايا ما يحلّ عن الوصف. فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه ذلك فعظم عليه وعلم المراد من العود، إلا أنه لم يظهر للرسول تأثراً بل قال له: حفظ مصر أهمّ عندنا من غيرها.

وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نحبهم ولحق برتبة، ورُبّ كلمة تقول لقائلها دعني، وكان سبب موت نجم الدين أنه ركب يوماً فرساً بمصر، ففر به الفرس نفرة شديدة، فسقط عنه فحمل إلى قصره وقيداً، وبقي أياماً، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان خيراً، عاقلاً (٣٩٤/١١) حسن السيرة كريماً جواداً كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية، والمجالسة لهم. وقد تقدّم من ذكره وابتداء أمره أخيه شيركوه ما لا حاجة إلى إعادته.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة زادت دجلة زيادةً كثيرةً أشرفت [بها] بغداد على الفرق في شعبان، وسدّوا أبواب الدروب، ووصل الماء إلى قبة أحمد بن حنبل ووصل إلى النظامية ورباط شيخ الشيوخ، واشتغل الناس بالعمل في القوزج، ثم نقص وكفى الناس شره.

وفيها وقعت النار ببغداد من درب بهروز إلى باب جامع القصر، ومن الجانب الأمر من حجر النحاس إلى دار أم الخليفة.

وفيها أغار بنو حزن من خفاجة على سواد العراق، وسبب ذلك أن الحماية كانت لهم لسواد العراق، فلما تمكن يزدن من البلاد وتسلم الجلة أخذها منهم، وجعلها لبني كعب من خفاجة، وأغار بنو حزن على السواد، فسار يزدن في عسكر ومعه الغضببان الخفاجي، وهو من بني كعب، قتال بني حزن، فبينما هم سائرون ليلاً رمى بعض الجند الغضببان بسهم قتلته لفساده، وكان في السواد، فلما قتل عاد العسكر إلى بغداد وأعيدت خفارة السواد إلى بني حزن.

وفيها خرج برجم الإبرائي في جمع من التركمان، في حياة إيلدكز، وتطرق أعمال همذان، ونهب الدينور، واستباح الحريم.

(٣٩٥/١١)

وسمع إيلدكز الخبر وهو يتجشّون، فسار مجذاً فيمن خفّ معه من عسكره، فقصدته، فهرب برجم إلى أن قارب بغداد، وتبعه

وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل إلى الملوك ووعدته النصرة والسعي في ردّ ملكه إليه.

ثم إنّه أرسل إلى قلعج أرسلان يشفع إليه في إعادة بلاد ذي النون إليه، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين إليه، فابتدأ بكيّسون وبهنسي ومرعش ومرزبان، فملكها وما بينها؛ وكان ملكه لمرعش أوائل ذي القعدة والباقي بعدها، فلما ملكها سيّر طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها. (٣٩٢/١١)

وكان قلعج أرسلان لما سار نور الدين إلى بلاده قد سار من طرفها الذي يلي الشام إلى وسطها، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح، فتوقّف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه عن الفرنج ما أزعجه، فأجابه إلى الصلح، وشرط عليه أن ينجده بعساكر إلى الغزاة، وقال له: أنت مجاور الروم ولا تغزوهم، وبلادك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام، ولا بُدّ من الغزاة معي، فأجابه إلى ذلك، وتبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين وهي لذي النون، فبقي العسكر بها في خدمة ذي النون إلى أن مات نور الدين، فلما مات رحل عسكره عنها، وعاد قلعج أرسلان وملكها، وهي بيد أولاده إلى الآن سنة عشرين وستمئة.

ولما كان نور الدين في هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن الشهرزوري من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وبلابل وخیلاط والشام وبلاد قلعج أرسلان وديار مصر.

ذكر رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكرك وعوده عنها

في هذه السنة، في شوال، رحل صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها إلى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك، والاجتماع مع نور الدين عليه، والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين كلّ واحد منهما في جهة بعسكره.

وسبب ذلك أن نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج (٣٩٣/١١) في العام الماضي، وأراد نور الدين قصد مصر، وأخذها منه، أرسل يعتذر، ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرّره نور الدين، فاستقرت القاعدة بينهما أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق، فأيّهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه. فسار صلاح الدين عن مصر لأن طريقه أصعب وأبعد وأشق. ووصل إلى الكرك وحصره.

وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرق الأموال، وحصل الأزواد وما يحتاج إليه، وسار إلى الكرك فوصل إلى الرقيم، وبينه وبين الكرك مرحلتان، فلما سمع

وغيره من الآلات، وجند الأجناد، فجمع وحشد، وسار عن مصر مستهلاً رجب، فوصل إلى مكة، أعزها الله تعالى، ومنها إلى زبيد، وفيها صاحبها المتغلب عليها المعروف بعبد النبي، فلما قرب منها رآه أهلها، فاستقلوا من معه، فقال لهم عبد النبي: كأنكم بهؤلاء وقد حمي عليهم الحر فهللكوا وما هم إلا أكلة رأس، فخرج (٣٩٧/١١) إليهم بعسكره، فقاتلهم شمس الدولة ومن معه، فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا، ووصل المصريون إلى سور زبيد، فلم يجدوا عليه من يمنهم، فنصبوا السلال، وصعدوا السور، فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب، وأخذوا عبد النبي أسيراً وزوجته المدعوة بالحرّة، وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة لا سيما إذا حجّت، فإن فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة، وخبراً كثيراً، ومعروفاً عظيماً، [وسلم شمس الدولة عبد النبي] إلى بعض أمرائه، يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بني مُنقذ، أصحاب شيزر، وأمره أن يستخرج منه الأموال، فأعطاه منها شيئاً كثيراً، ثم إنه دلّهم على قبر كان قد صنعه لوالده، وبنى عليه بنية عظيمة، وله هناك فائتان كثيرة، فأعلمهم بها، فاستخرجت الأموال من هناك وكانت جليلة المقدار، وأما الحرّة فإنها أيضاً كانت تدلّهم على ودائع لها، فأخذ منها مالاً كثيراً.

ولما ملكوا زبيد واستقرّ الأمر لهم بها، ودان أهلها، وأقيمت فيها الخطبة العباسية، أصلحوا حالها، وساروا إلى عدن، وهي على البحر، ولها مرسى عظيم، وهي فرضة الهند والزنج والحبشة، وعُمان وكُرمات، وكيش، وفارس، وغير ذلك، وهي من جهة البر من أمّنع البلاد وأحصنها، وصاحبها إنسان اسمه ياسر، فلو أقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبيين، وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم، فسار إليهم وقاتلهم، فانهزم ياسر ومن معه، وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة، فدخلوا البلد قبل أهله، فملكوه، وأخذوا صاحبه ياسراً أسيراً، وأرادوا نهب البلد، فمنعهم شمس الدولة، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها. (٣٩٨/١١) ونعمرها ونتنقذ بدخلها. فلم ينهب أحد منها شيئاً، فبقيت على حالها وثبت ملكه واستقرّ أمره.

ولما مضى إلى عدن كان معه عبد النبي صاحب زبيد مأسوراً، فلما دخل إلى عدن قال: سبحان الله! كنت قد علمت أنني أدخل إلى عدن في موكب كبير فأنا أنتظر ذلك وأستربّه، ولم أكن أعلم أنني أدخلها على هذه الحال.

ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد إلى زبيد، وحصر ما في الجبل من الحصون، فملك قلعة تعزّ، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب زبيد، وملك أيضاً قلعة التّعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون، واستتاب بदन عزّ الدين عُثمان بن الرّنجيلي، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ، وجعل في كلّ قلعة

إيلدكز فظنّ الخليفة أنها حيلة ليصل إلى بغداد فجاءه، فشرع في جمع العساكر وعمل السور، فأرسل إلى إيلدكز الخلع والألقاب الكبيرة، فاعتذر أنه لم يقصد إلاّ كَفّ فساد هؤلاء، ولم يتعدّ قطرة خانقين وعاد.

وفيها توفي الأمير يزدن، وهو من أكابر أمراء بغداد، وكان يتشيع، فوقع بسببه فتنة بين السنة والشيعة بواسط لأن الشيعة جلسوا له للعزاء وأظهر السنة الشماتة به فآل الأمر إلى القتال فقتل بينهم جماعة.

ولما مات أقطع أخوه تنامش ما كان لأخيه وهو مدينة واسط، ولقب علاء الدين.

وفيها أرسل نور الدين محمود بن زنكي رسولا إلى الخليفة، وكان الرسول القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشّهزوري، قاضي بلاده جميعها مع الوقوف والديوان، وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان، وما هو عليه من جهاد الكفار، وفتح بلادهم، ويطلب تقليداً بما بيده من البلاد، مصر والشام والجزيرة والموصل، وربما في طاعته كديار بكر وما يجاور ذلك كخلاط وبلاد قلج أرسلان، وأن يعطى من الأقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكي وهو: صريفين ودرب هارون، والتمس أرضاً على شاطئ دجلة يبنّيها مدرسة للشافعية، ويوقف عليها صريفين ودرب هارون، فأكرم كمال الدين إكراماً لم يكرم به رسول قبله، وأجيب إلى ما التمس، فمات نور الدين قبل الشروع في بناء المدرسة، رحمه الله. (٣٩٩/١١)

سنة تسع وستين وخمسمائة

ذكر مُلك شمس الدولة زبيد وعدن وغيرهما من بلاد اليمن

قد ذكرنا قبل صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر، وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود أن يدخل إلى مصر فيأخذها منهم، فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم إن أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها، فساروا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، وهو أخو صلاح الدين الأكبر، إلى بلد النوبة، فكان ما ذكرناه.

فلما عاد إلى مصر استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي، صاحب زبيد [وأخذ بلده] لأجل قطع الخطبة العباسية، فأذن في ذلك.

وكان بمصر شاعر اسمه عُمارَة من أهل اليمن، فكان يحسن لشمس الدولة قصد اليمن، ويصف البلاد له، ويعظم ذلك في عينه، فزاده قوله رغبة فيها، فشرع يتجهز ويُعدّ الأزواد والروايا والسلاح

القاضي الفاضل الكاتب الصلاحيّ يخدمه ويتقرب إليه بجهد طاقته، فلقبه يوماً، فلم يلتفت إليه، فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب. وخاف أن يكون قد صار له باطن من صلاح الدين، فأحضر عليّ بن نجا الواعظ وأخبره الحال، وقال: أريد أن تكشف لي الأمر. فسعى في كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئاً، فعدل إلى الجانب الآخر، فكشف الحال، وحضر عند القاضي الفاضل وأعلمه، فقال: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنتهي الحال إليه. فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع، فذكر له الحال، فقام وأخذ الجماعة وقرّهم، فأقروا، فأمر بصلبهم.

وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها، فلما أراد صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في إطلاقه، وظنّ عمارة أنّه يحرض على هلاكه، فقال لصلاح الدين: يا مولانا لا تسمع منه في حقّي، فغضب الفاضل وخرج، وقال صلاح الدين لعمارة: إنه كان يشفع فيك، فندم، ثم أخرج عمارة ليُصلب، فطلب أن يمرّ به على مجلس الفاضل، فاجتازوا به عليه، فأغلق بابه ولم يجتمع به، فقال عمارة :

عَبْدَ الرَّحِيمِ قَدْ احْتَجَبَ إِنَّ الْخَلَاصَ قَدْ نَجَسَ
ثُمَّ صَلَبَ هُوَ وَالْجَمَاعَةُ، وَنُودِيَ فِي أَجْنَادِ الْمَصْرِيِّينَ بِالرَّحِيلِ
مِنْ دِيَارِ مِصْرَ وَمَفَارِقَتِهَا إِلَى أَقْصَايِ الصَّعِيدِ، وَاحْتَبِطَ عَلَى مَنْ
بِالْقَصْرِ مِنْ سَلَالَةِ الْعَاضِدِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِهِ. (٤٠١/١١)

وأما الذين ناققوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم، ولا أعلمهم أنّه علم بحالهم، وأما الفرنج، فإنّ فرنج صقلية قصدوا الإسكندرية على ما ذكره إن شاء الله تعالى، لأنهم لم يتصل بهم ظهور الخبر عند صلاح الدين، وأما فرنج الساحل الشاميّ فإنهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال، وكان عمارة شاعراً مقلقاً، فمن شعره :

لَوْ أَنَّ قَلْبِي بَرَزَ كَاطْمِنَةٍ مَعِي لَمَلَكْتُ وَكَطَمْتُ فَيْضَ الْأَدْمَعِ
قَلْبُ قَصَاكَ مِنَ الصَّبَةِ أَنَّهُ كَبَى نَدَاءَ الظَّاعِنِينَ وَمَا دُعَى
مَا الْقَلْبُ لَوْ أَنَّ غَايِرَ قُلُوبِهِ هِيَ شَيْئَةُ الْأَيَّامِ مُذْ خُلِقْتَ مَعِي
وَمِنْ الظُّنُونِ الْفَاسِدَاتِ تَوَهَّمِي بَعْدَ الْيَقِينِ بَقَاءَهُ فِي أَضْلَعِي
وله أيضاً :

إِلَيَّ فِي هَوَى الرِّثَا الْعَنُودِي إِنْ عَنَادُ لِي فِي الْقُدُودِ وَفِي لُثْمِ الْخُدُودِ وَفِي
هَذَا اخْتِيَارِي فَوَافِقِي إِنْ رَضِيتَ بِهِ أَوْ لَا دُعْنِي وَمَا هَوَى وَاخْتَارَ
وله ديوان شعر مشهور في غاية الحسن والرفقة والملاحة.

(٤٠٢/١١)

نائباً من أصحابه، وألقى مُلكهم باليمن جرّأته ودام، وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد، واستصنى طاعتهم بالعدل والإحسان، وعادت زبید إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن.

ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين

في هذه السنة، ثاني رمضان، صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين.

وسبب ذلك أنّ جماعة من شيعة العلويين منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويس، وداعي الدعاة وغيرهم (٣٩٩/١١) من جند المصريين ورجلّتهم السودان، وحاشية القصر، وواقفهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده، وأتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية، ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلاد، فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية، وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه، فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ثاروا به، وأخذوه أخذاً باليد لعدم التأصر له والمساعد، وقال لهم عمارة: وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسدّ مسدّه وتجتمع الكلمة عليه بعده.

وأرسلوا إلى الفرنج بصقلية والساحل في ذلك، وتقرّرت القاعدة بينهم، ولم يبق إلا رحيل الفرنج، وكان من لطف الله بالمسلمين أنّ الجماعة المصريين أدخلوا معهم في هذا الأمير زين الدين عليّ بن نجا الواعظ، المعروف بابن نجية، ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقاضي، إلا أنّ بني زُرّيك قالوا: يكون الوزير منا. وبني شاور قالوا: يكون الوزير منا. فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين، وأعلمه حقيقة الأمر، فأمر بملازمتهم ومخالطتهم، ومواطنتهم على ما يريدون أن يفعلوه، وتعريفه ما يتجدّد أولاً بأول، ففعل ذلك وصار يطالعه بكلّ ما عزموا عليه.

ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل الشاميّ إلى صلاح الدين بهدية ورسالة، وهو في الظاهر إليه، والباطن إلى أولئك الجماعة، وكان يرسل إليهم بعض النصاريّ وتأتيهم رسائلهم، فأتى رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجليّة الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يتق به من النصاريّ، ودخله، فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته، فقبض حيثنّ على (٤٠٠/١١) المقدّمين في هذه الحادثة منهم: عمارة وعبد الصمد والعويس وغيرهم وصلبهم.

وقبل في كشف أمرهم إنّ عبد الصمد المذكور كان إذا لقي

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي، رحمه الله

في هذه السنة توفي نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر، يوم الأربعاء حادي عشر شوال، بعلّة الخوانيق، ودُفن بقلعة دمشق، ونُقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق، عند سوق الخواصين.

ومن عجيب الاتفاق أنّه ركب ثاني شوال وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار، فقال له الأمير: سبحان مَنْ يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل أم لا؟ فقال نور الدين، لا تقل هكذا، بل سبحان مَنْ يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا؟ فمات نور الدين، رحمه الله، بعد أحد عشر يوماً، ومات الأمير قبل الحول، فأخذ كلّ منهما بما قاله.

وكان قد شرع يتجهّز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب، فإنّه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، وكان يعلم أنّه إنّما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به، فإنّه يؤثّر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة، وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي، صاحب الموصل بالشّام، ويسير هو بعساكره إلى مصر، فيما هو يتجهّز لذلك أنّه أمر الله الذي لا مردّ له.

حكى لي طبيب يعرف بالطبيب الرحي و هو كان يخدم نور الدين، وهو من حدّاق الأطباء، قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا إليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكّنت الخوانيق منه، وقارب الهلاك، فلا يكاد يُسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبّد، فابتدأ به المرض، فلم يتقلّ عنه، فلمّا دخلنا ورأينا ما به قلّتْ له: (٤٠٣/١١) كان ينبغي أن لا تؤخّر إحضارنا إلى أن يشتدّ بك المرض الآن، وينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضي، فله أثر في هذا المرض. وشرعنا في علاجه، وأشرنا بالفصد، فقال: ابن ستين لا يقتصد، وامتنع منه، فعالجناه بغيره، فلم ينفع فيه الدواء، وعظم الداء، ومات، رحمه الله ورضي عنه.

وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلّا في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، خلّو العينين، وكان قد اتّسع مُلكه جدّاً، وخطّب له بالحرّمين الشّرفيّين وباليمن لمّا دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها، وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبّق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله. وقد طالعتُ سيّر الملوك المتقدّمين، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحريماً منه للعدل.

وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من أخبار دولتهم، ولنذكر هاهنا نبذة مختصرة لعلّ يقف عليها مَنْ له حكم فيقتدي به.

فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه، فإنّه كان لا يأكل ولا يلبس [ولا يتصرّف] في الذي يخصّه [إلّا] من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاه ثلاث دكاكين في حمص كانت له، منها يحصل له في السنة نحو عشرين ديناراً، فلمّا استقلّتها قال: ليس لي إلّا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنّم لأجلك.

وكان يصلي كثيراً بالليل، وله فيه أوراد حسنة، وكان كما قيل: جمع الشجاعة والخشوع لرسّيه ما أحسن المحراب في المحراب (٤٠٤/١١)

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصّب، وسمع الحديث، وأسمعه طلباً للأجر.

وأما عدله، فإنّه لم يترك في بلاده، على سعتها، مكساً ولا عُشراً بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل، وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها.

وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه.

وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول: قد جئتُ محاكماً، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم؛ وظهر الحقّ له، فوجهه الخصم الذي أحضره، وقال: أردتُ أن أترك له ما يدعيه، إنّما خفتُ أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت، ثم وهبته ما يدعيه.

وبنى دار العدل في بلاده، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم، ولو أنّه يهودي، من الظالم ولو أنّه ولده أو أكبر أمير عنده.

وأما شجاعته، فإنّها النهاية، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشيتين ليقاتل بها، فقال له القطب الشّاويّ الفقيه: بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلّا أخذ السيف. فقال له نور الدين: ومن محمود حتى يقال له هذا؟ من قلبي مَنْ حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله لا إله إلّا هو.

وأما ما فعله من المصالح، فإنّه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها، فمنها دمشق وحمص وحمّة وحلب وشيّر وبعلبك وغيرها، وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبنى الجامع النوريّ بالموصل، وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق، وبنى الخاناتكاهات للصوفية في جميع البلاد، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة. سمعتُ أنّ حاصل وقفه كلّ شهر تسعة آلاف دينار (٤٠٥/١١) صوري. وكان يُكرم العلماء وأهل الدين ويعظّمهم

ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، وينبسط معهم، ولا يردّ لهم قولا، ويكاتبهم بخط يده، وكان قوورا مهيباً مع تواضعه، وبالجملة فحسانته كثيرة ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب.

ذكر مُلك ولده الملك الصالح

لَمَّا تَوَفَّى نور الدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده، وكان عمره إحدى عشرة سنة، وحلف له الأمراء والمقدّمون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضرب السكة باسمه، وتولّى تربيته الأمير شمس [الدين] محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم، وصار مدبّر دولته. فقال له كمال الدين بن الشّهزوري ولمن معه من الأمراء: قد علمتم أنّ صلاح الدّين صاحب مصر هو من ممالك نور الدّين ونوابه أصحاب نور الدين، والمصلحة أن نشاوره في الذي نفعله، ولا يخرج من بيننا فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منّا، لأنّه قد افترد اليوم بملك مصر، فلم يوافق هذا القول أغراضهم، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم، فلم يمتض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أنّ الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه.

فلَمَّا سار سيف الدين غازي، صاحب الموصل، وملك البلاد الجزرية، على ما ذكره، أرسل صلاح الدين أيضاً الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده وأخذها، ليحضر في خدمته ويكفّ سيف الدين، وكتب إلى كمال الدين والأمراء يقول: لو أنّ نور الدين يعلم أن فيكم من (٤٠٦/١١) يقوم مقامه، أو يشق به مثل ثقته بي لسلّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه ولولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الدّبّ عن بلاده.

وتمسك ابن المقدّم وجماعة الأمراء بالملك الصالح، ولم يرسّله إلى حلب، خوفاً أن يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية، فإنّه كان أكبر الأمراء النورية، وإنّما منعه من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه، وكان هو وإخوته بحلب، وأمروا إليهم، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولمّا عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمّه قطب الدين، فلم يمكنه الأمراء الذين معه من الانتقال إلى حلب لما ذكرناه.

ذكر مُلك سيف الدين البلاد الجزرية

كان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية،

وأما سيف الدين فأخذ كلّ ما كان له من برك وغيره، وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشّحن إلى الخابور فاستولوا عليه، وأقطعوه، وسار هو إلى حرّان فحصرها عدّة أيام، وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحرّاني، فامتنع بها، وأطاع بعد ذلك على أن تكون حرّان له، ونزل إلى خدمة سيف الدين، فقبض عليه وأخذ حرّان منه، وسار إلى الرّها فحصرها وملكها، وكان بها خادم خصيّ أسود لنور الدين فسلّمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر، فأعطىها، ثم أخذت منه، ثم صار إلى أن يستعطي ما يقوته.

وسير سيف الدين إلى الرقة فملكها، وكذلك سروج، واستكمل ملك جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر، فإنّها كانت منيعة، وسوى رأس عين، فإنّها كانت لقطب الدين، صاحب ماردين، وهو ابن خال سيف الدين، فلم يتعرّض إليها.

وكان شمس الدين علي بن الداية، وهو أكبر الأمراء النورية، يحلب مع عساكرها، فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد، لفالج كان به، فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح، فلم يرسل إليه، لما ذكرناه. ولمّا ملك سيف الدين الديار الجزرية قال له فخر الدين عبد المسيح، وكان قد وصل إليه من سيواس بعد موت نور الدين، وهو الذي أقر له الملك بعد أبيه قطب الدين، فظنّ أنّ سيف الدين يراعى له ذلك، فلم يجنّ ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء، قال له: الرأي أن تعبر إلى الشام فليس به مانع، فقال له أكبر أمرائه، وهو أمير له عزّ الدين محمود المعروف بؤلّفندار، قد ملكت أكثر ما كان لأبيك، والمصلحة أن تعود، فرجع إلى قوله، وعاد إلى الموصل ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. (٤٠٨/١١)

ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها

لَمَّا مات نور الدين محمود، صاحب الشام، اجتمعت الفرنج وساروا إلى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحصروها، فجمع شمس الدين محمد بن المقدّم العسكر عنده بدمشق، فخرج عنها، فراسلهم، ولطفهم، ثم أغلظ لهم في القول، وقال لهم: إن أنتم صالحتمونا وعُدتم عن بانياس، فنحن على ما كنّا عليه، وإلا فنرسل

وأغلق باب النوبي وباب العامة، وبقيت دار الخليفة كالمحصورة، فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته، فقال قطب الدين: لا أقنع إلا بإخراج عضد الدين من بغداد، فأمر بالخروج منها، فالتجأ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل، فأخذه إلى رباطه وأجاره، ونقله إلى دار الوزير بقُطُفتا، فأقام بها، ثم عاد إلى بيته في جمادى الآخرة.

وفيها سقط الأمير أبو العباس أحمد بن الخليفة، وهو الذي صار خليفة، من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح، فالتقى نفسه بعده، وسلم ابن الخليفة ونجاح، فقبل لنجاح: لم ألقيت نفسك؟ فقال: ما كنت أريد البقاء بعد مولاي، فرعى له الأمير أبو العباس ذلك، فلما صار خليفة جعله شرايئاً، وصارت الدولة جميعها بحكمه، ولقبه الملك الرحيم عز الدين، وبالع في الإحسان إليه والتقديم له، وخدمه جميع الأمراء بالعراق والوزراء وغيرهم.

وفيها، في رمضان، وقع ببغداد بَرْدٌ كبير ما رأى الناس مثله، فهدم الدور، وقتل جماعة من الناس وكثيراً من المواشي، فوزنت بَرْدَةٌ منها فكانت سبعة أرباط، وكان عامته كالتارنج يكسّر الأغصان، هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه، والعهد عليه.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيد، صاحب نيسابور، وبين شاه مازندران، قُتل فيها كثير من الطائفتين، فانهزم شاه مازندران، ودخل المؤيد بلد الديلم وخرّبته وقتل بأهله وعاد منه.

وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ، وسبها (٤١١/١١) أن الماء لما زاد سكر أهل الكرخ سكر أهل البصرة، ففرق مسجد فيه شجرة، فانتقلت، فصاح أهل الكرخ: انتقلت الشجرة، لعن الله العشرة فقامت الفتنة، فتقدم الخليفة إلى علاء الدين تماش بكفهم، فمال على أهل باب البصرة لأنه كان شيعياً، وأراد دخول المحلة، فمنعه أهلها، وأغلقوا الأبواب ووقفوا على السور، وأراد دخول المحلة، فمنعه أهلها، وأغلقوا الأبواب ووقفوا على السور، وأراد إحراق الأبواب، فبلغ ذلك الخليفة فأنكره أشد إنكار، وأمر بإعادة تماش، فعاد، ودامت الفتنة أسبوعاً، ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان.

وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلعج أرسلان، فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون، فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده، وقد قُتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة.

وفيها، في جمادى الأولى، مات أحمد بن علي بن المعمر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلوي الحسيني نقيب العلويين

إلى سيف الدين، صاحب الموصل، ونصالحه، ونستجده، ونرسل إلى صلاح الدين بمصر فنستجده، ونقصد بلادكم من جهاتها كلها، ولا تقومون لنا. وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين، والآن قد زال ذلك الخوف، وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع. فعملوا صدقه، فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين وتقررت الهدنة.

فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه، وكتب إلى الملك الصالح والأمراء الذين معه يفتح لهم ما فعلوه ويبدل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح. وكان قصده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام ليمتلك البلاد، والأمراء الشاميون إنما صالحو الفرنج خوفاً منه ومن سيف الدين غازي، صاحب الموصل، فإنه كان قد أخذ البلاد الجزرية، وخافوا منه أن يعبر إلى الشام، فراوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب، وهذا من الشرق، وهم مشغولون عن ردهم. (٤٠٩/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، وقع الحريق ببغداد فاحترق أكثر الظفرية ومواضع غيرها، ودام الحريق إلى بكرة وطفئت النار.

وفيها، في شعبان، بنى ابن سنكا، وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان، قلعة بالقرب من الماهكي ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الأعمال، فسير إليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه، فالتقوا وحمل بنفسه على الميمنة فهزمها، واقتتل الناس قتالاً عظيماً، وأسر ابن أخي شملة، وحمل رأسه إلى بغداد، فعلق بباب النوبي، وهدمت القلعة.

وفيها، في رمضان، توالى الأمطار في ديار بكر والجزيرة والموصل، فدامت أربعين يوماً ما رأينا الشمس فيها غير مرتين، وكل مرة مقدار لحظة، وخربت المساكن وغيرها، وكثر الهدم، ومات تحتها كثير من الناس، وزادت دجلة زيادة عظيمة، وكان أكثرها ببغداد، فإنها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بُنيت ببغداد بذراع وكسر، وخاف الناس الغرق، وفارقوا البلد، وأقاموا على شاطئ دجلة خوفاً من انفتاح القورج وغيره، وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده، ونبع الماء في البلايع، وخرّب كثيراً من الدور، ودخل الماء إلى اليمارستان العسدي، ودخلت السفن من الشبايك التي له، فإنها كانت قد تقلعت، فمن الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد أن أشرفوا على الغرق.

وفيها، في جمادى الأولى، كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين قايمز والخليفة، وسبها أن الخليفة أمر بإعادة عضد الدين بن رئيس الرؤساء إلى (٤١٠/١١) الوزارة، فمنع منه قطب الدين،

الصباح من كل الجهات، فارتاع الفرنج واشتد القتال، فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها، وصبروا للقتال فانزل الله نصره عليهم، وظهرت أماراته، ولم يزالوا مباشرين القتال آخر النهار، ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من نباشير الظفر وقوتهم، وفشل الفرنج وفتر حربهم، وكثرة القتل والجراح في رجالهم.

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره، وسير مملوكاً له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها إلى الإسكندرية يسيراً، وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها، واحتياطاً لها، فسار ذلك المملوك، فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر، والناس قد رجعوا من القتال، فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى [القتال، وقد] زال ما بهم من تعب وألم الجراح، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله. (٤١٤/١١)

وسمع الفرنج يقرب صلاح الدين في عساكره، فسقط في أيديهم، وازدادوا تعباً وفترت، فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام، ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة، وكثر القتل في رجالة الفرنج، فهرب كثير منهم إلى البحر، وقربوا شوانيمهم إلى الساحل ليركبوا فيها، فسلم بعضهم وركب، وغرق بعضهم، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج ففرقت، فخاف الباقون من ذلك، فولّوا هاربين، واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل، فقاتلهم المسلمون إلى بكرة، ودام القتال إلى أن أضحى النهار، فغلبهم أهل البلد وقهرهم فصاروا بين قتل وأسير، وكفى الله المسلمين شرهم وحاق بالكافرين مكروهم.

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

وفي أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر، واجتمع إليه من رعيّة البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير، وكان هناك أمير من الصلاحية في أقطاعه، وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين، فقتله الكنز، فعظم قتله على أخيه، وهو من أكبر الأمراء وأشجعهم، فسار إلى قتال الكنز، وسير معه صلاح الدين جماعة من الأمراء، وكثيراً من العسكر، ووصلوا إلى مدينة طُود، فاحتمت عليهم، فقاتلوا من بها، وظفروا بهم، وقتلوا منهم كثيراً، وذلّوا بعد العزّ وقهرها واستكانوا.

ثم سار العسكر بعد فراغهم من طُود إلى الكنز، وهو في طغيانه يعمّه، فقاتلوه، فقتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم، وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها. (٤١٥/١١)

بغداد، وكان يلقب الظاهر، وسمع الحديث الكثير ورواه، وكان حسنة أهل بغداد.

وفيهما توفي الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد العطار الهمداني، سافر الكثير في طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة، وكان من أعيان المحدثين في زمانه، وكان له قبول عظيم ببلده عند العامة والخاصة.

وفيهما توفي أبو محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان النحوي البغدادى بالموصل، وكان إماماً في النحو، له التصانيف المشهورة منها الغرّة وغيرها. (٤١٢/١١)

سنة سبعين وخمسمائة

ذكر وصول أسطول صقلية إلى مدينة الإسكندرية وانهزامه عنها في هذه السنة، في المحرم، ظفر أهل الإسكندرية وعسكر مصر بأسطول الفرنج من صقلية، وكان سبب ذلك ما ذكرناه من [إرسال] أهل مصر إلى ملك الفرنج بساحل الشام، وإلى صاحب صقلية، ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر، فجهّز صاحب صقلية أسطولاً كثيراً، عدته مائتا شيني تحمل الرجال، وست ثلاثون طريدة تحمل الخيل، وستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب، وأربعون مركباً تحمل الأزواد، وفيها من الرجال خمسون ألفاً، ومن الفرسان ألف وخمسمائة، منها خمسمائة تركبلي.

وكان المقدّم عليهم ابن عمّ صاحب صقلية، وسيره إلى الإسكندرية من ديار مصر، فوصلوا إليها في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، على حين غفلة من أهلها وطمأنينة، فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدّتهم ليمنعوهم من النزول، وأبعدوا عن البلد، فمنعهم الوالي عليهم من ذلك، وأمرهم بملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البر ممّا يلي البحر والمنارة وتقدّموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمجانيق وقاتلوا أشد قتال، (٤١٣/١١) وصبر لهم أهل البلد، ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم.

وسّرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم، ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار، ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني، وجدّوا، ولازموا الزحف، حتى وصلت الدبابات إلى قرب السور، ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه، وهو قريب من الإسكندرية، فقويت بهم نفوس أهلها، وأحسنوا القتال والصبر، فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب، وهم غارون، وكثر

ذكر مُلك صلاح الدين دمشق

وطىء أرض الشام قصد بُصرى، وكان [بها] جيشاً صاحبها وهو من جملة مَنْ كاتبه، فخرج ولقيه، فلما رأى قلةً من معه خاف على نفسه، واجتمع بالقاضي الفاضل وقال: ما أرى معكم عسكرياً، وهذا بلد عظيم لا يُقصد بمثل هذا العسكري، ولو منعكم مَنْ به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد، فإن كان معكم مَالٌ سهل الأمر. فقال: معنا مَالٌ كثير يكون خمسين ألف دينار. فضرب صاحب بُصرى على رأسه وقال: هلكتم وأهلكتمونا. وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار.

ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج كلٌّ من بها من العسكر إليه، فلقوه وخدموه، ودخل البلد، ونزل في دار والده المعروفة بدار العقبي، وكانت (٤١٧/١١) القلعة بيد خادم اسمه ربحان، فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزوري وهو قاضي البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك، وأرسله إلى ربحان يسلم القلعة إليه، وقال: أنا مملوك الملك الصالح، وما جئت إلا لأنصره وأخدمه، وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه، وكان يخطب له في بلاده كلها، فصعد كمال الدين إلى ربحان، ولم يزل معه حتى سلم القلعة، فصعد صلاح الدين إليها، وأخذ ما فيها من الأموال، وأخرجها وأتسع بها وثبت قدمه، وقويت نفسه، وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح، ويخاطبه بالمملوك، والخطبة والسكّة باسمه.

ذكر مُلك صلاح الدين مدينتي حمص وحماة

لما استقرَّ مُلك صلاح الدين لدمشق، وقرّر أمرها، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، وسار إلى مدينة حمص مستهلَّ جمادى الأولى، وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلّية وتل خالد والرُّها من بلد الجزيرة في أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها، ولم يكن له في قلاع هذه البلاد حكم إنما فيها ولاة لنور الدين. وكان بقلعة حمص وال يحفظها، فلما نزل صلاح الدين على حمص، حادي عشر الشهر المذكور، راسل من فيها بالتسليم، فامتنعوا، فقاتلهم من الغد، فملك البلد وأمن أهله، وامتنت عليه القلعة وبقيت ممتنعة إلى أن عاد من حلب، على ما نذكره إن شاء الله، وترك بمدينة حمص مَنْ يحفظها، ويمنع مَنْ بالقلعة من التصرف، وأن تصعد إليهم ميرة.

وسار إلى مدينة حماة، وهو في جميع أحواله لا يظهر إلا طاعة الملك (٤١٨/١١) الصالح بن نور الدين، وأنه إنما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج، واستعادة ما أخذه سيف الدين صاحب الموصل من البلاد الجزرية، فلما وصل إلى حماة ملك المدينة مستهلَّ جمادى الآخرة. وكان بقلعتها الأمير عز الدين جورديك، وهو من المماليك النورية، فامتنع من التسليم إلى صلاح

في هذه السنة، سلخ ربيع الأول، ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق، وسبب ذلك أن نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق، وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي إلى حلب، كما ذكرناه، فأقام بها عند شمس الدين بن الداية، فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يُعير إلى حلب فيملكها، فأرسل سعد الدين إلى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب، فلما قارب دمشق سار إليه شمس الدين محمد بن المقدّم عسكرياً فنهبه، وعاد منهزماً إلى حلب، فأخلف عليه ابن الداية عرض ما أخذ منه، ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة، فعملوا أن يسيره إلى حلب أصلح للدولة من مقامه بدمشق، فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح، فجهره وسيّره وعلى نفسها براقش تجني، فسار إلى دمشق في المحرم من هذه السنة، وأخذ الملك الصالح وعاد إلى حلب، فلما وصلوا إليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته، وعلى رئيس بن الخشّاب رئيس حلب ومقدّم الأحداث بها، ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكن من ذلك.

واستبدَّ سعد الدين بتدبير الملك الصالح، فخافه ابن المقدّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق وقالوا: إذا استقرَّ أمر حلب أخذ الملك الصالح وسار به إلينا، وفعل مثل ما فعل بحلب، وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ليعبر الفرات إليهم ليسلموا إليه دمشق، فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة. (٤١٦/١١) عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمّه وعسكر حلب من وراء ظهره فهلك. أشار عليه بهذا زلفندار عز الدين، والجبان يُقدّر البعيد من الشر قريباً، ويسورى الجبن حزماء، كما قال :

يسرى الجبنة أن الجبن حزمٌ وتلك طيبة الرجل الجبان
فلما أشار عليه بهذا الرأي زلفندار قَبِلَهُ وامتنع من قصد دمشق، وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على ما أخذه من البلاد، فلما امتنع من العبور إلى دمشق عظم خوفهم، وقالوا: بحيث صالحهم سيف الدين لم يبقَ لهم مانع عن السير إلينا. فكتبوا حينئذٍ صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر، واستدعوه ليملكوه عليهم، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين ابن المقدّم، ومن أشبه أباه فما ظلم، وقد ذكرنا مخامرة أبيه في تسليم سينجار سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين بذلك لم يلبث، وسار جريدة في سبع مائة فارس والفرنج في طريقه، فلم يُبالِ بهم، فلما

عن تدبير الملك، فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها، وتولى القمص ريمند تدبير الملك، وإليه الحل والعقد، عن أمره يصدر. فأرسل إليه من يحلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم، فسار إلى حمص ونازلها سبع رجب، فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب، فوصل إلى حماة ثامن رجب، بعد نزول الفرنج على حمص يوم، ثم رحل إلى الرستن، فلما سمع الفرنج بقرية رحلوا عن حمص، ووصل صلاح الدين إليها، فحصر (٤٢٠/١١) القلعة إلى أن ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة، فصار أكثر الشام بيده.

ولما ملك حمص سار منها إلى بعلبك، وبها خادم اسمه يمين، وهو وال عليها من أيام نور الدين، فحصرها صلاح الدين، فأرسل يمين يطلب الأمان له وللمن عنده، فأمنهم صلاح الدين، وسلم القلعة رابع شهر رمضان من السنة المذكورة.

ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود، يستجده على صلاح الدين، ويطلب أن يعبر إليه ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه، فجمع سيف الدين عساكره، وكتب أخاه عماد الدين زنكي، صاحب سنجار، يأمره أن ينزل إليه بعساكره ليجتمعا على المسير إلى الشام، فامتنع من ذلك.

وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطعمه في الملك لأنه هو الكبير، فحملة الطمع على الامتناع على أخيه، فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعوداً في عسكر كثير، هو معظم عساكره، وسيّره إلى الشام، وجعل المقدم على العسكر مع أخيه عز الدين محمود، ويلقب أيضاً زلفندار، وجعله المدبر للأمر، وسار سيف الدين إلى سنجار فحصرها في شهر رمضان وقتلها، وجد في القتال، وامتنع عماد الدين بها، وأحسن حفظها والذب عنها، فدام الحصار عليها، فينما هو يحاصرها أثناء الخبر بانتهزام عساكره (٤٢١/١١) الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين، فراسل حيتن أخاه عماد الدين، وصالحه على ما بيده، ورحل إلى الموصل، وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة، وخافه الناس، وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي في الصلح، فلم يستقر حال.

ذكر انهزام عسكر سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب

حلب

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين وعز الدين زلفندار إلى حلب، واجتمع معهما عساكر حلب، وساروا

الدين، فأرسل إليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح، وإنما يريد حفظ بلاده عليه، فاستحلفه جورديك على ذلك فحلف وسيّره إلى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح، وفي إطلاق شمس الدين عليّ وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن، فسار جورديك إلى حلب، واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها، فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها.

ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك

وبعلبك

لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة، فقاتله أهلها، وركب الملك الصالح، وهو صبي عمره اثنا عشرة سنة، وجمع أهل حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبة لكم وسيّره فيكم، وأنا يتيكم، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والذي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى، ولا الخلق، وقال من هذا كثيراً ويكي فأبى الناس، فبذلوا له الأموال والأنفس، وأنفقوا على القتال دونه، والمنع عن بلده، وجذّوا في القتال، وفيهم شجاعة، قد ألفوا الحرب واعتادوها، (٤١٩/١١) حيث كان الفرنج بالقرب منهم، فكانوا يخرجون ويقاثلون صلاح الدين عند جبل حوشن، فلا يقدر على القرب من البلد.

وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية، ويذل له أمراً كثيرة ليقتلوا صلاح الدين، فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره، فلما وصلوا رأهم أمير اسمه خمارتكين، صاحب قلعة أبي قبيس، فعرفهم لأنه جارهم في البلاد، كثير الاجتماع بهم والقتال لهم، فلما رأهم قال لهم: ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم؟ فجرحوه جراحات مثخنة، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقنتله، فقتل دونه، وقاتل الباقون من الإسماعيلية، فقتلوا جماعة ثم قتلوا.

وبقي صلاح الدين محاصراً لحلب إلى سلخ جمادى الآخرة، ورحل عنها مستهزئ رجب، وسبب رحيله أن القمص ريمند الصنجيلي، صاحب طرابلس، كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وبقي في الحبس إلى هذه السنة، فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير، فلما وصل إلى بلده اجتمع الفرنج عليه يهتئون بالسلامة، وكان عظيماً فيهم من أعيان شياطينهم، فاتفق أن مري ملك الفرنج، لعنه الله، مات أول هذه السنة، وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأياً ومكرًا ومكيده، فلما توفي خلف ابنًا مجذوماً عاجزاً

ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز

في هذه السنة ملك البهلوان بن إيلدكز مدينة تبريز، وهي من جملة بلاد أفسقر الأحمديلي، وسبب ذلك أن البهلوان سار إلى مراغة وحصرها، وكان ابن أفسقر الأحمديلي ضاجها قد مات، ووصى بالملك لابنه فللك الدين، فقصده البهلوان، ونزل على قلعة روين دز وحصرها فامتعت عليه، فتركها، وحصر مراغة، وسير أخاه قزل أرسلان في جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضاً.

وكان البهلوان يقاتل أهل مراغة، فظفروا بطائفة من عسكره، فخلع عليهم صدر الدين قاضي مراغة، وأطلقهم، فحسن ذلك عند البهلوان، وشرع القاضي في الصلح على أن يسلموا تبريز إلى البهلوان، فأجيب إلى ذلك، واستقرت القاعدة عليه، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، وتسلم البهلوان تبريز وأعطاه أخاه قزل أرسلان، ورحل عن مراغة.

ذكر وفاة شملة

في هذه السنة مات شملة التركماني، صاحب خوزستان، وكان قد كثرت ولايته، وعظم شأنه، وبني عدة حصون، وبقي كذلك زيادة على عشرين سنة. (٤٢٤/١١)

وكان سبب موته أنه قصد بعض التركمان، فعملوا بذلك، فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن إيلدكز، صاحب عراق العجم، فسير إليهم جيشاً، فاقتتلوا فأصاب شملة سهم، ثم أخذ أسيراً وولده وابن أخيه، وتوفي بعد يومين، وهو من التركمان الأقسرية، ولمّا مات ملك ابنه بعده.

ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد

في هذه السنة، في شوال، سير علاء الدين تنماش، وهو من أكابر الأمراء ببغداد، وهو ابن أحمد قطب الدين قايماز زوج أخته، عسكراً إلى الفرافنة فنهبوا أهله، وبالفراقة في أذلهم فجاء منهم جماعة إلى بغداد واستغاثوا، فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتنماش، وتحكّما عليه، فقصدا جاسع القنصر واستغاثوا فيه، ومنعوا الخطيب، وفاتت الصلاة أكثر الناس، فأنكر الخليفة ما جرى، فلم يلتفت قطب الدين وتنماش إلى ما فعل، واحرقوه، فلا حيزم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء وازدراؤهم أهله.

فلما كان خامس ذي القعدة قصد قطب الدين قايماز أدنى ظهير الدين بن العطار، وكان صاحب المخزن، وهو خاص الخليفة، وله به عناية تامة، فلم يرع الخليفة في صاحبه، فأرسل إليه يستدعيه ليحضر عنده، فهرب فأحرق قطب الدين داره، وحالف الأمراء على المساعدة والمظاهرة له، وجمعهم، وقصد دار الخليفة لعلمه أن ابن العطار فيها، فلما علم الخليفة ذلك رآه الغلبة فخذ إلى

كلهم إلى صلاح الدين ليخاريوه، فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين ييذل تسليم حمص وحماة، وأن يقر بيده مدينة دمشق، وهو فيها نائب الملك الصالح، فلم يجب إلى ذلك، وقال: لا يبد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر.

وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب، فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى ما بذل سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار، فالتقوا تاسع عشر رمضان، بالقرب من مدينة حماة، بموضع يقال له قرون حماة، وكان زلفندار جاهلاً بالحروب والقتال، غير عالم بتدبيرها، مع جبن فيه، إلا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من سيف الدين، فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي، وانهمزوا لا يلوي أخ على أخيه، وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه، فلما رأى صلاح الدين ثباته قال: إما أن هذا أشجع الناس، أو أنه لا يعرف الحرب. وأمر أصحابه بالحملة عليه، فحملوا (٤٢٢/١١) فأزالوه عن موقفه، وتمت الهزيمة عليهم.

وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم، وغنموا منهم غنائم كثيرة، وآلة، وسلاحاً عظيماً، ودوابً فارغة، وعادوا بعد طول البيكار مستريحين، وعاد المنهزمون إلى حلب، وتبعهم صلاح الدين، فنازلهم بها محاصراً لها ومقاتلاً، وقطع حيتل خطبة الملك الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكة في بلاده، ودام محاصراً لهم. فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها، فأجابهم إلى ذلك، وانتظم الصلح ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة، ووصلت إليه بها خلع الخليفة مع رسوله.

ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين

في هذه السنة، في العشر الأول من شوال، ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام، وكان [صاحبها] فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وهو من أكابر الأمراء النورية، فلما رأى قوة صلاح الدين نزل منها، واتصل بصلاح الدين، وظن أنه يكرمه ويشاركه في ملكه، ولا يفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين، فلم ير من ذلك شيئاً، ففارقته، ولم يكن بقي له من إقطاعه الذي كان له في الأيام النورية غير بعرين ونائبه بها، فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب، عاد إلى حماة وسار منها إلى بعرين، وهي قرية منها، فحصرها ونصب عليها المجانيق، وأدام قتالها، فسلمها إليها بالأمان، (٤٢٣/١١) فلما ملكها عاد إلى حماة، فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، وأقطع حمص ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه، وسار منها إلى دمشق فدخلها وأواخر شوال من السنة.

هذه الأبيات:

إِنْ كُنْتُ مُعْتَبَرًا بِمُلْكِي زَانِلٍ وَحَوَادِثُ عَقْبِي إِدْلَاجٌ
فَدَعِ الْعَجَائِبَ وَالتَّوَارِيخَ الْأُولَى وَانْظُرْ إِلَى قَائِمَا زِيَادِ بْنِ قَمَاجٍ
عَطَفَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمَا فَسَقَا مِمَّنْ كَانِيهِ صِرْفًا بِغَيْرِ مَزَاجٍ
فَتَبَكَّوْا بَعْدَ الْقُصُورِ وَظَلَّهَا وَتَعَمَّيْهَا بِمَهَايِهِ وَفَجَّاجٍ
فَلِيَحْفَرِ الْبَاقُونَ مِنْ أَمْثَالِهَا نَكَبَاتُ دَعْرِ خِلَانِي يَزْعَاجٍ
وكان قطب الدين كريماً، طَلَّقَ الوجه، مُحِبًّا لِلْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ.
كثير البَذْلِ لِلْمَالِ. والذي كان جرى منه إنما كان يحمله عليه تنامش
ولم يكن بإرادته.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن، واسمه يحيى
بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن جعفر أبو الفضل، وحجَّ
بالتَّاسِ عِدَّةَ سَنِينَ، وإليه الحكم في الطريق، وناب عن الوزارة،
وتنقل في هذه الأعمال أكثر من عشرين سنة، وكان يحفظ القرآن.
(٤٢٧/١١)

سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين

في هذه السنة، عاشر شوال، كان المصاف بين سيف الدين
غازي بن مردود وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب بطل السلطان،
على مرحلة من حلب، على طريق حماة، وانهزم سيف الدين.

وسب ذلك أنه لما انهزم أخوه عز الدين مسعود من صلاح
الدين في العام الماضي وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين
صاحب سنجار، عاد [إلى] الموصل، وجمع عساكره، وفرق فيهم
الأموال، واستنجد صاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين وغيرهما،
فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس، فسار
إلى نصيبين في ربيع الأول من هذه السنة، وأقام بها فاطال المقام
حتى انقضى الشتاء وهو مقيم، فضجر العسكر ونفذت نفقاتهم،
وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر لما
يتوقَّعون، إن ظفروا، من طول المقام بالشام بعد هذه المدة.

ثم سار إلى حلب فنزل إليه سعد الدين كمشكين الخادم،
مدير دولة الملك الصالح، ومعه عساكر حلب، وكان صلاح الدين
في قلعة من العساكر لأنه كان صالح الفرنج في المحرم من هذه
السنة، على ما ذكره إن شاء الله، (٤٢٨/١١) وقد سير عساكره إلى
مصر، فأرسل يستدعيها، فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه، لكنهم
تريثوا وتأخروا عنه، فجاءته عساكره، فسار من دمشق إلى ناحية
حلب ليلقى سيف الدين، فالتقى العسكران بطل السلطان، وكان

سطح داره وظهر للعمامة وأمر خادماً فصاح واستنثا، وقال للعمامة،
مال قطب الدين لكم ودمه لي. فقصده الخلق كلهم دار قطب الدين
(٤٢٥/١١) للنهب، فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع وغلابة العمامة،
فهرب من داره من باب فتحه في ظهرها، لكثرة الخلق على بابها،
وخرج من بغداد ونهبت داره، وأخذ منها من الأموال ما لا يحصى ولا
يُحصى، فرؤي فيها من التمتع ما ليس لأحد مثله، فمن جملة ذلك
أن بيت الطهارة الذي كان له فيه سلسلة ذهب من السقف إلى
محاذي وجه القاعد على الخلا، وفي أسفلها كرة كبيرة ذهب،
مخرمة، محشوة بالمسك والعنبر ليشمها إذا قعد، فتشبت بها إنسان
وقطعها وأخذها، ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدة أكياس مملوءة
دنانير.

وكان الأقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به
الناس، فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس قصد المطبخ فأخذ منه
قِدْرًا مملوءة طيخاً، وألقى الأكياس فيها وحملها على رأسه وخرج
بها، والناس يضحكون منه، فيقول: أنا أريد شيئاً أطعمه عيالي
اليوم. فتجا بما معه فاستغنى بعد ذلك، فظهر المال، ولم يبق من
نعمه قطب الدين في ساعة واحدة قليل ولا كثير.

ولما خرج من البلد تبعه تنامش وجماعة من الأمراء، فنهبت
دورهم أيضاً، وأخذت أموالهم وأحرق أكثرها، وسار قطب الدين
إلى الجلة ومعه الأمراء، فسير الخليفة إليه صدر الدين شيخ
الشيوخ، فلم يزل به يخذعه حتى سار عن الجلة إلى الموصل على
البر، فلحقه ومن معه عطش عظيم فهلك أكثرهم من شدة الحر
والعطش، ومات قطب الدين قبل وصوله إلى الموصل فحمل
ودفن بظاهر باب العمادي وقبره مشهور هناك.

وهذا عاقبة عصيان الخليفة، وكفران الإحسان، والظلم، وسوء
التدبير، فإنه ظلم أهل العراق، وكفر إحسان الخليفة الذي كان قد
غمره، ولو أقام بالجلة وجمع العساكر وعادو بغداد لاستولى على
الأموار كلها كما كان، فإن عامة بغداد كانوا يريدونه، وكان قوي
بالاستيلاء على البلاد فأطاعوه.

ولما مات في ذي الحجة وصل علاء الدين تنامش إلى
الموصل، فأقام (٤٢٦/١١) مذبذبة، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى
بغداد، فعاد إليها، وبقي بها إلى أن مات بغير إقطاع، وكان آخر
أمرهم.

ولما أقام قطب الدين بالجلة امتنع الحاج من السفرة فتأخروا
إلى أن رحل عنها، فدخلوا من الكوفة إلى عَرَقات في ثمانية عشر
يوماً، وهذا ما لم يسمع بمثله، وفات كثيراً منهم الحج.

ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة علي عضد الدين الوزير
وأعيد [إلى] الوزارة. قال بعض الشعراء في قطب الدين وتنامش

سيف الدين قد سبقه، فلما وصل صلاح الدين كان وضو له العصر، وقد تمب هو وأصحابه وعطشوا، فالتقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة، فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال، فقال زلفندار: ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة، غداً بكرة نأخذهم كلهم. فترك القتال إلى الغد.

فلما أصبحوا اصطفتوا للقتال، فجهل زلفندار، وهو المديون للعسكر السيفي، أعلامهم في هدة حصن الأرض، لا يراها إلا من هو بالقرب منها، فلما لم يرها الناس ظنوا أن السلطان قد انهزم، فلم يثبتوا وانهزموا، ولم يلوأخ على أخيه، ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد، ووصل سيف الدين إلى حلب، وترك بها أخاه عز الدين مسعوداً في جمع من العسكر، ولم يقم هو، وعبر الفرات، وسار إلى الموصل، وهو لا يصدق أنه ينجو.

وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل، فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز، في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عفر الحميدية، فقال له مجاهد الدين: أرايت إن ملكك الموصل عليك، أتقدر أن تمتنع ببعض أبراج الفصيل؟ فقال: لا. فقال: برج في الفصيل خير من العفر. وما زال الملوك ينهزمون ويعاودون الحرب، وأتفق هو والوزير على شدة أزره، وتقوية قلبه، فثبت ثم أعرض عن زلفندار واستعمل مكانه على إمارة الجيوش مجاهد الدين قايماز، على ما تذكره إن شاء الله. (٤٢٩/١١)

وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الواقعة عشرين ألف فارس، ولم يكن كذلك، إنما كان على التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس أقل من خمسمائة، فإني وقت على جريدة العرض، وترتيب العسكر للمصاف مينة وميسرة وقلبا، وجاليشية، وغير ذلك، وكان المثنوي لذلك الكاتب له أخي مجد الدين أبا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم، رحمه الله، وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه بأنه هزم ستة آلاف عشرين ألفاً، والحق أحق أن يُسمع، ثم يا ليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس؟

ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين

لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا إلى حلب عتاد سيف الدين إلى الموصل كما ذكرناه، وترك بحلب أخاه عز الدين مسعوداً في طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح، وأما صلاح الدين فإنه لما استولى على أقاليم العسكر الموصلية هو وعسكره،

ذكر حصر صلاح الدين لمدينة حلب والصلح عليها

لما ملك صلاح الدين قلعة إعرار رحل إلى حلب فنانزلها منتصف ذي الحجة وحصرها، وبها الملك الصالح وممن معه من العساكر، وقد قام العامة في حفظ البلد القيام المرضي، بحيث إنهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد، لأنه كان إذا تقدم للقتال خسر هو وأصحابه، وكثر الجراح فيهم والقتل. وكانوا يخرجون ويقاطونه ظاهر البلد، فترك القتال وأجلد المطاول.

وانقضت سنة إحدى وسبعين ودخلت سنة اثنين وسبعين،

وتمسكتُ به، فقوى قلبي، وكان عالماً بالنجوم أيضاً، وقال لي: الآن ترى هذا جميعه، فانصرف سريعا.

وفيها ولي الخليفة المستضيء بأمر الله حجابة الباب أبا طالب نصر بن علي الناقذ، وكان يلقب في صغره قثراً، فصاروا يصيحون به ذلك إذا خرج، فأمر الخليفة أن يركب معه جماعة من الأتراك ويمنعوا الناس من ذلك، فامتنعوا، فلما كان قبل العيد خلع ليركب في الموكب، فاشتري جماعة من أهل بغداد من القنابر شيئا كثيرا، وعزموا على إرسالها في الموكب إذا رآوا ابن الناقذ، فأنتهي ذلك إلى الخليفة، وقيل له يصير الموكب ضحكة، فعزله وولي ابن المعوج.

وفيها، في ذي الحجة، يوم العيد، وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبعض الأتراك بسبب أخذ جمال النحر، فقتل بينهم جماعة ونهب شيء كثير من الأموال، ففرق الخليفة أموالاً جليلاً فيمن نهب ماله.

وفيها زلزلت بلاد العجم من حد العراق إلى ما وراء الرمي، وهلك فيها خلق كثير، وتهدمت دور كثيرة، وأكثر ذلك كان بالرمي وقزوين. (٤٣٤/١١)

وفيها، في ربيع الآخر، استوزر سيف الدين غازي، صاحب الموصل، جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين محمد بن علي، وكان أبوه جمال الدين وزير البيست الأتابكي، وقد تقدمت أخباره، وهو المشهور بالجدود والإفضال. ولما ولي جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة، ومعرفة تامة بقوانين الوزارة، وله مكاتبات وعهود حسنة مدونة مشهورة، وكان جواداً فاضلاً خيراً، عمره، لما ولي الوزارة، خمس وعشرون سنة.

وفيها، في ذي الحجة، استتاب سيف الدين أيضاً عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز، وفوض إليه الأمور، وكان قبل ذلك [فوض] إليه الأمير بمدينة [زبل] وأعمالها، وكان، رحمه الله، من صالحى الأمراء وأرباب المعروف، بنى كثيراً من الجوامع والخانات في الطرق، والقناطر على الأنهار والربط وغير ذلك من أبواب البر، وكان دائم الصدقة، كثير الإحسان، عادل السيرة، رحمه الله.

وفيها قبض الخليفة على عماد الدين صندل المقتضوي، أستاذ الدار، ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن صاحب.

وفيها، في رمضان، قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذي ملك اليمن إلى دمشق لما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها، حن إلى الوطن والأتراب، ففارق اليمن وسار إلى الشام، وأرسل من الطريق إلى أخيه يعلمه بوصوله. وكتب في الكتاب شعراً من قول

وهو محاصر لها، ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح في العشرين في المحرم، فوفقت الإجابة إليه من الجانبين، لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار، فإنهم ربما ضعفوا، وصلاح الدين رأى أنه لا يقدر على الدنو من البلد، ولا على قتال من به، فاجاب أيضاً، وتقررت القاعدة في الصلح للجميع، للملك الصالح، ولسيف الدين صاحب الموصل، ولصاحب الحصن، ولصاحب ماردين، وتحالفوا واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر.

فلما انفصل الأمر وتم الصلح رحل صلاح الدين عن حلب بعد أن أعاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح، فإنه أخرج [إلى] صلاح الدين أختاً له صغيرة طفلة، فآكرمها صلاح الدين وحمل لها شيئاً كثيراً، وقال لها: ما تريدين؟ قالت: أريد قلعة إعزاز. وكانوا قد علموها ذلك، فسلمها إليهم، ورحل إلى بلد الإسماعيلية. (٤٣٢/١١)

ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره

في هذه السنة، في ذي الحجة، كان بمكة حرب شديدة بين أمير الحاج طاشكين وبين الأمير مكثر أمير مكة، وكان الخليفة قد أمر أمير الحاج بعزل مكثر وإقامة أخيه داود مقامه.

وسبب ذلك أنه كان قد بنى قلعة على جبل أبي قيس، فلما سار الحاج عن عرفات لم يبيتوا بالمزدلفة، وإنما اجتازوا بها، فلم يرموا الجمار، إنما بعضهم رمى بعضها وهو سائر، ونزلوا الأبطح فخرج إليهم ناس من أهل مكة فحاربوهم، وقتل من الفريقين جماعة، وصاح الناس: الغزاة إلى مكة، فهجموا عليها، فهرب أمير مكة مكثر، فصعد إلى القلعة التي بناها على جبل أبي قيس فحصروه بها، ففارقها وسار عن مكة، وولي أخوه داود الإمارة، ونهب كثير من الحاج مكة وأخذوا من أموال التجار المقيمين بها شيئاً كثيراً، وأحرقوا دوراً كثيرة.

ومن أعجب ما جرى فيها أن إنساناً زرقاً ضرب داراً بقارورة فقط فأحرقها، وكانت لأيتام، فأحرق ما فيها، ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكاناً آخر، فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها، فاحترق هو بها، فبقي ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات. (٤٣٣/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في شهر رمضان، انكسفت الشمس جميعها، وأظلمت الأرض حتى بقي الوقت كأنه ليل مظلم، وظهرت الكواكب، وكان ذلك ضحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه، وكانت جنتل صبيّاً يظهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب، فلما رأيت ذلك خفت خوفاً شديداً،

ابن المنجّم المصري :

الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي، صاحب حماة وهو خال صلاح الدين، يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم، ويقول له: إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه. فحضر شهاب عند صلاح الدين وشفع فيهم وسأل الصلح عنهم، فاجابه إلى ذلك، وصالحهم، ورحل عنهم.

والى صلاح الدين أشكر أنسى
جزعاً بعد البكر منه ولم أكن
فلأركن إليه من غزائمي
ومن بعد مضى الجوانح فوئع
لولا هواه لبعد دار اجزع
ويخب بي ركب الغرام ويوبع
(٤٣٥/١١)

وكان عسكره قد ملأ من طول البيكار، وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل، ونهب بلد الإسماعيلية، فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة، فأذن لهم، وسار هو إلى مصر مع عسكرها، لأنه كان قد طال عهده عنها، ولم يمكنه المضى إليها فيما تقدم خوفاً على بلاد الشام، فلما انهزم سيف الدين، وحصر هو حلب، وملك بلادها، واصطلموها، أمن على البلاد، فسار إلى مصر، فلما وصل إليها أمر ببناء سور على مصر في الشعاري والغياض والقاهرة (٤٣٧/١١) والقلعة التي على جبل المقطم، دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمي، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين.

ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدّم صاحب بعلبك، فأتاه خير أن جمعاً من الفرنج قد قصدوا البقاع من أعمال بعلبك، وأغاروا عليها، فسار إليهم، وكمين لهم في الشعاري والغياض، وأوقع بهم، وقتل فيهم وأكثر، وأسر نحو مائتي رجل منهم وسيرهم إلى صلاح الدين.

وكان شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين، وهو الذي ملك اليمن، قد وصل إلى دمشق، كما ذكرناه، وهو فيها، فسمع أن طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم إلى أعمال دمشق، فسار إليهم ولقيهم [عند عين الجر في تلك المروج، فلم يثبت لهم، وانهزم عنهم، فظفروا] بجمع من أصحابه، فأسروهم، منهم سيف الدين أبو بكر بن السلا، وهو من أعيان الجند الدمشقيين، واجترأ الفرنج بعدها، واتسبطوا في تلك الولاية، وجبروا الكسر الذي ناله منهم ابن المقدّم.

ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده إلى طاعته

في هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن بزان، صاحب شهرزور، على سيف الدين غازي وكان في طاعته وتحت حكمه. (٤٣٨/١١)

وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايصاز كان متولياً مدينة إربل، وكان بينه وبين ابن بزان عداوة محكمة، فلما استتاب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل خاف ابن بزان أن يناله من أذى، فآظفر الامتناع من النزول إلى الخدمة، فأرسل إليه جلال الدين

ولأقطعن من النهار هواجرأ
ولاسرين الليل لا ينري به
وأقتنن إلى قلبني مخبرأ
حتى أشاهد منه أسعد طلعة
قلب النهار بحرما يتقطع
طيف الخيال ولا يروق للنع
أنني بجنمي من قريب أشبع
من أفتها صبح السعادة يطلع

وفي هذه السنة، في المحرم، برز صلاح الدين من دمشق، وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام، وبكسره عسكر الموصل، فخافه الفرنج وغيرهم، وعزم على دخول بلدهم ونهبه والإغارة عليه، فأرسلوا إليه يطلبون الهدنة معه، فأجابهم إليها وصالحهم، فأمر العساكر المصرية بالعود إلى مصر والاستراحة إلى أن يعاود طلبهم، وشرط عليهم أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون، فساروا إليها وأقاموا بها إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما نذكره.

وفيها مات أبو الحسن علي بن عساكر البطاحي المقرئ، وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه، وكان نحوياً جيداً.

وفي ذي الحجة منها توفي أبو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز، سمع الحديث ورواه، وله شعر جيد، فمن ذلك أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبة وضمنها شعراً، فأجابه :

يا من أيايدي نفسي من يئذها
وليس يحصي مداها من لها يصف
عجزت عن شكر ما أوليت من كرم
وصرت عبداً ولي في ذلك الشرق
أهنت منظوم شعر كلّة دود
فكلّ ناطم عقيدونته يصف
إذا أيت بيت نبك كان لنا
قصرأ ودر الثعالب فرقة شرق
وان أيت أنا يتنا يافضه
أيت لكن يتسوقه بكف
ما كنت منه ولا من أهله أبداً
وأنما حين أنسومنه أقطف

وقيل كانت وفاته سنة اثنين وسبعين وخمسمائة وهو الصحيح. (٤٣٦/١١)

سنة اثنين وسبعين وخمسمائة

ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيلية

لما رحل صلاح الدين من حلب، على ما ذكرناه قبل، قصد بلاد الإسماعيلية في المحرم ليقاثلهم بما فعلوه به من الوثوب عليه وإرادة قتله، فنهب بلدهم وخزبه وأحرقه، وحصر قلعة مصياب، وهي أعظم حصونهم، وأحصن قلاعهم، فنصب عليها المجانيق، وضيق على من بها، ولم يزل كذلك. فأرسل سناناً مقدّم

إبراهيم ترساً وجعله على رأسه، وحصل في الدرجة، وصعد وقاتل القوم على رأس الممرق، حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة وبقي منهم رجل ألقى نفسه من السطح، فنزل إلى أسفل الجبل فتقطع. (٤٤٠/١١) فلما رأى عيسى ما حلّ بأصحابه عاد خائياً ممّا أمله، واستقرّ الأمير إبراهيم في قلعة على حاله.

ذكر نهب البندنجين

في هذه السنة وصل الملك الذي بخوزستان عند شملة، وهو ابن ملكشاه ابن محمود إلى البندنجين، فخرّبها ونهبها وفتك في الناس، وسبى حريمهم، وفعل كلّ قبيح.

ووصل الخبر إلى بغداد فخرج الوزير عضد الدين وعرض العسكر، ووصل عسكر الجلة واسط مع طاشكنين أمير الحاج وغرغلي، وساروا نحو العدو، فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد، وكان معه من التركمان جمع كثير، فنهبهم عسكر بغداد، ورجعوا من غير أمر بالعود، فأنكر عليهم ذلك، وأمروا بالعود إلى مواقعهم، فعادوا لأوائل شهر رمضان، وقد رجح الملك فنهب من البندنجين ما كان سلم من النهب الأول، ووقعت بينهم وبين الملك وقعة، ثم افترقوا، فمضى الملك وفارق ولاية العراق وعاد عسكر بغداد.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الأولى، أقيمت الجمعة في الجامع الذي بناه فخر الدولة بن المطلب بقصر المأمون غربى بغداد.

وفيه أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعي، رضي الله عنه، (٤٤١/١١) بمصر، وعمل بالقاهرة بيمارستان، ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة.

وفيهما رأيت بالموصل خروفين بطن واحد ورأسين ورتينين وظهريين وثمانين قوائم كأنهما خروفان بطن واحد، وجه أحدهما إلى وجه الآخر، وهذا من المعجائب.

وفيهما انقضّ كوكب أضاءت له الأرض إضاءة كثيرة، وسمع له صوت عظيم وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب.

وفيهما توفي تاج الدين أبو علي الحسن بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة.

وفيهما، في المحرم، توفي القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله ابن القاسم الشهرزوري، قاضي دمشق وجميع الشام، وإليه الوقوف بها والديوان، وكان جواداً فاضلاً رئيساً ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول، رحمه الله ورضي عنه. (٤٤٢/١١)

وزير سيف الدين كتاباً يأمره بمعاودة الطاعة، ويحذّره عاقبة المخالفة، وهو من أحسن الكتب وأبلغها في هذا المعنى، ولولا خوف التطويل للذكره، فلْيُطلب من مكاتباته. فلما وصل إليه الكتاب والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل وزال الخلف.

ذكر فرج بعد شدة يعلّق بالتاريخ

بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمتع المعاقل اسمه فنك، وهو على رأس جبل عال، وهو للأكراد البشوية، له بأيديهم نحو ثلاثمائة سنة، وكان صاحبه هذه السنة أمير منهم اسمه إبراهيم، وله أخ اسمه عيسى، قد خرج منه، وهو لا يزال يسعى في أخذه من أخيه إبراهيم، فأطاعه بعض بطانة إبراهيم، وفتح باب السرّ ليلاً، وأصعد منه إلى رأس القلعة ثقباً وعشرين رجلاً من أصحاب عيسى، فقبضوا على إبراهيم ومن عنده، ولم يكن عنده إلا نفر من خواصه، وهذه قلعة على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ارتفاعاً كثيراً. فلما قبضوا إبراهيم جعلوه في خزانة، وضربه بعضهم بسيف في يده على عاتقه، فلم يصنع شيئاً، فلما جعل في الخزانة وكلّ به رجلان وصعد الباقون إلى سطح القلعة، ولا يشكون أنّ القلعة لهم لا مانع عنها. (٤٣٩/١١)

ووصل من الغد بكرة الأمير عيسى لتسلم القلعة، وبينهما دجلة، وكانت امرأة الأمير إبراهيم في خزانة أخرى، وفيها شباك حديد ثقيل يشرف على القلعة، فجذبت بيدها فانقلع، وجند زوجها في القلعة لا يقدرّون على شيء، فلما قلعت الشباك أرادت أن تدلي جبلاً ترتفع به الرجال إليها، فلم يكن عندها غير ثياب خام، فوصلت بعضها ببعض ودلتها إلى القلعة، وشدتّ طرفيها عندها في عود فأصعدت إليها عشرة رجال، ولم يكن يراهم الذين على السطح.

ورأى الأمير عيسى، وهو على جانب دجلة، الرجال يصعدون فصاح هو ومن معه إلى أولئك الذين على السطح ليحذروا، وكانوا كلّمًا صاحوا صاح أهل القلعة لتختلف الأصوات فلا يفهم الذين على السطح، فينزلون ويمنعون من ذلك، فلما اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها إلى زوجها قدح شراب وأمرته أن يقرب منه كأنه يسقيه الشراب ويُمرّقه الحال، ففعل ذلك، وجلس بين يديه ليسقيه، وعرفته الحال، فقال: ازدادوا من الرجال؛ فأصعدت عشرين رجلاً، وخرجوا من عندها، فمدّ إبراهيم يده إلى الرجلين الموكّلين به، فأخذ شعورهما، وأمر الخادم بقتلهما، وكان عنده فقتلهما بسلاحهما، فخرج واجتمع بأصحابه وأرادوا فتح القلعة ليصعد إليه أصحابه من القلعة، فلم يجد المفاتيح، وكانت مع أولئك الرجال الذين على السطح، فاضطروا إلى الصعود إلى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى، فعلموا الحال، فجاؤوا ووقفوا على رأس الممرق فلم يقدر أحد [أن] يصعد، فأخذ بعض أصحاب

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

ذكر نهزام صلاح الدين بالرملة

في هذه السنة، أواخر جمادى الأولى، سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر إلى ساحل الشام لقصده غزاة بلاد الفرنج، وجمع معه عساكر كثيرة وجنوداً غزيرة، فلم يزالوا يجسدون السير حتى وصلوا إلى عسقلان في الرابع والعشرين منه، فهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا في تلك الأعمال مُغيّرين. فلَمَّا رأوا أنَّ الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين، طمعوا، وانبسطوا، وساروا في الأرض آمنين مطمئنين، ووصل صلاح الدين إلى الرملة، عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره، فوصل إلى نهر، فازدحم الناس للعبور، فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم باطلاها وباطالها، وكان مع صلاح الدين بعض العسكر، لأنَّ أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة، فلَمَّا رآهم وقف لهم فيمن معه، وتقدّم بين يديه تقي الدين عمر بن محمد ابن أخي صلاح الدين، فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه، فقتل من أصحابه جماعة، وكذلك من الفرنج، وكان لتقي الدين ولد اسمه أحمد، وهو من أحسن الشباب أوّل ما تكاملت لحيته، فأمره أبوه بالحملة عليهم، فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالماً قد أثر فيهم أثراً كثيراً، فأمره بالعودة إليهم ثانية، فحمل عليهم فقتل شهيداً، ومضى حميداً، رحمه الله ورضي عنه. (٤٤٣/١١)

وكان أشدّ الناس قتالاً ذلك اليوم الفقيه عيسى، رحمه الله، وتمّت الهزيمة على المسلمين، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل إليه، فقتل الفرنجي بين يديه، وتكاثر الفرنج عليه، فمضى منهزماً، يسير قليلاً ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل، فسلك البرية إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة وقلّ عليهم القوت والماء، وهلك كثير من دوابّ العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير.

وأما العسكر الذي كانوا دخلوا بلاد الفرنج في الغلابة، فإنّ أكثرهم ذهب ما بين قتل وأسير. وكان من جملة من أسره الفقيه عيسى الهكاري، وهو من أعيان الأسدية، وكان جمع العلم والدين والشجاعة، وأسر أيضاً أخوه الظهير، وكانا قد سارا منهزمين فضلاً الطريق، فأخذا ومعهما جماعة من أصحابهما، ويقوا سنين في الأسر، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى.

ووصل صلاح الدين إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة، ورأيت كتاباً كتبه صلاح الدين بخط يده إلى أخيه شمس الدولة تورانشاه وهو بدمشق، يذكر الواقعة، وفي أوّلها:

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطْبَى يَخْطُرُ بَسْلاً وَقَدْ نَهَلْتُ مِنْهَا الْمُتَقَفَّةَ السُّمُرَ
ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك هير مرة، وما أنجأنا الله
سيخانه منه إلا لأمر يريده سيخانه:

وما نبئت إلا وفي نفسها امرٌ (٤٤٤/١١)

ذكر حصر الفرنج مدينة حماة

في هذه السنة، في جمادى الأولى، حصر الفرنج أيضاً مدينة حماة. وسبب ذلك أنه وصل من البحر إلى الساحل الشامي كند كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم، فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزماً، فاغتمت خلج البلاد، لأنّ شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين، وليس عنده كثير من العسكر، وكان أيضاً كثير الانهماك في اللذات مائلاً إلى الراحة، فجمع ذلك الكند الفرنجي من بالشام من الفرنج، وفرق فيهم الأموال، وسار إلى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين، وهو مريض شديد المرض، وكان طائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها، فدخلوا إليها وأعانوا من بها.

وقاتل الفرنج على البلد قتالاً شديداً وهجموا بعض الأيام على طرف منه وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً، فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية واشتدّ القتال، وعظم الخطب على الفريقين، واستقلّ المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال، فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره، ودام القتال ظاهر البلد ليلاً ونهاراً، وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد، وطمعوا فيهم، وأكثروا فيهم القتل، فرحل الفرنج حيثلو خائبين، وكفى الله المسلمين شرهم، فساروا إلى حلزم فحصروها، وكان مقامهم على حماة أربعة أيام، ولَمَّا رغل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمي، وكان له ابن من أحسن الشباب مات قبله بثلاثة أيام. (٤٤٥/١١)

ذكر قتل كمشكين وحصر الفرنج حارم

في هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كمشكين، وكان المتولّي لأمر دولته والحاكم فيها. وسبب قبضه أنه كان بحلب إنسان من أعيان أهلها يقال له أبو صالح بن العجمي، وكان مقدماً عند نور الدين محمود، فلَمَّا مات نور الدين تقدّم أيضاً في دولة ولده الملك الصالح، وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكّن لكثرة أتباعه بحلب ولأنّ كل من كان يحسد كمشكين انضمّ إلى صالح، وقبوا جنانته، وكثروا سواده، وكان عنده إقدام وجزأة فصار واحد الدولة بحلب، ومن يصدر الجماعة عن رأيه وأمره.

فبينما هو في بعض الأيام في الجامع وثب به الباطنية فقتلوه

ومضى شهيداً، وتمكّن بعده سعد الدين وقوي حاله، فلمّا قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين، وقالوا: هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه، وذكروا ذلك للملك الصالح، ونسبوه إلى العجز، وأنه ليس له حكم، وأنّ سعد الدين قد تحكّم عليه واحتقره واستصغره، وقتل وزيره، ولم يزلوا به حتى قبض عليه.

وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه آباها الملك الصالح، فامتنع من بها بعد قبضه، وتحصّنوا فيها، فسّير سعد الدين إليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح، فأمرهم بذلك، فامتنعوا، فعذب كمشكين وأصحابه يروونه ولا يرحمونهم، فمات في العذاب، وأصر أصحابه على الامتناع والعصيان.

فلما رأى الفرنج ذلك ساروا إلى حارم من حماة في جمادى الأولى، على ما نذكره، ظناً منهم أنهم لا ناصر لهم، وأنّ الملك الصالح صبيّ قليل العسكر، (٤٤٦/١١) وصلاح الدين بمصر، فاغتنموا هذه الفرصة ونالوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر، ونصبوا عليها المجانيق والسلاط، فلم يزلوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً، وقال لهم: إنّ صلاح الدين واصل إلى الشام، وربّما سلّم القلعة من بها إليه، فأجابوه حيثشوا إلى الرحيل عنها، فلمّا رحلوا عنها سّير إليها الملك الصالح جيشاً فحاصروها، وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج، وصاروا كأنهم طلائع، وكان قد قتل من أهلها وجُرح كثير، فسّلموا القلعة إلى الملك الصالح، فاستتاب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سرخك.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السّنة، في المحرم، خطّب للسلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل ابن محمد بن ملكشاه المقيم عند إيلدكز بهمدان، وكان أبوه أرسلان قد توفي.

وفيها، سابع شوال، هبّت ببغداد ريح عظيمة، فزلزلت الأرض، واشتدّ الأمر على النّاس حتى ظنّوا أنّ القيامة قد قامت، فبقي ذلك ساعة ثمّ انجلت، وقد وقع كثير من الدور، ومات فيها جماعة كثيرة.

وفيها، رابع ذي القعدة، قتل عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة وزير الخليفة، وكان قد عزم على الحجّ فعبّر دجلة ليسير، وعبر معه أرباب مناصب، وهو في موكب عظيم، وتقدّم إلى أصحابه أن لا يمتنعوا عنه أحداً، فلمّا وصل إلى باب قطّفتا لقيه كهل فقال: أنا مظلوم. وتقدّم لسمع الوزير كلامه، فضربه بسكين في خاصرته، فصاح الوزير: قلّتي! ووقع من الدّابة، وسقطت (٤٤٧/١١) عمامته، فغطّى رأسه بكمّته، وضرب الباطني بسيف،

وكان الوزير قد رأى في المنام أنّه معانق عثمان بن [عثمان]، وحكى عنه ولده أنّه اغتسل قبل خروجه، وقال: هذا غسل الإسلام، وأنا مقتول بلا شكّ. وكان مولده في جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة، وكان أبوه أستاذ دار المقتضي لأمر الله، فلمّا مات وليّ هو مكانه، فبقي كذلك إلى أن مات المقتضي، فأقرّه المستنجد على ذلك ورفع قدره، فلمّا وليّ المستضيء استورزه، وكان حافظاً للقرآن، سمع الحديث، وله معروف كثير، وكانت داره مجمعا للعلماء، وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحجّ.

وفيها كانت فتنة ببغداد، وسببها أنّه حضر قوم من مسلمي المدائن إلى بغداد، فشكوا من يهودها، وقالوا: لنا مسجد تؤذّن فيه ونصليّ، وهو مجاور الكنيسة، فقال لنا اليهود: قد آذيتونا بكثرة الأذان. فقال المؤذّن: ما نبالي بذلك. فاختصموا، وكانت فتنة استظهر فيها اليهود، فجاء المسلمون يشكون منهم، فأمر ابن المطّار، وهو صاحب المخزن، بحبسهم، ثمّ أخرجوا، فقصّدوا جامع القصر، واستغاثوا قبل صلاة الجمعة، فخطب الخطيب الخطبة والصلاة، فعادوا يستغيثون، فأتاهم جماعة من الجند ومنعومهم، فلمّا رأى العامة ما فعل بهم غضبوا نصرته للإسلام، فاستغاثوا، وقالوا أشياء قبيحة، وقلعوا طواييق الجامع، ورجموا الجند فهربوا، ثمّ قصّد العامة دكاكين (٤٤٨/١١) المخلطين، لأنّ أكثرهم يهود، فهربوا، وأراد حاجب الباب منعهم، فرجموه فهرب منهم، وانقلب البلد، وخربوا الكنيسة التي عند دار البساسيري، وأحرقوا التوراة فاخترق اليهود، وأمر الخليفة أن تنقض الكنيسة التي بالمدائن وتجعل مسجداً، ونُصب بالرحبة أخشاب ليُصلب عليها قوم من المفسدين، فظنّها العامة نُصبت تخويفاً لهم لأجل ما فعلوا، فعلقوا عليها في الليل جرداناً ميتة، وأخرج جماعة من الحبس لصوص فضّلوا عليها.

وفيها، في شعبان، قبض سيف الدين غازي، صاحب الموصل، على وزيره جلال الدين عليّ بن جمال الدين بغير جرم ولا عجز، ولا لتقصير، بل لعجز سيف الدين، فإنّ جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنة، فقال مجاهد الدين لسيف الدين: لا يُدّ من قبض الوزير. فقبض عليه كارهاً لذلك، ثمّ شفع فيه ابن نيسان رئيس آمد لصهر بينهما، فأخرج، وسار إلى آمد فمرض بها، وعاد إلى دُنيسر، فمات سنة أربع وسبعين [وخمسمائة] وعمره سبع

وعشرون سنة، وحُمِلَ إلى مدينة النبي ﷺ فُذِفَن عند والده في الرباط الذي بناه بها.

وكان، رحمه الله، من محاسن الدنيا، جمع كرمًا، وعلمًا، ودينًا، وعفةً، وحسن نبيرة، واستحلفه سيف الدين أنه لا يمضي إلى صلاح الدين لأنه خاف أن يمضي إليه للموثة التي كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، فبلغني أن صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين.

وفيها اجتمع طائفة من الفرنج وقصدوا أعمال حمص فهبوها وغنموا. (٤٤٩/١١) وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه، صاحب حمص، وسبقهم ووقف على طريقهم، وكمن لهم، فلما وصلوا إليه خرج إليهم هو والكمين، ووضعوا السيف فيهم، فقتل أكثرهم وأسر جماعة من مقدمتهم، ومن سلم منهم لم يُقِلَّتْ إلا وهو مُتَّخِذٌ بالجراح، واسترد منهم جميع ما غنموا فردّه على أصحابه.

وفيها، في ربيع الآخر، توفي صدقة بن الحسين الحنّاد، الذي ذُيِّلَ تاريخ ابن الزغوني ببغداد.

وفيها، في جمادى الأولى، توفي محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفقيه الحنفي المعروف بالمشطّب ببغداد. (٤٥٠/١١)

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضا

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار جمع كثير من الفرنج بالشام إلى مدينة حماة، وكثر جمعهم من الفرسان والرجال طمعاً في النهب والغارة، فشنوا الغارة، ونهبوا، وخرّبوا القرى، وأخرقوا، وأسروا، وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا إليهم، وهم قليل، متوكّلين على الله تعالى، فالتقوا واقتتلوا، وصدق المسلمون القتال، فنصرهم الله تعالى، وانهزم الفرنج، وكثر القتل والأسر فيهم، واستردّوا منهم ما غنموه من السواد.

وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام في سؤال من السنة المتقدمة، وهو نازل بظاهر حمص، فحُمِلَتِ السُرُوس والأسرى والأسلاب إليه، فأمر بقتل الأسرى قتلًا.

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه

في هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين بعلبك، وكانت له قد سلّمها إليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له حيث (٤٥١/١١) سلّم إليه ابن المقدم دمشق، على ما سبق ذكره، فلم تزل يده إلى الآن. فطلب شمس

الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك، وألح عليه في طلبها لأنّ تربيته ومنشأه كان بها، وكان يحبّها، ويختارها على غيرها من البلاد، وكان الأكبر، فلم يمكن صلاح الدين مخالفته، فأمر شمس الدين بتسليمها إلى أخيه ليعوضه عنها، فلم يجب إلى ذلك، وذكره العهود التي له، وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه، فلم يصغ إليه ولجّ عليه في أخذها، وسار ابن المقدم إليها، واعتصم بها، فترجّاه إليه صلاح الدين، وحصره بها مدة، ثم رحل عنها من غير أن يأخذها، وترك عليه عسكراً يحصره، فلما طال عليه الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلمها إليه، فعوضه عنها وسلّمها، فأقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة.

ذكر الغلاء والوباء العام

في هذه السنة انقطعت الأمطار بالكليّة في سائر البلاد الشاميّة والجزيرة والبلاد العراقيّة، والديار بكرية، والموصل وبلاد الجبل، وخلاط، وغير ذلك، واشتدّ الغلاء، وكان عامًّا في سائر البلاد، فبيعت غرارة الحنطة بدمشق، وهي اثنا عشر مكرًا بالموصلي، بعشرين دينارًا صوريّة خفّاء، وكان الشعير بالموصل كلّ ثلاثة مكايي بدينار أميرى، وفي سائر البلاد ما يتناسب ذلك. (٤٥٢/١١)

واستسقى الناس في أقطار الأرض، فلم يسقوا، وتعذّرت الأقوات، وأكلت الناس الميتة وما ناسبها، ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين [وخمسمائة]، ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضًا، كثر فيه الموت، وكان مرض الناس شيئًا واحدًا، وهو السرماس، وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى، إلا أنّ بعض البلاد كان أشدّ من البعض.

ثم إنّ الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الأمطار، وأرخص الأسعار.

ومن عجيب ما رأيت أنّي قصدت رجلًا من العلماء الصالحين بالجزيرة لأسمع عليه شيئًا من حديث النبي، عليه السلام، في شهر رمضان سنة خمس وسبعين [وخمسمائة]، والناس في أشدّ ما كانوا غلاء وقنوطًا من الأمطار، وقد توسّط الربيع ولم تجيء قطرة واحدة من المطر، فبينما أنا جالس ومعي جماعة تنتظر الشيخ، إذ أقبل إنسان تركمانيّ قد أثر عليه الجوع، وكأنّه قد أخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلت من يشتري له خبزًا، فتأخّر إحضاره لعدم، وهو يبكي ويتمرّع على الأرض ويشكو الجوع، فلم يبقَ فينا إلا من بكى رحمة له وللناس، فقي الحال تغيّمت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة، فضجّ الناس واستغاثوا، ثم جاء للخيز، فأكل التركمانيّ بعضه، وأخذ الباقي ومشى واشتدّ المطر. ودام المطر من تلك الساعة.

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان

كان الفرنج قد بنوا حصناً متيناً يقارب بانياس، عند بيت يعقوب، عليه السلام، بمكان يُعرف بمخاضة الأحزان. فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس، وأقام بها، وبث الغارات على بلاد الفرنج، ثم سار إلى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر. فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج، ثم عاد عنه. فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس بل أقام بها وخيله تغير على بلاد العدو.

وأرسل جماعة من عسكره مع جالي الميرة، فلم تشعر إلا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم، فأرسلوا إلى صلاح الدين يُعرفونه الخبر [فسار] في العساكر مجدداً [حتى] وافاهم وهم في القتال، فقاتل الفرنج قتالاً شديداً، وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقعهم، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وهزم المشركين، وقُتل منهم مقتلة كثيرة، ونجا ملكهم فريداً وأسر منهم كثير منهم ابن بيزران صاحب الرملة ونابلس، وهم أعظم الفرنج محلاً بعد الملك، وأسروا أيضاً أخا صاحب جبيل، وصاحب طبرية، ومقدم الداوية، ومقدم الاسباتارية، وصاحب جينين وغيرهم (٤٥٦/١١) من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم، فأتى ابن بيزران فإنه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعرّ الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين. وحكى عنه أنه قال: ذكرتُ في تلك الحال بيتي المتنيّ وهما:

فإن تُكُنَّ السُّلُوكُ قِيساً فَلَنَهَا لَمَنْ يَرِدُ الْمَوْتَ السُّلُوكُ تَسْوُلُ
وَمِنْ مَوْتِ الدُّنْيَا عَلَى النَّفْسِ سَاعَةٌ وَلِلْيَسْ فِي هَامِ الْكُفَاةِ صُلْبُ

فهان الموت في عيني، فألقيت نفسي إليه، وكان ذلك سبب الظفر. ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة، وتجهّز للدخول إلى ذلك الحصن ومحاصرتة، فسار إليه في ربيع الأول، وأحاط به، وقوّى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه، وبث العساكر في بلد الفرنج للإغارة، ففعلوا ذلك، وجمعوا من الأخشاب والزّرجون شيئاً كثيراً ليجهله متارس للمجانيق، فقال له جاولي الأسدي، وهو مقدم الأسدية وأكابر الأمراء: الرأي أننا نجرّبهم بالزحف أول مرة، ونذوق قتال من به، وننظر الحال معهم، فإن استضعفناهم، وإلاّ قنصب المجانيق ما يفوت.

فقبل رايه، وأمر فتودي بالزحف إليه، والجد في قتاله، فزحفوا واشتد القتال، وعظم الأمر، فصعد إنسان من العامة بقميص خلق في باشورة الحصن وقاتل على السور لمّا علاه وتبعه غيره من أضرابه، ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة، فصعد الفرنج حيثن

ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين

في هذه السنة، في ذي القعدة، اجتمع الفرنج وساروا إلى بلد دمشق مع ملكهم، فأغاروا على أعمالها فنهروها وأسروا وقتلوا وسبوا، فأرسل (٤٥٣/١١) صلاح الدين فرخشاه، ولد أخيه، في جمع من العسكر إليهم، وأمره أنه إذا قاربهم يرسل إليهم يُخبره على جناح طائر ليسير إليه، وتقدّم إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاع من بين يدي الفرنج، فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم، فلم يشعر إلا والفرنج قد خالطوه، فاضطرّ إلى القتال، فاقتلوا أشد قتال رآه الناس، وألقى فرخشاه نفسه عليهم، وغشي الحرب ولم يكلها إلى سواه، فانهمز الفرنج ونصر المسلمون عليهم، وقُتل من مقدّمهم جماعة ومنهم هنفري، وما أدراك ما هنفري؟ به كان يُضرب المثل في الشجاعة والرأي في الحرب، وكان بلاء صبه الله على المسلمين، فأراح الله من شره، وقُتل غيره من أضرابه، ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس.

وفيها أيضاً أغار البرنس صاحب أنطاكية ولاذقية على جيش المسلمين بشيزر وأخذه، وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان، فاحتجف أموالهم، وكان صلاح الدين على بانياس، على ما تذكره إن شاء الله، فسير ولد أخيه نقي الدين عُمر إلى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى مصر، وأمرهما بحفظ البلاد، وحياطة أطرافها من العدو، فدمّهم الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر نحو ثلث الليل الأخير وغاب منكسفاً.

وفيها أيضاً، في التاسع والعشرين، انكسفت الشمس وقت العصر، فغربت منكسفة. (٤٥٤/١١)

وفي هذه السنة، في شعبان، توفي الحبيب بيص الشاعر، واسمه سعد ابن محمد بن سعد أبو الفوارس، وكان قد سمع الحديث، ومدح الخلفاء والسلاطين والأكابر، وشعره مشهور، فمته قوله:

كَلِمَا أَوْسَعَتْ حُلْمِي جَاهِلًا أَوْسَعُ الْفُحْشِ لَهْ فُحْشُ الْمَقَالِ
وَإِذَا شَارِدَةٌ فَهَتْ بِهَا سَبَقَتْ مَرَّ الْعَالَمِ وَالشَّمَالِ
لَا تَلْعَنِي فِي شِقَاتِي بِالْعَلَى رَغَدَ التَّيْسِ لِرَبَاتِ الْجِبَالِ
سَيْفٌ عِزٌّ زَانَةٌ زَوْقُهُ فَهَوَّ بِالطَّبِيعِ غَشِي عَنْ حِقَالِ

وفي المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر بن الإبري الكاتبة، وسمعت الحديث من السراج وطراود وغيرهما، وعمرت حتى قارب مائة سنة، وسمع عليها خلق كثير الحديث لغلو إسنادها. (٤٥٥/١١)

منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد. (٤٥٧/١١)

ذكر وفاة المستضيء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله

في هذه السنة، في ثاني ذي القعدة، توفي الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد، رضي الله عنه، وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة. وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر، وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه. وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل، وطمانية وسكون، لم يروا مثله، وكان حليماً قليل المعاقبة على الذنوب، محباً للعفو والصفح عن المذنبين، فعاش حميداً، ومات سعيداً، رضي الله عنه، فلفقد كانت أيامه كما قيل :

كَانَ لِقَائِهِ مِنْ حُسْنِ سِيرَتِهِ نَوَاسِطُ الْخَلْقِ وَالْأَعْيَادُ وَالْجُمُوعُ
ووزير له عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قُتل في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، ولما قُتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار، وكان خيراً، حسن السيرة، كثير العطاء، وتمكن تمكناً كثيراً، فلما مات المستضيء شرع ظهير الدين بن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، فلما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب.

وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين، ووُكِّلَ عليه في داره، ثم نُقِلَ إلى التاج، وقيد ووُكِّلَ به، وطلبت ودائعه وأمواله، وفي ليلة الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة أُخرج ميتاً على رأس حمال سراً، فغمز به بعض الناس، فثار به العامة، فآلقوه عن رأس الحمال، وكشفوا (٤٦٠/١١) سواده، وشدوا في ذكره حبلاً وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون يده مغرفة يعني أنها قلم وقد غمسوها في العذرة ويقولون: وقِّع لنا يا مولانا، إلى غير هذا من الأفعال الشنيعة، ثم خلَّص من أيديهم ودُفن.

هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وقتنه عن أموالهم وأعراضهم. وشيرت الرُّسل إلى الأفاق لأخذ البيعة، فسير صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان، صاحب همذان وأصفهان والسري وغيرها، فامتنع من البيعة، فراجعته صدر الدين، وأغلظ له في القول، حتى إنه قال لعسكره في حضرته: [ليس] لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين، بل يجب عليكم أن تخلعوه من الإمارة، وتقاتلوه. فاضطر إلى البيعة والخطبة، وأرسل إلى رضي الدين القزويني مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة، فبايع صاحبها، وخطب للخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين.

وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية، فالح المسلمون في قتال الحصن، خوفاً من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه، وأذركهم الليل، فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد، ففعلوا، فلما كان الغد أصبحوا وقد نقبوا الحصن، وعمقوا النقب، وأشعلوا النيران فيه، وانتظروا سقوط السور، فلم يسقط لعرضه، فإنه كان تسعة أذرع بالنجاري، يكون الذراع ذراعاً ونصفاً، فانتظروه يومين فلم يسقط، فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التي في النقب، فحمل الماء وألقي عليها فطفئت، وعاد النصابون فنقبوا، وخرقوا السور، وألقوا فيه النار، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول، ودخل المسلمون الحصن عنوةً وأسرُوا كلَّ من فيه، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين، وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج، وأدخل الباقيين إلى دمشق، وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن، وعفى أثره، والحقه بالأرض. وكان قد بذل الفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال، فلم يفعلوا ظناً منهم أنه إذا بقي بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام، وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن، فلما أتاها الخبر بأخذه فست في أعضادهم، فتفرقوا إلى بلادهم، وأكثر الشعراء فيه، فمن ذلك قول صديقتنا الشو بن نفاذة، رحمه الله :

فَلَاكُ الْفَرَنْجِ أَثَى عَاجِلًا وَقَدْ أَنْ كَثُرَ صَلَاحُهَا
وَلَوْلَمْ يَكُنْ قَدْ نَافَتْهَا لِمَا عَمَّرَتْ يَتَّحِزُّهَا
وقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي: (٤٥٨/١١)

اسْكُنْ أَوْطَانُ النَّيْنِ عَصْبَةً تَبِينُ لَدَى أَيْمَانِهِمْ تَحْلِفُ
نَضَحْتُمْ وَالصَّحَّ لِلَّيْنِ وَاجِبُ ذُرُوبِ يَعْقُوبٍ قَدْ جَاءَ يَوْسُفُ

ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلع أرسلان في هذه السنة كانت الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وبين عسكر الملك قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان، صاحب بلاد قونية، وأقصر.

وسببها أن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسقر، رحمه الله، كان قد أخذ قديماً من قلع أرسلان رعيان، وكان بيد شمس الدين بن المقدم إلى الآن، فطمع فيه قلع أرسلان بسبب أن الملك الصالح يجلب بينه وبين صلاح الدين، فأرسل إليه من يحصره، فاجتمع عليه جمع كثير، يقال: كانوا عشرين ألفاً، فأرسل إليهم صلاح الدين تقي الدين في ألف فارس، فواجههم وقاتلهم وهزمهم، وأصلح حال تلك الولاية، وعاد إلى صلاح الدين، ولم يحضر معه تخريب حصن الأحزان، فكان يفتخر ويقول: هزمتُ بألف مقاتل

سنة مئتين وسبعين وخمسمائة

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها وعمت أكثر البلاد من الظهر إلى أن مضى من الليل ريعه، وبقيت الدنيا مظلمة يكاد الإنسان لا ييصر صاحبه، وكنت حيثنذ بالموصل، فصلينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظن والتخمين، وأقبل الناس على التضرع والتوبة والاستغفار، وظنوا أن القيامة قد قامت، فلما مضى مقدار ريع الليل زال ذلك الظلام والعتمة التي غطت السماء، فنظرنا فرأينا النجوم، فعلمنا مقدار ما مضى من الليل، لأن الظلام لم يزدد بدخول الليل، وكان كل (٤٦١/١١) من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك.

وفيها، في ذي القعدة، نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين عن بعلبك، وطلب عوضاً عنها الإسكندرية، فأجابته صلاح الدين إلى ذلك وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاہ ابن أخيه، فسار إليها، وجمع أصحابه، وأغار على بلاد الفرنج، حتى وصل إلى قلعة صفد، وهي مظلة على طبرية، فسبى وأسر وغنم وخرب وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة.

وأما شمس الدولة فإنه سار إلى مصر وأقام بالإسكندرية، وإذا أراد الله أن يقبض رجلاً بأرض جعل له إليها حاجة، فإنه أقام بها إلى أن مات بها.

وفيها قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايمآز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ، وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة، وهو من أحسن الجوامع.

وفيها توفي أحمد بن عبد الرحمن الصوفي شيخ رباط الزوزني، وسمع الحديث وكان يصوم الدهر، وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف، سمع الحديث ورواه، وهو من بيت الحديث، والقاضي عمر بن علي بن الخضر أبو الحسن الدمشقي، سمع الحديث ورواه، وولي قضاء الحریم، وعلي بن أحمد الزبيدي، سمع الحديث الكثير، وله وقف كتب كثيرة ببغداد، وكان زاهداً، خيراً، صالحاً، ومحمد بن علي بن حمزة أبو علي الأفساسي فقيـه العلويين بالكوفة، وكان يشد كثيراً:

رَبِّ قَوْمٍ فِي خَلْقِهِمْ عُرْرٌ قَدْ سُكِّرُوا غُشْرًا
سَرَّ الْمَالِ الْقِيَحَ لَهُمْ سَرَّيْ إِذْ زَالَ مَا سَتَرَا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سديد الدولة الأنباري، كاتب الإنشاء بعد أبيه، وأبو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدماغاني الفقيه، كان منظرراً أحسن المناظرة، كثير العبادة، ودقن عند قبر أبي حنيفة. (٤٦٢/١١)

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عز الدين بعده في هذه السنة، ثالث صفر، توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل وديار الجزيرة، وكان مرضه السلى، وطال به، ثم أدركه في آخره سرسام، ومات.

ومن عجيب ما يحكى أن الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدة الغلاء، وخرج سيف الدين في موكبه، فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين، وخرّبوا أبوابها، ودخلوها، ونهبوها، وأراقوا ما بها من خمور، وكسروا الظروف، وعملوا ما لا يحل، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان، وخصّصوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق، ولم يكن له يد في الذي فعله العامة من النهب، وما لا يجوز فعله، إنما هو أراق الخمور، ونهى العامة عن الذي يفعلونه، فلم يسمعوا منه، فلما شكوا الخمارون منه أضر بالقلعة، وضرب على رأسه، فسقطت عمامته، فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس، فأرادوا تغطيته بعمامته، فلم يفعل، وقال: واللّه لا غطيّت رأسي حتى ينتقم الله لي ممن ظلمني! فلم يمض غير أيام حتى توفي الدردار (٤٦٣/١١) الذي تولى أذاه، ثم بقية مرض سيف الدين، واستمر إلى أن مات، وعمره حينئذ نحو ثلاثين سنة. وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر، وكان حسن الصورة، مليح الشباب، تام القامة، أبيض اللون، وكان عاقلاً وقوراً، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس، عفيفاً لم يذكر عنه ما ينافي العفة.

وكان غيوراً شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدم الصفار، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان لا يحب سفك الدماء، ولا أخذ الأموال على شح فيه وجبن.

ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه عز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثني عشرة سنة، فخاف على الدولة من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام، وقوي أمره، وامتنع أخوه عز الدين مسعود بن مودود من الإذعان لذلك والإجابة إليه، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايمآز بأن يجعل الملك بعده في عز الدين أخيه، لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس، وأن يعطي ابنه بعض البلاد، ويكون مرجعها إلى عز الدين عهدهما والمتولي لأمرهما مجاهد الدين قايمآز، ففعل ذلك، وجعل الملك في أخيه، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، وقلعة عفر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك.

فلما توفي سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد أخوه عز الدين، وكان المدير للدولة مجاهد الدين، وهو الحاكم في الجميع، واستقرت الأمور ولم يختلف اثنان. (٤٦٤/١١)

ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج أرسلان

في هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام إلى بلاد قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، وهي مملطنة وميوساس وما بينهما، وقوية ليحاربه.

وسبب ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود، صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر، كان قد تزوج ابنة قلج أرسلان المذكور، وبقيت عنده مدة، ثم إنه أحب مغنية، فزوجها، ومال إليها، وحكمت في بلاده وخزائنه، وأعرض عن ابنة قلج أرسلان، وتركها نسياً منسياً، فبلغ أباهما الخبر، فعزم على قصد نور الدين وأخذ بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستجير به ويسأله كف يد قلج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان في المعنى، فأعاد الجواب: إني كنت قد سلمت إلى نور الدين عدة حصون مجاورة بلاده لما تزوج ابنتي، فحيث آل الأمر معه إلى ما تعلمه فانا أريد أن يعيد إلي ما أخذه مني.

وتردّت الرسل بينهما، فلم يستقر حال فيها، فهاذن صلاح الدين الفرنج، وسار في عساكره، وكان الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها، فتركها ذات اليسار، وسار على تلّ باشير إلى رعبان، فأتاه بها نور الدين محمد وأقام عنده، فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل إليه أكبر أمير عنده، ويقول له: إن هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا، ولا بد من قصد بلاده، وتعريفه محل نفسه، فلما وصل الرسول، واجتمع (٤٦٥/١١) بصلاح الدين، وأدى الرسالة، امتنع صلاح الدين لذلك واغتاظ، وقال للرسول: قل لصاحبك والله الذي لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرن إلى مملطنة وبينها يومان، وما أنزل عن فرسي إلا في البلد، ثم أقصد جميع بلاده وأخذها منه.

فراى الرسول أمراً شديداً، فقام من عنده، وكان قد رأى العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل، وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك، وليس عنده ما يقاربه، فعلم أنه إن أخذ بلادهم، فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به، فأحضره فقال له: أريد أن أقول شيئاً من عندي ليس رسالة عن صاحبي، وأحب أن تصفني. فقال له: قل! قال: يا مولانا ما هو قبيح بمثلك، وأنت من أعظم السلاطين وأكبرهم شأنًا، أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج، وتركت الغزو ومصالح المملكة، وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيّتك وللمسلمين عامة، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقرية، وميرت وخسرت أنت وعساكرك

الأموال العظيمة لأجل قبح مغنية؟ ما يكون عذرك عند الله تعالى، ثم عند الخليفة وملوك الإسلام والعالم كافة؟ وأحبب أن أجد ما يوجبك بهذا، أما يعلمون أن الأمر هكذا؟ ثم أحسب أن قلج أرسلان مات، وهذه ابنته قد أرسلتني إليك تستجير بك، وتسألك أن تصفها من زوجها، فإن فعلت، فهو الظن بك أن لا تردّها.

فقال: والله الحقّ بيدك، وإن الأمر لكما تقول، ولكن هذا الرجل دخل عليّ وتمسك بي ويقح بي تركه، لكنك أنت اجتمع به، وأصلح الحال بينكم على ما تحبون، وأنا أعينكم عليه وأفتح فعله عنده، ووعد من نفسه بكلّ جميل، فاجتمع الرسول بصاحب الحصن، وتردّد القول بينهما، فاستقرّ (٤٦٦/١١) أن صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة، وإن كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته، ويكون هو وقلج أرسلان عليه، واصطلحوا على ذلك، وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام، وعاد نور الدين إلى بلاده، فلما انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية عنه، فتوجهت إلى بغداد، وأقامت بها إلى أن ماتت.

ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمني

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمني بعد فراغه من أمر قلج أرسلان، وسبب ذلك أن ابن ليون الأرمني كان قد استمال قومًا من التركمان وبذل لهم الأمان، فأمرهم أن يرفعوا مواشيهم في بلاده، وهي بلاد حصينة كلّها حصون متباعدة، والدخول إليها صعب، لأنّها مضائق وجبال وعرة، ثم غدر بهم وسبى حريمهم، وأخذ أموالهم، وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله.

ونزل صلاح الدين على النهر الأسود، وبسّ الغارات على بلاده، فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ فخزيه وأحرقه، فسمع صلاح الدين بذلك، فأسرع السير إليه، فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات، فغنمها، وانتفع المسلمون بما غنموه، فأرسل ابن ليون يذلل إطلاق من عنده من الأسرى والسبي وإعادة أموالهم على أن يعودوا عن بلاده، فأجاب (٤٦٧/١١) صلاح الدين إلى ذلك واستقرّ الحال، وأطلق الأسرى وأعيدت أموالهم، وعاد صلاح الدين عنه في جمادى الآخرة.

ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه

في هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى إفريقية، وملك قفصة.

وكان سبب ذلك أن صاحبها علي بن المعز بن المعز لما رأى دخول الترك إلى إفريقية واستيلائهم على بعضها، وانقياد العرب إليهم، طمع أيضاً في الاستيلاء والانفراد عن يوسف وكان في

وفيها توفي الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصفهاني بالإسكندرية، وكان حافظ الحديث وعالمًا به سافر في طلب الكثير.

وتوفي أيضاً في المحرم علي بن عبد الرحيم المعروف بابن العصار اللغوي ببغداد، وسمع الحديث وكان من أصحاب ابن الجواليقي. (٤٧٠/١١)

سنة سبع وسبعين وخمسمائة

ذكر غزاة إلى بلد الكرك من الشام

في هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق إلى أعمال كرك ونهبها.

وسبب ذلك أن البرنس أرناط، صاحب الكرك، كان من شياطين الفرنج ومردتهم، وأشدّهم عداوة للمسلمين، فتجهّز، وجمع عسكره ومن أمكنه الجمع، وعزم على المسير في البر إلى تيماء، ومنها إلى مدينة النبي ﷺ للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة، فسمع عز الدين فرخشاه ذلك، فجمع العساكر الدمشقية وسار إلى بلده ونهبه وخربه، وعاد إلى طرف بلادهم، وأقام بها ليمنع البرنس من بلاد الإسلام، فامتنع بسببه من مقصده. فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى يفرق جمعه، ففرقهم وانقطع طمعه من الحركة، فعاد فرخشاه إلى دمشق، وكفى الله المؤمنين شرّ الكفار. (٤٧١/١١)

ذكر تلييس يبي أن يحاط من قبله

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكنائي ينوب عن شمس الدولة أخي صلاح الدين باليمن وتحكم في الأموال والبلاد بعد أن فارقتها شمس الدولة، كما ذكرنا، وكان هواه بالشام لأنه وطنه، فأرسل إلى شمس الدولة يطلب الإذن له في المجيء إليه، فأذن له في المجيء، فاستتاب بزيد أخاه حطان ابن كامل بن منقذ الكنائي، وعاد إلى شمس الدولة، وكان معه بمصر، فمات شمس الدولة، وبقي مع صلاح الدين فقبل عنه: إنه أخذ أموال اليمن وأدّخرها، وسعى به أعداؤه، فلم يعارضه صلاح الدين.

فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعماً وعمل دعوة كبيرة، ودعا إليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمى العذوة. وأرسل أصحابه يتجهّزون من البلد، ويشتركون ما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها، فقبل لصلاح الدين إن ابن منقذ يريد الهرب، وأصحابه يتزودون له، ومتى دخل اليمن أخرجه عن طاعتك، فأرسل صلاح الدين فأخذه والناس عنده وحسه، فلما سمع صلاح الدين جليّة الحال علم أن الحيلة تمت لأعدائه في

طاعته، فأظهر ما في نفسه وخالفه وأظهر العصيان، ووافقه أهل قفصة، فقتلوا كل من كان عندهم من الموحّدين أصحاب أبي يعقوب، وكان ذلك في شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، فأرسل والي بجاية إلى يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطراب أمور البلاد، واجتماع كثير من العرب إلى قراقوش التركي الذي دخل إلى إفريقية وقد تقدّم ذكر ذلك وما جرى في قفصة من قتل الموحّدين ومساعدة أهل قفصة صاحبهم على ذلك، فشرع في سدّ الثغور التي يخافها بعد مسيره، فلما فرغ من جميع ذلك تجهّز العسكر وسار إلى إفريقية سنة خمس وسبعين، ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة أشهر، وهي بلدة حصينة، وأهلها أنجاذ، وقطع شجرها.

فلما اشتد الأمر على صاحبها وأهلها، خرج منها مستخفياً لم يعرف به (٤٦٨/١١) أحد من أهل قفصة ولا من عسكره، وسار إلى خيمة يوسف، وعرف حاجه أنه قد حضر إلى أمير المؤمنين يوسف، فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة إلى باب خيمته، فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد، وأمر بإدخاله عليه، فدخل وقبّل يده، وقال: قد حضرتُ أطلب عفو أمير المؤمنين عني وعن أهل بلدي، وأن يفعل ما هو أهله. واعتذر، فرق له يوسف فغفا عنه وعن أهل البلد، وتسلم المدينة أوّل سنة ست وسبعين وسير علي بن المعز صاحبها إلى بلاد المغرب، فكان فيها مكرماً عزيزاً، وأقطعه ولاية كبيرة. وربّ يوسف لقفصة طائفة من أصحابه الموحّدين، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضاً، فعفا عنه وسيره إلى مراکش، وسار يوسف إلى المهديّة، فأتاه بها رسول ملك الفرنج، صاحب صقلية، يلتبس منه الصلح، فهادنه عشر سنين، وكانت بلاد إفريقية مجدبة فتعذّر على العسكر القوت وعلف الدواب، فسار إلى المغرب مسرعاً، والله أعلم.

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة توفي شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية، وكان قد أخذها من أخيه إقطاعاً، فأقام بها توفي، وكان له أكثر بلاد اليمن، وتوابعه هنالك يحملون إليه الأموال من زبيد، وعدن، وما بينهما من البلاد والمعازل، وكان أجود الناس وأسخاهم كفاً (٤٦٩/١١) يُخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن، ودخل الإسكندرية، وحكمه في بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ، ومع هذا، فلما مات كان عليه نحو مائتي ألف دينار مصرية ذبناً، فوفاه أخوه صلاح الدين عنه لما دخل إلى مصر، فإنه لما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر في شعبان من السنة، واستخلف بالشام عز الدين فرخشاه ابن أخيه شاهنشاه، وكان عاقلاً حازماً شجاعاً.

قبضه، فخنقته ما كان عنده عليه؛ وسهل أمره وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية، سوى ما لحقها من الحمل لإخوة صلاح الدين وأصحابه وأطلقه وأعادته إلى منزلته، وكان أديباً شاعراً. (٤٧٢/١١).

ذكر إرسال صلاح الدين العساكر إلى اليمن

ولما قضى نحيبه أرسل الأمراء إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب، فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات، وأرسل فأحضر الأمراء عنده فن حلب، فحضرُوا، وساروا جميعاً إلى حلب، ودخلها في العشوين من شعبان، (٤٧٤/١١) وكان صلاح الدين حينئذٍ بمصر، ولولا ذلك لأزاحمهم عليها وقتلهم، فلما اجتاز في طريقه إليها من الفرات كان تقي الدين عمير ابن أخي صلاح الدين بمدينة منبج، فسار عنها هارباً إلى حماة، وثار أهل حماة، ونادوا بشعار عز الدين، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق، وأطمعوه فيها وفي غيرها من بلاد الشام، وأعلموه محبة أهلها له، ولأهل بيته، فلم يفعل، وقال: بيتنا يمين فلا نغدر به. وأقام بحلب عدة شهور، ثم سار عنها إلى الرقة.

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ منبج عوضاً عنها

ولما وصل عز الدين إلى الرقة جاثه رسل أخيه عماد الدين، صاحب منبج، يطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة منبج، فلم يجبه إلى ذلك، ولجَّ عماد الدين، وقال: إن سلَّمتم إليَّ حلب، وإلا سلَّمْتُ أنا منبج إلى صلاح الدين، فأشار حينئذٍ جماعة من الأمراء بتسليمها إليه، وكان أشنعهم في ذلك مجاهد الدين قايماز، فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه في الدولة، وكثرة عساكره وبلاده، وإنما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفاً من عز الدين، لأنه عظم في نفسه، وكثر معه العسكر.

وكان الأمراء الجليليون لا يلتفتون إلى مجاهد الدين، ولا يسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل، فاستقر الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين (٤٧٥/١١) وأخذ منبج عوضاً عنها، فسار عماد الدين فتسلَّمها، وسلم منبج إلى أخيه، وعاد إلى الموصل.

وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عز الدين حلب، فعظم الأمر عليه، وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها، ويملك الجميع، وأيس من حلب، فلما بلغه خبر ملك عماد الدين لها برز من يومه وسار إلى الشام، وكان من الوهن على دولة عز الدين ما تذكره إن شاء الله.

ذكر حصر صاحب ماردین قلعة البيرة ومصر صاحبها مع صلاح

الدين

كانت قلعة البيرة، وهي مطلة على الفرات من أرض الجزيرة، لشهاب الدين الأرتقي، وهو ابن عم قطب الدين إيلغازي بن ألبی

في هذه السنة سیر صلاح الدين جماعة من أمرائه منهم صارم الدين قتلغ آبه، والي مصر، إلى اليمن، للاختلاف الواقع بها بين نواب أخيه شمس الدولة، وهم عز الدين عثمان بن الزنجيلي، والي عدن، وخطان بن منقذ [والذي] زييد وغيرهما، فإنهم لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عز الدين عثمان وبين خطان حرب، وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده، واشتد الأمر، فخاف صلاح الدين أن يطعم أهل البلاد فيها بسبب الاختلاف بين أصحابه وأن يخرجوهم من البلاد، فأرسل هؤلاء الأمراء إليها، واستولى قتلغ آبه على زييد وأزال خطان عنها.

ثم مات قتلغ آبه، فعاد خطان إلى إمارة زييد، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته.

ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة

حلب

في هذه السنة، في رجب، توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها، وعمره نحو تسع عشرة سنة، ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي، فقال: لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء؛ فاستفتى، فافتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك، فقال له: أرايت إن قدر الله تعالى (٤٧٣/١١) بقرب الأجل يؤخره شرب الخمر؟ فقال [له] الفقيه: لا! فقال: والله لا لقيت الله وقد استعملت ما حرَّمه عليّ، ولم يشربها.

فلما أيس من نفسه، أحضر الأمراء، وسائر الأجناد، ووصَّاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، واستحلفهم على ذلك، فقال له بعضهم: إن عماد الدين ابن عمك أيضاً، وهو زوج أختك، وكان والدك يحبّه ويؤثره، وهو تولى تربيته، وليس له غير منبج، فلو أعطيته البلد لكان أصلح، وعزَّز الدين له [من البلاد] من الفرات إلى همدان، ولا حاجة به إلى بلدك. فقال له: إن هذا لم يغيب عني، ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي، ومتى سلَّمْتُ حلب إلى خصام الدين يعجز عن حفظها وإن ملكها صلاح الدين لم يبقَ لأهلنا معه مقام، وإن سلَّمْتُها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده.

فاستحسنوا قوله وعجبوا من جنودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه.

بن تمر تاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردین، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل.

فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردین إلى عز الدين يطلب منه أن يأذن له في حصر البيرة وأخذها، فأذن له في ذلك، فصار في عسكره إلى قلعة سُمُسط، وهي له، ونزل بها وسير العسكر إلى البيرة، فحصرها، فلم (٤٧٦/١١) يظفر منها بظائل، إلا أنهم لازموا الحصار، فأرسل صاحبها إلى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر، على ما نذكره، يطلب منه أن ينجده ويرحل العسكر المارديني عنه، ويكون هو في خدمته، كما كان أبوه في خدمة نور الدين، فأجابته إلى ذلك، وأرسل رسولا إلى صاحب ماردین يشفع فيه، ويطلب أن يرحل عسكره عنه، فلم يقبل شفاعته.

واشتغل صلاح الدين بما نذكره من الفرنج، فلما رأى صاحب ماردین طول مقام عسكره على البيرة، ولم يبلغوا منها غرضاً، أمرهم بالرحيل عنها، وعاد إلى ماردین، فصار صاحبها إلى صلاح الدين، وكان معه حتى عبر معه الفرات، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمر، وأخذ المفسدات، فبينما امرأة منهن في موضع، علمت بمجيء أصحاب حاجب الباب، فاضطجعت، وأظهرت أنها مريضة، وارتفع أئنيها، فأروها على تلك الحال، فتركوها وانصرفوا، فاجتهدت بعدهم أن تقوم، فلم تقدر، وجعلت تصيح: الكرب الكرب، إلى أن ماتت. وهذا من أعجب ما يُحكى.

وفيها، عاشر ذي الحجة، توفي الأمير همام الدين تتر، صاحب قلعة (٤٧٧/١١) تكريت بالمزدلفة، كان قد استخلف الأمير عيسى ابن أخي مودود وحج، فتوفي، ودُفن بالمعلی مقبرة مكة.

وفيها، في شعبان، توفي عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد أبو البركات النحوي المعروف بابن الأتباري ببغداد، وله تصانيف حسنة في النحو، وكان فقيهاً صالحاً.

وفيها توفي إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعي بجزيرة ابن عمر، وكان فاضلاً كثير الورع. (٤٧٨/١١)

سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

ذكر مسير صلاح الدين إلى الشام وإغاراته على الفرنج

في هذه السنة، خامس المحرم، سار صلاح الدين عن مصر

إلى الشام. ومن عجيب ما يُحكى من التطير أنه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر والناس عنده، وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب، فمن بين مودع له وسائر معه، وكل منهم يقول شيئاً في الوداع والفرار، وما هم بصدد من السفر، وفي الحاضرين معلّم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأشد:

تَشَعَّ من شميم غرارِ نجدٍ فما بصد العشية من غرارٍ فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير، وتكد المجلس على الحاضرين، فلم يُعد إليها إلى أن مات مع طول المدة.

ثم سار عن مصر وتبعه من التجار وأهل البلاد، ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره، عالم كثير، فلما سار جعل طريقه على آيلة فسمع أن الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير، فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق، وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير، فشن الغارات بأطراف بلادهم، وأكثر ذلك (٤٧٩/١١) ببلد الكرك والثولك، فلم يخرج إليه منهم أحد، ولا أقدم على الدنو منه، ثم سار فأتى دمشق، فوصلها حادي عشر صفر من السنة.

ذكر ملك المسلمين شقيفاً من الفرنج

في هذه السنة أيضاً، في صفر، فتح المسلمون بالشام شقيفاً من الفرنج، يُعرف بحبس جلدك، وهو من أعمال طبرية، مطّل على السواد.

وسبب فتحه أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له، وحشدوا الفارس والراجل، واجتمعوا بالكرم، بالقرب من الطريق، لعلهم يتهمزون فرصة، أو يظفرون بنصرة، وريماً عاقوا المسلمين عن المسير بأن يبقوا على بعض المضايق، فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام، فسمع فرخشاه الخبر، فجمع من عنده من عساكر الشام، ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها، ونهب دبرية وما يجاورها من القرى، وأسر الرجال وقتل فيهم وأكثر وسى النساء، وغنم الأموال، وفتح منهم الشقيف، وكان على المسلمين منه أذى شديد، ففرح المسلمون بفتحه فرحاً عظيماً، وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة، فلقبه في الطريق، فقت ذلك في عهد الفرنج، وانكسرت شوكتهم. (٤٨٠/١١)

ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن وتغلبه عليه

في هذه السنة سير صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن، وأمره بتملكها وقطع الفتن بها، وفرض إليه أمرها، وكان بها حيطان بن منقذ، كما ذكرناه قبل. وكتب عز الدين عثمان الزنجيلي متولّي عدن إلى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد،

وأغاروا عليها وعلى بلدها، وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب ما لم يصل الأسطول إليه، وحجزها عدة أيام. وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها، فأتاه الخبر وهو عليها أن البحر قد ألقى بطناً للفرنجة فيها جمع عظيم منهم إلى دمياط، كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس، فأسروا من بها إلى أن غرق منهم كثير فكان عدة الأسرى ألفاً وستمئة وسبعين أسيراً، فضربت بذلك البشائر.

ذكر عبور صلاح الدين الفرات ومملكته ديار الجزيرة

في هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزرية ومملكها.

وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين، وهو مقطع حران كان قد أقطعها إياها عز الدين أتابك، المدينة والقلعة، ثقة به واعتماداً عليه، أرسل إلى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه أنه معه محب لدولته، ووعدته النصرة له إذا عبر الفرات، ويطعمه في البلاد ويحشيه على (٤٨٣/١١) الوصول إليها، فسار صلاح الدين عن بيروت، ورسل مظفر الدين تترى إليه يحثه على المجيء، فجد صلاح الدين السير مظهرًا أنه يريد حصر حلب سراً للحال.

فلما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين فعبّر الفرات واجتمع به وعاد معه فقصد البيرو، وهي قلعة منبوعة على الفرات من الجانب الجزري، وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين، وفي طاعته، وقد ذكرنا سبب ذلك قبل فعبّر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرو.

وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وشارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب، ثم تقدما إلى دارا، فنزلا عندها، فجاءهما أمر لم يكن في الحساب، فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا إلى الموصل وأرسلا إلى الرها عسكراً يحميها ويمنعها، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد، ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب المملوك أصحاب الأطراف ووعدهم، وبذل لهم البذل على نصرته، فأجابه نور الدين محمد ابن قرا أرسلان، صاحب الحصن، إلى ما طلب منه، لقاعدة كانت استقرت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام، فإنه استقر الحال أن صلاح الدين يحصر آمد ويملكها، ويسلمها إليه.

وسار صلاح الدين إلى مدينة الرها، فحضرها في جمادى الأولى، وقتلها أشد قتال. فحدثني بعض من كان بها من الجند أنه عد في غلاف رمح أربعة عشر خرقاً وقد خرقت السهام.

ويشير بإرسال بعض أهله إليها، لأن حيطان كان قوي عليه، فخافه عثمان، فجهر صلاح الدين أخاه سيف الإسلام ومسيره إلى بلاد اليمن، فوصل إلى زبد، فخافه حيطان ابن متقذ واستشعر منه، وتحصن في بعض القلاع، فلم يزل به سيف الإسلام يؤمته ويهدد به ويتلفعه حتى نزل إليه، فأحسن صحبته، واعتمد معه ما لم يكن يتوقعه من الإحسان، فلم يثق حيطان به، وطلب منه دستوراً ليقتصد الشام، فامتنع من إجابته إظهاراً للرغبة في كونه عنده، فلم يزل حيطان يراجع حتى أذن له، فأخرج أثقاله وأمواله ودوابه وأهله وأصحابه، وكل ما له، وسير الجميع بين يديه.

فلما كان الغد دخل على سيف الإسلام ليؤدعه، فقبض عليه واسترجع جميع ماله فأخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ولا كثير، ثم سجنه في بعض القلاع، وكان آخر العهد به، فقيل إنه قتله، وكان في جملة ما أخذ منه من الأموال النهب العين في سبعين غلاماً زردية مملوءة عيناً.

وأما عز الدين عثمان الزنجيلي فإنه لما سمع ما جرى على حيطان خاف فسار نحو الشام خائفاً يترقب، وسير معظم أمواله في البحر، فصادفهم مراكب (٤٨١/١١) فيها أصحاب سيف الإسلام، فاخذوا كل ما لعز الدين، ولم يبق له إلا ما صاحبه في الطريق، وصفت زبد وعدن وما معهما من البلاد لسيف الإسلام.

ذكر إغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق، كما ذكرناه، أقام أياماً يُريح ويستريح هو وجنده، ثم سار إلى بلاد الفرنج في ربيع الأول، فقصد طبرية، فنزل بالقرب منها، وخيم في الأقحوانة من الأردن، وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية، فسير صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى نيساب، فدخلها قهراً، وغنم ما فيها، وقتل وسبى، وجحف الغور غارة شواء، فعم أهله قتلاً وأسراً، وجاءت العرب فأغاروا على جيتين واللجون وتلك الولاية، حتى قاربوا مرج عكا.

وسار الفرنج من طبرية، فنزلوا تحت جبل كوكب، فتقدم صلاح الدين إليهم، وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب، فلم يبرحوا، ولم يتحركوا لقتال، فأمر ابن أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه، فحملا على الفرنج فيمن معهما، فقاتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الفرنج انحازوا على حاميتهم، فنزلوا غفريلا. فلما رأى صلاح الدين ما قد اتخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق. (٤٨٢/١١)

ذكر حصر بيروت

ثم إنه سار عن دمشق إلى بيروت، فنهب بلدها، وكان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها، فساروا ونازلوها،

وإلى الزحف عليها، وكان بها حيتنٌ مقطعتها، وهو الأمير فخر الدين (٤٨٤/١١) مسعود بن الزعفراني، فحيث رأى شدة القتال أذن إلى التسليم، وطلب الأمان وسلم البلد، وصار في خدمة صلاح الدين، فلما ملك المدينة زحف إلى القلعة، فسلمها إليه الدردار الذي بها على مال ما أخذه، فلما ملكها سلمها إلى مظفر الدين مع حرّان، ثم سار عنها، على حرّان، إلى الرقة، فلما وصل إليها كان بها مقطعتها قطب الدين بنّال بن حسن المنيجي، فسار عنها إلى عزّ الدين أنتابك، وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور، قرقيسيا، وماكسين وغرابان، فملك جميع ذلك.

فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين، فملك المدينة لوقتها، وبقيت القلعة، فحصرها عدة أيام، فملكها أيضاً، وأقام بها ليصلح شأنها، ثم أقطعها أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن.

وأنه الخبر أنّ الفرنج قصدوا دمشق، ونهبوا القرى، ووصلوا إلى داريا، وأرادوا تخريب جامعها، فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى يقول لهم: إذا خربت الجامع جددنا عمارته، وخربنا كل بيعة لكم في بلادنا، ولا نمكن أحداً من عمارتها، فتركوه. ولما وصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك أشار عليه من يتعصب لعزّ الدين بالعودة، فقال: يُخربون قرى ونملك عوضها بلاداً، ونعود نعمرها، وتقوى على قصد بلادهم، ولم يرجع، فكان كما قال.

ذكر حصر صلاح الدين الموصل

لما ملك صلاح الدين نصيبين، جمع أمراءه وأرباب المشورة عنده، واستشارهم بأيّ البلاد يبدأ، وآيها يقصد، بالموصل أم بينجار أم بجزيرة ابن (٤٨٥/١١) عمر، فاختلفت آراؤهم، فقال له مظفر الدين كوكبري بن زين الدين: لا ينبغي أن يبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لا مانع لها، فإن عزّ الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية.

ووافقه ناصر الدين محمد بن عمه شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالاً كثيراً ليقطعه الموصل إذا ملكها، وقد أجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لهواه، فسار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عزّ الدين صاحبها ومجاهد الدين قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل، وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار، وبذلا الأموال الكثيرة، وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيراً، واصطلى الأمور بنفسه، فأحسن تدبيرها، وشحنوا ما بقي بأيديهم من البلاد، كالجزيرة وبينجار وإربل وغيرها من البلاد، بالرجال والسلاح والأموال.

ثم إن صلاح الدين رحل من قرب البلد، ونزل متاخراً، خوفاً من البيات، فإنه لقربه كان لا يأمن ذلك، وكان سبه أيضاً أنّ مجاهد الدين أخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذي للقلعة، ومعهم المشاعل، فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة، مما يلي عين الكبريت، ويطفيء المشعل، فرأى العسكر الناس يخرجون، فلم يشكوا في الكيسة، فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر البيات على أهل الموصل.

وكان صدر الدين شيخ الشيوخ، رحمه الله، قد وصل إليه، قبل نزوله على الموصل، ومعه بشير الخادم، وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله، في الصلح، فأقاما معه على الموصل، وترددت

ذكر اجتماع عز الدين وشاه أرمن

في هذه السنة، في ذي الحجة، اجتمع أتابك عز الدين، صاحب الموصل، وشاه أرمن صاحب خيلاط، على قتال صلاح الدين.

وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن يستنجده ويستصره (٤٨٩/١١) على صلاح الدين، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة إليه بالكف عن الموصل وما يتعلق بعز الدين، فلم يجه إلى ذلك، وغالطه، فأرسل إليه أخيراً مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خيلاط بعد شاه أرمن، فأتاه وهو يحاصر مينجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها، وقال له: إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربتة. فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوفه في الجواب رجاء أن يفتحها، فلمّا رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة الثانية بالتهديد، وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خيالة ولا صلة، وأخبر صاحبه الخبر، وخوفه عاقبة الإهمال والتواني عن صلاح الدين، فسار شاه أرمن من خيلاط، وكان مخيماً بظاهرها، وسار إلى ماردین، وصاحبها حيتق قطب الدين بن نجم الدين أبي، وهو ابن أخت شاه أرمن، وابن خال عز الدين وخموره، لأن عز الدين كان قد زوج ابنته قطب الدين، وحضر مع شاه أرمن دولة شاه صاحب بڈليس وأرزن، وسار أتابك عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الأتقال.

وكان صلاح الدين قد ملك مينجار، وسار عنها إلى حران، وفرق عساكره، فلمّا سمع باجتماعهم سار إلى تقي الدين ابن أخيه، وهو بحماة، يستدعيه، فوصل إليه مسرعاً، وأشار عليه بالرحيل وحذره منه آخرون، وكان هوى صلاح الدين فني الرحيل؛ فرحل إلى راس عين، فلمّا سمعوا برحيله تفرقوا، فعاد شاه أرمن إلى خيلاط، واعتذر بأنّي أجمع العساكر وأعود. ورجع عز الدين إلى الموصل، وأقام قطب الدين بماردین، وسار صلاح الدين فنزل بحرزم تحت ماردین عدة أيام. (٤٩٠/١١)

ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولاً، وفرغ منه بالكرك ولم يبق إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض، وحملها إلى بحر آيلة، وجمعها في أسرع وقت.

وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيورها، فساروا في البحر، واقتربوا فرقتين، فرقة أقامت على حصن آيلة وهو للمسلمين يحصرونه، ويمنع أهله من ورود الماء، فنال أهله شدة شديدة وضيق عظيم. وأمّا الفرقة الثانية فإنهم ساروا نحو عيذاب، وأفسدوا في السواحل، ونهبوا، وأخذوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فإنهم لم يعدوا بهذا البحر فرنجياً قط ولا تاجراً ولا محارباً.

الرسل إلى عز الدين ومجاهد (٤٨٧/١١) الدين في الصلح، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تسلم إليه حلب، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ثم نزل عن ذلك، وأجاب إلى تسليم البلاد بشرط أن يتركوا إتجاد صاحب حلب عليه، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً، وقال عز الدين: هو أخي وله العهود والمواثيق ولا يسعني نكثها.

ووصلت أيضاً رسل قزل أرسلان صاحب أذربيجان، ورسول شاه أرمن صاحب خيلاط، في المعنى، فلم ينظم أمر ولا تم صلح. فلمّا رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً، ولا يحصل على غير العناء والتعب، وأن من يسينجار من العساكر الموصليّة يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه، سار من الموصل إليها.

ذكر ملكة مدينة منجار

لمّا سار صلاح الدين عن الموصل إلى منجار، سار مجاهد الدين إليها عسكراً قوّة لها ونجدة، فسمع بهم صلاح الدين، فممنعهم من الوصول إليها، وأوقع بهم، وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار إليها ونازلها، وكان بها شرف الدين أمير أسيران هندوا آخر عز الدين، صاحب الموصل، في عسكر معه، فحصر البلد وضايقه، وألح في قتاله، فكتبه بعض أمراء الأكراد الذين به من الزرارية، وخامر معه، وأشار بقصده من الناحية التي هو بها ليسلم إليه البلد، فطرقة صلاح الدين ليلاً، فسلم إليه ناحيته، فملك الباشورة لا غير. فلمّا سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع، وطلب الأمان، فأمن، ولو قاتل على تلك الناحية لأخرج العسكر الصلاحي عنها، ولو امتنع بالقلة لحفظها ومنعها، ولكنه عجز، فلمّا طلب الأمان أجابه صلاح الدين إليه، (٤٨٨/١١) فأمنه وملك البلد.

وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل، واستقرّ جميع ما ملكه صلاح الدين بملك منجار، فإنه كان قصد أن يستردّه المواصلّة إذا فارق، لأنه لم يكن فيه حصن غير الرُّهّا، فلمّا ملك منجار صارت على الجميع كالسور، واستاب بها سعد الدين بن معين الدين أنز، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى.

ذكر عود صلاح الدين إلى حران

لمّا ملك صلاح الدين منجار وقرّر قواعدها سار إلى نصيبين، فلقبه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين، بأكين من ظلمه، متأسفين على دولة عز الدين وعذله فيهم، فلمّا سمع ذلك أنكر على أبي الهيجاء ظلمه، وعزله عنهم، وأخذ معه، وسار إلى حران، وفرق عساكره ليستريحوا، وبقي جريدة في خواصه ونقات أصحابه، وكان وصوله إليها أوائل ذي القعدة من السنة.

سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ذكر مُلك صلاح الدين أُميد وتسليمها إلى صاحب الحصن

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بحرزم، تحت ماردین، فلم يرَ لطمعه وجهاً، وسار عنها إلى أمد، على طريق الباريّة، وكان نور الدين محمد بن قرا أرسلان يطالبه في كلّ وقت بقصدها وأخذها وتسليمها إليه، على ما استقرّت القاعدة بينهما، فوصل إلى أمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين ونازلها، وأقام يحاصرها.

وكان المتولّي لأمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان، وكان صاحبها ليس له من الأمر شيء مع ابن نيسان، فلمّا نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير، ولم يطمع الناس من الذخائر شيئاً، ولا فرق فيهم ديناراً ولا قوتاً، وقال لأهل البلد: قاتلوا عن نفوسكم. فقال له بعض أصحابه: ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم، فلم يفعل شيئاً. وقتلهم صلاح الدين، ونصب المجانيق، وزحف إليها، وهي الغاية في الحصانة والمنعة، بها ويسورها يُضرب المثل، وابن نيسان على حاله من الشحّ بالمال، وتصرفه تصرف من ولّت سعادته وأدبرت دولته. فلمّا رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال، وجنحوا إلى السلامة.

وكانت أيام ابن نيسان قد طالّت، وثقلت على أهل البلد لسوء صنيعهم وملكتهم وتضييقهم عليهم في مكاسبهم، فالتأّس كارهون لها، محبّون لانقراضها. (٤٩٤/١١) وأمر صلاح الدين أن يكتب على السهام إلى أهل البلد يعدّهم الخير والإحسان إن أطاعوه، ويهدّدهم إن قاتلوه، فزادهم ذلك تقاعداً وتخاذلاً، وأحبّوا ملكه وتركوا القتال، فوصل النقاؤون إلى السور، فنقبوه وعلّقوه، فلمّا رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان واشتطّوا في المطالب.

فحين صارت الحال كذلك أخرج ابن نيسان نساءه إلى القاضي الفاضل، وزير صلاح الدين، يسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله وماله، وأن يؤخّره ثلاثة أيّام حتى ينقل ما له بالبلد من الأموال والذخائر؛ فسعى له الفاضل في ذلك، فأجابه صلاح الدين إليه، فسلم البلد في العشر الأول من المحرم هذه السنة، وأخرج خيمه إلى ظاهر البلد، ورام نقل ماله، فتعذّر ذلك عليه لزوال حكمه عن أصحابه، وأطراحهم أمره ونهيه، فأرسل إلى صلاح الدين يُعرفه الحال، ويسأله مساعدته على ذلك، فأمدّه بالدواب والرجال، فنقل البعض وسرق البعض وانقضت الأيام الثلاثة قبل الفراغ فمنع من الباقي.

وكانت أبراج المدينة مملوءة من أنواع الذخائر، فتركها بحالها، ولو أخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نعمته وأمواله، لكن إذا

وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين، فعمر أسطولاً وسيّره، وفيه جمع كثير من المسلمين، ومقدّمهم حسام الدين لؤلؤ، وهو متولّي الأسطول بديار مصر، وكان مظفراً فيه، شجاعاً، كريماً، فسار لؤلؤ مجدداً في طلبهم، فابتدأ بالذين على أيلة فانقضّ عليهم انقضاض العقاب على صيدها، فقاتلهم، وقتل بعضهم، وأسّر الباقي، وسار من وقته بعد الظفر يقص أثر الذين قصدوا عذاب، فلم يرههم، وكانوا قد أغاروا على ما وجدها بها، وقتلوا من لقوه عندها، وساروا إلى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه، وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة، حرسهما الله تعالى، وأخذ الحاجّ ومنعهم عن البيت الحرام، والدخول بعد ذلك إلى اليمن.

فلمّا وصل لؤلؤ إلى عذاب ولم يرههم سار يقف أثرهم، فبلغ رابع (٤٩١/١١) وساحل الجوزاء وغيرهما، فأدركهم بساحل الجوزاء، فأوقع بهم هناك، فلمّا راوا العطب وشاهدوا الهلاك وخرجوا إلى البرّ، واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم، وقتلهم أشدّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك، فركبها، وقتلهم فرساناً ورجالة، فظفر بهم وقتل أكثرهم، وأخذ الباقي أسرى، وأرسل بعضهم إلى ميني لينحروا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ وعاد بالباقيين إلى مصر، فقتلوا جميعهم.

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الأولى، توفي عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين، وكان ينوب عنه بدمشق، وهو تفتة من أهله، وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه، وكان شجاعاً، كريماً، فاضلاً، عالماً بالأدب وغيره، وله شعر جيّد من بين أشعار الملوك.

وكان ابتداء مرضه أنّه خرج من دمشق إلى غزو الفرنج، فمرض، وعاد مريضاً، فمات، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين، وقد عبر الفرات إلى الديار الجزريّة، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدّم إلى دمشق ليكون مقدّماً على عسكرها.

وفيها مات فخر الدولة أبو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطّلب. (٤٩٢/١١) كان أبوه وزير الخليفة، وأخوه أستاذ الدار، فتصوّف هو من زمن الصبا، وبنى مدرسة ورباطاً ببغداد عند عقد المصطنع، وبنى جامعاً بالجانب الغربي منها.

وفيها توفي الأمير أبو منصور هاشم ولد المستضيء بأمر الله ودفن عند أبيه.

وفيها توفي أبو العباس أحمد بن عليّ بن الرفيعي من سواد واسط، وكان صالحاً ذا قبول عظيم عند الناس، وله من التلامذة ما لا يُحصى. (٤٩٣/١١)

ذكر مُلك صلاح الدين حلب

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من عين تاب إلى حلب، فنزل عليها في المحرم أيضاً، في الميدان الأخضر، وأقام به عدة أيام، ثم انتقل إلى جبل نجوشن فنزل بأعلاه، وأظهر أنه يريد [أن] يبني مساكن له ولأصحابه وعساكره، وأقام عليها أياماً والقتال بين العسكرين كل يوم.

وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، ومعه العسكر النوري، وهم مجتهدون في القتال، فلما رأى كثرة الخرج، كأنه شح بالمال، فحضر يوماً عنده بعض أجناده، وطلبوا منه شيئاً، فاعتذر بقله المال عنده، فقال له بعضهم: من يريد [أن] يحتفظ مثل حلب يخرج الأموال، ولو باع حلي نسائه؛ فمال حينئذٍ إلى تسليم حلب وأخذ العوض منها، وأرسل مع (٤٩٧/١١) الأمير طمان الباروقي، وكان يميل إلى صلاح الدين وهو معه، فلهاذا أرسله فقرر قاعدة الصلح على أن يسلم عماد الدين حلب إلى صلاح الدين ويأخذ عوضها سنجار، ونصيبين، والخابور، والرقة، وسروج، وجرت اليمين على ذلك ويأخذها بأوكس الأثمان، أعطى حصناً مثل حلب، وأخذ عوضها قرى ومزارع، فنزل عنها ثامن عشر صفر، وتسلمها صلاح الدين، فعجب الناس كلهم من ذلك، وقبحوا ما أتى، حتى إن بعض عامة حلب أحضر آجانة وماء وناداه: أنت لا يصلح لك الملك، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب، وأسمعهو المكروه.

واستقر مُلك صلاح الدين بملكها، وكان مزليلاً، فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرف هار، وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له.

وسار عماد الدين إلى البلاد التي أعطاها عوضاً عن حلب فتسلمها، وأخذ صلاح الدين حلب، واستقر الحال بينهما: إن عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره، إذا استدعاه لا يحتج بحجة، ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي، قاضي دمشق، مدح صلاح الدين بقصيدة منها:

وَفَتْحَكُمْ حَلْبًا بِالسَّيْفِ فِي صَفَرٍ مُبَشِّرٌ بَفَتْوحِ الْقُدْسِ فِي رَجَبٍ
فَوَافَقَ فَتْحَ الْقُدْسِ فِي رَجَبِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَمِائَةٍ
عَلَى مَا نَذَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين: فأعطياه عن حلب كذا وكذا، وهو صرف على الحقيقة أخذنا فيه الدنانير وأعطياه الدراهم، ونزلنا عن القرى، وأحرزنا العواصم. (٤٩٨/١١)

وكتب أيضاً: أعطياه ما لم يخرج عن اليد، يعني أنه متى شاء أخذه لعدم حصاته.

وكان في جملة من قُتل على حلب تاج الملوك بوري، آخر

أراد الله أمراً هياً أسبابه. فلما تسلمها صلاح الدين سلمها نور الدين إلى صاحب الحصن، فقيل له قبل تسليمها: إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار، فلو أخذت ذلك وأعطيته جندك وأصحابك، وسلمت البلد إليه فارغاً لكسان راضياً، فإنه لا يطمع في غيره. فامتنع من ذلك وقال: ما كنت لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع، فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة، ودعا إليها صلاح الدين وأمرائه، ولم يكن دخل البلد، وقدم له ولأصحابه من التحف والهدايا أشياء كثيرة. (٤٩٥/١١)

ذكر مُلك صلاح الدين تلّ خالد وعين تاب من أعمال الشام

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار إلى الشام، وقصد تلّ خالد، وهي من أعمال حلب، فحصرها ورماها بالمنجنيق، فنزل أهلها وطلبوا الأمان فأمّتهم، وتسلمها في المحرم أيضاً.

ثم سار منها إلى عين تاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد، وهو أخو الشيخ إسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وصاحبه وكان قد سلمها إليه نور الدين، فبقيت معه إلى الآن. فلما نازله صلاح الدين أرسل إليه يطلب أن يقر الحصن بيده وينزل إلى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وحلف له عليه، فنزل إليه، وصار في خدمته، وكان أيضاً في المحرم من هذه السنة.

ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام

في هذه السنة، في العاشر من المحرم، سار أسطول المسلمين من مصر في البحر فلقوا ببطسة فيها نحو ثلاثمئة من الفرنج بالسلاح الشام، ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل، فقاتلوه، وصبر الفريقان، وكان الظفر للمسلمين، وأخذوا الفرنج أسرى، وقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى، وغنموا ما معهم وعادوا إلى مصر سالمين.

وفيها أيضاً سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحي السداروم إلى نواحي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمع بهم المسلمون، فخرجوا إليهم على طريق (٤٩٦/١١) صدر وأيلة، فانتزع الفرنج من بين أيديهم فنزلوا بماء يقال له العسيلة، وسبقوا المسلمين إليه، فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله، سببانه وتعالى، بلطفه سحابة عظيمة، فمطروا منها حتى رواء، وكان الزمان قيظاً والحر شديداً في برّ مهلك، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم، ووثقوا بنصر الله لهم، وقاتلوا الفرنج، فنصرهم الله عليهم فقتلوه، ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله.

صلاح الدين الأصغر، وكان فارساً شجاعاً، كريماً حليماً، جامعاً لخصال الخير، ومحاسن الأخلاق، طعن في ركبته فانتفكت، فمات منها بعد أن استقرّ الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين، فلما استقرّ أمر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده، وقال له: هذه حلب قد أخذناها، وهي لك. فقال: ذلك لو كان وانا حي. والله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلي. فبكى صلاح الدين وأبكى.

ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين، وقد عمل له دعوة احتفل فيها، فبينما هم في سرور إذ جاء إنسان فأسرّ إلى صلاح الدين بموت أخيه، فلم يظهر لهلاً، ولا جزعاً، وأمر بتجهيزه سرّاً، ولم يعلم عماد الدين ومن معه في الدعوة، واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكر ما هم فيه، وكان هذا من الصبر الجميل.

ذكر فتح صلاح الدين حارم

لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم، وهي من أعمال حلب، بعض المماليك النورية، واسمه سرخك، وولاه عليها الملك الصالح عماد الدين، فامتنع من تسليمها إلى صلاح الدين، فراسله صلاح الدين في التسليم، وقال له: اطلب من الإقطاع ما أردت؛ ووعده الإحسان، فاشتط في الطلب، (٤٩٩/١١) وتردّدت الرسل بينهما، فراسل الفرنج ليحمي بهم، فسمع من معه من الأجناد أنه يرسل الفرنج، فخافوا أن يسلمها إليهم، فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإنعام، فأجابهم إلى ما طلبوا، وسلموا إليه الحصن فرتّب به دزداراً بعض خواصّه.

وأما باقي قلاع حلب، فإن صلاح الدين أقرّ عين تاب بيد صاحبا، كما تقدّم، وأقطع تلّ خالد لأمر يقال له داروم الياروقي، وهو صاحب تلّ باشر.

وأما قلعة إزاز، فإن عماد الدين إسماعيل كان قد خرّبها، فأقطعها صلاح الدين لأمر يقال له دلدرد سليمان بن جندر، فعمرها، وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها وأحوالها وديوانها، وأقطع أعمالها، وأرسل منها فجمع العساكر من جميع بلاده.

ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك

في هذه السنة، في جمادى الأولى، قبض عز الدين مسعود، صاحب الموصل، على نائبه مجاهد الدين قايمار، وكان إليه الحكم في جميع البلاد، وأتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه، ولم ينظر في مضرة صاحبه.

وكان الذي أشار بذلك عز الدين محمود زلفندار، وشرف

وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ إربل وأعمالها، ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين عليّ، وهو صبيّ صغير ليس له من الحكم شيء. والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين، وتحت حكمه أيضاً جزيرة ابن عمر، وهي لمعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مردود، وهو أيضاً صبيّ، والحكم والنواب والعسكر لمجاهد الدين، ويصده أيضاً شهرزور وأعمالها، ونوابه فيها، ودقوقا، ونائبه فيها، وقلعة عقر الحمّديّة، ونائبه فيها، ولم يبق لمعز الدين مسعود بعد أن أخذ صلاح الدين [البلاد] الجزيرة سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين، وهو على الحقيقة الملك واسمه لمعز الدين، فلما قبض عليه امتنع صاحب إربل من طاعة عز الدين، واستبدّ، وكذلك أيضاً صاحب جزيرة ابن عمر، وأرسل الخليفة إلى دقوقا فحصرها وأخذها، ولم يحصل لمعز الدين مسعود غير شهرزور والعقر، وصارت إربل والجزيرة أضرب شيء على صاحب الموصل، وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة له، والكون في خدمته.

وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ، ومعه بشير الخادم الخاص، إلى صلاح الدين في الصلح مع عز الدين، صاحب الموصل، وسير عز الدين معه القاضي محيي الدين أبا حامد بن الشهرزوري في المعنى، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك وقال: ليس لكم مع الجزيرة وإربل حديث. (٥٠١/١١) فامتنع محيي الدين عن ذلك وقال: هما لنا؛ فلم يجب صلاح الدين إلى الصلح إلا بأن تكون إربل والجزيرة معه، فلم يتم أمره، وقوي طمع صلاح الدين في الموصل بقبض مجاهد الدين، فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين أحمد بن صاحب الغراف وزلفندار، عقوبة لهما، ثم أخرج مجاهد الدين، على ما نذكره إن شاء الله.

ذكر غزو تيسان

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولدّه الملك الظاهر غازي، وهو صبيّ، وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج، وكان أكبر الأمراء الأسديّة، وسار إلى دمشق، وتجهّز للغزو، ومعه

عبد المولد الشاعر ويُعرف بالأبله، فمن جملة شعره:
 اراق دَمعي لا بل اراق دَمي ظُلماً يظلم من ريقه الشبم
 ذو قامة كالقضيبي ناضرة وناسط من شقامي سقمي
 حصلت من وعده على اصدق وغد ومن وصلني على التهم
 (٥٠٤/١١)

سنة ثمانين وخمسمائة

ذكر إطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهازم العجم

في هذه السنة، في المحرم، أطلق أتابك عز الدين، صاحب الموصل، مجاهد الدين قايناز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان، صاحب قملان وبلاد الجبل، وسيرة إلى البهلوان وأخيه قزل يستجدهما على صلاح الدين، فسار إلى قزل أولاً، وهو صاحب أذربيجان، فلم يمكنه من المضي إلى البهلوان، وقال: ما تختاره أنا أفعله. وجهز معه عسكرياً كثيراً نحو ثلاثة آلاف فارس، وساروا نحو إربل ليحصروها، فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها، ونهبوا وسبوا، وأخذوا النساء قهراً، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم، فسار إليهم زين الدين يوسف، صاحب إربل، في عسكريه، فلقبهم وهم متفرقون في القرى ينهبون ويحرقون، فانتهاز الفرصة فيهم بتفرقهم، وألقى بنفسه وعسكريه على أول من لقيه منهم، فهزمهم، وتمت الهزيمة على الجميع، وغنم الأربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم، وعاد العجم إلى بلادهم منهزمين، وعاد صاحب إربل إلى بلده مظفراً غانماً، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، فكان يحكي: إني ما زلت أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء أفعال العجم، فإني رأيت منه ما لم أكن أظنه يفعلُه مسلم بمسلم، وكنت أنهارهم فلا يسمعون، حتى كان من الهزيمة ما كان. (٥٠٥/١١)

ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب

في هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاد الأندلس، وجاز البحر إليها في جمع عظيم من عساكر المغرب، فإنه جمع وحشد الفارس والراجل. فلما عبر الخليج قصد غربي البلاد، فحصر مدينة شترين، وهي للفرنج، شهراً، فأصابها بها مرض فمات منه في ربيع الأول، وحُمل في تابوت إلى مدينة إشبيلية من الأندلس.

وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهراً، ومات عن غير وصية بالملك لأحد من أولاده، فاتفق رأي قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن [على تملك ولد أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن] فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقرتهم من العدو، فقام في ذلك أحسن

عساکر الشام والجزيرة، وديار بكر، وسار إلى بلد الفرنج، فعبّر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من السنة، فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصدهم يسان فأحرقها وخربها، وأغار على ما هناك، فاجتمع الفرنج، وجاؤوا إلى قبائله، فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه، فأقام عليهم، وقد استندوا إلى جبل هناك، وخذلوا عليهم، فأحاط بهم، وعساكر الإسلام ترميهم بالسهم، وتناوشهم القتال، فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام، وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر، لعل الفرنج يطمعون ويخرجون، فيستدرجونهم ليلغوا منهم غرضاً، فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة.

وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً، ووصلوا فيها إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه والإقدام عليه، فلما كثرت الغنائم معهم (٥٠٢/١١) رأوا العود إلى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى، فعادوا إلى بلادهم على عزم الغزو.

ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهزوا لغزو الكرك، فسار إليه في العساكر، وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب، وهو نائبه بمصر، يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكرك. وكان العادل قد أُرسل إلى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يخرج معه بأهله وماله، فوصل صلاح الدين إلى الكرك في رجب، ووافاه أخوه العادل في العسكر المصري، وكثر جمعه، وتمكن من حصره، [وضعده] المسلمون إلى رضه وملكه، وحصر الحصن من الرض، وتحكم عليه في القتال، ونصب عليه سبعة مجانيق لا تزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً.

وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك، وأنهم يبذلون جهدهم في رده عنهم، فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع، فرحل عنه منتصف شعبان، وسير تقي الدين ابن أخيه إلى مصر نائباً عنه ليتولى ما كان أخوه العادل يتولاه، واستصحب أخاه العادل معه إلى دمشق، وأعطاه مدينة حلب وقلعتها وأعمالها، ومدينة منبج وما يتعلق بها، وسيره إليها في شهر رمضان من السنة، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق. (٥٠٣/١١)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة فتح الرباط الذي بنته أم الخليفة بالمأمونية. وفيها، في ذي الحجة، توفي مكرم بن بختيار أبو الخير الزاهد ببغداد. روى الحديث، وكان كثير البكاء. وفي جمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أبو

قيام، وأقام راية الجهاد، وأحسن السيرة في الناس. وكان ديناً مقيماً للحدود في الخاص والعام، فاستقامت له الدولة وانقادت إليه بأسرها مع سعة أقطارها، ورتب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال، ورتب المقاومة في سائر بلادها، وأصلح أحوالها وعاد إلى مراكش.

ذكر ملك الملمثين بجاية وعودها إلى أولاد عبد المؤمن

في هذه السنة، في شعبان، خرج علي بن إسحاق المعروف بابن غانية وهو من أعيان الملمثين الذين كانوا ملوك المغرب، وهو حيتن صاحب جزيرة ميورقة، إلى بجاية فملكها، وسبب ذلك أنه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر أسطوله فكان عشرين قطعة وسار في جموعه فأرسل في ساحل بجاية، وخرجت خيله ورجالها من الشواني فكانوا نحو مائتي فارس من الملمثين وأربعة

وكان أبوه يوسف حسن السيرة، وكان طريقه ألين من طريق أبيه مع الناس، يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم، وهم أهل خدمته وخاصته. وأحببه الناس ومالوا إليه، وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه، وسلك في بجاية الأموال ما كان أبوه يأخذه، ولم يتعده إلى غيره، واستقامت له البلاد بحسن فعله مع أهلها، ولم يزل كذلك إلى أن توفي، رحمه الله تعالى. (٥٠٦/١١)

ذكر غزو صلاح الدين الكرك

في هذه السنة، في ربيع الآخر، سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو، وجمع عساكره، فأتته من كل ناحية، وممن أتاه نور الدين محمد بن قرا أرسلان، صاحب الحصن. وكتب إلى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك، فنزل الكرك وحصره، وضيق على من به، وأمر بنصب المجانيق على ربه، واشتد القتال، فملك المسلمون الرض، وبقي الحصن، وهو والريض على سطح جبل واحد، إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً، فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه، فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهم من الجرخ والقوس والأحجار من المجانيق، فأمر أن يُبنى بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحته إلى الخندق ولا يصل إليهم شيء من السهم والأحجار، ففعل ذلك، فصاروا يمشون تحت السقائف ويلقون في الخندق ما يطمه، ومجانيق المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهاراً.

وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم وفسانهم يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن، فاجتمعت الفرنج عن آخرها، وساروا إلى نجدتهم عجلين، فلما بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم ويصافقهم، ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك، ف قرب منهم وخيم ونزل، ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسلك إليهم وضيقه، فأقام أياماً يتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم، فلم يبرحوا منه خوفاً على نفوسهم، فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ، وجعل يلازمهم من يعلمه بمسيرهم، فساروا ليلاً إلى الكرك، فلما علم صلاح الدين ذلك علم أنه لا يتمكن حيتن ولا يبلغ غرضه، فسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل إلى نابلس (٥٠٧/١١) أحرقها وخرّبها ونهبها، وقتل فيها وأسر وسبى فأكثر، وسار عنها إلى سبسطية، وبها مشهد زكريا، عليه السلام، وبها كنيسة، وبها جماعة أسرى من المسلمين،

ذكر وفاة صاحب ماردین ومملك ولده

في هذه السنة مات قطب الدين إيلغازي بن نجم الدين بن أبي تمرتاش ابن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردین، وملك بعده ابنه حسام الدين بولق أرسلان وهو طفل وقام بتربيته وتدبير مملكته نظام الدين البقش مملوك أبيه، وكان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم في دولته، وهو رتب البقش مع ولده، وكان البقش ديناً خيراً عادلاً حسن السيرة حليماً، فأحسن تربيته وتزوج أمه، فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته ليخبط وهوج فيه، وكان لنظام الدين هذا مملوك اسمه لؤلؤ قد تحكّم في دولته وحكم

فوصل إلى حلب، وأقام بها إلى أن خرجت السنة، وسار منها فغير إلى أرض الجزيرة، فلما وصل حرّان قبض على مظفر الدين كوكبري بن زين الدين الذي كان سبب ملكه الديار الجزرية.

وسبب قبضه عليه أن مظفر الدين كان يرسل صلاح الدين كل وقت، ويشير عليه بقصد الموصل، ويحسن له ذلك ويقوّي طمعه، حتى أتته بذر له، إذا سار إليها، خمسين ألف دينار، فلما وصل صلاح الدين إلى حرّان لم يفعله بما بذل من المال، وأنكر ذلك، فقبض عليه، ووكل به، ثم أطلقه، وأعاد إليه مدينتي حرّان والرّها، وكان قد أخذهما منه، وإنما أطلقه لأنه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية، لأنهم كلهم علموا بما اعتمده مظفر الدين معه من تملكه البلاد فأطلقه.

وسار صلاح الدين عن حرّان في ربيع الأول، فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ومعزّ الدين سنجر شاه، صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي عزّ الدين صاحب الموصل، وكان قد فارق طاعة عمّه بعد قبض مجاهد الدين، وسار مع صلاح الدين إلى الموصل، فلما وصلوا إلى مدينة بلد سمر أتاك (٥١٢/١١) عزّ الدين والدته إلى صلاح الدين ومعها ابنة عمّه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء، وجماعة من أعيان الدولة، يطلبون منه المصالحة، وبذلوا له الموافقة، والإنجاد بالعساكر ليعود عنهم، وإنما أرسلهنّ لأنه وكلّ من عنده ظنّوا أنّهنّ إذا طلبن منه الشام أجابنّ إلى ذلك، لا سيما ومعهنّ ابنة مخدومه وولي نعمته نور الدين، فلما وصلنّ إليه أنزلهنّ، وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقول، فإشار أكثرهم بإجابتهم إلى ما طلبنّ منه، وقال له الفقيه عيسى وعليّ بن أحمد المشطوب، وهما من بلد الهكارية من أعمال الموصل: مثل الموصل لا يترك لامرأة، فإنّ عزّ الدين ما أرسلهنّ إلّا وقد عجز عن حفظ البلد.

ووافق ذلك هواه، فأعادهنّ خائبات، واعتذر بأعذار غير مقبولة، ولم يكن إرسالهنّ عن ضعف وهن، وإنما أرسلهنّ طلباً لدفع الشرّ بالتي هي أحسن. فلما عُدّن رحل صلاح الدين إلى الموصل وهو كالمتيقّن أنّه يملك البلد، وكان الأمر بخلاف ذلك، فلما قارب البلد نزل على فرسخ منه، وأمنّد عسكره في تلك الصحراء بنواحي الجبل المراقية، وكان يجري بين العسكرين مناوشات بظاهر الباب العمادي، وكتب إذ ذاك بالموصل، وبذل العامة نفوسهم غيظاً وحقاً لرؤيته النساء، فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه، فقدم على رؤيته النساء ندامة الكسعي، حيث فاته حسن الذكر وملك البلد، وعاد على الذين أشاروا برؤيته باللوم والتوبيخ.

وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره من ليس له هوى في الموصل يقيحون فعله وينكرونها، وأتاه وهو على الموصل زين

فيها فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد، ولم ينزل الأمر كذلك إلى أن مات الولد وله أخ أصغر منه لقبه قطب الدين قزّيه النظام في الملك وليس له منه إلّا الاسم والحكم إلى النظام ولؤلؤ، فبقي كذلك إلى سنة إحدى وستمئة، فمرض النظام (٥٠٩/١١) البش فأتاه قطب الدين بعوده، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ وضربه قطب الدين بسكين معه فقتله ثم دخل إلى النظام وبهده السكين فقتله أيضاً وخرج وحده ومعه غلام له وألقى الرأسين إلى الأجناد وكانوا كلهم قد أنشأهم النظام ولؤلؤ فاذعنوا له بالطاعة، فلما تمكّن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين وأعمالها وقلعة البارعية وصور وهو إلى الآن حاكم فيها حازم في أفعاله.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن شيخ الشيوخ إسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعيد أحمد في شعبان، وكان قد سار في ديوان الخلافة رسولاً إلى صلاح الدين ومعه شهاب الدين بشير الخادم في معنى الصلح بينه وبين عزّ الدين صاحب الموصل، فوصلا إلى دمشق وصلاح الدين يحضر الكرك، فأقاما إلى أن عاد فلم يستقرّ في الصلح أمر ومرضا وطلبا العودة إلى العراق، فأشار عليهما صلاح الدين بالمقام إلى أن يصطلحا، فلم يفعلوا وسارا في الحرّ فمات بشير بالسحنة.

ومات صدر الدين بالرحبة، ودفن بمشهد البوق، وكان واحد زمانه، قد جمع بين رياسة الدين والدنيا، وكان ملجأ لكلّ خائف، صالحاً، كريماً، خليماً، وله مناقب كثيرة، ولم يستعمل في مرضه هذا دواء تركلاً على الله تعالى.

وفيها توفي عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخجندى الفقيه الشافعي، رئيس أصفهان، وكان موته بباب همدان وقد عاد من الحج، وله شعر فمه:

بالجمي دار مسقاماً مدمعي يا سقى الله الجمي من مريع (٥١٠/١١)

ليت شعري والاماني ضلّة هل إلى وادي النضى من
أذنت علوة للواشي بنا ما على علوة لو لم تسمع
أو تحرت رشداً فيما وتسى أو عفت عني فما قلبي معي
رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه. (٥١١/١١)

سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة شاهرهم في هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب الموصل مرة ثانية، وكان مسيره من دمشق في ذي القعدة من السنة المناهية،

ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما، فساروا إلى خيلاط، ونزلوا بطوّانة بالقرب من خيلاط، وسار صلاح الدين إلى ميّافارقين، وأمّا البهلوان فإنه سار إلى خيلاط، ونزل قريباً منها، وتزوّدت رسل أهل خيلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدين، ثمّ إنهم أصلحوا أمرهم مع البهلوان، وصاروا من حزبه وخطبوا له.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن

في هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود، صاحب الحصن وأمد، لما كان صلاح الدين على الموصل، وخلف ابنين، فملك (٥١٥/١١) الأكبر منهما واسمه سقمان، ولقبه قطب الدين، وتولّى تدبير الأمور وزيره القوام بن سماعا الأسعدي.

وكان عماد الدين بن قرا أرسلان قد سيّره أخوه نور الدين في عساكره إلى صلاح الدين، وهو يحاصر الموصل، وهو معه، فلما بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده لصغر أولاده، فتعذّر عليه ذلك، فسار إلى حرّث برّث فملكها، وهي بيد أولاده إلى سنة عشرين وسّماقة، ولما حصر صلاح الدين ميّافارقين حضر عنده ولد نور الدين فأقرّه على ملك أبيه، ومن جملة أمد، وكانوا خافوا أن يأخذها منهم، فلم يفعل، وردّهم إلى بلادهم، وشرط عليهم أن يراجعوه فيما يفعلونه، ويصدروا عن أمره ونهيه، وربّ مع أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه.

ذكر ملك الدين ميّافارقين

لما سار صلاح الدين إلى خيلاط جعل طريقه على ميّافارقين مطمع ملكها، حيث كان صاحبه قطب الدين، صاحب ماردين، قد توفي كما ذكرنا، وملك بعده ابنه، وهو طفل، وكان حكمها إلى شاه أرمن، وعسكره فيها. فلما توفي طمع في أخذها، فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال، وبها زوجة قطب الدين المتوفي، ومعها بنات لها منه، وهي أخت نور الدين محمد، صاحب الحصن، فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أوّل جمادى الأولى.

وكان المقدّم على أجنادها أميراً اسمه يرتقش، ولقبه أسد الدين، وكان (٥١٦/١١) شجاعاً شهماً، يحفظ البلد، فأحسن إليه، واشتد القتال عليه ونصبت المجانيق والعرادات، فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد منها. فلما رأى ذلك عدل عن القوة والحرب إلى أعمال الحيلة، فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها: إنّ أسد الدين يرتقش قد مال إلينا في تسليم البلد ونحن نرعى حقّ أخيك نور الدين فيك بعد وفاته، ونريد [أن] يكون لك في هذا الأمر نصيب، وأنا أزوّج بناتك بأولادي وتكون ميّافارقين وغيرها لك ويحكمك. ووضع من أرسل إلى أسد يعرفه أنّ الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد إلى السلطان، وأنّ من بخيلاط قد كاتبوه ليسلموا إليه، فخذ لنفسك.

الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل، فأنزله معه أخوه مظفر الدين كوكبري وغيرهما من الأمراء بالجانب الشرقي من الموصل، وسيّر من المنزلة عليّ بن أحمد المشطوب الهكاري إلى قلعة الجديّدة من بلد الهكاريّة، فحصرها واجتمع (٥١٣/١١) عليه من الأكراد والهكاريّة كثير، وبقي هناك إلى أن رحل صلاح الدين عن الموصل.

وكان عامّة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقي من العسكر ويعودون، ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ أنابك عزّ الدين صاحبها أنّ نائبه بالقلعة زلفندار يكاتبه، فمنعه من الصعود إلى القلعة وعاد يقتدي برأي مجاهد الدين، وكان قد أخرجه، كما ذكرناه، ويصدر عن رأيه، وضبط الأمور، وأصلح ما كان فسد من الأحوال، حتى آل الأمر إلى الصلح، على ما نذكره إن شاء الله.

وحضر عند صلاح الدين إنسان بغداديّ أقام بالموصل، ثمّ خرج إلى صلاح الدين، فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل إلى ناحية نينوى، وقال: إنّ دجلة إذا نُقلت عن الموصل عطش أهلها فملكناها بغير قتال. فظنّ صلاح الدين أنّ قوله صدق، فعزم على ذلك، حتى علم أنّه لا يمكن قطعه بالكليّة، فإنّ المدّة تطول، والتعب يكثر، ولا فائدة وراءه، وبقية عنده أصحابه، فأعرض عنه.

وأقام بمكانه من أوّل ربيع الآخر إلى أن قارب آخره، ثمّ رحل عنها إلى ميّافارقين. وكان سبب ذلك أنّ شاه أرمن، صاحب خيلاط، توفي بها تاسع ربيع الآخر، فوصل الخبر بوفاته في العشرين منه، فعزم على الرحيل إليها وتملكها، حيث إنّ شاه أرمن لم يخلف ولداً ولا أحدًا من أهل بيته يملك بلاده بعده، وإنّما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتسر ولقبه سيف (٥١٤/١١) الدين، فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه، فاختلفوا، فأما من هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها، وأمّا من يكره أذى البيت الأنابكيّ فإنه أشار بالرحيل، وقال: إنّ ولاية خيلاط أكبر وأعظم، وهي سائبة لا حافظ لها، وهذه لها سلطان يحفظها ويذب عنها، وإذا ملكنا تلك سهّل أمر هذه وغيرها، فتردّ في أمره، فاتفق أنّه جاءه كتّيب جماعة من أعيان خيلاط، من أهلها وأمرائها، يستدعونه ليسلموا إليه البلد، فسار عن الموصل، وكانت مكاتبة من كاتبه خديعة ومكرّة، فإنّ شمس الدين البهلوان بن إيلدكر، صاحب أذربيجان وهمدان وتلك المملكة، قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم، وكان قبل ذلك قد زوج شاه أرمن، على كبر سنّه، بنتاً له ليجعل ذلك طريقاً إلى ملك خيلاط وأعمالها، فلما بلغهم مسيره إليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه إليهم ليسلموا البلد إليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان، ويبقى البلد بأيديهم، فسار صلاح الدين وسيّر في مقدّمته ابن عمّه ناصر الدين محمد بن شيركوه،

وأعطاهم مالا، ولما وصل إلى حمص راسل جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا ماث صلاح الدين، وأقام بـحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها، فعوفي وبلغه الخبر على جهته، فلم يمهض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الأضحى فإنه شرب الخمر وأكثر منها، فأصبح ميتا، فذكروا، والعهدة عليهم، أن صلاح الدين وضع عليه إنسانا يقال له الناصح بن العميد، وهو من دمشق، فحضر عنده، ونامده وسقه سماً، فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح، فسألوه عنه، فقيل: إنه سار من ليته إلى صلاح الدين، فكان هذا مما قوى الظن، فلما توفي أعطى أقطاعه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شيئا كثيرا، فحضر صلاح الدين في حمص واستعرض تركته، وأخذ أكثرها ولم يترك إلا ما لا خير فيه.

وبلغني أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين، بعد موت أبيه بسنة، فقال له: إلى أين بلغت من القرآن؟ فقال: إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. فغضب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه. (٥١٩/١١)

ذكر الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل

في هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها من الخلق ما لا يحصر، ودامت عدة سنين، وتقطعت الطرق، ونهبت الأموال، وأريق الدماء.

وكان سببها أن امرأة من التركمان تزوجت بإنسان تركماني، واجتازوا في طريقهم بقلعة من الزوزان للأكراد، فجاء أهلها وطلبوا من التركمان وليمة العرس، فاستمعو من ذلك، وجري بينهم كلام صاروا منه إلى القتال، فقتل صاحب تلك القلعة فأخذ الزوج قتلته، فهاجت الفتنة، وقام التركمان على ساق، وقتلوا جمعا كثيرا من الأكراد، وثار الأكراد فقتلوا من التركمان أيضا كذلك، وتفاقم الشر ودام.

ثم إن مجاهد الدين قايمار، رحمه الله، جمع عدة جمعا من رؤساء الأكراد والتركمان، وأصلح بينهم، وأعطاهم الخلع والياب وغيرها، وأخرج عليهم مالا جمعا، فانقطعت الفتنة وكفى الله شرها، وعاد الناس إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة والأمان.

ذكر تلك الملقمين والعرب الإفريقية وعودها إلى الموحدين

قد ذكرنا سنة ثمانين ملك علي بن إسحاق الملقم بجاية، وإرسال يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب المغرب، العساكر واستعادتها، فسار علي إلى (٥٢٠/١١) إفريقية، فلما وصل إليها اجتمع سليم ورياح ومن هنالك من العرب، وانضاف إليهم

وأتفق أن رسولا وصله من خلاط، يبذلون له الطاعة، وقالوا له من الاستدعاء إليهم ما كانوا يقولونه، فأمر صلاح الدين الرسول، فدخل إلى ميفارقين، وقال لأسد: أنت عمن تقتال، وأنا قد جئت في تسليم خلاط إلى صلاح الدين! فسقط في يده، وضعفت نفسه، وأرسل يقترح أقطاعا ومالا، فأجيب إلى ذلك وسلم البلد سلخ جمادى الأولى، وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات الخاتون، وأقر بيدها قلعة الهتاخ لتكون فيها هي وبناتها.

ذكر عود صلاح الدين إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين أتابك عز الدين

وبين أتابك عز الدين

لما فرغ صلاح الدين من أمر ميفارقين، وأحكم قواعدها، وقرر أقطاعاتها وولاياتها، أجمع على العود إلى الموصل، فسار نحوها، وجعل طريقه (٥١٧/١١) على نصيبين، فوصل إلى كصر زمار، والزمان شتاء، فنزلها في عسكرة، وعزم على المقام بها وإقطاع جميع بلاد الموصل، وأخذ غلالها ودخلها، وإضعاف الموصل بذلك، إذ علم أنه لا يمكنه التغلب عليها. وكان نزوله في شعبان، وأقام بها شعبان ورمضان، وترددت الرسل بينه وبين عز الدين، صاحب الموصل، وصار مجاهد الدين يرأسل ويتقرب، وكان قوله مقبولا عند سائر الملوك لما علموا من صحته.

فبينما الرسل تردد في الصلح، إذ مرض صلاح الدين، وسار من كفر زمار عائدا إلى حران، فلحقه الرسل بالإجابة إلى ما طلب، فقرر الصلح، وحلف على ذلك، وكانت القاعدة أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي، وجميع ما وراء الزاب من الأعمال، وأن يحطب له على منابر بلاده، ويضرب اسمه على السكة، فلما حلف أرسل رسله فحلف عز الدين له، وتسلموا البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها.

ووصل صلاح الدين إلى حران، فأقام بها مريضا، وأمنت الدنيا، وسكنت الدهماء، وانحسرت مادة الفتن، وكان ذلك بتوصل مجاهد الدين قايمار، رحمه الله.

وأما صلاح الدين فإنه طال مرضه بحران، وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل، وله حبيبة حبيب، وولده الملك العزيز عثمان، واشتد مرضه حتى أيسوا من عافيته، فخلف الناس في ولادته، وجعل لكل منهم شيئا من البلاد معلوما، وجعل إخوانه العادل وصيا على الجميع، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

ولما كان مريضا بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، (٥١٨/١١) وله من الأقطاع حمص والرحبة، فسلا من عنده إلى حمص، فاجتاز بحطب وأحضرت جماعة من أجدانها

الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع قراقوش، وقد تقدّم ذكر وصوله إليها، ودخل أيضاً من أتراك مصر مملوك لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين، اسمه بوزابة، فكثّر جمعهم، وقويت شوكتهم، فلما اجتمعوا بلغت عدّتهم مبلغاً كثيراً، وكلّهم كارهة لدولة الموحّدين، واتبعوا جميعهم عليّ ابن إسحق الملقّب، لأنّه من بيت المملكة والرياسة القديمة، وانقادوا إليه، ولقبوه بأمير المسلمين، وقصدوا بلاد إفريقية فملكوها جميعها شرقاً وغرباً إلا مدينتي تونس والمهلبيةّة، فإنّ الموحّدين أقاموا بهما، وحفظوهما على خوف وضيق وشدة، وانضاف إلى المفسد الملقّب كلّ مفسد في تلك الأرض، ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشرّ، فخرّبوا البلاد والحصون والقرى، وهتكوا الحرم، وقطعوا الأشجار.

وكان الوالي على إفريقية حيثنّ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتي وهو بمدينة تونس، فأرسل إلى ملك المغرب يعقوب وهو بمراكش يُعلمه الحال، وقصد الملقّب جزيرة باسرا، وهي بقرب تونس، تشتمل على قرى كثيرة، فنزلها وأحاط بها، فطلب أهلها منه الأمان، فأمنهم، فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الأموال والدواب والغلات، وسلبوا الناس حتى أخذوا ثيابهم، وامتدّت الأيدي إلى النساء والصبيان، وتركوهم هلكى فقصّدا مدينة تونس، فأما الأقرباء فكانوا يخدمون ويعملون ما يقوم بقوتهم، وأما الضعفاء فكانوا يستعطون ويسألون الناس، ودخل عليهم فصل الشتاء (٥٢١/١١) فأهلكهم البرد، ووقع فيهم الوباء، فأحصي الموتى منهم فكانوا اثني عشر ألفاً، هذا من موضع واحد، فما الظنّ بالباقي؟

ولما استولى الملقّب على إفريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للإمام الناصر لدين الله الخليفة العباسي، وأرسل إليه يطلب الخلع والأعلام السود. وقصد في سنة اثنتين وثمانين (وخمسمائة) مدينة قفصة فحصرها، فأخرج أهلها الموحّدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلّموها إلى الملقّب، فرتّب فيها جنداً من الملقّمين والأتراك، وحصنها بالرجال مع حصانها في البناء.

وأما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فإنّه لمّا وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحّدين، وقصد قلّة العسكر لقلّة القوت في البلاد، ولما جرى فيها من التخريب والأذى، وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، فوصل إلى مدينة تونس، وأرسل ستّة آلاف فارس مع ابن أخيه، فساروا إلى عليّ بن إسحق الملقّب ليقاتلوه، وكان بقفصة، فوافّقه، وكان مع الموحّدين جماعة من الترك، فخامروا عليهم، فانهزم الموحّدون وقُتل جماعة من مقدّمهم، وكان ذلك في ربيع الأوّل سنة ثلاث وثمانين.

فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى نصف رجب من

في هذه السنة فارق الرضيّ أبو الخير إسماعيل القزويني الفقيه الشافعي بغداد، وكان مدرّس النظاميّة بها، وعاد إلى قزوین، ودرّس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخل، وكان من العلماء الصالحين.

وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد وبين أهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم وقتل، ثمّ أصلح النقيب الظاهر بينهم.

وفيها توفيّ الفقيه مهذّب الدين عبد الله بن أسعد الموصليّ، وكان عالماً بمذهب الشافعيّ، وله نظم حسن ونثر أجاد فيه، وكان من محاسن الدنيا، وكانت وفاته بحمص (٥٢٣/١١).

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز إلى مصر وإخراج

الأفضل من مصر إلى دمشق وإقطاعه إيّاها

في هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الأفضل عليّاً من مصر إلى دمشق، وأقطعها له، وأخذ حلب من أخيه العادل، وسوّيه مع ولده العزيز عثمان إلى مصر، وجعله نائباً عنه، واستدعى تقيّ الدين منها.

وسبب ذلك أنّه كان قد استتاب تقيّ الدين بمصر، كما ذكرناه، وجعل معه ولده الأكبر الأفضل عليّاً، فأرسل تقيّ الدين يشكو من الأفضل، ويذكر أنّه قد عجز عن جباية الخراج معه لأنّه كان حليماً كريماً إذا أراد تقيّ الدين معاقبة أحد منته، فأجضر. ولبّد الأفضل،

فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى نصف رجب من

الشجر ليحيى فراخه، وأنت سلّمت الحصون إلى أهلِكَ، وجعلت أولادك على الأرض. هذه حلب بيد أخيك، وحماة بيد تقي الدين، وحمص بيد ابن شيركوه، وابنك العزيز مع تقي الدين بمصر يُخرجه أي وقت أراد، وهذا ابنك الآخر مع أخيك في خيمه يفعل به ما أراد. فقال له: صدقت، واكنم هذا الأمر. ثم أخذ حلب من أخيه، وأخرج تقي الدين من مصر، ثم أعطى أخاه العادل حرّان والرّها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر، لتبقى لأولاده، فلم ينفعه ما فعل لما أراد الله تعالى ثقل المنيك عن أولاده على ما ذكره.

ذكر وفاة البهلوان ومُلك أخيه قزل

في هذه السنة، في أولها، توفي البهلوان محمد بن إيلدكز، صاحب بلد الجبل والريّ وأصفهان وأذربيجان وأرّانية وغيرها من البلاد، وكان عادلاً، حسن السيرة، عاقلاً، حليماً، ذا سياسة حسنة للمُلك، وكانت تلك البلاد في أيّامه آمنة والرعابا مطمئنة، فلما مات جرى بأصفهان بين الشافعية والحنفية من الحروب والقتل والإحراق والنهب ما يحلّ عن الوصف، وكان قاضي البلد رأس الحنفية، وابن الخجندى رأس الشافعية، وكان بمدينة الريّ (٥٢٦/١١) أيضاً فتنة عظيمة بين السنة والشيعة، وتفرّق أهلها، وقُتل منهم، وخربت المدينة وغيرها من البلاد.

ولما مات البهلوان ملك أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان، وكان السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان، والخطبة له في البلاد بالسلطنة، وليس له من الأمر شيء، وإنما البلاد والأمراء والأموال بحكم البهلوان، فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل، ولحق به جماعة من الأمراء والجند، فاستولى على بعض البلاد، وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها إن شاء الله تعالى.

ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمّص صاحب طرابلس إلى

صلاح الدين

كان القمّص، صاحب طرابلس، واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلي، قد تزوّج بالقومصة، صاحبة طبرية، وانتقل إليها، وأقام عندها بطبرية. ومات ملك الفرنج بالشام، وكان مجذوماً، وأوصى بالمُلك إلى ابن أخت له، وكان صغيراً، فكفله القمّص، وقام بسياسة الملك وتبديره لأنّه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأنًا، ولا أشجع ولا أجود رأياً منه، فطمع في المُلك بسبب هذا الصغير، فاتّفق أن الصغير توفي، فانتقل الملك إلى أمّه، فبطل ما كان القمّص يحدث نفسه [به]. (٥٢٧/١١)

ثم إن هذه الملكة هويت رجلاً من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كي، فتزوّجته، ونقلت الملك إليه، وجعلت التاج على رأسه، وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والإستبارية

وقال لتقي الدين: لا تحتجّ في الخراج وغيره بحجة، وتغيّر عليه بذلك، وظنّ أنّه يريد إخراج ولده الأفضل ليفرد بمصر حتى يملكها إذا مات صلاح الدين، فلما قوي هذا الخاطر عنده أحضر أخاه العادل من حلب وسيّره إلى مصر ومعه ولده العزيز عثمان، واستدعى تقي الدين إلى الشام، فامتنع من الحضور، وجمع الأجناد والمساكر ليسير إلى المغرب، إلى مملوكه قراقوش، وكان قد استولى على جبال نفوسة (٥٢٤/١١) وبرقة وغيرها، وقد كتب إليه يرغبه في تلك البلاد، فتجهّز للمسير إليه، واستصحب معه أنجاد العسكر وأكثر منهم.

فلما سمع ذلك صلاح الدين ساءه، وعلم أنّه إن أرسل إليه يمنعه لم يُجبه، فأرسل إليه يقول له: أريد أن تحضر عندي لأودّعك، وأوصيك بما تفعله. فلما حضر عنده منعه، وزاد في إقطاعه، فصار إقطاعه حماة، ومنبج، والمعرّة، وكفرطاب، وميافارقين، وجبل جور، بجميع أعمالها، وكان تقي الدين قد سيّر في مقدّمته مملوكه بوزابة، فاتصل بقراقوش، وكان منهم ما ذكرناه سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وقد بلغني من خبير بأحوال الدين أنّه إنّما حملته على أخذ حلب من العادل وإعادة تقي الدين إلى الشام، أنّ صلاح الدين لما مرض بخران، على ما ذكرناه، أُرْجف بمصر أنّه قد مات، فجرى من تقي الدين حركات من يريد [أن] يستبد بالملك، فلما عوفي صلاح الدين بلغه ذلك، فأرسل الفقيه عيسى الهكاري، وكان كبير القدر عنده، مطاعاً في الجند، إلى مصر، وأمره بإخراج تقي الدين والمقام بمصر، فسار مجداً، فلم يشعر تقي الدين إلا وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة، وأرسل إليه يأمره بالخروج منها، فطلب أن يمهّل إلى أن يتجهّز، فلم يفعل، وقال: تقيم خارج [المدينة] وتجهّز. فخرج وأظهر أنّه يريد الدخول إلى الغرب، فقال له: اذهب حيث شئت. فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطلبه، فسار إلى الشام، فأحسن إليه، ولم يُظهر له شيئاً ممّا كان لأنّه كان حليماً، كريماً، صبوراً، رحمه الله.

وأما أخذ حلب من العادل، فإنّ السبب فيه أنّه كان من جملة جنده أمير كبير اسمه سليمان بن جندر، بينه وبين صلاح الدين صفة قديمة، قبل المُلك، وكان صلاح الدين يعتمد عليه، وكان عاقلاً ذا مكر ودهاء، فاتّفق أنّ الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنّه، وقَدّم غيره عليه، (٥٢٥/١١) فتأثّر بذلك.

فلما مرض صلاح الدين، وعوفي، سار إلى الشام، فسايره يوماً سليمان ابن جندر، فجرى حديث مرضه، فقال له سليمان: بأي رأي كنت تظنّ أنّك تمضي إلى الصيد فلا يخالفونك؟ بالله ما تستحي يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة؟ قال: وكيف ذلك؟ وهو يضحك، قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عُشّاً لفراخه قصد أعالي

وفيهما توفي عبد الله بن بَرِيّ عبد الجيّار بن بَرِيّ النحويّ المصريّ وكان إماماً في النحو، رحمه الله تعالى. (٥٢٩/١١)

سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

اتَّفَقَ أوَّلُ هذه السنة يوم السبت، وهو يوم النوروز السلطانيّ، وأربع عشر آذار سنة ألف وأربع مائة وثمان وتسعين إسكندريّة. وكان القمر والشمس في الحمل، واتَّفَقَ أوَّلُ سنة العرب، وأوَّلُ سنة الفرس التي جدّدهما أخيراً، وأوَّلُ سنة الروم، والشمس والقمر في أوَّلِ البروج، وهذا يبعد وقوع مثله.

ذكر حصر صلاح الدين الكرك

في هذه السنة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر النّاس للجهاد، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق، وإلى مصر وسائر بلاد الشام، يدعوهم إلى الجهاد، ويحثّهم عليه، ويأمرهم بالتجهّز له بغاية الإمكان، ثمّ خرج من دمشق، وأواخر المحرم، في عسكرها الخاص، فسار إلى رأس الماء، وتلاحقت به العساكر الشاميّة، فلمّا اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل عليّاً ليجمع إليه من يرد إليه منها، وسار هو إلى بُصْرَى جريدة.

وكان سبب مسيره وقصده إليها أنّه أتته الأخبار أنّ البرنس أرناط، (٥٣٠/١١) صاحب الكرك، يريد أن يقصد الحجّاج ليأخذهم من طريقهم، وأظهر أنّه إذا فرغ من أخذ الحجّاج يرجع إلى طريق العسكر المصريّ يصدّهم عن الوصول إلى صلاح الدين، فسار إلى بُصْرَى ليمنع البرنس أرناط من طلب الحجّاج، ويلزم بلده خوفاً عليه.

وكان من الحجّاج جماعة من أقاربه منهم محمّد بن لاجين، وهو ابن أخت صلاح الدين، وغيره، فلمّا سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه، وانقطع عمّا طمع فيه، فوصل الحجّاج سالمين. فلمّا وصلوا وفرغ سيّره من جهتهم سار إلى الكرك فحصره وضيق عليه وانتظر وصول العسكر المصريّ، فوصلوا إليه على الكرك، وبثّ سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما، فنهبا وخرّبوا وأحرقوا، والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده، وسائر الفرنج قد لزمو طيرف بلادهم، خوفاً من العسكر الذي مع ولده الأفضل، فتمكّن من الحصر والنهب والتخريب والتخريب؛ هذا فعل صلاح الدين.

ذكر الفارة على بلد عكا

أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفضل يأمره أن يرسل قطعة سالحة من الجيش إلى بلد عكا يتهوّن ويخربونه، فسير مظفر الدين كوكبري بن زين الدين، وهو صاحب حرّان والرّها، وأضاف

والدوايّة والباروتيّة، وأعلمتهم أنّها قد ردّت المُلْك إليه، وأشهدتهم عليها بذلك، فأطاعوه، ودانوا له، فعظم ذلك على القمص، وسقط في يديه، وطولب بحساب ما جَبَى من الأموال مدّة ولاية ذلك الصبيّ، فادّعى أنّه أنفق عليه، وزاده ذلك نفوراً، وجاهر بالمشاقة والمباينة، وراسل صلاح الدين، واتّمس إليه، واعتضد به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك، ووعد النصر، والسعي له في كلّ ما يريد، وضمن له أنّه يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة، وكان عنده جماعة من فرسان القمص أسرى فأطلقهم، فحلّ ذلك عنده أعظم محلّ، وأظهر طاعة صلاح الدين، ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج، فاختلفت كلمتهم وتفرّق شملهم، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنقاذ البيت المقدّس منهم، على ما نذكره إن شاء الله.

وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبريّة، فشنت الغارات على بلاد الفرنج، وخرجت سالمة غانمة، فوهن الفرنج بذلك، وضعفوا وتجرّأ المسلمون عليهم وطعموا فيهم.

ذكر غدر البرنس أرناط

كان البرنس أرناط، صاحب الكرك، من أعظم الفرنج وأخبتهم، وأشدّهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم، فلمّا رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرّة بعد مرّة، وبالفارة على بلاده كرتة بعد أخرى، (٥٢٨/١١) فذلّ، وخضع، وطلب الصلح من صلاح الدين، فأجابته إلى ذلك، وهادنه وتحالفا، وتردّت القوازل من الشام إلى مصر، ومن مصر إلى الشام.

فلمّا كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الأموال، كثيرة الرجال، ومعها جماعة سالحة من الأجناد، فغدر اللّعين بهم، وأخذهم عن آخرهم، وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم، وأودع السجون من أسره منهم، فأرسل إليه صلاح الدين يلومه، ويقتح فعله وغدره، ويتهذّه إن لم يطلق الأسرى والأموال، فلم يجب إلى ذلك، وأصرّ على الامتناع، فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر [به]، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

كان المنجّمون قديماً وحديثاً قد حكموا أنّ هذه السنة التاسعة والعشرين من جمادى الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان، ويحدث باقترانها رياح شديدة، وتزأب يهلك العباد ويخرب البلاد، فلمّا دخلت هذه السّنة لم يكن لذلك صحّة، ولم يهب من الرياح شيء البتّة، حتى إنّ غلال الحنطة والشعير تأخّر نجازها لعدم الهواء الذي يذري به الفلاحون، فأكذب الله أحداثه المنجّمين وأخزاهم.

إليه قابماز النجمي وولديهم الياروفي، وهما من أكابر الأمراء، وغيرهما، فساروا ليلاً، وصباحوا (٥٣١/١١) صفورية أواخر صفر، فخرج إليهم الفرنج في جمع من الداوية والاستبارية وغيرهما، فالتقوا هناك، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود. ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، فانهزم الفرنج، وقتل منهم جماعة وأسر الباقون. وفيمن قتل مقدم الاستبارية، وكان من فرسان الفرنج المشهورين، وله التكايات العظيمة في المسلمين، ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد، وغنموا وسبوا، وعادوا سالمين، وكان عودهم على طبرية، وبها القمص، فلم ينكر ذلك، فكان فتحاً كثيراً، فإن الداوية والاستبارية هم جمرة الفرنج، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

ذكر عود صلاح الدين إلى عسكره ودخوله إلى الفرنج

لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاستبارية والداوية، وقتل من قتل منهم، وأسر من أسر، عاد عن الكرك إلى العسكر الذي مع ولده الملك الأفضل، وقد تلاحت سائر الأمداد والعساكر، واجتمع بهم، وساروا جميعاً، وعرض العسكر، فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس ممن له الأقطاع والجامكية سوى المتطوعة، فعياً عسكره قلباً وجناحين، ويمنة وميسرة، وجالسية وساقية، وعرف كل منهم موضعه وموقفه، وأمره بملازمته، وسار على تعبته، فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية، وكان القمص قد انتسب إلى صلاح الدين، كما ذكرناه، وكتبه متصلة إليه يعده النصر، ويمينه المعاضدة، وما يعدمه الشيطان إلا غروراً.

فلما رأى الفرنج اجتماع العساكر الإسلامية، وتصميم العزم على قصد بلادهم، (٥٣٢/١١) أرسلوا إلى القمص البطرك والقسوس والرهبان، وكثيراً من الفرسان، فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين، وقالوا له: لا شك أنك أسلمت، وإلا لم تصبر على ما فعل المسلمون أمس بالفرنج، يقتلون الداوية والاستبارية، ويأسرونهم، ويجتازون بهم عليك، وأنت لا تنكر ذلك ولا تمنع عنه، ووافقه على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس، وتهذبه البطرك أنه يحرمه، ويفسخ نكاح زوجته، إلى غير ذلك من التهديد، فلما رأى القمص شدة الأمر عليه خاف، فاعتذر وتصلل وتاب، فقبلوا عذره، وغفروا زلته، وطلبوا منه الموافقة على المسلمين، والمؤازرة على حفظ بلادهم، فلجابهم إلى المعاضحة والانضمام إليهم، والاجتماع معهم، وسار معهم إلى ملك الفرنج، واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم، ولم تغن عنهم من الله شيئاً، وجمعوا فارمهم وراجلهم، ثم ساروا من عكا إلى صفورية، وهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، قد ملئت قلوبهم زعماً.

ذكر فتح صلاح الدين طبرية

لما اجتمع الفرنج وساروا إلى صفورية، جمع صلاح الدين

ثم رحل من الأقحوانة، اليوم الخامس من نزوله بها، وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر، فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره، وصعد جبلها، وتقدم حتى قارب الفرنج، فلم ير منهم أحداً، ولا قارقوا خيامهم، فنزل وأمر العسكر بالنزول، فلما جت الليل جعل في مقابل الفرنج من يصنعهم من القتال، ونزل جريدة إلى طبرية وقائلاً، وتب بعض أربابها، وأخذ المدينة بحوة في ليلة، ولجأ من بها إلى القلعة التي لها، فامتنعوا بها، وفيها صاحبها، ومعها أولادها، فتهب المدينة وأحرقها.

فلما سمع الفرنج نزول صلاح الدين إلى طبرية وملكه المدينة، وأخذ ما فيها، وإحراقها، وإحراق ما خلف مما لا يحمل، اجتمعوا للمشورة، فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم، ومنعهم عن طبرية، فقال القمص: إن طبرية لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل، وبقي القلعة، وفيها زوجتي، وقد زهيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعوده، فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذي فتح صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها، فمتى فازقها وعاد عنها أخذناها، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره، ولا يقدر على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهلهم، فيضطر إلى تركها، ونفك من أسرنا.

فقال له برنيس أرناط، صاحب الكرك: قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريد، وتحيل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك: إنهم كثير، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب.

فقال: أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت، وإن تأخرتم تأخرت، (٥٣٤/١١) وسيترون ما يكون.

فقوي عزهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم، فرحلوا من عسكرهم الذي لزموه، وقربوا من عساكر الإسلام، فلحقا سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره، وكان قريباً منه،

وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم. وكان المسلمون قد نزلوا على الماء، والزمان قيظ شديد الحر، فوجد الفرنج العطش، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين، وكانوا قد أفتوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد، وهو يوم السبت، وقد أخذ العطش منهم.

وأما المسلمون فإنهم طعموا فيهم، وكانوا من قبل يخافونهم، فباتوا يحرض بعضهم بعضاً، وقد وجدوا ريح النصر والظفر، وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان، زاد طمعهم وجراتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم، ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية، وفرق فيهم النشاب.

ذكر انهزام الفرنج بحطين

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، فركبوا وتقدموا إلى الفرنج، فركب الفرنج، ودنا بعضهم من بعض، إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخدلوا، فاقتلوا، واشتد القتال، وصبر الفريقان، ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المتشتر. (٥٣٥/١١) فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً. هذا القتال بينهم، والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية، لعلهم يردون الماء.

فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم، ووقف بالمعسكر في وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم، ويأمرهم بما يصلحهم، وينهاهم عما يضرهم، والناس ياتمون لفرله، ويقفون عند نهيه، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكراً على صف الفرنج، فقاتل قتالاً عجب منه الناس، ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه، فحين قُتل حمل المسلمون حملة منكراً فضعضوا الكفار وقتلوا منهم كثيراً، فلما رأى القمص شدة الأمر على أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين، فاتفق هو وجماعته وحملوا على من يليهم، وكان المقدّم من المسلمين، في تلك الناحية، تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب، علم أنه لا سبيل إلى الوقوف في وجوههم، فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه، ففعلوا، فخرج القمص وأصحابه ثم التأم الصف.

وكان بعض المتطوعة من المسلمين قد ألقى في تلك الأرض ناراً، وكان الحشيش كثيراً فاحترق، وكانت الريح على الفرنج، فحملت حر النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار، والدخان، وحر القتال، فلما نهزم القمص سقط في أيديهم وكادوا يستسلمون، ثم علموا أنهم لا ينجحهم من الموت إلا الإقدام عليه، فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون [بها].

المسلمين، على كثرتهم، عن مواقفهم لولا لطف الله بهم، إلا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قُتل منهم، فوهنا لذلك وهناً عظيماً، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، فارتفع من بقي من الفرنج إلى تل بناحية حطين، وأرادوا (٥٣٦/١١) أن ينصبوا خيامهم، ويحموا نفوسهم به، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعواهم عما أرادوا، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم، وأخذ المسلمون صليهم الأعظم الذي يُسمونه صليب الصلوت، ويذكرون أن فيه قطعة من الخشب التي صلب عليها المسيح، عليه السلام، بزعمهم، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك، هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم، فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين.

فحكى لي عن الملك الأفضل، ولد صلاح الدين، قال: كنتُ إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهده، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكراً على من بإزائهم من المسلمين حتى أحقوهم باليدي، قال: فظنرتُ إليه، وقد علته كآبة، وأريد لونه، وأمسك بلحيته، وتقدم، وهو يصيح: كذب الشيطان. قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فضعوا إلى التل، فلما رأيتُ الفرنج قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحتُ من فرحي: هزمناهم! فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى أحقوا المسلمين باليدي، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فالحقوهم بالتل، فصحتُ أنا أيضاً: هزمناهم! فالتفت والذي إليّ وقال: اسكت! ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة. قال: فهو يقول لي، وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، وبكى من فرجه.

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلما لم يجدوا (٥٣٧/١١) إلى الخلاص طريقاً، ونزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فآلقوا خيمة الملك، وأسروهم على بكره أيهم، وفيهم الملك وأخوه، والبرنس أرناط، صاحب الكرك، ولم يكن للفرنج أشد منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضاً صاحب جليل، وابن هنفري، ومقدم الداوية، وكان من أعظم الفرنج شأناً، وأسروا أيضاً جماعة من الداوية، وجماعة من الاستبائية، وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحداً، وما أصيب الفرنج، منذ خرجوا إلى الساحل، وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن، بمثل

هذه الواقعة.

الزحف إلى البلد وقتاله، فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل إذ خرج كثير من أهلها يضرعون، ويطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وخيرهم بين الإقامة والظعن، فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين، وساروا عنها متفرقين، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم، وتركوا الباقي على حاله.

ودخل المسلمون إليها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، وصلوا بها الجمعة في جموع كان للمسلمين قديماً، ثم جعله الفرنج بيعة، ثم جعله صلاح الدين جامعاً. وسلم البلد إلى ولده الأفضل، وأعطى جميع ما كان فيه للدواينة من أقطاع وصياع وغير ذلك للفقهاء عيسى، وغنم المسلمون ما بقي مما لم يطق الفرنج حمله، وكان من كثرتهم يعجز الإحصاء عنه، فأروا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط، والبتدي، والشكر، والسلاح، وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيراً، فإنها كانت مقصداً للتجار الفرنج والروم وغيرهم، من أقصى البلاد وأدناها، وكان كثير منها قد خزنته التجار، وسافروا عنه لكساده، فلم يكتن له من ينقله، ففترق صلاح الدين وابنه الأفضل ذلك جميعه (٥٤٠/١١) على أصحابها، وأكثر ذلك فعله الأفضل لأنه كان مقيماً بالبلد، وكانت شيبته في الكرم معروفة، وأقام صلاح الدين بعبكا عدة أيام لإصلاح حالها، وتقرير قواعدها.

ذكر فتح مجدلية

لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل إلى أخيه العادل بمصر يشّره بذلك، ويأمره بالسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من العسكر، ومحاصرة ما يليه منها، فسارع إلى ذلك، وسار عن مصر فتنازل حصن مجدلية وحصره وغنم ما فيه. وورد كتابه بذلك إلى صلاح الدين، وكانت بشارة كبيرة.

ذكر فتح عدة حصون

في مدة مقام صلاح الدين بعبكا تفرق عسكره إلى الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ومعليا، والشقيف، والفولة، وغيرها من البلاد المجاورة لعبكا، فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها، وسبوا تسامها وأطفالها، وقدموا من ذلك بما سدّ الفضاء، وسير بقي الدين قنزل على ثنتين ليقطع الميرة عنها وعن صور، وسير حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر إلى نابلس فأتى مسبّطية وبها قبر زكريا، فأخذه من أيدي النصاري وسلمه إلى المسلمين، ووصل إلى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالأمان، وتسلم القلعة، وأقام أهل البلد به، وأقرهم على أموالهم (٥٤١/١١).

ذكر فتح يافا

لما خرج العادل من مصر، وفتح مجدلية، كما ذكرنا، سار إلى مدينة يافا، وهي على الساحل، فحصرها وملكها عنوة، ونهبها،

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته، وأحضر ملك الفرنج عنده، وبرنس صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فسقاه ماء مثلوجاً، فشرب، وأعطى فضله برنس صاحب الكرك، فشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني، ثم كلم البرنس، وقرعه بذنوبه، وعدّد عليه غدراته، وقام إليه بنفسته فضرب رقبته وقال: كنت ندرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به: إحداهما لما أراد العسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما أخذ القفل غدرًا، فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك، فسكن جاشه وأثنه.

وأما القمص، صاحب طرابلس، فإنه لما نجا من المعركة، كما ذكرناه، (٥٣٨/١١) وصل إلى صور، ثم قصد طرابلس، ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى مات غيظاً وحنقاً مما جرى على الفرنج خاصة، وعلى دين النصرانية عامة.

ذكر عود صلاح الدين إلى طبرية وملك قلعتها مع المدينة

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بموضع باقي يومه، وأصبح يوم الأحد، فعاد إلى طبرية ونازلها، فأرسلت صاحبها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها، فأجابها إلى ذلك، فخرجت بالجميع، فوقى لها، فسارت آمنة، ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الأسرى فأرملوا إلى دمشق، وأمر بمن أسر من الدواينة والاستارية أن يجمعوا ليقتلهم.

ثم علم أن من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه، فبذل في كل أسير من هذين الصنفين خمسين ديناراً مصريّة، فأحضر عنده في الحال مائتا أسير منهم، فأمر بهم فضربت أعناقهم، وإنما خصّ هؤلاء بالقتل لأنهم أشدّ شوكه من جميع الفرنج، فأراح الناس من شرهم. وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره، ففعل ذلك، ولقد اجتزت بموضع الواقعة بعدها بنحو سنة، فرايت الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد، منها المجتمع بعضه على بعض، ومنها المفترق، هذا سوى ما جحفته السيول، وأخذته السباع في تلك الأكام والوهاد. (٥٣٩/٢١)

ذكر فتح مدينة عكا

لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل إلى عكا يوم الأربعاء، وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ، فعجب هو والناس من ذلك لأنهم علموا أن عساكرهم من فارس وراجل بين قتل وأسير، وأنهم لم يسلم منهم إلا القليل، إلا أنه نزل يومه، وركب يوم الخميس، وقد صمم على

وغلبة، فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحة، فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد، فلما خافوا على أنفسهم من (٥٤٣/١١) الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان، فأتتهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة فكان مدة حصرها ثمانية أيام.

وأما جَيْتِلْ فَإِنَّ صاحبها كان من جملة الأسرى الذين سَيَّرُوا إلى دمشق مع ملكهم فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جَيْتِلْ على شرط إطلاقه، فعرف صلاح الدين بذلك، فأحضره مقيداً عنده تحت الاستظهار والاحتياط، وكان العسكر حَيَّزاً على بيروت، فسلم حصنه وأطلق أسرى المسلمين الذين به، وأطلق صلاح الدين كما شرط له، وكان صاحب جَيْتِلْ هذا من أعيان الفرنج وأصحاب الرأي والمكر والشر، به يضرب المثل بينهم، وكان للمسلمين منه عدو أزرق، وكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين على ما يأتي بيانه.

ذكر خروج المركيش إلى صور

لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين إلى مدينة صور أقام بها، وهي أعظم بلاد الساحل حصانة وأشدّها امتناعاً على من رآها، فلما رأى السلطان قد ملك تبين وصيدا وبيروت، خاف أن يقصد صلاح الدين صور وهي فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها، وتركها وسار إلى مدينة طرابلس فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين، فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبين وغيرها لأخذها بغير مشقة، لكنه استعظمها لحصانتها فأراد أن يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها، فكان ذلك سبب حفظها وكان أمر الله قدراً مقبوراً، وأتفق أن إنساناً من الفرنج الذين داخل البحر يقال (٥٤٤/١١) له المركيش، لعنه الله، خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة، ولم يشعر بما كان من الفرنج فارسي بعكا، وقد رآه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرنج وضرب الأجراس وغير ذلك، وما رأى أيضاً من زي أهل البلد، فوقف ولم يدرك ما الخبر، وكانت الريح قد ركبت، فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه في سفينة يبصر من هو وما يريد، فاتاه القاصد فبأله المركيش عن الأخبار لما أنكره فأخبره بكسرة الفرنج وأخذ عكا وغيرها، وأعلمه أن صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها، وحكى الأمر له على وجهه فلم يمكنه الحركة لعدم الريح، فرد الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال، فأجيب إلى ذلك فردّه مزاراً كل مرة يطلب شيئاً لم يطلبه في المرة الأولى، وهو يفعل ذلك انتظاراً لهبوب الهواء ليسير به، فبينما هو في مراجعته إذ هبّت الريح فسار نحو صور، وسير الملك الأفضل الشواني في

وأمر الرجال وسى الحريم، وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد.

وكان عندي جارية من أهلها، وأنا بحلب، ومعها طقت عمره نحو سنة، فسقط من يدها فانسلخ وجهه، فبكت عليه كثيراً، فسكتها وأعلمتها أنه ليس بولدها ما يوجب البكاء. فقالت: ما له أبكي، إنما أبكي لما جرى علينا. كان لي ستة إخوة هلكوا جميعهم، وزوج واختان لا أعلم ما كان منهم.

هذا من امرأة واحدة والباقي بالنسبة. ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت مع سيدها إلى باب، فطرقه سيدها، فخرج صاحب البيت فكلمهما، ثم أخرج امرأة فرنجية، فحين رآها الأخرى صاحتا واعتقتا، وهما تصرخان وتبكيان، وسقطتا إلى الأرض، ثم قعدتا تتحدثان، وإذا هما أختان، وكان لهما عدة من الأهل ليس لهما علم بأحد منهما.

ذكر فتح تبين وصيدا وجيتل وبيروت

فأما تبين، فقد ذكرنا إنفاذ صلاح الدين تقي الدين ابن أخيه إلى تبين، فلما وصلها نازلها، وأقام عليها، فرأى حصرها لا يتم إلا بوصول عمه (٥٤٢/١١) صلاح الدين إليه، فأرسل إليه يعلمه الحال، ويحثه على الوصول إليه، فرحل ثامن جمادى الأولى، ونزل عليه في الحادي عشر منه، فحصرها، وضايقها، وقتلها بالزحف، وهي من القلاع المتبعة على جبل، فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين، وهم يزيدون على مائة رجل، فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم، وأعطاهم نفقة، وسيرهم إلى أهلهم.

وبقي الفرنج كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون الأمان، فأتتهم على أنفسهم فسلموها إليه، ووفى لهم وسيرهم إلى ما منهم.

وأما صيدا فإن صلاح الدين لما فرغ من تبين رحل عنها إلى صيدا، فاجتاز في طريقه بصرفند فأخذها صفواً عفواً بغير قتال، وسار عنها إلى صيدا، وهي من مدن الساحل المعروفة، فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع. فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوره وكان ملكها حادي عشر جمادى الأولى، وأما بيروت فهي من أحصن مدن الساحل وأثزها وأطيها، فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل إليها من الغد فرأى أهلها قد صدعوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدة وقاتلوا على سورها عدة أيام قتالاً شديداً واغترأوا بحصانة البلد، وظنوا أنهم قادرين على حفظه، وزحف المسلمون إليهم مرة بعد مرة، فبينما الفرنج على السور يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة، فاتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى فهراً

طلبه فلم يذكره، فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لأن صلاح الدين كان كلّفها فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرها مما ذكرنا أعطى أهلها الأمان، فساروا كلهم إلى صور وكثر الجمع بها إلا أنهم ليس لهم رأس يجمعهم، ولا مقدّم يقاتل بهم، وليسوا أهل حرب، وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وطلب الأمان وتسليم البلد إليه، فأتاهم المراكيش وهم على ذلك العزم، فردّهم عنه وقوّى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من الأموال وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره، فأجابوه إلى ذلك، فأخذ أيمانهم عليه وأقام عندهم وديار أحوالهم، وكان من شياطين الإنس حسن التدبير والحفظ، وله شجاعة عظيمة، وشرع في تحصينها فجند حفر خنادقها وعمل أسوارها، وزاد في حصانها وأتقى من بها على الحفظ والقتال دونها. (٥٤٥/١٩)

ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان

لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهرها، وبثّ الرأيا في أطراف البلاد المجاورة لها، ففتحوا الرملة والناصرة، وغزة، وشهد إبراهيم الخليل، عليه السلام، وبني بني، وبني لحم، وبني جبريل، والنظرون، وكل ما كان للداوة.

ذكر فتح البيت المقدس

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد، على ما تقدّم، وكان قد أرسل إلى مصر أخرج الأسطول الذي بها في جمع من المقاتلة، ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب، وهو معروف الشجاعة، والشهامة، وبُني القبية، فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج، كلما راوا لهم مركباً غنموا، وشأنياً أخذوه، فحين وصل الأسطول وخلا سرّه من تلك الناحية سار عن عسقلان إلى البيت المقدس، وكان به البترك المعظم عندهم، وهو أعظم شأنًا من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن يبرزان، صاحب الرملة، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وبه أيضاً من تخلص من فرسانهم (٥٤٧/١١) من خطين، وقد جمعوا وحشدوا، واجتمع أهل تلك النواحي، عسقلان وغيرها، فاجتمع به كثير من الخلق، كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم، ويرى أن يذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه، وحصونه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلاً، وصعدوا على سورته بحدّهم وحديدتهم، مجمعين على حفظه والذبّ عنه بجهدهم وطاقتهم، مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم، ونصبوا المجانيق على أسواره ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه.

ولما قرب صلاح الدين منه تقدّم أمير في جماعة من أصحابه، غير محتاط ولا حذر، فلقبه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكاً، فقاتلوه وقاتلهم، فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه، فأهّم المسلمين قتله، وقبّعوا بفقدته، وساروا حتى نزلوا على القدس متصفّ رجب، فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سورته من الرجال ما هالهم، وسمعوا لأهله من الجليلة والضجيج من وسط المدينة ما استدلّوا به على كثرة الجمع، وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة ليظهر من أين يقاتله، لأنه في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع ثال إلا من جهة الشمال، نحو باب عمودا، وكنيسة صهيون، فانتقل إلى هذه الناحية في

ذكر فتح عسقلان وما يجاورها

لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرها، كان أمر عسقلان والقدس أهمّ عنده من غيرها لأسباب منها أنها على طريق مصر، يقطع بينهما وبين الشام. وكان يختار أن تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها، ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم، إلى غير ذلك من الأغراض، فسار عن بيروت نحو عسقلان، واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر، ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج ومقدّم الداوة إليه من دمشق، وقال لهما: إن سلّمتما البلاد إليّ فلكما الأمان. فأرسلا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد، فلم يسمعوا أمرهما وردّوا عليهما أقبّح ردّ وجهيهما بما يسوؤهما.

فلما رأى السلطان ذلك جدّ في قتال المدينة ونصب المجانيق عليها، وزحف مرّة بعد أخرى، وتقدّم النّقابون إلى السور، فنالوا من باشورته شيئاً، هذا وملكهم يكرّر المراسلات إليهم بالتسليم، ويشير عليهم، ويعدّهم أنه إذا أطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً، واستنجد بالفرنج من البحر، وأجلب الخيل والرّجل إليهم من أقاصي بلاد الفرنج وأدانيتها، وهم لا يجيبون إلى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به.

ولما راوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفاً ووهناً، وإذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً، ولا لهم نجدة يتظنونها، راسلوا ملكهم الماسور في تسليم البلد على شروط اقترحوها، فأجابهم صلاح الدين إليها، وكانوا قتلوا في الحصار أميراً كبيراً من المهراتية، فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلونهم من به، فاحتاطوا فيما اشترطوا لأنفسهم فأجيبوا إلى

العشرين من رجب ونزلها، ونصب تلك الليلة المجانيق، فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها، ورمى بها.

ونصب الفرنج على سور البلد مجانيق ورموا بها، وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً، وحتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني بل كانوا يُمتنعون ولا يمتنعون ويُزجرون ولا يتزجرون.

وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، (٥٤٨/١١) فيقتل من الفريقين. ومن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك، وهو من أكابر الأمراء، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم، فقتل إلى رحمة الله تعالى، وكان محبوباً إلى الخاص والعام، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك، وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقعهم، فادخلوهم بلدهم، ووصل المسلمون إلى الخندق، فجاوزوه والتصقوا إلى السور فقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمجانيق توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكن المسلمون من النقب، فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة.

فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتحكم المجانيق بالرمي المتدارك، وتمكن النفاين من النقب، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك، اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون، فاتفق رأيهم على طلب الأمان، وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين، فأرسلوا جماعة من كبارهم وأعيانهم في طلب الأمان، فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم، وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها، فلما رجع الرسل خائنين محرومين، أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره، فأجيب إلى ذلك، وحضر عنده، ورغب في الأمان، وسأل فيه، فلم يجه إلى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحه فلم يرحمه.

فلما أيس من ذلك قال له: أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يقترون عن القتال رجاء الأمان، ظناً منهم أنك تجهيهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه، فوالله لنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق (٥٤٩/١١) أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغتمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا

وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم قد ترهبت وأقامت به، ومعها من الحشم والعييد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلبت الأمان لنفسها ومن معها، فأمنها وسيرها.

فاستشار صلاح الدين أصحابه، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الأمر فيه عن أي شيء تنجلي، ونحسب أنهم أسارى بأيدينا، فتيههم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بلل الأمان للفرنج، فاستقر أن يزن الرجل عشرة دنائير يستوي فيه الغني والفقير، ويوزن الطفل من الذكور والبنات دنائرين، وتزن المرأة خمسة دنائير، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً، فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب إلى ذلك.

وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان يوماً مشهوداً، وزُفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها، ورتب صلاح الدين على أبواب البلد، في كل باب، أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم، فاستعملوا الخيانة، ولم يؤدوا فيه أمانة، وأقسم الأمناء الأموال، وتفرقت أيدي سبأ، ولو أدت في الأمانة لملأ الخزائن، وعم الناس، فإنه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان، ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها، والداروم، والرملة، (٥٥٠/١١) وغزة، وغيرها من القرى، بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي.

ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة، وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار، وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي، وأخذ أسيراً ستة عشر ألف آدمي ما بين رجل وامرأة وصبي، هذا بالضبط واليقين.

ثم إن جماعة من الأمراء أذى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس، فيطلبهم ويأخذ هو قطيعتهم، وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين، ويخرجونهم، ويأخذون منهم قطعة قرورها، واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج، فوهمهم لهم، فأخذوا قطيعتهم، وبالجملية فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل.

وكذلك أيضاً أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها، ونيابة عنها كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمها، واستأذنته في المصير إلى زوجها، وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس، فأذن لها، فأثته وأقامت عنده.

وأثته أيضاً امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم المصافح بجيطين، فشغعت في ولد لها مأسور، فقال لها صلاح الدين: إن سلمت الكرك أطلقته. فسارت إلى الكرك، فلم يسمع منها (٥٥١/١١) الفرنج الذين فيه، ولم يسلموه، فلم يطلق ولدها، ولكنه أطلق مالها ومن تبعها.

وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج، ومعه من أموال البيع منها: الصخرة والأقصى، وقمامة وغيرها، ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين، فقيل له لياخذ ما معه فيقوي به المسلمين، فقال: لا أغدر به. ولم يأخذ منه غير عشرة دنائير، وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور.

وكان على رأس ثبة الصخرة صليب كبير مذعوب، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب، فلما فعلوا وسقط صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج: أما المسلمون فكبروا فرحاً، وأما الفرنج فصاحوا تنجّعاً وتوجّعاً، فسمع الناس ضجة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمتها وشدة ثباتها.

فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم، فإن الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هُزري ومستراح وغير ذلك، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم فأعيد إلى الأول، وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقباز والأنجاس، ففعل ذلك أجمع.

ولما كان الجمعة الأخرى، رابع شعبان، صلى المسلمون فيه الجمعة، ومعهم صلاح الدين، وصلى في ثبة الصخرة، وكان الخطيب، والإمام محيي الدين بن الزكي، قاضي دمشق، ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس، وأمر أن يعمل له منبر، فقيل له: إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصنائع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقناله هنالك (٥٥٢/١١) قد عملناه ليُنصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره، فحُمل من حلب ونُصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة، وكان هذا من كرامات نبيور الدين وخبر من مقاصده، رحمه الله.

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد

الأقصى واستفاد الوسع في تحسينه وترصيفه، وتدقيق نقوشه، فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد مثله، ومن الفصص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون إليه، قد أذخر على طول السنين، فشرعوا في عمارته، ومحو ما كان في تلك الأبنية من الصور، وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغَيَّبوها، فأمر بكتشفها.

وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القيسيين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة، فكانوا يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها، وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة، ويجعل في مذهبها، فخاف بعض ملوكهم أن تفنى، فأمر بها فرش فوقها حفظاً لها. فلما كُشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة، والربعات الجيدة، ورتب القراء، وأدر عليهم الوظائف الكثيرة، فساد الإسلام هناك غصاً طرياً، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، غير صلاح الدين، رحمه الله، وكفناه ذلك فخراً وشرفاً.

وأما الفرنج من أهلهم فإنهم أقاموا، وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم، وما لا يطيقون حمله، وباعوا ذلك بارخص الثمن، فاشتره التجار من أهل العسكر، واشتره النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في (٥٥٣/١١) مساكنهم ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم إلى ذلك، فاشترى حينئذ من أموال الفرنج، وترك الفرنج أيضاً أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسرة والصناديق والبيات، وغير ذلك، وتركوا أيضاً من الرخام الذي لا يوجد مثله، من الأساطين والألواح والفصص وغيره، شيئاً كثيراً، ثم ساروا.

ذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان رتب أمور البلد وأحواله، وتقدم بحمل الرُبط والمدارس، فجعل دار الابتدار مدرسة للشافعية، وهي في غاية مسا يكون من الحسن. فلما فرغ من أمر البلد سار إلى مدينة حمص، وكلنت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير، وقه صار المركيش صاحبها والحاكم فيها، وقد ساسهم أحسن سياسة، وبالع في تحصين البلد، ووصل صلاح الدين إلى عكا، وأقام بها أياماً، فلما سمع المركيش بوصول إليه جاز في عمل سور صور وخنادقها وتعميقها، ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها.

وعاد إلى مقاتلة صور في البرّ، وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال.

وفي بعض الأيام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم، فاشتد القتال بين الفريقين، ودام إلى آخر النهار؛ كان خروجهم قبل العصر، وأسر منهم فارس كبير مشهور، بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين، لما سقط، فلما أُسر قُتل، وبقوا كذلك عدّة أيام.

ذكر الرحيل عن صور إلى عكا وتفريق العساكر

لما رأى صلاح الدين أنّ أمر صور يطول رحل عنها، وهذه كانت عادته، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه. وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع في الأيام القليلة، كما ذكرناه، بغير تعب ولا مشقة، فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملّوها، وطلبوا الانتقال عنها، ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه هو جهّز إليها جنود الفرنج، أمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك، كما سبق ذكره؛ كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، (٥٥٦/١١) فصار فيها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل، بأموالهم وأموال التجار وغيرهم، فحفظوا المدينة ورأسيلوا الفرنج داخل البحر يستمدّونهم، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم، ووعدهم بالنصرة، وأمرهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤون إليها، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها.

وسنذكر إن شاء الله ما صار إليه الأمر بعد ذلك ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم، وإن ساعدته الأقدار، فلأن عجز حازماً خير له من أن يظفر مفروطاً، مضيقاً للحزم، وأعذر له عند الناس.

ولما أراد الرحيل استشار أمراءه، فاختلّفوا، فجماعة يقولون: الرأي أن نرحل، فقد جرح الرجال، وقُتلوا، وسلّموا، وفيت التفقات، وهذا الشتاء قد حضر، والشروط طين، فترجّع ونستريح في هذا البرد، فإذا جاء الربيع اجتمعنا وعاوناهما وغيرها. وكان هذا قول الأغنياء منهم، وكانهم خافوا أن السلطان يقتضيه منهم ما ينفقه في العسكر إذا أقام لخلص الخزائن ويؤت الأموال من الدرهم والدينار، فإنه كان يخرج كلّ ما حمل إليه منها. وقالت الطائفة الأخرى: الرأي أن نصابر البلد ونضايقه، فهو الذي يعتمدون عليه من حصونهم، ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر ومن هذا الجانب وأخذنا باقي البلاد صفى عفواً.

فبقي صلاح الدين متردداً بين الرحيل والإقامة، فلما رأى من يرى الرحيل إقامته أخلّ بما رَدَّ إليه من المحاربة والرمي بالمنجنين، واعتدروا بجراح رجالهم، وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليحضرُوا

ثم رحل صلاح الدين من عكا، فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان، فنزل على نهر قريب [من] البلد بحيث يراه، حتى اجتمع الناس وتلاحقوا، وسار في الثاني والعشرين من رمضان، فنزل على تلّ يقارب سور البلد، بحيث يرى القتال، وقسم القتال على العسكر كلّ جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه، (٥٥٤/١١) بحيث يتصل القتال على أهل البلد، على أنّ الموضع الذي يقاتلون فيه قريب المسافة، يكفيه الجماعة السيرة من أهل البلد لحفظه، وعليه الخنادق التي قد وصلت من البحر إلى البحر، فلا يكاد الطير يطير عليها، فإن المدينة كالكفّ في البحر، والساعد متصل بالبرّ والبحر من جانبي الساعد، والقتال إنما هو في الساعد، فزحف المسلمون مرّة بالمجانيق، والعرادات، والجروح، والدبابات، وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل: ولده الأفضل، ولده الظاهر غازي، وأخيه العادل بن أيوب، وابن أخيه تقي الدين، وكذلك سائر الأمراء.

وكان للفرنج شوان وحراقات يركبون فيها في البحر، ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد، فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروح، ويقاتلونهم. وكان ذلك يعظم عليهم، لأنّ أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم، وأصحاب الشواني يقاتلونهم من جانبيهم، فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع، فكثر الجراحات في المسلمين والقتل، ولم يتمكنوا من الدنو إلى البلد، فأرسل صلاح الدين إلى الشواني التي جاءت من مصر، وهي عشر قطع، وكانت بعكا، فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدّتها، وكانت في البحر تمنع شواني أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين، فتمكن المسلمون حيثنّو من القرب من البلد، ومن قتاله، فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه حتى كادوا يظفرون، فجاءت الأقدار بما لم يكن في الحساب، وذلك أنّ خمس قطع من شواني المسلمين باتت، في بعض تلك الليالي، مقابل ميناء صور لينتصروا من الخروج منه والدخول إليه، فباتوا ليلتهم يحرسون، وكان مقدّمهم عبد السلام المغربي الموصوف بالحدق في صناعته وشجاعته، فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا، فما شعروا إلا بشواني الفرنج قد نازلهم (٥٥٥/١١) وضايقتهم، فأوقعت بهم، فقتلوا سنّ أرادوا قتله، وأخذوا الباقيين بمراكبهم، وأدخلوهم ميناء صور، والمسلمين في البرّ ينظرون إليهم، ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر، فمهم من غرق.

وتقدّم السلطان إلى الشواني الباقية بالمسير إلى بيروت لتقدم انتفاعاً بها لقلتها، فسارت، فتبعها شواني الفرنج، فحين رأى من في شواني المسلمين الفرنج مجتدين في طلبهم ألقوا نفوسهم في شوانهم إلى البرّ فنجوا وتركوها، فأخذها صلاح الدين، ونقضها

نفقاتهم والعلوفات لدوائهم والأقوات لهم، إلى غير ذلك من الأعدار، فصاروا مقيمين بغير قتال، فاضطر إلى الرحيل، فرحل عنها آخر شوال، وكان أول كانون الأول، إلى عكا، (٥٥٧/١١) فأذن للساكنين جميعها بالعود إلى أوطانهم والاستراحة في الشتاء، والعود في الربيع، فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها، وعساكر الشام، وعساكر مصر، وبقي حلقته الخاص مقيماً بعكا، فنزل بقلعتها، ورد أمر البلد إلى عز الدين جورديك، وهو من أكابر المماليك النورية، جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة.

ذكر فتح هونين

لما فتح صلاح الدين تبين امتنع من بهونين من تسليمها، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، فلم ير التعرّيج عليها ولا الاشتغال بمحاصرتها، بل سار إليها جماعة من العسكر والأمرأه فحاصروها، ومنعوا من حمل الميرة إليها، واشتغل بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير ذلك، فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الأمان، فآمنهم، فسلموا، ونزلوا منها فوفى لهم بأمانهم.

ذكر حصر صفد وكوكب والكرك

لما سار صلاح الدين إلى عسقلان جعل على قلعة كوكب، وهي مطلة على الأردن، من يحصرها، ويحفظ الطريق للمجتازين لتلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه، وسير طائفة أخرى من العسكر أيضاً إلى قلعة صفد فحاصروها، (٥٥٨/١٢) وهي مطلة على مدينة طبرية.

وكان حصن كوكب للإستار، وحصن صفد للدواية، وهما قريبان من حطين، موضع المصاف، فلجأ إليها جمع ممن سلم من الدواية والإستار فحموهم، فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شر من فيهما، واتصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف.

وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميراً يقال له سيف الدين، وهو أخو جاولي الأسدي، وكان شهماً شجاعاً، يرجع إلى دين وعبادة، فأقام عليه إلى آخر شوال، وكان أصحابه يحرسون نوباً مرتبة، فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذي كانت نوبته في الحراسة، وكان قد صلى ورده من الليل إلى السحر، وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق، والريح والمطر، فلم يشعر المسلمون وهم نازلون إلا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف، ووضعوا السلاح فيهم، فقتلوهم أجمعين، وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا إلى قلعته، ففروا بذلك قوة عظيمة أمكتهم أن يحفظوا قلعته إلى أن أخذت أواخر سنة أربع وثمانين [وخمسمائة]، على ما سنذكره إن شاء الله.

ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم

في هذه السنة، يوم عرفة، قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات، وهو أكبر الأهرام الصلاحية، وقد تقدم ذكره ما فيه كفاية.

وسبب قتله أنه لما فتح المسلمون البيت المقدس طلب إذنًا من صلاح الدين ليحج ويحرم من القدس، ويجمع في سنة بين الجهاد والحج وزيارة الخليل، عليه السلام، وما بالشام من مشاهد الأنبياء، وبين زيارة رسول الله ﷺ أجمعين، فأذن له. وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم من البلاد: العراق، والموصل، وديار بكر، والجزيرة، وبلاد الروم ومصر وغيرها ليجمعوا بين زيارة البيت المقدس ومكة، فجعل ابن المقدم أميراً عليهم فساروا حتى وصلوا إلى عرفات سالمين، ووقفوا في تلك المشاعر، وأدوا الواجب والسنة.

فلما كان عشية عرفة تجعز هو وأصحابه ليسيروا من عرفات، فأمر بضرب كوساته التي هي إمارة الرحيل، فضربها أصحابه، فأرسل إليه أمير الحاج العراقي، وهو مجير الدين طاش تكين، بنهائه عن الإفاضة من عرفات قبله، ويسأله بكف أصحابه عن ضرب كوساته، فأرسل إليه: إني ليس لي معك تعلق، أنت أمير الحاج العراقي، وأنا أمير الحاج الشامي، وكل منا يفعل ما يراه ويختاره، وسار ولم يقف، ولم يسمع قوله، فلما رأى طاش تكين إصراره على مخالفته ركب في أصحابه وأجناده، وتبعه من غوغاء الحاج العراقي وبطاطيهم، وطماعتهم، العالم الكثير، والجسم القفيز، وقصدوا (٥٦٠/١١) حاج الشام مهولين عليهم، فلما قربوا منهم خرج الأمر من الضبط، وعجزوا عن تلافيه، فهجم طماعة العراق على حاج الشام وقتلوا فيهم، وقتلوا جماعة ونهبت أموالهم وسببت جماعة من نساءهم، إلا أنهم ردن عليهم، وجرح ابن المقدم عدة جراحات، وكان يكف أصحابه عن القتال، ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد، لكنه راقب الله تعالى، وحرمة المكان واليوم، فلما أئخذ بالجراحات أخذ طاش تكين إلى خيمته، وانزله عنده ليمرضه ويستدرك الفارط في حقه، وساروا تلك الليلة من عرفات، فلما كان الغد مات بعنى، ودفن بمقبرة المعلّى، ورزق الشهادة بعد الجهاد، وشهود فتح البيت المقدس، رحمه الله تعالى.

ذكر قوة السلطان طغرل على قزل

في هذه السنة قوي أمر السلطان طغرل، وكثر جمعه، وملك

كثيراً من البلاد، فأرسل قزّل إلى الخليفة يستجده، ويخوفه من قتلها، ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه، وأرسل طغرل رسولاً إلى بغداد يقول: أريد أن يتقدم الديوان بعمارة [دار] السلطنة لأسكنها إذا وصلت؛ فأكرم رسول قزّل ووعده بالنجدة، وردّ رسول السلطان طغرل بغير جواب، وأمر الخليفة بتقضي دار السلطنة، فهُدمت إلى الأرض وعُفي أثرها. (٥٦١/١١)

ذكر ملك شرستي من الهمد وغيرها وانهازم المسلمين بعدها

في آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغوري، ملك غزنة، إلى بلاد الهند، وقصد بلاد أجمير، وتعرّف بولاية السوالك، واسم ملكهم كولة، وكان شجاعاً شهماً، فلما دخل المسلمون بلاده ملكو مدينة تبرنده، وهي حصن منيع عامر، وملكو شرستي، وملكو كوة رام.

فلما سمع ملكهم جمع العساكر فأكثروا، وسار إلى المسلمين، فالتقوا، وقامت الحرب على ساق، وكان مع الهند أربعة عشر فيلاً، فلما اشتدت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرته، فقال لشهاب الدين بعض خواصه: قد انكسرت الميمنة والميسرة، فإنج بنفسك لا يهلك المسلمون، فأخذ شهاب الدين الرمح وحمل على الهنود، فوصل إلى الفيلة، فطعن فيلاً منها في كتفه، وجرح الفيل لا يندمل، فلما وصل شهاب الدين إلى الفيلة زرقه بعض الهنود بحربة، فوقعت الحربة في ساعده، فنفذت الحربة من الجانب الآخر، فوقع جثثاً إلى الأرض، فقاتل عليه أصحابه ليخلصوه، وحرصت الهنود على أخذه، وكان عنده حرب لم يسمع بمثله، وأخذ أصحابه فركبوه فرسه وعادوا به منهزمين، فلم يتبعهم الهنود، فلما أبعادوا عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أغمي على شهاب الدين من كثرة خروج الدم، فحمله الرجال على اكتافهم في محفة اليد أربعة وعشرين فرسخاً، فلما وصل إلى لهاوور أخذ الأمراء الغورية، وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا، وعلّقوا على كل واحد منهم (٥٦٢/١١) علق شعير، وقال أنتم دواب ما أنتم أمراء! وسار إلى غزنة، وأمر بعضهم فمشى إليها ماشياً، فلما وصل إلى غزنة أقام بها ليستريح الناس، ونذكر ما فعله بملك الهند الذي هزمه سنة ثمان وثمانين [وخمسمائة] إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، قُتل مجد الدين أبو الفضل بن صاحب، وهو أستاذ دار الخليفة، أمر الخليفة بقتله، وكان متحكماً في الدولة، ليس للخليفة معه حكم. وكان هو القيم بالبيعة له، وظهر له أموال عظيمة، أخذ جميعها، وكان حسن السيرة عفيفاً عن الأموال، وكان الذي سعى به إنسان من أصحابه وصناعه، يقال له عبيد الله بن يونس، فسعى به إلى الخليفة، وقبّح آثاره، فقبض عليه

وقتل.

وفيهما، في ربيع الآخر، وقع حريق في الحظائر ببغداد، واحترقت أحطاب كثيرة، وسببه أن قفيها بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاماً يأكله، فغفل على النار والطينخ، فعلقت النار واتصلت إلى الحظائر، فاحترقت جميعها، واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره.

وفيهما، في شوال، استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد بن يونس، ولقبه جلال الدين، ومشى أرباب الدولة في ركابه، حتى قاضي القضاة، وكان ابن يونس من شهوده، وكان يمشي ويقول: لعن الله طول العمر.

وفيهما، في المحرم، توفي عبد المغيث بن زهير الحرّ ببغداد، وكان من أعيان الحنابلة، قد سمع الحديث الكثير، وصنّف كتاباً في فضائل يزيد (٥٦٣/١١) ابن معاوية أتى فيه بالعجائب، وقد ردّ عليه أبو الفرج بن الجوزي، وكان بينهما عداوة.

وفيهما توفي قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغان، وولي قضاء القضاة للمفتي بعد موت الزيني، ثمّ للمستنجد بالله، ثمّ عزّل، ثمّ أعيد إلى المستضيء بأمر الله.

وفيهما توفي الوزير جلال الدين أبو الحسن علي بن جمال الدين أبي جعفر محمد بن أبي منصور وزير صاحب الموصل، وهو الجواد ابن الجواد، وقد ذكرنا من أخباره وأخبار أبيه ما يعلم به محلّهما، وحمل إلى مدينة النبي ﷺ فدفن بها عند أبيه علي بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر، وكان من الأولياء أرباب الكرامات، وصحبته أنا مدة، فلم أر مثله حسن خلق وسمي وكرم وعبادة، رحمه الله.

وفيهما ولدت امرأة من سواد بغداد بتاً لها أسنان.

وفيهما توفي نصر بن فتيان بن مطر أبو الفتح بن المنّي الفقيه الحنبلي، لم يكن لهم مثله، رحمه الله. (٥/١٢)

سنة أربع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر صلاح الدين كوكب

في هذه السنة، في المحرم، انحسر الشتاء، فسار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب، فحصرها، ونازلها، طناً منه أن ملكها سهل وأن أخذها، وهو في قلعة من العسكر متيسر، فلما رآها عالية منيعة [أدرك أن] الوصول إليها متعذر، وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد، لأن البلاد الساحلية، من عكا إلى جهة الجنوب، كانت قد مُلك جميعها، ما عدا هذه الحصون، وكان يختار أن لا يبقى في وسطها

معه مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف، وكان قد أطلقه لما ملك البيت المقدس، فهو الذي حفظ هذا الحصن، فخرّب صلاح الدين ولاية أنطربوس، ورحل عنها وأتى مرقية، وقد أخلاها أهلها، ورحلوا عنها، وساروا إلى المرقب، وهو من حصونهم التي لا ترام، ولا يحدث أحد نفسه بملكه لعلوه وامتناعه، وهو للاستبار، والطريق تحته، فيكون الحصن على يمين المجناز إلى جبلة، والبحر عن يساره، والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد.

فاتفق أن صاحب صقلية من الفرنج قد سير نجدة إلى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشواني، وكانوا بطرابلس، فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤوا ووقفوا في البحر، تحت المراقب، في شوانتهم، ليمنعوا من يجناز (٨/١٢) بالسهم، فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطاريقات والجفثيات، فصفت على الطريق مما يلي البحر من أول المضيق إلى آخره، وجعل وراءها الرماة، فمنعوا الفرنج من الدنو إليهم، فاجتاز المسلمون عن آخرهم، حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلة ثامن عشر جنادة الأولى، وتسلمها وقت وصوله.

وكان قاضيها قد سبق إليها ودخلها، فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها إليه، وتحصن الفرنج الذين كانوا بها بحصنها، واحتمروا بقلعتها، فما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم، حتى استنزلهم بشرط الأمان، وأن يأخذ رهاثهم يكونون عنده إلى أن يطلق الفرنج رهاث المسلمين من أهل جبلة.

وكان يميند، صاحبها، قد أخذ رهاث القاضي ومسلمي جبلة، وتركهم عنده بأنطاكية، فأخذ القاضي رهاث الفرنج فأنزلهم عنده حتى أطلق يميند رهاث المسلمين فأطلق المسلمون رهاث الفرنج، وجاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدين بطاعة أهله، وهو من أمتع الجبال وأشقها مسلماً، وفيه حصن يعرف بيكسرايل، بين جبلة ومدينة حماة، فملكه المسلمون، وصار الطريق في هذا الوقت عليه من بلاد الإسلام إلى العسكر، وكان الناس يلقون شدة في سلوكه، وقرّر صلاح الدين أحوال جبلة، وجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية، صاحب شيزر، وسار عنها. (٩/١٢)

ذكر فتح لاذقية

لما فرغ السلطان من أمر جبلة، سار عنها إلى لاذقية، فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها، وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما، فدخل المسلمون المدينة وحضرها القلعتين اللتين فيهما الفرنج، وحضرها إليهما، وتقوا السور ستين ذراعاً وعلفوه، وعظم القتال، واشتد الأمر عند الوصول إلى السور، فلما أيقن الفرنج

ما يشغل قلبه، ويقسم همه، ويحتاج إلى حفظه، ولثلاً ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم.

فلما حصر كوكب، ورأها متعة، يطمئ ملكها وأخذها، رحل عنها، (٦/١٢) وجعل عليها قايمز النجمي مستديماً لحصاره، وكان رحيله عنها في ربيع الأول، وأناه رسل الملك قلع أرسلان. وقسزل أرسلان وغيرهما، يهتئون بالفتح والظفر، وسار من كوكب إلى دمشق، ففرح الناس بقدومه، وكتب إلى البلاد جميعها باجتماع العساكر. وأقام بها إلى أن سار إلى الساحل.

ذكر رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج

لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عند القاضي الفاضل مودعاً له ومستشيراً، وكان مريضاً، وودعه وسار عن دمشق منتصف ربيع الأول إلى حمص، فنزل على بحيرة قدس، غربي حمص، وجاءته العساكر: فأول من أناه من أصحاب الأطراف عماد الدين زنكي بن مودود بن أقتقر، صاحب سنجار، ونصيبين، والخابور، وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة وغيرها، فاجتمعت عليه، وكثرت عنده، فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقي، وكنت معه حيثن، فأقام يومين، وسار جريدة، وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن، ودخل إلى بلد الفرنج، فأغار على صافيا، والغريمة، ويحمور، وغيرها من البلاد والولايات، ووصل إلى قرب طرابلس، وأبصر البلاد، وعرف من أين يأتيها، وأين يسلك منها، ثم عاد إلى معسكره سالماً.

وقد غنم العسكر من الدواب، على اختلاف أنواعها، ما لا حد له، وأقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر. (٧/١٢)

ذكر فتح جبلة

لما أقام صلاح الدين تحت حصن الأكراد، أناه قناضي جبلة، وهو منصور بن نبيل، يستدعيه إليها ليسلمها إليه، وكان هذا القاضي عند يميند، صاحب أنطاكية وجبلة، مسموع القول مقبول الكلمة، له الحرمة الوافرة، والمنزلة العالية، وهو يحكم على جميع المسلمين، بجبلة ونواحيها، على ما يتعلق باليميند، فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان، وتكفل له بفتح جبلة ولاذقية والبلاد الشمالية، فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الأولى، فنزل بأنطربوس سادسه، فرأى الفرنج قد أخذوا المدينة، واحتموا في برجين حصينين، كل واحد منهما قلعة حصينة، ومعقل منيع، فخرّب المسلمون دورهم ومسكنهم وسور البلد، ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم.

وكان الداوية بأحد البرجين، فحصرهما صلاح الدين، فنزل إليه من في أحد البرجين بأمان وسلموه، فأمتمهم، وخرّب البرج وألقى حجارته في البحر، وبقي الذي فيه الداوية لم يسلموه، وكان

وكان معه من الرجال الحلبيين كثير، وهم في الشجاعة بالمزلة المشهورة، ودام رشق السهام من قسي اليد والجرح، والزنبورك، والزيار، فجرح أكثر من الحصن، وهم يظهرون التجلد والامتناع، وزحف المسلمون إليهم ثاني جمادى الآخرة، فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج إحكامها، فتسلقوا منها بين الصخور، حتى التحقوا بالسور الأول فقاتلوهم عليه حتى ملكوه، ثم إنهم قاتلوهم على باقي الأسوار فملكوا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك، واحتسب الفرنج بالقلعة التي للقلعة، فقاتلهم المسلمون عليها، فنادوا وطلبوا الأمان، فلم يجبه صلاح الدين إليه، ففرزوا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس، وتسلم الحصن وسلمه إلى أمير يقال له ناصر الدين منكوبرس، صاحب قلعة أبي قبيس، فحصنه وجعله من حصن الحصن.

ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحي، فملكوا حصن بلاطوس، وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفاً ورعباً. وملك أيضاً حصن العيدو، وحصن الجماهرتين، فامتدت المملكة الإسلامية بتلك الناحية، إلا أن الطريق إليها من البلاد الإسلامية على عقبة بكسرايل شاق شديد، لأن الطريق السهلة غير مسلوكة، لأن بعضها بيد الإسماعيلية، وبعضها بيد الفرنج. (١٢/١٢)

ذكر فتح حصن بكاس والشفر

ثم سار صلاح الدين عن صهيون، ثالث جمادى الآخرة، فوصل إلى قلعة بكاس [فراى الفرنج قد أخلوها، وتحصنوا بقلعة الشفر، فملك قلعة بكاس] بغير قتال، وتقدم إلى قلعة الشفر وحصرها، وهي وبكاس على الطريق السهل المسلك إلى لاذقية وجبله، والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلامية.

فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام، ولا يوصل إليها بطريق من الطرق، إلا أنه أمر بمزاحمتهم ونصب منجنيق عليهم، ففعلوا ذلك، ورمى بالمنجنيق، فلم يصل من أحجازه إلى القلعة شيء إلا القليل الذي لا يؤذي، فبقي المسلمون عليه أياماً لا يرون فيه طمعاً، وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر يتطرق إليهم، ويساءل ينزل عليهم.

فبينما صلاح الدين جالس، وعنده أصحابه، وهم في ذكر القلعة وإعمال الحيلة في الوصول إليها، قال بعضهم: هذا الحصن كما قال الله تعالى ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٦] فقال صلاح الدين: أو يأتي الله بنصر من عنده وفتح.

فبينما هم في هذا الحديث، إذ قد أشرف عليهم فرنجي، ونادى

بالعطب، ودخل إليهم قاضي جبله فخوفهم من المسلمين، طلبوا الأمان، فأمتهم صلاح الدين، ورفعوا الأعلام الإسلامية إلى الحصنين، وكان ذلك في اليوم الثالث من التزول عليها.

وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه، فخرّب المسلمون كثيراً منها، ونقلوا رخامها، وشعثوا كثيراً من بيعة التي قد غرم على كل واحدة منها الأموال الجلييلة المقدار، وسلمها إلى ابن أخيه تقي الدين عمر، فعمرها، وحصن قلعتها، حتى إذا رآها اليوم من رآها قبل ينكرها، فلا يظن أن هذه تلك؛ وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها، كما فعل بقلعة حماة.

ذكر حال أسطول صقلية

لما نازل صلاح الدين لاذقية [جاء أسطول صقلية] الذي تقدم ذكره، فوقف بإزاء ميناء لاذقية، فلما سلمها الفرنج الذين بها إلى صلاح الدين، (١٠/١٢) عزم أهل هذا الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظاً وحنقاً، حيث سلموها سريعاً، فسمع بذلك أهل لاذقية، فأقاموا، وبذلوا الجزية، وكان سبب مقامهم.

ثم إن مقدم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده، فأمته، وحضر [وقبل الأرض بين يديه، وقال ما معناه: إنك سلطان رحيم وكريم، وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا، فباتركهم يكونون ممالك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك، وترد عليهم بلادهم، وإلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم عليك الأمر ويشتد الحال].

فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من [إظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر، وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر؛ فسلب على وجهه، ورجع إلى أصحابه].

ذكر فتح صهيون وغدة من الحصون

ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية في السابع والعشرين من جمادى الأولى، وقصد قلعة صهيون، وهي قلعة منيعة شاهقة في الهواء، صعبة المرتقى، على قرنة جبل، يطيف بها واد عميق، فيه ضيق في بعض المواضع، بحيث إن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن، إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال، وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يرى قعره، وخمسة أسوار منيعة، فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها، ونصب عليه المجانيق ورمائها، وتقدم إلى ولده الظاهر، صاحب حلب، فنزل على المكان الضيق من الوادي، ونصب عليه المجانيق أيضاً، فرمى الحصن منه.

البقاء فانها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين، وأما الجانب الشرقي، فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل، لعلونه وصعوبته وأما جهة الغرب فإن الوادي المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعاً كبيراً، حتى قارب القلعة، بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهم، فتزله المسلمون ونصبوا عليه المجانيق، ونصب أهل القلعة عليها منجنيقاً بطلها.

(١٥/١٢) ورأيت أنا من رأس جبل عالٍ يشرف على القلعة، لكنه لا يصل منه شيء إليها، امرأة ترمي من القلعة عن المنجنيق، وهي التي بطلت منجنيق المسلمين، فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به، عزم على الزحف، ومكاثرة أهلها بجموعه، فقسم عسكره ثلاثة أقسام: يزحف قسم، فإذا تعبوا وكلوا عاديوا وزحف القسم الثاني، فإذا تعبوا وضجروا عاديوا وزحف القسم الثالث، ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا، فإنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسمون كذلك، فإذا تعبوا وأعيوا سلموا القلعة.

فلما كان الغد، وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة، تقدم أحد الأقسام، وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكي بن مردود بن زنكي، صاحب سنجار، وزحفوا، وخرج الفرنج من حصنهم، فقاتلهم على فصلهم، ورمسهم المسلمون بالسهم من وراء الجفانيات والجنزيات والطارقيات، ومشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل، فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرقض، وتسلط الفرنج عليهم، لعلوا مكانهم، بالنشاب والحجارة، فإنهم كانوا يلْقون الحجارة الكبار فتدحرج إلى أسفل الجبل، فلا يقوم لها شيء.

فلما تعب هذا القسم انحذروا، وصعد القسم الثاني، وكانوا جلوساً ينتظرونهم، وهم حلقة صلاح الدين الخاص، فقاتلوا قتالاً شديداً، وكان الزمان حراً شديداً، فاشتد الكرب على الناس، وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم، وكان تقي الدين ابن أخيه كذلك، فقاتلهم إلى قريب الظهر ثم تعبوا، ورجعوا.

فلما رآهم صلاح الدين قد عاديوا تقدم إليهم ويده جماع يردهم، وصاح في القسم الثالث، وهم جلوس ينتظرون نوبتهم، فوثبوا ملئين، وساعدوا إخوانهم، وزحفوا معهم، فجاء الفرنج ما لا قبل لهم به، وكان أصحاب (١٦/١٢) عماد الدين قد استراحوا، فقاموا أيضاً معهم، فحيث اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر، وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم، فظهر عجزهم عن القتال، وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحر والقتال، فدخل المسلمون فقاد الفرنج يدخلون الحصن، فدخل المسلمون معهم،

بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين، فأجيب إلى ذلك، ونزل رسول، وصلى إنظارهم ثلاثة أيام، فلما جاءهم من يمنعتهم، ولا سلموا القلعة بما فيها (١٣/١٢) من ذخائر ودواب وغير ذلك، فاجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به.

فلما كان اليوم الثالث سلموها إليه، واتفق يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة؛ وكان سبب استمها لهم أنهم أرسلوا إلى البيتمند، صاحب أنطاكية، وكان هذا الحصن له، يعرفونه أنهم محصورون، ويطلبون منه أن يرسل عنهم المسلمين، فإن فعل، وإلا سلموها، وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم، وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم أحد، ولا بلغ المسلمون منهم غرضاً، فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه إلى أمير يقال له قلعج، وأمره بعمارته، ورحل عنه.

ذكر فتح سمرية

لما كان صلاح الدين مشغولاً بهذه القلاع والحصون، سبر ولده الظاهر غازي، صاحب حلب، فحصر سمرية، وضيق على أهلها، واستزلهم على قطعة قورها عليهم، فلما انزلهم، وأخذ منهم المقاطعة، هدم الحصن وعفى أثره وعالي بنيانه.

وكان فيه وفي هذه الحصون من أسارى المسلمين الجيم الغفير، فأطلقوا، وأعطوا كسوة ونفقة، وكان فتحه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة.

واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جلة إلى سمرية، مع (١٤/١٢) كثرها، كان في ست جمع مع أنها في أيدي أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين، فسبحان من إذا أراد أن يسهل الصعب، فعل؛ وهي جميعها من أعمال أنطاكية، ولم يبق لها سوى القصير، وبغراس، ودرب ساك، وسياتي ذكرها إن شاء الله تعالى في مكانه.

ذكر فتح برزجة

لما رحل صلاح الدين من قلعة الشقر سار إلى قلعة برزجة، وكان قد وصفت له، وهي تقابل حصن أقامية، وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي وهيون تنفجر من جبل برزجة وغيره، وكان أهلها أغبر شيء على المسلمين، يقطعون الطريق، ويبالغون في الأذى، فلما وصل إليها نزل شرقها في الزايع والعشرين من جمادى الآخرة، ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعاً يقاتلها منه، فلم يجده إلا من جهة الغرب، فنصب له هناك [خيمة] صغيرة، ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريئة لضيق المواضع.

وهذه القلعة لا يمكن أن تقا تل من جهة الشمال والجنوب

بالزحف عليها ومهاجمتها، فإدركها العسكر بالزحف وقَاتَلوها، وكشفوا الرجال عن سورها، وتقدم النّصابون فقبضوا منها برجاً وعلقوه، فسقط واتسع المكان الذي يريد المقاتلة [أن] يدخلوا منه، وعادوا يومهم ذلك، ثم باكروا الزحف من الغد.

وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب أنطاكية يستنجدونه، فصبروا، (١٨/١٢) وأظهروا الجَلْد، وهم ينتظرون وصول جوابه إما بأنجاهم وإزاحة المسلمين عنهم، وإما بالتخلي عنهم ليقوم عنهم في التسليم، فلما علموا عجزه عن نصرتهم، وخافوا هجوم المسلمين عليها، وأخذهم بالسيف، وقتلهم وأسرهم، ونهب أموالهم، طلبوا الأمان، فأمنهم على شرط [أن] لا يخرج أحد إلا بشيابه التي عليه بغير مال، ولا سلاح، ولا أثاث بيت، ولا دابة، ولا شيء مما بها، ثم أخرجهم منه وسيرهم إلى أنطاكية، وكان فتحه تاسع عشر رجب.

ذكر فتح بَغْرَاس

ثم سار عن درب ساك إلى قلعة بَغْرَاس، فحصرها، بعد أن اختلف أصحابه في حصرها، فمنهم من أشار به، ومنهم من نهى عنه وقال: هو حصن حصين، وقلعة منيعة، وهو بالقرب من أنطاكية، ولا فرق بين حصره وحصرها، ويحتاج أن يكون أكثر العسكر في التَّيَكُّمِ مقابل أنطاكية، فإذا كان الأمر كذلك قلّ المقاتلون عليها، ويتعذر حينئذ الوصول إليها.

فاستأخَرَ الله تعالى وسار إليها، وجعل أكثر عسكره يركباً مقابل أنطاكية، يُغيرون على أعمالها، وكانوا حذرين من الخوف من أهلها، إن غفلوا، لقرّبهم منها، وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقَاتِلها، ونصب المجانيق، فلم يؤثر فيها شيئاً لعلوها وارتفاعها، فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها، وشق على المسلمين قلة الماء عندهم، إلا أن صلاح الدين نصب الحياض، وأمر بحمل الماء إليها، فخفف الأمر عليهم. (١٩/١٢)

فبينما هو على هذه الحال إذ قد فتح باب القلعة، وخرج منه إنسان يطلب الأمان ليحضر، فأجيب إلى ذلك، فأذن له في الحضور، فحضر، وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك، فأجابهم إلى ما طلبوا؛ فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية، فرفعت على رأس القلعة، ونزل من فيها، وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح، وأمر صلاح الدين بتخريبه، فخرّب، وكان ذلك مضرّة عظيمة على المسلمين، فإن ابن ليون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته، وهو مجاوره، فجدد عمارته وأتقنه، وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد، فتأذى بهم السواد الذي يحلب، وهو إلى الآن بأيديهم.

وكان طائفة قليلة في الخيام، شرقي الحصن، فراوا الفرنج قد أهدموا ذلك الجانب، لأنهم لا يرون فيه مقاتلاً، وليكتروا في الجهة التي فيها صلاح الدين، فصعدت تلك الطائفة من العسكر، فلم يمتنعهم مانع، فصعدوا أيضاً الحصن من الجهة الأخرى، فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج، فملكوا الحصن عنوة وقهراً، ودخل الفرنج القلعة التي للحصن، وأحاط بها المسلمون، وأرادوا تقبها.

وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلعة، وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلعة، وظنّ الفرنج أن المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر، فملكها المسلمون عنوة، ونهبوا ما فيها، وأسروا وسبوا من فيها، وأخذوا صاحبها وأهله، وأمسّت خالية لا ديار بها، وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحتُرقت.

ومن أعجب ما يُحكى من السلامة أنني رأيت رجلاً من المسلمين على هذا الحصن قد جاء من طائفة من المؤمنين شماليّ القلعة إلى غلاظة أخرى من المسلمين جنوبيّ القلعة، وهو يعدو في الجبل عرضاً، فألقيت عليه الحجارة، وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه، فنزل عليه، فناداه الناس يحذرونه، فالتفت ينظر ما الخبر، فسقط على وجهه من عثرة، فاسترجع الناس، وجاء الحجر إليه، فلما قاربه وهو منبطح على وجهه، لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل، فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض، وجاز الرجل، ثم عاد إلى الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر، وقام يعدو حتى لحق بأصحابه، فكان (١٧/١٢) سقوطه سبب نجاته فتعست أم الجبان.

وأما صاحب بَرْزِيّة، فإنه أسر هو وأمرأته وأولاده، ومنهم بنت له معها زوجها، فتفرّقتهم العسكر، فأرسل صلاح الدين في الوقت ويبحث عنهم واشترأهم، وجمع شمل بعضهم ببعض؛ فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها، وكانت امرأة صاحب بَرْزِيّة أخت امرأة يميند، صاحب أنطاكية، وكانت ترأس صلاح الدين وتهاديه، وتعلمه كثيراً من الأحوال التي تؤثر، فأطلق هؤلاء لأجلها.

ذكر فتح درب ساك

لما فتح صلاح الدين حصن بَرْزِيّة رحل عنه من الغد، فأتى جسر الحديد، وهو على العاصي، بالقرب من أنطاكية، فأقام عليه حتى وافاه من تخلف عنه من عسكره، ثم سار عنه إلى قلعة درب ساك، فنزل عليها ثامن من رجب، وهي من معادل الداوية الحصينة وقلاعهم التي يدخرونها لحماياتهم عند نزول الشدائد.

فلما نزل عليها نصب المجانيق، وتابع الرمي بالحجارة، فهدمت من سورها شيئاً يسيراً، فلم يبال من فيه بذلك، فأمر

العسكر الذي يحصرها في المعنى، فتسلم القلعة منهم وأمنهم.

ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب أنطاكية

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها، فخاف اليمند صاحبها من ذلك، وأشفق منه، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة، وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين، فاستشار من عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم، فأشار أكثرهم بإجابه إلى ذلك ليعود الناس ويستريحوا ويجددوا ما يحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك، واصطلحوا ثمانية أشهر، أولها: أول تشرين الأول، وآخرها: آخر أيار، وسير رسوله إلى صاحب أنطاكية يستحلفه، ويطلق من عنده من الأسرى.

وكان صاحب أنطاكية، في هذا الوقت، أعظم الفرنج شأنًا، وأكثرهم ملكًا، فإن الفرنج كانوا قد سلموا إليه طرابلس، بعد موت القمص، وجميع أعمالها، مضافًا إلى ما كان له، لأن القمص لم يخلف ولدًا، فلما سلمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائبًا عنه. (٢٠/١٢)

وأما صلاح الدين فإنه عاد إلى حلب ثالث شعبان، فدخلها وسار منها إلى دمشق، وفرق العساكر الشرقية، كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار والخابور، وعسكر الموصل، وغيرها، ثم رحل من حلب إلى دمشق، وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز، فزاره، وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي، وكان مقيمًا هناك، وكان من عباد الله الصالحين، وله كرامات ظاهرة.

وكان مع صلاح الدين الأمير عز الدين أبو الفيلته قاسم بن المهنا العلوي الحسيني، وهو أمير مدينة النبي ﷺ كان قد حضر عنده، وشهد معه مشاهدته وفتوحه، وكان صلاح الدين قد تبارك برويته، وتيمن بصحبته، وكان يكرمه كثيرًا، وينتسب معه، ويرجع إلى قوله في أعماله كلها، ودخل دمشق أول شهر رمضان، فأشير عليه بتفريق العساكر، فقال: إن العمر قصير والأجل غير مأمون؛ وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون: كوكب، وصفد، والكرك، وغيرها، ولا بد من الفراغ منها، فإنها في وسط بلاد الإسلام، ولا يؤمن شر أهلها، وإن أغفلناهم ندما فيما بعد، والله أعلم.

ذكر فتح الكرك وما يجاوره

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكريًا يحصره، فلأزمو الحصار هذه المدة الطويلة، حتى فئت أزواد الفرنج وذخائرهم، وأكلوا دوابهم، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجالًا، فراسلوا الملك العادل، أخا صلاح الدين، (٢١/١٢) وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها، ويكون مطلعًا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو إلى درب سناك، وبغراس، فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة إليه، ويطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى مقدم

ذكر فتح قلعة صفد

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق، وأشير عليه بتفريق العساكر، وقال: لا بد من الفراغ من صفد وكوكب وغيرهما، أقام بدمشق إلى منتصف رمضان، وسار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وقتلها، ونصب عليها المجانيق، وأدام الرمي إليها ليلاً ونهارًا بالحجارة والسهم.

وكان أهلها قد قارت ذخائرهم وأزوادهم أن تفتى في المدة التي كانوا فيها محاصرين، فإن عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم، كما ذكرنا، فلما رأى أهله جد صلاح الدين في قتلهم، خافوا أن يقيم إلى أن يفتى ما بقي معهم من أقواتهم، وكانت قليلة، ويأخذهم عنوة ويهلكهم، أو أنهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوات فيأخذهم، فأرسلوا يطلبون الأمان، (٢٢/١٢) فآمنهم وتسلمها منهم، فخرجوا عنها وساروا إلى مدينة صور، وكفى الله المؤمنين شرهم، فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية.

ذكر فتح كوكب

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد، اجتمع من بضور من الفرنج، وقالوا: إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب، ولو أنها معلقة بالكوكب، وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد، فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سرًا من رجال وسلاح وغير ذلك، فأخرجوا ماتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم، فساروا الليل مستخفين، وأقاموا النهار مكمنين.

فاتفق من قدر الله تعالى أن رجلاً من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيدًا، فلقي رجلاً من تلك النجدة، فاستغربه بتلك الأرض، فضره ليعلمه بحاله، وما الذي أقدمه إلى هناك، فأقر بالحال، ودله على أصحابه، فعاد الجندي المسلم إلى قايماز النجمي، وهو مقدم ذلك العسكر، فأعلمه الخبر، والفرنجي معه، فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي قد اختفى فيه الفرنج، فكيسهم، فأخذهم، وتبعهم في الشجاب والكهوف، فلم يفلت منهم أحد، فكان معهم مقدمان من فرسان الإسميتار، فحُملا إلى صلاح الدين وهو على صفد، فأحضرهما ليقتلها، وكانت عادته قتل الداوئة والإسميتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم، فلما أمر بقتلها قال له أحدهما: ما أظن بنا لنا سوء

فأخبره الخبر، فقال القاضي الفاضل: ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتم، حيث علمت من بواطن رعيّتك المحبة لك والنصح، وترك الميل إلى عدوك، ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن أصحابك ورعيّتك، وخسرت الأموال الجلييلة عليهم، لكان قليلاً؛ فسُرّي عنه.

وكان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدين، وأكبر من بها، وستأتي مناقبه عند وفاته، ما تراه.

ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين الله عسكراً كثيراً، وجعل المقدّم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، وسيرهم إلى مساعدة قول، ليكفّ السلطان طغرل عن البلاد، فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همذان، فلم يصل قول إليهم، وأقبل طغرل إليهم في عساكره، فالتقوا ثامن (٢٥/١٢) ربيع الأول بداي مرج عند همذان، واقتتلوا، فلم يثبت عسكر بغداد، بل انهزموا وتفرّقوا، وثبت الوزير قائماً، ومعه مصحف وسيف، فأتاه من عسكر طغرل من أسره، وأخذ ما معه من خزانة وسلاح ودواب وغير ذلك، وعاد العسكر إلى بغداد متفرّقين.

وكنّ حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة، فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادي، فقال: كأنكم قد وصل الخبر بانهزامهم. فقال له بعض الحاضرين: وكيف ذلك؟ فقال: لا شك أنّ أصحابي وأهلي أعرف بالحرب من الوزير، وأطوع في العسكر منه، ومع هذا، فما أرسل أحداً منهم في سرية للحرب إلّا وأخاف عليه؛ وهذا الوزير غير عارف بالحرب، وقريب العهد بالولاية، ولا يراه الأمراء أهلاً أن يُطاع، وفي مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه، ومن معه بطيعة. وكان الأمر كذلك، ووصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه: كنّ أخبرتكم بكذا وكذا، وقد وصل الخبر بذلك.

ولمّا عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء، وهو أحمد بن الواثق بالله:

أتركونا من جانحات الجريمة طلعاً طلعة تكون وخيمة
بركات الوزير قد شملتنا فلهذا أمورنا مستقيمة
خرجت جندنا تريد خراساً ن جميعاً باتها عزيمة
بخيول وعدو وعديد وسيرف مجربات قديمة
(٢٦/١٢)

وزير وطاق طنّب ونفّس وخيول ممدّة للهزيمة
هم راوا غرة العدو وقد أقبل ونلوا وانحل عقد الغزيمة

وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح. وكان، رحمه الله، كثير العفو، يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه، فيعفو (٢٣/١٢) ويصفح، فلمّا سمع كلامهما لم يقتلها، وأمر بهما فسجنا.

ولمّا فتح صفد سار عنها إلى كركب ونازلها وحصرها، وأرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلّموا، ويهدّدهم بالقتل والسبي والنهب إن امتنعوا، فلم يسمعوا قوله، وأصرّوا على الامتناع، فجذب في قتالهم، ونصب عليهم المجانيق، وتابع رمي الأحجار إليهم، وزحف مرّة بعد مرّة، وكانت الأمطار كثيرة، لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً، فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه، وطال مقامهم عليها.

وفي آخر الأمر زحفوا إليها دفعات متناوبة في يوم واحد، ووصلوا إلى باشورة القلعة، ومعهم النجّابون والرماة يحمونهم بالشباب عن قوس اليد والجروح، فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور، فقبوا الباشورة فسقطت، وتقدّموا إلى السور الأعلى، فلمّا رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم، وطلبوا الأمان فاقنهم، وتسلم الحصن منهم منتصف ذي القعدة، وسيرهم إلى صور، فوصلوا إليها.

واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كلّ صنديد، فاشتدّت شوكتهم، وحميت جمرتهم، وتابعوا الرسل إلى من بالأندلس وصقلية وغيرهما من جزائر البحر يستغيثون ويستجدون، والأمداد كلّ قليل تأتيهم، وكان ذلك كلّهُ بتفريط صلاح الدين في إطلاق كلّ من حصره، حتّى عضّ بنانه، ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك.

واجتمع للمسلمين بفتح كركب وصفد من حدّ آيلة إلى أقصى أعمال بيروت، لا يفصل بينه غير مدينة صور، وجميع أعمال أنطاكية، سوى القصير، ولمّا ملك صلاح الدين صفد سار إلى بيت المقدس، فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار منه إلى عكا، فأقام بها حتّى انسلخت السنة. (٢٤/١٢)

ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر

في هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة، عدّتهم اثنا عشر رجلاً، ليلاً، ونادوا بشعار العلويين: يال علي، يال علي، وسلّكوا الدروب ينادون، طمّنّا منهم أنّ رعيّة البلد يلبّون دعوتهم، ويخرجون معهم، فيعيدون الدولة العلوية، ويخرجون بعض من بالقصر محبوساً منهم، ويملكون البلد، فلم يلتفت أحد منهم إليهم، ولا أعارهم سمعه.

فلمّا رأوا ذلك تفرّقوا خائفين، فأخذوا، وكتب بذلك إلى صلاح الدين، فأهمّه أمرهم وأزعجه، فدخل عليه القاضي الفاضل،

بلاد المشرق، ويكون مقابل أنطاكية لئلا يقبض صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة.

وكان أيضاً مترجع الخاطر، كثير الهم، لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة (٢٨/١٢) صور، وما يتصل بهم من الأمداد في البحر، وإن ملك الفرنج الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه، بعد فتح القدس، قد اصططح هو والمركيس، بعد اختلاف كان بينهما، وأنهم قد اجتمعوا في خلق لا يحصون، فإنهم قد خرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها؛ فكان هذا وأشباهه مما يزعجه، ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتوافرة فتقطع الميرة عنه، إلا أنه مع هذه الأشياء مقيم على العهد مع أرناط صاحب الشقيف.

وكان أرناط، في مدة الهدنة، يشتري الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحسن به شقيقه، وكان صلاح الدين يحسن الظن، وإذا قيل له عنه مما هو فيه من المكر، وإن قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور، وحينئذ يبدى فضيحتهم، ويظهر مخالفتهم، لا يقبل فيه، فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف أرناط وأحضر عنده أرناط وقد بقي من الأجل ثلاثة أيام، فقال له في معنى تسليم الشقيف، فاعتذر بأولاده وأهله، وأن المركيس لم يمكنهم من المجيء إليه وطلب التأخير مدة أخرى، فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه، فأخذه وحبسه، وأمره بتسليم الشقيف، فطلب قسيساً، ذكره، ليحمله رسالة إلى من بالشقيف ليسلموه، فأحضره عنده، فسأره بما لم يعلموا، فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف، فأظهر أهله العصيان، فسار صلاح الدين أرناط إلى دمشق وسجنه، وتقدم إلى الشقيف فحضره وضيق عليه، وجعل عليه من يحفظه ويمنع عنه الذخيرة والرجال. (٢٩/١٢)

ذكر وقعة الزك مع الفرنج

لما كان صلاح الدين بمرج عيون، وعلى الشقيف، جاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكاً في مقابل الفرنج على صور، يخبرونه فيها أن الفرنج قد أجمعوا على عبور البحر الذي لصور، وعزموا على حصار صيدا، فسار صلاح الدين جريداً في شجعان أصحابه، سوى من جعله على الشقيف، فوصل إليهم وقد فات الأمر.

وذلك أن الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنها لمقصدهم، فلقاهم الزك على مضيق هناك، وقاتلوهم ومنعواهم، وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد، وأسروا من الفرنج جماعة، وقتلوا جماعة منهم سبعة رجال من فرسانهم المشهورين وجرحوا جماعة، وقتل من المسلمين أيضاً جماعة منهم مملوك لصلاح

وأثرونا ولا يخفى حينئذ بوجوههم وبيعاً ذميمة لو رأى صاحب الزمان ولو عاين أفعالهم وقبح الجريمة قابل الكل بالنكال وناهيك لك بها سبة عليهم مقيمة كان ينبغي أن تقدم هذه الحادثة، وإنما أخرتها لتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضاً، لتعلق كل واحدة منها بالأخرى.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي شيخنا أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن سويد التكريتي، كان عالماً بالحدِيث، وله تصانيف حسنة.

وفيها توفيت سُلجُوقة خاتون بنت قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان زوجة الخليفة، وكانت قبله زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان، صاحب الحصن، فلما توفي عنها تزوجها الخليفة، ووجد الخليفة عليها وجداً عظيماً ظهر للناس كلهم، وبني على قبرها تربة بالجانب الغربي، وإلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة.

وفيها توفي علاء الدين تنامش وحمل تابوته إلى مشهد الحسين عليه السلام.

وفيها توفي خالص خادم الخليفة، وكان أكبر أمير ببغداد؛

ومات أبو الفرج بن النور العدل ببغداد، وسمع الحديث الكثير، وهو من بيت الحديث، رحمه الله. (٢٧/١٢)

سنة خمس وثمانين وخمسمائة

ذكر فتح شقيف أرناط

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار صلاح الدين إلى شقيف أرناط، وهو من أمّنع الحصون، ليحضره، فنزل بمرج عيون، فنزل صاحب الشقيف، وهو أرناط صاحب صيدا، وكان أرناط هذا من أعظم الناس دهاء ومكرًا، فدخل إليه واجتمع به، وأظهر له الطاعة والمودة، وقال له: أنا محب لك، ومعترف بإحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس ما بيني وبينك، فينال أولادي وأهلي منه أذى، فإنهم عنده، فاشتبه أن تمهّلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك، ونسلم الحصن إليك، وتكون في خدمتك، فنقم بما تعطينا من إقطاع؛ فظن صلاح الدين صدقه، فأجابته إلى ما سأله، فاستقر الأمر بينهما أن يسلم الشقيف في جمادى الآخرة.

وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر، لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيّعت، صاحب أنطاكية، فأمر نقي الدين ابن أخيه أن يسير في من معه من عساكره، ومن يأتي من

عليهم، ويخرج الكمين من خلفهم؛ فخرجوا على هذه العزيمة.

فلما تراءى الجمعان، والتقت الفتتان واقتتلوا، أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة، وثبتوا، فقاتلوه، وصبر بعضهم لبعض، واشتد القتال وعظم الأمر، ودامت الحرب، وطال على الكمناء الانتظار، فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين، وإلهم قاصدين، فأتوهم وهم في شدة الحرب، فازداد الأمر شدة على شدة، وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة وطي، وكانوا يجهلون تلك الأرض، فلم يسلكوا مسلك أصحابهم، فسلكوا الوادي ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم، وتبعهم بعض ممالك صلاح الدين، فلما رآهم الفرنج بالوادي علموا أنهم جاهلون فأتوهم وقاتلوه.

وأما المملوك فإنه نزل عن فرسه، وجلس على صخرة، وأخذ قوسه بيده، وحمل نفسه، وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فخرج منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة، فسقط فأنوه وهو بأخر رمق، فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتاً؛ ثم إن المسلمين جاؤوا من الغد إلى موضعهم، فرأوا القتلى ورأوا المملوك حياً، فحملوه في كساء، وهو يكاد لا يُعرف من [كثرة] الجراحات، فأيسوا من حياته، فأعرضوا عنه [وعرضوا] عليه الشهادة، وبشروه بالشهادة، فتركوه، ثم عادوا إليه، فأواه وقد قويت نفسه، فأقبلوا عليه بمشروب، فعوفي، ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهداً إلا كان له فيه الأثر العظيم. (٣٢/١٢)

ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها

لما كثر جمع الفرنج بصور على ما ذكرناه من أن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان، وسيرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم، فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يُعد ولا يُحصى، ومن الأموال ما لا يفتى على كثرة الإنفاق في السنين الكثيرة، ثم أن الرهبان والقسوس وخلقا كثيراً من مشهورهم وفرسانهم لبسوا السواد، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم ببلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً، ويستنجدون أهلها، ويستعيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بشار البيت المقدس، وصوّرُوا المسيح، عليه السلام، وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح، عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله.

فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا وحشدوا حتى النساء، فباتهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزن الأتقان، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه، أو يعطيهم مالا على قدر حالهم، فاجتمع لهم من الرجال

الذين كان من أشجع الناس، فحمل وحده على صف الفرنج، فاختلط بهم، وضربهم بسيفه يميناً وشمالاً، فتكاثروا عليه فقتلوه، رحمه الله؛ ثم إن الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا فعادوا إلى مكانهم.

ذكر وقعة ثانية للفرجة المتطورة

لما وصل صلاح الدين إلى البرك وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة، ينتظر عودة الفرنج ليتقم منهم، ويأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين. فركب في بعض الأيام في عدة يسيرة على أن ينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده، وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطورة أنه على قصد المصاف والحرب، فساروا مجتدين وأوغلوا في أرض العدو مبعدين، (٣٠/١٢) وفارقوا الحزم، وخلفوا السلطان وراء ظهورهم، وقاربوا الفرنج، فأرسل صلاح الدين عدة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا، فلم يسمعو ولم يقلوا.

وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراءهم كميناً، فلم يقدموا عليهم، فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر، فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين، وليس وراءهم ما يخاف، فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد، فقاتلوه، فلم يلبثوا أن أناموهم، وقتل معهم جماعة من المعروفين، وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم، وكان ذلك بتفريطهم في حق أنفسهم، رحمهم الله ورضي عنهم.

وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الأولى، فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل إليهم في عسكره، فحملوا على الفرنج فالتقوهم إلى الجسر وقد أخذوا طريقهم، فالتقا أنفسهم في الماء، ففرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل، وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم، فتسامع الناس، فقصده من كل ناحية واجتمع معه خلق كثير، فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور، فلما عادوا إليها سار صلاح الدين إلى يمينين، ثم إلى عكا ينظر حالها، ثم عاد إلى العسكر والمخيم.

ذكر وقعة ثالثة

لما عاد صلاح الدين إلى العسكر أتاه الخبر أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش، متبدين، فكتب إلى من بعكا من العسكر وواعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين، ورتب كميناً في موضع من تلك الأودية والشعاب، واختار جماعة من شجعان عسكره، (٣١/١٢) وأمرهم بالتعرض للفرنج، وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج قاتلوه شياً من قتال، ثم تباردوا لهم، وأروهم العجز عن مقاتلتهم، فإذا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا موضع الكمين، ثم يعطفوا

والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء.

ولقد حدثني بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد، وهو من أجناد أصحابه الذين سلموه إلى الفرنج قديماً، وكان هذا الرجل قد ندِم على ما كان منه [من] موافقة الفرنج في الغارة على بلاد الإسلام، والقتال معهم، والسعي (٣٣/١٢) معهم، وكان سبب اجتماعي به ما ذكره سنة تسعين وخمسمائة، إن شاء الله تعالى.

قال لي هذا الرجل أنه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحرية التي للفرنج والروم في أربع شوان، يستجدون؛ قال: فأنتهى بنا التطواف إلى رومية الكبرى، فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني نقرة.

وحدثني بعض الأسرى منهم أنه له والدة ليس لها ولد سواه، ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه، وسيرته لاستقاذ بيت واحد فأخذ أسيراً.

وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حذوه، فخرجوا على الصعب والذلول، برأً وبحراً، من كل فج عميق، ولولا [أن] الله تعالى لطف بالمسلمين، وأهلك ملك الألمان لماً خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام، وإلا كان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمسلمين.

فهذا كان سبب خروجهم، فلما اجتمعوا بصور تموج بعضهم في بعض، ومعهم الأموال العظيمة، والبحر يمدُّهم بالأقوات والذخائر، والعدد والرجال، من بلادهم، فضاحت عليهم صور، باطنها وظاهرها، فارادوا قصد صيدا، وكان ما ذكرناه، فعادوا واتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها، ومصابرتها، فساروا إليها بفارسهم ورجالهم، وقضهم وقضيضهم، ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر، والضيق والسعة، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر، فيها سلاحهم وذخائرهم، ولتكون عدة لهم، إن جاءهم ما لا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا؛ وكان رحيلهم ثامن رجب، ونزلهم على عكا في منتصفه، ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمون يتخطفونهم، ويأخذون المنفرد منهم.

ولما رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدين برحيلهم، فسار حتى قاربهم، ثم (٣٤/١٢) جمع أمراءه واستشارهم: هل يكون المسير محاذة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون، أو يكون في غير الطريق التي سلكوها؟ فقالوا: لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة في مسيرتهم، فإن الطريق وعرو وضيق، ولا يتهاى لنا ما نريده منهم، والرأي أننا نسير في الطريق المهيح، ونجتمع عليهم عند عكا، فنفرقهم ونمزقهم.

فعلم ميلهم إلى الراحة المعجلة، فوافقهم، وكان رأيهم

مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون، وقال: إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض، فلا يتهاى لنا لزغاجهم، ولا نبيل الغرض منهم، والرأي قتالهم قبل الوصول إلى عكا؛ فخابأهم، فتبعهم، وساروا على طريق كفر كنا، فسبقهم الفرنج، وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم، ويناشونهم القتال، ويتخطفونهم، ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم، فلو أن العساكر اتبعت رأي صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا، لكان بلغ غرضه وصددهم عنها، ولكن إذا أراد الله أمراً هيا أسبابه.

ولما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر، من الجانب الآخر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فنزل صلاح الدين عليهم، وضرب خيمته على تل كيسان، وامتدت ميمته إلى تل الغياضية، وميسرته إلى النهر الجاري، ونزلت الأتقال بصفورية، وسير الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر، فأتاه عسكر الموصل، وديار بكر، وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة، وأتاه تقي الدين ابن أخيه، وأتاه مظفر الدين بن زين الدين، وهو صاحب حران والرها.

وكانت الأمداد تأتي المسلمين في البر وتأتي الفرنج في البحر، وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة، منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك، وأنا أذكر الأيام الكبار لثلاث بطول (٣٥/١٢) ذلك، ولأن ما عداها كان قتالاً يسيراً من بعضهم مع بعض، فلا حاجة إلى ذكره.

ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول إليهم، ولا إلى عكا، حتى انسلك رجب، ثم قاتلهم مستهل شعبان، فلم يتل منهم ما يريد، ويات الناس على تعبته. فلما كان الغد باكرهم القتال بحذو وحديده، واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة إلى الظهر، وصبر الفريقان صبراً حاراً له من رآه.

فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين حملة منكراً من الميمنة على من يليه منهم، فازاحمهم عن مواقعهم يركب بعضهم بعضاً لا يلوي أخ على أخ، والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم، واجتمعوا بهم واحتموا بهم، وأخلوا نصف البلد، وملك تقي الدين مكانهم، والتصق بالبلد، وضار ما أخلوه بيده، ودخل المسلمون البلد، وخرجوا منه، واتصلت الطرق، وزال الحصر عمن فيه، وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال، وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك، ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه، فإن للصدمة الأولى روعة، لكنهم لمّا نالوا منهم هذا القدر أخذوا إلى الراحة، وتركوا القتال وقالوا: نباكرهم غداً، ونقطع دابرهم.

نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه، فتقدموا إليه، فلما قربوا منه تأخر عنهم.

فلما رأى صلاح الدين الحال، وهو في القلب، أمدّ يده في القلب، فوجد فيه رجل واحد، فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين، وثبت بعضهم، فاستشهد جماعة منهم كالأمير مجلى بن مروان والطبيب أخي الفقيه عيسى، وكان والي البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة والعلم والدين، وكان الحاجب خليل الهكاري وغيرهم من الشجعان (٣٨/١٢) الصابرين في مواطن الحرب، ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردّهم، فقصّصوا التلّ الذي عليه خيمة صلاح الدين، فقتلوا من مروا به، ونهبوا، وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة، منهم شيخنا جمال الدين أبو علي بن زواحة الحموي، وهو من أهل العلم، وله شعر حسن، وما وُثِرَ الشهادة من بعيد، فإنّ جدّه عبد الله بن زواحة، صاحب رسول الله ﷺ قتلته الروم يوم مؤتة، وهذا قتلته الفرنج يوم عكا، وقتلوا غيره، وانحدروا إلى الجانب الآخر من التلّ، فوضعوا السيف فيمن لقوه، وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين أنّ الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين، ولو لقوها لعلم الناس وصولهم إليها، وانهمزوا العساكر بين أيديهم، فكانوا انهمزوا أجمعون.

ثم إنّ الفرنج نظروا وراءهم، فأروا أمدادهم قد انقطعت عنهم، فرجعوا خوفاً أن ينقطعوا عن أصحابهم، وكان سبب انقطاعهم أن المينة وقفت مقابلتهم، فاحتاج بعضهم [أن] يقف مقابلها، وحملت مسيرة المسلمين على الفرنج، فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم، وعادوا إلى طرف خنادقهم، فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين، فصادفهم وهم راجعون، فقاتلهم، وثار بهم غلمان العسكر.

وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم يناديهم، ويأمرهم بالكرّة، ومعاودة القتال، فاجتمع معه منهم جماعة صالحة، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة، فأخذتهم سيوف الله من كلّ جانب، فلم يفلت منهم أحد، بل قُتل أكثرهم، وأخذ الباقون أسرى، وفي جملة من أسر مقدّم الداوية الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه، فلما (٣٩/١٢) ظفر به الآن قتله.

وكانت عدّة القتلى، سوى من كان إلى جانب البحر، نحو عشرة آلاف قتيل، فأمر بهم، فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه؛ وكان عامّة القتلى من فرسان الفرنج، فإنّ الرجالة لم يلحقوهم، وكان في جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كنّ يقاتلن

وكان في جملة من أدخله صلاح الدين إلى عكا من جملة الأمراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين، وهو من أكابر أمراء عسكره، وهو من الأكراد الحكمة من بلد إربل، وقُتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة. (٣٩/١٢)

ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب

ثم إنّ المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم، واستفاد وسعهم في استصالحهم، فتقدموا على تعبتهم، فأروا الفرنج حذر من محتاطين، قد ندموا على ما فرطوا فيه بالأس، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم، وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم، فالتح المسلمون عليهم في القتال، فلم يتقدّم الفرنج إليهم، ولا فارقوا مرائبهم؛ فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم.

ثم إنّ جماعة من العرب بلغهم أنّ الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم، فمكنوا لهم في معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان، فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب، فقتلوه من آخرهم، وغنموا ما كان معهم، وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين، فأحسن إليهم، وأعطاهم الخلع.

ذكر الوقعة الكبرى على عكا

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقي المسلمون إلى العشرين من شعبان، كلّ يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراحونه، والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه، ثمّ إنّ الفرنج اجتمعوا للمشورة، فقالوا: إنّ عسكر مصر لم يحضر والحال مع صلاح الدين هكذا، فكيف يكون إذا حضر؟ (٣٧/١٢) والرأي أننا نلقى المسلمين غداً لعلنا ننظر بهم قبل اجتماع العساكر والأمداد إليهم.

وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائباً عنه، بعضها مقابل أنطاكية ليردّوا عادية يميند صاحبها عن أعمال حلب، وبعضها في حمص مقابل طرابلس لتحفظ ذلك الثغر أيضاً، وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد، وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والإسكندرية وغيرهما؛ والذي بقي من عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم، كما ذكرناه قبل، وكان هذا ممّا أطمع الفرنج في الظهور إلى قتال المسلمين.

وأصبح المسلمون على عادتهم، منهم من يتقدّم إلى القتال، ومنهم من هو في خيمته، ومنهم من قد توجه في حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه، إلى غير ذلك، فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر، يذبّون على وجه الأرض، قد ملؤوها طولا وعرضا، وطلبوا مينة المسلمين وعليها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فلما رأى الفرنج

على الخيل، فلما أسرن، وألقي عنهم السلاح عُرفن أَنَّهُنَّ نساء.

ظهر وأي المشرين بالرحيل- (٤٧/١٢)

وكان اليُوك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج، ويعظمون الأمر عليه، وهو مشغول بالمرض، لا يقدر على النهوض للحرب، وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليهم لينتقم من الخندق والصور، ويقاتلوهم، ويتخلف هو عنهم، فقال: إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً، وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير؛ فتأخّر الأمر إلى أن عوفي، فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا، وأحكموا أمورهم، وحصّنوا نفوسهم بما وجدوا إليه السبل، وكان من بعدك يخرجون إليهم كل يوم، ويقاتلونهم، ويألون منهم بظاهر البلد.

ذكر وصول عسكر مصر والأسطول المصري في البحر

في منتصف شوال وصلت العساكر المصرية، ومقدّمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، فلما وصل قويت نفوس الناس به ويمن معه، واشتدّت ظهورهم، وأحضر معه من آلات الحصار، من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس، شيئاً كثيراً، ومعهم من الرجالة الجَم الغفير، وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية رجلاً كثيراً، وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل.

ووصل بعده الأسطول المصري، ومقدّمه الأمير لؤلؤ، وكان شهيداً، شجاعاً، مقدماً، خيراً بالبحر والقتال فيه، ميمون النقيبة، فوصل بغتة، فوقع على بُطسة كبيرة للفرنج، فغنمها، وأخذ منها أموالاً كثيرة وميرة عظيمة، فأدخلها إلى عكا، فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول وقوي جيتانهم. (٤٧/١٢)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، خطب لولي العهد أبي نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد، ونشرت الدنانير والدراهم، وأرسل إلى البلاد في إقامة الخطبة، ففعل ذلك.

وفيها، في شوال، ملك الخليفة تكريت، وسبب ذلك أن صاحبها، وهو الأمير عيسى، قتل إخوته، وملكو القلعة بعده، فسير الخليفة إليهم عسكراً فحصروها، وتسلموها، ودخل أصحابه إلى بغداد فأعطوا أقطاعاً.

وفيها، في صفر، فتح الرهاط الذي بناه الخليفة بالجانب الغربي من بغداد، وحضر الخلق العظيم، فكان يوماً مشهوداً.

وفي هذه السنة، في رمضان، مات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد ابن هبة الله بن أبي عصرون، الفقيه الشافعي بدمشق، وكان قاضياً، وأضر، وولي القضاء بعده ابنه، وكان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعية.

وأما المنهزمون من المسلمين، فمَنهم من رجع من طبرية، ومنهم من جاز الأردن وعاد، ومنهم من بلغ دمشق، ولولا أن العساكر تفرقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج [من] الاستئصال، والإهلاك، مرادهم، على أن الباقيين بذلوا جهودهم، وجدوا في القتال وصمّوا على الدخول مع الفرنج إلى معسكرهم لعلهم يفزعون منهم، فجاءهم الصريح بأن رجالهم وأموالهم قد نُهبت، وكان سبب هذا النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أقتالهم على الدواب، فثار بهم أرباش العسكر وغلماطه، فنهبوه وأتوا عليه، وكان في عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف، فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم، وهم يسعون في جمعها وتحصيلها، فأمر بالنداء بإحضار ما أخذ، فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش، والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك، فردّ الجميع على أصحابه، ففاته ذلك اليوم ما أراد، فسكن روع الفرنج، وأصلحوا شأن الباقيين منهم.

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا

لما قُتل من الفرنج ذلك العدد الكثير، جافت الأرض من تن ريحهم، وفسد الهواء والجو، وحدث للأمزجة فساد، وانصرف مزاج صلاح الدين، (٤٠/١٢) وحدث له قولنج مبرح كيان يعتاده، فحضر عنده الأمراء، وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع، وترك مضايقة الفرنج، وحسنه له، وقالوا: قد ضيقنا على الفرنج، ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا، والرأي أننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعودة؛ فإن رجلوا، وهو ظاهر الأمر، فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا، وإن أقاموا غادونا القتال ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه، ثم إن مزاجك منحرف، والألم شديد، ولو وقع إرجاف لهلك الناس، والرأي على كل تقدير البعد عنهم.

وواقعهم الأطباء على ذلك، فأجابهم إليه إلى ما يريد الله بفعله ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١١] فرحلوا إلى الخربة رابع شهر رمضان وأمر من بعدك من المسلمين بحفظها، وإغلاق أبوابها، والاحتياط، وأعلمهم بسبب رحيله.

فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانسطوا في تلك الأرض، وعادوا فحصروا عكا، وأحاطوا بها من البحر إلى البحر، ومراكبهم أيضاً في البحر تحصرها، وشروعوا في حفر الخندق، وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق، وجاؤوا بما لم يكن في الحساب؛ وكان اليُوك كل يوم يوافقهم، وهم لا يقاتلون، ولا يتحركون، إنما هم مهتمون بعمل الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين، إن عاد إلى قتالهم، فحيث

وعكا، فنزل بطل كيسان، وقاتل الفرنج (٤٥/١٢) كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين، فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسمون.

ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول

كان الفرنج، في مدة مقامهم على عكا، قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً، طول كل برج منها في السماء ستون ذراعاً، وعملوا كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوءة من المقاتلة، وقد جمعوا أخشابها من الجزائر، فلما مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر، وغشوها بالجلود والخيل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها، وأصلحوا الطرق لها، وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا بها في العشرين من ربيع الأول، فأشرفت على السور، وقاتل من بها من عليه، فانكشفوا، وشرعوا في طم خندقها، فأشرف البلد على أن يملك عنوة وقهراً.

فأرسل أهله إلى صلاح الدين إنساناً سبيح في البحر، فأعلمه ما هم فيه من الضيق، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم، فركب هو وعساكره وتقدموا إلى الفرنج وقاتلوه من جميع جهاتهم قتالاً عظيماً دائماً يشغلهم عن مكائده البلد، فافترق الفرنج فرقتين: فرقة تقاتل صلاح الدين، وفرقة تقاتل أهل عكا، إلا أن الأمر قد خف عمن بالبلد، ودام القتال ثمانية أيام متتابة، آخرها الثامن والعشرون من الشهر، وشتم الفريقان القتال، وملأ منه ليلامزته (٤٦/١٢) ليلاً ونهاراً، والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد، لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج، فلأنهم لم يتركوا حيلة إلا وعملوها، فلم يُفد ذلك ولم يُغن عنهم شيئاً، وتابعوا رمي النبط الطيار عليها، فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبور والهلاك، فأتاهم الله بنصر من عنده وإذن في إحراق الأبراج.

وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفاطين، وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه، وهو يقول: هذه حالة لا أباشرها بنفسي إنما أشتي معرفتها، وكان بعكا لأمر يريد الله، فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار، بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخيل وغيرهما، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش، وهو مُتوَلِّي الأمور بعكا والحاكم فيها، وقال له: تأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه.

وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله، فازداد غيظاً بقوله وحرده عليه، فقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يُفْلِحوا؛ فقال له من

وفيها، في ذي القعدة، توفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بالخروبة مع صلاح الدين، وهو من أعيان أمراء عسكره، ومن قدامه الأسديّة، وكان فقيهاً، جندياً، شجاعاً، كريماً، ذا عصيّة ومروءة، وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزّي، تفقه عليه بجزيرة ابن عمر، ثم اتصل بأسد الدين شيركوه فصار إماماً له، فرأى من شجاعته ما جعل له أقطاعاً، وتقدم عند صلاح الدين تقدماً عظيماً.

وفيها، في صفر، توفي شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان، (٤٣/١٢) المعروف بابن أفضل الزمان، بمكة، وكان رحمه الله عالماً متبحراً في علوم كثيرة، خلاف فقه مذهبه والأصوليين، والحساب والفرائض، والنجوم، والهيئة، والمنطق، وغير ذلك، وختم أعماله بالزهد، ولبس الخشن، وأقام بمكة، حرسها الله تعالى، مجاوراً، فتوفي بها، وكان من أحسن الناس صحةً وخلقاً.

وفيها، في ذي القعدة، مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخي مدرّس النظاميّة، وكان من أصحاب أبي الحسن بن الخلّ، وكان صالحاً خيراً له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة، وجاة عريض، وكان حسن الخط يُضرب به المثل. (٤٤/١٢)

سنة ست وثمانين وخمسمائة

ذكر وقعة الفرنج واليزك وعود صلاح الدين إلى منازل الفرنج

قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكا إلى الخروبة لمرضه، فلما برأ أقام بمكانه إلى أن ذهب الشتاء؛ وفي مدة مقامه بالخروبة كان يزكه وطلّاعه لا تنقطع عن الفرنج.

فلما دخل صفر من سنة ست وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج أن صلاح الدين قد سار للصيد، ورأى العسكر الذي في اليزك عندهم قليلاً، وأن الوحل الذي في مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد أن يُجد اليزك، فاغتموا ذلك، وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر، فقاتلهم المسلمون، وحموا أنفسهم بالشباب، وأحجم الفرنج عنهم، حتى فني شباههم، فحملوا عليهم حيثئذ حملة رجل واحد، فاشتد القتال، وعظم الأمر، وعلم المسلمون أنه لا ينجيهم إلا الصبر وصدق القتال، فقاتلوا قتال مستقتل إلى أن جاء الليل، وقتل من الفريقين جماعة كثيرة، وعاد الفرنج إلى خندقهم.

ولما عاد صلاح الدين إلى المعسكر سمع خبر الوقعة، فندب الناس إلى نصر إخوانهم، فاتاه الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم، فأقام، ثم إنه رأى الشتاء قد ذهب، وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماة وغيرها، فتقدم من الخروبة نحو

الفرنج، من أكثرهم عدداً، وأشدّهم بأساً، وكان قد أزعجه مُلك الإسلام البيت المقدس، فجمع عساكره، وأزاح عنهم، وسار عن بلاده وطريقه على القسطنطينية، فأرسل ملك الروم بها إلى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعد أنه لا يمكنه من العبور في بلاده.

فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه، لكنه منع عنهم الميرة، ولم يمكن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم، فضاقت بهم الأزواد والأقوات، وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية، وصاروا على أرض بلاد الإسلام، وهي مملكة الملك قلع أرسلان ابن مسعود بن سليمان بن قُلمش بن سُلجق. فلما وصلوا إلى أوائلها نار بهم التركمان الأوج، فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه، وكان الزمان شتاء والبرد يكون في تلك البلاد شديداً، وأثلج متراكماً، فاهلكهم البرد والجوع والتركمان قتل عددهم.

فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملكشاه بن قلع أرسلان ليعينهم، فلم يكن له بهم قوة، فعاد إلى قونية وبها أبوه قد حَجَز ولده المذكور عليه، وتفرق أولاده في بلاده، وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها، فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير في أثره، فنازلوا قونية، وأرسلوا إلى قلع أرسلان هدية وقالوا له: ما قصدنا بلادك ولا أردناها، (٤٩/١٢) وإنما قصدنا البيت المقدس؛ وطلبوا منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره، فأذن في ذلك، فاتباهم ما يريدون، فشبّعوا، وتزوّدوا، وساروا؛ ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم، وأن يسلم إليهم جماعة من أمرائه رهائن، وكان يخافهم، فسلم إليهم ثيلاً وعشرين أميراً كان يكرههم، فساروا بهم معهم ولم يتمتع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض إليهم، فقبض ملك الألمان على من منعه من الأمراء وقبدهم، فمنهم من هلك في أسره، ومنهم من قُدي نفسه.

وسار ملك الألمان حتى أتى بلاد الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون، فأمدهم بالأقوات والعلوفات، وحكمهم في بلاده، وأظهر الطاعة لهم؛ ثم ساروا نحو أنطاكية، وكان في طريقهم نهر، فنزلوا عنده، ودخل ملكهم إليه ليغتسل، ففرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره.

وكان معه ولده، فصار ملكاً بعده، وسار إلى أنطاكية، فاختلف أصحابه عليه، فأحب بعضهم العود إلى بلاده، فتخلف عنه، وبعضهم مال إلى تملك أخ له، فعاد أيضاً، وسار فيمن صحت نيته له، فعرضهم، وكانوا ثيلاً وأربعين ألفاً، ووقع فيهم الوباء والموت، فوصلوا إلى أنطاكية وكانهم قد نبشوا من القبور، فقبّرهم بهم صاحبها، وحسن لهم المسير إلى الفرنج الذين على عكا،

حضر: لعل الله تعالى قد جعل الفرع على يد هذا، ولا يضرنا أن نوافقه على قوله؛ فأجابه إلى ذلك، وأمر المنجنيقي بامثال أمره، فرمى عدة قدور نطفاً وأدوية ليس فيها نار، فكان الفرنج إذا راوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون، ويرقصون، ويلعبون على سطح البرج، حتى إذا علم أن الذي ألقاه قد تمكن من السرج، ألقى قدراً مملوءاً وجعل فيها النار فاشتعل البرج، وألقى قدراً ثانية وثالثة، فاضطربت النار في نواحي البرج، وأعمجت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص، فأحرق هو ومن فيه، وكان فيه من الزرديات والسلاح شيء كثير.

وكان طمع الفرنج بما راوا أن القدر الأول لا تعمل شيئاً يحلمهم على (٤٧/١٢) الطمأنينة، وترك السعي في الخلاص، حتى عجل الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني، وقد هرب من فيه لخوفهم، فأحرقه، وكذلك الثالث، وكان يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله، والمسلمون ينظرون ويفرحون، وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر وخلص المسلمين من القتل لأنهم ليس فيهم أحد إلا وله في البلد إما نسب وإما صديق.

وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين فيذل له الأموال الجزيلة والإقطاع الكثير فلم يقبل منه الحبة الفرد، وقال: إنما عملته لله تعالى، ولا أريد الجزاء إلا منه.

وسيرت الكتب إلى البلاد بالبشائر، وأرسل يطلب العساكر الشرقية، فأول من أتاه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، وهو صاحب سينجار وديار الجزيرة، ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، سيره أبوه مقدماً على عسكره وهو صاحب الموصل، ثم وصل زين الدين يوسف صاحب إربل؛ وكان كل منهم إذا وصل يتقدم إلى الفرنج بعسكره، ويتضم إليه غيرهم، ويقاتلونهم، ثم ينزلون.

ووصل الأسطول من مصر، فلما سمع الفرنج بقرية منهم جهزوا إلى طريقه أسطولاً ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها، وقاتلهم من جهاتهم ليستغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليمتكن من دخول عكا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء، فكان القتال بين الفريقين براً وبحراً، وكان يوماً مشهوداً لم يؤرخ مثله، وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً بما فيه من الرجال والسلاح، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك، إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين، ووصل الأسطول الإسلامي سالماً. (٤٨/١٢)

ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته

في هذه السنة خرج ملك الألمان من بلاده، وهم نوع من

فساروا على جبلية ولاذقية وغيرها من البلاد التي ملكها المسلمون، وخرج أهل حلب وغيرها إليهم، وأخذوا منهم خلقاً كثيراً، ومات أكثر ممن أخذ، فبلغوا طرابلس، وأقاموا بها أياماً، فكثر فيهم الموت، فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكا، (٥٠/١٢) ولما وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم ففرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد.

وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعدّه أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها وخلقوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، وحجروا عليه، وتفرقوا عنه، وخرجوا عن طاعته.

وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الألمان، فإنه استشار أصحابه، فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا، فقال: بل نقيم إلى أن يقربوا منا، وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكنا من عساكرنا؛ لكنه سير بعض من عنده من العساكر، منها عسكر حلب وجبلية ولاذقية وشيزر وغير ذلك، إلى أعمال حلب ليكونوا في أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم، وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١] كفى الله شرهم وردّ كيدهم في نحركم.

ومن شدة خوفهم أن بعض أمراء صلاح الدين كان له بيلد الموصل قرية، وكان أخي، رحمه الله، يتولاه، فحصل دخلها من حنطة وشعير وتبن، فأرسل إليه في بيع الغلة، فوصل كتابه يقول: لا تبع الحبة الفرد، واستكثر لنا من التبن؛ ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول: تبيع الطعام فما بنا حاجة إليه؛ ثم إن ذلك الأمير قدم الموصل، فسألناه عن المنع من بيع الغلة، ثم الإذن فيها بعد مدة يسيرة، فقال: لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشام مقام، فكنت باليمن من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا إذا جئنا إليكم، فلما أهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبنا ببيعها والاتخاها بئمنها. (٥١/١٢)

وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعدّه أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها وخلقوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، وحجروا عليه، وتفرقوا عنه، وخرجوا عن طاعته.

وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعدّه أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها وخلقوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، وحجروا عليه، وتفرقوا عنه، وخرجوا عن طاعته.

وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعدّه أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها وخلقوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، وحجروا عليه، وتفرقوا عنه، وخرجوا عن طاعته.

وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعدّه أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها وخلقوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، وحجروا عليه، وتفرقوا عنه، وخرجوا عن طاعته.

وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعدّه أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها وخلقوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، وحجروا عليه، وتفرقوا عنه، وخرجوا عن طاعته.

وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعدّه أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها وخلقوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، وحجروا عليه، وتفرقوا عنه، وخرجوا عن طاعته.

وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعدّه أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها وخلقوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، وحجروا عليه، وتفرقوا عنه، وخرجوا عن طاعته.

وكانت الميرة قد قُلت بَعكًا، فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكّا، فتأخر إنفاذها، فسُير إلى نائبه بمدينة بيروت في ذلك، فسُير بُطنة عظيمة مملوءة من كل ما يريدونه، وأمر من بها فلبسوا ملابس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان، فلمّا وصلوا إلى عكّا لم يشكّ (٥٣/١٢) الفرنج أنّها لهم، فلم يتعرّضوا لها، فلمّا حاذت ميناء عكّا أدخلها من بها، وفرح بها المسلمون، وانتعشوا وقويت نفوسهم، وتبلغوا بما فيها إلى أن انتهت الميرة من الإسكندرية.

وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل، فأخذت بنواحي الإسكندرية، وأخذ من معها، ثم إنَّ الفرنج وصلهم كتاب من بابا، وهو كبيرهم الذي يصدرون عن أمره، وقوله عندهم كقول النيسين لا يُخالف، والمحروم عندهم من حرمه، والمقرب من قرّبه، وهو صاحب رومية الكبرى، يأمرهم بملازمة مع هم بصدده، ويُعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم برّاً وبحراً، ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم، فازدادوا قوةً وطمعاً.

ذكر خروج الفرنج من خنادقهم

لَمّا تابعت الأمداد إلى الفرنج، وجند لهم الكند هزي جمعاً كثيراً بالأموال التي وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين، فتركوا على عكّا من يحصرها ويقاثل أهلها، وخرجوا، حادي عشر شوال، في عدد كثر من كثره كالنار جمره؛ فلمّا رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى قِمُون، وهو على ثلاثة فراسخ عن عكّا، وكان قد عاد إليه من فرق من عساكره لَمّا هلك ملك الألمان، ولقي الفرنج على تعبته حسنة.

وكان أولاده الأفضل عليّ والظاهر غازي والظاهر [خضر] ممّا يلي القلب، وأخوه العادل أبو بكر في المينة، ومعه عساكر مصر ومن انضم إليهم، وكان في الميسرة عماد الدين، صاحب سنجار، وتقي الدين، صاحب حماة، ومعرّ الدين سنجر شاه، صاحب جزيرة ابن عمر، مع جماعة من أمرائه، واتفق (٥٤/١٢) أن صلاح الدين أخذه مغس كان يعتاده، فنصب له خيمة صغيرة على ثلّ مشرف على العسكر، ونزل فيها ينظر إليهم، فسار الفرنج، شرقي نهر هناك، حتى وصلوا إلى رأس النهر، فنبأهم عساكر الإسلام وكثرتها، فارتاعوا لذلك، ولقيهم للجالشيّة، وأمطروا عليهم من السهام ما يكاد يستر الشمس، فلمّا رأوا ذلك توجهوا إلى غربيّ النهر، ولزمهم الجالشيّة يقاتلونهم، والفرنج قد تجمعوا، ولزم بعضهم بعضاً، وكان غرض الجالشيّة أن تحمل الفرنج عليهم، فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال، فيكون الفصل، ويستريح الناس، وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم، فلزموا مكانهم، وابتدأوا ليلتهم تلك.

فلمّا كان الغد عادوا نحو عكّا ليعتصموا بخنادقهم، والجالشيّة في اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهم، وكلّمنا قتل من الفرنج قتل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم، فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل، وإنّما لله أمرٌ هو بالغه، فلمّا بلغ الفرنج خنادقهم، ولم يكن لهم بعدها ظهور منه، عاد المسلمون إلى حزامهم، وقصد قتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً.

وفي الثالث والعشرين من شوال أيضاً كمن جماعة من المسلمين، وتعرّض للفرنج جماعة أخرى، فخرج إليهم أربع مائة فارس، فقاتلهم المسلمون شتياً من قتال، وتطاردوا لهم، وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين، فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد.

واشتد الغلاء على الفرنج، حتى بلغت غيرة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري، فصبروا على هذا، وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم للأمير أسامة، مستحفظ بيروت، كان يحمل الطعام وغيره؛ ومنهم سيفر الدين عليّ بن أحمد المعروف بالمشطوب، كان يحمل من صيدا أيضاً (٥٥/١٢) إليهم؛ وكذلك من عسقلان وغيرها، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم لهياج البحر.

ذكر تسير البدل إلى عكّا والتفريط فيه حتى أخذت

لَمّا هجم الشتاء، وعصفت الرياح، خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لأنّها لم تكن في الميناء، فسبّروها إلى بلادهم صور والجزائر، فانفتح الطريق إلى عكّا في البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملل والسّامة، وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدماً على جندتها، فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها، وإخراج من فيها، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك، فانقل إلى جانب البحر، ونزل تحت جبل حيفا، وجمع المراكب والشواني، وكلّمنا جامه جماعة من العسكر سيّره إليها، وأخرج عوضهم، فدخل إليها عشرون أميراً، وكان بها ستون أميراً، فكان الذين دخلوا قليلاً بالنهنية إلى الذين خرجوا، وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم.

وكان على خزانه ماله قوم من النصاري، وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعتوهم بأنواع شتى، تارة بإقامة معرفة، وتارة بغير ذلك، فتفرّق بهذا السبب خلق كثير، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين وثوقه بنوابه، وإهمال النواب، فانتحسر الشتاء والأمر كذلك، وعادت مراكب الفرنج إلى عكّا وانقطع الطريق إلا من صابح يأتي بكتاب.

وكان من جملة الأمور التي دخلوا إلى عكّا سيف الدين عليّ بن أحمد المشطوب، وعيّن الدين أرسل مقدم الإسكندرية بجند جادلي

كثيرة من عسكره في البحر، ونازلها وحصرها، وقتل من بها قتلاً شديداً، حتى ذلوا وسالوا الأمان فآمنهم وسلموا البلد وعادوا إلى بلادهم.

وسير جيشاً من الموحدين ومعهم جمع من العرب إلى بلاد الفرنج، ففتحوا (٥٨/١٢) أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك باريعين سنة، وفتحوا في الفرنج، فخاصهم ملك طليطلة من الفرنج، وأرسل يطلب الصلح، فصالحه خمس سنين، وعاد أبو يوسف إلى مراكش، وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا أمكنهم إظهار الخلاف، فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة تسعين وخمسمائة، ففتحوا. وسذكر خبرهم هناك، إن شاء الله تعالى.

ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان

كان سلطان شاه آخر خوارزم شاه قد تعرض إلى بلاد غياث الدين ومُعزّ الدين ملكي الغورية، من خراسان، فجهز غياث الدين وخرج من فيروزكوه إلى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، فبقي يتردد بين بلاد الطالقان، ويتجده، ومرو، وغيرها يريد حرب سلطان شاه، فلم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة ست وثمانين، فجمع سلطان شاه عساكره وقصد غياث الدين، فتصافيا، واقتتلا، فانهمز سلطان شاه، وأخذ غياث الدين بعض بلاده وعاد إلى غزنة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، تسلم الخليفة الناصر لدين الله خويثة عانة، وكان سير إليها جيشاً حصرها سنة خمس وثمانين [وخمسمائة] فقاتلوا (٥٩/١٢) عليها قتالاً شديداً، ودام الحصار، وقتل من الفريقين خلق كثير، فلما ضاقت عليهم الأقوات سلموها على أقطاع عيونها، ووصل صاحبها وأهلها إلى بغداد وأعطوا أقطاعاً ثم تفرقوا في البلاد واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وإنه ليتعرض بالسؤال وبعض خدم الناس، نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته.

وفي هذه السنة توفي مسعود بن النادر الصفار ببغداد، وكان مكثرًا من الحديث، حسن الخط، خيرًا ثقة.

وفيها توفي أبو حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوي بالموصل، وكان قاضياً، وقيلها ولي قضاء حلب وجميع الأعمال بها، وكان رئيساً جواداً ذا مروءة عظيمة، يرجع إلى دين وأخلاق جميلة. (٦٠/١٢)

وابن جاولي، وغيرهم، وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين [وخمسمائة]، وكان قد أشار جماعة (٥٦/١٢) على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكاً النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة، ويأمرهم بالمقام، فإنهم قد جربوا وتدرّبوا وأطمأنت نفوسهم على ما هم فيه، فلم يفعل، وظنّ فيهم الضجر والملل، وأن ذلك يحملهم على العجز والفشل، فكان الأمر بالصد.

ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه مظفر الدين إليها

كان زين الدين يوسف بن زين الدين علي، صاحب إربل، قد حضر عند صلاح الدين بعساكره، فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان، وذكر العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي قال: جئنا إلى مظفر الدين نعزيه بأخيه، وظننا به الحزن، وليس له أخ غيره، ولا ولد يشغله عنه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتم بالاحتياط على ما خلفه، وهو جالس في خيام أخيه المتوفى، وقد قبض على جماعة من أمرائه، واعتقلهم، [وعجل عليهم]، وما أغفلهم، منهم بلداجي، صاحب قلعة خفّيت كان، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب منه إربل لينزل عن حرّان والرّها، فألقعه إيّاها، وأضاف إليها شهزور وأعمالها ودرّند قرابلي، وبني قفجاق، ولما مات زين الدين كاتب من كان بإربل مجاهد الدين قايمار لهواهم فيه، وحسن سيرته فيهم، وطلبوه إليهم ليملكوه، فلم يجسر هو ولا صاحبه عزّ الدين أتابك مسعود بن مودود على (٥٧/١٢) ذلك، خوفاً من صلاح الدين.

وكان أعظم الأسباب في تركها أن عزّ الدين كان قد قبض على مجاهد الدين، فتمكن زين الدين من إربل، ثم إن عزّ الدين أخرج مجاهد الدين من القبض، وولاه نيابته، وقد ذكرنا ذلك أجمع.

فلما ولّاه النيابة عنه لم يملكه، وجعل معه إنساناً كان من بعض غلمان مجاهد الدين، فكان يشاركه في الحكم ويحلّ عليه ما يعقده، فلمحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد، فلما طلب إلى إربل قال لمن يثق به: لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان، وكيف يدي عنها؟ فجاء مظفر الدين إليها وملكها، وبقي غصة في خلق البيت الأتابكي لا يقدرّون على إساعتها، وسذكر ما اعتمده معهم مرة بعد أخرى، إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين

في هذه السنة ملك ابن الزنك، وهو من ملوك الفرنج، غرب بلاد الأندلس، مدينة شلب وهي من كبار مدن المسلمين بالأندلس، واستولى عليها، فوصل الخبر بذلك إلى الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب الغرب والأندلس، فجهز في العساكر الكثيرة وسار إلى الأندلس، وعبر المجرز، وسير طائفة

سنة سبع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار أتابك عز الدين مسعود بن مودود ابن زنكي صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر، فحصرها، وكان بها صاحبها سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود، وهو ابن أخي عز الدين.

وكان سبب حصره أن سنجر شاه كان كثير الأذى لعمه عز الدين، والشناعة عليه، والمراسلة إلى صلاح الدين في حقه، تارة يقول إنه يريد قصد بلادك، وتارة يقول إنه يكتب أعداءك ويحثهم على قصدك، إلى غير ذلك من الأمور المؤذية، وعز الدين يصبر منه على ما يكره لأمور تارة للرحم، وتارة خوفاً من تسليمها إلى صلاح الدين؛ فلما كان في السنة الماضية سار صاحبها إلى صلاح الدين، وهو على عكا، في جملة من سار من أصحاب الأطراف، وأقام عنده قليلاً، وطلب دستوراً للعود إلى بلده، فقال له صلاح الدين: عندنا من أصحاب الأطراف جماعة منهم عماد الدين، صاحب سنجار وغيرها، وهو أكبر منك، ومنهم ابن عمك عز الدين، وهو أصغر منك، وغيرهم، ومتى فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك؛ فلم يلتفت إلى قوله، وأصر على ذلك. وكان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على (٦١/١٢) سنجر شاه لأنه ظلمهم، وأخذ أموالهم وأملأهم، فكان يخافه لهذا.

ولم يزل في طلب الإذن في العود إلى ليلة الفطر من سنة ست وثمانين [وخمسمائة]، فركب تلك الليلة في السحر وجاء إلى خيمة صلاح الدين وأذن لأصحابه في المسير، فساروا بالأنقال، وبقي جريدة، فلما وصل إلى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الإذن عليه، وكان صلاح الدين قد بات محمواً، وقد عرق، فلم يمكن أن يأذن له، فبقي كذلك متردداً على باب خيمته إلى أن أذن له، فلما دخل عليه هناك بالعيد، وأكب عليه يودعه، فقال له: ما علمنا بصحة عزمك على الحركة، فتصبر علينا حتى نرسل ما جرت به العادة، فما يجوز أن تنصرف عنا، بعد مقامك عندنا، على هذا الوجه. فلم يرجع وودعه وانصرف.

وكان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قد أقبل من بلده حماة في عسكره، فكتب إليه صلاح الدين يأمره بإعادة سنجر شاه طوعاً أو كرهاً؛ فحكى له عن تقي الدين أنه قال: ما رأيت مثل سنجر شاه، لقيته بعقبة فين، فسألته عن سبب انصرافه، فقال: فقلت له: سمعت بالحال، ولا يليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان وهديته، فيضيع تعبك؛ وسألته العود فلم يمتنع إلى قلوي، فكلمني كائنني بعض [ماليكه]، فلما رأيت ذلك منه قلت له: إن

رجعت بالتى هي أحسن، وإلا أعدتك كارهاً؛ فنزل عن دابته وأخذ ذيلها. وقال: قد استجرت بك؛ وجعل يبكي، فعبجت من حماقة أولاً، وذلته ثانياً، فعاد معي.

فلما عاد بقي عند صلاح الدين عدة أيام، وكتب صلاح الدين إلى عز الدين أتابك يأمره بقصد الجزيرة، ومحاصرتها، وأخذها، وأنه يرسل (٦٢/١٢) إلى طريق سنجر شاه ليقبض عليه إذا عاد؛ فخاف عز الدين أن صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بكتك العهد، فلم يفعل شيئاً من ذلك بل أرسل إليه يقول: أريد خطك بذلك ومنشوراً منك بالجزيرة؛ فترددت الرسل في ذلك إلى أن انقضت سنة ست وثمانين [وخمسمائة]، ودخلت هذه السنة فاستقرت القاعدة بينهما، فسار عز الدين إلى الجزيرة، فحصرها أربعة أشهر وآياماً آخرها شعبان، ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجر شاه على يد رسول صلاح الدين، فإنه كان قد أرسله بعد قصدتها يقول: إن صاحب سنجار، وصاحب إربل وغيرهما قد شفعوا في سنجر شاه، فاستقر الصلح على أن لعز الدين نصف أعمال الجزيرة، ولسنجر [شاه] نصفها، وتكون الجزيرة بيد سنجر شاه من جملة النصف.

وعاد عز الدين في شعبان إلى الموصل، وكان صلاح الدين بعد ذلك يقول: ما قيل لي عن أحد شيء من الشر فرائته إلا كان دون ما يقال فيه، إلا سنجر شاه، فإنه كان يقال لي عنه أشياء استعظمتها، فلما رأته صغر في عيني ما قيل فيه.

ذكر عبور تقي الدين الفرات ومملكه حران وغيرها من البلاد

الجزيرة ومسيره إلى خيلاط وقرنة

في هذه السنة، في صفر، سار تقي الدين من الشام إلى البلاد الجزيرة: حران والرها؛ كان قد أقطعها إياها عمه صلاح الدين، بعد أخذها من مظفر الدين، مضافاً إلى ما كان له بالشام، وقرر معه أنه يقطع البلاد للجن، ويعود وهم معه إليه ليتقوى بهم على الفرنج؛ فلما عبر الفرات، وأصلح حال البلاد، (٦٣/١٢) سار إلى ميافارقين، وكانت له، فلما بلغها تجدد له طمع في غيرها من البلاد المجاورة لها، فقصد مدينة حاني من ديار بكر، فحصرها ومملكها، وكان في سبع مائة فارس؛ فلما سمع سيف الدين بكتمر، صاحب خيلاط، بمملكه حاني جمع عساكره وسار إليه، فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس، فلما التقوا اقتتلوا فلم يثبت عسكر خيلاط لتقي الدين، بل انهزموا، وتبعهم تقي الدين، ودخل بلادهم.

وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رشيق، وزير صاحبه شاه أرمن، وسجنه في قلعة هناك، فلما انهزم كتب إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق، فوصل القاصد وتقي الدين قد نازل القلعة، فأخذ الكتاب، وملك القلعة، وأطلق ابن رشيق، وسار إلى

من الفرنج، فوصل إليهم في خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالاً وأموالاً، فعظم به شر الفرنج، واشتدَّت نكايتهم في المسلمين. وكان رجل زمانه شجاعاً ومكراً وجليداً وصبراً، وبلي المسلمون منه بالدهاية التي لا مثل لها.

ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال والعدة والقوت، فجهزت وسيّرت من بيروت، وفيها سبع مائة مقاتل، فلقبها ملك إنكلتار مصادفة، فقاتلها، وصبر من فيها على قتالها، فلما أسوا من الخلاص نزل مقدّم من بها إلى أسفلها، وهو يعقوب الحبشي مقدّم الجندارية، يُعرف بغلام ابن شقّتين، فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر، ففرق جميع ما فيها.

وكانت عكا محتاجة إلى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم، ثم إنَّ الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها [فأحرق المسلمون بعضها وأخذوا بعضها، ثم عملوا كباشاً وزحفوا بها]، فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد، وأخذوا تلك الكباش، فلما رأى الفرنج أنَّ ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلاً كبيراً من التراب مستطيلاً، وما زالوا يقرّبونه إلى البلد ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتّى صار على نصف علوه، فكانوا يستظلّون به، ويقاتلون من خلفه، فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها، فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين، فأسرّوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم، فلم يقدر لهم نفع. (١٢/٦٦)

ذكر ملك الفرنج عكا

في يوم الجمعة، سابع عشر جمادى الآخرة، استولى الفرنج، لعنهم الله، على مدينة عكا، وكان أوّل وهن دخل على من بالبلد أنَّ الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب، كان فيها، ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم، خرج إلى ملك إفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يُطلق المسلمين الذين فيه، ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم، فلم يجبه إلى ذلك، فعاد علي بن أحمد إلى البلد، فوهن من فيه، وضعت نفوسهم، وتخاذلوا، وأهملتهم أنفسهم.

ثم إنَّ أميرين من كان بعكا، لما راوا ما فعلوا بالمشطوب، وأنَّ الفرنج لم يجيبوا إلى الأمان، اتخذوا الليل جملاً، وركبوا في شين صغير، وخرجوا سرّاً من أصحابهم، ولحقوا بعسكر المسلمين، وهم عز الدين أرسل الأسدي، وابن عز الدين جاولي، ومعهم غيرهم، فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهناً إلى وهنهم، وضعفاً إلى ضعفهم، وأيقنوا بالعطب.

ثم إنَّ الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين في معنى تسليم البلد، فاجابهم إلى ذلك، والشرط بينهم أن يُطلق من أسراهم بعدد من في

خيلاط فحصرها، ولم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضاً، فعاد عنها، وقصد ملازكرد وحصرها، وضيّق على من بها، وطال مقامه عليها، فلما ضاق عليهم الأمر طلبوا منه المهلة أياماً ذكروها، فاجابهم إليها.

ومرض تقي الدين، فمات قبل انقضاء الأجل بيومين، وتفرقت العساكر عنها، وحمله ابنه وأصحابه ميتاً إلى ميافارقين، وعاد بكتمر فقري أمره، وثبت ملكه بعد أن أشرف على الزوال، وهذه الحادثة من الفرج بعد الشدة، فإن ابن رشيق نجا من القتل وبكتمر نجا من أن يؤخذ.

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكا، وكان أوّل من وصل منهم الملك فليب، ملك إفرنسيس، وهو من أشرف (١٢/٦٤) ملوكهم نسباً، وإن كان ملكه ليس بالكثير، وكان وصوله إليها ثاني عشر ربيع الأوّل، ولم يكن في الكثرة التي ظنوها وإنما كان معه ستّ بطل كبار عظام فوقيت به نفوس من على عكا منهم، ولجّوا في قتال المسلمين الذين فيها.

وكان صلاح الدين على شترعهم، فكان يزكّب كلّ يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد، وأرسل إلى الأمير أسامة، مستحفظ بيروت، يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحينها بالمقاتلة، وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا، ففعل ذلك، وسيّر الشواني في البحر، فصادت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك إنكلتار الفرنج، كان قد سيّره بين يديه، وتأخّر هو بجزيرة قبرس ليملكها، فأقبلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج، فاستظهر المسلمون عليهم، وأخذوهم، وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال.

وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب من الشواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا.

وأما الفرنج الذين على عكا، فإنهم لازموا قتال من بها، ونصبوا عليها سبعة مجانيق رابع جمادى الأولى، فلما رأى صلاح الدين ذلك تحوّل من شترعهم، ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كلّ يوم في المجيء إليهم والعود عنهم، فقرب منهم. وكانوا كلما تحرّكوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم، فكانوا يشتغلون بقتالهم، فيخفّ القتال عن البلد.

ثم وصل ملك إنكلتار ثالث عشر جمادى الأولى. وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس، وأخذها من الروم؛ فإنّه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعاً، فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج؛ فلما (١٢/٦٥) فرغ منها سار عنها إلى من على عكا

البلد ليطلقوا هم من بعكنا وأن يسلم إليهم صليب الصليوت، فلنم
يقنعوا بما بذل، فأرسل إلى من بعكنا من المسلمين يأمرهم أن
يخرجوا من عكا بدواحدة ويسيروا مع البحر ويحملوا على العدو
حملة واحدة ويتركوا البلد بما فيه، ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك
الجهة التي يخرجون منها بعساكره، يقاتل الفرنج فيها ليحققوا به،
فشرعوا في ذلك، واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه، فما
فرغوا من اشتغالهم حتى أشرق الصبح، فبطل ما عزموا عليه
لظهوره. (٦٧/١٢)

فلما أصبحوا عجز الناس عن حفظ البلد، وزحف إليهم الفرنج
بجدهم وحديدتهم، فظهر من بالبلد على منوره يحركون أعلامهم
ليراها المسلمون، وكانت هي العلامة إذا حزيهم أمر، فلما رأى
المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعيول، وحملوا على الفرنج من
جميع جهاتهم ظناً منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكنا،
وصلاح الدين يحرضهم، وهو في أولهم.

وكان الفرنج قد زحفوا من خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد،
فقرب المسلمون من خنادقهم، حتى كادوا يدخلونها عليهم
ويضعون السيف فيهم، فوقع الصوت فعباد الفرنج ومنعوا
المسلمين، وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم.

فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع، ولا
يدفع عنهم ضرراً، خرج إلى الفرنج، وقرّر معهم تسليم البلد،
وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم، وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف
دينار وخمسمائة أسير من المعروفين، وإعادة صليب الصليوت،
وأربعة عشر ألف دينار للمركبي صاحب صور، فأجابوه إلى ذلك،
وحلفوا له عليه، وأن تكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى
شهرتين.

فلما حلفوا له سلم البلد إليهم، ودخلوه سلباً، فلما ملكوه
غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم،
وحبسهم، وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم،
ورأسوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب، حتى
يطلقوا من عندهم، فشرع في جمع المال، (٦٨/١٢) وكان هو لا
مال له، إنما يخرج ما يصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول.

فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء
واستشارهم، فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعود فيستخلفهم على
إطلاق أصحابه، وأن يضمن الداوية ذلك، لأنهم أهل تدبير يرون
الوفاء. فرأسلهم صلاح الدين في ذلك، فقال الداوية: لا نحلف ولا
نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا؛ وقال ملوكهم: إذا سلمتم إلينا
المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا؛ فحيث علم
صلاح الدين عزمهم على الغدر، فلم يرسل إليهم شيئاً، وأعاد

الرسالة إليهم، وقال: نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى
والصليب، ونعطيك رهننا على الباقي، وتطلقون أصحابنا، وتضمن
الداوية الرهن، ويحلفون على الوفاء لهم؛ فقالوا: لا نحلف، إنما
ترسل إلينا المائة ألف دينار التي حصلت، والأسرى، والصليب،
ونحن نطلق من أصحابك من نريد ونترك من نريد حتى يجي
باقي المال؛ فعلم الناس حيشة غدرهم، وإنما يطلقون غلمان
العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له، ويمسكون عندهم
الأمراء وأرباب الأموال، ويطلبون منهم الفداء، فلم يجهم السلطان
إلى ذلك.

فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب، ركب
الفرنج، وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل، وركب
المسلمون إليهم وقصدهم، وحملوا عليهم، فأنكشفوا عن موقفهم،
وإذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم
السيف وقتلوه، واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال،
وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له، فلما
رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه، ورد
الأسرى والصليب إلى دمشق. (٦٩/١٢)

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها

لما فرغ الفرنج، لعنهم الله، من إصلاح أمر عكا، برزوا منها
في الثامن والعشرين من رجب، وساروا مستهل شعبان نحو حيفا
إلى شاطئ البحر لا يفارقونه؛ فلما سمع صلاح الدين برحيلهم
نادى في عسكره بالرحيل فساروا.

وكان على الزك، ذلك اليوم، الملك الأفضل ولده صلاح
الدين، ومعه سيف الدين إياكوش وعز الدين جورديك، وعدة من
شجعان الأمراء، فضايقوا الفرنج في حصارهم، وأرسلوا عليهم من
السهم ما كاد يحجب الشمس، ووقفوا على ساقية الفرنج، فقتلوا
منها جماعة، وأسروا جماعة.

وأرسل الأفضل إلى والده يستمده، ويعرفه الحال، فأمر
المسافر بالمسير إليه، فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأهية الحرب، وإنما
كانوا على عزم السير لا غير، فبطل المدد وعاد ملك الإنكشار إلى
ساقية الفرنج، فحماها، وجمعهم، وساروا حتى قتلوا خيفاً، فترلوا
بها، ونزل المسلمون بقيمون، قرية بالقرب منهم، وأحضر الفرنج
من عكا عرض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم، وعرض ما هلك
من الخيل، ثم ساروا إلى قيسارية، والمسلمون يستأثرونهم
ويتخطفون منهم من قدروا عليه فيقتلونه، لأن صلاح الدين كان قد
أقسم أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا من كان بعكنا.

فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون، وقتلوهم أشد قتال،
فقالوا منهم نيلاً كثيراً، وتزل الفرنج بها، وبنات المسلمون قريباً

إنكلتار بالغدر به، فهرب من عنده إلى مدينة صور، وهي له وبيده، وكان رجل الفرنج رايًا وشجاعاً، وكلّ هذه الحروب هو أثارها، فلمّا خربت عسقلان أرسل إلى ملك إنكلتار يقول له: مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً وتقدّم على الجيوش، تسمع أنّ صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك؟ يا جاهل، لمّا بلغك أنّه قد شرع في تخريبها كنت سرّت إليه مجداً فرحلته وملكتها صفواً بغير قتال ولا حصار، فإنّه ما خربها إلاّ وهو عاجز عن حفظها. وحقّ المسيح لو أنّي معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد. (٧٢/١٢)

فلمّا خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان، ومضى إلى الرملة فخرّب حصنها وخرب كنيسة لُدّ، وفي مدّة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجّاه الفرنج، ثمّ سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة، فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر، وقرّر قواعده وأسبابه، وما يحتاج إليه، وعاد إلى المخيم ثامن رمضان.

وفي هذه الأيام خرج ملك إنكلتار من يافا، ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم، فوقع به نفر من المسلمين، فقاتلوهم قتالاً شديداً، وكاد ملك إنكلتار يؤسر، ففداه بعض أصحابه بنفسه، فتخلّص الملك وأسر ذلك الرجل.

وفيها أيضاً كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر [فيها] المسلمون.

ذكر رحيل الفرنج إلى نظرون

لمّا رأى صلاح الدين أنّ الفرنج قد لزمو يافا ولم يفارقوها، وشرعوا في عمارتها، رحل من منزله إلى النظرون ثالث عشر رمضان، وخيم به، فراسله ملك إنكلتار يطلب المهادنة، فكانت الرسل تردّد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب، أخيه صلاح الدين، فاستقرّت القاعدة أنّ ملك إنكلتار يزوّج أخته من العادل، ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل، وتكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت ملك إنكلتار، مضافاً إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها، وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه، فعرض العادل ذلك على صلاح الدين، فأجاب إليه، فلمّا ظهر الخبر اجتمع القيسيون، والأساقفة، والرهبان إلى أخت ملك إنكلتار (٧٣/١٢) وأنكروا عليها، فامتنعت من الإجابة، وقيل كان المانع منه غير ذلك، والله أعلم.

وكان العادل وملك إنكلتار يجتمعان بعد ذلك ويتجاربان حديث الصلح، وطلب من العادل أن يُسمعه غناء المسلمين، فأحضر له مغنيّة تضرب بالجنك، فغنت له، فاستحسن ذلك، ولم يتمّ بينهما صلح، وكان ملك إنكلتار يفعل ذلك خديعةً ومكرًا.

منهم، فلمّا نزلوا خرج من الفرنج جماعة فابعدوا عن جماعتهم، فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا (٧٠/١٢) في الزك، فقتلوا منهم وأسروا، ثمّ ساروا من قيسارية إلى أرسوف، وكان المسلمون قد سبقوهم إليها، ولم يمكنهم مسيرتهم لضيق الطريق، فلمّا وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة متكررة والمقوقم بالبحر، ودخله بعضهم فقتل منهم كثير.

فلمّا رأى الفرنج ذلك اجتمعوا، وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد، فولّوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد. وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة، فلمّا كان ذلك اليوم كانوا على حالهم، فلمّا انهزم المسلمون عنهم قُتل خلق كثير، والتجّأ المنهزمون إلى القلب، وفيه صلاح الدين، فلو علم الفرنج أنّها هزيمة لتبعوهم واستمرت الهزيمة وهلك المسلمون، لكن كان بالقرب من المسلمين شجرة كثيرة الشجر، فدخلوها وظنّوا الفرنج مكيدة، فعادوا، وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق، وقُتل من الفرنج كُتد كبير من طواغيتهم، وقُتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه أياز الطويل، وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله.

فلمّا نزل الفرنج نزل المسلمون وأعتة خيلهم بأيديهم، ثمّ سار الفرنج إلى يافا فنزلوها، ولم يكن بها أحد من المسلمين، فملكوها.

ولمّا كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ما ذكرناه، سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة، واجتمع بأقاله بها، وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان، وقالوا له: قد رأيت ما كان منّا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصّدهم عنها فهم لا شكّ (٧١/١٢) يقاتلوننا لننزاح عنها فينزلوا عليها، فإذا كان ذلك عدّنا إلى مثل ما كنّا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا، لأنّ العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها، وضغنّا نحن بما خرج عن أيدينا، ولم تطلّ المدّة حتّى نستجدّ غيرها.

فلم تسمح نفسه بتخريبها، وندب الناس إلى دخولها وحفظها، فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا: إنّ أردت حفظها فادخل أنت معنا، أو بعض أولادك الكبار، وإلاّ فما يدخلها منّا أحد لئلاّ يصيبنا ما أصاب أهل عكا، فلمّا رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان، وأمر بتخريبها، فخربت تاسع عشر شعبان، وألقيت حجارتها في البحر، وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسultan والرعيّة ما لا يمكن حصره، وعفى أثرها حتّى لا يبقى للفرنج في قصدها مطعم.

ولمّا سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها، وكان المركيس، لعنه الله، لمّا أخذ الفرنج عكا قد أحسن من ملك

فصوّروها له، فرأى الوادي يحيط بها ما عدا موضعاً يسير من جهة الشمال، فسأل عن البوادي وعن عمقه، فأخبر أنه عميق، وعزّ المسلك.

فقال: هذه مدينة لا يمكن حصرها ما دام صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة، لأننا إن نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة، فيدخل إليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون إليه، وإن نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادي وبعضنا من الجانب الآخر، جمع صلاح الدين عسكره وواقع إحدى الطائفتين، ولم يمكن الطائفة الأخرى إتجاد أصحابهم، لأنهم إن فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه، وإن تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم، فإلى أن يتخلصوا من الوادي ويلحقوا بهم يكون صلاح الدين قد فرغ منهم، هذا سوى ما يتعلّق علينا من إيصال ما يحتاج إليه من العلقات والأقوات.

فلما قال لهم ذلك علموا صدقه، ورأوا قلة الميرة عندهم، وما يجري للجالين لها من المسلمين، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة، فعادوا خائبين خاسرين.

ذكر قتل قزل أرسلان

في شعبان من هذه السنة قُتل قزل أرسلان، واسمه عثمان بن يلدكز، وقد ذكرنا أنه ملك البلاد، بعد وفاة أخيه البهلوان، ملك أَرَّان، وأذربيجان، (٧٦/١٢) وهمذان، وأصفهان، الري، وما بينهما، وأطاعه صاحب فارس وخوزستان، واستولى على السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل، فاعتقله في بعض القلاع، ودانت له البلاد.

وفي آخر أمره سار إلى أصفهان، والفتن بها متصلة من لدن توفّي البهلوان إلى ذلك الوقت، فتعصّب على الشافعية، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، وعاد إلى همذان، وخطب لنفسه بالسلطنة، وضرب النوب الخمس، ثم إنه دخل ليلة قُتل إلى منزله لينام، وتفرّق أصحابه، فدخل إليه من قتله على فراشه، ولم يعرف قاتله، فأخذ أصحابه صاحب بابه ظناً وتخميناً، وكان كريماً أحسن الأخلاق، يحب العدل ويؤثّر، ويرجع إلى حلم وقلة عقوبة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قدم معزّ الدين قيصر شاه بن قلع أرسلان، صاحب بلاد الروم، على صلاح الدين في رمضان، وكان سبب قدومه أن والده عزّ الدين قلع أرسلان قُرب مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا مَلَطِيَّةَ وأعطى ولده قطب الدين ملك شاه سيواس، فاستولى قطب الدين على أبيه، وحجر عليه، وأزال حكمه، وأكرمه أن يأخذ مَلَطِيَّةَ من أخيه هذا ويسلمها إليه، فخاف

ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد البيت المقدس، فسار صلاح الدين إلى الرملة، جريده، وترك الأتقال بالنطرون، وقرب من الفرنج، وبقي عشرين يوماً ينتظرهم، فلم يبرحوا، فكان بين الطائفتين، مدة المقام، عدة وقعات في كلها يتصر المسلمون على الفرنج، وعاد صلاح الدين إلى النطرون، ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة، على عزم قصد البيت المقدس، فقرب بعضهم من بعض فغظم الخطب واشتدّ الحذر، فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين بالفير فلقوا من ذلك شدة شديدة، وأقبل الشتاء، وحالت الأوجال والأمطار بينهما.

ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم، والأمطار متوالية متتابعة، والناس منها في ضنك وخرج، ومن شدة البرد ولبس السلاح والسّهر في تعب دائم، وكان كثير من العساكر قد طال بيكارها، فأذن لهم في العود إلى بلادهم للاستراحة والإراحة، وسار هو إلى البيت المقدس فيمن بقي (٧٤/١٢) معه، فنزلوا جميعاً داخل البلد، فاستراحوا مما كانوا فيه، ونزل هو بدار الأتسا فجاور بيعة قمامة، وقدم إليه عسكر من مصر مقدّمهم الأمير أبو الهيثجاء السمين، فقويت نفوس المسلمين بالقدس.

وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون ثالث ذي الحجة، على عزم قصد القدس، فكانت بينهم وبين يرك المسلمين وقعات، أسر المسلمون في وقعة منها نيفاً وخمسين فارساً من مشهري الفرنج وشجعانهم، وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سور، وتجديد ما رث منه، فأحكم الموضع الذي ملك البلد منه، وأقنسه، وأمر بحفر خندق خارج الفصيل، وسلم كل برج إلى أمير يتولّى عمله، فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة، وأرسل أتابك عزّ الدين مسعود، صاحب الموصل، جماعة من الحصّاصين، ممن له في قطع الصخر اليد الطولى، فعملوا له هناك برجاً وبدنة، وكذلك جميع الأمراء.

ثم إن الحجارة قلّت عند العمّالين، فكان صلاح الدين، رحمه الله، يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر، فكان يجمع عنده من العمّالين في اليوم الواحد ما يعملونه عدة أيام.

ذكر عودة الفرنج إلى الرملة

في العشرين من ذي الحجة عاد الفرنج إلى الرملة، وكان سبب عودهم أنهم كانوا يقتلون ما يريدونه من الساحل، فلما أبعثوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون مدمعهم، ثم (٧٤/١٢) إن ملك إنكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميّين: حيّووا لي مدينة القدس، فإني ما رأيتها؛

فلما كان بعد التاريخ عمل الأسقف بصور دعوة للمركيس، فحضرها، وأكل طعامه، وشرب مدامه، وخرج من عنده، فوثب عليه الباطنيان المذكوران، فجرحاه جراحاً وثيقة، وهرب أحدهما، ودخل كنيسة يخفي فيها، فاتفق أن المركيس يحمل إليها ليشد جراحه، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله، وقُتل الباطنيان بعده.

ونسب الفرنج قتله إلى وضع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشامي، فلما قُتل ولي بعده مدينة صور كُند من الفرنج، من داخل البحر، يقال له الكند هري، وتزوج بالملكة في ليلته، ودخل بها وهي حامل، وليس الحمل عندهم ممّا يمنع النكاح.

وهذا الكند هري هو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه، وابن أخت ملك إنكلتار من أمه، وملك كند هري هذا بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك إنكلتار، وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسقط من سطح فمات؛ وكان عاقلاً، كثير المداراة والاحتمال.

ولما رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل كند هري هذا إلى صلاح الدين يستعطفه، ويستميله، ويطلب منه خلعة، وقال: أنت تعلم أن ليس القباء والشربوش عندنا عيب، وأنا ألبسهما منك محبة لك؛ فأنفذ إليه خلعة سنية منها القباء والشربوش، فلبسهما بعكاً. (٨٠/١٢)

ذكر نهب بني عامر البصرة

في هذه السنة، في صفر، اجتمع بنو عامر في خلق كثير، وأميرهم اسمه جُمَيْرَة، وقصدوا البصرة، وكان الأمير بها اسمه محمد بن إسماعيل، ينوب عن مقطعها الأمير طغرل، مملوك الخليفة الناصر لدين الله، فوصلوا إليها يوم السبت سناذس صفر، فخرج إليهم الأمير محمد فيمن معه من الجنود، فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان، بجانب الخريبة، ودام القتال إلى آخر النهار، فلما جاء الليل نلّم العرب في السور عدة نلّم، ودخلوا البلد من الغد، فقاتلهم أهل البلد، فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين، ونهبت العرب الحانات بالشاطئ وبعض محالّ البصرة، وعبر أهلها إلى شاطئ الملاحين، وفارق العرب البلد في يومهم وعاد أهلها إليه.

وكان سبب سرعة العرب في مفارقة البلد أنهم بلغهم أن خفاجة والمتفق قد قاربوهم، فساروا إليهم وقاتلوهم أشد قتال، فظفرت عامر، وغنمت أموال خفاجة والمتفق، وعادوا إلى البصرة بكرة الاثنين، وكان الأمير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعاً كثيراً، فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة وقتن اجتمع معهم، فلم يفرحوا للعرب وانهموا، ودخل العرب البصرة ونهبوها، وفارق البصرة أهلها، ونهبت أمر الهيم، وجنرتهم أسوار عظيمة، ونهبت القسامل وغيرها يومين، وفارقها العرب وعاد أهلها إليها، وقد

معز الدين، فسار إلى صلاح الدين ملتجئاً إليه، معتضداً به، فأكرومه صلاح الدين، وزوجه بانية أخيه الملك العادل، فامتنع قطب الدين من قصده، وعاد معز الدين إلى مَلطية في ذي القعدة.

وحدثني من أثنى به قال: رأيت صلاح الدين وقد ركب لينودع معز الدين هذا، فترجل له معز الدين، وترجل صلاح الدين، وودعه راجلاً، فلما أراد الركوب عضده معز الدين هذا، وأركبه، وسوى ثيابه علاء (٧٧/١٢) الدين خرمشاه بن عز الدين، صاحب الموصل، قال: فعجبت من ذلك، وقلت ما تبالي يا ابن أيوب أي موة تموت؟ يركبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكي.

وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وهو ابن أخت صلاح الدين، وعلم الدين سليمان بن جندر، وهو من أكابر أمراء صلاح الدين أيضاً.

وفي رجب توفي الصفي بن القايض، وكان متولّي دمشق لصلاح الدين، يحكم في جميع بلاده. (٧٨/١٢)

سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

ذكر عمارة الفرنج عسقلان

في هذه السنة، في المحرم، رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا في عمارتها. وكان صلاح الدين بالقدس، فسار ملك إنكلتار، جريدة، من عسقلان إلى يزك المسلمين، فواقعهم، وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف [فيه] بعضهم من بعض.

وفي مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد الفرنج، فتارة توقع طائفة منهم، وتارة تقطع الميرة عنهم، ومن جعلتها سرية كان مقدمها فارس الدين ميمون القصري، وهو من مقدمي المماليك الصلاحية، خرج على قافلة كبيرة للفرنج، فأخذها وغنم ما فيها.

ذكر قتل المركيس وملك الكند هري

في هذه السنة، في ثالث عشر ربيع الآخر، قُتل المركيس الفرنجي، لعنه الله، صاحب صور، وهو أكبر شياطين الفرنج.

وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدّم الإسماعيلية [بالشام]، وهو سنان، وبذل له أن يرسل من يقتل ملك إنكلتار، وإن قُتل المركيس فله عشرة (٧٩/١٢) آلاف دينار، فلم يمكنهم قتل ملك إنكلتار، ولم يره سنان مصلحة لهم لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويفرغ لهم، وشّره في أعين المال، فعدل إلى قتل المركيس، فأرسل رجلين في زي الزهيان واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان، صاحب الرملة، وكانا مع المركيس بصور، فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة، فأفس بهما المركيس، ووثق بهما،

رأيت هذه القصة بعينها في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، والله وسار هذا الرجل من القدس سالماً، فلما بلغ بُزاعة، عند حلب، أخذه الحرامية، فنجا من العطب، وهلك عند ظنه السلامة. (٨١/١٢) اعلم.

ذكر ما كان من ملك إنكلترا

في تاسع جمادى الأولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم، فخرّبوه، ثم ساروا إلى البيت المقدس وصلاح الدين فيه، فبلغوا بيت نوبة.

وكان سبب طمعهم أن صلاح الدين فرّق عساكره الشرقية وغيرها لأجل الشتاء، وليستريحوا، وليحضر البدل عوضهم، وسار بعضهم مع ولده الأفضل وأخيه العادل إلى البلاد الجزرية، لما تذكره إن شاء الله تعالى، وبقي من حلقته الخاص بعض العساكر المصرية، فظنوا أنهم ينالون غرضاً، فلما سمع صلاح الدين بقرية منه فرّق أبراج البلد على الأمراء، وسار الفرنج من بيت نوبة إلى قنوتية، سلخ الشهر، وهي [على] فرسخين من القدس، فصبّ المسلمون عليهم البلاء، وتابعوا إرسال السرايا قبلي الفرنج منهم بما لا يقبل لهم به، وعلموا أنهم إذا نازلوا القدس كان الشرّ إليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن، فرجعوا القهقري، وركب المسلمون اكتافهم بالرماح والسهام.

ولما أبعد الفرنج عن يافا سار صلاح الدين سرية من عسكره إليها، فقاربوها، وكنسوا عندها، فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة، فخرجوا عليه، فقتلوا منهم وأسروا وغنموا، وكان ذلك آخر جمادى الأولى. (٨٢/١٢)

ذكر استيلاء الفرنج على عسكر المسلمين وقُتل

في تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج الخبر بوصول عسكر من مصر، ومعهم قتل كبير، ومقدم العسكر فلك الدين سليمان، أخو العادل لأمه، ومعه عدة من الأمراء، فأسرى الفرنج إليهم، فواقعهم بنواحي الخليل، فانهزم الجند، ولم يقتل منهم رجل من المشهورين إنما قُتل من الغلمان والأصحاب، وغنم الفرنج خيامهم وآلاتهم؛ وأما القتل فإنه أخذ بعضه، وصعد من نجا جبل الخليل، فلم يقدم الفرنج على اتباعهم، ولو اتبعوهم نصف فرسخ لأنوا عليهم؛ وتمزق من نجا من القفل، وتقطعوا، ولقوا شدة إلى أن اجتمعوا.

حكى لي بعض أصحابنا، وكنا قد سیرنا معه شيئاً للتجارة إلى مصر، وكان قد خرج في هذا القفل، قال: لما وقع الفرنج علينا وكنا قد رفعنا أحمالنا للسیر، فحملوا علينا وأوقعوا بنا، فضربت أحمالي وصعدت الجبل ومعني عدة أحمال لغيري. فلحقنا قوم من الفرنج، فاخذوا الأحمال التي في صحتي، وكنت بين أيديهم بمقدار رمية سهم، فلم يصلوا إليّ، فنجوت بما معي، وسرت لا أدري أين أقصد، وإذ قد لاح لي بناء كبير على جبل، فسألت عنه، فقيل لي: هذا الكرك؛ فوصلت إليه ثم عُدْتُ منه إلى القدس سالماً.

ذكر سير الأفضل والعادل إلى بلاد الجزيرة

قد تقدّم ذكر موت تقي الدين عمر ابن [أخي] صلاح الدين، واستيلاء ولده ناصر الدين محمد على بلاد الجزيرة، فلما استولى عليها أرسل إلى صلاح (٨٣/١٢) الدين يطلب تقويةا عليه، مضافاً إلى ما كان لأبيه بالشام فلم ير صلاح الدين أن مثل تلك البلاد تسلم إلى صبي، فما أجابه إلى ذلك، فحدث نفسه بالامتناع على صلاح الدين لاشتغاله بالفرنج، فطلب الأفضل عليّ بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقي الدين، وينزل عن دمشق، فأجابه إلى ذلك، وأمره بالمسير إليها، فسار إلى حلب في جماعة من العسكر، وكتب صلاح الدين إلى أصحاب البلاد الشرقية، مثل صاحب الموصل، وصاحب سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب ديار بكر، وغيرها، يأمرهم بإفناذ العساكر إلى ولد الأفضل.

فلما رأى ولد تقي الدين ذلك علم أنه لا قوة له بهم، فراسل الملك العادل [أبا بكر بن أيوب]، عمّ أبيه، يسأله [صلاح] حاله مع صلاح الدين، فأنهى ذلك إلى صلاح الدين، وأصلح حاله، وقرّر قاعدته بأن يقرّر له ما كان لأبيه بالشام، وتؤخذ منه البلاد الجزرية، واستقرّت القاعدة على ذلك.

واقطع صلاح الدين البلاد الجزرية، وهي حرّان، والرّها، وسُميساط، وميافارقين، وحاني العادل، وسيّره إلى ابن تقي الدين ليتسلم منه البلاد، ويُسّره إلى صلاح الدين، ويُعيد الملك الأفضل أين أدركه؛ فسار العادل، فلحق الأفضل بحلب، فأعادته إلى أبيه، وعبر العادل الفرات، وتسلم البلاد من ابن تقي الدين وجعل نوابه فيها، واستصحب ابن تقي الدين معه، وعاد إلى صلاح الدين بالعساكر، وكان عوده في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ذكر عود الفرنج إلى عكا

لما عاد الملك الأفضل فيمن معه، وعاد الملك العادل وابن تقي الدين فيمن معهما من عساكرهما، ولحقتهما العساكر الشرقية، عسكر الموصل (٨٤/١٢) وعسكر ديار بكر وعسكر سينجار وغير ذلك من البلاد، واجتمعت العساكر بدمشق، أيقن الفرنج أنهم لا طاقة لهم بها، إذا فارقوا البحر، فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها، فأمر صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها في عسكره والعساكر الشرقية جميعها، معارضاً للفرنج في مسيرهم نحوها، فسار إلى مرج العيون، واجتمعت العساكر معه، فأقام هنالك ينتظر مسير الفرنج، فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها.

ذكر مُلك صلاح الدين يافا

لَمَّا رَحَلَ الْفَرَنْجِي نَحْوَ عَكَا كَانَ قَدْ اجْتَمَعَ عِنْدَ صَلَاحِ الدِّينِ عَسْكَرُ حَلَبٍ وَغَيْرِهِ، فَسَارَ إِلَى مَدِينَةِ يَافَا، وَكَانَتْ يَبِيدُ الْفَرَنْجِي، فَتَازَلَهَا وَقَاتَلَ مَنْ بَهَا مِنْهُمْ، وَمَلَكَهَا فِي الْعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ بِالسَّيْفِ عُنُوءًا، وَنَهَبَهَا الْمُسْلِمُونَ، وَغَنَمُوا مَا فِيهَا، وَقَتَلُوا الْفَرَنْجِي وَأَسْرَوْا كَثِيرًا، وَكَانَ بَهَا أَكْثَرُ مَا أَخَذُوهُ مِنْ عَسْكَرِ مِصْرَ وَالْقَفْلِ الَّذِي كَانَ مَعَهُمْ، وَقَدْ ذُكِرَ ذَلِكَ.

وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَمَالِكِ الصَّلَاحِيَّةِ قَدْ وَقَفُوا عَلَى أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، وَكُلٌّ مِنْ خَرَجَ مِنَ الْجَنْدِ وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الْغَنِيمَةِ أَخَذُوهُ مِنْهُ، فَإِنْ امْتَنَعَ ضَرْبُوهُ وَأَخَذُوا مَا مَعَهُ قَهْرًا، ثُمَّ زَحَفَتِ الْعَسَاكِرُ إِلَى الْقَلْعَةِ، فَقَاتَلُوا عَلَيْهَا آخِرَ النَّهَارِ، وَكَادُوا بِأَخْذِهَا، فَطَلَبَ مَنْ بِالْقَلْعَةِ الْأَمَانَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَخَرَجَ الْبَطْرُكُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَهُمْ، وَمَعَهُ عِدَّةٌ مِنْ أَكْبَابِ الْفَرَنْجِي، فِي ذَلِكَ، وَتَرَدَّدُوا، وَكَانَ قَصْدُهُمْ مَنَعَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْقِتَالِ، فَأَدْرَكَهُمُ اللَّيْلُ، وَوَاعَدُوا الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْزِلُوا بِكُرَّةٍ غَدًا وَيَسْلُمُوا الْقَلْعَةَ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ طَالِبُهُمْ صَلَاحُ الدِّينِ بِالنَّزُولِ عَنِ الْحَصَنِ، فَاْمْتَنَعُوا، وَإِذَا قَدْ وَصَلَهُمْ نَجْدَةٌ مِنْ عَكَا، وَأَدْرَكَهُمْ مَلِكُ إِنْكَلَتَارٍ، فَأَخْرَجَ مَنْ بِيَافَا مِنْ (٨٥/١٢) الْمُسْلِمِينَ، وَأَتَاهُ الْمَدَدُ مِنْ عَكَا وَيَزُورُ إِلَى ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ، وَاعْتَرَضَ الْمُسْلِمِينَ وَحَدَّهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، فَوَقَفَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ وَاسْتَدْعَى طَعَامًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَنَزَلَ فَأَكَلَ، فَأَمَرَ صَلَاحُ الدِّينُ عَسْكَرَهُ بِالْحَمْلَةِ عَلَيْهِمْ، وَبِالْجَدِّ فِي قِتَالِهِمْ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَمْرَائِهِ يُعْرِفُ بِالْجَنَاحِ، وَهُوَ أَخُو الْمُشْطُوبِ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَحْمَدَ الْهَكَارِيِّ، فَقَالَ لَهُ: يَا صَلَاحُ الدِّينُ قَبْلَ لِمَمَالِيكَ الَّذِينَ أَخَذُوا أَمْسَ الْغَنِيمَةِ، وَضَرْبُوا النَّاسَ بِالْحِمَاقَاتِ، [أَنْ] يَتَقَدَّمُوا فَيَقَاتِلُوا، إِذَا كَانَ الْقِتَالُ فَنَحْنُ، وَإِذَا كَانَتْ الْغَنِيمَةُ فَلَهُمْ. فَغَضِبَ صَلَاحُ الدِّينُ مِنْ كَلَامِهِ وَعَادَ عَنِ الْفَرَنْجِي.

وَكَانَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، حَلِيمًا كَرِيمًا [كَثِيرَ الْعَفْوِ عِنْدَ] الْمَقْدَرَةِ، وَنَزَلَ فِي خِيَامِهِ، وَأَقَامَ حَتَّى اجْتَمَعَتِ الْعَسَاكِرُ، وَجَاءَ إِلَيْهِ ابْنُهُ الْأَفْضَلُ وَأَخُوهُ الْعَادِلُ وَعَسَاكِرُ الشَّرْقِ، فَرَحَلَ بِهِمْ إِلَى الرَّمْلَةِ لِيَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْهُ وَمِنْ الْفَرَنْجِي، فَلَزِمَ الْفَرَنْجِي يَافَا وَلَمْ يَبْرَحُوا مِنْهَا.

ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين إلى دمشق

فِي الْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ عَقِدَتْ [الْهَدْنَةُ] بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْفَرَنْجِي لِمُدَّةٍ ثَلَاثَ سِنِينَ وَثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ، أَوَّلُهَا هَذَا التَّارِيخُ، وَافَقَ أَوَّلُ أَيْلُولٍ؛ وَكَانَ سَبَبُ الصَّلَاحِ أَنَّ مَلِكَ إِنْكَلَتَارٍ لَمَّا رَأَى اجْتِمَاعَ الْعَسَاكِرِ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ مَفَارَقَةُ سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَلَيْسَ بِالسَّاحِلِ لِلْمُسْلِمِينَ بَلَدٌ يَطْمَعُ فِيهِ، وَقَدْ طَالَتْ غَيْبَتُهُ عَنْ بِلَادِهِ، (٨٦/١٢) رَاسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ فِي الصَّلَاحِ، وَأَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ ضِدًّا مَا كَانَ يُظْهِرُهُ أَوَّلًا، فَلَمْ يَجِبْهُ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى مَا طَلَبَ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ

يَفْعَلُ ذَلِكَ خَدِيعَةً وَمَكْرًا، وَأَرْسَلَ يَطْلُبُ مِنْهُ الْمَصَافَ وَالْحَرْبَ، فَأَعَادَ الْفَرَنْجِي رَسْلَهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَنَزَلَ عَنْ تَتَمُّعَةِ عِمَارَةِ عَسْقَلَانَ وَ[تَخَلَّى] عَنْ غَزَاةٍ وَالدَّارُومِ وَالرَّمْلَةِ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْمَلِكِ الْعَادِلِ فِي تَقْرِيرِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ، فَأَشَارَ هُوَ وَجَمَاعَةُ الْأَمْراءِ بِالْإِجَابَةِ إِلَى الصَّلَاحِ، وَعَرَفُوهُ مَا عِنْدَ الْعَسْكَرِ مِنَ الضَّجَرِ وَالْمَلَلِ، وَمَا قَدْ هَلَكَ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ وَدَوَائِبِهِمْ وَنَفَدَ مِنْ نَفَقَاتِهِمْ، وَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الْفَرَنْجِيَّ إِنَّمَا طَلَبَ الصَّلَاحَ لِيَرْكَبَ الْبَحْرَ وَيَعُودَ إِلَى بِلَادِهِ، فَإِنْ تَأَخَّرَتْ إِجَابَتُهُ إِلَى أَنْ يَجِيءَ الشِّتَاءُ وَيَنْقَطِعَ الرُّكُوبُ فِي الْبَحْرِ نَحْتِاجَ الْبَلْقَاءِ مَا هُنَا سَنَةَ أُخْرَى، وَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ الضَّرَرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَكَثُرُوا الْقَوْلَ لَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى، فَأَجَابَ حِينَئِذٍ إِلَى الصَّلَاحِ، فَحَضَرَ رَسْلَ الْفَرَنْجِي وَعَقَدُوا الْهَدْنَةَ، وَتَحَالَفُوا عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ. وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَنْ حَضَرَ عِنْدَ صَلَاحِ الدِّينِ بَالِيَانَ بْنِ بَارْزَانَ الَّذِي كَانَ صَاحِبَ الرَّمْلَةِ وَنَابِلُسَ، فَلَمَّا حَلَفَ صَلَاحُ الدِّينَ قَالَ لَهُ: أَعْلِمُ أَنَّ مَا عَمِلَ أَحَدٌ فِي الْإِسْلَامِ [مِثْلَ] مَا عَمِلْتَ، وَلَا هَلَكَ مِنَ الْفَرَنْجِي مِثْلَ مَا هَلَكَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمُدَّةَ، فَإِنَّا أَحْصَيْنَا مَنْ خَرَجَ إِلَيْنَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْمَقَاتِلَةِ، فَكَانُوا سِتْمَاةَ أَلْفِ رَجُلٍ مَا عَادَ مِنْهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ مِنْ كُلِّ عَشْرَةٍ وَاحِدٍ، بَعْضُهُمْ قَتَلَتْهُ أَنْتَ، وَبَعْضُهُمْ مَاتَ، وَبَعْضُهُمْ غَرِقَ.

وَلَمَّا انْفَصَلَ أَمْرُ الْهَدْنَةِ أَذِنَ صَلَاحُ الدِّينُ لِلْفَرَنْجِي فِي زِيَارَةِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ. فَزَارُوهُ، وَتَفَرَّقُوا، وَعَادَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ إِلَى بِلَادِهَا. وَأَقَامَ بِالسَّاحِلِ الشَّامِيِّ، مَلِكًا عَلَى الْفَرَنْجِي وَبِلَادِهَا الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ، الْكَنْدُ هَرِي، وَكَانَ خَيْرَ الطَّبِيعِ، قَلِيلُ الشَّرِّ، رَفِيقًا بِالْمُسْلِمِينَ، مُحِبًّا لَهُمْ وَتَزَوَّجَ بِالْمَلِكَةِ الَّتِي كَانَتْ تَمْلِكُ بِلَادَ الْفَرَنْجِي قَبْلَ أَنْ يَمْلِكَهَا صَلَاحُ الدِّينِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ.

وَأَمَّا صَلَاحُ الدِّينِ، فَإِنَّهُ بَعْدَ تِمَامِ الْهَدْنَةِ سَارَ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَأَمَرَ (٨٧/١٢) بِأَحْكَامِ سُورِهِ [وَأَدْخَلَ فِي السُّورِ كِنِيسَةَ صِهْيُونَ وَكَانَتْ خَارِجَةً عَنْهُ بِمَقْدَارِ رَمِيْنِي سَهْمٍ]، وَعَمِلَ الْمَدْرَسَةَ وَالرِّبَاطَ وَبِالْيِمَارِسْتَانَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَوَقَفَ عَلَيْهَا الْوُقُوفَ، وَصَامَ رَمَضَانَ بِالْقُدْسِ، وَعَزَمَ عَلَى الْحَجِّ وَالْإِحْرَامِ مِنْهُ، فَلَمْ يُمْكِنْ ذَلِكَ، فَسَارَ عَنْهُ خَامِسَ شَوَّالٍ نَحْوَ دِمَشْقَ، وَاسْتَنَابَ بِالْقُدْسِ أَمِيرًا اسْمُهُ جُورْدِيكُ، وَهُوَ مِنَ الْمَمَالِكِ النُّورِيَّةِ.

وَلَمَّا سَارَ عَنْهُ جَعَلَ طَرِيقَهُ عَلَى الثُّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ كِنَابِلُسَ وَطَبْرِيَّةَ وَصَفَدَ وَتَبْنِينَ وَقَصْدَ بَيْرُوتَ، وَتَعَهَّدَ هَذِهِ الْبِلَادَ، وَأَمَرَ بِأَحْكَامِهَا، فَلَمَّا كَانَ فِي بَيْرُوتَ أَتَاهُ يَمِينُ صَاحِبِ أَنْطَاكِيَّةَ وَأَعْمَالِهَا، وَاجْتَمَعَ بِهِ وَخَدَمَهُ، فَخَلَعَ عَلَيْهِ صَلَاحُ الدِّينَ وَعَادَ إِلَى بِلَادِهِ، فَلَمَّا عَادَ رَحَلَ صَلَاحُ الدِّينَ إِلَى دِمَشْقَ، فَدَخَلَهَا فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَوَّالٍ، وَكَانَ يَوْمَ دَخُولِهِ إِلَيْهَا يَوْمًا مَشْهُودًا، وَفَرَحَ النَّاسُ بِهِ فَرَحًا عَظِيمًا لَطُولِ غَيْبَتِهِ، وَذَهَابِ الْعَدُوِّ عَنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ.

ذكر وفاة قلع أرسلان

في هذه السنة، متصف شعبان، توفي الملك قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان بن سليمان بن قنلمش بن سلجوق السلجوقي بمدينة قونية، وكان له من البلاد قونية وأعمالها، وأقصر، وسيواس، وملطية، وغير ذلك من البلاد، وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة، وكان ذا سياسة حسنة، وهبة عظيمة، وعدل وافر، وغزوات كثيرة إلى بلاد الروم، فلما كبر فرق بلاده على أولاده، فاستضعفوه، ولم يلتفتوا إليه، وحجر عليه ولده قطب الدين. (٨٨/١٢)

وكان قلع أرسلان قد استتاب، في تدبير ملكه، رجلاً يعرف باختيار الدين حسن، فلما غلب قطب الدين على الأمر قتل حسناً، ثم أخذ والده وسار به إلى قيسارية ليأخذها من أخيه الذي سلمها إليه أبوه، فحصرها مدة، فوجد والده قلع أرسلان فرصة، فهرب ودخل قيسارية وحده. فلما علم قطب الدين ذلك عاد إلى قونية وأقصر فملكهما، ولم يزل قلع أرسلان يتحول من ولد إلى ولد، وكل منهم يتربى به، حتى مضى إلى ولده غياث الدين كيخسرو، صاحب مدينة برغلا، فلما رآه فرح به، وخدمه، وجمع العساكر، وسار هو معه إلى قونية، فملكها، وسار إلى أقصر ومعه والده قلع أرسلان، فحصرها، فمرض أبوه، فعاد به إلى قونية فتوفي بها ودُفن هناك، وبقي ولده غياث الدين في قونية مالكا لها، حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وقد حدثني بعض من أتق به من أهل العلم بما يحكيه، وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا، ونحن نذكره، قال إن قلع أرسلان قسم بلاده بين أولاده في حياته، فسلم دوقاط إلى ابنه ركن الدين سليمان، وسلم قونية إلى ولده كيخسرو غياث الدين، وسلم أنقرة، وهي التي تسمى انكشورية، إلى ولده محيي الدين، وسلم ملطية إلى ولده معز الدين قيصر شاه، وسلم أبلستين إلى ولده مغيث الدين، وسلم قيسارية إلى ولده نور الدين محمود، وسلم سيواس وأقصر إلى ولده قطب الدين، وسلم نكسار إلى ولد آخر، وسلم أماسيا إلى ولد أخيه. (٨٩/١٢)

هذه أمهات البلاد، وينضاف إلى كل بلد من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التي ليست مثل هذه، ثم إنه ندم على ذلك، وأراد أن يجمع الجميع لولده الأكبر قطب الدين، وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف، صاحب مصر والشام، ليقوى به، فلما سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه، وخرجوا عن طاعته، وزال حكمه عنهم، فسار يتردد بينهم على سبيل الزيارة، فقيم عند كل واحد منهم مدة، ويتنقل إلى الآخر، ثم إنه مضى إلى ولده كيخسرو، صاحب قونية، على عادته، فخرج إليه، ولقيه، وقبّل الأرض بين يديه، وسلم قونية

إليه وتصرّف عن أمره، فقال لكيخسرو: أريد [أن] أسير إلى ولدي الملعون محمود، وهو صاحب قيسارية، وتجيء أنت معي لأخذها منه؛ فتجهّز وسار معه، وحصر محموداً بقيسارية، فمرض قلع أرسلان، وتوفي عليها. فعاد كيخسرو، وبقي كل واحد من الأولاد على البلد الذي بيده.

وكان قطب الدين، صاحب أقصر وسيواس، إذا أراد أن يسير من إحدى المدينتين إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية، وبها أخوه نور الدين محمود، وليست على طريقه إنما كان يقصدها ليظهر المودة لأخيه والمحبة له، وفي نفسه الغدر، فكان أخوه محمود يقصده ويجمع به، ففي بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته، وحضر أخوه محمود عنده غير محتاط، فقتله قطب الدين، وألقى رأسه إلى أصحابه، وأراد أخذ البلد، فامتنع من به من أصحاب أخيه عليه، ثم اتهم سلموه إليه على قاعدة استمرت بينهم.

وكان عند محمود أمير كبير، وكان يحذّره من أخيه قطب الدين، ويخوفه، فلم يصغ إليه، وكان جواداً، كثير الخير، والتقدم في الدولة عند نور (٩٠/١٢) الدين، فلما قتل قطب الدين أخاه قتل حسناً معه، وألقاه على الطريق، فجاء كلب يأكل من لحمه، فثار الناس، وقالوا: لا سمعاً ولا طاعة! هذا رجل مسلم، وله ها هنا مدرسة، وتربة، وصدقات دائرة، وأفعال حسنة، لا تركه تاكله الكلاب؛ فأمر به فدُفن في مدرسته، وبقي أولاد قلع أرسلان على حالهم.

ثم إن قطب [الدين] مرض ومات، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس، وهي تجارة، فملكها، ثم سار منها إلى قيسارية وأقصر، ثم بقي مديدة، وسار إلى قونية وبها أخوه غياث الدين، فحصرها بها وملكها ففارقها غياث الدين إلى الشام، ثم إلى بلد الروم، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى؛ ثم سار بعد ذلك إلى ركن الدين إلى نكسار وأماسيا، فملكها، وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة، فملكها وفارقها أخوه معز الدين إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان معز الدين هذا تزوج ابنة للعادل، فأقام عنده. واجتمع لركن الدين ملك جميع الإخوة ما عدا أنقرة فإنها منيعة لا يوصل إليها، فجعل عليها عسكراً يحصرها صيفاً وشتاء ثلاث سنين، فتمسكها سنة إحدى وستمئة، ووضع على أخيه الذي كان بها من يقتله إذا فارقها، فلما سار عنها قُتل.

وتوفي ركن الدين في تلك الأيام، ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه. (٩١/١٢)

وإنما أوردنا هذه الحادثة ها هنا لتتبع بعضها بعضاً، ولأنني لم أعلم تاريخ كل حادثتها منها لأثبتها فيه.

ذكر ملك شهاب الدين أجمير وغيرها من الهند

قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين [وخمسمائة] غزوة شهاب الدين الغوري إلى بلد الهند، وانهزماه، وبقي إلى الآن وفي نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا، وما ألزمهم من الهوان.

فلما كان هذه السنة خرج من غزنة وقد جمع عساكره وسار منها يطلب عدوه الهندي الذي هزمه تلك النوبة، فلما وصل إلى برشاوور تقدم إليه شيخ من الغورية كان يدل عليه، فقال له: قد قربنا من العدو؛ وما يعلم أحد أين نمضي ولا من نقصد ولا نرد على الأمراء سلاماً، وهذا لا يجوز فعله. فقال له السلطان: اعلم أنني منذ هزمني هذا الكافر ما نمت مع زوجتي، ولا غيرت ثياب البياض عني، وأنا سائر إلى عدوي، ومعتمد على الله تعالى لا على الغورية، ولا على غيرهم، فإن نصرني الله، سبحانه، ونصر دينه فمن فضله وكرمه، وإن انهزمنا فلا تطلبوني فيمن انهزم، ولو هلكت تحت حوافر الخيل.

فقال له الشيخ: سوف ترى بني عمك من الغورية ما يفعلون، فينبغي أن نكلهم وترد سلامهم. ففعل ذلك، وبقي أمراء الغورية يتضرعون بين (٩٢/١٢) يديه، ويقولون سوف ترى ما نفعل.

وسار إلى أن وصل إلى موضع المصاف الأول، وجازه مسيرة أربعة أيام، وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو، فلما سمع الهندي تجهز وجمع عساكره، وسار يطلب المسلمين، فلما بقي بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراءه والكافر في أعقابها أربع منازل، فأرسل الكافر إليه يقول له: أعطني يدك، إنك تصافني في باب غزنة حتى أجيء وراءك وإلا فنحن مثقلون، ومثلك لا يدخل البلاد شبه اللصوص ثم يخرج هارباً، ما هذا فعل السلاطين؛ فأعاد الجواب: إنني لا أقدر على حربك.

وتم على حاله عائداً إلى أن بقي بينه وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام، والكافر في أثره يتبعه، حتى لحقه قريباً من مزندة فجهر [حينئذ] شهاب الدين من عسكره سبعين ألفاً، وقال: أريد هذه الليلة تدورون حتى نكرونا وراء عسكر العدو، وعند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية، وأنا من هذه الناحية؛ ففعلوا ذلك، وطلع الفجر.

ومن عادة الهنود أنهم لا يروحون من مضاجعهم إلى أن تطلع الشمس، فلما أصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب، وضربت الكوسات، فلم يلبث ملك الهند إلى ذلك وقال: من يقدم عليّ، أنا هذا؟ والقتل قد كثر في الهنود، والنصر قد ظهر للمسلمين؛ فلما رأى ملك الهند ذلك أحضر فرساً له سابقاً، وركب ليهرب، فقال له أعيان أصحابه: إنك حلفت لنا أنك لا تخلينا وتهرب؛ فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه، والقتال

شديد، والقتل قد كثر في أصحابه، فأنتهى المسلمون إليه وأخذوه أسيراً، (٩٢/١٢) وحينئذ عظم القتل والأسر في الهنود، ولم ينج منهم إلا القليل.

وأحضر الهندي بين يدي شهاب الدين، فلم يخدمه، فأخذ بعض الحجاب بلحيته، وجذبه إلى الأرض، حتى أصابها جبينه، وأقعده بين يدي شهاب الدين، فقال له شهاب الدين: لو استأسرتني ما كنت تفعل بي؟ فقال الكافر: كنت استعملت لك قيداً من ذهب أقيدك به؛ فقال شهاب الدين: بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك.

وغنم المسلمون من الهنود أموالاً كثيرة وأمنعة عظيمة، وفي جملة ذلك أربعة عشر فيلاً، من جملتها الفيل الذي جرح شهاب الدين في تلك الوقعة. وقال ملك الهند لشهاب الدين: إن كنت طالب بلاد، فما بقي فيها من يحفظها، وإن كنت طالب مال، فعندي أموال تحمل أجمالك كلها.

فسار شهاب الدين وهو معه إلى الحصن الذي له يعول عليه، وهو أجمير، فأخذه، وأخذ جميع البلاد التي تقاربه، وأقطع جميع البلاد لمملوكه قطب الدين أيبك، وعاد إلى غزنة، وقتل ملك الهند.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض على أمير الحاج طاشتكين ببغداد، وكان نعم الأمير، عادلاً في الحاج، رفيقاً بهم، محباً لهم، له أوراخ كثيرة من صلوات وصيام، (٩٤/١٢) وكان كثير الصدقة، لا جرم، وقفت أعماله بين يديه فخلص من السجن، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيهما خرج السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل من الحبس بعد موت قزل أرسلان بن إيلدكز، والتقى هو وقتلغ إينانج بن البهلوان بن إيلدكز، فانهزم إينانج إلى الري، وكان ما نذكره، إن شاء الله تعالى، سنة تسعين وخمسمائة.

وفيهما، في رجب، توفي الأمير السيد علي بن المرتضى العلوي الحنفي مدرّس جامع السلطان ببغداد.

وفي شعبان منها توفي أبو علي الحسن بن هبة الله بن البوقي، الفقيه الشافعي الواسطي، وكان عالماً بالمذهب انتفع به الناس. (٩٥/١٢)

سنة تسع وثمانين وخمسمائة

ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته

في هذه السنة، في صفر، توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب

وأما كرمه، فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرجه، ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري، وأربعين درهماً ناصرية، وبلغني أنه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال، وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر، ولما انقرضت الدولة العلوية (٩٧/١٢) بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يقوت الإحصاء ففرقه جميعه.

وأما تواضعه، فإنه كان ظاهراً لم يتكبر على أحد من أصحابه، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية، ويعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير.

ولم يلبس شيئاً مما يكره الشرع، وكان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه، وبالجملية كان نادراً في عصره، كثير المحاسن والأفعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدل على ذلك، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً.

ذكر حال أهله وأولاده بعده

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين علي، وكان قد حلف له العساكر جميعها، غير مرة، في حياته، فلما مات ملك دمشق، والساحل، والبيت المقدس، ويعلبك، وصرخد، وبصري، وبانياس، وهونين، وبيتين، وجميع الأعمال إلى الداروم.

وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر، فاستولى عليها، واستقر ملكه بها.

وكان ولده الظاهر غازي بحلب، فاستولى عليها، وعلى جميع أعمالها، مثل: حارم، وتلّ باشر، وإعزاز، وبرزية، ودرب ساك، ومنيج وغير ذلك. (٩٨/١٢)

وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمر فاطاعه وصار معه.

وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه، فاطاع الملك الأفضل.

وكان الملك العادل بالكرك قد سار إليه، كما ذكرنا، فامتنع فيه، ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه، فأرسل إليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده، فوعده ولم يفعل، فأعاد مراسلته، وخوفه من الملك العزيز، صاحب مصر، ومن أتاك عز الدين، صاحب الموصل، فإنه كان قد سار عنها إلى بلاد العادل الجزرية، على ما نذكره، ويقول له: إن حضرت جهزت العساكر وسرت إلى بلادك فحفظتها، وإن أقمت قصدك أخي الملك العزيز لما بينكما

بن شاذي، صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها من البلاد، بدمشق، ومولده بتكريت، وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها، وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة.

وكان سبب مرضه أن خرج يتلقى الحاج، فعاده، ومرض من يومه مرضاً حاداً بقي به ثمانية أيام وتوفي، رحمه الله.

وكان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل علياً وأخاه الملك العادل أبا بكر، واستشارهما فيما يفعل، وقال: قد فرغنا من الفرنج، وليس لنا في هذه البلاد شاعل، فأبي جهة نقصد؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خيلاط، لأنه كان قد وعده، إذا أخذها، أن يسلمها إليه، وأشار [عليه] ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلع أرسلان، وقال: هي أكثر بلاداً وعسكراً ومالاً وأسرع مأخذاً، وهي أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البر، فإذا ملكناهم منعناهم من العبور فيها. فقال: كلاهما مقصّر، ناقص الهمة، بل أقصد أنا بلد الروم، وقال لأخيه: تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خيلاط، فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليك، وندخل منها (٩٦/١٢) أذربيجان، وتنصل ببلاد العجم، فما فيها من يمنع عنها.

ثم أذن لأخيه العادل في المضي إلى الكرك، وكان له، وقال له: تجهز واحضر لتسير، فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين، وتوفي قبل عوده.

وكان، رحمه الله، كريماً، حليماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه.

وبلغني أنه كان يوماً جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموز فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جلسيه ليتغافل عنها.

وطلب مرة الماء فلم يحضر، وعادوا الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر، فقال: يا أصحابنا، والله قد قتلني العطش! فأحضر الماء، فشربه ولم ينكر التواني في إحضاره.

وكان مرة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت، فلما برى منه وأدخل الحمام كان الماء حاراً، فطلب ماء بارداً، فأحضره الذي يخدمه، فسقط من الماء شيء على الأرض، فثاله منه شيء، فتألم له لضعفه، ثم طلب البارد أيضاً فأحضر، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض، فوقع الماء جميعه عليه، فكاد يهلك، فلم يزد على أن قال للغلام: إن كنت تريد قلتي فعزمتي! فاعتذر إليه، فسكت عنه.

من العداوة، وإذا ملك عز الدين بلادك فليس له دون الشام مانع؛ وقال لرسوله: إن حضر معك، وإلا فقل له قد أمرني، إن سرت إليه بدمشق عذتُ معك، وإن لم تفعل أسير إلى الملك العزيز أحالفه على ما يختار.

فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجيء، فلما رأى أن ليس معه منه غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافقة العزيز، فحشد سار إلى دمشق، وجَهَّز الأفضل معه عسكرياً من عنده، وأرسل إلى صاحب حمص، وصاحب حماة، وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب، يحثهم على إنفاذ العساكر مع العادل إلى البلاد الجزرية ليمنعها من صاحب الموصل، ويخوفهم إن هم لم يفعلوا.

ومما قال لأخيه الظاهر: قد عرفت صحبة أهل الشام لبيت أتابك، فوالله لئن ملك عز الدين حرَّان ليقوم أهل حلب عليك، ولتخرجن منها وأنت لا تعقل، وكذلك يفعل بي أهل دمشق، فانفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه، فجهَّزوا عساكرهم وسيروها إلى العادل وقد عبر الفسرات، (٩٩/١٢) فعسكرت عساكرهم بنواحي الرها بمرج الرياح، وسنذكر ما كان منه إن شاء الله تعالى.

ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه لما بلغ أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل، وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأي من أصحابه، وفيهم مجاهد الدين قايماز، كبير دولته، والمقدم على كل من فيها، وهو نائبه فيهم، واستشارهم فيما يفعل، فسكتوا.

فقال له بعضهم، وهو أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك: أنا أرى أنك تخرج مسرعاً جريدة فيمن خف من أصحابك وحلقنت الخاص، وتقدم إلى الباقيين باللاحاق بك، وتعطي من هو محتاج إلى شيء ما يتجهز به ما يخرج به ويلحق بك إلى نصيبين، وتكتب أصحاب الأطراف مثل مظفر الدين بن زين الدين، صاحب إربل، وسنجر شاه ابن أخيك صاحب جزيرة ابن عمر، وأخيك عماد الدين صاحب سنجان ونصيبين، تعرفهم أنك قد سرت، وتطلب منهم المساعدة وتبذل لهم اليمين على ما يلتزمون، فمتى راوك قد سرت خافوك، وإن إجابك أخوك صاحب سنجان ونصيبين إلى الموافقة، وإلا بدأت بنصيبين فأخذتها وتركت فيها من يحفظها، ثم سرت نحو الخابور، وهو له أيضاً فأقطعه، وتركت عسكره مقابل أخيك يتمتع من الحركة، إن (١٠٠/١٢) أرادها، أو قصدت الرقة، فلا تمنع نفسها، وتأتي حرَّان والرَّها، فليس فيها من يحفظها لا صاحب ولا عسكري ولا ذخيرة، فإن العادل أخذها من ابن تقي الدين، ولم يبق فيها ليصلح حالهما، وكان القرم يتكلمون على قوتهم، فلم يظنوا هذا الحادث، فإذا فرغت من ذلك الطرف

عذت إلى من امتنع من طاعتك فقاتلته، وليس وراءك ما تخاف عليه، فإن بلدك عظيم لا يبالي بكل من وراءك.

فقال مجاهد الدين: المصلحة أننا نكتب أصحاب الأطراف، ونأخذ رأيهم في الحركة، ونستميلهم، فقال له أخي: إن أشاروا بترك الحركة تقبلون منهم؟ قال: لا! قال: إنهم لا يشيرون إلا بتركها، لأنهم لا يريدون أن يقوى هذا السلطان خوفاً منه، وكأنني بهم يغالطونكم ما دامت البلاد الجزرية فارغة من صاحب وعسكري، فإذا جاء إليها من يحفظها جاهر وكم بالعداوة.

ولم يمكنه أكثر من هذا القول خوفاً من مجاهد الدين، حيث رأى ميله إلى ما تكلم به، فانفصلوا على أن يكتبوا أصحاب الأطراف، فكتبوهم، فكل أشار بترك الحركة إلى أن ينظر ما يكون من أولاد صلاح الدين وعمهم فتبَّطوا.

ثم إن مجاهد الدين كرر المراسلات إلى عماد الدين، صاحب سنجان، يعده ويستميله، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق، وقد سار عن دمشق إلى بلاده، يذكر فيه موت أخيه، وأن البلاد قد استقرت لولده الملك الأفضل، والناس متفقون على طاعته، وأنه هو المدبر لدولة الأفضل، وقد سيره في عسكر جم كثير العدد، لقصد ماردن لما بلغه أن صاحبها تعرض إلى بعض القرى التي له، وذكر من هذا النحو شيئاً كثيراً، فظنوه حقاً وأن قوله لا ريب فيه، ففستروا عن الأخبار بأنه في ظاهر حرَّان نحو من مائتي خيمة لا غير، فعادوا فحتركوها، فإلى أن تقررَّت القواعد بينهم وبين صاحب سنجان، وصلته العساكر الشامية التي سيرها الأفضل وغيره إلى العادل، فامتنع بها وسار أتابك عز الدين عن الموصل إلى نصيبين، واجتمع هو وأخوه عماد الدين بها، وساروا على سنجان نحو الرها، وكان العادل قد عسكر قريباً منها بمرج الرياح، فخافهم خوفاً عظيماً.

فلما وصل أتابك عز الدين إلى تل موزن مرض بالإسهال، فأقام عدة أيام فضعف عن الحركة، وكثر مجيء الدم منه، فخاف الهلاك، فترك العساكر مع أخيه عماد الدين وعاد جريدة في مائتي فارس، ومعه مجاهد الدين وأخيه مجد الدين، فلما وصل إلى دكثير استولى عليه الضعف، فأحضر أخيه وكتب وصية، ثم سار فدخل الموصل وهو مريض أوّل رجب.

ذكر وفاة أتابك عز الدين وشي من سيرته

في هذه السنة توفي أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل، بالموصل، وقد ذكرنا عوده إليها مريضاً، فبقي في مرضه إلى التاسع والعشرين من شعبان، فتوفي، رحمه الله، ودُفن بالمدرسة التي أنشأها مقابل دار المملكة،

وكان قد بقي ما يزيد على عشرة أيام لا يتكلم إلا بالشهادتين، وتلاوة القرآن، وإذا تكلم بغيرها استغفر الله، ثم (١٠٢/١٢) عاد إلى ما كان عليه، فَرَزَقَ خاتمة خير، رضي الله عنه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة شتى شهاب الدين ملك غزنة في برشاوور، وجهز مملوكه أيك في عساكر كثيرة، فأدخله بلاد الهند يغتم ويسبي، ويفتح من البلاد ما يمكنه، فدخلها، وعاد فخرج هو وعساكره سالماً، قد ملؤوا أيديهم من الغنائم. (١٠٤/١٢)

وفيهما، في رمضان، توفي سلطان شاه، صاحب مرو وغيرها من خراسان، وملك أخوه علاء الدين نكش بلاده، وسنذكره سنة تسعين [وخمسمائة] إن شاء الله.

وفيهما أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها.

وفيهما، في ربيع الأول، فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بإنشائه الخليفة أيضاً بالحريم الطاهري، غربي بغداد على دجلة، وهو من أحسن الرُبط، ونقل إليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب.

وفيهما ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان، وسبب ذلك أن صاحبها سوميان بن شملة جعل فيها دزداراً، فأساء السيرة مع جندها، فغدر به بعضهم فقتله، ونادوا بشعار الخليفة، فأرسل إليها وملكها.

وفيهما انقضى كوكبان عظيمان، وسمع صوت هذة عظيمة، وذلك بعد طلوع الفجر، وغلب ضوءهما القمر وضوء النهار.

وفيهما مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم، أمير مكة، وما زالت إمارة مكة تكون له تارة، ولأخيه مكثر تارة، إلى أن مات.

وفي هذه السنة توفي أبو الرشيد الحاسب البغدادي، وكان قد أرسله الخليفة الناصر لدين الله في رسالة إلى الموصل فمات هناك. (١٠٥/١٢)

سنة تسعين وخمسمائة

ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندي

كان شهاب الدين الغوري، ملك غزنة، قد جهز مملوكه قطب الدين أيك، وسيّره إلى بلد الهند للغزاة، فدخلها فقتل فيها وسبى وغنم وعاد؛ فلما سمع به ملك بنارس، وهو أكبر ملك في الهند، ولايته من حد الصين إلى بلاد ملأوا طولاً، ومن البحر إلى مسيرة عشرة أيام من لهاوور عرضاً، وهو ملك عظيم، فعندها جمع

وكان، رحمه الله، خير الطبع، كثير الخير والإحسان، لا سيما إلى شيوخ قد خدموا أباه، فإنه كان يتعهدهم بالبر والإحسان، والصلة والإكرام، ويرجع إلى قولهم، ويزور الصالحين، ويقرّبهم، ويشفّعهم.

وكان حليماً، قليل المعاقبة، كثير الحياء، لم يكلم جليساً له إلا وهو مطرق، وما قال في شيء يُسألُه: لا، حياء وكرم طبع.

وكان قد حجّ، وليس بمكة، حرسها الله، خيرة التصوف، وكان يلبس تلك الخرقه كل ليلة، ويخرج إلى مسجد قد بناه في داره، ويصلي فيه نحو ثلث الليل؛ وكان رقيق القلب، شفيقاً على الرعية.

بلغني عنه أنه قال، بعض الأيام: إنني سهرت الليلة كثيراً، وسبب ذلك أنني سمعت صوت نائحة، فظننت أن ولد فلان قد مات، وكان قد سمع أنه مريض، قال: فضاقت صدري، وقمت من فراشي أدور في السطح، فلما طال علي الأمر أرسلت خادماً إلى الجاندارية، فأرسل منهم واحداً يستعلم الخبر، فعاد وذكر إنساناً لا أعرفه، فسكن بعض ما عندي فتمت؛ ولم يكن الرجل الذي ظن أن ابنه مات من أصحابه إنما كان من رعيته.

كان ينبغي أن تتأخر وفاته، وإنما قدّمناها لتتبع أخباره بعضها بعضاً.

ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط

في هذه السنة، أول جمادى الأولى، قُتل سيف الدين بكتمر، صاحب خلاط، وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران، فإنه أسرف في إظهار (١٠٣/١٢) الشمامسة بموت صلاح الدين، فلم يمهله الله تعالى، ولما بلغه موت صلاح الدين فرح فرحاً كثيراً، وعمل تخباً جلس عليه، ولقب نفسه بالسلطان المعظم صلاح الدين، وكان لقبه سيف الدين، فغيّره، وسمى نفسه عبد العزيز، وظهر منه اختلال وتخليط، وتجهّز ليقصد ميافارقين يحصرها، فأدركته منيته.

وكان سبب قتله أن هزار دينار، وهو أيضاً من مماليك شاه أرمن ظهير الدين، كان قد قوي وكثر جمعه، وتزوج ابنة بكتمر، فقطع في الملك، فوضع عليه من قتله، فلما قُتل ملك بعده هزار دينار، بلاد خلاط وأعمالها.

وكان بكتمر ديناً، خيراً، صالحاً، كثير الخير، والصلاح، والصدقة، محباً لأهل الدين والصوفية، كثير الإحسان إليهم، قريباً

جيوشه، وحشرها، وسار يطلب بلاد الإسلام.

سلطان شاه عنها، ولم يقدر على القرب منها، وعاد عنها خائباً، فشئى خوارزم شاه بخوارزم، فلما انقضى الشتاء سار إلى مرو لقصد أخيه سنة تسع وثمانين [وخمسمائة]، فتردّت الرسل بينهما في الصلح.

فبينما هم في تقرير الصلح ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لأخيه سلطان شاه يدعوهُ لِيَسْلَمَ إليه القلعة لأنّه قد استوحش من صاحبه سلطان شاه، فسار خوارزم شاه إليه مجداً، فتسلّم القلعة وصار معه.

وبلغ ذلك سلطان شاه ففتّ في عضده، وتزايد كمدّه، فمات سليخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة؛ فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته إلى مرو فتسلّمها، وتسلّم مملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه، وأرسل إلى ابنه علاء الدين محمد، وكان يلقب حينئذ قطب الدين، وهو بخوارزم، فأحضره فولّاه نيسابور، وولّى ابنه الأكبر ملكشاه سرّو، وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين.

فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلد الرّي فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه، [ففرّ منه قتلغ إينانج بن البهلوان، وأرسل إلى خوارزم شاه] يعتذر ويسأل إنجاده مرة ثانية؛ ووافق ذلك وصول رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل، ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد. فسار من نيسابور إلى الرّي، فتلقاه قتلغ (١٠٨/١٢) إينانج ومن معه بالطاعة، وساروا معه، فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة، فلم يقف ليجمعها، بل سار إليه فيمن معه، فقيل له: إنّ الذي تفعله ليس برأي، والمصلحة أن تجمع العساكر؛ فلم يقبل، وكان فيه شجاعة، بل تمّم مسيره، فالتقى العسكران بالقرب من الرّي، فحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر خوارزم شاه، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، وحُمل رأسه إلى خوارزم شاه، فسيّره من يومه إلى بغداد فنُصب بها بباب التّوبى عدة أيّام.

وسار خوارزم شاه إلى همدان، وملك تلك البلاد جميعها، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سيّر عسكراً إلى نجدة خوارزم شاه، وسيّر له الخلع السلطانيّة مع وزيره مؤيد الدين بن القصّاب، فنزل على فرسخ من همدان، فأرسل إليه خوارزم شاه يطلبه إليه، فقال مؤيد الدين: ينبغي أن تحضر أنت وتلبس الخلعة من خيمتي؛ وتردّد الرسل بينهما في ذلك، فقيل لخوارزم شاه: إنها حيلة عليك حتّى تحضر عنده ويقبض عليك؛ فرحل خوارزم شاه إليه قصداً لأخذه، فاندفع من بين يديه والتجأ إلى بعض الجبال فامتنع به، فرجع خوارزم شاه إلى همدان، ولما ملك همدان وتلك البلاد سلّمها إلى قتلغ إينانج، وأقطع كثيراً منها لمماليكه وجعل المقدّم

ودخلت سنة تسعين [وخمسمائة] فسار شهاب الدين الغوري من غزنة بعساكره نحوه، فالتقى العسكران على مارجن، وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل، وكان مع الهنديّ سبع مائة فيل، ومن العسكر على ما قيل ألف ألف رجل، ومن جملة عسكره عدة أمراء مسلمين، كانوا في تلك البلاد أباً عن جدّ، من أيّام السلطان محمود بن سبكتكين، بلازمون شريعة الإسلام، ويواظبون على الصلوات وأفعال الخير، فلما التقى المسلمون والهندو اقتتلوا، قصبر الكفّار لكثرتهم، وصبر المسلمون لشجاعتهم، فانهزم الكفّار، ونُصر المسلمون، (١٠٦/١٢) وكثر القتل في الهندو، حتّى امتلأت الأرض وجافت، وكانوا لا يأخذون إلاّ الصبيان والجواري، وأمّا الرجال فيقتلون، وأخذ منهم تسعين فيلاً، وبقي الفيلة قُتل بعضها وانهزم بعضها، وقُتل ملك الهند، ولم يعرفه أحد، إلاّ أنّه كانت أسنانه قد ضعفت أصولها، فامسكوها بشرط الذهب، فبذلّ عرفوه.

فلما انهزم الهندو دخل شهاب الدين بلاد بنارس، وحمل من خزائنها على ألف وأربع مائة جمل، وعاد إلى غزنة ومعه الفيلة التي أخذها من جملتها فيل أبيض، حدّثني من رآه: لما أخذت الفيلة، وقدمت إلى شهاب الدين، أمرت بالخدمة، فخدمت جميعها إلاّ الأبيض فإنّه لم يخدم، ولا يعجب أحد من قولنا الفيلة تخدم، فإنها تفهم ما يُقال لها،

ولقد شاهدتُ فيلاً بالموصل ويّاله يحدثه، فيفعل ما يقول له.

ذكر قتل السلطان طغرل ومُلك خوارزم شاه الرّي ووفاة أخيه

سلطان شاه

قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين [وخمسمائة] خروج السلطان طغرل بن ألب أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي من الحبس، ومُلكه همدان وغيرها، وكان قد جرى بينه وبين قتلغ إينانج بن البهلوان، صاحب البلاد، حرب انهزم فيها قتلغ إينانج، وتحصّن بالرّي.

وسار طغرل إلى همدان، وأرسل قتلغ إينانج إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستجده، فسار إليه في سنة ثمان وثمانين [وخمسمائة]، فلما تقارباً ندم قتلغ إينانج على استدعاء خوارزم شاه، وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصّن في قلعة له، فوصل خوارزم شاه إلى الرّي وملكها، (١٠٧/١٢) وحصر قلعة طبرك ففتحها في يوتين، ورأسله طغرل، واصطالحا، وبقيت الرّي في يد خوارزم شاه فرتّب فيها عسكراً يحفظها، وعاد إلى خوارزم لأنّه بلغه أنّ أخاه سلطان [شاه] قد قصد خوارزم، فجدّ في السير خوفاً عليها، فاتاه الخبر، وهو في الطريق، أنّ أهل خوارزم منعوا

عليهم مياجق، وعاد إلى خوارزم.

ذكر مسير وزير الخليفة إلى خوزستان ومملكها

في هذه السنة، في شعبان، خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب في الوزارة مؤيد الدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب، خلع (١٠٩/١٢) الوزارة، وحكم في الولاية، وبرز في رمضان، وسار إلى بلاد خوزستان؛ [وسبب ذلك أنه كان أولاً قد خدم في خوزستان] وولي الأعمال بها، وصار له فيها أصحاب وأصدقاء ومعارف، وعرف البلاد ومن أي وجه يمكن الدخول إليها والاستيلاء عليها، فلما ولي ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن يرسله في عسكر إليها لمملكها له، وكان عزمه أنه إذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهرًا للطاعة، مستقلاً بالحكم فيها، ليأمن على نفسه.

فاتفق أن صاحبها ابن شملة توفي، واختلف أولاده بعده، فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجد لما بينهم من الصيحة القديمة، فقوي الطمع في البلاد، فجهزت العساكر وسيرت معه إلى خوزستان، فوصلها سنة إحدى وتسعين [وخمسمائة] وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها، وملك مدينة تستر في المحرم، وملك غيرها من البلاد، وملك القلاع منها: قلعة الناظر، وقلعة كاكرد، وقلعة لاموج، وغيرها من الحصون والقلاع، وأنفذ بني شملة أصحاب بلاد خوزستان إلى بغداد، فوصلوا في ربيع الأول.

ذكر حصر العزيز مدينة دمشق

في هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، وهو صاحب مصر، إلى مدينة دمشق، فحصرها وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل علي بن صلاح الدين. وكنت حينئذ بدمشق، فنزل بناحي ميدان الحصى، فأرسل الأفضل إلى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وهو صاحب الديار الجزرية، يستنجد، وكان الأفضل غاية الوائق به والمعتمد عليه، وقد سبق ما يدل على (١١٠/١٢) ذلك، فسار الملك العادل إلى دمشق هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، صاحب حلب، وناصر الدين محمد بن تقي الدين، صاحب حماة، وأسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه، صاحب حمص، وعسكر الموصل وغيرها، كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق، وانتفخوا على حفظها، علماً منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم.

فلما رأى العزيز اجتماعهم على أنه لا قدرة له على البلد، فتردّت الرسل حينئذ في الصلح، فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز، وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها والغور للأفضل، على ما كانت عليه، وأن يعطي

الأفضل أخاه الملك الظاهر جيلة ولاذقية بالساحل الشامي، وأن يكون للعاذل بمصر إقطاعه الأول، وانتفخوا على ذلك، وعاد العزيز إلى مصر، ورجع كل واحد من الملوك إلى بلده.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كانت زلزلة في ربيع الأول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد، سقطت منها الجبانة التي عند مشهد أمير المؤمنين علي، عليه السلام.

وفيهما، في جمادى الآخرة، اجتمعت زعب وغيرها من العرب، وقصدوا مدينة النبي ﷺ فخرج إليهم هاشم بن قاسم، أخو أمير المدينة، فقاتلهم فقتل هاشم، وكان أمير المدينة قد توجه إلى الشام، فلهذا طمعت العرب فيه.

وفيهما توفي القاضي أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الصمد الطرسوسي الحلبي بها، في شعبان، وكان من عباد الله الصالحين، رحمه الله تعالى. (١١١/١٢)

سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك وزير الخليفة همدان وغيرها من بلاد العجم

قد ذكرنا ملك مؤيد الدين بن القصاب بلاد خوزستان، فلما ملكها سار منها إلى ميسان من أعمال خوزستان، فوصل إليه قتلغ إينانج بن البهلوان، صاحب البلاد، وقد تقدم ذكر تغلب خوارزم شاه عليها، ومعه جماعة من الأمراء، فآكرمه وزير الخليفة وأحسن إليه.

وكان سبب مجيئه أنه جرى بينه وبين عسكر خوارزم شاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان، واقتلوا، فانهزم قتلغ إينانج وعسكره، وقصد عسكر الخليفة ملتجئاً إلى مؤيد الدين الوزير، فاعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج إليه، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، ورحلوا إلى كرماشاهان.

ورحل منها إلى همدان، وكان بها ولد خوارزم شاه ومياجق والعسكر الذي معهم، فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا إلى الري، واستولى الوزير على همدان في شوال من هذه السنة، ثم رحل هو وقاتلغ إينانج خلفهم، فاستولوا على كل بلد جازوا به منها: خرقان، ومزدغان، وسأوة، وآوة، وساروا إلى الري، ففارقها الخوارزميون إلى خوار الري، فسير الوزير خلفهم عسكراً، ففارقها الخوارزميون إلى (١١٢/١٢) دامنغان، ويسطام، وجرجان، فعاد عسكر الخليفة إلى الري فأقاموا بها؛ فاتفق قتلغ إينانج ومن معه من الأمراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة لأنهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خوارزم شاه، فطمعوا فيها، فدخلوا الري، فحصرها وزير الخليفة،

ثم حُكي لي عنك أنك لا تجد سبيلاً للحرب لعلك ما يسوغ لك التَّحَمُّمَ (١١٤/١٢) فيها، فها أنا أقول لك ما فيه الرَّاحَةِ، واعتذر عنك، ولك أن توافيني بالعهود والمواثيق والأيمان أن تتوجَّه بجملة مَنْ عندك في المراكب والشواني، وأجوز إليك بجملتي وأبارذك في أعزِّ الأماكن عندك، فإن كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك، وهديَّةٌ مثلك بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققتُ إمارة الملتين، والتقدُّم على الفتيين، والله يسهل الإِرادة، ويوفِّق السَّعادة بمنه لا ربَّ غيره، ولا خير إلَّا خيره.

فلَمَّا وصل كتابه وقراه يعقوب كتب في أعلاه هذه الآية ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا يَبَالِغُونَ فِيهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧] وأعاده إليه، وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز إلى الأندلس.

وقيل: كان سبب عبوره إلى الأندلس أنَّ يعقوب لمَّا قاتل الفرنج سنة ست وثمانين [وخمسمائة] وصالحهم، بقي طائفة من الفرنج لم ترضَ الصلح، كما ذكرناه، فلَمَّا كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعاً من الفرنج، وخرجوا إلى بلاد الإسلام، وقتلوا وسبوا وغنموا وأسرُوا، وعاثوا فيها عيثاً شديداً، فأنتهى ذلك إلى يعقوب، فجمع العساكر، وعبر المجاز إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء، فسمعت الفرنج بذلك، فجمعت قاصيهم وذانيهم، وأقبلوا إليه مجذَّين على قتاله، واثقين بالظفر لكثرتهم، فالتقوا، تاسع شعبان، شمالي قُرْبَةِ عند قلعة رباح، بمكان يُعرف بمرج الحديد، فقاتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدائرة أولاً على المسلمين، ثم عادت على الفرنج، فانهزموا (١١٥/١٢) أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. [التوبة: ٤٠].

وكان عدد من قُتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفاً، وأسر ثلاثة عشر ألفاً، وغنم المسلمون منهم شيئاً عظيماً، فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً، ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً، ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير مائة ألف. وكان يعقوب قد نادى في عسكره: مَنْ غنم شيئاً فهو له سوى السلاح وأحصى ما حُمِلَ إليه منه، فكان زيادة على سبعين ألف لبس، وقُتل من المسلمين نحو عشرين ألفاً.

ولَمَّا انهزم الفرنج اتَّبعهم أبو يوسف، فرآهم قد أخذوا قلعة رباح، وساروا عنها من الرعب والخوف، فملكها، وجعل فيها والياً، وجنُداً يحفظونها، وعاد إلى مدينة إشبيلية.

وأما الفتن، فَإنَّه لمَّا انهزم حلق رأسه، ونكس صليبه، وركب حماراً، وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلاً حتَّى تنصر النصرانيَّة،

فأمرها قتلغ إينانج، وملكها الوزير، ونهبها العسكر، فأمر الوزير بالنداء بالكفِّ عن النهب.

وسار قتلغ إينانج وَمَنْ معه من الأمراء إلى مدينة آوة وبها شحنة الوزير، فمتعهم من دخولها، فساروا عنها، ورحل الوزير في أثرهم نحو هَمْدَان، فبلغه وهو في الطريق أنَّ قتلغ إينانج قد اجتمع معه عسكر، وقصد مدينة كَرَج، وقد نزل على دَرَبَدَ هناك، فطلبهم الوزير، فلَمَّا قاربهم التقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم قتلغ إينانج ونجا بنفسه، ورحل الوزير من موضع المصاف إلى هَمْدَان، فنزل بظاهرها، فأقام نحو ثلاثة أشهر، فوصله رسول خوارزم شاه تكش، وكان قد قصدهم منكراً أخذه البلاد من عسكره، ويطلب إعادتها، وتقري قواعد الصلح، فلم يجب الوزير إلى ذلك، فسار خوارزم شاه مجدداً إلى هَمْدَان.

وكان الوزير مؤيد الدين [بن] القصَّاب قد توفِّي في أوائل شعبان، فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف، نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، فقتل بينهم كثير من العسكرين، وانهزم عسكر الخليفة، وغنم الخوارزميون منهم شيئاً كثيراً، وملك خوارزم شاه هَمْدَان، ونشب الوزير من قبره وقطع رأسه وسيَّره إلى خوارزم، وأظهر أنه قتله في المعركة، ثم إنَّ خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب أن يعود إليها، فترك البلاد وعاد إلى خراسان. (١١٣/١٢)

ذكر غزو [ابن] عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

في هذه السنة، في شعبان، غزا أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن، صاحب بلاد المغرب والأندلس، بلاد الفرنج بالأندلس؛ وسبب ذلك أنَّ الفتن ملك الفرنج بها، ومقرُّ ملكه مدينة طَلَيْطَلَة، كتب إلى يعقوب كتاباً نسخته: باسمك اللهم فاطر السموات والأرض؛ أمَّا بعد أيها الأمير، فإنَّه لا يخفى على كلِّ ذي عقل لاذب، ولا ذي لبٍّ وذكاء ثاقب، أنَّك أمير الملة الحنيفيَّة، كما أنا أمير الملة النصرانيَّة، وأنك مَنْ لا يخفى عليه ما هم عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل، وإهمال الرعيَّة، واشتمالهم على الراحة، وأنا أسومهم الخسف وأخلي الديار، وأسبي الذراري، وأمثُل بالكهول، وأقتل الشباب، ولا عذر لك في التخلُّف عن نصرتهم، وقد أمكنتك يد القدرة، وأنتم تعتقدون أنَّ الله فرض عليكم قتال عشرة منَّا بواحد منكم، والآن خَفَّفَ الله عنكم، وعلم أنَّ فيكم ضعفاً، فقد فرض عليكم قتال اثنين منَّا بواحد منكم، ونحن الآن نقاتل عدداً منكم بواحد منَّا، ولا تقدرون دفاعاً، ولا تستطيعون امتناعاً.

ثم حُكي لي عنك أنَّك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتمتل نفسك عاماً بعد عام، تقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى، ولا أدري الجبن أبطاً بك أم التكذيب بما أنزل عليك.

فجمع جموعاً عظيمة، وبلغ الخبر بذلك إلى يعقوب، فأرسل إلى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه، فأثابه من المتطوعة والمرتزقين جمع عظيم، فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال وال سلاح والدواب وغيرها، وتوجه إلى مدينة طليطلة فحصرها، وقتلها قتالاً شديداً، وقطع أشجارها، وشن الغارة على ما حولها من البلاد، وفتح فيها عدة حصون، فقتل رجالها، وسبي حريمها، وخرب دورها، وهدم أسوارها، فضغفت النصرانية حينئذ، وعظم أمر الإسلام بالأندلس، وعاد يعقوب إلى إشبيلية فأقام بها. (١١٦/١٢)

ذكر ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الرّي وهمذان وغيرها لما عاد خوارزم شاه إلى خراسان، كما ذكرنا، اتفق المماليك الذين للبهلولان والأمراء، وقدموا على أنفسهم كوكجه، وهو من أعيان المماليك الهلوانية، واستولوا على الرّي وما جاورها من البلاد، وساروا إلى أصفهان لإخراج الخوارزمية منها، فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها، فأرسل إلى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة الديوان، ويظهر (١١٨/١٢) العبودية، وأنه إنما قصد أصفهان في طلب العساكر الخوارزمية، وحيث رآهم فارقوا أصفهان سار في طلبهم، فلم يدرهم، وسار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان.

وأما كوكجه فإنه تبع الخوارزمية إلى طيس، وهي بلاد الإسماعيلية، وعاد فقصده أصفهان وملكها، وأرسل إلى بغداد يطلب أن يكون له الرّي وخوار الرّي وساة وقم وقاجان وما ينضم إليها إلى حد مزغان، وتكون أصفهان وهمذان وزنجان وقزوین لديوان الخليفة، فأجيب إلى ذلك، وكُتب له منشور بما طلب، وأرسلت له الخلع، فعظم شأنه، وقوي أمره، وكثرت عساكره، وتعظم على أصحابه.

ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها

وفي هذه السنة أيضاً خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر في عساكره إلى دمشق يريد حصرها، فعاد عنها منهزماً.

وسبب ذلك أن من عنده من ممالك أبيه، وهم المعروفون بالصلاحية: فخر الدين جركس، وسرا سقر، وقزاجا، وغيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل علي بن صلاح الدين لأنه كان قد أخرج من عنده منهم مثل: ميمون القصري، وسقر الكبير، وأبيك وغيرهم، فكانوا لا يزالون يخوفون العزيز من أخيه، ويقولون: إن الأكراد والمماليك الأسدية من عسكر مصر يريدون أخاك، ونخاف أن يميلوا إليه، ويخرجوك من البلاد، والمصلحة أن نأخذ دمشق؛ فخرج في العام الماضي وعاد، كما ذكرناه، فتجهز هذه السنة ليخرج، فبلغ الخبر إلى الأفضل، فسار من دمشق إلى عمه الملك العادل، فاجتمع به (١١٩/١٢) بقلعة جعبر، ودعاه إلى نصرته، وسار من عنده إلى حلب، إلى أخيه الملك الظاهر غازي، فاستنجد به، وسار الملك العادل من قلعة جعبر إلى دمشق، فسبق الأفضل إليها ودخلها، وكان الأفضل لثقته به قد أمر نوابه بإدخاله إلى

فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين [وخمسمائة] سار عنها إلى بلاد الفرنج [وفعل فيها مثل فعله الأول والثاني، فضاقت الأرض على الفرنج]، وذلوا، واجتمع ملوكهم، وأرسلوا يطلبون الصلح، فأجابهم إليه بعد أن كان عازماً على الانتقام مريداً لملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم، فأثابه خبر علي بن إسحاق الملقم الميورقي أنه فعل بإفريقية ما تذكره من الأفاعيل الشنيعة، فترك عزمه، وصالحهم مدة خمس سنين، وعاد إلى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

ذكر فعله الملقم بإفريقية

لما عبر أبو يوسف يعقوب، صاحب المغرب، إلى الأندلس، كما ذكرنا، وأقام مجاهداً ثلاث سنين، انقطعت أخباره عن إفريقية، فقوي طمع علي بن إسحاق الملقم الميورقي، وكان بالبرية مع العرب، فعادوا قصد إفريقية، فانبث جنوده في البلاد فخرّبوها، وأكثروا الفساد فيها، فمحيث آثار تلك البلاد وتغيرت، وصارت خالية من الأتيس، خاوية على عروشها.

وأراد المسير إلى بجاية ومحاصرتها لاشتغال يعقوب بالجهاد، وأظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب؛ فوصل الخبر إلى يعقوب بذلك، فصالح الفرنج على ما ذكرناه، وعاد إلى مراكش عازماً على قصده، وإخراجه من البلاد، كما فعل سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه. (١١٧/١٢)

ذكر ملك عسكر الخليفة أصفهان

في هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشاً وسيّره إلى أصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل، مقطع بلد اللحف من العراق، وكان بأصفهان عسكر لخوارزم شاه مع ولده.

وكان أهل أصفهان يكرهونهم، فكتب صدر الدين الخجندی رئيس الشافعية بأصفهان الديوان ببغداد يذلل نفسه تسليم البلد إلى من يصل الديوان من العساكر، وكان هو الحاكم بأصفهان على

ذكر عدة حوادث

في ذي القعدة، التاسع عشر منه، وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربعة التي بين يديه، ودكان ابن البخيل الهراس، وقيل كان ابتداءه من دار ابن البخيل. (١٢٠/١٢)

سنة الثنتين وتسعين وخمسمائة

ذكر مُلك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلد الهند

في هذه السنة سار شهاب الدين الغوري، صاحب غزنة، إلى بلد الهند، وحصر قلعة بهنكر، وهي قلعة عظيمة منيعة، فحصرها، فطلب أهلها منه الأمان على أن يسلموا إليه، فأمنهم وتسلمها، وأقام عندها عشرة أيام حتى رتب جندها وأحوالها وسار عنها إلى قلعة كوالير، وبينهما مسيرة خمسة أيام، وفي الطريق نهر كبير، فجازه، ووصل إلى كوالير، وهي قلعة منيعة حصينة على جبل عال لا يصل إليها حجر منجنيق، ولا نشاب، وهي كبيرة، فأقام عليها صغراً جميعه يحاصرها، فلم يبلغ منها غرضاً، فراسله من بها في الصلح، فأجابهم إليه على أن يُقرّ القلعة بأيديهم على مال يحملونه إليه، فحملوا إليه فيلاً حمله ذهب، فرحل عنها إلى بلاد آي وسور، فأغار عليها ونهبها، وسبى وأسر ما يعجز العادّ عن حصره، ثم عاد إلى غزنة سالماً.

ذكر مُلك العادل مدينة دمشق من الأفضل

في هذه السنة، في السابع والعشرين من رجب، ملك الملك العادل أبو بكر ابن أيوب مدينة دمشق من ابن أخيه الأفضل علي بن صلاح الدين. (١٢٢/١٢)

وكان أبلغ الأسباب في ذلك وثوق الأفضل بالعادل، وأنه بلغ من وثوقه به أنه أدخله بلده وهو غائب عنه، ولقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازي، صاحب حلب، يقول له: أخرج عمنا من بيننا فإنه لا يجيء علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كلّ ما تريد، وأنا أعرف به منك، وأقرب إليه، فإنه عمّي مثل ما هو عمك، وأنا زوج ابنته، ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكتبت أولى به بشك. فقال له الأفضل: أنت سيء الظنّ في كلّ أحد، أيّ مصلحة لعمنا في أن يؤذينا؟ ونحن إذا اجتمعنا كلمتنا، وسيّرنا معه العساكر من عندنا كلنا، ملك من البلاد أكثر من بلادنا، ونربح سوء الذكر.

وهذا كان أبلغ الأسباب، ولا يعلمها كلّ أحد، وأما غير هذا، فقد ذكرنا سير العادل والأفضل إلى مصر وحصارهم بلبّيس، وصلحهم مع الملك العزيز بن صلاح الدين، ومقام العادل معه بمصر، فلما أقام عنده استماله، وقرّر معه أنه يخرج معه إلى دمشق ويأخذها من أخيه ويسلمها إليه، فسار معه من مصر إلى دمشق، وحصرها، واستمالوا أميراً من أمراء الأفضل يقال له العز [بن]

القلعة، ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق ووصل الملك العزيز إلى قرب دمشق، فأرسل مقدّم الأسديّة، وهو سيف الدين أيازكوش، وغيره منهم، ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره، إلى الأفضل والعادل بالانحياز إليهما والكون معهما، ويأمرهما بالاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموه إليهما.

وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم إلى الأفضل أنّ العزيز لما ملك مصر مال إلى المماليك الناصريّة، وقدمهم، ووثق بهم، ولم يلبث إلى هؤلاء الأمراء، فامتعضوا من ذلك، ومالوا إلى أخيه، وأرسلوا إلى الأفضل والعادل فاتفقا على ذلك، واستقرّت القاعدة بحضور رسل الأمراء أنّ الأفضل يملك الديار المصريّة، ويسلم دمشق إلى عمّه الملك العادل، وخرجا من دمشق، فانحاز إليهما من ذكرنا، فلم يمكن العزيز المقام، بل عاد منهزماً يطوي المراحل خوف الطلب ولا يصدّق بالنجاة، وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر.

وأما العادل والأفضل فإنهما أرسلتا إلى القدس، وفيه نائب العزيز، فسلمه إليهما، وسارا فيمنّ معهما من الأسديّة والأكراد إلى مصر، فرأى العادل انضمام العساكر إلى الأفضل، واجتماعهم عليه، فخاف أنه يأخذ مصر، ولا يسلم إليه دمشق، فأرسل حيتنّد سرّاً إلى العزيز يأمره بالثبات، وأن يجعل بمدينة بلبّيس من يحفظها، وتكفّل بأنّه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها، فجعل العزيز الناصريّة ومقدّمهم فخر الدين جركس بها ومعهم غيرهم، ووصل العادل والأفضل إلى بلبّيس، فنازلوا من بها من الناصريّة، (١٢٠/١٢) وأراد الأفضل مناجزتهم، أو تركهم بها والرحيل إلى مصر، فمنعه العادل من الأمرين، وقال: هذه عساكر الإسلام، فإذا اقتتلوا في الحرب فمن يردّ العدو الكافر، وما بها حاجة إلى هذا، فإنّ البلاد لك وبحكمك، ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتها قهراً زالت هيبة البلاد، وطمع فيها الأعداء، وليس فيها من يمنعك عنها.

وسلك معه أمثال هذا، فطالت الأيام، وأرسل إلى العزيز سرّاً يأمره بإرسال القاضي الفاضل، وكان مطاعاً عند البيت الصلاحيّ لعلّو منزله كانت عند صلاح الدين، فحضر عندهما، وأجرى ذكر الصلح، وزاد القول ونقص، وانفسخت العزائم واستقرّ الأمر على أن يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن وجميع ما بيده، ويكون للعادل إقطاعه الذي كان قديماً، ويكون مقيماً بمصر عند العزيز، وإنما اختار ذلك لأنّ الأسديّة والأكراد لا يريدون العزيز، فهم يجتمعون معه، فلا يقدر العزيز على منعه عمّا يريد، فلما استقرّ الأمر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقي العادل بمصر عند العزيز.

وفي رمضان درّس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادي، الفقيه الشافعي، بالمدرسة النظامية ببغداد.

وفي شوال منها استتب نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الرازي في الوزارة ببغداد، وكان قد توجه إلى بغداد لمّا ملك ابن القصاب الرّي.

وفيها ولي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الإنشاء ببغداد، وكان كاتباً مقلّماً، وله شعر جيّد.

وفي صفر توفي الفخر محمود بن عليّ القوّانيّ الفقيه الشافعي بالكوفة، عائداً من الحج، وكان من أعيان أصحابه محمّد بن يحيى.

وفي رجب منها توفي أبو الغنائم محمّد بن عليّ بن المعلّم الشاعر الهزليّ، والهزّ بُضْمُ الهاء والثاء المثلثة قرية من أعمال واسط، عن إحدى وتسعين سنة.

وفي ربيع شعبان منها توفي الوزير مؤيد الدين أبو الفضل محمّد بن عليّ بن القصاب بهمدان، وقد ذكرنا من كفايته ونهضته ما فيه كفاية. (١٢٥/١٢)

سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ذكر إرسال الأمير أبي الهيجاء إلى همدان وما فعله

في هذه السنة، في صفر، وصل إلى بغداد أمير كبير من أمراء مصر اسمه أبو الهيجاء، ويُعرف بالسمين، لأنّه كان كثير السمن، وكان من أكابر أمراء مصر، وكان في إقطاعه أخيراً البيت المقدّس وغيره ممّا يجاوره، فلمّا ملك العزيز والعاذل مدينة دمشق من الأفضل، أخذ القدس منه، ففارق الشام، وعبر الفرات إلى الموصل، ثمّ انحدر إلى بغداد، لأنّه طلب من ديوان الخلافة، فلمّا وصل إليها أكرم إكراماً كثيراً، ثمّ أمر بالتجهيز والمسير إلى همدان مقدّماً على العساكر البغدادية، فسار إليها والتقى عندها بالملك أوزيك بن البهلوان وأمير علم وابنه، وابن سطمس وغيرهم، وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة، فلمّا اجتمع بهم وثقوا به ولم يحذروه، قبض على أوزيك وابن سطمس وابن قرا بموافقة من أمير علم، فلمّا وصل الخبر بذلك إلى بغداد أنكرت هذه الحال على أبي الهيجاء، وأمر بالإفراج عن الجماعة وسيّرت لهم الخلع من بغداد تطبيقاً لقلوبهم، فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا آمنوا، ففارقوا أبا الهيجاء السمين، فخاف الديوان، فلم يرجع إليه، ولم يمكنه أيضاً المقام، فعاد يريد إربل لأنّه من بلدها هو، فترقي قبل وصوله إليها، وهو من الأكراد الحكمة من بلد إربل. (١٢٦/١٢)

ذكر مُلك العادل ياقا من الفرنج ومُلك الفرنج بيروت من

أبي غالب الحمصي، وكان الأفضل كثير الإحسان إليه، والاعتماد عليه، والوثوق به، فسلم إليه باباً من أبواب دمشق يُعرف بالباب الشرقي ليحفظه، فمال إلى العزيز والعاذل، ووعدهما أنّه يفتح لهما الباب، ويدخل العسكر منه إلى البلد غيلةً، ففتحته اليوم السابع والعشرين من رجب، وقت العصر، وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه، فلم يشعر الأفضل إلا وعته معه في دمشق، وركب الملك العزيز، ووقف بالميدان الأخضر غربيّ دمشق.

فلما رأى الأفضل أنّ البلد قد مُلك خرج إلى أخيه، وقت المغرب، (١٢٣/١٢) واجتمع به، ودخلا كلاهما البلد، واجتمعا بالعاذل وقد نزل في دار أسد الدين شيركوه، وتحادثوا، فاتفق العادل والعزيز على أن أوهما الأفضل أنّهما يقيان عليه البلد خوفاً أنّه ربّما جمع من عنده من العسكر وثار بهما، ومعه العامة، فأخرجهم من البلد، لأنّ العادل لم يكن في كثرة؛ وأعاد الأفضل إلى القلعة، وبات العادل في دار شيركوه، وخرج العزيز إلى الخيم فبات فيها، وخرج العادل من الغد إلى جوسقه فأقام به وعساكره في البلد في كلّ يوم يخرج الأفضل إليهما، ويجمع بهما، فبقوا كذلك أياماً، ثمّ أرسلوا إليه وأمراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرّخند له، ويسلم جميع أعمال دمشق، فخرج الأفضل، ونزل في جوسق بظاهر البلد، غربيّ دمشق، وتسلم العزيز القلعة، ودخلها، وأقام بها أياماً، فجلس يوماً في مجلس شرابه، فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنّه يعيد البلد إلى الأفضل، فنقل ذلك إلى العادل في وقته، فحضر المجلس في ساعته، والعزيز سكران، فلم يزل به حتى سلم البلد إليه، وخرج منه، وعاد إلى مصر، وسار الأفضل إلى صرّخند، وكان العادل يذكر أنّ الأفضل سعى في قتله، فلماذا أخذ البلد منه، وكان الأفضل ينكر ذلك ويتبرأ منه «فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

[البقرة: ١١٣]

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، هبّت ريح شديدة بالعراق، واسودّت لها الدنيا، ووقع رمل أحمر، واستعظم الناس ذلك وكبروا، واشتعلت الأضواء بالنهار. (١٢٤/١٢)

وفيها قُتل صدر الدين محمود بن عبد اللطيف بن محمّد بن ثابت الخجّنديّ، رئيس الشافعية بأصفهان، قتله فلّك الدين سنقر الطويل، شحنة أصفهان بها، وكان قدم بغداد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، واستوطنها، ووليّ النظر في المدرسة النظامية ببغداد، ولمّا سار مؤيد الدين بن القصاب إلى خوزستان سار في صحبته، فلمّا ملك الوزير أصفهان أقام ابن الخجّنديّ بها في بيته وملّكه ومنصبه، فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة أصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر.

المسلمين وحصر الفرنج تبين ورحيلهم عنها

في هذه السنة، في شوال، ملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامي، وهي بيد الفرنج، لعنهم الله.

وسبب ذلك أن الفرنج كان قد ملكهم الكند هري، على ما ذكرناه قبل، وكان الصلح قد استقر بين المسلمين والفرنج أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله تعالى، فلما توفي وملك أولاده بعده، كما ذكرناه، جدد الملك العزيز الهدنة مع الكند هري [ملك الفرنج] وزاد في مدة الهدنة، وبقي ذلك إلى الآن.

وكان بمدينة بيروت أمير يُعرف بأسماء، وهو مقطوعها، فكان يرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج، فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة إلى الملك العادل بدمشق، وإلى الملك العزيز بمصر، فلم يمنعا أسامة من ذلك، فأرسلوا إلى ملوكهم الذين داخل البحر يشكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون، ويقولون: إن لم تتجددونا، وإلا أخذ المسلمون البلاد؛ فأمدتهم الفرنج بالساكنات الكثيرة، وكان أكثرهم من ملك الألمان، وكان المقدّم عليهم قسيس يُعرف بالخصيلير، فلما سمع العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب العساكر، وأرسل إلى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر، فجاءته الأمداد واجتمعوا على عين (١٢٧/١٢) الجالوت، فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال، ورحلوا إلى يافا، وملكوا المدينة، وامتنع من بها بالقلعة التي لها، فخرّب المسلمون المدينة، وحصروا القلعة، فملكوها عنوة وقهراً بالسيف في يومها، وهو يوم الجمعة، وأخذ كل ما بها غنيمة وأسراً وسبيّاً، ووصل الفرنج من عكا إلى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا، فوصلهم الخبر بها بملكها فعادوا.

وكان سبب تأخرهم أن ملكهم الكند هري سقط من موضع عالٍ بعكا فمات، فاختلت أحوالهم فتأخروا لذلك.

وعاد المسلمون إلى عين الجالوت، فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت، فرحل العادل والعسكر في ذي القعدة إلى مرج العيون، وعزم على تخريب بيروت، فسار إليها جمع من العسكر، وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجة، وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة، فمنعهم أسامة من ذلك، وتكفل بحفظها.

ورحل الفرنج من عكا إلى صيدا، وعاد عسكر المسلمين من بيروت، فالتقوا الفرنج بنواحي صيدا، وجرى بينهم مناوشة، فقتل من الفريقين جماعة، وحجز بينهم الليل، وسار الفرنج تاسع ذي الحجة، فوصلوا إلى بيروت، فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين، فملكوها صفوا عفواً بغير حرب ولا قتال، فكانت غنيمة باردة؛ فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقي

منها، فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها، وسارت العساكر الإسلامية إلى صور، ققطعوا أشجارها، وخربوا ما لها من قُرى وأبراج، فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت إلى صور، وأقاموا عليها. (١٢٨/١٢)

ونزل المسلمون عند قلعة هونين وأذن للعساكر الشرقية بالعود ظناً منه أن الفرنج يقيمون ببلادهم، وأراد أن يعطي العساكر المصرية دستوراً بالعود، فاتاه الخبر، منتصف المحرم، أن الفرنج قد نازلوا حصن تبين، فسار العادل إليه عسكراً يحمونه ويمنعون عنه ورحل الفرنج من صور، ونزلوا تبين أول صفر سنة أربع وتسعين [وخمسمائة] وقاتلوا من به، وجذوا في القتال، ونقبوه من جهاتهم، فلما علم العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه، ويقول له: إن حضرت، وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر؛ فسار العزيز مجدداً فيمن بقي معه من العساكر.

وأما من حصن تبين فإنهم لما رأوا النقب قد خربت تلّ القلعة، ولم يبق إلا أن يملكوها بالسيف، نزل بعض من فيها إلى الفرنج يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا القلعة، وكان المرجع إلى القسيس الخصيلير من أصحاب ملك الألمان، فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام: إن سلمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم؛ فاحفظوا نفوسكم؛ فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلموا، فلما صعدوا إليها أصروا على الامتناع، وقاتلوا قتال من يحمي نفسه، فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسقلان في ربيع الأول، فلما سمع الفرنج بوصله واجتماع المسلمين، وأن الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم، وأن أمرهم إلى امرأة، وهي الملكة، اتفقوا وأرسلوا إلى ملك قبرس واسمه هيمري، فأحضره، وهو أخو الملك الذي أسر يحنطين، كما ذكرناه، فزوجه بالملكة زوجة الكند هري، وكان رجلاً عاقلاً يحب السلامة والعافية، فلما ملكهم لم يعد إلى الزحف على الحصن، ولا قاتله. (١٢٩/١٢)

واتفق وصول العزيز أول شهر ربيع الآخر، ورحل هو والعساكر إلى جبل الخليل الذي يُعرف بجبل عاملة، فأقاموا أياماً، والأمطار متدائرة، فبقي إلى ثالث عشر الشهر، ثم سار وقارب الفرنج، وأرسل رُماة النشاب، فرموهم ساعة وعادوا، ورتب العساكر ليحذف إلى الفرنج ويجد في قتالهم، فرحلوا إلى صور خامس عشر الشهر المذكور ليلاً، ثم رحلوا إلى عكا، فسار المسلمون فزلوا اللجون، وتراسلوا في الصلح، وتطاول الأمر، فعاد العزيز إلى مصر قبل انفصال الحال.

وسبب رحيله أن جماعة من الأمراء، وهم ميمون القصري، وأسامة، وسرا سنقر، والحجاف، وابن المشطوب، وغيرهم، قد

عزموا على الفتك به ويفخر الدين جركس مدبر دولته، وضعهم العادل على ذلك، فلما سمع بذلك سار إلى مصر وبقي العادل، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح، فاصطلحوا على أن تبقى بيروت بيد الفرنج، وكان الصلح في شعبان سنة أربع وتسعين [وخمسمائة]، فلما انتظم الصلح عاد العادل إلى دمشق، وسار منها إلى ماردين، من أرض الجزيرة، فكان ما ذكره، إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة سيف الإسلام ومُلك ولده

في شوال من هذه السنة توفي سيف الإسلام طُغتكين بن أيوب، أخو صلاح الدين، وهو صاحب اليمن، بزيد، وقد ذكرنا كيف ملك (١٣٠/١٢) وكان شديد السيرة، مُضيقاً على رعيته، يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء.

وأراد مُلك مَكَّة، حرسها الله تعالى، فأرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى أخيه صلاح الدين في المعنى، فمنعه من ذلك، وجمع من الأموال ما لا يحصى، حتى إنه من كثرتِه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره.

ولما توفي ملك بعده ابنه إسماعيل، وكان أهوج، كثير التخليط بحيث إنه ادعى أنه قرشي من بني أمية، وخطب لنفسه بالخلافة، وتلقب بالهادي، فلما سمع عنه الملك العادل ذلك ساءه وأهمله، وكتب إليه يلومه ويؤنبه، وأمره بالعود إلى نسه الصحيح، وبترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه، فلم يلتفت إليه ولم يرجع وبقي كذلك، وانضاف إلى ذلك أنه أساء السيرة مع أجناده وأمرائه، فوثبوا عليه قتلوه، وملكوا عليهم بعده أميراً من ممالك أبيه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفي أبو بكر عبد الله بن منصور بن عمران الباقلائي المُقري الواسطي بها عن ثلاث وتسعين سنة وثلاثة أشهر وأيام، وهو آخر من بقي من أصحاب القلانسي.

وفي جمادى الآخرة توفي قاضي القضاة أبو طالب علي بن علي بن البخاري ببغداد ودُن بترته في مشهد باب التين.

وفيها، في ربيع الآخر، توفي ملكشاه بن خوارزم شاه تكش بيسابور، وكان أبوه قد جعله فيها، وأضاف إليه عساكر جميع بلاده التي بخراسان وجعله (١٣١/١٢) ولي عهده في المُلْك، وخلف ولداً اسمه هندوخان، فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه بعده ولده الآخر قطب الدين محمد، وهو الذي ملك بعد أبيه، وكان بين الآخرين عداوة مستحكمة أفضت إلى أن محمداً لمّا ملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه على ما نذكره.

وفيها توفي شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفراتي

الضريه، الفقيه الشافعي، كان إماماً في الفقه، مدرّساً صالحاً كثير الصلاح، سمعتُ عليه كثيراً، لم أر مثله، رحمه الله تعالى.

ولقد شاهدتُ منه عجباً يدل على دينه وإرادته، بعمله، وجه الله تعالى، وذلك أني كنت أسمع عليه ببغداد سنن أبي عبد الرحمن النسائي، وهو كتاب كبير، والوقت ضيق لأنني كنت مع الحُجّاج قد عدنا من مَكَّة، حرسها الله، فبينما نحن نسمع عليه مع أخي الأكبر مجد الدين أبي السعادات، إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد، وقال له: قد برز الأمر لتحضر لأمر كذا؟ فقال: أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة، ووقتهم يفوت، والذي يُراد مني لا يفوت؟ فقال: أنا لا أحسن أذكر هذا في مقابل أمر الخليفة. فقال: لا عليك! قل: قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع؛ فسلأناه ليمشي معه، فلم يفعل ذلك، وقال: اقروا! فقرأنا، فلما كان الغد حضر غلام لنا، وذكر أن أمير الحاج الموصلي قد رحل، فعظم الأمر علينا فقال: ولم يعظم عليكم العود إلى أهليكم وبلدكم؟ فقلنا: لأجل فراغ هذا الكتاب؛ فقال: إذا رحلتُم استعير دابة وأركبها، فأسير معكم وأنتم تقرأون، فإذا فرغتم عُدت. فمضى الغلام لبيتروء، ونحن نقرأ، فعاد وذكر أن الحاج لم يرحلوا، ففرغنا من الكتاب؛ فانظر إلى هذا الدين العتيد يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه، ويريد [أن] يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا. (١٣٢/١٢)

سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة عماد الدين ومُلك ولده قطب الدين محمد

في هذه السنة، في المحرم، توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ابن أقيسقر، صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقة، وقد تقدّم ذكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين [وخمسمائة]؛ وملك بعده ابنه قطب الدين محمد، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرتقش مملوك أبيه، وكان ديناً خيراً عادلاً، حسن السيرة في رعيته، عفيفاً عن أموالهم وأملاكهم، متواضعاً، يحب أهل العلم والدين، ويحترمهم، ويجلس معهم، ويرجع إلى أقوالهم؛ وكان رحمه الله شديد التعصب على مذهب الحنفية، كثير الذم للشافعية، فمن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنفية بسنجار، وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية، وشرط أن يكون البواب والفرّاش على مذهب أبي حنيفة، وشرط للفقهاء طيحاً يطبخ لهم كل يوم، وهذا نظر حسن، رحمه الله.

ذكر مُلك نور الدين نصيبين

في هذه السنة، في جمادى الأولى، سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود، صاحب الموصل، إلى مدينة نصيبين،

فملكها، وأخذها من (١٣٣/١٢) ابن عمه قطب الدين محمد.

وسبب ذلك أن عمه عماد الدين كان له نصيبين، فتناول نوابه بها، واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل، وهي تجاور نصيبين، فبلغ الخبر مجاهد الدين قايماز القائم بتدبير مملكة نور الدين بالموصل وأعمالها والمرجوع إليه فيها، فلم يعلم مخدومه نور الدين بذلك، لما علم من قلة صبره على احتمال مثل هذا، وخاف أن يجري خلع بينهم، فأرسل من عنده رسولا إلى عماد الدين في المعنى، وفتح هذا الفعل الذي فعله النواب بغير أمره، وقال: إني ما أعلمت نور الدين بالحال لئلا يخرج عن يدك، فإنه ليس كوالده، وأخاف [أن] يبدو منه ما يخرج الأمر فيه عن يدي؛ فأعاد الجواب: إنهم لم يفعلوا إلا ما أمرتهم به، وهذه القرى من أعمال نصيبين.

فترددت الرسل بينهما، فلم يرجع عماد الدين عن أخذها، فحينئذ أعلم مجاهد الدين نور الدين بالحال، فأرسل نور الدين رسولا من مشايخ دولته ممن خدم جدهم الشهيد زنكي ومن بعده، وحمله رسالة فيها بعض الخشونة، فمضى الرسول فلحق عماد الدين وقد مرض، فلما سمع الرسالة لم يلتفت، وقال: لا أعيذ ملكي؛ فأشار الرسول من عنده، حيث هو من مشايخ دولته، بترك اللجاج، وتسليم ما أخذه، وحذره عاقبة ذلك؛ فأغلظ عليه عماد الدين القول، وعرض بدم نور الدين واحتقاره، فعاد الرسول وحكى لنور الدين جليئة الحال، فغضب لذلك، وعزم على المسير إلى نصيبين وأخذها من عمه.

فاتفق أن عمه مات، وملك بعده ابنه، فقوي طمعه، فمنعه مجاهد الدين فلم يمتنع وتجهز وسار إليها، فلما سمع قطب الدين صاحبها سار إليها من سنجار في عسكره، ونزل عليها ليمنع نور الدين عنها، فوصل نور الدين، وتقدم إلى البلد، وكان بينهما نهر، فجاره بعض أمرائه، وقاتل من يازائه، (١٣٤/١٢) فلم يثبتوا له، فغير جميع العسكر النوري، وتمت الهزيمة على قطب الدين، فصعد هو ونائبه مجاهد الدين يرتشق إلى قلعة نصيبين، وأدركهم الليل، فخرجوا منها هاربين إلى حران، وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب، صاحب حران وغيرها، وهو بدمشق، وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد نصيبين إليهم.

وأقام نور الدين بنصيبين مالكا لها، فتضعض عسكره بكثرة الأمراض، وعودهم إلى الموصل، وموت كثير منهم، ووصل العادل إلى الديار الجزرية، فحينئذ فارق نور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل في شهر رمضان، فلما فارقها تسلمها قطب الدين.

وممن توفي من أمراء الموصل: عز الدين جورديك، وشمس الدين عبد الله بن إبراهيم، وفخر الدين عبد الله بن عيسى

المهرانيان، ومجاهد الدين قايماز، وظهير الدين يولق بن بلنكري، وجمال الدين محاسن وغيرهم. ولما عاد نور الدين إلى الموصل قصد العادل قلعة ماردين فحصرها، وضيق على أهلها، على ما تذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكفرة

في هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود، وهو ابن أخت غياث الدين [وشهاب الدين] صاحبي غزنة وغيرها، وله باميان، مدينة بلخ، وكان صاحبها تركيا اسمه أزيه، وكان يحمل الخراج كل سنة إلى الخطا، بما وراء النهر، فتوفي هذه السنة، فسار بهاء الدين سام إلى المدينة، فملكها، وتمكن فيها، وقطع الحمل إلى الخطا، وخطب لغيث الدين، وصارت من جملة بلاد الإسلام بعد أن كانت في طاعة الكافر. (١٣٥/١٢)

ذكر انهزام الخطا من الغورية

وفي هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون إلى ناحية خراسان، فعاتوا في البلاد وأفسدوا، فلقبهم عسكر غياث الدين الغوري وقتلهم فانهمز الخطا.

وكان سبب ذلك أن خوارزم شاه تكش كان قد سار إلى بلد الرئي، وهذان وأصفهان وما بينهما من البلاد، وملكها، وتعرض إلى عساكر الخليفة، وأظهر طلب السلطنة والخطبة ببغداد، فأرسل الخليفة إلى غياث الدين ملك الغور وغزنة [يامره] بقصد بلاد خوارزم شاه [ليعود عن قصد العراق، وكان خوارزم شاه قد عاد إلى خوارزم، فراسله غياث الدين يقبح له فعله، ويتهذهه بقصد بلاده وأخذها، فأرسل خوارزم شاه إلى الخطا يشكو إليهم من غياث الدين ويقول: إن لم تدركه بإفناذ العساكر، وإلا أخذ غياث الدين بلاده، كما أخذ مدينة بلخ، وقصد بعد ذلك بلادهم، ويتعذر عليهم منعه، ويعجزون عنه، ويضعفون عن رده عما وراء النهر؛ فجهز ملك الخطا جيشا كثيفا، وجعل مقدمهم المعروف بطاينكوا، وهو كالوزير له، فساروا وعبروا جيحون في جمادى الآخرة، وكان الزمان شتاء، وكان شهاب الدين الغوري أخو غياث الدين ببلاد الهند، والعساكر معه، وغياث الدين به من القرس ما يمنعه من الحركة، إنما يحمل في محفة، والذي يقود الجيش ويأشر الحروب أخوه شهاب الدين، فلما وصل الخطا إلى جيحون سار خوارزم شاه إلى طوس، عازما على قصد هراة ومحاصرتها، وعبر الخطا النهر، ووصلوا إلى بلاد الغور مثل: كوربان وسرقان وغيرهما، وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى، فاستغاث الناس بغياث الدين، فلم يكن عنده من (١٣٦/١٢) العساكر ما يلقيهم بها، فراسل الخطا بهاء الدين سام ملك باميان يأمره بالإفراج عن بلخ، أو أنه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال، فلم يجبههم إلى ذلك.

قباء وقلنسوة، وقالوا: هذا خوارزم شاه، لأنه كان أعور، وطافوا به على السور، ثم القوه في منجنيق [إلى] العسكر، (١٣٨/١٢) وقالوا: هذا سلطانكم. وكان الخوارزميون يسبونهم ويقولون: يا أجناد الكفار، أنتم قد ارتددتم عن الإسلام؛ فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزم شاه البلد، بعد أيام سيره، عنوة وعفا عن أهلته، وأحسن إليهم، وفرق فيهم مالا كثيرا، وأقام به مدة ثم عاد إلى خوارزم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ذي الحجة، توفي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زبادة، كاتب الإنشاء بديوان الخليفة، وكان عالما فاضلا، له كتابة حسنة، وكان رجلا عاقلا خيرا، كثير النفع للناس، وله شعر جيد.

وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين في شهر رمضان، وقاتل من بها، وكان صاحبها حسام الدين يولق أرسلان بن إيلغازي بن أبي تمرناش بن إيلغازي بن أرتق، كل هؤلاء ملوك ماردين، وقد تقدم من أخبارهم ما يعلم به محلهم، وكان صبيّا والحاكم في بلده ودولته مملوك أبيه النظام برنقش، وليس لصاحبه معه حكم البتة في شيء من الأمور، ولما حصر العادل ماردين ودام عليها سلم إليه بعض أهلها الرض بمخامرة بينهم، فنهب العسكر أهله نهبا قبيحا، وفعلوا بهم أفعالا عظيمة لم يُسمع بمثلها، فلما تسلم الرض تمكن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها، وبقي عليها إلى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين [وخمسمائة] على ما نذكره إن شاء الله.

وفيها توفي الشيخ أبو علي الحسن بن مسلم بن أبي الحسن القادسي (١٣٩/١٢) الزاهد، المقيم ببغداد، والقادسي الذي يُنسب إليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد، وكان من عباد الله الصالحين العاملين، ودُفن بقرته.

وأبو المجد علي بن أبي الحسن علي بن الناصر بن محمد الفقيه الحنفي مدرّس أصحاب أبي حنيفة ببغداد، وكان من أولاد محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. (١٤٠/١٢)

سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الأفضل ديار مصر

في هذه السنة، في العشرين من المحرم، توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب ديار مصر، وكان سبب موته أنه خرج إلى الصيد، فوصل إلى القيوم متصيّدا. فرأى ذئبا، فركض فرسه في طلبه، ففتر الفرس فسقط عنه في الأرض ولحقته حمى، فعاد إلى القاهرة مريضا، فبقي كذلك إلى أن توفي،

وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا، فانتدب الأمير محمد بن جريك الغوري، وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين، وكان شجاعا، وكاتب الحسين بن خرميل، وكان بقلعة كرزيان، واجتمع معهما الأمير حرّوش الغوري وماراوا بعساكرهم إلى الخطا، فبيّتهم، وكبسوهم ليلا، ومن عادة الخطا أنهم لا يخرجون من خيامهم ليلا، ولا يفارقونها، فاتاهم هؤلاء الغورية وقتلواهم، وأكثروا القتل في الخطا، وانهزم من سلم منهم من القتل، وابن بنهزمون والعسكر الغوري خلفهم، وجيحدون بين أيديهم؟ وظن الخطا أن غياث الدين قد قصدهم في عساكره، فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم، وعلموا أن غياث الدين بمكانه، قويت قلوبهم، وثبتوا [واقفوا] عامة نهارهم فقتل من الفريقين خلق عظيم، ولحقت المتطوعة بالغوريين، وأتاهم مدد من غياث الدين وهم في الحرب، فثبت المسلمون، وعظمت نكايتهم في الكفار.

وحمل الأمير حرّوش على قلب الخطا، وكان شيخا كبيرا فأصابه جراحة توفي منها، ثم إن محمود بن جريك وابن خرميل حملا في أصحابهما، وتنادوا: لا يرم أحد بقوس، ولا يطعن برمح؛ وأخذوا اللتوت، وحملوا على الخطا فهزموهم والحقوهم بجيحدون، فمن صبر قتل، ومن ألقى نفسه في الماء غرق.

ووصل الخبر إلى ملك الخطا فعظم عليه وأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: (١٣٧/١٢) أنت قتلت رجالي، وأريد عن كل قبيل عشرة آلاف دينار؛ وكان القتلى اثني عشر ألفا، وأنفذ إليه من رده إلى خوارزم، والزموه بالحضور عنده، فأرسل حينئذ خوارزم شاه إلى غياث الدين يُعرفه حاله مع الخطا، ويشكو إليه ويستعطفه غير مرة، فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة، وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام، فلم ينفصل بينهما حال.

ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارى

لما ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه بما ذكرناه، أعاد الجواب: إن عساكرك إنما قصد انتزاع بلخ، ولم يأتوا إلى نصرتي، ولا اجتمعت بهم، ولا أمرتهم بالعبور، وإن كنت فعلت ذلك، فأنا مقيم بالمال المطلوب مني، ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية عذمت علي بهذا القول وهذا المطلب، وأما أنا فقد أصلحت الغورية، ودخلت في طاعتهم، ولا طاعة لكم عندي.

فعاد الرسول بالجواب، فجهرّ ملك الخطا جيشا عظيما وسيره إلى خوارزم فحاصروها، فكان خوارزم شاه يخرج إليهم كل ليلة، ويقتل منهم خلقا؛ وأتاه من المتطوعة خلق كثير، فلم يزل هذا فعله بهم حتى أتى على أكثرهم، فدخل الباقون إلى بلادهم، ورحل خوارزم شاه في آثارهم، وقصد بخارى فنازلها وحاصرها، وامتنع أهلها منه، وقتلوه مع الخطا، حتى إتهم أخذوا كلبا أعور والبسوه

فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهار كس، وهو الحاكم في بلده، فأحضر إنساناً كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأراه العزيز ميثاً، وميثره إلى العادل وهو يحاصر ماردين، كما ذكرناه، ويستدعيه ليملكه البلاد، فسار القاصد مجداً، فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الأفضل علي بن صلاح الدين، فقال له: قل لصاحبك إن أخاه العزيز توفي، وليس في البلاد من يمنعها، فليسر إليها فليس دونها مانع.

وكان الأفضل محبوباً إلى الناس يريدونه، فلم يلتفت الأفضل إلى هذا القول، وإذا قد وصله رسل الأمراء من مصر يدعونه إليهم ليملكوه، وكان السبب في ذلك أن الأمير سيف الدين يازكج مقدّم الأسديّة، والفرقة الأسديّة (١٤١/١٢) والأمراء الأكرد يريدونه ويميلون إليه، وكان المماليك الناصريّة الذين هم ملك أبيه يكرهونه، فاجتمع سيف الدين، مقدّم الأسديّة، وفخر الدين جهار كس، مقدّم الناصريّة، ليتفقوا على من يولّونه الملك، فقال فخر الدين: نولّي ابن الملك العزيز؟ فقال سيف الدين: إنّه طفل، وهذه البلاد نغر الإسلام، ولا بدّ من قيم بالملك يجمع العساكر، ويقاتل بها، والرأي أننا نجعل الملك في هذا الطفل الصغير، ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبّره إلى أن يكبر، فإنّ العساكر لا تطيع غيرهم، ولا تنقاد لأمر؛ فاتفقوا على هذا، فقال جهار كس: فمن يتولّى هذا؟ فأشار يازكج بغير الأفضل ممّن بينه وبين جهار كس منازعة لثلاثيهم وينفر جهار كس عنه، فامتنع من ولايته، فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحداً بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل، فقال جهار كس: هو بعيد عنا؛ وكان بصريحاً مقيماً فيها من حين أخذت منه دمشق، فقال يازكج: نرسل إليه من يطلبه مجداً فأخذ جهار كس بغلطة، فقال يازكج: نمضي إلى القاضي الفاضل ونأخذ رأيّه؛ فاتفقوا على ذلك، وأرسل يازكج يعرفه ذلك، ويشير بتملك الأفضل، فلما اجتمعا عنده، وعرفاه صورة الحال، أشار بالأفضل، فأرسل يازكج في الحال القصّاد وراءه، فسار عن صريحاً لليلتين بقيتا من صفر، متكرراً في تسعة عشر نفساً، لأنّ البلاد كانت للعادل، ويضبط نوابه الطرق، لئلاّ يجوز إلى مصر ليجيء العادل ويملكها.

فلما قارب الأفضل القدس، وقد عدل عن الطريق المؤدّي إليه، لقيه فارسان قد أرسلا إليه من القدس، فأخبراه أن من بالقدس قد صار في طاعته، وجدّ في السير، فوصل إلى بليس خامس ربيع الأول، ولقية إخوته، (١٤٢/١٢) وجماعة الأمراء المصريّة، وجميع الأعيان، فاتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً، وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاماً، فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أنه يبدأ به، فظنّ جهار كس أنه فعل هذا انحرفاً عنه وسوء اعتقاد فيه، فتغيّرت نيّته، وعزم على الهرب، فحضر عند

الأفضل وقال: إن طائفة من العرب قد اقتلوا، ولئن لم تمض إليهم تصلح بينهم يؤدّ ذلك إلى فساد؛ فأذن له الأفضل في المضي إليهم، ففارقوه، وسار مجداً حتّى وصل إلى البيت المقدّس، ودخله، وتغلّب عليه، ولحقه جماعة من الناصريّة منهم قراجه الزره كس، وسرا سنقر، وأحضروا عندهم ميموناً القصري صاحب نابلس، وهو أيضاً من المماليك الناصريّة، فقويت شوكتهم به، واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل، وأرسلوا إلى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها، فلم يسر إليهم لأنّه كانت أطماعه قد قويت في أخذ ماردين، وقد عجز ممّن بها عن حفظها، فظنّ أنّه يأخذها، والذي يريدونه منه لا يفوته.

وأما الأفضل فإنّه دخل إلى القاهرة سابع ربيع الأوّل، وسمع بهرب جهار كس، فاهمّه ذلك، وتردّد الرسل بينه وبينهم ليعودوا إليه، فلم يزدادوا إلاّ أبعداً، ولحق بهم جماعة من الناصريّة أيضاً، فاستوحش الأفضل من الباقين، فقبض عليهم، وهم شقيقة وأبيك فطيس، والبيكي الفارس، وكلّ هؤلاء بطل مشهور ومقدّم مذكور، سوى من ليس مثلهم في التقدّم وعلوّ القدر، وأقام الأفضل بالقاهرة وأصلح الأمور، وقرّر القواعد، والمرجع في جميع الأمور إلى سيف الدين يازكج. (١٤٣/١٢)

ذكر حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده عنها

لما ملك الأفضل مصر، واستقرّ بها، ومعه ابن أخيه الملك العزيز، اسم الملك له لصغره، واجتمعت الكلمة على الأفضل بها، وصل إليه رسول أخيه الملك الظاهر غازي، صاحب حلب، ورسّل ابن عمّه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه، صاحب حمص، يحثّاه على الخروج إلى دمشق، واغتنام الفرصة بغية العادل عنها، وبذل له المساعدة بالمال والنفس والرجال، فبرز من مصر، منتصف جمادى الأولى من السنة، على عزم المسير إلى دمشق، وأقام بظاهر القاهرة إلى ثالث رجب، ورحل فيه وتعوّق في مسيره، ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق، لكنه تأخّر، فوصل إلى دمشق ثالث عشر شعبان، فنزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق، وكان العادل قد أرسل إليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لهم، فساروا ماردين وخلف ولده الملك الكامل محمداً في جميع العساكر على حصارها، وسار جريدة فجذّ في السير، فسبق الأفضل، فدخل دمشق قبل الأفضل بيومين.

وأما الأفضل فإنّه تقدّم إلى دمشق من الغد، وهو رابع عشر شعبان، ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة بسيرة من عسكره إلى عسقلان إلى دمشق من باب السلامة، وسبب دخولهم أن قوماً من أجناده، ممّن بيوتهم مجاورة الباب، اجتمعوا بالأمير مجد الدين أخي الفقيه عيسى الهكاري، وتحدّثوا معه في أن يقصد هو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم، فأراد مجد الدين أن يختصّ

بفتح الباب وحده، فلم يُعلم الأفضل، ولا أخذ معه أحداً من الأمراء، بل سار وحده بمفرده، ومعه نحو خمسين فارساً من أصحابه، ففتح له الباب، فدخله (١٤٤/١٢) هو ومن معه، فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل واستسلم من به من الجند، ونزلوا عن الأسوار، وبلغ الخبر إلى الملك العادل، فكاد يستسلم، وتماسك.

وأما الذين دخلوا البلد فإنهم وصلوا إلى باب البريد، فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلّة عددهم، وانقطاع مددهم، وثبوا بهم وأخرجوهم منه، وكان الأفضل قد نصب خيمه بالميدان الأخضر، وقارب عسكره الباب الحديد، وهو من أبواب القلعة، فقدّر الله تعالى أن أشير على الأفضل بالانتقال إلى ميدان الحصى، ففعل ذلك، فقويت نفوس من فيه، وضعفت نفوس العسكر المصري، ثم إن الأمراء الأكراد منهم تحالفوا فصاروا يداً واحدة يقضون لغضب أحدهم، ويرضون لرضى أحدهم، فظنّ الأفضل وباقي الأسديّة أنهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدمشقيّين، فرحلوا من موضعهم، وتأخروا في العشرين من شعبان، ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل الخامس والعشرين من شعبان، ووصل بعده الملك الظاهر، صاحب حلب، ثاني عشر رمضان، وأرادوا الزحف إلى دمشق، فمنعهم الملك الظاهر مكرّاً بأخيه وحسداً له، ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك.

وأما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الأمداد إلى الأفضل عظم عليه، فأرسل إلى المماليك الناصريّة بالبيت المقدس يستدعيهم إليه، فصاروا سلخ شعبان، فوصل خبرهم إلى الأفضل، فسير أسد الدين، صاحب حمص، ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم ليمنعوهم، فسلخوا غير طريقهم، فجاء أولئك ودخلوا دمشق خامس رمضان، فقوي العادل بهم قوّة عظيمة، وأيسر الأفضل ومن معه من دمشق، وخرج عسكر دمشق في شوال، فكبسوا العسكر المصري، فوجدوهم قد حذروهم، فعادوا عنهم خاسرين. (١٤٥/١٢)

وأقام العسكر على دمشق ما بين قوّة وضعف، وانتصار وتخاذل، حتّى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمّد، وكان قد رحل عن ماردين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وهو بحرّان، فاستدعاه إليه بعسكره، فسار على طريق البرّ، فدخل إلى دمشق ثاني عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر، واستقرّ أن يقيموا بحوران حتّى يخرج الشتاء، فرحلوا إلى رأس الماء، وهو موضع شديد البرد، فتغيّر العزم عن المقام، واتّفقا على أن يعود كلّ منهم إلى بلده، فعاد الظاهر، صاحب حلب، وأسد الدين، صاحب حمص، إلى بلادهما، وعاد الأفضل

إلى مصر، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمّد
في هذه [السنة]، ثامن عشر ربيع الآخر، وقيل جمادى الأولى، توفي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، صاحب المغرب والأندلس، بمدينة سلا، وكان قد سار إليها من مراكش، وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا، وسماها المهديّة، من أحسن البلاد وأنزهها، فسار إليها يشاهدها، فتوفي بها، وكانت ولايته خمس عشرة سنة؛ وكان ذا جهاد للعدوّ، ودين، وحسن سيرة، وكان يتظاهر بمذهب الظاهريّة، وأعرض عن مذهب مالك، فعظم أمر الظاهريّة في أيامه، وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الجرّميّة منسوبون إلى ابن محمّد بن جرم، رئيس الظاهريّة، إلّا أنهم مغمورون (١٤٦/١٢) بالمالكيّة. ففي أيامه ظهرُوا وانتشروا، ثمّ في آخر أيامه استنقى الشافعيّة على بعض البلاد ومال إليهم. ولما مات قام ابنه أبو عبد الله محمّد بالملك بعده، وكان أبوه قد ولّاه عهده في حياته، فاستقام الملك له وأطاعه الناس، وجّهز جمعاً من العرب وسبّروهم إلى الأندلس احتياطاً من الفرنج.

ذكر عصيان أهل المهديّة على يعقوب وطاعتها لولده محمّد
كان أبو يوسف يعقوب، صاحب المغرب، لما عاد من إفريقية، كما ذكرناه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، استعمل أبا سعيد عثمان، وأبا عليّ يونس بن عمر ايتي، وهما وأبوهما من أعيان الدولة، فولّى عثمان مدينة تونس، وولّى أخاه المهديّة، وجعل قائد الجيش بالمهديّة محمّد بن عبد الكريم، وهو شجاع مشهور، فعظمت نكايته في العرب، فلم يبق منهم إلّا من يخافه.

فاتفق أنّه أتاه الخبر بأنّ طائفة من عوّف نازلون بمكان، فخرج إليهم، وعدل عنهم حتّى جازهم، ثمّ أقبل عائداً يطلبهم، وأناهم الخبر بخروجه إليهم، فهربوا من بين يديه، فلقوه أمامهم، فهربوا، وتركوا المال والعيال من غير قتال، فأخذ الجميع ورجع إلى المهديّة وسلّم العيال إلى الوالي، وأخذ من الأسلاب والغنيمة ما شاء، وسلّم الباقي إلى الوالي وإلى الجند.

ثمّ إنّ العرب من بني عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر ايتي، فوحّدوا (١٤٧/١٢) وصاروا من حزب الموحّدين، واستجاروا به في ردّ عيالهم وأمّوالهم، فأحضر محمّد بن عبد الكريم، وأمره بإعادة ما أخذ لهم من النعم، فقال: أخذه الجند، ولا أقدر على ردّه؛ فأغلظ في القول، وأراد أن يطش به، فاستمهل إلى أن يرجع إلى المهديّة ويستردّ من الجند ما يجده عندهم، وما عدم منه غرم العرض عنه من ماله، فأمهلهم، فعاد إلى المهديّة وهو خائف، فلما وصلها جمع أصحابه وأعلمهم ما كان من أبي سعيد، وحالفهم على موافقته، فحلفوا له، فقبض على أبي عليّ يونس، وتغلّب على المهديّة وملكها، فأرسل إليه أبو سعيد في معنى إطلاق أخيه

يونس، فأطلقه على اثني عشر ألف دينار، فلما أرسلها إليه أبو سعيد فرّقها في الجند وأطلق يونس، وجمع أبو سعيد العساكر، وأراد قصده ومحاصرتها، فأرسل محمد بن عبد الكريم إلى علي بن إسحاق الملقب فحالفه واعتضد به، فامتنع أبو سعيد من قصده.

ومات يعقوب، ووليّ ابنه محمد، فسير عسكراً مع عمّه في البحر، وعسكراً آخر في البر مع ابن عمّه الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، فلما وصل عسكر البحر إلى بجاية، وعسكر البر إلى قسنطينة الهوى، هرب الملقب ومن معه من العرب من بلاد إفريقية إلى الصحراء، ووصل الأسطول إلى المهدية، فشكا محمد بن عبد الكريم ما لقي من أبي سعيد، وقال: أنا على طاعة أمير المؤمنين محمد، ولا أسلمها إلى أبي سعيد، وإنما أسلمها إلى من يصل من أمير المؤمنين؛ فأرسل محمد من يتسلمها منه، وعاد إلى الطاعة. (١٤٨/١٢)

ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردین

في هذه السنة زال الحصار عن ماردین، ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل؛ وسبب ذلك أنّ الملك العادل لما حصر ماردین عظم ذلك على نور الدين، صاحب الموصل، وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة، وخافوا إن ملكها أن لا يبقى عليهم، إلا أنّ العجز عن منعه [حملهم] على طاعته؛ فلما توفي العزيز، صاحب مصر، وملك الأفضل مصر، كما ذكرناه، وبينه وبين العادل اختلاف، أرسل أحد عسكر من مصر من عنده، وأرسل إلى نور الدين، صاحب الموصل، وغيره من الملوك يدعوهم إلى موافقته، فاجابوه إلى ذلك، فلما رحل الملك العادل عن ماردین إلى دمشق، كما ذكرناه، برز نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود، صاحب الموصل، عنها ثاني شعبان ومارس إلى دُنيسر فنزل عليها، ووافقه ابن عمّه قطب الدين محمد ابن زنكي بن مودود، صاحب سنجار، وابن عمّه الآخر مُعزّ الدين سنجر شاه بن غازي بن مودود، صاحب جزيرة ابن عمر، فاجتمعوا كلّهم بدنيسر إلى أن عيّدوا عيد الفطر، ثمّ ساروا عنها سادس شوال ونزلوا بحرّزم، وتقدّم العسكر إلى تحت الجبل ليرتادوا موضعاً للنزول.

وكان أهل ماردین قد عدمت الأقوات عندهم، وكثرت الأمراض فيهم، حتّى إنّ كثيراً منهم كان لا يطيق القيام، فلما رأى النظام، وهو الحاكم في دولة صاحبها، ذلك أرسل إلى ابن العادل في تسليم القلعة إليه إلى أجل معلوم ذكره على شرط أن يتركهم يدخل إليهم من الميرة ما يقوتهم، حسب، فأجابهم إلى ذلك، وتحالفوا عليه، ورفعوا أعلامهم إلى رأس القلعة، وجعل ولد العادل (١٤٩/١٢) بباب القلعة أميراً لا يترك يدخلها من الأطعمه إلا ما يكفيهم يوماً بيوم، فأعطى من بالقلعة ذلك الأمير شيئاً، فمكّنهم من إدخال الذخائر الكثيرة.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم خبر وصول نور الدين، صاحب الموصل، فقويت نفوسهم، وعزموا على الامتناع، فلما تقدّم عسكره إلى ذيل جبل ماردین، قدّر الله تعالى أنّ الملك الكامل بن العادل نزل بعسكر من رضى ماردین إلى لقاء نور الدين وقتله، ولو أقاموا بالريض لم يمكن نور الدين ولا غيره الصعود إليهم، ولا إزالتهم، لكن نزلوا ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فلما أصحروا من الجبل اقتتلوا، وكان من عجيب الاتفاق أنّ قطب الدين، صاحب سنجار، قد واعد العسكر العادليّ أن يهزم إذا التقوا، ولم يُعلم بذلك أحد من العسكر، فقدّر الله تعالى أنّه لما نزل العسكر العادليّ واصطفت العساكر للقتال ألجأت قطب الدين الضرورة بالرحمة إلى أن وقف في سفح شعب جبل ماردین ليس إليه طريق للعسكر العادليّ، ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدين، ففاته ما أراد من الانهزام؛ فلما التقى العسكران واقتتلوا، حمل ذلك اليوم نور الدين بنفسه، واصطلى الحرب، [فألقى] الناس أنفسهم بين يديه، فانهمز العسكر العادليّ، وصعدوا في الجبل إلى الريض، وأسر منهم كثير، فحملوا إلى بين يدي نور الدين، فأحسن إليهم، ووعدهم الإطلاق إذا انفصلوا، ولم يظنّ أنّ الملك الكامل ومن معه يرحلون عن ماردین سريعاً، فجاءهم أمر لم يكن في الحساب، فإنّ الملك الكامل لما صعد إلى الريض رأى أهل القلعة قد نزلوا إلى الذين جعلهم بالريض من العسكر، فقاتلوه ونالوا منهم ونهبوا، فألقى الله الرعب في قلوب الجميع، فاعملوا رأيهم على مفارقة الريض ليلاً، فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال، وتركوا كثيراً من أثقالهم ورحالهم وما أعدّوه، فأخذهم أهل القلعة، ولو ثبت العسكر العادلي (١٥٠/١٢) بمكانه لم يمكن أحداً أن يقرب منهم.

ولما رحلوا نزل صاحب ماردین حسام الدين يولق بن يلغازي إلى نور الدين، ثمّ عاد إلى حصنه، وعاد أتاك إلى دُنيسر، ورحل عنها إلى رأس عين على عزم قصد حرّان وحصرها، فأتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبة والسكّة وغير ذلك، فتغيّرت نية نور الدين، وقرر عزمه عن نصرتهم، فعزم على العود إلى الموصل، فهو يقدّم إلى العرض رجلاً ويؤخر أخرى إذ أصابه مرض، فتحقّق عزم العود إلى الموصل، فعاد إليها، وأرسل رسولاً إلى الملك الأفضل والملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه، فوصل الرسول ثاني ذي الحجة إليهم وهم على دمشق.

وكان عود نور الدين من سعادة الملك العادل، فإنّه كان هو وكلّ من عنده يتظنون ما يجيء من أخباره، فإنّ من بحرّان استسلموا فقدّر الله تعالى أنّه عاد، فلما عاد جاء الملك الكامل إلى حرّان، وكان قد سار عن ماردین إلى ميّافارقين، فلما رجع نور الدين سار الكامل إلى حرّان، ومارس إلى أبيه بدمشق على ما ذكرناه، فازداد به قوة، والأفضل ومن معه ضعفاً. (١٥١/١٢)

ذكر الفتنة بفيروزكوه من خراسان

في هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين، ملك الغور وغزنة، وهو بفيروزكوه، عمّت الرعيّة والملوك والأمراء، وسببها أنّ الفخر محمد بن عمر بن الحسين الرازي، الإمام المشهور، الفقيه الشافعي، كان قدم إلى غياث الدين مفارقاً لبهاء الدين سام، صاحب باميان، وهو ابن أخت غياث الدين، فأكرمه غياث الدين، واحترمه، وبالف في إكرامه، وبني له مدرسة بهراً بالقرب من الجامع، فقصدته الفقهاء من البلاد فعظم ذلك على الكرامية، وهم كثيرون بهراً؛ وأما الغورية فكلّهم كرامية، وكرهوه، وكان أشدّ الناس عليه الملك ضياء الدين، وهو ابن عمّ غياث الدين، وزوج ابنته، فاتفق أن حضر الفقهاء من الكرامية والحنفية والشافعية عند غياث الدين بفيروزكوه للمناظرة، وحضر فخر الدين الرازي والقاضي مجد الدين عبد المجيد بن عمر، المعروف بابن القدوة، وهو من الكرامية الهيصمية، وله عندهم محلّ كبير لهذه وعلمه وبيته، فتكلّم الرازي، فاعترض عليه ابن القدوة، وطال الكلام، فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر، وسبه وشتمه، وبالف في أذاه، وابن القدوة لا يزيد على أن يقول لا يفعل مولانا إلا وأخذك الله؛ أستغفر الله؛ فانفصلوا على هذا.

وقام ضياء الدين في هذه الحادثة وشكا إلى غياث الدين، وذمّ الفخر، ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة، فلم يصغّ غياث الدين إليه. فلما كان الغد وعظ ابن عمّ المجد بن القدوة بالجامع، فلما صعد المنبر قال، بعد أن حمد الله وصلى على النبي، ﷺ: لا إله إلا الله، ربنا آمناً (١٥٢/١٢) بما أنزلت، وأتبعنا الرسول، فاكبتنا مع الشاهدين؛ أيها الناس، إنا لا نقول إلا ما صحّ عندنا عن رسول الله ﷺ وأما علم أرسطاطاليس، وكفريات ابن سينا، وفلسفة الفارابي، فلا نعلمها، فلايّ حال يُشتم بالأمر شيخ من شيوخ الإسلام يذبّ عن دين الله، وعن سنة نبيه! وبكى وضجّ الناس، وبكى الكرامية واستغاثوا، وأعانهم من يؤثّر بعد الفخر الرازي عن السلطان، وثار الناس من كلّ جانب، وامتلا البلد فتنة، وكادوا يقتتلون، ويجري ما يهلك فيه خلق كثير، فبلغ ذلك السلطان، فأرسل جماعة من عنده إلى الناس وسكنّهم، ووعدهم بإخراج الفخر من عندهم، وتقدّم إليه بالعود إلى هراة، فعاد إليها.

ذكر مسير خوارزم شاه إلى الريّ

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار خوارزم شاه علاء الدين تكش إلى الريّ وغيرها من بلاد الجبل، لأنّه بلغه أنّ نائبه بها مياجق قد تغبّر عن طاعته، فسار إليه، فخافه مياجق، فجعل يفرّ من بين يديه، وخوارزم شاه في طلبه يدعوه إلى الحضور عنده، وهو يمتنع، فاستأمن أكثر أصحابه إلى خوارزم شاه، وهرب هو، فحصل بقلعة

من أعمال مازندران فامتنع بها، فسارت العساكر في طلبه فأخذ منها وأحضر بين يدي خوارزم شاه فأمر بحبسه بشفاعة أخيه أقبجة.

وسيّرت الخلع من الخليفة لخوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد، (١٥٣/١٢) وتقليد بما بيده من البلاد، فلبس الخلعة، واشتغل بقتال الملاحدة، فافتتح قلعة على باب قزوین تسمّى أرسلان كشاه، وانتقل إلى حصار الموت، فقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالريّ، وكان قد تقدّم عنده تقدماً عظيماً، قتله الملاحدة، وعاد خوارزم شاه إلى خوارزم، فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملوك مسعود بن عليّ فقتلوه في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين [وخمسمائة]، فأمر تكش ولده قطب الدين بقصد الملاحدة، فقصد قلعة ترشيش وهي من قلاعهم، فحصرها فأذعنوا له بالطاعة، وصالحوه على مائة ألف دينار، ففارقها، وإنما صالحهم لأنّه بلغه خبر مرض أبيه، وكانوا يرسلونه بالصلح فلا يفعل، فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتّى صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، توفيّ مجاهد الدين قايماز، رحمه الله، بقلعة الموصل، وهو الحاكم في دولة نور الدين، والمرجوع إليه فيها، وكان ابتداء ولايته قلعة الموصل في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ووليّ إربل سنة تسع [وخمسين] وخمسمائة، فلما مات زين الدين عليّ كوجك سنة ثلاث وستين [وخمسمائة] بقي هو الحاكم فيها، ومعه من يختاره من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم.

وكان عاقلاً، ديناً، خيراً، فاضلاً، يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويحفظ، من التاريخ والأشعار والحكايات، شيئاً كثيراً. وكان كثير (١٥٤/١٢) الصوم، يصوم من كلّ سنة نحو سبعة أشهر، وله أوراد كثيرة حسنة كلّ ليلة، ويكثر الصدقة، وكان له فراسة حسنة فيمن يستحقّ الصدقة ويعرف الفقراء المستحقّين ويبرّهم، وبني عدة جوامع منها الجامع الذي بظاهر الموصل بباب الجسر، وبني الرُّبُط والمدارس والخانات في الطرق، وله من المعروف شيء كثير، رحمه الله، فلقد كان من محاسن الدنيا.

وفيها فارق غياث الدين، صاحب غزنة وبعض خراسان، مذهب الكرامية، وصار شافعيّ المذهب، وكان سبب ذلك أنّه كان عنده إنسان يُعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسية، متفنناً في كثير من العلوم، فأوصل إلى غياث الدين الشيخ وحيد الدين أبا الفتح محمد بن محمود المروزيّ الفقيه الشافعيّ، فأوضح له مذهب الشافعيّ، وبين له فساد مذهب الكرامية، فصار شافعيّاً، وبني المدارس للشافعية، وبني بغزنة مسجداً لهم أيضاً، وأكثر مراعاتهم،

العوض عنها، وطلب دمشق، فلم يجبه العادل، فنزل عنها [إلى] حَرَّانَ والرُّها فلم يجبه، فنزل إلى مِيفَارِقِينَ وحاني وجبل جُور، فأجابه إلى ذلك، وتحالفوا عليه، وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر، واجتمع بالعادل، وسار إلى صَرْخَدَ، ودخل العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر.

ولما وصل الأفضل إلى صَرْخَدَ أرسل من تسَلَّمَ مِيفَارِقِينَ وحاني وجبل جُور، فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم مِيفَارِقِينَ، وسَلَّمَ ما عداها، فتَرَدَّدَت الرسل بين الأفضل والعادل في ذلك، والعادل يزعم أن ابنه عصاه، فأمسك عن المراسلة في ذلك لعله أن هذا فعل بامر العادل.

ولما ثبت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز في شَوَّال من السنة، وخطب لنفسه، وحاقد الجند في إقطاعاتهم، واعترضهم في أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرّر، فتغيّرت لذلك نياتهم، فكان ما تذكره سنة سبع وتسعين [وخمسمائة] إن شاء الله.

ذكر وفاة خوارزم شاه

في هذه السنة، في العشرين من رمضان، توفي خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان، صاحب خوارزم وبعض خراسان والرُّيِّ وغيرها من البلاد (١٥٧/١٢) الجبالية بشهر سَنَانَةَ بين نِيسابور وخوارزم. وكان قد سار من خوارزم إلى خراسان، وكان به خوانيق، فأشار عليه الأطباء بترك الحركة، فامتنع، وسار، فلما قارب شهر سَنَانَةَ اشتد مرضه ومات، ولما اشتد مرضه أرسلوا إلى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه، ويعرفونه شدة مرض أبيه، فسار إليهم وقد مات أبوه، فولي المُلْك بعده، ولَقَّب علاء الدين، لقب أبيه، وكان لقبه قطب الدين، وأمر فحُمِلَ أبوه ودُفِنَ بخوارزم في تربة عملها في مدرسة بناها كبيرة عظيمة؛ وكان عادلاً حسن السيرة، له معرفة حسنة وعلم، يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويعرف الأصول.

وكان ولده علي شاه بأصفهان، فأرسل إليه أخوه خوارزم شاه محمد يستدعيه، فسار إليه، فتهب أهل أصفهان خزانته ورحله، فلما وصل إلى أخيه ولأه حرب أهل خراسان، والتقدم على جندها، وسَلَّمَ إليه نِيسابور، وكان هندوخان [بن] ملكشاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمه محمداً، فهرب منه، ونهب كثيراً من خزائن جدّه تكش لما مات، وكان معه، وسار إلى مرو.

ولما سمع غياث الدين ملك غزنة بوفاة خوارزم شاه أمر أن لا تُضْرَب نوبته ثلاثة أيّام، وجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة والمحاربة؛ فعل ذلك عقلاً منه ومروءة؛ ثم إن هندوخان جمع جمعاً كثيراً بخراسان، فسار إليه عمه خوارزم شاه محمد جيشاً

فسعى الكرامية في أذى وحيد الدين فلم يقدرهم الله تعالى على ذلك.

وقيل إن غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا في خراسان قيل لهما: إن الناس في جميع البلاد يُزرون على الكرامية ويحتقرونهم، والرأى أن تفارقوا مذهبهم؛ فصاروا شافعيين؛ وقيل: إن شهاب الدين كان حنفيّاً، والله أعلم.

وفي هذه السنة توفي أبا القاسم يحيى بن علي بن فضلان الفقيه الشافعي، وكان إماماً فاضلاً، ودرّس ببغداد، وكان من أعيان أصحاب [محمد بن يحيى] نجي النيسابوري. (١٥٥/١٢)

سنة ست وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك العادل الديار المصرية

قد ذكرنا سنة خمس وتسعين [وخمسمائة] حصر الأفضل والظاهر ولدي صلاح الدين دمشق، ورحيلهما إلى رأس الماء، على عزم المقام بخوران إلى أن يخرج الشتاء، فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر برداً شديداً، لأن البرد في ذلك المكان في الصيف موجود، فكيف في الشتاء، فتغيّر العزم عن المقام، واتفقوا على أن يعود كل إنسان منهم إلى بلده، ويعودوا إلى الاجتماع، فتفرّقوا تاسع ربيع الأول، فعاد الظاهر وصاحب حمص إلى بلادهما، وسار الأفضل إلى مصر، فوصل بليس، فأقام بها، ووصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصداً مصر ومعه المماليك الناصرية، وقد حلّفوه على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد، وهو المدبّر للملك، إلى أن يكبر، فساروا على هذا.

وكان عسكره بمصر قد تفرّق عن الأفضل من الخشبي، فسار كلّ منهم إلى إقطاعه ليربّعوا دوابهم، فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد، فأعجله الأمر عن ذلك، ولم يجتمع منهم إلا طائفة يسيرة ممّن قرب إقطاعه، ووصل العادل، فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرب سور بليس ويقيم بالقاهرة، وأشار غيرهم بالتقدّم إلى أطراف البلاد، ففعل ذلك، فسار عن بليس، ونزل موضعاً يقال له السائح إلى طرف البلاد، ولقاء العادل قبل دخول البلاد سابغ ربيع الآخر، فانهزم الأفضل، ودخل القاهرة ليلاً. (١٥٦/١٢)

وفي تلك الليلة توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني كاتب الإنشاء لصلاح الدين ووزيره، فحضر الأفضل الصلاة عليه، وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها فجمع الأفضل من عنده من الأمراء واستشارهم، فرأى منهم تخذلاً، فأرسل رسولاً إلى عمه في الصلح وتسليم البلاد إليه، وأخذ

وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى، وكان يُكثر الحجّ والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان، وكان السلطان صلاح الدين يُعظّمه ويحترمه ويكرمه، ويرجع إلى قوله، رحمهما الله. (١٦٠/١٢)

سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ذكر مُلك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق وعوردهما عنها

قد ذكرنا قبل مُلك العادل ديار مصر، وقطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأنه لما فعل ذلك لم يرضه الأمراء المصريون، وخشيت نياتهم في طاعته، فراسلوا أخويه: الظاهر بحلب، والأفضل بصرّخند، وتكرّرت المكاتبات والمراسلات بينهم، يدعونهما إلى قصد دمشق وحصرها ليخرج الملك العادل إليهم، فإذا خرج إليهم [من] مصر أسلموه، وصاروا معهما، فيملكان البلاد.

وكثر ذلك، حتّى فشا الخبر واتّصل بالملك العادل، وانضاف إلى ذلك أنّ النبل لم يزد بمصر الزيادة التي تركب الأرض ليزرع الناس، فكثّر الغلاء فضعفت قوّة الجند، وكان فخر الدين جركس قد فارق مصر إلى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانيس ليأخذها لنفسه بأمر العادل، وكانت لأمير كبير تركي اسمه بشارة، قد اتّهمه العادل، فأمر جركس بذلك.

وكان أمير من أمراء العادل يُعرف بأسامة قد حجّ هذه السنة، فلمّا (١٦١/١٢) عاد من الحجّ، وقارب صرّخند، نزل الملك الأفضل، فلقيه وأكرمه، ودعاه إلى نفسه، فأجابه وحلف له، وعزّفه الأفضل جليلة الحال، وكان أسامة من بطانة العادل، وإنّما حلف لينكشف له الأمر، فلمّا فارق الأفضل أرسل إلى العادل، وهو بمصر، يُعرّفه الخبر جميعه، فأرسل إلى ولده الذي بدمشق يأمره بحصر الأفضل بصرّخند، وكتب إلى إياس جركس وميمون القصريّ، صاحب بلبيس، وغيرهما من الناصرية، يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الأفضل.

وسمع الأفضل الخبر، فسار إلى أخيه الظاهر بحلب مستهلاً جمادى الأولى من السنة، ووصل إلى حلب عاشر الشهر، وكان الظاهر قد أرسل أميراً كبيراً من أمرائه إلى عمّه العادل، فمنعه العادل من الوصول إليه، وأمره بأن يكتب رسالته، فلم يفعل وعاد لوقته، فتحرك الظاهر لذلك وجمع عسكره وقصد منبج فملكها للسادس والعشرين من رجب، وسار إلى قلعة نجم وحصرها، فتسلّمها سلخ رجب.

وأما ابن العادل المقيم بدمشق فإنّه سار إلى بصرى، وأرسل

مقدّمهم جقر التركي، فلمّا سمع هندوخان بمسيرهم هرب عن خراسان وسار إلى غياث الدين يستجده على عمّه، فأكرم لقاءه وإنزاله، وأقطعه، ووعد النصرة، فأقام عنده، ودخل جقر مدينة مرو، وبها والدة هندوخان وأولاده، فاستظهر عليهم، وأعلم صاحبه، فأمره بإرسالهم إلى خوارزم مكرمين؛ فلمّا سمع غياث الدين ذلك أرسل إلى محمّد بن جريك، (١٥٨/١٢) صاحب الطالقان، يأمره أن يرسل [إلى] جقر يتهدّده، ففعل [ذلك] وسار من الطالقان، فأخذ مرو الروذ، والخمس قرى وتسمّى بالفارسيّة بنج ده، وأرسل إلى جقر يأمره بإقامة الخطبة بمرو لغياث الدين، أو يفارق البلد، فأعاد الجواب يتهدّد ابن جريك ويتوعّده، وكتب إليه سرّاً يسأله أن يأخذ له أماناً من غياث الدين ليحضر خدمته، فكتب إلى غياث الدين بذلك، فلمّا قرأ كتابه علم أنّ خوارزم شاه ليس له قوّة، فلهذا طلب جقر الانحياز إليه، فقوي طمعه في البلاد، وكتب إلى أخيه شهاب الدين يأمره بالخروج إلى خراسان ليتفقاً على أخذ بلاد خوارزم شاه محمّد.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، وثب الملاحدة الإسماعيلية على نظام الملك مسعود بن عليّ، وزير خوارزم شاه تكش، فقتلوه، وكان صالحاً كثير الخير، حسن السيرة، شافعيّ المذهب، بنى للشافعية بمرو جامعاً مشرفاً على جامع الحنفيّة، فتعصّب شيخ الإسلام [بصرو] وهو مقدّم الحنابلة بها، قديم الرئاسة، وجمع الأوياش، فأحرقه. فأنفذ خوارزم شاه فأحضر شيخ الإسلام وجماعة ممّن سعى في ذلك، فأغرمهم مالا كثيراً.

وبنى الوزير أيضاً مدرسة عظيمة بخوارزم وجامعاً وجعل فيها خزانة كتب، وله آثار حسنة بخراسان باقية، ولما مات خلف ولداً صغيراً، فاستوزره خوارزم (١٥٩/١٢) شاه رعاية لحقّ أبيه، فأشير عليه أن يستعفي، فأرسل يقول: إني صبيّ لا أصلح لهذا المنصب الجليل، فيولي السلطان فيه من يصلح له إلى أن أكبر، فإن كنتُ أصلح فانا المملوك؛ فقال خوارزم شاه: لست أعفيك، وأنا وزيرك، فكُن مراجعي في الأمور، فإنّه لا يقف منها شيء. فاستحسن الناس هذا، ثمّ إنّ الصبيّ لم تطلّ أيامه، فتوفّي قبل خوارزم شاه بيسير.

وفي هذه السنة، في ربيع الأوّل، توفّي شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحرّانيّ المقيم ببغداد وله ستّ وتسعون سنة وشهران، وكان عالي الإسناد في الحديث، وكان ثقة صحيح السماع.

وفي ربيع الآخر منها توفّي القاضي الفاضل عبد الرحيم التيسانيّ الكاتب المشهور، لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه، ودُفن بظاهر مصر بالقرافة، وكان ذنباً كثير الصدقة والعبادة، وله

ما نريد سواك، والعدل أحب إلينا من أخيك؛ فأذن لهم في العود، فهرب فخر الدين جركس وزين الدين قراجه الذي أعطاه الأفضل صرخد، فمنهم من دخل دمشق، ومنهم من عاد إلى إقطاعه، فلما انفسخ الأمر عليهم عادوا إلى تجديد الصلح مع العدل، فتردّدت الرسل بينهم واستقرّ الصلح على أن يكون للظاهر منبج، وأفاميّة وكفرطاب، وقرى معيّنة من المعرة، ويكون للأفضل سُميساط، وسروج، ورأس عين، وحملين، ورحلوا عن دمشق أول المحرم سنة ثمان وتسعين [وخمسمائة]، فقصّد الأفضل حمص فأقام بها، وسار الظاهر إلى حلب، ووصل العدل إلى دمشق تاسع المحرم، وسار الأفضل إليه من حمص، فاجتمع به بظاهر دمشق، وعاد من عنده إلى حمص، وسار منها ليتسلّم سُميساط، فتسلّمها، وتسلّم باقي ما استقرّ له: رأس عين وسروج وغيرهما. (١٦٤/١٢)

ذكر ملك غياث الدين ما كان لخوارزم شاه بخراسان

قد ذكرنا مسير محمد بن خرميل من الطالقان. واستيلاءه على مرو الروذ وسؤال جقر التركي نائب علاء الدين محمد خوارزم شاه بترؤ أن يكون في جملة عسكر غياث الدين، ولما وصل كتاب ابن خرميل إلى غياث الدين في معنى جقر، علم أنّ هذا إنّما دعاه إلى الانتماء إليهم ضعف صاحبه، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يستدعيه إلى خراسان، فسار من غزنة في عساكره وجنوده وعدّته وما يحتاج إليه.

وكان بهراة الأمير عمر بن محمد المرغني نائباً عن غياث الدين، وكان يكره خروج غياث الدين إلى خراسان، فأحضره غياث الدين واستشاره، فأشار بالكفّ عن قصدها، وترك المسير إليها، فانكر عليه ذلك، وأراد إبعاده عنه، ثم تركه، ووصل شهاب الدين في عساكره وعساكر ميجستان وغيرها في جمادى الأولى من هذه السنة، فلما وصلوا إلى ميمنة، وهي قرية بين الطالقان وكرزبان، وصل إلى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو، يطلبه ليسلمها إليه، فاستأذن أخاه غياث الدين، فأذن له، فسار إليها، فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمي وقتالوه، فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجدّ في قتالهم، فحملوا عليهم، فأدخلوهم البلد، وزحفوا بالقيلة إلى أن قاربوا السور، فطلب أهل البلد الأمان، فأمنهم وكفّ الناس عن التعرض إليهم، وخرج جقر إلى شهاب الدين فوعده الجميل. (١٦٥/١٢)

ثم حضر غياث الدين إلى مرو بعد فتحها، فأخذ جقر وسيّره إلى هراة مكرماً، وسلّم مرو إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش، وقد ذكرنا هربه من عمّه خوارزم شاه محمد بن تكش إلى غياث الدين، ووصّاه بالإحسان إلى أهلها.

ثم سار غياث الدين إلى مدينة سرخس، فأخذها صلحاً،

إلى جركس ومن معه، وهم على بانياس يحصرونها، يدعوههم إليه، فلم يجيبوه إلى ذلك بل غلطوه، فلما طال مقامه على بُصرى عاد إلى دمشق، وأرسل الأمير أسامة إليهم يدعوههم إلى مساعدته، فاتفق أنّه جرى بينه وبين البكي الفارس، بعض الممالك الكبار الناصرية، منافرة فغلظ له البكي القول، وتعدّى إلى الفعل باليد، وثار العسكر جميعه على أسامة، فاستنم بميمون، فأمنه وأعاده إلى دمشق، واجتمعوا كلّهم عند الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين، وأنزلوه من صرخد، وأرسلوا إلى الملك الظاهر والأفضل يحثّونهما على الوصول إليهم، والملك الظاهر يتربّص ويتعزّق، فوصل من منبج إلى حماة في عشرين يوماً، (١٦٢/١٢) وأقام على حماة يحصرها وبها صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين إلى تاسع عشر شهر رمضان، فاصطلحا وحمل له ابن تقي الدين ثلاثين ألف دينار صوريّة، وساروا منها إلى حمص، ثم ساروا منها إلى دمشق على طريق بعلبك، فنزلوا عليها عند مسجد القدم، فلما نزلوا على دمشق أتاها الممالك الناصرية مع الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين، وكانت القاعده استقرّت بين الظاهر وأخيه الأفضل أنهم إذا ملكوا دمشق تكون بيد الأفضل، ويسيروا إلى مصر، فإذا ملكوها تسلّم الظاهر دمشق، فيبقى الشام جميعه له، وتبقى مصر للأفضل، وسلّم الأفضل صرخد إلى زين الدين قراجه مملوك والده ليحضر في خدمته، وأنزل والدته وأهله منها وسيّرههم إلى حمص، فأقاموا عند أسد الدين شيركوه صاحبها.

وكان الملك العدل قد سار من مصر إلى الشام، فنزل [على] مدينة نابلس وسيّر جمعاً من العسكر إلى دمشق ليحفظها، فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل، وحضر فخر الدين جركس وغيره من الناصرية عند الظاهر، وزحفوا إلى دمشق وقتلوا رابع عشر ذي القعدة، واشتدّ القتال عليها، فالتصق الرجال بالسور، فأدركهم الليل، فعادوا وقد قوي الطمع في أخذها، ثم زحفوا إليها مرة ثانية وثالثة، فلم يبق إلّا ملكها، لأنّ العسكر صعد إلى سطح خان ابن المقدّم، وهو ملاصق السور، فلم يدركهم الليل لملكوا البلد؛ فلما أدركهم الليل، وهم عازمون على الزحف بكثرة، وليس لهم عن البلد مانع، حشد الظاهر أخاه الأفضل، فأرسل إليه يقول له تكون (١٦٣/١٢) دمشق له ويده وسيّر العساكر معه إلى مصر. فقال له الأفضل: قد علمت أنّ والدتي وأهلي، وهم أهلك أيضاً، على الأرض، ليس لهم موضع يأوون إليه، فاحسب أنّ هذا البلد لك تغييراً؛ ليسكنه أهلي هذه المدّة إلى أن يملك مصر.

فلم يجبه الظاهر إلى ذلك، ولجّ، فلما رأى الأفضل ذلك الحال قال للناصرية وكلّ من جاء إليهم من الجند: إن كنتم جئتم إليّ فقد أدنّت لكم في العود إلى العدل، وإن كنتم جئتم إلى أخيه الظاهر فأنتم وهو أخبر؛ وكان الناس كلّهم يريدون الأفضل، فقالوا:

وسلمها إلى الأمير زنكي بن مسعود، وهو من أولاد عمه، وأقطعهم معه نساً وأبيورده؛ ثم سار بالعساكر إلى طوس، فأراد الأمير الذي بها أن يمتنع فيها ولا يسلمها، فأغلق باب البلد ثلاثة أيام، فبلغ الخبر ثلاثة أمناء بدينار ركني، فضج أهل البلد عليه، فأرسل إلى غياث الدين يطلب الأمان، فأمنه، فخرج إليه، فخلع عليه وسيره إلى هراة؛ ولما ملكها أرسل إلى علي شاه بن خوارزم شاه تكش، وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور، يأمره بمقارعة البلد، ويحذره إن أقام سطوة أخيه شهاب الدين. وكان مع علي شاه عسكر من خوارزم شاه، فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد، وحصنوه، وخربوا ما بظاهره من العمارة، وقطعوا الأشجار. وسار غياث الدين إلى نيسابور، فوصل إليها أوائل رجب، وتقدم عسكر أخيه شهاب الدين إلى القتال، فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود: قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو، وهم يريدون أن يفتحوا نيسابور، فيحصلون بالاسم، فاحمل إلى البلد، ولا ترجع حتى تصل إلى السور. فحمل، وحمل معه وجوه الغورية، فلم يردهم أحد من السور، حتى أصعدوا علم غياث الدين إليه، فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور قال لأصحابه: اقصدوا بنا هذه الناحية، واصعدوا السور من ها هنا؛ وأشار إلى مكان فيه، فسقط السور منهماً، فضج الناس بالتكبير، وذهل الخوارزميون وأهل البلد، ودخل الغورية البلد، وملكوه عتوة، ونهبوه (١٦٦/١٢) ساعة من نهار، فبلغ الخبر إلى غياث الدين فأمر بالنداء: من نهب مالا أو أذى أحداً فدمه حلال؛ فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره.

ولقد حدثني بعض أصدقائنا من التجار، وكان بنيسابور في هذه الحادثة: نهب من متاعه شيء من جملته سكر، فلما سمع العسكر النداء ردوا جميع ما أخذوا مني، وبقي لي بساط وشيء من السكر، فرأيت السكر مع جماعة، فطلبتهم منهم، فقالوا: أما السكر فأكلناه، فנסالك ألا يسمع أحد، وإن أردت ثمنه أعطيناك؛ فقلت: أنتم في حل منه؛ ولم يكن البساط مع أولئك، قال: فمشيت إلى باب البلد مع النظارة، فرأيت البساط الذي لي قد ألقي عند باب البلد لم يجسر أحد على أن يأخذه، فأخذته وقلت: هذا لي؛ فطلبوا مني من يشهد به، فأحضرت من شهد لي وأخذته.

ثم إن الخوارزميين، تحصنوا بالجامع، فأخرجهم أهل البلد، فأخذهم الغورية ونهبوا مالههم، وأخذ علي شاه بن خوارزم شاه وأحضر عند غياث الدين راجلاً، فأنكر ذلك على من أحضره، وعظم الأمر فيه، وحضرت داية كانت لعلي شاه، وقالت لغياث الدين: اهكذا يفعل بأولاد الملوك؟ فقال: لا بل هكذا، وأخذ بيده، وأقعد معه على السرير، وطيب نفسه، وسير جماعة الأمراء الخوارزمية إلى هراة تحت الاستظهار، وأحضر غياث الدين ابن عمه، وصهره على ابنته، ضياء الدين محمد بن أبي علي الغوري،

ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما

في هذه السنة أيضاً تجهز نور الدين أرسلان شاه، صاحب الموصل، وجمع عساكره وسار إلى بلاد الملك العادل بالجزيرة: حران والرها؛ وكان سبب حركته أن الملك العادل لما ملك مصر، على ما ذكرناه قبل، اتفق نور الدين والملك الظاهر، صاحب حلب وصاحب مardin وغيرهما، على أن يكونوا (١٦٨/١٢) بدأ واحدة، متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم، فلما تجددت حركة الأفضل والظاهر أرسلوا إلى نور الدين ليقصد البلاد الجزرية، فسار عن الموصل في شعبان من هذه السنة، وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي، صاحب سنجار ونصيبين، وصاحب ساردين، ووصل إلى رأس عين، وكان الزمان قَيْظاً، فكثر الأمراض في عسكره.

وكان بحرّان ولذ العادل يُلقب الملك الفائز، ومعه عسكر يحفظ البلاد، فلما وصل نور الدين إلى رأس عين نجّاه رسل الفائز ومن معه من أكابر الأمراء يطلبون الصلح ويرغون فيه، وكان نور الدين قد سمع بأن الصلح بدأ يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والأفضل، وانضاف إلى ذلك كثرة الأمراض في عسكره، فأجاب إليه، وحلف الملك الفائز ومن عنده من أكابر الأمراء على القاعدة

جميعها وملكها، وحبس المملوك فبقي مدة محبوساً، ثم شفع له صاحب بلاد الروم، فأطلق من الحبس، وسار إلى الروم، فصار أميراً من أمراء الدولة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل، وتعدرت الأقوات حتى أكل الناس الميتة، وأكل بعضهم بعضاً، ثم لحقهم عليه وباء وموت كثير أفنى الناس.

وفي شعبان منها تزلزلت الأرض بالموصل، وديار الجزيرة كلها، والشام، ومصر، وغيرها، فأثرت في الشام آثاراً قبيحة، وخربت كثيراً من الدور بدمشق، وحمص، وحماء، وانخسفت قرية من قرى بصرى، وأثرت في (١٧١/١٢) الساحل الشامي أثراً كثيراً، فاستولى الخراب على طرابلس، وصور، وعكا، ونابلس، وغيرها من القلاع، ووصلت الزلزلة إلى بلد الروم، وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دوراً.

وفيها ولد ببغداد طفل له رأسان، وذلك أن جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل.

وفي هذه السنة، في شهر رمضان، توفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي الحنبلي الواعظ ببغداد، وتصابفه مشهورة، وكان كثير الوقعة في الناس لا سيما في العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة.

وفيها أيضاً توفي عيسى بن نصير النميري الشاعر، وكان حسن الشعر، وله أدب وفضل، وكان موته ببغداد.

وفيها توفي العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن آله، أوله باللام المشددة، وهو العماد الكاتب الأصفهاني، كتب لنور الدين محمود بن زنكي ولصلاح الدين يوسف بن أيوب، رضي الله عنهما، وكان كاتباً مفلحاً، قادراً على القول.

وفيها جمع عبد الله بن حمزة العلوي المتغلب على جبال اليمن جموعاً كثيرة فيها اثنا عشر ألف فارس، ومن الرجال ما لا يحصى كثرة، وكان قد انضاف إليه من جند المعز بن إسماعيل بن سيف الإسلام طغديين بن أيوب، صاحب اليمن، خوفاً منه، وأيقنوا بمُلك البلاد، واقتسموها، وخافهم ابن سيف الإسلام خوفاً عظيماً، فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة ليلاً ليتفقوا على رأي يكون العمل بمقتضاه، وكانوا اثني عشر قائداً فتزلت عليهم صاعقة أهلكتهم (١٧٢/١٢) جميعهم، فأتى الخبر ابن سيف الإسلام في باقي الليلة بذلك، فسار إليهم مجداً فأوقع بالعسكر المجتمع، فلم يثبتوا له،

التي استقرت، وحلفوا له أنهم يحلفون الملك العادل له، فإن امتنع كانوا معه عليه، وحلف هو للملك العادل.

وسارت الرسل من عنده ومن عند ولده في طلب اليمين من العادل، فأجاب إلى ذلك، وحلف له، واستقرت القاعدة، وأمنت البلاد وعاد نور الدين إلى الموصل في ذي القعدة من السنة. (١٦٩/١٢)

ذكر مُلك شهاب الدين نهرّوالة

لما سار شهاب الدين من خراسان، على ما ذكرناه، لم يُقم بغزنة، وقصد بلاد الهند، وأرسل مملوكه قطب الدين أيّيك إلى نهرّوالة، فوصلها سنة ثمان وتسعين [وخمسمائة]، فلقبه عسكر الهند، فقاتلوه قتالاً شديداً، فهزمهم أيّيك، واستباح معسكرهم، وما لهم فيه من الدواب وغيرها، وتقدم إلى نهرّوالة فملكها عنوة، وهرب ملكها، فجمع وحشد، فكثر جمعه.

وعلم شهاب الدين أنه لا يقدر على حفظها إلا بأن يقيم هو فيها ويخليها من أهلها، ويتعذر عليه ذلك، فلأن البلد عظيم، هو أعظم بلاد الهند، وأكثرهم أهلاً، فصالح صاحبها على ما يؤذيه إليه عاجلاً وأجلاً، وأعاد عساكره عنها وسلمها إلى صاحبها.

ذكر مُلك ركن الدين مُلطية من أخيه وأرزن الروم

في هذه السنة، في شهر رمضان، ملك ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان مدينة مُلطية، وكانت لأخيه معز الدين قيصر شاه، فسار إليه وحصره أياماً وملكها، وسار منها إلى أرزن الروم، وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق، وهم بيت قديم قد ملكوا أرزن الروم هذه مدة طويلة، فلما سار إليها وقاربها خرج صاحبها إليه ثقة به ليقرر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين، فقبض عليه، واعتقله عنده وأخذ البلد، وكان هذا آخر أهل بيته الذين [ملكوا]، فتبارك الله الحي القيوم الذي لا يزول ملكه أبداً سرمداً. (١٧٠/١٢)

ذكر وفاة سقمان صاحب آيد ومُلك أخيه محمود

في هذه السنة توفي قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان، صاحب آيد وحصن كيفا، سقط من سطح جوست كان له بظاهر حصن كيفا فمات، وكان شديد الكراهة لأخيه هذا، والنفور عنه، قد أبعدوه وأنزله حصن منصور في آخر بلادهم، واتخذ مملوكاً اسمه إياس، فزوجه أخته، وأحبّه حباً شديداً، وجعله وليّ عهده، فلما توفي ملك بعده عدة أيام، وتهدد وزيراً كان لقطب الدين، وغيره من أمراء الدولة، فأسلوا إلى أخيه محمود سراً يستدعونه، فسار مجداً، فوصل إلى آيد وقد سبقه إليها إياس مملوك أخيه، فلم يقدم على الامتناع، فتسلم محمود البلاد

خوارزم شاه يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من الغورية، وأنه لا يتعرض إليهم بحبس ولا غيره من الأذى؛ فأجابته إلى ذلك، وحلف لهم، وخرجوا من البلد وأحسن خوارزم شاه إليهم، ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة، وطلب من علاء الدين أن يسعى في الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه، فأجابته إلى ذلك.

وسار إلى هراة، ومنها إلى إقطاعه، ولم يمض إلى غياث الدين تجنّباً عليه لتأخر أمداده، ولما خرج الغورية من نيسابور أحسن خوارزم شاه إلى الحسين ابن خرميل، وهو من أعيان أمرائهم، زيادة على غيره، وبالف في إكرامه، فقبل إنّه من ذلك اليوم استحلّفه نفسه، وأن يكون معه بعد غياث الدين وأخيه شهاب الدين.

ثم سار خوارزم شاه إلى سرخس، وبها الأمير زنكي، فحصره أربعين يوماً، وجري بين الفريقين حروب كثيرة، فضاعت الميرة على أهل البلد، لا سيما الحطب، فأرسل زنكي إلى خوارزم شاه يطلب منه أن يتأخّر عن باب (١٧٥/١٢) البلد حتى يخرج هو وأصحابه ويترك البلد له، فراسله خوارزم شاه في الاجتماع به ليحسن إليه وإلى من معه، فلم يُجبه إلى ذلك واحتجّ بقرب نسبه من غياث الدين، فأبعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره، فخرج زنكي فأخذ من الغلات وغيرها التي في المعسكر ما أراد لا سيما من الحطب، وعاد إلى البلد وأخرج منه من كان قد ضاق به الأمر، وكتب إلى خوارزم شاه: العود أحمد؛ فندم حيث لم ينفعه الندم؛ ورحل عن البلد، وترك عليه جماعة من الأمراء يحصرونه.

فلما أبعد خوارزم شاه سار محمد بن جريك من الطالقان، وهو من أمراء الغورية، وأرسل إلى زنكي أمير سرخس يُعرفه أنّه يريد أن يكبس الخوارزميين لئلا يتزعج إذا سمع الغلبة؛ وسمع الخوارزميون الخبر، ففارقوا سرخس، وخرج زنكي ولقي محمد بن جريك وعسكراً في مرو الروذ، وأخذ خراجها وما يجاورها، فسير إليهم خوارزم شاه عسكراً مع خاله، فلقاهم محمد بن جريك وقتلهم، وحمل بلت في يده على صاحب علم الخوارزمية فضربه فقتله، وألقى علمهم، وكسر كوساتهم، فانقطع صوتها عن العسكر، ولم يروا أعلامهم، فانهزموا، وركبهم الغورية قتلاً وأمسراً نحو فرسخين فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جريك في تسع مائة فارس، وغنم جميع معسكرهم؛ فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد إلى خوارزم، وأرسل إلى غياث الدين في الصلح، فأجابته عن رسالته مع أمير كبير من الغورية يقال له الحسين بن محمد المرغني، ومرغّن من قرى الغور، فقبض عليه خوارزم شاه. (١٧٦/١٢)

ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها

لما أرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين في الصلح، وأجابته عن رسالته مع الحسين المرغني مغالطاً، قبض خوارزم شاه على

وانهزموا بين يديه، ووضع السيف فيهم، فقتل منهم مئة آلاف قتيل أو أكثر من ذلك وثبت ملكه واستقرّ بتلك الأرض.

وفيها وقع في بني عزة بأرض الشراة، بين الحجاز واليمن، وباء عظيم، وكانوا يسكنون في عشرين قرية، فوقع الوباء في ثمانين عشرة قرية، فلم يبق منهم أحد. وكان الإنسان إذا قرب من تلك القرى يموت ساعة ما يقاربها، فتحامها الناس، وبقيت إليهم وأغنامهم لا مانع لها، وأما القرىتان الأخريان فلم يمت فيهما أحد، ولا أحسوا بشيء مما كان فيه أولئك. (١٧٣/١٢)

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده

قد ذكرنا في سنة سبع وتسعين [وخمسمائة] ملك غياث الدين وأخيه شهاب الدين ما كان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخراسان ومرو ونيسابور وغيرها، وعودهما عنها بعد أن أقطعا البلاد، ومسير شهاب الدين إلى الهند؛ فلما اتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عود العساكر الغورية عن خراسان، ودخل شهاب الدين الهند، أرسل إلى غياث الدين يُعاتبه، ويقول: كنت أعتقد أن تخلف عليّ بعد أبي، وأن تنصرتني على الخطأ، وتردّهم عن بلادتي، فحيث لم تفعل فلا أقلّ من أن لا تؤذيني وتأخذ بلادتي، والذي أريد أن تعيد ما أخذته مني إليّ، وإلا استنصرت عليك بالخطأ وغيرهم من الأتراك، إن عجزت عن أخذ بلادتي، فإني إنما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادتي، وإلا فما أنا عاجز عنكم وعن أخذ بلادكم بخراسان وغيرها؛ فغالطه غياث الدين في الجواب لتمتدّ الأيام بالمراسلات، ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر، فإنّ غياث الدين كان عاجزاً باستيلاء النقرس عليه.

فلما وقف خوارزم شاه على رسالة غياث الدين أرسل إلى علاء الدين الغوري، (١٧٤/١٢) نائب غياث الدين بخراسان، يأمره بالرحيل عن نيسابور، ويهدّده إن لم يفعل، فكتب علاء الدين إلى غياث الدين بذلك، ويعرفه ميل أهل البلد إلى الخوارزميين، فأعاد غياث الدين جوابه يَقوّي قلبه، ويعدّ النصرة والمنع عنه.

وجمع خوارزم شاه عساكره وسار عن خوارزم نصف ذي الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة، فلما قارب نسا وأبيورد هرب هندوخان ابن أخي ملكشاه من مرو إلى غياث الدين بفيروزكوه، وملك خوارزم شاه مدينة مرو، وسار إلى نيسابور وبها علاء الدين، فحصره، وقتله قتلاً شديداً، وطال مقامه عليها، وراسله غير مرة في تسليم البلد إليه، وهو لا يجيب إلى ذلك انتظاراً للمدد من غياث الدين، فبقي نحو شهرين، فلما إبطأ عنه النجدة أرسل إلى

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة درّس مجد الدين أبو علي يحيى بن الربيع،
الفقيه الشافعي بالنظامية ببغداد في ربيع الأول.

وفيها توفيت بنفشة جارية الخليفة المستضيء بأمر الله، وكان
كثير الميل إليها، والمحبة لها، وكانت كثيرة المعروف والإحسان
والصدقة.

وفيها أيضاً توفي الخطيب عبد الملك بن زيد الدؤلعي، خطيب
دمشق، وكان فقيهاً شافعيّاً، هو من الدؤلعية قرية من أعمال
الموصل. (١٧٩/١٢)

سنة تسع وتسعين وخمسمائة

ذكر حصر عسكر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها

في هذه السنة، في المحرم، سار الملك العادل أبو بكر بن
أيوب، صاحب دمشق ومصر، عسكراً مع ولده الملك الأشرف
موسى إلى ماردين، فحصرها، وشحنوا على أعمالها، وانضاف
إليه عسكر الموصل وسنجار وغيرها، ونزلوا بخَرْزَم تحت
ماردين، ونزل عسكر من قلعة البارعية، وهي لصاحب ماردين،
يقطعون الميرة عن العسكر العادلي، فسار إليهم طائفة من العسكر
العادلي، فاقتتلوا، فانهزم عسكر البارعية.

وشار التركمان وقطعوا الطريق في تلك الناحية، وأكثروا
الفساد، فتعذر سلوك الطريق إلا لجماعة من أرباب السلاح، فسار
طائفة من العسكر العادلي إلى رأس عين لإصلاح الطرق، وكفّ
عادية الفساد، وأقام ولد العادل، ولم يحصل له غرض، فدخل
الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف، صاحب حلب، في
الصلح بينهم، وأرسل إلى عمّه العادل في ذلك، فأجاب إليه على
قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار، فجاء
صرف الدينار أحد عشر قيراطاً من أميري، ويخطب له ببلاده،
ويضرب اسمه على السكة، ويكون عسكره في خدمته أي وقت
طلبه، وأخذ الظاهر عشرين ألف (١٨٠/١٢) دينار من النقد
المذكور، وقرية القراي من أعمال شَبَخْتان، فرحل ولد العادل عن
ماردين.

ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشيء من سيرته

في هذه السنة، في جمادى الأولى، توفي غياث الدين أبو
الفتح محمد بن سام الغوري، صاحب غزنة وبعض خراسان
وغيرها، وأخفيت وفاته، وكان أخوه شهاب الدين بطوس، عازماً
على قصد خوارزم شاه، فأتاه الخبر بوفاة أخيه، فسار إلى هراة،
فلما وصل إليها جلس للعزاء بأخيه في رجب، وأظهرت وفاته

الحسين، وسار إلى هراة ليحاصرها، فكتب الحسين إلى أخيه عمر
بن محمد المرغني، أمير هراة، يخبره بذلك، فاستعد للحصار.

وكان سبب قصد خوارزم شاه حصار هراة أن رجلاًين أخوين،
ممن كان يخدم محمداً سلطان شاه، اتصلاً بقيات الدين، بعد وفاة
سلطان شاه، فآكرهما غياث الدين، وأحسن إليهما، يقال لأحدهما
الأمير الحاجي، فكانتا خوارزم شاه وأطعاه في البلد، وضمنا له
تسليمه إليه، فسار لذلك، ونازل المدينة وحصرها، فسلم الأمير
عمر المرغني، أمير البلد، مفاتيح الأبواب إليهما، وجعلهما على
القتال ثقةً منه بهما، وظناً منه أنهما عدواً لخوارزم شاه تكش وابنه
محمد بعده، فاتفق أن بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغني
المأسور عند خوارزم شاه بحال الرجلين، وأنهما هما اللذان يدبران
خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل، فلم يصدقه، وأتاه بخط الأمير
الحاجي، فأخذه وأرسله إلى أخيه عمر أمير هراة، فأخذهما
واعتقلهما وأخذ أصحابهما.

ثم إن ألب غازي، وهو ابن أخت غياث الدين، جاء في
عسكر من الغورية، فنزل على خمسة فراسخ من هراة، فكان يمنع
الميرة عن عسكر (١٧٧/١٢) خوارزم شاه؛ ثم إن خوارزم شاه سار
عسكراً إلى أعمال الطالقان للغارة عليها، فلقيهم الحسن بن خرميل
فقاتلهم، فظفر بهم فلم يفلت منهم أحد.

وسار غياث الدين عن فيروزكوه إلى هراة في عسكره، فنزل
برباط رزين بالقرب من هراة، ولم يقدم على خوارزم شاه لقلّة
عسكره لأن أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزنة، فأقام
خوارزم شاه، على هراة أربعين يوماً، وعزم على الرحيل لأنه بلغه
انهزام أصحابه بالطالقان وقرب غياث الدين، وكذلك أيضاً قرب
ألب غازي؛ وسمع أيضاً أن شهاب الدين قد خرج من الهند إلى
غزنة، وكان وصوله إليها في رجب من هذه السنة، فخاف أن يصل
بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد، فأرسل إلى أمير هراة عمر
المرغني في الصلح فصالحه على مال حمله إليه وارتحل عن البلد.

وأما شهاب الدين، فإنه لما وصل إلى غزنة بلغه الخبر بما فعله
خوارزم شاه بخراسان ومملكه لها، فسار إلى خراسان، فوصل إلى
بلخ ومنها إلى باميان ثم إلى مرو، عازماً على حرب خوارزم شاه،
وكان نازلاً هناك، فالتقت أوائل عسكريهما، واقتتلوا، فقتل من
الفريقين خلق كثير، ثم إن خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه
المنهزم، وقطع القناطر، وقتل الأمير سنجر، صاحب نيسابور، لأنه
اتهمه بالمخامرة عليه، وتوجه شهاب الدين إلى طوس فأقام بها
تلك الشتوة على عزم المسير إلى خوارزم ليحصرها، فأتاه الخبر
بوفاة أخيه غياث الدين، فقصد هراة وترك ذلك العزم. (١٧٨/١٢)

حينئذ.

وخلف غياث الدين من الولد ابناً اسمه محمود، لُقّب بعد موت أبيه غياث الدين، وسنود من أخباره كثيرًا.

ولمّا سار شهاب الدين من طوس استخلف يعمر الأمير محمد بن جريك، فسار إليه جماعة من الأمراء الخوارزمية، فخرج إليهم محمد ليلاً، ويَتَمُّهم، فلم ينج منهم إلا القليل، وأتخذ الأسرى والرؤوس إلى هراة، فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل، وجَهَّز خوارزم شاه جيشاً وسيّره مع برفور التركي إلى قتال محمد بن جريك، فسمع بهم، فخرج إليهم، ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو، فاقتتلوا قتالاً شديداً، قتل بين الفريقين خلق كثير، وانهمز الغورية ودخل محمد بن جريك مرو في عشرة فرسان، وجاء الخوارزميون فحصره خمسة عشر يوماً، فضمّف (١٨١/١٢) عن الحفظ، فأرسل في طلب الأمان، فحلفوا له إن خرج إليهم على حكمهم أنهم لا يقتلونه، فخرج إليهم، فقتلوه، وأخذوا كلّ ما معه.

وسمع شهاب الدين الخبر، فعظم عليه، وتردّت الرسل بينه وبين خوارزم شاه، فلم يستقرّ الصلح، وأراد العود إلى غزنة، فاستعمل على هراة ابن أخيه ألب غازي، فملك الملك علاء الدين محمد بن أبي علي الغوري على مدينة فيروزكوه، وجعل إليه حرب خراسان وأمر كلّ ما يتعلّق بالمملكة، وأتاه محمود ابن أخيه غياث الدين، فولّاه مدينة بُست واسفرار، وتلك الناحية، وجعله بمعزل من المُلْك جميعه، ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه، ولا على غيره من أهله، فمن جملة فعله أنّ غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنية، فوهبها وتزوّجها، فلمّا مات غياث الدين قبض عليها وضربها ضرباً مُبرّحاً، وضرب ولدها غياث الدين، وزوج اختها، وأخذ أموالهم وأملأهم وسيّره إلى بلد الهند، فكسبوا في أقبح صورة؛ وكانت قد بنت مدرسة، ودفنت فيها أباهما وأمهها وأخاهما، فهدمها، ونش قبر الموتى، ورمى بعظامهم منها.

وأما سيرة غياث الدين وأخلاقه، فإنّه كان مُظفراً منصوراً في حروبه، لم تنهزم له راية قط، وكان قليل المباشرة للحروب، وإنّما كان له دهاء ومكر، وكان جواداً، حسن الاعتقاد، كثير الصدقات والوقوف بخراسان، بنى المساجد والمدارس بخراسان لأصحاب الشافعي، وبنى الخانكاهات في الطبرق، وأسقط (١٨٢/١٢) المكوس، ولم يتعرّض إلى مال أحد من الناس، ومن مات [ولا وارث له تصدّق بما يخلفه، ومن كان من بلد معروف ومات] ببلده يسلمّ ماله إلى أهل بلده من التجار، فإن لم يجد أحداً، يسلمّه إلى القاضي، ويختم عليه إلى أن يصل من يأخذه بمقتضى الشرع.

وكان إذا وصل إلى بلد عمّ إحسانه أهله والفقهاء وأهل

الفضل، يخلع عليهم، ويفرض لهم الأعطيات كلّ سنة من خزائنه، ويفرق الأموال في الفقراء؛ وكان يراعي كلّ من وصل إلى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم، وكان فيه فضل غزير، وأدب مع حسن خطّ وبلاغة؛ وكان، رحمه الله، ينسخ المصاحف بخطه ويقفها في المدارس التي بناها، ولم يظهر منه تعصّب على مذهب، ويقول: التعصّب في المذاهب من الملك قبيح؛ إلّا أنّه كان شافعي المذهب، فهو يميل إلى الشافعية من غير أن يطعمهم في غيرهم، ولا أعطاهم ما ليس لهم.

ذكر أخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل

في هذه السنة أخذ الظاهر غازي قلعة نجم من أخيه الأفضل، وكان في جملة ما أخذ من العادل لمّا صالحه سنة سبع وتسعين [وخمسمائة]، فلمّا كان هذه السنة أخذ العادل من الأفضل سروج وحملين ورأس عين، وبقي بيده سُمُيساط، وقلعة نجم، فأرسل الظاهر إليه يطلب منه قلعة نجم، وضمن له أنّه يشفع إلى عمّه العادل في إعادة ما أخذ منه، فلم يُعطه، فهذه بان يكون البأ عليه؛ ولم تزل الرسل تردّد حتّى سلّمها إليه في شعبان، وطلب منه (١٨٣/١٢) أن يعوّضه قرى أو مالاً، فلم يفعل، وكان هذا من أقبح ما سُمِع عن ملك يزاحم أخاه في مثل قلعة نجم مع خستنها وحقارتها، وكثرة بلاده وعدمها لأخيه.

وأما العادل، فإنّه لمّا أخذ سروج ورأس عين من الأفضل أرسل والدته إليه لتسأل في ردّها، فلم يشفعها وردّها خائبة، ولقد عوقب البيت الصلاحي بما فعله أبوه مع البيت الأتابكي، فإنّه لمّا قصد حصار الموصل سنة ثمانين وخمسمائة أرسل صاحب الموصل والدته وابنة عمّه نور الدين إليه يسألانه أن يعود، فلم يشفعهما، فجري لأولاده هذا، وردّت زوجته خائبة، كما فعل.

ولمّا رأى الأفضل عمّه وأخاه قد أخذوا ما كان بيده أرسل إلى ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان، صاحب ملطية وقونية، وما بينهما من البلاد، يبذل له الطاعة، وأن يكون في خدمته، ويخطب له ببلده، ويضرب السكّة باسمه، فأجاب ركن الدين إلى ذلك، وأرسل له خلعاً، فلبسها الأفضل، وخطب له بمسماط في سنة ستمائة وصار في جملة.

ذكر ملك الكُرْج مدينة دُوين

في هذه السنة استولى الكُرْج على مدينة دُوين، من أذربيجان، ونهبوها، واستباحوها، وأكثروا القتل في أهلها؛ وكانت هي وجميع بلاد أذربيجان للأمير أبي بكر بن البهلوان، وكان على عادته مشغولاً بالشرب ليلاً ونهاراً، لا يفيق، ولا يصحو، ولا ينظر في أمر مملكته ورعيته وجنده، قد ألقى الجميع عن قلبه، وسلك طريق من ليس له علاقة؛ وكان أهل تلك البلاد قد أكثرت الاستغاثة به،

خرمیل بکُرْبان، وهي إقطاعه، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: أرسل إلي عسكرياً لتُسَلِّم إليهم القيلة وخزانة شهاب الدين؛ فأرسل إليه ألف فارس من أعيان عسكره إلى كُرْزبان، فخرج عليه هو والحسين بن محمد المرغني، فقتلوهما إلا القليل، فبلغ الخبر إلى خوارزم شاه، فسقط في يده وندم على إنفاذ العسكر، وأرسل إلى ألب غازي يطلب منه أن يخرج إليه من البلد ويخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه، فلم يجبه إلى ذلك، فاتفق أن ألب غازي مرض واشتد مرضه، فخاف أن يشتغل بمرضه فيملك خوارزم شاه البلد، فأجاب إلى ما طلب منه، واستحلفه على الصلح، وأهدى له هدية جليقة، وخرج من البلد لخدمه، فسقط إلى الأرض ميتاً، ولم يشعر أحد بذلك، وارتحل خوارزم شاه عن البلد وأحرق المجانيق وسار إلى سَرْخَس فأقام بها. (١٨٦/١٢)

ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصره خوارزم وانهازمه من

الخطا

في هذه السنة، في رمضان، عاد شهاب الدين الغوري إلى خراسان من قصد الهند؛ وسبب ذلك أنه بلغه حصر خوارزم شاه هراة، وموت ألب غازي نائبه بها، فعاد حقيقاً على خوارزم شاه، فلما بلغ فيمنذ عدل على طريق أخرى قاصداً إلى خوارزم، فأرسل إليه خوارزم شاه يقول له: ارجع إلي لأحاربك، وإلا سرتُ إلى هراة، ومنها إلى غزنة.

وكان خوارزم شاه قد سار من سَرْخَس إلى مَرَو، فأقام بظاهرها، فأعاد إليه شهاب الدين جوابه: لعلك تنهزم كما فعلت تلك الدفعة، لكن خوارزم تجمعنا؛ ففرق خوارزم شاه عساكره، وأحرق ما جمعه من العلف، ورحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم، فسبقه إليها، فقطع الطريق، وأجرى المياه فيها، فتعذر شهاب الدين سلوكها، وأقام أربعين يوماً يصلحها حتى أمكنه، الوصول إلى خوارزم، والتقى العسكران بسوقراً، ومعناه الماء الأسود، فجري بينهم قتال شديد كثر القتلى فيه بين الفريقين، وممن قُتل من الغورية الحسين المرغني وغيره، وأسر جماعة من الخوارزمية، فأمر شهاب الدين بقتلهم قتلوا.

وأرسل خوارزم شاه، إلى الأتراك الخطا يستنجدهم، وهم حيثذ أصحاب ما وراء النهر، فاستعدوا، وساروا إلى بلاد الغورية، فلما بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم، فلقى أوائلهم في صحراء أُنْدُخْوِي أَوَّل صفر سنة إحدى وستمائة، فقتل فيهم وأسر كثيراً، فلما كان اليوم الثاني دهمه (١٨٧/١٢) من الخطا ما لا طاقة له بهم، فانهمز المسلمون هزيمة قبيحة، وكان أول من انهزم الحسين بن خرميل صاحب طالقان وتبعه الناس وبقي شهاب الدين في نفر يسير، وقتل بيده أربعة أفيال لأنها أعيت، وأخذ الكفار

وإعلامه بقصد الكُرج بلادهم بالغارة مرة بعد أخرى، فكأنهم ينادون صخرة صماء؛ فلما حصر الكُرج، هذه السنة، مدينة (١٨٤/١٢) دُوين، سار منهم جماعة يستغيثون، فلم يُنْهَم وخوفه جماعة من أمراته عاقبة إهماله وتوانيه وإصراره على ما هو فيه فلم يصْغ إليهم فلما طال الأمر على أهلها ضعفوا، وعجزوا، وأخذهم الكرج عنوة بالسيف، وفعلوا ما ذكرنا.

ثم إن الكُرج بعد أن استقر أمرهم بها أحسنوا إلى من بقي من أهلها، فآله تعالى ينظر إلى المسلمين، ويسهل لثغورهم من يحفظها ويحميها، فإنها مستباحة، لا سيما هذه الناحية، فإننا لله وإننا إليه راجعون، فلقد بلغنا من فعل الكُرج بأهل دُوين من القتل والسبي والأمر ما تقشعر منه الجلود.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أحضر الملك العادل محمداً ولد العزيز صاحب مصر إلى الرها، وسبب ذلك أنه لما قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين [وخمسمائة]، كما ذكرناه، خاف شيعة أبيه أن يجتمعوا عليه، ويصير له معهم فتنة، فأخرجه سنة ثمان وتسعين إلى دمشق، ثم نقله هذه السنة إلى الرها، فأقام بها ومعه جميع إخوته وأخواته ووالدته ومن يخصه.

وفيهما، في رجب، توفي الشيخ وجيه الدين محمد بن محمود المَرَوُزْدِي، الفقيه الشافعي، وهذا الذي كان السبب في أن صار وحيد الدين شافعيًا.

وفي ربيع الأول منها توفي أبو الفتح عبيد الله بن أبي المعمر الفقيه الشافعي المعروف بالمُسْتَمْلِي ببغداد، وله خط حسن.

وفي ربيع الآخر توفيت زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله، وأخرجت جنازتها ظاهرة، وصلى الخلق الكثير عليها، ودُفنت في التربة التي بنتها لنفسها، وكانت كثيرة المعروف. (١٨٥/١٢)

سنة ستمائة

ذكر حصار خوارزم شاه هراة ثانية

في هذه السنة، أول رجب، وصل خوارزم شاه محمد إلى مدينة هراة، فحصرها، وبها ألب غازي ابن أخت شهاب الدين الغوري ملك غزنة، بعد مراسلات جرت بينه وبين شهاب الدين في الصلح، فلم يتم. وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة إلى لهاور عازماً على غزو الهند، فأقام خوارزم شاه على حصار هراة إلى سلخ شعبان.

وكان القتال دائماً، والقتل بين الفريقين كثيراً، وممن قُتل رئيس خراسان، وكان كبير القدر يقيم بمشهد طوس؛ وكان الحسين بن

فيلين، ودخل شهاب الدين أندخوي فيمن معه، وحصره الكفار، ثم صالحوه على أن يعطيهم فيلاً آخر، ففعل، وخلص.

ووقع الخبر في جميع بلاده بأنه قد عدم، وكثرت الأراجيف بذلك، ثم وصل إلى الطالقان في سبعة نفر، وقد قتل أكثر عسكره، ونهبت خزائنه جميعها، فلم يبق منها شيء، فأخرج له الحسين بن خرميل، صاحب الطالقان، خياماً وجميع ما يحتاج إليه، وسار إلى غزنة، وأخذ معه الحسين بن خرميل، لأنه قيل له عنه إنه شديد الخوف لانهزامه، وإنه قال: إذا سار السلطان هربت إلى خوارزم شاه؛ فأخذه معه، وجعله أمير حاجب.

ولما وقع الخبر بقتله جمع تاج الدين الدز، وهو مملوك اشتراه شهاب الدين، أصحابه وقصد قلعة غزنة ليصعد إليها، فمنعه مستحفظها، فعاد إلى داره فاقام بها، وأفسد الخلع وسائر المفسدين في البلاد، وقطعوا الطرق، وقتلوا كثيراً، فلما عاد شهاب الدين إلى غزنة بلغه ما فعله الدز، فأراد قتله، فشفع فيه سائر المماليك، فأطلقه، ثم اعتذر، وسار شهاب الدين في البلاد، فقتل من المفسدين من تلك الأمم نفراً كثيراً.

وكان له أيضاً مملوك آخر اسمه أيبك بال تر، فسلم من المعركة، ولحق بالهند، ودخل المولتان، وقتل نائب السلطان بها، وملك البلد، وأخذ الأموال السلطانية، وأساء السيرة في الرعية، وأخذ أموالهم، وقال: قتل السلطان، وأنا السلطان؛ وكان يحمل على ذلك، ويحسنه له إنسان اسمه عمر بن يزان، وكان زنديقاً، ففعل ما أمره، وجمع المفسدين، وأخذ الأموال، (١٨٨/١٢) فأخاف الطريق، فبلغ خبره إلى شهاب الدين فسار إلى الهند، وأرسل إليه عسكراً، فأخذه ومعه عمر بن يزان؛ فقتلها أبيض قتلة، وقتل من وافقهما، في جمادى الآخرة من سنة إحدى وستمئة؛ ولما راهم قتلى قرأ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [المائدة: ٣٣]، وأمر شهاب الدين فنودي في جميع بلاده بالتجهز لقتال الخطا وغزوهم والأخذ بثأرهم.

وقيل: كان سبب انهزامه أنه لما عاد إلى الخطا من خوارزم فرق عسكره في المفازة التي في طريقه لقلعة الماء، وكان الخطا قد نزلوا على طريق المفازة، فكلما خرج من أصحابه طائفة فتكروا فيهم بالقتل والأسر، ومن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد، ولم يرجع إليه أحد يعلم الحال، وجاء شهاب الدين في ساقعة العسكر في عشرين ألف فارس ولم يعلم الحال، فلما خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين، وهو ومن معه قد تعبوا وأعيوا، وكان الخطا أضعاف أصحابه، فقاتلهم عامة نهاره، وحمل نفسه منهم، وحصره في أندخوي، فجرى بينهم في عدة أيام أربعة عشر مصافاً منها

مصافاً واحداً كان من العصر إلى الغد بكرة، ثم إنه بعد ذلك سير طائفة من عسكره ليلاً سراً، وأمرهم أن يرجعوا إليه بكرة كأنهم قد أتوه مدداً من بلاده، فلما فعلوا ذلك خافه الخطا، وقال لهم صاحب سمرقند، وكان مسلماً، وهو في طاعة الخطا، وقد خاف على الإسلام والمسلمين إن هم ظفروا بشهاب الدين، فقال لهم: إن هذا الرجل لا تجدونه قط أضعف منه لئسا خرج من المفازة، ومع ضعفه وتعبه وقلة من معه لم نظفر به، والأمداد آتية، وكأنكم بعساكره (١٨٩/١٢) وقد أقبلت من كل طريق، وحيثنظ نطلب الخلاص منه فلا نقدر عليه، والراي لنا الصلح معه؛ فأجابوا إلى ذلك، فأرسلوا إليه في الصلح.

وكان صاحب سمرقند قد أرسل إليه وعرفه الحال سراً، وأمره بإظهار الامتناع من الصلح أولاً والإجابة إليه أخيراً؛ فلما آتته الرسل امتنع، وأظهر القوة بانتظار الأمداد، وطال الكلام، فاصطلحوا على أن الخطا لا يعبرون النهر إلى بلاده، ولا هو يعبره إلى بلادهم، ورجعوا عنه، وخلص هو وعاد إلى بلاده، والباقي نحو ما تقدم.

ذكر قتل طائفة من الإسماعيلية بخراسان

في هذه السنة وصل رسول إلى شهاب الدين الغوري من عند مقدم الإسماعيلية بخراسان برسالة أنكرها، فأمر علاء الدين محمد بن أبي علي متولي بلاد الغور بالمسير في عساكر إليهم ومحاصرة بلادهم، فسار في عساكر كثيرة إلى قهستان، وسمع به صاحب زوزن، فقصده وصار معه وفارق خدمة خوارزم شاه، ونزل علاء الدين على مدينة قاين، وهي للإسماعيلية، وحصرها، وضيق على أهلها، ووصل خير قتل شهاب الدين، على ما نذكره، فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية، ورحل عنهم، وقصد حصن كاخك فأخذه وقتل المقاتلة، وسبى الذرية، ورحل إلى هراة ومنها [إلى] فيروزكوه. (١٩٠/١٢)

ذكر ملك القسطنطينية من الروم

في هذه السنة، في شعبان، ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم، وأزالوا ملك الروم عنها، وكان سبب ذلك أن ملك الروم بها تزوج أخت ملك إفرنيس، وهو من أكبر ملوك الفرنج، فزوّج منها ولداً ذكراً، ثم وثب على الملك أخ له، فقبض عليه؛ وملك البلد منه، وسمل عينيه، وسجنه، فهرب ولده ومضى إلى خاله مستنصراً به على عمه، فاتفق ذلك وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام لاستنقاذ البيت المقدس من المسلمين، فأخذوا ولد الملك معهم، وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصداً لإصلاح الحال بينه وبين عمه، ولم يكن له طمع في سوى ذلك، فلما وصلوا خرج عمه في عساكر الروم محارباً لهم، فوقع القتال بينهم

ولاذيق، فلم يحصل لأحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينية، وأما الباقي فلم يسلم من به من الروم، وأما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية، شرقي الخليج، المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان، ومن جعلتها أزيق ولاذيق، فإنها تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم، اسمه لشكري، وهي بيده إلى الآن.

ذكرنا انهزام نور الدين، صاحب الموصل، من العساكر العادلية في هذه السنة، في العشرين من شوال، انهزم نور الدين أرسلان شاه، صاحب الموصل، من العساكر العادلية، وسبب ذلك أن نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن زنكي، صاحب سنجار، وحشة مستحكمة أولاً ثم اتفقا، وسار معه إلى ميافارقين سنة خمس وتسعين [وخمسمائة]، وقد ذكرناه، فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب، صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة، إلى قطب الدين، واستماله، فمال إليه، وخطب له، فلما سمع نور الدين ذلك سار إلى مدينة نصيبين، سلخ شعبان، وهي لقطب الدين، فحصرها، وملك المدينة، وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام، فبينما هو يحاصرها وقد أشرف على أن يتسلمها أتاه الخبر أن مظفر الدين دوكيري بن زين الدين علي، صاحب إربل، قد قصد أعمال الموصل، فذهب ينوي، وأحرق غلاتها، فلما بلغه ذلك من نائبه المرتب بالموصل يحفظها، سار عن نصيبين إلى الموصل على عزم العبور إلى بلد إربل، ونهبه جزاء ما فعل صاحبها ببلده، فوصل إلى مدينة بلد، وعاد مظفر الدين إلى بلده، وتحقق نور الدين أن الذي قيل له وقع فيه زيادة، فسار إلى تل أعقر من بلد وحصرها، وأخذها ورتب أمورها، وأقام عليها سبعة عشر يوماً. (١٩٣/١٢)

وكان الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران إلى رأس عين نجدة لقطب الدين، صاحب سنجار ونصيبين، وقد اتفق هو ومظفر الدين، صاحب إربل، وصاحب الحصن وأمد، وصاحب جزيرة ابن عمر، وغيرهم، على ذلك، وعلى منع نور الدين من أخذ شيء من بلاده، وكلهم خائفون منه، ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصيبين، فلما فارقتها نور الدين سار الأشرف إليها، وأتاه صاحب الحصن، وصاحب الجزيرة، وصاحب دارا، وساروا عن نصيبين نحو بلد البقعا قريباً من بوشري، وسار نور الدين من تل أعقر إلى كفر زمار وعزم على المطاولة ليتفرقوا، فاتاه كتاب من بعض مماليكه، يسمى جرديك، وقد أرسله يتجسس أخبارهم، فيقللهم في عينه، ويطمعه فيهم، ويقول: إن أذنت لي لقيتهم بمفردي؛ فسار حيثشذ نور الدين إلى بوشري فوصل إليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابه وأصحابه، ولقوا شدة من الحر، فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة.

في رجب سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فانهزمت الروم، ودخلوا البلد، فدخله الفرنج معهم، فهرب ملك الروم إلى أطراف البلاد، وقيل إن ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد، وإنما حصروه فيها.

وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبي، فآلقوا النار في البلد، فاشتغل الناس بذلك، ففتحوا باباً من أبواب المدينة، فدخلها الفرنج، وخرج ملكها هارباً، وجعل الفرنج الملك في ذلك الصبي، وليس له من الحكم شيء، وأخرجوا أباه من السجن، إنما الفرنج هم الحكام في البلد، فقتلوا الرطاة على أهلها، وطلبوا منهم أموالاً، عجزوا عنها، وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصليان، وما هو على صورة المسيح، عليه السلام، والحواريين، وما على الأنجيل من ذلك أيضاً، فعظم ذلك على الروم، وحملوا منه خطباً عظيماً، فعمدوا إلى ذلك الصبي الملك فقتلوه، وأخرجوا الفرنج من البلد، وأغلقت الأبواب، وكان ذلك في (١٩١/١٢) جمادى الأولى سنة ستمائة، فأقام الفرنج بظاهرة محاصرين للروم، وقتلواهم، ولازموا قتالهم ليلاً ونهاراً، وكان الروم قد ضعفوا ضعفاً كثيراً، فأرسلوا إلى السلطان ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان، صاحب قونية وغيرها من البلاد، يستجدونه، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً.

وكان بالمدينة كثير من الفرنج، مقيمين، يقاربون ثلاثين ألفاً، ولعظم البلد لا يظهر أمرهم، فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد، ووثبوا فيه، وآلقوا النار مرة ثانية، فاحترق نحو ربع البلد، وفتحوا الأبواب فدخلوها ووضعوا السيوف ثلاثة أيام، وفتكوا بالروم قتلاً ونهباً، فأصبح الروم كلهم ما بين قتل أو فقير لا يملك شيئاً، ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تدعى صوفيا، فجاء الفرنج إليها، فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان، بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسلون بهما إلى الفرنج ليقيموا عليهم، فلم يلتفتوا إليهم، وقتلواهم أجمعين ونهبوا الكنيسة.

وكانوا ثلاثة ملوك: دوقس البنادقة، وهو صاحب المراكب البحرية، وفي مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية، وهو شيخ أغمتي، إذا ركب تقاد فرسه؛ والآخر يقال له المركيس، وهو مقدم الإفرنيس، والآخر يقال له كند أفلند، وهو أكثرهم عدداً، فلما استولوا على القسطنطينية اقتصروا على الملك، فخرجت القرعة على كند أفلند، فأعادوا القرعة ثانية وثالثة، فخرجت عليه، فملكوه، واللّه يؤتي ملكه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى ما يجاورها، وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة إقريطش وجزيرة رودس وغيرهما، ويكون لمركيس (١٩٢/١٢) الإفرنيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل أزيق

ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل

قد ذكرنا قبلُ تغلب كوكجة مملوك البهلوان على الرئي،
وهذان، وبلد الجبل، وبقي إلى الآن، وكان قد اصطنع مملوكاً
آخر كان للبهلوان، اسمه يدغمش، وقدمه، وأحسن إليه، ووثق به،
فجمع يدغمش الجموع من المماليك وغيرهم، ثم قصد كوكجة،
فتصافوا، واقتتل الفريقان، فقتل كوكجة في الحرب، واستولى
يدغمش على البلاد، وأخذ معه أوزبك بن البهلوان، له اسم
الملك، ويدغمش هو المديبر له والقيّم بأمر المملكة، وكان شهماً،
شجاعاً، ظالماً، وكان كوكجة عادلاً حسن السيرة، رحمه الله.

ذكر وفاة ركن الدين بن قلعج أرسلان ومُلك ابنه بعده

وفي هذه السنة، سادس ذي القعدة، توفي ركن الدين سليمان
بن قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш
بن سلجوق، صاحب (١٩٦/١٢) ديار الزوم، ما بين ملطية وقونية،
وكان موته بعرض القونج في سبعة أيام، وكان قبل مرضه بخمسة
أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية، وتسمى أيضاً أنقرة، وهي مدينة
منية، وكان مشاقاً لركن الدين، فحصره عدة سنين حتى ضعف
وقلت الأقوات عنده، فأذن بالتسليم على عوض يأخذه، فعوضه
قلعة في أطراف بلده وحلف له عليها، فنزل أخوه عن مدينة أنقرة،
وسلمها، ومعه ولدان له، فوضع ركن الدين عليه من أخذه، وأخذ
أولاده معه، فقتله، فلم يعض غير خمسة أيام حتى أصابه القونج
فمات.

واجتمع الناس بعده على ولده قلعج أرسلان، وكان صغيراً،
فبقي في المُلْك إلى بعض سنة إحدى وستمئة، وأخذ منه، على ما
نذكره هناك.

وكان ركن الدين شديداً على الأعداء، قيماً بأمر المُلْك، إلا أن
الناس كانوا ينسبون إلى فساد الاعتقاد؛ كان يقال إنه يعتقد أن
مذهبه مذهب الفلاسفة، وكان كل من يرمى بهذا المذهب يأوي
إليه، ولهذه الطائفة من إحسان كثير، إلا أنه كان عاقلاً يحب ستر
هذا المذهب لئلا ينفّر الناس عنه.

حكى لي عنه أنه كان عنده إنسان، وكان يرمى بالزندقة
ومذهب الفلاسفة، وهو قريب منه، فحضر يوماً عنده فقيه، فتناظرا،
فاظهر شيئاً من اعتقاد الفلاسفة، فقام الفقيه إليه ولطمه وشتمه
بحضرة ركن الدين، وركن الدين ساكت، وخرج الفقيه فقال لركن
الدين: يجري عليّ مثل هذا في حضرتك ولا تكبره؟ فقال: لو
تكلمت لقلنا جميعاً، ولا يمكن إظهار ما تريده أنت؛ فقارقه.
(١٩٧/١٢)

وأثناء الخبر أن عساكر الخصم قد ركبوا، فركب هو وأصحابه
وساروا نحوهم، فلم يروا لهم أثراً، فعاد إلى خيامه، ونزل هو
وعساكره، وتفرق كثير منهم في القرى لتحصيل العلوفات وما
يحتاجون إليه، فجاءه من أخيره بحركة الخصم وقصده، فركب نور
الدين وعسكره، وتقدموا إليهم، وبينهم نحو فرسخين، فنزلوا وقد
ازداد تعبهم، والخصم مستريح، فالتقوا، واقتلوا، فلم تطل الحرب
بينهم حتى انهزم عسكر نور الدين، وانهزم هو أيضاً، وطلب
الموصل، فوصل إليها في أربعة أنفس، وتلاحق الناس، وأتى
الأشرف ومن معه، فنزلوا في كفر زمار، ونهبوا البلاد نهباً عظيماً،
وأهلكوا ما لم يصلح لهم لا سيما مدينة بلد فإنهم أفحشوا في
نهبها. (١٩٤/١٢)

ومن أعجب ما سمعنا أن امرأة كانت تطبخ، فمات [النهب]،
فألت سوازين كانا في يديها في النار وهريت، فجاء بعض الجنود
ونهب ما في البيت، فرأى فيه بيضاً، فأخذه وجعله في النار ليأكله،
فحركها، فرأى السوازين فيها فاخذها.

وطال مقامهم والرسول تردد في الصلح، فوقف الأمر على
إعادة تل أعفر، ويكون الصلح على القاعدة الأولى، وتوقف نور
الدين في إعادة تل أعفر، فلما طال الأمر سلمها إليهم، واصطلحوا
أوائل سنة إحدى وستمئة، وتفرقت العساكر من البلاد.

ذكر خروج الفرنج بالشام إلى بلد الإسلام والصلح معهم

في هذه السنة خرج كثير من الفرنج في البحر إلى الشام،
وسهل الأمر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينية، وأرسوا بعلبك،
وعزموا على قصد البيت المقدس، حرسه الله، واستنقذه من
المسلمين، فلما استراحوا بعلبك ساروا فنهبوا كثيراً من بلاد الإسلام
بنواحي الأردن، وسبوا، وقتلوا في المسلمين.

وكان الملك العادل بدمشق، فأرسل في جمع العساكر من بلاد
الشام ومصر، وسار فنزل عند الطور بالقرب من عكا، لمنع الفرنج
من قصد بلاد الإسلام، ونزل الفرنج بمرج عكا، وأغاروا على
كفرتنا، فاخذوا كل من بها (١٩٥/١٢) وأموالهم، والأمراء يحشون
العادل على قصد بلادهم ونهبها، فلم يفعل، فبقوا كذلك إلى أن
انقضت السنة، وذلك سنة إحدى وستمئة، فاصطلح هو والفرنج
على دمشق وأعمالها، وما بيد العادل من الشام، ونزل لهم عن
جميع المناصيفات في الصيدا والرملة وغيرهما، وأعطاهم ناصرة
وغيرها، وسار نحو الديار المصرية. فقصد الفرنج مدينة حماة،
فلقبهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه
بن أيوب، فقاتلهم، وكان في قلة، فهزموه وتبعوه إلى البلد، فخرج
العامة إلى قتالهم، فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج.

ذكر قتل الباطنية بواسط

في هذه السنة قُتل الباطنية بواسط، وسبب كونهم بها [وقتلهم] أنه ورد إليها رجل يُعرف بالزُكَم محمد بن طالب بن عَصِيَّة، وأصله من القاروب، من قرى واسط، وكان باطنياً مُلحدًا، ونزل مجاوراً لدور بني الهَرَوِي، وغشيه الناس، وكثر أتباعه.

وكان مَن يشاه رجل يُعرف بحسن الصابوني، فاتفق أنه اجتاز بالسُّوَيْفَة، فكلّمه رجل نَجَار في مذهبه، فردّ إليه الصابوني ردّاً غليظاً، فقام إليه النجار وقتله، وتسامع الناس بذلك، فوثبوا وقتلوا مَن وجدوا مَن ينتسب إلى هذا المذهب، وقصدوا دار ابن عَصِيَّة وقد اجتمع إليه خلق من أصحابه، وأغلَقوا الباب، وصعدوا إلى سطحها، ومنعوا الناس عنهم، فصعدوا إليهم من بعض الدور من على السطح، وتحصّن مَن بقي في الدار بإغلاق الأبواب والممارق، فكسروها، ونزلوا فقتلوا مَن وجدوا في الدار وأحرقوا، وقتل ابن عَصِيَّة، وقُتِح الباب، وهرب منهم جماعة فقتلوا؛ وبلغ الخبر إلى بغداد وانحدر فخر الدين أبو البدر بن أسينا الواسطي لإصلاح الحال، وتسكين الفتنة.

ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حَضَرَمَوْت

في هذه السنة استولى إنساناً اسمه محمود بن محمد الحميري على مدينة مرباط وظَفَار وغيرها من حَضَرَمَوْت، وإن ابتداء أمره أنه له مركب يكرهه (١٩٨/١٢) في البحر للتجار، ثم وُزِر لصاحب مرباط، وفيه كرم وشجاعة وحسن سيرة، فلما توفي صاحب مرباط ملك المدينة بعده، وأطاعه الناس محبةً له لكرمه وسيرته، ودامت أيامه بها؛ فلما كان سنة تسع عشرة وستمائة خرب مرباط وظَفَار، وبنى مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مرباط، وعندها عين عذبة كبيرة أجراها إلى المدينة، وعمل عليها سوراً وخندقاً، وحصّنها وسمّاها الأحمدية، وكان يحبّ الشعر، ويكثر الجائزة عليه.

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة خرج أسطول من الفرنج إلى الديار المصرية، فنهبوا مدينة قوّة، وأقاموا خمسة أيام يسيبون ويهبون، وعساكر مصر مقابلهم، بينهم النيل، ليس لهم وصول إليهم لأنهم لم تكن لهم سفن.

وفيها كانت زلزلة عظيمة عمّت أكثر البلاد مصر، والشام، والجزيرة، وبلاد الروم، وصقلية، وقُبرس، ووصلت إلى الموصل والعراق وغيرها، وخرب من مدينة صور سورها وأثرت في كثير من الشام.

وفيها، في رجب، اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ

الشيخ ببغداد وفيه صوفي اسمه أحمد بن إبراهيم الداري من أصحاب شيخ الشيخ عبد الرحيم بن إسماعيل، رحمهم الله، ومعهم مَغْن يَغْنِي ويقول الشعر:

عَوَيْذِلْتِي أَقْصِرِي كَفَى بِمَشِيبي شَبَابٌ كَانَ لَمْ يَكُنْ وَشِبَابٌ كَانَ وَحَقَّ لِي نَالِي الْوَصَالِ أَوْ آخِرَهَا وَصْفَرَةٌ لَوْنُ الْمَحَبِّ عِنْدَ لَسَنِ عَادَ عَيْشِي بِكُمْ حَلَا الْعَيْشِ لِي وَاتَّصَلْ (١٩٩/١٢) فتحرّك الجماعة، عادة الصوفية في السماع، وطرب الشيخ المذكور، وتواجد، ثم سقط مغشياً عليه، فحركوه فإذا هو ميت، فصُلِّي عليه ودُفِن، وكان رجلاً صالحاً.

وفيها توفي أبو الفتح أسعد بن محمود العجلاني، الفقيه الشافعي، بأصفهان في صفر، وكان إماماً فاضلاً.

وفي رمضان منها توفي قاضي هَرَاة عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد الساري، وولي بعده ابنه صاعد. (٢٠٠/١٢)

سنة إحدى وستمائة

ذكر ملك كَيْخَسَرُو بن قَلِج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه

في هذه السنة، في رجب، ملك غياث الدين كَيْخَسَرُو بن قَلِج أرسلان بلاد الروم التي كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان وانتقلت بعد موته إلى ابنه قَلِج أرسلان بن ركن الدين.

وكان سبب مُلْك غياث الدين لها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لأخيه غياث الدين، وهو مدينة قوّة، فهرب غياث الدين منه، وقصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولا، وقصّر به، فسار من عنده، وتقلّب في البلاد إلى أن وصل إلى القسطنطينية، فأحسن إليه ملك الروم وأقطعه وأكرمه، فأقام عنده، وتزوَّج بابنة بعض البطارقة الكبار.

وكان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية، فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين إلى حَمِيه، وهو بقلعته، فأنزله عنده وقال له: نشترك في هذه القلعة، ونقنع بدخلها. فأقام عنده؛ فلما مات أخوه سنة ستمائة، كما ذكرناه، اجتمع الأمراء على ولده، وخالفهم الأتراك الأوج، وهم كثير بتلك البلاد، وأنف من اتباعهم، وأرسل إلى غياث الدين يستدعيه إليه (٢٠١/١٢) ليملكه البلاد، فسار إليه، فوصل في جمادى الأولى، واجتمع به، وكثر جمعه، وقصد مدينة قونية ليحصرها، وكان ولد ركن الدين والعساكر بها، فأخرجوا إليه طائفة من العسكر، فلقوه فهزموه، فبقي حيران لا يدري أين يتوجّه، فقصّد بلدة صغيرة يقال لها أوكُرم بالقرب من قونية.

فتردّد الرسل؛ والعسكر الرومي يطلب البحيرة، وصاحب آميد يتمتع من ذلك، فلما طال الأمر بقي الحصن بيند صاحب آميد، وانفصل العسكران، وعاد كلّ فريق إلى بلاده.

ذكر الفتن ببغداد

في سابع عشر رمضان جرت فتنة ببغداد بين أهل باب الأرج وأهل المأمونية، وسببها أنّ أهل باب الأرج قتلوا سبُعاً وأرادوا أن يطوفوا به، فمتهم أهل المأمونية، فوَقعت الفتنة بينهما عند البستان الكبير، فجرح منهم خلق كثير، وقُتل جماعة، وركب صاحب الباب لتسكين الفتنة، فجرح فرسه، فعاد.

فلما كان الغد سار أهل المأمونية إلى أهل باب الأرج، فوَقعت بينهم فتنة شديدة وقتالاً بالسيوف والنشاب، واشتد الأمر، فهبت الدور القريبة منهم، وسعى الركن ابن عبدالقادر ويوسف العقاب في تسكين الناس، وركب الأتراك، فصاروا يبيتون تحت المنظرة، فامتنع أهل الفتنة من الاجتماع، فسكنوا.

وفي العشرين منه جرت فتنة بين أهل قَطُفَتَا والقرية، من محالّ الجانب الغربي، بسبب قتل سبُع أيضاً أراد أهل قَطُفَتَا أن يجتمعوا، ويطوفوا به، فمتهم أهل القرية أن يجوزوا به عندهم، فاقتتلوا، وقُتل بينهم عدّة قتلى، فأرسل إليهم عسكر من الديوان لتلافي الأمر وقنع الناس عن الفتنة، فامتنعوا.

وفي تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان والجعفرية، منشؤها أنّ رجلين من المحلّتين اختصما وتوعد كلّ واحد منهما صاحبه، فاجتمع (٢٠٤/١٢) أهل المحلّتين، واقتتلوا في مقبرة الجعفرية، فسُير إليهم من الديوان من تلافى الأمر وسكّنه، فلما كثر الفتن رُتب أمير كبير من ممالك الخليفة، ومعه جماعة كثيرة، فطاف في البلد، وقتل جماعة ممّن فيه شبهة، فسكن الناس.

ذكر غارة الكُرج على بلاد الإسلام

في هذه السنة أغارت الكُرج على بلاد الإسلام من ناحية أذربيجان، فأكثروا العيث والفساد والنهب والسبي، ثمّ أغاروا على ناحية خيلاط من أرمينية، فأوغلوا في البلاد حتّى بلغوا ملازكرد، ولم يخرج إليهم أحد من المسلمين يمنعهم، فجاسوا خلال البلاد يتهبون ويأسرون ويسبّون، وكلّما [تقدّموا] تأخّرت عساكر المسلمين عنهم، ثمّ إنهم رجعوا، قاله تعالى ينظر إلى الإسلام وأهله، ويسرّ لهم من يحمي بلادهم، ويحفظ ثغورهم، ويغزو أعداءهم.

وفيها أغارت الكُرج [على] بلاد خيلاط، فأتوا إلى أرجيش ونواحيها، فنهبوا، وسبّوا، وخربوا البلاد، وساروا إلى حصن التين، من أعمال خيلاط، وهو مجاور أرزن الروم، فجمع صاحب خيلاط

فقدّر الله تعالى أنّ أهل مدينة أقصرا وثبوا على الوالي فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين، فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل أقصرا قالوا: نحن أولى من فعل هذا؛ لأنّه كان حسن السيرة فيهم لما كان مالكمهم، فنادوا باسمه أيضاً، وأخرجوا من عندهم، واستدعوه، فحضر عندهم، وملك المدينة وقبض على ابن أخيه ومَن معه، وآتاه الله الملك، وجمع له البلاد جميعها في ساعة واحدة، فسبحان من إذا أراد أمراً حياً أسبابه.

وكان أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية، لما أخذها ركن الدين منه سنة سبع وتسعين [وخمسمائة]، خرج منها، وقصد الملك العادل أبا بكر بن أيوب، لأنّه كان تزوج ابنته مستصراً به، فأمره بالمقام بمدينة الرها، فأقام بها، فلما سمع بمُلك أخيه غياث الدين سار إليه، فلم يجد عنده قبولاً، إنّما أعطاه شيئاً وأمره بمفارقة البلاد، فعاد إلى الرها وأقام بها، فلما استقرّ ملك [غياث الدين] سار إليه الأفضل صاحب سُمَيساط، فلقيه بمدينة قيسارية، وقصده أيضاً نظام الدين صاحب خَرْت بَرْت، وصار معه، فعظم شأنه وقوي أمره. (٢٠٢/١٢)

ذكر حصر صاحب آميد خَرْت بَرْت ورجوعه عنها

كانت خَرْت بَرْت لعماد الدين بن قرا أرسلان، فمات، وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر، والتجأ إلى ركن الدين بن قلع أرسلان، ويَعده إلى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمّه ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان، فامتنع به.

وكان صاحب آميد ملتجئاً إلى الملك العادل، وفي طاعته، وحضر مع ابنه الملك الأشرف قتال صاحب الموصل على شرط أنّه يسير معه في عساكره، ويأخذ له خَرْت بَرْت، وإنّما طمع فيها بموت ركن الدين، فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقرّ الأمر عليه، فسار معه الملك الأشرف وعساكر ديار الجزيرة من سينجار، وجزيرة ابن عمر، والموصل، وغيرها، وكان نزولهم عليها في شعبان؛ وفي رمضان تسلّموا ريفها؛ وكان صاحبها قد اجتمع بغياث الدين، بعد أن ملك البلاد الرومية، وصار معه في طاعته، فلما نزل صاحب آميد على خَرْت بَرْت خاطب صاحبها غياث الدين ينجده بعسكر يرحلهم عنه، فجهّز عسكراً كثيراً عدّتهم ستّة آلاف فارس، وسيرهم [مع] الملك الأفضل عليّ بن صلاح الدين وهو صاحب سُمَيساط، فلما وصل العسكر إلى مَلطية فارق صاحب آميد ومَن معه من خَرْت بَرْت، ونزلوا إلى الصحراء، وحصروا البحيرة المعروفة ببحيرة سَمِين وبها حصنان أحدهما لصاحب خَرْت بَرْت، فحصره وزاحفه، ففتحه ثاني ذي الحجة.

ووصل صاحب خَرْت بَرْت مع العسكر الروميّ إلى خَرْت بَرْت، فرحل صاحب آميد عن البحيرة وقوى الحصن الذي فتحه فيها، فازاح عتسه، (٢٠٣/١٢) ورحل إلى خلف مرحلة ونزل،

سَرَحَسَ، وهو الأمير جَقَر، وكَمَنَ لهم كميناً، فلَمَّا وصلوا إليه هزَمهم، وأخذ وجوه الغورية أَسْرَى، فلم يُقِلَّتْ منهم إلا القليل، وأخذ أميرهم زَنَكِي أسيراً، فقتل صبراً، وعُلقت رؤوسهم بِمَرَوْ آيَاماً.

وفيها، في ذي القعدة، سار الأمير عماد الدين عمر بن الحسين الغوري، صاحب بلخ، إلى مدينة ترمذ، وهي للأتراك الخطا، فافتتحها عنوة، وجعل بها ولده الأكبر، وقتل مَنْ بها من الخطا، ونقل العلويين منها إلى [بلخ]، وصارت ترمذ دار إسلام، وهي من أمتع الحصون وأقواها.

وفيها توفي صدر الدين السجزي شيخ خانكاه السلطان بهراة. (٢٠٧/١٢)

وفيها، في صفر، توفي أبو علي الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطي، وهو من الشعراء المجيدين، واجتمعت به بالموصل، ورَزَّعَها مادحاً لصاحبها نور الدين أرسلان شاه وغيره من المقدمين، وكان نعم الرجل، حسن الصحبة والعشرة.

وفيها اجتمع ببغداد رجلا ن أعميان على رجل أعمى أيضاً، وقتلاه بمسجد طمعاً في أن يأخذا منه شيئاً، فلم يجدا معه ما يأخذانه، وأدركهما الصباح، فهربا من الخوف يريدان الموصل، وروى الرجل مقتولاً، ولم يُعلم قاتله، فاتفق أن بعض أصحاب الشحنة اجتاز من الحریم في خصومة جرت، فرأى الرجلين الضريزين، فقال لمن معه هؤلاء الذين قتلوا الأعمى؟ يقوله مزحاً، فقال أحدهما: هذا والله قتله، فقال الآخر: بل أنت قتلتَه؛ فأخذا إلى صاحب الباب، فأقرّا، فقتل أحدهما، وصلب الآخر على باب المسجد الذي قتل فيه الرجل. (٢٠٨/١٢)

سنة اثنتين وستمئة

ذكر الفتنة بهراة

في هذه السنة، في المحرم، نار العامة بهراة، وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين: الحدادين والصفارين، قُتل فيها جماعة، ونُهبت الأموال، وخربت الديار، فخرج أمير البلد ليكنفهم، فضربه بعض العامة بحجر ناله منه ألم شديد، واجتمع الغوغاء عليه، فرفع إلى القصر الفيروزي، واختفى آيَاماً إلى أن سكنت الفتنة ثم ظهر.

ذكر قتال شهاب الدين الغوري بن كوكَر

قد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغوري، صاحب غزنة، من الخطا الكفار، وأن الخبر ظهر ببلاده أنه عُد من المعركة ولم يقف أصحابه له على خير، فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون في أطراف البلاد، وكان ممن أفسد دانيال، صاحب جبل الجُودي،

عسكره وسار إلى ولد قلج أرسلان، صاحب أرزن الروم، فاستجده على الكُرج، فسير عسكره جميعه معه، فتوجهوا نحو الكُرج، فلقوهم، وتضافوا، واقتتلوا، فانهزمت (٢٠٥/١٢) الكُرج، وقتل زكري الصغير، وهو من أكابر مقدّميه، وهو الذي كان مقدّم هذا العسكر من الكُرج والمقاتل بهم، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والكرّاع وغير ذلك، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا كذلك، وعاد إلى بلاده.

ذكر الحرب بين أمير مَكَّة وأمير المدينة

وفي هذه السنة أيضاً كانت الحرب بين الأمير قسادة الحسيني، أمير مَكَّة، وبين الأمير سالم بن قاسم الحسيني، أمير المدينة، ومع كل واحد منهما جمع كثير، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت الحرب بذي الخليفة، بالقرب من المدينة، وكان قسادة قد قصد المدينة ليحصرها ويأخذها، فلقيه سالم بعد أن قصد الحجرة، على ساكنها الصلاة والسلام، فصلى عندها، ودعا وسار فلقيه، فانهزم قتادة، وتبعه سالم إلى مَكَّة فحصره بها، فأرسل قتادة إلى مَنْ مع سالم من الأمراء، فافسدهم عليه، فمالوا إليه وحالفوه، فلما رأى سالم ذلك رحل عنه عائداً إلى المدينة وعاد أمر قتادة قوياً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة، قطعت خطبة ولي العهد، وأظهر خطّ قرىء بدار الوزير نصير الدين ناصر بن مهدي الرازي، وإذا هو خطّ ولي العهد الأمير أبي نصر ابن الخليفة إلى أبيه الناصر (٢٠٦/١٢) لدين الله أمير المؤمنين، يتضمن العجز عن القيام بولاية العهد، ويطلب الإقالة، وشهد عدلان أنه خطّه، وأن الخليفة أقاله، وعمر بذلك محضراً شهد فيه القضاة والعدول والفقهاء.

وفي هذه السنة ولدت امرأة ببغداد ولداً له رأسان وأربع أرجل ويدان ومات في يومه.

وفيها أيضاً وقع الحريق في خزانة السلاح التي للخليفة، فاحترق فيها منه شيء كثير، وبقيت النار يومين، وسار ذكر هذا الحريق في البلدان، فحمل الملوك من السلاح إلى بغداد شيئاً كثيراً.

وفي هذه السنة وقع الثلج بمدينة هراة أسبوعاً كاملاً، فلما سكن جاء بعده سيل من الجبل من باب سَرَا، حَرَب كثيراً من البلد، ورمى من حصنه قطعة عظيمة، وجاء بعده برد شديد أهلك الثمار، فلم يكن بها تلك السنة شيء إلا اليسير.

وفيها، في شعبان، خرج عسكر من الغورية مقدّمهم الأمير زَنَكِي بن مسعود إلى مدينة مَرَوْ، فلقبهم نائب خوارزم شاه بمدينة

فأنه كان قد أسلم، فلما بلغه الخبر ارتدّ عن الإسلام، وتابع بني كوكُر، وكان في جملة الخارجين عليه بنو كوكُر ومساكنهم في جبال بين لهاور والمولتان حصينة منيعة، وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين، وحملوا له الخراج، فلما بلغهم خبر عدهم ناروا فimen معهم من قبائلهم وعشائريهم، وأطاعهم صاحب (٢٠٩/١٢) جبل الجودي وغيره من القاطنين بتلك الجبال، ومنعوا الطريق من لهاور وغيرها إلى غزنة.

وكان شهاب الدين لما سار عن فرشابور، أناه خبر ابن كوكُر أنه نازل في عساكره ما بين جيل وسودة، فجذّ السير إليه، فدهمه قبل الوقت الذي كان يقدّر وصوله فيه، فاقتلوا قتالاً شديداً يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر، من بكرة إلى العصر، واشتدّ القتال، فبينما هم في القتال أقبل قطب الدين أيك في عساكره، فنادوا بشعار الإسلام، وحملوا حملة صادقة، فانهزم الكوكرية ومن انضم إليهم، وقتلوا بكل مكان، وقصدوا أجمة هناك، فاجتمعوا بها، وأضرموا ناراً، فكان أحدهم يقول لصاحبه: لا تترك المسلمين يقتلونك؛ ثم يلقي نفسه في النار فيلقي صاحبه نفسه بعده فيها، فعمّم الفناء قتلاً وحرّقا، ف«بَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». [هود: ٤٤]

وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يفارقوها، فغنم المسلمون منهم ما لم يُسمع بمثله، حتى إنّ الممالك كانوا يُباهون كل خمسة بدينار ركني ونحوه، وهرب (٢١١/١٢) ابن كوكُر بعد أن قتل إخوته وأهله.

وأما ابن دانيال، صاحب جبل الجودي، فإنه جاء ليلاً إلى قطب الدين أيك، فاستجار به، فأجاره، وشفّع فيه إلى شهاب الدين، فشفّعه فيه، وأخذ منه قلعة الجودي؛ فلما فرغ منهم سار نحو لهاور ليأمن أهلها ويسكن روعهم، وأمر الناس بالرجوع إلى بلادهم والتجهّز لحرب بلاد الخطا، وأقام شهاب الدين بهاور إلى سادس عشر رجب، وعاد نحو غزنة، وأرسل إلى بهاء الدين سام، صاحب باميان، ليتجهّز للمسير إلى سمرقند، ويعمل جسراً ليعبر هو وعساكره عليه.

ذكر الظفر بالتيارية

كان من جملة الخارجين المفسدين أيضاً على شهاب الدين التياراتية، فإنهم خرجوا إلى حدود سوران ومكرهان للغارة على المسلمين، فأوقع بهم نائب تاج الدين الدز، مملوك شهاب الدين بتلك الناحية، ويُعرف بالحلي، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وحمل رؤوس المعروفين فعُلّقت ببلاد الإسلام.

وكانت فتنة هؤلاء التياراتية على بلاد الإسلام عظيمة قديماً وحديثاً، وكانوا إذا وقع بأيديهم أسير من المسلمين عذبوه بأنواع العذاب.

وكان أهل فرشابور معهم في ضرّ شديد لأنهم يحيطون بتلك الولاية من جوانبها، ولا سيما آخر أيام بيت سبكتكين، فإن الملوك ضعفوا وقوي هؤلاء عليهم، وكانوا يغيرون على أطراف البلاد،

فلما بلغه الخبر ارتدّ عن الإسلام، وتابع بني كوكُر، وكان في جملة الخارجين عليه بنو كوكُر ومساكنهم في جبال بين لهاور والمولتان حصينة منيعة، وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين، وحملوا له الخراج، فلما بلغهم خبر عدهم ناروا فimen معهم من قبائلهم وعشائريهم، وأطاعهم صاحب (٢٠٩/١٢) جبل الجودي وغيره من القاطنين بتلك الجبال، ومنعوا الطريق من لهاور وغيرها إلى غزنة.

فلما فرغ شهاب الدين من قتل مملوكه أيك باك، وقد ذكرناه، أرسل إلى نائبه بهاور والمولتان، وهو محمد بن أبي علي، يأمره بحمل المال لسنة سُمّانة، وسنة إحدى وسُمّانة، ليتجهّز به لحرب الخطا، فأجاب أنّ أولاد كوكُر قد قطعوا الطريق، ولا يمكنه إرسال المال، وحضر جماعة من التجار، وذكروا أنّ قفلاً كبيراً أخذه أولاد كوكُر، ولم ينح منه إلا القليل؛ فأمر شهاب الدين مملوكه أيك مقدّم عساكر الهند، أن يرأسل بني كوكُر يدعوهم إلى الطاعة، ويتهذّدهم إن لم يجيبوا إلى ذلك، ففعل ذلك، فقال ابن كوكُر: لأي معنى لم يرسل السلطان إلينا رسولا؟ فقال له الرسول: وما قدركم أنتم حتى يرسل إليكم، وإنما مملوكه يبصركم رشدكم، ويهذّدكم. فقال ابن كوكُر: لو كان شهاب الدين حيّاً لراسلنا، وقد كنّا ندفع الأموال إليه، فحيث عُدّ قفلاً لأيك يترك لنا لهاور وما والاها، وفرشابور، ونحن نصالحه؛ فقال الرسول: أنفذ أنت جاسوساً تتق به فيأتيك بخبر شهاب الدين من فرشابور؛ فلم يصغ إلى قوله، فردّه، فعاد وأخبر بما سمع ورأى، فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيك بالعودة إلى بلاده، وجمع العساكر، وقتل بني كوكُر، فعاد إلى دهلزي، وأمر عساكره بالاستعداد، فأقام شهاب الدين في فرشابور إلى نصف شعبان من سنة إحدى وسُمّانة، ثم عاد إلى غزنة فوصلها أول رمضان، وأمر بالنداء في العساكر بالتجهّز لقتال الخطا، وأنّ المسير يكون أول شوال، فتجهّزوا لذلك.

فاتفق أنّ الشكايات كثرت من بني كوكُر وما يتعهدونه من إخافة السبل (٢١٠/١٢) وأنهم قد أنفذوا شحنة إلى البلاد، ووافقهم أكثر الهنود، وخرجوا من طاعة أمير لهاور والمولتان وغيرهما.

ووصل كتاب الوالي يذكر ما قد دهمه منهم، وأنّ عمّاله قد أخرجهم بنو كوكُر، وجبوا الخراج، وأنّ ابن كوكُر مقدّمهم أرسل إليه ليرتك له لهاور والبلاد والقيلة ويقول أن يحضر شهاب، وإلاّ قتله، ويقول: إن لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر وإلاّ خرجت البلاد من يده.

وتحدّث الناس بكثرة من معهم من الجموع، وما لهم من القوة، فتغير عزم شهاب الدين حيثنّ عن غزو الخطا، وأخرج خيامه

وقيل إنما قتله الإسماعيلية، لأنهم خافوا خروجه إلى خراسان، وكان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم على ما ذكرناه.

فلما قتل اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الملك بن خوجا سيجستان، فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك، ولزوم السكينة إلى أن يظهر من يتولاه، وأجلسوا شهاب الدين وخطوا جراحه وجعلوه في المحفة وساروا به، ورتب الوزير الأمور، وسكن الناس بحيث لم ترق محجمة دم، ولم يوجد في أحد شيء.

وكانت المحفة محفوفة بالحشم، والوزير، والعسكر، والشمسة، على حاله في حياته، وتقدم الوزير إلى أمير داذ العسكر بإقامة السياسة، وضبط (٢١٤/١٢) العسكر، وكانت الخزانة التي في صحبته ألقى حمل وماتى حمل؛ وشغب الغلمان الأتراك الصغار لينهبوا المال، فمنعهم الوزير والأمراء الكبار من الممالك، وهو صونج صهر الدز وغيره، وأمرؤا كل من له إقطاع عند قطب الدين أيك مملوك شهاب الدين ببلاد الهند بالعود إليه، وفرقوا فيهم أموال كثيرة فعادوا.

وسار الوزير ومعه من له إقطاع وأهل بغرته، وعلموا أنه يكون بين غياث الدين محمود بن غياث الدين أخي شهاب الدين الأكبر، وبين بهاء الدين صاحب باميان، وهو ابن أخت شهاب الدين، حروب شديدة، وكان ميل الوزير والأتراك وغيرهم إلى غياث الدين محمود، وكان الأمراء الغورية يميلون إلى بهاء الدين سام، صاحب باميان، فأرسل كل طائفة إلى من يميلون إليه يعزفونه قتل شهاب الدين وجليّة الأمور، وجاء بعض المفسدين من أهل غزنة، فقال للمماليك: إن فخر الدين الرازي قتل مولاكم لأنه هو أوصل من قتله، بوضع من خوارزم شاه، فثاروا به ليقتلوه، فهرب، وقصد مؤيد الملك الوزير، فأعلمه الحال فسيره سراً إلى مامنه.

ولما وصل العسكر والوزير إلى فرشابور اختلفوا، فالغورية يقولون نسير إلى غزنة على طريق مكرهان، وكان غرضهم أن يقربوا من باميان ليخرج صاحبها بهاء الدين سام فيملك الخزانة، وقال الأتراك بل نسير على طريق سوران، وكان مقصودهم أن يكونوا قريباً من تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين، وهو صاحب كرمان، مدينة بين غزنة ولهاوور، وليست بكرمان التي تجاور بلاد فارس، ليحفظ الدز الخزانة، ويرسلوا من كرمان إلى غياث الدين يستدعونه إلى غزنة ويملكونه.

وكثر بينهم الاختلاف، حتى كادوا يقتلون، فتوصل مؤيد الملك مع (٢١٥/١٢) الغورية حتى أذنوا له وللأتراك بأخذ الخزانة والمحفة التي فيها شهاب الدين والمسير على كرمان، وساروا هم على طريق مكرهان؛ ولقي الوزير ومن معه مشقة عظيمة، وخرج عليهم الأمم الذين في تلك الجبال التيراهية وأوغان وغيرهم، فنالوا

وكانوا كفاراً لا دين لهم يرجعون إليه، ولا مذهب يعتمدون عليه، إلا أنهم كانوا إذا ولد لأحدهم بنت وقف على باب داره ونادى: من يتزوج هذه؟ من يقبلها؟ فإن أجابه (٢١٢/١٢) أحد تركها، وإلا قتلها، ويكون للمرأة عدة أزواج، فإذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب، فإذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد.

ولم يزالوا كذلك حتى أسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغوري، فكفوا عن البلاد.

وسبب إسلامهم أنهم أسروا إنساناً من فرشابور، فعذبوه فلم يمّت، ودامت أيامه عندهم، فأحضره يوماً مقدّمهم وسأله عن بلاد الإسلام، وقال له: لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطيني؟ فقال له المعلم: كان يعطيك الأموال والأقطاع ويرد إليك حكم جميع البلاد التي لكم؛ فأرسله إلى شهاب الدين في الدخول في الإسلام، فأعاده ومعه رسول بالخليع والمنشور بالأقطاع، فلما وصل إليه الرسول سار هو وجماعة من أهله إلى شهاب الدين، فأسلموا وعادوا، وكان للناس بهم راحة؛ فلما كانت هذه الفتنة واختلفت البلاد نزل أكثرهم من الجبال، فلم يكن لهذه الطائفة بهم قدرة لينعموهم، فافسدوا وعملوا ما ذكرناه.

ذكر قتل شهاب الدين الغوري

في هذه السنة، أول ليلة من شعبان، قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد ابن سام الغوري، ملك غزنة وبعض خراسان، بعد عوده من لهاوور، بمنزل يقال له دميل، وقت صلاة العشاء.

وكان سبب قتله أن نفراً من الكفار الكوكربة لزموا عسكره عازمين على قتله، لما فعل بهم من القتل والأسر والسبي، فلما كان هذه الليلة تفرق عنه (٢١٣/١٢) أصحابه، وكان قد عاد ومعه من الأموال ما لا يحُد، فإنه كان عازماً على قصد الخطأ، والاستكثار من العساكر، وتفرق المال فيهم؛ وقد أمر عساكره بالهند باللاحاق به، وأمر عساكره الخراسانية بالتجهز إلى أن يصل إليهم، فأنه الله من حيث لم يحتسب، ولم يُنص عنه ما جمع من مال وسلاح ورجال، لكن كان على نيّة صالحة من قتال الكفار.

فلما تفرق عنه أصحابه، وبقي وحده في خركاه، ثار أولئك النفر، فقتل أحدهم بعض الحراس بباب سرداق شهاب الدين، فلما قتلوه صاح، ثار أصحابه من حول السرداق لينظروا ما بصاحبهم، فأخلوا مواقعهم، وكثر الزحام، فاعتم الكوكربة غفلتهم عن الحفظ، فدخلوا على شهاب الدين وهو في الخركاه، فضربوه بالسكاكين اثنين وعشرين ضربة فقتلوه، فدخل عليه أصحابه، فوجدوه على مصلاه قتيلاً وهو ساجد، فأخذوا أولئك الكفار فقتلوه، وكان فيهم اثنان مختونان.

يبد التاجر إلى أن يستوفي دينه، ففعل ذلك.

وحكي عنه أنه كان يحضر العلماء بحضرته، فيتكلمون في المسائل الفقهية وغيرها، وكان فخر الدين الرازي يعظ في داره، فحضر يوماً فرعظه، وقال في آخر كلامه: يا سلطان، لا سلطانك يبقى ولا تلييس الرازي، وإن مردنا إلى الله! فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكاؤه.

وكان رقيق القلب، وكان شافعي المذهب مثل أخيه؛ قيل: وكان حقيقاً، والله أعلم. (٢١٧/١٢)

ذكر مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته

لما ملك غياث الدين باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود، وزوجه أخته، فأتاه منها ولد اسمه سام، بقي فيها إلى أن توفي، وملك بعده ابنه الأكبر، واسمه عباس، وأمه تركية، فغضب غياث الدين وأخوه شهاب الدين من ذلك، وأرسلوا من أحضر عباساً عندهما، فأخذوا الملك منه، وجعلوا ابن أختها سام ملكاً على باميان، وتلقب بهاء الدين، وعظم شأنه ومحلّه، وجمع الأموال ليملك البلاد بعد خاليه، وأحبّه الغورية حباً شديداً وعظّموه.

فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعض الأمراء الغورية إلى بهاء الدين سام فأخبره بذلك، فلما بلغه قتله كتب إلى من بغزنة من الأمراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد، ويعرفهم أنه على الطريق سائر إليهم.

وكان والي قلعة غزنة، ويعرف بأمير داذ، قد أرسل ولده إلى بهاء الدين سام يستدعيه إلى غزنة، فأعاد جوابه أنه تجهّز، ويصل إليه، ويعدّه الجميل والإحسان.

وكتب بهاء الدين إلى علاء الدين محمد بن أبي علي ملك الغور يستدعيه إليه؛ وإلى غياث الدين محمود بن غياث الدين، وإلى ابن خرميل، والي هراة، يأمرهما بإقامة الخطبة له، وحفظ ما بأيديهما من الأعمال، ولم يظن أن أحداً يخالفه، فأقام أهل غزنة ينتظرون وصوله، أو وصول غياث الدين محمود، والأتراك، ويقولون: لا تترك غير ابن سيدنا، يعنون غياث الدين، يدخل غزنة.

والغورية يتظاهرون بالميل إلى بهاء الدين ومنع غيره، فسار من باميان إلى (٢١٨/١٢) غزنة في عساكره، ومعه ولده علاء الدين محمد وجلال الدين، فلما سار عن باميان مرحلتين وجد صداعاً، فنزل يستريح، ينتظر خفته عنه، فازداد الصداع، وعظم الأمر عليه، فأيقن بالموت، فأحضر ولديه، وعهد إلى علاء الدين، وأمرهما بقصد غزنة، وحفظ مشايخ الغورية، وضبط الملك، وبالرفق بالرعايا، وبذل الأموال، وأمرهما أن يصلحا غياث الدين على أن

من أطراف العسكر إلى أن وصلوا إلى كرمان، فخرج إليهم تاج الدين الدز يستقبلهم، فلما عين المحفة، وفيها شهاب الدين ميتاً، نزل وقبل الأرض على عادته في حياة شهاب الدين، وكشف عنه، فلما رآه ميتاً مرقّ ثيابه وصاح وبكى فأبكى الناس، وكان يوماً مشهوداً.

ذكر ما فعله الدز

كان الدز من أول مماليك شهاب الدين وأكبرهم وأقدمهم، وأكبرهم محلاً عنده، بحيث إن أهل شهاب الدين كانوا يخدمونه ويقصدونه في أشغالهم؛ فلما قُتل صاحبه طمع أن يملك غزنة، فأول ما عمل أنه سأل الوزير مؤيد الملك عن الأموال والسلاح والدواب، فأخبره بما خرج من ذلك وبالبقي معه، فأنكر الحال، وأساء أدبه في الجواب، وقال: إن الغورية قد كانوا بهاء الدين سام صاحب باميات ليملكوه غزنة، وقد كتب إلي غياث الدين محمود، وهو مولاي، يأمرني أنني لا أترك أحداً يقرب من غزنة، وقد جعلني نائبه فيها وفي سائر الولاية المجاورة لها لأنه مشتغل بامر خراسان.

وقال للوزير: إنه قد أمرني أيضاً أن أتسلم الخزانة منك؛ فلم يقدر على الامتناع لميل الأتراك إليه، فسلمها إليه، وسار بالمحفة والمماليك والوزير إلى غزنة، فدُفن شهاب الدين في التربة بالمدرسة التي أنشأها ودفن ابنته فيها، وكان وصوله إليها في الثاني والعشرين من شعبان من السنة. (٢١٦/١٢)

ذكر بعض سيرة شهاب الدين

كان، رحمه الله، شجاعاً مقداماً، كثير الغزو إلى بلاد الهند، عادلاً في رعيته، حسن السيرة فيهم، حاكماً بينهم بما يوجب الشرع المطهر، وكان القاضي بغزنة يحضر داره كل أسبوع السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، ويحضر معه أمير حاجب، وأمير داذ، وصاحب البريد، فيحكم القاضي، وأصحاب السلطان ينشدون أحكامه على الصغير والكبير، والشريف والوضيع؛ وإن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره وسمع كلامه، وأمضى عليه، أو له، حكم الشرع، فكانت الأمور جارية على أحسن نظام.

حُكي لي عنه أنه لقيه صبي علوي، عمره نحو خمس سنين، فدعا له، وقال: لي خمسة أيام ما أكلت شيئاً؛ فعاد من الركوب لوقته، ومعه الصبي، فنزل في داره، وأطعم العلوي أطيب الطعام بحضرته، ثم أعطاه مالاً، بعد أن أحضر أباه وسلمه إليه، وفرّق في سائر العلويين مالاً عظيماً.

وحكي عنه أن تاجراً من مراغة كان بغزنة، وله على بعض مماليك شهاب الدين دين مبلغه عشرة آلاف دينار، فقتل المملوك في حرب كانت له، فرفع التاجر حاله، فأمر بأن يقرّ إقطاع المملوك

يكون له خراسان وبلاد الغور، ويكون لهما غَزَنَةُ وبلاد الهند.

ذكر مُلك علاء الدين غَزَنَةُ وأخذها منه

لَمَّا فرغ بهاء الدين من وصيته توفي، فسار ولداه إلى غَزَنَةِ، فخرج أمراء الغُورِيَّة وأهل البلد فلقوهم، وخرج الأتراك معهم على كرهٍ منهم، ودخلوا البلد وملكوه، ونزل علاء الدين وجلال الدين دار السلطنة مستهلَّ رمضان، وكانوا قد وصلوا في ضَرْ وَقَلَّة من العسكر، وأراد الأتراك منعهم، فنهاهم مؤيد المُلك وزير شهاب الدين لقلَّتْهم، ولاشغال غياث الدين بابن خرميل، والي هراة، على ما نذكره، فلم يرجعوا عن ذلك.

ولَمَّا استقرَّ بالقلة، ونزلا بدار السلطانية، راسلها الأتراك بأن يخرجوا من الدار وإلا قاتلوهم، ففرقوا فيهم أموالاً كثيرة، واستحلفاهم فحلفوا، واستثنوا غياث الدين محموداً، وأنفذا خلعاً إلى تاج الدين الدُّز، وهو بإقطاعه، مع رسول، وطلباه إلى طاعتها، ووعده بالأموال والزيادة في الإقطاع، وإمارة الجيش، والحكم في جميع الممالك، فأتاه الرسول فلقبه وقد سار عن (٢١٩/١٢) كرمان في جيش كثير من الترك والخُلق والغُز وغيرهم يريد غَزَنَةَ، فأبلغه الرسالة، لم يلتفت إليه، وقال له: قل لهما أن يعودا إلى باميان، وفيها كفاية، فإني قد أمرني مولاي غياث الدين أن أسير إلى غَزَنَةَ وأمنعهما عنها، فإن عادا إلى بلدهما، وإلا فعلت بهما وبمن معهما ما يكرهون.

وردَّ ما معهما من الهدايا والخلع، ولم يكن قصد الدُّز بهذا حفظ بيت صاحبه، وإنما أراد أن يجعل هذا طريقاً إلى مُلك غَزَنَةِ لنفسه.

فعاد الرسول وأبلغ علاء الدين رسالة الدُّز، فأرسل وزيره، وكان قبله وزير أبيه، إلى باميان وبلغ وتمرذ وغيرها من بلادهم، ليجمع العساكر ويعود إليه، فأرسل الدُّز إلى الأتراك الذين بغَزَنَةِ يعرفهم أنَّ غياث الدين أمره أن يقصد غَزَنَةَ ويُخرج علاء الدين وأخاه منها، فحضروا عند ابن وزير علاء الدين، وطلبوا منه سلاحاً، ففتح خزانة السلاح، وهرب ابن الوزير إلى علاء الدين وقال له: قد كان كذا وكذا، فلم يقدر [أن] يفعل شيئاً.

وسمع مؤيد الملك، وزير شهاب الدين، فركب وأنكر على الخازن تسليم المفاتيح، وأمره فاستردَّ ما نهبه الترك جميعه، لأنَّه كان مطاعاً فيهم.

ووصل الدُّز إلى غَزَنَةِ، فأخرج إليه علاء الدين جماعة من الغُورِيَّة ومن الأتراك، وفيهم صونج صهر الدُّز، فأشار عليه أصحابه أن لا يفعل، ويتنظر العسكر مع وزيره، فلم يقبل منهم، وسير العساكر، فالتقوا خامس رمضان، فلَمَّا لقوه خدمه الأتراك

وعادوا معه على عسكر علاء الدين فقاتلوهم فهزموهم وأسروا مقدمهم، وهو محمد بن علي بن حردون، ودخل عسكر الدُّز المدينة فنهبوا بيوت الغُورِيَّة والبامانية، وحصر الدُّز القلعة، فخرج جلال الدين منها (٢٢٠/١٢) في عشرين فارساً، وسار عن غَزَنَةِ، فقالت له امرأة تستهزئ به: إلى أين تمضي؟ خذ الجتر والشمسة معك! ما أتبع خروج السلاطين هكذا! فقال لها: إنَّك سترين ذلك اليوم، وأفعل بكم ما تقرُّون به بالسلطنة لي.

وكان قد قال لأخيه: احفظ القلعة إلى أن آتيك بالعساكر؛ فبقي الدُّز يحاصرها، وأراد من مع الدُّز نهب البلد، فنهاهم عن ذلك، وأرسل إلى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة، ويتهدده إن لم يخرج منها، وتردَّت الرسل بينهما في ذلك، فأجاب إلى مفارقتها والعود إلى بلده، وأرسل من حلف له الدُّز أن لا يؤذيه، ولا يتعرَّض له، ولا لأحد ممن يحلف له.

وسار عن غَزَنَةِ، فلَمَّا رآه الدُّز، وقد نزل من القلعة عدل إلى تربة شهاب الدين مولاه، ونزل إليها، ونهب الأتراك ما كان مع علاء الدين، وألقوه عن فرسه، وأخذوا ثيابه، وتركوه عرياناً بسرأويله.

فلَمَّا سمع الدُّز ذلك أرسل إليه بدوابٍ وثياب ومال، واعتذر إليه، فأخذ ما لبسه وردَّ الباقي، فلَمَّا وصل إلى باميان لبس ثياب سوادي، وركب حماراً، فأخرجوا له مراكب ملوكية، وملابس جميلة، فلم يركب، ولم يلبس، وقال: أريد [أن] يراني الناس وما صنع بي أهل غَزَنَةِ، حتى إذا عدت إليها وخرتُها ونهبتُها لا يلومني أحد. ودخل دار الإمارة وشرع في جمع العساكر.

ذكر مُلك الدُّز غَزَنَةِ

قد ذكرنا استيلاء الدُّز على الأموال والسلاح والدواب وغير ذلك ممَّا كان صحبة شهاب الدين وأخذه من الوزير مؤيد الملك، فجمع به العساكر (٢٢١/١٢) من أنواع الناس، الأتراك والخُلق والغُز وغيرهم، وسار إلى غَزَنَةِ وجرى له مع علاء الدين ما ذكرنا.

فلَمَّا خرج علاء الدين من غَزَنَةِ أقام الدُّز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين، إلا أنَّه لم يأمر الخطيب بالخطبة له ولا لغيره، وإنما يخطب للخليفة، ويترحم على شهاب الدين الشهيد حسب.

فلَمَّا كان في اليوم الرابع أحضر مقدمي الغُورِيَّة والأتراك، وذمَّ من كاتب علاء الدين وأخاه، وقبض على أمير داوود غَزَنَةِ، فلَمَّا كان الغد، وهو سادس عشر رمضان، أحضر القضاة والفقهاء والمقدمين، وأحضر أيضاً رسول الخليفة، وهو الشيخ مجد الدين أبو علي بن الربيع، الفقيه الشافعي مُدرِّس النظامية ببغداد، وكان قد ورد إلى غَزَنَةِ رسلاً إلى شهاب الدين، فقتل شهاب الدين وهو

بغزنة، فأرسل إليه وإلى قاضي غزنة يقول له: [إني أريد أن] انتقل إلى دار السلطانية، وأن أخطب بالملك، ولا بُدَّ من حضورك؛ والمقصود من هذا أن تستقرَّ أمور الناس، فحضر عنده، فركب الدُرَّ، والناس في خدمته، وعليه ثياب الحزن، وجلس في الدار في غير المجلس الذي كان يجلس فيه شهاب الدين، فتغيَّرت لذلك نيات كثير من الأتراك، لأنهم كانوا يطيعونه ظناً منهم أنه يريد الملك لغيث الدين، فحيث رآوه يريد الانفراد تغيَّروا عن طاعته، حتَّى إنَّ بعضهم بكى غيظاً من فعله، وأقطع الإقطاعات الكثيرة، وفرَّق الأموال الجلييلة.

وكان عند شهاب الدين جماعة من أولاد ملوك الغُور وسَمَرَقَنْد وغيرهم، (٢٢٢/١٢) فانفقوا من خدمة الدُرِّ، وطلبوا منه أن يقصد خدمة غياث الدين، فأذن لهم وفارقه كثير من أصحابه إلى غياث الدين وإلى علاء الدين وأخيه صاحبيَّ باميان، وأرسل غياث الدين إلى الدُرِّ يشكره، ويثني عليه لإخراج أولاد بهاء الدين من غَزَنَة، وسَيَّر له الخُلع، وطلب منه الخطبة والسكَّة، فلم يفعل، وأعاد الجواب فغالطه، وطلب منه أن يخاطبه بالملك، وأن يعقده من الرقِّ لأنَّ غياث الدين ابن أخيه سيده لا وارث له سواه، وأن يزوج ابنه بابنة الدُرِّ، فلم يجبه إلى ذلك.

واتَّفَق أنَّ جماعة من الغُورِيس، من عسكر صاحب باميان، أغاروا على أعمال كَرَمَان وسوران، وهي أقطاع الدُرِّ القديمة، فغنموا وقتلوا، فأرسل صهره صونج في عسكر، فلقوا عسكر الباميان فظفر بهم، وقتل منهم كثيراً، وأنفذ رؤوسهم إلى غَزَنَة فنُصِبَتْ بها.

وأجرى الدُرِّ في غزنة رسوم شهاب الدين، وفرَّق في أهلها أموالاً جلييلة المقدار، وألزم مؤيد الملك أن يكون وزيراً له، فامتنع من ذلك، فألجَّ عليه، فأجابه على كُرْهٍ منه، فدخل على مؤيد الملك صديق له يهنئه، فقال: بماذا تهتنتي؟ من بعد ركوب الجواد بالجمار؟ وأنشد:

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَا ۖ اُنْكِرَ إِطْلَاقَهُ وَالْغَيْبُ
بَيْنَا الدُّرَّ يَأْتِي إِلَيَّ بَابِي أَلْفَ مَرَّةٍ حَتَّى أَذِنَ لَهُ فِي الدَّخُولِ أَصْبَحَ
عَلَى بَابِهِ! وَلَوْلَا حِفْظُ النَّفْسِ مَعَ هَوْلَاءِ الْأَتْرَاكِ لَكَانَ لِي حُكْمٌ آخَرُ.

ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه

وأما غياث الدين محمود بن غياث الدين فإنه كان في إقطاعه، وهو بُسْت وأسفزار، لما قُتِلَ عمه شهاب الدين، وكان الملك علاء الدين بن محمد بن (٢٢٣/١٢) أبي علي قد ولَّاه شهاب الدين بلاد الغُور وغيرها من أرض الراون، فلما بلغه قتله سار إلى فيروزكوه خوفاً أن يسبقه إليها غياث الدين فيملك البلد ويأخذ الخزائن التي بها.

وكان علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت الغُورِية، إلا أنَّ الناس كرهوه لميلهم إلى غياث الدين، وأنف الأُمراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم، ولأنَّه كان كرامياً مغالياً في مذهبه، وأهل فيروزكوه شافعية، والزعم أن يجعلوا الإقامة مثني؛ فلما وصل إلى فيروزكوه أحضر جماعة من الأُمراء منهم: محمد المرغني وأخوه، ومحمد بن عثمان، وهم من أكابر الأُمراء، وحلفهم على مساعدته على قتال خوارزم شاه وبهاء الدين، صاحب باميان، ولم يذكر غياث الدين احتقاراً له، فحلفوا له ولولده مع بعده.

وكان غياث الدين بمدينة بُسْت لم يتحرَّك في شيء انتظاراً لما يكون من صاحب باميان، لأنَّهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغيث الدين وغَزَنَة والهند لبهاء الدين، وكان بهاء الدين صاحب باميان بعد موت شهاب الدين أقوى منه، فلهذا لم يفعل شيئاً، فلما بلغه خبر موت بهاء الدين جلس على التخت، وخطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان، وحلَّف الأُمراء الذين قصده، وهم إسماعيل الخلجي، وسونج أمير أشكار، وزنكي بن خرجوم، وحسين الغوري صاحب تكياباذ وغيرهم، وتلقَّب بالقباب أبيه غياث الدنيا والدين، وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبي علي وهو بفيروزكوه يستدعيه إليه، ويستعطفه ليصدر عن رأيه، ويسلم مملكته إليه؛ وكتب إلى الحسين بن خرميل، والي هراة، مثل ذلك أيضاً، ووعده الزيادة في الإقطاع. (٢٢٤/١٢)

فأما علاء الدين فأغلظ له في الجواب، وكتب إلى الأُمراء الذين معه يتهنئهم، فرحل غياث الدين إلى فيروزكوه، فأرسل علاء الدين عسكراً مع ولده، وفرَّق فيهم مالاً كثيراً، وخلع عليهم ليمنعوا غياث الدين، فلقوه قريباً من فيروزكوه، فلما تراءى الجمعان كشف إسماعيل الخلجي المغفر عن وجهه وقال: الحمد لله إذ الأتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يضيِّعوا حقَّ التربية، وردُّوا ابن ملك باميان، وأنتم مشايخ الغُورِية الذين أنعم عليكم والله هذا السلطان، ورباكم، وأحسن إليكم كفرتم الإحسان، وجنتم تقتلون ولده، أهذا فعل الأحرار؟

فقال محمد المرغني، وهو مقدَّم العسكر الذين يصدرون عن رأيه: لا والله! ثمَّ ترجَّل عن فرسه، وألقى سلاحه، وقصد غياث الدين، وقبَّل الأرض بين يديه، وبكى بصوت عالٍ، وفعل سائر الأُمراء كذلك، فانهمز أصحاب علاء الدين مع ولده.

فلما بلغه الخبر خرج عن فيروزكوه هارباً نحو الغُور، وهو يقول: أنا أمشي أجاور بمكة؛ فانفذ غياث الدين خلفه من رده إليه، فأخذته وحجسه، وملك فيروزكوه، وفرح به أهل البلد، وقبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكرامية، وقتل

الدين، وأطلعه (٢٢٦/١٢) على ما يريد ابن خرميل بفعله من الغدر به، والميل إلى خوارزم شاه، وحثه على قصد هراة، وقال له: أنا أسلمها إليك ساعة تصل إليها؛ ووافقه بعض الأمراء، وخالفه غيرهم، وقال: ينبغي أن لا تترك له حجة، فترسل إليه تقليداً بولاية هراة؛ ففعل ذلك، وسيره مع ابن زياد وبعض أصحابه.

ثم إن غياث الدين كاتب أميران بن قيصر، صاحب الطالقان، يستدعيه إليه، فتوقف؛ وأرسل إلى صاحب مَرَوْ ليسيير إليه، فتوقف أيضاً، فقال له أهل البلد: إن لم تسلم البلد إلى غياث الدين، وتوجه إليه، وإلا سلمناك، وقيدناك، وأرسلناك إليه؛ فاضطر إلى المجيء إلى فيروزكوه، فخلع عليه غياث الدين، وأقطعها إقطاعاً، وأقطع الطالقان سونج مملوك أبيه المعروف بأمير أشكار.

ذكر استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان

قد ذكرنا مكاتبة الحسين بن خرميل، والي هراة، خوارزم شاه، ومراسلته في الانتماء إليه والطاعة له، وترك طاعة الغورية، وخداعه لغياث الدين، ومغالطته له بالخطبة له والطاعة، انتظاراً للوصول عسكر خوارزم شاه، ووصول رسول غياث الدين وابن زياد بالخلع إلى ابن خرميل، فلمّا وصلت الخلع إليه لبسها هو وأصحابه، وطلبه رسول غياث الدين بالخطبة، فقال: يوم الجمعة نخطب له.

فاتفق قرب عسكر خوارزم شاه منهم، فلمّا كان يوم الجمعة قيل له في معنى الخطبة، فقال: نحن في شغل أهمّ منها بوصول هذا العدو؛ فطالت المجادلات بينهم في ذلك، وهو مُصِرٌّ على الامتناع منها، ووصل عسكر خوارزم شاه، فلقيهم ابن خرميل، وأنزلهم على باب البلد، فقالوا له: قد (٢٢٧/١٢) أمرنا خوارزم شاه إن نخالف لك أمراً؛ فشكرهم على ذلك؛ وكان يخرج إليهم كل يوم، وأقام لهم الوظائف الكثيرة.

وأثناء الخير أن خوارزم شاه نزل على بلخ فحاصرها، فلقيه أصحابها، وقتلته بظاهر البلد، فلم يسزل بالقرب منها، فنزل على أربعة فراسخ، فندم ابن خرميل على طاعة خوارزم شاه، وقال لخواصه: لقد أخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل، فإني أراه عاجزاً.

وشرع في إعادة العسكر، فقال للأمراء: إن خوارزم شاه قد أرسل إلى غياث الدين يقول له: إني على العهد الذي بيننا، وأنا أترك ما كان لأبيك بخراسان؛ والمصلحة أن ترجعوا حتى ننظر ما يكون. فعادوا، وأرسل إليهم الهدايا الكثيرة.

وكان غياث الدين حيث اتصل به وصول عسكر خوارزم شاه إلى هراة، فأخذ إقطاع بن خرميل وأرسل إلى كُرْزبان وأخذ كل ما له بها من مال، وأولاد، ودواب، وغير ذلك، وأخذ أصحابه في القيد، وأثناء كتب من يعيل إليه من الغورية يقولون له: إن رآك

بعضهم.

ولمّا دخل غياث الدين فيروزكوه ابتداء بالجامع فصلّى فيه، ثم ركب إلى دار أبيه فسكنها، وأعاد رسوم أبيه، واستخدم حاشيته، وقدم عليه عبد الجبار بن محمد الكيراني، وزير أبيه، واستوزره، وسلك طريق أبيه في الإحسان والعدل.

ولمّا فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له همّة إلا ابن خرميل بهراة واجتذابه إلى طاعته، فكاتبه ورأسله، واتّخذة أباً، واستدعاه إليه.

وكان ابن خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان، فجمع أعيان (٢٢٥/١٢) الناس، منهم: قاضي هراة صاعد بن الفضل السيارى، وعليّ بن عبد الخلاق بن زياد مدرّس النظامية بهراة، وشيخ الإسلام رئيس هراة، ونقيب العلويين ومقدمي المحال، وقال لهم: قد بلغني وفاة السلطان شهاب الدين وأنا في نحر خوارزم شاه، وأخاف الحصار، وأريد أن تحلفوا لي على المساعدة على كلّ من نازعني، فأجابه القاضي وابن زياد: إننا نحلف على كلّ الناس إلا ولد غياث الدين؛ فحقداه عليهما، فلمّا وصل كتاب غياث الدين خاف ميل الناس إليه، فغالطه في الجواب.

وكان ابن خرميل قد كاتب خوارزم شاه يطلب منه أن يرسل إليه عسكرياً ليصير في طاعته ويمتنع به على الغورية، فطلب منه خوارزم شاه إنفاذ ولده رهينة، ويرسل إليه عسكرياً، فسّر ولده إلى خوارزم شاه، فكتب خوارزم شاه إلى عسكره الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجه إلى هراة، وأن يكونوا يتصرفون بأمر ابن خرميل ويمثلون أمره.

هذا وغياث الدين يتابع الرّسل إلى ابن خرميل، وهو يحتج بشيء بعد شيء انتظاراً لعسكر خوارزم شاه، ولا يؤسه من طاعته، ولا يخطب له ويطيعه طاعة غير مستوية.

ثم إن الأمير عليّ بن أبي عليّ، صاحب كالوين، أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل، فعزم غياث الدين على التوجه إلى هراة، فنظّم بعض الأمراء الذين معه، وأشاروا عليه بانتظار آخر أمره وترك محاقته.

واستشار ابن خرميل الناس في أمر غياث الدين، فقال له عليّ بن عبد الخلاق بن زياد، مدرّس النظامية بهراة، وهو متولّي وقوف خراسان التي بيد الغورية جميعها: ينبغي أن تخطب للسلطان غياث الدين، وترك المغالطة؛ [فأجابه]: إني أخافه على نفسي، فامض أنت وتوثّق لي منه.

وكان قصده أن يُبعده عن نفسه، فمضى برسالته إلى غياث

غياث الدين قتل.

كان عنده من الغوريين الذين كان أسرهم في المصاف على باب خوارزم، فخلع عليهم، وأحسن إليهم، وأعطاهم الأموال، وقال: إن غياث الدين أخي، ولا فرق بيني وبينه، فمن أحب منكم المقام عندي فليقم، ومن أحب أن يسير إليه فلنني أسيره، ولو أراد مني مهما أراد نزلت له عنه.

وعهد إلى محمد بن علي بن بشير، وهو من أكابر الأمراء الغورية، فأحسن إليه، وأقطعته استمالة للغورية، وجعله سفيراً بينه وبين صاحب بلخ، فسير أخاه علي شاه بين يديه في عسكره إلى بلخ، فلما قاربها خرج إليه عماد الدين عمر بن الحسين الغوري أميرها، فدفعه عن النزول عليها، فنزل على أربعة فراسخ عنها، فأرسل إلى أخيه خوارزم شاه يعلمه قوتهم، فصار إليها في ذي القعدة من السنة، فلما وصل إلى بلخ خرج صاحبها فقاتلهم، فلم يقر بهم لكثرتهم، فنزلوا فصار يوقع بهم ليلاً، فكانوا معه على أقيح صورة، فأقام صاحب بلخ محاصراً، وهو ينتظر العدد من أصحابه أولاد بهاء الدين، صاحب باميان، وكانوا قد اشتغلوا عنه بغزاة على ما نذكره.

فأقام خوارزم شاه على بلخ أربعين يوماً، كل يوم يركب إلى الحرب، فيقتل من أصحابه كثير، ولا يظفر بشيء، فراسل صاحبها عماد الدين مع محمد بن علي بن بشير الغوري في بذل بذله له لئسلم إليه البلد، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: لا أسلم البلد إلا إلى أصحابه، فعزم على المسير إلى هراة، فلما سار أصحابه أولاد بهاء الدين، صاحب باميان، إلى غزنة، المرة الثانية، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وأسره تاج الدين الدُر، عاد عن ذلك (٢٣٠/١٢) العزم، وأرسل محمد بن علي بن بشير إلى عماد الدين نائبه يعرفه حال أصحابه وأسره، وأنه لم يبق عليه حجة، ولا له في التأخر عنه عذر، فدخل إليه، ولم يزل يخدعه تارة يرغبه، وتارة يرهبه، حتى أجاب إلى طاعة خوارزم شاه والخطة له، وذكر اسمه على السكة، وقال: أنا أعلم أنه لا يفي لي؛ فأرسل من يستحلفه على ما أراد، فتم الصلح، وخرج إلى خوارزم شاه، فخلع عليه، وأعادته إلى بلده، وكان سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة.

ثم سار خوارزم شاه إلى كرزيان ليحاصرها، وبها علي بن أبي علي، وأرسل إلى غياث الدين يقول: إن هذه كان قد أقطعها عمك لابن خرميل، فتنزل عنها؛ فامتنع، وقال: بيني وبينكم السيف؛ فأرسل إليه خوارزم شاه مع محمد بن علي بن بشير فرغبه، وأيسه من نجدة غياث الدين، ولم يزل به حتى نزل عنها وسلمها، وعاد إلى فيروزكوه، فأمر غياث الدين بقتله، فشفع فيه الأمراء، فتركه، وسلم خوارزم شاه كرزيان إلى ابن خرميل، ثم أرسل إلى عماد الدين، صاحب بلخ، يطلبه إليه، ويقول: قد حضر مهم ولا غنى عن حضورك، فأتى اليوم من أخص أوليائنا؛ فحضر عنده، فقبض عليه

ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين بأهل ابن خرميل وماله عزموا على قبضه والمكاتبة إلى غياث الدين بإنفاذ من يتسلم البلد، وكتب القاضي صاعد، قاضي هراة، وابن زياد إلى غياث الدين بذلك؛ فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين بأهله، وبما عزم عليه أهل هراة، خاف أن يعاجلوه بالقبض، فحضر عند القاضي، وأحضر أعيان البلد، والآن لهم القول، وتقرب إليهم، وأظهر طاعة غياث الدين، وقال: قد رددت عسكر خوارزم شاه، وأريد أن أرسل رسولا إلى غياث الدين بطاعتي، والذي أؤثره منكم أن (٢٢٨/١٢) تكتبوا معه كتاباً بطاعتي. فاستحسنوا قوله، وكتبوا له بما طلب، وسير رسوله إلى فيروزكوه، وأمره، إذا جئته الليل، أن يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزم شاه ويجد السير فإذا لحقهم ردهم إليه.

ففعل الرسول ما أمره، ولحق العسكر على يومين من هراة، فأمرهم بالعود، فعادوا، فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول وصلوا إلى هراة والرسول بين أيديهم، فلقبهم ابن خرميل، وأدخلهم البلد والطبول تضرب بين أيديهم، فلما دخلوا أخذ ابن زياد الفقيه فسملته، وأخرج القاضي صاعداً من البلد، فصار إلى غياث الدين بفيزروزكوه، وأخرج من عنده من الغورية، وكل من يعلم أنه يريد، وسلم أبواب البلد إلى الخوارزمية.

وأما غياث الدين فإنه برز عن فيروزكوه نحو هراة، وأرسل عسكراً، فأخذوا حشيراً كان لأهل هراة، فخرج الخوارزمية، فشنوا الغارة على هراة الروذ وغيرها، فأمر غياث الدين عسكره بالتقدم إلى هراة، وجعل المتقدم عليهم علي بن أبي علي، وأقام هو بفيزروزكوه لما بلغه أن خوارزم شاه على بلخ، فصار العسكر وعلى يركه الأمير أميران بن يقصر الذي كان صاحب الطالقان، وكان منحرفاً عن غياث الدين حيث أخذ منه الطالقان، فأرسل إلى ابن خرميل يعرفه أنه على اليك، ويأمره بالمجيء إليه، فإنه لا يمنعه، وحلف له على ذلك.

فصار ابن خرميل في عسكره، فكبس عسكر غياث الدين، فلم يلحقوا يركبون خيولهم حتى خالطوهم، فقتلوا فيهم، فكف ابن خرميل أصحابه عن الغورية خوفاً أن يهلكوا، وغنم أموالهم وأسر إسماعيل الخلمي، وأقام بمكانه، وأرسل عسكره فشنوا الغارة على البلاد باذغيس وغيرها. (٢٢٩/١٢)

وعظم الأمر على غياث الدين، فعزم على المسير إلى هراة بنفسه، فاتاه الخبر أن علاء الدين، صاحب باميان، قد عاد إلى غزنة على ما نذكره، فأقام ينتظر ما يكون منهم ومن الدُر.

وأما بلخ فإن خوارزم شاه لما بلغه قتل شهاب الدين أخرج من

وسيره إلى خوارزم، ومضى هو إلى بلخ، فأخذها واستتاب بها جعفرًا التركي. (٢٣١/١٢)

ذكر ملك خوارزم شاه ترمذ وتسليمها إلى الخطا

لما أخذ خوارزم شاه مدينة بلخ سار عنها إلى مدينة ترمذ مجذًا، وبها ولد عماد الدين كان صاحب بلخ، فأرسل إليه محمد بن علي بن بشير يقول له: إن أباك قد صار من أخص أصحابي وأكابر أمراء دولتي، وقد سلم إلي بلخ، وإنما ظهر لي منه ما أنكرته، فسيرته إلى خوارزم مكرماً محترماً، وأما أنت فتكون عندي أخاً.

ووعده، وأقطعه الكثير، فخذعه محمد بن علي، فرأى صاحبها أن خوارزم شاه قد حصره من جانب والخطا قد حصروه من جانب آخر، وأصحابه قد أسره الدز بغزته، فضغت نفسه، وأرسل من يستحلف له خوارزم شاه، فحلف له، وتسلم منه ترمذ وسلمها إلى الخطا، فلقد اكتسب بها خوارزم شاه سبة عظيمة، وذكرأ قبيحاً في عاجل الأمر؛ ثم ظهر للناس، بعد ذلك، أنه إنما سلمها إليهم ليتمكن بذلك من ملك خراسان، ثم يعود إليهم فيأخذها وغيرها منهم، لأنه لما ملك خراسان وقصد بلاد الخطا وأخذها وأفناهم علم الناس أنه فعل ذلك خديعةً ومكرًا، غفر الله له.

ذكر عود أولاد صاحب باميان إلى غزنة

قد ذكرنا قبل وصول الدز التركي إلى غزنة، وإخراجه علاء الدين وجلال الدين ولذي بهاء الدين سام، صاحب باميان، منها، بعد أن ملكها، وأقام هو في غزنة من عاشر رمضان سنة اثنين وستمائة إلى خامس ذي القعدة من (٢٣٢/١٢) السنة، يحسن السيرة، ويعدل في الرعية، وأقطع البلاد للأجناد، فبعضهم أقام، وبعضهم سار إلى غياث الدين بفيروزكوه، وبعضهم سار إلى علاء الدين، صاحب باميان، ولم يخطب لأحد، ولا لنفسه، وكان يعيد الناس بأن رسولي عند مولاي غياث الدين، فإذا عاد خطبته له؛ ففرح الناس بقوله.

وكان يفعل ذلك مكرًا وخديعةً بهم وبغياث الدين، لأنه لو لم يظهر ذلك لفارقه أكثر الأتراك وسائر الرعايا، وكان حينئذ يضعف عن مقاومة صاحب باميان، فكان يستخدم الأتراك وغيرهم بهذا القول وأشباهه.

فلما ظفر بصاحب باميان، على ما تذكره، أظهر ما كان يضره؛ فيبينما هو في هذا أنه الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولذي بهاء الدين، صاحب باميان، في العساكر الكثيرة، وأنهم قد عزموا على نهب غزنة، واستباحة الأموال والأنفس، فخاف الناس خوفاً شديداً، وجهز الدز كثيراً من عسكره وسيروهم إلى طريقهم، فلقوا

أوائل العسكر، فقتل من الأتراك [جماعة]، وأدركهم العسكر، فلم يكن لهم قوة بهم، فانهمزوا، وتبعهم عسكر علاء الدين يقتلون ويأسرون، فوصل المنهمزون إلى غزنة، فخرج عنها الدز منهزماً يطلب بلده كرمان، فأدركه بعض عسكر باميان، نحو ثلاثة آلاف فارس، فقاتلهم قتالاً شديداً، فردعهم عنه، وأحضر من كرمان مالا كثيراً، وسلاحاً، ففرقه في العسكر.

وأما علاء الدين وأخوه فإنهما تركا غزنة لم يدخلها، وسارا في أثر الدز، فسمع بهم، فسار عن كرمان، فنهب الناس بعضهم بعضاً، وملك علاء الدين كرمان، وأمنوا أهلها، وعزموا على العود إلى غزنة ونهبها، فسمع أهلها بذلك، فقصدوا القاضي سعيد بن مسعود وشكوا إليه حالهم، فمشى إلى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب، وأخبره بحال الناس، فطُلب قلوبهم، (٢٣٢/١٢) وأخبرهم غيره ممن يثقون به أنهم مجمعون على النهب، فاستعدوا، وضيقوا أبواب الدروب والشوارع، وأعدوا العرادات والأحجار، وجاءت التجار من العراق، والموصل، والشام، وغيرها، وشكوا إلى أصحاب السلطان، فلم يُشكهم أحد، فقصدوا دار مجد الدين بن الربيع، رسول الخليفة، واستأثروا به، فسكّتهم، ووعدهم الشفاعة فيهم وفي أهل البلد، فأرسل إلى أمير كبير من الغورية يقال له سليمان بن سيس، وكان شيخاً كبيراً يرجعون إلى قوله، يُعرفه الحال، ويقول له ليكتب إلى علاء الدين وأخيه يتشفع في الناس، ففعل، وبالغ في الشفاعة، وخوفهم من أهل البلد إن أصروا على النهب، فأجابوه إلى العفو عن الناس بعد مراجعات كثيرة.

وكانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة، فعوضوهم من الخزانة، فسكن الناس، وعاد العسكر إلى غزنة أواخر ذي القعدة ومعهم الخزانة التي أخذها الدز من مؤيد الملك، لما عاد معه شهاب الدين قتيلاً، فكانت مع ما أضيف إليها من الثياب والعين تسع مائة حمل، ومن جملة ما كان فيها من الثياب الممزج، المنسوج بالذهب، اثنا عشر ألف ثوب.

وعزم علاء الدين [أن] يستوزر مؤيد الملك، فسمع أخوه جلال الدين، فأحضره وخلع عليه، على كراهة منه للخليفة، واستوزره، فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك، وقبده، وحجسه، فتغيرت نيات الناس، واختلقوا، ثم إن علاء الدين وجلال الدين اقتسما الخزانة، وجرى بينهما من المشاحنة في القسمة ما لا يجري بين التجار، فاستدل بذلك الناس على أنهما لا يستقيم لهما حال لبخلهما، واختلافهما، وندم الأمراء على ميلهم إليهما، وتركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه وإحسانه. (٢٣٤/١٢)

ثم إن جلال الدين وعمه عباساً سارا في بعض العسكر إلى باميان، وبقي علاء الدين بغزنة، فأساء وزيره عماد الدين الملك

باميان، وأقام الدُرّ محاصراً للقلعة، فوصل جلال الدين في أربعة آلاف من عسكر باميان وغيرهم، فرحل الدُرّ إلى طريقهم، وكان مقامه إلى أن سار إليهم أربعين يوماً، فلما سار الدُرّ سِيراً علاء الدين من كان عنده من العسكر، وأمرهم أن يتأووا الدُرّ من خلفه، ويكون أخوه من بين يديه، فلا يسلم من عسكره أحد. فلما خرجوا من القلعة سار سليمان بن سيس الغوري إلى غياث الدين بغيروزكوه، فلما وصل إليه أكرمه وعظمه، وجعله أمير داذ فيروزكوه، وكان ذلك في صفر سنة ثلاث وستمئة. (٢٣٦/١٢)

وأما الدُرّ فإنه سار إلى طريق جلال الدين، فالتقوا بقرية بَلَقْ، فاقتلوا قتالاً صبروا فيه، فانهمز جلال الدين وعسكره، وأخذ جلال الدين أسيراً، وأتى به إلى الدُرّ، فلما رآه ترجل وقبّل يده، وأمر بالاحتياط عليه، وعاد إلى غزنة وجلال الدين معه وألف أسير من الباميانية، وغنم أصحابه أموالهم.

ولما عاد إلى غزنة أرسل إلى علاء الدين يقول له ليسلم القلعة إليه، وإلا قتل من عنده من الأسرى، فلم يسلمها، فقتل منهم أربع مائة أسير بإزاء القلعة، فلما رأى علاء الدين ذلك أرسل مؤيد الملك يطلب الأمان، فأتمه الدُرّ، فلما خرج قبض عليه ووكل به وبأخيه من يحفظهما، وقبض على وزيره عماد الملك لسوء سيرته، وكان هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش مع علاء الدين بقلعة غزنة، فلما خرج منها قبض عليه أيضاً، وكتب إلى غياث الدين بالفتح، وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى.

ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب إربل أذربيجان

في هذه السنة اتفق صاحب مراغة، وهو علاء الدين، هو ومظفر الدين كوكبري، صاحب إربل، على قصد أذربيجان، وأخذها من صاحبها أبي بكر بن البهلوان، لاشتغاله بالشرب ليلاً ونهاراً، وتركه النظر في أحوال المملكة، وحفظ العساكر والرعايا، فسار صاحب إربل إلى مراغة، واجتمع هو وصاحبها علاء الدين، وتقدما نحو تبريز، فلما علم صاحبها أبو بكر (٢٣٧/١٢) أرسل إلى إيدغمش، صاحب بلاد الجبل، هَذَانِ وَأَصْفَهَانِ والرأي وما بينهما من البلاد، وهو مملوك أبيه البهلوان، وهو في طاعة أبي بكر، إلا أنه قد غلب على البلاد، فلا يلتفت إلى أبي بكر، فأرسل إليه أبو بكر يستنجد، ويعرفه الحال، وكان حينئذ يبلد الإسماعيلية، فلما أتاه الخبر سار إليه في العساكر الكثيرة.

فلما حضر عنده أرسل إلى صاحب إربل يقول له: إننا كنا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم والخير وتحسن إليهم، فكنا نعتقد فيك الخير والدين، فلما كان الآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد الإسلام، وقتال المسلمين، ونهب أموالهم، وإثارة الفتنة، فإذا كنت كذلك فما لك عقل؟ تجيء إلينا، وأنت صاحب قرية، ونحن

السيرة مع الأجناد والرعية، ونهبت أموال الأتراك، حتى إنهم باعوا أمهات أولادهم ومن يبيكين ويصرخون ولا يلتفت إليهم.

ذكر عود الدُرّ إلى غزنة

لما سار جلال الدين عن غزنة، وأقام بها أخوه علاء الدين، جمع الدُرّ ومن معه من الأتراك عسكراً كثيراً وعادوا إلى غزنة، فوصلوا إلى كلوا فملكوها وقتلوا جماعة من الغورية، ووصل المنهزمون منها إلى كرمان، فسار الدُرّ إليهم، وجعل على مقدمته مملوكاً كبيراً من ممالك شهاب الدين، اسمه أي دكر التتر، في ألفي فارس من الخُلاج والأتراك والغز والغورية وغيرهم.

وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له ابن المؤيد، ومعه جماعة من الأمراء، منهم أبو علي بن سليمان بن سيس، وهو وأبوه من أعيان الغورية، وكانا مشتغلين باللعب واللهو والشرب، لا يفتنون عن ذلك، فقبل لهما: إن عسكر الأتراك قد قربوا منكم؛ فلم يلتفتا إلى ذلك، ولا تركا ما كان عليه، فهجم عليهم أي دكر التتر ومن معه من الأتراك، فلم يمهلهم يركبون خيولهم، فقتلوا عن آخرهم، منهم من قتل في المعركة، ومنهم من قتل صبراً، ولم ينسج إلا من تركه الأتراك عمداً.

ولما وصل الدُرّ فرأى أمراء الغورية كلهم قتلوا قال: كل هؤلاء قاتلونا؟ (٢٣٥/١٢) فقال أي دكر التتر: لا بل قتلناهم صبراً فلامه على ذلك، ووبخه، وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه، فسجد شكراً لله تعالى، وأمر بالمقتولين فغسلوا ودُفِنوا، وكان في جملة القتلى أبو علي بن سليمان بن سيس.

ووصل الخبر إلى غزنة في العشرين من ذي الحجة من هذه السنة، فصَلَبَ علاء الدين الذي جاء بالخبر، ففتحت السماء، وجاء مطر شديد خرب بعض غزنة، وجاء بعده بردٌ كبير مثل يبيض الدجاج، فضج الناس إلى علاء الدين بإنزال المصلوب، فأنزله آخر النهار، فانكشفت الظلمة، وسكن ما كانوا فيه.

وملك الدُرّ كرمان، وأحسن إلى أهلها، وكانوا في ضرٍ شديد مع أولئك.

ولما صحَّ الخبر عند علاء الدين أرسل وزيره صاحب إلى أخيه جلال الدين في باميان يخبره بحال الدُرّ، ويستنجد، وكان قد أعد العساكر ليسير إلى بلخ يُرحل عنها خوارزم شاه، فلما أتاه هذا الخبر ترك بلخ وسار إلى غزنة، وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقه، وفارقوا أخاه، وقصدوا غياث الدين، فلما كان أواخر ذي الحجة وصل الدُرّ إلى غزنة، ونزل هو وعسكره بإزاء قلعة غزنة، وحصر علاء الدين، وجري بينهم قتال شديد، وأمر الدُرّ فتودي في البلد بالأمان، وتسكين الناس من أهل البلد، والغورية، وعسكر

وكان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده ممّا يلي بلد حلب، فليس إليه طريق، لأنّ جميع بلاده لا طريق إليها إلاّ من جبال وعرة، ومضايق صعبة، فلا يقدر غيره على الدخول إليها، لا سيمّا من ناحية حلب، فإن الطريق منها متعذّر جدّاً، فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب، وجعل على مقدّمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه، يُعرف بميمون القصريّ، يُنسب إلى قصر الخلفاء العلويّين بمصر، لأنّ أباه منهم أخذه، فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحاً إلى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون، اسمه دريساك، وأنفذ إلى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده إلى طريق هذه الذخيرة ليسيروا معها إلى دريساك، ففعل ذلك، وسير جماعة كثيرة من عسكره، وبقي في قلّة، فبلغ الخبر إلى ابن ليون، فجعدّ، فوافاه وهو مخفّ من العسكر، فقاتله، واشتدّ القتال بينهم، فأرسل ميمون إلى الظاهر يعرفه، وكان بعيداً عنه، فطالت الحرب بينهم، وحمل ميمون نفسه وأتقاله على قلّة من المسلمين وكثرة من الأرمن، فانهزم المسلمون، ونال العدوّ منهم، فقتل وأسر، وكذلك أيضاً فعل المسلمون بالأرمن من كثرة القتل.

وظفر الأرمن بأتقال المسلمين فغنموا وساروا بها، فصادفهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر إلى دريساك، فلم يشعروا بالحال، فلم يؤخّهم إلاّ العدوّ وقد خالطهم ووضع السيف فيهم، فاقتتلوا أشدّ قتال، ثم انهزم المسلمون أيضاً، وعاد الأرمن إلى بلادهم بما غنموا واعتصموا بجبالهم وحصنهم. (٢٤٠/١٢)

ذكر نهب الكرّج أرمينية

في هذه السنة قصدت الكرّج في جموعها ولاية خيلاط من أرمينية، ونهبوا، وقتلوا، وأسروا وسبوا أهلها كثيراً، وجاسوا خلال الديار آمنين، ولم يخرج إليهم من خيلاط من يمنهم، فبقوا متصرفين في النهب والسبي، والبلاد شاغرة لا مانع لها، لأنّ صاحبها صبيّ، والمدير لدولته ليست له تلك الطاعة على الجند.

فلما اشتدّ البلاء على الناس تذا مروا، وحرّض بعضهم بعضاً، واجتمعت العساكر الإسلاميّة التي بتلك الولاية جميعها، وانضاف إليهم من المتطوّعة كثير، فساروا جميعهم نحو الكرّج وهم خائفون، فرأى بعض الصوفيّة الأخير الشيخ محمّداً البستيّ، وهو من الصالحين، وكان قد مات، فقال له الصوفيّ: أراك هاهنا؟ فقال: جئت لمساعدة المسلمين على عدوّهم. فاستيقظ فرحاً بمحلّ البستيّ من الإسلام، وأتى إلى مدير العسكر، والقّم بامرّه، وقصّ عليه رؤياه، ففرح بذلك، وقويّ عزمه على قصد الكرّج، وسار بالعساكر إليهم فنزل منزلاً.

فوصلت الأخبار إلى الكرّج، فعزموا على كبس المسلمين، فانطلقوا من موضعهم بالوادي إلى أعلاه، فنزلوا فيه ليكبسوا

لنا من باب خراسان إلى خيلاط وإلى إربل، واحسب أنّك هزمت هذا، أما تعلم أنّ له مماليك، أنا أحدهم، ولو أخذ من كلّ قرية شحنة، أو من كلّ مدينة عشرة رجال، لاجتمع له أضعاف عسكرك، فالمصلحة أنّك ترجع إلى بلدك؛ وإنّما أقول لك هذا إيقاظ عليك.

ثم سار نحوه عقيب هذه الرسالة، فلما سمعها مظفر الدين وبلغه مسير إيدغمش عزم على العود، فاجتهد به صاحب مراغة ليقم بمكانه، ويسلم عسكره إليه، وقال له: إنّني قد كاتبني جميع أمرائه ليكونوا معي إذا قصدتهم؛ فلم يقبل مظفر الدين من قوله، وعاد إلى بلده، وسلك الطريق الشاقّة، والمضايق الصعبة، والعقاب الشاهقة، خوفاً من الطلب.

ثم إنّ أبا بكر وإيدغمش قصدا مراغة وحصرها، فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه إلى أبي بكر، هي كانت سبب الاختلاف، وأقطعه أبو بكر مدينتيّ أسنوا وأرميّة وعاد عنه. (٢٣٨/١٢)

ذكر إيقاع إيدغمش بالإسماعيليّة

وفي هذه السنة سار إيدغمش إلى بلاد الإسماعيليّة المجاورة لقزوين، فقتل منهم مقتلة كبيرة، ونهب وسبى، وحصر قلاعهم، ففتح منها خمس قلاع، وصمّم العزم على حصر السّوت، واستئصال أهلها، فانفق ما ذكرنا من حركة صاحب مراغة وصاحب إربل، واستدعاه الأمير أبو بكر، ففارق بلادهم وسار إلى أبي بكر كما ذكرناه.

ذكر وصول عسكر من خوارزم إلى بلد الجبل وما كان منهم

وفي هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس بأهليهم وأولادهم إلى بلد الجبل، فوصلوا إلى زنكان، وكان إيدغمش صاحبها مشغولاً مع صاحب إربل وصاحب مراغة، واغتنموا خلوّ البلاد، فلما عاد مظفر الدين إلى بلده وانفصل الحال بين إيدغمش وصاحب مراغة سار إيدغمش نحو الخوارزميّة فلقيهم وقاتلهم فاشتدّ القتال بين الطائفتين ثم انهزم الخوارزميون وأخذهم السيف فقتل منهم وأسّر خلق كثير ولم ينج منهم إلاّ الشريد وسبي سبائهم وغنمت أموالهم، وكانوا قد أفسدوا في البلاد بالنهب والقتل فلحقوا عاقبة فعلهم.

ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب

وفي هذه السنة توالى الغارة من ابن ليون الأرمنيّ، صاحب الدروب، على ولاية حلب، فنهب، وحرّق، وأسّر، وسبى؛ فجمع الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف، صاحب حلب، عساكره، واستنجد غيره (٢٣٩/١٢) من الملوك، فجمع كثيراً من الفارس والراجل، وسار عن حلب نحو ابن ليون.

أغمد سيفه، وسلّ آبره.

وفيهما حُمل إلى إزبك خروف وجهه صورة آدمي، وبدنه بدن خروف، وكان هذا من المعجائب.

وفيهما توفّي القاضي أبو حامد محمّد بن محمّد المانداي الواسطي بها.

وفيهما، في شوال، توفّي فخر الدين مبارك شاه بن الحسن المروزي، وكان حسن الشعر بالفارسية والعربية، وله منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير، (٢٤٣/١٢) صاحب غزنة وهراة وغيرهما، وكان له دار ضيافة، فيها كُتب وشيظرنج، فالعلماء يطالعون الكتب، والجهال يلعبون بالشطرنج.

وفيهما، في ذي الحجة، توفّي أبو الحسن عليّ بن عليّ بن سعادة الفارقي، الفقيه الشافعي، ببغداد، وبقي مدة طويلة معيداً بالنظامية، وصار مدرّساً بالمدرسة التي أحدثها أمّ الخليفة الناصر لدين الله، وكان مع علمه صالحاً، طُلب للنيابة في القضاء ببغداد، فامتنع، فألزم بذلك، فوليه يسيراً؛ ثمّ في بعض الأيام مشى إلى جامع ابن المطّلب، فنزل، ولبس مئزر صوف غليظ، وغير ثيابه، وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف عنه، وأقام به حتى سكن الطلب عنه، وعاد إلى منزله بغير ولاية.

وفيهما وقع الشيخ أبو موسى المكيّ، المقيم بمقصورة جامع السلطان ببغداد، من سطح الجامع، فمات، وكان رجلاً صالحاً كثير العبادة.

وفيهما أيضاً توفّي العفيف أبو المكارم عرفة بن عليّ بن بصلا التبنديجيّ ببغداد، وكان رجلاً صالحاً، منقطعاً إلى العبادة، رحمه الله. (٢٤٤/١٢)

سنة ثلاث وستمائة

ذكر مُلك عَبّاس باميان وعودها إلى ابن أخيه.

في هذه السنة ملك عَبّاس باميان من علاء الدين وجلال الدين ولذّي أخيه بهاء الدين.

وسبب ذلك أنّ عسكر باميان لمّا انتهزموا من الدُر، وعادوا إليها، أخبروا أنّ علاء الدين وجلال الدين أُسرًا، وأنّ الدُر ومن معه غنموا ما في العسكر فأخذ وزير أبيهما، المعروف بالصاحب، من الأموال كثيراً، ومن الجواهر وغيرها من التحف، وأخذ فيلاً، وسار إلى خوارزم شاه يستجده على الدُر ليسير معه عسكرياً يستخلص به صاحبيّه.

فلمّا فرق باميان، ورأى عمّهما عباس خلّو البلد منه ومن ابنيّه

المسلمين إذا أظلم الليل، فأتى المسلمين الخبر، فقصدوا الكُرج وأمسكوا عليه رأس الوادي وأسفله، وهو وادٍ ليس إليه غير هذين الطريقين، فلَمّا رأى الكُرج ذلك (٢٤١/١٢) أيقنوا بالهلاك، وسقط في أيديهم، وطمع المسلمون فيهم، وضايقوهم، وقتلوه، فقتلوا منهم كثيراً، وأسرُوا مثلهم، ولم يُقتل من الكُرج إلّا القليل، وكفى الله المسلمين شرّهم بعد أن كانوا أشرفوا على الهلاك.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، توفّي الأمير طاشتكين مجير الدين، أمير الحاج، بسُتُر، وكان قد ولّاه الخليفة على جميع خوزستان، وكان أمير الحاج سنين كثيرة، وكان خيراً صالحاً، حسن السيرة، كثير العبادة، يتشعّع.

ولمّا مات ولّى الخليفة على خوزستان مملوكه سننجر، وهو صهر طاشتكين زوج ابنته.

وفيهما قُتل سننجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش، أمير عبادة، بالعراق. وكان سبب قتله أنّه سعى بأبيه مقلد إلى الخليفة الناصر لدين الله، فأمر بالتوكيل على أبيه، فبقي مدة ثمّ أطلقه الخليفة، ثمّ إنّ سننجر قتل أخاً له اسمه ... فاوغر بهذه الأسباب صدور أهله وإخوته، فلَمّا كان هذه السنة في شعبان نزل بأرض المعشوق، وركب في بعض الأيام، ومعه إخوته وغيرهم من أصحابه، فلَمّا انفرد عن أصحابه ضربه أخوه عليّ بن مقلد بالسيف فسقط إلى الأرض، فنزل إخوته إليه فقتلوه. (٢٤٢/١٢)

وفيهما تجهّز غياث الدين خُسرُو شاه، صاحب مدينة الروم، إلى مدينة طربزون، وحصر صاحبها لأنّه كان قد خرج عن طاعته، فضيّق عليه، فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم، والروس، وقفجاق وغيرها، برّاً وبحراً، ولم يخرج منهم أحدٌ إلى بلاد غياث الدين، فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس، لأنّهم كانوا يتجرون معهم، ويدخلون بلادهم، ويقصدهم التجار من الشام، والعراق، والموصل، والجزيرة وغيرها، فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير، فحيث لم يفتح الطريق تأذّوا أذى كثيراً، فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله.

وفيهما تزوّج أبو بكر بن البهلوان، صاحب أفزيجان وأران، بابنة ملك الكُرج، وسبب ذلك أنّ الكُرج تابعت الغارات منهم على بلاده لما رأوا من عجزه وانهماكه في الشرب واللعب وما جانسهما، وإعراضه عن تدبير الملك وحفظ البلاد، فلَمّا رأى هو أيضاً ذلك، ولم يكن عنده من الحميّة والأثفة من هذه المناحس ما يترك ما هو مُصّرّ عليه، وأنّه لا يقدر على الذبّ عن البلاد [بالسيف]، عدل إلى الذبّ عنها بأبره، فخطب ابنة ملكهم، فتزوّجها، فكفّ الكُرج عن النهب والإغارة والقتل، فكان كما قيل:

ووصل رسول غياث الدين إلى خوارزم شاه بالهدايا، ورأى الناس عجباً، وذلك أنَّ الخوارزميين لا يذكرون غياث الدين الكبير والد غياث الدين هذا، ولا يذكرون أيضاً شهاب الدين أخاه، وهما حيَّان، إلا بالغوري، وصاحب غزنة، وكان وزير خوارزم شاه الآن، مع عظم شأنه وقلة شأن غياث الدين هذا، لا يذكره إلا بمولانا السلطان مع ضعفه وعجزه وقلة بلاده.

وأما ابن خرميل فإنه سار من هراة في جمع من عسكر خوارزم شاه، فنزل على أسفزار في صفر، وكان صاحبها قد توجه إلى غياث الدين فحصرها وأرسل إلى من بها يقسم بالله لئن سلموها أن يؤمنهم، وإن امتنعوا أقام عليهم إلى أن يأخذهم، فإذا أخذهم قهراً لا يبقِي على كبير ولا صغير، فخافوا، فسلموها في ربيع الأول، فأمنهم ولم يتعرض إلى أهلها بسوء؛ فلما أخذها أرسل إلى حرب بن محمد، صاحب سيجستان، يدعوهُ إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له ببلاده، فأجابهُ إلى ذلك، وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك في الخطبة والدخول في طاعته، فغالطه ولم يجبه إلى ما طلب. (٢٤٧/١٢)

ولما كان خوارزم شاه على هراة عاد إليها القاضي صاعد بن الفضل الذي كان ابن خرميل قد أخرجه من هراة في العام الماضي، وسار إلى غياث الدين، فعاد الآن من عنده، فلما وصل قال ابن خرميل لخوارزم شاه: إن هذا يميل إلى الغورية، ويريد دولتهم، ووقع فيه، فسجنه خوارزم شاه بقلعة زورن، وولى القضاء بهراة الصفي أبا بكر بن محمد السرخسي، وكان ينوب عنه صاعد وابنه في القضاء بهراة.

ذكر حال غياث الدين مع الدُر وأبيك

لما عاد الدُر إلى غزنة، وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين، كما ذكرناه، كتب إليه غياث الدين يطلبه بالخطبة له، فأجابه جواب مدافع، وكان جوابه في هذه المرة أشد منه فيما تقدّم، فأعاد غياث الدين إليه يقول: إما أن تخطب لنا، وإما أن نعرفنا ما في نفسك؛ فلما وصل الرسول بهذا أحضر خطيب غزنة وأمره [أن] يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين، فخطب لتاج الدين الدُر بغزنة.

فلما سمع الناس ذلك ساءهم، وتغيّرت نيّاتهم، ونيّات الأتراك الذين معه، ولم يروه أهلاً أن يخدموه، وإنما كانوا يطيعونه ظناً منهم أنه ينصر دولة غياث الدين، فلما خطب له أرسل إلى غياث الدين يقول له: بماذا تشتط عليّ، وتحتكم في هذه الخزانة؟ نحن جمعناها بأسيافتنا، وهذا الملك قد أخذته، وأنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة، وأقطعهم الإقطاعات، ووعدتني بأمر لم تقف عليها، فإن أنت اعتقتني خطبت لك وحضرت خدمتك.

أخيه، جمع أصحابه وقام في البلد فملكه، وصعد إلى القلعة فملكها، وأخرج أصحاب ابن أخيه علاء الدين وجلال الدين منها؛ فبلغ الخبر إلى الوزير السائر إلى خوارزم شاه، فعاد إلى باميان، وجمع الجموع الكثيرة، وحصر عباساً في القلعة، وكان مطاعاً في جميع ممالك بهاء الدين ولذته من بعده، وأقام عليه محاصراً، إلا أنه لم يكن معه من المال ما يقوم بما يحتاج إليه، إنما كان معه ما أخذه ليحمله إلى خوارزم شاه.

فلما خلاص جلال الدين من أسر الدُر، على ما نذكره، سار إلى باميان، (٢٤٥/١٢) فوصل إلى أروصف، وهي مدينة باميان، وجاء إليه وزير أبيه صاحب، واجتمع به، وساروا إلى القلاع، وراسلوا عباساً المتغلب عليها، ولطفوه، فسلم الجميع إلى جلال الدين وقال: إنما حفظها خوفاً أن يأخذها خوارزم شاه، فاستحسن فعله، وعاد إلى ملكه.

ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان

لما سلم خوارزم شاه يرمذ إلى الخطا سار عنها إلى مِهَنَّة وأنذخوي [وكتب] إلى سونج أمير أشكار، نائب غياث الدين محمود بالطالقان، يستميله، فعاد الرسول خائياً لم يجبه سونج إلى ما أراد منه، وجمع عسكره وخرج يحارب خوارزم شاه، فالتقوا بالقرب من الطالقان.

فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجذاً، حتى قارب عسكر خوارزم شاه، فالتقى نفسه إلى الأرض، ورمى سلاحه عنه، وقبل الأرض، وسأل العفو، فظنّ خوارزم شاه أنه سكران، فلما علم أنه صانع ذمّه وسبه، وقال: من يثق بهذا وأشباهه! ولم يلتفت إليه، وأخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب وأنفذه إلى غياث الدين مع رسول، وحمله رسالة تتضمن التقرب إليه والملاطفة له، واستتاب بالطالقان بعض أصحابه، وسار إلى قلاع كالوين وبيوار فخرج إليه حسام الدين عليّ بن أبي عليّ، صاحب كالوين، وقاتله على رؤوس الجبال، فأرسل إليه خوارزم شاه يتهدده إن لم يسلم إليه، (٢٤٦/١٢) فقال: أما أنا فمملوك، وأما هذه الحصون فهي أمانة بيدي، ولا أسلمها إلا إلى صاحبها؛ فاستحسن خوارزم شاه منه هذا، وأثنى عليه، وذمّ سونج.

ولما بلغ غياث الدين خبر سونج، وتسليمه الطالقان إلى خوارزم شاه، عظم عنده وشقّ عليه، فسأله أصحابه، وهوتوا الأمر.

ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار إلى هراة، فنزل بظاهرها، ولم يمكن ابن خرميل أحداً من الخوارزميين أن يتطرق بالأذى إلى أهلها، وإنما كانوا يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة، فيقطعون الطريق، وهذه عادة الخوارزميين.

غياث الدين، ويخبره أنه قد خطب له في بلاده، ويقول له إن لم يخطب له هو أيضاً بغزنة ويعود إلى طاعته، وإلا قصده وحاربه.

فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين إلى عتق الدُّز، بعد الامتناع الشديد، والعزم على مصالحة خوارزم شاه على ما يريد، وقصد غزنة ومحاربه بها؛ فلما أجابه إلى العتق أشهد عليه به، وأشهد عليه أيضاً بعتق قطب الدين أيبك، مملوك شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند، وأرسل إلى كل واحد منهما ألف قباء، وألف قنسوة، ومناطق الذهب، وسبوقاً كثيرة وجترين، ومائة رأس من الخيل، وأرسل إلى كل واحد منهما رسولاً، فقبل الدُّز الخيل، وردّ الجتر، وقال: نحن عبيد ومماليك، والجتر له أصحاب.

وسار رسول أيبك إليه، وكان بفرشاور قد ضبط المملكة وحفظ البلاد، ومنع المفسدين من الفساد والأذى، والناس معه في أمن، فلما قرب الرسول منه لقيه على بُعد، وترجل وقبل حافر الفرس، ولبس الخيلة، وقال: أما الجتر فلا يصلح للمماليك، وأما العتق فمقبول، وسوف أجازيه بعبودية الأبد.

وأما خوارزم شاه فإنه أرسل إلى غياث الدين يطلب منه أن يتصاهرا، ويطلب منه ابن خرميل صاحب هراة إلى طاعته، ويسير معه في العساكر إلى غزنة، فإذا ملكها من الدُّز اقتسموا المال أثلاثاً: ثلث لخوارزم شاه، وثلث لغياث الدين، وثلث للعسكر؛ فأجابه إلى ذلك، ولم يبق إلا الصلح، فوصل الخبر إلى خوارزم شاه بموت صاحب ماژندران، فسار عن هراة إلى مرو، وسمع الدُّز بالصلح، فجزع لذلك جزعاً عظيماً ظهر أثره عليه، وأرسل إلى غياث الدين: ما حملك على هذا؟ فقال: حملني عليه عصيانتك وخطاك عليّ. فسار الدُّز إلى تكياباذ فأخذها، وإلى بُست وثلث الأعمال فملكها، وقطع خطبة غياث الدين منها، وأرسل إلى صاحب ميجستان يأمره بإعادة الترحم (٢٤٩/١٢) على شهاب الدين، وقطع خطبة خوارزم شاه، وأرسل إلى ابن خرميل، صاحب هراة، بمثل ذلك، وتهذّهما بقصد بلادهما، فخافهما الناس.

ثم إن الدُّز أخرج جلال الدين، صاحب باميان، من أسره، وسير معه خمسة آلاف فارس مع أي دكر التتر، مملوك شهاب الدين، إلى باميان ليُعبدوه إلى ملكه، ويؤيلوا ابن عمه عنه، وزوجه ابنته؛ وسار معه أي دكر، فلما خلا به وبخه على لیسه خلعة الدُّز وقال له: أنتم ما رضيتم [أن] تلبسوا خلعة غياث الدين، وهو أكبر سناً منكم، وأشرف بيتاً تلبس خلعة هذا المأبون! يعني الدُّز، ودعاه إلى العود معه إلى غزنة، وأعلمه أن الأتراك كلهم مجمعون على خلاف الدُّز.

فلم يجبه إلى ذلك، فقال أي دكر: فإني لا أسير معك؛ وعاد إلى كابل، وهي إقطاعه، فلما وصل أي دكر إلى كابل لقيه رسول من قطب الدين أيبك إلى الدُّز يقبّح له فعله، ويأمره بإقامة خطبة

فلما علم أي دكر ذلك قويت نفسه على مخالفة الدُّز، وصمّ العزم على قصد غزنة. ووصل أيضاً رسول أيبك إلى غياث الدين بالهدايا والتحف، ويشير عليه بإجابة خوارزم شاه إلى ما طلب الآن، وعند الفراغ من أمر غزنة تسهل أمور خوارزم شاه وغيره، وأنفذ له ذهباً عليه اسمه، فكتب أي دكر إلى أيبك يُعرفه عصبان الدُّز على غياث الدين وما فعله في البلاد، وأنه على عزم مشاقّة الدُّز، وهو يتنظر أمره؛ فأعاد أيبك جوابه يأمره بقصد غزنة، فإن حصلت له القلعة أقام بها إلى أن يأتيه، وإن لم تحصل له القلعة (٢٥٠/١٢) وقصده الدُّز انحاز إليه، أو إلى غياث الدين، أو يعود إلى كابل.

فسار إلى غزنة، وكان جلال الدين قد كتب إلى الدُّز يخبره خبر أي دكر، وما عزم عليه، فكتب الدُّز إلى نوابه بقلعة غزنة يأمرهم بالاحتياط منه، فوصلها أي دكر أول رجب من السنة، وقد حذروه فلم يسلموا إليه القلعة، ومنعوه عنها، فأمر أصحابه بنهب البلد، فهربوا عدة مواضع منه، فتوسّط القاضي الحال بأن سلم إليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية، وأخذ له من التجار شيئاً آخر، وخطب أي دكر بغزنة لغياث الدين، وقطع خطبة الدُّز، ففرح الناس بذلك.

وكان مؤيد الملك ينوب عن الدُّز بالقلعة، ووصل الخبر إلى الدُّز بوصول أي دكر إلى غزنة، ووصول رسول أيبك إليه، ففتت في عضده، وخطب لغياث الدين في تكياباذ، وأسقط اسمه من الخطبة، فخطب له، ورحل إلى غزنة؛ فلما قاربها رحل أي دكر عنها إلى بلد الغور، فأقام في تمران، وكتب إلى غياث الدين يخبره بحاله، وأنفذ إليه المال الذي أخذه من الخزانة ومن أموال الناس، فأرسل إليه خيلاً، وأعتقه، وخاطبه بملك الأمراء، وردّ عليه المال الذي كان أخذه من الخزانة، وقال له: أما مال الخزانة فقد أعدناه إليك لتخرجه، وأما أموال التجار، وأهل البلد فقد أرسلته مع رسولي ليعاد إلى أربابه لئلا تفتح دولتنا بالظلم، وقد عوضتُك عنه ضعفه.

وأرسل أموال الناس إلى غزنة، إلى قاضي غزنة، وأمره أن يرّد المال المتخذ على أربابه، فأنهى القاضي الحال إلى الدُّز، وأشار عليه بالخطبة لغياث الدين، وقال: أنا أسعى في الوصلة بينكما والصُّهر والصلح؛ فأمره بذلك، فبلغ الخبر إلى غياث الدين، فأرسل إلى القاضي ينهيه عن المجيء إليه، وقال: لا (٢٥١/١٢) تسأل في عبد أبق قد بان فساده وأتضح عناده؛ فأقام بغزنة هو والدُّز، وسير غياث الدين عسكراً إلى أي دكر التتر، فأقاموا معه، وسير الدُّز عسكراً إلى روين كان، وهي لغياث الدين، وقد أقطعها لبعض

مضايقتهم، فظنَّ الفرنج أنَّ الروم يريدون إخراجهم من المدينة بهذا السبب، فوقع الخلف بينهم، فاقتلوا، فأرسل الروم إلى المسلمين، وطلبوهم ليسلموا إليهم البلد، فوصلوا إليهم، واجتمعوا على قتال الفرنج، فانهزم الفرنج ودخلوا الحصن فاعتصموا به، فأرسل المسلمون يطلبون غياث الدين، وهو بمدينة قونية، فسار إليهم مُجِداً في طائفة من (٢٥٣/١٢) عسكره، فوصلها ثاني شعبان، وتقرر الحال بينه وبين الروم، وتسلم المدينة الثالثة، وحصر الحصن الذي فيه الفرنج، وتسلمه وقتل كلَّ من كان به من الفرنج.

ذكر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده

في هذه السنة توفيَّ حُسام الدين أردشير، صاحب مازندران، وخلف ثلاثة أولاد، فملك بعده ابنه الأكبر، وأخرج أخاه الأوسط من البلاد، فقصده جرجان، وبها الملك عليّ شاه بن خوارزم شاه تكش، أخو خوارزم شاه محمد، وهو ينوب عن أخيه فيها، فشكا إليه ما صنع به أخوه من إخراجة من البلاد، وطلب منه أن ينجده عليه، ويأخذ له البلاد ليكون في طاعته، فكتب عليّ شاه إلى أخيه خوارزم شاه في ذلك، فأمره بالمسير معه إلى مازندران، وأخذ البلاد له، وإقامة الخطبة لخوارزم شاه فيها.

فساروا عن جرجان، فاتفق أنَّ حُسام الدين، صاحب مازندران، مات في ذلك الوقت، وملك البلاد بعده أخوه الأصغر، واستولى على القلاع والأموال، فدخل عليّ شاه البلاد، ومعه صاحب مازندران، فنهبوا وخربوها، وامتنع منهم الأخ الصغير بالقلاع، وأقام بقلعة كورا، وهي (٢٥٢/١٢) التي فيها الأموال والذخائر، وحصره فيها بعد أن ملكو أسامة البلاد مثل: سارية وآمل وغيرهما من البلاد والحصون، وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها، فصارت في طاعته، وعاد عليّ شاه إلى جرجان؛ وأقام ابن ملك مازندران في البلاد مالكا لها جميعها، سوى القلعة التي فيها أخوه الأصغر، وهو يرأسه، ويستميله، ويستعطفه، وأخوه لا يردَّ جواباً، ولا ينزل عن حصنه.

ذكر مُلك غياث الدين كِيخسرو مدينة انطاكية

في هذه السنة، ثالث شعبان، ملك غياث الدين كِيخسرو، صاحب قونية وبلد الروم، مدينة انطاكية بالأمان، وهي للروم على ساحل البحر.

وسبب ذلك أنه كان حصرها قبل هذا التاريخ، وأطال المقام عليها، وهدم عدة أبراج من سورها، ولم يبق إلا فتحها عنوة، فأرسل من [بها من] الروم إلى الفرنج الذين بجزيرة قبرس، وهي قرية منها، فاستنجدوهم، فوصل إليها جماعة منهم، فعند ذلك يش غياث الدين منها، ورحل عنها، وترك طائفة من عسكره بالقرب منها، بالجبال التي بينها وبين بلاده، وأمرهم بقطع الميرة منها.

فاستمرَّ الحال على ذلك مدة حتى ضاق بأهل البلد، واشتدَّ الأمر عليهم، فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن

ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلط وملك بلبان ومسير صاحب ماردن إلى خلط وعوده

وفي هذه السنة قبض عسكر خلط على صاحبها ولد بكتمر، وملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكرمان، وكتب أهل خلط إلى ناصر الدين أرتق ابن إيلغازي بن البي بن تمرشاش بن إيلغازي بن أرتق يستدعونهم إليها.

وسبب ذلك أنَّ ولد بكتمر كان صيباً جاهلاً، فقبض على الأمير شجاع الدين قتلخ، مملوك من مماليك شاه أرمن، وهو كان أتابكه، ومُدبر بلاده، وكان حسن السيرة مع الجند والرعية، فلما قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند والعامة، واشتغل هو باللّهو واللعب وإدمان الشرب، فكتب جماعة من عامة خلط، وجماعة من جند ناصر الدين، صاحب ماردن، يستدعونهم إليهم؛ وإنما كاتبوه دون غيره من الملوك لأنَّ أباه قطب الدين إيلغازي كان ابن أخت شاه أرمن بن سكرمان، وكان شاه أرمن قد حلف له الناس في حياته لأنَّه لم يكن له ولد، فلما تجلّدت بعده هذه الحادثة تذكروا تلك الأيمان، وقالوا: نستدعيه ونملكه، فأنه من أهل بيت شاه أرمن؛ فكتبوه وطلبوه إليهم. (٢٥٤/١٢)

ثم إنَّ بعض مماليك شاه أرمن، اسمه بلبان، وكان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة والعصيان، سار من خلط إلى ملازكرد وملكها، واجتمع الأجناد عليه، وكثر جمعه، وسار إلى خلط فحصرها، واتفق وصول صاحب ماردن إليها، وهو يظنُّ أنَّ أحداً لا يمتنع عليه، ويسلمون إليه المدينة، فنزل قريباً من خلط عدة أيام، فأرسل إليه بلبان يقول له: إنَّ أهل خلط قد اتهموني بالميل إليك، وهم يتفرون من العرب، والرأي أنك ترحل عائداً مرحلة واحدة وتقيم، فإذا تسلمت البلد سلمته إليك، لأنني لا يمكنني أن أملكه أنا.

ففعل صاحب ماردن ذلك، فلما أبعد عن خلط أرسل إليه يقول له: تعود إلى بلدك، ولا جئت إليك وأوقعت بك وبمن معك. وكان في قلّة من الجيش، فعاد إلى ماردن.

وكان الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب،

وظلمهم عن سد الثغور وحفظ البلاد.

ثم إن الله تعالى نظر إلى قلة ناصر الإسلام، فتولاه هو، فأمات ملكة الكُرج، واختلفوا فيما بينهم وكفى الله شرهم إلى آخر السنة.

ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب لرستان

في هذه السنة، في رمضان، سار عسكر الخليفة من خورستان مع مملوكه سنجر، وهو كان المتولي لتلك الأعمال؛ ولها بعد موت طاشتكين أمير الحاج، لأنه زوج ابنة طاشتكين، إلى جبال لرستان، وصاحبها يُعرف بأبي طاهر، وهي جبال منيعة بين فارس وأصبهان وخوزستان، فقاتلوا أهلها وعادوا منهزمين.

وسبب ذلك أن مملوكاً للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من أكابر مماليكه كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوي الرازي، واجتاز بخوزستان، وأخذ منها ما أمكنه ولحق بأبي طاهر صاحب لرستان، فأكرمه وعظمه وزوجه ابنته، ثم توفي أبو طاهر فقوي أمر قشتمر، وأطاعه أهل تلك الولاية.

فأمر سنجر بجمع العساكر وقصده وقاتله، ففعل سنجر ما أمر به، وجمع العساكر وسار إليه، فأرسل قشتمر يعتذر، ويسأل أن لا يقصد ولا يخرج عن العبودية، فلم يقبل عذره، فجمع أهل تلك الأعمال، ونزل إلى (٢٥٧/١٢) العسكر، فلقبهم، فهزمهم، وأرسل إلى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين إيدغمش، صاحب أصبهان وهمدان والري، يُعرفهما الحال، ويقول: إنني لا قوة لي بعسكر الخليفة، وربما أضيف إليهم عساكر أخرى من بغداد وعادوا إلى حربي، وحيتن لا أقدر بهم؛ وطلب منهما النجدة، وخوفهما من عسكر الخليفة إن ملك تلك الجبال، فأجاباه إلى ما طلب، فقوي جنانهم، واستمر على حاله.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قتل صبي صيباً آخر ببغداد، وكانا يتعاشران، وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة، فقال أحدهما للآخر: الساعة أضربك بهذه السكين؛ يمازحه بذلك، وأهوى نحوه بها، فدخلت في جوفه فمات، فهرب القاتل ثم أخذ وأمر به ليقتل، فلما أرادوا قتله طلب دواة و [ورقة] بيضاء، وكتب فيها من قوله:

قُيِّمْتُ عَلَى الْكَرِيمِ بِغَيْرِ زَادٍ مِنَ الْأَعْمَالِ بِالْقَلْبِ الشَّلِيمِ
وَسَوْءَ الظَّنِّ أَنْ تَعْتَدَ زَاداً إِذَا كَانَ الْقُدُومُ عَلَى كَرِيمِ

وفيهما حجّ برهان الدين صدر جهان محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مارة البخاري رأس الحنفية ببخارى، وهو كان صاحبها على الحقيقة، يؤدي الخراج إلى الخطأ، وينوب عنهم في البلد، فلما حجّ لمحمد سيرته في الطريق، (٢٥٨/١٢) ولم يصنع معروفًا، وكان قد أكرم ببغداد عند قدومه من بخارى، فلما عاد لم

صاحب خزان وديار الجزيرة، قد أرسل إلى صاحب ماردین، لَمَّا سمع أنه يريد قصد خيلاط، يقول له: إن سرت إلى خيلاط قصدتُ بذلك؛ وإنما خاف أن يملك خيلاط فيقوى عليهم، فلما سار إلى خيلاط جمع الأشراف العساكر وسار إلى ولاية ماردین، فاخذ دخلها، وأقام بدنييسر يجبي الأموال إليه، فلما فرغ منه عاد إلى خزان، فكان مثل صاحب ماردین كما قيل: خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين.

وأما بلبان فإنه جمع العسكر وحشد، وحصر خيلاط وضيق على أهلها، وبها ولد بكتمر، فجمع من عنده بالبلد من الأجناد والعامة، وخرج إليه، فالتقوا، فانهزم بلبان ومن معه من بين يديه، وعاد إلى الذي بيده من البلاد، وهو: ملازكرد وأرجيش وغيرهما من الحصون، وجمع العساكر، واستكثر منها، وعادوا حصار خيلاط وضيق على أهلها، فاضطروهم إلى خذلان (٢٥٥/١٢) ولد بكتمر لصغره، وجهله بالملك، واشتغاله بلهوه ولعبه، ثم قبضوا عليه في القلعة، وأرسلوا إلى بلبان وحلفوه على ما أرادوا، وسلموا إليه البلد وابن بكتمر، واستولى على جميع أعمال خيلاط، وسجن ابن بكتمر في قلعة هناك، واستقر ملكه، فسبحان من إذا أراد أمراً هباً أسبابه؛ بالأسس يقصدها شمس الدين محمد البهلوان وصلاح الدين يوسف بن أيوب، فلم يقدر أحدهما عليها، والآن يظهر هذا المملوك العاجز، القاصر عن الرجال والبلاد والأموال، فيملكها صفواً عفواً.

ثم إن نجم الدين أيوب بن العادل، صاحب ميافارقين، سار نحو ولاية خيلاط؛ وكان قد استولى [على] عدة حصون من أعمالها منها: حصن موسى ومدينته، فلما قارب خيلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته، فطمع، وأوغل في القرب، فاخذ عليه بلبان الطريق وقاتله فهزمه، ولم يُقتل من أصحابه إلا القليل وهم جرحى، وعاد إلى ميافارقين.

ذكر ملك الكُرج مدينة قرمى وموت ملك الكُرج

في هذه السنة ملك الكُرج حصن قرمى، من أعمال خيلاط، وكانوا قد حصروه مدة طويلة، وضيقوا على من فيه، وأخذوا دُخُل الولاية عدة سنين، وكل من يتولى خيلاط لا ينجدهم، ولا يسعى في راحة تصل إليهم.

وكان الوالي بها يواصل رسله في طلب النجدة، وإزاحة من عليه من الكُرج، فلا يجاب له دعاء، فلما طال الأمر عليه، ورأى أن لا ناصر له، صالح الكُرج على تسليم القلعة على مال كثير وإقطاع يأخذه منهم، وصارت دار (٢٥٦/١٢) شريك بعد أن كانت دار توحيد، فإنما لله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله أن يُسهل للإسلام وأهله نصراً من عنده، فإن ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم

أن تستنقذ المسلمين ويلاذهم من أيدي الكفار، وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكّم في الأموال والأبشار، ونحن ننفق معك على محاربة الخطأ، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكّة؛ فأجابه إلى ذلك، وقال: أخاف أنكم لا تفون لي.

فسير إليه صاحب سمرقند وجه أهل بخارى وسمرقند، بعد أن حلّفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمّنه، وضمنوا عنه الصدق والثبات على ما (٢٦٠/١٢) بذل، وجعلوا عنده رهائن، فشرع في إصلاح أمر خراسان، وتقرير قواعدها، فولّى أخاه عليّ شاه طبرستان مضافة إلى جرجان، وأمره بالحفظ والاحتياط، وولّى الأمير كزلك خان، وهو من أقارب أمّه وأعيان دولته، بنيسابور، وجعل معه عسكرياً؛ وولّى الأمير جلدك مدينة الخام، وولّى الأمير أمين الدين أبا بكر مدينة زوزن.

وكان أمين الدين هذا حملاً، ثم صار أكبر الأمراء، وهو الذي ملك كرمان، على ما ذكره إن شاء الله تعالى، وأقرّ الأمير الحسين على هراة، وجعل معه فيها ألف فارس من الخوارزمية، وصالح غياث الدين محموداً على ما بيده من بلاد الغور، وكرسير، واستناب في مرو وسرخس وغيرها من خراسان نوابها، وأمرهم بحسن السياسة، والحفظ، والاحتياط، وجمع عساكره جميعها، وسار إلى خوارزم، وتجهّز منها، وعبر جيحون، واجتمع بسلطان سمرقند، وسمع الخطأ، فحشدوا، وجمعوا، وجاؤوا إليه فجرى بينهم وقعات كثيرة ومغاورات، فتارة له وتارة عليه.

ذكر قتل ابن خرمل وحصر هراة

ثم إن ابن خرمل، صاحب هراة، رأى سوء معاملة عسكر خوارزم شاه للريّة، وتعذيبهم إلى الأموال، فقبض عليهم وحبسهم، وبعث رسلاً إلى خوارزم شاه يعتذر، ويعرّفه ما صنعوا، فعظم عليه، ولم يمكنه محاقته لاشتغاله (٢٦١/١٢) بقتال الخطأ، فكتب إليه يستحسن فعله، ويأمره بإنفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته إليهم، وقال له: إنني قد أمرت عز الدين جلدك بن طغرل، صاحب الخام، أن يكون عندك لما أعلمه من عقله، وحسن سيرته؛ وأرسل إلى جلدك يأمره بالمسير إلى هراة وأمر إليه أن يحتال في القبض على حسين بن خرمل ولو أوّل ساعة يلقاه.

فسار جلدك في ألفي فارس، وكان أبوه طغرل، أيام السلطان سنجر، والياً بهراة، فهوى إليها بالأشواق يختارها على جميع خراسان، فلما قارب هراة أمر ابن خرمل الناس بالخروج لتلقيه؛ وكان للحسين وزير يُعرف بخواجه صاحب، وكان كبيراً قد حنّته التجارب، فقال لابن خرمل: لا تخرج إلى لقائه، ودعه يدخل إليك متفرّداً، فإنني أخاف أن يغدر بك، وأن يكون خوارزم شاه أمر

يلتفت إليه لسوء سيرته مع الحاج، وسمّاه الحجاج صدر جهنم.

وفيهما، في شوال، مات شيخنا أبو الحرم مكي بن ريان بن شبة النحوي المقرّي بالموصل، وكان عارفاً بالتحقّق واللغة والقراءات، لم يكن في زمانه مثله، وكان ضريباً، وكان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه والحساب وغير ذلك معرفة حسنة؛ وكان من خيار عباد الله وصالحيه، كثير التواضع، لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة إلى الليل.

وفيهما فارق أمير الحاج مظفر الدين سقّر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج بموضع يقال له المرجوم، ومضى في طائفة من أصحابه إلى الشام، وسار الحاج ومعهم الجند، فوصلوا سالمين، ووصل هو إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فأقطعه إقطاعاً كثيراً بمصر، وأقام عنده إلى أن عاد إلى بغداد سنة ثمان وستمائة في جمادى الأولى؛ فإنه لما قبض الوزير أمن على نفسه، وأرسل يطلب العود، فأجيب إليه، فلمّا وصل أكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة.

وفيهما، في جمادى الآخرة، توفي أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الإسكندراني، المعروف بابن النطروني، في مارستان ببغداد، وكان قد مضى إلى المايورقي في رسالة بإفريقية، فحصل له منه عشرة آلاف دينار مغربيّة، فرّقها جميعها في بلده على معارف وأصدقائه، وكان فاضلاً خيراً، نعم الرجل، رحمه الله، وله شعر حسن، وكان قيماً بعلم الأدب، وأقام بالموصل مدة، واشتغل على الشيخ أبي الحرم، واجتمعت به كثيراً عنده. (٢٥٩/١٢)

سنة أربع وستمائة

ذكر ملك خوارزم شاه ما وراء النهر وما كان بخراسان من الفتن

وإصلاحها

في هذه السنة عبر علاء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطأ.

وسبب ذلك أن الخطأ كانوا قد طالت أيامهم ببلاد تركستان، وما وراء النهر، ونقلت وطأنهم على أهلها، ولهم في كلّ مدينة نائب يجبي إليهم الأموال، وهم يسكنون الخراكهات على عادتهم قبل أن يملكوا، وكان مقامهم بنواحي أوزكند، وبلاساغون، وكاشغر، وتلك النواحي، فاتفق أن سلطان السلاطين، وهو من أولاد الخانية، عريق النسب في الإسلام والملك، أنف وضجر من تحكّم الكفار على المسلمين، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: إن الله، عز وجل، قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود

بذلك. فقال : لا يجوز أن يقدم مثل هذا الأمير ولا التقيّه، وأخاف واحد..
أن يضطغن ذلك عليّ خوارزم شاه، وما أظنه يتجاسر عليّ.

ووصلت العساكر الإسلامية إلى خوارزم، ولم يروا السلطان معهم، فأرسلت أخت كزلك خان، صاحب نيسابور، وهو يحاصر هراة، وأعلمته الحال، فلمّا أتاه الخبر سار عن هراة ليلاً إلى نيسابور، وأحسن به الأمير أمين الدين أبو بكر، صاحب زوزن، فأراد هو ومن عنده من الأمراء منعه، مخافة أن يجري بينهم حرب يطمع بسببها أهل هراة فيهم، فيخرجون إليهم فيبلغون منهم ما يريدونه، فأمسكوا عن معارضته.

وكان خوارزم شاه قد خرب سور نيسابور لمّا ملكها من الغوريّة، فشرع كزلك خان يعمره، وأدخل إليها الميرة، واستكثر من الجند، وعزم على الاستيلاء على خراسان إن صحّ فقدّ السلطان.

وبلغ خبر عدم السلطان إلى أخيه عليّ شاه وهو بطبرستان، فدعا إلى نفسه، وقطع خطبة أخيه واستعدّ لطلب السلطنة، واختلطت خراسان اختلاطاً عظيماً.

وأما السلطان خوارزم شاه، فإنّه لمّا أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود : يجب أن تدع السلطنة في هذه الأيام، وتصير خادماً لعلّي أحتال في خلاصك؛ فشرع يخدم ابن مسعود، ويقدم له الطعام، ويخلعه ثيابه وخفّه، ويعظمه، (٢٦٤/١٢) فقال الرجل الذي أسرهما لابن مسعود : أرى هذا الرجل يعظمك، فمن أنت ؟ فقال : أنا فلان، وهذا غلامي؛ فقام إليه وأكرمه، وقال : لولا أنّ القوم عرفوا بمكانك عندي لأطلقتك؛ ثم تركه أياماً، فقال له ابن مسعود : إني أخاف أن يرجع المنهزمون، فلا يراني أهلي معهم، فيظنّون أنني قتلت، فيعملون العزاء والمأتم، وتضيّق صدورهم لذلك، ثمّ يقتسمون مالي فأهلك، وأحبّ أن تقرر عليّ شيئاً من المال حتّى أحمله إليك؛ فقرر عليه مالاً، وقال له : أريد أن تأمر رجلاً عاقلاً يذهب بكتابي إلى أهلي ويخبرهم بعافيتي، ويحضر معي من يحمل المال.

ثمّ قال : إنّ أصحابكم لا يعرفون أهلنا، ولكن هذا غلامي أثق به، ويصدقه أهلي؛ فأذن له الخطائي بإنفاده، فسيره وأرسل معه الخطائي فرساً، وعدة من الفرسان يحومونه، فساروا حتّى قاربوا خوارزم، وعاد الفرسان عن خوارزم شاه، ووصل خوارزم شاه إلى خوارزم، فاستبشر به الناس وضربت البشائر، وزينوا البلد، وأتته الأخبار بما صنع كزلك بنيسابور، وبما صنع أخوه عليّ شاه بطبرستان.

ذكر ما فعله خوارزم شاه بهراسان

لمّا وصل خوارزم شاه إلى خوارزم أتته الأخبار بما فعله كزلك خان وأخوه عليّ شاه وغيرهما، فسار إلى خراسان، وتبعته العساكر، فتقطعت، ووصل هو إليها في اليوم السادس ومع سته

فخرج إليه الحسين بن خرميل، فلمّا بصر كلّ واحد منهما صاحبه ترجّل للالتقاء، وكان جلدك قد أمر أصحابه بالقبض عليه، فاختلفوا بهما، وحالوا بين ابن خرميل وأصحابه، وقبضوا عليه، فأنهزم أصحابه ودخلوا المدينة وأخبروا الوزير بالحال، فأمر بإغلاق الباب والطلوع إلى الأسوار، واستعدّ للحصار، ونزل جلدك على البلد، وأرسل إلى الوزير يتهدّده، إن لم يسلم (٢٦٢/١٢) البلد، يقتل ابن خرميل، فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود الغوريّ، وقال لجلدك : لا أسلم البلد إليك، ولا إلى الغادر ابن خرميل، وإنما هو لغياث الدين، ولأبيه قبله.

فقدّموا ابن خرميل إلى السور، فخطب الوزير، وأمره بالتسليم، فلم يفعل، فقتل ابن خرميل، وهذه عاقبة الغدر، فقد تقدّم من أخبره عند شهاب الدين الغوريّ ما يدلّ على غدره، وكفرانه الإحسان ممّن أحسن إليه.

فلمّا قتل ابن خرميل كتب جلدك إلى خوارزم شاه بجلية الحال، فأنفذ خوارزم شاه إلى كزلك خان، والي نيسابور، والي أمين الدين أبي بكر، صاحب زوزن، يأمرهما بالمسير إلى هراة وحصارها وأخذها، فسارا في عشرة آلاف فارس، فنزلوا على هراة، وراسلوا الوزير بالتسليم، فلم يلتفت إليهم، وقال : ليس لكم من المحلّ ما يسلم إليكم مثل هراة، لكن إذا وصل السلطان خوارزم شاه سلّمتهما إليه. فقاتلوه، وجنّوا في قتاله، فلم يقدروا عليه.

وكان ابن خرميل قد حصّن هراة، وعمل لها أربعة أسوار محكمة، وحفر خندقها، وشحنها بالميرة، فلمّا فرغ من كلّ ما أراد قال : بقيت أخاف على هذه المدينة شيئاً واحداً، وهو أن تسكر المياه التي لها أياماً كثيرة، ثمّ ترسل دفعة واحدة فتخرق أسوارها. فلمّا حصّرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل، فسكرو المياه حتّى اجتمعت كثيراً، ثمّ أطلقوها على هراة فأحاطت بها ولم تصل إلى السور لأن أرض المدينة مرتفعة، فامتلا الخندق ماء، وصار حولها وخلاً، فانتقل العسكر عنهم، ولم يمكنهم القتال لبعدهم عن المدينة. وهذا كان قصد ابن خرميل : أن يمتلئ الخندق ماء، ويمنع الوحل من القرب من المدينة، فأقاموا مدّة حتّى نشف الماء، فكان قول ابن خرميل (٢٦٣/١٢) من أحسن الحيل.

ونعود إلى قتال خوارزم شاه الخطا وأمره؛ وأما خوارزم شاه فإنّه دام القتال بينه وبين الخطا، ففي بعض الأيام اقتتلوا، واشتدّ القتال، ودام بينهم، ثمّ انهزم المسلمون هزيمة قبيحة، وأسر كثير منهم، وقتل كثير. وكان من جملة الأسرى خوارزم شاه، وأسر معه أمير كبير يقال له فلان بن شهاب الدين [مسعود] أسرهما رجل

يذل الطاعة ويطلب الأمان، فأعطاه ذلك، فنزل إليه محمود، فقبض عليه أمير ملك، وعلى عليّ شاه أخوي خوارزم شاه، فسألاه أن يحملهما إلى خوارزم شاه ليرى فيهما رأيه، فأرسل إلى خوارزم شاه يعرفه الخبر، فأمره بقتلهما، فقتل في (٢٦٧/١٢) يوم واحد، واستقامت خراسان كلها لخوارزم شاه، وذلك سنة خمس وستمئة أيضاً.

وغيث الدين هذا هو آخر ملوك الغورية، ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة، وأعدلها وأكثرها جهاداً، وكان محمود هذا عادلاً حليماً، كريماً، من أحسن الملوك سيرة وأكرمهم أخلاقاً، رحمه الله تعالى.

ذكر عود خوارزم شاه إلى الخطا

لما استقرّ أمر خراسان لخوارزم شاه وعبر نهر جيحون، جمع له الخطا جمعاً عظيماً وساروا إليه، والمقدم عليهم شيخ دولتهم، القائم مقام الملك فيهم، المعروف بطاينكوه، وكان عمره قد جاوز مائة سنة، ولقي حروباً كثيرة، وكان مظفرًا حسن التدبير والعقل، واجتمع خوارزم شاه وصاحب سمرقند، وتضافوا هم والخطا سنة ست وستمئة، فجرت حروب لم يكن مثلها شدةً وصبراً، فانهمزم الخطا هزيمة منكورة، وقُتل منهم وأسر خلق لا يحصى.

وكان فيمن أسر طائينكوه مقدمهم، ووجيء به إلى خوارزم شاه، فأكرمه، وأجلسه على سرير، وسيره إلى خوارزم، ثم قصد خوارزم شاه إلى بلاد ما وراء النهر، فملكها مدينةً مدينةً، وناحيةً وناحيةً، حتى بلغ إلى مدينة أوزكند، وجعل نوابه فيها وعاد إلى خوارزم ومعه سلطان سمرقند، وكان من أحسن الناس صورةً، فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا إليه، فزوجه (٢٦٨/١٢) خوارزم شاه بابنته، وردّه إلى سمرقند، وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا.

ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين

لما عاد صاحب سمرقند إليها، ومعه شحنة لخوارزم شاه، أقام معه نحو سنة، فرأى [من] سوء سيرة الخوارزميين، وقبح معاملتهم، ما ندم [معه] على مفارقة الخطا، فأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه، ويعود إلى طاعته، وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديماً وحديثاً، وأخذ أصحاب خوارزم شاه، فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم في الأسواق كما يعلق القصاب اللحم، وأساء غاية إساءة، ومضى إلى القلعة ليقول زوجته ابنة خوارزم شاه، فأغلقت الأبواب، ووقفت بجوارها تمنعه، وأرسلت إليه تقول: أنا امرأة وقيل قبيح ولم يكن مني إليك ما أستوجب به هذا منك، ولعل تركي أحمد عاقبة، فاتق الله في أتركها واكل بها من يمنعتها التصرف في نفسها.

فرسان، وبلغ كذلك خان وصوله، (٢٦٥/١٢) فأخذ أمواله وعساكره وهرب نحو العراق، وبلغ أخاه عليّ شاه، فخافه، وسار على طريق قهستان ملتجئاً إلى غياث الدين محمود الغوري، صاحب فيروزكوه، فتلقاها، وأكرمه، وأنزله عنده.

وأما خوارزم شاه فإنه دخل نيسابور، وأصلح أمرها، وجعل فيها نائباً، وسار إلى هراة، فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه، وأحسن إلى أولئك الأمراء، ووثق بهم لأنهم صبروا على امثال أمره في تلك الحال ولم يتغيروا، ولم يلقوا من هراة غرضاً بحسن تدبير ذلك الوزير؛ فأرسل خوارزم شاه إلى الوزير يقول له: إنك وعدت عسكري أنك تسلم المدينة إذا حضر، وقد حضرت فسلم. فقال: لا أفعل، لأنّي أعرف أنكم غدارون، لا تبقون على أحد، ولا أسلم البلد إلا إلى غياث الدين محمود.

فغضب خوارزم شاه من ذلك، وزحف إليه بعساكره، فلم يكن فيه حيلة، فاتفق جماعة من أهل هراة وقالوا: هلك الناس من الجوع والقلّة، وقد تعطلت علينا معاشنا، وقد مضى سنة وشهر، وكان الوزير يعد بتسليم البلد إلى خوارزم شاه إذا وصل إليه، وقد حضر خوارزم شاه ولم يسلم، ويجب أن نحتال في تسليم البلد والمخلص من هذه الشدة التي نحن فيها.

فانتهى ذلك إلى الوزير، فبعث إليهم جماعة من عسكره، وأمرهم بالقبض عليهم، فمضى الجند إليهم، فثارت فتنة في البلد عظم خطبها، فاحتاج الوزير إلى تداركها بنفسه، فمضى لذلك، فكتب من البلد إلى خوارزم شاه بالخبر، وزحف إلى البلد وأهله مختلطون، فحربوا برجيين من السور، ودخلوا البلد فملكوه، وقبضوا على الوزير، فقتله خوارزم شاه، وملك البلد، وذلك سنة خمس وستمئة، وأصلح حاله، وسلمه إلى خاله أمير ملك، وهو من (٢٦٩/١٢) أعيان أمراءه، فلم يزل بيده حتى هلك خوارزم شاه.

وأما ابن شهاب الدين مسعود فإنه أقام عند الخطا مديدة، فقال له الذي استأمره يوماً: إن خوارزم شاه قد عدم فليس عندك من خبره؟ فقال له: أما تعرفه؟ قال: لا! قال: هو أسيرك الذي كان عندك. فقال: لم تعرفني حتى كنت أخدمه، وأسير بين يديه إلى مملكته؟ قال: خفتكم عليه. فقال الخطائي: مير بنا إليه؛ فسارا إليه، فأكرمهما، وأحسن إليهما، وبالغ في ذلك.

ذكر قتل غياث الدين محمود

لما سلم خوارزم شاه هراة إلى خاله أمير ملك وسار خوارزم، أمره أن يقصد غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام الغوري، صاحب الغور وفيروزكوه، وأن يقبض عليه وعلى أخيه عليّ شاه بن خوارزم شاه، ويأخذ فيروزكوه من غياث الدين.

فسار أمير ملك إلى فيروزكوه؛ وبلغ ذلك إلى محمود، فأرسل

لا تتعرض إلى ما أخذت من البلاد، وتقع بما في أيدينا.

وأرسل إليه كشلي خان ملك التتر [يقول]: إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا، فسادنا عليهم، ونحلف أننا إذا انتصرونا عليهم لا تقرب بلادك، وتقع بالمواضع التي ينزلونها؛ فأجاب كلا منهما: إنني معك، ومعاضدك على خصمك.

وسار بعساكره إلى أن نزل قريباً من الموضع الذي تصافوا فيه، فلم يخالطهم مخالطة يُعلم بها أنه من أحدهما، فكانت كل طائفة منهم تظن أنه معها، وتواقع الخطا والتتر، فانهزم الخطا هزيمة عظيمة، فمال حينئذ خوارزم شاه، وجعل يقتل ويأسر، وينهب، ولم يترك أحداً ينجو منهم، فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيرة مع ملكهم في موضع من نواحي الترك يحيط به جبل ليس إليه طريق إلا من جهة واحدة، تحصنوا فيه؛ وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة، وساروا في عسكره، وأنفذ خوارزم شاه إلى كشلي خان ملك التتر (٢٧١/١٢) بمن عليه بأنه حضر لمساعدته، ولولاه لما تمكن من الخطا، فاعترف له كشلي خان بذلك مدّة، ثم أرسل إليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا، وقال: كما أننا اتفقتنا على إبادتهم ينبغي أن تقتسم بلادهم؛ فقال: ليس لك عندي غير السيف، ولستم بأقوى من الخطا شوكة، ولا أعز ملكاً، فإن قعنت بالمساكنة، وإلا سرت إليك، وفعلت بك شراً ممّا فعلت بهم.

وتجهّز وسار حتّى نزل قريباً منهم، وعلم خوارزم شاه أنه لا طاقة له به، فكان يراوغه، فإذا سار إلى موضع قصد خوارزم شاه أهله وأئقلاهم فنيهاها، وإذا سمع أنّ طائفة سارت عن موطنهم سار إليها فأوقع بها، فأرسل إليه كشلي خان يقول له: ليس هذا فعل الملوك! هذا فعل اللصوص، وإلا إن كنت سلطاناً، كما تقول، فيجب أن نلتقي، فإما أن تهزمني وتملك البلاد التي بيدي، وإما أن أفعل أنا بك ذلك.

فكان يغالطه ولا يجيبه إلى ما طلب، لكنّه أمر أهل الشاش وفرغانة وأسفيجاب وكاسان، وما حولها من المدن التي لم يكن في الدنيا أنزه منها، ولا أحسن عمارة، بالجملة منها، واللاحاق ببلاد الإسلام، ثم خربها جميعها خوفاً من التتر أن يملكوها.

ثم اتفق خروج هؤلاء التتر الآخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جَنْكِيْزْ خان التهرجي على كشلي خان [ملك] التتر الأول، فاشتغل بهم كشلي خان عن خوارزم شاه، فخلا وجهه، فعبّر النهر إلى خراسان. (٢٧٢/١٢)

ذكر ملك نجم الدين ابن الملك العادل خلاط

في هذه السنة ملك الملك الأوحده نجم الدين أيوب ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب مدينة خلاط.

ووصل الخبر إلى خوارزم شاه فقامت قيامته، وغضب غضباً شديداً، وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء، فمعتة أمه عن ذلك، وقالت: إن هذا البلد قد أناه الناس من أقطار الأرض، ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل، فأمر بقتل أهل سمرقند، فنهته أمه، فأنتهى، وأمر عساكره بالتجهّز إلى ما وراء النهر، ومسيرهم إرسالاً، كلما تجهّز جماعة عبروا جيحون، فعبّر منهم خلق كثير لا يحصى، ثم عبّر هو بنفسه في آخرهم، ونزل على سمرقند، وأنفذ إلى صاحبها يقول له: قد فعلت ما لم يفعله مسلم، واستحللت (٢٦٩/١٢) من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر، وقد عفا الله عمّا سلف، فأخرج من البلاد وامض حيث شئت؛ فقال: لا أخرج وأفعل ما بدا لك.

فأمر عساكره بالزحف، فأشار عليه بعض من معه بأن يأمّر بعض الأمراء، إذا فتحوا البلد، أن يقصدوا الدرب الذي يسكنه التجار، فيمنع من نهيه والتطرق إليهم يسوء، فلأنهم غرباء، وكلهم كارهون لهذا الفعل. فأمر بعض الأمراء بذلك، وزحف، ونصب السلايل على السور، فلم يكن بأسرع من أن أخذوا البلد، وأذن لعسكره بالنهب، وقتل من يجدونه من أهل سمرقند، فنهب البلد، وقُتل أهله، ثلاثة أيام، فيقال إنهم قتلوا منهم مائتي ألف إنسان، وسلم ذلك الدرب الذي فيه الغرباء، فلم يعد منهم الفرد ولا الأدمي الواحد.

ثم أمر بالكف عن النهب والقتل، ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبّة وخوفاً، فأرسل يطلب الأمان، فقال: لا أمان لك عندي؛ فزحفوا عليها. فملكوها، وأمسروا صاحبها، وأحضره عند خوارزم شاه، فقيل الأرض وطلب العفو، فلم يعف عنه، وأمر بقتله، فقتل صبّراً، وقُتل معه جماعة من أقاربه، ولم يترك أحداً ممن يُنسب إلى الخانيّة، ورُتب فيها وفي سائر البلاد نوابه، ولم يبق لأحد معه في البلاد حكم.

ذكر الواقعة التي أفتت الخطا

لما فعل خوارزم شاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم إلى ملكهم، فإنه لم يحضر الحرب، فاجتمعوا عنده؛ وكان طائفة عظيمة من التتر قد خرجوا (٢٧٠/١٢) من بلادهم، حدود الصين قديماً، ونزلوا وراء بلاد تركستان، وكان بينهم وبين الخطا عدواة وحروب، فلما سمعوا بما فعله خوارزم شاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلي خان، فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل إلى خوارزم شاه يقول له: أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعصوّ عنه، وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به، وإنهم إن انتصروا علينا، وملكونا، فلا دافع لهم عنك، والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم، ونحن نحلف لك أننا إذا ظفروا بهم

مدينة عكا، فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من إطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك؛ ثم سار إلى حمص، فنزل على بُحيرة قدس، وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة، ودخل إلى بلاد طرابلس، وحاصر موضعاً (٢٧٤/١٢) يسمى القليعات، وأخذه صلحاً، وأطلق صاحبه، وغنم ما فيه من دواب وسلاح، وخرّبه، وتقدّم إلى طرابلس، فتهب، وأحرق، وسبي، وغنم وعاد، وكانت مدة مُقامة في بلد الفرنج اثني عشر يوماً، وعاد إلى بحيرة قدس.

وتردّدت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح، فلم تستقرّ قاعدة، ودخل الشتاء، وطلبت العساكر الشرقية العود إلى بلادهم قبل البرد الشديد، فنزل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها، وعاد إلى دمشق فشتى بها، وعادت عساكر ديار الجزيرة إلى أماكنها.

وكان سبب خروجه من مصر بالعساكر أنّ أهل قبرس من الفرنج أخذوا عدة قطع من أسطول مصر، وأسروا من فيها، فأرسل العادل إلى صاحب عكا في ردّ ما أخذ، ويقول: نحن صلح، فلم غدرتم بأصحابنا؟ فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لسي عليهم حكم، وأنّ مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية؛ ثم إنّ أهل قبرس ساروا إلى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم وتعذّرت عليهم الأقوات، وعاد حكم قبرس إلى صاحب عكا، وأعاد العادل مراسلته فلم ينفصل حاله، فخرج بالعساكر، وفعل بعكا ما ذكرنا، فأجابه حينئذ صاحبها إلى ما طلب وأطلق الأسرى.

ذكر الفتنة بغلاط وقتل كثير من أهلها

لما تمّ ملك خلاط وأعمالها للملك الأوحّد بن العادل سار عنها إلى ملازكرد ليقرّر قواعدها أيضاً، ويفعل ما ينبغي أن يفعله فيها، فلما فارق خلاط وثب أهلها على من بها من العسكر فأخرجوه من عندهم، وعصوا، وحصروا القلعة وبها أصحاب الأوحّد، ونادوا بشعار شاه أرمن، وإن كان ميتاً، يعنون بذلك ردّ الملك إلى أصحابه ومماليكه. (٢٧٥/١٢) فبلغ الخبر إلى الملك الأوحّد، فعاد إليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوي بهم، وحصر خلاط، فاختلف أهلها، فمال إليه بعضهم حسداً للآخرين، فملكها، وقتل بها خلقاً كثيراً من أهلها، وأسر جماعة من الأعيان، فسبّهم إلى ميافارقين؛ وكان كلّ يوم يرسل إليهم يقتل منهم جماعة، فلم يسلم إلا القليل، وذلل أهل خلاط بعد هذه الواقعة، وتفرّقت كلمة الفتيان وكان الحكم إليهم، وكفّي الناس شرهم، فإنهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكاً ويقتلون آخر، والسلطنة عندهم لا حكم لها وإنما الحكم لهم وإليهم.

ذكر ملك أبي بكر بن البهلوان مراغة

في هذه السنة ملك الأمير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان، صاحب إدريجان، مدينة مراغة.

وسبب ذلك أنّه كان بمدينة ميافارقين من أبيه، فلما كان من ملك بلبان خلاط ما ذكرناه، قصد هو مدينة موش، وحصرها، وأخذها، وأخذ معها ما يجاورها، وكان بلبان لم تثبت قدمه حتّى يمنعه، فلما ملكها طمع في خلاط، فسار إليها، فهزمه بلبان، كما ذكرناه أيضاً، فعاد إلى بلده، وجمع وحشد، وسير إليه أبوه جيشاً، فقصد خلاط، فسار إليه بلبان، فتصافا واقتلا، فانهزم بلبان، وتمكّن نجم الدين من البلاد، وازداد منها.

ودخل بلبان خلاط واعتصم بها، وأرسل رسولاً إلى بغيت الدين طغرل شاه بن قلیج أرسلان، وهو صاحب أرزن الروم، يستنجده على نجم الدين، فحضر بنفسه ومعه عسكره، فاجتمعوا، وهزما نجم الدين، وحصروا موش، فأشرف الحصن على أن يملك، فغدر ابن قلیج أرسلان بصاحب خلاط وقتله طمعاً في البلاد، فلما قتله سار إلى خلاط، فمنعه أهلها عنها، فسار إلى ملازكرد، فردّه أهلها أيضاً، وامتنعوا عليه، فلما لم يجد في شيء من البلاد مطعماً عاد إلى بلده.

فأرسل أهل خلاط إلى نجم الدين يستدعونه إليهم ليملكوه، فحضر عندهم، وملك خلاط وأعمالها سوى السير منها، وكره الملوك المجاورون له ملكه لها خوفاً من أبيه، وكذلك أيضاً خافه الكُرج وكرهوه، فتابعوا الفارات على أعمال (٢٧٣/١٢) خلاط وبلادها، ونجم الدين مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها، فلقي المسلمون من ذلك أذى شديداً.

واعتزل جماعة من عسكر خلاط، واستلوا على حصن وان، وهو من أعظم الحصون وأمنعها، وعصوا على نجم الدين، واجتمع إليهم جمع كثير، وملكوا مدينة أرجيش، فأرسل نجم الدين إلى أبيه الملك العادل يعرفه الحال، ويطلب منه أن يمدّه بعسكر، فسّير إليه أخاه الملك الأشرف موسى بن العادل في عسكر، فاجتمعوا في عسكر كثير، وحصروا قلعة وان وبها الخلاطية، وجذّوا في قتالهم، فضيّف أولئك عن مقاومتهم، فسلموها صلحاً وخرجوا، منها وتسلمها نجم الدين، واستقرّ ملكه بخلاط وأعمالها، وعاد أخوه الأشرف إلى بلدة حرّان والرّها.

ذكر غارات الفرنج بالشام

وفي هذه السنة كثّر الفرنج الذين بطرابلس وحصن الأكرا، وأكثروا الإغارة على بلد حمص وللاياتها، ونازلوا مدينة حمص، وكان جمعهم كثيراً فلم يكن لصاحبها أمّد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة ولا يقدر على دفعهم ومنعهم، فاستنجد الظاهر غازي، صاحب حلب، وغيره من ملوك الشام، فلم ينجده إلا الظاهر، فإنّه سبّره له عسكراً أقاموا عنده، ومنعوا الفرنج عن ولايته.

ثم إنّ الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة، وقصد

لنفسك موضعاً تنتقل إليه موفوراً محترماً.

فاختار أن يكون تحت الاستظهار من جانب الخليفة لئلا يتمكن منه العدو فتذهب نفسه، ففعل به ذلك.

وكان حسن السيرة، قريباً إلى الناس، حسن اللقاء لهم والانسياط معهم، عفيفاً عن أموالهم غير ظالم لهم، فلما قبض عاد أمير الحاج من مصر وكان في الخدمة العادلة، وعاد أيضاً قشتمر، وأقيم في النيابة في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن أمسينا الواسطي إلا أنه لم يكن متحكماً.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب زلزلت الأرض وقت السحر، وكنت حيثش بالموصل، ولم تكن بها شديدة، وجاءت الأخبار من كثير من البلاد بأنها زلزلت ولم تكن بالقوية. (٢٧٨/١٢) وفيها أطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع وما يؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس من سائر المبيعات، وكان مبلغاً كثيراً. وكان سبب ذلك أن بنتاً لعز الدين نجاح شرابي الخليفة توفيت، فاشتري لها بقر لتذبح وتصدق بلحمها عنها، فرفعوا في حساب ثمنها مؤونة البقر، فكانت كثيرة، فوقف الخليفة على ذلك، وأمر بإطلاق المؤونة جميعها.

وفيها، في شهر رمضان، أمر الخليفة ببناء دور في المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء، وسميت دور الضيافة، يطبخ فيها اللحم الضأن، والخبز الجيد، عمل ذلك في جانبي بغداد، وجعل في كل دار من يوثق بآمانته، وكان يعطي كل إنسان قدحاً مملوءاً من الطبخ واللحم، ومناً من الخبز، فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة.

وفيها زادت دجلة زيادة كثيرة، ودخل الماء في خندق ببغداد من ناحية باب كواذي، فخيف على البلد من الغرق، فاهتم الخليفة بسد الخندق، وركب فخر الدين نائب الوزارة وعز الدين الشرابي ووفقا ظاهر البلد، فلم يبرحا حتى سد الخندق.

وفيها توفي الشيخ حنبل بن عبد الله بن الفرج الكبير بجامع الرصافة، وكان عالي الإسناد، روى عن ابن الحصين مُسند أحمد بن حنبل، وله إسناد حسن، وقدم الموصل، وحدث بها وبغيرها. (٢٧٩/١٢)

سنة خمس وستمائة

ذكر ملك الكرج أرجيش وعودهم عنها

في هذه السنة سارت الكرج في جموعها إلى ولاية خلط، وقصدوا مدينة أرجيش، فحصروها وملكوها عنوة، ونهبوا جميع ما

وسبب ذلك أن صاحبها علاء الدين قراستقر مات هذه السنة، وولي بعده ابن له طفل، وقام بتدبير دولته وتربيته خادم كان لأبيه، فعصى عليه أمير كان مع أبيه وجمع جمعاً كثيراً، فأرسل إليه الخادم من عنده من العسكر، فقاتلهم ذلك الأمير، فانهزموا، واستقر ملك ولد علاء الدين، إلا أنه لم تطل أيامه حتى توفي في أول سنة خمس وستمائة، وانقرض أهل بيته، ولم يبق منهم أحد.

فلما توفي سار نصرة الدين أبو بكر من تبريز إلى مراغة فملكها واستولى على جميع مملكة آل قراستقر، ما عدا قلعة زوين دز فإنها اعتصم بها الخادم، وعنده الخزائن والذخائر، فامتنع بها على الأمير أبي بكر. (٢٧٦/١٢)

ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة

كان نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي هذا من أهل الري، من بيت كبير، فقدم بغداد لما ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الري، ولقي من الخليفة قبولا، فجعله نائب الوزارة ثم جعله وزيراً، وحكمه وجعل ابنه صاحب المخزن.

فلما كان في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل، وأغلق بابه، وكان سبب عزله أنه أساء السيرة مع أكابر ممالك الخليفة، فمنهم أمير الحاج مظفر الدين سُنقر المعروف بوجه السبع، فإنه هرب من يده إلى الشام سنة ثلاث وستمائة، فارق الحاج بالمرحوم، وأرسل يعتذر من هربه ويقول: إني هربت من يد الوزير، ثم أتبعه الأمير جمال الدين قشتمر، وهو أخص الممالك وأثرهم عنده، ومضى إلى لرستان وأرسل يعتذر ويقول: إن الوزير يريد أن لا يبق في خدمة الخليفة أحداً من ممالكه، ولا شك [أنه] يريد [أن] يدعي الخلافة؛ وقال الناس في ذلك فاكثروا، وقالوا الشعر، فمن ذلك قول بعضهم:

الا بُلِّغ عَنِّي الخليفة أحمدًا توفى وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما فعالمك، يا خير البرية، ضائع
فإن كان حقاً من سلالة أحمد فهذا وزير في الخلافة طامع
(٢٧٧/١٢)

وإن كان فيما يدعي غير صادق فأضيق ما كانت لديه الصنائع
فعزله، وقيل في سبب ذلك غيره؛ ولما عزل أرسل إلى الخليفة يقول: إني قدمت إلى هاهنا وليس لي دينار ولا درهم، وقد حصل لي من الأموال والأعلاق النفيسة وغير ذلك ما يزيد على خمسة آلاف دينار؛ ويسأل أن يؤخذ منه الجميع ويُفرج عنه ويمكن من المقام بالمشهد أسوة ببعض العلويين.

فاجابه: إنا ما أنعمنا عليك بشيء فنوينا استعادته منك، ولو كان ملء الأرض ذهباً، ونفسك في أمان الله وأماننا، ولم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك، غير أن الأعداء قد أكثروا فيك، فاختر

آخر النهار، وعاد إلى داره، وسكر عند بعض حظايه، ففي الليل دخل الخلاء؛ وكان ابنه عند تلك الحظية، فدخل إليه داره فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة، ثم ذبحه، وتركه ملقى، ودخل الحمام وقعد يلعب مع الجوارى، فلو فتح باب الدار وأحضر الجند واستحلفهم لملك البلد، لكنه أمن واطمأن، ولم يشك في المُلْك.

فاتفق أن بعض الخدم الصغار خرج إلى الباب وأعلم أستاذ دار سنجر الخبر، فأحضر أعيان الدولة وعرفهم ذلك، وأغلق الأبواب على غازي، واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه، وأرسل إليه فأحضره من فرح ومعه أخوه مودود، فلما حلف الناس وسكنوا فتحوا باب الدار على غازي، ودخلوا عليه ليأخذوه، فمانعهم عن نفسه، فقتلوه وألقوه على باب الدار، فأكلت الكلاب بعض لحمه، ثم دفن بانيه.

ووصل محمود إلى البلد وملكه، ولقب بمعز الدين، لقب أبيه، فلما استقر أخذ كثيراً من الجوارى اللواتي لأبيه ففرقهن في دجلة.

ولقد حدثني صديق لنا أنه رأى بدجلة في مقدار غلوة سهم سبع جوار مغرقات، منهن ثلاث قد أحرقت وجوههن بالنار، فلم أعلم سبب ذلك الحريق حتى حدثني جارية اشتريتها بالموصل من جواريه، أن محموداً كان يأخذ الجارية فيجعل وجهها في النار، فإذا احترقت ألقاها في دجلة، ويأخذ من لم يفرقه منهن، فترقى أهل تلك الدار أيدي سباً.

وكان سنجر شاه قبيح السيرة، ظالماً، غاشماً، كثير المخاتلة والمواربة، (٢٨٢/١٢) والنظر في دقيق الأمور وجليلها، لا يمتنع من قبيح يفعله مع رعيته وغيرهم، من أخذ الأموال والأموال، والقتل، والإهانة، وسلك معهم طريقاً وعراً من قطع الألسنة والأنوف والأذان، وأما اللحي فإنه حلق منها ما لا يحصى. وكان جُلّ فكره في ظلم يفعله.

وبلغ من شدة ظلمه أنه كان إذا استدعى إنساناً ليحسن إليه لا يصل إلا وقد قارب الموت من شدة الخوف؛ واستعلى في أيامه السفهاء، ونفقت سوق الأشرار والساعين بالناس، فخرّب البلد، وتفرق أهله، لا جرم سلط الله عليه أقرب الخلق إليه فقتله ثم قتل ولده غازي، وبعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودوداً، وجرى في داره من التحريق والتفريق والتفريق ما ذكرنا بعضه، ولو رُما شرح قبح سيرته لطال، والله تعالى بالمرصاد لكل ظالم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، ثاني المحرم، توفي أبو الحسن ورام بن أبي فراس الزاهد بالحلة السيفية، وهو منها، وكان صالحاً.

وفي صفر توفي الشيخ مصدق بن شبيب النحوي، وهو من

بها من الأموال والأمتعة وغيرها، وأسرروا وسبوا أهلها، وأحرقوها، وخربوها بالكلفة، ولم يبق بها من أهلها أحد؛ فأصبحت خاوية على عروشها كان لم تغن بالأمس.

وكان نجم الدين أيوب، صاحب أرمينية، بمدينة خلاط، وعنده كثير من العساكر، فلم يقدم على الكرج لأسباب: منها كثرتهم، وخوفه من أهل خلاط لما كان أسلف إليهم من القتل والأذى؛ خاف أن يخرج منها فلا يمكن من العود إليها؛ فلما لم يخرج إلى قتال الكرج، عادوا إلى بلادهم سالمين، لم يذعروهم ذاعراً، وهذا جميعه، وأن كان عظيماً شديداً على الإسلام وأهله، فإنه يسير بالنسبة إلى ما كان ممّا نذكره سنة أربع عشرة إلى سنة سبع عشرة وستمئة.

ذكر قتل سنجر شاه ومُلْك ابنه محمود

في هذه السنة قُتل سنجر شاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب جزيرة ابن عمر، وهو ابن عم نور الدين، صاحب الموصل؛ قتله ابنه (٢٨٠/١٢) غازي؛ ولقد سلك ابنه في قتله طريقاً عجيباً يدل على مكر ودهاء.

وسبب ذلك أن سنجر كان سعى السيرة مع الناس كلهم من الرعية والجند والحريم والأولاد، وبلغ من قبح فعله مع أولاده أنه سير ابنه محموداً ومودوداً إلى قلعة فرح من بلد الزوزان، وأخرج ابنه هذا إلى دار بالمدينة أسكنه فيها، ووكل به من يمتعه من الخروج.

وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية، فكان يدخل إليه منها الحيات، والعقارب، وغيرهما من الحيوان المؤذي، ففي بعض الأيام اصطاد حية وسيرها في مندبل إلى أبيه لعله يرق له، فلم يعطف عليه، فأعمل الحيلة حتى نزل من الدار التي كان بها واختفى، ووضع إنساناً كان يخدمه، فخرج من الجزيرة وقصد الموصل، وأظهر أنه غازي بن سنجر، فلما سمع نور الدين بقرية منها أرسل نفقة، وثياباً، وخيلاً، وأمره بالعود، وقال: إن أباك يتجنى لنا الذنوب التي لم نعملها، ويقبح ذكرنا، فإذا صرت عندنا جعل ذلك ذريعة للشاعات والبشاعات، ونقع معه في صراع لا ينأى وليده؛ فسار إلى الشام.

وأما غازي بن سنجر فإنه تسلق إلى دار أبيه، واختفى عند بعض سراريه، وعلم به أكثر من بالدار، فسترت عليه بغضاً لأبيه، وتوَقَّعاً للخلاص منه لشدة عيونه، فبقي كذلك، وترك أبوه الطلب له ظناً منه أنه بالشام، [فاتفق] أن أباه، في بعض الأيام، شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه، فكان يقترح على المغنين أن يغنوا في الفراق وما شاكل ذلك، ويكي، ويظهر في قوله قرب الأجل، ودنو الموت، وزوال ما هو فيه، فلم يزل (٢٨١/١٢) كذلك إلى

أهل واسط.

وفي شعبان توفي القاضي محمد بن أحمد بن المنداي، الواسطي، بها، وكان كثير الرواية للحديث، وله إسناده عال، وهو آخر من حدث بمسند (٢٨٣/١٢) أحمد بن حنبل عن ابن الحصين.

وفيه توفي القوام أبو الفوارس نصر بن ناصر بن مكى المدائني، صاحب المخزن ببغداد، وكان أديباً، فاضلاً، كامل المروءة، يحب الأدب وأهله، ويحب الشعر، ويحسن الجوائز عليه، ولما توفي ولي بعده أبو الفتح المبارك ابن الوزير عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، وأكرم، وأعلي محلته، فبقي متوكلاً إلى سابع ذي القعدة وغزل لعجزه.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور وخراسان، وكان أشدّها بنيسابور وخرج أهلها إلى الصحراء أياماً حتى سكنت وعادوا إلى مساكنهم. (٢٨٤/١٢)

سنة ست وستائة

ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصره منجار وعوده عنها

وإتفاق نور الدين أرسلان شاه ومظفر الدين

في هذه السنة ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين، وحصر مدينة سنجار، والجميع من أعمال الجزيرة، وهو بيد قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود.

وسبب ذلك أنّ قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمّه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود، صاحب الموصل، عداوة مستحكمة، وقد تقدّم ذكر ذلك، فلما كان سنة خمس وستائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعادل، فإنّ ولدًا للعادل تزوّج بابتنة لنور الدين، وكان لنور الدين وزراء يحبّون أن يشتغل عنهم، فحسّوا له مراسلة العادل والاتّفاق معه على أن يقتسما بالبلاد التي لقطب الدين، وبالولاية التي لولد سنجر شاه بن غازي بن مودود، وهي جزيرة ابن عمر وأعمالها، فيكون ملك قطب الدين للعادل، وتكون الجزيرة لنور الدين.

فوافق هذا القول هوى نور الدين، فأرسل إلى العادل في المعنى، فأجاب به إلى ذلك مستبشراً، وجاءه ما لم يكن يرجوه لأنّه علم أنّه متى ملك هذه البلاد (٢٨٥/١٢) أخذ الموصل وغيرها؛ وأطمع نور الدين أيضاً في أن يعطي هذه البلاد، إذا ملكها، لولده الذي هو زوج ابنة نور الدين، ويكون مقامه في خدمته بالموصل، واستقرّت القاعدة على ذلك، وتحالفا عليها، فبادر العادل إلى المسير من دمشق إلى الفرات في عساكره، وقصد الخابور فأخذه.

فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف واستشعر، فأحضر من يرجع إلى رأيهم وقولهم، وعرفهم وصول العادل، واستشارهم فيما يفعل، فأما من أشاروا عليه بذلك فسكتوا، وكان فيهم من لم يعلم هذه الحال، فعظم الأمر، وأشار بالاستعداد للحصار، وجمع الرجال، وتحصيل الذخائر وما يحتاج إليه. فقال نور الدين: نحن فعلنا ذلك؛ وخبره الخير. فقال: بأي رأي تجيء إلى عدوّ لك هو أقوى منك، وأكثر جمعاً، وهو بعيد منك، متى تحرّك لقصدك تعلم به، فلا يصل إلّا وقد فرغت من جميع ما تريده، تسعى حتّى يصير قريباً منك، ويزداد قوّة إلى قوّة.

ثم إنّ الذي استقرّ بينكما أنّه له يملكه أولاً بغير تعب ولا مشقة، وتبقى أنت لا يمكنك أن تفارق الموصل إلى الجزيرة وتحصرها والعادل هاهنا، هذا إن وفي لك بما استقرّت القاعدة عليه لا يجوز أن تفارق الموصل، وإن عاد إلى الشام، لأنّه قد صار له ملك خلاط وبعض ديار بكر وديار الجزيرة جمينها، والجميع بيد أولاده، متى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها، فما زدت على أن آتيت نفسك وابن عمك، وقويت عدوك، وجعلته شعارك، وقد فات الأمر، وليس يجوز إلّا أن تقف معه على ما استقرّ بينكما لتلاّ يجعل لك حجة ويتدبّر بك.

هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين، وسار إلى سنجار فحصرها، (٢٨٦/١٢) وكان في عزم صاحبها قطب الدين أن يسلمها إلى العادل بعرض يأخذها عنها، فمنعه من ذلك أمير كان معه، اسمه أحمد بن يرنقش، مملوك أبيه زنكي، وقام بحفظ المدينة والذبّ عنها، وجّه نور الدين عسكراً مع ولده الملك القاهر ليسيروا إلى الملك العادل.

فبينما الأمر على ذلك إذ جاءهم أمر لم يكن لهم في حساب، وهو أنّ مظفر الدين كوكبري، صاحب إربل، أرسل وزيره [إلى] نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار، وأنّ الاتّفاق معه على ما يريد، فوصل الرسول ليلاً فوقف مقابل دار نور الدين وصاح، فعبّر إليه سفينة عبر فيها، واجتمع بنور الدين ليلاً وأبلغه الرسالة، فأجاب نور الدين إلى ما طلب من الموافقة، وحلف له على ذلك، وعاد الوزير من ليلته، فسار مظفر الدين، واجتمع هو ونور الدين، ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل.

وكان سبب ما فعله مظفر الدين أنّ صاحب سنجار أرسل ولده إلى مظفر الدين يستشفع به إلى العادل ليبقي عليه سنجار؛ وكان مظفر الدين يظنّ أنّه لو شفع في نصف ملك العادل لشفعه، لأنّره الجميل في خدمته، وقيامه في الذبّ عن ملكه غير مرّة كما تقدّم؛ فشفع إليه فلم يشفعه العادل، ظناً منه أنّه بعد اتّفاقه مع نور الدين لا يبالي بمظفر الدين، فلما ردّ العادل شفاعته راسل نور الدين في الموافقة عليه.

تصانيف مشهورة في التفسير والحديث، والنحو، والحساب، وغريب الحديث، وله رسائل مدونة، وكان كاتباً مفلحاً يضرب به المثل، ذا دين متين، ولزوم طريق مستقيم، رحمه الله ورضي عنه، فلقد كان من محاسن الزمان، ولعل من يقف على ما ذكرته يتهمني في قولي، ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أنني مقصر.

وفيها توفي المجد المطرزي، النحوي الخوارزمي، وكان إماماً في النحو، له فيه تصانيف حسنة.

وفيها توفي المؤيد بن عبد الرحيم بن الإخوة بأصفهان، وهو من أهل الحديث، رحمه الله. (٢٨٩/١٢)

سنة سبع وستمائة

ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر إليه كان قطب الدين سنجر، مملوك الخليفة الناصر لدين الله، قد ولّاه الخليفة خوزستان، بعد طاشتكين أمير الحاج كما ذكرناه، فلما كان سنة ست وستمائة بدا منه تغير عن الطاعة، فروسل في القدوم إلى بغداد، فغالط ولم يحضر؛ وكان يظهر الطاعة، ويظن التغلب على البلاد، فبقي الأمر كذلك إلى ربيع الأول من هذه السنة، فتقدم الخليفة إلى مؤيد الدين، نائب الوزارة، وإلى عز الدين بن نجاح الشرايبي، خاص الخليفة، بالمسير بالعساكر إليه بخوزستان وإخراجه عنها، فساروا في عساكر كثيرة إلى خوزستان، فلما تحقق سنجر قصدهم إليه فارق البلاد، ولحق بصاحب شيراز، وهو أتاكب عز الدين سعد بن دكلا، ملتجئاً إليه، فآكرمه وقام دونه.

ووصل عسكر الخليفة إلى خوزستان في ربيع الآخر بغير مناعة، فلما استقروا في البلاد راسلوا سنجر يدعونه إلى الطاعة، فلم يجب إلى ذلك، فساروا إلى أرجان عازمين على قصد صاحب شيراز، فأدركهم الشتاء، فأقاموا شهوراً والرسل مترددة بينهم وبين صاحب شيراز، فلم يجبههم (٢٩٠/١٢) إلى تسليمه، فلما دخل شوال رحلوا يريدون شيراز، فحينئذ أرسل صاحبها إلى الوزير والشرايبي يشفع فيه، ويطلب العهد له على أن لا يؤذي، فأجيب إلى ذلك، وسلمه إليهم هو وماله وأهله، فعادوا إلى بغداد وسنجر معهم تحت الاستظهار، وولّى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوتا أمير الحاج.

ووصل الوزير إلى بغداد في المحرم سنة ثمان وستمائة هو والشرايبي والعساكر، وخرج أهل بغداد إلى تلقيهم، فدخلوها وسنجر معهم ركباً على بغل بكاف، وفي رجله سلسلتان، في يد كل جندى سلسلة، وبقي محبوساً إلى أن دخل صفر، فجمع الخلق الكثير من الأمراء والأعيان إلى دار مؤيد الدين نائب الوزارة، فأحضر سنجر، وقُرر بأمور نسبت إليه منكراً، فأقر بها، فقال مؤيد

ولمّا وصل إلى الموصل، واجتمع بنور الدين، أرسل إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وهو صاحب حلب، وإلى كيخسرو بن قلع (٢٨٧/١٢) أرسلان، صاحب بلاد الروم، بالاتفاق معهما، فكلهما أجاب إلى ذلك، فتواعدوا على الحركة وقصد بلاد العادل إن امتنع من الصلح والإبقاء على صاحب سنجر، وأرسلوا أيضاً إلى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولاً إلى العادل في الصلح أيضاً، فقويت حيثئذ نفس صاحب سنجر على الامتناع، ووصلت رسل الخليفة، وهو هبة الله بن المبارك بن الضحّاك، أستاذ الدار، والأمير آق باش، وهو من خواص ممالك الخليفة وكبارهم، فوصلوا إلى الموصل، وساروا منها إلى العادل وهو يحاصر سنجر، وكان من معه لا يناصحوه في القتال لا سيما أسد الدين شيركوه، صاحب حمص والرجة، فإنه كان يدخل إليها الأغنام وغيرها من الأقوات ظاهراً، ولا يقاتل عليها، وكذلك غيره.

فلما وصلت رسل الخليفة إلى العادل أجاب أولاً إلى الرحيل، ثم امتنع عن ذلك، وغالط، وأطال الأمر لعلّه يبلغ منها غرضاً، فلم يزل منها ما أمّله، وأجاب إلى الصلح على أن يكون له ما أخذ وتبقى سنجر لصاحبها.

واستقرت القاعدة على ذلك، وتحالفوا على هذا كلّهم، وعلى أن يكونوا يداً واحدة على الناكث منهم؛ ورحل العادل عن سنجر إلى حرّان، وعاد مظفر الدين إلى إربل، وبقي كلّ واحد من الملوك في بلده، وكان مظفر الدين عند مقامه بالموصل قد زوج ابنتين له بولدين لنور الدين، وهما عز الدين مسعود، وعماد الدين زنكي.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، عزّل فخر الدين بن أمسينا عن نيابة الوزارة للخليفة، وألزم بيته، ثم نقل إلى المخزن على سبيل الاستظهار عليه، وولي (٢٨٧/١٢) بعده نيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن برز القمي، كاتب الإنشاء، ولقب مؤيد الدين، ونقل إلى دار الوزارة مقابل باب النوبي.

وفيها، في شوال، توفي مجد الدين يحيى بن الربيع، الفقيه الشافعي، مدرس النظامية ببغداد.

وفيها توفي فخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر بن خطيب الرّي، الفقيه الشافعي، صاحب التصانيف المشهورة في الفقه والأصولين وغيرهما، وكان إمام الدنيا في عصره، وبلغني أنّ مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسائة.

وفيها، سلخ ذي الحجة، توفي أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب، مولده في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين [وخمسائة]، وكان عالماً في عدة علوم مبرّراً فيها، منها: الفقه، والأصولان، والنحو، والحديث، واللغة، وله

الدين للناس : قد عرفت ما تقتضيه السياسة من عقوبة هذا الرجل، وقد عفا أمير المؤمنين عنه، وأمر بالخلع عليه، فلبسها وعاد إلى داره، فعجب الناس من ذلك.

وقيل إن أتاك سعد نهب مال سنجر وخزائنه ودوابه، وكل ما له وأصحابه، وسيرهم، فلماً وصل سنجر إلى الوزير والشرابي طلبوا المال، فأرسل شيئاً يسيراً، والله أعلم. (٢٩١/١٢)

ذكر وفاة نور الدين أرسلان شاه وشيء من سيرته

في هذه السنة، أواخر رجب، توفي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن أقيسكر، صاحب الموصل، وكان مرضه قد طال، ومزاجه قد فسد، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً، وكان شهماً شجاعاً، ذا سياسة للرعايا، شديداً على أصحابه، فكانوا يخافونه خوفاً شديداً، وكان ذلك مانعاً من تعدّي بعضهم على بعض؛ وكان له همة عالية، أعاد ناموس البيت الأتابكي وجاهه، وحرّمته، بعد أن كانت قد ذهبت، وخافه الملوك؛ وكان سريع الحركة في طلب الملك إلا أنه لم يكن له صبر، فلهذا لم يتسع ملكه، ولو لم يكن له من الفضيلة إلا أنه لما رحل الكامل بن العادل عن ماردين، كما ذكرناه سنة خمس وتسعين وخمسائة، عفا عنها، وأبقاها على صاحبها، ولو قصدناها وحصرها لم يكن فيها قوة الامتناع، لأن من كانوا بها كانوا قد هلكوا وضجروا، ولم يبق لهم رفق، فأبقاها على صاحبها.

ولما ملك استغاث به إنسان من التجار، فسأل عن حاله، فقيل إنه قد أدخل قماشه إلى البلد ليبيعه، فلم يتم له البيع، ويريد إخراجه، وقد منع من ذلك، فقال : من منعه ؟ فقيل : ضامن البز يريد منه ما جرت به العادة من المكس؛ وكان القيم يتدبير مملكته مجاهد الدين قايماز، وهو إلى جانبه، فسأله عن العادة كيف هي ؟ [فقال] : إن اشترط صاحبه إخراج متاعه مكن من إخراجه، وإن لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ما جرت العادة (٢٩٢/١٢) بأخذه. فقال : والله إن هذه العادة مدبرة، إنسان لا يبيع متاعه لأي شيء يؤخذ منه ماله ؟ فقال مجاهد الدين : لا شك في فساد هذه العادة؛ فقال : إذا قلت أنا وأنت إنها عادة فاسدة، فما المانع من تركها ؟ وتقدم بإخراج مال الرجل، وأن لا يؤخذ إلا ممن باع.

وسمعت أخى مجد الدين أبا السعادات، رحمه الله، وكان من أكثر الناس اختصاصاً به، يقول : ما قلت له يوماً في فعل خير فامتنع منه بل بادر إليه بفرح واستبشار؛ واستدعى في بعض الأيام أخى المذكور، فركب إلى داره، فلماً كان بباب الدار لقيته امرأة ويدها رقعة، وهي تشكو، وتطلب عرضها على نور الدين، فاخذها، فلماً دخل إليه جاره في مهم له، فقال : قبل كل شيء تقف على هذه الرقعة، وتقضي شغل صاحبها؛ فقال : لا حاجة إلى

فقال : نعم عرفت حالها؛ ثم انزعج فظهر منه الغيظ والغضب، وعنده رجلان هما القيمان بأمر دولته، فقال لأخي : أبصر إلى أي شيء قد دفعت مع هذين. هذه المرأة كان لها ابن، وقد مات من مدة في الموصل، وهو غريب، وخلف قماشاً ومملوكين، فاحتاط نواب بيت المال على القماش، وأحضرُوا المملوكين إلينا، فبقيا عندنا ننتظر حضور من يستحق التركة ليأخذها، فحضرت هذه المرأة ومعها كتاب حكمي بأن المال الذي مع ولداها لها، فتقدمنا بتسليم مالها إليها، وقلت لهذين : اشتريا المملوكين منها، وأنصافها في الثمن؛ فعادا وقالوا : لم يتم بيننا بيع، لأنها طلبت ثمناً كثيراً؛ فأمرتهما بإعادة المملوكين إليها من مدة شهرين وأكثر، وإلى الآن ما عُدت سمعت لها حديثاً، (٢٩٣/١٢) وظننت أنها أخذت مالها، ولا شك أنهما لم يتسلما المملوكين إليها، وقد استغاثت بهما، فلم يُصفاها، فجاءت إليك، وكل من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظن أنني أنا منعتها عن مالها، فيذمني، وينسبني إلى الظلم، وليس لي علم، وكل هذا فعل هذين، واشتبه أن تسلم أنت المملوكين وتسلمهما إليها؛ فاخذت المرأة مالها، وعادت شاكرة داعية، وله من هذا الجنس كثير لا نطول بذكره.

ذكر ولاية ابنه الملك القاهر

لما حضر نور الدين الموت أمر أن يرتب في الملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود، وحلف له الجند وأعيان الناس، وكان قد عهد إليه قبل موته بمدة، فجدد العهد له عند وفاته، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة عقر الحبيدية، وقلعة شوش، وولايتهما، وسيره إلى العفر، وأمر أن يتولّى تدبير مملكتهما، ويقوم بحفظهما والنظر في مصالحهما، فنه الأمير بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداده، وحسن سياسته وتدبيره، وكمال خلال السيادة فيه، وكان عمر القاهر حينئذ [عشر سنين].

ولما اشتد مرضه ويأس من نفسه أمره الأطباء بالانحدار إلى الحامة المعروفة بعين القيّارة، وهي بالقرب من الموصل، فانحدر إليها، فلم يجد بها راحة، وازداد ضعفاً، فأخذه بدر الدين وأصعده في الشبارة إلى الموصل، فتوفي في الطريق ليلاً ومعه الملاحون والأطباء، بينه وبينهم ستر. (٢٩٤/١٢)

وكان مع بدر الدين، عند نور الدين، مملوكان، فلما توفي نور الدين قال لهما : لا يسمع أحد بموته؛ وقال للأطباء والملاحين : لا يتكلم أحد، فقد نام السلطان؛ فسكوا، ووصلوا إلى الموصل في الليل، فأمر الأطباء والملاحين بمفارقة الشبارة لئلا يروه ميتاً، وأبعدوا، فحمله هو والمملوكان، وأدخله الدار، وتركه في الموضع

فلما كان الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلي، ونازعه في البلاد، وكثر أتباعه، وأطاعه العماليك البهلوانية، فاستولى عليها، وهرب منه شمس الدين إيدغمش إلى بغداد، فلما وصل إليها أمر الخليفة بالاحتفال له في اللقاة، فخرج الناس كافة، وكان يوم وصوله مشهوداً، ثم قدمت زوجته في رمضان في محمل، فأكرمت وأنزلت عند زوجها، وأقام ببغداد إلى سنة عشر وستمئة، فصار عنها، فكان من أمره ما نذكره. (٢٩٧/١٢)

ذكر نهب الحاج بمنى

وفي هذه السنة نهب الحاج بمنى؛ وسبب ذلك أن باطنياً وثب على بعض أهل الأمير قتادة، صاحب مكة، فقتله بمنى ظناً منه أنه قتادة، فلما سمع قتادة ذلك جمع الأشراف والعرب والعبيد وأهل مكة، وقصدوا الحاج، ونزلوا عليهم من الجبل، ورموهم بالحجارة والنبل وغير ذلك، وكان أمير الحاج ولد الأمير ياقوت المقدّم ذكره، وهو صبي لا يعرف كيف يفعل، فخاف وتحوّر، وتمكّن أمير مكة من نهب الحاج، فنهبوا منهم من كان في الأطراف، وأقاموا على حالهم إلى الليل.

فاضطرب الحاج، وابتوا بأسوأ حال من شدة الخوف من القتل والنهب. فقال بعض الناس لأمر الحاج ليتنقل بالحجاج إلى منزلة حجاج الشام، فأمر بالرحيل، فرفعوا أثقالهم على الجمال، واشتغل الناس بذلك، فطمع العدو فيهم، وتمكّن من النهب كيف أراد، فكانت الجمال تؤخذ بأحمالها، والتحق من سلم بحجاج الشام، فاجتمعوا بهم، ثم رحلوا إلى الزاهر، ومُنِعُوا من دخول مكة، ثم أُذن لهم في ذلك، فدخلوها وتمّموا حجّهم وعادوا.

ثم أرسل قتادة ولده وجماعة من أصحابه إلى بغداد، فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والأكفان، فقبّلوا العتبة، واعتذروا ممّا جرى على الحجاج. (٢٩٨/١٢)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أظهر الإسماعيلية، ومقدّمهم الجلال بن الصباح، الانتقال عن فعل المخدرات واستحلالها، وأمر بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام، وأرسل مقدّمهم رسلاً إلى الخليفة، وغيره من ملوك الإسلام، يخبرهم بذلك، وأرسل والدته إلى الحج، فأكرمت ببغداد إكراماً عظيماً، وكذلك بطريق مكة.

وفيها، سلخ جمادى الآخرة، وتوفي أبو حامد محمد بن يونس بن ميعه، الفقيه الشافعي، بمدينة الموصل، وكان إماماً فاضلاً، إليه انتهت رئاسة الشافعية، لم يكن في زمانه مثله، وكان حسن الأخلاق، كثير التجاوز عن الفقهاء والإحسان إليهم، رحمه الله.

الذي كان فيه ومعه المملوكان، ونزل على بابه من يثق به لا يمكن أحداً من الدخول والخروج، وقعد مع الناس يمضي أموراً كان يحتاج إلى إتمامها.

فلما فرغ من جميع ما يريد أظهر موته وقت العصر، ودُفن ليلاً بالمدرسة التي أنشأها مقابل داره، وضبط البلد تلك الليلة ضبطاً جيّداً بحيث إن الناس في الليل لم يزالوا متردّين لم يعلم من أحد ما مقداره الحبة الفرد، واستقرّ الملك لولده، وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر في مصالحها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في شهر ربيع الآخر، درس القاضي أبو زكريا يحيى بن القاسم ابن المفرج، قاضي تكريت، بالمدرسة النظامية ببغداد؛ استدعي من تكريت إليها.

وفيها نقصت دجلة بالعراق نقصاً كثيراً، حتّى كان الماء يجري ببغداد في نحر خمسة أذرع، وأمر الخليفة أن يُكرى دجلة، فجمع الخلق الكثير، (٢٩٥/١٢) وكانوا كلّما حفروا شيئاً عاد الرمل فغطّاه، وكان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد، وهذا لم يُعهد مثله.

وحجّ بالناس هذه السنة علاء الدين محمد ولد الأمير مجاهد الدين ياقوت أمير الحاج، وكان أبوه قد ولّاه الخليفة خوزستان، وجعله هو أمير الحاج، وجعل معه من يدبّر الحاج، لأنّه كان صبيّاً.

وفيها، في العشرين من ربيع الآخر، توفي ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي بن عبد الله الأمير البغدادي ببغداد، وهو سبط صدر الدين إسماعيل شيخ الشيوخ، وعمره سبع وثمانون سنة وشهور، وكان صوفيّاً، فقيهاً، محدثاً، سمعنا منه الكثير، رحمه الله؛ وكان من عباد الله الصالحين كثير العبادة والصلاح.

وفيها توفي شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادي، وكان عالي الإسناد. (٢٩٦/١٢)

سنة ثمان وستمئة

ذكر استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب

إيدغمش

في هذه السنة، في شعبان، قدم إيدغمش، صاحب همذان وأصفهان والرّي وما بينها من البلاد، إلى بغداد، هارباً من منكلي.

وسبب ذلك أن إيدغمش كان قد تمكّن في البلاد، وعظم شأنه، وانتشر صيته، وكثر عسكره، حتّى إنّه حصر صاحبه أبا بكر بن البهلوان، صاحب هذه البلاد : أذربيجان وأران، كما ذكرناه.

سنة عشر وستمائة

ذكر قتل إيدغمش

في هذه السنة، في المحرم، قُتل إيدغمش الذي كان صاحب همدان، وقد ذكرنا سنة ثمان أنه قدم إلى بغداد وأقام بها، فأنعم عليه الخليفة، وشرّفه بالخلع، وأعطاه الكوسات وما يحتاج إليه، وسيره إلى همدان، فسار في جمادى الآخرة عن بغداد قاصداً إلى همدان، فوصل إلى بلاد ابن ترجم واجتمعوا، وأقام ينتظر وصول عساكر بغداد إليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم.

وكان الخليفة قد عزل سليمان بن ترجم عن الإمارة على عشيرته من التركمان الإيوانية، وولّى أخاه الأصغر، فأرسل سليمان إلى منكلي يعرفه بحال إيدغمش، ومضى هو على وجهه، فأخذوه فقتلوه، وحملوا رأسه إلى منكلي، وشرّق من معه من أصحابه في البلاد لا يلوي أخ على أخيه.

ووصل الخبر بقتله إلى بغداد، فعظم على الخليفة ذلك، وأرسل إلى منكلي ينكر عليه ما فعل، فأجاب جواباً شديداً، وتمكّن من البلاد، وقوي أمره، وكثرت جموع عساكره، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله. (٣٠٢/١٢)

ذكر عدة حوادث

حجّ بالناس في هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلبي، نيابة عن أمير الحاج ياقوت، ومنع ابن ياقوت عن الحج لما جرى للحاج في ولايته.

وفيهما، في المحرم، توفي الحكيم المهذب علي بن أحمد بن هبل، الطبيب المشهور، كان أعلم أهل زمانه بالطب، روى الحديث، وكان مقبلاً بالموصل، وبها مات، وكان كثير الصدقة، حسن الأخلاق، وله تصنيف حسن في الطب.

وفيه توفي الضياء أحمد بن علي البغدادي، الفقيه الخبلي، صاحب ابن المني.

وفيه توفي أيضاً أحمد بن مسعود التركستاني، الفقيه الحنفي

بيغداد، وهو مدرّس مشهد أبي حنيفة.

وفيهما، في جمادى الأولى، توفي معزّ الدين أبو المعاني سعد بن علي المعروف بابن حديد الذي كان وزير الخليفة الناصر لدين الله، وكان قد ألزم بيته، ولما توفي حمل تابوته إلى مشهد أمير المؤمنين علي، عليه السلام، بالكوفة، وكان حسن السيرة في وزارته، كثير الخير والنفع للناس. (٣٠٣/١٢)

وفي شهر ربيع الأول توفي القاضي أبو الفضائل علي بن يوسف بن أحمد بن الأمدي الواسطي، قاضيهما، وكان نعم الرجل.

وفي شعبان توفي المعين أبو الفتح عبد الواحد بن أبي أحمد بن علي الأمين، شيخ الشيوخ ببغداد، وكان موته بجزيرة كاس، مضى إليها رسولاً من الخليفة، وكان من أصدقائنا، وبيننا وبينه مودة متأكدة، وصحبة كثيرة، وكان من عباد الله الصالحين، رحمه الله ورضي عنه؛ وله كتابة حسنة، وشعر جيد، وكان عالماً بالفقه وغيره، ولما توفي رتب أخوه زين الدين عبد الرزاق ابن أبي أحمد، وكان ناظرًا على المارستان العضدي، فتركه واقتص على الرباط.

وفي ذي الحجة توفي محمد بن يوسف بن محمد بن عبيد الله النيسابوري (٢٩٩/١٢) الكاتب الحسن الخط، وكان يؤدّي طريقة ابن البواب، وكان فقيهاً، حاسباً، متكلماً.

وتوفي عمر بن مسعود أبي العزّ أبو القاسم البرّاز البغدادي بها، وكان من الصالحين، يجتمع إليه الفقهاء كثيراً، ويحسن إليهم.

وتوفي أيضاً أبو سعيد الحسن بن محمد بن الحسن بن حمدون الثعلبي العدوي، وهو ولد مصنف التذكرة، وكان عالماً. (٣٠٠/١٢)

سنة تسع وستمائة

ذكر قتل ابن منكلي ببغداد

في هذه السنة، في المحرم، قدم محمد بن منكلي المستولي على بلاد الجبل إلى بغداد. وسبب ذلك أن أباه منكلي لما استولى على بلاد الجبل وهرب إيدغمش صاحبها منها إلى بغداد خاف أن يساعده الخليفة، ويرسل معه العساكر، فيعظم الأمر عليه، لأنّه لم يكن قد تمكّن في البلاد، فأرسل ولده محمدًا ومعه جماعة من العسكرة فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يلتقونه، وأنزل وأكرم، وبقي ببغداد إلى أن قُتل إيدغمش، فخلع عليه وعلى من معه، وأكرموا، وسيرهم إلى أبيه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض الملك العادل أبو بكر بن أيوب، صاحب مصر والشام، على أمير اسمه أسامة، كان له إقطاع كثير من جملته حصن كوكب من أعمال الأردن بالشام، وأخذ منه حصن كوكب وخبره وعفى أثره، ومن بعده بنى حصناً بالقرب من عكا على جبل يسمى الطور، وهو معروف هناك، وشحنه بالرجال والذخائر والسلاح.

وفيهما توفي الفقيه محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف اليمني، فقيه الحرم الشريف بمكة. (٣٠١/١٢)

سنة إحدى عشرة وستمئة

ذكر مُلك خوارزم شاه علاء الدين كَرمان ومكران والسند

هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة أيّ سنة كانت، إنّما هي إمّا هذه السنة، أو قبلها بقليل، أو بعدها بقليل، لأنّ الذي أخبر بها كان من أجناد الموصل، وسافر إلى تلك البلاد وأقام بها عدّة سنين، وسار مع الأمير أبي بكر الذي فتح كَرمان ثمّ عاد فأخبرني بها على شكّ من وقتها، وقد حضرها فقال: خوارزم شاه محدّد بن تكش كان من جملة أمراء أبيه أمير اسمه أبو بكر، ولقبه تاج الدين.

وكان في ابتداء أمره جملاً يكرى الجمال في الأسفار، ثمّ جاءته السعادة، فاتصل بخوارزم شاه، وصار سيروان جماله، فرأى منه جلدًا وأمانة، فقدّمه إلى أن صار من أعيان أمراء عسكريه، فولّاه مدينة زوَرَن، وكان عاقلاً ذا رأي، وحزم، وشجاعة، فتقدّم عند خوارزم شاه تقدّمًا كثيرًا، فوثق به أكثر من جميع أمراء دولته، فقال أبو بكر لخوارزم شاه: إنّ بلاد كَرمان مجاورة لبلدي، فلو أضاف السلطان إليّ عسكريًا لملكته في أسرع وقت. فسير معه عسكريًا كثيرًا فمضى إلى كَرمان، وصاحبها اسمه حرب بن محدّد بن أبي الفضل الذي كان صاحب سيجستان أيام السلطان سنجر، فقاتله، فلم يكن له به قوّة، وضعف، فملك أبو بكر بلاده في أسرع وقت، وسار منها إلى نواحي مكران فملكها كلّها إلى السند، من حدود كابل؛ وسار إلى هُرمُز، مدينة على ساحل بحر مكران، فاطاعه صاحبها، واسمه ملنك، وخطب بها لخوارزم شاه، وحمل (٣٠٤/١٢) عنها مالا، وخطب له بقلّتها، وبعض عُمان، لأنّ أصحابها كانوا يطعمون صاحب هُرمُز.

وسبب طاعتهم له، مع بُعد الشقّة، والبحر يقطع بينهم، أنّهم يتقرّبون إليه بالطاعة ليأمن أصحاب المراكب التي تسير إليهم عنده، فإنّ هُرمُز مرسى عظيم، ومجمع للتجار من أقاصي الهند والصين واليمن، وغيرها من البلاد، وكان بين صاحب هُرمُز وبين صاحب كيش حروب ومغاورات، وكلّ منهما ينهى أصحاب المراكب أن ترسي ببلد خصمه، وهم كذلك إلى الآن؛ وكان خوارزم شاه يصيف بنواحي سمرقند لأجل التتر أصحاب كشلي خان، لئلاّ يقصد بلاده؛ وكان سريع السير، إذا قصد جهة سبق خبره إليها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قتل مؤيد الملك الشّحريّ، وكان قد وزر لشهاب الدين الغوريّ، ولتاج الدين الدّر بعده، وكان حسن السيرة، جميل الاعتقاد، محسنًا إلى العلماء، وأهل الخير وغيرهم، يزورهم ويبرّهم، ويحضر الجمعة ماشيًا وحده.

وكان سبب قتله أنّ بعض عسكر الدّر كرهوه، وكان كلّ سنة

يتقدّم إلى البلاد الحارّة بين يدي الدّر، أوّل الشتاء، فسار هذه السنة كعادته، فجاء أربعون نفرًا أتراكًا وقالوا له: السلطان يقول لك تحضر جريدة في عشرة نفر لهمّ تجدد؛ فسار معهم جريدة في عشرة مماليك، فلمّا وصلوا إلى نَهَوَند، (٣٠٥/١٢) بالقرب من ماء السند، قتلوه وهربوا، ثمّ إنّهم ظفّر بهم خوارزم شاه محدّد فقتلهم.

وفيها، في رجب، توفيّ الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيليّ، البغداديّ، ببغداد، وكان قد وليّ عدّة ولايات، وكان يتهم بمذهب الفلاسفة، حتّى إنّه رأى أبوه يومًا عليه قميصًا بخاريّ، فقال: ما هذا القميص؟ فقال: بخاريّ؛ فقال أبوه: هذا عجب! ما زلنا نسمع مسلمًا وبخاريّ، وأمّا كافر وبخاريّ فما سمعنا.

وأخذت كتبه قبل موته بعدّة سنين، وأظهرت في ملا من الناس، ورؤي فيها من تبخير النجوم ومخاطبة رُحُل بالإنليّة، وغير ذلك من الكفريات، ثمّ أحرقت بياب العامة، وخُبس، ثمّ أفرج عنه بشفاعه أبيه، واستعمل بعد ذلك.

وفيها أيضًا توفيّ أبو العبّاس أحمد بن هبة الله بن العلاء المعروف بابن الزاهد ببغداد، وكان عالمًا بالنحو واللغة.

وفي شعبان منها توفيّ أبو المظفر محدّد بن علي بن البلبّ اللوريّ الواعظ ودُقّن برباط على نهر عيسى، ومولده سنة عشر وخمسمائة.

وفي شوال منها توفيّ عبد العزيز بن محمود بن الأخضر، وكان من فضلاء المحدثين، وله سبع وثمانون سنة. (٣٠٦/١٢)

سنة اثنتي عشرة وستمئة

ذكر قتل منكلي وولاية أغلمش ما كان يده من الممالك

في هذه السنة، في جمادى الأولى، انهزم منكلي، صاحب همّذان وأصفهان والرّي وما بينها من البلاد، ومضى هاربًا، فقتل.

وسبب ذلك أنّه كان قد ملك البلاد، كما ذكرناه، وقتل إيدغمش فأرسل إليه من الديوان الخلفيّ رسولٌ ينكر ذلك عليه، وكان قد أوحش الأمير أوزبك ابن البهلوان، صاحب أذربيجان، وهو صاحبه ومخدومه، فأرسل الخليفة إليه يحرضه على منكلي ويعدّه النصرة، وأرسل أيضًا إلى جلال الدين الإسماعيليّ، صاحب قلاع الإسماعيليّة ببلاد العجم، المُنوت وغيرها، يأمره بمساعدة أوزبك على قتل منكلي، واستقرّت القواعد بينهم على أن يكون للخليفة بعض البلاد، ولأوزبك بعضها، ويعطي جلال الدين بعضها، فلمّا استقرّت القواعد على ذلك جهّز الخليفة عسكريًا كثيرًا، وجعل مقدّمهم مملوكه مظفر الدين مسنّر، الملقّب بوجه السبع، وأرسل إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين عليّ كوجك، وهو

إذ ذاك صاحب إربل وشهرزور وأعمالها، يأمره أن يحضر بعساكره، ويكون مقدّم العساكر جميعها، وإليه المرجع في الحرب.

فحضر، وحضر معه عسكر الموصل وديار الجزيرة، وعسكر حلب، فاجتمعت عساكر كثيرة وساروا إلى همدان، فاجتمعت العساكر كلها فانساح (٣٠٧/١٢) منكلي من بين أيديهم وتعلّق بالجبال، وتبعوه، فنزلوا بسفح جبل هو في أعلاه بالقرب من مدينة كرج، وضائق الميرة والأقوات على العسكر الخلفي جميعه ومن معهم، فلو أقام منكلي بموضعه لم يمكنهم المقام عليه أكثر من عشرة أيام، لكنّه طمع فنزل ببعض عسكره من الجبل مقابل الأمير أوزبك، فحملوا عليه، فلم يثبت أوزبك، ومضى منهزمًا، فعاد أصحاب منكلي وصعدوا الجبل، وعاد أوزبك إلى خيامه، فقطع منكلي حينئذ، ونزل من الغد في جميع عسكره، واصطفت العساكر للحرب، واقتتلوا أشدّ قتال يكون، فانهزم منكلي وصعد الجبل، فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود إليه، وكان قصاراهم العود عنه، لكنّه اتّخذ الليل جملاً، وفارق موضعه ومضى منهزمًا، فتبعه نفر يسير من عسكره، وفارقه الباقون وتفرّقوا أيدي سباً.

واستولى عسكر الخليفة وأوزبك على البلاد، فأعطى جلال الدين، ملك الإسماعيلية، من البلاد ما كان استقرّ له، وأخذ الباقي أوزبك، فسلمه إلى أغلمش مملوك أخيه، وكان قد توجه إلى خوارزم شاه علاء الدين محمد، وبقي عنده، ثمّ عاد عنه، وشهد الحرب وأبلى فيها، فولّاه أوزبك البلاد، وعاد كلّ طائفة من العسكر إلى بلادهم.

وأما منكلي فإنّه مضى منهزمًا إلى مدينة ساوة، وبها شحنة هو صديق له، فأرسل إليه يستأذنه في الدخول إلى البلد، فأذن له، وخرج إليه فلقيه، وقبّل الأرض بين يديه، وأدخله البلد، وأنزله في داره، ثمّ أخذ سلاحه، وأراد أن يقبّله ويرسله إلى أغلمش، فسأله أن يقتله هو ولا يرسله، فقتله، وأرسل رأسه إلى أوزبك، وأرسله أوزبك إلى بغداد، وكان يوم دخولها يومًا مشهودًا إلاّ أنّه لم تسمّ المسيرة للخليفة بذلك، فإنّه وصل ومات ولده في تلك الحال، فأعيد ودفن. (٣٠٨/١٢)

ذكر وفاة ابن الخليفة

في هذه السنة، في العشرين من ذي القعدة، توفي ولد الخليفة، وهو الأصغر، وكان يلقّب الملك المعظم، واسمه أبو الحسن علي، وكان أحبّ ولدي الخليفة إليه، وقد رشّحه لولاية العهد بعده، وعزل ولده الأكبر عن ولاية العهد وأطرحه لأجل هذا الولد.

وكان، رحمه الله، كريمًا كثير الصدقة والمعروف، حسن السيرة، محبوبًا إلى الخاصّ والعامّ، وكان سبب موته أنّه أصابه إسهال فتوفّي، وحزن عليه الخليفة حزنًا لم يُسمع بمثله، حتّى إنّه

أرسل إلى أصحاب الأطراف ينهاهم عن إنفاذ رسول إليه يُعزّيه بولده، ولم يقرأ كتابًا، ولا سمع رسالة، وانقطع، وخلا بهمومه وأحزانه، ورؤي عليه من الحزن والجزع ما لم يُسمع بمثله.

ولما توفّي أخرج نهارًا، ومشى جميع الناس بين يدي تابوته إلى تربة جدّه عند قبر معروف الكرخي، فدُفن عنده، ولما أدخل التابوت أغلقت الأبواب، وسُمع الصراخ العظيم من داخل التربة، فقيل إنّ ذلك صوت الخليفة.

وأما العامة ببغداد فإنّهم وجدوا عليه وجدًا شديدًا، ودامت المناحات عليه في أقطار بغداد ليلاً ونهارًا، ولم يبق ببغداد محنة إلاّ وفيها النوح، ولم تنبأ امرأة إلاّ وأظهرت الحزن، وما سُمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزّمان وحديثه.

وكان موته وقت وصول رأس منكلي إلى بغداد، فإنّ الموكب أمر بالخروج إلى لقاء الرأس، فخرج الناس كافّة، فلمّا دخلوا بالرأس إلى رأس درب (٣٠٩/١٢) حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة، فأعيد الرأس، وهذا داب الدنيا، لا يصفو أبدًا فرحها من ترح، وقد تخلص مصائبها من شائبة الفرح.

ذكر ملك خوارزم شاه غزنة وأعمالها

في هذه السنة، في شعبان، ملك خوارزم شاه محمد بن تكش مدينة غزنة وأعمالها.

وسبب ذلك أنّ خوارزم شاه لما استولى على عمّامة خراسان وملك باميان وغيرها، أرسل إلى تاج الدين، صاحب غزنة، وقد تقدّمت أخباره حتّى ملكها، يطلب منه أن يخطب له، ويضرب السكّة باسمه، ويرسل إليه فيلاً واحدًا ليصالحه ويُقرّ بيده غزنة، ولا يعارضه فيها، فأحضر الأمراء وأعيان دولته واستشارهم.

وكان فيهم أكبر أمير اسمه قتلغ تكين، وهو من ممالك شهاب الدين الغوري أيضًا، وإليه الحكم في دولة الدّز، وهو النائب عنه بغزنة، فقال: أرى أن تخطب له، وتُعطي ما طلب، وتستريح من الحرب والقتال، وليس لنا بهذا السلطان قوّة.

فقال الجماعة مثل قوله، فأجاب إلى ما طلب منه، وخطب لخوارزم شاه، وضرب السكّة باسمه، وأرسل إليه فيلاً، وأعاد رسوله إليه، ومضى إلى الصيد.

فأرسل قتلغ تكين، والي غزنة، إلى خوارزم شاه يطلبه ليسلم إليه غزنة، (٣١٠/١٢) فسار مجيّدًا، وسبق خبره، فسلم إليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها، فلمّا دخل إليها قتل من بها من عسكر الغوريّة لا سيّما الأتراك، فوصل الخير إلى الدّز بذلك، فقال: ما فعل قتلغ تكين، وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها؟ فقيل: هو الذي

له أولاد، ولهم معلّم يعلمهم، فضرب المعلّم أحدهم فمات، فأحضره الذّر وقال له: يا مسكين! ما حملك على هذا؟ فقال: والله ما أردت إلا تأديبه، فأتفق أن مات. فقال: صدقت؛ وأعطاه نفقة، وقال له: تغيب، فإن أمه لا تقدر على الصبر، فربما أهلكتك، ولا أقدر أمنع عنك. فلما سمعت أم الصبي بموته طلبت الأستاذ لتقتله، فلم تجده، فسلم، وكان هذا من أحسن ما يُحكى عن أحد من الناس.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي الوجه المبارك بن أبي الأزهر سعيد بن الدّغان الواسطيّ النحويّ، الضرير، كان نحيرًا فاضلاً، قرأ على الكمال بن الأنباري وعلى غيره، وكان حنبلياً، فصار حنفيّاً، ثم صار شافعيّاً، فقال فيه أبو البركات بن زيد التكريتي:

أَلْغُلُغًا عَنِّي وَجْهَ رَسَالَةٍ وَإِنْ كَانَ لَا تُجْدِي لَدَيْهِ
تَمَذَّبْتَ لِلتَّعْمَانِ مِنْ بَعْدِ حَنْبَلٍ وَفَارَقْتَهُ إِذْ غَوَرَتْكَ الْمَأْكُلُ
وَمَا اخْتَرْتَ رَأْيَ الشَّافِعِيِّ تَذَيُّنًا وَلَكِنَّمَا تَهَوَّى الَّذِي هُوَ خَاصِلُ
وَعَمَّا قَلِيلٍ أَنْتَ لَا شَكَّ صَانِرٌ إِلَى مَالِكٍ، فافطن لما أنا قائلُ
(٣١٣/١٢)

سنة ثلاث عشرة وستمئة

ذكر وفاة الملك الظاهر صاحب حلب

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، توفي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام، وكان مرضه إسهالاً، وكان شديد السيرة، ضابطاً لأموره كلّها، كثير الجمع للأموال من غير جهاتها المعتادة، عظيم العقوبة على الذنب، لا يرى الصفح، وله مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد، والشعراء، وأهل الدين وغيرهم، فيكرمهم، ويجري عليهم الجاري الحسن.

ولما اشتدّت علته عهد بالملك بعده لولد له صغير اسمه محمد، ولقبه الملك العزيز غياث الدين، وعمره ثلاث سنين، وعدل عن ولد كبير لأن الصغير كانت أمه ابنة عمّه المملك العادل أبي بكر بن أيوب، صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد، فعهد بالملك له ليُتيّ عمّه البلاد عليه، ولا ينازعه فيها.

ومن أعجب ما يُحكى أنّ الملك الظاهر، قبل مرضه، أرسل رسولاً إلى عمّه العادل بمصر، يطلب منه أن يحلف لولده الصغير، فقال العادل: سبحان الله! أي حاجة إلى هذه اليمين؟ الملك الظاهر مثل بعض أولادي. فقال الرسول: (٣١٤/١٢) قد طلب هذا واختاره، ولا بدّ من إجابته إليه. فقال العادل: كم من كبش في المرعى وخروف عند القصباب؛ وحلف.

أحضره وسلم إليه؛ فمضى هارباً هو ومن معه إلى لهاور، وأقام خوارزم شاه بغزنة، فلما تمكّن منها أحضر قتلخ تكين فقال له: كيف حالك مع الذّر؟ وكان عالماً به، وإنما أراد أن تكون له الحجة عليه. فقال: كلانا ممالك شهاب الدين، ولم يكن الذّر يقيم بغزنة إلا أربعة أشهر الصيف، وأنا الحاكم فيها، والمرجع إليّ في كل الأمور.

فقال له خوارزم شاه: إذا كنت لا ترعى لرفيقتك ومن أحسن إليك صحبته وإحسانه، فكيف يكون حالتي أنا معك، وما الذي تصنع مع ولدي إذا تركته عندك؟

فقبض عليه، وأخذ معه أموالاً جمّة حملها ثلاثون دابة من أصناف الأموال والأمتعة، وأحضر أربع مائة مملوك، فلما أخذ ماله قتله وترك ولده جلال الدين بغزنة مع جماعة من عسكره وأمرائه. وقيل إنّ ملك خوارزم شاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستمئة. (٣١١/١٢)

ذكر استيلاء الذّر على لهاور وقله

لما هرب الذّر من غزنة إلى لهاور لقيه صاحبها ناصر الدين قباچه، وهو من ممالك شهاب الدين الغوريّ أيضاً، وله من البلاد لهاور، ومثلتان، وأوجه، وذئيل، وغير ذلك، إلى ساحل البحر، ومعه نحو خمسة عشر ألف فارس؛ وكان قد بقي مع الذّر نحو ألف وخمسمائة فارس، فوقع بينهما مصافّة، واقتتلوا، فانهزمت ميمنة الذّر وميسرته، وأخذت الفيلة التي معه، ولم يبق له غير فيلّين معه في القلب.

فقال الفيّال: إذا أخطرت بسعادتك؛ وأمر أحد الفيّالين أن يحمل على العلم الذي لقباچه يأخذه، وأمر الفيل الآخر الذي له أيضاً أن يأخذ الجتر الذي له، فأخذه أيضاً، والفيلة المعلّمة تفهم ما يقال لها؛ هذا رأيانه، فحمل الفيّالان، وحمل معها الذّر فيمن بقي عنده من العسكر، وكشف رأسه، وقال بالجمجمة ما معناه: إمّا ملك، وإمّا هلك! واختلط الناس بعضهم ببعض، وفعل الفيّالان ما أمرهما الفيّال من أخذ العلم والجتر، فانهزم قباچه وعسكره، وملك الذّر مدينة لهاور.

ثم سار إلى بلاد الهند ليملك مدينة دهلّة وغيرها ممّا بيد المسلمين، وكان صاحب دهلّة أمير اسمه الترمش، ولقبه شمس الدين، وهو من ممالك قطب الدين أيّيك، مملوك شهاب الدين أيضاً، كان قد ملك الهند بعد سيّده، (٣١٢/١٢) فلما سمع به الترمش سار إليه في عساكره كلّها، فلقيه عند مدينة سمّاتا، فاقتلوا، فانهزم الذّر وعسكره، وأخذ وقتل.

وكان الذّر محمود السيرة في ولايته، كثير العدل والإحسان إلى الرعية، لا سيّما التجار والغرباء، ومن محاسن أعماله أنّه كان

فَاتَّفَقَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ أَنْ تُوفِّيَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ وَالرَّسُولُ فِي الطَّرِيقِ، وَلَمَّا عَهِدَ الظَّاهِرُ إِلَى وَلَدِهِ بِالْمَلِكِ جَعَلَ أَتَابِكَهُ وَمَرِيئَهُ خَادِمًا رُومِيًّا، اسْمُهُ فَطْرُلُ، وَلَقَبُهُ شَهَابُ الدِّينِ، وَهُوَ مِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ، كَثِيرُ الصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ.

وَلَمَّا تُوَفِّيَ الظَّاهِرُ أَحْسَنَ شَهَابِ الدِّينِ هَذَا السِّيْرَةَ فِي النَّاسِ، وَعَدَلَ فِيهِمْ، وَأَزَالَ كَثِيرًا مِنَ السَّنَنِ الْجَارِيَةِ، وَأَعَادَ أَمْلَاكَهَا كَانَتْ قَدْ أَخَذَتْ مِنْ أَرْبَابِهَا، وَقَامَ بِتَرْبِيَةِ الطِّفْلِ أَحْسَنُ قِيَامٍ، وَحَفِظَ بِلَادَهُ، وَاسْتَقَامَتِ الْأُمُورُ بِحَسَنِ سِيرَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَمَلِكٌ مَا كَانَ يَتَعَذَّرُ عَلَى الظَّاهِرِ مُلْكُهُ، فَمِنْ ذَلِكَ تَلَّى بِأَشْرٍ، كَانَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ لَا يَقْدِرُ [أَنْ] يَتَعَرَّضَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا تُوَفِّيَ مَلِكُهَا كِيكَاوُشُ، مَلِكُ الرُّومِ، كَمَا نَذَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، انْتَقَلَتْ إِلَى شَهَابِ الدِّينِ، وَمَا أَقْبَحَ بِالْمُلُوكِ وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ الْغَرِيبُ الْمُنْفَرِدُ أَحْسَنَ سِيرَةٍ، وَأَعَفَّ عَنْ أُمُورِ الرِّعْيَةِ، وَأَقْرَبَ إِلَى الْخَيْرِ مِنْهُمْ، وَلَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ فِي وِلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَحْسَنَ سِيرَةٍ مِنْهُ، فَاللَّهُ يَبْقِيهِ، وَيُدْفِعُ عَنْهُ، فَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ كُلُّ حَسَنٍ وَجَمِيلٍ.

ذَكَرَ عِدَّةُ حَوَادِثَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي الْمَحْرَمِ، وَقَعَ بِالْبَصْرَةِ بَرْدٌ كَثِيرٌ، وَهُوَ مَعَ كَثْرَتِهِ عَظِيمُ الْقَدْرِ؛ قِيلَ: كَانَ أَصْغَرُهُ مِثْلُ النَّارِ نَجَّةِ الْكَبِيرَةِ، وَقِيلَ فِي أَكْبَرِهِ مَا يَسْتَحْيِي (٣١٥/١٢) الْإِنْسَانَ [أَنْ] يَذْكُرَهُ، فَكَسَرَ كَثِيرًا مِنْ رُؤُوسِ النَّخِيلِ.

وَفِي الْمَحْرَمِ أَيْضًا سَيَّرَ الْخَلِيفَةُ النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ وَلِدَيَّ ابْنِهِ الْمَعْظَمِ عَلِيٍّ إِلَى تَسْتَرٍ، وَهُمَا الْمُؤَيَّدُ وَالْمَوْفَّقُ، وَسَارَ مَعَهُمَا مُؤَيَّدُ الدِّينِ النَّائِبُ عَنِ الْوِزَارَةِ، وَعَزَّ الدِّينَ الشَّرَافِيَّ، فَأَقَامَا بِهَا يَسِيرًا، ثُمَّ عَادَ الْمَوْفَّقُ مَعَ الْوَزِيرِ وَالشَّرَافِيِّ إِلَى بَغْدَادٍ أَوَّخِرَ رَبِيعِ الْآخَرِ.

وَفِيهَا، فِي صَفَرٍ، هَبَّتْ بِبَغْدَادِ رِيحٌ سَوْدَاءُ شَدِيدَةٌ، كَثِيرَةُ الْغُبَارِ وَالْقَتَامِ، وَأَلْقَتْ رَمْلًا كَثِيرًا، وَقَلَعَتْ كَثِيرًا مِنَ الشَّجَرِ، فَخَافَ النَّاسُ وَتَضَرَّعُوا، وَدَامَتْ مِنَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ وَانْكَشَفَتْ.

وَفِيهَا تُوَفِّيَ التَّاجُ زَيْدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدِ الْكَنْدِيِّ أَبُو الْيَمَنِ، الْبَغْدَادِيُّ الْمَوْلَدُ وَالْمَنْشَأُ، انْتَقَلَ إِلَى الشَّامِ فَأَقَامَ بِدِمَشْقَ، وَكَانَ إِمَامًا فِي النُّحُوِّ وَاللُّغَةِ، وَلَهُ الْإِسْنَادُ الْعَالِي فِي الْحَدِيثِ؛ وَكَانَ ذَا فَنُونٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ، رَحِمَهُ اللَّهُ. (٣١٦/١٢)

سَنَةُ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَسِتْمِائَةٍ

ذَكَرَ مُلْكُ خُوارِزْمِ شَاهِ بِلَدِ الْجَبَلِ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ سَارَ خُوارِزْمِ شَاهُ علاءِ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ تَكُشٍ إِلَى بِلَادِ الْجَبَلِ فَمَلِكُهَا.

وَكَانَ سَبَبُ حَرَكَتِهِ، فِي هَذَا الْوَقْتِ، أَشْيَاءُ أَحَدُهَا: أَنَّهُ كَانَ قَدْ

اسْتَوْلَى عَلَى مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَظَفَرَ بِالْخَطَا، وَعَظَمَ أَمْرَهُ، وَعَلَا شَأْنَهُ، وَأَطَاعَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ؛ وَمِنْهَا: أَنَّهُ كَانَ يَهْوِي أَنْ يُخَاطَبَ لَهُ بِبَغْدَادٍ، وَيُلَقَّبَ بِالْسلْطَانِ، وَكَانَ الْأَمْرُ بِالضَّدِّ لَأَنَّهُ كَانَ لَا يَجِدُ مِنْ دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ قَبُولًا؛ وَكَانَ سَبِيلُهُ إِذَا وَرَدَ إِلَى بَغْدَادٍ [أَنْ] يَقْدِمَ غَيْرَهُ عَلَيْهِ، وَلَعَلَّ فِي عَسْكَرِهِ مِائَةُ مِثْلِ الَّذِي يَقْدِمُ سَبِيلَهُ عَلَيْهِ، فَكَانَ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ يُغْضِبُهُ؛ وَمِنْهَا: أَنَّ أَغْلَمَشَ لَمَّا مَلَكَ بِلَادَ الْجَبَلِ خَاطَبَ لَهُ فِيهَا جَمِيعَهَا، كَمَا ذَكَرْنَاهُ، فَلَمَّا قَتَلَهُ الْبَاطِنِيَّةُ غَضِبَ لَهُ، وَخَرَجَ لِنِصْلًا تَخْرُجُ الْبِلَادُ عَنْ طَاعَتِهِ، فَسَارَ مُجِدًّا فِي عَسَاكِرِ تَطْبِيقِ الْأَرْضِ، فَوَصَلَ إِلَى الرُّيِّ فَمَلِكُهَا.

وَكَانَ أَتَابِكُ سَعْدُ بْنُ دَكْلَا، صَاحِبُ بِلَادِ فَارَسٍ، لَمَّا بَلَغَهُ مَقْتَلُ أَغْلَمَشَ جَمَعَ عَسَاكِرَهُ وَسَارَ نَحْوَ بِلَادِ الْجَبَلِ طَمَعًا فِي تَمْلِكِهَا لَخُلُوعِهَا عَنْ حَامٍ وَمَمَانِعٍ، فَوَصَلَ إِلَى أَصْفَهَانَ، فَأَطَاعَهُ أَهْلُهَا، وَسَارَ مِنْهَا يَرِيدَ الرُّيِّ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِقُدُومِ خُوارِزْمِ شَاهٍ، فَلَقِيَهُ مُقَدِّمَةُ خُوارِزْمِ شَاهٍ فَظَنَّتْهَا عَسَاكِرُ تِلْكَ الدِّيَارِ قَدْ اجْتَمَعَتْ (٣١٧/١٢) لِقَاتِلِهِ وَمَنْعَهُ عَنِ الْبِلَادِ، فَقَاتَلَهُمْ، وَجَدَّ فِي مُحَارِبَتِهِمْ حَتَّى كَادَ يَهْزِمُهُمْ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ قَدْ ظَهَرَ لَهُ جَيْتَرُ خُوارِزْمِ شَاهٍ، فَسَالَ عَنْهُ، فَأَخْبَرَ بِهِ فَاسْتَسْلَمَ، وَانْهَزَمَتْ عَسَاكِرُهُ، وَأَخَذَ أُسِيرًا، وَحُمِلَ إِلَى بَيْنِ يَدَيْ خُوارِزْمِ شَاهٍ، فَكْرَمَهُ، وَوَعَدَهُ الْإِحْسَانَ وَالْجَمِيلَ، وَأَمَنَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَاسْتَحْلَفَهُ عَلَى طَاعَتِهِ، وَاسْتَقَرَّتِ الْقَاعِدَةُ بَيْنَهُمَا عَلَى أَنْ يَسْلَمَ بَعْضُ الْبِلَادِ إِلَيْهِ، وَيَبْقَى بَعْضُهَا، وَأَطْلَقَهُ وَسَيَّرَ مَعَهُ جَيْشًا إِلَى بِلَادِ فَارَسٍ لِيَسْلَمَ إِلَيْهِمْ مَا اسْتَقَرَّتِ الْقَاعِدَةُ عَلَيْهِ؛ فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى وَلَدِهِ الْأَكْبَرِ رَأَى قَدْ تَغَلَّبَ عَلَى بِلَادِ فَارَسٍ، فَامْتَنَعَ مِنَ التَّسْلِيمِ إِلَى أَبِيهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ مَلَكَ الْبِلَادَ، كَمَا نَذَرَهُ، وَخَاطَبَ فِيهَا لَخُوارِزْمِ شَاهٍ، وَسَارَ خُوارِزْمِ شَاهُ إِلَى سَاوَةِ فَمَلِكُهَا، وَأَقَطَعَهَا لِعِمَادِ الْمَلِكِ عَارِضَ جِيشِهِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِهَا، ثُمَّ سَارَ إِلَى قَرْوِينَ وَزَنْجَانَ وَأَبْهَرَ، فَمَلِكُهَا كُلُّهَا بِغَيْرِ مَمَانِعٍ وَلَا مَدَافِعٍ، ثُمَّ سَارَ إِلَى هَمْدَانَ فَمَلِكُهَا، وَأَقَطَعَ الْبِلَادَ لِأَصْحَابِهَا، وَمَلَكَ أَصْفَهَانَ، وَكَذَلِكَ قُتِمَ وَقَاشَانَ، وَاسْتَوْعَبَ مُلْكُ جَمِيعِ الْبِلَادِ، وَاسْتَقَرَّتِ الْقَاعِدَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَوْزُبِكَ بْنِ الْبَهْلَوَانَ، صَاحِبِ أَذْرَبَيْجَانَ وَأَرَانَ، بَانَ يَخْطُبُ لَهُ أَوْزُبِكَ فِي بِلَادِهِ وَيَدْخُلُ فِي طَاعَتِهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ عَزَمَ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى بَغْدَادٍ، فَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَمِيرًا كَبِيرًا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ فَارَسٍ، وَأَقَطَعَهُ حُلُوانَ، فَسَارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهَا؛ ثُمَّ اتَّبَعَهُ بِأَمِيرٍ آخَرَ، فَلَمَّا سَارَ عَنْ هَمْدَانَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ سَقَطَ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّلْجِ مَا لَمْ يُسَمِعْ بِمِثْلِهِ، فَهَلَكَتْ دَوَابُّهُمْ، وَمَاتَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَطَمَعَ فِيمَنْ بَقِيَ بَنُو تَرْجَمِ الْأَتْرَاكِ، وَبَنُو هَكَارِ الْأَكْرَادِ، فَتَحْتَفِظُوهُمْ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ إِلَى خُوارِزْمِ (٣١٨/١٢) شَاهٍ إِلَّا الْيَسِيرَ، فَتَطَيَّرَ خُوارِزْمِ شَاهُ مِنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ، وَعَزَمَ عَلَى الْعُودِ إِلَى

فارس إلى صاحبهم أتابك سعد، وتركوا ابنه في خاصته، فحمل على أبيه، فلمَّا رآه أبوه ظنَّ أنه لم يعرفه، فقال له (٣٢٠/١٢) : أنا فلان ! فقال : إنيَّك أردتُ؛ فحيثُذا امتنع منه وولَّى الابن منهزمًا.

ووصل أتابك سعد إلى البلاد فدخلها مالكًا لها وأخذ ابنه أسيرًا، فسجنه إلى الآن، إلا أنني سمعتُ الآن، وهو سنة عشرين وستمئة، أنه قد خَفَّفَ حبسه ووسَّع عليه.

ولمَّا عاد خوارزم شاه إلى خراسان غدر سعد بالأمير الذي عنده قتلته، ورجع عن طاعة خوارزم شاه، واشتغل خوارزم شاه بالحادثة العظمى التي شغلته عن هذا وغيره، ولكنَّ الله انتقم له بابنه غياث الدين، كما ذكرناه سنة عشرين وستمئة، لأنَّ سعدًا كفر إحسان خوارزم شاه وكفَّر الإحسان عظيم العقوبة.

مدينة دِمَهاط وعودها إلى المسلمين

كان من أوَّل هذه الحادثة إلى آخرها أربع سنين غير شهر، وإنمَّا ذكرناها هاهنا لأنَّ ظهورهم كان فيها، وسُقناها سياقة متتابعة ليتلو بعضها بعضًا، فنقول : في هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج في الغرب والشمال، إلا أن المتولِّي لها كان صاحب رومية، لأنَّه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة، لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرَّهم وساءهم، فجهَّز العساكر من عنده مع جماعة من مقدَّمي الفرنج، وأمر غيره من ملوك الفرنج إمَّا أن يسير بنفسه، أو يرسل جيشًا، ففعلوا ما (٣٢١/١٢) أمرهم، فاجتمعوا بعكًا من ساحل الشام.

وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر، فسار منها إلى الشام، فوصل إلى الرملة، ومنها إلى لُد، وبرز الفرنج من عكَّا ليقصدوه، فسار العادل نحوهم، فوصل إلى نابلس عازمًا على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد ممَّا يلي عكَّا ليحميها منهم، فساروا هم فسبقوه، فنزل على بيسان من الأردن، فتقدَّم الفرنج إليه في شعبان عازمين على محاربتهم لعلمهم أنه في قلَّة من العسكر، لأنَّ العساكر كانت متفرقة في البلاد.

فلمَّا رأى العادل قريبهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التي معه، خوفًا من هزيمة تكون عليه، وكان حازمًا، كثير الحذر، ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها، ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر، فوصل إلى مرج الصُّفر فنزل فيه.

وكان أهل بيسان، وتلك الأعمال، لمَّا رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا، فلم يقاتروا بلادهم ظنًا منهم أنَّ الفرنج لا يُقدِّمون عليه، فلمَّا أقدموا سار على غيلة من الناس، فلم يقدر على النجاة إلاَّ القليل، فأخذ الفرنج كلَّ ما في بيسان من ذخائر قد جُمِعت،

خُراسان خوفًا من التتر، لأنَّه ظنَّ أنه يقضي حاجته، ويفرغ من إرادته في المدة اليسيرة، فخاب ظنُّه، ورأى البيكار بين يديه طويلاً، فعزم على العود، فولَّى هَمْدَان أميرًا من أقاربه من جهة والدته، يقال له طائيسي، وجعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدين، وجعل معه متولِّيًا لأمر دولته عماد المُلْك الساوي، وكان عظيم القدر عنده، وكان يحرص على قصد العراق.

وعاد خوارزم شاه إلى خُراسان، فوصل إلى مَرَوْ في المحرم سنة خمس عشرة وستمئة، وسار من وجهه إلى ما وراء النهر؛ ولمَّا قدم إلى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر، وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله، وقال : إنَّه قد مات ؛ وكان ذلك في ذي القعدة سنة أربع عشرة وستمئة؛ ولمَّا قدم مَرَوْ قطع الخطبة بها، وكذلك ببلخ وبخارى وسرخس، وبقي خوارزم وسمرقند وهرارة لم تقطع الخطبة فيها إلاَّ عن قصد لتركها، لأنَّ البلاد كانت لا تعارض من أشباه هذا، إن أحبوا خطبوا، وإن أرادوا قطعوا، فبقيت كذلك إلى أن كان منه ما كان.

وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحدٌ بأذى إلاَّ لقيه فعله، وخبت نيَّته، ولا جَزَم لم يهمل خوارزم شاه هذا حتَّى جرى له ما نذكره ممَّا لم يُسمع بمثله في الدنيا قديمًا ولا حديثًا. (٣١٩/١٢)

ذكر ما جرى لأتابك سعد مع أولاده

لمَّا قُتل أغلش، صاحب بلاد الجبل، هَمْدَان وأصفهان وما بينهما من البلاد، جمع أتابك سعد بن دكلا، صاحب فارس، عساكره وسار عن بلاده إلى أصفهان فملكها وأطاعه أهلها، فطمع في تلك البلاد جميعها، فسار عن أصفهان إلى الرُّي، فلمَّا وصل إليها لقي عساكر خوارزم شاه قد وصلت، كما ذكرناه، فعزم على محاربة مقدَّمة العسكر، فقاتلها حتَّى كاد يهزمها، فظهرت عساكر خوارزم شاه، ورأى الجتر، فسقط في يده، وألقى نفسه، وضعفت قوَّته وقوَّة عسكره، فولَّوا الأدبار، وأخذ أتابك سعد أسيرًا، وأحضر بين يدي خوارزم شاه، فأكرمه، وطَّيب نفسه، ووعدته الإحسان واستصحبه معه، إلى أن وصل إلى أصفهان، فسبَّره منها إلى بلاده، وهي تجاورها، وسبَّره معه عسكرًا مع أمير كبير ليتسلَّم منه ما كان استقرَّ بينهما، فإنهما اتفقا على أن يكون لخوارزم شاه بعض البلاد ولأتابك سعد بعضها، وتكون الخطبة لخوارزم شاه في البلاد جميعها.

وكان أتابك سعد قد استخلف ابنًا له على البلاد، فلمَّا سمع الابن بأسر أبيه خطب لنفسه بالمملكة وقطع خطبة أبيه، فلمَّا وصل أبوه ومعه عسكر خوارزم شاه امتنع الابن من تسليم البلاد إلى أبيه، وجمع العساكر وخرج يقاتله، فلمَّا تراءى الجمعان انحازت عساكر

وكانت كثيرة، وغنموا شيئاً كثيراً، ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس، وبشوا السرايا في القرى فوصلت إلى خيسفين، ونوى وأطراف البلاد، ونازلوا بانياس، وأقاموا عليها ثلاثة أيام، ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والأسرى ما لا يحصى كثرة، سوى ما قتلوا، وأحرقوا، وأهلكوا، فأقاموا أياماً استراحوا خلالها.

ثم جاؤا إلى صور، وقصدوا بلد الشقيف، ونزلوا بينهم وبين بانياس (٣٢٢/١٢) مقدار فرسخين، فنهبوا البلاد: صيدا والشقيف، وعادوا إلى عكا، وكان هذا من نصف رمضان إلى العيد، والذي سلم من تلك البلاد كان مخفياً حتى قدر على النجاة.

ولقد بلغني أن العادل لما سار إلى مرج الصفر رأى في طريقه رجلاً يحمل شيئاً، وهو يمشي تارة، وتارة يقعد ليستريح، فعدل العادل إليه وحده، فقال له: يا شيخ لا تعجل، وارفق بنفسك! فعرفه الرجل، فقال: يا سلطان المسلمين! أنت لا تعجل، فإننا إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الأعداء كيف لا نعجل!

وبالجملة الذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخطر باللقاء على حال تفرق من العساكر؛ ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى، وهو صاحب دمشق، في قطعة صالحة من الجيش إلى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدس.

ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها

لما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا، وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها، وقصدوا قلعة الطور، وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها عن قريب، فتقدموا إليها وحاصروها وزحفوا إليها، وصعدوا في جبلها حتى وصلوا إلى سورها وكادوا يملكونه.

فاتفق أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم، فعادوا عن القلعة فتركوها، وقصدوا عكا، وكانت مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوماً. (٣٢٣/١٢)

ولما فارقوا الطور أقاموا قريباً، ثم ساروا في البحر إلى ديار مصر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، فتوجه الملك المعظم إلى قلعة الطور فخرّبها إلى أن ألحقها بالأرض لأنها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها.

ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمئة، فساروا في البحر إلى دمياط، فوصلوا في صفر، فأرسوا على برّ الجزيرة، بينهم وبين دمياط النيل، فإن

ولما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك يُعرف بالأرزق، كان النيل يجري فيه قديماً، فحفروا ذلك الخليج وعمّقه فوق المراكب التي جعلت في النيل، وأجروا الماء فيه إلى البحر المالح، وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بورة، على أرض الجزيرة أيضاً، مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك، فأنهم لم يكن لهم إليه طريق فيقاتلون فيها؛ كانت دمياط تحجز بينهم وبينه، فلما صاروا في بورة حاذوه فقاتلوه في الماء، وزحفوا غير مرة، فلم يظفروا بطائل.

ولم يتغير على أهل دمياط شيء لأن المسيرة والأمداد متصلة بهم، والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج، فهم ممتنعون لا يصل إليهم أذى، وأبوابها مفتحة، وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر.

فاتفق، كما يريد الله عز وجل، أن الملك العادل توفي في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمئة، على ما نذكره إن شاء الله، فضغبت نفوس الناس لأنه السلطان حقيقة، وأولاده، وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بحكمه، والأمر إليه، وهو ملكهم البلاد، فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو. (٣٢٥/١٢)

مناوية، ومع هذا فقد صبروا صبراً لم يُسمع بمثله، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض، ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمئة، فعجز مَنْ بقي من أهلها عن الحفاظ لقتلهم، وتعذّر القوت عندهم، فسلموا البلد إلى الفرنج، في هذا التاريخ، بالأمان، فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة، فتفرّقوا أيدي سباً.

ذكر مُلك المسلمين دِمياط من الفرنج

لَمَّا ملك الفرنج دِمياط أقاموا بها، وبثّوا سراياهم في كلّ ما جاورهم من البلاد، ينهبون ويقتلون، فجلا أهلها عنها، وشرعوا في عمارتها وتحصينها، وبالسّاع في ذلك حتّى إنّها بقيت لا ترام. (٣٢٦/١٢)

وأما الملك الكامل فإنّه أقام بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها منهم.

ولَمَّا سمع الفرنج في بلادهم بفتح دِمياط على أصحابهم أقبلوا إليهم يهرعون من كلّ فجّ عميق، وأصبحت دار هجرتهم، وعاد الملك المعظّم صاحب دمشق إلى الشام فخرّب البيت المقدّس، وإنّما فعل ذلك لأنّ الناس كافّة خافوا الفرنج، وأشرف الإسلام وجميع أهله وبلاده على خطّة خسف في شرق الأرض وغربها: أقبل التتر من المشرق حتّى وصلوا إلى نواحي العراق وأذربيجان وأرّان وغيرها، على ما نذكره إن شاء الله تعالى؛ وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دِمياط في الديار المصريّة، مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء، وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تملك، وخافهم الناس كافّة، وصاروا يتوقّعون البلاء صباحاً ومساءً.

وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدو، ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصِ﴾ [ص: ٢]، والعدوّ قد أحاط بهم من كلّ جانب، ولو مكّنتهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها، وإنّما منعوا منه فثبّتوا.

وتابع الملك الكامل كتبه إلى أخويه المعظّم صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما، يستنجدنهما، ويحثّهما على الحضور بأنفسهما، فإن لم يكن فيرسلان العساكر إليهما، فسار صاحب دمشق إلى الأشرف بنفسه بحرّان فرآه مشغولاً عن إنجادهما بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه، وزوال الطاعة عن كثير ممّن كان يطيعه؛ ونحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستمئة إن شاء الله عند وفاة الملك القاهرة، صاحب الموصل، فليطلب من هناك؛ فعذره، وعاد عنه، وبقي الأمر كذلك مع الفرنج. (٣٢٨/١٢)

فأمّا الملك الأشرف فزال الخُلف من بلاده، ورجع الملوك

وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عماد الدين أحمد بن عليّ، ويُعرف بابن المشطوب، وهو من الأكراد الهكاريّة، وهو أكبر أمير بمصر، وله لفيّة كثير، وجميع الأمراء يتقادون إليه ويطيعونه لا سيّما الأكراد، فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء، وأرادوا أن يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد، فبلغ الخبر إلى الكامل، ففارق المنزل ليلاً جريده، وسار إلى قرية يقال لها أشموم طّناح، فنزل عندها، وأصبح العسكر وقد قعدوا سلطانهم، فركب كلّ إنسان منهم هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائهم وأموالهم وأسْلحتهم إلّا اليسير الذي يخفّ حملهُ، وتركوا الباقي بحاله من ميرة، وسلاح، ودوابّ، وخيام وغير ذلك، ولحقوا بالكامل.

وأما الفرنج فإنّهم أصبَحوا من الغد، فلم يروا من المسلمين أحداً على شاطئ النيل كجاري عاداتهم، فبقوا لا يدرون ما الخبر، واذ قد أتاهم مَنْ أخبرهم الخبر على حقيقته، فعبروا حيثنذ النيل إلى برّ دِمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع، وكان عبورهم في العشرين من ذي القعدة سنة خمس عشرة وستمئة، فغنموا ما في معسكر المسلمين، فكان عظيماً يُعجز العاذنين.

وكان الملك الكامل يفارق الديار المصريّة لأنّه لم يشقّ بأحد من عسكره، وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقّة، فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين أنّ الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيوتين، والناس في أمر مريح، فقوى به قلبه، واشتدّ ظهره، وثبتّ جنانه، وأقام بمنزلته، وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام، فاتّصل بالملك الأشرف وصار من جُنّده. (٣٢٦/١٢)

فلَمَّا عبر الفرنج إلى أرض دِمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها، ونهبوا البلاد المجاورة لدِمياط، وقطعوا الطريق، وأفسدوا، وبالسّاع في الإفساد، فكانوا أشدّ على المسلمين من الفرنج، وكان أضّر شيء على أهل دِمياط أنّها لم يكن بها من العسكر أحد لأنّ السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها، فأتتهم هذه الحركة بغتة، فلم يدخلها أحد من العسكر، وكان ذلك من فعل ابن المشطوب، لا جرّم لم يهمله الله، وأخذته أخذه رابية، على ما نذكره إن شاء الله.

وأحاط الفرنج بدِمياط، وقتلوا بها برّاً وبحراً، وعملوا عليهم خندقاً يمنعهم ممّن يريد منهم من المسلمين، وهذه كانت عاداتهم، وأداموا القتال، واشتدّ الأمر على أهلها، وتعذّرت عليهم الأقوات وغيرها، وسَمُوا القتال وملازمته، لأنّ الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم، وليس بدِمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم

الخارجون عن طاعته إليه، واستقامت له الأمور إلى سنة ثمانى عشرة وستمائة، والملك الكامل مقابل الفرنج.

فلما دخلت سنة ثمانى عشرة وستمائة علم بزوال مانع الملك الأشرف عن إنجاده، فأرسل يستجده وأخاه، صاحب دمشق، فصار صاحب دمشق المعظم إلى الأشرف يحثه على المسير، ففعل، وسار إلى دمشق فيمن معه من العساكر، وأمر الباقين باللاحاق به إلى دمشق وأقام بها ينتظرهم، فأشار عليه بعض أمرائه وخواصه بإفناذ العساكر والعود إلى بلاده خوفاً من اختلاف يحدث بعده، فلم يقبل قولهم، وقال: قد خرجت للجهاد، ولا بد من إتمام ذلك العزم؛ فصار إلى مصر.

وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط في الفارس والراجل، وقصدوا الملك الكامل، ونزلوا مقابلته، بينهما خليج من النيل يسمى بحر أشموم، وهم يرمون بالمنجنيق والجرج إلى عسكر المسلمين، وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية.

وأما الأشرف فإنه سار حتى وصل مصر، فلما سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجه إليه، فلقيه، واستبشر هو وسائر المسلمين باجتماعهما، لعل الله يحدث بذلك نصراً وظفراً.

وأما الملك المعظم، صاحب دمشق، فإنه سار أيضاً إلى ديار مصر، وقصد دمياط ظناً منه أن أخوته وعسكرهما قد نازلوها، وقيل بل أخبر في الطريق أن الفرنج قد توجهوا إلى دمياط، فسابقهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم، وأخواه من خلفهم، والله أعلم. (٣٢٩/١٢)

ولما اجتمع الأشرف بالكامل استقر الأمر بينهما على التقدم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة، فتقدموا إليه، فقاتلوا الفرنج، وازدادوا قرباً، وتقدمت شواني المسلمين من النيل، وقاتلوا شواني الفرنج، فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال، وما فيها من الأموال والسلاح، ففرح المسلمون بذلك، واستبشروا، ونفاهلوا، وقويت نفوسهم، واستطالوا على عدوهم.

هذا يجري والرسول مترددة بينهم في تقرير قاعدة الصلح، وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدس، وعسقلان، وطبرية، وصيدا، وجبلة، واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل وقد تقدم ذكره ما عدا الكرك، ليسلموا دمياط، فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمره بها، فلم يتم بينهم أمر وقالوا: لا بد من الكرك.

فبينما الأمر في هذا، وهم يمتنعون، اضطرب المسلمون إلى قتالهم، وكان الفرنج لاعتدادهم بنفوسهم لم يستصحبوا معهم ما

يقوتهم عدة أيام، ظناً منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم، وأن القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم، يأخذون منه ما أرادوا من الميرة، لأمر يريده الله تعالى بهم، فغير طائفة من المسلمين إلى الأرض التي عليها الفرنج، ففجروا النيل، فركب الماء أكثر تلك الأرض، ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق، فنصب الكامل حيتض الجسور على النيل، عند أشموم، وعبرت العساكر عليها، فملك الطريق الذي يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط، فلم يبق لهم خلاص.

وأتفق في تلك الحال أنه وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمّة، وحوله عدة حراقات تحميه، والجميع مملوء من الميرة والسلاح، (٣٣٠/١٢) وما يحتاجون إليه، فوقع عليها شواني المسلمين، وقتلوه، وفظفروا بالمرمّة وبما معها من الحراقات وأخذوها، فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلونها.

هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب، ويحملون على أطرافهم، فلما اشتد الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم، ومجانيقهم، وأثقالهم، وأرادوا الزحف إلى المسلمين ومقاتلتهم، لعلهم يقدرون على العود إلى دمياط، فرأوا ما أكلوه بعيداً، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، لكثرة الوحل والمياه حولهم، والوجه الذي يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون.

فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم، وأن ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها، وأن المنايا قد كثرت لهم عن أنيابها، ذلت نفوسهم، وتكسرت صلبانهم، وضل عنهم شيطانهم، فراسلوا الملك الكامل والأشرف يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عرض، فبينما المراسلات مترددة إذ أقبل جمع كبير، لهم رهج شديد، وجلبة عظيمة، من جهة دمياط، فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج، فاستشعروا، وإذا هو الملك المعظم، صاحب دمشق، قد وصل إليهم، وكان قد جعل طريقه على دمياط، لما ذكرناه، فاشتدت ظهور المسلمين، وازداد الفرنج خذلاً وهناً، وتمموا الصلح على تسليم دمياط، واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمانى عشرة وستمائة، وانتقل ملوك الفرنج، وكنودهم، وقماصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن على تسليم دمياط ملك عكا، ونائب بابا صاحب رومية، وكند ريش، وغيرهم، وعدتهم عشرون ملكاً، وراسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط في التسليم، فلم يمتنع من بها، وسلموها إلى المسلمين تاسع رجب المذكور، وكان يوماً مشهوداً. (٣٣١/١٢)

ومن العجب أن المسلمين لما تسلّموها وصلت للفرنج نجدة في البحر، فلو سبقوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليمها، ولكن

سبقهم المسلمون ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولم يبق بها من أهلها إلا آحاد، وتفرقوا أيدي سبأ، بعضهم سار عنها باختياره، وبعضهم مات، وبعضهم أخذه الفرنج.

ولما دخلها المسلمون رأوها وقد حصنها الفرنج تحصيناً عظيماً بحيث بقيت لا ترام، ولا يوصل إليها، وأعاد الله، سبحانه وتعالى، الحق إلى نصابه، وردّه إلى أربابه، وأعطى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانتهم أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا ديماط، فرزقهم الله إعادة ديماط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو، وكفاهم شر التتر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عذّة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، كانت ببغداد فتنة بين أهل المأمونية وبين أهل باب الأرج بسبب قتل سبع؛ وزاد الشرّيينهم، واقتتلوا، فخرج بينهم كثير، فحضر نائب الباب وكفهم عن ذلك، فلم يقبلوا ذلك، وأسمعوه ما يكره، فأرسل من الديوان أمير من ممالك الخليفة، فرد أهل كلّ محلّة إلى محلّتهم، وسكنت الفتنة.

وفيها كثر الفار ببلدة دجيل من أعمال بغداد، فكان الإنسان لا يقدر (٣٣٢/١٢) [أن] يجلس إلاّ ومعه عصاً يرذّ الفار عنه، وكان يرى الكثير منه ظاهراً يتبع بعضه بعضاً.

وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها، وأشرفت بغداد على الفرق، فركب الوزير والأمراء والأعيان كافة، وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد، وقلق الناس لذلك، وانزعجوا، وعانوا الهلاك، وأعدوا السفن لينجوا فيها، وظهر الخليفة للناس وحّتهم على العمل؛ وكان ممّا قال لهم: لو كان يُفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت، ولو دفع بحرب لفعلت، ولكن أمر الله لا يُردّ.

ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقي، وغرق كثير منه، وغرق مشهد أبي خنيفة، وبعض الرصافة، وجامع المهدي، وقرية الملكيّة، والكشك، وانقطعت الصلاة بجامع السلطان. وأمّا الجانب الغربي فتهدم أكثر القرية، ونهر عيسى، والشطّيات، وخربت البساتين، ومشهد باب التبن، ومقبرة أحمد بن حنبل، والحریم الطاهري، وبعض باب البصرة والدور التي على نهر عيسى، وأكثر محلّة قُطفت.

وفيها توفي أحمد بن أبي الفضائل عبد المنعم بن أبي البركات محمّد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبي الخير الميهني، الصوفي، أبو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد، وكان

صالحاً من بيت التصوّف والصلاح. (٣٣٣/١٢)

سنة خمس عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من الفتن بسبب موته إلى أن استقرت الأمور

في هذه السنة توفي الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل، ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول، وكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر.

وكان سبب موته أنّه أخذته حمى، ثمّ فارقه الغد، وبقي يومين موعوكاً، ثمّ عاودته الحمى مع قيء كثير، وكرب شديد، وقلق متتابع، ثمّ برد بدنه، وعرق، وبقي كذلك إلى وسط الليل، ثمّ توفي.

وكان كريماً، حليماً، قليل الطمع في أموال الرعيّة، كافاً عن أدّى يوصله إليهم، مقبلاً على لذاته كأنما ينهبها ويبادر بها الموت؛ وكان عنده رقة شديدة، ويكثر ذكر الموت.

حكى لي بعض من كان يلازمه قال: كنّا ليلة، قبل وفاته بنصف شهر، عنده، فقال لي: قد وجدتُ ضجراً من القعود، فقم بنا نتمشّى إلى الباب العمادي؛ قال: فقمنا، فخرج من داره نحو الباب العمادي، فوصل التربة التي عملها لنفسه عند داره، فوقف عندها مفكراً لا يتكلّم، ثمّ قال لي: (٣٣٤/١٢) والله ما نحن في شيء! ليس مصيرنا إلى هاهنا، ونُدفن تحت الأرض؟ وأطال الحديث في هذا ونحوه، ثمّ عاد إلى الدار، فقلت له: ألا نتمشي إلى الباب العمادي؟ فقال: ما بقي عندي نشاط إلى هذا ولا إلى غيره؛ ودخل داره وتوفي بعد أيام.

وأصيب أهل بلاده بموته، وعظم عليهم فقده، وكان مجرباً إليهم، قريباً من قلوبهم، ففسي كلّ دار لأجله رنة وعويل؛ ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه، وعمره حينئذ نحو عشر سنين، وجعل الوصي عليه والمدير لدولته بدر الدين لؤلؤ، وهو الذي كان يتولّى دولة القاهر ودولة أبيه نور الدين قبله، وقد تقدّم من أخباره ما يُعرف به محلّه، وسيرد منها أيضاً ما يزيد الناظر بصيرة فيه.

فلما قضى نجه قام بدر الدين بأمر نور الدين، وأجلسه في مملكة أبيه، وأرسل إلى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف، وأرسل إلى الملوك، وأصحاب الأطراف المجاورين لهم، يطلب [منهم] تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت بينهم وبين أبيه، فلم يُصَبِحْ إلاّ وقد فرغ من كلّ ما يحتاج إليه، وجلس للعزاء، وحلّف الجند والرعايا، وضبط المملكة من التزلزل والتغيّر مع

تعرض إليها أحد من الناس، من كان، منه نفسه وعساكره، وأعان نور الدين وبدر الدين على منعه، ويطلبه بالوفاء بها.

ثم نزل عن هذا، ورضى منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم، فلم يفعل، وأظهر معاضدة عماد الدين زنكي، فحيتنذ لم يمكن مكاثرة زنكي بالرجال والعساكر لقرب هذا الخصم من الموصل وأعمالها، إلا أن العسكر البدري محاصر للعمادية وبها زنكي.

ثم إن بعض الأمراء من عسكر الموصل، ممن لا علم له بالحرب، وكان شجاعاً وهو جديد الإشارة أراد أن يظهر شجاعته ليزداد بها تقدماً، أشار على من هناك من العسكر بالتقدم إليها ومباشرتها بالقتال، وكانوا قد تأخروا عنها شيئاً يسيراً لشدة البرد والثلج، فلم يوافقوه، وقبحوا رأيه، فتركهم ورحل متقدماً إليهم ليلاً، فاضطروا إلى اتباعه خوفاً عليه من أذى يصيبه ومن معه، فساروا إليه على غير تعبشة لضيق المسلك، ولأنه أعجلهم عن ذلك، وحكم الثلج عليهم أيضاً.

فسمع زنكي ومن معه، فزولوا، ولقوا أوائل الناس، وأهل مكة أخبر بشعابها، فلم يبنوا لهم، وانهمزوا وعادوا إلى منزلتهم، ولم يقف العسكر (٣٣٧/١٢) عليهم، فاضطروا إلى العود، فلما عادوا راسل زنكي باقي قلاع الهكارية والزوزان، واستدعاهم إلى طاعته، فاجابوه، وسلّموا إليه، فجعل فيها الولاة، وتسلمها وحكم فيها.

ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الأشرف

لما رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده، واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه، ولم ينفع معهم اللين ولا الشدة، وأنهما لا يزالان يسعيان في أخذ بلاده، ويتعرضان إلى أطرافها بالتهب والأذى، أرسل إلى الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل، وهو صاحب ديار الجزيرة كلها، إلا القليل، وصاحب خلاط وبلادها، يطلب منه الموافقة والمعاوضة، واتمى إليه، وصار في طاعته منخرطاً في سلك موافقته، فأجابه الأشرف بالقبول لذلك والفرح به والاستبشار، وبذل له المساعدة والمعاوضة، والمحاربة دونه، واستاعدة ما أخذ من القلاع التي كانت له.

وكان الملك الأشرف حيتنذ بحلب، نازلاً بظاهرها، لما ذكرناه من تعرض كيكافوس، ملك بلاد الروم التي بيد المسلمين، قوتية وغيرها، إلى أعمالها، وملكه بعض قلاعها، فأرسل إلى مظفر الدين يقبّح هذه الحالة، ويقول له: إن هذه القاعدة تقررت بين جميعنا بحضور رسلك، وإننا نكون على الناكث إلى أن يرجع الحق، ولا بد من إعادة ما أخذ من بلد الموصل لندوم على اليمين التي استقرت بيننا، فإن امتنعت، وأصررت على معاضدة زنكي ونصرت، فانا أجيء بنفسي وعساكري، وأقصّد بلادك وغيرها، واسترد ما أخذتموه وأعيده إلى أصحابه، والمصلحة أنك توافق، وتعود إلى

صغر السلطان وكثرة الطامعين في الملك، فإنه كان معه في البلد أعمام أبيه، وكان عمه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بولايته، وهي قلعة عفر الحنيدية، يحدث نفسه بالملك، لا يشك في أن الملك يصير إليه بعد أخيه، فرقع بدر الدين ذلك الخرق، ورتق ذلك الفتق، وتابع الإحسان والخلع على الناس كافة، وغير ثياب الحداد عنهم، فلم يخص بذلك شريقاً دون مشروف، ولا كبيراً دون صغير، وأحسن السيرة، وجلس لكشف ظلمات الناس، وإنصاف بعضهم من بعض.

وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية، ولبدر الدين بالنظر (٣٣٥/١٢) في أمر دولته، والتشريفات لهما أيضاً، وأنتهما رسل الملوك بالتعزية، وبذل ما طلب منهم من العهود، واستقرت القواعد لهما.

ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية والزوزان

قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمئة أنه أعطى ولده الأصغر زنكي قلعتي القفر وشوش، وهما بالقرب من الموصل، فكان تارة يكون بالموصل، وتارة بولايته، متجنباً لكثرة تلونه، وكان بقلعة العمادية مستحفظ من ممالك جنة عز الدين مسعود بن مودود، قيل إنه جرى له مع زنكي مراسلات في معنى تسليم العمادية إليه، فتمى الخبر بذلك إلى بدر الدين، فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجند لم يمكنه الامتناع، وسلّم القلعة إلى نائب بدر الدين كذلك، وجعل بدر الدين في غير العمادية من القلاع نواباً له.

وكان نور الدين بن القاهرة لا يزال مريضاً من جروح كانت به، وغيرها من الأمراض، وكان يبقى المدة الطويلة لا يركب، ولا يظهر للناس، فأرسل زنكي إلى من بالعمادية من الجند يقول: إن ابن أخي توفي، ويريد بدر الدين [أن] يملك البلاد، وأنا أحق بملك آبائي وأجدادي، فلم يزل حتى استدعاه الجند منها، وسلّموا إليه، ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمئة، وقبضوا على النائب البدري وعلى من معه. (٣٣٦/١٢)

فوصل الخبر إلى بدر الدين ليلاً فجده في الأمر، ونادى في العسكر لوقته بالرحيل، فساروا مجتئين إلى العمادية وبها زنكي ليحصره فيها، فلم يطلع الصبح إلا وقد فرغ من تسيير العساكر، فساروا إلى العمادية وحصروها، وكان الزمان شتاء، والبرد شديداً، والثلج هناك كثير، فلم يتمكنوا من قتال من بها، لكنهم أقاموا يحصرونها، وقام مظفر الدين كوكبيري بن زين الدين، صاحب إربل، في نصر عماد الدين، وتجرد لمساعدته، فراسله بدر الدين يذكره الأيمان والعهود التي من جملتها أنه لا يتعرض إلى شيء من أعمال الموصل، ومنها قلاع الهكارية والزوزان بأسمائها، ومتى

وكان بدر الدين قد سير ولده الأكبر في جمع صالح من العسكر إلى الملك الأشرف بحلب، نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر، وهو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التي بساحل الشام بينهما، ويخربها، ليعود بعض من يديماط إلى بلادهم، فيخف الأمر على الملك الكامل، صاحب مصر؛ فلما رأى بدر الدين تحرك مظفر الدين وعماد الدين، وأن بعض عسكره بالشام، أرسل إلى عسكر الملك الأشرف الذي بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم، وكان المقدم عليهم مملوك الأشرف، اسمه أيك، فساروا إلى الموصل رابع رجب سنة ست عشرة.

فلما رآهم بدر الدين استقلهم لأنهم كانوا أقل من العسكر الذي له (٣٤٠/١٢) بالشام، أو مثلهم، فآلح أيك على عبور دجلة وقصد بلاد إربل، فمنعه بدر الدين من ذلك، وأمره بالاستراحة، فنزل بظاهر الموصل أياماً، وأصر على عبور دجلة، فغبرها بدر الدين موافقة له، ونزلوا على فروسخ من الموصل، شرقي دجلة، فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره وسار إليهم ومعه زنكي، فغبر الزاب وسبق خبره، فسمع به بدر الدين فعبأ أصحابه، وجعل أيك في الجالسية، ومعه شجاعان أصحابه، وأكثر معه منهم، بحيث إنه لم يبق معه إلا السير، وجعل في مسيرته أميراً كبيراً، وطلب الانتقال عنها إلى الميمنة، ففعله.

فلما كان وقت العشاء الآخرة أعاد ذلك الأمير الطلب بالانتقال من الميمنة إلى الميسرة، والخضم بالقرب منهم، فمنعه بدر الدين، وقال: متى انتقلت أنت ومن معك في هذا الليل، ربما ظنه الناس هزيمة فلا يقف أحد؛ فأقام بمكانه، وهو في جمع كبير من العسكر، فلما انتصف الليل سار أيك، فأمره بدر الدين بالمقام إلى الصبح لقرب العدو منهم، فلم يقبل لجهله بالحرب، فاضطر الناس لاتباعه، فتقطعوا في الليل والظلمة، والتقوا هم والخضم في العشرين من رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل، فأما عز الدين فإنه تيامن والتحق بالميمنة، وحمل في أطلابه هو والميمنة على ميسرة مظفر الدين، فهزمها وبها زنكي.

وكان الأمير الذي انتقل إلى الميمنة قد أبعد عنها، فلم يقاتل، فلما رأى أيك قد هزم الميسرة تبعه والتحق به وانهمت ميسرة بدر الدين فبقي هو في الثغر الذين معه، وتقدم إليه مظفر الدين فيمن معه في القلب لم يتفرقوا، فلم يمكنه الوقوف، فعاد إلى الموصل، وعبر دجلة إلى القلعة، ونزل منها إلى البلد؛ فلما رآه الناس فرحوا به، وساروا معه، وقصد باب الجسر، والعدو بإزائه، بينهما دجلة. فنزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره (٣٤١/١٢) وراء تل حصن نينوي، فأقام ثلاثة أيام.

فلما رأى اجتماع العسكر البدري بالموصل، وأنهم لم يفقد

الحق، لنجعل شغلنا جمع العساكر، وقصد الديار المصرية، وإجلاء الفرنج (٣٣٨/١٢) عنها قبل أن يعظم خطيهم ويستطير شرهم.

فلم تحصل الإجابة منه إلى شيء من ذلك؛ وكان ناصر الدين محمود، صاحب الحصن وأيد، قد امتنع عن موافقة الأشرف، وقصد بعض بلاده ونهبها، وكذلك صاحب ماردين، واتفقا مع مظفر الدين، فلما رأى الأشرف ذلك جهز عسكراً ومسيره إلى نصيبين نجدة لبدر الدين إن احتاج إليهم.

ذكر انهزام عماد الدين زنكي من العسكر البدري

لما عاد العسكر البدري من حصار العمادية وبها زنكي، كما ذكرناه، قويت نفسه، وفارقها، وعاد إلى قلعة العقر التي له ليتسلط على أعمال الموصل بالصحراء، فإن بلد الجبل كان قد فرغ منه، وأمدّه مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر.

فلما اتصل الخبر ببدر الدين سير طائفة من عسكره إلى أطراف بلد الموصل يحمونها، فأقاموا على أربعة فراسخ من الموصل، ثم إنهم اتفقوا بينهم على المسير إلى زنكي، وهو عند العقر في عسكره، ومحاربتة، ففعلوا ذلك، ولم يأخذوا أمر بدر الدين بل أعلموه بمسيرهم جريدة ليس معهم إلا سلاحهم، ودواب يقاتلون عليها، فساروا ليلتهم، وصبحوا زنكي بكرة الأحد لأربع يقين من المحرم من سنة ست عشرة وستمائة، فالتقوا واقتتلوا تحت العقر، وعظم الخطب بينهم، فأنزل الله نصره على العسكر البدري، فانهزم عماد الدين وعسكره، وسار إلى إربل منهزماً، وعاد العسكر البدري إلى منزلته التي كان بها، وحضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله ومن الملك الأشرف في تجديد الصلح، فاصطلحوا، وتحالفوا بحضور الرسل. (٣٣٩/١٢)

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل ومملك أخيه

ولما تقرر الصلح توفي نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر، صاحب الموصل، وكان لا يزال مريضاً بعدة أمراض، فرتب بدر الدين في الملك بعده أخاه ناصر الدين محموداً وله من العمر نحو ثلاث سنين، ولم يكن للقاهر ولد غيره، وحلف له الجند، وركبه، فطابت نفوس الناس، لأن نور الدين كان لا يقدر على الركوب لمرضه، فلما ركبو هذا علموا أن لهم سلطاناً من البيت الأتابكي، فاستقروا واطمأنوا، وسكن كثير من الشعب بسببه.

ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين

لما توفي نور الدين، وملك أخوه ناصر الدين، تجدد لمظفر الدين ولعماد الدين طمع لصغر سن ناصر الدين، فجمعوا الرجال، وتجهزوا للحركة، فظهر ذلك، وقصد بعض أصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب والفساد.

منهم إلا اليسير، وبلغه الخبر أن بدر الدين يريد العبور إليه ليلاً بالفارس والراجل، على الجسور وفي السفن، ويكبسه، رحل ليلاً من غير أن يضرب كوساً أو بوقاً، وعادوا نحو إربل، فلما عبروا الزاب نزلوا، ثم جاءت الرسل وسعوا في الصلح، فاصطلحوا على أن كل من بيده شيء هو له، وتقررت العهود والأيمان على ذلك.

ذكر ملك عماد الدين قلعة كراشي وملك بدر الدين تل يعفر وملك

الملك الأشرف سنجانر

كراشي هذه من أحصن قلاع الموصل وأعلامها وأمنها، وكان الجند الذين بها، لما رأوا ما فعل أهل العمادية وغيرها من التسليم إلى زنكي، وأنهم قد تحكّموا في القلاع، لا يقدر أحد على الحكم عليهم، أحبوا أن يكونوا كذلك، فأخرجوا نواب بدر الدين عنهم، وامتنعوا بها، وكانت رهايتهم بالموصل، وهم يظهرّون طاعة بدر الدين، ويبطنون المخالفة، فتردّت الرسل في عودهم إلى الطاعة، فلم يفعلوا، وراسلوا زنكي في المجيء إليهم، فصار إليهم وتسلم القلعة، وأقام عندهم، فروسل مظفر الدين يذكر بالآيمان القريبة العهد، ويطلب منه إعادة كواشي، فلم تقع الإجابة إلى ذلك، فأرسل حيثنذ بدر الدين إلى الملك الأشرف، وهو بحلب، يستنجد، فصار وعبر الفرات إلى حران، واختلفت عليه الأمور من عدة جهات منعت من سرعة السير. (٣٤٢/١٢)

وسبب هذا الاختلاف أن مظفر الدين كان يرسل الملوك أصحاب الأطراف ليستبيلهم، ويحسن لهم الخروج على الأشرف، ويخونهم منه، إن خلا وجهه، فأجابه إلى ذلك عز الدين كيكافوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان، صاحب بلاد الروم، [وصاحب آمد]، وحصن كيفا وصاحب ماردين، واتفقوا كلهم على طاعة كيكافوس، وخطبوا له في بلادهم، ونحن نذكر ما كان بينه وبين الأشرف عند منبج لما قصد بلاد حلب، فهو موغر الصدر عليه.

فاتفق أن كيكافوس مات في ذلك الوقت، وكفي الأشرف وبدر الدين شره، ولا جد إلا ما أقصص عنك الرجال، وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الأمراء الذين مع الأشرف، واستمالهم، فأجابه، منهم: أحمد بن علي بن المشطوب، الذي ذكرنا أنه فعل على دمياط ما فعل، وهو أكبر أمير معه، ووافقه غيره، منهم: عز الدين محمد بن بدر الحميدي وغيرهما، وفارقوا الأشرف، ونزلوا بدليس، تحت ماردين، ليجتمعوا مع صاحب آمد، ويمنعوا الأشرف من العبور إلى الموصل لمساعدة بدر الدين.

فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف، وفارقهم، واستقر الصلح بينهما، وسلم إليه الأشرف مدينة حاني، وجبل جور، وضمن له أخذ دارا وتسليمها إليه، فلما فارقهم صاحب آمد انحل أمرهم، فاضطر بعض أولئك الأمراء إلى العود

إلى طاعة الأشرف، وبقي ابن المشطوب وحده، فصار إلى نصيبين ليسير إلى إربل، فخرج إليه شحنة نصيبين فيمن عنده من الجند، فاقتلوا، فانهزم ابن المشطوب، وتفرق من معه من الجمع، ومضى منهزمًا، فاجتاز بطرف بلد سنجانر، فسير إليه صاحبها فروخ شاه بن زنكي بن مودود بن زنكي عسكريًا فهزموه وأخذوه أسيرًا وحملوه إلى سنجانر، وكان صاحبها موافقًا للأشرف وبدر الدين. (٣٤٣/١٢)

فلما صار عنده ابن المشطوب حسن عنده مخالفة الأشرف، فأجابه إلى ذلك وأطلقه، فاجتمع معه من يريد الفساد، فقصدوا البقعا من أعمال الموصل، ونهبوا فيها عدة قرى، وعادوا إلى سنجانر، ثم ساروا وهو معهم إلى تل يعفر، وهي لصاحب سنجانر، ليقصدوا بلد الموصل وينهبوا في تلك الناحية، فلما سمع بدر الدين بذلك سير إليه عسكريًا، فقاتلهم، فمضى منهزمًا، وصعد إلى تل يعفر، واحتجى بها منهم، ونازلوه وحصلوه فيها، فصار بدر الدين من الموصل إليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الأول سنة سبع عشرة وستمئة، وجد في حصره، وزحف إليها مرة بعد أخرى، فملكها سبع عشر ربيع الآخر من هذه السنة، وأخذ ابن المشطوب معه إلى الموصل فسجنه بها، ثم أخذه منه الأشرف فسجنه بحرّان إلى أن توفي في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمئة، ولقاه الله عاقبة ما صنع بالمسلمين بدمياط.

وأما الملك الأشرف، فإنه لما أطاعه صاحب الحصن وأمد، وتفرق الأمراء [عنه] كما ذكرنا، رحل من حرّان إلى دُنيسر، فنزل عليها، واستولى على بلد ماردين، وشحن عليه، وأقطعها، ومنع الميرة عن ماردين، وحضر معه صاحب آمد وتردّت الرسل بينه وبين صاحب ماردين في الصلح، فاصطلحوا على أن يأخذ الأشرف رأس عين، وكان هو قد أقطعها لصاحب ماردين، ويأخذ منه أيضًا ثلاثين ألف دينار، ويأخذ منه صاحب آمد المورز، من بلد [شبختان].

فلما تم الصلح سار الأشرف من دُنيسر إلى نصيبين يريد الموصل، فبينما هو في الطريق لقيه رسل صاحب سنجانر يبذل تسليمها إليه، ويطلب العوض عنها مدينة الرقة. (٣٤٤/١٢)

وكان السبب في ذلك أخذ تل يعفر منه، فانخلع قلبه، وانضاف إلى ذلك أن قناته ونصحاء خانوه، وزادوه رعبًا وخوفًا، لأنه تهدمهم، فتغلّوا به قبل أن يتعشى بهم، ولأنه قطع رحمه، وقتل أخاه الذي ملك سنجانر بعد أبيه؛ قتله كما ذكره إن شاء الله، وملكها، فلقيه الله سوء فعله، ولم يمّعه بها، فلما تيقن رحيل الأشرف تحير في أمره، فأرسل في التسليم إليه، فأجابه الأشرف إلى العوض، وسلم إليه الرقة، وتسلم سنجانر مستهل جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمئة، وفارقها صاحبها وإخوته بأهلهم

ظَنُّوه من الإحسان والإنعام، بل فعل ضلَّه، وضَيَّقَ عليهم، وكان يبلغهم أفعال بدر الدين مع جنده ورعاياه، وإحسانه إليهم، وبذله الأموال لهم، وكانوا يريدون العود إليه، ويمنعهم الخوف منه لما أسلفوه من ذلك، فلمَّا كان الآن أعلنوا بما فعل معهم، فأرسلوا إلى بدر الدين في المحرم سنة ثمانى عشرة وستمئة في التسليم إليه، وطلبوا منه اليمين، والعفو عنهم، وذكروا شيئاً من إقطاع يكون لهم، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى الملك الأشرف يستأذنه في ذلك، فلم يأذن له.

وعاد زنكي من عند الأشرف، فجمع جموعاً، وحصر قلعة العمادية، فلم يبلغ منهم غرضاً، وأعادوا مراسلة بدر الدين في التسليم إليه، فكتب إلى الملك الأشرف في المعنى، وبذل له قلعة جُذَيْدَة نصيبين، وولاية بين النهريْن ليأذن له في أخذها، فأذن له، فأرسل إليها كلَّها التَّوَاب وتسلَّموها، وأحسن إلى أهلها، ورحل زنكي عنها، ووفى له بدر الدين بما بذله لهم.

فلمَّا سمع جند باقي القلاع بما فعلوا وما وصلهم من الإحسان والزيادة، رغِبوا كُلُّهم في التسليم إليه، فسَبَّر إليهم التَّوَاب، واتَّفقت كلمة أهلها على طاعته والانقياد إليه؛ والعجب أنَّ العساكر اجتمعت من الشام، والجزيرة، وديار بكر، وخیلاط، وغيرها، في استعادة هذه القلاع، فلم يقدروا على (٣٤٧/١٢) ذلك، فلمَّا تفرَّقوا حضر أهلها وسألوا أن تؤخذ منهم، فعادت صفواً عفواً بغير منة، ولقد أحسن من قال :

لا سَهْلَ إِلَّا ما جعلتَ سَهْلاً وإنْ نَشَأَ تَجَعَلَ بِحَزْنٍ وَخِلا
تبارك الله الفعال لما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا مُعْطى لما منع، وهو على كلِّ شيء قدير.

ذكر قصد كيكأوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للأشرف وانهزام كيكأوس

في هذه السنة سار عزَّ الدين كيكأوس بن كَيْخَسْرُو ملك الروم إلى ولاية حلب، قصدًا للتغلب عليها، ومعه الأفضل بن صلاح الدين يوسف.

وسبب ذلك أنَّه كان بحلب رجلان فيهما شرٌّ كثير وسعاية بالناس، فكانا يتقلان إلى صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدين عن رعيته، فأوغرا صدره، فلقي الناس منهما شدةً؛ فلمَّا توفي الظاهر ووَلَّى الأمر شهاب الدين طغرُل أبعدهما وغيرهما مَعَن يفعل مثل فعلهما، وسدَّ هذا الباب على فاعله، ولم يطرُق إليه أحدًا من أهله؛ فلمَّا رأى الرجلان كساد سوقهما لَزَمَا بيوتهما، وثار بهما الناس، وأذَوَّهما، وتهدَّدوهما لما كانا أسلفاه من الشرِّ، فخافا، ففارقا حلب، وقصدا كيكأوس فاطمعا فيها، وقرَّرا في نفسه أنَّه متى قصدها لا تثبت بين يديه، وأنَّه يملكها، ويهون عليه مُلك ما

وأموالهم، وكان هذا آخر ملوك البيت الأتابكيّ بسنجار، فسبحان الحيِّ الدائم الذي ليس لملكه آخر. وكان مدَّة مُلكهم لها أربعًا وتسعين سنة، وهذا دأب الدنيا بأبنائها، فتعسَّأ لها من دار ما أغدرها بأهلها !

ذكر وصول الأشرف إلى الموصل والصلح مع مظفر الدين

لمَّا ملك الملك الأشرف سنجان سار يريد الموصل ليجتاز منها، فقدَّم بين يديه عساكره، فكان يصل كلَّ يوم منهم جمع كثير، ثمَّ وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان يوم وصوله مشهوداً، وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح، وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها إلى بدر الدين، ما عدا قلعة العمادية فإنَّها تبقى بيد زنكي، وإنَّ المصلحة قبول هذا لتزول الفتن، ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج.

وطال الحديث في ذلك نحو شهرين، ثمَّ رحل الأشرف يريد مظفر الدين (٣٤٥/١٢) صاحب إربل، فوصل إلى قرية السَّلامية، بالقرب من نهر الزَّاب، وكان مظفر الدين نازلاً عليه من جانب إربل، فأعاد الرسل، وكان العسكر قد طال بيكاره، والناس قد ضجروا، وناصر الدين صاحب آمد يميل إلى مظفر الدين، فأشار بالإجابة إلى ما بذل، وأعاناه عليه غيره، فوقعت الإجابة إليه، واصطلحوا على ذلك، وجُعِل لتسليمها أجلٌ، وحُمِل زنكي إلى الملك الأشرف يكون عنده رهينة إلى حين تسليم القلاع.

وسلَّمت قلعة العقر، وقلعة شوش أيضًا، وهما لزنكي، إلى نَوَّاب الأشرف، رهناً على تسليم ما استقرَّ من القلاع، فإذا سلَّمت أطلق زنكي، وأعيد عليه قلعة العقر، وقلعة شوش، وحلفوا على هذا، وسلَّم الأشرف زنكي القلعتين وعاد إلى سنجان، وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمئة، فأرسلوا إلى القلاع لتسلَّم إلى نَوَّاب بدر الدين، فلم يسلم إليه غير قلعة جلَّ صورا، من أعمال الهكارية، وأمَّا باقي القلاع فإنَّ جندها أظهروا الامتناع من ذلك، ومضى الأجل ولم يسلم غير جلَّ صورا.

ولزم عماد الدين زنكي لشهاب الدين غازي ابن الملك العادل، وخدمه، وتقرَّب إليه، فاستعطف له أخاه الملك الأشرف، فمال إليه وأطلقه، وأزال نوابه من قلعة العقر وقلعة شوش، وسلَّمهما إليه.

وبلغ بدر الدين عن الملك الأشرف ميل إلى قلعة تلَّ بَغْغَر، وإنَّها كانت لسنجان من قديم الزمان وحديثه، وطال الحديث في ذلك، فسَلَّمها إليه بدر الدين. (٣٤٦/١٢)

ذكر عود قلاع الهكارية والزوزان إلى بدر الدين

لمَّا ملك زنكي قلاع الهكارية والزوزان لم يفعل مع أهلها ما

بعدها. (٣٤٨/١٢)

وسارت العرب في مقدّمته؛ وكان طائفة من عسكر كيكّاوس، نحو ألف فارس، قد سبقت مقدّمته له، فالتقوا هم والعرب ومن معهم من العسكر الأشرقي، فاقتلوا، فانهزم عسكر كيكّاوس، وعادوا إليه منهزمين، وأكثر العرب الأسر منهم والنهب لجودة خيلهم وذّبر خيل الروم.

فلَمّا وصل إليه أصحابه منهزمين لم يثبت، بل ولّى على أعقابهم يطوي المراحل إلى بلاده خائفاً يترقب، فلَمّا وصل إلى أطرافها أقام.

وإنّما فعل هذا لأنّه صبيّ غيرَ لا معرفة له بالحرب، وإلّا، فالعساكر ما برحت تقع مقدّماتها بعضها على بعض، فصار حينئذ الأشراف، فملك رعيّان، وحصر تلّ باشر، وبها جمع من عسكر كيكّاوس، فقاتلوه حتّى غلبوا، فأخذت القلعة منهم، وأطلقهم الأشراف، فلَمّا وصلوا إلى كيكّاوس جعلهم في دار وأحرقها عليهم، فهلكوا، فعظم ذلك على الناس (٣٥٠/١٢) كافّة، واستبجحوه، واستضعفوه، لا جرّم لم يمهله الله تعالى لعدم الرحمة في قلبه، ومات عقيب هذه الحادثة.

وسلم الأشراف تلّ باشر وغيرها من بلد حلب إلى شهاب الدين أتابك، صاحب حلب، وكان عازماً على اتّباع كيكّاوس، ودخول بلاده، فاتّاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل، فأنقضت المصلحة العود إلى حلب، لأنّ الفرنج بديار مصر، ومثل ذلك السلطان العظيم إذا توفّي ريمًا جرى خلل في البلاد لا تُعرف العاقبة فيه، فعاد إليها، وكفي كلّ منهما أذى صاحبه.

ذكر وفاة الملك العادل ومُلك أولاده بعده

توفّي الملك العادل أبو بكر بن أيّوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمئة؛ وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند مُلك عمّه أسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمئة؛ ولَمّا ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيّوب ديار مصر، بعد عمّه، وسار إلى الشام استخلفه بمصر ثقة به، واعتماداً عليه، وعلمًا بما هو عليه من توفّر العقل وحسن السيرة.

فلَمّا توفّي أخوه صلاح الدين ملك دمشق وديار مصر، كما ذكرناه، وبقي مالكاً للبلاد إلى الآن، فلَمّا ظهر الفرنج، كما ذكرناه سنة أربع عشرة وستمئة، قصد هو مرّج الصقّر، فلَمّا سار الفرنج إلى ديار مصر انتقل هو (٣٥١/١٢) إلى عالقين، فأقام به، ومرض، وتوفّي، وحُمِل إلى دمشق، فدفن بالتربة التي له بها.

وكان عاقلاً، ذا رأي سديد، ومكر شديد، وخديعة، صبوراً، حليماً، ذا أناة، يسمع ما يكره، ويُفضي عليه حتّى كأنه لم يسمعه، كثير الحرج وقت الحاجة لا يقف في شيء، وإذا لم تكن حاجة فلا.

فلَمّا عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأي من أصحابه، وقالوا له: لا يتمّ لك هذا إلّا بأن يكون معك أحدٌ من بيت أيّوب ليسهل على أهل البلاد وجندّها الاتقياد إليه؛ وهذا الأفضل بن صلاح الدين هو في طاعتك، والمصلحة أنّك تستصحبه معك، وتقرّر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد، فمتى كان معك أطاعك الناس وسهل عليك ما تريد.

فأحضر الأفضل من سُبيّات إليه، وأكرمه، وحمل إليه شيئاً كثيراً من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك، واستقرّت القواعد بينهما أن يكون ما يفتح من حلب وأعمالها للأفضل، وهو في طاعة كيكّاوس، والمخطبة له في ذلك أجمع، ثمّ يقصدون ديار الجزيرة، فما يفتحونه ممّا بيد الملك الأشراف مثل: حرّان والرّها من البلاد الجزرية، تكون لكيكاؤس. وجرّت الأيمان على ذلك، وجمعوا العساكر وساروا، فملكوا قلعة رعيّان، فتسلّمها الأفضل، فمال الناس حينئذ إليهما.

ثمّ سارا إلى قلعة تلّ باشير، وفيها صاحبها ولد بدر الدين دلدرم الباروقي، فحصروه، وضيقوا عليه، وملكوها منه، فأخذها كيكّاوس لنفسه، ولم يسلمها إلى الأفضل، فاستشعر الأفضل من ذلك، وقال: هذا أول الغدر؛ وخاف أنّه إن ملك حلب يفعل به هكذا، فلا يحصل إلّا أن يكون قد قلع بيته لغيره، ففترت نيّته، وأعرض عمّا كان يفعله؛ وكذلك أيضاً أهل البلاد، فكانوا يظنون أنّ الأفضل يملكها، فيسهل عليهم الأمر، فلَمّا رأوا ضدّ ذلك وقفوا.

وأما شهاب الدين أتابك ولد الظاهر، صاحب حلب، فإنّه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها، ولا يفارقها البتّة؛ وهذه كانت عادته مذ مات الظاهر، خوفاً من تأثير ثور به، فلَمّا حدث هذا الأمر خاف أن يحصروه، وربما سلّم (٣٤٩/١٢) أهل البلد والجند المدينة إلى الأفضل لميلهم إليه، فأرسل إلى الملك الأشراف ابن الملك العادل، صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها، يستدعيه إليه لتكون طاعتهم له، ويخطبون له، ويجعل السكّة باسمه، ويأخذ من أعمال حلب ما اختار، ولأنّ ولد الظاهر هو ابن أخته، فأجاب إلى ذلك، وسار إليهم في عساكره التي عنده، وأرسل إلى الباقيين يطلبهم إليه، وسره ذلك للمصلحة العامة لجميعهم، وأحضر إليه العرب من طيء وغيرهم، ونزل بظاهر حلب.

ولَمّا أخذ كيكّاوس تلّ باشر كان الأفضل يشير بمعالجة حلب قبل اجتماع العساكر بها، وقيل أن يحتاطوا ويتجهّزوا، فعاد عن ذلك، وصار يقول: الرأي أنّنا نقصد منبج وغيرها لئلا يبقى لهم وراء ظهورنا شيء، قصداً للتمادي ومرور الزمان في لا شيء؛ فتوجّهوا من تلّ باشر إلى جهة منبج، وتقدّم الأشراف نحوهم،

وفيها، في المحرم، توفي شرف الدين محمد بن علوان بن مهاجر، الفقيه الشافعي، وكان مدرّساً في عدّة مدارس بالموصل، وكان صالحاً كثير الخير والدين، سليم القلب، رحمه الله.

وفيها توفي عزّ الدين نجاح الشرايبي خاصّ الخليفة، وأقرب الناس إليه، وكان الحاكم في دولته، كثير العدل والإحسان والمعروف والعصية للناس؛ وأما عقله وتدبيره فإليه كانت النهاية وبه يضرب المثل.

وفيها توفي عليّ بن نصر بن هارون أبو الحسن الحلبيّ، النحوي، الملقّب بالحجّة، قرأ على ابن الخشاب وغيره.

(٣٥٤/١٢)

سنة ست عشرة وستمائة

ذكر وفاة كيكاؤس وملك كيقياد أخيه

في هذه السنة توفي الملك الغالب عزّ الدين كيكاؤس بن كيخسرو بن قلع أرسلان، صاحب قونية، وأقصرًا وملطية وما بينهما من بلد الروم، وكان قد جمع عساكره، وحشد، وسار إلى ملطية على قصد بلاد الملك الأشرف لمساعدة استقرّت بينه وبين ناصر الدين، صاحب آمد، ومظفر الدين، صاحب إربل، وكانوا قد خطبوا له، وضرّبوا اسمه على السكّة في بلادهم، وأنفقوا على الملك الأشرف وبدر الدين بالموصل.

فسار كيكاؤس إلى ملطية لينع الملك الأشرف بها عن السير إلى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدين، لعلّ مظفر الدين يبلغ من الموصل غرضًا، وكان قد علق به السلّ، فلمّا اشتدّ مرضه عاد عنها، فتوفي وملك بعده أخوه كيقياد، وكان محبوبًا، قد حبسه أخوه كيكاؤس لما أخذ البلاد منه، وأشار عليه بعض أصحابه بقتله، فلم يفعل، فلمّا توفي لم يخلف ولداً يصلح لملك لصغره، فأخرج الجند كيقياد وملكوه. ومن «بقي عليه يُنصّرُهُ اللهُ» [الحج: ٥٩].

وقيل بل أرسل كيكاؤس لما اشتدّ مرضه، فأحضره عنده من السجن، (٣٥٥/١٢) ووصى له بالملك وحلّف الناس له؛ فلمّا ملك خالقه عمّه صاحب أرزن الروم، وخاف أيضًا من الروم المجاورين لبلاده، فأرسل إلى الملك الأشرف وصالحه، وتعاهدا على المصافاة والتعاضد، وتصاهرا، وكفّي الأشرف شرّ تلك الجهة، وتفرّغ باله لإصلاح ما بين يديه، ولقد صدق القائل: لا جدّ إلاّ ما أقصص عنك الرجال، وكأنّه بقوله أراد: وجَدُكَ طَعْنًا بغير سينان.

وهذا ثمرة حُسن النية، فإنّه حَسَن النية لرعيته وأصحابه، كافّ

وكان عمره خمسًا وسبعين سنة وشهورًا لأنّ مولده كان في المحرم من سنة أربعين وخمسائة، وملك دمشق في شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسائة [من الأفضل ابن أخيه، وملك مصر في ربيع الآخر من سنة ست وتسعين] منه أيضًا.

ومن أعجب ما رأيت من منافاة الطوالع أنّه لم يملك الأفضل مملكة قطّ إلا وأخذها منه عمّه العادل، فأولّ ذلك أنّ صلاح الدين أقطع ابنه الأفضل حرّان، والرّهأ، وميفارقين، سنة ست وثمانين، بعد وفاة تقيّ الدين، فسار إليها، وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده، فردّه من حلب، وأخذ هذه البلاد منه.

ثمّ ملك الأفضل بعد وفاة أبيه مدينة دمشق فأخذها منه؛ ثمّ ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضًا منه، ثمّ ملك صرّخد فأخذها منه.

وأعجب من هذا أنّي رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة في بيعة صهيون، ليس مثلها، فقال القسّ الذي بالبيعة: هذه كان قد أخذها الملك الأفضل لينقلها إلى دمشق، ثمّ إنّ العادل أخذها بعد ذلك من الأفضل؛ طلبها منه فأخذها. وهذا غايّة، وهو من أعجب ما يُحكى.

وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين أولاده، فجعل بمصر الملك الكامل (٣٥٢/١٢) محمدًا، ودمشق، والقدس، وطبرية، والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها، ابنه المعظم عيسى؛ وجعل بعض ديار الجزيرة وميفارقين وخیلاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى، وأعطى الرّهأ لولده شهاب الدين غازي، وأعطى قلعة جتّبر لولده الحافظ أرسلان شاه؛ فلمّا توفي ثبت كلّ منهم في المملكة التي أعطاه أبوه، وأنفقوا اتفاقًا حسنًا لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كلّ منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردًا من عسكره ولا يخافه، فلا جرّم، زاد ملكهم، وراوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوه.

ولعمري إنّهم نعم الملوك، فيهم الحلم، والجهاد، والذب عن الإسلام، وفي نوبة دمياط كفاية؛ وأمّا الملك الأشرف فليس للمال عنده محلّ، بل يُعطره مطرًا كثيرًا لِعفته عن أموال الرعيّة، دائم الإحسان، لا يسمع سعاية ساع.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ذي القعدة، رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط، لأنّه بلغه أنّ جماعة من الأمراء قد اجتمعوا على تملك أخيه الفائز عوضه، فخافهم، ففارق منزله، فانتقل الفرنج إليها، وحصروا حينئذ دمياط (٣٥٣/١٢) برًا وبحرًا، وتمكّنوا من ذلك، وقد تقدّم مستقصى سنة أربع عشرة وستمائة.

عن أذى يتطرق إليهم منه، غير قاصد إلى البلاد المجاورة لبلاده
بأذى ومُلْك مع ضعف أصحابها وقوته، لا جَرَم تأتية البلاد صفراً
غفراً.

ذكر موت صاحب سنجار ومُلْك ابنه ثم قتل ابنه ومُلْك أخيه

وفي هذه السنة، ثامن صفر، توفي قطب الدين محمد بن زنكي
بن مودود بن زنكي، صاحب سنجار، وكان كريماً، حسن السيرة في
رعيته، حسن المعاملة مع التجار، كثير الإحسان إليهم، وأما
أصحابه فكانوا معه في أرغد عيش يعمهم بإحسانه، ولا يخافون
أذاه، وكان عاجزاً عن حفظ بلده، مسلماً الأمور إلى نوابه.

ولما توفي ملك بعده ابنه عماد الدين شاهنشاه، وركب الناس
معه، وبقي مالكا لسنجار عدة شهور، وسار إلى تل أعقر وهي له،
فدخل عليه أخوه عمر بن محمد بن زنكي، ومعه جماعة، فقتلوه،
وملك أخوه عمر بعده فبقي كذلك إلى أن سلم سنجار إلى الملك
الأشرف، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، (٣٥٦/١٢) ولم يمتنع
بملكه الذي قطع رحمه، وأراق الدم الحرام لأجله.

ولما سلم سنجار أخذ عوضها الرقعة، ثم أخذت منه عن قريب،
وتوفي بعد أخذها منه بقليل، وعدم روحه وشبابه. وهذه عاقبة
قطعية الرحم، فإن صلتها تزيد في العمر وقطيعتها تهدم العمر.

ذكر إجلاء بني معروف عن البطائح وقتلهم

في هذه السنة، في ذي القعدة، أمر الخليفة الناصر لدين الله
الشريف معداً، متولياً بلاد واسط، أن يسير إلى قتال بني معروف،
فتجهز، وجمع معه من الرجال من تكريت، وهيت، والخديشة،
والأنبار، والجلّة، والكوفة، وواسط، والبصرة، وغيرها، خلقاً كثيراً،
وسار إليهم، ومقدمهم حيتشد معلّى بن معروف، وهم قوم من
ربيعة.

وكانت بيوتهم غربي الفرات، تحت سؤراء، وما يتصل بذلك
من البطائح، وكثر فسادهم وأذاهم لما يقاربهم من القرى، وقطعوا
الطريق، وأفسدوا في النواحي المقاربة لبطيحة العراق، فشكا أهل
تلك البلاد إلى الديوان منهم، فأمر معداً أن يسير إليهم في الجُمُوع،
فسار إليهم، فاستعدّ بنو معروف لقتاله، فاقتتلوا بموضع يُعرف
بالمقير، وهو تل كبير بالبطيحة بقرب العراق، وكثر القتل بينهم، ثم
انهزم بنو معروف، وكثر القتل فيهم، (٣٥٧/١٢) والأسر، والغرق،
وأخذت أموالهم، وحملت رؤوس كثيرة من القتلى إلى بغداد في
ذي الحجة من السنة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، انهزم عماد الدين زنكي من عسكر
بدر الدين.

وفيها، في العشرين من رجب، انهزم بدر الدين من مظفر
الدين، صاحب إربل، وعاد مظفر الدين إلى بلده، وقد تقدّم ذلك
مستوفى في سنة خمس عشرة وستمائة.

وفيها، ثامن صفر، توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن
مودود بن زنكي، صاحب سنجار، وملك بعده ابنه شاهنشاه.

وفيها، في التاسع والعشرين من شعبان، ملك الفرنج مدينة
ديماط، وقد ذكر سنة أربع عشرة [وستمائة] مشروحاً.

وفيها توفي افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي
العباسي، الفقيه الحنفي، رئيس الحنفية بحلب، وروى الحديث عن
عمر البساطي نزيل بلخ، وعن أبي سعد السمعاني وغيرهما.

وفيها توفي أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله
العكبري، الضرير، التحوي وغيره.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن أبي محمد القاسم بن علي بن
الحسن بن عبد الله الدمشقي، الحافظ ابن الحافظ، المعروف بابن
عساكر، وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث فآثر، وعاد
إلى بغداد، فوقع على القفل حرامية، فخرج، وبقي ببغداد، وتوفي
في جمادى الأول، رحمه الله. (٣٥٨/١٢)

سنة سبع عشرة وستمائة

ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام

لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً
لها، كارهاً لذكرها، فانا أقدم إليه [رجلاً] وأؤخر أخرى، فمن الذي
يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون
عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أُمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها
وكنت نسياً منسياً، إلا أنني حنني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها
وأنا متوقّف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا
الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقت
الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو
قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وإلى الآن،
لم يُتْلَوْا بمثلها؛ لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها
ولا ما يُدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني
إسرائيل من القتل، وتخریب البيت المقدس، وما البيت المقدس
بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد، التي كل مدينة منها
أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن
أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر (٣٥٩/١٢) من بني إسرائيل،
ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم،

وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج.

وأما الدجال فإنه يُبقي على من أتبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنّة، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لهذه الحادثة التي استطار شرورها، وعمّ ضرورها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإنّ قومًا خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغَر وبلاساغون، ثمّ منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهلها ما نذكركه، ثمّ تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكًا، وتخريبًا، وقتلًا، ونهبًا، ثمّ يتجاوزونها إلى الريّ، ومعدّان، وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حدّ العراق، ثمّ يقصدون بلاد أذربيجان وأزانيّة، ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلا الشريد النادر في أقلّ من سنة، هذا ما لم يُسمع بمثله.

ثمّ لما فرغوا من أذربيجان وأزانيّة ساروا إلى دَرَبَنْد شيروان فملكوا مدنه، ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان، واللكز، ومن في ذلك الصنّع من الأمم المختلفة، فأوسعهم قتلًا، ونهبًا، وتخريبًا، ثمّ قصدوا بلاد قنّجاق، وهم من أكثر الترك عددًا، فقتلوا (٣٦٠/١٢) كلّ من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان، لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير.

ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غَزَنَة وأعمالها، وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكَرَمَان، ففعلوا فيه مثل فعل هؤلاء وأشدّ.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإنّ الإسكندر الذي اتفق المؤرّخون على أنّه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنّما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحدًا، إنّما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه، وأكثره عمارة وأهلًا، وأعدل أهل الأرض أخلاقًا وسيرة، في نحو سنة، ولم يبق أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقّعهم، ويتربّع وصولهم إليه.

ثمّ إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنّهم معهم الأغنام، والبقر، والخيول، وغير ذلك من الدواب، يأكلون لحومها لا غير؛ وأما دوابهم التي يركبونها فإنّها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكّل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلًا لا يحتاجون إلى شيء من خارج.

وأما ديانتهم، فإنّهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يُحرّمون شيئًا، فإنّهم يأكلون جميع الدواب، حتّى الكلاب، والخنازير، وغيرها، ولا يعرفون نكاحًا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه.

ولقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يُبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر، قُبّحهم الله، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كلّ من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة، إن شاء الله تعالى.

ومنها خروج الفرنج، لعنهم الله، من المغرب إلى الشام، وقصدهم ديار (٣٦١/١٢) مصر، وملكهم نغر ديساط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم، وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستّمائة.

ومنها أنّ الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلون، والفنّة قائمة على ساق، وقد ذكرناه أيضًا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصرًا من عنده، فإنّ الناصر، والمعين، والذاب عن الإسلام معدوم، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾، فإنّ هؤلاء التتر إنّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع.

وسبب عدمه أنّ خوارزم شاه محمّدًا كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلمّا انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم، ولا من يحميها ﴿يَقْضِي اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد.

ذكر خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه

في هذه السنة ظهر التتر إلى بلاد الإسلام، وهم نوع كثير من الترك، ومساكنهم جبال طمناج من نحو الصين، وبينها وبين بلاد الإسلام ما يزيد على ستّة أشهر.

وكان السبب في ظهورهم أنّ ملكهم، ويسمّى بجنكزخان، المعروف بتنجين، كان قد فارق بلاده وسار إلى نواحي تركستان، وسير جماعة من التجار والأثراك، ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما، (٣٦٢/١٢) إلى بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارى ليشتروا له ثيابًا للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمّى أوترار، وهي آخر ولاية خوارزم شاه، وكان له نائب هناك، فلمّا ورد عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه، فقتلهم، وسير ما معهم، وكان شيئًا كثيرًا، فلمّا وصل إلى خوارزم شاه فرقه على تجار بخارى، وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم.

وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطأ قد سدَّ الطرق عن بلاد تُركستان وما بعدها من البلاد، وإن طائفة من التتر أيضًا كانوا قد خرجوا قديمًا والبلاد للخطأ، فلمَّا ملك خوارزم شاه البلاد بما وراء النهر من الخطأ، وقتلهم، واستولى هؤلاء التتر على تُركستان: كاشغَار، وبلاساغون وغيرهما، وصاروا يحاربون عساكر خوارزم شاه، فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها. وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك ممَّا لا يُذكر في بطون الدفاتر:

فكان ما كان ممَّا لستُ أذكرهُ فظنَّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر لما قتل نائب خوارزم شاه أصحاب جنكيزخان أرسل جواسيس إلى جنكيزخان لينظر ما هو، وكم مقدار ما معه من التُّرك، وما يريد أن يعمل، فمضى الجواسيس، وسلوكوا المغازة والجبال التي على طريقهم، حتَّى وصلوا إليه، فعادوا بعد مدَّة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم، وأنهم يخرجون عن الإحصاء، وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، فندم خوارزم شاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم، وحصل عنده فكرٌ زائد، فأحضر الشهاب الخيويني، وهو فقيه (٣٦٣/١٢) فاضل، كبير المحلِّ عنه، لا يخالف ما يشير به، فحضر عنده، فقال له: قد حدث أمر عظيم لا بدَّ من الفكر فيه وأخذ رأيك في الذي نفعه، وذاك أنه قد تحرك إلينا خصم من ناحية التُّرك في كثرة لا تُحصى.

وكان سبب غيبة الكفَّار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك التُّرك يقال له كشلوخان، فقاتلوه، وهزموه، وغنموا أمواله وعادوا، فلقبهم في الطريق الخير بما فعل خوارزم شاه بمخلفيهم، فجدُّوا السير، فادركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم، وتصارفوا للحرب، واقتلوا قتالًا لم يُسمع بمثله، فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها، فقتل من الطائفتين ما لا يُعدُّ، ولم ينهزم أحد منهم.

أمَّا المسلمون فإنهم صبروا حميَّةً للدين، وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية، وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم.

فقال له: في عساكر كثره ونكاتب الأطراف، ونجمع العساكر، ويكون النفير عامًّا، فإنه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس، ثم نذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون، وهو نهر كبير يفصل بين بلاد التُّرك وبلاد الإسلام، فنكون هناك، فإذا جاء العدو، وقد سار مسافة بعيدة، لقيناه ونحن مستريحون، وهو وعساكره قد سئمَ التعب والتعب.

فجمع خوارزم شاه أمراءه ومن عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم، فلم يوافقوه على رأيه، بل قالوا: الرأي أن نتركهم يعبرون سيحون إلينا، ويسلكون هذه الجبال والمضايق، فإنهم جاهلون بطرقهم، ونحن عارفون بها، فنقوى حيثنَّز عليهم، ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد.

فبينما هم كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعين جنكيزخان معه جماعة يهدد خوارزم شاه، ويقول: تقتلون أصحابي وتجاري وتأخذون مالي منهم استعدتوا للحرب فإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به.

وكان جنكيزخان قد سار إلى تُركستان، فملك كاشغَار، وبلاساغون، وجميع تلك البلاد، وأزال عنها التتر الأولى، فلم يظهر لهم خبر، ولا بقي لهم أثر، بل بادوا كما أصاب الخطأ، وأرسل

الرسالة المذكورة إلى خوارزم شاه، فلمَّا سمعها خوارزم شاه أمر بقتل رسوله، فقتل، وأمر بخلق لحى الجماعة الذين كانوا معه، وأعادهم إلى أصحابهم جنكيزخان يخبرونه بما فعل بالرسول، ويقولون له: إن خوارزم شاه يقول لك: أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا، حتَّى انتقم، وأفعل بك كما فعلتُ بأصحابك.

وتجهَّز خوارزم شاه، وسار بعد الرسول مبادرًا ليسبق خبره ويكسبهم، فآدمن السير، فمضى، وقطع مسيرة أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم، فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأطفال، فأوقع بهم وغنم الجميع، وسبى النساء والذرية.

وكان سبب غيبة الكفَّار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك التُّرك يقال له كشلوخان، فقاتلوه، وهزموه، وغنموا أمواله وعادوا، فلقبهم في الطريق الخير بما فعل خوارزم شاه بمخلفيهم، فجدُّوا السير، فادركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم، وتصارفوا للحرب، واقتلوا قتالًا لم يُسمع بمثله، فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها، فقتل من الطائفتين ما لا يُعدُّ، ولم ينهزم أحد منهم.

أمَّا المسلمون فإنهم صبروا حميَّةً للدين، وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية، وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم.

وأمَّا الكفَّار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم، واشتدَّ بهم الأمر، حتَّى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرينه راجلاً، ويتضاربون بالسكاكين، وجرى الدم على الأرض، حتَّى صارت الخيل تزلق من كثرتهم، واستنفد الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال. هذا القتال جميعه مع ابن جنكيزخان ولم يحضر أبوه الواقعة، ولم يشعر بها، فأحصى من قتل من المسلمين في هذه الواقعة فكانوا عشرين ألفًا، وأمَّا من الكفَّار فلا يُحصى من قتل منهم.

فلمَّا كان الليلة الرابعة افترقوا، فنزل بعضهم مقابل بعض، فلمَّا أظلم (٣٦٥/١٢) الليل أوقد الكفَّار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا، وكذلك فعل المسلمون أيضًا، كلٌّ منهم سئم القتال؛ فأما الكفَّار فعادوا إلى ملكهم جنكيزخان؛ وأما المسلمون فرجعوا إلى بخارى، فاستعدَّ للحصار لعلمه بعجزه، لأن طائفة عسكره لم يقدر خوارزم شاه على أن يظفر بهم، فكيف إذا جاؤوا جميعهم مع ملكهم؟ فأمر أهل بخارى وسمرقند بالاستعداد للحصار، وجمع الذخائر للامتناع، وجعل في بخارى عشرين ألف فارس من العسكر يحمونها، وفي سمرقند خمسين ألفًا، وقال لهم: احفظوا البلد حتَّى أعود إلى خوارزم وخراسان وأجمع وأستنجد بالمسلمين وأعود

إليكـم.

فانقسموهم.

وكان يومًا عظيمًا من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا (٣٦٧/١٢) أيدي سبًا، وتمزقوا كل ممزق، وانقسموا النساء أيضًا، وأصبحت بُخارى خاوية على عروشها كان لم تغن بالأمس، وارتكبوا من النساء العظيم، والناس ينظرون ويكون، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئًا مما نزل بهم، فمنهم من لم يرض بذلك، واختار الموت على ذلك، فقاتل حتى قُتل، وممن فعل ذلك واختار أن يُقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين، الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده وولده، فإنهما لما رأيا ما يفعل بالحرَم قاتلا حتى قُتلا.

فلما فرغ من ذلك رحل عائداً إلى خراسان، فعبر جيحون، ونزل بالقرب من بَلُخ فمسكرو هناك.

وأما الكفار فلأنهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر، فوصلوا إلى بُخارى بعد خمسة أشهر من وصول خوارزم شاه، وحصروها، وقتلوا ثلاثاً أيام قتالاً شديداً متابعاً، فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة، ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان، فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم، فأرسلوا القاضي، وهو بدر الدين قاضي خان، ليطلب الأمان للناس، فأعطوهم الأمان.

وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان، ومن استسلم أخذ أسيراً، وألقوا النار في البلد، والمدارس، والمساجد، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال؛ ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزم شاه عنهم، وهم بمكانة بين ترمذ وبُلُخ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بُخارى أسارى، فساروا بهم مشاة على أقيح صورة، فكل من أعيا وعجز عن المشي قتلوه، فلما قاربوا سمرقند قدّموا الخيالة، وتركوا الرُجالة والأسارى والأثقال وراءهم، حتى تقدّموا شيئاً فشيئاً، ليكون أربع لقلوب المسلمين؛ فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه.

وكان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم، فاعتصموا بالقلعة، فلما أجابهم جنكيزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة من سنة ست عشرة وستمائة، فدخل الكفار بُخارى، ولم تعرّضوا لأحد بل قالوا لهم: كل ما هو للسلطان عندكم (٣٦٦/١٢) من ذخيرة وغيره أخرجوه إلينا، وساعدونا على قتال من بالقلعة؛ وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة، ودخل جنكيزخان بنفسه وأحاط بالقلعة، ونادى في البلد بأن لا يتخلف أحد ومن تخلف قُتل، فحضرُوا جميعهم، فأمرهم بطم الخندق، فطموه بالأخشاب والتراب وغير ذلك، حتى إن الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق، فإنما لله وإنّا إليه راجعون، وبحق سَمَى الله نفسه صبوراً حليماً، وإلا كان خسف بهم الأرض عند فعل مثل هذا.

فلما كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرُجالة والأثقال، ومع كل عشرة من الأسارى علم، فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة، وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية، وأما عامة البلد فلا يُحصون كثرة، فخرج إليهم شجعان أهله، وأهل الجدل والقوة رجالة، ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين، فقاتلهم الرُجالة بظاهر البلد، فلم يزل التتر يتأخرون، وأهل البلد يتبعونهم، ويطعمون فيهم، وكان الكفار قد كمنوا لهم كميناً، فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد، ورجع الباقون الذين أنشبو القتال أولاً، فبقوا في الوسط، وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يسلم منهم (٣٦٨/١٢) أحد؛ قُتلوا عن آخرهم شهداء، رضي الله عنهم، وكانوا سبعين ألفاً على ما قيل.

ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحو أربع مائة فارس من المسلمين، فبذلوا جُهدهم، ومنعوا القلعة اثني عشر يوماً يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد، فقتل بعضهم، ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم، ووصل القابون إلى سور القلعة فقبوه، واشتدّ حيثُذ القتال، ومن بها من المسلمين يرمون ما يجدون من حجارة ونار وسهام، فغضب اللعين، ورد أصحابه ذلك اليوم، وياكرهم من الغد، فجدّوا في القتال، وقد تعب من بالقلعة ونصبوا، وجاءهم ما لا يُقبل لهم به، ففرهم الكفار ودخلوا القلعة، وقتلهم المسلمون الذين فيها حتى قُتلوا عن آخرهم، فلما فرغ من القلعة نادى أن يُكتب له وجهه الناس ورؤساؤهم، ففعلوا ذلك، فلما عرّضوا عليه أمر بإحضارهم فحضرُوا، فقال: أريد منكم النقرة التي باعكم خوارزم شاه، فإنها لي، ومن أصحابي أخذت، وهي عندكم.

فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك، فقال الجند، وكانوا اثراً: نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا؛ فطلبوا الأمان، فأجابوهم إلى ذلك، ففتحوا أبواب البلد، ولم يقدر العامة على منعهم، وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم، فقال لهم الكفار: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيّركم إلى ما نمتكم؛ ففعلوا ذلك، فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوه عن آخرهم،

فأحضر كل من كان عنده شيء منها بين يديه، ثم أمرهم بالخروج من البلد، فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم، ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه، ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه، وأحاط بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم،

وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم. وفي أثره، ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه، فكان كلما رحل عن

منزلة نزلوها، فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان يُعرف بباب سكون، وله هناك قلعة في البحر، فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا، فهم الذين قصدوا الرّي وما بعدها، على ما تذكره إن شاء الله.

هكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممن كان ببخارى وأسروه معهم إلى سمرقند، ثم نجا منهم ووصل إلينا، وذكر غيره من التجار أنّ خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل إلى الرّي، ثم منها إلى همدان، والتتر في أثره، ففارق همدان في نفر يسير، جريدة، ليستر نفسه ويكتم خبره، وعاد إلى مازندران وركب في البحر إلى هذه القلعة.

وكان هذا هو الصحيح، فإنّ الفقيه كان حينئذ مأسوراً، وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمدان، ووصل خوارزم شاه، ثم وصل بعده من أخيره بوصول التتر، ففارق همدان، وكذلك أيضاً هؤلاء التجار فارقوها، ووصل التتر إليها بدهم ببعض نهار، فهم يخبرون عن مشاهدة؛ ولما وصل خوارزم شاه إلى هذه القلعة المذكورة توفي فيها. (٣٧١/١٢)

ذكر صفة خوارزم شاه وشيء من سيرته

هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكتش، وكان مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً تقريباً، واتسع ملكه، وعظم محله، وأطاعه العالم بأسره، ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه، فإنه ملك من حدّ العراق إلى تركستان، وملك بلاد غزنة وبعض الهند، وملك سجستان وكرمان وطبرستان وخراسان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس، وفعل بالخطا الأفاعيل العظيمة، وملك بلادهم.

وكان فاضلاً، عالماً بالفقه والأصول وغيرهما، وكان مكرماً للعلماء محباً لهم محسناً إليهم، يُكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه، وكان صبوراً على التعب وإدمان السير، غير متنعّم، ولا مُقبِل على اللذات، إنما همه في الملك وتدييره، وحفظه وحفظ رعاياه؛ وكان مُعظماً لأهل الدين، مُقبلاً عليهم، متبركاً بهم.

حكى لي بعض خدم حجرة النبي ﷺ وقد عاد من خراسان، قال: وصلت إلى خوارزم، فنزلت ودخلت الحمام، ثم قصدت باب السلطان علاء الدين، فحين حضرت لقيني إنسان، فقال: ما حاجتك؟ فقلت له: أنا من خدم حجرة النبي ﷺ، فأمرني بالجلوس، وانصرف عني [قليلاً]، ثم عاد إلي وأخذني وأدخلني إلى دار السلطان، فتسلمني منه حاجب من حجاب السلطان، وقال لي: قد أعلمت السلطان (٣٧٢/١٢) خبرك فأمر بإحضارك عنده؛

فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم، ومن تأخر قتلوه، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب، والقتل، والسبي، والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه، وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله، واقتضوا الأبيكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، وقتلوا من لم يصلح للسبي، وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستمائة.

وكان خوارزم شاه بمنزله كلما اجتمع إليه عسكر سيّره إلى سمرقند، فيرجعون ولا يقدرّون على الوصول إليها، فعوذ بالله من الخذلان؛ سيّر مرة عشرة آلاف فارس فعادوا كالمهزّمين من غير قتال، وسيّر عشرين ألفاً فعادوا أيضاً. (٣٦٩/١٢)

ذكر مسير التتر الكفار إلى خوارزم شاه وانهزامه وموته

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكيزخان، لعنه الله، وسيّر عشرين ألف فارس، وقال لهم: اطلبوا خوارزم شاه أين كان، ولو تعلّق بالسماء، حتى تدرّكوه وتأخذوه.

وهذه الطائفة تسمّيها التتر المغرّبة لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم، لأنهم هم الذين أوغلوا في البلاد؛ فلما أمرهم جنكيزخان بالمسير ساروا وقصدوا موضعاً يسمى بَنج آب، ومعناه خمسة مياه، فوصلوا إليه، فلم يجدوا هناك سفينة، ففعلوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل في الماء، وأمسكوا أذنابها، وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم، فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره، فعبروا كلهم دفعة واحدة، فلم يشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة.

وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعباً وخوفاً، وقد اختلقوا فيما بينهم، إلا أنهم كانوا يماسكون بسبب أنّ نهر جيحون بينهم، فلما عبروه إليهم لم يقدرّوا على الثبات، ولا على المسير مجتمعين، بل نفرّوا أيدي سباً، وطلب (٣٧٠/١٢) كلّ طائفة منهم جهة، ورحل خوارزم شاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصّته، وقصدوا نيسابور، فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقرّ حتى وصل أولئك التتر إليها.

وكانوا لا يتعرّضون في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجذّون السير في طلبه لا يمهّلونه حتى يجمع لهم، فلما سمع بقرّبهم منه رحل إلى مازندران، وهي له أيضاً، فرحل التتر المغربون

فدخلت إليه وهو جالس في صدر إيوان كبير، فحين توسّطت صحن الدار قام قائماً، ومشى إلى بين يدي، فأسرعت السير فلقينته في وسط الإيوان، فاردت أن أقبل يده، فمנني، واعتقتي، وجلس وأجلسني إلى جانبه، وقال لي: أنت تخدم حجرة النبي ﷺ؟ فقلت: نعم؛ فأخذ يدي وأمرها على وجهه، وسألني عن حالنا وعيشنا، وصفة المدينة، ومقدارها، وأطال الحديث معي، فلما خرجت من عنده قال: لولا أننا على عزم السفر هذه الساعة لما ودعناك، إنما نريد [أن] نعبّر جيحون إلى الخطا، وهذا طريق مبارك حيث رأينا من يخدم حجرة النبي ﷺ؛ ثم ودعني وأرسل إليّ جملة كثيرة من النفقة، ومضى، وكان منه ومن الخطا ما ذكرناه، وبالجملّة فاجتمع فيه ما تفرّق في غيره من ملوك العالم، رحمه الله، ولو أردنا ذكر مناقبه لطال [ذلك].

ذكر استيلاء التتر المغربة على ماژندران

لما أبس التتر المغربة من إدراك خوارزم شاه، عادوا فقصّدا بلاد ماژندران، فملكوها في أسرع وقت، مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها، وامتناع قلاعها، فإنها لم تنزل ممتنعة قديم الزمان وحديثه، حتى إن المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة جميعها، من العراق إلى أقاصي خراسان، بقيت أعمال ماژندران يؤخذ منهم الخراج، ولا يقصدون على دخول البلاد، إلى أن ملككت (٣٧٣/١٢) أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين، وهؤلاء الملاعين ملكوها صفواً عفواً لأمر يريده الله تعالى.

ولما ملكوا بلاد ماژندران قتلوا، وسبّوا، ونهبوا، وأحرقوا البلاد، ولما فرغوا من ماژندران سلّكوا نحو الرّي، فراوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونسائه، وأموالهم، وذخائرهم التي لم يُسمع بمثلها من الأعلّاق النفيسة، وكان سبب ذلك أنّ والدة خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت، ففارقت خوارزم وقصدت نحو الرّي لتصل إلى أصفهان وهَمَذان وبلد الجبل تمتنع فيها، فصادفوها في الطريق، فأخذوها وما معها قبل وصولهم إلى الرّي، فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم، وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع، ونفيس من الجواهر، وغير ذلك، وسيروا الجميع إلى جيكرخان بسمرقند.

ذكر وصول التتر إلى الرّي وهَمَذان

في سنة سبع عشرة وستمئة وصل التتر، لعنهم الله، إلى الرّي في طلب خوارزم شاه محمّد، لأنهم بلغهم أنه مضى منهزماً منهم نحو الرّي، فجدّوا السير في أثره، وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار، وكذلك أيضاً من المفسدين من يريد النهب والشر، فوصلوا إلى الرّي على حين غفلة من أهلها، فلم يشعروا بهم إلا وقد وصلوا إليها، وملكوها، ونهبوها، وسيروا

فلما قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك، يطلب الأمان لأهل البلد، فأثنوهم، ثم فارقوها وساروا إلى رَنْجَان ففعلوا أضعاف ذلك؛ وساروا ووصلوا إلى قزوین، فاعتصم أهلها منهم بمدّيتهم، فقاتلوهم، وجدّوا في قتالهم، ودخلوها عنوة بالسيف، فاقتلوا هم وأهل البلد في باطنه، حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين، فقتل من الفريقين ما لا يُحصى، ثم فارقوا قزوین، فعُدّ القتلى من أهل قزوین، فزادوا على أربعين ألف قتيل.

ذكر وصول التتر إلى أذربيجان

لما هجم الشتاء على التتر في همذان، وبلد الجبل، رأوا برداً شديداً، وثلجاً متراكماً، فساروا إلى أذربيجان، ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدّم منهم، وخربوا وأحرقوا، ووصلوا إلى تيريز وبها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان، فلم يخرج إليهم، ولا حدّث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصده من إمدان الشرب ليلاً ونهاراً لا يفيق، وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال، وثياب، ودواب، وحمل الجميع إليهم، فساروا من عنده يريدون ساحل البحر، لأنّه يكون قليل البرد، ليشترأ عليه والمراعي به كثيرة لأجل دوابهم، فوصلوا إلى مُوقان، وتطرّقوا (٣٧٥/١٢) في طريقهم إلى بلاد الكرّج، فجاء إليهم من الكرّج جمع كثير من العسكر، نحو عشرة آلاف مقاتل، فقاتلوهم، فانهزمت الكرّج، وقُتل أكثرهم.

وأرسل الكرّج إلى أوزبك، صاحب أذربيجان، يطلبون منه الصلح والاتفاق معهم على دفع التتر، فاصطلحوا ليجتمعوا إذا انحسر الشتاء؛ وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل، صاحب خلاط وديار الجزيرة، يطلبون منه الموافقة عليهم، وظنوا جميعهم أنّ التتر يصيرون في الشتاء إلى الربيع، فلم يفعلوا كذلك، بل تحرّكوا وساروا نحو بلاد الكرّج، وانضاف إليهم مملوك تركي من مماليك أوزبك، اسمه أقوش، وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم، فاجتمع معه خلق كثير، وراسل التتر في الانضمام إليهم، فأجابوه إلى ذلك، ومالوا إليه

البلاد، يأخذ ما أراد ويترك ما أراد، على أنهم لم يُبقوا على مدينة (٣٧٧/١٢) إلّا خربوا كلّ ما مرّوا عليه، وأحرقوه، ونهبوه، وما لا يصلح لهم أحرقوه، فكانوا يجمعون الإبريسم تلالاً ويلقون فيه النار، وكذلك غيره من الأمتعة.

ذكر ملك التتر مراغة

في صفر سنة ثمان مائة وستمائة ملك التتر مدينة مراغة من أذربيجان.

وسبب ذلك أننا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة ما فعله التتر بالكُرج، وانقضت تلك السنة وهم في بلاد الكُرج، فلما دخلت سنة ثمان مائة وستمائة ساروا من ناحية الكُرج لأنهم رأوا أنّ بين أيديهم شوكة قوية، ومضايق تحتاج إلى قتال وصراع، فعدّلوا عنهم، وهذه كانت عادتهم، إذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعاً عدّلوا عنها، فوصلوا إلى تبريز، وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب، فساروا عنه إلى مدينة مراغة، فحاصروها وليس بها صاحب يمنعها، لأنّ صاحبها كانت امرأة، وهي مقيمة بقلعة رويندز، وقد قال النبي، ﷺ: لن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة.

فلما حاصروها قاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق، وزحفوا إليها، وكانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدّموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويُقاتلون، فإن عادوا قتلهم، فكانوا يقاتلون كرهاً، وهم المساكين، كما قيل: كالأسفر إن تقدّم يُنحر وإن تأخر يُعقر، وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه.

فأقاموا عليها عدة أيام، ثمّ ملكوا المدينة عنوة وقهراً رابع صفر، ووضعوا السيف في أهلها، فقتل منهم ما يخرج عن الحدّ والإحصاء، ونهبوا كلّ ما (٣٧٨/١٢) يصلح لهم، وما لا يصلح لهم أحرقوه، واختفى بعض الناس منهم، فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم: نادوا في الدروب أنّ التتر قد رحلوا؛ فإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويُقتل.

وبلغني أنّ امرأة من التتر دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلاً، فوضعت السلاح وإذا هي امرأة، فقتلها رجل أخذته أسيراً، وسمعت من بعض أهلها أنّ رجلاً من التتر دخل درّاً فيه مائة رجل، فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتّى أفناهم، ولم يمدّ أحد يده إليه بسوء، ووضعت الذلّة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً، نعوذ بالله من الخذلان.

ثمّ رحلوا عنها نحو مدينة إربل، ووصل الخير إلينا بذلك بالموصل، ففخنا، حتّى إنّ بعض الناس همّ بالجملاء خوفاً من السيف، وجاءت كتب مظفر الدين، صاحب إربل، إلى بدر الدين،

للجنسية، فاجتمعوا وساروا في مقدّمة التتر إلى الكُرج، فملكوا حصناً من حصونهم وخربوه، ونهبوا البلاد وخربوها، وقتلوا أهلها، ونهبوا أموالهم، حتّى وصلوا إلى قرب تقيليس.

فاجتمعت الكُرج وخرجت يحدها وحديدها إليهم، فلقبهم أقوش أولاً فيمن اجتمع إليه، فاقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه كلّهم، فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير، وأدركهم التتر وقد تعب الكُرج من القتال، وقتل منهم أيضاً كثير، فلم يثبتوا للتتر، وانهزموا أقبح هزيمة، وركبهم السيف من كلّ جانب، فقتل منهم ما لا يحصى كثرة، وكانت الوقعة في ذي القعدة من هذه السنة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم.

ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يُسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه: طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتّى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزوا العراق من ناحية همدان، وتألّه لا شك أنّ من يجيء بعدنا، إذا بعد العهد، ويرى هذه الحادثة مسطورة يُنكرها، (٣٧٩/١٢) ويستبعدها، والحقّ بيده، فمتى استبعد ذلك فليظنر أننا سطرنا نحن، وكلّ من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كلّ من فيه يعلم هذه الحادثة، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسرّ الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دُفعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى ما لا تعدّى همته بطنه وفرجه، ولم ينل المسلمين أذىً وشدةً مُدّ جاء النبي ﷺ إلى هذا الوقت مثل ما دُفعوا إليه الآن.

هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها، وناهيك بو [سعة] بلاد، وتعدّت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك، ثمّ إلى الرّيّ وبلد الجبل وأذربيجان، وقد اتّصلوا بالكُرج فغلبوهم على بلادهم.

والعدوّ الآخر الفرنج قد ظهروا من بلادهم في أقصى بلاد الروم، بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط، وأقاموا فيها، ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها، ولا إخراجهم منها، وباقي ديار مصر على خطر، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم.

ومن أعظم الأمور على المسلمين أنّ سلطانهم خوارزم شاه محمداً قد عُدم لا يُعرف حقيقة خبره، فتارة يقال مات عند همدان وأخفي موته، وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفي موته لئلا يقصدها التتر في أثره، وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر، فتوفي في جزيرة هناك، وبالجملة فقد عُدم، ثمّ صَحّ موته ببحر طبرستان، وهذا عظيم، إنّ مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائلاً لا مانع له، ولا سلطان يدفع عنه، والعدوّ يجوس

وكان رئيس همدان شريكاً علوياً، وهو من بيت رئاسة قديمة لهذه المدينة، هو الذي يسعى في أمور أهل البلد مع التتر، ويوصل إليهم ما يجمعه من الأموال؛ فلماً طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همدان ما يحملونه إليهم، فحضروا عند الرئيس ومعه إنسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفار قياماً مرضياً، فقالوا لهما: هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا، ولم يبق لنا ما نعطيهم، وقد هلكنا من أخذهم أموالنا، وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان.

وكانوا قد جعلوا بهمدان شحنة لهم يحكم في أهلها بما يختاره، فقال الشريف: إذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة؟ فليس لنا إلا مصانعتهم بالأموال؛ فقالوا له: أنت أشد علينا من الكفار! وأغلظوا له في القول، فقال: أنا واحد منكم، فاصنعوا ما شئتم. فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه، ومقاتلة التتر؛ فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد؛ فتقدم التتر إليهم وحصروهم، وكانت الأقوات متعذرة في تلك البلاد جميعها، لخربائها، وقتل أهلها، وجلاء من سلم منهم، فلا يقدر أحد على الطعام إلا قليلاً؛ وأما التتر فلا يزالون بعدم الأقوات لأنهم لا يأكلون إلا اللحم، ولا تاكل دوابهم إلا نبات الأرض، حتى إنها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها.

فلماً حصروا همدان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه في أوائهم، فقتل من (٣٨١/١٢) التتر خلق كثير، وجرح الفقيه عدة جراحات، واقتروا، ثم خرجوا من الغد فاقتلوا أشد من القتال الأول، وقتل أيضاً من التتر أكثر من اليوم الأول، وجرح الفقيه أيضاً عدة جراحات وهو صابر؛ وأرادوا أيضاً الخروج، اليوم الثالث، فلم يطق الفقيه الركوب، وطلب الناس الرئيس العلوي فلم يجده، كان قد هرب في سرب صنه إلى ظاهر البلد هو وأهله إلى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها.

فلماً فقهه الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون، إلا أنهم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا، فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه.

وكان التتر قد عزموا على الرحيل عنهم لكثرة من قُتل منهم؛ فلماً لم يروا أحداً خرج إليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله، فقصدهم وقاتلوه في رجب من سنة ثمان مائة عشرة وستمائة، ودخلوا المدينة بالسيف، وقاتلهم الناس في الدروب، فبطل السلاح للزحمة، واقتلوا بالسكاكين، فقتل من الفريقين ما لا يحصى إلا الله تعالى، وقوي التتر على المسلمين فأنهزم قتلًا، ولم يسلم إلا من كان عمل له نفقاً يخفي فيه، وبقي القتل في المسلمين عدة أيام، ثم ألقوا النار في البلد فأحرقوه ورحلوا عنه إلى مدينة أردويل.

صاحب الموصل، يطلب منه نجدة من العساكر، فسير إليه جمعاً صالحاً من عسكره، وأراد أن يمضي إلى طرف بلاده من جهة التتر، ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد، فأنها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر [أن] يجوزها إلا الفارس بعد الفارس، ويمنعهم من الجواز إليه.

ووصلت كتب الخليفة ورسله إلى الموصل وإلى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقاً ليمنعوا التتر، فإنهم ربما عدلوا عن جبال إربل، لصعوبتها، إلى هذه الناحية، ويطرقون العراق، فسار مظفر الدين من إربل في صفر، وسار إليهم جمع من عسكر الموصل، وتبعهم من المتطوعة كثير.

وأرسل الخليفة أيضاً إلى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم، فاتفق أن الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف وهو بحرآن يستنجد على الفرنج الذين (٣٧٩/١٢) بمصر، وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلهم إلى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج، فاعتذر إلى الخليفة بأخيه، وقوة الفرنج، وإن لم يتداركها، ولا خرجت هي وغيرها، وشرع يتجهز للمسير إلى الشام ليدخل مصر. وكان ما ذكرناه من استنقاذ دمياط.

فلماً اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقاً سار الخليفة إليهم مملوكه قشتمر، وهو أكبر أمير بالعراق، ومعه غيره من الأمراء، في نحو ثمان مائة فارس، فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة، وكان المقدم على الجميع مظفر الدين، فلماً رأى قلعة العسكر لم يقدم على قصد التتر.

وحكى مظفر الدين قال: لماً أرسل إليّ الخليفة في معنى قصد التتر قلت له: إن العدو قوي، وليس لي من العسكر ما اللقاء به، فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد؛ فأمرني بالمسير، ووعدني بوصول العسكر، فلماً سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمان مائة طواشي، فاسأمت، وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين.

ولماً سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقري ظناً منهم أن العسكر يتبعهم، فلماً لم يروا أحداً يطلبهم أقاموا، وأقام العسكر الإسلامي عند دقوقاً، فلماً لم يروا العدو يقصدهم، ولا المدد يأتيهم، تفرقوا، وعادوا إلى بلادهم. (٣٨٠/١٢)

ذكر ملك التتر همدان وقتل أهلها

لماً تفرق العسكر الإسلامي عاد التتر إلى همدان، فنزلوا بالقرب منها، وكان لهم بها شحنة يحكم فيها، فأرسلوا إليه ليلطلب من أهلها مالا وثياباً، وكانوا قد استنقذوا أموالهم في طول المدة،

أحد منهم إليه يداً.

فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها بالنهب والتخريب، وساروا إلى مدينة كتجة، وهي أم بلاد أرآن، فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة ذريتهم بقتال الكرج، وحصانتها، فلم يُقدّموا عليها، فأرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال والثياب، فحملوا إليهم ما طلبوا، فساروا عنهم.

ذكر قصد التتر بلاد الكرج

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان وأرآن، بعضه بالملك، وبعضه بالصلح، ساروا إلى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضاً، وكان الكرج قد أعدوا لهم، واستعدوا، وسيروا جيشاً كثيراً إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها، فوصل إليهم التتر، فالتقوا، فلم يثبت الكرج بل ولّوا منهزمين، فأخذهم السيف، فلم يسلم منهم إلا الشريد.

ولقد بلغني أنهم قُتل منهم نحو ثلاثين ألفاً، ونهبوا ما وصلوا إليه من (٣٨٤/١٢) بلادهم، وخربوها، وفعلوا بها ما هو عادتهم، فلما وصل المنهزمون إلى تفليس وبها ملكهم جمعوا جموعاً أخرى وسيروهم إلى التتر أيضاً ليمنعوهم من توسّط بلادهم، فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعوهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك، فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس، فأخلوا البلاد، ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب، والقتل، والتخريب، ورأوا بلاداً كثيرة المضايق والدربندات، فلم يتجاسروا على الولوج فيها، فعادوا عنها.

وداخل الكرج منهم خوف عظيم، حتّى سمعت عن بعض أكابر الكرج، قدم رسولاً، أنه قال: من حدّثكم أنّ التتر انهزموا وأسروا فلا تصدّقه، وإذا حدّثتم أنّهم قتلوا فصّدقوا، فإنّ القوم لا يفرون أبداً، ولقد أخذنا أسيراً منهم، فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر إلى أن مات، ولم يسلم نفسه للأمر.

ذكر وصولهم إلى دربند شروان وما فعلوه فيه

لما عاد التتر من بلد الكرج قصدوا دربند شروان، فحاصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها، فصبّروا على الحصر، ثم إنّ التتر صعدوا سورها بالسلاليم، وقيل بل جمعوا كثيراً من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك، ومن قتل الناس منهم ومن غيرهم، وألقوا بعضه فوق بعض، فصار مثل التلّ، وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها، فصبّروا، واشتدّ القتال ثلاثة أيام، فأشرفوا على أن يؤخذوا، فقالوا: السيف لا بدّ منه، فالصبر أولى بنا نموت كراماً. (٣٨٥/١٢)

فصبّروا تلك الليلة، فأنتنت تلك الجيف، وأنهضت، فلم يبق للتتر على السور استعلاء، ولا تسلط على الحرب، فعاودوا الزحف

وقبل كان السبب في ملكها أنّ أهل البلد لما شكوا إلى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفّار، أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ إليهم عسكرياً مع أمير يجمع كلمتهم، فاتفقوا على ذلك، فكتب إلى الخليفة يُنهي إليه ما هم عليه من الخوف والذلّ، وما يركبهم به العدو من الصغار والخزي، ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجمعون عليه؛ فلما سار القصد بالكتب أرسل بعض من علم بالحوال إلى التتر يُعلمهم ذلك، فأرسلوا إلى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم، وأرسلوا إلى الرئيس ينكرون عليه الحال، فجحّد، (٣٨٢/١٢) فأرسلوا إليه كتبه وكتب الجماعة، فسُط في أيديهم، وتقدّم إليهم التتر حينئذ وقاتلوهم، وجرى في القتال كما ذكرنا.

ذكر مسير التتر إلى أذربيجان وملكهم أردويل وغيرها

لما فرغ التتر من همدان ساروا إلى أذربيجان، فوصلوا إلى أردويل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا، وخربوا أكثرها، وساروا منها إلى تبريز، وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغراني، وجمع كلمة أهلها، وقد فارقها صاحبها أوزيك بن البهلوان، وكان أميراً متخلّفاً، لا يزال منهمكاً في الخمر ليلاً ونهاراً، يبقى الشهر والشهرين لا يظهر، وإذا سمع هبة طار مجفلاً لها، وله جميع أذربيجان وأرآن، وهو أعجز خلق الله عن حفظ البلاد من عدو يريدتها ويقصدها.

فلما سمع بمسير التتر من همدان فارق هو تبريز وقصد نقجوران، وسيّر أهله ونسائه إلى خويّ ليعبد عنهم، فقام هذا الطغراني بأمر البلد، وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع، وحذّروهم عاقبة التخاذل والتواني، وحصّن البلد بجهده وطاقته؛ فلما قاربه التتر، وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم، وأنهم قد حصّنوا المدينة، وأصلحوا أسوارها وخندقها، وأرسلوا يطلبون منهم مالاً وثياباً، فاستقرّ الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك، فسيّروه إليهم، فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سراو فنهبوا، وقتلوا كلّ من فيها.

ورحلوا منها إلى ييلقان، من بلاد أرآن، فنهبوا كلّ ما مرّوا به من البلاد (٣٨٣/١٢) والقرى، وخربوها، وقتلوا من ظفروا به من أهلها، فلما وصلوا إلى ييلقان حاصروها، فاستدعى أهلها منهم رسولاً يقرّون معه الصلح، فأرسلوا إليهم رسولاً من أكابرهم ومقدّمهم، فقتله أهل البلد، فزحف التتر إليهم وقاتلوهم، ثمّ أتهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ثمان مائة [وستمئة] ووضعوا فيهم السيف فلم يُبقوا على صغير ولا كبير، ولا امرأة، حتّى إنّهم كانوا يشقّون بطون الجبال، ويقتلون الأجنّة، وكانوا يفجرون بالمرأة ثمّ يقتلونها، وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة، فيقتلهم واحداً بعد واحد حتّى يفرّغ من الجميع لا يمدّ

وبحر الخزر هذا هو بحر متصل بخليج القسطنطينية.

ولما وصل التتر إلى سوداق ملكوها، وتفرق أهلها منها، فبعضهم سعد الجبال بأهل وماله، وبعضهم ركب البحر وسار إلى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلع أرسلان. (٣٨٧/١٢)

ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس

لما استولى التتر على أرض قفجاق، وتفرق قفجاق، كما ذكرنا، سار طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس، وهي بلاد كثيرة، طويلة عريضة، تجاورهم، وأهلها يدبنون بالنصرانية، فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم، واتفقت كلمتهم على قتال التتر إن قصدوهم، وأقام التتر بأرض قفجاق مدة، ثم إنهم ساروا سنة عشرين وستمئة إلى بلاد الروس، فسمع الروس وقفجاق خبرهم، وكانوا مستعدين لقتالهم، فساروا إلى طريق التتر ليلقوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها، فبلغ مسيرهم إلى التتر، فعادوا على أعقابهم راجعين، فطعم الروس وقفجاق فيهم، وظنوا أنهم عادوا خوفاً منهم وعجزاً عن قتالهم، فجدوا في اتباعهم، ولم يزل التتر راجعين، وأولئك يقفون أثرهم، اثني عشر يوماً.

ثم إن التتر عطفوا على الروس وقفجاق، فلم يشعروا بهم إلا وقد لقوهم على غرة منهم، لأنهم كانوا قد آمنوا التتر، واستشعروا القدرة عليهم، فلم تكامل عدتهم لقتال إلا وقد بلغ التتر منهم مبلغاً عظيماً، فصر الطائفتان صبراً لم يُسمع بمثله.

ودام القتال بينهم عدة أيام، ثم إن التتر ظفروا واستظهروا، فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أخذ منهم التتر، وكثر القتل في المنهزمين فلم يسلم منهم إلا القليل، ونهب جميع ما معهم، ومن سلم وصل إلى البلاد على أقبص صورة لبعد الطريق والهزيمة، وتبعهم التتر يقتلون وينهبون (٣٨٨/١٢) ويخربون البلاد، حتى خلا أكثرهم، فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم وحملوا ما يعز عليهم، وساروا يقطعون البحر إلى بلاد الإسلام في عدة مراكب.

فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم، ففرق إلا أن الناس نجوا، وكانت العادة جارية أن السلطان له كل مركب ينكسر، فأخذ من ذلك شيئاً كثيراً، وسلم باقي المراكب، وأخير من بها بهذه الحال.

ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق إلى ملكهم

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه، ونهبوا بلادهم، وعادوا عنها وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمئة، فلما سمع أهل بلغار بقرعهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع، وخرجوا إليهم فلقوهم، واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء، فخرجوا عليهم من

وملازمة القتال، فضجر أهلها، ومسهم التعب والكلال والإعياء، فضعفوا، فملك التتر البلد، وقتلوا فيه فأكثروا، ونهبوا الأموال فاحتازوها.

فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدريند، فلم يقدروا على ذلك، فأرسلوا رسولا إلى شروان [شاه] ملك دريند شروان يقولون له ليرسل إليهم رسولا يسمى بينهم في الصلح، فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه، فأخذوا أحدهم قتلوه، ثم قالوا للباقيين: إن أنتم عرفتمونا طريقاً نعب فيه فلنكم الأمان، وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا. فقالوا لهم: إن هذا الدريند ليس فيه طريق البتة، ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق؛ فساروا معهم إلى ذلك الطريق، فعبروا فيه، وخلّفوه وراء ظهورهم.

ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق

لما عبر التتر دريند شروان ساروا في تلك الأعمال، وفيها أسم كثيرة منهم: اللان واللکز، وطوائف من الترك، فنهبوا وقتلوا من اللکز كثيراً، وهم مسلمون وكفار، وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد، ووصلوا إلى اللان، وهم أسم كثيرة، وقد بلغهم خبرهم، فحذروا، وجمعوا عندهم جمعاً من قفجاق، فقاتلهم، فلم تغفر إحدى الطائفتين بالأخرى، فأرسل التتر إلى قفجاق يقولون: نحن وأنتم جنس واحد، وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم، ولا دينكم مثل دينهم، ونحن نعهدهم (٣٨٦/١٢) أننا لا نتعرض لكم، ونحمل إليكم من الأموال والثياب ما شئتم وتتركون بيننا وبينهم.

فاستقر الأمر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك، فحملوا إليهم ما استقر وفارتهم قفجان فأوقع التتر باللان، فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا، وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح، فلم يسمعوهم إلا وقد طرّفهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الأول فالأول، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم.

وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر، ففروا من غير قتال، وأبعدوا، فبعضهم اعتصم بالغياض، وبعضهم بالجبال، وبعضهم لحق ببلاد الروس.

وأقام التتر في بلاد قفجاق، وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف، وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى، وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى، وهي غياض على ساحل البحر، ووصلوا إلى مدينة سوداق، وهي مدينة قفجاق التي منها مآذنتهم، فإنها على بحر الخزر، والمراكب تصل إليها وفيها الثياب، فيشتري قفجاق منهم ويبيعون عليهم الجوّاري، والمماليك، والبرطاسي، والقندر، والسنجاب، وغير ذلك مما هو في بلادهم،

وراء ظهورهم، فبقوا في الوسط، وأخذهم السيف من كل ناحية، فقتل أكثرهم، ولم ينج منهم إلا القليل.

قيل : كانوا نحو أربعة آلاف رجل، فساروا إلى سفسين عاتدين إلى ملكهم جَنْكِزْخان، وخلت أرض قفجاق منهم، فعاد من سلم منهم إلى بلادهم، (٣٨٩/١٢) وكان الطريق مقطعا مذ دخلها التتر، فلم يصل منهم شيء من البرطاسي والسنجاب والقنذر وغيرها مما يُحمل من تلك البلاد، فلما فارقوها عادوا إلى بلادهم، واتصلت الطريق، وحملت الأمتعة كما كانت.

هذه أخبار التتر المغرية قد ذكرناها سبقة واحدة لئلا تنقطع.

ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بُغَارَى وسَمَرْقَنْد

قد ذكرنا ما فعله التتر المغرية التي سبىها ملكهم جَنْكِزْخان، لعنه الله، إلى خوارزم شاه؛ وأمّا جَنْكِزْخان فإنه بعد أن سبى هذه الطائفة إلى خوارزم شاه وبلغه انهزام خوارزم شاه من خراسان، قسم أصحابه عدة أقسام، فسبى قسما منها إلى بلاد قُرْغَانة ليملكوها؛ وسبى قسما آخر منها إلى تَرْمِذ؛ وسبى قسما منها إلى كلانة، وهي قلعة حصينة على جانب جيحون، من أحصن القلاع وأمنع الحصون، فسارت كل طائفة إلى الجهة التي أمرت بقصدها، ونازلتها، واستولت عليها، وفعلت من القتل، والأسر، والسبي، والنهب، والتخريب، وأنواع الفساد، مثل ما فعل أصحابهم.

فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جَنْكِزْخان وهو بسَمَرْقَنْد، فجهز جيشا عظيما مع أحد أولاده وسبىهم إلى خوارزم، وسبى جيشا آخر فغبروا جيحون إلى خراسان. (٣٩٠/١٢)

ذكر ملك التتر خراسان

لما سار الجيش المنفذ إلى خراسان عبروا جيحون، وقصدوا مدينة بلخ، فطلب أهلها الأمان، فأمّنوهم، فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمئة، ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل، بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان، ومينند، وأندخوي، وقاريات، فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاية، ولم يتعرضوا لأهلها بسوء ولا أذى، سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم، حتى وصلوا إلى الطالقان، وهي ولاية تشمل على عدة بلاد، وفيها قلعة حصينة يقال لها منصوركوه، لا ترام علوا وارتفاعا، وبها رجال يقاتلون، شجعان، فحصرها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهارا ولا يظفرون منها بشيء.

فارسوا إلى جَنْكِزْخان يعرفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة، لكثرة من فيها من المقاتلة، ولامتناعها بحصانتها، فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم، وحصرها، ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى، فامرهم بمباشرة القتال ولّا قتلهم، فقاتلوا معه، وأقام عليها

أربعة أشهر أخرى فقتل من التتر عليها خلق كثير، فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يُجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه، ففعلوا ذلك، وصاروا يعملون صفا من خشب، وفوقه صفا من تراب، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلاء عالياً (٣٩١/١٢) يوازي القلعة، وصعد الرّجالة فوقه ونصبوا عليه منجنيقا فصار يرمي إلى وسط القلعة وحملوا على التتر حملة واحدة فسلم الخيالة منهم ونجوا، وسلكوا تلك الجبال والشعاب.

وأما الرّجالة فقتلوا، ودخل التتر القلعة، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال والأمتعة.

ثم إن جَنْكِزْخان جمع أهل البلاد الذين أعطاهم الأمان ببلخ وغيرها، وسبىهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو، فوصلوا إليها وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجل، وهم معسكرون بظاهر مرو، وهم عازمون على لقاء التتر، ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم، والاستيلاء عليهم؛ فلما وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا، فصير المسلمون؛ وأمّا التتر فلا يعرفون الهزيمة، حتى إن بعضهم أسر، فقال وهو عند المسلمين : إن قيل إن التتر يقتلون فصدقوا، وإن قيل إنهم انهزموا فلا تصدقوا.

فلما رأى المسلمون صبر التتر وإقدامهم، ولوا منهزمين، فقتل التتر منهم وأسروا الكثير، ولم يسلم إلا القليل، ونهبت أموالهم، وسلاحهم، ودوابهم، وأرسل التتر إلى ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو، فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدّموا إلى مرو وحاصروها، وجنّوا في حصرها، ولازموا القتال. (٣٩٢/١٢)

وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر، وكثرة القتل والأسر فيهم، فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذي بها متقدما على من فيها يقولون له : لا تهلك نفسك وأهل البلد، وأخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة ونرحل عنك؛ فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد، فأمّنهم، فخرج إليهم، فخلع عليه ابن جَنْكِزْخان، واحترمه، وقال له : أريد أن تعرض علي أصحابك حتى نظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه، وأعطيناه إقطاعا، ويكون معنا.

فلما حضروا عنده، وتمكّن منهم، قبض عليهم وعلى أميرهم، وكفروهم؛ فلما فرغ منهم قال لهم : اكتبوا إلى تجار البلد ورؤسائه، وأرباب الأموال في جريدة، وكتبوا إلى أرباب الصناعات والحرف في نسخة أخرى، وأعرضوا ذلك علينا؛ ففعلوا ما أمرهم، فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهلهم، فخرجوا كلهم، ولم يبق فيه أحد، فجلس على كرسي من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم، فأحضروا، وضربت

رقابهم صبراً، والناس ينظرون إليهم ويكون.

كانوا أكثر لأن المسلمين كان يحميمهم السور.

فأرسل التتر إلى ملكهم جَنْكُزْخان يطلبون المدد، فأمدّهم بخلق كثير، فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفاً متتابعاً، فملكوا طرفاً منه، فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوا، فلم يقدروا على إخراجهم، ولم يزالوا يقساثلونهم، والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة، وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليهم، فكان الرجال والنساء والصبيان يقاثلون، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه، وقتلوا كل من فيه، ونهبوا كل ما فيه؛ ثم إنهم فتحوا السكر الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء، ففرق البلد جميعه، وتهدمت الأبنية، وبقي موضعه ماء، ولم يسلم من أهله أحد البتة، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله، منهم من يخفي، ومنهم من يهرب، ومنهم من يخرج ثم يسلم، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى (٣٩٥/١٢) فينجو؛ وأما [أهل] خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء، أو قتله الهدم، فأصبحت خراباً بياباً :

كان لم يكن بين الحجّون إلى أنيس ولم يسر بمكة سامر وهذا لم يُسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الخذلان بعد النصر، فلقد عمّت هذه المصيبة الإسلام وأهله، فكم من قتل من أهل خراسان وغيرها، لأن القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيراً، مضى الجميع تحت السيف.

ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا إلى ملكهم بالطالقان.

ذكر ملك التتر غزاة وبلاد الغور

لما فرغ التتر من خراسان وعادوا إلى ملكهم جهّز جيشاً كثيفاً وسيّره [إلى] غزاة وبها جلال الدين بن خوارزم شاه مالكا لها، وقد اجتمع إليه من سلم من عسكر أبيه، قيل : كانوا ستين ألفاً، فلما وصلوا إلى أعمال غزاة خرج إليهم المسلمون مع ابن خوارزم شاه إلى موضع يقال له بلق، فالتقوا هناك واقتتلوا قتالاً شديداً، وبقوا كذلك ثلاثة أيام، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان، فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالي (٣٩٦/١٢) الذي عندهم للتتر فقتلوه، فسار إليهم جَنْكُزْخان عسكرياً فملكوا البلد وخرّبوه كما ذكرناه.

وأما العامة فإنهم قسموا الرجال والنساء والأطفال والأموال، فكان يوماً مشهوداً من كثرة الصراخ والبكاء والعويل، وأخذوا أرباب الأموال فضرّبوه، وعذبّوهم بأنواع العقوبات في طلب الأموال، فربما مات أحدهم من شدة الضرب، ولم يكن بقي له [ما] يقتدي به نفسه، ثم إنهم أحرقوا البلد، وأحرقوا تربة السلطان سنجر، ونشوا القبر طلباً للمال، فبقوا كذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة، وقال : هؤلاء عصوا علينا، فقتلّوهم أجمعين؛ وأمر بإحصاء القتلى، فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل، فإنا لله وإنا إليه راجعون ممّا جرى على المسلمين ذلك اليوم.

ثم ساروا إلى نيسابور فحصروها خمسة أيام، وبها جمع صالح من العسكر الإسلامي، فلم يكن لهم بالتر قوة، فملكوا المدينة، وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلّوهم، وسبوا حريمهم، وعاقبوا من اتهموه بالمال، كما فعلوا بمرو، وأقاموا خمسة عشر يوماً يخربون، ويفتشون المنازل عن الأموال.

وكانوا لما قتلوا أهل مرو قتل لهم إن قتلهم سلم منهم كثير، ونجوا إلى بلاد الإسلام، فأمرؤا بأهل نيسابور أن تقطع رؤوسهم لتلا يسلم من القتل أحد، فلما فرغوا من ذلك سبّروا طائفة منهم إلى طوس، ففعلوا بها كذلك أيضاً، وخرّبوها وخرّبوا المشهد الذي فيه علي بن موسى الرضى، والرشد، حتى جعلوا الجميع خراباً.

ثم ساروا إلى هراة، وهي من أحصن البلاد، فحصروها عشرة أيام فملكوها وأمّوا أهلها، وقتلوا منهم البعض، وجعلوا عند من سلم منهم شحنة، وساروا إلى غزاة، فلقبهم جلال الدين بن خوارزم شاه فقاتلهم وهزمهم على ما تذكره إن شاء الله، فوثب أهل هراة على الشحنة فقتلوه، فلما عاد المنهزمون إليهم دخلوا البلد قهراً وعنة، وقتلوا كل من فيه، ونهبوا الأموال وسبوا الحريم، ونهبوا السواد وخرّبوا المدينة جميعها وأحرقوها، وعادوا إلى ملكهم جَنْكُزْخان وهو بالطالقان يرسل السرايا إلى جميع بلاد خراسان، (٣٩٤/١٢) ففعلوا بها كذلك، ولم يسلم من شرهم وفسادهم شيء من البلاد، وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة [ومستمائة].

ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها

فلما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولا إلى جَنْكُزْخان يقول له : في أي موضع تريد [أن] يكون الحرب حتى نأتي إليه ؟ فينهزم جَنْكُزْخان عسكرياً كثيراً، أكثر من الأوّل مع بعض أولاده، وسيّره إليه، فوصل إلى كابل، فتوجّه العسكر الإسلامي إليهم، وتضافوا هناك، وجرى بينهم قتال عظيم، فانهزم الكفار ثانياً، فقتل كثير منهم،

وأما الطائفة من الجيش التي سيّرها جَنْكُزْخان إلى خوارزم، فإنها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلد، فساروا حتى وصلوا إلى خوارزم وفيها عسكر كبير، وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة، فقاتلّوهم أشد قتال سمع به الناس، ودام الحصر لهم خمسة أشهر، فقتل من الفريقين خلق كثير، إلا أن القتلى من التتر

ذكر تسليم الأشرف خلّاط إلى أخيه شهاب الدين غازي

وغنم المسلمون ما معهم، وكان عظيمًا؛ وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير، فاستفدوهم وخلصوهم.

وأواخر هذه السنة أقطع الملك الأشرف موسى بن العادل مدينة خلّاط وجميع الأعمال : أرمينية، ومدينة ميفارقين من ديار بكر، ومدينة حاني، أخاه شهاب الدين غازي بن العادل، وأخذ منه مدينة الرها، ومدينة سروج من بلاد الجزيرة، وسيّره إلى خلّاط أول سنة ثمان مائة وستة.

ثم إن المسلمين جرى بينهم فتنة لأجل الغنيمة؛ وسبب ذلك أن أميرًا منهم يقال له سيف الدين بغراق، أصله من الأتراك المخلّج، كان شجاعًا مقدامًا، ذا رأي في الحرب ومكيدة، واصطلى الحرب مع التتر بنفسه، وقال لعسكر جلال الدين : تأخروا أنتم فقد ملّستم منهم رعبًا، وهو الذي كسر التتر على الحقيقة.

وسبب ذلك أن الكرج لما قصد التتر بلادهم وهزموهم، ونهبوها، وقتلوا كثيرًا من أهلها، أرسلوا إلى أوزبك، صاحب أذربيجان وأران، يطلبون منه المهادنة والمواقفة على دفع التتر، وأرسلوا إلى الملك الأشرف في هذا المعنى، وقالوا للجميع : إن لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم ودفعهم عن بلادنا، وتحضروا بنفوسكم وعساكركم لهذا المهم، وإلا صالحناهم عليكم.

وكان من المسلمين أيضًا أمير كبير يقال له ملك خان، بينه وبين خورازم شاه نسب، وهو صاحب هراة، فاختلف هذان الأميران في الغنيمة، فاقتلوا، فقتل بينهم أخ لبغراق. فقال لبغراق : أنا أهزم الكفار ويقتل أخي لأجل هذا السحت ! فغضب وفارق العسكر وسار إلى الهند، فتبعه من العسكر ثلاثون ألفًا كلهم يريدونه، فاستعطفه جلال الدين بكلّ طريق، وسار بنفسه إليه، وذكره الجهاد، وخوفه من الله تعالى، ويكى بين يديه، فلم يرجع، وسار (٣٩٧/١٢) مفارقًا، فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا.

فوصلت رسلهم إلى الأشرف وهو يتجهّز إلى الديار المصرية لأجل الفرنج، وكانوا عنده أهم الوجوه، لأسباب : أولها أن الفرنج كانوا قد ملكوا دمياط، وقد أشرفت الديار المصرية على أن تملك، فلو ملكوها (٣٩٩/١٢) لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لأحد.

فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر أن جنكيزخان قد وصل في جموعه وجيوشه، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل من فارقه من العسكر، ولم يقدر على المقام، سار نحو بلاد الهند، فوصل إلى ماء السند، وهو نهر كبير، فلم يجد من السفن ما يعبر فيه.

وثانيها أن الفرنج أشدّ شكيمة، وطالبو ملك، فإذا ملكوا قرية لا يفارقونها إلا بعد أن يعجزوا عن حفظها يومًا واحدًا.

وكان جنكيزخان يقصّر أثره مسرعًا، فلم يتمكن جلال الدين من العبور، حتّى أدركه جنكيزخان في التتر، فاضطرّ المسلمون حيثنذ إلى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم، وكانوا في ذلك كالأشقر إن تأخر يقتل وإن تقدّم يُعقر، فتصافوا واقتتلوا أشدّ قتال، اعترفوا كلهم أن كلّ ما مضى من الحروب كان لعبًا بالنسبة إلى هذا القتال، فبقوا كذلك ثلاثة أيام، فقتل الأمير ملك خان المقدّم ذكره وخلق كثير، وكان القتل في الكفار أكثر، والجراح أعظم، فرجع الكفار عنهم، فأبعدوا، ونزلوا على بُعد، فلما رأى المسلمون أنهم لا مدد لهم، وقد ازدادوا ضعفًا بمن قُتل منهم وجرح، ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك، أرسلوا يطلبون السفن، فوصلت، وعبر المسلمون ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وثالثها أن الفرنج قد طمعوا في كرسي مملكة البيت العادلي، وهي مصر، والتتر لم يصلوا إليها، ولم يجاوزوا شيئًا من بلادهم، وليسوا أيضًا ممن يريد المنازعة في الملك، وما غرضهم إلا النهب، والقتل، وتخريب البلاد، والانتقال من بلد إلى آخر.

فلما أتاه رسل الكرج بما ذكرناه، أجابهم يعتذر بالمسير إلى مصر لدفع الفرنج، ويقول لهم : إنني قد أقطعُ ولاية خلّاط لأخي، وسيّرتُه إليها ليكون بالقرب منكم، وتركتُ عنده العساكر، فمتى احتجتم إلى نصرته حضر لدفع التتر؛ وسار هو إلى مصر كما ذكرناه.

ذكر غدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، ملك بدر الدين قلعة تلّ أعفر. وفيها، في جمادى الأولى، ملك الأشرف مدينة سنجان.

وفيها أيضًا وصل الموصل، وأقام بظاهرها، ثم سار يريد إربل لقصدها، فتردّدت الرسل بينهم في الصلح، فاصطلحوا في شعبان، وقد تقدّم هذا جميعه مفضلاً سنة خمس عشرة وستمائة.

وفيها وصل التتر الرئي فملكوها وقتلوا كلّ من فيها، ونهبوها، (٤٠٠/١٢) وساروا عنها، فوصلوا إلى همذان، فلقبهم رئيسها بالطاعة والحمل، فأبقوا على أهلها وساروا إلى أذربيجان، فخرّبوا،

فلما كان الغد عاد الكفار إلى غزنة، وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء إلى جهة الهند وتعددهم، فلما وصلوا إليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والمحامي، فقتلوا أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا الحرّيم، ولم يبق أحد، وخرّبوها وأحرقوها، وفعلوا بسواها كذلك، ونهبوا وقتلوا وأحرقوا، (٣٩٨/١٢) فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس، وخاوية على عروشها كان لم تغن بالأمس.

إليه من مكة وقاتله، وتقدم أمير الحاج من بين يدي عسكره منفرداً، وصعد الجبل إدلاً بنفسه، وأنه لا يقدم أحد عليه، فأحاط به أصحاب حسن، وقتلوه، وعلقوا رأسه، فانهزم عسكر أمير المؤمنين، وأحاط أصحاب حسن بالحاج لينهبوهم، فأرسل إليهم حسن عمامته أماناً للحجاج، فعاد أصحابه ولم ينهبوا منهم شيئاً، وسكن الناس، وأذن لهم حسن في دخول مكة وفعل ما يريدونه من الحج والبيع وغير ذلك، وأقاموا بمكة عشرة أيام، وعادوا، فوصلوا إلى العراق سالمين، وعظم الأمر على الخليفة، فوصلت رسل حسن يعتذرون، ويطلبون العفو عنه، فأجيب إلى ذلك.

وقيل في موت قتادة: إن ابنه حسناً خنقه فمات؛ وسبب ذلك أن قتادة جمع جموعاً كثيرة وسار عن مكة يريد المدينة، فنزل بوادي الفُرع وهو مريض، وسير أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة، فلما أبعدوا بلغ الحسن أن عمه قال لبعض الجند: إن أخي مريض، وهو ميت لا محالة؛ وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة، فحضر الحسن عند عمه، واجتمع إليه كثير من الأجناد والمماليك الذين لأبيه، فقال الحسن لعمه: قد فعلت كذا وكذا؛ فقال: لم أفعل؛ فأمر حسن الحاضرين بقتله، فلم يفعلوا، وقالوا: أنت أمير وهذا أمير، ولا نؤد أيدينا إلى أحدهما. فقال له غلامان لقتادة: نحن عبيدك، فمُرنا بما شئت؛ فأمرهما أن يجعلا عمامة (٤٠٣/١٢) عمه في عنقه، ففعلوا، ثم قتله.

فسمع قتادة الخبر، فبلغ منه الغيظ كل مبلغ، وحلف ليقتلن ابنه، وكان على ما ذكرناه من المرض، فكتب بعض أصحابه إلى الحسن يُعرفه الحال، ويقول له: ابداً به قبل أن يقتلك؛ فعاد الحسن إلى مكة، فلما وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير، فوجد على باب الدار جمعاً كثيراً، فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، ففارقوا الدار وعادوا إلى مساكنهم، ودخل الحسن إلى أبيه، فلما رآه أبوه شتمه، وبالح في دمه وتهديده، فوثب إليه الحسن فخنقه لوقته، وخرج إلى الحرم الشريف، وأحضر الأشراف، وقال: إن أبي قد اشتد مرضه، وقد أمركم أن تحلفوا لي أن أكون أنا أميركم؛ فحلفوا له، ثم إنه أظهر تابوتاً ودفنه ليظن الناس أنه مات، وكان قد دفنه سرّاً.

فلما استقرت الإمارة بمكة له أرسل إلى أخيه الذي بقلعة البُنيع على لسان أبيه يستدعيه، وكتب موت أبيه عنه، فلما حضر أخوه قتله أيضاً، واستقر أمره، وثبت قدمه، وفعل بأمر الحاج ما تقدم ذكره، فارتكب عطيماً: قتل أباه وعمه وأخاه في أيام سيرة، لا جرم لم يمهله الله، سبحانه وتعالى، نزع ملكه، وجعله طريداً شريداً خائفاً يترقب.

وقيل إن قتادة كان يقول شعراً، فمن ذلك أنه طلب ليحضر

وحرّقوا البلاد، وقتلوا، وسبوا، وعملوا ما لم يُسمع بمثله، وقد تقدم أيضاً مفصلاً.

وفيهما توفي نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الذي كان وزير الخليفة، وصُلّي عليه بجامع القصر، وحضره أرباب الدولة ودفن بالمشهد.

وفيهما توفي صدر الدين أبو الحسن محمد بن حموية الجويني، شيخ الشيوخ بمصر والشام، وكان موته بالموصل وردّها رسولاً، وكان فقيهاً فاضلاً، وصوفيّاً صالحاً، من بيت كبير من خراسان، رحمه الله، كان نعم الرجل.

وفيهما عاد جمع بني معروف إلى مواضعهم من البطيحة، وكانوا قد ساروا إلى الأجنات والقطيف، فلم يمكنهم المقام لكثرة أعدائهم، فقصدوا شحنة البصرة، وطلبوا منه أن يكاتب الديوان ببغداد بالرضى عنهم، فكتب معهم بذلك وسيرهم مع أصحابه إلى بغداد، فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم، فقتلوا. (٤٠١/١٢)

سنة ثمانى عشرة وستمائة

ذكر وفاة قتادة أمير مكة ومُلك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، توفي قتادة بن إدريس العلوي، ثم الحسيني، أمير مكة، حرسها الله، بها وكان عمره نحو تسعين سنة، وكانت ولايته قد اتسعت من حدود اليمن إلى مدينة النبي ﷺ وله قلعة ينبع بناحي المدينة، وكثر عسكره، واستكثر من المماليك، وخافه العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً.

وكان، في أول مُلكه، لمّا ملك مكة، حرسها الله، حسن السيرة أزال عنها العبيد المفسدين، وحمل البلاد، وأحسن إلى الحجاج، وأكرمهم، وبقي كذلك مدة، ثم إنه بعد ذلك أساء السيرة، وجذد المكوس بمكة، وفعل أفعالاً شنيعة، ونهب الحاج في بعض السنين كما ذكرناه.

ولمّا مات ملك بعده ابنه الحسن، وكان له ابن آخر اسمه راجع، مقيم في العرب بظاهر مكة، يفسد، ويتنازع أخواه في مُلك مكة، فلما سار حاج العراق كان الأمير عليهم مملوكاً من ممالك الخليفة الناصر لدين الله اسمه أقباش، وكان حسن السيرة مع الحاج في الطريق، كثر الحماية، فقصده راجع بن قتادة، وبذل له وللخليفة مالاً ليساعده على مُلك مكة، فأجابته إلى ذلك، (٤٠٢/١٢) ووصلوا إلى مكة، ونزلوا بالزاهر، وتقدم إلى مكة مقاتلاً لصاحبها حسن.

وكان حسن قد جمع جموعاً كثيرة من العرب وغيرها، فخرج

عند أمير الحاج، كما جرت عادة أمراء مَكَّة، فامتنع، فعوتب من بغداد، فأجاب بأبيات شعر منها:

ولي كفّ ضرغام أدلّ ببطشها واشري بها بين الوري وأبيع
تظلّ ملوك الأرض تلثم ظهرها وفي وسطها للمجديين ربيع
(٤٠٤/١٢)

أجعلها تحت الرّحاً ثمّ أبغني خلاصاً لها ؟ إني إذا لريقع !
وما أنا إلاّ المسك في كلّ بلدة يضرّوع، وأما عندكم فيضيّع

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة استعاد المسلمون مدينة ديباط بالديار المصريّة من الفرنج، وقد تقدّم ذكرها مشروحاً مفصّلاً.

وفيها، في صفر، ملك التتر مراغة وخربوها وأحرقوها وقتلوا أكثر أهلها ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم.

وسار التتر منها إلى همذان وحصروها، فقاتلهم أهلها وظفر بهم التتر وقتلوا منهم ما لا يُحصى، ونهبوا البلد.

وساروا إلى أذربيجان فأعادوا النهب، ونهبوا ما بقي من البلاد، ولم ينهبوا أولاً.

ووصلوا إلى بيلقان من بلاد آران، فحصروها وملكوها وقتلوا أهلها حتّى كادوا يفتنهم ونهبوا أموالهم، وساروا إلى بلاد الكُرج من أذربيجان وآران، فلقيهم خلق كثير من الكُرج فقاتلهم وانهزم الكُرج وكثر القتل فيهم ونهب أكثر بلادهم وقُتل أهلها، وساروا من هناك إلى دربند شروان، فحصروا مدينة شماخي وملكوها، وقتلوا كثيراً من أهلها.

وساروا إلى بلد اللّان واللّكز ومن عندهم من الأمم، فأوقعوا، (٤٠٥/١٢) ورحلوا عن قفجاق، وأجلوهم عنها، واستولوا عليها، وساحوا في تلك الأرض حتّى وصلوا إلى بلاد الروس، وقد تقدّم ذكر جميعه مُستقصي، وإنّما أوردناه هاهنا جملةً ليُعلم الذي كان في هذه السنة من حوادثهم.

وفيها توفيّ صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصلّي، ولم يكن في زمانه من يكتب ما يُقاربه، ولا من يؤدّي طريقة ابن البوّاب مثله؛ وكان ذا فضائل جمة من علم الأدب وغيره، وكان كثير الخير، نعم الرجل، مشهوراً في الدنيا، والناس متفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له، ولهم فيه أقوال كثيرة نظماً ونثراً، فمن ذلك ما قاله نجيب الدين الحسين بن عليّ الواسطيّ من قصيدة يمدحه بها:

جامعٌ شارّد العلوم ولسولا هُ لكنت أمّ الفضائل تكلّس
ذو يراعٍ تخاف سطوته الأسـد وتعنّو له الكتائب ذلّاً
وإذا افترّ نغره عن سوادٍ في بياضٍ فسالبِض والسُمر

أنت بدرٌ والكاتبُ ابنُ هلالٍ كأيّبه لا فخر فيمن توكّس
ومنها:

إن يكنّ أولاً فإنك بالتفـضيل أولى، لقد سبقت وصلّي
وهي طويلة، والكاتب ابن هلال هو ابن البوّاب الذي هو أشهر من أن يُعرّف.

وفيها توفيّ جلال الدين الحسن، وهو من أولاد الحسن بن الصباح، الذي تقدّم ذكره، صاحب المَوت وكرد كُوه، وهو مقدّم الإسماعيليّة؛ وقد ذكرنا أنّه كان قد أظهر شريعة الإسلام من الأذان والصلاة، ووليّ بعد ابنه علاء الدين محمّد. (٤٠٦/١٢)

سنة تسع عشرة وستمئة

ذكر خروج طائفة من قفجاق إلى أذربيجان وما فعلوه بالكُرج وما كان منهم

في هذه السنة اجتمع طائفة كثيرة من القفجاق وفارقوا بلادهم لمّا استولى عليها التتر، وساروا إلى دربند شروان، وأرسلوا إلى صاحبه، واسمه رشيد، وقالوا له: إنّ التتر قد ملكوا بلادنا، ونهبوا أموالنا، وقد قصدناك لنقيم في بلادك، ونحن مماليك لك، ونفتح البلاد لك و[تكون] أنت سلطاننا؛ فمنعهم من ذلك وخافهم، فأعادوا الرسالة إليه: إنّنا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا على الطاعة والخدمة لك، والانقياد لحكمك؛ فلم يجبهم إلى ما طلبوا، فسألوه أن يمكّنهم ليتزوّدوا من بلده، تدخل عشرة عشرة، فإذا اشتروا ما يحتاجون إليه فارقوا بلاده، فأجابهم إلى ذلك، فصاروا يدخلون متفرّقين، ويشترون ما يريدون، ويخرجون.

ثمّ إنّ بعض كبارهم والمقدّمين منهم جاء إلى رشيد وقال: إنني كنتُ في خدمة السلطان خوارزم شاه، وأنا مسلم، والدين يحملني على نصحك؛ أعلم أنّ قفجاق أعداؤك، ويريدون الغدر بك، فلا تمكّنهم من المقام ببلادك، (٤٠٧/١٢) فأعطني عسكرياً حتّى أقاتلهم وأخرجهم من البلاد. ففعل ذلك، وسلم إليه طائفة من عسكريه، وأعطاهم ما يحتاجون إليه من سلاح وغيره، فساروا معه، فأوقعوا بطائفة من قفجاق، فقتل منهم جماعة ونهب منهم، فلم يتحرّك قفجاق لقتال بل قالوا: نحن مماليك الملك شروان شاه رشيد، ولولا ذلك لقاتلنا عسكريه؛ فلما عاد ذلك المقدّم القفجاقيّ ومعه عسكري رشيد سالمين، فرح بهم.

ثمّ إنّ قفجاق فارقوا موضعهم، فساروا ثلاثة أيّام، فقال ذلك القفجاقيّ لرشيد: أريد عسكرياً أتبعهم [به وأغنم ما معهم]؛ فأمر له من العسكري بما أراد، فسار يقفو أثر القفجاق، فأوقع بأواخرهم، وغنم منهم.

ونحن نوجّه الرهائن إليكم.

فلَمَّا سمع كوشخرة هذا سار إليهم، فسمع به قفجاق، فركب أميران منهم، هما مقدّماهم، في نفر يسير، وجاؤوا إليه ولقوه وخدموه، وقالوا له: قد أتيناك جريدة في قلّة من العدد لتعلم أنّنا ما قصدنا إلاّ الوفاء والخدمة لسلطانكم؛ فأمرهم كوشخرة بالرحيل والنزول عند كنجة، وتزوّج ابنة أحدهم، وأرسل إلى صاحبه أوزيك يعرفه حالهم، فأمرهم بالخلع والنزول بجبل كيلكون، ففعلوا ذلك.

وخافهم الكُرج، فجمعوا لهم ليكبسومهم، فوصل الخبر بذلك إلى كوشخرة أمير كنجة، فأخبر قفجاق، وأمرهم بالعود والنزول عند كنجة، فعادوا ونزلوا عندها، وسار أمير من أمراء قفجاق في جمع منهم إلى الكُرج، فكبسهم، وقتل كثيرًا منهم، وهزمهم، وغنم ما معهم، وأكثر القتل فيهم والأسر منهم، وتَمَتَّ الهزيمة عليهم، ورجع قفجاق إلى جبل كيلكون، فنزلوا فيه كما كانوا.

فلَمَّا نزلوا أراد الأمير الآخر من أمراء قفجاق أن يؤثر في الكُرج مثل ما فعل صاحبه، فسمع كوشخرة، فأرسل إليه ينهاه عن الحركة إلى أن يكشف له خبر الكُرج، فلم يقف، فسار إلى بلادهم في طائفته، ونهب وخرّب وأخذ الغنائم، فسار الكُرج في طريق يعرفونها وسبقوه، فلَمَّا وصل إليهم قائلوه، وحملوا عليه وعلى من معه على غرة وغفلة، فوضعوا السيف فيهم، وأكثروا القتل فيهم، واستنقذوا الغنائم منه، فعاد هو ومن معه على أقبح حالة، وقصدوا برذعة. (٤١٠/١٢) وأرسلوا إلى كوشخرة يطلبون أن يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره ليقصدوا الكُرج فيأخذوا بشأهم منهم، فلم يفعل، وأخافهم، وقال: أنتم خالفتُموني، وعلمتُم برأيكم، فلا أنجدكم بفارس واحد؛ فأرسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم، فلم يعطهم، فاجتمعوا وأخذوا كثيرًا من المسلمين عوضًا من الرهائن، فثار بهم المسلمون من أهل البلاد، وقاتلوه، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، فخافوا، وساروا نحو شروان، وجازوا إلى بلد اللکز، فطمع الناس فيهم، المسلمون والكُرج واللکز وغيرهم، فأنفثوهم قتلاً ونهبًا وأسرًا وسيبًا بحيث إنّ المملوك منهم كان يباع في دربند شروان بالثمن البخس.

ذكر نهب الكُرج بيلقان

في هذه السنة، في شهر رمضان، سار الكُرج من بلادهم إلى بلاد أَرَّان وقصدوا مدينة بيلقان، وكان التتر قد خربوها، ونهبوها كما ذكرناه قبل، فلَمَّا سار التتر إلى بلاد قفجاق عاد من سلم من أهلها إليها، وعمرُوا ما أمكنهم عمارته من سورها.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم الكُرج [ودخلوا البلد وملكوه. وكان المسلمون في تلك البلاد ألفوا من الكُرج] أنهم إذا ظفروا ببلد صانموه بشيء من المال فيعودون عنهم، فكانوا أحسن الأعداء

وقصد ه جمع كثير من قفجاق من الرجال والنساء ييكون، وقد جزّوا شعورهم، ومعهم تابوت، وهم محيطون به ييكون حول، وقالوا له: إنّ صديقك فلانًا قد مات، وقد أوصى أن نحمله إليك فتدفنه [في] أي موضع شئت، ونكون نحن عندك؛ فحمله معه والذين ييكون عليه أيضًا، وعاد إلى شروان شاه رشيد، وأعلمه أنّ الميّت صديق له، وقد حمّله معه، وقد طلب أهله أن يكونوا عنده في خدمته، فأمر أن يدخلوا البلد، وأنزلهم فيه.

فكان أولئك الجماعة يسيرون مع ذلك المقدّم، ويركبون بركوبه، ويصعدون معه إلى القلعة التي لرشيد، ويقعدون عنده، ويشربون معه هم ونساؤهم، فأحبّ رشيد امرأة ذلك الرجل الذي قيل له: إنّهُ مَيّت، ولم يكن مات، وإنّما فعلوا هكذا مكيدة حتّى دخلوا البلد والذي أظهرها موته معهم في المجلس، ولا يعرفه رشيد، وهو من أكبر مقدّمي قفجاق، فبقوا كذلك عدّة أيام، فكلّ يوم يجي جماعة من قفجاق متفرّقين، فاجتمع بالقلعة منهم جماعة، وأرادوا قبض رشيد ومُلك بلاده، فظنن لذلك، فخرج عن القلعة من باب السّر، وهرب ومضى إلى شروان. وملك قفجاق القلعة، وقالوا لأهل (٤٠٨/١٢) البلد: نحن خير لكم من رشيد؛ وأعادوا باقي أصحابهم إليهم، وأخذوا السلاح الذي في البلد جميعه، واستولوا على الأموال التي كانت لرشيد في القلعة، ورحلوا عن القلعة، وقصدوا قبلة، وهي للكُرج، فنزلوا عليها وحصروها.

فلَمَّا سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع إليها وملكها، وقتل من بها من قفجاق، ولم يشعر القفجاق الذين عند قبلة بذلك، فأرسلوا طائفة منهم إلى القلعة، فقتلهم رشيد أيضًا، فبلغ الخبر إلى القفجاق، فعادوا إلى دربند، فلم يكن لهم في القلعة طمع.

وكان صاحب قبلة، لَمَّا كانوا يحصرونه، قد أرسل [إليهم، وقال لهم: أنا أرسل] إلى ملك الكُرج حتّى يرسل إليكم الخلع والأموال، ونجتمع نحن وأنتم ونملك البلاد؛ فكفّروا عن نهب ولايته أيامًا، ثمّ إنهم مدّوا أيديهم بالنهب والفساد، ونهبوا بلاد قبلة جميعها، وساروا إلى قرب كنجة من بلاد أَرَّان، وهي للمسلمين، فنزلوا هناك، فأرسل إليهم الأمير بكنجة، وهو مملوك لأوزيك صاحب أذربيجان اسمه كوشخرة، عسكريًا فمَنعهم من الوصول إلى بلاده، وسير رسولًا إليهم يقول لهم: غدرتُم بصاحب شروان، وأخذتُم قلعتي، وغدرتُم بصاحب قبلة، ونهيتُم بلاده، فما يشق بكم أحد؛ فأجابوا: إننا ما جئنا إلاّ قصدًا لخدمة سلطانكم، فمَنعنا شروان شاه عنكم، فلماذا قصدنا بلاده، وأخذنا قلعتي، ثمّ تركناها من غير خوف؛ وأمّا صاحب قبلة فهو عدوكم وعدوتنا، ولو أردنا أن نكون عند الكُرج لما كنّا جعلنا طريقنا على دربند شروان، فإنّه أصعب وأشقّ وأبعد، وكنا جئنا إلى بلادهم (٤٠٩/١٢) على عادتنا

سنة عشرين وستمئة

ذكر ملك صاحب اليمن مكّة، حرمها الله تعالى

في هذه السنة سار الملك المسعود أئسز بن الملك الكامل محمّد، صاحب مصر، إلى مكّة، وصاحبها حينئذ حسن بن قتادة بن إدريس، العلويّ الحسينيّ، قد ملكها بعد أبيه، كما ذكرناه.

وكان حسن قد أساء إلى الأشراف والمماليك الذين كانوا لأبيه، وقد تفرّقوا عنه، ولم يبقَ عنده غير أخواله من غيره، فوصل صاحب اليمن إلى مكّة، ونهبها عسكره إلى العصر.

فحدّثني بعض المجاورين المتأهلين أنّهم نهبوها، حتّى أخذوا الثياب عن الناس، وأفروهم، وأمر صاحب اليمن أن يُنْش قبر قتادة ويُحرق، فنُشوه، فظهر التابوت الذي دفنه ابنه الحسن والناس ينظرون إليه، فلم يروا فيه شيئاً، فعلموا حينئذ أنّ الحسن دفن أباه سرّاً، وأنّه لم يجعل في التابوت شيئاً.

وذاق الحسن عاقبة قطيعة الرحم، وعجل الله مقابله، وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وعمّه لأجله؛ خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. (٤١٤/١٢)

ذكر حرب بين المسلمين والكُرج بأرمينية

في هذه السنة، في شعبان، سار صاحب قلعة سُرماري، [وهي] من أعمال [أرمينية] إلى خلاط، لأنّه كان في طاعة صاحب خلاط، وهو حينئذ شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب، فحضر عنده، واستخلف ببلده أميراً من أمرائه، فجمع هذا الأمير جمعاً وسار إلى بلاد الكُرج، فنهب منها عدّة قُرى وعاد.

فسمعت الكُرج بذلك، فجمع صاحب دوين، واسمه شلوة، وهو من أكابر أمراء الكُرج، عسكره [وسار] إلى سُرماري فحصرها أيّاماً، ونهب بلدتها وسوادها ورجع.

فسمع صاحب سُرماري الخبر، فعاد إلى سُرماري، فوصل إليها في اليوم الذي رحل الكُرج عنها، فأخذ عسكره وتبعهم، فأوقع بساقتهم، فقتل منهم وغنم، واستنقذ بعض ما أخذوا من غنائم بلاده.

ثم إنَّ صاحب دوين جمع عسكره وسار إلى سُرماري ليحصرها، فوصل الخبر إلى صاحبها بذلك، فحصّنها، وجمع الذخائر وما يحتاج إليه، فأتاه من أخيره أن الكُرج نزلوا بوادٍ بين دوين وسُرماري، وهو وادٍ ضيّق، فسار بجمع عسكره جريداً، وجد السير ليكبس الكُرج، فوصل إلى الوادي الذي هم فيه وقت السحر، ففرّق عسكره فرقتين : فرقة من أعلى الوادي، وفرقة من أسفله، وحملوا عليهم وهم غافلون، ووضعوا السيف فيهم، (٤١٥/١٢)

مقدرة؛ فلمّا كانت هذه الدفعة ظلّ المسلمون أنّهم يفعلون مثل ما تقدّم، فلم يبالغوا في الامتناع منهم، (٤١١/١٢) ولا هربوا من بين أيديهم؛ فلمّا ملك الكُرج المدينة وضعوا السيف في أهلها، وفعلوا من القتل والنهب أكثر ممّا فعل بهم التتر.

هذا جميعه يجري، وصاحب بلاد أذربيجان أوزبك بن البهلوان بمدينة تبريز، ولا يتحرّك في صلاح، ولا يتّجه لخير بل قد قنع بالأكل وإدمان الشرب والفساد، ففجّحه الله، وسرّ للمسلمين من يقوم بنصرهم وحفظ بلادهم بمحمّد وآله.

ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش

في هذه السنة ملك بدر الدين، صاحب الموصل، قلعة شوش من أعمال الحميدية، وبينها الموصل اثنا عشر فرسخاً.

وسبب ذلك أنّها كانت هي وقلعة العقير متجاورتين لعماد الدين زنكي ابن أرسلان شاه، وكان بينهما من الخلف ما تقدّم ذكره.

فلمّا كان هذه السنة سار زنكي إلى أذربيجان ليعلم صاحبها أوزبك ابن البهلوان، فاتّصل به، وصار معه، وأقطع إقطاعات، وأقام عنده، فسار بدر الدين إلى قلعة شوش فحاصرها، وضيق عليها، وهي على رأس جبل عال، فطال مقامه عليها لحصانتها، فعاد إلى الموصل، وترك عسكره محاصراً (٤١٢/١٢) لها، فلمّا طال الأمر على من بها، ولم يروا من يرحّله عنهم، ولا من ينجدهم، سلّموها على قاعدة استقرّت بينهم، من أقطاع وخلع وغير ذلك، فتسلّمها نوابه في التاريخ، وربّوا أمورها وعادوا إلى الموصل.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في العشرين من شعبان، ظهر كوكب في السماء في الشرق، كبير له ذؤابة طويلة غليظة، وكان طلوعه وقت السحر، فبقي كذلك عشرة أيّام، ثمّ ظهر أوّل الليل في الغرب ممّا يلي الشمال، فكان كلّ ليلة يتقدّم إلى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع في رأي العين، فلم يزل يقرب من الجنوب حتّى صار غرباً محضاً، ثمّ صار غرباً مائلاً إلى الجنوب، بعد أن كان غرباً ممّا يلي الشمال، فبقي كذلك إلى آخر شهر رمضان من السنة ثمّ غاب.

وفيها توفي ناصر الدين محمود بن محمّد قرا أرسلان، صاحب حصن كيفا وأمد، وكان ظالمًا قبيح السيرة في رعيته. قيل : إنّ كان يتظاهر بمذهب الفلاسفة في أنّ الأجساد لا تحشر؛ كذبوا لعنهم الله. ولمّا مات ملك ابنه الملك المسعود. (٤١٣/١٢)

وكان صاحب أرزن الروم، هذا الوقت، هو مغيث الدين طغرل شاه بن (٤١٧/١٢) قلع أرسلان بن مسعود قلع أرسلان، وبنته مشهور من أكابر ملوك الإسلام، وهم من الملوك السلجوقية، وله ولد كبير، فأرسل إلى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها، فامتنعوا من إجابته، وقالوا : لا نفعل هذا، لأننا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم. فقال : لهم إن ابني يتنصر ويتزوجها، فأجابوه إلى ذلك فأمر ابنه فتنصر ودان بالنصرانية، وتزوج الملكة، وانتقل إليها، وأقام عند الكرج حاكمًا في بلادهم، واستمر على النصرانية، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها، وخير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاه.

ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكًا لها، فكان زوجها يسمع عنها القبايح ولا يمكنه الكلام لعجزه، ثم إنه يومًا دخل عليها فرأها نائمة مع مملوكها في فراش، فانكر ذلك وواجهها بالمنع منه، فقالت : إن رضيت بهذا، وإلا أنت أخير. فقال : إنني لا أرضى بهذا؛ فقلته إلى بلد آخر، ووكلت به من يمنعه من الحركة، وحجرت عليه، وأرسلت إلى بلد اللان وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة، فتزوجت أحدهما، فبقي معها يسيرًا، ثم إنها فارقت، وأحضرت إنسانًا آخر من كنجة، وهو مسلم، فطلبت منه أن يتنصر ليتزوجها، فلم يفعل، فأرادت أن تزوجه وهو مسلم، فقام عليها جماعة الأمراء، ومعهم إيواني، وهو مقدم العساكر الكرجية، فقالوا لها : قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثم تريدن أن يتزوجك مسلم، وهذا لا نمكّن منه أبدًا؛ والأمر بينهم متردد والرجل الكنجي عندهم لم يجبههم إلى الدخول في النصرانية، وهي تهواه. (٤١٨/١٢)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كان الجراد في أكثر البلاد، وأهلك كثيرًا من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها.

وفيها، في رمضان، توفي عبد الرحمن بن هبة الله بن عساكر، الفقيه الشافعي الدمشقي، بها، وكان غزير العلم، عالمًا بالمذهب، كثير الصلاح والزهد والخير، رحمه الله.

وفيها خرج العرب في خلق كثير على حجاج الشام، وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخذهم، وكان الأمير على الحجاج شرف الدين يعقوب بن محمد، وهو من أهل الموصل، أقام بالشام، وتقدم فيه، فمتعهم بالرغبة والرهبة، ثم صانعهم بمال وثياب وغير ذلك، فأعطى الجميع من ماله، ولم يأخذ من الحجاج الدرهم الفرد، وفعل فعلًا جميلًا. وكان عنده كثير من العلوم، ويرجع إلى دين متين. (٤١٩/١٢)

فقتلوا وأسروا، فكان في جملة الأسرى شلوة أمير دوين، في جماعة كثيرة من مقدميهم، ومن مسلم من الكرج عاد إلى بلدهم على حال سيئة.

ثم إن ملك الكرج أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة، وهو الذي أعطى خلاط وأعمالها الأمير شهاب الدين، يقول له : كنا نظن أننا صلح، والآن فقد عمل صاحب سُرماري هذا العمل، فإن كنا على الصلح فنريد إطلاق أصحابنا من الأسر، وإن كان الصلح قد انفسخ بيننا فتعرفنا حتى ندبر أمرنا.

فأرسل الأشرف إلى صاحب سُرماري بإطلاق الأسرى وتجديد الصلح مع الكرج، ففعل ذلك واستقرت قاعدة الصلح، وأطلق الأسرى.

ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، انهزم إيفان طائيسي، وهو خال غياث الدين بن خوارزم شاه محمد بن تكش، وغياث الدين هذا هو صاحب بلاد الجبل والرئي وأصبهان وغير ذلك، وله أيضًا بلاد كرمان.

وكان سبب ذلك أن خاله إيفان طائيسي كان معه، وفي خدمته، وهو أكبر أمير معه لا يصدر غياث الدين إلا عن رأيه، والحكم إليه في جميع المملكة، فلما عظم شأنه حدث نفسه بالاستيلاء على الملك، وحسن له ذلك غيره، وأطمعه فيه، قيل : إن الخليفة الناصر لدين الله أقطعهم البلاد سرًا، وأمره بذلك، (٤١٦/١٢) فقويت نفسه على الخلاف، فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم.

فلما تم له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين، وخرج عن طاعة أوزبك، وصار في البلاد يفسد، ويقطع الطريق، وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها، وانضاف إليه جمع كثير من أهل العنف والفساد، ومعه مملوك آخر اسمه أليك الشامي، وساروا جميعهم إلى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها، فجمع غياث الدين عسكره والتقاوا بنواحي..... واقتتلوا، فانهزم خال غياث الدين ومن معه، وقتل من عسكره وأسر كثير، وعاد المنهزمون إلى أذربيجان على أقبح حال، وأقام غياث الدين في بلاده وثبت قدمه.

حادثة غريبة لم يوجد مثلها

كان أهل المملكة في الكرج لم يبق منهم غير امرأة، وقد انتهى الملك إليها فوليته، وقامت بالأمر فيهم، وحكمت، فطلبوا لها رجلًا يتزوجها ويقوم بالملك نيابة عنها، ويكون من أهل بيت مملكة، فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الأمر.

سنة إحدى وعشرين وستمائة

ذكرناه.

ذكر عود طائفة من التتر إلى الرِّيِّ وهمدان وغيرها

أول هذه السنة وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جَنْكُزْخان، وهؤلاء غير الطائفة الغريبة التي ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرِّيِّ؛ وكان من سلم من أهلها قد عادوا إليها وعمروها، فلم يشعروا بالتتر إلا وقد وصلوا إليهم، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا في أهلها السيف وقتلهم كيف شاؤوا، ونهبوا البلد وخربوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك، ثم إلى قَمِّ وقاشان، وكانت قد سلمتا من التتر أولاً، فإنهم لم يقربوهما، ولا أصاب أهلها أذى، فاتاهما هؤلاء وملكوهما، وقتلوا أهلها، وخربوهما، وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب.

ثم ساروا في البلاد يخربون ويقتلون وينهبون، ثم قصدوا همدان، وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها، فأبادوهم قتلاً وأسرأ ونهبأ، وخربوا البلد.

وكانوا لما وصلوا إلى الذي رأوا بها عسكرياً كثيراً من الخوارزمية، فكبسوهم وقتلوا منهم، وانهزم الباقون إلى أذربيجان، فنزلوا بأطرافها، فلم يشعروا إلا والتتر أيضاً قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم، فولوا منهزمين، فوصل (٤٢٠/١٢) طائفة منهم إلى تبريز، وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون: إن كنت موافقاً فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية، وإلا فعزفنا أنك غير موافق لنا، ولا في طاعتنا؛ فعمد إلى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم، وحمل الأسرى والرؤوس إلى التتر، وأنفذ معها من الأموال والثياب والدواب شيئاً كثيراً، فعادوا عن بلاده نحو خراسان، فعلوا هذا وليسوا في كثرة؛ كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس، وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف راجل، وعسكر أوزبك أكثر من الجميع، ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم.

نسأل الله أن يسر للإسلام والمسلمين من يقوم بتصرتهم، فقد دُفِعوا إلى أمر عظيم من قتل النفوس، ونهب الأموال، واسترقاق الأولاد، وسبي الحرير وقتلهم، وتخريب البلاد.

ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس

قد ذكرنا أن غياث الدين بن خوارزم شاه محمد كان بالرِّيِّ، وله معها أصفهان وهمدان وما بينهما من البلاد، وله أيضاً بلاد كرمان، فلما هلك أبوه، كما ذكرناه، وصل التتر إلى بلاده، وامتنع بأصفهان، وحصره التتر فيها فلم يقدر عليها، فلما فارق التتر بلاده، وساروا إلى بلاد قفقاق، عاد ملك البلاد وعمر ما أمكنه منها، وأقام بها إلى أواخر سنة عشرين وستمائة، وجري له ما

ففي آخر سنة عشرين وستمائة سار إلى بلاد فارس فلم يشعر صاحبها، وهو (٤٢٠/١٢) أنابك سعد بن دكلا، إلا وقد وصل غياث الدين إلى أطراف بلاده، فلم يتمكن من الامتناع، فقصد قلعة إصطخر فاحتفى بها، وسار غياث الدين إلى مدينة شيراز، وهي كرسي مملكة فارس، وأكبرها وأعظمها، فملكها بغير تعب أول سنة إحدى وعشرين وستمائة، وبقي غياث الدين بها، واستولى على أكثر البلاد، ولم يبق بيد سعد إلا الحصون المنيع.

فلما طال الأمر على سعد صالح غياث الدين على أن يكون لسعد من البلاد قسم اتفقوا عليه، ولغياث الدين الباقي، وأقام غياث الدين بشيراز، وازداد إقامة وعزماً على ذلك لما سمع أن التتر قد عادوا إلى الرِّيِّ والبلاد التي له وخربوها.

ذكر عصيان شهاب الدين غازي على أخيه الملك الأشرف واخذ خلاط منه

كان الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب قد أقطع أخاه شهاب الدين غازي مدينة خلاط وجميع أعمال أرمينية، وأضاف إليها ميافارقين وحاني وجبل جور، ولم يقنع بذلك حتى جعله ولياً عهده في البلاد التي له جميعها، وحلف له جميع النواب والعساكر في البلاد.

فلما سلم إليه أرمينية سار إليها، كما ذكرناه، وأقام بها إلى آخر سنة عشرين وستمائة، فأظهر مغاضبة أخيه الملك الأشرف، والتجني عليه والعصيان، والخروج عن طاعته، فراسله الأشرف يستميله ويعاتبه على ما فعل، فلم يرعوا، ولا ترك ما هو عليه، بل أصر على ذلك، واتفق هو وأخوه المعظم عيسى، صاحب دمشق، ومظفر الدين بن زين الدين، صاحب إربل، (٤٢٢/١٢) على الخلاف للأشرف، والاجتماع على محاربته، وأظهروا ذلك.

وعلم الأشرف فأرسل إلى أخيه الكامل بمصر يُعرفه ذلك، وكانا متفقين، وطلب منه نجدة، فجهز العساكر وأرسل إلى أخيه، صاحب دمشق، يقول له: إن تحركت من بلدك سرت إلى أهلك؛ وكان قد سار نحو ديار الجزيرة للميعاد الذي بينهم، فلما وصلت إليه رسالة أخيه، وسمع بتجهيز العساكر، عاد إلى دمشق.

وأما صاحب إربل فإنه جمع العساكر وسار إلى الموصل، فكان منه ما نذكره إن شاء الله.

وأما الأشرف فإنه لما تيقن عصيان أخيه جمع العساكر من الشام، والجزيرة، والموصل، وسار إلى خلاط، فلما قرب منها خافه أخوه غازي، ولم يكن له قوة على أن يلقيه محارباً، ففرق عسكره في البلاد ليحصنها، وانتظر أخوه صاحب دمشق أن يسير

اليزك الذين له يقاتلون البلد، فيخرج إليهم بعض الفرسان، وبعض الرجال، فيجري بينهم قتال ليس بالكثير ثم يفرقون، وترجع كل طائفة إلى صاحبها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، أول آب، جاء ببغداد مطر برعد وبرق، وجرت المياه بباب البصرة والحربية، وكذلك بالمُحَوَّل، بحيث أن الناس كانوا يخوضون في الماء والوحل بالمُحَوَّل.

وفيها سار صاحب المخزن إلى بعقوبا في ذي القعدة، فعسف أهلها، فقتل إليه عن إنسان منها أنه يسبه، فأحضره وأمر بمعاقبته، وقال له: لم تسبني؟ فقال له: أنتم تسبون أبا بكر وعمر لأجل أخذهما فذك، وهي عشر نخلات لفاطمة، عليها السلام، وأنتم تأخذون مني ألف نخلة ولا أنكلم؟ فعفا عنه.

وفيها وقعت فتنة بواسط بين السنة والشيعية على جاري عادتهم.

وفيها قلت الأمطار في البلاد، فلم يجر منها شيء إلى سباط، ثم إنها كانت تجيء في الأوقات المنفرقة مجيئا قريبا لا يحصل منه الرّي للزرع، فجاءت الغلات قليلة، ثم خرج عليها الجراد، ولم يكن في الأرض من النبات ما يشتغل به عنها، فأكلها إلا القليل، وكان كثيرا خارجا عن الحد، فقلت الأسعار في العراق، والموصل، وسائر ديار الجزيرة، وديار بكر، وغيرها، وقلت الأتروات، إلا أن أكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة. (٤٢٥/١٢)

سنة اثنتين وعشرين وستمائة

ذكر حصر الكُرج مدينة كنجة

في هذه السنة سارت الكُرج في جموعها إلى مدينة كنجة من بلاد أَران قصداً لحصرها، واعتدوا لها بما أمكنهم من القوة لأن أهل كنجة كثير عددهم، قوية شوكتهم، وعندهم شجاعة كثيرة من طول ممارستهم للحرب مع الكُرج، فلما وصلوا إليها ونازلوها قاتلوا أهلها، عدة أيام، من وراء السور، لم يظهر من أهلها أحد، ثم في بعض الأيام خرج أهل كنجة ومن عندهم من العسكر من البلد، وقاتلوا الكُرج بظاهر البلد أشد قتال وأعظمه، فلما رأى الكُرج ذلك علموا أنهم لا طاقة لهم بالبلد، فرحلوا بعد أن اتخن أهل كنجة فيهم. ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ذكر وصول جلال الدين بن خوارزم شاه إلى خوزستان والعراق في أول هذه السنة وصل جلال الدين بن خوارزم شاه محمد

صاحب إربل إلى ما يجاوره من الموصل وسنجار، وأن يسير أخوه إلى بلاد الأشرف عند الفرات: الرقة وحران وغيرهما، فيضطر الأشرف حيثنذ إلى العود عن خلاط.

فسار الأشرف إليه، وقصد خلاط، وكان أهلها يريدونه، ويختارون دولته لحسن سيرته، كانت فيهم، وسوء سيرة غازي، فلما حصرها سلمها أهلها إليه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة، وبقي غازي في القلعة ممتنعاً، فلما جئ الليل نزل إلى أخيه معتذراً ومتصلاً، فعاتبه الأشرف وأبقى عليه ولم يعاقبه على فعله، لكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه مئافارقين. (٤٢٣/١٢)

ذكر حصار صاحب إربل الموصل

قد ذكرنا اتفاق مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي، صاحب إربل، وشهاب الدين غازي، صاحب خلاط، والمعظم عيسى، صاحب دمشق، على قصد بلاد الملك الأشرف؛ فأما صاحب دمشق فإنه سار عنها مراحل يسيرة وعاد إليها لأن أخاه صاحب مصر أرسل إليه يتهده إن سار عن دمشق أنه يقصدها ويحصرها، فعاد.

وأما غازي فإنه استحصر في خلاط، وأخذت منه كما ذكرناه.

وأما صاحب إربل فإنه جمع عسكره وسار إلى بلد الموصل وحصرها ونازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة، ظناً منه أن الملك الأشرف إذا سمع بزواله عليها رحل عن خلاط، ويخرج غازي في طلبه، فتخبط أحواله، وتقوى نفس صاحب دمشق على المجيء إليهم، فلما نازل الموصل كان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم أمورها من استخدام الجند على الأسوار، وإظهار آلة الحصار، وإخراج الذخائر.

وإنما قوي طمع صاحب إربل على حصر الموصل لأن أكثر عسكرها كان قد سار إلى الملك الأشرف إلى خلاط وقد قل العسكر فيها، وكان الغلاء شديداً في البلاد جميعها، والسعر في الموصل كل ثلاثة مكايك بدینار، فهذا السبب أقدم على حصرها؛ فلما نزل عليها أقام عشرة أيام ثم رحل عنها يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الآخرة.

وكان سبب رحيله أنه رأى امتناع البلد عليه، وكثرة من فيه، وعندهم من الذخائر ما يكفيهم الزمان الكثير، ووصل إليه خبر الملك الأشرف أنه ملك خلاط، فانفسخ عليه كل ما كان يؤمله من صاحبها ومن دمشق، وبقي (٤٢٤/١٢) وحده متلبساً بالأمر، فلما وصلت الأخبار إليه بذلك سقط في يده، ورأى أنه قد أخطأ الصواب، فرحل عائداً إلى بلده، وأقام على [الزباب] وملة مقامه على الموصل لم يقاتلها، إنما كان في بعض الأوقات يجيء بعض

منهم الوطن بهذا القدر الحقيق، أردنا [أن] نكفّ به وجوهنا من السؤال، ونصون أنفسنا، فقد ذهب الولد والمال.

ثمّ سار إلى دمشق ليأخذ ما سلم مع ابنه الآخر، فأخذه وعاد إلى الموصل، فلم يبق غير شهر حتّى توفي؛ إنّ الشقيّ بكلّ جبل يُخنق.

وأما جلال الدين فإنّه لمّا فعل بأهل دقوقا ما فعل خافه أهل البوزيج، وهي لصاحب الموصل، فأرسلوا إليه يطلبون منه إرسال شحنة إليهم يحميهم، ويدلّوا له شيئاً من المال، فأجابهم إلى ذلك، وسبّر إليهم من يحميهم، قيل: كان بعض أولاد جنكزخان، ملك التتر، أسره جلال الدين في بعض حروبه (٤٢٨/١٢) مع التتر، فأكرمه، فحماهم، وأقام بمكانه إلى أواخر ربيع الآخر، والرسول متردّد بينه وبين مظفر الدين، صاحب إربل، فاصطلحوا، فسار جلال الدين إلى أذربيجان، وفي مدّة مقام جلال الدين ببخوزستان والعراق ثارت العرب في البلاد يقطعون الطريق، وينهبون القرى، ويخيفون السبل، فنال الخلق منهم أذى شديد، وأخذوا في طريق العراق قتلين عظيمين كانا سائرين إلى الموصل، فلم يسلم منهما شيء البتّة.

ذكر وفاة الملك الأفضل وغيره من الملوك

في هذه السنة، في صفر، توفي الملك الأفضل عليّ بن صلاح الدين يوسف بن أيّوب فجأةً بقلعة شُميساط، وكان عمره نحو سبع وخمسين سنة، وقد ذكرنا سنة تسع وثمانين وخمسمائة عند وفاة والده، رحمه الله، ملكه مدينة دمشق والبيت المقدس، وغيرها من الشام، وذكرنا سنة اثنين وتسعين أخذ الجميع منه، ثمّ ذكرنا سنة خمس وتسعين ملكه ديار مصر، وذكرنا سنة ست وتسعين أخذها منه، وانتقل إلى شُميساط وأقام بها، ولم يزل بها إلى الآن، فتوفي بها.

وكان، رحمه الله، من محاسن الزمان، لم يكن في الملوك مثله، كان خيرًا عادلًا فاضلاً حليماً كريماً قلّ أن عاقب على ذنب، ولم يمنع طالباً، وكان يكتب خطّاً حسناً، وكتابة جيّدة، وبالجملّة، فاجتمع فيه من الفضائل (٤٢٩/١٢) والمناقب ما تفرّق في كثير من الملوك، لا جرم حُرّم الملك والدنيا، وعاداه الدهر، ومات يموت كلّ فعلٍ جليل، فرحمه الله ورضي عنه.

ورأيت من كتابته أشياء حسنة، فمما بقي على خاطري منها أنّه كتب إلى بعض أصحابه، لمّا أخذت دمشق منه، كتاباً من فصوله: وأما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم، وسبب ذلك أنّي:

أيّ صديقٍ سألتُ عنه، ففي الدُّلّ وتحت الخمول في الوطن وأيّ غيّدٍ سألتُ حالتيه سمعتُ منّا لا تُحبّه أذنّي

بن نكش إلى بلاد خوزستان والعراق، وكان مجيئه من بلاد الهند، لأنّه كان وصل إليها (٤٢٦/١٢) لمّا قصد التتر غزنة، وقد ذكرنا ذلك جميعه، فلمّا تعذّر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كرمان، ووصل إلى أصفهان وهي بيد أخيه غياث الدين، وقد تقدّمت أخباره، فملكها، وسار عنها إلى بلاد فارس، وكان أخوه قد استرلى على بعضها، كما ذكرناه، فأعاد ما كان أخوه أخذه منها إلى أتابك سعد صاحبها، وصالحه، وسار من عنده إلى خوزستان، فحصر مدينة سُتر في المحرّم وبها الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع، مملوك الخليفة الناصر لدين الله، حافظاً لها، وأميراً عليها، فحصره جلال الدين، وضيق عليه، فحفظها وجه السبع، وبالح في الحفظ والاحتياط، وتفرّق الخوارزمية ينهبون، حتّى وصلوا إلى بادرايا وباكسيا وغيرها، وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة، فنهبوا هنالك، فسار إليهم شحنة البصرة، وهو الأمير ملتكين، فسار إليهم فأوقع بهم، وقتل منهم جماعة، فدام الحصار نحو شهرين، ثمّ رحل عنها بقتّة.

وكانت عساكر الخليفة، مع مملوكه جمال الدين قشتمر، بالقرب منه، فلمّا رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه، فسار إلى أن وصل إلى بعقوبا، وهي قرية مشهورة بطريق خراسان، بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ، فلمّا وصل الخبر إلى بغداد تجهّزوا للحصار، وأصلحوا السلاح من الجروح، والقسيّ والنشاب، والتّقط، وغير ذلك، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد.

وأما عسكر جلال الدين فنهب البلاد وأهلكها، وكان قد وصل هو وعسكره إلى خوزستان في ضرّ شديد وجهد جهيد، وقلة من الدواب، والذي معهم فهو من الضعف إلى حدّ لا يتّسع به، فغنموا من البلاد جميعها، واستغنوا، (٤٢٧/١٢) وأكثروا من أخذ الخيل والبقال، فإنّهم كانوا في غاية الحاجة إليها.

وسار من بعقوبا إلى دقوقا فحصرها، فصعد أهلها إلى السور وقتلوه، وسبّوه، وأكثروا من التكبير، فغظّم ذلك عنده، وشقّ عليه، وجدّ في قتالهم، ففتحها عنوة وقهراً، ونهبها عساكره، وقتلوا كثيراً من أهلها، فهرب من سلم منهم من القتل وتفرّقوا في البلاد.

ولمّا كان الخوارزميون على دقوقا سارت سرّية منهم إلى البتّ والراذان، فهرب أهلها إلى تكريت، فتبهم الخوارزمية فجري بينهم وبين عسكر تكريت وقعة شديدة، فعادوا إلى العسكر.

ولقد رأيتُ بعض أعيان أهل دقوقا وهم بنو يعلى، وهم أغنياء، فنهبوا، وسلم أحدهم، ومعه ولدان له، وشيء يسير من المال، فسبّر ما سلم معه إلى الشام مع الولدين ليُجرّ بما يتفقون به ويتفقونه على نفوسهم، فمات أحد الولدين بدمشق، واحتاط الحاكم على ما معهم، فلقد رأيتُ أباهم على حالة شديدة لا يعلمها إلاّ الله، يقول: أخذت الأموال والأموال، وقتل بعض الأهل، وفارق من مسلم

الكُرْج : إِنَّا لَمْ نَلَقْ بِسَبِيكَ خَيْرًا، وَ لَا نَوَاحِذُكَ بِمَا كَانَ مِنْكَ، فَلَا تُقَمِّ بِيَلَدَنَا؛ ففارقهم وبقي مترددًا لَا يَأْوِي إِلَى أَحَدٍ، وَاسْتَقَرَّ وَلَدَهُ فِي الْمَلِكِ وَأَحْسَنَ إِلَى الْجَنْدِ وَالرَّعِيَّةِ، وَأَعَادَ إِلَى النَّاسِ أَمْلاكَهُمْ وَمَصَادِرَاتِهِمْ، فَاعْتَبَطُوا بِوَلَايَتِهِ.

ذَكَرَ ظَفَرُ الْمُسْلِمِينَ بِالْكَرْجِ أَيْضًا

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضًا سَارَ جَمْعٌ مِنَ الْكَرْجِ مِنْ تَقْلِيْسٍ يَقْصِدُونَ أَذْرَبِيْجَانَ وَبِلَادَ الْيَدِ أَوْزْبِكِ، فَتَزَلُّوا وَرَاءَ مَضِيْقٍ فِي الْجِبَالِ لَا يُسَلِّكُ إِلَّا لِلْفَارِسِ بَعْدَ الْفَارِسِ، فَتَزَلُّوا أَمْنِيْنَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اسْتِعْصَافًا لَهُمْ، وَاعْتَزَّارًا بِحَصَانَةِ مَوْضِعِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا طَرِيْقَ إِلَيْهِمْ.

وَرَكِبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَقَصَدُوا الْكَرْجَ، فَوَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ الْمَضِيْقِ، فَجَاوَزُوهُ بِخَاطَرِيْنَ، فَلَمْ يَشْعُرِ الْكَرْجُ إِلَّا وَقَدْ غَشِيَهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَوَضَعُوا فِيهِمُ السَّيْفَ قَتَلُوهُمْ كَيْفَ شَاءُوا، وَوَلَّى الْبَاقُونَ مَنَهْزِمِينَ لَا يَلْوِي وَالدَّ عَلَى وَلَدِهِ، وَلَا أَخَ عَلَى أَخِيهِ، وَأَسْرَ مِنْهُمْ جَمْعٌ كَثِيرٌ صَالِحٌ، فَعَظُمَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ، وَعَزَمُوا عَلَى الْأَخْذِ بِثَارِهِمْ، وَالْجَدِّ فِي قَصْدِ أَذْرَبِيْجَانَ وَاسْتِصْصَالَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ، وَأَخَذُوا يَتَجَهَّزُونَ عَلَى قَدْرِ عَزْمِهِمْ.

فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ وَصَلَ إِلَيْهِمُ الْخَبَرُ بِوَصُولِ جَلَالِ الدِّينِ بِنِ خَوَارِزْمِ شَاهٍ إِلَى مِرَاغَةِ، عَلَى مَا نَذَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَتَرَكُوا ذَلِكَ وَأَرْسَلُوا إِلَى أَوْزْبِكِ، صَاحِبِ أَذْرَبِيْجَانَ، يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْمَوَافَقَةِ عَلَى رَدِّ جَلَالِ الدِّينِ، وَقَالُوا : إِنْ لَمْ نَتَّفَقْ نَحْنُ وَأَنْتَ، وَإِلَّا أَخَذْنَاكَ ثُمَّ أَخَذْنَا؛ فَعَاجَلَهُمْ جَلَالُ الدِّينِ قَبْلَ اتِّفَاقِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ، فَكَانَ مَا نَذَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. (٤٣٢/١٢)

ذَكَرَ مُلْكُ جَلَالِ الدِّينِ أَذْرَبِيْجَانَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ اسْتَوْلَى جَلَالُ الدِّينِ عَلَى أَذْرَبِيْجَانَ؛ وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا سَارَ مِنْ دَقُوقَا، كَمَا ذَكَرْنَاهُ، قَصَدَ مِرَاغَةَ فَمَلَكَهَا وَأَقَامَ بِهَا، وَشَرَعَ فِي عِمَارَةِ الْبَلَدِ، فَاسْتَحْسَنَهُ؛ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا أَتَاهُ الْخَبَرُ أَنَّ الْأَمِيرَ إِيْغَانَ طَائِيْسِي، وَهُوَ خَالَ أَخِيهِ غِيَاثَ الدِّينِ، قَدْ قَصَدَ هَٰذَا قَبْلَ وَصُولِ جَلَالِ الدِّينِ يَوْمِيْنَ.

وَكَانَ إِيْغَانُ طَائِيْسِي هَٰذَا قَدْ جَمَعَ عَسْكَرًا كَثِيرًا يَبْلُغُونَ خَمْسَةَ آلَافٍ فَارِسَ، وَنَهَبَ كَثِيرًا مِنْ أَذْرَبِيْجَانَ، وَسَارَ إِلَى الْبَحْرِ مِنْ بَلَدِ أَرَّانَ، فَشَتَّى هَنَالِكَ لَقْلَةً الْبَرْدِ، وَلَمَّا عَادَ إِلَى هَٰذَا نَهَبَ أَذْرَبِيْجَانَ أَيْضًا مَرَّةً ثَانِيَةً.

وَكَانَ سَبَبُ مَسِيرِهِ إِلَى هَٰذَا أَنَّ الْخَلِيْفَةَ النَّاصِرَ لَدَيْنَ اللَّهِ رَاسِلَهُ وَأَمَرَهُ بِقَصْدِ هَٰذَا، وَأَقْطَعَهُ إِيَّاهَا وَغَيْرَهَا، فَسَارَ لِيَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا كَمَا أَمَرَ، فَلَمَّا سَمِعَ جَلَالُ الدِّينِ بِذَلِكَ سَارَ جَرِيْدَةً إِلَيْهِ، فَوَصَلَ إِلَى إِيْغَانَ طَائِيْسِي لَيْلًا، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ جَعَلَ حَوْلَ عَسْكَرِهِ جَمِيعَ مَا غَنَمُوا مِنْ أَذْرَبِيْجَانَ وَأَرَّانَ مِنْ خَيْلٍ، وَبِغَالٍ، وَحَمِيرٍ، وَبَقَرٍ، وَغَنَمٍ. فَلَمَّا وَصَلَ جَلَالُ الدِّينِ أَحَاطَ بِالْجَمِيعِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عَسْكَرُ

فَتَرَكْتُ السُّؤَالَ عَنْهُمْ؛ وَهَٰذَا غَايَةُ الْجَوْدَةِ فِي الْإِعْتِدَارِ عَنْ تَرْكِ السُّؤَالِ وَالصَّاحِبِ.

وَلَمَّا مَاتَ اخْتَلَفَ أَوْلَادُهُ وَعَمَّهُمْ قَطْبُ الدِّينِ مُوسَى، وَلَمْ يَقْرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الْبَاقِيْنَ لِيَسْتَيْدَ بِالْأَمْرِ.

وَمَاتَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ صَاحِبُ أَرْزَنَ الرُّومِ، وَهُوَ مَغِيْثُ الدِّينِ طُغْرُلُ بْنُ قَلْجِ أَرْسَلَانَ، وَهُوَ الَّذِي سَيَّرَ وَلَدَهُ إِلَى الْكَرْجِ، وَتَنَصَّرَ وَتَزَوَّجَ مَلِكَةَ الْكَرْجِ؛ وَلَمَّا مَاتَ مَلِكٌ بَعْدَهُ ابْنُهُ.

وَمَاتَ فِيهَا مَلِكُ أَرْزَنَكَانَ.

وَتَوَفَّى فِيهَا عَزُّ الدِّينِ الْخَضِرُ بْنُ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنُ قَرَا أَرْسَلَانَ بْنُ دَاوُدَ ابْنِ سَقْمَانَ، صَاحِبُ خَرْتِ بَرْتِ، وَمَلِكٌ بَعْدَهُ ابْنُهُ نُورُ الدِّينِ أَرْتُقُ شَاهٍ، وَكَانَ الْمَدْبُورُ لِدَوْلَتِهِ وَدَوْلَةِ وَالِدِهِ مَعِيْنَ الدِّينِ بَدْرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَغْدَادِيَّ الْأَصْلَ الْمَوْصَلِيَّ الْمَنْشَأَ. (٤٣٠/١٢)

ذَكَرَ خَلْعُ شِيْرَوَانَ شَاهٍ وَظَفَرُ الْمُسْلِمِينَ بِالْكَرْجِ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ ثَارَ عَلَى شِيْرَوَانَ شَاهٍ وَلَدَهُ فَتَزَعَهُ مِنَ الْمَلِكِ، وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْبِلَادِ، وَمَلِكٌ بَعْدَهُ.

وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ شِيْرَوَانَ شَاهٍ كَانَ سَيَّةَ السَّيْرَةِ، كَثِيرُ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ، يَتَعَرَّضُ لِأَمْوَالِ الرِّعَايَا وَأَمْلاكِهِمْ؛ وَقِيلَ أَيْضًا : إِنَّهُ كَانَ يَتَعَرَّضُ لِلنِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ، فَاسْتَدَّتْ وَطْأَتَهُ عَلَى النَّاسِ، فَاتَّفَقَ بَعْضُ الْعَسْكَرِ مَعَ وَلَدِهِ، وَأَخْرَجُوْهُ أَبَاهُ مِنَ الْبِلَادِ، وَمَلِكُ الْإِيْنِ، وَأَحْسَنُ السَّيْرَةِ، فَاجْتَبَاهُ الْعَسَاكِرُ وَالرَّعِيَّةُ، وَأَرْسَلَ الْوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ يَقُولُ لَهُ : إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَتَرَكَكَ فِي بَعْضِ الْقَلَاعِ وَأَجْرِي لَكَ الْجَرَايَاتِ الْكَثِيرَةِ، وَلِكُلِّ مَنْ تَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ، وَالَّذِي حَمَلْتَنِي عَلَى مَا فَعَلْتُ مَعَكَ سَوْءَ سَيْرَتِكَ وَظُلْمِكَ لِأَهْلِ الْبِلَادِ، وَكَرَاهِيَّتِهِمْ لَكَ وَلِدَوْلَتِكَ.

فَلَمَّا رَأَى الْأَبُ ذَلِكَ سَارَ إِلَى الْكَرْجِ وَاسْتَنْصَرَ بِهِمْ، وَقَرَّرَ مَعَهُمْ أَنْ يَرْسَلُوا مَعَهُ عَسْكَرًا يَعِيْدُونَهُ إِلَى مُلْكِهِ، وَيُعْطِيهِمْ نِصْفَ الْبِلَادِ، فَسَيَّرُوا مَعَهُ عَسْكَرًا كَثِيرًا، فَسَارَ حَتَّى قَارِبَ مَدِيْنَةِ شِيْرَوَانَ، فَجَمَعَ وَلَدُهُ الْعَسْكَرَ، وَأَعْلَمَهُمُ الْحَالَ، وَقَالَ : إِنَّ الْكَرْجَ مَتَى حَاصِرُونَا رِمْنَا ظَفَرُونَا بِنَا، وَحِيْثُ لَا يَبْقِيْ أَبِي عَلَى أَحَدٍ مِنَّا، وَيَأْخُذُ الْكَرْجَ نِصْفَ الْبِلَادِ، وَرِمْنَا أَخَذُوا الْجَمِيعَ، وَهَٰذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَالرَّأْيُ أَنَّنَا نَسِيرُ إِلَيْهِمْ جَرِيْدَةً وَنَلْقَاهُمْ، فَإِنْ ظَفَرْنَا بِهِمْ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنْ ظَفَرُوا بِنَا فَالْحَصْرُ بَيْنَ أَيْدِينَا؛ فَاجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ.

فَخَرَجَ فِي عَسْكَرِهِ، وَهُمْ قَلِيلٌ، نَحْوَ أَلْفِ فَارِسَ، وَلَقُوا الْكَرْجَ وَهُمْ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مَقَاتِلَ، فَالْتَقَوْا وَاقْتَتَلُوا، وَصَبَرَ أَهْلُ شِيْرَوَانَ فَانْهَزَمَ الْكَرْجُ، فَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَأَسْرَ كَثِيرٌ، وَمِنْ سَلَمٍ عَادَ بِأَسْوَأَ حَالٍ، وَشِيْرَوَانَ شَاهٍ (٤٣١/١٢) الْمَخْلُوعُ مَعَهُمْ، فَقَالَ لَهُ مَقْدَمُ

إيغان طائيسي ورأى العسكر والجتر الذي يكون على رأس السلطان، علموا أنه جلال الدين، فسقط في أيديهم لأنهم كانوا يظنونه عند دقوقا، فأرسل إيغان طائيسي زوجته، وهي أخت جلال الدين، تطلب له الأمان، فأمنه وأحضره عنده، وانضاف عسكره إلى عسكر جلال الدين، وبقي إيغان طائيسي وحده إلى أن أضاف إليه جلال الدين عسكرًا غير عسكره، وعاد إلى مراغة، وأعجبه المقام بها.

وأقام إلى يوم الجمعة، فحضر الجامع، فلمّا خطب الخطيب ودعا للخليفة قام قائمًا، ولم يزل كذلك حتّى فرغ من الدعاء وجلس.

ودخل إلى كُشك كان أوزبك قد عمره، وأخرج عليه من الأموال كثيرًا، فهو في غاية الحسن، مشرف على البساتين، فلمّا طاف فيه خرج منه وقال: هذا مسكن الكسالى لا يصلح لنا. وأقام أيامًا استولى فيها على غيرها من البلاد وسير الجيوش إلى بلاد الكرج.

ذكر انهزام الكرج من جلال الدين

قد ذكرنا فيما تقدّم من السنين ما كان الكرج يفعلونه في بلاد الإسلام: خلاط، وأذربيجان، وأران، وأرزن الروم، ودريند شروان؛ وهذه ولايات تجاور بلادهم، وما كانوا يسفكون من دماء المسلمين، وينهبون من أموالهم، ويملكون من بلادهم، والمسلمون معهم في هذه البلاد تحت الذلّ والخزي، كلّ يوم قد أغاروا عليهم وقتلوا فيهم، وقاطعهم على ما شاؤوا (٤٣٥/١٢) من الأموال، فكنا كلّما سمعنا بشيء من ذلك سألنا الله تعالى، نحن والمسلمون، في أن يسرّ للإسلام والمسلمين من يحميهم وينصرهم، ويأخذ بثأرهم، فإن أوزبك، صاحب أذربيجان، منعكف على شهوة بطنه وفرجه، لا يفيق من سكره، وإن أفاق فهو مشغول بالقمار بالبيض.

وهذا ما لم يُسمع بمثله أن أحدًا من الملوك فعله، لا يهتدي لمصلحة، ولا يغضب لنفسه بحيث إن بلاده مأخوذة وعساكره طماعة، ورعيته قد قهرها؛ وقد كان كلّ من أراد أن يجمع جمعًا ويتغلب على بعض البلاد فعل، كما ذكرناه من حال بُغدي، وأبيك الشامي، وإيغان طائيسي، فنظر الله تعالى إلى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة، فرحمهم وسرّ لهم جلال الدين هذا، ففعل بالكرج ما تراه، وانتقم للإسلام والمسلمين منهم فنقول:

في هذه السنة كان المصاف بين جلال الدين بن خوارزم شاه وبين الكرج، في شهر شعبان، فإن جلال الدين من حين وصل إلى هذه النواحي لا يزال يقول: [إني أريد أن] أقصد بلاد الكرج وأقاتلهم وأملك بلادهم؛ فلمّا ملك أذربيجان أرسل إليهم يؤذنههم بالحرب، فأجابوه بأننا قد قصدنا الشر الذين فعلوا بأبيك، وهو أعظم منك مُلكًا، وأكثر عسكرًا، وأقوى نفسًا، ما تعلمه، وأخذوا بلادكم، فلم نبال بهم، وكان قصارهم السلامة منّا.

وكان أوزبك بن البهلوان، صاحب أذربيجان وأران، قد سار من تبريز (٤٣٣/١٢) إلى كنجة خوفًا من جلال الدين، وأرسل جلال الدين إلى من في تبريز من وال وأمير ورئيس يطلب منهم أن يتردّد عسكره إليهم يمتارون، فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه، فتردّد العسكر إليها، وباعوا واشتروا الأقوات والكسوات وغيرها، ومدّوا أيديهم إلى أموال الناس، فكان أحدهم يأخذ الشيء ويعطي الثمن ما يُريد؛ فشكا بعض أهل تبريز إلى جلال الدين منهم، فأرسل إليهم شحنة يكون عندهم، وأمره أن يقيم بتبريز، ويكفّ أيدي الجند عن أهلها، ومن تعدّى على أحد منهم صلبه.

فأقام الشحنة، ومنع الجند من التعدي على أحد من الناس، وكانت زوجة أوزبك، وهي ابنة السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، مقيمة بتبريز، وهي كانت الحاكمة في بلاد زوجها، وهو مشغول بلذاته من أكل وشرب ولعب.

ثم إن أهل تبريز شكوا من الشحنة وقالوا: أنه يكلفنا أكثر من طاقتنا؛ فأمر جلال الدين أنه لا يعطى إلّا ما يقيم به لا غير، فعلوا ذلك، وسار جلال الدين إلى تبريز وحصرها خمسة أيام، وقاتل أهلها قتالًا شديدًا، وزحف إليها فوصل العسكر إلى السور، فأذعن أهلها بالطاعة، وأرسلوا يطلبون الأمان منه لأنه كان يذمهم، ويقول: قتلوا أصحابنا المسلمين وأرسلوا رؤوسهم إلى الشر الكفار؛ وقد تقدّمت الحادثة سنة إحدى وعشرين وستمائة؛ فخافوا منه لذلك، فلمّا طلبوا الأمان ذكر لهم فعلهم بأصحاب أبيه وقتلهم، فاعتذروا بأنهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك، وإنما فعله صاحبهم، ولم يكن لهم من القدرة ما يمنعون، فعذرهم، وأمنهم، وطلبوا منه أن يؤمّن زوجة أوزبك، ولا يعارضها في الذي لها بأذربيجان وهو مدينة خوي وغيرها من ملك ومال وغيره، فأجابهم إلى ذلك.

وملك البلد سابع عشر رجب من هذه السنة، وسير زوجة أوزبك إلى (٤٣٤/١٢) خوي، ومعها طائفة من العسكر، مع رجل كبير القدر، عظيم المنزلة وأمرهم بخدمتها، فإذا وصلت إلى خوي عادوا عنها.

ولمّا رحل جلال الدين إلى تبريز أمر أن لا يمنعوا عنه أحدًا من أهلها، فاتاه الناس مسلمين عليه، فلم يحجبوا عنه، وأحسن

خفت أن أعرفكم قبل هزيمة الكُرج لئلا يلحقكم وهنٌ وخوف.

فأقاموا على حالهم، وعاد هو إلى تبريز، وقبض على الرئيس والطغرائي وغيرهما، فأما الرئيس فأمر أن يُطاف به على أهل البلد، وكل من له عليه مظلمة فليأخذها منه، وكان ظالمًا، ففرح الناس بذلك، ثم قتلها؛ وأما الباقر فحبسوا، فلما فرغ منهم واستقام له أمر البلد تزوج زوجة أوزبك ابنة السلطان طغرل، وإنما صح له نكاحها لأنه ثبت عن أوزبك أنه حلف بطلاقها أنه لا يقتل مملوكًا له اسمه ثم قتلها، فلما وقع الطلاق بهذه اليمين نكحها جلال الدين، وأقام بتبريز مدة، وسير منها جيشاً إلى مدينة كنجة فملكوها، وفارقها أوزبك إلى قلعة كنجة فتحصن فيها.

فبلغني أن عساكر جلال الدين تعرضوا لأعمال هذه القلعة بالنهب والأخذ، فأرسل أوزبك إلى جلال الدين يشكو، ويقول: كنت لا أرى بهذه الحال لبعض أصحابي، فأنا أسأل أن تكف الأيدي المتطرفة إلى هذه الأعمال عنها. فأرسل جلال الدين إليها من يحميها من التعرض لها من أصحابه وغيرهم. (٤٣٨/١٢)

ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله

في هذه السنة، آخر ليلة من شهر رمضان، توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي عبد الله بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي العباس بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتمد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد محمد بن جعفر المتوكل على الله، ولم يكن الموفق خليفة، وإنما كان ولي عهد أخيه المعتمد على الله، فمات قبل المعتمد، فصار ولده المعتمد بالله ولي عهد المعتمد على الله.

وكان المتوكل على الله ابن المعتمد بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهم.

نسب كان عليه من شمس نورًا، ومن فلق الصباح عمودًا فكان في آياته أربعة عشر خليفة، وهم كل من له لقب، والباقر غير خلفاء، وكان فيهم من ولي العهد محمد بن القائم، والموفق بن المتوكل، وأما باقي الخلفاء من بني العباس فلم يكونوا من آياته، فكان السفاح أبو العباس عبد الله أخا المنصور ولي قبله، وكان موسى الهاجي أخا الرشيد ولي قبله؛ وكان محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد أخوي المعتمد وليا قبله، وكان

وشرعوا يجمعون العساكر، فجمعوا ما يزيد على سبعين ألف مقاتل، فسار إليهم، فملك مدينة دوين، وهي للكُرج، كانوا قد أخذوها من المسلمين، كما ذكرناه، وسار منها إليهم، فلقوه وقتلوه أشد قتال وأعظمه، وصبر كل منهم لصاحبه، فانهزم الكُرج، وأمر أن يقتلوا بكل طريق، ولا يبقوا على أحد منهم؛ فالذي تحققناه أنه قتل منهم عشرون ألفًا، وقيل: أكثر من ذلك، فقيل: الكُرج جميعهم قتلوا، وافترقوا، وأسر كثير من أعيانهم، من جعلتهم شلوة، فتنت الهزيمة عليهم، ومضى إيواني منهزمًا، وهو المقدم (٤٣٦/١٢) على الكُرج جميعهم، ومرجعهم إليه، ومعوّلهم عليه، وليس لهم ملك، إنما الملك امرأة، ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث يقول: لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة.

فلما انهزم إيواني أدركه الطلب، فصعد قلعة لهم على طريقهم، فاحتوى فيها، وجعل جلال الدين عليها من يحصرها ويمنعه من النزول، وفرق عساكره في بلاد الكُرج ينهبون، ويقتلون، ويسبون، ويخربون البلاد، فلولا ما أتاه من تبريز ما أوجب عوده لملك البلاد بغير تعب ولا مشقة، لأن أهلها كانوا قد هلكوا، فهم بين قتل وأسير وطريد.

ذكر عود جلال الدين إلى تبريز وملكه مدينة كنجة ونكاحه زوجة أوزبك

لما فرغ جلال الدين من هزيمة الكُرج، ودخل البلاد وبت العساكر فيها، أمرهم بالمقام بها مع أخيه غياث الدين، وعاد إلى تبريز.

وسبب عوده أنه كان قد خلف وزيره شرف الملك في تبريز ليحفظ البلد، وينظر في مصالح الرعية، فبلغه عن رئيس تبريز وشمس الدين الطغرائي، وهو المقدم على كل من في البلد، وعن غيرهما من المقدمين، أنهم قد اجتمعوا وتحالفوا على الانتاع على جلال الدين، وإعادة البلد إلى أوزبك، وقالوا: إن جلال الدين قد قصد بلاد الكُرج، فإذا عصينا عليه وأحضرنا أوزبك ومن معه من العساكر، يضطر جلال الدين إلى العود، فإذا عاد تبعه الكُرج فلا يقدر على المقام، ويجتمع أوزبك والكُرج ويقصدونه، فينحل نظام أمره، وتتم عليه الهزيمة. (٤٣٧/١٢)

فبنوا أمرهم على أن جلال الدين يسير الهوينا إلى بلاد الكُرج، ويتربث في الطريق احتياطًا منهم؛ فلما اتفقوا على ذلك أتى الخبر إلى الوزير، فأرسل إلى جلال الدين يعرفه الحال، فأتاه الخبر وقد قارب بلاد الكُرج، فلم يظهر من ذلك شيئًا، وسار نحو الكُرج مجلدًا، فلقبهم وهزمهم، فلما فرغ منهم قال لأمرأه عسكرة: إنني قد بلغني من الخبر كذا وكذا، فتقيمون أنتم في البلاد على ما أنتم عليه من قتل من ظفرت به، وتخريب ما أمكنكم من بلادهم، فإني

وأخذ أملكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة، ثم بطلها، وأطلق بعض المكوس التي جدها ببغداد خاصة، ثم أعادها. وجعل جُلَّ همِّه في رمي البندق، والطيور المناسب، وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها، إلا من يلبس منه سراويل يذعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة.

وكذلك أيضًا منع الطيور المناسب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره، ومنع الرمي بالبندق إلا من يتمي إليه؛ فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلا إنسانًا واحدًا يقال له ابن السف من بغداد، فإنه هرب من العراق ولحق بالشاه، فأرسل إليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه، وينسب في الرمي إليه، فلم يفعل، فبلغني أن بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع من أخذ المال، فقال: يكفيني فخراً أنه ليس في الدنيا أحدٌ إلا يرمي للخليفة، إلا أنا.

فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعظم الأمور، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد، ورأسلمهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم. (٤٤١/١٢)

ذكر خلافة الظاهر بأمر الله

قد ذكرنا سنة خمس وثمانين وخمسمائة الخطبة للأمير أبي نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله بولاية العهد في العراق وغيره من البلاد، ثم بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد، وأرسل إلى البلاد في قطع الخطبة له، وإنما فعل ذلك لأنه كان يعيل إلى ولده الصغير علي، فاتفق أن الولد الصغير توفي سنة اثنتي عشرة وستمائة، ولم يكن للخليفة ولد غير ولي العهد، فاضطر إلى إعادته، إلا أنه تحت الاحتياط والحجر لا يتصرف في شيء.

فلما توفي أبوه ولي الخلافة، وأحضرت الناس لأخذ البيعة، وتلقب بالظاهر بأمر الله، وعنى أن آباءه وجميع أصحابه أرادوا صرف الأمر عنه، فظهر وولي الخلافة بأمر الله لا يسعى من أحد.

ولما ولي الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العشرين، فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً، فإنه أعاد من الأموال المفضومة في أيام أبيه وقبله شيئاً كثيراً، وأطلق المكوس في البلاد جميعها، وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق، وأن يسقط جميع ما جده أبوه، وكان كثيراً لا يحصى؛ فمن ذلك أن قرية بعقوبا كان يحصل منها قديماً نحو عشرة آلاف دينار، فلما تولى الناصر لدين الله كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون ألف دينار، فحضر أهلها واستغاثوا،

محمد المتنصر بن المتوكل ولي بعده.

ثم ولي بعد المتنصر بالله المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم، (٤٣٩/١٢) وولي بعد المستعين المعتز بالله محمد، وقيل طلحة، وهو ابن المتوكل، وولي بعد المعتز المهدي بالله محمد بن الرائق، ثم ولي بعده المعتمد على الله أحمد بن المتوكل، فالمتنصر، والمعتز، والمعتمد إخوة الموفق، والمهدي ابن عمه، والموفق من أجداد الناصر لدين الله.

ثم ولي المعتضد بعد المعتمد، وولي بعد المعتضد ابنه أبو محمد علي المكتفي بالله، وهو أخو المقتدر بالله، وولي بعد المقتدر بالله أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد؛ وولي بعد القاهر الرازي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر.

ثم ولي بعده المتقي لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر؛ ثم ولي بعده المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله [ابن] المكتفي بالله علي بن المعتضد،

ثم ولي بعده المطيع لله أبو بكر عبد الكريم، فالقاهر، والرازي، والمتقي، والمطيع بنوه، والمستكفي ابن أخيه المكتفي.

[ثم ولي] الطائع لله بن المقتدر؛

ثم ولي بعد الطائع القادر بالله، و [هو] من أجداد الناصر لدين الله؛

ثم ولي بعده المستظهر بالله؛

[ثم ولي بعده ابنه المسترشد بالله أبو منصور، وولي بعد المسترشد بالله] ابنه الراشد أبو جعفر، فالمسترشد أخو المتقي، والراشد بالله ابن أخيه، فجمع من ولي الخلافة ممن ليس في سياق نسب الناصر تسعة عشر خليفة.

وكانت أم الناصر أم ولد، تركية، اسمها زمرّد؛ وكانت خلافته ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوماً، وكان عمره نحو سبعين سنة تقريباً، فلم يل الخلافة أطول مدة منه إلا ما قيل عن المستنصر بالله العلوي، صاحب مصر، فإنه ولي ستين سنة، ولا اعتبار به، فإنه ولي وله سبع سنين فلا تصح ولايته. (٤٤٠/١٢)

وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة بالكليّة، وقد ذهب إحدى عينيه والأخرى يصير بها إصباحاً ضعيفاً، وفي آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوماً ومات.

ووزر له عدّة وزراء، وقد تقدّم ذكرهم، ولم يطل في طول مرضه شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة؛ وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً، فخرّب في أيامه العراق، وتفرّق أهله في البلاد،

وذكروا أَنَّ أَمْلاكهم أُخِذَتْ حَتَّى صَارَ يُحْضَلُ مِنْهَا هَذَا الْمَبْلَغُ، فَأَمَرَ أَنْ يُؤْخَذَ الْخَرَجُ الْقَدِيمُ وَهُوَ عَشْرَةُ آلَافٍ دِينَارٍ، فَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَذَا الْمَبْلَغَ يَصِلُ إِلَى الْمَخْزَنِ، فَمَنْ أَيْنَ يَكُونُ الْعَوْضُ؟ فَأَقَامَ لَهُمُ الْعَوْضُ مِنْ جِهَاتٍ أُخْرَى؛ فَإِذَا كَانَ الْمَطْلُوقُ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ سَبْعِينَ آلْفَ دِينَارٍ، فَمَا الظَّنُّ بِبَاقِي الْبِلَادِ؟ (٤٤٢/١٢)

وَمِنْ أَعْمَالِهِ الْجَمِيلَةِ أَنَّهُ أَمَرَ بِأَخْذِ الْخَرَجِ الْأَوَّلِ مِنْ بَاقِي الْبِلَادِ جَمِيعِهَا، فَحَضَرَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَذَكَرُوا أَنَّ الْأَمْلَاقَ الَّتِي كَانَ يُؤْخَذُ مِنْهَا الْخَرَجُ قَدِيمًا قَدْ يَسَّ أَكْثَرَ أَشْجَارَهَا وَخَرِبَتْ، وَتَمَتَّى طَوَّلُهَا بِالْخَرَجِ الْأَوَّلِ لَا يَفْسِي دَخَلَ الْبَاقِي بِالْخَرَجِ، فَأَمَرَ أَنْ لَا يُؤْخَذَ الْخَرَجُ إِلَّا مِنْ كُلِّ شَجَرَةٍ سَلِيمَةٍ، وَأَمَّا الذَّاهِبُ فَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَهَذَا عَظِيمٌ جَدًّا.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ الْمَخْزَنَ كَانَ لَهُ صَنْجَةُ الذَّهَبِ تَزِيدُ عَلَى صَنْجَةِ الْبَلَدِ نِصْفَ قِيرَاطٍ، يَقْبِضُونَ بِهَا الْمَالَ، وَيُعْطُونَ بِالصَنْجَةِ الَّتِي لِلْبَلَدِ يَتَعَامَلُ بِهَا النَّاسُ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ فَخَرَجَ خُطَّةً إِلَى الْوَزِيرِ، وَأَوَّلَهُ «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» [المطففين: ١]. قَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا، فَتَعَادَ صَنْجَةُ الْمَخْزَنِ إِلَى الصَنْجَةِ الَّتِي يَتَعَامَلُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ، وَالْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى.

فَكُتِبَ بَعْضُ النَّوَابِ إِلَيْهِ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا مَبْلَغٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ حَسِبْنَاهُ فَكَانَ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ خَمْسَةَ وَثَلَاثِينَ آلْفَ دِينَارٍ؛ فَأَعَادَ الْجَوَابَ يَنْكُرُ عَلَى الْقَائِلِ، وَيَقُولُ: لَوْ أَنَّهُ ثَلَاثُ مِائَةِ آلْفٍ وَخَمْسُونَ آلْفَ دِينَارٍ يُطْلَقُ.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا فَعَلَ فِي إِطْلَاقِ زِيَادَةِ الصَنْجَةِ الَّتِي لِلدِّيَّانِ، وَهِيَ فِي كُلِّ دِينَارٍ حَبَّةٌ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْقَاضِي أَنَّ كُلَّ مَنْ عَرَضَ عَلَيْهِ كِتَابًا صَحِيحًا بِمِلْكٍ يَعِيدهُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ؛ وَأَقَامَ رَجُلًا صَالِحًا فِي وَلايَةِ الْحَشْرِيِّ وَبَيْتِ الْمَالَ، وَكَانَ الرَّجُلُ حَنِبَلِيًّا، فَقَالَ: إِنِّي مِنْ مَذْهَبِي أَنْ أَوْرَثَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، فَإِنْ أَذِنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ وَلَيْتَ وَإِلَّا فَلَا. فَقَالَ لَهُ: أَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَأَتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَتَّقِ سِوَاهُ. (٤٤٣/١٢)

وَمِنْهَا أَنَّ الْعَادَةَ كَانَتْ يَبْغِدَادَ أَنَّ الْحَارِسَ بِكُلِّ دَرْبٍ يُبَكِّرُ، وَيَكْتُبُ مَطَالَعَةً إِلَى الْخَلِيفَةِ بِمَا تَجَدَّدَ فِي دَرْبِهِ مِنْ اجْتِمَاعٍ بَعْضُ الْأَصْدِقَاءِ يَبِيعُ عَلَى نَزْعَةٍ، أَوْ سَمَاعٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَيَكْتُبُ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، فَكَانَ النَّاسُ مِنْ هَذَا فِي حَجَرٍ عَظِيمٍ، فَلَمَّا وَلِيَ هَذَا الْخَلِيفَةَ، جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا، أَنَّهُ الْمَطَالَعَاتُ عَلَى الْعَادَةِ، فَأَمَرَ بِقَطْعِهَا، وَقَالَ: أَيُّ غَرَضٍ لَنَا فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي بَيْرَتِهِمْ؟ فَلَا يَكْتُبُ أَحَدٌ إِلَيْنَا إِلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ دَوْلَتِنَا؛ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ الْعَامَّةَ تَفْسِدُ بِذَلِكَ، وَيَعْظُمُ شَرُّهَا؛ فَقَالَ: نَحْنُ نَدْعُو اللَّهَ أَنْ

يُصْلِحَهُمْ.

وَمِنْهَا أَنَّهُ لَمَّا وَلِيَ الْخَلِيفَةُ وَصَلَ صَاحِبَ الدِّيَّانِ مِنْ وَاسِطٍ، وَكَانَ قَدْ سَارَ إِلَيْهَا أَيَّامَ النَّاصِرِ لِتَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ، فَأَصْعَدَ، وَمَعَهُ مِنَ الْمَالِ مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ آلْفِ دِينَارٍ، وَكُتِبَ مَطَالَعَةً تَضُمُّنَ ذِكْرَ مَا مَعَهُ، وَيَسْتَخْرِجُ الْأَمْرَ فِي حِمْلِهِ؛ فَأَعَادَ الْجَوَابَ بِأَنْ يُعَادَ إِلَى أَرْبَابِهِ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا إِلَيْهِ، فَأَعِيدَ عَلَيْهِمْ.

وَمِنْهَا أَنَّهُ أَخْرَجَ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي السَّجُونِ، وَأَمَرَ بِإِعَادَةِ مَا أَخَذَ مِنْهُمْ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ لِيُعْطِيَهَا عَنْ كُلِّ مَنْ هُوَ مَحْبُوسٌ فِي حَبْسِ الشَّرْعِ وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ.

وَمِنْ حَسَنِ نَيْتِهِ لِلنَّاسِ أَنَّ الْأَسْعَارَ فِي الْمَوْصِلِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ كَانَتْ غَالِيَةً، فَارْخَصَتْ الْأَسْعَارُ، وَأَطْلَقَ حِمْلَ الْأَطْعَمَةِ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَبِيعَ كُلَّ مَنْ أَرَادَ الْبَيْعَ لِلغَلَّةِ، فَحَمَلَ مِنْهَا الْكَثِيرَ الَّذِي لَا يَحْصَى، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ السَّعْرَ قَدْ غَلَا شَيْئًا، وَالْمَصْلَحَةُ الْمَنْعُ مِنْهُ؛ فَقَالَ: أُولَئِكَ مُسْلِمُونَ، وَهَؤُلَاءِ مُسْلِمُونَ، وَكَمَا يَجِبُ عَلَيْنَا النَّظَرُ فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ كَذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا النَّظَرُ لِأُولَئِكَ.

وَأَمَرَ أَنْ يُبَاعَ مِنَ الْأَهْرَاءِ الَّتِي لَهُ طَعَامُ أَرْخَصَ مِمَّا يَبِيعُ غَيْرُهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَارْخَصَتْ الْأَسْعَارُ عِنْدَهُمْ أَيْضًا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ أَوَّلًا، وَكَانَ السَّعْرُ فِي الْمَوْصِلِ، لَمَّا وَلِيَ، كُلِّ مَكُونٍ بِدِينَارٍ وَثَلَاثَةَ قَرَارِيطَ، فَصَارَ كُلُّ أَرْبَعَةِ مَكَايِكَ بِدِينَارٍ فِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، وَكَذَلِكَ بَاقِي الْأَشْيَاءِ مِنَ التَّمْرِ، وَالْدَّبَسِ، (٤٤٤/١٢) وَالْأَرْزِ، وَالسُّنْسِمِ وَغَيْرِهَا، فَالَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ، وَيَنْصُرُهُ، وَيَقِيصُهُ، فَإِنَّهُ غَرِيبٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ الْفَاسِدِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ عَنْهُ كَلِمَةً أَعْجَبْتَنِي جَدًّا، وَهِيَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ فِي الَّذِي يُخْرِجُهُ وَيُطْلِقُهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي لَا تَسْمَحُ نَفْسٌ بِبَعْضِهَا؛ فَقَالَ لَهُمْ: أَنَا فَتَحْتُ الدَّكَانَ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَاتْرَكُونِي أَفْعَلُ الْخَيْرَ، فَكَمْ أَعِيشُ؟ وَتَصَدَّقُ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَفَرَّقَ فِي الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ مِائَةَ آلْفِ دِينَارٍ.

ذَكَرَ مُلْكُ بَدْرِ الدِّينِ قَلْعَتِي الْعِمَادِيَّةَ وَهَرُوزَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ مُلْكُ بَدْرِ الدِّينِ قَلْعَةَ الْعِمَادِيَّةِ مِنْ أَعْمَالِ الْمَوْصِلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرَ عَصِيانِ أَهْلِهَا عَلَيْهِ سَنَةَ خَمْسٍ عَشْرَةٍ وَسِتْمِائَةٍ، وَتَسْلِيمِهَا إِلَى عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي، ثُمَّ عَوْدِهِمْ إِلَى طَاعَةِ بَدْرِ الدِّينِ، وَخِلَافَتِهِمْ عَلَى عِمَادِ الدِّينِ، فَلَمَّا عَادُوا إِلَى بَدْرِ الدِّينِ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَأَعْطَاهُمُ الْإِقْطَاعَ الْكَثِيرَ، وَمَلَكَهُمُ الْقَرَى، وَوَصَلَهُمْ بِالْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ وَالْخَلْعِ السَّنِيَّةِ، فَبَقُوا كَذَلِكَ مَدَّةَ سِيرَةٍ.

ثُمَّ شَرَعُوا يَرِاسِلُونَ عِمَادَ الدِّينِ زَنْكِي، وَمُظَفَّرَ الدِّينِ صَاحِبَ إِرْبِلَ، وَشَهَابَ الدِّينِ غَازِيَّ بْنَ الْعَادِلِ، لَمَّا كَانَ بِخِلَاطٍ، وَيَعْدُونَ كَلَامًا مِنْهُمْ بِالْإِنْحِيَاظِ إِلَيْهِ وَالطَّاعَةِ لَهُ، وَأَظْهَرُوا مِنَ الْمَخَالَفَةِ لِبَدْرِ

خواجه أحدًا من جند القلعة في نسخة اليمين بمال، ولا غيره من أمان، وإقطاع، فسخطوا هذه الحال، وقالوا لهم: قد حلفتُم لأنفسكم بالحصون والقرى والمال، ونحن قد خربت بيوتنا لأجلكم، فلم تذكرونا؟ فأهانوهم، ولم يلتفتوا إليهم، فحضر عند أمين الدين رجلان منهم ليلاً، وطلبوا منه أن يرسل إليهم جمعاً يُصعدونهم إلى القلعة، ويشيرون بأولئك ويأخذونهم، فامتنع، وقال: أخاف أن لا يتم هذا الأمر ويفسد علينا كل ما فعلناه. فقالوا: نحن نقبض عليهم غداً بكرة، وتكون أنت والعسكر على ظهر، فإذا سمعتم النداء باسم بدر الدين وشعاره تصعدون إلينا؛ فأجابهم إلى ذلك.

وركب بنفسه بكرة هو والعسكر على العادة، وأما أولئك فإنهم اجتمعوا، وقبضوا على أولاد خواجه ومن معهم، ونادوا بشعار بدر الدين، فبينما العسكر يقيم إذا الصوت من القلعة باسم بدر الدين، فصعدوا إليها وملكوها، وتسلم أمين الدين أولاد خواجه فحبسهم، وكتب الرقعة على جناح الطائر بالحال، وملكوا القلعة صفواً عفوياً بغير عوض، وكان يريد [أن] يخرم مالا جليلاً، وأقطاعاً كثيرة، وحصناً منيعاً، فتوفر الجميع عليه، وأخذ منهم كل ما احتبوه وأذخروه؛ وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له. (٤٤٧/١٢)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ليلة الأحد العشرين من صفر زلزلت الأرض بالموصل، وديار الجزيرة، والعراق، وغيرها، زلزلة متوسطة.

وفيها اشتد الغلاء بالموصل، وديار الجزيرة جميعها، فأكل الناس الميتة، والكلاب، والسنائير، فقلت الكلاب والسنائير بعد أن كانت كثيرة. ولقد دخلت يوماً إلى داري، فرأيت الجوّاري يقطعن اللحم ليطيبخنه، فرأيت سنائير استكثرتها، فعددتها، فكانت اثني عشر سنوراً، ورأيت اللحم في هذا الغلاء في الدار وليس عنده من يحفظه من السنائير لعددها، وليس بين المرتين كثير. وغلا مع الطعام كل شيء فبيع رطل الشيرج بقرطابين بعد أن كان بنصف قرطاب قبل الغلاء، وأما قبل ذلك فكان كل ستين رطلاً بدينار.

ومن العجب أن السلق والجزر والشلج يبع كل خمسة أرطال بدرهم، ويبيع البنفسج كل ستة أرطال بدرهم، ويبيع في بغض الأوقات كل سبعة أرطال بدرهم، وهذا ما لم يُسمع بمثله. فإن الدنيا ما زالت قديماً وحديثاً، إذا غلت الأسعار، متى جاء المطر رخصت، إلا هذه السنة فإن الأمطار ما زالت متتابعة من أول الشتاء إلى آخر الربيع، وكلما جاء المطر غلت الأسعار، وهذا ما لم يُسمع بمثله فبلغت الحنطة مكوك وثلاث بدينار وقرطاب، يكون وزنه خمسة وأربعين رطلاً دقيقاً بالبغدادي، وكان الملح مكوك بدرهم، فصار المكوك بعشرة دراهم، وكان الأرز مكوك باثني عشر درهماً، فصار

الدين ما كانوا يبتغونه، فكانوا لا يمكنون أن يقيم عندهم من أصحاب بدر الدين إلا من يريدونه، ويمنعون من كره؛ فطال الأمر، وهو يحتمل فعلهم ويدارهم، وهم لا يزدادون إلا طمعاً وخروجاً عن الطاعة.

وكانوا جماعة، فاختلّفوا، فقوي بعضهم، وهم أولاد خواجه إبراهيم وأخوه ومن معهم، على الباقيين، فأخرجوهم عن القلعة، وغلبوا عليها، وأصروا (٤٤٥/١٢) على ما كانوا عليه من النفاق.

فلما كان هذه السنة سار بدر الدين إليهم في عساكره، فأتاهم بغتة، فحصرهم، وضيق عليهم، وقطع الميرة عنهم، وأقام بنفسه عليهم، وجعل قطعة من الجيش على قلعة هرّوز يحصرونها، وهي من أمتع الحصون وأحصنها، لا يوجد مثلها. وكان أهلها أيضاً قد سلكوا طريق أهل العمادية من عسيان، وطاعة، ومخادعة، فأتاهم العسكر وحصروهم وهم في قلعة من الذخيرة، فحصرها أياماً، ففني ما في القلعة، فاضطر أهلها إلى التسليم، فسلموها ونزلوا منها.

وعاد العسكر إلى العمادية، فأقاموا عليها مع بدر الدين، فبقي بدر الدين بعد أخذ هرّوز سيراً، وعاد إلى الموصل، وترك العسكر بحاله مع ابنه أمين الدين لؤلؤ، فبقي الحصار إلى أول ذي القعدة، فأرسلوا يُدْعنون بالطاعة، ويطلبون العوض عنها ليسلموها، فاستقرت القواعد على العوض من قلعة يحتمون فيها، وأقطاع، ومال، وغير ذلك، فأجابهم بدر الدين إلى ما طلبوا، وحضر نوابهم ليحلّفوا بدر الدين.

فبينما هو يريد أن يحلف لهم وقد أحضر من يشهد اليمين إذ قد وصل طائر من العمادية وعلى جناحه رقعة من أمين الدين لؤلؤ يخبر أنه قد ملك العمادية قهراً وعسوة، وأسر بني خواجه الذين كانوا تغلبوا عليه، فامتنع بدر الدين من اليمين.

وأما سبب غلبة أمين الدين عليها، فإنه كان قد ولّاه بدر الدين عليها لما عاد أهلها إلى طاعته، فبقي فيها مدة، وأحسن فيهم، واستمال جماعة منهم ليقوى بهم على الحرب للذين عصوا أولاً، فتمى الخبر إليهم، فأساؤوا مجاورته، واستقالوا من ولايته عليهم، ففارقهم إلى الموصل.

وكان أولئك الذين استمالهم يكتابونه ويراسلونهم، فلمّا حصرهم كانوا (٤٤٦/١٢) أيضاً يكتابونه في الشهاب يخبرونه بكل ما يفعله أولاد خواجه من إنفاذ رسول وغير ذلك، وبما عندهم من الذخائر وغيرها، إلا أنهم لم يكونوا من الكثرة إلى حد أنهم يقهرون أولئك.

فلما كان الآن واستقرت القواعد من التسليم لم يذكر أولاد

المكوك بخمسين (٤٤٨/١٢) درهماً، وكان التمر كل أربعة أرتال وخمسة أرتال بقرط، فصار كل رطلين بقرطاً.

ومن عجيب ما يحكى أنّ السكر النادر الأسمر كان كل رطل بدرهم وربع، وكان السكر الأبلوج المصري النقي كل رطل بدرهمين، فصار السكر الأسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف، والسكر الأبلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع؛ وسببه أنّ الأمراض لما كثرت، واشتدّ الوباء، قالت النساء: هذه الأمراض باردة والسكر الأسمر حارّ فينفع منها، والأبلوج بارد يقويها؛ وتبعهنّ الأطباء استعماله لقلوبهنّ، ولجهلهم، فغلا الأسمر بهذا السبب؛ وهذا من الجهل المفرط.

وما زالت الأشياء هكذا إلى أوّل الصيف، واشتدّ الوباء، وكثر الموت والمرض في الناس، فكان يُحمل على النعش الواحد عدّة من الموتى فممن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب، الطوسي، خطيب الموصل، وكان من صالحى المسلمين، وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور.

وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر.

وفيها هرب أمير حاج العراق، وهو حسام الدين أبو فراس الحلّي، الكرديّ، الوراميّ، وهو ابن أخي الشيخ ورام؛ كان عمّه من صالحى المسلمين وخيارهم من أهل الحلة السيفيّة، فارق الحاج بين مكّة والمدينة وسار إلى مصر.

حكى لي بعض أصدقائه أنّه إنّما حمله على الهرب كثرة الخرج في الطريق، وقلة المعونة من الخليفة، ولمّا فارق الحاج خافوا خوفاً شديداً من العرب، فأمن الله خوفهم، ولم يذعرهم ذاعر في جميع الطريق، ووصلوا آمينين، إلّا أنّ (٤٤٩/١٢) كثيراً من الجمال هلك، أصابها عدّة عظيمة فلم يسلم إلّا القليل.

وفيها، في آب، جاء مطر شديد ورعد وبرق، ودام حتّى جرت الأودية، وامتلات الطرق بالوحد؛ ثمّ جاء الخبر من العراق، والشام، والجزيرة، وديار بكر، أنّه كان عندهم مثله، ولم يصل إلينا بالموصل أحد إلّا وأخبر أنّ المطر كان عندهم مثله في ذلك التاريخ.

وفيها كان في الشتاء ثلج كثير، ونزلت بالعراق، فسمعت أنّه نزل في جميع العراق، حتّى في البصرة؛ أمّا إلى واسط فلا شكّ فيه؛ وأمّا البصرة فإنّ الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها.

وفيها خربت قلعة الزعفران من أعمال الموصل، وهي حصن مشهور يُعرف قديماً بدير الزعفران، وهو على جبل عال قريب من فرسابور.

وفيها أهبنا خربت قلعة الجديدة من بلد الهكاريّة، من أعمال

الموصل أيضاً، وأضيف عملها وقراها إلى العماديّة. وفيها، في ذي الحجة، سار جلال الدين بن خوارزم شاه من تبريز إلى بلد الكُرج قاصداً لأخذ بلادهم واستئصالهم، وخرجت السنة ولم يبلغنا أنّه فعل بهم شيئاً، ونحن نذكر ما فعله بهم سنة ثلاث وعشرين وستمئة إن شاء الله.

وفيها، ثالث شباط، سقط ببغداد ثلج، وبرد الماء برداً شديداً، وقوي البرد حتّى مات به جماعة من الفقراء.

وفيها، في ربيع الأوّل، زادت دجلة زيادة عظيمة، واشتغل الناس بإصلاح سكر القُورج، وخافوا، فبلغت الزيادة قريباً من الزيادة الأولى ثمّ نقص الماء وامتنش الناس. (٤٥٠/١٢)

سنة ثلاث وعشرين وستمئة

ذكر مُلك جلال الدين تغليس

في هذه السنة، ثامن ربيع الأوّل، فتح جلال الدين بن خوارزم شاه مدينة تغليس من الكُرج؛ وسبب ذلك أنّا قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وستمئة الحرب بينه وبينهم، وانهازم منهم، وعوده إلى تبريز بسبب الخلف الواقع فيها، فلمّا استقرّ الأمر في أذربيجان عاد إلى بلد الكُرج في ذي الحجة من السنة، وخرجت سنة اثنتين وعشرين وستمئة، ودخلت هذه السنة، فقصّد بلادهم، وقد عادوا فحشدوا وجمعوا من الأمم المجاورة لهم السلان واللكرز وقفجاق وغيرهم، فاجتمعوا في جمع كثير لا يحصى، فطمعوا بذلك، ومثمّم أنفسهم الأباطيل، ووعدهم الشيطان الظفّر، وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً، فلقيهم، وجعل لهم الكمين في عدّة مواضع، والتفوا واقتتلوا، فولّى الكُرج منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه، ولا الوالد على ولده، وكلّ منهم قد أهدته نفسه، وأخذتهم سيوف المسلمين من كلّ جانب، فلم ينج منهم إلّا اليسير الشاذّ الذي لا يعاب به؛ وأمر جلال الدين عسكره أن لا يُبقوا على أحد، وأن يقتلوا من وجدوا، فتبعوا المنهزمين يقتلونهم، وأشار عليه أصحابه بقصد تغليس دار ملكهم، فقال: لا حاجة لنا إلى أن تقتل رجالنا تحت الأسوار، إنّما إذا أُنيت الكُرج أخذت البلاد صفواً عفواً.

ولم تزل العساكر تتبعهم وتستقصي في طلبهم إلى أن كادوا يفنونهم، فحينئذ قصد تغليس ونزل بالقرب منها. وسار في بعض الأيام في طائفة من (٤٥١/١٢) العسكر، وقصدها لينظر إليها، ويصير مواضع النزول عليها، وكيف يقاتلها، فلمّا قاربها كمن أكثر العسكر الذي معه في عدّة مواضع، ثمّ تقدّم إليها في نحو ثلاثة آلاف فارس، فلمّا رآه من بها من الكُرج طمعوا فيه لقلّة من معه، ولم يعلموا أنّه معهم، فظهروا إليه فقاتلوه، فتأخّر عنهم، فقري طمعهم فيه لقلّة من معه، فظنّوه منهزماً، فتبعوه، فلمّا توسّطوا

والجزيرة، والموصل، والشام، وغير ذلك، وعمّه السلطان سنجر له خراسان وما وراء النهر، فكان أكثر بلاد الإسلام بأيديهم، ومع هذا فإنه جمع عساكره سنة تسع عشرة وخمسمائة، وسار إليهم بعد أن ملكوها، فلم يقدر عليهم.

ثم ملك بعده أخوه السلطان مسعود، وملك الدكر بلد الجبل والرّي وأصفهان وأذربيجان وآران، وأطاعه صاحب خلاط، وصاحب فارس، (٤٥٣/١٢) وصاحب خوزستان، وجمع وحشد لهم، وكان قصاره أن يتخلص منهم، ثم ابنه البهلوان بعده، وكانت البلاد في أيام أولئك عامرة كثيرة الأموال والرجال، فلم يحدثوا أنفسهم بالظفر بهؤلاء، حتى جاء هذا السلطان والبلاد خراب قد أضعفها الكرج أولاً، ثم استأصلها التتر، لعنهم الله، على ما ذكرنا، ففعل بهم هذه الأفاعيل، فسبحان من إذا أراد أمراً قال له كن فيكون.

ذكر مسير مظفر الدين صاحب إربل إلى الموصل وعوده عنها في هذه السنة، في جمادى الآخرة، سار مظفر الدين بن زين الدين، صاحب إربل، إلى أعمال الموصل، قاصداً إليها. وكان السبب في ذلك أنه استقرت القاعدة بينه وبين جلال الدين بن خوارزم شاه وبين الملك المعظم، صاحب دمشق، وبين صاحب آمد، وبين ناصر الدين صاحب مardin، ليقتصدوا البلاد التي بيد الأشرف، ويتغلبوا عليها، ويكون لكلّ منهم نصيب ذكره؛ واستقرت القواعد بينهم على ذلك، فبادر مظفر الدين إلى الموصل.

وأما جلال الدين فإنه سار من تفلّيس يريد خلاط، فأتاه الخبر أن نائبه بيلاد کرمان، واسمه بلق حاجب، قد عصى عليه، على ما نذكره، فلما أتاه الخبر بذلك ترك خلاط ولم يقصدها، إلا أن عسكره نهب بعض بلدتها وخرب كثيراً منه، وسار مجداً إلى کرمان، فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه؛ إلا أن مظفر الدين سار من إربل ونزل على جانب الزاب، ولم يمكنه العبور إلى بلد الموصل. (٤٥٤/١٢)

وكان بدر الدين قد أرسل من الموصل إلى الأشرف، وهو بالرقّة، يستنجد، ويطلب منه أن يحضر بنفسه الموصل ليدفع مظفر الدين، فسار منها إلى حران، ومن حران إلى دُبَيسر، فخرّب بلد مardin وأهله تخريباً ونهباً.

وأما المعظم، صاحب دمشق، فإنه قصد بلد حمص وحماة، وأرسل إلى أخيه الأشرف يقول: إن رحلت عن مardin وحلب، وأنا عن حمص وحماة، وأرسلت إلى مظفر الدين ليرجع عن بلد الموصل؛ فرحل الأشرف عن مardin، وعاد كلّ منهم إلى بلده، وخربت أعمال الموصل، وأعمال مardin بهذه الحركة، فإنها كانت قد أجهض بها تتابع الغلاء وطول مدّته، وجلاء أكثر أهلها، فأتتها

العساكر خرجوا عليهم ووضعو السيف فيهم، فقتل أكثرهم، وانهزم الباقون إلى المدينة فدخلوها، وتبعهم المسلمون، فلما وصلوا إليها نادى المسلمون من أهلها بشعار الإسلام، وباسم جلال الدين، فالقى الكرج بأيديهم واستسلموا، لأنهم كانوا قد قتل رجالهم في الوقعات المذكورة، فقتل عددهم، ومثلت قلوبهم خوفاً ورعباً، فملك المسلمون البلد عنوةً وقهراً بغير أمان، وقتل كلّ من فيه من الكرج، ولم يبق على كبير ولا صغير إلا من أذعن بالإسلام، وأقرّ بكلمتي الشهادة، فإنه أبقى عليه، وأمرهم فتحّتوا وتركهم.

ونهب المسلمون الأموال، وسبوا النساء واسترقوا الأولاد، ووصل إلى المسلمين الذين بها بعض الأذى من قتل ونهب وغيره. وتفلّيس هذه من أحصن البلاد وأمنعها، وهي على جانبي نهر الكرّ، وهو نهر كبير، ولقد جلّ هذا الفتح وعظم موقعه في بلاد الإسلام وعند المسلمين، فإن الكرج كانوا قد استطالوا عليهم، وفعلوا بهم ما أرادوا، فكانوا يقصدون أيّ بلاد أذربيجان أرادوا، فلا يمنعهم عنها مانع، ولا يدفعهم عنها دافع؛ وهكذا أرزن الروم، حتى إن صاحبها لبس خلعة ملك الكرج، ورفع على رأسه علماً في أعلاه صليب، وتنصّر ولده رغبة في نكاح ملكة الكرج، وخوفاً منهم، ليدفع الشر عنه، وقد تقدّمت القصّة، وهكذا دربند شروان. (٤٥٢/١٢)

وعظم أمرهم إلى حدّ أن ركن الدين بن قلیج أرسلان، صاحب قونية، وأقصر، وملطية، وسائر بلاد الروم التي للمسلمين، جمع عساكره، وحشد معها غيرها فاستكثر، وقصد أرزن الروم، وهي لأخيه طغرل شاه بن قلیج أرسلان، فأتاه الكرج وهزموه، وفعلوا به وبعسكره كلّ عظيم، وكان أهل دربند شروان معهم في الضنك والضيقة.

وأما أرمينية، فإن الكرج دخلوا مدينة أرجيش، وملكوا قرس وغيرها، وحصروا خلاط، فلولا أن الله سبحانه منّ على المسلمين بأسر إيواني، مقدّم عساكر الكرج، لملكوها، فاضطرّ أهلها إلى أن بنوا لهم بيعة في القلعة يضرب فيها الناقوس، فرحلوا عنهم، وقد تقدّم تفصيل هذه الحملة.

ولم يزل هذا الثغر من أعظم الثغور ضرراً على المجاورين له من الفرس، قبل الإسلام، وعلى المسلمين بعدهم، من أوّل الإسلام إلى الآن، ولم يقدم أحد عليهم هذا الإقدام، ولا فعل بهم هذه الأفاعيل، فإن الكرج ملكوا تفلّيس سنة خمس عشرة وخمسمائة، والسلطان حنّش محمود بن محمود بن ملكشاه السلاجوقي، وهو من أعظم السلاطين منزلة، وأوسعهم مملكة، وأكثرهم عساكر، فلم يقدر على منعهم عنها؛ هذا مع سعة بلاده، فإنه كان له الرّي وأعمالها، وبلد الجبل، وأصفهان، وفارس، وخوزستان، والعراق، وأذربيجان، وآران، وأرمينية، وديار بكر،

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

هذه الحادثة فازدادت خراباً على خراب.

ذكر عصيان كرمان علي جلال الدين ومسيره إليها

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، وصل الخبر إلى جلال الدين أنَّ نائبه بكرمان، وهو أمير كبير اسمه بلاق حاجب، قد عصى عليه، وطمع في البلاد أن يملكها ويستبدَّ بها لبعده جلال الدين عنها، واشتغاله بما ذكرناه من الكُرج وغيرهم، وأنه أرسل إلى التتر يعرفهم قوة جلال الدين وملكه كثيراً من البلاد، وإن أخذ الباقي عظمت مملكته، وكثرت عساكره، وأخذ ما بأيديكم من البلاد.

فلما سمع جلال الدين ذلك كان قد سار يريد خلاط، فتركها وسار إلى كرمان [بطوي المراحل، وأرسل بين يديه رسولا إلى صاحب كرمان]، (٤٥٥/١٢) ومعه الخلع ليطمئن ويأتيه وهو غير محتاط ولا مستعدَّ للامتناع منه؛ فلما وصل الرسول علم أنَّ ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته، فأخذ ما يعزُّ عليه، وصعد إلى قلعة منيعة فتنحَّص بها، وجعل من يشقُّ به من أصحابه في الحصون يحتنون بها، وأرسل إلى جلال الدين يقول: إنني أنا العبد والمملوك؛ ولما سمعتُ بمسيرك إلى هذه البلاد أخلَّيْتُ لك لأنها بلادك، ولو علمتُ أنَّك تُبقي عليَّ لحضرتُ ببابك، ولكنني أخاف هذا جميعه؛ والرسول يحلف له أنَّ جلال الدين بتفليس، وهو لا يلتفت إلى قوله، فعاد الرسول، فعلم جلال الدين أنه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لأنَّه يحتاج [أن] يحصرها مدة طويلة، فوقف بالقرب من أصفهان، وأرسل إليه الخلع، وأقره على ولايته.

فبينما الرسل تردَّد إذ وصل رسول من وزير جلال الدين إليه من تفليس يعرفه أنَّ عسكر الملك الأشرف الذي بخلاط قد هزموا بعض عسكره وأوقعوا بهم، ويحثُّه على العود إلى تفليس، فعاد إليها مسرعاً.

ذكر الحرب بين عسكر الأشرف وعسكر جلال الدين

لما سار جلال الدين إلى كرمان ترك بمدينة تفليس عسكراً مع وزيره شرف الملك، فقلَّت عليهم الميرة، فساروا إلى أعمال أرزن الروم، فوصلوا إليها، ونهبوها، وسبوا النساء، وأخذوا من الغنائم شيئاً كثيراً لا يحصى، وعادوا فكان طريقهم على أطراف ولاية خلاط، فسمع النائب عن الأشرف (٤٥٦/١٢) بخلاط، وهو الحاجب حسام الدين على الموصل، فجمع العسكر وسار إليهم، فواقع بهم، واستنقذ ما معهم من الغنائم، وغنم كثيراً ممَّا معهم، وعاد هو وعساكره سالمين.

فلما فعل ذلك خاف وزير جلال الدين منهم، فأرسل إلى صاحبه بكرمان يعرفه الحال، ويحثُّه على العود إليه، ويخوفه عاقبة التواني والإهمال، فرجع فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

في هذه السنة، في الرابع عشر من رجب، توفي الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، وقد تقدَّم نسبه عند وفاة أبيه، رضي الله عنهما، فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وكان نعم الخليفة، جمع الخشوع مع الخضوع لربه، والعدل والإحسان إلى رعيته، وقد تقدَّم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية؛ ولم يزل كلَّ يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية، فرضي الله عنه وأرضاه، وأحسن من قبله ومثواه، فلقد جدَّ من العدل ما كان دارساً، وأذكر من الإحسان ما كان منسياً.

وكان قبل وفاته أخرج توقيعاً إلى الوزير بخطه ليقراه على أرباب الدولة، وقال الرسول: أمير المؤمنين يقول: ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم، أو نفَّذ مُنك، ثم لا يبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فَمَّا أخرج منكم إلى إمام قَوال؛ فقرؤوه، فإذا في أوَّلِه بعد البسملة:

اعلموا أنَّه ليس إهمالنا إهمالاً، ولا إغضاؤنا إغضالاً، ولكن لنبلوكم (٤٥٧/١٢) أيكم أحسن عملاً، وقد عفونا لكم ما سلف من إخراج البلاد، وتشريد الرعايا، وتقييع السُّمعة، وإظهار الباطل الجليِّ في صورة الحقِّ الخفيِّ حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكاً لأغراض انتهزتم فرصتها مختلسة من برائن ليث باسل، وأنياب أسد مهيب، تتفَقون بالفاظ مختلفة على معنى واحد وأنتم أنماؤه وثقاته، فتميلون رايه إلى هواكم، وتمرجون باطلكم بحقه، فيطمعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن قد بدَّل الله سبحانه بخوفكم أمناً، وبفقركم غنى، وبباطلكم حقاً، ورزقكم سلطاناً يُقيل العثرة ويقبل المعذرة، ولا يؤاخذ إلا من أصرَّ، ولا ينتقم إلا ممَّن استمرَّ؛ يأمركم بالعدل وهو يريد منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى، فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى، ويرغبكم في طاعته، فإن سلكتُم مسالك خلفاء الله في أرضه وأمانته على خلقه وإلا هلككم، والسلام.

ولما توفي وجدوا في بيت، في داره، ألوف رقاع كلِّها مختومة لم يفتحها، فقليل له ليفتحها، فقال: لا حاجة لنا فيها، كلِّها سعايات.

ولم أزل، علم الله سبحانه، مَذُّ وليِّ الخلافة، أخاف عليه قصر المدة لخُبث الزمان وفساد أهله، وأقول لكثير من أصدقائنا: وما أخوفني أن تنقصر مدة خلافته، لأن زماننا وأهله لا يستحقُّون خلافته؛ فكان كذلك. (٤٥٨/١٢)

ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله

لَمَّا تَوَفَّى الظاهر بأمر الله ببيع بالخلافة ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور، ولقب المستنصر بالله، وسلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه، رضي الله عنه، وأمر فتودي ببغداد بإفاضة العدل، وإن كان له حاجة، أو مظلمة يطالع بها، تُقضى حاجته، وتُكشف مظلمته.

فَلَمَّا كَانَ أَوَّلُ جُمُعَةٍ أَتَتْ عَلَى خَلَافَتِهِ أَرَادَ أَنْ يَصَلِّيَ الْجُمُعَةَ فِي الْمَقْصُورَةِ الَّتِي كَانَ يَصَلِّي فِيهَا الْخُلَفَاءُ، فَقِيلَ لَهُ إِنَّ الْمَطْبِقَ الَّذِي يَسْلُكُ فِيهِ إِلَيْهَا خَرَابٌ لَا يُمْكِنُ سُلُوكُهُ، فَرَكِبَ فَرَسًا وَسَارَ إِلَى الْجَامِعِ، جَامِعُ الْقَصْرِ، ظَاهِرًا يَرَاهُ النَّاسُ بِقَمِيصٍ أَيْضًا وَعِمَامَةٍ بِيضَاءُ، بِسَكَكَيْنِ حَرِيرٍ، وَلَمْ يَتْرِكْ أَحَدًا يَمْشِي مَعَهُ بَلْ أَمَرَ كُلَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَمْشِيَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ بِالصَّلَاةِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ يَصَلِّي فِيهِ، وَسَارَ هُوَ وَمَعَهُ خَادِمَانِ وَرُكَّابِدَارٌ لَا غَيْرَ، وَكَذَلِكَ الْجُمُعَةُ الثَّانِيَةُ حَتَّى أَصْلَحَ لَهُ الْمَطْبِقُ.

وَكَانَ السَّعَرُ قَدْ تَحَرَّكَ بَعْدَ وَفَاةِ الظَّاهِرِ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَبِغَتْ الْكَارَةُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ قِيرَاطًا، فَأَمَرَ أَنْ تُبَاعَ الْغَلَّاتُ الَّتِي لَهُ كُلُّ كَارَةٍ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ قِيرَاطًا، فَوُخِصَتْ الْأَسْعَارُ وَاسْتَقَامَتِ الْأُمُورُ.

ذكر الحرب بين كيقباز وصاحب آمد

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي شَعْبَانَ، سَارَ عِلَاءُ الدِّينِ كَيْقَبَازُ بْنُ كَيْخَسَرُو [ابن] قَلِجِ أَرْسَلَانَ، مَلِكُ بِلَادِ الرُّومِ، إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْمَسْعُودِ، صَاحِبِ أَمَدَ، (٤٥٩/١٢) وَمَلِكِ عِدَّةٍ مِنْ حَصُونِهِ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ اتِّفَاقِ صَاحِبِ أَمَدَ مَعَ جَلَالِ الدِّينِ بْنِ خَوَارِزْمِ شَاهٍ وَالْمَلِكِ الْمُعْظَمِ، صَاحِبِ دِمَشْقَ، وَغَيْرِهِمَا عَلَى خِلَافِ الْأَشْرَفِ؛ فَلَمَّا رَأَى الْأَشْرَفُ ذَلِكَ أَرْسَلَ إِلَى كَيْقَبَازِ، مَلِكِ الرُّومِ، وَكَانَا مُتَّفَقِينَ، يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَقْصِدَ بِلَدَ صَاحِبِ أَمَدَ وَيُحَارِبَهُ، وَكَانَ الْأَشْرَفُ حَيْنَتَئِذٍ عَلَى مَارْدِينَ، فَسَارَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَى مِلْطِيَّةَ، وَهِيَ لَهُ، فَتَزَلَّ عَنْدَهَا، وَسَيَّرَ الْعَسَاكِرَ إِلَى وِلَايَةِ صَاحِبِ أَمَدَ، [فَفَتَحُوا حَصْنَ مَنْصُورٍ وَحَصْنَ سَمَكَارَادَ وَغَيْرَهُمَا؛ فَلَمَّا رَأَى صَاحِبُ أَمَدَ ذَلِكَ رَاسَلَ الْأَشْرَفَ، وَعَادَ إِلَى مُوَاظَفَتِهِ، فَارْصَلَ الْأَشْرَفُ إِلَى كَيْقَبَازٍ يَعْرِفُهُ ذَلِكَ، وَيَقُولُ لَهُ لِيُعِيدَ إِلَى صَاحِبِ أَمَدَ مَا أَخَذَ مِنْهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ، وَقَالَ: لَمْ أَكُنْ نَائِبًا لِلْأَشْرَافِ بِأَمْرِنِي وَيَهَانِي.

فَاتَّفَقَ أَنَّ الْأَشْرَفَ سَارَ إِلَى دِمَشْقَ لِيُصْلِحَ إِخَاهَ الْمَلِكِ الْمُعْظَمَ، وَأَمَرَ الْعَسَاكِرَ الَّتِي لَهُ بِبَدَارِ الْجَزِيرَةِ بِمُسَاعَدَةِ صَاحِبِ أَمَدَ، إِنْ أَصْرَ مَلِكُ الرُّومِ عَلَى قَصْدِهِ، فَسَارَتْ عَسَاكِرُ الْأَشْرَفِ إِلَى صَاحِبِ أَمَدَ وَقَدْ جَمَعَ عَسْكَرَهُ وَمِنْ بِلَادِهِ مَنَّمَنُ يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ وَسَارَ إِلَى عَسْكَرِ مَلِكِ الرُّومِ وَهُمْ يَحَاصِرُونَ قَلْعَةَ الْكَيْخَتَا بَعْدَ الْهَزِيمَةِ، وَهِيَ مِنْ أَمْنَعِ الْحَصُونِ وَالْمَعَاقِلِ، فَلَمَّا مَلَكَوْهَا عَادُوا إِلَى صَاحِبِهِمْ.

ذكر حصر جلال الدين مدينتي آني وقوس

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي رَمَضَانَ، عَادَ جَلَالُ الدِّينِ مِنْ كَرْمَانَ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ، إِلَى تَقْلَيْسَ، وَسَارَ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ آنِي، وَهِيَ لِلْكَرْجِ، وَبِهَا إِيَوَانِي مُقَدَّمُ (٤٦٠/١٢) عَسَاكِرُ الْكَرْجِ فَيَمْنُ بَقِيَ مَعَهُ مِنْ أَعْيَانِ الْكَرْجِ، [فَحَصَرَهُ وَسَيَّرَ طَائِفَةً مِنَ الْعَسْكَرِ إِلَى مَدِينَةِ قَرْسَ وَهِيَ لِلْكَرْجِ] أَيْضًا، وَكِلَاهُمَا مِنْ أَحْصَنِ الْبِلَادِ وَأَمْنَعِهَا، فَتَزَلَّ لِهَمَا وَحَصَرَهُمَا، وَقَاتَلَ مِنْ بَهُمَا، وَنَصَبَ عَلَيْهِمَا الْمَجَانِيقَ، وَجَدَّ فِي الْقِتَالِ عَلَيْهِمَا، وَحَفَظَهُمَا الْكَرْجُ، وَبَالِغُوا فِي الْحَفِظِ وَالْإِحْيَاطِ لَخَوْفِهِمْ مِنْهُ أَنْ يَقْتُلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ بِمَدِينَةِ تَقْلَيْسَ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمَا إِلَى أَنْ مَضَى بَعْضُ شَوَّالٍ، ثُمَّ تَرَكَ الْعَسْكَرَ عَلَيْهِمَا يَحْصِرُونَهُمَا وَعَادَ إِلَى تَقْلَيْسَ.

وَسَارَ مِنْ تَقْلَيْسَ مُجَدًّا إِلَى بِلَادِ ابْخَازَ وَبَقَايَا الْكَرْجِ، فَأَوْقَعَ بَعْنَ فِيهَا، فَتَهَبَ، وَقَتَلَ، وَسَبَى، وَخَرَّبَ الْبِلَادَ وَأَحْرَقَهَا، وَغَنِمَ عَسَاكِرَهُ مَا فِيهَا، وَعَادَ مِنْهَا إِلَى تَقْلَيْسَ.

ذكر حصر جلال الدين خلاط

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ جَلَالِ الدِّينَ عَادَ مِنْ مَدِينَةِ آنِي إِلَى تَقْلَيْسَ وَدَخَلَ بِلَادَ ابْخَازَ، وَكَانَ رَحِيلُهُ مَكِيدَةً لِأَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّائِبَ عَنِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ، وَهُوَ الْحَاجِبُ حُسَامُ الدِّينِ عَلِيٌّ بِمَدِينَةِ خِلَاطَ، قَدْ احْتَاطَ، وَاهْتَمَّ بِالْأَمْرِ وَحَفِظَ الْبِلَدَ لِقُرْبِهِ مِنْهُ؛ فَعَادَ إِلَى تَقْلَيْسَ لِيَطْمَئِنَّ أَهْلُ خِلَاطَ وَيَتْرَكُوا الْإِحْيَاطَ وَالِاسْتِظْهَارَ ثُمَّ يَقْصِدُهُمْ بَقْتَةٌ؛ فَكَانَتْ غِيَتُهُ بِبِلَادِ ابْخَازَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَعَادَ، وَسَارَ مُجَدًّا يَطْوِي الْمَرَاحِلَ عَلَى عَادَتِهِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَنْدهُ مِنْ يِرَاسِلِ نَوَافِلِ الْأَشْرَفِ بِالْأَخْبَارِ لَفَجَّاهُمْ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا كَانَ عَنْدهُ بَعْضُ ثِقَاتِهِ يَعْرِفُهُمْ أَخْبَارَهُ، (٤٦١/١٢) وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ فَوَصَلَ الْخَبَرَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ وَصُولِهِ يَوْمِيْنِ.

وَوَصَلَ جَلَالُ الدِّينِ فَنَازَلَ مَدِينَةَ مَلَاذْكَرْدَ يَوْمَ السَّبْتِ ثَالِثَ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ، ثُمَّ رَحَلَ عَنْهَا، فَتَنَازَلَ مَدِينَةَ خِلَاطَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ خَامِسَ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ، فَلَمْ يَتَزَلَّ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا، وَقَاتَلَ أَهْلَهَا قِتَالًا شَدِيدًا، فَوَصَلَ عَسْكَرُهُ سَوْرَ الْبِلَدِ، وَقُتِلَ بَيْنَهُمْ قَتْلَى كَثِيرَةٌ، ثُمَّ زَحَفَ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَقَاتَلَ أَهْلَ الْبِلَدِ قِتَالًا عَظِيمًا، فَغَضَمَتْ نَكَايَةَ الْعَسْكَرِ فِي أَهْلِ خِلَاطَ، وَوَصَلُوا إِلَى سَوْرِ الْبِلَدِ، وَدَخَلُوا الرِّبْضَ الَّذِي لَهُ، وَأَمْدَوْا أَيْدِيَهُمْ فِي النَّهْبِ وَسَبَى الْحَرِيمِ.

فَلَمَّا رَأَى أَهْلُ خِلَاطَ ذَلِكَ تَذَامَرُوا، وَحَرَّضَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَعَادُوا إِلَى الْعَسْكَرِ فَقَاتَلُوهُمْ فَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْبِلَدِ، وَقُتِلَ بَيْنَهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَأَسَرَ الْعَسْكَرُ الْخَوَارِزْمِيِّ مِنْ أَمْرَاءِ خِلَاطَ جَمَاعَةً، وَقُتِلَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ، وَتَرَجَّلَ الْحَاجِبُ عَلِيٌّ، وَوَقَفَ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَأَبْلَى بِلَاءَ عَظِيمًا.

المصرية.

ولمّا رحل الكامل عن دميّاط لمّا كان الفرنج يحصرونها، صادفه أخوه المعظم من الغد، وقويت نفسه، وثبت قدمه، ولولا ذلك لكان الأمر عظيمًا، وقد ذكرنا ذلك مفضلًا، ثمّ إنّه عاد من مصر وسار إلى أخيه الأشرف ببلاد الجزيرة مرّتين يستجده على الفرنج، ويحثّه على مساعدة أخيهما الكامل، ولم يزل به حتّى أخذه وسار إلى مصر، وأزالوا الفرنج عن الديار المصرية، كما ذكرناه قبلُ فكان اتّفاقهم على الفرنج سببًا لحفظ بلاد الإسلام، وسرّ الناس أجمعون بذلك.

فلمّا فارق الفرنج مصر وعاد كلّ من الملوك أولاد العادل إلى بلده بقوا كذلك يسيرًا، ثمّ سار الأشرف إلى أخيه الكامل بمصر، فاجتاز بأخيه المعظم بدمشق، فلم يستصحبه معه، وأطال المقام بمصر، فلا شكّ أنّ المعظم ساءه ذلك.

ثمّ إنّ المعظم سار إلى مدينة حماة وحصرها، فأرسل إليه أخواه من مصر ورخّلاه عنها كارهاً، فازداد نفورًا، وقيل: إنّهُ نُقل إليه عنهما أنّهما اتّفقا عليه، والله أعلم بذلك. (٤٦٤/١٢) ثمّ انضاف إلى ذلك أنّ الخليفة الناصر لدين الله، رضي الله عنه، كان قد استوحش من الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن من الاستهانة بأمير الحاج العراقيّ، فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتّفاقهما، وقاطعهما، وراسل مظفر الدين كوكبري بن زين الدين عليّ، صاحب إربل، يعلمه بانحرافه عن الأشرف، واستماله، واتّفقا على مراسلة المعظم، وتعظيم الأمر عليه، فمال إليهما، وانحرف عن إخوته.

ثمّ اتّفق ظهور جلال الدين وكثرة ملكه، فاشتدّ الأمر على الأشرف بمجاورة جلال الدين خوارزم شاه ولاية خلاط، ولأنّ المعظم بدمشق يمنع عنه عساكر مصر أن تصل إليه، وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام، فرأى الأشرف أن يسير إلى أخيه المعظم بدمشق إليه في شوال واستماله وأصلحه، فلمّا سمع الكامل بذلك عظم عليه؛ ثمّ إنهما راسلاه، وأعلماه بنزول جلال الدين على خلاط، وعظّم الأمر عليه، وأعلماه أنّ هذه الحال تقتضي الاتّفاق لعمارة البيت العادليّ، وانقضت السنة والأشرف بدمشق والناس على مواضعهم يتظرون خروج الشتاء ما يكون من الخوارزميين، وستذكر ما يكون سنة أربع وعشرين وستمئة إن شاء الله تعالى.

ذكر الفتنة بين الفرنج والأرمن

في هذه السنة جمع البرنس الفرنجيّ، صاحب أنطاكية، جموعًا كثيرة وقصد الأرمن الذين في الدروب بلاد ابن ليون، فكان بينهم حرب شديدة.

ثمّ إنّ جلال الدين استراح عدّة أيام، وعاود الزحف مثل أوّل يوم، فقاتلوه حتّى أبعدوا عسكره عن البلد. وكان أهل خلاط مجذّين في القتال، حريصين على المنع عن أنفسهم، لما راوا من سوء سيرة الخوارزميين ونهبهم البلاد، وما فيهم من الفساد، فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله، ثمّ أقام عليها إلى أن اشتدّ البرد، ونزل شيء من الثلج، فرحل عنها يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة من السنة، وكان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التركمان الإيوانية من الفساد ببلاده. (٤٦٢/١٢)

ذكر إيقاع جلال الدين بالتركمان الإيوانية

كان التركمان الإيوانية قد تغلّبوا على مدينة أسنة وأرمية، من نواحي أذربيجان، وأخذوا الخراج من أهل خويّ ليكفّوا عنهم واغترّوا باشتغال جلال الدين بالكُرج، ويعدّهم بخلاط، وازداد طمعهم، وانبسطوا بأذربيجان ينهبون، ويقطعون الطريق؛ والأخبار تأتي إلى خوارزم شاه جلال الدين بن خوارزم شاه، وهو يتخافل عنهم لاشتغاله بما هو المهمّ عنده؛ وبلغ من طمعهم أنّهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز، وأخذوا من تجار أهلها شيئًا كثيرًا، ومن جملة ذلك أنّهم اشتروا غنمًا من أرزن الروم وقصدوا بها تبريز، فلقبهم الإيوانية قبل وصولهم إلى تبريز، فأخذوا جميع ما معهم، ومن جملة عشرون ألف رأس غنم.

فلمّا اشتدّ ذلك على الناس وعظم الشرّ أرسلت زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل ونوابه في البلاد إليه يستغيثون، ويعرفونه أنّ البلاد قد خربها الإيوانية، ولئن لم يلحقها، وإلاّ هلكت بالمرّة.

فأتفق هذا إلى خوف الثلج، فرحل عن خلاط، وجدّ السير إلى الإيوانية، وهم آمنون مطمئنون، لعلمهم أنّ خوارزم شاه على خلاط، وظنّوا أنّه لا يفارقها، فلو لا هذا الاعتقاد لصعدوا إلى جبال لهم متينة شاهقة لا يرتقى إليها إلاّ بمشقة وعناء، فلإنهم كانوا إذا خافوا صعدوا إليها وامتنعوا بها؛ فلم يرعهم إلاّ والعساكر الجلالية قد أحاطت بهم، وأخذهم السيف من كلّ جانب، فأكثروا القتل فيهم، والنهب، والسبي، واسترقّوا الحريم والأولاد، وأخذوا من عندهم ما لا يدخل تحت الحصر، فراوا كثيرًا من الأمتعة التي (٤٦٣/١٢) أخذوها من التجار بحالها في الشدوات، هذا سوى ما كانوا قد حلّوه وفصلوه، فلمّا فرغ عاد إلى تبريز.

ذكر الصلح بين المعظم والأشرف

نبتدئ بذكر سبب الاختلاف، فنقول: لمّا توفيّ الملك العادل أبو بكر ابن أيوب، اتّفق أولاده الملوك بعده اتّفاقًا حسنًا، وهم: الملك الكامل محمّد، صاحب مصر، والملك المعظم عيسى، صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى، وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط، واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انخسف القمر مرتين: أولاهما ليلة رابع عشر صفر، وفيها كانت أعجوبة بالقرب من الموصل حامة تُعرف بعين القيارة، شديد الحرارة، تسميها الناس عين ميمون، ويخرج مع الماء قليل من القار، فكان الناس يسبحون فيها دائماً في الربيع والخريف، لأنها تنفع من الأمراض الباردة، كالفالج وغيره، نفعاً عظيماً، فكان من يسبح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء، ففي هذه السنة برد الماء فيها، حتى كان السباح فيها يجدد البرد، فتركها وانتقلوا إلى غيرها.

وفيها كثرت الذناب والخنازير والحيات، فقتل كثير، فلقد بلغني أن ذئباً دخل الموصل فقتل فيها، وحذنتي صديق لنا له بستان بظاهر الموصل أنه قتل فيه، في سنة اثنتين وعشرين وستمئة، جميع الصيف حيتين، وقتل هذه السنة إلى أول حزيران سبع حيات لكثرة. (٤٦٧/١٢) وفيها انقطع المطر بالموصل وأكثر البلاد الجزرية من خامس شباط إلى ثاني عشر نيسان، ولم يجر شيء يُعتد به، لكنه سقط اليسير منه في بعض القرى، فجاءت الغلات قليلة، ثم خرج الجراد الكثير، فازداد الناس أذى، وكانت الأسعار قد صلحت شيئاً، فعادت لكثرة الجراد فغلت، ونزل أيضاً في أكثر القرى بردٌ كبير أهلك زروع أهلها وأفسدها، واختلفت أقاويل الناس في أكبره، كان وزن بردة مائتي درهم، وقيل رطل، وقيل غير ذلك، إلا أنه أهلك كثيراً من الحيوان، وانقضت هذه السنة والغلاء باقٍ وأشدّه بالموصل.

وفيها اصطاد صديق لنا أرنباً فرآه وله أنثيان وذكر وفرج أنثى، فلما شقوا بطنها رأوا فيها حريفيين، سمعتُ هذا منه ومن جماعة كانوا معه، وقالوا: ما زلنا نسمع أنَّ الأرنب يكون سنة ذكراً وسنة أنثى، ولا نصدق ذلك، فلما رأينا هذا علمنا أنه قد حمل، وهو أنثى، وانقضت السنة فصار ذكراً، فإن كان كذلك وإلا فيكون في الأرانب كالخشي في بني آدم، يكون لأحدهم فرج الرجل وفرج الأنثى، كما أنَّ الأرنب تحيض كما تحيض النساء، فلإني كنتُ بالجزيرة، ولنا جارٌ له بنت اسمها صفية، فبقيت كذلك نحو خمس عشرة سنة، وإذا قد طلع لها ذكر رجل، ونبتت لحيته، فكان له فرج امرأة وذكر رجل.

وفيها ذبح إنسان عندنا رأس غنم، فوجد لحمه مُراً شديداً المرارة، حتى رأسه وأكارعه ومعلاقه وجميع أجزائه، وهذا ما لم يُسمع بمثله.

وفيها يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة، ضحوة النهار، زلزلت الأرض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية، وكان أكثرها (٤٦٨/١٢) بشهر زور، فإنها خرب أكثرها، ولا سيما

وسبب ذلك أنَّ ابن ليون الأرمني، صاحب الدروب، توفي قبل ولم يخلف ولداً ذكراً، إنما خلف بنتاً، فملكها الأرمن عليهم، ثم علموا أنَّ الملك لا يقوم بامرأة، فزوجه من ولد البرنس، فنزوجه، وانتقل إلى (٤٦٥/١٢) بلادهم، واستقر في الملك نحو سنة، ثم ندموا على ذلك، وخافوا أن يستولي الفرنج على بلادهم، فثاروا بابن البرنس، فقبضوا عليه وسجنوه، فأرسل أبوه يطلب أن يطلق ويعاد في الملك، فلم يفعلوا، فأرسل إلى بابا ملك الفرنج برومية الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم، وملك رومية هذا أمره عند الفرنج لا يخالف، فمنعه عنهم، وقال: إنهم أهل ملتنا، ولا يجوز قصد بلادهم؛ فخالفه وأرسل [إلى] علاء الدين كيقياذ ملك قونية وملطية وما بينهما من بلاد المسلمين، وصالحه، ووافق على قصد بلاد ابن ليون، والاتفاق على قصدها، فاتفقا على ذلك، وجمع البرنس عساكره ليسير إلى بلاد الأرمن، فخالف عليه الدواية والاستبارة، وهما جمة الفرنج، فقالوا: إنَّ ملك رومية نهانا عن ذلك؛ إلا أنَّه أطاعه غيرهم، فدخل أطراف بلاد الأرمن، وهي مضايق وجبال وعرة، فلم يتمكن من فعل ما يريد.

وأما كيكاوس، فإنه قصد بلاد الأرمن من جهته، وهي أسهل من جهة الشام، فدخلها سنة اثنتين وعشرين وستمئة، فنهبا، وأحرقها، وحصر عدة حصون، ففتح أربعة حصون، وأدركه الشتاء فعاد عنها.

فلما سمع بابا ملك الفرنج برومية أرسل إلى الفرنج بالشام يعلمهم أنه قد حرم البرنس، فكان الدواية والاستبارة وكثير من الفرسان لا يحضرون معه، ولا يسمعون قوله؛ وكان أهل بلاده، وهي أنطاكية وطرابلس، إذا جاءهم عيد يخرج من عندهم، فإذا فرغوا من عيدهم دخل البلد.

ثم إنه أرسل إلى ملك رومية يشكو من الأرمن، وأنهم لم يطلقوا ولده، ويستأذنه في أن يدخل بلادهم ويحاربهم إن لم يطلقوا ابنه، فأرسل إلى الأرمن يأمرهم بإطلاق ابنه وإعادته إلى الملك، فإن فعلوا وإلا فقد أذن له في قصد بلادهم؛ فلما بلغتهم الرسالة لم يطلقوا ولده، فجمع البرنس وقصد بلاد الأرمن، فأرسل الأرمن إلى الأتابك شهاب الدين بحلب يستجلبونه، ويخوفونه (٤٦٦/١٢) من البرنس إن استولى على بلادهم لأنها تجاور أعمال حلب، فأمدهم بجند وسلاح.

فلما سمع البرنس ذلك صمَّ العزم على قصد بلادهم، فسار إليهم وحاربهم، فلم يحصل على غرض، فعاد عنهم.

حدثني بهذا رجل من عقلاء النصاري ممن دخل تلك البلاد وعرف حالها، وسألتُ غيره، فعرف البعض وأنكر البعض.

القلعة، فإنها أجهت بها؛ وخرب من تلك الناحية ست قلاع، وبقيت الزلزلة تتردد فيها نيفاً وثلاثين يوماً، ثم كشفها الله عنهم؛ وأما القرى بتلك الناحية فخرّب أكثرها.

وفيهما، في رجب، توفي القاضي حجة الدين أبو منصور المظفر بن عبد القاهر بن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري، قاضي الموصل، بها، وكان قد أضرب قبل وفاته بنحو ستين، وكان عالماً بالقضاء، عفيفاً، زهواً، ذا رئاسة كبيرة، وله صلات دارة للمقيم والوارد، رحمه الله، فلقد كان من محاسن الدنيا، ولم يخلف غير بنت توفيت بعده بثلاثة أشهر. (٤٦٩/١٢)

سنة أربع وعشرين وستمئة

ذكر دخول الكُرج مدينة تفلّيس وإحراقها

في هذه السنة، في ربيع الأول، وصل الكُرج مدينة تفلّيس، ولم يكن بها من العسكر الإسلامي من يقوم بحمايتها، وسبب ذلك أن جلال الدين لما عاد من خلاط، كما ذكرنا قبل، وأوقع بالأيوانية، فرق عساكره إلى المواضع الحارة الكثيرة المرعى، ليشنوا بها؛ وكان عسكره قد أسافوا السيرة في رعية تفلّيس، وهم مسلمون، وعسفوهم، فكاتبوا الكُرج يستدعونهم إليهم ليملكوهم البلد، فاشتتم الكُرج ذلك لميل أهل البلد إليهم، وخلوه من العسكر، فاجتمعوا، وكانوا بمدينتي قرس وآني وغيرهما من الحصون، وساروا إلى تفلّيس، وكانت خالية كما ذكرناه، ولأن جلال الدين استضعف الكُرج لكثرة من قتل منهم، ولم يظنّ فيهم حركة، فملكوا البلد، ووضعوا السيف فيمن بقي من أهله، وعلموا أنهم لا يقدرون على حفظ البلد من جلال الدين فأحرقوه جميعه.

وأما جلال الدين فإنه لما بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم، فلم ير منهم أحداً، كانوا قد فارقوا تفلّيس لما أحرقوها. (٤٧٠/١٢)

ذكر نهب جلال الدين بلد الإسماعيلية

في هذه السنة قتل الإسماعيلية أميراً كبيراً من أمراء جلال الدين، وكان قد أقطعه جلال الدين مدينة كنجة وأعمالها، وكان نعم الأمير، كثير الخير، حسن السيرة، ينكر على جلال الدين ما يفعله عسكره من النهب وغيره من الشر.

فلما قتل ذلك الأمير عظم قتله على جلال الدين، واشتد عليه، فسار في عساكره إلى بلاد الإسماعيلية، من حدود الموت إلى كردكوه بخراسان، فخرّب الجميع، وقتل أهلها، ونهب الأموال، وسبي الحرير، واسترق الأولاد، وقتل الرجال، وعمل بهم الأعمال العظيمة، وانتقم منهم؛ وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضرهم،

وطمعو ما خرج التتر إلى بلاد الإسلام إلى الآن، فكفّ عاديتهم وقمعهم، ولقاهم الله ما عملوا بالمسلمين.

ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر

لما فرغ جلال الدين من الإسماعيلية بلغه الخبر أن طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا إلى دامغان، بالقرب من الري، عازمين على قصد بلاد الإسلام، فسار إليهم وحاربهم، واشتد القتال بينهم، فانهزموا منه، فأوسعهم قتلاً، وتبع المنهزمين عدة أيام يقتل ويأسر، فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفاً من جمع آخر للتتر، إذ أتاه الخبر بأن كثيراً منهم واصلوا إليه، فأقام ينتظرهم، وسنذكر خبرهم سنة خمس وعشرين وستمئة. (٤٧١/١٢)

ذكر دخول العساكر الأشرقية إلى أذربيجان ومُلك بعضها

في هذه السنة، في شعبان، سار الحاجب عليّ حُسام الدين، وهو النائب عن الملك الأشرف بخلاط، والمقدم على عساكرها، إلى بلاد أذربيجان فيمن عنده من العساكر.

وسبب ذلك أن سيرة جلال الدين كانت جائرة، وعساكره طامعة في الرعايا، وكانت زوجته ابنة السلطان طغرل السلجوقي، وهي التي كانت زوجة أوزبك بن البهلوان، صاحب أذربيجان، فتزوَّجها جلال الدين، كما ذكرناه قبل، وكانت مع أوزبك تحكم في البلاد جميعها، ليس له ولا لغيره معها حُكم.

فلما تزوّجها جلال الدين أهملها ولم يلفت إليها، فخافته مع ما حرّمته من الحكم والأمر والنهي، فأرسلت هي وأهل خوي إلى حُسام الدين الحاجب يستدعونه ليسلموا البلاد، فسار ودخل البلاد، بلاد أذربيجان، فملك مدينة خوي وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدين، وملك مرند، وكاتبه أهل مدينة نقجوان، فمضى إليهم، فسلموها إليه، وقويت شوكتهم بتلك البلاد، ولو داموا لملكوها جميعها، وإنما عادوا إلى خلاط، واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل إلى خلاط، وسنذكر باقي خبرهم سنة خمس وعشرين [وستمئة] إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق ومُلك ولده

في هذه السنة توفي الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل يوم الجمعة سلخ ذي القعدة، وكان مرضه دوسنطاريا، وكان مُلكه لمدينة دمشق، من حين (٤٧٢/١٢) وفاة والده الملك العادل، عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً.

وكان عالماً بعدة علوم، فاضلاً فيها، منها الفقه على مذهب أبي حنيفة، فإنه كان قد اشتغل به كثيراً، وصار من المتميزين فيه، ومنها علم النحو، فإنه اشتغل به أيضاً اشتغلاً زائداً، وصار فيه فاضلاً، وكذلك اللغة وغيرها، وكان قد أمر أن يُجمع له كتاب في

بالموصل مرتين، وهذا غريب جداً لم يُسمع بمثله، فأهلك الأزهار التي خرجت كزهر اللوز، والمشمش، والإجاص، والسفرجل وغيرها، ووصلت الأخبار من العراق جميعه مثل ذلك، فهلكت به أزهارها والثمار، وهذا أعجب من حال ديار الجزيرة والشام فإنه أشد حراً من جميعها.

وفيها ظفر جمع من التركمان، كانوا بأطراف أعمال حلب، بفارس مشهور من الفرنج الداوية بأنطاكية قتلوه، فعلم الداوية بذلك فساروا (٤٧٤/١٢) وكبسوا التركمان، فقتلوا منهم وأسروا، وغنموا من أموالهم، فبلغ إلى أتابك شهاب الدين المتولي أمور حلب، فراسل الفرنج، وتهذهم بقصد بلادهم، واتفق أن عسكر حلب قتلوا فارسين كبيرين من الداوية أيضاً، فاذعنوا بالصلح، وردوا إلى التركمان كثيراً من أموالهم وحريمهم وأسرهم.

وفيها، في رجب، اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر، وأرادوا الإغارة على جزيرة ابن عمر، وكان صاحب الجزيرة قد قُتل، فلما قصدوا بلد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة اسمها سلكون، ولقوهم من ضحوة النهار إلى العصر، وطال القتال بينهم، ثم حمل أهل القرية على الأكراد فهزموهم وقتلوا فيهم، وخرجوا ونهبوا ما معهم وعادوا سالمين. (٤٧٥/١٢)

سنة خمس وعشرين وستمائة

ذكر الخلف بين جلال الدين وأخيه

في هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزم شاه، وهو أخو جلال الدين من أبيه، [أخاه]، وخافه معه جماعة من الأمراء، واستشعروا منه، وأرادوا الخلاص منه، فلم يتمكنوا من ذلك إلى أن خرجت التتر، واشتغل بهم جلال الدين، فهرب غياث الدين ومن معه، وقصدوا خوزستان، وهي من بلاد الخليفة، وأرادوا الدخول في طاعة الخليفة، فلم يمكنهم النائب بها من الدخول إلى البلد، مخافة أن تكون هذه مكيدة، فبقي هناك، فلما طال عليه الأمر فارق خوزستان وقصد بلاد الإسماعيلية، فوصل إليهم، واحتسب بهم واستجار بهم.

وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التتر وعاد إلى تبريز، فأتاه الخبر وهو بالميدان يلعب بالكرة أن أخاه قد قصد أصفهان، فالتقى الجركان من يده، وسار مجداً، فسمع أن أخاه قد قصد الإسماعيلية ملتجئاً إليهم، ولم يقصد أصفهان، فعاد إلى بلاد الإسماعيلية لينهب بلادهم إن لم يسلموا إليه أخاه، وأرسل يطلبه من مقدم الإسماعيلية، فأعاد الجواب يقول: إن أخاك قد قصدنا، وهو سلطان ابن سلطان، ولا يجوز لنا أن نسلمه، لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكته أن يأخذ شيئاً من بلادك، ونسألك أن تشفعني فيه والضمان

اللغة جامع كبير، فيه كتاب الصحاح للجوهري، ويضاف إليه ما فات الصحاح من التهذيب للأرموي والجمهرة لابن دريد وغيرهما، وكذلك أيضاً أمر بأن يُرتب مسند أحمد بن حنبل على الأبواب، ويُرد كل حديث إلى الباب الذي يقتضيه معناه، مثاله: أن يجمع أحاديث الطهارة، وكذلك يفعل في الصلاة وغيرها من الرقائق، والتفسير، والغزوات، فيكون كتاباً جامعاً.

وكان قد سمع المسند من بعض أصحاب ابن الحصين، ونفق العلم في سوقه، وقصده العلماء من الأفاق، فأكرمهم، وأجرى عليهم الجرايات الوافرة، وقربهم، و[كان] يجالسهم، ويستفيد منهم، ويفيدهم، وكان يرجع إلى علم وصبر على سماع ما يكره، لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوؤه.

وكان حسن الاعتقاد يقول كثيراً: إن اعتقادي في الأصول ما سطره أبو جعفر الطحاوي، ووصى عند موته بأن يكفن في البياض، ولا يُجعل في أكفانه ثوب فيه ذهب، وأن يُدفن في لحد، ولا يني عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء، ويقول في مرضه: لي عند الله تعالى في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به.

ولما توفي ولي بعده ابنه داود وبلغ الملك الناصر، وكان عمره قد قارب عشرين سنة. (٤٧٣/١٢)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة دام الغلاء في ديار الجزيرة، ودامت الأسعار تزيد قليلاً وتنقص قليلاً، وانقطع المطر جميع شباط وعشرة أيام من آذار، فازداد الغلاء، فبلغت الحنطة كل مكوكين بدينار وقيراطين بالموصل، والشعير كل ثلاثة مكايك بالموصل بدينار وقيراطين أيضاً، وكل شيء بهذه السنة في الغلاء.

وفيها، في الربيع، قلّ لحم الغنم بالموصل، وغلا سعره، حتى بيع كل رطل لحم بالبغدادي بحيتين بالصنجة، وربما زاد في بعض الأيام على هذا الثمن.

وحكى لي من يتولى بيع الغنم بالموصل أنهم يباعوا يوماً خروفاً واحداً لا غير، وفي بعضها خمسة أرؤس، وفي بعضها ستة، وأقل وأكثر، وهذا ما لم يُسمع بمثله، ولا رأيته في جميع أعمارنا، ولا حكي لنا مثله لأن الربيع مظنة رخص اللحم بها، لأن التركمان والأكراد والكيلكان يتقلون من الأمكنة التي شتوا بها إلى الزوزان فيبيعون الغنم رخيصاً.

وكان اللحم كل سنة في هذا الفصل كل سنة أوطال وسبعة بقيراط، صار هذه السنة الرطل بحيتين.

وفيها عاشر آذار، وهو العشرون من ربيع الأول، سقط الثلج

أهل أصفهان معه، قاتلوا التتر، فانهزم التتر أتبع هزيمة، وتبعهم جلال الدين إلى الرِّيِّ يقتل ويأسر، فلمَّا أبعدها عن الرِّيِّ أقام بها، وأرسل إليه ابن جنكزخان يقول: إنَّ هؤلاء ليسوا من أصحابنا، إنما نحن أبعدهم عنَّا؛ فلمَّا آمن جانب جنكزخان آمن وعاد إلى أذربيجان.

ذكر خروج الفرنج إلى الشام وعمارة صيدا

وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلادهم، التي هي في الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد، إلى بلادهم التي بالشام: عكا وصور وغيرها من ساحل الشام، فكثرت جمعهم، وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر (٤٧٨/١٢) أيضا إلا أنهم لم تمكنهم الحركة والشروع في أمر الحرب لأجل أنَّ ملكهم الذي هو المقدم عليهم هو ملك الألمان، ولقبه أنبرور، قيل: معناه ملك الأمراء، ولأنَّ المعظم كان حيًّا، وكان شهما شجاعا مقداما، فلمَّا توفيَّ المعظم، كما ذكرناه، وولي بعده ابنه وملك دمشق طمع الفرنج، وظهروا من عكا وصور وبيروت إلى مدينة صيدا، وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين، وسورها خراب، فعمروها، واستولوا عليها.

وإنما تمَّ لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها، تبنين وهونين وغيرها. وقد تقدَّم ذكر ذلك قبلُ مستقصى؛ فعظمت شوكة الفرنج، وقوي طمعهم، واستولى في طريقه على جزيرة قبرس، وملكها، وسار منها إلى عكا، فارتاع المسلمون لذلك، والله تعالى يخذله وينصر المسلمين بمحمد وآله؛ ثمَّ إنَّ ملكهم أنبرور وصل إلى الشام.

ذكر ملك كيقباز أرزنكان

وفي هذه السنة ملك علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قلعج أرسلان، وهو صاحب قونية، وأقصر، وملطية، وغيرها من بلاد الروم، أرزنكان.

وسبب ملكه إياها أنَّ صاحبها بهرام شاه كان قد طال ملكه لها، وجاوز ستين سنة، توفيَّ ولم يزل في طاعة قلعج أرسلان وأولاده بعده، فلمَّا توفيَّ ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه، فأرسل إليه كيقباز يطلب منه عسكريا ليسيير معه إلى مدينة أرزن السروم ليحصرها، ويكون هو مع العسكر، ففعل ذلك، وسار في عسكره إليه، فلمَّا وصل قبض عليه، وأخذ مدينة أرزنكان (٤٧٩/١٢) منه، وله حصن من أمن الحصون اسمه كماخ، وفيه مستحفظ لدواد شاه، فأرسل إليه ملك الروم يحصره، فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه وارتفاعه وامتناعه، فتهذَّ داود شاه إنَّ لم يسلم كماخ، فأرسل إلى نائبه في التسليم، فسلم القلعة إلى كيقباز.

وأراد كيقباز المسير إلى أرزن الروم ليأخذها وبها صاحبها ابن

(٤٧٦/١٢) علينا بما قلنا، ومتى كان منه ما تكره في بلادك، فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار. فأجابهم إلى ذلك، واستحلفهم على الوفاء بذلك، وعاد عنهم وقصد خلاط، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر

في هذه السنة عاود التتر الخروج إلى الرِّيِّ، وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة اختلف الناس علينا في عددها، كان أكثرها عليه، وفي الأخير كان الظفر له.

وكانت أوَّل حرب بينهم عجائب غريبة، وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جنكزخان على مقدمهم، وأبعده عنه، وأخرجه من بلاده، فقصد خراسان، فرأها خرابا، فقصد الرِّيَّ ليتغلب على تلك النواحي والبلاد، فلقيه بها جلال الدين، فاقتلوا أشدَّ قتال، ثمَّ انهزم جلال الدين وعاد ثمَّ انهزم، وقصد أصفهان، وأقام بينها وبين الرِّيِّ، وجمع عساكره ومن في طاعته، فكان فيمن أناه صاحب بلاد فارس، وهو ابن أتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه، كما ذكرناه، وعاد جلال الدين إلى التتر فلقيهم.

فبينما هم مصطفون كلَّ طائفة مقابل الأخرى انعزل غياث الدين أخو جلال الدين فيمن وافقه من الأمراء على مفارقة جلال الدين، واعتزلوا، وقصدوا جهة ساروا إليها، فلمَّا رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنَّوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاثلوهم من جهتين، فانهزم التتر لهذا الظنِّ وتبعهم صاحب بلاد فارس.

وأما جلال الدين فإنه لما رأى مفارقة أخيه إياه ومن معه من الأمراء ظنَّ (٤٧٧/١٢) أنَّ التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه، فعاد منهزمًا، ولم يجسر [أن] يدخل أصفهان لئلا يحصره التتر، فمضى إلى سُمرم.

وأما صاحب فارس فلمَّا أبعده في أثر التتر، ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه، خاف التتر فعاد عنهم.

وأما التتر فلمَّا لم يروا في آثارهم أحدا يطلبهم وقفوا، ثمَّ عادوا إلى أصفهان، فلم يجدوا في طريقهم من يمنهم، فوصلوا إلى أصفهان فحصروها، وأهلها يظنون أنَّ جلال الدين قد عُد، فبينما هم كذلك والتتر يحصرونهم إذ وصل قاصد من جلال الدين إليهم يعرفهم سلامته، ويقول: إني أدور حتى يجتمع إلي من سلم من العسكر وأقصدكم وتتفق أنا وأنتم على إزعاج التتر وتريحيلهم عنكم.

فأرسلوا إليه يستدعونهم إليهم، ويعدونه النصرة والخروج معه إلى عدوه، وفيهم شجاعة عظيمة، فسار إليهم، واجتمع بهم، وخرج

الفرنج على البيت المقدس وغيره مما يجاوره، لا مانع دونه، فترددت الرسل، وسار الأشرف بنفسه إلى الكامل أخيه، فحضر عنده، وكان وصوله ليلة عيد الأضحى، ومنعه من العود إلى مصر، فأقاما بمكانهما. (٤٨١/١٢)

ذكر نهب جلال الدين بلاد أرمينية

في هذه السنة وصل جلال الدين خوارزم شاه إلى بلاد خلاط، وتعدى خلاط إلى صحراء موشر، وجبل جور، ونهب الجميع، وسبى الحريم، واسترق الأولاد، وقتل الرجال، وخرب القرى، وعاد إلى بلاده.

ولما وصل الخبر إلى البلاد الجزرية: حران وسروج وغيرهما، أنه قد جاز خلاط إلى جور، وأنه قد قرب منهم، خاف أهل البلاد أن يجيء إليهم، لأن الزمان كان شتاء، وظنوا أنه يقصد الجزيرة ليشتي بها، لأن البرد بها ليس بالشديد، وعزموا على الانتقال من بلادهم إلى الشام، ووصل بعض أهل سروج إلى منبج من أرض الشام، فأتاهم الخبر أنه قد نهب البلاد وعاد، فأقاموا، وكان سبب عوده أن الثلج سقط ببلاد خلاط كثيراً، ولم يُعهد مثله، فأسرع العود.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة رخصت الأسعار بديار الجزيرة جميعها، وجاءت الغلات التي لهم من الحنطة والشعير جيئاً، إلا أن الرخص لم يبلغ الأول الذي كان قبل الغلاء، إنما صارت الحنطة كل خمسة مكايك بدينار، والشعير كل سبعة عشر مكوكاً بالموصلي بدينار. (٤٨٢/١٢)

سنة ست وعشرين وستمائة

ذكر تسليم البيت المقدس إلى الفرنج

في هذه السنة، أول ربيع الآخر، تسلّم الفرنج، لعنهم الله، البيت المقدس صلحاً، أعاده الله إلى الإسلام سريعاً.

وسبب ذلك ما ذكرناه سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الأنبرور، ملك الفرنج، في البحر من داخل بلاد الفرنج إلى ساحل الشام، وكانت عساكره قد سبقته، وتزلوا بالساحل، وأنفسوا فيما يجاورهم من بلاد المسلمين، ومضى إليهم، وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم، وصاروا معهم، وقوي طمع الفرنج بموت الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، صاحب دمشق.

ولما وصل الأنبرور إلى الساحل نزل بمدينة عكا، وكان الملك

عمّه طغرل شاه بن قليج أرسلان، فلما سمع صاحبها بذلك أرسل إلى الأمير حسام الدين عليّ، النائب عن الملك الأشرف بخلاط، يستنجد، وأظهر طاعة الأشرف، فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر، وكان قد جمعها من الشام، وديار الجزيرة، خوفاً من ملك الروم، خافوا أنه إذا ملك أرزن الروم يتعدى، ويقصد خلاط، فسار الحاجب حسام الدين إلى الروم ومنع عنها.

ولما سمع كيقباز بوصول العساكر إليها لم يقدم على قصدها، فسار من أرزنكان إلى بلاده، وكان قد أتاه الخبر أن الروم الكفار المجاورين لبلاد قد ملكوا منه حصناً يسمى صنوب، وهو من أحسن القلاع، مطلق على البحر السياه بحر الخزر، فلما وصل إلى بلاده سار العسكر إليه وحصره برأ ويحراً، فاستعاده من الروم، وسار إلى أنطاكية ليشتي بها على عادته.

ذكر خروج الملك الكامل

في هذه السنة، في شوال، سار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل، صاحب مصر، إلى الشام، فوصل إلى البيت المقدس، حرسه الله تعالى، وجعله دار الإسلام ابداً، ثم سار عنه، وتولى بمدينة نابلس، وشحن على تلك البلاد (٤٨٠/١٢) جميعها، وكانت من أعمال دمشق، فلما سمع صاحبها، وهو ابن الملك المعظم، خاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه، فأرسل إلى عمّه الملك الأشرف يستنجد، ويطلبه ليحضر عنده بدمشق، فسار إليه جريداً، فدخل دمشق.

فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم لعلمه أن البلد منيع، وقد صار به من يمنعه وحيمه؛ وأرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه، ويعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له، وموافقة لأغراضه، والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد، فأعاد الكامل الجواب يقول: إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا، وبعض قيسارية، ولم يمنعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الأعصار وممر الأيام، فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحداث ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي أذكره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ؟

ثم إنهم ما يقتنعون حيثذ بما أخذوه، ويتعدون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت فانا أعود إلى مصر، واحفظ أنت البلاد، ولست بالذي يقال عني إنني قاتلت أخي، وحصرته، حاشا لله تعالى.

وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية، ونزل تل العجول، فخاف الأشرف والناس قاطبة بالشام، وعلما أنه إن عاد استولى

والكامل، رحمه الله تعالى، ابن الملك العادل، صاحب مصر، قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة أخيه المعظم، وهو نازل بتلّ العجول، يريد أن يملك دمشق من الناصر داود ابن أخيه المعظم، وهو صاحبها يومئذ، وكان داود لمّا سمع بقصد عمّه الملك الكامل له قد أرسل إلى عمّه الملك الأشرف، صاحب البلاد الجزرية، يستنجد، ويطلب منه المساعدة على دفع عمّه عنه، فسار إلى دمشق، وتردّدت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل في الصلح، فاصطلحا، واتّفقا، وسار الملك الأشرف إلى الملك الكامل واجتمع به. (٤٨٣/١٢) فلمّا اجتمعا تردّدت الرسل بينهما وبين الأبرور، ملك الفرنج، دفعات كثيرة، فاستقرّت القاعدة على أن يسلموا إليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقي البلاد مثل الخليل، ونابلس، والغور، وملطية، وغير ذلك بيد المسلمين، ولا يسلم إلى الفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التي استقرّت معه.

وكان سور البيت المقدس خراباً [قد] خرّبه الملك المعظم، وقد [ذكرنا] ذلك، وتسلم الفرنج البيت المقدس، واستسلم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه؛ يسّر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه، آمين.

ذكر ملك الملك الأشرف مدينة دمشق

وفي هذه السنة يوم الاثنين ثاني شعبان ملك الملك الأشرف ابن الملك العادل مدينة دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم.

وسبب ذلك ما ذكرناه أنّ صاحب دمشق لمّا خاف من عمّه الملك الكامل أرسل إلى عمّه الأشرف يستنجد، ويستعين به على دفع الكامل عنه، فسار إليه من البلاد الجزرية، ودخل دمشق، وفرح به صاحبها وأهل البلد، وكانوا قد احتاطوا، وهم يتجهّزون للحصار، فأمر بإزالة ذلك، وترك ما عزموا عليه من الاحتياط، وحلف لصاحبها على المساعدة والحفظ له ولبلاده عليه، ورأسل الملك الكامل واصطلحا وظنّ صاحب دمشق أنّه معهم في الصلح.

وسار الأشرف إلى أخيه الكامل، واجتمعا في ذي الحجة من سنة خمس (٤٨٤/١٢) وعشرين، يوم العيد، وسار صاحب دمشق إلى بيسان وأقام بها، وعاد الملك الأشرف من عند أخيه، واجتمع هو وصاحب دمشق، ولم يكن الأشرف في كثرة من العسكر، فبينما هما جالسان في خيمة لهما إذ قد دخل عزّ الدين أيبك، مملوك المعظم الذي كان صاحب دمشق، وهو أكبر أمير مع ولده، فقال لصاحبه داود: قم أخرج وإلا قبضت الساعة؛ فأخرجه، ولم يمكن الأشرف منه لأنّ أيبك كان قد أركب العسكر الذي لهم جميعه،

وكان سبب ذلك أنّ أيبك قيل له: إنّ الأشرف يريد القبض على صاحبه وأخذ دمشق منه؛ ففعل ذلك، فلمّا عادوا وصلت العساكر من الكامل إلى الأشرف، وسار فنازل دمشق وحصرها، وأقام محاصراً لها إلى أن وصل إليه الملك الكامل، فحينئذ اشتدّ الحصار، وعظم الخطب على أهل البلد، وبلغت القلوب الحناجر.

وكان من أشدّ الأمور على صاحبها أنّ المال عنده قليل لأنّ أمواله بالكرك، ولوثوقه بعمّه الأشرف لم يحضر منها شيئاً، فاحتاج إلى أن باع حلى نسائه وملبوسهن، وضافت الأمور عليه، فخرج إلى عمّه الكامل وبذل له تسليم دمشق وقلعة الشوبك على أن يكون له الكرك والغور ويسان ونابلس، وأن يُبقي على أيبك قلعة صرخند وأعمالها.

وتسلم الكامل دمشق، وجعل نائبه بالقلعة إلى أن سلم إليه أخوه الأشرف حرّان والرّها والرّقة وسروج ورأس عين من الجزيرة، فلمّا تسلم ذلك سلم قلعة دمشق إلى أخيه الأشرف، فدخلها، وأقام بها، وسار الكامل إلى الديار الجزرية فأقام بها إلى أن استدعى أخاه الأشرف بسبب حصر جلال الدين (٤٨٥/١٢) ابن خوارزم شاه مدينة خلاط، فلمّا حضر عنده بالرّقة عاد الكامل إلى ديار مصر، وأمّا الأشرف فكان منه ما نذكره، إن شاء الله تعالى.

ذكر القبض على الحاجب عليّ وقفه

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عزّ الدين أيبك، وهو أمير كبير في دولته، إلى مدينة خلاط، وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين عليّ بن حمّاد، وهو المتولّي لبلاد خلاط والحاكم فيها من قبل الأشرف.

ولم نعلم شيئاً يوجب القبض عليه، لأنّه كان مشفقاً عليه، ناصحاً له، حافظاً لبلاده، وحسن السيرة مع الرعية، ولقد وقف هذه المدة الطويلة في وجه خوارزم شاه جلال الدين، وحفظ خلاط حفظاً يعجز غيره عنه، وكان مُهتماً بحفظ بلاده، وذائباً عنها، وقد تقدّم من ذكر قصده بلاد جلال الدين والاستيلاء على بعضها ما يدلّ على همّة عالية، وشجاعة تامّة، وصار لصاحبه به منزلة عظيمة، فإنّ الناس يقولون: بعض غلمان الملك الأشرف يقاوم خوارزم شاه.

وكان، رحمه الله، كثير الخير والإحسان لا يمكن أحداً من ظلم، وعمل كثيراً من أعمال البرّ من الخانات في الطرق، والمساجد في البلاد، وبنى بخلاط بيمارستاناً وجامعاً، وعمل كثيراً من الطرق، وأصلحها كان يشقّ سلوكها.

فلمّا وصل أيبك إلى خلاط قبض عليه، ثمّ قتله غيلة، لأنّه كان

عدوه، ولما قُتل ظهر أثر كفايته، فإن جلال الدين حصر خلاط بعد قبضه وملكها، على ما نذكره إن الله، ولم يمهل الله إليك بل انتقم منه سريعاً، فإن جلال (٤٨٦/١٢) الدين أخذ إليك أسيراً لِمَا ملك خلاط مع غيره من الأمراء، فلَمَّا اصطَلح الأشرَف وجلال الدين أطلق الجميع، وذكر أَنَّ أَيْكَ قُتِلَ.

وكان سبب قتله أَنَّ مملوكاً للحاجب عليّ كان قد هرب إلى جلال الدين، فلَمَّا أسر أَيْكَ طلبه ذلك المملوك من جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب عليّ، فسَلَّمه إليه فقتله، وبلغني أَنَّ الملك الأشرَف رأى في المنام كَانََ الحاجب عليّاً قد دخل إلى مجلس فيه أَيْكَ فأخذ منديلاً وجعله في رقبته أَيْكَ وأخذه وخرج، فأصبح الملك الأشرَف وقال: قد مات أَيْكَ، فإِنِّي رَأَيْتُ في المنام كذا وكذا.

ذكر مُلك الكامل مدينة حماة

وفي هذه السنة، أواخر شهر رمضان، ملك الملك الكامل مدينة حماة. وسبب ذلك أَنَّ الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، وهو صاحب حماة، توفّي، على ما نذكره، وَلَمَّا حضرته الوفاة حَلَفَ الجند وأكابر البلد لولده الأكبر، ويلقب بالملك المظفر، وكان قد سَيره أبوه إلى الملك الكامل، صاحب مصر، لأنّه قد تزوّج بابنته، وكان لمحمد ولد آخر اسمه قلعج أرسلان، ولقبه صلاح الدين، وهو بدمشق، فحضر إلى مدينة حماة فسَلَّمَت إليه، واستولى على المدينة وعلى قلعتها، فأرسل الملك [الكامل] يأمره أن يسَلِّم البلد إلى أخيه الأكبر، فإن أباه أوصى له به، فلم يفعل، وتردّدت الرسل في ذلك إلى الملك المعظم، صاحب دمشق، فلم تقع الإجابة.

فلَمَّا توفّي المعظم، وخرج الكامل إلى الشام وملك دمشق، سَير جيشاً (٤٨٧/١٢) إلى حماة فحصرها ثلاث شهر رمضان، وكان المقدّم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، وأمير كبير من عسكره يقال له فخر الدين عثمان، ومعهما ولد محمد بن تقي الدين محمد الذي كان عند الكامل، فبقي الحصار على البلد عدّة أيام.

وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزل على سلمية يريد العبور إلى البلاد الجزرية، حرّان وغيرها، فلَمَّا نازلها قصده صاحب حماة صلاح الدين، ونزل إليه من قلعته، ولم يكن لذلك سبباً إلّا أمر الله تعالى، فإنّ صلاح الدين قال لأصحابه: أريد النزول إلى الملك الكامل؛ فقالوا له: ليس بالشام أحصن من قلعتك، وقد جمعت من الذخائر ما لا حدّ له، فأَيّ شيء تنزل إليه؟ ليس هذا برأي؛ فأصرّ على النزول، وأصرّوا على منعه، فقال في آخر الأمر: اتركوني أنزل، وإلّا ألقيت نفسي من القلعة؛ فحيثُ سكتوا عنه،

فنزّل في نفر يسير، ووصل إلى الكامل، فاعتقله إلى أن سلّم مدينة حماة وقلعتها إلى أخيه الأكبر الملك المظفر، وبقي بيده قلعة بارين، فإنّها كانت له، وكان هو كالباحث عن حتفه بظلمه.

ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها

وفي هذه السنة، أوائل شوال، حصر جلال الدين خوارزم شاه مدينة خلاط، وهي للملك الأشرَف، وبها عسكره، فامتنعوا بها، وأعانهم أهل البلد خوفاً من جلال الدين لسوء سيرته، وأسرفوا في الشتم والسفه، فأخذه اللجاج معهم، وأقام عليهم جميع الشتاء محاصراً، وفرق كثيراً من عساكره في القرى والبلاد القريبة من شدّة البرد وكثرة الثلج، فإنّ خلاط من أشدّ البلاد برداً وأكثرها ثلجاً.

وأبان جلال الدين عن عزم قوي، وصبر تحار العقول منه، ونصب (٤٨٨/١٢) عليها عدّة مجانيق، ولم يزل يرميها بالحجارة حتّى خربت بعض سورها، فأعاد أهل البلد عمارته، ولم يزل مصابريهم وملازمهم إلى أواخر جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين [وستمائة]، فزحف إليها زحفاً متتابعاً وملكها عنوة وقهراً يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الأولى، سلّمها إليه بعض الأمراء غدراً.

فلَمَّا ملك البلد سعد من فيه من الأمراء إلى القلعة التي لها وامتنعوا بها، وهو منازلهم، ووضع السيف في أهل [البلد]، وقتل من وجد به منهم، وكانوا قد قتلوا، فإنّ بعضهم فارقه خوفاً، وبعضهم خرج منه من شدّة الجوع، وبعضهم مات من القلّة وعدم القوت، فإنّ الناس في خلاط أكلوا الغنم، ثم البقر، ثم الجواميس، ثم الخيل، ثم الحمير، ثم البغال والكلاب والسنانير، وسمعت أنّهم كانوا يصطادون الفأر ويأكلونه، وصبروا صبراً لم يلحقهم فيه أحد.

ولم يملك من بلاد خلاط غيرها، وما سواها من البلاد لم يكونوا ملكوه، وخربوا خلاط، وأكثروا القتل فيها، ومن سلم هرب في البلاد، وسبوا الحرّيم، واسترقوا الأولاد، وباعوا الجميع، فتمزّقوا كلّ ممزّق، وتفرّقوا في البلاد، ونهبوا الأموال، وجرى على أهلها ما لم يسمع بمثله أحد، لا جرم لم يمهل الله تعالى، وجرى عليه من الهزيمة بين المسلمين والنتر ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

في أواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام، ونهبوا بلادها، وأعمالها، وأسروا وسبوا، ومن جملة من ظفروا به طائفة كثيرة من التركمان، فأخذوا الجميع، ولم يسلم منهم إلّا النادر الشاذ، والله أعلم. (٤٨٩/١٢)

سنة سبع وعشرين وستمئة

ذكر انهزام جلال الدين من كيقباز والأشرف

في هذه السنة، يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان، انهزم جلال الدين ابن خوارزم شاه من عبد الله بن كيقباز بن كيخسرو بن قلع أرسلان، صاحب بلاد الروم، وقونية، وأقصر، وسيواس، وملطية، وغيرها؛ ومن الملك الأشرف، صاحب دمشق وديار الجزيرة وخراسان.

وسبب ذلك أن جلال الدين كان قد أطاعه صاحب أرزن الروم، وهو ابن عم علاء الدين، ملك الروم، وبينه وبين ملك الروم عداوة مستحكمة، وحضر صاحب أرزن الروم عند جلال الدين على خلاط، وأعان على حصرها، فخافهما علاء الدين، فأرسل إلى الملك الكامل، وهو حينئذ بحران، يطلب منه أن يحضر أخاه الأشرف من دمشق، فإنه كان مقيمًا بها بعد أن ملكها، وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفًا من جلال الدين، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق، فحضر عنده، ورسل علاء الدين إليهما متتابعة، يحث الأشرف على المجيء إليه والاجتماع به، حتى قيل إنه في يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف من علاء الدين خمسة رسل، ويطلب مع الجميع وصول الأشرف إليه ولو وحده، فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى علاء الدين، فاجتمعا بسيواس، وسارا نحو خلاط؛ فسمع جلال (٤٩٠/١٢) الدين بهما، فسار إليهما مجذًا في السير، فوصل إليهما بمكان يعرف بباسي حمار، وهو من أعمال أرزنجان، فالتقوا هناك.

وكان مع علاء الدين خلق كثير، قيل: كانوا عشرين ألف فارس، وكان مع الأشرف نحو خمسة آلاف فارس، إلا أنهم من العساكر الجيدة الشجعان، لهم السلاح الكثير، والدواب الفارغة من العربيات، وكل منهم قد جرب الحرب. وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن علي، وهو من الأكراد الهكاريّة، ومن الشجاعة في الدرجة العليا، وله الأوصاف الجميلة والأخلاق الكريمة.

فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر، ولا سيما لما رأى عسكر الشام، فإنه شاهد من تجملهم، وسلاحهم، ودوابهم ما ملأ صدره رعبًا، فأنشب عز الدين بن علي القتال، ومعه عسكر حلب، فلم يقدّم لهم جلال الدين ولا صبر، ومضى منهزمًا هو وعسكره وتمزقوا لا يولي الأخ على أخيه، وعادوا إلى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم، وعادوا إلى أذربيجان فنزلوا عند مدينة خوي، ولم يكونوا قد استولوا على شيء من أعمال خلاط سوى خلاط، ووصل الملك الأشرف إلى خلاط وقد استصحبوا معهم من فيها فبقيت خاوية على عروشها، خالية من

الأهل والسكان، قد جرى عليهم ما ذكرناه قبل.

ذكر ملك علاء الدين أرزن الروم

قد ذكرنا أن صاحب أرزن الروم كان مع جلال الدين على خلاط، ولم يزل معه، وشهد معه المصافاة المذكور، فلما انهزم جلال الدين أخذ صاحب (٤٩١/١٢) أرزن الروم أسيرًا، فأحضر عند علاء الدين كيقباز ابن عمه، فأخذه، وقصد أرزن الروم، فسلمها صاحبها إليه هي وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها، فكان كما قيل: خرجت النعمة تطلب قرنين، فعدت بلا أذنين.

وهكذا هذا المسكين جاء إلى جلال الدين يطلب الزيادة، فوعده بشيء من بلاد علاء الدين، فأخذ ماله وما يديه من البلاد وبقي أسيرًا، فسبحان من لا يزول ملكه.

ذكر الصلح بين الأشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين

لما عاد الأشرف إلى خلاط، ومضى جلال الدين منهزمًا إلى خوي، ترددت الرسل بينهما، فاصطالحوا كلّ منهم على ما بيده، واستقرت القواعد على ذلك، وتحالفوا، فلما استقرّ الصلح وجرت الأيمان عاد الأشرف إلى سنجان، وسار منها إلى دمشق، فأقام جلال الدين ببلاده من أذربيجان إلى أن خرج عليه التستر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك شهاب الدين غازي مدينة أرزن

كان حسام الدين صاحب مدينة أرزن من ديار بكر لم يزل مصاحبًا للملك الأشرف، مشاهدًا جميع حروبه وحوادثه، وينفق أمواله في طاعته، ويذل نفسه وعساكره في مساعدته، فهو يُعادي أعداءه، ويوالي أوليائه.

ومن جملة موافقته أنه كان في خلاط لما حصرها جلال الدين، فأمره (٤٩٢/١٢) جلال الدين، وأراد أن يأخذ منه مدينة أرزن، فقيل له: إن هذا من بيت قديم عريق في الملك، وإنه ورث أرزن هذه من أسلافه، وكان لهم سواها من البلاد فخرج الجميع من أيديهم؛ فعطف عليه ورق له، وأبقى عليه مدينته، وأخذ عليه العهود والمواثيق أنه لا يقاتله.

فلما جاء الملك الأشرف وعلاء الدين محاربين لجلال الدين لم يحضر معهم في الحرب، فلما انهزم جلال الدين سار شهاب الدين غازي ابن الملك العادل، وهو أخو الأشرف، وله مدينة ميافارقين، ومدينة حاني، وهو بمدينة أرزن، فحصره بها، ثم ملكها صلحًا، وعوّضه عنها بمدينة حاني من ديار بكر.

وحسام الدين هذا نعم الرجل، حسن السيرة، كريم، جواد، لا يخلو بابه من جماعة يردون إليه يستمنحونه، وسيرته جميلة في ولايته ورعيته، وهو من بيت قديم يقال له بيت طغان أرسلان، كان

له مع أرزن بدليس ووسطان وغيرهما، ويقال لهم بيت الأحذب، وهذه البلاد معهم من أيام ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، فأخذ بكثر صاحب خلاط منهم بدليس، أخذها من عم حسام الدين هذا، لأنه كان موافقاً لصلاح الدين يوسف بن أيوب، فقصده بكثر لذلك، وبقيت أرزن بيد هذا إلى الآن، فأخذت منه، ولكل أول آخر، فسبحان من لا أول له ولا آخر لبقائه. (٤٩٣/١٢)

ذكر ملك سونج قشالوا قلعة رويندز

وفي هذه السنة ظهر أمير من أمراء التركمان اسمه سونج، ولقبه شمس الدين، واسم قبيلته قشالوا، وقري أمره، وقطع الطريق، وكثر جمعه، وكان بين إربل وهمذان، وهو ومن معه يقطعون الطريق، ويفسدون في الأرض، ثم إنه تعدى إلى قلعة منيعة اسمها سارو، وهي لمظفر الدين، من أعمال إربل، فأخذها وقتل عندها أميراً كبيراً من أمراء مظفر الدين، فجمع مظفر الدين، وأراد استعادتها منه، فلم يمكنه لحصانتها، وكثرة الجموع مع هذا الرجل، فاصطلحا على ترك القلعة بيده.

وكان عسكر لجلال الدين بن خوارزم شاه يحصرون قلعة رويندز، وهي من قلاع أذربيجان، من أحصن القلاع وأمنعها، لا يوجد مثلاً، وقد طال الحصار على من بها فأذعنوا بالتسليم، فأرسل جلال الدين بعض خواص أصحابه وثقاته ليُسَلِّمَها، وأرسل معه الخلع والمال لمن بها، فلما صعد ذلك القاصد إلى القلعة وتسَلَّمَهَا أعطى بعض من بالقلعة، ولم يُعط البعض واستذلَّهم وطمع فيهم حيث استولى على الحصن، فلما رأى من لم يأخذ شيئاً من الخلع والمال ما فعل بهم أرسلوا إلى سونج يطلبونه ليسلِّموا إليه القلعة، فسار إليهم في أصحابه فسَلِّموها إليه، فسبحان من إذا أراد أمراً سهَّله.

قلعة رويندز هذه لم تنزل تنقاصر عنها قدرة أكابر الملوك وعظمائهم من قديم الزمان وحديثه، وتُضرب الأمثال بحصانتها، لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يملكها هذا الرجل الضعيف سهل له الأمور، فملكها بغير قتال ولا تعب، وأزال عنها أصحاب مثل جلال الدين الذي كل ملوك الأرض تهابه وتخافه، وكان أصحاب جلال الدين، كما قيل: رُب ساعٍ لقاعِد. (٤٩٤/١٢)

فلما ملكها سونج طمع في غيرها، ولا سيما مع اشتغال جلال الدين بما أصابه من الهزيمة ومجيء التتر، فنزل من القلعة إلى مراغة، وهي قريب منها، فحصرها، فأناه سهم غرب فقتله، فلما قُتل ملك [قلعة] رويندز أخوه، ثم إن هذا الأخ الثاني نزل من القلعة، وقصد أعمال تبريز ونهبها، وعاد إلى القلعة ليجعل فيها من ذلك النهب والغنيمة ذخيرة خوفاً من التتر، وكانوا قد خرجوا، فصادفه طائفة من التتر، فقتلوه، وأخذوا ما معه من النهب؛ ولما قُتل ملك القلعة ابن أخت له، وكان هذا جميعه في مدة سنتين، فأف لدنيا لا

تزال تتبع فرحة بترحة، وكل حنة بسينة. (٤٩٥/١٢)

سنة ثمان وعشرين وستمائة

ذكر خروج التتر إلى أذربيجان وما كان منهم

في هذه السنة وصل التتر من بلاد ما وراء النهر إلى أذربيجان، وقد ذكرنا قبل كيف ملكوا ما وراء النهر، وما صنعوه بخراسان وغيرها من البلاد، من النهب، والتخريب، والقتل، واستقر ملكهم بما وراء النهر، وعادت بلاد ما وراء النهر فأنعمت، وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم عظيمة، وبقيت مدن خراسان خراباً لا يجسر أحد من المسلمين [أن] يسكنها.

وأما التتر فكانوا تغير كل قليل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها، فالبلاد خاوية على عروشها، فلم يزالوا كذلك إلى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين [وستمائة]، فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه، ويقروا كذلك، فلما كان الآن، وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباز ومن الأشرف، كما ذكرناه سنة سبع وعشرين [وستمائة]، أرسل مقدم الإسماعيلية الملاحدة إلى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه، ويحثهم على قصده عقيب الضعف، ويضمن لهم الظفر به للوهن الذي صار إليه.

وكان جلال الدين سعى السيرة، يبيع التدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاده، ونازعه الملك، وأساء مجاورته، فمن ذلك أنه أول ما ظهر في أصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان، فحصر مدينة ششتر، وهي للخليفة، وسار إلى دقوقا فنهبا، وقتل فيها فأكثر، وهي للخليفة أيضاً، (٤٩٦/١٢) ثم ملك أذربيجان، وهي لأوزبك، وقصد الكرج وهزمهم وعادهم، ثم عادى الملك الأشرف، صاحب خلاط، ثم عادى علاء الدين، صاحب بلاد الروم، وعادى الإسماعيلية، ونهب بلادهم، وقتل فيهم فأكثر، وقرّر عليهم وظيفة من المال كل سنة، وكذلك غيرهم، فكل من الملوك تخلى عنه، ولم يأخذ بيده.

فلما وصلت كتب مقدم الإسماعيلية إلى التتر يستدعيهم إلى قصد جلال الدين يادر طائفة منهم فدخلوا بلادهم واستولوا على الريّ وهمذان وما بينهما من البلاد، ثم قصدوا أذربيجان فخرَّبوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها؛ وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاها، ولا يقدر أن يمنعه عن البلاد، قد ملئ رعباً وخوفاً، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلفوا عليه، وخرج وزيره عن طاعته في طائفة كثيرة من العسكر.

وكان السبب غريباً أظهر من قلّة عقل جلال الدين ما لم يُسمع بمثله، وذلك أنه كان له خادم خصي، وكان جلال الدين يهواه، واسمه قلعج، فاتفق أن الخادم مات، فأظهر من الهلع والجزع عليه

ما لم يُسمع بمثله، ولا لمجنون ليلى، وأمر الجند والأمرء أن يمشوا في جنازته رجالة، وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ، فمشى الناس رجالة، ومشى بعض الطريق راجلاً، فالزمه أمراؤه ووزيره بالركوب، فلماً وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد، فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقي تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يُعدوا، ولم يُظهروا من الحزن والبكاء أكثر ممّا فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم. ثمّ لم يُدفن ذلك الخصى، وإنّما يستصحبه معه حيث سار، وهو يلطم ويكي، فامتنع من الأكل والشرب، وكان إذا قُدّم له طعام يقول: احملوا من هذا إلى فلان، يعني الخادم، ولا يتجاسر أحد [أن] يقول إنّ مات، فإنّه قيل له مرّة (٩٩٧/١٢) إنّ مات، فقتل القاتل له ذلك، إنّما كانوا يحملون إليه الطعام، ويعودون فيقولون: إنّهُ يقبّل الأرض ويقول: إنّني الآن أصلح ممّا كنت؛ فلقى أمراؤه من الغضب والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره، فبقي حيران لا يدرى ما يصنع، ولا سيّما لما خرج التتر، فحينئذ دُفن الغلام الخصى، وراسل الوزير واستماله وخدعه إلى أن حضر عنده، فلماً وصل إليه بقي آياتاً وقلته جلال الدين، وهذه نادرة غريبة لم يُسمع بمثله.

ذكر ملك التتر مراغة

وفي هذه السنة حصر التتر مراغة من أذربيجان، فامتنع أهلها، ثمّ أذعن أهلها بالتسليم على أمان طلبوه، فبذلوا لهم الأمان، وتسلموا البلد وقتلوا فيه إلاّ أنّهم لم يُكثروا القتل وجعلوا في البلد شحنة، وعظم حينئذ شأن التتر، واشتدّ خوف الناس منهم بأذربيجان، فآله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كلّ منهم مُقبِلٌ على لهوه ولعبه وظلم رعيّته، وهذا أخوف عندي من العدو، وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

ذكر وصول جلال الدين إلى آمد وانهزامه عندها وما كان منه

لمّا رأى جلال الدين ما يفعله التتر في بلاد أذربيجان، وأنهم مقيمون بها يقتلون، وينهبون، ويأسرون، ويخربون البلاد، ويجبون الأموال، وهم (٩٩٨/١٢) عازمون على قصده، ورأى ما هو عليه من الوهن والضعف، فارق أذربيجان إلى بلاد خلاط، وأرسل إلى النائب بها عن الملك الأشرف ويقول له: ما جئنا للحرب ولا للأذى، إنّما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم.

وكان عازماً على أن يقصد ديار بكر والجزيرة، ويقصد باب الخليفة يستجده وجميع الملوك على التتر، ويطلب منهم المساعدة على دفعهم، ويحذرهم عاقبة إهمالهم، فوصل إلى خلاط، قبله أنّ التتر يطلبونه، وهم مجذّبون في أثره، فسار إلى آمد، وجعل له اليك

فلما فعل التتر بهم ذلك، ومضى منهزماً منهم، دخلوا ديار بكر في طلبه، لأنّهم لم يعلموا أين قصد، ولا أيّ طريق سلك، فسبحان من بدّل أمنهم خوفاً، وعزّهم ذلّاً، وكثرتهم قلّة، فتبارك الله ربّ العالمين الفعّال لما يشاء. (٩٩٩/١٢)

ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد لمّا انهزم جلال الدين من التتر على آمد نهب التتر سواد آمد وأرزن وميفارقين وقصدوا مدينة أسعد، فقاتلهم أهلها، فبذل لهم التتر الأمان، فوثقوا منهم واستسلموا، فلماً تمكّن التتر منهم وضعوا فيهم السيف وقتلوه حتّى كادوا ياتون عليهم، فلم يسلم منهم إلاّ من اختفى؛ وقليل ما هم.

حكى لي بعض التجار، وكان قد وصل آمد، أنّهم حزروا القتل ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل، وكان مع هذا التاجر جارية من أسعد، فذكرت أنّ سيدها خرج ليقاتل، وكان له أمّ، فمئنته، ولم يكن لها ولد سواه، فلم يصغ إلى قولها، فمشت معه، فقتل جميعاً، وورثها ابن أخ للأُمّ فباعها من هذا التاجر، وذكر من كثرة القتل أمراً عظيماً، وأنّ مدّة الحصار كانت خمسة أيّام.

ثمّ ساروا منها إلى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك، وساروا من طنزة إلى واد بالقرب من طنزة يقال له وادي القرّيشيّة، فيه مائة جارية، وبساتين كثيرة، والطريق إليه ضيق، فقاتلهم أهل القرّيشيّة فمئعومهم عنه، وامتنعوا عليهم، وقُتل بينهم كثير، فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضاً، وساروا في البلاد لا مانع يمنهم، ولا أحد يقف بين أيديهم، فوصلوا إلى ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها، واحتّمى صاحب ماردين وأهل دُنيسر بقلعة ماردين، وغيرهم ممّن جاور القلعة احتّمى بها أيضاً.

ثمّ وصلوا إلى نصيبين الجزيرة، فأقاموا عليها بعض نهار، ونهبوا سوادها (١٠٠٠/١٢) وقتلوا من ظفروا به، وغلقت أبوابها،

ذكر وصول طائفة من التتر إلى إربل ودقوقا

في هذه السنة، في ذي الحجة، وصل طائفة من التتر من أذربيجان إلى أعمال إربل، قتلوا من على طريقهم من التركمان الإيوانية والأكراد الجوزقان وغيرهم إلى أن دخلوا بلد إربل، فنهبوا القرى، وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الأعمال، وعملوا الأعمال الشنيعة التي لم يُسمع بمثلها من غيرهم.

وبرز مظفر الدين، صاحب إربل، في عساكره، واستمد عساكر الموصل فساروا إليه، فلما بلغه عود التتر إلى أذربيجان أقام في بلاده [ولم يتبعهم]، فوصلوا إلى بلد الكرخبني، وبلد دقوقا، وغير ذلك، وعادوا سالمين لم (٥٠٢/١٢) يذعرهم أحد، ولا وقف في وجوههم فارس.

وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها، فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين، ويرحمهم، ويردّ هذا العدو عنهم، وخرجت هذه السنة ولم تتحقق لجلال الدين خيراً، ولا نعلم هل قُتل، أو اختفى، لم يظهر نفسه خوفاً من التتر، أو فارق البلاد إلى غيرها، والله أعلم.

ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتر

في أواخر هذه السنة أطاع أهل بلاد أذربيجان جميعها للتتر، وحملوا إليهم الأموال والثياب الخطائي، والخوي، والعتابي، وغير ذلك، وسبب طاعتهم أن جلال الدين لما انهزم على آمد من التتر، وتفرقت عساكره، وتمزقوا كل ممزق، وتخطفهم الناس، وفعل التتر بديار بكر والجزيرة وإربل وخلاط ما فعلوا، ولم يمنعه أحد، ولا وقف في وجوههم واقف، وملوك الإسلام منجرحون في الأتقاب، وانضاف إلى هذا انقطاع أخبار جلال الدين، فإنه لم يظهر له خبر، ولا علموا له حالة، سقط في أيديهم، وأذعنوا للتتر بالطاعة، وحملوا إليهم ما طلبوا منهم من الأموال والثياب.

من ذلك مدينة تبريز التي هي أصل بلاد أذربيجان، ومرجع الجميع إليها وإلى من بها، فإن ملك التتر نزل في عساكره بالقرب منها، وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته، ويتهددهم إن امتنعوا عليه، فأرسلوا إليه المال الكثير، والتحف من أنواع الثياب الإبريسم وغيرها، وكل شيء حتى الخمر، وبذلوا له الطاعة، فأعاد الجواب يشكرهم، ويطلب منهم أن يحضر مقدّموهم عنده، فقصده قاضي البلد ورئيسه، وجماعة من أعيان أهله، وتخلّف عنهم (٥٠٣/١٢) شمس الدين الطغراني، وهو الذي يرجع الجميع إليه، إلا أنه لا يظهر شيئاً من ذلك.

فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغراني من الحضور فقالوا: إنه رجل منقطع، ما له بالملوك تعلّق، ونحن الأصل؛ فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صنّاع الثياب الخطائي

فعادوا عنها، ومضوا إلى بلد سنجار، ووصلوا إلى الجبال من أعمال سنجار، فنهبوا ودخلوا إلى الخابور، فوصلوا إلى عرابان، فنهبوا، وقتلوا، وعادوا.

ومضى طائفة منهم على طريق الموصل، فوصل القوم إلى قرية تسمى المؤنسة، وهي على مرحلة من نصيبين، بينها وبين الموصل، فنهبوا واحتمى أهلها وغيرهم بخان فيها، فقتلوا كل من فيه.

وحكي لي عن رجل منهم أنه قال: اختفيت منهم بيت في تين، فلم يظفروا بي، وكنت أراهم من نافذة في البيت، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان، فيقول: لا بالله، فيقتلونه، فلما فرغوا من القرية، ونهبوا ما فيها، وسبوا الحريم، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل، ويضحكون، ويُغنون بلغتهم بقول: لا بالله.

ومضى طائفة منهم إلى نصيبين الروم، وهي على الفرات، وهي من أعمال آمد، فنهبوا، وقتلوا فيها، ثم عادوا إلى آمد، ثم إلى بلد بدليس، فتحصّن أهلها بالقلعة والجبال، فقتلوا فيها يسيراً، وأحرقوا المدينة.

وحكى إنسان من أهلها قال: لو كان عندنا خمس مائة فارس لم يسلم من التتر أحد لأن الطريق ضيق بين الجبال، والقليل يقدر على منع الكثير.

ثم ساروا من بدليس إلى خلاط، فحاصروا مدينة من أعمال خلاط يُقال لها: باكري، وهي من أحصن البلاد، فملكوها عنوة، وقتلوا كل من بها، وقصدوا مدينة أرجيش من أعمال خلاط، وهي مدينة كبيرة عظيمة، ففعلوا كذلك، وكان هذا في ذي الحجة.

ولقد حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقي الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم (٥٠١/١٢) واحداً بعد واحد، لا يتجاسر أحد [أن] يمدّ يده إلى ذلك الفارس.

ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً، ولم يكن مع التري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح؛ فوضع رأسه على الأرض، ومضى التري فأحضر سيفاً وقتله به.

وحكى لي رجل قال: كنت أنا ومعني سبعة عشر رجلاً في طريق، فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضاً، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا: نخاف. فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا؛ فوالله ما جسر أحد [أن] يفعل، فأخذت سكيناً وقتلته وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثير.

وفيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة، وهي بين جملة المدن المضافة إلى حلب، ودخلوا إليها، وأخذوا منها غنيمة وأسرى، فسير أتابك شهاب الدين إليهم العساكر مع أمير كان أقطعها، فقاتل الفرنج، وقتل منهم كثيراً واسترد الأسرى والغنيمة. (٥٠٥/١٢)

وفيها توفي القاضي ابن غنائم بن العديم الحلبي، الشيخ الصالح، وكان من المجتهدين في العبادة والرياضة والعاملين بعلمه، فلو قال قائل: إنه لم يكن في زمانه أعبد منه، لكان صادقاً، فرضي الله عنه وأرضاه، فإنه من جملة شيوخنا، سمعنا عليه الحديث، وانتفعنا برويته وكلامه.

وفيها أيضاً في الثاني عشر من ربيع الأول توفي صديقنا أبو القاسم عبد المجيد بن العجمي الحلبي، وهو وأهل بيته مقدّمو السنة بحلب، وكان رجلاً ذا مروءة غزيرة، وخلق حسن، وحلم وافر، ورئاسة كثيرة، يحب إطعام الطعام، وأحب الناس إليه من يأكل طعامه، ويقبل برّه، وكان يلقي أضيافه بوجه منبسط ولا يقعد عن إيصال راحة، وقضاء حاجة، فرحمه الله رحمة واسعة.

وغيرها، ليستعمل لملكهم الأعظم، فإن هذا هو من أتباع ذلك الملك، فأحضروا الصناع، فاستعملهم في الذي أرادوا، ووزن أهل تبريز الثمن، وطلب منهم خركة لملكه أيضاً، فعملوا له خركة لم يعمل مثلها، وعملوا غشاهما من الأطلس الجيد المزركش، وعملوا من داخلها السّمور والقندّر، فجاءت عليهم بجملة كثيرة، وقرّر عليهم شيئاً من المال كل سنة، وتردّت رسلهم إلى ديوان الخلافة وإلى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم لا ينصرون خوارجهم شاه.

ولقد وقت على كتاب وصل من تاجر من أهل الري في العام الماضي، قبل خروج التتر، فلما وصل التتر إلى الري وأطاعهم أهلها، وساروا إلى أذربيجان، سار هو معهم إلى تبريز، فكتب إلى أصحابه بالموصل يقول: إن الكافر، لعنه الله، ما تقدر [أن] نصفه، ولا تذكر جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين، فإن الأمر عظيم، ولا تظنّوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور، والطائفة الأخرى التي وصلت إلى إربل ودقوقا، كان قصدهم النهب، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردّهم أم لا، فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومُدافع، وأن البلاد خالية من ملك وعساكر، فقوي طمعهم، وهم في الربيع يقصدونكم، وما يبقى عندكم مقام، إلا أن كان في بلد الغرب، فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها، فانظروا لأنفسكم. (٥٠٤/١٢)

هذا مضمون الكتاب، فإننا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما جلال الدين فإلى آخر سنة ثمان وعشرين [وستمائة] لم يظهر له خبر، وكذلك إلى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال، والله المستعان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قلت الأمطار بديار الجزيرة والشام، ولا سيما حلب وأعمالها فإنها كانت قليلة بالمرة، وغلت الأسعار بالبلاد، وكان أشدها غلاء حلب، إلا أنه لم يكن بالشديد مثل ما تقدّم في السنين الماضية، فأخرج أتابك شهاب الدين، وهو والي الأمر بحلب، والمرجع إلى أمره ونهيه، وهو المدبّر لدولة سلطانها الملك العزيز ابن الملك الظاهر، والمرتبّي له، من المسالك والغلات كثيراً، وتصدّق صدقات دارة، وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر، فجزاه الله خيراً.

وفيها بنى أسد الدين شيركوه، صاحب حمص والرحبة، قلعة عند سلمية، وسماها سُميس، وكان الملك الكامل لما خرج من مصر إلى الشام قد خدمه أسد الدين، ونصح له، وله أثر عظيم في طاعته والمقاتلة بين يديه، فأقطعه مدينة سلمية، فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية، وهي على تل عال.

المحتويات

٣٩	ذكر عدو الله نمرود وهلاكه.....	١١	مقدمة المؤلف.....
٣٩	ذكر قصة لوط وقومه.....	١٣	ذكر الوقت الذي ابتدئ فيه بعمل التاريخ في الإسلام.....
	ذكر وفاة سارة زوج إبراهيم، عليه السلام وذكر أولاده	١٣	القول في الزمان.....
٤٠	وأزواجه.....	١٣	القول في جميع الزمان من أوله إلى آخره.....
٤١	ذكر وفاة إبراهيم وعدد ما أنزل عليه.....	١٤	القول في ابتداء الخلق وما كان أوله.....
٤١	ذكر خبر ولد إسماعيل بن إبراهيم.....	١٤	القول فيما خلق بعد القلم.....
٤٢	قصة أيوب، عليه السلام.....	١٥	القول في الليل والنهار أيهما خلق قبل صاحبه.....
٤٤	ذكر قصة يوسف، عليه السلام.....		قصة إبليس، لعنه الله، وابتداء أمره وإطاعته آدم، عليه
٤٩	قصة شعيب، عليه السلام.....	١٦	السلام.....
٤٩	قصة الخضر وخبره مع موسى.....		ذكر الأخبار بما كان لإبليس، لعنه الله، من الملك
٥١	ذكر الخبر عن منوچهر والحوادث في أيامه.....	١٦	وذكر الأحداث في ملكه.....
	قصة موسى، عليه السلام، ونسبه وما كان في أيامه من	١٧	ذكر خلق آدم، عليه السلام.....
٥٢	الأحداث.....	١٨	الأسماء التي علمها الله آدم.....
	ذكر أمر بني إسرائيل في التيه وف وفاة هارون، عليه	١٨	ذكر إسكان آدم الجنة وإخراجه منها.....
٥٩	السلام.....		ذكر اليوم الذي أسكن آدم فيه الجنة واليوم الذي
٥٩	ذكر وفاة موسى، عليه السلام.....	١٩	أخرج فيه منها واليوم الذي تاب فيه.....
٦٠	ذكر يوشع بن نون، عليه السلام وفتح مدينة الجبارين ...	١٩	ذكر الموضع الذي أهبط فيه آدم وحواء من الأرض.....
٦١	ذكر أمر قارون.....	٢٠	ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق.....
٦١	ذكر من ملك من الفرس بعد منوچهر.....	٢١	ذكر الأحداث التي كانت في عهد آدم في الدنيا.....
٦٢	ذكر ملك كيقباز.....	٢٢	ذكر ولادة شيث.....
	ذكر الأحداث في بني إسرائيل في عهد زو وكيقباز	٢٣	ذكر وفاة آدم، عليه السلام.....
٦٢	ونبوة جزييل.....	٢٤	ذكر شيث بن آدم، عليه السلام.....
٦٢	ذكر إلياس، عليه السلام.....		ذكر الأحداث التي كانت من لدن ملك شيث إلى أن
	ذكر نبوة اليسع، عليه السلام وأخذ الصابوت من بني	٢٤	ملك يزدد.....
٦٣	إسرائيل.....	٢٥	ذكر يرد.....
٦٤	ذكر حال اشمويل وطالوت.....	٢٥	ذكر ملك طهمورث.....
٦٥	ذكر ملك داود.....	٢٥	ذكر خنوخ وهو إدريس، عليه السلام.....
٦٥	ذكر فتنه بزوجة أوريا.....	٢٦	ذكر ملك جمشيد.....
٦٦	ذكر بناء بيت المقدس وف وفاة داود، عليه السلام.....	٢٧	ذكر الأحداث التي كانت في زمن نوح عليه السلام.....
٦٧	ذكر ملك سليمان بن داود، عليه السلام.....	٢٨	ذكر بيوراسب وهو الازدهاق يسميه العرب الضحّاك.....
٦٧	ذكر ما جرى له مع بلقيس.....	٢٩	ذكر ذرية نوح، عليه السلام.....
	ذكر غزوته أبا زوجته جرادة ونكاحها وعبادة الصنم	٣١	ذكر ملك أفريدون.....
٦٩	في داره وأخذ خاتمه وعوده إليه.....		ذكر الأحداث التي كانت بين نوح وإبراهيم
٧٠	ذكر وفاة سليمان.....	٣١	ذكر إبراهيم الخليل، عليه السلام ومن كان في عصره من
٧١	ذكر من ملك من الفرس بعد كيقباز.....	٣٣	ملوك العجم.....
٧١	ذكر ملك كيخسرو بن سباوخش بن كيكائوس.....		ذكر هجرة إبراهيم، عليه السلام، ومن آمن معه.....
٧٢	ذكر أمر بني إسرائيل بعد سليمان.....	٣٥	ذكر ولادة إسماعيل، عليه السلام وحمله إلى مكة.....
٧٢	ذكر محاربة أسا بن أيا ورزح الهندي.....	٣٦	ذكر عمارة البيت الحرام بمكة.....
	ذكر شعيا والملك الذي معه من بني إسرائيل ومسير	٣٧	ذكر من قال إنه إسحاق.....
٧٣	ستحاريب إلى بني إسرائيل.....		ذكر من قال إن الذئب إسماعيل، عليه السلام.....
٧٤	ذكر ملك لهراسب وابنه بشتاسب وظهور زرادشت.....		ذكر السبب الذي من أجله أمر إبراهيم بالذئب وصفة
٧٥	ذكر مسير بخت نصر إلى بني إسرائيل.....	٣٨	الذئب.....
٧٨	ذكر غزو بخت نصر العرب.....	٣٨	ذكر ما امتحن الله به إبراهيم، عليه السلام.....
٧٨	ذكر بشتاسب والحوادث في ملكه وقتل أبيه لهراسب.....		

ذكر ملك ابنه بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير.....	١١١
ذكر ملك ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور.....	١١١
ذكر ملك نرسي بن بهرام.....	١١١
ذكر ملك هرمز بن نرسي بن بهرام بن بهرام بن هرمز.....	١١١
ذكر ملك ابنه سابور ذي الأكتاف.....	١١١
سبب تنصّر قسطنطين.....	١١٢
ذكر ملك أردشير بن هرمز بن نرسي بن بهرام بن سابور بن أردشير بن بابك أخي سابور.....	١١٣
ذكر ملك سابور بن سابور ذي الأكتاف.....	١١٣
ذكر ملك أخيه بهرام بن سابور ذي الأكتاف.....	١١٣
ذكر ملك يزْدَجَرْدُ الأثيم بن بهرام ابن سابور ذي الأكتاف.....	١١٣
ذكر ملك بهرام بن يزْدَجَرْدُ الأثيم.....	١١٤
ذكر ملك ابنه يزْدَجَرْدُ بن بهرام جور.....	١١٥
ذكر ملك فيروز بن يزْدَجَرْدُ بن بهرام بعد أن قتل أخاه هرمز وثلاثة من أهل بيته.....	١١٥
ذكر الأحداث في العرب أيام يزْدَجَرْدُ وفيروز.....	١١٦
ذكر ملك بلاش بن فيروز بن يزْدَجَرْدُ.....	١١٧
ذكر ملك قباذ بن فيروز بن يزْدَجَرْدُ.....	١١٧
ذكر حوادث العرب أيام قباذ.....	١١٨
ذكر ملك لَحْثِيْعَة.....	١٢٠
ذكر ملك ذي نواس وقصة أصحاب الأخدود.....	١٢٠
ذكر ملك الحبشة اليمين.....	١٢٢
ذكر ملك كسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز بن يزْدَجَرْدُ بن بهرام جور بن يزْدَجَرْدُ الأثيم.....	١٢٣
ذكر ملك كسرى بلاد الروم.....	١٢٤
ذكر ما فعله أنوشروان بأرمينية وأذربيجان.....	١٢٤
ذكر أمر الفيل.....	١٢٥
ذكر عود اليمين إلى حمير وإخراج الحبشة عنه.....	١٢٦
ذكر ما أحدثه قريش بعد الفيل.....	١٢٧
ذكر حلف المطّيين والأحلاف.....	١٢٨
ذكر ما فعله كسرى في أمر الخراج والجند.....	١٢٨
ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم.....	١٢٩
ذكر قتل تميم بالمشقر.....	١٣٢
ذكر ملك ابنه هرمز بن أنوشروان.....	١٣٢
ذكر ملك كسرى أبريز بن هرمز.....	١٣٣
ذكر ما رأى كسرى من الآيات بسبب رسول الله صلى الله عليه وسلم.....	١٣٥
ذكر وقعة ذي قار وسببه.....	١٣٦
ذكر ملوك الحيرة بعد عمرو بن هند.....	١٣٨
ذكر المروزان وولايته اليمين من قبل هرمز.....	١٣٨
ذكر قتل كسرى أبريز.....	١٣٩
ذكر ملك كسرى شيرويه بن أبريز ابن هُرْمُز بن	

ذكر الخبر عن ملوك بلاد اليمن من أيام كيكاووس إلى أيام بهمن بن إسفنديار.....	٧٩
ذكر خبر أردشير بهمن وابنته خماني.....	٧٩
ذكر خبر دارا الأكبر وابنته دارا الأصغر وكيف كان هلاكه مع خبر ذي القرنين.....	٨٠
ذكر الإسكندر ذي القرنين.....	٨٠
ذكر من ملك قومه بعد الإسكندر.....	٨٣
ذكر أخبار ملوك الفرس.....	٨٤
بعد الإسكندر وهم ملوك الطوائف.....	٨٤
ذكر ملك أشك بن أشكان.....	٨٤
ذكر ملك جودرز.....	٨٤
ذكر الأحداث أيام ملوك الطوائف، فمن ذلك ذكر المسيح عيسى بن مريم ويحيى بن زكرياء، عليهم السلام.....	٨٥
ذكر قتل زكريا.....	٨٧
ذكر ولادة المسيح، عليه السلام ونبوته إلى آخر أمره.....	٨٧
ذكر نبوة المسيح وبعض معجزاته.....	٨٩
ذكر نزول المائدة.....	٩٠
ذكر رفع المسيح إلى السماء ونزوله إلى أمته وعوده إلى السماء.....	٩٠
ذكر من ملك من الروم بعد رفع المسيح إلى عهد نبينا محمّد، صلى الله عليه وسلم.....	٩١
ذكر ملوك الروم، وهم ثلاث طبقات.....	٩٢
الطبقة الأولى الصابئون.....	٩٢
الطبقة الثانية من ملوك الروم المنتصرة.....	٩٤
ذكر الطبقة الثالثة من ملوك الروم بعد الهجرة.....	٩٦
ذكر وصول قبائل العرب إلى العراق ونزولهم بالحيرة.....	٩٨
ذكر جذيمة الأبرش.....	٩٨
ذكر طسم وجديس وكانوا أيام ملوك الطوائف.....	١٠١
ذكر أصحاب الكهف، وكانوا أيام ملوك الطوائف.....	١٠١
ذكر يونس بن متى.....	١٠٣
ومما كان من الأحداث أيام ملوك الطوائف.....	١٠٤
ومما كان من الأحداث شمسون.....	١٠٥
ومما كان من الأحداث جرجيس أيضاً.....	١٠٥
ذكر خالد بن سنان العيصي.....	١٠٧
ذكر طبقات ملوك الفرس.....	١٠٧
* الطبقة الثانية الكيانية.....	١٠٨
الطبقة الثالثة الأشغانية.....	١٠٨
الطبقة الرابعة الساسانية.....	١٠٨
ذكر أخبار أردشير بن بابك وملوك الفرس.....	١٠٨
ذكر ملك سابور بن أردشير بن بابك.....	١٠٩
ذكر خبر مدينة الحضر.....	١١٠
ذكر ملك ابنه هُرْمُز بن سابور بن أردشير بن بابك.....	١١٠
ذكر ملك ابنه بهرام بن هرمز بن سابور.....	١١١

١٧٦	يوم قَيْف الريح	١٣٩	أنوشروان
١٧٧	يوم اليحاميِّم ويُعرف أيضاً بقارات حُوق	١٤٠	ذكر ملك أردشير
١٧٧	يوم ذي طلوح	١٤٠	ذكر ملك شهربراز
١٧٨	يوم أَقْرُن	١٤١	ذكر ملك بوران ابنة أبرويز بن هرمز بن أنوشروان
١٧٨	يوم السِّلَان	١٤١	ذكر ملك آرميدخت ابنة أبرويز
١٧٩	يوم ذي علق	١٤١	ذكر ملك يزدرجد بن شهريار بن أبرويز
١٧٩	يوم الرُّقَم	١٤١	ذكر أيام العرب في الجاهلية
١٧٩	يوم ساحوق		ذكر حرب زهير بن جناب الكلبي مع غطفان وبكر
١٧٩	يوم أغيار ويم الثَّيْبَة	١٤١	وتغلب وبني القين
١٨٠	يوم النِّبَاة	١٤٢	ذكر يوم البردان
١٨٠	يوم القرات		ذكر مقتل حُجر أبي امرئ القيس والحروب الحادثة
١٨٠	يوم بارق	١٤٤	بمقتله إلى أن مات امرؤ القيس
١٨٠	يوم طخفة	١٤٦	يوم خَزَاز
١٨١	يوم النَّبَاج وَثَيْل	١٤٧	ذكر مقتل كَلْبٍ والأيام بين بكر وتغلب
١٨١	يوم فُلج	١٥١	ذكر الحرب بين الحارث الأعرج وبني تغلب
١٨٢	يوم السَّيْطِين	١٥١	يوم عين أباغ
١٨٢	أيام الأنصار، وهم الأوس والخزرج، التي جرت بينهم	١٥٢	يوم مرج حَلِمة وقَتْل المُنْدَر بن المنذر بن ماء السماء
	ذكر غلبة الأنصار على المدينة وضعف أمر اليهود بها	١٥٣	ذكر قَتْل مُضَرَّط الحجارة
١٨٢	وقتل الفُطَيْون	١٥٤	يوم الكلاب الأوَّل
١٨٣	حرب سُمَيْر	١٥٥	يوم أواره الأوَّل
١٨٣	ذكر حرب كعب بن عمرو المازنيّ	١٥٥	يوم أواره الثاني
	ذكر الحرب بين بني عمرو بن عوف وبني الحارث،		ذكر قتل زُهَيْر بن جَذِيمة وخالد بن جعفر بن كلاب
١٨٤	وهو يوم السَّرَاة	١٥٦	والحارث بن ظالم المرِّي وذكر يوم الزَّحْرَحَان
١٨٤	حرب الحُصَيْن بن الأسلت	١٥٨	أيام داحس والغبراء، وهي بين عبس وذبيان
١٨٥	حرب ربيع الظَّفَرِيّ	١٦٣	يوم شَيْغَب جَبَلَة
١٨٥	حرب فارغ بسبب الغلام القُضَاعِيّ	١٦٤	يوم ذات نَكِيف
١٨٦	حرب حاطب	١٦٥	ذكر الفِجَار الأوَّل والثاني
١٨٦	يوم الربيع	١٦٧	يوم ذي نَجَب
١٨٧	يوم البقيع	١٦٧	يوم نَعْف قشاوة
١٨٧	يوم الفِجَار الأوَّل للأنصار	١٦٧	يوم الفَيْط
١٨٧	يوم مُعَسَّ ومُضَرَّس	١٦٨	يوم لَشِيَّان على بني تميم
١٨٨	يوم الفِجَار الثاني للأنصار	١٦٨	يوم مَبَانِض
١٨٨	يوم بَعَاث	١٦٩	يوم الزُّوَيْرِيْن
	ذكر غلبة ثَقِيف على الطائف والحرب بين الأحلاف	١٧٠	ذكر أسر حاتم طيّ
١٨٩	وبني مالك	١٧٠	يوم مُسَخْلَان
	نسب رسول الله، صلى الله عليه وسلم وذكر بعض أخبار	١٧٠	حرب لَسْلِيم وشيَّان
١٩٠	آبائه وأجداده	١٧٠	يوم جَدُود
١٩٢	ابن عبد المطلب	١٧١	يوم الإياد، وهو يوم أعشاش ويوم العُظَالِيّ
١٩٢	سبب حفر بئر زمزم	١٧١	يوم الشَّقِيقَة وقَتْل بسطام بن قيس
١٩٣	عبد المطلب وجاره اليهودي	١٧٢	يوم النَّسَار
١٩٣	ابن هاشم	١٧٣	يوم الفِجَار
١٩٤	ابن عبد مناف	١٧٣	يوم الصَّفَقَة والكلاب الثاني
١٩٤	ابن قُصَيّ	١٧٤	يوم ظهر الدهناء
١٩٥	ابن كِلَاب	١٧٥	يوم الرِّقِيط
١٩٥	ابن مرّة	١٧٦	يوم المَرُوت

٢٢٠.....	ذكر سرية عبد الله بن جحش	١٩٥.....	ابن كعب
٢٢١.....	ذكر غزوة بدر الكبرى	١٩٦.....	ابن لؤي
٢٢٧.....	ذكر غزوة بني القينقاع	١٩٦.....	ابن غالب
٢٢٨.....	ذكر غزوة الكدّر	١٩٦.....	ابن فهر
٢٢٨.....	ذكر غزوة السويق	١٩٦.....	ابن مالك
٢٢٨.....	السنة الثالثة من الهجرة	١٩٦.....	ابن النضر
٢٢٨.....	ذكر قتل كعب بن الأشرف اليهودي	١٩٦.....	ابن كنانة
٢٢٩.....	ذكر قتل أبي رافع	١٩٦.....	ابن خزيمة
٢٣٠.....	ذكر غزوة أحد	١٩٧.....	ابن مذكاة
٢٣٤.....	ذكر غزوة حمراء الأسد	١٩٧.....	ابن إلياس
٢٣٥.....	السنة الرابعة من الهجرة	١٩٧.....	ابن مضر
٢٣٥.....	ذكر غزوة الرجيع	١٩٧.....	ابن نزار
٢٣٥.....	ذكر إرسال عمرو بن أمية لقتل أبي سفيان	١٩٨.....	ابن معدّ
٢٣٦.....	ذكر بئر معونة	١٩٨.....	ابن عذنان
٢٣٦.....	ذكر إجلاء بني النضير	١٩٨.....	ذكر الفواطم والعواتك
٢٣٧.....	غزوة ذات الرقاع	١٩٩.....	عدنا إلى ذكر النبي
٢٣٧.....	ذكر غزوة بدر الثانية	١٩٩.....	ذكر نكاح النبي، صلى الله عليه وسلم، خديجة
٢٣٧.....	السنة الخامسة من الهجرة	٢٠٠.....	ذكر حلف الفضول
٢٣٨.....	ذكر غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب	٢٠٠.....	ذكر هدم قريش الكعبة وبنائها
٢٤٠.....	ذكر غزوة بني قريظة	ذكر الوقت الذي أرسل فيه رسول الله صلى الله عليه
٢٤٠.....	سنة ست من الهجرة	٢٠١.....	وسلم
٢٤٠.....	ذكر غزوة بني لحيان	٢٠١.....	ذكر ابتداء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم
٢٤١.....	ذكر غزوة ذي قرد	٢٠٢.....	ذكر المعراج برسول الله، صلى الله عليه وسلم
٢٤١.....	ذكر غزوة بني المصطلق من خزاعة	٢٠٤.....	ذكر الاختلاف في أول من أسلم
٢٤٢.....	حديث الإلك	ذكر أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، بإظهار
٢٤٣.....	ذكر عمرة الحديبية	٢٠٥.....	دعوته
٢٤٧.....	ذكر مكتبة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الملوك	٢٠٧.....	ذكر تعذيب المستضعفين من المسلمين
٢٤٨.....	سنة سبع	ذكر المستهزئين ومن كان أشد الأذى للنبي، صلى الله
٢٤٨.....	ذكر غزوة خيبر	٢٠٨.....	عليه وسلم
٢٥٠.....	ذكر غزوة وادي القرى	ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة
٢٥٠.....	قصة الحجاج بن علاط السلمي	٢١٠.....	ذكر إرسال قريش إلى النجاشي في طلب المهاجرين
٢٥٠.....	ذكر مقاسم خيبر	٢١١.....	ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب
٢٥١.....	ذكر فذك	٢١٢.....	ذكر إسلام عمر بن الخطاب
٢٥١.....	ذكر عمرة القضاء	٢١٢.....	ذكر أمر الصحيفة
٢٥٢.....	سنة ثمان	٢١٣.....	ذكر وفاة أبي طالب وخديجة وعرض رسول الله صلى
٢٥٢.....	غزوة غالب بن عبد الله الليثي بني الملوّح	الله عليه وسلم، نفسه على العرب
٢٥٢.....	ذكر إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص	٢١٤.....	ذكر أول عرض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نفسه
٢٥٢.....	ذكر غزوة ذات السلاسل	٢١٥.....	علي الأنصار وإسلامهم
٢٥٣.....	ذكر غزوة الحُطّ وغيرها	٢١٥.....	ذكربيعة العقبة الأولى وإسلام سعد بن معاذ
٢٥٣.....	ذكر غزوة مؤتة	٢١٦.....	ذكربيعة العقبة الثانية
٢٥٤.....	ذكر فتح مكة	٢١٧.....	ذكر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم
٢٥٩.....	ذكر غزوة خالد بن الوليد بني جذيمة	ذكر ما كان من الأمور أول سنة من الهجرة
٢٦٠.....	ذكر غزوة هوازن بَحْنين	٢١٩.....	السنة الثانية من الهجرة
٢٦٢.....	ذكر حصار الطائف	٢٢٠.....
٢٦٢.....	ذكر قسمة غنائم حُنين

٢٩٢.....	ذكر خبر ردة اليمن ثانية.....	٢٦٤.....	سنة تسع.....
٢٩٣.....	ذكر ردة حضرموت وكندة.....	٢٦٤.....	ذكر إسلام كعب بن زهير.....
٢٩٥.....	سنة اثني عشرة.....	٢٦٤.....	ذكر غزوة تبوك.....
٢٩٥.....	ذكر مسير خالد بن الوليد إلى العراق وصلاح الحيرة.....	ذكر قدوم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله
٢٩٥.....	ذكر وقعة النني.....	٢٦٦.....	صلى الله عليه وسلم.....
٢٩٦.....	ذكر وقعة الولجة.....	٢٦٦.....	ذكر قدوم وفد ثقيف.....
٢٩٦.....	ذكر وقعة أليس وهو على الفرات.....	٢٦٧.....	ذكر غزوة طيء وإسلام عدي بن حاتم.....
٢٩٦.....	ذكر وقعة أمغيشيا.....	ذكر قدوم الوفود على رسول الله صلى الله عليه
٢٩٦.....	ذكر وقعة يوم فرات بأدقلى وفتح الحيرة.....	٢٦٧.....	وسلم.....
٢٩٧.....	ذكر ما بعد الحيرة.....	٢٦٨.....	ذكر حج أبي بكر، رضي الله عنه.....
٢٩٨.....	ذكر فتح الأنبار.....	٢٦٩.....	سنة عشر.....
٢٩٨.....	ذكر فتح عين النمر.....	٢٦٩.....	ذكر وفد نجران مع العاقب والسيد.....
٢٩٨.....	ذكر خبر دومة الجندل.....	٢٧١.....	ذكر إرسال علي إلى اليمن وإسلام همدان.....
٢٩٨.....	ذكر وقعة حصيد والخنافس.....	٢٧١.....	ذكر بعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم،.....
٢٩٩.....	ذكر وقعة مُصَيِّح بني البرشاء.....	٢٧١.....	أمرائه على الصدقات.....
٢٩٩.....	ذكر وقعة النني والزُمَيْل.....	٢٧١.....	ذكر حجة الوداع.....
٢٩٩.....	ذكر وقعة الفراض.....	٢٧١.....	ذكر عدد غزواته، صلى الله عليه وسلم، وسراياه.....
٢٩٩.....	ذكر حجة خالد.....	٢٧٢.....	ذكر عدد حج النبي، صلى الله عليه وسلم، وعمره.....
٣٠٠.....	سنة ثلاث عشرة.....	ذكر صفة النبي، صلى الله عليه وسلم، وأسمائه
٣٠٠.....	ذكر فتوح الشام.....	٢٧٢.....	وخاتم النبوة.....
٣٠١.....	ذكر مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام.....	٢٧٢.....	ذكر شجاعته، صلى الله عليه وسلم، وجوده.....
٣٠٢.....	ذكر وقعة البرموك.....	٢٧٢.....	ذكر عدد أزواج النبي، صلى الله عليه وسلم،.....
٣٠٤.....	ذكر حال المنثي بن حارثة بالعراق.....	٢٧٢.....	وسراياه وأولاده.....
٣٠٤.....	ذكر وقعة أجنادين.....	٢٧٤.....	ذكر موالى رسول الله، صلى الله عليه وسلم،.....
٣٠٥.....	ذكر وفاة أبي بكر.....	٢٧٤.....	ذكر من كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم.....
٣٠٥.....	أسماء فضاه وعُماله وكتابه.....	٢٧٤.....	ذكر أسماء خيله صلى الله عليه وسلم.....
٣٠٥.....	ذكر بعض أخباره ومناقبه.....	٢٧٥.....	ذكر بغاله وحديره وإبله صلى الله عليه وسلم.....
٣٠٦.....	ذكر استخلافه عمر بن الخطاب.....	٢٧٥.....	ذكر أسماء سلاحه صلى الله عليه وسلم.....
٣٠٧.....	ذكر فتح دمشق.....	٢٧٥.....	سنة إحدى عشرة.....
٣٠٨.....	ذكر غزوة فُجَل.....	ذكر مرض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووفاته.....
٣٠٨.....	ذكر فتح بلاد ساحل دمشق.....	حديث السقيفة وخلافة أبي بكر، رضي الله عنه
٣٠٨.....	ذكر فتح بيسان وطبرية.....	٢٧٧.....	وأرضاه.....
٣٠٩.....	ذكر خبر المنثي بن حارثة وأبي عبيد بن مسعود.....	٢٧٩.....	ذكر تجهيز النبي، صلى الله عليه وسلم، ودفنه.....
٣١٠.....	ذكر وقعة السقاية بكسكُر.....	٢٨٠.....	ذكر إنفاذ جيش أسامة بن زيد.....
٣١٤.....	سنة أربع عشرة.....	٢٨٠.....	ذكر أخبار الأسود العنسي باليمن.....
٣٢٠.....	ذكر يوم أزمات.....	٢٨٢.....	ذكر أخبار الردة.....
٣٢١.....	ذكر يوم أغواث.....	٢٨٣.....	ذكر خبر طليحة الأسدي.....
٣٢٢.....	ذكر يوم عماس.....	٢٨٤.....	ذكر ردة بني عامر وهوازن وسُلَيْم.....
٣٢٣.....	ذكر ليلة الهرير وقتل رستم.....	٢٨٥.....	ذكر قدوم عمرو بن العاص من عُمان.....
٣٢٥.....	ذكر ولاية عتبة بن غزوان البصرة.....	٢٨٥.....	ذكر بني نعيم وسجّاح.....
٣٢٦.....	سنة خمس عشرة.....	٢٨٧.....	ذكر مالك بن نويرة.....
٣٢٦.....	ذكر الوقعة بمرج الروم.....	٢٨٧.....	ذكر مُسَيْلِمة وأهل البمامة.....
٣٢٦.....	ذكر فتح جَمَض وبلبل وغيرهما.....	٢٩٠.....	ذكر ردة أهل البحرين.....
٣٢٧.....	ذكر فتح قَسْرين ودخول هرقل القسطنطينية.....	٢٩١.....	ذكر ردة أهل عُمان ومُهْرَة.....
٣٢٧.....	ذكر فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم.....	٢٩٢.....	ذكر خبر ردة اليمن.....

٣٥٣.....	ذكر ولاية المُغيرة بن شُعبة على الكوفة	٣٢٨.....	ذكر فتح قيسارية وحصر غَزّة
٣٥٣.....	ذكر عدّة حوادث	٣٢٨.....	ذكر فتح بيسان ووقعة أجنادين
٣٥٣.....	سنة اثنين وعشرين	٣٢٩.....	ذكر فتح بيت المقدس وهو إيلياء
٣٥٤.....	ذكر فتح همدان ثانياً	٣٢٩.....	ذكر فرض العطاء وعمل الديوان
٣٥٤.....	ذكر فتح قزوين وزنجان	٣٣٠.....	ذكر الحروب إلى آخر السنة
٣٥٤.....	ذكر فتح الريّ	٣٣٠.....	فمن ذلك يوم بُرس وبابل وكوثى
٣٥٤.....	ذكر فتح قُومس وجُرجان وطبرستان		ذكر بُهْرَسِير وهي المدينة العتيقة وهي المدائن الدنيا
٣٥٥.....	ذكر فتح طرابلس الغرب وبرقة	٣٣١.....	من الغرب
٣٥٥.....	ذكر فتح أذربيجان	٣٣١.....	سنة ست عشرة
٣٥٥.....	ذكر فتح الباب	٣٣١.....	ذكر فتح المدائن الغربية وهي بُهْرَسِير
٣٥٦.....	ذكر فتح مُوقان	٣٣٢.....	ذكر فتح المدائن التي فيها إيوان كسرى
٣٥٦.....	ذكر غزو التّرك	٣٣٣.....	ذكر ما جُمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها
٣٥٦.....	ذكر تعديل الفتح بين أهل الكوفة والبصرة	٣٣٤.....	ذكر وقعة جلولا وفتح حُلوان
	ذكر عزل عَمّار بن ياسر عن الكوفة وولاية أبي موسى	٣٣٥.....	ذكر فتح تكريت والموصل
٣٥٦.....	والمُغيرة بن شُعبة	٣٣٦.....	ذكر فتح ماسَبْدَان
٣٥٧.....	ذكر فتح خراسان	٣٣٦.....	ذكر فتح قرقيسيا
٣٥٨.....	ذكر فتح شَهْرَزُور والصامغان	٣٣٦.....	سنة سبع عشرة
٣٥٨.....	ذكر عدّة حوادث	٣٣٦.....	ذكر بناء الكوفة والبصرة
٣٥٩.....	سنة ثلاث وعشرين		ذكر خبر جُمُص حين قصد هَرَقْل مَنْ بها من
٣٥٩.....	ذكر الخبر عن فتح تَوْج	٣٣٧.....	المسلمين
٣٥٩.....	ذكر فتح إصطخر وغيرهما	٣٣٨.....	ذكر فتح الجزيرة وأرمينية
٣٥٩.....	ذكر فتح فسا ودارابجرد	٣٣٩.....	ذكر عزل خالد بن الوليد
٣٦٠.....	ذكر فتح كَرمان	٣٣٩.....	ذكر بناء المسجد الحرام والتوسعة فيه
٣٦٠.....	ذكر فتح مِيجِسْتَان	٣٣٩.....	ذكر غزوة فارس من البحرين
٣٦٠.....	ذكر فتح مُكران	٣٤٠.....	ذكر عزل المُغيرة عن البصرة وولاية أبي موسى
٣٦٠.....	ذكر خبر بِيروذ من الأهواز	٣٤١.....	ذكر الخبر عن فتح الأهواز ومناذر ونهر تيرى
٣٦١.....	ذكر خبر سَلَمَة بن قيس الأشجعيّ والأكراد	٣٤٢.....	ذكر صلح الهرمزان وأهل تستر مع المسلمين
٣٦١.....	ذكر الخبر عن مقتل عمر، رضي الله عنه	٣٤٢.....	ذكر فتح رامهرمز وتستر وأسر الهرمزان
٣٦٢.....	ذكر نسب عمر وصفته وعمره	٣٤٣.....	ذكر فتح السوس
٣٦٣.....	ذكر أسماء ولده ونسائه	٣٤٤.....	ذكر مصالحة جُنْد يسابور
٣٦٣.....	ذكر بعض سيرته، رضي الله عنه	٣٤٤.....	ذكر مسير المسلمين إلى كرمان وغيرها
٣٦٦.....	ذكر قصة الشورى	٣٤٤.....	سنة ثمان عشرة
٣٦٩.....	ذكر عدّة حوادث	٣٤٤.....	ذكر الفتح وعام الرمادة
٣٧٠.....	سنة أربع وعشرين	٣٤٥.....	ذكر طاعون عَمَواس
٣٧٠.....	ذكربيعة عثمان بن عفّان بالخلافة	٣٤٦.....	ذكر قدوم عمر إلى الشام بعد الطاعون
	ذكر عزل المُغيرة عن الكوفة وولاية سعد بن أبي وقاص	٣٤٧.....	سنة تسع عشرة
٣٧٠.....	وقاص	٣٤٧.....	سنة عشرين
٣٧٠.....	سنة خمس وعشرين	٣٤٧.....	ذكر فتح بَصْرَة
٣٧٠.....	ذكر خلاف أهل الإسكندرية	٣٤٨.....	ذكر عدّة حوادث
٣٧٠.....	ذكر عزل سعد عن الكوفة وولاية الوليد بن عُفّة	٣٤٩.....	سنة إحدى وعشرين
٣٧١.....	ذكر صلح أهل أرمينية وأذربيجان	٣٤٩.....	ذكر وقعة نهاوند
٣٧٢.....	ذكر غزوة معاوية الروم	٣٥٢.....	ذكر فتح الدينور والصيّمة وغيرهما
٣٧٢.....	ذكر غزوة إفريقية	٣٥٢.....	ذكر فتح همدان والماهين وغيرهما
٣٧٢.....	ذكر عدّة حوادث	٣٥٢.....	ذكر دخول المسلمين بلاد الأعاجم
٣٧٢.....	سنة ست وعشرين	٣٥٣.....	ذكر فتح أصبهان

٣٩١	سنة خمس وثلاثين.....	٣٧٢	ذكر الزيادة في الحرم.....
٣٩١	ذكر مسير من سار إلى حصر عثمان.....	٣٧٢	سنة سبع وعشرين.....
٣٩٥	ذكر مقتل عثمان.....		ذكر ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر وفتح
٣٩٨	ذكر الموضع الذي دفن فيه ومن صلى عليه.....	٣٧٢	إفريقية.....
٣٩٩	ذكر بعض سيرة عثمان.....	٣٧٣	ذكر انتفاض إفريقية وفتحها ثانية.....
٤٠٠	ذكر نسبه وصفته وكنيته.....	٣٧٤	ذكر غزوة الأندلس.....
٤٠٠	ذكر وقت إسلامه وهجرته.....	٣٧٤	ذكر عدة حوادث.....
٤٠٠	ذكر أزواجه وأولاده.....	٣٧٤	سنة ثمان وعشرين.....
٤٠٥	ذكر أسماء عماله في هذه السنة.....	٣٧٤	ذكر فتح قبرس.....
	ذكر الخير عن كان يصلي في مسجد النبي صلى	٣٧٥	سنة تسع وعشرين.....
٤٠٠	الله عليه وسلم، حين حصر عثمان.....		ذكر عزل أبي موسى عن البصرة واستعمال ابن عامر
٤٠١	ذكر ما قيل فيه من الشعر.....	٣٧٥	عليها.....
٤٠١	ذكر بيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.....	٣٧٥	ذكر انتفاض أهل فارس.....
٤٠٤	ذكر عدة حوادث.....	٣٧٦	ذكر الزيادة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.....
٤٠٤	سنة ست وثلاثين.....		ذكر إتمام عثمان الصلاة بجمع وأول ما تكلم الناس
٤٠٤	ذكر تفريق علي عماله وخلاف معاوية.....	٣٧٦	فيه.....
٤٠٥	ذكر ابتداء وقعة الجمل.....	٣٧٦	سنة ثلاثين.....
٤١٠	ذكر مسير علي إلى البصرة والوقعة.....	٣٧٦	ذكر عزل الوليد عن الكوفة وولاية سعيد.....
٤٢٢	رواية أخرى في وقعة الجمل.....	٣٧٨	ذكر غزو سعيد بن العاص طبرستان.....
٤٢٣	ذكر قصد الخوارج سجستان.....	٣٧٨	ذكر غزو حذيفة الباب وأمر المصاحف.....
٤٢٤	ذكر قتل محمد بن أبي حذيفة.....		ذكر سقوط خاتم النبي صلى الله عليه وسلم، في بئر
٤٢٥	ذكر ولاية قيس بن سعد مصر.....	٣٧٩	أريس.....
٤٢٦	ذكر قدوم عمرو بن العاص على معاوية ومتابعته له.....	٣٧٩	ذكر تسيير أبي ذر إلى الريدة.....
٤٢٧	ذكر ابتداء وقعة صفين.....	٣٨٠	ذكر عدة حوادث.....
٤٣٠	ذكر عدة حوادث.....	٣٨٠	سنة إحدى وثلاثين.....
٤٣٠	سنة سبع وثلاثين.....	٣٨٠	ذكر غزوة الصّوّاري.....
٤٣٠	ذكر تمة أمر صفين.....	٣٨١	ذكر مقتل يزيد جرد بن شهرار.....
٤٣٨	رفع المصاحف والدعوة إلى الحكومة.....	٣٨٢	ذكر مسير ابن عامر إلى خراسان وفتحها.....
٤٤١	ذكر استعمال جعدة بن هبيرة على خراسان.....	٣٨٣	ذكر فتح كرمّان.....
٤٤٢	ذكر اعتزال الخوارج علياً ورجوعهم إليه.....	٣٨٣	ذكر فتح سجستان وكابل وغيرهما.....
٤٤٢	ذكر اجتماع الحكمين.....	٣٨٤	ذكر عدة حوادث.....
	ذكر خبر الخوارج عند توجيه الحكمين وخبر يوم	٣٨٤	سنة اثنين وثلاثين.....
٤٤٤	النهر.....	٣٨٤	ذكر ظفر الترك وقتل عبد الرحمن بن ربيعة.....
٤٤٦	ذكر قتال الخوارج.....	٣٨٥	ذكر وفاة أبي ذر.....
٤٤٨	ذكر مقتل ذي النديّة.....	٣٨٥	ذكر خروج قارن.....
٤٤٨	ذكر رجوع علي إلى الكوفة.....	٣٨٥	ذكر عدة حوادث.....
٤٤٩	ذكر عدة حوادث.....	٣٨٦	سنة ثلاث وثلاثين.....
٤٤٩	سنة ثمان وثلاثين.....	٣٨٦	ذكر تسيير من سيّر من أهل الكوفة إلى الشام.....
	ذكر ملك عمرو بن العاص مصر وقتل محمد بن أبي	٣٨٨	ذكر تسيير من سيّر من أهل البصرة إلى الشام.....
٤٤٩	بكر الصديق.....	٣٨٨	ذكر عدة حوادث.....
٤٥٢	ذكر إرسال معاوية عبد الله بن الحضرمي إلى البصرة.....	٣٨٨	سنة أربع وثلاثين.....
٤٥٣	ذكر خبر الخريت بن راشد وبني ناجية.....	٣٨٨	ذكر الخبر عن ذلك وعن يوم الجرة.....
٤٥٥	ذكر أمر الخوارج بعد النهروان.....	٣٩٠	ذكر ابتداء قتل عثمان.....
٤٥٦	ذكر عدة حوادث.....	٣٩٠	ذكر عدة حوادث.....
٤٥٦	سنة تسع وثلاثين.....		

- ذكر سرايا أهل الشام إلى بلاد أمير المؤمنين، عليه
 السلام ٤٥٦
 ذكر مسير يزيد بن شجرة إلى مكة ٤٥٧
 ذكر غارة أهل الشام على أهل الجزيرة ٤٥٧
 ذكر غارة الحارث بن يجر التتوخي ٤٥٨
 ذكر أمر ابن العُشْبَةِ ٤٥٨
 ذكر أمر مسلم بن عُقْبَةَ بِدُومَةِ الْجَنْدَل ٤٥٨
 ذكر ولاية زياد بن أبيه بلاد فارس ٤٥٨
 سنة أربعين ٤٥٨
 ذكر سرية بُسْر بن أبي أرطاة إلى الحجاز واليمن ٤٥٨
 ذكر فراق ابن عباس البصرة ٤٥٩
 ذكر مقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، عليه
 السلام ٤٦٠
 ذكر مدة خلافته ومقدار عمره ٤٦٢
 ذكر نسبه وصفته ونسائه وأولاده ٤٦٢
 ذكر عُمَالِهِ ٤٦٣
 ذكر بعض سيرته ٤٦٣
 ذكر بيعة الحسن بن عليّ ٤٦٤
 ذكر عدّة حوادث ٤٦٤
 سنة إحدى وأربعين ٤٦٤
 ذكر تسليم الحسن بن عليّ الخلافة إلى معاوية ٤٦٤
 ذكر صلح معاوية وقيس بن سعد ٤٦٦
 ذكر خروج الخوارج على معاوية ٤٦٦
 ذكر خروج خُوَثَرة بن وِدَاع ٤٦٦
 ذكر خروج فَرْوَةَ بن نَوْفَل ومقتله ٤٦٧
 ذكر شبيب بن بَجْرَةَ ٤٦٧
 ذكر مُعِين الخارِجِيّ ٤٦٧
 ذكر خروج أبي مُرَيْم ٤٦٧
 ذكر خروج أبي لَيْلَى ٤٦٧
 ذكر استعمال المُعْصِرَةِ بن شُعْبَةَ على الكوفة ٤٦٧
 ذكر ولاية بُسْر على البصرة ٤٦٧
 ذكر ولاية ابن عامر البصرة لمعاوية ٤٦٨
 ذكر ولاية قيس بن الهيثم خراسان ٤٦٨
 ذكر خروج سَهْم بن غالب ٤٦٨
 ذكر عدّة حوادث ٤٦٩
 سنة اثنتين وأربعين ٤٦٩
 ذكر الخبر عن تحرّك الخوارج ٤٦٩
 ذكر قدوم زياد على معاوية ٤٦٩
 ذكر عدّة حوادث ٤٧٠
 سنة ثلاث وأربعين ٤٧٠
 ذكر مقتل المُسْتَوْدِ الخارِجِيّ ٤٧٠
 ذكر عود عبد الرحمن إلى ولاية سجستان ٤٧٤
 ذكر غزوة السند ٤٧٤
 ذكر ولاية عبد الله بن خازم خراسان ٤٧٤
 ذكر عدّة حوادث ٤٧٤
 سنة أربع وأربعين ٤٧٥
 ذكر عزل عبد الله بن عامر عن البصرة ٤٧٥
 ذكر استلحاق معاوية زيادا ٤٧٥
 ذكر غزو المهلب السند ٤٦٧
 ذكر عدّة حوادث ٤٦٧
 سنة خمس وأربعين ٤٧٧
 ذكر ولاية زياد بن أبيه البصرة ٤٧٧
 ذكر عُمَالُ زياد ٤٧٨
 ذكر عدّة حوادث ٤٧٨
 سنة ست وأربعين ٤٧٨
 ذكر وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ٤٧٨
 ذكر خروج سَهْم والخَطِيم ٤٧٩
 ذكر عدّة حوادث ٤٧٩
 سنة سبع وأربعين ٤٧٩
 ذكر عزل عبد الله بن عمرو عن مصر وولاية ابن
 حُذَيْج ٤٧٩
 ذكر غزوة الغور ٤٧٩
 ذكر مكيّة للمهلب ٤٧٩
 سنة ثمان وأربعين ٤٧٩
 سنة تسع وأربعين ٤٧٩
 ذكر غزوة القسطنطينية ٤٧٩
 ذكر عزل مروان عن المدينة وولاية سعيد ٤٨٠
 ذكر وفاة الحسن بن عليّ بن أبي طالب، عليه السلام ٤٨٠
 سنة خمسين ٤٨٠
 ذكر وفاة المُعْصِرَةِ بن شُعْبَةَ وولاية زياد الكوفة ٤٨٠
 ذكر خروج قريب ٤٨١
 ذكر إرادة معاوية نقل المنبر من المدينة ٤٨١
 ذكر ولاية عُقْبَةَ بن نافع إفريقية وبناء مدينة القيروان ٤٨١
 ذكر ولاية مُسْلِمَةَ بن مُخَلَّد إفريقية ٤٨٢
 ذكر هَرَبُ الْفَرَزْدَق من زياد ٤٨٢
 ذكر وفاة الحَكَم بن عمرو الغفاري ٤٨٣
 ذكر عدّة حوادث ٤٨٣
 ذكر مقتل حُجْر بن عديّ وعمرو بن الحُمق
 وأصحابهما ٤٨٣
 ذكر استعمال الربيع على خراسان ٤٨٨
 ذكر عدّة حوادث ٤٨٨
 سنة اثنتين وخمسين ٤٨٨
 ذكر خروج زياد بن خراش العجلي ٤٨٨
 ذكر خروج مُعَاذ الطائي ٤٨٨
 ذكر عدّة حوادث ٤٨٨
 سنة ثلاث وخمسين ٤٨٩
 ذكر وفاة زياد ٤٨٩
 ذكر وفاة الربيع ٤٨٩
 ذكر عدّة حوادث ٤٨٩

- سنة أربع وخمسين ٤٩٠
 ذكر غزوة الروم وفتح جزيرة أرواد ٤٩٠
 ذكر عزل سعيد عن المدينة واستعمال مروان ٤٩٠
 ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على خراسان ٤٩٠
 ذكر عدة حوادث ٤٩٠
 سنة خمس وخمسين ٤٩١
 ذكر ولاية ابن زياد البصرة ٤٩١
 ذكر عدة حوادث ٤٩١
 سنة ست وخمسين ٤٩١
 ذكر البيعة ليزيد بولاية العهد ٤٩١
 ذكر عزل ابن زياد عن خراسان واستعمال سعيد بن عثمان بن عفان ٤٩٤
 سنة سبع وخمسين ٤٩٤
 سنة ثمان وخمسين ٤٩٤
 ذكر عزل الضحّاك عن الكوفة واستعمال ابن أمّ الحكم ٤٩٤
 ذكر خروج طوّاف بن غلاق ٤٩٥
 ذكر قتل غزوة بن أدبّه وغيره من الخوارج ٤٩٥
 ذكر عدة حوادث ٤٩٦
 سنة تسع وخمسين ٤٩٦
 ذكر ولاية عبد الرحمن بن زياد خراسان ٤٩٦
 ذكر عزل ابن زياد عن البصرة وعوده إليها ٤٩٦
 ذكر هجاء يزيد بن مقرّف الحميريّ بني زياد وما كان منه ٤٩٦
 ذكر عدة حوادث ٤٩٧
 سنة ستين ٤٩٧
 ذكر وفاة معاوية بن أبي سفيان ٤٩٧
 ذكر نسبه وكنيته وأزواجه وأولاده ٤٩٩
 ذكر بعض سيرته وأخباره وقضائيه وكتابه ٤٩٩
 ذكر بيعة يزيد ٥٠٠
 ذكر عزل الوليد عن المدينة وولاية عمرو بن سعيد ٥٠١
 ذكر الخبر عن مراسلة الكوفيين الحسين بن عليّ ٥٠٢
 ليسير إليهم وقتل مُسلم بن عقيل ٥٠٢
 ذكر مسير الحسين إلى الكوفة ٥٠٧
 ذكر عدة حوادث ٥٠٩
 سنة إحدى وستين ٥١٠
 ذكر مقتل الحسين، رضي الله عنه ٥١٠
 ذكر أسماء من قتل معه ٥٢٤
 ذكر مقتل أبي بلال مرداس بن حذير الحنظليّ ٥٢٥
 ذكر ولاية مُسلم بن زياد على خراسان وميخستان ٥٢٥
 ذكر ولاية يزيد بن زياد وطلحة الطلحات سجستان ٥٢٥
 ذكر ولاية الوليد بن عُتبة المدينة والحجاز وعزل عمرو بن سعيد ٥٣٦
 ذكر عدة حوادث ٥٣٦
 سنة اثنتين وستين ٥٣٦
 ذكر وفد أهل المدينة إلى الشام ٥٣٦
 ذكر ولاية عُتبة بن نافع إفريقية ثانية وما افتتحه فيها وقتله ٥٣٧
 ذكر خروج كُثَيْلَة بن كرم البربري على عُتبة ٥٣٨
 ذكر ولاية زُهَيْر بن قيس إفريقية وقتله وقتل كُثَيْلَة ٥٣٨
 ذكر عدة حوادث ٥٣٩
 سنة ثلاث وستين ٥٣٩
 ذكر وقعة الحرّة ٥٣٩
 ذكر عدة حوادث ٥٣٩
 سنة أربع وستين ٥٣٩
 ذكر مسير مُسلم لحصار ابن الزبير وموته ٥٣٩
 ذكر وفاة يزيد بن معاوية ٥٣٩
 ذكر بعض سيرته وأخباره ٥٣٩
 ذكر بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير ٥٣٩
 ذكر حال ابن زياد بعد موت يزيد ٥٣٩
 ذكر ولاية عبد الله بن الحارث البصرة ٥٣٦
 ذكر هرب ابن زياد إلى الشام ٥٣٦
 ذكر خلاف أهل الرّي ٥٣٨
 ذكر بيعة مروان بن الحكم ٥٣٨
 ذكر وقعة مرج راحط وقتل الضحّاك والنعمان بن بشير ٥٤٠
 ذكر فتح مروان مصر ٥٤١
 ذكر بيعة أهل خراسان مُسلم بن زياد وأمر عبد الله بن خازم ٥٤١
 ذكر أمر التوابين ٥٤٢
 ذكر فراق الخوارج عبد الله بن الزبير وما كان منهم ٥٤٤
 ذكر قدوم المختار الكوفة ٥٤٥
 ذكر وفاة يزيد بن معاوية ٥٣٣
 ذكر بعض سيرته وأخباره ٥٣٣
 ذكر بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير ٥٣٤
 ذكر عدة حوادث ٥٤٦
 سنة خمس وستين ٥٤٧
 ذكر مسير التوابين وقتلهم ٥٤٧
 ذكر بيعة عبد الملك وعبد العزيز ابني مروان بولاية العهد ٥٥١
 ذكر بعث ابن زياد وحنّيش ٥٥١
 ذكر موت مروان بن الحكم وولاية ابنه عبد الملك ٥٥١
 ذكر صفته ونسبه وأخباره ٥٥٢
 ذكر مقتل نافع بن الأزرق ٥٥٢
 ذكر محاربة المهلب الخوارج ٥٥٢
 ذكر نَجْدَة بن عامر الحنفيّ ٥٥٤
 ذكر الاختلاف على نَجْدَة وقتله وولاية أبي قُدَيْك ٥٥٥
 ذكر استعمال مُصْعَب على المدينة ٥٥٦
 ذكر بناء ابن الزبير الكعبة ٥٥٦
 ذكر الحرب بين ابن خازم وبني تميم ٥٥٦

٥٨٨	يوم الكَحْل.....	٥٥٧	ذكر عِدَّة حوادث.....
٥٨٨	يوم البِشْر.....	٥٥٧	سنة مِيت وستين.....
٥٨٩	سنة إحدى وسبعين.....	٥٥٧	ذكر وثوب المُختار بالكوفة.....
٥٨٩	ذكر مقتل مُصعب وملك عبد الملك العراق.....	٥٦٢	ذكر قتل المختار قَتْلَ الحسين، عليه السلام.....
٥٩٣	ذكر ولاية خالد بن عبد الله البصرة.....		ذكر مقتل عمرو بن سعد وغيره مَمَّنْ شهد قتل
٥٩٣	ذكر أمر عبد الملك وزُفر بن الحارث.....	٥٦٦	الحسين.....
٥٩٤	ذكر عِدَّة حوادث.....	٥٦٧	ذكر بيعة المثنى العبدِيّ للمختار بالبصرة.....
٥٩٤	سنة اثنين وسبعين.....	٥٦٧	ذكر مكر المختار بابن الزبير.....
٥٩٤	ذكر أمر الخوارج.....		ذكر حال ابن الحنفية مع ابن الزبير ومسير الجيش من
٥٩٥	ذكر قتل عبد الله بن خازم.....	٥٦٨	الكوفة.....
٥٩٦	ذكر عِدَّة حوادث.....	٥٧٠	ذكر الفتنة بخراسان.....
٥٩٦	سنة ثلاث وسبعين.....	٥٧١	ذكر مسير ابن الأشتر إلى قتال ابن زياد.....
٥٩٦	ذكر قتل عبد الله بن الزبير.....	٥٧١	ذكر حال الكرسي الذي كان المختار يستنصر به.....
٥٩٩	ذكر عمر ابن الزبير وسيرته.....	٥٧٢	ذكر عِدَّة حوادث.....
٦٠٠	ذكر ولاية محمد بن مروان الجزيرة وأرمينية.....	٥٧٢	سنة سبع وستين.....
٦٠٠	ذكر قتل أبي فذّيك الخارجي.....	٥٧٢	ذكر مقتل ابن زياد.....
٦٠٠	ذكر عِدَّة حوادث.....	٥٧٣	ذكر ولاية مُصعب بن الزبير البصرة.....
٦٠١	سنة أربع وسبعين.....	٥٧٤	ذكر مسير مُصعب إلى المختار وقتل المختار.....
٦٠١	ذكر ولاية المهلب حرب الأزارقة.....		ذكر عزل مُصعب بن الزبير وولاية حمزة بن عبد الله
	ذكر عزل بُكير عن خراسان وولاية أمية بن عبد الله	٥٧٧	بن الزبير.....
٦٠١	بن خالد.....	٥٧٧	ذكر عِدَّة حوادث.....
٦٠٢	ذكر ولاية عبد الله بن أمية سجستان.....	٥٧٨	سنة ثمان وستين.....
٦٠٢	ذكر ولاية حسان بن النعمان إفريقية.....	٥٧٨	ذكر عزل حمزة وولاية مصعب البصرة.....
٦٠٢	ذكر تخريب إفريقية.....	٥٧٨	ذكر حروب الخوارج بفارس والعراق.....
٦٠٣	ذكر عِدَّة حوادث.....	٥٧٩	ذكر قتل ابن الماحوز وإمارة قَطْرِيّ بن الفُجاءة.....
٦٠٣	سنة خمس وسبعين.....	٥٧٩	ذكر حصار الرّي.....
٦٠٣	ذكر ولاية الحجاج بن يوسف العراق.....	٥٧٩	ذكر خبر عبيد الله بن الحرّ ومقتله.....
٦٠٤	تفسير هذه الخطبة.....	٥٨٢	ذكر عِدَّة حوادث.....
٦٠٥	ذكر ولاية سعيد بن أسلم السند وقتله.....	٥٨٢	سنة تسع وستين.....
٦٠٥	ذكر وثوب أهل البصرة بالحجاج.....	٥٨٢	ذكر قتل عمرو بن سعيد الأشدق.....
٦٠٧	ذكر شير زنجي والزنج معه.....	٥٨٤	ذكر عصيان الجراجمة بالشام.....
٦٠٧	ذكر إجلاء الخوارج عن رامهرمز وقتل ابن يخنف.....	٥٨٤	ذكر عِدَّة حوادث.....
٦٠٨	ذكر عِدَّة حوادث.....	٥٨٥	سنة سبعين.....
٦٠٩	سنة مِيت وستين.....	٥٨٥	ذكر يوم الجُفرة.....
٦٠٩	ذكر خروج صالح بن مسروح.....	٥٨٥	ذكر مقتل عُمير بن الحُبَاب بن جَعْدَةَ السُّلَمي.....
٦١٠	ذكر بيعة شبيب الخارجي ومহারبة الحارث بن عميرة.....	٥٨٦	يوم مأكسين.....
٦١٠	ذكر الحرب بين أصحاب شبيب وغيره.....	٥٨٦	يوم الثُّرثار الأوّل.....
٦١٠	ذكر مسير شبيب إلى بني شيبان وإيقاعه بهم.....	٥٨٦	يوم الثُّرثار الثاني.....
٦١٠	ذكر الوقعة بين شبيب وسفيان الخثعمي.....	٥٨٦	يوم الغدّين.....
٦١١	ذكر الوقعة بين شبيب وسورة بن الحرّ.....	٥٨٦	يوم السُّكُير.....
	ذكر الحرب بين شبيب والجَزَل بن سعيد وقتل سعيد	٥٨٧	يوم المعارك.....
٦١١	بن مُجالد.....	٥٨٧	يوم الشرعية.....
٦١٢	ذكر مسير شبيب إلى الكوفة.....	٥٨٧	يوم البليخ.....
٦١٢	ذكر محاربة شبيب أهل البادية.....		يوم الحَشَاك ومقتل عُمير بن الحُبَاب السُّلَمي وابن
٦١٢	ذكر دخول شبيب الكوفة.....	٥٨٧	هوبر التغلبي.....

- ٦١٣ ذكر محاربة شبيب زُحر بن قيس
 ٦١٣ ذكر محاربة الأمراء المتقدم ذكرهم وقتل محمد بن موسى بن طلحة
 ٦١٣ ذكر محاربة شبيب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
 ٦١٤ وقتل عثمان بن قطن
 ٦١٥ ذكر ضرب الدراهم والدنانير الإسلامية
 ٦١٦ ذكر عدة حوادث
 ٦١٦ سنة سبع وسبعين
 ٦١٦ ذكر محاربة شبيب عتاب بن ورقاء وزُهرة بن حوية وقتلها
 ٦١٨ ذكر قدوم شبيب الكوفة أيضاً وانهزامه عنها
 ٦٢٠ ذكر مهلك شبيب
 ٦٢٠ ذكر خروج مطرف بن المغيرة بن شعبة
 ٦٢٢ ذكر الاختلاف بين الأزارقة
 ٦٢٢ ذكر مقتل عبد ربه الكبير
 ٦٢٣ ذكر قتل قطري بن الفجاءة وعبيدة بن هلال
 ٦٢٣ ذكر قتل بكير بن وساج
 ٦٢٤ ذكر عدة حوادث
 ٦٢٤ سنة ثمان وسبعين
 ٦٢٤ ذكر عزل أمية بن عبد الله وولاية المهلب خراسان
 ٦٢٥ ذكر عدة حوادث
 ٦٢٥ سنة تسع وسبعين
 ٦٢٥ ذكر غزو عبيد الله بن أبي بكره رُئيل
 ٦٢٥ ذكر عدة حوادث
 ٦٢٥ سنة ثمانين
 ٦٢٦ ذكر غزوة المهلب ما وراء النهر
 ٦٢٦ ذكر تسيير الجنود إلى رُئيل مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
 ٦٢٦ ذكر عدة حوادث
 ٦٢٧ سنة إحدى وثمانين
 ٦٢٧ ذكر مقتل بجير بن ورقاء
 ٦٢٧ ذكر دخول الديلم قزوين وما كان منهم
 ٦٢٨ ذكر خلاف عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الحجاج
 ٦٢٨ ذكر عدة حوادث
 ٦٢٩ سنة اثنتين وثمانين
 ٦٢٩ ذكر الحرب بين الحجاج وابن الأشعث
 ٦٣٠ ذكر وقعة دير الجماجم
 ٦٣١ ذكر وفاة المغيرة بن المهلب
 ٦٣١ ذكر صلح المهلب أهل كيش
 ٦٣١ ذكر وفاة المهلب بن أبي صفرة وولاية ابنه يزيد خراسان
 ٦٣٢ ذكر عدة حوادث
 ٦٣٢ سنة ثلاث وثمانين
 ٦٣٢ ذكر بقية الوقعة بدير الجماجم
 ٦٣٣ ذكر الوقعة بمسكين
 ٦٣٣ ذكر مسير عبد الرحمن إلى رُئيل وما جرى له ولأصحابه
 ٦٣٦ ذكر ما جرى للشعبي مع الحجاج
 ٦٣٧ ذكر خلع عمر بن أبي الصلت بالري وما كان منه
 ٦٣٧ ذكر بناء مدينة واسط
 ٦٣٧ ذكر عدة حوادث
 ٦٣٧ سنة أربع وثمانين
 ٦٣٧ ذكر قتل ابن القرية
 ٦٣٧ ذكر فتح قلعة نيزك بإذ غيس
 ٦٣٨ ذكر عدة حوادث
 ٦٣٨ سنة خمس وثمانين
 ٦٣٨ ذكر هلاك عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
 ٦٣٨ ذكر عزل يزيد بن المهلب عن خراسان وولاية أخيه المفضل
 ٦٣٨ ذكر غزو المفضل بأفغيس وآخرون
 ٦٣٩ ذكر مقتل موسى بن عبد الله بن خازم
 ٦٣٩ ذكر موت عبد العزيز بن مروان والبيعة للوليد بولاية العهد
 ٦٤٢ ذكر عدة حوادث
 ٦٤٣ سنة ست وثمانين
 ٦٤٣ ذكر وفاة عبد الملك
 ٦٤٣ ذكر نسيه وأولاده وأزواجه
 ٦٤٣ ذكر بعض أخباره
 ٦٤٤ ذكر خلافة الوليد بن عبد الملك
 ٦٤٤ ذكر ولاية قتيبة خراسان وما كان منه هذه السنة
 ٦٤٥ ذكر عدة حوادث
 ٦٤٥ سنة سبع وثمانين
 ٦٤٥ ذكر إمارة عمر بن عبد العزيز بالمدينة
 ٦٤٥ ذكر صلح قتيبة ونيزك
 ٦٤٦ ذكر غزو الروم
 ٦٤٦ ذكر غزو قتيبة بكنند
 ٦٤٦ ذكر عدة حوادث
 ٦٤٦ سنة ثمان وثمانين
 ٦٤٦ ذكر فتح طرانة من بلد الروم
 ٦٤٧ ذكر عمارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم
 ٦٤٧ ذكر غزو نوميشتك ورامنة
 ٦٤٧ ذكر ما عمل الوليد بن المعروف
 ٦٤٧ ذكر عدة حوادث
 ٦٤٧ سنة تسع وثمانين
 ٦٤٧ ذكر غزو الروم
 ٦٤٧ ذكر غزو قتيبة بخارى
 ٦٤٨ ذكر ولاية خالد بن عبد الله القسري مكة
 ٦٤٨ ذكر قتل ذاهر ملك السند
 ٦٤٨ ذكر استعمال موسى بن نصير على إفريقية

٦٧٠.....	ذكر محاصرة القسطنطينية.....	٦٤٩.....	ذكر عدة حوادث.....
٦٧٠.....	ذكر فتح جرجان وطبرستان.....	٦٤٩.....	سنة تسعين.....
٦٧٢.....	ذكر فتح جرجان الفتح الثاني.....	٦٤٩.....	ذكر فتح بخارى.....
٦٧٢.....	ذكر عدة حوادث.....	٦٥٠.....	ذكر صلح قتيبة مع الصفد.....
٦٧٢.....	سنة تسع وتسعين.....	٦٥٠.....	ذكر غدر نيزك وفتح الطالقان.....
٦٧٢.....	ذكر موت سليمان بن عبد الملك.....	٦٥٠.....	ذكر هرب يزيد بن المهلب وإخوته من سجن الحجاج.....
٦٧٣.....	ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز.....	٦٥١.....	ذكر عدة حوادث.....
٦٧٤.....	ذكر ترك سب أمير المؤمنين علي، عليه السلام.....	٦٥١.....	سنة إحدى وتسعين.....
٦٧٤.....	ذكر عدة حوادث.....	٦٥١.....	ذكر سمة خبر قتيبة مع نيزك.....
٦٧٥.....	سنة مائة.....	٦٥٢.....	ذكر غزو شومان وكش ونسف.....
٦٧٥.....	ذكر خروج شوذب الخارجي.....	٦٥٣.....	ذكر عدة حوادث.....
٦٧٥.....	ذكر القبض على يزيد بن المهلب واستعمال الجراح.....	٦٥٣.....	سنة اثنين وتسعين.....
٦٧٦.....	على خراسان.....	٦٥٣.....	ذكر فتح الأندلس.....
٦٧٦.....	ذكر عزل الجراح واستعمال عبد الرحمن بن نعيم.....	٦٥٧.....	ذكر غزوة جزيرة سردانية.....
٦٧٦.....	القشيري وعبد الرحمن بن عبد الله.....	٦٥٧.....	ذكر عدة حوادث.....
٦٧٧.....	ذكر ابتداء الدعوة العباسية.....	٦٥٧.....	سنة ثلاث وتسعين.....
٦٧٧.....	ذكر عدة حوادث.....	٦٥٧.....	ذكر صلح خوارزمشاه وفتح خام جرد.....
٦٧٨.....	سنة إحدى ومائة.....	٦٥٨.....	ذكر فتح سمرقند.....
٦٧٨.....	ذكر هرب ابن المهلب.....	٦٥٩.....	ذكر فتح طليطلة من الأندلس.....
٦٧٩.....	ذكر وفاة عمر بن عبد العزيز.....	٦٥٩.....	ذكر عزل عمر بن عبد العزيز عن الحجاز.....
٦٧٩.....	ذكر بعض سيرته.....	٦٦٠.....	ذكر عدة حوادث.....
٦٨١.....	ذكر خلافة يزيد بن عبد الملك.....	٦٦٠.....	سنة أربع وتسعين.....
٦٨١.....	ذكر مقتل شوذب الخارجي.....	٦٦٠.....	ذكر قتل سعيد بن جبير.....
٦٨٢.....	ذكر موت محمد بن مروان.....	٦٦١.....	ذكر غزوة الشاش وفرغانة.....
٦٨٢.....	ذكر دخول يزيد بن المهلب البصرة وخلعه يزيد بن.....	٦٦١.....	ذكر عدة حوادث.....
٦٨٥.....	عبد الملك.....	٦٦١.....	سنة خمس وتسعين.....
٦٨٤.....	ذكر عدة حوادث.....	٦٦١.....	ذكر غزوة الشاش.....
٦٨٤.....	سنة اثنين ومائة.....	٦٦١.....	ذكر وفاة الحجاج بن يوسف.....
٦٨٤.....	ذكر مقتل يزيد بن المهلب.....	٦٦١.....	ذكر نسب وشي من سيرته.....
٦٨٧.....	ذكر استعمال مسلمة على العراق وخراسان.....	٦٦١.....	ذكر ما فعله محمد بن القاسم بعد موت الحجاج.....
٦٨٧.....	ذكر استعمال سعيد خديجة على خراسان لمسلمة.....	٦٦٢.....	وقته.....
٦٨٨.....	ذكر البيعة بولاية العهد لهشام والوليد.....	٦٦٣.....	ذكر عدة حوادث.....
٦٨٨.....	ذكر غزو الترك.....	٦٦٤.....	سنة بست وتسعين.....
٦٨٩.....	ذكر غزو الصفد.....	٦٦٤.....	ذكر فتح قتيبة مدينة كاشغر.....
٦٨٩.....	ذكر موت حيّان النبطي.....	٦٦٥.....	ذكر موت الوليد بن عبد الملك.....
٦٨٩.....	ذكر عزل مسلمة عن العراق وخراسان وولاية ابن.....	٦٦٥.....	ذكر بعض سيرة الوليد.....
٦٨٩.....	هبيبة.....	٦٦٥.....	ذكر خلافة سليمان بن عبد الملك وبيعه.....
٦٩٠.....	ذكر بعض الدعاة للدولة العباسية.....	٦٦٥.....	ذكر مقتل قتيبة.....
٦٩٠.....	ذكر قتل يزيد بن أبي مسلم.....	٦٦٥.....	ذكر عدة حوادث.....
٦٩٠.....	ذكر عدة حوادث.....	٦٦٨.....	سنة سبع وتسعين.....
٦٩١.....	سنة ثلاث ومائة.....	٦٦٨.....	ذكر مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير.....
٦٩١.....	ذكر استعمال سعيد الحرشي على خراسان.....	٦٦٨.....	ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان.....
٦٩١.....	ذكر عدة حوادث.....	٦٦٩.....	ذكر عدة حوادث.....
٦٩٢.....	سنة أربع ومائة.....	٦٧٠.....	سنة ثمان وتسعين.....
٦٩٢.....	ذكر الوقعة بين الحرشي والصفد.....		

٧٠٥	سنة اثني عشرة ومائة	٦٩٣	ذكر ظفر الخَزَر بالمسلمين
٧٠٥	ذكر قتل الجراح الحكيم	٦٩٣	ذكر ولاية الجراح أرمينية وفتح بَلَنْجَر وغيرها
٧٠٦	ذكر وقعة الجُنَيْد بالشعب	٦٩٣	ذكر عزل عبد الرحمن بن الضحَّاك عن المدينة ومكة
٧٠٧	ذكر مقتل سُورَة بن الحر	٦٩٤	ذكر ولادة أبي العباس السفاح
٧٠٩	ذكر عدة حوادث	٦٩٤	ذكر عزل سعيد الحرشي
٧٠٩	سنة ثلاث عشرة ومائة	٦٩٤	ذكر عدة حوادث
٧٠٩	ذكر قتل عبدالوهاب	٦٩٥	سنة خمس ومائة
٧٠٩	ذكر غزوة سلمة وعوده	٦٩٥	ذكر خروج عُفَّان
٧٠٩	ذكر قتل عبد الرحمن أمير الأندلس	٦٩٥	ذكر خروج مسعود العبدي
٧١٠	ذكر عدة حوادث	٦٩٥	ذكر مُصَنَّب بن محمد الوالبي
٧١٠	سنة أربع عشرة ومائة	٦٩٥	ذكر موت يزيد بن عبد الملك
٧١٠	ذكر ولاية مروان بن محمد أرمينية وأذربيجان	٦٩٥	ذكر بعض سيرته
٧١١	ذكر عدة حوادث	٦٩٦	ذكر خلافة هشام بن عبد الملك
٧١١	سنة خمس عشرة ومائة	٦٩٦	ذكر ولاية خالد القسري العراق
٧١١	سنة ست عشرة ومائة	٦٩٦	ذكر دُعاة بني العباس
٧١١	ذكر عزل الجُنَيْد ووفاته وولاية عاصم خراسان	٦٩٦	ذكر عدة حوادث
٧١٢	ذكر خلع بن سُرَّيج بخراسان	٦٩٧	سنة ست ومائة
٧١٢	ذكر عدة حوادث	٦٩٧	ذكر الوقعة بين مُضَر واليمن بخراسان
٧١٢	سنة سبع عشرة ومائة	٦٩٧	ذكر غزو مسلم الترك
٧١٢	ذكر عزل عاصم عن خراسان وولاية أسد	٦٩٨	ذكر حج هشام بن عبد الملك
٧١٣	ذكر حال دُعاة العباس	٦٩٨	ذكر ولاية أسد خراسان
٧١٤	ذكر ولاية عبيد الله بن الخناب إفريقية والأندلس	٦٩٩	ذكر استعمال الحر على الموصل
٧١٥	ذكر عدة حوادث	٦٩٩	ذكر عدة حوادث
٧١٥	سنة ثمان عشرة ومائة	٦٩٩	سنة سبع ومائة
٧١٥	ذكر دُعاة بني العباس	٦٩٩	ذكر ملك الجُنَيْد بعض بلاد السند وقتل صاحبه جيشه
٧١٦	ذكر ما كان من الحارث وأصحابه	٦٩٩	ذكر غزوة عَنَسَة الفرنج بالأندلس
٧١٦	ذكر عدة حوادث	٦٩٩	ذكر حال الدعاة لبني العباس
٧١٦	سنة تسع عشرة ومائة	٧٠٠	ذكر الخبر عن غزوة الغور
٧١٦	ذكر قتل خاقان	٧٠٠	ذكر عدة حوادث
٧١٨	ذكر قتل المُعْتَمِر بن سعيد وبيان	٧٠٠	سنة ثمان ومائة
٧١٩	ذكر خبر الخوارج هذه السنة	٧٠٠	ذكر غزوة الختل والغور
٧٢٠	ذكر خروج الصحاري بن شبيب	٧٠٠	ذكر عدة حوادث
٧٢٠	ذكر غزوة أسد الختل	٧٠١	سنة تسع ومائة
٧٢١	ذكر عدة حوادث	٧٠١	ذكر عزل خالد وأخيه أسد عن خراسان وولاية أشرس
٧٢١	سنة عشرين ومائة	٧٠١	ذكر دُعاة بني العباس
٧٢١	ذكر وفاة أسد بن عبد الله	٧٠٢	ذكر عدة حوادث
٧٢١	ذكر شيعة بني العباس بخراسان	٧٠٢	سنة عشر ومائة
٧٢١	ذكر عزل خالد بن عبد الله القسري وولاية يوسف بن	٧٠٢	ذكر ما جرى لأشرس مع أهل سَمَرْقَنْد وغيرها
٧٢٢	عمر التقي	٧٠٣	ذكر وقعة كَمَرْجَة
٧٢٤	ذكر ولاية نصر بن سيار الكنتاني خراسان	٧٠٤	ذكر ردة أهل كَرْذَر
٧٢٤	ذكر عدة حوادث	٧٠٤	ذكر عدة حوادث
٧٢٤	سنة إحدى وعشرين ومائة	٧٠٤	سنة إحدى عشرة ومائة
٧٢٤	ذكر ظهور زيد بن علي بن الحسين	٧٠٤	ذكر عزل أشرس عن خراسان واستعمال الجُنَيْد
٧٢٦	ذكر غزوات نصر بن سيار ما وراء النهر	٧٠٥	ذكر عدة حوادث

- ٧٤٩ ذكر إخراج وَرَقْجُومَة من القيروان.....
- ٧٥٠ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٥٠ سنة سبع وعشرين ومائة.....
- ٧٥٠ ذكر مسير مروان إلى الشام وخلع إبراهيم.....
- ٧٥١ ذكر بيعة مروان بن محمد بن مروان.....
- ٧٥١ ذكر ظهور عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر.....
- ٧٥٢ ذكر رجوع الحارث بن السُرَيْج إلى مرو.....
- ٧٥٢ ذكر انتفاض أهل حمص.....
- ٧٥٣ ذكر خلاف أهل الغوطة.....
- ٧٥٣ ذكر خلاف أهل فلسطين.....
- ٧٥٤ ذكر خروج الضحَّاك محكمًا.....
- ٧٥٥ ذكر خلع أبي الخطَّار أمير الأندلس وإمارة ثوبان.....
- ٧٥٥ ذكر شيعة بني العباس.....
- ٧٥٦ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٥٦ سنة ثمان وعشرين ومائة.....
- ٧٥٦ ذكر قتل الحارث بن سُرَيْج وغلبة الكرمانيّ على مرو.....
- ٧٥٨ ذكر شيعة بني العباس.....
- ٧٥٨ ذكر قتل الضحَّاك الخارجي.....
- ٧٥٨ ذكر قتل الخيبريّ وولاية شيان.....
- ٧٥٩ ذكر خبر أبي حمزة الخارجي مع طالب الحق.....
- ٧٥٩ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٥٩ سنة تسع وعشرين ومائة.....
- ٧٥٩ ذكر شَيْبَان الحُرُورِي إلى أن قُتل.....
- ٧٦٠ ذكر إظهار الدعوة العباسية بخراسان.....
- ٧٦٢ ذكر مقتل الكرمانيّ.....
- ٧٦٣ ذكر تعاقد أهل خراسان على أبي مسلم.....
- ٧٦٤ ذكر غلبة عبد الله بن معاوية على فارس وقتله.....
- ٧٦٥ ذكر أبي حمزة الخارجي وطالب الحق.....
- ٧٦٥ ذكر ولاية يوسف بن عبد الرحمن الزُّهري بالأندلس.....
- ٧٦٦ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٦٦ سنة ثلاثين ومائة.....
- ٧٦٦ ذكر دخول أبي مسلم مرو والبيعة بها.....
- ٧٦٧ ذكر هرب نصر بن سَيَّار من مرو.....
- ٧٦٧ ذكر قتل شَيْبَان الحُرُورِي.....
- ٧٦٨ ذكر قتل ابني الكرمانيّ.....
- ٧٦٨ ذكر قدوم قحطبة من عند الإمام إبراهيم.....
- ٧٦٨ ذكر مسير قحطبة إلى نيسابور.....
- ٧٦٩ ذكر قتل نباتة بن حنظلة.....
- ٧٦٩ ذكر وقعة أبي حمزة الخارجي بِقُدَيْد.....
- ٧٦٩ ذكر دخول أبي حمزة المدينة.....
- ٧٧٠ ذكر قتل أبي حمزة الخارجي.....
- ٧٧٠ ذكر قتل عبد الله بن يحيى.....
- ٧٧٠ ذكر قتل ابن عطية.....
- ٧٧٠ ذكر إيقاع قحطبة بأهل جُرْجَان.....
- ٧٧١ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٢٨ ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان.....
- ٧٢٨ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٢٨ سنة اثنين وعشرين ومائة.....
- ذكر مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.....
- ٧٢٨ طالب.....
- ٧٣٠ ذكر قتل البطال.....
- ٧٣٠ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٣٠ سنة ثلاث وعشرين ومائة.....
- ٧٣٠ ذكر صلح نصر بن سَيَّار مع الصُّغْد.....
- ٧٣٠ ذكر وفاة عَقْبَة بن الحجاج ودخول بَلْج الأندلس.....
- ٧٣١ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٣١ سنة أربع وعشرين ومائة.....
- ٧٣١ ذكر ابتداء أمر أبي مُسلم الخراساني.....
- ذكر الحرب بين بَلْج وابني عبد الملك ووفاة بَلْج.....
- ٧٣٣ وولاية ثعلبة بن سلامة الأندلس.....
- ٧٣٣ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٣٣ سنة خمس وعشرين ومائة.....
- ٧٣٣ ذكر وفاة هشام بن عبد الملك.....
- ٧٣٣ ذكر بعض سيرته.....
- ٧٣٤ ذكر بيعة الوليد بن يزيد بن عبد الملك.....
- ٧٣٥ ذكر ولاية نصر بن سَيَّار خراسان للوليد.....
- ٧٣٦ ذكر قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين.....
- ٧٣٦ ذكر ولاية حنظلة إفريقية وأبي الخطَّار الأندلس.....
- ٧٣٦ ذكر عِدَّة حوادث.....
- ٧٣٧ سنة ست وعشرين ومائة.....
- ٧٣٧ ذكر قتل خالد بن عبد الله القسري.....
- ٧٣٨ ذكر قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك.....
- ٧٤١ ذكر نسب الوليد وبعض سيرته.....
- ٧٤٢ ذكر بيعة يزيد بن الوليد الناقص.....
- ٧٤٢ ذكر اضطراب أمر بني أمية.....
- ٧٤٢ ذكر خلاف أهل حمص.....
- ٧٤٢ ذكر خلاف أهل فلسطين.....
- ٧٤٣ ذكر عزل يوسف بن عمر عن العراق.....
- ٧٤٣ ذكر امتناع نصر بن سَيَّار على منصور.....
- ٧٤٤ ذكر الحرب بين أهل اليمامة وعاملهم.....
- ذكر عزل منصور عن العراق وولاية عبد الله بن عمر.....
- ٧٤٥ بن عبد العزيز.....
- ٧٤٥ ذكر الاختلاف بين أهل خُراسان.....
- ٧٤٦ ذكر خبر الحارث بن سُرَيْج وأمانه.....
- ٧٤٦ ذكر شيعة بني العباس.....
- ٧٤٦ ذكر بيعة إبراهيم بن الوليد بالعهد.....
- ٧٤٦ ذكر مخالفة مروان بن محمد.....
- ٧٤٧ ذكر وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك.....
- ٧٤٧ ذكر خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك.....
- ٧٤٧ ذكر استيلاء عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية.....

٧٩٢	ذكر قتل أبي مسلم الخراساني	٧٧١	سنة إحدى وثلاثين ومائة
٧٩٦	ذكر خروج سنياد بخراسان	٧٧١	ذكر موت نصر بن سيار
٧٩٦	ذكر خروج ملبد بن حرملة	٧٧١	ذكر دخول قحطبة الرمي
٧٩٧	ذكر عدة حوادث	٧٧٢	ذكر قتل عامر بن ضبارة ودخول قحطبة أصبهان
٧٩٧	سنة ثمان وثلاثين ومائة	٧٧٣	ذكر محاربة قحطبة أهل نهاوند ودخولها
٧٩٧	ذكر خلع جمهور بن مزار العجلي	٧٧٣	ذكر فتح شهرزور
٧٩٧	ذكر قتل ملبد الخارجي	٧٧٣	ذكر مسير قحطبة إلى ابن هبيرة بالعراق
٧٩٧	ذكر عدة حوادث	٧٧٣	ذكر عدة حوادث
٧٩٨	سنة تسع وثلاثين ومائة	٧٧٤	سنة اثنين وثلاثين ومائة
٧٩٨	ذكر غزو الروم والغداة معهم	٧٧٤	ذكر هلاك قحطبة وهزيمة ابن هبيرة
٧٩٨	ذكر دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس	٧٧٤	ذكر خروج محمد بن خالد بالكوفة مسوداً
٨٠٠	ذكر حبس عبد الله بن علي	٧٧٥	ذكر ابتداء الدولة العباسية وبيعة أبي العباس
٨٠١	ذكر عدة حوادث	٧٧٨	ذكر هزيمة مروان بالزباب
٨٠١	سنة أربعين ومائة	٧٧٩	ذكر قتل إبراهيم بن محمد بن علي الإمام
٨٠١	ذكر هلاك أبي داود عامل خراسان وولاية عبد الجبار	٧٨٠	ذكر قتل مروان بن محمد بن مروان بن الحكم
٨٠١	ذكر قتل يوسف الفهري	٧٨١	ذكر من قتل من بني أمية
٨٠١	ذكر عدة حوادث	٧٨٢	ذكر خلع حبيب بن مرة المرمي
٨٠٢	سنة إحدى وأربعين ومائة	٧٨٢	ذكر خلع أبي الورد وأهل دمشق
٨٠٢	ذكر خروج الراوندية	٧٨٣	ذكر تبيض أهل الجزيرة وخلعهم
٨٠٢	ذكر خلع عبد الجبار بخراسان ومسير المهدي إليه	٧٨٣	ذكر قتل أبي سلمة الخلال وسليمان بن كثير
٨٠٣	ذكر فتح طبرستان	٧٨٤	ذكر محاضرة ابن هبيرة بواسط
٨٠٣	ذكر عدة حوادث	٧٨٥	ذكر قتل عمال أبي سلمة بفارس
٨٠٣	سنة اثنين وأربعين ومائة	٧٨٦	ذكر ولاية يحيى بن محمد الموصل وما قيل فيها
٨٠٣	ذكر خلع عتيبة بن موسى بن كعب	٧٨٦	ذكر عدة حوادث
٨٠٤	ذكر نكت الأصبهاني	٧٨٦	سنة ثلاث وثلاثين ومائة
٨٠٤	ذكر عدة حوادث	٧٨٦	ذكر مالك الروم ملطية
٨٠٤	سنة ثلاث وأربعين ومائة	٧٨٧	ذكر عدة حوادث
٨٠٤	سنة أربع وأربعين ومائة	٧٨٧	سنة أربع وثلاثين ومائة
	ذكر استعمال رياح بن عثمان المرمي على المدينة وأمر	٧٨٧	ذكر خلع بسام بن إبراهيم
٨٠٥	محمد بن عبدالله بن الحسن	٧٨٨	ذكر أمر الخوارج وقتل شيثان بن عبد العزيز
٨٠٧	ذكر حبس أولاد الحسن	٧٨٨	ذكر غزوة كثر
٨٠٨	ذكر حملهم إلى العراق	٧٨٨	ذكر حال منصور بن جمهور
٨٠٩	ذكر عدة حوادث	٧٨٨	ذكر عدة حوادث
٨٠٩	سنة خمس وأربعين ومائة	٧٨٩	سنة خمس وثلاثين ومائة
٨٠٩	ذكر ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن	٧٨٩	ذكر خروج زياد بن صالح
	ذكر مسير عيسى بن موسى إلى محمد بن عبد الله	٧٨٩	ذكر غزو جزيرة صقلية
٨١٣	وقته	٧٨٩	ذكر عدة حوادث
٨١٦	ذكر بعض المشهورين ممن كان معه	٧٨٩	سنة ست وثلاثين ومائة
٨١٦	ذكر صفة محمد والأخبار بقتله	٧٨٩	ذكر حج أبي جعفر وأبي مسلم
٨١٧	ذكر وثوب السودان بالمدينة	٩٧٠	ذكر موت السفاح
٨١٧	ذكر بناء مدينة بغداد	٩٧٠	ذكر خلافة المنصور
٨١٨	ذكر ظهور إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أخي محمد	٧٩١	ذكر الفتنة بالأندلس
٨٢٠	ذكر مسير إبراهيم وقلته	٧٩١	ذكر عدة حوادث
٨٢١	ذكر عدة حوادث	٧٩١	سنة سبع وثلاثين ومائة
		٧٩١	ذكر خروج عبد الله بن علي وهزيمة

- ٨٣٥ ذكر عزل موسى عن الموصل وولاية خالد بن برمك
 ٨٣٦ ذكر موت المنصور ووصيته
 ٨٣٧ ذكر صفة المنصور وأولاده
 ٨٣٨ ذكر بعض سيرة المنصور
 ٨٤٠ ذكر خلافة المهدي والبيعة له
 ٨٤١ ذكر عدة حوادث
 ٨٤١ سنة تسع وخمسين ومائة
 ٨٤٢ ذكر تقدم يعقوب عند المهدي
 ٨٤٢ ذكر ظهور المقتنع بخراسان
 ٨٤٢ ذكر عدة حوادث
 ٨٤٣ سنة ستين ومائة
 ٨٤٣ ذكر خروج يوسف البرم
 ٨٤٣ ذكر خلع عيسى بن موسى وبيعة موسى الهادي
 ٨٤٤ ذكر فتح مدينة بارتد
 ٨٤٤ ذكر رد نسب آل أبي بكر وآل زياد
 ٨٤٤ ذكر عدة حوادث
 ٨٤٥ سنة إحدى وستين ومائة
 ٨٤٥ ذكر هلاك المقتنع
 ٨٤٥ ذكر تغير حال أبي عبيد الله
 ٨٤٦ ذكر عبور الصقلي إلى الأندلس وقتله
 ٨٤٦ ذكر عدة حوادث
 ٨٤٧ سنة اثنتين وستين ومائة
 ٨٤٧ ذكر قتل عبد السلام الخارجي
 ٨٤٧ ذكر عدة حوادث
 ٨٤٧ سنة ثلاث وستين ومائة
 ٨٤٧ ذكر غزو الروم
 ٨٤٨ ذكر عدة حوادث
 ٨٤٨ سنة أربع وستين ومائة
 ٨٤٩ سنة خمس وستين ومائة
 ٨٤٩ ذكر غزو الروم
 ٨٤٩ ذكر عدة حوادث
 ٨٤٩ سنة ست وستين ومائة
 ٨٤٩ ذكر القبض على يعقوب بن داود
 ٨٥١ ذكر عدة حوادث
 ٨٥١ سنة سبع وستين ومائة
 ٨٥٢ سنة ثمان وستين ومائة
 ٨٥٢ ذكر الخوارج بالموصل
 ٨٥٢ ذكر مخالفة أبي الأسود بالأندلس
 ٨٥٢ ذكر عدة حوادث
 ٨٥٣ سنة تسع وستين ومائة
 ٨٥٣ ذكر موت المهدي
 ٨٥٣ ذكر بعض سيرته
 ٨٥٤ ذكر خلافة الهادي
 ٨٥٥ ذكر ظهور الحسين بن علي بن الحسن
 ٨٢٢ سنة ست وأربعين ومائة
 ٨٢٢ ذكر انتقال المنصور إلى بغداد وكيفية بنائها
 ٨٢٢ ذكر خروج العلاء بالأندلس
 ٨٢٣ ذكر عدة حوادث
 ٨٢٣ سنة سبع وأربعين ومائة
 ٨٢٣ ذكر قتل حرب بن عبد الله
 ٨٢٣ ذكر البيعة للمهدي وخلق عيسى بن موسى
 ٨٢٤ ذكر موت عبد الله بن علي
 ٨٢٥ ذكر عدة حوادث
 ٨٢٥ سنة ثمان وأربعين ومائة
 ٨٢٥ ذكر خروج حسان بن مجالد
 ٨٢٥ ذكر استعمال خالد بن برمك
 ٨٢٥ ذكر ولاية الأغلب بن سالم إفريقية
 ٨٢٦ ذكر الفتن بالأندلس
 ٨٢٦ ذكر عدة حوادث
 ٨٢٧ سنة تسع وأربعين ومائة
 ٨٢٧ سنة خمسين ومائة
 ٨٢٧ ذكر خروج أستاذ سيس
 ٨٢٨ ذكر عدة حوادث
 ٨٢٨ سنة إحدى وخمسين ومائة
 ٨٢٨ ذكر عزل عمر بن حفص عن السند وولاية هشام بن عمرو
 ٨٢٨ ذكر ولاية أبي جعفر عمر بن حفص إفريقية
 ٨٢٩ ذكر ولاية يزيد بن حاتم إفريقية وقاتل الخوارج
 ٨٣٠ ذكر بناء الرصافة للمهدي
 ٨٣٠ ذكر قتل سليمان بن حكيم العبدي
 ٨٣١ ذكر ابتداء أمر شقنا وخروجه بالأندلس
 ٨٣١ ذكر قتل مَعْن بن زائدة
 ٨٣١ ذكر عدة حوادث
 ٨٣٢ سنة اثنتين وخمسين ومائة
 ٨٣٢ سنة ثلاث وخمسين ومائة
 ٨٣٣ سنة أربع وخمسين ومائة
 ٨٣٣ سنة خمس وخمسين ومائة
 ٨٣٣ ذكر عزل العباس بن محمد عن الجزيرة واستعمال موسى بن كعب
 ٨٣٣ ذكر عزل محمد بن سليمان عن الكوفة واستعمال عمرو بن زهير
 ٨٣٣ ذكر عدة حوادث
 ٨٣٤ سنة ستة وخمسين ومائة
 ٨٣٤ ذكر عصيان أهل إشبيلية على عبد الرحمن الأموي
 ٨٣٤ ذكر الفتنة بإفريقية مع الخوارج
 ٨٣٤ ذكر عدة حوادث
 ٨٣٥ سنة سبع وخمسين ومائة
 ٨٣٥ سنة ثمان وخمسين ومائة

٨٧٠	ذكر غزو الفرنج بالأندلس	٨٥٦	ذكر عدة حوادث
٨٧٠	ذكر عدة حوادث	٨٥٧	سنة سبعين ومائة
٨٧٠	سنة ثمانين ومائة	٨٥٧	ذكر ما جرى للهادي في خلع الرشيد
٨٧٠	ذكر وفاة هشام	٨٥٨	ذكر وفاة الهادي
٨٧٠	ذكر ولاية ابنه الحكم ولقبه المتصر	٨٥٨	ذكر وفاته وبلغ سنه وصفته وأولاد
٨٧١	ذكر غزو الفرنج بالأندلس	٨٥٨	ذكر بعض سيرته
٨٧١	ذكر ولاية علي بن عيسى خراسان	٨٦٠	ذكر خلافة الرشيد بن المهدي
٨٧١	ذكر عدة حوادث	٨٦٠	ذكر عدة حوادث
٨٧٢	سنة إحدى وثمانين ومائة	٨٦١	سنة إحدى وسبعين ومائة
٨٧٢	ذكر ولاية محمد بن مقاتل إفريقية	٨٦١	ذكر وفاة عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس
٨٧٢	ذكر ولاية إبراهيم بن الأغلب إفريقية	٨٦١	ذكر إمارة ابنه هشام
٨٧٣	ذكر ولاية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب إفريقية	٨٦١	ذكر الصخّصّح الخارجي
٨٧٣	ذكر من خالف بالأندلس على صاحبها	٨٦١	ذكر قتل رّوح بن صالح
٨٧٣	ذكر عدة حوادث	٨٦١	ذكر استعمال رّوح بن حاتم على إفريقية
٨٧٤	سنة اثنين وثمانين ومائة	٨٦٢	ذكر عدة حوادث
٨٧٤	سنة ثلاث وثمانين ومائة	٨٦٢	سنة اثنين وسبعين ومائة
٨٧٤	ذكر غزو الخزّو بلاد الإسلام		ذكر خروج سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن على
٨٧٤	ذكر عدة حوادث	٨٦٢	أخيها هشام
٨٧٥	سنة أربع وثمانين ومائة	٨٦٢	ذكر خروج جماعة على هشام أيضاً
٨٧٥	سنة خمس وثمانين ومائة	٨٦٣	ذكر عدة حوادث
٨٧٦	سنة ست وثمانين ومائة	٨٦٣	سنة ثلاث وسبعين ومائة
٨٧٦	ذكر اتفاق الحكم صاحب الأندلس وعمه عبد الله	٨٦٣	سنة أربع وسبعين ومائة
٨٧٦	ذكر حج الرشيد وأمر كتاب ولاية العهد	٨٦٣	سنة خمس وسبعين ومائة
٨٧٧	ذكر عدة حوادث	٨٦٣	ذكر ظفر هشام بأخويه ومطروح
٨٧٧	سنة سبع وثمانين ومائة	٨٦٤	ذكر غزاة هشام بالأندلس
٨٧٧	ذكر إيقاع الرشيد بالرامكة	٨٦٤	ذكر عدة حوادث
٨٧٨	ذكر القبض على عبد الملك بن صالح	٨٦٤	سنة ست وسبعين ومائة
٨٨٠	ذكر غزو الروم	٨٦٤	ذكر ظهور يحيى بن عبد الله بالديلم
٨٨٠	ذكر قتل إبراهيم بن عثمان بن نهيك	٨٦٤	ذكر ولاية عمر بن مهران مصر
٨٨٠	ذكر ملك الفرنج مدينة تطيلة بالأندلس	٨٦٥	ذكر الفتنة بدمشق
٨٨١	ذكر إيقاع الحكم بأهل قرطبة	٨٦٧	ذكر عدة حوادث
٨٨١	ذكر عدة حوادث	٨٦٧	سنة سبع وسبعين ومائة
٨٨١	سنة ثمان وثمانين ومائة	٨٦٧	ذكر غزو الفرنج بالأندلس
٨٨١	سنة تسع وثمانين ومائة	٨٦٧	ذكر استعمال الفضل بن رّوح بن حاتم على إفريقية
٨٨١	ذكر مسير هارون الرشيد إلى الرّي	٨٦٨	ذكر ولاية هرثمة بن أعين بلاد إفريقية
٨٨٢	ذكر الفتنة بطرابلس الغرب	٨٦٨	ذكر الفتنة بالموصل
٨٨٢	ذكر عدة حوادث	٨٦٨	ذكر عدة حوادث
٨٨٢	سنة تسعين ومائة	٨٦٩	سنة ثمان وسبعين ومائة
٨٨٢	ذكر خلع رافع بن الليث بن نصر بن سيار	٨٦٩	ذكر الفتنة بمصر
٨٨٣	ذكر فتح هرقله	٨٦٩	ذكر خروج الوليد بن طريف الخارجي
٨٨٣	ذكر عدة حوادث	٨٦٩	ذكر غزو الفرنج والجلالقة بالأندلس
٨٨٣	سنة إحدى وتسعين ومائة	٨٦٩	ذكر فتنة تاكرنا
٨٨٣	ذكر الفتنة من أهل طليطلة وهو وقعة الحفرة	٨٧٠	ذكر عدة حوادث
	ذكر عصيان أهل ماردة على الحكم وما فعله بأهل	٨٧٠	سنة تسع وسبعين ومائة

٩٠٢	ذكر حصار بغداد	٨٨٤	قُرْبَةُ
٩٠٤	ذكر عِدَّة حوادث	٨٨٤	ذكر غزو الفرنج بالأندلس
٩٠٤	سنة ثمان وتسعين ومائة	٨٨٤	ذكر عصيان خُزم على الحُكَم
٩٠٤	ذكر استيلاء طاهر على بغداد	٨٨٥	ذكر عِدَّة حوادث
٩٠٥	ذكر قتل الأمين	٨٨٥	سنة اثنين وتسعين ومائة
٩٠٧	ذكر صفه الأمين وعمره وولايته	٨٨٥	ذكر مسير الرشيد إلى خُراسان
٩٠٨	ذكر بعض سيرة الأمين	٨٨٦	ذكر عِدَّة حوادث
٩٠٩	ذكر وثوب الجند بطاهر	٨٨٦	سنة ثلاث وتسعين ومائة
٩١٠	ذكر خلاف نصر بن شَيْبِثِ الْعُقَيْلِيِّ على المأمون	٨٨٦	ذكر موت الفضل بن يحيى
٩١٠	ذكر ولاية الحسن بن سَهْلِ العراق وغيره من البلاد	٨٨٦	ذكر موت الرشيد
٩١٠	ذكر وقعة الرِّبْض بِقُرْبَةِ	٨٨٧	ذكر ولاة الأمصار أيام الرشيد
٩١١	ذكر الوقعة بالموصل المعروفة بالمِيدان	٨٨٨	ذكر نسائه وأولاده
٩١١	ذكر عِدَّة حوادث	٨٨٨	ذكر بعض سيرته
٩١١	سنة تسع وتسعين ومائة	٨٨٩	خلافة الأمين
٩١١	ذكر ظهور ابن طَبَاطِبَا الْعَلَوِيِّ	٨٨٩	ذكر ابتداء الاختلاف بين الأمين والمأمون
٩١٢	ذكر قُوَّة نصر بن شَيْبِثِ الْعُقَيْلِيِّ	٨٩٠	ذكر عِدَّة حوادث
٩١٣	ذكر عِدَّة حوادث	٨٩١	سنة أربع وتسعين ومائة
٩١٣	سنة مائتين	٨٩١	ذكر خلاف أهل جَنْص على الأمين
٩١٣	ذكر هرب أبي السرايا	٨٩١	ذكر ظهور الخلاف بين الأمين والمأمون
٩١٣	ذكر ظهور إبراهيم بن موسى بن جعفر	٨٩٣	ذكر خلاف أهل تونس على ابن الأغلب
	ذكر ما فعله الحسين بن الحسن الأفطس بمكة والبيعة	٨٩٣	ذكر عصيان أهل ماردة وغزو الحُكَم بلاد الفرنج
٩١٣	لمحمد بن جعفر	٨٩٤	ذكر عِدَّة حوادث
٩١٤	ذكر ما فعله إبراهيم بن موسى	٨٩٤	سنة خمس وتسعين ومائة
٩١٤	ذكر مسير هُرْثَمَة إلى المأمون وقته	٨٩٤	ذكر قطع خطبة المأمون
٩١٥	ذكر وثوب الحرّية ببغداد	٨٩٤	ذكر محاربة علي بن عيسى وطاهر
٩١٥	ذكر الفتنة بالموصل	٨٩٦	ذكر توجيه عبد الرحمن بن جَبَلَة
٩١٥	ذكر الغزاة إلى الفرنج	٨٩٦	ذكر استيلاء طاهر على أعمال الجبل
٩١٥	ذكر خروج البربر بناحية مَوْزُور	٨٩٦	ذكر قتل عبد الرحمن بن جَبَلَة
٩١٦	ذكر عِدَّة حوادث	٨٩٧	ذكر خروج السُفْيَانِيِّ
٩١٦	سنة إحدى ومائتين	٨٩٧	ذكر عِدَّة حوادث
٩١٦	ذكر ولاية منصور بن المهدي ببغداد	٨٩٧	سنة ست وتسعين ومائة
٩١٧	ذكر أمر المتطوعة بالمعروف		ذكر توجيه الأمين الجيوش إلى طاهر وعودهم من
٩١٧	ذكر البيعة لعلي بن موسى، عليه السلام، بولاية العهد	٨٩٧	غير قتال
٩١٨	ذكر الباعث على البيعة لإبراهيم بن المهدي	٨٩٨	ذكر الفضل بن سَهْل
٩١٨	ذكر فتح جبال طَبْرِسْتَان والذَيْلَم	٨٩٩	ذكر عبد الله بن صالح بن علي وموته
٩١٨	ذكر ابتداء أمر بابك الخُرْمِيِّ		ذكر خلع الأمين والبيعة للمأمون وعود الأمين إلى
٩١٨	ذكر ولاية زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إفريقية	٨٩٩	الخلافة
	ذكر ما فتحه زيادة الله بن الأغلب من جزيرة صقلية	٩٠٠	ذكر ما فعله طاهر بالأهواز
٩١٩	وما كان فيها من الحروب إلى أن توفي	٩٠٠	ذكر استيلاء طاهر على واسط وغيرها
٩٢١	ذكر عِدَّة حوادث	٩٠١	ذكر استيلاء طاهر على المدائن ونزوله بصَرْصَر
٩٢١	سنة اثنين ومائتين	٩٠١	ذكر البيعة للمأمون بمكة والمدينة
٩٢١	ذكر بيعة إبراهيم بن المهدي	٩٠١	ذكر ما فعله الأمين
٩٢٢	ذكر استيلاء إبراهيم على قصر ابن هُبَيْرَة	٩٠٢	ذكر وثوب الجند بطاهر والأمين ونزوله ببغداد
٩٢٣	ذكر الظفر بسهل بن سلامة	٩٠٢	ذكر الفتنة بإفريقية مع أهل طرابلس
٩٢٣	ذكر مسير المأمون إلى العراق وقتل ذي الرياستين	٩٠٢	سنة سبع وتسعين ومائة

٩٣٩	سنة ثلاث عشرة ومائتين	٩٢٤	ذكر قتل علي بن الحسين الهمداني
٩٤٠	سنة أربع عشرة ومائتين	٩٢٤	ذكر عدة حوادث
٩٤٠	ذكر قتل محمد الطوسي	٩٢٤	سنة ثلاث ومائتين
٩٤٠	ذكر حال أبي دلف مع المأمون	٩٢٤	ذكر موت علي بن موسى الرضى
٩٤٠	ذكر استعمال عبد الله بن طاهر على خراسان	٩٢٤	ذكر قبض إبراهيم بن المهدي على عيسى بن محمد
٩٤٠	ذكر عدة حوادث	٩٢٥	ذكر خلع إبراهيم بن المهدي
٩٤١	سنة خمس عشرة ومائتين	٩٢٥	ذكر اختفاء إبراهيم بن المهدي
٩٤١	ذكر غزوة المأمون إلى الروم	٩٢٥	ذكر عدة حوادث
٩٤١	سنة ست عشرة ومائتين	٩٢٦	سنة أربع ومائتين
٩٤١	ذكر فتح هرقلة	٩٢٦	ذكر قدوم المأمون بغداد
٩٤٢	ذكر عدة حوادث	٩٢٦	ذكر عدة حوادث
٩٤٢	سنة سبع عشرة ومائتين	٩٢٦	سنة خمس ومائتين
٩٤٢	سنة ثمانى عشرة ومائتين	٩٢٦	ذكر ولاية طاهر خراسان
٩٤٢	ذكر المحنة بالقرآن المجيد	٩٢٧	ذكر عدة حوادث
٩٤٤	ذكر مرض المأمون ووصيته	٩٢٧	سنة ست ومائتين
٩٤٥	ذكر وفاة المأمون وعمره وصفته	٩٢٧	ذكر ولاية عبد الله بن طاهر الرقة
٩٤٥	ذكر بعض سيرته وأخباره	٩٣١	ذكر موت الحَكَم بن هشام
٩٤٧	ذكر خلافة المعتصم	٩٣١	ذكر ولاية ابنه عبد الرحمن
٩٤٧	ذكر خلاف فضل على زيادة الله	٩٣١	ذكر عدة حوادث
٩٤٧	ذكر عدة حوادث	٩٣٢	سنة سبع ومائتين
٩٤٧	سنة تسع عشرة ومائتين	٩٣٢	ذكر خروج عبد الرحمن بن أحمد باليمن
٩٤٧	ذكر خلاف محمد بن القاسم العلوي	٩٣٢	ذكر وفاة طاهر بن الحسين
٩٤٧	ذكر محاربة الرط	٩٣٢	ذكر ما كان بالأندلس في هذه السنة
٩٤٨	ذكر محاصرة طليطلة	٩٣٣	ذكر عدة حوادث
٩٤٨	ذكر عدة حوادث	٩٣٣	سنة ثمان ومائتين
٩٤٨	سنة عشرين ومائتين	٩٣٤	سنة تسع ومائتين
٩٤٨	ذكر ظفر عجيف بالرط	٩٣٤	ذكر الظفر بنصر بن شيب
٩٤٨	ذكر مسير الأفشين لحرب بابك الخرمي	٩٣٤	ذكر عدة حوادث
٩٤٩	ذكر وقعة الأفشين مع بابك	٩٣٤	سنة عشر ومائتين
٩٥٠	ذكر بناء ساقرا	٩٣٤	ذكر ظفر المأمون بابن عائشة
٩٥٠	ذكر قبض الفضل بن مروان	٩٣٥	ذكر الظفر بإبراهيم بن المهدي
٩٥٠	ذكر عدة حوادث	٩٣٥	ذكر بناء المأمون ببران
٩٥١	سنة إحدى وعشرين ومائتين	٩٣٦	ذكر مسير عبد الله بن طاهر إلى مصر
٩٥١	ذكر محاربة بابك في هذه السنة	٩٣٦	ذكر فتح عبد الله الإسكندرية
٩٥٢	ذكر عدة حوادث	٩٣٦	ذكر خلع أهل قم
٩٥٢	سنة اثنين وعشرين ومائتين	٩٣٦	ذكر ما كان بالأندلس من الحوادث
٩٥٢	ذكر محاربة بابك أيضاً	٩٣٧	ذكر عدة حوادث
٩٥٢	ذكر فتح البذ وأسر بابك	٩٣٧	سنة إحدى عشرة ومائتين
٩٥٦	ذكر استيلاء عبد الرحمن على طليطلة	٩٣٧	ذكر قتل السيد بن أس
٩٥٦	ذكر عدة حوادث	٩٣٧	ذكر الفتنة بين عامر ومنصور وقتل منصور بإفريقية
٩٥٦	سنة ثلاث وعشرين ومائتين	٩٣٨	ذكر عدة حوادث
٩٥٦	ذكر قدوم الأفشين بابك	٩٣٨	سنة اثني عشرة ومائتين
٩٥٧	ذكر خروج الروم إلى زبطرة	٩٣٨	ذكر استيلاء محمد بن حُميد على الموصل
٩٥٧	ذكر فتح عمورية	٩٣٨	ذكر عدة حوادث

٩٧٦	سنة اثنتين وثلاثين ومائتين	٩٦٠	ذكر حبس العباس بن المأمون
٩٧٦	ذكر الحرب مع بني نُمَيْر		ذكر وفاة زيادة الله بن الأغلب وابتداء ولاية أخيه
٩٧٧	ذكر موت أبي جعفر الرائق	٩٦١	الأغلب
٩٧٨	ذكر بعض سيرة الرائق بالله	٩٦١	ذكر عدة حوادث
٩٧٨	ذكر خلافة المتوكل	٩٦١	سنة أربع وعشرين ومائتين
٩٧٨	ذكر عدة حوادث	٩٦١	ذكر مخالفة مازيار بطبرستان
٩٧٩	سنة ثلاث وثلاثين ومائتين	٩٦٤	ذكر عصيان مَنكجور قرابة الأفشين
٩٧٩	ذكر القبض على محمد بن عبد الملك الزيات	٩٦٤	ذكر ولاية عبد الله الموصل وقتله
٩٧٩	ذكر عدة حوادث	٩٦٥	ذكر غزاة المسلمين بالأندلس
٩٨٠	سنة أربع وثلاثين ومائتين	٩٦٥	ذكر عدة حوادث
٩٨٠	ذكر هرب محمد بن البَغِيث	٩٦٥	سنة خمس وعشرين ومائتين
٩٨٠	ذكر إيتاخ وما صار إليه أمره	٩٦٥	ذكر وصول مازيار إلى سامراء
٩٨١	ذكر الخلف بإفريقية	٩٦٦	ذكر غضب المعتصم على الأفشين وحبه
٩٨١	ذكر عدة حوادث	٩٦٧	ذكر عدة حوادث
٩٨١	سنة خمس وثلاثين ومائتين	٩٦٧	سنة ست وعشرين ومائتين
٩٨١	ذكر قتل إيتاخ	٩٦٨	ذكر موت الأفشين
٩٨١	ذكر أسر ابن البَغِيث وموته		ذكر وفاة الأغلب وولاية أبي العباس محمد بن
٩٨٢	ذكر البيعة لأولاد المتوكل بولاية العهد	٩٦٨	الأغلب إفريقية وما كان منه
٩٨٢	ذكر ظهور رجل ادعى النبوة	٩٦٨	ذكر ولاية ابنه أبي إبراهيم أحمد
٩٨٢	ذكر ما كان بالأندلس من الحوادث	٩٦٨	ذكر ولاية أخيه أبي محمد زيادة الله
٩٨٢	ذكر عدة حوادث	٩٦٨	ذكر ولاية محمد بن أحمد بن الأغلب
٩٨٣	سنة ست وثلاثين ومائتين	٩٦٩	ذكر عدة حوادث
٩٨٣	ذكر مقتل محمد بن إبراهيم	٩٦٩	سنة سبع وعشرين ومائتين
	ذكر ما فعله المتوكل بمشهد الحسين بن علي بن أبي	٩٦٩	ذكر خروج المبرقع
٩٨٣	طالب عليه السلام	٩٦٩	ذكر وفاة المعتصم
٩٨٤	ذكر عدة حوادث	٩٧٠	ذكر بعض سيرته
٩٨٤	سنة سبع وثلاثين ومائتين	٩٧٠	ذكر خلافة الرائق بالله
٩٨٤	ذكر وثوب أهل أرمينية بعاملهم	٩٧١	ذكر الفتنة بدمشق
	ذكر غضب المتوكل على ابن أبي دؤاد وولاية ابن	٩٧١	ذكر عدة حوادث
٩٨٤	أكرم القضاء	٩٧١	سنة ثمان وعشرين ومائتين
٩٨٥	ذكر ولاية العباس بن الفضل صفليّة وما فتح فيها	٩٧١	ذكر غزوات المسلمين في جزيرة صقلية
٩٨٥	ذكر فتح قَصْرِيَّانة	٩٧٢	ذكر الحرب بين موسى بن موسى والحرث بن يزيغ
٩٨٦	ذكر ابتداء أمر يعقوب بن الليث	٩٧٢	ذكر عدة حوادث
٩٨٦	ذكر عدة حوادث	٩٧٢	سنة تسع وعشرين ومائتين
٩٨٦	سنة ثمان وثلاثين ومائتين	٩٧٣	سنة ثلاثين ومائتين
٩٨٦	ذكر ما فعله بُغا بتقليس	٩٧٣	ذكر مسير بُغا إلى الأعراب بالمدينة
٩٨٦	ذكر مسير الروم إلى ديار مصر	٩٧٣	ذكر وفاة عبد الله بن طاهر
٩٨٧	ذكر وفاة عبد الرحمن بن الحكم وولاية ابنه محمد	٩٧٣	ذكر شيء من سيرة عبد الله بن طاهر
٩٨٧	ذكر عدة حوادث	٩٧٤	ذكر خروج المشركين إلى بلاد المسلمين بالأندلس
٩٨٧	سنة تسع وثلاثين ومائتين	٩٧٤	ذكر عدة حوادث
٩٨٧	سنة أربعين ومائتين	٩٧٤	سنة إحدى وثلاثين ومائتين
٩٨٧	ذكر وثوب أهل حمص بعاملهم	٩٧٤	ذكر ما فعله بُغا بالأعراب
٩٨٨	ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج بالأندلس	٩٧٥	ذكر أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي
٩٨٨	ذكر عدة حوادث	٩٧٥	ذكر عدة حوادث

- ١٠٠٧..... ذكر حال الأنبار
 ١٠١٠..... ذكر غزو الفرنج بالأندلس
 ١٠١٠..... ذكر عدة حوادث
 ١٠١١..... سنة اثنتين وخمسين ومائتين
 ١٠١١..... ذكر خلع المستعين
 ١٠١٢..... ذكر حال وصيف وبغا
 ١٠١٢..... ذكر الفتنة بين جند بغداد ومحمد بن عبد الله
 ١٠١٢..... ذكر خلع المؤيد وموته
 ١٠١٣..... ذكر قتل المستعين
 ١٠١٣..... ذكر الفتنة بين الأتراك والمغاربة
 ١٠١٣..... ذكر خروج مساور بالبوازيج
 ١٠١٣..... ذكر عدة حوادث
 ١٠١٤..... سنة ثلاث وخمسين ومائتين
 ١٠١٤..... ذكر أخذ كرج من أبي دلف
 ١٠١٤..... ذكر قتل وصيف
 ١٠١٤..... ذكر قتل بُندار الطبري
 ١٠١٥..... ذكر موت محمد بن عبد الله بن طاهر
 ١٠١٥..... ذكر الفتنة بأعمال الموصل
 ١٠١٥..... ذكر عدة حوادث
 ١٠١٦..... ذكر ابتداء دولة يعقوب الصفار وملكه هراة وبوشنج
 ١٠١٦..... سنة أربع وخمسين ومائتين
 ١٠١٦..... ذكر مقتل بُغا الشرابي
 ١٠١٦..... ذكر ابتداء حال أحمد بن طولون
 ١٠١٧..... ذكر وقعة بين مساور الخارجي وبين عسكر الموصل
 ١٠١٧..... ذكر عدة حوادث
 ١٠١٧..... سنة خمس وخمسين ومائتين
 ١٠١٧..... ذكر استيلاء يعقوب بن الليث الصفار على كرمان
 ١٠١٨..... ذكر ملك يعقوب فارس
 ١٠١٨..... ذكر خلع المعتز وموته
 ١٠١٩..... ذكر خلافة المهدي
 ١٠١٩..... ذكر الشغب ببغداد
 ١٠٢٠..... ذكر ظهور قبحة أم المعتز
 ١٠٢٠..... ذكر قتل أحمد بن إسرائيل وأبي نوح
 ١٠٢٠..... ذكر ولاية سليمان بن عبد الله بن طاهر بغداد
 ١٠٢٠..... وشغب الجند والعامة بها
 ١٠٢١..... ذكر استيلاء مُقْلح على طبرستان وعوده عنها
 ١٠٢١..... ذكر استيلاء مساور على الموصل
 ١٠٢١..... ذكر أول خروج صاحب الزنج
 ١٠٢٤..... ذكر عدة حوادث
 ١٠٢٥..... سنة ست وخمسين ومائتين
 ١٠٢٥..... ذكر وصول موسى بن بُغا إلى سامرا واختفاء صالح
 ١٠٢٥..... ذكر قتل صالح بن وصيف
 ١٠٢٧..... ذكر اختلاف الخوارج على مساور
 ١٠٢٧..... ذكر خلع المهدي وموته
 ١٠٢٩..... ذكر بعض سيرة المهدي
 ٩٨٨..... سنة إحدى وأربعين ومائتين
 ٩٨٨..... ذكر وثوب أهل حمص بعاملهم
 ٩٨٨..... ذكر الفداء بين المسلمين والروم
 ٩٨٨..... ذكر غارات الجعاة بمصر
 ٩٨٩..... ذكر عدة حوادث
 ٩٨٩..... سنة اثنتين وأربعين ومائتين
 ٩٩٠..... سنة ثلاث وأربعين ومائتين
 ٩٩٠..... سنة أربع وأربعين ومائتين
 ٩٩١..... سنة خمس وأربعين ومائتين
 ٩٩١..... ذكر خروج الكفار بالأندلس إلى بلاد الإسلام
 ٩٩٢..... ذكر الحرب بين البربر وابن الأغلب بإفريقية
 ٩٩٢..... ذكر عدة حوادث
 ٩٩٢..... سنة ست وأربعين ومائتين
 ٩٩٢..... سنة سبع وأربعين ومائتين
 ٩٩٢..... ذكر مقتل المتوكل
 ٩٩٤..... ذكر بعض سيرته
 ٩٩٥..... ذكر ولاية خفاجة بن سفيان صقلية وابنه محمد
 ٩٩٥..... وغزواتهما
 ٩٩٦..... ذكر ولاية ابنه محمد
 ٩٩٦..... ذكر عدة حوادث
 ٩٩٦..... سنة ثمان وأربعين ومائتين
 ٩٩٦..... ذكر غزاة وصيف الروم
 ٩٩٧..... ذكر خلع المعتز والمؤيد
 ٩٩٧..... ذكر موت المعتز
 ٩٩٨..... ذكر بعض سيرته
 ٩٩٨..... ذكر خلافة المستعين
 ٩٩٩..... ذكر عدة حوادث
 ٩٩٩..... سنة تسع وأربعين ومائتين
 ٩٩٩..... ذكر غزو الروم وقتل علي بن يحيى الأرمني
 ٩٩٩..... ذكر الفتنة ببغداد
 ١٠٠٠..... ذكر الفتنة بسامرا
 ١٠٠٠..... ذكر قتل أنامش
 ١٠٠٠..... ذكر عدة حوادث
 ١٠٠٠..... سنة خمسين ومائتين
 ١٠٠٠..... ذكر ظهور يحيى بن عمر الطالبي ومقتله
 ١٠٠١..... ذكر ظهور الحسن بن زيد العلوي
 ١٠٠٢..... ذكر عدة حوادث
 ١٠٠٣..... سنة إحدى وخمسين ومائتين
 ١٠٠٣..... ذكر قتل باغر التركي
 ١٠٠٤..... ذكر مسير المستعين إلى بغداد
 ١٠٠٤..... ذكر البيعة للمعتز بالله
 ١٠٠٥..... ذكر حصار المستعين ببغداد
 ١٠٠٧..... وهذه الآيات لعلي بن أمية في فتنة الأمين والمأمون

١٠٤٠.....	ذكر تجهز أبي أحمد للمسير إلى البصرة.	١٠٢٩.....	ذكر خلافة المعتمد على الله
١٠٤١.....	ذكر ولاية نصر بن أحمد الساماني ما وراء النهر	١٠٣٠.....	ذكر أخبار صاحب الزنج
١٠٤٢.....	ذكر عصيان أهل بركة	١٠٣٠.....	ذكر دخول الزنج الأكلة
١٠٤٢.....	ذكر ولاية إبراهيم بن أحمد إفريقية	١٠٣٠.....	ذكر أخذ الزنج عبّادان
١٠٤٣.....	ذكر عدة حوادث	١٠٣٠.....	ذكر أخذهم الأهواز
١٠٤٤.....	سنة اثنتين وستين ومائتين	١٠٣٠.....	ذكر عزل عيسى بن الشيخ عن الشام وولايته أرمينية
١٠٤٤.....	ذكر الحرب بين الموفق والصّغار	١٠٣٠.....	ذكر ابن الصوفي العلوي وخروجه بمصر
١٠٤٤.....	ذكر أخبار الزنج	١٠٣١.....	ذكر ظهور علي بن زيد على الكوفة وخروجه عنها
١٠٤٥.....	ذكر وقعة للزنج عظيمة انهزموا فيها	١٠٣١.....	ذكر عدة حوادث
١٠٤٥.....	ذكر أخبار أحمد بن عبد الله الخجستاني	١٠٣١.....	سنة سبع وخمسين ومائتين
١٠٤٧.....	ذكر قتل الخجستاني	١٠٣١.....	ذكر عود أبي أحمد الموفق من مكة إلى سر من رأى
١٠٤٨.....	ذكر عدة حوادث	١٠٣١.....	ذكر انهزام الزنج من سعيد الحاجب
١٠٤٨.....	سنة ثلاث وستين ومائتين	١٠٣١.....	ذكر خلاص ابن المدبر من الزنج
١٠٤٨.....	ذكر وقعة الزنج	١٠٣١.....	ذكر انهزام سعيد من الزنج وولاية منصور بن جعفر البصرة
١٠٤٨.....	ذكر استيلاء يعقوب على الأهواز وغيرها	١٠٣١.....	ذكر انهزام جيش الزنج بالأهواز
١٠٤٨.....	ذكر ملك الروم لؤلؤة	١٠٣٢.....	ذكر أخذ الزنج البصرة وتخريبها
١٠٤٩.....	ذكر عدة حوادث	١٠٣٢.....	ذكر مسير المولد لحرب الزنج
١٠٤٩.....	سنة أربع وستين ومائتين	١٠٣٣.....	ذكر قصد يعقوب فارس وملكه بلخ وغيرها
١٠٤٩.....	ذكر أسر عبد الله بن كاوس	١٠٣٣.....	ذكر ملك الحسن بن زيد العلوي جرجان
١٠٤٩.....	ذكر أخبار الزنج هذه السنة ودخولهم واسط	١٠٣٣.....	ذكر عدة حوادث
١٠٥٠.....	ذكر وزارة سليمان بن وهب للخليفة ووزارة الحسن بن مخلد وعزله	١٠٣٣.....	سنة ثمان وخمسين ومائتين
١٠٥١.....	ذكر وفاة أماجور وملك ابن طولون الشام وطرسوس	١٠٣٣.....	ذكر قتل منصور بن جعفر الخياط
١٠٥١.....	وقتل سيما الطويل	١٠٣٤.....	ذكر مسير أبي أحمد إلى الزنج وقتل مُفلح
١٠٥١.....	ذكر الفتنة ببلاد الصين	١٠٣٤.....	ذكر قتل يحيى بن محمد البحراني
١٠٥٢.....	ذكر ملك المسلمين مدينة سرقوسة	١٠٣٥.....	ذكر عود أبي أحمد إلى واسط
١٠٥٢.....	ذكر عدة حوادث	١٠٣٥.....	ذكر عدة حوادث
١٠٥٢.....	سنة خمس وستين ومائتين	١٠٣٥.....	سنة تسع وخمسين ومائتين
١٠٥٢.....	ذكر أخبار الزنج	١٠٣٥.....	ذكر دخول الزنج الأهواز
١٠٥٢.....	ذكر استعمال مسرور البلخي على الأهواز وانهزام الزنج منه	١٠٣٦.....	ذكر مسير موسى بن بُغا لحرب الزنج
١٠٥٣.....	ذكر عصيان العباس بن أحمد بن طولون على أبيه	١٠٣٦.....	ذكر ملك يعقوب نيسابور
١٠٥٣.....	ذكر موت يعقوب وولاية أخيه عمرو	١٠٣٧.....	ذكر ظهور ابن الصوفي بمصر ثانياً
١٠٥٣.....	ذكر عدة حوادث	١٠٣٧.....	ذكر حال أبي عبد الرحمن العمري
١٠٥٤.....	سنة سبت وستين ومائتين	١٠٣٧.....	ذكر ما كان هذه السنة بالأندلس
١٠٥٤.....	ذكر أخبار الفرنج مع أغرتمش	١٠٣٧.....	ذكر عدة حوادث
١٠٥٤.....	ذكر دخول الزنج رامهرمز	١٠٣٨.....	سنة ستين ومائتين
١٠٥٥.....	ذكر عدة حوادث	١٠٣٨.....	ذكر دخول يعقوب طبرستان
١٠٥٦.....	سنة سبع وستين ومائتين	١٠٣٨.....	ذكر الفتنة بالموصل وإخراج عاملهم
١٠٥٦.....	ذكر أخبار الزنج	١٠٣٩.....	ذكر الحرب بين أهل طليطلة وهوارة
١٠٥٨.....	ذكر وصول الموفق إلى قتال الزنج وفتح المنبجة	١٠٣٩.....	ذكر عدة حوادث
١٠٥٨.....	ذكر استيلاء الموفق على طهنا	١٠٤٠.....	سنة إحدى وستين ومائتين
١٠٥٩.....	ذكر مسير الموفق إلى الأهواز وإجلاء الزنج عنها	١٠٤٠.....	ذكر الحرب بين محمد بن واصل وابن مُفلح
١٠٦٠.....	ذكر محاصرة مدينة صاحب الزنج	١٠٤٠.....	ذكر ولاية أبي الساج الأهواز
١٠٦١.....	ذكر عبور الموفق إلى مدينة صاحب الزنج	١٠٤٠.....	ذكر عود الصّغار إلى فارس والحرب بينه وبين ابن واصل

١٠٨٠	سنة أربع وسبعين ومائتين	١٠٦٢	ذكر الحرب بين الخوارج بيلد الموصل
١٠٨٠	ذكر الحرب بين عسكر عمرو بن الليث وييسن عسكر الموفق	١٠٦٣	ذكر عدة حوادث
١٠٨٠	ذكر عدة حوادث	١٠٦٣	سنة ثمان وستين ومائتين
١٠٨٠	سنة خمس وسبعين ومائتين	١٠٦٣	ذكر أخبار الزنج
١٠٨٠	ذكر الاختلاف بين خماروّه وابن أبي الساج	١٠٦٤	ذكر الوقعة بين المعتضد والأعراب
١٠٨١	ذكر الحرب بين ابن كنداج وابن أبي الساج	١٠٦٤	ذكر أخبار رافع بن هرثمة
١٠٨١	ذكر الحرب بين الطائي وفارس العبدي	١٠٦٥	ذكر الحوادث بالأندلس وإفريقية
١٠٨١	ذكر قبض الموفق على ابنه المعتضد بالله	١٠٦٥	ذكر عدة حوادث
١٠٨٢	ذكر استيلاء رافع بن هرثمة على جرجان	١٠٦٦	سنة تسع وستين ومائتين
١٠٨٢	ذكر وفاة المنذر بن محمد الأموي	١٠٦٦	ذكر أخبار الزنج
١٠٨٢	ذكر عدة حوادث	١٠٦٧	ذكر إحراق قصر صاحب الزنج
١٠٨٢	سنة ست وسبعين ومائتين	١٠٦٨	ذكر غرق نصير
١٠٨٣	سنة سبع وسبعين ومائتين	١٠٦٨	ذكر إحراق قنطرة العلوي صاحب الزنج
١٠٨٣	سنة ثمان وسبعين ومائتين	١٠٦٨	ذكر انتقال صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي
١٠٨٣	ذكر الفتنة ببغداد	١٠٦٨	وإحراق سوقه
١٠٨٣	ذكر وفاة الموفق	١٠٦٩	ذكر استيلاء الموفق على مدينة صاحب الزنج الغربية
١٠٨٤	ذكر البيعة للمعتضد بولاية العهد	١٠٧٠	ذكر استيلاء الموفق على مدينة الخبيث الشرقية
١٠٨٤	ذكر ابتداء أمر القرامطة	١٠٧١	ذكر خلاف لؤلؤ على مولاة أحمد بن طولون
١٠٨٥	ذكر غزو الروم ووفاة بازمار	١٠٧١	ذكر مسير المعتضد إلى الشام وعوده من الطريق
١٠٨٦	ذكر الفتنة بطرسوس	١٠٧١	ذكر الحرب بين عسكر ابن طولون وعسكر الموفق بمكة
١٠٨٦	ذكر عدة حوادث	١٠٧٢	ذكر عدة حوادث
١٠٨٦	سنة تسع وسبعين ومائتين	١٠٧٢	سنة سبعين ومائتين
١٠٨٦	ذكر خلع جعفر بن المعتضد وولاية المعتضد	١٠٧٣	ذكر قتل الخبيث صاحب الزنج
١٠٨٦	ذكر الحرب بين الخوارج وأهل الموصل والأعراب	١٠٧٥	ذكر الظفر بالروم
١٠٨٧	ذكر وفاة المعتضد	١٠٧٥	ذكر وفاة الحسن بن زيد وولاية أخيه محمد
١٠٨٧	ذكر خلافة أبي العباس المعتضد	١٠٧٥	ذكر وفاة أحمد بن طولون وولاية ابنه خماروّه
١٠٨٧	ذكر وفاة نصر الساماني	١٠٧٦	ذكر مسير إسحاق بن كنداج إلى الشام
١٠٨٧	ذكر عزل رافع بن هرثمة من خراسان وقتله	١٠٧٦	ذكر عدة حوادث
١٠٨٨	ذكر عدة حوادث	١٠٧٧	سنة إحدى وسبعين ومائتين
١٠٨٨	سنة ثمانين ومائتين	١٠٧٧	ذكر خلاف محمد وعلي العلويين
١٠٨٨	ذكر حبس عبد الله بن المهتدي	١٠٧٧	ذكر عزل عمرو بن الليث عن خراسان
١٠٨٨	ذكر قصد المعتضد بني شيان وصلحه معهم	١٠٧٧	ذكر وقعة الطواحين
١٠٨٨	ذكر خروج محمد بن عبادة على هارون وكلاهما خارجيان	١٠٧٧	ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وعمرو الصفار
١٠٨٩	ذكر عدة حوادث	١٠٧٧	ذكر حروب الأندلس وإفريقية
١٠٩٠	سنة إحدى وثمانين ومائتين	١٠٧٨	ذكر عدة حوادث
١٠٩٠	ذكر مسير المعتضد إلى ماردين وملكه إياها	١٠٧٨	سنة اثنتين وسبعين ومائتين
١٠٩٠	ذكر عدة حوادث	١٠٧٨	ذكر الحرب بين أذكونكين ومحمد بن زيد العلوي
١٠٩٠	سنة اثنتين وثمانين ومائتين	١٠٧٨	ذكر عدة حوادث
١٠٩٠	ذكر الثيروز المعتضدي	١٠٧٩	سنة ثلاث وسبعين ومائتين
١٠٩٠	ذكر قصد حمدان وانهزامه وعوده إلى الطاعة	١٠٧٩	ذكر الاختلاف بين ابن أبي الساج وابن كنداج والخطبة بالجزيرة لابن طولون
١٠٩١	ذكر انهزام هارون الخارجي من عسكر الموصل	١٠٧٩	ذكر وقعة بين عسكر ابن أبي الساج والشراة
١٠٩١	ذكر عدة حوادث	١٠٧٩	ذكر وفاة محمد بن عبد الرحمن وولاية ابنه المنذر
		١٠٨٠	ذكر عدة حوادث

١١٠٨	سنة ثلاث وتسعين ومائتين	١٠٩٢	سنة ثلاث وثمانين ومائتين
ذكر أول إمارة بني حمدان بالموصل وما فعلوه	١٠٩٢	ذكر الظفر بهارون الخارجي	
١١٠٨	بالأكراد	ذكر عصيان دمشق على جيش بن خمارويه وخلاف	
١١٠٨	ذكر الظفر بالخلنجي	١٠٩٣	جنده عليه وقتله
١١٠٨	ذكر أمر القرامطة	١٠٩٣	ذكر حصر الصقالبة الفسططينية
١١١٠	ذكر عدة حوادث	١٠٩٣	ذكر الفداء بين المسلمين والروم
١١١٠	سنة أربع وتسعين ومائتين	١٠٩٣	ذكر الحرب بين عسكر المعتضد وأولاد أبي دلف
١١١٠	ذكر أخبار القرامطة وأخذهم الحاج	١٠٩٤	ذكر عدة حوادث
١١١١	ذكر قتل زكرويه لعنه الله	١٠٩٤	سنة أربع وثمانين ومائتين
١١١١	ذكر عدة حوادث	١٠٩٥	سنة خمس وثمانين ومائتين
١١١٢	سنة خمس وتسعين ومائتين	١٠٩٦	سنة ست وثمانين ومائتين
ذكر وفاة إسماعيل بن أحمد الساماني وولاية ابنه	١٠٩٦	ذكر ابتداء أمر القرامطة بالبحرين	
١١١٢	أحمد	١٠٩٧	ذكر عدة حوادث
١١١٢	ذكر وفاة المكتفي	١٠٩٧	سنة سبع وثمانين ومائتين
١١١٢	ذكر خلافة المقتدر بالله	١٠٩٧	ذكر قتل أبي ثابت أمير طرسوس وولاية ابن الأعرابي
١١١٣	ذكر عدة حوادث	١٠٩٧	ذكر ظفر المعتضد بوصيف ومن معه
١١١٤	سنة ست وتسعين ومائتين	١٠٩٨	ذكر أمر القرامطة وإنهزام العباس الفتوي منهم
١١١٤	ذكر خلع المقتدر وولاية ابن المعتز	١٠٩٨	ذكر أسر عمرو الصفار وملك إسماعيل خراسان
ذكر حادثة ينبغي أن يحتاط من مثلها ويفعل فيها مثل	١٠٩٩	ذكر قتل محمد بن زيد العلوي	
١١١٥	فعل صاحبها	١١٠٠	ذكر ولاية أبي العباس صقلية
ذكر ولاية أبي مضر إفريقية وهربه إلى العراق وما كان	١١٠٠	ذكر عدة حوادث	
١١١٥	من أمره	١١٠٠	سنة ثمان وثمانين ومائتين
١١١٦	ذكر ابتداء الدولة العلوية بإفريقية	١١٠١	سنة تسع وثمانين ومائتين
١١١٨	ذكر إرسال أبي عبد الله الشيعي إلى المغرب	١١٠١	ذكر أخبار القرامطة بالشام
١١١٩	ذكر ملكه مدينة ميعة وإنهزامه	١١٠١	ذكر أخبار القرامطة بالعراق
ذكر سبب اتصال المهدي عبيد الله بأبي عبد الله	١١٠١	ذكر وفاة المعتضد	
١١١٩	الشيعي ومسيره إلى سيجلماسة	١١٠٢	ذكر صفته وسيرته
ذكر استيلاء أبي عبد الله على إفريقية وهرب زيادة	١١٠٢	ذكر خلافة المكتفي بالله	
١١٢٠	الله أميرها	١١٠٢	ذكر قتل عمرو بن الليث الصفار
١١٢٢	ذكر مسير أبي عبد الله إلى سيجلماسة وظهور المهدي	١١٠٢	ذكر استيلاء محمد بن هارون على الرقي
١١٢٣	ذكر قتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس	١١٠٢	ذكر قتل بدر
١١٢٤	ذكر عدة حوادث	١١٠٣	ذكر ولاية أبي العباس عبد الله بن إبراهيم إفريقية
١١٢٤	سنة سبع وتسعين ومائتين	١١٠٤	ذكر عدة حوادث
١١٢٤	ذكر استيلاء الليث على فارس وقتله	١١٠٤	سنة تسعين ومائتين
١١٢٥	ذكر أخذ فارس من سبكرى	١١٠٤	ذكر أخبار القرامطة
١١٢٥	ذكر عدة حوادث	١١٠٥	ذكر أسر محمد بن هارون
١١٢٥	سنة ثمان وتسعين ومائتين	١١٠٥	ذكر عدة حوادث
١١٢٥	ذكر استيلاء أحمد بن إسماعيل على سيجستان	١١٠٦	سنة إحدى وتسعين ومائتين
١١٢٦	ذكر عدة حوادث	١١٠٦	ذكر أخبار القرامطة وقتل صاحب الشامة
١١٢٦	سنة تسع وتسعين ومائتين	١١٠٦	ذكر عدة حوادث
١١٢٦	ذكر القبض على ابن الفرات ووزارة الخاقاني	١١٠٧	سنة اثنتين وتسعين ومائتين
١١٢٧	ذكر عدة حوادث	١١٠٧	ذكر استيلاء المكتفي على الشام ومصر وانقراض
١١٢٧	سنة ثلاثمائة	١١٠٧	ملك الطولونية
١١٢٧	ذكر عزل الخاقاني عن الوزارة، ووزارة علي بن عيسى	١١٠٧	ذكر عدة حوادث

١١٤٢.....	سنة عشر وثلاثمائة.....	ذكر خلاف سجستان وعودها إلى طاعة أحمد بن
١١٤٢.....	ذكر حرب سيمجور مع أبي الحسين بن العلوي	١١٢٨.....
.....	ذكر خروج إلياس بن إسحاق بن أحمد بن أسد
١١٤٢.....	الساماني	١١٢٨.....
١١٤٣.....	ذكر وفاة محمد بن جرير الطبري
١١٤٣.....	ذكر عدة حوادث	١١٢٨.....
١١٤٤.....	سنة إحدى عشرة وثلاثمائة.....	عبد الرحمن الناصر
١١٤٤.....	ذكر عزل حامد وولاية ابن الفرات	١١٢٩.....
١١٤٥.....	ذكر القرامطة.....
١١٤٥.....	ذكر استيلاء ابن أبي الساج على الرّي	١١٢٩.....
١١٤٦.....	ذكر عدة حوادث	١١٢٩.....
١١٤٦.....	سنة اثني عشرة وثلاثمائة.....	١١٣٠.....
١١٤٦.....	ذكر حادثة غريبة.....	١١٣٠.....
١١٤٦.....	ذكر أخذ الحاج	١١٣٠.....
١١٤٧.....	ذكر القبض على الوزير ابن الفرات وولده المحسن	١١٣١.....
١١٤٧.....	ذكر وزارة أبي القاسم الخاقاني	١١٣١.....
١١٤٧.....	ذكر قتل ابن الفرات وولده المحسن	١١٣١.....
١١٤٨.....	ذكر دخول القرامطة الكوفة.....	١١٣١.....
١٤٨.....	ذكر عدة حوادث	١١٣٢.....
١١٤٩.....	سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة.....	١١٣٢.....
١١٤٩.....	ذكر عزل الخاقاني عن الوزارة ووزارة الخصيي	١١٣٣.....
١١٤٩.....	ذكر ما فتحه أهل صقلية.....	١١٣٣.....
١١٤٩.....	ذكر عدة حوادث	١١٣٤.....
١١٥٠.....	سنة أربع عشرة وثلاثمائة.....	١١٣٤.....
١١٥٠.....	ذكر مسير ابن أبي الساج إلى واسط	١١٣٤.....
١١٥٠.....	ذكر الحرب بين عبد الله بن حمدان والأكراد والعرب	١١٣٤.....
١١٥٠.....	ذكر عزل الخصيي ووزارة علي بن عيسى	١١٣٤.....
١١٥٠.....	ذكر استيلاء السامانية على الرّي	١١٣٥.....
١١٥١.....	ذكر عدة حوادث	١١٣٥.....
١١٥١.....	سنة خمس عشرة وثلاثمائة.....	١١٣٦.....
١١٥١.....	ذكر ابتداء الوحشة بين المقتدر ومؤنس	١١٣٦.....
.....	ذكر وصول القرامطة إلى العراق وقتل يوسف بن أبي	١١٣٦.....
١١٥١.....	الساج	١١٣٧.....
١١٥٣.....	ذكر استيلاء أسفار على جرجان	١١٣٧.....
١١٥٣.....	ذكر الحرب بين المسلمين والروم	١١٣٧.....
١١٥٤.....	ذكر مسير جيش المهدي إلى المغرب	١١٣٨.....
١١٥٤.....	ذكر عدة حوادث	١١٣٨.....
١١٥٤.....	سنة ست عشرة وثلاثمائة.....	١١٣٨.....
١١٥٤.....	ذكر أخبار القرامطة.....	١١٣٩.....
١١٥٥.....	ذكر عزل علي بن عيسى ووزارة أبي علي بن مقلّة	١١٣٩.....
١١٥٥.....	ذكر ابتداء حال أبي عبد الله البريدي وإخوته	١١٤٠.....
١١٥٥.....	ذكر من ظهر بسواد العراق من القرامطة	١١٤٠.....
١١٥٦.....	ذكر الحرب بين نازوك وهارون بن غريب	١١٤٠.....
١١٥٦.....	ذكر قتل الحسن بن القاسم الداعي	١١٤١.....
١١٥٧.....	ذكر قتل أسفار	١١٤٢.....
		ذكر عدة حوادث

- ١١٧٤ ذكر القبض على طريف السبكري
- ١١٧٤ ذكر أخبار خراسان
- ١١٧٥ ذكر ولاية محمد بن المظفر على خراسان
- ١١٧٥ ذكر ابتداء دولة بني بويه
- ١١٧٦ ذكر سبب تقدم علي بن بويه
- ذكر استيلاء ابن بويه على أرجان وغيرها وملك
- ١١٧٦ مرداويج أصبهان
- ١١٧٧ ذكر عدة حوادث
- ١١٧٧ سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة
- ١١٧٧ ذكر استيلاء ابن بويه على شيراز
- ١١٧٨ ذكر استيلاء نصر بن أحمد على كرمان
- ١١٧٨ ذكر خلع القاهر بالله
- ١١٧٩ ذكر خلافة الراضي بالله
- ١١٨٠ ذكر وفاة المهدي صاحب إفريقية وولاية ولده القائم
- ١١٨٠ ذكر استيلاء مرداويج على الأهواز
- ١١٨٠ ذكر عود ياقوت إلى الأهواز
- ١١٨١ ذكر قتل هارون بن غريب
- ١١٨١ ذكر ظهور إنسان ادعى النبوة
- ١١٨١ ذكر قتل الشلمغاني وحكاية مذهبه
- ١١٨٣ ذكر عدة حوادث
- ١١٨٣ سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة
- ١١٨٣ ذكر قتل مرداويج
- ١١٨٥ ذكر ما فعله الأتراك بعد قتله
- ١١٨٥ ذكر حال وشمكير بعد قتل أخيه
- ١١٨٥ ذكر القبض على ابن ياقوت
- ١١٨٥ ذكر حال البريدي
- ١١٨٦ ذكر فتنة الحنابلة ببغداد
- ١١٨٦ ذكر قتل أبي العلاء بن حمدان
- ذكر مسير ابن مقلة إلى الموصل وما كان بينه وبين
- ١١٨٦ ناصر الدولة
- ١١٨٧ ذكر فتح جنوة وغيرها
- ١١٨٧ ذكر القرامطة
- ١١٨٧ ذكر عدة حوادث
- ١١٨٨ سنة أربع وعشرين وثلاثمائة
- ذكر القبض على ابن مقلة ووزارة عبد الرحمن بن
- ١١٨٨ عيسى
- ذكر القبض على عبد الرحمن ووزارة أبي جعفر
- ١١٨٨ الكرخي
- ١١٨٨ ذكر قتل ياقوت
- ١١٩٠ ذكر عزل أبي جعفر ووزارة سليمان بن الحسن
- ١١٩٠ ذكر استيلاء ابن رائق على أمر العراق وتفرق البلاد
- ذكر مسير معز الدولة بن بويه إلى كرمان وما جرى
- ١١٩٠ عليه بها
- ١١٩١ ذكر استيلاء ماكان على جرجان
- ١١٩١ ذكر وزارة الفضل بن جعفر للخليفة
- ١١٥٨ ذكر ملك مرداويج
- ١١٥٨ ذكر ملك مرداويج طبرستان
- ١١٥٨ ذكر عدة حوادث
- ١١٥٩ سنة سبع عشرة وثلاثمائة
- ١١٥٩ ذكر خلع المقتدر
- ١١٦٠ ذكر عود المقتدر إلى الخلافة
- ذكر مسير القرامطة إلى مكة وما فعلوه بأهلها
- ١١٦١ وبالحجاج وأخذهم الحجر الأسود
- ١١٦١ ذكر خروج أبي زكريا وإخوته بخراسان
- ١١٦٢ ذكر عدة حوادث
- ١١٦٣ سنة ثمان عشرة وثلاثمائة
- ١١٦٣ ذكر هلاك الرجلة المصافية
- ١١٦٣ ذكر عزل ناصر الدولة بن حمدان عن الموصل
- ١١٦٣ وولاية عمه سعيد ونصر
- ١١٦٣ ذكر عزل ابن مقلة ووزارة سليمان بن الحسن
- ١١٦٤ ذكر القبض على أولاد البريدي
- ١١٦٤ ذكر خروج صالح والأغر
- ١١٦٤ ذكر مخالفة جعفر بن أبي جعفر وعوده
- ١١٦٤ ذكر عدة حوادث
- ١٦٥ سنة تسع عشرة وثلاثمائة
- ١١٦٥ ذكر تجدد الوحشة بين مؤنس والمقتدر
- ذكر قبض الوزير سليمان ووزارة أبي القاسم
- ١١٦٥ الكلوزاني
- ١١٦٥ ذكر الحرب بين هارون وعسكر مرداويج
- ١١٦٦ ذكر ما فعله لشكري من المخالفة
- ١١٦٦ ذكر ملك مرداويج أصبهان
- ١١٦٦ ذكر عزل الكلوزاني ووزارة الحسين بن القاسم
- ١١٦٧ ذكر تأكيد الوحشة بين مؤنس والمقتدر
- ١١٦٧ ذكر الحروب بين المسلمين والروم
- ١١٦٧ ذكر عدة حوادث
- ١١٦٨ سنة عشرين وثلاثمائة
- ١١٦٨ ذكر مسير مؤنس إلى الموصل
- ١١٦٨ ذكر عزل الحسين عن الوزارة
- ١١٦٨ ذكر استيلاء مؤنس على الموصل
- ١١٦٩ ذكر قتل المقتدر
- ١١٦٩ ذكر خلافة القاهر بالله
- ١١٧٠ ذكر وصول وشمكير إلى أخيه مرداويج
- ١١٧٠ ذكر عدة حوادث
- ١١٧٠ سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة
- ١١٧٠ ذكر حال عبد الواحد بن المقتدر ومن معه
- ١٤٧١ ذكر استيحاء مؤنس وأصحابه من القاهر
- ١١٧١ ذكر القبض على مؤنس وبلق
- ١١٧٤ ذكر قتل مؤنس وبلق وولده علي والنوبختي
- ١١٧٤ ذكر وزارة أبي جعفر محمد بن القاسم للخليفة
- ١١٧٤ وعزله ووزارة الخصبي

١٢٠٥	ذكر وزارة البريدي	١١٩١	ذكر عدة حوادث
١٢٠٥	ذكر استيلاء البريدي على بغداد وإصعاد المتقي إلى الموصل	١١٩٢	سنة خمس وعشرين وثلاثمائة
١٢٠٥	ذكر ما فعله البريدي ببغداد	١١٩٢	ذكر مسير الراضي بالله إلى حرب البريدي
١٢٠٦	ذكر قتل ابن رائق وولاية ابن حمدان إمرة الأمراء	١١٩٣	ذكر ظهور الوحشة بين ابن رائق والبريدي والحرب بينهما
١٢٠٦	ذكر عود المتقي إلى بغداد وهرب البريدي عنها	١١٩٣	ذكر استيلاء بجكم على الأهواز
١٢٠٦	ذكر الحزب بين ابن حمدان والبريدي	١١٩٤	ذكر الفتنة بين أهل صقلية وأهراهم
١٢٠٧	ذكر استيلاء الديلم على أذربيجان	١١٩٥	ذكر عدة حوادث
١٢٠٧	ذكر استيلاء أبي علي بن محتاج على بلد الجبل وطاعة وشمكير للسامانية	١١٩٥	سنة ست وعشرين وثلاثمائة
١٢٠٨	ذكر استيلاء الحسن بن الفيزان على جرجان	١١٩٥	ذكر استيلاء معز الدولة على الأهواز
١٢٠٨	ذكر ملك وشمكير الري	١١٩٦	ذكر الحرب بين بجكم والبريدي والصلح بعد ذلك
١٢٠٨	ذكر استيلاء ركن الدولة على الري	١١٩٦	ذكر قطع يد ابن مقلة ولسانه
١٢٠٨	ذكر عدة حوادث	١١٩٧	ذكر استيلاء بجكم على بغداد
١٢٠٩	سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة	١١٩٧	ذكر استيلاء لشكري على أذربيجان وقته
١٢٠٩	ذكر ظفر ناصر الدولة بعدل الجكمي	١١٩٨	ذكر اختلال أمور القرامطة
١٢٠٩	ذكر حال سيف الدولة بواسط	١١٩٨	ذكر عدة حوادث
١٢١٠	ذكر حال الأتراك بعد إصعاد سيف الدولة	١١٩٨	سنة سبع وعشرين وثلاثمائة
١٢١٠	ذكر عود سيف الدولة إلى بغداد وهربه عنها	١١٩٨	ذكر مسير الراضي وبجكم إلى الموصل وظهور ابن رائق ومسيره إلى الشام
١٢١٠	ذكر إمارة توزون	١١٩٩	ذكر وزارة البريدي للخليفة
١٢١٠	ذكر مسير صاحب عمان إلى البصرة	١١٩٩	ذكر مخلصة بالبا على الخليفة
١٢١٠	ذكر الوحشة بين المتقي لله وتوزون	١١٩٩	ذكر ولاية أبي علي بن محتاج خراسان
١٢١١	ذكر موت السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل	١١٩٩	ذكر غلبة وشمكير على أصبهان والموت
١٢١١	ذكر ولاية ابنه الأمير نوح بن نصر	١١٩٩	ذكر الفتنة بالاندلس
١٢١١	ذكر عدة حوادث	١٢٠٠	ذكر عدة حوادث
١٢١٢	سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة	١٢٠٠	سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة
١٢١٢	ذكر مسير المتقي إلى الموصل	١٢٠٠	ذكر استيلاء أبي علي على جرجان
١٢١٢	ذكر وصول معز الدولة إلى واسط وديالي وعوده	١٢٠٠	ذكر مسير ركن الدولة إلى واسط
١٢١٣	ذكر قتل أبي يوسف البريدي	١٢٠٠	ذكر ملك ركن الدولة أصبهان
١٢١٣	ذكر وفاة أبي عبد الله البريدي	١٢٠٠	ذكر مسير بجكم نحو بلاد الجبل وعوده
١٢١٣	ذكر مراسلة المتقي توزون في العود	١٢٠١	ذكر استيلاء بجكم على واسط
١٢١٤	ذكر ملك الروس مدينة بردعة	١٢٠١	ذكر استيلاء ابن رائق على الشام
١٢١٤	ذكر مسير المرزبان إليهم والظفر بهم	١٢٠١	ذكر عدة حوادث
١٢١٤	ذكر خروج ابن أشكام على نوح	١٢٠٢	سنة تسع وعشرين وثلاثمائة
١٢١٥	ذكر عدة حوادث	١٢٠٢	ذكر موت الراضي بالله
١٢١٥	سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة	١٢٠٢	ذكر خلافة المتقي بالله
١٢١٥	ذكر مسير المتقي إلى بغداد وخلعه	١٢٠٢	ذكر قتل ماکان بن كالي واستيلاء أبي علي بن محتاج على الري
١٢١٦	ذكر خلافة المستقي بالله	١٢٠٣	ذكر قتل بجكم
١٢١٦	ذكر خروج أبي يزيد الخارجي بإفريقية	١٢٠٣	ذكر إصعاد البريديين إلى بغداد
١٢١٧	ذكر استيلاء أبي يزيد على القيروان ورفادة	١٢٠٤	ذكر عود البريدي إلى واسط
١٢١٨	ذكر حصار أبي يزيد المهدية	١٢٠٤	ذكر إمارة كورنكين الديلمي
١٢١٩	ذكر رحيل أبي يزيد عن المهدية	١٢٠٤	ذكر عود ابن رائق إلى بغداد
١٢٢٠	ذكر محاصرة أبي يزيد سوسة وانتهزامه منها	١٢٠٤	ذكر عدة حوادث
١٢٢٠	ذكر ملك المنصور مدينة القيروان وانتهزام أبي يزيد	١٢٠٥	سنة ثلاثين وثلاثمائة
١٢٢١	ذكر قتل أبي يزيد		

- ذكر قتل أبي الحسن البريدي وإحراقه..... ١٢٢٢
 ذكر مسير أبي علي إلى الرُّيِّ وعوده قبل ملكها..... ١٢٢٢
 ذكر استيلاء وشمكير على جُرجان..... ١٢٢٢
 ذكر استيلاء أبي علي على الرُّيِّ..... ١٢٢٣
 ذكر وصول معز الدولة إلى واسط وعوده عنها..... ١٢٢٣
 ذكر ملك سيف الدولة مدينة حلب وحمص..... ١٢٢٣
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٢٣
 سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة..... ١٢٢٣
 ذكر موت توزون وإمارة ابن شيرزاد..... ١٢٢٣
 ذكر استيلاء معز الدولة على بغداد..... ١٢٢٤
 ذكر خلع المستنفي بالله..... ١٢٢٤
 ذكر خلافة المطيع لله..... ١٢٢٤
 ذكر الحرب بين ناصر الدولة ومعز الدولة..... ١٢٢٥
 ذكر وفاة القائم وولاية المنصور..... ١١٢٥
 ذكر أقطاع البلاد وتخريبها..... ١٢٢٥
 ذكر موت الإخشيد وملك سيف الدولة دمشق..... ١٢٢٦
 ذكر مخالفة أبي علي على الأمير نوح..... ١٢٢٦
 ذكر استعمال منصور بن قراتكين على خراسان..... ١٢٢٧
 ذكر مصالحة أبي علي مع نوح..... ١٢٢٧
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٢٨
 سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة..... ١٢٢٨
 ذكر حرب تكين وناصر الدولة..... ١٢٢٨
 ذكر استيلاء ركن الدولة على الرُّيِّ..... ١٢٢٩
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٢٩
 سنة ست وثلاثين وثلاثمائة..... ١٢٢٩
 ذكر استيلاء معز الدولة على البصرة..... ١٢٢٩
 ذكر مخالفة محمد بن عبد الرزاق بطوس..... ١٢٢٩
 ذكر ولاية الحسن بن علي صفقبة..... ١٢٣٠
 ذكر عصيان جُمان بالرحبة وما كان منه..... ١٢٣١
 ذكر ملك ركن الدولة طبرستان وجُرجان..... ١٢٣١
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٣١
 سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة..... ١٢٣١
 ذكر ملك معز الدولة الموصل وعوده عنها..... ١٢٣١
 ذكر مسير عسكر خراسان إلى جُرجان..... ١٢٣١
 ذكر مسير المرزبان إلى الري..... ١٢٣٢
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٣٢
 سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة..... ١٢٣٢
 ذكر حال عمران بن شاهين..... ١٢٣٢
 ذكر موت عماد الدولة بن بويه..... ١٢٣٣
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٣٣
 سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة..... ١٢٣٣
 ذكر موت الصيمري ووزارة المهلبى..... ١٢٣٣
 ذكر غزو سيف الدولة بلاد الروم..... ١٢٣٣
 ذكر إعادة القرامطة الحجر الأسود..... ١٢٣٤
 ذكر مسير الخراسانيين إلى الرُّيِّ..... ١٢٣٤
 ذكر أخبار عمران بن شاهين وانهزام عساكر معز الدولة..... ١٢٣٥
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٣٥
 سنة أربعين وثلاثمائة..... ١٢٣٥
 ذكر وفاة منصور بن قراتكين وأبي المظفر بن محتاج..... ١٢٣٥
 ذكر عود أبي علي إلى خراسان..... ١٢٣٥
 ذكر الحرب بصقلية بين المسلمين والروم..... ١٢٣٦
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٣٦
 سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة..... ١٢٣٦
 ذكر حصار البصرة..... ١٢٣٦
 ذكر وفاة المنصور العلوي وملك ولده المعز..... ١٢٣٦
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٣٧
 سنة اثنين وأربعين وثلاثمائة..... ١٢٣٧
 ذكر هرب ديسم عن أذربيجان..... ١٢٣٧
 ذكر استيلاء المرزبان على سُمَيْرِم..... ١٢٣٨
 ذكر مسير أبي علي إلى الرُّيِّ..... ١٢٣٨
 ذكر عزل أبي علي عن خراسان..... ١٢٣٩
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٣٩
 سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة..... ١٢٣٩
 ذكر حال أبي علي بن محتاج..... ١٢٣٩
 ذكر موت الأمير نوح بن نصر وولاية ابنه عبد الملك..... ١٢٣٩
 ذكر غزاة لسيف الدولة بن حمدان..... ١٢٣٩
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٤٠
 سنة أربع وأربعين وثلاثمائة..... ١٢٤٠
 ذكر مرض معز الدولة وما فعله ابن شاهين..... ١٢٤٠
 ذكر خروج الخراسانية إلى الرُّيِّ وأصبهان..... ١٢٤٠
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٤٠
 سنة خمس وأربعين وثلاثمائة..... ١٢٤١
 ذكر عصيان روزبهان على معز الدولة..... ١٢٤١
 ذكر غزو سيف الدولة بلاد الروم..... ١٢٤٢
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٤٢
 سنة ست وأربعين وثلاثمائة..... ١٢٤٢
 ذكر موت المرزبان..... ١٢٤٢
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٤٢
 سنة سبع وأربعين وثلاثمائة..... ١٢٤٣
 ذكر استيلاء معز الدولة على الموصل وعوده عنها..... ١٢٤٣
 ذكر مسير جيوش المعز العلوي إلى آقاصي المغرب..... ١٢٤٣
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٤٤
 سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة..... ١٢٤٤
 سنة تسع وأربعين وثلاثمائة..... ١٢٤٤
 ذكر ظهور المستجير بالله..... ١٢٤٤
 ذكر استيلاء وهسودان على بني أخيه وقتلهم..... ١٢٤٥
 ذكر غزو سيف الدولة بلاد الروم..... ١٢٤٥
 ذكر عدة حوادث..... ١٢٤٥

١٢٥٦	ذكر موت معز الدولة وولاية ابنه بختيار	١٢٤٦	سنة خمسين وثلاثمائة
١٢٥٦	ذكر سوء سيرة بختيار وفساد حاله	١٢٤٦	ذكر بناء معز الدولة دوره ببغداد
١٢٥٦	ذكر خروج عساكر خراسان وموت وشمكير	١٢٤٦	ذكر موت الأمير عبد الملك بن نوح
١٢٥٧	ذكر القبض على ناصر الدولة بن حمدان	١٢٤٦	ذكر وفاة عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس
١٢٥٧	ذكر من مات هذه السنة من الملوك	١٢٤٦	وولاية ابنه الحاكم
١٢٥٨	سنة سبع وخمسين وثلاثمائة	١٢٤٦	ذكر عدة حوادث
١٢٥٨	ذكر عصيان حبشي ابن معز الدولة على بختيار	١٢٤٦	سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة
١٢٥٨	بالبصرة وأخذ قهراً	١٢٤٦	ذكر استيلاء الروم على عين رزبة
١٢٥٨	ذكر البيعة لمحمد بن المستكفي	١٢٤٦	ذكر استيلاء الروم على مدينة حلب وعودهم عنها
١٢٥٨	ذكر استيلاء عضد الدولة على کرمان	١٢٤٧	بغير سبب
١٢٥٩	ذكر قتل أبي فراس بن حمدان	١٢٤٧	ذكر استيلاء ركن الدولة بن بويه على طبرستان
١٢٥٩	ذكر عدة حوادث	١٢٤٨	وجرجان
١٢٥٩	سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة	١٢٤٨	ذكر ما كتب على مساجد بغداد
١٢٥٩	ذكر ملك المعز العلوي مصر	١٢٤٨	ذكر فتح طبرمين من صقلية
١٢٦٠	ذكر ملك عسكر المعز دمشق وغيرها من بلاد الشام	١٢٤٨	ذكر عدة حوادث
١٢٦٠	ذكر اختلاف أولاد ناصر الدولة وموت أبيهم	١٢٤٨	سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة
١٢٦١	ذكر ما فعله الروم بالشام والجزيرة	١٢٤٨	ذكر عصيان أهل حران
١٢٦١	ذكر استيلاء قرغويه على حلب وإخراج أبي المعالي	١٢٤٩	ذكر وفاة الوزير أبي محمد المهلب
١٢٦٢	بن حمدان منها	١٢٤٩	ذكر غزوة إلى الروم وعصيان حران
١٢٦٢	ذكر خروج أبي خزر بإفريقية	١٢٤٩	ذكر عدة حوادث
١٢٦٢	ذكر قصد أبي البركات بن حمدان ميفارقين وانهازاه	١٢٤٩	سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة
١٢٦٢	ذكر عدة حوادث	١٢٤٩	ذكر عصيان نجا وقتله وملك سيف الدولة بعض
١٢٦٣	سنة تسع وخمسين وثلاثمائة	١٢٤٩	أرمينية
١٢٦٣	ذكر ملك الروم مدينة أنطاكية	١٢٥٠	ذكر حصر الروم المصيصية ووصول الغزاة من
١٢٦٣	ذكر ملك الروم مدينة حلب وعودهم عنها	١٢٥٠	خراسان
١٢٦٣	ذكر ملك الروم ملازكرد	١٢٥٠	ذكر ملك معز الدولة الموصل وعوده عنها
١٢٦٣	ذكر مسير ابن العميد إلى حسويه	١٢٥١	ذكر حال الداعي العلوي
١٢٦٤	ذكر قتل تقفور ملك الروم	١٢٥١	ذكر حصر الروم طرسوس والمصيصية
١٢٦٤	ذكر ملك أبي تغلب مدينة حران	١٢٥١	ذكر فتح رُمطة والحرب بين المسلمين والروم بصقلية
١٢٦٥	ذكر قتل سليمان بن أبي علي بن إلياس	١٢٥٢	ذكر عدة حوادث
١٢٦٥	ذكر الفتنة بصقلية	١٢٥٢	سنة أربع وخمسين وثلاثمائة
١٢٦٥	ذكر حصر عمران بن شاهين	١٢٥٢	ذكر استيلاء الروم على المصيصية وطرسوس
١٢٦٥	ذكر عدة حوادث	١٢٥٢	ذكر مخالفة أهل أنطاكية على سيف الدولة
١٢٦٥	سنة ستين وثلاثمائة	١٢٥٢	ذكر عصيان أهل سيجستان
١٢٦٥	ذكر عصيان أهل کرمان على عضد الدولة	١٢٥٣	ذكر طاعة أهل عُمان معز الدولة وما كان منهم
١٢٦٦	ذكر ملك القرامطة دمشق	١٢٥٣	ذكر عدة حوادث
١٢٦٦	ذكر قتل محمد بن الحسين الزناتي	١٢٥٤	سنة خمس وخمسين وثلاثمائة
١٢٦٦	ذكر عدة حوادث	١٢٥٤	ذكر ما تجدد بعُمان واستيلاء معز الدولة عليه
١٢٦٧	سنة إحدى وستين وثلاثمائة	١٢٥٤	ذكر هزيمة إبراهيم بن المرزيان
١٢٦٧	ذكر ما فعله الروم بالجزيرة	١٢٥٤	ذكر خبر الغزاة الخراسانية مع ركن الدولة
١٢٦٧	ذكر الفتنة ببغداد	١٢٥٥	ذكر عود إبراهيم بن المرزيان إلى أذربيجان
١٢٦٧	ذكر مسير المعز لدين الله العلوي من الغرب إلى	١٢٥٥	ذكر خروج الروم إلى بلاد الإسلام
١٢٦٧	مصر	١٢٥٥	ذكر ما جرى لمعز الدولة مع عمران بن شاهين
١٢٦٨	ذكر خير يوسف بلكين بن زيري بن مناد وأهل بيته	١٢٥٥	ذكر عدة حوادث
١٢٦٩	ذكر الصلح بين الأمير منصور بن نوح	١٢٥٦	سنة ست وخمسين وثلاثمائة

- ١٢٨٤ ذكر ابتداء دولة آل سُبُكْتِكِين
- ١٢٨٥ ذكر ولاية سُبُكْتِكِين على قِصْدَار وُئِست
- ذكر مسير الهند إلى بلاد الإسلام وما كان منهم مع سُبُكْتِكِين
- ١٢٨٥ ذكر ملك قابوس بن وشمكير جُرجان
- ١٢٨٦ ذكر عدة حوادث
- سنة سبع وستين وثلاثمائة
- ١٢٨٦ ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق
- ١٢٨٦ ذكر قتل بختيار
- ١٢٨٦ ذكر استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان
- ١٢٨٧ ذكر عدة حوادث
- سنة ثمان وستين وثلاثمائة
- ١٢٨٧ ذكر فتح مِيفَارِقِينَ وآمد وغيرهما من ديار بكر
- ١٢٨٧ على يد عضد الدولة
- ١٢٨٨ ذكر فتح ديار مُضَرَ على يد عضد الدولة
- ١٢٨٨ ذكر ولاية قَسَام دِمَشق
- ١٢٨٨ ذكر عدة حوادث
- سنة تسع وستين وثلاثمائة
- ١٢٨٨ ذكر قتل أبي تغلب بن حمدان
- ذكر محاربة الحسن بن عمران بن شاهين مع جيوش عضد الدولة
- ١٢٨٩ ذكر الحرب بين بني شيبان وعسكر عضد الدولة
- ١٢٨٩ ذكر وصول ورد الرومي إلى ديار بكر وما كان منه
- ١٢٩٠ ذكر عمارة عضد الدولة ببغداد
- ١٢٩٠ ذكر وفاة حسنيه الكردي
- ١٢٩٠ ذكر قصد عضد الدولة أخاه فخر الدولة وأخذ بلاده
- ١٢٩١ ذكر ملك عضد الدولة بلد الهَكَارِيَّة وما معها
- ١٢٩١ ذكر عدة حوادث
- سنة سبعين وثلاثمائة
- ١٢٩٢ ذكر إقطاع مؤيد الدولة همدان
- ١٢٩٢ ذكر قتل أولاد حسنيه سيوي بدر
- ١٢٩٢ ذكر ملك عضد الدولة قلعة سنده وغيرها
- ذكر الحرب بين عسكر العزيز وابن جِرَاح وعزل قَسَام عن دِمَشق
- ١٢٩٣ ذكر عدة حوادث
- سنة إحدى سبعين وثلاثمائة
- ١٢٩٣ ذكر عزل ابن سيمجور عن خُرَاسان
- ١٢٩٣ ذكر استيلاء عضد الدولة على جُرجان
- ١٢٩٤ ذكر مسير حسام الدولة وقابوس إلى جرجان
- ١٢٩٤ ذكر قتل الأمير أبي القاسم أمير صِقْلِيَّة وهزيمة الفرنج
- ١٢٩٥ ذكر عدة حوادث
- سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة
- ١٢٩٥ ذكر ولاية بكجور دِمَشق
- ١٢٩٥ ذكر وفاة عضد الدولة
- ذكر ولاية صمصام الدولة العراق وملك أخيه شرف وبين ركن الدولة وعضد الدولة
- ١٢٦٩ ذكر عدة حوادث
- سنة اثنين وستين وثلاثمائة
- ١٢٦٩ ذكر انهزام الروم وأسر الدُمستق
- ١٢٦٩ ذكر حريق الكرخ
- ذكر عزل أبي الفضل من وزارة عز الدولة ووزارة ابن بَقِيَّة
- ١٢٦٩ ذكر عدة حوادث
- ١٢٧٠ سنة ثلاث وستين وثلاثمائة
- ١٢٧٠ ذكر استيلاء بختيار على الموصل وما كان من ذلك
- ١٢٧١ ذكر الفتنة بين بختيار وأصحابه
- ١٢٧١ ذكر حيلة لبختيار عادت عليه
- ١٢٧٢ ذكر خلع المطيع وخلافة الطائع لله
- ١٢٧٢ ذكر الحرب بين المعز لدين الله العلوي والقرامطة
- ١٢٧٢ ذكر ملك المعز دِمَشق وما كان فيها من الفتن
- ١٢٧٣ ذكر ولاية جيش بن الصمصامة دِمَشق
- ١٢٧٣ ذكر ولاية رِيَّان الخادم دِمَشق
- ١٢٧٣ ذكر حال بختيار بعد قبض الأتراك
- ١٢٧٤ ذكر ملك عضد الدولة عُمان
- ١٢٧٤ ذكر عدة حوادث
- سنة أربع وستين وثلاثمائة
- ١٢٧٥ ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق وقبض بختيار
- ١٢٧٥ ذكر عود بختيار إلى ملكه
- ١٢٧٧ ذكر اضطراب كُرمان على عضد الدولة وعودها له
- ١٢٧٧ ذكر ولاية الفتنكين دِمَشق وما كان منه إلى أن مات
- ١٢٧٩ ذكر عدة حوادث
- سنة خمس وستين وثلاثمائة
- ١٢٧٩ ذكر وفاة الهعز لدين الله العلوي وولاية ابنه العزيز بالله
- ١٢٧٩ ذكر حرب يوسف بلكين مع زناته وغيرها بإفريقية
- ١٢٨٠ ذكر حصر كَسْتَنَّة وغيرها
- ١٢٨٠ ذكر عدة حوادث
- سنة سِت وستين وثلاثمائة
- ١٢٨٠ ذكر وفاة ركن الدولة وملك عضد الدولة
- ١٢٨١ ذكر بعض سيرته
- ١٢٨١ ذكر مسير عضد الدولة إلى العراق
- ١٢٨٢ ذكر وفاة منصور بن نوح وملك ابنه نوح
- ١٢٨٢ ذكر وفاة القاضي منذر البلوطي
- ١٢٨٢ ذكر القبض على أبي الفتح بن العميد
- ١٢٨٢ ذكر وفاة الحاكم وولاية ابنه هشام
- ١٢٨٣ ذكر ظهور محمد بن هشام بقرطبة
- ١٢٨٣ ذكر خروج هشام بن سليمان عليه
- ١٢٨٤ ذكر خروج سليمان عليه أيضاً
- ١٢٨٤ ذكر عود ابن عبد الجبار وقتله وعود المؤيد
- ١٢٨٤ ذكر عود أبي المعالي بن سيف الدولة إلى ملك حلب

١٣٠٦	ذكر نكتة حسنة	١٢٩٧	الدولة بلاد فارس
١٣٠٦	ذكر عدة حوادث	١٢٩٧	ذكر قتل الحسين بن عمران بن شاهين
١٣٠٦	سنة تسع وسبعين وثلاثمائة	١٢٩٧	ذكر عود ابن سيمجور إلى خراسان
١٣٠٦	ذكر سمل صمصام الدولة	١٢٩٧	ذكر عدة حوادث
١٣٠٧	ذكر وفاة شرف الدولة وملك بهاء الدولة	١٢٩٧	سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة
	ذكر مسير الأمير أبي علي بن شرف الدولة إلى فارس	١٢٩٧	ذكر موت مؤيد الدولة وعود فخر الدولة إلى مملكته
١٣٠٧	وما كان منه مع صمصام الدولة		ذكر عزل أبي العباس عن خراسان وولاية ابن
١٣٠٧	ذكر الفتنة ببغداد بين الأتراك والديلم	١٢٩٨	سيمجور
١٣٠٧	ذكر مسير فخر الدولة إلى العراق وما كان منه	١٢٩٨	ذكر انهزام أبي العباس إلى جرجان وفاته
١٣٠٨	ذكر حرب القادر بالله إلى البطيحة		ذكر قتل أبي الفرج محمد بن عمران وملك أبي
١٣٠٨	ذكر عود بني حمدان إلى الموصل	٢١٩٩	المعاللي
١٣٠٨	ذكر خلاف كتامة على المنصور	١٢٩٩	ابن أخيه الحسن
١٣٠٩	ذكر خلاف عم المنصور عليه	١٢٩٩	ذكر استيلاء المظفر على البطيحة
١٣٠٩	ذكر عدة حوادث	١٢٩٩	ذكر عصيان محمد بن غانم
١٣٠٩	سنة ثمانين وثلاثمائة		ذكر انتقال بعض صنهاجة من إفريقية إلى الأندلس وما
١٣٠٩	ذكر قتل باذ	١٢٩٩	فعلوه
١٣٠٩	ذكر ابتداء دولة بني مروان	١٢٩٩	ذكر غزو ابن أبي عامر إلى الفرنج بالأندلس
١٣١٠	ذكر ملك آل المسيب الموصل	١٣٠٠	ذكر وفاة يوسف بن ككين وولاية ابنه المنصور
	ذكر مسير بهاء الدولة إلى الأهواز وما كان منه ومن	١٣٠٠	ذكر أمر باذ الكردي خال بني مروان وملكه الموصل
١٣١١	صمصام الدولة	١٣٠٠	ذكر عدة حوادث
١٣١١	ذكر عدة حوادث	١٣٠١	سنة أربع وسبعين وثلاثمائة
١٣١١	سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة	١٣٠١	ذكر عود الديلم إلى الموصل وانهزام باذ
١٣١١	ذكر القبض على الطائع لله	١٣٠١	ذكر عدة حوادث
١٣١٢	ذكر خلافة القادر بالله	١٣٠١	سنة خمس وسبعين وثلاثمائة
١٣١٢	ذكر ملك خلف بن أحمد كرمان	١٣٠١	ذكر الفتنة ببغداد
١٣١٢	ذكر عصيان بكجور على سعد الدولة بن حمدان وقتله	١٣٠٢	ذكر أخبار القرامطة
١٣١٤	ذكر وفاة سعد الدولة بن حمدان		ذكر الإفراج عن ورد الرومي وما صار أمره إليه
١٣١٤	ذكر عدة حوادث	١٣٠٢	ودخول الروس في النصرانية
١٣١٥	سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة	١٣٠٢	ذكر ملك شرف الدولة الأهواز
١٣١٥	ذكر عود الديلم إلى الموصل	١٣٠٣	ذكر انهزام عساكر المنصور من صاحب سيجلماسة
١٣١٥	ذكر تسليم الطائع إلى القادر وما فعله به	١٣٠٣	ذكر عدة حوادث
١٣١٥	ذكر عدة حوادث	١٣٠٣	سنة ست وسبعين وثلاثمائة
١٣١٦	سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة	١٣٠٣	ذكر ملك شرف الدولة العراق وقبض صمصام الدولة
١٣١٦	ذكر خروج أولاد بخيار	١٣٠٣	ذكر الفتنة بين الأتراك والديلم
١٣١٦	ذكر ملك صمصام الدولة خوزستان	١٣٠٤	ذكر ولاية مهذب الدولة البطيحة
١٣١٦	ذكر ملك الترك بخارى	١٣٠٤	ذكر عدة حوادث
١٣١٧	ذكر عود نوح إلى بخارى وموت بغراخان	١٣٠٤	سنة سبع وسبعين وثلاثمائة
١٣١٧	ذكر عدة حوادث	١٣٠٤	ذكر الحرب بين بدر بن حسويه وعسكر شرف الدولة
١٣١٧	سنة أربع وثمانين وثلاثمائة	١٣٠٥	ذكر مسير المنصور بن يوسف لحرب كتامة
	ذكر ولاية محمود بن سيكتكين خراسان وإجلاء أبي	١٣٠٥	ذكر معاودة باذ القتال
١٣١٧	علي عنها	١٣٠٥	ذكر عدة حوادث
١٣١٨	ذكر عود الأهواز إلى بهاء الدولة	١٣٠٥	سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة
١٣١٨	ذكر عدة حوادث	١٣٠٥	ذكر القبض على شكر الخادم
١٣١٩	سنة خمس وثمانين وثلاثمائة	١٣٠٦	ذكر عزل بكجور عن دمشق
١٣١٩	ذكر عود أبي علي إلى خراسان	١٣٠٦	ذكر ظفر الأصفر بالقرامطة

- ١٣٣٢ ذكر خروج إسماعيل بن نوح وما جرى له بخراسان.....
- ١٣٣٣ ذكر محاصرة يمين الدولة سجستان.....
- ١٣٣٣ ذكر قتل ابن بختيار بكّرمان واستيلاء بهاء الدولة عليها..
- ١٣٣٤ ذكر القبض على الموفق أبي علي بن إسماعيل.....
- ١٣٣٤ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٣٤ سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.....
- ١٣٣٤ ذكر قتل المقلّد وولاية ابنة قرواش.....
- ١٣٣٥ ذكر البيعة لولي العهد.....
- ١٣٣٥ ذكر استيلاء طاهر بن خلف على كّرمان وعوده عنها ..
- ١٣٣٥ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٣٦ سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة.....
- ١٣٣٦ ذكر وقعة ليمين الدولة بالهند.....
- ١٣٣٦ ذكر غزوة أخرى إلى الهند أيضاً.....
- ١٣٣٦ ذكر الحرب بين قرواش وعسكر بهاء الدولة.....
- ١٣٣٦ سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.....
- ١٣٣٦ ذكر ملك يمين الدولة سجستان.....
- ١٣٣٦ ذكر الحرب بين عميد الجيوش أبي عليّ وبين جعفر
- ١٣٣٧ الحجّاج.....
- ١٣٣٧ ذكر عصيان سجستان وفتحها ثانية.....
- ١٣٣٧ ذكر وفاة الطائع لله.....
- ١٣٣٧ ذكر وفاة المنصور بن أبي عامر.....
- ١٣٣٨ ذكر محاصرة فلفل مدينة قابس وما كان منه.....
- ١٣٣٨ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٣٨ سنة أربع وتسعين وثلاثمائة.....
- ١٣٣٨ ذكر استيلاء أبي العبّاس على البطيحة.....
- ١٣٣٩ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٣٩ سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.....
- ١٣٣٩ ذكر عود مهذب الدولة إلى البطيحة.....
- ١٣٤٠ ذكر غزوة بهاطية.....
- ١٣٤٠ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٤٠ سنة ست وتسعين وثلاثمائة.....
- ١٣٤٠ ذكر غزوة المولتان.....
- ١٣٤٠ ذكر غزوة كواكير.....
- ١٣٤١ ذكر عبور عسكر ايلك الخان إلى خراسان.....
- ١٣٤١ ذكر الحرب بين عسكر بهاء الدولة والأكراد.....
- ١٣٤١ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٤١ سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.....
- ١٣٤١ ذكر هزيمة ايلك الخان.....
- ١٣٤٢ ذكر غزوه إلى الهند.....
- ١٣٤٢ ذكر حصر أبي جعفر الحجّاج بغداد.....
- ١٣٤٢ ذكر قصد بدر ولاية رافع بن مقن.....
- ١٣٤٢ ذكر قتل أبي العباس بن واصل.....
- ١٣٤٣ ذكر مسير عميد الجيوش إلى حرب بدر وصلحه معه ..
- ١٣٤٣ ذكر الحرب بين قرواش وأبي عليّ بن شمال الخفاجي... ..
- ١٣٤٣ ذكر خروج أبي ركوّة على الحاكم بمصر.....
- ١٣١٩ ذكر خلاص أبي عليّ وقتل خوارزمشاه.....
- ١٣١٩ ذكر قبض أبي علي بن سيمجور وموته.....
- ١٣١٩ ذكر وفاة الصاحب بن عباد.....
- ١٣٢٠ ذكر إيقاع صمصام الدولة بالأتراك.....
- ١٣٢٠ ذكر وفاة خواشاده.....
- ١٣٢٠ ذكر عود عسكر صمصام الدولة إلى الأهواز.....
- ١٣٢١ ذكر حادثة غربية بالأندلس.....
- ١٣٢١ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٢١ سنة ست وثمانين وثلاثمائة.....
- ١٣٢١ ذكر وفاة العزيز بالله وولاية ابنه الحاكم وما كان من
- ١٣٢١ الحروب إلى أن استقرّ أمره.....
- ١٣٢٣ ذكر استيلاء عسكر صمصام الدولة على البصرة.....
- ١٣٢٤ ذكر ولاية المقلّد الموصل.....
- ١٣٢٤ ذكر وفاة المنصور بن يوسف وولاية ابنه باديس.....
- ١٣٢٤ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٢٥ سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.....
- ١٣٢٥ ذكر موت الأمير نوح بن منصور وولاية ابنه منصور
- ١٣٢٥ ذكر موت سيكتكين وملك ولده إسماعيل.....
- ١٣٢٥ ذكر استيلاء أخيه محمود بن سيكتكين على الملك.....
- ١٣٢٥ ذكر وفاة فخر الدولة بن بويه وملك ابنه مجد الدولة.....
- ١٣٢٦ ذكر وفاة مأمون بن محمد وولاية ابنه عليّ.....
- ١٣٢٦ ذكر وفاة العلاء بن الحسن وما كان بعده.....
- ١٣٢٦ ذكر القبض على عليّ بن المسيّب وما كان بعد ذلك
- ١٣٢٧ ذكر ملك جيرئيل دقوقا.....
- ١٣٢٧ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٢٧ سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.....
- ١٣٢٧ ذكر عود أبي القاسم السيمجوريّ إلى نيسابور.....
- ١٣٢٧ ذكر استيلاء محمود بن سيكتكين على نيسابور وعوده
- ١٣٢٧ عنها.....
- ١٣٢٨ ذكر عود قابوس إلى جرجان.....
- ١٣٢٨ ذكر مسير بهاء الدولة إلى واسط وما كان منه
- ١٣٢٨ ذكر قتل صمصام الدولة.....
- ١٣٢٩ ذكر هرب ابن الوثّاب.....
- ١٣٢٩ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٢٩ سنة تسع وثمانين وثلاثمائة.....
- ١٣٢٩ ذكر القبض على الأمير منصور بن نوح وملك أخيه
- ١٣٢٩ عبد الملك.....
- ١٣٢٩ ذكر استيلاء يمين الدولة محمود بن سيكتكين على
- ١٣٢٩ خراسان.....
- ١٣٣٠ ذكر انقراض دولة السامانية وملك الترك ما وراء النهر ...
- ١٣٣٠ ذكر ملك بهاء الدولة فارس وخوزستان.....
- ١٣٣١ ذكر مسير باديس إلى زناته.....
- ١٣٣٢ ذكر ملك الحاكم طرابلس الغرب وعودها إلى باديس
- ١٣٣٢ ذكر عدة حوادث.....
- ١٣٣٢ سنة تسعين وثلاثمائة.....

١٣٥٦	ذكر عدّة حوادث	١٣٤٥	ذكر القبض على مجد الدولة وعوده إلى ملكه
١٣٥٧	سنة ست وأربعمئة	١٣٤٥	ذكر عدّة حوادث
١٣٥٧	ذكر الفتنة بين باديس وعمه حمّاد	١٣٤٥	سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة
١٣٥٨	ذكر وفاة باديس وولاية ابنه المعز	١٣٤٥	ذكر غزوة بهيم نغر
١٣٥٩	ذكر غزوة محمود إلى الهند	١٣٤٥	ذكر حال أبي جعفر بن كاكويه
١٣٥٩	ذكر قتل فخر الملك ووزارة ابن سهلان	١٣٤٦	ذكر عدّة حوادث
١٣٥٩	ذكر قتل طاهر بن هلال بن بدر	١٣٤٦	سنة تسع وتسعين وثلاثمئة
١٣٥٩	ذكر عدّة حوادث	١٣٤٦	ذكر ابتداء حال صالح بن مرداس
١٣٦٠	سنة سبع وأربعمئة	١٣٤٦	ذكر عدّة حوادث
	ذكر قتل خوارزمشاه وملك يمين الدولة خوارزم	١٣٤٧	سنة أربع مائة
١٣٦٠	وتسليمها إلى التوتاش	١٣٤٧	ذكر وقعة نارين بالهند
١٣٦٠	ذكر غزوة قشمر وقنوج وغيرها	١٣٤٧	ذكر الخلف بين بدر بن حسويه وابنه هلال
١٣٦١	ذكر حال ابن فولاذ	١٣٤٨	ذكر عود المؤيد إلى إمارة الأندلس وما كان منه
١٣٦١	ذكر ابتداء الدولة العلوية بالأندلس وقتل سليمان	١٣٤٨	ذكر عدّة حوادث
١٣٦٢	ذكر ظهور عبد الرحمن الأموي	١٣٤٩	سنة إحدى وأربعمئة
١٣٦٢	ذكر قتل علي بن حمود العلوي	١٣٤٩	ذكر غزوة يمين الدولة بلاد الغور وغيرها
١٣٦٢	ذكر ولاية القاسم بن حمود العلوي بقرطبة	١٣٤٩	ذكر الحرب بين ايلك الخان وبين أخيه
	ذكر دولة يحيى بن علي بن حمود وما كان منه ومن	١٣٤٩	ذكر الخطبة للمصريين العلويين بالكوفة والموصل
١٣٦٢	عمه	١٣٥٠	ذكر الحرب بين بني مزيد وبني قتييس
١٣٦٣	ذكر عود بني أمية إلى قرطبة وولاية المستظهر	١٣٥٠	ذكر وفاة عميد الجيوش وولاية فخر الملك العراق
١٣٦٣	ذكر ولاية محمد بن عبد الرحمن	١٣٥٠	ذكر عدّة حوادث
١٣٦٤	ذكر عود يحيى العلوي إلى قرطبة وقتله	١٣٥٠	سنة اثنتين وأربعمئة
	ذكر اخبار أولاد يحيى وأولاد أخيه وغيرهم وقتل ابن	١٣٥٠	ذكر ملك يمين الدولة قصدار
١٣٦٤	عمار	١٣٥١	ذكر أسر صالح بن مرداس وملكه حلب وملك أولاده
١٣٦٥	ذكر ولاية هشام الأموي قرطبة	١٣٥٣	ذكر قتل جماعة من خفاجة
١٣٦٥	ذكر تفرق ممالك الأندلس	١٣٥٣	ذكر القدح في نسب العلويين المصريين
١٣٦٨	ذكر الحرب بين سلطان الدولة وأخيه أبي الفوارس	١٣٥٣	ذكر أخذ بني خفاجة الحجاج
١٣٦٨	ذكر قتل الشيعة بإفريقية	١٣٥٣	ذكر عدّة حوادث
١٣٦٨	ذكر عدّة حوادث	١٣٥٣	سنة ثلاث وأربعمئة
١٣٦٩	سنة ثمان وأربعمئة	١٣٥٣	ذكر قتل قابوس
١٣٦٩	ذكر خروج الترك من الصين وموت طغان خان	١٣٥٤	ذكر موت ايلك الخان وولاية أخيه طغان خان
١٣٦٩	ذكر ملك أخيه أرسلان خان	١٣٥٤	ذكر وفاة بهاء الدولة وملك سلطان الدولة
١٣٧٠	ذكر ملك طغاج خان وولده	١٣٥٤	ذكر ولاية سليمان الأندلس، الدولة الثانية
١٣٧٠	ذكر كاشغر وتركستان	١٣٥٤	ذكر عدّة حوادث
١٣٧٠	ذكر وفاة مهذب الدولة وحال البطيحة بعده	١٣٥٥	سنة أربع وأربعمئة
١٣٧١	ذكر وفاة علي بن مزيد وإمارة ابنه قتييس	١٣٥٥	ذكر فتح يمين الدولة ناردين
١٣٧١	ذكر عدّة حوادث	١٣٥٥	ذكر ما فعله خفاجة دفعة أخرى
١٣٧١	سنة تسع وأربعمئة	١٣٥٥	ذكر امتيلاء طاهر بن هلال على شهرزور
١٣٧١	ذكر ولاية ابن سهلان العراق	١٣٥٥	ذكر عدّة حوادث
١٣٧٢	ذكر غزوة يمين الدولة إلى الهند والأفغانية	١٣٥٥	سنة خمس وأربعمئة
١٣٧٢	ذكر عدّة حوادث	١٣٥٥	ذكر غزوة تانيشر
١٣٧٣	سنة عشر وأربعمئة	١٣٥٥	ذكر قتل بدر بن حسويه وإطلاق ابنه هلال وقتله
١٣٧٣	سنة إحدى عشرة وأربعمئة	١٣٥٦	ذكر الحرب بين علي بن مزيد وبين بني قتييس
١٣٧٣	ذكر قتل الحاكم وولاية ابنه الظاهر	١٣٥٦	ذكر ملك شمس الدولة الرئي وعوده عنها
١٣٧٤	ذكر ملك مشرف الدولة العراق		

- ١٣٨٤ باديس ذكر ولاية الظاهر لإعزاز دين الله ١٣٧٤
- ١٣٨٤ ذكر وفاة حماد بن المنتصور وولاية ابنه القائد ١٣٧٥
- ١٣٨٤ ذكر عدة حوادث ١٣٧٥
- ١٣٨٤ سنة ثمانى عشرة وأربعمئة ١٣٧٥
- ذكر الحرب بين علاء الدولة وأصبهيد ومن معه وما
- تبع ذلك من الفتن ١٣٧٥
- ذكر عصيان البطيحة على أبي كالجبار ١٣٨٥
- ذكر صلح أبي كالجبار مع عمه صاحب كرمان ١٣٨٥
- ذكر الخطبة لجلال الدولة ببغداد وإصعاده إليها ١٣٨٥
- ذكر وفاة أبي القاسم بن المغربي وأبي الخطاب ١٣٨٦
- ذكر عدة حوادث ١٣٨٦
- سنة تسع عشرة وأربعمئة ١٣٨٦
- ذكر الحرب بين بدران وعسكر نصر الدولة ١٣٨٦
- ذكر شغب الأتراك ببغداد على جلال الدولة ١٣٨٧
- ذكر الاختلاف بين الديلم والأتراك بالبصرة ١٣٨٧
- ذكر استيلاء أبي كالجبار على البصرة ١٣٨٧
- ذكر وفاة صاحب كرمان واستيلاء أبي كالجبار عليها ١٣٨٧
- ذكر استيلاء المنتصور بن الحسين على الجزيرة
- الديبسية ١٣٨٧
- ذكر عدة حوادث ١٣٨٨
- سنة عشرين وأربعمئة ١٣٨٨
- ذكر ملك يمين الدولة الرئي وبلد الجبل ١٣٨٨
- ذكر ما فعله السالار إبراهيم بن المرزبان بعد عود
- يمين الدولة عن الري ١٣٨٨
- ذكر ملك أبي كالجبار مدينة واسط ومسير جلال
- الدولة إلى الأهواز ونهها وعود واسط إليه ١٣٨٩
- ذكر حال دئيس بن مزيد بعد الهزيمة ١٣٨٩
- ذكر عصيان زنادة ومحاربتهم بإفريقية ١٣٩٠
- ذكر ما فعله يمين الدولة وولده بعده بالغز ١٣٩٠
- ذكر وصول علاء الدولة إلى الرئي واتفاقه مع الغز
- وعودهم إلى الخلاف عليه ١٣٩١
- ذكر ما كان من الغز الذين بأذربيجان ومفارقتها ١٣٩١
- ذكر ملك الغز همذان ١٣٩٢
- ذكر قتل الغز بمدينة تبريز وفراقهم أذربيجان إلى
- الهكارية ١٣٩٢
- ذكر دخول الغز ديار بكر ١٣٩٢
- ذكر ملك الغز مدينة الموصل ١٣٩٢
- ذكر وثوب أهل الموصل بالغز وما كان منهم ١٣٩٣
- ذكر ظفر قرواش صاحب الموصل بالغز ١٣٩٣
- ذكر عدة حوادث ١٣٩٤
- سنة إحدى وعشرين وأربعمئة ١٣٩٤
- ذكر ملك مسعود بن محمود بن سبكتكين همذان ١٣٩٤
- ذكر غزوة للمسلمين إلى الهند ١٣٩٥
- ذكر ملك بدران بن المقلد نصيين ١٣٩٥
- ذكر ملك أبي الشوك دقوقا ١٣٩٥
- ذكر الفتن بين الأتراك والأكراد بهمدان ١٣٧٥
- ذكر القبض على أبي القاسم المغربي وابن فهد ١٣٧٥
- ذكر الحرب بين قرواش وغريب بن مقن ١٣٧٥
- ذكر عدة حوادث ١٣٧٥
- سنة اثنتي عشرة وأربعمئة ١٣٧٥
- ذكر الخطبة لمشرّف الدولة ببغداد وقتل وزيره أبي
- غالب ١٣٧٥
- ذكر وفاة صدقة صاحب البطيحة ١٣٧٦
- ذكر عدة حوادث ١٣٧٦
- سنة ثلاث عشرة وأربعمئة ١٣٧٦
- ذكر الصلح بين سلطان الدولة ومشرّف الدولة ١٣٧٦
- ذكر قتل المعزّ وزيره وصاحب جيشه ١٣٧٦
- ذكر عدة حوادث ١٣٧٧
- سنة أربع عشرة وأربعمئة ١٣٧٧
- ذكر استيلاء علاء الدولة على همذان ١٣٧٧
- ذكر وزارة أبي القاسم المغربي لمشرّف الدولة ١٣٧٧
- ذكر الفتن بمكة ١٣٧٨
- ذكر فتح قلعة من الهند ١٣٧٨
- ذكر عدة حوادث ١٣٧٨
- سنة خمس عشرة وأربعمئة ١٣٧٨
- ذكر الخلف بين مشرّف الدولة والأتراك وعزل الوزير
- المغربي ١٣٧٨
- ذكر الفتن بالكوفة ووزارة أبي القاسم المغربي لابن
- مروان ١٣٧٩
- ذكر وفاة سلطان الدولة ومُلك ولده أبي كالجبار وقتل
- ابن مُكرم ١٣٧٩
- ذكر عود أبي الفوارس وإخراجه عنها ١٣٧٩
- ذكر خروج زنادة والظفر بهم ٣٨٠
- ذكر عود الحاج على الشام وما كان من الظاهر إليهم ١٣٨٠
- ذكر عدة حوادث ١٣٨٠
- سنة ست عشرة وأربعمئة ١٣٨٠
- ذكر فتح سومّانات ١٣٨٠
- ذكر وفاة مشرّف الدولة وملك أخيه جلال الدولة ١٣٨١
- ذكر ملك نصر الدولة بن مروان مدينة الرها ١٣٨٢
- ذكر غرق الأسطول بجزيرة صقلية ١٣٨٢
- ذكر عدة حوادث ١٣٨٢
- سنة سبع عشرة وأربعمئة ١٣٨٣
- ذكر الحرب بين عسكر علاء الدولة والجوزقان ١٣٨٣
- ذكر الحرب بين قرواش وبني أسد وخفاجة ١٣٨٣
- ذكر الفتن ببغداد وطمع الأتراك والعيّارين ١٣٨٣
- ذكر إصعاد الأثير إلى الموصل والحرب الواقعة بين
- بني عُقيل ١٣٨٣
- ذكر إحراق خفاجة الأنبار وطاعتهم لأبي كالجبار ١٣٨٤
- ذكر الصلح بإفريقية بين كتامة وزنادة وبين المعزّ بين

- ذكر وفاة يمين الدولة محمود بن سبكتكين وملك
 ولده محمد ١٣٩٥
 ذكر ملك مسعود وخلع محمد ١٣٩٥
 ذكر بعض سيرة يمين الدولة ١٣٩٦
 ذكر عود علاء الدولة إلى أصبهان وغيرها وما كان منه ١٣٩٦
 ذكر الحرب بين عسكر جلال الدولة وأبي كاليبجار ١٣٩٧
 ذكر الحرب بين قرواش وغريب بن مقن ١٣٩٧
 ذكر خروج ملك الروم إلى الشام وانهزامه ١٣٩٧
 ذكر مسير أبي علي بن ماکولا إلى البصرة وقتله ١٣٩٧
 ذكر استيلاء عسكر جلال الدولة على البصرة وأخذها
 منهم ١٣٩٨
 ذكر غزو فضلون الكردي الخزر وما كان منه ١٣٩٨
 ذكر البيعة لولي العهد ١٣٩٨
 ذكر عدة حوادث ١٣٩٩
 سنة اثنين وعشرين وأربعمائة ١٣٩٩
 ذكر ملك مسعود بن محمود بن سبكتكين التميز
 ومكران ١٣٩٩
 ذكر ملك الروم مدينة الرها ١٣٩٩
 ذكر ملك مسعود بن محمود كرمان وعود عسكره
 عنها ١٣٩٩
 ذكر وفاة القادر بالله وشيء من سيرته وخلافة القائم
 بأمر الله ١٣٩٩
 ذكر خلافة القائم بأمر الله ١٤٠٠
 ذكر الفتنة ببغداد ١٤٠٠
 ذكر ملك الروم قلعة أفامية ١٤٠١
 ذكر الوحشة بين بارسطغان وجلال الدولة ١٤٠١
 ذكر عدة حوادث ١٤٠١
 سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة ١٤٠١
 ذكر وثوب الأجناد بجلال الدولة وإخراجه من بغداد ١٤٠١
 ذكر انهزام علاء الدولة بن كاكويه من عسكر مسعود
 بن محمود بن سبكتكين ١٤٠٢
 ذكر عدة حوادث ١٤٠٢
 سنة أربع وعشرين وأربعمائة ١٤٠٣
 ذكر عود مسعود إلى غزنة والفتن بالرئي وبلد الجبل ١٤٠٣
 ذكر ظفر مسعود بصاحب ساوة وقتله ١٤٠٣
 ذكر استيلاء جلال الدولة على البصرة وخروجها عن
 طاعته ١٤٠٣
 ذكر إخراج جلال الدولة من دار المملكة وإعادته
 إليها ١٤٠٤
 ذكر عدة حوادث ١٤٠٤
 سنة خمس وعشرين وأربعمائة ١٤٠٤
 ذكر فتح قلعة سترشتي وغيرها من بلد الهند ١٤٠٤
 ذكر حصر قلعة بالهند أيضا ١٤٠٤
 ذكر الفتنة بنيسابور ١٤٠٤
 ذكر الحرب بين علاء الدولة وعسكر خراسان ١٤٠٥
- ذكر الحرب بين نور الدولة دؤيب وأخيه ثابت ١٤٠٥
 ذكر ملك الروم قلعة بركوي ١٤٠٥
 ذكر عدة حوادث ١٤٠٥
 سنة ست وعشرين وأربعمائة ١٤٠٦
 ذكر حال الخلافة والسلطنة ببغداد ١٤٠٦
 ذكر إظهار أحمد بن التكين العصيان وقتله ١٤٠٦
 ذكر ملك مسعود جرجان وطبرستان ١٤٠٦
 ذكر مسير ابن وثاب والروم إلى بلد ابن مروان ١٤٠٧
 ذكر عدة حوادث ١٤٠٧
 سنة سبع وعشرين وأربعمائة ١٤٠٧
 ذكر وثوب الجند بجلال الدولة ١٤٠٧
 ذكر الحرب بين أبي سهل الحمدوني وعلاء الدولة ١٤٠٨
 ذكر وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر ١٤٠٨
 ذكر فتح السويداء وريض الرها ١٤٠٨
 ذكر غدر السنانة وأخذ الحاج وإعادة ما أخذه ١٤٠٨
 ذكر الحرب بين المعز وزناتة ١٤٠٨
 ذكر عدة حوادث ١٤٠٩
 سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ١٤٠٩
 ذكر الفتنة بين جلال الدولة وبين بارسطغان ١٤٠٩
 ذكر الصلح بين جلال الدولة وأبني كاليبجار
 والمصاهرة بينهما ١٤٠٩
 ذكر عدة حوادث ١٤١٠
 سنة تسع وعشرين وأربعمائة ١٤١٠
 ذكر محاصرة الأبخابز تغليس وعودهم عنها ١٤١٠
 ذكر ما فعله طغرل بك بخراسان ١٤١٠
 ذكر مخاطبة جلال الدولة بملك الملوك ١٤١١
 ذكر عدة حوادث ١٤١١
 سنة ثلاثين وأربعمائة ١٤١١
 ذكر وصول الملك مسعود من غزنة إلى خراسان
 وإجلاء السلجوقية عنها ١٤١١
 ذكر ملك أبي الشوك مدينة خولنجان ١٤١٢
 ذكر الخطبة العباسية بخران والرقة ١٤١٢
 ذكر عدة حوادث ١٤١٢
 سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ١٤١٣
 ذكر ملك الملك أبي كاليبجار البصرة ١٤١٣
 ذكر ما جرى بثمان بعد موت أبي القاسم بن مكرم ١٤١٣
 ذكر الحرب بين أبي الفتح بن أبي الشوك وبين عمه
 مهمل ١٤١٣
 ذكر شغب الأتراك على جلال الدولة ببغداد ١٤١٤
 ذكر عدة حوادث ١٤١٤
 سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة ١٤١٤
 ذكر ابتداء الدولة السلجوقية وسياقة أخبارهم متتابعة ١٤١٤
 ذكر قبض السلطان مسعود وقتله وملك أخيه مهمل ١٤١٧
 ذكر ملك مردود بن مسعود وقتله عدة حكام ١٤١٨

ذكر الخلاف بين جلال الدولة وقرواش صاحب

الموصل ١٤١٩

ذكر ملك أبي الشوك دقوقا ١٤١٩

ذكر الحرب بين عسكر مصر والروم ١٤١٩

ذكر الخلف بين المعزّ وبني حماد ١٤٢٠

ذكر صلح أبي الشوك وعلاء الدولة ١٤٢٠

ذكر عدة حوادث ١٤٢٠

سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ١٤٢٠

ذكر وفاة علاء الدولة بن كاكوتيه ١٤٢٠

ذكر ملك طغريك جرجان وطبرستان ١٤٢٠

ذكر أحوال ملوك الروم ١٢١

ذكر فساد حال الدزيري بالشام وما صار الأمر إليه

بالبلاذ ١٤٢٢

ذكر عدة حوادث ١٤٢٢

سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ١٤٢٢

ذكر ملك طغريك مدينة خوارزم ١٤٢٢

ذكر قصد إبراهيم بنال وما كان منه ١٤٢٣

ذكر خروج طغريك إلى الرّيّ وملك بلد الجبل ١٤٢٣

ذكر مسير عساكر طغريك إلى كرمان ١٤٢٤

ذكر الوحشة بين القائم بأمر الله أمير المؤمنين وجلال

الدولة ١٤٢٤

ذكر محاصرة شهرزور وغيرها ١٤٢٥

ذكر خروج سكنين بمصر ١٤٢٥

ذكر عدة حوادث ١٤٢٥

سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ١٤٢٥

ذكر وفاة جلال الدولة وملك أبي كاليجار ١٤٢٥

ذكر حال أبي الفتح مودود بن مسعود بن محمود بن

سبكتكين ١٤٢٦

ذكر ملك مودود عدة حصون من بلد الهند ١٤٢٦

ذكر الخلف بين الملك أبي كاليجار وفرامر بن علاء

الدولة ١٤٢٦

ذكر أخبار الترك بما وراء النهر ١٤٢٧

ذكر أخبار الروم والقسطنطينية ١٤٢٧

ذكر طاعة المعزّ بإفريقية للقائم بأمر الله ١٤٢٧

ذكر عدة حوادث ١٤٢٧

سنة ست وثلاثين وأربعمائة ١٤٢٧

ذكر قتل الإسماعيلية بما وراء النهر ١٤٢٧

ذكر الخطبة للملك أبي كاليجار وإصعاده إلى بغداد ١٤٢٨

ذكر عدة حوادث ١٤٢٨

سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ١٤٢٨

ذكر وصول إبراهيم بنال إلى همدان وولد الجبل ١٤٢٨

ذكر عدة حوادث ١٤٢٩

سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة ١٤٢٩

ذكر ملك مهلهل قرميسين والدينور ١٤٢٩

ذكر اتصال سعدي بن أبي الشوك بإبراهيم بنال وما

كان منه ١٤٢٩

ذكر حصار طغريك أصبهان ١٤٣٠

ذكر عدة حوادث ١٤٣٠

سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ١٤٣٠

ذكر صلح الملك أبي كاليجار والسلطان طغريك ١٤٣٠

ذكر القبض على سرّخاب أبي الشوك ١٤٣٠

ذكر ملك إبراهيم بنال قلعة كينكور وغيرها ١٤٣١

ذكر استيلاء أبي كاليجار على البطيحة ١٤٣١

ذكر ظهور الأصغر وأسرّه ١٤٣٢

ذكر عدة حوادث ١٤٣٢

سنة أربعين وأربعمائة ١٤٣٣

ذكر رحيل عسكر بنال عن تيرانشاه وعود مهلهل إلى

شهرزور ١٤٣٣

ذكر غزو إبراهيم بنال الروم ١٤٣٣

ذكر موت الملك أبي كاليجار وملك ابنه الملك

الرحيم ١٤٣٣

ذكر محاصرة العساكر المصرية مدينة حلب ١٤٣٤

ذكر الخلف بين قرواش والأكراد الحميدية والهدبانية ١٤٣٤

ذكر عدة حوادث ١٤٣٤

سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ١٤٣٥

ذكر ظهور الخلف بين قرواش وأخيه أبي كامل

وصلحهما ١٤٣٥

ذكر مسير الملك الرحيم إلى شيراز وعوده عنها ١٤٣٥

ذكر الحرب بين البساسيري وعقيل ١٤٣٥

ذكر الوحشة بين طغريك وأخيه إبراهيم بنال ١٤٣٦

ذكر الحرب بين قبيس بن مزيد وعسكر واسط ١٤٣٦

ذكر وفاة مودود بن مسعود وملك عمّه عبد الرشيد ١٤٣٦

ذكر استيلاء البساسيري على الأنبار ١٤٣٦

ذكر انهزام الملك الرحيم من عسكر فارس ١٤٣٧

ذكر عدة حوادث ١٤٣٧

سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ١٤٣٧

ذكر ملك طغريك أصبهان ١٤٣٧

ذكر عود عساكر فارس من الأهواز وعود الرحيم إليها ١٤٣٨

ذكر استيلاء زعيم الدولة على مملكة أخيه قرواش ١٤٣٨

ذكر استيلاء الغز على مدينة فسا ١٤٣٨

ذكر استيلاء الخوارج على عُمان ١٤٣٨

ذكر دخول العرب إلى إفريقية ١٤٣٨

ذكر عدة حوادث ١٤٤٠

سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ١٤٤٠

ذكر نهب سرّق والحرب الكاثنة عندها وملك الرحيم

رامهرمز ١٤٤٠

ذكر ملك الملك الرحيم إصطخر وشيراز ١٤٤٠

ذكر انهزام الملك الرحيم بالأهواز ١٤٤١

ذكر الفتنة بين العامة ببغداد وإحراق المشهد على

ساكنيه السلام ١٤٤١

- ١٤٥٤ ذكر الوقعة بين البساسيريّ وقريش
 ١٤٥٥ ذكر مسير السلطان طغرلبيك إلى الموصل
 ذكر عود نور الدولة دُيُوس بن مزيد وقريش بن بدران
 ١٤٥٥ إلى طاعة طغرلبيك
 ١٤٥٦ ذكر قصد السلطان ديار بكر وما فعله بسنجار
 ١٤٥٦ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٥٦ سنة تسع وأربعين وأربعمئة
 ١٤٥٦ ذكر عود السلطان طغرلبيك إلى بغداد
 ١٤٥٧ ذكر الحرب بين هزارسب وفولاذ
 ١٤٥٧ ذكر القبض على الوزير اليازوريّ بمصر
 ١٤٥٧ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٥٨ سنة خمسين وأربعمئة
 ذكر مفارقة إبراهيم بنال الموصل واستيلاء البساسيريّ
 ١٤٥٨ عليها وأخذها منه
 ذكر الخطبة بالعراق للعلويّ المصريّ وما كان إلى
 ١٤٥٨ قتل البساسيريّ
 ١٤٦٠ ذكر عود الخليفة إلى بغداد
 ١٤٦١ ذكر قتل البساسيريّ
 ١٤٦١ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٦٢ سنة إحدى وخمسين وأربعمئة
 ذكر وفاة فرّخ زاد صاحب غزنة وملك أخيه إبراهيم
 ١٤٦٢ ذكر الصلح بين الملك إبراهيم وجُغريّك داود
 ١٤٦٢ ذكر وفاة داود وملك ابنه ألسان
 ١٤٦٢ ذكر حريق بغداد
 ذكر انحذار السلطان إلى واسط وما فعل العسكر
 ١٤٦٣ وإصلاح دُيُوس
 ١٤٦٣ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٦٣ سنة اثنين وخمسين وأربعمئة
 ذكر عود وليّ العهد إلى بغداد مع أبي الغنائم بن
 ١٤٦٣ المحلبان
 ١٤٦٣ ذكر ملك محمود بن شَيْل الدولة حلب
 ١٤٦٣ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٦٤ سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة
 ذكر وزارة ابن دارست للخليفة
 ١٤٦٤ ذكر موت المعزّ بن باديس وولاية ابنه تميم
 ذكر وفاة قُريش صاحب الموصل وإمارة ابنه شرف
 ١٤٦٥ الدولة
 ١٤٦٥ ذكر وفاة نصر الدولة بن مروان
 ١٤٦٥ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٦٥ سنة أربع وخمسين وأربعمئة
 ذكر نكاح السلطان طغرلبيك ابنة الخليفة
 ١٤٦٥ ذكر عزل ابن دارست ووزارة ابن جُهير
 ١٤٦٦ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٦٦ سنة خمس وخمسين وأربعمئة
 ذكر ورود السلطان بغداد ودخوله بابنة الخليفة
 ١٤٤٢ ذكر عصيان بني قُرة على المستنصر بالله بمصر
 ١٤٤٢ ذكر وفاة زعيم الدولة وإمارة قريش بن بدران
 ١٤٤٢ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٤٢ سنة أربع وأربعين وأربعمئة
 ذكر قتل عبد الرشيد صاحب غزنة وملك فرّخ زاد
 ١٤٤٢ ذكر وصول الغزّ إلى فارس وانهزامهم عنها
 ١٤٤٣ ذكر الحرب بين قريش وأخيه المقلد
 ١٤٤٤ ذكر وفاة قرواش
 ١٤٤٤ ذكر استيلاء الملك الرحيم على البصرة
 ١٤٤٤ ذكر ورود سعدي العراق
 ١٤٤٥ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٤٥ سنة خمس وأربعين وأربعمئة
 ذكر الفتنة بين السُنة والشيعية ببغداد
 ١٤٤٥ ذكر استيلاء الملك الرحيم على أَرْجان ونواحيها
 ١٤٤٦ ذكر مرض السلطان طغرلبيك
 ١٤٤٦ ذكر عود سعدي بن أبي الشوك إلى طاعة الرحيم
 ١٤٤٦ ذكر عود الأمير أبي منصور إلى شيراز
 ١٤٤٦ ذكر إيقاع البساسيريّ بالأكرد والأعراب
 ١٤٤٦ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٤٦ سنة ست وأربعين وأربعمئة
 ذكر فتنة الأتراك ببغداد
 ١٤٤٦ ذكر استيلاء طغرلبيك على أذربيجان وغزو الروم
 ١٤٤٧ ذكر محاربة بني خفاجة وهزيمتهم
 ١٤٤٧ ذكر استيلاء قريش بن بدران على الأنبار والخطبة
 لطغرلبيك بأعماله
 ١٤٤٧ ذكر وفاة القائد ابن حمّاد وما كان من أهله بعده
 ١٤٤٨ ذكر ابتداء الوحشة بين البساسيريّ والخليفة
 ١٤٤٨ ذكر وصول الغزّ إلى الدُسكر وغيرها
 ١٤٤٨ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٤٨ سنة سبع وأربعين وأربعمئة
 ذكر استيلاء الملك الرحيم على شيراز وقطع خطبة
 ١٤٤٩ طغرلبيك فيها
 ١٤٤٩ ذكر قتل أبي حرب بن مروان صاحب الجزيرة
 ١٤٤٩ ذكر وثوب الأتراك ببغداد بأهل البساسيريّ والقبض
 عليه ونهب دوره وأملاكه وتأكيد الوحشة بينه وبين
 ١٤٤٩ رئيس الرؤساء
 ذكر وثوب العامة ببغداد بعسكر السلطان طغرلبيك
 ١٤٥٠ وقبض الملك الرحيم
 ١٤٥١ ذكر عدّة حوادث
 ١٤٥٢ سنة ثمان وأربعين وأربعمئة
 ذكر نكاح الخليفة ابنة داود أخي طغرلبيك
 ١٤٥٢ ذكر الحرب بين عبيد المعزّ بن باديس وعبيد ابنه تميم
 ١٤٥٢ ذكر ابتداء دولة الملثمين
 ١٤٥٢ ذكر ولاية يوسف بن تاشفين
 ١٤٥٣ ذكر تبيض أبي الغنائم بن المحلبان
 ١٤٥٤

- ١٤٧٩ ذكر ملك السلطان ألب أرسلان قلعة فضلون بفارس..... ١٤٦٧ ذكر وفاة السلطان طغرل بك.....
- ١٤٧٩ ذكر عدة حوادث..... ١٤٦٧ ذكر شيء من سيرته.....
- ١٤٧٩ سنة خمس وستين وأربعمائة..... ١٤٦٨ ذكر ملك السلطان ألب أرسلان.....
- ١٤٧٩ ذكر قتل السلطان ألب أرسلان..... ١٤٦٨ ذكر خروج حمو عن طاعة تميم بن المعز بإفريقية.....
- ١٤٨٠ ذكر نسب ألب أرسلان وبعض سيرته..... ١٤٦٨ ذكر عدة حوادث.....
- ١٤٨٠ ذكر ملك السلطان ملكشاه..... ١٤٦٨ سنة ست وخمسين وأربعمائة.....
- ١٤٨٠ ذكر ملك صاحب سمرقند مدينة ترمذ..... ١٤٦٨ ذكر القبض على عميد الملك وقتله.....
- ١٤٨١ ذكر قصد صاحب غزنة سكلكتند..... ١٤٦٩ ذكر ملك ألب أرسلان ختلان وهرة وصغانيان.....
- ١٤٨١ ذكر الحرب بين السلطان ملكشاه وعمه قاوورت بك..... ١٤٦٩ ذكر عود ابنة الخليفة إلى بغداد والخطبة للسلطان.....
- ١٤٨١ ذكر تفويض الأمور إلى نظام الملك..... ١٤٦٩ ألب أرسلان ببغداد.....
- ١٤٨١ ذكر قتل ناصر الدولة بن حمدان..... ١٤٧٠ ذكر الحرب بين ألب أرسلان وقلمش.....
- ١٤٨٤ ذكر عدة حوادث..... ١٤٧٠ ذكر فتح ألب أرسلان مدينة آني وغيرها من بلاد النصرانية.....
- ١٤٨٤ سنة ست وستين وأربعمائة..... ١٤٧١ ذكر عدة حوادث.....
- ١٤٨٤ ذكر تقليد السلطان ملكشاه السلطنة والخلع عليه..... ١٤٧٢ سنة سبع وخمسين وأربعمائة.....
- ١٤٨٤ ذكر غرق بغداد..... ١٤٧٢ ذكر الحرب بين بني حماد والعرب.....
- ١٤٨٥ ذكر ملك السلطان ملكشاه ترمذ والهدنة بينه وبين صاحب سمرقند..... ١٤٧٣ ذكر بناء مدينة بجاية.....
- ١٤٨٥ ذكر عدة حوادث..... ١٤٧٣ ذكر ملك ألب أرسلان جند وصيران.....
- ١٤٨٥ سنة سبع وستين وأربعمائة..... ١٤٧٣ ذكر عدة حوادث.....
- ١٤٨٥ ذكر وفاة القائم بأمر الله وذكر بعض سيرته..... ١٤٧٤ سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.....
- ١٤٨٦ ذكر خلافة المقتدي بأمر الله..... ١٤٧٤ ذكر عهد ألب أرسلان بالسلطنة لابنه ملكشاه.....
- ١٤٨٦ ذكر عدة حوادث..... ١٤٧٤ ذكر استيلاء تميم على مدينة تونس.....
- ١٤٨٦ سنة ثمان وستين وأربعمائة..... ١٤٧٤ ذكر ملك شرف الدولة الأتبار وهيئ وغيرها.....
- ١٤٨٦ ذكر ملك أقيس دمشق..... ١٤٧٤ ذكر عدة حوادث.....
- ١٤٨٧ ذكر عدة حوادث..... ١٤٧٤ سنة تسع وخمسين وأربعمائة.....
- ١٤٨٧ سنة تسع وستين وأربعمائة..... ١٤٧٤ ذكر عصيان ملك كرمان على ألب أرسلان وعوده إلى طاعته.....
- ١٤٨٧ ذكر حصر أقيس مصر وعوده عنها..... ١٤٧٤ ذكر عدة حوادث.....
- ١٤٨٨ ذكر عدة حوادث..... ١٤٧٥ سنة ستين وأربعمائة.....
- ١٤٨٨ سنة سبعين وأربعمائة..... ١٤٧٥ ذكر عدة حوادث.....
- ١٤٨٨ ذكر عدة حوادث..... ١٤٧٥ سنة إحدى وستين وأربعمائة.....
- ١٤٨٩ سنة إحدى وسبعين وأربعمائة..... ١٤٧٦ ذكر عدة حوادث.....
- ١٤٨٩ ذكر عزل ابن جهمير من وزارة الخليفة..... ١٤٧٦ سنة اثنتين وستين وأربعمائة.....
- ١٤٨٩ ذكر استيلاء تش على دمشق..... ١٤٧٦ ذكر عدة حوادث.....
- ١٤٩٠ ذكر عدة حوادث..... ١٤٧٦ سنة ثلاث وستين وأربعمائة.....
- ١٤٩٠ سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة..... ١٤٧٧ ذكر الخطبة للقائم بأمر الله والسلطان بحلب.....
- ١٤٩٠ ذكر فتوح إبراهيم صاحب غزنة في بلاد الهند..... ١٤٧٧ ذكر استيلاء السلطان ألب أرسلان على حلب.....
- ١٤٩٠ ذكر ملك شرف الدولة مسلم مدينة حلب..... ١٤٧٧ ذكر خروج ملك الروم إلى خلاط وأسره.....
- ١٤٩١ ذكر عدة حوادث..... ١٤٧٨ ذكر ملك أتييز الرملة وبيت المقدس.....
- ١٤٩١ سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة..... ١٤٧٨ ذكر عدة حوادث.....
- ١٤٩١ ذكر استيلاء تكش على بعض خراسان وأخذها منه..... ١٤٧٩ سنة أربع وستين وأربعمائة.....
- ١٤٩١ ذكر عدة حوادث..... ١٤٧٩ ذكر ولاية سعد الدولة كوهرايين شحنة بغداد.....
- ١٤٩١ سنة أربع وسبعين وأربعمائة..... ١٤٧٩ ذكر ترويح ولي العهد بآبنة السلطان.....
- ١٤٩١ ذكر خطبة الخليفة ابنة السلطان ملكشاه..... ١٤٧٩ ذكر ولاية أبي الحسن بن عمار طرابلس.....
- ١٤٩٢ ذكر وفاة نور الدولة بن مزيد وإمارة ولده منصور.....

١٥٠٤.....	ذكر علة حوادث	١٤٩٢.....	ذكر محاصرة تميم بن المعزّ مدينة قايس
١٥٠٥.....	سنة اثنين وثمانين وأربعمائة	١٤٩٢.....	ذكر علة حوادث
١٥٠٥.....	ذكر الفتنة ببغداد بين العامة	١٤٩٢.....	سنة خمس وسبعين وأربعمائة
١٥٠٥.....	ذكر ملك السلطان ملكشاه ما وراء النهر	١٤٩٢.....	ذكر وفاة جمال الملك بن نظام الملك
١٥٠٥.....	ذكر عصيان سمرقند	١٤٩٣.....	ذكر الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة
١٥٠٥.....	ذكر فتح سمرقند الفتح الثاني	١٤٩٣.....	ذكر مسير الشيخ أبي إسحاق إلى السلطان في رسالة
١٥٠٦.....	ذكر عود ابنة السلطان زوجة الخليفة إلى أبيها	١٤٩٣.....	ذكر حصر شرف الدولة دمشق وعوده عنها
١٥٠٦.....	ذكر فتح عسكر مصر عكا وغيرها من الشام	١٤٩٣.....	ذكر علة حوادث
١٥٠٦.....	ذكر الفتنة بين أهل بغداد ثانية	١٤٩٤.....	سنة ست وسبعين وأربعمائة
١٥٠٧.....	ذكر حيلة لأمر المسلمين ظهرت ظهوراً غريباً	١٤٩٤.....	ذكر عزل عميد الدولة بن جُهير عن وزارة الخليفة
١٥٠٧.....	ذكر ملك العرب مدينة سوسة وأخذها منهم	١٤٩٤.....	ومسير والده فخر الدولة إلى ديار بكر
١٥٠٧.....	ذكر علة حوادث	١٤٩٤.....	ذكر عصيان أهل حرّان على شرف الدولة وفتحها
١٥٠٨.....	سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة	١٤٩٤.....	ذكر وزارة أبي شجاع محمد بن الحسين للخليفة
١٥٠٨.....	ذكر وفاة فخر الدولة أبي نصر بن جُهير	١٤٩٤.....	ذكر استيلاء مالك بن عُلوّي على القُيروان وأخذها
١٥٠٨.....	ذكر نهب العرب البصرة	١٤٩٤.....	منه
١٥٠٩.....	ذكر علة حوادث	١٤٩٤.....	ذكر علة حوادث
١٥٠٩.....	سنة أربع وثمانين وأربعمائة	١٤٩٥.....	سنة سبع وسبعين وأربعمائة
١٥٠٩.....	ذكر عزل الوزير أبي شجاع ووزارة عميد الدولة بن جُهير	١٤٩٥.....	ذكر استيلاء عميد الدولة على الموصل
١٥٠٩.....	ذكر ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس التي للمسلمين	١٤٩٥.....	ذكر عصيان نكش علي أخيه السلطان ملكشاه
١٥١١.....	ذكر ملك الفرنج جزيرة صقلية	١٤٩٦.....	ذكر فتح سليمان بن قُتلمش أنطاكية
١٥١٢.....	ذكر وصول السلطان إلى بغداد	١٤٩٦.....	ذكر قتل شرف الدولة وملك أخيه إبراهيم
١٥١٣.....	ذكره علة حوادث	١٤٩٧.....	ذكر علة حوادث
١٥١٣.....	سنة خمس وثمانين وأربعمائة	١٤٩٧.....	سنة ثمان وسبعين وأربعمائة
١٥١٣.....	ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج بجيان	١٤٩٧.....	ذكر استيلاء الفرنج على مدينة طَلَيْطَلَة
١٥١٣.....	ذكر استيلاء تَشش على حمص وغيرها من ساحل الشام	١٤٩٧.....	ذكر استيلاء ابن جُهير على أُمَيْد
١٥١٣.....	ذكر ملك السلطان اليمن	١٤٩٧.....	ذكر ملكه أيضاً ميّافارقين
١٥١٤.....	ذكر مقتل نظام الملك	١٤٩٨.....	ذكر ملك جزيرة ابن عمر
١٥١٤.....	ذكر ابتداء حاله وشيء من أخباره	١٤٩٨.....	ذكر علة حوادث
١٥١٥.....	ذكر وفاة السلطان وذكر بعض سيرته	١٤٩٨.....	سنة تسع وسبعين وأربعمائة
١٥١٥.....	ذكر ملك ابنه الملك محمود وما كان من حال ابنه الأكبر بركيارق إلى أن ملك	١٤٩٨.....	ذكر قتل سليمان بن قُتلمش
١٥١٦.....	ذكر قتل تاج الملك	١٤٩٩.....	ذكر ملك السلطان حلب وغيرها
١٥١٧.....	ذكر ما فعله العرب بالحُجّاج والكوفة	١٤٩٩.....	ذكر وفاة بهاء الدولة منصور بن مَزِيد وولاية ابنه صدقة
١٥١٧.....	ذكر علة حوادث	١٥٠٠.....	ذكر وقعة الزلاقة بالأندلس وهزيمة الفرنج
١٥١٨.....	سنة ست وثمانين وأربعمائة	١٥٠١.....	ذكر دخول السلطان إلى بغداد
١٥١٨.....	ذكر وزارة عزّ الملك بن نظام الملك لبركيارق	١٥٠١.....	ذكر علة حوادث
١٥١٨.....	ذكر حال تَشش بن ألب أرسلان	١٥٠٢.....	سنة ثمانين وأربعمائة
١٥١٨.....	ذكر وقعة المُضَيِّع وأخذ الموصل من العرب	١٥٠٢.....	ذكر زفاف ابنة السلطان إلى الخليفة
١٥١٨.....	ذكر ملك تَشش ديار بكر وأذربيجان وعوده إلى الشام	١٥٠٢.....	ذكر علة حوادث
١٥١٩.....	ذكر حصر عسكر مصر صور وملكهم لها	١٥٠٣.....	سنة إحدى وثمانين وأربعمائة
١٥١٩.....	ذكر قتل إسماعيل بن ياقوتي خال بركيارق	١٥٠٣.....	ذكر الفتنة ببغداد
١٥١٩.....	ذكر أخذ الحُجّاج	١٥٠٣.....	ذكر إخراج الأتراك من حريم الخلافة
١٥١٩.....	ذكر علة حوادث	١٥٠٣.....	ذكر ملك الروم مدينة رُومَة وعودهم عنها
		١٥٠٤.....	ذكر وفاة الناصر بن علناس وولاية ولده المنصور
		١٥٠٤.....	ذكر وفاة إبراهيم ملك غَزنة وملك ابنه مسعود

١٥٣٤	ذكر عصيان الأمير أُنُر وقته	١٥٢٠	سنة سبع وثمانين وأربعمائة
١٥٣٤	ذكر ملك الفرنج، لعنهم الله، البيت المقدس	١٥٢٠	ذكر وفاة المقتدي بأمر الله
١٥٣٥	ذكر الحرب بين المصريين والفرنج	١٥٢١	ذكر خلافة المستظهر بالله
١٥٣٥	ذكر ابتداء ظهور السلطان محمد بن ملكشاه		ذكر قتل قسيم الدولة أفسر وملك تش حلب
١٥٣٦	ذكر الخطبة ببغداد للملك محمد		والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمدان والخطبة له
١٥٣٦	ذكر قتل مجد الملك البلاساني	١٥٢١	ببغداد
١٥٣٧	ذكر عدة حوادث		ذكر انهزام بركيارق من عمه تش وملكه أصبهان بعد
١٥٣٧	سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة	١٥٢١	ذلك
١٥٣٧	ذكر إعادة خطبة السلطان بركيارق ببغداد	١٥٢٢	ذكر وفاة أمير الجيوش بمصر
	ذكر الوقعة بين السلطانين بركيارق ومحمد وإعادة	١٥٢٢	ذكر وفاة المستنصر وولاية ابنه المستعلي
١٥٣٧	خطبة محمد ببغداد	١٥٢٣	ذكر عدة حوادث
١٥٣٨	ذكر قتل سعد الدولة كهرائين	١٥٢٣	سنة ثمان وثمانين وأربعمائة
	ذكر حال السلطان بركيارق بعد الهزيمة وانهزامه من	١٥٢٣	ذكر دخول جمع من الترك إفريقية وما كان منهم
١٥٣٨	أخيه سنجر أيضاً وقتل أمير داد حبشي	١٥٢٤	ذكر قتل أحمد خان صاحب سمرقند
١٥٣٨	ذكر فتح تميم ابن المعز مدينة سفاقس	١٥٢٤	ذكر ما فعله يوسف بن آبق ببغداد
١٥٣٨	ذكر عزل عميد الدولة من وزارة الخليفة ووفاته	١٥٢٤	ذكر الحرب بين بركيارق وتش وقاتل تش
١٥٣٩	ذكر ظفر المسلمين بالفرنج	١٥٢٥	ذكر حال الملك رُضوان وأخيه دُقاق بعد قتل أبيهما
١٥٣٩	ذكر عدة حوادث	١٥٢٥	ذكر وفاة المعتمد بن عباد
١٥٣٩	سنة أربع وتسعين وأربعمائة	١٥٢٦	ذكر وفاة الوزير أبي شجاع
	ذكر الحرب بين السلطانين بركيارق ومحمد وقتل	١٥٢٦	ذكر الفتنة بنيسابور
١٥٣٩	مؤيد الملك	١٥٢٦	ذكر عدة حوادث
	ذكر حال السلطان محمد بعد الهزيمة واجتماعه بأخيه	١٥٢٧	سنة تسع وثمانين وأربعمائة
١٥٤٠	الملك سنجر	١٥٢٧	ذكر قتل يوسف بن آبق والمجن الحلي
١٥٤٠	ذكر ما فعله السلطان بركيارق ودخوله بغداد	١٥٢٧	ذكر وفاة منصور بن مروان
١٥٤١	ذكر خلاف صدقة بن مَزِيد على بركيارق	١٥٢٧	ذكر ملك تميم مدينة قابس أيضاً
١٥٤١	ذكر وصول السلطان محمد إلى بغداد	١٥٢٨	ذكر ملك كربوقا الموصل
١٥٤١	ورحيل السلطان بركيارق عنها	١٥٢٨	ذكر عدة حوادث
١٥٤٢	ذكر حال قاضي جبلة	١٥٢٩	سنة تسعين وأربعمائة
١٥٤٢	ذكر قتل الباطنية	١٥٢٩	ذكر قتل أرسلان أرغون
١٥٤٣	ذكر ما فعل بهم العامة بأصبهان	١٥٢٩	ذكر استيلاء عسكر مصر على مدينة صور
١٥٤٣	ذكر قلاعهم التي استولوا عليها ببلاد العجم	١٥٢٩	ذكر ملك بركيارق خراسان وتسليمها إلى أخيه سنجر
١٥٤٤	ذكر ما فعله جاولي سقاوا بالباطنية	١٥٣٠	ذكر خروج أمير أميران بخراسان مخالفاً
١٥٤٥	ذكر قتل صاحب كرمان الباطني وملك غيره		ذكر عصيان الأمير قودن ويارقشاش على السلطان
١٥٤٥	ذكر السبب في قتل بركيارق الباطنية	١٥٣٠	واستعمال حبشي على خراسان
١٥٤٦	ذكر حصر الأمير بزغش قهستان وطبس	١٥٣٠	ذكر ابتداء دولة محمد بن خوارزمشاه
١٥٤٦	ذكر ما ملك الفرنج من الشام	١٥٣١	ذكر الحرب بين رُضوان وأخيه دُقاق
١٥٤٦	ذكر عدة حوادث	١٥٣١	ذكر الخطبة للعلوي المصري بولاية رُضوان
١٥٤٧	سنة خمس وتسعين وأربعمائة	١٥٣١	ذكر عدة حوادث
١٥٤٧	ذكر وفاة المستعلي بالله وولاية الأمر بأحكام الله	١٥٣١	سنة إحدى وتسعين وأربعمائة
	ذكر الحرب بين السلطان بركيارق والسلطان محمد	١٥٣١	ذكر ملك الفرنج مدينة أنطاكية
١٥٤٧	والصلح بينهما	١٥٣٣	ذكر مسير المسلمين إلى الفرنج وما كان منهم
	ذكر الحرب بين السلطان بركيارق ومحمد وانفساخ	١٥٣٣	ذكر ملك الفرنج معرفة النعمان
١٥٤٨	الصلح بينهما	١٥٣٣	ذكر الحرب بين الملك سنجر ودولتشاه
١٥٤٨	ذكر حصار السلطان محمد بأصبهان	١٥٣٣	ذكر عدة حوادث
١٥٤٩	ذكر قتل الوزير الأعز ووزارة الخطير أبي منصور	١٥٣٤	سنة اثنين وتسعين وأربعمائة

١٥٦٥ ذكر حرب الفرنج والمصريين	١٥٤٩ حادثة يُعتبر بها
١٥٦٥ ذكر عدة حوادث	١٥٤٩ ذكر الفتنة بين إيلغازي وعامة بغداد
١٥٦٦ سنة تسع وتسعين وأربعمائة	١٥٤٩ ذكر قصد صاحب البصرة مدينة واسط وعوده عنها
١٥٦٦ ذكر خروج منكبرس على السلطان محمد	١٥٥٠ ذكر وفاة كربوقا وملك موسى التركماني الموصل
١٥٦٦ ذكر الحرب بين طغتكين والفرنج	١٥٥٠ وجكرمش بعده وملك سُقمان الحصن
١٥٦٦ ذكر الحرب بين عبادة وخفاجة	١٥٥١ ذكر حال صنجيل الفرنجي وما كان منه في حصار
١٥٦٧ ذكر ملك صدقة البصرة	١٥٥١ طرابلس
١٥٦٧ ذكر حصر رضوان نصيبين وعوده عنها	١٥٥١ ذكر ما فعله الفرنج
١٥٦٨ ذكر ملك طغتكين بصرى	١٥٥٢ ذكر عود قلعة خفيتذ كان إلى سُرخاب بن بدر
١٥٦٨ ذكر ملك الفرنج حصن أفاية	١٥٥٢ ذكر قتل قدرخان صاحب سمرقند
١٥٦٩ ذكر نهب العرب البصرة	١٥٥٣ ذكر ملك محمد خان سمرقند
١٥٦٩ ذكر حال طرابلس الشام مع الفرنج	١٥٥٣ ذكر عدة حوادث
١٥٧٠ ذكر عدة حوادث	١٥٥٤ سنة ست وتسعين وأربعمائة
١٥٧١ سنة خمسائة	١٥٥٤ ذكر استيلاء نبال على الرِّي وأخذها منه ووصله إلى
١٥٧١ ذكر وفاة يوسف بن تاشفين وملك ابنه علي	١٥٥٤ بغداد
١٥٧١ ذكر قتل فخر الملك بن نظام الملك	١٥٥٤ ذكر ما فعله نبال بالعراق
١٥٧١ ذكر ملك صدقة بن مُزید تكريت	١٥٥٤ ذكر وصول كمشتكين القيصري شحنة إلى بغداد
١٥٧٢ ذكر الحرب بين عبادة وخفاجة	١٥٥٤ والفتنة بينه وبين إيلغازي وسُقمان وصدقة
١٥٧٢ ذكر مسير جاولي سقاو إلى الموصل وأسر صاحبها	١٥٥٥ ذكر استيلاء صدقة على هيت
١٥٧٢ جكرمش	١٥٥٥ ذكر الحرب بين بركيارق ومحمد
١٥٧٣ ذكر حصر جاولي سقاو الموصل وموت جكرمش	١٥٥٦ ذكر عزل سديد الملك وزير الخليفة
١٥٧٣ ذكر الحرب بين ملك القسطنطينية والفرنج	١٥٥٦ ونظر أبي سعد بن الموصل في الوزارة
١٥٧٣ ذكر ملك قلع أرسلان الموصل	١٥٥٦ ذكر ملك الملك دقاق مدينة الرُّجبة
١٥٧٤ ذكر قتل قلع أرسلان وملك جاولي الموصل	١٥٥٧ ذكر أخبار الفرنج بالشام
١٥٧٥ ذكر أحوال الباطنية بأصبهان وقتل ابن عطاش	١٥٥٧ ذكر عدة حوادث
١٥٧٥ ذكر الخلف بين سيف الدولة صدقة ومُهدب الدولة	١٥٥٨ سنة سبع وتسعين وأربعمائة
١٥٧٦ صاحب البطيحة	١٥٥٨ ذكر ملك بلك بن بهرام بن أرتق مدينة عانة
١٥٧٧ ذكر قتل وزير السلطان ووزارة أحمد بن نظام الملك	١٥٥٨ ذكر غارة الفرنج على الرُّقة وقلعة جَعْبَر
١٥٧٧ ذكر عدة حوادث	١٥٥٨ ذكر الصلح بين السلطان بركيارق ومحمد
١٥٧٧ سنة إحدى وخمسمائة	١٥٥٩ ذكر ملك الفرنج جَبِيل وعكا من الشام
١٥٧٧ ذكر قتل صدقة بن مُزید	١٥٥٩ ذكر غزو سُقمان وجكرمش الفرنج
١٥٧٧ ذكر وفاة تميم بن المعز صاحب إفريقية وولاية ابنه	١٥٦٠ ذكر وفاة دقاق وملك ولده
١٥٨٠ يحيى	١٥٦٠ ذكر استيلاء صدقة على واسط
١٥٨١ ذكر ملك يحيى قلعة قَلْبِيَّة	١٥٦٠ ذكر عدة حوادث
١٥٨١ ذكر قدوم ابن عمار بغداد مستغفراً	١٥٦١ سنة ثمان وتسعين وأربعمائة
١٥٨١ ذكر عدة حوادث	١٥٦١ ذكر وفاة السلطان بركيارق
١٥٨٢ سنة اثنتين وخمسمائة	١٥٦١ ذكر عمره وشي من سيرته
١٥٨٢ ذكر استيلاء مودود وعسكر السلطان على الموصل	١٥٦١ ذكر الخطبة لملكشاه بن بركيارق
١٥٨٢ وولاية مودود	١٥٦١ ذكر حصر السلطان محمد جكرمش بالموصل
١٥٨٣ ذكر حال جاولي مدة الحصار	١٥٦١ ذكر وصول السلطان إلى بغداد وصلحه مع ابن أخيه
١٥٨٣ ذكر إطلاق جاولي للقَمَص الفرنجي	١٥٦٢ والأمير إياز
١٥٨٣ ذكر ما جرى بين هذا القَمَص وبين صاحب أنطاكية	١٥٦٣ ذكر قتل الأمير إياز
١٥٨٤ ذكر حال جاولي بعد إطلاق القَمَص	١٥٦٣ ذكر وفاة سُقمان بن أرتق
١٥٨٤ ذكر الحرب بين جاولي والفرنج	١٥٦٤ ذكر حال الباطنية هذه السنة بخراسان
١٥٨٥ ذكر عود جاولي إلى السلطان	١٥٦٤ ذكر حال الفرنج هذه السنة مع المسلمين بالشام

١٦٠١.....	ذكر حال الباطنية أيام السلطان محمد	١٥٨٥.....	ذكر الحرب بين طغتكين والهدنة بعدها
١٦٠١.....	ذكر حصار قايس والمهدية	١٥٨٥.....	ذكر انهزام طغتكين من الفرنج
١٦٠٢.....	ذكر الوحشة بين رجاء والأمير علي	١٥٨٦.....	ذكر صلح السنة والشيعية ببغداد
١٦٠٢.....	ذكر قتل صاحب حلب واستيلاء إيلغازي عليها	١٥٨٦.....	ذكر عدة حوادث
١٦٠٢.....	ذكر عدة حوادث	١٥٨٧.....	سنة ثلاث وخمسمائة
١٦٠٢.....	سنة اثني عشرة وخمسمائة	١٥٨٧.....	ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت من الشام
ذكر ما فعله السلطان محمود بالعراق وولاية البرسقي		١٥٨٨.....	ذكر ملك الفرنج جليل وبانياس
١٦٠٢.....	شحنكية	١٥٨٨.....	ذكر الحرب بين محمد خان وساغريك
١٦٠٣.....	بغداد	١٥٨٨.....	ذكر عدة حوادث
١٦٠٣.....	ذكر وفاة المستظهر بالله	١٥٨٨.....	سنة أربع وخمسمائة
١٦٠٣.....	ذكر بعض أخلاقه وسيرته	١٥٨٨.....	ذكر ملك الفرنج مدينة صيدا
١٦٠٣.....	ذكر خلافة الإمام المسترشد بالله	١٥٨٩.....	ذكر استيلاء المصريين على عسقلان
١٦٠٤.....	ذكر هرب الأمير أبي الحسن أخي المسترشد وعوده	١٥٨٩.....	ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب وغيره
ذكر مسير الملك مسعود وجيوش بك إلى العراق وما		١٥٩٠.....	ذكر عدة حوادث
١٦٠٤.....	كان بينهما وبين البرسقي وذبيس	١٥٩٠.....	سنة خمس وخمسمائة
ذكر وفاة ملك الفرنج وما كان بين الفرنج وبين		١٥٩٠.....	ذكر مسير العساكر إلى قتال الفرنج
المسلمين		١٥٩١.....	ذكر حصر الفرنج مدينة صور
١٦٠٦.....	ذكر عدة حوادث	١٥٩١.....	ذكر انهزام الفرنج بالأندلس
١٦٠٦.....	سنة ثلاث عشرة وخمسمائة	١٥٩٢.....	سنة ميت وخمسمائة
١٦٠٦.....	ذكر عصيان الملك طغرل على أخيه السلطان محمود	١٥٩٢.....	سنة سبع وخمسمائة
١٦٠٧.....	ذكر الحرب بين سنجر والسلطان محمود	١٥٩٢.....	ذكر قتال الفرنج وانهزامهم وقتل مودود
١٦٠٩.....	ذكر غزاة إيلغازي بلاد الفرنج	١٥٩٢.....	ذكر الخلف بين السلطان سنجر ومحمد خان والصلح
١٦٠٩.....	ذكر وقعة أخرى مع الفرنج	١٥٩٣.....	بينهما
١٦٠٩.....	ذكر قتل منكوبرس	١٥٩٣.....	ذكر عدة حوادث
١٦١٠.....	ذكر قتل الأمير علي بن عمر	١٥٩٤.....	سنة ثمان وخمسمائة
١٦١٠.....	ذكر الفتنة بين المرابطين وأهل قرطبة	١٥٩٤.....	ذكر مسير آقسنقر البرسقي إلى الشام لحرب الفرنج
١٦١٠.....	ذكر ملك علي بن سكران البصرة	١٥٩٤.....	ذكر طاعة صاحب مرعش وغيرها البرسقي
١٦١٠.....	ذكر عدة حوادث	١٥٩٤.....	ذكر الحرب بين البرسقي وإيلغازي وأمر إيلغازي
١٦١١.....	سنة أربع عشرة وخمسمائة	ذكر وفاة علاء الدولة بن سبكتكين وملك ابنه وما كان	
ذكر عصيان الملك مسعود على أخيه السلطان محمود		١٥٩٥.....	منه مع السلطان سنجر
١٦١١.....	والحرب بينهما	١٥٩٦.....	ذكر عدة حوادث
١٦١٢.....	ذكر حال ذبيس وما كان منه	١٥٩٦.....	سنة تسع وخمسمائة
١٦١٢.....	ذكر خروج الكرج إلى بلاد الإسلام وملك تيفليس	١٥٩٦.....	ذكر انهزام عسكر السلطان من الفرنج
١٦١٣.....	ذكر غزوات إيلغازي هذه السنة	١٥٩٧.....	ذكر وفاة يحيى بن تميم وولاية ابنه علي
ذكر ابتداء أمر محمد بن تومرت وعبد المؤمن		١٥٩٧.....	ذكر عدة حوادث
١٦١٣.....	وملكهما	١٥٩٨.....	سنة عشر وخمسمائة
١٦١٦.....	ذكر وفاة المهدي وولاية عبد المؤمن	١٥٩٨.....	ذكر قتل أحمدليل بن وهسودان
١٦١٧.....	ذكر ملك عبد المؤمن مدينة مراكش	١٥٩٨.....	ذكر وفاة جاوولي سقاو وحال بلاد فارس معه
١٦١٨.....	ذكر ظفر عبد المؤمن بدكالة	١٥٩٩.....	ذكر فتح جبل وملات وتونس
١٦١٨.....	ذكر حصر مدينة كتندة	١٦٠٠.....	ذكر الفتنة بطوس
١٦١٨.....	ذكر عدة حوادث	١٦٠٠.....	ذكر عدة حوادث
١٦١٩.....	سنة خمس عشرة وخمسمائة	١٦٠٠.....	سنة إحدى عشرة وخمسمائة
١٦١٩.....	ذكر إقطاع البرسقي الموصل	١٦٠٠.....	ذكر وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود
١٦١٩.....	ذكر وفاة الأمير علي وولاية ابنه الحسن إفريقية	١٦٠١.....	ذكر بعض سيرته
١٦١٩.....	ذكر قتل أمير الجيوش		

- ١٦٣٣ ذكر عدة حوادث
- ١٦٣٣ سنة إحدى وعشرين وخمسمائة
- ١٦٣٣ ذكر ولاية الشهيد أتابك زنكي شحنة العراق
- ذكر عود السلطان عن بغداد ووزارة أنوشروان بن خالد
- ١٦٣٤ ذكر وفاة عز الدين بن البرسقي وولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها
- ١٦٣٤ ذكر عدة حوادث
- ١٦٣٥ سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة
- ١٦٣٥ ذكر ملك أتابك عماد الدين زنكي مدينة حلب
- ١٦٣٦ ذكر قدوم السلطان سنجر إلى الرئي
- ١٦٣٦ ذكر عدة حوادث
- ١٦٣٧ سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة
- ١٦٣٧ ذكر قدوم السلطان محمود إلى بغداد
- ١٦٣٧ ذكر ما فعله ديبس بالعراق وعود السلطان إلى بغداد
- ١٦٣٧ ذكر قتل الإسماعيلية بدمشق
- ١٦٣٨ ذكر حصر الفرنج دمشق وانهزامهم
- ١٦٣٨ ذكر ملك عماد الدين زنكي مدينة حماة
- ١٦٣٨ ذكر عدة حوادث
- ١٦٣٩ سنة أربع وعشرين وخمسمائة
- ذكر ملك السلطان ينجر مدينة سمرقند من محمد خان
- ١٦٣٩ ذكر فتح عماد الدين زنكي حصن الأثارب وهزيمة الفرنج
- ١٦٣٩ ذكر ملك عماد الدين زنكي أيضاً مدينة سرجي ودارا
- ١٦٤٠ ذكر وفاة الأمر وخلافة الحافظ العلوي
- ١٦٤٠ ذكر عدة حوادث
- ١٦٤١ سنة خمس وعشرين وخمسمائة
- ذكر أسر ديبس بن صدقة وتسليمه إلى عماد الدين زنكي
- ١٦٤١ ذكر وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود
- ١٦٤١ ذكر عدة حوادث
- ١٦٤٢ سنة ست وعشرين وخمسمائة
- ذكر قتل أبي علي وزير الحافظ ووزارة يانس وموته
- ذكر حال السلطان مسعود والملكين سلجوقشاه وداود
- ١٦٤٢ واستقرار السلطنة بالعراق لمسعود
- ذكر الحرب بين السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر
- ١٦٤٣ ذكر مسير عماد الدين زنكي إلى بغداد وانهزامه
- ١٦٤٤ ذكر حال ديبس بعد الهزيمة
- ١٦٤٤ ذكر وفاة تاج الملوك صاحب دمشق
- ذكر ملك شمس الملوك حصن اللبوة وحصن راس وحصره بعلبك
- ١٦٤٤ ذكر الحرب بين السلطان طغرل والملك داود
- ١٦٤٥ ذكر عدة حوادث
- ١٦٢٠ ذكر عصيان سليمان بن إيلغازي على أبيه
- ١٦٢٠ ذكر إقطاع ميفارقين إيلغازي
- ١٦٢٠ ذكر حصر بلك بن بهرام الرها وأسر صاحبها
- ١٦٢٠ ذكر عدة حوادث
- ١٦٢١ سنة سبت عشرة وخمسمائة
- ١٦٢١ ذكر طاعة الملك طغرل لأخيه السلطان محمود
- ١٦٢١ ذكر حال ديبس بن صدقة وما كان منه
- ذكر القبض على ابن صدقة وزير الخليفة ونياية علي بن طراد
- ١٦٢٣ ذكر قتل جيوش بك
- ١٦٢٣ ذكر وفاة إيلغازي وأحوال حلب بعده
- ١٦٢٣ ذكر عدة حوادث
- ١٦٢٤ سنة سبع عشرة وخمسمائة
- ذكر مسير المسترشد بالله لحرب ديبس
- ١٦٢٤ ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب
- ١٦٢٥ ذكر الحرب بين الفرنج والمسلمين بإفريقية
- ١٦٢٥ ذكر استيلاء الفرنج على خربت وأخذها منهم
- ذكر قتل وزير السلطان وعود ابن صدقة إلى وزارة الخليفة
- ١٦٢٦ ذكر ظفر السلطان محمود بالكروج
- ١٦٢٦ ذكر الحرب بين المغاربة وعسكر مصر
- ١٦٢٧ ذكر عدة حوادث
- ١٦٢٧ سنة ثمان عشرة وخمسمائة
- ذكر قتل بلك بن بهرام بن أرتق وملك تمرناش حلب
- ١٦٢٧ ذكر ملك الفرنج مدينة صور بالشام
- ذكر عزل البرسقي عن شحنة العراق وولاية يرناقش الزكوي
- ١٦٢٨ ذكر ملك البرسقي مدينة حلب
- في هذه السنة، في ذي الحجة، ملك آقسنقر البرسقي مدينة حلب وقلعتها
- ١٦٢٨ ذكر عدة حوادث
- ١٦٢٩ سنة تسع عشرة وخمسمائة
- ذكر وصول الملك طغرل وديبس ابن صدقة إلى العراق وعودهما عنه
- ١٦٢٩ ذكر فتح البرسقي كفرطاب وانهزامه من الفرنج
- ١٦٣٠ ذكر قتل المأمون بن البطائحي
- ١٦٣٠ ذكر عدة حوادث
- ١٦٣١ سنة عشرين وخمسمائة
- ذكر حرب الفرنج والمسلمين بالأندلس
- ١٦٣١ ذكر قصد بلاد الإسماعيلية بخراسان
- ١٦٣١ ذكر ملك الإسماعيلية قلعة باناس
- ١٦٣١ ذكر قتل البرسقي وملك ابنه عز الدين مسعود
- ذكر الاختلاف الواقع بين المسترشد بالله والسلطان محمود
- ١٦٣٢ ذكر مصاف بين طغتكين أتابك والفرنج بالشام
- ١٦٣٣ ذكر مصاف بين طغتكين أتابك والفرنج بالشام

١٦٥٧.....	ذكر خلافة المقتفي لأمر الله	١٦٤٥.....	سنة سبع وعشرين وخمسمائة
١٦٥٨.....	ذكر عدة حوادث	١٦٤٥.....	ذكر ملك شمس الملوك بانياس
١٦٥٨.....	سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة	١٦٤٥.....	ذكر حرب بين المسلمين والفرنج
١٦٥٨.....	ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود		ذكر عود السلطان مسعود إلى السلطنة وانهزام الملك
١٦٥٨.....	ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان	١٦٤٦.....	طغرل
	ذكر فتح المسلمين حصن وادي ابن الأحمر من	١٦٤٦.....	ذكر حصر المسترشد بالله الموصل
١٦٥٩.....	الفرنج	١٦٤٦.....	ذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة
١٦٥٩.....	ذكر حصار زنكي مدينة حمص	١٦٤٧.....	ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجي
١٦٥٩.....	ذكر ملك زنكي قلعة بعرين وهزيمة الفرنج	١٦٤٧.....	ذكر عدة حوادث
١٦٦٠.....	ذكر خروج ملك الروم من بلاده إلى الشام	١٦٤٧.....	سنة ثمان وعشرين وخمسمائة
١٦٦٠.....	ذكر عدة حوادث		ذكر ملك شمس الملوك شقيف تيرون ونهيه بلد
١٦٦٠.....	سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة	١٦٤٧.....	الفرنج
	ذكر ملك أنابك زنكي حمص وغيرها من أعمال		ذكر عود الملك طغرل إلى الجبل وانهزام الملك
١٦٦٠.....	دمشق	١٦٤٨.....	مسعود
	ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بزيادة وما		ذكر حصر أنابك زنكي آيد والحرب بينه وبين داود
١٦٦٠.....	فعله بالمسلمين	١٦٤٨.....	وملك زنكي قلعة الصور
	ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن	١٦٤٨.....	ذكر ملك زنكي قلاع الأكراد الحميدية
١٦٦٢.....	معه من الأمراء	١٦٤٨.....	ذكر ملك قلاع الهكارية وكواشي
١٦٦٢.....	ذكر قتل الراشد بالله	١٦٤٩.....	ذكر عدة حوادث
١٦٦٣.....	ذكر حال ابن بكران العيار	١٦٥٠.....	سنة تسع وعشرين وخمسمائة
١٦٦٣.....	ذكر قتل الوزير الدركيني ووزارة الخازن		ذكر وفاة الملك طغرل وملك مسعود بلد الجبل
١٦٦٣.....	ذكر عدة حوادث	١٦٥٠.....	ذكر قتل شمس الملوك وملك أخيه
١٦٦٤.....	سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة	١٦٥٠.....	ذكر حصر أنابك زنكي دمشق
	ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه	١٦٥١.....	ذكر قتل حسن بن الحافظ
١٦٦٤.....	ذكر قتل محمود صاحب دمشق وملك أخيه محمد		ذكر مسير المسترشد إلى حرب السلطان مسعود
١٦٦٤.....	ذكر ملك زنكي بعلبك	١٦٥١.....	وانهزامه
١٦٦٥.....	ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعوده عنها	١٦٥٢.....	ذكر قتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله
١٦٦٥.....	ذكر عدة حوادث	١٦٥٣.....	ذكر مسير السلطان سنجر إلى غزنة وعوده عنها
١٦٦٥.....	سنة أربع وثلاثين وخمسمائة	١٦٥٣.....	ذكر قتل ديبس بن صدقة بالتاريخ
	ذكر حصار أنابك زنكي دمشق	١٦٥٣.....	ذكر حصر عسكر يحيى المهدي
١٦٦٦.....	ذكر ملك زنكي شهرزور وأعمالها	١٦٥٤.....	ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة
١٦٦٦.....	ذكر عدة حوادث	١٦٥٤.....	ذكر ملك الفرنج حصن روضة من بلاد الأندلس
١٦٦٧.....	سنة خمس وثلاثين وخمسمائة	١٦٥٤.....	ذكر حصر ابن رديم مدينة أفراغة وهزيمته وموته
١٦٦٧.....	ذكر مسير جهار دانكي إلى العراق وما كان منه	١٦٥٤.....	ذكر عدة حوادث
١٦٦٧.....	ذكر عدة حوادث	١٦٥٥.....	سنة ثلاثين وخمسمائة
١٦٦٨.....	سنة ست وثلاثين وخمسمائة		ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان
	ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا وملكهم	١٦٥٥.....	مسعود
١٦٦٨.....	ما وراء النهر		ذكر اجتماع أصحاب الأطراف على حرب مسعود
١٦٦٩.....	ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان	١٦٥٥.....	بيغداد وخروجهم عن طاعته
١٦٧٠.....	ذكر عدة حوادث	١٦٥٥.....	ذكر ملك شهاب الدين حمص
١٦٧١.....	سنة سبع وثلاثين وخمسمائة	١٦٥٦.....	ذكر الفتنة بدمشق
١٦٧١.....	ذكر ملك أنابك زنكي قلعة أشب وغيرها من الهكارية	١٦٥٦.....	ذكر غزاة العسكر الأتابكي لبلاد الفرنج
١٦٧١.....	ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب		ذكر وصول السلطان مسعود إلى العراق وتفرق
١٦٧١.....	ذكر عدة حوادث		أصحاب الأطراف ومسير الراشد بالله إلى الموصل
		١٦٥٦.....	وخلعه

- سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ١٦٧١
 ذكر صلح الشهيد والسلطان مسعود ١٦٧١
 ذكر مُلك أتابك بعض ديار بكر ١٦٧٢
 ذكر أمر العيارين ببغداد ١٦٧٢
 ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه ١٦٧٢
 ذكر عدة حوادث ١٦٧٢
 سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ١٦٧٢
 ذكر فتح الرُّها وغيرها من بلاد الجزيرة ممّا كان بيد
 الفرنج ١٦٧٢
 ذكر قتل نصير الدين جقّر وولاية زين الدين عليّ
 كوجك قلعة الموصل ١٦٧٣
 ذكر عدة حوادث ١٦٧٤
 سنة أربعين وخمسمائة ١٦٧٤
 ذكر اتفاق بوزابة وعبّاس على منازعة السلطان ١٦٧٤
 ذكر استيلاء عليّ بن دُيس بن صدقة على الجَلّة ١٦٧٤
 ذكر عدة حوادث ١٦٧٥
 سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ١٦٧٥
 ذكر مُلك الفرنج طرابلس الغرب ١٦٧٥
 ذكر حصر زنكي حصني جَبَر وقتك ١٦٧٥
 ذكر قتل أتابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته ١٦٧٦
 ذكر مُلك ولدَيْه سيف الدين غازي ونور الدين
 محمود ١٦٧٧
 ذكر عصيان الرُّها لمّا قُتل أتابك ١٦٧٧
 ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس ١٦٧٧
 ذكر قتل عبد الرحمن طغايُوك وعبّاس صاحب الرُّي ١٦٧٧
 ذكر عدة حوادث ١٦٧٨
 سنة اثنين وأربعين وخمسمائة ١٦٧٨
 ذكر قتل بوزابة ١٦٧٨
 ذكر طاعة أهل قابس للفرنّج وغلبة المسلمين عليها ١٦٧٩
 ذكر حادثة ينبغي أن يحتاط العاقل من مثلها ١٦٧٩
 ذكر مُلك الفرنج المَرِيّة وغيرها من الأندلس ١٦٧٩
 ذكر مُلك نور الدين محمود بن زنكي عدة مواضع من
 بلد الفرنج ١٦٧٩
 ذكر أخذ الجَلّة من عليّ بن دُيس وعوده إليها ١٦٧٩
 ذكر عدة حوادث ١٦٨٠
 سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ١٦٨٠
 ذكر مُلك الفرنج مدينة المَهديّة بإفريقية ١٦٨٠
 ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي
 بن زنكي ١٦٨١
 ذكر مُلك نور الدين محمود بن زنكي حصن الرُّيمّة ١٦٨٢
 ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء
 ووصولهم إلى بغداد وما كان منهم بالعراق ١٦٨٢
 ذكر انهزام الفرنج ببغرى ١٦٨٣
 ذكر مُلك الغوريّة غزّة وعودهم عنها ١٦٨٣
 ذكر مُلك الفرنج مدنا من الأندلس ١٦٨٣
- ذكر عدة حوادث ١٦٨٣
 سنة أربع وأربعين وخمسمائة ١٦٨٤
 ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك زنكي وبعض
 سيرته ومُلك أخيه قطب الدين ١٦٨٤
 ذكر استيلاء نور الدين على سينجار ١٦٨٤
 ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلال ١٦٨٥
 ذكر عود جماعة من الأمراء إلى العراق ١٦٨٥
 ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج ١٦٨٥
 ذكر الخلف بين صاحب صِقْلِيّة وملك الروم ١٦٨٦
 ذكر عدة حوادث ١٦٨٦
 سنة خمس وأربعين وخمسمائة ١٦٨٦
 ذكر أخذ العرب الخُجاج ١٦٨٦
 ذكر فتح حصن قاميا ١٦٨٧
 ذكر حصر الفرنج قُرطبة ورحيلهم عنها ١٦٨٧
 ذكر مُلك الغوريّة هراة ١٦٨٧
 ذكر عدة حوادث ١٦٨٧
 سنة ست وأربعين وخمسمائة ١٦٨٨
 ذكر انهزام نور الدين من جُوسلين وأسر جُوسلين بعد
 ذلك ١٦٨٨
 ذكر حصر غُرناطة والمَرِيّة من بلاد الأندلس ١٦٨٨
 ذكر عدة حوادث ١٦٨٩
 سنة سبع وأربعين وخمسمائة ١٦٨٩
 ذكر مُلك عبد المؤمن بجاية ومُلك بني حمّاد ١٦٨٩
 ذكر ظفر عبد المؤمن بصنّهاجة ١٦٨٩
 ذكر وفاة السلطان مسعود ومُلك ملكشاه محمّد بن
 محمود ١٦٩٠
 ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج ١٦٩٠
 ذكر الحرب بين سنجر والغوريّة ١٦٩١
 ذكر مُلك غياث الدين وشهاب الدين الغوريّين ١٦٩١
 ذكر مُلك غياث الدين غزّة وما جاورها من البلاد ١٦٩٢
 ذكر مُلك شهاب الدين لهاوور ١٦٩٢
 ذكر انقراض دولة سبكتكين ١٦٩٢
 ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة ١٦٩٣
 ذكر مُلك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان ١٦٩٣
 ذكر مُلك شهاب الدين مدينة آجرة من بلد الهند ١٦٩٣
 ذكر ظفر الهند على المسلمين ١٦٩٣
 ذكر ظفر المسلمين بالهند ١٦٩٣
 ذكر عدة حوادث ١٦٩٤
 سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ١٦٩٤
 ذكر انهزام سنجر من الغزّ ونهبهم خراسان وما كان
 منهم ١٦٩٤
 ذكر مُلك المؤيد نيسابور وغيرها ١٦٩٦
 ذكر ملك إيتانج الرُّي ١٦٩٦
 ذكر قتل ابن السلال وزير الظافر ووزارة عباس ١٦٩٧
 ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبدالمؤمن ١٦٩٧

- ١٧١١ ذكر حصر صاحب ختلان ترمذ وعوده وموته
- ١٧١١ ذكر عود المؤيد إلى نيسابور وتخریب ما بقي منها
- ١٧١١ ذكر مُلك ملكشاه خوزستان
- ١٧١١ ذكر الحرب بين التركمان والإسماعيلية بخراسان
- ١٧١١ ذكر عدة حوادث
- ١٧١٢ سنة أربع وخمسين وخمسائة
- ذكر مُلك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج
- ١٧١٢ ومُلكه جميع إفريقية
- ١٧١٣ ذكر إيقاع عبد المؤمن بالعرب
- ١٧١٤ ذكر غرق بغداد
- ١٧١٤ ذكر عود سُقُر الهمداني إلى اللّحف وانهازه
- ١٧١٥ ذكر الفتنة بين عامة استراباذ
- ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن
- ١٧١٥ ملكشاه
- ذكر أخذ حرّان من نور الدين وعودها إليه
- ١٧١٥ ذكر عدة حوادث
- ١٧١٦ سنة خمس وخمسين وخمسائة
- ذكر مسير سليمان شاه إلى همدان
- ١٧١٦ ذكر وفاة الفائز ولاية العاضد العلويين
- ١٧١٦ ذكر وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله وشيء من سيرته
- ١٧١٦ ذكر خلافة المستجد بالله
- ١٧١٧ ذكر الحرب بين عسكر خوارزم والأتراك البرزنية
- ١٧١٧ ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة
- ١٧١٧ ذكر الحرب بين شاه ماژندران ويغمرخان
- ١٧١٨ ذكر وفاة خسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده
- ١٧١٨ ذكر الحرب بين إيثاق ويغراتكين
- ١٧١٨ ذكر وفاة ملكشاه بن محمود
- ١٧١٨ ذكر عدة حوادث
- ١٧١٨ سنة ست وخمسين وخمسائة
- ذكر الفتنة ببغداد
- ١٧١٩ ذكر قتل ترشك
- ١٧١٩ ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان
- ١٧١٩ ذكر الحرب بين ابن آقسقر وعسكر إيلدكز
- ١٧١٩ ذكر الحرب بين إيلدكز وإينانج
- ١٧٢٠ ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد
- ١٧٢٠ ذكر الفتنة بنيسابور وتخریبها
- ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من
- ١٧٢٠ خراسان
- ١٧٢١ ذكر عمارة شاذياخ نيسابور
- ١٧٢١ ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك
- ١٧٢٢ ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد
- ١٧٢٢ ذكر حصر المؤيد شارستان
- ١٧٢٢ ذكر ملك الكرج مدينة آتي
- ١٧٢٢ ذكر ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى
- ١٧٢٢ ذكر عدة حوادث
- ١٦٩٨ ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة
- ١٦٩٨ ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان
- ١٦٩٨ ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها
- ١٦٩٨ ذكر عدة حوادث
- ١٦٩٨ سنة تسع وأربعين وخمسائة
- ١٦٩٨ ذكر قتل الظافر وخلافة ابنه الفائز
- ١٦٩٩ ذكر وزارة الصالح طلائع بن رزيك
- ١٦٩٩ ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا
- ١٧٠٠ ذكر ملك نور الدين محمود مدينة دمشق
- ١٧٠٠ ذكر قصد الإسماعيلية خراسان والظفر بهم
- ١٧٠١ ذكر ملك نور الدين قلّ باشير
- ١٧٠١ ذكر عدة حوادث
- ١٧٠١ سنة خمسين وخمسائة
- ١٧٠١ سنة إحدى وخمسين وخمسائة
- ذكر عصيان الجزائر وإفريقية على ملك الفرنج بصقلية
- ١٧٠١ وما كان منهم
- ١٧٠٢ ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل
- ١٧٠٣ ذكر حصر نور الدين قلعة حارم
- ١٧٠٣ ذكر وفاة خوارزم شاه أتمز وغيره من الملوك
- ١٧٠٣ ذكر حرب السلطان سنجر من الغز
- ١٧٠٤ ذكر التبعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد أبيه
- ١٧٠٤ ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد
- ١٧٠٤ ذكر حصر السلطان محمد بغداد
- ١٧٠٥ ذكر عدة حوادث
- ١٧٠٦ سنة اثنين وخمسين وخمسائة
- ١٧٠٦ ذكر الزلازل بالشام
- ١٧٠٦ ذكر ملك نور الدين حصن شيزر
- ذكر وفاة الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء
- ١٧٠٧ قطب الدين مردود على الجزيرة
- ١٧٠٧ ذكر وفاة السلطان سنجر
- ذكر ملك المسلمين مدينة المريّة وانقراض دولة
- ١٧٠٧ الملتين بالأندلس
- ١٧٠٨ ذكر غزو صاحب طبرستان الإسماعيلية
- ١٧٠٨ ذكر أخذ حجاج خراسان
- ١٧٠٨ ذكر الحرب بين المؤيد والأمير إيثاق
- ١٧٠٨ ذكر الحرب بين المؤيد وسُقُر العزيزي
- ١٧٠٨ ذكر ملك نور الدين بعلبك
- ١٧٠٨ ذكر عدة حوادث
- ١٧٠٩ سنة ثلاث وخمسين وخمسائة
- ٧٠٩ ذكر الحرب بين سُقُر وأرعش
- ١٧٠٩ ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطاني
- ١٧٠٩ ذكر معاودة الغز الفتنة بخراسان
- ١٧١٠ ذكر أسر المؤيد وخلاصه
- ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغز وعودهم إلى
- ١٧١٠ نيسابور

- ١٧٣٦ ذكر مُلك نور الدين صافيا وغُرَيمَة
- ١٧٣٦ ذكر قصد ابن سنكا البصرة
- ١٧٣٦ ذكر قصد شملة العراق
- ١٧٣٦ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٣٦ سنة ثلاث وستين وخمسمائة
- ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكّم قطب الدين في البلاد
- ١٧٣٦ ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مَراغة
- ١٧٣٧ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٣٧ سنة أربع وستين وخمسمائة
- ١٧٣٧ ذكر مُلك نور الدين قلعة جَعْبَر
- ١٧٣٨ ذكر مُلك أسد الدين مصر وقتل شاور
- ١٧٣٩ ذكر وفاة أسد الدين شيركوه
- ١٧٤٠ ذكر مُلك صلاح الدين مصر
- ١٧٤١ ذكر وقعة السودان بمصر
- ١٧٤١ ذكر مُلك شملة فارس وإخراجه عنها
- ١٧٤١ ذكر مُلك إيلدكر الرِّيَّ
- ١٧٤٢ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٤٢ سنة خمس وستين وخمسمائة
- ١٧٤٢ ذكر حصر الفرنج دمياط
- ١٧٤٢ ذكر حصر نور الدين الكرك
- ١٧٤٣ ذكر غزوة لسرية نورية
- ١٧٤٣ ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام
- ذكر وفاة قطب الدين مردود بن زنكي ومُلك ابنه سيف الدين غازي
- ١٧٤٣ ذكر حالة ينبغي للملوك أن يحترزوا من مثلها
- ١٧٤٤ ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مرَدْنِيش
- ١٧٤٤ ذكر وفاة صاحب كَرَمَان والخلف بين أولاده
- ١٧٤٤ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٤٤ سنة ست وستين وخمسمائة
- ١٧٤٤ ذكر وفاة المستنجد بالله
- ذكر مُلك نور الدين الموصل وإقرار سيف الدين عليها
- ١٧٤٥ ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح آلَته
- ١٧٤٦ ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة
- ١٧٤٦ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٤٧ سنة سبع وستين وخمسمائة
- ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية
- ١٧٤٧ ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً
- ١٧٤٨ ذكر غزوة إلى الفرنج بالشام
- ذكر وفاة ابن مرَدْنِيش ومُلك يعقوب بن عبيد المؤمن بلاده
- ١٧٤٩ ذكر عبور الخطّ جيحون والحرب بينهم وبين خوارزم شاه
- ١٧٢٣ سنة سبع وخمسين وخمسمائة
- ١٧٢٣ ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها
- ذكر أخذ ابن مرَدْنِيش غَرْنَاطَة من عبد المؤمن وعودها إليه
- ١٧٢٣ ذكر حصر نور الدين حارم
- ١٧٢٤ ذكر مُلك الخليفة قلعة الماهكي
- ١٧٢٤ ذكر الحرب بين المسلمين والكُرج
- ١٧٢٥ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٢٥ سنة ثمان وخمسين وخمسمائة
- ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضَرْغام بعده
- ١٧٢٥ ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف
- ذكر مُلك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان أرسلان بخراسان
- ١٧٢٦ ذكر قتل الغزّ ملك الغور
- ١٧٢٦ ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج
- ١٧٢٧ ذكر إجلاء بني أسد من العراق
- ١٧٢٧ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٢٧ سنة تسع وخمسين وخمسمائة
- ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها
- ١٧٢٧ ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم
- ١٧٢٩ ذكر مُلك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضاً
- ١٧٢٩ ذكر أخذ الأتراك غَزَنَة من ملكشاه وعوده إليها
- ١٧٣٠ ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشيء من سيرته
- ١٧٣١ ذكر إجلاء الفارغليّة من وراء النهر
- ١٧٣١ ذكر استيلاء سُقُر على الطالقان وغرغيسستان
- ١٧٣١ ذكر قتل صاحب هراة
- ١٧٣٢ ذكر مُلك شاه مارَندَران قُومِس وبِسْطام
- ١٧٣٢ ذكر عصيان عُمارَة بالمغرب
- ١٧٣٢ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٣٢ سنة ستين وخمسمائة
- ١٧٣٢ ذكر وفاة شاه مارَندَران ومُلك ابنه بعده
- ١٧٣٢ ذكر حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها
- ١٧٣٢ ذكر استيلاء المؤيد على هراة
- ١٧٣٣ ذكر الحرب بين قَلَج أرسلان وبين ابن دايشمند
- ١٧٣٣ ذكر الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان
- ١٧٣٣ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٣٤ سنة إحدى وستين وخمسمائة
- ١٧٣٤ ذكر فتح المُبْطِرة من بلد الفرنج
- ١٧٣٤ ذكر قتل خطلبرس مقطع واسط
- ١٧٣٤ ذكر عَدَة حوادث
- ١٧٣٥ سنة اثنتين وستين وخمسمائة
- ١٧٣٥ ذكر عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر
- ١٧٣٥ ذكر مُلك أسد الدين الإسكندرية وعوده إلى الشام

ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد	١٧٤٩.....	ذكر عدة حوادث	١٧٤٩.....
الصالح بن نور الدين	١٧٦٥.....	سنة ثمان وستين وخمسمائة	١٧٤٩.....
ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها	١٧٦٥.....	ذكر وفاة خوارزم شاه أرسلان ومُلك ولده سلطان شاه	١٧٤٩.....
ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره	١٧٦٦.....	وبعده ولده الآخر تُكش وقُتل المؤيد ومُلك ابنه	١٧٤٩.....
ذكر عدة حوادث	١٧٦٦.....	ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين	١٧٥٢.....
سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة	١٧٦٧.....	على بلد الفرنج	١٧٥٢.....
ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيلية	١٧٦٧.....	ذكر مسير شمس الدولة إلى بلد النوبة	١٧٥٢.....
ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين	١٧٦٧.....	ذكر ظفر لمليح بن ليون بالروم	١٧٥٢.....
ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده	١٧٦٧.....	ذكر وفاة إيلدكز	١٧٥٣.....
إلى طاعته	١٧٦٧.....	ذكر وصول الترك إلى إفريقية ومُلكهم طرابلس	١٧٥٣.....
ذكر فرج بعد شدة يتعلّق بالتاريخ	١٧٦٨.....	وغيرها	١٧٥٣.....
ذكر نهب التندينجين	١٧٦٨.....	ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس	١٧٥٣.....
ذكر عدة حوادث	١٧٦٨.....	ذكر نهب نهاوند	١٧٥٣.....
سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة	١٧٦٩.....	ذكر قصد نور الدين بلاد قُلُج أرسلان	١٧٥٣.....
ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة	١٧٦٩.....	ذكر رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكرك وعوده	١٧٥٤.....
ذكر حصر الفرنج مدينة حماة	١٧٦٩.....	عنها	١٧٥٤.....
ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم	١٧٦٩.....	ذكر عدة حوادث	١٧٥٤.....
ذكر عدة حوادث	١٧٧٠.....	سنة تسع وستين وخمسمائة	١٧٥٥.....
سنة أربع وسبعين وخمسمائة	١٧٧١.....	ذكر مُلك شمس الدولة رَبيد وعدن وغيرهما من بلاد	١٧٥٥.....
ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضاً	١٧٧١.....	اليمن	١٧٥٥.....
ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر	١٧٧١.....	ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الرثوب بصلاح	١٧٥٦.....
بعلبك وأخذ البلد منه	١٧٧١.....	الدين	١٧٥٦.....
ذكر الغلاء والوباء العام	١٧٧١.....	ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي، رحمه الله	١٧٥٧.....
ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين	١٧٧٢.....	ذكر مُلك ولده الملك الصالح	١٧٥٨.....
ذكر عدة حوادث	١٧٧٢.....	ذكر مُلك سيف الدين البلاد الجزرية	١٧٥٨.....
سنة خمس وسبعين وخمسمائة	١٧٧٢.....	ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها	١٧٥٨.....
ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة	١٧٧٢.....	ذكر عدة حوادث	١٧٥٩.....
الأحزان	١٧٧٢.....	سنة سبعين وخمسمائة	١٧٦٠.....
ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قُلُج	١٧٧٣.....	ذكر وصول أسطول صقلية إلى مدينة الإسكندرية	١٧٦٠.....
أرسلان	١٧٧٣.....	وانهزامه عنها	١٧٦٠.....
ذكر وفاة المستضيء بأمر الله وخلافة الناصر لدين	١٧٧٣.....	ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر	١٧٦٠.....
الله	١٧٧٣.....	ذكر مُلك صلاح الدين دمشق	١٧٦١.....
ذكر عدة حوادث	١٧٧٤.....	ذكر مُلك صلاح الدين مدينتي حمص وحماة	١٧٦١.....
سنة ست وسبعين وخمسمائة	١٧٧٤.....	ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملكه	١٧٦٢.....
ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه	١٧٧٤.....	قلعة حمص وبعلبك	١٧٦٢.....
عز الدين بعده	١٧٧٤.....	ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار	١٧٦٢.....
ذكر مسير صلاح الدين لحرب قُلُج أرسلان	١٧٧٥.....	ذكر انهزام عسكر سيف الدين من صلاح الدين	١٧٦٢.....
ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمني	١٧٧٥.....	وحصره مدينة حلب	١٧٦٢.....
ذكر مُلك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد	١٧٧٥.....	ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين	١٧٦٣.....
خلاف صاحبها عليه	١٧٧٥.....	ذكر مُلك البهلوان مدينة تبريز	١٧٦٣.....
ذكر عدة حوادث	١٧٧٦.....	ذكر وفاة شملة	١٧٦٣.....
سنة سبع وسبعين وخمسمائة	١٧٧٦.....	ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد	١٧٦٣.....
ذكر غزاة إلى بلد الكرك من الشام	١٧٧٦.....	ذكر عدة حوادث	١٧٦٤.....
ذكر تليس ينبغي أن يحتاط من مثله	١٧٧٦.....	سنة إحدى وسبعين وخمسمائة	١٧٦٤.....
ذكر إرسال صلاح الدين العساكر إلى اليمن	١٧٧٧.....	ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين	١٧٦٤.....

- ١٧٨٨ ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن
- ١٧٨٨ ذكر مُلك صلاح الدين مَيافارقين
- ١٧٨٩ ذكر عود صلاح الدين إلى بلد الموصل والصلح بينه
- ١٧٨٩ وبين أتابك عَزَّ الدِّين
- ١٧٨٩ ذكر الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة
- ١٧٨٩ والموصل
- ١٧٨٩ ذكر مُلك المُلثمين والعرب إفريقية وعودها إلى
- ١٧٨٩ الموحيدين
- ١٧٩٠ ذكر عُدَّة حوادث
- ١٧٩٠ سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة
- ١٧٩٠ ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز إلى مصر
- ١٧٩٠ وإخراج الأفضل من مصر إلى دمشق وإقطاعه لِيَاها
- ١٧٩١ ذكر وفاة التهلوان ومُلك أخيه قَزَل
- ١٧٩١ ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القُمص صاحب
- ١٧٩١ طرابلس إلى صلاح الدين
- ١٧٩٢ ذكر غدر البرنس أرناط
- ١٧٩٢ ذكر عُدَّة حوادث
- ١٧٩٢ سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة
- ١٧٩٢ ذكر حصر صلاح الدين الكرك
- ١٧٩٢ ذكر الغارة على بلد عكا
- ١٧٩٢ ذكر عود صلاح الدين إلى عسكره ودخوله إلى
- ١٧٩٣ الفرنج
- ١٧٩٣ ذكر فتح صلاح الدين طبرية
- ١٧٩٤ ذكر انهزام الفرنج بَحْطِين
- ١٧٩٤ ذكر عود صلاح الدين إلى طبرية ومُلك قلعتها مع
- ١٧٩٥ المدينة
- ١٧٩٥ ذكر فتح مدينة عكا
- ١٧٩٥ ذكر فتح مَجْدَلِيَاة
- ١٧٩٥ ذكر فتح عُدَّة حصون
- ١٧٩٥ ذكر فتح يافا
- ١٧٩٦ ذكر فتح تَبْنين وصيدا وجُبيل وبيروت
- ١٧٩٦ ذكر خروج المراكيش إلى صور
- ١٧٩٧ ذكر فتح عَسْقلان وما يجاورها
- ١٧٩٧ ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لَعَسْقلان
- ١٧٩٧ ذكر فتح البيت المقدس
- ١٧٩٩ ذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها
- ١٨٠٠ ذكر الرحيل عن صور إلى عكا وتفريق العساكر
- ١٨٠١ ذكر فتح هُونين
- ١٨٠١ ذكر حصر صفد وكوكب والكرك
- ١٨٠١ ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم
- ١٨٠١ ذكر قُوَّة السلطان طغرل على قَزَل
- ١٨٠١ ذكر ملك شُرستي من الهمد وغيرها وانهزام
- ١٨٠٢ المسلمين بعدها
- ١٨٠٢ ذكر عُدَّة حوادث
- ١٨٠٢ سنة أربع وثمانين وخمسمائة
- ١٧٧٧ ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمّه عزَّ الدين
- ١٧٧٧ مسعود مدينة حلب
- ١٧٧٧ ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سينجار عوضاً
- ١٧٧٧ عنها
- ١٧٧٧ ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومصير صاحبها
- ١٧٧٧ مع صلاح الدين
- ١٧٧٨ ذكر عُدَّة حوادث
- ١٧٧٨ سنة ثمان وسبعين وخمسمائة
- ١٧٧٨ ذكر مسير صلاح الدين إلى الشام وإغاراته على الفرنج
- ١٧٧٨ ذكر مُلك المسلمين شقيفاً من الفرنج
- ١٧٧٨ ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن وتغلّبه عليه
- ١٧٧٨ ذكر إغارة صلاح الدين على العُصُور وغيره من بلاد
- ١٧٧٩ الفرنج
- ١٧٧٩ ذكر حصر بيروت
- ١٧٧٩ ذكر عبور صلاح الدين الفرات ومُلكه ديار الجزيرة
- ١٧٨٠ ذكر حصر صلاح الدين الموصل
- ١٧٨١ ذكر مُلكه مدينة سنجار
- ١٧٨١ ذكر عود صلاح الدين إلى حران
- ١٧٨١ ذكر اجتماع عزَّ الدين وشاه أرمِن
- ١٧٨١ ذكر الظفر بالفرنج في بحر عذاب
- ١٧٨٢ ذكر عُدَّة حوادث
- ١٧٨٢ سنة تسع وسبعين وخمسمائة
- ١٧٨٢ ذكر مُلك صلاح الدين آيُود وتسليمها إلى صاحب
- ١٧٨٢ الحصن
- ١٧٨٢ ذكر مُلك صلاح الدين تَلَّ خالد وعين تاب من أعمال
- ١٧٨٣ الشام
- ١٧٨٣ ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام
- ١٧٨٣ ذكر مُلك صلاح الدين حلب
- ١٧٨٤ ذكر فتح صلاح الدين حارم
- ١٧٨٤ ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر
- ١٧٨٤ بذلك
- ١٧٨٤ ذكر غزو بُيُسان
- ١٧٨٥ ذكر غزو الكرك ومُلك العادل حلب
- ١٧٨٥ ذكر عُدَّة حوادث
- ١٧٨٥ سنة ثمانين وخمسمائة
- ١٧٨٥ ذكر إطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم
- ١٧٨٥ ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب
- ١٧٨٦ ذكر غزو صلاح الدين الكرك
- ١٧٨٦ ذكر مُلك المُلثمين بجاية وعودها إلى أولاد عبد
- ١٧٨٦ المؤمن
- ١٧٨٦ ذكر وفاة صاحب ماردين ومُلك ولده
- ١٧٨٧ ذكر عُدَّة حوادث
- ١٧٨٧ سنة إحدى وثمانين وخمسمائة
- ١٧٨٧ ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة
- ١٧٨٧ شاه أرمِن

- ١٨١٩..... ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة
 ذكر عبور تقي الدين الفرات ومُلْكِهِ خَرَّانَ وغيرها من
 البلاد الجزيرة ومسيره إلى خِلاط ومُوتُهُ ١٨١٩
 ١٨٢٠..... ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا ١٨٢٠
 ١٨٢٠..... ذكر مُلْكُ الفرنج عكا ١٨٢٠
 ١٨٢١..... ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها ١٨٢١
 ١٨٢٢..... ذكر رحيل الفرنج إلى نظرون ١٨٢٢
 ١٨٢٣..... ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس ١٨٢٣
 ١٨٢٣..... ذكر عودة الفرنج إلى الرملة ١٨٢٣
 ١٨٢٣..... ذكر قتل قزل أرسلان ١٨٢٣
 ١٨٢٣..... ذكر عدة حوادث ١٨٢٣
 ١٨٢٤..... سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ١٨٢٤
 ١٨٢٤..... ذكر عمارة الفرنج عسقلان ١٨٢٤
 ١٨٢٤..... ذكر قتل المريكس ومُلْكُ الكند هري ١٨٢٤
 ١٨٢٤..... ذكر نهب بني عامر البصرة ١٨٢٤
 ١٨٢٥..... ذكر ما كان من ملك إنكيتار ١٨٢٥
 ١٨٢٥..... ذكر استيلاء الفرنج على عسكر المسلمين وقُتل ١٨٢٥
 ١٨٢٥..... ذكر سير الأفضل والعاذل إلى بلاد الجزيرة ١٨٢٥
 ١٨٢٥..... ذكر عود الفرنج إلى عكا ١٨٢٥
 ١٨٢٦..... ذكر مُلْكُ صلاح الدين يافا ١٨٢٦
 ١٨٢٦..... ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين إلى دمشق ١٨٢٦
 ١٨٢٧..... ذكر وفاة قلعج أرسلان ١٨٢٧
 ١٨٢٨..... ذكر ملك شهاب الدين أجمير وغيرها من الهند ١٨٢٨
 ١٨٢٨..... ذكر عدة حوادث ١٨٢٨
 ١٨٢٨..... سنة تسع وثمانين وخمسمائة ١٨٢٨
 ١٨٢٨..... ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته ١٨٢٨
 ١٨٢٩..... ذكر حال أهله وأولاده بعده ١٨٢٩
 ١٨٢٩..... ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل وعوده
 بسبب مرضه ١٨٣٠
 ١٨٣٠..... ذكر وفاة أتابك عز الدين وشيء من سيرته ١٨٣٠
 ١٨٣١..... ذكر قتل بكتمر صاحب خِلاط ١٨٣١
 ١٨٣١..... ذكر عدة حوادث ١٨٣١
 ١٨٣١..... سنة تسعين وخمسمائة ١٨٣١
 ١٨٣١..... ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندي ١٨٣١
 ١٨٣١..... ذكر قتل السلطان طغرل ومُلْكُ خوارزم شاه الري ١٨٣١
 ١٨٣٢..... ووفاته أخيه سلطان شاه ١٨٣٢
 ١٨٣٣..... ذكر مسير وزير الخليفة إلى خوزستان ومُلْكِها ١٨٣٣
 ١٨٣٣..... ذكر حصر العزيز مدينة دمشق ١٨٣٣
 ١٨٣٣..... ذكر عدة حوادث ١٨٣٣
 ١٨٣٣..... سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ١٨٣٣
 ١٨٣٣..... ذكر مُلْكُ وزير الخليفة هَمْدَانَ وغيرها من بلاد العجم ١٨٣٣
 ١٨٣٤..... ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس ١٨٣٤
 ١٨٣٥..... ذكر فعله المُلْتَمِ بِإفريقية ١٨٣٥
 ١٨٣٥..... ذكر مُلْكُ عسكر الخليفة أَصْفَهَانَ ١٨٣٥
 ١٨٣٥..... ذكر ابتداء حال كوكجه ومُلْكِهِ بِلَدِ الرِّيِّ وهَمْدَانَ ١٨٣٥
 ١٨٠٢..... ذكر حصر صلاح الدين كوكب ١٨٠٢
 ١٨٠٣..... ذكر رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج ١٨٠٣
 ١٨٠٣..... ذكر فتح جبلة ١٨٠٣
 ١٨٠٣..... ذكر فتح لاذقية ١ٸ٠٣
 ١٨٠٤..... ذكر حال أسطول صفلية ١٨٠٤
 ١٨٠٤..... ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون ١٨٠٤
 ١٨٠٤..... ذكر فتح حصن بكاس والشُعْر ١٨٠٤
 ١٨٠٥..... ذكر فتح سَرْمِينِيَّة ١٨٠٥
 ١٨٠٥..... ذكر فتح بُرْزَنِيَّة ١٨٠٥
 ١٨٠٦..... ذكر فتح درب ساك ١٨٠٦
 ١٨٠٦..... ذكر فتح بَغْرَاس ١٨٠٦
 ١٨٠٧..... ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب أنطاكية ١٨٠٧
 ١٨٠٧..... ذكر فتح الكرك وما يجاوره ١٨٠٧
 ١٨٠٧..... ذكر فتح قلعة صفد ١٨٠٧
 ١٨٠٧..... ذكر فتح كوكب ١٨٠٧
 ١٨٠٨..... ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر ١٨٠٨
 ١٨٠٨..... ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طُغْرُل ١٨٠٨
 ١٨٠٩..... ذكر عدة حوادث ١٨٠٩
 ١٨٠٩..... سنة خمس وثمانين وخمسمائة ١٨٠٩
 ١٨٠٩..... ذكر فتح شَقِيف أَرْنُون ١٨٠٩
 ١٨٠٩..... ذكر وقعة الَبَزْكَ مع الفرنج ١٨٠٩
 ١٨١٠..... ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة ١٨١٠
 ١٨١٠..... ذكر وقعة ثالثة ١٨١٠
 ١٨١٠..... ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها ١٨١٠
 ١٨١٢..... ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب ١٨١٢
 ١٨١٢..... ذكر الوقعة الكبرى على عكا ١٨١٢
 ١٨١٢..... ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكّنهم من
 حصر عكا ١٨١٣
 ١٨١٣..... ذكر وصول عسكر مصر والأسطول المصري في
 البحر ١٨١٣
 ١٨١٣..... ذكر عدة حوادث ١٨١٣
 ١٨١٤..... سنة ست وثمانين وخمسمائة ١٨١٤
 ١٨١٤..... ذكر وقعة الفرنج والَبَزْكَ وعود صلاح الدين إلى
 منازل الفرنج ١٨١٤
 ١٨١٤..... ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول ١٨١٤
 ١٨١٥..... ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته ١٨١٥
 ١٨١٦..... ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا ١٨١٦
 ١٨١٧..... ذكر خروج الفرنج من خنادقهم ١٨١٧
 ١٨١٧..... ذكر تسيير البدل إلى عكا والتفريط فيه حتّى أخذت ١٨١٧
 ١٨١٧..... ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه
 مظفر الدين إليها ١٨١٨
 ١٨١٨..... ذكر مُلْكُ الفرنج مدينة شِلْبَ وعودها إلى المسلمين ١٨١٨
 ١٨١٨..... ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان ١٨١٨
 ١٨١٨..... ذكر عدة حوادث ١٨١٨
 ١٨١٩..... سنة سبع وثمانين وخمسمائة ١٨١٩

- ١٨٣٥ وغيرهما سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ١٨٥١
- ١٨٣٥ ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها ١٨٥١
- ١٨٣٦ ذكر عدة حوادث ١٨٥١
- ١٨٣٦ سنة اثنين وتسعين وخمسمائة ١٨٥٢
- ١٨٣٦ ذكر مُلك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلد الهند ١٨٥٢
- ١٨٣٦ ذكر مُلك العادل مدينة دمشق من الأفضل ١٨٥٢
- ١٨٣٧ ذكر عدة حوادث ١٨٥٢
- ١٨٣٧ سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ١٨٥٣
- ١٨٣٧ ذكر إرسال الأمير أبي الهيجاء إلى همدان وما فعله ١٨٥٣
- ذكر مُلك العادل ياقا من الفرنج ومُلك الفرنج بيروت ١٨٥٣
- ١٨٣٧ من ١٨٥٤
- ١٨٣٨ المسلمين وحصر الفرنج يمين ورحيلهم عنها ١٨٥٤
- ١٨٣٩ ذكر وفاة سيف الإسلام ومُلك ولده ١٨٥٤
- ١٨٣٩ ذكر عدة حوادث ١٨٥٥
- ١٨٣٩ سنة أربع وتسعين وخمسمائة ١٨٥٥
- ١٨٣٩ ذكر وفاة عماد الدين ومُلك ولده قطب الدين محمد ١٨٥٥
- ١٨٣٩ ذكر مُلك نور الدين نصيبين ١٨٥٥
- ١٨٤٠ ذكر مُلك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكفرة ١٨٥٦
- ١٨٤٠ ذكر انهزام الخطا من الغورية ١٨٥٦
- ١٨٤١ ذكر مُلك خوارزم شاه مدينة بخارى ١٨٥٦
- ١٨٤١ ذكر عدة حوادث ١٨٥٧
- ١٨٤١ سنة خمس وتسعين وخمسمائة ١٨٥٧
- ١٨٤١ ذكر وفاة الملك العزيز ومُلك أخيه الأفضل ديار مصر ١٨٥٧
- ١٨٤٢ ذكر حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده عنها ١٨٥٧
- ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ١٨٥٨
- ١٨٤٣ ابنه محمد ١٨٥٨
- ذكر عصيان أهل المهديّة على يعقوب وطاعتها لولده ١٨٥٨
- ١٨٤٣ محمد ١٨٥٨
- ١٨٤٤ ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردین ١٨٥٨
- ١٨٤٥ ذكر مسير خوارزم شاه إلى الرّي ١٨٥٨
- ١٨٤٥ ذكر عدة حوادث ١٨٥٩
- ١٨٤٥ سنة ست وتسعين وخمسمائة ١٨٥٩
- ١٨٤٦ ذكر مُلك العادل الديار المصرية ١٨٥٩
- ١٨٤٦ ذكر وفاة خوارزم شاه ١٨٦٠
- ١٨٤٧ ذكر عدة حوادث ١٨٦٠
- ١٨٤٧ سنة سبع وتسعين وخمسمائة ١٨٦٠
- ذكر مُلك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من ١٨٦٠
- الشام وحصره هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق ١٨٦٠
- ١٨٤٧ وعودهما عنها ١٨٦٠
- ١٨٤٨ ذكر مُلك غياث الدين ما كان لخوارزم شاه بخراسان ١٨٦٠
- ١٨٤٩ ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما ١٨٦٠
- ١٨٥٠ ذكر مُلك شهاب الدين نهرّوالة ١٨٦٠
- ١٨٥٠ ذكر مُلك ركن الدين ملطية من أخيه وأرزن الروم ١٨٦٠
- ١٨٥٠ ذكر وفاة سقمان صاحب آيد ومُلك أخيه محمود ١٨٦٠
- ١٨٥٠ ذكر عدة حوادث ١٨٦٠
- سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ١٨٥١
- ذكر مُلك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده ١٨٥١
- ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها ١٨٥١
- ذكر عدة حوادث ١٨٥٢
- سنة تسع وتسعين وخمسمائة ١٨٥٢
- ذكر حصر عسكر العادل ماردین وصلحه مع صاحبها ١٨٥٢
- ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشي من سيرته ١٨٥٢
- ذكر أخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل ١٨٥٣
- ذكر مُلك الكرج مدينة دوين ١٨٥٣
- ذكر عدة حوادث ١٨٥٤
- سنة ستمائة ١٨٥٤
- ذكر حصار خوارزم شاه هراة ثانية ١٨٥٤
- ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصره خوارزم ١٨٥٤
- وانهزامه من الخطا ١٨٥٤
- ذكر قتل طائفة من الإسماعيلية بخراسان ١٨٥٥
- ذكر مُلك القسطنطينية من الروم ١٨٥٥
- ذكر انهزام نور الدين، صاحب الموصل، من العساكر ١٨٥٦
- العادلية ١٨٥٦
- ذكر خروج الفرنج بالشام إلى بلد الإسلام والصلح ١٨٥٧
- معهم ١٨٥٧
- ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل ١٨٥٧
- ذكر وفاة ركن الدين بن قلع أرسلان ومُلك ابنه بعده ١٨٥٧
- ذكر قتل الباطنية بواسط ١٨٥٨
- ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من ١٨٥٨
- خَضْرَوْت ١٨٥٨
- ذكر عدة حوادث ١٨٥٨
- سنة إحدى وستمائة ١٨٥٨
- ذكر ملك كَيْخُسْرُو بن قلع أرسلان بلاد الروم من ابن ١٨٥٨
- أخيه ١٨٥٨
- ذكر حصر صاحب آيد خَرْت بَرْت ورجوعه عنها ١٨٥٩
- ذكر غارة الكرج على بلاد الإسلام ١٨٥٩
- ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة ١٨٦٠
- ذكر عدة حوادث ١٨٦٠
- سنة اثنين وستمائة ١٨٦٠
- ذكر الفتنة بهراة ١٨٦٠
- ذكر قتال شهاب الدين الغوري بن كوكُر ١٨٦٠
- ذكر الظفر بالتيराية ١٨٦١
- ذكر قتل شهاب الدين الغوري ١٨٦٢
- ذكر ما فعله الدُر ١٨٦٣
- ذكر بعض سيرة شهاب الدين ١٨٦٣
- ذكر مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته ١٨٦٣
- ذكر مُلك علاء الدين غزنة وأخذها منه ١٨٦٤
- ذكر مُلك الدُر غزنة ١٨٦٤
- ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمّه ١٨٦٥
- ذكر استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان ١٨٦٦

- ١٨٨٤ سنة سبع وستمائة. ذكر عريان سنجر مملوك الخليفة بخورستان ومسير
 العساكر إليه. ١٨٨٤
 ١٨٨٥ ذكر وفاة نور الدين أرسلان شاه وشيء من سيرته. ١٨٨٥
 ١٨٨٥ ذكر ولاية ابنه الملك القاهر. ١٨٨٥
 ١٨٨٦ ذكر عدة حوادث. ١٨٨٦
 ١٨٨٦ سنة ثمان وستمائة. ذكر استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها
 وهرب إيدغمش. ١٨٨٦
 ١٨٨٦ ذكر نهب الحاج بمنى. ١٨٨٦
 ١٨٨٦ ذكر عدة حوادث. ١٨٨٦
 ١٨٨٧ سنة تسع وستمائة. ذكر قدوم ابن منكلي بغداد. ١٨٨٧
 ١٨٨٧ ذكر عدة حوادث. ١٨٨٧
 ١٨٨٧ سنة عشر وستمائة. ذكر قتل إيدغمش. ١٨٨٧
 ١٨٨٧ ذكر عدة حوادث. ١٨٨٧
 ١٨٨٨ سنة إحدى عشرة وستمائة. ذكر ملك خوارزم شاه علاء الدين كرماني ومكراني
 والسند. ١٨٨٨
 ١٨٨٨ ذكر عدة حوادث. ١٨٨٨
 ١٨٨٨ سنة اثني عشرة وستمائة. ذكر قتل منكلي وولاية أغلمش ما كان بيده من
 الممالك. ١٨٨٨
 ١٨٨٩ ذكر وفاة ابن الخليفة. ١٨٨٩
 ١٨٨٩ ذكر ملك خوارزم شاه غزنة وأعمالها. ١٨٩٠
 ١٨٩٠ ذكر استيلاء اللز على لهاور وقتله. ١٨٩٠
 ١٨٩٠ ذكر عدة حوادث. ١٨٩٠
 ١٨٩٠ سنة ثلاث عشرة وستمائة. ذكر وفاة الملك الظاهر صاحب حلب. ١٨٩٠
 ١٨٩١ ذكر عدة حوادث. ١٨٩١
 ١٨٩١ سنة أربع عشرة وستمائة. ذكر ملك خوارزم شاه بلد الجبل. ١٨٩١
 ١٨٩٢ ذكر ما جرى لأتابك سعد مع أولاده. ١٨٩٢
 ١٨٩٢ مدينة دمياط وعودها إلى المسلمين. ١٨٩٣
 ١٨٩٣ ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها. ١٨٩٣
 ١٨٩٣ ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها. ١٨٩٤
 ١٨٩٤ ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج. ١٨٩٦
 ١٨٩٦ ذكر عدة حوادث. ١٨٩٦
 ١٨٩٦ سنة خمس عشرة وستمائة. ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان
 من الفتن بسبب موته إلى أن استقرت الأمور. ١٨٩٦
 ١٨٩٧ ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية والزوزان. ١٨٩٧
 ١٨٩٧ ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الأشرف. ١٨٩٧
 ١٨٦٨ ذكر ملك خوارزم شاه ترمذ وتسليمها إلى الخطا. ١٨٦٨
 ١٨٦٨ ذكر عود أولاد صاحب باميان إلى غزنة. ١٨٦٩
 ١٨٦٩ ذكر عود اللز إلى غزنة. ١٨٦٩
 ١٨٦٩ ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب إربل أذربيجان. ١٨٧٠
 ١٨٧٠ ذكر إيقاع إيدغمش بالإسماعيلية. ١٨٧٠
 ١٨٧٠ ذكر وصول عسكر من خوارزم إلى بلد الجبل وما
 كان منهم. ١٨٧٠
 ١٨٧٠ ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب. ١٨٧٠
 ١٨٧٠ ذكر نهب الكرج أرمينية. ١٨٧١
 ١٨٧١ ذكر عدة حوادث. ١٨٧١
 ١٨٧١ سنة ثلاث وستمائة. ذكر ملك عباس باميان وعودها إلى ابن أخيه. ١٨٧١
 ١٨٧١ ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان. ١٨٧٢
 ١٨٧٢ ذكر حال غياث الدين مع اللز وأبيك. ١٨٧٢
 ١٨٧٤ ذكر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده. ١٨٧٤
 ١٨٧٤ ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة انطاكية. ١٨٧٤
 ١٨٧٤ ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلط وملك بليان
 ومسير صاحب مازدين إلى خلط وعوده. ١٨٧٤
 ١٨٧٥ ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملك الكرج. ١٨٧٥
 ١٨٧٥ ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب لرستان. ١٨٧٥
 ١٨٧٥ ذكر عدة حوادث. ١٨٧٥
 ١٨٧٦ سنة أربع وستمائة. ذكر ملك خوارزم شاه ما وراء النهر وما كان بخراسان
 من الفتن وإصلاحها. ١٨٧٦
 ١٨٧٦ ذكر قتل ابن خرميل وحصر هرة. ١٨٧٦
 ١٨٧٧ ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان. ١٨٧٧
 ١٨٧٨ ذكر قتل غياث الدين محمود. ١٨٧٨
 ١٨٧٨ ذكر عود خوارزم شاه إلى الخطا. ١٨٧٨
 ١٨٧٨ ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين. ١٨٧٨
 ١٨٧٩ ذكر الوقعة التي أفتت الخطا. ١٨٧٩
 ١٨٧٩ ذكر ملك نجم الدين ابن الملك العادل خلط. ١٨٨٠
 ١٨٨٠ ذكر غارات الفرنج بالشام. ١٨٨٠
 ١٨٨٠ ذكر الفتنة بخلط وقتل كثير من أهلها. ١٨٨٠
 ١٨٨٠ ذكر ملك أبي بكر بن البهلوان مراغة. ١٨٨٠
 ١٨٨١ ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة. ١٨٨١
 ١٨٨١ ذكر عدة حوادث. ١٨٨١
 ١٨٨١ سنة خمس وستمائة. ذكر ملك الكرج أرجيش وعودهم عنها. ١٨٨١
 ١٨٨١ ذكر قتل سنجر شاه وملك ابنه محمود. ١٨٨٢
 ١٨٨٢ ذكر عدة حوادث. ١٨٨٢
 ١٨٨٣ سنة سبت وستمائة. ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصره سنجان
 وعوده عنها واتفاق نور الدين أرسلان شاه ومظفر
 الدين. ١٨٨٣
 ١٨٨٤ ذكر عدة حوادث. ١٨٨٤

١٩١٧.....	ذكر عدة حوادث	١٨٩٨.....	ذكر انهزام عماد الدين زنكي من العسكر البدري
١٩١٧.....	سنة تسع عشرة وستمائة	١٨٩٨.....	ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل ومُلك أخيه
.....	ذكر خروج طائفة من قمجان إلى أذربيجان وما فعلوه	١٨٩٨.....	ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين
١٩١٧.....	بالكرج وما كان منهم	ذكر مُلك عماد الدين قلعة كواشي ومُلك بدر الدين
١٩١٨.....	ذكر نهب الكرج بيلقان	١٨٩٩.....	تلّ يعفر ومُلك الملك الأشرف سنجار
١٩١٩.....	ذكر مُلك بدر الدين قلعة شوش	ذكر وصول الأشرف إلى الموصل والصلح مع مظفر
١٩١٩.....	ذكر عدة حوادث	١٩٠٠.....	الدين
١٩١٩.....	سنة عشرين وستمائة	١٩٠٠.....	ذكر عود قلاع الهكاريّة والزوزان إلى بدر الدين
١٩١٩.....	ذكر حرب بين المسلمين والكرج بأرمينية	ذكر قصد كيكائوس ولاية حلب وطاعة صاحبها
١٩٢٠.....	ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله	١٩٠٠.....	للأشرف وانهزام كيكائوس
١٩٢٠.....	حادثة غريبة لم يوجد مثلها	١٩٠١.....	ذكر وفاة الملك العادل ومُلك أولاده بعده
١٩٢٠.....	ذكر عدة حوادث	١٩٠٢.....	ذكر عدة حوادث
١٩٢١.....	سنة إحدى وعشرين وستمائة	١٩٠٢.....	سنة بست عشرة وستمائة
١٩٢١.....	ذكر عود طائفة من التتر إلى الرّيّ وهمذان وغيرهما	١٩٠٢.....	ذكر وفاة كيكائوس ومُلك كَيْقَبَاذ أخيه
١٩٢١.....	ذكر مُلك غياث الدين بلاد فارس	ذكر موت صاحب سنجار ومُلك ابنه ثمّ قتل ابنه
.....	ذكر عصيان شهاب الدين غازي على أخيه الملك	١٩٠٣.....	ومُلك أخيه
١٩٢١.....	الأشرف وأخذ خلاط منه	١٩٠٣.....	ذكر إجلاء بني معروف عن البطائع وقتلهم
١٩٢٢.....	ذكر حصار صاحب إربل الموصل	١٩٠٣.....	ذكر عدة حوادث
١٩٢٢.....	ذكر عدة حوادث	١٩٠٣.....	سنة سبع عشرة وستمائة
١٩٢٢.....	سنة اثنين وعشرين وستمائة	١٩٠٣.....	ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام
١٩٢٢.....	ذكر حصر الكرج مدينة كنجة	ذكر خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر وما
.....	ذكر وصول جلال الدين بن خوارزم شاه إلى	١٩٠٤.....	فعلوه
١٩٢٢.....	خوزستان والعراق	١٩٠٧.....	ذكر مسير التتر الكفار إلى خوارزم شاه وانهزامه وموته
١٩٢٣.....	ذكر وفاة الملك الأفضل وغيره من الملوك	١٩٠٧.....	ذكر صفة خوارزم شاه وشيء من سيرته
١٩٢٤.....	ذكر خلع شيروان شاه وظفر المسلمين بالكرج	١٩٠٨.....	ذكر استيلاء التتر المغربة على مازَنْدَرَان
١٩٢٤.....	ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضاً	ذكر وصول التتر إلى الرّيّ وهمذان
١٩٢٤.....	ذكر مُلك جلال الدين أذربيجان	١٩٠٨.....	ذكر وصول التتر إلى أذربيجان
١٩٢٥.....	ذكر انهزام الكرج من جلال الدين	١٩٠٩.....	ذكر مُلك التتر مَراغة
.....	ذكر عود جلال الدين إلى تبريز ومُلكه مدينة كنجة	١٩١٠.....	ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها
١٩٢٦.....	ونكاحه زوجة أوزبك	١٩١١.....	ذكر مسير التتر إلى أذربيجان ومُلكهم أردويل وغيرها
١٩٢٦.....	ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله	١٩١١.....	ذكر قصد التتر بلاد الكرج
١٩٢٧.....	ذكر خلافة الظاهر بأمر الله	١٩١١.....	ذكر وصولهم إلى دَرَبَنْدُ شروان وما فعلوه فيه
١٩٢٨.....	ذكر مُلك بدر الدين قلعتي العمادية وهرور	١٩١٢.....	ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق
١٩٢٩.....	ذكر عدة حوادث	١٩١٢.....	ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس
١٩٣٠.....	سنة ثلاث وعشرين وستمائة	١٩١٢.....	ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق إلى ملكهم
١٩٣٠.....	ذكر مُلك جلال الدين نغليس	١٩١٣.....	ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بُخارى وسَمَرْقَنْد
.....	ذكر مسير مظفر الدين صاحب إربل إلى الموصل	١٩١٣.....	ذكر مُلك التتر خراسان
١٩٣١.....	وعوده عنها	١٩١٤.....	ذكر مُلكهم خوارزم وتخريبها
١٩٣٢.....	ذكر عصيان كومان على جلال الدين ومسيره إليها	١٩١٤.....	ذكر مُلك التتر غزنة وبلاد الغور
١٩٣٢.....	ذكر الحرب بين عسكر الأشرف وعسكر جلال الدين	ذكر تسليم الأشرف خلاط إلى أخيه شهاب الدين
١٩٣٢.....	ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله	١٩١٥.....	غازي
١٩٣٣.....	ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله	١٩١٥.....	ذكر عدة حوادث
١٩٣٣.....	ذكر الحرب بين كَيْقَبَاذ وصاحب آمد	١٩١٦.....	سنة ثمانين عشرة وستمائة
١٩٣٣.....	ذكر حصر جلال الدين مدينتي آتي وقرس	ذكر وفاة قتادة أمير مَكّة ومُلك ابنه الحسن وقتل أمير
١٩٣٣.....	ذكر حصر جلال الدين خلاط	١٩١٦.....	الحاج

- ١٩٣٤ ذكر إيقاع جلال الدين بالتركمان الإيوانية.....
- ١٩٣٤ ذكر الصلح بين المعظم والأشرف.....
- ١٩٣٤ ذكر الفتنة بين الفرنج والأرمن.....
- ١٩٣٥ ذكر عدة حوادث.....
- ١٩٣٦ سنة أربع وعشرين وستمائة.....
- ١٩٣٦ ذكر دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها.....
- ١٩٣٦ ذكر نهب جلال الدين بلد الإسماعيلية.....
- ١٩٣٦ ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر.....
- ذكر دخول العساكر الأشرقية إلى أذربيجان ومُلك
- ١٩٣٦ بعضها.....
- ١٩٣٦ ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق ومُلك ولده.....
- ١٩٣٧ ذكر عدة حوادث.....
- ١٩٣٧ سنة خمس وعشرين وستمائة.....
- ١٩٣٧ ذكر الخلف بين جلال الدين وأخيه.....
- ١٩٣٨ ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر.....
- ١٩٣٨ ذكر خروج الفرنج إلى الشام وعمارة صيدا.....
- ١٩٣٨ ذكر مُلك كيُباذ أرزنكان.....
- ١٩٣٩ ذكر خروج الملك الكامل.....
- ١٩٣٩ ذكر نهب جلال الدين بلاد أرمينية.....
- ١٩٣٩ ذكر عدة حوادث.....
- ١٩٣٩ سنة ست وعشرين وستمائة.....
- ١٩٣٩ ذكر تسليم البيت المقدس إلى الفرنج.....
- ١٩٤٠ ذكر مُلك الملك الأشرف مدينة دمشق.....
- ١٩٤٠ ذكر القبض على الحاجب عليّ وقتله.....
- ١٩٤١ ذكر مُلك الكامل مدينة حماة.....
- ١٩٤١ ذكر حصر جلال الدين خلاط ومُلكها.....
- ١٩٤١ ذكر عدة حوادث.....
- ١٩٤٢ سنة سبع وعشرين وستمائة.....
- ١٩٤٢ ذكر انهزام جلال الدين من كيُباذ والأشرف.....
- ١٩٤٢ ذكر مُلك علاء الدين أرزن الروم.....
- ذكر الصلح بين الأشرف وعلاء الدين وبين جلال
- ١٩٤٢ الدين.....
- ١٩٤٢ ذكر مُلك شهاب الدين غازي مدينة أرزن.....
- ١٩٤٣ ذكر مُلك سونج قشبالوا قلعة رويندز.....
- ١٩٤٣ سنة ثمان وعشرين وستمائة.....
- ١٩٤٣ ذكر خروج التتر إلى أذربيجان وما كان منهم.....
- ١٩٤٤ ذكر مُلك التتر مراغة.....
- ذكر وصول جلال الدين إلى آمد وانهزاه عندها وما
- ١٩٤٤ كان منه.....
- ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في
- ١٩٤٤ البلاد من الفساد.....
- ١٩٤٥ ذكر وصول طائفة من التتر إلى إربل ودقوقا.....
- ١٩٤٥ ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتر.....
- ١٩٤٦ ذكر عدة حوادث.....